عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

المكتب المصري الحديث

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

المجلد الأول

المكتب المصري الحديث

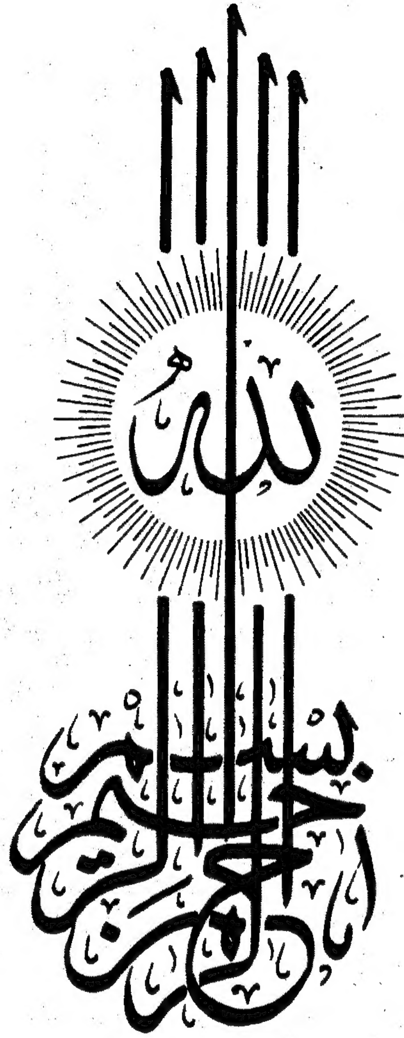

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال :

قال النبى ﷺ : (إن أفضلكم من تعلّم القرآن وعَلّمه) .

رواه البخارى

فى رحاب التفسير

ظل الداعية الإسلامى الشيخ عبد الحميد كشك لأعوام عديدة يلتقى بأحبائه من المسلمين ، من فوق منبره فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، فى خطب الجمعة ، وفى دروسه وفتاويه التى كانت تشغل كل أيام الأسبوع ، فتنشرح الصدور ، وتصفو الأفئدة وتتطهر النفوس وتتغذى العقول والأرواح .. وتتنزل السكينة والرحمة ...

واشتهر مجلس الشيخ ، وذاع صيته حتى بلغ آفاق الأرض إلى عنان السماء .. وقصده المسلمون من القاهرة وما حولها من مدن وقرى .. وأتاه الزائرون من أنحاء العالم الإسلامى كله . وفى يوم الجمعة يمتلىء المسجد على سعته وكثرة مبانيه فيضيق بمن فيه من المصلين فيؤمون ما يحيط المسجد من شوارع وطرقات .. وما أن ينتهى الشيخ من خطبته وما يليها من درس وموعظة حتى تتلقف الأيدى الأشرطة كى تسمعها النساء فى البيوت ، ولكى تطير إلى قارات الدنيا الست تنقل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ما قاله الشيخ فلا يحرمون من نفعه .

وفى سبتمبر ١٩٨١ حيل بين الشيخ ومنبره .. ومنع من أن يلقى الأحبة .. فى دروس أو فتاوى .. فكانت الضارة النافعة .. فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا .. وعجيبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير .. فعكف الشيخ على القرآن الكريم .. مأدبة الله ، الذى لا تنقضى عجائبه ولا تنفد أنواره التى تبدد الظلمات .. يحيى به لياليه يطالع آياته .. ويعاينها ويفسرها .. تفسيرا يضيف إلى كل ما سبقه كثيراً ، تفسيراً يتجه إلى القلوب فيفك مغاليقها ويفتح أقفالها ، فى عبارات جزلة ومعان مضيئة تخاطب مسلم اليوم فتأخذه مما يكتنفه من ظلمات ركام الجاهلية إلى نور الله وشفاء لما فى الصدور .. فتتبدد الظلمة .. وتنقشع الغمة ..

وعاش الشيخ أيامه فى هذه الأعوام الستة — ولا يزال — فى رحاب التفسير عاكفاً عليه فى بيته ، رافضا كل عرض بسفر أو هجرة ، مهما برق لمعانه أو اشتد إغراؤه ، أو زاد إلحاحه .. فقد استشعر لذة القرآن وأظلته نعماؤه .. وأحس أن الأقدار قد هيأت له هذه الظروف للاضطلاع بهذه المهمة التى تحتاج لهذا التفرغ الكامل ..

وعهد إلينا الشيخ بما انتهى منه .. وهو لا يزال يمضى فى طريقه يشق عباب البحر وشاطىء النهاية يلوح من بعيد .. يزداد منه اقترابا كل يوم .. طالبا منا أن نقدمه إلى المسلمين فى كل مكان كما قدمنا من قبل مكتبته التى انتشرت فى كل مكان .. وسخر الله لنشرها حتى الكفار من الموارنة والملحدين يزوّرون طبعاتها ويصلون بها إلى ما لم نصل إليه من بقاع الأرض ، قاصدين لعاعات الدنيا التى ما قصدناها .. فيكتب لشيخنا ولنا الأجر النافع بفضله وجوده ومَنّه وكرمه .

نسأل الله العلى القدير أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم مبرأ من كل ما عداه من أغراض . فيكون لشيخنا ولنا قائدا إلى الجنة وشفيعا يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين . ونورا لنا يوم ندخل قبورنا وأن ينفع به من قرأه من المسلمين . آمين يارب العالمين .

احمد يحيى

بســـم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد ألا إله إلا الله وليّ الصالحين . ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾ . ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾(١) .

سبحانه هو اللطيف بعباده ؛ ومن مظاهر لطفه بخلقه أن وهبهم العقل الذى يميزون به بين الخبيث والطيب ، والضار والنافع ، والظلمات والنور . وأرسل إليهم ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حُجة بعد الرسل ﴾(٢) . وأنزل كتبًا تهدى السالكين إلى طريق الرشاد والسداد ، وعلى رأس هذه الكتب « القرآن العظيم » . نزل به أعظم ملك هو الروح الأمين ، فى أعظم ليلة هى ليلة القدر ، فى أعظم شهر هو شهر رمضان ، من أعظم مكان هو أم الكتاب ، فى أعظم بلد « مكة » ، بأشرف لغة ، على أعظم نبى هو سيد الأولين والآخرين ، الذى مدحه ربه بما منحه فقال : ﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(٣) .

وقال عنه مبيناً الحكمة من إرساله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٤) . وقال عن أتباعه : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾(٥) .

وقد أمره مولاه ومصطفيه أن يعلن عموم رسالته فقال : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾(٦) .

فتأمل معي قوله جل شأنه : ﴿ واتبعوا النور الذى أُنزل معه ﴾ إنه القرآن . فالله نور السموات والأرض ، والقرآن نور ، والنبى الذى جاء بالقرآن نور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾(٧) .

فعجباً لأمر الأمة : ربها نور ، وكتابها نور ، ونبيها نور ، كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى الظلمات ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾(٨) .

---

(١) سورة الفتح آية : ٢٨ .
(٢) سورة النساء آية : ١٦٥ .
(٣) سورة القلم آية : ٣ ، ٤ .
(٤) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .
(٥) سورة الأعراف آية : ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٦) سورة الأعراف آية : ١٥٨ .
(٧) سورة المائدة آية : ١٥ .
(٨) سورة التغابن آية : ٨ .

وبعد . . . فهذا تفسير للكتاب العزيز ، قصدت به تيسير الطريق لذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة ، لمن أراد أن ينفعه الله بهدى كتابه ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا ﴾(١) ، لا سيما وقد طغت الماديات على المعنويات ، واشتغل الناس بالدنيا ، وارتكبوا فى سبيل تحصيلها وجمع مالها ماينذى له جبين الحياء خجلا . فماجت الفتن موج البحر ، وعرضت على القلوب كما تعرض الحصير عوداً عودا ، فأنكرتها قلوب وأشربتها أخرى . فكانت القلوب على قلبين : على أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة مادامت السموات والأرض ، وعلى أسود مرباداً مثل الكوزى مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه .

فما المخرج من تلك الفتن ؟ هذا سؤال وجهه الإمام الجليل علىّ بن أبى طالب إلى مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية محمد ﷺ . قال علىّ رضى الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أما إنها ستكون فتنة . قلت : فما المخرج يارسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى . . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالىٰ . وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه . وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآناً عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾(٢) . من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم)(٣) .

فصل فى فضل القرآن والترغيب فى تلاوته

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾(٤) .

قال الإمام الشاطبى رحمه الله فى فضل القرآن :

وخـير جليس لا يمـل حـديثـه … وتـرداده تـزداد فـيـه تجـمـلا
وحيث الفتى يـرتـاع فى ظلمـاتـه … مـن القبـر يلقـاه سنـا متهـللا
هنـالـك يهنيـه مقيـلا وروضـة … ومـن أجله فى ذروة العـز يجتـلى
ينـاشـد فى إرضـائـه لحبيبـه … وأجـدر بـه سؤلا إليـه موصـلا

(١) سورة الإسراء آية : ٩ .
(٢) سورة الجن آية : ١ ، ٢ .
(٣) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين على المندى جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٤) سورة فاطر آية : ٢٩ ، ٣٠ .

فيـا أيهـا القـارى بـه متمسكـا مُجلالـه فى كـل حـال مبجـلا
هنيئـا مـريئـا والـداك عليهـما مـلابس أنـوار من التـاج والحـلَىٰ

ويشرفنا أن نكون من أمة القرآن الذى أمر الله بترتيله ، فقال : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾[١] . . وعلى قارىء القرآن أن يقف عند عجائبه ويحرك به القلوب . فاقرءوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا .

ولنبى القرآن ﷺ حشد مقدس ومسيرة مباركة من الأحاديث رواها الإمام المنذرى فى كتابه الشهير «الترغيب والترهيب» ، رأينا من الخير أن نعطر بها تلك الصفحات ، لأنها تشع نورا وتفيض بركة وسرورا ، وتتقاطر رحمة وحبورا ، وأصحاب الأفئدة المستنيرة وأولو الألباب الباصرة يدركون ذلك بأعين البصائر . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ﴾[٢] . نسأل الله تعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همنا وذهاب حزننا .

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٣] . أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظ القرآن ، وفهم معناه وتفسير آياته ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

وكم للقرآن من ثواب جزيل لتاليه ، لو تعلم الأمة حقيقة هذا الثواب ، ما غفلت عن ترتيله وتزكية القلوب به ، وتعطير الألسنة بقراءته . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف)[٤] .

فأنت ترى فى الحديث الأول أن خيرية العباد مقدورة بتعلم القرآن وتعليمه ، ويرغب النبى ﷺ فى الوعظ والإرشاد ، ويدعو العلماء إلى تعليم المسلمين ، والعمل بأحكام الدين ، والجهاد فى تفهيم الضالين ، والإقناع بالحجة وكثرة الاطلاع .

وترى فى الحديث الثانى أن الله تعالى يعطى ثوابا للقارىء بكل حرف من حروف كلماته حسنة . وفيه فضل قراءة القرآن وكثرة حسناته وزيادة أجره .

ولقد كان أصحاب رسول الله ﷺ فى ميادين الجهاد ، فرسانا بالنهار ، رهبانا بالليل ، إذا جنَّ عليهم الليل سمعت لهم دويا بالقرآن كدوى النحل ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مرّ أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم فى أذنيه ، ذلك كله لأنهم اتخذوا القرآن هاديا ورائدا ومعلما ومرشدا . مصداقا لقول البارى

(١) سورة المزمل آية : ٤ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .
(٣) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٢٣٦ ط الشعب ١٣٧٨ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

تبارك اسمه : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾(١) . وجدوا فيه الدواء والشفاء : ﴿ وننـزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾(٢) . ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾(٣) . ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾(٤) .

أعلمت ما منازل السكينة والرحمة والملائكة ، وذكر الله فى الملأ الأعلى ؟ إنها فى مجالس القرآن تلاوة ودراسة . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)(٥) . ومعنى قوله ﷺ نزلت عليهم السكينة : أى الطمأنينة والوقار والسعادة والقبول ، أما غشيتهم الرحمة أى عمتهم وأحاطت بهم .

ومجالس القرآن شاملة لكل مكان . بهذا نطق الحديث الشريف : (لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة) . ومعنى ذكرهم الله فيمن عنده أى أثنى عليهم سبحانه فى الملأ الأعلى تنويها بعلو درجتهم ، وزيادة ثوابهم ، وإخلاصهم لعبادة ربهم ، وذكره جل وعلا . وفيه المكروب يقرأ القرآن ليفرج الله كربه ، والمعسور ليزيل عسره . لأن ذلك أدعى للإجابة وأقرب لنزول رحمة الله .

يعلمنا رسول الله ﷺ انتهاز الفرص لإجابة الدعاء أن تذهب وتتوضأ وتصلى ركعتين لله تعالى ثم تجلس مع صالحين تذكرون الله وتتلون كتابه ، وتفهمون تفسير آياته ، ثم تكثرون من الاستغفار والصلاة على المختار ﷺ ، وحينئذ ينتظر إغداق إحسان الله ونزول رحماته وشمول بركاته .

عن معاوية رضى الله عنه أن رسول ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : (ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ، ومنّ به علينا . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذلك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله عز وجل يباهى بكم الملائكة)(٦) .

فاتقوا الله أيها المسلمون واحرصوا على تعلم القرآن ، وربوا أبناءكم على حفظ آياته تربحوا وتنجحوا ، فهو الذى أخرج الناس من ظلمات الجهل والغى والفساد إلى نور العلم والاستقامة والصلاح ، وسطع نور هديه فى الأكوان ، وظهرت آثار عدله ورحمته فى كل مكان . قال تعالى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(٧) ، نزل به الروح الأمين على سيدنا محمد ﷺ ، فمحا المراد عن القلوب ، وفتحت به نوافذ الفطن ، وأزال الغشى عن الأبصار ، وعنت لعظمته وجوه الفصحاء ،

(١) سورة الإسراء آية : ٩ .
(٢) سورة الإسراء آية : ٨٢ .
(٣) سورة فصلت آية : ٤٤ .
(٤) سورة يونس آية : ٥٧ ، ٥٨ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٨٠ .
(٧) سورة فصلت آية : ٤٢ .

وتطاحنت لسحر بيانه عزة البلغاء ، فأذعنوا له صاغرين ، وخروا لآيات بلاغته ساجدين ، وأيقنوا أنه تنزيل من رب العالمين .

ومن فضل الله تعالى على أهل القرآن أنه لم يجعل الجزاء الحسن مقصوراً على تاليه ، إنما شمل بمزيد فضله سامعه مادام يلتزم آداب السماع التى أمر الله تعالى بها فى كتابه فقال : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾(١) . وما أشدَّ حاجة المسلمين إلى معرفة آداب السماع فى مجالس القرآن . إن الأفئدة لتنفطر أسىً وإن القلوب لتنخلع حزنا وإن جبين الحياء لينذى خجلا عندما تسمع القرآن يتلى والجالسون فى غفلة معرضون : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحدَثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهيةً قلوبُهم ﴾(٢) . أليس مما يدعو للأسف أن يقول المستمع للقارىء وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾(٣) ، آيات تشيب من هولها نواصى الولدان ، وتقشعر لجلالها الأبدان ، يقول المستمع الغافل «ربنا يزيدك» . ولست أدرى من أى شىء يزيده بعد أن بلغ طول السلسلة سبعون ذراعا ! ومستمع آخر لعله كان نائما واستيقظ على قول القارىء : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ﴾(٤) فصاح بأعلى صوته : «اللهم اجعلنا جميعاً منهم» . إنه لا يدرى زمر النار أم زمر الجنة ؟ وهذا دليل على غفلة القلوب . وكما قال شوقى :

لقـد أنلتـك أذنـا غـير واعيـة ورُب مستمـع والقلبُ فى صَمم

إن الله تعالى شمل السامع والتالى بعنايته ، إذا التزم كل منهما آداب السماع والتلاوة . عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة)(٥) . واعلم يا أخى أنك إذا شغلت بتلاوة القرآن عن الدعاء فإن الله تعالى يعطيك بفضل القرآن أعظم مما يعطى السائلين ، وهذه إحدى بركات القرآن والاشتغال به ، لأنه أفضل الكلام وأصدق الحديث . بهذا نطق الرسول الكريم . عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : يقول الرب تبارك وتعالى : من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)(٦) .

واعلم بأن الناس مع القرآن أربعة أنواع من حيث القراءة والعمل . وقد جاء ذلك التقسيم رائعا وبديعاً فى قول رسول الله ﷺ : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها طيب ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمُها مر ولا ريح لها ، ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك ، إن لم يصبك منه شىء أصابك من ريحه ، ومثل

---

(١) سورة الأعراف آية : ٢٠٤ .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢ ، ٤ .
(٣) سورة الحاقة الآيات : ٣٠ - ٣٢ .
(٤) سورة الزمر آية : ٧١ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه)(١) . والمقصود بالأترجة التى تجمع طيب الطعم والريح : كالتفاحة . وجاء فى الفتح : أن التمثيل وقع بالذى يقرأ القرآن ، ولا يخالف ما اشتمل عليه من أمر ونهى لا مطلق التلاوة . وفى هذا الحديث بيان فضيلة القرآن والدعوة إلى العمل به . جاء فى عمدة القارى أن كلام الله المجيد له تأثير فى باطن العبد وظاهره ، وأن العباد متفاوتون فى ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر من ذلك التأثير ، وهو المؤمن القارىء ، ومنهم من لا نصيب له البتة ، وهو المنافق الحقيقى ، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه ، وهو المرائى أو بالعكس وهو المؤمن الذى لم يقرأه ، وإبراز هذه المعانى وتصويرها فى المحسوسات ما هو مذكور فى الحديث ، ولم يجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ، ولا أحسن ولا أجمع من ذلك لأن المشبهات والمشبه بها واردة على تقسيم الحاضر ، لأن الناس إما مؤمن أو غير مؤمن ، والثانى إما منافق صرف أو ملحق به . فعلى هذا قس الثمار المشبه بها ، ووجه الشبه فى المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين : طعم وريح . وقد ضرب النبى ﷺ المثل بما تنبته الأرض ويخرجه الشجر للمشابهة التى بينها وبين الأعمال ، فإنها من ثمرات النفوس ، فخص ما يخرجه الشجر من الأترجة والثمرة بالمؤمن ، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق تنبيها على علو شأن المؤمن ، وارتفاع علمه ودوام ذلك ، وتوقيفا على ضعة شأن المنافق وإحباط عمله وقلة جدواه .

شىء بديع يكسب قارىء القرآن : نفحات صمدية وبركات إلهية صادرة من تلاوة كلام رب العالمين . فأفاد ﷺ أن قارىء القرآن رائحته ذكية ، ومنافعه جليلة وقربه رحمة ، ومصاحبته طاعة ومودته رضوان وكلامه مثمر . وفيه الحث على الإنصات والاستماع ، وتخلق القارىء بمكارم الأخلاق . وإذا قرأ العاصى القرآن فكالوردة رائحتها ذكية ولا تؤكل . فتمر نفحات عطرية من فيه وهو غير عامل بما يقرأ ، فيستفيد السامع المنصت فقط ، ومن يرضى أن يكون ريحانة لغيره محروما من شمها ، فاقدا عطرها بعيدا عن ثمرها ؟ .

وكذا العاصى الذى لا يقرأ ولا يسمع ، فكالشجرة المرة كريهة الطعم معدومة الرائحة . فلا حول ولا قوة إلا بالله . . فعليك يا أخى بالإنصات إلى القرآن ، والتأمل فى آياته ، وأن تقرأ ما تيسر منه عسى أن تشملك رحمة الله جل جلاله . قال تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾(٢) ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾(٣) . ولا تيأس من قراءة القرآن إن كان شاقا على لسانك ، بل عليك أن تجاهد اللسان بقراءة آياته المحكمة ، فإن كثرة قراءته تيسر تلاوته . قال جل شأنه : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾(٤) . واعلم بأن الله يعطى الثواب على قدر المشقة . فإذا ما صرت ماهرا بتلاوته فلك عند الله درجة السفرة الكرام البررة . بهذا نطق الحديث الشريف . قال ﷺ : (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)(٥) .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٢) سورة المزمل آية ٢٠ .
(٣) سورة الزمر آية : ١ .
(٤) سورة القمر آية : ١٧ .
(٥) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ومن الوصايا النبوية العالية ، الوصية بتلاوة القرآن . إذ أن تلاوته نور وذخر . قال أبو ذر رضى الله عنه : قلت يا رسول الله أوصنى . قال : (عليك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن ، فإنها نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء)(١) .

وليس فضل القرآن مقصورا على الدنيا ، بل يتعدى ذلك إلى يوم الحشر ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . قال ﷺ : (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار)(٢) . وقال أيضا صلوات ربى وسلامه عليه : (اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه)(٣) .

بل إن هذا الفضل لا يقتصر على قارىء القرآن وحده ، بل يتعداه إلى والديه ، حيث نبهنا إلى ذلك الرسول الكريم بقوله : (من قرأ القرآن وعمل به أُلبس والداه تاجا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا) . فما ظنكم بالذى عمل بهذا ؟

إن أقصى ما يتمناه العبد هو رضا الله ، فيوم يبلغ هذه المكانة فقد حيزت له السعادة الأبدية . قال أحد الصالحين يناجى ربه :

رضـاك خـير من الـدنيـا ومـا فيهـا ... يـا مالـك النفس قـاصيهـا ودانيهـا
فـليس لـلنفس آمـال تحـقـقـهـا ... سـوى رضـاك فـذا أقصى أمـانيهـا
فنـظرة منـك يـا سؤلى ويـا أمـلى ... خـير إلىّ من الـدنيـا ومـا فيهـا

أتعلم ما هى الوسيلة لبلوغ رضا الله ؟ إنه ذلك القرآن . فمن أفضاله يوم الحشر أنه يسأل ربه الرضا لصاحبه فيؤتيه الله سؤله . انصت معى فى خشوع وجلال إلى هذا الحديث الشريف ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يجىء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يارب حله فيلبس تاج الكرامة ثم يقول : يارب زده فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يارب ارض عنه فيرضى عنه ، فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة)(٤) .

ومن أفضال القرآن يوم الحشر أنه يصعد بصاحبه فى درج الجنة على قدر ما يحفظ . فكلما قرأ آية صعد بها درجة . فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤ ها)(٥) .

قال الخطابى : « جاء فى الأثر أن عدد آى القرآن على قدر درج الجنة ، فيقال للقارىء ارق فى الدرج على قدر ما كنت تقرأ من آى القرآن ، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى عـلى أقصى درج الجنة فى الآخرة ، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه فى الدرج على قدر ذلك فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة »(٦) .

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٤ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٥ .

وأفضل ما يتجلى به القرآن على أصحابه يوم الفزع الأكبر ﴿ يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[١] . إنه يوم ما أطوله ، وياله من خطب ما أهوله ، وياله من جبار ما أعدله ، فى هذا اليوم اختص الله ثلاثة أنواع من عباده ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ولا تهولهم تلك الشدائد ، منهم صاحب القرآن الذى يتلوه ويؤم الناس به وهم راضون عنه . وإليك هذه الأنواع الثلاثة كما بينها الصادق المعصوم . عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ، ولا ينالهم الحساب ، هم على كثيب من مسك حتى يُفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأم به قوما وهم به راضون . وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله . وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين مواليه)[٢] .

ما أجمل أن يشبه الرسول ﷺ صاحب القرآن بجراب محشو مسكا ، يفوح شذاه فيملأ المكان طيبا تنشقه القلوب والأرواح ، ويفيض على الناس عبيرا فواحا وأريجا يبعث فى النفس طمأنينة وسكينة . فاستمع معى إلى حث رسول الإسلام على قراءة القرآن . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل منهم يعنى ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سنا ، فقال : ما معك يافلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال : اذهب فأنت أميرهم ، فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها ، فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن واقرءوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أوكىء على مسك)[٣] .

لو علمت فضل القرآن فى محكمة العدل الإلهية الكبرى يوم القيامة ما غفلت عن قراءته ، وما اشتغلت عن نوره وبركاته ، ولظلت أضواؤه متصلة بقلبك ووجدانك ، إنه يقوم بدور الشفيع لك عند الواحد القهار ، ويؤدى فى محكمة الله شهادة يقبلها العليم الخبير فيك ، أتدرى ما هى ؟ إنه أسهرك الليالى مما جعل النوم يجفوك مصداقا لقول الله : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[٤] .

فاستمع معى إلى نص هذا الخبر : عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى رب منعته الطعام والشهوة فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه . قال : فيشفعان)[٥] .

لقد تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما تشاهد هذا المنظر البديع الذى يصوره لنا الصحابى الجليل «أسيد بن حضير» وهو يقصه على صاحب الرسالة العصماء ﷺ ، والرسول يأمره أن يقرأ ، وقد استحضر أسيد الصورة كاملة . إنه مشهد قرآنى رائع ومقام نورانى كريم . إن الملائكة تستمع إلى أسيد وهو

(١) سورة الحج آية : ٢ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٦ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٦ .
(٤) سورة الذاريات الآيات : ١٥ - ١٨ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٧ .

يقرأ ، بل إن فرسه يضطرب من خشية الله حتى كادت أرجل الفرس تطأ ابنه يحيى ، وها هو ذا أسيد أمام رسول الله يقص عليه ما رآه رأى العين :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مِرْبَدِه[١] إذ جالت[٢] فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ثم جالت أخرى أيضا . قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السُّرُج عرجت[٣] فى الجو حتى ما أراها ، قال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة فى جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير . قال فقرأت ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير . قال فقرأت ثم جالت أيضا ، ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأ ابن حضير ، قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم)[٤] . رواه البخارى ومسلم واللفظ له. ورواه الحاكم بنحوه باختصار ، وقال فيه : (فالتفت فإذا أمثال المصابيح مدلاة بين السماء والأرض ، فقال : يا رسول الله ما استطعت أن أمضى ، فقال : تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب)[٥] .

لو علمت ميزان القرآن فى العمل وما له من فوائد تعود على تاليه المخلص فى تلاوته ، لعلمت أن هناك كنزا يدخره الله لك يوم تلقاه ، فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . إن لك بكل حرف تتلوه من القرآن حسنة ، وإنها لحسنة مضاعفة أى بعشر أمثالها . فقف عند هذا الحديث منصتا بأذن قلبك لتنال من بركاته وأنواره . عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله فأقبلوا إلى مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله . والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستَعتب ، ولا يعوج فيُقوَّم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول الم حرف ولكن ألِفٌ حرف ولامٌ حرف وميمٌ حرف)[٦] .

هل علمت أن بركة القرآن كما شملت والديك يا قارىء القرآن فإنها تمتد إلى أكثر من ذلك ، إن للقرآن شفاعة تجعل لقارئه بركة تعم عشرة من أهل بيته كل قد وجبت له النار ، وما أدراك ما تلك الشفاعة ؟ إن فيها النجاة من نار وقودها الناس والحجارة وكفى بالنجاة فضلا ، وكفى بالشفاعة منقذا . هلا سمعت إلى قول الصادق المعصوم : (من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار)[٧] .

---

(١) مربده : المربد الموضع الذى تحبس فيه الإبل والغنم .
(٢) جالت فرسه : أى دارت وانزعجت .
(٣) السرج عرجت : المصابيح صعدت .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ .

ونختتم هذا الفصل بقوله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين[١])[٢] .

فصل فى حرمة القرآن وآداب تلاوته وحقوقه على قارئه

هل علمت يا حامل القرآن وقارئه ما حرمة هذا الكتاب ؟ وما يلزمك من أدب عند قراءته ؟

يقول القرطبى : قال الحكيم الترمذى أبو عبد الله فى «نوادر الأصول» :

* فمن حرمة القرآن ألا يمسه القارىء له إلا طاهرا . ومن حرمته أن يقرأه وهو على طهارة . ومن حرمته أن يستاك ويتخلل ، فيطيب فمه إذ هو طريقه . قال يزيد بن أبى مالك : إن أفواهكم طرق من طرق القرآن ، فطهروها ، ونظفوها ما استطعتم .
* ومن حرمته أن يلبس نظيفا كما يلبس للدخول على الأمير ، لأنه مناج ربه .
* ومن حرمته أن يستقبل القبلة لقراءته . . وكان «أبو العالية» إذا قرأ اعتمّ (أى لبس العمامة) ، ولبس وارتدى واستقبل القبلة .
* ومن حرمته أن يتمضمض كلما تنخع . . روى شعبة عن أبى حمزة عن ابن عباس : أنه كان يكون بين يديه ماء ، إذا تنخع تمضمض ، ثم أخذ فى الذكر ، وكان كلما تنخع تمضمض .
* ومن حرمته إذا تثاءبت وأنت تقرأ القرآن فأمسك عن القراءة تعظيما حتى يذهب تثاؤبك . قال عكرمة : يريد أن فى ذلك الفعل إجلالا للقرآن .
* ومن حرمته أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم عند ابتدائه للقراءة ، ويقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم إن كان ابتداء قراءته من أول السورة أو من حيث بلغ .
* ومن حرمته إذا أخذ فى القراءة لم يقطعها ساعة فساعة بكلام الآدميين من غير ضرورة .
* ومن حرمته أن يخلو بقراءته ، حتى لا يقطع عليه أحد بكلام فيخلطه بجوابه ، لأنه إذا فعل ذلك زال عنه سلطان الاستعاذة الذى استعاذ منه فى البدء .
* ومن حرمته أن يقرأه على تؤدة وترسيل وترتيل .
* ومن حرمته أن يستعمل فيه ذهنه وفهمه حتى يعقل ما يخاطب به .
* ومن حرمته أن يقف على آية (الوعد) فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله ، وأن يقف على آية (الوعيد) فيستجير بالله منه .
* ومن حرمته أن يقف على أمثاله ، فيتمثلها ، وأن يلتمس غرائبه .
* ومن حرمته أن يؤدى لكل حرف حقه من الأداء ، حتى يبرز الكلام باللفظ تماما ، فإن له بكل حرف عشر حسنات .

---

(١) من المقنطرين : أى ممن كتب له قنطار من الأجر .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ، ص ٢٧١ .

* ومن حرمته إذا انتهت قراءته أن يصدق ربه ، ويشهد بالبلاغ لرسوله ﷺ ويشهد على ذلك أنه حق ، فيقول : «صدقت ربنا وبلّغ رسولك ونحن على ذلك من الشاهدين ، اللهم اجعلنا من شهداء الحق ، القائمين بالقسط» ثم يدعو بما شاء من الدعاء .

* ومن حرمته إذا قرأه ألا يلتقط الآى من كل سورة فيقرأ ، فإنه روى عن رسول الله ﷺ (أنه مر ببلال وهو يقرأ من كل سورة شيئا ، فأمره أن يقرأ على السور ، أو كما قال)[1] .

* ومن حرمته إذا وضع الصحيفة ألا يتركه منشورا ، وألا يضع فوقه شيئا من الكتب حتى يكون أبدا عاليا لسائر الكتب ، علما كان أو غيره .

* ومن حرمته أن يضعه فى حجره إذا قرأه ، أو على شىء بين يديه ، ولا يضعه بالأرض .

* ومن حرمته إذا غسله بالماء أن يتوقى النجاسات من المواضع التى توطأ ، فإن لتلك الغسالة حرمة ، وكان من قبلنا من السلف الصالح يستشفى بغسالته .

* ومن حرمته ألا يتخذ الصحيفة إذا بليت ودرست وقاية للكتب ، فإن ذلك جفاء عظيم .

* ومن حرمته ألا يخلى يوما من أيامه من النظر فى المصحف ولو مرة . وكان أبو موسى يقول : إنى لأستحيى ألا أنظر كل يوم فى عهد ربى مرة !

* ومن حرمته أن يعطى عينيه حظهما منه ، فإن العين تؤدى إلى النفس ، وبين النفس والصدر حجاب ، والقرآن فى الصدر : فإذا قرأه عن ظهر قلب ، فإنما يسمع أذنه فتؤدى إلى النفس ، فإذا نظر فى الخط ، كانت العين والأذن قد اشتركتا فى الأداء وذلك حرى للأداء ، وكان قد أخذت العين حظها كالأذن .

روى زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (اعطوا أعينكم حظها من العبادة . قالوا : يا رسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال : النظر فى المصحف والتفكر فيه ، والاعتبار عند عجائبه)[2] .

وروى مكحول عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : (أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن نظراً)[3] ..

* ومن حرمته ألا يتأوله عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا . . حدثنا عمرو بن زياد الحنظلى ، قال حدثنا هشيم بن بشير ، عن المغيرة عن إبراهيم ، قال : كان يكره أن يتأول شىء من القرآن عندما يعرض له شىء من أمر الدنيا . والتأويل مثل قولك للرجل إذا جاءك ﴿ جئت على قدر يا موسى ﴾[4] ومثل قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسـلفتم فى الأيام الخالية ﴾[5] ، يقال هذا عند حضور الطعام ، وأشـباه ذلك .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٤ ط الشعب .
(٢) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ١٧٥ ط دار الفكر .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٤ ط الشعب .
(٤) سورة طه آية : ٤٠ .
(٥) سورة الحاقة آية : ٢٤ .

* ومن حرمته ألا يتلى منكوسا ، كفعل معلمى الصبيان ، يلتمس أحدهم بذلك أن يرى الحذق من نفسه والمهارة ، فإن ذلك مخالفة .
* ومن حرمته ألا يقرأه بألحان الغناء ، كلحون أهل الفسق ، ولا بترجيع النصارى ، ولا نوح الرهبانية فإن ذلك كله زيغ .
* ومن حرمته أن يجلل تخطيطه إذا خطه . عن أبى حكيمة أنه كان يكتب المصاحف بالكوفة فمر علىّ رضى الله عنه فنظر إلى كتابته ، فقال له : أجل قلمك ، فأخذت القلم فقططته من طرفه قطا ، ثم كتبت وعلىّ رضى الله عنه قائم ينظر إلى كتابتى . فقال : هكذا نوره كما نوره الله عز وجل .
* ومن حرمته ألا يجهر بعض القارئين على بعض فى القراءة ، وألا يمارى ولا يجادل فيه فى القراءات ، ولا يقول لصاحبه : ليس هكذا هو ، ولعله أن تكون تلك القراءة صحيحة جائزة من القرآن ، فيكون قد جحد كتاب الله .
* ومن حرمته ألا يقرأ فى الأسواق ، ولا فى مواطن اللغط واللغو ومجمع السفهاء . . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عباد الرحمن وأثنى عليهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً ؟! هذا لمروره بنفسه ، فكيف مرور القرآن الكريم تلاوة بين ظهرانى أهل اللغو ومجمع السفهاء ؟! .
* ومن حرمته ألا يتوسد المصحف ، ولا يعتمد عليه ، ولا يرمى به إلى صاحبه إذا أراد أن يناوله .
* ومن حرمته ألا يصغر المصحف : روى الأعمش عن إبراهيم عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لا يصغر المصحف . قلت : روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه رأى مصحفا صغيرا فى يد رجل فقال : من كتبه ؟ قال : أنا . فضربه بالدرة وقال : عظموا القرآن . وروى عن رسول الله ﷺ أنه (نهى أن يقال : مسيجد أو مصيحف)[1] .
* ومن حرمته ألا يخلط فيه ما ليس منه : بأن يحلى بالذهب أو يكتب بالذهب ، فتخلط به زينة الدنيا . روى مغيرة عن إبراهيم : أنه كان يكره أن يحلى المصحف أو يكتب بالذهب ، أو يعلم عند رءوس الآى أو يصغر . وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا زخرفتم مساجدكم وحليتم مصاحفكم ، فالدبار[2] عليكم)[3] . وقال ابن عباس ــ وقد رأى مصحفا قد زين بفضة : تغرون به السارق وزينته فى جوفه .
* ومن حرمته ألا يكتب على الأرض ، ولا على حائط ، كما يفعل ببعض المساجد المحدثة : حدثنا محمد بن على الشقيقى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن المبارك ، عن سفيان ، عن محمد بن الزبير قال : سمعت عمر ابن عبدالعزيز يحدث قال : مر رسول الله ﷺ بكتاب فى أرض ، فقال لشاب من هذيل : (ما هذا ؟ قال : من كتاب الله كتبه يهودى ، فقال : لعن الله من فعل هذا ، لا تضعوا كتاب الله إلا موضعه)[4] . قال محمد بن الزبير : رأى عمر بن عبد العزيز ابنا له يكتب القرآن على حائط ، فضربه .

(١) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٥ ط الشعب .
(٢) الدبار : أى الهلاك .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٥ ط الشعب .
(٤) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٦ ط الشعب .

* ومن حرمته أن يفتتحه كلما ختمه حتى لا يكون كهيئة المهجور . ولذلك كان رسول الله ﷺ (إذا ختم يقرأ من أول القرآن قدر خمس آيات لئلا يكون فى هيئة المهجور) . وروى ابن عباس قال : جاء رجل فقال : يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : (عليك بالحال المرتحل . قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : صاحب القرآن ، يضرب من أوله حتى يبلغ آخره ، ثم يضرب من أوله ، كلما حل ارتحل)[(١)] . (قلت) : ويستحب له إذا ختم القرآن أن يجمع أهله : ذكر أبو بكر الأنبارى ، أنبأنا إدريس ، حدثنا خلف ، حدثنا وكيع عن مسعر عن قتادة أن أنس بن مالك كان إذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وأخبرنا إدريس ، حدثنا خلف ، حدثنا جرير عن منصور ، عن الحكم قال : كان مجاهد وعبدة بن أبى لبابة وقوم يعرضون المصاحف ، فإذا أرادوا أن يختموا ، وجهوا إلينا : احضرونا ، فإن الرحمة تنزل عند ختم القرآن ! وأخبرنا إدريس : حدثنا خلف ، حدثنا هشيم العوام ، عن إبراهيم عن اليمنى قال : من ختم القرآن أول النهار صلّت عليه الملائكة حتى يمسى ، ومن ختم أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح . . قال فكانوا يستحبون أن يختموا أول الليل وأول النهار .

* ومن حرمته : ألا يقال سورة صغيرة ،وكره أبو العالية أن يقال سورة صغيرة أوكبيرة وقال لمن قالها : أنت أصغر منها ، وأما القرآن فكله عظيم . ذكره مكى رحمه الله . وقد روى أبو داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أنه قال : ما من المفصل سورة صغيرة ولا كبيرة إلا قد سمعت رسول الله ﷺ يؤم بها الناس فى الصلاة[(٢)] .

وبعد : أعلمت يا أخى هذه الآداب ، وتلك الحرمات ؟ وإذا كنت علمتها ، فهل عملت بها ؟

والله إن القرآن الكريم بيننا ونحن فى مسيس الحاجة إليه !

فهلا عرفنا له حقه ؟

إن فى القرآن آية تسمى «بكاءة المؤمنين» وهى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[(٣)] .

كانوا إذا قرئت عليهم فاضت أعينهم بالدمع ، يقول كل منهم : ترى من أى الفريقين أنا ؟ أمن الذين اجترحوا السيئات ، أم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ لقد ظل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ونفسه تعاف الطعام ، لما نزل عليه قوله تعالى فى وصف أهل النار : ﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما * وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾[(٤)] وإن أمير المؤمنين «عمر» ــ وهو جبار الجاهلية ، وعملاق الإسلام ــ خر مغشيا عليه ، وظل شهرا مريضا ، عندما سمع القارىء يقرأ سورة ﴿ والطور ﴾ حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع * ما له من دافع ﴾[(٥)] .

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٢٦ ط الشعب .
(٢) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٢٣-٢٧ ط الشعب .
(٣) سورة الجاثية آية : ٢١ .
(٤) سورة المزمل الآيتان : ١٢ ، ١٣ .
(٥) سورة الطور الآيات : ١ - ٨ .

والحسن البصرى رضى الله عنه طلب شربة ماء ، فلما شربها بكى بكاء مراً ، فقيل له : يا تقى الدين ما أبكاك ؟ قال : تذكرت قول الله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ﴾(١) .

الحث على مدارسة القرآن والواجب على قارئه وحافظه :

عندما يلجأ المسلم إلى الله ويركن إلى جنابه : ينشرح صدره ، ويشعر قلبه بالطمأنينة ، ويستقر فؤاده بالسكينة . . وهل يجد البشر فى أرجاء هذه الدنيا منارا يستضيئون به أو يأوون إليه إذا لفحتهم حرور الحياة أفضل وأعز من كتاب الله ؟ .

إننى أقف مرفوع الرأس ، عزيز الجانب ، عندما أقرأ هذا الحديث الشريف ، الذى دار بين معاذ بن جبل وبين نبى الرحمة وإمام الهدى محمد ﷺ . . إذ يقول معاذ : يارسول الله عظنا موعظة ننتفع بها .

فبأى شىء وعظه الرسول صلوات الله وسلامه عليه ؟

كانت الموعظة تحديدا للمفاهيم ، وتبيانا للحقائق ، بأسلوب فيه الإعجاز والبلاغة كلها . قال الرسول ﷺ فى موعظته : (إن أردتم عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والهدى يوم الضلالة ، والظل يوم الحرور : فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن ، حرز من الشيطان ، ورجحان فى الميزان) .

صدقت يا سيدى يا رسول الله . فالقرآن هو القدوة الحسنة ، والأسوة الطيبة ، والمنهج المستقيم ، وهو الضياء ، والدواء ، والشفاء ، وهو مفتاح السعادة فى الدنيا والآخرة .

لقد بلغ من ترغيب الرسول ﷺ فى الحرص على تلاوة القرآن ودراسته أنه قال : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)(٢) . أرأيت مكانا أجل وأعظم من هذه الروضة المباركة ؟ إنه مكان تتنزل فيه السكينة . . وما أدراك ما هى ؟ إنها مملكة من ممالك الله العليا ، يختص بها من يشاء من عباده ، إذا حلت بالقلوب أكسبتها طمأنينة واستقرارا ، ومن ثم فقد ورد ذكر السكينة فى كتاب الله تعالى فى مواقف حاسمة تكاد تنخلع منها القلوب لشدة ما فيها من الهول . فإذا بالسكينة تنزل على الأفئدة كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى .

ورد ذكر السكينة عندما كان رسول الله ﷺ فى الغار مع أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه . والموقف شديد يفسره قول أبى بكر : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موقف قدميه لرآنا ، فيقول الرسول العظيم محمد ﷺ : (يا أبا بكر : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾(٣)) .

---

(١) سورة الأعراف آية : ٥٠ .

(٢) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير جـ ٢ ص ٤٧٨ .

(٣) سورة التوبة آية : ٤٠ .

وعندئذ تنزل السكينة ، وهى النعمة العظمى ، فيقول سبحانه : ﴿ فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ﴾(١) .

وفى غزوة «حنين» ، وقد احتدم الخطب ، وادلهم الأمر ، كما قال ربنا جلّ وعلا : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾(٢) فماذا حدث والشدة قد استحكمت حلقاتها ؟ . . فالكثرة العددية لم تغن شيئا ، والأرض بأرجائها الرحبة قد ضاقت ، والنبى ﷺ فى ثبات وعزيمة ينادى : (أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب)(٣) .

إنها السكينة قد نزلت كما قال مولانا تبارك اسمه : ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ﴾(٤) .

وجاءت السكينة فى سورة «الفتح» امتنانا من الله تعالى على عباده لتكون غايتها ازدياد إيمان المؤمنين . . قال جل شأنه : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾(٥) .

وتأتى السكينة فى موضع آخر من سورة «الفتح» أيضا فى بيعة الرضوان ، حين وقف الصحابة يبايعون رسول الله ﷺ على القتال صفا واحدا إن كان أهل مكة قتلوا عثمان بن عفان سفير رسول الله إليهم ، فتنزل السكينة تثبيتا وتقوية وتوكيدا . . قال جل شأنه : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾(٦) .

كما تجىء فى موضع ثالث من سورة «الفتح» أيضا . . وذلك أثناء توقيع المعاهدة بين المسلمين والمشركين فى صلح الحديبية ، وحين ركب سهيل بن عمرو مندوب المشركين رأسه ويأبى أن يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ، ويكتب باسمك اللهم ، كما يأبى أن يذكر فى المعاهدة اسم رسول الله ، بعنوان الرسالة ، ويقول : بل اكتب (محمد) بن عبد الله إلى غير ذلك من التعنت والتعسف ، وعندئذ تثور ثورة المسلمين ، لكن الله تعالى ـ لحكمة يعلمها ، وخير كثير سوف يعود على المسلمين من تلك المعاهدة ـ ينزل السكينة على المؤمنين تثبيتا وتقوية . . يقول جل شأنه وصفا لهذا الموقف : ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما ﴾(٧) .

والمراد بكلمة «التقوى» هنا هى كلمة التوحيد : لا إله إلا الله .

تلك مواقع السكينة فى جلالها وجمالها وكمالها .

---

(١) سورة التوبة آية : ٤٠ .
(٢) سورة التوبة آية : ٢٥ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٤ ص ٤٠٥ ط الشعب .
(٤) سورة التوبة آية : ٢٦ .
(٥) سورة الفتح آية : ٤ .
(٦) سورة الفتح آية : ١٨ .
(٧) سورة الفتح آية : ٢٦ .

إن تلك النعمة ــ كما جاء فى الحديث الشريف الذى ذكر آنفا ــ تنزل مع الرحمة والملائكة على الذين يجلسون يقرأون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم ، إنهم ينالون شرفا كبيرا وقدرا رفيعا ، إذ أن الله جل جلاله يذكرهم فيمن عنده من الملإ الأعلى . فما أعظم هذا الشرف : ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون ﴾(١) .

وإذا علمت أن تلاوة القرآن وتدارسه له من الشرف ما يجل عن الوصف ، فإن العلم به يزيد هذه المكانة قربا وحبا إلى الله . قال مجاهد رحمه الله : «أحب الخلق إلى الله تعالى أعلمهم بما أنزل» والمراد بهؤلاء : هم الذين يقرنون العلم بالعمل . لذلك قال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا . ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة .

فما أحق من علم كتاب الله أن يزدجر بنواهيه ، ويذكر ما شرح له فيه ، ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحييه ، فإنه قد حمل أعباء الرسل ، وصار شاهدا يوم القيامة على من خالف من أهل الملل . . قال الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ﴾(٢) .

ألا وإن الحجة على من علمه فأغفله أوكد منها على من قصر عنه وجهله ، ومن أوتى علم القرآن فلم ينتفع ، وزجرته نواهيه فلم يرتدع ، وارتكب من المآثم قبيحا ، ومن الجرائم فضوحا ، كان القرآن عليه حجة ، وخصما لربه . . فالقرآن حجة لك أو عليك .

فالواجب على من خصه الله بحفظ كتابه : أن يتلوه حق تلاوته ، ويتدبر حقائق عبارته ، ويتفهم عجائبه ، ويتبين غرائبه . . قال الله تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾(٣) . وقال عز وجل : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾(٤) .

واعلم يا أخى ــ وفقك الله ــ أن لتفسير القرآن أهمية كبرى ، ليتسنى لك العمل بما فيه ، وإلا فكيف يعمل الإنسان بما لا يفهم معناه ؟

قال إياس بن معاوية رضى الله عنه : « مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعلمون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا وليس عندهم مصباح فتداخلتهم روعة ، ولا يدرون ما فى الكتاب . . . ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا ما فى الكتاب» .

(١) سورة المطففين الآيات : ١٨ - ٢١ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٣) سورة ص آية : ٢٩ .
(٤) سورة محمد آية : ٢٤ .

فصل فى أقوال الأئمة والمفكرين فى القرآن الكريم

* ذكر الإمام الطبرى : أن القرآن الكريم من أعظم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة ، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة ، وحباهم به من الكرامة السنية ، الذى لو اجتمع جمع من جنها وإنسها ، وصغيرها وكبيرها ، على أن يأتوا بسورة من مثله لما استطاعوا ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، فجعله لهم فى دجى الظلم نورا ساطعا وفى ظلمة الشبهة شهابا لامعا ، وفى مضلة المسالك دليلا ، وإلى سبل النجاة والحق هاديا : ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾(١) . حرسه بعين منه لا تنام ، وأحاطه بركن منه لا يضام . لا تهى على الأيام دعائمه ، ولا تبيد على طول الأزمان معالمه ، ولا يجوز عن قصد الحجة تابعه ، ولا يضل عن سبل الهدى مصاحبه . من اتبعه فاز وهدى ، ومن حاد عنه ضل وغوى . فهو موئلهم الذى إليه عند الاختلاف يئلون ، ومعقلهم الذى إليه فى النوازل يعقلون ، وحصنهم الذى به من وساوس الشيطان يتحصنون ، وحكمة ربهم التى إليها يحتكمون ، وفصل قضائه بينهم الذى إليه ينتهون ، وعن الرضا به يصدرون ، وحبله الذى بالتمسك به من الهلكة يعتصمون .

* ويقول الإمام الزركشى فى مقدمة كتابه البرهان : «أما بعد ، فإن أولى ما أعملت فيه القرائح ، وعلقت به الأفكار اللواقح : الفحص عن أسرار التنزيل ، والكشف عن حقائق التأويل ، والنعمة الباقية ، والحجة البالغة ، والدلالة الدامغة . وهو شفاء الصدور ، والحكم العدل عند مشتبهات الأمور ، وهو الكلام الجزل ، وهو الفصل الذى ليس بالهزل . سراج لا يخبو ضياؤه ، وشهاب لا يخمد نوره وسناؤه ، وبحر لا يدرك غوره . بهرت بلاغته العقول ، وظهرت فصاحته على كل مقول ، وتضافر إيجازه وإعجازه ، وتظاهرت حقيقته ومجازه ، وتقارن فى الحسن مطالعه ومقاطعه ، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه . قد أحكم الحكيم صيغته ومبناه ، وقسم لفظه ومعناه ، إلى ما ينشط السامع ، ويقرط المسامع ، من تجنيس أنيس ، وتطبيق لبيق ، وتشبيه نبيه ، وتقسيم وسيم ، وتفصيل أصيل ، وتبليغ بليغ ، وتصدير بالحسن جدير ، وترديد ما له مزيد ، إلى غير ذلك مما احتوى من الصياغة البديعة ، والصناعة الرفيعة .

كل كلمة منه لها من نفسها طرب ، ومن ذاتها عجب ، ومن طلعتها غرة ، ومن بهجتها درة ، لاحت عليها بهجة القدرة ، ونزل ممن له الأمر ، فله على كل كلام سلطان وإمرة ، بهر النفوس بتمكين فواصله ، وحسن ارتباط أواخره وأوائله ، وبديع إشاراته وعجيب انتقالاته ، من قصص باهرة ، إلى مواعظ زاجرة ، وأمثال سائرة ، وحكم زاهرة ، وأدلة على التوحيد ظاهرة . بالتنزيه والتحميد سائرة ومواقع تعجب واعتبار ، ومواطن تنزيه واستغفار . إن كان سياق الكلام ترجية : بسط ، وإن كان تخويفا : قبض ، وإن كان وعدا : أبهج ، وإن كان وعيدا : أزعج ، وإن كان دعوة : حدب ، وإن كان زجرة : أرعب ، وإن كان موعظة : أقلق ، وإن كان ترغيبا : شوّق !

---

(١) سورة المائدة آية : ١٦ .

فسبحان من سلكه ينابيع فى القلوب ، وصرفه بأبدع معنى وأغرب أسلوب . . لا تستقصى معانيه فهم الخلق ، ولا يحيط بوصفه على الإطلاق ذو اللسان الطلق !.

فالسعيد من صرف همته إليه ووقف فكره وعزمه عليه . والموفق من وفقه الله لتدبره ، واصطفاه للتذكير به وتذكره» .

* جاء فى تفسير الطبرى قوله : « حث الله عز وجل عباده على الاعتبار بما فى آيات القرآن من المواعظ والتبيان ، بقوله جل ذكره لنبيه ﷺ : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾(١) ، وقوله : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون * قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾(٢) .

وما أشبه ذلك من آى القرآن التى أمر الله عباده وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آى القرآن ، والاتعاظ بمواعظه ، ما يدل على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يحجب عنهم تأويله من آيات ، لأنه محال أن يقال لمن لا يفهم ما يقال له ولا يعقل تأويله : اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان ، إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه ثم يتدبره ويعتبر به » .

* ويقول العلامة ابن كثير فى مقدمة تفسيره : « فالواجب على العلماء الكشف عن معانى كلام الله ، وتفسير ذلك وطلبه وتعلم ذلك وتعليمه ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون ﴾(٣) . وقال تعالى : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾(٤) » .

* قال تقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : « ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم عباده فيما أنزلت ، وماذا عنى بها ، وما استثنى من ذلك لا متشابها ولا غيره » .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يحرصون على تفهم كتاب الله تعالى وتطلب تفسيره ، ولذلك يقول ابن مسعود رضى الله عنه : «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن» .

كان الواحد منهم إذا دخل بيته بادرته زوجه بهذين السؤالين : كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ ؟ . . أما عند خروجه من بيته فكانت توصيه وتقول له : « اتق الله ، ولا تكسب حراما ، فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب جهنم يوم القيامة » .

---

(١) سورة ص آية : ٢٩ .
(٢) سورة الزمر الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٧٧ .

إن هؤلاء النفر ـ الذين تخرجوا فى أعظم مدرسة ، تتلمذوا فيها على يدى الكتاب والسنة ـ كنت تسمع القرآن منهم وله دوى كدوى النحل .. حفظوه فى صدورهم ، وعملوا به فى حياتهم ، وفتحوا به الدنيا ، فدانت لهم ، فلما أهملنا نحن هذا النهج تفرقت كلمتنا ، وأصبحنا مطمع الحاقدين ، وهانت علينا أنفسنا ، فهنّا على الناس .

أخى فى الإسلام : أقبل على القرآن ، وتفهم معانيه ، فليس هناك شك فى أن عدم الوقوف على تفسير القرآن الكريم يجعل الإنسان جاهلا بمقاصد هذا الكتاب الإلهى المجيد .

ومن هنا قال سعيد بن جبير رحمه الله : «من قرأ القرآن ولم يفسره كان كالأعمى أو كالأعرابى» (يقصد البدوى الجاهل الذى لم يتعلم) .

آراء المنصفين من علماء الغرب فى القرآن الكريم :

* قال «جاستون كارمن» من مستشرقى فرنسا المشهورين : «إن القرآن ، وهو منبع هذا الدين العقلى ودستوره ، قد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم .. ففى إمكاننا أن نقول إن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التى نشرها الإسلام» !

* ويقول المؤرخ الإنجليزى «ادوار جيبونة» : «إن موحداً ذا رأس فلسفى ، لا يتردد لحظة فى قبول وجهات نظر الإسلام .. فالإسلام دين أعلى من تطورنا الفكرى اليوم» ! .

* وقال المستشرق «كارلايل» وهو من أساتذة جامعة كمبردج : «إن علوية القرآن فى حقيقته العالية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص ، والدعوة التى بلّغها محمد إلى العالم حق وحقيقة» .

* وقال «ستنفاس» مؤلف قاموس عربى إنجليزى : «القرآن واحد من أهم الكتب التى انتقلت إلى الناس ليستفيدوا منها .. فهو سجل جامع لأسس الأخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية فى حياتهم» .

* ويقول «ديود» مؤلف كتاب (روح الشرق) : «الإسلام يقدم براءة النجاة للتـابعين ، وسجـل أخلاق للمتبوعين ، ويؤيدهما بالدين» .

* وقال المستشرق «سيديو» فى كتابه «تاريخ بلاد العرب» : «القرآن جامـع لكل أسس الأخـلاق والفلسفة .. فالفضيلة والرذيلة والخير والشر ، وماهية الأشياء الحقيقية كلها مبينة فى القرآن .. فقد أوحيت آياته إلى محمد ﷺ بحسب احتياجات الزمان وحوادث العهد» .

* ومن كتاب «حياة محمد» للفيلسوف الفرنسى «الكس لوازون» : «خلف محمد للعالم كتاباً هو آية البلاغة وسجل الأخلاق ، وكتاب مقدس ، وليس بين المسائل العلمية التى كشفت حديثا ، أو المخترعات الحديثة ، مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية .. فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، مع ما نبذله من المساعى للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية» .

* وقال الكاتب الأمريكى «واشنطون إيرفينج» : «يحوى القرآن أسمى الآراء وأنفعها وأكثرها إخلاصا» .

* وعن المستشرق والفليسوف الألمانى «بوجان يعقوب رايس» : «ما إن يتعلم بعض الناس قليلا من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن ، ولو استمعوا إلى قدرة القرآن المثيرة الفصيحة والعظيمة المؤثرة وأحسوا باللسان المحير للألباب ، الذى استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه ، لوقعوا فى الحضرة الإلهية ساجدين صائحين : يا رسول الله أغثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول فى أمتك» .

* ومما قاله «ليون» : «حسب القرآن جلالا ومجدا ، أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه ، لم تستطع أن تجفف ـ ولو بعض الشىء ـ من أسلوبه الذى لا يزال غضا ، كأن عهدها بالوجود أمس» .

* ويقول «جيمى متشيز» فى مقال له : «لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم ، وهو ـ بكل تأكيد ـ أيسرها حفظا ، وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به ، فليس طويلا كالعهد القديم ، وهو مكتوب بأسلوب رفيع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر . ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه ، وتزداد إيمانا وسموا ، وأوزانه ومقاطعه كثيرا ما قورنت بأصداء الطبيعة . . ومن الملاحظ أن القرآن يتسم بطابع عملى يتعلق بالمعاملات بين الناس . وهذا التوفيق بين عبادة الإله الواحد وبين التعاليم العملية ، جعل القرآن كتابا فريدا ، ووحدة متماسكة» ! .

هذا هو القرآن الكريم ، معجزة نبى الإسلام ، وصدق الله العظيم الذى يقول عنه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[١] . ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[٢] .

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[٣] . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[٤] .

كلمة لابد منها :

ونحن بين يدى موضوع هذا الكتاب ، وهو تفسير كلام الله تعالى ، نرى لزاما علينا أن نذكر بحثاً خاصاً بالقرآن العظيم[٥] نقصد من ورائه بسط صورة نسأل الله أن تكون وافية كافية عن هذا الكتاب العظيم . يقول البحث فى تعريفه للقرآن الكريم :

(١) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة النساء آية : ٨٢ .
(٣) سورة الإسراء آية : ٨٨ .
(٤) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٥) هذا البحث لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد أبو شهبة . جاء فى كتاب « مشكلات المجتمع الإسلامى المعاصر » عن مجمع البحوث الإسلامية . شعبان ١٣٩٢هـ سبتمبر ١٩٧٢ م (المؤتمر السابع) .

القرآن الكريم : هو كلام الله عز وجل ، المنزل على خـاتم أنبيائـه ورسله ، محمد ﷺ ، المعجـز بلفظه ، المتعبد بتلاوته المنقول بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، المكتوب فى المصاحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس .

والقرآن الكريم : لفظه ومعناه من عند الله سبحانه وتعالى ، ليس لجبريل ـ عليـه السلام ـ فيـه إلا تبليغه إلى النبى ﷺ ، وليس للنبى ﷺ فيه إلا تبليغه إلى الناس كافة ، وليس للصحابة ومن جاء بعدهم فيه إلا الحفظ والنقل بأمانة ودقة فائقتين من غير تزيّد ولا نقصان ، ولا تغيير ولا تبديل ، حتى وصل إلينا كما أنزله غضاً طريا ، كأن عهده بالنزول أمس .

والقرآن الكريم : هو كتاب الهداية الربانية الكبرى ، أنهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ إليه كل تشريع حكيم ، وناط به سعادتى الدنيا والآخرة ، لأنه التشريع العام الخالد الذى تكفل بجميع ما يحتاج إليه البشر فى أمور دينهم ودنياهم : فى العقائد والأخـلاق ، والعبادات والمعـاملات ، والحـدود والجنائيـات ، وفى الاقتصاد والسياسة والمعاهدات ، والعلاقات الدولية فى السلم والحرب .

وهو فى كل ذلك حكيم كل الحكمة ، لا يعتريه خلل ولا تناقض ، وصدق الله العظيم فى قوله : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[(١)] .

وهو أصيل غاية الأصالة ، وعادل غاية العدالة ، ورحيم غاية الرحمة ، وصادق غـاية الصـدق : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[(٢)] ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خساراً ﴾[(٣)] ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[(٤)] .

فلا عجب أن كان الشفاء الناجع لأمراض القلوب ، وأدواء المجتمعات ، وأن كان أعظم مصلح لأحوال العباد والبلاد ، فاهتدت به القلوب بعد ضلال ، وأبصرت به العيون بعد عمى ، واستنارت به العقول بعد جهالة ، وأشرقت به الدنيا بعد ظلمات ، وصدق الله سبحانه فى قوله : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً إليماً ﴾[(٥)] .

وقوله : ﴿ . . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدى به الله من اتبع رضوانه سبـل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[(٦)] .

---

(١) سورة النساء آية : ٨٢ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١١٥ .
(٣) سورة الإسراء اية : ٨٢ .
(٤) سورة فصلت من الآية ٤١ والآية ٤٢ .
(٥) سورة الإسراء الآيتان : ٩ ، ١٠
(٦) سورة المائدة الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

والقران الكريم : هو المعجزة العظمى ، والحجة البالغة ، والآية الباقية على وجه الدهـر لرسـول البشرية ، ومنقذ الإنسانية : سيدنا محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تحدى به الإنس والجن ، والعرب وغير العرب ، ووقع التحدى به على مرات متعددة ، كى تقوم عليهم الحجة تلو الحجة ، وتنقطع المعذرة .

تحداهم أولاً : أن يأتوا بمثله فعجزوا ، وماقدروا ، قال عز شأنه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[١] . ثم تحداهم ثانياً : أن يأتوا بعشر سور مثله فما استطاعوا ، قال تعالى فى سورة هود المكية : ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾[٢] .

ثم تحداهم مرة ثالثة : بأن يأتوا بسورة منه ، أية سورة مهما قصرت ، كسورة « الكوثر » فما رفعوا بذلك رأساً ، قال تعالى فى سورة يونس المكية : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تـأويله كذلـك كذب الـذين من قبلهم ﴾[٣] .

ثم كرر التحدى بسورة ما ، فى القسم المدنى ، فقال فى سورة البقرة : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[٤] .

فألقموا حجرا ولم ينبسوا فى المعارضة بكلمة !! وبذلك ثبت إعجاز القرآن على أبلغ وجه وآكده ، وإذا ثبت عجز العرب ، ثبت عجز غيرهم بطريق الأولى . على أن القرآن العظيم لا يزال يتحدى بأقصر سورة منه البشر جميعا ، فهل من معارض ؟ ! .

والقرآن : هو كتاب العربية الأكبر ، ورمز وحدة العرب الكبرى ، وجامعتهم العظمى ، به اكتسبت لغة العرب بقاءها وحيويتها ، وبه صار العرب أمة واحدة متآلفة القلوب متجانسة المزاج ، متخذة اللسان ، متشابهة البيان ، ومنه استمد العرب علومهم ومعارفهم ، فما من علم من علومهم إلا وله بالقرآن سبب ، وله منه ورد ومدد .لقد مرت باللغة العربية أحقاب من الإهمال لها واضطهادها بل ومحاولات ظالمة آثمة للقضاء عليها وإماتتها ، ولولا هذا الكتاب العربى المبين ، لاستعجمت لغة العرب ، وأصبحت فى عداد اللغات الميتة ، ولانقطعت الصلة بين علوم السلف والخلف ، بل وبين ماضى الأمة وحاضرها ، وهنالك تكون الطامة الكبرى ، ولما كانت هذه الثروة الطائلة التى تدور حول القرآن ، ولغة القرآن ، وآداب القرآن . وما

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨ .
(٢) سورة هود الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٣) سورة يونس الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .
(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

من عربى ـ أيًا كان دينه ـ إلا وله بهذا الكتاب مفخرة واعتزاز ، وحب ووفاء ، لأنه يخاطب فطرته اللغوية ، ووجدانه الأدبى ، وروحه العربية الصافية الشفافة .

والقرآن : هو الذى فك العقول من عقالها وأطلق النفوس من إسارها ، وأنحى على التقليد والمقلدين بالذم والتوبيخ : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤ هم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾[1] . وقد تكرر هذا المعنى فى غير ما آية (المائدة : ١٠٤) ، (لقمان : ٢١) وهو الكتاب الذى وجه العقول والأنظار إلى النظر فى الأنفس ، وما فيها من عجائب ، وغرائز ، وأسرار : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[2] . وإلى النظر فى الكون : علويه وسفليه ، وظاهره وخفيه ، وما ينطوى عليه من حكم ، وما أودع فيه من خواص وسنن ، وأفاض فى ذلك فى كثير من آياته إفاضة فاقت الحد . قال عز شأنه : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[3] ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[4] . وقد روى أن النبى ﷺ قال لما نزلت : (ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها) إلى غير ذلك من الآيات التى لا يحصيها العدّ .

والقرآن : حينما دعانا إلى النظر فى الأنفس والآيات الكونية ، لم يرد أن نقف عند حد الاعتبار والاتعاظ بالظواهر والصور والأشكال فحسب ، وإنما أراد ـ إلى ذلك ـ استكشاف المستور ، واستكناه الأسرار ، والتقصى عما فى الكون من عجائب وسنن وخواص . ولو أن المسلمين استفادوا بما فى هذا الكتاب العظيم من توجيهات وإرشادات ، لكانوا أسبق الأمم إلى الكشوف العلمية ، والاختراع والإبداع ، ولصاروا سادة الدنيا ، وأضحى بيدهم زمام الأمور ، ولكنهم جمدوا ، ولم يستفيدوا بهدى القرآن وتوجيهاته ، فكانوا على ما ترى !! .

والقرآن : هو الذى قضى على العنجهية ، ودعاوى الجاهلية ، وقضى على التفرقة العنصرية ، والنسبية واللونية ، ووضع أساس المساواة بين الناس قاطبة ، فالناس كلهم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لشريف على وضيع ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، وهو جماع كل هدى وخير وحق ، قال عز شأنه : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[5] .

وهو الكتاب الذى صلحت به الدنيا ، وحول مجرى التاريخ إلى وجهة الهدى والعدل والحق والخير ،

---

(١) سورة البقرة آية : ١٧٠ .
(٢) سورة الذاريات آية : ٢١ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٦٤ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٩١
(٥) سورة الحجرات آية : ١٣ .

وأقام أمة كانت مضرب الأمثال فى الإيمان ، والإخاء ، والعدل والرحمة ، والاتحاد والمحبة ، وصير من أبناء الصحراء ، رعاة الإبل والشاء ، خلفاء عادلين رحماء ، وعلماء حكماء ، وسادة قادة ، فى القيادة والسياسة ، والسلم والحرب ، عقمت الدنيا عن أن تجود بأمثالهم .

وهو الكتاب الذى لا تفنى ذخائره ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق على كثرة التكرار ، كلما كررته لا يزداد إلا حلاوة وطلاوة ، وصدق القائل :

تـزداد منــه عـلى تـرداده ثقـة وكـل قـول عـلى التــرداد مملول

وتلك لعمر الحق : خصيصة من خصائص القرآن ، ومن كان فى شك من هـذا فليستفت الذوق والوجدان ، والقلوب والآذان ، وليوازن فى هذا بين كلام الرحمن ، وكلام الإنسان ، وحينئذ سيتذوق ، ومن ذاق عرف ، ومن عرف اعترف ، ومهما تعاقبت على هذا الكتاب الأجيال ، فلا يزداد إلا جدة وطرافة ، وكلما تقدمت العلوم والمعارف الإنسانية تكشف للنـاس منه العجب العجـاب ، وصدق الحق ــ تبـارك وتعالى ــ حيث يقول : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[١] . بلى وأنا على ذلك من الشاهدين .

وقصارى القول وحماداه : أنك لن تجد فى الكشف عن حقيقة هذا الكتاب العظيم وخفاياه وفضائله ، ومزاياه أوفى ولا أبلغ ولا أروع مما وصفه به سيدنا محمد بن عبد الله حين قال : (ألا إنها ستكون فتنـة ! قلت : وما المخرج منهـا يا رسـول الله ؟ قال : كتـاب الله فيه نبأ من قبلكم وخبر مـا بعدكم ، وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق ــ أى يبلى ــ من كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾[٢] . من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن اهتدى به هدى إلى صراط مستقيم)[٣] رواه الترمذى فى سننه .

إن كتابا هذا بعض شأنه لجدير أن تعرف له الدنيا كلها فضله ومنـزلته ، لا المسلمـون وحدهم ، ولا العرب وحدهم ، لأن أفضاله وبركاته لا على هؤلاء فحسب ، وإنما على البشرية جمعاء .

---

(١) سورة فصلت آية : ٥٣ . (٢) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .

(٣) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

فصل فى جمع القرآن الكريم

جمع القرآن الكريم يطلق ويراد به : الحفظ فى القلوب ، ويطلق ويراد بـه : الكتابـة فى الرقـاع ونحوها ، والصحف والمصاحف ، وقد اجتمع للقرآن الجمعان : الحفظ والكتابة . ولنأخذ فى بيان كـل فنقول وبالله التوفيق :

حفظ النبى ﷺ :

كان أول ما نزل من القرآن على النبى ﷺ آيات من صدر سورة « اقرأ » وهو يتعبد بغار حراء ، وكان ذلك فى رمضان من السنة الأولى للنبوة ، وفى اليوم السابع عشرمنه ، على ما أجمع عليه المحققون من العلماء . ثم فتر الوحى مدة كى يشتاق إليه النبى ﷺ ، ثم نزل . . وكان أول ما نزل بعد ذلك قوله سبحانه : ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر ﴾(١) ، ثم حمى الوحى وتتابع حتى تم نزول القرآن كله قبيل وفاة النبى ﷺ بواحد وعشرين يوما وقيل بأقل من ذلك ، وكان آخر ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾(٢) . وقد روى أن جبريل لما نزل بها قال للنبى ﷺ : « ضعها على رأس مائتين وثمانين آية من سورة البقرة » . وكان النبى ﷺ شديد العناية بحفظ القرآن وتلقفه من جبريل حتى بلغ من شدة عنايته وحرصه على حفظ لفظه ، أنه كان يحرك به لسانه ، ويعالجه أشد المعالجة ، حتى كان يجد من ذلك شدة ، يقصد بذلك استعجال حفظه خشية أن تفلت منه كلمة ، أو يعزب عنه حرف ، حتى طمأنه ربه ، ووعده أن يحفظه له فى صدره ، وأن يقرئه لفظه ، ويفهمه معناه . قال عز شأنه : ﴿لاتحرك به لسانك لتعجل به* إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾(٣) ، أى جمعه لك فى صدرك وإقراءه لك بوساطة أمين الوحى جبريل ، فإذا قرأه جبريل ، فأنصت حتى إذا فرغ فاقرأ عقبه ما سمعت منه . ثم إنا ستتكفل لك ـ أيضا ـ ببيانه ، وتفسير معناه . وهو ضمان من الله ـ عز شأنه ـ بأنه سيحفظه فى صدره ، ولن تفلت منه كلمة أو حرف .

وكان من الدواعى القوية لحفظ النبى ـ صلوات الله وسلامه عليـه ـ القرآن ، وتثبيتـه فى قلبه ، معارضة جبريل ـ عليه السلام ـ إياه بالقرآن فى رمضان من كل عام .

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس ، قال : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة »(٤) . فكان جبريل والنبى يتدارسان القرآن ، ويعارضان

---

(١) سورة المدثر الآيات : ١ - ٥ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٨١ .
(٣) سورة القيامة الآيات : ١٦ - ١٩ .
(٤) صحيح البخارى جـ ١ ص ٥ ط الشعب .

ما نزل منه من رمضان إلى رمضان ، جبريل يقرأ والنبى يسمع ، والنبى يقرأ ، وجبريل يسمع حتى كان العام الذى توفى فيه الرسول ﷺ فعارضه جبريل بالقرآن مرتين ، وقد شهد العرضة الأخيرة أحد كتاب الوحى لرسول الله ﷺ وهو زيد بن ثابت ـ رضى الله تعالى عنه .

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : (دعا النبى ﷺ فاطمة بنته فى شكواه الذى قبض فيها فسارّها بشىء فبكت ثم دعاها فسارّها فضحكت . قالت : فسألتها عن ذلك ، فقالت : سارّنى النبى ﷺ فأخبرنى أنه يقبض فى وجعه الذى توفى فيه فبكيت ثم سارّنى فأخبرنى أنى أول أهل بيته أتبعه فضحكت)(١) .

وكان القرآن شغل النبى الشاغل فى صلاته وتهجده ، وفى سره وعلانيته ، وفى حضره وسفره ، وفى وحدته وبين صحابته ، وفى عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، لا يغيب عن قلبه ، ولا يألو جهدا فى تعهده وتكراره ، والائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه ، والاعتبار بمواعظه وقصصه ، والتأثر بأمثاله وحكمه ، والتأدب بآدابه وأخلاقه ، وتبليغها إلى الناس كافة ، فمن ثم : كان النبى ﷺ مرجع المسلمين فى حفظ القرآن وفهمه ، والوقوف على أسراره ومراميه .

حفظ العدد الكثير من الصحابة للقرآن الكريم ودواعيه :

كان النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا نزلت عليه الآية أو الآيتان أو الخمس أو العشر من الآيات ، أو السورة ، يحفظها ويفقهها ، ويلتزمها عملا وسلوكا ثم يقرؤ ها على أصحابه ، ويحفظهم إياها ، ويفقههم بها ، ويبين لهم طريقة أدائها وآداب تلاوتها ، كى يحفظوا اللفظ ، ويفقهوا المعنى ، ويستقيموا عليها ، ويلتزموها عملا وسلوكا .

وقد أحل الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ القرآن المحل الأول ، وأنزلوه المنزلة اللائقة به ، يتنافسون فى حفظ لفظه ، ويتسابقون فى فهم معناه ، وجعلوه متعبدهم فى ليلهم ، ومسلاتهم فى فراغهم ، وصاحبهم فى أسفارهم ، وأنيسهم فى وحدتهم ، وصديقهم الصدوق فى منشطهم ومكرههم ، ومستشارهم الأمين ، فى شئون دينهم ودنياهم . وما ظنك بكتاب يعتقدون ـ وحق لهم ذلك ـ أن تلاوته عبادة ، والاشتغال به من أعظم القربات إلى الله ، وأن عزهم لن يكون إلا به ، وأن سعادتهم فى الدنيا والآخرة لن تتحقق إلا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، والتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه ، وأن منازلهم فى الدنيا والآخرة على حسب منازلهم فى حفظه وفقهه وتدبره .

لقد كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميرا على قوم يقدم أكثرهم قراءة للقرآن ، وإذا بعث بعثا ، جعل

(١) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٢٦ ط الشعب .

إمامهم فى صلاتهم أكثرهم قراءة فى القرآن ، بل إذا جمع بين اثنين أو أكثر فى قبر لضرورة ، كما حدث فى شهداء أحد ، سأل : « أيهم أكثر أخذا للقرآن ؟ » ، فإذا أشير إليه قدمه فى اللحد .

ومن ثم كانت الدواعى متوافرة على إجادة حفظه وإتقانه ، حتى بلغوا فى ذلك الغاية ، وقد أثنى عليهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ فقال : ﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[1] . وقد وصفهم واصف فقال : كانوا رهبانا بالليل ، فرسانا بالنهار .

وكان اعتمادهم فى الحفظ على التلقى والسماع من النبى ﷺ أو ممن سمعه من النبى من الصحابة ، ولا سيما القارئين المجيدين منهم ، كعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت وأمثالهم ، وما كانوا يعتمدون فى حفظه على النقل من الصحف أو المصاحف بعد كتابتها ، بل كان اعتمادهم على الرواية والأخذ الشفاهى من الشيوخ أو بالعرض والقراءة عليهم ، وهذا هو الغالب من شأنهم ، ولا تزال هذه السنة متبعة عند الحفاظ القراء المجيدين إلى عصرنا هذا ، لتبقى سلسلة الأسناد متصلة بالقرآن الكريم إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين .

الحفظ بالغيب خصيصة للقرآن وللأمة الإسلامية :

ومن خصائص هذا الكتاب الكريم : أن الله عز شأنه كلف الأمة بحفظه كله ، بحيث يحفظه عدد كثير يثبت به التواتر ، وإلا أثمت الأمة كلها ؛ بخلاف التوراة والإنجيل ، فلم تكلف أمتهما بحفظهما ، بل ترك ذلك لاختيار من يريد ، فمن شاء اعتمد على المكتوب فى القراءة ، وهذا الأخير هو الأعم والأغلب من شأن بنى إسرائيل تجاه التوراة وكذلك الإنجيل ولم تتوافر الدواعى لحفظهما كما توافرت للقرآن الكريم ، فمن ثم لم يكن لهما من ثبوت النص القطعى مثل ما للقرآن ، ومن هنا سهل ثبوت التحريف والتبديل فيهما من الأحبار والرهبان والقسيسين ، وذلك يرجع إلى أن الكتب السماوية الأخرى لم تكن معجزة بلفظها ، بخلاف القرآن الكريم ، فقد شاء الله ـ وله الحكمة البالغة ـ أن يكون معجزا بلفظه ، فكان من الضرورى المحافظة على النص بالطرق القطعية ، فتوافرت له من الدواعى إلى ذلك ما لم تتوافر لغيره من الكتب السماوية بله الأرضية .

وأيضا : فالقرآن هو أصل الدين العام الخالد الباقى ما بقى إنسان على وجه الأرض وهو الإسلام ، فكان لابد من المحافظة على كتابه ، ولا كذلك التوراة والإنجيل ، فقد كانا كتابى دينين يمثلان طورين خاصين من أطوار الدين السماوى . عن جابر بن عبد الله قال : (قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصه وبعثت إلى الناس كافة)[1] . رواه البخارى .

(١) سورة الذاريات الآيتان : ١٧ ، ١٨ .
(٢) صحيح البخارى جـ١ ص ١١٩ ط الشعب .

ويدل على أن الاعتماد فى القرآن على الحفظ ، وأن الأمة مكلفة بحفظه ، مارواه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن النبى ﷺ قال : (إن ربى قال لى : قم فى قريش فأنذرهم . قلت : أى ربى إذن يتلفون رأسى ، حتى يدعوه خبزة . فقال : إنى مبتليك ومبتل بك ، ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء ، تقرؤه نائما ويقظان ، فابعث جندا أبعث مثلهم ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك ، وأنفق ينفق عليك)[1] . فقد أخبر سبحانه وتعالى : أن القرآن لا يكتفى فى ثبوته وحفظه بصحيفة تغسل بالماء ، وإنما محله القلوب والصدور ، وذلك بالحفظ عن ظهر قلب ، فإذا انضم إلى الحفظ الكتابة ، فقد ازداد التوثيق والاطمئنان ، كما ورد فى وصف الأمة الإسلامية : « أناجيلهم فى صدورهم » أى كتابهم المقدس المعول عليه فى بقائه ، وسلامته من التحريف والتبديل ــ الحفظ ــ بخلاف أهل الكتاب فإنهم لا يحفظونه إلا من الكتب ، ولا يقرءونه كله إلا نظرا ، لا عن ظهر قلب ، كما هو الشأن فى كثير من المسلمين .

عن سهل بن سعد الساعدى قال : (جاءت امراة إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله جئت أهب لك نفسى . قال : فنظر إليها رسول الله ﷺ فَصعَّد النظر فيها وصوبه ثم طأطأ رسول الله ﷺ رأسه . فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئا جلست ، فقام رجل من أصحابه فقال : يا رسول الله إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها . فقال : وهل عندك من شىء ؟ قال لا والله يا رسول الله . فقال : اذهب إلى أهلك فانظر هل تجد شيئا . فذهب ثم رجع فقال : لا والله ما وجدت شيئا . فقال رسول الله ﷺ : انظر ولو خاتما من حديد . فذهب ثم رجُع فقال : لا والله يا رسول الله ولا خاتما من حديد ، ولكن هذا إزارى . قال سهلٍ : ماله رداء فلها نصفه . فقال رسول الله ﷺ : ما تصنع بإزارك ؟ إن لبِسْتَه لم يكن عليها منه شىء وإن لَبِسَتْه لم يكن عليك شىءٌ . فجلس الرجل حتى إذا طال مجلسه قام فرآه رسول الله ﷺ موليا فأمر به فدعى فلما جاء قال : ماذا مَعَكَ من القرآن ؟ قال : معى سورة كذا وسورة كذا ــ عددها ــ فقال : تقرؤهن عن ظهر قلب ؟ قال : نعم . قال : اذهب فقد زوجتكها بما معك من القرآن)[2] .

فلا عجب والحال كما سمعت أن حفظ القرآن جمّ غفير من الصحابة ، منهم الخلفاء الأربعة : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وأبو هريرة ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وابن عباس ، وابن الزبير وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبوه ، وغيرهم من المهاجرين ، ومن الأنصار : أبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وأبو زيد وغيرهم .

ومهما يكن من شىء ، فقد حفظ القرآن الكثير فى عهد النبى ﷺ منهم من حفظه من أوله إلى آخره ، ومنهم من حفظ معظمه ، ومنهم من حفظ بعضه ، وقد يتفق على حفظ السورة منه المئون أو الآلاف ، وقد يتفق على حفظ السورة الأخرى مثلهم أو أكثر منهم ، وهكذا . فيخلص لنا من هذا : تواتر نص القرآن كله فى جملته وتفصيله ، وليس أدل على هذا من أنه أصيب فى يوم « بئر معونة » سبعون من القراء ، وأنه قتل فى يوم اليمامة ــ وهى بعد الوفاة النبوية ــ نحوا من سبعمائة ، وقيل : خمسمائة من القراء حفظة القرآن .

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن جـ ١ ص ٢٣٥ ط عيسى الحلبى . (٢) صحيح البخارى جـ ٧ ص ٩٨ ط الشعب .

من حفظ القرآن من النساء

وكذلك شارك فى حفظ القرآن النساء الصحابيات ، منهن من كانت تحفظ بعضه ، ومنهن من كانت تحفظه كله .

قال الإمام السيوطى : ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن ، لم يعدها أحد ممن تكلم فى ذلك ، فأخرج ابن سعد فى « الطبقات » قال : أنبأنا الفضل بن دكين ، قال : حدثنا الوليد بن عبد الله بن جميع ، قال : حدثتنى جدتى : عن أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث ، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة ، وكانت قد جمعت القرآن : « أن رسول الله ﷺ حين غزا بدرا قالت له : أتأذن لى فأخرج معك أداوى جرحاكم وأمرض مرضاكم ، لعل الله يهدى لى شهادة ؟ » . قال : (إن الله قد مهد لك شهادة) ، وكان رسول الله ﷺ أمرها أن تؤم أهل دارها ، وكان لها مؤذن ، فغمها غلام لها ، وجارية كانت قد دبرتهما ، فقتلاها فى إمارة عمر ـ رضى الله عنه ـ فقال عمر : صدق رسول الله ﷺ وكان يقول : « انطلقوا بنا نزر الشهيدة » . فأكرم بها من مسلمة حافظة حتى استحقت أن تؤم أهل دارها .

إزالة شبهة فى هذا المقام :

ولكن قد يشكل على ما ذكرنا ما رواه الإمام البخارى فى صحيحه ، عن أنس بن مالك قال : « مات النبى ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة : أبو الدرداء ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد » ، وقد روى ابن أبى داود بإسناد صحيح ، على شرط البخارى عن أنس : « أن أبا زيد الذى جمع القرآن اسمه : « قيس بن السكن » قال (أى أنس) : وكان رجلا مسنا من بنى عدى بن النجار ، أحد عمومتى ، ومات ، ولم يدع عقبا ونحن ورثناه)[(١)] .

وفى الحق : أن هذا الإشكال ، لا يتجه إلا إذا كان أنس ـ رضى الله عنه ـ أراد الحصر بالنسبة إلى جميع الصحابة ، وهذا لا يتم إلا إذا كان أنس لقى كل الصحابة وسألهم واحدا واحدا عن ذلك ، حتى يتم له الاستقراء ، وهذا أمر مستبعد عادة ، وإنما المراد : إثبات ذلك للخزرج دون الأوس ، فلا ينفى حفظ كثير له من غير القبيلتين من المهاجرين ، قد قال ذلك فى معرض المفاخرة بين الأوس والخزرج ، كما أخرجه ابن جرير بسنده عن أنس قال : « افتخر الحيان : الأوس والخزرج ، فقال الأوس : منا أربعة : من اهتز له العرش : سعد بن معاذ ، ومن عدلت شهادته شهادة رجلين : خزيمة بن ثابت ، ومن غسلته الملائكة : حنظلة بن أبى عامر ، ومن حمته الدبر : عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح . فقال الخزرج : منا أربعة جمعوا القرآن لم يجمعه غيرهم فذكرهم » . ويؤيد أن مراده هذا : أن الذين حفظوا القرآن على عهد الرسول

(١) مناهل العرفان فى علوم القرآن للأستاذ/محمد عبد العظيم الزرقانى ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، ط عيسى البابى الحلبى .

كثير غير هؤلاء الأربعة منهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب ، وعبد الله بن عمرو وغيرهم ممن استفاضت الرواية فى إثبات حفظهم للقرآن .

ومما لا ينبغى أن يرتاب فيه : أن الصدّيق رضى الله عنه كان يحفظ القرآن كله فى حياة الرسول لكثرة ملازمته له وحرصه على تلقف ما ينزل من القرآن ، وقد ثبت فى الصحيح ، وفى كتب المغازى : أنه بنى له مسجدا ـ وهو فى مكة ـ فى فناء داره فكان يقرأ القرآن فيه ، حتى لقد خاف المشركون على نسائهم وأبنائهم وبناتهم أن يفتنوا بقراءته ، ويسلموا ، فقد كان بكاءً بالقرآن ولقراءته من التأثير فى نفس السامع ما يفوق السحر .

وأيضا فقد سأل أنسا قتادة عمن جمع القرآن على عهد النبى ﷺ فقال : « أربعة كلهم من الأنصار : أبى بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو زيد ، قلت : من أبو زيد ؟ قال : أحد عمومتى » رواه البخارى(١) .

فها أنت ترى أنه قيدّ ذلك بالأنصار ، فلا ينافى أن جملة المهاجرين كانوا يحفظونه ولا سيما أهل الصفة ، الذين كانوا منقطعين لتلاوة القرآن ، وتلبية نداء الجهاد ، كما أنه ذكر فى الرواية الثانية : أبى بن كعب بدل أبى الدرداء ، مما يدل دلالة أكيدة أنه لم يرد الحصر الكلى الحقيقى ، وإلا فغير معقول أن يناقض نفسه بنفسه . فالحديث الآخر يدل على أنه كان هناك من الأنصار من يحفظه غيرهم ، ولكن هؤلاء الأربعة أشهر من غيرهم . على أن هذا الحديث وأمثاله ، قد تحيط به ظروف وملابسات توضح ما يراد به ، ولكن الراوى أغفلها نسيانا أو إيجازا واقتصارا فمن ثم أشكل على البعض .

قال بعض العلماء : لعل مراد أنس أن هؤلاء الأربعة هم الذين أخذوا القرآن عن الرسول مباشرة ، أما غيرهم : فأخذ بعضه بالتلقين ، وبعضه بالواسطة . وقال آخرون : إن المراد بالجمع الكتابة . وإن المراد أنهم فضلا عن حفظ لفظه كتبوه من أوله إلى آخره ، أما غيرهم فقد كتب بعضه ، وترك بعضه .

وسواء أكان الحق فى تأويل الحديث هذا أم ذاك ، فالأئمة جميعا على أن الحديث لا يراد به ظاهره ، وأن الذين حفظوا القرآن من الصحابة هم كثير ، وهو ما هدانا إليه الدليل ، والبحث العلمى النزيه .

حفظ القرآن بعد عصر الرسول ﷺ :

وأما بعد وفاة الرسول ﷺ : فقد أتم حفظه الألوف من الصحابة ، وعن الصحابة أخذه وحفظه ألوف الألوف من التابعين ، وعن التابعين : أخذه وحفظه عشرات ألوف الألوف من تابعى التابعين ، وهكذا دواليك . تلقاه جيل بعد جيل بالحفظ والعناية والرعاية ، حتى أصبح حفظة القرآن وحملته لا يحصون ،

(١) المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٣٦ .

وحتى وصل إلينا القرآن الكريم من غير زيادة ولا نقصان ولا تحريف ولا تبديل ، فكان تصديقا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(١) . وسيبقى هكذا ما بقى مسلم على وجه الأرض .

توثيق حفظ النص بالكتابة

كتابة القرآن فى عهد النبى ﷺ :

لم يكتف النبى ﷺ بحفظ القرآن وإقرائه لأصحابه وحفظهم له ، بل جمع إلى ذلك كتابته وتقييده فى الرقاع ونحوها . وكان للنبى كتاب يكتبون الوحى ، منهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وأبان وخالد ابنا سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، وزيد بن ثابت ، وأبى بن كعب وغيرهم . فكان إذا نزل على النبى ﷺ شىء من القرآن ، دعا بعض من كان يكتب ، فيأمره بكتابة مانزل ، وإرشاده إلى موضعه ، وكيفية كتابته على حسب ما كان يرشد إليه أمين الوحى ـ جبريل ـ عليه السلام .

روى أصحاب السنن الثلاثة ، وصححه ابن حيان والحاكم ، من حديث عبد الله بن عباس عن عثمان ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الشىء يدعو بعض من يكتب عنده ، فيقول : ضعوا هذا فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا)(٢) .

وعن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع »(٣) . قال البيهقى : يشبه أن يكون المراد تأليف مانزل من الآيات المفرقة فى سورها وجمعها بإشارة النبى ﷺ ، ولم يكن الورق ميسرا فى ذلك الوقت ، فلذلك كانوا يكتبونه حسب ما يتيسر لهم فى الرقاع والعسب ، والأكتاف والحجارة والأخشاب ونحوها ، وقد كتب القرآن كله بين يدى النبى ﷺ على هذا النحو ، وكان مكتوبا بالأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .

كتابة الصحابة للقرآن :

وأما الصحابة ، فكان بعضهم لا يكتب القرآن اعتمادا على الحافظة وقوة الذاكرة ، كما هو شأن العرب فى حفظ شعرهم ونثرهم وأنسابهم ، وكان بعضهم يكتب على هذا النحو أيضا ، وذلك لما فهموه من الإذن لهم فى الكتابة من قوله ﷺ : (لا تكتبوا عنى غير القرآن ، ومن كتب غير القرآن فليمحه) . رواه مسلم فى صحيحه .

وكان بعض الصحابة لا يقتصرون فيما يكتبون على ما ثبت بالتواتر ، بل كانوا يكتبون بعض

(١) سورة الحجر آية : ٩ .
(٢) مناهل العرفان فى علوم القرآن للأستاذ/محمد عبد العظيم الزرقانى جـ١ ص ٢٤٠ ط عيسى البابى الحلبى .
(٣) المرجع السابق .

المنسوخ ، وبعض تفسيرات وتأويلات لمعانيه ، وذلـك كما فعـل ابن مسعود وأبى بن كعب وابن عبـاس وغيرهم .

والخلاصة : أن النبى ﷺ لم يجاوز إلى الرفيق الأعلى إلا والقرآن كله مكتوب ومحفوظ ، وأن بعض الصحابة كان يكتب لنفسه أيضاً ، إلا أن المعول عليه فى القرآن هى النسخة المحررة التى كتبت بين يديه ، وبإرشاده ﷺ ، والتى حازت أعلى درجات الثقة والاطمئنان .

حكمة الكتابة :

والسبب الباعث على كتابته فى عهد النبى ﷺ :

١ ــ معاضدة المكتوب للمحفوظ ، ليتوفر للقرآن كل عوامل الحفظ والبقاء ، ولذا كان المعول عليه عند الجمع فى الصحف أو المصاحف الأمرين : الحفظ والكتابة .

٢ ــ تبليغ الوحى على الوجه الأكمل ، وأن الاعتماد على الحفظ فحسب غير كاف ، لأن الحفظ عرضة للنسيان أو الموت ، أما الكتابة فباقية .

لِمَ لَمْ يكتب القرآن فى مكان واحد ؟

لم يكتب النبى ﷺ القرآن على غير هذا النحو من التفريق لما يأتى :

١ ــ أن القرآن لم ينزل كله مرة واحدة ، بل نزل منجما مفرقا ، فمن ثم كان كلما نزل منه شىء كتب فى رقعة ، أو قطعة من حجر ، أو خشب ، أو عظم .

٢ ــ ترتيب آيات القرآن وسوره على ما هو عليه فى المصاحف ، لم يكن على حسب النزول ، بل كان على حسب تناسب الآى ، وترابطها البلاغى ، وعلى حسب ما يـدعو إليـه الإعجاز ، وقـد تنزل الآيـة أو السورة بعد الآية أو السورة ، وتكون فى ترتيب الحفظ والكتابة قبلها . وقد ذكر السيوطى فى الإتقان عن محمد بن سيرين : أنه سأل عكرمة عن تأليف القرآن : ألفوه كما أنزل الأول فالأول ؟ فقال : « لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه هذا التأليف ما استطاعوا » ولن يستطيع أحد ذلك ، وإن زعم بعض الأفاكين .

ومن ثم نجد أن كتابته فى موضع واحد متعذرة ، إن لم تكن مستحيلة ، فى كتاب نزل مفرقا فى بضع وعشرين سنة ، فلما انقضى الوحى ، وتم بوفاة النبى ﷺ وأمن النسخ ، وعرف الترتيب ، ألهم الله الخلفاء الراشدين المهديين ، فقاموا بجمع القرآن فى الصحف ، كما حدث فى عهد الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ وفى المصاحف ، كما حدث فى عهد عثمان ـ رضى الله عنه .

كتابة القرآن فى عهد الصديق أبى بكر

« رضى الله عنه »

لما تولى الصديق أبو بكر الخلافة ، كان أول عمل قام به محاربة أهل الردة ، والقضاء على هذه الفتنة ، وبذلك : أقام عمود الإسلام ، وثبت دعـائمه بعد أن كادت تتقوض . ولما وقعت موقعة اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة ، استحرّ القتل فى الصحابة ، ومات من حفّاظ القـرآن خلق كثير ، قيـل خمسمائـة وقيل سبعمائة ، فخشى الفاروق عمر ـ رضى الله عنه ـ الذى جعل الله الحق على لسانه وقلبه ، أن يكثر القتل فى القراء فى بقية المواطن ، وربما يكون عندهم شىء من القرآن فيضيع بموتهم ، فأشار على سيدنا أبى بكر بأن يجمع القرآن فى موضع واحد ، وصحف مجموعة بدل وجوده مفرقا ، فتردد الصديق أول الأمر ، ولكن لا يزال به الفاروق حتى وافق ، وثبت عنده أن الجمع ليس من المبتدعات المذمومة ، وإنما هو من الواجبات التى تدعو إليها قواعد الدين والشريعة ، فأرسلا إلى زيد بن ثابت ، كاتب الوحى ، وعرضا عليه الأمر ، فراجعهما ، ولكنهما لا يزالان به حتى ظهر له الحق ، واستبان له الرشد ، فجمعه بعد جهد جهيد ، وإليك ما رَواه الثقات العدول فى هذا :

روى الإمام البخارى فى صحيحه بسنده ، عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلىَّ أبو بكر ، بعد مقتل أهل اليمامة ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر بن الخطاب أتانى فقال : إن القتل استحرّ بقراء القرآن ، وإنى أخشى أن يستحر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن يجمع القرآن . فقلت لعمر : كيف تفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : هو والله خير . فما يزال يراجعنى حتى شرح الله صدرى لذلك ، ورأيت فى ذلك الذى رأى عمر . قال زيد قال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ، ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قالا : هو ــ والله ــ خير . فما يزال أبو بكر يراجعنى ، حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فتتبعت القـرآن أجمعه من العسب واللخـاف ، وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ، لم أجدها مع غيره : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم . . . ﴾ إلى آخر السورة . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر فى حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر »(١) .

وقد أخرج ابن أبى داود من طريق هشام بن عروة عن أبيه ، أن أبا بكر قال لعمر ولزيد : « اقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شىء من كتاب الله فاكتباه » . وقد اختلف فى المراد بالشاهدين ،

(١) صحيح البخارى جـ ٦ ص ٨٩ ط الشعب .

فقال الحافظ ابن حجر : المراد من الشاهدين الحفظ والكتابة ، وقال السخاوى : المراد بالشاهدين : أنهما يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدى رسول الله ﷺ . وكان غرضهم ألا يكتب القرآن إلا من عين ما كتب بين يدى رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ . والقول أنهم لعلهم راعوا فى الجمع الأمرين معا : الحفظ والكتابة ، والشهادة ، على أن المكتوب كتب بين يدى النبى وبعلمه وإرشاده .

ومن هذه النقول الصحيحة يتبين لنا جليا : أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد بالغوا فى التوثيق فى كتابة القرآن ، فلم يقبلوه إلا من المصدرين معا ، وهما : الحفظ والكتابة وبعد توثيق ذلك بالشهادة .

إزالة شبهة فى هذا المقام :

ولا يشكلن عليك أيها القارىء قول زيد فى الآيتين من آخر سورة التوبة : لم أجدهما إلا مع أبى خزيمة الأنصارى ، لأن مراده : أنه لم يجدهما مكتوبتين إلا عنده ، وليس المراد أنه لم يحفظهما غيره ، بل كان يحفظهما كثيراً ويتلونهما فى الصلاة ، ومنهم زيد بن ثابت نفسه .

وبذلك يتبين لنا : أن لا حجة لمن يطعن فى تواتر بعض آيات القرآن بهذه الرواية وما شابهها من المستشرقين والمبشرين وأضرابهم ، لأن الحق هو ما ذكرناه فى بيانها . فشد عليه يديك ، ولا تلق بالا لترهات الحاقدين المتعصبين على القرآن والسنة .

مميزات الكتابة فى عهد الصديق :

١ ـ أنه اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته ، وجرد منها كل ما ليس بقرآن .
٢ ـ أنه لم يقبل فيها إلا ما أجمع الجميع على أنه قرآن وتواترت روايته .
٣ ـ أنه كان مكتوبا بجميع الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن .
٤ ـ أنه كان مرتب الآيات على الوضع الذى نقرؤه اليوم ، والذى هو فى المصاحف اليوم .

النسخة الأصلية الرسمية الموثوق بها :

ومما ينبغى أن يعلم أن الجمع بهذه الدقة الفائقة ، والتثبت البالغ ، والاشتمال على هذه المميزات ، لم تكن لغير صحف أبى بكر ــ رضى الله عنه ــ فهى النسخة الأصلية الموثوق بها ، أو بمعنى آخر : النسخة الرسمية التى عليها المعول عند الاختلاف .

نعم قد كانت هناك صحف ، ومصاحف لبعض الصحابة ، كتبوا فيها القرآن لأنفسهم ، إلا أنها لم تحظ بما حظيت به صحف الصديق ، فبعض الصحابة كان يكتب المنسوخ ، وما ثبت برواية الآحاد ، وبعض تفسيرات وتأويلات لآية ، بل بعض أدعية ومأثورات ، ولم يلتزم بما هو قرآن فقط ، فجاء بعض من لم يعرف الحقيقة فاعترض على القرآن المتواتر الموثوق به ، ببعض ما يوجد فى هذه المصاحف ، واتخذ من ذلك ذريعة للطعن فى القرآن العظيم ، والأمر فيها ما علمت .

كتابة القرآن فى عهد سيدنا عثمان

« رضى الله عنه »

لماكان عهد عثمان ــ رضى الله عنه ــ وتفرق الصحابة فى البلدان ، وحمل كل منهم من حروف القرآن وقراءاته ما سمعه من رسول الله ﷺ ، وقد يكون عند أحدهم منها ما ليس عند الآخر ، إذ ليس بلازم أن يسمع كل صحابى من النبى جميع الحروف ، ولا جميع القراءات . اختلف الناس فى القراءات ، وصار كل قارىء ينتصر لقراءته ، ويخطىء غيره . وعظم الأمر واشتد الخلاف ، فأفزع ذلك عثمان ــ رضى الله عنه ــ وخشى عواقب هذا الاختلاف السيئة فى التقليل من الثقة بالقرآن الكريم ، وقراءاته الثابتة ، وفى فصم عروة المسلمين ووحدتهم الكبرى . أخرج ابن أبى داود فى كتاب « المصاحف » من طريق أبى قلابة قال : لما كان عثمان ، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل ، والمعلم يعلم قراءة الرجل ، فجعل الغلمان يلتقون ، فيختلفون ، حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، حتى كفر بعضهم بعضا ، فبلغ ذلك عثمان ، فقال : « أنتم عندى تختلفون ، فمن نأى عنى من الأمصار أشد اختلافا » . وقد تحقق ظنه لما جاء حذيفة بن اليمان ــ رضى الله عنه ــ وأخبره بما جرى بين أهل الشام والعراق من الاختلاف فى القراءة ، فى غزوة أرمينية ، فهاله الأمر وتشاور هو والصحابة فيما يفعلون ، فرأى ورأوا معه : أن يجمع الناس على مصحف واحد ، لا يتأتى فيه اختلاف ولا تنازع . فأرسل إلى حفصة ــ رضى الله عنها ــ أن أرسلى إلينا بالصحف ، يعنى التى كتبت فى عهد الصديق أبى بكر ، ثم انتقلت بعد موته إلى الفاروق عمر ، ثم بعده إلى ابنته حفصة بوصية منه ، لتكون أساسا لكتابة القرآن فى المصاحف ، كتابة تذهب بالاختلاف والتنازع بين الأمة فى قراءة القرآن . ثم عهد إلى زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، أن ينسخوا الصحف فى المصاحف ، وقال للرهط القرشيين : « إذا اختلفتم أنتم وزيد ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنما نزل بلسانهم » . فقاموا بمهمتهم خير قيام ، وكتبوا المصاحف مرتبة السور على الوجه المعروف اليوم ، فلما انتهوا أرسل عثمان ــ رضى الله عنه ــ إلى كل مصر من الأمصار المشهورة بمصحف ، ليجتمع الناس فى القراءة عليه ، وأمر بما سواها من المصاحف الخاصة ، التى كانت عند بعض الصحابة أن يحرق ، وبذلك وفق الله عثمان والصحابة إلى هذا العمل الجليل ، ثم رد الصحف إلى السيدة حفصة أم المؤمنين ، فبقيت عندها إلى أن توفيت ــ رضى الله عنها ــ فأرسل مروان بن محمد إلى أخيها عبد الله بن عمر عقب انصرافه من جنازتها ، أن يرسل إليه هذه الصحف ، فأرسلها إليه ، فأمر بها مروان فشققت ثم حرقت ، وقال : إنما فعلت هذا لأنى خشيت إن طال بالناس زمان أن يرتاب فى شأن هذه الصحف مرتاب .

وقد اتخذ بعض المغرضين من أمر سيدنا عثمان بتحريق ما عدا المصاحف التى كتبها ووجه بها إلى الأمصار الإسلامية ذريعة للطعن فيه ، مع أنه ــ رضى الله عنه ــ ما فعل هذا إلا بموافقة من الصحابة .

ذكر أبو بكر الأنبارى عن سويد بن غفلة قال : سمعت على بن أبى طالب يقول : « يا معشر الناس اتقوا الله ، وإياكم والغلو فى عثمان ، وقولكم حراق المصاحف ، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ منا أصحاب محمد ﷺ » .

وروى أيضا عن على — رضى الله عنه — أنه قال : « لو كنت الوالى وقت عثمان ، لفعلت فى المصاحف مثل الذى فعل عثمان » .

وأخرج ابن أبى داود بسند صحيح ، الأثر الذى رواه سويد بن غفلة ، عن سيدنا على ، وفى آخره قال عثمان : « ما تقولون ؟ فقد بلغنى أن بعضهم يقول إن قراءتى خير من قراءتك وهذا يكاد يكون كفرا . قلنا — أى الصحابة — ما ترى ؟ قال : أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد ، فلا يكون فرقة ، ولا اختلاف ، قلنا فنعم ما رأيت » .

وقد وفق الله — سبحانه — سيدنا عثمان والصحابة لهذا العمل الجليل ، الذى رفع الاختلاف وجمع الكلمة وحفظ للقرآن قدسيته وحرمته ، فرضى الله عنهم أجمعين وأرضاهم .

مميزات الكتابة فى المصاحف فى عهد عثمان رضى الله عنه :

١ - الاقتصار بها على حرف واحد من الأحرف السبعة التى نزل بها القرآن ، وهو حرف قريش .
٢ - الاقتصار فيها على ما ثبت بالتواتر المفيد للقطع واليقين ، وما استقر عليه الأمر فى العرضة الأخيرة التى حضرها زيد .
٣ - ترتيب آياته وسوره على الوضع الذى عليه المصاحف اليوم .
٤ - تجريده من النقط والشكل ومن كل ما ليس بقرآن ، بخلاف ما كان مكتوبا عند بعض الصحابة ، فقد كان فيه بعض تفسيرات وتأويلات .

« والخلاصة » : أن القرآن العظيم قد توافرت له من دواعى الحفظ والعناية والنقل المتواتر ، والمفيد للقطع واليقين ، ما لم يتوافر لغيره من كتاب ما . وصدق الله العظيم : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

فصل فى أن القرآن الكريم كتاب معجز

﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[2] .

(١) سورة الحجر آية : ٩ .
(٢) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

القرآن الكريم هو ذلك الكلام العربى المنزل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا بطريق التواتر المتحدى بلفظه ، بأقصر سورة من سوره ، المتعبد بتلاوته ، الذى بدأ بالفاتحة وختم بالمعوذتين . إنه كتاب معجز وفى إعجازه إثبات لنبوة سيدنا محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾(١) . فتأمل معى كيف كان التحدى لهؤلاء المكذبين ولو بسورة ، وكيف بلغ التحدى أقصاه عندما دعاهم إلى اختيار لجنة التحكيم ممن يرضونهم هم ، ولم يجعل لجنة التحكيم من الملائكة ، والصحابة حتى لا يقول قائل : إنها لجنة متحيزة لمن أنزل القرآن عليه . ثم قف معى متأملا كيف يثبت الله عجزهم سلفا ليكون فى ذلك دليل صدق وشاهد حق على صدق الدعوة ، فيقول البارى تبارك وتعالى : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾(٢) .

فانظر إلى قوله جل شأن ﴿ ولن تفعلوا ﴾ . لن هنا حرف يفيد تأبيد النفى ، وفى هذا التعبير قطع وإبطال لكل دعوى يحاول أصحابها أن يقتحموا على القرآن الكريم أسواره المنيعة . ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم مَن دون الله إن كنتم صادقين ﴾(٣) . وهنا يزداد أسلوب التحدى . فهناك كان تعبير الآية ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ وهنا ﴿ وادعوا من استطعتم ﴾ . إنه منتهى التعجيز ، فعلى قدر ما تستطيعون ادعوا من أهل الأرض من شئتم . وبعد ذلك يعقب سبحانه قائلا : ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾(٤) .

كفى القرآن جلالا وعظمة أن أربعة عشر قرنا من الزمان مرت به ، لم تستطع أن تصيب أسلوبه بأى جفاف ، بل ظل أسلوبه غضا نديا ، يتقاطر نورا ورحمة كأن عهده بالحياة أمس . وقد عبر الرسول ﷺ عن هذا المعنى فى قوله عن القرآن : (لا تنقضى عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد) ، وذلك فى حديث جامع أجاب به الرسول عن سؤال على عندما قال : (ستكون فتن . فقال على : ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : عليكم بكتاب الرب تبارك وتعالى فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم . هو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى . وهو حبل الله المتين ونوره المبين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الهادى إلى الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ولا تمله الأتقياء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يبلى ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ﴾ . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم)(٥) . ثم اسمع معى إلى شهادة ذلك المستشرق الفرنسى الدكتور (موريس) : « إنه ندوة علمية للعلماء ، ومعجم لغة للغويين ، ومعلم نحو لمن أراد تقويم لسانه ، ودائرة معارف للشرائع

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٤ .
(٣) سورة يونس آية : ٣٨ .
(٤) سورة يونس آية : ٣٩ .
(٥) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين على الهندى جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

والقوانين ، وكل كتاب سماوى جاء قبله لا يساوى أدنى سورة من سوره فى حسن المعانى وانسجام الألفاظ . ومن أجل ذلك نرى رجال الطبقة الراقية فى الأمة الإسلامية يزدادون تمسكا بهذا الكتاب ، واقتباسا لآية يزينون بها كلامهم ويبنون عليها آراءهم ، كلما ازدادوا رفعة فى القدر ونباهة فى الفكر » .

قال الوليد بن المغيرة لقومه بعدما سألوه عن مبعوث العناية الإلهية : لقد سمعت من محمد كلاما (يعنى به القرآن) ما سمعت مثله قط : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه . أما الفاروق عمر فقد قال كلاما يكتب بمداد الذهب على صفحات النور ، وكان الفرق بينه وبين الوليد شاسعاً كأن بينهما بعد المشرقين ، فالوليد قال كلمة حق بلسانه ولكن الكبر والعناد والصولة والصولجان ، حال ذلك كله دون أن ينطق كلمة التوحيد مقرّا بها قلبه كما قـال تعالى : ﴿ وجحـدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾[١] . أما عمر فقد نطق بها لسانه مطمئنا بها قلبه ، وما استطاع الكبر أن يتسرب إلى حصون نفسه المكينة . قال عمر : أول ما دخل الإسلام فى قلبى كنت أمشى ذات ليلة فسمعت رسول الله ﷺ يقرأ من سورة الحاقة ، قلت : إن هذا الكلام كلام شاعر ، فسمعته يقرأ من آخرها : ﴿وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾[٢] قلت : إن هذا الكلام كلام كاهن ، فسمعته يقرأ : ﴿ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾[٣] قلت : لعله يكون كلام محمد ، فسمعته يقرأ : ﴿ تنزيل من رب العالمين * ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾[٤] ، ثم توالت الآيات على قلب عمر الـذى كان جبارا فى الجاهلية فأضحى عملاقا للإسلام . يراه أحد المشركين يمشى كعادته فى عزة وصلف وكبرياء ، فيسأله : إلى أين يا عمر ؟ فيقول له : لقد عزمت على قتل محمد . يقول هذا فى الوقت الذى يرفع الرسول وجهه إلى السماء يدعو الله : اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين . فانظر معى : « أريد حياتـه ويريـد قتلى » هـذا ينوى قتـل الصادق المعصوم ليدخل التاريخ من هذا الباب ليكون بابا عبوسا قمطريرا ، وليصبح شره مستطيرا ؟ وصاحب القلب الرحيم يدعو الله بالهداية ، ويقول المشرك لعمر : أتقتل محمدا وكتابه يتلى فى بيتك . ويسرع عمر مهرولا وكأنه نزلت به قاصمة ويطرق الباب بعنف ، وكان فى البيت أخته فاطمة وزوجها سعيد بن زيد (أحد العشرة المبشرين بالجنة) وأستاذهما خباب بن الأرت يقرئهما القرآن الكريم . وفى ثورة غضب يضـرب عمر أختـه فيشج رأسها . وبعد حوار محتدم ، وأمر بالاغتسال تناوله الصحيفة ليقرأ ما بهـا فإذا بهـا : ﴿ بسم الله الرحمن الـرحيم * طه مـا أنزلنـا عليك القـرآن لتشقى . . . ﴾ إلى قولـه تعالى ﴿ الله لا إلـه إلا هو لـه الأسماء الحسنى ﴾[٥] . وتتمثل الآيات أمام عمر وكأنها ملائكة حملته على أجنحتها النورانية إلى السماوات العلى . لقد زالت الحجب ، وانقشعت السحب ، وبرح الخفاء ، ونجع الدواء ، وذهب الداء ، وزالت السكرة

(١) سورة النمل آية : ١٤ .
(٢) سورة الحاقة آية : ٤١ .
(٣) سورة الحاقة آية : ٤٢ .
(٤) سورة الحاقة الآيات : ٤٣ - ٥٢ .
(٥) سورة طه الآيات : ١ - ٨ .

وحلت الفكرة وسطعت شمس الحقيقة ، وسُلّ سيف الفجر من غمد الظلام ، وتعرى الليـل من ثوب الغلس . لقد أضاءت مصابيح الآيات فى قلب عمر ، وهكذا القرآن : بصر علوى وبصيرة نافذة . فمن قرأ القرآن وبين لسانه وقلبه حجاب ، أو سمعه وبين الأذن والقلب سور له باب ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

إذن فالقرآن يُقرأ ، والقلب مفتوح والصدر منشرح . وهكذا دخل الإسلام قلب عمر ، فما أحوج الأمة إلى إسلام كإسلام عمر ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾[1] . قال جل شأنه : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾[2]. صدقت يا ربنا ، يا منزل الكتاب ، يا من أخبرت عنه بقولك : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[3] .

لقد بلغ من إعجاز القرآن وحلاوته وطلاوته أن كبراء المشركين ، وأشد الرءوس عنادا وجمودا ، كانوا يذهبون متسللين بالليل ليستمعوا إلى القرآن من رسول الله خفية . يذهب أبو جهل فيظن نفسه يسمع وحده ، وإذا بأبى سفيان يقبل عليه فيسأله : ما أتى بك إلى هنا يا أبا الحكم ؟ فيقول له : جئت لأستمع إلى القرآن . فما الذى أتى بك يا أبا حنظلة ؟ فيقول أبو سفيان : نفس الذى أتى بك . وإذا بالأخنس بن شريق يقبل عليهما ، ويدور نفس الحوار ، وينصرفون بعد أن يستمعوا ، وقد تعاهدوا فيما بينهم ألا يعودوا بعد ذلك خشية أن يحول القرآن قلوبهم إلى دين محمد ، ثم يعود كل منهم على انفراد فى الليلة التى تلى ليلتهم هذه ويظن أن رفاقه لن يأتوا بناء على ما تعاهدوا عليه ، ولكنه يفاجأ بهم وقد جلسوا بجانبه يستمعون إلى ما يستمع .

نعم إن هذا القرآن شجرة طيبة مباركة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . إن الكون قرآن صامت وإن القرآن كون ناطق ، وإن صاحب الرسالة كان قرآنا يمشى بين الناس ، وإن إعجاز الله فى خلقه كإعجازه فى كلمته . فخلقه معجزه ، وكلماته معجزة ، خلق الإنسان من تراب ، أو من سلالة من طين ، وما أكثر التراب وما أكثر الطين ، ولكن هل يستطيع أحد مهما أوتى من قوة وعلم وعبقرية أن يخلق من التراب إنسانا ، أو يصنع من الطين بشرا سويا ؟ . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[4] .

هذه آية أنتجت خمس نتائج جاءت عقبها : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[5] .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٩ .
(٢) سورة الإسراء الآيات : ١٠٧ ــ ١٠٩ .
(٣) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٤) سورة الحج آية : ٥ .
(٥) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧ .

بل إن الله تعالى تحدى الدنيا كلها فى أن يخلقوا ذبابا فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[١] .

هذا إعجاز الله للخلق فى آياته الكونية ، يقال هذا أيضا فى إعجاز الله للخلق فى آياته التنزيلية . فبعد عشر سور من القرآن يقول تعالى فى أول سورة هود : ﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ . ثم تنتقل بنا الآيات إلى موقف التحدى فيقول تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[٢] . ثم تأتى النتيجة بعد الحكم : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[٣] . وليس الاستفهام فى هذه الآية على حقيقته بمعنى طلب الفهم ، إنما خرج عن حقيقته إلى معنى بلاغى هو الأمر ، فيكون المعنى فى قوله تعالى ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ أسلموا . لذا يقول من تلا هذه الآية : (أسلمنا والحمد لله) ، كما فى قوله تعالى فى آية الخمر والميسر ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾[٤] أى « انتهوا » يقول التالى : « انتهينا يارب » .

فكما تحدى الله البشرية بكلماته الكونية تحداهم بكلامه القرآنى الأزلى القديم ، وكما أوجد المادة الخام التى أوجد منها الإنسان مثلا ، وهى العناصر المبثوثة فى تراب الأرض ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[٥] أوجد كذلك المادة التى ركب منها كلامه القديم . وأشار إلى ذلك فى فواتح عدة من السور . ففتح بعضها بحرف واحد مثل : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾[٦] ومثل : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾[٧] . وفتح بعضها بحرفين مثل : ﴿ حم * والكتاب المبين ﴾[٨] ومثل : ﴿ طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾[٩] . وفتح بعضها بثلاثة حروف مثل : ﴿ الر تلك آيات الكتاب المبين ﴾[١٠] ومثل : ﴿ طسم * تلك آيات الكتاب المبين ﴾[١١] . وفتح بعضها بأربعة أحرف مثل : ﴿ المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾[١٢] . وفتح بعضها بخمسة أحرف مثل : ﴿ كهيعص * ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾[١٣] .

وأنت أيها القارىء تستطيع أن تلمح بيسير من الفكر أن الله تعالى ذكر عقب هذه الحروف القرآن الكريم ليكون فى ذلك إشارة واضحة إلى أن هذا الكتاب الكريم قد نزل بأحرف عربية . وأنتم يا أرباب الفصاحة وأساطين اللغة تنطقون بهذه الحروف نطقا عربيا سليما ، فإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا

---

(١) سورة الحج آية : ٧٣ .
(٢) سورة هود آية : ١٣ .
(٣) سورة هود آية : ١٤ .
(٤) سورة المائدة آية : ٩١ .
(٥) سورة الروم آية : ٢٠ .
(٦) سورة ق آية : ١ .
(٧) سورة ص آية : ١ .
(٨) سورة الدخان الآيتان : ١، ٢ ، وسورة الزخرف ١، ٢ .
(٩) سورة النمل آية : ١ .
(١٠) سورة يوسف آية : ١ .
(١١) سورة القصص الآيتان : ١ ، ٢ .
(١٢) سورة الرعد آية : ١ .
(١٣) سورة مريم الآيتان : ١ ، ٢ .

من مثل هذه الحروف بسورة . واعلموا أنكم لن تفعلوا ذلك ولن تستطيعوه وذلك كما عجزتم عن خلق أى شىء من هذا التراب . فعجزكم عن الإتيان بكلمة من كلمات الله الكونية سيكون كعجزكم عن الإتيان بأى آية من آيات الله التنزيلية . فإذا ثبت عجزكم ولم تفعلوا ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ﴾(1) .

وجوه الإعجاز :

لما تقرر أن القرآن معجزة الله الخالدة إلى يوم الدين ، فقد عكف الباحثون فى علوم القرآن على دراسة وجوه الإعجاز . فمن قائل إنه معجز بنظمه وتنسيق ألفاظه وارتباط كلماته . فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم . وقد يعجب المرء لهذا الكتاب الذى أحكمت آياته ، ثم فصّلت من لدن حكيم خبير كيف كان هذا التنسيق يسرى فى كل لفظ من ألفاظه ، وكيف تناسبت الكلمات وأخذ بعضها برقاب بعض .

ألا ترى إلى هذا الأعرابى الذى سمع قارئا يتلو قوله تعالى : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ﴾ ثم ختم الآية بقوله : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ ففزع العربى الأمى الذى لم يسمع الآية من قبل وقال : والله ما هكذا أنزلت ، ثم أمر القارىء أن يعيد تلاوتها فإذا ختامها ﴿ والله عزيز حكيم ﴾(2) فقيل للأعرابى : ما الذى استرعى انتباهك حتى أعدت القارىء إلى الوجه الصحيح فى تلاوتها فقال : لأنه تعالى عزّ فحكم فقطع . ولو أنه غفر ، رحم وما قطع . ففى أى الجامعات تخرج ذلك العربى وعلى يدى أى أستاذ تلقى علومه ؟ كلا إنه نداء الفطرة السليمة .

ثم أرأيت إلى الفاروق عمر وهو يكتب الوحى المنزل على رسول الله ﷺ من سورة « المؤمنون » لقد أملاه النبى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر . . ﴾ وقبل أن يكمل الرسول ﷺ الآية قال عمر : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(3) . فقال له الصادق المعصوم : هكذا نزلت فاكتبها يا عمر .

وهكذا قال جماعة بأن القرآن معجز بنظمه ، وقال آخرون بل معجز بلفظه ، وقال فريق ثالث بل معجز بتشريعاته وأحكامه ونُظُمه ، وقال فريق رابع إن إعجازه فى إخباره بالغيوب التى لم تقع بعد . وقال آخرون : بل إن فيه من الحقائق العلمية ما يثبت إعجازه إذ أنه قد أنزل على النبى الأمى الذى لم يذهب إلى جامعة ولم يختلف إلى أستاذ . حتى قال المستر براون عالم البحار الانجليزى لعلماء الهند : هل ركب نبيكم البحر قالوا : لا . قال : لقد قرأت فى القرآن آية لا يعرفها إلا من درس علوم البحار وهى قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم

(1) سورة البقرة آية : ٢٤ .
(2) سورة المائدة آية : ٣٨ .
(3) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤ .

يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾(١) . فمن الذى علّم نبيكم هذا وهو لم يركب البحر فى حياته ؟ فأشهد أن القرآن صدق وأن نبيكم حق . وأعلن إسلامه بسبب فهمه لهذه الآية . لقد تحرى القرآن الأوائل والأواخر فعجزوا عن الإتيان بسورة من مثله ﴿ وألقوا إلى الله يومئذ السلم ﴾(٢) ، وأيقنوا أنه من لدن حكيم خبير .

وللعلماء آراء فى وجوه إعجاز القرآن نجملها فيما يلى :

قال الإمام الخطابى : إن إعجاز القرآن هو فى الصورة التى جاء عليها القرآن لفظا ومعنى وروحا يجمع بين اللفظ والمعنى . . فالإعجاز فى القرآن هو القرآن .

يقول الخطابى : « وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى قائم به ، ورباط ناظم لهما . . وإذا تأملت القرآن ، وجدت هذه الأمور منه ، فى غاية الشرف والفضيلة . واعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ ، فى أحسن نظم التأليف ، مضمنا أصح المعانى : من توحيد الله ــ عزت قدرته ــ وتنزيه له فى صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان بمناهج عبادتـه . . من تحليل وتحريم ، وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم ، وأمر بمعروف ونهى عن منكر » .

ثم يقول : « ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور ، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم ، أمر تعجز عنه قوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه ، وعجزوا عن معارضته بمثله ، أو مناقضته فى شكله ، ثم صار المعاندون له ممن كفر به ، وأنكره ، يقولون مرة : إنه شعر ، لما رأوه كلاما منظوما ، ومرة سحر ، إذ رأوه معجوزا عنه ، غير مقدور عليه ، وقد كانوا يجدون له وقعا فى القلوب وقرعا فى النفوس ، يريبهم ويحيرهم » .

ولهذا نراه يعقب على هذا بقوله : « قلت فى إعجاز القرآن وجها آخر ذهب عنه الناس ، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك هو صنيعه بالقلوب وتأثيره فى النفوس . فإنك لا تسمع كلاما غير منظوم أو منثور إذا قرع السمع خلص إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى أخرى ــ ما يخلص من القرآن إليه . . »

ثم يمضى قائلا : « تستبشر به النفوس ، وتنشرح له الصدور ، حتى إذا أخذت حظها منه ، عادت مرتاعة ، وقد عراها الوجيب والقلق ، وتغشاها الخوف والفرق ، تقشعر منه الجلود ، وتنزعج له القلوب . . يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . . فكم من عدو للرسول ﷺ ــ من رجال العرب وفتاكها ــ أقبلوا يريدون اغتياله وقتله ، فسمعوا آيات القرآن ، فلم يلبثوا حين وقعت فى مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا فى دينه » .

---

(١) سورة النور آية : ٤٠ . (٢) سورة النحل آية : ٨٧ .

ويقول الإمام الباقلانى فى إعجاز القرآن :

ذكر أصحابنا وغيرهم فى ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز :

الوجه الأول : الإخبار عن الغيوب . . وذلك مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . . فمن ذلك ما وعد الله به نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله عز وجل : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] ففعل الله ذلك . . .

وكان أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ إذا غزا جيوشه عرّفهم ما وعدهم الله به من إظهار دينه ليثقوا بالنصر ويستيقنوا بالنجح ، وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ يفعل ذلك فى أيامه . .

الوجه الثانى : أنه كان معلوما من حال النبى ﷺ أنه كان أميا ـ لا يكتب ولا يقرأ ـ وكذلك كان معروفا من حاله أنه لم يكن يعرف شيئا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ثم أتى بجملة ما وقع وما حدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من خلق آدم إلى حين مبعثه .

الوجه الثالث : نظم القرآن . . فهو بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . من ذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من جميع كلامهم ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه عن الكلمات المعتادة . . وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم ، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه ، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى ، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع ثم إلى معدل موزون غير مسجع ، ثم إلى ما يرسل إرسالا ، فتطلب فيه الوصاية والأناة ، وإفهام المعانى على وجه بديع ، وترتيب لطيف ، وإن لم يكن معتدلا فى وزنه ، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل ولا يتصنع له . . وهو كذلك ليس من قبيل الشعر . ولهذا إذا تأمله المتأمل تبين له خروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم ، وأنه خارج عن العادة ، وأنه معجز . . وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل فى جميعه .

ويرى القاضى عبد الجبار : أن إعجاز القرآن يتمثل فى جزالة لفظه وفى حسن معناه ، مما لا يوجد مثله فى أى كلام بشرى مهما علا مقامه فى الفصاحة والبلاغة .

ولعبد الجبار القدح المعلى فى إثبات الإعجاز بالإخبار عن الغيب أو انفراد القرآن بهذا الأسلوب من النظم الذى اتخذه طريقا بين الشعر والنثر أو سلامته من الاختلاف والتناقض . .

(١) سورة التوبة آية : ٣٣ ، الصف آية : ٩ .

أما رأى الإمام الزمخشرى فى الإعجاز فيتلخص فى حقيقتين :

أولاهما : العجز عن إمكان حصر وجوه الإعجاز فى القرآن .. لأنه لو أمكن حصرها لانقطع بحث الباحثين فى آيات الله وكلماته ، ولما كان لمجتهد مطلب يطلبه فيه بعد أن قيلت الكلمة الأخيرة عنه .

وثانيتهما : أنه جعل القرآن الكريم كله آيات معجزة تطلع من كل حرف من حروفه ومن كل كلمة من كلماته وفى كل آية من آياته ، وبهذا يرى الناظرون فى القرآن الكريم على اختلاف أزمانهم وأوطانهم ، وجوها لا تنتهى من وجوه الإعجاز ، دون أن ينتهوا جميعا إلى غاية يقفون عندها . وهكذا يظل القرآن الكريم جنة سماوية فيها فاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ، فحيث نزل الناس فى ساحة القرآن ، كانوا منه فى جنة عالية قطوفها دانية : ﴿ كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ﴾(١) .

يـزيـد علـى طـول التـأمـل بهجـة كـأن العيـون النـاظـرات صيـاقـل

ويكفى أن نشير هنا إلى منهج الزمخشرى هذا ، بمثل واحد من نظره فى وجه آية من آيات الله تعالى ، لتكون شاهدا على هذا المنهج ، وعلى قيمته فى الكشف عن وجوه كثيرة لا تحصى من وجوه إعجاز القرآن ، حيث يتمثل فى كل آية أكثر من وجه ، وحيث ينكشف من كل لفظة أكثر من سر .

يقول الزمخشرى فى قوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾(٢) يقول :

« فإن قلت : كيف قيل : ﴿ إلا أمم ﴾ مع إفراد الدابة والطائر ؟ .. قلت : لما كان قوله تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر ﴾ و﴿ إلا ﴾ على معنى الاستغراق وتغنينا عن أن يقال : « وما من دواب ولا طير » حمل قوله تعالى ﴿ إلا أمم ﴾ على هذا المعنى .. ثم يقيم الزمخشرى اعتراضا ثانيا ، ويجيب عليه فيقول : فإن قلت : فهلا قيل : وما من دابة فى الأرض ، ولا طائر إلا أمم أمثالكم ، وما معنى زيادة قوله : ﴿ فى الأرض ﴾ و﴿ يطير بجناحيه ﴾ . قلت معنى ذلك : التعميم والإحاطة .. كأنه قيل : وما من دابة قط فى جميع الأرضين السبع ، وما من طائر قط فى جو السماء ، من جميع ما يطير بجناحيه ، إلا أمم أمثالكم ، محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها » .

ثم يورد اعتراضا ثالثا ويجيب عليه كذلك فيقول : « فإن قلت : فما الغرض من ذكر ذلك ؟ .. قلت : للدلالة على عظم قدرته تعالى ، ولطف علمه ، وسعة سلطانه ، وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ، المتكاثرة الأصناف ، وهو حافظ لها ، قائم عليها ، مهيمن على أحوالها ، لا يشغله شأن عن شأن ، وأن المكلفين ـ أى البشر ـ ليسوا بمخصوصين بذلك ، دون من عداهم ، من سائر الحيوان .. » .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٣٨ .

وبعد هذا العرض السريع لإعجاز الكتاب الكريم نلج باب التفسير سائلين الله جل شأنه أن يجعل لنا نورا نمشى به ونهتدى بهديه . فالله نـور السماوات والأرض . والرسول المبعوث إلينا نور جاء من عند الله ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾(١) . والقرآن الذى جاء به نور ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾(٢) . فهو الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يخرج الله به البشرية من غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾(٣) .

والآن من الصراط المستقيم إلى الصراط المستقيم حيث سورة الفاتحة وفيها نسأل الله ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾(٤) .

ونبدأ بالاستعاذة : قال تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾(٥) . ومعنى أعوذ بالله : أى أستجير به وأستغيث وأستعين بقوته من وساوس الشيطان وكبره وسحره . وليس الشيطان مقصورا على شياطين الجن ، إنما هو يشمل الجنسين من الجن والإنس . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾(٦) .

وقد بين لنا القرآن العظيم علاج كل من النوعين . جاء ذلك فى سورة « الأعراف » . قال تعالى فى علاج شياطين الإنس : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾(٧) . لما نزلت هذه الآية سأل الرسول ﷺ جبريل عنها . فقال جبريل : لا أدرى حتى أسأل رب العزة ، فلما هبط على الصادق المعصوم قال له : يا رسول الله معناها أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك .

أما علاج شياطين الجن فى سورة « الأعراف » فقوله جل شأنه : ﴿ وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾(٨) . ثم قال فى علاج النوعين : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾(٩) . فإذا ما انتقلنا إلى علاج النوعين فى سورة « المؤمنون » وجدنا علاج شياطين الإنس فى قوله تعالى : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾(١٠) . وعلاج شياطين الجن فى قوله جل شأنه : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾(١١) . وفى سورة « فصلت » نرى علاج الإنس فى قوله جل شأنه : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى

---

(١) سورة المائدة آية : ١٥ .
(٢) سورة التغابن آية : ٨ .
(٣) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) سورة الفاتحة الآيتان : ٦ ، ٧ .
(٥) سورة النحل آية : ٩٨ .
(٦) سورة الأنعام آية : ١١٢ .
(٧) سورة الأعراف آية : ١٩٩ .
(٨) سورة الأعراف آية : ٢٠٠ .
(٩) سورة الأعراف الآيتان : ٢٠١ ، ٢٠٢ .
(١٠) سورة المؤمنون آية : ٩٦ .
(١١) سورة المؤمنون الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ .

حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[١] . وفي حق شياطين الجن يقول تعالى : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾[٢] .

والمراد بقوله جل شأنه : ﴿ فإذا قرأت القرآن ﴾[٣] أي إذا أردت قراءته كما في قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة ﴾[٤] أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة ﴿ فاستعذ بالله ﴾[٥] أي اطلب الاستجارة به واللجوء إليه والاحتماء بجنابه والركون إلى حصنه الحصين ، فهو القريب يجيب من ناداه . و﴿ الرجيم ﴾ هو اللعين الذي طرد من رحمة الله جزاء عصيانه وإصراره واستكباره .

إني بـليت بـأربـع يـرمـونـني ‌ ‌ ‌ ‌ بـالنبـل عن قـوس لهـا تـوتـير
إبليس والـدنيـا ونفسـي والهـوى ‌ ‌ ‌ ‌ يـا رب أنت عـلى الخلاص قـديـر

روى أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل استفتح صلاته بالتكبير والثناء ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه) .

وكلمة الشيطان تطلق ويراد بها كل من بعد عن الخير لأنه مأخوذ من شطن إذا بعد . يقال تشيطن فلان أي أصبح بعيدا عن الخير متصفا بفعل الشيطان ، وهذا هو القول الراجح في معنى هذه الكلمة .

ومن مكايد الشيطان التي تبعده وتزجره أن تقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » .

---

(١) سورة فصلت الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٢) سورة فصلت آية : ٣٦ .
(٣) سورة النحل آية : ٩٨ .
(٤) سورة المائدة آية : ٦ .
(٥) سورة النحل آية ٩٨ .

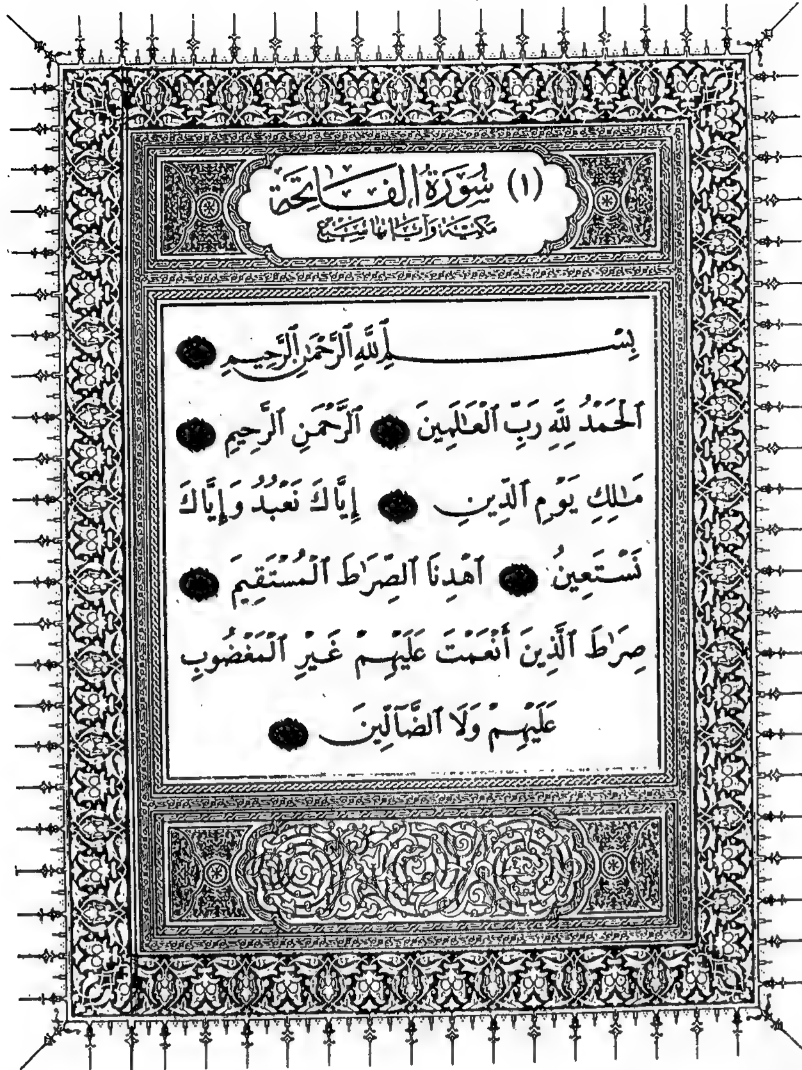

أسماء سورة الفاتحة :

تسمى «الفاتحة» لأنها تفتتح بها القراءة فى الصلوات ، ويقال لها أيضا « أم الكتاب » ولها أسماء منها « الحمد » و« الشفاء » و« الوافية » و« الكافية » و« أساس القرآن » و« سورة الصلاة » و« السبع المثانى » و« سورة الثناء » و« الرقية » و« أم القرآن » . قال البخارى : « وسميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها فى المصاحف ، ويبدأ بقراءتها فى الصلاة » .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال فى أم القرآن : (هى أم القرآن ، وهى السبع المثانى وهى القرآن العظيم)[1] .

فضلها :

ورد فى سورة الفاتحة آثار تدل على عظم فضلها ورفعة قدرها عند الله . ونذكر هذه الأحاديث فيما يلى :

عن أبى سعيد بن المعلَّى رضى عنه قال : (كنت أصلى فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت ، قال : فأتيته ، فقال : ما منعك أن تأتينى ؟ قال : قلت يا رسول الله إنى كنت أصلى ، قال : ألم يقل الله

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير جـ ١ ص ٢١ ط وزارة الأوقاف .

تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[١] ثم قال : لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد ، قال : فأخذ بيدى فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأعلمنك أعظم سورة فى القرآن ، قال : نعم ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته)[٢] .

عن أبى بن كعب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما أنزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل مثل « أم القرآن » وهى السبع المثانى ، وهى مقسومة بينى وبين عبدى نصفين)[٣] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال الله عز وجلّ : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال الله : حمدنى عبدى ، وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ قال الله : أثنى علىَّ عبدى ، فإذا قال : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ قال الله : مجدنى عبدى ، وقال مرة : فوّض إلىّ عبدى ، فإذا قال : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ قال الله : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل ، فإذا قال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ قال الله : هذا لعبدى ولعبدى ما سأل)[٤] .

وقد بلغ من بركات الفاتحة أنهم كانوا يرقون بها المريض فيشفى بإذن الله تعالى . فما أعظمها من رقية وما أكثر بركاتها من آيات بينات . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « كنا فى مسير لنا فنزلنا ، فجاءت جارية فقالت : إن سيد الحى سليم « أى لديغ » ، وإن نفرنا غُيَّب فهل منكم راق ؟ فقام معها رجل ما كنا نأبه برقيه ، فرقاه فبرأ ، فأمر له بثلاثين شاة ، وسقانا لبنا ، فلما رجع قلنا له : أكنت تحسن ؟ أو أكنت ترقى ؟ قال : لا ، ما رقيت إلا بأم الكتاب ، قلنا : لا تحدثوا شيئا حتى نأتى أو نسأل رسول الله ﷺ ، فلما قدمنا المدينة ذكرناه للنبى ﷺ فقال : (وما كان يدريه أنها رقية ؟ اقسموا واضربوا لى بسهم) »[٥] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضا فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال : فنزل منه ملك ، فأتى النبى ﷺ فقال : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لم تقرأ حرفا منها إلا أوتيته)[٦] .

وإنها لجديرة بأن تسمى أساس القرآن وأم الكتاب ، فقد اشتملت على مبادىء الإسلام عقيدة وعبادة وسلوكا . وكانت بمثابة البذرة الطيبة التى غرست فى أرض طيبة ، فأنبتت شجرة طيبة باسقة الأغصان وارفة الظلال كريمة الجنى . لقد لخصت سورة الفاتحة المبادىء التى فصلها القرآن العظيم . فقد اشتملت على الوحدانية بكل معانيها ، توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، كذلك اشتملت على الجزاء والبعث بعد الموت ،

(١) سورة الأنفال آية : ٢٤ .
(٢) صحيح البخارى جـ ٥ ص ٢٠ ط الشعب
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣ ط الشعب .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٥١ ط وزارة الأوقاف .
(٥) صحيح البخارى جـ ٧ ص ١٧٠ ط الشعب .
(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٥٨ .

واشتملت أيضا على العبادة واشتملت على السلوك القويم ، وسيرة الصالحين . فأنت إذا بسملت وأثبت الحمد لله ، وذكرت صفات الكمال الواجبة لله فأنت بذلك من الذين عرفوا الله وأثبتوا ما يليق بذاته الأقدس . وعندما تقرأ ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، فقد أثبت أن هناك دارا للجزاء إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وهذا ما يسمى بالمعاد وهو عودة الحياة بعد الموت . وعندما تقرأ : ﴿ إياك نعبد ﴾ فتلك هى العبادة فى أسمى معانيها ، وفى تقديم الضمير على الفعل ما يدل دلالة قاطعة على توحيد الألوهية . وكذلك فى قوله : ﴿ وإياك نستعين ﴾ ما يفيد تخليص العقيدة من أى شائبة ، وبهذا يكون المسلم قد اعتصم بالله وأخلص دينه لله . فإذا ما قرأت : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فذاك جانب السلوك فى الإسلام . فأن تطلب الهداية فهذا أغلى ما يتمناه المسلم . فالهداية نعمة لا تعدلها نعمة أخرى . قال تعالى لصفيه وحبيبه : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ﴾(١) . وقال جل شأنه : ﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(٢) . فإذا ما قرأت تفسير الصراط فى قوله تعالى : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ فأنت بذلك قد استعرضت تاريخ الصالحين الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾(٣) . وعندما تحترز وتحترس فى طلب الصراط المستقيم تبعد عن نفسك كل فرق الضلال الذين استهوتهم الشياطين . وما أعظمها من كلمة جامعة لكل الذين انحرفوا عن سلوك الجادة وتنكبوا الطريق . ما أجمعها من كلمة ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

ما أعظم أن يفتتح الله الكتاب الكريم بتلك الآية التى تفيض جلالا ، وتشع كمالا وتغمر العباد رحمة وإحسانا ، وتعم الأكوان فضلا وإكراما . فيها التبرك باسم الله ، فأنت عندما تقرؤها كأنك تقول : أبدأ عملى باسم الله أو أستعين باسم الله فى عملى ، فإذا العمل تحوطه العناية وتحفظه الرعاية وتملؤه البركة . لذلك قال الصادق المعصوم : (كل أمر لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع)(٤) .

وقد ذكروا أمورا تستحب فيها البسملة حتى يكون المسلم على معرفة بها : فتستحب فى أول الوضوء لقوله عليه السلام : (لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه)(٥) ، وتستحب عند الذبيحة فى مذهب الشافعى وأوجبها آخرون ، وتستحب عند الأكل لقوله عليه السلام : (.. فإذا أكل أحدكم طعامه ، فليذكر اسم الله عليه ، فإن نسى فى أوله فليقل باسم الله فى أوله وآخره)(٦) ، وتستحب عند الجماع لقوله عليه السلام : (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبدا)(٧) .

(١) سورة الفتح الآيتان : ١ ، ٢ .
(٢) سورة يونس آية : ٢٥ .
(٣) سورة النساء آية : ٦٩ .
(٤) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير جـ ٢ ص ٢٧٧ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٠٨ .
(٦) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٠٠ .
(٧) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير جـ٢ ص ٤٢٤ .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وقد ذكروا أن نبى الله سليمان لما أرسل هدهده بالكتاب إلى ملكة سبأ وجاء فيه ﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ﴾(١) قال سليمان للهدهد : ألا تخاف أن يصطادك أحد وأنت فى الطريق إليها ؟ قال الهدهد : يا نبى الله وكيف أخاف وأنا أحمل معى بسم الله الرحمن الرحيم ؟ .

نعم إنها الصيانة والرعاية والمناية . وكيف لا وأنت لا تستعين بأحد من ملوك الدنيا ، إنما تستعين بمالك الملك وملك الملوك ، وكأنك تقول :

أيـدركنى ضيم وأنت ذخيـرتى وأظلم فى الـدنيـا وأنت نصيـرى

إن اسم الله هكذا بلفظ الجلالة إذا ذكر وجلت القلوب لجلاله ، وخشعت الأصوات لقوته ، وعنت الوجوه لعظمته . وهو الله الذى إذا ذكر نزلت الطمأنينة فى قلوب المؤمنين لجلاله ورحمته . قال تعالى فى مقام الهيبة والجلال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾(٢) . وقال فى مقام الرحمة والطمأنينة : ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٣) . ألا تدرى أن من السبعة الذين يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع ؟ وأن هناك أعينا لا تمسها النار ، من تلك العيون عين بكت من خشية الله ؟ أو ما علمت أن يوسف الصديق عندما ضاقت به الدنيا وضربت سلسلة الشدائد حلقاتها حوله ، واحتدم الخطر وادلهم الخطب ، عندما غلقت امرأة العزيز الأبواب وقد راودته عن نفسه ، وقالت له ﴿ هيت لك ﴾(٤) ، أى أقبل ، فماذا قال يوسف وقتها ؟ لم يصرخ ولم يولول كما أنه لم يضعف أمام نداء الشيطان ولم يستكن لرغبات النفس ولم يضعف أمام الشدة . إنما كل ما قاله : ﴿ معاذ الله ﴾(٥) ، فأعاذه الله واستبقا الباب بعدما جاء الله بالفرج : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ﴾(٦) . ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾(٧) .

ولفظ الجلالة ﴿ الله ﴾ علَم على الذات الأعلى ، فلا معبود بحق إلا هو ولا يستغنى عمن سواه إلا هو ولا يفتقر إليه جميع من عداه إلا هو ، إذ هو القائم بذاته . لذا فهذا العلَم خاص بالله وحده ، لا يصح أن يسمى به غيره . وقد وصف الله ذاته فى البسملة بصفتين : الرحمن والرحيم . وكما لا يصح أن يطلق اسم الله إلا على الذات الأقدس ، كذلك لا يصح أن يسمى بالرحمن غير الله . والرحمن هو مصدر الرحمة الذى يفيض على الأكوان رقة وعطفا ولطفا . فكيف يسمى غيره بالرحمن ؟ . إن مسيلمة لما سمى نفسه رحمن اليمامة لقب بالكذاب ، وظل هذا اللقب ملازما له وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وقد اشتقت الرحم من الرحمن فهو مصدرها وأصلها والمفيض عليها من خيره وبركاته . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (أنا

(١) سورة النمل آية : ٣٠ .
(٢) سورة الأنفال آية : ٢ .
(٣) سورة الرعد آية : ٢٨ .
(٤) سورة يوسف آية : ٢٣ .
(٥) سورة يوسف آية : ٢٣ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٠١ .
(٧) سورة التغابن آية : ١١ .

الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى ، فمن وصلها وصلته ، ومن قطعها قطعته)[١] .

ومن الرحمن أكرم الله الرحماء . جاء فى الحديث الشريف : (الراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء)[٢] .

وجاء فى الحديث القدسى : (إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى)[٣] .

وجاء فى الوعيد : « لا تنزع الرحمة إلا من شقى . من لا يرحم لا يرحم » . ولما كان الرحمن أشد مبالغة فى الرحمة ، فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، أى أن الرحمن عمت رحمته الكائنات كلها فى الدنيا سواء فى ذلك الطائع وغير الطائع ، فالكل يرزق وينشق الهواء ويستضىء الشمس ويشرب الماء وينعم بالنوم والراحة . قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾[٤] .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الإنسان من عجل

وإذن فالرحمن هو الذى عمت رحمته الكائنات كلها فى الدنيا ، والرحيم هو الذى اختصت رحمته المؤمنين . قال جل شأنه : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[٥] . وقد أمرنا الله تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى فقال : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾[٦] . وقال ﷺ : (إن لله تسعة وتسعين اسما ، مائة إلا واحدا ، من أحصاها دخل الجنة)[٧] .

وإذا صح أن نصف الإنسان بأنه رحيم وكريم وسميع بصير ، كما ورد فى قوله تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾[٨] ، فإنه لا يصح شرعا ولا عقلاً بأن نصفه بأنه رحمن أو خالق أو رزاق ، لأنه لا يليق بأحد أن يسمى بهذه الأسماء إلا الله ، لذا جاء اسم الرحمن مقترنا بلفظ الجلالة فى آية الدعاء . قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[٩] .

ولما جهل المشركون اسم الرحمن وقالوا لا نعرف إلا رحمن اليمامة ـ يقصدون مسيلمة الكذاب ـ رد عليهم جل شأنه مبينا لهم عظمة الرحمن وحكى حالهم فى قوله : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾[١٠] ، رد الله عليهم بعد ذلك قائلا : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء

(١) الترغيب والترهيب جـ٣ ص٢٦٥ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٢٦ ط دار الفكر .
(٣) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٢٦٥ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٢٦ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٤٣ .
(٦) سورة الأعراف آية : ١٨٠ .
(٧) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٥ ص٥٣٥ ط الشعب .
(٨) سورة الإنسان آية : ٢ .
(٩) سورة الإسراء آية : ١١٠ .
(١٠) سورة الفرقان آية : ٦٠ .

بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا * وهـو الذى جعـل الليل والنهـار خلفة لمن أراد أن يـذكر أو أراد شكورا ﴾[١] .

﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾

ما أجمل هذا الحديث الشريف الذى ذكر فيه الرسول ﷺ نعمة الحمد فقال : (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لـك أو عليك ، وكـل الناس يغـدو ، فبائـع نفسه فمعتقهـا أو موبقها)[٢] .

وللعلماء فى كلمة الحمد أقوال : فبينما يرى ابن جرير أن ﴿ الحمد ﴾ هو الشكر لله خالصا دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخرا ، و﴿ الحمد لله ﴾ ثناء أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه . فكأنه قال : قولوا الحمد لله ، ثم قال : وأهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلا من الحمد والشكر مكان الآخر . .

بينما يقرر ابن جرير هذا المعنى نرى ابن كثير يقول : هذا الذى ادعاه ابن جرير فيه نظر ، لأنه اشتهر عند كثير من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ، ويكون بالجنان واللسان والأركان . ويقول الجوهرى : والحمد أعم من الشكر ، والشكر هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف .

وقد جاءت آية الحمد بعد البسملة لأن البسملة اشتملت على أعظم النعم وهى الرحمة ، فناسب ذلك أن يقدم الشكر لله على تلك النعمة . ومن أفضال الحمد أن الله تعالى جعله ذكرا يثيب عليه مع أن النعمة منه هو . قال موسى لربه : يا رب خلقت آدم بيديك ونفخت فيه من روحك وأسجدت له ملائكتك وتبت عليه بعدما أدخلته جنتك ، فكيف استطاع أن يؤدى شكر تلك النعم ؟ فقال له الله : يا موسى يكفيه أنه قال : الحمد لله .

وقد سمع أحد الصالحين رجلا يذكر الله فيقول : الحمد لله أستغفر الله . فسألـه : لم تلتزم هـذا الذكر ، فقال : أحمده على نعمه التى أنعم بها علىّ وأستغفره لذنوب اقترفتها .

وقد سأل موسى ربه فقال : يا رب كيف أشكرك ؟ فقال له : يا موسى تذكرنى ولا تنسانى إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى .

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٣٣٩ ط دار الفكر .

ثم قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[١] .

مر أحد الصالحين برجل يذكر الله فيقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم . فنظر إليه فإذا هو فاقد البصر وقد شلت إحدى يديه ورجليه فقال له : عجبا لك ! لم تردد هذا الذكر ؟ فقال له الرجل : عافانى مما ابتلى به كثيرا من خلقه : وهب لى لسانا يذكره وقلبا يشكره ، ثم أنشد :

حمدت الله ربى إذ هدانى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت ... ويعرفه فؤادى باللطيف

والمراد بالألف واللام فى الحمد الاستغراق لجميع أنواع الحمد كما جاء فى الحديث : (. . . اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، ولك الخلق كله ، وإليك يرجع الأمر كله . أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله)[٢] .

والحمد لله لها أفضال يثيب الله قائلها ثواب الشاكرين . فمن أفضالها أنها خير الدعاء ، قال ﷺ : (أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله)[٣] . وعنه ﷺ أنه قال : (ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله ، إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ)[٤] .

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم : (أن عبدا من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا : يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله ــ وهو أعلم بما قال عبده ــ ماذا قال عبدى ؟ قالا : يارب إنه قال : لك الحمد يا رب كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها)[٥] .

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : (رآنى النبى ﷺ وأنا أحرك شفتى ، فقال لى : بأى شىء تحرك شفتيك يا أبا أمامة ؟ فقلت : أذكر الله يا رسول الله . فقال : ألا أخبرك بشىء إذا قلته ثم دأبت الليل والنهار لم تبلغه ؟ قلت : بلى ، قال : تقول الحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد ما أحصى خلقه ، والحمد لله ملء ما فى خلقه ، والحمد لله ملء سماواته وأرضه ، والحمد لله عدد كل شىء ، والحمد لله على كل شىء ، وتسبح مثل ذلك وتكبر مثل ذلك)[٦] .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أيضا عن رسول الله ﷺ قال : (من قال الحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه على كل حال حمدا يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده ثلاث مرات ، فتقول الحفظة : ربنا

---

(١) سورة البقرة آية : ١٥٢ .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١١ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٨٨ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٨٦ .
(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣٠٩ .

لا نحسن كنه ما قدسك عبدك هذا وحمدك ، وما ندرى كيف نكتبه ؟ فيوحى الله إليهم أن اكتبوه كما قال عبدى)[(١)] .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال أبيٌّ بن كعب : لأدخلن المسجد فلأصلين ولأحمدن الله بمحامد لم يَحمده بها أحد ، فلما صلى وجلس ليحمد الله ويثنى عليه ، فإذا هو بصوت عالٍ من خلفه يقول : (اللهم لك الحمد كله ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره . لك الحمد إنك على كل شىء قدير . اغفرلى ما مضى من ذنوبى ، واعصمنى فيما بقى من عمرى ، وارزقنى أعمالا زاكية ترضى بها عنى وتب علىّ . فأتى رسول الله ﷺ فقص عليه فقال : ذلك جبرائيل عليه السلام)[(٢)] .

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قال الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته ، والحمد لله الذى ذل كل شىء لعزته ، والحمد لله الذى خضع كل شىء لملكه ، والحمد لله الذى استسلم كل شىء لقدرته ، فقالها يطلب بها ما عند الله كتب الله له بها ألف حسنة ، ورفع له بها ألف درجة ، ووكل به سبعون ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة)[(٣)] .

عن أبى أيوب رضى الله عنه قال : (قال رجل عند رسول الله ﷺ : الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، فقال رسول الله ﷺ : من صاحب الكلمة ؟ فسكت الرجل ، ورأى أنه قد هجم من رسول الله ﷺ على شىء يكرهه . فقال رسول الله ﷺ : من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صوابا ، فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير ، فقال : والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكا يبتدرون كلمتك أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟)[(٤)] .

عن على رضى الله عنه : أن النبى ﷺ (نزل عليه جبرائيل عليه السلام ، فقال : يا محمد إذا سرك أن تعبد الله ليلة حق عبادته أو يوما فقل : اللهم لك الحمد حمدا كثيرا خالدا مع خلودك ، ولك الحمد حمدا لا منتهى له دون مشيئتك ، ولك الحمد حمدا لا آخر لقائله إلا رضاك)[(٥)] .

﴿ رب العالمين ﴾ المراد بالرب هنا هو الله . والمقصود بالربوبية أنه تعالى هو المالك المتصرف فى خلقه الذى يربى عباده ويفيض عليهم من نعمه ﴿ الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[(٦)] .

والمالك المتصرف هو الذى يدبر الأمر وفقا لعلمه وإرادته وقدرته ، لا ينازعه أحد ولا يشرك فى حكمه أحدا إنه رب العالمين علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤ تى الملك من تشاء وتنزع

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١٠ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١١ .
(٤) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١١ ، ٣١٢ .
(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣١٣ .
(٦) سورة إبراهيم الآيات : ٣٢ - ٣٤ .

الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾(١) . إنه تصرف الربوبية القادرة ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾(٢) لا تهبّ فى هذا الكون نسمة هواء ولا تطرف طرفة عين ولا يحدث حدث كبير أو صغير إلا باذن الله ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(٣) ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾(٤) .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهَذِى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما ... وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جنَّ هذا الليل وامتد سرمدا. ... فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم ... سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت ... أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا

وتربية الله للناس نوعان : تربية خَلْقِية تكون بتنمية أجسامهم حتى تبلغ الأشد وتنمية قواهم النفسية والعقلية ، وتربية دينية تهذيبية تكون بما يوحيه إلى أفرادٍ منهم ليبلغوا للناس ما به تكمل عقولهم وتصفو نفوسهم ، وليس لغيره أن يشرّع للناس عبادة ولا أن يُحلَّ شيئا ويحرم آخر إلا بإذن منه .

ويطلق الرب على الناس فيقال رب الدار ، ورب هذه الأنعام كما قال تعالى حكاية عن يوسف صلوات الله عليه فى مولاه عزيز مصر ﴿ إنه ربى أحسن مثواى ﴾(٥) ، وقال عبد المطلب يوم الفيل لأبرهة قائد النجاشى : أما الإبل فأنا ربها ، وأما البيت فإن له ربا يحميه .

﴿ العالمين ﴾ ومفردها عالم ويراد به جميع الموجودات ، وقد جرت عادتهم ألا يطلقوا هذا اللفظ إلا على كل جماعة متمايزة لأفرادها صفات تقربها من العقلاء إن لم تكن منهم ، فيقولون عالم الإنسان ، وعالم الحيوان وعالم النبات ، ولا يقولون عالم الحجر ، ولا عالم التراب ، ذاك أن هذه العوالم هى التى يظهر فيها معنى التربية الذى يفيده لفظ ﴿رب﴾ إذ يظهر فيها الحياة والتغذية والتوالد .

إن كل ثناء جميل هو لله تعالى ، إذ هو مصدر جميع الكائنات ، وهو الذى يسوس العالمين ويربيهم من مبدئهم إلى نهايتهم ويلهمهم ما فيه خيرهم وصلاحهم ، فله الحمد على ما أسدى والشكر على ما أولى .

إنما سميت هذه الكائنات بالعالمين لأنها علم ودلالة قاطعة على وجود الخالق ، فإن الأثر يدل على المسير : سماوات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج . كل هذه عوالم . ألا يدل كل هذا على وحدانية العليم الخبير ؟

(١) سورة آل عمران آية : ٣٦ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٣٧ .
(٣) سورة هود آية : ١٣٣ .
(٤) سورة الرحمن آية : ٢٩ .
(٥) سورة يوسف آية : ٢٣ .

﴿ الرحمن الرحيم ﴾

صفتان كريمتان من صفات البارىء تبارك اسمه . فالرحمن هو المفيض النعم على جميع خلقه ، والذى عمت رحمته الدنيا وما فيها حتى إن الفرس لترفع رجلها عن ولدها خشية أنْ تصيبه ، من هذا الجزء من رحمة الله الذى جعله فى الدنيا . وهو سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الأم بولدها ، ومن ثم فإن رجوع العبد الطائع إلى ربه كرجوع الطفل التائه إلى أحضان أمه ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾(١) .

ومن دعاء عمر بن عبد العزيز ــ رضى الله عنه : إلهى إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى . فأنت القائل ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾(٢) ، وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

هذا دعاء كان يقوله عمر الذى كان يخاف من الله خوف من يعتقد أن النار لم تخلق إلا له وحده . سبحانك يا رب العالمين : شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

إن صفة الرحمة وسعت الكون كله . دخل أعرابى على رسول الله ﷺ فدعا الله قائلا : اللهم ارحمنى ومحمدا ولا ترحم معنا أحدا . فالتفت إليه النبى ﷺ فقال : (لقد تحجرت واسعا)(٣) .

و ﴿ الرحيم ﴾ : هو المتصف بالرحمة الدائمة التى تخص المؤمنين . قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾(٤) . وإنما ذكر هاتين الصفتين الكريمتين مرة أخرى بعدما أثبتهما فى البسملة ليجيب عن سؤال قد يختلج فى النفوس . فقد يقول سائل : لماذا ربَّاهم ؟ ألعلة أم لحاجة ؟ فجاء الجواب : إنما رباهم بدافع رحمته ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ﴾(٥) . لا لعلة ولا لحاجة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٦) .

وقد تكون الصلة بين الآيتين ﴿ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم ﴾ صلة اقتران الوعد بالوعيد والترغيب بالترهيب . فرب العالمين هو السيد المالك المتصرف : نلمح فى هذا المعنى أن السيد المتصرف الذى يسوس خلقه ويربيهم من صفاته أن يجمع بين الوعد والوعيد كما فى قوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾(٧) وفى قوله جل ذكره : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾(٨) .

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .
(٣) الأدب المفرد للبخارى جـ ٢ ص ٨٥ ط السلفية .
(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٣ .
(٥) سورة النور آية : ٢١ .
(٦) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .
(٧) سورة المائدة آية : ٩٨ .
(٨) سورة الحجر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .

وقد ثنى الله الوعد بالوعيد ليقف المؤمن بين نور الوعد ونيران الوعيد طامعا فى رحمة الله حذراً من عقابه حتى قال بعض الصالحين يناجي ربه :

إذا كنت ذا بطش أليم وشدة ... فمن وصفك الإحسان والبر واللطف
وإن كنت بالنيران أوعدت من عصى ... فوعدك بالغفران ليس له خلف
فعلنا خطايانا وسترك مسبل ... وليس لشىء أنت ساتره كشف
إذا نحن لم نخطىء وتعفو تكرّما ... فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو

﴿ مالك يوم الدين ﴾

صلة هذه الآية بما قبلها هى صلة الوعد بالوعيد ، فـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ وعد يشرق بنوره على قلوب عباده ليبدد غياهب ظلمات اليأس . و ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، وعيد يرسل الإنذارات الشديدة إلى النفوس المارقة لتعود إلى ساحة الرضوان : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من سائل فأعطيه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ . وبين الوعد والوعيد تدور أساسيات التربية . قال أبو تمام :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما ... فليقس أحيانا على من يرحم

فعلى كل الذين يعنون بشئون التربية أن يراعوا هذين الجانبين لتكتمل الوسائل وتستقيم السبل . وقد أصاب الصادق المعصوم كبد الحقيقة عندما قال : (لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع فى جنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من رحمته أحد)[١] .

وفى مالك يوم الدين قراءتان ﴿ مالك ﴾ و ﴿ ملك ﴾ فالمالك يملك وقد لا يحكم ، والملك يحكم وقد لا يملك . هذا بالنسبة للعباد . أما الذى يملك ويحكم فهو الله وحده ، فهو المالك الملك . وقد ورد فى القرآن الكريم ما يفسر ذلك . يقول الله المالك الملك : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[٢] ويقول : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾[٣] . قال الصادق المعصوم : (يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض)[٤] . وفى رواية أخرى لمسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض بشماله ثم يقول أين الجبارون أين المتكبرون ؟)[٥] .

و ﴿ الدين ﴾ هو الجزاء ، وإنما جعل للجزاء يوما ليعلم البشرية جمعاء أن الدنيا ليست هى النهاية . فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . قال ﷺ : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعدّ نفسك من أهل القبور) . والدنيا نحن

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص٤٢٩ ط دار الفكر . (٢) سورة مريم آية : ٤٠ .
(٣) سورة الفرقان آية : ٢٦ . (٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٥ ص ٦٥٦ ط الشعب .
(٥) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٥ ص ٦٥٦ ط الشعب .

فيها عارية مسافرون ، ولابد للعارية أن تردّ كما لابد للمسافر أن يرتحل . وما نحن فى هذه الدنيا إلا كراكب استظل بظل شجرة ما يلبث أن يغادرها . والحياة ألم يخفيه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يجزى كل امرىء بما فعل .

وإنما قال ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وهو جل جلاله مالك كل شىء ليبعث المهابة فى القلوب لهذا اليوم من باب قوله جل شأنه : ﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾[(١)] .

قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا ياتقى الدين . فقال له : يا أمير المؤمنين صم عن الدنيا وافطر على الموت وأعدّ الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

واعلم يا أخى أن هناك محكمة قاضيها عالم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وسوف يسأل فيها كل امرىء عن شبابه فيم أبلاه ، وعمره فيم أفناه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن علمه ماذا صنع فيه . إن قلت يارب : لِمَ لَمْ ترسل إلىَّ إنذاراً بحضور الجلسة ، فسوف يقال لك : لقد كنت تقرأ الإنذار كل يوم سبع عشرة مرة . ألم تقرأ ﴿ مالك يوم الدين ﴾ فهذا هو يوم الدين والله مالكه . فإن قلت يارب من الذى أوصلنى الإنذار ؟ فسوف يقال لك : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾[(٢)] . فإن قلت يارب : دعنى حتى أحضر الشهود فسوف يقال لك : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[(٣)] . فإن قلت يارب : دعنى حتى أوكل محاميا للدفاع عنى . فسوف يقال لك : ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[(٤)] . فإن قلت يارب : أتقبل منى فدية مالية أو شخصية ؟ فسوف يقال لك : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[(٥)] . ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾[(٦)] . فإن قلت يارب سأستأنف الحكم . فسوف يقال لك : ﴿ ما يبدل القول لدىَّ وما أنا بظلام للعبيد ﴾[(٧)] .

ثم ماذا بعد هذا ؟

الـدار دار نـعيم إن عـملت بمـا ... يـرضى الإلـه وإن خـالفت فـالنـار
هـمـا محـلان مـا للمـرء غيـرهـمـا ... فـانظر لنفسـك أى الـدار تختـار
ما للعباد سـوى الفردوس إن عملوا ... وإن هفـوا هفـوة فـالـرب غفَّـار

(١) سورة الرحمن آية : ٣١ .
(٢) سورة التوبة آية : ١٢٨ .
(٣) سورة النور الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) سورة الإسراء آية : ١٤ .
(٥) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .
(٦) سورة لقمان آية : ٣٣ .
(٧) سورة ق آية : ٢٩ .

إن محكمة العدل الإلهية الكبرى لا تقبل أحكامها النقض . ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول : هل من مزيد * وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ﴾(١) .

﴿ إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين ﴾

لما ذكر الله تعالى أنه ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ ناسب ذلك أنه لا معبود سواه ولا يستعان إلا به . فمَن الحقيق بالعبادة إلا المالك ؟ ومَن الجدير بطلب العون إلا هو ؟ . فبين الآيتين تمام ارتباط واتصال ، وفيهما التفات من الغيبة إلى الخطاب ، فإن العبادة وطلب العون ثناء على الله بما هو أهله فناسب ذلك أسلوب الخطاب فى ﴿ **إيَّاك** ﴾ ﴿ **وإيَّاك** ﴾ . والضمير هنا نصب على المفعولية والكاف حرف خطاب وإنما قدم الضمير على الفعل لإفادة الاختصاص بمعنى أنه لا معبود إلا أنت ولا يستعان بأحد إلا بك . وفى هذا التقديم ما يفيد توحيد الإلوهية ، وهو اختصاص الله تعالى بالعبادة وطلب العون منه . وقد كان أهل الجاهلية يقرّون لله بالربوبية : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾(٢) . ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله ﴾(٣) . ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾(٤) . ﴿ ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾(٥) .

فهذه الآيات كلها تدل دلالة قاطعة على أنهم آمنوا بالله ربًّا ولكنهم أشركوا به إلها وقالوا ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾(٦) فأشركوا فى عبادته غيره . ومن ثم جاءت العبادة الصحيحة بما لها من أهمية لتنقذ الإنسانية من أرجاس الشرك . قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾(٧) وقال تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٨) .

إذن فلابّد من توحيد الإلوهية مقترنًا بتوحيد الربوبية ، وإنما يكون توحيد الإلوهية خالصا لله ، بإخلاص العبادة له : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ﴾(٩) ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾(١٠) . فالعمل لا يقبل إلا إذا كان صوابا خالصا ، ومعنى كونه صوابا أى على وفق ما شرع الله ، وإخلاصه ، بعده عن شوائب الشرك . وقد شمل الوعيد قوما اعترفوا لله بالربوبية ، ولكنهم أشركوا فى إلوهيته . وفيهم يقول جل ذكره : ﴿ وما يؤمن أكثرهم

(١) سورة ق الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .
(٢) سورة الزخرف آية : ٨٧ .
(٣) سورة العنكبوت آية : ٦١ .
(٤) سورة يونس آية : ٣١ .
(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٣ .
(٦) سورة الزمر آية : ٣ .
(٧) سورة الحج الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .
(٨) سورة الحج الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٩) سورة النحل آية : ١٢٠ .
(١٠) سورة الكهف آية : ١١٠ .

بالله إلا وهم مشركون ﴾(١) ، فهؤلاء آمنوا بالله ربًا وأشركوا به إلها . قال الله تعالى : ﴿ ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار ﴾(٢) .

وقد أوعد الله هؤلاء وعيداً شديداً ، وبعد الوعيد أرشد العباد إلى طريق الرشاد . قال فى الوعيد : ﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾(٣) . ثم قال فى الإرشاد : ﴿ قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾(٤) .

ولما للعبادة من أهمية قصوى جعلها الله غاية للخلق فى قوله جل شأنه : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٥) ، ولهذه الأهمية قدمت العبادة على الاستعانة فى قوله جل شأنه : ﴿ إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين ﴾ فالعبادة هى الغاية ، والاستعانة بالله مظهر من مظاهرها ، وإنما عبّر بنون الجمع ﴿ نعبد ﴾ ﴿ نستعين ﴾ هكذا ، لأن الإسلام هو دين الجماعة التى لا تجحد حق الأفراد ، ومصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد ، وفى نفس الوقت فإن حق الفرد مقدس لا يجوز المساس به .

وكان أمير المؤمنين عمر الفاروق يقول : لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها : لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق ياعمر ؟ .

فما هى حقيقة العبادة والاستعانة حتى نكون على معرفة بأخص خصائص إسلامنا ؟ .

العبادة لغة : مأخوذة من الذلة ، يقال طريق معبّد ، وبعير معبّد أى مذلل .

العبادة شرعا : خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن له سلطانا لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به نكره ، أو يرقى إليه إدراكه ، فمن يتذلل لملك لا يقال إنه عبده ، لأن سبب التذلل معروف ، وهو إما لخوف من جَوره وظلمه وإما رجاء كرمه وجوده . .

صور العبادة : ليست العبادة أمراً مقصوراً على الصلاة مثلا كما قد يتبادر إلى الذهن إنما العبادة لها صور وأشكال ، فمنها : العبادة القولية والقلبية والعملية والمالية والبدنية .

فالقولية : كذكر الله تعالى والاستغفار والدعاء قال ﷺ .
(. . . خير ما قلته أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله . . .)(٦) . وكان يقول لأصحابه : (جددوا إيمانكم . قالوا : وكيف نجدد إيماننا يا رسول الله ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله)(٧) .

---

(١) سورة يوسف آية : ١٠٦ .
(٢) سورة الزمر آية : ٣ .
(٣) سورة يوسف آية : ١٠٧ .
(٤) سورة يوسف آية : ١٠٨ .
(٥) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .
(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٩٣ .
(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٨٩ .

قال الله تعالى على لسان نوح : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفَّارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾(١) . ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب .

وأما الدعاء فقد قال الله فى شأنه : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾(٢) . قال رسول الله ﷺ : (الدعاء مخ العبادة)(٣) . وقال ﷺ : (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس ، فإنه سر الجنة)(٤) . وقال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾(٥) . وما من سؤال وجِّه إلى النبى ﷺ ــ كما ورد فى القرآن الكريم ــ إلا قال الله له : قل . إلا آية الدعاء ، قال تعالى : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين ﴾(٦) الآية . وقال جل شأنه : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾(٧) . وقال سبحانه : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾(٨) الآية . وقال : ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾(٩) . وقال : ﴿ يسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾(١٠) . وقال : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾(١١) . وقال : ﴿ يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ﴾(١٢) .

فأنت ترى فى هذه الآيات كلها أن الله لقَّن نبيه الإجابة بقوله : قل . أما فى آية الدعاء : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾(١٣) فإن الإجابة جاءت فيها مقترنة بالسؤال دون ذكر قل حتى لا يكون بين العبد وربه واسطة فى الدعاء وذلك لأن الدعاء عبادة والعبادة يجب أن تكون مُباشرة لله دون واسطة . فهذه لمحة لطيفة تفيدنا فى باب العبادة .

أما العبادة القلبية : فتتمثل فى النية الصادقة والتوبة والخوف والرجاء والصبر والشكر والرضا واليقين والتوكل .

أما العبادة العملية : فالصلاة والصيام والحج .

أما العبادة المالية : فالزكاة والكفارات والنذور . .

أما العبادة البدنية : فالجهاد فى سبيل إعلاء كلمة التوحيد .

---

(١) سورة نوح الآيات : ١٠ - ١٢ .
(٢) سورة غافر آية : ٦٠ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٣٤١ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ١٠٢ ط دار الفكر .
(٥) سورة البقرة آية : ١٨٦ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢١٥ .
(٧) سورة البقرة آية : ٢١٧ .
(٨) سورة البقرة آية : ٢١٩ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٢٠ .
(١٠) سورة البقرة آية : ٢٢٢ .
(١١) سورة الأحزاب آية : ٦٣ .
(١٢) سورة طه آية : ١٠٥ .
(١٣) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

وفى هذه الصور من العبادات مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، لكننا مركزنا عناصرها الأساسية وعنصرنا مراكزها الأصلية بما تيسَّر من التقدير وتقدر من التيسير ، فمن أراد أن يستزيد فليرجع إليها فى مظانّها ليقف على حقائق الأسرار ويسلك مدارج الأنوار ويعيش فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

أما الاستعانة : فهى طلب العزن ، إذ السين والتاء يدلان على الطلب وهى فى الشرع تفويض الأمر إلى الله بعد الأخذ بالأسباب . قال تعالى : ﴿ أفرأيتم ماتحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾(١) . فعلى العبد أن يحرث الأرض ويبذر فيها الحب والله هو الذى ينبت الحب . ولذا بلغ من صفاء التوحيد عند ابن عباس أنه قال : من قال لولا الكلب لدخل اللص فقد أشرك . ويقاس عليه قول الناس : لولا الطبيب ما شفيت ، ولتصحيح العقيدة يقول القائل : لولا أن الله سخر الكلب لدخل اللص . ولولا أن الله سخر الطبيب ما شفيت ، وذلك حتى تستقيم العقيدة لصاحبها فلا يخلط بين الخالق ومخلوقاته . قال تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(٢) . وقد جاء فى الحكمة : « على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المقاصد » . وقال قائلهم :

إذا لم يكن عون من الله للفتى ... فأول ما يجنى عليه اجتهاده

نسأل الله أن يرزقنا العبادة الخالصة والاستعانة الصادقة . فيا أخى إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله .

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

لما ذكرت الآية السابقة العبادة والاستعانة وأنهما يجب أن يكونا خالصين لله ، ناسب ذلك أن يأتى بآية الدعاء بعد العبادة والاستعانة ، فقال : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . فالدعاء مخ العبادة ، وطلب الهداية من الله إنما هو استعانة به سبحانه أن يوفق إليها ، فكان بين الآيتين تمام ارتباط . والصراط هو الطريق ، والمستقيم هو الذى لا اعوجاج فيه ، أو كما يقولون : هو أقرب صلة بين نقطتين . وقد يطلق الصراط ويراد به الإسلام كما فى قوله ﷺ : (ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعا ولا تعوجوا ، وداع يدعو من فوق الصراط . فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب ، قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه . فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم)(٣) .

وقال مجاهد : الصراط المستقيم هو الحق ، وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم . وقال ابن جرير فى هذه الآية : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أى وفقنا للثبات على ما ارتضيته ووفقت له من أنعمت عليه من

---

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٦٣ ، ٦٤ . (٢) سورة هود آية : ١٢٣ .
(٣) أخرجه أحمد والترمذى والنسائى والبيهقى والحاكم : الدر المنثور للسيوطى جـ ١ ص ١٥ .

عبادك من قول وعمل ، وذلك هو الصراط المستقيم ، لأن من وُفِّقَ لما وفق له من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقد وفق للإسلام .

والمراد بالهداية قد يكون معنى خلق قدرة الطاعة فى العبد وهى هداية خاصة لا يقدر عليها إلا الله ، وفيها يقول جل شأنه : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾[١] . ولا يحسبن أحد أن هذه الآية تسلب العبد كسبه واختياره ، لأن مشيئة الله ليست عبثا إنما تقوم على الحكمة والعلم والإرادة والقدرة ، ومن ثم فقد جاء ختام الآية ﴿وهوأعلم بالمهتدين﴾ فالله سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون . والعلم صفة انكشاف وليس صفة إلزام ، وعلى وجه المثال فهو كالمرآة إذا نظرت إليها بوجه مبتسم بدت صورتك مبتسمة فإذا نظرت فيها عابس الوجه بدت صورتك كذلك . وما أجمل قـوله ﷺ : (مثـل علم الله فيكم كمثل السـماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم ، فكما لا تحملكم السماء والأرض على فعل الذنوب كذا لا يحملكم علم الله ، وكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذا لا تستطيعون الخروج من علم الله) .

وعلم الله مبنى على حكمته وهو سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل تلك الحكمة ، قال تعالى : ﴿ لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ﴾[٢] . ومن ثم فقد بين الله أن الهداية تأتى بمعنى الإرشاد ، فهو سبحانه يرشد ويبين ويزود الإنسان بالوسائل التى تمكنه من سلوك الطريق القويم . قال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾[٣] .

وقال سبحانه : ﴿ ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين ﴾[٤] . ثم بين وظيفة العقل لأنها الأهم من ذكره ، فلم يقل ووهبنا له عقـلا ، إنما قـال : ﴿ وهدينـاه النجدين ﴾[٥] . وقـال سبحانـه : ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[٦] .

والإلهام نوع من أنواع الهدايات ، وكيف يكون هناك جبر أو سلب لكسب العبد واختياره وقد قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٧] . وكيف يكون هناك قهر للعبد وقد قال تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[٨] .

---

(١) سورة القصص آية : ٥٦ .
(٢) سورة الفتح آية : ١٨ .
(٣) سورة الانسان الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) سورة البلد الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٥) سورة البلد آية : ١٠ .
(٦) سورة الشمس الآيات : ٧ - ١٠ .
(٧) سورة فصلت آية : ١٧ .
(٨) سورة الليل الآيات : ٥ - ١٠ .

لقد قال جل شأنه : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾[١] ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٢] . . وقال عظمت حكمته : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[٣] . فأنت ترى أن الذين لا يهديهم الله هم الذين اختاروا لأنفسهم طريق الفسق والظلم والضلال : ﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾[٤] . ألم تسمع إلى قوله جل شأنه : ﴿واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[٥] .

ومن نعم الله علينا أنه هدانا ولطف بنا ، ويتمثل لطفه فى ثلاثة جوانب : فقد خلق لنا عقلا وأرسل إلينا رسلا وأنزل إلينا كتبا ، وهو قبل ذلك وبعد ذلك يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات فلا يلومن الظالمون إلا أنفسهم . قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٦] .

للهداية إطلاقات أخرى غير ما سبق ، فكما أنها قد يراد بها خلق فطرة الطاعة فى العبد ، كذلك يراد بها الإرشاد والبيان كما فى قوله تعالى ، يخاطب رسوله : ﴿ . . وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله . . . ﴾[٧] ويراد بها الهداية الفطرية أو الإلهام كهداية الرضيع إلى ثدى أمه . ويراد بها الهداية الحسّية كهداية الإنسان إلى أن يستعمل أعضاءه فى وظائفها الخاصة : فالعين للإبصار واللسان للذوق والأذن للسمع . . . الخ . ويراد بها الهداية العقلية وهى وظيفة العقل فى التمييز بين ما يضر وينفع . . ويراد بها الهداية الدينية وذلك عن طريق الشرائع السماوية ومعنى : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أى وفقنا وأعنا على سلوكه . ولسائل أن يقول : كيف يطلب العبد من ربه الهداية فى الصلاة ، والصلاة فى ذاتها هداية ؟ ونقول : إن المراد بطلب الهداية من المؤمن لربه أن يوفقه للثبات عليها . فقد كان من دعاء الصادق المعصوم ﷺ : (يامقلب القلوب ثبت قلبى على دينك) . ومن دعائه : (يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث . أصلح لى شأنى كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين) . أو ما قرأت قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله ﴾[٨] فأمرهم بالإيمان وخاطبهم بصفة الإيمان ، أى اثبتوا على الإيمان بالله ورسوله .

(١) سورة البقرة آية : ٢٦ .
(٢) سورة الصف آية : ٥ .
(٣) سورة الصف آية : ٧ .
(٤) سورة النحل آية : ١٠٤ .
(٥) سورة الأعراف الآيتان : ١٧٥ ، ١٧٦ .
(٦) سورة العنكبوت آية : ٤٠ .
(٧) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ .
(٨) سورة النساء آية : ١٣٦ .

﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾

قوله تعالى ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ : فالصراط هو نفس الصراط السـابق ، ولذا فـإن الارتباط بينهما غنى عن البيان ، وقد نصب الصراط الثانى على البدلية مما قبله . ولقد جاءت هذه الآية كأنها جواب عن سؤ ال مقدر . فكأن سائلا قال : ما هو الصراط المستقيم ؟ فجاء الجواب : صراط الذين أنعمت عليهم ، أى تفضلت عليهم بطاعتك ورحمتك ورضوانك . وقد فصلت سـورة النساء مـا أجملته سـورة الفاتحة ، وخير ما تفسر به القرآن ، القرآن نفسه .

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصـديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[١] . وفى تلك الآية دلالة قاطعة على أن عقيدة الأنبياء واحدة وهى التوحيد . فكلهم عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله . وكل الأنبياء مسلمون . قال نوح لقومه : ﴿ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[٢] . وجاء فى شأن إبراهيم : ﴿ ووصىّ بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)[٣] . وجاء فى شأن موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بـالله فعليه تـوكلوا إن كنتم مسلمـين ﴾[٤] . وفى شـأن يـوسف : ﴿ تـوفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[٥] . وفى شأن عيسى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾[٦] . وفى شأن سليمان : ﴿ ألا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين ﴾[٧] . وفى حق أمـة محمد ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[٨] . وفى حق النبيين : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾[٩] . وفى حق البشرية جمعاء : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[١٠] .

ثم بعد ذلك ، وبعد ذكر الذين أنعم الله عليهم احترز عن فرق الضلال والهـوى فقال : ﴿ غـير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . والمغضوب عليهم قوم عرفوا الحق كما يعرفون أبناءهم ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم ولم يقبلوه ، واليهود على رأس هؤلاء الذين استحقوا غضب الله . لما دخل عبد الله بن سـلام الإسلام ــ وكان من أحبار اليهود ــ قال يارسول الله : سل اليهود عنى قبل أن أعلن إسلامى . فسألهم الرسول عنه قالوا : يامحمد هو سيدنا وابن سيدنا . قال عبد الله بن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال اليهود : يا محمد هو سفيهنا وابن سفيهنا .

أما الضالون فهم الذين لم يعرفوا الحق ولم يبحثوا عنه فضلُّوا وحاروا . قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا أهواء

(١) سورة النساء الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) سورة يونس آية : ٧٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٣٢ .
(٤) سورة يونس آية : ٨٤ .
(٥) سورة يوسف آية : ١٠١ .
(٦) سورة المائدة آية : ١١١ .
(٧) سورة النمل آية : ٣١ .
(٨) سورة المائدة آية : ٣ .
(٩) سورة المائدة آية : ٤٤ .
(١٠) سورة آل عمران آية : ٨٥ .

قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾[١] وعلى رأس هؤلاء : النصارى . قال عدى ابن حاتم سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ﴾ قال : هم اليهود ﴿ ولا الضالين ﴾ قال : النصارى .

آمين : اسم فعل أمر بمعنى استجب . روى فى الأثر أن النبى ﷺ قال : (لقننى جبريل آمين عند فراغى من قراءة الفاتحة وقال : إنه كالختم على الكتاب) ، وأوضح ذلك علىّ كرم الله وجهه فقال : آمين خاتم رب العالمين ، ختم به دعاء عبده ـ يريد أنه كما يمنع الخاتم الاطلاع على المختوم والتصرف فيه ، يمنع الخيبة عن دعاء العبد .

قال جبريل عند نزوله بفاتحة الكتاب : يا محمد مازلت خائفا على أمتك حتى نزلت بفاتحة الكتاب فأمِنت بها عليهم .

(١) سورة المائدة آية : ٧٧ .

(٢) سورة البقرة مدنية
وآياتها ست وثمانون ومائتان

عدد آياتها : مائتان وست وثمانون آية . وهى أول سورة نزلت بعد هجرة النبى ﷺ إلى المدينة .

عدد كلماتها : ستة آلاف كلمة ، ومائة وإحدى وعشرون كلمة .

أسماؤها : أربعة : **الأول** « البقرة » ، إحياء لذكرى تلك المعجزة الباهرة التى ظهرت فى زمن موسى الكليم ، حيث قتل شخص من بنى إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهانا على قدرة الله جل وعلا فى إحياء الخلق بعد الموت .

الثانى : « سورة الكرسى » لاشتمالها على آية الكرسى التى هى أعظم آيات القرآن .

الثالث : « سنام القرآن » لقوله ﷺ : (إن لكل شىء سناما وسنام القرآن سورة البقرة . .)[١] .

الرابع : « الزهراء » لقوله ﷺ : (اقرءوا الزهراوين[٢] البقرة وآل عمران)[٣] .

مقاصد هذه السورة الكريمة : اشتملت على معظم الأحكام التشريعية التى يحتاج إليها المسلمون فى حياتهم الاجتماعية سواء فى العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق وأمور الزواج والطلاق والعدة و . . . .

فتناولت الآيات الحديث عن صفات المؤمنين ومدحهم ، وذم الكفار والمنافقين ، والرد على منكرى النبوة ، وقصة أبى البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التى تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشرى ثم تناولت السورة الحديث عن اليهود بالإسهاب لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين فى المدينة المنورة ، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم وما تنطوى عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، وإلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التى ارتكبها هؤلاء المفسدون مما يوضح عظيم خطرهم وكبير ضررهم . فتناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة بدءا من قوله تعالى : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾[٤] ، فشمل ذلك ملامة علماء اليهود ، وقصة موسى واستسقائه ومواعدته ربه ومنّته على بنى إسرائيل وشكواه منهم ، وحديث البقرة وقصة سليمان وهاروت وماروت والسحرة . ثم انتقل إلى الرد على النصارى وابتلاء إبراهيم عليه السلام وبناء الكعبة ، ووصية يعقوب لأولاده ، وتحويل القبلة ، وبيان الصبر على المصيبة وثوابه ، ووجوب

---

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٢) الزهراوين أى المنيرين .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٤) سورة البقرة آية : ٤٠ .

السعى بين الصفا والمروة ،وبيان حجة التوحيد وطلب الحلال ، وإباحة الميتة حال الضرورة وحكم القصاص والأمر بصيام رمضان ، والأمر باجتناب الحرام ، والأمر بقتال الكفار ، والأمر بالحج والعمرة ، وتعديد النعم على بنى إسرائيل وحكم القتال فى الأشهر الحرم ، والسؤال عن الخمر والميسر ومال الأيتام والحيض ، والطلاق والمناكحات وذكر العدة والمحافظة على الصلوات ، وذكر الصدقات والنفقات ، وملك طالوت وقتل جالوت ، ومناظرة الخليل ، عليه السلام نمرود ، وإحياء الموتى بدعاء إبراهيم ، وحكم الإخلاص فى النفقة ، وتحريم الربا وبيان المداينات ، وتخصيص الرسول ﷺ ليلة المعراج بالإيمان حيث قال : ﴿ آمن الرسول ﴾ إلى آخر السورة حيث ختمت بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة .

فضل السورة :

عن أبى أمامة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اقرءوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولن يستطيعها البطلة(١) ﴾(٢) .

وقال ﷺ : (. . إن الشيطان لايدخل بيتا يقرأ فيه سورة البقرة)(٣) .

وعن عكرمة قال : « أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة من قرأها فى بيته نهارا لم يدخل بيته شيطان ثلاثة أيام . ومن قرأها فى بيته ليلا لم يدخله شيطان ثلاث ليال »(٤) .

وروى أن من قرأها كان له بكل حرف أجر مرابط فى سبيل الله .

وعن أبى مسعود قال : كنا نعد من يقرأ سورة البقرة من الفحول .

وقد أمّر رسول الله ﷺ (فتى على جماعة من شيوخ الصحابة كان يحسن سورة البقرة)(٥) . وقال ﷺ : (اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف تحاجّان عن أصحابهما)(٦) .

وعنه ﷺ أنه قال : (يا على من قرأ سورة البقرة لا تنقطع عنه الرحمة مادام حيا ، وجعل الله البركة فى ماله ، فإن فى تعلمها ألف بركة وفى قراءتها عشرة آلاف بركة ولا يتعاهدها إلا مؤمن من أهل الجنة ، وله بكل آية قرأها ثواب شيث بن آدم عليهما السلام ، فمن مات من يوم قرأها إلى مائة يوم مات شهيدا) .

عن النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول (يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران)(٧) .

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا . واستخرجت ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ من تحت العرش فوصلت بها ، أو

---

(١) البطلة . السحرة .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٤) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٣٣ .
(٥) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٣٢ .
(٦) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢١٠ .
(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٦١ .

فوصلت بسورة البقرة ، ويس قلب القرآن لا يقرؤ ها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له)[١] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (بينما جبرائيل عليه السلام قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيق من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)[٢] .

وعن أسيد بن حضير رضى الله عنه أنه قال : (يارسول الله بينما أنا أقرأ الليلة سورة البقرة إذ سمعت وجبة من خلفى فظننت أن فرسى انطلق ، فقال رسول الله ﷺ : اقرأ أبا عتيك ، فالتفت فإذا مثل المصباح مدلًى بين السماء والأرض ، ورسول الله ﷺ يقول : اقرأ أبا عتيك ، فقال : يا رسول الله فما استطعت أن أمضى ، فقال رسول الله ﷺ : تلك الملائكة تنزلت لقراءة سورة البقرة ، أما إنك لو مضيت لرأيت العجائب)[٣] .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذى تحت العرش فتعلموهن وعلموهن نساءكم وأبناءكم فإنهما صلاة وقرآن ودعاء)[٤] .

بين الفاتحة والبقرة

جاءت سورة البقرة بمثابة التفصيل لما أجملته سورة الفاتحة ، فكانت سورة الفاتحة كأنها البذرة الطيبة التى جمعت كل العناصر والمبادىء الإسلامية الرفيعة ، غرست هذه البذرة فى أرض طيبة علوية المكانة فأنبتت شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تلك الشجرة هى سورة البقرة . ولتوضيح ما ذكرنا نقول : اشتملت سورة الفاتحة على أصول العقائد وشعائر العبادات ومناهج السلوك ومبادىء الأحكام وقواعد النظام . وجاءت سورة البقرة ففصلت القول فى تلك القضايا تفصيلا لا لبس فيه ولا غموض . ففى أصول العقائد ذكرت أول ما ذكرت ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : المؤمنة التقية وصفاتها : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

والفرقة الثانية : كافرة ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

والفرقة الثالثة : فرقة النفاق ، وفيهم يقول البارى جل ذكره : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ **ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير** ﴾ .

وكأن هذه الفرق جميعا دارت حول أنواع القلوب . فالقلوب ثلاثة : قلب سليم وقلب ميت وقلب مريض . فالقلب السليم هو القلب المؤمن وأصحابه يمثلون الفريق الأول فى سورة البقرة ، والقلب الثانى

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٥٩ .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٥٨ .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٦١ .
(٤) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ٢٦٢ .

وهو الميت أصحابه يمثلون الفريق الثانى فريق الكافرين ، والقلب الثالث وهو المريض وأصحابه يمثلون الفريق الثالث وهم أهل النفاق . وقد يكون مرض القلوب مرض شبهة وهو النفاق ، وقد يكون مرض شهوة كما فى قوله تعالى : ﴿ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ . وفى مجال العقيدة أيضا وجّه الواحد الديان بيانا إلى البشرية جمعاء أن يفردوه وحده بالعبادة فقال: ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ . ثم أقام الأدلة الباصرة الناطقة بلسان الحال والمقال والشاهدة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين على وحدانيته فقال : ﴿ الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ .

تـأمـل فى نبات الأرض وانـظر ... إلى آثـار مـا صـنـع المـليـك
عـيـون من لجـين شـاخـصـات ... بـأبصـار هى الـذهب السبيـك
عـلى قضب الـزبـرجـد شاهـدات ... بـأن الله لـيس لـه شـريـك

فإذا كانت سورة الفاتحة قد ذكرت العقائد إجمالا فإن سورة البقرة قد فصلتها فى خطوط عريضة ، فذكرت الإلوهية بأخص الخصائص وهو التوحيد وحقيقته إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، ثم أردفت ذلك بذكر الجانب الثانى من العقائد وهو النبوة قال سبحانه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ .

ثم ذكرت الجانب الثالث من العقائد وهو البعث والجزاء . فإذا كانت سورة الفاتحة قد ذكرت هذا الجانب فى قوله جل شأنه : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ ، والمقصود بالدين هو الجزاء ، فإن سورة البقرة قد فصلت هذا الجزاء فى قوله تعالى شأنه : ﴿ فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين * وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ . ثم ختمت هذا الجزء من العقائد ببيان أركان الإيمان فى قوله تبارك اسمه : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

وفى جانب العبادة جاء فى سورة الفاتحة : ﴿ إياك نعبد ﴾ هكذا بذلك الأسلوب الموجز المبنى ، العظيم المعنى . وجاءت سورة البقرة تبين لنا أركان العبادة من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد . وفى البقرة آية فذة تعتبر مركز الدائرة الذى تدور حوله آياتها وتحيط به إحاطة بديعة رائعة هى آية البر التى جمعت العقيدة والعبادة والسلوك . اقرأها وتأملها كثيرا وارجع البصر فيها كرتين . إن تلك الآية التى توسطت سماء العلا هى قوله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ . وفى قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ . كذلك قوله جل شأنه : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ . . كل هذه الآيات تعطينا إشارة قوية الدلالة على ما فى الصلاة من أهمية فى الإسلام ، فهى الركن الأول بعد الشهادتين ، وهى أول ما يحاسب عنه

العبد يوم القيامة ، وهى مفتاح باب الجنة ، ويكفى فى ذلك قوله جل شأنـه : ﴿ **وإنها لكبيرة إلا عـلى الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون** ﴾ .

وكما فصلت سورة البقرة الركن الأول من العبادات ، وهو الصلاة ، كذلك فصلت الركن الثانى وهو الزكاة ، وترى ذلك على امتداد آيات واضحات مشرقات كما فى قوله تعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾ .

ويستمر الزحف المقدس وتتحرك المسيرة المباركة فى آيات الزكاة إلى أن يصل إلى قوله تعالى : ﴿ **الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ وحيث تؤدى الزكاة فلا ربا حيث لا تجتمع الزكاة والربا فى مجتمعٍ واحد ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** ﴾ . وجاء الوعيد لأكلة الربا كالرعود القواصف والرياح العواصف : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ .

وحيث حارب الإسلام الربا فى كل مواقعه فإنه أجاز الدَّين ومنح الدائن أجرا عظيما . وحيث أجاز الدين فقد أجاز الرهن للاستيثاق من أداء الدين فقال : ﴿ **وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهـان مقبوضة** ﴾ .

كذلك فصلت سورة البقرة فى جانب العبادات فريضة الصيام من أول قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياما معدودات** ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾ .

كذلك فصلت فريضة الحج تفصيلا جليلا من أول قوله تعالى : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ إلى قوله تبارك اسمه : ﴿ **واذكروا الله فى أيام معدودات** ﴾ .

أما عن الجهاد فحدث عنه ولا حرج ، ففيه جـاءت مبادىء الأحكـام ثابتـة الأركان فى كـل زمان ومكان ، فمن تلك المبادىء الجهادية قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ . ومنها قوله جل شأنه : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾ . ومن تلك المبادىء قوله تبارك وتعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾ .

وفى سورة البقرة جاءت أحكام بيّنها الله لنا تنير لنا الطريق إلى رضاه : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتـال فيه** ﴾ . ﴿ **يسألونك عن الخمـر والميسر** ﴾ . ﴿ **يسـألونـك ماذا ينفقـون** ﴾ . ﴿ **يسـألـونـك عن المحيض** ﴾ .

ومما فصلته سورة البقرة مناهج السلوك . فقد أجملته سورة الفاتحة بإشارة لطيفة فى قوله جل شأنه : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ ، وهل الصراط المستقيم إلا النهج القويم والخلق العظيم والسلوك المستقيم . ولقد بسطت سورة البقرة القول فى هذا المقام بسطا يفيض جلالا وجمالا وكمالا ويشع نورا وضياء وبهاء . ترى تفصيل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ . وهل التقوى إلا الخوف من

الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . . . وفى قوله جل شأنه : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ وهل الإيمان بالغيب إلا تأديب للنفس بحيث تعلم أن الله رقيب عليها فى سرها وعلنها . ثم بعد ذلك اقرأ فى مناهج السلوك : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات** ﴾ .

وعن العمل الصالح حدث ولا حرج :

إن المكارم أخلاق مطهرة ... الدين أولها والعقل ثانيها

والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل ساديها

والبر سابعها والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها واللين باقيها

والنفس تعلم أنى لا أصادقها ... ولست أرشد إلا حين أعصيها

ثم تأمل معى مناهج السلوك فى قوله تعالى : ﴿ **وأحسنوا إن الله يحب المحسنين** ﴾ وفى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ . وفى قوله جل ذكره : ﴿ **وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين** ﴾ وفى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير** ﴾ إلى غير ذلك من مناهج الأخلاق والسلوك التى لا تنتهى عند عد ولا يحيط بها حد .

كما فصلت سورة البقرة ما أجملته سورة الفاتحة من سير الصالحين وقصص الأولين . جاء فى سورة الفاتحة قوله جل ذكره : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾ . وجاءت قصة آدم مفصلة فى سورة البقرة من أول قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ إلى قوله جل شأنه : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ . ثم تبعت هذه القصة تفصيلات عن بنى إسرائيل مع نبى الله موسى ، وقطعت السورة فى ذلك شوطا بعيدا ثم جاءت قصة إبراهيم وإسماعيل وبناء البيت الحرام من أول قوله تعالى : ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن** ﴾ إلى قوله عز من قائل : ﴿ **تلك أمة قد خلت** ﴾ . كذلك جاءت قصة طالوت مع بنى إسرائيل من أول قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى** ﴾ إلى قوله جل جلاله : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة** ﴾ . وجاء بعد ذلك موقف الخليل مع النمرود : ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه** ﴾ وأتبعت بقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . جاء بعد ذلك طلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى . وهكذا ذكرت سورة البقرة جانبا غير قليل من القصص . كذلك فصلت سورة البقرة فرق الضلال التى جاءت مجملة فى سورة الفاتحة فى قوله تعالى : ﴿ غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ ، قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية** ﴾ وقال جل ذكره : ﴿ **وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ إلى غير ذلك مما يطول الكلام فيه . فأنت ترى بعد هذا كله أن بين الفاتحة والبقرة صلات قوية ووشائج متينة وأواصر مكينة . فسبحان من هذا كلامه وصلوات الله تعالى وتسليماته على من كان القرآن معجزته الخالدة .

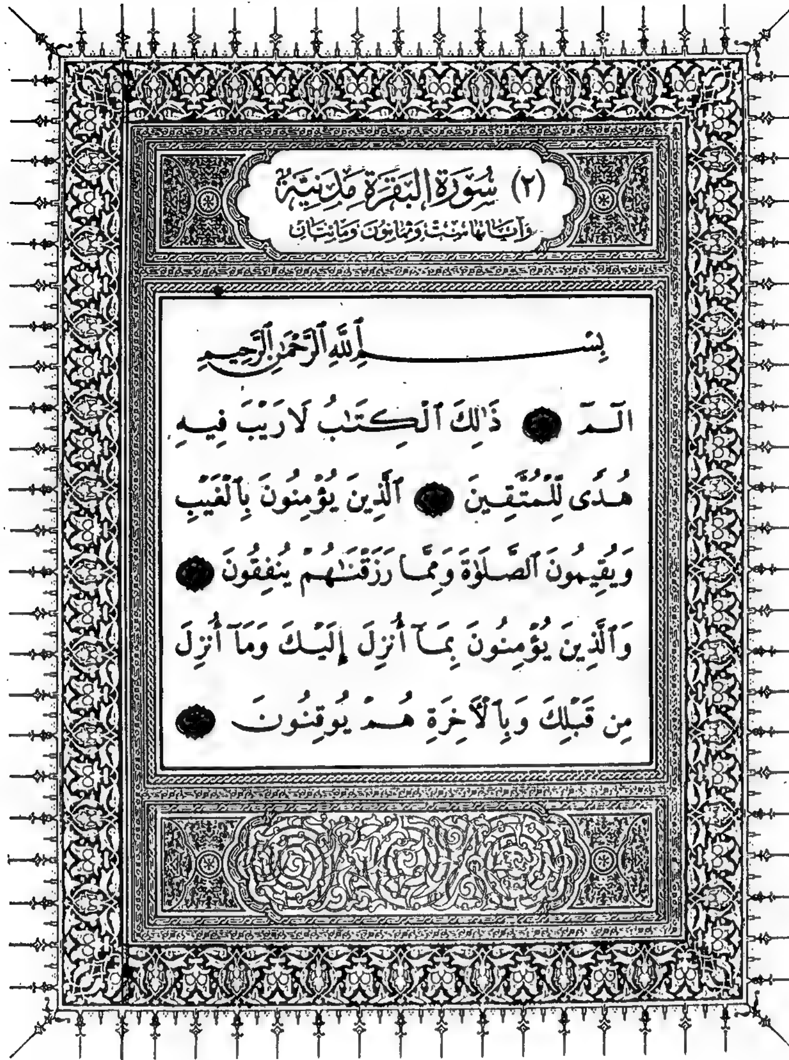

﴿ الٓم ﴾ هذه أمثلة من الحروف المقطعة ، ونحن نرجح الرأى القائل إنها إشارات واضحة ودلالات قاطعة على إعجاز القرآن الكريم . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف فى أوائل السور بيانا لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التى يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين .

ومن لطائف ما ذكره بعض المفسرين أننا لو جمعنا كل الحروف التى افتتحت بها هذه السور وحذفنا المكرر منها لكونت لنا جملة تقول : « نص حكيم قاطع له سر » . وجاء ذكر القرآن بعد هذه الحروف للتنويه بإعجازه وعجز الخلق عن الإتيان بمثله .

قوله تعالى : ﴿ ذلك الكتاب ﴾ بذكر لام البعد فى اسم الإشارة للدلالة على بعد طبقته فى البلاغة وعلو مكانته فى الشرف . قال تعالى : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلىّ حكيم ﴾[١] . . وقد جاء الكتاب معرفا بالألف واللام بعد اسم الإشارة لإفادة الحصر والقصر عن طريق تعريف المسند والمسند إليه كأنه قيل « ذلك هو الكتاب الذى اجتمعت له جميع صفات الحسن والكمال ومعانى الجلال والجمال » .

ثم بعد ذلك وصفه الله تعالى بأنه ﴿ لا ريب فيه ﴾ أى لا يعتريه شك ولا ريبة إذ أن الريبة تدعو إلى القلق وهذا الكتاب لأنه صدق فإن جميع ما فيه يدعو إلى الطمأنينة إنه ذكر حكيم من الله العلى العظيم . ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[٢] . قال تعالى مبينا وظيفة هذا الكتاب ورسالته ﴿ هدى للمتقين ﴾ : والهدى أجل نعمة ينعم الله بها على العبد ، لذا جاء فى سورة الفاتحة دعاء تدعو به الجماعة ربها وخالقها ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وكأن هذه الآية من سورة البقرة جاءت بيانا للذين يطلبون الهدى من الله وكأن القرآن ينادى عليهم : يا من تطلبون الهدى التمسوه فى هذا الكتاب وإنما قال ﴿ هدى ﴾ ولم يقل « هادٍ » لأن الهادى هو المتصف بالهدي ، أما ذلك الكتاب فهو الهدى نفسه كما تقول « عمر عدل » أى هو العدل نفسه . وقد يطلق الهدى ويراد به خلق قدرة الطاعة فى العبد ويراد به البيان والإرشاد كما سبق بيان ذلك فى تفسير سورة الفاتحة . لمن الهدى ؟ للمتقين ، ومن المتقى ؟ إنه الذى جعل بينه وبين محارم الله وقاية فلا يفتقده الله حيث أمره ولا يجده حيث نهاه . سأل عمر « أبى بن كعب » عن التقوى فقال له : أما سلكت طريقا ذا شوك ؟ قال : بلى ، قال : فما عملت ؟ قال : شمرت واجتهدت ، قال : فذلك التقوى . وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال :

خـل الـذنـوب صغيرهـا ... وكـبـيـرهـا ذاك الـتـقـى
واصنـع كمـاشٍ فـوق أر ... ض الشوك يحذر مـا يـرى
لا تحـقـرن صـغـيـرة ... إن الجبـال مـن الحصى[٣]

وفى سنن ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيرا من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته وإن أقسم عليها أبرته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »[٤] .

أين التقوى ؟ أشار النبى ﷺ إلى صـدره وقال : (التقـوى هاهنـا)[٥] . فمن هم المتقون ؟ هم الخائفون من الجليل ، العاملون بالتنزيل ، الراضون بالقليل ، المستعدون ليوم الرحيل . فما أوصافهم ؟ ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبـالآخرة هم يـوقنون ﴾ . فبم حكم الله لهم ؟ ﴿ أولئـك على هـدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ . فما بيان ما ذكر ؟ ﴿ الذين يؤمنون ﴾ أى يصدقون وإنما عبر هنا بالاسم الموصول لتفيد جملة

(١) سورة الزخرف الآيتان : ٣ ، ٤ .
(٢) سورة الرعد آية : ٢٨ .
(٣) تفسير القرطبى جـ ١ ص ١٦٢ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٠ ط الشعب .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٦٥ ط دار الفكر .

الصلة (وهى يؤمنون) استمرار الإيمان . والإيمان تصديق قلبى ، أى محله القلب ، قال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ ، وقال عز وجل : ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم ﴾ ؛ وقال صلوات الله وسلامه عليه : (ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ، ولكن هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل)[١] . وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ؛ وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

وأول ركن من أركان الإيمان فى هذه الآية : الإيمان بالغيب ، وهو ما غاب عنا من الأمور التى لا تُعلم إلا بالسماع من الصادق ، وهو ما يسمى فى علم العقائد بالسمعيات : كالجنة والنار والصراط والميزان إلى غير ذلك .

وليس الإيمان مقصوراً على الغيب ، إنما لابد أن يصحبه عمل صالح . قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ وإنما عبر بالإقامة دون الأداء لأن الأداء هو الإتيان بأركانها وشروطها وسننها .

أما الإقامة : فهو الإتيان بها مستقيمة الأركان والشروط والسنن ، أى مع التزام الخشوع والطمأنينة فى كل وقت ، وذلك من باب أقمت الشىء إذا عدلته . قال تعالى : ﴿ فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ﴾[٢] . قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ويكلمنا ونكلمه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه » . وسئل حاتم الأصم رضى الله عنه : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ قال : « إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى والنار ورائى والجنة عن يمينى والنار عن شمالى والصراط تحت قدمى والله مطلع علىّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردَّها علىّ » .

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول : « من أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن » . ألا تدرى ماذا يقول الملك عندما يؤذن للصلاة ؟ عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (إن لله ملكا ينادى عند كل صلاة : يابنى آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها فاطفئوها)[٣] ، والنيران هنا هى نيران الذنوب ، والصلاة هى الماء الذى يطفىء هذه النيران . إن الصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان وطهارة أدران وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون وعلى الواجب هم قادرون . عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق ، وخير مايعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل مايريد به المخلوق التوجه إلى الخالق . انظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع وكيف ساوت العِلْيَة بالزمع ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة شرعوا فى عتبة الله .

(١) ابن النجار ، الديلمى فى مسند الفردوسى.
(٢) سورة الكهف آية : ٧٧ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٥٧ .

اسمع معى إلى ما قاله سيد الخلق صلوات ربى وسلامه عليه فى فضل الصلوات الخمس ، وضرورة المحافظة عليها والإيمان بوجوبها ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لايبقى من درنه شىء . قال : فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)[١] . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا)[٢] .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (المسلم يصلى وخطاياه مرفوعة على رأسه ، كلما سجد تحاتّ عنه فيفرغ من صلاته وقد تحاتت عنه خطاياه)[٣] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم ، وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)[٤] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أول ما افترض الله على الناس من دينهم الصلاة وآخر ما يبقى الصلاة وأول ما يحاسب به الصلاة ، ويقول الله : انظروا فى صلاة عبدى ، فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة يقول : انظروا هل لعبدى من تطوع ؟ فإن وجد له تطوع تمت الفريضة من التطوع ، ثم قال : انظروا هل زكاته تامة ؟ فإن كانت تامة كتبت تامة ، وإن كانت ناقصة قال : انظروا هل له صدقة ؟ فإن كانت له صدقة تمت له زكاته)[٥] .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (مفتاح الجنة الصلاة ، ومفتاح الصلاة الطهور)[٦] .

وعن عبد الله بن قرط رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول مايحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله)[٧] . وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا صلاة لمن لا طهور له ، ولا دين لمن لا صلاة له ، إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد)[٨] .

هذا بعض مما قاله الصادق المعصوم فى فضل الصلوات الخمس المفروضة ، ولننتقل إلى سماع بعض

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٥٨ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٩٤ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٦١ .
(٦) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ٢ ص ٥٣٧ .
(٧) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ٤٣٢ .
(٨) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ٢ ص ٧٢٦ .

ما قاله صلوات ربى وسلامه عليه فيمن يؤدى هذه الصلوات فى بيوت الله :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (صلاة الرجل فى الجماعة تُضَعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسا وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رُفعت له بها درجة ، وحُطَّ عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مُصَلاَّهُ : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال فى صلاة ماانتظر الصلاة)(١) . وفى رواية: (اللهم اغفر له ، اللهم تُب عليه مالم يؤذ فيه ، مالم يحدث فيه) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (أتانى الليلة آت من ربى ، وفى رواية : رأيت ربى فى أحسن صورة ، فقال لى يا محمد قلت : لبيك رب وسعديك . قال : هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : الله أعلم، فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديى . أو قال : فى نحرى فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض أو قال : مابين المشرق والمغرب . يا محمد أتدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم فى الدرجات والكفارات ، ونقل الأقدام إلى الجماعات ، وإسباغ الوضوء فى السبرات(٢) ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، ومن حافظ عليهن عاش بخير ومات بخير وكان من ذنوبه كيوم ولدته أمه . قال يا محمد : قلت لبيك وسعديك(٣) . فقال : إذا صليت فقل اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة(٤) فاقبضنى إليك غير مفتون . قال والدرجات : إفشاء السلام وإطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام)(٥) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله ليضىء للذين يتخللون إلى المساجد فى الظلم بنور ساطع يوم القيامة)(٦) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاثة كلهم ضامن على الله ، إن عاش رُزق وكُفى ، وإن مات أدخله الله الجنة : من دخل بيته فسلَّم فهو ضامن على الله ، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامن على الله ، ومن خرج فى سبيل الله فهو ضامن على الله)(٧) .

وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : (أى البقاع خير ؟ قال : لا أدرى . قال : فاسأل عن ذلك ربك عزَّ وجلَّ . قال : فبكى جبريل عليه السلام ، وقال يامحمد : ولنا أن نسأله هو الذى يخبرنا بما يشاء ، فعرج إلى السماء ، ثم أتاه فقال : خير البقاع بيوت الله فى الأرض ، قال : فأى البقاع شرٌّ ؟ فعرج إلى السماء ثم أتاه فقال : شر البقاع الأسواق)(٨) .

﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ : هذا النص الكريم يضيف صفة أخرى إلى المتقين : إنه الإنفاق مما رزق

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٧٣ .
(٢) شدة البرد .
(٣) اجابة بعد اجابة .
(٤) امتحان واختبار .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٧٥ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٤٥ .
(٧) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٤١ .
(٨) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٤٧ ١٤٨ .

الله . ومن رحمة الله بالعباد أنه جعل المقدار الذى يُزكى به جزءا قليلا من المال فقال ﴿ مما ﴾ . والرزق هو مايسوقه الله تعالى إلى العباد من مال وصحة وذكاء وعافية ، وليس مقصورا ــ كما ذكر بعضهم ــ على المأكول والمشروب ، فذلك جزء لا كل . فالعلم على وجه المثال رزق،وزكاته تعليم الناس وإرشادهم والبعد عن كتمانه ، والصحة رزق وزكاتها إعانة الضعفاء وإغاثة الملهوفين . وقد علم الله ما فى النفوس من الشح بالمال فقال فى ذلك : ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾(١) ومن ثم جعل المقدار الذى يخرج عن المال يسيرا ، فهوربع العشر فى النقدين وزكاة التجارة،وهو العشر أو نصفه فى زكاة الزروع والثمار،وهو الخمس فى زكاة الركاز . قال تعالى : ﴿ ولا يسألكم أموالكم ﴾(٢) أى كلها ، ثم بين الحكمة من ذلك فقال : ﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم ﴾(٣) .

وقد جاء الإسلام ليروض البخل فى النفوس ويقلم أظفاره ومخالبه ، فرغب فى العطاء والبذل . قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾(٤) .

وفى فضل الزكاة : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال لمن حوله من أمته : (اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة . قلت ماهى يارسول الله ؟ قال : الصلاة والزكاة والأمانة والفرج والبطن واللسان)(٥) . وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل يارسول الله : أرأيت إن أدّى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (من أدى زكاة ماله ، فقد ذهب عنه شره)(٦) .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع)(٧) .

وعن عُبيد بن عُمير الليثى رضى الله عنه عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : (إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلوات الخمس التى كتبهن الله عليه ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه ، ويؤتى الزكاة محتسبا طيبة بها نفسه ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها ، فقال رجل من أصحابه يارسول الله : وكم الكبائر ؟ قال : تسع أعظمهن الإشراك بالله ، وقتل المؤمن بغير حق ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالِدَيْن المسلِمَين ، واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتا ، لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ، ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا رافق محمدا ــ ﷺ ــ فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب)(٨) .

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٨ .
(٢) سورة محمد آية : ٣٦ .
(٣) سورة محمد الآيتان : ٣٧ ، ٣٨ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٦١ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٢٧ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٢٨ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٢٨ .
(٨) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا أديت الزكاة فقد قضيت ماعليك ، ومن جمع مالا حراما ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر ، وكان إصره عليه)[١] . والإصر هو الإثم .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالزكاة أن قرنها بالصلاة ، وبين الصلاة والزكاة تمام اتصال وارتباط . فالصلاة طهارة للقلب والزكاة طهارة للمال ، ولن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء . وقد بلغ من عناية الإسلام بهما أن ذكرهما بأساليب متنوعة ، فقد يذكرهما بصيغة الماضى كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾[٢] . وذكرهما بصيغة المضارع كما فى قوله تبارك اسمه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾[٣] . وذكرهما بصيغة الأمر : قال تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون ﴾[٤] . وذكرهما بصيغة المصدر . قال عز من قائل : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾[٥] . وذكرهما سبحانه وتعالى بصيغة الوصف . قال سبحانه : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾[٦] .

كانت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تكنى بأم الطيب لأنها كانت تمسِّك دراهم الصدقة (أى تضعها فى المسك) وسئلت فى ذلك فقالت : لأننى أضعها فى يد الله قبل أن أضعها فى يد المسكين . وكانت إذا تصدقت ودعا لها المسكين دعوة ردت على دعوته بدعوةمثلهافسئلت فى ذلك فقالت : حتى تكون دعوتى مقابل دعوته وتظل الصدقة خالصة لوجه الله .

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يتصدق بقطع السكر فسُئل فى ذلك فقال : لأننى أحبه والله تعالى يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[٧] . وقد بلغ من عظم الصدقة عند الله أنها تعالج ما فى النفوس من أحقاد وضغائن . قال صلوات الله وسلامه عليه : (أفضل الصدقة الصدقة على ذى الرحم الكاشح)[٨] ، والكاشح هو الذى يضمر السوء والبغضاء . ذلك لأن الصدقة عليه لها غايتان شريفتان : الغاية الأولى أن فيها جهادا للنفس ، فعندما يتصدق الإنسان على المسىء إليه فهو بذلك قد خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . والغاية الثانية:أن الصدقة تطفىء مافى القلوب من أحقاد وشحناء وبهذا تكون الصدقة قد قامت بدور اجتماعى وإصلاح خلقى . وكفى بالصدقة مكانة عند الله أن رسول الله ﷺ قال فى شأنها : (صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، والصدقة خفيا تطفىء غضب الرب . وصلة الرحم تزيد فى العمر . وكل معروف صدقة ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، وأهل المنكر فى الدنيا

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٣١ .
(٢) سورة التوبة آية : ١٨ .
(٣) سورة التوبة آية : ٧١ .
(٤) سورة النور آية : ٥٦ .
(٥) سورة النور آية : ٣٧ .
(٦) سورة النساء آية : ١٦٢ .
(٧) سورة آل عمران آية : ٩٢ .
(٨) الجامع الصغير جـ ١ ص ١٩٠ ط دار الفكر .

هم أهل المنكر فى الآخرة . وأول من يدخل الجنة أهل المعروف)[١] .

وقد بلغ من سخاء الرسول وكرمه أنه كان أجود من الريح المرسلة . وكان يقول : (اصنع المعروف فى أهله وغير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله)[٢] .

ازرع جميلا ولو فى غير موضعه   فلن يضيع جميل أينما زرعا
إن الجميل ولو طال الزمان به   فليس يحصده إلا الذى زرعا

فيا أخا الإسلام :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها   على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت   ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

﴿ **والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ : من صفات المتقين الإيمان بالكتب كلها توراة وزبورا وإنجيلا وقرآنا قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزَّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾[٣] .

وقال عز من قائل : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾[٤] . وقال تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾[٥] . فلابد للمؤمن أن يؤمن بالغيب والكتب المنزلة على أنبياء الله ، كما لابد له أن يؤمن إيمانا يقينا بالآخرة ، أى البعث بعد الموت كما قال عزَّ من قائل فى وصف المتقين : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ . وقد ورد فى القرآن من الأدلة مايثبت قضية البعث إثباتا جازما لا مرية فيه ، ونسوق فى هذا المجال آية من سورة الحج ، هذه الآية أنتجت خمس نتائج . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[٦] .

هذه الآية أنتجت خمس نتائج : أولاها : قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ . ثانيتها : ﴿ أنه يحيى الموتى ﴾ . ثالثتها : ﴿ أنه على كل شىء قدير ﴾ . رابعتها : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ . وخامستها : ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .

ولما جاء أبى بن خلف إلى رسول الله ﷺ بقطعة من عظام الموتى وفركها بين كفيه ونفخها وقال ساخرا : يامحمد : أترى أن الله يحيى هذه العظام بعدما رمَّت وبليت ؟ فأجابه الرسول على الفور قائلا : (نعم يميتك

---

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٠٠ ط دار المعارف .
(٢) الجامع الصغير جـ ١ ص ١٦٥ ط دار المعارف .
(٣) سورة النساء آية : ١٣٦ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .
(٦) سورة الحج آية : ٥ .

الله تعالى ثم يبعثك ، ويدخلك النار)[١] . وإذا بكبير أمناء وحى السماء وسفير الأنبياء يجوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق وينزل بهذا المشهد المهيب على أمين الأرض والسماء : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ . وهنا يجيب القرآن بخمسة أدلة يلقم فيها المعاندين والمكابرين بحججه الساطعة وبراهينه القاطعة . أما الدليل الأول : فقوله تعالى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ والدليل الثانى قوله جل شأنه : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ . والدليل الثالث قوله تبارك اسمه : ﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ . والدليل الرابع قوله تبارك وتعالى : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ . والدليل الخامس قوله جل جلاله : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[٢] .

إن الذى أنشأ الإنسان من العدم قادر على الإعادة من باب أولى ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من فى السماوات والأرض كل له قانتون * وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٣] . وقال فى سورة مريم : ﴿ ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حيًّا * أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾[٤] . إن الذى خلق العالم الأكبر وهو خلق السماوات والأرض قادر على أن يعيد خلق الإنسان بعد تفرق أجزائه . وإن الذى جمع بين الضدين من الخضرة والنار فجعل النار كامنة فى الشجر الأخضر قادر على أن يعيد الحياة بحرارتها إلى الأجسام الفانية ببرودتها . إن هذا الذى سيعيد الحياة إلى الموتى هو الذى أمره بالكاف والنون وهو الذى بيده ملكوت كل شىء ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾[٥] . وإنما سميت بالآخرة لأنها تأتى بعد الدنيا . وفى القرآن الكريم سورتان بدأهما الله تعالى بنداء موجه إلى الناس أولاهما دلت على مبدأ الخلق ، والثانية على إعادته وهو مايعرف عند علماء العقيدة بالمبدأ والمعاد . كان ترتيب السورة الأولى الرابع من النصف الأول من القرآن وهى سورة النساء . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[٦] . وكان ترتيب السورة الثانية الرابع من النصف الثانى من القرآن وهى سورة الحج . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[٧] . ولنا كتاب فى هذا الموضوع اسمه « البعث والجزاء » فمن أراد مزيدا من التفصيل فليرجع إليه .

---

(١) تفسير القران العظيم لابن كثير جـ ٦ ص ٥٧٩ ط الشعب .
(٢) سورة يس الآيات : ٧٧ ـ ٨٣ .
(٣) سورة الروم الآيات : ٢٥ - ٢٧ .
(٤) سورة مريم الآيتان : ٦٦ ، ٦٧ .
(٥) سورة فاطر آية : ٤٤ .
(٦) سورة النساء آية : ١ .
(٧) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢ .

أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾

﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ : هذه الآية بمثابة الحكم بعد ذكر الحيثيات ، فهؤلاء المتصفون بالتقى والإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإنفاق والإيمان بالكتب المنزلة واليوم الآخر حكم الله لهم بأنهم على هدى وبأنهم المفلحون الفائزون بدرجات الجنة والسعادة فى الدنيا ، وإنما عبر باسم الإشارة الدال على البعد ﴿ أولئك ﴾ ولم يقل هؤلاء لبعد مكانتهم وعلو أقدارهم وإنما كرر اسم الإشارة ليفيد عظم الأجر وذلك لإفادة أن كل واحد منهم على هدى وأن كل واحد منهم مفلح ويكون ذلك أعظم عندما جمع الله لكل واحد منهم الأمرين : الهداية والفلاح وإنما جاء التعبير بحرف الجر ﴿ على ﴾ لإفادة التمكن والتثبيت والاستقرار على الهدى ، وما أعظم الهدى من نعمة وما أجلّ الفلاح من غاية ، وإنما جاء بضمير الفصل ﴿ هم ﴾ بين المسند والمسند إليه لإفادة الحصر والقصر كأنه قال : أولئك هم المفلحون لا غيرهم والفائزون لا سواهم .

قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾(١) أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة .
وقال عزّ من قائل : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٢) .

لاتـركنن إلى القصـور الفـاخـره ... واذكر عظامك حين تمسى ناخره
وإذا رأيت زخـارف الـدنيـا فقـل ... يـارب إن الـعيش عـيش الآخـره

وينتقل بنا النظم الكريم من الحديث عن المتقين إلى الحديث عن الكافرين ، ومن أصحاب القلوب السليمة إلى أصحاب القلوب الميتة ، والضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتميز الأشياء .

﴿ إن الذين كفروا ﴾ : الكفر ستر الشىء وتغطيته وإنكار الحق وجحوده ، وإنكار ماهو معلوم من الدين بالضرورة كإنكار الوحدانية والبعث بعد الموت والملائكة والكتب والرسل والقدر . وقد يكون ناشئا عن الاستكبار ككفر إبليس . قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾(٣) . وقد يكون الكفر ناشئا عن عناد ككفر فرعون . قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾(٤) .

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ٣٨ .
(٣) سورة ص الآيات : ٧١ - ٧٤ .
(٤) سورة الإسراء الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .

فتأمل معى هذا النص ﴿ لقد علمت ﴾ يفيد أن فرعون كان عالما بأن رسالة موسى من رب السماوات والأرض وأن الآيات من عند المولى جلّ وعلا ومنها اليد والعصا . . . وقد يكون الكفر ناشئا عن جحود كجحود الشيوعية لخالق الأكوان . وقولهم لا إله ، والحياة مادة ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[1] .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

قيل لأبى بكر الصديق رضى الله عنه : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى . قالوا : فكيف عرفته ؟ قال : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله إشراك .

وقيل لأحد الصالحين : ما الدليل على وجود الله ؟ قال : ومتى غاب سبحانه حتى تسألونى عن وجوده ؟ آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وقد يكون الكفر ناشئا عن الشرك بأن يعبد مع الله غيره من بشر أو حجر أو بقر أو غير ذلك . . . وقد يكون الكفر ناشئا عن إنكار أمر معلوم من الدين بالضرورة كإنكار البعث بعد الموت . قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ﴾[2] .

وقد يكون الكفر ناشئا عن عدم الإيمان بأحد الأنبياء والتفريق بين الله ورسله : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ۞ أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾[3] .

وقد يكون الكفر ناشئا عن عدم الإيمان بخاتم الأنبياء محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ۞ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[4] .

وقد يكون الكفر ناشئا عن الاستهزاء بالله ورسوله وآياته كالاستهزاء بالمصحف والتحقير من شأنه .

---

(١) سورة الكهف آية : ٥ .
(٢) سورة التغابن آية : ٧ .
(٣) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ .

قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾(١) .

وقد يكون الكفر ناشئا عن النفاق كما سيأتى بيان ذلك فى الآيات الخاصة بالمنافقين . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون ﴾ : الإنذار هو الإخبار المصحوب بالتخويف والوعيد ، قال تعالى : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة ﴾(٣) . وقال : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب ﴾(٤) .

وهؤلاء الكافرون لا أمل يرجى منهم ، يستوى عندهم الإنذار وعدمه ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾(٥) . ﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾(٦) . قال تعالى : ﴿ إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾(٧) . وقال جلّت قدرته : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكِّرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾(٨) . وقال عزّ شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾(٩) . . ما جزاء هؤلاء الذين قالوا : ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾(١٠)، جزاؤهم الختم على القلوب والأسماع ، فقد أصبحت قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر . والختم هو الطبع الذى يحول دون وصول النور ، وذلك لكثرة ما اقترفوه من الذنوب التى تراكمت وتكاثرت حتى كوّنت طبقة عازلة كطبقة الشمع التى تحول بين المغناطيس وبرادة الحديد . قال ﷺ : (إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك هو الران الذى ذكره الله تعالى فى القرآن ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ﴾(١١))(١٢) ، فأخبر ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص ، فذلك هو الختم والطبع الذى ذكره الله فى قوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ﴾ نظير الطبع والختم على ماتدركه الأبصار من الأوعية والظروف .

هؤلاء الكافرون قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر وعلى أبصارهم غشاوة وبينهم وبين داعى الحق حجاب مستور . لذلك يندمون يوم الحشر لتعطيلهم تلك النعم التى أنعم الله بها عليهم : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو

(١) سورة التوبة الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ .
(٢) سورة النساء آية : ١٤٥ .
(٣) سورة غافر آية : ١٨ .
(٤) سورة ابراهيم آية : ٤٤ .
(٥) سورة فاطر آية : ٨ .
(٦) سورة نوح الآيات : ٥-٧ .
(٧) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .
(٨) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥ .
(٩) سورة القمر الآيتان : ٢ ، ٣ .
(١٠) سورة الأعراف آية : ١٣٢ .
(١١) سورة المطففين آية : ١٤ .
(١٢) مسند الامام أحمد جـ ٢ ص ٢٩٧ .

نعقل ماكنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾[١] . قال جلت حكمته : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٢] . أما فى الآخرة فلهم عذاب عظيم : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[٣] . قال تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقابا * لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا * إلا حميما وغساقاً * جزاء وفاقا * إنهم كانوا لايرجون حسابا * وكذبوا بآياتنا كذابا * وكل شىء أحصيناه كتابا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[٤] .

وينتقل بنا النظم الكريم من أصحاب القلوب الميتة ، وهم الكافرون ، إلى أصحاب القلوب المريضة ، وهم المنافقون ، فيذكر فى شأنهم ثلاث عشرة آية . قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ

(١) سورة الملك الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .
(٤) سورة النبأ الآيات : ٢١ ــ ٣٠ .

أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ
ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

النفاق مرض اجتماعى خطير ، وهو إظهار خلاف الباطن كإظهار الخير وإضمار الشر أو إظهار الإسلام وإضمار الكفر ، ومن ثمَّ فقد ورد فى شأنه ثلاث عشرة آية لأنه أشد من الكفر . . ومن صفات المنافقين ماورد فى قوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا﴾(١) . كذلك وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وقد نزَّل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا﴾(٢) . ومن أوصافهم ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾(٣) . ومن أوصافهم ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾(٤) . ثم حكم الله على أهل هذه الأوصاف بقوله : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾(٥) . ومع ذلك كله فإن رحمة الله لا تضيق بأحد فقد فتح باب التوبة لمن تاب فقال : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾(٦) .

والنفاق قسمان : اعتقادى وعملى . أما الاعتقادى فهو إضمار الكفر وإظهار الإسلام . قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾(٧) . وهذا نفاق يخرج عن الملة ويخلد فى النار .

أما النفاق العملى فهو انحراف فى السلوك : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر .

فهذه صور للنفاق السلوكى الذى لايخرج عن الملة وإنما تجب التوبة منه والتخلى عنه ويعلو بنفسه إلى مراقى الفلاح ، فإذا حدث صدق وإذا وعد أوفى وإذا أؤتمن أدى وإذا عاهد التزم وإذا خاصم عدل .

(١) سورة النساء الأيتان : ١٣٨ ، ١٣٩ .
(٢) سورة النساء آية : ١٤٠ .
(٣) سورة النساء آية : ١٤١ .
(٤) سورة النساء الأيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٥) سورة النساء آية : ١٤٥ .
(٦) سورة النساء آية : ١٤٦ .
(٧) سورة المنافقون آية : ١ .

وهذه الآيات التى ذكرناها من سورة البقرة تحدثنا عن النفاق الاعتقادى المخلد فى النار المخرج عن الملة . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ ثم عقب على قولهم بقوله : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ وذلك لأنهم قالوها بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم فخالفوا بذلك حقيقة الإيمان لأن الإيمان كما قال الصادق المعصوم : (ما وقر فى القلب وصدقه العمل) . إذن فماذا يريدون بهذا القول ؟ يريدون الخداع والمكر ، فمن يخادعون ؟ إنهم فى زعمهم الفاسد وتزيين الشيطان لهم يخادعون الله . والخداع إظهار ما لا يبطن المرء ونسوا أن الله تعالى يعلم ما فى الصدور : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾[1] . ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2] . ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[3] .

الله يدرى كل ما تضمر — يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع — خداع من يطوى ومن ينشر

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ : فكيف يخدعون المؤمنين ؟ ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ . وقد حدد الله مواقفهم فى خمسة أشياء :

أولا : يقولون ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر ﴾ وحكم الله عليهم بقوله : ﴿ وما هم بمؤمنين ﴾ . ثانيا : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ﴾ وقد كشف الله زيفهم وضلالهم بقوله : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ . أنهم يخدعون أنفسهم فهم كالنعامة التى دفنت رأسها فى الرمال وظنت أن الصياد لا يراها .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا — إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم أنه بك واثق — وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة — ويروغ منك كما يروغ الثعلب

لماذا فعلوا هذا ؟ ابحث عن القلوب وفتش عن الصدور واقرأ قوله جل شأنه : ﴿ فى قلوبهم مرض ﴾ والنفاق من أشد الأمراض . ولما كانوا كذلك زادهم الله مرضا على مرضهم ورجسا إلى رجسهم فى الدنيا ولهم عذاب أليم فى الآخرة بسبب كذبهم . وقد حذّر الرسول ﷺ من الكذب تحذيرا شديدا فقال : (وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[4] . عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله .... وما عمل أهل النار ؟ قال : (الكذب ، إذا كذب العبد فجر ، وإذا فجر كفر ، وإذا كفر ، دخل النار)[5] .

(١) سورة طه آية : ٧٠ .
(٢) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة غافر آية : ١٩ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٢٦ ط وزارة الأوقاف .
(٥) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٢٦ ط وزارة الأوقاف .

الموقف الثالث : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ووجوه الإفساد كثيرة لا تحصى ومواقعه لا تستقصى .

وقد نهى الإسلام عن أشياء وجاءت الحكمة فى النهى عنها واضحة جلية ، فمن ذلك ما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾(١) . ثم فتح باب الأمل فى التوبة ونعت بالظلم من لم يتب فقال : ﴿ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾(١) . فالسخرية بالناس فساد ولمز الناس وطعنهم فساد والإشراك بالله فساد والسحر فساد وقتل النفس التى حرم الله قتلها فساد . بل إن من أعان على قتل مسلم جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله . وأكل الربا فساد ، فقد لعن الله الربا وآكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه ، كذلك قذف المحصنات الغافلات المؤمنات : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾(٢) ، ولقد وقع المنافقون فى هذا المستنقع العفن عندما رموا أم المؤمنين عائشة بما برأها الله منه من فوق سبع سموات والدنيا كلها تعلم علم اليقين أن عائشة أنصع من ماء الغمام وأطهر من السحابة فى سمائها ، والمنافقون لما فشلوا فى ميادين الشرف وساحات القتال وانتصر الإسلام عليهم فى كل المواقع دفعتهم قيمهم الحقيرة ونفوسهم الصغيرة أن يتهاووا فى ميادين السب وقذف الأعراض ، وهو فساد دونه أى فساد ، كذلك شهادة الزور التى تجعل من الحق باطلا ومن الباطل حقا فتختل بسببها الموازين وتضيع الحقوق ، كذلك الاعتداء على الأعراض وإشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا ، بل إن حب إشاعتها يعتبر فى حد ذاته فسادا ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(٣) . وشرب الخمر فساد بل هى ملعونة ولعن الله شاربها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها بل إن الجلوس على مائدتها فيه مخالفة لطاعة الله ، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر . والميسر فساد بينه الله تعالى فى قوله : ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾(٤) . وأكل مال اليتيم فساد كذلك أوعد الله الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما فقال : ﴿ إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾(٥) ، إذ أن خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم . وقد بشر رسول الله كافل اليتيم بشرى تهتز لها القلوب فرحا ، وقد أشار بإصبعيه الشريفين وقال : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)(٦) . ومن أبشع أنواع الفساد : الظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة ، والظلم هو الذى يدمر الأمم ويجتاحها وتزلزل الأرض تحت أقدامها . ولو أخذنا نحصى آيات القرآن فى تاريخ الأمم التى ظلمت فأبيدت لطال بنا الحديث ويكفينا هنا قول الله جل

(١) سورة الحجرات آية : ١١ .
(٢) سورة النور الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) سورة النور آية : ١٩ .
(٤) سورة المائدة آية : ٩١ .
(٥) سورة النساء آية : ١٠ .
(٦) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ٤١٦ .

شأنه : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[٢] وقوله عز وجل : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[٣] وقوله جل جلاله : ﴿ وماكنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٤] وقوله سبحانه : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٥] وقوله عز وجل : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى وأهلها مصلحون ﴾[٦] . إن الله جل جلاله حرم الظلم على نفسه ، وجعله محرما بين عباده . بل إن هناك امرأة دخلت النار فى ماذا ؟ فى هرة حبستها لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعا . سبحان الله . فى هرة عذبتها ؟ لك الأمر كله يارب يا أرحم الراحمين ، يا كاشف الضر عن البائسين ، يا من تعلم السر والنجوى هب لنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا واجعل معونتك العظمى لنا سندا . فالرحمة لا تنزع إلا من شقى . بل إن الإسلام يفتح باب الجنة أمام رجل مذنب لماذا ؟ لأنه سقى كلبا كان قد اشتد به العطش ، شكر الله له صنيعه فغفر له ذنبه . فالراحمون يرحمهم الرحمن . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . يا أرحم الراحمين ويارب المستضعفين إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى فأنت القائل ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء ﴾[٧] وأنا شيء فلتسعنى رحمتك .

أنت الذى تهب كثيراً وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات ؟ .

أيها الناس : من لا يَرحم لا يُرحم ، وبالكيل الذى يكيل به للناس سيكال به عليه ، وبعد صفو الليالى يحدث الكدر .

يانائم الليل مسرورا بأوله ... إن الحوادث قد يأتين أسحارا

البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان . اعجب معى لدين يفتح أبواب الجنة أمام رجل أسرف على نفسه فى الذنوب ولكنه سقى كلبا كان قد اشتد به العطش حتى جعل الصحابة يسألون صاحب الرسالة العصماء : أئن لنا فى البهائم لأجرا ؟ قال : نعم ، فإن لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر ، ويفتح أبواب النار أمام امرأة عذبت هرة بالحبس حتى ماتت جوعا .

دين يشيد آية فى آية ... لبناته السورات والأضواء
الحق فيه هو الأساس وكيف لا ... والله جل جلاله البناء

فماذا كان رد المنافقين عندما يقال لهم ﴿ لا تفسدوا فى الأرض ﴾ قالوا ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ هكذا بأسلوب الحصر والقصر ، أى ما نحن إلا مصلحون . وهكذا أهل الضلال فى كل زمان ومكان يلقاك

(١) سورة الحج آية : ٤٥ .
(٢) سورة الحج آية : ٤٨ .
(٣) سورة الكهف آية : ٥٩ .
(٤) سورة القصص آية : ٥٩ .
(٥) سورة يونس آية : ١٣ .
(٦) سورة هود آية : ١١٧ .
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٦ .

أحدهم عناقا ويقسم أنه لا يطيق لك فراقا ، ملك كريم فى مظهره شيطان رجيم فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر وقلب أبى لهب . ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ . سبحان الله ! إذا لم يكن هذا هو الفساد بعينه فماذا يكون الفساد ؟ وأى إصلاح يقصدون ؟ الفتنة ، إشاعة الإشاعة وترويجها ؟ الرشوة التى قال عنها الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : (لعن الله الراشى والمرتشى والرائش)(١) ، وهو الذى يأخذها من الراشى ويدفعها إلى المرتشى هذا أيضا شملته اللعنة . نعم أى إصلاح يريدون ؟ إيذاء المؤمنين وتعذيبهم وتحريض اليهود عليهم . ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ : السخرية بأهل التوحيد ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾(٢) . أهذا هو الإصلاح ؟ كلا والله . إنه منطق النفاق والتضليل والإضلال والزور والبهتان والكذب والإفك والخسران ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاد ﴾(٣) لكن شاءت حكمة الله ألا يترك هؤلاء المهاترين ومايقولون . هل هم مصلحون كما قالوا ؟ لا . إن حكم الله قاطع فى الصدق . فإذا قال وحكم فلا معقب لحكمه ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ولا مبدل لكلماته . لقد حكم الله عليهم بقوله : ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ . هكذا بالتقرير والتوكيد ، فعندما قالوا ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ بأسلوب القصر رد الله عليهم بما يناسب حالهم ومقالهم فجاء بأداة التنبيه ﴿ ألا ﴾ وجاء بحرف التوكيد (إنّ) وجاء بضمير الفصل ﴿ هم ﴾ وجاء بأداة التعريف (أل) كل هذا ليلقمهم الحجة ويفحمهم بالمنطق السديد الذى لا يدركه إلا كل ذى عقل رشيد ﴿ ألا إنهم هم المفسدون ﴾ هم لا غيرهم ، فقد انحصر فيهم الفساد بكل أشكاله وألوانه وفى كل من لف لفهم وسار على دربهم واتخذوه بطانة لهم : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا * أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾(٤) . قال تعالى : ﴿ ولكن لايشعرون ﴾ وهكذا الذين ينغمسون فى الفساد ، يفقدهم انغماسهم فى لجحه العنيفة ودواماته المتغلغلة ، يفقدهم الإحساس ، والإحساس نعمة من نعم الله العظمى بحيث إنهم بانغماسهم أصبحوا لايشعرون بشىء إذا قيل لهم ﴿ لاتفسدوا فى الأرض ﴾ أجابوا بكل جرأة وتبجح ﴿ إنما نحن مصلحون ﴾ ، وقد صدق الخليل بن أحمد إذ يقول : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك غافل فنبهوه ، ورجل لايدرى ويدرى أنه لايدرى فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لايدرى ولا يدرى أنه لايدرى فذلك مكابر فامقتوه . والمنافقون مكابرون معاندون ، إنهم فى كل مجتمع عالة فى السراء ، وسوس ينخر فى الأمة حالة الضراء . فما أشقى مجتمعا إذا قيل للمفسدين فيه لاتفسدوا قالوا إنما نحن مصلحون ، وما أتعس أمة أصبح الحق فيها باطلا والباطل حقا والمعروف فيها منكرا والمنكر فيها معروفا ، وما أيأس شعبا أصبح الذئب فيه

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٠٦ ط دار الفكر .
(٢) سورة المطففين الآيات : ٢٩ ــ ٣٢ .
(٣) سورة البقرة الآيات : ٢٠٤ ، ٢٠٦ .
(٤) سورة الفرقان الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .

راعيا والخصم العنيد قاضيا يُخَوَّنَ فيه الأمين ويؤتمن فيه الخؤون ويصدق فيه الكذوب ويكذب فيه الصدوق ويصبح اللئام أسعد الناس فيه .

الموقف الرابع : والموقف الرابع من مواقف المنافقين يقول فيه تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** ﴾ : ذلك داهية الدواهى وثالثة الأثافى . كيف انقلبت حقائق الأشياء والعقلاء فى كل عصر ومصر مجمعون على أن حقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسفسطائية ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾(١) . ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير * ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق * ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾(٢) . سبحان الله . كيف صار الإيمان عند هؤلاء سفها وخفة عقل،والإيمان فى حقيقته العقل كله والفكر الرشيد والمنطق السديد ؟ أليس الإيمان هو التصديق القلبى بوحدانية الله ووصفه تعالى بما وصف به ذاته من صفات الكمال والجلال والجمال والأسماء والصفات ؟ أليس الإيمان تصديقا بكتب الله ورسله وملائكته وقدره والبعث بعد الموت ؟ أليس الإيمان كما أخبر عنه الصادق المعصوم فى قوله : (ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى ولكن هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل ؟)(٣) .

أى سفه فى كل من أقر بأن لهذا الكون خالقاً مدبرا يتصرف فيه بحكمته ومشيئته وأى سفه فى مكارم الأخلاق ؟ وقد قال نبى الإسلام : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(٤)، وأى سفه فيمن آمن بأن كل شىء بقضاء وبقوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا ﴾(٥) . ليس هذا هو السفه إنما السفه غير هذا ، وأى سفه فيمن آمن بأن بعد الموت بعثا ونشورا : ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾(٦) . وكان المسيح عليه السلام يقول : يابنى إسرائيل لاتأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ولكن البسوا لباس الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله . ألست معى أن النفس تشعر بأليم المرارة عندما ترى الأمر بالإيمان يقابل بقولهم ﴿ **أنؤمن كما آمن السفهاء** ﴾ ؟ نعم إنها المرارة بعينها .

إذا وصف الطائى بالبخل مادر ... وعير قسًّا بالسفاهة باقل
وقال السها للشمس أنت ضئيلة ... وقال الدجى للصبح لونك حائل
وطاولت الأرض السماء سفاهة ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فياموت زر إن الحياة مريرة ... ويانفس جدى إن دهرك هازل

أيُرمى المؤمنون بالسفه وهم أعقل العقلاء وأفضل الناس على وجه البسيطة ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾(٧) . ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون

(١) سورة الحج آية : ٣
(٢) سورة الحج الآيات : ٨ ـ ١٠ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ط دار الفكر .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ١ ص ٣٩٥ ط دار الفكر .
(٥) سورة التوبة آية : ٥١ .
(٦) سورة النجم آية : ٢١ .
(٧) سورة الجن آية : ١٤ .

بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1] . أرأيت أضل من الأنعام ؟ إنهم هؤلاء الذين رموا المؤمنين بالسفه أضل من الأنعام لأنك لو سألت الأنعام من خلقها لأجابت بلسان الحال أنا مخلوقة للواحد الديان ، أما هؤلاء الأناس الذين عطلوا حواسهم فأصبحوا لا يعقلون بالقلوب ولا يفقهون بها ولا يبصرون بالأعين ولا يسمعون بالآذان أضل من الأنعام ، لأن وحدانية الله مركوزة فى طباع العجماوات وفطر الصبيان ، شهد له العالم كله بأنه الواحد من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه .

الشمس والبدر من أنوار حكمته ... والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبّحه والوحش مجّده ... والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدّسه ... والنحل يهتف حمدا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرا فيسترهم ... والعبد ينسى وربى ليس ينساه

أليس مما تنخلع له الأفئدة وتسيل من هوله الكبد مرارة،أن يوصف المؤمنون بأنهم سفهاء ؟ ولكن إذا عرف السبب بطل العجب .

وإذا أتتك مسبتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى كامل

أيها المؤمنون : لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

وما ضر الورود وما عليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

ما يضر البحرَ أمسى زاخرا ... أنْ رمى فيه غلام بحجر

نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

ومن يكن ذا فم مر مريض ... يجد مرا به الماء الزلالا

نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

نعم لا تحزنوا لأقوال هؤلاء

وتمثلوا قوله تعالى دائما ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾[2] .

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .
(٢) سورة الفرقان آية : ٦٣ .

ليس الحكم لهؤلاء السفهاء خفاف العقول سخاف الأحلام ، إنما الحكم ما حكم به الواحد القهار ، إذ يقول تعقيبا على ما قالوه : ﴿ ألا إنهم هم السفهاء ﴾ وأنت هنا ترى بثاقب فكرك وصائب رأيك أن تلك الجملة قد أكدت عدة توكيدات : فقد افتتحت بأداة التنبيه (ألا) وأكدت (بإنَّ) وضمير الفصل (هم) وأداة التعريف (أل) لتؤكد حصر السفه والسخف فيهم وحدهم ومن لف لفهم وسار على دربهم ، وإنما عبر فى الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿ ولكن لا يشعرون ﴾ وفى هذه الآية بقوله جل شأنه ﴿ ولكن لايعلمون ﴾،لأن الآية السابقة كان فيها نهى عن الفساد ؛ والفساد كثيرا مايكون حسيا والشعور إلى الحس أقرب ، أما هذه الآية ففيها أمر بالإيمان،والإيمان تصديق قلبى ، فهو إلى العلم أقرب ، فكان كل من الختامين مناسبا تمام المناسبة لما جاء فى الآيتين .

الموقف الخامس : ويتمثل فى قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون * الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

وهذه حال أخرى تبين لنا بيانا كافيا أحوال هؤلاء المارقين المعاندين الذين ذكرهم الله تعالى بقوله : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾(١) .

ونعتهم الله جل جلاله بقوله : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾(٢) . فقولهم للمؤمنين إنا معكم كذب،لأنهم قالوها بألسنتهم ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم . والإيمان تصديق بالقلب ، أما إذا خلوا بشياطين الإنس وما أكثرهم وما أشد خطرهم من أهل الطغيان والفسوق والعصيان وقولهم لهم إنا معكم فهم معهم فى فساد قلوب الجميع ، ولكن ليسوا معهم فى الشدائد إذا نزلت بهم ، لأنهم مذبذبون لا يثبتون على رأى ولا يستقرون على مبدأ ، إنهم الأكلون على كل الموائد المتشدقون بكل الأحاديث ، لا خير فيهم فاحذرهم أن يفتنوك ، واحذرهم أن يضلوك ، واحذرهم أن يصحبوك .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا ... إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

ودع المنافقين الدجالين الذين لايعرفون إلا منافعهم ، إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، همهم بطونهم وقبلتهم نساؤ هم ، إن كان فى جيبك قرش فأنت تساوى عندهم قرشا وإن كان معك جنيه فأنت تساوى عندهم جنيها ، وإن لم يكن معك شىء فأنت لا تساوى عندهم شيئا .

(١) سورة النساء آية : ١٤١ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ .

إن قل مالى فلا خل يصاحبنى وفى الزيادة كل الناس خـلانى
كم من عدو لأجل المال صادقنى وكم صديق لفقر المال عـادانى

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾(١) . لأنهم لم يكونوا فى الدنيا نصراء فى الحق ولا أولياء لأهل الإيمان إنما كانوا كما قال مولانا تبارك اسمه : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾(٢) .

احذر أن تصاحب هؤلاء ، وقف عند قوله تعالى فى وصف المؤمنين متدبرا متفكرا : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٣) . هذا هو المجتمع الفاضل والأمة الطيبة ، بعضهم أولياء بعض ، ولاية نصرة ومحبة ومودة ورحمة .

إن أخـاك الحق من كـان معـك ومـن يضـر نفســه لينـفعـك
ومن إذا ريب الـزمـان صـدعـك شتت فيـك شمله ليجمعـك

ثم تأمل معى ألاعيب هؤلاء الذين ورد ذكرهم فى قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ ، وكلمة خلوا هنا لها معناها ، فإنهم يخافون من النور ويخشون الضوء ، إنهم كالخفافيش التى عميت أبصارها عن رؤية الشمس فى وضح النهار ، فهم دائما فى خلواتهم وفى ظلماتهم يراوغون ويخادعون . ثم تأمل التعبير القرآنى الحكيم عن أهل الشر والفساد بأنهم شياطين ، بل إن شياطين الإنس شر من شياطين الجن بدليل قوله جل شأنه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾(٤) . اتبعه الشيطان بمعنى أن الإنس صار متبوعا والجن أصبح تابعا ، ولذا لم يقل تعالى : فتبع الشيطان . رأى الحسن البصرى رضى الله عنه إبليس ذات ليلة فى المنام فسأله : كيف حالك اليوم مع الناس ؟ قال له إبليس : بالأمس كنت أعلّم الناس طرق الضلال واليوم أصبحت أتعلم منهم طرق الضلال . ولذا يقول القائل :

وكنت امرأً من جند إبليس فـارتقى بى الحال حتى صار إبليس من جندى

قولهم ﴿ إنما نحن مستهزءون ﴾ أى مستهزءون بالمؤمنين إذا قلنا لهم آمنا فإنما ذلك سخرية بهم ، فبماذا رد عليهم أصدق القائلين ؟ قال تعالى : ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ وهذا حكم من الله جل شأنه ، ويستهزىء بهم بمعنى يجازيهم على استهزائهم وسخريتهم بالمؤمنين ويعاقبهم على ذلك،فالجزاء من جنس العمل ، فيوم القيامة تتبدل الحال غير الحال ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون ﴾(٥) ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى

(١) سورة النساء آية : ١٤٥ .
(٢) سورة التوبة آية : ٦٧ .
(٣) سورة التوبة آية : ٧١ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٧٥ .
(٥) سورة المطففين الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .

من تحتهم الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾[1] .

فتأمل معى موقف هؤلاء المنافقين فى الدنيا من المؤمنين وكيف استهزءوا بهم وسخروا منهم ؟ ثم تأمل حال المؤمنين من المنافقين فى الآخرة وكيف طلب المنافقون منهم أن ينتظروهم ليمشوا فى نورهم وكيف كان رد المؤمنين عليهم ﴿ ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ﴾[2] . أى ارجعوا إلى الدنيا واعملوا صالحا فإن العمل الصالح يكون نورا فى الآخرة وهم يعلمون أن الرجوع إلى الدنيا محال، ولكنها كلمة تنخلع لها الأفئدة وتنفطر لها الأكباد ، إنه الجزاء من جنس العمل. وقوله جل شأنه : ﴿ يمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ الطغيان هو تجاوز الحد و ﴿ يعمهون ﴾ بمعنى يترددون ويتحيرون، والله جل جلاله يمهلهم ويمدهم ويملى لهم ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[3] ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾[4] . ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾[5] . وجلت حكمة الله ، فإنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[6] .

لا تظلمن إذا ماكنت مقتدرا   فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله تعالى : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾ . هذه الآية الكريمة بمثابة الحكم بعد بيان الحيثيات ، وقد سبق تبيانها فى خمسة أشياء : ﴿ ومن الناس من يقولوا آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين ﴾ ثم ثانيا : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون ﴾ ثم ثالثا : ﴿ وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾ ثم رابعا : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾ خامسا : ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾ كل هذه الحيثيات أدت إلى حكم الله فيهم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ فليس البيع والشراء فى السلع خاصة إنما هو أيضا فيمن ترك شيئا مقابل شىء آخر فهؤلاء تركوا الهدى واشتروا الضلالة ، تركوا الهدى وهو أجل نعمة ينعم الله بها على عبده ، ألسنا نقرأ فى سورة الفاتحة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ ولو كان هناك ماهو أفضل من الهدى لأمرنا الله فى

(١) سورة الحديد الآيات : ١٢ ــ ١٥ .
(٢) سورة الحديد آية : ١٣ .
(٣) سورة القلم الآيتان : ١٤ ، ١٥ .
(٤) سورة مريم آية : ٨٤ .
(٥) سورة آل عمران آية : ١٧٨ .
(٦) سورة هود آية : ١٠٢ .

سورة الفاتحة أن ندعو به ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾[١] ، فما أعظمها من نعمة إذا جلت فى قلب العبد ، وما أجلها من هبة يهبها الله لعبده ﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾[٢] . مثل هذه التجارة التى وقع فيها المنافقون تجارة خاسرة وسوقها كاسدة ومن وقع فى مثل هذه التجارة فقد سلب نعمة الهداية ، وشتان بين السحاب والتراب ، ثم شتان بين مسابح الأسماك ومدارج الأفلاك ، شتان بين هذه السوق الخاسرة وبين سوق المؤمنين الرابحة فى قوله تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾[٣] ، وهكذا صدرت الأحكام من الحاكم الأعلى فى محكمة العدل الإلٓهية الكبرى ﴿ فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٤] . نعم صدرت الأحكام بعد بيان حيثياتها : فريق المؤمنين حكم الله لهم بقوله : ﴿ أولئك على هدًى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ ، لماذا ؟ لأنهم متقون مؤمنون بالغيب مقيمون للصلاة منفقون مما رزقهم الله ، مؤمنون بما أنزل على النبى وبما أنزلَ من قبله ، موقنون بالآخرة ، وعلى الفريق الثانى ، وهم الكافرون ، حكم الله بقوله : ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ لماذا ؟ لأن قلوبهم فى أكنة وفى آذانهم وقر وبينهم وبين الحق حجاب مستور ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ ، وعلى الفريق الثالث حكم الله بقوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ وذلك بعد بيان الحيثيات التى سبق ذكرها . ثم ضرب الله تعالى مثلين للمنافقين ، وللأمثال وظيفة بعيدة الأثر فى البيان والوضوح حتى يخيل لك أن الأمر المعقول أصبح بعد ضرب المثل ملموسا تتحسسه الأنامل وملحوظا تبصره العيون شحما ولحما ، قال تعالى : ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمى فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير ﴾ . .

المَثَل والمِثْل والمثيل كالشبه والشِبْه والشبيه وزنا ومعنى ، ثم استعمل فى بيان حال الشىء وصفته التى توضحه وتبين حاله كقوله : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾[٥] الآية . وقوله ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾[٦] . واستوقد النار : طلب وقودها ، أى سطوعها وارتفاع لهيبها بفعله أو فعل غيره ، ويقال ضاءت النار وأضاءت وأضاءته النار ، أى أظهرته بضوئها ، وترك : أى صير ، والصمم : آفة تمنع السماع . والبكم : الخرس . والعمى : عدم البصر عما من شأنه أن يُبصر ، الصيِّب : المطر يَصُوب وينزل من الصوب وهو النزول ، والرعد : هو الصوت الذى يُسْمع فى السحاب أحيانا عند تجمعه ، والبرق هو الضوء الذى يلمع فى السحاب

---

(١) سورة الأنعام آية : ٧١ .
(٢) سورة الكهف آية : ١٧ .
(٣) سورة فاطر الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .
(٤) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .
(٥) سورة الرعد آية : ٣٥ .
(٦) سورة النمل آية : ٦٠ .

غالبا ، وربما لمع فى الأفق حيث لا سحاب ، وأسباب هذه الظواهر اتحاد كهربية السحاب الموجبة بالسالبة كما تقرر ذلك فى علم الطبيعيات . والصاعقة : نار عظيمة تنزل أحيانا أثناء المطر والبرق ، وسببها تفريغ الكهربية التى فى السحاب بجاذب يجذبها إلى الأرض . والإحاطة بالشىء : الإحداق به من جميع جهاته ، والخطف : الأخذ بسرعة . قاموا : أى وقفوا فى أماكنهم منتظرين تغير الحال ليصلوا إلى المقصد ، أو يلجأوا إلى ملجأ يعصمهم من الخطر .

الإيمان والكفر والنفاق كلها من أعمال القلوب . والقلوب قد أخبر عنها الصادق المعصوم فى قوله : (القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس وقلب مصفح . فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره ، وأما القلب الأغلف فقلب الكافر ، وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص ، عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه) .

والمؤمنون قسمان : السابقون ، وأصحاب اليمين ، كما ورد ذلك فى سورة الواقعة . والكافرون قسمان : دعاة ، ومقلدون ، وقد جاء ذلك فى سورة النور . قال تعالى فى شأن دعاة الكفر : ﴿ الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾(١) . وقال فى شأن المقلدين : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾(٢) .

والمنافقون قسمان : منافقون خلص ، ومنافقون أتباع . وقد ضرب الله تعالى لكل من الفريقين مثلا للإيضاح والبيان حتى يصير المعقول كأنه محسوس مجسد . فضرب للفريق الأول مثلا ناريا ، وضرب للثانى مثلا مائيا ، وبين النار والماء دارت أحوالهم وتحددت شخصياتهم ووضحت معالمهم . فمثل الفريق الأول (أى حالهم) كحال من استوقد نارا ، وأضاءت النار ماحوله وأصبح المكان الذى هو فيه مشرقا بالضياء ، ولكنه لم يستفد بهذا الضوء ولم يهتد به فى سلوك الطريق ، ولما كان ذلك كذلك ذهب الله بنور هذه النار وترك النار على الحرارة والدخان ، فأصبح هؤلاء لايبصرون لأنهم فى ظلمات داكنة وليل أليل بهيم ، فمثل هؤلاء القوم منطبق عليهم ، فقد رأوا الهدى بأعينهم ورأوا الطريق ببصرهم ولكنهم لم ينتفعوا بهذا الهدى ، فلم يؤمنوا بنبى الهدى ولا الكتاب المنزل عليهم ، بل عاشوا وقلوبهم فى أكنة وأعينهم فى غشاوة وفى آذانهم وقر وبينهم وبين الهدى حجاب مستور ، ولذلك لما عطلوا نوافذ المعرفة نعتهم الله تعالى بقوله : ﴿ صم بكم عمى فهم لايرجعون ﴾ . صم لايسمعون ، بكم لايتكلمون ، عمى لايبصرون . فيترتب على كل هذا أنهم لايرجعون إلى الهدى ، أى فهم لايهتدون ، لأنهم عطلوا نعما جعلها الله وسائل للمعرفة ، فهم فى غيهم يترددون وفى طغيانهم يعمهون .

(١) سورة النور آية : ٣٩ .
(٢) سورة النور آية : ٤٠ .

أما المثل الثانى ، وهو المثل المائى ، الذى جاء تعبيرا عن الأتباع المقلدين من المنافقين ، فإن أى كاتب لو أعطى سحر البيان الذى تخر له العمالقة،ومنح ريشة أدق من ميزان الذهب ما استطاع بفكره وعبقريته أن يعطينا صورة تعبر مثل هذا التعبير الدقيق : إنهم قوم يعيشون فى حيرة يصير الحليم فيها حيران ﴿ **أو كصيّب من السماء** ﴾ ، والصيب هو المطر الغزير،وكأن السماء تحولت إلى أفواه القرب ومن السماء بالذات ليعطىِ المعنى قوة دافعة لايستطيع أحد ردها بحكم ما أودعه الله فى الكون من قانون الجاذبية . هذا الوابل الصيّب فيه ظلمات : ظلمة الليل والسحاب والمطر يتخلل هذا الصيِّب رعد وبرق ، فالرعد قاصف لأنه صوت احتكاك الهواء والبرق خاطف فى لمعانه ، والصواعق مـدمرة . هؤلاء الحـائرون المتـرددون من المنافقـين يجعلون أصابعهم فى آذانهم ، وإنما جاء التعبير بالأصابع مع أن المقصود بها الأنامل من باب المجاز المرسل من باب إطلاق الكل وإرادة الجزء مبالغة فى سد الآذان ، يفعلون ذلك حذر الموت ، ولو عرفوا الحقيقة لعلموا أن الله محيط بهم ، فكل شىء قائم به وكل شىء خاشع له،من عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه ومن تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سبره ، ولو آمنوا واتقوا لعلموا أن الله قوة كل ضعيف وعز كل ذليل وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، هو الجناب الأعلى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه ، ولكن هؤلاء الحائرين فى قلوبهم مرض جعلهم مذبذبين كأن كل واحد منهم خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴿ **يكاد البرق يخطف أبصارهم** ﴾ من شدة لمعانه وزيغ أبصارهم . إنهم مترددون ﴿ **كلما أضاء لهم** ﴾ البرق ﴿ **مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا** ﴾ أى وقفوا فى مكانهم . وهكذا حالهم ، رأوا نور الإيمان فمشوا فيه ، فلما خلوا بشياطينهم قالوا : ﴿ **إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾ . وهكذا عاشوا حياتهم فى قلق وفزع وهلع ، عاشوا فى ظلمات لايبصرون ظلمة الشرك وظلمة النفاق ، وظلمة الريبة ، وعاشوا فى فزع كما قال تعالى : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾[١] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجئا أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون** ﴾[٢] . وأى خوف أشد وأى فزع أشنع من قوم عاشوا فى هذا الجو المكفهر : مطر غزير وبرق خاطِف ورعد قاصف وظلمات بعضها فوق بعض ، إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها ، وصواعق محرقة ، وهم فى ذلك فى حيرة حائرة ، إذا أضاء لهم البرق مشوا ولكن سرعان مايخبو ضوؤه فيصير الجو ظلمة داكنة فيقفون تكاد أقدامهم تغوص فى أعماق الأرض ، لو كان فى قلوب هؤلاء نور يهديهم إلى الصراط المستقيم لعلموا أن الأمر لله فلا يمنعهم من قضاء الله أن يجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر الموت . فالله جلت قدرته لو شاء ﴿ **لذهب بسمعهم وأبصارهم** ﴾ وهما الحاستان اللتان تتصدران وسائل المعرفة . قال جل شأنه : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[٣] . نعم إن الله على كل شىء قدير ، فمشيئة الله صالحة لكل ما أراد الله وقدرة الله صالحة لإنجاز ماشاء الله ﴿ **فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكذبون * والله أعلم بما يوعون * فبشرهم بعذاب أليم** ﴾[٤] . وهكذا جاء المثلان النارى والمائى منطبقين تمام الانطباق على أجناس المنافقين .

(١) سورة المنافقون آية : ٤ .
(٢) سورة التوبة الآيتان : ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) سورة النمل آية : ٧٨ .
(٤) سورة الانشقاق الآيات : ٢٠ ــ ٢٤ .

هذه جولة استعرض القرآن فيها أحوال المنافقين وخطرهم على المجتمع وكيف صيرهم النفاق إلى صم بكم عمى ، فما أتعس المجتمع الذى يعشش المنافقون فى جنباته ، وما أيأس الأمة التى يتحرك النفاق فى قلوب أبنائها ، إنهم عالة على الأمم فى حال السراء ، وسوس ينخر فى عظامها فى حال الضراء . وقد حذر الصادق المعصوم ﷺ فى أقواله من النفاق وقال فى ذلك :

عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرَّفه نعمته فعرفها قال:فما عملت فيها ؟ قال:قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال : فما عملت فيها ؟ قال:تعلمت العلم وعلَّمته ، وقرأت فيك القرآن . قال:كذبت ولكنك تعلمت ليُقال عالم ، وقرأت القرآن ليُقال هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار ، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها . قال:فما عملت فيها ؟ قال:ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال: كذبت ولكنك فعلت ليُقال هو جواد فقد قيل ، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار)(١) .

وعنه رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يخرج فى آخر الزمان رجال يختِلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله عزَّ وجلَّ : أبى يغترون أم علىّ يجترئون ؟ فبى حلفت لأبعثنَّ على أولئك ، منهم فتنة تدع الحليم حيران)(٢) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رجل : يارسول الله إنى أقف الموقف أريد وجه الله وأريد أن يُرى موطنى . فلم يرد عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾(٣) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (من رايا بشىء فى الدنيا من عمله ، وكله الله إليه يوم القيامة ، وقال : انظر هل يغنى عنك شيئا ؟)(٤) .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من تزيَّن بعمل الآخرة وهو لايريدها ولا يطلبها لُعن فى السماوات والأرض)(٥) .

وروى عن الجارود قال : قال رسول الله ﷺ : (من طلب الدنيا بعمل الآخرة طُمس وجهه ، ومُحِق ذكره ، وأثبت اسمه فى النار)(٦) .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٢٥ ، ٢٦ ط وزارة الأوقاف .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٩ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٩ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٩ .
(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٩ .

وروى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تحبب إلى الناس بما يحبون وبارز الله بما يكرهون لقى الله وهو عليه غضبان)(١) .

وروى عنه أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : (تعوذوا بـالله من جُبِّ الحُزن . قـالوا يـارسول الله وما جُبُّ الحزن ؟ قال : واد فى جهنم تتعوذ منه جهنم كل يوم مائة مرةٍ . قيل:يارسول الله ومن يدخله ؟ قال : القراء المراءون بأعمالهم ، وإن من أبغض القراء إلى الله عزَّ وجلَّ الذين يزورون الأمراء)(٢)

ورواه أيضا عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (إن فى جهنم لواديا تستعيذ جهنم من ذلك الوادى فى كل يوم أربعمائة مرة أعد ذلك الوادى للمرائين من أمة محمد ﷺ : لحامل كتاب الله ، والمتصدق فى غير ذات الله ، والحاج إلى بيت الله ، وللخارج فى سبيل الله)(٣) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربَّه تبارك وتعالى)(٤) .

وعن محمود بن لبيد قال : خرج النبى ﷺ فقال : (يا أيها الناس إيَّاكم وشرك السرائر . قالوا:يارسول الله وما شرك السرائر ؟ قال:يقوم الرجل فيصلى فيزيِّن صلاته جاهدا لما يرى من نظر الناس إليه ، فذلك شرك السرائر)(٥) .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه ، خرج إلى المسجد ، فوجد معاذا عند قبر رسول الله ﷺ يبكى ، فقال:مايبكيك ؟ قال:حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : (اليسير من الرياء شرك ، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة : إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يُفتقدوا وإن حضروا لم يُعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كل غبراء مظلمة)(٦) .

وعن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال : الرياء . يقول الله عزَّ وجلَّ إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء)(٧) .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة ، وكان من الصحابة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ـ ليوم لا ريب فيه ـ نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عنده فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك)(٨) .

وروى عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤمر يوم القيامة بناس من الناس إلى الجنة ،

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص٣٠ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٠ ، ٣١ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ٣١ .
(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ٣١ ، ٣٢
(٧) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢ .
(٨) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٢ ط وزارة الأوقاف

حتى إذا دنوا منها، واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها ، وما أعد الله لأهلها فيها ، نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها ، فيرجعون بحسرة مارجع الأوَّلون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك ، وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا ، قال : ذاك أردت بكم ، كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم ، وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين ، تراءون الناس بخلاف ماتعطونى من قلوبكم ، هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وتركتم للناس ولم تتركوا لى ــ اليوم أذيقُكم أليم العذاب مع ما حُرمتم من الثواب)(١) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا كان آخر الزمان صارت أمتى ثلاث فرق : فرقة يعبدون الله خالصا ، وفرقة يعبدون الله رياء ، وفرقة يعبدون الله ليستأكلوا به الناس ، فإذا جمعهم الله يوم القيامة قال للذى يستأكل الناس : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ فيقول : وعزَّتك وجلالك أستأكل به الناس ، قال : لم ينفعك ما جمعت انطلقوا به إلى النار ، ثم يقول للذى كان يعبده رياء : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ قال : بعزتك وجلالك رياء الناس ، قال : لم يصعد إلىَّ منه شىء ، انطلقوا به إلى النار ، ثم يقول للذى كان يعبده خالصا : بعزتى وجلالى ما أردت بعبادتى ؟ قال : بعزتك وجلالك أنت أعلم بذلك من أردت به أردت ذكرك ووجهك ؟ قال : صدق عبدى انطلقوا به إلى الجنة)(٢) .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى يوم القيامة بصحف مختمة فتنصب بين يدى الله تعالى ، فيقول تبارك وتعالى : ألقوا هذه واقبلوا هذه ، فتقول الملائكة : وعزتك وجلالك مارأينا إلا خيرا ، فيقول الله عزَّ وجلَّ : إن هذا كان لغير وجهى وإنى لا أقبل إلا ما ابتُغى به وجهى)(٣) .

نداء إلهى كريم

لما بين سبحانه وتعالى مواقف الناس من العقيدة وذكر المؤمنين وثنَّى بذكر الكافرين ، ثم بين لنا مواقف المنافقين ، لما كان ذلك كذلك:وجه الإله الكريم نداء عاما إلى البشرية جمعاء أمرهم فيه بعبادته وحده فقال سبحانه وتعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾
ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ
مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ١ ص ٣٥ ط زارة الأوقاف .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦ . (٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٣٦ .

العبادة : خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود ، والرب : هو الذى يسوس من يربيه ويدبر شئونه ، والفراش : واحد الفُرُش ، وفرش الشيء يفرشه بالضم فراشا : بسطه ، والبناء : وضع شيء على شيء آخر بحيث يتكون من ذلك شيء بصورة خاصة ، والنِّدُّ : الشريك والكفء ، يقال فلان ند فلان إذا كان مماثلاً له فى بعض الشئون . العلم بوحدانية الله مركوز فى طباع المخلوقات ، فقد فطروا على التوحيد (كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[١] . والتوحيد هو إفراد المعبود سبحانه وتعالى بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتاً وصفاتٍ وأفعالا ، ولابد للموحد أن يعتقد بتوحيد الإلوهية والربوبية وذلك بأن يعبد الله وحده ، مع اعتقاد أنه الخلاق الرزاق الذى سخر ما فى السموات وما فى الأرض طوع إرادته ومشيئته ، ولذا لما أمر الله الناس بعبادته وحده نصب الأدلة الناطقة بأنه الواحد وذلك فى الآفاق والأنفس ، قال جل جلاله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ﴾[٢] ، ومن هذه الأدلة أنه الخالق فأى خالق سواه ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾[٣] . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[٤] .

بنظرة فاحصة فى قوله تعالى ﴿ لاتعلمون شيئا ﴾ تفيد نفى العلم بالكلية ، إذ يقول علماء اللغة : إن النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ولنقابل هذا بالشكر ، والشكر لله أن تسخر نعم الله فى طاعته وألا تستعملها فى معصيته ، قال موسى عليه السلام لربه : « يارب كيف أشكرك ؟ قال له : ياموسى تذكرنى ولا تنسانى إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى » وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٥] . وقد مَرَّ أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز فى يديه وهو يردد بلسانه قائلا : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه . فقال له الرجل : فمن أى شيء عافاك ؟ قال له : وهب لى قلباً ذاكرا ولساناً شاكراً ثم أنشد يقول :

حمدت الله ربى إذ هـــدانى ... إلى الإسلام والديـن الحنيــف
فيذكـــــره لسانى كل وقت ... ويعرفـــه فـــؤادى باللطيـــف

وقد أقام القرآن من الأدلة على وحدانية الخالق ما تعنو له الوجوه خشوعاً وتخشع له الأصوات خضوعاً ، وخلق الإنسان منذ كان نطفة وإيجاده من العدم دليل ملموس محسوس على وحدانية الخالق الذى أتقن كل شيء ، وعالم الأجنة من أكبر الأدلة على وحدانية الخالق وقدرة الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق الرسول الكريم فى رسالته .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٧ ط دار الفكر .
(٢) سورة فصلت الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .
(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ ــ ٢٣ .
(٤) سورة النحل آية : ٧٨ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٥٢ .

إن الأطوار التى يمر الإنسان بها فى الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(١) . فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾(٢) . فما هو الرحم ؟ يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم . ثم يذكرون أبعاده فيقولون : إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالى اثنين ونصف من السنتيمترات . والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم ﴿ قرار مكين ﴾ حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾(٣) . هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا . بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾(٤) .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق(٥) ﴾ ؟ مم خلقنا ؟ من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لايزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم نصف مليمتر فى الثانية الواحدة . اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان . فكيف كان حالنا فى عالم الأرحام ؟ كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم ، وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء ، وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو فى الأرحام خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية . فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق دقيق ؟ ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج أمر الرحم أن تتقلص عضلاته حيث أصبح الإنسان ضيفاً ثقيلاً عليه ، فتقلصت العضلات فعبر الإنسان هذا المضيق الدقيق . والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : ﴿ من أى شىء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره ﴾(٦) . فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ . يقول عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(٧) .

وبعدما أقام الدليل على الوحدانية بآية الخلق ، بين الغرض السامى والهدف الأعلى المترتب على عبادته وحده فقال : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ولعل هنا تفيد الغاية والتعليل ، أى لتتقوا ولا تفيد الترجى ، لأن الترجى توقع حصول الأمر المحبوب ، والتوقع فيه جهل بالمستقبل ، والجهل على الله محال ، إذًا فلتأت هذه الكلمة بمعنى يليق بذات الله فيكون معناها الحكمة والغرض . والتقوى هى السلاح الأقوى ، فمن عرف الله اتقاه ومن اتقى الله خافه ومن خاف الله أطاعه ومن أطاع الله اجتنب النواهى وامتثل الأوامر ، ومن كان كذلك

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ ـ ١٤ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٦ .
(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ ـ ٢٣ .
(٤) سورة الزمر آية : ٦ .
(٥) سورة الطارق آية : ٥ .
(٦) سورة عبس الآيات : ١٨ ـ ٢٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٧٨ .

فقد انخرط فى سلك المقربين الذين قال فيهم جل شأنه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾(١) . والتقوى كما قال الإمام على رضى الله عنه : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

وينتقل بنا النظم الكريم من آية الخلق إلى آية أخرى ، هى خلق الأرض وكيف شملتها العناية الإلهية بكل رعاية فجعلتها مهيأة للعيش عليها كما جعلتها صالحة للحياة فوقها ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾(٢) . قال جل شأنه ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾ أى ممهدة مبسوطة وهو قوله جل شأنه : ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً * لتسلكوا منها سبلاً فجاجا﴾(٣) . وقوله جل شأنه : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾(٤) . وقوله جل شأنه : ﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً ﴾(٥) . وقال عز وجل : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾(٦) . وفى هذه الآيات دعوة إلى كل عاقل أن يأخذ منها درساً وعبرة ، فيكون كالإبل فى الصبر وقوة التحمل ، ويكون كالسماء عزة وكرامة ، ويكون كالجبال رسوخاً وشموخاً ، ويكون كالأرض تواضعاً وكرماً .

أتدرى ماذا تقول الحقائق العلمية عن هذه الأرض ؟ .

يقول الدكتور فرانك الين فى بيان حكمة الله الرائعة والبديعة فى خلق الأرض على ماهى عليه : لو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو حتى لو أن قطرها كان ربع قطرها الحالى لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الهوائى والمائى اللذين يحيطان بها ، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت . أما لو كان قطر الأرض ضعف قطرها الحالى لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ماهى عليه وانخفض تبعا لذلك ارتفاع غلافها الهوائى وزاد الضغط الجوى من كيلو جرام واحد إلى كيلو جرامين على السنتيمتر المربع ، ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر فى الحياة على سطح الأرض . ولوكانت الأرض فى حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التى عليها مائة وخمسين ضعفاً ، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوى إلى أربعة أميال بدلا من خمسمائة ميل ، ولأصبح تبخر الماء مستحيلا ، ولارتفع الضغط الجوى إلى مايزيد على مائة وخمسين كيلو جراما على السنتيمتر المربع ، ولوصل وزن الحيوان الذى يزن حالياً

(١) سورة النساء الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) سورة طه آية : ٥٥ .
(٣) سورة نوح الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .
(٤) سورة الملك آية : ١٥ .
(٥) سورة النبأ آية : ٦ .
(٦) سورة الغاشية الآيات : ١٧ - ٢٠ .

رطلاً واحداً إلى مائة وخمسين رطلاً ، ولتضاءل حجم الإنسان حتى صار فى حجم ابن عرس أو السنجاب ، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات . وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها فى مدارها تهيىء للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها فى صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذى نشاهده اليوم فى حياتنا . سبحان القائل : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾(١) .

إن ما ساقه العلم من حقائق دليل على العناية والإتقان لا يقوى عليه إلا بارىء السموات والأرض . فاسألوا الدنيا بأسرها من الذى أوجد الأرض على هذا الوجه المتقن : هل الطبيعة الصماء ؟ هل الصدفة العمياء ؟ . كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

يقول الدكتور كريس موريسون : « والكرة الأرضية تدور حول الشمس بسرعة معدلها ثمانية عشر ميلاً فى الثانية ، ولو أن معدل دورانها كان مثلاً ستة أميال أو أربعين ميلاً فى الثانية ، فإن بعدنا عن الشمس أو قربنا منها يكون بحيث يمتنع معه نوع حياتنا . ثم إن الكرة الأرضية مائلة بزاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة ، ولهذا دواع دعت إليه ، فلو أن الكرة الأرضية لم تكن مائلة لكان القطبان فى حالة غسق دائم ، ولصار بخار الماء المنبعث من المحيطات يتحرك شمالا وجنوباً مكدساً فى طريقه قارات من الجليد ، وربما ترك صحراء عند خط الاستواء من الملح ، وفى هذه الحالة كانت تنبعث أنهار من الجليد وتتدفق خلال أودية إلى قاع المحيط المغطى بالملح لتكون بركا مؤقتة من الملح الأجاج ، وكان ثقل الكتلة الهائلة من الجليد يضغط على القطبين فيؤدى ذلك إلى فرطحة خط الاستواء أو فورانه أو على الأقل كان يتطلب منطقة استوائية جديدة ، كما أن انخفاض المحيط يعرض مساحات شاسعة جديدة من الأرض ويقلل هطول المطر فى كافة أرجاء العالم بما ينتج عن ذلك من عواقب مخيفة . ولو كان قمرنا يبعد عنا خمسين ألف ميل مثلا بدلاً من المسافة الشاسعة التى يبعد بها عنا فعلاً ، فإن المد كان يبلغ من القوة بحيث أن جميع الأراضى التى تحت منسوب الماء كانت تغمر مرتين فى اليوم بماء متدفق يزيح بقوته الجبال نفسها ، وفى هذه الحالة ربما كانت لا توجد الآن قارة قد ارتفعت من الأعماق بالسرعة اللازمة ، وكانت الكرة الأرضية تتحطم من هذا الاضطراب ، وكان المد الذى فى الهواء يحدث أعاصير كل يوم » . ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾(٢) .

وينتقل بنا النظم الكريم من الأرض إلى السماء فيقول جل شأنه : ﴿ والسماء بناء ﴾ وإنما قدم الحديث عن الأرض على الحديث عن السماء لأن الأرض أمنا التى نحيا بين أحضانها ونتغذى بألبانها ونتنشق هواءها ونشرب ماءها ، وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾(٣) ، وإنما جعلت السماء بناء ، أى فى إتقان نجومها وكواكبها وما أودع الله فيها

---

(١) سورة طه الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) سورة لقمان آية : ١١ .
(٣) سورة فصلت آية : ١٠ .

من سدم ونيازك ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾[١] . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون * ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾[٢] ، يفسر هذه الآية قوله جل شأنه : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون ﴾[٣] . فالمملكة النباتية التى تتركب من الخلايا فيها الذكر والأنثى ، والمملكة الحيوانية كذلك فيها الذكر والأنثى ، وعالم الجماد يتركب من الذرات والذرة فيها السالب والموجب فكل المخلوقات كما أخبر الخالق ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين﴾[٤] . أما الذى لا يوصف بالزوجية فهو الله الأحد الفرد الصمد الذى ﴿ لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾[٥] . إذا كان ذلك كذلك ففروا إلى الله ، فإنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه ، كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف ، وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف ، ورضى كل يؤوس . من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

فـواعـجبـا كـيـف يـعـصـى الإلـه أم كـيـف يجـحـده الجـاحـد
وفى كـل شـىء لـه آيـة تـدل عـلى أنـه الـواحـد

وسبحان من أقسم قائلاً : ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾[٦] وسبحان من أرشد خلقه إلى النظر فى عالم السماء بإتقان وفكر ثاقب فقال : ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾[٧] .

فأنصت معى إلى لسان العلم يحدثك حديث الدارس الواعى عن عالم الفلك . يقول الدكتور سيسل هامان : إذا رفعنا أعيننا نحو السماء فلابد أن يستولى علينا العجب من كثرة مانشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها والتى تتبع نظاماً دقيقاً لا تحيد عنه قيد أنملة مهما مرت بها الليالى وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون . إنها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا أن نوحد خالق هذا النظام البديع .

إن عالم الفلك عالم عجيب نطق بعظمته وبروعته قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[٨] .

إن فى لفظ التسخير ما يدل على منتهى التذليل والتطويع دون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله ، وفى قوله تعالى : ﴿ والنجوم مسخرات بأمره ﴾ إشارة عجيبة ، فإنها جملة اسمية مكونة من مبتدأ وخبر وإن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم ومايحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والابداع . فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الضخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق

(١) سورة النمل آية : ٨٨ .
(٢) سورة الذاريات الآيات : ٤٧ ــ ٤٩ .
(٣) سورة ياسين آية : ٣٦ .
(٤) سورة الذاريات آية : ٤٩ .
(٥) سورة الاخلاص الآيتان : ٣ ، ٤ .
(٦) سورة الذاريات الآية : ٧ .
(٧) سورة الملك الآيات : ٣ ــ ٥ .
(٨) سورة النحل آية : ١٢ .

بها كلماته ؟ وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟ إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العالم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ماوصل إليه هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العالم لم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدراك ، وأكثر مما يتخيله العقل ، ففى كل مرة يصل العالم عن طريق أجهزة أكثر دقة وأشد حساسية وأبعد رصدًا إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة وما زال العالم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد . ويحدثنا عن عدد النجوم حجة الفلك العالمى السير جيمس جينز فى كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريبًا من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله » ويقول كذلك فى كتابه : « النجوم ومسالكها » : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ستين نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله» . ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عددها مساوٍ تقريبًا لعدد نجوم السماء ، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات كل يوم فلابد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لوكنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لاستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة . أما الأرض التى نعيش عليها فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم ، وهى شموس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته ، فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ماعرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب كما للشمس فقط فياترى كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم » .

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود . فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوماً فى كل يوم ٢٤ ساعة وفى كل ساعة ستون دقيقة وفى الدقيقة ستون ثانية لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ، وقد وجد أن السدم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معها حقيقة هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر مارصد من السدم وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية . فمتى بدأ فى حركته ومتى يقف وإلى أين ينتهى ؟ وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوؤه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية ، فعلى أى بعد يقع وأين أصبح الآن ؟

وتعتبر هذه الأرقام الوحدات فى بداية الكون . فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها . وأمر هذا الوجود ليس عجيبًا فى عدد النجوم والكواكب

والمسافات التى تفصل بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظل العلماء فى عجب وحيرة منه هو أمر إشراق النجوم ، إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم والتى يرجح العلماء أنها تصل إلى عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها ؟ ولكن كيف لا تخمد لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة بل كل شهر حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة لكان يكفى ملايين السنين التى مرت منذ القدم أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك ، فقيل إن السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيراً ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ثم بالانفجار الأيدروجينى فى تبرير حرارة الشمس وعدم تغيرها . ومازال العلماء فى بحوثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة وهو : كيف لاتفنى كتلة النجم إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة ؟ سبحانك ربى يا من قلت ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمٰت البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾[1] .

يـامن يحـار الفـهم فى قـدرتـك ... وتـطلب الـنفس حمى طـاعتـك
تخفى عـلى النـاس سنا طلعتـك ... وكـل مـا فى الكـون من صنعتك

يامبدع الكائنات يامن كل فعلك حكمة بالغة يامن قلت وقولك الحق : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[2] ويامن قلت : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[3] .

قال تعالى بعد ذلك : ﴿ أنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ . وهذان دليلان على عظمة ووحدانية الخالق بعد ما ساق من الأدلة آية الأرض وبناء السماء . فماذا يقول العلم فى حقائقه عن الماء ؟ يقول الدكتور توماس دافيز باركس : « ولكن هذا النظام الذى نشاهده فى العالم من حولنا ليس مظهرًا من مظاهر القدرة على كل شىء فحسب ، بل إنه يتصف فوق ذلك بالحكمة والاتجاه نحو تحقيق مصالح الإنسان مما يدل على أن عناية الخالق بنفع عباده لا يقل عن عنايته بالسنن والقوانين التى تنظم هذا الوجود . انظر حولك إلى الحكمة البالغة التى ينطوى عليها خروج بعض الظواهر عن العادة أو المألوف ؛ فالماء مثلاً يتوقع الإنسان من وزنه الجزيئى (١٨) أن يكون غـازيًا تحت درجـة الحرارة المعتـادة والضغط المعتاد ، فالنوشادر مثلاً ووزنها الجزيئى (١٧) تكون غازية عند درجة حرارة (-٥٩) ، ولذلك فإن وجود الماء على الحالة السائلة فى درجة الحرارة المعتادة يجعل الإنسان يقف ويفكر . وللماء فوق ذلـك كثير من الخـواص

(١) سورة الأنعام آية : ٩٧ .
(٢) سورة يٰس الآيات : ٣٧ ــ ٤٠ .
(٣) سورة فصلت آية : ١٢ .

الأخرى ذات الأهمية البالغة والتى إذا نظر الإنسان إليها فى مجموعها وجدها تدل على التصميم والتدبير . فالماء يغطى نحو ثلاثة أرباع سطح الأرض ، وهو بذلك يؤثر تأثيرًا بالغاً على الجو السائد ودرجة الحرارة ، ولو تجرد الماء من بعض خواصه لظهرت على سطح الأرض تغيرات فى درجة الحرارة تؤدى إلى حدوث الكوارث . وللماء خواص أخرى فريدة فى نوعها وتدل كلها على أن مبدع هذا الكون قد خلقه بعناية وإتقان بما يحقق صالح مخلوقاته . فالماء هو المادة الوحيدة المعروفة التى تقل كثافتها عندما تتجمد . إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية : إن جميع المواد إذا تجمدت زادت كثافتها فيما عدا الماء فإنه المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة إذ تقل كثافتها عند التجميد ، لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تختص بالمواد الأخرى . وقد لا يتصور الإنسان لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى كيف يكون الأمر ؛ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لاسبيل إلى إذابته كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

سبحــان من أحيــا قــلوب عبــاده بــلوائــح مــن فــيض نــور هــداه
فــالعــارفــون مشــاهــدون لفضله مســتــأنــســون بــذكــرهــم إيــاه

أليس فى ذلك أبلغ الرد على من يقول بميكانيكية الحياة ؟ ماذا يقول المكابرون فى هــذه الآيـات الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ إنه الله القائل : ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرًا ﴾(١) والقائل : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾(٢) .

لا الصدفة العمياء ولا الطبيعة البكماء الصماء . كلا بل هو الله العزيز الحكيم . وقد رتب الله على إنزال الماء من السماء إخراج الثمرات من الأرض . قال سبحانه : ﴿ فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴾ ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرًا نخرج منه حبًّا متراكبًا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهًا وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾(٣) . ولو علمت كيف يكون هذا النبات الذى كان فى أصله غضاً طريًا لينا ، لو علمت كيف يكون الخشب فى جسمه لهتفت بلسان قلبك وعقلك وفكرك تقول : ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون ﴾(٤) . لنجلس فى محراب العلم لحظة نستمع إلى حقائقه وهو يجيب عن هذا السؤال : كيف يكوّن الشجر الخشب فى جسمه ؟ إن للعلم كلمة نسجلها هنا لإظهار العظمة والجلال الإلهى . يقول المهندس عثمـان حلمى فى كتابـه « من آيات الله فى الكون » تحت عنوان « النار من الشجر الأخضر » : فى عالم النبات معجزات كثيرة تحار العقول فى إدراكها

(١) سورة الفرقان آية : ٢ .
(٢) سورة الرعد الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٣) سورة الأنعام آية : ٩٩ .
(٤) سورة يس آية : ٣٦ .

وتعليل كيفية حدوثها لأننا فى الواقع لانرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة الذى تابعها النبات إلى أن وصل إلى هذه النتيجة . فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة مسألة تكون الخشب فى جسم النبات الأخضر ، ومن هذا الخشب توقد النار التى هى مصدر لطاقة لاغنى لنا عنها فى حياتنا اليومية . وفى القرآن آيات تشير إلى ذلك وتذكر الناس بقدرة الخالق الخلاق العظيم لعلهم يهتدون ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾[1] وعندما نتدبر نجد أنها تشير إلى أصول البحث فى علوم مختلفة مثل الكيمياء والنبات والأحياء والطبيعة وغيرها .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة دراسة العلوم لكى يتيسر لهم تفسيره تفسيرًا صحيحًا يفيدون منه وتتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية وصلتها بحياة الإنسان وماخلق الله فى السماوات والأرض . وسنعالج فيما يلى تفسير هذه الآية بقدر مايتسع لها المقام . فالله سبحانه وتعالى خلق خلايا النبات التى تبنى منها أنسجته وأعضاؤه وسوّاها وقدرها ثم هداها لبناء الخشب الذى توقد منه النار ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن فى هذه الظاهرة . وفيما يلى شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكون الخشب :

دأب الإنسان منذ القدم على أن يتخذ من الشجر وقودًا ، ثم تدرج إلى صناعة الفحم النباتى منه وادخاره ليوقده عند الحاجة ، وما الفحم الحجرى الذى يستخرج من المناجم الغائرة فى بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت فى الأرض وتوالت عليها أحقاب سحيقة من الزمن استغرقت آلاف آلاف السنين وطرأ عليها فى غضونها تغييرات مختلفة فتكربنت ، أى تفحمت ، وأصبحت ذلك الفحم المعروف . والفحم يكاد يتكون كله من الكربون ، وهو عنصر يحترق باتحاده مع أوكسجين الهواء ويدخل فى تركيب كل مادة عضوية . فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات وبناه فى جسمه . ومن عجب أن هذه الكتل من الخشب ومانتج عنها من الفحم إنما بناها النبات من غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يوجد فى الهواء مختلطاً مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

قد أوحى الله إلى النبات وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى ويمثله فى جسمه لبناء الخشب وغيره من المواد العضوية فى درجة الحرارة العادية دون عناء ملحوظ ولا أعراض ظاهرة ، فى حين أن فصل الكربون عن ثانى أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائى درجة حرارة مرتفعة وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض .

والله سبحانه وتعالى أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية تمثيل الكربون وفصله عن غاز ثانى أكسيد الكربون ، ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة بالخضير أو الكلوروفيل ، ولذا فإن الشجر الأخضر دون سواه هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون وهو أصل الخشب الذى توقد منه النار ، فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصة امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ، وهى الحمراء والبرتقالية ، وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثانى

(١) سورة الواقعة الآيتان : ٧١ ، ٧٢ .

أكسيد الكربون ، ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية تمثيل الكربون باتحاد الكربون مع عنصرى الماء وهما : الأيدروجين والأوكسجين ، ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر ، على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد ، ولتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث ، ومتى تم تحليل هذا المحلول السكرى لينتقل من خلية لأخرى حتى يصل إلى الأوعية الخاصة التى يتكون فيها الخشب فيخزن فيها ثم يتركز تدريجيًا ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة مثل اللجنين والسبرين فتستقر فى موضع التخزين وتصبح مادة صلبة هو الخشب المعروف .

ومن عجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب لايمكن رؤ يتها بالعين المجردة فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ١٠٠/١ من المليمتر ككثير مثلها من الخلايا ، ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا وسخر لها الإمكانيات فقامت بعملها المُعجز . وبعد فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل أن ينهض فيكوّن الخشب كما كونه النبات ؟ كلا . . لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال وهو الحيوية التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى مادة الخلية وهداها لأداء هذه المهمة بعد أن خلقها وقدرها ، فهو الذى قدر فهدى ، وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . وأنى للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية وقد جعل الله لعقله أفقًا محدودًا ولم يؤ ته من العلم إلا قليلاً ، فإذا طعن فى السن وبلغ من العمر أرذله نكسه الله فى الخلق لكى لايعلم من بعد علم شيئًا تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئًا ﴾[١] . هذا الإنسان الذى يجأر اليوم بقهره الذرة وتحطيمها فيصنع منها قنابل ذرية وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالاً ودماراً يهلك حرثهم ويفنى نسلهم قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثالاً فقال : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾[٢] . فأنزل الله فى القرآن على نبيه ﷺ : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٣] ، ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم لايعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى . وشاء الله كذلك أن يعلمِّ الانسان مالم يعلم ويعظه ويظهر له قلة حيلته إلى جانب قدرته تعالى التى لا تحد فقال : إن الذى أنشأ العظام أول مرة ثم يحييها هو ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون ﴾[٤] .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامدًا فى موضعه قد استطاع أن يصيغه من الهواء والماء والضوء وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق وتفوقت عليه تلك الخلية ونجحت فى تكوين الخشب وهى من أصغر مخلوقات الله حجماً . ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[٥] ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لايستنقذوه منه ضعف

(١) سورة الحج آية : ٥ .
(٢) سورة يس آية : ٧٨ .
(٣) سورة يس آية : ٧٩ .
(٤) سورة يس آية : ٨٠ .
(٥) سورة الحشر آية : ٢١

الطالب والمطلوب ﴾[١] . فانظر كيف ضعف الإنسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة بل عن استرداد ماتسلبه منه .

ألا فكم تكون ضآلة قدرة الإنسان الذى قهرته الخلية الضئيلة والذبابة الدنيئة بإزاء خلق السموات والأرض وهى أكبر من خلق الناس كما قال تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[٢] .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات المعجزة والتى تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا وعلم طبقات الأرض والجغرافيا ، ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارلى فى قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[٣] لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ثم يغضون أبصارهم ويكتفون بنحو قولهم : سبحان الخلاق العظيم دون أن يعملوا بأمر الله إذا كلفهم بالإنابة والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات . والفاء فى قوله تعالى : ﴿ أفلا ينظرون ﴾ عاطفة على محذوف تقديره « أعموا » فلا ينظرون ؟ سبحانك ياقائل : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾[٤] .

وبعد أن ساق القرآن من الأدلة الساطعة والبراهين الناطقة مايدل دلالة جازمة على وحدانية الخالق عقب بقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أندادًا وأنتم تعلمون ﴾ والأنداد الشركاء . والله يقول فى حديثه القدسى الجليل : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء وهو للذى أشرك)[٥] . والإخلاص فى العبادة قد بينه المولى تبارك اسمه : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ وأنتم تعلمون) فيه إلزام لهم بالحجة . فكل القلوب موقنة بأن الله وحده خالق الأكوان ، ومبدع الإنسان ، وهو الذى سخر الشمس والقمر والنجوم والشجر :

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد

ولما بينت الآيات السابقة موقف المؤمنين والكافرين والمنافقين ووجهت دعوة عامة إلى الناس أجمعين بأن يعبدوا الله وحده لا شريك لهونصبت من الأدلة ماهو ناطق بعظمة الخالق ووحدانيته ونهت عن الشرك ، كان لابد لنا أن نسجل هنا نبذة عن الإخلاص ، وهو أن يقصد المرء بعمله وجه الله وحده ، وأردنا بذلك أن نسوق بعض الأحاديث الشريفة عن الصادق المعصوم لنعلم أن الإخلاص شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء وأن النفاق شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

---

(١) سورة الحج آية : ٧٣ .
(٢) سورة غافر آية : ٥٧ .
(٣) سورة الغاشية الآيات : ١٧ ــ ٢٠ .
(٤) سورة يوسف آية : ١٠٥ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٢٢ .
(٦) سورة الكهف آية : ١١٠ .

عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ : (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لاشريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض)[١] .

وعن أبي فراس قال : نادى رجل فقال يارسول الله : ما الإيمان ؟ قال : (الإخلاص)[٢] . وفي لفظ آخر قال قال رسول الله ﷺ : (سلوني عما شئتم فنادى رجل يارسول الله ما الإسلام ؟ قال : إقام الصلاة وإيتاء الزكاة . قال فما الإيمان ؟ قال : الإخلاص . قال : فما اليقين ؟ قال : التصديق)[٣] .

وعن معاذ بن جبل أنه قال حين بعث إلى اليمن : يارسول الله أوصني قال : (اخلص دينك يكفك العمل القليل)[٤] .

وروى عن ثوبان قال سمعت رسول الله ﷺ وسلم يقول : (طوبى للمخلصين . أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء)[٥] .

قال رسول الله ﷺ : (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم)[٦] .

وعن أبي أمامة قال : (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (لاشيء له) فأعاده ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ : (لاشيء له) ثم قال : إن الله عز وجل لايقبل من العمل إلا ماكان له خالصًا وابتغى وجهه)[٧] .

نبوة الصادق المعصوم

لما بين الله لعباده أنه المعبود بحق ، أثبت بعد ذلك أن معجزة القرآن معجزة خالصة تدل على صدق من نزل عليه القرآن ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدًا ﴾[٨] . لما كان ذلك كذلك فقد أفحم القرآن أهل الريب والشك في نبوة خاتم الأنبياء ، قال تعالى :

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

على كل مسلم أن يكون على علم بالعقائد الإسلامية ، وأولها مايجب لله تعالى ومايجوز في حقه وما يستحيل ، فيجب لله تعالى كل كمال يليق بذاته ويجوز في حقه فعل مايريد ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٨ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٨ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ١٨ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩ .
(٥) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩ .
(٦) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٢٠ .
(٨) سورة النساء آية : ١٦٦ .

الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾[١] ، ويستحيل فى حق الله كل نقص ، لأنه تعالى صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق . كما يجب على كل مسلم أن يعرف مايتعلق بالنبوات ومايدور حول المعجزات ومايتصف به الرسل من الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ومايتعلق بهم من العصمة ، كما يجب على المسلم أن يؤمن بالسمعيات ، وهى الأمور التى أخبرنا بها الصادق المعصوم ﷺ من الملائكة والبعث بعد الموت والحشر والنشر والكتب والميزان والصراط والجنة والنار ، وهى التى أوجزها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ . وقد وجه القرآن فى هذا المجال وفى الآيتين اللتين بين أيدينا ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ﴾ . وجه الخطاب إلى كل جاحد مرتاب أو عنيد مكابر فى إثبات النبوة للصادق المعصوم ﷺ وتحداهم جميعًا أن يأتوا بمثل سورة من سور القرآن التى أنزلها الله على النبى الأمى الذى ثبت بالتاريخ والتواتر والعقل أنه ماذهب إلى أستاذ ولا اختلف إلى معهد فمن الذى علمه هذا القرآن ؟ قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾[٢] . وأقصى ماقالوه فى حق صاحب الرسالة أنه تعلم هذا القرآن من رجل يسمى جبرا وكان يعمل حدّادًا وكان رجلا أعجميًا لا عربيًا فرد عليهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين * إن الذين لايؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ﴾[٣] ولقد تدرج القرآن معهم فى التحدى فقال ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[٤] . ثم تحداهم بعشر سور فقال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[٥] ثم تحداهم بسورة فقال : ﴿ فأتوا بسورة مثله ﴾[٦] . ثم بعد ذلك أرشدهم إلى أنهم لا يستطيعون ذلك فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[٧] . ثم تأمل معى فى التعقيب على هذا التحدى ، ففى سورة البقرة يقول جل شأنه : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ﴾ ففى قوله جل شأنه ﴿ ولن تفعلوا ﴾ إنباء بالغيب لما سيكون عليه حالهم من العجز الشنيع بعد ما قال تعالى : ﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ، أى هاتوا سورة وادعوا لجنة التحكيم منكم ، ومع ذلك فإنكم لن تفعلوا . وفى سورة هود يتحداهم مولانا أن يأتوا بعشر سور ، ثم يعقب على ذلك بقوله : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[٨] ، وفى سورة الإسراء : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ﴾[٩] . وقد سبق أن قدمنا بحثًا فى هذا الكتاب يدور حول الإعجاز . وأى تحد بعد ما قال الله لهم ﴿ وادعوا شهداءكم ﴾ ثم قال لهم : ﴿ وادعوا من استطعتم من دون

---

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦ .
(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .
(٣) سورة النحل الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤
(٤) سورة الطور آية : ٣٤ .
(٥) سورة هود آية : ١٣ .
(٦) سورة يونس آية : ٢٨ .
(٧) سورة الإسراء آية : ٨٨ .
(٨) سورة هود اية : ١٤ .
(٩) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

الله ﴾[١] . إنه القرآن وعظمته . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[٢] وشاءت حكمة الله تعالى أن يقدم إليهم النصح الخالص فيقول لهم : ﴿ **فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ ، وهذا نصح لو عملوا به ماتحدوا كتاب الله الذى أفحم المعاندين ورماهم بقذائف الحق ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾[٣] والمراد بالوقود هو ماتوقد به النار ، والمراد بالناس هم المشركون والمخالفون لأوامر الله ، والمراد بالحجارة الأصنام التى عبدوها ﴿ إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون ﴾[٤] هذه النار أعدت للكافرين ، فهى موجودة فعلاً ، قال تعالى فى شأن قوم نوح : ﴿ أغرقوا فأدخلوا نارًا ﴾[٥] ، وقال فى شأن آل فرعون : ﴿ النـار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[٦] .

عن أنس رضى الله عنه قال : (كان أكثر دعاء النبى ﷺ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[٧] .

وعن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : (اتقوا النار . قال وأشاح ثم قال اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً حتى ظننا أنه ينظر إليها ثم قال اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة)[٨] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص فقال : يابنى كعب بن لؤى انقذوا أنفسكم من النار . . يابنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار . . يابنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار . . يابنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار . . يافاطمة أنقذى نفسك من النار . فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً)[٩] .

نور الوعد

جرت سنة القرآن الكريم أن يقرن الوعد بالوعيد والترغيب بالترهيب لتكون حال العبد دائرة بين الخوف والرجاء ، ومن ثم فقد جاء الوعد بعد الوعيد . فبعد ماقال الله تعالى للكافرين : ﴿ **فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة** ﴾ قال فى شأن المؤمنين :

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ

(١) سورة هود آية ١٣ .
(٢) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ١٨ .
(٤) سورة الأنبياء الآيتان : ٩٨ ، ٩٩ .
(٥) سورة نوح آية : ٢٥ .
(٦) سورة غافر آية : ٤٦ .
(٧) الجامع الصغير .
(٨) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير جـ ١ ص ٢٨ .
(٩) تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ١٧٧ ط الشعب .

وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

البشارة هى الإخبار بما يسر ، وقد تأتى بخلاف ذلك ، ويراد بها التبكيت كما فى قوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾[١] . والذين بشروا فى الآية قوم آمنوا واقترن إيمانهم بالأعمال الصالحة وما أكثرها وما أجلها . والإيمان : تصديق بالقلب لابد أن يصدقه العمل ، وعلى كل مسلم أن يجتمع له ثلاثة أركان : نطق باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، هذه الثلاثة تساوى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ﴾ . وفى القرآن العظيم نماذج للأعمال الصالحة نراها متمثلة فى قوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[٢] . كما نرى الأعمال الصالحة متمثلة فى قوله عز وجل : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[٣] . ونراها متمثلة فى قوله جل جلاله : ﴿ إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك فى جنات مكرمون ﴾[٤] ، والجنات جمع جنة ، وهى الحدائق والبساتين ، والتنكير هنا للتعظيم ، هذا هو الجزاء الأول : جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثم إن الأنهار ، جمع نهر بفتح الهاء وسكونها ، وهو الشق فى الأرض يجرى فيه الماء ، ومعنى تجرى من تحتها الأنهار أو تجرى من تحتهم الأنهار أى من تحت القصور والأشجار ، قال تعالى : ﴿ يفجرونها تفجيرًا ﴾[٥] . لماذا استحقوا هذا الجزاء ؟ لأنهم : ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورًا * إنا نخاف من ربنا يومًا عبوساً قمطريراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورا ﴾[٦] .

هذه الجنات يقول فيها مولانا فى الحديث القدسى الجليل : (قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل :

(١) سورة التوبة آية : ٣٤ .
(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١ ـ ١١ .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .
(٤) سورة المعارج الآيات : ٢٢ ـ ٣٥ .
(٥) سورة الإنسان آية : ٦ .
(٦) سورة الإنسان الآيات : ٧ ـ ١١ .

أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . واقرءوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾[١] .

وأهل الجنة إذا جئ لهم بثمارها وفاكهتها قالوا : لقد رزقنا مثل هذا من قبل فتقول لهم الملائكة : كلوا إن اللون إن كان متشابهاً فإن الطعم مختلف . وإما أن يكون المعنى لقد رزقنا مثل هذا فى الدنيا فيقال لهم : إن تشابهت الألوان فقد اختلفت الطعوم والروائح . قال ابن عباس : « لا يشبه شيء مما فى الجنة ما فى الدنيا إلا فى الأسماء » . ثم ماذا ؟ ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ . والمقصود بهن الحور العين ، وهن مطهرات طهارة حسية من الحيض والنفاس والبول والغائط ، وطهارة معنوية من أذى اللسان والحقد والحسد والبغضاء .

روى مسلم أن النبى ﷺ قال : (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يتبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون . قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ويلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس)[٢] . قال تعالى : ﴿ وهم فيها خالدون ﴾ . فبعد الجنات والأنهار والرزق من الثمار العجيبة والأزواج المطهرة جاءت النعمة العظمى وهى نعمة الخلود . إذ كيف يكون هناك نعيم ينقضه الفناء ؟ إن كل نعيم دون الجنة حقير وكل بلاء دون النار عافية .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
لا تركنن إلى الدنيا ومافيها ... فالموت لاشك مفنينا ويفنيها
واعمل لدارٍ غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

ومن أراد أن يعيش عيشة مطمئنة فى مساكن طيبة ، فالعيش عيش الآخرة حيث الخلود الذى لاتشوبه قدرة الفناء والرحيل وفرقة الأحباب والصحاب والأهل والأقرباء . ومن أراد أن يعيش لحظة فى الجنة وهو على وجه الأرض فليقرأ ما أعده الله لعباده الصالحين فى سور الرحمن والواقعة والدهر . خذ هذه النماذج الشريفة ، قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * ذواتا أفنان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * فيهما عينان تجريان ﴾[٣] .. إلى آخر الآيات . وقال فى سورة الواقعة : ﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين ﴾[٤] إلى أن قال جل شأنه فى نساء الجنة ، وهن النساء اللاتى كن صالحات فى الدنيا : ﴿ إنا أنشأناهن إنشاءً * فجعلناهن أبكارًا * عربا أترابًا * لأصحاب اليمين ﴾[٥] . وقال تعالى فى سورة الدهر : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا * متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسًا ولا

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٦٤ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٣٦ .
(٣) سورة الرحمن الآيات : ٤٦ ـ ٥٠ .
(٤) سورة الواقعة الآيات : ١٠ ـ ١٦ .
(٥) سورة الواقعة الآيات : ٣٥ ـ ٣٨ .

زمهريرًا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾[١] إلى أن قال جل شأنه : ﴿ وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكورًا ﴾[٢] .

عن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام . والله لايجدها عاق ولا قاطع رحم)[٣] .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أن موسى عليه السلام سأل ربه : (ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت ربى . فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله . فقال فى الخامسة : رضيت رب فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك . فيقول رضيت رب . قال : رب ما أعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر)[٤] .

ضرب الأمثال

* إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿ لايستحى ﴾ : الحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف مايعاب به ويذم . والمراد به هنا لازمه وهو الترك والامتناع . ﴿ فما فوقها ﴾ : فما دونها فى الصغر . ﴿ الفاسقين ﴾ : أصل الفسق فى كلام العرب الخروج عن الشىء ، والمنافق فاسق لخروجه عن طاعة ربه . ﴿ ينقضون ﴾ : النقض فسخ التركيب وإفساد ما أبرمته من بناء أو حبل . ﴿ الميثاق ﴾ : العهد المؤكد باليمين ، وهو أبلغ من العهد .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات جاءت لتنزيه القرآن الكريم من ريب خاص اعترى اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات كالذباب والعنكبوت لما نزل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل

(١) سورة الإنسان الآيات : ١٢ ــ ١٤ .
(٢) سورة الإنسان الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٧ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٣١٨ .

فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[1] . وقوله : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾[2] . أثر تنزيه من مطلق الريب بما تحداهم به فى الآيات السابقة إذ طلب إليهم أن يأتوا بسورة مثله ، وبه أبان لهم أن ذلك ليس بمطعن فى القرآن ، بل هو أنصع برهان على أنه من عند خالق القوى والقدر ، فإن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين المثيل وما مثل له ، فالعظيم يمثل له بالعظيم والحقير يمثل له بالحقير . فأى عيب فى ضرب الأمثال ولها حكمتها البالغة ؟ فقد تضرب الأمثال للتوضيح والبيان ، وحتى ينزل المعقول منزلة المحسوس ، ولذا لما ضرب الله مثلاً بالعنكبوت عقب على ذلك بقوله : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[3] . وقال جل شأنه فى آية أخرى : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[4] . وضرب الأمثال مأخوذ لغة من ضرب النقود ، أى بالتأثير فيها بالنقش والكتابة . كذلك لضرب المثل أثر فى النفوس من تبيين ووضوح ، والمثل هو الحال العجيبة ، ولكل مثل مورد ومضرب ، وما كان ذلك إلا ليكون كلام الله واضحاً فى نفوس عباده . وقد صدق الله إذ يقول : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[5] . ويقول : ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[6] . ويقول : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾[7] . وقد ضرب الله الأمثال فى مواقع كثيرة ومواطن متعددة ؛ فمن ذلك قوله جل شأنه : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[8] . أعلمت كيف أصبح المثل موضحاً تمام الإيضاح لقضية من أدق قضايا العقائد فى توحيد الله ؟ ومثل آخر يقول الله فيه : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾[9] . يريد سبحانه أن يقول: كيف ترضون الشركاء لى وأنتم لاترضون لعبيدكم وخدمكم أن يكونوا شركاء لكم فى أرزاقكم ؟ إن الذى لا ترضونه لأنفسكم وأنتم عبيد كيف ترضونه لخالقكم وهو الواحد القهار ؟ هل ترضون أن تكونوا سواءً مع ماملكت أيمانكم تخافونهم كخيفتكم أنفسكم فكيف ترضون ذلك لى ؟ . ثم يبين جل جلاله الحكمة من ضرب هذا المثل فيقول : ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾[10] ، ومثل آخر يقول فيه سبحانه : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رَغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[11] . فهل ضرب الأمثال بالأشياء التى رأوها حقيرة يكون سبباً فى امتناع الله عن ضرب المثل ؟ ﴿ إن الله لا يستحى ﴾ ، أى يمتنع ولا يترك ضرب المثل من أجل أن يكون المضروب له المثل حقيرًا ، فالمثل العظيم يضرب للعظيم وغيره يضرب لغيره .

(١) سورة الحج آية : ٧٣ .
(٢) سورة العنكبوت آية : ٤١ .
(٣) سورة العنكبوت آية : ٤٣ .
(٤) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٥) سورة هود آية : ١ .
(٦) سورة الإسراء آية : ١٢ .
(٧) سورة القيامة آية : ١٩ .
(٨) سورة آل عمران آية : ٥٩ .
(٩) سورة الروم آية : ٢٨ .
(١٠) سورة الروم آية : ٢٨ .
(١١) سورة النمل آية : ١١٢ .

علی قدر أهل العزم تأتی العزائم وتأتی علی قدر الكرام المكارم
ويعظم فی عين الصغير صغيرها وتصغر فی عين العظيم العظائم

بل إن الله تعالى قد يضرب المثل بما هو فوق البعوضة صغرًا وضآلة . ثم بعد ذلك يبين العلى الحكيم موقف المؤمنين والكافرين من ضرب الأمثال فقال : ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ : أى أن المؤمن عندما يسمع المثل يعتقد اعتقاداً جازمًا لايعتريه شك أن الله ماساق هذا المثل إلا لحكمة بالغة وهدف أسمى ، لأن العتب على الله محال ، بل إن رسول الله ﷺ قد ضرب المثل بما هو أقل من جناح البعوضة فى قوله ﷺ : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ماسقى الكافر منها شربة ماء)[1] . فالمؤمنون ثابتون على أن كلام الله حق ، والمثل من كلام الله ، فهو حق . وأما الكافرون فإنهم مرتابون شاكون ، يسألون سؤال معاند وجاحد كؤود :﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ ؟ وكيف يكون كلام الله قد ذكر فيه البعوض والنمل والذباب ؟ هل جهل هؤلاء أن الله تحدى بالذباب قومًا عبدوا غيره أن يأتوا أو يخلقوا ذباباً؟ إنهم عاجزون عن استنقاذ أى شيء يسلبهم الذباب ضعف الطالب والمطلوب . وأى عجب أن يضرب الله الأمثال بما خلق ؟ أليس هو القائل : ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾[2] ومن ثم فقد جاء قوله تعالى : ﴿ إن الله لايستحى أن يضرب مثلاً (ما) ﴾ أى أى مثل . فسبحانه يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة .

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الأبيات للإمام الزمخشرى وهو يناجى ربه فأقول سبحان الله ماهى تلك البعوضة التى لها عروق ونحر ومخ وعظام . والأبيات هى :

يامن يرى مد البعوض جناحه فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النُّحَّل
ويرى ويسمع مايرى مادونها فى قاع بحر زاخر متجندل

وازداد عجبى عندما قرأت هذا البحث الذى قام به البروفيسير « أردين ليا » الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية فاسمع إليه يقول الخبر بالحرف الواحد : « يقوم الدكتور أردين ليا من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوضة تحت الميكروسكوب مستخدمًا أدوات جراحية دقيقة مثل التى يستعملها صانع المجوهرات ، وذلك لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطار هذه الحشرات ، ولا تستغرق الجراحة التى يقوم بها الدكتور (ليا) أكثر من خمس دقائق ، وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع المرضى من البعوض الطيران . ويقوم الدكتور (ليا) أستاذ علم الحشرات وطبائعها بدراسة نظام الهيرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض والذى ينتشر فى المستنقعات ، وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملاً هاماً فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها . وأثناء العملية يقوم الدكتور (ليا) بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا إفرازات الأعصاب من مخ البعوضة ، وكذلك بعض الغدد من الرقبة . وقد وجد الدكتور (ليا) أن البعوضة لايمكنها بعد ذلك وضع البيضة » .

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٣٧ ط دار الفكر . (٢) سورة الزمر آية : ٦٢ .

فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلاً فقال : ﴿ **إن الله لايستحى أن يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها** ﴾ ، فما بالك بهذه الخليقة ومافيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها واجمة عبقريات العباقرة والمفكرين ! .

قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً** ﴾ ومشيئة الله منزهة عن العبث . إن الإضلال والهداية هنا جاءا بناء على موقف كل من الفريقين . أما الذين قالوا ﴿ **إنه الحق** ﴾ فهؤلاء هم أهل الهداية ، وأما الذين تشككوا وارتابوا وقالوا ﴿ **ماذا أراد الله بهذا مثلاً** ﴾ ، فهم أهل الإضلال والغواية ، وهذا منطق العدالة الإلهية ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾(١) ، إذ العدل وضع الشىء فى موضعه . قال تعالى فى حق أهل الغواية : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾(٢) . وقال أيضا : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾(٣) ، وقال فى النص الذى بين أيدينا : ﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين** ﴾ ، والفسق هو الخروج عن طاعة الله . ثم وصف هؤلاء بما جعلهم أهلاً للإضلال والضلال والغواية والبعد عن طاعة الله فقال : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ ، فهم أولاً فاسقون خارجون على حدود الله وإطاعة أوامره . وهم ثانياً : ناقضون للعهد ، ونقض العهد بمعنى التحلل منه وعدم الوفاء به ، وعهد الله هو ميثاقه المؤكد باليمين ، وهؤلاء نقضوا عهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهو الميثاق العام الذى ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤ نا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون * وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون(٤) ﴾ . كما أن هناك عهداً وميثاقاً أخذه الله على الأنبياء . قال تبارك اسمه : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾(٥) . وهناك عهد أخذه الله تعالى على العلماء فى قوله : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً فبئس مايشترون ﴾(٦) . وقد أمر الله بالوفاء بالعهود فقال : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ماتفعلون ﴾(٧) . وحذر سبحانه من نكث العهود فقال : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾(٨) . وهؤلاء الفاسقون الناقضون للعهود بعد توكيدها بالميثاق نقضوا عهد الله عندما كفروا به بعد أن أراهم الله آياته فى الآفاق وفى أنفسهم، وبعد ماتبين لهم أنه الحق ، وقد أمدهم سبحانه بالفعل المميز وأرسل إليهم رسلاً وأنزل كتبًا تهدى إلى صراط مستقيم . ولم يكن أمرهم مقصوراً على ذلك بل قطعوا ما أمر الله به

(١) سورة الكهف آية : ٤٩ .
(٢) سورة فصلت آية : ١٧ .
(٣) سورة الصف آية : ٥ .
(٤) سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ ــ ١٧٤ .
(٥) سورة آل عمران آية : ٨١ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٨٧ .
(٧) سورة النحل آية : ٩١ .
(٨) سورة النحل آية : ٩٢ .

أن يوصل ، فقطعوا ما أمر الله بوصله عندما آمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ۞ أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾(١) . وقطعوا ما أمر الله بوصله عندما قطعوا الأرحام ، والله تعالى يقول : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(٢) ، أى اتقوا الله فلا تعصوه ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، فإن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله . فمخالفة أمر الله فيما أمر بوصله يعتبر قطيعة ، والاعتداء على أهل الخير والصلاح وظلم أهل الإيمان بتعذيبهم وتشريدهم إنما هو قطع لما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب)(٣) . وقتل الذين يأمرون الناس بالقسط قطع لما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم ﴾(٤). ثم ماذا ؟ ﴿ **ويفسدون فى الأرض** ﴾ . والإفساد فى الأرض له وجوه لا تحصى ومواقع لا تستقصى . فالاعتداء على النفس أو المال أو العرض أو العقل أو العقيدة أو غير ذلك فساد وإفساد ، ونسوق هنا بعض وجوه الفساد التى حذر منها خير العباد محمد ﷺ .

عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون : يافلان مالك ! ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول بلى : كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر ؟ وآتيه)(٥) . رواه البخارى ومسلم .

وروى عن الوليد بن عتبة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم وصلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل)(٦) رواه الطبرانى . ومن وجوه الفساد ماورد النهى عنه فى قوله ﷺ : (يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لاتغتالوا المسلمين ولاتتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه فى بيته)(٧) رواه أبو داود . ومن وجوه الفساد ماورد التحذير منه فى قوله ﷺ : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)(٨) رواه البخارى .

ومنها قوله ﷺ : (لعن الله الخمر وشاربها وساقيها ومبتاعها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه)(٩) رواه أبو داود .

---

(١) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٢) سورة النساء آية : ١ .
(٣) رياض الصالحين للإمام النووى ص ١٣١ ط دار التراث .
(٤) سورة آل عمران آية ٢١ .
(٥) رواه الشيخان .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٧٩ . ط وزارة الأوقاف .
(٧) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩٠ .
(٨) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٩٦ .
(٩) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٩٦ .

وقال ﷺ : (والذى نفسى بيده ليبيتن أناسٌ من أمتى على أشرٍ وبطر ولعب ولهو فيصبحوا قردة وخنازير باستحلالهم المحارم واتخاذ القينات وشربهم الخمر وبأكلهم الربا ولبسهم الحرير)[١] رواه عبد الله بن الإمام أحمد . وقال ﷺ : (يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، يضرب على رؤوسهم بالمعازف والقينات ، يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير)[٢] رواه ابن ماجه وابن حبان .

وتأمل معى ماذكره الله تعالى فى حق هؤلاء الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض ، تجد الأسلوب هنا قد جاء بصيغة الفعل المضارع : ينقضون ــ يقطعون ــ يفسدون . وهذا الفعل يفيد الحال وقد يفيد الاستقبال بمعنى أنهم متلبسون بأفعالهم لم ينتهوا عنها ، فاستحقوا بذلك أن يحكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ . وهكذا بأسلوب اسم الإشارة وضمير الفصل ﴿ هم ﴾ وأداة التعريف (ال) وهو أسلوب يدل على الحصر والقصر ، أى أولئك هم الخاسرون لاغيرهم ، فقد خسروا سعادة الدارين وخسروا أنفسهم وهم فى جهنم خالدون . وإنما كانت خسارتهم لأنهم باعوا أنفسهم للشيطان واشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة . فيا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك . ويا حى يا قيوم برحمتك نستغيث .

شىء عجيب

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

إنه لشىء عجيب حقاً أن يكفر هؤلاء بمن أوجدهم من العدم ، وهل يقوى على ذلك غيره ؟ وإنه لشىء عجيب حقاً أن يكفر هؤلاء الجاحدون بمن أقام من الأدلة ماتنبهر به النفوس وتندهش له العقول : سماوات ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج ، ألا يكفى كل هذا على وجود العليم الخبير ؟ . سئل الإمام على رضى الله عنه : هل رأيت ربك ؟ فقال:وكيف أعبد ما لا أرى ؟ قالوا : فكيف رأيته ؟ قال : إن كانت العيون لاتراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان . وقيل لأحد الصالحين : ما الدليل على وجود الله ؟ فقال : ومتى غاب عنى سبحانه ؟ آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله .

دواؤك فيك وما تبصر — وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى — بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير — وفيك انطوى العالم الأكبر

---

(١) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٧ .

(٢) المصدر السابق جـ ٣ ص ٢٠٧ .

﴿ كيف تكفرون بالله ﴾ وهو الذى أحياكم بعد موتكم ، وهو الذى يميتكم بعد حياتكم ، وهو الذى سيحييكم بعد موتكم ، وهو الذى إليه المآب والرجعى ، وذلك تفسير قوله تعالى : ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾[١] . فالموتة الأولى هى التى كانت قبل نفخ الأرواح فى الأشباح ، والموتة الثانية هى التى ستكون فى الدنيا . والحياة الأولى كانت بعد نفخ الأرواح ، والحياة الثانية تكون بعد إعادة الأرواح إلى أجسادها يوم القيامة . فهناك موتتان وحياتان ورجوع إلى الله ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لاوزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[٢] . كيف تكفرون بالله وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعًا ، يغذيكم بنعمه ويربيكم بآلائه وكرمه .

الشمس والبدر من أنوار حكمته ... والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده ... والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه ... والنحل يهتف حمدًا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرًا فيسترهم ... والعبد ينسى وربى ليس ينساه

أتكفرون بمن هذا شأنه وقد سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ، ثم قصد إلى السماء بعد خلق الأرض فأتم خلقهن سبع سموات ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[٣] فيسألون من الذى أبدع الكائنات وخلق الكونيات : الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواءً للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كرهاً قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[٤] . أتكفرون بهذا الخالق الذى أحل لكم ما فى الأرض ؟ فالأصل فى الأشياء الحل ما لم يرد دليل على الحظر : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل ءآلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾[٥] ، إن الذى أمات وأحيا ثم أمات وأحيا هو بكل شىء عليم ، فقدرته باهرة وعلمه شامل كامل أزلى قديم ، فهو سبحانه علم ماكان وعلم مايكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ آية اشتملت على الزمان كله بآزاله وآماده وآباده ، وإن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

---

(١) سورة غافر آية : ١١ .
(٢) سورة القيامة الآيات : ١٠ - ١٣ .
(٣) سورة لقمان الآيتان : ١٠ ، ١١ .
(٤) سورة فصلت الآيات : ٩ - ١٢ .
(٥) سورة يونس آية : ٥٩ .

قصة البشرية

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

للقصة فى القرآن العظيم أهداف عليا وأغراض عظمى ، ففيها إثبات النبوة للنبى الأمى صلوات ربى وسلامه عليه . وفيها وسيلة من وسائل التربية الناجحة . وفيها كما قال مولانا لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك ﴾(١) .

فإذا ما أردنا تفصيل ما أوجزنا ألفينا أن فى القصة مايدل دلالة قاطعة ساطعة على أن هذا النبى صادق كل الصدق مؤيد كل التأييد فى نبوته . فمن الذى أخبره بقصص الأولين ولم يكن معهم فى أوطانهم ولم يعاصرهم فى أزمانهم ولم يذهب إلى معلم ولم يختلف إلى معهد ؟ ومن ثم فإننا لنرى كثيرا من القصص القرآنى يختم بما يدل على هذا . فبعد الفراغ من قصة نوح نقرأ قوله تعالى : ﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾(٢) . يتوجه الخطاب بعد ذلك من رب العزة إلى صاحب الرسالة العصماء فيقول له مولانا : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾(٣) . فإذا ما انتقلنا إلى قصة يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وتحركنا مع أحداثها من بلد إلى بلد ، ومن حدث إلى حدث ، وواكبنا وقائعها ، ألفينا أن الله تعالى وجّه الخطاب أيضا لحبيبه ومصطفاه ، بعد ما ختم القصة بقوله جل شأنه حكاية عن يوسف : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾(٤) . توجه الخطاب الربانى إلى النبى الأمى ﷺ ، قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾(٥) ، ثم يختتم السورة الكريمة بما

(١) سورة هود آية : ١٢٠ .
(٢) سورة هود آية : ٤٨ .
(٣) سورة هود آية : ٤٩ .
(٤) سورة يوسف آية : ١٠١ .
(٥) سورة يوسف آية : ١٠٢ .

يفيد إثبات نبوة المصطفى فيقول سبحانه : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[١] . فإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى المذكورة فى سورة طه . . نرى أن الله تعالى بعد ختامها وجه خطابه إلى حبيبه ومصطفاه فيقول له : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾[٢] . وإذا ما انتقلنا إلى قصة موسى فى سورة القصص وجدنا أن الله جلت قدرته وعظمت حكمته يوجه الخطاب فى نهايتها إلى مبعوث العناية الإلهية فيقول له : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنَّا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وماكنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين * وماكنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذيرٍ من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾[٣] . فإذا ما انتقلنا إلى قصة آل عمران وجدنا أن الله تعالى يوجه الخطاب إلى رسوله فيقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون ﴾[٤] .

فمن الذى أوحى إلى نبيه بأنباء الغيب ؟ إنه العليم الخبير : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ﴾[٥] . والوحى دليل النبوة ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾[٦] . قال تعالى مخاطباً شمس الهداية الربَّانية : ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾[٧] .

والحكمة ما أرادها الله أنه تعالى جعل الأمية آية وكمالاً لرسوله الكريم . قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾[٨] . حتى لايقول جاحد كنود أو كافر عنيد أو معتد أثيم إن محمدا قرأ الكتب السابقة ووعى مافيها ثم أدَّاها كما قرأها . والتاريخ يشهد والحقائق تؤكد وعقول الراشدين تثبت ، والتواتر يروى أن محمدا ﷺ قضى حياته بينهم فى مكة قبل البعثة أربعين عاما . وقد جاء ذلك صريحا فى كتاب الله : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلىَّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لايفلح المجرمون ﴾[٩] .

فإذا ما انتقلنا إلى الغرض الثانى من القصة القرآنية ، وهو الجانب التربوى وهو الذى عبر عنه القرآن الكريم فى قول الله تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾[١٠] ، فالقصة القرآنية مدرسة لتخريج الدعاة إلى الله ، فالدعوة إلى الله تعالى قد تكون بالقدوة الصالحة والتى بينها القرآن الكريم بيانا كافيا

(١) سورة يوسف آية : ١١١ .
(٢) سورة طه آية : ٩٩ .
(٣) سورة القصص الآيات : ٤٤ ــ ٤٦ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٤٤ .
(٥) سورة هود آية : ٤٩ .
(٦) سورة النساء آية : ١٦٦ .
(٧) سورة النساء آية : ٧٩ .
(٨) سورة العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .
(٩) سورة يونس الآيات : ١٥ ــ ١٧ .
(١٠) سورة يوسف آية : ١١١ .

شافيا ، وحذر الدعاة أن تخالف أقوالهم أفعالهم . قال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلاتعقلون** ﴾ . وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب يقول لقومه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾[(١)] ، وقال جلَّ ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[(٢)] .

وكما أن التربية تكون بالقدوة ، كذلك تكون بالموعظة الحسنة ، ولابد من متابعة النفس بالموعظة ، إذ أن النفس كزجاجة الدواء إن لم ترج قبل استعماله ترسبت فيها العقاقير ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وإن لم يملأها شيء ملأها الهواء . قال تعالى : ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[(٣)] .

كذلك تكون التربية بالقصة ، ويكفيك أن تأخذ مثلا على هذا قصة يوسف وما احتوته من عبرة وحكم بالغة . فقد انتقل يوسف من بين أحضان أبيه عندما انتزعته أيدى إخوته وأُلقِىَ فى غيابة الجب ثم انتقل إلى قصر العزيز واستعصم بالله واجتاز محنة المراودة ، ولم تنسه شدة السجن أن يدعو إلى ربه . وانتقل بعد ذلك إلى ملك مصر فكان على خزائن الأرض وجمعه الله بإخوته ، وكانت هناك أحداث ومباحثات إلى أن جمع الله شمل الأسرة ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا . . وهكذا تكون التربية باستنباط العبر وتكون الدعوة باستخلاص الدروس . نعم لقد كان فى قصصهم عبرة .

كذلك تكون التربية والدعوة بالتعليق على الأحداث الجارية على وجه الأرض أول بأول بحيث يضرب الداعية والحديد ساخن . كذلك تكون التربية بتطبيق العقوبات على الذين لا تردعهم الحجج الساطعة ولا البراهين القاطعة . وقد جمع الله الفريقين فى قوله : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[(٤)] . فالناس قسمان : قسم تكفيه الحجة والبرهان ، وقسم : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولَّى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾[(٥)] . . ﴿ يجادل فى الله بغير علم ولا هدًى ولا كتاب منير ﴾[(٦)] . هذا القسم يردع بالعقوبة حتى لاتنتقل عدواه المدمرة إلى غيره من أصحاب العقول الرشيدة .

أما الغرض الثالث من أغراض القصة القرآنية فهو تثبيت النبى ﷺ وتصبيره على مايلاقيه من أذى قومه . وقد جاء مصداق ذلك فى سورة هود ، فبعدما قص الله عليه قصة نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى ، قال الله له فى نهاية السورة : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[(٧)] . وفى هذا المجال يقول سبحانه لصفوة خلقه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى

(١) سورة هود آية : ٨٨ .
(٢) سورة الصف الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الذاريات آية : ٥٥ .
(٤) سورة الحديد آية : ٢٥ .
(٥) سورة لقمان آية : ٧ .
(٦) سورة الحج آية : ٨ .
(٧) سورة هود الآيات : ١٢٠ ـ ١٢٣ .

يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقًا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين * إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾[١] . ويقول جل شأنه : ﴿ مايقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك ﴾[٢] . إلى غير ذلك من الآيات التى كانت تنزل على قلب رسول الله ﷺ بردا وسلاما تخفف عنه مايلاقيه من أذى قومه وعنادهم وحرصه على هدايتهم ، قال تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[٣] .

ولنأخذ الآن فى تفسير قصة آدم : فإنه تعالى لما امتن على عباده بنعمة الخلق والإيجاد فى قوله جل شأنه : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ﴾ بين لهم بعد ذلك تشريفه لأبيهم الذين جاءوا من صلبه ، وكيف ذكره فى العالم العلوى والملأ الملائكى ، وأنه تعالى لما خلق لنا ما فى الأرض جميعا وسخر لنا ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه امتنَّ على أبينا آدم بالخلافة ليقيم العدالة على وجه الأرض ويطبق أحكام الله بدقة . وليس ثمة أدنى شك فى أن تشريف الآباء تشريف للأبناء ، وأن التنويه بشرف الأجداد فيه شرف للأحفاد . فكان بين الآيات تمام ارتباط وقوة صلة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة ﴾ . تقديره اذكر لقومك يامحمد ما قاله ربك صاحب الإنعام والإكرام المربى عباده على كرمه ورزقه . ماذا قال ؟ إنه قرار إلهى لايقبل النقض : ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ أى يقوم بتطبيق أحكام الله ونشر الهدى والرحمة والعدل بين أهل الأرض . أو إنى جاعل فى الأرض أقواما يخلف بعضهم بعضا . فالمعنى الأول من باب قوله جل شأنه : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[٤] . والمعنى الثانى من باب قوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾[٥] . وقوله تعالى : ﴿ إنى جاعل فى الأرض ﴾ يفيد أنه خلق لعمارة الأرض ولو دخل الجنة فإنما يدخلها لحكمة بل لحِكَم . من تلك الحكم : أنه سيأكل من الشجرة ثم يتوب فيتوب الله عليه . كذلك أبناؤه يخالفون ثم يتوبون . ففعل الله منزه عن العبث . ثم يعود هذا المخلوق إلى الأرض فيعمرها وتعمرها أبناؤه من بعده . قال : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[٦] . ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٧] .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : عجبت لابن آدم يتكبر على وجه الأرض وهو حفنة من ترابها ، وكيف يتكبر وهو الذى تنتنه عرقة وتؤذيه بقة وتقتله شرقة ؟ أوله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة :

(١) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ ـ ٣٦ .
(٢) سورة فصلت آية : ٤٣ .
(٣) سورة فاطر آية : ٨ .
(٤) سورة ص آية : ٣٦ .
(٥) سورة الأنعام آية : ١٦٥ .
(٦) سورة الأعراف آية : ٢٥ .
(٧) سورة طه آية : ٥٥ .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلالك إن النتن تثريب
لو فكر الناس فيها فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا ... أكثر فإنك مأكول ومشروب

كيف تتكبر يا ابن آدم والقبر يناديك كل يوم : يا ابن آدم لا تتكبر على ظهرى لأننى غدا سأضمك فى بطنى ؟.

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل وسلطانه ... وأين المباهى إذا ما افتخر
تساووا جميعا فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مضوا ... أمَا لَكَ فيما مضى معتبر ؟

فماذا قالت الملائكة فى هذه الحضرة الإلهية المقدسة ؟ ﴿ قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ ؟ إن هذا استفهام أرادت به الملائكة أن تعرف من الله تعالى الحكمة من خلق آدم ، وهو استفهام خالٍ من الاعتراض ، لأن الملائكة معصومون من مثل هذا . قال تعالى فى حقهم : ﴿ بل عباد مكرمون * لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾(١) ، وقال فى شأنهم : ﴿ لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾(٢) . وإنما قالت الملائكة : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ لأنها رأت ماكان يفعله الجن قبل خُلق آدم من وجوه الفساد والإفساد . وقد نطق القرآن الكريم بأن الجن خلقت قبل آدم . قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون * والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم ﴾(٣) أى من قبل آدم . فقاست الملائكة هؤلاء الذين سيُخلقون على الذين خُلقوا من قبل . قالت الملائكة لرب العزة : ﴿ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ﴾ . التسبيح هنا المراد به التنزيه . . ومعنى التسبيح بالحمد أى نسبح تسبيحا مقترنا بالحمد فنقول : « سبحان الله وبحمده » والتقديس هو التعظيم والتطهير . ولتسبيح الله فضل عظيم عند الله ، قال النبى ﷺ : (الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن مابين السماء والأرض)(٤) .

ولذا جاء التسبيح فى القرآن الكريم بصيغ مختلفة : جاء بصيغة الماضى ﴿ سبَّح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾(٥) وجاء بصيغة المضارع : ﴿ يسبِّح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾(٦) . وجاء بصيغة الأمر : ﴿ سبِّحْ اسم ربك الأعلى ﴾(٧) وجاء بصيغة المصدر : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون ﴾(٨) . وجاء بصيغة الصفة : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين * للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾(٩) .

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) سورة التحريم آية : ٦ .
(٣) سورة الحجر الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف .
(٥) سورة الصف آية : ١ .
(٦) سورة الجمعة آية : ١ .
(٧) سورة الأعلى آية : ١ .
(٨) سورة الصافات آية : ١٨٠ .
(٩) سورة الصافات الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤ .

قـال لهم مولانـا جلَّ جـلاله : ﴿ إني أعلم مـا لا تعلمون ﴾ أى إن فى علمى من الحكم البـالغة ما لا تعلمونه أنتم ، فإن فى ذرية هذا المخلوق خلقا لو علمتموهم لعلمتم أن فعلى كله خير ، فإن منهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . إن الملائكة دائما مطبوعة ومجبولة على طاعة الله . قال النبى ﷺ : (أطت السماء أطا وحق لها أن تئط . ما من موضع قدم فى السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد لله ثم يقولون : وعزتك وجلالك ماعبدناك حق عبادتك ، والتسبيح عندهم كالتنفس عندنا) . ﴿ يسبحـون الليل والنهار لايفترون ﴾[1] .

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التى لا تمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[2] .

والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة فى أبى بكر ، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم ، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب ، أو بتركه شورى فى جماعـة صالحين كذلك كما فعل عمر ، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور . ويجب أن يكون الخليفة ذكرا حرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء .

ولما كان آدم عليه السلام جديرا بالاستخلاف فى الأرض وتعميرها ، فقد أراد ربك أن يظهر فضله على آدم ويبين شرف آدم واستحقاقه بالخلافة . قال تعالى : ﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ . ومعرفة الأسماء لها من الغايات السامية والأهداف العالية ما لها . فلولا أن الله تعالى سمَّى الأسماء بأسمائها وجعل الأسـماء علامـة عليها لتوقفت مصالـح البشر وما استطاعوا أن يتعاملوا فيما بينهم . فخبرنى بربك لو لم نعلم أسماء الأشياء كيف كنا نتعامل ؟ فإذا كنت تريد مثلا أن تبيع فرسا وأنت لا تعرف اسمه أو تريد التنزه على شاطىء النهر ، فهل كنت ستأخذ صاحبك حتى تريه الفرس وتقول له : أريد بيع هذا ؟! وإن كنت تريد رغيف عيش وأردت ابنك أن يشتريه فماذا كنت تقول له ؟ أو كنت تريد السفر إلى بلد ما مع أحد الأصدقاء وسألك أين تريد الرحيل وأنت لاتعرف اسم البلد فماذا كنت تقول له ؟ أعلمت لماذا علَّم الله آدم الأسماء كلها ؟ وعلمت قيمة العلم ومكانته ؟ العلم نور والعلم أفضل من المال لأنه يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلماء ورثة الأنبياء ﴿ فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ۞ قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ۞ قال إنك لن تستطيع معى صبرا ۞ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ۞ قال ستجدنى إن شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا ﴾[3] . إن الملائكة ، وهم عباد مكرمون ، لا يستطيعون عمارة الأرض . أليست عمارتها قائمة على الزراعة والتجارة والصناعة والأسفار والتزاوج والتكاثر والمآكل والمشرب والملبس والتنقيب عما فى

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٠ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١ ص ٢٦٤ وما بعدها .
(٣) سورة الكهف الآيات : ٦٥ ـ ٦٩ .

باطن الأرض ؟ وليست كل هذه الأشياء من خصائص الملائكة ، فإنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتصفون بذكورة ولا أنوثة ، بل يسبحون الليل والنهار لايفترون . شهيقهم وزفيرهم سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله . ومن ثم فإن المكلَّف بمعرفة الأسماء هو آدم ، لأنه سيتعامل معها . وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يعرض الله المسميات على الملائكة ويقول لهم أنبئونى بأسماء هذه المسميات ، ولا يسع الملائكة إلا أن تعترف بالعلم كله لله فتنزه الله التنزيه الذى يليق بذاته قائلة : ﴿ **سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم** ﴾ وحدك الذى أحاط علمك بكل شىء ، فقد وسعت كل شىء رحمة وعلما ، وأنت ﴿ **الحكيم** ﴾ الذى تضع الأشياء فى نصابها والنقاط على حروفها وتسمى الأشياء بأسمائها . فالعبث عليك محال يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . وهنا قال الله تعالى : ﴿ **يا آدم أنبئهم بأسمائهم** ﴾ أى أخبرهم بها ، فأنبأهم بها آدم كما علمه الله تعالى . فقال لهم المولى جلّ جلاله : ﴿ **ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض** ﴾ ، أى ماغاب عنكم فى السماوات والأرض ، فهو سبحانه وتعالى علم ماكان وعلم مايكون وعلم ما لايكون لو كان كيف كان يكون : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[1] . بل إنه تعالى يعلم القول : ﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾[2] .

قوله تعالى ﴿ **وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ أى أعلم ما تظهرونه بقولكم : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها** ﴾ وما كنتم تكتمونه فى أنفسكم من أن الله لا يخلق خلقا أفضل منكم . فقد شاءت الحكمة الإلهية أن يخلق آدم ويجعله خليفة فى الأرض ينشر العدل ويقيم أسس الحق . أما قوله تعالى : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أى فى قولكم إن الله لن يخلق أعلم منا ، فقد كان آدم أعلم عندما أنبأكم بأسماء المسميات . وجلّت حكمة الله فبدأ عمارة الأرض بآدم ثم خلق حواء فأصبحا زوجين وأنجبا من الذرية مابلغ اليوم خمسة آلاف مليون من البشر : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[3] .

آدم والملائكة وإبليس

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٤ .
(٣) سورة النساء آية : ١ .

مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ
فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ
أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ
عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا
لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ
﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ * أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ
وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ
إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ **اسجدوا** ﴾ أصل السجود : الانحناء لمن يسجد له ، والتعظيم ، وهو فى اللغة : التذلل والخضوع ، وفى الشرع : وضع الجبهة على الأرض . ﴿ **إبليس** ﴾ : اسم للشيطان وهو أعجمى ، وقيل إنه مشتق من الإبلاس وهو الإياس . ﴿ **أبى** ﴾ : امتنع ، والإباء : الامتناع مع التمكن من الفعل . ﴿ **استكبر** ﴾ : الاستكبار : التكبر والتعاظم فى النفس . ﴿ **رغداً** ﴾ : واسعاً كثيراً لا عناء فيه ، والرغد : سعة العيش ، يقال : رغد عيش القوم إذا كانوا فى رزق واسع .

قال الشاعر :(١)

بينما المرء تراه ناعماً يأمن الأحداث فى عيش رغد

﴿ **فأزلهما** ﴾ أصله من الزلل وهو عثور القدم ، يقال : زلت قدمه ، أى زلقت ، ثم استعمل فى ارتكاب الخطيئة مجازاً يقال : زلّ الرجل إذا أخطأ وأتى ما ليس له إتيانه ، وأزله غيره : إذا سبب له ذلك . ﴿ **مستقر** ﴾ موضع استقرار ، ﴿ **ومتاع** ﴾ المتاع ما يتمتع به من المأكول والمشروب والملبوس ونحوه .

(١) هو امرؤ القيس : ذكره أبو حيان والطبرى « القرطبى » جـ٨ ص ٣٠٣ .

﴿ فتلقّى ﴾ التلقى فى الأصل : الاستقبال ، تقول خرجنا نتلقى الحجيج . ﴿ إسرائيل ﴾ اسم أعجمى معناه : عبد الله وهو اسم يعقوب عليه السلام ، وقد صرح به فى آل عمران ﴿ إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ﴾(١) الآية . ﴿ أوفوا ﴾ الوفاء : الإتيان بالشىء على التمام والكمال ، يقال أوفى ووفى ، أى أداه وافياً تاماً . ﴿ تلبسوا ﴾ اللبس : الخلط تقول العرب : لبست الشيء بالشيء خلطته ، والتبس به اختلط ، قال تعالى : ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾(٢) وفى المصباح : لبس الثوب من باب تعب لبسا بضم اللام ، ولبست عليه الأمر لبسا من باب ضرب خلطته ، والتبس الأمر : أشكل . ﴿ الزكاة ﴾ مشتقة من زكا الزرع ، يزكو ، أى نما لأن إخراجها يجلب البركة ، أو هى من الزكاة ، أى الطهارة لأنها تطهر المال ، قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾(٣) الآية . ﴿ بالبر ﴾ البر : سعة الخير والمعروف ، ومنه البر والبرية للسعة وهو اسم جامع لأعمال الخير ، ومنه بر الوالدين وهو طاعتهما ، وفى الحديث : (البر لا يبلى والذنب لا ينسى) . ﴿ وتنسون ﴾ تتركـون ، والنسيان يـأتى بمعنى الترك كقـوله : ﴿ نسـوا الله فنسيهم ﴾(٤) ، وهو المراد هنا ، ويأتى بمعنى ذهـاب الشىء من الذاكـرة كقولـه : ﴿ فنسى ولم نجد لـه عزما ﴾(٥) ﴿ تتلون ﴾ : تقرءون وتدرسون . ﴿ الخاشعين ﴾ الخاشع : المتواضع ، وأصله من الاستكانة والذل ، قال الزجاج : الخاشع الذى يرى أثر الذل والخشـوع عليه ، وخشعت الأصـوات : سكنت . ﴿ يظنون ﴾ الظن هنا بمعنى اليقين لا الشك ، وهو من الأضداد ، قال أبو عبيدة : العرب تقول لليقين ظنّ وللشك ظن . وقد كثر استعمال الظن بمعنى اليقين ، ومنه ﴿ إنى ظننت أنى ملاقٍ حسابيه ﴾(٦) .

التفسير: ولنأخذ الآن فى المعنى الذى تدور حوله الآيات . . قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ .

المعروف أن آدم خلق من طين ، وأن الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة ، وقد أقسم الله بهم فى بعض الآيات كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا ﴾(٧) وفى قوله جل شأنه : ﴿ والمرسلات عرفا * فالعاصفات عصفا * والناشرات نشرا * فالفارقـات فرقـا * فالملقيٰت ذكرا * عذراً أو نذراً ﴾(٨) . وفى قوله جل شأنه : ﴿ والنازعـات غرقـاً * والنٰشطات نشـطاً * والسابحات سبحاً * فالسٰبقات سبقا ﴾(٩) . وقد جبلت الملائكة على الطاعة كما وصفهم الله جل شأنه فى قوله : ﴿ بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بـالقول وهم بـأمره يعملون * يعلم مـا بين أيـديهم وماخلفهم ولايشفعـون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقـون ﴾(١٠) . والتسبيـح عنـدهم كـالتنفس عنـدنـا : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾(١١) أى لا يضعفون ولا يملون ولا يسئمون قال تعالى : ﴿ فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسئمون ﴾(١٢) وأما إبليس فقد خلق من نار ، وهو أصل الجن ، وقد

(١) سورة آل عمران آية : ٩٣ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٩ .
(٣) سورة التوبة آية : ١٠٣ .
(٤) سورة التوبة آية : ٦٧ .
(٥) سورة طه آية : ١١٥ .
(٦) سورة الحاقة آية : ٢٠ .
(٧) سورة الصافات الآيات : ١ ــ ٣ .
(٨) سورة المرسلات الآيات : ١ ــ ٦ .
(٩) سورة النازعات الآيات : ١ ــ ٤ .
(١٠) سورة الأنبياء الآيات : ٢٦ ــ ٢٨ .
(١١) سورة الأنبياء آية : ٢٠ .
(١٢) سورة فصلت آية : ٣٨ .

صرح بذلك الكتاب الكريم فى قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾(١) . وليس إبليس ملكا ، لأن الملائكة لاتتزوج ولا تتناسل ولا يوصفون بذكورة أو أنوثة ، أما ، إبليس فله ذرية لأنه متزوج ، قال تعالى : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ﴾(٢) . والملائكة لاتعصى الله تعالى ، لأنهم فطروا على الطاعة ، وإبليس قد أبى وعصى واستكبر وكان من الكافرين . والآية التى بين أيدينـا قد جمعت ثـلاثة نمـاذج من المخلوقات : آدم ، والمـلائكة ، وإبليس . وقد أخبر الصادق المعصوم عن الملائكة بأنهم يأمرون بالخير ، أما الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر . روى الترمذى بسنده إلى رسول الله ﷺ : إن للشيطان لَمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قـرأ : ﴿ الشيطان يعـدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾(٣).واللمة : الإلمام والإصابة .

أما السجود ، فقد يراد به التحية ويراد به العبادة ، وقد يكون من العقلاء وغير العقلاء من مخلوقات الله . وقد اجتمع النوعان فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾(٤) .

ولقد كان السجود لآدم سجود تحية وإكرام لاسجود عبادة وتقديس . قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يارسول الله أحق أن يُسجد لك فقال : (لو كنت آمراً أحدا أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق)(٥) . أما الملائكة فقد أطاعت ربها وسجدت سجود التحية لآدم تلبية لأمر الله ، أما إبليس فقد استكبر على أمر الله وأبى أن يطيعه وركب رأسه عناداً وجحوداً فصار بذلك من الكافرين ، واستعمل القياس الفاسد فقال أنا خير منه ، ثم أراد أن يستدل على تلك الخيرية ، فجمح به خياله العقيم حيث قاس عنصرا على عنصر ، وظن أن الخلق يتفاضلون بالعناصر ، ونسى أن الميزان العادل الذى توزن به كرامات الخلق : التقـوى : ﴿ إن أكرمكم عنـد الله أتقاكم ﴾(٦) . وفى الخبر عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : (إن الله تعالى يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسبا وجعلتم نسبا فجعلت أكرمكم أتقاكم وأبيتم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم أين المتقون أين المتقون)(٧) .

لقد غفل إبليس عن حقيقة المعصية ، فلا تنظر إلى المعصية من حيث أنها معصية فحسب إنما انظر إليها من حيث من تعصيه . لقد أمرك الله أن تسجد ، فكيف تنصرف من طاعة الأمر إلى البحث فى العناصر ؟

قال ﷺ : (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه حبة من خردل من كبر)(٨) .

(١) سورة الكهف آية : ٥٠ .
(٢) سورة الكهف آية : ٥٠ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٨ .
(٤) سورة الحج آية : ١٨ .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٣٤٧ . ط دار الفكر
(٦) سورة الحجرات آية : ١٣ .
(٧) تفسير القرطبى جـ ٩ ص : ٦١٦٥ ، ٦١٦٦ . ط الشعب
(٨) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٤١٣ ط وزارة الأوقاف .

قيل لبلال بن رباح : يابلال ابن من أنت ؟ فقال أنا ابن من أسجد الله له الملائكة .

وقيل لسلمان الفارسى : ياسلمان من أبوك ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . أنا ابن الإسلام . فلما بلغ ذلك القول أمير المؤمنين عمر صاح قائلاً : وأنا ابن الإسلام وأنا ابن الإسلام وأنا ابن الإسلام . وهكذا كرم الله آدم بسجود الملائكة له ، كما كرمه من قبل بجعله خليفة فى الأرض وتعليمه الأسماء كلها ، وسيكرمه بعد ذلك بسكناه الجنة فإلى هناك :

﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ .

وهذا تكريم وتعظيم لآدم وذريته . قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[(١)] . وجلت حكمة الله أن يقول لآدم اسكن ولم يقل له خالدين فيها ، لأن آدم خلق للأرض وتعميرها ، فلا مفر من عيشه على ظهرها ، وقال له أنت وزوجك ، وهذا دليل على أن صلة الرجل بالمرأة لاسبيل لها إلا الزواج وليس هناك من سبيل آخر إذا لم تكن محرما له . والجنس فى الإسلام قد أحاطه الله بالرعاية والعناية والصيانة حيث قال جل شأنه فى وصف المؤمنين : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾[(٢)] ، ثم أغلق الباب أمام أى طريق آخر فقال : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾[(٣)] . وليس فى الإسلام مايسمى عشق أو عشيقة ، قال تعالى فى صفة المؤمنين : ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ﴾[(٤)] . وقال فى وصف المؤمنات : ﴿ محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ﴾[(٥)] ، ومن ثم فإن الخطاب الذى وجه إلى آدم بالسكنى له دلالته ، إذ أن الخطاب لم يأت بضمير التثنية ، فلم يقل مولانا وياهذان اسكنا الجنة ، إنما جاء موجهاً إلى آدم أصلاً ثم عطفت عليه زوجه تبعاً ، بمعنى أن المرأة مسئولة من زوجها وأن زوجها مسئول عنها من حيث الرعاية والنفقة وحقوق الزوجية ، وقد جاءت الحكمة واضحة فى قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾[(٦)] . فتأمل قوله جل شأنه ﴿ فتشقى ﴾ ولم يقل فتشقيا بعدما قال يخرجنكما ، فقد ثنى الضمير فى النهى عن الإخراج وأفرده حين وقوع الشقاء ، لأن الشقاء فى الدنيا سيكون على رأس الرجل ، أما المرأة فهى مستقرة فى بيت زوجها ، أما الرجل فهو الذى سيضرب فى مناكب الأرض سعيا وراء القوت لاسيما إذا غدا القوت فى يد الناس كالياقوت . وجاء بعد ذلك الضمير مفردا كذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾[(٧)] .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٧٠ .
(٢) سورة المؤمنون الآيتان : ٥ ، ٦ .
(٣) سورة المؤمنون آية : ٧ .
(٤) سورة المائدة آية : ٥ .
(٥) سورة النساء آية : ٢٥ .
(٦) سورة طه الآيتان : ١١٦ ، ١١٧ .
(٧) سورة طه الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

وتأمل حكمة العليم الحكيم حيث جمع بين الجوع والعرى وبين الظمأ والحر . وقد يبدو الأمر لأول وهلة فى صورة أخرى ، فلسائل أن يقول : لماذا لم يجمع بين الجوع والظمأ وبين العرى وحر الشمس ؟ لكن حكمة الحكيم اقتضت أن يكون هناك جمع بين الجوع والعرى ، لأن الجوع يفقد الجسم حرارته حيث تكون طاقة الطعام قد تبددت ، والعرى يزيد الإنسان جوعا ، فناسب أن تكون الصورة على هذه الكيفية من شدة المعاناة : جوع يصحبه عرى ، وعرى بسبب شدة البرد ، وجوع يفقد الجسم طاقته ، فتأتى الصورة فى أشد معانيها . كذلك الجمع بين الظمأ وشدة الحر ، فشدة الحر تزيد الظمأ لهيبا وتزيد الكبد ظمأ ، فناسب أن يجمع بينهما فى آية واحدة وصدق من قال عن كتابه : ﴿ آلر كتَابٌ أحكمت آياتِه ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾(١) . فالقرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط بينهما ناظم .

والزواج سنة الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ، قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾(٢) ، وبعد ذلك قال الله لهما : ﴿ وكلا منها رغدا حيث شئتما ﴾ أى أكلاً هنيئاً ذا سعة ، وهذه منحة من الله ، وقد جرت سنة المولى جل ذكره أن يقرن المنحة بالمحنة ليكون العبد بين الترغيب والترهيب والخوف والرجاء ، فتستقيم حاله وتنتظم خطاه ، ورحم الله أصحاب رسول الله ﷺ ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر بعذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . وهل سلم الأنبياء من الابتلاء ؟ كلا لقد ابتلى نوح فى ابنه . ألم يقل له : ﴿ يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموجَ فكان من المغرقين ﴾(٣) . ألم تعتلج لواعج الشوق فى قلب نوح فقال لربه : ﴿ رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾(٤) . ألم يقل له ربه : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾(٥) . ألم يبتل إبراهيم فى ابنه بعدما من الله عليه به ؟ ألم ير فى المنام أنه يذبحه ؟ ورؤ يا الأنبياء وحى . ألم يذهب بابنه لينفذ فيه أمر الله وفى هذا يقول العلى الأعلى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾(٦) . ثم ماذا ؟ لقد أسلم الوالد وولده الأمر لله . قال تعالى : ﴿ فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن يا إبراهيم * قد صدقت الرؤ يا إنّا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين ﴾(٧) . ويعقوب عليه السلام ، ألم يبتل بفقد يوسف ؟ ألم يسلم الأمر لله ويقول لأولاده : ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾(٨) . ثم ألم يبتل يوسف بمراودة امرأة العزيز له وهو ابتلاء من أشد أنواع ما يبتلى به المرء ؟ ألم يقل لها يوسف : ﴿ معاذ الله إنه ربى أحسن

(١) سورة هود آية : ١ .
(٢) سورة الرعد آية : ٣٨ .
(٣) سورة هود الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .
(٤) سورة هود آية : ٤٥
(٥) سورة هود آية : ٤٦ .
(٦) سورة الصافات الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .
(٧) سورة الصافات الآيات : ١٠٣ ، ١٠٦ .
(٨) سورة يوسف آية : ١٨ .

مثواى ﴾[١] . ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله . ألم يقل يوسف لربه : ﴿ السجن أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه ﴾[٢] . ألم يبتل أيوب فى نفسه وماله وأهله ؟ ألم يقل لربه : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾[٣] . ألم يبتل يونس ببطن الحوت ؟ ألم يقل مولانا العظيم : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾[٤] . فنادى فى الظلمات هذا النداء الكريم ظلمة الليل وظلمة بطن الحوت وظلمة فى قاع بحر زاخر متجندل : ﴿ فاستجبنا له فنجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾[٥] . ألم يقل فى شأنه رب العزة : ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين * للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون ﴾[٦] .

ولولا أن يطول الكلام ولا يتسع له المقام لقلنا فى الأنبياء جميعاً ما قلناه فى هذه الكوكبة الطاهرة ، ويكفى أن تعلم أن سيدهم الأعظم وإمامهم الأكرم قد لاقى من البلاء ماتزول من هوله الجبال الشامخات . ألم يرم بالحجارة يوم الطائف حتى دميت قدماه ؟ ألم يرسل برقية عاجلة إلى رافع السماء بلا عمد يطلب النجدة والمدد : (اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله)[٧] .

ألم يمت أولاده فى حياته ما عدا فاطمة ؟ ألم يتجرأ المنافقون عليه حتى بلغ من سوء فعلهم أنهم رموا أم المؤمنين عائشة الناسكة الحصان العفيفة ، رموها بالإفك ، وظلت المدينة شهرا تغلى غليان المرجل حتى قال الرسول لعمر : ما تقول فى عائشة يا عمر ؟ وكان عمر معروفاً بالصرامة فى الحق . قال : يارسول الله من الذى زوجها لك ؟ فقال الرسول الكريم : الله . قال عمر بصراحته المعهودة وهو الرجل الذى ضرب الله الحق على قلبه ولسانه : يارسول الله أترى أن الله دلس عليك فى زواجها ؟ وظلت المدينة فى فزع طيلة شهر . لو وضعت نفسك فى هذه المحنة ساعة لتصدع فؤادك تصدع الزجاج ، فما بالك بمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، والدنيا كلها تشهد من هى عائشة ! والعالم أجمع يعرف من أبوها ، إنها الصديقة بنت الصديق أنصع من ماء الغمام وأطهر من السحابة فى سمائها . بهذا شهد الله من فوق سبع سموات : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٨] . ثم لمن تقال هذه الأقوال الخبيثة ؟ إنها لاتقال إلا للخبيثين . أما الأقوال الطيبة فإنها للطيبين . ومن أطيب من أم المؤمنين ؟ إن الطيبين مبرءون مما يقول عنهم مرضى القلوب ، قال جل شأنه : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾[٩] . صلى عليك الله ياعَلَم الهدى ما هبت النسائم وما ناجت على الأيك الحمائم .

(١) سورة يوسف آية : ٢٣ .
(٢) سورة يوسف آية : ٣٣ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ٨٣ .
(٤) سورة الأنبياء آية : ٨٧ .
(٥) سورة الأنبياء آية : ٨٨ .
(٦) سورة الصافات الآيتان : ١٤٣ ، ١٤٤ .
(٧) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٢١
(٨) سورة النور الآيات : ٢٣ ــ ٢٥ .
(٩) سورة النور آية : ٣ .

فلا عجب أن يبتلى آدم بالنهى عن قرب الشجرة ، لأن الابتلاء سنة الله لمن يعيش على ظهر الأرض ولمن قدر له أن يعيش عليها ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[1] . أما الشجرة التى نهى آدم عن قربها فإنها شجرة لم يرد تعيينها فى الكتاب أو السنة ، إنما كل ماورد فيها أقوال لم تثبت أمام البحث ، فمن قائل أنها شجرة الكرم ، أى العنب ، ومن قائل أنها شجرة الحنطة ، ومن قائل أنها شجرة التين ، ولو كان فى تعيينها فائدة لعينها الله كما عين النخلة التى أمرت مريم بهزها ، ولله حكمة فى عدم تعيينها حتى لا يشمئز العباد من الأكل منها . فالشجرة لا ذنب لها ولا حيلة ، إنما كانت أداة اختبار .

وليس بصحيح ما قاله بعض الذين تعثرت أقدامهم وزلت أقلامهم وانفلت خيالهم فقال : إن المراد بها شجرة الجنس ، أو المقصود بها الشر . لأن اللغة لا تساعد على ذلك . فالأصل فى الألفاظ حقائقها لا مجازاتها ، وإنما يلجأ إلى المجاز إذا تعذرت الحقيقة بشرط أن تكون هناك قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى كقولهم سمعت بحراً يخطب ، ويراد به العالم ذا المعرفة الواسعة ، فأى مجاز فى قوله تعالى : **﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾** وقد قال الله تعالى : **﴿ فأكلا منها ﴾** فهل يؤكل الجنس ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . أما الجنة التى كان فيها آدم فقد صال فيها العالمون وجالوا . فمن قائل إنها كانت فى السماء وإنها جنة الخلد ، ومن قائل إنها بستان فى ربوة عالية . كذلك اختلفوا فى مكانها من الأرض . ولما بحثت هذه الأقوال كلها رأيت أن القوم يضربون فى حديد بارد ، وسألت نفسى : ما ثمرة هذا الخلاف ؟ إن الجنة التى دخلها آدم وصفها الله تعالى بقوله : ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولاتعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾[2] . فلنقف عند قول الله سبحانه وليس لنا أن نتجاوز الحدود . إنها جنة دخلها آدم وكلف فيها ألا يقرب الشجرة ، ووصفها الله بأوصاف خاصة . فلنؤمن بها كما وردت ولنأخذ العبرة مما حدث فيها . وهذا القدر يكفينا . قوله تعالى : **﴿ فتكونا من الظالمين ﴾** أى آدم وحواء ، أى من الظالمين لأنفسكما وذلك بإخراجكما من الجنة . فماذا حدث ؟

﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

والزلل معناه السقوط ، وذلك عن طريق الوساوس الشيطانية . قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين * فدلهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان

(١) سورة البقرة الآيات : ١٥٥ - ١٥٧ . (٢) سورة طه الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .

لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾(١) .

فأنت ترى فى هذه الآيات أن إبليس أقسم لآدم بالله وقال إنى لكما من الناصحين ، ولم يكن آدم يتوقع أن هناك من يقسم بالله كذبا ، فهذا أمر عزيز على نفس آدم ، وهذا يذكرنا بما دار بين المسيح ابن مريم وبين أحد اللصوص ، فقد رأى المسيح لصاً يسرق فقال له المسيح : لماذا سرقت ؟ قال اللص : والله ما سرقت . فقال المسيح . صدق الله وكذبت عيناى ، قالها تمجيداً وتقديساً وتعظيماً لاسم الله ، وهكذا ما كان يدور بخلد آدم أن هناك من يتعرض ليمين الله بالكذب . وفى قراءة ﴿ فأزالهما ﴾ أى أبعدهما عنها ، عن الجنة ، وترتب على ذلك إخراجهما منها ، قال تعالى : ﴿ فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ وهو تعبير موجز عن معنى كثير ، أى ماكانا فيه من راحة وهناء وأكل رغد ولكنها سنة الله .

وهكذا كما قال جل شأنه : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ ، والهبوط قد يكون من مكان أعلى إلى مكان أسفل ، وهذا هو الهبوط الحسى ، وقد يكون هبوطاً معنويا كما قال موسى لقومه وقد قالوا له : ﴿ لن نصبر على طعام واحد ﴾ قال لهم : ﴿ اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم ﴾ . فهذا هبوط من المن والسلوى إلى القثاء والفوم والبقل والعدس والبصل . نعم إنه هبوط كما قال جل شأنه : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ﴾ ، والمراد بمصر أى مكان ينبت هذه الأشياء ، أى غير هذا المكان الذى ينزل فيه المن والسلوى . قوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ المقصود بين آدم وحواء وبين إبليس وذريته : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾(٢) . وقال جل شأنه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾(٤) . وليس بلازم أن يكون إبليس قد دخل الجنة التى كان فيها آدم وحواء ، فقد وسوس لهما من خارج الجنة ، قال تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشيطان ﴾ ، وقد ذكرت فى هذا المقام أقوال من الإسرائيليات كقولهم إنه دخل فى فم الحية إلى غير ذلك مما تنفر منه العقول السليمة . ولابد لنا هنا من سؤال : كيف يقع آدم فى المخالفة ؟ وقد قال أبو ذر : أرأيت آدم أنبى كان ؟ قال : « نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا » يعنى عياناً . وللإجابة عن هذا السؤال إن آدم أصاب وكان وقتها ناسيا ، قال تعالى فى سورة طه : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩-٢٥ .
(٢) سورة يس الآيات : ٦٠ ـ ٦٢ .
(٣) سورة فاطر آية : ٦ .
(٤) سورة الأعراف آية : ٢٧ .

نجد له عزما ﴾[1] أى قصدا ، وإنما سماها الله معصية فى قوله : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾[2] . ذلك لما كان لآدم من مكانة عظيمة ، فحسنات الأبرار سيئات المقربين .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

لقد بلغ من مكانة آدم عند الله أن يوم الجمعة نال الكرامات لأن الله خلق آدم فيه . عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها)[3] .

قوله تعالى : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ . المراد بمستقر : الاستقرار والعيش فيها ، وهذا مقتضى الأمر الإلهى ﴿ إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ . ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[4] . والحين زمان غير محدود المقدار ، وهكذا نحن فى الدنيا ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[5] . فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾[6] . وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾[7] .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

يابن آدم اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك .

يا ناظراً يرنو بعينى راقد ومشاهداً للأمر غير مشاهد
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى درج الجنان ونيل فوز العابد
أنسيت ربك حين أخرج آدم منها إلى الدنيا بذنب واحد

قال تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾ . سبحانك ربى ياكاشف الضر والبلوى ، ياعالم السر والنجوى ، يامن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه .

---

(١) سورة طه آية : ١١٥ .
(٢) سورة طه آية : ١٢١ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٣٠ .
(٤) سورة الأعراف آية : ٢٥ .
(٥) سورة طه آية : ٥٥ .
(٦) سورة النساء آية : ٧٨ .
(٧) سورة النساء آية : ٧٧ .

أنت الذى تهب الكثير وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

لقد تاب آدم لتتوب ذريته ، وقبل الله التوبة حتى لاييأس العباد من رحمة الله . قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾[١] . شاكلة العبد المعصية وشاكلة الرب المغفرة والرحمة . وقال عمر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾[٢] . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾[٣] . وقال على رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٤] . قال العلماء : إن الكلمات التى تلقاها آدم مفسرة بقوله تعالى : ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[٥] .

وقال ابن عباس : قال آدم يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له بلى ، ونفخت فىّ من روحك ؟ قيل له بلى ، عطست فقلت يرحمك الله ، وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى ، وكتبت علىّ أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى ، قال أرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ .

وقال بعض العلماء الكلمات هى : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الغافرين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين . اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم »[٦] .

قوله تعالى : ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ أى أنه يتوب على من تاب إليه وأناب كقوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾[٧] ، وقوله : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ﴾[٨] ، وقوله : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً ﴾[٩] ، وغير ذلك من الآيات . . وبعدما أمر الله تعالى آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض مقترنا بقوله تعالى : ﴿ بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ ، أعاد الأمر بالهبوط مقترنا بقوله تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى ﴾ قال سبحانه :

﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . هذا الأمر بالهبوط اقترن بالحكم

(١) سورة الإسراء آية : ٨٤ .
(٢) سورة غافر آية : ٣ .
(٣) سورة الحجر آية : ٤٩ .
(٤) سورة الزمر آية : ٥٣ .
(٥) سورة الأعراف آية : ٢٣ .
(٦) القرطبى جـ١ ص ٣٢٤ .
(٧) سورة التوبة آية : ١٠٤ .
(٨) سورة النساء آية : ١١٠ .
(٩) سورة الفرقان آية : ٧١ .

الإلهى النافذ ﴿ إما يأتينكم منى هدى ﴾ وإن هنا شرطية مقترنة (بما) تقلب توكيد الفعل بعدها كما فى قوله تعالى : ﴿ فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوما ﴾[١] ، وإما هنا جىء بها بين (إن) والفعل لإفادة توكيد الإتيان ، كأنه تعالى قال : سيأتيكم منى هدى وسوف يترتب على هذا الهدى الذى قد يراد به الإرشاد إلى طريق الحق من باب قوله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾[٢] وقوله جل شأنه : ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾[٣] . والرسل داخلون فى هذا الباب دخولاً أولياً . قال تبارك اسمه : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[٤] . كذلك قد يراد بالهدى الكتب المنزلة على الرسل وعلى رأسها وفى قمة رفعتها القرآن العظيم ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ﴾ . فما الذى ترتب على إتيان الهدى ؟ قالَ جل شأنه : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

تباركت ربنا وتعاليت . فقد أرسلت إلينا رسلاً وأنزلت عليهم كتباً وخلقت لنا عقلاً ، ذلك كله من باب رحمتك وبرك ولطفك ، وأرشدتنا إلى الطريق فظهر الأمر جلياً ، فمن تبع هداك واتبع رسلك عاش آمناً من خوف ، مطمئناً لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ، لايخاف مما سيأتى ولا يحزن على مافات : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون * نزلاً من غفور رحيم ﴾[٥] .

إن نفى الخوف والحزن نعمة لاتدانيها نعمة ، وطمأنينة القلب بلقاء الله هى أعظم مملكة يتربع المؤمن على عرشها ، ولذلك أدرك الصالحون هذا . . قال أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه لتقى الدين الحسن البصرى رضى الله عنه : عظنا ياتقى الدين . قال الحسن ياأمير المؤمنين : صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

ولما حضرت محمد بن كعب القرظى الوفاة قيل له : ماذا تركت لأولادك من المال ؟ فقال : ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى ، إن ابن آدم يوم يموت يصاب بمصيبتين لم يصب بهما أحد غيره . الأولى : أنه يترك ماله كله ، والثانية : أنه يسأل عن ماله كله . ومن هنا فإن التأمين الحقيقى على الحياة لايكون بإيداع الأموال فى شركات التأمين التجارية الربوية ، إنما هو كما قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ﴾[٦] . ماذا يفعلون يارب ؟ قال : ﴿ فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾[٧] . فتقوى الله والقول السديد خير ثمرة فى خير شجرة تظلل على أبنائك بعد موتك . فصاحب

(١) سورة مريم آية : ٢٦ .
(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣
(٣) سورة الرعد آية : ٧ .
(٤) سورة النحل آية : ٣٦ .
(٥) سورة فصلت الآيات : ٣٠-٣٢ .
(٦) سورة النساء آية : ٩ .
(٧) سورة النساء آية : ٩ .

المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكئاً . البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ماشئت كما تدين تدان . ومن أجل ذلك فإن الله يطمئن أهل الصلاح ألا تخافوا مما سيأتى ولا تحزنوا على مافات . أما الفريق الثانى فقوم كفروا وكذبوا بالآيات ، جحدوها ولم يصدقوا بها ، فجمعوا بين أكبر جريمتين : الكفر والتكذيب : ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾(١) . ﴿ إنهم كانوا لايرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاباً * وكل شىء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾(٢) .

﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . ما أقسى النار ، ولكن الأقسى منها هو الخلود فيها . فالكرب كلما اشتد انتظر الإنسان الفرج ، والليل إذا اشتد ظلامه قرب فجره ، ولكن تنخلع القلوب لوعة وتسيل الكبد مرارة إذا فقد الإنسان الأمل . إنهم قوم قال الله فيهم : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم * يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾(٣) . وقد جاء فى سورة طه قوله جل شأنه : ﴿ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرًا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾(٤) .

فانظر معى كيف جمع الله للذين اتبعوا هداه وسلكوا سبيل مرضاته ، جمع لهم بين سعادة الدارين ، لايضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . وليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة أو بالاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما السعادة فى رضا الله ، ولقد كان قوم من الصالحين يبيتون على الطوى ويقولون نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف . وفى سورة النحل مايجمع للمؤمنين بين خيرى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾(٥) ، وقال جل شأنه : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾(٦) ، وقال تبارك اسمه : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٧) ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾(٨) .

وهكذا لا يضل من اتبع هدى الله فى الدنيا . ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم ، ولا يشقى فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لايسمعون

(١) سورة العنكبوت آية : ٤٩ .
(٢) سورة النبأ الآيات : ٢٧-٣٠ .
(٣) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ .
(٤) سورة طه الآيات : ١٢٣-١٢٧ .
(٥) سورة النحل آية : ٤١ .
(٦) سورة النحل آية : ٣٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٩٧ .
(٨) سورة النحل الآيات : ١٢٠-١٢٢ .

حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون * لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[١] . أما الفريق الثانى ، وهو الذى أعرض عن ذكر الله ، فقد حقت عليه الشقاوة فى الدنيا والآخرة . فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

يـابـارىء الكـون فى عـز وتمكـين وكـل أمـر جـرى بـالكـاف والنـون
يـامن لـطفت بحـالى قبـل تكـوينى لا تجعـل النار يـوم الحشـر تكـوينى

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ﴾[٢] ، أى يعيش فى ضيق ولو كان يملك من الأموال جبالاً ومن الذهب والفضة القناطير المقنطرة ، ومن الخيل المسومة ماتضيق بـه أودية مكـة ، ومن النساء والجوارى مايفوق جمالهن ملكات الجمال . سوف تضيق عليه الأرض بما رحبت ، لأنه مثل الذى يشرب الماء الملح ولا يزيده إلا ظمأ على ظمأ ، تراه دائماً فى كرب ، إن أقبلت عليه الدنيا طلب المزيد ، وإن أعرضت عنه تقلب فى فراشه ليلاً أو نهاراً لا يطمئن جنبه فى المضاجع ولا يذوق للراحة طعماً .

إن الصادق المعصوم ﷺ قال لابن عمر : (كن فى الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور)[٣] ، وقال لأبى ذر : (جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، واخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كئود) . ولذا كان أحدهم يقول : « حفر بئرين بابرتين ونزح بحرين بغربالين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وهش أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى » . وليت العذاب قد اقتصر على دار الدنيا ، إنما هو ممتد إلى دار الآخرة ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾ وما أدراك ما العمى فى الآخرة ؟ إنه الحيرة كلها والشقاء كله ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكـماً وصماً مـأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً * ذلك جزاؤ هم بأنهم كفروا بآياتنا ﴾[٤] . حتى يقول العبد : ﴿ رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ﴾[٥] فيأتيه الجواب الصادق : ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٦] .

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا أخذ مضجعه لينام يقول لنفسه : ماذا تقـول لربـك غداً يا عمر ؟ لقد كنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، وكنت وضيعاً فرفعك الله . وكان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٧] . وكان يقول : لو نادى مناد يوم القيامة كل الناس يدخل الجنة إلا واحدًا لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد .

(١) سورة الأنبياء الآيات : ١٠١-١٠٣
(٢) سورة طه آية : ١٢٤ .
(٣) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٢٩٦ ط دار الفكر .
(٤) سورة الإسراء الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ .
(٥) سورة طه آية : ١٢٥ .
(٦) سورة طه آية : ١٢٦ .
(٧) سورة الحاقة آية : ١٨ .

فمن يبارى أبا حفص وسيرته أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به أولى فقومى لبيت المال رديها

وكان على كرم الله وجهه إذا أرخى الليل سدوله يتمثل فى محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ، أى الذى لدغته حية ، ويبكى بكاء اليتيم ويقول : يادنيا غرى غيرى ألى تعرضت ؟ أم إلىّ تشوقت ؟ هيهات هيهات لقد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها ، فعمرك قصير وخطرك حقير . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق .

تزود من التقوى فإنك لاتدرى إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتىً أمسى وأصبح ضاحكاً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

تباركت ربنا وتعاليت . حكمت لمن اتبع هداك بأنه لايخاف ولا يحزن ولا يعتل ولا يشقى ، وحكمت على من كذب بآياتك وكفر بها بأنه مخلد فى النار وبأن له معيشة ضنكا وتحشره يوم القيامة أعمى . سبحانك أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق . اللهم عليك توكلت وإليك أنبت ولك حاكمت وبك خاصمت فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت .

يا من يجيب العبد قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان

أستحى أن أسألك وأنا أنا ، وكيف لا أسألك وأنت أنت ؟ إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن فبمن يلوذ ويستجير الآثم
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضا وعظيم عفوك ثم أنى مسلم

فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ونثنى عليك الخير كله .

﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وءامنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلاً وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وءاتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾ . لما ذكر الله تعالى قصة آدم وما يتعلق بها من تعليمه الأسماء وجعله خليفة فى الأرض وإسجاد الملائكة له وإدخاله الجنة وأكله من الشجرة وتوبة الله عليه، يبين بعد ذلك الطريق المؤدى إلى الجنة ونعيمها فقال : ﴿ فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . كما بين مصير الذين انحرفوا عن الصراط وتجنبوا الجادة فقال : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بئاياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . لما بين الله كل هذا ذكر نموذجاً بشرياً من أبناء آدم ، وهم بنو إسرائيل ، وإسرائيل هو يعقوب نبى الله ، وسمّى إسرائيل لأنه كان صفياً لله مجاهداً فى الله . فإسرائيل معناه صفى الله ، والمقصود به يعقوب .

روى أبو داود بسنده إلى عبد الله بن عباس قال : حضرت عصابة من اليهود إلى نبى الله ﷺ فقال لهم : (هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب ؟ قالوا : اللهم نعم . فقال النبى ﷺ : اللهم اشهد) . ونعمة الله التى أنعم بها على بنى إسرائيل كثيرة . قال مجاهد : « نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ، ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون » .

قال أبو العالية : نعمته أن جعل فيهم الرسل والأنبياء وأنزل عليهم الكتب . قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وءاتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين ﴾(١) .

والمراد بعهد الله هو العهد الذى أخذه عليهم أن يؤمنوا بخاتم أنبيائه محمد ﷺ . قال تعالى : ﴿ وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ﴾ . كذلك يشمل الإيمان بالله إيماناً جازماً صادقاً . وهذا العهد الأول ، قال الله تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن ءامنوا بى وبرسولى قالوا ءامنا واشهد بأننا مسلمون ﴾(٢) ، فإذا كان الله قد أمرهم بالإيمان بعيسى فى هذه الآية ، فقد أمرهم عيسى بالإيمان بمحمد ، قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾(٣) . كما أمرهم موسى أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء إن هم أدركوا زمانه ، وكل الأنبياء الذين أرسلوا إليهم أمروهم أن يؤمنوا بخاتم الأنبياء إن هم أدركوا زمانه . قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾(٤) . قال الحسن البصرى رضى الله عنه : إن المراد بعهد الله الذى أخذه عليهم ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وءامنتم برسلى

(١) سورة المائدة آية : ٢٠ .
(٢) سورة المائدة آية : ١١١ .
(٣) سورة الصف آية : ٦ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٨١ .

وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾(١) . وقال آخرون : هو الذى أخذ الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث نبياً عظيماً يطيعه جميع الشعوب ، والمراد به محمد ﷺ ، فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين .

وقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : هل تجد لرسول الله ﷺ وصفاً فى التوراة ؟ فقال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ؛ قال الله تعالى له فى التوراة : (يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعيناً عمياً وآذانا صماً وقلوباً غلفاً) . وقد جاء تفصيل ذلك فى سورتى الأعراف والفتح ؛ قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكوٰة والذين هم بئايٰتنا يؤمنون ۞ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين ءامنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ۞ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فئامنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾(٢) . وفى سورة الفتح يقول تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾(٣) .

أما قوله تعالى : ﴿ أوف بعهدكم ﴾ هكذا مجزوماً فى جواب الطلب ، وكأنه تعالى يقول لهم إن توفوا بعهدى وتدخلوا الإسلام أوف بعهدكم فأرضى عنكم وأدخلكم الجنة ، وإنما خاطبهم فى صورة أبيهم يعقوب فقال : ﴿ يابنى إسرائيل ﴾ ، ولم يخاطبهم بذواتهم لإثارتهم وحفزهم وتقوية هممهم للإيمان والإسلام الكامل ، أى يا أبناء الرجل العظيم المؤمن الذى وصاكم بالإسلام كونوا مثل أبيكم قال تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ۞ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ۞ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ۞ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ماتعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحٰق إلٰها واحدًا ونحن له مسلمون ﴾(٤) . قوله تعالى : ﴿ وإياى فارهبون ﴾ أى لاتخافوا أحداً سواى وخافونى أنا ، فأنا الذى بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله . سبحانه

(١) سورة المائدة آية : ١٢ .
(٢) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٣) سورة الفتح آية : ٢٩ .
(٤) سورة البقرة الآيات : ١٣٠ ، ١٣٣ .

علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر . فمن خاف الله خوف الله منه جميع خلقه ، ومن لم يخف الله خوفه الله من جميع خلقه ، ومن أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله مابين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . ومن الوفاء بعهد الله الإيمان بكل ماأنزله على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ . وهو مصدق لما جاء فى الكتب المنزلة على الأنبياء من قبله . قال تعـالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾[١] . وقال لبنى إسرائيل : ﴿ وءامنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ﴾ فأنتم أولى الأمم بتصديق ما أنزل على محمد والإيمان به ، فأنتم تعرفونه حقاً كما تعرفون أبناءكم . لما نزل قـوله تعـالى : ﴿ الذين آتينهم الكتـاب يعرفـونه كـما يعرفـون أبناءهم ﴾[٢] ، قال عبد الله بن سلام : والله إنى لأعرف أنه نبى الله حقاً أكثر مما أعرف ابنى بأنه ابنى ، قالوا : وكيف يا ابن سلام ؟ قال : لأن ابنى قد يجوز أن يكون من غيرى ، أما محمد فقد نزل الأمين من السماء على أمين الأرض والسماء بأنه رسول الله ، فما أشك فى هذا ؟

ثم قال تعالى فى مجموعة الأوامر والنواهى التى وجهها إلى بنى إسرائيل : ﴿ ولا تكونوا أول كافـر به ﴾ ، وهذا موقف يدعو إلى الأسى والأسف . فأنتم الذين يجب عليكم أن تكونوا أول مؤمن به ، فقد أخبرتكم كتبكم المنزلة بأنه نبى الله حقاً وصدقاً ، وبأن القرآن حق وصدق لا مرية فيه ولا ريبة . ثم قال لهم تعالى بعد ذلك : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ﴾ ، والثمن القليل هنا هو الدنيا ، أى لا تجحدوا الآيات المنزلة على خير خلق الله وتبيعوها مقابل الدنيا وسلطانها وزخارفها ومناصبها ، فإنها ثمن قليل ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرعة ماء ؛ فصفوها كدر ، والوصل هجران ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾[٣] . ثم قال لهم مولانا : ﴿ وإياى فاتقون ﴾ أى أنا الأولى بالتقوى ، والتقوى هى السـلاح الأقوى . وقـد أشار النبى ﷺ إلى صـدره وقال : (التقـوى ها هنا) . قال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب ﴾[٤] .

إذ المـرء لم يلبس ثيابـاً من التقى تقلب عـريانـاً ولو كـان كـاسيا
وخـير لبـاس المـرء طاعـة ربـه ولا خـير فيمن كـان لله عـاصيا

والتقوى كلمة جامعة لشُعب البرِّ كلها ، قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾[٥] ، وقال سبحانه : ﴿ ولكن البِرَّ مَنِ اتقى ﴾[٦] ، وفسر هذه الكلمة العظيمة فى آية جامعة لأنواع الخير كله ، فقال سبحانه : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[٧] .

(١) سورة المائدة آية : ٤٨ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٤٦ .
(٣) سورة النساء آية : ٧٧ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٩٧ .
(٥) سورة النساء آية : ١٣١ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٨٩ .
(٧) سورة البقرة آية : ١٧٧ .

لقد وجه الله تعالى إلى بنى اسرائيل من الأوامر والنواهى ما لو عملوا به واستمسكوا به لنالوا سعادة الدنيا ورضوان الله فى الآخرة ، فأمرهم تعالى أن يذكروا نعمته فقال : ﴿ **يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم** ﴾ ، وأمرهم ثانيا بالوفاء بعهده فقال : ﴿ **وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم** ﴾ ، وأمرهم ثالثا أن يخافوه وحده فقال : ﴿ **وإياى فارهبون** ﴾ ، وأمرهم رابعا أن يؤمنوا بما أنزله على خاتم الأنبياء فقال : ﴿ **وءامنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم** ﴾ ، ثم نهاهم أولاً عن أن يكونوا أول الكافرين به فقال : ﴿ **ولا تكونوا أول كافر به** ﴾ ، ثم نهاهم ثانياً عن أن يبيعوا آيات الله ويشتروا الدنيا فقال : ﴿ **ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً** ﴾ ، ثم أمرهم خامساً بتقواه وحده ، والتقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فقال : ﴿ **وإياى فاتقون** ﴾ ، ثم نهاهم الله ثالثاً عن أن يلبسوا الحق بالباطل ويخلطوا هذا بذلك ويخلطوا الصدق بالكذب والعدل بالظلم والرشوة بالأحكام ، وكل هذا خلط لا يليق ولا يجمل ، وفى نفس الوقت يكتمون الحق الذى قرأوه ودرسوه فى التوراة ، ومنه إنكار نبوة سيد المرسلين ، وهم يعلمون علم اليقين أنه حق لا مراء فيه ، قال تعالى : ﴿ **ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون** ﴾ . فما أسوأ العبد إذا خلط الظلمة بالنور وكتم الحق وخلط الأمور بعضها على بعض مع علمه بكل ما يفعل أنه خلط وباطل وإنكار وجحود ! إنه عَلِمَ فلم يعمل بما علم فاستحق أن يكون من المغضوب عليهم . نسأل الله أن يحول بيننا وبينهم ، فاهدنا الصراط المستقيم يارب العالمين ، ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . ثم أمرهم مولانا سادساً بإقام الصلاة ، وسابعاً بإيتاء الزكاة ، وثامناً بالركوع مع الراكعين . فهذه تسعة أوامر وثلاثة نواه وجهت إلى بنى إسرائيل . وقد أمرهم الله بإقام الصلاة لأن فيها طهارة للقلب ؛ قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب ؛ ذلك نوره كنور الشمس ، أكلؤه بعزتى ، واستحفظه ملائكتى ؛ أجعل له فى الظلمة نوراً ، وفى الجهالة حلماً . ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة . ففى الصلاة طهارة للقلب ، وفى الزكاة طهارة للمال ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾(١) . وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، وقال ﷺ : (حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستعينوا على حمل البلاء بالدعاء والتضرع)(٢) . ولن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ، ولذلك لم تكن الزكاة منّة يمن بها الغنى على الفقير ، إنما هى حق معلوم الثبوت واجب الأداء ، وإنما سميت صدقة أو زكاة لأنها دليل الصدق مع الله ، فالمال عزيز على النفس ، والنفس مطبوعة على الشح ، فمن دفعها فقد صدق الله فى النية . وسميت زكاة لأنها طهر ونماء قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾(٣) . ثم أمرهم تعالى تاسعاً بقوله :

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٧٦ دار الفكر .

(٣) سورة التوبة آية : ١٠٣ .

﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ ، أى الزموا جماعة المسلمين ، وسيروا فى هدى المصطفى الأمين ، وأخلصوا النية للإسلام ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة والتزموا الجماعات فى أعظم الأركان ، فاركعوا معهم والتزموا هديهم وامتثلوا الأوامر واجتنبوا النواهى .

لا يليق بالعقلاء

﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون * واستعينوا بالصبر والصلوٰة وإنها لكبيرة إلا على الخشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

ألقى الله تعالى باللائمة على كل من يأمر الناس ولا يأتمر ، وينهاهم ولا ينتهى . وهذا حكم شامل لبنى إسرائيل وغيرهم ، فالقدوة أساس الدعوة ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[1] ، وقال تعالى حكاية عن نبيه شعيب ، وهو يقول لقومه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[3] . إن النفس تذوب خجلاً ، وإن الفؤاد يذهب شعاعاً أمام الهمزة الاستفهامية مع قوله تعالى : ﴿ أتأمرون ﴾ ﴿ أفلا تعقلون ﴾ كيف يتأتى ذلك منكم ؟ ماكان يليق أن يصدر هذا من عاقل ، وفى هذا يقول القائل :

ياواعظ الناس قد أصبحت متهما   إذ عبت فيهم أموراً أنت تأتيها
تعيب دنيا وناساً عاملين لها   وأنت أكثر منهم رغبة فيها

ومن ثم كان الوعيد شديداً والإنكار بالغاً : ﴿ أتأمرون ﴾ و﴿ تنسون ﴾ ؟ أتأمرون غيركم ﴿ وتنسون أنفسكم ﴾ . أتأمرون الناس بالبر ، وهو حسن الخلق والتقوى والكلمة الجامعة لشعب الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً ، ولا تتوجهون بالأمر إلى أنفسكم وأنتم أولى الناس بالامتثال ؟ إنه لا يفعل هذا إلا من سفه نفسه وأصيب بالخبال . ولذا جاءت الفاء فى قوله تعالى : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ عاطفة على محذوف تقديره : أجننتم فلا تعقلون ؟ أسفهتم أنفسكم فلا ترشدون ؟ قال ﷺ : (مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه)[4] ، ويقول ﷺ : (مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار ؛ قال قلت : من هؤلاء ؟ قالوا : خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون)[5] . وقال ﷺ : (يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتنزلق به أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطيف به أهل النار فيقولون : يافلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول لهم : كنت آمركم

(١) سورة الأحزاب آية : ٢١ .
(٢) سورة هود آية : ٨٨ .
(٣) سورة الصف الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٢٩ ط دار الفكر .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٢٢ ط الشعب .

بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه)(١) . وقال ﷺ : (إن الله يعافى الأميين يوم القيامة ما لا يعافى العلماء)(٢) . وقال تعالى : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب)(٣) . وقد ورد فى بعض الآثار : « أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم » . وقال ﷺ : (إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل)(٤) .

ثم أمر الله تعالى عباده أن يستعينوا على مرضاته وطلب ما عنده من رضوان بالصبر والصلاة فقال : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ . والصبر والصلاة من خير ما يستعان به فى طلب ما عند الله . وقد جاء كل منهما منصوبا على الاختصاص لما له من جليل القدر وكريم المنزلة . جاء ذكر الصابرين منصوبا على الاختصاص فى آية البر فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ﴾(٥) .

فقد جاء ذكر الصابرين منصوبا ، كأنه تعالى يقول : وأخص الصابرين من بين الأبرار ، كما جاء المقيمين الصلاة منصوبا على الاختصاص فى قوله تعالى : ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾(٦) .

فأنت ترى هنا أن لفظ ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ جاء منصوبا على الاختصاص كأنه تعالى يقول : وأخص المقيمين الصلاة بالمدح . وإنما قدم الصبر على الصلاة لأنه أعم ، فالصبر فى الأعمال كلها مرغوب فيه وممدوح صاحبه ، وهو فى الصلاة أوقع وأفضل ، إذ الصبر فى الصلاة يسرى فى أوصالها ويتغلغل فى خلاياها سريان ماء الورد فى الورد ، أو كما يسرى الماء فى العود الأخضر . وصلاة بلا صبر شوهاء لاخشوع فيها . وقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾(٧) . قالت أم المؤمنين عائشة : كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه ويكلمنا ونكلمه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه .

وقيل لحاتم الأصم : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ قال : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى والموت ورائى والجنة عن يمينى والنار عن شمالى والصراط تحت قدمى والله تعالى مطلع علىَّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها فإذا سلَّمت لا أدرى أقبلها الله أم ردَّها علىَّ . الصبر مع الله وفاء ، والصبر فى الله رضاء ، والصبر بالله ولاء ، والصبر لله استغناء ، والصبر عن الله جفاء .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ١٨٥ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٩١ ط دار الفكر .
(٣) سورة الزمر آية : ٩ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ ط دار الفكر .
(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .
(٦) سورة النساء آية : ١٦٢ .
(٧) سورة المؤمنون الآيتان : ١ ، ٢ .

فما هو الصبر ؟ هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح .

وقيل : إن الصبر هو ثبات باعث الدين مقابل باعث الشهوات . وقيل : المراد بالصبر الكف عن المعاصى ، ولهذا قرنه الله بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة .

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم الله . وروى عن الحسن البصرى أنه قال : الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر .

والصبر قد يكون جسمانيا وقد يكون نفسانيا ، فإذا كان احتمالا للكد وتحملا لمشقات الحياة كان صبرا جسمانيا ، وقد يكون نفسانيا ؛ فالصبر على جهل الجهلاء حلم ، والصبر عن الشهوات عفة ، والصبر عن جمع المال قناعة ، والصبر على تجمل الشدائد شجاعة . وقد وردت عن النبى ﷺ أحاديث ترغب فى الصبر وتبين ما للصابرين من مثوبة عند رب العالمين . وقد نزلت هذه الأحاديث على أهل البلاء كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى . ولما كنت واحدا من أهل البلاء رأيتنى أناجى ربى قائلا :

مـا مسنى قـدر بكـره أو رضـا   إلا اهتـديت بـه إليك طـريقـا
أمضى القضاء على الرضا منى به   إنى عـرفتـك فى البـلاء رفيقـا

نعم عرفت ربى فى البلاء رفيقا عندما سلبنى موهبة البصر وجعل أفئدة من الناس تهوى إلىَّ . فما أجمل الصبر ، وما أعظم أجر الصابرين ، وما أكرم قـوله جـلَّ شأنـه : ﴿ إنما يـوفَّى الصابـرون أجرهم بغـير حساب ﴾[1] .

قال ﷺ فى الترغيب فى الصبر : عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر)[2] . عن ابن عباس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : لسان ذاكر ، وقلب شاكر ، وجسد على البلاء صابر ، وزوجة لا تبغيه خوفا فى نفسها ولا ماله)[3] . وعن علقمة قال قال عبد الله : الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله .

إن الأمـور إذا اشتـدت مسـالكهـا   فـالصبـر يفتـح منها كـل مـارتجـا
لا تـيـأسَنَّ وإن طـالـت مـطالـبـه   إذا استعنت بصبـر أن تـرى فـرجـا
أخلق بـذى الصبر أن يحظى بحاجته   ومـدمن القـرع لـلأبـواب أن يلجـا

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجبا لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[4] .

(١) سورة الزمر آية : ١٠ .
(٢) رياض الصالحين للإمام النووى ص ٢٤ ط دار التراث .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ١٤٠ ط دار الفكر .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ١٤٧ ط دار الفكر .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : (إن الله عـز وجل قـال : يا عيسى إنى باعث من بعدك أمة إن أصابهم مايحبون حمدوا الله ، وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم . فقال : يارب كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيهم من حلمى وعلمى)[١] .

إذا مـا أتاك الـدهر يـوما بنكبـة   فأفرغ لها صبرا وأوسع لها صدرا
فـإن تصـاريف الـزمـان عجيبـة   فيوما ترى يسرا ويوما ترى عسرا

وروى عن شجرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعطى فشكر وابتلى فصبر ، وظلم فاستغفر ، وظُلِم فغفر ، ثم سكت فقالوا : يارسول الله ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)[٢] .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما ابتلى الله عبدا ببلاء وهو على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطهورا ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عزَّ وجلَّ أو يدعو غير الله فى كشفه)[٣] .

كـن حليـما إذا بـليت بـغيظ   وصبـورا إذا أتتـك مـصيبـة
فـالليـالى من الـزمـان حبـالى   مثقـلات يـلدن كـل عجيبـة

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أىُّ الناس أشدُّ بلاء ؟ قال : (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة)[٤] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (يؤتى بالشهيد يوم القيامة فيوقف للحساب ، ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينصب لهم ديوان فيصب عليهم الأجر صبا ، حتى إن أهل العافية ليتمنون ، فى الموقف ، أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله)[٥] .

تـصبـر أيهـا الـعبـد الـلبيب   لعلك بعـد صبـرك مـا تخيب
وكـل الحـادثـات إذا تنـاهت   يكـون وراءهـا فـرج قـريب

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا أحب الله عبدا أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صبا وشجه عليه شجا . فإذا دعا العبد قال : يارباه ، قال الله : لبيك ياعبدى لا تسألنى شيئا إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك وإما أن أدخره لك)[٦] .

أما عن الصلاة ، فيكفيك أن تعلم أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة . ولقد أخبر

(١) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوى ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ ط ٢ ، محمد على صبيح وأولاده ١٩٦١ م .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٦٣ ط وزارة الأوقاف .
(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ٦٤ .
(٤) المصدر السابق جـ ٤ ص ٦٥ .
(٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦٦ .
(٦) المصدر السابق جـ ٤ ص ١٦٦ .

عبد الله بن عباس بوفاة أخيه فنزل عن دابته وصلى ، فقيل له فى ذلك فقال : أوماقرأتم قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين ءامنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾[1] . وقد أخبر الصادق المعصوم أن الصلاة نور ، والصبر ضياء . والضياء مصدر النور ، فنور الصلاة مستمد من ضياء الصبر . قال جلّ شأنه : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ﴾[2] ، ومن الثابت المعلوم أن القمر يستمد نوره من ضوء الشمس ، فما أجمل الشمس والقمر إذا اجتمعا فى قلب المؤمن ، وما أعظم الصبر والصلاة إذا استعان بهما المؤمن على طلب مرضاة الله .

وقد مر عليه الصلاة والسلام بأبى هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له : (أيوجعك بطنك ؟ قال : نعم . قال : قم فصل فإن الصلاة شفاء) .

قوله تعالى : ﴿ وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ . الضمير هنا عائد على الصلاة ، فالصلاة التى أوصانا الله بأدائها عهد بيننا وبينه حتى قال الرسول ﷺ : (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة)[3] . فأداء الصلاة بأركانها وشروطها والمحافظة عليها فى أوقاتها والمداومة على أدائها أمر ثقيل على فريق من الناس إلا الخاشعين منهم ، وهم الذين امتلأت قلوبهم من خشية الله وتواضعوا فى أدائها لله ، ودرسوا شروط وجوبها وشروط صحتها ووقفوا عند شروط قبولها ، وغاصوا فى بحار قول الله عزّ وجلّ فى الحديث القدسى الجليل : (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب . ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتى واستحفظه ملائكتى ، أجعل له فى الظلمة نورا ، وفى الجهالة حلما ، ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة)[4] .

كفاكم أيها الصابرون فخراً أن الله قد استثناكم من ذوى الطباع السيئة فأنقذكم منهم . قال تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[5] .

وكفاكم أيها المصلون عزّاً أن الله تعالى استثناكم من ذوى الطبائع السيئة كما استثنى الصابرين واستنقذكم منهم . قال تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾[6] . فمن هؤلاء الخاشعون الذين نفذوا وصية الله وصانوا عهده والذين شملهم قوله تعالى : ﴿ وما يُلَقّاها إلا الذين صبروا ومايلقّاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[7] ؟ إنهم هؤلاء الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ . المراد بالظن هنا العلم اليقينى لا الظن الذى هو إدراك الطرف الراجح فإنه لا يفيد فى العقائد . وقد ورد من كلام العرب

(١) سورة البقرة آية : ١٥٣ . (٢) سورة يونس آية : ٥ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٤٨٩ ط دار الفكر .
(٤) الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوى ص ٣٦ ط ٢ محمد على صبيح ١٣٨٠ - ١٩٦١ .
(٥) سورة هود الآيات : ٩ - ١١ .
(٦) سورة المعارج الآيات : ١٩ - ٢٣ . (٧) سورة فصلت آية : ٣٥ .

وأشعارهم مايدل على أن الظن يأتى بمعنى اليقين والعلم ، ومنه قول عمير بن طارق :

فإن يعبروا قومى وأقعد فيكم وأجعل منى الظن غيبا مرجما

يعنى وأجعل منى اليقين غيبا مرجما .

ومن الظن الذى يفيد العلم اليقينى قوله تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ﴾(١) ، وقوله جل شأنه : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾(٢) . فهؤلاء الخاشعون هم الذين علموا علم اليقين ، بل حق اليقين ، بل عين اليقين أنهم ملاقوا ربهم ، وذلك بعدما يفارقون الدنيا ليضعوا أقدامهم على عتبة اللانهائية ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾(٣) .

فأيامنا خمسة : يوم مفقود ، وهو الذى مضى ولن يعود ؛ ويوم مشهود ، وهو الذى نحن فيه ، وهو الذى ينادى على ابن آدم : « أنا خلق جديد وعلى عملك شهيد ، فاغتنم منى فإنى لا أعود إلى يوم القيامة » ؛ ويوم مورود ، وهو الغد الذى لا يعلم مافيه إلا الله وحده ؛ ويوم موعود ، وهو يوم لقاء الروح بخالقها . ﴿ كلا إذا بلغت التراقى * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق ﴾(٤) ، وهذا هو المقصود بلقاء الله ؛ ويوم ممدود ، وهو اليوم الذى ينادى فيه مالك الملك وملك الملوك : يادنيا أين بحارك وأين أنهارك وأين قصورك وأين جبالك ؟ أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الذين عاشوا فى خيرى وعبدوا غيرى ؟ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾(٥) . ﴿ فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لاوزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾(٦) .

نعم الله على بنى اسرائيل

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ

(١) سورة الكهف آية : ٥٣ .
(٢) سورة الحاقة الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .
(٣) سورة الواقعة الآيات : ٨٣ ، ٩٦ .
(٤) سورة القيامة الآيات : ٢٦ - ٣٠ .
(٥) سورة مريم آية : ٤٠ .
(٦) سورة القيامة الآيات : ٧ - ١٣ .

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

وعاد الخطاب مرة أخرى إلى بنى إسرائيل يذكرهم فيه الخالق العظيم بنعمه عليهم ، وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب وغير ذلك من النعم ، كتفجير الحجر ، وإنزال المن والسلوى ، وماذكرهم به موسى فى قوله تعالى : ﴿ ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين ﴾(١) . وإنما كرر الخطاب لما عرف منهم من كثرة الجحود والإنكار . أليسوا هم الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء ؟ وهم الذين قالوا : يد الله مغلولة ؟ . والجاحد فى حاجة إلى تذكير دائم . إنهم بإرسال الرسل إليهم ، وبما أنزل عليهم من نعم يعتبر تفضيلا لهم على عالم زمانهم خاصة لا على العالمين فى كل زمان ، لأن الله تعالى قال فى أمة محمد ﷺ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾(٢) . وهذا إن كان فيه تذكير للذين حضروا وعاصروا نزول القرآن ، فإن تكريم الآباء ولا شك فيه شرف للأبناء ، وإن الإنعام على الأجداد يستدعى أيضا شكر النعمة من الأحفاد . وقرن القرآن الكريم الوعد بالوعيد فقال : ﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ﴾ . وتنكير يوم يدل على تفخيمه ومافيه من أهوال جسام . فياله من يوم ما أطوله ، وياله من جبار ما أعدله ، فاحذروا مايقع فى هذا اليوم من قبل أن يأتى .

كان عمر رضى الله عنه يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا .

ومن أهوال هذا اليوم ماذكره الله تعالى فى هذه الآية : ﴿ لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ﴾ ، أى لا تغنى نفس عن غيرها ولا تحاسب بالنيابة عنها ، بل كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٣) . وكما قال جل شأنه : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل *

(١) سورة المائدة آية : ٢٠ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٣) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢ .

وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميما * يُبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه * كلا إنها لظى ﴾(١) . وكما قال جلّ شأنه : ﴿ فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾(٢) .

يلقى الولد والده فيقول له : يا أبت لقد كنت بك بارا وإليك محسنا وعليك مشفقا ، فهل أجد عندك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول له أبوه : ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو .

وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى : لقد كان بطنى لك وعاءً ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثديى لك سقاء ، فهل أجد عندك حسنة يعود علىَّ خيرها اليوم ؟ فيقول لها يا أماه : ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فلا تزر وازرة وزر أخرى * وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾(٣) . ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾(٤) . ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾(٥) . ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾(٦) .

ويأتى الهول الثانى المذكور فى هذه الآية فيقول تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ﴾ ، لأن الشفاعة لاتكون إلا للمؤمنين ، أما غير المؤمنين فلا شفاعة لهم . قال تعالى : ﴿ إلا أصحاب اليمين * فى جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾(٧) . وقال جلّ شأنه حكاية عن أهل النار : ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون * قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾(٨) .

أما الشفاعة الحقيقية فتكون للمؤمنين . قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾(٩) . وقال جلّ شأنه : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾(١٠) . ولرسول الله ﷺ عدة شفاعات ، منها الشفاعة العظمى بتعجيل الحساب ؛ وحتى أن أهل الموقف يتوجهون إلى آدم ثم نوح ثم إبراهيم وموسى وعيسى فيقول كل منهم لست هنالك ، فيتوجهون إلى خاتم الأنبياء ، نبى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتى العرش العظيم ويسجد لله سجدة ويسأله فصل القضاء ، فينادى : يا محمد ، ارفع رأسك وقل ماتشاء نسمع ، واشفع تُشَفَّع .

---

(١) سورة المعارج الآيات : ٨ - ١٥ .
(٢) سورة عبس الآيات : ٣٣ - ٣٧ .
(٣) سورة فاطر آية : ١٨ .
(٤) سورة لقمان آية : ٣٣ .
(٥) سورة المدثر آية : ٣٨ .
(٦) سورة الطور آية : ٢١ .
(٧) سورة المدثر الآيات : ٣٩ - ٤٨ .
(٨) سورة الشعراء الآيات : ٩٤ - ١٠١ .
(٩) سورة الأنبياء آية : ٢٨ .
(١٠) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا فـلا أحد فى الـرسل يشفـع إلاه
فيسجد تحت العرش لله سجدة ويسأل من فصل القضاء فيعطاه

وهذا هو المقام المحمود الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾(١) .

وهناك شفاعة للرسول يدخل بها قوما الجنة بغير حساب ، وشفاعة للمذنبين ، وذلك ماجاء فى قوله ﷺ : (شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى ، فمن كذب بها لم ينلها)(٢) . وهناك شفاعة يخرج بها بعض عصاة الموحدين من النار .

قوله تعالى : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ ، أى فدية . قال تعالى : ﴿ فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾(٣) . وقال جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين ﴾(٤) . قال جلّ شأنه : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم ﴾(٥) ، وقال عز من قائل : ﴿ ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مـال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾(٦) . فقوله جلّ شأنه : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾ هَوْل ثالث . ويأتى الهول الرابع ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ ، أى لا يجدون لهم ناصرا ﴿ يوم تبلى السرائر * فما له من قوة ولا ناصر ﴾(٧) . قال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لا تناصرون * بل هم اليوم مستسلمون ﴾(٨) . وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾(٩) .

ثم أخذت الآيات تفصّل النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ؛ قال تعالى : **﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسـومونكم سـوء العذاب يـذبحون أبنـاءكم ويستحيون نسـاءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾** . واذكروا يابنى إسرائيل نعمة الله عليكم حين نجاكم من آل فـرعون والمقصـود بالـ ﴿ آل ﴾ الأهل ، إلا أنها تستعمل لأصحاب البيوتات الكبيرة ، وفرعون اسم لملك مصـر . لماذا نجاهم من آل فرعون ؟ إنقاذا لهم من ظلمهم ، فقد كانوا يكلفون بنى إسرائيل من الأعمال ما يسوؤ هم ، ويذيقونهم أشد العذاب . فقد دخل بنو إسرائيل مصر أيام كان يوسف على خزائن الأرض ، وتناسلوا وتكاثروا حتى بلغ عددهم ستمائة ألف طوال أربعة قرون وثلاثين سنة . ولقد رأى فرعون فى المنام ناراً تأتى من جهة القدس ، فسّرها له علماء الرؤ ى بأن هذه النار التى جاءت من القدس إلى مصر أن زواله سيكون على يد رجل من بنى

(١) سورة الإسراء آية : ٧٩ .
(٢) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٧٩ ط دار الفكر .
(٣) سورة الحديد آية : ١٥ .
(٤) سورة آل عمران آية : ٩١ .
(٥) سورة المائدة آية : ٣٦ .
(٦) سورة الشعراء الآيات : ٨٧ - ٨٩ .
(٧) سورة الطارق الآيتان : ٩ ، ١٠ .
(٨) سورة الصافات الآيات : ٢٢ - ٢٦ .
(٩) سورة آل عمران آية : ٢٢ .

إسرائيل . فجن جنونه وثارت ثورته وغلت مراجل الغضب فى عروقه ولم يبق لديه فى قوس الصبر منزع ، فأمر بذبح الأبناء من بنى إسرائيل ، واستحياء النساء ، أى تركهم أحياء . قال تعالى : ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين﴾(١) . ثم بين لهم الله تعالى أن ماقام به فرعون من التذبيح والعذاب إنما هو بلاء عظيم ، والبلاء قد يكون بالخير وقد يكون بالشر ، قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾(٢) .

ثم ذكرهم بنعمة أخرى فقال : ﴿ **وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا ءال فرعون وأنتم تنظرون** ﴾ . والمقصود بفرق البحر فصل بعضه عن بعض وتحويله إلى طرق يابسة بعدد أسباط بنى إسرائيل الاثنى عشر ؛ والسبط ولد الولد ، وهو فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب ، فبعدما دارت المعركة الفاصلة بين سحرة فرعون وموسى أوحى الله إلى موسى أن يلقى عصاه ﴿ فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال فرعون ءامنتم به قبل أن ءاذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين * قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن ءامنا بئايات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾(٣) . وتملك فرعون الغضب وركب الشيطان رأسه ، فصلبهم فى جذوع النخل . وسبحان مقلب القلوب ؛ كانوا فى الصباح يقسمون قائلين : ﴿ بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾(٤) ، وبعد ظهور الحق قالوا وهم يقسمون بالله قائلين : ﴿ لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا ءامنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾(٥) . سبحانك يا مقلب القلوب ؛ لقد كانوا فى الصباح سحرة كفرة ، فأمسوا عند غروب الشمس شهداء بررة . وتمت المأساة الفرعونية ، فاسم فرعون إذا أطلق يراد به ملك مصر ، كما يطلق القيصر ويراد به ملك الرومان ، ويطلق كسرى ويراد به ملك الفرس ، ويطلق النجاشى ويراد به ملك الحبشة . ثم أميط اللثام عن المشهد الحاسم : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون * فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميعٌ حذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين ﴾(٦) . وهنا نصل إلى حافة الهاوية لأعداء الله ؛ قال تعالى : ﴿ فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين ﴾(٧) . لما عبر موسى وقومه البحر الأحمر ظن فرعون أن

(١) سورة القصص الآيتان : ٣ ، ٤ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .
(٣) سورة الأعراف الآيات : ١١٧ - ١٢٦ .
(٤) سورة الشعراء آية : ٤٤ .
(٥) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ .
(٦) سورة الشعراء الآيات : ٥٢ - ٦٠ .
(٧) سورة الشعراء الآيات : ٦١ - ٦٤ .

الطريق مازالت مهيأة له فى البحر ، فأراد موسى أن يطبق البحر كما كان فيضربه بالعصا حتى لا يستطيع فرعون وقومه العبور ، فأوحى الله إليه أن يا موسى اترك البحر رهوًا ، أى ساكنا كما هو، إنهم جند مغرقون ؛ ويصف الله هذا المشهد الرهيب فيقول : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيًا وعدوًا حتى إذا أدركه الغرق قال ءامنت أنه لا إله إلا الذى ءامنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾[١] ، فكان الجواب : ﴿ ءالئن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك ءاية وإن كثيرًا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[٢] .

إن نجاة بنى إسرائيل من فرعون نعمة ، وتلك نعمة أخرى ذكرها الله فى قوله : ﴿ **وأنتم تنظرون** ﴾ . فنظر الناجى إلى عدوه الهالك نعمة بعد نعمة النجاة كان يجب أن تقابل بالشكر ، لكنهم ، والأسف شديد ، قابلوها بخلاف ذلك وأقدامهم مازال بها أثر البلل من ماء البحر . ماذا قالوا لموسى ؟ اسمع إلى قوله جل شأنه : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم ءالهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء مُتَبَّرٌ ماهم فيه وباطل ماكانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾[٣] . وذكرهم الله بنعمة أخرى ، فقد وعد موسى أربعين ليلة لينزل التوراة بما فيها من أحكام وهداية ، قال تعالى : ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة** ﴾ وأخذ موسى خيار بنى إسرائيل ليتلقى التوراة . فماذا فعل بنو إسرائيل فى غيبة موسى ؟ اسمع إلى قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[٤] . قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ . نعم لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . وبعد ذلك عفا الله عنهم ليشكروه ، قال تعالى : ﴿ **ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون** ﴾ . وهناك نعمة أخرى هى إتيان موسى التوراة فيها هدى ونور ليحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، كما آتاه الله الفرقان ، وهى الآيات المعجزة التى لا تظهر إلا على أيدى الأنبياء . فالمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهر على أيدى الأنبياء تصديقاً لهم فى دعواهم مع عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله ، قال تعالى : ﴿ ولقد ءاتينا موسى تسع ءايات بينات ﴾[٥] ، وكان ذلك كله ليهتدوا ويعلموا أن الله هو الحق المبين ، وحيث إنهم عبدوا العجل وأشركوا بالله ، و﴿ قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾ فلابد لهم من توبة ؛ ولكن ما شروط هذه التوبة ؟ إنها توبة لابد أن يدفعوا ثمنها بسخاء ، وما ثمنها لكى يتوب الله عليهم ؟ أن يقوم الموحدون المخلصون الذين لم يعبدوا العجل بقتل الذين عبدوه ، وإنما قال تعالى : ﴿ **فاقتلوا أنفسكم** ﴾ لأن المؤمن للمؤمن كنفسه ، قال تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾[٦] أى لا تصيبوا غيركم ، فنفذوا أمر الله وقتلوا الذين وقعوا فى تلك الزلة ، فتاب الله عليهم بعدما نفذوا الأمر الإلهى ، قال تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب**

(١) سورة يونس آية : ٩٠ .
(٢) سورة يونس الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .
(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٣٨ - ١٤٠ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٤٨ .
(٥) سورة الإسراء آية : ١٠١ .
(٦) سورة الحجرات آية : ١١ .

الرحيم ﴾ ، وبارئكم هو خالقكم ، وتاب عليكم بمعنى قبل التوبة منكم ، إنه عظيم المتاب على عباده ، رحيم بهم ، يرفع العذاب عنهم فى الآخرة ، وهذه توبة خاصة بهم .

المأساة

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ الصاعقة ﴾ ، نار محرقة تنزل من السماء ، وسببها اتحاد كهربية السحاب المختلفة النوع سالبها بموجبها ، أو باتحادها مع كهربية الأرض السالبة .

عجيب أمر بنى إسرائيل وأى عجب ، إنهم قوم اعتادوا العناد والجحود بعدما أنجاهم الله من فرعون وأغرقه أمامهم وهم ينظرون إليه ، وتجاوزوا البحر إلى اليابس وأقدامهم مبتلة بماء البحر . كان قياس العقلاء يقتضى أن يخروا لله ساجدين سجود شكر ، ولكنهم خالفوا كل قياس وخرجوا على كل منطق سديد . لقد مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا ياموسى اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة ، ثم ازداد الأمر سوءاً ؛ لقد عزم موسى على الذهاب إلى منطقة الطور بسيناء ليتلقى التوراة التى قال الله فيها : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلاً لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾[1] . واختار موسى لهذه الرحلة سبعين رجلاً من خيرة بنى إسرائيل ، وكلمه الله ، فما كان من بنى إسرائيل السبعين المختارين بعناية ودقة إلا أن قالوا لموسى ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ذلك لأنهم قوم يؤمنون بالمحسوسات . وقد قال أهل الحكمة : ومن طلب المحسوس فى غير المحسوس يعْم عن المحسوس كعشاء عين الخفاش عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس ، هذا هو مطلب السبعين المختارين أما بقية القوم الذين وصى موسى هارون بهم خيراً ، وقال له : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾[2] فماذا صنعوا فى غيبة نبى الله موسى ؟ ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[3] . بل إنهم فعلوا أكثر من ذلك ؛ لقد قالوا عن العجل إنه إلٰهم وإلٰه موسى ، نسى موسى إلٰهه هنا فذهب يبحث عنه هناك ، قال تعالى : ﴿ أفلا يرون أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾[4] . أما السبعون المختارون فقد ظنوا أن من لا يرى لا يوجد ، وهل نحن رأينا كل شىء ؟ إن ما لا نراه أكثر مما نراه . هل رأينا الأشعة الحمراء أو فوق البنفسجية ؟ وهل عرفنا حقيقة الكهرباء والمادة ؟ وهل رأينا الروح التى بين جنباتنا ؟ وهل رأينا الهواء ؟ هل رأينا الأثير الذى ينقل إلينا الأصوات والصور فى المذياع والتلفاز ؟ . إن الله تعالى أقسم قائلا : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون *

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٥ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٤٢ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٨ .
(٤) سورة طه آية : ٨٩ .

وما لا تبصرون ﴾(١) . أجهل هؤلاء أن الله تعالى ليس بجسم ولا صورة ولا معدود ولا محدود ولا متبعض ولا متجزىء ولا متناه ولا متلون ولا متكيف ؟ لا يسأل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ، ولا يقال أين هو سؤال إحاطة لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك . والقول الحق ما قاله الله عن نفسه : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾(٢) ، وما قاله : ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾(٣) . لما سأل المشركون رسول الله ﷺ : حدثنا عن ربك أمن ذهب هو أم من فضة ؟ نزل قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ . فتعالى الله الملك الحق لا اله إلا هو رب العرش الكريم . سئل الإمام على كرم الله تعالى وجهه فقيل له يا على : هل رأيت ربك ؟ قال : وكيف أعبد ما لا أرى ؟ قالوا فكيف رأيته ؟ قال : إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للناظرين
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين

لقد أنزل الله على هؤلاء صاعقة ، أى نار محرقة ، أماتتهم كما يموت ابن آدم بالسكتة القلبية ، ونظر بعضهم إلى بعض وهو يموت . قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ . وانظر إلى قولهم ﴿ لن نؤمن ﴾ هكذا بلن التى تفيد تأبيد النفى كما حكى الزمخشرى ، وتأمل مافيها من إصرار واستكبار واستمرار ، انظر إلى مدى العناد ﴿ حتى نرى الله جهرة ﴾ ومع ذلك فقد شكا موسى لربه : ماذا يقول للقوم إذا رجع بدون السبعين ؟ وطلب من الله إحياءهم ، فأحياهم الله ليشكروه ويعترفوا بفضله ، وهيهات هيهات ، إنها نفوس جبلت على العناد . إذا كان هذا حال المختارين فما بال غيرهم ؟ قال تعالى : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك ﴾(٤) . أما الذين عبدوا العجل فى غيبة موسى ، فقد أمروا بالتوبة ، ومن شروط قبولها أن يقتلوا أنفسهم فيتوب عليهم خالقهم ومصورهم .

نعم أخرى

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

المفردات : ﴿ **الغمام** ﴾ : هو السحاب الأبيض ظللوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس .

(١) سورة الحاقة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .
(٢) سورة الشورى آية : ١١ .
(٣) سورة طه آية : ١١٠ .
(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ .

﴿ المن ﴾ مادة حلوة لزجة تشبه العسل تقع على الحجر وورق الشجر وتنزل سائلة كالندى ثم تجمد فيجمعها الناس .

﴿ والسلوى ﴾ (السمان) الطائر المعروف .

مازلت أكرر عجبى لبنى إسرائيل . أعطاهم الله نعماً لاتعد ، ومنحهم أرزاقاً لا تحصى . عبروا البحر واشتكوا إلى موسى شدة الحر فظللهم الله بالسحاب الأبيض ، وما أجمل الظل الظليل على قوم خصهم الله بذلك . شكوا إلى موسى الطعام وشدة الجوع ، فأرسل الله عليهم طعاماً فريدًا « المن » وهو مادة سكرية كالعسل ، « والسلوى » وهو طائر طيب . شكوا إلى موسى شدة الظمأ فاستسقى موسى لقومه فأمره الله أن يضرب الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، عدد الأسباط ، أى القبائل ، واختص كل سبط بعين حتى لايتنازعوا ولا يتشاجروا وقال الله لهم ﴿ كلوا من طيّبات مارزقناكم ﴾ . أما الثياب فقد حفظها الله من البلى فظلت محتفظة بجدتها . فأى نعم أعظم من تلك النعم : غمام يقى من حر الشمس ، ومنّ وسلوى وماء يتفجر من العيون مغزاراً ومدراراً وثجاجاً خالصاً سائغاً للشاربين ، وثياب لا تبلى جدتها ؟ ومع ذلك جحدوا وظلموا أنفسهم بالجحود والإنكار بدل الشكر والعرفان . لذلك استحقوا ما حكم الله به عليهم فى قوله : ﴿ وضربت عليهم الذلّة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾(١) .

إن شكر المنعم واجب . قال موسى : يارب كيف أشكرك ؟ قال : تذكرنى ولا تنسانى ، إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى . قال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾(٢) . والعبد إذا جحد نعمة الله وقابلها بالكفران فإنما ظلم نفسه ونقصها خيراً كثيراً وما ظلم الله شيئاً ، قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾(٣) . ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(٤) .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الاله ... فإن الإله سريع النقم

ومن هنا تتبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضى عنهم،على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ماكانوا معه فى أسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد . لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلاً على النبى ﷺ . ولكن لما أجهدهم الجوع سألوا فى تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة ، فدعا الله فيه ، وأمرهم فملأ وأكل وعاءً معهم . وكذا لما احتاجوا إلى الماء ، سألوا الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ، ثم نظروا فإذا هى لم تجاوز العسكر . هذا هو الأكمل فى اتباع الشىء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ .

---

(١) سورة البقرة آية : ٦١ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .
(٣) سورة الزخرف آية : ٧٦ .
(٤) سورة يونس آية : ٤٤ .

الأمر بدخول القرية

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

وتلك واقعة خطيرة ما كان ينبغى لهؤلاء القوم أن يقعوا فيها ، لقد أُمروا بأمر ما أيسره على النفوس وما أجل أثره عند الله ، أمرهم الله أن يدخلوا القرية ، والمراد بها هنا بيت المقدس كما حكاه المفسرون ، وقال لهم : ﴿ **فكلوا منها حيث شئتم رغدًا** ﴾ أى أكلاً هنيئاً ذا سعة . أَبَعْد هذا الفضل فضل ؟ أبعد هذا الإنعام إنعام ؟ وأمرهم الله إذا دخلوا بيت المقدس أن يسجدوا إذا دخلوا الباب سجود شكر على ما أنعم الله به عليهم من عظيم النعم وجليلها . أيستحق هذا الأمر الميسور الذى لا عنت فيه ولا مشقة أن يقابل بالعناد والمخالفة ؟ خاصة وقد رتب الله عليه مغفرة الذنوب والخطايا ، وأى شىء يستحق هذا العناد ﴿ **ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً** ﴾ ثم ماذا ؟ قولوا وأنتم داخلون : اللهم حط عنا خطايانا وذنوبنا . وحطة خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمرنا حطة أى نسأل الله أن يحط عنا خطايانا وذنوبنا . ووعد الله حق ﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] . فما كان أجدر القوم أن يعملوا بما أُمروا ، فالله إذا وعد أنجز كرمًا وفضلاً ، وإذا أوعد فهو إن شاء عفا وإن شاء عاقب . وقال الله لهم ﴿ **وسنزيد المحسنين** ﴾ ، وهذا هو مقام الإحسان أن يزيد على العدل ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[2] . فإن يثبنا فمحض الفضل ، وإن يعاقب فمحض العدل .

والمحسنون هم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه ، وهذا هو مقام المشاهدة ، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، وهذا هو مقام المراقبة . فماذا كان موقف هؤلاء من هذه الأفضال ؟ . غيروا القول الذى قيل لهم وبدلوه لأنهم بتركه وعدم الامتثال له كأنهم بدلوه وغيروه من عمل إلى ترك ومن امتثال إلى مخالفة . فما سجدوا ، إنما دخلوا مرفوعى الرؤوس كبرًا وعجبًا ، وتلك طبائع معتلة ، وهذا سلوك مختل ، والشىء من معدنه لا يستغرب . أليسوا هم الذين قالوا : ﴿ **اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة** ﴾ أليسوا هم الذين عبدوا العجل فى غيبة نبيهم ؟ أليسوا هم الذين قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ؟ أليسوا هم الذين قالوا يد الله مغلولة ؟ أليسوا هم الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ؟ إنهم أساءوا الأدب حتى مع الله وأساءوه مع الأنبياء . ألم يقولوا لموسى أتتخذنا هزوا وهو من أولى العزم الذين ورد ذكرهم فى قوله جل شأنه : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين**

(١) سورة الروم آية : ٦ .
(٢) سورة النحل آية : ٩٠ .

ولا تتفرقوا فيه ﴾[١] ، وفى قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظاً ﴾[٢] . أليس موسى هو الذى قال الله له : ﴿ وأنا اخترتك ﴾[٣] ، وقال له : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾[٤] . وقال له : ﴿ ولتصنع على عينى ﴾[٥] . وقال فى حقه : ﴿ وكان عند الله وجيهًا ﴾[٦] ؛ ومع ذلك اجترءوا عليه وقالوا له : ﴿ أتتخذنا هزوًا ﴾[٧] ؟ أمروا بأن يدخلوا الباب سجّداً فدخلوه غير سجّد وأمروا أن يسألوا الله مغفرة ذنوبهم ويقولوا حطة فلم يفعلوا ، وظلموا بتغييرهم أوامر الله وتبديلهم إياه فاستحقوا من الله الجزاء الأوفى ، لأنهم كما قال الله عنهم : ﴿ قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم ﴾[٨] . وهنا يظهر فضل أصحاب محمد ﷺ : ﴿ قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[٩] . وهيهات هيهات ثم شتان بين من قالوا سمعنا وعصينا وبين من قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . وهكذا أنزل الله عليهم من العقوبة ما يستحقونها ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً ﴾ أى عذاباً ؛ وقد ورد أنه الطاعون . قال ﷺ : (الطاعون بقية رجز أو عذاب أرسل على طائفة من بنى إسرائيل ؛ فإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا منها فرارا منه ، وإذا وقع بأرض ولستم بها فلا تهبطوا عليها)[١٠] . وقد أوعد النبى ﷺ قوما ظهرت فيهم الفاحشة فقال : (لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم)[١١] . ولم تكن العقوبة بالطاعون لهؤلاء ظلمًا ، فالله أعدل العادلين وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ، بل كان الجزاء عادلاً ، فقد قال تعالى : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ والفسق خروج عن طاعة الله . قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ﴾[١٢] ، والخروج عن طاعة الله ظلم . ولقد كان ابن تيمية يقول : إن الله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة على الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة ، ويستشهد بقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[١٣] ، وقال ﷺ : (اتق دعوة المظلوم)[١٤] .

---

(١) سورة الشورى آية : ١٣ .
(٢) سورة الأحزاب آية : ٧ .
(٣) سورة طه آية : ١٣ .
(٤) سورة طه آية : ٣٩ .
(٥) سورة طه آية : ٣٩ .
(٦) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .
(٧) سورة البقرة آية : ٦٧ .
(٨) سورة البقرة آية : ٩٣ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(١٠) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ١٤٠ ط دار الفكر .
(١١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٢٥ ط وزارة الأوقاف .
(١٢) سورة يونس آية : ١٣ .
(١٣) سورة هود آية : ١١٧ .
(١٤) الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٤ ط دار الفكر .

الأمر بضرب الحجر

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

الاستسقاء هو طلب السقيا عند عدم الماء أو قلته ، لأن السين والتاء يدلان على الطلب ، كقولك : اللهم إنى أستعينك وأستغفرك وأستهديك ، أى أطلب منك العون والمغفرة والهداية .

وانفجرت وانبجست بمعنى واحد . والمشرب مكان الشرب . وقوله تعالى : ﴿ ولا تعثوا ﴾ أى ولا تتجاوزوا الحدود فتفسدوا .

وتلك نعمة ومعجزة . فقد اعتاد بنو إسرائيل عند الضيق أن يلقوا باللائمة على موسى ؛ شكوا إليه شدة الظمأ ولهيب العطش ، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه التى فلق الله البحر بعدما ضربه موسى بها . فالسقيا : نعمة ، وضرب الحجر بالعصى وتفجير الماء عقب ذلك معجزة ، فالمعجزة قد تكون فعلاً كانفجار الماء من الحجر بعد ضربه بالعصا ، وقد تكون تركاً كترك الإحراق بالنار عندما ألقِىَ إبراهيم فيها ، فقد توافرت الأسباب وزالت الموانع ، ولكن اختلفت النتائج . فالنار من طبعها الإحراق ، وقد ألقى إبراهيم فيها ، فما حرقت إلا قيوده التى قيدوه بها ، وظل إبراهيم بها حتى خمدت ، ورآه النمروذ يجلس أحسن مما كان صحة وعافية . لقد نزع الله منها الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق . حكمت محكمة الأرض بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء بالإفراج فوراً ، ﴿ قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يانار كونى بردًا وسلاماً على إبراهيم ﴾[1] . جمع له بين البرودة والسلامة ، لأنه لو قال لها كونى برداً على إبراهيم لتجمد من برودتها ، ولو قال لها كونى سلاماً على إبراهيم لآذته بحرارتها ، فجمع لها بين البرودة والسلامة حتى يظل فيها وكأنه فى روضة غناء وربوة حالمة . كذلك من المعجزات ترك الذبح من السكين التى أراد إبراهيم أن يذبح بها ولده إسماعيل . فالأسباب متوافرة وقد زالت الموانع ، فما الذى حال بين السكين وبين الذبح ؟ إنها المعجزة ، أراد الخليل أن يذبح ، ولكن الجليل أراد أن لا يذبح ﴿ فلما أسلما وتله للجبين * وناديناه أن ياإبراهيم * قد صدقت الرؤ يا إنا كذلك نجزى المحسنين * إن هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم ﴾[2] . وقد تكون المعجزة قولية كمعجزة الإسلام الخالدة : القرآن الكريم المنزل على سيد الأنبياء والمرسلين ، من أفضل مكان هو اللوح المحفوظ ، وبأفضل ملك هو جبريل ، وبأفضل لغة هى العربية ، وفى أفضل بلد هى مكة ، وفى غار حراء ، فى أفضل شهر هو رمضان ، فى خير ليلة هى ليلة القدر ، لخير أمة أخرجت للناس ، على أفضل الأولين والآخرين هو نبى الرحمة محمد ﷺ . ومن هنا فإن

(١) سورة الأنبياء الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ . (٢) سورة الصافات الآيات : ١٠٣ - ١٠٧ .

المعجزات الفعلية تكررت على يدى موسى ، كفلق البحر وضرب الحجر وانفجاره بالماء وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى وإحياء الله موتاهم إلى غير ذلك مما يطول شرحه ، وبعد انفجار الحجر قال الله لهم : ﴿ كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ أى لقد أبحت لكم الأكل والشرب من رزقى فأنا الرزاق ذو القوة المتين :

لا تعجلن طَلَب الأرزاق بالعجل — الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا — لكنه خلق الإنسان من عجل

ولو ركب ابن آدم الريح فرارًا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم . قال ﷺ : (إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب)(١) . وقال صلوات ربى وسلامه عليه : (لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا)(٢) . حتى قال بعضهم للإمام على كرم الله وجهه : لو حبس إنسان فى مكان فمن أين يأتيه رزقه ؟ فقال الإمام : من حيث يأتيه أجله .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى — ولا الأمور التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ماشاء يفعل بى — أحاط بى علمه من قبل تصويرى

إن الرزق يقتضى الشكر ؛ قال تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾(٣) . ومن ثم فقد نهاهم عن الفساد والإفساد . فقال لهم : ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ . فماذا كان موقفهم وهم الشعب المدلل ؟ ماذا كان موقفهم بعد كل هذه النعم ؟ .

الذلة والمسكنة

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

وذلك أيضا موقف يثير العجب : قوم أنزل الله عليهم المن والسلوى ، وهما من أعظم أنواع الطعام

(١) الجامع الصغير جـ ١ ص ٣٤٦ ط دار الفكر .
(٢) رياض الصالحين للنووى ص ٤٢ ط دار التراث العربى .
(٣) سورة سبأ آية : ١٣ .

قدرا وذوقا وطعما وغذاء . رزق ينزل بلا عناء : مادة كالعسل ، وطير من أشهى أنواع الطير ، ورب كريم يقول لهم : ﴿ كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾[١] . . ولكن طباعهم أبت عليهم إلا العناد . فماذا طلبوا من موسى ؟ لقد طلبوا منه ما يدعو إلى الدهشة ويثير فى النفس كوامن الأسي . قالوا : ﴿ يا موسى لن نصبر على طعام واحد ﴾ . وكان تعبيرهم بالصبر يفيد أنهم يأكلونه على مضض . فالصبر حبس النفس على الشدائد ، وكأنهم قوم بلغوا من الجهد مابلغوا . فماذا يريدون من موسى ؟ قالوا له : بما لك من مكانة عند ربك فادعه يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها . قال المفسرون المراد بالبقل : النبات الرطب مما يأكله الناس والأنعام ، والمراد به هنا مايطعمه الإنسان من أطايب الخضر كالكرفس والنعناع ونحوهما ؛ والقثاء هى مايسمى بلغة العامة (القتة) ؛ والفوم : هو الثوم ؛ والعدس والبصل معروفان . . . قال لهم الكليم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام مستنكرا هذا الطلب : أتستبدلون الذى هو أدنى من الطعام من البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل تاركين الذى هو خير من المن والسلوى ؟ والمراد بالأدنى هنا الأقل قدرا . ومادمتم قد أردتم ذلك فاهبطوا مصرا من الأمصار ، أى اذهبوا إلى بلد من البلاد التى تنبت هذه الأشياء ، فإن الأرض التى أنتم بها الآن لا تنبت ماطلبتم . هذا هو الرد الذى رد به موسى عليهم . فماذا صنع الله بهم وهم الذين استكبروا وأصروا على استكبارهم وجحدوا وعاندوا واستمرأوا ذلك ، وكلما نزلت بهم شدة ألقوا باللائمة على موسى . لقد عاقبهم الله على عنادهم وكبرهم عقوبة تطابق فعالهم ، فضرب ﴿ عليهم الذلة والمسكنة ﴾ ؛ والتعبير بـ ﴿ ضُربت عليهم ﴾ يفيد الإحاطة والإلزام ، والذلة هوان وضيم يأتى من خارج النفس ؛ أما المسكنة فإنها ضعة وذل نابع من النفس وملازم لها . ولذا جاء فى آية أخرى : ﴿ ضُربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضُربت عليهم المسكنة ﴾[٢] .

فنحن نرى فى هذه الآية أن الله تعالى لما ضرب عليهم الذلة قال : ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ . والمراد بالحبل هنا العهد ، أى إلا أن يكون بمقتضى عهد من الله أو عهد بينهم وبين الناس . أما المسكنة فلا استثناء فيها ، لأنها نابعة من النفس ذاتها متغلغلة فى خلاياها . ولم يكن هذا الجزاء عبثا أو ظلما ، فمعاذ الله أن يكون فى حكمه عبث أو أدنى ظلم ، إنه تعالى لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون . لقد جاءت حيثيات الحكم على الوجه التالى ، وهى أربعة تناهت فى الفحش والطغيان ومجاوزة الحد ؛ أولها ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بئايات الله ﴾ . ألم يقولوا من قبل : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ؟ . ثم ألم يتخذوا العجل إلها ؟ . ثانيتها : ﴿ ويقتلون النبيين بغير الحق ﴾ . قال ﷺ : (أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبى أو قتل نبيا) .

وهكذا يبدو الفعل فى أبشع صورة من صوره عندما يقترن قتل النبيين بغير الحق . والقتل للنبيين قد وقع منهم بإسراف وسفه ، فإذا كان القتل فى حد ذاته بغير الحق ، فما بالنا إذا اقترن بهذه الصورة ؟ إنه يكون فى أشنع صورة وأبشع فعل . وهل الحق إلا وضع الشىء فى موضعه الذى أمر الله أن يوضع فيه ؟ وهل بعد

(١) سورة طه آية : ٨١ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١١٢.

الحق إلا الضلال ؟ وهل الكبر إلا غمط الناس وبطر الحق ؟ . ثم تأمل معى مجىء الفعلين فى صيغة المضارع الذى يفيد الحال وقد يفيد الاستمرار ، كأن الأمر لم يقف عند حد من الحدود ، إنما تجاوز الأزمان وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يكفرون ﴾ و﴿ يقتلون ﴾ .

ثم تأتى الحيثية الثالثة فى قوله تعالى : ﴿ ذلك بما عصوا ﴾ . والمعصية هى الخروج عما نهى الله عنه قوله : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾ ﴿ ولا تلبسوا الحق بالباطل ﴾ . ثم ختم الله هذه الحيثيات بقوله : ﴿ وكانوا يعتدون ﴾ . والاعتداء تجاوز عن سبل الهداية والإرشاد والخروج عن كل ما هو خير وإصلاح . وهكذا جمع القوم بين الكفر بآيات الله وقتل أنبياء الله وعصيان الله والاعتداء على حدود الله . أليس من العدالة أن يبوءوا بغضب من الله ؟ ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾[١] .

فرق وعقائد

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

هذه أربع فرق بدأها الله تعالى بالمؤمنين ، وهم أتباع محمد ﷺ والذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[٢] ، وهذه هى الفرقة الناجية ، لأنها آمنت بكل ما أمر الله عباده أن يؤمنوا به . فهم الموحدون المصدقون بالملائكة ، المؤمنون بالكتب كلها والرسل جميعا . لم يفرقوا فى الإيمان بهم بين نبىٍّ ونبىٍّ ولا بين رسول ورسول . هؤلاء ما عرف الكفر إليهم طريقا ولا اتخذ إليهم سبيلا ، لأن قلوبهم ملئت بصدق اليقين . أما الفرق الباقية من اليهود والنصارى والصابئين ، فإنما يحكم لهم بالنجاة إذا اتبعوا سبيل المؤمنين ، فآمنوا بالله والملائكة والكتب والرسل وعلى رأسهم خاتم الأنبياء محمد ﷺ . فلن يكمل إيمان ولن يصح إسلام ولن يقبل عمل إلا بالإيمان بخاتم الأنبياء . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ والذين ءامنوا وعملوا الصٰلحٰت وءامنوا بما نُزِّل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ۞ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين ءامنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثلهم ﴾[٣] . وهل هناك ما ينجى من النار إلا الإسلام : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[٤] . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[٥] . قال تعالى فى حديث قدسى : (وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىَّ كل طريق واستفتحوا علىَّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) .

اليهود قوم سلكوا فى عقيدتهم مسالك شتى ، انحرفت بهم عن طريق الجادة وتنكبت بهم عن سواء

---

(١) سورة آل عمران آية : ١١٧ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٣) سورة محمد الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) سورة آل عمران آية : ١٩ .
(٥) سورة آل عمران اية : ٨٥ .

الصراط . فمنهم من يقول : عزير ابن الله ، ومنهم من يرى تجسيد الإله وتشبيهه ، ويرى أن الله صرع يعقوب وكاد يعقوب يصرعه !!.

وإنما سموا باليهود لميلهم[١] ، وهو رجوعهم من شىء إلى شىء . والهود : الميل . وقيل لأنهم من ولد يهوذا بن يعقوب عليه السلام . وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ فى القرآن الكريم من اعتقادهم ما يدل على كفرهم من قولهم : ﴿ عزير ابن الله ﴾ وقولهم هم والنصارى : ﴿ نحن أبناءُ الله وأحبَاؤه ﴾[٢] ، وغير ذلك مما نزل به القرآن . ومع ذلك بدلوا صفة النبى ﷺ التى وجدوها فى التوراة حسداً منهم له وعنادا ، وبدلوا أحكام التوراة ، فأحلوا الحرام ، وحرموا الحلال ، وشرعوا لأنفسهم شرعا باطلا غير ما شرع الله لهم ، فأحلوا نكاح بنات الإخوة وبنات الأخوات ، ومن طلق منهم زوجته أى طلاق كان ، استحلها بعقد نكاح جديد ما لم تتزوج غيره ، فإن تزوجت غيره وطلقها الزوج الثانى ، أو مات عنها لم تحل للزوج الأول أبدا . ومن مات منهم عن امرأة وله أخ ، فإن كان له منها ولد أو من غيرها لم تحل لأخيه أن يتزوجها أبدا . وإن لم يكن له منها ولد ولا من غيرها فإنها توقف عليه وَلا يجوز لأحد منهم نكاحها قبل أن يحلها منه .

ومما شرّعوه لأنفسهم خلاف ما شرع الله تعالى لهم فى التوراة فيما بينهم ــ أن من مات منهم وخلف أبا وأما وزوجة فإنهم يجعلون المال كله للأب بغير صداق الزوجة ولا شىء للأم وللزوجة من الميراث ، وذلك إذا لم يكن للميت أولاد ، فإن خلف أولادا كان المال كله لهم ولا شىء للأب والأم ، فإن كان الأولاد ذكورا وإناثا فإنهم يعرضون للبنت الأولى عشر المال والتى بعدها عشر ما بقى ، وعلى هذا إلى انقضائهن ، وما بقى قسم بين البنين بالسوية إلا أن يكون أحدهم بكرا لأبيه دون أمه فإنه يكون له سهمان ، ولكل واحد من إخوته ، وغير ذلك مما بدلوه من الأحكام .

وأما النصارى : فهم منسوبون إلى قرية بفلسطين تسمى ناصرة ، لأنه كان بدء خروجهم منها ، وهم من قوم عيسى عليه السلام . ومنهم من قال : إن الآلهة ثلاثة ، ظهر منها اثنان هما مريم وعيسى عليهما السلام ، وخفى منهم واحد وهو الله تعالى .

ومنهم من قال : إن الله تعالى هو المسيح ابن مريم ، وهم اليعقوبية أصحاب يعقوب (ليس بأبى يوسف عليهما السلام) وكذبوا فى ذلك كله . وهم مفترقون على اثنتين وسبعين فرقة كما أخبر النبى ﷺ . وقد قالوا فى ابتداء أمرهم : نؤمن بإله واحد : الله تعالى ، خالق ما يرى وما لا يرى . ثم نقضوا ذلك فقالوا : المسيح خالق غير مخلوق . ثم نقضوا ذلك فقالوا : هو ابن الله ، ثم نقضوا ذلك فقالوا : هو الله .

وإذا كتبوا كتابا كتبوا فى أوله : باسم الآب والابن والروح القدس . وهم يعتنقون الصلبان . فهذا ما أجمعوا عليه ، وأما ما اختلفوا فيه فكثير .

وأما الصابئون : فاسمهم مأخوذ من صبأ إذا خرج من شىء ، ومن دين إلى دين . ومن العلماء من

(١) ارجع إلى كتاب البرهان فى معرفة عقائد أهل الأديان . تاليف عباس بن منصور السكسكى الحنبلى دار التراث العربى .
(٢) سورة المائدة اية : ١٨ .

يقول إنهم من النصارى فصبأوا إلى المجوسية . ومنهم من قال إنهم قوم عبدوا النجوم وآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض . وقال بعض العلماء إنهم قوم عبدوا الملائكة وقرأوا الزبور . وقال آخرون : هم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم .

واختار الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب ، بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء ، أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها .

هذه الفرق التى ورد ذكرها بعد المؤمنين بيّن القرآن لها طريق النجاة فى ثلاثة أركان : الإيمان بالله ، الإيمان باليوم الآخر ، العمل الصالح . ولابد من الإتيان بهذه الأركان لينضموا بها إلى فريق المؤمنين . وقد يقول سائل : فأين الإيمان بالملائكة والكتب والرسل والقدر ؟ ونقول : إن مقتضى الإيمان بالله يقتضى الإيمان بكل ما أنزل على رسوله . وقد قال الله فى الكتاب المنزل على سيدنا محمد : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا ءامنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾(١) . وقال الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾(٢) . فمن آمن بالله ورضى به ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا فقد ذاق حلاوة الإيمان . فلو أن هذه الفرق سلكت الطريق فآمنت بالله وأيقنت باليوم الآخر وعملت صالحا لكانت جديرة بما حكم الله به للمؤمنين فى قوله : ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٣) ، والأجر يفسر هنا بسعادة الدارين . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾(٤) . أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة . وقال تعالى : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾(٥) . وقال عزّ من قائل : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٦) ؛ ثم زاد على ذلك الأجر أن نفى عنهم الخوف والحزن فبدل خوفهم أمنا وحزنهم سروراً : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ۝ الذى أحلّنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾(٧) ، والأمن والسرور نعمتان لا تعدلهما أى سعادة إلا الفوز برضوان الله . قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾(٨) ، ومن ثم فإن الله جلّت قدرته وتعالت عظمته رفع عن أوليائه الصالحين الخوف والحزن ، الخوف مما سيأتى والحزن على ما فات ، وشر ما تبتلى به النفس أن تعيش فى قلق وتصاب بما يسميه علماء النفس عقدة الخوف من المستقبل . ومن ثمّ تأتى ثمرة الإيمان بالقضاء والقدر : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(٩) .

---

(١) سورة النساء آية : ١٣٦ .
(٢) سورة هود آية : ١١٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٤ .
(٤) سورة طه آية : ١٢٣ .
(٥) سورة النحل آية : ٣٠ .
(٦) سورة النمل آية ٩٧ .
(٧) سورة فاطر الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٨) سورة التوبة آية : ٧٣ .
(٩) سورة التوبة آية : ٥١ .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشـر بخير فـإن الفـارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه لاتيأسـن فـإن الـكـافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة لاتجـزعنَّ فـإن الصـانـع الله
إذا بليت فثق بـالله وارض بـه إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مـالـك غـير الله من أحد فحسبـك الله فى كـل لـك الله

إن السعادة كلها فى الرضا ، وإن الشقاء كله فى الاعتراض والجزع . لقد كان بعض الصالحين ينام على الطوى ، ويقولون : نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف .

فليتـك تحلو والحيـاة مـريـرة وليتـك ترضى والأنـام غضـاب
وليت الـذى بينى وبينـك عـامـر وبينى وبـين العـالمـين خـراب
إذا صح منك الـود فالكـل هين وكـل الذى فـوق التراب تـراب

والخلاصة أن هذه الآية التى بين أيدينا ركزت النجاة فى الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح . فأى فرقة من الفرق التى انحرفت عن هدى الرسالة إن توافرت لها هذه الأركان كانت مع المؤمنين ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾[1] .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

فى هذه الآيات الكريمة يذكر الله تعالى بنى إسرائيل بمواقف أجدادهم وآبائهم حتى يكون لهم فيها عبرة وموعظة فينتفعوا بدروسها ، فمن تلك المواقف أن الله تعالى أخذ عليهم مواثيق ، منها قوله جل شأنه : ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[2] . ومنها : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾[3] . ومنها قوله جل شأنه : ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾[4] .

ولما كان القوم يؤمنون بالمحسوسات ، فإن الله تعالى رفع الجبل فوقهم ، وظل فوق رءوسهم كأنه ظلة

(١) سورة النساء آية : ١٤٦ .
(٢) سورة البقرة آية : ٨٣ .
(٣) سورة البقرة آية : ٨٤ .
(٤) سورة النساء آية : ١٥٤ .

حتى ظنوا أنه واقع بهم . وما أروع القرآن فى التعبير : بواقع بهم ، ولم يقل واقع عليهم ، إذ لو كان التعبير بعليهم لوقع فوق رءوسهم ، لكن التعبير بواقع بهم يدل على أن الجبل سيأخذهم ويقع بهم فى أعماق الأرض . وقال لهم الله : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ، أى خذوا ما فى التوراة من أحكام واعملوا بها ، إذ لا قيمة لعلم بلا عمل . قال أحد الحكماء :

العلم كالغيث والأخلاق تربته ... إن تفسد الأرض تذهب نعمة المطر
إبليس أعلم أهل الأرض قاطبة ... والناس تلعنه فى البدو والحضر

قال الإمام علىّ : يهتف العلم بالعمل ، فإن أجابه وإلا ارتحل . وقال الإمام الغزالى : إذا حصل انفصال بين العلم والعمل فما مثل ذلك إلا مثل ملك أرسل كتابا إلى أحد أمرائه ، وأمره أن يبنى له قصرا فى ناحية من مملكته ، فلم يكن حظ الكتاب منه إلا أن يقرأه كل يوم دون أن يبنى القصر ، أفلا يستحق هذا الأمير بعدئذ العقاب من الملك الذى أرسل به إليه ؟ .

قوله تعالى : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ، أى بحزم وعزم وتصميم وتنفيذ . كما قال جلّ شأنه : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾[(١)] ، فإن القوم كانوا غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، حتى جاء فيهم قوله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾[(٢)] . ثم قال لهم تعالى : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . لأن نسيان العهود والتشريعات والأحكام الإلهية ضلال بعيد . ويوم ينسى الإنسان ما أمره الله بذكره ، فقد هوت به الريح فى مكان سحيق . قال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾[(٣)] . وقال تعالى فى حق اليهود : ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به ﴾[(٤)] . وقد ينسى الإنسان خلقه فيضل . قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾[(٥)] . وجعل عاقبة ذلك ، أى الأخذ للأحكام بقوة ، جعل عاقبته التقوى ، فقال : ﴿ لعلكم تتقون ﴾ ، والتقوى هى طريق النجاة ، إذ هى السلاح الأقوى . أما من حمل الأحكام ولم يعمل بها فهو كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴾[(٦)] .

قال تعالى مذكرا إياهم : ﴿ ثم توليتم من بعد ذلك ﴾ ، أى أعرضتم عن صيانة المواثيق وحفظ العهود . ولولا أن رحمة الله تداركتكم ، فهو سبحانه وسع كل شىء رحمة وعلما ، لولا ذلك لكنتم من الخاسرين الهالكين . وتلك سنة الله يتدارك العصاة برحمته فيتوبوا إليه ، فإذا تمادوا وسدروا فى طغيانهم ، فإن قول الله تعالى يتحقق فيهم : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[(٧)] . إن الله تعالى لا يعجل كعجلة أحدكم . إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[(٨)] .

---

(١) سورة مريم آية : ١٢ .
(٢) سورة البقرة آية : ٧٤ .
(٣) سورة الكهف آية : ٥٧ .
(٤) سورة المائدة آية : ١٤ .
(٥) سورة يس آية : ٧٨ .
(٦) سورة الجمعة آية : ٥ .
(٧) سورة القلم الآيتان : ٤٤ ، ٤٥ .
(٨) سورة هود آية : ١٠٢ .

أما من عمل بما علم فإن الله تعالى سيورثه علم ما لم يكن يعلم ، أى يفتح أمامه مغاليق المعارف وكنوز المعرفة . ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا . وبعد الفضل والرحمة يذكرهم الله تعالى باعتداء جسيم ، فقد أمرهم مولانا سبحانه أن يتفرغوا يوم السبت من كل أسبوع لعبادته ، ونهاهم عن اصطياد الحيتان فى هذا اليوم ، ولكنهم اعتدوا وتجاوزوا الحد . قال تعالى : ﴿ واسْألْهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾(١) . قال الله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ﴾ . فماذا كان جزاء المعتدين ؟ لقد مسخهم الله قردة أذلاء صاغرين . روى جمهور العلماء أن الله مسخ صورهم فصارت صور القردة . وروى أن الممسوخ لا ينْسُل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام . وبين الله الحكمة من هذا الجزاء فقال : ﴿ فجعلناها نكالا ﴾ أى جعلنا هذه العقوبة عبرة للذين سيأتون بعدهم ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ لما بين يديها ﴾ ، كما جعلها الله عبرة للذين عاشوا زمانها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وما خلفها ﴾ ، كما جعلها الله موعظة ودرسا للمتقين . فإن التقوى سبب قوى من أسباب الانتفاع بنُوَبِ الدهر وأحداث الليالى . وهكذا ﴿ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾(٢) . والله تعالى يقرر أنه لا يعتبر بالأحداث إلا من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، قال تعالى : ﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ﴾(٣) . وقال جلَّ شأنه : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾(٤) .

قصة البقرة

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا

(١) سورة الأعراف آية : ١٦٣ .
(٢) سورة الحاقة آية : ١٢ .
(٣) سورة الزمر آية : ٩ .
(٤) سورة النازعات آية : ٣٦ .

ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

وسميت السورة الكريمة بسورة البقرة ، لأنه اسم لقصة بلغت من العجب مبلغا بعيدا . فبنوا إسرائيل إن أردنا أن نسميهم باسم يدل على نفوسهم المعقدة ، استطعنا أن نقول إنهم قوم مصابون بعقدة البقرة ، وللبقرة فى هذه السورة قصة تنخلع لهولها القلوب وتنفطر لها النفوس وتحار فيها العقول . ولعل ذوى الألباب الباصرة وأولى الأفئدة المستنيرة لو نخلوا مخزون فكرهم وقدحوا زناد رأيهم لعلموا ما تحتويه تلك القصة من موقف متصلب لقوم شددوا فشدد الله عليهم . ولما أخبرهم نبيهم أن الله يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، قالوا له بلسان جرىء وحماقة شنيعة : ﴿ أتتخذنا هزوا ﴾ ، ما كان يليق أن يوجه مثل هذا الخطاب إلى نبى رسول كليم من أولى العزم قال فى شأنه ربه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين ءاذَوْا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾(١) ، وقال له مولاه : ﴿ ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ماءاتيتك وكن من الشاكرين ﴾(٢) ، وقال له ربه : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾(٣) ، وقال له سبحانه : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ﴾(٤) ، وقال له : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾(٥) . يخلع عليه ربه هذه الأوسمة وتلك النياشين ويقول له قومه بحماقة ﴿ أتتخذنا هزوا ﴾ فيقول لهم بلسان الحليم الناصح الأمين الشفوق الكريم : ﴿ معاذ الله أن أكون من الجاهلين ﴾ . ياله من أدب ، وما أجمله من خلق ، وما أعظمه من حلم . قوم يسخرون ونبى يُربى ويعلم ويصبر ويحتسب : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين ءاذوا موسى ﴾ وأى أذى ، ولكنه حلم الأنبياء .

المفردات : البقرة : اسم الأنثى ، والثور : اسم الذكر ، والهزو : السخرية ، والجهل : هنا فعل ما لا ينبغى أن يُفعل ، وقد يطلق اعتقاداً لشىء بخلاف ما هو عليه ، والفارضُ : المسنّة التى انقطعت ولادتها ، والبكر : الصغيرة التى لم تحمل بعدُ ، والعوان : النصف فى السن من النساء والبهائم ، والذلول : الريض الذى زالت صعوبته ، ويقال دابة ذلول بيّنة الذِّل (بالكسر) ، ورجل ذلول بيّن الذل (الضم) والإثارة : قلب الأرض للزراعة ، والحرث : الأرض المهيأة للزراعة ، والمسلّمة : التى سلمت من العيوب ، والشيَة : العلامة ، أى لا لون فيها يخالف لونها ، من وشى الثوب يشيه إذا زينه بخطوط مختلفة الألوان ، والآيات : هى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور الغريبة ، وادّارأتم : أى تدارأتم من الدرء وهو الدفع ، ويقال عقلت نفسى عن كذا : أى منعتها منه .

جاء فى تفسير المراغى مانصه : فى هذا القصص بيان نوع آخر من مساويهم لنعتبر به ونتعظ ، وفيه من وجوه العبرة :

(١) أن التنطع فى الدين والإلحاف فى السؤال مما يقتضى التشديد فى الأحكام ، ومن ثم نهينا عن

(١) سورة الأحزاب آية : ٦٩ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٤٤ .
(٣) سورة طه آية : ١٣ .
(٤) سورة طه آية : ٣٩ .
(٥) سورة طه آية : ٤١ .

ذلك بقوله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ﴾[1] . وبما جاء فى صحيح الحديث من قوله ﷺ : (وكره لكم قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال) .

(٢) أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوانات ، لأنها من جنس ماعبدوه ، وهو العجل ، ليهون عندهم ماكانوا يرون من تعظيمه ، وليعلم بإجابتهم ماكان فى نفوسهم من حب عبادته .

(٣) استهزاؤهم بأوامر الأنبياء .

(٤) أن يحيا القتيل بقتل حيٍّ ، فيكون أظهر لقدرته تعالى فى خلق الأشياء من أضدادها .

وأول القصة معنى قوله : ﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ الخ ، إذ هى المخالفة التى صدرت منهم : ثم ذكر المنة فى الخلاص منها فى قوله : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ الخ ، وقدم على ذلك وسيلة الخلاص منها ، وهى ذبح البقرة . وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب فى ذبح البقرة ، والمفاجأة بحكاية ماكان من الجدل بين موسى وقومه ، فإن الحكمة فى أمر الله بأن تذبح بقرة قد تخفى فيحرص السامع على طلبها .

والكتاب الكريم لا يراعى ترتيب المؤرخين فى تنسيق الكلام بحسب الوقائع ، وإنما ينسق الكلام على الطريق الذى يستثير اللب ، ويأخذ بمجامع القلب ، ويستوحى شغف السامع بما يدور حوله الحديث . ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ . روى فى سبب الذبح أنه كان فى بنى إسرائيل شيخ موسر قتله بنو عمه طمعا فى ميراثه ، وحملوه إلى قرية أخرى وألقَوْهُ بفنائها ، ثم جاءوا يطالبون بديته وادعوا على ناس منهم أنهم قتلوه ، فسألهم موسى فجحدوا فاشتبه الأمر ، فسألوا موسى أن يدعو الله ليبين لهم ما خفى من أمر القاتل ، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها فيحيا ويخبر عن قاتله .

﴿ قالوا أتتخذنا هزوا ﴾ ، أى قالوا : أتجعلنا موضع سخرية وتهزأ بنا ؟ نسألك عن أمر القتيل فتأمرنا بذبح بقرة ، وهذا غاية فى الغرابة ، وبعيد كل البعد عما نريد ؛ وقد كان الواجب عليهم أن يمتثلوا أمره ويقابلوه بالتجلة والاحترام ، ثم ينتظروا ما يحدث بعدُ ، فهذا القول منهم دليل على السفه وخفة الأحلام وجفاء الطبع والجهل بقدرة الله تعالى .

﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ أى ألتجىء إلى الله من الهزء والسخرية بالناس ، إذ هو فى مقام تبليغ أحكام الله دليلُ السفه والجهل .

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴾ ، أى سله لأجلنا أن يكشف لنا عن الصفات المميزة لها ، وقد سألوا عن صفتها لما قرع أسماعهم بما لم يعهدوه ، فإن بقرة ميتة يضرب بها ميت فيحيا موضع العجب والغرابة والحيرة والدهشة ، ومن ثم أكثروا من الأسئلة فأجيبوا بأجوبة فيها تغليظ عليهم .

---

(١) سورة المائدة آية : ١٠١ .

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا فـارض ولا بكر عـوان بين ذلـك ﴾ ، أى ليست بالكبيرة ، ولا بالصغيرة ، بل هى وسط بينهما .

﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ ، أى فامتثلوا الأمر ولا تتوانوْا فى نفاذه . ولا يخفى ما فى هذا من التحذير والتنبيه على ترك التعنت ؛ وكان يجب عليهم الاكتفـاء به والمبادرة إلى الامتثال ، لكنهم أبَوْا إلا تنطعاً واستقصاء فأعادوا الطلب .

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ﴾ ، سألوا عن لونها فأجيبوا بما فيه الكفاية فى بيان مميزاتها ، لكنهم ما قنعوا بهذا ، بل زادوا فى الإلحاف وإعادة السؤال مرة أخرى .

﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ﴾ ، هذا سؤال لطلب إيضاح وإظهار ، زيادة على ما تقدم ككونها عاملة أو سائمة ، لأنه لم يحصل لهم تمام البيان . ثم ذكروا السبب فى إعادة السؤال : ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ أى لأن وجوه البقر تتشابه .

﴿ وإنا إن شاء الله لمهتدون ﴾ إلى البقرة المأمور بذبحها ، أو لما خفى من أمر القاتل أو إلى الحكمة التى من أجلها أمرنا ، وقد رُوى أنه ﷺ قال : (لو لم يستثنوا ويقولوا إن شاء الله لما تبينت لهم آخر الأبد) .

﴿ قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ﴾ . أى إنها بقرة لم تذلل بالعمل فى الحراثة والسقى ، وهى سالمة من العيوب ، ولا لون فيها غير الصفرة الفاقعة .

﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ ، أى إنك الآن أظهرت حقيقة ما أمرنا به بعد ذكر هذه المميزات التى ذكرتها لنا .

﴿ فذبحوها ﴾ ، أى فطلبوا البقرة الحاوية لكل الأوصاف السالفة ، حتى وجدوها فذبحوها .

﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ وما قاربوا أن يذبحوها إلا بعـد أن انتهت أسئلتهم ، وانقطع مـا كان من تنطعهم وتعنتهم . والخلاصة : فذبحوها بعد توقف وبطء .

روى ابن جرير عن ابن عباس : (لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ، ولكن شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم) .

﴿ وإذ قتلتم نفسا ﴾ ، هذا مؤخر لفظا مقدم معنى ، لأنه أول القصة ـ أى وإذ قتلتم نفسا وأتيتم موسى وسألتموه أن يدعو الله تعالى ، فقال موسى إن الله يأمركم . . . إلى آخر الآيات ؛ ولم يقدم لفظا ، لأن الغرض إنما هو ذبح البقرة للكشف عن القاتل ، وأسند القتل إلى اليهود المعاصرين للنبى ﷺ ، لأنهم سلائل أولئك ، وهم راضون بفعلهم ، كما أسنده إلى الأمة والقاتل واحد ، لأن الأمـة فى مجموعهـا كالشخص الواحد ، فيؤخذ المجموع بجريرة الواحد كما قال أبو الطيب :

وجُرْم جرّه سفهاء قوم فحلّ بغير جارمه العقابُ

﴿ فادّارأتم فيها ﴾ ، أى تدافعتم وتخاصمتم فى شأنها ، وكل واحد يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم سواه .

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ ، أى والله مظهر لا محالة ما كتمتم وسترتم من أمر القتل ، فمن كان يعرف أمراً يكتمه لهوى فى نفسه وأغراض تبعد عنه الضغن ، والعداوة ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ . أى اضربوا المقتول ببعض البقرة ، أىّ بعض كان ، وقيل بلسانها ، وقيل بفخذها .

﴿ كذلك يحيى الله الموتى ﴾ ، أى فضربوه فَحَيِىَ ، وقلنا : كذلك يحيى الله الموتى ، أى مثل ذلك الإحياء العجيب يحيى الله الموتى يوم القيامة ، وقد روى أنهم لما ضربوه قام بإذن الله وأوداجه تَشْخُب دما ، وقال قتلنى فلان وفلان ، وهما ابنا عمه ، ثم سقط ميتا ؛ فأُخذا وقُتلا .

وإنما أمرهم بالضرب ، ولم يضرب بنفسه نفيا للتهمة ، كيلا ينسب إلى السحر والشعوذة .

﴿ ويريكم آياته ﴾ ، وهى الإحياء وما اشتمل عليه من الأمور البديعة من ترتب الحياة على الضرب بعضو ميت ، وإخبار الميت بقاتله ، مما ترتب عليه الفصل فى الخصومة وإزالة أسباب الفتن والعداوة .

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، أى لعلكم تفقهون أسرار الشريعة وفائدة الخضوع لها ، وتمنعون أنفسكم من اتباع أهوائها ، وتطيعون الله فيما يأمركم به .

وقد ذكر ابن أبى حاتم بسنده عن عبيدة السلمانى ، قال : « كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ، ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم ، حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض . فقال ذوو الرأى منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك فقال : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ ؛ قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا ، فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها ، فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك ؟ فقال : هذا ، لابن أخيه ، ثم مال ميتا ، فلم يعط من ماله شيئا ؛ فلم يورث قاتل بعد » . ورواه ابن جرير .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ لا فارض ﴾ يعنى لا هرمة ولا بكر ، يعنى ولا صغيرة ﴿ عوان بين ذلك ﴾ أى نصف بين البكر والهرمة ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴾ ، أى صاف لونها ، ﴿ تسر الناظرين ﴾ ، أى تعجب الناظرين . ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول ﴾ ، أى لم يذللها العمل . ﴿ تثير الأرض ﴾ ، يعنى وليست بذلول تثير الأرض ﴿ولا تسقى الحرث﴾ ، يعنى ولا تعمل فى الحرث .

﴿**مسلّمة**﴾ يعنى مسلمة من العيوب ، ﴿ **لا شية فيها** ﴾ ، يقول لا بياض فيها ﴿ **قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون** ﴾ . قال ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، ولولا أن القوم استثنوا فقالوا ﴿ **وإنا إن شاء الله لمهتدون** ﴾ لما هدوا إليها أبدا ، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز وعندها يتامى ، وهى القيمة عليهم ؛ فلما علمت أنه لا يزكو لهم غيرها ضاعفت عليهم الثمن ؛ فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة ، وأنها سألت أضعاف ثمنها ، فقال موسى : إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم ، فاعطوها رضاها وحكمها ؛ ففعلوا واشتروها فذبحوها ، فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل ، ففعلوا ، فرجع إليه روحه ، فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان ، فأخذ قاتله ، وهو الذى كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه ، فقتله الله على سوء عمله .

وهناك روايات أخرى نذكرها فيما يلى ، فإنها تزيد المعنى وضوحا وتبين لنا مدى ما كان عليه القوم من تمويه وضلال وبعد عن الحق : روى محمد بن جرير بسنده إلى عبد الله بن عباس رضى الله عنهم قال فى شأن البقرة : إن شيخا من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثرا من المال وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم ، وكان الشيخ لا ولد له وكان بنو أخيه ورثته ، فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله . وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم أتاهم الشيطان فقال لهم : هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله وتغرموا أهل المدينة التى لستم بها ديته ، وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا فى إحداهما ، وكان القتيل إذا قتل وطرح بين المدينتين قيس ما بين القتيل والقريتين فأيتهما كانت أقرب إليه غرمت الدية . وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم عمدوا إليه فقتلوه ، ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التى ليسوا فيها ، فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ قائلين : عمنا قتل على باب مدينتكم ، فوالله لتغرمن لنا دية عمنا . قال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلا ، ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا ، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه السلام ، فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ : عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم ، فقال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا ، وأن جبرائيل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام ، فقال : قل لهم ﴿ **إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ فتضربوه ببعضها .

قال السدى ﴿ **وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة** ﴾ قال : كان رجل من بنى إسرائيل مكثرا من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه ، فغضب الفتى ، وقال : والله لأقتلن عمى ولآخذن ماله ، ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته . فأتاه الفتى ، وقد قدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل ، فقال : يا عم انطلق معى فخذ لى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أن أصيب منها ، فإنهم إذا رأوك معى أعطونى . فخرج العم مع الفتى ليلا ؛ فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله . فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه ـ كأنه لا يدرى أين هو ـ فلم يجده ، فانطلق نحوه ، فإذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم وقال : قتلتم عمى فأدوا إلى ديته . فجعل يبكى ويحثو

التراب على رأسه ويندب : واعماه . فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية . فقالوا له : يارسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية ، فوالله إن ديته علينا لهينة ، ولكن نستحى أن نعير به . فذلك حين يقول تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ماكتتم تكتمون ﴾ فقال لهم موسى : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ قالوا نسألك عن القتيل وعمن قتله فتقول اذبحوا بقرة ! أتهزأ بنا ؟ . قال : ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ . قال ابن عباس : فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم . فقالوا : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾ . والفارض : الهرمة التى لا تلد ، والبكر : التى لم تلد إلا ولدا واحدا . والعوان : النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها ﴿ فافعلوا ماتؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها * قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ﴾ ، قال نقى لونها ﴿ تسر الناظرين ﴾ ، قال تعجب الناظرين . ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها ﴾ ، من بياض ولا سواد ولا حمرة ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ ، فطلبوها فلم يقدروا عليها . وكان رجل فى بنى إسرائيل من أبر الناس بأبيه ، وأن رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه ، وكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح ، فقال له الرجل : تشترى منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ؟ فقال له الفتى : كما أنت حتى يستيقظ أبى فآخذه منك بثمانين ألفا . قال الآخر : أيقظ أباك وهو لك بستين ألفا . فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفا ، وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف . فلما أكثر عليه قال : والله لا أشتريه منك بشىء أبدا . وأبى أن يوقظ أباه فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة ، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة ، وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة ، فأبى ، فأعطوه اثنتين ، فأبى ، فزادوه حتى بلغوا عشرا ، فقالوا : والله لا نتركك حتى نأخذها منك . وأخذ يزيد عليهم ، وأخيرا أعطوه ما طلب . ذلك لأنهم شددوا فشدد الله عليهم ، وهذا جزاء المتنطعين . فانظر إلى بركات بر الوالدين هذا الذى بلغ من شدة إحسانه لأبيه أنه أبى أن يوقظه من نومه مهما كان الثمن ، ذلك لأن رضا الوالدين من رضا الله وسخطه من سخطهما ، وكأن هذا الولد البر يقول لرب العزة :

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان .

﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين فعاش فسألوه من قتلك ؟ فقال لهم ابن أخى قال : أقتله فآخذ ماله وأنكح ابنته . فأخذوا الغلام فقتلوه .

قوله تعالى : ﴿ وما كادوا يفعلون ﴾ ، قال ابن عباس : كادوا ألا يفعلوا ، ولم يكن ذلك الذى أرادوا لأنهم أرادوا ألا يذبحوها ، يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد

الجهد ، وفى هذا ذم لهم ، وذلك أنهم لم يكن غرضهم إلا التعنت ، فلهذا ما كادوا يذبحونها .

قوله تعالى : ﴿ والله مخرج ماكنتم تكتمون ﴾ قال صدقة بن رستم سمعت المسيب بن رافع يقول : ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله . وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وتصديق ذلك فى كلام الله ﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ا هـ .

فسبحان من يعلم السر وأخفى ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾(١) . وسبحان من يعلم دبيب أرجل النملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾(٢) .

صدقت يارسول الله إذ قلت للأمين جبريل لما سألك عن الإحسان قلت له : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(٣) .

إن هؤلاء القوم الذين قتلوا ابتغاء مرضاة الدنيا والمال والميراث وحاولوا إخفاء الجريمة وخططوا لها وأرادوا أن يرموا غيرهم بها ، هؤلاء لم يستطيعوا أن يفلتوا من عقوبة الله . إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة . ماذا يريدون ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ﴾(٤) . قال تعالى : ﴿ ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ﴾(٥) . يقتلون وبينهم رسول ينزل عليه الوحى من لدن حكيم خبير ؟ لكن سحائب الغفلة حجبتهم عن نور الله ومعرفته .

إذا الإيمـان ضـاع فـلا أمـان ... ولا دنيـا لمن لم يحـى دينـا
ومن رضى الحيـاة بغـير ديـن ... فقـد جعل الفنـاء لهـا قـرينـا

قوله تعالى : ﴿ فقلنا اضربوه ببعضها ﴾ أى ببعض منها وأى جزء منها ، ولو كان فى تعيين البعض أى فائدة لعيّن ولكن الله وحده هو الذى سيحيى القتيل ، وما الضرب ببعضها إلا سبب ظاهرى وقدرة الله تعالى صالحة على الإيجاد والإعدام بدون أسباب . ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ۞ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ۞ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾(٦) . وإنما أمرهم الله بذبح بقرة ولم يأمرهم بذبح حيوان آخر ، لأنهم قبل ذلك عبدوا العجل فأراد ربك أن يذبحوا من جنس ما عبدوا حتى يكون فى ذلك دليل عملى على أن عبادة غير الله باطلة .

وتجلت عظمة القرآن الكريم فى ذكر القصة فى أن الله تعالى ذكر قصة البقرة أولاً فقال : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ ، ثم ذكر سبب إحيائها ثانيا ، فكأن القرآن قدم المسبب على

(١) سورة طه آية : ٧ .
(٢) سورة ابراهيم آية : ٣٨ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ١٣٨ ط الشعب .
(٤) سورة النساء آية : ١٠٨ .
(٥) سورة النساء آية : ١٠٨ .
(٦) سورة القصص الآيات : ٦٨ - ٧٠ .

السبب ليجعل منها موقفين لبنى إسرائيل ما كان ينبغى أن يقعوا فيهما : الموقف الأول قولهم لموسى أتتخذنا هزوا وجدالهم وتشديدهم وكثرة سؤالهم . كل هذا ما كان ينبغى أن يكون . والموقف الثانى قتلهم النفس التى حرم الله قتلها وتدافعهم واختلافهم الذى أدى إلى النزاع الشديد فى سبيل معرفة القاتل وبينهم نبىٌّ يوحى إليه ، ومن ثم تجلت عظمة القرآن وروعته حيث جاء أسلوبه الرفيع على هذا النحو ، قصة يليها سبب ، وكلاهما مأخوذ على بنى إسرائيل فى عنادهم وعقدة أنفهم التى لا تنفك . قال الله تعالى ﴿ **كذلك يحيى الله الموتى** ﴾ ، أى كما أحيا هذا القتيل فقام وأخبر عن قاتله بل وذكر الدافع الذى من أجله قتل ، ورأيتم ذلك رأى العين ، قال تعالى : ﴿ **ويريكم ءاياته لعلكم تعقلون** ﴾ . وهل بعد إحياء القتيل وإزهاق روحه آية أقوى عبرة وأجل موعظة ؟ لكن القوم كما قال فيهم مولانا جلّ جلاله :

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى توبيخا لبنى إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله ، وإحيائه الموتى ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ كله ، فهى كالحجارة التى لا تلين أبداً ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال : ﴿ ألم يأن للذين ءامنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾(١) . يقول ابن كثير عن ابن عباس : لما ضرب المقتول ببعض البقـرة جلس حيا ، فقيل له : من قتلك ؟ فقال : بنو أخى قتلونى ، ثم قبض ، فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه ، فكذبوا بالحق بعد أن رأوه(٢) ، فقال الله : ﴿ **ثم قست قلوبكم من بعد ذلك** ﴾ يعنى أبناء أخى الشيخ ، ﴿ **فهى كالحجارة أو أشد قسوة** ﴾ ، فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ، فهى فى قسوتها كالحجارة التى لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جارياً ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله . وفيه إدراك لذلك بحبه كما قال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمـده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً ﴾(٣) . وعن مجاهد أنه كان يقول : كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل ، لمن خشية الله ، نزل بذلك القرآن . وعن ابن عباس : ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهـر وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾ ، أى وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق .

(١) سورة الحديد آية : ١٦ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٦٢ ط الشعب .
(٣) سورة الإسراء آية : ٤٤ .

قال الإمام القرطبى وغيره من الأئمة : إن الله يخلق فيها هذه الصفة كما فى قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ﴾[١] . وقال : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴾[٢] . وقال : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾[٣] . ﴿ أو لم يروا إلى ما خلق الله من شىء يَتَفَيَّؤُ ظِلَـٰلُهُ ﴾[٤] ، ﴿ أْتِيَا طَوْعًا ﴾[٥] . ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ﴾[٦] . ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله ﴾[٧] . وفى الصحيح « هذا جبل يحبنا ونحبه »[٨] . وكحنين الجذع المتواتر خبره . وفى صحيح مسلم : « إنى لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علىّ قبل أن أبعث ، إنى لأعرفه الآن »[٩] . وفى صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة . أما فى قوله تعالى : ﴿ أو أشد قسوة ﴾ ، فقد قال بعض علماء اللغة : إنها بمعنى بل ، فتقديره : فهى كالحجارة بلْ أشد قسوة كقوله تعالى : ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾[١٠] . وكقوله تعالى : ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾[١١] ، وكقوله تعالى : ﴿ فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾[١٢] . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كل ما يبعث القسوة فى القلب ؛ قال الحافظ أبو بكر بن مردويه قال رسول الله ﷺ : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى) ورواه الترمذى فى كتاب الزهد[١٣] .

وقال ﷺ : (أربع من الشقاء : جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا)[١٤] . وقد نبه الله تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل . جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد .

وقد ذكر الله تعالى فى هذه السورة بما خلقه من إحياء الموتى فى خمسة مواضع أولها قوله تعالى : ﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾[١٥] . وثانيها ما جاء فى قصة البقرة من إحياء القتيل . وثالثها قصة الذين خرجوا من ديارهم ﴿ وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ﴾[١٦] . ورابعها قصة الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها ﴿ قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام ﴾[١٧] . وخامسها ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلىٰ ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءًا ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾[١٨] .

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٧٢ .
(٢) سورة الإسراء آية : ٤٤ .
(٣) سورة الرحمن آية : ٦ .
(٤) سورة النحل آية : ٤٨ .
(٥) سورة فصلت آية : ١١ .
(٦) سورة الحشر آية : ٢١ .
(٧) سورة فصلت آية : ٢١ .
(٨) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٤١ ط دار الفكر .
(٩) صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٢٤ ط دار الشعب .
(١٠) سورة النساء آية : ٧٧ .
(١١) سورة الصافات آية : ١٤٧ .
(١٢) سورة النجم آية : ٩ .
(١٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٦٤ ط الشعب .
(١٤) تفسير القرطبى جـ ١ ص ٣٦٣ ط الشعب .
(١٥) سورة البقرة آية : ٥٦ .
(١٦) سورة البقرة آية : ٢٤٣ .
(١٧) سورة البقرة آية : ٢٥٩ .
(١٨) سورة البقرة آية : ٢٦٠ .

كذلك نبه الله بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما كما قال . روى الإمام أحمد بسنده عن أبي رزين العتيل قال : قلت يارسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : (أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضراً . قلت بلىٰ . قال : كذلك النشور ، أو قال : كذلك يحيى الله الموتى)[1] . وشاهد ذلك قوله تعالى : ﴿ وءاية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون * ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون ﴾[2] .

وبعد فمازالت الآيات الكريمة تبين لنا مواقف القوم وما لهم من هنات ليست بهينات قال تعالى :

* أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

الطمع : تعلق النفس بإدراك ما تحب تعلقاً قوياً وهو أشد من الرجاء . أن يؤمنوا لكم : أى أن يؤمنوا لأجل دعوتكم إياهم ، والفريق : الجماعة . لا واحد له من لفظه . من بعد ما عقلوه : أى ضبطوه وفهموه ولم تشتبه عليهم صحته ، وفى ذلك إيماء إلى تعمدهم وسوء قصدهم وإبطال لما عساه أن يعتذر لهم به من سوء الفهم . وهم يعلمون : أى وكانوا فى حال العلم بالصواب لا ناسين ولا ذاهلين ، وفى هذين الوصفين نعى عليهم وتسجيل لتعمق الفسوق والعصيان فيهم .

كما يبين الله تعالى قسوة قلوب اليهود ، وأنها كالحجارة أو أشد قسوة ، وعدّد مالهم من مواقف سيئة وشنيعة من نبيهم موسى ، وكيف قالوا له مرة ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ ، وقالوا له مرة أخرى : ﴿ اجعل لنا إلـٰها كما لهم ءالهة ﴾[3] وقالوا ، له مرة ثالثة ورابعة وخامسة من الأشياء ما تنبو عنه الأذواق السليمة مما يطول شرحه ، فقد اتخذوا العجل إلها ، وقالوا له لن نصبر على طعام واحد ، ونقضوا العهود والمواثيق ؛ لما كان شأنهم كذلك قال الله تعالى للرسول وأصحابه : أبعد هذا كله تطمعون فى إيمانهم وهم الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله فى كتابه التوراة المنزل على رسوله موسى ، على نبينا وعليه الصلاة

(١) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ٣٩٤ ط الشعب .
(٢) سورة يس الآيتان : ٣٢ ، ٣٣ .
(٣) سورة الاعراف آية : ١٣٨ .

والسلام ، وذلك كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ﴾(١) . فسماع كلام الله لا يشترط أن يكون من الله مباشرة إنما يكون عن طريق كتبه المنزلة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىٌّ حكيمٌ ۞ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتٰب ولا الإيمان ﴾(٢) . ثم ماذا بعد سماعهم لكلام الله فى التوراة ؟ حرفوه وغيروه وبدلوه بعد ما عقلوه وفهموه وأدركوه ، مصداقاً لما حكاه الله عنهم فى قوله : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾(٣) . وفى قوله جلَّ ذكره : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا ءامنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾(٤) . هؤلاء هم أحبارهم وعلماؤهم ، سمعوا كلام الله فى كتابه التوراة وعقلوا ما فيه ودرسوه كما قال جلَّ شأنه : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه ﴾(٥) . فإذا كان هذا شأن علمائهم ، وهو الذى عبر عنه القرآن الكريم بقوله : ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ ، أى يعلمون ما فيه من الحق الذى غيروه ، فقد جمعوا بين جناية التحريف وجناية العلم ، وما أشدها من مصيبة أن يخالف الإنسان فيعمل بغير ما يعلم ، وهذا موقف آخر جمعوا فيه بين النفاق واليهودية : ﴿ **وإذا لقوا الذين ءامنوا قالوا ءامنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون** ﴾ .

إن شر الناس منزلةً عند الله يوم القيامة ذو الوجهين ، يأتى هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ﴿ **وإذا لقوا الذين امنوا قالوا امنا** ﴾ أى بصاحبكم رسول الله ﷺ ، ولكنه إليكم خاصة ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا** ﴾ لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم .

وقال السدى : هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا . وقال الحسن البصرى : هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما فى كتابكم فيحاجوكم به عند ربكم ، فيخصموكم(٦) .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ﴾ أى بما حكم الله عليكم فى كتابكم ببعثته ، وأنه نبى آخر الزمان ، وأنه كثير المحامد . لقد حرفوا التوراة وبدلوا فيها . ولما كان هذا حديثهم فى خلواتهم ، قال الله تعالى ردًّا عليهم : ﴿ **أو لايعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أى ألا يعلم هؤلاء وهم

(١) سورة التوبة آية : ٦ .
(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .
(٣) سورة المائدة آية : ١٢ .
(٤) سورة المائدة آية : ٤١ .
(٥) سورة الاعراف آية : ١٦٩ .
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ط الشعب .

ينصح بعضهم بعضا ألا يخبروا أصحاب محمد بما ورد عن ذكره فى التوراة وأنه نبى آخر الزمان ، أو لا يعلمون أنهم فى خلواتهم أن رسلنا لديهم يكتبون ؟ ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾(١) ، ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(٢) . إنه يعلم ما يسرون فى خلواتهم وما يعلنون عندما يرون المؤمنين فيقولون بأفواههم آمنا . كان هذا شأن علمائهم ، أما الأميون منهم الذين لا يحسنون الكتابة وليسوا على دراية بالكتب المنزلة ، فإن كل ما يعلمونه من التوراة التى حرّفها الأحبار إنما هى الأمانى ، أى الأكاذيب التى تمنوها واتباع الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً ؛ ومن هذه الأمانى ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى تلك أمانيّهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(٣) . قال تعالى : ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا ﴾(٤) .

أمانيك الأحلام زخرفها الكرى وقلّ على الأيام أن يصدق الحلم
سمعنا كلاماً لذ فى السمع وقعه ورب لذيذ شاب لذته السم

وقد أخبر الله عن الأميين منهم فقال : ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ﴾ والأمور لا تبنى على الظن والتخمين ، خاصة العقائد الإلهية ، قال تعالى : ﴿ قتل الخرّاصون * الذين هم فى غمرةٍ ساهون * يسئلون أيان يوم الدين ﴾(٥) .

والخرص : معناه الظن والتخمين . ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك موقفاً لفريق من اليهود كتبوا التوراة بأيديهم ليزوّروا ما فيها من أحكام ؛ فجعلوا الحلال حراماً والحرام حلالاً ، وأفتوا الناس بما يعلمون أنه الباطل مقابل عرض من الدنيا ، وقبلوا الرشى ، وقد لعن الله الراشى والمرتشى والرائش . ومن هنا جاء الوعيد شديداً تنخلع لهوله القلوب ، قال عز وجلّ : ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾ . والويل هو الهلاك الشديد ، وقيل هو واد فى جهنم . وليس بعد الهلاك كلام يقال ، وإنما جاز الابتداء به مع أنه نكرة ، لأن تنكيره فيه تفخيم وتهويل ، فصار المعنى فويل شديد لهؤلاء القوم الذين كتبوا التوراة من عند أنفسهم بأيديهم حتى جعلوا الحق باطلا والباطل حقاً ، والحلال حراماً والحرام حلالاً ، وغيروا وبدلوا وأنكروا صفة الرسول الكريم فى التوراة مقابل عرض زائل وعارية مسترجعة هى الدنيا وزخارفها ومناصبها وأموالها . هؤلاء لهم الويل بسبب ما كتبت أيديهم من الباطل . وقد أمرهم الله أن يحفظوا التوراة من التبديل ، قال تعالى : ﴿ إنا

(١) سورة المجادلة آية : ٧ .
(٢) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ .
(٣) سورة البقرة آية : ١١١ .
(٤) سورة النساء الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٥) سورة الذاريات الآيات : ١٠ - ١٢ .

أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾(١) . فأنت ترى هنا أن الله قد طلب منهم أن يحفظوا التوراة من التبديل والتغيير ، ونهاهم أن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً هو الدنيا فغيروا وخالفوا واشتروا بآيات الله دنيا فانية زائلة فاستحقوا الويل بسبب ما كتبوا وبسبب ما كسبوا .

لقد كانت الجن أعقل من هؤلاء عندما وصفهم الله تعالى فى هذا المشهد بما يليق بالمؤمنين الصادقين . قال جلَّ شأنه : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرءان فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يـٰقومنا إن سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يـٰقومنا أجيبوا داعى الله وءامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾(٢) .

وينتقل بنا النظم الكريم من تلك المساوىء إلى جنايات أخر . قال تعالى :

وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾

وتلك بعض المزاعم التى قالها القوم : ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ . وهذا تحريف فى العقيدة بعد تحريفهم الكلم عن مواضعه كما سبق فى قوله جلَّ شأنه ﴿ وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ . قال العلامة أبو السعود : روى أن أحبار اليهود خافوا زوال رياستهم فعمدوا إلى صفة النبى ﷺ فى التوراة وكانت هى فيها « حسن الوجه ، حسن الشعر ، أكحل العينين ، أبيض ، ربعة » فغيروها وكتبوا مكانها « طوال ، أزرق ، سبط الشعر » ، فإذا سألهم العامة عن ذلك قرءوا ما كتبوا فيجدونه مخالفا لما فى التوراة فيكذبونه .

قولهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ المراد بالمس هنا اللمس ، والمقصود بالنار نار الآخرة ، وما نار الدنيا بالنسبة إليها إلا كنسبة ١ : ٧٠ . وقد جاء فى صفتها ما تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان . قال الله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بـٔايٰتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾(٣) . وقال جلَّ شأنه : ﴿ إنا أعتدنا للظـٰلمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾(٤) .

(١) سورة المائدة آية : ٤٤ .
(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ - ٣١ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .
(٤) سورة الكهف آية : ٢٩ .

وقال جلَّ شأنه . ﴿ إن جهنم كانت مرصادا * للطغين مـَابا * لـبثين فيها أحقابا * لايذوقون فيها بردا ولا شرابا * إلا حميماً وغساقاً * جزاءً وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حسابا * وكذبوا بـَايـٰتنا كذابا * وكل شيء أحصينـٰه كتـٰبا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[١] .

وهذه الآية الأخيرة أشد آية على الكافرين ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم مـٰكثون ﴾[٢] بعد قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لايُفتَّر عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمنـٰهم ولـٰكن كانوا هم الظالمين ﴾[٣] . قال ﷺ فى صفة النار : عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ناركم هذه ما يوقد بنو آدم جزء واحد من سبعين جزءا من نار جهنم ، قالوا والله إن كانت لكافية قال : إنها فُضلت عليها بتسعة وستين جزءا كُلُّهن مثل حرها ﴾[٤] .

وعنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لو كان فى هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون وفيهم رجل من أهل النار فتنفس فأصابهم نفسه لاحترق المسجد ومن فيه)[٥] .

وعنه رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها . قال : فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها . قال فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بها فحفت بالمكاره . فقال ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فرجع إليها ، فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت أن يدخلها أحد ، وقال: اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها ، قال : فنظر إليها فإذا هى يركب بعضها بعضا . فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت ألاَّ ينجو منها أحد إلا دخلها)[٦] .

وعنه أيضاً رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء كالليل المظلم)[٧] .

وكان اليهود يقصدون بالأيام المعدودة الأيام التى عبدوا العجل فيها ، عندما كان نبيهم موسى يتلقى التوراة ، وكانت أربعين يوماً . قال الله تبارك اسمه : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾[٨] . وهنا وجه الله تعالى إليهم سؤالا قال فيه : ﴿ قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ ، أى إن كان لكم عند الله وعد بذلك فإن الله لا يخلف الميعاد ، لكن الحقيقة أنكم ليس بينكم وبين الله وعـد ، فلم يبق إلا الشق الثانى ، وهـو أنكم تقولـون على الله

(١) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠ .
(٢) سورة الزخرف آية : ٧٧ .
(٣) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٧٦ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٨٨ ط وزارة الأوقاف .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٨٩ ط وزارة الأوقاف .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٠ ط وزارة الأوقاف .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٠ ط وزارة الأوقاف .
(٨) سورة البقرة آية : ٥١ .

ما لا تعلمون . والقول على الله بغير علم سفه فى العقول وخفة فى الأحلام وجهل وتضليل وسفسطة . ثم عقب الله تعالى على قولهم بقوله : ﴿ بلىٰ من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . وبلى حرف جواب أريد به هنا إبطال ما زعموه من قبل ، أى أن ما قلتموه باطل لا أساس له من الصحة ، إذ ليس بينكم وبين الله وعد بذلك ، فلم يبق إلا أنكم تهرفون بما لا تعرفون ، وتلك فرية ما فيها مرية . فاستمعوا إلى حقيقة الأمر لتعلموا أن الجزاء مبنى على عدالة مطلقة ، وأن الثواب والعقاب لا مساومة فيهما ولا مجاملة على حساب الحق: ﴿ والـوزن يومئـذ الحق فمن ثقلت موازينـه فأولئـك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[١] . ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيـامة فـلا تظلم نفس شيئـا وإن كان مثقـال حبة من خـردل أتينا بهـا وكفى بنا حاسبين ﴾[٢] . ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٣] .

والمراد بالسيئة فى هذه الآية ﴿ من كسب سيئة ﴾ الشرك ، لأنه الذنب الذى لا يغفر ويخلد صاحبه فى النار ويغلق عليه منافذ الرحمة . قال جل شأنه : ﴿ وأحاطت به خطيئته ﴾ . وقد قال سبحانه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضـلَّ ضلالا بعيـدا ﴾[٤] ، وقال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[٥] . أما غير الشرك من الذنوب فيلزمه التوبة . والذنوب كالأمراض والتوبة كالدواء ولكل داءٍ دواء يستطب به . فالتوبة مثلا من الربا قال فيها مولانا : ﴿ وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون ﴾[٦] . ومن شروط التوبة رد الحقوق إلى أصحابها وطلب السماح من كل من أسيء إليه ، وأداء الفرائض التى وقع التقصير فيها ، والاستغفار وعدم الإصرار ، فإنه لا صغيرة مع الإصـرار ولا كبيرة مع الاستغفار .

روى الترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكتت[٧] فى قلبه نكتة سوداء ، فإن هو نزع واستغفر صُقلت[٨] ، وإن عاد زيد منها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿ كلاَّ بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون ﴾)[٩] .

كما روى : أن النبى ﷺ قال لسفيان بن عبد الله الثقفى ، وقد قال له : يارسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : (قل آمنت بالله ثم استقم)[١٠] رواه مسلم .

ومن لطف الله تعالى بعباده أن وجههم إلى التوبة ودعاهم إليها وأعلمهم أنّه غفَّار الذنـوب ؛ قال

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .
(٣) سورة النور الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(٤) سورة النساء آية : ١١٦ .
(٥) سورة النساء الآيتان : ١٦٨/١٦٩ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢٧٩ .
(٧) نكتت : النكتة الأثر . والمراد أثر الذنوب .
(٨) صقلت : أزيلت .
(٩) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٣٣٣ ط وزارة الأوقاف .
(١٠) رياض الصالحين للنووى ص ٤٤ ط دار التراث .

تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾[١] . وحذّر سبحانه وتعالى من الندم على ما فات بعد فوات الأوان فقال سبحانه : ﴿ أن تقول نفس يَـٰحَسْرَتَىٰ على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن ٱلسَّـٰخِرِينَ * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلىٰ قد جاءتك آياتى فكذّبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾[٢] .

لقد اعتاد اليهود أن يقولوا على الله ما لا يعلمون فكذبوا حين قالـوا : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾ .

ويقرن القرآن بين الوعيد والوعد ، وبين نيران الوعيـد ونور الـوعد بحيث يكـون حال العبد بين الخـوف والرجاء . وبعد ذكر النار يأتى ذكر الجنة وما فيها من نعيم مقيم وخلود فى مستقر رحمة الله ، فيقول سبحانه : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصّٰلحٰت أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ . هكذا يأتى الإيمان مقترنا بالعمل الصالح . قال سبحانه فى آيات عديدة : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصّٰلحٰت سيجعل لهم الرحمٰن ودًّا ﴾[٣] ، وقال فى آية أخرى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصّٰلحٰت يهديهم ربهم بإيمٰنهم تجرى من تحتهم الأنهٰر فى جنات النعيم ﴾[٤] ، وقال جل ذكره : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصّٰلحٰت كـانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴾[٥] ، وقال جل جلاله فى سورة العصر : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصّٰلحٰت وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[٦] . وهل كمال الإيمان إلا تصديق بالجنان ونطق باللسان وعمل بالأركان ؟ .

يـا مسلما تدعى الإسـلام مجانـا هـلا أقمت على دعـواك برهـانا

ما أكرمك يا ربنا . العمل الصالح أنت الذى وفقت إليه ، والجنة أنت الذى تفضلت بها ؛ ومع ذلك تجعلنا أصحابها وورثتها فتقول ﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيًّا ﴾[٧] . وتقول : ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[٨] . ما أكرمك . قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريًّا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليًّا . شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا . أنت الذى تهب كثيراً ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضى له الحاجات ؟ . ما أجمل الجنة وما أجمل الخلود فيها ، وأجمل من هذا وذاك رضوان الله .

رضـاك خير من الـدنيا ومـا فيها يا مالـك النفس قاصيهـا ودانيها

(١) سورة الزمر الآيات : ٥٢ - ٥٥ .
(٢) سورة الزمر الآيات : ٥٦ - ٥٩ .
(٣) سورة مريم آية : ٩٦ .
(٤) سورة يونس آية : ٩ .
(٥) سورة الكهف آية : ١٠٧ .
(٦) سورة العصر آية : ٣ .
(٧) سورة مريم آية : ٦٣ .
(٨) سورة المؤمنون الآيتان : ١٠ ، ١١ .

فـليس للنـفس آمـال تحققـهـا سوى رضاك فذا أقصى أمانيهـا
فنـظرة منك يـاسؤلى ويـا أمـلى خـير إلىّ من الـدنيـا ومـا فيهـا

إن النفس لتشتاق إلى ذكر شىء من صفة الجنة حتى تنشق نسيم الرضوان ، وتعيش فى كرم الرحمن .

ومما قاله الرسول ﷺ يشوقنا إلى جنة الرحمن : روى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر إلى جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة ، وأكرمهم على الله من ينظر إلى وجهه غدوة وعشيا) . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة ۞ إلى ربها ناظرة ﴾[(١)] . وروى ابن أبى الدنيا عن الأعمش عن ثوير قال : أراه عن ابن عمر قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة لرجل له ألف قصر بين كل قصرين مسيرة سنة يرى أقصاها كما يرى أدناها ، فى كل قصر من الحور العين والرياحين والولدان ما يدعو بشىء إلا أتى به[(٢)] .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

وهـذا ميثاق عـظيم وعهد مؤكـد ، أخذه الله عـلى بنى إسرائيـل ، واشتمل عـلى بنود ، أولهـا : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ وثانيها : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ وثالثها : ﴿ وذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ ورابعها : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ وخامسها : ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ وسادسها : ﴿ وآتوا الزكاة ﴾ .

وقد اشتمل هذا العهد على ثلاثة جوانب : جانب العقيدة ، وجانب السلوك ، وجانب العبادة . أما جانب العقيدة فنراه جليًا فى قوله جلّ شأنه : ﴿ لا تعبدون إلا الله ﴾ ، وهذه العبارة فى حقيقتها نهى عن الشرك ، وجاءت فى صورة النفى لوجه من وجوه البلاغة ، كأن من وُجِّه إليهم النهى قد امتثلوه ونفذوه ، فنفى عنهم ما كان قد نهوا عنه ، كأنه قيل لهم : لا تشركوا ، فامتثلوا ؛ فقيل عنهم : إنهم لا يشركون . وهذا أبلغ من أن يأتى التصوير بأسلوب النهى .

والتوحيد هو الركن الركين والحصن المكين والأساس الأول فى رسالات الأنبياء . فجميع الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال الله جل شأنه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[(٣)] ، وقال : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[(٤)] . حتى لما جمع الله تعالى الأنبياء والمرسلين فى المسجد

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٢٢ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٢٣ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .
(٤) سورة النحل آية : ٣٦ .

الأقصى ليلة الإسراء ، قال لرسوله : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[١] . ولقد رفع النبى هذا اللواء عاليا خفاقا عندما قال : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى « لا إله إلا الله »)[٢] .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد
مافى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ولا مولى هناك فيقصد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل الوجود له يقر ويشهد

وقرن الله بين إفراده بالعبادة وتوحيده وبين الإحسان إلى الوالدين فقال : ﴿ وبالوٰلدين إحسٰنا ﴾ . ذلك لأنه جلّ شأنه الخالق الحقيقى للإنسان ، والوالدان هما السبب المباشر ، حتى جمع الله الشكر له وللوالدين فى آية واحدة فقال : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ﴾ . عن ابن مسعود قلت : يارسول الله أى العمل أفضل ؟ قال : (الصلاة على وقتها) . قلت : ثم أى ؟ قال : (بر الوالدين) . قلت : ثم أى ؟ قال : (الجهاد فى سبيل الله)[٣] . ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا قال يارسول الله من أبر ؟ قال : (أمك) قال : ثم من ؟ قال : (أمك) قال : ثم من ؟ قال : (أباك ، ثم أدناك ثم أدناك)[٤] .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى نبىِّ الله ﷺ فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : (أحىٌّ والداك ؟ قال : نعم . قال : فيهما فجاهد)[٥] . وعنه رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوىّ يبكيان ؟ فقال : (ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما)[٦] . وعن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : (هل بقى من والديك أحد ؟ قال : أمى ، قال : قابل الله فى برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد)[٧] . وعن أبى أمامة رضى الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال : (هما جنتك ونارك)[٨] .

وكثيرا ما قرن الله تعالى الأمر بتوحيده بالإحسان إلى الوالدين . قال تعالى فى سورة النساء : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوٰلدين إحسٰنا ﴾[٩] ، وقال فى سورة الإسراء : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إيَّاه وبالوٰلدين إحسٰنا ﴾[١٠] . ثم بين حقوقهما على الأولاد خاصة حال الكبر فقال : ﴿ إما يبلغن

---

(١) سورة الزخرف آية : ٤٥ .
(٢) كشف الخفا ومزيل الالباس عما اشتهر من الأحاديث بين الناس للعجلونى جـ ١ ص ١٧٣ ط الفنون . حلب سوريا .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .
(٤) الفتح الربانى لترتيب مسند الامام أحمد بن حنبل الشيبانى جـ ١٩ ص ٣٨ ط الأولى ١٩٣٥ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٨ ط وزارة الأوقاف .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف .
(٨) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٢٤٩ ط وزارة الأوقاف .
(٩) سورة النساء آية : ٣٦ .
(١٠) سورة الاسراء آية : ٢٣ .

عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أُفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[١] . وتأمل معنى قوله تعالى : ﴿ عندك ﴾ ولم يقل إما يبلغن الكبر ، لأن العندية هنا تشير إلى معنى إنسانى كبير ، هو أن الوالدين حال الكبر كالضيف الموجود عندك ، مايلبث أن يرتحل ، فعليك بإكرامه . كذلك الوالدان قد قرب ارتحالهما من هذه الدار إلى الدار الباقية ، وقد قال الصادق المعصوم ﷺ : (رغم أنفه ثم رغم أنفه ثم رغم أنفه) . قيل من يا رسول الله ؟ قال : (من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة)[٢] .

ثم بعد ذلك أمرنا بالإحسان إلى ذوى القربى . وقد عبر القرآن عنهم بـالأرحام ، وأمـر الله تعالى بصلتهم سـواء أكانت القـرابة من جـانب الأب أو الأم ، فقـال : ﴿ واتقـوا الله الـذى تسـاءلـون بـه والأرحام ﴾[٣] ، أى اتقوا الله فلا تعصوه ، واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ؛

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من سره أن يُمد له فى عمره ويزاد فى رزقه فليبر والديه وليصل رحمه)[٤] . وعن سلمان رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر)[٥] .

وروى جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن مجتمعون ، فقال : (يا معشر المسلمين اتقوا الله وصلوا أرحامكم ، فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام . والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جارٌّ إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين . والكذب كله إثم إلا ما نفعت به مؤمنا ودفعت به عن دين ، وإن فى الجنة لسوقا ما يباع فيها ولا يشترى ، ليس فيها إلا الصور[٦] . فمن أحب صورة من رجل أو امرأة ظل فيها)[٧] .

كذلك أوصى الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى ، واليتيم هو الصغير الذى مات أبوه . وقد جاء بيان حقوقه فى سورة كاملة هى سورة النساء . وقد بين الله درجة كافل اليتيم فى الآخرة ، حيث أشار نبيه ﷺ بإصبعيه قائلا : (أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا)[٨] . وقال ﷺ : (إن أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم)[٩] .

ومن السلوك القويم الإحسان إلى المساكين . والمسكين هو الذى لا يقوى على العمل لعجزه بحيث أسكنته الحاجة . وقد أوصى الله تعالى رسوله بهما خيرا فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشىّ يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾[١٠] .

---

(١) سورة الاسراء آية : ٢٣ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٥٢ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة النساء آية : ١ .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٥٢ ط وزارة الأوقاف .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٥١ ط وزارة الأوقاف .
(٦) الصور : الشبه والهيئة .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٦٠ ط وزارة الأوقاف .
(٨) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٧٢ ط وزارة الأوقاف .
(٩) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٧٤ ط وزارة الأوقاف .
(١٠) سورة الكهف آية : ٢٨ .

كذلك أوصانا الله تبارك وتعالى أن نقول للناس قولا حسنا . فالكلمة الطيبة صدقة ، وتبسمك فى وجه أخيك صدقة . وهكذا جمعت الآية بين الإحسان العملى والإحسان القولى . كذلك أمر الله تعالى بتطهير القلوب بإقامة الصلاة ، وتطهير الأموال بإيتاء الزكاة . وهكذا أمروا بفضائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، ولكنهم تولوا عن تنفيذ ما أمروا به إلا القليل منهم . والقلة لا تكفى فى وجود الكثرة الفاسدة . فقد أمر الله تعالى جبريل ذات يوم أن يخسف الأرض بقرية . فقال جبريل : يارب إن فيها فلانا الصالح ؟ فقال الله له : به فابدأ ، فإنه رأى المنكر فلم يتغير وجهه من أجلى . ثم قال الله تعالى : ﴿ وأنتم معرضون ﴾ إمعانا فى توليهم عن الحق وانصرافهم عن تنفيذه . فإن من تولى قد يعود . أما من تولى وأعرض فأنىّ يعود ؟

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

المفردات : السفك : الصب والإراقة . التظاهر : هو التعاون . الإثم : هو الفعل الذى يستحق فاعله الذم واللوم . العدوان : تجاوز الحد فى الظلم .

وهذا ميثاق آخر أخذه الله على القوم بعدما أخذ عليهم ميثاقاً فى الآية السابقة ، أمرهم فيه أن يوحدوه ، وأن يحسنوا إلى الوالدين واليتامى والمساكين وذوى القربى ، وأمرهم فيه أن يقولوا للناس حسنا ، وأن يقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وكانت النتيجة كعهدنا بهم نكثاً للعهد ونقضاً للميثاق وقطعاً لما أمر الله به أن يوصل . قال تعالى تعقيباً على الميثاق السابق : ﴿ ثم توليتم وأنتم معرضون ﴾ ، ولم يقل ثم توليتم وأعرضتم ، إنما جاء التعبير بالجملة الإسمية وأنتم معرضون ، لأنها تفيد الثبات والدوام كأن الإعراض تغلغل فى خلاياهم وتمكن من أنسجتهم وأعضائهم وأجهزتهم ، فأصبح سداهم الإعراض ولحمتهم نقض المواثيق . وجاء فى الميثاق الذى بين أيدينا ، وهو موجه إلى اليهود المعاصرين للعصر المحمدى : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من ديركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ . ولهذه الآية

قصة . ففى هذا الميثاق نهاهم الله عن أمرين : الأول : سفك الدماء . الثانى : الإخراج من الديار ؛ وأقروا بهذا. والاقرار سيد الأدلة ، إذ هو حجة مقصورة على المقر وشهدوا على ما أقروا ، والإشهاد حجة من أقوى الحجج . فهل صانوا هذا الميثاق وحفظوه من الخيانة ؟ كلا . اسمع معى إلى كلام العليم الخبير : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴾ . فكيف كان ذلك كذلك ؟ كان بالمدينة ثلاث قبائل من اليهود : بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ، كما كان فيها قبيلتان من العرب كافرتان هما : الخزرج والأوس ؛ فكان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء للخزرج ، وكان بنو قريظة حلفاء للأوس ، وكانت الحرب بين الأوس والخزرج دائرة على قدم وساق لاتكاد تضع أوزارها . وبحكم ما بين اليهود وبين القبيلتين من تحالف ، كان بعض اليهود يقتل البعض الآخر وفق انتمائه لإحدى القبيلتين ويخرجونهم من ديارهم ويتعاونون عليهم بالإثم والعدوان ، فبذلك كانوا يقتلون أنفسهم ، لأن أبناء الملة الواحدة كالنفس الواحدة . جاء فى الحديث الشريف عن الصادق المعصوم : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)(١) .

وإنما تظاهر بعضهم على بعض استنصاراً للقبيلة التى تحالف معها . لكن يأخذك العجب ، وتستولى عليك الدهشة ، أن بعض اليهود إذا وقع أسيراً ، كان البعض الآخر يأخذ ديته ويطلق سراحه ، ولو كان يحارب مع قبيلة معادية . وهكذا وقعوا فى التناقض كعهدنا بهم . قال جلَّ شأنه : ﴿ وان يأتوكم أسارى تفادوهم ﴾ . كيف كان ذلك ؟ ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾ ؟ والمقصود بالكتاب هنا هو التوراة ، فقد نهاهم الميثاق عن سفك الدماء والإخراج من الديار ، فكفروا بهذا وخالفوه ، فسفكوا وأخرجوا . وأمرهم الميثاق فى التوراة أن يفدوا أسراهم ، فآمنوا بذلك ، فسفكوا من جهة ودفعوا فدية الأسرى من جهة أخرى ، فألقى الله تعالى عليهم اللائمة ، ونعى عليهم أفعالهم المحيرة . قال : ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتب وتكفرون ببعض ﴾ . إن الإيمان لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، فهو متماسك الأركان وطيد البنيان ، إذا اضطرب أحد أركانه اضطرب كيانه كله ، وهذا قول حق ؛ ثم حكم الله تعالى عليهم بالجزاء العادل ، قال : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم ﴾ أى الإيمان ببعض الكتاب والكفر بالبعض ، وهذا خلل فى الإيمان كما تنحرف الإبرة المغناطيسية عندما يحال بينها وبين الاتجاه المرسوم لها ، ما جزاء هؤلاء إلاَّ خزى فى الدنيا وعار وشقاء ، وهذا شأن أصحاب المبادىء المنكوسة والقيم المعكوسة والمفاهيم المنحوسة . هذا فى الدنيا ، ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ، أما فى الآخرة فإنهم سيردون إلى أشد العذاب ، وما أدراك ما أشده . اسمع معى إلى قوله جلَّ شأنه : ﴿ إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذُق إنك أنت العزيز الكريم ﴾(٢) . فاعلموا يا هؤلاء أن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

الله يـدرى كـل مـا تـضمـر يـعلم مـا تخفى ومـا تـظهـر

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٣٢ ط دار الفكر . (٢) سورة الدخان الآيات : ٤٣ - ٤٩ .

وإن خدعت الناس لم تستطع خـداع من يطوى ومن ينشـر

وفى أشد العذاب كلمة نحب أن نسجلها عن فم رسول الله ﷺ . عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لو أن مقمعًا من حديد جهنم وضع فى الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض)(١) . وفى رواية لأحمد قال : قال رسول الله ﷺ : (لو ضرب الجبل بمقمع من حديد جهنم لتفتت ثم عاد)(٢) .

عن عبد الله بن الحارث بن جزير الزبيدى قال : قال رسول الله ﷺ : (إن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً . وإن فى النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها أربعين سنة)(٣) .

وحكم الله عليهم حكماً آخر جزاء ما قدموا فقال : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ﴾ . وما أعظم الفرق وما أبعد البون بين حياة فانية وحياة باقية . هؤلاء باعوا الباقية واشتروا الفانية ، فلا يخفف عنهم العذاب . وهذا شديد الوقع على النفس أن يظل العذاب شديداً لا هوادة فيه ولا تخفيف . قال تعالى : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين * ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بـالحق ولكن أكثركم للحق كارهون * أم أبرموا أمراً فإنـا مبرمـون * أم يحسبون أنـا لا نسمع سـرهم ونجواهم بـلى ورسلنا لـديهم يكتبون ﴾(٤) . فهؤلاء لا يخفف عنهم العذاب فى الآخرة ولا يجدون من ينصرهم من دون الله حتى ولو اجتمع أهل السموات والأرض . قال تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾(٥) ، وقال : ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ﴾(٦) ، وقال جلّ شأنه : ﴿ مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تذكرون ﴾(٧) .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

المفردات : قفاه به : إذا أتبعه إياه ، ﴿ عيسى ﴾ بالسريانية : يسوع ، ومعناه السيد أو المبارك . ﴿ مريم ﴾ بالعبرية : الخادم لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس . ﴿ البينات ﴾ : الحجج الواضحة التى أوتيها عليه السلام من المعجزات . ﴿ أيدناه ﴾ : أى قويناه . روح القدس : أى الروح المقدس المطهر ،

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٧ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٧ ط وزارة الأوقاف .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٢٩٩ ط وزارة الأوقاف .
(٤) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٨٠ .
(٥) سورة الحج آية : ١٨ .
(٦) سورة الكهف آية : ١٧ .
(٧) سورة السجدة آية : ٤ .

وهو جبريل عليه السلام ، الذى ينزل على الأنبياء ويقدس نفوسهم ويزكيها ، ويطلق عليه الروح الأمين كما قال : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عـربى مبين ﴾(١) . والغلف : واحدها أغلف وهو الذى لا يفقه ما يقال له .

اقتضت سنة الله تعالى أن يرسل إلى عباده رسلاً مبشرين ومنذرين ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(٢) . ولما كان بنو إسرائيل قوماً غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع قساة القلوب ، كثرت الرسل إليهم ، وذلك لفساد أحوالهم . فما الرسل إلا دعاة إلى الله ، يهدون بالحق وبه يعدلون . ولقد أقام الله فى تلك الآية الحجة على بنى إسرائيل لتنقطع معاذيرهم ، فقال : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل** ﴾ فكيف تضلون وفيكم كتاب الله وقد اشتمل على الأحكام التى تخرج الناس من الظلمات إلى النور ؟ وما أعقل مؤمنى الجن عندما استمعوا إلى القرآن من سيد المرسلين محمد ﷺ ، فلما حضروه قالوا : أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾(٣) . لقد كان هذا النفر من الجن ذا فقه ومعرفة ، إذ قالوا كتاباً أنزل من بعد موسى ولم يقولوا من بعد عيسى ، وهم يعلمون أن الرسالة المحمدية جاءت بعد عيسى ، وإنما قالوا من بعد موسى ، لأن التوراة كتاب أحكام ، كما أن القرآن كذلك ، أما الإنجيل فقد جاء بعد التوراة بالوصايا الروحية التى تذيب جليد المادة المتراكمة فوق القلوب ، ولذا كان المسيح يقول : (يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله) . فكيف يضل قوم بينهم رسـول ومعه كتـاب ولم تنقطع الرسالات بعد موسى إليهم ، بل ظلت متتابعة كما قال تعالى : ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترى﴾(٤) ، وكما قال جل شأنه هنا : ﴿ **وقفّينا من بعده بالرسل** ﴾ أى وأتبعنا إرسال الرسل إليهم ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، أى المعجزات الواضحات ، كإحياء الموتى بإذن الله ، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله . والأكمه هو الذى ولد فاقد البصر ، والبرص مرض جلدى خطير . وأيدنا عيسى بروح القدس ، أى جبريل ، والقدس هو الطهر ، أى بالروح الطاهرة . قال ﷺ : (إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها ، فـاتقوا الله وأجملوا فى الـطلب)(٥) . قال تعـالى : ﴿ إذ قال الله يـا عيسى ابن مريم اذكـر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا ﴾(٦) . وجاء عيسى ببعض التخفيف عن بنى إسرائيل فقال لهم : ﴿ ومصدقاً لما بين يدىّ من التوراة ولأحلّ لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾(٧) . ثم ألقى الله تعالى عـلى القوم بـاللائمـة لمواقفهم المشينـة من الرسل ، وكان الأجدر بهم أن يصدقوهم ويـطيعوهم وينصـروهم ، لكن كان الـواقع يـدعو إلى الـرثاء والأسى . صارت وقائع الأشياء حسب الهوى ، والهوى هو منازع النفس إلى مسالك الشر ، ومن عرف

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ ــ ١٩٥ .
(٢) سورة النساء آية : ١٦٥ .
(٣) سورة الأحقاف آية : ٣٠ .
(٤) سورة المؤمنون آية : ٤٤ .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٤٧ ط دار الفكر .
(٦) سورة المائدة آية : ١١٠ .
(٧) سورة آل عمران آية : ٥٠ .

الهوى فقد هوى . وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوى ، فسارت الأمور على حسب ما قال الله فى شأنهم : ﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ . كذبوا موسى وعيسى ومحمداً ، وقتلوا زكريا ويحيى ، وإنما قال تقتلون هكذا بصيغة المضارع ، لأن القتل ظل عادة فيهم ، فهم قوم متعطشون إلى الدماء كالذئاب تنعشهم رؤية الدم .

ثم اسمع ماذا قالوا استكباراً وعناداً :

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ غلف ﴾ ، أى مغلفة فى أكنة محجوبة عن إدراك الحق وسماعه ؛ وقد قال حذيفة : قلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر . هؤلاء الذين قال الله فيهم : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[1] . فاستحقوا من الله بعد ذلك اللعنة والطرد من رحمة الله ، لا ظلماً ، إنما بسبب كفرهم . قال تعالى ﴿ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا مايؤمنون ﴾ ، أى إذا آمنوا فإيمانهم قليل ، حيث قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، والقليل هنا كالعدم ، وقد يكون المعنى أنه لم يؤمن منهم بمحمد ﷺ إلا القليل . وقد يطلق العرب لفظ القليل على لا شىء كما فى قولهم هذه الأرض قلّما تنبت أى لا تنبت شيئاً .

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

المفردات : ﴿ يستفتحون ﴾ : أى يستنصرون ، وشرى واشترى يستعملان حيناً بمعنى باع ، وأخرى بمعنى ابتاع وأخذ ، والمراد هنا المعنى الأول . والبغى فى الأصل : الفساد من قولهم بغى الجرح إذا فسد ، ثم أطلق على مجاوزة الحد فى كل شىء ، وباء : رجع . ومُهين : أى فيه إهانة وإذلال ، ووراء بمعنى سِوَى ، كما يقول الرجل لمن يتكلم بجيد الكلام : ما وراء هذا الكلام شىء .

(١) سورة الأنفال الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمدٍ ﷺ على مشركى العرب ، يقولون : اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم ، فلما بعث الله محمداً ﷺ ، ورأوا أنه من غيرهم ، كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ .

وهكذا أعمى القوم عنادهم فضلوا سواء السبيل . لقد بشروا واستفتحوا وطلبوا النصر لبعثة النبى ، كما وجدوه فى التوراة ، ووجدوا نعته وصفته ، وكانوا يستنصرون ببعثته على المشركين ، ويقولون إنه سيأتى موحداً كما بعث موسى بالتوحيد ، وسوف نكون معه فنقتلكم قتل عاد وإرم ، وإن هذا النبى قد أظلنا زمانه ، وهنا اعتراف صريح لا يعتريه شك ولا يعلوه أدنى غبار ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ . فماذا حدث ؟ فلما جاءهم ما عرفوا من الحق وبعث النبى الذى نعتوه ووصفوه وبشروا به واستفتحوا به على الكافرين واستنصروا به ، كفروا به وجحدوه حسداً من عند أنفسهم : لماذا جاء من ولد إسماعيل ولم يأت من ولد إسحق ؟ وهكذا انغمسوا فى ظلمات الباطل وتخبطوا فى دياجير الحسد ، حتى لقد سأل المشركون أحد كبار اليهود حيىّ بن أخطب وقالوا له : إنكم أهل كتاب فهل تجدوننا فى التوراة أهدى أم محمداً ؛ فقال لهم حُيىّ : بل أنتم أهدى من محمد . وهكذا قلب الحق باطلاً والباطل حقاً . ونزل قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدىٰ من الذين ءامنوا سبيلاً * أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾(١) . ثم بين الله الدافع الذى من أجله زور الحق وغالط نفسه فقال : ﴿ أم يحسدون الناس على ما ءاتاهم الله من فضله ﴾(٢) . قال المفسرون : المراد بالناس فى هذه الآية رسول الله محمد ﷺ ، وهكذا لجّ القوم فى طغيانهم يعمهون . جاءهم كتاب من عند الله مصدّقا لما معهم ، وهو القرآن الذى جاء مصدّقاً لما فى التوراة التى بين أيديهم ، وكانوا قبل مجىء هذا الكتاب وبعثة النبى يستنصرون ببعثته ويعترفون بنبوّته ، فلما بُعث هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد فى قلوبهم ، وكفروا بما عرفوا ، فاستحقوا لعنة الله . ولعنة الله على الكافرين الذين كفروا بالقرآن ونبى القرآن ، واستحقوا التعذيب بقوله تعالى : ﴿ **بئسما اشتروا به أنفسهم** ﴾ ، أى بئس الشىء الذى باعوا به أنفسهم ، وشرى هنا بمعنى باع ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾(٣) ، وقوله تعالى : ﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾(٤) أى باعوه . فبئس الشىء الذى باع اليهود به أنفسهم ؛ إنه الكفر بغياً وحسداً من أجل أن أنزل الله الرسالة على محمد ، وهذا فضل من الله . وقد قال الكافرون قبل ذلك بعد بعثة النبى ﷺ : ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾(٥) ويقصدون بالقريتين مكة والطائف ، وبالرجلين عروة ابن مسعود الثقفى من الطائف ، والوليد بن المغيرة من مكة ؛ فقال لهم الله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا

(١) سورة النساء الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .
(٢) سورة النساء آية : ٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٠٧ .
(٤) سورة يوسف آية : ٢٠ .
(٥) سورة الزخرف آية : ٣١ .

ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾[1] . لقد قالوها عناداً واستكبارا . قالوا : لا نؤمن بما أنزل على يتيم أبى طالب . وهؤلاء اليهود أنكروا الرسالة والرسول : لماذا لم يكن منهم من بنى إسرائيل ؟ ولماذا جاء عربياً من ولد إسماعيل ؟ فباءوا بغضب على غضب : باءوا بغضب من الله بكفرهم بموسى وعيسى ، وبغضب آخر بكفرهم بمحمد ورسالته . ولهؤلاء الكافرين ، ولكل كافر ، عذاب مهين يجعله حقيراً ذليلاً . ثم إن من مساوىء هؤلاء القوم أنهم إذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله على محمد ، وهم يعلمون أن رسالته خاتمة الرسالات ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأن كتابه جاء مصدقاً لما معهم من التوراة والإنجيل ، وبشّر به كل الأنبياء ، والله يقول فى الحديث القدسى الجليل : (لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا علىّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) . ماذا كان جوابهم ؟ قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما سواه ، وهو الحق الذى لا ريب فيه والذى جاء مصدقاً لما معهم . وقد لقّن الله جلّ جلاله رسوله تلك الحجة : قل لهم يا محمد : إن كنتم آمنتم بما أنزل عليكم وكفرتم بما سواه ، فلماذا تقتلون أنبياء الله من قبل ؟ أهذا هو الإيمان ؟! لا ثم لا . . فشرّ الناس من قتل نبيًّا أو قتله نبى . فأخبرونى إن كنتم صادقين : لم تقتلون أنبياء الله من قبل ؟ إنهم عنصر دموى رهيب .

نسأل الله أن يوحِّد الأمة ، وأن يكشف الغمة ، وأن يبدد الظلمة .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

المفردات : ﴿ **البينات** ﴾ : هى الآيات والدلائل التى تدل على صدقَ النبى والمعجزات التى تؤيد نبوته كالعصا واليد . ﴿ **العجل** ﴾ : هو الذى صنعه لهم السامرىّ من حليّهم وجعلوه إلهاً وعبدوه . وأشرب قلبه كذا : أى حل محل الشراب ، كأن الشىء المحبوب شراب يساغ ، فهو يسرى فى قلب المحب ويمازجه كما

(١) سورة الزخرف آية : ٣٢ .

يسرى الشراب العذب البارد فى اللهات . وحقيقة أشرب كذا : جعله شاربا له ، والمراد من الدار الآخرة ثوابها ونعيمها ، ﴿ **خالصة** ﴾ : أى خاصة بكم . ﴿ **تمنوا الموت** ﴾ : أى تشوّقوا له واجعلوا نفوسكم ترتاح إليه وتود المصير إليه . ﴿ **بمزحزحه** ﴾ : أى بمنجيه من العذاب . و﴿ **البصير** ﴾ : العالم بكنه الشىء ، الخبير به .

مازالت الآيات البينات تترى فى بنى إسرائيل . وعزيز على النفس أن يرى قوماً يعيشون فى رزق الله وخيره ويعبدون غيره . ويرون الآيات البينات واضحة وضوح الشمس فى ضحاها ، جلية جلاء القمر إذا تلاها ، مشرقة إشراق النهار إذا جلاّها ، ويأبون مع ذلك إلا أن يعيشوا فى ظلمة الليل إذا يغشاها ﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبينات** ﴾ بالمعجزات الواضحات . . ثم ماذا ؟ بدلاً من أن يزيد هذا الإيضاح إيمانكم على إيمان ، كانت النتيجة عكسية . اتخذتم العجل إلهاً وقلتم هذا إلهكم وإله موسى فنسى موسى إلهه هنا ، فذهب يبحث عنه هناك . قال تعالى : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظـٰلمون ﴾[1] . وقال هنا : ﴿ **ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون** ﴾ . هذا موقف تسيل له النفس مرارة ، وتتصدع له الكبد . ثم اذكروا إذ أخذنا ميثاقكم والعهد المؤكد ورفعنا فوقكم الجبل ، لتأخذوا أحكام الله بقوة وعزم ، وقلنا لكم : ﴿ **خذوا ما ءاتيناكم بقوة واسمعوا** ﴾ فقلتم سمعنا وعصينا . إنه لموقف شنيع .

تعصى الإلـٰه وأنت تظهر حبه ... هـذا لعمرى فى القيـاس بـديـع
لـو كان حبّـك صادقـاً لأطعتـه ... إن المـحب لمـنْ يحب مـطيـع

﴿ **سمعنا وعصينا** ﴾ !! أتعمدٌ هذا تمردا على طاعة الله ؟ حتى ولولم يقولوا عصينا بألسنتهم فقد قالوها بأفعالهم ، وما يصدر عنهم من مخالفات . ويرحم الله أصحاب محمد ﷺ ، قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . هذا وبعبادتهم للعجل ، تغلغل حبه فيهم كأنهم أشربوا حبه فى قلوبهم فتغلغل وتمكن أيما تمكن . قال تعالى لهم : ﴿ **قل بئسما يأمركم به إيمـٰنكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ ، أى بئس الذى يأمركم به إيمانكم المدعى إن كان إيمانكم أمركم بعبادة العجل ، وقتل الأنبياء ، وتكذيب الرسل ، فبئس هذا الإيمان الذى يؤمن بالموبقات إن كنتم صادقين فيما ادعيتم .

ثم تحداهم الله بعد ذلك فقال : ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صـٰدقين** ﴾ . لقد كانوا يدعون أن الآخرة لهم وحدهم ، ولن يدخل أحد الجنة سواهم ﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[2] . فتمنوا الموت يا من تدّعون أنكم شعب الله المختار ، ويا من تقولون إننا أبناء الله وأحباؤه . قل فَلِمَ يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق . فإن كان عندكم الشجاعة الأدبية فليتمن أحدكم الموت ، إن كنتم صادقين فى دعواكم . والله جلت قدرته لما تحدّاهم بتمنى الموت يعلم علم اليقين أنهم لن

(١) سورة البقرة آية : ٥١
(٢) سورة البقرة آية : ١١١ .

يتمنوه أبداً ، وذلك بسبب ما كسبت أيديهم من شنيع الخصال وجرائم الأعمال . فكيف يتمنون الموت وهم يكرهون لقاء الله ؟ ولو تمناه أحدهم لمات على الفور . ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ وبما هم فيه من ضلال بعيد .
وقد أخبر الصادق المعصوم ﷺ فقال : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) .
وقد أنشد عبد الله بن رواحة هذه الأبيات ، وروحه تتشوق إلى لقاء الله يوم مؤتة :

يـا حبـذا الجنـة واقـترابهـا طـيـبـة وبـارد شـرابهـا

وأن عمار بن ياسر فى حرب صفين قال :

غـداً نـلقـى الأحـبـة محـمـداً وصحـبـه

وكان سلمان رضى الله عنه يقول : « عجبت لثلاثة وبكيت لثلاثة : عجبت لمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه ، وعجبت لغافل وليس بمغفول عنه ، وعجبت لضاحك مِلء فيه لا يدرى أالله راضٍ عنه أم غاضب عليه . وبكيت لفراق الأحبة محمداً وصحبه ، وبكيت لهول المطلع عند سكرات الموت ، وبكيت للوقوف بين يدى الله تعالى لا أدرى أينطلق بى إلى الجنة أم إلى النار ؟ » . ولما حضرت بلالاً الوفاة صاحت زوجته : وامصيبتاه . قال لها : بل قولى وافرحتاه . . غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه .

ثم بيّن الله تعالى حقيقة هؤلاء القوم من بنى إسرائيل فقال : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ﴾ . قوله تعالى : ﴿ على حياة ﴾ بالتنكير هكذا ولم يقل على الحياة ، ويدل على أنهم أحرص الناس على أى حياة مهما كانت ذليلة وضيعة حقيرة ، والحرص على الحياة يورث صاحبه الجبن والبخل والذل ، فهو يخشى الجهاد ، لأنه حريص على الحياة ، فهو جبان ، ومن ثم فقد قالوا لنبيهم موسى : ﴿ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غـلبون وعـلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا يـموسى إنـا لن ندخلهـا أبداً مـاداموا فيهـا فاذهب أنت وربـك فقاتـلا إنّا هـهنـا قـعدون ﴾[1] .

يرحم الله أصحاب محمد ﷺ لما قال لهم يوم بدر : (أشيروا علىّ أيها الناس ، فقام أحدهم وقال : يارسول الله امض لما أراك الله ، فنحن معك . والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه وراءك ، لا يتخلف منا رجل واحد ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون) . وهذا هو الفرق بين الذين يحبون لقاء الله وبين الذين يحرصون على الحياة . والرجل الحريص على الحياة بخيل بماله ، ضنين بالمروءة ، وغد عند الشدائد ، لا يثبت أمام الأحداث ، ليس عنده وفاء وليس عنده صديق ، إنما هو نهّاز للفرص . قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحيوٰة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له

(١) سورة المائدة الآيات : ٢٢ - ٢٤ .

اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[(١)] . والرجل الحريص على الحياة ذليل فى سبيل الحصول على المادة ، يتسولها من الناس ولو أدى ذلك إلى ضياع ماء وجهه ، ورحم الله من قال : نزح بحرين بغربالين ، وحفر بئرين بإبرتين ، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين ، وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين ، خير لى من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى . وإنما قال الله تعالى فى شأنهم ﴿ أحرص الناس ﴾ أفعل تفضيل ، لأننا جميعا حريصون على الحياة مهما كان هواؤ ها سموماً وطعامها زقوماً وماؤ ها آسناً ، فكل المخلوقات يستزيدون من الدنيا مهما شكوها ، ولو ملح عذبها وخشن ليّنها . وماكان قول النملة لأخواتها : ﴿ يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾[(٢)] ، ماكان هذا إلا حرصاً على الحياة . من ثم فإن هؤلاء اليهود ليسوا حريصين فحسب ، إنما هم أحرص الناس ، بل وأحرص من الذين أشركوا وهم لا يؤمنون بالبعث ، إلا أن اليهود أشد منهم حرصاً ، يود أحدهم لو عاش على وجه الأرض ألف سنة ، ولكن لن يزحزحه ذلك العيش الطويل عن عذاب الله مهما عمّر .

فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر
والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر

لما حضرت الوفاة نبى الله نوحاً قالت له الملائكة : يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا ؟ قال : رأيت الدنيا كدار لها بابان : دخلت من باب وخرجت من باب .

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ ، فإنه تعالى لا تخفى عليه خافية ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات : العدو : ضد الصديق يستوى فيه المذكر والمؤنث والواحد والمثنى والجمع . **والنبذ** : طرح الشىء وإلقاؤه . **الفريق** : العدد القليل .

جبريل ملك كريم ، وهو رئيس الملائكة ، وقد ورد ذكره فى غير موضع من كتاب الله بالاسم والصفة . ففى هذه الآية الكريمة ورد ذكره باسمه ﴿ قل من كان عدواً لجبريل ﴾ . وجبريل أو جبرائيل معناه عبد الله ، وقد وردت له فى القرآن العظيم صفات منها قوله جلّ شأنه : ﴿ علمه شديد القوى * ذو مرةٍ

(١) سورة البقرة الآيات : ٢٠٤ - ٢٠٦ . (٢) سورة النمل آية : ١٨ .

فاستوى ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴾(٢) ، وقوله عز وجلّ : ﴿ إنه لقول رسول كريم * ذى قوة عند ذى العرش مكين * مطاع ثمّ أمين ﴾(٣) . ولقد حدد جبريل مكانته حسب ما علمه الله عندما انقطع عن الرسول خمسة عشر يوماً ، فسأله الرسول بعد عودته وقال : يا أخى يا جبريل ، لقد احتجبت عنى حتى اشتقت إليك ، فقال له الأمين جبريل : لقد كنت يارسول الله أشد شوقاً منك إليك ، ولكنى عبد مأمور ، إذا أمرت تنزلت واذا منعت احتبست ، ثم تلا عليه قوله تعالى : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا * رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾(٤) .

إذاً فجبريل هو سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء ، ينزل بالآيات والنذر ، كما ينزل بالانتقام على قوم غضب الله عليهم . أما ميكائيل فإنه ملك موكل بالغيث ، ينزل بالرحمة . ولقد شبه النبى ﷺ يوم بدر ، شبه أبا بكر بإبراهيم وعيسى فى الأنبياء ، وبميكائيل فى الملائكة ، وشبه عمر بنوح وموسى فى الأنبياء ، وبجبريل فى الملائكة . إذن فلماذا عادى اليهود الملك الكريم جبريل ؟ لقد ورد فى تفسير هذه الآية روايات عدة نوجزها فيما يلى لما فى كل رواية من المعانى ما يحتاج إليه طالب تفسير هذه الآية .

روى ابن كثير عن ابن عباس أنه قال : « حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم ، حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى ، فقال رسول الله ﷺ : (سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة ، وما أخذ يعقوب على بنيه ، لئن أنا حدثتكم عن شيء فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام) . فقالوا : ذلك لك ، فقال رسول الله ﷺ : (سلوا عما شئتم) . قالوا : أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن : أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى التوراة ومن وليه من الملائكة ؟ فقال النبى ﷺ : (عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنى ؟) . فأعطوه ما شاء الله من عهد وميثاق . فقال : (نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه ، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها ؟) . فقالوا : اللهم نعم . فقال رسول الله ﷺ : (اللهم اشهد عليهم) . (وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض ، وأن ماء المرأة رقيق أصفر ، فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل ، وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل ؟) . قالوا : اللهم نعم . قال : (اللهم اشهد) . (وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟) . قالوا : اللهم نعم . قال : (اللهم اشهد) . قالوا : أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة ، فعندها نجيء معك أو نفارقك . قال : (فإن وليى

(١) سورة النجم الآيتان : ٥ ، ٦ .
(٢) سورة الشعراء الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٣) سورة التكوير الآيات : ١٩ - ٢١ .
(٤) سورة مريم الآيتان : ٦٤ ، ٦٥ .

جبريل ، ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه) . قالوا : فعندها نفارقك ، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك . قال : (فما يمنعكم أن تصدقوه ؟) . قالوا : إنه عدونا . فأنزل الله عز وجل **﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾** إلى قوله **﴿ لو كانوا يعلمون ﴾** فعندها باءوا بغضب على غضب(١) .

وجاء فى رواية أخرى أن اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : أخبرنا عن الروح ؟ قال : (أنشدكم بالله وبآياته عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى ؟) قالوا : اللهم نعم ، ولكنه عدو لنا وهو ملك ، إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء ، فلولا ذلك لاتبعناك . فأنزل الله تعالى فيهم **﴿ قل من كان عدواً لجبريل . . ﴾**(٢) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عباس قال : أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا : يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء ، فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبى واتبعناك . فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال : والله على ما نقول وكيل . قال : (هاتوا) ، قالوا : فأخبرنا عن علامة النبى ؟ قال : (تنام عيناه ولا ينام قلبه) . قالوا : أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر ؟ قال : (يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت ، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت) . قالوا : أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : (كان يشتكى عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا) . قال أحمد قال بعضهم : يعنى الإبل فحرم لحومها . قالوا صدقت . قالوا : أخبرنا ما هذا الرعد ؟ قال : (ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب ، بيديه ، أو فى يديه ، مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى) . قالوا : فما هذا الصوت الذى نسمع ؟ قال : (صوته) ، قالوا : صدقت . قالوا : إنما بقيت واحدة وهى التى نتابعك إن أخبرتنا بها : إنه ليس من نبى إلا وله ملك يأتيه بالخبر ، فأخبرنا من صاحبك ؟ قال : (جبريل عليه السلام) ، قالوا : جبريل ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا ؟ لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والمطر والنبات لكان ، فأنزل الله تعالى : **﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾**(٣) إلى آخر الآية .

وروى عن الشعبى قال : نزل عمر الروحاء فرأى رجالاً يبتدرون أحجاراً يصلون إليها ، فقال : ما بال هؤلاء ؟ قالوا : يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى هٰهنا . قال : فكفّر ذلك ، وقال : أيما رجل أدركته الصلاة بواد صلاها ، ثم ارتحل فتركه ، ثم أنشأ يحدثهم ، فقال : كنت أشهد اليهود يوم مررنا بهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ، ومن القرآن كيف يصدق التوراة ؛ فبينما أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك ، قلت : ولم ذلك ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا . فقلت : إنى آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن . قالوا : ومر رسول الله ﷺ فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به . قال فقلت لهم عند ذلك :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ط الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٦ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٦ ط الشعب .

نشدتكم بالله الذى لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه وما استودعكم من كتابه هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال : فسكتوا . فقال لهم عالمهم وكبيرهم : إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه . قالوا : فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت . قال : أما إذا نشدتنا بما نشدتنا فإنا نعلم أنه رسول الله . قلت : ويحكم إذاً هلكتم . قالوا : إنا لم نهلك . قلت : كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟ قالوا : إن لنا عدوا من الملائكة وسلماً من الملائكة ، وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة . قلت : ومن عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا : عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل . قالوا : إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا . قال قلت : وما منزلتهما من ربهما عز وجل ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره . قال فقلت : فوالذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما ، وسلم لمن سالمهما ، وما ينبغى لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل ، وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل . قال : ثم قمت فاتبعت النبى ﷺ فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان فقال : (يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل) ، فقرأ علىّ : ﴿ من كان عدوا لجبرائيل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ حتى قرأ الآيات : قال قلت : بأبى وأمى أنت يارسول الله والذى بعثك بالحق لقد جئت وأنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر(١) .

قال البخارى : سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله وهو فى أرض يخترف(٢) فأتى النبى ﷺ فقال : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمه ؟ قال : (أخبرنى بهذا جبرائيل أيضاً) . قال : جبريل ؟ قال : نعم . قال : ذاك عدو اليهود من الملائكة . فقرأ هذه الآية : ﴿ من كان عدوًا لجبريل فإنه نزله على قلبك ﴾ . (وأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت . وإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع المرأة وإذا سبق ماء المرأة تنزعت) . قال : أشهد ألاّ إله إلا الله وأنك رسول الله ، يارسول الله : إن اليهود قوم بهت ، وإنهم إن يعلموا بإسلامى قبل أن تسألهم يبهتون . فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ : (أى رجل عبد الله بن سلام فيكم ؟) قالوا : خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا . قال : (أرأيتم إن أسلم ؟) قالوا : أعاذه الله من ذلك . فخرج عبد الله فقال : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : هو شرنا وابن شرنا ، وانتقصوه فقال : هذا الذى كنت أخاف يارسول الله(٣) .

ومن جو هذه الروايات مجتمعة لمسنا مدى عناد القوم وإصرارهم على الباطل . إنهم بمعاداتهم أمين الوحي جبريل استحقوا من الله أن يؤذنهم بالحرب . قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب) . ومن يقدر على حرب الله ؟ ﴿ وكذلك أخْذُ ربك إذا أخَذَ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٤) . وقد حكم الله عليهم حكماً جاء جزاء وفاقاً ، فقال : ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٨ ط الشعب .
(٢) يخترف : يجنى الثمر .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ١٨٧ ط الشعب .
(٤) سورة هود آية : ١٠٢ .

أطفأها الله ﴾(١) . وهل عادوا جبريل إلا لأنه ينزل بالقرآن على سيد الأنبياء ؟ والقرآن الذى نزل على قلب رسول الله ﷺ جاء مصدقاً لما بين يديه ومصدقاً لما معهم من التوراة ، ومن اتبعه وعمل بما فيه كان على هدى وبشارة ، فإنه لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، لا يمله الأتقياء . وهو الفصل ليس بالهزل . من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والهادى إلى الصراط المستقيم . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

ويرحم الله عقلاء الجن الذين قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرءانا عجباً * يهدى إلى الرشد فئامَنَّا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾(٢) .

إن عداوة جبريل كعداوة أى ملك ، كعداوة أى رسول ، كلها تؤدى إلى الكفر . لأن الإيمان لا يتجزأ ولا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول . بهذا حكم العلى الكبير إذ يقول : ﴿ ءامن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل ءامن بالله وملئِكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾(٣) ، وقال سبحانه فى حق قوم فرّقوا : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكٰفرون حقا وأعتدنا للكٰفرين عذاباً مهينا ﴾(٤) .

وقال فى حق قوم سلكوا الصراط المستقيم : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(٥) .

والرسل يشملون رسل الملائكة ورسل الإنس . قال تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾(٦) . ثم قطع الله المعاذير على كل معاند جحود فقال : ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ . فبعد وصف الآيات بالبيان التام والدليل الساطع والبرهان القاطع ، لا عذر ولا حجة ، إذ لا يجحد الشمس فى كبد النهار إلا من كان على بصره غشاوة ، ولذا جاء أسلوب الحصر قويا عندما حصر الكفر فى الفاسقين الخارجين عن حدود الله ، الناكثين للعهود ، الناقضين للمواثيق والوعود والذين ﴿ إذا ذكّروا لا يذكرون * وإذا رأوا ءاية يستسخرون ﴾(٧) ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويل يومئذ للمكذّبين * فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾(٨) . ﴿ قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطٰغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقىٰ لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾(٩) . فاللهم اجعلنا من أوليائك وتول أمرنا ، وكن ولينا ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور .

---

(١) سورة المائدة آية : ٦٤ .
(٢) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٤) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٥) سورة النساء آية : ١٥٢ .
(٦) سورة الحج آية : ٧٥ .
(٧) سورة الصافات الآيتان : ١٣ ، ١٤ .
(٨) سورة المرسلات : الآيات : ٤٨ ــ ٥٠
(٩) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .

وهؤلاء القوم لما كانت عادتهم العناد والجحود ، وصفهم الله بما ركز ورسب فى طباعهم من نقض العهود ، فجاء المعنى معبراً عنه بأداة شرط تفيد التكرار والاستمرار . قال تعالى : ﴿ **أوكلما عـهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ ، والنبذ معناه الطرح والرمى ، وهو يفيد عدم الاكتراث . ولما كان الفريق يشمل العدد القليل والكثير ، بيّن الله فى تلك الآية الكريمة أن الفريق هنا يراد به الكثرة ، فقال : ﴿ **بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ ، وقول الله صدق ، وحكم الله حق ، فما آمن منهم برسول الله ﷺ إلا القليل .

وينتقل بنا النظم الكريم إلى مشهد آخر بيّن الله فيه من المساوىء ما تقشعر له الأبدان وتشيب من هوله الولدان ؛ قال سبحانه :

وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

المفردات : كفر : أى سحر ، والسحر : لغة كل ما لطف مأخذه وخفى سببه ، وسحره : خدعه ، وجاء فى كلامهم : عين ساحرة وعيون سواحر ، وفى الحديث : (إن من البيان لسحراً) . والإنزال : الإلهام ، وسمى بذلك لأنها ألهماه واهتديا إليه من غير معلم ، والملكان رجلان صاحبا هيئة ووقار يجلهما الناس ويحترمونهما ؛ بابل : بلد بالعراق لها شهرة تاريخية قديمة . والخلاق : النصيب والحظ ، وشروا : أى باعوا .

لقد سجل الله تعالى على اليهود مواقف تنبو منها الأذواق السليمة والفطر الصحيحة . ففى آية سبقت قال الله تعالى فى شأنهم : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدقاً لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾(١) . وفى هذه الآيات التى بين أيدينا

(١) سورة البقرة آية : ٨٩ .

قال جلَّ ذكره : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتـٰب كتـٰب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾ . ويستفاد من هاتين الآيتين الكريمتين أن الكتاب مصدق لما معهم من التوراة . والمراد بالكتاب : القرآن الكريم ، وأن الرسول مصدق لما معهم أيضاً من التوراة ، والمـراد به رسول الله محمد ﷺ ، فكفروا بالكتاب ونبذوا ما جاء به الرسول وراء ظهورهم . وفى هذا دلالة على مدى استهزائهم بأحكام الله وهم يعلمون أنه الحق . قال تعالى : ﴿ الذين ءاتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ۞ الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾(١) . ولقد صرح القران الكريم عمـا انطـوت عليه نفوس القوم من العناد والإصرار . قال سبحانه : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتـٰب بكل آية ماتبعوا قبلتك ﴾(٢) . ولما نبذ هؤلاء القوم ما فى الكتاب وما جاء به الرسول وهم يعلمون أنه الحق ، صور القرآن حالهم بأنهم لا يعلمون ، فلا خير فى علم لا يصحبه عمل .

ثم أضاف العلى الحكيم فى كتابه موقفا آخر لليهود يدعو إلى الأسى والحزن العميق . إنهم لم يكتفوا بنبذ العهود ونقض المواثيق ونكث الوعود . لقد اقترفوا جرما لا يقل شناعة عما اقترفوه من قبل . قال تعالى : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمـٰن وما كفر سليمـٰن ولكن الشياطين كفروا يعلمـون الناس السحر ﴾ .

إن اليهود اتبعوا كلام السحرة من الشياطين وما كانوا يروونـه من كتب السحر عـلى عهد نبى الله سـليمان بن داود ، وأساءوا الأدب على سليمان نفسه . فقد اتهموه بأنه يعمل بالسحر ليثبت ملكه !! معاذ الله أن يكون نبى الله كذلك ، وهو الذى قال فيه رب العزة : ﴿ ووهبنـا لداود سليمـٰن نعم العبد إنّه أوابٌ ﴾(٣) . وقال الله تعالى فى شأنه : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاءً حيث أصاب ۞ والشياطين كل بناء وغواص ۞ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ۞ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ۞ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾(٤) . وأى سحر هذا الذى يثبت ملكاً أراد الله تثبيته ؟ لقد دعا سليمان ربه قائلاً : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب ﴾(٥) . وهل السحر إلا صرف الأشياء عن حقيقتها ؟ فهو تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ، وتأثيره لا يتجاوز هذا المعنى ، والسحر كفر ، قال ﷺ : (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد)(٦) ، وقال رب العزة فى هذه الآية : ﴿ وما كفر سليمـٰن ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ﴾ ، أى وما سحر سليمان ولكن الشياطين سحروا فكفروا بذلك . وفرق شاسع بين سحر السحرة ومعجزة الأنبياء . فتأثير السحر تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ناتجة عن اتصال شياطين الإنس بشياطين الجن . فيقوم شيطان الجن بتكفير شيطان الإنس بأن يأمره أن يتخذ صنما يعبده ، أو يـأمره بـوضع المصحف تحت قـدمه فى مكـان النجاسات ، إلى غير ذلك من صور الكفر . فإذا ما فعل شيطان الإنس ذلك وكفر ، استطاع شيطان الجن

(١) سورة البقرة الآيتان : ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٤٥ .
(٣) سورة ص آية : ٣٠ .
(٤) سورة ص الآيات : ٣٦ - ٤٠ .
(٥) سورة ص آية : ٣٥ .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٤٩ ط دار الفكر .

أنَ يقدم له من أنواع الأذى والضرر ما يستطيع به شيطان الإنس أن يعربد بشروره . وسوف نفصل حكم السحر والسحرة فيما سيأتى . أما المعجزة التى يجريها الله على أيدى الأنبياء فإنها حقيقة واقعة ، يخرق الله بها العادة ، فإذا ما انقلبت عصا موسى حية فتلك حقيقة لا وهم فيها ولا تخيل ، وإذا ما سمع للجذع أنين ، بعدما فارقه رسول الله ﷺ ، فتلك حقيقة لا تخيل فيها ولا وهم . وإذا ما انشق القمر فتلك حقيقة لا تخيل فيها ولا وهم ، ومن ثم فإن القرآن الكريم ذكر مشهدا مهيبا جمع فيه بين ما ورد عن سحرة موسى وبين ما جاء على يدى موسى من المعجزات . قال تعالى : ﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين * قال نعم وإنكم لمن المقربين * قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين * قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم * وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صٰغرين * وألقى السحرة سٰجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهٰرون ﴾(1) . وفى هذه الآية الكريمة ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين ﴾ مواقف للعلماء نخلوا فيها مخزون فكرهم ، وقدحوا زناد رأيهم ، ونحن نسوق بعضها لتتضح الصورة فى فهمها . جاء فى تفسير المراغى ما نصه : ﴿ واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان ﴾ أى واتبع فريق من أحبار اليهود وعلمائهم الذين نبذوا التوراة تجاهلا منهم بما هم به عالمون ، اتبعوا السحر الذى تلته الشياطين فى عهد سليمان بن داود وعملوا به ، وذلك هو الخسران المبين . وقد زعموا أن سليمان هو الذى جمع كتب السحر من الناس ودفنها تحت كرسيه ، ثم استخرجها الناس وتناقلوها ، وهذا من مفتريات أهل الأهواء نسبوها إليه كذبا وبهتانا .

﴿ وما كفر سليمان ﴾ أى وما سحر ، لأنه لو فعل ذلك فقد كفر ، إذ كونه نبيا ينافى كونه ساحرا ، فالسحر خداع وتمويه ، والأنبياء مبرءون من ذلك .

﴿ ولكن الشيٰطين كفروا ﴾ أى ولكن الشياطين من الإنس والجن الذين نسبوا إليه ما انتحلوه من السحر ودونوه وعلموه الناس هم الذين كفروا . ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ ، قد جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضع كثيرة ، ولاسيما فى قصص موسى وفرعون ، ووصفه بأنه خداع وتخيل للأعين حتى ترى ما ليس بكائن كائنا ، كما قال : ﴿ يُخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾(2) ، وقال فى آية أخرى : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾(3) .

والآية نص صريح على أن السحر كان يُعلم ويلقن ، والتاريخ يؤيد هذا .

والسحر إما حيلة وشعوذة ، وإما صناعة وعلم خفى ، يعرفه الناس ويجهله كثير منهم ، ومن ثم يسمون العمل به سحرا لخفاء سببه عليهم . وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين حتى خيل إلى الناس أنها تسعى .

(1) سورة الأعراف الآيات : ١١٣ - ١٢٢ .
(2) سورة طه آية : ٦٦ .
(3) سورة الأعراف آية : ١١٦ .

وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة للمعاش أن يتكلموا بأسماء غريبة وألفاظ مبهمة ، واشتهر بين الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجن ليوهموهم أن الجن يستجيبون دعاءهم ويسخرون لهم ، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب ، ولمثل هذا تأثير فى إثارة الوهم دلت التجربة على وجوده ، وهو يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير إرادته فيمن يعمل له السحر .

﴿ **وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت** ﴾ فى الملكين قراءتان : فتح اللام وكسرها ، وهما رجلان شبها إما بالملائكة لانفرادهما بصفات محمودة ، وقد جرت العادة أن يقولوا هذا ملك وليس بإنسان ، وإما بالملوك كما يقال لمن كان سيدا عزيزا يُظهر الغنى عن الناس : هذا من الملوك . وكان الناس فى عهد هاروت وماروت كحالهم اليوم ، لا يقصدون للفصل فى شئونهم الروحية إلا أهل السمت والوقار ، الذين يلبسون لباس أهل الصلاح والتقوى .

وظاهر الآية يدل على أن ما أنزل على الملكين غير السحر ، لكنه من جنسه ، وقد ألهماه واهتديا إليه بلا أستاذ ولا معلم ، وقد يسمى مثل هذا وحيا كما فى قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾[1] وقوله : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[2] .

﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ أى وما يعلم الملكان أحدا حتى ينصحاه ويقولا له : إنما نحن ابتلاء من الله عز اسمه ، فمن تعلم منا وعمل به كفر ، ومن تعلم ولم يعمل به ثبت على الإيمان ، فلا تكفر باعتقاده وجواز العمل به .. وفى هذا إيحاء إلى أن تعلم السحر وكل ما لا يجوز اتباعه والعمل به ليس محظورا ، وإنما الذى يُحظر ويمنع هو العمل به فحسب ، وإنما كانا يقولان ذلك إبقاء على حسن اعتقاد الناس فيهما ، إذ كانا يقولان إنهما ملكان ، كما نسمع الآن من الدجالين الذين يحترفون مثل ذلك لمن يعلمونهم الكتابة للحب والبغض . نوصيك بألاّ تكتب هذا لجلب امرأة إلى حب غير زوجها ، ولا تكتب لأحد الزوجين أن يبغض الآخر ، بل تجعل ذلك للمصلحة العامة كالحب بين الزوجين ، والتفريق بين عاشقين فاسقين ، وهذا منهم إيهام بأن علومهم إلـهية وصناعتهم روحية .

﴿ **فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه** ﴾ أى كانوا يتعلمون منهما ما وضع لأجل التفريق بين الزوجين ، مما يسمى الآن (كتاب البغضة) . والآية لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلمونه من السحر : أمؤثر بطبعه أو بسبب خفى أو بخارق من خوارق العادات ، أم غير مؤثر ؟ كما أنها لم تبين نوع ما يتعلمونه : أتمائم وكتابة هو ، أم تلاوة رقى وعزائم ، أم أساليب سعاية ، أم دسائس تنفير ونكاية ، أم تأثير نفسانى ، أم وسواس شيطانى ؟ فأى ذلك أثبته العلم كان تفصيلا لما أجمله القرآن ، ولا نتحكم فى حمله على نوع منها ، ولو علم الله الخير فى بيانه لبينه ، ولكنه وكل ذلك إلى بحوث الناس وارتقائهم فى العلم ، فهو الذى يجلى الغامض ويكشف الحقائق .

---

(١) سورة النحل آية : ٦٨ .
(٢) سورة القصص آية : ٧ .

قال تعالى : ﴿ وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ ، أى إن هذين لم يعطيا شيئا من القوى الغيبية فوق ما أعطى سائر الناس ، بل هى أسباب ربط الله بها مسبباتها ، فإذا أصيب أحد بضرر بعمل من أعمالهم ، فإنما ذلك بإذنه تعالى ، فهو الذى يوجد المسببات حين حصول الأسباب .

﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ﴾ ، من قِبل أنه سبب فى إضرار الناس ، وهذا مما يعاقب الله عليه ، ومن عرف بإيذاء الناس أبغضوه واجتنبوه ولا نفع لهم فيه ، فإنا نرى منتحلى هذه المهن من أفقر الناس وأحقرهم ، وذلك حالهم فى الدنيا ، فما بالك بهم فى الآخرة ، يوم يجزى كل عامل بما عمل . ﴿ ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ﴾ ، أى إنهم عالمون بأن من اختار هذا وقدمه على العلم بأصول الدين وأحكام الشريعة التى توصل إلى السعادة فى الدارين ، فليس له حظ فى الآخرة ، لأنه قد خالف حكم التوراة التى حظرت تعلم السحر ، وجعلت عقوبة من اتبع الجن والشياطين والكهان ، كعقوبة عابدى الأصنام والأوثان .

﴿ ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾ أى ولبئس ماباعوا به أنفسهم السحرُ ، وعبر عن بيع الإيمان ببيع النفس ، لأنها إنما خلقت لمعرفة الدين والعمل به ، أى أنهم لو كانوا يعلمون حرمة السحر علما يصدر عن اعتقاد له أثر فى النفس ، ويصدقون بما توعد به مرتكبه من العقوبة ، لما ارتكبوه ولا أصروا عليه ، ولكنهم خانهم هذا النوع من العلم واكتفوا بعلم مبهم لا أثر له فى النفس ، فتسرب إليهم كثير من التأويل والتحريف لنصوص التوراة .

وهذا هو ما يفعل مثله بعض المسلمين اليوم ، إذ ينتهكون بعض حرمات الدين بمثل تلك التأويلات ، فيمنعون الزكاة بحيلة ، ويأكلون أموال الناس بحيلة أخرى ، ويشهدون الزور بحيلة ثالثة . . . وهكذا .

أما صاحب التفسير الواضح فيقول فى هذه الآية : « من قبائح اليهود أنهم نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تلته الشياطين من السحر والشعوذة فى زمن ملك سليمان ، وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء ويضمون إليه أكاذيب ثم يلقونها الكهنة فيعلمونها الناس ، ويقولون : إن هذا علم سليمان ، وماتم لسليمان ملك إلا بهذا . فيرد الله عليهم هذه الدعوى : إن سليمان ما فعل شيئا من هذا ، وما كفر باعتقاد السحر والعمل به ، ولكن الشياطين هم الذين كفروا باتباع السحر وتدوينه .

هؤلاء اليهود يعلمون الناس بقصد إغوائهم وإضلالهم ، ويعلمونهم ما أُنزل على الملكين ببابل ، وهما هاروت وماروت : وهما بشران إلا أنهما كانا صالحين قانتين ، فأطلق الناس عليهما ملكين من باب التشبيه ، وفى قراءة ملِكين على التشبيه أيضا بالملوك فى الخلق وسماع الكلمة .

ولكن هذين الملكين ما كانا يعلمان أحدا من الناس حتى يقولا له إنما هذا ابتلاء واختبار من الله ، فلا تتعلم السحر وتعمل به وتعتقد تأثيره وإلا كنت كافرا ، أما إذا تعلمته لتعلمـه فقط ولتعرف شيئـا تجهله ولا تعمل به ما يضر ، فلا محظور فى ذلك ؛ فتعلم الناس من الملكين ما كانوا يعتقدون أنه يفرق بين المرء وزوجه ، أو ما هو تمويه من حيلة أو نفث فى العقد ، أو تأثير نفس وغير ذلك مما يحدث عنده التفريق غالبا .

والحقيقة أن السحر لا يؤثر بطبعه أو ما هم بضارين به أحدا من الناس إلا بأمر الله وإرادته ؛ فهذا كله ، إن صح ، فسبب ظاهرى فقط ، وأما من تعلم السحر وعمل به فإنه تعلم ما يضره ولا ينفعه ، إذ به استحق غضب الله عليه لما ينشأ عنه من إفساد الناس وضررهم ؛ وتالله لقد علم اليهود لمن ترك كتاب الله واستبدل به كتب السحر ماله فى الآخرة إلا العذاب ، وليس له نصيب من الثواب . ولبئس ما اشتروا به عذابهم وألمهم لو كانوا يعلمون ، نفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به ، فكانوا أسوأ من الجهلة .

ولو أن اليهود آمنوا بالنبى ﷺ والقرآن وتركوا كتب السحر والشعوذة وأخذوا الوقاية من عذاب الله بامتثال أوامره ، لاستحقوا الثواب من عند الله ، وهو خير وأعظم أجرا ، لو كانوا يعلمون ذلك » ا هـ .

ونرى أن للمفسرين رأيين فى مفهوم الملكين : رأى يرى أنهما رجلان صالحان كاملان . ورأى يرى أنهما ملكان حقيقيان ؛ كما أن لهما رأيين فى لفظ ﴿ ما ﴾ فى قوله تعالى ﴿ وما أنزل على الملكين ﴾ ، فرأى يرى أنها اسم موصول بمعنى الذى ، وأنها معطوفة على لفظ السحر فى قوله تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ ، ورأى يرى أن ﴿ ما ﴾ حرف نفى ، وأن الجملة معطوفة على قوله تعالى : ﴿ وما كفر سليمان ﴾ ، كأن النفى حرف مسلط على الكفر والإنزال ، وهذا كله لإثبات عصمة الملكين . ونحن نرى أن ليس هناك مانع من إرادة المعنى الحقيقى للملكين ، وأنهما ملكان نزلا إلى الأرض وفى مدينة بابل لمهمة كلفا بها ، وهى إبطال سوق السحر والسحرة ، فقد راجت سوق السحر فى تلك المدينة حتى ادعى السحرة أنهم يعلمون الغيب ، وهذا هو الذى نفاه الله جلت قدرته فى قوله حكاية عن جن سليمان : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور * فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرَّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين ﴾(١) . قال تعالى : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾(٢) . وقال سبحانه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ﴾(٣) . من هنا نعلم أن الملكين هاروت وماروت كانا مُكلَّفيْن بتعليم الناس أن السحر مفسد للنفوس ، أنه يضر ، لا بذاته ، ولكن بإذن الله ، فتأثيره كتأثير السبب فى المسبب . أما الأصل كله والأمر كله فبإذن الله . ومما يدل على عصمة الملكين وأنهما لم يفعلا ما يخالف العصمة قوله تعالى : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ ، أى فلا تعمل بالسحر ، والفتنة هنا الابتلاء والمحنة كذلك ، يقولون للناس : إن هذا السحر يفرق بين المرء وزوجه ، وذلك بإلقاء الوساوس فى صدور كل منهما بالكراهية ، وإن السحر تخيلات فى الحس بحيث يجعل المرء يرى الحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، كما حدث من سحرة فرعون ، قال تعالى : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾(٤) وكما قال فى حق موسى : ﴿ يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾(٥) .

---

(١) سورة سبأ الآيات : ١٢ - ١٤ .
(٢) سورة النمل آية : ٦٥ .
(٣) سورة الجن آية : ٢٦ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١١٦ .
(٥) سورة طه آية : ٦٦ .

كذلك إذا اتضحت حقيقة السحر والسحرة فسدت أسواقهم ، فليس السحر إنباء بالغيوب ، وليس السحر قدرة على الضر والنفع إلا بإذن الله وحده ، وأن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ولا تطرف فيه طرفة عين ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن الله ، فإذا كان السحرة يحاولون بسحرهم إلقاء الشرفى النفوس ، فمثلهم كمثل الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله . وما من شك فى أن التفريق بين الزوجين من الكبائر ؛ قال ﷺ : (ليس منا من خبب بين امرأة وزوجها)[١] ، أى سعى بالإفساد بينهما . وللسحر علاج كعلاج الحسد ، وهو قراءة المحصنات الثلاث : قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ؛ تقرأها فى كفيك وتتفل ثلاث مرات ، وهو إخراج النَفَس بدون إخراج ريق ، وتمسح جسمك بكفيك ؛ كذلك قراءة آية الكرسى ؛ كذلك قراءة سورة البقرة . فقد ورد فى الحديث الشريف أن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة ، أى السحرة ، ولا يفرح إبليس بشىء كفرحه بمن فرق بين الزوجين ؛ قال ﷺ : (إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه فى الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجيء أحدهم فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ماصنعت شيئاً ؛ ويجيء أحدهم فيقول : ماتركته حتى فرقت بينه وبين أهله . قال فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نِعم أنت)[٢] .

قال العلماء : وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخيل للرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك ، أو عقد أو نقيصة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة ؛ والمراد بالمرء : الرجل .

قوله تعالى : ﴿ **وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله** ﴾ . قال سفيان الثورى : إلا بقضاء الله ، وقال محمد بن إسحاق : إلا بتخلية الله بينه وبين ما أراد . وقال الحسن البصرى : لا يستطيعون النيل من أحد إلا بإذن الله ؛ ولا يضر هذا السحر إلا من دخل فيه قوله تعالى : ﴿ **ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم** ﴾ ، أى يضرهم فى دينهم ، وليس له نفع يوازى ضرره . قال ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات : الإشراك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[٣] .

وهذا النص الكريم : ﴿ **ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ إبطال لمزاعم السحرة الفجرة الذين يزعمون كذبا وبهتاناً أنهم يستطيعون أن يتصرفوا فى الكون كما يشاؤون ، فيضرون وينفعون ، وهم فى الحقيقة يضرون أنفسهم بعصيانهم لله ، ويدخلون النار فى الآخرة أول الداخلين . وهم فى الدنيا أشد الناس بؤساً وفقراً وضيقاً وضنكا ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾[٤] .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٦٦ ط دار الفكر .
(٢) صحيح مسلم جـ ٥ ص ٦٧٩ ط الشعب .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٢ ط دار الفكر .
(٤) سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .

فعليك أيها العاقل ألا تغشى مجالسهم ، فقد يغفر الله لأمة محمد ليلة القدر الا لمدمن الخمر ، والمصدق بالسحر ، والعاق لوالديه ، والقاطع للرحم ؛ حتى من ذهب إليهم ولم يصدقهم لا يقبل الله منه عملاً أربعين يوماً . وهم فى الحقيقة كذابون دجالون محتالون مخادعون ؛ فاستعذ بالله من شرهم وقل : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ؛ آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت واستمسكت بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق** ﴾ ، أى ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر متابعة الرسول ﷺ ولمن فعل فعلهم ذلك ، أنه ما له فى الآخرة من خلاق ، أى من نصيب . وقال الحسن ليس له دين . قال قتادة : ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة ؛ وهكذا الحكم على كل من اشترى السحر واشتغل به وباع اتباع الهدى والسيروراء نهج النبوة الصادقة .

قوله تعالى : ﴿ **ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ ، ولبئس البديل ما استبدلوا به من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول . لو كان لهم علم بما وعظوا به : ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير** ﴾، أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكانت مثوبة الله على ذلك خيرلهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به ، كما قال تعالى : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرلمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾[1] .

وهكذا اشترى هؤلاء الناس السحر وباعوا أنفسهم ، وكان الثمن خسرانا وضلالا وبهتانا وكذباً وضراراً وعتوا فى الأرض ، فاستحقوا من الله أن يقول فيهم : ﴿ **وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله** ﴾ . وقد استدل العلماء من قوله تعالى : ﴿ **ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير** ﴾ ، استدلوا بها على تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف ، وقيل : لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه ، لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل قال : أخبرنا سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة بن عبيدة يقول : كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة . قال فقتلنا ثلاث سواحر . وقد أخرجه البخارى فى صحيحه .

وصح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت . قال الإمام أحمد بن حنبل : صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ فى قتل الساحر . وروى الترمذى من حديث إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الأزدى أنه قال قال رسول الله ﷺ : (حد الساحر ضربه بالسيف)[2] .

فصل فى الأحكام الشرعية المتعلقة بالسحر والسحرة

ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة ، رحمه الله ، فى كتابه (الإشراف على مذاهب

(١) سورة القصص آية : ٨٠ .
(٢) الجامع الصغير جـ ١ ص ٥٧٠ ط دار الفكر .

الأشراف) بابا فى السحر ، فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال لا حقيقة له عنده ، واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكفر بذلك . ومن أصحاب أبى حنيفة من قال : إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ؛ من تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر .

وقال الشافعى رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك ، فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر ؛ فإن اعتقد إباحته فهو كافر . قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد : نعم . وقال الشافعى وأبو حنيفة : لا ؛ فأما إن قتل بسحره إنسانا فإنه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد . وقال أبو حنيفة : لا يقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك فى حق شخص معين ، وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعى ، فإنه قال : يقتل . والحالة هذه قصاصاً . قال : وهل إذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهم : لاتقبل . وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى : تقبل . وأما ساحر أهل الكتاب ، فعند أبى حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم . وقال مالك وأحمد والشافعى : لا يقتل ، يعنى لقصة لبيد بن الأعصم ، واختلفوا فى المسلمة الساحرة ؛ فعند أبى حنيفة أنها لا تقتل ، ولكن تحبس ؛ وقال الثلاثة : حكمها حكم الرجل . والله أعلم .

حكى القرطبى عن وهب أنه قال فى علاج السحر : يؤخذ سبع ورقات من سدر ، فتدق بين حجرين ، ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ، ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ، ثم يغتسل بباقيه ، فإنه يذهب ما به ، وهو جيد للرجل الذى يؤخذ عن امرأته . (قلت) : أنفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله فى إذهاب ذلك ، وهو المعوذتان . وفى الحديث : (لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما) ، وكذلك قراءة آية الكرسى ، فإنها مطردة للشيطان .

أدب وتوجيه

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

من قبائح القوم تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وكان من ذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ « راعنا يا محمد » لا يقصدون بها معناها الحقيقى ، بمعنى راعنا سمعك أو راقبنا ، إنما كانوا يقصدون بها معنى سيئا ، ويريدون بها المسبة ، فهى عندهم من الرعونة والحمق . ولما كان المؤمنون يقولونها للهادى البشير ، صلوات ربى وسلامه عليه ، كانوا يقصدون بها معناها الحقيقى ، وهو راقبنا ، فوجههم رب العزة

وأدبهم الأدب الرفيع فى مخاطبة الصادق المعصوم فقال لهم : ﴿ وقولوا انظرنا ﴾ أى : انتظرنا وأمهلنا حتى نعى ما تقول . ولم يكن تحريف القول أمرا غريبا على اليهود ؛ فقد قال تعالى فى شأنهم : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾(١) . بل بلغ بهم السفه إلى حد أنهم حرفوا التحية التى كانوا يلقونها على رسول الله ﷺ . لقد حياه الله تبارك وتعالى فقال له : « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته » ، ولكن اليهود إذا مروا به كانوا يقولون : السام عليك يامحمد . والسام هو الهلاك والموت ، فكانت السيدة عائشة رضى الله عنها ترد عليهم قائلة : وعليكم السام واللعنة إخوان القردة والخنازير . فكان الرسول ﷺ يقول لها ياعائشة : (إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش . .)(٢) . قالت يارسول الله ألا تسمع ماذا يقولون ؟ فقال لها : ألا تعلمين ماذا قلت لهم ؟ لقد قلتُ لهم : وعليكم ! إن الله تعالى أمرنى بقوله : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾(٣) . ولقد قص الله تعالى فى القرآن الكريم هذا المشهد فقال : ﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾(٤) . ومن عظمة الإسلام أنه جعل شخصية المسلم شخصية قوية مستقلة ، بحيث لا يكن أحدنا إمعة ، فنهى عن التشبه بالكافرين قال ﷺ : (من تشبه بقوم فهو منهم)(٥) .

قوله تعالى : ﴿ واسمعوا ﴾ خطاب يعلمنا الله به الأدب فى مجالس القرآن . قال جل شأنه : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾(٦) . وما أشد حاجة المسلمين إلى هذا الأدب لاسيما فى عصر تحولت فيه مجالس القرآن إلى ضجيج وعجيج ، بحيث يتمايلون ويطربون للنغم الذى يؤديه القارىء ، وهم فى غفلة معرضون عما فى الآيات من وعيد تنخلع له القلوب ، لاهية قلوبهم عن إجلال منزل القرآن وخشيته . وقد يستولى عليك الأسى ، عندما تسمع أحدهم وقد سمع قول الله تعالى : ﴿ خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾(٧) يصيح بأعلى صوته قائلا : « الله يزيدك » . قلت : سبحان الله ! أيطلب المستمع للقارىء أن يزيده الله على السبعين ذراعا ؟ لو كان هذا يفقه معناها ويعيش فى هولها لكان كالسلف الصالح . نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ؛ وإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه . وقد حذر رسول الله ﷺ من أداء القرآن بلحون أهل العشق فقال : (إياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين ، وسيأتى بعدى قوم يرجعون فى القرآن ترجيع أهل الغناء والنوح لا يتجاوز حناجرهم . مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم) .. صدقت يارسول الله . لكأنك تنظر

(١) سورة النساء آية ٤٦ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .
(٣) سورة فصلت آية : ٣٤ .
(٤) سورة المجادلة آية : ٨ .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٩٠ ط دار الفكر .
(٦) سورة الأعراف آية : ٢٠٤ .
(٧) سورة الحاقة الآيات : ٣٠ - ٣٢ .

من وراء الحجب وتستشف الغيوب بما منحك الله من نفاذ البصيرة ونور النبوة . فقد أصبح قوم يرجعون فى القرآن حسب المقامات الموسيقية من الصبا والرصد والنهاوند والسيكا . فإن كانت الآية تبشر بالجنة قرأت من مقام السيكا ، وإن كان فيها وعيد وعذاب قرأت من مقام الصبا . واحرّ قلباه ، واحرّ قلباه . إن مائدة القرآن حافلة بألوان الجلال والكمال والجمال ، لكننا لا نحب أن نسمع فوقها طنين الذباب . لقد عجبت لمستمع فى أحد محافل القرآن ، لما سمع قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ﴾[1] انتفض من مكانه انتفاضة العصفور إذا بلله ماء المطر . وصاح بأعلى صوته : « اللهم اجعلنا منهم » ، وهو لا يدرى زمر النار من زمر الجنة . وقد يكون غافلا لاهيا عن سماع القرآن كما قال شوقى فى نهج البردة :

لقـد أنلتـك أذنـا غيـر واعيـة ... ورب مستمـع والقلب فى صمم

وقد بلغ السيل الزبى عندما أصبح كثيراً لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه . همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم . إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك . السنة عندهم بدعة ، والبدعة عندهم سنة ، لا يصلون إلا فى رمضان ولا يسمعون القرآن إلا من ذى صوت حسن .

قال الله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ ، ومنهم الذين يستهزئون برسول الله ويؤذونه بالكلام أو العمل . وأليم بمعنى : مؤلم موجع .

وبعد ذلك نبه الله المؤمنين إلى حقيقة واقعة لا مراء فيها فقال : ﴿ ما يود الذين كفـروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾ . هذه حقيقة قررها علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وفصلها فى قوله : ﴿ يا أيها الـذين آمنوا لا تتخـذوا بطانـة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط ﴾[2] . إذن لقد برح الخفاء وانكشف الغطاء عن قلوب هؤلاء ، مايودون ولا يتمنون أى خير ينزله الله على المؤمنين ، متجاهلين أن الله يختص برحمته من يشاء ، متناسين أن رحمة الله قريب من المحسنين وهو الذى قال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[3] . فسبحانك يا ذا الفضل العظيم والخير العميم . قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريًا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليًا .

(١) سورة الزمر آية : ٧١ .
(٢) سورة آل عمران الآيات : ١١٨ - ١٢٠ .
(٣) سورة الأعراف الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ .

آيات النسخ

* مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ
﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ
تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ
ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

النسخ مبحث من مباحث أصول الفقه ، وهو فى لغة الأصوليين : بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة . وقالوا : هو رفع الحكم بدليل شرعى متأخر . وسبب نزول آية النسخ أن المشركين واليهود قالوا : ألا ترون إلى محمد يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه ، ويقول اليوم قولا ويرجع عنه غدا ؛ فقد أمر فى حد الزانى بإيذاء الزانين باللسان حيث قال : ﴿ فآذوهما ﴾[١] ثم غيره وأمر بإمساكهن فى البيوت حيث قال : ﴿ فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ﴾[٢] ثم غيره بقوله : ﴿ فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾[٣] . سبحانك هذا بهتان عظيم . إن العليم الخبير عالم بأحوال عباده ومصالحهم وما يعود عليهم بالنفع . فإذا ما حكم بحكم فى زمان أو مكان ورأى من مصلحة العباد أن ينسخ هذا الحكم بحكم آخر فليس ذلك عبثا ، معاذ الله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق ﴾[٤] ، أى تنزه عن العبث ، فكل فعله حكمة بالغة وإن خفيت على الناس . وإذا ما اقتضت حكمته نسخ حكم بحكم آخر فليس ذلك عن جهل كما يدعى اليهود ، فإن علم الله صفة من صفاته القديمة الأزلية ؛ فالله تعالى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، إذ العلم صفة انكشاف . فأى جهل أمام هذا العلم الذى أحاط بكل شىء ؟ وهل يقال للطبيب إذا صرف للمريض دواء لفترة زمنية ثم غير هذا الدواء بدواء آخر لفترة أخرى ، أيُقال للطبيب إنه عابث أو جاهل ؟ لا بل يقال عنه إنه نطاسى حاذق وبطبه عالم . فإذا كان هذا لا يجوز أن يقال للطبيب الذى جدد الدواء بدواء آخر والطبيب بشر له علم يُدل به إن كان للمرء فى الأيام تأخير . فما بالك بمن له المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم . ومن ثمَّ فقد تقتضى الحكمة الإلهية أن ينسخ آية (أى حكمها) أو ينسيها أو ينسأها . فالنسخ والنسيان والإنساء كل هذا لحكمة عليا بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ نأت بخير منها أو مثلها ﴾ . والخيرية هنا إما أن تكون فى الثواب والأجر ، وإما أن تكون فى المصلحة والمنفعة ، وإما أن تكون مثلها فى الحكم ؛ هذا وقد يكون النسخ تدرجا فى التشريع كما فى تحريم الربا ، فقد بدأ بقوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو فى

(١) سورة النساء آية : ١٦ .
(٢) سورة النساء آية : ١٦ .
(٣) سورة النور آية : ٢ .
(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .

أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾[١] . ثم تدرج الحكم إلى تحريم الربا فى أبشع صوره ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[٢] ؛ ثم تدرج الحكم إلى التحريم النهائى القطعى ، قال تعالى : ﴿ وأحلَّ الله البيع وحرم الربا ﴾[٣] ، ثم قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾[٤] .

وما يقال فى تحريم الربا يقال فى تحريم الخمر ؛ فقد تدرج التشريع فى تحريم الخمر من قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾[٥] ، إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[٦] ، إلى قوله جلّ شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[٧] .

ولا يقع النسخ فى الأخبار ، إذ يلزم على نسخها الكذب ، وهو محال على أصدق القائلين ، إنما يقع فى الأمر والنهى والحظر والإطلاق والمنع والإباحة .

وللنسخ صور نجملها فيما يلى : فقد يكون إلى الأيسر ، كما فى عدة المرأة المتوفى عنها زوجها ؛ فبعد أن كانت حولا كاملا ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج ﴾[٨] ، خففت هذه العدة إلى أربعة أشهر وعشرة أيام ، كما فى قوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾[٩] .

وقد يكون النسخ بالمثل ، كما فى نسخ القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[١٠] .

وقد يكون النسخ إلى الأشد لزيادة الأجر والمثوبة ، كما حدث فى ترك موادعة المعتدين إلى مجاهدتهم وقتالهم . قال تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾[١١] .

وقد وقع النسخ أيضا فى السنة ، كما فى قوله ﷺ : (كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها . وكنت قد نهيتكم عن أكل لحوم الأضاحى ألا فكلوا منها)[١٢] . . وليس فى العقل ما يدل على امتناع النسخ

(١) سورة الروم آية : ٣٩ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٣٠ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٧٥ .
(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢١٩ .
(٦) سورة النساء آية : ٤٣ .
(٧) سورة المائدة آية : ٩٠ .
(٨) سورة البقرة آية : ٢٤٠ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٣٤ .
(١٠) سورة البقرة آية : ١٤٤ .
(١١) سورة البقرة آية : ١٩٠ .
(١٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٩٧ ط دار الفكر .

فى أحكام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء كما أنه يفعل ما يريد . وقد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك ، وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحا لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها ، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل ، وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل .

قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾ ؛ هذا استفهام يفيد التقرير ؛ فالله تعالى لا يمنعه مانع ولا يعجزه شىء من أن يحكم ما يريد ويفعل ما يشاء ، ونسخ الأحكام داخل تحت قدرته جلَّ فى علاه ؛ فهو سبحانه يخلق ما يشاء ويختار . فله ملك السماوات والأرض ، وهو المالك الملك الحاكم المتصرف ، قال تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض ﴾ ، وهذا استفهام أيضا للتقرير . فمن غيره يحكم ومن غيره يتصرف ؟ ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ ؛ الولى هو القريب والصديق ، والنصير هو المعين ؛ والولاية الحقيقية لله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾(٢) ، ﴿ومن يهن الله فما له من مكرم﴾(٣) ، ﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾(٤) .

فمن اعتمد على عقله اختلَّ ، ومن اعتمد على ماله قلَّ ، ومن اعتمد على علمه ضلَّ ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على الناس ملَّ ؛ ومن اعتمد على الله فلا اختل ولا قل ولا ضل ولا ذل ولا مل : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(٥) .

قال رافع بن خزيمة ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ : ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه ، وفجر الأنهار نتبعك . فنزل قوله تعالى : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضلَّ سواء السبيل ﴾ . ﴿ أم ﴾ بمعنى بل ، والهمزة أى تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل بنو إسرائيل نبيهم موسى فقالوا له : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾(٦) . إن من فعل هذا فقد تبدل الكفر بالإيمان ، أى باع الإيمان واشترى الكفر . ومن كان ذلك شأنه فقد ضلَّ وحاد وجار عن سواء السبيل ، أى عن السبيل المعتدل والصراط المستقيم . وسواء الشىء وسطه ، وسواء السبيل أعظمه اعتدالا .

---

(١) سورة يوسف آية : ٤٠ .
(٢) سورة الزمر آية : ٣٧ .
(٣) سورة الحج آية : ١٨ .
(٤) سورة النور آية : ٤٠ .
(٥) سورة آل عمران آية : ١٦٠
(٦) سورة البقرة آية : ٥٥ .

حسد أهل الكتاب

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٩) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١٠) ﴾

المفردات : الحسد : تمنى زوال نعمة الغير . ﴿ فاعفوا ﴾ العفو ترك العقاب على الذنب . ﴿ واصفحوا ﴾ الإعراض عن الذنب وترك العقاب وترك اللوم .

الحرب بين الكفر والإسلام حرب عقيدة ، والصراع بين الحق والباطل سلسلة متصلة الحلقات ، يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر وبطرفها الثانى إسرافيل نافخ الصور . ولاتزال طائفة من أمة محمد ﷺ ظاهرين بالحق ، لا يضرهم من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله . ولا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيختبىء اليهودى وراء الحجر فينادى الحجر قائلاً : يا مسلم إن ورائى يهودياً فاقتله . وقد أخبرنا القرآن الكريم باستمرارية تلك الحرب ، قال تعالى : ﴿ ولايزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾(١) ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾(٢) ، وقال سبحانه : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾(٣) .

وليست الحرب مقصورة على امتشاق الحسام أو ضرب السيوف أو رمى الرماح ، إنما هناك حرب كامنة فى النفوس تتحرك عقاربها وتهيج ثعابينها ؛ فهاهم أولاء أهل الكتاب يودون من صميم قلوبهم لو يردون المؤمنين كفاراً بالله ورسوله . والدافع من وراء هذا ما فى قلوبهم من حسد ، والحسد هو تمنى زوال نعمة الله ، وهو داء عضال ومرض وخبال ؛ ذلك ناشىء من عند أنفسهم . بماذا نصح الله الأمة الإسلامية المؤمنة ؟ أمرهم بالعفو ، وأمرهم بالصفح ، كما أمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ والعفو هو ترك العقوبة على الذنب ، كما أن الصفح هو ترك العقوبة والملام إلى أن يأتى الله بأمره ويأذن لهم بالقتال . ولقد جاء الإذن بالقتال بعدما لم يبق فى قوس الصبر منزع وغلى المرجل ثم انفجر . قال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾(٤) .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢١٧ .
(٢) سورة الكهف آية : ٢٠ .
(٣) سورة البروج آية : ٨ .
(٤) سورة الحج الآيات : ٣٨ - ٤٠ .

قوله تعالى : ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ . وهل يأتي النصر إلا من القدير سبحانه ؟ هذا تثبيت لقلوب المؤمنين وبعث للطمأنينة فى نفوسهم ، وإلى أن يأتى الله بأمره فليكن هناك عفو وصفح ، ولتكن هناك مداومة على أداء الصلوات لتطهير القلوب ، وليكن هناك طهارة للمال بدفع الزكاة ، وليكن هناك وعد صدق من الله وحده بأن ما يقدمه العبد من الخير فسيجده عند الله خيراً وأعظم أجراً ؛ فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ؛ فإن الذى وعد بهذا هو البصير بالأعمال ، لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؛ فجدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كئود .

موقف كل من اليهود والنصارى بالنسبة للآخر

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ ۚ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

المفردات : ﴿ هودا ﴾ جمع هائد وهم اليهود . ﴿ النصارى ﴾ قوم انحرفوا عن شريعة عيسى بن مريم ، فاعتقدوا بصلبه ، وثلثوا التوحيد ، وزعموا بنوته لله . ﴿ أسلم وجهه لله ﴾ جعل وجهه خالصاً لله وانقاد له .

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها ، كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[١] ، فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ، ورد عليهم تعالى فى ذلك ، وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال : ﴿ تلك أمانيهم ﴾ . وقال أبو العالية : أمانى تمنوها على الله بغير حق . وكذا قال قتادة والربيع بن أنس . ثم قال تعالى : ﴿ قل ﴾ أى يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ . قال أبو العالية : حجتكم . وقال قتادة : بينتكم على ذلك ، ﴿ إن كنتم

(١) سورة المائدة آية : ١٨ .

صادقين ﴾ ، أى فيما تدعونه . ثم قال تعالى : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ ، أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾(١) الآية . وقال أبو العالية والربيع : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله** ﴾ من أخلص لله . وقال سعيد بن جبير : ﴿ **بلى من أسلم** ﴾ أخلص ﴿ **وجهه** ﴾ أى دينه ﴿ **وهو محسن** ﴾ أى اتبع فيه الرسول ﷺ ، فإن للعمل المتقبل شرطين : أحدهما أن يكون خالصاً لله وحده ، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة . فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)(٢) رواه مسلم . فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ المبعوث إليهم وإلى الناس كافة ، وفيهم وفى أمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين ءامنوا وعملوا الصالحات وءامنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم * ذلك بأن الذين كفروا آتبعوا الباطل وأن الذين ءامنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾(٤) ﴿ الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾(٥) . وقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية * تسقى من عين آنية ﴾(٦) .

وروى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه تأولها فى الرهبان . وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة فى الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين ، كما قال تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾(٧) ، وقال تعالى : ﴿ فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون * ويمنعون الماعون ﴾(٨) . ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾(٩) . وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾ وقوله : ﴿ **فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ ، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وأمنهم مما يخافونه من المحظورات فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ على ما مضى مما يتركونه . كما قال سعيد بن جبير : ﴿ **لا خوف عليهم** ﴾ يعنى فى الآخرة ، ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ يعنى لا يحزنون للموت ، أى لا يحزنون على ما فاتوه فى الدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب** ﴾ . بين الله تعالى فى هذه الآية ما بين اليهود والنصارى من التباغض والتناقض والعداوة

(١) سورة آل عمران آية : ٢٠ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٦٢٥ ط دار الفكر .
(٣) سورة الفرقان آية : ٢٣ .
(٤) سورة محمد الآيات : ١ - ٣ .
(٥) سورة النور آية : ٣٩ .
(٦) سورة الغاشية الآيات : ٢ - ٥ .
(٧) سورة النساء آية : ١٤٢ .
(٨) سورة الماعون الآيات : ٤ - ٧ .
(٩) سورة الكهف آية : ١١٠ .

والعناد . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شىء وكفر بعيسى وبالإنجيل ، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شىء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة ، فأنزل الله فى ذلك من قولهما : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب** ﴾ . ومعنى قوله تعالى : ﴿ **وهم يتلون الكتاب** ﴾ أن كلاً يتلو فى كتابه تصديق من كفر به،أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى ، وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى ، وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما فى يد صاحبه .

أما قوله تعالى : ﴿ **كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم** ﴾ ، أى العرب الذين عارضوا دعوة الإسلام وناصبوها العداء ، وقالوا عن الهادى البشير ﷺ ليس محمد على شىء .

وقد حسم الله تلك القضايا حسماً مبرماً لا نقض فيه حين قال : ﴿ **فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ ، أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم الميعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، وذلك كقوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ إن الذين ءامنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾[1] ، وكما قال تعالى : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[2] .

تخريب المساجد

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

المساجد بيوت الله . قال تعالى : ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾[3] ، وهى منازل السكينة ومهابط الرحمة . عن سلمان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من توضأ فى بيته فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد فهو زائر الله[4] وحق على المزور أن يكرم الزائر)[5] . وقد أوصى الإسلام أن تكون المساجد بسيطة لا زخرفة ولا تصفير ولا تحمير . قال عمر : لا تصفر ولا تحمر ،

(١) سورة الحج آية : ١٧ .
(٢) سورة سبأ آية : ٢٠ .
(٣) سورة النور الآيات : ٣٦ - ٣٨ .
(٤) زائر الله : أى ضيف الله .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٤٦ ط وزارة الأوقاف .

وكنّ الناس من المطر . وعن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد)(١) . وقد كان مسجد الهادى البشير عليه صلوات ربى وتسليماته غاية فى البساطة ؛ كان سقفه الجريد وأرضه الحصباء ؛ إمامه محمد ومؤذنه بلال وخادمته أم محجن ، وخرّج عمالقة الرجال الذين لن يجود الزمان بأمثالهم إلا أن يشاء الله : تخرج فيه المصلح العظيم كأبى بكر ، والزعيم الملهم كعمر ، والحيى الكريم كعثمان ، والعبقرى الفذ كعلى ، والزاهد الأمين كأبى ذر ، والعالم النحرير كـابن عمر ، والمفتى الخبير كابن عباس ، والقائد الجبار كخالد ، والمحدث الحجة كـأبى هريـرة ، والفيلسوف البـارع كسلمان . فاسألوا التاريخ فى أى الجامعات تخرج هؤلاء ؟ إنهم لم يتخرجوا فى جامعات الشرق أو الغرب ، إنما تخرجوا فى جامعة لا شرقية ولا غربية ؛ إنها إسلامية قرآنية ، فيها العميد المصطفى لا يلحق . ولقد كانوا يفخرون عندما يتخرجون من المساجد وقد علمهم الله العلم النافع ؛ فكانوا يقولون إن فلاناً مسجدى ، كما نقول نحن إن فلاناً جامعى . واسمع معى إلى تلك الشهادة الربانية لعمار المساجد ، قال جلَّ شأنه : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾(٢) ، قال ﷺ : (إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان)(٣) . ولقد نفى الله ذلك الشرف الرفيع عن المشركين فقال فى محكم كتابه : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ﴾(٤) ، هؤلاء هم الذين يخربون بيوت الله ويسعون فى خرابها ، ما حالهم عند الله ؟ اسمع معى إلى هذا النص الكريم : ﴿ ومن أظلم ﴾ ؟ الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفى ، فيكون المعنى : لا أحد فى الدنيا أظلم ممن منع مساجد الله ، لأنه يخرب بيوت أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأسرع الحاسبين ؛ وخرابها يكون بمنع الذكر فيها ، أى بمنع ذكر الله من صلاة وخطبة ودروس علم . فإذا كان الله قد أوعد الذين يسعون فى خرابها ، فما بالك فى الذين خربوها ؟ هؤلاء حكم الله عليهم بأحكام جاءت جزاءً وفاقاً ، لأنهم كانوا لا يرجون حساباً ؛ حكم عليهم بالخوف إذا دخلوا المساجد ، خوف رعب وفزع ، لأن ملائكة الله غاضبة عليهم لغضب الله عليهم ، كما حكم عليهم بالخزى فى الدنيا ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾(٥) ، لأنهم خوفوا الناس وأرهبوهم ومنعوهم من بيوت الله . وقد وردت فى المساجد أحاديث شريفة نطق بها الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه نورد بعضها فيما يلى :

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من بنى مسجداً يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتاً فى الجنة)(٦) . وعن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من بنى لله مسجداً قدر مفحص قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنة)(٧) .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٤٣ ط دار الفكر .
(٢) سورة التوبة آية : ١٨ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٤٨ ط وزارة الأوقاف .
(٤) سورة التوبة آية : ١٧ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٦٧ .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٢٩ ط وزارة الأوقاف .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٢٩ ط وزارة الأوقاف .
المفحص العش الصغير والقطاة نوع من العصافير .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (من بنى بيتاً يعبد الله فيه من مال حلال بنى الله له بيتاً فى الجنة من در وياقوت)[١] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علماً علمه ونشره ، أو ولداً صالحاً تركه ، أو مصحفاً ورثه ، أو مسجداً بناه ، أو بيتاً لابن السبيل بناه ، أو نهراً أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته)[٢] .

وروى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس رضى الله عنهما أن امرأة كانت تلقط القذى من المسجد فتوفيت فلم يؤذن النبى ﷺ بدفنها فقال النبى ﷺ : (إذا مات لكم ميت فآذنونى وصلى عليها وقال إنى رأيتها فى الجنة تلقط القذى من المسجد)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ ، جاء فى سبب نزولها أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة المنورة أمره الله تعالى أن يتوجه إلى بيت المقدس ، فظل هكذا ستة عشر شهراً ، ولكنه كان يحب قبلة إبراهيم البيت الحرام ، واشتد به الحنين ، فكان يدعو الله تعالى أن يأذن له بذلك ، فأنزل الله عليه : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾[٤] ، فاغتاظت اليهود وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ وقد وصفهم الله تعالى بالسفه لما قالوا ذلك فقال ﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾[٥] ، ورد الله تعالى عليهم قولهم فقال : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[٦] ، وجاء فى سبب نزولها أيضاً عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة ، فنزلنا منزلاً فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً فيصلى فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة ، فقلنا يارسول الله : لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة . فأنزل الله تعالى ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ . فما من شك فى أن الله تعالى رب المشارق والمغارب ، ورب المشرقين ورب المغربين ، ورب المشرق والمغرب ، لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً . وهو سبحانه مع الجميع بعلمه وقدرته ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[٧] . وهو سبحانه وتعالى واسع ؛ وسع كل شىء رحمة وعلماً ، عليم علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ ، أى فهناك وجه الله منزهاً عن التحيز ، منزهاً عن المحسوسات ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٤) سورة البقرة آية : ١٤٤ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٤٢ .
(٦) سورة البقرة آية ١٤٢ .
(٧) سورة المجادلة آية : ٧ .

مفتريات أهل الكتاب والمشركين

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

المفردات : ﴿ سبحانه ﴾ تنزيهاً له عما يصفون . ﴿ بديع ﴾ : مبدع . ﴿ قانتون ﴾ : منقادون .

قال البخارى عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال قال الله تعالى : (كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ؛ فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله إن لى ولداً فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً) .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم)[1] .

لقد افترى أهل الكتاب وبعض مشركى العرب ، افتروا على الله فرية ما فيها مرية عندما نسبوا لله الولد ، وهو سبحانه تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ؛ بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ؛ أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ؛ واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، لا جسم ولا صورة ولا معدود ولا محدود ولا متبعض ولا متجزىء ولا متناهٍ ولا متلون ولا متكيف ، وكل ما خطر ببالك فإن الله تعالى بخلاف ذلك . والقول السديد الذى يخاطب الله به العقل الرشيد هو قوله جل شأنه : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾[2] ، وقوله جلّ جلاله : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾[3] . ولقد صحح القرآن الكريم مفاهيم قوم جاءوا يسألون الهادى البشير صلوات ربى وسلامه عليه ويقولون : خبرنا يا محمد عن ربك ، أمن ذهب هو أم من فضة ؟ فأنزل الله سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء بتلك السورة التى تفيض إخلاصاً وتوحيداً ، وتشع بهاءً وضياءً ، وتملأ الكون جلالاً وتسبيحاً وكمالاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً وتمجيداً وجمالاً : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ؛ فمن قرأها مرة أعطاه الله ثواب من قرأ ثلث القرآن ، ذلك لما احتوت عليه من أشرف القضايا ، وهى قضية التوحيد . لقد رد الله على هؤلاء المفترين رداً حاسماً جازماً يدعو العقول إلى أن تتفهم ما تنطق به

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٣١ ط الشعب .
(٢) سورة الشورى آية : ١١ .
(٣) سورة طه آية : ١١٠ .

الألسنة . قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾(١) .

أتدرون عمن تتكلمون ؟ وإلى من تنسبون الولد ؟ أشابه المخلوقات فى شىء ؟ سبحانه . هو الذى لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، لقد ضجت السموات العلا والأرض من هذا القول الكاذب الشنيع ، قال سبحانه : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمٰن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً * إن كل من فى السموات والأرض إلا ءاتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدًّا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾(٢) .

وكيف يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ إن النصارى الذين ادعوا هذا القول الباطل رد عليهم مولانا جلَّ ذكره بقوله : ﴿ **بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون** ﴾ أى طائعون عابدون مخلصون مسبحون الليل والنهار لا يفترون . إن الإنسان قد يحتاج إلى الولد ليقوم بالإنفاق عليه إذا كبرت سنه أو ضعفت قواه ؛ والله له ما فى السموات والأرض ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٣) .

وفى الآية الأخرى قال سبحانه : ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾(٤) ، وسمى هذا افتراءً فقال : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾(٥) ، ثم حدد مصيرهم وجزاءهم فقال : ﴿ متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾(٦) . فما الداعى إلى اتخاذ ولد وهو الغنى الواحد فى ذاته ، لا قَيِّمَ له ، الواحد فى صفاته لا شبيه له ، الواحد فى أفعاله لا شريك له ؟ وكيف يتخذ ولداً وقد سمى الولد لهواً فى قوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لـعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذنـه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾(٧) . فالغنى لا حاجة به إلى الولد ، فما بالك إذا كان المنسوب إليه الولد هو مالك السماوات والأرض رب العرش العظيم ؟ إن الإنسان قد يتخذ الولد ليخلد ذكراه بعد موته ، والله حى لا يموت . قال سبحـانه : ﴿ وتـوكل عـلى الحى الذى لا يمـوت وسبح بحمـده وكفى به بـذنوب عبـاده خبيراً ﴾(٨) . فما هى الحاجة إلى أن يتخذ الرحمٰن ولداً ؟ أمن أجل أن يسانده ويقويه ويعتز به : ﴿ من كان يريد العزة فللّه العزة جميعاً ﴾(٩) . لقد حـل الله تلك القضية حـلاً موجـزوياً عنـدما قـال لعبده المسيح وأمـه : ﴿ ما المسيـح ابن مـريم إلا رسـول قـد خلت من قبله الـرسـل وأمـه صـديقـة كـانـا يأكلان

(١) سورة الأنعام الآيتان : ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) سورة مريم الآيات : ٨٨ - ٩٥ .
(٣) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .
(٤) سورة يونس آية : ٦٨ .
(٥) سورة يونس آية : ٦٩ .
(٦) سورة يونس آية : ٧٠ .
(٧) سورة الأنبياء الآيتان : ١٦ ، ١٧ .
(٨) سورة الفرقان آية : ٥٨ .
(٩) سورة فاطر آية : ١٠ .

الطعام ﴾(١) ؛ هذه الكلمة ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ مفتاح القضية كلها : فالـذى يأكـل الطعـام يجوع ويظمأ ، والطعام هـو الذى يكـوّن الخلية ، والخلية هى التى تكوّن الأنسجـة ، ومن الأنسجة تتكـوّن الأعضاء ، ومن الأعضاء تتكوّن الأجهزة ، والذى شأنه كذلـك ينام ، ومن جـاز عليه النـوم جاز عليـه المرض ، ومن أكل وشرب لابد له أن يتخلص من الفضلات بالذهاب إلى الخلاء . فأى إله هذا الذى تكون تلك شؤونه ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم . ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾(٢) . إن هذا الذى ينسبون إليه الولد ، من صفاته وأفعاله أنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

قال سبحانه : ﴿ بديع السماوات والأرض ﴾ ، أى خالقهما ومنشئهما على غير نسق سابق ، لأنه أوجدهما من العدم ، وإذا قضى أمراً : أى أراده ، لا يحتاج إلى معين أو مساعد أو مخطط أو مهندس إنشاء أوبناء أو مخترع أو عالم فى أصول الصناعات ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾(٣) . ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾(٤) . وهؤلاء الذين يعجبون لخلق عيسى لغير أب أليس عيسى أهون من خلق آدم الذى لا أم له ولا أب ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون * الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ . وهذا موقف آخر من مواقف العناد والإصرار على اللجاج . قال ابن عباس قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه . فأنزل الله فى ذلك قوله : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ . وقال مجاهد : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ﴾ قال النصارى تقوله وهو اختيار ابن جرير قال : لأن السياق ورد فيه ، وقال الإمام القرطبى : ﴿ لولا يكلمنا الله ﴾ أى يخاطبنا بنبوتك يا محمد ، وهذا ظاهر السياق . وقال آخرون : هذا قول كفار العرب . أما قوله تعالى : ﴿ كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ﴾ ، فالمقصود بهم أهل الكتابين من اليهود والنصارى . أما قوله تعالى : ﴿ أو تأتينا آية ﴾ ، فقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيات حسية ، من ذلك قولهم ، كما حكى عنهم القرآن الكريم : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾(٦) . وكما فى قوله جلّ شأنه : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا

(١) سورة المائدة آية : ٧٥ .
(٢) سورة الكهف الآيات : ١ - ٥ .
(٣) سورة النحل آية : ٤٠ .
(٤) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .
(٥) سورة آل عمران الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .
(٦) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣ .

أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾[١] ، وكما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله يعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾[٢] . قوله تعالى : ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ يبينه قوله جلَّ شأنه : ﴿ أتواصوا به بل هم قومٌ طاغون ﴾[٣] ، وقوله تبارك اسمه : ﴿ ما يقال لك إلاّ ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[٤] ، فكأن قلوبهم كانت على قلب رجل واحد منهم ، فالأمراض واحدة ، والجدال هو الجدال ، واللجاج هو اللجاج ، وذلك كله نابع عن قلوب عشش فيها الشيطان ، وفرخ فيها الإلحاد ، وباض فيها الزندقة .

وماذا يحدث لو جاءتهم هذه الآيات ؟ هل كانوا سيؤمنون أو يغيرون مواقف العناد فى نفوسهم ؟ إن ظاهر الآيات القرآنية يدل أن علام الغيوب مطلع على ما فى قلوبهم من العناد والإصرار والاستكبار ، قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٥] ، وقال سبحانه : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٦] ، وقال جلَّ ذكره : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[٧] . ومن قبل هؤلاء المشركين قال الناس لموسى : ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾[٨] . فكأن عنصر الزمن ملغى بين هؤلاء وأولئك ، وكأنهم تخرجوا فى مدرسة واحدة ودرسوا على أستاذ واحد هو الشيطان . أعاذنا الله منه . فاللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه . اللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

قوله تعالى : ﴿ قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ . المراد بالآيات : الحجج القاطعة والبراهين الساطعة والأدلة الصادقة على صدق المرسلين وثبوت النبوة لهم . قد بيناها ووضحناها بما لا يدع مجالاً للشك ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٩] ، ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختارٍ كفور ﴾[١٠] .

وهذه الآيات إنما ينتفع بها أهل اليقين الذين يريدون الوصول للحق ولا يجرون وراء الهوى ولا يتبعون شهوات النفس . وطريق الحق لا يختلف ، فالحق أبلج والباطل لجلج ، وقد انكشف الغطاء وبرح الخفاء ، فالحق واضح والطريق لائح والمنادى صائح ، فطوبى لقوم سمعوا النداء فقالوا : ﴿ ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾[١١] . وهنيئا لقوم من الجن استمعوا إلى القرآن

---

(١) سورة الفرقان آية : ٢١ .
(٢) سورة الأنعام آية : ١٢٤ .
(٣) سورة الذاريات آية : ٥٣ .
(٤) سورة فصلت آية : ٤٣ .
(٥) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .
(٦) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥ .
(٧) سورة القمر الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٨) سورة الأعراف آية : ١٣٢ .
(٩) سورة الكهف آية : ٢٩ .
(١٠) سورة لقمان آية : ٣٢ .
(١١) سورة آل عمران الآيتان : ١٩٣ ، ١٩٤ .

فقالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[١] . هنيئا لهم وقد أثنى عليهم رب العزة فى قوله : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوْا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾[٢] .

مع خاتم الأنبياء

إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

هذا خطاب ربانى لصاحب الرسالة العصماء محمد ﷺ ﴿ إنا أرسلناك بالحق ﴾ أى إرسـالاً متلبساً بالحق ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فأنت مبعوث العناية الإلهية ، فأكرم به من نبى ، أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وأقلام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى . سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيدى يارسول الله معذرة ... إذا كبا فيك تبيانى وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة ... وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالبدر وضاح الأسارير ... تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
على جبينك نور الحق منبلجاً ... وفى يديك لواء العدل والنور

قال ابن عباس : ما خلق الله ولا برأ ولا ذرأ أفضل من محمد ﷺ ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته فقال : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾[٣] .

والله ما خلق الإله ولا برا ... بشراً يرى كمحمد بين الورى
ياسيد العقلاء ياخير الورى ... يامن أتيت إلى الحياة مبشّرا
وبعثت بالقرآن فينا هادياً ... وطلعت فى الأكوان بدراً نيِّرا

قال ابن مسعود : اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاختاره لنبوته ؛ ثم اطلع على قلوب العباد بعده فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاختارهم لصحبته .

وماخاطب الله نبياً فى القرآن إلا باسمه ، ولكنه خاطب محمداً ﷺ بعنوان النبوة والرسالة ، قال تعالى : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[٤] ، ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ﴾[٥] ،

(١) سورة الجن الآيتان : ١ ، ٢ .
(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٢٩ - ٣١ .
(٣) سورة الحجر آية : ١٢ .
(٤) سورة الأعراف آية : ١٩ .
(٥) سورة هود آية : ٤٨ .

﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾(١) ، ﴿ يا موسى إنى أنا ربك ﴾(٢) ، ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ﴾(٣) ، ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾(٤) ، ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾(٥) ، ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾(٦) .

فإذا ما خاطب سيد المرسلين خاطبه قائلاً : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾(٧) ، ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾(٨) . هذا تكريم له ، حتى إذا خاطب نساءه قال : يا نساء النبى ، وحتى فى مقام الملاطفة والعتاب يقول له : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ .

أرسلناك بشيراً بالجنة ونذيراً بالنار ، وأنت القائل : (كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى)(٩) . لقد ورد ذكرك فى التوراة مشتملاً على بعض ما ورد فى القرآن .

قال عطاء بن يسار : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة ، فقال : (أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ﴾ وحرزاً للأميين ؛ وأنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ؛ لست بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عميا وآذاناً صما وقلوباً غلفاً) . رواه أحمد(١٠) .

قوله تعالى : ﴿ ولا يُسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ ، أى لست مسئولاً عما اقترفوا من الجرائم ، إنما ﴿ عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾(١١) ، ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾(١٢) ، ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾(١٣) ، ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾(١٤) . إنما أنت المبلغ لأحكام الله . ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾(١٥) ، ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾(١٦) ، ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ﴾(١٧) ، ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾(١٨) ، ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾(١٩) ، ﴿ إنما أنت منذرٌ ولكل قوم هاد ﴾(٢٠) ، ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٢١) ، ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(٢٢) ، ﴿ وقل

(١) سورة الصافات الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢) سورة طه الآيتان : ١١ ، ١٢ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٥٥ .
(٤) سورة ص آية : ٢٦ .
(٥) سورة مريم آية : ٧ .
(٦) سورة مريم آية : ١٢ .
(٧) سورة المائدة آية : ٦٧ .
(٨) سورة الأحزاب آية : ٤٥ .
(٩) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .
(١٠) تفسير ابن كثير جـ٦ ص ٤٢٩ ط الشعب .
(١١) سورة الرعد آية : ٤١ .
(١٢) سورة الغاشية آية : ٢٢ .
(١٣) سورة الأنعام آية : ١٠٧
(١٤) سورة ق آية : ٤٥ .
(١٥) سورة القصص آية : ٥٦ .
(١٦) سورة البقرة آية : ٢٧٢ .
(١٧) سورة النحل آية : ٣٧ .
(١٨) سورة فاطر آية : ٨ .
(١٩) سورة المائدة آية : ٩٩ .
(٢٠) سورة الرعد آية : ٧ .
(٢١) سورة سبأ آية : ٢٨ .
(٢٢) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .

للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[1] ، ﴿ قد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم * فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾[2] ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[3] ، ﴿ فإن تولوا فقل ءاذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾[4] ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ .

هذا دليل قاطع على أنه هو الرحمة المهداة والنعمة المسداة . نشهد يا رسول الله أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، ومحوت الظلمة ، وجاهدت فى الله حق جهاده حتى آتاك اليقين ؛ فجزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، ورسولاً عن قومه . ألست أنت الذى قلت : (لكل نبى دعوة مستجابة يدعو بها ، وأريد أن أخبيء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة ؟) . فيا صاحب المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والموقف المشهود ، نسأل الله ألا يحرمنا أجرك ، ولا يفتنا بعدك حتى نشرب من يدك الشريفة شربة ماء لا نظمأ بعدها أبداً . ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾ .

تنبيه وتحذير

وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

وبعدما خاطب الله تعالى رسوله بالبشارة والنذارة بين له سبحانه أن الصراع بين الحق والباطل دائم دائب مستمر ، وأن الكفر كله ملة واحدة ؛ فاليهود والنصارى لن يرضوا عنك مهما بذلت معهم من الأدلة والبراهين ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾[6] . وإذا كان الأمر كذلك فاحذرهم ، لأنهم لن يرضوا عنك إلا إذا اتبعت قبلتهم . والمقصود بهذا الخطاب وفى هذه العبارة بالذات أمته ، فهو ﷺ قد ثبته الله على الحق وأيده به وقال له فى محكم كتابه : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ماتعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم

(١) سورة هود الآيات : ١٢١ - ١٢٣ .
(٢) سورة التوبة الآيتان : ١٢٨ ، ١٢٩ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ١٠٧ .
(٤) سورة الأنبياء الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠ .
(٥) سورة النساء آية : ٦٩ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٤٥ .

عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولى دين ﴾[1] ، وقال له : ﴿ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾[2] . ثم بين الله تعالى عاقبة اتباع ملتهم بعدما لقنه الحجة البالغة فى قوله : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ ، وهذه عبارة حصر وقصر تفيد أن غير هذا ليس بهدى ؛ وفى آية أخرى : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾[3] ، وفى آية : ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾[4] ، وفى آية : ﴿ من يُضلِلِ الله فلا هادِىَ له ﴾[5] ، وفى آية : ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[6] ؛ ثم قال سبحانه : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾ . فالولى هو القريب والصديق ، والنصير هو المعين ولو لم يكن قريباً ، فمن خالف الله وعصى أوامره وأشرك به ، فمن يهديه من بعد الله ؟ ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجإٍ يومئذٍ وما لكم من نكيرٍ ﴾[7] ، ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[8] ، ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[9] .

فمن اعتمد على ماله قل ، ومن اعتمد على علمه ضل ، ومن اعتمد على عقله زل ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على الناس مل ، ومن اعتمد على ذكائه اختل ؛ ومن اعتمد على الله فلا مل ولا ضل ولا زل ولا ذل ولا مل ولا اختل .

قال رسول الله ﷺ : (لا تزل طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)[10].

سيدى أبا القاسم يارسول الله . .

صلت عليك ملائك الرحمن   وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزوداً   بحمى الإله وراية القرآن

قوله تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ ؛ المراد بالكتاب هنا هو القرآن الكريم ، والمراد بحق التلاوة أى الإحسان فى قراءته بأحكامه ، سواء كان الذين أوتوا الكتاب من أهل الكتاب الذين آمنوا برسالة سيدنا محمد ﷺ أم من أمة سيدنا محمد ﷺ الذين قال الله فيهم : ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور * ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾[11] ، والذين قال فيهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾[12] . وقد يكون المراد بالذين أوتوا الكتاب هم أهل الكتاب الذين أسلموا ويتلونه ، أى يتلون

(١) سورة الكافرون الآيات : ١ -٦ .
(٢) سورة الزمر آية : ٦٤ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٢٠ .
(٤) سورة الإسراء آية : ٩٧ .
(٥) سورة الأعراف آية : ١٨٦ .
(٦) سورة النور آية : ٤٠ .
(٧) سورة الشورى اية : ٤٧ .
(٨) سورة الحج اية : ٣١ .
(٩) سورة ال عمران آية : ١٦٠ .
(١٠) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٣٤ ط الشعب
(١١) سورة فاطر آية : ٣٠ .
(١٢) سورة فاطر آية : ٣٢ .

القرآن ، قال تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * وقرءاناً فرقناه لتقرأهُ على الناس على مكثٍ ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾(١) ، والذين قال الله فيهم : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا ءامنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءُون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٢) . وحق التلاوة يشمل إتقان قراءته مرتلاً بتؤدة ، كما يشمل التأثر بتلاوته : (اقرأوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، واقرءوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ، وإياكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتاب . وسيأتى بعدى قوم يرجعون فى القرآن ترجيع الغناء والنوح ، لا يتجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم) . والمراد بحق تلاوته أن يقف الإنسان عند وعده ووعيده ؛ ورحم الله أصحاب محمد ﷺ ، نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

وحق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ، وحق تلاوته أن يكون خلقه القرآن ؛ فإذا كان الكون قرآناً صامتاً فإن القرآن كون ناطق ، وإذا كان ذلك كذلك فقد كان نبى الله ﷺ قرآناً يمشى بين الناس . ويرحم الله مجتمعاً تأثر بالقرآن كانت الزوجة إذا خرج زوجها أول النهار قالت له : اتق الله ولا تأكل حراما ، إننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة . فإذا عاد آخر يومه سألته : ماذا نزل اليوم من القرآن وكم حفظت من حديث رسول الله ؟ فإذا ما صلى العشاء وجاء إلى بيته وأخذ مضجعه لينام تزينت له بالوضوء وسألته : هل لك من حاجة إلىّ ، فإذا كانت له حاجة قضاها وإلا استأذنته أن تقوم لله فتؤدى ركعاتها فى جوف الليل . هذا مجتمع القرآن فى حومات الوغى وساحات القتال . كتب سعد بن أبى وقاص بعد نصر الله له فى موقعة القادسية كتب يقول لعمر : إن المسلمين إذا جن عليهم الليل سمعت لهم دوياً بالقرآن كدوى النحل ، فهم رهبان بالليل ، فرسان بالنهار .

قال تعالى : ﴿ ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ ، أى من يكذب بهذا القرآن ولا ينفذ أحكامه ولا يقيم حدوده ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾(٣) .

---

(١) سورة الإسراء الآيات : ١٠٥ - ١٠٩ .
(٢) سورة القصص الآيات : ٥٢ - ٥٤ .
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٣ - ١٠٥

خطاب إلى بنى إسرائيل

يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

وهذا هو الخطاب الثالث الذى خاطب الله به بنى إسرائيل بهذا العنوان فى هذه السورة . قال تعالى : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ﴾(١) . وفى الخطاب الثانى قال : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾(٢) . وهذا هو الخطاب الثالث ، والله تعالى يمن عليهم ويتكرم ويذكرهم بنعمه ؛ فقد أرسل إليهم رسلاً ، وجعل منهم ملوكاً ، وأرسل لهم من الخيرات ما تعجز الأفئدة عن أداء شكره . وقد سبق تعداد تلك النعم : نجاهم من آل فرعون ، وفرق بهم البحر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وفجر من الحجر عيوناً ، ورزقهم من الطيبات ؛ ومن ثم فقد حذرهم من يوم ما أطوله ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله . وفى الآيات السابقة قال لهم : إن هذا اليوم لا يقبل فيه عدل ، وفى هذه الآية قال لهم إن هذا اليوم لا تنفع فيه شفاعة ، وتلك تضية منطقية ؛ فحيث إن الشفاعة لم تقبل هناك فإنها لا تنفع هنا . وفى الآية السابقة على هذه الآيات قال : ﴿ ولا يؤخذ منها عدل ﴾(٣) ، وقال هنا : ﴿ لا يقبل منها عدل ﴾ ، وحيث لا يؤخذ فإنه لا يقبل ؛ فالمعانى يكمل بعضها بعضا ، فحيث لا قبول للشفاعة فلا نفع لها ، وحيث لا أخذ للفدية فإنه لا قبول لها ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾(٤) . هذا وقد سبق تفسير هاتين الآيتين فليرجع إليه من شاء .

ابتلاء الله إبراهيم

* وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿ إذ ﴾ هنا ظرف فى محل النصب على المفعولية على تقدير : اذكر يا محمد للكفار ولأهل الكتاب منهم ما حدث للخليل إبراهيم عندما طلب الله منه وابتلاه بكلمات . وخص إبراهيم بالذكر لأنه أبو الأنبياء ، فهو أبو إسماعيل الذى كان من ذريته سيد الأنبياء والمرسلين ، وأبو إسحق الذى كان من ذريته أنبياء بنى

(١) سورة البقرة آية : ٤٠ .
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٤٧ ، ٤٨ .
(٣) سورة البقرة آية : ٤٨ .
(٤) سورة لقمان آية : ٣٣ .

إسرائيل ، فالعرب وبنو إسرائيل من ذرية الخليل إبراهيم . ولقد كان إبراهيم حنيفا مسلما ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾(١) ، ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾(٢) ، ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾(٣) ، ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾(٤) .

وإبراهيم هو الذى ضرب جبهات الشرك بيد من حديد ؛ مرة فى جبهة الأصنام والتماثيل : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وءاباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾(٥) ثم أقسم بالله قائلا : ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ﴾(٦) .

وضرب جبهة الشرك فى قلعة الكفر بعدما أرخى العنان للخصم : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموٰت والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾(٧)

هذه صورة قرآنية معبرة أتم تعبير عن موقع هذا النبى ومكانته ؛ فهو إمام الموحدين الذى رفع راية التوحيد خفاقة عالية تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء على ربوع قلعة الأصنام وعاصمة الشرك .

ومعنى الابتلاء : الاختبار ليعلم الناس مكانة هذا المبتلى بتلك الأحكام وكيف قام بها خير قيام وأداها على أتم وجه وأحسن صورة . وكلمات الله قد يراد بها الكلمات القدرية كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ﴾(٨) ، وقد يراد بالكلمات الكلمات التشريعية من الأوامر والنواهى ، كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾(٩) . والكلمات التى بين أيدينا فى آية الابتلاء كلمات تشريعية ، اختبر الله بها خليله فأداها على خير وجه وأكمله . فما هى تلك الكلمات ؟

(١) سورة البقرة آية : ١٣١ .
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) سورة النحل الآيات : ١٢٠ - ١٢٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٦١ .
(٥) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٨٢ .
(٦) سورة الأنبياء الآيتان : ٥٧ ، ٥٨ .
(٧) سورة الأنعام الآيات : ٧٦ - ٧٩ .
(٨) سورة التحريم آية : ١٢ .
(٩) سورة الأنعام آية : ١١٥ .

قال ابن عباس : المقصود بها المناسك والطهارة : خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد ؛ فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والاستنشاق ، والسواك ، وفرق الرأس ؛ وفى الجسد : تقليم الأظافر ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الإبط ، والاستنجاء . وجاء فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (عشر من الفطرة : قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء ، ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة) . قال وكيع : انتقاص الماء يعنى الاستنجاء[1] .

وقال ابن عباس : ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم . قال الله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾ ، قلت لهم : وما الكلمات التى ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن ؟ قال : الإسلام ثلاثون سهماً ، منها عشر فى سورة براءة : ﴿التّٰئِبون العٰبدون الحٰمدون السّٰئِحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[2] . وعشر فى أول سورة قد أفلح المؤمنون قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون* والذيم هم لفروجهم حافظون* إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ . وعشر فى سورة الأحزاب ، قال تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[3] .

وقال الحسن : إن الابتلاء كان فى الكوكب والقمر والشمس والقذف فى نار الدنيا وذبح ولده والهجرة من وطنه فوفى بكل هذا فاستحق ثناء الله عليه فى قوله : ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾[4] .

وقال آخرون : إن الكلمات التى ابتلى بها إبراهيم جاءت فى هذه الآيات ﴿ إنى جاعلك للناس إماما ﴾ ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾[5] . ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾[6] .

وبعدما أتم إبراهيم كلمات الله التى سبق بيانها وأداهن كما أمره الله ، سأل ربه بعدما قال الله له ﴿إنى جاعلك للناس إماما﴾ ، أى رسولاً يبلغ شرع الله ، أميناً على وحى الله ، يخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وفياً لدين الله ، أسوة حسنة للناس ، وقدوة طيبة لعباد الله ؛ سأل إبراهيم ربه أن يجعل من ذريته

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ١ ص ٥٤٣ ط الشعب .
(٢) سورة التوبة آية : ١١٢ .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .
(٤) سورة النجم آية : ٣٧ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٢٥ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٢٨ .

أثمة ، قال له الله : ﴿ لا ينال عهدى الظالمين ﴾ ، أى سأجعل الصالحين من ذريتك أثمة ، أما الظالمون فإن عهدى لا ينالهم . وقد أفاض السلف فى تفسير هذا النص الكريم : فمن قائل إن المقصود بالظلم هنا هو الشرك ، والمشرك لا ينال عهد الله ، لأنه ليس له عند الله عهد ولا ذمة ؛ فقد برئت منه ذمة الله . ومن قائل إن المراد بالعهد طاعة الله ، وطاعة الله لا تنال الظالم ، فليس للظالم طاعة . ومن هنا فقد قالوا : إن الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً . وقد أخبر الله عن ذرية إبراهيم وإسحق فقال : ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾(١) ، فالمحسن يناله عهد الله سواء كان ذلك العهد نبوة أو طاعة أو خلافة فى الأرض ، أما الظالم لنفسه فلا مجال له فى تلك المسئوليات .

البيت مثابة وأمن

وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾

المفردات : ﴿ البيت ﴾ : غلب استعماله فى بيت الله الحرام بمكة . ﴿ مثابة ﴾ : أى مرجعاً يثوب إليه هؤلاء الزوار وأمثالهم . ﴿ وأمناً ﴾ : أى موضع أمن . و﴿ مقام إبراهيم ﴾ : هو الحجر الذى كان يقوم عليه حين بناء الكعبة . ﴿ المصلى ﴾ : موضع الصلاة ، أى الدعاء والثناء على الله تعالى . ﴿ وعهدنا ﴾ : إذ أوصاه به . ﴿ الثمرات ﴾ : المأكولات مما يخرج من الأرض والبحر . والاضطرار : الإكراه . يقال اضطررت فلاناً إلى كذا ، أى ألجأته إليه وحملته عليه .

وبعدما آتم إبراهيم كلمات الله قال الله تعالى لرسوله ومصطفاه الهادى البشير : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا ﴾ . أى اذكر لقومك ما نالهم من الشرف العظيم والكرم الرفيع بسبب البيت الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل فى مكة ، واستجبنا دعوة إبراهيم فجعلنا البيت مثابة يثوب إليه الناس ويأتون إليه من كل فج عميق ، فإذا ما رجعوا إلى بلادهم أخذهم الحنين والشوق إليه ، فيثوبون إليه مرة ومرة ، وذلك من ثمرات الدعوة المباركة : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾(٢) ، فكان الأمر كما دعا الخليل واستجاب الله ، فما من مسلم يذهب إلى البيت ويعود إلى دياره إلا ولواعج الشوق تعتلج فى

(١) سورة الصافات آية : ١١٣ .

(٢) سورة إبراهيم آية : ٣٧ .

قلبه ، فيطير على جناح السرعة معتمراً أو حاجاً أو معتمراً وحاجاً ، ليطفىء غليل الشوق ، كذلك يطفىء الغلة المنهل العذب حتى أصحاب الأعذار يقولون :

يا ذاهبين إلى البيت الحرام لقد سرتم وسرنا نحن اليوم أرواحا
لقد أقمنا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر فقد راحا

إن الله تعالى لما أمر خليله ببناء البيت وبناه ، أمره أن يؤذن فى الناس بالحج ، قال إبراهيم : وما يبلغ صوتى ؟ قال : يا إبراهيم عليك الأذان وعلينا الإبلاغ . فصعد إبراهيم على جبل أبى قبيس ونادى : أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً فحجوه . فقالت الأرواح فى عالم الغيب الأمين : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك . فمازالت الأفئدة وستظل تهوى إلى البيت شوقاً وتأتى إليه رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق . مصداقاً لقوله جلَّ شأنه : ﴿ وإذ بوَّأنا لإبراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات ﴾(١) .

فالمثابة هو البيت الذى يثوب الناس إليه لينالوا ما عند الله من المثوبة والأجر . والنعمة الثانية من أنعم الله على المسلمين فى البيت الحرام نعمة الأمن والأمان ، وهى نعمة لا تعدلها نعمة بعد نعمة الإسلام . وقد وصف الله أهل الجنة بقوله : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرقٍ متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ﴾(٢) .

وقد قدم الله نعمة الأمن على نعمة الرزق فى قوله : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾(٣) .

وقد امتن الله تعالى على قريش بأن جعل البيت أمناً فقال : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾(٤) . وقال سبحانه : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾(٥) .

لك الدين يارب الحجيج جمعتهم لبيت طهور الساح والشرفات
أرى الناس أفواجاً ومن كل بقعة إليك انتهوا من غربة وشتات

(١) سورة الحج الآيات : ٢٦ - ٢٨ .
(٢) سورة الدخان الآيات : ٥١ - ٥٦ .
(٣) سورة النحل آية : ١١٧ .
(٤) سورة القصص آية : ٥٧ .
(٥) سورة العنكبوت آية : ٦٧ .

تساووا فلا الأنساب فيها تفاوت ... لـديك ولا الأقـدار مختلفات
أقـدم أعـذارى وذلى وخشيتى ... وجئت بضعفى شـافعاً وشكاتى
وأنت ولى العفـو فامحـو بنـاصـع ... من الصفح ماسودتْ من صفحات

إن هذا البيت آمن ، حتى أن الرجل يرى فيه قاتل أبيه فلا يقتله ، إنه الأمان كله : نباته وطيره ووحشه وبره ، نعمة من الله وفضلاً .

قوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ ، المقام هو مكان الحجر الذى كان إبراهيم يقوم فيه وهو يبنى البيت . وقد قال عمر يارسول الله : ما ضر لو صلينا فى مقام إبراهيم ؟ قال الهادى البَشير : لم أومر بذلك يا عمر : فنزل قوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ ، أى مكاناً للصلاة يصلى فيه المسلم ركعتين بعد الطواف استحباباً .

قال البخارى باب ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ مثابة يثوبون ويرجعون . عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ ، وقلت يارسول الله : يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب . قال : وبلغنى معاتبة النبى ﷺ بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه قالت : ياعمر أما فى رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ؟ فأنزل الله : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات ﴾[(١)] . الآية .

قـوله تعـالى : ﴿ **وعهدنـا إلى إبراهيم وإسمـاعيل أن طهـرا بيتى للطائفين والعـاكفـين والـركـع السجود** ﴾ . والعهد هنا معناه الأمر أو الوحى ، أى وأمرناهما أو أوحينا إليهما أن يبنيا هذا البيت بنية طاهرة خالصة لله ، وأن يقوما بتطهيره من كل أذى ورجس ونجس ، ومن كل ما يعبد من دون الله ، لأنه أشرف بيت . طهراه للطائفين به والعاكفين ، أى المقيمين عنده والمصلين من الراكعين الساجدين وقد وسع ربنا كل شىء رحمة وعلماً ، فإنه ينزل كل يوم على حجاج بيته عشرين ومـائة رحمـة : ستين للطائفـين ، وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين .

ومن فضله جلَّ شأنه أن أبواب السماء تفتح عند النظر إلى البيت الحرام ، وعند إقامة الصلاة ، وعند نزول الغيث ، وعند الالتحـام فى القتال ؛ ومـا أدراك إذا ما فتحت أبـواب السماء : تـنـزل الرحمـات ، وتستجاب الدعوات ، وهناك يكون القبول كله .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً** ﴾ . جاء فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ : (**لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح**)[(٢)] .

---

(١) سورة التحريم آية : ٥ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٣ ص ٥٠٧ ط الشعب .

وروى النسائى عن رسول الله ﷺ : (إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه ، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها ، فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها)(١) . وعن جابر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : (إن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها(٢) لا يقطع عضاهها(٣) ولا يصاد صيدها)(٤).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : (اللهم بارك لنا فى ثمرنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ، وبارك لنا فى مجدنا ، وبارك لنا فى مدنا . اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإنى عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه) . ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر(٥) .

وإنما قال فى هذه الآية : ﴿ اجعل هذا بلداً آمناً ﴾ ، وقال فى سورة إبراهيم : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾(٦) بالتعريف ، لأنه يحتمل والله أعلم أن الدعوة الأولى كانت قبل بناء البيت ، ثم دعا الدعوة الأخرى بالتعريف بعد بناء البيت وبعد ما رزق بإسحق الذى كان يكبره إسماعيل بثلاثة عشر عاماً ، ومن ثم قال : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء ﴾(٧) .

قوله تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾ . من حب إبراهيم للمؤمنين وحرصه عليهم أنه سأل الله أن يجعل رزقه مقصوراً على المؤمنين فحسب ، ولكن رب العزة قال له : ومن كفر ، فليس الرزق فى الدنيا مقصوراً على المؤمنين ، فإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن يحب . قال جلَّ شأنه : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً * كلاًّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾(٨) ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾(٩) ، وقال جل جلاله : ﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾(١٠) ، وقال سبحانه : ﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾(١١) ، وقال تبارك اسمه : ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٣٠ ط دار الفكر .
(٢) اللابتان : الحرتان . واحدتها لابة . وهى الأرض الملبسة حجارة سوداء . وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهى بينهما .
(٣) العضاة : كل شجر فيه شوك .
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ ٣ ص ٥١٢ ط الشعب .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٥٩ ط الشعب .
(٦) سورة إبراهيم آية : ٣٥ .
(٧) سورة إبراهيم آية : ٣٩ .
(٨) سورة الإسراء الآيات : ١٨ - ٢٠ .
(٩) سورة هود الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
(١٠) سورة لقمان الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(١١) سورة يونس الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ .

يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسرراً عليها يتكئون * وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾(١) .

وفى الصحيحين : (لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ؛ إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم)(٢) . وفى الصحيح أيضاً : (إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ؛ ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾)(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ثم أضطره إلى عذاب النار ﴾ ، الاضطرار : هو الإلجاء إلى الشىء ، وهومن باب قوله جل شأنه : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾(٤) ، وليس هذا إلا لما اقترفوه من الذنوب ، ﴿ وكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٥) . ﴿ وبئس المصير ﴾ . أسلوب ذم ، والمذموم هنا جهنم ، أى بئس المثوى جهنم وبئس ما يصيرون إليه جهنم ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما ﴾(٦) ، ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾(٧) .

دعاء إبراهيم

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

المفردات : ﴿ القواعد ﴾ : واحدها قاعدة ، وهى ما يقعد ويقوم عليه البناء من الأساس أو من المسافات (طاقات البناء) ، ورفعها : إعلاء البناء عليها ، وتقبل الله العمل : قبله ورضى به ، ﴿ مسلمين ﴾ أى منقادين لك ، يقال أسلم واستسلم إذا خضع وانقاد ، الأمة الجماعة ، والمناسك : واحدها مَنْسَك (بفتح السين) من النسك ، وهو غاية الخضوع والعبادة ، وشاع استعماله فى عبادة الحج خاصة ، كما شاع استعمال المناسك فى معالم الحج وأعماله ؛ تاب العبد إلى ربه إذا رجع إليه ، لأن اقتراف

(١) سورة الزخرف الآيات : ٣٣ - ٣٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٨ ص ٥٤٨ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ط الشعب .
(٤) سورة الحج آية : ٤٨ .
(٥) سورة العنكبوت آية : ٤٠ .
(٦) سورة النساء آية : ٥٦ .
(٧) سورة الأعراف آية : ٤١ .

الذنب إعراض عن الله وعن موجبات رضوانه ، وتاب الله على العبد : رحمه وعطف عليه ، والكتاب : القرآن ، والحكمة : أسرار الأحكام الدينية ومعرفة مقاصد الشريعة . قال ابن دريد : كل كلمة وعظتك أو دعتك إلى حكمة أو نهتك عن قبيح فهى حكمة ؛ ويزكيهم : أى يطهر نفوسهم من دنس الشرك وضروب المعاصى ، العزيز : أى القوى الغالب ؛ الحكيم : أى الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

قال الإمام ابن كثير : لما قرأ وهيب بن الورد هذه الآيات : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت ﴾ أخذ يبكى ويقول : يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق ألا يتقبل منك ؟ وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص فى قوله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ۞ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[1] ، أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات وقلوبهم وجلة ، أى خائفة ، أن لا يتقبل منهم .

وحتى يكون بناء البيت واضحاً جلياً وما يتعلق به من زمزم والسعى بين الصفا والمروة ، نسوق هذا الحديث الذى رواه البخارى بسنده عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً ليقفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنا لك ووضع عندها جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ وقالت له ذلك مراراً ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله أمرك بهذا ؛ قال : نعم ؛ قالت إذا لا يضيعنا . ثم رجعت . فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ﴾[2] حتى بلغ ﴿ يشكرون ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال يتلبط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب من الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذ بلغت الوادى رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات ؛ قال ابن عباس : قال النبى : (فلذلك سعى الناس بينهما) . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت « صه » ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه ، حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف . قال ابن عباس قال الرسول ﷺ (يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينا معينا) ، قال : فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله . كان البيت مرتفعاً من الأرض

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ٦٠ ، ٦١ . (٢) سورة إبراهيم آية : ٣٧ .

كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء . فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا . قال : وأم إسماعيل عند الماء . فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا . قالوا : نعم . قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : قال (فأكفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس) فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم . وشب الغلام وتعلم العربية منهم وألفهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشرّ ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا ، فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : جاءنا شيخ كذا كذا ، فسألنا عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك . وطلقها وتزوج منهم بأخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل . قال : ماطعامكم ؟ قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . قال النبى ﷺ : (ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم لدعى لهم فيه) . قال : فهما لا يخلو عليهما أحد يفد مكة إلا لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه أن يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير . قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك ، وكان إسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : إسماعيل إن الله أمرنى بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك . قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك. قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتاً ، فأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها . قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولون : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ . قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[1] . ا . هـ .

لذلك يستحب لكل من عمل عملاً صالحاً أن يختمه بهذا الدعاء ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع

(١) تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٢٥٣ - ٢٥٦ ط ١ الشعب .

العليم ﴾ . ثم دعا إبراهيم ربه قائلاً ومعه إسماعيل يدعو : **﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ﴾** ويقصد بالإسلام هنا أدق معانيه ، وهو الإخلاص . فالإخلاص سنام الأمر وذروته ، وهل الإسلام إلا أن يسلم لله وجهه ؟ والإخلاص سر من أسرار الله يستودعه قلب من أحب من عباده . والحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة . وقد ذاق حلاوة الإسلام من قال : رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينا ومحمد ﷺ نبيًا ورسولا

ولما كان الأنبياء قوما أصفياء القلوب أنقياء السريرة أتقياء الأفئدة ، فإن الدعوة الإبراهيمية الإسماعيلية امتد أثرها فى بطون الأزمان حيث جاءت **﴿ ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾** . وقد استجاب الله . ثم قالا : **﴿ وأرنا مناسكنا ﴾** أى عرفنا مواضع النسك من الإحرام والطواف والسعى وعرفات ومنى ، فإن المناسك هى مواضع العبادات ، وغلب إطلاقها على أفعال الحج . ثم قالا : **﴿ وتب علينا ﴾** أى وفقنا للتوبة حتى نتوب فترضى عنا . قال تعالى : ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليه إنه بهم رءوف رحيم ﴾ .

فالمراد بالتوبة على النبى رضاه عنه وعن المخلصين معه **﴿ إنك أنت التواب الرحيم ﴾** أى كثير التوب ؛ فليس لأحد سواك هذه الصفة ؛ فأنت الرحيم بعبادك ، غافر الذنب وقابل التوب . أليس أنت الذى تبسط يدك بالليل ليتوب مسىء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسىء الليل . ألست أنت الذى تنادى فى ثلث الليل الأخير : هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه .

يـا من لـه علم الغيـوب ووصفـه ... سـتر العيوب وكـل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الـورى ... كـرمـاً فليس عليـه ثـم جنـاح
منك التفضـل والتكرم والـرضـا ... أنـت الإلـه المنـعم الـفتـاح

ثم دعوا الله جل جلاله دعوة نفع الله بها البلاد والعباد : **﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾** .

﴿ فيهم ﴾ ، أى فى هذه الأمة . **﴿ منهم ﴾** ، أى عربياً . فكانت هذه الدعوة خير خلق الله ، مبعوث العناية الالهية وشمس الهداية الربانية ، الذى أرسله الله رحمة للعالمين . فهو الأمّىّ الذى علّم المتعلمين ، وتلا عليهم كتاب رب العالمين ، ودرس لهم الحكمة الصافية ، وهى سنة سيد المرسلين ، وذكا نفوسهم وطهرها من الغيظ والحقد والحسد والبغضاء والشحناء والظلمات والشرك والظلم والفساد ، فكان خير المفلحين وسيد الموحدين وإمام المتقين ؛ فهو النبى الخاتم الذى قال متحدثاً بنعمة الله عليه : (أنا دعوة أبى إبراهيم ، وكان آخر من بشر بى عيسى ابن مريم)(٢) . لقد وقف عيسى خطيباً فى بنى إسرائيل وقال : يا بنى إسرائيل ﴿ إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه احمد ﴾(٣) ، فكان ذلك النبى الأمى الفقير ، الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين ، وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطىء الله رب العالمين .

(١) سورة التوبة آية : ١١٧ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى حـ ١ ص ٤١٤ ط دار الفكر .
(٣) سورة الصف آية : ٦ .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

نـور أضـاء فبـدد الـظلماء والأرض صـارت جنـة خضـراء
وسمـوت بـالبشـر الـذين تعلمـوا سنن الشـريعـة فـارتقـوا سعـداء
أنت الـذى قـاد الجيـوش محـطماً عهـد الضـلال وأدب السفهـاء
يـا نـور أحمـد فى جلالـك روعـة الله بـارك ذكـره وأضـاء

ويختتم الخليل وابنه هذه الدعوات بالثناء على الله بما هو أهله فيقول : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ ﴿ العزيز ﴾ الذى لا يغلب ، فهو القاهر فوق عباده ، ﴿ الحكيم ﴾ الذى لا يعبث ؛ إذ هو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق .

ملة إبراهيم وحكم المخالفين

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ
لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ
بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ
شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ
ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

المفردات : رغب فى الشىء : أحبه ، ورغب عنه كرهه ، وسفه نفسه : أذلها واحتقرها ، واصطفيناه : أى أخترناه ، وأصل الاصطفاء أخذ صفوة الشىء ، وهى خالصه ، أسلم : أى أخلص لى العبادة ، التوصية : إرشاد غيرك إلى ما فيه خير وصلاح له من قول أو فعل على جهة التفضل والإحسان فى أمر دينى أو دنيوى ، مسلمون : أى مخلصون بالتوحيد ، والشهداء واحدهم شهيد ، أى حاضر ، حضور الموت : حضور أماراته وأسبابه وقرب الخروج من الدنيا ، الأمة : الجماعة ، وخلت : مضت وذهبت ، لها ما كسبت : أى ما عملت ، ولكم ما كسبتم : أى أنتم مجزيون بأعمالكم .

ويتحرك بنا زحف الآيات فى قدسية وطهارة ونقاء ، يضىء أمام الموحدين . فبعد الحديث عن إبراهيم وما ابتلاه الله به ، وذكر الدعوات الطيبات التى دعا بها ربه ، ومنها أن يبعث فى هذه الأمة رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، واستجاب الله جلت قدرته وعظمت حكمته هذه الدعوات ، قال سبحانه : ﴿ لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[١] ، وقال جل جلاله : ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾[٢] ؛ ثم ذكر أجل نعمه على عباده فقال : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾[٣] .

وكفى بهذا الفضل فضلاً ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٤] . فكفانى عزا أن أكون لك عبداً ، وكفانى فخراً أن تكون لى ربا :

ومما زادنى شرفاً وقدراً وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك ياعبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

ولقد وجدت هذه الأمة التى شرفها الله ببعثة نبيها ، وكانت أمة لا تغيب عنها الشمس ، امتدت حدودها من الصين شرقاً إلى باريس غربا ، ومن سيبيريا شمالاً إلى المحيط الهندى جنوبا ، وجعلت من البحرين الأبيض والأحمر بحرين يجريان فى أمة الإسلام ، وجعلها الله خير أمة أخرجت للناس إذا تكاملت فيها تلك المقومات : تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، فإذا كان الله فضل بنى إسرائيل على العالمين ، فإنما ذلك على عالمى زمانهم ؛ وفرق بين التفضيل والخيرية ، فالخيرية نابعة من ذات الأمة متأصلة فى كيانها ، والتفضيل يأتى من خارج الأمة لأمور يجود المولى الكريم بها عليهم ، ككثرة بعثة الأنبياء منهم ، كما قال نبينا ونبيهم موسى : ﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾[٥] ، ولذا عقب الله تعالى فى آية الخيرية بقوله : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾[٦] ، فكان إبراهيم جديراً بالإمامة ، حقيقاً بالقيادة ، حرياً بالراية ، ومن يرغب عن ملته ويكرهها ويبغضها كان دليلاً على أنه سفه نفسه واحتقرها وأذلها ، لأنه كره ملة نبى رفع راية التوحيد فى جميع الجهات . ولقد اصطفاه الله واجتباه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصاحين ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[٧] . واذكروا أيها الناس إذ قال له ربه أسلم ، أى استقم على إسلامك وإخلاصك ، لا بمعنى ادخل الإسلام ، فقد كان مسلماً موحداً من مهده إلى لحده ، كما يقول مولانا لحبيبه ومصطفاه : ﴿ يأيها النبى اتق الله ﴾[٨] ، فليس معنى ذلك أنه لم يكن تقياً قبل الأمر بالتقوى ، إنما المعنى : اثبت وداوم ، وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله ﴾[٩] ، فترى أن الله خاطبهم بالإيمان وأمرهم به ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا كان المقصود بالأمر هنا المداومة والثبات . وقد صدق سيدنا رسول الله ﷺ وهو يقول لعمه أبى طالب عندما قال له دع هؤلاء القوم وشأنهم ، قال له الرسول الأكرم : ﴿ والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ﴾ ، فاغرورقت عينا أبى طالب بالدمع وقال كلمته المشهورة : يابن أخى قل ما شئت ، فوالله لا أسلمك إليهم أبدا[١٠] .

(١) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .
(٢) سورة الجمعة آية : ١ .
(٣) سورة الجمعة الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٤) سورة الجمعة آية : ٤ .
(٥) سورة المائدة آية : ٢٠ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٧) سورة الأنعام آية : ١٦١ .
(٨) سورة الأحزاب آية : ١ .
(٩) سورة النساء آية : ١٣٦ .
(١٠) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص ٢٦٦ ط دار التراث .

إن إبراهيم الحنيف أخلص قلبه لله وأسلم كيانه كله لرب العالمين ، السيد المالك الملك المتصرف القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، وهل خرج من ملك الله شيء عن علمه وإرادته وقدرته؟إنك لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال أنه مخلوق للواحد الديان .

تـأمـل فى الـوجـود بعـين فكـر ترى الـدنيـا الـدنيـة كـالخيـال
فكـل الكـائنـات غـداً ستفنى ويبقـى وجـه ربـك ذو الجـلال

ولكى يرى نور الإسلام فى ذرية إبراهيم ويمتد ضياءه فى عقبه ، جعل كلمة التوحيد باقية فيهم إلى يوم يبعثون ، فعندما حضرته الوفاة وصى بها إبراهيم بنيه كما وصى بها يعقوب بنيه ، وجاء نص الوصيـة : ﴿ يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(١) ، وتلك أيضا وصية الله لكل مؤمن : ﴿ يـأيها الـذين آمنوا اتقـوا الله حق تقاتـه ولا تموتن إلا وأنتم مسلمـون * واعتصمـوا بحبـل الله جميعـاً ولا تفرقوا ﴾(٢) .

إن الإسلام هو الروح العظيم الذى ينساب فى جنبات الأرض كالبحر الطهور ، يغسلها من أرجاسها وأدناثها وأنجاسها ؛ أليس هو أن تسلم لله وجهك ؟ أليس هو السلام ؟ أليس أن يسلم الناس من لسانك ويدك ؟ أليس الإسلام هو الانقياد والخضوع والرضا والتصديق بكل ما جاء به سيد الأنبياء ؟

ثم يوجه الله هذا الخطاب إلى أهل الكتاب من يهود ونصارى ، الذين انحرفوا عن طريق الجادة وتنكبوا الصراط فرموا إبراهيم باليهودية والنصرانية وذريته كذلك قال لهم : ﴿ **أم كنتم شهداء** ﴾ أى بـل أكنتم شهداء ، أى حاضرين ، عندما حضر يعقوب الموت ؛ أتدرون ماذا قال لبنيه فى وصيته قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ؟ لقد سألهم : ﴿ **ما تعبدون من بعدى** ﴾ ؛ فماذا قالوا : ﴿ **قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق** ﴾ هؤلاء هم الصفوة المختارة ، إنهم كوكبة التوحيد الذين سطعـوا فى سماء الهـدى والعدل ؛ ثم يزيدون الأمر وضوحاً فيقولون : إلٰها وحدا حتى لا يظن جاحد أو جهول أن الآلهة تعددت فى قولهم إلٰهك وإله آبائك ، فجاء التفسير واضحاً فى قولهم : ﴿ **إلٰها واحداً ونحن له مسلمون** ﴾ وقد جعلوا إبراهيم أباً ليعقوب مع أنه جده ، لأن يعقوب بن اسحق وذلك لأن الجد أب ، إذ هو أصل من أصول الإنسان ؛ وجعلوا إسماعيل أبا ليعقوب مع أنه عمه ، لأن عم الرجل صنو أبيه ، أى مثله . وهكذا تعطينا لغة القرآن ثروة دفاقة بالمعانى ، فالقرآن أستاذ معلم ، ومدرسة عليا . ثم يتوجه القرآن بالخطاب إلى هؤلاء القوم ، فيقول لهم : ﴿ **تلك أمة قد خلت** ﴾ : أى جماعة قد سبقت ومضت ، لها ما كسبت من الأعمال ، كما أن لكم ما كسبتم من الأعمال ؛ فكل نفس بما كسبت رهينة ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ولقد قال الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه : (يا فاطمة بنت محمد اعملى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً) . إن من عظمة هذا الدين المسئولية الفردية ، كل امرىء بما كسب رهين ؛ فإن الله أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشيا ، وأعد النار لكل عاص ولو كان حراً قرشيا . قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور

---

(١) سورة البقرة آية : ١٣٢ . (٢) سورة آل عمران الأيتان : ١٠٢ ، ١٠٣ .

فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾(١) .

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

زعم باطل

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
(١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ
فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُ
عَابِدُونَ (١٣٨)

المفردات : الحنيف : المائل ، وأطلق على إبراهيم لأنه خالف الناس جميعاً ومال عن الكفر إلى الإيمان ؛ الأسباط : واحدهم سبط ، وسبط الرجل ولد ولده ؛ والأسباط من بنى إسرائيل كالقبائل من العرب والشعوب من العجم ؛ وما أوتى موسى : هو التوراة ، وما أوتى عيسى : هو الإنجيل ، والشقاق : مأخوذ من الشق ، وهو الجانب ؛ فكأن كل واحد فى شق غير شق صاحبه لما بينهما من عداوة ، الصبغة : فى اللغة اسم لهيئة صبغ الثوب وجعله بلون خاص .

زعم اليهود أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم ، وزعم النصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان منهم ، فدمغهم الإسلام بتلك الحجة قال لهم : إنكم جميعاً مؤمنون بأن إبراهيم كان على هدى ؛ فكيف يكون على هدى ولم يكن يهودياً ولا نصرانيا ، بل كان حنيفاً مسلماً ؛ إذن فإن كلامكم زعم باطل . أما القول السديد والرشيد فإنه واضح فى اتباع ملة إبراهيم ، فهذا هو الطريق الموصل إلى الجنة المنجى من عذاب النار ، فقد كان إبراهيم حنيفاً مائلاً عن الشرك ، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً . ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾(٢) . وكيف يدخل الجنة من فرق بين الله ورسله وقال : إن الإيمان بالبعض والكفر بالبعض منج ، بل إن القول الحق هو ما قاله الله فى كتابه : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(٣) .

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١٠٣ . (٢) سورة آل عمران آية : ٦٥ . (٣) سورة النساء آية : ١٥٢ .

[فيا أمة محمد . . إذا سمعتم هؤلاء يرددون هذا المراء فقولوا : آمنا بالله وحده لا شريك له ، وآمنا بما أنزل إلينا على رسولنا محمد ، وهو الكتاب الكريم ، والقرآن العظيم ، وما أنزل من الكتب والصحف إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وآمنا بما أوتى موسى من التوراة الصحيحة ، وأوتى عيسى من الإنجيل الصحيح ، وآمنا بما أوتى النبيون من ربهم ، فالكل عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول لاإله إلا الله . فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[١] ، وقال جل شأنه : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[٢] ، ووصف النبيين بقوله : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾ ؛ فمن جاء بغير الإسلام فقد برئت منه ذمة الله . قال نوح لقومه : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[٣] ، ووصى إبراهيم بنيه ويعقوب بقوله : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٤] . وقال موسى : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[٥] ، وقال يوسف : ﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾[٦] ، وقال سليمان : ﴿ ألا تعلوا على وأتونى مسلمين ﴾[٧] ، وقال عيسى : ﴿ من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾[٨] ، وقالت ملكة سبأ : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾[٩] ، وأنزل الله على رسوله ومصطفاه يوم عرفة أربع بشريات ، الأولى : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾[١٠] والثانية : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾[١١] ، والثالثة : ﴿ وأتممت عليكم نعمتى ﴾[١٢] والرابعة : ﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[١٣] ؛ فإذا كان الله أكمل دينه ، فدين الله لا ينقص أبدا ، وإذا كان أتم نعمته فنعمة الله لا تضيع أبدا ، وإذا كان رضى لنا الإسلام دينا ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾[١٤] . إن الإسلام دين رشيد ، يخاطب العقل السليم بالمنطق السديد ، يأمر بالإيمان بكل الأنبياء ، فلا يأمر بالإيمان بمحمد وحده ، إنما بجميع الأنبياء بما فيهم موسى وعيسى ، ومن ثم يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل : (وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) . فإن آمن هؤلاء القوم إيماناً مثل إيماننا فقد اهتدوا ، ومن يهد الله فهو المهتد ، وإن تولوا وانصرفوا وركبوا رؤوسهم كبراً وعتوا وعدواناً وظلماً ، فإنما هم فى شقاق وعداء وخلاف .

﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا ﴾[١٥] ، وهذا الخطاب موجه إلى البشرية التى تنكبت سواء السبيل ، فزلت أقدامها وتعثرت أقلامها ، وانفلت خيالها ، واتبعت الهوى ، ومن عرف الهوى فقد هوى فحل عليه غضب الله ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ ، وما داموا فى شقاق ، فثق من حفظ الله لك يا محمد ﴿فسيكفيكهم الله﴾ سيكفيك مكرهم وأذاهم ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ؟ ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هاد * ومن يهد الله فماله من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾[١٦] ﴿ قل

(١) سورة آل عمران آية : ٨٥ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٩ .
(٣) سورة يونس آية : ٧٢ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٣٢ .
(٥) سورة يونس آية : ٨٤ .
(٦) سورة يوسف : ١٠١ .
(٧) سورة النمل آية : ٣١ .
(٨) سورة آل عمران آية : ٥٢ .
(٩) سورة النمل آية : ٤٤ .
(١٠) سورة المائدة آية : ٣ .
(١١) سورة المائدة آية : ٣ .
(١٢) سورة المائدة آية : ٣ .
(١٣) سورة المائدة آية : ٣ .
(١٤) سورة الجن آية : ١٤ .
(١٥) سورة الكهف آية : ١٧ .
(١٦) سورة الزمر الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ .

حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾ . نعم سيكفيك الله شرهم ، والله يعصمك من الناس ، وكان وعد الله مأتياً ، فانتصر الرسول على يهود بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة ويهود خيبر ، وفرض الجزية على نصارى نجران ، وانتصرت أمته على الفرس والروم ، كما انتصرت على جميع الأعداء فى كل الميادين .

الله أكبر إن ديـن محمـد وكتابـه أقـوى وأقـوى قيـلا
لا تذكر الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديـلا

إن الذى سيكفيك شرهم هو السميع الذى يعلم القول فى السماء والأرض ، يسمعه ويعلمه ، العليم بحقائق الأشياء ودقائقها . قل لهم لقد صبغنا الله صبغة التوحيد ، فما نحن عليه هو صبغة الله وفطرته ، ومن أحسن من الله صبغة ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ليس أحد أحسن صبغة من الله الذى حلانا بتلك الصبغة التى لا تزول أبدا ، ولا تستطيع يد الدهر أن تمحوها ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، وما كتبه الله لا يمحوه أحد ، ونحن له عابدون قانتون تائبون حامدون راكعون ساجدون ، آمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ، وحافظون لحدود الله وبشّر المؤمنين .

الله ربنا وربكم

قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ
ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

أقام الله تبارك وتعالى فى هذا المشهد ثلاثة براهين ، ألزم فيها المعارضين الحجة القاطعة بصحة الإسلام وصدقه ، فوجه الخطاب إلى رئيس الأمة ونبيها ، محمد ﷺ ، قل لهؤلاء المجادلين المتخاصمين : أتجادلوننا فى دين الله ، وتزعمون أنكم أحق بالله منا ، وأعرف به منا ، وهو ربنا وربكم ، ليس رباً لقوم بأعيانهم ، إنما هو رب العالمين أجمعين ، وهو لا يجازى العبد بناء على انتسابه إلى قوم سبقوا ، إنما يجازى العباد بميزان حق ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[1] ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[2] .

والميزان الصادق الذى حكم الله تعالى به الأمور هو المسئولية الفردية : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، قال جل شأنه : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾[3] .

(١) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨ . (٢) سورة الحجرات آية : ١٣ . (٣) سورة الشورى آية : ١٥ .

فما جزاء هؤلاء المحاجين المجادلين بعد بيان الحق ؟ قال تعالى : ﴿ والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾[١] ، وبعد ذلك قال تعالى : قولوا لهم ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ والإخلاص من أجل النعم التى ينعم الله بها على عبده ، فهو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، والإخلاص أن تقصد بعملك وجه الله وحده لا شريك له . ثم خاطب الله أهل الكتاب بقوله : ﴿أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى﴾ : أى بلغ من جحودكم وإنكاركم للحق أنكم رميتم قادة التوحيد ونجوم الهدى باليهودية والنصرانية ؟ ثم أقام عليهم الله برهاناً ثانياً فقال : ﴿ أأنتم أعلم أم الله ﴾ ؟ أى من الذى يحكم فى قضايا العقيدة إلا علام الغيوب ؟ فإن العقيدة من أعمال القلوب ، فهل كشفتم عن قلوب هؤلاء فحكمتم على ما فيها ؟ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ، بل كانوا موحدين حنفاء لله غير مشركين به ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٢] . ثم أقام القرآن عليهم برهاناً ثالثا . قال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ أى لا أحد أظلم ممن كتم شهادة بينها الله له ، فأنتم كتمتم وحجبتم عن الناس ما جاء فى كتبكم من الشهادة ببعثة محمد ﷺ ، وأنتم تقرأونها وتعلمون مدلولها علم اليقين ، بل حق اليقين ، بل عين اليقين . ﴿ وما الله بغافل عما تعلمون ﴾ ، ﴿ أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾[٣] ؛ ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[٤] . ثم فصل الله فى القضية فصلاً قاطعاً جازماً فقال : ﴿ تلك أمة قد خلت ﴾ ، أى سبقت . فإذا كنتم تفخرون بالانتساب إلى هؤلاء الأنبياء ، فإن انتسابكم إليهم لا ينفع يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ، لأن المقياس الصحيح هو العمل الصالح ؛ لاتزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى . وتلك الأمة التى سبقت لها ما كسبت من الأعمال ، كما أن لكم ما كسبتم من الأعمال ، وكما أنهم لا يسألون عن أعمالكم ، كذلك أنتم لا تسألون عما كانوا يعملون ، فكل مسئول عن عمله ، وهل الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله ، فمن أحب فى الله أو بغض فى الله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان .

(١) سورة الشورى آية : ١٦ .
(٢) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .
(٣) سورة البقرة آية : ٧٧ .
(٤) سورة البقرة آية : ٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب التفسير

الجزء الثاني

سورة البقرة

من الآية رقم ١٤٢ / ٢٥٢

تحويل القبلة

* سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ
وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ
عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى
ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

المراد بالسفهاء ها هنا مشركو العرب وأحبار اليهود والمنافقون : والسفه : خفة فى العقل وطيش فى الأحلام . وقد روى البخارى رضى الله عنه فى سبب نزول هذه الآية : عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ؛ وأن أول صلاة صلاها هى العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قِبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكان من قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالٌ قتلوا لم ندر ما نقول فيهم ؟ فأنزل الله : **﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾** . وروى الإمام مسلم بسنده عن الإمام البراء بْن عازب قال : كان رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله ، فأنزل الله : **﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾** ، فقال رجال من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله : **﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾** . وقال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله **﴿ سيقول السفهاء من الناس ﴾** إلى آخر الآية . وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس .

ولقد جاء الأمر بتحويل القبلة نحو المسجد الحرام والرسول ﷺ قد صلى ركعتين من فريضة الظهر فى مسجد بنى سلمة ، ولذا سمى « مسجد القبلتين » : ووصلت الأخبار بعد ذلك إلى مسجد قباء فى صلاة الفجر من اليوم الثانى ، كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أُنزل عليه الليلة قرآن ، وقد أمر أن يستقبل الكعبة

فاستقبلوها وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[١] . ولما تم ذلك ثارت ثائرة اليهود وتحركت ثعابين الشك فى قلوبهم ، وهاجت عقارب التشكيك فى صدورهم ، وتساءلوا : ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها** ﴾ ما الذى دفع هؤلاء الناس أن يغيروا قبلتهم ؟ وأخذوا ينفثون سمومهم محاولين تشكيك المسلمين فى عقيدتهم ، لكن الله ، جلت قدرته ، حسم القضية حسماً لا يحتمل ريبة ولا شكاً ، قال : ﴿ **قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ . وما دفع اليهود إلى هذا الموقف إلا الحسد الدفين فى نفوسهم على الإسلام ونبى الإسلام ؛ إذ أن الجميع يعلم ما بين اليهود ومابين المسلمين من سموم الحقد ، وزاد القرآن الموقف جلاءً ووضوحاً ، إذ يقول الله تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ .

وقد بين الرسول ﷺ ما فى نفوس اليهود من حسد وحقد على هذا الدين ، فقال فى أهل الكتاب : (إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام آمين)[٢] . إن سر قوة هذه الأمة الإسلامية كامن فى قوة التوحيد . إنها أمة . . الله ربها ، ومحمد نبيها ، والمصحف كتابها ، والكعبة قبلتها ، فكيف لا تكون قوية وهذه أسسها وأركانها ؟ الله نور السموات والأرض . ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[٣] . ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[٤] . ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾[٥] . ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[٦] . وإذا كان اليهود قد تحالفوا مع المشركين والمنافقين فى فجر الإسلام وظهر الإسلام وعصر الإسلام ، فإنهم لا يكفون عن الدس ضد الإسلام ونبى الإسلام وكتاب الإسلام وقبلة الإسلام . لقد تحالفوا قديماً مع المشركين والمنافقين ، واليوم يتحالفون مع الشيوعيين والصليبيين ، وصار الإسلام يواجه الثالوث المدمر : شيوعية عالمية ، صهيونية عالمية ، وصليبية عالمية . والإسلام ينادى على أبنائه ويقول : —

ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى

ولو كان حافظ إبراهيم موجوداً بيننا الآن لقال على لسان الإسلام :

أمن العدل أنهم يردون الماء صفوا وأن يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الأسد منهم وأن تقيد أسدى
نظر الله لى فأرشد أبنائى فشدوا إلى العلا أى شد
إنما الحق قوة من قوى الديان أمضى من كل أبيض هندى
نحن نجتاز موقفا تعثر الآراء فيه ، وعثرة الرأى تردى

---

(١) تفسير ابن كثير حـ١ صـ ٢٧٣ ، ٢٧٤ ط دار الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير حـ ١ صـ ٢٧٥ ط دار الشعب .
(٣) سورة يونس آية : ٥٧ .
(٤) سورة المائدة آية : ١٥ .
(٥) سورة التغابن آية : ٨ .
(٦) سورة الشورى آية : ٥٢ .

قد وعدت العلا بكل أبى من رجالى فأنجزوا اليوم وعدى
وارفعوا دعوتى على العلم والأخلاق فالعلم وحده ليس يجدى

ولو كان شوقى حياً بيننا لقال فى الإسلام :

شهيد الحق قم تره يتيماً بأرض ضيعت فيها اليتامى
أقام على الشقاء بها غريباً ومر على القلوب فما أقاما

على الأمة أن تحذر مايحاك لها من مؤامرات فى الظلام . فقد وقف المستر جلادستون رئيس وزراء بريطانيا فى أواخر القرن التاسع عشر الميلادى ، وقف فى مجلس العموم البريطانى وبيده كتاب الله ونادى أعضاء المجلس وقال لهم : إننا لن نستطيع القضاء على الإسلام إلا إذا قضينا على ثلاثة أشياء هذا الكتاب ، وصلاة الجمعة ، وعرفات . فهب أحد الأعضاء مذعوراً وخطف المصحف من يده ومزقه ، فغضب رئيس الوزراء وقال له : ما أحمقك ، وما أردت تمزيق أوراقه ، إنما أردت تمزيق مبادئه من صدور المسلمين . أعلمتم أيها المسلمون ماذا يراد بكم ؟

يا أخا الإسلام .

إذا زرت بعد البيت قبر محمد وأبصرت مثوى الأعظم العطرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة لأحمدَ بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية وفاح أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله ياخير مرسل أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق ثبات
بأيمانهم نوران : ذكر وسنة فما بالهم فى حالك الظلمات

إننى لا أخشى على الإسلام من أعدائه ، فقد شهد التاريخ وأثبتت الحقائق أنه انتصر على جميع أعدائه فى كل المعارك والمواطن والمواقع ؛ انتصر على المشركين فى كل الغزوات ، وانتصر على الصليبيين فى مواقع مع الروم ، وعلى رأسها موقعة اليرموك ، وانتصر على الفرس فى كل المواقع ، وعلى رأسها القادسية ونهاوند ، إنما أخشى على الإسلام من أدعيائه الذين قال فيهم رب العزة : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[1] . وليست الفتنة هنا مقصورة على فتنة النساء ، وإنما هى أعم وأشمل ؛ فإن منها فتنة المال ، قال تعالى : فى شأن هؤلاء الأدعياء : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا

(١) سورة التوبة الآيات : ٤٦ - ٤٩ .

من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون *قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون * قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾(١) قال ﷺ : (أخوف ما أخاف على أمتى منافق عليم اللسان)(٢) .

ولما أُفحم هؤلاء الأعداء وألقموا الحجارة فى أفواههم ، بقول الله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ ، وجه الخطاب إلى الأمة الإسلامية وأتباع مبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ أى عدولا وخيارا ، فأنتم ﴿ خير أمة أخرجت للناس ﴾ ، وأنتم شهداء الله فى الأرض ، وأنتم الشهداء على الأمم يوم القيامة ، والرسول الكريم هو الذى قال الله له : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ وهو الذى قال الله له : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾(٣) .

يا رسول الله :

أنت الـذى قـاد الجيـوش محـطماً	عهـد الضـلال وأدب السفهـاء
وسمـوت بـالبشر الـذين تعلمـوا	سنن الشريعة فـارتقـوا سعـداء

قوله تعالى : ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ . قال الرسول ﷺ : يدعى نوح يوم القيامة فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير ، وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته . قال فنزل قوله ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ﴾ . قال : والوسط العدل ، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ، ثم أشهد عليكم . رواه البخارى .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم هذا ؟ فيقولون : لا . فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم . فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد وأمته فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون : نعم . فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاءنا نبينا ، فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا) . فذلك قوله عز وجل : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ قال : عدلا ، ﴿ لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

وقال ﷺ : (أنا وأمتى يوم القيامة على كومة مشرفين على الخلائق ، ما من الناس أحد إلا ودّ أنه منا ؟! وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قد بلغ رسالة ربه عز وجل) .

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٥٠ - ٥٢ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ١ ط دار الفكر .
(٣) سورة النحل آية : ٨٩ .

وعن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة فى بنى مسلمة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : والله يا رسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفاً مسلماً ، وكان . . . وأثنوا عليه خيراً ، فقال رسول الله ﷺ : أنت بما تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك . فقال النبى ﷺ : وجبت . ثم شهد جنازة فى بنى حارثة ، وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ ، فقال بعضهم : يا رسول الله بئس المرء كان ، إنه كان فظاً غليظاً ، فأثنوا عليه شراً . فقال رسول الله ﷺ لبعضهم : أنت بالذى تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله ﷺ : وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب : صدق رسول الله ﷺ ، ثم قرأ : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ . ثم قال الحاكم : (هذا حديث صحيح الإسناد) .

وعن أبى الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها ، وقد وقع بها مرض ، فهم يموتون موتاً ذريعاً فجلست إلى عمرَ بن الخطاب ، فمرت به جنازة فأُثنى عليها خير . فقال : وجبت . ثم مر بأخرى فأثنى عليها شر . فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود : ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال : قلت كما قال رسول الله ﷺ : أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة . قال فقلنا : وثلاثة ؟. قال فقال : وثلاثة . قال فقلنا : واثنان ؟ قال : واثنان ، ثم لم نسأله عن الواحد . وقال ﷺ : (يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم . قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسن والثناء السيىء . أنتم شهداء الله فى الأرض)[1] .

ثم بين الله تبارك اسمه الحكمة من تحويل القبلة فقال : ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله** ﴾ ، أى وما أمرناك بالتوجه إلى الكعبة بعدما كنت تصلى إلى بيت المقدس ، ما فعلنا هذا إلا ليظهر مدلول علمنا وليعلمَ الناسُ مواقف العباد من الذى يتبع ومن الذى ينقلب ، فعلمنا قديم أزلى . فالله جلت قدرته علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . فقوله تعالى : ﴿ **لنعلم** ﴾ أى ليظهر مدلول علمنا ، فنعلم الناس الحكمة مما جعلنا . وشتان ثم شتان ، وهيهات هيهات بين الاتباع والانقلاب ؛ فالاتباع التزام وسمع وطاعة ، ولذلك لما وصل الخبر بتحويل القبلة إلى المصلين فى مسجد قباء ، كانوا راكعين فتحولوا إلى الكعبة وهم راكعون التزاما وسمعا وطاعة لأمر الله جل شأنه . أما الانقلاب على العقب ، فالعقب هو مؤخر القدم ، والانقلاب عليه هو الارتكاس والانتكاس . قوله جل شأنه : ﴿ **وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله** ﴾ ، أى لقد كان تحويل القبلة أمرا عظيما وشاقا على النفوس المؤمنة الواثقة التى امتلأت يقينا ونورا ، فإنها تقف من أوامر الله موقف التسليم والإذعان والرضا . وفى القرآن الكريم آيات تبين لنا مواقف الفريقين من أوامر الله تعالى ، قال عز وجل ﴿ وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ۞ وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ط الشعب .

وهم كافرون ﴾(١) . وقال سبحانه : ﴿ فأما الذين آمنوا فيعلمون أنـه الحق من ربهم وأما الـذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾(٢) . وقال تبارك اسمه : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾(٣) . وقال تبارك وتعالى : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفـاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى ﴾(٤) . ولابد من الاختبار حتى يمحص الله الذين آمنـوا ويمحق الكافرين . ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(٥) . ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾(٦) .

قوله جل شأنه : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ ، المراد بالإيمان هنا الصلاة ، لأنها أعظم الأركان ، وهى الفريضة التى فرضت على الرسول فى السموات العلى ؛ والمقصود : ما كان الله ليضيع صلاتكم التى صليتموها إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة . وفى الصحيح عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ، فقال الناس : ما حالهم فى ذلك ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ . وعن ابن عباس : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ ، أى بالقبلة الأولى(٧) ، وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أى ليعطيكم أجرهما جميعا .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ ، أى عظيم الرأفة ، كثير الرحمة بكم . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرق بينها وبين ولدها ، فجعلت كلما وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها ، فقال رسول الله ﷺ : (أترون هذه طارحة ولدها فى النار ، وهى تقدر على ألا تطرحه . قالوا : لا يا رسول الله . قال : فوالله . . لله أرحمُ بعباده من هذه بولدها(٨)) .

أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضى له الحاجات ؟ . . .

﴿ **إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾ يدفع الألم والضر عنهم رحيم بهم ، يدفع عنهم البـلاء ويجلب الإحسان .

الإذن بتحويل القبلة

قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦ .
(٣) سورة الإسراء آية : ٨٢ .
(٤) سورة فصلت آية : ٤٤ .
(٥) سورة العنكبوت الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١٤٢ .
(٧) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .
(٨) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ
ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ
أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ
يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ **تقلب وجهك فى السماء** ﴾ : تردده طلبا للوحى والتجاء إلى الله ، ﴿ **فلنولينك** ﴾ : فلنوجهنك جهتها ، ﴿ **فول وجهك** ﴾ : فوجه وجهك ، ﴿ **شطر المسجد الحرام** ﴾ : يعنى جهته ، ﴿ **الممترين** ﴾ : الشاكين .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء** ﴾ ، إلى قوله ﴿ **فولوا وجوهكم شطره** ﴾ ، فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها . قل لله المشرق والمغرب ﴾ وقال : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾ . وروى ابن مروان عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء . فأنزل الله ﴿ **فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ إلى الكعبة ، إلى الميزاب ، يؤم به جبرائيل عليه السلام[1] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ **قال** : (البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض إلى مشارقها ومغاربها من أمتى)[2] .

قوله تعالى : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ ، أى وجه وجهك جهته ، وهذا أمر موجه إلى قائد الأمة ، ثم وجه الأمر بعد ذلك إلى أمته لما فى ذلك من الشأن العظيم فقال : ﴿ **وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره** ﴾ . واستقبال القبلة شرط من شروط صحة الصلاة للمسلمين فى مشارق الأرض

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٢٧٨ ط الشعب .

(٢) تفسير القرطبى حـ ١ ص ٥٤١ حـ ١ الشعب .

ومغاربها ، شرقها وغربها ، شمالها وجنوبها ، ولا يستثنى من هذا شىء سوى صلاة النافلة فى حال السفر ، فإنه يصليها حيثما توجه قالبه ، وقلبه نحو الكعبة ، وكذا فى حال القتال والتحام الصفوف ، يصلى على كل حال ، وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده ، وإن كان مخطئا فى نفس الأمر ، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها .

وهنا مسألة : استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده ، كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : لقوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ ، فلو نـظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء ، وهو ينافى كمال القيام . وقال بعضهم : ينظر المصلى فى قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضى : ينظر فى حالة قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة ، لأنه أبلغ فى الخضوع وآكد فى الخشوع . وقد ورد به الحديث ، وأما فى حالة ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفى موضع سجوده إلى موضع أنفه ، وفى حالة قعوده إلى حجره .

قوله جل شأنه : ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ﴾ . وهذا تسجيل عليهم لما أتوه من الفعال الشنيعة . لقد علموا علم اليقين أن تحويل القبلة أمر سيكون ، وذلك من كتبهم ، ولكنهم وهم يعلمون أنه حق ثابت لا مراء فيه ، ارتابوا وشكوا وشككوا وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، أى ما الذى حرفهم عنها ، لذلك جاء ختام الآية تهديدا ووعيدا لما فعلوه من إنكار الحق وكتمانه ، والجدال بالباطل ، فقال تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما يعملون ﴾ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا . ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون .

قوله جل شأنه : ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ . كان رسول الله ﷺ حريصا على هداية اليهود ، لأنهم لو أسلموا لكان فى إسلامهم خير كثير . فقد ذكرت أوصاف الرسول فى كتابهم التوراة ، وثبتت رسالته عندهم من غير شك ، فأراد ربك سبحانه وتعالى أنْ يخفف عن نفس رسوله ما يعانيه فى هذه السبيل ، فأخبره عما فى قلوبهم ، والله به عليم بأن هؤلاء الناس جُبلوا على العناد وصارت قلوبهم أشد قسوة من الحجارة ، فلو جئتهم بكل آية سواء أكانت آيات كونية أم آيات قرآنية ، مااتبعوا قبلتك ، لأنهم قد ملأ الكبر نفوسهم ، وهاج الحسد فى قلوبهم ، وحيث إنك يا محمد على الحق المبين فلن تتبع قبلتهم أبدا ، بل إن بعض أهل الكتاب ليس بتابع قبلة البعض الآخر ، فلا اليهود يصلون إلى قبلة النصارى ، ولا النصارى يصلون إلى قبلة اليهود . قال تعالى : ﴿ وما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ . قوله جل شأنه : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين ﴾ . هذا خطاب موجه إلى الرسول ﷺ بصفته رئيس الأمة ، والمراد به أمته ، لأن الله تعالى عصمه عن التلبس بأى منهى عنه . والأهواء جمع هوى ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، وهو داء قد أعيا الأطباء ؛ فمن يتبع أهواء الظالمين وقد جاءه العلم من قبل الله جلت قدرته ، فهو منهم ، والله جل جلاله يبين الآيات ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه وَمن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

قوله جل شأنه : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ . هذه حجة قاطعة دمغ الله بها أهل الكتاب ، فإنهم يعرفون أن محمداً حق ، وأن الله قد أخبرهم بذلك فى كتابهم ، بل إنهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، ولكنهم كتموا هذا الحق وأنكروه ﴿ وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلاتعقلون * أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾[(1)] . والمراد الفريق فى الآية الكريمة هم العلماء منهم وغير العلماء تبع لهم ، ويوم القيامة سيتبرأ كل منهم من الآخر ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم ، كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[(2)] . قيل لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإننى لا أدرى من ابنى ما كان من أمه . قلت وقد يكون المراد ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ من بين أبناء الناس كلهم ، لا يشك أحد ولا يمترى فى معرفة ابنه إذا رآه بين أبناء الناس كلهم . قوله تعالى : ﴿ الحق من ربك ﴾ ، هذا إخبار من الحق جل جلاله بالحق عن الحق ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ فثبت للرسول الكريم وأصحابه بأنهم الأمة الناجية والفرقة التى كتب الله لها فى كتابه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[(3)] .

مسائل تتعلق بالقبلة

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ
مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا
تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ
رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ٧٦ ، ٧٧ .
(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧ .
(٣) سورة النور آية : ٥٥ .

مَا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

المفردات : ﴿ **فاستبقوا** ﴾ : تسابقوا . ، ﴿ **الحكمة** ﴾ : العلم النافع مع العمل ، كل هذا تأييد للدعوى وبطلان لكلام المنكرين .

بعد أن أمر الله رسوله والمؤمنين معه بالتوجه إلى البيت الحرام ، بيّن سبحانه أن لكل فرقة وجهة تتوجه إليها : فلليهود وجهة ، وللنصارى كذلك ، وللمسلمين ، وليست العبرة بأن يتشبث كل فريق بوجهته ، إنما العبرة باستباق الخيرات إلى الحق ، لأن القبلة إنما تأتى بإذن من الله ، فهى أمر توقيفى لا مجال للاجتهاد البشرى فيه . فيامن وليتم وجوهكم قبل المشرق والمغرب من اليهود والنصارى أنسيتم أن البر ليس فى أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ؟ وهل يتحقق إيمان بالله مع مخالفة أمره وعدم الامتثال لإذنه ؟ ليس هذا هو البر . واعلموا أنتم أنكم أينما توجهتم ، فإن الله تعالى محيط بكم أينما تكونوا ، وإن تفرقتم فى شعاب الأرض وسرتم فى مناكبها فإن الله قادر على أن يجمعكم فى أقل من لمح البصر . فأى فائدة فى أن تولوا وجوهكم قبلة لم يأذن الله بها وأنتم تقرءون فى كتبكم أن النبى حق وسوف يوجه إلى قبلة الحق ؟ ثم ذكر تعالى بعد ذلك الأمر بالتوجه إلى شطر المسجد الحرام مرة ثانية وثالثة . فقال : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ . وقال بعد ذلك : ﴿ **ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة** ﴾ .

ولسائل أن يقول : لماذا تكرر الأمر باستقبال الكعبة ؟ ونقول : ذلك لحكمة بالغة اقتضتها العناية الإلهية ، فهذا أول نسخ ورد بإزالة حكم بحكم آخر متأخر عنه . فقد نسخ الأمر بالتوجه إلى بيت المقدس بالأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام ، فاقتضى ذلك التوقيت حتى لا تكون هناك فتنة أو تردد إلا عند الذين ظلموا . وثانياً : لأن كل آية من هذه الآيات لم تخل من فائدة ، مع الآية الأولى ، قرن الله الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله : ﴿ **وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ ، وفى الآية الثانية قرن الله تعالى الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله : ﴿ **وإنه للحق من ربك** ﴾ . وفى الآية الثالثة قرن الله الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام بقوله مبينا الحكمة من ذلك : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ . ويرى بعض المفسرين أن التكرار جاء لفائدة عظمى . فالآية الأولى : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ خطاب لمن فى المسجد ، والآية الثانية ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ خطاب لأهل الحرم ، والآية الثالثة ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام** ﴾ خطاب لمن هم خارج الحرم فى مشارق الأرض ومغاربها . ومن هنا فقد أفاد التكرار فوائد جمة . وسبحان من قال فى كتابه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[1] . ونأخذ من الآية الحكمة من تحويل القبلة ، كما نصت

(١) سورة هود آية : ١ .

على ذلك الآية . فالحكمة الأولى : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ . هذا قطع لمعاذير المبطلين.لقد علموا أن الحق فى ما أمر الله به ورسوله وبان لهم ذلك ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾[١] . فهؤلاء حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ، ولهم عذاب شديد . أما الظالمون فإنهم فى طغيانهم يعمهون ، وفى غيهم سادرون ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾[٢] ﴿ سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلاً ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[٣] . الحكمة الثانية قوله تعالى : ﴿ فلا تخشوهم واخشونى ﴾ . . إنكم يا أمة محمد على حق ، وهم على الباطل ، وصاحب الحق لا يخشى أحداً إلا الله ، فالحق أبلج والباطل لجلج ؛ فأنتم كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وهم كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار . أنتم الذين تبلغون رسالات الله وتخشونه ولا تخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً . الحكمة الثالثة قوله تعالى : ﴿ ولأتم نعمتى عليكم ﴾ ومن تمام النعمة أنه تعالى قد عرفكم كيف تتجهون فى صلاتكم حتى توحدوا صفوفكم وتكونوا على قلب رجل واحد (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر) . فالمسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها يتوجهون فى صلاتهم إلى الكعبة مهما بعدت مواقعهم .

ولست أدرى سوى الإسلام لى وطناً ... الشـام فيه ووادى النيـل سيـان
وكـلما ذكـر اسـم الله فى بـلد ... عـددت أركانـه من لب أوطـانى

والحكمة الرابعة قوله تعالى : ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ ، وكلمة «لعل» هنا يراد بها «اللام» الدالة على الغاية ، أى ولتهتدوا ، لأن الترجى يفيد توقع حصول الأمر المحبوب ، والتوقع يفيد الجهل بالمستقبل ، والجهل على الله محال ونعمة الهداية من أجل النعم ﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾[٤] ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾[٥] ﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[٦] . قوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم ﴾ . «الكاف» هنا بمعنى لام التعليل كما فى قوله تعالى : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[٧] ، وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾[٨] . ويكون المعنى على هذا : لتهتدوا بسبب إرسالنا فيكم رسولاً منكم ، وتلك نعمة كبرى جعلها الله منة منه على المؤمنين ، فهو الرسول المعظم والرئيس المقدم . ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[٩] ، والمراد بالكتاب ، القرآن ، وبالحكمة السنة . ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[١٠] . وهنا قال

(١) سورة التوبة آية : ٤٨ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٢٥ .
(٣) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .
(٤) سورة الإسراء آية : ٩٧ .
(٥) سورة الأنعام آية : ٩٠ .
(٦) سورة الحج آية : ٥٤ .
(٧) سورة الإسراء آية : ٢٤ .
(٨) سورة الأنعام آية : ١١٠ .
(٩) سورة آل عمران آية : ١٦٤ .
(١٠) سورة الحشر آية : ٧ .

﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ . وكم علم الرسول وكم تخرج فى مدرسته من مصلح عظيم كأبى بكر ، وزعيم ملهم كعمر ، وعاقل كريم كعثمان ، وعبقرى فذ كعلى ، وقائد جبار كخالد ، ومحدث جليل كأبى هريرة ، وزاهد صادق كأبى ذر ، وفيلسوف بارع كسلمان . إذا كان ذلك كذلك من إتمام نعمة وهداية وإرسال وتلاوة وتزكية وتعليم ، ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ .

ومن أجل النعم التى يشكر الله عليها . . محمد ﷺ ، ولذلك ذم الله من جحد هذه النعمة فقال : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾[١] . قال ابن عباس : المراد بنعمة الله هنا محمد ﷺ .

عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال : يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه : (تذكرنى ولا تنسانى ، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى) .

قال بعض السلف : إن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره . وقال بعضهم فى قوله تعالى : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ هو أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر . قيل لابن عمر : أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله وقد قال الله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ :. قال : إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت . وقال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ قال اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى . وعن سعيد ابن جبير : اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى ؛ وفى رواية : برحمتى . . .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله : أنا عند ظن عبدى بى[٢] وأتابعه[٣] إذا ذكرنى . فإن ذكرنى فى نفسه[٤] ذكرته فى نفسى[٥] وإن ذكرنى فى ملأ[٦] ذكرته فى ملأ خير منهم وإن تقرب إلىَّ شبرا ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة)[٧] .

فالذكر هو استحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، والشكر هو تسخير كل ما وهبك الله لطاعته جل فى علاه . فالصحة والمال والحسب والسلطان إذا سخرتها فى طاعة الله فأنت شاكر . قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

(١) سورة ابراهيم آية : ٢٨ .
(٢) أنا عند ظن عبدى بى : أى أعامله حسب اعتقاده .
(٣) أتابعه : أى بالتوفيق والرحمة والنصر .
(٤) ذكرنى فى نفسه : أى ذكرنى سرا .
(٥) ذكرته فى نفسى : أى أثبته ورحمته .
(٦) ذكرنى فى ملأ : أى جماعة .
(٧) الترغيب والترهيب حـ ٢ ص ٢٧١ حـ ١ وزارة الأوقاف .

توجيهات ربانية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن
يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ
وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ
قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

المفردات : الصلاة فى اللغة الدعاء ، وهى من الملائكة الاستغفار ومن الله الرحمة .
والصبر : هو مقاومة النفس للهوى لئلا تنقاد للقبائح .
لنبلونكم : لنمحصنكم والمراد نصيبنكم إصابة من يختبر أحوالكم : الخوف ؛ ضد الأمن
نقص من الأموال : ذهاب بعضها . نقص الأنفس : موت الأنفس .
نقص الثمرات : قلتها ، وقيل موت الأولاد .

خطاب إلهى كريم إلى الجماعة المؤمنة أن تطلب العون من الله على أذى المعاندين الجاحدين الذين ناصبوهم العداء . وقال السفهاء منهم : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾ وكتموا الحق ﷺ وهم يعلمون أنه الحق ، وتشابهت قلوبهم . . فمواقف العداء واحدة وإن اختلفت مللها ونحلها من يهود ونصارى ومشركين . نعم أمر الله الجماعة المؤمنة أن تطلب العون بالصبر والصلاة . ففى الصبر النصر ، وفى الصلاة النجاة ، وفى كليهما الفوز المبين . وإنما قدم الصبر على الصلاة لأنه الأعم الأشمـل ، فهو فى العبـادات روحها ، يسرى فيها سريان ماء الورد فى الورد ، وهو فى المعاملات جمالها ، يزينها بلباس التقوى ، وهو فى العقائد سياجها الذى يحميها من عوادى المعتدين .

ويكفى الصابرين فخرا أن الله تعالى معهم قال جلَّ شأنه : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ومعية الله حفظ ورعاية وصيانة وعصمة من الناس . فمن كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ لما جمع الله تعالى بين يوسف وإخوته والتقوا بعد طول فراق ودخلوا عليه وهو متربع على عرش مصر بعدما رفعه الله من غيابة الجب إلى غاية الحب ، قالوا له : ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف[1] ﴾ وكأنه فى نفوسهم سؤ ال حائر يطلب الجواب عليه ، وكان هذا السؤ ال : ما الذى رفعك إلى تلك المكانة العالية ؟ فكان الجواب : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[2] . وإنما قال تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ ولم

(١) سورة يوسف آية : ٩٠ . (٢) سورة يوسف آية : ٩٠ .

يقل « مع المصلين » مع أنه تعالى أمر بالصبر والصلاة ، لأن الصبر روح الصلاة وصلاة بلا صبر جسد بلا روح ، ومن ثمَّ فمعية الله للصابرين يدخل فيها الذين عرفوا الله فصبروا عند البلاء ورضوا بالقضاء وشكروا فى الرخاء .

عن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء[1] شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء[2] صبر فكان خيرا له)[3] .

وللصبر حقيقة ، وأقسام ، وفضل ؛ فما حقيقته ؟ : الصبر هو ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات لئلا يتردى فى القبائح . وقيل هو احتمال الكد وقيل هو حبس النفس على ما تكره ، وقيل هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنساق وراء الشهوات . وكل هذه التعريفات مجتمعة تكون حقيقة الصبر فى أجلى معانيها وأكمل صورها . وللصبر فضل ، وللصابرين درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم . قال تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[4]. وقال حجة الإسلام الإمام الغزالى فى فضل الصبر كلاما جليلا جاء فى كتاب الإحياء ، ونسوق مما ذكره الإمام الغزالى فى هذا الباب بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدور حول بيان فضل الصبر والصابرين . قال رحمه الله تعالى : « وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له ، فقال عز من قائل : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾[6] . وقال تعالى : ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[7] . وقال تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[8] قال ﷺ فى بيان عظم مكانة الصبر : (الصبر نصف الإيمان) وقال صلوات ربى وسلامه عليه : (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ؛ فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه) . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[9] . وروى جابر أن النبى ﷺ سئل عن الإيمان فقال : (الصبر والسماحة) . وقال أيضا : (الصبر كنز من كنوز الجنة) . وقال أيضا ﷺ : (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس) . وقيل : (أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور) . وقال رسول الله ﷺ : (لو كان الصبر رجلا لكان كريما ، والله يحب الصابرين)[10] .

---

(١) سراء : أى نعمة .
(٢) ضراء : أى شدة .
(٣) الترغيب والترهيب ص ٤ ص ١٦٢ ط الشعب .
(٤) سورة هود آية : ١١
(٥) سورة السجدة آية : ٢٤
(٦) سورة الأعراف آية : ١٢٧
(٧) سورة النمل آية : ٩٦
(٨) سورة الزمر آية : ١٠
(٩) سورة النحل آية : ٩٦
(١٠) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى جـ ١٢ ص ٢١٧ ط الشعب

والأخبار فى هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى : عليك بالصبر ، واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر فى المصيبات حسن ، وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى ، واعلم أن الصبر ملاك الإيمان . وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر .

وقال علىّ كرم الله وجهه : بنى الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا إيمان لمن لا صبر له .

وينقسم الصبر انقسامات عديدة باعتبار أحواله . ونحن هنا نختار ذلك التعريف الذى يقسم الصبر إلى قسمين : أحدهما بدنى : كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو إما بالفعل : كتعاطى الأعمال الشاقة (إما من العبادات أو من غيرها) ، وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ، ولكن المحمود التام هو القسم الآخر ، وهو صبر النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى : فإن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة ؛ وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر : فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى البطر ؛ وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ، ويضاده الجبن ؛ وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر ؛ وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مُضجرة سمى سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ؛ وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما ؛ وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، ويضاده الحرص ؛ وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، ويضاده الشره ؛ فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر .

وبعد هذا الطواف المبارك فى مجال الصبر ينتقل بنا النظم الكريم إلى مجال الشهادة وكأن بينهما تمام ارتباط ؛ فالصبر والجهاد قرينان متلازمان : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾(١) .

اصبر على كيد الحسود فإن صبرك قاتله   كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

هناك صبر على كيد الكائدين ، ولكن قد يكون العدو لئيما ينظر إلى صبر المؤمن على أنه ضعف فيستأسد عليه . هنا يقول تعالى : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾(٢) ولكى يكون هناك انتصار لابد أن يكون هناك استشهاد ، فلا يفل الحديد إلا الحديد .

قال جل شأنه : ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾(٣) .

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠٠
(٢) سورة الشورى : ٣٩
(٣) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ ـ ١٤٢

إن طريق الوصول إلى الحق محفوف بالصبر والجهاد ، مزين بدماء الشهداء ؛ فإذا كان فى الصبر حياة للنفوس ، فإن فى الشهادة حياة كاملة لا يشوبها نقص ولا يطرأ عليها قدرة تغير من صفائها وبهائها وروائها وجمالها . ﴿ **ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات** ﴾ ، أى لا تقولوا هم أموات ﴿ **بل أحياء ولكن لا تشعرون** ﴾ . ذلك لأن ما وراء البرزخ محيط أعنف من أن يمخر عبابه سباح ماهر . وقد منح الله الشهداء من أوسمة الشرف ونياشين الرفعة وسمو الدرجة ما يجعل الشهيد يسأل الله العودة إلى الدنيا حتى يقتل مرة أخرى . وما من أحد يطلب من الله هذا الطلب إلا الشهيد . ولما تمثلت روح الشهيد عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله ، قال له الله : تمنَّ علىَّ ياعبد الله . قال : يارب أتمنى أن أعود إلى الدنيا لأخبر إخوانى بما أنا فيه من النعيم المقيم . قال له الله : لقد سبق القول منى أنهم إليها لا يرجعون . قال : يارب فمن يخبر إخوانى ؟ قال له الله : أنا الذى أخبرهم . فنزل الأمين جبريل بقوله جل شأنه : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[1] .

إن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، ويرى مكانه فى الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعين من أهل بيته ، ويزُوج باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها . جاء فى صحيح مسلم أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : ياربنا وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يُسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ؛ لما يرون من ثواب الشهادة . فيقول الرب جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وقد اقتضت سنة الله تعالى فى خلقه أن يبتليهم بأنواع من البلاء ليتبين الصابر من الجزع ، وليجزى الصابرين ويوفيهم أجرهم بغير حساب . وقد تتعدد ألوان البلاء من جوع وخوف ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وما من شك فى أن هذه الأنواع التى وردت فى قوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات** ﴾ . ما من شك أنها جاءت مخففة ، وذلك من لطف الله بعباده . وجاء التعبير فى الآية ﴿ **بشىء** ﴾ ولم يقل ولنبلونكم بالخوف والجوع وإبادة الأموال والأنفس والثمرات . ذلك كله دليل على أن الله لطيف بعباده . وجاء التعقيب فى آية البلاء مبشرا للصابرين . وهنا يعلم الله الصابرين ماذا يقولون عند حلول البلاء فيقول : ﴿ **الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ .

قال عمر رضى الله عنه : « ما أصابتنى مصيبة إلا وجدت فيها ثلاث نعم : الأولى أنها لم تكن فى دينى . الثانية : أنها لم تكن أعظم مما كانت . الثالثة : أن الله يجازى عليها الجزاء الكبير . ثم تلا قوله تعالى :

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٦٩ ، ١٧٠

﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ . قال عمر بن الخطاب : نعم العدلان ونعمت العلاوة ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ فهذان العدلان ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ فهذه العلاوة ، وهى ما توضع بين العدلين ، وهى زيادة فى الحمل ؛ فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضا .

قال ﷺ : (إذا مات ولد لعبد ، قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ؟ فيقولون : نعم ، فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع ، فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد)[1] .

وقال على بن الحسين زين العابدين : إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد : أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة - فيقولون : إلى أين يابنى آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا ، قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[2] وقال سعيد بن جبير : الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه ، وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر .

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول الله : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة : عن أم سلمة قالت : أتانى أبو سلمة يوما من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سررت به . قال : (لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها) ، ثم رجعت إلى نفسى . فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن علىّ رسول الله ﷺ وأنا أبغى إهاباً لى ، فغسلت يدى من القرظ وأذنت له ، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف ، فقعد عليها فخطبنى إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت : يارسول الله ما بى أن لا يكون بك الرغبة ، ولكنى امرأة فىّ غيرة شديدة ، فأخاف أن ترى منى شيئا يعذبنى الله به ، وأنا امرأة قد دخلت فى السن ، وأنا ذات عيال ، فقال : (أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عزّ وجلّ عنك ، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالـك عيالى) قالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ . . فتزوجها رسول الله ﷺ ، فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيرا منه : رسول الله ﷺ[3] .

يروى أن امرأة فتح الموصلى عثرت فانقطع ظفرها فضحكت فقيل لها : أما تجدين الوجع فقالت : إن لذة ثوابه أزالت عن قلبى مرارة وجعه . . وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدل على تقوى المؤمن

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ١٣١ ط دار الفكر .
(٢) سورة الزمر آية : ١٠
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٥ ط الشعب .

بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .

وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء . ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضى الله عنهم قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر . ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾[1] وقال عزّ وجلّ : ﴿ إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾[2]

قال ﷺ : (اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففى الصبر على ما تكره خير كثير) .

واعلم بأن الصبر لله غناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . وقد قيل فى معناه :

والصبر عنك فمذموم عواقبه   والصبر فى سائر الأشياء محمود

وقيل :

الصبر يجمل فى المواطن كلها   إلا عليك فإنه لا يجمل

الصفا والمروة

* ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ (١٥٨)

بعدما أمر الله تعالى الجماعة المسلمة بالتوجه إلى المسجد الحرام بمكة ، ناسب ذلك أن يبين بعض أفضال هذا البلد الأمين ، فوجه الأنظار إلى بعض شعائر الحج . ولما كان الحج إلى البيت الحرام بمكة ، فإن السعى بين الصفا والمروة من شعائر الحج . فى هذا البلد الذى أمر الله بالتوجه إليه فى الصلوات ، ولكل مسلم مهما بعدت دياره ، فالقبلة واحدة للأمة كلها فى مشارق الأرض ومغاربها . ولنأخذ فى بيان المفردات

الصفا والمروة : جبلان . **شعائر الله** : جمع شعيرة ، وهى العلامة . والمراد بشعائر الله هنا : مناسك الحج .

حج البيت أو اعتمر : الحج فى اللغة : القصد ، وفى الشرع : قصد مكة لأداء النسك . والعمرة : الزيارة ، واعتمر : زار ، وفى عرف الشارع هى كالحج فى الطواف والسعى ، لكن ليس فيها وقوف بعرفة ، وليس لها زمان محدود . **فلا جناح** : فلا إثم . **تطوع** . . فعل الطاعة فرضا أو نفلاً .

وقد وردت أحاديث نبوية فى سبب نزول هذه الآية نذكر بعضها لتتضح الصورة ويتبين القصد : روى الإمام أحمد بسنده عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : « أرأيت قول الله تعالى ﴿ إن الصفا والمروة من

(١) سورة المنافقون آية : ٩   (٢) سورة التغابن آية : ١٤

شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ قلت فو الله ما على أحد جناح أن يطوف بهما . فقالت عائشة : بئسما قلت ياابن أختى ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه ، لكانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت لأن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانوا يعبدونها عند المُشَلَّل ، وكان من أهلَّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة . فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقالوا : يارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما** ﴾ قالت عائشة ثم قد سنَّ رسول الله ﷺ الطواف بهما ، فليس لأحد أن يدع الطواف بهما » أخرجه الصحيحان .

وقال رجال من أهل العلم : يقولون إن الناس ، إلا من ذكرت عائشة ، كانوا يقولون : إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار : إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة . فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ قال أبو بكر بن عبد الرحمن : فلعلها نزلت فى هؤلاء وهؤلاء .

وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل : صح أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول : ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله** ﴾ ثم قال (أبدأ بما بدأ الله به) .

وكان رسول الله ﷺ وهو يسعى بين الصفا والمروة يقول للناس : (اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى)[١] . ومن هذه الأحاديث رأى الشافعى ورواية عن أحمد والمشهور من مذهب مالك أن السعى بينهما ركن من أركان الحج . ورأى بعض الفقهاء أنه واجب ، فإن تركه لزمه دم . ورأى أبو حنيفة أنه مستحب ، والراجح الرأى الذى يرى أنه ركن ، وذلك لأن الأدلة تساعده .

ولقد سعى رسول الله ﷺ وقال : (لتأخذوا عنى مناسككم) . وقد ورد عن ابن عباس أن أصل ذلك السعى مأخوذ من طواف هاجر وطلبها وترددها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نفد ماؤهما وزادهما حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الضيعة هنالك ونفد ما عندهما ، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل ، فمازالت تتردد فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطربة فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التى ماؤها « طعام طعم وشفاء سقم » . فعلى الساعى بينهما أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يتجه إلى الله عز وجل لتفريج ماهو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته ، وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة ، كما فعل بهاجر عليها السلام[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **من شعائر الله** ﴾ أى مما شرع الله ، أما قوله جل شأنه : ﴿ **من تطوع خيرا** ﴾ ، فهذا

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ ط الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٨٧ ، و ٢٨٨ ط الشعب .

النص يشمل جميع العبادات ، أى فمن زاد عن الفريضة فى الصلوات والزكاة والصيام والحج ﴿ فإن الله شاكر ﴾ يجزى الجزاء الأوفى ، فيكافىء على الحسنة مكافأة كبيرة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)[1] .

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[2] .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

وما من شك فى أن التطوع فى العبادات كلها له عند الله منزلة عليا . أخبر مولانا جل جلاله فى الحديث القدسى الجليل : (ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها) .

والمحسنون لهم على إحسانهم ... يوم الإثابة عشرة الأمثال
وجزاء رب المحسنين يجل عن ... عدد وعن وزن وعن مكيال

النهى عن كتمان العلم

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

المفردات ﴿ يكتمون ﴾ الكتمان : الإخفاء والستر . ﴿ يُنْظَرُون ﴾ : يمهلون .

العلم أمانة ، والأمانة واجبة الأداء ، فمن كتم العلم فقد خان الأمانة . وقد قال مولانا جل جلاله : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[3] والعالم الذى يؤدى الأمانة ويبلغ العلم للناس يرفعه الله درجات ؛ قال النبى ﷺ : (بلغوا عنى ولو آية)[4] وقال : (نضر الله امرأ سمع مقالتى فوعاها ثم أداها كما سمعها . . فرب مبلغ أوعى من سامع)[5] واعلم بأن الله تعالى وملائكته وحملة

(١) سورة الأنعام آية : ١٦٠ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١ .
(٣) سورة الأنفال آية : ٢٧
(٤) الجامع الصغير جـ١ ص٤٨٨ ط دار الفكر .
(٥) المصدر السابق جـ٢ ص٦٧٤ ط دار الفكر .

عرشه ، حتى النملة فى جحرها والحوت فى البحر ، يصلون على معلم الناس الخير . هذا جانب مشرق مضىء ، يقابله على الجانب الآخر كتمان العلم ، وهو جانب مظلم معتم ؛ قال فيه النبى ﷺ (من سأل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)(١) .

وجاء فى الصحيح عن أبى هريرة قال : لولا آية فى كتاب الله ما حدثت أحداً شيئاً : ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى . . .** ﴾(٢) .

وقد أخذ الله العهد على العلماء أن يبينوا ما فى الكتاب ونهاهم عن كتمانه ؛ قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه** ﴾(٣) والذين كتموا أو يكتمون ما أنزل الله من البينات والدلائل على صدق رسول الله ﷺ وإثبات نبوته وما أنزل الله من طرق الهدى والرشاد ، بعدما وضح الله كل ذلك فى كتبه ، وظهر للناس واضحاً جلياً ؛ كان على العلماء أن يرشدوا ويبينوا ويبلغوا رسالات الله ، كما قال تعالى : ﴿ **الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً** ﴾(٤) . واثنان إن صلحا صلحت الأمة ، وإذا فسدا فسدت الأمة : العلماء والأمراء ؛ وقد رفع الله مكانة العلماء ، حيث جعلهم مع الذين شهدوا أنه لاإله إلا الله حيث قال تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لاإله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾(٥) ، وقال فيهم رسـول الله ﷺ (العلماء ورثة الأنبيـاء)(٦) وجعلهم الله تعالى أهل خشيته فقال : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾(٧) .

إذا كان هذا الفضل للعلماء العاملين المبلغين ، فإن الذين يكتمون العلم استحقوا من الله أن يلعنوا ، واستحقوا أن يلعنهم كل شىء ، حتى الحوت فى الماء والطير فى الهواء ، وليس اللعن أمراً سهلاً ، إنما هو طرد من رحمة الله ؛ ومع هذا كله فقد اقتضت سنة الله تعالى ألا يقنط الناس من رحمته ، ففتح باب التوبة ؛ وسبحانه وسعت رحمته كل شىء ، والذنب كالداء ، والتوبة كالدواء ، ولكل داء دواء يستطب به . . فما توبة هؤلاء الكاتمين للعلم ؟ .

قال تعالى : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم** ﴾ أى أقبل منهم توبتهم وأرضى عنهم ، وذلك شأن من شئون الله فإنه هو التواب الرحيم : أما الذين كفروا وماتوا وهم كفار ، فإنهم لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، أولئك مأواهم النار ومالهم من ناصرين . وعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وجزاؤهم كذلك خلود فى النار لا يخفف عنهم العذاب ولاهم ينظرون ، أى لا يمهلون ، أى يدخلون النار عقب موتهم : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾(٨) وقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون**

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص٦٠٨ ط الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢٨٢ طـ الشعب .
(٣) سورة آل عمران آية :١٨٧ .
(٤) سورة الأحزاب آية :٣٩ .
(٥) سورة آل عمران آية :١٨ .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص١٩٠ ط الشعب .
(٧) سورة فاطر آيه : ٢٨ .
(٨) سورة الأنفال الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .

بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾[١] وقال تعالى فى شأن قوم نوح : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾[٢] .

وفى شأن آل فرعون قال تعالى : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غُدُوا وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾[٣] . فهل هناك إمهال لهؤلاء الظالمين ؟ إنهم يبدءون العذاب وهم فى سكرات الموت .

﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾[٤] .

فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك .

التوحيد وأدلته

وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾

المفردات : ﴿ وإلهكم ﴾ الإله : المعبود بحق أو باطل ، والمراد به هنا المعبود بحق وهو الله رب العالمين (الفلك) ما عظم من السفن وهو اسم يطلق على المفرد والجمع . وبث : فرق ونشر ومنه كالفراش المبثوث . ﴿ دابة ﴾ الدابة فى اللغة : كل ما يدب على الأرض من إنسان وحيوان مأخوذ من الدبيب ، وهو المشى رويداً ، وقد خصه العرف بالحيوان ، ويدل على المعنى اللغوى قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع ﴾[٥] ، فجمع بين الزواحف والإنسان والحيوان.﴿ تصريف الرياح ﴾ : الرياح جمع ريح ، وهى نسيم الهواء ، وتصريفها : تقليبها فى الجهات ونقلها من حال إلى حال ، فتهب حارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وملقحة للنبات وعقيماً ﴿ المسخر ﴾ : من التسخير ، وهو التذليل والتيسير .

قضية التوحيد فطرية مركوزة فى طباع الخلائق ، قال سبحانه : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾[٦] . ولقد أقام القرآن الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على هذه القضية الصادقة التى كانت الركن الأول من رسالات الأنبياء . قال تعالى : ﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن

(١) سورة الأنعام آية : ٩٣ .
(٢) سورة نوح آية : ٢٥ .
(٣) سورة غافر آية : ٤٦ .
(٤) سورة الأنعام آية : ٩٣ .
(٥) سورة النور آية : ٤٥ .
(٦) سورة الروم الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

أنذر قومك من قبل أن يـأتيهم عذاب أليم * قـال يا قـوم إنى لكم نذيـر مبين * أن اعبـدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾(١) ، وقال جل شأنه : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾(٢) . ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال اعبـدوا الله مالكم من إلـه غيره هـو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾(٣) ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾(٤) . وقال جل شأنه ، حكاية عن موسى وفرعون : ﴿ قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال لإن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾(٥) . . الخ .

وغنى عن البيان ما دار بين إبراهيم وقومه فى قوله جل شأنه : ﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ . والآية الجامعة لرسالات الأنبياء نجدها واضحة الدلالة على أن التوحيد رائدهم ، قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين(٦) ﴾ . ولقد قال النبى ﷺ فى شأن كلمة التوحيد : (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة(٧)) ، وقال : (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله(٨)) . ويبين القرآن الكريم أن رسالات الأنبياء كانت تقوم على التوحيد ، قـال تعالى : ﴿ ينـزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾(٩) ، وقال جلت قدرته : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون(١٠) ﴾ . ولعظم هذه الكلمة فإن الله أكد بها قضية التوحيد ، فبعد ما قال وإلهكم إله واحد ، أكدها بقوله لا إله إلا هو ، فهو المعبود بحق ، المستغنى عمن سواه ، المفتقر إليه جميع من عداه ، لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، ومجير كل ملهوف ، وقوة كل ضعيف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، واحد بلا عدد ، قائم بلا عمد ، دائم بلا أمد ؛ تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ؛ معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ؛ بالبر معروف وبالإحسـان موصوف ؛ أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ؛ ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزىء ، ولا متناه ولا متكيف ، ولا متلون ؛ لا يسأل عنه بمتى كان ؛ لأنه خالق الزمان . قيل للإمام على كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ قال : ومتى لم يكن ؟ هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * له

(١) سورة نوح الآيات : ١ ـ ٣ .
(٢) سورة الأعراف آية : ٦٥ .
(٣) سورة هود آية : ٦١ .
(٤) سورة هود آية : ٨٤ .
(٥) سورة الشعراء الآيات : ٢٣ ـ ٢٩ .
(٦) سورة النحل آية : ٣٦ .
(٧) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ص ٦٢٨ ط دار الفكر .
(٨) المصدر السابق . . جـ٢ ص٤١٢ . .
(٩) سورة النمل آية : ٢ .
(١٠) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .

ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على شىء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾[1] .

قيل للإمام الشافعى رضى الله عنه : ما الدليل على وحدانية الله ؟ فقال : ورقة التوت : تـأكلها الدودة فتخرجها حريرا ، ويأكلها الغزال فيخرجها مسكاً ، وتأكلها الشاة فتخرجها بعراً وتأكلهـا النحلة فتخرجها شهداً ، فمن الذى نوع الأشياء والأصل واحد ؟ .

الشمس والبـدر من أنـوار حكمتـه   والبـر والبحر فيض من عـطايـاه
الـوحش يمجّـده والـطير سبَّحـه   والمـوجُ كبَّـره والحـوت نـاجـاه
والنمل تحت الصخور الصم قدّسه   والنحـل يهتف حمداً فى خـلايـاه
والنـاس يعصونـه جهـراً فيسترهم   والعبـد ينسـى وربى ليس ينسـاه

إننى ما زلت أذكر ، ونحن فى مراحل التعليم الأولى ، وكنا أطفالاً صغاراً ، هذه الأناشيد التى نرددها فى الصباح ، قبل استقبال الدراسة ، وكانت تفيض إيماناً وتوحيدا ونوراً وتشع جمالاً وجلالا وكمالاً :

انـظر لـتـلـك الـشـجـرة   ذات الـغـصـون الـنـضـرة
كـيـف نمـت مـن حـبـة   وكـيـف صـارت شـجـرة
فـانـظر وقـل مـن ذا الـذى   يخـرج مـنـهـا الـثـمـرة
ذاك هـو الله الـذى   أنـعـمـه منـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة   وقـدرة مـقـتـدرة

* * *

وانـظر إلى المرء وقـل   مـن شق فـيـه بـصـره
مـن الـذى جـهـزه   بـقـدرة مـفـتـكـرة
ذاك هـو الـذى   أنـعـمـه منهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة   وقـدرة مـقـتـدرة

* * *

وانـظر إلى الـشـمس الـتـى   جـذوتهـا مـسـتـعـرة
فـيـهـا ضـيـاء وبهـا   حـرارة مـنـتـشـرة
مـن ذا الـذى أوجـدهـا   فى الجـو مـثـل الـشـررة
ذاك هـو الله الـذى   أنـعـمـه منـهـمـرة
ذو حـكـمـة بـالـغـة   وقـدرة مـقـتـدرة

* * *

(١) سورة الحديد الآيات : ١ ـ ٣ .

وانظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدرر المنتشرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

إن هذه الأبيات إنما ترشدنا إلى قاعدة أصيلة دارت حولها الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أن لهذا الكون خالقاً مبدعاً ، وأنه واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله ، واحد فى ذاته لا قسيم له ، واحد فى صفاته لا شبيه له ، واحد فى أفعاله لا شريك له ، لا يسأل عنه سؤال إحاطة بأين هو ؛ لأنه خالق المكان ، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾[1] ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً ﴾[2] . إن هذا الدليل الذى عقد عليه المفكرون أدلتهم ، هو دلالة الأثر على المؤثر ، وتحت هذا القانون تندرج أدلة فرعية هى : دليل التكوين ودليل الارتباط ودليل الإتقان ودليل العناية ، ودليل الواجب الذى قال به الفلاسفة ، ودليل الشكل الذى قال به رينيه ديكارت ؛ وما أغنانا عن كل هذه الأدلة بجانب قوله جل شأنه : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[3] هذه الآية جمعت فأوعت ودلت فصدقت وبينت فأحكمت ، ولا شك أنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . إن الله جلت قدرته لما قرر أدلة التوحيد سبقها بصفتين كريمتين من صفاته ، فقال ﴿ **لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ أى أنه هو المالك المتصرف فى ملكه ، إلا أنه وصف نفسه بالرحمة ، فهو رحمن الدنيا الذى رحم الجميع وشملهم بلطفه وبره ، ورحيم الآخرة الذى اختصت رحمته بالمؤمنين . قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[4] ، فمن حق هذا الواحد الأحد أن يُعبد وحده وألا تقابل رحمته بالجحود والإنكار . ولنأخذ الآن فى بيان الأدلة :

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والأفلاك ومدارها ، والأرض واتساعها ، والبحار وأمواجها ؛ الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ، ويسبح بحمده ، ويعلن بشكره ولا يغفل عن ذكره .

ولقد بدأت الأدلة فى تلك الآية بذكر الكونين : الكون المكانى والكون الزمانى ، فالكون المكانى جاء فى خلق السموات والأرض ، والكون الزمانى جاء فى اختلاف الليل والنهار ، واختلافهما يدور حول الطول والقصر والحر والبرد والظلمة والضوء ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها

(١) سورة الشورى آية : ١١
(٢) سورة طه آية : ١١٠
(٣) سورة البقرة آية : ١٦٤
(٤) سورة الأحزاب آية : ٤٣

أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[١] . ثم تنتقل بنا الآيات من الكون إلى الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس من البضائع والسلع والتجارة والصناعة وغير ذلك ، وإنها لسفن عظيمة تمخر عباب الماء طولاً وعرضاً ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٢] .

ونأتى بعد ذلك إلى عالم الماء والرياح والسحاب ، فنستمع إلى منطق العلم ولغة الحقائق تحدثنا عن هذه الآيات ؛ تقول الحقائق العلمية : فما هو السحاب ؟ هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العليا كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولابد لتكوين السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما فى الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار ، والثانى أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه أن يبرد تبريدا كافياً ، لكن من الواضح أنه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر . فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الأساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء ، وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجو فى تلك المناطق ، وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدريج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع ؛ أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد ، لأنه يتمدد أثناء صعوده ويزداد كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ؛ فالهواء إذا صعد يبرد مرتين : مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معا ، حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحبا عظيمة ، قاعدتها أفقية ، حيث ابتداء التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو ، وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل من تمددها ؛ هذا هو السحاب الركام ويكثر فى العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق والارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيراً ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملاها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين دافئة وباردة ، ريح واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة فى الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينهما عند محتكهما ويكون السحاب آنئذ متموجا الهواء عند ملتقى الريحين ، وللرياح فضل عظيم فى تكوين السحاب وتوزيعه ، لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

---

(١) سورة يس الآيات : ٣٧ ـ ٤٠   (٢) سورة النحل آية : ١٤

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التى تصطدم بأعاليها ، لأن أعالى الجبال الشامخة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع ، وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ويصبح الماء يسيل على جوانب الجبال . هذا طريق ، والطريق الثانى طريق مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية ، حيث يتكاثف بخارها سحاباً ، ويتكاثف سحابها مطرا على أعالى تلك الجبال . لكن التبريد إلى ما فوق التشبع لا يكفى وحده فى تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغاً عظيماً ، بخلاف ما إذا كان فى الهواء ما يتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلاً عن درجة التشبع أو درجة (الندى) ، كما يسمونها ، وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هى كل ما يتكاثف عليه بخار الماء فى الهواء ، ولو كانت هى كل ما يمكن أن يصلح ندى لقطيرات الماء فى الهواء فوق المشبع ، لعز تكوين السحاب ولاقتصر على المناطق التى يكثر فى أجوائها العليا هذا الغبار . لكن الذى قدر الأشياء وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء جعل مما يتكاثف عليه البخار فى أعالى الجو أشياء أخرى غير الهواء ، هى الذرات والجزيئات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات أو الأويلبات ، جمع الأويلب تصغير آلب من الفعل ألب بمعنى ساق وجمع واجتمع وأسرع كما فى القاموس .

وعوامل أولين أو تأيين الهواء ، أى تكوين الأيونات أو الأويلبات ، فيه متعددة : منها النيران ، فإن النار ، فيها غازات محملة بالنوعين ، الموجب والسالب . ومنها الضوء فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء أيّنته أو أولبته ، فيتكون فى مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات ، ومنها الأشعة النفاذة الجيمية التى تخرج من العناصر الشعاعة الموجودة فى القشرة الأرضية ، أو الأشعة النفاذة الكهربائية المصدر ؛ المعروفة بأشعة رنتجن ، ومنها احتكاك الماء فى البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض ، وبالساحل أو بالصخور . فقد عرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك ، والبخار الذى يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء ، بعضها أو كلها ، إلى الطبقات الجوية ، وكل جزء من جزئيات هذا البخار المكهرب ، كغيره من الأيونات ، يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار . فأنت ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود فى الطبقات العليا الجوية سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار إذا تجاوز الهواء درجة التشبع ولو قليلاً بالتبريد .

إن هذه الآية الكريمة كأنها أسطول قرآنى استعرض قطعه على أمواج بحر زاخر ، واشتمل هذا الأسطول على ست قطع كلها ترفع رايات التوحيد : خلق السموات والأرض ، ثم اختلاف الليل والنهار ، ثم الفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، ثم وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، ثم تصريف الرياح ، ثم السحاب المسخر بين السماء والأرض . ولقد تبين لنا مما قاله العلم الصلة الوثيقة بين السحاب والرياح ، ومعنى تصريفها ، أى تنوعها واختلافها ، ولنذكر الآن عن المطر الذى ينزل من السماء .

إن تكوّن السحاب لا ينفع الناس شيئاً إذا لم يكن فى الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبقاً للجاذبية ، فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ، ولو كان ساكنا ، يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تؤدى مهمتها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية ، وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية ، وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

وقد ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ ، الآيات هى البراهين والدلائل لمن كان له قلب يعقل به أو ألقى السمع وهو شهيد ، فمن لم يعقل هذه الآيات فقد فقد كل شىء : فقد القلب والعقل ، فقد الفكر والتدبر ، وهنا ينطبق عليه قوله جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1] .

لا محل للمصادفة فى هذا الكون

إن كوناً يقوم على العناية والقصد والإرادة الإلهية والإتقان ، لا يمكن أن يكون للمصادفة محل فيه ؛ ولقد وقع الماديون فى خطأ جسيم عندما قالوا إن العالم نشأ مصادفة ، حيث تجمعت الجزئيات لتكون الذرة مصادفة ، وتجمعت الذرات على نسب وأوضاع مخصوصة لتكون العناصر الأصلية مصادفة ، ثم تلاقت العناصر الأصلية وتجمعت بنسب صالحة وفى مدد كافية وفى أجواء ملائمة ، فكان الإنسان وكل الحيوانات والنباتات وكل هذا حدث مصادفة .

وبأبسط الأدلة وأيسر الأمثلة . يتضح لنا بطلان ما نادى به الماديون الملحدون ، وقد ساق الأستاذ نديم الجسر فى كتابه « قصة الإيمان بين العلم والفلسفة » أمثلة أبطل بها ما يقوله هؤلاء الذين صدق فيهم قوله تعالى : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾[2] ، يقول الأستاذ نديم الجسر : لو أعطينا رجلاً عاقلاً مبصراً صندوقاً به مئات الآلاف من حروف الطباعة ، وطلبنا منه بعد إغلاقه أن يستمر فى تحريكه لأى مدة شاء وليأت لنا فى النهاية بقصيدة لامرىء القيس أو لعنترة ، فهل يمكن بالمصادفة أن يحدث ذلك ؟ إننا نقول لمن يجيب بنعم أن يبدأ بإجراء التجربة إلى نهاية عمره وليقل لنا ما هى النتيجة ؟ وإذا كانت المصادفة مع الأشياء المتراحمة المحدودة مستحيلة فكيف يتصور عاقل حدوث هذا الكون بالمصادفة ؟

يقول « كريس موريسون » الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك : « إن الأكسجين والهيدروجين وثانى أكسيد الكربون والكربون هى العناصر الرئيسية البيولوجية ، وهى عين الأساس الذى تقوم عليه

(١) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .

(٢) سورة الكهف الآيتان : ١٠٠ ، ١٠١ .

الحياة ، غير أنه لا توجد مصادفة من بين عدة ملايين تقضى بأن تكون كلها فى وقت واحد ومن كوكب سيار واحد بتلك النسب الصحيحة اللازمة للحياة ، وليس لدى العلماء إيضاح بهذه الحقائق ، وأما القول بأن ذلك نتيجة المصادفة فهو قول يتحدى العلوم الرياضية » .

ويقول جون أدولف بوهلر أستاذ الكيمياء بكلية أندرسون : « عندما يطبق الإنسان قوانين المصادفة لمعرفة احتمال حدوث ظاهرة من الظواهر فى الطبيعة مثل تكون جزىء واحد من جزيئات البـروتين من العناصر التى تدخل فى تركيبه ، فإننا نجد أن عمر الأرض الذى يقدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو أكثر ، لا يعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزىء عن طريق المصادفة » .

ويقول سوارتزن عضو جمعية علم التربة بأمريكا بعد حديث طويل عن الكون والنظام فيه : « من الطبيعى أن يتساءل الإنسان بعد ذلك : لماذا وجدت هذه القوانين ولماذا قامت بين الأشياء المختلفة ومن بينها التربة والنبات ؟ تلك العلاقات العديدة التى تتسم بذلك التوافق الرائع بين القوانين ، مما يؤدى إلى تحقيق النفع والفائدة . كيف نفسر كل ذلك الإبداع الذى يسود هذا الكون ؟ هنالك حالان : فإما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو مالا يتفق مع المنطق أو الخبرة ، ومالا يتفق فى الوقت نفسه مع قوانين الديناميكا الحرارية التى يأخذ بها الحديثون من رجال العلم ؛ وإما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبر ، وهو الرأى الذى يقبله العقل والمنطق . وهكذا نرى أن العلاقة بين النبات والتربة تشير إلى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره » .

بطلان القول بالطبيعة

يقول صاحب كتاب « فى العقيدة الإسلامية والأخلاق » : من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادى فى مجال المادة يجعله فخوراً مزهواً بنفسه . وهو يقول : لقد قهرت الطبيعة . بينما هو فى نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هى خالقة كل ما فى الوجود ، أو هى التى تمنح الحياة لكل حى فى الكون . فكيف يكون إلها ذلك الذى يقهره الإنسان ، ومن ثم يعبده ؟ إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشرى إلى الوثنية الأولى ، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله ، وحاول تفسير ما يحيط به من أشياء ، وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه وكان له أن يلتمس العون من قوى أخر ، فألّه الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار » .

وجاءت الرسالات السماوية لتنير الطريق أمام البشر ولتجعلهم سادة على كل ما فى الكون ؛ إلا أن بعض العقول لا ترضى بالسيادة ، بل تطمح وتعشق العبودية ، ولهذا راحت فى عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة تحت اسم الطبيعة وتدعى أنها هى الخالقة .

ولنا أن نسأل : ما هى الطبيعة ؟ أهى الماء والنار والتراب والهواء ؟ أهى الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى ؟ أهى القوانين التى يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة ؟ أهى الصفات والخصائص التى تلازم المادة من حركة وسكون واجتماع وافتراق وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتكون ؟ أهى الزمان والمكان وما يحدث فيهما ؟

وللحقيقة ، فأيا كان الجواب ، فنحن نسأل سؤالاً آخر : ما هو الإنسان ؟ والإجابة نعرفها جميعاً : إنه حيوان ناطق مريد . ولقد اقتضى النطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص ، فهو وحده الذى يفرق بين العـدل والظلم والفضيلة والـرذيلة ، واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمـير ونوازع ورغبات وآمال .

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع الطبيعة وأن يسخرها لخدمته ، ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون .

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات ، فهل استطاع أن يخلق أى شىء ، وهـو جزء من الطبيعة وأرقى ما فيها ؟ وهل استطاع أن يفسر كل ما يحيط به وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون ؟ لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق وعلى هذا نكرر السؤال : من خلقه ؟.

والإنسان ، وهو السيد العاقل المدبـر المختزن للمعلومـات والمسخر لكـل الآلات ، لم يخلقه لأنـه مخلوق ، فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها ؟ وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون ؟ وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء ــ مع كل ما يحيط بها من قوانين ــ الإنسان العاقل ؟.

إن فاقد الشىء لا يعطيه ، والطبيعة جاهلة لا تعنى شيئاً ، وعلى هذا نقول : إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له ، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له ، والسمع فى الإنسان ممن لا سمع له ، والبصر فى الإنسان ممن لا بصر له ، والمشاعر والأحاسيس والأحكام والأخلاق ممن لا مشاعر ولاأحاسيس ولا أحكام ولا أخلاق له .

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل فى الإنسان ، وبإلغاء قانون النسبية وقانون التناقض . . فالأرض تخلق الأرض والشمس تخلق الشمس والنبات يخلق النبات والإنسان يخلق الإنسان وهكذا ، أو قل ــ إن شئت ــ إن صفات الإنسان تخلق الإنسان ، وصفات الأرض تخلق الأرض ، ويعنى هذا أن المعدوم يخلق وجوده والوجود يوجد نفسه وهذا ظاهر البطلان .

يقول سيسيل هافان العالم الجيولـوجى بجامعـات أمريكـا : (الحق من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر ، إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الإنسان إلا أن يمجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه ، ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها ، ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها عن المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة ، فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان ؟ لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى ، فليس مما يقبله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبدع ، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد فإن هذا القانون ينادى قائلاً : إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفاً) .

ويرد سانتلانا على من يقول بأن الطبيعة هى الخالقة قائلاً : أما القول بالطبيعة وأن لا شىء غيرها ، فهو لا يرضى العقل المتبصر .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول ، وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تألفت على اختلاف أشكالها وتباين مواردها ؟ وكيف بقيت على تآلفها ؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟. هذا . . إذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شىء سواها ، فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد من نفسه ؟ وهى مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ ، من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم .. هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من البحوث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء ؟ .

إن المادة غير قادرة لأن تكون علة نفسها ، فمن باب أولى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً فى درجة الوجود ، وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلووم هاتاواى ، مصمم العقل الالكترونى للجمعية العالمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلى فيلد : (إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها . . إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين ولابد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولابد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته ، إنه هو الله اللطيف الخبير) .

صدقت يارب العالمين إذ قلت : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾(١) .

نشهد أنك أنت الواحد لا شريك لك وأنت القائل وقولك الحق : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾(٢) وصدقت وقولك الحق : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ . ولو أخذنا نعدد آلائك وكلماتك ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً ، ولما استطعنا أن نصل إلى شاطىء البحر الخضم .

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾(٣) . ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا

---

(١) سورة العنكبوت الآيات : ٤٣ - ٤٥ .
(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ سورة لقمان .
(٣) سورة لقمان الآية : ٢٧ .

بمثله مددا * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[1] قال موسى : يارب علمني شيئاً أدعوك وأذكرك به . قال له يا موسى قل : لا إله إلا الله قال موسى : يارب كل عبادك يقولونها . قال : يا موسى لو أن السموات السبع والأرضين السبع وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة لمالت بهن لا إله إلا الله .

المشركون وآلهتهم

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾

المفردات : ﴿ أنداداً ﴾ : جمع ند وهو المماثل ، والمراد بها الأوثان والأصنام .

﴿ أسباب ﴾ : جمع سبب ، وأصله الحبل ، والمراد به ما يكون بين الناس من روابط كالنسب والصداقة .

﴿ كرة ﴾ : الكرة الرجعة والعودة إلى الحالة التى كان فيها .

﴿ حسرات ﴾ : جمع حسرة ، وهى أشد الندم على شىء فائت ، وفى التنزيل : ﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله ﴾ .

وبعد وضوح الأدلة وقوة البراهين على وحدانية الله ، يخبر تعالى أن هناك من الناس فريقاً أشرك معه غيره ، فاتخذ أنداداً وأصناماً وأوثاناً أحبوهم كحب الله وهم يعلمون أنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ؛ لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون . وإن تدعوهم فلن يسمعوا ولن يبصروا . قال جل جلاله : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾[2] .

أما الذين آمنوا فهم أشد حباً لله ، فهو صاحب الإنعام والإكرام ، هو الرحمن الرحيم ، هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور . ولو أن هؤلاء الظالمين رأوا

(١) سورة الكهف الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠ .
(٢) سورة فاطر آية : ١٤ .

العذاب لعلموا أن القوة لله جميعاً ، فهو القوى المتين المتصف بصفات الكمال والجلال : ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد ﴾(١) ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ فالقوة لـه جميعاً وهـو شديـد العذاب : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً * وجاء ربك والملك صفاً صفاً * وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنَّى له الذكرى * يقول ياليتنى قدمت لحياتى * فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد ﴾(٢) .

أما حال هؤلاء فى الآخرة فإنها حال تدعو إلى الأسى والألم ، فالأسياد منهم والمستكبرون يتبرأون من الأتباع المستضعفين : ﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء قالوا لو هدانا الله لهديناكم ﴾(٣) . وتقطعت الصلات بين الضعفاء والمستكبرين فتمنى الأتباع لو يعودون إلى الدنيا مرة أخـرى ليتبرأوا من المتبـوعين ، ولكن هيهـات . . هيهات ؛ إنها الحسرة ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار * قال الذين استكبروا إنا كلٌ فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾(٤) . نعم إن حكم الله عادل ، نعم إنها كلمة الله وما هم بخارجين من النار ﴿ وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب * قـالـوا أو لم تك تـأتيكم رسلكم بالبينـات قالـوا بلى قـالوا فـادعوا ومـا دعاء الكـافرين إلا فى ضلال ﴾(٥) ، إنهم بعد ذلك يتوجهون إلى خازن النار ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون(٦) ﴾ فيتوجهون بعد ذلك إلى الجبار جل جلاله و ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظـالمون * قـال اخسئوا فيهـا ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون * إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾(٧) . وهكذا تنفصم العرى بين قوم اجتمعوا على ما يغضب الله فلا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون .

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾(٨) .

فيا أيها العاقل الرشيد لا تصاحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك إلا تقى ؛ واعلم بأن خير الأصحاب من إذا ذكر الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ؛ وشـر الأصحاب من إذا ذكـر الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك . فاللهم إنا نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يـوم الحشر ، ولـذة النظر إلى وجهك الكريم .

---

(١) سورة البروج الآيتان : ١٢ ، ١٣ .
(٢) سورة . الفجر الآيات : ٢١ - ٢٦ .
(٣) سورة إبراهيم آية : ٢١ .
(٤) سورة غافر الآيتان : ٤٧ - ٤٨ .
(٥) سورة غافر الآيتان : ٤٩ - ٥٠ .
(٦) سورة الزخرف الآيتان : ٧٧ - ٧٨ .
(٧) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٦ - ١١١ .
(٨) سورة الزخرف الآيات : ٦٧ - ٦٩ .

إن الدنيا ساعة فاجعلها طاعة ، والنفس طماعة فعودها القناعة .

تـزود مـن حيـاتـك لـلمعـاد وقـم لله واجمـع خـير زاد
ولا تـركـن إلى الـدنيـا كـثيـراً فـإن الـمـال يجمـع للنفـاد
أتـرضـى أن تكـون رفيـق قـوم لـهـم زاد وأنـت بـغـير زاد

﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾[1] ، واعلم بأن كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ؛ واسأل الله حسن الخاتمة ، وأكثر من قول : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ياذا الجلال والإكرام ، أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين . ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحدٍ أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾[2] .

توجيـه وإرشـاد

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ
عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ
لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا
دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

المفردات : ﴿ **خطوات الشيطان** ﴾ : جمع خطوة ، وهى فى الأصل ما بين القدمين عند المشى ، وتستعمل مجازاً فى تتبع الآثار . السوء : أصل السوء ما يسوء الإنسان ، أى يحزنه ، ويطلق على المعصية قولاً أو فعلاً أو اعتقاداً ، لأنها تسوء صاحبها ، أى تحزنه فى الحال أو المآل . و﴿ **الفحشاء** ﴾ : ما يستعظم ويستفحش من المعاصى ، فهى أقبح أنواع المعاصى . ﴿ **ألفينا** ﴾ : وجدنا ، ومنه ﴿ وألفيا سيدها ﴾[3] ، ﴿ إنهم ألفَوْا آباءهم ضالين ﴾[4] ، أى وجدوا . ﴿ **ينعق** ﴾ : يصيح . يقال : نعق الراعى بغنمه نعيقاً ، إذا صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

فـانعق بضأنـك يا جـريـر فـإنمـا منتـك نفسك فى الخـلاء ضـلالا

(١) سورة البقرة آية : ١٩٧
(٢) سورة النور آية : ٢١ .
(٣) سورة يوسف آية : ٢٥ .
(٤) سورة الصافات آية : ٦٩ .

بعد ما بين الله حال فريق من الناس اتخذ من دون الله أنداداً أحبهم كحب الله ؛ والأنداد قد يكونون بشراً أحلوا لأتباعهم أشياء وحرموا عليهم أشياء ، وأطاعهم الأتباع فضلوا وأضلوا . قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يُؤفكون * اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾(١) .

وقد يكون الأنداد أوثاناً عبدوها واعتقدوا أنها تقربهم إلى الله زلفى : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾(٢) .

وكلا الفريقين ضال مضل ؛ فالحكم لله وحده ، والتحريم منه وحده : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حلالاً وحراما قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾(٣) . أما الذين اتخذوا الأنداد وسائط وقالوا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، فإن الله تعالى يبطل حججهم ويدحض أدلتهم فيقول : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾(٤) ، ويقول : ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾(٥) . هؤلاء المتبوعون والتابعون سيكونون أعداء يوم القيامة : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾(٦) ، وتكون العاقبة أن يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم كما سيكون المصير خلوداً فى النار وبئس القرار .

ويتوجه النداء الربَّانى بعد ذلك إلى الناس أمراً ونهياً : أما الأمر : ﴿ **كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً** ﴾ ، وأما النهى : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين** ﴾ . أما الحلال فهو ما أحله الله ، وهو طيب . قال تعالى : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾(٧) . وقد كانت الزوجة المسلمة توصى زوجها وهو ذاهب يستقبل يومه لكسب لقمة عيشه وتقول له : يافلان اتق الله ولا تأكل حراماً ، فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

والحرام ضد الحلال ؛ وقد يكون الحرام محرماً لذاته أو لأمر عارض ، وسيأتى بيان المحرم لذاته فى قوله تعالى : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير ﴾(٨) ، وفى قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلىَّ محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أُهِلَّ لغير الله به ﴾(٩) ، وقد يكون الحرام لأمر عارض كاستغلال النفوذ لأكل أموال الناس بالباطل ، وكما قال

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .
(٢) سورة العنكبوت آية : ٢٥ .
(٣) سورة يونس الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٨٦ .
(٥) سورة ق آية ١٦ .
(٦) سورة البقرة آية : ١٦٦ .
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .
(٨) سورة النحل آية : ١١٥ .
(٩) سورة الأنعام آية : ١٤٥ .

تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾[١] ، ويدخل فى ذلك دخولاً أوّليًّا « الرشوة » ، قال ﷺ : (لعن الله الراشى والمرتشى والرائش)[٢] .

قال تعالى : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ فى تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرَّم الله ، ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾[٣] . ﴿ وقالوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرَّم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾[٤] . وقال جلت قدرته : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾[٥] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾[٦] . وكيف يتبع العقلاء آثار الشيطان وخطواته وقد حذرنا الله من عداوته البينة : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٧] .

إن الذين يتبعون خطوات الشيطان قد ضلوا سواء السبيل ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾[٨] . وإنما نهى الله عن اتباع الخطوات لأن الشيطان لكى يوقع ابن آدم فى المعصية ، فإنه يتدرج به خطوة خطوة بعد ما يزين له سوء عمله فيراه حسنا . قال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ﴾[٩] ، ومن ثم فإن للشيطان خطوات ومقدمات يمهد بها الطريق أمام من يريد إغواءه ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾[١٠] . وقال تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدَيْن فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾[١١] .

وهل نهانا الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان إلا لأن ذلك فيه نفعنا وصلاحنا ؟ ولأن اتباع خطواته فيه شقاؤنا وضلالنا ؟ ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم

(١) سورة البقرة آية : ١٨٨ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٠٦ ط دار الفكر .
(٣) سورة المائدة آية : ١٠٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٣٩ .
(٥) سورة النحل الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .
(٦) سورة المائدة الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .
(٧) سورة فاطر آية : ٦ .
(٨) سورة النور آية ٢١ .
(٩) سورة فاطر آية : ٨ .
(١٠) سورة إبراهيم آية : ٢٦ .
(١١) سورة الحشر الآيتان : ١٦ ، ١٧ .

حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾(١) .

قال تعالى مبيناً حكمة النهى عن اتباع الخطوات : ﴿ إنه لكم عدوٌ مبين ﴾ ، وكأن سائلاً قال : بم يأمرنا هذا العدو المبين ؟ فبيَّن الله لنا الحكمة البالغة بأسلوب يفيد الحصر والقصر فقال : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء ﴾ ، فكأن أمره مقصور على السوء ، وهو كل ما يسيئك فعله من الذنوب ، والفحشاء : وهو كل ما فحش من الموبقات المهلكات بحيث أصبح شنيعاً . وقد تطلق الفحشاء ويراد بها البخل كما فى قوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾(٢) .

والفحشاء أشد جرماً من السوء . قال تعالى فى شأن يوسف الصديق لما راودته امرأة العزيز عن نفسه : ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله ﴾(٣) ، قال جل جلاله بعد ذلك : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾(٤) .

ورأى بعض المفسرين أن السوء : هو الشروع فى الذنب ، أى مقدماته ، والفحشاء هو الذنب نفسه ، وهذا قول يوضح الفرق بينهما . وكما يأمر الشيطان بالسوء والفحشاء ، كذلك يأمر أتباعه أن يقولوا على الله ما لا يعلمون ، أى يقولون على الله بالجهل : ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾(٥) . وقال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لِمَا تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ﴾(٦) . وكما يأمرهم أن يقولوا على الله بغير علم فى الشرائع ، كذلك يأمرهم أن يقولوا على الله بغير علم فى العقائد ، بأن يقولوا إن لله تعالى صاحبة وولدا : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ﴾(٧) ؛ كذلك يأمرهم الشيطان أن يقلدوا الآباء فى الكفر ويسيروا على نهجهم فى الشرك . ومما يزيد الأمر سفهاً وقبحاً أنهم إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، قال تعالى : ﴿ أوَلَو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾ ، أى أيتبعونهم ولو كان الآباء لا يعقلون أى شىء ولا يفقهون ولا يهتدون إلى سبيل الحق ؟ وقال تعالى فى آية أخرى : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾(٨) . وقال جل شأنه : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أوَلَوْ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾(٩) . ولما كان تقليد هؤلاء القوم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، بيَّن الله حالهم وصفتهم فى مَثَل ضربه لهم ، والمثل يُجاء به لبيان الحال ، حتى إنه يجعل من الأمور المعقولة كأنها أمور محسوسة لشدة وضوحها وبيانها ، قال تعالى : ﴿ ومَثَل الذين كفروا كمثل الذى

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦٨ .
(٣) سورة يوسف آية : ٢٣ .
(٤) سورة يوسف آية : ٢٤ .
(٥) سورة الشورى آية : ٢١ .
(٦) سورة النحل آية : ١١٦ .
(٧) سورة التوبة آية : ٣٠ .
(٨) سورة الزخرف الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .
(٩) سورة لقمان آية : ٢١ .

ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ﴾ ، أى مثلهم فى التقليد واتباع كل ناعق كمثل الراعى الـذى يصيح بالعجماوات التى لا تعقل ، وإنما تسمع الدعاء والنداء فتقبل مرة وتدبر أخرى دونما تعقل أو تدبُّر أو فكر ؛ فهؤلاء الذين عطلوا حواسهم وعقولهم ، وأغلقوا نوافذ المعرفة فقلدوا الباطل ، هؤلاء صم لايسمعون ، بكم لايتكلمون ، عمى لايبصرون ؛ وفوق ذلك كله لايعقلون . قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكـون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعـون بها فـإنها لاتعمى الأبصـار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[1] ، وقال جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[2] .

نداء إلى المؤمنين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

المفردات : الإهلال : رفـع الصوت ، وكـانوا إذا ذبحـوا لآلهتهم يرفعـون أصواتهم بـذكرهـا ، ويقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ؛ ثم قيل لكل ذابح (مُهِل) وإن لم يجهر بالتسمية ، والباغى الطالب للشىء الراغب فيه ، والعادى المتجاوز قدر الضرورة ، كما جاء فى التنزيل : ﴿ ولا تعد عينـاك عنهم ﴾[3] ، أى لا تتجاوز إلى غيرهم ، والإثم : الذنب والمعصية .

بعد ما أمر الله تعالى الناس أن يأكلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، خص المؤمنين بالذكر ، وأمرهم أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم الله ، ذلك لأنهم أسرع الناس امتثالا لأمر الله واجتنابا لنهيه ، فقال : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ . وعظمة الإسلام تتجلى فى أنه دين الفطرة ، يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فهو دين الله الذى يعلم مَن خَلَق : ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ . قيل لأعرابى : لِمَ آمنت بمحمد ؟ فقال بإيجاز وجيز : لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء وقال العقل ليته ما نهى .

ولقد شرع الله لعباده من الطيبات ما يصلح به أبدانهم ونفوسهم ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان الذى حرم على زبانيته ما أحل ، كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وكما حرم على أتباعه أكل ما فيه روح أو ما اتخذ مما فيه روح ، ويسمون ذلك صياما . الله تعالى يعلم أن الشياطين لهم شهوة وليس لهم عقل ، وأن

(١) سورة الحج آية : ٤٦ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٩ .
(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .

الملائكة جواهر مجردة من الشهوة ، فهم أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة ، وأن الإنسان مزيج من الجسد والروح . فغذاء الروح من لطائف المعارف ، وفى رياض ذكر الله ، وغذاء البدن فى الأكل والشرب من طيبات رزق الله : ﴿ قل مَن حرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾(١) .

ثم أمرهم تعالى بالشكر على نعمائه ، وهل الشكر إلا تسخير الإنسان كل عضو فيه فى طاعة الله : فشكر العينين البكاء ، وشكر الأذنين الإصغاء ، وشكر اليدين العطاء ، وشكر اللسان الثناء ، وشكر الروح الخوف والرجاء ، وشكر القلب التسليم والرضاء . قال موسى : يارب كيف أشكرك ؟ قال : تذكرنى ولا تنسانى ، إنك إن ذكرتنى شكرتنى ، وإن نسيتنى كفرتنى . . اقرءوا إن شئتم : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾(٢) . ولما للشكر من مكانة ، فقد جعله الله تعالى شرطاً فى إخلاص العبادة له فقال : ﴿ إن كنتم إياه تعبدون ﴾ . وهل العبادة إلا خضوع مصحوب بالتقديس والتعظيم ؟ ولا يكون ذلك إلا لله وحده .

ثم عدد الله بعد ذلك أنواعا من المطعومات حرمها على عباده ، فقد حرم الميتة ، والميتة ما مات حتف أنفه ، أو ما لم يُذَكَّ ذكاة شرعية ، كما حرم الدم المسفوح . ومن أنواع الميتة : المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع . وقد أحلَّ الله لنا ميتتين ودمين : السمك والجراد ، والكبد والطحال . كذلك حرَّم علينا لحم الخنزير لما فيه من الأضرار الصحية التى سنبينها فيما بعد . كذلك حرَّم علينا ما يتعلق بانحراف فى العقيدة عند ذبحه ، كأن يذكر عليه اسم غير اسم الله .

وبعد ما بيَّن الله هذه المحرمات من الأطعمة قال : ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ ، أى دون بغى أو تجاوز للحدود ، بل كان مضطراً ألجأته الحاجة والضرورة التى بيَّنها الله تعالى فى قوله : ﴿ فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾(٣) ، فمن اضطرته الحاجة فى حال الضرورة إلى أكل شىء من هذه المطعومات ، فإن الله غفور لهذا العمل الذى أتاه المرء دون أن يكون منه بغى ولا عدوان ؛ فالضرورات تبيح المحظورات ، لكن يجب أن يُعلم أن الضرورة تقدر بقدرها بأن تكون بقدر الحاجة دون زيادة عليها ، والله تعالى رحيم بعباده ، لا يكلفهم بما لا يطيقون ، بل يشرع لهم من الدين ما اقتضته رحمته بهم ، وجعل اليسر من خصائص التشريع ، قال تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾(٤) ، وقال جل شأنه : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾(٥) . وما حرم الله شيئا إلا وفيه من وراء التحريم حكمة : ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾(٦) . ولنصغ إلى لسان العلم يحدثنا بتلك الحقائق ، فقد جاء فى كتاب الغذاء والدواء فى القرآن الكريم ما نصه : حرَّم القرآن الكريم لحكمة سامية أكل الميتة والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع والدم المسفوح ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به والذبح للأوثان . وورد

---

(١) سورة الأعراف آية : ٣٢ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٥٢ .
(٣) سورة المائدة آية : ٣ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٨٥ .
(٥) سورة الحج آية : ٧٨ .
(٦) سورة الأنعام آية : ١٤٩ .

هذا التحريم فى الآيات الآتية : ﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهِلّ به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾، ﴿ حرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ﴾[١] ، ﴿ قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم ﴾[٢] .

وما حرم الله كل ذلك إلا لحكمة ما ولتجنيب الإنسان الأضرار التى تنشأ عن أكلها ، وجميع أنواع اللحوم ما عدا لحم الخنزير حلال أكلها إذا ذبحت وذكيت بالطريقة المشروعة وذكر عليها اسم الله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم مؤمنين ﴾[٣] ، ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾[٤] . وعلاوة على أن هذه أمور تعبدية ، يجب على المؤمن الحق أن يمتثل لأوامر الله ونواهيه ويطيع جميع أوامره ، إلا أنها بالإضافة إلى ذلك أسس ولبنات التغذية الصحية ، وكل هذه النواهى إنما كانت من المولى القدير لحكمة بالغة يدركها الإنسان كلما اتسعت مدارك علمه ، وأظهر له البحث والعلم ما فى هذه الأمور من ضرر بالغ يتلف صحته ويودى بحياته ، فالله سبحانه وتعالى أحل الطيبات وحرَّم الخبائث لصالح البشرية وسعادتها . ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث ﴾[٥] . وقد يكون موت الحيوان نتيجة لشيخوخة أو مرض عضوى أو طفيلى، أو نتيجة لتسممه من مصدر خارجى ، ومن ثم يشتمل لحمه على مواد تؤذى من يأكله ، هذا فضلا عن أن الحيوان الذى يموت دون تذكية ينحبس فيه الدم ، وقد يمضى على موته وقت طويل لا يُستطاع تحديده فيتعرض جسمه للتحلل والفساد .

وعند موت الحيونات بمرض ما ، يكون هذا المرض قد استنفد من الحيوان فى مكافحة قواه الحيوية للتخلص منه ، ولما لم يستطع مات بعد أن اضطربت أعضاؤه بتأثير العوامل التى ولدت المرض ، كالجراثيم والسموم الناشئة من فساد أنسجة الحيوان أو قصور أجهزته الإفرازية كالكلى للتخلص من السموم التى تتراكم بلحومها وأعضائها ، ولذلك كان هذا اللحم وتلك الأعضاء مصدرا للضرر بصحة آكليها ، وقد تكون الجراثيم مسببة المرض والوفاة فى الميتة والتى تنتقل بدورها إلى الإنسان فتفتك به .

والدم : هو السائل الذى يتجول فى جميع أجزاء الجسم ويقوم بوظائف فسيولوجية عديدة ، فيأخذ من أنسجة الجسم فضلاتها من سموم وغازات بعد أن يكون قد أوصل لهذه الأنسجة المواد الغذائية لتكوين الخلايا وبناء الجسم ، ويبدو الدم مفعما بالجراثيم فى معظم أمراض الحيوان ، لأن الدم يعتبر مزرعة مناسبة لنمو كثير منها ، وبيئة صالحة لنمو الميكروبات ، وهو أسرع وسائل عدوى الأمراض ، ولذلك كان التغذى به يعرض الإنسان لانتقال الأمراض المشتركة بين الإنسان والحيوان وهى عديدة ، وتنتقل عن طريق الدم

(١) سورة المائدة آية : ٣ .
(٢) سورة النحل آية : ١١٥ .
(٣) سورة الأنعام آية : ١١٨ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٢١ .
(٥) سورة الأعراف آية : ١٥٧ .

الموبوء والذى يعتبر مخزنا لعديد من الجراثيم الضارة . ويزيد من خطر استعمال الدم فى الغذاء صعوبة اكتشاف أكثر الجراثيم والميكروبات التى تصيبه ، وهو بحكم عمله الحيوى يحمل فضلات السموم فى الحيوانات المريضة ، ويحمل الدم بعض الإفرازات الداخلية لبعض الغدد ، وإذا زاد بعضها عن المعدل المناسب يسبب أعراضا سمّية مختلفة .

وحيث إن الدم قد يختزن الميكروبات والسموم والإفرازات التى تجعل الدم خطيرا بنفسه ، كما تجعل اللحم عرضة للفساد والتعفن مما يؤثر فى صحة آكلى هذه اللحوم ؛ فقد كانت حكمة الله الرحيم بعباده أن حرّم أكله ، وأوجب التخلص منه بذبح الحيوان قبل استعمال لحومه للأكل ، لما فى ذلك من محافظة على صحة الإنسان .

لحم الخنزير : الخنزير من الحيوانات التى تأكل القمامة والقاذورات والنفايات ، فهو جامع لمعانى القبح والقذارة والرجس والنجاسة ، ويشتهر بطبائع عارية من الحياء فى تزاوجه ، بالإضافة إلى ما يتعرض له من إصابة بعدد كبير من الطفيليات التى تصيب الإنسان ، كذلك من الفيروسات مثل فيروسات مرض الكلب والحمى الصفراء والسبيركيتات (اللبتوسبيرا) الذى يسبب مرض « حمى العقل » ، وكذلك العديد من الحيوانات الأولية (البروتوزوا) مثل الزحار البلنتيدى وبعض أنواع « التريبانوسوما » . والخنزير من العوامل الخازنة الإضافية لبعض الطفيليات . ويصاب الخنزير بأنواع عديدة من الديدان المفلطحة والأسطوانية وشوكية الرأس . وأهم هذه الطفيليات :

١ ــ الحيوان الأولى الهدبى المسمى « بالأنتيديوم كولاى » المسبب للزحار البلنتيدى الذى يماثل الزحار الأميبى شدة وضراوة وضررا ، ومصدره الوحيد للإنسان هو الخنزير ، ويكاد يكون مرضا مهنيا لا يصيب سوى المشتغلين بتربية الخنزير وذبحها وبيع لحومها .

٢ ــ الوشائع الكبدية والمعوية فى الشرق الأقصى وبخاصة وشيعة الأمعاء الكبيرة (فاسيولوبس بوسكاى) الواسعة الانتشار فى الصين ، ووشيعة الأمعاء الصغيرة (جاسترود سكويرس هينوفيس) التى تصيب أهالى البنغال وبورما ، ووشيعة الكبد الصينية (كلونوركس سينسز) المنتشرة فى الصين واليابان وكوريا على الأخص . ويعتبر الخنزير العامل الخازن الرئيسى لهذه الطفيليات وبخاصة الدودتين الأوليين اللتين تنطلقان منه لتمضيا دورة حياتهما فى عوائلهما الأخرى ، حتى تصيبا الإنسان ، ومن ثم فمقاومتهما فى الإنسان وحده لا تكفى ، حيث إن الخنزير (مخزن) رئيسى لنشر العدوى بعد تمام دورة الحياة فى أنواع معينة من القواقع والأسماك ، وهى تسبب أعراضا شديدة والتهابا موضعيا ونزفا وتقرحا فى جدران الأمعاء الدقاق ، واضطرابات معوية وإسهالا مزمنا وأنيميا ، وقد تحدث الوفاة نتيجة للإجهاد العام وانحطاط شديد فى القوى .

٣ ــ دودة لحم الخنزير الشريطية (شينياسوليوم) ، وهى تعيش فى طورها البالغ فى أمعاء الإنسان حيث قد يبلغ طولها أربعة أمتار أو أكثر من ذلك ، والدودة ذات رأس أصغر من رأس الدبوس ، وعنق

قصير ، تنمو منه قطع أو أسلات صغار تتباعد عنه تباعاً وتأخذ فى النمو لتكون ذلك الشريط الطويل ، وكل أسلة كأنه حيوان قائم بذاته ، إذ توجد به أجهزة التناسل المذكرة والمؤنثة ، ولا تلبث عند تأنيث الشدفة الناضجة أن يمتلىء بآلاف البويضات حتى تصبح الشدفة مجرد كيس مثقل بذلك ببيض كثير ينمو فى كل واحدة منه جنين كروى ذو ست أشواك تشبه الخطاطيف ، ومن ثم تعرف البيضة بالكرات ذات الخطاطيف .

وتنفصل الشدف المثقلات عن الدودة وتخرج مع إبراز الإنسان المصاب ، وفى التربة الملوثة الرطبة تستطيع الشدفة أو ما فيها من بيض أن تبقى زمنا ليس بالقصير حتى يأتى خنزير رمام يأكل ما فى الأرض من نفايات ، فيبتلع معها شدفة أو بضع شدفات أو على الأقل بويضات ، فتعمل العصارات الهاضمة على أن تطلق الأجنة من محابسها ، فتشق طريقها بأشواكها مخترقة جدار القناة الهضمية حتى تصل إلى أوعية الدم أو اللمف ، فتدور مع هذا وذاك حتى تستقر فى أنحاء شتى من جسم الخنزير حيث تنمو عضلاته ، وبخاصة اللسان والرقبة والكتف والبطن ، مكونة حويصلات أومثانات كروية منتفخة معروفة باسم الديدان المثانية ، فى كل منها رأس يصلح لأن تنمو منه دودة شريطية كاملة ، ويحدث هذا عندما يأكل هذا اللحم المصاب طاعم غافل دون أن ينضجه نضجا كافيا لقتل ما فيه من ديدان ، وعادة ما تنجح دودة واحدة فى سكنى أمعـاء الشخص المصاب .

وفى هذه الدورة يقوم الخنزير بدور ما يسمى العائل الوسيط ، بينما يسمى الإنسان العائل النهائى ، وليس الخنزير هو العائل الوسيط الوحيد ، فقد تبتلع الكلاب والجمال والقردة بعض الديدان ، فتنمو فى عضلاتها الحويصلات أو الديدان المثانية ، ولكن الخنزير يعتبر فى الواقع المصدر الوحيد ، أو يكاد ، لعدوى الإنسان . ويصاب الإنسان بدودة أخرى من نفس الجنس ، وهى دودة لحم البقر الشريطية (ساجنياتا) ، والعائل الوسيط لها ، كما هو ظاهر ، الأبقار والثيران . ولحم الخنزير المصاب يكون فى العادة أكثف إصابة من لحم البقر المصاب ، وقد يربو عددها على عشرة آلاف فى كيلو اللحم الواحد من الخنزير .

ودودة لحم البقر تشبه دودة لحم الخنزير بصفة عامة ، وإن كانت أطول منها ، وعدد شدفاتها أكثر ، ودورة الحياة متشابهة فى الحالتين ؛ بيد أن الذى تنفرد به دودة لحم الخنزير دون دودة لحم البقر هو إمكان انعكاس الدورة انعكاسا جزئياً فيصبح الإنسان هو العائل الوسيط ، أى أنـه يحل محـل الخنزيـر فى هذه الدورة ، فيؤ وى جسمه يرقات الدودة ، أى ديدانها المثانية ، وينشأ هنا الانعكاس الجزئى فى دورة حياة دودة لحم الخنزير من ابتلاع الإنسان بيض هذه الدودة إذا تلوثت يداه أو طعامه بشىء منها لسبب من الأسباب ، كما أن هذه العدوى قد تكون ذاتية ، أى أن يكون مصدر البيض المعوى هو الدودة التى يؤ ويها الشخص نفسه فى أمعائه . وقد اتضح أن البيض الناضج أو الشدفات المثقلة بالبيض الناضج قد ترتد من أمعاء الشخص المصاب بالدودة الشريطية إلى معدته ، وفى جميع هذه الأحوال يفقس البيض فى المعدة ، وتنطلق منه الأجنة ذوات الأشواك أو الخطاطيف الستة ، وتنطلق مع دورة الدم وتنتشر فى أجزاء الجسم لتستقر فى عضلاته مكونة ديدانا مثانية مثلما يحدث للخنزير مبتلع البيض . أما إذا وصل بيض دودة لحم البقر إلى معدة الإنسان فإنه لن

يترتب على ذلك شيء على الإطلاق ، من حيث إن الإنسان غير قابل لتكوين يرقاتها أو ديدانها المثانية فى جسمه ، وهذا هو الفرق الرئيسى بين الدودتين ، وهو أس البلاء كله فى الإصابة بدودة لحم الخنزير .

٤ ــ مرض الديدان المثانية : تبدأ الإصابة بهذا المرض بالبيض الذى تخرج منه الأجنة وتذهب إلى أى عضو من الجسم وبخاصة عضلات الأطراف واللسان والعنق ، وأحياناً الرئتين والقلب والعين أو النخاع الشوكى ، وتستقر وتولد ديداناً مثانية ، وعندما تستقر فى المخ تولد حالات من الصداع والشلل العضوى الجزئى واضطرابات بصرية ونفسية ، وأحيانا تتكلس الحويصلات متحولة إلى مادة حجرية .

٥ ــ الديدان الشعرية الحلزونية (تريكتيلا سبيراليس) : وأعراضها الخطيرة مترتبة على انتشار يرقاتها فى عضلات الجسم ، وأعراض الإصابة بها شديدة متنوعة ، منها الاضطرابات المعدية المعوية والحمى والآلام الروماتيزمية وصعوبة المضغ والتنفس وتحريك العينين والتهاب المخ والنخاع الشوكى والسجايا المحيطة بهما ، والأعراض العصبية والعقلية المترتبة على ذلك ، والتسمم والإجهاد العام والارتشاح والمضاعفات التنفسية ، وفى الإصابات القاتلة تحدث الوفاة بين الأسبوعين الرابع والسادس فى معظم الأحوال ، والخنزير هو المصدر الوحيد لإصابة الإنسان بهذا المرض الوبيل باستثناء المناطق القطبية . ومواطن انتشار المرض هى أوربا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . والمحاولات المضنية لتجنب هذا البلاء بتربية الخنازير بطريقة صحية وفحص ذبائحها ومعالجة لحومها بوسائل باهظة التكاليف غير مجدية من الناحية العملية ، ويكفى للدلالة على هذا أن نذكر أن أمريكا بها ٣ أمثال عدد الإصابات فى العالم أجمع ، وأن متوسط نسب الإصابة فى ولاياتها المختلفة هو ١٦ ٪ ، مع الوثوق بأن هذا الرقم أقل كثيرا من الحقيقة ، وأن نسبة إصابة الخنازير تتراوح بين ٥ ، ٢٧ ٪ فى الولايات المختلفة .

٦ ــ مرض التُريكينا (تريكينوسز) : كما هو الحال بالنسبة لدودة لحم الخنزير الشريطية ، ليست الديدان الشعرية البالغة هى الخطيرة ، وإنما يرقاتها هى رأس البلاء ، حيث تخرج الديدان من حويصلاتها عندما يأكل الإنسان اللحم المصاب ، وتضع يرقاتها فى أى جزء من عضلات الجسم إلا عضلة القلب ، وتسبب أعراضاً مرضية شديدة تؤدى غالبا إلى الوفاة فى غضون أسابيع قليلة .

وبالإضافة إلى كل هذه الأمراض فإن دهن الخنزير مختلف اختلافاً تماماً فى درجة تشبعه عن الزيوت النباتية والدهون الحيوانية الأخرى ، ومن ثم فصلاحيته للغذاء موضع شك كبير بين العلماء ، بجانب أنه ليس سهل الهضم . وينصح الأستاذ دام أستاذ الكيمياء الحيوية الدنماركى ، والحاصل على جائزة نوبل ، بعدم المداومة على تناوله ، حيث إنه قد ثبت بالتجربة أنه من أهم أسباب تكوين حصى المرارة وانسداد قنواتها وتصلب الشرايين وبعض أمراض القلب الأخرى .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن معظم الفقهاء يعتبرون لفظ اللحم شاملاً للحم وللدهن جميعا .

جزاء الذين يكتمون الحق

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ
فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ
ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

المفردات : ﴿ **الضلالة** ﴾ : هى العماية التى لايهتدى فيها الإنسان لمقصده ، والهدى : الشرائع التى أنزلها الله على لسان أنبيائه ، والشقاق : هو العداء والتنازع ، وهو أثر الاختلاف ، وحقيقته أن يكون كل من الخصمين فى شق ، أى جانب غير مافيه الآخر .

إن جناية كتمان الحق جناية لاتغتفر ، وكاتم الحق كالساكت عنه شيطان أخرس ، وفى ما مضى من الآيات جاء الوعيد شديداً للذين يكتمون ما أنزل الله ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ﴾[(١)] ، وهل اللعن إلا طرد من رحمة الله ؟ وهنا أضاف الله أحكاماً أخرى على الكاتمين حيث قال سبحانه : **﴿ إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً ﴾** . ومن أشنع ما كتموه صفة النبى ﷺ التى ورد ذكرها فى الكتب المنزلة ، كالتوراة والإنجيل ، فقد أنكروها وادعوا زوراً وبهتاناً عدم ورودها ، واشتروا الدنيا ومتاعها وزخارفها ثمناً لهذا الإنكار وإرضاءً لرؤسائهم ، وباعوا الحق ، والدنيا مهما أقبلت فهى قليلة .

لكـل شىء إذا مـا تم نقصـان — فـلا يغر بـطيب العيش إنسـان
هى الحياة كـما شـاهـدتها دول — من سـرّه زمن سـاءتـه أزمـان

والدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ؛ وكم من قبور تبنى وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفع له علامات فلما علا مات . الدنيا مهما أعطت فهى قليلة كما صورها النبى ﷺ فى قوله : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء)[(٢)] ، والدنيا كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر .

هى الأيـام لا تبـقى عـزيـزاً — وسـاعـات السـرور بهـا قليله
إذا نشـر الضيـاء عليـك نجم — وأشـرق فـارتقب يـومـاً أفـولـه

(١) سورة البقرة آية : ١٥٩ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٣٧ ط دار الفكر .

والعاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

فـما مـن كـاتـب إلا ويـفـنى ويُبقى الـدهـر مـا كتبت يـداه
فـلا تكتب بكفـك غـير شىء يسـرك فى القيـامـة أن تـراه

﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدركم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾[١] . إن العلماء الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ابتغاء رضا الرؤساء مقابل رشوة خائنة ، هؤلاء مهما أوتوا فإن الحق لامساومة عليه ، ومهما أوتوا فإنه قليل ، وإن مايأكلونه من الرشا إنما هو نار تلظى فى الدنيا ، لأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام دمر ؛ أما فى الآخرة فإن الله عليهم غضبان لا يكلمهم ، لأنهم أعداؤه الألداء ، ولا يزكيهم ، أى لا يطهر نفوسهم ، لأن الشيطان عشش فيها ، وباض فيها الظلم ، وفرخ فيها السحت . ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أى مؤلم موجع ؛ فأى خزى بعد هذا الخزى فى الدنيا والآخرة : نار فى البطون تسرى سريان النار فى الحلفاء ، والسم الزعاف فى الأحشاء ، وغضب من الله يوم القيامة ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى ﴾[٢] . ما أقل عقل هؤلاء وما أشد غباءهم وما أخسر تجارتهم ، هؤلاء الذين اشتروا الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء وخبطوا خبط عشواء فى ليلة ظلماء باعوا الهدى واشتروا الضلالة ، وباعوا المغفرة والرحمة والرضوان واشتروا العذاب ، فما أشد صبرهم على نار جهنم ، وما نارنا هذه بالنسبة لنار جهنم إلا جزء من سبعين جزءًا . ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما ﴾[٣] . فاعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر شوقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ؛ ولا تنظر للمعصية من حيث إنها معصية ، إنما انظر إليها نظرة ثاقبة وسل نفسك فى حق من تعصى ، ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيرا ﴾[٤] ، ﴿ فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾[٥] ، ﴿ له دعوة الحق ﴾[٦] ، ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ﴾[٧] ، ﴿ بل جاء بالحق وصدق المرسلين ﴾[٨] ، ﴿ الحق من ربك ﴾[٩] ، ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[١٠] ، ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[١١] ، ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾[١٢] ، ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق ﴾[١٣] ، ﴿ قل إن ربى يقذف بالحق علاّم

(١) سورة النساء الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ .
(٢) سورة طه الآيات : ١٢٤ - ١٢٦ .
(٣) سورة النساء آية : ٥٦ .
(٤) سورة الإسراء آية : ١٠٥ .
(٥) سورة يونس آية : ٣٢ .
(٦) سورة الرعد آية : ١٤ .
(٧) سورة سبأ آية : ٢٦ .
(٨) سورة الصافات آية : ٣٧ .
(٩) سورة البقرة آية : ١٤٧ .
(١٠) سورة الأنبياء آية : ١٨ .
(١١) سورة النور آية : ٢٥ .
(١٢) سورة الحج آية : ٦ ، وآية : ٦٢ ، وسورة لقمان آية : ٣٠ .
(١٣) سورة الأنعام آية ٧٣

الغيوب ﴾(١) ، ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾(٢) ، ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾(٣) .

فالذين اختلفوا فى الكتاب ولم يردوا هذا الاختلاف إلى أصول الحق ، واختلفوا فى عقائد الله وشرائعه ، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، والله تعالى يقول : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾(٤) ، ويقول : ﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(٥) ، ويقول لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ﴾(٦) ، ويقول : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾(٧) ؛ فقد أحلّوا وحرّموا واختلفوا فيما أنزل الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، والمسيح ابن مريم ، وغيّروا وبدّلوا بعدما استحفظوا من كتاب الله ، وكانوا عليه شهداء ؛ هؤلاء تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى وهم فى شقاق بعيد المدى ، وعداء ضارب فى الأعماق ، وخلاف ممتد الجذور ، لأن الحق واحد لا يتعدد ، والباطل متشعب المسالك يعربد فى عرصات الدنيا ، ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل . فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، فإنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم .

آيـة الـبر

* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

المفردات : ﴿ **البر** ﴾ : لغة التوسع فى الخير ، وأصله من البر المقابل للبحر ، وفى لسان الشرع كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الأخلاق . ﴿ **قبل المشرق والمغرب** ﴾ أى ناحيتهما ﴿ **وآتى المال** ﴾ أى أعطاه . والمسكين : هو الدائم السكون ، لأن الحاجة أسكنته والعجز قد أقعده عن طلب ما يكفيه . ﴿ **وابن السبيل** ﴾ هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الاتصال بأهل أو بذى قرابة . والسائل من

(١) سورة سبأ آية : ٤٨ .
(٢) سورة سبأ آية : ٤٩ .
(٣) سورة النمل آية : ٧٩ .
(٤) سورة النساء آية : ٥٩ .
(٥) سورة الشورى آية ١٠ .
(٦) سورة النحل آية : ٦٤ .
(٧) سورة النمل آية : ٧٦ .

ألجأته الحاجة إلى السؤال ، وتكفف الناس ، والسؤال محرم شرعاً إلا لضرورة يجب على السائل ألا يتعداها . ﴿ وفى الرقاب ﴾ أى فى تحرير الرقاب وعتقها ، ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أى أداها على أقوم وجه وأحسنه . والعهد : ما يلتزم به إنسان لآخر . و ﴿ البأساء ﴾ : من البؤس ، وهو الفقر والشدة ، ﴿ والضراء ﴾ : كل مايضر الإنسان من مرض أو فقد حبيب من أهل أو مال . ﴿ صدقوا ﴾ : أى فى دعوى الإيمان . ﴿ والتقوى ﴾ : هى الوقاية من سخط الله وغضبه بالبعد عن الآثام والذنوب .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية : اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة ، كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد بن هشام الحلبى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفى عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبى ذر أنه سأل رسول الله ﷺ : ما الإيمان ؟ فتلا عليه : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ إلى آخر الآية ، قال : ثم سأله أيضا فتلاها عليه ، ثم سأله فقال : (إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك) . وقال المسعودى : حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال : جاء رجل إلى أبى ذر فقال : ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم ﴾ حتى فرغ منها فقال الرجل : ليس عن البر سألتك ، فقال أبو ذر : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتنى عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى ، فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده : (المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها ، وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها) . رواه ابن مردويه والله أعلم .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة ، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك ، وهو أن المراد هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه ، واتباع ماشرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس فى لزوم التوجه من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : ﴿ ليس البر أن تَوَلوا وجوهكم قِبَل المشرق والمغرب ولكن البر مَن آمن بالله واليوم الآخر ﴾ الآية ، كما قال فى الأضاحى والهدايا : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾[1] ، وقال السيوطى عن ابن عباس فى هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها . وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك ، وقال أبو العالية : كانت اليهود تقبل قبل المغرب ، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق ، فقال الله تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ﴾ يقول هذا كلام الإيمان وحقيقته العمل ، وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله ، وقال مجاهد : ولكن البر ماثبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل . وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجهها . وقال الثورى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله ﴾ الآية . قال : هذه أنواع البر كلها ، وصدق ، رحمه الله ، من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو ، وصدق بوجود الملائكة

(١) سورة الحج الآية : ٣٧ .

الذين هم سفرة بين الله ورسله ﴿ والكتاب ﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها ، وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب ، الذى انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله ، وآمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أى أخرجه وهو محب له راغب فيه ، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا : (أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل الغنى وتخشى الفقر) . وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة ، والثورى عن منصور عن زبيد عن عروة عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر . وقال تعالى : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولا شكورا ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾[2] ، وقوله : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾[3] . نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له . وقوله : ﴿ ذوى القربى ﴾ وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطى الصدقة ، كما ثبت فى الحديث : (الصدقة على المساكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة وصلة ، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك) . وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم فى غير موضع من كتابه العزيز . ﴿ واليتامى ﴾ هم الذين لاكاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب . وقد قال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن على عن رسول الله ﷺ قال : (لايتم بعد حلم) . ﴿ والمساكين ﴾ وهم الذين لايجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم . وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه) . ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة ، فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه ، ويدخل فى ذلك الضيف ، كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان . ﴿ والسائلين ﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات ، كما قال الإمام أحمد : حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبى يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها قال عبد الرحمن بن الحسين بن على قال قال رسول الله ﷺ : (للسائل حق وإن جاء على فرس) . ﴿ وفى الرقاب ﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه فى كتابهم ، وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى .

---

(١) سورة الإنسان الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٩٢ .
(٣) سورة الحشر الآية ٩ .

وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبى حمزة عن الشعبى حدثتنى فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول الله ﷺ : أفى المال حق سوى الزكاة ؟ قالت : فتلا علىّ ﴿ **وآتى المال على حبه** ﴾ ، ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبى إياس ويحيى بن عبد الحميد كليهما عن شريك عن أبى حمزة عن الشعبى عن فاطمة بنت قيس قالت قال رسول الله ﷺ : (فى المال حق سوى الزكاة) ثم قرأ : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب** ﴾ إلى قوله ﴿ **وفى الرقـاب** ﴾ ، وقولـه : ﴿ **وأقام الصلاة** ﴾ أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى . وقوله : ﴿ **وآتى المال** ﴾ يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾ ، وقول موسى لفرعـون : ﴿ هل لـك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وويل للمشركين الـذين لا يؤتون الـزكاة ﴾ ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال ، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ، ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن فى المال حقا سوى الزكاة والله أعلم .

وقوله : ﴿ **والموفون بعهدهم إذا عاهدوا** ﴾ كقوله : ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ ، وعكس هذه الصفة النفاق ، كما صح فى الحديث : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان) ، وفى الحديث الآخر : (وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر) . وقوله : ﴿ **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** ﴾ أى فى حال الفقر وهو البأساء ، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء ، ﴿ **وحين البأس** ﴾ أى فى حال القتال والتقاء الأعداء ، قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمدانى ومجاهد وسعيدبن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم . وإنما نصب ﴿ **الصابرين** ﴾ على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم .

وقوله : ﴿ **أولئك الذين صدقوا** ﴾ أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقـوا فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقوال والأفعال ، فهؤلاء هم الذين صدقوا ﴿ **وأولئك هم المتقون** ﴾ ، لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات(١) .

كلمة فى عتق الرقاب

جاء فى كتابنا « رياض الجنة » تحت عنوان (الإسلام محرر البشرية) ما نصه : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ . الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٩ ط الشعب .

البشرية إليه . والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير ، والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد وجعل منهم سادة أقوياء . لقد حاول أعداء الإسلام فجعلوا من مسألة (الرق) ثغرة يحاولون النفاذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه بعد ما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن أو طعنة لغامز ؛ ولو تدبر هؤلاء مسألة (الرق) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الإسلام .

ويقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه « ما يقال عن الإسلام » : مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك ، ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، أولاهما : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الإنسان ويجهلون دينهم فيصدقون ما يقال منهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء . أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام قياساً على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية . فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ويشتركون معهم فى الموطن ومصالح المعيشة ، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة (النخاسة) وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا (النخاسة) قديما وحديثا ، وهم — أى دعاة المادة والتبشير — أول من يعلم تاريخ (النخاسة) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين . أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المنال كفيلة بإقناع من يستمع إليها مسلماً كان أو غير مسلم ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، فلا امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير . إن الأديان جميعاً قبل الإسلام أباحت وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ويضلون عن سبيله ؛ وجاء الإسلام فشرع العتق ولم يشرع الرق ، وقد ندب المسلمين إلى فك الإسار عن الأسرى فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة . لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإسار بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ومن يحنث فى يمينه ومن يظاهر من زوجته ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ومنها فدية الرقاب ، ولم يبق

الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى أو ببذل التعويض الذى تعرضه الدول الغالبة . وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدول الإسلامية وهى تتولى صرف الزكاة ﴿ وفى الرقاب ﴾ ، فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لإطلاق أسراها من الرق فهى المسئولة عن هذا التقصير وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الرقاب منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها ، ولو وجدت شريعة لفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون . ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنعاً أكرم من صنع الإسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان ؟ إن صنع الإسلام الذى أوجبه قبل أربعة عشر قرنا هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه فلا ندرى كيف يكون ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن تستقر عليه . على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الرق بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الإنسانية ، كما تسميها ؛ فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية أو منازعة اقتصادية أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح . إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء : جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدى الأرقاء ولا تنفق عليها أجورا ، فإن أصحاب الأموال والصناع معا حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية : يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت . وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها وتحررت شعوبها من سادتها وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوربية إلى هذا المدى بعد طول التعثر لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ولكنها كانت ولا تزال قضية مساومة واضطرار وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطة من خطط التأجير والاستغلال ، والفارق الأكبر فى مسألة الرق من جانب الواقع التاريخى هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الإسلامية وعددهم فى البلاد الغربية حيث يعيشون اليوم بين الأمريكيين ، فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الإسلامية بعد ثلاثة عشر قرنا على ثلاثة ملايين أو نحو هذا العدد القليل بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليونا ولم يمض على قيام الحكم الأبيض هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد من هذا الفارق فى العدد : فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الإسلامية والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال وبين تحريم المساكنة والمصاهرة واستباحة الدم انتقاما من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته البيض .

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا : إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام ، فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟!

وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير ، وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام ، إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة . ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟

إن الوقائع تثبت والتاريخ يؤكد والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه . . كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه : (فى الدين والأخلاق القومية) ما نصه : محمد محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، وعن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار . وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت الحملة الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله ؟

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟ وأن تعجب لشىء فاعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذه التهم بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم الذين أفشوا ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب ؛ وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب . فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبداً لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال ، ومصداقه فى قصة يوسف عليه السلام : ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ❁ قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين﴾ . وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ ، خاتم النبيين وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة كثورته على الخمر وثورته على الربا وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج . كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام ﷺ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لاتندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم بردا وسلاما ريثما يتيسر لهم الخروج منها . . وسأفسر ذلك .

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعياً فى ظلال الإسلام فيقول :

أما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة ، فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء حتى لاتسرى عدواه إلى غير المصابين . . ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه

بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ؛ فاليوم لا الخطف ولا البيع والشراء ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ولا تحكم رب الأسرة ولا العجز عن وفاء الدين ولا السرقة ولا القتل ، لم يعد شىء من ذلك كله منذ ظهر الإسلام يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان ، ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت ،وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ فى العلاج الشافى من الرق القائم بالفعل ، أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء . غير أن هاهنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذا صغيرا لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة ، وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين فى هذا الحال أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية .

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثراً لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيرا واحدا كريما وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل ﴿ فإما منًّا بعد وإما فداء ﴾ ، كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا فى حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم عقوبة (مجرمى الحرب) . بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة . ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . . فإن رفع مستوى الحرية يعد إدراجاً له فى زمرة الأحياء بعد أن كان محسوباً فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا فى نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير فإنما كان ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة اتقاء الخطر وكسراً لشوكته وشوكة قومه ، إنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى وإنما يتخذه مؤقتا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو التحرر الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ؛ ولعل أول مفتاح لهذه

الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ، قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴾ ،وقال عليه الصلاة والسلام : (من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار) .

ومفتاح ثان هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهماً مكرراً فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث هو مفتاح : قانون الكفارات ، وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا ، كالحنث فى اليمين والفطر فى رمضان والقتل الخطأ وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع : كفارة الإساءة : التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه ، وفى ذلك يقول رسول الرحمة صلوات الله وسلامه عليه : (من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه) .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن من حكمه عند أكثر الأئمة أن يصير العبد حراً بمجرد إصابته ، فينتزع من ملك السيد قهراً عنه ، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم . لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق بين هذين الطرفين ، نرى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة فى فترة الانتظار .

نعم . . لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحبون حياة الإنسان ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم ، هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : (إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت إيديكم فأطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فإن كلفتموهم فأعينوهم) .

صدقت يانبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليك .

هذا هو موقف الإسلام من الرق .

١) منع لإنشائه وابتدائه .

٢) عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣) عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد . . فهل من منصف يقولها ، أما والله لعبد فى ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار فى كل نظام .

وهكذا ينتهى هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات .

وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق ومعه الحزم والعزم كما هو فى كل شئونه .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله . .

داويت متئـداً وداووا طفـرة وأخف من بعض الدواء الـداء

أبعد كل هذه الوصايا البشرية وإحاطتها بالكرامة يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ماهو منه براء ؟

إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساوين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد (إن أباكم واحد وإن ربكم واحد) ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

وهذه المساواة العامة فى الإنسانية تتحطم معها فوارق الانحراف البشرى والجنس واللون والحسب والنسب وهى فوارق الانحراف البشرية والظلام الإنسانى ، فوارق الجاهلية الفتاكة والهوى المتسلط والتعالى الكاذب والتمييز المصطنع ، وهو تميز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق فى قليل أو كثير من طبيعة الخلق والولادة والمأكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

القصاص فى الإسلام

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ

بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ

مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ

يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

المفردات : ﴿ كتب ﴾ فرض ولزم عند مطالبة صاحب الحق به .

﴿ **القصاص** ﴾ : لغة يفيد العدل والمساواة ، ومنه سمى المقص مقصاً لتعادل جانبيه ، والقصة قصة

لأن الحكاية تساوى المحكى ، وشرعا : أن يقتل القاتل لأنه مساو للمقتول فى نظر الشارع :

﴿ فاتباع بالمعروف ﴾ : أى فمطالبته للدية بالمعروف بلا تعسف .

﴿ وأداء إليه بإحسان ﴾ : أى أداء بلا مماطلة ولا بخس حق .

﴿ اعتدى ﴾ : أى انتقم من القاتل بعد العفو .

﴿ الألباب ﴾ : واحدها لب ، وهو العقل .

جاء فى سبب نزول هذه الآية أنه كان بين حيين من العرب دماء فى الجاهلية ، وكان لأحدهما طول (شرف) على الآخر ، فأقسموا ليقتلن الحر فيكم بالعبد ، والذكر بالأنثى ، فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى الرسول ﷺ فنزلت الآية وأمرهم أن يتباءوا (يتساووا) .

وقد كان القصاص على القتل أمرا محتوماً عند اليهود ، كما فى الفصل التاسع عشر من سفر الخروج ، وكانت الدية أمراً مقضياً عند النصارى وكانت العرب تتحكم فى ذلك بحسب قوة القبائل وضعفها ، فكثيرا ما كانت القبيلة تأبى أن تقتص من القاتل ، بل تقتص من رئيس القبيلة وربما طلبوا بالواحد عشرة ، وبالأنثى ذكراً ، وبالعبد حراً فإن أجيبوا فبها ونعمت وإلا قاتلوا قبيلة القاتل وسفكوا دماء كثيرة ، وهذا ظلم عظيم وقسوة شديدة . وقتل القاتل فحسب وهو ما جاء فى التوراة إصلاح لهذا الظلم .

ولكن قد تقع أحيانا بعض جرائم يكون الحكم فيها قتل القاتل ضاراً ، وتركه لا مفسدة فيه ، كأن يقتل المرء أخاه أو أحد أقاربه لغضب فجائى اضطره إلى قتله ، ويكون هذا القاتل هو العائل لذلك البيت ، فإن قتل يفقدون بفقده النصير والمعين ، بل قد يكون فى قتل القاتل مفاسد ومضار ، وإن كان القاتل أجنبياً عن المقتول فيكون من الخير لوليه عدم قتله دفعا للضرر أو استفادة للدية ؛ ففى أمثال هذه الحالات يجوز لأولياء المقتول العفو مع أخذ الدية أو تركها . وإذا ارتفعت عاطفة الرحمة لدى شعب أو بلد صار يستنكر القتل ويرى أن العفو أفضل فالأمر موكول إليهم والشريعة ترغبهم فيه ، وهذا هو الإصلاح الكامل الذى جاء به الكتاب الكريم فى القصاص . ومن أحكام الشريعة الغراء أنه لا يقتل الوالد بولده ، لأن المقصد من القصاص ردع الجانى عن الاستمرار فى مثل هذه الجناية ، والوالد بفطرته محمول على الشفقة على ولده حتى ليبذل ماله وروحه فى سبيله ، وقلما يقسو عليه ، ولكن كثيرا ما يقسو الولد على والده وللحاكم أن يعزر ولده بما يراه زاجراً لأمثاله ومربياً لهم .

إن جناية القتل من الجنايات الكبرى فى الإسلام ، وهى إحدى السبع الموبقات ، فهى فى سلك واحد مع الشرك والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

ولقد وقف الرسول ﷺ ذات يوم يقول للكعبة المشرفة : (ما أطيبك وأطيب ريحك ، وما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفسى بيده إن حرمة المؤمن أعظم عند الله من حرمتك)[١] ، وقد بين الهادى البشير حرمة المؤمن فقال : (كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله)[٢] . وفى خطبة الوداع قال

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٣١ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٧٦ ط دار الفكر .

فى كلمات موجزة : (إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يـومكم هذا فى بلدكم هـذا فى شهركم هذا)[١] .

إن الإسلام يأمر بالحفاظ على هذه الكليات الخمس : الـدين والنفس والعقل والعـرض والمال ، فلا اعتداء على العقل بالمسكرات ولا اعتداء على العرض بما يخدشه ولو بكلمة ، ولا اعتداء على المال بالسرقة وما شابهها . قال النبى ﷺ : (من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله) ولحرمة الوفاء فى الإسلام وصيانة النفوس حكمت الشريعـة الغراء أن الجمـاعة تقتـل فى الواحد . قال عمر رضى الله عنه . فى شأن ثمانية من الرجال قد اشتركوا فى قتل واحد ، وكان من صنعاء اليمن ، قال كلمته المشهورة : (لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم به جميعاً) . لذلك اقتضت حكمة الله أن ينفى تلك الجناية عن عباد الرحمن ، وأن ينزههم عنها . قال عز من قائل : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ﴾[٣] . وجاء فى بيان هذه الجناية ومدى الوعيد عليها قوله جل شأنه : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيماً ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصوراً ﴾[٥] أى لا يقتل أكثر من القاتل . وإذا جىء بالقاتل ليقتص منه فلا يمثل به قبل القصاص ولا بعده ، لأن لفظ القصاص ينبىء بالمساواة . ولما كانت الشريعة الإسلامية تنزيلاً من حكيم حميد ، فقد شملت الخير كله ، فلم توجب القصاص إذا عفا أولياء القتيل عن القاتل . ففى الإسلام جانبان : جانب القصاص وجانب العفو ، قال تعالى فى صفة المؤمنين : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾[٦] ، وقال فى آية أخرى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾[٧] وقال : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[٨] وقد ورد أنه إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله : من كان أجره على الله فليقم ، فلا يقوم إلا من عفا وأصلح .

فإذا ما عفا أولياء الدم عن القاتل ورضوا بالدية أو تصدقوا بها ، فقد سقط القصاص عن القاتل ، فإذا مارضوا بالدية فعليهم أن يتبعوا القاتل مطالبين بالدية بالمعروف دون تعسف أو مغالاة ، وعلى القاتل أن يؤديها بإحسان دون مماطلة أو تسويف .

وما أجمل قوله تعالى : ﴿ فمن عفى له من أخيه ﴾ فالأخوة فى الإسلام أقوى رابطة تؤكد أواصر المحبة ووشائج المودة ، ذلك العفو تخفيف من ربكم ورحمة ، تخفيف عن القاتل ورحمة بأولياء الدم إذا ما قبلوا الدية ، فقد يكونون فى حاجة إلى المال ، فإذا عفوا من غير دية فإن رحمة الله تشملهم فى الدنيا والآخرة :

(١) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى جـ٦ ص ١٩٥.
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٢٣٢ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة الفرقان الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ .
(٤) سورة النساء آية : ٩٣ .
(٥) سورة الاسراء آية : ٣٣ .
(٦) سورة الشورى آية : ٣٩ .
(٧) سورة الشورى آية : ٣٧ .
(٨) سورة الشورى الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ : قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ : هذا خطاب موجه إلى أولياء الدم إذا اعتدوا على القاتل بعد العفو ، إذ أن كلمة الحر دين عليه ، وما دام العفو قد حدث فإن الاعتداء بعد ذلك ظلم يوقع صاحبه فى مسئولية خطيرة هى العذاب الأليم . ثم بين الله جلت حكمته الحكمة من القصاص فقال : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ياأولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ : أى ولكم ياأولى العقول فيما شرعت من القصاص حياة وأى حياة ، لأنه من علم أنه إذا قتل نفسا قتل بها يرتدع وينزجر عن القتل ، فيحفظ حياته وحياة من أراد قتله ، وبذلك تصان الدماء وتحفظ حياة الناس . ﴿ لعلكم تتقون ﴾ : أى لعلكم تنزجرون وتتقون محارم الله ومآثمه .

وقد اتفق علماء البيان على أن هذه الآية ﴿ولكم فى القصاص حياة ﴾ بالغة أعلى درجات البلاغة ، ونقل عن العرب فى هذا المعنى قولهم « القتل أنفى للقتل » ولكن لورود الحكمة فى القرآن فضل من ناحية حسن البيان وإذا شئت أن تزداد خبرة بفضل بلاغة القرآن وسمو مرتبته على مرتبة ما نطق به بلغاء البشر ، فانظر إلى العبارتين ، فإنك تجد من نفحات الإعجاز ما ينبهك لأن تشهد الفرق بين كلام الخالق وكلام المخلوق . أما الحكمة القرآنية فقد جعلت سبب الحياة القصاص ، وهو القتل عقوبة على وجه التماثل ، والمثل العربى جعل سبب الحياة القتل ومن القتل ما يكون ظلماً . فيكون سبباً للفناء وتصحيح العبارة أن يقال : القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً . والآية جاءت خالية من التكرار اللفظى ، والمثل كرر فيه لفظ القتل ، ففيه بهذا التكرار من الثقل ما سلمت منه الآية . ومن الفروق الدقيقة بينهما أن الآية جعلت القصاص سبباً للحياة ، والمثل جعل القتل سبباً لنفى القتل وهو لا يستلزم الحياة . . . الخ .

وقد عد العلماء عشرين وجهاً من وجوه التفريق بين الآية القرآنية واللفظة العربية ، وقد ذكرها السيوطى فى الإتقان ، فارجع إليه تجد فيه ما يشفى الغليل .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(١) .

الوصية عند الموت

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

(١) سورة فصلت الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

المفردات ﴿ كتب ﴾ : أى فرض . و﴿ خيراً ﴾ : أى مالاً كثيراً .

﴿ الوصية ﴾ : الإيصاء والتوصية ، وتطلق على الموصى به من عين أو عمل .

﴿ بالمعروف ﴾ : مالا يستنكره الناس لقلته بالنسبة إلى ذلك الخير أو لكثرته التى تضر الورثة ، وتقدر الكثرة باعتبار الصرف ، ففى القرى غيرها فى الأمصار ، فهى تقاس بحسب حال الشخص لدى الناس ، وإنما يكون ذلك بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين .

﴿ خاف ﴾ : أى علم . (والجنف) : الخطأ ، و(الإثم) تعمد الإجحاف والظلم .

أوجب الله تبارك وتعالى الوصية عندما تأتى الأمارات على دنو الأجل وقبل أن يدخل الإنسان فى مرحلة الغرغرة ، وذلك ليكون الختام طيباً « وإنما الأعمال بالخواتيم » . وهذه الوصيةتكون للوالدين ، كما تكون للأقربين دون ظلم أو حيف ، بمعنى أن تكون قائمة على العدل والمساواة ، وألا تزيد على الثلث ، وهذا على رأى من قال بالوصية الواجبة ، وذلك بأن يموت الابن أو البنت فى حياة المورث ويتركان أولاداً ، فإن من قال بالوصية الواجبة من الفقهاء يرى أن الأولاد لهم الحق فى ميراث الجد الذى مات ابنه أو ابنته فى حياته عدلاً وقسطاً ، وذلك بافتراض الابن أو البنت حيين فيأخذ أولادهما نصيبهما ، بحيث لا يزيد عن الثلث . وقد جاء فى تفسير هذه الآيات مانصه للشيخ المراغى : (كان الكلام فى الآية السابقة فى القصاص فى القتل وهو ضرب من ضروب الموت ، مناسب أن يذكر ما يطلب ممن يحضره الموت من الوصية ؛ والخطاب عام موجه إلى الناس كلهم بأن يوصوا بشىء من الخير ولا سيما فى حال حضور أسباب الموت وظهور أماراته لتكون خاتمة أعمالهم خيراً . وقد تقدم أن قلنا إن الأمة متكافلة يخاطب المجموع منها بما يطلب من الأفراد ، وقيام الأفراد بحقوق الشريعة لا يتم إلا بالتعاون والتكافل والائتمار بأوامرها والتناهى عن نواهيها ، فإن لم يأتمر البعض وجب على الباقين حمله على ذلك) .

﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ﴾ : أى فرض عليكم معشر المؤمنين إذا حضرت أسباب الموت وعلله والأمراض المخوفة ، وتركتم مالاً كثيراً لورثتكم ، أن توصوا للوالدين وذوى القربى بشىء من هذا الخير ، لا يعد فى نظر الناس قليلاً ولا كثيراً ، وقد قدروه بعدم الزيادة على ثلث المتروك للوارثين وجمهرة العلماء وأئمة السلف وروى عن بعض الصحابة أن هذه الوصية إنما تكون لهم ما لم يكونوا وارثين ، لقوله عليه الصلاة والسلام : (إن الله أعطى كل ذى حق حقه ألا لا وصية لوارث)[1] ، وجوز بعض الأئمة للمورث بأن يخص بها بعض من يراه أحوج من الورثة ، كأن يكون بعضهم غنياً وبعضهم فقيراً عاجزاً عن الكسب ، فمن الخير والمصلحة ألا يسوى بين الغنى والفقير والقادر على الكسب ومن يعجز عنه . وإذا أسلم الكافر وحضرته الوفاة ووالداه كافران فله أن يوصى لهما بما يؤلف به قلوبهما ، وقد أوصى الله بحسن معاملتهما وإن كانا كافرين كما قال :﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما ﴾[2] .

﴿ حقا على المتقين ﴾ : أى أوجب ذلك حقا على المتقين إلى المؤمنين بكتابى .

(١) الجامع الصغير جـ ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

(٢) سورة العنكبوت آية : ٨ .

﴿ **فمن بدله بعد ماسمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه** ﴾ : أى فمن غير الإيصاء من شاهد ووصى ، فإنما إثم التبديل على من بدل وقد برئت منه ذمة الموصى وثبت له الأجر عند ربه .

والتغيير إما بإنكار الوصية أو بالنقص فيها بعد أن علمها حق العلم .

﴿ **إن الله سميع عليم** ﴾ : أى إنه سميع لأقوال المبدلين والموصين ويعلم نياتهم ويجازيهم وفقها .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد للمبدلين والوعد بالخير للموصين .

وهذه الوصية واجبة عند بعض علماء السلف كما ترشد إلى ذلك هذه الآية والحديث : « ماحق امرىء مسلم يبيت ليلتين وله شىء يريد أن يوصى إلا ووصيته عند رأسه[1] » . وعند جمهور العلماء مندوب ثم استثنى من إثم التبديل حالة ما إذا كان للإصلاح وإزالة التنازع ، فقال ﴿ **فمن خاف من موصٍ جنفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثم عليه** ﴾ أى اذا خرج الموصى فى وصيته عن نهج الشرع والعدل خطأً أو عمداً فتنازع الموصى لهم فى المال أو تنازعوا مع الورثة فتوسط بينهم من يعلم بذلك وأصلح تبديل هذا الجنف والحيف فلا إثم عليه فى هذا التبديل ، لأنه تبديل باطل بحق وإزالة مفسدة بمصلحة ، وقلما يكون إصلاح إلا بترك بعض الخصوم شيئاً مما يرونه حقاً لهم .

﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ : أى فمن خالف وبدل للإصلاح ، فالله يغفر له ويثيبه على عمله . ا. هـ

التركة وكيف تقسم :

لما كنا بصدد الحديث عن الموت كان لزاماً علينا أن نذكر هنا ما يفعل بتركة الميت ، وهاكم بيان ذلك كما وضحه الفقهاء :

تعريفها : التركة هى ما يتركه الميت من الأموال مطلقاً ، ويقرر هذا ابن حزم فيقول : إن الله أوجب الميراث فيما يخلفه الإنسان بعد موته من مال ، لا فيما ليس بمال ؛ وأما الحقوق فلا يورث منها إلا ما كان تابعاً للمال ، أو فى معنى المال ، مثل حقوق الارتفاق والتعلى ، وحق البقاء فى الأرض المحتكرة للبناء ، والغرس ، وهى عند المالكية والشافعية والحنابلة تشمل جميع ما يتركه الميت من أموال وحقوق سواء أكانت الحقوق مالية أم غير مالية .

الحقوق المتعلقة بالتركة : وهى أربعة ، وكلها ليست بمنزلة واحدة ، بل بعضها أقوى من بعض ، فيقدم على غيره فى الإخراج من التركة على الترتيب الآتى :

(١) الحق الأول : يبدأ من تركة الميت بتكفينه وتجهيزه .

(٢) الحق الثانى : قضاء ديونه ، فابن حزم والشافعى يقدمون ديون الله كالزكاة والكفارات على ديون العباد ، والحنفية يسقطون ديون الله بالموت ، فلا يلزم الورثة أداءها إلا إذا تبرعوا بها أو أوصى الميت بأدائها ، وفى حالة الإيصاء بها تصير كالوصية يخرجها الوارث أو الوصى من ثلث الفاضل بعد التجهيز وبعد

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٤٩٤ ط دار الفكر .

دين العباد ، هذا إذا كان له وارث ، فإذا لم يكن له وارث فتخرج من الكل ، والحنابلة يسوون بينهما كما نجد أنهم جميعاً اتفقوا على أن ديون العباد العينية مقدمة على ديونهم المطلقة .

(٣) الحق الثالث : تنفيذ وصيته من ثلث الباقى بعد قضاء الدين .

(٤) الحق الرابع : تقسيم ما بقى من ماله بين الورثة .

الوصية : ولما كانت الآية التى بين أيدينا هى آية الوصية فقد ناسب ذلك أن نذكر هنا ما قاله الفقهاء فى كل شىء يتعلق بالوصية فنقول وبالله توفيق :

تعريفها : الوصية مأخوذة من وصيت الشىء أوصيه إذا أوصلته ، فالموصى وصل ما كان فى حياته بعد موته

وهى فى الشرع : هبة الإنسان غيره عيناً أو ديناً أو منفعة ، على أن يملك الموصى له الهبة بعد الموصى . وعرفها بعضهم : بأنها تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريق التبرع ، ومن هذا التعريف تبين الفرق بين الهبة والوصية ، فالتمليك المستفاد من الهبة يثبت فى الحال ، أما التمليك المستفاد من الوصية فلا يكون إلا بعد الموت ؛ هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فالهبة لا تكون إلا بالعين ، والوصية تكون بالعين وبالدين وبالمنفعة .

مشروعيتها : وهى مشروعة بالكتاب والسنة والإجماع .

ففى الكتاب يقول سبحانه : ﴿ **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين** ﴾ ، ويقول جل شأنه : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين[1] ﴾ ويقول عز وجل : ﴿ يـاأيها الـذين آمنوا شهـادة بينكم إذا حضر أحـدكم الموت حـين الوصيـة اثنان ذوا عـدل منكم ﴾[2] .

وجاء فى السنة الأحاديث الآتية :

(١) روى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ مـا حق امرىء مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده)[3] ، قال ابن عمر : ما مرت علىَّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصية . . ومعنى الحديث أن الحزم هو هذا فقد يفاجئه الموت .

قال الشافعى : ما الحزم والاحتياط للمسلم إلا أن تكون وصيته مكتوبة عنده إذا كان له شىء يريد أن يوصى فيه لأنه لا يدرى متى تأتيه منيته فتحول بينه وبين ما يريد من ذلك .

(٢) وروى أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (إن الرجل ليعمل والمرأة بطاعة الله ستين سنة ثم يحضرهما الموت فيضاران فى الوصية فتجب لهما النار ﴾ ، ثم قرأ أبو

(١) سورة النساء آية : ١٢.
(٢) سورة المائدة آية : ١٠٦.
(٣) الترغيب والترهيب حـ ٤ ص ١٩٦ ط وزارة الأوقاف.

هريرة : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ﴾[١] .

(٣) وروى ابن ماجه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات على وصية مات على سبيل وسنة ، ومات على تقى وشهادة ، ومات مغفوراً له)[٢] .

وقد أجمعت الأمة على مشروعية الوصية .

وصية الصحابة : لقد انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ولم يوص لأنه لم يترك ما يوصى به .

وروى البخارى عن ابن أبى أوفى أنه ﷺ لم يوص . قال العلماء فى تعليل ذلك : لأنه لم يترك بعده مالاً ، وأما الأرض فقد كان سبّلها ، وأما السلاح والبغلة فقد أخبر أنها لا تورث . ذكره النووى . أما الصحابة فقد كانوا يوصون ببعض أموالهم تقرباً إلى الله ، وكانت لهم وصية مكتوبة لمن بعدهم من الورثة .

أخرج عبد الرزاق بسند صحيح أن أنساً رضى الله عنه قال : كانوا يكتبون فى صدور وصاياهم : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أوصي به فلان بن فلان أن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ويشهد أن محمداً عبده ورسوله وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور . وأوصى من ترك من أهله أن يتقوا الله ويصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين ، وأوصاهم بما أوصى به إبراهيم بنيه ويعقوب : ﴿ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٣] .

حكمتها : جاء فى الحديث عن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تصدق عليكم بثلث أموالكم زيادة فى أعمالكم فضعوها حيث شئتم أو حيث أحببتم)[٤] . أفاد هذا الحديث أن الوصية قربة يتقرب بها الإنسان إلى الله عز وجل فى آخر حياته كى تزداد حسناته أو يتدارك بها مافاته ، ولما فيها من البر بالناس والمواساة لهم .

حكمها : أما حكمها ، أى وصفها الشرعى من حيث كونها مطلوبة الفعل أو الترك ، فقد اختلف العلماء فيه إلى عدة آراء نجملها فيما يلى :-

الرأى الأول : يرى أن الوصية واجبة على كل من ترك مالاً ، سواء أكان المال قليلاً أم كثيراً . قاله الزهرى وأبو مجلز ، وهذا رأى ابن حزم ، وروى الوجوب عن ابن عمر وطلحة والزبير وعبد الله بن أبى أوفى وطلحة بن مطرف وطاوس والشعبى قال : وهو قول أبى سليمان وجميع أصحابنا ، واستدلوا بقول الله تعالى : **﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين ﴾** .

الرأى الثانى : يرى أنها تجب للوالدين والأقربين الذين لا يرثون الميت ، وهذا مذهب مسروق وإياس وقتادة وابن جرير والزهرى .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١٩٧ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٩٧ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة البقرة آية : ١٣٢ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٦١ ط دار الفكر .

الرأى الثالث : وهو قول الأئمة الأربعة والزيدية ، أنها ليست فرضاً على كل من ترك مالا كما فى الرأى الأول ، ولا فرضاً للوالدين والأقربين غير الوارثين كما هو الرأى الثانى ، وإنما يختلف حكمها باختلاف الأحوال ، فقد تكون واجبة أو مندوبة أو محرمة أو مكروهة أو مباحة .

وجوبها : فتجب فى حالة ما إذا كان على الإنسان حق شرعى يخشى أن يضيع إن لم يوص به كوديعة ودين لله أو لآدمى ، مثل أن يكون عليه زكاة لم يؤدها ، أو حج لم يقم به ، أو تكون عنده أمانة يجب عليه أن يخرج منها ، أو يكون عليه دين لا يعلمه غيره ، أو يكون عنده وديعة بغير إشهاد .

استحبابها : وتندب فى القربات وللأقرباء وللصالحين من الناس .

حرمتها : وتحرم إذا كان فيها إضرار لورثة ؛ وروى عبد الرزاق عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة)[1] .

روى سعيد بن منصور بإسناد صحيح قال ابن عباس : (الإضرار فى الوصية من الكبائر) ثم تلا (وتلك حدود الله)[2] رواه النسائى . ومثل هذه الوصية التى يقصد بها الإضرار باطلة ، ولو كانت دون الثلث ، وتحرم كذلك إذا أوصى بخمر أو بناء كنيسة أو دار للهو .

كراهيتها : وتكره إذا كان الموصى قليل المال وله وارث أو ورثة يحتاجون إليه . كما تكره لأهل الفسق متى علم أو غلب ظنه أنهم سيستعينون بها على الفسق والفجور ، فإذا علم الموصى ، أو غلب على ظنه ، أن الموصى له سيستعين بها على الطاعة ، فإنها تكون مندوبة .

إباحتها : وتباح إذا كانت لغنى سواء أكان الموصى له قريباً أم بعيداً .

ركنها : وركنها الإيجاب من الموصى . والإيجاب يكون بكل لفظ يصدر منه متى كان هذا اللفظ دالاً على التمليك المضاف إلى ما بعد الموت بغير عوض مثل : أوصيت لفلان بكذا بعد موتى ، أو وهبت له ذلك أو ملكته بعدى .

وكما تنعقد الوصية بالعبارة تنعقد كذلك بالإشارة المفهمة متى كان الموصى عاجزاً عن النطق كما يصح عقدها بالكتابة .

ومتى كانت الوصية غير معينة بأن كانت للمساجد أو الملاجىء أو المدارس أو المستشفيات ، فإنها لا تحتاج إلى قبول ، بل تتم بالإيجاب وحده لأنها فى هذه الحال تكون صدقة .

أما إذا كانت الوصية لمعين بالشخص ، فإنها تفتقر إلى قبول الموصى له بعد الموت أو قبول وليه إن كان

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٩٨ ط وزارة الأوقاف .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ١٩٨ ط وزارة الأوقاف .

الموصى له غير رشيد ، فإن قبلها تمت وإن ردها بعد الموت بطلت الوصية وبقيت على ملك ورثة الموصى . والوصية من العقود الجائزة التى يصح فيها أن يغيرها أو يرجع عما شاء منها أو يرجع عما أوصى به .

والرجوع يكون صراحة بالقول ، كأن يقول : رجعت عن الوصية ويكون دلاله بالفعل مثل تصرفه فى الموصى به تصرفاً يخرجه عن ملكه ، مثل أن يبيعه .

متى تستحق الوصية : ولا تستحق الوصية للموصى له إلا بعد موت الموصى وبعد قضاء الديون ، فإذا استغرقت الديون التركة كلها فليس للموصى له شىء لقول الله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ .

الوصية المضافة أو المعلقة بالشرط : وتصح الوصية المضافة أو المعلقة بالشرط ، أو المقترنة به ، متى كان الشرط صحيحاً ، والشرط الصحيح هو ما كان فيه مصلحة للموصى أو الموصى له أو لغيرهما ولم يكن منهياً عنه ولا منافياً لمقاصد الشريعة ، ومتى كان الشرط صحيحاً وجبت مراعاته مـا دامت المصلحة منه قائمة ، فإن زالت المصلحة المقصودة منه أو كان غير صحيح لم تجب مراعاته .

شروطها : الوصية تقتضى موصيا وموصى له وموصى به ، ولكل شروط نذكرها فيما يلى :-

شروط الموصى : يشترط فى الموصى أن يكون أهلاً للتبرع بأن يكون كامل الأهلية ، وكمال الأهلية بالعقل والبلوغ والحرية والاختيار وعدم الحجر لسفه أو غفلة .

فإن كان الموصى ناقص الأهلية بأن كان صغيراً أو مجنوناً أو عبداً أو مكرهاً أو محجوراً عليـه ، فإن وصيته لا تصح .

ويستثنى من ذلك أمران :-(١) وصية الصغير المميز الخاصة بأمر تجهيزه ودفنه ، ما دامت فى حدود المصلحة .

(٢) وصية المحجور عليه للسفه فى وجه من وجوه الخير ، مثل تعليم القرآن وبناء المساجد وإقامة المستشفيات . ثم إن كان له وارث وأجازها الورثة نفذت من كل ماله ، وكذا إذا لم يكن له وارث أصلاً . وأما إن كان له ورثة ولم يجيزوا هذه الوصية فإنها تنفذ من ثلث ماله فقط ، هذا مذهب الأحناف ، وخالف ذلك الإمام مالك فأجاز وصية ضعيف العقل والصغير الذى يعقل معنى التقرب إلى الله تعالى قال : (الأمر المجمع عليه عندنا أن الضعيف فى عقله والسفيه والمصاب الذى يفيق أحيانا ، تجوز وصاياهم إذا كان معهم من عقولهم ما يعرفون ما يوصون به ، وكذلك الصبى الصغير إذا كان يعقل ما أوصى به ولم يأت بمنكر من القول ، فوصيته جائزة ماضية) .

وقد أجاز القانون فى مصر وصية السفيه وذوى الغفلة إذا أذنت بها الجهة القضائية المختصة .

شروط الموصى له : يشترط فى الموصى له الشروط الآتية :-

(١) ألا يكون وارثاً للمـوصى . روى أصحاب المغـازى أن رسول الله ﷺ قـال عام الفتـح :

(لا وصية لوارث)[1] . رواه احمد وأبو داود والترمذى وحسنه .

وهذا الحديث وإن كان حديث آحاد ، فإن العلماء تلقته بالقبول وأجمعت العامة على القول به .

«وأما آية ﴿ كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيرا ، الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ، حقا على المتقين﴾ . فقد قال الجمهور من العلماء بنسخها .

وقال الشافعى : إن الله تعالى أنزل آية الوصية وأنزل آية المواريث ، فاحتمل أن تكون آية الوصية باقية مع الميراث ، واحتمل أن تكون المواريث ناسخة للوصايا . وقد طلب العلماء ما يرجح أحد الاحتمالين فوجدوه فى سنة رسول الله ﷺ . فقد روى عنه أصحاب المغازى أنه قال عام الفتح : (لا وصية لوارث)[1] . ا . هـ . واتفقوا على اعتبار كون الموصى له وارثاً يوم الموت حتى لو أوصى لأخيه الوارث ، حيث لا يكون للموصى ابن ثم ولد له ابن قبل موته صحت الوصية للأخ الذكر ، ولو أوصى لأخيه وله ابن فمات الابن قبل موت الموصى فهى وصية لوارث .

(٢) ومذهب الأحناف أن الموصى له إذا كان معيناً يشترط لصحة الوصية له : أن يكون موجوداً وقت الوصية تحقيقاً أو تقديراً ، أى يكون موجوداً بالفعل وقت الوصية ، أو يكون مقدَّرا وجوده فى أثنائها ، كما إذا أوصى لحمل فلانة وكان الحمل موجوداً وقت إيجاب الوصية .

أما إذا لم يكن الموصى له معيناً بالشخص ، فيشترط أن يكون موجوداً وقت موت الموصى تحقيقا أو تقديرا .

فإذا قال الموصى : أوصيت بدارى لأولاد فلان ، ولم يعين هؤلاء الأولاد ثم مات ولم يرجع عن الوصية ، فإن الدار تكون مملوكة للأولاد الموجودين وقت موت الموصى سواء منهم الموجود حقيقة أو تقديراً ، كالحمل ، ولو لم يكونوا موجودين وقت إيجاب الوصية ويتحقق من وجود الحمل وقت الوصية أو وقت موت الموصى متى ولد لأقل من ستة أشهر من وقت الوصية ، أو من وقت موت الموصى . وقال الجمهور من العلماء : إن من أوصى أن يفرق ثلث ماله حيث أرى الله الوصى إنها تصح وصيته ، ويفرقه الوصى فى سبيل الخير ولا يأكل منه شيئاً ولا يعطى منه وارثاً للميت .

وخالف فى ذلك أبو ثور ، أفاده الشوكانى فى نيل الأوطار .

(٣) ويشترط ألا يقتل الموصى له الموصى قتلاً محرماً مباشراً ، فإذا قتل الموصى له الموصى قتلاً محرماً مباشراً بطلت الوصية له ، لأن من تعجل الشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه ، وهذا هو مذهب أبى يوسف .

وقال أبو حنيفة ومحمد : لا تبطل الوصية ، وتتوقف على إجازة الورثة .

شروط الموصى به : يشترط فى الموصى به أن يكون بعد موت الموصى قابلاً للتمليك بأى سبب من أسباب الملك ، فتصح الوصية بكل مال متقوم من الأعيان ، ومن المنافع وتصح الوصية بما يثمره شجره وبما

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .

فى بطن بقرته ، لأنه يملك بالإرث ، مما دام محققاً وقت موت الموصى استحقه الموصى له .

وهذا بخلاف ما إذا أوصى بمعدوم .

وتصح الوصية بالدين وبالمنافع كالسكنى والوصية بالخلو ، ولا تصح بما ليس بمال ، كالميتة ، وما ليس متقوماً فى حق العاقدين كالخمر للمسلمين .

مقدار المال الذى تستحب الوصية فيه

قال ابن عبد البر : اختلف السلف فى مقدار المال الذى تستحب فيه الوصية أو يجب عند من أوجبها ، فروى عن على أنه قال ستمائة درهم أو سبعمائة درهم ليس بمال فيه وصية . وروى عنه ألف درهم قال فيه وصية .

وقال ابن عباس : لا وصية فى ثمانمائة درهم .

وقالت عائشة فى امرأة لها أربعة من الولد ولها ثلاثة آلاف درهم : «لا وصية فى مالها» . وقال إبراهيم النخعى : ألف درهم إلى خمسمائة درهم .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ ألفاً فما فوقها . وعن على : من ترك مالاً يسيراً فليدعه لورثته فهو أفضل . وعن عائشة فيمن ترك ثمانمائة درهم : لم يترك خيراً فلا يوصى ﴾ اهـ .

الوصية بالثلث : وتجوز الوصية بالثلث ولا تجوز الزيادة عليه ، والأولى أن ينقص عنه ، وقد استقر الإجماع على ذلك .

روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : جاء النبى ﷺ يعودنى وأنا بمكة وهو يكره أن يموت بالأرض التى هاجر منها ، قال : يرحم الله ابن عفراء . قلت يارسول الله أوصى بمالى كله ؟ قال : لا . قلت : فالشطر (النصف) ؟ قال : لا . قلت : الثلث ؟ قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إن تدع (تترك) ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة (فقراء) يتكففون الناس « يبسطون للسؤال أكفهم » فى أيديهم ، وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة ، حتى اللقمة ترفعها إلى فى (فم) امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك أناس ويضر بك آخرون . ولم يكن له يومئذ إلا ابنة[١] (كان هذا قبل أن يولد له الذكور . وقد ولد له بعد ذلك أربعة بنين ، ذكره الواقدى ، وقيل : أكثر من عشرة ومن البنات اثنتا عشرة بنتا)

الثلث يحسب من جميع المال :

ذهب جمهور العلماء إلى أن الثلث يحسب من جميع المال الذى تركه الموصى . وقال مالك : يحسب الثلث مما علمه الموصى دون ما خفى عليه أو تجدد له ولم يعلم به .

وهل المعتبر الثلث حال الوصية أو عند الموت ؟ ذهب مالك والنخعى وعمر بن عبد العزيز إلى أن المعتبر ثلث التركة عند الوصية .

---

(١) صحيح البخارى جـ ٤ ص ٦٧ ط الشعب

وذهب أبو حنيفة وأحمد والأصح من قولى الشافعية إلى اعتبار الثلث حال الموت . وهو قول على وبعض التابعين .

الوصية بأكثر من الثلث :

الموصى إما أن يكون له وارث أو لا ، فإن كان له وارث فإنه لا تجوز له الوصية بأكثر من الثلث كما تقدم . فإن أوصى بالزيادة على الثلث فإن وصيته لا تنفذ إلا بإذن الورثة ، ويشترط لنفاذها شرطان : -

١) أن تكون بعد موت الموصى ، لأنه قبل موته لم يثبت للمجيز حق ، فلا تعتبر إجازته ، وإذا أجازها بعد الحياة نفذت الوصية . وقال الزهرى وربيعة : ليس له الرجوع مطلقا .

٢) أن يكون المجيز وقت الإجازة كامل الأهلية غير محجور عليه لسفه أو غفلة .

وإن لم يكن له وارث فليس له أن يزيد على الثلث أيضا . وهذا عند جمهور العلماء .

وذهب الأحناف وإسحاق وشريك وأحمد فى رواية ، وهو قول على وابن مسعود ، إلى جواز الزيادة على الثلث ، لأن الموصى لا يترك فى هذه الحال من يخشى عليه الفقر ، ولأن الوصية جاءت فى الآية مطلقة ، وقيدتها السنة بمن له وارث ، فبقى من لا وارث له على إطلاقه .

بطلان الوصيــة :

وتبطل الوصية بفقد شرط من الشروط المتقدمة ، كما تبطل بما يأتى : -

١ ــ إذا جن الموصى جنونا مطبقا واتصل الجنون بالموت .
٢ ــ إذا مات الموصى له قبل موت الموصى .
٣ ــ إذا كان الموصى به معينا وهلك قبل الموصى له .

الوصيــة الواجبــة :

صدر قانون الوصية الواجبة رقم ٧١ لسنة ١٣٦٥ هجرية سنة ١٩٤٦ وقد تضمن الأحكام الآتية :

١ ــ إذا لم يوص الميت لفرع ولده الذى مات فى حياته أو مات معه ولو حكماً بمثل ماكان يستحق هذا الولد ميراثاً فى تركته لو كان حياً عند موته ــ وجبت للفرع وصية فى التركة بقدر هذا النصيب فى حدود الثلث ، بشرط أن يكون غير وارث ، وألا يكون الميت قد أعطاه بغيره عوضا من طريق تصرف آخر قدر ما يجب له ، وإن كان ما أعطاه له أقل منه وجبت له وصية بقدر ما يكمله . وتكون هذه الوصية لأهل الطبقة الأولى من أولاد البنات ولأولاد الأبناء من أولاد الظهور وإن نزلوا ، على أن يحجب كل أصل فرعه دون فرع غيره ، وأن يقسم نصيب كل أصل على فرعه وإن نزل قسمة الميراث كما لو كان أصله أو أصوله الذين يدلى بهم إلى الميت ماتوا بعده وكان موتهم مرتبا كترتيب الطبقات .

٢ ــ إذا أوصى الميت لمن وجبت له الوصية بأكثر من نصيبه كانت الزيادة وصية اختيارية ، وإن أوصى له بأقل من نصيبه وجب له مايكمله ، وإن أوصى لبعض من وجبت لهم الوصية دون البعض الآخر وجب لمن لم يوص له قدر نصيبه ، ويؤخذ نصيب من لم يوص له ويوفى نصيب من أوصى له بأقل مما وجب من باقى الثلث ، فإن ضاق عن ذلك فمنه ومما هو مشغول بالوصية الاختيارية .

٣ ــ الوصية الواجبة مقدمة على غيرها من الوصايا ، فإذا لم يوص الميت لمن وجبت لهم الوصية وأوصى لغيرهم استحق كل من وجبت له الوصية قدر نصيبه من باقى ثلث التركة إن وفىّ ، وإلا فمنه ومما أوصى به لغيرهم .

طريقة حل المسائل التى تشتمل على الوصية الواجبة :

١ ــ يفرض الولد الذى مات فى حياة أحد أبويه حيا وارثا ، ويقدر نصيبه كما لو كان موجوداً .

٢ ــ يخرج من التركة نصيب المتوفى ويعطى نوعه المستحق للوصية الواجبة إن كان يساوى الثلث فأقل ، فإن زاد على الثلث يرد إلى الثلث ، ثم يقسم على الأولاد للذكر مثل حظ الأنثيين .

٣ ــ يقسم باقى التركة بين الورثة الحقيقيين على حسب فرائضهم الشرعية .

الصيام

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ
﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ
فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾

المفردات : الصيام فى اللغة : الإمساك والكف عن الشىء ، وفى الشرع الإمساك عن الأكل والشرب وغشيان النساء من الفجر إلى المغرب احتسابا لله ، وإعدادا للنفس وتهيئة لها لتقوى الله بمراقبته فى السر والعلن . والإطاقة : القدرة على الشىء مع تحمل المشقة الشديدة . والفدية : هى طعام مسكين من أوسط ما يطعمون منه أهليهم بقدر كفايته أكلة واحدة عن كل يوم يفطرونه ، واليسر : السهولة والتخفيف ، وضده العسر .

الصيام فى الإسلام عبادة كريمة الشأن رفيعة المستوى ، إذ أنه يقوم بتهذيب الدوافع الفطرية من المآكل والمشرب والمباشرة الجنسية . ولعلنا نلحظ دور الصيام فى تربية الضمير ، فهو أستاذ فى علم الأخلاق ، يغرس فى النفس قوة مراقبة الله للعبد . وهنا نسأل : لماذا كان الصيام بين الإيمان والتقوى فى قوله جل شأنه : **﴿ ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾** ، ذلك لأن الإيمان

تصديق بالقلب ، وما استقر فى القلب سر من أسرار الله لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى . والتقوى ، وهى مخافة الله محلها القلب أيضا ؛ فقد أشار النبى ﷺ إلى صدره الشريف وقال : التقوى ها هنا . وجاء الصيام بينهما كأنه واسطة العقد ، إذ الصيام عبادة سرية لا يطلع عليها إلا الله ، فهو إمساك عن المفطرات من شهوتى البطن والفرج من مطلع الفجر إلى غروب الشمس ، ولذا أضافه الله تعالى إلى ذاته الأقدس حيث قال فى حديثه القدسى الجليل : (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به)(١)

فالإنسان فى صيامه تحت رقابة الله ، لا يطلع عليه غيره ، ومن هنا كانت المناسبة قوية بين الصيام والإيمان والتقوى ، وهل الضمير إلا شدة الرقابة من العبد فى أفعاله ؟ فأنت تستطيع أن تأكل ملء بطنك وتشرب من المثلجات وتخرج لتشكو للناس شدة الحر والعطش فى نهار رمضان ، وأنت تعلم أنك تخدع نفسك .

الله يـدرى كل مـا تضمـر ... ويعلم ما تخفى ومـا تظهـر
وإن خدعت الناس لم تستطـع ... خداع من يطوى ومن يـنشر

ولقد صدق الهادى البشير ﷺ وهو يقول لجبريل : (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٢)) فهنا مقامان : مقام المشاهدة ، ومقام المراقبة ، وإذا كان فى القصاص حياة للنفوس فإن الصيام حياة للأرواح ، فالشبع بحر تجرى فيه الشياطين ، والجوع نهر تسبح فيه الملائكة . وهكذا يتبين لنا أستاذية الصيام فى علم الأخلاق ؛ أما أستاذيته فى علم الاجتماع فإنها تتجلى فى قول الصادق المعصوم : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء) . كما أن حكمته اجتماعية تتجلى فى صيام الحكام الذين إذا تربعوا على كراسى الحكم لا يكادون يشعرون بقوم يبيتون على الطوى ، يعبث الجوع بأمعائهم ، يستحلبون الصخور ؛ وقوم آخرون تتمرغ النعمة فى أعتابهم ويشتهون أن يدوسوها بأقدامهم . كان نبى الله يوسف الصديق يصوم يوما ويفطر يوما ، فقيل له : لم تكثر من الصيام ، وقد جعل الله خزائن الأرض تحت يديك ؟ فقال كلمته الشهيرة : (أخشى أن أشبع فأنسى الجائع) ويرحم الله الفاروق عمر ، كان بطنه يحدث أصواتاً من كثرة ما أكل بالزيت ، فكان يقول لبطنه : قرقر أو لا تقرقر ، لن تذوق اللحم حتى يشبع أطفال المسلمين .

إن جـاع فى شـدة قـوم شـركتهمُ ... فى الجـوع أو تنجلى عنهم غـواشيها
جـوع الخليفة والـدنيا بقبضتـه ... فى الزهد منزلـة سبحان موليهـا
فمن يبـارى أبـا حفص وسيـرتـه ... أو من يحـاول للفـاروق تشبيهـا
يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها ... من أين لى ثمن الحلوى فـأشريهـا
مـازاد عن قـوتنـا فـالمسلمـون بـه ... أَوْلى فقـومى لـبيت المـال رديهـا
كـذاك أخلاقـه كانت ومـا عهـدت ... بعـد النبـوة أخـلاق تحـاكيهـا

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥١ ط وزارة الأوقاف .

(٢) صحيح مسلم حـ ١ ص ١٣٣ ط الشعب .

والصيام أستاذ فى السياسة والاقتصاد ، فهو عامل وحدة بين الأمة الإسلامية فى رمضان مهما ترامت أطرافها واتسع مداها فى مشارق الأرض ومغاربها ، إذ الكل عند مطلع الفجر فى حالة إمساك عن المفطرات ، فإذا ماغربت الشمس علم الجميع أن الإذن قد ورد من رافع السماء بلا عمد بإباحة ما كان محرماً من قبل ، فقال كل منهم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت ، اغفرلى ماقدمت وما أخرت ، الحمد لله ، ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . وكان واجبا على المسلمين أن يعلموا الحكمة من الصيام فيقتصدوا فى المطعم والمشرب والإنفاق ، فقد كان إفطار الرسول ﷺ متواضعاً مقتصداً ، بعض ثمرات وبعض اللبن ، فإن لم يجد فعلى شيء من الماء . وما ملأ ابن آدم وعاءً قط شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه . وهنا يأتى دور الصيام طبيباً . قال أحد المجادلين لأحد علماء المسلمين : إن كتابكم خلى من الطب . فقال له العالم المسلم : بل إن كتابنا جمع الطب كله فى نصف آية ، قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين ﴾ . ولما أرسل المقوقس ، عظيم مصر ، بهدية إلى سيد المرسلين قبلها الهادى البشير ، ولكنه رد الطبيب وقال له : لسنا فى حاجة إليك ، ولما رجع الطبيب إلى المقوقس سأله : لماذا ردك محمد ؟ قال الطبيب : لقد أرسلتنى إلى رجل جمع الطب كله فى كلمتين : نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا ، وإذا أكلنا لا نشبع . فماذا يقول الطب عن الصيام ؟ قال الأطباء : إن من الناس من يتوهم أن فى صيام رمضان مضرة تلحق بالصائم لما يصيب الجهاز الهضمى خاصة وغيره عامة ، ولما يكون من بعض الصائمين من انفعال وغضب ، وهذا خطأ ، لأن ما ذهبوا إليه ليس من الصيام فى شيء ، ولكنه من ترك الاعتدال فى طعام الإفطار والسحور ، ولأنهم لم يراعوا ما يتناسب مع خلو المعدة النهار كله وقت الإفطار ، ولأن السحور يجب أن يقتصر عل بضع لقيمات ، لأنه لا ضرر من الجوع فى حد ذاته . لقد ظهر أن الصيام يفيد فى حالات كثيرة ، وهو العلاج الوحيد فى أحوال أخرى . وهو أهم علاج ، إن لم يكن العلاج الوحيد ، للوقاية من أمراض كثيرة ، فللعلاج يُستعمل فى :

١ - اضطرابات الأمعاء المزمنة والمصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية ، وهنا ينجح الصيام وخصوصاً عدم شرب الماء بين الأكلتين ، وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان ، وممكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر ، وهذه الطريقة هى أنجح طريقة لتطهير الأمعاء .

٢ - زيادة الوزن الناشىء من كثرة الغذاء وقلة الحركة ، فالصيام هنا أنجح من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار فى الطعام والاكتفاء بالماء فى السحور .

٣ - زيادة الضغط الذاتى ، وهو آخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ، ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة ، خصوصاً إذا كان وزن الشخص أكثر من الوزن الطبيعى لمثله .

٤ - البول السكرى ، وهو منتشر انتشار الضغط ، ويكون فى مدته الأولى وقبل ظهوره مصحوباً غالبا بزيادة فى الوزن ، فهنا يكون الصيام علاجاً نافعاً ، إذ أن السكر يهبط مع قلة السمن ، ويهبط السكر فى

الدم بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى فى حالات البول السكرى الخفيف ، وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى بكثير ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم علاج من هذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين ، خصوصاً إذا كان الشخص يزيد عن الوزن الطبيعى . ولم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام .

٥ - التهاب الكلى الحاد والمزمن المصحوب بارتشاح وتورم .

٦ - أمراض القلب المصحوبة بتورم .

٧ - التهاب المفاصل المزمنة ، خصوصاً إذا كانت مصحوبة بسمن ، كما يحصل عند السيدات غالباً بعد سن الأربعين . وقد شوهدت حالات تتمشى فى شهر رمضان بالصيام فقط أكثر مما تتمشى مع علاج سنوات بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث .

إن فائدة الصيام للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض التى مر ذكرها .

وهذه الأمراض كلها تبتدىء فى الإنسان تدريجياً بحيث لا يمكن الجزم بأول المرض ، فلا الشخص ولا طبيبه يمكنهما أن يعرفا أول المرض ، لأن الطب لم يتقدم بعد إلى الحد الذى يعرف فيه أسباب هذه الأمراض كلها . ولكن من المؤكد طبياً أن الوقاية من كل هذه الأمراض هى الصيام ، بل إن الوقاية فعالة جداً قبل ظهور أعراض المرض بوضوح . وقد ظهر بإحصاءات لا تقبل الشك أن زيادة السمن يصحبها استعداد للبول السكرى وزيادة الضغط الذاتى والتهاب المفاصل المزمن وغير ذلك ، ومع قلة الوزن يقل الاستعداد لهذه الأمراض بالنسبة نفسها .

والصيام شهر كل سنة هو خير وقاية من كل هذه الأمراض ، وهذه الأمراض تنتشر بزيادة الحضارة والترف ؛ فقد انتشرت فى أوربا أكثر . وفى مصر يكاد يكون البول السكرى وزيادة ضغط الدم مقتصرين على الطبقات الوسطى والعليا وقليل جداً من الفقراء .

ويغلب على الظن أن ذلك هو السر فى أن الصيام فى الإسلام أشد منه فى الأديان السابقة ، لأن الإسلام هو آخر الشرائع السماوية ، جاء فى زمن نحتاج فيه إلى وقاية من أمراض تزداد كلما زاد الترف .

وللصيام أفضال جاءت فى أحاديث الرسول ، وعلى رأس هذه الأفضال قوله ﷺ : (لو تعلم أمتى ما فى رمضان من الخير لتمنت أن تكون السنة كلها رمضان)[1] .

وعنه ﷺ : (للصائم فرحتان يفرحهما : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه)[2] .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (الأعمال عند الله عز وجلَّ سبع : عملان موجبان ، وعملان بأمثالها ، وعمل بعشر أمثاله . وعمل بسبعمائة ، وعمل لا يعلم ثواب عامله إلا الله عزَّ وجلَّ ، فأما الموجبان : فمن لقى الله يعبده مخلصاً لا يشرك به شيئاً وجبت له الجنة ، ومن لقى الله وقد

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٧ ط وزارة الأوقاف .

(٢) صحيح سلم جـ ٣ ص ٢٠٨ ط الشعب .

أشرك به وجبت له النار . ومن عمل سيئة جزى بها ، ومن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها جُزِىَ مثلها ، ومن عمل حسنة جزى عشرا . ومن أنفق ماله فى سبيل الله ضُعِّفت له نفقته ، الدرهم بسبعمائة ، والدينار بسبعمائة ، والصيام لله عزَّ وجلَّ لا يعلم ثواب عامله إلا الله عزَّ وجلَّ)[١] .

وعن حذيفة رضى الله عنه قال : أسندت النبى ﷺ إلى صدرى فقال : (من قال : لا إله إلا الله خُتم له بها دخل الجنة ، ومن صام يوماً ابتغاء وجه الله ختم له به دخل الجنة ، ومن تصدق بصدقة ابتغاء وجه الله ختم له بها دخل الجنة)[٢]

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله مرنى بعمل قال : (عليك بالصوم . فإنه لا عدل له . قلت : يا رسول الله مرنى بعمل ، قال : عليك بالصوم فإنه لا عدل له . قلت : يا رسول الله مرنى بعمل قال : عليك بالصوم فإنه لا مثل له)[٣] .

وعن عمرو بن عبسة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من صام يوماً فى سبيل الله بعدت منه النار مسيرة مائة عام)[٤] .

وقد ورد فى صيام رمضان خاصة من الفضل ما هو به جدير ، فقد جاء فيه عن البشير النذير قوله : (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)[٥] .

وعن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (احضروا المنبر فحضرنا ، فلما ارتقى درجة قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثانية قال : آمين ، فلما ارتقى الدرجة الثالثة قال : آمين . فلما نزل قلنا : يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئاً ما كنا نسمعه ؟ قال : إن جبريل عليه السلام عرض لى فقال : بَعُدَ من أدرك رمضان فلم يغفر له قلت : آمين ، فلما رقيت الثانية قال : بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك . فقلت آمين . فلما رقيت الثالثة قال : بعد من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة قلت آمين)[٦] .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمسا لم يعطهن نبى قبلى : أما واحدة فإنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان نظر الله عزَّ وجلَّ إليهم ، ومن نظر الله إليه لم يعذبه أبدا . وأما الثانية فإن خلوف أفواههم حين يمسون أطيب عند الله من ريح المسك . وأما الثالثة فإن الملائكة تستغفر لهم فى كل يوم وليلة . وأما الرابعة فإن الله عزّ وجلّ يأمر جنته فيقول لها استعدى وتزينى لعبادى أوشك أن يستريحوا من تعب الدنيا إلى دارى وكرامتى . وأما الخامسة فإنه إذا كان آخر ليلة غفر الله لهم

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٢ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٥ ط وزارة الأوقاف .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٦ ط وزارة الأوقاف .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٦١٣ ط دار الفكر
(٥) الجامع الصغير للسيوطى ج٢ ص ٦٢٩ ط دار الفكر .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٦٠ ط وزارة الأوقاف .

جميعا . فقال رجل من القوم : آهى ليلة القدر ؟ فقال : لا . ألم تر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أعمالهم وفوا أجورهم)(١) .

وقد كان ﷺ إذا جاء رمضان بشر أصحابه قائلاً : (أتاكم شهر مبارك فرض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتُغَلُّ فيه مردة الشياطين ، لله فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حُرم خيرها فقد حرم)(٢) .

لقد جاءت آيات الصيام فى شهر قرآنى مشبع بالرحمات تهب عليه ، وتتخلله نسمات تحمل فى ثناياها قطرات الندى معطرة بأعراف الجنة . والصائم فى هذا الجو ينساب فى أخلاق أرق من النسيم وأندر من صفحة الروض الوسيم . إن الصيام لما كان تهذيباً للدوافع الفطرية من مأكل ومشرب ، فإن رحمات الله تبارك وتعالى قد أحاطت بالصائمين من كل مكان ، لذا جاءت آيات الصيام وفى ثناياها تخفيفات ربانية كريمة ، جاء التخفيف الأول فى صيغة الخطاب للمؤمنين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ، وبالإيمان يصبح كل شيء ميسوراً . فالإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب ، يكاد يجعل المستحيل ممكناً . والملح الأجاج عذباً فراتا سلسبيلا . ومن ثم فإن المؤمن يسمع نداء الحق تبارك وتعالى ولسانه يلهج بالثناء على الله ﴿ سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾ .

وكأنه يقول :

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى ... خير إلىَّ من الدنيا وما فيها

وكيف لا يستقبل المؤمن خطاب ربه بنفس مفعمة بالرضا جياشة بالطمأنينة ، وهو دائماً يقرأ قول الله تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾(٣) .

إن المؤمنين يأتون ما أتوا من الطاعات وقلوبهم وجلة ، أنهم إلى ربهم راجعون ، ولسان حال الواحد منهم يقول لربه :

لما علمت بأن قلبى فارغ ... ممن سواك ملأته بهداك
وملأت كلى منك حتى لم أدع ... منى مكاناً خالياً لسواك

ويأتى التخفيف الثانى متمثلا فى قول البارى جل شأنه : ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ، فمادام الذى كتب

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٥٩ ، ٦٠ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٦٤ ط وزارة الأوقاف .
(٣) سورة الأنفال الآيتان : ٢٠ ، ٢١ .

هذا هو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين ، فلتستقبل النفوس الواثقة هذا المكتوب بكرم وسعادة ولسان الحال يقول : شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض . ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

ويأتى التخفيف الثالث متمثلاً فى قوله جل شأنه : ﴿ **كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ ، أى لقد كان هذا الصيام فرضا على من سبقكم من الأمم فصاموه وامتثلوا أمر الله ، فأنتم يا خير أمة أخرجت للناس أولى الناس امتثالاً لأمر الله ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾(١) .

ويأتى التخفيف الرابع متمثلاً فى قوله تعالى : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ ، وهل التقوى إلا جماع الخير كله . أتى الإمام على كرم الله وجهه المقابر ذات يوم فقال : يا أهل المقابر هنيئاً لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه . أما أموالكم فقد قسمت ، وأما بيوتكم فقد سكنت وأما نساؤكم فقد تزوجن بغيركم هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم . ثم أنصت قليلاً وقال لمن حوله : والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى . فإذا كان الصيام يؤدى إلى أشرف غاية وهى التقوى لله . فما أعظم تلك الغاية وما أجل ما أدى إليها ، فالتقوى هى السلاح الأقوى . قيل للحسن البصرى رضى الله عنه : يا إمام عظنا ، فقال : يا هذا صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى ... تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا

ويأتى التخفيف الخامس متمثلا فى قوله جل جلاله : ﴿ **أياما معدودات** ﴾ أى ليس الصيام الدهر كله ، إنما هو أيام سرعان ما تمر مرّ السحاب ، ما تلبث أن تنقضى ويصبح رمضان كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر . وكثيراً ما أتمثل هذه الأبيات عندما تأتى الأيام الأخيرة من رمضان :

فياشهر الصيام فدتك نفسى ... تمهل بالرحيل والانتقال
فما أدرى إذا ما الحول ولىّ ... وعدت بقابل فى خير حال
فهذه سنة الدنيا دواما ... فراق بعد جمع واكتمال
وتلك طبيعة الأيام فينا ... تبدد نورها بعد الكمال

ويأتى التخفيف السادس متمثلاً فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ . فقد اقتضت رحمة الله العلى الكريم أن يكلف عباده بما يستطيعون . ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾(٢) .

ثم يأتى التخفيف السابع متمثلاً فى قوله جل شأنه : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ ،

---

(١) سورة النور الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .
(٢) سورة الحج آية : ٧٨ .

وهذا فى حق كبار السن الذين لا يستطيعون الصيام والمرضى بأمراض مزمنة عليهم أن يطعموا مسكينا عن كل يوم أفطروه فى رمضان .

مما تقدم نعرف أن الوعيد شديد لمن أفطر يوماً من رمضان بغير عذر . قال ﷺ : (من أفطر يوماً من رمضان من غير رخصة ولا مرض لم يقضه صوم الدهر كله وإن صامه[١]) وقال ﷺ : (عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة ، عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان)[٢] .

وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول ﷺ يقول : (بينما أنا نائم أتانى رجلان فأخذا بضبعى ، فأتيا بى جبلا وعراً ، فقالا : اصعد : فقلت : إنى لا أطيق ، فقلا : إنا سنسهله لك ، فصعدت حتى إذا كنت فى سواء الجبل إذا بأصوات شديدة قلت : ما هذه الأصوات ؟ قالا : هذا عواء أهل النار ، ثم انطلق بى ، فإذا أنا بقوم معلقين بعراقيبهم ، مشققة أشداقهم تسيل أشداقهم دما ، قلت : من هؤلاء ؟ قال : الذين يفطرون قبل تحلة صومهم)[٢] .

وبعد فإن الله جلت قدرته يفتح أبواب المثوبة لكل راغب فى رحمته فيقول : ﴿ فمن تطوع خيراً فهو خير له ﴾ ، أى فمن زاد فى الإطعام على مسكين واحد فذلك خير وبركة ، لأن صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر .

قوله تعالى : ﴿ وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ خطاب للمسافرين والمرضى الذين يستطيعون الصيام ، لأن فى الصيام تهذيبا للنفس وتصفية للروح فضلا عن المثوبة العظمى عند الله .

روى أن أبا أمامة قال للنبى ﷺ : مرنى بأمر آخذه عنك قال : (عليك بالصوم فإنه لا مثل له) .

شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾

روى عن الحسن أنه قال : إن الله تعالى فرض صيام رمضان على اليهود والنصارى ؛ أما اليهود فإنها تركت هذا الشهر وصامت يوما من السنة زعموا أنه يوم غرق فيه فرعون ، وأما النصارى فإنهم صاموا رمضان ، فصادفوا فيه الحر الشديد ، فحولوه إلى وقت لا يتغير ، ثم قالوا عند ذلك : نزيد فيه ، فزادوا عشرا ، ثم بعد زمان اشتكى ملكهم فنذر سبعا فزادوه ، ثم جاء بعد ذلك ملك آخر فقال : ما بال هذه

---

(١) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٧١ ط وزارة الأوقاف .

الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٧١، ٧٢ وزارة الأوقاف

(٢) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٧٢ ط وزارة الأوقاف .

الثلاثة ؟ فأتمه خمسين يوما . وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ﴾(١) .

أنزل الله تعالى فرض صيام رمضان على النبى وأمته فى شهر شعبان من العام الثانى من الهجرة . وقد شرفه الله تعالى بأعظم شرف ، فقد أنزل أعظم ملك هو جبريل ، بأعظم كتاب هو القرآن ، وبأعظم لغة هى العربية ، فى أعظم شهر هو رمضان ، فى أعظم بلد هى مكة ، فى أعظم ليلة هى ليلة القدر ، لأعظم أمة هى أمة الإسلام ، على أعظم نبى هو مبعوث الهداية الإلهية وشمس الهداية الربانية ؛ فهو الأمى الذى علم المتعلمين ، اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب البائسين ، القائد الموفق الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى شاطىء الأمان ، إلى صراط الله رب العالمين . ثم بين سبحانه وظيفة هذا الكتاب ورسالته الخالدة فقال : ﴿ هدى للناس ﴾ ، فهو الهادى إلى الصراط المستقيم ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ؛ من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدى إلى صراط مستقيم ؛ لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ؛ ومع الهدى بينات ودلائل قاطعة ، وبراهين ساطعة ، من هذا الهدى والفرقان الذى يفرق به الله بين الحلال والحرام ، والحق والباطل ، والكفر والإيمان . فيا أمة الإسلام ، يا من شرفكم الله بهذا القرآن : ﴿ من شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ ، أى من حضر هلاله ، وهو صحيح غير مريض ، مقيم غير مسافر ، مُكلف ، فعليه بالصيام .

ثم يعيد سبحانه وتعالى الرخصة للمسافرين والمرضى مرة أخرى ، حتى لا يُظَن أنه لعظم هذا الشهر قد رفع الرخص ، وأنه لا عذر لأحد فى الإفطار ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ . ثم يبين سبحانه وتعالى الروح الذى يسرى فى التشريع سريان الماء فى العود الأخضر ، وسريان نور القمر فى الليل السارى ، فيقول سبحانه : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ﴾ ، فصوموا هذا الشهر ، ومن أفطر فيه لعذر كالمسافر والمريض والشيخ الفانى والشيخة الفانية ، والحامل والمرضع ، إذا تعذر عليهما الصيام ، والحائض والنفساء ؛ كل هؤلاء عليهم أن يكملوا العدة بقضاء ما أفطروا ، وعلى الجميع أن يكبر الله تكبير شكر واعتراف بالجميل ، فلا أحد أكبر من الله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، ولتشكروا هذا الإله المنعم المتفضل على ما أولاكم من نعم ، وأسبغها عليكم ظاهرة وباطنة ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾(٢) .

آية الدعاء

وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

(١) سورة التوبة آية : ٣١ .

(٢) سورة النحل اية : ١٨

قال رجل : يا رسول الله أقـريب ربنا فنناجيه أم بعيـد فنناديـه ؟ فنزلت ﴿ **وإذا سـألك عبـادى عنى . . .** ﴾ . ونحن هنا نلاحظ أن الأسئلة التى كانت توجه للنبى ﷺ ، كان الله تبارك اسمه يلقنه إجابتها بلفظ قل . فمثلا : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾(١) ؛ ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾(٢) ، ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ﴾(٣) ، إلى غيرذلك من الأسئلة . أما فى آية الدعاء فلم يوسط لفظ قل فى الإجابة ، بل قال سبحانه مباشرة ﴿ **فإنى قريب** ﴾ ، وذلك لسببين : أولهما : نفى الوسائط بين العبد وربه . وثانيهما : الدلالة على عظم القرب الإلهى للعباد ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾(٤) . ولذا كان الرسول ﷺ يقول لأصحابه : (إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)(٥) .

قال الإمام ابن تيمية : « وهو سبحانه فوق العرش ، رقيب على خلقه ، مهيمن عليهم ، مطلع إليهم ؛ فدخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » .

قوله : ﴿ **عبادى** ﴾ بالإضافة إلى ضمير الذات الإلهية ، إضافة رحمة وشفقة وتشريف . قـوله : ﴿ **أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ ، يفيد أن الله تعالى يجيب الدعوة وقت دعائها ، بدليل الظرف إذا ؛ ويجيب الدعوة على حسب ما يريده ويختاره سبحانه وتعالى ، فإن كان الخير فى التعجيل عجّل ، وإن كان الخير فى التأجيل أجّل ، وإلا فإن الدعاء عبادة تخفف البلاء النازل من السماء . ويستجيب الله من العبد الدعاء ما لم يقل : دعوت فلم يُستجب لى . ولذا قال ﷺ : (ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة)(٦) . وقال : (أفضل العبادة انتظار الفرج)(٧) (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة)(٨) ، وكان يأمرهم أن يسألوا الله العافية ويعلمهم أن يقولوا : (**اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى**)(٩) . قال تعالى : ﴿ **فليستجيبوا لى** ﴾ ، استجابة طاعة بامتثال الأوامر واجتناب النواهى . وأول دلائل الاستجابة الإيمان . قال تعالى : ﴿ **وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** ﴾ . إذا فطريق الرشاد والسداد والتوفيق متوقف على الاستجابة والإيمان . وإنما جاءت آية الدعاء بين آيات الصيام لأن بين الصيام والدعـاء تمام ارتباط ، فإن للصائم عند فطره دعوة لا ترد . وهناك ثلاثة لا تـرد لهم دعوة : الإمـام العادل ، ودعـوة الصائم ، ودعوة المظلوم . وكان من الهدى النبوى دعوات الرسول ﷺ عند الإفطار : اللهم لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت . الحمد لله . ذهب الظمأ ، وابتلت العروق ، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى . والدعاء المطلوب هو الدعاء بالقول مع التوجه إلى الله بالقلب ، ومن ثم سماه النبى ﷺ مُخ العبادة .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٨٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢١٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٩ .
(٤) سورة ق آية : ١٦ .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣١٣ ط الشعب .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣١٣ ط دار الفكر .
(٧) المصدر السابق جـ ١ ص ١١٢ ط دار الفكر .
(٨) تفسير ابن كثير جـ ٥ ص ١٩٩ ط الشعب .
(٩) المصدر السابق جـ ٨ ص ٤٧٢ .

عفو إلهى كريم

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

سبب النزول : قال العلامة ابن كثير فى هذه الآية : هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ، ورفْع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام ؛ فإنه كان إذا أفطر أحدهم ، إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة[1] .

المفردات : ﴿ **ليلة الصيام** ﴾ : هى الليلة التى يصبح منها المرء صائما ، والرفث إلى النساء : الإفضاء إليهن . قال الأزهرى : الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة . واللباس : الملابسة والمخالطة . ﴿ **تختانون أنفسكم** ﴾ : أى تخونون أنفسكم بعمل شىء تعدونه حراما . ﴿ **الخيط الأبيض** ﴾ : أول ما يبدو من بياض النهار ، كالخيط الممدود رقيقا ثم ينتشر . ﴿ **الخيط الأسود** ﴾ : هو ما يمتد من سواد الليل مع بياض النهار . فالصبح إذا بدا فى الأفق بدا كأنه خيط ممدود ويبقى بقية من ظلمة الليل يكون طرفها الملاصق لما يبدو من الفجر كأنه خيط أسود فى جنب خيط أبيض . والإتمام : الأداء على وجه التمام ، وحقيقة المباشرة مس كل بشرة الآخر : أى ظاهر جلده ، والمراد بها ما أريد بالرفث . والاعتكاف شرعا : المكث فى المسجد طاعة لله وتقربا إليه ، والحدود : واحدها حد ، وهو فى اللغة : الحاجز بين شيئين ، ثم سمى بها ما شرعه الله لعباده من الأحكام ، لأنها تحدد الأعمال ، وتبين أطرافها وغاياتها ، فإذا تجاوزها المرء خرج عن حد النصيحة وكان عمله باطلا .

والمراد بالآيات هنا دلائل الدين ونصوص الأحكام .

روى الإمام أحمد فى سبب نزول هذه الآية ، عن معاذ بن جبل رضى الله عنه ، قال : إن الناس كانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا امتنعوا ، ثم إن رجلا من الأنصار يقال له قيس بن

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣١٦ ط الشعب .

صِرْمة (بكسر الصاد) صلى العشاء ثم نام ، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح ، فأصبح مجهودا . وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام ، فأتى النبى ﷺ فذكر له ذلك ، فأنزل الله ﴿ أحل لكم ليلة الصيام . . . ﴾ ، وهذا يدل على أنه حين فرض الصيام كان كل إنسان يذهب فى فهمه مذهبا كما يؤديه إليه اجتهاده ، ويراه أحوط وأقرب للتقوى حتى نزلت هذه الآية[1] .

نعم إن رحمة الله وسعت كل شىء ؛ ومن آثار تلك الرحمة أن أباح للصائمين الأكل والشرب ومباشرة النساء ليلة الصيام من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، حتى يرفع عنهم العنت والمشقة . فإذا كان الصائم قد حظر عليه أن يأتى نساءه وهو صائم نهارا ، فقد أباح الله له ذلك ليلا . وعبر القرآن عن الجماع تعبيرا أدبيا رفيعا بكلمة ﴿ الرفث ﴾ ، كما عبر عنه فى موضع آخر بقوله : ﴿ وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾[1] ، وبقوله : ﴿ فلما تغشاها حملت حملا خفيفا ﴾[2] وبين شدة الاتصال بين الرجل وزوجته بقوله : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾ ، أى أن بينكم وبينهن تمام تداخل واتصال ، وقد علم الله أنكم تختانون أنفسكم ، أى تخونونها بالتشديد عليها ، فتاب عليكم فيما حدث ، وعفا عنكم فيما وقع ؛ فالآن باشروا الزوجات ، واطلبوا ما كتب الله لكم من الولد الصالح . كذلك فقد أبيح لكم الأكل والشرب ليلا حتى يتبين الفجر ، كما يتبين الخيط الأبيض من الأسود . والمراد بالخيط الأبيض نور النهار ، وبالخيط الأسود ظلمة الليل . بعدها : ﴿ أتموا الصيام إلى الليل ﴾ ، وكما يفسد الصيام بالجماع ، كذلك يفسد الاعتكاف بالجماع ، قال تعالى : ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾ .

ثم نهى سبحانه عن قرب حدوده خشية الوقوع فى الحرام ، فالنهى عن القرب نهى عن الفعل من باب أولى . قال ﷺ : (إن لكل ملك حمىً ، وإن حمى الله محارمه ، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه) .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾ ، أى يتقون ما حرم الله . والمراد من الآيات الأحكام الشرعية .

النهى عن أكل أموال الناس بالباطل

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

المفردات : المراد بالأكل : الأخذ والاستيلاء ، وعبر به لأنه أعم الحاجات التى ينفق فيها المال وأكثرها ، إذ الحاجة إليه أهم ، والباطل : من البطلان ، وهو الضياع والخسران . وأكله بالباطل : أخذه بدون مقابلة شىء حقيقى ، والشريعة حرمت أخذ المال بدون مقابلة يعتد بها ، وبدون رضا من يؤخذ منه ،

---

(١) المصدر السابق ص ٣١٧ .

(٢) سورة النساء آية : ٢١ .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٨٩ .

وإنفاقه فى غير وجه حقيقى نافع . والإدلاء : إلقاء الدلو لإخراج الماء ، ويراد به إلقاء المال إلى الحكام لإخراج الحكم للملقى . وقوله بها : أى بالأموال . والفريق من الشىء : الجملة والطائفة منه . والإثم : هو شهادة الزور ، أو اليمين الفاجرة أو نحو ذلك .

إنما جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيات الصيام لما لها من وقع شديد فى النفوس ؛ فإذا كنتم أيها الصائمون قد أمسكتم فى النهار عن أكل ما أحل الله ، فلا يحل لكم أن تأكلوا ما حرم الله ، إذ أنه رُب صائم لا يناله من صومه إلا الجوع ، ورب قائم لا يناله من قيامه إلا السهر ، ومن لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه . فهذا الخطاب بالنسبة للصائمين أشد وأوقع ، كأنه قيل : أتمسكون عن الطعام فى الصيام ، وتأكلون أموال الناس بالباطل ، وإنما عبر هنا (بالأكل) دون غيره من الملبس والمركب ، لأن الإنسان أشد ما يكون إلى الطعام ، فكلما كثرت واشتدت حاجته إليه ، كان النهى أوقع .

وإنما جاء التعبير القرآنى : ولا تأكلوا أموالكم ولم يقل (ولا تأكلوا أموال غيركم) ، لأن المجتمع الإسلامى كله رجل واحد وجسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . والباطل هو الخسران والضياع ، فأكل الربا باطل ، ودفع الرشوة باطل ، والسرقة والغصب كل هذا وجوه حرم الله مالها ؛ وللمال حرمته فى الإسلام ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله ، ولا يحل مال امرىء مسلم الا بطيب نفسه منه ، وما أخذ بسيف الحياء فهو حرام ، حتى لقد ذكروا أن الإمام أبا حنيفة ، رضى الله عنه ، كان ينتظر أحد الناس وهو واقف فى حر الشمس ، وأمامه بيت له ظل ظليل ، فقيل له : يا أبا حنيفه ما ضر لو وقفت فى ظل البيت ؟ فقال : إن هذا البيت مرهون عندى ، واخشى إن وقفت فى ظله أن يسألنى الله عن ذلك ، إذ لا يجوز الانتفاع بالشىء المرهون .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصماً ... فإنه الركن إن خانتك أركان

قال سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله سل الله أن يجعلنى مجاب الدعوة . فقال له الصادق المعصوم : (يا سعد : أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، فوالذى نفسى بيده إن الرجل ليقذف باللقمة من الحرام فى جوفه فلا يقبل الله منه دعاءً ، أو لا يقبل منه عمل ، أربعين يوماً ، ومن نبت جسمه من حرام فالنار أولى به) .

وأشد ما ابتلى به الإنسان دفع الرشوة وأكلها ومن الناس من يدلى ويلجأ إلى الحكام بدفع شىء من المال فى سبيل أن يأكل مال غيره ، ونسى أو تناسى أنه يأكل فى بطنه ناراً وسوف يصلى سعيراً ، ويأكل فريقاً من أموال الناس بالإثم والعدوان ، وهو يعلم أنه آثم خاطىء مذنب ، ويوم القيامة سيعض يديه ندماً ، ويقلب كفيه ألماً ، يقول : يا ليتنى قدمت لحياتى ، ولات ساعة مندم .

الأهلـة

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

جاء فى سبب نزول هذه الآية : أخرج أبو نعيم وابن عساكر عن أبي صالح عن ابن عباس : (أن معاذ ابن جبل وثعلبة بن غنيمة قالا : يا رسول الله ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان ، لا يكون على حال ؟ فنزلت الآية)(١) .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها من آيات الصيام ، لأن الأهلة كما كانت مواقيت للناس والحج ، كذلك هى مواقيت لشهر الصيام والإفطار ؛ قال ﷺ : (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته)(٢) ، فبينهما تمام ارتباط وتناسب .

لما سألوا رسول الله ﷺ عن الحكمة من منازل الهلال ، بين الله تعالى فائدة ذلك ، لأنه لمعرفة المواقيت الزمانية ، وما أشد حاجة الناس إلى تلك المواقيت : فبالمواقيت يزرعون ويحضدون ويصومون ويحجون ويجاهدون بها ، وتعتد المرأة وتعرف أيام حيضها ونفاسها إلى غير ذلك . قال تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾(٣) ، ثم صحح لهم أموراً كانوا يفعلونها فى الحج ، فقال : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾ .

وروى البخارى وابن جرير عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره ، فأنزل الله الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم والحاكم عن جابر قال : كانت قريش تُدعى الحُمس (جمع أحمس من الحماسة وهى الشدة والصلابة لتشددهم فى دينهم) ، وكانوا يدخلون البيوت من الأبواب فى الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب فى الاحرام ، فبينا رسول الله ﷺ فى بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر الأنصارى ، فقالوا يا رسول الله : إن قطبة بن عامر رجل فاجر ، وإنه خرج معك من الباب ، فقال له : ما حملك على ما فعلت ؟ قال : رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت ، قال : إنى رجل أحمسى ، قال له : فإن دينى دينك ، فأنزل الله الآية . .(٤) .

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٣٦ ط دار زهران للنشر والتوزيع ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م .
(٢) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير للسيوطى جـ ٢ ص ١٠٣ دار الفكر .
(٣) سورة يونس آية : ٥ .
(٤) تفسير القرآن العظيم للامام ابن كثير جـ ١ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ ط الشعب .

وبعد ما صحح الإسلام لهم ما انحرفوا عنه ، بين لهم حقيقة البر ، وأنه التقوى ، والتقوى خوف من الجليل ، وعمل بالتنزيل ، ورضا بالقليل واستعداد ليوم الرحيل . والتقوى هى السلاح الأقوى ، والمتقون مفلحون ، يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

وإتيان البيوت من ظهورها ليس من البر أو العقل ، ولا يفعله من اتقى الله ، إنما وضع الأمور فى نصابها يكون بإتيان البيوت من أبوابها ، وحال المسلم يجب أن يكون سمعاً وطاعة لأوامر الله ، وأن يكون باطنه وظاهره على وفق ما أمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾[1] ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[2] ، ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾[3] .

مشروعية القتال فى الإسلام

وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾

المفردات : ﴿ سبيل الله ﴾ : دينه لأنه طريق إلى مرضاته . ﴿ يقاتلونكم ﴾ : أى يتوقع منهم قتالكم . ﴿ ولا تعتدوا ﴾ : أى لا تبدءوهم بالقتال . ومحبة الله لعباده : إرادة الخير والثواب لهم . والمعتدون : أى الذين جاوزوا ما حده الله لهم من الشرائع والأحكام . والثقف : الحذق فى إدراك الشىء علماً كان أو عملاً . وقد يستعمل فى مطلق الإدراك . ﴿ من حيث أخرجوكم ﴾ : أى من مكة . والفتنة من قولهم فتن الصائغ الذهب ، إذا أذابه فى النار ليستخرج منه الزغل ، ثم استعملت فى كل اختبار شاق ؛ كالإخراج من الوطن المحبب من الطباع السليمة ، والفتنة فى الدين ، ويكون الدين لله ، أى ويكون دين كل شخص خالصاً لله لا أثر لخشية غيره فيه ، فلا يفتن بصده عنه ولا يؤذى فيه ، ولا يحتاج إلى مداهنة ومحاباة أو استخفاء ومداراة .

---

(١) سورة النور آية : ٥٢ .
(٢) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٣) سورة الطلاق اية : ٤ .

بعد ما بين الله تعالى منافع الأهله وأنها مواقيت للناس والحج ، فإنها أيضا مواقيت للأشهر الحرم التى لا يحل فيها القتال ، والتى جاء ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾[١] ، وفى قوله جل شأنه : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾[٢] ، وهذه الأشهر هى ذو العقدة وذو الحجة ومحرم ورجب .

فإذا ما اعتدى على المسلمين فى هذه الأشهر ، جاز لهم أن يردوا العدوان بمثله ، وقد جاء الإذن بالقتال فى الإسلام بعد عدة مراحل من الدعوة ، فقد بدأت الدعوة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة ، ومازالت وستظل ، قال تعالى لنبيه ومصطفاه : ﴿ يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر ﴾[٣] ، ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾[٤] .

ثم : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[٥] ، ثم : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾[٦] ، ثم : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ .

إذن ، فالقتال هنا مشروع ضد المعتدين الآثمين ، ثم أمرهم الله تعالى أن يقتلوهم حيث وجدوهم ، وان يخرجوهم من حيث أخرجوهم فقد أخرجوهم من ديارهم مكة ، قال تعالى : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[٧] ، ثم قال عز من قائل : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ ، والمقصود ، بالفتنة هنا فتنة الرجل فى دينه حتى يرتد عنه ، فقد أذاقوا المسلمين ألوانا من العذاب ، لو صبت على الأيام صرن ليالى ، وما شأن بلال وعمار وخباب وصهيب وابن مسعود وسمية وياسر وغيرهم من المستضعفين ، ما شأنهم ببعيد ، من ثم فإن الفتنة أشد من القتل ، فقاتلوهم واسجنوهم حتى يقضى على الفتنة من جذورها ، ويكون الدين والخضوع والاستسلام لله وحده ، ﴿ فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق ﴾[٨] . ولقد نهى الله الجماعة المسلمة أن تقاتل المشركين عند المسجد الحرام صيانة لحرمته ، فإنه الأمن كله : طيراً ونباتاً ووحشاً ، إلا إذا بدأ المشركون بالقتال عند المسجد الحرام ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾ .

وما أوسع رحمة الله وما أعظم كرمه ، إذ يقول : ﴿ فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم ﴾ ، أما إن نكثوا

---

(١) سورة البقرة آية : ١٩٤ .
(٢) سورة التوبة آية : ٣٦ .
(٣) سورة المدثر الآيات : ١ : ٤ .
(٤) سورة النحل آية : ١٢٥ .
(٥) سورة الشعراء آية : ٢١٤ .
(٦) سورة الحج الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
(٧) سورة الحشر آية : ٨ .
(٨) سورة الشورى آية : ٤٢ .

أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، فالظالم عدو الله ورسولـه ، لابد أن يقلم الإسـلام أظفاره ، ويكسر أنيابه ، ويجتث مخالبه ، لأن وجوده فى الأرض شر مستطير . فالمؤمن إذا مـات استراح بالموت من عناء الدنيا ، والفاجر إذا مات استراحت منه البلاد والعباد والشجر والدواب .

من هنا نعلم أن المسلمين ما استعملوا السيف إلا فى وجه العدوان ، وضد القوى الطاغية ، التى وقفت حائلاً دون إيصال الدعوة إلى الناس .

فالأصل فى الإسلام السلام ، ولكنه سلام عزيز مسلح ، فالله هوالسلام ، والجنة دار السلام ، وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام ، وتحية الله للمؤمنين يوم يلقونه سلام ، وتحيته سبحانه لنبيه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . فهذا هو الأصل فى معاملات الإسلام الخارجية ، سلام مبنى على العزة والكرامة ، أما السلام الذليل المستكين ، فالإسلام لا يعرفه ولا يقره ، قال تعالى : ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ﴾[1] .

واسألوا التاريخ : أى المعسكرين اعتدى على الآخر ، معسكـر الشرك أم معسكـر التوحيـد ؟ إن التاريخ يشهد والحقائق تؤكد أن معسكر الشرك كان البادىء بالعدوان ، فهل يقف معسكر التوحيد ذليلاً يستجدى معسكر الشرك ؟ لا والله ، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما رفع الإسلام السيف إلا فى وجه السيف ، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد ، وهل رفع الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف ؟ .

قـالـوا غـزوت ورسـل الله مـا بعثـوا	لقتـل نفس ولا جـاءوا لسفـك دم
جهـل وتضليـل أحـلام وسفسـطة	غزوت بالسيف بعد الغزو بـالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا	فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والحـرب إن تلقها بـالسلم ضقت بها	ذرعاً وإن تلقهـا بـالسيف تنحسم

قال رباعى بن عامر لقادة الفرس عندما سألوه : ما الذى جاء بكم إلينا ؟ قال : إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحدة ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الحـرب فى حق لـديـك شريعـة	ومـن السـمـوم النـاقعـات دواء

قولوا للشانئين الحاقدين الحاسدين : ما قامت دعوة الإسلام على السيف ، إنما قامت على الحجـة والبرهان ، فيوم أعلن الرسول كلمة التوحيد ، كان وحده ، ويوم انضم أبو بكر إلى رسول الله لم ينضم

(١) سورة محمد آية : ٣٥ .

بالسيف ، ويوم انضم إليهم عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وسعيد بن زيد وأبو عبيدة لم ينضموا بالسيف ، فالإسلام عقيدة والعقيدة من أعمال القلوب ، ولا سلطان للسيف على ما فى القلب ، ونسبة البلاد التى فتحت بالأعمال العسكرية بنسبة خمسة عشر فى المئة ، والباقون دخلوا الإسلام بطريق التجارة التى كان يتولاها تجار المسلمين فى شرق البلاد وغربها . ثم اسألوا التاريخ : متى استعمل الإسلام السيف ؟ ضد القوى المادية الضاغطة التى وقفت كابوساً ضاغطاً يصد عن سبيل الله . ثم اسألوا التاريخ : كم عدد الذين قتلوا أو استشهدوا فى غزوات الرسول كلها ؟ من الجانبين لا يتجاوزون ألفاً وثمانية عشر رجلاً ، منهم مائتان وثمانية وخمسون شهيداً والباقون من المشركين ، بينما سقط فى الحرب العالمية الأولى واحد وعشرون مليوناً ، وفى الحرب العالمية الثانية خمسون مليوناً ما بين قتيل وجريح ومعوق . ألا يأخذ هؤلاء الحياء ؟ ثم ألا يشعرون بالخزى وهم البرابرة الذين دمروا الشعوب واستنزفوا خيراتها تحت اسم الاستعمار ، وما هو استعمار وإنما استخراب . واسألـوا التاريـخ عن بلد المليون من الشهـداء ؟ الجزائـر التى وقفت وصمدت أمام الامبراطورية الفرنسية ، وزيادة فى الإيضاح فإننا نذكر فى قضية الحرب والسلام ما ذكره اللواء محمود شيت خطاب فى كتـابه (الـرسول القـائد) تحت عنـوان (القتال فى الإسـلام) : معنى القتال فى الإسلام : هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان السلام ، مع مراعاة حـرب الفروسيـة الشريفة فى الإسلام .

متى شرع القتال فى الإسلام ؟

لم يؤذن للمسلمين فى القتال قبل الهجرة رغم ما ذاقوا من المر ، وكابدوا من فنون الأسى والضر ، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة ، ويثبتوا عقيدة ، ويقولوا فى حرارة وصدق : ربنا الله . فلما اشتد عداء قريش وصمموا على القضاء على الدعوة ، وأجمعوا أمرهم على قتل النبى ﷺ ، هاجر هو وأصحـابه إلى المدينة . فهل وقف البغى وخفت حدة العداوة ؟ كلا . . ظلت قريش تحارب المسلمين ، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم ، حتى أذن الله للمسلمين فى القتال ، فنزلت فيه أول آية : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾(١) . لقد خرج الرسول ﷺ غازياً فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة ، وبذلك بدأ القتال فعلاً فى الإسلام .

أهداف القتال فى الإسلام

١ - حماية حرية نشر الدعوة :

ليس من أهداف الحرب فى الإسلام نشر الدعوة ، بل حماية حرية نشرها ، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه ، والله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾(٢) ، ولو كان القتل فى

(١) سورة الحج الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) البقرة آية : ٢٥٦ .

انتشار الإسلام بسيوف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله وغلبوا على أمرهم ، ولكن هدف الحرب فى الإسلام هو حماية العقيدة ، وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ .

إن الحرب فى الإسلام حرب دفاعية ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد ، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال ، ويعتبرون الحرب كفاح شرف ، ولا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو إجراء يتنافى مع الشرف ، فهم مقيدون باحترام العهد والترفع عن الخيانة ، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى والعناية بهم ، وعدم التعرض بسوء لغير المتقاتلين ، وعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين . . الخ .

٢ - توطيد أركان السلام

تكون الأمة بغير جيش قوى عرضة للضياع ، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها ؛ فإذا كان لها جيش قوى احترم العدو إرادتها ، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها ، فيسود عند ذاك السلام ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾[١] ، ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾[٢] .

إن الإسلام ، كما تدل عليه تسميته ، دين أمن وسلام ، يقوم على أساس الود والتسامح ، ولا يجيز الحرب إلا فى حالات محدودة بحيث تعتبر فيما عداها جريمة .

آداب القتال فى الإسلام

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين ، لرد العدوان وحماية الدعوة وحرية انتشار الدين ، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء ، وتوخى به أن يكون طريقاً إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف .

وليست الجزية عوضاً مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هى لحماية المغلوبين فى أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء . . يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التى تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية فى العقائد والأموال . وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف .

« إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة . . فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا حتى نمنعكم » .

---

(١) سورة الأنفال الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٨ .

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص ، وأبو عبيدة على أهل دمشق ، وبقية قواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك ، وكان مما قاله القواد المسلمون لأهل تلك المدن : « إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية ، ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم ، فهذه هى أموالكم نردها إليكم » .

لقد كان فرض الجزية فى الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع فى أموال المغلوبين ، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب ، وكانت على ثلاثة أقسام : أعلاها ، وهو (٤٨) درهما فى السنة على الأغنياء (حوالى دينارين ونصف دينار عراقى أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشاً مصرياً » ، وأوسطها ، وهو (٢٤) درهماً فى السنة على المتوسطين من تجار وزراع . وأدناها : وهو (١٢) درهماً فى السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملا . وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله ، وهو بنسبة اثنين ونصف فى المائة ، القدر الشرعى لفريضة الزكاة .

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبى والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى والمقعد وذوى العاهات أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها ، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة فى تحصيلها . وقد جاء فى عهد خالد لصاحب قس الناطف : « إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله » . ليس ذلك فحسب ، بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة فى الجيش ، والذمى الذى يقبل التطوع فى الجيش الإسلامى تسقط عنه الجزية ، وهذا معناه أن الجزية تشابه البدل النقدى للخدمة العسكرية فى عصرنا الحاضر ؛ كما ضمن الإسلام إعالة البائسين والمحتاجين من الذميين ، جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة : « وأيما شخص ضعف عن العمل ، أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله » .

إن فرض الجزية لايحمل معنى الامتهان والإذلال ، ومعنى (صاغرون) فى آية الجزية ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾[1] ، هو الخضوع إذ من معانى الصغار فى اللغة الخضوع ، ومنه أطلق « الصغير » على الطفل ، لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه ، والمراد بالخضوع حينئذ ، الخضوع لسلطان الدولة ، بحيث يكون ، فى دفع الجزية ومن الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة ، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم .

ولا توجد آية فى القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه .

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين : ﴿ لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ إنما

---

(١) سورة التوبة آية : ٢٩ .

ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾(١)

واقرأ الآية الكريمة ، وهى من أواخر القرآن نزولا ، فهى تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم : (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٢) .

ومن ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هى : بر وقسط وتعاون ومصاهرة .

أما عن تنظيم القتال فى الإسلام فإنه يدور حول ما يلى :

١ - تقوية المعنويات :

يعمل الإسلام على تقوية معنويات المقاتلين فى سبيل الله ، فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين وثواب المجاهدين ، لأنهم يقاتلون لإنقاذ الضعفاء ، والبر بالإنسان ، ومقاومة الجبروت والطغيان ، ولدحض عوامل الشر والإفساد : ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً * الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾(٣) .

واستأصل الإسلام جميع النواحى التى ينبعث من قبلها الجبن والخور ، وحث المؤمنين على الجهاد فى سبيل الله والحق . . فى سبيل الخير والسعادة ، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا العشيرة ولا الأموال ولا التجارة التى يخشى كسادها ولا المساكن ، لا شىء من ذلك كله يصلح أن يحول بين المؤمنين وبين ما تقتضيه محبة الله ورسوله من تضحية وجهاد : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٤) .

بمثل هذا الأسلوب القوى حارب الإسلام عوامل الضعف ونزعات الخوف ، وغرس فى نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية والاستهانة بزخرف الحياة فى سبيل الحق ونصرته ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون ﴾(٥) .

(١) سورة الممتحنة الآيتان : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة المائدة آية : ٥ .
(٣) سورة النساء الآيات : ٧٤ - ٧٦ .
(٤) سورة التوبة آية : ٢٤ .
(٥) سورة الحجرات آية : ١٥ .

لقد توخى الإسلام تقوية الروح المعنوية ، وقد كانت المعنويات العالية ، ولا تزال ، من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية .

٢ - إعداد القوة المادية :

حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين : القوة والرباط .

فأما القوة فتتناول العدد والعدة ، وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال وإعداد آلات الحرب ووسائل القتال ومواد التموين وكافة القضايا الإدارية الأخرى .

وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضاً من تحصين الحدود والثغور والأماكن الواهنة تجاه العدو ، وتهيئة القوة الكامنة منها لحمايتها .

يهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار ، وذلك لإرهاب العدو ، حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحى الضعف والتخاذل : ﴿ ودَّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾[١] .

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة ، ويذكر بالحديد ، بصورة خاصة ، للاستفادة منه للأغراض العسكرية : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[٢] .

إن الجهاد فى الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للمنافحة عن الحق وحمايته .

٣ - التنظيم العملى للقتال :

(أ) الإعفاء من الجندية :

أسباب الإعفاء من الجندية فى الإسلام محصورة فى الضعف ، ويشمل الضعف : المرض والعجز والشيخوخة وعدم القدرة على الإنفاق : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾[٣] .

لم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية ولا الانتساب إلى الجامعات ، ولا حفظ القرآن الكريم ، ولا دفع البدل النقدى ، ولا البنوة لحاكم كبير ، مما عهدناه فى عصور الانحلال ، بل كان العمل فى عصر النبى ﷺ والعصور التالية له على عكس ذلك ، وما كان التفكير فى جمع القرآن الكريم إلا خوفاً من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة فى حرب اليمامة ، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً فى أن يستحر القتل فيهم .

---

(١) سورة النساء آية : ١٠٢ .
(٢) سورة الحديد آية : ٢٥ .
(٣) سورة التوبة آية : ٩١ .

(ب) إعلان الحرب :

حذر القرآن الكريم من انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة غدراً : ﴿ وإما تخافنَّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾(١) .

تطلب الآية الكريمة طرح العهد عند توجس الشر منهم ، وتطلب أن يكون هذا النبذ صريحاً .

إن المسلمين لا يخونون أحداً ، ولا يغدرون بأحد ، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم ، ثم يشرعون بعد هذا الإعلان فى القتال .

(جـ) الدعوة للجهاد :

حذر الإسلام من التباطؤ فى تلبية داعى الجهاد والتثاقل عنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير ﴾(٢) .

(د) عقاب المتخلفين :

عاقب الإسلام المتخلف عن الجهاد عقاباً نفسياً ، إذ يهجر المتخلف أهله ، حتى زوجته ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه ، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾(٣) .

فقد تاب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ليتوبوا ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى .

إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط ، ولا يشمل أهله وعشيرته ولا سكان قريته ، كما حدث فى القرن العشرين عند بعض الدول الكبرى ، إذ نزل العقاب الصارم بأهل المتخلف وعشيرته وحتى بأهل قريته ، فى بعض الأحيان ، بحجة أن هؤلاء يجب أن يسلموا المتخلف أو ينالهم العقاب .

(هـ) تطهير الجيش :

يأمر الإسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، ومن الذين يختلفون عن أفراده بالعقيدة ، حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة ، يعمل لتحقيقها ، ويبذل كل ما يملكه فى سبيلها ، وبذلك يستطيع الفوز فى الحرب : ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾(٤) .

(١) سورة الأنفال آية : ٥٨ .
(٢) سورة التوبة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .
(٣) سورة التوبة آية ١١٨
(٤) سورة الأحزاب آية : ٢٠ .

(و) أساليب القتال :

ينظم الإسلام مواضعه الدفاعية ، ويوزع وحداته على تلك المواضع ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾[(١)] ، ويبتكر القتال بأسلوب الصف ، الذى لم تكن العرب تعرفه حينذاك ، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً ، كأنهم بنيان مرصوص ﴾[(٢)] .

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال فى العصر الحاضر ، فهويؤمن العمق والاحتياط ، ليستطيع القائد معالجة المواقف التى ليست فى الحسبان .

(ز) الضبط :

يحث الإسلام على السمع والطاعة للقيادة العامة ، والثبات فى المواقف ، وتجنب أسباب الفشل ، والاعتصام بالله ، وباليقين : ﴿ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[(٣)] .

كما حذر الإسلام من الفرار ، وبين سوء عاقبته : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾[(٤)] .

(ح) الكتمان :

حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة ؛ كما طلب من المسلمين أن يتثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾[(٥)] .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[(٦)] .

(ط) الهدنة والصلح :

أمر الإسلام بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب ، إذا جنح إليها الأعداء وظهرت منهم علامات الصدق والوفاء : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾[(٧)] .

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٢١ .
(٢) سورة الصف آية : ٤ .
(٣) سورة الأنفال الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .
(٤) سورة الأنفال الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٦٠ .
(٦) سورة النساء آية : ٨٣ .
(٧) سورة الأنفال الآيتان : ٦١ ، ٦٢ .

(ى) الأسرى :

خيّر الإسلام القائد بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال ، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء ﴾[1] .

لقد حرم الإسلام قتل الأسير ، ومن أسلم امتنع قتله ، ومن أسلم قبل أسره ، ولو لخوف ، فهو كالمسلم الأصلى ، يحرم دمه أيضاً .

(ك) حث الإسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود ، وأوجب الوفاء بها ، وحرم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد إلى أن القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب ، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق ، والوقيعة بالضعفاء : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ۞ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾[2] .

الحرمات قصاص

ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

المفردات : الحرمات : واحدها حرمة ، وهى ما يجب احترامه والمحافظة عليه . القصاص : المقاصة والمقابلة بالمثل . اتقاء الشىء : طرحه حيث تراه ، ثم استعمل فى كل ما يطرح ، ويلقى مطلقا . سبيل الله : هى طريق الخير والبر المؤدى إلى إعزاز دينه ، كجهاد الأعداء ، وصلة الأرحام . والتهلكة : الهلاك ، المراد به هنا الإمساك عن النفقة فى الاستعداد للقتال وترك الجهاد .

لما قال الله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ ، بين تعالى بعد ذلك أن هناك أشهراً حرماً يحرم فيها القتال ، فقال : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام ﴾ ، أى قابلوا حرمة هذه الأشهر بحرمة من جهتكم ، إلا إذا اعتدى عليكم فيها ، فإن الحرمات قصاص ، فمن اعتدى عليكم فى هذه الأشهر فعليكم أن تردوا العدوان بمثله ، حتى تكون كلمة الله هى

(١) سورة محمد آية : ٤ .

(٢) سورة النحل الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .

العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والمثلية هنا بمثل ما اعتدى عليكم ، تفيد منتهى العدالة فى رد الاعتداء ، وأن هذا الدين يخاطب العقل الرشيدبالمنطق السديد ، لا يعرف الإكراه ؛ قال تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[(١)] ، وقال له : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار * فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[(٢)] وقال له : ﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيراً ﴾[(٣)] وقال له : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر ﴾[(٤)] .

قال جوستاف لوبون الفيلسوف الفرنسى : ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب ، وما يتجنى به أعداء الإسلام من دعواهم أن الإسلام قام بالسيف فقول يكذبه التاريخ ولا يؤيده ، من ينظر إلى الأمور بعين الإنصاف ويدع الهوى وراءه ظهريا . انتهى كلامه .

وقد جاء الإسلام للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، كان كالنسيم الهادىء يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالحرارة الهادئة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، ثم طمأن القلوب الواثقة وثبت الجماعة المؤمنة عندما أمرهم بالتقوى فقال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى تقلب عرياناً ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قيل للحسن البصرى رضى الله عنه ، تقى عصره : ياتقى الدين أى الأيام عندك عيد ؟ قال : كل يوم لا أعصى الله فيه فهو عيد .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

أى عدالة تلك ؟ بل أى خلق هذا حتى مع الأعداء ؟قابلوا احترامهم للشهر الحرام باحترامكم له ، فإن اعتدوا عليكم فليكن ردكم للعدوان قصاصاً ، والقصاص ينبىء بالمساواة دون ما تجاوز للحد ، وليكن ردكم على عدوانهم مماثلاً فى السلاح والأداء ، وعادلاً فى نفس الوقت : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[(٥)] والتقوى هى السلاح الأقوى ، واعلموا أن الله مع المتقين ؛ وهل بعد معية الله من قوة تذكر ؟ كفانى فخراً بأن تكون لى رباً ، وكفانى عزاً أن اكون لك عبداً . فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد صحة فالله يعطيه ، ومن أراد غنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظا فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شىء من هذا ، فإن النار تكفيه .

---

(١) سورة يونس : آية ٩٩
(٢) سورة ق : آية ٤٥
(٣) سورة الفرقان : آيه ٥٢
(٤) سورة الغاشية : الآيتان ٢٥ ، ٢٦
(٥) سورة المائدة : آية ٨

إن العز كل العز فى طاعة الله والذل كل الذل فى معصية الله ، ومعية الله هنا بمعنى الحماية والرعاية والصيانة ؛ ألم يقل السيد المعصوم لصاحبه فى الغار : لا تحزن إن الله معنا ؟ ألم يقل موسى لبنى إسرائيل عندما قالوا له إنا لمدركون ﴿ قال : كلا إن معى ربى سيهدين ﴾(١) ألم يقل الله تعالى للملائكة ، وقد أخذوا الأهبة للهبوط فى الميدان يوم بدر : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾(٢)؟ ألم يتفضل مولانا ، جل ذكره ، على المتقين والمحسنين بقوله : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾(٣) ؟

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه عكرمة عن ابن عباس : لما سار رسول الله ﷺ معتمراً فى سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة ، وهو شهر حرام ، حتى قاضاهم على الدخول من قابل ، فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم ، فنزلت فى ذلك هذه الآية : ﴿ **الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص** ﴾ . وعن جابر بن عبد الله قال : لم يكن رسول الله ﷺ يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يُغزىٰ فيغزو ، فإذا حضره أقام حتى ينسلخ . ولهذا لما بلغ النبى ﷺ ، وهو مخيم بالحديبية ، أن عثمان قتل ، وكان قد بعثه فى رسالة إلى المشركين ، بايع أصحابه ، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل ، كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة ، وكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين ، وتحصن فاروهم بالطائف ، عدل إليها فحاصرها ، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق ، واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً ، كما ثبت فى الصحيحين عن أنس ، فلما كثر القتل فى أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ، ثم كر راجعا إلى مكة ، واعتمر من الجعرانة ، حيث قسم غنائم حنين ، وكانت عمرته هذه فى ذى القعدة أيضاً عام ثمان ، صلوات الله وسلامه عليه .

وبعدما أمرهم تعالى بالجهاد بالنفس فى قوله : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ﴾(٤) ، أمرهم سبحانه أن يجاهدوا بالمال فقال : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله** ﴾ ، كثيراً ما يقترن الجهاد بالنفس بالجهاد بالمال ، قال تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٥) ، وقال عز من قائل : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾(٦) ، وقال تبارك اسمه : ﴿ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٧) . وسبيل الله يشمل طرق الخير ، وعلى رأسها الجهاد لإعلاء كلمة الله ، ثم نهاهم سبحانه عن الإلقاء بأنفسهم إلى التهلكة ، وإنما يكون الإلقاء إلى التهلكة بالإمساك عن النفقة وبالبخل ، كما جاء ذلك عن كثير من أهل العلم .

قال حذيفة : نزلت هذه الآية فى النفقة . وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير

(١) سورة الشعراء : آية ٦٢
(٢) سورة الأنفال : آية ١٢
(٣) سورة النحل : آية ١٢٨
(٤) سورة البقرة آية: ١٩٠ .
(٥) سورة التوبة آية : ٤١ ،
(٦) سورة التوبة آية : ١١١ .
(٧) سورة الصف الآيتان : ١٠ ، ١١ .

وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسرى ومقاتل بن حيان نحو ذلك . وعن أسلم أبى عمران قال : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى فرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصارى ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وظهر ، اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً ، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها ، فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما ، فنزل فينا : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾ . فكانت التهلكة فى الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد . رواه أبـو داود والترمذى والنسائى .

وقال رجل للبراء بن عازب : إن حملت على العدو وحدى فقتلونى ، أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة ؟ قال : لا . قال الله لرسوله ﴿ فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾(١) ، وإنما هذه فى النفقة . رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم فى مستدركه .

وقد ورد أن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى إلى التهلكة ولا يتوب .

فتحصل لنا من هذا أن الإلقاء بالنفس إلى التهلكة إما أن يكون بالبخل كما قال تعالى : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(٢) .

وقد تكون التهلكة بفعل الذنوب وترك التوبة ، قال تعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾(٣) . وبعد الأمر بالإنفاق جاء الأمر بالإحسان ، والإحسان درجة عليا تفوق الإنفاق ، فهى درجة الإيثار ، قال تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(٤) ، وقال جل شأنه : ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ﴾(٥) ، وقال عز من قائل : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾(٦) .

فالإحسان هو الفضل ، والفضل بعد العدل ، وقد أمر الله به فى قـوله : ﴿ إن الله يـأمر بـالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ﴾(٧) . وقد كتب الله الإحسان فى كل شىء ، حتى فى القـول عندمـا قال : ﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾(٨) ، والإحسان بالوالدين ، فقال : ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾(٩) . وكما أن الله مع

(١) سورة النساء آية : ٨٤ .
(٢) سورة محمد آية : ٣٨ .
(٣) سورة الأنعام آية : ٦ .
(٤) سورة الحشر آية : ٩ .
(٥) سورة البقرة آية : ١٧٧ .
(٦) سورة الإنسان الآيتان : ٩ ، ١٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٩٠ .
(٨) سورة البقرة آية ٨٣ .
(٩) سورة البقرة آية : ٨٣ .

المتقين ، فهو يحب المحسنين ، فالتقوى والإحسان يؤديان إلى معية الله ومحبته ، ومحبة الله كامنة فى رضاه ، وإذا رضى الله ، فماذا بعد الرضا ؟ .

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

الحج والعمرة

وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

المفردات : الحصر والإحصار : الحبس والتضييق ، يقال حصره عن السفر وأحصره إذا حبسه ومنعه ، والهدى : يطلق على الواحد والجمع ، وهو ما يهديه الحاج والمعتمر إلى البيت الحرام من النعم ليذبح ويفرق على الفقراء ، والمحل (بكسر الحاء) : مكان الحلول والنزول . حاضرو المسجد الحرام : هم أهل مكة وما دونها إلى المواقيت .

بعد ما ذكر الله تعالى الأحكام المتعلقة بالصيام من أول قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ﴾(١) وختمها بقوله تعالى : ﴿ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ﴾(٢) ، ثنى بعد ذلك بذكر الجهاد وما يتعلق به من حرمة للشهر الحرام ، ووجوب الإنفاق ، ذكر بعد ذلك الأمر بالإحسان ، فقال : ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾(٣) ، عطف بعد ذلك الأمر بإتمام الحج والعمرة على الأمر بالإحسان ، فالإحسان واجب فى كل شىء ، وهو الإخلاص فى العمل لله تعالى ، وأن يراد به وجهه وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾ ، وقد ذكروا أن هذه الآية نزلت فى سنة ست ، أى عام الحديبية ، حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت ، وأنزل الله فى ذلك سورة الفتح

(١) سورة البقرة آية : ١٨٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٨٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٩٥ .

بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى ، وكان سبعين بـدنة ، وأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم ؛ فعند ذلك أمرهم ، عليه السلام ، بأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا ، فلم يفعلوا ، انتظاراً للنسخ ، حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس ، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه ، فلذلك قال ﷺ : (رحم الله المحلقين) ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؛ فقال فى الثالثة و (المقصرين)[١] . وقد كانوا اشتركوا فى هديهم ذلك كل سبعة فى بدنة ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم ، وقيل بل كانوا على طرف الحرم . والله أعلم .

وفى هذه الآية بيان لأحكام الحج والعمرة وذكر لأحكام الإحصار ، فذكر حكم المحصر وعدم جواز الحلق قبل بلوغ الهدى محله إلا لمن كان مريضاً أو به جروح ونحوها ، فإنه يحلق ، وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يتصدق بفرق على ستة مساكين (الفرق بالتحريك مكيال بالمدينة يزن ستة عشر رطلا) ، فإذا زال الخوف من العدو ، فمن أتم العمرة وتحلل وبقى متمتعاً إلى زمن الحج ليحج من مكة فعليه دم ، لأنه أحرم بالحج من غير الميقات ، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيام فى أيام الإحرام بالحج ، وسبعة إذا رجع إلى بلده ، إلا إذا كان مسكنه وراء الميقات .

﴿ وأتموا الحج والعمرة ﴾ ، أى وأتوا بالحج والعمرة تامـين كاملين ، ظـاهراً بـأداء المناسـك على وجهها ، وباطنا بالإخلاص لله تعالى دون قصد الكسب والتجارة أو الرياء والسمعة . والتجارة لا تنافى الإخلاص إذا لم تقصد لذاتها ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾[٢] . الرياء والسمعة إذا كانا هما الباعث على الحج ، فالحج ذنب للمرائى لا طاعة ، وهكذا حكم من يحج ليقال له (الحاج فلان) ، أو ليحتفل بقدومه ، أو يقترض بالربا ، أو يرتكب أكبر ضروب المنكر ليحـج ، أو لا تخطر على باله مناسك الحج وأركانه وإنما يقصد زيارة النبى ﷺ ولا يعرف من الحج إلا هذه الزيارة . وقد كان الحج معروفاً من عهد إبراهيم وإسماعيل وأقـره الإسلام بعـد أن أزال ما فـيه من ضروب الشـرك والمنكرات ، وزاد فيه مناسك وعبادات .

وهو فريضة لقوله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[٣] ، وللأحاديث الواردة فى ذلك .

وأول حجة حجها المسلمون كانت سنة تسع بإمرة أبى بكر رضى الله عنه ، وكانت تمهيداً لحجة النبى ﷺ سنة عشر ، وفيها أذن أبو بكر بالمشركين الذين حجوا : ألا يطوف بعد هذا العام مشرك ، ونزلت الآية : ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾[٤] .

﴿ فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ﴾ ، أى فإن منعتم وأنتم محرمون من إتمام النسك بسبب عدو أو مرض أو نحوهما ، وأردتم أن تتحللوا ، فعليكم أن تذبحوا ما تيسر لكم من بدنة أو بقرة أو شاة ثم تحللوا .

---

(١) تفسير القرآن الكريم للامام ابن كثير جـ ١ ص ٣٣٥ ط الشعب .
(٢) سورة البقرة آية : ١٩٨ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٩٧ .
(٤) سورة التوبة آية : ٢٨ .

وذبحها يكون فى موضع الإحصار ولو فى الحل ، لأنه عليه الصلاة والسلام ذبح عام الحديبية بها وهى من الحل .

﴿ **ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله** ﴾ ، قد جعل الشارع أمارة الدخول فى الحج أو العمرة ، الإحرام بنيَّةِ النسك عند الابتداء به بالتلبية ، ولبس غير المخيط من إزار ورداء ، وكشف الرأس للرجل ، ولبس النعلين ، وأمارة الخروج منهما (ويعبر عنه بالإحلال والتحلل) بحلق الرأس أو التقصير . فالنهى عن الحلق نهى عن الإحلال قبل بلوغ الهدى إلى المكان الذى يحل ذبحه فيه ، وذلك حيث يحصر الحاج وإلا فالكعبة ، لقوله تعالى : ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾[1] .

﴿ **فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك** ﴾ ، أى فمن كان منكم مريضاً يحتاج إلى الحلق ويؤذيه تركه ، أو به أذى من رأسه من جراح أو داء ، فعليه فدية إن حلق ، وهى إما صيام أو صدقة أو نسك .

وقد بين مقدارها فيما أخرجه البخارى من حديث كعب بن عجرة قال : (وقف عليَّ رسول الله ﷺ بالحديبية ورأسى يتهافت قملاً ، فقال : يؤذيك هوامك ؟ قلت : نعم ، قال : فاحلق رأسك ، قال : فنزلت هذه الآية وذكرها فقال النبى ﷺ : صم ثلاثة أيام أو تصدق بفرق بين ستة أو انسك بما تيسر)[2] .

﴿ **فإذا أمنتم** ﴾ من خوفكم من عدوكم ، أو برأتم من مرضكم الذى منعكم من حجكم أو عمرتكم .

﴿ **فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى** ﴾ ، أى فمن استمتع وانتفع بالتقرب إلى الله تعالى بالعمرة إلى وقت الانتفاع بأعمال الحج ، فعليه ما استيسر من الهدى ، أى فعليه دم نسك شكراً لله أن أتاح له الجمع بين النسكين ، ويأكل منه كالأضحية ، ويذبح يوم النحر .

﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم** ﴾ ، أى فمن لم يجد الهدى لعدم وجوده أو عدم المال الذى يشترى به ، فعليه صيام ثلاثة أيام فى أيام الإحرام بالحج ، وتمتد إلى يوم النحر ، وسبعة أيام إذا رجع من الحج إلى بلده ، أو شرع فى الرجوع ، فيجزىء الصوم فى الطريق .

﴿ **تلك عشرة كاملة** ﴾ ، أى هذه الأيام الثلاثة والسبعة الأيام ، عشرة كاملة ، وهذا نتيجة لما تقدم مبين لجملة العدد الواجب بعد أن بينه تفصيلا ، وفائدته إزالة وهم من قد يظن أن الواو للتخيير بمعنى أو كقوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾[3] . وفائدة وصفها بالكمال الإشارة إلى أن رعاية العدد من المهام التى لا يجوز إغفالها ، بل يجب المحافظة عليها دون نقص فى عددها ، ولا تهاون فى أدائها ، وإلى أن هذا البدل كامل فى قيامه مقام المبدل منه ، وهما فى الفضيلة سواء .

(١) سورة المائدة آية : ٩٥ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٣٧ ط الشعب .
(٣) سورة النساء آية : ٣ .

ثم بين سبحانه أن التمتع بالعمرة مضمومة إلى وقت الإحرام بالحج ، وما يتبعه من الأحكام ؛ خاص بالآفاقيين دون أهل الحرم قال : ﴿ ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام ﴾ ، أى إن أهل الآفاق هم الذين يحتاجون إلى هذا التمتع لما يلحقهم من المشقة بالسفر إلى الحج وحده ، ثم السفر إلى العمرة وحدها ، أما أهل الحرم فليسوا فى حاجة إلى ذلك ، فلا متعة ولا قران لحاضرى المسجد الحرام .

﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ ، أى اخشوا الله وحافظوا على امتثال أوامره والانتهاء عن نواهيه ، واحذروا أن تعتدوا فى ذلك ، واعلموا أنه تعالى شديد العقاب لمن انتهك حرماته وركب معاصيه .

الحج المبرور

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾

المفردات : ﴿ فرض فيهن الحج ﴾ أى أوجبه على نفسه ، والرفث لغة : قول الفحش ، وشرعاً قربان النساء ، والفسوق لغة : التنابز بالألقاب ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق) ، وشرعاً : الخروج عما حدده الشارع للمحرم إلى ما كان مباحاً فى الحل كالصيد والطيب والزينة باللباس المخيط ، والجدال : المراء والخصام ، ويكون عادة بين الرفقة والخدم فى السفر ، لأنه مشقة تضيق بها الصدور ، والزاد : هو الأعمال الصالحة وما يدخر من الخير والبر ، والتقوى : هى ما يتقى به سخط الله وغضبه من أعمال الخير والتنزه عن المنكرات والمعاصى .

وردت عن رسول الله ﷺ أحاديث شريفة بين فيها فضل الحج ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ : أى العمل أفضل ؟ قال : (إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور)[1] . رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[2] رواه البخارى ومسلم .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[3] رواه البخارى ومسلم .

---

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ١٠٩ ط الشعب .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ١١٠ ط الشعب .
(٣) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

وعن ابن شماسة رضى الله عنه قال : حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت فبكى طويلا وقال : فلما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله : ابسط يمينك لأبايعك ، فبسط يده فقبضت يدى فقال : مالك يا عمرو ؟ قال : أردت أن أشترط . قال : تشترط ماذا ؟ قال : أن يغفر لى . قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله ؟[1] رواه ابن خزيمة ومسلم[2] .

وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى جبان ، وإنى ضعيف . فقال : (هَلُمَّ إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج)[3] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد فقال : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور)[4] . رواه البخارى وغيره .

لما أمر الله تبارك وتعالى عباده بإتمام الحج والعمرة وبين حكم الإحصار والتمتع ، بيّن سبحانه بعد ذلك أن الحج عبادة موقوتة بأشهر معلومات ، وهى شوال وذو القعدة والعشر الأوائل من ذى الحجة ، وإنما أطلق الأشهر على شهرين وعشرة أيام من باب التغليب ، أى تنزيل العشرة منزلة الشهر ، ومن ثم فإن بعض الفقهاء يرى أن الأشهر المعلومات ثلاثة : شوال وذو القعدة وذو الحجة . والحج لا يجوز فى العام إلا مرة واحدة ، لأن الحج عرفة ، وعرفات فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، أما العمرة فإنها جائزة طوال العام ، وأفضل ما تكون فى رمضان ، قال ﷺ : (عمرة فى رمضان تعدل حجة معى)[5] ، والعمرة طواف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة ، أما الحج فيزيد عليها الوقوف بعرفات ، ورمى الجمار ، والمبيت بمنى . قوله تعالى : ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ ، أى فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام والنية فعليه أن يلتزم بهذه الآداب ، إذ الحج مدرسة أخلاقية عليا ، ومثل رفيعة من كريم السجايا ، فعلى من أوجب الحج على نفسه أن يجتنب الرفث ، وهو الجماع ودواعيه من القبلة واللمس والكلام بهذا الشأن مع النساء ، وعليه أن يجتنب الفسوق ، والمقصود به المعاصى ، ويشمل السباب كما فى قوله ﷺ : (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) ، كما يشمل التنابز بالألقاب ، وهو أن تنادى أخاك باسم يكرهه ، وذلك أن تسميه بعاهة فيه كقولك له يا أعرج يا أعمش ، قال تعالى : ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاثم الفسوق بعد الإيمان ﴾[6] ، وهذا جانب عظيم من جوانب الأخلاق الإسلامية .

---

(١) يعنى أن الحج يسبب غفران الذنوب ويزيل الخطايا إلا حقوق الآدمى ، فإنها فى الذمة حتى يجمع الله أصحاب الحقوق ليأخذ كل حقه ، ومن الجائز أن الله تعالى يتكرم فيرضى صاحب الحق بما أعد له من النعيم وحسن الجزاء فيسامح المدين تفضلاً وتكرماً ، ولابد من أداء حقوق الآدميين وحقوق الله مبنية على تسامح الكريم الغفور الرحيم .

(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١١٠ ط الشعب .

(٣) المصدر السابق ص ١١١ .

(٤) المصدر السابق ص١١١ .

(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ ص ١٢٣ ط الشعب .

(٦) سورة الحجرات آية : ١١ .

لا تحسبن العلم ينفع وحده ... ما لم يتوج ربه بخلاق
فإذا رزقت خليقة محمودة ... فقد اصطفاك مقسم الأرزاق

قوله تعالى : ﴿ **ولا جدال فى الحج** ﴾ ، أى لا جدال فى مناسكه بعدما بينها الله ، وذلك من الوقوف عند المشعر الحرام بالمزدلفة ، أو الوقوف بعرفة ، أو المبيت بمنى ، وقد يكون المراد بالجدال المراء والمخاصمة واللجاج ، وكلها تغضب الناس ، بل يجب على الحاج أن يكون سمحا إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى .

وإن كانت هذه الأخلاق واجبة على كل حال ، إلا أنها فى الحج آكد ؛ عن جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : (من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه) قال تعالى : ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله** ﴾ ، والخير هنا يشمل وجوه البر من إغاثة الملهوف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وصلة الأرحام والقيام بالليل والناس نيام ، وتعلق علم الله تعالى بهذه الخيرات ، مع أنه سبحانه قد وسع كل شىء رحمة وعلما ، إلا أن تخصيص العلم فيه دلالة على عظم هذا الخير عند الله كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾[1] ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت ﴾[2] ، ثم أمر الله تعالى بعد ذلك بالتزود ، أى أخذ الزاد من طعام ونفقة حتى يكف وجهه عن سؤال الناس ، وأن يكون ذلك من حلال ، لأن الحاج إذا قال : لبيك اللهم لبيك ، قال له الملك : لبيك وسعديك ، زادك من حلال ونفقتك من حلال وحجك مأجور غير مأزور . هذا هو الزاد للحج الذى قال الله فيه ﴿ **وتزودوا** ﴾ ، أما الزاد للآخرة فقد قال فيه تعالى : ﴿ **فإن خير الزاد التقوى** ﴾ ، والتقوى كما فسرها العلى الأعلى فى مطلع سورة البقرة بقوله : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾[3] ، فالتقى هو الذى آمن بالغيب وأقام الصلاة وأنفق مما آتاه الله وآمن بالكتب المنزلة على الأنبياء وأيقن بالبعث بعد الموت .

تزود من حياتك للمعاد ... وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرا ... فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم وجه الله تعالى الخطاب إلى ذوى العقول عامة فقال : ﴿ **واتقون يا أولى الألباب** ﴾ ، فما أجمل العقل إذا استعمله صاحبه فى طاعة ربه ، وما أتعسه إذا استعمل فى الشر والفساد ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[4] .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٧ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٣٦ .
(٣) سورة البقرة الآيات : ٢ - ٤ .
(٤) سورة الاعراف آية : ١٧٩ .

أحكام تتعلق بالحج

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) ﴾

المفردات : الجناح : الحرج ، والإثم من الجنوح وهو الميل عن القصد ﴿ **أن تبتغوا** ﴾ : أى تقصدوا وتطلبوا . و ﴿ **فضلا** ﴾ : أى عطاء ورزقا منه بالربح فى التجارة أيام الحج . والإفاضة من المكان : الدفع منه ، أى أفضتم أنفسكم ودفعتموها ، ويقال : أفاض فى الكلام إذا انطلق فيه كما يفيض الماء ويتدفق .
و ﴿ **عرفات** ﴾ : موقف الحاج فى أداء النسك ، وسمى بهذا الاسم لأن الناس يتعارفون فيه ، وعرفة اسم لليوم الذى يقف فيه الحاج بعرفات وهو التاسع من ذى الحجة . والذكر : الدعاء والتلبية والتكبير والتحميد ، والمشعر الحرام : هو جبل المزدلفة ، يقف عليه الإمام ، وسمى بهذا الاسم لأنه معْلَم للعبادة ، ووصف بالحرام لحرمته ، فلا يفعل فيه مانهى عنه .

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه البخارى ، رضى الله عنه ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه : كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا فى الموسم ، فنزلت ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾فى موسم الحج[1] . ورورى عن ابن عباس أنهم كانوا يتقون البيوع والتجارة فى الموسم والحج ، يقولون أيام ذكر فأنزل الله : ﴿ **ليس عليكم جناح** ﴾[2] . وقد سئل ابن عمر عن الرجل يحج ومعه تجارة ، فقرأ ابن عمر : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ . وقد سئل ابن عمر فقيل له : إنا نكرى ، أى نستأجر ، فهل لنا من حج ؟ فقال : ألستم تطوفون بالبيت وتأتون المعروف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم ؟ قلنا : بلى . فقال ابن عمر : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية : ﴿ **ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم** ﴾ ، فدعاه النبى ﷺ فقال : (**أنتم حجاج**)[3] . قوله تعالى : ﴿ **فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام** ﴾ . اعلم بأن الحج عرفة ، أى هو الركن الأعظم ، ومن فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج . وعرفة هو موضع الوقوف ، كما أن عرفة محدد باليوم التاسع من ذى الحجة ، وقد ورد فى فضله ما يدل على عظم الأجر للواقفين فيه ، فخير يوم طلعت فيه الشمس يوم عرفة ، وهو أكثر الأيام عتقا من النار ، وإن الله تعالى ليدنو ثم يباهى الملائكة بأهل عرفة ويقول لهم : ما أراد هؤلاء ؟ ويقول : هؤلاء عبادى أتونى شعثا غبرا ضاحين يرجون رحمتى ويخافون عذابى ، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم . أفيضوا عبادى مغفورا لكم ولمن شفعتم فيهم .

---

(١) تفسير ابن كثير ص ٢٤٩ ط الشعب .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .

قال ﷺ : (الحج عرفات) قالها ثلاثا ، فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ؛ وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه . ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر ، لأن النبى ﷺ وقف فى حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال : (لتأخذوا عنى مناسككم)[١] . وإنما سميت عرفة لأن جبريل كان يُرى إبراهيم المناسك فيقول : عرفت عرفت ، فسميت عرفات .

عن المسور بن مخرمة قال : خطبنا رسول الله ﷺ وهو بعرفات ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: (أما بعد ، وكان إذا خطب خطبة قال أما بعد ، فإن هذا اليوم الحج الأكبر ، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها ، وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس ، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها ، وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفا هدينا هدى أهل الشرك)[٢] ، والمشاعر هى المعالم الظاهرة ، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام ، لأنها داخل الحرم .

ما حكم الوقوف بالمشعر الحرام ؟

قال الفقهاء : الوقوف بالمشعر الحرام ركن عند البعض ، لا يصح الحج إلا به ، ومن هؤلاء طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعى . وقال البعض : هو واجب يلزم بتركه دم ، كما هو أحد قولى الشافعى . وقال الآخرون : هو مستحب لا يلزم بتركه شىء وهكذا تبين أن الحجاج بعد أن يفيضوا من عرفات يتوجهون إلى المزدلفة ليذكروا الله تعالى عند المشعر الحرام ذكرا مطابقا لهدى الله تبارك وتعالى لهم . ولقد كانوا من قبل أن يهديهم الله يذكرون الله تعالى ذكرا يشوبه الشرك كقولهم : لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك إلا شريكا هو لك ملكته وما ملك . فعلمهم الله على لسان رسوله أن الذكر يجب أن يكون خالصا صافيا من كل شائبة ، فكانت التلبية لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . . لا شريك لك . ومعنى لبيك أى أجيبك مسرعا مرة بعد مرة . قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم من قبله لمن الضالين** ﴾ ، ﴿ **إن** ﴾ هنا مخففة من الثقيلة ، والتقدير : وإن كنتم من قبل تعليمه لكم وبيان الهدى من الضالين الغافلين .

وبعد مابين الله تعالى الوقوف بعرفات ، وهو ركن الحج الأعظم ، والوقوف بالمزدلفة بعد ذلك . وقد رأى بعض الفقهاء ، كما ذكرنا سابقا ، أنه ركن لا يصح الحج إلا به ، ورأى البعض أنه واجب يلزم بتركه دم ، ورأى آخرون أنه مستحب لا يلزم بتركه شىء . وأمرهم تعالى بذكره بعد ذلك ذكرا خاليا من شوائب الشرك . أمرهم سبحانه أن يفيضوا من حيث أفاض الناس ، والناس يفيضون من عرفات إلى المزدلفة . أما قريش فقد كانت تقف بالمزدلفة وتفيض منها إلى منى ولا تقف مع الناس بعرفات ، وكانوا يجدون فى ذلك ميزة لهم وخاصية عن بقية الناس ، فأمرهم تعالى أن يقفوا بعرفات كما يقف بقية الناس ، وأن يفيضوا من عرفات

(١) المصدر السابق ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٢ .

إلى المزدلفة كما يفيض بقية الناس . وقريش هم الحمس ، ومفرد الحمس أحمس ، وهو الشديد الصلب . ولما جاء الإسلام قضى على العصبية وأعلنها صريحة مدوية (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) . ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1] . لما كان ذلك كذلك فلا ميزة لأحد على أحد فى المناسك : فعليكم ياقريش أن تلتزموا هذه التعليمات الإلهية . قوله تعالى :﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ . . روى الإمام البخارى رضى الله عنه بسنده عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، من قالها فى ليلة فمات فى ليلته دخل الجنة ، ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة) .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال يارسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال : (قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم)[2] . وكثيرا مايأمر الله بالاستغفار بعد الفراغ من أداء العبادات ، ومن ذلك مارواه الإمام مسلم ، أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثا ،[3] وفى الصحيحين أنه ندب الى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين . وهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين وخبر : أما الأمر الأول فقوله تعالى :﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس ﴾ ،وقد روى الإمام البخارى فى معنى هذا الحكم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها[4] .

والأمر الثانى قوله : ﴿ واستغفروا الله ﴾ .ولقد تبين أن الاستغفار من لازمه جعل الله له من كل ضيق فرجاً ، ومن كل شدة مخرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب . وقد جاء رجل إلى الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه فشكا له قلة المطر ، فأمره الحسن بالاستغفار . وجاء ثان فشكا له قلة المال ، فأمره بالاستغفار وجاء ثالث فشكا له قلة البنين فأمره بالاستغفار ، وجاء رابع فشكا له قلة النبات فأمره بالاستغفار ، وجاء خامس فشكا له قلة الأنهار فأمره بالاستغفار ؛ فعجب الجالسون وقالوا : أوكلما جاءك شاك أمرته بالاستغفار ؟ فقال لهم : أوما قرأتم قوله تعالى : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[5] .

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾[6] . وما أجمل قوله تعالى :﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٥٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٣٥٤ .
(٥) سورة نوح الآيات : ١٠ ــ ١٢ .
(٦) سورة النساء آية : ٦٤ .

غفورا رحيما ﴾(١) . وما أكرم قوله جل شأنه : **﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾**(٢) .

ومن فضل الله تعالى على المؤمنين أن الملائكة تستغفر لهم ويطلبون من الله المغفرة إكراما وإنعاما . قال جل شأنه : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾(٣) . وما أجمل قوله تعالى : ﴿ تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾(٤) . وما أكرم قوله جل شأنه على لسان نبيه هود : ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾(٥) .

قال أبو بكر رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾(٦) ، فشاكلة العبد المعصية ، وشاكلة الرب المغفرة والرحمة . وقال عمر رضى الله عنه : وقرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾(٧) . وقال عثمان رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾(٨) . وقال على رضى الله عنه : قرأت القرآن كله فلم أجد أرجى من قوله تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾(٩) .

وهكذا تبين لنا الأمر بالإفاضة مقترنا بالأمر بالاستغفار ، وجاء الخبر مقترنا بالأمر بالاستغفار فى قوله تعالى : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ ، أى اطلبوا المغفرة من الله لأن من شأنه أن يغفر ويرحم ، وما أكثر اقتران المغفرة بالرحمة ، لأن رحمة الله بعد المغفرة تتجلى فى ستره للعبد . بل هناك ما هو أبعد من ذلك كرما ، فإنه تعالى ينسى الحفظة الكاتبين ذنوب العبد الذى تاب وأناب واستغفر حتى لا يكون لأحد عليه كشف يترتب عليه الشماتة .

يـامن لـه علم الغيـوب ووصفـه ستر الـذنـوب وكـل ذاك سمـاح
أخفيت ذنب العبد عن كل الـورى كـرمـا فـليس عليـه ثـمَّ جنـاح
منك التفضل والتكـرم والـرضـا أنـت الإلـه المنـعم الـفتـاح

(١) سورة النساء آية ١١٠ .
(٢) سورة هود آية : ٣ .
(٣) سورة غافر آية :٧ .
(٤) سورة الشورى آية :٥ .
(٥) سورة هود آية : ٥٢
(٦) سورة الاسراء آية : ٨٤
(٧) سورة غافر آية : ٣
(٨) سورة الحجر آية : ٤٩
(٩) سورة الزمر آية : ٥٣

قضاء المناسك

فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ
رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا
حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ
ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ
فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

المفردات : الخلاق : الحظ والنصيب ، وحسنة الدنيا هى العافية أو المرأة الصالحة أو الأولاد البررة أو العلم والمعرفة ، وحسنة الآخرة هى الجنة أو رؤية الله تعالى يوم القيامة ، والأولى التعميم فى كل هذا .

إن المقصود بالمناسك هنا أعمال الحج ، والمراد بقضائها ، أداؤها كما فى قوله جل شأنه : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾(١) . ولكل منسك من تلك المناسك أجر عظيم لمن أداه مخلصا لله وجهه . وفى حديث للنبى صلى الله عليه وسلم بأن ذلك الأجر جليا يأخذ بالألباب ويشد القلوب إلى هناك وما أدراك ما هناك : هناك الصفاء كله والسمو الرفيع والشفافية الروحية . وهذا الحديث يعتبر من دلائل النبوة الناطقة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : روى ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنت جالسا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ورجل من ثقيف ، فسلما ثم قالا : يارسول الله جئنا نسألك ، فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه فعلت ، وإن شئتما أن أمسك وتسألانى فعلت ؟ فقالا : أخبرنا يارسول الله ، فقال الثقفى للأنصارى : سل . فقال أخبرنى يارسول الله . فقال : جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفة ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه . مع الإفاضة . فقال : والذى بعثك بالحق لَعَنْ هذا جئت أسألك . قال : فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفًّا ، ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل عليه السلام ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة وأما وقوفك عشية عرفة ، فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهى بكم الملائكة يقول : عبادى جاءونى شعثا من كل فج عميق يرجون جنتى ، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل أو

---

(١) سورة النساء آية : ١٠٣ .

كقطر المطر أو كزبد البحر لغفرتها ، أفيضوا عبادى مغفورا لكم ، ولمن شفعتم لـه ؛ وأما رميـك الجمار فمذخور لك عند ربك ، وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، ويمحى عنك بها خطيئة ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك ، يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول : اعمل فيما تستقبل فقد غُفر لك مامضى . (رواه الطبرانى فى الكبير والبزار) .

جـاء فى سبب نزول هـذه الآية أن العـرب فى الجاهليـة كانـوا يجتمعون بعـد فراغهم من حجهم ومناسكهم ، يتفاخرون بمآثر آبائهم ، فيقول الرجل منهم : كان أبى يُطعم ويحمل الحمالات والديات ، ليس له ذكر غير فعال آبائه ، فأنزل الله هذه الآية . ويروى أنهم كانوا يقفون بمنى بـين المسجد والجبـل يتفاخرون ويتناشدون ، فأمرهم الله أن يذكروه بعد قضاء مناسك الحج ، كما كانوا يذكرون آبـاءهم فى الجاهلية أو أشد من ذكرهم إياهم .

وقد جاء الأمر بالذكر يفوح طيبا ومسكا فى هذا الجو الذى تعانق فيه القلب واللسان فى تسبيح الله تعالى وتحميده وتكبيره وتهليله . نرى ذلك فى قوله جل شأنه : ﴿ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾[1] ، كما نراه بعد قضاء المناسك فى قوله تعالى : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله ﴾ ، كما نراه فى أيام منى فى قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ . والذكر هو استحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ولابد أن يصحبه تفكر يوقظ القلب ويبعده عن الغفلة . فالذكر بلا تفكـر غفلة ، والفكر بلا ذكر جفاء . لذلك وصف الله عباده الصالحين بقوله : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[2] ، فإذا كان الذكر بلا فكر غفلة ، فإن الفكر بلا ذكر جفاء . وإذا كان ذلك كذلك فإن الذكر مع الفكر وفاء . وأنت ترى أن اللسان وحده إذا كان بينه وبين القلب سور ، فإن ذكر اللسان لا يترك للذاكر أثرا من آثار النورانية المشرقة . ذهب بلال ليؤذن الفجر فى مسجد الهادى البشير صلى الله عليه وسلم فوجد النبى يبكى فسأله : مايبكيك يارسول الله ؟ قال : يابلال لقد أنزل علىّ الليلة آية ، ويلٌ لمن لاكها بلسانه ولم يتدبرها قلبه ثم قرأ : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ . فليعلم الذاكرون أن الذكر على سبعة أنحاء : فذكر العينين البكاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البـدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

ذكروا أن رجلا من الصالحين اسمه ثابت كان يمر ذات يوم فى إحدى طرقات الكوفة فوجد شجرة قد سقطت منها تفاحة خارج سور الحديقة فأخذها وأكل نصفها ثم تذكر أنه ما كان له أن يفعل ذلك ، فذهب إلى حارس الحديقة وقال له : سامحنى فيما أكلت ودفع إليه نصفها الآخر ، فقال لـه الحارس : لا أملك السماح لأننى لا أملكها . قال له : فأين صاحبها ؟ فدله عليه فذهب إليه ثابت وأخبره الخبر ، فقال له

(١) سورة البقرة آية : ١٩٨ .

(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١ .

صاحب البستان : لا أسامحك حتى تقبل شرطى عليك . قال ومـاذاك ؟ قال : أن تقبـل الزواج بـابنتى وسأعرض عليك أوصافها : إنها عمياء بكماء صماء مقعدة . وهنا ذهب الرجل فى موجات عـاصفة من الفكر ، فقد هبت عليه رياح هوج تحمل قيظ الهواجر وكأن فى نفسه سؤالا قد اعتمل : أمن أجل نصف تفاحة ألقى هذا الجزاء ؟ ولكن سرعان مانزلت السكينة قلبه واستنار فؤاده بالرضى : ولماذا لا أتزوجها لأنال رضا الله فيها ؟ ومن الذى يتزوجها إن لم أتزوجها أنا ؟. وقال لأبيها : لقد قبلت زواجها ياسيدى . وتم زواجها ولم يرها ، وذهب ليعد نفسه لاستقبالها ، ولكن أباها قد هيأ له المكان فى بيته ، ودخلت الفتاة لتكون فى استقبال زوجها ، وقال أبوها له : ادخل على زوجك بارك الله لكما فى ليلتكما ، ودخل ثابت عليها وألقى السلام ، وقد أخبر من قبل أنها صماء ، ولكن الملائكة سترد ، فمن ألقى السلام فى بيته على أهله كثر الخير فى بيته وطردت منه الشياطين ، ولكن ما أن ألقى السلام عليها حتى نهضت واقفـة وصافحتـه وردَّت عليه السلام ، قال الرجل : فنظرت إلى وجهها فكأنه قطعة قمر . وبعد أن استجمع أنفاسه سألها : لقد أخبرنى أبوك بأنك عمياء صماء بكماء مقعدة ! قالت له : نعم لقد صدق أبى فيما أخبر : إننى عمياء لا أرى ما حرم الله ، صماء لا أسمع ما يغضب الله ، بكماء لا أتكلم إلا بما يرضى الله ، مقعدة لا أمشى إلى ما يسخط الله . ودخل بها فرزقه الله منها إماما جليلا ملأ طباق الأرض علما وفقها ، انفرد بثلاثة أرباع العلم ، وشارك العلماء الباقين فى الربع الباقى ، إنه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثـابت . وصدق الله تعـالى إذ يقول : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بـإذن ربه ﴾[١] ، وصـدق رسولـه إذ يقول : (فـاظفر بـذات الدين تـربت يداك)[٢] ، وإذ يقول : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض)[٣] . وقد صدق بعض الصالحين إذ يقول : « لا تزوج بنتك إلا لتقى ، إن أحبها أكرمها ، وإن كرهها لا يظلمها » . فهذا رجل من أجل نصف تفاحة ذكر الله فطلب السماح من صاحبها . فـما أجمل استحضار عظمة الله فى القلب ، وما أعظم أن يشيع ذكر الله فى كيان الإنسان كله . قال ﷺ : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأذكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا بلى . قال : ذكر الله)[٤] . والحجيج ، على وجه الخصوص ، مطالبون بالإكثار من ذكر الله ، من تهليل وتكبير وتلبية ، حتى إن الأصوات لتبح من كثرة الذكر . لقد كانوا إذا فرغوا من أداء المناسك يذكرون أمجاد الآباء ويفخرون بهم ، فلما أظلهم الإسلام بظله أمرهم أن يلهجوا بالذكر لله كما كانوا يلهجون بذكر الآباء ، بل أمرهم أن يكونوا أشد ذكرا ؛ ثم فرَّع على ذلك مسألة من مسائل الذكر ، فقسم الناس قسمين :

قسم يطلب من الله الدنيا ولا نصيب له فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق ﴾ ، وهؤلاء قد أصيبوا بالغفلة ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها . قال

(١) سورة الأعراف آية : ٥٨ .
(٢) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير للسيوطى جـ ١ ص ٥١٧ ط دار الفكر .
(٣) الجامع الصغير فى شرح أحاديث البشير النذير للسيوطى جـ ١ ص ٥٧ ط دار الفكر .
(٤) نفس المصدر

تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾(١) . والفريق الثانى جمع فى دعائه بين خيرى الدنيا والآخرة ، وقد قال الله تعالى فى وصف هذا الفريق : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ . وهكذا يعلمنا الله الأدب فى الدعاء فاسأل الله أن يؤتيك الحسنة فى الدنيا والآخرة ، ثم سلم إليه الأمر فى تحديد تلك الحسنة ، فإن يد الله تعمل فى الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أويقترح عليها . وحسنة الدنيا تشمل الدار الواسعة ، والزوجة الطائعة التى إذا نظرت إليها سرَّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى عرضها ومالك . كذلك تشمل المركب السريع ، والجار الطيب . وقد قالوا : إن من رُزق لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعينه على أمر دينه ودنياه فقد جمع بين حسنتى الدنيا والآخرة . والصحة والمال وراحة البال والرضا بما قسم الله ، والعلم والمعرفة من حسنات الدنيا ؛ والجنة ورضوان الله والنجاة يوم الحشر من حسنات الآخرة . ولا تحسبنَّ أن حسنة الدنيا مقصورة على صرف مرتبك من الصراف ، فإن الصراف إذا صرف لك فإن الله تعالى سيصرف عنك . الصراف يصرف راتبا والله يصرف عنك الهم والحزن والسقام والشقاء ويرزقك الرضا . وقد كان من دعاء الصالحين : اللهم رضًنا بقضائك وبارك لنا فى قدرك حتى لا نحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

لا تقترح على الله أن يرزقك المال أو الولد ، فقد يكثر المال وتكثر معه الهموم والأحزان ، وقد تأتى الأولاد وتأتى معها البأساء والضراء والشقاء . ولكن اسأله الحسنة وفوِّض له الأمر بعد سؤالها ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

كان بعض الصالحين ينام على الطوى وكانوا يقولون : نحن فى سعادة لو علمت بها الملوك لجالدتنا عليها بالسيوف ــ لقد عاد النبى ﷺ مريضا فوجد المرض قد برَّح به حتى صار كالفرخ الضعيف ، فقال له الرسول (ص) : ألا تدعو الله ؟ قال : يا رسول الله أدعوه . قال : فماذا تقول فى دعائك ؟ قال أقول : اللهم إن كنت معذبى بشىء فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا . فقال له الهادى البشير : إنك لا تطيق ذلك ، هلاَّ قلت : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾(٢) . وما أجمل أن يسأل العبد ربه الوقاية من عذاب النار ، وذلك بالبعد عن الأسباب المؤدية لغضب الله من الشبهات والشهوات . فاللهم إنا نسألك علما نافعا ، ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يُسمع .

وقد حكم الله لهذا الفريق الذى جمع فى دعائه بين حسنتى الدنيا والآخرة بقوله : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ أى نصيب من خير الدنيا ، لأنهم سلكوا فى تحصيل ذلك الأسباب التى شرعها الله وأحلها ، فأكلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، واجتنبوا خطوات الشيطان . ولهم نصيب مما كسبوا فى الآخرة لأنهم أخذوا الأسباب إلى رضوان الله ؛ وما أجمل تلك النصيحة التى وجهها القوم إلى قارون : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح

(١) سورة الشورى آية : ٢٠ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٦ ط الشعب .

إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ والله سريع الحساب ﴾ ، ذلك لأن الله لا يعوقه شىء ، فكل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له . عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ؛ من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . نعم إنه سريع الحساب ، ليس فى حاجة إلى آلة حاسبة ولا مستشار ولا معين ولا قضاة ، فهو القائم بذاته ، الغنى عمن سواه ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾[٢] ، إنه سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٣] . ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[٤] . ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[٥] . وكيف لا يكون سريع الحساب وهو القائل : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ ، قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق ، والأيام المعلومات أيام العشر من ذى الحجة . وقال عكرمة : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات ﴾ يعنى التكبير فى أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر . الله أكبر .

قال رسول الله ﷺ : (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله)[٧] .

والمراد بأيام التشريق الأيام الثلاثة التى تلى يوم النحر ، قال تعالى : ﴿ فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ﴾ أى من رمى الجمار فى يومين من أيام التشريق الثلاثة ثم رحل واكتفى بهذين اليومين فلا إثم عليه ولا جناح . ومن تأخر إلى اليوم الثالث ورمى الجمار فلا إثم عليه ، فكلا الأمرين جائز ، ولكن الأمر كله يدور على تقوى الله ، فمن تعجل متقيا مخلصا عمله لله فلا إثم عليه ، ومن تأخر ملتزما تقوى الله فلا إثم عليه . وقد ختم الله مشهد الحج عندما ينصرف الحجيج إلى بلادهم ويرجعون بعد أداء المناسك ، ختم الله هذا المشهد المهيب بقوله : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، أى لا ترجعوا بعد أداء الفريضة مشتغلين بالدنيا لاهين عن ذكر الله ، لأن المرجع إلىَّ قبلَ الانصراف وبعده ، فقد وقفتم فى صعيد عرفات متجردين من المخيط والمحيط ، لا ألقاب ولا رتب ولا أوسمة ولا نياشين ، كذلك ستنشرون يوم الحشر فى صعيد القيامة . قال تعالى : ﴿ واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾ .

ولنأخذ الآن فى بيان كيفية الحج ، كما تحدثت عن ذلك كتب الفقه :

(١) سورة القصص الآيتان : ٧٦ ، ٧٧ .
(٢) سورة لقمان آية : ٢٨ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .
(٤) سورة ياسين آية : ٨٢ .
(٥) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ .
(٦) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤ .
(٧) تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٧ ط الشعب .

كيفية الحج

إذا قارب الحاج الميقات استُحبَّ له أن يأخذ من شاربه ويقص شعره وأظافره ويغتسل أو يتوضأ ويتطيب ويلبس لباس الإحرام .

فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين وأحرم – أي نوى الحج إن كان مفرداً ، أو العمرة إن كان متمتعا أو هما معا إن كان قارنا ، وهذا الإحرام رُكن لا يصح النُسك بدونه . أما تعيين نوع النسك من إفراد أو تمتع أو قران فليس فرضا ، ولو أطلق النية ولم يعين نوعا خاصا صح إحرامه ، وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة .

وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع كلما علا شرفا ، أو هبط واديا ، أولقى ركبا أو أحدا ، وفى الأذكار وفى دبر كل صلاة . وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ، ومخاصمة الرفاق وغيرهم ، والجدل فيما لا فائدة فيه ، وألا يتزوج ولايزوج غيره .

ويتجنب أيضا لبس المحيط والمخيط والحذاء الذى يستر ما فوق الكعبين ، ولا يستر رأسه ، ولا يمس طيبا ولا يحلق شعرا ولا يقص ظفرا ولا يتعرض لصيد البر مطلقا ، ولا لشجر الحرم وحشيشه .

فإذا دخل مكة المكرمة استُحب له أن يدخلها من أعلاها بعد أن يغتسل من بئر ذى طوى بالزاهر ، إن تيسر له .

ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها من «باب السلام» ذاكرا أدعية دخول المسجد ومراعيا آداب الدخول وملتزما الخشوع والتواضع والتلبية .

فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه فيسأل الله من فضله ، وذكر الدعاء المستحب فى ذلك ، ويقصد رأسا إلى الحجر الأسود ، فيُقبِّلهُ بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها ، فإن لم يستطع ذلك أشار إليه . ثم يقف بحذاء الحجر . ملتزما الذكر المسنون ، والأدعية المأثورة ثم يشرع فى الطواف .

ويستحب له أن يضطبع ويرمل فى الأشواط الثلاثة الأول ، ويمشى على هيئته فى الأشواط الأربعة الباقية . ويُسَنُّ له استلام الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسودفى كل شوط .

فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تاليا قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[١] . فيصلى ركعتى الطواف ثم يأتى « زمزم » فيشرب من مائها ويتضلع منه .

وبعد ذلك يأتى« الملتزم » فيدعو الله عزَّ وجلَّ بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة . ثم يستلم الحجر ويقبله ويخرج من باب « الصفا » إلى الصفا تاليا قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ . الآية[٢]

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٥ . (٢) سورة البقرة آية : ١٥٨ .

ويصعد ويتجه إلى الكعبة فيدعو بالدعاء المأثور ، ثم ينزل فيمشى فى السعى ذاكرا داعيا بما شاء . فإذا بلغ « مابين الميلين » يهرول ، ثم يعود ماشيا على رسله حتى يبلغ المروة ، فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعيا ذاكرا . وهذا هو الشوط الأول ، وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط .

وهذا السعى واجب على الأرجح ، وعلى تاركه كله أو بعضه دم . فإذا كان المحرم متمتعا حلق رأسه أو قصر . وبهذا . تتم عمرته ، ويحل له ما كان محظورا من محرمات الإحرام حتى النساء .

أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المتمتع من منزله ويخرج هو وغيره ممن بقى على إحرامه إلى منى فيبيت بها .

فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات ، ونزل عند مسجد نمرة ، واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام وإلا صلى جمعا وقصراً حسب استطاعته .

ولايبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال ، فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريبا منها ، فإن هذا موضع وقوف النبى ﷺ .

والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم . ولا يُسن ولا ينبغى صعود جبل الرحمة . ويستقبل القبلة . ويأخذ فى الدعاء والذكر والابتهال حتى يدخل الليل .

فإذا دخل الليل أفاض إلى « المزدلفة » فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير ويبيت بها .

فإذا طلع الفجر وقف بالمشعر الحرام وذكر الله كثيرا حتى يُسفر الصبح ، فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى « منى » .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم .

وبعد طلوع الشمس يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يذبح هديه إن أمكنه . ويحلق شعره أو يقصره . وبالحلق يحل له كل ماكان محرَّما عليه . ماعدا النساء .

ثم يعود إلى مكة فيطوف بها طواف الإفاضة . وهو طـواف الركن ـ فيـطوف كما طـاف فى طواف القدوم .

ويسمى هذا الطواف أيضا طواف الزيارة . وإن كان متمتعا سعى بعد الطواف .

وإن كان مُفْردا أو قارنا وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر . وبعد هذا الطواف يحل له كل شىء حتى النساء .

ثم يعود إلى « منى » فيبيت بها ، والمبيت بها واجب يلزم بتركه دم .

وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث ، مبتدئا بالجمرة التى تلى « منى » ثم يرمى الجمرة الوسطى ويقف بعد الرمى . داعيا ذاكـرا . ثم يرمى جمـرة العقبة ولا يقف عندها .

وينبغى أن يرمى فى كل جمرة بسبع حصيات قبل الغروب ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك .

ثم هو مخيّر بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر .

ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم .

فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع ، وهذا الطواف واجب وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات وإلا ذبح شاة .

ويؤخذ من كل ماتقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات والطواف والسعى والحلق ، وبهذا تنتهى أعمال العمرة .

ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار ، وطواف الإفاضة والمبيت بـ « منى » والذبح والحلق أو التقصير . هذه هى خلاصة أعمال الحج والعمرة .

حجة رسول الله ﷺ

فى العام العاشر من الهجرة أذن المؤذن فى الناس أن رسول الله ﷺ قد عزم بمشيئة الله على أداء الحج ، وهذه الحجة تسمى حجة الوداع ، لأن الرسول لحق بعدها بالرفيق الأعلى ، وتسمى حجة الإسلام ، لأن الرسول ﷺ بلغ فيها وبين أصول الإسلام ، كذلك تسمى حجة البلاغ ، لأنه ﷺ بلغ فيها قواعد الدين وشعائر العبادات وأصول العقائد ومبادىء الأحكام وقواعد النظام ومناهـج السلوك . ولنذهب الآن إلى الصحابى الجليل جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه ، يحدثنا عن هذه الحجة المباركة ، وذلك فيما رواه الإمام مسلم رضى الله عنه .

روى الإمام مسلم بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلىّ ؟ فقلت : أنا محمدَ بن على بن حسن ، فأهوى بيده إلى رأسى ، فنزع زرِّى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديى ، وأنا يومئذ غلام شاب ، فقال : مرحبا بك يابن أخى ، سل عما شئت ؟ فسألته ـ وهو أعمى ـ وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نِساجةٍ ملتحفا بها ، فلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ، ورداؤه إلى جنبه على المشجب . فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ ، فقال بيده ، فعقد تسعا فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ، ثم

أذن فى الناس فى العاشرة : إن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ قال : اغتسلى واستثفرى بثوب واحرمى [معنى الاستثفار : أن تشد فى وسطها شيئا ، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدم وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها فى ذلك المشدود فى وسطها لمنع سيلان الدم] . فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ثم ركب القصواء [معنى القصواء اسم لناقة النبى ﷺ] ، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرتُ إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماشٍ ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله . وما عمل به من شىء عملنا به . فأهل [معناها من الإهلال] ، وهو رفع الصوت بالتلبية . فأهل بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » ، وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يَرُدَّ رسول الله ﷺ عليهم شيئا منه ، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه ، استلم الركن ، فَرَمَلَ ثلاثا ، ومشى أربعا ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ . ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج إلى باب الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ ، أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا ، فَرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال : « لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، لاإله الا الله وحده ، أنجز وعـده ، ونصر عبـده ، وهزم الأحزاب وحده » . ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى ، سعى ، حتى إذا صعدنا مشى ، حتى أتى المروة ، ففعل على المروة كما فعل على الصفا .

حتى إذا كان آخر طوافه على المروة ، فقال : « لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أَسُقِ الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل . وليجعلها عمرة .

فقام سراقة بن مالك بن جعشم ، فقال : يارسول الله ألعَامِنا هذا أم لأبد ؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه ، واحدة فى الأخرى ، وقال دخلت العمرة فى الحج مرتين لا . بل لأبد أبد .

وقدم علىٌّ من اليمن ببدن النبى ﷺ ، فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حَلَّ ، ولبست ثيابا صبغا واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها فقالت : إن أبى أمرنى بهذا . قال : فكان علىّ يقول بالعراق ، فذهبت إلى

رسول الله ﷺ مُحرِّشا [التحريش : الإغراء . والمراد هنا أن يذكر له مايقتضى عتابها] على فاطمة للذى صنعت ، مستفتيا رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أنى أنكرتُ ذلك عليها ، فقال : صدقت ، صدقت ، ماذا قلت حين فَرضت الحج ؟

قال : قلت : اللهم إنى أُهِل بما أهل به رسولك . .

قال : فإن معى الهْدىَ فلا تحل .

قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به علىٌّ من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ ، مائة .

قال : فحل الناسُ كلهم وقصروا ، إلا النبى ﷺ ، ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية [يوم التروية : هو اليوم الثامن من ذى الحجة] ، توجهوا إلى منىَ فأهلوا بالحج .

وتوجه رسول الله ﷺ ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب ، والعشاء ، والفجر .

ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شَعَرٍ تضرب له بنمرة . فسار رسول الله ﷺ حتى أتى عرفه فوجد القبة قد ضُربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ، أمر بالقصواء فرحلت له . فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال : « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا ، دم ابن ربيعة بن الحارث [كان مسترضعا فى بنى سعد ، فقتله هزيل] ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول رباً أضع ربانا ، ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخترتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تُسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال : بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، ثلاثة مرات» .

ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه .

ودفع رسول الله ﷺ ، وقد شنق [أى ضم وضيق] للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله ، ويقول بيده اليمنى : أيها الناس . السكينة السكينة ، كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئا .

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء ، حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده ، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا . فرفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلا حسن الشعر ، أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظُعُن [الظعن : جمع ظعينة ، وهى البعير الذى عليه امرأة ، ثم سميت به المرأة مجازا لملابستها البعير] ، مرت به ظُعُن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر فوضع يده على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر لئلا ينظر ، حتى أتى بطن مُحسِّر ، فحرّك قليلا . . ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخزف ، رمى من بطن الوادى . ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ، ثم أعطى عليا فنحر ماغبر وأشركه فى هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة : أى القطعة من اللحم فجعلت فى قدر ، فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها . ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر ، فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : «انزعُوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم» . فناولوه دلوا فشرب منه .

قال العلماء : واعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ، ونفائس من مهمات القواعد : قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه ، وأكثروا ، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيرا ، أخرج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعا . قال : ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه . قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سُنة للنفساء والحائض ولغيرهما بالأولى ، وعلى استثفار الحائض والنفساء ، وعلى صحة إحرامهما ، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ . فإذا زاد فلا بأس فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن ، لبيك مرهوبا منك ومرغوبا إليك .

وأنه ينبغى للحاج القدوم أولا إلى مكة ليطوف طواف القدوم ، وأن يستلم الركن ـ الحجر الأسود ـ قبل طوافه ، ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى ـ والرمل أسرع المشى مع تقارب الخُطا ، وهو الخَبَب . وهذا الرمَل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين . ثم يمشى أربعا على عادته وأنه يأتى بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ . ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلى ركعتين . ويقرأ فيهما فى الأولى ـ بعد الفاتحة ـ سورة (الكافرون) وفى الثانية ـ بعد الفاتحة ـ سورة (الإخلاص) . ودل الحديث أنه يُشرعَ له الاستلام عند الخروج من المسجد كما فعله عند الدخول .

واتفق العلماء : على أن الاستلام سُنة ، وأنه يسعى بعد الطواف ، ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف عليه ، مستقبل القبلة ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ، ويدعو ثلاث مرات ويَرْمُل فى بطن الوادى ، وهو الذى يقال له «بَيْنَ الميلين» ، وهو ـ أى الرمل ـ مشروع فى كل مرة من السبعة الأشواط لا فى الثلاثة الأولى كما فى طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو .

وبتمام ذلك تتم عمرته . فإن حلق أو قصر صار حلالا . وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة ، وأما من كان قارنا ، فإنه لا يحلق ولا يقصر ، ويبقى على إحرامه ثم فى يوم التروية ــ وهو الثامن من ذى الحجة ــ يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارنا إلى منى . والسُّنَّة أن يصلى بمنى الصلوات الخمس ، وأن يبيت بها هذه الليلة ــ وهى ليلة التاسع من ذى الحجة .

ومن السُّنة كذلك ألا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ، ولا يدخل «عرفات» إلا بعد زوال الشمس .

وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بـ« عرفات » فإنه ﷺ نزل بنمرة ، وليست من عرفات .

ولم يدخل ــ ﷺ ــ الموقف إلا بعد الصلاتين .

ومن السُّنة ألا يصلى بينهما شيئاً ، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة ، وهذه إحدى الخطب المسنونة فى الحج .

والثانية :ــ أى من الخطب المسنونة ــ يوم السابع من ذى الحجة ، يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

والثالثة : ــ أى من الخطب المسنونة ــ يوم النحر .

والرابعة : يوم النفر الأول . وفى الحديث سنن وآداب منها : أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين . وأن يقف ــ فى عرفات ــ راكباً أفضل . وأن يقف عند الصخرات ، عند موقف النبى ﷺ ، أو قريباً منه وأن يقف مستقبل القبلة . وأن يبقى فى الموقف حتى تغرب الشمس ؛ ويكون فى وقوفه داعياً لله عز وجل ، رافعاً يديه إلى صدره ، وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة ، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً . فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد وإقامتين ، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء ، وإنما اختلفوا فى سببه ، فقيل : إنه نُسُك ، وقيل : لأنهم مسافرون ــ أى السفر هو العلة لمشروعية الجمع .

ومن السنن : المبيت بمزدلفة ، وهو مُجْمَع على أنه نسك ، وإنما اختلفوا فى كونه ــ أى المبيت ــ واجباً أو سُنَّة . ومن السُّنه ، أن يصلى الصبح فى المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك ، فيأتى المشعر الحرام فيقف به ، ويدعو .

والوقوف عنده من المناسك . . ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً ، فيأتى بطن مُحَسِّر فيسرع السير فيه ، لأنه محل غَضَب الله فيه على أصحاب الفيل ، فلا ينبغى الأناةُ فيه ، ولا البقاء فيه .

فإذا أتى الجمرة ــ وهى جمرة العقبة ــ نزل ببطن الوادى ورماها بسبع حصيات ، كل حصاة كحبة البَاقلاَّء ــ أى الفول ــ يُكَبِّر مع كل حصاة . ثم ينصرف بعد ذلك إلى المنحر فينحرُ ــ إن كان عنده هدى ــ ثم يحلق بعد نحره .

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة ـ وهو الذى يقال له : طواف الزيارة .

ومن بعده يحِلُّ له كل ما حَرُمَ عليه بالإحرام ، حتى وَطْءُ النساء .

وأما إذا رمى جمرة العقبة ، ولم يَطُفْ هذا الطواف ، فإنه يحِلُّ له كل شيء ما عدا النساء .

هذا هو هدىُ رسول الله ﷺ فى حجه ، والآتى به مُقْتدٍ به ـ ﷺ ـ وممتثِلٌ لقوله : (خذوا عنى مناسككم) . وحجه صحيح .

نماذج مختلفة من الناس

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

المفردات : يقال : أعجبه الشىء ، أى راقه واستحسنه ، ورآه عجباً ، أى طريفاً جديداً غير مبتذل ، وتقول العرب : الله يشهد أو الله يعلم ، أنى أريد كذا ، تقصد بذلك الحلف واليمين ، كما قال تعالى حكاية عن رسل عيسى : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾(١) . واللدد : شدة الخصومة ، والخصام:الجدال ، وتولى : أى أدبر وانصرف عن مجلسك ، والسعى : السير السريع بالأقدام ، والمراد به هنا الجد فى العمل والكسب ، ويهلك : أى يضيع ، والحرث : الزرع ، والنسل : ما تناسل من الحيوان ، والمراد من : هلاكهما الايذاء الشديد ، أخذته : أى لزمته ، والعزة فى الأصل خلاف الذل ، والمراد بها هنا الانفَةُ والحمِيَّة ، بالإثم : أى على الذنب الذى نُهى عنه واسترسل فى فعله ، حسبه : أى كافيه ، والمهاد : الفراش يأوى اليه المرء للراحة ، ويشرى : يبيع ويبذل ، ابتغاء : أى طلبا .

هذا المشهد القرآنى بين الله فيه حال صنفين من الناس ، وقد جاء هذا المشهد عقب بيان صنفين سبق ذكرهما ، كان الصنف الأول يقول : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق ﴾(٢) . وكان الصنف الثانى يقول : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾(٣) . وقد أمر الله بعد ذلك عباده بالتقوى ، فقال : ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون ﴾(٤) . ولما كانت التقوى محلها القلب ،

---

(١) سورة يس آية : ١٦ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٠ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٠١ .
(٤) سورة البقر آية : ٢٠٣ .

كما أشار بذلك النبى ﷺ فى قوله : (التقوى ها هنا) ، مشيرا إلى صدره ، فإن هناك فريقا من الناس يخدع عباد الله ، فيضمر فى قلبه مالا يظهر على لسانه ويظن بذلك أنه التقى النقى الطاهر الورع ؛ هذا الفريق يعجبك قوله فى الحياة الدنيا قال تعالى : ﴿ وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾(١) . هذا الفريق يُشْهِد الله على ما فى قلبه وهو يعلم أنه كاذب غادر أفَّاك أثيم . قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾(٢) . فإذا قلت لقد حلفوا وأقسموا فى قولهم والله يعلم إنك لرسوله . وفى قوله تعالى : ﴿ ويشهد الله على ما فى قلبه ﴾ قال لك الله : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾(٣) ، أى جعلوا من الحلف وقاية من الكذب أمام الناس ، لكن الله يعلم ما فى قلوبهم . ذلك لأن علام الغيوب يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . كان المسيح ابن مريم يقول : (يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله) ، قال جل ذكره فى الحديث القدسى الجليل : (لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أبى يغترون ، أم على يجترئون) .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا ... إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

* * *

كم من صاحب يلقاك عناقاً ... ويقسم أنه لا يطيقُ لك فراقاً

ملاك فى مظهره شيطان فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر وقلب أبى لهب . هذا الفريق معسول الكلام ، كثير الحلف ، ألدُّ فىْ الجدال ، عنده المقدرة الكلامية فى الجدال والإفحام بالباطل . ومن صفات هذا الفريق أنه إذا تولى وانطلق وراء نفسه المعتلة المليئة بالعقد والحقد سعى فى الأرض بالإفساد ، وما أكثر وجوه الإفساد ، فالنميمة والغيبة والسحر وشهادة الزور والقتل وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، والظلم ، وإهلاك الحرث ، أى إفساد الزرع بقطعه ، وإهلاك النسل ، بقتل الحيوان سما وإتلافه ، والله تعالى لا يحب الفساد ولا يرضى عن المفسدين .

وهذا الفريق من صفاته أنه لايقبل الحق ولا يستجيب لنصح الناصحين ، إذا قيل له اتق الله لزمه الصلف وأحاطت به الحمية والأنفة بالباطل ، فما جزاؤه ؟ حسبه جهنم ، أى يكفيه ما فى جهنم من شديد العذاب وبئس الفراش الذى يأوى إليه فى جهنم ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾(٤) .

أما الفريق الثانى ففريق الإخلاص والوفاء لله ، فريق باع نفسه فى سبيل الله : ﴿ ومن الناس من

---

(١) سورة المنافقون آية : ٤
(٢) سورة المنافقون آية : ١
(٣) سورة المنافقون آية : ٢
(٤) سورة الاعراف : آية ٤١

يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ لا من أجل عرض ولا مغنم ولا منصب ولا كرسى مزور ولا جاه يفنى ، إنما ابتغاء ما عند الله من مرضاته ، ورضوان من الله أكبر ، وكأنه يقول لرافع السماء بلا عمد :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ يدفع عنهم البلاء ويرحمهم إذا حل القضاء ، وهو القائل : أنا أرأف بعبادى من الأم بولدها .

قيل لعمر رضى الله عنه : اتق الله . فوضع خده على الأرض تواضعا ، قال بعض الجالسين للقائل : أتأمر أمير المؤمنين بتقوى الله ؟ فقال لهم عمر : لا خير فيكم إن لم تقولوها ، ولا خير فينا إن لم نقبلها . وكان رضى الله عنه يقول : رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوبى . ولقى رجل هارون الرشيد يطوف بالبيت فقال له : ياهارون اتق الله . قال هارون : أتنادينى باسمى ؟ فقال له : نعم . . إذا كنت أنادى على الله باسمه فأقول يا الله ، فكيف لا أناديك باسمك ؟ . وكان لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز مستشار خاص يسمى عمر بن مهاجر ، قال له أمير المؤمنين : يا عمر ، إذا رأيتنى بَعُدتُ عن الحق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر ، فإنك ستموت . فما أجمل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾(١) ، وما أعظم قوله تبارك اسمه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(٢) ، وما أجل قوله جل جلاله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾(٣) ، وما أكرم قوله جل وعلا : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾(٥) ، وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾(٦) ، وقوله : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾(٧) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾(٨) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾(٩) ، وقوله : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ﴾(١٠) .

---

(١) سورة النساء آية : ١ .
(٢) سورة آل عمران آية : ١٠٢ .
(٣) سورة الحج آية : ١ .
(٤) سورة الأحزاب الآيتان : ٧٠ ، ٧١ .
(٥) سورة الحشر آية : ١٨ .
(٦) سورة التوبة آية : ١١٩ .
(٧) سورة يوسف آية : ٩٠ .
(٨) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .
(٩) سورة الطلاق آية : ٤ .
(١٠) سورة الطلاق آية : ٥ .

توجيه ربانى كريم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
(٢٠٨) فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ
أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ (٢١٠) ﴾

المفردات : أصل السلم : التسليم والانقياد ، فيطلق على الصلح والسلام وعلى دين الإسلام . والخطوات : واحدها خطوة (بالضم) مابين قدمى من يخطو . والزلل فى الأصل : عثرة القدم ، ثم استعمل فى الانحراف عن الحق ، والبينات : الحجج والأدلة التى ترشد إلى أن مادُعيتم إليه هو الحق : عقلية كانت أو نقلية . والعزيز : الغالب الذى لايعجزه الانتقام . والحكيم : الذى يعاقب المسىء ويكافىء المحسن . ينظرون : أى ينتظرون . يأتيهم الله : أى يأتيهم عذابه . والظُّلل : واحدها ظُلة (بالضم) وهى ما أظلك . والغمام : السحاب الأبيض الرقيق . وقضى الأمر : أى أتم أمر إهلاككم وفرغ منه .

بعد أن بين سبحانه فيما سلف من الآيات أن الناس فى الصلاح والفساد فريقان : فريق يسعى فى الأرض بالفساد ، ويهلك الحرث والنسل ، وفريق يبغى بعمله رضوان الله وطاعته ـ أرشدنا إلى أن شأن المؤمنين الاتفاق والاتحاد ، لا التفريق والانقسام .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾ كافة ، أى فى أحكامه كلها التى أساسها الاستسلام والخضوع لله والإخلاص له ، ومن أصوله : الوفاق والمسالمة بين الناس ، وترك الحروب بين المهتدين بهديه ، والأمر بالدخول فيه ، أمر بالثبات والدوام ، كقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ﴾[(١)] ، وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾[(٢)] . وهذه دعوة من الله إلى جماعة المسلمين أن يأخذوا الإسلام بكل شعبه عقيدة وشريعة ، فلم التفرقة ، ولم الشقاق والنزاع ؟ لقد أخبر الصادق المعصوم فى دعوته إلى وحدة الصف فقال : (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) . وقد بين الصادق المعصوم أيضا أن الفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة ، قالوا : يارسول الله وما السنة والجماعة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابى . وقوله جل شأنه : ﴿ ادخلوا فى السلم كافة ﴾ كقوله : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾[(٣)] ، ثم حذر سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، فإنه مفرق الجماعات ، ومبيد الأمم ، ومفسد العلاقات . قال سبحانه : ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ ، ثم بيّن الغاية والحكمة من ذلك فقال : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ ، أى ظاهر العداء والشقاق : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا

(١) سورة الأحزاب آية : ١ .
(٢) سورة الحديد آية : ٢٨ .
(٣) سورة آل عمران آية : ١٠٣

إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[١] ، ثم حذر سبحانه من الوقوع فى الزلل والابتعاد عن طريق الله ومنهجه فقال : ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات** ﴾ ، أى حدتم وابتعدتم عن الحق بعد وضوحه وقيام الأدلة ﴿ **فاعلموا أن الله عزيز** ﴾ غالب وحكيم ، يضع الأمور فى نصابها : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] . ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٣] ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٤] فاحذروا ياأمة الإسلام من الفرقة واتباع خطوات الشيطان والوقوع فى الزلل ، فإن الله جل شأنه يهلك الأمم بذنوبها ، قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ . قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مهددا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ **هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة** ﴾ يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شرا فشر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ ، وقال : ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ﴾ ، وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله ، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم ، وفيه : أن الناس إذا اهتموا لموقفهم فى العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده ، فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ ، فإذا جاءوا إليه قال : (أنا لها أنا لها) ، فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء بين العباد ، فيشفعه الله ، ويأتى فى ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا ، وينزل من فيها من الملائكة ، ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة ، وينزل حملة العرش والكروبيون ، قال : وينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم ، يقولون : « سبحان ذى الملك والملكوت ، سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذا السلطان والعظمة ، سبحانه سبحانه أبداً أبداً » . وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : (يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى[٦] .

---

(١) سورة فاطر آية : ٦
(٢) سورة هود آية : ١٠٢
(٣) سورة هود آية : ١٠٧
(٤) سورة القصص آية : ٥٩
(٥) سورة العنكبوت آية : ٤٠
(٦) تفسير ابن كثير جـ١ صـ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ط الشعب

قوله : ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾(١) ، وكقوله جل شأنه : ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ﴾(٢) وكقوله سبحانه : ﴿ قل إن الأمر كله لله ﴾(٣) ، وكقـوله تبـارك وتعالى : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾(٤) وكقوله جل جلاله : ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾(٥) .

مع بنى اسرائيل

سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

المفردات : الآية : المعجزة الظاهرة التى لا يخفى أنها من عند الله كالعصا واليد البيضاء . والتبديل : تغيير الشىء من حال إلى حال . ونعمة الله وهى آياته الباهرة التى آتـاها أنبيـاءه وجعلها مصـدر الهدى والنجاة . والعقاب : عذاب يعقب الذنب . وزين له الشىء : حسن له . وسخـر منه : استهـزأ به . والحساب : التقدير .

بعد ما أمر الله تعالى المؤمنين أن يدخلوا فى السلم كافة وأن يأخذوا شعب الإسلام كلها ، حذرهم سبحانه وتعالى من الزلل والانحراف فقال : ﴿ **فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم** ﴾ .

بعد ذلك ذكر الله لهم عبرة بالغة فى شعب غير وبدل ، إنه الشعب المعروف ببنى إسرائيل ، قال الله تعالى لحبيبه ومصطفاه : ﴿ **سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** ﴾ ، أى اسألهم سؤال تقرير ، فقد أرسل الله إليهم من الأنبياء كثيراً وكثيراً نظراً لما جلبوا عليه من الفساد والإفساد والشر المستطير ، فكم من آية نزلت على يد نبيهم موسى ، وكم من غمام ظللهم ؟ وكم من طعام شهى من المن والسلوى نزل عليهم ؟ وكم من عيون فجرت فى حجر ؟ ومن أعظم تلك الآيات أن جاوز الله بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون وهم ينظرون . وكم من آيات ظهرت على أيدى المسيح ابن مريم ، فقد كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، ويبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم ، ومع ذلك كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم استكبروا ، ففريقاً كذبوا وفريقاً

(١) سورة الحج آية : ٤١
(٢) سورة هود آية : ١٢٣
(٣) سورة آل عمران آية : ١٥٤
(٤) سورة الانفطار آية : ١٩
(٥) سورة الشورى آية : ٥٣

يقتلون . فيا أمة الإسلام : إن الطريق واضح ، وإن الحق لائح ، وإن المنادى صائح ، وقد جاءكم من الأنباء ما فيه مزدجر . فاستقيموا على طريق الجادة وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ، واعلموا أنه من يبدل نعمة الله كفراً فإن مصيره دار البوار جهنم : وقد تكون نعمة الله المقصود بها الإسلام ، فمن بدل دينه وتنكب طريق الحق من بعد ما صاح المنادى : يا قوم اتبعونى أهدكم سبيل الرشاد ، فليعلم الذين يبدلونه من بعدما سمعوه أن الله شديد عقابه ، أليم عذابه ؛ ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد * ولا يوثق وثاقه أحد ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[٢] قوله تعالى : ﴿ ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ لأن قلوبهم خاوية من الإيمان ، فأصبحت كالخرائب تنعق فيها البوم والغربان ، لقد أجمعوا أمرهم وذهبوا إلى سيدنا رسول الله ﷺ وقالوا : يا محمد إن كنت تريدنا فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، يقصدون فقراء المسلمين كابن مسعود وخباب وصهيب فماذا كانت النتيجة ؟ لقد هبط الأمين جبريل على ناشر الهدى وواسع الندى بقوله جل شأنه : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾[٣] ، وكان النبى ﷺ يبسط رداءه لفقراء المسلمين ويجلسهم عليه ويقول لهم : مرحباً بمن أوصانى ربى بهم خيرا ، بل قال الله لهم ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ ، بل لقد أمره جل جلاله أن يشرح لهم صدره ويفسح لهم فى الترحاب فقال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾[٤] ، بل لقد زلزلت الأرض زلزالها عندما سخر بعض المنافقين بأحد المسلمين الفقراء ، وقد دخل بحفنة من الشعير متبرعا بها لجيش المسلمين يوم تبوك ، فأنزل الله الأمين جبريل بقوله : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عـذاب أليم * استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٥] . بل لقد أنزل الله آيات بينات فيها ملاطفة رقيقة لمبعوث العناية الإلهية عندما شغله بعض صناديد القوم عن الحديث مع رجل فقير مسلم هو عبد الله بن أم مكتوم ، قال تعالى : ﴿ عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنفعه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصـدى * وما عليـك ألا يزكى * وأمـا من جاءك يسعى * وهـو يخشى * فأنت عنـه تلهى * كـلا إنها تذكرة ﴾[٦] بل لقد ضجت السموات العلا عندما قال قائلهم : ألم يجد الله إلا يتيم أبى طالب ﴿ وقالوا لولا

---

(١) سورة الفجر الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

(٢) سورة آل عمران آية : ١٤ .

(٣) سورة الكهف آية : ٢٨ .

(٤) سورة الأنعام آية : ٥٤ .

(٥) سورة التوبة الآيتان : ٧٩ ، ٨٠ .

(٦) سورة عبس الآيات : ١ - ١١ .

نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[١] قال لهم رافع السماء بلا عمد : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون * ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ﴾ . نعم ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾[٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون ﴾[٤] وقال جل شأنه : ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين * فى جنات يتساءلون * عن المجرمين * ماسلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين[٥] ﴾ وما أجل قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾[٦] .

قوله جل شأنه : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾[٧] ، وكقوله تبارك اسمه : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضلة والله يرزق من يشاء بغير حساب[٨] ﴾ وكقوله جل جلاله : ﴿ إنما يُوَفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[٩] أى بدون عدٍّ ولا حد ولا تقدير ، فالله تعالى يعطى كثيراً ، ويجبر القلب الكسير ، ويغفر الزلات .

بعثة الأنبياء بالتبشير والإنذار

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى

(١) سورة الزخرف آية : ٣١ .
(٢) سورة الزخرف الآيات : ٣٢ - ٣٥ .
(٣) سورة الإسراء آية : ١٩ .
(٤) سورة المطففين الآيتان : ٣٤ ، ٣٥ .
(٥) سورة المدثر الآيات : ٣٨ - ٤٧ .
(٦) سورة الأعراف الآيتان : ٥٠ ، ٥١ .
(٧) سورة غافر آية : ٤٠ .
(٨) سورة النور آية : ٣٨ .
(٩) سورة الزمر آية : ١٠ .

مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

قوله تعالى « أمة » جاء لعدة معان :

(١) الملة : أى العقائد وأصول الشرائع كما فى قـوله : ﴿ إن هـذه أمتكم أمة واحـدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾[١] .

(٢) الجماعة : الذين تربطهم رابطة يعتبرونها وحدة تسوغ أن يطلق عليها اسم الأمة كما فى قوله : ﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾[٢] .

(٣) الزمن كما فى قوله : ﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ وادكر بعد أمة ﴾[٤] .

(٤) للإمام الذى يقتدى به كما فى قوله : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله ﴾[٥] .

(٥) إحدى الأمم المعروفة كما فى قوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[٦]

جاء فى تفسير هذه الآية الكريمة عن ابن عباس قال : كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة الحق فاختلفوا ؛ فبعث الله النبيين مبشرين ومنـذرين ، وأنزل الله معهم الكتاب والميزان بالحق ، فدعت الرسل إلى التوحيد الخالص ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾[٧] ولقد وقعت اختلافات بين الناس ، فكان الكتاب حكماً بينهم فيما اختلفوا فيه . وقد تعجب عندما تعلم أن الذين اختلفوا هم الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، وما كان الدافع إلى اختلافهم إلا الحسد والبغى الذى استشرى فى نفوسهم ، ومن بعـد ما جاءتهم البينات الواضحات والآيات الباهرات ، وهنا تجلت نعمة الله على المؤمنين ، قال جل شأنه : **﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾** . فاللهم اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك . عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ قال : (نحن الآخرون الأولون يوم القيامه ، نحن أول الناس دخولاً الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فغداً لليهود وبعد غد للنصارى)[٨] .

وعن زيد بن أسلم عن أبيه فى قوله تعالى : **﴿ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ﴾** ، فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذ اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد ، فهدى الله أمـة محمد ﷺ ليوم

(١) سورة الأنبياء آية : ٩٢ .
(٢) سورة الأعراف آية : ١٨١ .
(٣) سورة هود آية : ٨ .
(٤) سورة يوسف آية : ٤٥ .
(٥) سورة النحل آية : ١٢٠ .
(٦) سورة آل عمران آية : ١١٠ .
(٧) سورة النحل آية : ٣٦ .
(٨) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٥ ط الشعب .

الجمعة ؛ واختلفوا فى القبلة ، فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس ، فهدى الله أمة محمد للقبلة ؛ واختلفوا فى الصلاة ، فمنهم من يركع ولا يسجد ، ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلى وهو يتكلم ، ومنهم من يصلى وهو يمشى ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا فى الصيام ، فمنهم من يصوم بعض النهار ، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا فى إبراهيم عليه السلام ، فقالت اليهود : كان يهودياً ، وقالت النصارى : كان نصرانياً ، وجعله الله حنيفاً مسلماً ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك ؛ واختلفوا فى عيسى عليه السلام ، فكذبت به اليهود وقالوا على أمه بهتاناً عظيماً ، وجعلته النصارى إلهاً وولدا ، وجعله الله روحاً منه وكلمته ألقاها إلى مريم ، فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك حيث قال تعالى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾(١) .

جاء فى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ؛ اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم)(٢) .

وفى الدعاء المأثور : اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ، فلا تجعله ملتبساً فنضل ، واجعلنا للمتقين إماماً .

الثبات والنصر

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

المفردات : المثل : الوصف العظيم والحال التى لها شأن بحيث يضرب بها المثل . والبأساء : الشدة تصيب الإنسان فى غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة . والضراء : ما يصيب الإنسان فى نفسه كالجرح والقتل والمرض . والزلزال : الاضطراب فى الأمر يتكرر حتى يكاد يزل صاحبه كما قال تعالى فى المؤمنين يوم الأحزاب : ﴿ وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾(٣) .

روى أن هذه الآية نزلت فى غزوة الأحزاب حين اجتمع المشركون مع أهل الكتاب وتحالفوا على الإيقاع بالمسلمين ، وأصاب المؤمنين يومئذ جهد وشدة وجوع وضروب من الأذى ، وأبدى المنافقون صفحة

(١) سورة الزخرف آية : ٥٩ .
(٢) تفسير القرآن العظيم للامام ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٦ ط الشعب .
(٣) سورة الأحزاب آية : ١١ .

العداوة والبغضاء للمؤمنين الصادقين ، وقالوا كما قال الذين فى قلوبهم مرض : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾[١] ، وقال صادقو الايمان على قلتهم وضعفهم وجوعهم وعريهم : ﴿ هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾[٢] .

وفى قوله تعالى: ﴿ كان الناس أمة واحدة ﴾[٣] ، بين الله تعالى أن هناك فريقين بينهما صراع ، فريق أوتوا الكتاب فاختلفوا وتنازعوا فى الحق حسداً من عند أنفسهم على أهل الإيمان ، وفريق هداه الله إلى الحق بإذنه ، فلابد لأهل الحق أن يصبروا ويصابروا ويرابطوا . وفى هذه الآية : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ بيان لما يجب أن تكون عليه الجماعة المسلمة ؛ فالصراع بين الحق والباطل دائم ومستمر من يوم هبط آدم إلى الأرض إلى أن يرث الله الارض ومن عليها ، وكأن هذا الصراع سلسلة متصلة الحلقات يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر وبطرفها الثانى إسرافيل نافخ الصور ، فلتوطنوا أنفسكم يا أهل الحق على الجهاد والتمرس بالشدائد ، فلستم بدعاً من الأمم ؛ لقد سبق لما كان قبلكم الإيذاء والابتلاء ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٤] . ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[٥]

يا أمة الإسلام لقد كان من قبلكم أمم نشر فيها الموحدون بالمناشير ، فما زادهم ذلك إلا إيماناً وتسليماً ؛ ولقد قتل الأنبياء ونالوا بذلك شرف الجهاد ، وقد كان المؤمنون يحرقون بالنار كما حدث لأصحاب الأخدود : ﴿ ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾[٦] . فاعلموا أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الضيق ، وأن اليسر مع العسر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ﴿ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين ﴾[٧] . فهل يضيع جهاد هؤلاء عند الله ؟ لا والله ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[٨] . فاصبروا على كل الشدائد من البأساء والضراء ولا تستبطئوا نصر الله فإن نصر الله قريب ، ولكنكم تستعجلون . . إن يد الله تعمل فى الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها .

(١) سورة الأحزاب آية : ١٢ .
(٢) سورة الأحزاب آية : ٢٢ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٣ .
(٤) سورة الأنعام آية : ٣٤ .
(٥) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ - ١٤٢ .
(٦) سورة البروج الآيتين : ٨ - ٩ .
(٧) سورة يوسف آية : ١١٠ .
(٨) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .

ماذا ينفقون

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

الخير هنا هو المال وسمى به لأن حقه أن ينفق فى وجوهه . والأقربون : هم الأولاد وأولادهم ثم الإخوة .

جاء فى سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس أن ابن الجموح ــ وكان شيخاً كبيراً وله مال عظيم ــ سأل رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله بماذا نتصدق وعلى من ننفق ؟ فنزلت الآية .

وروى أحمد والنسائى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (تصدقوا ، فقال رجل : عندى دينار ، قال : تصدق به على نفسك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على زوجتك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على ولدك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : تصدق به على خادمك ، قال : عندى دينار آخر ، قال : أنت أبصر به)(١) .

﴿ يسألونك ماذا ينفقون ﴾ أى أى شىء يتصدقون به من أصناف أموالهم ؟ **﴿ قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾** أى قل لهم : على المنفق أن يقدم الوالدين لأنهما قد ربياه صغيراً وتعبا فى تنشئته ، ثم الأولاد وأولادهم ثم الإخوة ، لأنهم أولى الناس بعطفه ورعايته ، ولأنه إذا تركهم يحتاجون إلى غيره كان فى ذلك عاراً وشنارا عليه ، ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الكسب لصغر سنهم ، ثم المساكين وأبناء السبيل للتكافل العام بين المسلمين ، فهم أعضاء أسرة واحدة ، فيجب أن يتعاونوا فى السراء والضراء . وقد جاءت الآية فى بيان نفقة التطوع لا فى الزكاة المفروضة ، لأنها لم تعين مقدار المنفق والزكاة الشرعية معينة المقدار بالاجماع ، ولم يذكر سبحانه السائلين والرقاب لذكرهما فى مواضع أخرى . **﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾** أى وما تنفقوه فى وجوه البر والطاعة فى أى زمان وأى مكان على الأصناف المذكورة أو غيرها فالله عليم به لا يغيب عنه شىء ، فلا ينسى المثوبة والجزاء عليه ، بل يضاعف عليه الجزاء

القتال والشهر الحرام

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٧٤ ط الشعب .

شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴿٢١٦﴾ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل
قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند
الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا
ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة
وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿٢١٧﴾ إن الذين ءامنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل
الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم ﴿٢١٨﴾

المفردات : ﴿ كتب عليكم ﴾ : أى فرض عليكم . والصد : المنع . والفتنة : أى فتنة المسلمين فى دينهم بإلقاء الشبهات فى قلوبهم أو بتعذيبهم . ﴿ يرتدد ﴾ : أى يرجع . وحبط العمل : بطل وفسد . ﴿ آمنوا ﴾ : أى ثبتوا على إيمانهم . ﴿ هاجروا ﴾ : أى فارقوا الأهل والوطن . ﴿ وجاهدوا ﴾ : من الجهد وهو المشقة . ﴿ يرجون ﴾ : أى يتوقعون المنفعة بعمل الأسباب التى سنها الله . ﴿ رحمة الله ﴾ : أى ثوابه .

جاء فى تفسير المراغى : أنه كان الكلام فيما مضى فى الإنفاق وبذل المال فى سبيل الله على أصناف من المؤمنين فى احتياج إلى مد يد المعونة والمساعدة لهم إيجاداً لروح التعاون بين الإخوة فى الإيمان وتثبيتاً لمبدأ التكافل العام فى الأسرة الإسلامية لتصلح جميع أعضائها ، وتكون كالبدن السليم لا يشتكى منه عضو من الأعضاء ، فيؤدى كل عضو وظيفته فى الحياة ويعمل العمل الذى هيىء له بمقتضى النظام العام . قفى ذلك بذكر القتال وبذل النفس لإعلاء دين الله وجعل كلمته العليا وكلمة الكفر هى السفلى ، ونشر النور الإسلامى فى أرجاء المعمورة لهدى الخلق ومعرفتهم للحق .

ومن البين أن المال أخو الروح ، فالصلة بينهما وثيقة ، فناسب ذكر آيات القتال بعد ذكر أحكام الصدقة على النحو الذى عرفت .

﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم ﴾ ، أى فرض عليكم قتال الكفار فرض كفاية ، إذا قام به جماعة كفى ولم يلزم الباقين ، إلا إذا دخل العدو بلاد المسلمين فاتحاً فيكون فرض عين .

وقوله : ﴿ وهو كره لكم ﴾ ، أى شاق عليكم ، تتضرر منه الطباع لما فيه من بذل المال وخطر هلاك النفس ، وهذه الكراهة الطبيعية لا تنافى الرضا بما يكلف به الإنسان ، كالمريض يشرب الدواء المر البشع الذى تعافه نفسه لما يرى فيه من منافع فى العاقبة ؛ وهذه أول آية فرض فيها القتال ، وكان ذلك فى السنة

الثانية للهجرة ، وقد كان القتال محظوراً على النبى ﷺ مدة إقامته فى مكة ، فلما هاجر إلى المدينة أذن له فى قتال من يقاتله من المشركين بقوله : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ﴾[1] ، ثم أذن له فى قتال المشركين عامة ، ثم فرض الجهاد .

﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾ ، أى إن من الأشياء المستلذة طبعاً ما يفعله الإنسان لما يرجو فيه من نفع وخير فيما بعد ، فقد يتحمل الإنسان أخطار الأسفار لتحصيل الربح فى التجارة ، ويتحمل المتاعب فى طلب العلم للفوز بالسعادة فى الدنيا والعقبى ، كذلك من الأشياء المكروهة طبعاً ما يتوقع فاعلها الضرر والأذى فى نفسه أو من جهة منازعة الناس له فيه ؛ وهكذا الحال فى ترك الجهاد ، فإنه يصون النفس عن خطر القتل ، ويصون المال عن الانفاق حالاً ، لكن فيه مفاسد ومضار مآلا ، كتسليط الكفار على بلاد المسلمين وأموالهم واستباحة حريمهم ، وقد يكون فى ذلك القضاء عليهم ، وكفى بذلك خسراناً مبينا .

إلا أن فى الجهاد الظفر بالغنائم والفرح بالاستيلاء على بلاد العدو وحفظ بيضة الإسلام وترغيب الناس فى الدخول فيه وإعلاء كلمة الحق والثواب فى الآخرة ومرضاة الله ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[1] .

﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، أى إذا تصورتم قصور علمكم وكمال علم ربكم ، علمتم أنه تعالى لا يأمر إلا بما فيه الخير والمصلحة لكم ، فعليكم أن تمتثلوا وإن كرهت نفوسكم ، فاشتغلوا بطاعة الله ولا تلتفتوا إلى مقتضى طباعكم وما تهواه قلوبكم .

وقال بعض المفسرين : المراد بذلك أن المسلمين رأوا أنفسهم فئة قليلة حملت هذا الدين واهتدت به ، فخافوا أن يقاوموا المشركين بالقوة فيهلكوا ويضيع الحق الذى هدوا إليه وكلفوا إقامته والدعوة إليه ، فأبان لهم سبحانه أن سنته قد جرت بأن ينصر الحق وحزبه على الباطل وأهله ، فاستمسكوا به وادعوا إليه ودافعوا عنه ، وإن القعود عن المدافعة ضعف فى الحق يغرى به أعداءه ويطمعهم بالتنكيل بحزبه والتأليب عليه للإيقاع به .

وقد سبق فى علم الله أنه لابد أن يظهر دينه وينصر أهله على قلتهم ويخذل أهل الباطل على كثرتهم كما قال : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[3] ، وقد علم الله هذا ، فأنتم لا تعلمون ما خبأ لكم فى غيبه وستجدون صدق هذا فى امتثال أمره والعمل بما يرشدكم إليه فى كتابه .

وبعد أن ذكر أن القتال كتب على هذه الأمة ، بيّن مسألة سألوا عنها ، وهى القتال فى الشهر الحرام ، فقال : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴾ ، أى يسألونك عن القتال فى الشهر الحرام إذ اختلج فى صدورهم أن الأمر به فى غير الشهر الحرام والمسجد الحرام ، فسألوا النبى ﷺ : أيحل لهم القتال فى هذا

---

(١) سورة الحج آية : ٣٩ .
(٢) سورة التوبة آية : ٧٣ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

الزمان وهذا المكان أم لا ؟ ويؤيده ما روى أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن جحش ، وهو ابن عمته ، فى ثمانية من المهاجرين فى جمادى الآخرة قبل وقعة بدر بشهرين ، ليترصد عيراً لقريش فيها عمرو بن عبد الله الحضرمى وثلاثة معه ، فقتلوه وأسروا اثنين ، واستاقوا العير وفيها تجارة من تجارة الطائف ، وكان ذلك أول يوم من رجب وهم يظنونه من جمادى الآخرة ، فقالت قريش : قد استحل محمد الشهر الحرام ، وهو الشهر الذى يأمن فيه الخائف ويسعى الناس فيه إلى معايشهم .

ولما قدموا على رسول الله ﷺ قال لهم : والله ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، ووقف العير والأسيرين ولم يأخذ منها شيئاً ولما قال لهم رسول الله ﷺ ذلك : ندموا على ما فعلوا وظنوا أن قد هلكوا فنزلت الآية ، فأخذ النبى ﷺ العير وعزل منها الخمس وقسم الباقى بين أصحاب السرية وفدى الأسيرين(١) .

﴿ **قل قتال فيه كبير** ﴾ ، أى إن أى قتال فيه ، وإن كان صغيراً فى نفسه أو كبيرا ، مستنكر الوقوع ، لعظم حرمته ، وأن ما فعله عبد الله بن جحش وما يفعله المسلمون فيما بعد من القتال فيه مبنى على قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، إذا لم يكن من أحدهما بد ، فالقتال فى نفسه أمر كبير وجرم عظيم ، ولكنه ارتكب لإزالة ما هو أعظم منه ، وذلك ما ذكره تعالى بقوله : ﴿ **وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله** ﴾ . أى إن منع المشركين للمؤمنين عن الطريق الذى يوصل إلى الله تعالى ، وهو الاسلام ، باضطهادهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم بقتالهم من يسلم تارة وإيذائه فى نفسه وأهله وماله ومنعه من الهجرة إلى النبى ﷺ تارة أخرى ، ومنعهم المسلمين عن المسجد الحرام فى الحج والعمرة وإخراجهم أهله منه ، وهم النبى ﷺ والمهاجرون ، وكفرهم بالله تعالى ـ كل جريمة من هذه الجرائم التى يرتكبها المشركون أكبر عند الله من القتال فى الشهر الحرام . فما بالك بها وقد اجتمعت معاً ؟

ثم ذكر عز اسمه السبب الذى من أجله شرع القتال وهى فتنة المؤمنين عن دينهم فقال ؛ ﴿ **والفتنة أكبر من القتل** ﴾ ، أى فتنة المسلمين فى دينهم بإلقاء الشبهات فى قلوبهم أو بتعذيبهم كما فعلوا بعمار بن ياسر وبلال وخباب بن الأرت وغيرهم ، فقد عذبوا عماراً بالكى بالنار ليرجع عن دينه ، وعذب أبوه وأمه ، فمر بهم النبى ﷺ فقال : (صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة)(٢) ومات ياسر من العذاب ، وطعنت أمه بحربة فى موضع عفتها فماتت . وكان أمية بن خلف يعذب بلالاً بالجوع والعطش ليلة ويوماً ، ثم يطرحه على ظهره فى الرمضاء (الرمل المحمى بحرارة الشمس) ويضع على ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللات والعزى . فيأبى بلال ، وتهون عليه نفسه فى سبيل الحفاظ على دينه .

وما امتنع منهم إلا من له عصبة من قومه ، على أنه لم يسلم من أذاهم ذوو العصبيات ، فقد آذوا رسول الله ﷺ فوضعوا سلا الجزور (الكرش المملوءة بالفرث) على ظهره وهو يصلى حتى نحته عنه فاطمة رضى الله عنها ، وتعرضوا له بضروب أخرى من الإيذاء وقاه الله شرها ، كما قال تعالى : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾(٣) .

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ بتصرف ط الشعب
(٢) سبل الهدى والرضا فى سيرة خير العباد للصالحى جـ ٢ ص ٤٨٢ تحقيق مصطفى محمد طـ ١ المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
(٣) سورة الحجر اية : ٩٥ .

ولما هاجر المسلمون إلى المدينة وكثر عددهم صاروا يقاتلونهم فى مهجرهم لفتنتهم فى الدين إن استطاعوا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ ، أى إن هؤلاء لا هم لهم إلا منع الإسلام عن الانتشار فى الأرض لاستحكام عداوتهم وحرصهم على فتنتكم ، فانتظار إيمانهم بمجرد الدعوة طمع فى غير مطمع ، والقتال فى الشهر الحرام أهون من الفتنة ــ عن الإسلام إذا كان وحده ، فكيف إذا اقترن به غيره من الآثام كالصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام والكفر بالله والاعتداء بالقتال ؟ .

وفى قوله : ﴿ **إن استطاعوا** ﴾ استبعاد لاستطاعتهم وشك فى حصولها وتنبيه إلى سخف عقولهم وكون فعلهم هذا عبثاً لا يوصل إلى غرض ، لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة لا يرجع عنه إلى الكفر . وهكذا حال الكافرين فى كل عصر ومصر ، يقاتلوننا ليردونا عن ديننا إن استطاعوا .

ثم بينت الآية عاقبة من يتأثر بهذه الفتنة فيرتد عن دينه فقال : ﴿ **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ؛ أى ومن يرجع منكم عن الإسلام إلى الكفر ويمت على هذه الحال ، بطلت أعماله ، حتى كأنه لم يعمل صالحاً قط ، لأن قلبه قد أظلم ، فيذهب من نفسه أثر الأعمال الصالحة الماضية ، ويخسر الدنيا والآخرة . أما خسارة الدنيا فلما يفوته من فوائد الإسلام العاجلة ، إذ يقتل عند الظفر به ، ولا يستحق موالاة المسلمين ولا نصرتهم ، وتبين منه زوجته ، ويحرم الميراث ؛ وأما خسارة الآخرة فيكفى بيانها فى قوله : ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

والردة تارة تحصل بالقول ، كإنكار شىء مما علم من الدين قطعا ، وأخرى بالفعل الذى يوجب استهزاء صريحا بالدين ، كالسجود للشمس والصنم والاستهانة بالمصحف ونحو ذلك . وظاهر الآية يدل على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت صاحبها على الكفر ، وبه أخذ الشافعى ، ورأى أبو حنيفة أن الردة تحبط العمل حتى ولو رجع صاحبها إلى الإسلام تمسكاً بعموم قوله تعالى : ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾[1] ، وقوله : ﴿ ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله ﴾[2] .

ولما ذكر حال المشركين وحكم المرتدين بيّن جزاء المؤمنين المهاجرين والمجاهدين فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله** ﴾ ، أى إن المؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم والذين هاجروا مع رسول الله ﷺ أو هاجروا إليه للقيام بنصرة الدين وإعلاء كلمة الله ، والذين بذلوا جهدهم فى مقاومة الكفار وتقوية المؤمنين ، هم الذين يرجون رحمة الله وإحسانه ، وهم جديرون بأن يعطوا ذلك ، لأنهم استنفدوا ما فى وسعهم وبذلوا غاية جهدهم ولم يدخروا وسيلة فيها مرضاة لربهم إلا فعلوها ، فحق لهم أن ينالوا الفوز والفلاح والسعادة .

(١) سورة الأنعام آية : ٨٨ .
(٢) سورة المائدة آية : ٥ .

وقد هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة فراراً بنفسه وقومه من أذى قريش وفتنتهم فى دينهم بعد أن عاهده أهل المدينة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ، وتبعه المؤمنون فى هجرته ليعتز الاسلام بأهله ويقدروا على الدفاع عن أنفسهم إذا هم اجتمعوا واستمروا على ذلك ، حتى فتح مكة ، وخذل الله المشركين وجعل كلمتهم السفلى وكلمة الله هى العليا .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ ، أى والله واسع المغفرة للتائبين المستغفرين ، عظيم الرحمة بالمؤمنين ، يحقق لهم رجاءهم إن شاء بعميم فضله وعظيم طوله . قال قتادة : هؤلاء خيار هذه الأمة ، قد جعلهم الله أهل رجاء ، ومن رجا طلب ، ومن خاف هرب .

الخمر والميسـر ومسائل أخرى

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

المفردات : ﴿ الخمر ﴾ مأخوذ من خمر الشىء إذا ستره وغطاه سميت بها لأنها تستر العقل وتغطيه .

﴿ الميسر ﴾ : القمار من اليسر ، وهو السهولة ، لأنه كسب بلا مشقة ولا كد . والإثم : الذنب ، ولا ذنب إلا فيما كان ضالاً من قول أو فعل ، والضرر يكون فى البدن والنفس والعقل والمال ، والعفو : الفضل والزيادة على الحاجة .

والعنت : المشقة وما يصعب احتماله ، يقال عنت العظم عنتا إذا أصابه وهن أو كسر بعد جبر .

جاءت هذه الآيات فى سلك الأحكام الشرعية التى تتعلق بالسلوك ؛ ففى سابقتها سألوا عن القتال فى الشهر الحرام ، فجاءت الإجابة الربانية ﴿ قل قتال فيه كبير ﴾ وفى هذه الآية يسألون عن الخمر والميسر ، فجاءت الإجابة الربانية : ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويلعبون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فنزلت الآية ، فقال الناس : ماحُرِّم علينا ، إنما قال : إثم كبير . وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم صلى رجل من المهاجرين وأمّ الناس فى المغرب فخلط فى قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ

منها : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون﴾[١] . ثم نزلت آية أغلظ من ذلك : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان** ﴾ إلى قوله : ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾[٢] ، قالوا : انتهينا ربَّنا .

ولقد شاءت حكمة الله تعالى أن يعالج مسألة الخمر علاجا رتيبا وحكيما ؛ فكان كالنسيم الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

ولننصت الآن إلى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بيِّن لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية التى فى البقرة ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير** ﴾ ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التى فى النساء ، فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التى فى المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ ﴿ **فهل أنتم منتهون ؟** ﴾ قال عمر انتهينا انتهينا[٣] وبين أيدينا ثلاث آيات نزلت فى مسألة الخمر ، وكل آية منها تفيد التحريم لمن تأمل معناها ، فآية البقرة : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر** ﴾ ذكر فيها مولانا جلّت قدرته أن فيهما الإثم الكبير . وما دام الإثم كبيراً فإن هذا يعتبر أصلا من أصول تحريم المحكوم عليه ، فإذا ما انتقلنا إلى آية النساء ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾[٤] رأيناها أيضا تفيد تحريم الخمر ، ذلك لأن أوقات الصلاة متقاربة . والسكر يطول بصاحبه ، فتأتيه الصلاة عقب الصلاة وهو ما زال سكران تعبث الخمر بعقله ، فكيف يجتنب ما نهى الله فى قوله : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ ؟ فالآية فى حقيقتها تفيد النهى عن شرب الخمر ، لأنها تؤدى إلى السكر ، والسكر قد يطول ، وأوقات الصلاة متقاربة فإذا ما انتقلنا إلى آية المائدة : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[٥] ، علمنا أن الآية غنية كل الغنى فى بيان التحريم . ولأول وهلة يدرك قارئها أن فى قوله تعالى ﴿ فاجتنبوه ﴾ما يفيد التحريم البعيد المدى ، أى خذوا جانبا غير الجانب الذى فيه الخمر . فمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يشرب الخمر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر . ومن ثم فقد جاء الأمر بالاجتناب فى أكبر الذنوب والآثام ، بل جاء التعبير به فى ذنب لا يغفره الله ، وهو الشرك ، قال تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[٦] ، وقال تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾[٧] أبعد هذا يقول غافل عن ذكر الله أو جاهل بأحكام الله أو مجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، أو مكابر عن قبول الحق ، يقول : إن تحريم الخمر لم

---

(١) سورة النساء آية : ٤٣ .
(٢) سورة المائدة الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ١٧٠ ، ١٧١ ط الشعب.
(٤) سورة النساء آية : ٤٣ .
(٥) سورة المائدة آية : ٩٠ .
(٦) سورة الحج الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .
(٧) سورة النجم آية : ٣٢ .

يجىء صريحا فى القرآن . وأى حرمة أكبر من التعبير بـ ﴿ اجتنبوه ﴾ ؟ لكأنى أتصور أن هذا الأمر يفيد حرمة المشى أمام خمارة ، لأن الاجتناب يفيد أخذ جانب غير الجانب الذى فيه الخمر ؛ فمن أراد التصريح بالحرمة فليعلم أن الله حكم على الخمر بأنها رجس ، كما فى آية المائدة ، وحكم على الرجس بأنه حرام كما جاء ذلك فى سورة الأنعام فى قوله جلَّ شأنه :

﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلىَّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ﴾[١] . فأنت ترى هنا أن الله تعالى حكم على الرجس بأنه حرام بصريح العبارة ، والخمر رجس . إذن هى بصريح العبارة حرام . وهل غفل هؤلاء المجادلون المكابرون عما جاء فى أحاديث الرسول ﷺ من النصوص الصحيحة فى تحريم الخمر كقوله : (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام)[٢] .

(وعن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر ـ ومن شرب الخمر ترك الصلاة ووقع على أمه وخالته وعمته)[٣] .

(وعن أنس أن رسول الله ﷺ لعن فى الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها وشاربها وحاملها والمحمولة إليه وساقيها وبائعها وآكل ثمنها ، والمشترى لها والمشترى له)[٤] .

(عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[٥] .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (إن الله حرَّم الخمر وثمنها وحرَّم الميتة وثمنها وحرم الخنزير وثمنه) .

وعن عثمان بن عفَّان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اجتنبوا أم الخبائث ، فإنه كان رجل ممن كان قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ، فعلقته امرأة فأرسلت إليه خادما فقالت له : إنا ندعوك لشهادة فدخل فطفقت كلما يدخل بابا أغلقته دونه حتى إذا أفضى إلى امرأة وضيئة جالسة وعندها غلام وباطية فيها خمر ، فقالت : إنا لم ندعك لشهادة ولكن دعوتك لقتل هذا الغلام أو تقع علىَّ أو تشرب كأسا من الخمر ، فإن أبيت صحت بك وفضحتك . قال : فلما رأى أن لا بد له من ذلك قال : اسقينى كأسا من الخمر ، فسقته كأسا من الخمر فقال : زيدينى ، فلم تزل حتى وقع عليها وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع إيمان وإدمان الخمر فى صدر رجل أبدا وليوشكن أحدهما يخرج صاحبه[٧] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ١٤٥ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٦ ط دار الفكر .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٣٧ ط دار الفكر .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى ص ٢ جـ ٤٠٥ ط دار الفكر .
(٥) تفسير ابن كثيرج ٣ ص ١٨٠ ط الشعب .
(١) رواه أبو داود فى سننه فى باب الأشربة ج ٢ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ١٨٠ ط الشعب .

ما الخمر ؟

قال الإمام الشافعى : كلمة الخمر يقصد بها كل شرب مسكر . وساق على ذلك الحجج الآتية :

(١) أن الصحابة ، وهم صميمو العرب ، فهموا من تحريم الخمر تحريم كل مسكر ، ولم يفرقوا بين ما كان من العنب وما كان من غيره .

(٢) ما رواه أبو داود والترمذى من قوله (ﷺ) : (كل مسكر خمر[١]) .

(٣) ما رواه النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : (إن من العنب خمرا ، وإن من التمر خمرا ، وإن من العسل خمرا ، وإن من البُر خمرا ، وإن من الشعير خمرا) .

(٤) ما أخرجه البخارى عن أنس قال : حُرمت الخمر حين حرمت ، وما يتخذ من خمر الأعناب إلا القليل ، وعامة خمرنا من البر والتمر[٢] .

قال بعض العلماء : وقد جرى ذكر هذه الأشياء لكونها معهودة فى ذلك العصر ، فكل ما فى معناها من ذرة أو عصارة شجر أو تفاح أو بصل أو نحو ذلك مما يستخرج منه الخمر الآن ، فحكمه حكم هذه الأصناف .

وكما أن الخمر محرمة فى الإسلام فهى محرمة فى المسيحية كذلك وقد استفتت جماعة منع المسكرات رؤساء الديانة المسيحية بالوجه القبلى بجمهورية مصر فأفتوا بما خلاصته : أن الكتب الإلهية جميعها قضت على الإنسان أن يبتعد عن المسكرات ، كذلك استدل رئيس كنيسة السوريين الأرثوذكس على تحريم المسكرات بنصوص الكتاب المقدس . ثم قال : « وخلاصة القول : أن المسكرات إجمالا محرمة فى كل كتاب سواء أكانت من العنب أم من سائر المواد كالشعير والتمر والعسل والتفاح وغيرها »[٣] .

ومن شواهد العهد الجديد فى ذلك قول بولس فى رسالته إلى أهل إفسس (٥ : ٨) : « ولا تسكروا بالخمر الذى فيه الخلاعة » ونهيه عن مخالطة السّكّير ﴿ إكوة !! ﴾ وجزمه بأن السكيرين لا يرثون ملكوت السموات ﴿ غلاه : ٢١ ﴾ ﴿ إكوة ٦ : ٩ : ١٠ ﴾ .

ما أضرارها ؟

جاء فى كتاب « الغذاء والدواء فى القرآن الكريم » وفى كتاب القرآن والطب : إن ضررها على أجزاء الجسم وأعضائه كبير ووخيم ، يتمثل فى الحقائق العلمية الآتية :

١ ـ التأثير على الجهاز الهضمى

تهيج الخمر الغشاء المخاطى للمعدة ، وتغير طبيعة العصير المعدى وتذكر كتب علم المادة الطبية فى تأثير الكحول على المعدة : أن الكحول لا يسبب إفراز العصارات المعوية النشطة الفعالة ، ولكنه يساعد على إفراز

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢٨٦ ط دار الفكر. (٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ١ ص ٤٠ .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٣ ط الشعب .

كمية أكبر قليلا من الحامض لا غير ، ويشل الإفراز المعدى ، ويحدث ضمورا فى الغدد المعدية ، والخمر تؤثر على الزلاليات فى المعدة (كاللحوم) فيجمدها ، وكذلك يفعل مع الببسين فى العصارة المعدية . وتنصح كتب علم المادة الطبية ، بل تأمر ، بعدم استعمال الخمر فى حالات التهاب المعدة . والخمر بجانب ذلك يبلغ تأثيرها إلى مدى يجف معه الفم ، وتعوق إفراز اللعاب . وهكذا نرى كيف تحدث الخمر سوء الهضم ، وتسبب القىء والتهوع ، وتصيب المعدة بالتمدد وتغير طعم الفم إلى غير ذلك من المضار .

٢ ـ التأثير على الجهاز الدورى الدموى والتنفسى :

يظن كثير من الجهلاء أن الدليل على فائدة الخمر للصحة ما يشاهدونه من تورد خدود شاربى الخمر واحمرارها وامتلائها بالدم !! ألا فليعلم هؤلاء أن احتقان وجوههم ما هو إلا مرض وحادث غير طبيعى فى بدنهم ، لأن الخمر تحدث تمدداً كبيرا فى الأوعية الدموية التى على سطح الجسم فيندفع إليها الدم ، ويقل الدم الموجود فى الأوعية التى فى الداخل بانكماشها ، وهكذا تختل الدورة الدموية كما تسبب الخمر ارتفاعا فى ضغط الدم وسرعة فى النبض وفى ضربات القلب . ويضعف القلب نتيجة لتوالى تأثير الخمر عليه وعلى الضغط الدموى الذى يرتفع ثم يهبط . كما تحدث فى الجهاز التنفسى تأثيرات وأعراض عديدة ، من بينها الالتهابات الشديدة المتواصلة فى القصبة الهوائية والرئتين ، مما يسبب ضعفها واحتمال تعرضها للأمراض الصدرية . وقد يسبب الكحول تسكين آلام الذبحة الصدرية ، ولكن هذا التأثير المسكن راجع إلى تخدير مركزى وليس إلى توسيع الأوعية .

٣ ـ التأثير على الكلى :

يتبع تناول الخمر إفراز كمية كبيرة من البول شديد الحموضة ، ويرجع ذلك إلى تثبيط الأعصاب المركزية وليس إلى تأثيرها على الكلى ، ولذلك لا يعتبر مدراً للبول ، وإذا زادت الكمية يكثر إفراز الماء من الكلى بينما يقل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم ، ويرجع ذلك إلى إضعاف إفرازات الغدة الكظرية . إن تناول الخمر لما فيها من الكحول يزيد فى إفراز كمية البول وزيادة حجمه . إلا أنه يكون شديد الحموضة قليل الملوحة ، فهو يزيد فى إفراز الماء فى البول ويقلل إفراز أملاح الصوديوم والبوتاسيوم ، حيث إنه يقلل من افرازات الكظره (الغدة فوق العكوة) التى تعمل إفرازاتها على تنظيم وتنسيق إفراز الأملاح فى البول .

٤ ـ التأثير على الكبد :

تسبب الخمر تأثيراً ساما مباشراً على الكبد ، وقد يحدث التأثير السام فى غضون أربع ساعات من تعاطيها وتهبط كمية الجليكوجين فى الكبد ، وتزيد الدهنيات ، وتهبط كفاءة تمثيل الجلاكتوز ، مما يدل على فساد فى وظائف الكبد ويعقب ذلك تضخمه وتشحمه وقلة إفرازه ، ثم تليف الكبد وعدم مقدرته على القيام بوظائفه الحيوية .

٥ ـ التأثير على الجهاز العصبى المركزى

من أخطر مضار الخمر سواء ما كان منها كحوليا أو مخدرا ، كالأفيون والحشيش ، أنها تؤثر على الجهاز

العصبى وتضعف مراكز المخ العليا الراقية التى تميز الإنسان عن الحيوان . وأما الشعور الكاذب بالمرح والسعادة الذى يحدث لشارب الخمر ، فهو شعور كاذب عارض حيث لا يلبث الحال أن ينعكس فيحدث الخمول فى هذه الأعصاب وينتهى الأمر بتخديرها وتعطيل عملها ، ومن ثم تفسد أجهزة الجسم فتصاب المعدة بالآلام والقرحات وتضعف خلايا الكبد والكلى ، وتؤدى إلى أمراض الكبد والكلى وتليفها ، ويحدث التهاب الأعصاب وتتدهور القوة العقلية ويضطرب الإحساس وقد يعقبه الموت .

والخمر تبعد شاربها عن كل القيم الإنسانية التى يجب أن يتحلى بها الإنسان ، وللخمر آثار وبيلة على المجتمع : فمنها مثلا الضعف البدنى والفساد الخلقى وكثرة الاصابة بالأمراض ، خاصة الأمراض العصبية والعيوب الخلقية وتدفع إلى الإجرام ، كما أن لها أثراً سيئا فى العلاقات العائلية ، لأن الزوج السكير زوج غير صالح وأب غير سليم ، فيرث نسله منه غيه وضعفه ووهنه ، وقد وجد أن كثيرا من حوادث المرور سببها شرب الخمر .

كما أن الانحرافات النفسية والاضطرابات العقلية وفقد القدرة على العمل والتعرض للالتهابات الرئوية ، وكذلك ما تؤدى إليه الخمر من جمود العاطفة ، وعدم التبصر فى العواقب ، ومن الإحصائيات وجد أن ١٧٪ من المحكوم عليهم بالإعدام كان إجرامهم من الخمر و ٤٩٪ من حوادث السرقات و١٥٪ من المشاحنات والعراك سببها الخمر .

ما حد شارب الخمر ؟

الفقهاء متفقون على وجوب حد شارب الخمر ، وعلى أن حده الجلد ، ولكنهم مختلفون فى مقداره : فذهب الأحناف ومالك إلى أنه ثمانون جلدة ، وذهب الشافعى إلى أنه أربعون . روى أن عمر استشار الناس فى حد الخمر ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف « جعله كأخف الحدود ثمانين » ، فضرب عمر ثمانين ؛ وكتب به إلى خالد وأبى عبيدة بالشام .

بم يثبت الحد ؟

يثبت هذا الحد بأحد أمرين :

١ - الإقرار : أى اعتراف الشارب بأنه شرب الخمر

٢ - شهادة شاهدين عدلين .

شروط إقامة الحد :

يشترط فى إقامة حد الخمر الشروط الآتية :

١ - العقل : لأنه مناط التكليف ، فلا يحد المجنون بشرب الخمر ويلحق به المعتوه .

٢ - البلوغ : فإذا شرب الصبى فإنه لا يقام عليه الحد لأنه غير مكلف .

٣ - الاختيار : فإن شربها مكرها فلا حد عليه ، سواء أكان هذا الإكراه بالتهديد بالقتل ، أم بالضرب المبرح أم بإتلاف المال كله ، لأن الإكراه يرفع عنه الإثم . يقول الرسول ﷺ : (رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)(١) ، وإذا كان الإثم مرفوعا فلا حد عليه لأن الحد من أجل الإثم والمعصية .

تحريم الميسر :

وكما حرم الله تعالى الخمر حرم الميسر ، لأنه ضرب من ضروب أكل أموال الناس بالباطل ، وفيه وفى الخمر مجال فسيح لإيقاع العداوة والبغضاء كما فيه صد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وإنما سمى ميسرا لأنه يؤدى إلى الحصول على المال بيسر ودون عناء . وقد تختلف أدواته فقد يكون بالمراهنات ، كما يكون بلعب الورق والنرد « أى الطاولة » وغير ذلك من الألوان التى اخترعها إخوان الشياطين فى سبيل أن يملأوا جيوبهم مالا ، وهم بذلك غافلون عن قوله تعالى : ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾(٢) . وإذا كان فى الخمر والميسر بعض المنافع عن طريق الحصول على المال ، فإن الله تعالى لما حرمهما نزع المنافع منهما ، فلا خير فى شىء يلهى عن ذكر الله ؛ حتى التداوى بالخمر ، قال عنه النبى ﷺ : (ما جعل الله شفاء أمتى فيما حرم عليها)(٣) . فدخل الخمر من البيع والشراء ودخل الميسر ، كذلك حرام ، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع . قال ﷺ (إذا أراد الله بقوم قحطا نادى مناد من قبل الله : ياأمعاء اتسعى يابركة ارتفعى ياعين لا تشبعى)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ . المقصود بالعفو مازاد عن حاجة المالك ، والحاجة تقدر حسب كل شخص وتختلف باختلاف أحوال العباد ، ففى المال زكاة واجبة وفيه صدقات تطوع . أما إذا جاع أحد المسلمين فلا مال لأحد . وأيما أهل محلة باتوا وفيهم جائع برئت منهم ذمة الله . . قال ﷺ (ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم)(٥) .

إن التكافل الاجتماعى فى الإسلام تشريع ربانى شاف كاف واف : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)(٦) بل إن الله تعالى سيسأل العبد يوم القيامة عن ثلاثة أشياء : يقول له : عبدى : مرضت فلم تعدنى ، فيقول العبد : وكيف أعودك وأنت الله رب العالمين ؟ فيقول الله مرض عبدى فلان فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده ؟. عبدى . استطعمتك فلم تطعمنى ، فيقول العبد : وكيف أطعمك وأنت الله رب العالمين ؟. فيقول : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ؟ عبدى : استسقيتك فلم تسقنى ، فيقول العبد : وكيف أسقيك وأنت الله ؟ فيقول الله تعالى : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته ، لوجدت ذلك عندى(٧) ؟

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ١٩ ط الشعب .
(٢) سورة المائدة آية : ١٠٠ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى .
(٥) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٣ ص ٢٨٣
(٦) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ٥٣٢ ط الشعب
(٧) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ج ٤ ص ١٩٠

فما أعظم الإسلام فى رحمته ، وما أجله فى تكافله . والله لو حكمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو طبقنا شريعته لرفرفت راية الإسلام فى كل بلد . ولو عملنا بمنهج الإسلام ما رأيت فى الطريق سائلا ولا فى البيوت عاطلا ولا فى السجون قاتلا . إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى . عبدى أنفق أنفق عليك . الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى فإذا بخل وكلائى على عيالى أخذتهم ولا أبالى . . . ولو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ولأقفرت الجفون من المدامع ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو نور الصبح مداد الظلام . فيا أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء وامسحوا دموع الأشقياء ، وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة** ﴾ . المقصود بالآيات هنا الأحكام الشرعية والتفكير هو إعمال النظر فى جزئيات الأمور للوصول بها إلى القضايا الكلية . والإسلام جعل من الدنيا مزرعة للآخرة ، وقد شملت أحكامه الدارين ، وقد بعث النبى ﷺ بأصول العقائد ، فوحد العقائد ولم يفرق القواعد ، وجاء بشرع هو للشعوب البدائية كالوالد الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ؛ جاء بكتاب كالشمس فى ضحاها ، وبسنة كالقمر إذا تلاها ؛ فمن عمل بهما سار فى ضوء النهار إذا جلاها ، ومن أعرض عنهما تخبط فى ظلمات الليل إذا يغشاها . لقد أكمل الله دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام دينا ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾[1] . ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾ . اليتيم هو الصغير الذى مات أبوه دون أن يبلغ الحلم ، وخير البيوت عند الله بيت فيه يتيم يكرم . وقد أشار النبى ﷺ بإصبعين قائلا : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة) [3] . وقد جاء أول حكم فى سورة النساء ، بعد الأمر بتقوى الله ، متعلقا باليتامى ، قال تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴾[4] . والإصلاح لليتامى يكون بحسن تربيتهم والرعاية لأموالهم وصيانة حقوقهم ومراقبة الله فيما يتعلق بشئونهم . وقد كانوا فى الجاهلية يتأذون من مخالطة اليتامى ومؤاكلتهم ، أنفة وحمية ، فرغبهم الله فى مخالطتهم وحسن الإرعاء لهم ، فقال : ﴿ **وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ ، والأخوة فى الله أقوى من أخوة النسب والدم ، قال تعالى : ﴿ **فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾[5] وقال جل شأنه : ﴿ إنما المؤمنون إخوة[6] ﴾ ، ثم حذر من العبث بمال اليتامى فقال : ﴿ **والله يعلم المفسد من المصلح** ﴾ ، ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[7] . فاحذروا عقاب الله ، وارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية حيث كلفكم من الأحكام ما فيه صلاحكم وسعادتكم وعزكم . وأراد بكم اليسر ولم يرد بكم العسر ، ولو شاء الله بكم العنت والمشقة

(١) سورة الجن آية : ١٤
(٢) سورة آل عمران آية : ٨٥ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٤١٦ ط دار الفكر .
(٤) سورة النساء آية : ٢
(٥) سورة آل عمران آية : ١٠٣
(٦) سورة الحجرات آية : ١٠
(٧) سورة النور آية : ٦٣

لشدد عليكم فى الأحكام ، فإنه عزيز لا يُغلب ، وهو يجير ولا يجار عليه ، حكيم لا يعبث . بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف . معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية .

أحكام تتعلق بالزواج

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١)

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه الواحدى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً من قبيلة غنى يقال له مرثد بن أبى مرثد ، وكان حليفاً لبنى هاشم ، إلى مكة ، ليخرج جماعة من المسلمين أسارى بها ، فلما قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق ، وكانت خليلة له فى الجاهلية ، فلما أسلم أعرض عنها ، فأتته وقالت : ويحك يامرثد ألا تخلو ؟ فقال لها : إن الإسلام قد حال بينى وبينك وحرمه علينا ، ولكن إن شئت تزوجتك ، فقالت : نعم . فقال : إذا رجعت إلى رسول الله ﷺ استأذنته فى ذلك ثم تزوجتك . فقالت له : وأبى ، تتبرم ؟ ثم استعانت عليه فضربوه ضربا وجيعا ثم خلوا سبيله ، فلما قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله ﷺ راجعاً وأعلمه الذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى بسببها ، فقال يا رسول الله : أتحل لى أن أتزوجها ؟ فنزلت الآية(١) .

هذه الآيات وما بعدها بيّن الله فيها الأحكام التى تتعلق ببناء الأسرة . فقد عنى الإسلام عناية عظمى ببناء الأسرة عن طريق بناء الفرد ، فقد يكون من السهل بناء المصانع وإنشاء ناطحات السحاب ، ولكن بناء النفوس أهم وأجدى من إنشاء القلاع الصناعية ، لأن النفوس لو هدمت وهزمت من داخلها فلن تقوم فى الدنيا حضارة لقوم أظلمت نفوسهم وأجدبت من الخير فأمست لا غناء فيها . وكأن الإسلام ينادى بأعلى صوته على أهل الأرض ويقول لهم ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(٢) .

فالنفس البشرية كالزجاجة ، إن لم يملأها شىء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، ومن ثم فقد كانت رسالات الأنبياء تركز على بناء النفوس ، ذلك لأن الإسلام يؤمن بالواحد ، فقد كان الصادق المعصوم ﷺ بين الناس رجلاً ، وكان بين الرجال بطلاً ، وكان بين الأبطال مثلاً ﴿ إن إبراهيم كان أمةً ، قانتا لله حنيفا ﴾(٣)

قال تعالى : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج ﴾(٤) . فهذا رجل واحد أشرق الحق فى قلبه ، فقال لموسى : ﴿ إنى لك من الناصحين ﴾(٤) . وهذا

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٥١ ط الأنوار المحمدية .
(٢) سورة النساء آية : ١ .
(٣) سورة النحل آية : ١٢٠ .
(٤) سورة القصص آية : ٢٠ .

آخر يسمى مؤمن يس يقول فيه جل شأنه : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين ﴾(١) ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾(٢)

فهؤلاء رجال والرجال قليل ، فليست العبرة بالكثرة ، إنما العبرة بالرجولة ، وهى عملة نادرة . لقد وقف عمر رضى الله عنه يسأل أصحاب الرسول ماذا يتمنى كل منهم ؟ قال أحدهم : أتمنى ملء المدينة خيلا أغزو بها فى سبيل الله ، وقال آخر : وأنا أتمنى ملءَ المدينة عبيداً أعتقهم فى سبيل الله ، وقال ثالث : وأنا أتمنى مثل أحد ذهبا أنفقه ابتغاء مرضاة الله ، وتمنى آخر وآخر وآخر ، وفى النهاية سألوا عمر : فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ فماذا قال الفاروق المحدث الملهم الذى أجرى الله الحق على قلبه ولسانه ؟ لقد قال فضلاً ، وحكم عدلاً ، قال : وأنا أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبى بكر . يرحمك الله يا أبا حفص ، لقد أصبت كبد الحقيقة .

يارافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيراً عن محبيها
رأى الجماعة لاتشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

فى الوقت الذى ربى فيه الإسلام أبناءه على العقيدة الراسخة والمعنويات العالية والوازع الدينى وتربية الرقابة فى نفس المؤمن ، قامت الحضارة الغربية على التفسخ الأخلاقى والانحلال الاجتماعى وانكار شرائع الله ، حتى قال ماركس : إن الأخلاق قيد لامعنى له ، وقالت سيمون دى بفوار : إن الزواج مبدأ فاضح ، حتى وقف الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون واعترف بتلك الحقيقة فقال : إن الولايات المتحدة لا تعانى أزمة فى السلع إنما تعانى أزمة فى الروح ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع ولكننا فقراء فى الروح . فما أعظم نبى الإسلام وما أكرمه ، وما أحلمه وما أعقله حيث أوجز رسالته فى كلمات فقال : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

وفى هذه الآية : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ﴾ حكم باختيار الزوجة المؤمنة ، ولو كانت أمة فهى عند الله خير من مشركة تعبد صنماً ، أو جاحدة تنكر خالق الوجود ؛ قال ﷺ : (لا تتزوجوا النساء لحسنهن فعسى أن يطغيهن ، ولكن تزوجوهن لدينهن ، ولأمة سوداء ذات دين أفضل)(٣) .

قال ﷺ : (الدنيا متاع وخير متاعها الزوجة الصالحة)(٤) . ثم يبين صلوات الله وسلامه عليه مواصفات تلك الزوجة فقال : (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خير من زوجة صالحة ، إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها أبرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى عرضها ومالك)(٥) . ثم يقول : (إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها قيل لها يوم القيامة أدخلى الجنة من أى أبوابها الثمانية شئت)(٦) .

(١) سورة ياسين آية : ٢٠ .
(٢) سورة غافر آية : ٢٨ .
(٣) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٤ ط وزارة الأوقاف .
(٤) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٥) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٦) الترغيب والترهيب جـ ١ ص ١١١ ط دار الفكر .

وقال صلوات الله وسلامه عليه : (فاظفر بذات الدين تربت يداك)(١) . وكان نبى الله داود على نبينا وعليه الصلاة والسلام يقول : (اللهم إنى أسألك أربعاوأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدناً على البلاء صابرا ، وزوجة تعيننى على أمر دينى ودنياى ، وأعوذ بك من مال يكون وبالاً على ويتمتع به غيرى ، ومن ولد يكون علىّ سيّدا ، ومن جار سوء إن لاقى منى خيراً كتمه وإن رأى منى شراً أذاعه ، ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب) وكما نهى الله المسلمين أن يتزوجوا المشركات فقد نهاهم سبحانه أن يزوجوا المسلمات للمشركين فقال : ﴿ **ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا** ﴾ ؛ قال تعالى : ﴿ لا هن حل لهم ولاهم يحلون لهن ﴾(٢) . وكما ذكر سبحـانه : ﴿ **ولأمـة مؤمنة خير من مشركـة ولو أعجبتكم** ﴾ قـال هنا : ﴿ **ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾ أى ولو أعجبكم منصبه أو جاهه أو حسبه أو ماله . ثم بين الخط الفاصل بين الإيمان والشرك فقال : ﴿ **أولئك يدعون إلى النار** ﴾ ؛ والحياة الزوجية إن بنيت على الإيمان أنبتت الأبناء نباتاً حسناً ، والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، فإن قامت على غير ذلك خبث نباتها . قال تعالى : ﴿ والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾(٣) . وقال سبحانه ﴿ **أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه** ﴾ فكيف يسول الشيطان لنا أن نرجح العرض الفانى من الجمال والمال والحسب ونغفل عن حقيقة الإيمان والسمو الروحى ؟ ما من شك أن الفرق شاسع والفرق بعيد ، فشتان بين الثرى والثريا ، وهيهات هيهات بين السحاب والتراب ، ثم يمن سبحانه على عباده بما بين لهم من النعم فى الأحكام الشرعية فقال : ﴿ **ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ ، فداء الإنسان النسيان ولو تذكر ما خاب سعيه ولا ضل سؤله ولا زلت قدماه .

وقبل أن ننتقل إلى آية المحيض ، نود هنا أن نذكر بعض الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية ، فقد جاء فى كتاب « ذخيرة الواعظ » للعالم الجليل الشيخ إبراهيم عبد الباقى تحت عنوان (السعادة الزوجية) :

نظم الله تعالى بالشريعة الإسلامية حياة الناس جميعاً ، وجعلها صالحة لمعاشهم ومعادهم إلى درجة لم يسبق لها مثيل ، وحسبك قوله تعالى : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ إلى قـوله : ﴿ **أشـد وأبقى** ﴾ .

وإن تخلف المسلمين عن ركب الحضارة الزاحف لم يكن إلا من عدم تمسكهم بأمور دينهم وتقاعدهم عن العمل ، ولا أدل على ذلك مما يحدثنا به التاريخ من أن النهضة العلمية التى يفخر بها أبناء الجيل الحاضر قد وضع أساسها الإسلام بتعاليمه الرشيدة ، فكان شعار المسلمين فى العصور الأولى للإسلام . « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » ، لهذا اتسعت أرضها وفخم أمرها وهيب سلطانها ودان لها أعداؤ ها ، ولم يقم على أرض الله ملك فخم ، ولا سلطان أعظم منها ؛ هذا ولئن أصاب المسلمين نكسة فى الأيام الأخيرة ، فقد أخذوا الآن والحمد لله ، يردون اعتبارهم ويتداركون ما فاتهم . نعم لقد قامت فيهم

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٣ ط.وزارة الأوقاف .
(٢) سورة الممتحنة آية : ١٠ .
(٣) سورة الأعراف آية : ٥٨

يقظة جديرة بالإعجاب ، فتخلصوا من ذل الاستعمار وصاروا أحراراً فى بلادهم كما ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، إلا بقية لا تكاد تذكر ، وعما قليل ستتحرر من ربقة الاحتلال .

فهل لهؤلاء الذين يفخرون بعلومهم أن يخبرونا عما أصاب الإنسانية من تدهور الأخلاق وانتشار الفساد وطغيان المادة وإهمال القيم الروحية والحروب القاهرة التى عمت الكرة الأرضية حتى صارت رجوماً من نار ؟

تعالوا بنا لنريكم حكم الشريعة الإسلامية فى الزواج ، لتعلموا علم اليقين أن الفوضى التى ترونها فى المحاكم وغيرها لم تكن إلا من الانحراف عن تعاليم الإسلام . ولنذكر قولا مجملا فيما يجب فى الزواج من تعاليمه . أمر الله بالزواج ليتعاون الاثنان فى تربية الأولاد ، وهذا ضرورى فى الأجناس البشرية ، لأن حضانة الأولاد تحتاج لمدة طويلة ومطالب عدة ، أما فى الحيوان ففصائله لا تحتاج إلا إلى أمها فى البدء لهذا استغنت عن أبيها بخلاف الأجناس البشرية .

فالزواج من أجل نعم الله على الإنسان فيه دنيا ودين ، وهو سكن للزوج وحرث له ، والزوجة أم أولاده ومهوى فؤاده وموضع سره وحرث له : قال رسول الله ﷺ : (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله)[١] رواه ابن ماجه عن أبى أمامة .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[٢] رواه البخارى وغيره .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)[٣] رواه مسلم وفى رواية : (إنما الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شىء أفضل من المرأة الصالحة) .

أول الأعمال :

أول عمل يعمله الذى يرغب فى الزواج أن يستشير أقرب الناس إليه فيمن يخطبها ، وإن وافقوا يرسل امرأة أمينة لتتعرف على حالتها لعل فيها عيباً يكون مستتراً ، ثم بعد ذلك يسأل من يختلط بعشيرتها من جيران وأقارب عن أصلها وسلوكها ، ثم ينظرها بحضور محارمها : إلى الوجه والكفين فقط ، ثم بعد هذا يقدم الشبكة غير مغال فيها ، وهى من قبيل الهدايا التى قال الرسول ﷺ فيها : (تهادوا ، تحابوا)[٤] وفاتنا أن نذكر قبل الشبكة الاستخارة ، وكيفيتها : « أن يصلى ركعتين من غير المكتوبة ثم يقول : اللهم إنى استخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت

(١) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٠ ط وزارة الأوقاف .
(٢) المصدر السابق ص ٢٩ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٠ .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى ج١ ص ٥١٨ ط دار الفكر .

علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه) خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاقدره لى ، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسميه) شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله » .

أما الذهاب إلى العرافين والمنجمين وضاربى الودع والرمل ليستكشفوا عندهم سر الزواج الخطير أفيه خير فيقدمون عليه أم ضر فيحجمون عنه ؛ فهذا دجل وتضليل ، وفى هذا يقول الأديب :

لعمرك ما تدرى الطوارق بـالحصى ولا زاجرات الطير مـا الله صانـع ؟

وهذا بعد قوله تعالى : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾(١) وقال رسول الله ﷺ : (الطيرة شرك . الطيرة شرك . الطيرة شـرك . وما منا الا وقد وقع فى قلبه شىء من ذلك ـ ولكن الله يذهبه بالتوكل)(٢).

فإذا ما انشرح صدره إلى الزواج يستأذن من ولى أمرها أن يرى كفيها ووجهها بحضرة محرم ، ويتفق على المهر المناسب من غير غلو فيه ، ولا فيما وراءه من شبكة وغيرها ، وكما لا يفوته أن يتفق مع أهلها أن تزف إليه ليفض بكارتها وحده بينه وبينها .

نتائج إهمال هذه الأمور :

[**أولاً**] : من الناس من يستبدل النظر إلى خطيبته بمعاشرتها مدة ، حتى يتعرف على سلوكها قبل زفافها إليه ، ولكن دلت التجارب أن هذه المخالطة تنتهى إلى فضائح تجلب عاراً للعائلة لا يمحى وتكسد سوق الزواج لها ، ولم ينج من هذه المأساة الخلقية إلا القليل ، وحسبنا فى ذلك ماترويه عناوين الصحف صباحاً ومساءً مما يندى له الجبين وتقشعر منه الأبدان .

[**ثانياً**] يتغالى بعض الناس فى الحجاب فلا يسمح للخطيب أن يرى خطيبته ، ويرى أن هذا من الدين ، وهذا جهل فادح ، إذ أن هذا النظر يكشف عما بينهما من خصائص روحية تارة تتفق وتارة تختلف ، وليس للجمال فيها أى مدخل . يوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ : (الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وماتناكر منها اختلف)(٣) رواه مسلم وغيره .

وقد أمر رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة فقال له : (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)(٤) رواه النسائى وغيره . ومعنى يؤدم بينكما : تدوم المحبـة بينكما ، ونتيجـة عدم النـظر تؤدى غالبـاً إلى الفشل والطلاق .

[**ثالثاً**] استبدال النظرة بالصورة الشمسية ، فإنها لا تحقق المعنى المقصـود ، لأن الصورة تخـالف الأصل بكثير .

---

(١) سورة النمل آية : ٦٥
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٤ ص ٣٣ ط وزارة الأوقاف
(٣) نيل الأوطار للشوكانى جـ ٦ ص ٩٤ ط مصطفى البابى الحلبى
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٨٦ ط دار الفكر

[رابعاً] : التغالى فى المهر والجهاز . ولقد نجم عن ذلك أضرار جمة : منها إحجام الشباب عن الزواج مما كان سبباً فى فساد الشبان وبوار الفتيات ، ومنها الاستدانة ، فيبدأ الزوج حياته بالهم الدائم والعذاب الواصب وتكليف ولى الأمر مالا طاقة له به ، فيظل أبو العروس يقاسى مضض الدين وآلامه ، ويكون معظم الجهاز قد فنى وتبدد .

علام هذا كله ؟ والرسول ﷺ يقول : (خير الصداق أيسره)(١) ، وقال أيضاً (إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤونة)(٢) . ويقول الله تعالى : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾(٣) .

وهذه الآية لا تدل على الغلوّ فى المهر ، لأن المقصود منها على فرض أن المهر قنطار لا يحل أخذ شىء منه ، وهذا مثل قول الرسول ﷺ : (من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيضها ، بنى الله له بيتاً فى الجنة)(٤) .

وبدهى أن مفحص القطاة : أى مكان البيضة ، لا يتصور أن يكون مسجداً .

[خامساً] : إزالة البكارة بالإصبع :

هذا الغشاء الرقيق يفضه الرجل وحده من غير عنتٍ ولا مشقة ، ولقد فشت هذه العادة فى الأرياف ، فتراهم يحضرون نساء جاهلات لهذا الغرض ، ويدخل الزوج بحالة تقشعر منها الابدان فيتملكها الخوف ويتمكن منها الرعب من شدة الصدمة . يرتكبون هذه الجريمة النكراء لا من أجل إزالة البكارة التى لا صعوبة فيها ولا مشقة ، ولكن ليحصلوا من وراء هذه على دم البكارة التى لبسها عليهم إبليس وأعوانه من شياطين الإنس فيظهروا بهذا الشرف المزعوم أمام أعدائهم ومن يتربصون بهم الدوائر ، وقد لا يجدون هذا الدم لكون البكارة غوراء أو لأنها زالت بسبب غير الوطء كمرض أو وثبة أو عترة ، فماذا تكون حال الزوجة المسكينة وحال أهلها ولا ذنب عليها ؟ وقد أثبتت التجارب أن البكارة تارة تكون فى زاوية من زوايا الرحم ، فلا تظهر حتى بعد الولادة ، اطلع على مؤلفنا (ارشاد الأمة) تجد الأدلة واضحة ، واسم الأطباء الشرعيين الذين أثبتوا ذلك ، منهم الدكتور محمد عمار أستاذ الطب الشرعى بكلية الطب بجامعة القاهرة . لهذا نجد بعض البلاد يصطحب فيها النساء دماً مستعارا وبعضهم يصطحب آلة حادة يشق بها عضو التناسل يسترون بذلك موقفهم . وأفضل علاج لهذه المأساة هو ما جاء به النبى ﷺ ، فهو البلسم الشافى والطب الواقى ، وذلك بترك الزوج لزوجته تأتنس به ويأتنس بها ، وتسكن إليه ويسكن إليها ، فتحصل المودة وتصفو القلوب ، ثم تمر هذه العملية بسلام .

[سادساً] : بدع الولائم :

من البدع التى تنافى قوانين الاقتصاد وشريعة الله ، ما نراه من التبذير فى إعداد الولائم للأغنياء دون

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٢٠ ط دار الفكر
(٢) نيل الأوطار للشوكانى جـ ٦ ص ١٤٣ ط مصطفى البابى الحلبى
(٣) سورة النساء آية/ ٢٠
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٨٦ ط دار الفكر

الفقراء ، ولمن لا يحتاجون دون من يحتاجون ؛ وقد ذم الرسول ﷺ هذا الصنيع وعده من شر الأعمال . قال ﷺ : (شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليه الشبعان ويحبس عنه الجائع)[١] رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس ولو أحسنوا هداهم الله ـ لجعلوا ولائمهم عامة ، فشملت الكل ، وعمموا الدعوة ، ولكان خيراً لهم . ومما يزيد الطين بلة أن تقوم طائفة فتغنى بأغنيات يندى لها جبين الفضيلة وتأباها نفس الحر الكريم وتتبرأ منها العزة والكرامة . نعم لا مانع من اللهو البرىء والطربْ الممتع من ذوى صوت حسن أو إلقاء القصائد الفياضة بالمعانى السامية والتى تدعو إلى الأخلاق الفاضلة فلا شىء فيها ، بل هو من المباح فى الأعياد والأفراح والحرب ، وقد أذن فيه رسول الله ﷺ ورخص فيه .

حقوق الزوجة :

أولاً : الإنفاق عليها من غير إسراف ولا تقتير ، لقوله تعالى : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾[٢] .

ثانياً : الكسوة : لقوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾[٣] .

ثالثاً : السكن الشرعى : لقوله تعالى : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾[٤] .

رابعاً : العدل بين الزوجات إذا تعددت : فقد صح حديث رسول الله ﷺ : (من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل)[٥] . والعدل إنما يكون فى النفقة والمبيت وتوابعهما ؛ أما الحب فهو لا يملكه الإنسان كما قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[٦] ، الآية واردة فى الحب . ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك)[٧] يعنى القلب ، فإن لم يستطع فواحدة .

خامساً : إرشادها إلى طريق الحق وإبعادها عن مواطن الشر لقوله تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة ﴾[٨] .

سادساً : معاشرتها بالمعروف : لقوله تعالى : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾[٩] .

وجاء فى خطبة الوداع أنه ﷺ قال : (الله الله فى النساء فإنهن عندكم عوان ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله) .

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ١٦ ط دار الفكر .
(٢) سورة الطلاق آية : ٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .
(٤) سورة الطلاق آية : ٦ .
(٥) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف .
(٦) سورة النساء آية : ١٢٩ .
(٧) الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٥ ط وزارة الأوقاف .
(٨) سورة التحريم آية : ٦ .
(٩) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

وفى البخارى وغيره أنه ﷺ قال : (استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمة كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً)(١) .

وقال ﷺ : (خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى)(٢) .

وأجمع آية فى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾(٣) .

سابعاً : ومن حسن المعاشرة أن يكون باشًا فى وجهها ، فلا يقطب وجهه عند ملاقاتها ، بل يداعبها مداعبة لا تسقط هيبته عندها ، فإن ذلك أطيب لقلبها وأدعى إلى حبها وإخلاصها . قال عمر رضى الله عنه : ينبغى للرجل أن يكون مع أهله مثل الصبى ، وما أحسن وصف أعرابيه لزوجها : كان ضحوكاً إذا ولج ، سكيتاً إذا خرج ، آكلاً ما وجد ، غير سائل عما فقد .

ثامناً : ألا يفشى سرها ، لقوله ﷺ : (إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى أمرأته وتفضى إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه)(٤) رواه مسلم .

تاسعاً : الغيرة عليها ، حماية لها ، وحفظاً لكرامتها . والغيرة من علامات الإيمان ، ومن لا غيرة له لا إيمان له ، ومن الغيرة ألا يصرح بالخلوة معها لأجنبى وان كان أخاً له ، وألا تخرج من البيت لغير الضرورة ، قال على كرم الله وجهه : ألا تستحيون ألا تغارون ، يترك أحدكم امرأته تخرج بين الرجال تنظر إليهم وينظرون إليها . وقالت فاطمة رضى الله عنها : خير للمرأة ألا ترى رجلاً ولا يراها رجل .

عاشراً : تعليمها حقوق الزوجية والعفة والأمانة وتدبير المنزل والعقائد الدينية والعبادات والمعاملات .

حادى عشر : احتمال أذاها . فقد كانت أزواج الرسول ﷺ يراجعنه الكلام وتهجره الواحدة منهن اليوم والليلة حتى صح أنه آلى منهن شهراً كاملاً .

حقوق الزوج :

أولاً : الولاية والرياسة : يؤدبها ويأخذ على يدها حتى لا تخالفه فى معروف ، قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾(٥) وقال تعالى : ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾(٦) والدرجة تقتضى الرياسة ، لأنها حياة اجتماعية ، وكل حياة اجتماعية تحتاج إلى رياسة ، والرجل أجدر بالرياسة ، لأنه أبعد نظراً من المرأة وأقوى إرادة منها وأعلم بالمصلحة وأملك لعواطفه وأقدر على التنفيذ بقوته وماله .

---

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٣٦ ط وزارة الأوقاف.
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٣٥ ط وزارة الأوقاف.
(٣) سورة البقرة آية : ٢٢٨.
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٨١ ط دار الفكر .
(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٦) سورة البقرة آية : ٢٢٨ .

ثانياً : طاعة الزوج فيما يطلب مما لا معصية فيه ، ومن حقـه ألا تخرج إلا بـإذنه ، ومن حقـه إذا أرادها ، ولو كانت على ظهر بعير أو أمام التنور لا تمنعه ، ومن حقه ألا تعطى شيئاً من بيته إلا بإذنه إلا فى الأشياء اليسيرة فيجوز لها إذا غلب على ظنها إرضاؤه ، كذلك من حقه عليها ألا تصوم تطوعاً إلا بإذنه أما الفرض فتصومه ولو بغير رضائه .

ثالثاً : ألا تكلف زوجها ما لا يطيقه ، بل ينبغى لها إذا نزلت به نازلة تواسيه بمالها ، قال تعالى : ﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾[1] .

رابعاً : ألا تدخل أحداً يكرهه زوجها إلى بيته إلا بإذنه ، لقوله ﷺ : (ألا إن لكم عـلى نسائكم حقاً ، ولنسائكم عليكم حقاً . فحقكم عليهن ألا يوطئن فرشكم من تكرهون ، ولا يأذنَّ فى بيـوتكم لما تكرهون)[2] .

خامساً : إظهار البشر له ، فتقابله فرحة مسرورة ملازمة لما يرضيه ، لقوله ﷺ : (خير النساء من إذا نظرت إليها سرّتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك)[3] .

سادساً : أن تصون نفسها وتستر عورتها ، لقوله تعالى : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[4] ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ [5] ، وقوله تعالى : ﴿ ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن ﴾[6] . ودخلت أسماء رضى الله عنها على رسول الله ﷺ فى ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : (يا أسماء ، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه)[7] .

أعرابيه توصى ابنتها ليلة زفافها :

« أى بنية : إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركتها لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغـافل ومعـونة العاقل . أى بنية : إنك فارقت بيتك الذى منه خرجت وعشك الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقريب لم تألفيه ، فكونى له أمة يكن لك عبداً ، واحفظى له خصالاً عشرا : أما الأولى والثانية فاصحبيه بالقناعة وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، أما الثالثة والرابعة : فالتفقد لموضع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ولا يشم منك إلا أطيب ريح . وأما الخامسة والسادسة : فالتفقد لوقت منامه وطعامه ، فإن الجوع ملهبة وتنغيص العيش مغضبة . وأما السابعة والثامنة : فالاحتراس بماله ، والإرعاء على حشمه وعيـاله وملاك الأمر حسن التقدير ، وفى العيال حسن التدبير . وأما التـاسعة والعـاشرة : فـلا تعصى له أمـراً ولا تفشى له سراً ، فإنك إن خالفته أوغرت صدره ، وإن أنت أفشيت سره لم تأمنى غدره . ثم إياك والفرح

(١) سورة النساء آية : ٤ .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٧ ط وزارة الأوقاف .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٢٣ ط ١ دار الفكر .
(٤) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٥٩ .
(٦) سورة النور آية : ٣١ .
(٧) الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكى ج ٢ ص ١٠٤ ط الرابعة .

بين يديه إن كان مهتما ، والكآبة بين يديه إن كان فرحاً ، وكونى أشد الناس له إعظاماً يكن أشدهم لك إكراماً . واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت .

وأخرج النسائى عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلاً قد خضب فاستعدى عليه أهل المرأة عمر ، قالوا حسبناه شاباً . فأوجعه عمر ضرباً وقال : غررت بالقوم .

وروى أيضاً أن بلالاً وصهيباً أتيا أهل بيت من العرب فخطبا إليهم فقيل لهما : من أنتما ؟ فقال بلالٌ : أنا بلال وهذا أخى صهيب ، كنا ضالين فهدانا الله ، وكنا مملوكين فأعتقنا الله ، وكنا عائلين فأغنانا الله ؛ فإن تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسبحان الله . فقالوا : بل تزوجان والحمد لله . فقال صهيب لبلال : لو ذكرت مشاهدنا وسوابقنا مع رسول الله ﷺ . فقال : اسكت ، فقد صدقت فأنكحنا الصدق .

أحكام الحيض

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

المفردات : الحيض : لغة السيلان ، يقال حاض السبيل وفاض وشرعاً : دم ذو أوصاف خاصة يخرج من الرحم فى مدة مخصوصة استعداداً للحمل حين المعاشرة الزوجية إبقاء للنوع البشرى . والأذى : الضرر ، واعتزال النساء فى المحيض : ترك غشيانهن فى هذه المدة . والطهر : انقطاع دم الحيض . والتطهر : هو الاغتسال بالماء إن وجد ولم يمنع منه مانع ، أو التيمم خلفاً عنه عند الشافعى . وقال أبو حنيفة : إن طهرت لأقل من عشرة أيام فلا تحل له إلا إذا اغتسلت ، أو مضى وقت الصلاة والدم منقطع ، وإن طهرت لأكثر مدته ، وهى العشرة ، حلت له ولو لم تغتسل . والحرث : موضع النبت ، أى الأرض التى تستنبت ، شبهت بها النساء لأنها منبت للولد كالأرض للنبات ﴿ أنى شئتم ﴾ أى كيف شئتم من قيام وقعود واضطجاع وإقبال وإدبار ، متى كان المأتى واحداً وهو موضع الحرث .

بعدما بيّن الله تعالى بعض الأحكام المتعلقة بالزواج بالآية السابقة ، ذكر فى هذه الآية أحكاماً أخرى تتعلق أحكاماً بالنساء ، وهو المحيض ، ويتعلق بعضها بالرجال فى المعاشرة الزوجية ، قال تعالى :

﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ ولم يقل ويسألونك عن الحيض ، لأن المحيض لفظ يشمل ثلاثة معان : يشمل الحيض ، ومكان نزوله ، وزمانه وقد أجاب الله تعالى على هذه المعانى الثلاثة فى الآية نفسها . أما عن الحيض فقال تعالى : ﴿ قل هو أذى ﴾ ، وأما عن مكانه فقال تعالى : ﴿ فاعتزلوا النساء فى المحيض ﴾ ، وأما عن زمانه فقال سبحانه : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ . وسوف نذكر هنا الأحكام المتعلقة بالحيض وما ذكره الفقهاء من هذه الأحكام . يقول الإمام أبو حنيفة : ان الحيض دم ينفضه رحم الأنثى البالغة التى لا داء بها ولا حبل ولم تبلغ سن اليأس ، ويحرم به وبدم النفاس : الصلاة والصيام وقراءة آيات من القرآن ومسها إلا بغلاف ، ودخول المسجد ، والطواف ، والجماع ، والاستمتاع إلى ما بين السرة ومنتهى الركبة .

ويقول الفقهاء : إن وقت الحيض لا يبدأ قبل بلوغ الأنثى تسع سنين ، فإذا رأت الدم قبل بلوغها هذه السن لا يكون دم حيض بل دم علة وفساد ، وقد يمتد إلى آخر العمر ، ولم يأت دليل على أن له غاية ينتهى إليها ، فمتى رأت العجوز المسنة الدم فهو حيض .

لونه : يشترط فى دم الحيض أن يكون على لون من ألوان الدم الآتية :

(أ) السواد : لحديث فاطمة بنت أبى حبيش أنها كانت تستحاض ، فقال لها النبى ﷺ : (إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف ، فإذا كان كذلك فامسكى عن الصلاة ، فإذا كان الآخر فتوضئى وصلى فإنما هو عرق)(١) رواه أبو داود .

(ب) الحمرة : لأنها أصل الدم .

(جـ) الصفرة : وهى ماء تراه المرأة كالصديد يعلوه اصفرار .

(د) الكدرة : وهى التوسط بين لون البياض والسواد كالماء الوسخ ، لحديث علقمة بن أبى علقمة عن أمه مرجانة مولاة عائشة رضى الله عنها قالت : « كانت النساء يبعثن إلى عائشة بالدرجة فيها الكرسف (وعاء تضع المرأة فيه طيبها ومتاعها) فيه الصفرة ، فتقول : لا تعجلن حتى ترين القصة البيضاء » رواه مالك . إنما تكون الصفرة والكدرة حيضاً فى أيام الحيض ، وفى غيرها لا تعتبر حيضاً ، لحديث أم عطية رضى الله عنها قالت : كنا لا نعد الصفرة والكدرة بعد الطهر شيئاً .

(هـ) مدته : لا يتقدر أقل الحيض ولا أكثره ولم يأت فى تقدير مدته ما تقوم به الحجة ، ثم إن كانت لها عادة متقررة تعمل عليها ، لحديث أم سلمة رضى الله عنها : أنها استفتت رسول الله ﷺ فى امرأة تهراق الدم فقال : (لتنظر قدر الليالى والأيام التى كانت تحيضهن وقدرهن من الشهر ، فتدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستثفر (أى تشد خرقة على فرجها) ثم تصلى(٢) رواه الخمسة إلا الترمذى ، وإن لم تكن لها عادة متقررة ترجع إلى القرائن المستفادة من الدم ، لحديث فاطمة بنت أبي حبيش المتقدم ، ومنه قول النبى ﷺ : (إذا كان دم الحيضة فإنه أسود يعرف) فدلّ الحديث على أن دم الحيض متميز عن غيره معروف لدى النساء .

---

(١) نيل الأوطار للشوكانى جـ ١ ص ٢٣٦ ط الحلبى . (٢) المصدر السابق .

(و) مدة الطهر بين الحيضتين : اتفق العلماء على أنه لا حد لأكثر الطهر المتخلل بين الحيضتين ، واختلفوا فى أقله ، فقدره بعضهم بخمسة عشر يوماً ، وذهب فريق منهم إلى أنه ثلاثة عشر ، والحق أنه لم يأت فى تقدير أقله دليل ينهض للاحتجاج به .

النفاس :

تعريفه : هو الدم الخارج من قبل المرأة بسبب الولادة ، وإن كان المولود سقطاً .

(مدته) لا حد لأقل النفاس ، فيتحقق بلحظة ، فإذا ولدت وانقطع دمها عقب الولادة ، أو ولدت بلا دم ، وانقضى نفاسها لزمها ما يلزم الطاهرات من الصلاة والصوم وغيرهما ، وأما أكثره فأربعون يوماً لحديث أم سلمة رضى الله عنها قالت : (كانت النفساء تجلس على عهد رسول الله ﷺ أربعين يوماً)[1] رواه الخمسة إلا النسائى ، وقال الترمذى بعد هذا الحديث : قد أجمع أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ والتابعين ومن بعدهم على أن النفساء تدع الصلاة أربعين يوما إلا أن ترى الطهر قبل ذلك ، فإنها تغتسل وتصلى ، فإن رأت الدم بعد الأربعين فإن أكثر أهل العلم قالوا : لا تدع الصلاة بعد الأربعين .

ما يحرم على الحائض والنفساء :

تشترك الحائض والنفساء مع الجنب فى جميع ما تقدم مما يحرم على الجنب ، وفى أن كل واحد من هؤلاء الثلاثة يقال له محدث حدثاً أكبر ، ويحرم على الحائض والنفساء ـــ زيادة على ما تقدم ـــ أمور

(١) الصوم : فلا يحل للحائض والنفساء أن تصوم ، فإن صامت لا ينعقد صيامها ووقع باطلاً ، ويجب عليها قضاء ما فاتها من أيام الحيض والنفاس فى شهر رمضان ، بخلاف ما فاتها من الصلاة ، فإنه لا يجب عليها قضاؤ ه دفعاً للمشقة ، فإن الصلاة يكثر تكرارها بخلاف الصوم ، لحديث أبى سعيد الخدرى قال : خرج رسول الله ﷺ فى أضحى أو فطر إلى المصلى فمر على النساء فقال : (يا معشر النساء تصدقن ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، فقلن : ولم يا رسول الله ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن . فقلن : ما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال : أليست شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلى . قال : فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم ؟ قلن : بلى ، قال : فذلك نقصان دينها)[2] رواه البخارى ومسلم .

وعن معاذة قالت : « سألت عائشة رضى الله عنها فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ قالت : كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ . فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة » رواه الجماعة[3] .

(٢) الوطء : وهو حرام بإجماع المسلمين بنص الكتاب والسنة ، فلا يحل وطء الحائض والنفساء حتى

---

(١) المصدر السابق ص ٢٤٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٤٥ .

تطهر ، لحديث أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوها . ولقد سأل أصحاب النبى ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ ويسألونك عن المحيض ﴾ الآية . فقال رسول الله ﷺ : (اصنعوا كل شىء إلا النكاح)(١) . وفى لفظ إلا الجماع رواه الجماعة إلا البخارى . قال النووى : ولو اعتقد مسلم حل جماع الحائض فى فرجها صار كافراً مرتداً ، ولو فعله غير معتقد حله ناسياً أو جاهلاً الحرمة أو وجود الحيض فلا إثم عليه ولا كفارة ، وإن فعله عامداً عالماً بالحيض والتحريم مختاراً فقد ارتكب معصية كبيرة يجب عليه التوبة منها . وفى وجوب الكفارة قولان : أصحهما أنه لا كفارة عليه ، ثم قال : النوع الثانى أن يباشرها فيما فوق السرة وتحت الركبة ، وهذا حلال بالإجماع ، والنوع الثالث : أن يباشرها فيما بين السرة والركبة غير القبل والدبر . وأكثر العلماء على حرمته . ثم اختار النووى الحل مع الكراهة ، لأنه أقوى من حيث الدليل . انتهى ملخصاً .

والدليل الذى أشار إليه ما روى عن أزواج النبى ﷺ أن النبى كان إذا أراد من الحائض شيئا ألقى على فرجها شيئاً رواه أبو داود(٢) . قال الحافظ إسناده قوى .

الاستحاضة :

١ ـ **تعريفها** : هى استمرار نزول الدم وجريانه فى غير أوانه .

٢ ـ **أحوال المستحاضة** : المستحاضة لها ثلاث حالات :

(أ) أن تكون مدة الحيض معروفة لها قبل الاستحاضة ، وفى هذه الحالة تعتبر هذه المدة المعروفة هى مدة الحيض والباقى استحاضة ، لحديث أم سلمة أنها استفتت النبى ﷺ فى امرأة تهراق الدم فقال : (لتنتظر قدر الليالى والأيام التى كانت تحيضهن وقدرهن من الشهر فتدع الصلاة ثم لتغتسل ولتستثفر ثم تصلى)(٣) رواه البخارى والشافعى . قال الخطابى : هذا حكم المرأة يكون لها من الشهر أيام معلومة تحيضها فى أيام الصحة قبل حدوث العلة ، ثم تستحاض فتهريق الدم ويستمر بها السيلان ، أمرها النبى ﷺ أن تدع الصلاة من الشهر قدر الأيام التى كانت تحيض قبل أن يصيبها ما أصابها ، فإذا استوفت عدد تلك الأيام اغتسلت مرة واحدة وحكمها حكم الطواهر .

(ب) أن يستمر بها الدم ولم يكن لها أيام معروفة ، إما لأنها نسيت عادتها أو بلغت مستحاضة ، ولا تستطيع تمييز دم الحيض ، وفى هذه الحالة يكون حيضها ستة أيام أو سبعة على غالب عادة النساء ، لحديث حمنة بنت جحش قالت : كنت أستحاض حيضة شديدة كثيرة ، فجئت رسول الله ﷺ أستفتيه وأخبره ، فوجدته فى بيت أختى زينب بنت جحش ، قالت فقلت : يارسول الله إنى أستحاض حيضة كثيرة شديدة ، فما ترى فيها ، وقد منعتنى الصلاة والصيام ؟ فقال : (أنعت لك الكرسُف (تلجمى بالقطن) فإنه يذهب

(١) المصدر السابق ص ٢٤٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٢٣٦

الدم . قالت : هو أكثر من ذلك ، قال : فتلجمى . قالت : إنما أثج ثجاً . فقال : سآمرك بأمرين أيهما فعلت فقد أجزأ عنك من الآخر ، فإن قويت عليهما فأنت أعلم ، فقال لها : إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان فتحيضين ستة إلى سبعة أيام فى علم الله ، ثم اغتسلى حتى إذا رأيت أنك قد طهرت واستنقيت فصلى أربعاً وعشرين ليلة أو ثلاثاً وعشرين ليلة وأيامها ، وصومى ، فإن ذلك يجزئك ، وكذلك فافعلى فى كل شهر كما تحيض النساء وكما يطهرن بميقات حيضهن وطهرهن ، وإن قويت على أن تؤخرى الظهر وتعجلى العصر فتغتسلين ثم تصلين الظهر والعصر جميعاً ، ثم تؤخرين المغرب وتعجلين العشاء ثم تغتسلين وتجمعين بين الصلاتين فافعلى ، وتغتسلين مع الفجر وتصلين فكذلك فافعلى ، وصلى وصومى إن قدرت على ذلك وقال رسول الله ﷺ : هذا أحب الأمرين إلىّ)[1] . رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

قال الخطابى تعليقا على هذا الحديث : إنما هى امرأة مبتدئة لم يتقدم لها أيام ولا هى مميزة لدمها . وقد استمر بها الدم حتى غلبها ، فرد رسول الله ﷺ أمرها إلى العرف الظاهر والأمر الغالب من أحوال النساء ، كما حمل أمرها فى حيضها كل شهر مرة واحدة على الغالب من عادتهن ، ويدل على هذا قوله : « كما تحيض النساء ويطهرن بميقات حيضهن وطهرهن » . قال (وهذا أصل فى قياس أمر النساء بعضهن على بعض فى باب الحيض والحمل والبلوغ وما أشبه هذا من أمورهن) .

(جـ) ألا تكون لها عادة ، ولكنها تستطيع تمييز دم الحيض عن غيره ، وفى هذه الحالة تعمل بالتمييز ، لحديث فاطمة بنت أبى حبيش : أنها كانت تستحاض فقال لها النبى ﷺ : (إذا كان دم الحيض فإنه أسود يعرف ، فإذا كان كذلك فأمسكى عن الصلاة ، فإذا كان الآخر فتوضئى وصلى فإنما هو عرض)[2] وقد تقدم .

٣ ـ **أحكامها** : للمستحاضة أحكام نلخصها فيما يأتى :

(ا) أنه لا يجب عليها الغسل لشىء من الصلاة ولا فى وقت من الأوقات إلا مرة واحدة حينما ينقطع حيضها ، وبهذا قال جمهور السلف والخلف .

(ب) أنه يجب عليها الوضوء لكل صلاة لقوله ﷺ فى رواية البخارى : (ثم توضئى لكل صلاة) ، وعند مالك يستحب لها الوضوء لكل صلاة ولا يجب إلا بحدث آخر .

(جـ) أن تغسل فرجها قبل الوضوء وتحشوه بخرقة أو قطنة دفعاً للنجاسة وتقليلا لها ، فإذا لم يترفع الدم بذلك شدت مع ذلك على فرجها وتلجمت واستثفرت ، ولا يجب هذا ، وإنما هو الأولى .

(د) ألا تتوضأ قبل دخول وقت الصلاة عند الجمهور ، إذ طهارتها ضرورية ، فليس لها تقديمها قبل وقت الحاجة .

(هـ) أنه يجوز لزوجها أن يطأها فى حال جريان الدم عند جماهير العلماء ، لأنه لم يرد دليل بتحريم

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

جماعها . قال ابن عباس : للمستحاضة يأتيها زوجها إذا صلت ، الصلاة أعظم . رواه البخارى . يعنى إذا جاز لها أن تصلى ودمها جار ، وهى أعظم مايشترط لها الطهارة ، جاز جماعها . وعن عكرمة بنت حمنة أنها كانت مستحاضة ، وكان زوجها يجامعها . رواه أبو داود . وقال النووى إسناده حسن .

(و) أن لها حكم الطاهرات : فتصلى وتصوم وتعتكف وتقرأ القرآن وتمس المصحف وتحمله وتفعل كل العبادات ، وهذا مجمع عليه .

وحيث قد انتهينا من ذكر أحكام الفقهاء ، ننتقل بعد هذا إلى ماجاء فى تفسير آية المحيض فى كتاب (القرآن والطب) . قال المؤلف :

إن بلاغة القرآن الكريم لاتزال من أكبر معجزاته الخالدة التى حيرت عقول البلغاء ، وأفحمت جهابذة الخطباء ، وأعجزت فطاحل الكتاب والشعراء . نزل القرآن الكريم والعرب لايشق لهم فى البلاغة غبار ، فتحداهم بقوله : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾[1] ، فعجزوا ولجأوا إلى الطعن والنزال حين خذلهم المقال ، واستعانوا ببذاءة اللسان حين خانهم البيان ، فلزمتهم الحجة كما لزمت المصريين حين خذل سحرة فرعون .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾[2] ، كيف أن اللفظ اليسير قد حوى المعنى الكبير ؛ ثم انظر إلى آية المحيض فى جزالة لفظها وسلامة تركيبها كم تحوى من معان سامية ، تنظر إليها من أى جهة فتبهر بصرك وتأخذ عليك عقلك ، فلرجل اللغة فيها مقالات ، وللفقيه جولات ، وللطبيب عجائب وحالات .

وعندما أصل إلى قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ أقف مشدوها ، وقد أسرنى بديع النظم ، وأخذنى جلال المعنى ، وسحرتنى دقة البيان . إن لفظ ﴿ أذى ﴾ ، هذا اللفظ المتواضع فى هذه الآية المعجزة سوف نرى كم يضم من المعانى ، وكم يحوى من الأغراض .

ووالله لقد حاولت أن أجد كلمة تستطيع أن تقوم مقامها أو تحمل حملها فأعيانى البحث ، وسنرى كيف أن أمثال إثم ونجس وضرر . . الخ ، لا تفسر المعنى الطبى الذى تؤديه كلمة ﴿ أذى ﴾ ، وسنرى كيف أن هذه الكلمة فى هذه الآية درة من دررها ومعجزة من معجزاتها .

حكم المحيض عند اليهود :

إن وطء الحائض يحرمه الدين اليهودى تحريماً باتًا ، وقد جاء فى كتبهم : (ولا تقترب إلى امرأة فى نجاسة طمثها لتكشف عورتها) لاويين ١٧-١٩ . بل لم يقتصر الحكم على تحريم الوطء فقط ، بل تعداه إلى الحكم على نجاسة كل ماتمسه الحائض من فراش أو متاع أو ثياب ، بل كل من لمسها من الناس يصير كذلك نجساً ، ويحكم بنجاسة من لامس الحائض سبعة أيام يصير أثناءها منجساً لكل من مسه من الأشياء أو مسه

(١) سورة البقرة آية : ٢٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٧٩ .

من الناس مما هو مفصل فى سفر اللاويين بالأصحاح الخامس عشر حيث يقول : (وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دماً فى لحمها فسبعة أيام تكون فى طمثها وكل من مسها يكون نجساً ، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء ، وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجساً سبعة أيام ، وكل فرش يضطجع عليه يكون نجساً ، وهذا هو الحكم فى اليهودية .

حكمه عند المسيحيين :

أما المسيحيون فإنجيلهم لاينقض هذا الحكم ، بل ينص على أن جميع أحكام التوراة واجب العمل بها ؛ فقد جاء فى كتابهم أن عيسى عليه السلام صرح بأنه ما جاء لينقض الناموس الإسرائيلى ، بل ليكمله . كما جاء فى إنجيلهم على لسان المسيح : (لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ماجئت لأنقض ، بل لأكمل ، فإنما الحق أقول لكم : إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكمل الكل) متى ٥ ـ ١٧، ١٨ . بالرغم من ذلك فإن المسيحيين عموماً لا يرون فى وطء الحائض إثماً .

حد من وطأ الحائض فى الإسلام :

وللخطورة التى تترتب على وطء الحائض أجمع المسلمون على اعتباره محرماً ، عملا بالآية الشريفة . ولو اعتقد مسلم حله كان كافراً ، وإنى أعلم أن كثيرا من المسلمين لايعرفون من الإسلام إلا اسمه ، لايتورعون عن مخالفة أوامر الله تعالى ، بل تراهم يقلدون غير المسلمين تقليداً أعمى لا سبيل فيه للتروى ولا للعقل فيه مجال ، ﴿ مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾(١) ، بل يريدون أن يحوروا كلام الله تعالى حسب أهوائهم المضلة ويفسروه كما يتراءى لعقولهم الطائشة .

والحمد لله أن هذه الفئة قليلة ، هتك الله سترها ووقى المسلمين شرها ، وإلا فما حكمك على دعى فى العلم يحسب أن نهاية المعرفة ترك الدين والتنفير من أحكامه ، ﴿ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾(٢) .

والإسلام يرى أن من يباشر امرأته بالجماع فى المحيض ، وكان ناسيا أو غير عالم بوجود الحيض ، لا إثم عليه ولا كفارة ؛ أما إذا كان متعمداً ، فقد ارتكب معصية . نص الشافعى على أنها كبيرة ووجبت عليه التوبة . قال تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤ هم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾(٣) .

(١) سورة النساء آية : ١٤٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٠٦ .
(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦ .

توجيه النهى للرجال :

والحكمة العظيمة فى توجيهه سبحانه وتعالى النهى إلى الذكور دون الإناث مع اشتراكهما جميعاً فى كل مايترتب على هذا الفعل من الويلات ، وفيما يجره من الأذى والأهوال ، هى لما عرف عن النساء من ضعف الإرادة وقلة الحيلة وخور العزيمة ، ولكون هذا الأمر يكاد يكون فى أيدى الرجال دونهم ، ولكون امتناع أحد الطرفين هو ذاته الامتثال إلى التحريم والاذعان له ، والحكمة كلها فى تكليف أقوى الجنسين وأقدرهما على ضبط النفس ومقاومتها ، والتغلب على العاطفة الجنسية وعدم الاستسلام لها ؛ قال تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾[1] .

دورة الحيض :

وليس يهمنا هنا البحث فى فسيولجيا الحيض ، بل يكفى أن نذكر أن الطمث حالة طبيعية تمر بدورتها بنات حواء عامة ، وهذه الدورة تقبل فى كل شهر قمرى حيث تستغرق عادة من ثلاثة أيام إلى أربعة عشر يوما ؛ ويبتدىء الحيض من السنة الثالثة عشرة إلى الرابعة عشرة من سنى الحياة ، وذلك فى بلادنا المعتدلة الحرارة ، ويستمر الحال هكذا مدة ثلاثين سنة إلى خمس وثلاثين ،ومعنى ذلك أن حياة المرأة التناسلية تنتهى حين تبلغ الأنثى سن الخامسة والأربعين أو الخمسين .

آلام الحيض :

ودورة الحيض ، رغم كونها طبيعية ، إلا أنها تسبب للنساء آلاماً شتى ، فإنهن يجدن عادة فى زمن الحيض انحرافاً فى مزاجهن ، ويشعرن بتعب عام فى أجسامهن ، ويقاسين فى بعض الأحيان آلاماً شديدة فى أصلابهن ، ويعانين حدة فى طبعهن إلى غير ذلك من الآلام التى تعتبر فى ذاتها أعراضاً للطمث . والطمث ، ولو أننا لا نستطيع أن نسميه مرضا بالاصطلاح العلمى ، حالة لا تقل عن المرض خطورة ، من حيث الآلام التى قد تحدثها ، والضعف الجسمانى الذى يترتب عليها ، والأمراض التى تكون الأنثى أثناءها عرضة لها ؛ وهذه الحالة أشبه بالحمل ، قال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن ﴾[2] أى ضعفاً على ضعف كلما كبر حجم الجنين ، ولكن الحيض ، فوق ما يسببه من الضعف ، يسبب للأنثى متاعب قد تبلغ حداً لا يطاق وآلاماً لا تحتمل ؛ خلاف ما تتعرض له من المضاعفات التى سنذكر أمثلة لها .

كثيراً ما تتضاعف أعراض الحيض السالفة الذكر وتشتد وطأتها حتى تعانى منها المرأة آلاماً مبرحة وتعبا شديداً يزيد فى أيامه الأولى ، وقد تشعر الحائض بمغص شديد تصحبه عادة أعراض (هستيرية) قد تنتهى بالإغماء . وإنى أشير إلى هذه الحالة لأن المرأة هى المخلوق الوحيد الذى يقاسى كل هذا العناء وينوء وحده تحت أهوال هذا العبء ؛ ولعل عسر الطمث أكثر الأمراض شيوعاً بين بنات حواء وأشدها ملازمة لهن ، ولعل الواجب يقتضى اعتزال الحائض لما تعانيه وتكتمه أو تبديه من الآلام ، هينها وشديدها ، هذا الأمر هو

(١) سورة النساء آية : ٢٤ .

(٢) سورة لقمان آية : ١٤

بعض ما حوته كلمة ﴿ أذى ﴾ من المعانى المتشعبة ، بل هناك قذارة الدم ورداءة الموضع ، مما يدعو الرجل المهذب أن يكون عفيفاً لا يستعبده هواه ولا تذله نفسه .

عرضة الحائض للأمراض :

إن الجهاز التناسلى للمرأة هو فى الواقع أهم أعضائها ، وإننا نستطيع أن نقرر أن الحالة الطبيعية لها هى الحمل والرضاع ، والحيض يمتنع فى أثناء هذين الزمنين لاحتياج الجسم إلى المدخر من المواد الغذائية ، فيما عدا ذلك يأتى الطمث حتى يتوازن نظام الوارد والمنصرف ، فإذا حصل أى خلل فى الجهاز التناسلى كالالتهابات مثلاً ، اختلفت دورة الحيض وترتب على ذلك عسر الطمث ، وهو ما أشرنا إليه . وسنرى فيما يلى كيف أن الوطء فى الحيض من الوسائل القوية فى إحداثه :

إن المرأة أيام الحيض معرضة لكثير من العلل التى تؤثر تأثيراً ليس مقصوراً على صحتها العامة فقط ، بل على حياتها التناسلية ، ولا يفوتنى أن أذكر أن اضطرابات الحيض أو البرد أثناء دورة الطمث أو الإفراط فى الشهوات من أقوى الأسباب المهيئة لالتهابات المبيض التى تكون أقرب نتيجة مباشرة لها هى العقم ، ولو علمت بالأمراض الخطرة التى تتعرض لها الأنثى من الوطء فى الحيض لرحمت نفسك ورحمتها ، ولأمنت شراً يصيبك ويصيبها . ولعل مباشرة المرأة بالجماع فى أثناء الطمث من أكبر الكبائر ، لأن الضرر لو كان عائدا على الرجل وحده لهان الأمر ولقلنا : أحمق ، يريد بنفسه ضرراً ، ولكنها هى نفسها التى سوف تقاسى الألم الأكبر وتعانى العذاب الطويل . ولا يغيب عن البال أن الضرر لا يقتصر على الرجل والمرأة وحدهما ، بل هو على الهيئة الاجتماعية أشد ويلا وأعظم مصيبة ، فحسبك أنه يسبب قلة النسل ، حتى إذا ما فشا بين الناس قطعه بالكلية ، وعندها تكون الطامة على المجتمع الإنسانى .

الوسط المهبلى وتغيره بالحيض :

إنه فى الأحوال العادية فى أثناء الصحة يفرز المهبل إفرازاً خاصاً لتليينه ، وهذا الإفراز حمضى فى تفاعله وسبب ذلك يرجع إلى احتوائه على حامض اللبنيك ، ويحتوى هذا الإفراز كذلك على جراثيم باسلية عديدة تسمى « باسلات المهبل » ، وبجانب ذلك يعيش نوع من الكائنات الحية الفطرية لا يسبب مرضاً ، ويسمى هذا الفطر « مونيليا كانديدا » ، وهذا الأخير لا يمكنه التكاثر مطلقاً إلا فى وجود باسلات المهبل .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الإفراز ، بما يحتويه ، يمنع نموّ الجراثيم الرمية والصديدية . وإذا تغير هذا الإفراز وأصبح قلوياً أو متعادلاً انعدمت فيه باسلات المهبل والمونيليا جميعا ، وحلت محلها جراثيم أخرى فتاكة ، كالجراثيم العفنة والاستافيلوككس (مكروبات البذور العنبية) ، والاستربتوككس (البذور السبحية) ، وفى بعض الحالات الجونوككس ؛ وكل هذه جراثيم فتاكة تحدث آفات مهبلية ورحمية ، بل قد يمتد ضررها إلى جميع الجهاز التناسلى ، ولكى نقرب إلى الأذهان ماهية هذه الجراثيم نضرب مثلاً بالاستربتوككس ، وهو جرثومة مستديرة الشكل أو بيضية ، يبلغ طولها من سبعة من العشرة من الميكرونات

إلى ميكرون واحد وتتصل هذه الجراثيم بعضها ببعض على هيئة سلاسل مختلفة الطول ، وهذه الجراثيم تتحمل الحرارة القوية حتى درجة ٥٤ سنتجرام ، والاستربتوككس هو العامل المعفن فى بعض الالتهابات البوقية ، كالعنق النفاس مثلا ، حيث وجد فى القيح بين الخلايا البشرية . ولقد وجد أن الإستافيلوكس يعمل عمل الإستربتوككس فى هذه الحالة ، ولقد وجد معه كثيراً ، ولو أن وجوده فى القيح يعد نادراً .

ولقد عثر كل من « شيفر » و« منجه » على الاستربتوككس فى المبيض مسبباً التهاباً مبيضياً حاداً ، ومما هو جدير بالذكر أن الإفراز المهبلى العادى له فعل مطهر شديد المفعول ، وهذا الفعل يعود إلى وجود حامض اللينيك الذى تنتجه الباسلات المهبلية ، فتكون جميع أنواع الالتهابات ناجمة عن هجوم الباكتريا وإصابتها للمهبل . والأسباب المهيئة لهذه الالتهابات هى أية حالة تؤثر فى الإفراز ، فتجعله قلوياً أو متعادلاً .

والحالات التى تحدث ذلك أهمها وجود الدم الذى يحول الوسط الحامضى إلى القلوية أو التعادل ، ووجود الدم يحدث طبيعياً فى أثناء المحيض . ويدعو كذلك إلى تحويل الوسط الحامضى إلى القلوى ، أى مهيج آلى للغشاء المخاطى كوجود أشياء غريبة فى المهبل أو الوطء أثناء الطمث .

أذى وطء المرأة فى أثناء الحيض :

من هنا يتضح لك أن الحيض ، والوطء فى أثناءه ، هو أهم الأسباب المهيئة لالتهاب المهبل ، وهذا أكثر أنواع التهاب المهبل شيوعاً ، وفيه تكبر البابلى ، وتأخذ فى الازدياد فى الحجم حتى ينتهى الأمر بتلف الغشاء المخاطى لها ، وينجم عن ذلك نمو نتوءات على جميع سطح المهبل ، وعند هذه الحالة يسمى الالتهاب اسماً خاصاً ، وهذه الالتهابات تحدث آلاما شديدة فى الحوض مع الشعور بثقل فيه ، وفى الوقت نفسه يظهر رشح وترتفع درجة حرارة الأعضاء التناسلية ويحتقن الغشاء المخاطى ، وفى الأحوال الحادة تجد المصابة آلاما مبرحة وتعانى ورماً شديداً ويلتهب الجهاز التناسلى ويحدث رشح شديد وترتفع درجة الحرارة وتزداد ضربات القلب ، وتظهر أعراض أخرى كثيرة ناشئة عن امتصاص الجسم لمواد سامة .

وأريد أن أوجه النظر إلى مرض غاية فى الخطورة ينشأ عن الالتهاب المهبلى ، هذا المرض يسميه الطب (فجينسمص) ، ويكفى أن تعرف أنه يسبب العقم . ولاشك أن الالتهاب المهبلى هو من أكبر العوامل المسببة للالتهاب الذى يصيب الغشاء المخاطى للمثانة ، فيظهر فيها التهاب شديد ، وتمتاز إذ ذاك بصلابتها ، وتشعر المريضة بالميل إلى التبول مع قلة ما ينزل منه ، ويصبح البول شديد الكدرة مصحوباً بقيح ومدة وبعض الزلال ، وفى الأحوال الحادة جداً يكون مصحوباً بدماء ، وعند فحص البول بالمجهر تجد فيه كثيراً من البكتريا ، وفى الأحوال المزمنة تشاهد تقرحات فى الغشاء المخاطى للمثانة .

إن الجماع هو من وسائل حمل البكتريا إلى داخل المهبل ، وهذا الأمر لم يعرف فى الطب إلا حديثاً ؛ وقد علمنا أن الوسط المهبلى فى أثناء الحيض صالح لنموها . فالجراثيم الصديدية التى توجد فى الالتهابات الحادة المختلفة فى أحوال التقيح والتى تكون مصحوبة دائماً بالمدة لا تعيش مطلقاً إلا فى الوسط القلوى ، ولقد وجد

بالتجارب أنك إذا أدخلت بعض أنواع هذه الجراثيم فى المهبل السليم لا تلبث أن تموت فى ساعات قليلة . وأنواع البكتريا التى ينتظر أن تصيب المهبل هى : الجونوككس ، والاستافيلوككس ، والاستربتوككس ، والباسلس كلاى كميونس . وأنواع مختلفة من الدبلوككس والباكتريا السابروفيتك باسلات الدفتريد ، وهناك ، كذلك ، أصناف مختلفة من الفطر تصيب المهبل وتسبب مرضاً يسمى (ميكونك فجينيتس) ، وأهم أنواع هذه الفطريات هى أونيديم البيكانز ولبتوتركس فجينالز . وأريد أن أقول هنا إن الحيض والوطء فى أثنائه هو من أهم الأسباب المهيئة لتعفن الرحم الذى فضلا عن أنه يسبب العقم ، فهو من أشد الأمراض إيلاما للمرأة ، حيث تقاسى منه آلاما فى الحوض لا تطاق ، فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة والمضاعفات الأخرى الخطرة التى تكون نتيجة ذلك التعفن ، ولعل أهمها إصابة ملحقات الرحم .

منابع العدوى :

والرجل إما أن يكون هو الناقل للعدوى إلى الحائض ، وهو الأكثر وقوعا ، ثم يظهر المرض لوجود الوسط الصالح لنمو الجراثيم المذكورة ، أو تصل هى إليه من الحائض حين تكون العدوى ذاتية ، وذلك لوجود بكتريا مرضية فى المهبل والرحم السليمين فى حالة خمول ، وهذا الخمول لا يلبث أن يتحول إلى نشاط إذا وجد الوسط الصالح لنمو الجراثيم وتكاثرها ، وكل ذلك متوفر طبعاً فى أثناء الحيض من حيث يصاب الرجل .

ومنابع العدوى كثيرة بالرغم من أن بعض الناس قد يظن خلاف ذلك ، وتلك المنابع تشمل الفتحة التناسلية وجميع الأعضاء التى تحف بها ، كالإست والعجان ، وذلك بسبب إفراز العرق والدهن من غدد كل منها ، وهو ما يؤدى إلى تجمع الجراثيم وامتدادها وسهولة غزوها للأعضاء التناسلية ؛ أما الأوساط الآلية فأولها الجماع ، ثم تأتى بعده الملابس والمناشف وغيرها ، بل الهواء والغبار وكل ما ذهب مذهبهما وسائل لإيصال الجراثيم .

الأذى الذى يصيب الرجل :

من ذلك يتضح جليا أن المهبل فى أثناء المحيض عرضة لكل ما ذكرت من الجراثيم المعدية التى تصيب الرجل ، فتحدث عنده التهابات مختلفة فى أعضائه التناسلية ، إذ تمتد الجراثيم إلى داخل القناة البولية ، بل قد تصيب المثانة والحالبين ، بل قد يمتد الالتهاب حتى يصيب غدة كوبر والبروستاتا والحويصلتين المنويتين والخصيتين والبربخ . إن الجماع فى المحيض ينذر الرجل بخطر داهم هو فى غنى عنه وعن مضاعفاته لو عفت نفسه ووعى أمر ربه ، فليست إصابة القناة البولية بالأمر الهين أو الخطب اليسير ، بل هذه الإصابة هى التى تجر ما لا طاقة له به من الآلام والمضاعفات إذا ما ولجت هذه القناة أحدثت التهاباً شديداً يتعذر معه التبول الذى يحدث فى بعض الأحيان آلاماً لا تطاق ومتاعب لا تحتمل ، وهذا الالتهاب يصحبه عادة إفراز مدِّىٍّ شديد يلوث عند اشتداد الحالة بالدماء ، ولا يخفى أن ذلك يكون مصحوباً كذلك بأعراض عامة مختلفة فى جميع أجزاء الجسم كالحمى والقشعريرة ، وذلك بجانب ما يطرأ من الضعف العام والانحطاط فى جميع

الأعضاء . أما إذا امتد الالتهاب إلى المجرى الخلفى ، فهناك تكون الطامة الكبرى ، حيث يكثر القيح الذى تتخلله خيوط من الدماء ، ويصعب التبول وتتضاعف مع ذلك الآلام ويشتد الضعف وتقل الشهية للطعام ، ويسير هذا الحال بجانب الحمى وسرعة ضربات القلب وإجهاده . . . إلخ . . ولأسباب شتى يزمن المرض وتصحبه مضاعفات عامة فى غاية الحدة والخطورة ، فمن ذلك التهاب الحشفة والقلفة مما قد يؤدى إلى حدوث الغنغرينة فيها ، وذلك يكون خاصة فى حالة الانكماش أو الاختناق ، مما يدعو إلى وجوب القيام بعملية البتر حتى لا يتسمم سائر البدن .

وإذا علمت أن مجرى البول ملتصق الجدران حتى أنه لا يظهر بمظهر القناة إلا إذا سرت فيه أجسام غريبة ، كالبول مثلا ، إذا علمت ذلك سهلت عليك معرفة كيفية امتداد الجراثيم المرضية إلى سائر الجهاز التناسلى . وفى المجرى البولى توجد فتحتان لقناتى غدة (كوبر) ، من حيث تصاب الغدة المذكورة فتحدث الآلام الشديدة سواء أكان ذلك عند التبول أم التبرز ، ويحس المصاب ألماً كبيراً عند العجان ، وهو الموضع الذى بين الخصيتين والشرج ، وقد ينتهى الأمر بتقرح الغدة وامتلائها بالقيح . وتوجد فتحات كثيرة لغدد البروستاتا فى الجزء البروستاتى من القناة البولية ، وعند إصابة هذه الغدد تتشنج المثانة ويختل فعلها ، فتشتد الآلام ويصير البول مصحوبا بمدة ودم ، وقد ينتهى الأمر بتقيح البروستاتا مما يستدعى تدخل الجراح ، وهذه العملية من الخطورة بمكان ، ولا يخفى أن حالة المريض إذ ذاك يرثى لها وتعتريه الحمى ، وعند ذلك يختل نظام القلب ، وعند إصابة الحويصلتين المنويتين يشتد الألم فى العجان ويتضاعف هذا الألم عند التبول أو التغوط كما يحدث نفس الأمر عند المشى أو عند مجرد الجلوس ، وعند امتداد الإصابة إلى البربخ والخصيتين يعانى المصاب آلاما متشعبة ، إذ قد يصاب البربخ بالورم حتى يبلغ حجمه بيضة الدجاجة ، وقد ينسد الحبل المنوى الذى قد يستمر انسداده مدى الحياة ، وفى هذه الحالة يتألم المريض عند الوقوف ، وقد تعتريه نوبات هستيرية ، كل هذه الحالات لا ينجو من إحداهامن ركب رأسه وأتى هذا العمل الشائن الذى حكم الشرع بضرره وخطورته وحذر من ويلاته ومصائبه ونهى عن إلقاء النفس بين مخالبه .

ولقد عرف الطب هذا الخطر الداهم للبشر واهتدى إلى أصل أمراضه وعلله ، وقد أشرت إلى كل ذلك إشارة أظن أنها كافية لإعطاء المرء فكرة عامة صحيحة عن مبلغ الأذى الذى ينجم عن الوطء فى المحيض . ليس عدم إصابة رجل وطأ امرأته مرة وهى حائض دليلاً على عدم وجود الأذى ، والعاقل هو الذى يتجنب الشىء الذى يتحتم وصول الضرر إليه منه ، ولكن كثيراً من الناس ، لضعف عقولهم واستهتارهم ، لا يبالون بالضرر حتى يصيبهم . ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾(١) . وكيف يتعامى الإنسان عن آيات ربه ويتغافل عنها ؟ ولقد نبهه إلى سبيل الأمراض والعلل وحذره من الوقوع فى حبائل الرذيلة والفساد وأمره بالمحافظة على جسمه وحثه على تهذيب نفسه وتطهيرها من أدران القبائح والمساوىء حتى يصبح رجلاً كاملاً صحيح الجسم والنفس سعيداً فى الدنيا وسعيداً فى الآخرة ؛ وهل ترى السعادة فى الدنيا غير سلامة الجسم

(١) سورة الأعراف آية : ١٤٦ .

وطهارة الروح وصفاء النفس ؛ الأمر الذى يدعو إليه الدين الإسلامى قال تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴾(١) . إن الالتهاب البسيط فى القناة البولية هو الذى يسبب كل هذه المضاعفات التى ذكرتها ، وكيف لا ؟ وهذا الالتهاب سببه الجراثيم الفتاكة التى سميتها آنفاً ، وليس ببعيد أن يمتد الالتهاب فى الحالبين وقاعدة الكليتين ، حيث يمتنع نزول البول فى الحالة الأولى ، فيترتب عليه التسمم الدموى (يوريميا) ، أما فى الحالة الثانية فالموت هو أقرب النتائج لها .

وإن إصابة البربخ ، فضلاً عن كونها تنشأ عن امتداد الإصابة من القناة البولية ، فهى نتيجة مباشرة كذلك للجماع فى المحيض ، ويجب ألا يغيب عن البال أن كثيراً جداً من أحوال العقم تتسبب عن هذه الإصابة التى تنذر العالم بشر مستطير وتهدد كيانه بخطر داهم .

مما تقدم يستطيع القارىء اللبيب أن يلم بالأذى المتشعب الذى عناه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾ ، ذلك الأذى الذى يحمل بنى آدم ، رجالاً ونساء ، ما لا طاقة لهم به من الآلام والأمراض ، بل ذلك الأذى الذى يترتب عنه عقم المرأة وعقم الرجل جميعاً ، وهو ما يهدد العالم بالفناء والزوال .

وإنى لأظن أنه كاف للمرء أن يذكر الله له ضرر الشىء ليتحاشاه ويتجنبه ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾(٢) . وكيف لا يكون فاسقا من يعصى أمر ربه ويسلك سبيل الغواية الذى حذره منه بعد أن تبين له ضرره وشاهد بعينى رأسه خطورته . قال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾(٣) .

المنع وتقوية الإرادة :

ولا يخفى أن من حكم تحريم المباشرة فى أثناء الطمث تعويد الرجل على الصبر على بعد المرأة مدة من الزمن ، إذ أن الرجل كثيراً ما تدعوه أعماله الخاصة إلى السفر والتغيب عن أهله مدداً مختلفة ، ففى التحريم رحمة به وتقوية لعزيمته ، ولعل ذلك كحكمة الصيام فى تدريب المرء على الصبر على الجوع واحتمال قلة الطعام أو عدمه فى سفره وترحاله وما قد يلاقيه فى أثناء صيامه ، والمنع فى الحالتين تعويد للجسم على احتمال الطوارىء حتى لا يفاجأ البدن بما لم يتدرب عليه ، ولا تؤخذ النفس على غرة منها .

وطء الحيض لا إنبات فيه :

هنالك نقطة أخرى أريد الإشارة إليها إشارة لا تتعدى الحصر ، ولو أنها لها أهمية خلقية كبيرة ، وهى أن الوطء فى ذاته لم يخلقه سبحانه وتعالى لمجرد الشهوة البهيمية ، بل خلقه لغاية هى أسمى بكثير من ذلك ، ألا وهى النسل وحفظ كيان العالم والعمل على عدم فنائه وبواره . وكلنا يعلم ، فضلاً عما تقدم ، أن الوطء

(١) سورة النساء آية : ١٣٤ .
(٢) سورة النساء آية : ٨٧ .
(٣) سورة البقرة آية : ٩٩ .

فى المحيض لا يعقب ولا يحدث حملاً مطلقاً ، بل هو كواضع الشىء فى غير موضعه وكبذر البذور فى أرض قاحلة جرداء لا تنبت زرعاً ولا تأتى بثمر ؛ وحسبك قوله تعالى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾ ، والحرث مكان الإنبات ، وليس فى وقت الحيض تلقيح أو نسل ؛ ولا يظن أحد أن هذا وحده سبب كاف للنهى عن هذا الفعل ، بل هو ، كما ذكرت ، يعطيه مظهر الحيوانية وعدم التعفف وقلة العقل لما بينته من آلام المحيض وقذارة الدم وأضرار الوطء فى أثناء الطمث ا . هـ .

وبعد بيان الجانب الطبى فى دم الحيض وما احتواه من أذى ، نقف خاشعين أمام قول الله تعالى : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾ ، وكيف اقتضت الحكمة الإلهية أن تختتم آية المحيض بالتوبة والطهر ، ذلك لأن الله يعلم ما بالإنسان من ضعف الإرادة أمام نداء الغرائز ، وأن هناك من ضعفاء الإرادة من ينهزم أمام نداء الشهوة ، فيباشر فى الحيض أمام ضعف عزيمته ، فأراد ربك ألا يقنط أحد من رحمته ، ففتح باب التوبة لكل من هوى فى سحيق الرذيلة ومضمار الجريمة فلا يأس من رحمة الله : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾(1) . وكما أنه تعالى يحب التوابين فإنه يحب المتطهرين ، سواء أكان المقصود بالطهارة هنا الطهارة الحسية بالغسل والوضوء أم الطهارة المعنوية كطهارة النفس من الذنوب والمخالفات ، وطهارة القلب من الشحناء والبغضاء ، وسبحان من زكى عقائد المؤمنين فقال فى أول سورة المؤمنون ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ ، وطهر قلوبهم فقال : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ ، وطهر ألسنتهم فقال : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ وطهر أموالهم فقال : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ ، وطهر أعراضهم فقال : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ ، وطهر معاملتهم فقال : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ ووصفهم بالالتزام فى العبادة فقال : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ وحكم لهم حكمه الكريم الذى يفيض رحمة وكرما ويشع نوراً وبهاء وجلالاً وجمالاً وكمالاً فقال : ﴿ أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وما أدراك ما الفردوس ، إنه أعلى الجنات ، سقفه عرش الرحمن جل جلاله .

ونختتم الكلام عن المحيض بما جاء فى كتاب «الإسلام والطب الحديث» قال المؤلف : ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن** ﴾ .

إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة فى الجسم ، مثل الهضم أو التناسل ، أو إفرازات داخلية تنظم أجهزة الجسم وأنسجته إلخ . وهذا النوع يسمى (Secretion)، وهو ضرورى للحياة وليس فيه ضرر . ونوع ليس له فائدة ، بل هو بالعكس يجب افرازه من الجسم إلى الخارج ، وهو مكون من مواد سامة إذا بقيت فى الجسم أضرت به ، وذلك مثل البول والبراز والعرق والحيض ، وهذا النوع يسمى (Excretion). فهذه الآية الكريمة علمت الإنسان ، قبل أن يعرف شيئاً عن أنواع الإفرازات ، أن المحيض أذى وأنه لا يفيد الجسم . وأما الجزء الثانى من الآية الكريمة : ﴿ **فاعتزلوا النساء فى المحيض** ﴾

(1) سورة النساء الآيتان : ٢٦ - ٢٨ .

فسببه أن الأعضاء التناسلية تكون فى حالة احتقان ، والأعصاب تكون فى حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية ؛ فالاختلاط الجنسى يضرها ، وربما منع نزول الحيض كما يحصل كثيرا من الاضطراب العصبى ، وقد يكون سببا فى التهاب الأعضاء التناسلية ، من النساء وقت المحيض . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم ﴾ ، المقصود بهن الزوجات ، والحرث هو مكان الزرع والغرس والنسل . وفى التعبير بالحرث إشارة لطيفة إلى حسن اختيار الزوجة ، فالمكان الطيب ينبت النبات الطيب ، ومن هنا وجب التخير للنطفة ، فإن العرق دساس ، ومن حق الولد على والده أن يستنجب أمه ، إذ البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً .

إيـاك تجنى سكـراً مـن حنـظل فـالشىء يـرجـع فى المـذاق لأصله

كما أن فى كلمة الحرث إشارة إلى مكان المباشرة ، ومن هنا فإن الله تعالى قال بعد ذلك : ﴿ فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ ، ليعلم البشرية أنه لا يؤتى النساء إلا فى هذا المكان الذى حدده الله بالحرث ، ولو شاء لقال : فأتوا نساءكم أنى شئتم ، فحتى يقطع أقاويل الجاهلين العابثين فإنه حدد مكان الحرث للإتيان . قال ﷺ : (ملعون من آتى امرأة فى دبرها)(١) ، وقال : (ملعون من عمل بعمل قوم لوط)(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ أنى شئتم ﴾ ، أى على أى وضع وكيفية ، بشرط أن يكون من حيث أمركم الله وبينه لكم فى قوله نساؤكم حرث لكم . قال جل شأنه : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ ، أى قدموا العمل الصالح ليكون لكم ذخراً يوم العرض على الله ، قال تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾(٣) . ثم أمر تعالى بتقواه فقال : ﴿ واتقوا الله ﴾ ، أى احذروا مخالفته فى ما أمركم به ، فعليكم بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى . ثم قال سبحانه : ﴿ واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ ، فلا مفر من لقائه ، فنفذوا أحكامه ومنها ما جاء فى هذه السورة مما سبق بيانه ، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم . ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الذين رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، بشرهم بالجنة ونعيمها .

الأيمـان

وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾

لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٣٩ ط دار الفكر .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٣٩ ط دار الفكر .
(٣) سورة المزمل آية : ٢٠ .

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾

المفردات : العرضة كالغُرفة : المانع المعترض دون الشيء ، والمراد من الأيمان ، الأمور المحلوف عليها ، كما جاء فى الصحيحين من قوله عليه الصلاة والسلام : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه) . واللغو : ما يقع فى حشو الكلام من الأيمان من غير قصد ولا روية كقول الإنسان : أى والله ، ولا والله ، فهذا ونحوه يسبق إلى اللسان عادة ولا يقصد به عقد اليمين ، فلا يؤاخذ الله به بفرض كفارة ولا بعقاب حتى لا يكون فى ذلك حرج على المؤمنين . والإيلاء : لغة الحلف ، وشرعا حلف الرجل ألا يقرب امرأته إما لمدة معينة أو غير معينة كأن يقول : والله لا أقربك أربعة أشهر ، أو لا أقربك ، والتربص : الانتظار ، وفاءوا : أى رجعوا إلى نسائهم ، وعزموا الطلاق : أى صمّموا فى قصده وعزموا ألا يعودوا إلى ملامسة نسائهم .

فى الآيات السابقة حذّرنا الله تبارك اسمه من الوقوع فى أشياء حرّمها علينا ، كقرب الحائض فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ولا تقربوهن حتى يطهرن ﴾ ، وفى هذه الآيات حذّرنا جلَّ شأنه من الوقوع فى أشياء أخرى تتعلق بالأيمان ، فقال : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، ومعنى عرضة أى مانعا من فعل البر والتقوى والإصلاح بين الناس ، فقد اقتضت رحمة الله الحكيم أن يزيل الموانع والعوائق من طريق البر ، إذ أن صنائع المعروف تقى مصارع السوء . وصاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكئا . فاصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله . فالبر لا يبلى والذنب لا ينسى والديَّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تُدين تُدان .

ازرع جميلا ولو فى غير موضعه ... فلن يضيع جميل أينما زرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به ... فليس يحصده إلا الذى زرعا

ولو كان المانع من فعل الخير حلفا ، فإن الله عظمت حكمته يأمر بفعل الخير ويكفر الحالف يمينه حتى لا تكون اليمين مانعة من البر والتقوى والإصلاح .

قال ﷺ : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه)(١) .

ولما حلف أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، أن يمنع العطاء عن مسطح ، بعد ما خاض مع الخائضين فى حادثة الإفك ، أنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم ﴾ ، كما أنزل : ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾(٢) .

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر . (٢) سورة النور آية : ٢٢ .

قال أبو بكـر : والله إنى أحب أن يغفر الله لى فـأعطاه وأجـزل له العـطاء وكان مسـطح من ذوى القربى . . . قال ﷺ : (أفضل الصدقة ، الصدقة على ذى الرحم الكاشح)[١] ، أى الذى يضمر السوء والحقد والبغضاء ، ذلك لأن فى التصدق عليه هدفين من أسمى الأهداف : أولهما أن المتصدق يجاهد نفسه ، وجهاد النفس فى أعلى مراتب الجهاد ؛ فالنفس هنا تقول : لا تعطه فإنه يضمر لك السـوء ، والله تعالى يقول : اعطه لأغفر لك ، فإن أطعت ربك وعصيت نفسك وأعطيته فأنت ممن قال الله فيهم : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾[٢] .

والهدف الثانى أنك بالعطاء تطفىء غيظ قلبه وتحول سوء نفسه إلى محبة ووفاء ، فتكون قد أصبت الهدفين ، وبهما تنال الرضا من الله ، ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى ﴾[٣] .

وهناك من الأحاديث مايفيد اتباع الخير وترك الشر ولو كان هناك حلف . قال ﷺ : (إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها)[٤] .

وقال أيضا صلوات ربى وسلامه عليه لعبد الرحمن بن سمرة : (يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسـأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك)[٥] .

وقال ﷺ : (لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليدعها وليأت الذى هو خير فإن تركها كفارتها)[٦] .

قوله تعالى : ﴿ والله سميع عليم﴾ ، أى سميع لأقوالكم وأيمانكم ، عليم بنياتكم وما فى قلوبكم . وفى تلك الآية يتجلى جانب الإنسانية فى الإسلام ، فالإسلام خير كله وبر كله وإصلاح كله . (ألا أدلكم على ما هو خير من الصلاة والصدقة والصيام والحج ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين ، فإن قطيعة ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ولكن أقول تحلق الدين)[٧] . ولقد نهى الإسلام نهيا قاطعا وحذَّر تحذيرا شديد اللهجة من الإيقاع بين الناس وإفساد الصلات بينهم . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[٨] ، فسماه الله تعالى فاسقا ولو كان صادقا فى نقل ما يوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، فإن كان كاذبا فقد سماه الله تعالى مشاءً بنميم ، وخرطه فى سلك المنحرفين عن طريق الجادة . قال تعالى : ﴿ ولا تطع كل حـلاف

---

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ١٩٠ ط دار الفكر .
(٢) سورة العنكبوت آية : ٦٩ .
(٣) سورة الليل الآيات : ١٩ - ٢١ .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩٠ ط الشعب .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩٠ ط الشعب .
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩١ ط الشعب .
(٧) الترغيب والترهيب جـ ٣ ص ٣٧٢ ط وزارة الأوقاف .
(٨) سورة الحجرات آية : ٦ .

مهين * همّاز مشّاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم ﴾[١] . قال ﷺ : (لا يدخل الجنة نمّام)[٢] . وقال : (شر الناس منزلة يوم القيامة من يخاف لسانه أو يخاف شره)[٣] ، وقال : (ألا أخبركم بشراركم ؟ قلنا : بلى . قال : من أكل وحده ومنع رفده وضرب عبده . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ولا يغفر ذنبا . ألا أخبركم بشر من ذلكم ؟ من يبغض الناس ويبغضونه)[٤] .

فأنعم بالإسلام وأكرم به وأعظم بتعاليمه :

لـو أن إنـسـانـا تخير مـلـة ... مـا اختـار إلا دينـك الفقـراء
المصلحـون أصابـع جمعت يـدا ... هى أنت بـل أنت اليد البيضـاء
ديـن يُـشـيـد آيـة فى آيـة ... لـبـنـاتـه الـسـورات والأضـواء
الحق فيـه هو الأساس وكيف لا ؟ ... والله جـلَّ جـلالـه الـبـنّـاء

ومن بيان أحكام الإيمان قوله جل شأنه : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ﴾ ، والمقصود باللغو ما يجرى على الألسنة من غير قصد ، كقول الحالف : نعم والله ولا والله . قالت عائشة رضى الله عنها : إن رسول الله ﷺ قال : (اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته كلا والله وبلى والله)[٥] .

وليمين اللغو وجوه نذكرها فيما يلى :

فمن تلك الوجوه ما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : هو الشىء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه .

وقيل : هو الرجل يحلف على الشىء ثم ينساه .

وقال زيد بن أسلم : هو قول الرجل أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا أخرجنى الله من مالى ، وإن لم آتك غدا فهو هذا .

وعن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان . وأن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة .

وفى حديث مرسل ـــ عن الحسن بن أبى الحسن ـــ قال : مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون ـــ يعنى يرمون ـــ ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه ، فقام رجل من القوم فقال : أصبت والله ، وأخطأت والله ، فقال الذى مع النبى ﷺ للنبى ﷺ : حنث الرجل يا رسول الله ، قال : (كلا ، أيمان الرماة لغو ، لا كفارة فيها ولا عقوبة)[٦] .

وعن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث ، فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألنى عن القسمة فكل مالى فى رتاج الكعبة ! فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك !

---

(١) سورة القلم الآيات : ١٠ - ١٢ .
(٢) رياض الصالحين للامام النووى ص ٣٩٣ ط دار التراث العربى .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٧ ط دار الفكر .
(٤) المصدر السابق .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩١ ط الشعب .
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩٢ ط الشعب .

كفر عن يمينك وكلم أخاك . سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يمين عليك ولا نذر فى معصية الرب عز وجل ، ولا فى قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك)(١) .

قال الإمام مالك فى الموطأ : أحسن ما سمعت فى ذلك أن اللغو حلف الإنسان على الشىء يستيقن أنه كذلك ثم يوجد بخلافه فلا كفارة فيه . والذى يحلف على الشىء وهو يعلم أنه فيه آثم كاذب ليرضى به أحدا ويقتطع به مالا ، فهذا أعظم من أن تكون له كفارة .

قوله تعالى : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ ، أى من القصد والنية ، ويشمل ذلك نوعين من الأيمان : اليمين المنعقدة ، أن يحلف على شىء سيفعل ثم لا يفعل . وإنما سميت يمين الغموس لأنها تغمس حالفها فى النار ، لأنه تعمد الكذب على الله ، وتسمى الكاذبة والفاجرة ، وكثيرا ما تقع من شاهد الزور أمام القاضى حتى قال بعض الفقهاء : إنها أعظم من الكفارة فلا كفارة له .

أما اليمين المنعقدة إذا حنث فيها حالفها فلها كفارة ، جاء بيانها فى سورة المائدة . فعلى الحالف أن يراعى ثلاثة أمور : ألا يحلف إلا بالله ، وألا يحلف إلا للضرورة ، وأن يكون صادقا إذا حلف . قال تعالى : ﴿واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون﴾(٢) . أما الذى يحلف بما شاء وبمن شاء فهو الله وحده ، لأنه خالق الأشياء ، يحلف بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، ويحلف بالتين والزيتون وطور سينين والبلد الأمين . ويحلف بالعاديات والصافات والمرسلات والنازعات . كما يحلف بحياة سيد الكائنات محمد ﷺ فيقول : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون﴾(٣) .

قال تعالى : ﴿ والله غفور حليم ﴾ ، حيث تجاوز عن أيمان اللغو مغفرة منه وحلما ، وحيث فتح باب التوبة وشرع الكفارات أمام الأيمان التى فيها كسب للقلوب وقصد ونية ، فهو الغفور الذى يستر الذنوب ويخفيها ، والحليم الذى يتجاوز عن السيئات .

مازلت أُعرف بالإساءة دائما ... ويكون منك الصفح والغفران
لم تنتقصنى إن أسأت وزدتنى ... حتى كأن إساءتى إحسان
منك التفضل والتكرم والرضا ... أنت الإله المنعم المنّان

* * *

يا من له علم الغيوب ووصفه ... ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى ... كرما فليس عليه ثمَّ جناح
تولى الجميل على القبيح تكرما ... أنت الإله الواحد الفتاح

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٩٣ ط الشعب .
(٢) سورة المائدة آية : ٨٩ .
(٣) سورة الحجر آية : ٧٢ .

وهذه أحكام تتعلق بالأيمان ورد ذكرها فى أحاديث الرسول ﷺ :

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت)(١) وعنه رضى الله عنه أنه سمع رجلا يقول : « لا والكعبة » فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حلف بغير الله ، فقد كفر أو أشرك)(٢) .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من حلف على يمين صبر يقتطع بها مال امرىء مسلم هو فيها فاجر لقى الله وهو عليه غضبان)(٣) . قال : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقا من كتاب الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ﴾(٤) .

وعن أبى أمامة إياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة . فقال له رجل : وإن كان شيئا يسيرا يارسول الله ؟ قال : وإن كان قضيبا من أراك)(٥) .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)(٦) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب)(٧) .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)(٨) .

قال الفقهاء فى الأيمان : جمع يمين وهى فى الشرع : تحقيق الأمر أو توكيده بذكر اسم الله تعالى أو صفة من صفاته . أو هو عقد يقوى به الحالف عزمه على الفعل أو الترك . واليمين والحلف والإيلاء والقسم بمعنى واحد . واليمين لا يكون إلا بذكر الله أو صفة من صفاته : سواء أكانت صفات ذات أم صفات أفعال كقوله : والله وعزة الله وعظمته وكبريائه وقدرته وإرادته وعلمه . وكذا الحلف بالمصحف أو القرآن أو سورة أو آية منه .

وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ✽ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾(٩) . ويقول : ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ✽ على أن نبدل خيرا منهم وما نحن بمسبوقين ﴾(١٠) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كانت يمين النبى ﷺ : (لا ومقلب القلوب)(١١) . وعن أبى

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٢٩٧ ط دار الفكر .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٩٦ دار الفكر .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٥٩٦ ط دار الفكر .
(٤) سورة آل عمران آية/٧٧ .
(٥) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٣٠٠ ط دار الفكر .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٩١ ط دار الفكر .
(٧) المصدر السابق .
(٨) المصدر السابق جـ ٢ ص ٧٥٦ .
(٩) سورة الذاريات الأيتان : ٢٢ ، ٢٣ .
(١٠) سورة المعارج الأيتان : ٤٠ ، ٤١ .
(١١) نيل الأوطار للشوكانى جـ ٨ ص ١٨٨ .

سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا اجتهد فى الدعاء قال : (والذى نفس أبى القاسم بيده)[١] .

ايم الله وعمر الله وأقسمت عليك : قسم :

ايمُ الله يمين ، لأنها بمعنى : والله ـ أو : وحق الله . ويمين الله يمين عند الأحناف والمالكية لأن معناها أحلف بالله .

الحلف بأنه غير مسلم ، أو الحلف بالبراءة من الإسلام :

من حلف بأنه يهودى أو نصرانى أو أنه برىء من الله أو من رسوله ﷺ ، إن فعل كذا ففعله . روى أبو داود والنسائى عن بريدة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : (من حلف فقال : إنى برىء من الإسلام فإن كان كاذبا فهو كما قال ، وإن كان صادقا فلن يرجع إلى الإسلام سالما)[٢] وعن ثابت بن الضحاك أن النبى ﷺ قال : (من حلف بغير ملة الإسلام فهو كما قال)[٣]

شرط اليمين وركنها: يشترط فى اليمين : العقل والبلوغ والإسلام وإمكان البر ، والاختيار ، فإن حلف مكرها لم تنعقد يمينه . وركنها : اللفظ المستعمل فيها .

حكم اليمين : حكم اليمين أن يفعل الحالف المحلوف به فيكون بارا . أولا يفعله فيحنث وتجب الكفارة .

أقسام اليمين : تنقسم الأيمان أقساما ثلاثة : اليمين اللغو ـ اليمين المنعقدة ـ اليمين الغموس .

١ ـ **اليمين اللغو وحكمها :** يمين اللغو : هى الحلف من غير قصد اليمين ، كأن يقول المرء : والله لتأكلن أو لتشربن أو لتحضرن . ونحو ذلك لا يريد به يمينا ولا يقصد به قسما ، فهو من مسقط القول . فعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : أنزلت هذه الآية ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم** ﴾ . فى قول الرجل : لا والله . وبلى والله . وكلا والله .

٢ ـ **اليمين المنعقدة وحكمها :** اليمين المنعقدة هى اليمين التى يقصدها الحالف ويصمم عليها ، فهى يمين متعمدة مقصودة وليست لغوا يجرى على اللسان بمقتضى العرف والعادة . وقيل : اليمين المنعقدة هى أن يحلف على أمر من المستقبل أن يفعله . وحكمها : وجوب الكفارة فيها عند الحنث .

يقول الله تعالى : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغوفى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم** ﴾ . ويقول : ﴿ لا يؤ اخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤ اخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون ﴾[٤]

(١) فقه السنة للشيخ سيد سابق جـ ٣ ص ١٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٢ .
(٣) المصدر السابق ص ١٣ .
(٤) سورة المائدة آية : ٨٩ .

٣ ــ اليمين الغموس وحكمها : واليمين الغموس وتسمى أيضا الصابرة ، وهى اليمين الكاذبة التى تهضم بها الحقوق أو التى يقصد بها الغش والخيانة . وهى كبيرة من كبائر الإثم ، ولا كفارة فيها ، لأنها أعظم من أن تكفر ، وسميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم ، وتجب التوبة منها . ورد الحقوق إلى أصحابها إذا ترتب عليها ضياع هذه الحقوق .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾[١] .

روى أحمد رضى الله عنه وأبو الشيخ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (خمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير حق ، وبهت مؤمن ، ويمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق)[٢] وروى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : (الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)[٣] . وروى أبو داود عن عمران بن حصين أن النبى ﷺ قال : (من حلف على يمين مصبورة كاذبا فليتبوأ بوجهه مقعده من النار)[٤] .

لاحنث مع النسيان أو الخطأ :

من حلف ألا يفعل شيئا ففعله ناسيا أو خطأ فإنه لا يحنث لقول الرسول ﷺ : (إن الله تجاوز لى عن أمتى : الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[٥] . والله يقول : ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾[٦]

يمين المكره غير لازمة :

لا يلزم الوفاء باليمين التى يكره المرء عليها ، ولا يأثم إذا حنث فيها للحديث المتقدم ، ولأن المكره مسلوب الإرادة ، وسلب الإرادة يسقط التكليف . ولهذا ذهب الأئمة الثلاثة إلى أن يمين المكره لاتنعقد .

كفارة اليمين :

تعريف الكفارة : الكفارة صيغة مبالغة من الكفر ، وهو الستر ، والمقصود بها هنا الأعمال التى تكفر بعض الذنوب وتسترها حتى لا يكون لها أثر يؤخذ به فى الدنيا ولا فى الآخرة .

والذى يكفر اليمين المنعقدة إذا حنث فيها الحالف : ١ ــ الإطعام ، ٢ ــ الكسوة ، ٣ ــ العتق ، على التخيير ، فمن لم يستطع فليصم ثلاثة أيام مرتبة ترتيبا تصاعديا ، أى تبدأ من الأدنى للأعلى فالإطعام أدناها ، والكسوة أوسطها والعتق أعلاها .

جواز الحنث للمصلحة :

الأصل أن يفى الحالف باليمين . ويجوز له العدول عن الوفاء ، إذا رأى فى ذلك مصلحة راجحة .

---

(١) سورة النحل آية : ٩٤ .
(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٠ .
(٣) المصدر السابق ص ٢١ .
(٤) مصبورة : أى ألزم بها وحبس عليها وكانت لازمة من جهة الحكم .
(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق حـ ٢ ص ٢٣ .
(٦) سورة الأحزاب آية : ٥ .

يقول تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ ، أى لا تجعلوا الحلف بالله مانعا لكم من البر والتقوى والإصلاح . ويقول عز وجل : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾[1] . أى شرع الله لكم تحليل الأيمان بعمل الكفارة . روى أحمد والبخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها ، فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك)[2]

أقسام اليمين باعتبار المحلوف عليه :

وعلى هذا يمكن تقسيم اليمين باعتبار المحلوف عليه إلى الأقسام الآتية :

١ ـ أن يحلف على فعل واجب أو ترك محرم . فهذا يحرم الحنث فيه ، لأنه تأكيد لما كلفه الله به من عبادة .

٢ ـ أن يحلف على ترك واجب أو فعل محرم . فهذا يجب الحنث فيه لأنه حلف على معصية كما تجب الكفارة .

٣ ـ أن يحلف على فعل مباح أو تركه . فهذا يكره فيه الحنث ويندب البر .

٤ ـ أن يحلف على ترك مندوب أو فعل مكروه . فالحنث مندوب ، ويكره التمادى فيه وتجب الكفارة .

٥ ـ أن يحلف على فعل مندوب أو ترك مكروه ، فهذا طاعة لله ، فيندب له الوفاء ويكره الحنث .

الإيلاء

قوله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ .

بعدما بين الله جل ذكره أحكام الأيمان فى الآيات السابقة ، ذكر هنا حكما خاصا يتعلق بيمين الرجل ألا يقرب زوجته ، وهذا ما يسمى بالإيلاء ، وله أحكام يذكرها الفقهاء فيما يلى :

تعريفه : الإيلاء شرعا هو الامتناع باليمين من وطء الزوجة . وقد كان الرجل فى الجاهلية يحلف على ألا يمس امرأته السنة والسنتين والأكثر من ذلك بقصد الإضرار بها ، فيتركها معلقة ، لا هى زوجة ، ولا هى مطلقة . فأراد الله ـ سبحانه ـ أن يضع حدًا لهذا العمل الضار ، فوقّته بمدة أربعة أشهر ، يتروى فيها الرجل ، عله يرجع إلى رشده ، فإن رجع فى تلك المدة أو فى آخرها بأن حنث فى اليمين ولامس زوجته وكفّر عن يمينه فبها وإلا طلق .

مدة الإيلاء : اتفق الفقهاء على أن من حلف ألا يمس زوجته أكثر من أربعة أشهر كان موليا ، واختلفوا فيمن حلف ألا يمسها أربعة أشهر ، فقال أبو حنيفة وأصحابه : يثبت له حكم الإيلاء . وذهب الجمهور ومنهم الأئمة الثلاثة إلى أنه لا يثبت له حكم الإيلاء ، لأن الله جعل له مدة أربعة أشهر وبعد انقضائها : إما الفىء وإما الطلاق .

(١) سورة التحريم آية : ٢ .

(٢) نيل الأوطار للشوكانى جـ ٨ ص ١٩٨ .

حكم الإيلاء : إذا حلف ألا يقرب زوجته فإن مسها فى الأربعة الأشهر انتهى الإيلاء ولزمته كفارة اليمين . وإذا مضت المدة ولم يجامعها ، فيرى جمهور العلماء أن للزوجة أن تطالبه إما بالوطء وإما بالطلاق . فإن امتنع عنهما فيرى مالك أن للحاكم أن يطلق عليه دفعا للضرر عن الزوجة . ويرى أحمد والشافعى وأهل الظاهر أن القاضى لا يطلق وإنما يضيق على الزوج ويحبسه حتى يطلقها بنفسه . وأما الأحناف فيرون أنه إذا مضت المدة ولم يجامعها فإنها تطلق طلقة بائنة ، بمجرد مضى المدة . ولا يكون للزوج حق المراجعة لأنه أساء فى استعمال حقه بامتناعه عن الوطء بغير عذر ، ففوت حق زوجته وصار بذلك ظالما لها . ويرى الإمام مالك أن الزوج يلزمه حكم الإيلاء إذا قصد الإضرار بترك الوطء وإن لم يحلف على ذلك ، لوقوع الضرر فى هذه الحال كما هو واقع فى حالة اليمين .

الطلاق الذى يقع بالإيلاء :

والطلاق الذى يقع بالإيلاء طلاق بائن لأنه لو كان رجعيا لأمكن للزوج أن يجبرها على الرجعة ؛ لأنها حق له ، وبذلك لا تتحقق مصلحة الزوجة ولا يزول عنها الضرر ، وهذا مذهب أبى حنيفة . وذهب مالك والشافعى وسعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن إلى أنه طلاق رجعى ، لأنه لم يقم دليل على أنه بائن ، ولأنه طلاق زوجة مدخول بها من غير عوض ولا استيفاء عدة .

عدة الزوجة المولى منها :

ذهب الجمهور إلى أن الزوجة المولى منها تعتد كسائر المطلقات لأنها مطلقة ، وقال جابر بن زيد : لا تلزمها عدة إذا كانت قد حاضت فى مدة الأربعة أشهر ثلاث حيضات ، قاله ابن رشد ، وقال بقـوله طائفة ، وهو مروى عن ابن عباس ، وحجته أن العدة إنما وضعت لبراءة الرحم ، وهذه قد حصلت لها البراءة .

أحكام تتعلق بالأسرة

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

المفردات : التربص : الانتظار . والقروء : واحدها قُرء (بضم القاف وفتحها) ، يطلق تارة على حيض المرأة وأخرى على طهرها ، ومن ثم قال الحنفية والحنابلة : المراد به الحيض : وقال المالكية والشافعية : المراد

به الطهر ، وما فى أرحامهن يشمل الولد والحيض . والبعولة واحدهم بعل ، وهو الزوج ، والمراد بالدرجة هنا ما جاء فى قوله : ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾[1] .

هذه آية جامعة لأحكام عظيمة تقوم عليها حياة الأسرة ، فبعدما بين الله تعالى حكم الإيلاء وقال : ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾[2] ؛ بين هذا أن المطلقة لا يحل لها أن تتزوج من آخر إلا بعد انقضاء عدتها ، وعلى المطلقة أن تتربص بنفسها ، أى تنتظر حتى تحيض ثلاث مرات إن كانت من ذوات الحيض . ولله تعالى حكمة بالغة فى وجوب العدة . قال الفقهاء : وحكمة مشروعية العدة معرفة براءة الرحم حتى لا تختلط الأنساب بعضها ببعض ، وتهيئة فرصة للزوجين لإعادة الحياة الزوجية إن رأيا أن الخير فى ذلك . كذلك التنويه بفخامة أمر النكاح ؛ حيث لم يكن أمراً ينتظم إلا بجميع الرجال ، ولا ينفك إلا بانتظار طويل ، ولولا ذلك لكان بمنزلة لعب الصبيان ، ينظم ثم يفك فى الساعة . إن مصالح النكاح لا تتم حتى يوطنا أنفسهما على إدامة هذا العقد ظاهراً ، فإن حدث حادث يوجب فك النظام لم يكن بد من تحقيق صورة الإدامة فى الجملة بأن تتربص مدة تجد لتربصها بالا وتقاسى لها عناء .

ولنأخذ الآن فى بيان أحكام العدة : فقد عرفها الفقهاء بأنها مأخوذة من العد والإحصاء : أى ما تحصيه المرأة وتعده من الأيام : والأقراء ، وهى اسم للمدة التى تنتظر فيها المرأة وتمتنع عن الزواج بعد وفاة زوجها أو فراقه لها : وكانت العدة معروفة فى الجاهلية ، وكانوا لا يكادون يتركونها ، فلما جاء الإسلام أقرها لما فيها من مصالح ، وأجمع العلماء على وجوبها لقول الله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ .

وقوله ﷺ لفاطمة بنت قيس : (اعتدِّى فى بيت ابن أم مكتوم) .

وقد بين الفقهاء أنواعها فقالوا العدة أنواع : ١ - عدة المرأة التى تحيض هى ثلاث حيضات . ٢ - عدة المرأة التى يئست من الحيض وهى ثلاثة أشهر . ٣ - عدة المرأة التى مات عنها زوجها وهى أربعة أشهر وعشرا ما لم تكن حاملاً . ٤ - عدة الحامل أن تضع حملها . ونفصل أحكام العدة فيما يلى :

الزوجة إما أن تكون مدخولا بها أو غير مدخول بها .

عدة الزوجة غير المدخول بها : والزوجة غير المدخول بها إن طلقت فلا عدة عليها لقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾[3] .

فإن كانت غير مدخول بها وقد مات عنها زوجها فعليها العدة كما لو كان قد دخل بها لقوله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾[4] ، إنما وجبت العدة عليها وإن لم يدخل بها وفاءً للزوج المتوفى ومراعاة لحقه .

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢٢٦ ، ٢٢٧ .
(٣) سورة الأحزاب الآية : ٤٩ .
(٤) سورة البقرة الآية : ٢٣٤ .

عدة المدخول بها : وأما المدخول بها فإما أن تكون من ذوات الحيض أو من غير ذوات الحيض . فإن كانت من ذوات الحيض فعدتها ثلاثة قروء لقول الله تعالى : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ ، والقروء جمع قرء والقرء : الحيض ، ورجح ذلك ابن القيم ، فقال : إن لفظ القرء لم يستعمل فى كلام الشارع إلا للحيض ولم يجيء عنه فى موضع واحد استعماله للطهر ، فحمله فى الآية على المعهود المعروف من خطاب الشارع أولى بل يتعين ، فإنه قد قال به ﷺ وهو المعبر عن الله وقد بلغه قومه وبه نزل القرآن ، فإذا أورد المشترك فى كلامه على أحد معنييه ؛ وجب حمله فى سائر كلامه عليه إذا لم يثبت إرادة الآخر فى شيء من كلامه البتة ، ويصير هو لغة القرآن التى خوطبنا بها وإن كان له معنى آخر فى كلام غيره ، وإذا ثبت استعمال الشارع للقرء فى الحيض علم أن هذا لغته ، فيتعين حمله عليها فى كلامه ، ويدل على ذلك ما فى سياق الآية من قوله تعالى :

﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ﴾ ،وهذا هو الحيض والحمل عند عامة المفسرين . والمخلوق فى الرحم إنما هو الحيض الوجودى وبهذا قال السلف والخلف ولم يقل أحد أنه الطهر . وأيضاً فقد قال سبحانه :

﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾(١) فجعل كل شهر بإزاء حيضة ، وتعليق الحكم بعدم الحيض لا بعدم الطهر والحيض .

وقال فى موضع آخر : ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾(٢) ، معناه لاستقبال عدتهن لا فيها ، وإذا كانت العدة التى يطلق لها النساء مستقبلية بعد الطلاق ، فالمستقبل بعدها إنما هو الحيض ، فإن الطاهر لا تستقبل الطهر إذ هى فيه وإنما تستقبل الحيض بعد حالها التى هى فيها .

أما عدة غير الحائض . فهى ثلاثة أشهر ، ويصدق ذلك على الصغيرة التى لم تبلغ والكبيرة التى لم تحض سواء أكان الحيض لم يسبق لها أم انقطع حيضها بعد وجوده ، لقول الله تعالى : ﴿ واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائى لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾(٣) .

وتنتهى عدة الحامل بوضع الحمل سواء أكانت مطلقة أم متوفى عنها زوجها لقول الله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾(٤) .

أما المتوفى عنها زوجها فعدتها أربعة أشهر وعشرا ما لم تكن حاملاً لقول الله تعالى : ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾(٥) ، وإن طلق امرأته طلاقاً رجعياً ثم مات

---

(١) سورة الطلاق الآية : ٤ .
(٢) سورة الطلاق الآية : ١ .
(٣) سورة الطلاق آية : ٤ .
(٤) سورة الطلاق آية : ٤ .
(٥) سورة البقرة آية : ٢٣٤ .

عنها وهى فى العدة ، اعتدت بعدة الوفاة لأنه توفى عنها وهى زوجته .

أما انقضاء العدة فيحدث فيما يلى : إذا كانت المرأة حاملاً فإن عدتها تنقضى بوضع الحمل ، وإذا كانت العدة بالأشهر فإنها تحتسب من وقت الفرقة أو الوفاة حتى تستكمل ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر وعشرا ، وإذا كانت بالحيض فإنها تنقضى بثلاث حيضات ، وذلك يعرف من جهة المرأة نفسها .

قـولـه تعـالى : ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن مـا خلق الله فى أرحـامهن إن كنَّ يؤمن بـالله واليـوم الآخر ﴾ . المراد بما خلق الله فى أرحامهن : الحيض والولد كما سبق بيانه ، وتعليق ذلك على الإيمان بالله واليوم الآخر ، لأن هذا الأمر مرجعه إلى إيمان المرأة ومدى خشيتها من الله وخوفها من حسابه ، فعليها أن تكون صادقة فى شأن عدتها ، لا تنقص ولا تزيد ولا تكذب ابتغاء النفقة أو تعجيل الزواج بغير المطلق ، ومن هنا فقد كان الإسلام حريصاً على إبقاء الحياة الزوجية حيث جعل للزوج الذى طلق زوجته طلاقا رجعياً الحق فى أن يراجعها ما دام ذلك فى العدة . قال تعالى : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحاً ﴾ . ومما يشجع على ردها فى العدة أن الشرع الحكيم ألزمها أن تقضى العدة فى بيت الزوجية . قال الفقهاء : يجب على المعتدة أن تلزم بيتها (بيت الزوجية) حتى تنقضى عدتها ، ولا يحل لها أن تخرج منه ولا يحل لزوجها أن يخرجها منه ، ولو وقع الطلاق أو حصلت الفُرقة وهى غير موجودة فى بيت الزوجية ، وجب عليها أن تعود إليه بمجرد علمها :

يقول تعالى : ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربّكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعدَّ حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾[(١)] .

ومن حرص الإسلام على السعادة الزوجية أنه ناشد الرجال أن تتوفر إرادتهم على الإصلاح ، قال تعالى : ﴿ إن أرادوا إصلاحاً ﴾ وقال : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[(٢)] . كما أوصى الزوجات بحسن المعاشرة حيث قال تعالى : ﴿ فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾[(٣)] . وقد نظم الإسلام الحقوق والواجبات بين الزوجين ، فلكل حقوق وعلى كل واجبات ، فمن حق المرأة الإنفاق عليها ، ومن واجباتها التربية والتدبير لأولاد الرجل ، والحرص على ماله بحيث تحفظه فى عرضها وماله . « إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى عرضها ومالك » . وقد بلغ من عناية المسلمين بهذه الحقوق وتلك الواجبات أن ابن عباس كان يقول : إننى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى ، ومن ثم جـاء قولـه تعالى : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ﴾ ، أى لهن من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات ، وتلك عدالة الإسلام النظيفة التى لا تعرف الظلم ولا تهضم الحقوق . أما قوله جل شأنه :﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ فيفسره ، قوله عز وجـل :

---

(١) سورة الطلاق آية : ١ .
(٢) سورة النساء الآية : ١٩ .
(٣) سورة النساء آية : ٣٤ .

﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾[١] ومنها قال الكتاب السوفسطائيون الذين يهرفون بما لا يعرفون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، فإن الله تعالى أقام الوزن بالقسط ولم يخسر الميزان . فهل من حق المرأة أن تكون قيمة على زوجها وقد خلق الله الرجال أقوى جسما وعقلاً ؟ فأى الفريقين أحق بقيادة البيت ؟ لقد خلق الله المرأة أكثر حنانا وعطفا ، وتلك خاصية التربية تحققها على أكمل الوجوه ، فإذا كان الرجل أقوى عقلاً وجسماً فهو الحقيق بالقيام على شئون البيت الخارجية ، وإذا كانت المرأة أكثر حنانا فهى الجديرة بالتربية والتدبير ورعاية الأولاد . والمسئولية فى الإسلام موزعة توزيعاً حكيماً عادلاً ، قال ﷺ : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل فى بيته راع وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها)[٢] . أما ما يردده هؤلاء المتغربون الذين صنعت رؤوسهم فى عواصم الشرق الملحد والغرب المنحل ، فليس هذا تشريفاً أو تكريماً للمرأة ، إنما هو تدمير وتحطيم لها عندما تزاحم الرجال فى أعمال لا شأن لها بها ، وعندما تغادر بيتها وتسلم أطفالها للحاضنات . . إنها بذلك تكون كالطفل الذى يحمل السلاح فى يده ، فيجنى به عليه وعلى غيره ، أما مكانها الصحيح اللائق برسالتها فهو الذى قال فيه الحكيم الخبير : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾[٣] .

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

تلك عدالة الاسلام ، فليست المساواة أن تزاحم المرأة الرجال فى الأعمال ووسائل المواصلات ، وتكشف ما أمر الله تعالى بستره ، إنما العدالة والمساواة فى الحقوق والواجبات ، فلكل من الرجل والمرأة حقوق وعلى كل واجباته . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾[٤] . ومن الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء أن يقال إن هذه الآيات خاصة بأمهات المؤمنين ، وهن نساء رسول الله ﷺ ، ونحن نقول : إن الخطاب فى هذه الآيات موجه إلى نساء المؤمنين وإلا فهل نساء المؤمنين غير مأمورات بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وذكر الله المتمثل فى آياته وسنة رسوله ؟ وهل نساء المؤمنين غير منهيات عن التبرج فى قوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى)[٥] . أما قوله تعالى : ﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾[٦] ، فإن المقصود بلستن هنا ، الثواب والعقاب المتمثل فى قوله جل جلاله : ﴿ يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريماً ﴾[٧] ، جاء بعد ذلك قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾ ، فقد جاءت لستن بعد الثواب والعقاب ، وإلا فكان المنطق يقتضى أن تأتى الآية : ﴿ لستن كأحد من النساء ﴾ بعد تمام الأوامر والنواهى . وقد بين الله تعالى ذلك الأمر بياناً شافياً وهو يحذر من التبرج قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ٢ ص ٢٨٩ ط دار الفكر .
(٣) سورة الأحزاب آية : ٣٣ .
(٤) سورة الأحزاب الآية : ٣٤ .
(٥) سورة الأحزاب الآية : ٣٣ .
(٦) سورة الأحزاب الآية : ٣٢ .
(٧) سورة الأحزاب الأيتان : ٣٠، ٣١ .

المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[١] ، فعطف نساء المؤمنين فى الحكم على أزواج النبى الأمين حتى يقطع المعاذير والحجج الواهية على الذين يمضغون الهواء ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالاً ، يدعون أنهم بذلك أنصار المرأة ، والله يعلم أنهم أعداؤها ومحطموها ومدمروها ، إنهم أقزام يحاولون أن يطاولوا السماء وأن يمدوا إلى الشمس يدا شلاء ، فالسماء والإسلام صنوان ، والشمس وتعاليم الله متلازمان فى الوضوح والصفاء والنقاء والسمو الروحى . وتبارك الله إذ يختم آية الأحكام المتعلقة بالأسرة فيقول : ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ . فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز الذى شرع من الأحكام ما فيه عزة الزوجين وكرامة الأسرة ، حكيماً يضع الأمور فى نصابها ، ويقيم المعايير إقامة لا عوج فيها ولا التواء .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفأ القنديلا

من الذى شرع هذه الاحكام ؟
﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[٢] ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٣] .

أحكام تتعلق بالطلاق

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾

ومن أحكام الحياة الزوجية أحكام تتعلق بالطلاق ، وهو أبغض الحلال إلى الله تعالى كما أخبر بذلك الصادق المعصوم . وقد شرع الله الطلاق ليكون دواء لداء استعصى علاجه ؛ فشريعة الإسلام شريعة عالمية ، فلابد أن يتوافر فى صيدليته كل الأدوية . وقد جعل الله الزواج شركة رأسمالها المودة والرحمة ، وجعله آية من آياته ونعمة من نعمه . قال جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] وقد صحح النبى ﷺ مفاهيم قوم ظنوا أن ترك الزواج مقربة إلى الله فقال : (أما إنى لأتقاكم وأخشاكم لله لكنى أقوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى)[٥] . لكن قد يطرأ على الحياة الزوجية ما يعكر صفوها فتتراكم

(١) سورة الأحزاب آية : ٥٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٤٠ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢١٦ .
(٤) سورة الروم آية : ٢١ .
(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ صـ ١١ .

الغيوم فى سمائها ، عندئذ يعالج الإسلام تلك المنغصات علاجاً حكيماً فيقول : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان علياً كبيرا ﴾(١) فهذه مراتب وأحوال عندما يقع النشوز من المرأة . . تعالج بالوعظ فيذكرها بالله ويذكرها بأقوال رسول الله ﷺ ويذكرها بأولادهما وبالأيام التى مضت وبالنعم التى أنعم الله بها عليهما وأن الحياة لا تخلو من كدر ولكن الله تعالى جعل مع الضيق فرجاً ومع الصبر نصراً ومع كل شدة مخرجاً ومع العسر يسرا ، فالليل مهما طال فلابد له من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

وعليه فى وعظه أن يخوفها من ألسنة السوء وقالة الحاسدين المبغضين ، فإن لم يجد الوعظ طريقه إلى قلبها فليهجرها فى المضاجع ، بحيث لا يفارق المكان الذى تنام فيه إلى مكان آخر ، لأن الله يقول فى المضاجع ولم يقل اهجروهن من المضاجع ، وذلك حتى يستطيع أن يروض سلاح كبريائها الذى تدل به عليه وهو الإغراء بالجنس ، ففى ذلك تهدئة لثورتها إذا ما أرادت أن تضع زوجها فى اليم مكتوفا وتقول له إياك إياك ان تبتل بالماء ، فإن لم يؤثر فيها الهجر ، بأن كانت باردة ، فعليه أن يؤدبها بالضرب الخفيف ، فإن من الطباع طباعاً تقرعها العصى ، كما أن هناك طباعاً تكفيها المقالة . وقد يكون الضرب أهون بكثير من الذهاب إلى المحاكم وساحات القضاء حيث تذاع أسرار البيوت فتلوكها الألسنة ويحدث هناك فجور فى الخصومة ، فيرمى كل من الزوجين الآخر بماليس فيه ؛ وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليا كبيرا ﴾(٢)

هذا إن كان النشوز من جانب المرأة ، أما إن كان من جانب الرجل ، فقد بين الله سبيل الإصلاح فى قوله : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾(٣) فقد يكون الرجل من الذين يصلحهم المال إن كانت زوجته ذات مال فلا بأس أن تطفىء غضب قلبه ببذل شىء من مالها ، فقد طبعت النفوس على الشح وجبلت على البخل إلا ما رحم ربى ، فبذل المال أهون من تحطيم صرح الزوجية وتركه قاعاً صفصفا تنعق فوقه البوم والغربان بعد ما كان روضة غناء ، تصدح فوق أشجارها بلابل السعادة . أما إن كان النشوز من الزوجين كليهما فإن الله جلت قدرته بيّن سبيل الإصلاح فى قوله : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان علياً خبيراً ﴾(٤) . وما أجمل ما كان يفهمه عمر بن الخطاب من كتاب الله ، فقد كان محدثاً ملهماً نافذ البصيرة عميق الفهم قوى الحجة عبقرى الفؤاد صائب الرأى ثاقب الفكر . حدث أن أرسل حكمين ليصلحا بين زوجين ولكنهما عادا ولم يصلحا ، فعلاهما بدرته ، أى عصاه ، قالا : يا أمير المؤمنين وما ذنبنا إذا لم يصطلحا ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لو كان فى نيتكما أن يصطلحا لأصلح الله بينهما ، ألم تقرأ قوله تعالى : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ . وما أمس حاجة المسلمين فى هذا العصر الذى تقطعت فيه أواصر المحبة وتمزقت

(١) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٢) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٣) سورة النساء آية : ١٢٨ .
(٤) سورة النساء آية : ٣٥ .

فيه وشائج الألفة ، وما أمس حاجتهم إلى المصلحين الذين طهرت قلوبهم من الحقد وأيديهم من الرشوة وثيابهم من الدنس ، الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[1] .

فإذا لم يجد الوعظ والهجر والضرب سبيلاً إلى قلب المرأه الناشز ، ولم يجد الصلح وبذل المال سبيلاً إلى قلب الزوج الناشز ، ولم يجد التحكيم سبيلاً إلى قلب كل منهما ، فهل يترك الإسلام الموقف بينهما جامداً متحجراً كالماء الراكد حتى يعتدى كل منهما على الآخر للتخلص منه إما بالقتل أو الضرب المبرح أو إذاعة الأسرار التى حرم الله نشرها ، قال ﷺ : (إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة والمرأة تفضى إلى الرجل ثم ينشر كل منهما حديث الآخر[2]) . إن الإسلام لا يعرف السلبية ، بل هو إيجابى فى الخير دائماً ، هل يترك الزوجين متنازعين متنافرين متناحرين ، إن هذه سلبية قاتلة ، إن الإسلام فى علاج مشاكل الدنيا كالنسيم الهادىء يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالحرارة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته ﴾[3] ، فتأمل هذا التعبير العظيم الذى يعبر عن الطلاق بالتفرق ليشعر كل من الزوجين بمرارة الفرقة ، وعندئذ يحن كل منهما إلى الآخر فيكون الوفاق ويقع الإصلاح . وقد بلغ من حساسية الإسلام فى تلك المواقف أنه لا ينتظر وقوع البلاء ، بل إنه بمجرد الخوف من شبح المشكلة يدعو إلى إصلاحها قبل أن يصير الشرر ناراً عظمى فيقول تعالى فى حق تعدد الزوجات : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[4] ، بمجرد الخوف ، ويقول : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾[5] ، ويقول : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما ﴾[6] ، ويقول : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً ﴾[7] ، وعندما يعين الطلاق علاجا لداء استعصى علاجه قال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ ، أى مرة بعد مرة ، فقد يأتى الله بالفرج الذى قال فيه : ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾[8] ثم يقول تعالى : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾[9] ولحكمة أرادها الله يقول فى سورة الطلاق : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾[10] ، ويقول جلت قدرته : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾[11] . ويقول عظمت حكمته : ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾[12] ويقول وسعت رحمته فى نفس السورة :

(١) سورة الأحزاب آية : ٣٥ .
(٢) حديث شريف .
(٣) سورة النساء آية : ١٣٠ .
(٤) سورة النساء آية : ٣ .
(٥) سورة النساء آية : ٣٤ .
(٦) سورة النساء آية : ٣٥ .
(٧) سورة النساء آية : ١٢٨ .
(٨) سورة الطلاق آية : ١ .
(٩) سورة الطلاق آية : ١ .
(١٠) سورة الطلاق الآيتان : ٢ ، ٣ .
(١١) سورة الطلاق الآيتان : ٤ ، ٥ .
(١٢) سورة الطلاق آية : ٧ .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا ﴾[١] .

هذا هو الإسلام وتلك عظمته ، ما أمر بشىء وقال العقل ليته ما أمر ، وما نهى عن شىء وقال العقل ليته ما نهى .

وللطلاق أحكام نبينها فيما يلى :

قال الفقهاء فى تعريف الطلاق : هو حل رابطة الزواج وإنهاء العلاقة الزوجية ، ثم يعقب الفقهاء بقولهم : إن استقرار الحياة الزوجية غاية من الغايات التى يحرص عليها الإسلام ، وعقد الزواج إنما يعقد للدوام والتأبيد إلى أن تنتهى الحياة ليتسنى للزوجين أن يجعلا من البيت مهداً يأويان إليه وينعمان فى ظلاله الوارفة وليتمكنا من تنشئة أولادهما تنشئة صالحة .

ومن أجل هذا كانت الصلة بين الزوجين من أقدس الصلات وأوثقها ، وليس أدل على قدسيتها من أن الله سبحانه سمى العهد بين الزوج وزوجته بالميثاق الغليظ فقال : ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظا ﴾[٢] .

وإذا كانت العلاقة بين الزوجين هكذا موثقة مؤكدة ، فإنه لا ينبغى الإخلال بها ولا التهـوين من شأنها ، وكل أمر من شأنه أن يوهن من هذه الصلة ويضعف من شأنها فهو بغيض إلى الإسلام لفوات المنافع وذهاب مصالح كل من الزوجين . فعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق)[٣] ، وأى إنسان أراد أن يفسد ما بين الزوجين من علاقة فهو فى نظر الإسلام خارج عنه وليس له شرف الانتساب إليه ؛ يقول الرسول ﷺ : (ليس منا من خبب[٤] امرأة على زوجها)[٥] .

وقد يحدث أن بعض النسوة يحاول أن يستأثر بالزوج ويحل محل زوجته ، والإسلام ينهى عن ذلك أشد النهى ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قـال : (لا تسأل المـرأة طلاق أختهـا لتستفرغ صحفتها[٦] وتنكح ، فإنما لها ما قدر لها)[٧] . والزوجة التى تطلب الطلاق من غير سبب ولا مقتض حرام عليها رائحة الجنة فعن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : (أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير بأس ، فحرام عليها رائحة الجنة)[٨] . وقد كان الطلاق فى الجاهلية كما ذكرته أم المؤمنين عائشة قالت : كان الرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها وهى امرأته إذا راجعها وهى فى العدة ، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر حتى قال رجل لامرأته : والله لأطلقك فتبينى منى ولا آويك أبداً ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : أطلقك فكلما همت عدتك أن تنقضى راجعتك . فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها فسكتت حتى جاء النبى ﷺ فأخبرته فسكت النبى ﷺ حتى نزل القرآن : **﴿ الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾** قالت عائشة : فاستأنف الناس الطلاق مستقبلاً من كان طلق ومن لم يكن طلق .

---

(١) سورة الطلاق آية : ١١ .
(٢) سورة النساء آية : ٢١ .
(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٤١ .
(٤) خبب : أفسد .
(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٦) أى لتخلى عصمة أختها من الزواج ولتحظى بزوجها .
(٧) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٤٣ .
(٨) المصدر السابق .

وقد جعل الإسلام الطلاق من حق الرجل وحده ، لأنه أحرص على بقاء الزوجية التى أنفق فى سبيلها من المال ما يحتاج إلى إنفاق مثله أو أكثر منه إذا طلق وأراد عقد زواج آخر . وعليه أن يعطى المطلقة مؤخر المهر ومتعة الطلاق ، وأن ينفق عليها فى مدة العدة . ولأنه بذلك وبمقتضى عقله وحكمته يكون أصبر على ما يكره من المرأة فلا يسارع إلى الطلاق لكل غضبة يغضبها أو سيئةٍ منها يشق عليه احتمالها ، وقد تكون المرأة أسرع منه غضباً وأقل احتمالاً وليس عليها من تبعات الطلاق ونفقاته مثل ما عليه ، فهى أجدر بالمبادرة إلى حل عقدة الزوجية لأدنى الأسباب أو لما لا يعد سبباً صحيحاً إن أعطى لها هذا الحق . والدليل على صحة هذا التعليل الأخير أن الإفرنج لما جعلوا طلب الطلاق حقاً للرجال والنساء على السواء كثر الطلاق عندهم فصار أضعاف ما عند المسلمين .

مسائل تتعلق بالطلاق

من يقع منه الطلاق ؟ اتفق العلماء على أن الزوج العاقل البالغ المختار هو الذى يجوز له أن يطلق وأن طلاقه يقع . فإذا كان مجنوناً أو صبياً أو مكرها فإن طلاقه يعتبر لغوا لو صدر منه . لأن الطلاق تصرف من التصرفات التى لها آثارها ونتائجها فى حياة الزوجين ، ولابد من أن يكون المطلق كامل الأهلية حتى تصح تصرفاته . وإنما تكتمل الأهلية بالعقل والبلوغ والاختيار ، وفى هذا يروى أصحاب السنن عن على كرم الله وجهه عن النبى ﷺ أنه قال : (رفع القلم عن ثلاثة : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يعقل)[١] ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (كل طلاق جائز إلا طلاق المغلوب على عقله)[٢] ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما ــ فحين يكرهه اللصوص فيطلق ــ فليس بشىء (البخارى) .

الطلاق قبل الزواج

لا يقع الطلاق إذا علقه على التزوج بأجنبية كأن يقول : إن تزوجت فلانة فهى طالق ، لما رواه الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : (لا نذر لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك)[٣] ، قال الترمذى : حديث حسن وهو أحسن شىء روى فى هذا الباب وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم .

الإشهاد على الطلاق

ذهب جمهور الفقهاء من السلف والخلف إلى أن الطلاق يقع بدون إشهاد ، لأن الطلاق من حقوق الرجل ولا يحتاج إلى بينة كى يباشر حقه ، ولم يرد عن النبى ﷺ ولا عن الصحابة ما يدل على مشروعية الإشهاد ، وذلك لأن الطلاق حق من حقوق الزوج وقد جعله الله بيده ولم يجعل الله لغيره حقاً فيه ، قال

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٤٧ .
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٣ .

تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ ، وقال جل جلاله : ﴿ إذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾ .

قال ابن القيم : فجعل الطلاق لمن نكح لأن له الإمساك وهو الرجعة .

وعن ابن عباس قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال يا رسول الله : سيدى زوجنى أمته ، ويريد أن يفرق بينى وبينها ! قال : فصعد رسول الله ﷺ المنبر فقال : (يا أيها الناس : ما بال أحدكم يزوج عبده أمته ثم يريد أن يفرق بينهما إنما الطلاق لمن أخذ بالساق) .

وخالف فى ذلك فقهاء الشيعة الإمامية فقالوا : إن الإشهاد شرط فى صحة الطلاق ، واستدلوا بقول الله سبحانه فى سورة الطلاق : ﴿ وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ﴾ .

فذكر الطبرى : أن الظاهر أنه أمر بالإشهاد على الطلاق وأنه مروى عن أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم أجمعين ، وأنه للوجوب وشرط فى صحة الطلاق[1] .

وبعد بيان تلك المسائل المتعلقة بالطلاق ننصح لكل مسلم أن يملك نفسه عند الغضب ، فإن الله تعالى جعل لكل ضيق فرجاً ولكل شدة مخرجاً ، وقد حدث أن أحد الصالحين ابتلى بزوجة ناشز فقيل له ما ضر لو طلقتها ؟ فقال : أخشى أن أطلقهافيبتلى بها غيرى ، ومعاذ الله أن أكون سبباً فى أذى عباد الله . قالوا فماذا أنت صانع ؟ قال : أصبر وأحتسب . فأيما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثلما أعطى أيوب على بلائه ، وأيما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثلما أعطى آسيا امرأة فرعون . وعلى المسلم أن يتأدب بأدب الإسلام ، إذا طلق فلا يفشى سراً كان بالأمس قد خفى ، ولا ينكر عيشاً قد تقادم عهده ، فإن حسن العهد من الإيمان . لما طلق « قتادة » زوجته قيل له : لم طلقتها ؟ فقال : العاقل لا يذيع سر أهله .

قوله تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ . فمن طلق مرتين فإن الإسلام يؤدب أتباعه ويصحح سلوكهم الأخلاقى . فبعد التطليق يقال للمطلق إما أن تراجعها قبل انقضاء عدتها وتمسكها بالمعروف لا ضرر ولا ضرار ، وصاحب المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكأً ، والبر لا يبلى ، ومن زرع الخير حصده خيراً ، ولن يضيع جميل أينما زُرع ، والحياة الزوجية احترام وتخلق ومودة ورحمة : ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[2] .

والمعروف هو ما تعارف الناس عليه من الحق والخير والجمال . فمن لم يُمسك بمعروف فعليه التسريح بإحسان ، والإحسان مرحلة فوق العدل ، قال تعالى : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ والله تعالى إن يُثبنا فبمحض الفضل ، والفضل إحسان ، وإن يعاقب فبمحض العدل ، والعدل حق ، فمن لم يعاشر بالمعروف فليفارق بإحسان .

---

(١) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

(٢) سورة النساء آية : ١٩ .

ومعنى تسريحها بإحسان ، أى ينتظر الرجل حتى تنتهى عدة المطلقة فيعطيها حقها كاملاً غير منقوص ، قال تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾[1] وليذهب كل لما يسر الله له .

إذا شئت أن تحيـا سليمـاً من الأذى ... وحـظك مـوفـور وعـرضـك صـين
لسـانك لا تـذكر بـه عـورة امـرىء ... فـكلك عـورات ولـلنـاس ألسـن
وعينـك إن أبـدت إليـك مسـاوئـاً ... فصنهـا وقل يـا عـين للنـاس أعـين
فعاشر بمعروف وسامـح من اعتدى ... وفـارق ولكن بـالـتى هى أحـسن

قال تعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ .

أقام الإسلام الميزان بالقسط ولم يخسر الميزان ، فالعدل لحمة الإسلام ، والحق سداه ، ومن وجوه هذه العدالة أن الله تعالى نهى الأزواج عن أن يضيقوا على زوجاتهم حتى لا يضطروهن أن يفتدين أنفسهن بدفع شىء من المال للرجال ، كما نهى الزوجات أن يطلبن الطلاق لغيرما حاجة ، قال النبى ﷺ : (أيما امرأة سألت زوجها الطلاق فى غيرما بأس فحرام عليها رائحة الجنة)[2] . قال الفقهاء : الحياة الزوجية لا تقوم إلا على السكن والمودة والرحمة وحسن المعاشرة وأداء كل من الزوجين ما عليه من حقوق ، وقد يحدث أن يكره الرجل زوجته أو تكره هى زوجها ، والإسلام فى هذه الحال يوصى بالصبر والاحتمال ، وينصح بعلاج ما عسى أن يكون من أسباب الكراهية ، قال الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[3] . وفى الحديث الصحيح : (لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خلقا رضى خلقاً آخر)[4] .

إلا أن البغض قد يتضاعف ويشتد الشقاق ويصعب العلاج وينفد الصبر ويذهب ما أسس عليه البيت من السكن والمودة والرحمة وأداء الحقوق ، وتصبح الحياة الزوجية غير قابلة للإصلاح ، وحينئـذ يرخص الإسلام بالعلاج الوحيد الذى لابد منه .

فإن كانت الكراهية من جهة الرجل فبيده الطلاق ، وهو حق من حقوقه ، وله أن يستعمله فى حدود ما شرع الله . وإن كانت الكراهية من جهة المرأة ، فقد أباح لها الإسلام أن تتخلص من الزوجية بطريق الخلع ، بأن تعطى الزوج ما كانت أخذت منه باسم الزوجية لينهى علاقته بها ، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ . وفى أخذ الزوج الفدية عدل وإنصاف ، إذ أنه هو الذى أعطاها المهر وبذل تكاليف الزواج والزفاف وأنفق ، وهى التى قابلت هذا كله بالجحود وطلبت الفراق ، فكان من الإنصاف أن ترد عليه ما أخذت .

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٠ .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٤٥٤
(٣) سورة النساء آية : ١٩ .
(٤) فقه السنة للشيخ سابق جـ ٢ ص ٢٩٤ .

وإن كانت الكراهية منهما معاً : فإن طلب الزوج التفريق فبيده الطلاق وعليه تبعاته ، وإن طلبت الفرقة فبيدها الخلع وعليها تبعاته كذلك .

قيل إن الخلع وقع فى الجاهلية ، ذلك أن عامر بن الظرب زوج ابنته ابن أخيه عامر بن حارث ، فلما دخلت عليه نفرت منه ، فشكا إلى أبيها فقال : لا أجمع عليك فراق أهلك ومالك ، وقد خلعتها منك بما أعطيتها .

الخـلـع

تعريفه : والخلع الذى أباحه الإسلام مأخوذ من خلع الثوب إذا أزاله ، لأن المرأة لباس الـرجل والرجل لباس لها قال الله تعالى : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾ .

ويسمى الفداء ، لأن المرأة تفتدى نفسها بما تبذله لزوجها ، وقد عرفه الفقهاء بأنه : « فراق الرجل زوجته ببدل يحصل عليه » . والأصل فيه ما رواه البخارى والنسائى عن ابن عباس قال : « جاءت امرأة ثابت بن قيس بن شماس إلى رسول الله ﷺ فقالت : (يا رسول الله ما أعتب عليه فى خلق ولا دين ولكنى أكره الكفر فى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : أتردين عليه حديقته ؟ قالت : نعم . فقال : رسول الله ﷺ اقبل الحديقة وطلقها تطليقة)[1] .

ألفاظ الخلع : والفقهاء يرون أنه لا بد فى الخلع من أن يكون بلفظ الخلع أومشتق منه أو لفظ يؤدى معناه ، مثل المبارأة والفدية ، فإذا لم يكن بلفظ الخلع ولا بلفظ فيه معناه كأن يقول لها : أنت طالق فى مقابل مبلغ كذا ، وقبلت ، كان طلاقا على مال ولم يكن خلعاً .

وناقش ابن القيم هذا الرأى فقال : « ومن نظر إلى حقائق العقود ومقاصدها دون ألفاظها ، يعد فسخاً بأى لفظ كان حتى بلفظ الطلاق » .

وهذا أحد الوجهين لأصحاب أحمد ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، ونقل عن ابن عباس ، ثم قال ابن تيمية : « ومن اعتبر الألفاظ ووقف معها واعتدها فى أحكام العقود ، جعله بلفظ الطلاق طلاقاً » .

ثم قال ابن القيم مرجحاً هذا الرأى : « وقواعد الفقه وأصوله تشهد أن المرعى فى العقود حقائقها ومعانيها لا صورها وألفاظها » ومما يدل على هذا أن النبى ﷺ ، أمر ثابت بن قيس أن يطلق امرأته فى الخلع تطليقة ، ومع هذا أمرها أن تعتد بحيضة ، وهذا صريح فى أنه فسخ ، ولو وقع بلفظ الطلاق ، وأيضاً فإنه ـ سبحانه ـ علق عليه أحكام الفدية بكونه فدية ، ومعلوم أن الفدية لا تختص بلفظ ، ولم يعين الله ـ سبحانه ـ لها لفظاً معينا . وطلاق الفداء طلاق مقيد ولا يدخل تحت أحكام الطلاق المطلق ، كما لا يدخل تحتها فى ثبوت الرجعة والاعتداد بثلاثة قروء بالسنة الثابتة .

---

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٩٥ .

العوض فى الخلع : الخلع - كما سبق - إزالة ملك النكاح فى مقابل مال ، فالعوض جزء أساسى من مفهوم الخلع ، فإذا لم يتحقق العوض لا يتحقق الخلع ، فإذا قال الزوج لزوجته : خالعتك ، وسكت لم يكن ذلك خلعا ، لأنه إن نوى الطلاق كان طلاقاً رجعياً ، وإن لم ينو شيئاً لم يقع به شيء لأنه من ألفاظ الكناية التى تفتقر إلى النية .

كل ما جاز أن يكون مهراً جاز أن يكون عوضاً فى الخلع :

ذهب الشافعية إلى أنه لا فرق فى جواز الخلع بين أن يخالع على الصداق أو على بعضه أو على مال آخر ، سواء كان أقل من الصداق أم أكثر ، ولا فرق بين العين والدين والمنفعة ، وضابطه : أن كل ما جاز أن يكون صداقاً جاز أن يكون عوضاً فى الخلع لعموم قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ، ولأنه عقد على بضع فأشبه النكاح ، ويشترط فى عوض الخلع أن يكون معلوما متمولاً مع سائر شروط الأعواض ، كالقدرة على التسليم واستقرار الملك وغير ذلك ، لأن الخلع عقد معاوضة ، فأشبه البيع والصداق ، وهذا صميم فى الخلع الصحيح . أما الخلع الفاسد فلا يشترط العلم به ، فلو خالعها على مجهول كثوب غير معين أو على حمل هذه الدابة ، أو خالعها بشرط فاسد ، كشرط ألا ينفق عليها وهى حامل ، أو لا سكنى لها ، أو خالعها بألف إلى أجل مجهول ونحو ذلك ، بانت منه بمهر المثل .

أما حصول الفرقة ، فلأن الخلع إما فسخ أو طلاق ، فإن كان فسخاً فالنكاح لا يفسد بفساد العوض ، وكذا فسخه ، إذ الفسوخ تحكى العقود ، وإن كان طلاقا فالطلاق يحصل بلا عوض ، وما له حصول بلا عوض فيحسن مع فساد العوض ، كالنكاح ، بل أولى لقوة الطلاق وسرايته .

أما الرجوع إلى مهر المثل ، فلأن قضية فساد العوض ارتداد العوض الآخر ، والبضع لا يرتد بعد حصول الفرقة ، فوجب رد بدله ، ويقاس بما ذكرنا ما يشبهه ، لأن ما لم يكن ركناً فى شيء لا يضر الجهل به كالصداق .

ومن صور ذلك ما لو خالعها على ما فى كفها - ولم يعلم - فإنها تبين منه بمهر المثل ، فإن لم يكن فى كفها شيء ففى الوسيط أنه يقع طلاقاً رجعياً ، والذى نقله غيره أنه يقع بائناً بمهر المثل ، أما المالكية فقالوا : يجوز الخلع بالغرر كجنين ببطن بقرة أو غيره ، فلو نفق الحمل فلا شيء له وبانت .

وجاز بغير موصوف وبثمرة لم يبد صلاحها وبإسقاط حضانتها لولده وينتقل الحق له . وإذا خالعها بشيء حرام كخمر أو مسروق علم به فلا شيء له وبانت وأريق الخمر ورد المسروق لربه ، ولا يلزم الزوجة شيء بدل ذلك حيث كان الزوج عالماً بالحرمة - علمت هى أم لا - أما لو علمت هى بالحرمة دونه فلا يلزمه الخلع .

الزيادة فى الخلع على ما أخذت الزوجة من الزوج :

ذهب جمهور الفقهاء إلى أنه يجوز أن يأخذ الزوج من الزوجة زيادة على ما أخذت منه ، لقول الله

تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ، وهذا عام يتناول القليل والكثير . روى البيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال : « كانت أختى تحت رجل من الأنصار فارتفعا إلى رسول الله ﷺ فقال : أتردين حديقته ؟ قالت : وأزيد عليها ، فردت عليه حديقته وزادته »[1] .

ويرى بعض العلماء : أنه لا يجوز للزوج أن يأخذ منها أكثر مما أخذت منه . لما رواه الدارقطنى بإسناد صحيح أن أبا الزبير قال : « إنه كان أصدقها حديقة ، فقال النبى ﷺ : أتردين عليه حديقته التى أعطاك ؟ قالت : نعم وزيادة ، فقال النبى ﷺ : أما الزيادة فلا ولكن حديقته . قالت : نعم »[2] .

وأصل الخلاف فى هذه المسألة خلاف فى تخصيص عموم الكتاب بالأحاديث الآحادية . فمن رأى أن عموم الكتاب يخصص بأحاديث الآحاد . قال : لا تجوز الزيادة ، ومن ذهب إلى أن عموم الكتاب لا يخصص بأحاديث الآحاد رأى جواز الزيادة .

وفى « بداية المجتهد قال » : « فمن شبهه بسائر الأعواض فى المعاملات رأى أن القدر فيه راجع إلى الرضا ، ومن أخذ بظاهر الحديث لم يجز أكثر من ذلك ، فكأنه رآه من باب أخذ المال بغير حق » .

الخلع دون مقتض :

والخلع إنما يجوز إذا كان هناك سبب يقتضيه ؛ كأن يكون الرجل معيباً فى خَلقه ، أو سيئاً فى خُلقه ، أو لا يؤدى للزوجة حقها ، وأن تخاف المرأة ألا تقيم حدود الله فيما يجب عليها من حسن الصحبة وجميل المعاشرة كما هو ظاهر الآية ، فإن لم يكن ثمة سبب[3] يقتضيه فهو محظور : لما رواه أحمد والنسائى من حديث أبى هريرة : (المختلعات هنَّ المنافقات) وقد رأى العلماء الكراهة .

الخلع بتراضى الزوجين :

والخلع يكون بتراضى الزوج والزوجة ، فإذا لم يتم التراضى منهما فللقاضى إلزام الزوج بالخلع ، لأن ثابتاً وزوجته رفعا أمرهما للنبى ﷺ ، وألزمه الرسول بأن يقبل الحديقة ويطلق كما تقدم فى الحديث .

الشقاق من قبل الزوجة كاف فى الخلع :

قال الشوكانى : وظاهر أحاديث الباب أن مجرد وجود الشقاق من قبل المرأة كاف فى جواز الخلع ، واختار ابن المنذر أنه لا يجوز حتى يقع الشقاق منهما جميعا ، وتمسك بظاهر الآية ، وبذلك قال طاوس والشعبى وجماعة من التابعين ، وأجاب عن ذلك جماعة ، منهم الطبرى ، بأن المراد أنها إذا لم تقم بحقوق الزوج كان ذلك مقتضياً لبغض الزوج لها ، فنسبت المخالفة لذلك . . ويؤيد عدم اعتبار ذلك من جهة الزوج أنه ـ ﷺ ـ لم يسأل ثابتاً عن كراهته لها عند إعلانها بالكراهة له .

---

(١) فقه السنة للشيخ سابق جـ ٢ ص ٢٩٨ .
(٢) فقه السنة للشيخ سابق جـ ٢ ص ٢٢٨ .
(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ٢٦١

حرمة الإساءة إلى الزوجة لتختلع :

يحرم على الرجل أن يؤذى زوجته بمنع بعض حقوقها حتى تضجر وتختلع نفسها ، فإن فعل ذلك فالخلع باطل والبدل مردود ولو حكم به قضاء .

وإنما حرم ذلك حتى لا يجتمع على المرأة فراق الزوج والغرامة المالية ، قال الله تعالى : ﴿ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾[1] .

ولقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبينا ﴾[2] .

ويرى بعض العلماء نفاذ الخلع فى هذه الحالة مع حرمة العضل ، وأما الإمام مالك فيرى أن الخلع ينفذ على أنه طلاق ويجب على الزوج أن يرد البدل الذى أخذه من زوجته .

جواز الخلع فى الطهر والحيض :

يجوز الخلع فى الطهر والحيض ولا يتقيد وقوعه بوقت ، لأن الله ـ سبحانه ـ أطلقه ولم يقيده بزمن دون زمن ، قال الله تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾ ولأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أطلق الحكم فى الخلع بالنسبة لامرأة ثابت بن قيس من غير بحث ولا استفصال عن حال الزوجة ، وليس الحيض بأمر نادر الوجود بالنسبة للنساء .

قال الشافعى : (ترك الاستفصال فى قضايا الأحوال مع قيام الاحتمال ينزل منزلة العموم فى المقال ، والنبى ـ ﷺ ـ لم يستفصل هل هى حائض أم لا ؟ ولأن المنهى عنه الطلاق فى الحيض من أجل ألا تطول عليها العدة . وهى ـ هنا ـ التى طلبت الفراق واختلعت نفسها ورضيت بالتطويل)[3] .

هل الخلع طلاق أم فسخ ؟

ذهب جمهور العلماء إلى أن الخلع طلاق بائن لما تقدم فى الحديث من قول رسول الله ﷺ : (خذ الحديقة وطلقها تطليقة)[4] ولأن الفسوخ إنما هى التى تقتضى الفرقة الغالبة للزوج من الفراق مما ليس يرجع إلى اختياره ، وهذا راجع إلى الاختيار فليس بفسخ .

وذهب بعض أهل العلم ، منهم أحمد وداود من الفقهاء وابن عباس وعثمان وابن عمر من الصحابة ، إلى أنه فسخ ، لأن الله تعالى ذكر فى كتابه الطلاق فقال : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ ، ثم ذكر الافتداء ثم قال :

---

(١) سورة النساء آية : ١٩ .
(٢) سورة النساء آية : ٢٠
(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٠٠
(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٩٥

﴿ فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره ﴾[١] ، فلو كان الافتداء طلاقاً لكان الطلاق الذى لا تحل له فيه إلا بعد زواج هو الطلاق الرابع . ويجوّز هؤلاء أن الفسوخ بالتراضى قياساً على فسوخ البيع كما فى الإقالة .

قال ابن القيم : والذى يدل على أنه ليس بطلاق أنه سبحانه وتعالى رتب الطلاق بعد الدخول الذى لم يستوف عدده ثلاثة أحكام كلها منتفية عن الخلع .

أحدها : أن الزوج أحق بالرجعة فيه .
الثانى : أنه محسوب من الثلاث ، فلا تحل بعد استيفاء العدد إلا بعد دخول زوج وإصابته .
الثالث : أن العدة فيه ثلاثة قروء .

وقد ثبت بالنص والإجماع أنه لا رجعة فى الخلع ، وثبت بالسنة وأقوال الصحابة أن العدة فيه حيضة واحدة ، وثبت بالنص جوازه بعد طلقتين ووقوع ثالثة بعده ، وهذا ظاهر جداً فى كونه ليس بطلاق .

وثمرة هذا الخلاف تظهر فى الاعتداد بالطلاق ، فمن رأى أنه طلاق احتسبه طلقة بائنة ، ومن رأى أنه فسخ لم يحتسبه ، فمن طلق امرأته تطليقتين ثم خالعها ، ثم أراد أن يتزوجها فله ذلك وإن لم تنكح زوجاً غيره ، لأنه ليس له غير تطليقتين والخلع لغو .

ومن جعل الخلع طلاقاً قال : لم يجز له أن يرتجعها حتى تنكح زوجاً غيره ، لأنه بالخلع كملت الثلاث .[٢]

هل يلحق المختلعة طلاق ؟

المختلعة لا يلحقها طلاق ، سواء قلنا بأن الخلع طلاق أو فسخ ، وكلاهما يصير المرأة أجنبية عن زوجها ، وإذا صارت أجنبية عنه فإنه لا يلحقها الطلاق . وقال أبو حنيفة : المختلعة يلحقها الطلاق ، ولذلك لا يجوز عنده أن ينكح مع المبتوتة أختها .

عدة المختلعة : ثبت من السنة أن المختلعة تعتد بحيضة ، ففى قصة ثابت أن النبى ﷺ قال له : (خذ الذى لها عليك وخل سبيلها . قال : نعم فأمرها رسول الله ﷺ أن تعتد بحيضة واحدة وتلحق بأهلها) . رواه النسائى بإسناد رجاله ثقات . وإلى هذا ذهب عثمان وابن عباس ، وأصح الروايتين عن أحمد ، وهو مذهب إسحق بن راهويه واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية وقال من نظر هذا القول وجده مقتضى قواعد الشريعة ، فإن العدة إنما جعلت ثلاث حيض ليطول زمن الرجعة ويتروى الزوج ويتمكن من الرجعة فى مدة العدة ، فإذا لم تكن عليها رجعة فالمقصود براءة رحمها من الحمل ، وذلك يكفى فيه حيضة كالاستبراء .

وقال ابن القيم : هذا مذهب أمير المؤمنين عثمان بن عفان وعبد الله بن عمر والربيع بنت معوذ

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٠ .
(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

وعمها - رضى الله عنهم - وهو من كبار الصحابة ، فهؤلاء الأربعة من الصحابة لا يعرف لهم مخالف منهم ، كما رواه الليث بن سعد عن نافع مولى ابن عمر : أنه سمع الربيع بنت معوذ بن عفراء ، وهى تخبر عبد الله ابن عمر أنها اختلعت من زوجها على عهد عثمان بن عفان فجاء عمها إلى عثمان فقال له : إن ابنة معوذ اختلعت من زوجها اليوم أفتنتقل ؟ فقال عثمان : لتنتقل ولا ميراث بينهما ولا عدة عليها ، إلا أنها لا تنكح حتى تحيض حيضة ، خشية أن يكون بها حبل . فقال عبد الله بن عمر : فعثمان خيرنا وأعلمنا .

ونقل عن أبى جعفر النحاس فى كتاب « الناسخ والمنسوخ » أن هذا إجماع من الصحابة . ومذهب الجمهور من العلماء أن المختلعة عدتها ثلاث حيض إن كانت ممن يحيض ا . هـ .[١] .

وهكذا يقيم الإسلام الحلول الواقعية على أساس من الحق والعدل والخير ، فما من داء إلا وله فى الإسلام دواء ، وما من مشكلة إلا ولها فى ضوء الإسلام حل .

قوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ ، المراد بالحدود تعاليم الإسلام من أوامر ونواه التى تشمل أحكامه ، ومعنى لا تعتدوها أى لا تتجاوزوها بالمخالفة ، فلله تعالى فرائض فأدوها ، ولـه حدود فلا تعتدوها ، وله حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها وإنما قال هنا ﴿ فلا تعتدوها ﴾ لأن الآية فيها أمر يجب التزامه كقوله تعالى : ﴿ فإمسـاك بمعروف أو تسـريح بإحسان ﴾ ، والأمر يقتضى عدم الاعتداء ، وإنما قال فى آية الصيام : ﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾[٢] لأن الآية فيها نهى فى قوله تعالى : ﴿ ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ﴾[٣] ، والنهى يقتضى عدم القرب ، وهذا كتاب الله ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ،[٤] أى من يتجاوز أحكام الله بالمخالفة فقد انخرط فى سلك الظالمين ، فهو ظالم لنفسه باقتراف المعصية ، ظالم لغيره بتجاوز العدل ، فلا يلومن إلا نفسه .

الطلقة الثالثة

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

أى إنه إذا طلق رجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أى حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح . فلو تزوجت ولم يدخل بها الزوج الثانى فإنها لا تحل للأول . فعن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها

(١) المصدر السابق ص ٣٠٥ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٨٧
(٣) سورة البقرة آية : ١٨٧
(٤) سورة هود آية : ١

فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى الأول قال : (لا .. حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك)[١] .

والمقصود من الزوج الثانى أن يكون راغباً فى المرأة قاصداً لدوام عشرتها ، كما هو المشروع من التزويج .

والمراد بالعسيلة الجماع ، روى الإمام أحمد بإسناده عن أمنا عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ألا إن العسيلة الجماع)[٢] : ومن هنا فلا يشترط إنزال المنى ، فإن كان قصد الزوج الثانى أن يحلها للأول فهذا هو المحلل الذى وردت الأحاديث بذمه ولعنه .

روى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : (لعن رسول الله ﷺ الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله)[٣] . وروى ابن ماجه بإسناده عن عقبة بن عامر قال . قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال . « هو المحلل » لعن الله المحلل والمحلل له)[٤] .

وعن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل فقال : (لا .. إلا نكاح رغبة لا نكاح دلة ولا استهزاء بكتاب الله ، ثم يذوق عسيلتها)[٥] .

قال الحاكم فى مستدركه : حدثنا أبو العباس الأصم عن عمر عن نافع عن أبيه أنه قال : (جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثاً فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول ؟ فقال : لا .. إلا نكاح رغبة ، وكنا نعد هذا سفاحاً على عهد رسول الله ﷺ) . ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد[٦] .

قوله تعالى : ﴿ فإن طلقها) ، أى الزوج الثانى بعد الدخول بها ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا ﴾ أى المرأة والزوج الأول ﴿ إن ظنا أن يقيما حدود الله ﴾ أى يتعاشرا بالمعروف ، كما قال تعالى : ﴿ فإمساك بمعروف ﴾[٧] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[٨] .

قوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾ ، المقصود بالحدود ، كما ذكرنا ، الأحكام والتعاليم والشرائع ، والله تعالى يبين لعباده كما قال جل شأنه : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾[٩] .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٢٧٨
(٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤١٠ ط الشعب .
(٣) ابن كثير جـ ١ ص ٤١١ ط الشعب .
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٢ .
(٥) المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٢ .
(٦) المرجع السابق جـ ١ ص ٤١٣ .
(٧) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .
(٨) سورة النساء آية : ١٩ .
(٩) سورة النساء آية : ٢٦ .

وقوله تعالى : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ ، لأن العلم أساس المعرفة ، والمعرفة الصحيحة ينبنى عليها العمل الصحيح ، فمن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين .

مسألة :

اختلف الأئمة ، رحمهم الله ، فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين وتركها حتى انقضت عدتها ، ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ، ثم تزوجها الأول ، هل تعود إليه بما بقى من الثلاث ، كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وهو قول طائفة من الصحابة رضى الله عنهم ، أو يكون الزوج الثانى قد هدم ما قبله من الطلاق ؟ فإذا عادت إلى الأول تعود لمجموع الثلاث كما هو مذهب أبى حنيفة وأصحابه ، رحمهم الله ، وحجتهم أن الزوج الثانى إذا هدم الثلاث فإنه يهدم ما دونها بطريق الأولى والأحرى .

ولسائل أن يقول : ما الحكمة فى الزواج الثانى والدخول بها فيه إذا طلق الرجل امرأته ثلاثا ؟ ونقول : إن فيه تأديبا للزوج الأول الذى لم يضع الأمور فى نصابها ، فقد جعل الله الطلاق من حقه فطلق مرة ، ولم يصبر فطلق الثانية ، ولم يتخذ جانب الحكمة فطلق الثالثة ؛ إنه بذلك ضيع فرصة منحه الله إياها ، فإذا ما رغب فيها بعد الثالثة فإنه عندئذ لابد أن يعرف قيمة الزوجة ، فبناء عليه يجب أن يصونها وألا يتخذ آيات الله هزوا ، فجعل الله الزواج الثانى تأديباً له وتهذيباً ، والله عزيز حكيم ، يريد لعباده الخير حتى تسير سفينة الحياة فى جو معتدل .

آداب إسلامية

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ ﴾

المفردات : يقال بلغ البلد : إذا وصل إليه ، ويقال أيضاً بلغه إذا شارفه ودنا منه ، يقول الرجل لصاحبه : إذا بلغت مكة فاغتسل بذى طوى ، يريد دنوت منها ، لأن ذى طوى قبلها . والأجل يطلق على المدة كلها وعلى آخرها ، فيقال لعمر الإنسان أجل وللموت الذى ينتهى به أجل ، والمراد هنا زمن العدة . والمراد بالإمساك المراجعة ، والمعروف ما ألفته العقول واستحسنته النفوس شرعا وعرفا وعادة ، والمراد

بالتسريح ترك المراجعة حتى تنقضى عدتها . والضرار : الضرر والاعتداء : الظلم . وآيات الله : هى آيات أحكام الطلاق والرجعة والخلع ونحو ذلك . وهزوا : أى مهزوءًا بها بالإعراض عنها والتهاون فى المحافظة عليها لقلة الاكتراث بالنساء وعدم المبالاة بهن . ونعمة الله هى الرحمة التى جعلها بين الزوجين . وما أنزل عليكم من الكتاب أى من آيات أحكام الزوجين التى تحفظ لكم الهناءة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة والحكمة هى سر تشريع الأحكام وبيان ما فيها من منافع ومصالح .

جاء فى تفسير هذه الآية ما رواه ابن جرير عن ابن عباس قال : كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها ثم يفعل ذلك ليضارها ويعضلها ، فأنزل الله هذه الآية .

وعن السدى قال : نزلت فى رجل من الأنصار يدعى ثابت بن يسار ، طلق امرأته حتى انقضت عدتها إلا يومين أو ثلاثة ثم راجعها ثم طلقها مضارة لها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ .

إن الاسلام بتعاليمه السمحة يطارد الظلم أيا كان موقعه ، إنه وهو يبين لنا أحكام الطلاق يرشدنا أن المرأة إذا طلقت وقرب انتهاء عدتها فعلى الرجل إما الإمساك بمعروف وإما التسريح بإحسان ، وليس بعد المعروف والإحسان إلا الإضرار بها ، وذلك إذا راجعها قبل انتهاء عدتها ، يريد إطالة العدة والإضرار بها كلما قربت العدة على الانتهاء راجعها ثم طلقها . إن الله تعالى لا يحب الظلم ، ومن ثم فإنه يؤكد الأمر بالإمساك بمعروف أو التسريح بإحسان فيقول : ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ﴾ ، ويحكم على من فعل هذا بأنه قد ظلم نفسه ، والظلم عاقبته وخيمة ، وهو ظلمات يوم القيامة ، فالنساء لا يكرمهن إلا كريم ، وكان رسول الله ﷺ خير الناس لأهله ؛ ولا يهينهن إلا لئيم . وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

قال ﷺ : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . .)[١] ، وقال ﷺ : (استوصوا بالنساء خيرا فإنهن خلقن من ضلع أعوج ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت لتقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيرا)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾ ، المراد بالآيات هنا آيات الطلاق التى بين فيها أحكامه ، يدل على ذلك سياقها ، أى لا تطلقوا ثم تراجعوا ثم تطلقوا ، وكأن الحياة الزوجية مسرح أعد للهزل ، قال تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ النعمة هنا لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٣] ومن أخص هذه النعم نعمة الزوجية التى قال فيها جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم

(١) الترغيب والترهيب حـ ٣ ص ٢٧٧ ط الشعب .
(٢) الجامع الصغير للسيوطى حـ ١ ص ١٥٤ ط دار الفكر
(٣) سورة إبراهيم آية : ٣٤ .

مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] وقال ﷺ : ﴿ يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للطرف وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[٢] وما أراد الرسول بذلك إلا تهذيب الغرائز وتنظيم الدوافع وتصليح السلوك . وقد حذر النبى ﷺ من الانحراف حيث قال : (اتق المحارم تكن أعبد الناس)[٣] وقال : (شراركم عزابكم وأراذل موتاكم عزابكم)[٤] وقد ورد أن رجلاً من الصالحين ماتت زوجته ، فلما فرغ من دفنها مر بقوم كان له بهم صداقة ، فتزوج منهم ودخل فى نفس الليلة ، فقيل له فى ذلك فقال : خشيت أن ألقى الله عزباً .

ألست معى أن الزواج نعمة عظمى من نعم الله على عباده ؟ فاذكروا هذه النعمة بالشكر ، واذكروا ما أنزل الله عليكم من الكتاب وما فيه من إرشاد وتوجيه وتأديب وتهذيب ، وما فى السنة من بيان وتفصيل وتوجيه وتشريع ، فقد اشتمل كل منهما على أصول العقائد وشعائر العبادات ومبادىء الأحكام وقواعد النظام ومناهج السلوك وتصحيح الفكر المنحرف ما لو أخذتم به لنلتم السعادة فى الدنيا والآخرة .

والله تعالى يعظكم بهذه الأحكام .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ . دليل قاطع وبرهان ساطع على أن أساس الحياة الزوجية هو تقوى الله ، ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم [٥] . قيل لمحمد بن كعب القرظي وكان غنياً وقد حضرته الوفاة ماذا تركت لأولادك فقال ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربي لأولادي . قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديدا ﴾[٦] إن التقوى هى السلاح الأقوى ، هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

قوله تعالى : ﴿ واعلموا أن الله بكل شىء عليم ﴾ ، هذا لإيقاظ الهمم ، فليعلم العبد أن الله تعالى مطلع على سره وعلانيته ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؛ فليحذر أن يراه الله على معصية ، وليجتهد أن يراه الله دائماً على طاعة .

لا تعضلوا النساء

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

(١) سورة الروم آية : ٢١
(٢) الترغيب والترهيب حـ ٣ ص ٢٩ ط الشعب
(٣) الجامع الصغير للسيوطى حـ ١ ص ٢٤ ط الشعب .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى حـ ١ ص ٧٦ ط الشعب .
(٥) سورة التوبة آية : ١٠٩
(٦) سورة النساء آية ٩

المفردات : البلوغ : الانتهاء . والأجل هنا آخر المدة المضروبة لانقضاء العدة لأقربها كما فى الآية التى قبلها ، لأن الإمساك بالمعروف والتسريح لا يتأتى بعد انقضاء العدة ، إذ انقضاؤها إمضاء للتسريح ، فلا محل معه للتخيير ، والتخيير يستمر إلى قرب الانقضاء ، والمذكور هنا النهى عن العضل وإجازة النكاح ، وهذا لا يكون إلا بعد انقضاء العدة ، ومن ثم أثر عن الشافعى أنه قال : دل السياق على افتراق البلوغية والعضل : الحبس والتضييق والعظة : النصح والتذكير بالخير على وجه يرق له القلب ويبعث على العمل . والزكاء : النماء والبركة .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضى عدتها ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك ، فنهى الله أن يمنعوها . وكذا روى العوفى عنه عن ابن عباس أيضاً وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعى والزهرى والضحاك : أنها أنزلت فى ذلك وهذا الذى قالوه ظاهر من الآية ، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها ، وأنه لابد فى النكاح من ولى كما قاله الترمذى وابن جرير .

قال ﷺ : (لانكاح إلا بولى مرشد وشاهدى عدل)(١)
وفى هذه المسألة اختلاف بين العلماء .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار الحزنى وأخته ، فقال البخارى رحمه الله فى كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية عن معقل بن يسار قال : كانت لى أخت تخطب إلى . وقال البخارى : وعن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل ، فنزلت : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ، ذلك الذى جاء فى قوله تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ إنما يتعظ به وينتفع ويأتمر به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، حيث يعلم أن فى عضل النساء ومنعهن من الزواج ظلم ، والمؤمنون بالله واليوم الآخر يعلمون أنهم غداً بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيعرضون ، ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾(٢) .

قال ﷺ : (إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض)(٣) ، وسنة رسول الله التيسير فى الزواج ، حتى قال لأحد الصحابة يريد الزواج : (التمس ولو خاتماً من حديد ، قال : لا أجد ، قال : تزوجها بما تحفظ من القرآن)(٤) وقال (إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة)(٥) ويقول : (من يمن المرأة يسر نكاحها وحسن خليقتها)(٦) . قوله تعالى : ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ أى ما بينته لكم من الأحكام أعظم بركة وأطهر سلوكاً ، ثم يقول تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم

(١) الجامع الصغير للسيوطى حـ ٢ ص ٧٥٢ ط دار الفكر .
(٢) سورة الشعراء آية : ٢٣٧ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٦ دار الفكر .
(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ١٥٦ .
(٥) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ١٥٨ .
(٤) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ ص ١٥٨ .

لا تعلمون ﴾ أى : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١) أين الخير من الشر ، إذ هو غيب لا يعلمه إلا الله ، فنفذوا أحكامه وطبقوا شرائعه وأقيموا دولة الإسلام فى بيوتكم تقم على أرضكم ، فإن الذى شرع هذه الأحكام هو الذى علم ما يكون وعلم ما كان وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

أحكام تتعلق بالرضاعة

* وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

المفردات : -الحول والعام يقعان على صيفه وشتائه كاملين ، والسنة تبتدىء من أى يوم عددته من العام إلى مثله ، والمولود له : هو الوالد ، والتكليف : الإلزام ، والوسع ضد الضيق ، وهو ما تتسع له القدرة ولا يبلغ آخر مداها ، والطاقة آخر درجات القدرة ، فليس بعدها إلا العجز التام مأخوذة من آخر طاقة (فتلة) من الطاقات التى يتألف منها الحبل ، والمضارة : مشاركة كل من الوالدين للآخر فى الضرر ، فتفيد أن كل إضرار من أحدهما للآخر بسبب الولد إضرار بنفسه ، إذ هذا يستلزم ضر الولد ، وكيف نحسن تربية ولد بين أبوين هم كلٍ منهما إيذاء الآخر وضرره ، والفصال : الفطام ، لأنه يفصل الولد عن أمه ويفصلها منه ، فيكون مستقلاً فى غذائه دونها ، والتشاور والمشاورة : استخراج الرأى من المستشارين ، ولاجناح عليهما : أى لا حرج ، واسترضعت المرأة الطفل : أى اتخذتها مرضعاً له ، ما آتيتم : أى ما ضمنتم ، والتزمتم بالمعروف : أى على الوجه المتعارف المستحسن شرعاً وعادة .

بعد بيان الأحكام المتعلقة بالحياة الزوجية من حيض وإيلاء وعدة ورجعة وطلاق وأدب وتخلق بخلق الإسلام ، بعد هذا كله ذكر سبحانه وتعالى أحكاما هنا تتعلق تعلقا وثيقا بالحياة الزوجية ونظام الأسرة . ألا وهى أحكام الرضاعة : فغذاء الطفل بعد الولادة أمر من الأمور التى اهتم بها الشارع الحكيم ؛ فبعد أن كان الطفل فى رحم الأم جنينا يتغذى بغذاء الأم ويتنفس بتنفسها أصبح بعد ولادته فى حاجة إلى غذاء ، فكانت الرضاعة غذاءً له وهو لا يستغنى عن الغذاء ، فأرشد الله تعالى الوالدات أن يرضعن أولادهن ، وهذا أمر فى

(١) سورة البقرة آية : ٢١٦ .

صورة الخبر ، وبين سبحانه أن مدة الرضاعة حولان كاملان وذلك لمن أراد أن يتم الرضاعة ، والأم هى أولى الناس برضاعة أولادها ، لأنها لا تغذيه لبنا فحسب إنما تغذيه عطفا وحنانا وقدرات عقلية وخلقية ونفسية ، فقد نرى الطفل إذا بكى وحملته غير أمه ازداد بكاءً ، فإذا ما حملته أمه استراح وكف عن البكاء ، فما الذى أعلمه أنها أمه ؟ إنه يعرفها بدقات قلبها ، لذا فإن الإسلام يحيط الأولاد بعناية فائقة ، وتزداد عنايته بهم وهم فى المهد ، ذلك لأن المهد ، هو النواة الأولى التى ينمو الطفل على أساسها وقد عنى الإسلام أيضا بالجانب الصحى للطفل حيث أوصى برضاعته وجعل أولى الناس بالرضاعة الأمهات ، لأنها أعظم الناس به رحمة وأكثرهم به عناية وأحفظهم له أمانة .

وقد اشتملت آيات الكتاب العزيز على الصحة الغذائية ، ومنها آية الرضاعة ، كما اشتملت أيضا على الصحة الوقائية ، فحرم الإسلام الميتة والدم ولحم الخنزير ، كما حرم الخمر ؛ كما اشتملت على الطب الاجتماعى ، فشرع الإسلام الزواج وجعله نعمة ينعم الله بها على عباده . قال عزَّ من قائل : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[1] . لما اشتملت الآيات على الطب النفسانى ، قال تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[2] .

وبالإضافة إلى هذه العناية فقد بين الإسلام خطوط التربية وفق مراحل النمو ، فأمر بأن تكون التربية على الوجه التالى : جاء فى الأثر : لاعـبه سبعا وأدبه سبعا وصاحبه سبعا .

وللفقهاء أحكام تتعلق بالرضاعة لابد من معرفتها قالوا :

قال الشيخ السيد سابق : المحرمات بسبب الرضاع : يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وهن : الأم ، البنت ، الأخت ، العمة ، الخالة ، بنات الأخ ، وبنات الأخت . وهى التى بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾[3] وعلى هذا فتنزل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على المرضع ، هى وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب . فتحرم :

١ ـ المرأة المرضعة ، لأنها بإرضاعها تعد أما للرضيع
٢ ـ أم المرضعة لأنها جدة له .
٣ ـ أم زوج المرضعة ـ صاحب اللبن ـ لأنها جدة كذلك .
٤ ـ أخت الأم ، لأنها خالة الرضيع .
٥ ـ أخت زوجها ـ صاحب اللبن ـ لأنها عمته .
٦ ـ بنات بنيها وبناتها ، لأنهن بنات إخوته وأخواته .
٧ ـ الأخت سواء أكانت أختا لأب وأم ، أم أختا لأم ، أم أختا لأب .

---

(١) سورة الروم آية : ٢١ .
(٢) سورة الزمر آية : ٥٣ .
(٣) سورة النساء آية : ١٢٣

الرضاع الذى يثبت به التحريم :

الظاهر أن الإرضاع الذى يثبت به التحريم هو مطلق الإرضاع ، ولا يتحقق إلا برضعة كاملة ، وهى أن يأخذ الصبى الثدى ويمتص اللبن منه ولا يتركه إلا طائعا من غير عارض يعرض له . فلو مص مصة أو مصتين ، فإن ذلك لا يُحَرِّم لأنه دون الرضعة ولا يؤثر فى الغذاء . قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ : (لاتحرم المصة ولا المصتان) ، رواه الجماعة إلا البخارى .

وللعلماء فى هذه المسألة عدة آراء نجملها فيما يأتى :

١ ـ إن قليل الرضاع وكثيره سواء فى التحريم أخذاً بإطلاق الإرضاع فى الآية ، ولما رواه البخارى ومسلم عن عقبة بن الحارث قال : تزوجت أم يحيى بنت أبى إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : « قد أرضعتكما » ، فأتيت النبى ﷺ فذكرت له ذلك فقال : (وكيف قيل ؟ دعها عنك) فترك الرسول ﷺ السؤال عن عدد الرضعات ، وأمره بتركها دليل على أنه لا اعتبار إلا بالإرضاع ، فحيث وجد اسمه وجد حكمه . ولأنه فعل يتعلق به التحريم ، فيستوى قليله وكثيره كالوطء الموجب له . ولأن إنشاز العظم ، وإنبات اللحم يحصل بقليله وكثيره وهذا مذهب « علىٍّ و ابن عباس والحسن البصرى وأبى حنيفة » .

٢ ـ إن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات متفرقات لما رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن عائشة قالت : « كان فيما نزل من القرآن » عشر رضعات معلومات يحرِّمن ؛ ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ « وهن فيما يقرأ من القرآن » . وهذا مذهب عبد الله بن مسعود ، وإحدى الروايات عن عائشة والشافعى .

٣ ـ إن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر ، لأن النبى ﷺ قال : (لا يحرم المصة ولا المصتان) . وهذا صريح فى نفى التحريم بما دون الثلاث فيكون التحريم منحصرا فيما زاد عليهما . وإلى هذا ذهب أبو عبيد وأبو ثور ، وابن المنذر ورواية عن أحمد .

لبن المرضعة يحرم مطلقا :

التغذية بلبن المرضعة محرم ، سواء أكان شربا أو وجورا[١] أو سعوطا[٢] حيث كان يغذى الصبى ويسد جوعه ، ويبلغ قدر رضعة ، لأنه يحصل بالإرضاع من إنبات اللحم ، وإنشاز العظم ، فيساويه فى التحريم .

اللبن المختلط بغيره : إذا اختلط لبن المرأة بطعام أو شراب أو دواء ، أو لبن شاة أو غيره ، وتناوله الرضيع فإن كان الغالب لبن المرأة حرم وإن لم يكن غالبا فلا يثبت به التحريم . وهذا مذهب الاحناف والمزنى وأبى ثور .[٣]

---

(١) الوجور : أن يصب اللبن فى حلق الصبى من غير ثدى .
(٢) السعوط أن يصب اللبن فى أنفه .
(٣) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ٢ ص ٧٤ .

الشهادة على الرضاع :

شهادة المرأة الواحدة مقبولة فى الرضاع إذا كانت مرضية ، لما رواه عقبة بن الحارث أنه تزوج أم يحيى بنت أبى إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : « قد أرضعتكما » فلما ذكرت ذلك للنبى ﷺ قال : (وكيف وقد زعمت أنها أرضعتكما ؟ فنهاه عنها .) . احتج بهذا الحديث : طاووس . والزهرى وابن أبى ذئب والأوزاعى ورواية عن أحمد على أن شهادة المرأة الواحدة مقبولة فى الرضاع . وذهب الجمهور إلى أنه لا يكفى فى ذلك شهادة المرضعة لأنها شهادة على فعل نفسها . وقد أخرج أبو عبيد عن عمر ، والمغيرة بن شعبة وعلى بن أبى طالب وابن عباس أنهم امتنعوا عن التفريق بين الزوجين بذلك . ولو فتح هذا الباب لم تشأ امرأة أن تفرق بين زوجين إلا فعلت . ومذهب الأحناف أن الشهادة على الرضاع لابد فيها من شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ولا يقبل فيها شهادة النساء وحدهن ، لقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ﴾(١) . وروى البيهقى : أن عمر رضى الله عنه أتى بامرأة شهدت على رجل وامرأته أنها أرضعتهما . فقال لا ، حتى يشهد رجلان أو رجل وامرأتان .

وعن الشافعى رضى الله عنه : أنه يثبت بهذا ، وبشهادة أربع من النساء لأن كل امرأتين كرجل ، ولأن النساء يطلعن على الرضاع غالبا كالولادة . وعند مالك : تقبل فيه شهادة امرأتين بشرط فشو قولهما بذلك قبل الشهادة .

أبوة زوج المرضع للرضيع :

إذا أرضعت امرأة رضيعا صار زوجها أبا للرضيع وأخوه عمًّا له ، لما تقدم من حديث حذيفة ، ولحديث عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : (ائذنى لأفلح أخى أبى القُعَيس فإنه عمك) . وكانت امرأته أرضعت عائشة رضى الله عنها . وسئل ابن عباس عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما جارية والأخرى غلاما : أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ قال : « لا » اللقاح واحد . وهذا رأى الأئمة الأربعة ، والأوزاعى والثورى . وممن قال به من الصحابة على وابن عباس رضى الله عنهما .

ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من الناس يتساهل فى أمر الرضاع فيرضعون الولد من امرأة ، أو من عدة نسوة ، دون عناية بمعرفة أولاد المرضعة وأخواتها ، ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ، ليعرفوا ما يترتب على ذلك من الأحكام كحرمة النكاح وحقوق هذه القرابة الجديدة التى جعلها الشارع كالنسب فكثيراً ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدرى . والواجب الاحتياط فى هذا الأمر حتى لا يقع الإنسان فى المحظور(٢) .

حكمة التحريم بالرضاع :

وأما حكمة التحريم بالرضاعة فمن رحمته تعالى بنا ؛ أن وسع لنا دائرة القرابة بإلحاق الرضاع بها ، وأن بعض بدن الرضيع يتكون من لبن المرضع ، وأنه بذلك يرث منها صفاتها كما يرث ولدها الذى ولدته .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٦١

(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٢ صـ ٨٠ .

قوله تعالى : ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ ، المراد بالمولود له هو الأب ، وإنما عبَّر بهذه الصيغة ليفيد نسبة الولد إلى أبيه . والوالد عليه أن يقوم بـالإنفاق من مـطعم ومشرب وكسـوة بالمعروف ، قال تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ وقال سبحانه : ﴿ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾(1) .

قوله تعالى : ﴿ لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ﴾ : نهى الإسلام نهياً شديداً عن الضرر أيًّا كان نوعه . فمن أصول الإسلام المقررة قوله ﷺ : (لا ضرر ولا ضرار)(2) ، فلا يجوز أن يضر الرجل زوجته : بسبب ولدها وذلك بانتزاعه منها ، كما أنه لا يجوز للمرأة أن تضر زوجها بسبب الولد بأن تطرحه عليه ، فلا ينبغى أن يكون الولد سبباً فى وقوع الضرر بين الزوجين ، وذلك لأن نعمة الزوجية يجب أن تظل صافية بعيدة عن الأكدار ، كما أنه لا يجوز الضرر بسبب الولد ولو زالت الزوجية بالطلاق . وقد بلغ من حرص المسلمين على دفع الضرر أن رجلاً صالحاً تزوج بامرأة ناشز فقيل له : ما ضر لو طلقتها ؟ فقال أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيرى ، فلا يستطيع معها صبراً . فقيل له : فماذا أنت فاعل معها ؟ قال : أصبـر وأحتسب . فأيما رجل صبر على سوء خلق زوجته أعطاه الله مثلما أعطى أيوب على بلائه ، وأيما امرأة صبرت على سوء خلق زوجها أعطاها الله مثلما أعطى آسية امرأة فرعون . وسبحان الذى قال : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(3) .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ المراد به التزام الأقارب بعدم الضرر وأمرهم بالإحسان والمعروف لأقاربهم ، كما تفيد أن على الوارث النفقة على الأقارب ، فكما أن له الغنم بالميراث فعليه الغرم بالنفقة ، وهذا منطق العدالة . إذ الغنم بالغرم .

قوله تعالى : ﴿ فإن أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما ﴾ هذا حكم من أحكام رضاعة الطفل ، وهو يبين مدى دقة الإسلام وحساسيته وعنايته بالتربية ، حيث جعل الفصال (أى فطام الطفل) مبنيا على التشاور والاتفاق بين الزوجين ، لا يجوز أن يستبد به أحدهما . قـال تعالى : ﴿ فـإن أرادا ﴾ أى الزوجين ﴿ فصالا ﴾ أى فطاما قبل الحولين برضاهما والتشاور بينهما ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ . قال جل شأنه : ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾(4) .

فانظر إلى آثار رحمة الله بالرضيع حيث نظم له غذاءه ، وهو فى عالم الأجنة ، ثم أمده بلبن الأم بعد الولادة ، ثم جعل فطامه مبنيا على المشورة لا على الاستبداد خشية أن يخطىء الناس الحساب فيأتى بأوخم العواقب .

فإذا كانت المشورة فى فطام الرضيع قد نص عليها القرآن الكريم ، إنها بالأولى والأوجب فى شئون

(1) سورة الطلاق آية : ٧ .
(2) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٧٤٦ ط دار الفكر .
(3) سورة البقرة آية : ٢١٦ .
(4) سورة الطلاق آية : ٦ .

الأمم والقضايا المصيرية ويرحم الله أمير المؤمنين عمر إذ يقول : « رحم الله امرأ أهدى إلىَّ عيوبى » . ويرحم الله من قال فى عمر :

يا رافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربك خيرا عن محبيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

قوله تعالى : ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ﴾ . المراد بالاسترضاع طلب الرضاع . وذلك بدفع الرضيع إلى مرضعة غير أمه لسبب من الأسباب . قال تعالى : ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾(١) . قال تعالى : ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ ، أى أن تفعلوا هذا إذا سلمتم المرضعة ما التزمتم به من الأجر بالمعروف . وقد شاعت كلمة المعروف فى الحياة الزوجية وأصبحت كالزهرة الناضرة فواحة الشذى طيبة العبير ، لأن الإسلام يدعو إلى تقوية العلاقات تقوية تقوم على الألفة والمودة والمحبة والرحمة لا استبداد فيها ولا تسلط ولا إرهاب ولا تهديد . وكما شاعت كلمة المعروف فى الأحكام الشرعية شاع كذلك الأمر بتقوى الله . قال تعالى فى ختام هذه الآية الكريمة : ﴿ واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ ، أى اتقوه سبحانه فلا تخالفوا أمره ، فهو بصير بأحوالكم عليم بشئونكم ، ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾(٢) .

فأيما أسرة قامت على المعروف والتقوى كان العز رائدها والتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف . وأيما أسرة ابتليت بالذنوب والانحراف كان الذل رائدها والشقاء حليفها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

عدة المتوفى عنها زوجها

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ

(١) سورة الطلاق آية : ٦ .
(٢) سورة الحديد آية : ٤ .

حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

المفردات : ﴿ **يتوفون منكم** ﴾ : أى يتوفاهم الله ويقبض أرواحهم ، ﴿ **ويذرون** ﴾ : أى يتركون والزوج يطلق على الذكر والأنثى كما قال تعالى : ﴿ **وأزواجه أمهاتهم** ﴾ ، وأصله العدد المكوّن من شيئين اتحدا وصارا شيئا واحدا فى الباطن وإن كانا شيئين فى الظاهر ، وسمى به كل من الرجل والمرأة للدلالة على أن من مقتضى الفطرة أن يتحد الرجل بامرأته والمرأة ببعلها ، بتمازج النفوس ووحدة المصلحة حتى يكون كل منهما كأنه عين الآخر . ويتربصن : أى ينتظرن ، وبلغن أجلهن : أى أتممن عدتهن وانتهت مدة التربص والانتظار ، والتعريض فى الكلام أن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح بدون تصريح ، والخطبة (بكسر الخاء) هى طلب الرجل المرأة للزواج بالوسائل المعروفة بين الناس ، والإكنان فى النفس هو ما يضمره مريد الزواج فى نفسه ويعزم عليه من التزوج بالمرأة بعد انقضاء العدة . والقول المعروف : ما لا يستحى منه فى المجاهرة كذكر حسن المعاشرة وسعة الصدر للزوجات إلى نحو ذلك . وعزم الشىء وعزم عليه واعتزمه : إذ صمم على تنفيذه ، والكتاب : بمعنى المكتوب أى المفروض ، وأجله : أى نهايته .

قال الفقهاء وعلماء الحديث فى آية العدة : هذا أمر من الله للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بالإجماع ، ومستنده فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فترددوا إليه مراراً فى ذلك فقال أقول فيها برأيى ، فإن يك صوابا فمن الله ، وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً . وفى لفظ ، لها صداق مثلها لاوكس ولا شطط ، وعليها العدة ، ولها الميراث . فقام معقل بن يسار الأشجعى فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً . وفى رواية فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به فى بروع بنت واشق . ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حامل فان عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله تعالى : ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾[1] .

وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشرا للجمع بين الآيتين ، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى ، لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية المخرج فى الصحيحين من غير وجه أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل فلم تلبث أن وضعت حملها بعد وفاته ، وفى رواية فوضعت حملها بعده بليال ، فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب ، فدخل عليها أبو

(١) سورة الطلاق آية : ٤ .

السنابل بن بعكك فقال لها : مالى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشرا . قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج إن بدالى[١] . قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة يعنى لما احتج عليه به .

وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتمال اشتمال الرحم على حمل ، فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً ، كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما : (إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح) فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ، ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم[٢] . ولقد سئل سعيد بن المسيب : ما بال العشر ؟ قال : فيها ينفخ الروح ، وقال تعالى : ﴿ **فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير** ﴾ يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت فى الصحيحين عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا)[٣] وفى الصحيحين عن أم سلمة أن امرأة قالت : يارسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ فقال : « لا » كل ذلك يقول لا ـ مرتين أو ثلاثا ثم قال : (إنما هى أربعة أشهر وعشرا وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة)[٤] .

والغرض من الإحداد ترك الزينة من الطيب ، ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى ، وهو واجب فى عدة الوفاة قولاً واحداً ، وذلك لفوات نعمة الزوجية ، فهو وجه من وجوه الوفاء وحسن العهد من الإيمان .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ **فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف** ﴾ ، المراد به الزواج بعد انقضاء العدة والخطاب فى قوله : ﴿ **فلاجناح عليكم** ﴾ لأولياء أمر المرأة ، أى إذا ما انقضت عدتها فلا إثم عليكم إذا ما تزوجت ، فذلك أمر أحله الشارع ودعا إليه ، قال تعالى : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾[٥] ففى الزواج وقاية وعصمة وتعفف ، ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أى عالم بدقائق الأشياء ، لا يعلمها إلا هو ، فاحذروا عقابه وارجو ما عنده من الثواب والأجر .

وبعد الفراغ من بيان أحكام العدة والإحداد على الزوج ، شرع يبين لنا الحكم فى خطبة المتوفى عنها زوجها أثناء العدة . قال تعالى : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء** ﴾ أى لا إثم عليكم فى

---

(١) فقه السنة للشيخ . السيد سابق جـ ٢ ص ٢٣٠ .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٠ ط الشعب .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق
(٥) سورة البقرة آية : ١٨٧ .

التعريض بخطبة النساء فى عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح ، قال ابن عباس فى قوله : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ : التعريض أن يقول إنى أريد التزويج ، وإنى أحب امرأة من أمرها ومن أمرها ـ يعرض لها بالقول بالمعروف ، وفى رواية : وددت أن الله رزقنى امرأة ، ونحو هذا ، ولا ينتصب للخطبة ، وفى رواية : إنى لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله ، ولوددت أن وجدت امرأة صالحة ، ولا ينتصب لها مادامت فى عدتها ، ورواه البخارى تعليقاً فقال : وقال لى طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ﴾ ، هو أن يقول : إنى أريد التزويج ، وإن النساء لمن حاجتى ، ولوددت أن ييسر لى امرأة صالحة . وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى والشعبى والحسن وقتادة والزهرى ويزيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة فى التعريض إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة .

قوله تعالى : ﴿ أو أكننتم فى أنفسكم ﴾ ، أى أضمرتم فى أنفسكم من خطبتهن ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾[١] ولهذا قال : ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ أى فى أنفسكم ، فرفع الحرج عنكم فى ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سراً ﴾ ، وهو قول الرجل للمرأة فى عدتها : عاهدينى ألا تتزوجى بغيرى .

قوله تعالى : ﴿ إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ ، أى بأسلوب التعريض والتلويح لا بأسلوب العبارة والتصريح ، وكأن يقول لها : إنى فيك لراغب .

قوله تعالى : ﴿ ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ ، أى لا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنتهى عدتها ، وهذا معنى بلوغ الكتاب أجله ؛ والمراد بالكتاب ما حكم الله به من العدة . وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد فى مدة العدة :

وبعد بيان هذه الأحكام المتعلقة بالمتوفى عنها زوجها من العدة والإحداد والخطبة ؛ ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بقوله : ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾ أى كونوا على حذر من مخالفة الله فى أمره ، فلا تضمروا فى أنفسكم إلا ما هو خير ، وإياكم أن تضمروا شراً ، فإن الذى شرع الأحكام يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٢] .

وبعد الوعيد يشرق علينا نور الوعد فيقول تعالى : ﴿ واعلموا أن الله غفور حليم ﴾ إنه سبحانه وتعالى يعلم ضعفنا فيقول : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[٣] ويقول جل شأنه : ﴿ إن ربك واسع المغفرة

---

(١) سورة الممتحنة آية : ١ .
(٢) سورة الأنعام آية : ٥٩ .
(٣) سورة النساء الآيتان : ٢٧ : ٢٨ .

هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ﴾[1] . جل جلال الله ، يغفر الذنوب ، وهو الحليم لا يعجل العقوبة ، بل يمهل لعل العبد يرعوى ويخجل .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير الآثم

الطلاق والصداق

لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

المفردات : الجناح هنا التبعة (المسئولية) كالتزام بمهر وغيره ؛ والمسيس : اللمس باليد من غير حائل ، ويراد به فى لسان الشرع مايراد بالمماسة والملامسة والمباشرة وهو غشيان المرأة ، والفريضة : المهر ، وفرضها : تسميتها ، والمتعة والمتاع : ما ينتفع به مع سرعة انقضائه ، ومن ثم يسمى التلذذ بالشىء تمتعاً لسرعة انقطاعه ، وأوسع الرجل : إذا صارذا سعة فى المال وبسطة وغنى ، وأقتر : إذا قل ماله وافتقر وأقتر على عياله ، وقتر : إذا ضيق عليهم فى النفقة ، والقدر : (بفتح الدال وسكونها) قدر الإمكان والطاقة ، ومتاعاً : أى حقاً ثابتاً واجباً ، والمعروف : مايتعارفه الناس بينهم ويليق بهم بحسب اختلاف أصنافهم ومعايشهم وبيئاتهم ، والمحسنون : هم الذين يحسنون فى معاملة المطلقات ، والذى بيده عقدة النكاح هو الزوج المالك لعقد النكاح وحله ، وعفوه : تركه ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها كاملاً تكرماً منه ، والفضل : المودة والصلة .

نحن قد علمنا ان أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق ، وقد شرعه الله سبحانه ليكون دواء لداء استعصى علاجه بعد اتخاذ خطوات عديدة ومتنوعة فى العلاج : فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما ان الله كان عليماً خبيراً ﴾[2] ﴿ وإن أمرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح

(١) سورة النجم آية : ٣٢ .
(٢) سورة النساء آية : ٣٥ .

خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾[1] إلا أن النفوس قد تكون غير قابلة . لأى حل ، ذلك لأن الشيطان قد يستبد بالنفس فيجعل صاحبها لا يعى ولا يسمع ، وكأن الدنيا قد سدت عليه المنافذ ، عندئذ يكون آخر العلاج الكى ، قال تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً * وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً ﴾[2] . . والآية التى بين أيدينا قد اشتملت على أحكام فصلها فقهاء المسلمين تفصيلاً لا يذر ولا يدع حكماً إلا جاء على الوجه الصحيح ؛ قال الفقهاء : أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها ، قال ابن عباس والحسن البصرى : المس النكاح ، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها ، والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان فى هذا إنكسار لقلبها ، ولهذا أمر تعالى بإمتاعها ، وهو تعويضها عما فاتها بشىء تعطاه من زوجها بحسب حاله ، على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال سفيان الثورى عن ابن عباس : متعة الطلاق أعلاها الخادم ودون ذلك الورق ، ودون ذلك الكسوة .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك ، وإن كان معسراً بثلاثة أثواب . وقال الشعبى : أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب . قال : وكان شريح يمتع بخمسمائة . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب بن سيرين قال : كان يتمتع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة : قال : ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف . ويروى أن المرأة قالت : متاع قليل من حبيب مفارق . وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان فى مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعى فى المذهب الجديد : لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة ، وأحب ذلك إلى أن يكون أقله ما تجزىء فيه الصلاة . وقال فى المذهب القديم : لا أعرف فى المتعة قدراً ، إلا أنى أستحسن ثلاثين درهماً كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما . وقد اختلف العلماء أيضاً : هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها ؟ على أقوال : أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾[3] ، ولقوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ﴾[4] ، وقد كان مفروضاً لهن ومدخولاً بهن ، وهذا قول سعيد بن جبير وأبى العالية والحسن البصرى . والقول الثانى : إنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فمالكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾[5] . القول الثالث : إن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها ، فإن كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة ، وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره ، فإن دخل بها استقر الجميع ، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة ، وإنما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها ، وهذا قول ابن عمر ومجاهد ، ومن العلماء من استحبها لكل

---

(١) سورة النساء آية : ١٢٨ .
(٢) سورة النساء الآيتان : ١٢٩ ، ١٣٠
(٣) سورة البقرة آية : ٢٤١ .
(٤) سورة الأحزاب آية : ٢٨ .
(٥) سورة الأحزاب آية : ٤٩ .

مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور ، وعليه تحمل آية التخيير فى الأحزاب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين ﴾ ، ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾[1] ومن العلماء من يقول إنها مستحبة مطلقا .

قال تعالى : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ .
هذه الآية الكريمة اشتملت على حكم المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها وقد سمى لها الزوج مهراً محدداً ، فالحكم أن لها نصف المهر المسمى إلا أن يكون هناك عفو من جهة النساء فيتنازلن عن حقهن فى النصف ، أو أن يكون هناك عفو من جهة الرجال فيتنازلوا عن المهر كله ، والله تعالى يذكر الناس بقوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ . قال الشيخ المراغى رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية : إن حصل الطلاق قبل المسيس وقد سمى لهن مهر فلهن نصف المسمى المفروض ويرجع إلى الزوج النصف الثانى ، وهذا جار على ما كان يعمله الناس من سوق المهر كله للمرأة حين العقد لا على ما استحدثوه من تأخير ثلث المهر أو أقل لرغبتهم فى حب الظهور والتفاخر بكثرة المهر ، مع اجتناب إرهاق الزوج بدفعه كله .

وإن مات أحد الزوجين قبل الدخول وجب المهر كله للزوجة إذا مات الزوج ، أو لوارثها إذا ماتت هى ، لأن الموت كالدخول بها يوجب المهر كله إن كان هناك مهر مسمى أو مهر مثلها إن لم يسم لها مهر :

﴿ إلا أن يعفون ﴾ ، أى إلا أن يعفو المطلقات عن أخذ النصف كله أو بعضه ، فتقول المرأة : ما رآنى ولا خدمته ولا استمتع بى ، فكيف آخذ منه شيئاً ؟ فيسقط حينئذ ما وجب عليه ، وحق الإسقاط إنما يكون للمرأة البالغة الرشيدة .

﴿ أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ﴾ ، أى أو يعفو الزوج ويترك ما يعود إليه من نصف المهر الذى ساقه إليها تكرماً منه ، وحينئذ تأخذ الصداق كاملاً ، النصف الواجب عليه والنصف الساقط العائد إليه بالتنصيف وعبر بقوله : ﴿ بيده عقدة النكاح ﴾ ، للتنبيه إلى أن الذى ربط المرأة وأمسك العقدة بيده لا يليق به أن يحلها ويدعها بدون شىء ، بل يستحب له العفو والسماح بكل ما كان قد أعطى ، وإن كان الواجب المحتم نصفه ، وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ ، أى إن من عفا من الرجال والنساء فهو المتقى ، فأحياناً تكون المصلحة فى عفو الرجل عن النصف الآخر ، وأحياناً فى عفو المرأة عن النصف الواجب لها ، لأن الطلاق قد يكون من قبله بلا سبب داع منها ، وقد يكون بالعكس . والمراد بالتقوى هنا ؛ تقوى الله المطلوبة فى كل أمر ، إذ العفو أكثر ثواباً وأجراً . أو المراد تقوى الدين بما يترتب على الطلاق من التباغض ، إذ السماح بالمال يذهب هذا الأثر ويعيد الصفاء إلى القلوب ، وهذا ما بينه سبحانه بقوله : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ ، أى ينبغى لمن تزوج من أسرة ثم طلق ألا ينسى مودة أهل ذلك البيت وصلتهم ، ولكن المسلمين نسوا دينهم أو تناسوا وجروا على عكس هذا فصارت روابط الصهر وسائر أنواع القرابة واهنة ضعيفة ، وإنك لو رأيت ما يجرى بين الأزواج من المخاصمات و المنازعات وما يكيد به بعضهم

(١) سورة البقرة آية : ٢٤١ .

لبعض ، لوجدت أنهم تجافوا أوامر شريعتهم ، وجعلوا إلههم هو اهم ؛ فالرجال يتركون نساءهم بلا نفقة حتى يضطررن أحياناً إلى بيع أعراضهن ، أو يذرونهن كـالمعلقات ، فـلاهم يمسكونهن بمعـروف ولا هم يسرحونهن بإحسان حتى يفتدين منهم بالمال .

والمطلقات المعتدات بالإقراء يزعمن أن الحيض قد حُبس عنهن فتمضى السنة أو أكثر منها ولا تنقضى عدتهن بزعمهن ، وما الغرض من هذا إلا إلزام المطلق النفقة طول هذه المدة انتقاماً منه ، ولكن العمل الآن فى المحاكم المصرية على أن نفقة العدة لا تزيد على سنة قمرية (٣٥٤ يوماً) .

وإذا حدث طلاق ، كان بين أسرتى الزوجين حرب عوان ، ونصبت كل منهما للأخـرى الحبائـل والأشراك لتوقعها فى مهاوى الهلاك . فأين هؤلاء من كتاب الله وشرعه ؟ إنهم ليسوا منه فى شىء ، فقد عميت أبصارهم وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ ، ختم سبحانه الآية بالتذكير باطلاعه تعالى وإحاطة بصره بما يعامل به الأزواج بعضهم بعضاً ترغيباً فى المحاسبة والفضل ، وترهيباً لأهل المخاشنة والجهل لتكون مقرونة بالموعظة التى تغذى الإيمان وتبعث على الامتثال .

الأمر بالمحافظة على الصلاة

حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

المفردات : حافظ على الشىء وداوم عليه وواظب عليه : فعله المرة بعد المرة ، وحفظ الصلاة المرة بعد الأخرى : الإتيان بها كاملة الشرائط والأركان بـالخشوع والخضـوع القلبى ، والصلوات : هى الخمس المعروفة بالبيان العملى من النبى ﷺ والتى أجمع عليها المسلمون من جميع الفرق ، حتى أنّ من جحدها أو شيئاً منها لا يعد مسلماً ، وقد استنبطوا عددها من آيات أخرى كقوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴾[1] ، والصلاة الوسطى : هى إحدى هذه الخمس ، والوسطى إما بمعنى المتوسطة بين شيئين أو أشياء لها طرفان متساويان ، وإما بمعنى الفضلى ، وبكل من المعنيين قال جماعة من العلماء ومن ثم اختلفوا : أى الصلوات أفضل ؟ وأيتها المتوسطة ؟ وأرجح الأقوال أنها صلاة العصر لما رواه الإمام أحمد عن على قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب (شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر . ملأ الله قلوبهم وبيوتهم نارا) ثم صـلاها بـين العشاءين . المغـرب

(١) سورة الروم الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

والعشـاء(١) وعن سمرة رضى الله عنـه أن رسول الله ﷺ قـال : (﴿ حافـظوا على الصلوات والصـلاة الوسطى ﴾ وسماها لنا إنها هى صلاة العصر)(٢) .

والقنوت : الانصراف عن شئون الدنيا إلى مناجاة الله والتوجه إليه لـذكره ودعـائه ، والـرجال : واحدهم راجل ، وهو الماشى ، والركبان : واحدهم راكب .

روى أحمد والشيخان من حديث زيد بن أرقم قال : كنا نتكلم فى الصلاة ، يكلم الرجل منا صاحبه وهو إلى جنبه فى الصلاة حتى نزلت : ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ فأمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام(٣) . وقد جاءت آية المحافظة على الصلاة كواسطة العقد من آيات تتعلق بنظام الأسرة لتفيد آية الصلاة أنها (أى الصلاة) صمام الأمن فى سعادة الأسرة ، فما من بيت يحافظ على الصلاة إلا اتسع لأهله وسكنته الملائكة وطردت منه الشياطين ، لذا فقد أمر رسول الله ﷺ أن يجعل الرجل من صلاته فى بيته ، أى يصلى النوافل فى البيت . قال الصادق المعصوم : (صلاة الرجل فى بيته تطوعاً نور فمن شاء نور بيته) . وقال : (اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً)(٤) فالبيت الذى يذكر فيه الله وتقام فيه الصلوات وتقرأ فيه الآيات تنزل عليه البركات وتحفه الملائكة وتهبط عليه السكينة وتغشاه الرحمة ويذكر الله أهله فيمن عنده ، فالصلاة عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، ومن سره أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن سره أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . والصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العـادات : رياضـة أبدان ، وطهـارة أدران ، وتهذيب وجـدان ، وشتى فضـائـل يشب عليهـا الجـوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور ، وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يردده المخلوق التوجه إلى الخالق . انظر خلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع وكيف سارت العلية بالرفع ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة ، سواء فى عتبة الله ، وإذا كان الله تعالى قد أمر بالمحافظة عليها كلها ، فالمقصود بالمحافظة أداؤ ها بأركانها وشروطها فى وقتها مع حضـور القلب وخشوع الجـوارح . وقد خص الصـلاة الوسطى ، وهى صلاة العصر ، بمزيد من المحافظة ذلك لأن الناس يكونون قد فرغوا من أداء أعمالهم فيميلون إلى الكسل ويخلدون إلى الراحة ، فذكرهم سبحانه بصلاة العصر ، فإن من تركها فقد حبط عمله ، ومن فاتته فكأنما وتر أهله وماله . وقد أمر تعالى بالقنوت فيها ، وهو تفرغ القلب لله بعيداً عن لهو الدنيا وفى صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال لمعاوية بن الحكم حين تكلم فى الصلاة « إن هـذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس إنما هى التسبيح وذكر الله »(٥) . وقد حذر الإسلام من ترك الصلاة وضياع وقتها .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٢٩ ط الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٠ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٤ ط الشعب .
(٤) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٤ ط دار الفكر .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٣٤ ط الشعب .

روى أحمد وأصحاب السنن من حديث بريدة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر)(١) .

وروى أحمد والطبرانى من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ ، أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : (من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ؛ ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولابرهانا ولانجاة يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ بن خلف)(٢) .

وروى الترمذى قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ لا يرون شيئاً من الأعمال تركه كفر غير الصلاة .

ولما كانت الصلاة عماد الدين فإنه لا عذر لأحد فى تركها ، فالمريض يصلى كما يصلى الصحيح ، فهى فرض فى حقه ، ولكن للمريض صلاة بالكيفية التى لاتشق عليه قائماً أو قاعداً أو على جنبه أو مستلقياً ، كما أن الخائف والآمن ، كما أن السليم وصاحب الأعذار ، كل هؤلاء لا تسقط عنهم الصلاة ، والخائف من العدو أو من وحش يصلى راكباً أو راجلاً ، ويسقط عنه استقبال القبلة ، ولصلاة الخوف أحكام سوف نعرض لها فى موطنها ، قال تعالى : ﴿ فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً ﴾ ، فإذا ما كان الإنسان فى حالة أمن من العدو والوحش فعليه أن يذكر الله ويشكره بما علمه من الأحكام ما فيه سعادة دنياه وأخراه .

أحكام تتعلق بالطلاق وغيره

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

المفردات : يذرون : أى يتركون زوجات بعد وفاتهم . وصية لأزواجهم : أى وصية من الله لأزواجهم . متاعاً إلى الحول : أى جعل الله لهم ذلك متاعاً مدة الحول . غير إخراج : أى لهن ذلك المتاع وهن مقيمات فى البيت غير مخرجات منه ولاممنوعات من السكنى فيه .

هذه الآيات الكريمة اشتملت على أحكام شرعية تتعلق بالزوجات اللاتى توفى أزواجهن ، كذلك تتعلق بأحكام المتعة للمطلقات ، وقد لخص الفقهاء هذه الأحكام فيما يلى :

قوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج** ﴾ ، أى والذين يتوفون منكم ويتركون زوجات بعدهم فليوصوا لهن بوصية وليمتعوهن متاعاً إلى آخر

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ١٩٦ ط دار الفكر .
(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ط دار الكتاب العربى .

الحول غير مخرجات من بيوتهن ، فلا يمنعنهن السكنى فيها . . والخلاصة : أن على الأزواج أن يوصوا لهن بشيء من المال ينفقنه مدة الحول ، ولا يخرجن من البيوت مدة سنة كاملة تمر فيها الفصول الأربعة التى يتذكرن أزواجهن فيها . وهذا الأمر أمر ندب واستحسان لا أمر وجوب وإلزام ، وقد تهاون فيها الناس كما تهاونوا فى كثير من المندوبات .

﴿ فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف ﴾ ، أى فإن خرجن من تلقاء أنفسهن فلا إثم عليكم أيها المخاطبون بالوصية فيما فعلن فى أنفسهن من المعروف شرعاً وعادة كالتعرض للخطاب بعد العدة والتزوج ، إذ لا ولاية لكم عليهن ، فهن حرائر لا يمنعن إلا من المنكر الذى يمنع منه كل مكلف .

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ ، أى والله عزيز غالب على أمره يعاقب من خالفه ، حكيم يراعى فى أحكامه مصالح عباده .

ومن عزته وقدرته أن يحول الأمم من عادات ضارة إلى عادات نافعة ؛ تقتضيها المصلحة كتحويل العرب من عادتهم فى العدة والحداد ، إذ كانوا يجعلون المرأة أسيرة ذليلة مقهورة فى عقر دارها سنة كاملة ، إلى ما هو خير من ذلك ، وهو إكرامها فى بيت زوجها بين أهله وعدم الحجر على حريتها ؛ إذا أرادت الخروج منه مادامت فى حظيرة الشرع وآدابه .

﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ أى وشرعت المتعة لكل مطلقة على سبيل الوجوب إذا كانت غير مدخول بها وعلى سبيل الاستحسان لغيرها ، والذى يفعل ذلك من أشرب قلبه تقوى الله والخوف من عقابه ، فهو الذى يجود بالمال تطييبا للقلوب وإزالة للضغن .

والخلاصة : أن المطلقات أصناف أربعة :

١ - مطلقة مدخول بها وقد فرض لها مهر ، وهذه لها كل الفروض وهى التى عناها الله سبحانه بقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾[(١)]

٢ - مطلقة غير مدخول بها ولا مفروض لها ، وهذه يجب لها المتعة بحسب يسار الزوج ولا مهر لها ، وهى التى عناها الله بقوله : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ﴾[(٢)] إلى آخر الآية ، ولا عدة لها .

٣ - مطلقة مفروض لها وغير مدخول بها ولها نصف المهر المفروض ولا عدة لها ، وفيها نزل قوله : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن . . ﴾[(٣)] .

٤ - مطلقة مدخول بها غير مفروض لها ولها مهر مثلها من قريباتها وأسرتها .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ المراد من البيان ذكر الحكم وفائدته ثم قرنه بالموعظة

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٦ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .

وقوله : ﴿ تعقلون ﴾ : أى تتدبرون الأشياء وتذعنون لما أودع فيها من الحكم والمصالح إذعانا يكون له الأثر فى الأعمال .

والمعنى : إن الله جلت قدرته بين لعباده أحكام دينهم على هذا النحو من البيان الذى تقرن فيه الأحكام بعللها وأسبابها وبيان فوائدها ليعدهم بذلك لكمال العقل ؛ حتى يتحرّوا الاستفادة من كل عمل وليكونوا على بصيرة من دينهم عالمين بانطباق أحكامه على مصالحهم ، فدينهم هو دين العقل ، وأحكامه تنطبق على مصالح البشر فى كل زمان ومكان .

إحياء الموتى والقتال فى سبيل الله

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣) وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) ﴾

روى ابن عباس أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل استنفر عسكره للقتال ، فقالوا إن الأرض التى سنذهب إليها موبوءة ؛ فدعنا حتى يزول الوباء ، فأماتهم الله ثمانية أيام حتى عجز بنو إسرائيل عن دفنهم لكثرتهم فأحياهم الله .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد بيان الأحكام التى تتعلق بالأسرة ونظامها وحياتها ، وهذه الآية تتعلق بأحكام الأمم ونظمها وأحكامها ، ولكى تعيش الأمة فى عزة وكرامة لابد لها من الجهاد ، قال تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ؛ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾(١) .

قال على رضى الله عنه : بقية السيف هى الباقية : أى هى التى يحيا بها أولئك المجاهدون .

وقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾(٢) ويرحم الله سيف الإسلام خالد بن الوليد الذى قال وهو على فراش الموت : وها أنذا أموت على فراشى وقد خضت مائة معركة فى سبيل الله وليس فى جسمى قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو

(١) سورة المائدة الآيات : ٥٤ - ٥٦ .
(٢) سورة النساء آية : ٩٧

رمية بسهم ، أموت على فراشى كالبعير ، وقد كنت أود أن أموت شهيداً فى سبيل الله ، فلانامت أعين الجبناء ، يرحمك الله ياسيف الله يا من قال فيك أبو بكر رضى الله عنه : عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ، والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد ، إن خالداً سيف سله الله على أعدائه ، ويرحم الله من قال فيك :

غزا فأبلى وخيل الله قد عقدت ... باليمن والنصر والبشرى نواحيها
ولم يجز بلدة إلا سمعت بها ... الله أكبر تدوى فى نواحيها
أتاه أمر أبى حفص فقبله ... كما يقبل آى الله تاليها
وما اعترته شكوك فى خليفته ... ولا ارتضى إمرة الجراح تمويها
لذاك أوصى بأولاد له عمراً ... لما دعاه إلى الفردوس داعيها
وقيل خالفت يا فاروق صاحبنا ... فيها وقد كان أعطى القوس باريها
فقال خفت افتتان المسلمين به ... وفتنة النفس أعيت من يداويها

ويرحم الله الصديق العظيم إذ يقول : احرص على الموت توهب لك الحياة . إن الإسلام لا يرضى بالذل ولا يقبل الضيم ، وإن الله تعالى قد ساق هذه القصة بأسلوب التعجب ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم تعلم ، ثم ألم ينته إلى علمك أمر هذه الجماعة الذين بلغ عددهم الألوف خرجوا من ديارهم يخافون الموت ويرفضون القتال فأماتهم الله ليعلم الناس أن الآجال بيد الله ، فمن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد . قال جل جلاله : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لايبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا . قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾(1) وقال سبحانه : ﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾(2) لقد أمات الله هؤلاء الخائفين من الموت ثم أحياهم بعد موتهم وقد ماتت مع موتهم غرائز الخوف والجبن والحرص على الحياة وهذا فضل من الله على عباده ، يدعوهم لما يحييهم ويحيى فيهم عزة الإيمان ونظافة الإسلام وطهارة الوجدان وإعزاز الجنان .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ فيا أمة الإسلام قاتلوا فى سبيل الله لا لمغنم أو مكانة أو لإظهار الحماسة والشجاعة ، إنما من جاهد لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، وما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة . واعلموا أن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ويرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعين ، ويزوج باثنتين وسبعين من الحور العين ويلبسه الله تاج الوقار أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها واعلموا أن الله سميع لأقوالكم عليم بنياتكم ، فاصدقوا الله فى الجهاد ؛ يصدقكم فى النصر .

---

(1) سورة آل عمران آية : ١٥٤ .

(2) سورة آل عمران الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ .

القرض الحسن

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

يقول الإمام ابن كثير : يحث تعالى عباده على الإنفاق فى سبيل الله ، وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع . وفى حديث النزول أنه يقول تعالى : (من يقرض غير عديم ولا ظلوم) . وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليطة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله ابن مسعود قال : لما نزلت : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله : وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال أرنى يدك يارسول الله . قال فناوله يده قال : فإنى قد أقرضت ربى عز وجل حائطى قال : وكان حائطه به ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها . قال فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح ؟ قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل وقد روى عن عمر رضى الله عنه مرفوعاً بنحوه . وقوله : ﴿ قرضاً حسناً ﴾ روى عن عمر وغيره من السلف : هو النفقة فى سبيل الله ، وقيل هو النفقة على العيال ، وقيل هو التسبيح والتقديس . وقوله : ﴿ فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾[1] الآية ، وسيأتى الكلام عليها . وقال الإمام أحمد عن أبى عثمان النهدى قال : أتيت أبا هريرة رضى الله عنه فقلت له : إنه بلغنى أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة . قال : وما أعجبك من ذلك قد سمعته من النبى ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة) . وعن زياد الجصاص عن أبى عثمان النهدى قال : لم يكن أحد أكثر منى مجالسة لأبى هريرة ، فقدم قبلى حاجاً ، قال : وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة) فقلت : ويحكم والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى فما سمعت هذا الحديث . قال : فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجاً فانطلقت إلى الحج لأجل أن ألقاه فى هذا الحديث فلقيته لهذا فقلت : يا أباهريرة ما حديث سمعت أهل البصرة يأثرونه عنك قال : ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة . قال : يا أباعثمان وما العجب من ذاك والله يقول : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ويقول : ﴿ وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾ ، والذى نفسى بيده لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة). وفى معنى هذا الحديث مارواه الترمذى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال : (من دخل سوقاً من الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة) . الحديث .

(١) سورة البقرة آية : ٢٦١ .

وعن ابن عمر قال : لما نزلت : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل ﴾ إلى آخرها ، قال رسول الله ﷺ : (رب زد أمتى) ، فنزلت : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ ، قال : (رب زد أمتى) ، فنزلت : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

وعن كعب الأحبار أنه جاءه رجل فقال : إننى سمعت رجلاً يقول : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ مرة واحدة بنى الله له عشرة آلاف غرفة من در ؛ وياقوت فى الجنة أفأصدق بذلك ، قال : نعم أوعجبت من ذلك ؟ قال : نعم وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصى ذلك إلا الله ، ثم قرأ : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ فكثير من الله لا يحصى [1] . وقوله : ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ ، أى أنفقوا ولا تبالوا ، فالله هو الرزاق ، يضيق على من يشاء من عباده فى الرزق ، ويوسعه على آخرين ، له الحكمة البالغة فى ذلك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة .

بنو إسرائيل مع نبى لهم

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾

المفردات: الملأ : القوم يجتمعون للتشاور ، ولا واحد له ، سموا بذلك لأنهم يملأون العيون رواء والقلوب هيبة ، والنبى هو شمويل معرب صمويل أو صموئيل ، عسى : كلمة تفيد توقع الحصول وقرب تحققه .

كتب : أى فرض . وطالوت : معرب شاول لقب لطوله ، فقد جاء فى سفر صموئيل الأول من العهد

(١) تفسير القرآن العظيم للأمام ابن كثير جـ ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ ط الشعب .

العتيق (فوقف بين الشعب فكان أطول من كل الشعب من كتفه فما فوق) . اصطفاه : أى بما أودع فيه من الاستعداد الفطرى للملك . وبسطة الجسم عظمته .

هذه قصة من قصص القرآن العظيم . وقصص القرآن عبرة وعظة ومدرسة ، حفلت مناهجها بالدروس النافعة ، فبعدما بين الله تعالى حال الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وأمر بالقتال فى سبيل الله ، كما حث على النفقة إذ بالجهاد والنفقة تنهض الأمة وترتفع كلمتها ولا يستطيع العدو أن يقتحم عليها أسوار عزتها المنيعة . بعد ذلك ساق القرآن هذه القصة والعبرة التى يجب على كل عاقل أن يعرفها ، وألا يغتر بالكثرة من الناس ، فقد تختفى وراء عواطف الناس الحقائق المرة ، وأعظم الرجال فى تربية الناس هو سيدنا محمد ﷺ الذى وصف أصحابه ذات يوم فى كلمتين اثنتين فقال : إنكم تكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع ، ذلك لأن الرجال يعرفون بالمواقف ، كما يعرفون بالحق ، لكن المواقف والحق لا تعرف بالرجال ، كما أن القلة إذا كانت صادقة فسوف تكون إيجابية .

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[1] ولابد من اختيار النفوس حتى لا يقع القائد فى شباك اللؤم والخداع ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾[2] وهكذا صفت القلة على قلة ، ولكنهم كانوا صامدين ثابتين ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ قال أحد الشعراء :

تعيرنا أنا قليل عديدنا ... فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وديننا ... صحيح ودين الآخرين عليل

كما أن هذه القصة صححت مفهوماً خطيراً وهو أن الرجال لا يوزنون بالمال ، إنما يوزنون بالقيم والعلم ، فإذا كان قائداً للجيش يكفى أن يكون قد أوتى بسطة فى العلم والجسم ، والمال ليس عاملاً مؤثراً ، إذ القيادة السليمة تحتاج إلى تخطيط علمى وقوة فى الجسم ، فالمعارك قبل أن تدور فى حومة الوغى دارت على مكاتب القادة تفكيراً وتوجيهاً .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر ﴾ أى ألم ينته إلى علمك قصة الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى وفى عصر داود لقد قالوا لنبيهم صموئيل ابعث لنا ملكاً ليقودنا للقتال فى سبيل الله ، فقال لهم نبيهم وكأنه يستشف الحجب وينظر بنور الله : هل أتوقع منكم إن فرض عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟ وهل سيحدث منكم النكوص والعصيان ؟ فقالوا له متعجبين ﴿ ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴾ ومع ذلك ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالفرار والتولى ، وظلموا أممهم بضرب الذلة عليهم والهوان ، فقد قاتلهم أهل فلسطين وقتلوا منهم عدداً كثيراً ولما استجاب

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٩ .

لهم نبيهم قال لهم : ﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ﴾ ، وطالوت هذا من عظماء القوم علماً وجسماً ، ولما كان القوم قد أشربت قلوبهم حب الذهب وعبادة المال ، عجبوا وقالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ﴾ ، ولماذا الأحقية ؟ لأنه ﴿ لم يؤت سعة من المال ﴾ عجيب أمر هؤلاء القوم إنهم كما قال القائل :

رأيت الناس قد مالوا إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضه إلى من عنده فضه
ومن لا عنده فضه فعنه الناس منفضه

وجاء الرد حكياً على لسان نبيهم : ﴿ قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ﴾ فما أجمل هذا التعبير الرائع : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم ﴾ هل بعد اصطفاء الله العليم بكوامن النفوس ، الخبير بحقائقها ودقائقها يقول قائل : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ وهذا هو الأصل فى أحقيته بالقيادة ، فالذى اختاره هو علام الغيوب ، ثم إنه قد جمع أصول القيادة من عظمة العلم والجسم ، فهو واسع العلم صحيح الجسم .

﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ﴾ فلا معقب لحكمه ولا راد لما قضى ، فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته . فهو الواسع العليم ، الواسع الرحمة ، المحيط بعلمه كل شيء . (لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً)(١) .

أحداث القصة

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ
مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن
لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ
هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ

(١) سورة الطلاق آية : ١٢

أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا
بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ
مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

المفردات الآية : العلامة . والتابوت : صندوق وضعت فيه التوراة أخذه العمالقة ثم رد إلى بنى إسرائيل . وفى سفر تثنية الاشتراع : أن موسى لما أكمل كتابة هذه التوراة أمر اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون شاهداً عليكم . ثم كانت حرب بين الفلسطينيين وبني إسرائيل على عهد عالى الكاهن انتصر فيها الفلسطينيون وأخذوا التابوت من بنى إسرائيل ونكلوا بهم تنكيلاً فمات عالى كمداً وكان صموئيل أو شمويل قاضياً لبنى إسرائيل من بعده وهو نبيهم الذى طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً ففعل وجعل رجوع التابوت إليهم آية لملك طالوت الذى أقامه لهم . والسكينة : ما تسكن إليه النفس ويطمئن به القلب . وتحمله : أى تحرسه ، وقد جرت عاداتهم بأن من يحفظ شيئاً فى الطريق ويحرسه يقال إنه حمله وإن كان الحامل غيره . وفصل بالجنود : أى فصل عن بلده مصاحبا لهم لقتال العمالقة . والجنود : واحدهم جندى ، وهم العسكر ، وكل صنف من الخلق ، كما جاء فى الحديث « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » . والابتلاء : الاختبار والامتحان . والنهر : (بسكون الهاء وفتحها) مكان بين فلسطين والأردن . والشرب : تناول الماء بالفم من موضعه وابتلاعه دون أن يشرب بكفين ولا إناء .

وطعم الشىء : أى ذاقه مأكولاً كان أو مشروباً . والغرفة (بالضم) المقدار الذى يحصل فى الكف بالاغتراف . والغرف : أخذ الماء بالكف ونحوه . والطاقة : أدنى درجات القوة . وجالوت : أشهر أبطال الفلسطينيين أعدائهم . والفئة : الجماعة من الناس قليلاً كان عددهم أو كثيراً . والبراز (بالفتح) الأرض المستوية الفضاء . والإفراغ : إخلاء الإناء مما فيه بصبه .

وثبات القدم : كمال القوة وعدم التزلزل عند المقاومة . وداود : هو داود بن يسى ، وكان راعى غنم وله سبعة إخوة هو أصغرهم .

والحكمة : النبوة ، وعليه نزل الزبور كما قال تعالى : ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ وتعليمه مما يشاء : هو صنعة الدروع ، كما قال : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ . ومعرفة منطق الطير كما

قال : ﴿ علمنا منطق الطير ﴾[١] وفصل الخصومات لقوله : ﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾[٢] .

سارت أحداث هذه القصة سيراً رتيباً منسقاً ، وكل حدث أسلم إلى ما بعده ، فأخذت الأحداث يعانق بعضها بعضا فى ترتيب بديع ونسق رتيب ، وكأن القوم لم يقتنعوا بقول نبيهم : ﴿ **إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتِ ملكه من يشاء** ﴾ ، فأراد أن يقيم لهم آية أخرى تدل على صدق ملكه ، وأن الله تعالى هو الذى اصطفاه ، قال تعالى : ﴿ **وقال لهم نبيهم : إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون** ﴾ أى وقال لهم نبيهم « إن من علامة عناية الله بطالوت عود التابوت إليكم ، وفيه ما تطمئن قلوبكم (وقد كان له عندهم شأن دينى خاص) وفيه بقية من رضاضة الألواح (فتاتها) ، وعصا موسى وثيابه وشىء من التوراة وأشياء توارثها العلماء من أتباع موسى وهارون . وقد أضيف إلى آل موسى وآل هارون لأنه قد تناولته القرون بعدهما إلى وقت طالوت .

وفى صدور هذا القول من النبى دليل على أن بنى إسرائيل لم يقنعوا بما احتج به عليهم من استحقاق طالوت للملك للأسباب المتقدمة ، ومن ثم جعل لهم علامة أخرى تدل على عناية ربه به ، وقد وصف التابوت فى كتب بنى إسرائيل بأوصاف هى غاية فى الغرابة فى كيفية صنعه وجمال منظره وما تحلى به من الذهب ودخل فى تركيبه من الخشب الثمينة .

والسبب فى صنعه أن المصريين الوثنيين حينذاك استعبدوا الإسرائيليين طويلاً ، فملكت قلوب بنى إسرائيل عظمة الهياكل الوثنية وما فيها من الزينة وجمال الصنعة ، فأراد الله أن يشغل قلوبهم عنها بمحسوسات من جنسها تنسب إليه وتذكر به . وقد سمى التابوت أولاً تابوت الشهادة : أى شهادة الله سبحانه ، ثم تابوت الرب ، وتابوت الله ، وقد جاء الإسلام ومنع الزخارف والزينة فى المساجد وبيوت العبادة حتى لا يشغل المصلى شىء منها عن مناجاة ربه . ولكن واأسفاه ، قلد المسلمون أرباب الملل الأخرى فى الزخرف والنقش فى المساجد والمنابر وأقيمت الأضرحة ، ولبس رجال الدين مثل لباسهم ، بل سبقوهم فى كثير من ذلك ، فأصبحت المساجد كأنها هياكل ومعابد للوثنيين ، ونسوا أو تناسوا الحكمة التى من أجلها امتنع المسلمون فى الصدر الأول عن تجميلها وفرشها بالطنافس وعمل الحلى فيها ، وصدق فيهم ما جاء فى الأثر : « لتتبعن سنن من قبلكم باعاً فباعاً حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » .

﴿ **تحمله الملائكة** ﴾ . قيل إن البقرتين اللتين حملتا التابوت وجرتا العجلة (العربة) من بعض بلاد فلسطين إلى بنى إسرائيل كانتا تسيران مسخرتين بإلهام الملائكة وحراستهم ، ولم يكن لهما قائد ولا سائق . وقد جرت العادة بأن ما يحدث بإلهام ولا كسب فيه للبشر ، وهو من الخير ، يسند إلى إلهام الملائكة .

وقالوا فى سبب إتيان التابوت : إن أهل فلسطين ابتلوا بعد أخذ التابوت بالفيران فى زرعهم والبواسير فى أنفسهم فتشاءموا منه وظنوا أن إله إسرائيل انتقم منهم ، فأعادوه على عجلة تجرها بقرتان ، ووضعوا فيه صور فيران وصور بواسير من الذهب ، وجعلوا ذلك كفارة لذنبهم .

---

(١) سورة النمل آية : ١٦ . (٢) سورة ص آية : ٢١ .

﴿ إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾أى إن فى مجىء التابوت علامة على عناية الله بكم ، واصطفائه لكم هذا الملك الذى ينهض بشئونكم وينكل بعدوكم ، فعليكم أن ترضوا بملكه ولا تتفرقوا عنه ، بل عاونوه ، يرقِ بكم إلى مراقى السعادة والفلاح . ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده ﴾ ، أى فلما خرج طالوت من البلد يصحبه هؤلاء الجند قال لهم هذه المقالة .

وقد روى أنهم لما رأوا التابوت لم يشكوا فى النصر ، فسارعوا إلى الجهاد ، فقال لهم طالوت : لا يخرج معى شيخ ولا مريض ولا رجل بنى بناء ولم يفرغ منه ، ولا صاحب تجارة مشتغل بها ، ولا رجل عليه دين ، ولا رجل تزوج امرأة ولم يبن بها ، ولا أبتغى الا الشاب النشيط الفارغ ، فاجتمع إليه ممن اختاره ثمانون ألفاً ، وكان الوقت قيظاً (شديد الحر) ، وسلكوا مفازة فشكوا قلة الماء وسألوا الله أن يجرى لهم نهراً ، فقال لهم : إن الله سيختبر حالكم ويعلم المطيع منكم من العاصى والراضى من الساخط ، وستقابلون نهراً ، فمن شرب منه فليس من أشياعى المؤمنين إلا أن يكون ما يتناوله قليلاً ، وهو غرفة تؤخذ باليد ، ومن لم يذقه فهو الذى يوثق به ويركن إليه عند الشدائد . وحكمة هذا الابتلاء أن يختار المطيع الذى يرجى بلاؤه فى القتال وثباته حين النزال ويبعد من يظهر عصيانه ويخشى فى الوغى خذلانه ، فطاعة الجيش لقائده من أهم أسباب الظفر ، وأحوج القواد إلى ذلك من ولى على قوم وهم له كارهون .

والخلاصة أن مراتب الاختبار ثلاث :

١ – من يشرب فيروى ولا يبالى بمخالفة الأمر وهذا يتبرأ منه .
٢ – من يأخذ بيده غرفة يبل بها ريقه وهو مقبول على ما به من نقص فى الجملة .
٣ – من لا يذوق الماء أبداً ، وهذا هو المولى والنصير الذى يوثق به ويعول على جهاده .

﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ لأنهم كانوا قد اعتادوا العصيان وفسد بأسهم وتزلزل إيمانهم ولم يبق منهم من أهل الإيمان والغيرة على الدين إلا النفر القليل . والقليل من ذوى العزائم الصادقة والنفوس التى أشربت حب الإيمان وامتلأت غيرة عليه بفعل مالا يفعله كثير من ذوى الأهواء المختلفة والنزعات المتقاربة ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾[1] .

﴿ فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾ أى فلما تخطى طالوت النهر هو ومن آمن معه ، وهم القليل الذين أطاعوه ولم يخالفوه فيما ندبهم إليه ، قال بعض ممن آمن معه من المؤمنين لبعض آخر منهم ، وهم الذين يظنون أنهم ملاقو الله : لا قدرة لنا على محاربة جالوت وجنوده ؛ فضلاً عن أن يكون لنا الغلب عليهم لما شاهدوا من كثرتهم وقوتهم ، فرد عليهم الفريق الثانى لوثوقه بنصر الله وقوة أهل الحق على قلتهم وخذلان أهل الباطل على كثرتهم كما حكى الله عنهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم

(١) سورة الحشر آية : ١٤ .

ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ ، أى قال الذين يستيقنون بلقاء ربهم بالبعث ويتوقعون ما عنده من الجزاء والثواب : كثيراً ما رأينا الجماعات القليلة غلبت الجماعات الكثيرة حين يكتب الله لهم التوفيق بمشيئته وقدرته ، والله لا يذل من نصره وإن قل عدده ، ولا يعز من خذله وإن كثرت آلاته وعدده ، وهذا دليل منهم على ثقتهم بنصر الله وتوفيقه : **﴿ والله مع الصابرين ﴾** فهو ينصرهم على عدوهم ويثبتهم عند لقائه . وفى هذا حض على الصبر المؤدى الى الغلبة والثقة بالله عند الشدائد ومدلهمات الحوادث والرجوع إليه إذا فدح الخطب وعظم الأمر ، فهو القادر على النصر والتأييد لمن أخلص له من عباده . **﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾** ، أى ولما ظهر طالوت ومن معه من المؤمنين لأعدائه الفلسطينيين جالوت وجنوده وشاهدوا ما هم عليه من كثرة العَدد والعُدد لجأوا إلى الله يدعونه أن يفرغ على قلوبهم بالصبر ويثبت أقدامهم فى القتال ويملأ نفوسهم ثقة واطمئناناً وينصرهم على أولئك القوم الكافرين عبدة الأوثان الذين أشربوا حب الدنيا ، وامتلأت قلوبهم بالترهات والأباطيل . ولقد راعوا الترتيب الطبيعى فى الدعاء بحسب الأسباب الغالبة ، إذ الصبر سبب الثبات ، والثبات سبب النصر ، وأولى الناس بنصر الله المؤمنون ، **﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾** ، أى فـاستجاب الله دعاءهم فصبروا وثبتوا ونصروا فهزموهم وانتهى أمرهم بالهرب فى المعركة وفاقاً لسنته تعالى فى نصر أهل الحق المؤمنين الصابرين على أهل الباطل الضالين ، **﴿ وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾** . كان جالوت جبار الفلسطينيين طلب المبارزة ، فلم يجرؤ أحد من بنى إسرائيل على مبارزته حتى جعل طالوت مكافأة لمن يقتله أن يزوجه ابنته ويحكمه فى ملكه ، فبرز له داود ، وكان صغير السن ولم يلبس درعاً ولم يحمل سلاحاً ، بل حمل حجارته ومقلاعه الذى كان من عادته أن يقاتل به الذئب والأسد ، فسخر منه جالوت وقال ما خرجت إلا كما تخرج إلى الكلب بالمقلاع والحجارة لأبددن لحمك ولأطعمنه اليوم للطير والسباع ، فرماه داود بمقلاعه فأصاب الحجر رأسه وجاء به فألقاه بين يدى طالوت وانهزم من كان معه ، واشتهر داود بين الناس ، وكان له من الصيت والسمعة ما ورث به ملك بنى إسرائيل وآتاه الله النبوة وأنزل عليه الزبور وعلمه صنعة الدروع ومعرفة منطق الطير وعلوم الدين وفصل الخصومات كـما قال تعـالى : **﴿ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾**(١)

﴿ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ﴾ . ولم يجتمع الملك والنبـوة لأحد قبله ، إذ كـان من أحوالهم أن يبعث الله إليهم نبياً ، ويملك عليهم ملكاً يأتمر بأمر ذلك النبى ، وكان نبى هذا العصر شمويل والملك طالوت ؛ فلما توفيا صار له الملك والنبوة .

ثم بين سبحانه الحكمة فى الأمر بالقتال الذى استفيد من الآيات السالفة فقال : **﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾** ، أى ولولا دفع الله أهل البغى والجور والشرور والآثام بأهل الإصلاح والخير لغلب أهل الفساد وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم وصار لهم السلطان فى الأرض . فكان من رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن أذن للمصلحين بقتال البغاة المفسدين ،

---

(١) سورة ص آية : ٢٠

وهو سبحانه جعل أهل الحق حرباً لأهل الباطل وهو ناصرهم ما نصروه وأصلحوا فى الأرض .

وقد نسب عز اسمه الدفع إلى نفسه ، لأنه سنة من سننه فى المجتمع البشرى وعليه بنى نظام هذا العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ ، أى هذه القصص السالفة من حديث الألوف الذين خرجوا من ديارهم ، وتمليك طـالوت ، وإتيـان التابـوت ، وانهزام الجبابـرة ، وقتل داود جالوت ــ آيات لله نقصها عليك على وجه لا يشك فيه أهل الكتاب ، إذ هم يجدونه مطابقاً لما جاء فى كتبهم الدينية والتاريخية ، فأنت من المرسلين لما دلت عليه هذه الآيات ، ولو كنت قد تعلمتها لجئت بها على النهج الذى عند أهل الكتاب أو غيرهم من القصاص ، ولم تشاهد أزمنة وقوعها حتى تراها رأى العين وقد أشار سبحانه إلى مثل هذه الحجة للدلالة على نبوته ﷺ فقال : ﴿ وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين * ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ﴾ (١) .

العبرة من هذه القصص :

١ - إن الأمم إن سيمت الخسف تنتهى أفكارها إلى دفع الضيم ، فتعلم أن لا سبيل إلى ذلك إلا بانضوائها تحت لواء زعيم عادل باسل ، كما وقع من بنى اسرائيل حين نكل بهم أهل فلسطين .

٢ - إن أول من يشعر بالحاجة إلى ذلك هم خواصها وأشرافها ، كما حدث من الملأ من بنى اسرائيل ، ثم تنتقل الفكرة من ذلك إلى عامتهم حتى إذا وصلت إلى حيز العمل نكص ضعفاء العزائم على أعقابهم كما يدل عليه قوله : ﴿ **فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم** ﴾ .

٣ - إن من شأن الأمم الاختلاف فى اختيار الملك ، ومن ثم لجأ الملأ من بنى اسرائيل إلى نبيهم ليختار لهم ملكا . وقد جاء الإسلام وجعل المرجح اختيار أرباب المكانة فى الأمة ، وهم أهل الحل والعقد وعون الحاكم وقوته لاحترام الأمة لهم وثقتها بهم .

٤ - إن الأمم زمن الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة هم أصحاب الجاه والثروة كما يدل على ذلك قول المنكرين لملك طالوت ﴿ **ولم يؤت سعة من المال** ﴾ مع أن الأجدر بهذا الاختيار أهل الشرف بمعارفهم وعلومهم وأخلاقهم الفاضلة ونفوسهم الكريمة .

٥ - إن الأمم إذا ارتقت فى علومها ومعارفها وحضارتها اختارت ملوكها من سلائل الملوك والأمراء وحافظت على قوانين الوراثة ولم يشذ عن ذلك إلا أصحاب الحكومات الجمهورية التى تختار رئيسها بالانتخاب .

(١) سورة القصص الآيتان ٤٤ ، ٤٥ .

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب التفسير

الجزء الثالث

سورة البقرة

من الآية رقم ٢٥٣ / ٢٨٦

سورة آل عمران

من الآية رقم ١ / ٩٢

٦ - إن الظفر لايتم للقائد إلا إذا أطاعه جنده فى كل مايأمر وينهى وعلى هذا مضت قوانين الجندية فى العصر الحديث .

٧ - إن الفئة القليلة قد تغلب الفئة الكثيرة إذا اختبرت وثبتت وأطاعت رؤ ساءها ، والتجارب والمشاهد تدل على صدق هذا .

٨ - إن من سنن الله فى خلقه دفع الناس بعضهم بعضا ، وهو المعبر عنه فى العصر الحديث (بنظرية تنازع البقاء) ، ومن ثم قالوا إن الحرب طبيعية فى البشر ، إذ بها يبقى الأصلح والأمثل وإلى هذا يشير سبحانه : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ أى أن سنة الله أن يقذف زبد الباطل الضار بالمجتمع ويمحوه من الوجود ، ويبقى إبريز الحق النافع الذى ينمو فيه عمران العالم ، ويحفظ به الخلق من أعاصير الظلم والفساد حتى يتغلب الخير على الشر والحق على الباطل ولا يزال هذا سنة الوجود مابقى الإنسان على ظهر البسيطة .

حديث عن الرسل

* تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

لما خاطب الله تعالى رسوله ومصطفاه خطابا أكد فيه إثبات الرسالة له فقال : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾(١) ، أكد بعد ذلك شيئاً عن هؤلاء المرسلين فقال : ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ . نعم لقد اقتضت مشيئة البارى جلَّ شأنه أن يفضل بعض المخلوقات على البعض الآخر : ففضل جبريل على جميع الملائكة، وفضل مكة على جميع البلاد، وفضل القرآن على جميع الكتب ، وفضل المسجد الحرام على جميع المساجد ، وفضل بعض الجبال على بعض كعرفات ، وفضل بعض الساعات على بعض كساعة الإجابة ، وفضل ليلة القدر على جميع الليالى ، وفضل يوم عرفات على جميع أيام السنة ، وفضل يوم الجمعة على أيام الأسبوع ، وفضل بنى آدم على كثير ممن خلق تفضيلا . قال رسول الله ﷺ فى شأن يوم عرفة : (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهى بهم الملائكة ويقول : ما

(١) سورة يس آية ٣

أراد هؤلاء ؟)[١] ، وقال ﷺ : (خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئا إلا أعطاه إيّاه ما لم يسأل حراما ، وفيه تقوم الساعة)[٢] ، وفضل بعض النساء على بعض : كمريم ابنة عمران ، وآسية زوج فرعون ، وخديجة زوج محمد ، وفاطمة بنت محمد . وفضل بعض الرسل على بعض كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وفضل محمداً ﷺ على جميع المخلوقات . وإذا كان بعض الرسل أفضل من بعض إلا أن الإيمان بهم جميعا واجب . وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على صدق الإسلام ، إذ أنه يأمر أتباعه بالإيمان بكل الأنبياء والمرسلين . قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله . وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[٣] .

وقال عزَّ من قائل : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[٤] .

وقال جل شأنه مشددا الوعيد على قوم كفروا بالله ورسله وفرقوا فى الإيمان بين بعض الأنبياء والبعض الآخر فقال : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا﴿أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾[٥] .

ثم وعد المؤمنين بالخير العميم والثواب الكريم فقال : ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما ﴾[٦] .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو الإسلام ، وتحت لواء واحد هو قول «لا إله إلا الله» . قال ﷺ : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى « لا إله إلا الله »)[٧] . وقد جاء الإسلام يؤكد تلك الحقيقة ، ألا وهى وجوب الإيمان بكل الأنبياء دون تفريق . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٨] . وقد بين الله تعالى بعض وجوه التفضيل فى قوله : ﴿ **منهم من كلّم الله** ﴾ والمراد به موسى . قال تعالى : ﴿ وكلّم الله موسى تكليما ﴾[٩] . وقال : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾[١٠] ، وقال : ﴿ يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[١١] .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٧١١ ط دار الكتاب العربي .
(٢) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ١ ص ٢٨٦ ط دار الكتاب العربي .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٨٥ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٣٦ .
(٥) سورة النساء الآيتان : ١٥٠ ، ١٥١ .
(٦) سورة النساء آية : ١٥٢ .
(٧) رواه الجماعة
(٨) سورة الأنبياء آية : ٣٥ .
(٩) سورة النساء آية : ١٦٤ .
(١٠) سورة الأعراف آية : ١٤٣ .
(١١) سورة الأعراف آية : ١٤٤ .

قوله تعالى : ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ المقصود به محمد ﷺ الذى خاطبه مولاه بقوله : «وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىَّ كل طريق واستفتحوا علىّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد» ، إنه النبى الذى ذكى الله تعالى عقله فقال : ﴿ ما ضلَّ صاحبكم وما غوى ﴾(١) ، وذكى لسانه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾(٢) ، وذكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾(٣) ، وذكى جليسه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾(٤) ، وذكى فؤاده فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾(٥) ، وذكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾(٦) ، وذكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(٧) .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

أنت الذى من نورك البدر اكتسى ... والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما ... بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا ... ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك يا علم الهدى ... ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى ... أن تجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله يا علم الهدى ... ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

ولقد أخذ الله الميثاق على النبيين أن يؤمنوا بمحمد وأن ينصروه وأن يوصوا أتباعهم بذلك . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاء كم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾(٨) .

لقد رفع الله محمدا ﷺ درجات فمنحه الخلق الكريم . ولقدمدحه بما منحه فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(٩) .

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يُغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا خطبت فللمنابر هزة ... تعرو الندى وللقلوب بكاء

(١) سورة النجم آية : ٢ .
(٢) سورة النجم آية : ٣ .
(٣) سورة النجم آية : ٤ .
(٤) سورة النجم آية : ٥ .
(٥) سورة النجم آية : ١١ .
(٦) سورة النجم آية : ١٧ .
(٧) سورة القلم آية : ٤ .
(٨) سورة آل عمران آية : ٨١ .
(٩) سورة القلم آية : ٤ .

وإذا رحمت فأنت أم أو أب — هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة — للحق لا ضغن ولا شحناء

وقد رفع الله درجته لما جعل معجزته القرآن وهى المعجزة الخالدة على مر العصور والأزمان : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾[١] .

وقد رفعه الله درجات عندما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس . قال ﷺ متحدثا بفضل الله عليه : (ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[٢] .

وروى عنه أنه قال : (فضلت على الأنبياء بست : أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأُحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بى النبيون)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس** ﴾ ، المقصود بالبينات المعجزات الدالة على صدق نبوته ، كإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، وإحياء الموتى بإذن الله . والمقصود بروح القدس أى الروح المقدس الطاهر ، وهو الأمين جبريل . وأيدناه أى قويناه . وقد جاء ذكر صاحب الدرجات العلا سيدنا محمد ﷺ بين موسى وعيسى لأنه صاحب الأمة الوسط . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[٤] .

بعد ذلك قال تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر** ﴾ أى لو أراد الله عدم اقتتال الناس بعد أنبيائهم ما اقتتلوا ، وأى داع يدعو إلى الاقتتال بعد وضوح الحجة ومجىء البينات ؟ لكنهم اقتتلوا لما اختلفوا فصاروا بين مؤمن وكافر ، فوقع الصراع المرير بين الفريقين . ثم قال تعالى : ﴿ **ولو شاء الله ما اقتتلوا** ﴾ أى لرفع الخلاف والاختلاف من بينهم ، وهو السبب الذى أدى للاقتتال . قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾[٥] .

قوله جلَّ شأنه : ﴿ **ولكن الله يفعل ما يريد** ﴾ ، أى أنه سبحانه ﴿ يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾[٦] فالوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته : «عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد» .

---

(١) سورة الاسراء آية : ٩ .
(٢) صحيح البخارى .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ ص ٢١٦ ط دار الفكر .
(٤) سورة البقرة آية : ١٤٣ .
(٥) سورة هود الآيتان : ١١٨ ، ١١٩ .
(٦) سورة القصص آية : ٦٨ .

لا الأمـر أمرى ولا التـدبير تـدبيرى ولا الشئون التى تجرى بتقديـرى
لى خـالق رازق مـا شـاء يفعـل بى أحـاط بى علمه من قبـل تصويـرى

الحث على النفقة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾ ﴾

هذا خطاب كريم من رب كريم بصفة كريمة هى الإيمان : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وقد جاءت آية الأمر بالإنفاق بعد آية الرسل لتفيد أن الانفاق مما جاءت به الرسل وأمرت به الأمم فإذا كان الإيمان يحيى القلوب فإن الانفاق يحييها أيضا بإزالة الشحناء والبغضاء منها . وقد جاء الحث على الانفاق ترغيبا مرة وترهيبا أخرى . جاء ترغيبا فى قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾(١) . وجاء ترهيبا فى هذه الآية . ذلك لأن النفوس مختلفة المنازع والمذاهب والمشارب فالعبد يُقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة . وعندما أمر الله بالإنفاق قرن الأمر بقوله ﴿ مما رزقناكم ﴾ أى أن المال ماله والأرزاق من عنده ، فما الغنى إلا موظف فى مال الفقير ، قال تعالى : ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه﴾(٢) . وقال النبى ﷺ : (صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب وصلة الرحم تزيد فى العمر)(٣)

وقال : (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء) . كما بين أن للانفاق وظائف اجتماعية فقال : (حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء)(٤) . وليست الزكاة منة يمن بها الغنى على الفقير إنما هى حق معلوم كما أنها ذمة وفريضة . قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾(٥) . وقال فى الحديث القدسى الجليل : (الأغنياء وكلائى والفقراء عيالى . فإذا بخل وكلائى على عيالى أخذتهم ولا أبالى)(٦) . وقد أخبر الصادق المعصوم أنه ما منع قوم الزكاة إلا منعوا القتر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا . وقد رغب الله تعالى فى الإنفاق فقال فى الحديث الجليل : (أنفق أنفق عليك)(٧) . وقال النبى ﷺ : (صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكئا)(٨) . وما أجمل ما قاله الله تعالى : ﴿ وأنفقوا خيرا لأنفسكم ﴾(٩) ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾(١٠). ﴿ إن تقرضوا

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٤٥ .
(٢) سورة الحديد آية : ٧ .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٠٠ ط دار الفكر .
(٤) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٣ ص ٧٦٥ .
(٥) سورة المعارج الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(٦) الجامع الصغير المرجع السابق .
(٧) الأحاديث القدسية ص ١٦٠ ص المجلس الأعلى .
(٨) الجامع الصغير المرجع السابق .
(٩) سورة التغابن آية : ١٦ .
(١٠) سورة الحشر آية : ٩ .

الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم﴾(١) . وما أجلَّ قوله جلَّ شأنه : ﴿ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾(٢) .

وما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم ارزق منفقا خلفا ويقول الآخر : وارزق ممسكا تلفا .

وقد حذر الله تعالى من إتيان يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ، وهو كما قال جلَّ شأنه : ﴿قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال﴾(٣) .

وما أجمل ما حكاه القرآن الكريم عن إبراهيم يدعو ربه فيقول : ﴿ولا تُخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم﴾(٤) ، فياله من يوم ما أطوله . ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله . أما اليوم فيقول فيه تعالى : ﴿واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون﴾(٥) . وأما الهول فيقول فيه تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾(٦) . وأما الجبار فهو الذى يقول : ﴿لمن الملك اليوم لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب﴾(٧) . وهو الذى يقول : ﴿ وأنذرهم يوم الآزِفةِ إذا القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾(٨) . فلا بيع فى هذا اليوم : أى لا فدية ، ولا خلة أى لا صداقة ولا شفاعة : أى لا شفيع يرفع ما نزل بالنفوس وحاق بها ، ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ لأنهم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير﴾(٩) . قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين﴾(١٠) .

آية الكرسى

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ

(١) سورة التغابن آية : ١٧ .
(٢) سورة محمد آية : ٣٨ .
(٣) سورة إبراهيم آية : ٣١ .
(٤) سورة الشعراء آية : ٨٧ - ٨٩ .
(٥) سورة البقرة آية : ٤٨ .
(٦) سورة الحج آية : ١ ، ٢ .
(٧) سورة غافر آية : ١٦ ، ١٧ .
(٨) سورة غافر آية : ١٨ .
(٩) سورة الملك الآيات : ٦ - ٩ .
(١٠) سورة الزخرف آية : ٧٦ .

إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

يقول ابن كثير :

جاء فى فضل تلك الآية أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ : ـ روى الإمام أحمد بإسناده إلى أُبى بن كعب أن النبى ﷺ سأله : (أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم فرددها مرارا،ثم قال : آية الكرسى . قال : ليهنك العلم أبا المنذر والذى نفسى بيده إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش) .

- عن عبد الله بن أبى بن كعب أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر ، قال فكان أبى يتعاهده فوجده ينقص قال فحرسه ذات ليلة فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم قال : فسلمت عليه فرد السلام قال : فقلت ما أنت ؟ جنى أم إنسى ؟قال : جنى . قال : قلت ناولنى يدك قال : فناولنى يده فإذا يد كلب وشعر كلب . فقلت : هكذا خلق الجن ؟ قال لقد علمت الجن ما فيهم أشد منى ، قلت فما حملك على ما صنعت ؟ لقد بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك قال: فقال له أبى فما الذى يجيرنا منكم ؟ قال هذه الآية «آية الكرسى» ثم غدا إلى النبى ﷺ فأخبره فقال النبى ﷺ : (صدق الخبيث) .

- عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من صحابته فقال : « أى فلان هل تزوجت ؟ » قال : لا وليس عندى ما أتزوج به قال : « أوليس معك . قل هو الله أحد » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : أليس معك « قل يا أيها الكافرون ؟ » قال : بلى . قال: « ربع القرآن » قال : أليس معك « إذا زلزلت ؟ » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : إليس معك « إذا جاء نصر الله ! » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » قال : إليس معك « آية الكرسى » « الله لا إله إلا هو » قال : بلى . قال : « ربع القرآن » .

- وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد فجلست فقال : « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت : لا،قال : « قم فصل » قال : فقمت فصليت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الإنس والجن » قال : قلت يا رسول الله أو للإنس شياطين ! قال : نعم . قال : قلت يا رسول الله ، الصلاة قال : خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال : قلت يا رسول الله فالصوم ؟ قال : « فرض مجزى وعند الله مزيد » قلت يا رسول الله فالصدقة ، قال : « أضعاف مضاعفة ، قلت يا رسول الله فأيها أفضل ، قال : جهد من مقل أو سر إلى فقير » قلت يا رسول الله أى الأنبياء كان أول ، قال « آدم » قلت يا رسول الله ونبى كان . قال : « نعم نبى مكلم » . قلت يا رسول الله كم المرسلون ؟ . قال : « ثلثمائة وبضعة عشر جما غفيرا » وقال مرة « وخمسة عشر » قلت يا رسول الله أى ما أنزل عليك أعظم ، قال : آية الكرسى ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

- وقد ذكر البخارى فى كتاب فضائل القرآن : عن أبى هريرة قال : وكلنى رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان

فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال ولى حاجة شديدة قال : فخليت عنه فأصبحت . فقال النبى ﷺ : «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة» قال : قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال : «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال لا أعود . فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة» قلت يا رسول الله شكاحاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال:«أما إنه قد كذبك وسيعود» فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ وهذا آخر ثلاث مرات ، انك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت وما هى : قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى «الله لا إله إلا هو الحى القيوم» حتى تختم الآية فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لى رسول الله ﷺ : «ما فعل أسيرك البارحة»،قلت يا رسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله . قال : «ما هى» . قال لى إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الآية (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وقال لى لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شىء على الخير،فقال النبى ﷺ:«أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة» قلت لا قال : «ذاك شيطان» .

- وروى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لكل شىء سنام وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة أى القرآن : آية الكرسى »".

- روى الإمام أحمد بإسناده عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين «الله لا إله إلا هو الحى القيوم) و« الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم »«إن فيهما اسم الله الأعظم» .

- عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسى لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» .

- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ «حم»المؤمن إلى «إليه المصير »وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح»(١) .

تفسير الآية :

أخبر الله جل جلاله عن ذاته بأنه لا إله إلا هو أى هو المتفرد بالسلطان والجلال والوحدانية وهو المعبود بحق ، المستغنى عمن سواه ، المفتقر إليه جميع من عداه ، سبحانه تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، واحد بلا

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٥٠ - ٤٥٥ ط الشعب .

عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد . سبحانه هو القائل فى الحديث القدسى الجليل : أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملك وملك الملوك . قلوب الملوك فى يدى(١) .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... رهبا وكل الكائنات تمجد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

يا أخا الإسلام : انظر إلى السماء وارتفاعها،والشمس وشعاعها،والأفلاك ومدارها،والبحار وأمواجها والأرض واتساعها . الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويعلن عن شكره ولا يغفل عن ذكره . ثم انظر إلى كل ظاهر وكامن ومتحرك وساكن . كل شىء قائم به . وكل شىء خاشع له . قوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف وعز كل ذليل وغنى كل فقير . من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فإليه منقلبه . أخبر جل جلاله عن ذاته بأنه الواحد وهذا مركوز فى طباع الخلائق . ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾(٢) ثم أخبر سبحانه بأنه الحى ، والحياة صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تصحح الاتصاف بصفات الكمال من علم وإرادة وقدرة وسمع وبصر وكلام . وإذا كان غير الله قد يوصف بأنه حى إلا أن حياته ليست لذاته إنما هى مكتسبة من الله جل شأنه . أما حياة الله فإنها واجبة لذاته لا يعتريها الفناء . قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾(٣) .

كما وصف سبحانه ذاته بالقيومية ، فهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وهو القائم على تدبير ملكه ؛ فالأمر أمره والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾(٤) . فمن صفاته جل شأنه أنه القائم بذاته غير محتاج إلى غيره : ﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله ﴾(٥) . ومن صفاته جل شأنه لا يغفل ولا ينام . قال سبحانه:﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ المقصود بالسنة النعاس وهو أخف من النوم ومعنى لا تأخذه أى لا تغلبه . وهذا أسلوب فى الترقى أى أنه جلّت قدرته لا يغلبه النعاس ولا ما هو أشد منه وهو النوم ، ذلك لأن النعاس والنوم من باب الضعف البشرى والله هو القوى العزيز وهو ذو القوة المتين فمن الذى يدبر الأمر إذا نام . سبحانه علا فقهر وملك فقدر وبطن فخبر لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل . إذا كان ثلث الليل الأخير نادى : هل من تائب فأتوب عليه.هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر

(١) الأحاديث القدسية ط المجلس الأعلى .
(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .
(٣) سورة الفرقان آية : ٥٨ .
(٤) سورة الروم آية : ٢٥ .
(٥) سورة المؤمنون الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

فأغفر له . سبحانك ربى أستحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت . إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

أنت الذى تهب الكثير وتجـ ـبر القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

جاء فى الصحيح عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)(١) .

وعن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله تعالى:﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أن موسى عليه السلام سأل الملائكة : هل ينام الله عز وجل ؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ، ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما قال : فجعل ينعس وهما فى يده فى كل يد واحدة قال فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما . قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله عزّ وجلّ يقول : فكذلك السماوات والأرض فى يده(٢) .

قوله تعالى:﴿ له ما فى السماوات وما فى الأرض ﴾ تقديم الخبر يدل على الحصر والقصر أى أن ما فى السماوات وما فى الأرض ملك له سبحانه لا يشاركه أحد فيه ، ولله تعالى المثل الأعلى ، فقد تنزه عن كل الشركاء ولا يشرك فى حكمه أحدا وهو القائل : ﴿ يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾(٣) وقد فصل هذا الشأن فى قوله : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾(٤) .

يقول ابن كثير :

قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ هو كقوله جلّ شأنه:﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وكقوله جلّ شأنه:﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وكقوله:﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وكقوله جلّ شأنه:﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾ .

جاء فى حديث الشفاعة «آتى تحت العرش فأخر ساجدا فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى . ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع ــ قال : فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة»(٥) .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ ط الشعب .
(٢) المرجع السابق
(٣) سورة الرحمن آية : ٢٩ .
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٥ ، ٤٥٦ .

قوله تعالى: ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء** ﴾ . هذا إخبار عن علمه تعالى والعلم صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى تنكشف بها جميع الكائنات . والله تعالى قد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾(١) .

قال النبى ﷺ : (مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم . فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض كذا لا تستطيعون الخروج من علم الله . وكما لا تحملكم السماء والأرض على فعل الذنوب كذا لا يحملكم علم الله)(٢) .

ومعنى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم : الإحاطة والشمول . فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . قال تعالى : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه** ﴾ أى لا يعلمون ذاته أو صفاته إلا بما أعلمهم به سبحانه ، وهو معنى قوله جلَّ شأنه: ﴿ **ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء** ﴾ أى إلا بما أعلمهم عن طريق الوحى . قال سبحانه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه إحدا * إلا من ارتضى من رسول ﴾(٣) . فلا إحاطة من شىء من علم الله إلا بمشيئة الله . وهذا الكون لا تطرف فيه عين ولا تهب فيه نسمة هواء ولا يحدث فيه حدث كبير أو صغير إلا بإذن الله .

قوله تعالى: ﴿ **وسع كرسيه السماوات والأرض** ﴾. قال ابن عباس : كرسيه أى علمه . وقال آخرون : الكرسى موضع القدمين . وعن ابن عباس قال : سئل النبى ﷺ عن قول الله عزّ وجلّ ﴿ **وسع كرسيه السماوات والأرض** ﴾ قال : «كرسيه موضع قدميه ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله عزّ وجل » . قال ابن زيد : حدثنى أبى قال : قال رسول الله ﷺ : «ما السماوات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس» . وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما الكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرانى فلاة من الأرض وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة»(٤) .

قوله تعالى: ﴿ **ولا يؤوده حفظهما** ﴾ أى لا يثقله ولا يتعبه حفظ السماوات والأرض وما فيهما ومن فيهما . ﴿الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور﴾(٥) وقال سبحانه : ﴿الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير * يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾(٦) . قوله تعالى: ﴿ **وهو العلى العظيم** ﴾ أى كقوله تعالى ﴿عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾(٧) فالحمد لله الذى وصف ذاته بما هو أهل له ، فهو رفيع الدرجات ذو العرش وهو الكبير الذى لا تدرك العقول مدى عظمته . فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

(١) سورة الأنعام آية : ٥٩ .
(٢) ابن كثير المرجع السابق .
(٣) سورة الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .
(٤) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ط الشعب .
(٥) سورة الأنعام آية : ١ .
(٦) سورة سبأ الآيتان : ١ ، ٢ .
(٧) سورة الرعد الآية : ٩ .

لا إكراه فى الدين

لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

المفردات: ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ : أى لا إكراه فى دخول الدين . وبان الشىء واستبان : وضح وظهر ، ومنه المثل : تبين الصبح لذى عينين . والرشد : بالضم والتحريك والرشاد : الهدى وكل خير وضده الغى والجهل كالغى إلا أن الأول فى الاعتقاد والثانى فى الأفعال ومن ثم قيل زوال الجهل بالعلم وزوال الغى بالرشد . والطاغوت : من الطغيان وهو مجاوزة الحد فى الشىء ويجوز تذكيره وتأنيثه وإفراده وجمعه بحسب المعنى كما قال تعالى ﴿ أولياؤهم الطاغوت ﴾ وقال «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به» والعروة من الدلو والكوز ونحوهما : المقبض الذى يمسك به من يأخذها والوثقى : مؤنث الأوثق وهو الحبل الوثيق المحكم . . والانفصام : الانكسار أو الانقطاع من قولهم فصمه فانفصم أى كسره أو قطعه . والولى : الناصر والمعين ، والظلمات : هى الضلالات التى تعرض للانسان فى أطوار حياته كالكفر والشبهات التى تعرض دون الدين فتصد عن النظر فيه أو تحول دون فهمه ، والإذعان له كالبدع والأهواء التى تحمل على تأويله وصرفه عن وجهه والشهوات التى تشغل عنه .

يروى فى سبب نزول هذه الآية ما رواه ابن جرير من طريق عكرمة عن ابن عباس : أن رجلا من الأنصار ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان هو مسلماً . فقال للنبى ﷺ : ألا استكرههما : فإنهما قد أبيا إلا النصرانية . فأنزل الله الآية . وفى بعض الروايات أنه حاول إكراههما فاختصموا إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟ فنزلت فخلاهما(١) .

لما كان الإسلام يخاطب الناس بالمنطق السديد والعقل الرشيد ، ما كان فى أدنى حاجة إلى إكراه أحد على الدخول فيه ولقد نطقت آية الكرسى بأصول العقائد من توحيد خالص وصفات خاصة بالله وحده ، فهو الحى القيوم الذى لا يغلبه نعاس ولا نوم ولا تعتريه غفلة ولا غيبة قال تعالى «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين» وقال تبارك اسمه: ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾(٢) وقد جاء فى آية الكرسى أن الله وحده له ملك السموات والأرض كما أن علمه شمل الأزمان كلها وأحاط بالكون كله وأنه هو

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٥٩ ط الشعب .
(٢) سورة المؤمنون آية : ١٧ .

العلى العظيم فقد تبين من هذا أن الفطرة السليمة لا تعارض صفة من صفات الألوهية ولا تناقض أصلاً من أصول الإسلام ، قال تعالى:﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾[١] وقال جل شأنه: ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢] إن الطريق لائح وإن الحق واضح وإن المنادى صائح ؛ وقد بدا الصبح لذى عينين ، وبرح الخفاء وتبين الرشد من الغى والحق من الباطل والهدى من الضلال فكيف يكون هناك إكراه على دخول الدين . . إن الإسلام عقائد وقواعد وتصديق ، وكل هذه مركوزة فى القلب وما فى القلب لا سلطان لأحد عليه إلا لله وحده قال تعالى : «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[٣] وقال جل شأنه «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٤] وقد ذكر الله تعالى بعد ذلك أن توحيد الله يقتضى الكفر بالطواغيت أيا كانت صورها فكل ما عبد من دون الله يخالف التوحيد وكل من تجاوز الحد فى الطغيان يجب ألا يكون له مكان فى قلوب الموحدين . وبعد تخلية القلب عما سوى الله يكون الإيمان الخالص ويكون الاستمساك بالعروة الوثقى والصلة القوية قال جل شأنه : ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ . وهذا مؤشر قوى يدل دلالة صادقة على بشاشة الإيمان إذا خالطت شغاف القلوب لا يمكن أن تنفصم أو تنفصل عن قلب المؤمن إنها تكاد تجعل المستحيل ممكنا ، ﴿ **والله سميع عليم** ﴾ سميع لأقوال العباد عليم بأحوالهم . وبعد الإيمان بالله والكفر بالطواغيت يطمئن الله المؤمنين بأنه مولاهم وناصرهم ومعينهم ومخرجهم من الظلمات إلى النور طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى ، تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء وإنما جمع الظلمات وأفرد النور لأنها كثيرة متنوعة فهناك ظلمة الشبهات وظلمة الشهوات وظلمة الشرك وظلمة الهوى وظلمة النفاق إلى غير ذلك ، أما طريق النور فإنه واحد لأنه الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال ، « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » أما الكافرون الذين عبدوا الطاغوت وأطاعوا أمره فإنه وليهم والطواغيت أنصارهم يضلونهم بغير علم ويخرجونهم من نور الحق إلى ظلمات الكفر ، هؤلاء محكوم عليهم بالخلود فى النار . نسأل الله العافية .

الذى حاج ابراهيم فى ربه

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

المفردات : الاستفهام للتعجب والإنكار . وحاج : جادل وقابل الحجة بالحجة . فبهت : أى صار مبهوتاً

(١) سورة البقرة آية : ١٣٨ .
(٢) سورة الروم آية : ٣٠ .
(٣) سورة يونس آية : ٩٩ .
(٤) سورة الكهف آية : ٢٩ .

دهشاً وأخذه الحصر من سطوع نور الحجة فلم يجد جوابا . الظالمين : أى المعرضين عن قبول الهداية بالنظر فى الدلائل القاطعة التى توصل إلى معرفة الحق .

هذا مثل واقعى لطاغوت من طواغيت الأرض . إنه النمروذ بن كنعان على عهد ابراهيم الخليل ، جادل فى شأن رب العالمين وكان جداله سفسطة وتضليلا ومكابرة ، والذى دفعه إلى ذلك طغيانه وتجبره ؛ فقد نسى نفسه وتلك أقصى مراحل الضلال أن ينسى الانسان نفسه فينسى ربه قال تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[1] وقال جل شأنه : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾[2] قال الحسن رضى الله عنه : عجبت لابن آدم ، يتكبر على الله وهو حفنة من التراب تداس بالأقدام . . كيف يتكبر على الله وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة تنتنه عرقة وتؤذيه بقة وتقتله شرقة .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته — انظر خلاك ، فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم — ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا — اقصر فإنك مأكول ومشروب

رضى الله عن أبى بكر الصديق ؛ أرسل إلى كسرى عظيم الفرس إنذارا شديد اللهجة قال له ياكسرى : كيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين مرة من صلب أبيك ومرة من رحم أمك . لك العظمة والكبرياء يارافع السماء بلا عمد .

أتيت القبور فناديتها — فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه — وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعا فما مخبر — وماتوا جميعا ومات الخبر
فياسائلى عن أناس مضوا — أمالك فيما مضى معتبر

ماذا قال النمروذ الذى أطغاه ملكه . قال لإبراهيم أنا أحيى وأميت . . قالها تعقيبا على حقيقة نطق بها إبراهيم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت** ﴾ قال النمروذ : ﴿ أنا أحيى وأميت ﴾ كيف كان ذلك جاء برجلين وأصدر حكمه عليهما بالإعدام فخفف الحكم عن واحد فادعى بذلك أنه أحياه ونفذ الحكم فى الآخر فادعى أنه أماته ، وهكذا يفعل الضلال بأهله . . تهريج وفوضى ضاربة أطنابها ، لقد نسى أو تناسى أن الإحياء والإماتة شأن من شئون الله ، فالإحياء يكون بنفخ الروح ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[3] . وكما أن الحياة مخلوقة فإن الموت أيضاً مخلوق قال سبحانه : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾[4] ولما كان النمروذ ﴿ يجادل فى الله بغير علم ولا

(١) سورة التوبة آية : ٦٧ .
(٢) سورة الحشر آية : ١٩ .
(٣) سورة الاسراء آية : ٨٥ .
(٤) سورة الملك الآيتان : ١ ، ٢ .

هدى ولا كتاب منير * ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله ﴾[1] أفحمه الخليل بقوله : ﴿ فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت ﴾ ودهش وأندحر ، بعدما ألقم الحجارة فى حلقه ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ لأنهم اختاروا الظلم منهجا والجدل سبيلا والباطل طريقا فاستحقوا أن يحرموا نعمة الهداية .

الذى مر على قرية

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

هذه الآية ساقها الله تعالى دليلا على أنه هو الذى يحيى ويميت إحياء حقيقيا ، لا كما صنع طاغية الأرض النمروذ فهذا عزير يمر بقرية ، المشهور أنها بيت المقدس وقد خربها (بختنصر) فأصبحت ساقطة العروش والجدران على الأرض فسأل نفسه متعجبا أنَّى يحيى هذه الله بعد موتها . . أى كيف يحيى الله أهل هذه القرية وقد أصبحوا بعد الغضارة والنضارة ورونق الحياة والتنسم بطيب روائحها تحت أطباق الثرى أجسادا هامدة ورفاتا سحيقا وصعيدا جرزا . فجاءت الإجابة من الله عملية مطبقة عليه ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه وساق الملك إليه هذا السؤال كم لبثت ؟ فأجاب العزير لبثت يوما أو بعض يوم ؛ ذلك لأنه مات بعد طلوع الشمس وبعثه الله بعد مائة عام عند غروبها فقال له الملك بل لبثت مائة عام وهكذا يطوى الموت الزمن تأتى أقوام وتموت أقوام ويدرك الناس الموت والإعدام ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

ذكر المفسرون أن الله تعالى أحيا عينيه أولا فأبصرت بإذن الله ليرى الحياة وهى تسرى فى جميع أوصاله وكان معه طعام وشراب فلم يتغير الطعام ولا الشراب كان معه كما ذكر المفسرون عصير وتين وعنب فلم يتغير العصير ولم يفسد التين ولم يجف العنب وكان معه حمار يركبه فأمره الله أن ينظر إليه والحياة تسرى فيه سريان الماء فى العود الأخضر كما أمره أن ينظر إلى العظام كيف ينشزها الله أى يرفعها من الأرض ويعيدها إلى أماكنها بترتيب ونظام ثم يكسوها لحما أصله الخلايا التى قامت بتكوين الأنسجة التى قامت بتكوين الأعضاء التى

(١) سورة الحج الآيتان : ٨ ، ٩ .

قامت بتكوين الأجهزة وسبحان القائل ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة — لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى — فتفنى جميعاً والمهيمن باق

فلما تبين للعزير كيف أحيا الله أهل هذه القرية بعد موتها أقر بلسانه وقلبه قائلا أعلم أن الله على كل شىء قدير . نعم وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا .

إبراهيم وإحياء الموتى

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾

المفردات: ﴿فصرهن﴾ : أى ضمهن ، ﴿سعيا﴾ : أى مسرعات طيرانا ومشيا ، وعزيز : أى غالب على أمره ، حكيم : أى لأنه جعل أمر الإعادة وفق حكمة التكوين .

قال ابن كثير :

ذكروا لسؤال ابراهيم عليه السلام : أسبابا منها أنه لما قال النمروذ ﴿ربى الذى يحيى ويميت﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرنى كيف تحيى الموتى . قال : أو لم تؤمن . قال : بلى ولكن ليطمئن قلبى) . فلم يكن سؤال ابراهيم شكا ومعاذ الله أن يكون كذلك ، فإبراهيم هو الذى قال الله تعالى فى شأنه ﴿وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين﴾[1] روى الامام البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (نحن أحق بالشك من ابراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى)[2] يريد الرسول ﷺ أن يقول ما شك إبراهيم عندما سأل الله هذا السؤال لأننا أحق بالشك منه فقد أمرنا باتباعه وحيث انتفى الشك عن التابع فإنه بالأولى ينتفى عن المتبوع قال شراح الحديث : لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا فى أنه هل يجيبهما إلى ما سألا . وقال أبو سليمان الخطابى ليس فى قوله نحن أحق بالشك من

(١) سورة الأنعام آية : ٧٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ ط الشعب .

ابراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على ابراهيم لكن فيه نفى الشك عنهما ، يقول إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى ، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك على سبيل التواضع ، وكذلك قوله « لو لبثت فى السجن طول ما لبث يوسف لأجبت الداعى » . والمراد بالداعى ما جاء فى قوله تعالى ﴿ وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾(١) كأنه ﷺ يريد أن يقول اسألوا الله العافية ، وسؤال إبراهيم لا يفيد شكا ولكنه من قبل زيادة علم بالعيان ، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيده الاستدلال ، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم : شك ابراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله ﷺ هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه .

قوله تعالى ﴿ **قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا** ﴾ فنفذ إبراهيم أمر ربه ، فأخذ أربعة من الطير لم يعين الكتاب العزيز أنواعها ، إذ لا طائل تحت بيان أنواعها حتى لا ينشغل الذهن بها عن القضية الحقيقية ، ومع إحياء الموتى وذبح إبراهيم الطير ونتف ريشه وخلط أجزائه بعضها ببعض ، ووضع كل جزء منها على جبل ونادى عليها فأحياها الله بعدما اختلف بعض أجزائها فى بعض ، وجاءت تسعى ترفرف بأجنحتها ، وسبحان القائل : ﴿ **ثم ادعهن يأتينك سعيا** ﴾ وهذا أيضا إحياء حقيقى بعدما اختلطت العظام باللحم وهذا الإحياء رد مفحم لعدو الله نمروذ الذى قال أنا أحيى وأميت .

قوله تعالى ﴿ **واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾ المراد من الأمر بالعلم الدوام عليه كما فى قوله جل شأنه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾(٢) والعزيز هو الذى لا يغلب والحكيم هو الذى تنزه فعله عن العبث .

مثل للانفاق فى سبيل الله

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ
حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

(١) سورة يوسف آية : ٥٠ . (٢) سورة النساء آية : ١٣٦ .

المفردات: ﴿ سبيل الله ﴾ ما يوصل إلى مرضاته تعالى . الحبة : واحدة الحب وهو ما يزرع ليقتات به ، المن : أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ويظهر به تفضله عليه ، والأذى : أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه كأن يقول له : انى قد اعطيتك فما شكرت قول معروف : أى كلام حسن ورد جميل على السائل كأن يقول له : رزقك الله أو عد إلى مرة أخرى أو نحو ذلك . ومغفرة : أى ستر لما وقع منه من الإلحاف فى السؤال وغيره مما يثقل على النفوس احتماله : وخير : أى أنفع وأكثر فائدة . رئاء الناس أى مراءاة لهم لأجل أن يروه فيحمدوه ولا يقصد ابتغاء رضوان الله بتحرى ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين وترقية شأن الأمر بالقيام بما يصلح شئونها فمثله : أى قصته . وصفوان : أى حجر أملس . والوابل : المطر الشديد والصلد : الأملس الذى ليس عليه شىء من الغبار ويقال فلان لا يقدر على درهم : أى لا يجده ولا يملكه .

أخرج ابن ماجه عن على وأبى الدرداء ، كلهم يحدث عن رسول الله ﷺ قال : (من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم)[1] وعن معاذ بن جبل أن الغزاة المنفقين قد خبأ الله لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عن علم العباد .

بعدما بين الله تبارك وتعالى أن البعث حق وبين حقيقتين على ذلك ، أولاهما الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها فأماته الله مائة عام ثم بعثه ، والحقيقة الثانية إحياء الطير عندما سأل إبراهيم ربه ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى ﴾ وكان فى الموقفين إحياء للأجساد ، جاءت آية الإنفاق بعد ذلك لتكون مثلاً على إحياء النفوس التى مسها الضر وعضها الفقر بنابه ، فجاءت الآية ترغيباً للنفوس لتنفق مما رزقها الله ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾[2] ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد ﴾[3] وجاءت آية الترغيب فى الإنفاق فى صورة مثل رائع وتصدير بديع إنها كحبة أنبتت سبع سنابل لأنها زرعت بأرض خصبة جيدة وهى حبة واحدة لكن ساقها أراد ربك أن يحمل سبع سنابل ، وكل سنبلة منها فيها مائة حبة ولا يقتصر الأمر على ذلك ، أى على سبع مائة بل قال تعالى : ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾ لأنه واسع الرحمة عليم بنيات المنفقين. قال داود يارب كيف يستطيع العبد أن يملأ كفة الميزان حسنات ؟ قال له: يا داود . إذا تصدق بنصف تمرة لا يقصد بذلك إلا وجهى . وفى هذه الآية حقيقة علمية ، فقد عنى بتطبيق هذا المثل علميا بعض أعضاء الجمعية الزراعية بمصر فى مزارع القمح التى تملكها فى التفتيش النموذجى وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبلة واحدة بل أكثر وقد وصلت أحيانا إلى أربعين وأحيانا إلى ست وخمسين وأحيانا إلى سبعين كما دلتهم أيضاً على أن السنبلة الواحدة تنبت أحيانا ستين حبة أو أكثر وقد عثر فى عام ١٩٤٢ أحد مفتشى الجمعية على سنبلة أنبتت سبعاً

(١) تفسير ابن كثيرج ١ ص ٤٦٩ ط الشعب .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٤ .
(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٧ .

ومائة حبة ،وعرض نتيجة بحثه على الأخصائيين من رجال الجمعية وغيرهم فى حفل جامع ورأواتلك السنبلة وعدوها عدا فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدَّ ورأى وشكروه على جهوده الموفقة .

وبعد ما حث الله تعالى على الصدقة ورغب فيها دعا المتصدق إلى الالتزام بآداب الصدقة فقال ﴿ **الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ ذلك لأن للصدقة آداباً وتخلقا يجب على المتصدق أن يلزمها ، من هذه الآداب أن يكون المقصود بالصدقة وجه الله وحده ومنها ألا يمن على الفقير كأن يقول له لقد أحسنت إليك ولى الفضل عليك ويذيع على الناس إحسانه وهو لا يدرى أن ذلك يبطل ثواب صدقته مع أن الله بين هذا فى كثير من آيات الكتاب كذلك من آدابها ألا يؤذى الفقير بأن يقول له لقد أحسنت إليك ولم تشكرنى ولم تعترف بالجميل ، مع أن رسول الله ﷺ يقول : « أفضل الصدقة الصدقة على ذا الرحم الكاشح »(١) أى الذى يضمر السوء والبغضاء لأنك بالصدقة عليه تكون قد أطفأت نار حقده ، وتكون قد جاهدت نفسك وخالفت شيطانك فأصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله فإن صادف أهله فهو أهله وإن لم يصادف أهله فأنت أهله .

ازرع جميلاً ولو فى غير موضعه ... فلن يضيع جميل أينما زرعا
إن الجميل وإن طال الزمان به ... فليس يحصده إلا الذى زرعا

هؤلاء الذين أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيت أنفسهم ،ولم يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى لهم الأجر العظيم عند الله ولا خوف عليهم مما سيأتى ولا يحزنون على ما مضى فإن لم يكن هناك ما تتصدق به ، فقول معروف وكلمة طيبة ومغفرة وستر على حال المسكين ، خير من صدقة مقترنة بالأذى ، ذلك لأن الإسلام يحترم الإنسانية فى الإنسان ولا يرضى بتصفير الوجوه ، وقد صدق من قال : « نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين خير لى من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء وجهى » . وليعلم هؤلاء أن الله غنى حليم ، غنى عن عباده ولكنه حليم بهم. ، يدعوهم إلى ما يصلح أحوالهم « لن ينال الله لحومها ولا دماؤ ها ولكن يناله التقوى منكم » .

ثم خاطب الله أهل الإيمان أن يلتزموا التزاماً شديداً بآداب الصدقة وألا يبطلوها بالمن والأذى ،وإن مثل من تصدق ثم أتبع الصدقة بالمن والأذى كمثل حجر عليه تراب فهبطت عليه السماء من مائها فغسل الماء الغزير ما على الحجر من تراب فتركه صلداً أملس ناعماً ، كذلك المن والأذى يغسل ويمحو ثواب الصدقة فتنقلب لا ثواب عليها ، فهل يقدر أحد على شىء مما كسب ، لأن المالك الحقيقى هو الله فما دمت عاجزاً أيها

(١) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير للسيوطى ج ١ ص ١٦٠ ط دار الفكر .

الإنسان لا تقدر على شيء من كسبك لأن الرزق بيد الله ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(١) ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه وأشكروا له إليه ترجعون ﴾(٢) والله لا يهدى القوم الكافرين لأنهم اختاروا الكفر طريقاً ، لذلك لا يعملون لله شيئاً إذا أنفقوا بقصد الرياء ، لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر إذ لو آمنوا بالله وأنفقوا ابتغاء مرضاته ولو آمنوا باليوم الآخر لعملوا بقوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾(٣) هؤلاء مهما عملوا فسيحبط الله أعمالهم قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾(٤) .

الإنفاق ابتغاء مرضاة الله

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

المفردات : ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾ أى طلباً لرضوانه ﴿ وتثبيتا من أنفسهم ﴾ أى لتمكين أنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها عند بذلها بحيث لا ينازعها فيه زلزال البخل ولا اضطراب الحرص و﴿ الجنة ﴾ البستان . و﴿ الربوة ﴾ المكان المرتفع من الأرض ، وأشجار الربى أحسن منظراً وأزكى ثمراً للطافة هوائها وفعل الشمس فيها .و﴿ آتت أكلها ﴾ أى أعطت صاحبها أكلها . والأكل كل ما يؤكل والمراد هنا الثمر ، وضعف الشيء : مثله و﴿ الطل ﴾ المطر الخفيف . والإعصار : ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها إلى السماء حاملة الغبار فتكون كهيئة العمود ، والنار : أى السموم الشديد .

هذا مثل عظيم للذين ينفقون أموالهم لا يقصدون من وراء ذلك رياء ولا سمعة إنما يهدفون إلى أشرف غاية . ويقصدون بذلك أسمى هدف ، فهم لا يتبعون صدقاتهم بالمن والأذى ، إنما يريدون من وراء ذلك ابتغاء مرضاة الله ، فذلك أقصى أمانيهم كما يقصدون تثبيت أنفسهم وتمكينها من الإيمان بطرق السخاء فبذل المال فيه جهاد للنفس ، لأن حب المال رأس كل خطيئة ، إذا تمكن من القلوب ، وهذا هو الفرق بين أبى بكر الصديق رضى الله عنه وبين ثعلبة بن حاطب . فالمال لم يستطع أن يتسرب إلى قلب الصديق ولم يقدر أن يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعة ، فكأنه فى يديه ولم ينفذ إلى قلبه ، لذلك بذله بسهولة ويسر . وقد جاء بماله

(١) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ - ٥٨ .
(٢) سورة العنكبوت آية : ١٧ .
(٣) سورة النحل آية : ٩٦ .
(٤) سورة الفرقان آية : ٢٣ .

كله يوم تجهيز جيش العسرة . جاء به إلى رسول الله ﷺ بنفس راضية مطمئنة . ولقد سأله الهادى البشير ﷺ : ماذا تركت لأولادك يا أبا بكر ؟ . فرد على الفور تركت لهم الله ورسوله . أما ثعلبة فقد أغناه الله بعد فقر وبسط عليه الرزق بعد ضيق وعاهد الله إن آتاه من فضله ليصدقن وليكونن من الشاكرين . فماذا كانت العاقبة ؟ لقد طلب منه أن يؤدى حق الله فى ماله فما كان جوابه إلا أن قال : لا أراها إلا أخت الجزية يقصد بذلك الزكاة . قال تعالى : ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علاّم الغيوب ﴾(١) . لقد تسربت الدنيا وحب المال إلى قلب ثعلبة وتمكن ذلك أيما تمكن ، فلم يكن من الميسور انتزاعه بعد ما أشرب قلبه بحبه وهكذا ضرب الله المثلين وصوَّر لكل موقف ما يليق به : فالذين أنفقوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم مثلهم كجنة باسقة الظلال مغدقة الثمار بأرض عالية خصبة جيّدة . أصابها مطر غزير فأعطت ثمارها ضعفين أى مثلين فقد بارك الله فيها وفى ثمارها فإن لم يصبها المطر الغزير أصابها مطر خفيف وهو الطل فلم تحرم الناس عطاءها وثمارها : كذلك أهل الجود والكرم يعطون دائماً سواء أكان ما عندهم كثيراً أم قليلاً . فهم على خير وبركة . أُشربت قلوبهم بحب الكرم والعطاء . بل إنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ترى أحدهم فى حبه للعطاء كما قال القائل :

تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت نائله
ولو لم يكن فى كفه غير روحه ... لجاد بها فليتق الله سائله

إنهم تخرجوا فى مدرسة عميدها أكرم الخلق الذى وصفه خالقه بقوله : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ فقد كان أجود من الريح المرسلة .

ماذا يقول المادحون وما عسى ... أن تجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله يا علم الهدى ... ما اشتاق مشتاق إلى مثواك

فقد كنت أكرم الخلق على الإطلاق :

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها ... على البر صار البر أندى من البحر

قوله تعالى : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ : أى بصير بحال المنفقين . عليم بأعمالهم . إن كانوا ينفقون جريا وراء السمعة وحبا فى الرياء أو كانوا ينفقون ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم . فما أجمل ابتغاء مرضاة الله فى الأعمال وليعلم المنفقون أن ما عندهم ينفد وما عند الله باق وليكونوا واثقين بأن الله طيب لا يقبل إلا الطيب : عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قال رسول الله ﷺ : من تصدق بعدل ثمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب . فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فَلُوَّه حتى تكون مثل الجبل)(٢) .

(١) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ صـ ٧ ط وزارة الأوقاف .
(٢) الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٢ صـ ٧ ط وزارة الأوقاف .

والمقصود بعدل : مقدار ــ طيب : حلال . والمراد باليمين كما قال القاضى عياض : لما كان الشىء الذى يرتضى ويعز يتلقى باليمين ويؤخذ بها استعمل فى مثل هذا واستعير للقبول والرضا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عزَّ وجلَّ)[1] .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يا أيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له . وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا)[2] .

وهكذا يبين ﷺ أن الإنفاق لله يجلب سعة الرزق ويقضى الحاجات ويكون سبب الفوز والنجاح والشفاء ونيل المأمول . ومعنى تجبروا : تجبُ دعواتكم وتغتنوا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يقول العبد مالى مالى . وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى،أو أعطى فاقتنى،وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس)[3] .

وروى عن عائشة رضى الله عنها أنهم ذبحوا شاة ، فقال النبى ﷺ : (ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها)[4] .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التى كان قبل الموت بانيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التى كانت مسلطة حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوى الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

قوله تعالى : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ﴾ هذا تصوير قرآنى فى أعلى طبقات البلاغة وأسمى درجات الرفعة لحال قوم اتبعوا الأعمال بالرياء والسمعة . كان لأحدهم جنة أى بستان عظيم اشتمل على أعظم الأشجار المثمرة من نخيل وأعناب ومياه الأنهار تجرى تحت الأشجار . وهذا البستان أعطى صاحبه من كل الثمرات فهذا هو الخير بعينه والنعيم والرفاهية . ثم هاجمه ، أى صاحب البستان ، الكبر وهدته السنون فهزمت فى بدنه العافية وذريته ضعفاء لا يقدرون على شىء وإذا بالجنة التى كان فيها النخيل الباسقات والأعناب المثمرة تصيبها ريح عاصفة وإعصار فيه نار ، فتذرها قاعا صفصفا ورمادا تذروه الرياح بعدما احترقت الأشجار . هذه حال الذين عملوا للرياء والسمعة فأبطلوا أعمالهم كما قال سبحانه:

(١) المصدر السابق ص ٦ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ص ٧ .
(٤) المصدر السابق .

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾(١)

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

وهكذا وبضرب الأمثال يبين الله تعالى لعباده الآيات والأحكام لعلهم يتفكرون فى الدنيا والآخرة حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها والله يقص الحق وهو خير الفاصلين .

الإنفاق من الكسب الطيب

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾

المفردات : الطيب : هو الجيد المستطاب ، وضده الخبيث المستكره ، **ولا تيمموا** أى لا تقصدوا ، **وتغمضوا** : أى تتساهلوا وتتسامحوا من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره ، ويقال للبائع أغمِضْ أى لا تستقص كأنك لا تُبصر ، **وحميد**:أى مستحق للحمد على نعمه العظام .

إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا الطيب ومن ثم فقد أمر عباده أن ينفقوا من جيد أموالهم التى اكتسبوها والتى أخرجها الله تعالى لهم من الأرض ، من الزروع والثمار والركاز والمعادن المختزنة فى باطن الأرض فكل هذه من رزق الله وفضله على عباده . وهو سبحانه المنعم . وشكر المنعم واجب وإخراج الزكاة سمة من سمات الشكر . وكما أمر تعالى بالإنفاق من الطيب الجيد فقد نهى عن الانفاق من الخبيث الردىء فقال : ﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ أى لا تقصدوا وتعمدوا إلى ردىء الأموال فتخرجوها صدقة ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم ﴾(٢) . ثم بين سبحانه أمراً يتعلق بنفس المتصدق فقال : ﴿ **ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه** ﴾ أى لن تقبلوا أخذ الخبيث الردىء إلا إذا تساهلتم فى أخذه أضطرارا لحاجتكم إليه . واعلموا أن الله غنى عن أموالكم وصدقاتكم إنما يدعوكم إلى الصدقة ليعود عليكم خيرها وثوابها ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ (٣) . ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون* **إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين** ﴾(٤) . والله تعالى حميد كثير المحامد مستحق لشكر محامده وذلك بأعمالكم الطيبة ومنها الإنفاق من طيب الكسب .

عن أنس رضى الله عنه قال : (كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحَاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال

(١) سورة الفرقان آية : ٢٣
(٢) سورة آل عمران آية : ٩٢
(٣) سورة الحج آية : ٣٧
(٤) سورة الذاريات الآيات من ٥٦ : ٥٨

أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ . قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ ، وإن أحب أموالى إلىَّ بَيْرُحَاء ، وإنها صدقة أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . قال : فقال رسول الله ﷺ : بخ ، ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح)(١) .

عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : ما تقول فى الصلاة ؟ قال : تمام العمل . قلت يارسول الله : تركت أفضل عمل فى نفسى أو خَيْرهُ ؟ قال : ما هو ، قلت : الصوم ؟ قال خير وليس هناك . قلت يارسول الله : وأى الصدقة وذكر كلمة . قلت : فإن لم أقدر ؟ قال : بفضل طعامك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بشق تمرة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بكلمة طيبة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : دع الناس من الشر . فإنها صدقة تصَّدَّق بها على نفسك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال :(تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئا)(٢) .

وعد الله حق

ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾

المفردات : ﴿ **يعدكم** ﴾ أى يخوفكم . و﴿ **الفقر** ﴾ سوء الحال وضيق ذات اليد . و﴿ **يأمركم** ﴾ أى يغريكم . والمراد بالفحشاء هنا البخل . و﴿ **المغفرة** ﴾ الصفح عن الذنب . و﴿ **الفضل** ﴾ الرزق والخلف . و﴿ **الحكمة** ﴾ العلم النافع الذى يكون له الأثر فى النفس ، فيوجه الإرادة إلى العمل بما تهوى مما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

بعدما أمر سبحانه وتعالى بالإنفاق من طيبات الكسب حذر سبحانه من وعود الشيطان ذلك لأن الشيطان يعد ابن آدم الفقر إذا أنفق وضيق ذات اليد ويأمره بالفحشاء والمقصود بها هنا البخل . أما الله سبحانه وتعالى فوعده المغفرة والصفح الجميل والفضل العميم وسعة الرزق والله واسع الرحمة عليم بأحوال عباده . قال ﷺ : (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان)(٣) .

(١) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٣ ط الشعب .
(٢) الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ١٣ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٥ ط الشعب .

قوله تعالى:﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾.الحكمة : حكم صواب وعلم غزير وعمل موفق ، وقد منَّ الله بها على عباده الذين اصطفى . . جاء فى الدعاء الذى دعاه الخليل إبراهيم وابنه اسماعيل ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾(١) قال تعالى : ﴿ لقدمنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(٢) . فكانت هذه الآية استجابة لدعوة الخليل وابنه . ولقدمنَّ الله بالحكمة على داود فقال : ﴿ وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾(٣) وقال فى حق لقمان : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ﴾(٤) وقال فى حق يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ وقال فى حق موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ﴾ . وقال فى حق يحيى : ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾ ، ومن دعاء الخليل إبراهيم : ﴿ رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ﴾(٥) . وقد ورد فى معنى الحكمة أقوال نذكرها فيما يلى عن ابن كثيرعن ابن عباس : المقصود بالحكمة المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله .

وعن مجاهد : الحكمة الإصابة فى القول . وفى قول آخر لمجاهد لمعنى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾ ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن .

وقال أبو العالية : الحكمة خشية الله فإن خشية الله رأس كل حكمة . وفى رواية أخرى : عنه أيضا : الحكمة : الكتاب والفهم . وقال أبو مالك : الحكمة السنة . وقال زيد بن مسلم : الحكمة العقل . . قال مالك : إنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله وأمر يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله . . ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا فى أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفاً فى أمر دنياه عالما بأمر دينه بصيرا به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا،فالحكمة الفقه فى دين الله . . وقال السدى : الحكمة النبوة .

والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هى أعم منها ، وأعلاها النبوة والرسالة أخص ولكن لاتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع ، كما جاء فى بعض الأحاديث : (من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه)(٦) .

قال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : (لا حسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها »(٧) .

قوله تعالى:﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ أى لا يعتبر ويتدبر ويتذكر ما تهدف إليه الحكمة وما فيها من خير كثير فى الدارين إلا أصحاب العقول والنهى . نعم إن فى الحكمة خيراً كثيراً فليست السعادة فى

(١) سورة البقرة آية : ١٢٩
(٢) سورة آل عمران آية : ١٦٤
(٣) سورة ص آية : ٢٠
(٤) سورة لقمان اية : ١٢
(٥) سورة الشعراء آية : ٨٣
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ ط الشعب
(٧) جامع الأحاديث للسيوطى جـ ٧ ص ٣٤٨ .

الانتشاء بالكئوس المترعة أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، ولكن ترى السعادة فى إشراق العقل وانتصار الذهن وتزكية النفس . وعلى عرش السعادة يتربع القول الكريم : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾[1] .

﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ ﴾

النذر فى اللغة : العزم على التزام شىء خاص فعلاً أو تركاً . وفى الشرع التزام طاعة تقربا إلى الله تعالى ، والظلم وضع الشىء فى غير موضعه .

الإنفاق فى سبيل الله عبادة إذا ابتغى بها وجه الله . يدرك ذلك أصحاب الألباب كما أن النذر عبادة وهو إلزام الإنسان نفسه بفعل طاعة كأن يقول : إن شفى الله مريضى فعلىّ إطعام كذا من المساكين أو فعلىّ صيام كذا من الأيام . ولا يجوز النذر إلا لله تعالى ، لأنه عبادة ، والمعبود هو الله وحده ويجب الوفاء به.قال تعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ﴾[2] . ولا يكون النذر إلا بطاعة . فمن نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه . ولا يكون إلا فى حدود ما يستطيع الإنسان . قال ﷺ : « ليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك »[3] . فالنفقة والنذر من العبادات . وقد علق الله تعالى هذه العبادة بعلمه فقال : ﴿ فإن الله يعلمه ﴾ أى يعلم المراد إن كان إخلاصاً أو رياء .

﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أى الذين ظلموا أنفسهم فأحبطوا بالرياء أعمالهم وضيعوا بعدم الإخلاص لله ثوابهم ، ليس لهم من الله ولىّ ولا نصير . قوله تعالى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى ﴾ أى إن أديتم الصدقات علانية فنعم الشىء هى وهذا أسلوب مدح . ﴿ وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾ . أى أن إخفاءها والإسرار بها خير وأفضل فالله جلّ شأنه يحب الإخلاص فى كل شىء أمر به عباده . والسرية أدعى إلى الإخلاص . وفعل الطاعات ، ومنها الصدقات مكفرة للسيئات ، مقربة إلى الرب ، منهاة عن الإثم ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ عليم بدقائق الأمور وحقائقها ، عليم بالنيات وما تخفى الصدور . وصدقة السر أفضل من صدقة العلانية . يقول الإمام ابن كثير : قال رسول الله ﷺ : (الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة) . وثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول

---

(١) سورة مريم آية : ٩٦

(٢) سورة الانسان الآيات : ٥ - ٧

(٣) نيل الأوطار للشوكانى جـ ٨ ص ٢٠٢ ط عيسى البابى الحلبى .

الله ﷺ : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) .

عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : (لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت . فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل فى خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد . قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار . قال نعم الماء . قالت يارب فهل من خلقك شىء أشد من الماء . قال نعم الريح قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح . قال : نعم ، ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله) .

عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله أى الصدقة أفضل . قال:(سر إلى فقير أو جهد من مقل) وفى الحديث المروى : (صدقة السر تطفىء غضب الرب عزوجل) .

وقال ابن أبى حاتم عن عامر الشعبى فى قوله تعالى : ﴿ **إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** ﴾ قال أنزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما أماعمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ (ما خلفت وراءك لأهلك ياعمر) قال : خلفت لهم نصف مالى . وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه عن نفسه حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له : (ما خلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر)فقال : عدة الله ورسوله . فبكى عمر رضى الله عنه وقال بأبى أنت وأمى يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقا . روى ابن جرير عن ابن عباس قال : جعل الله صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفاً(١) .

الله يهدى من يشاء

* لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٧ ، ٤٧٨ ط الشعب .

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ ﴾

المفردات : **الهدى ضربان** : هدى التوفيق إلى طريق الخير والسعادة وهو على الله تعالى ، وهدى الدلالة والإرشاد إلى الخير وهو على النبى ﷺ . **ابتغاء وجه الله** : طلب مرضاته . **أحصروا** : منعوا وحبسوا فى طاعته لغزو أو تعلم علم . **ضربا فى الأرض** : أى سيروا فيها للكسب والتجارة . **التعفف** : إظهار العفة وهى ترك الطلب ومنع النفس مما تريد . **السيما** : العلامة التى يعرف بها الشىء **إلحافا** : أى إلحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه .

بعد أن أرشد فى الآية السابقة إلى إيتاء الصدقات للفقراء عامة مسلمين وغيرهم ، بين هنا أنه لا ينبغى التحرج من إعطاء الفقير غير المسلم الصدقة لكفره ، لأن الصدقة لسد خلته ، ولا دخل لها بإيمانه ، إذ من شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ، وأن يسبق سائر الناس بالفضل والجود . أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يأمرنا ألا نتصدق إلا على أهل الإسلام ، حتى نزلت هذه الآية وأخرج ابن جرير وغيره أن ناسا من الأنصار لهم صهر وقرابة من المشركين ، كانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم أن يُسْلِمو فنزلت الآية .

وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير قال : قال رسول الله ﷺ : إنه كان يأمر بألا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزل الله تعالى: ﴿ ليس عليك هداهم ﴾ الآية[1] .

﴿ **ليس عليك هداهم** ﴾ أى لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين ، إن أنت إلا بشير ونذير ، وما عليك إلا الإرشاد والحث على الفضائل والنهى عن الرذائل كالمن والأذى وإنفاق الخبيث . ﴿ **ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ أى أن أمر الناس فى الاهتداء مفوض إلى ربهم بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم ، فهو الذى يوفقهم إلى النظر الصحيح الذى يكون من ثمرته العمل الموصل إلى سعادتهم .

﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم** ﴾ أى وما تنفقوا من خير فنفعه عائد إليكم فى الدنيا والآخرة . أما فى الدنيا فلأنه يكف شر الفقراء ويدفع عنكم أذاهم ، فإن الفقراء إذا ضاقت بهم الحال وحزبهم الأمر تألبوا على الأغنياء وسلبوهم ونهبوا أموالهم وآذوهم على قدر ما يستطيعون ، ثم يسرى شرهم إلى غيرهم ، فتختل نظم المجتمع ، ويفقد الأمن فى الأمة .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٧٨ ط الشعب.

وأما فى الآخرة فلأن ثوابه لكم ، ونفعه الدينى راجع إليكم لا للفقراء ، فلا تمنعوا الإنفاق على فقراء المشركين .

﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ أى أنكم لا تنفقون لأجل جاه ولا مكانة عند المنفق عليه ، وإنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين فقير وفقير ، إذا كان مستحقاً يتقرب بإزالة ضرورته إلى الرزاق الكريم الذى لم يحرم أحدا من رزقه لأجل عقيدته ، وهذا كقوله : ﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾ .

﴿ وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ أى يوف إليكم فى الآخرة لا تنقصون منه شيئا ، فأنتم على استفادتكم من الانفاق فى رقى أنفسكم ، وتثبيتها فى مقامات الإيمان والاحسان ، وإرادة وجه الله وابتغاء مرضاته ـ لا يضيع عليكم ما تنفقون ، بل توفونه ولا تظلمون منه شيئا . وفى هذا إرشاد من الله لعباده أن يكملوا أنفسهم ، ويبتغوا أن يراهم الله كملة ، يعملون الحسن ، لأنه حسن تتحقق به حكمته ، وتقوم به سنته فى صلاح البشر . ثم بين أحق الناس بالصدقة فقال :

﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله . . لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ أى اجعلوا ما تنفقون للذين ذكر الله صفاتهم الخمس التى هى من أجّل الأوصاف قدرا :

١ - الإحصار فى سبيل الله ، والمراد به حبس النفس للجهاد أوالعمل فى مرضاة الله ، إذ هم لو اشتغلوا بالكسب لتعطلت المصلحة العامة التى أحصروا فيها ، وحبسوا أنفسهم لها ، وتجب نفقتهم فى بيت المال . ومنه الإحصار لتعلم الفنون العسكرية فى العصر الحديث ، فإن حبس الشخص نفسه فى الأعمال المشروعة التى تقوم بها المصالح كالجهاد وطلب العلم ، وكان يستطيع الكسب فى أوقات فراغه ؛ لم يحل له الأخذ من الصدقة .

٢ - العجز عن الكسب والضرب فى الأرض للتجارة ونحوها بسبب المرض أو الخوف من العدو ، وهذا هو المقصود بقوله : ﴿ لا يستطيعون ضربا فى الأرض ﴾ .

٣ - التعفف والمبالغة فى التنزه عن الطمع مما فى أيدى الناس ، فإذا رآهم الجاهل بحقيقة حالهم ظنهم أغنياء . وهذا ما عناه سبحانه بقوله : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ .

٤ - أن لهم سيما خاصة تترك معرفتها إلى فراسة المؤمن الذى يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق ، إذ صاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس مهما تستر وتعفف ، ولا يختص ذلك بخشوع وتواضع ، ولا برثاثة فى الثياب ، فرب سائل يأتيك خاشع الطرف والصوت رث الثياب ، تعرف من سيماه أنه غنى وهو يسأل الناس تكثرا ، وكم رجل يقابلك بطلاقة وجه ، وحسن بزّة ، فتحكم عليه فى لحن قوله ، وأمارات وجهه أنه فقير عزيز النفس . وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ .

٥ - ألا يسألوا الناس شيئا مما فى أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين وأهل الكُودية . وقد يكون المعنى ــ أنهم لا يسألون أحدا شيئاً لا سؤال إلحاف ولا سؤال رفق واستعطاف .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (ليس المسكين الذى يطوف على الناس ، ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطَن له فيتصدق عليه ، ويقوم فيسأل الناس شيئاً)(١) .

والسؤال محرم لغير ضرورة . يروى أبو داود والترمذى من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرَّة سوِىّ » والمرة بكسر الميم ، والسَّوىّ هو السليم الأعضاء ، والمراد به القادر على الكسب . وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال : (من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : يارسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه أو يعشيه » . وروى أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (من سأل الناس : أموالهم تكثرا فإنما يسأل جمرا ، فليستقل منه أو ليستكثر) .

وروى أحمد والبخارى ، ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلا : أعطاه أو منعه)(٢) .

فمن يُعلم أنه يسأل لنفسه تكثرا كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفه وهم قادرون على العمل ــ لا يعطى شيئا ، فقد رأى عمر رضى الله عنه سائلا يحمل جرابا فأمر أن ينظر فيه فإذا هو خبز ، فأمر أن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى أهل الصُّفة وهم أربعمائه من فقراء المهاجرين رصدوا أنفسهم لحفظ القرآن الكريم والجهاد فى سبيل الله ، ولم يكن لأكثرهم مأوى ، لذلك كانوا يقيمون فى صُفَّة المسجد (موضع منه مُظلّ) وقد هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم فحيل بينهم وبينها ، فهم محصورون فى سبيل الله بهذه الهجرة ومحصورون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن ، وقد كان حفظه حينئذ من أفضل العبادات على الإطلاق ، لأنهم ما كانوا يحفظونه إلا للفهم والاهتداء والعمل به ، وحفظ الدين بحفظه ، وكانوا يحفظون بيان النبى ﷺ بسنته القولية وسنته العملية . وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وقف يوما على أصحاب الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : (أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفقائى)(٣) .

ولا يحل لأهل التكايا ومشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس ، لأنهم لم ينقطعوا لتعلم علم ولا غزو فى سبيل الله ، بل قصارى أمر الأولين أن يأكلوا الصدقات والأوقاف ليعبدوا الله فى هذه التكايا فهى لهم كالأديار-

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى حـ ١ صـ ٧٧ ، ٧٨ ط الشعب.

(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ٢ صـ ٣٩٩ ط دار الفكر .

(٣) نقص

للنصارى وهم فيها كالرهبان وإن كان بعضهم قد يتزوج.وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلدا بعد آخر ، ويكلفون من يستضيفونه الذبائح شيئاً كثيراً من الطعام ، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا ، بل قد يسلبون وينهبون باسم الدين ، وفى معرض الكرامات ، وهؤلاء يشبهون أنفسهم بأهل الصفة،ويزعمون أن لأكلهم أموال الناس بالباطل أصلا فى الكتاب والسنة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴿ وماتنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ فلا يخفى عليه حسن النية والاخلاص له فى العمل ، ولا تحرى النفع به وايتاؤه أحق الناس به ، فهو يجازى عليه بحسب هـذا ولا يخفى ما فى هـذا الترغيب فى الانفاق ، ولا سيما على مثل هؤلاء الذين تقدم ذكرهم . .

قوله تعالى : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ . يقول ابن كثير : هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار ، وجميع الأحوال من سر وجهر حتى إن النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضا كما ثبت فى الصحيحين،أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص حين عاده مريضا عام الفتح ، وفى رواية حجة الوداع « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل فى فى امرأتك » روى الامام أحمد باسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : (إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقه يحتسبها كانت له صدقة) . قوله تعالى:﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أى ثواب ما أنفقوا عند الله فى الآخرة ولا خوف عليهم مما سيأتى ولاهم يحزنون على ما مضى فأى أمن وأمان أعظم من هذا لا خوف ولا حزن(١) .

الربا وآكلوه

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ
فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ
﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٨١ ، ٤٨٢ ط الشعب .

أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن
تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

المفردات: يأكلون : أى يأخذون ويتصرفون فيه بسائر أنواع التصرفات ، **والربا** : لغة الزيادة يقال ربا الشىء يربو إذا زاد ، ومنه الرابية ، لما علا من الأرض فزاد على ما حوله. **والخبط** : الضرب على غير اتساق ، يقال ناقة خبوط إذا ضربت الأرض بقوائمها ، ويقال للرجل يتصرف فى الأمور على غير هدى : هو يخبط خبط عشواء . والعشواء : الناقة الضعيفة البصر **والمسّ** : الجنون ، يقال مُسّ الرجل فهو ممسوس إذا جُن ، **والموعظة** : العظة والزجر ، **والمحق** : نقص الشىء حالا بعد حال كمحاق القمر . **ويربى** : يزيد ويضاعف ، **لا يحب** : أى لا يرتضى ، **والكفّار** : المقيم على الكفر المتعاد له . **والأثيم** : المنهمك فى ارتكاب الآثام ، **اتقوا الله** : أى قوا أنفسكم عقابه ، **وذروا** : أى أتركوا . **فأذنوا** : أى فاعلموا ، **بحرب من الله** : أى بغضب منه ، وحرب من رسوله بمعاملتكم معاملة البغاة وقتالكم بالفعل فى عصره ، واعتباركم أعداء له فى كل عصر ، **لا تظلمون** : أى لا تفعلون الظلم بغرمائكم بأخذ الزيادة ، **ولا تظلمون** بنقص شىء من رأس المال ، **العسر** : الإعسار ، ويكون بفقر المال أو كساد المتاع . **والنظرة** : الانتظار ، **والميسرة** : اليسار والسعة .

كان الكلام قبل هذا فى آيات الصدقة والنذور ، والمتصدق يعطى المال من غير عوض ابتغاء وجه الله ــ وهنا ذكر الكلام على الربا لأن المرابى يأخذ المال بلا عوض يقابله ، وقد أفاض القرآن الكريم فى ترغيب المسلمين فى الصدقات حتى يسد الخلّة ويُغنى الناس عن اللجوء إلى سبل الحرام ، حتى لقد بلغ أن القرآن جمع بين الإنفاق والنذر فى آية بلغت من العظمة إلى حد أنها اقترنت بعلم الله قال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾[1] فإن لم يكن هناك صدقات أو نذور وإن لم تسمح نفس ابن آدم بالصدقة ابتغاء مرضاة الله فليعط المال قرضا ، جاء ذلك فى آية الدين التى ذكرت بعد آيات الربا ، فإن لم يثق فيمن يقرضه فليطلب الرهن من المقترض للاستيثاق من أداء الدين قال تعالى : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ﴾[2] وهكذا سد الإسلام كل باب يؤدى إلى الربا ، فالصدقات والوفاء بالنذور والقرض الحسن والرهن كل هذه تقف سدا أشد من سد يأجوج ومأجوج ، لتسد كل ثغرة تؤدى إلى هذا البلاء الجسيم والنار التى ترعى فى المجتمع وتسرى سريان السم الزعاف فى الاحشاء والسعير فى الهشيم ؛ حتى لقد قال تعالى فى شأن هذا الربا ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ فماذا قال الفقهاء عن الربا ؟

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٠ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٨٦ .

الربا فى اللغة : الزيادة ؛ والمقصود به هنا : الزيادة على رأس المال ، قلت أو كثرت يقول الله سبحانه : ﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ .

حكمه : وهو محرم فى جميع الأديان السماوية ، ومحظور فى اليهودية والمسيحية والإسلام ، جاء فى العهد القديم : (إذا قرضت مالا لأحد من أبناء شعبى ، فلا تقف منه موقف الدائن . لا تطلب منه ربا لمالك) . آية ٢٥ فصل ٢٢ من سفر الخروج وجاء فيه أيضا : (إذا افتقر أخوك فاحمله . . لا تطلب منه ربحا ولا منفعة) . آية ٣٥ فصل ٢٥ من سفر اللاويين . إلا أن اليهود لا يرون مانعا من أخذ الربا من غير اليهودى . وقد رد عليهم القرآن ، ففى سورة النساء : ﴿ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ﴾ ، وفى كتاب العهد الجديد : (إذا أقرضتم لمن تنتظرون منه المكافأة ، فأى فضل يعرف لكم ؟ ولكن افعلوا الخيرات ، وأقرضوا غير منتظرين عائدتها وإذا يكون ثوابكم جزيلا) . واتفقت كلمة رجال الكنيسة على تحريم الربا تحريما قاطعا ، استنادا إلى هذه النصوص . قال سكويار : إن من يقول إن الربا ليس معصية يعد ملحدا خارجا عن الدين .

وقال القسيس بونى : « إن المرابين يفقدون شرفهم فى الحياة الدنيا ، وليسوا أهلاً للتكفين ، بعد موتهم » . والقرآن الكريم تحدث عن الربا فى عدة مواضع مرتبة ترتيبا زمنياً ، ففى العهد المكى نزل قول الله سبحانه : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾[(١)] . وفى العهد المدنى نزل تحريم الربا صراحة فى قول الله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[(٢)] وآخر ما ختم به التشريع قول الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾[(٣)] .

وفى هذه الآية رد قاطع على من يقول : إن الربا لا يحرم إلا إذا كان أضعافا مضاعفة ، لأن الله لم يبح إلا رد رءوس الأموال دون الزيادة عليها . وهذا آخر ما نزل فى هذا الأمر ، وهو من كبائر الإثم ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات) ، قالوا : وما هن يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق،وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم،والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[(٣)] ، وقد لعن الله كل من اشترك فى عقد الربا ، فلعن الدائن الذى يأخذه ، والمستدين الذى يعطيه، والكاتب الذى يكتبه والشاهدين عليه ، روى البخارى ومسلم وأحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : (لعن الله آكل الربا ، ومؤكله ، وشاهديه ، وكاتبه)[(٤)] روى الدارقطنى عن عبدالله بن حنظلة أن النبى ﷺ

---

(١) سورة الروم آية : ٣٩ .

(٢) سورة آل عمران آية : ١٢٠ .

(٣) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٣٢ ط دار الفكر .

(٤) جامع الأحاديث جـ ٥ ص ٢٨٧ .

قال : (الدرهم ربا أشد عند الله تعالى من ست وثلاثين زنية فى الخطيئة)[١] . . وقال ﷺ : (الربا تسعة وتسعون بابا أدناها كأن يأتى الرجل بأمه)[٢] .

الحكمة من تحريم الربا :

الربا محرم فى جميع الأديان السماوية ، والسبب فى تحريمه ما فيه من ضرر عظيم :

١ - أنه يسبب العداوة بين الأفراد ، ويقضى على روح التعاون بينهم . والأديان كلها ، ولا سيما الإسلام ، تدعو إلى التعاون والإيثار وتبغض الأثرة والأنانية واستغلال جهد الآخرين .

٢ - وأنه يؤدى إلى خلق طبقة مترفة لا تعمل شيئا ، كما يؤدى إلى تضخيم الأموال فى أيديها دون جهد مبذول ، فتكون كالنباتات الطفيلية تنمو على حساب غيرها . والإسلام يمجد العمل ويكرم العاملين ويجعله أفضل وسيلة من وسائل الكسب ، لأنه يؤدى إلى المهارة ، ويرفع الروح المعنوية فى الفرد .

٣ - وهو وسيلة الاستعمار ، ولذلك قيل : الاستعمار يسير وراء تاجر أو قسيس . ونحن قد عرفنا الربا وآثاره فى استعمار بلادنا .

٤ - الإسلام بعد هذا يدعو إلى أن يقرض الإنسان أخاه قرضا حسنا إذا احتاج إلى المال ويثيب عليه أعظم مثوبة .

﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ .

والربا قسمان (١) ربا النسيئة (٢) وربا الفضل .

ربا النسيئة : وربا النسيئة ، هو الزيادة المشروطة التى يأخذها الدائن من المدين نظير التأجيل وهذا النوع محرم بالكتاب والسنة وإجماع الأئمة .

ربا الفضل : وربا الفضل ، وهو بيع النقود بالنقود أو الطعام بالطعام مع الزيادة وهو محرم بالسنة والإجماع لأنه ذريعة إلى ربا النسيئة . وأطلق عليه اسم الربا تجوزا . كما يطلق اسم المسبب على السبب . روى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : (لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين ، فإنى أخاف عليكم الرماء) أى : الربا . نهى عن ربا الفضل لما يخشاه عليهم من ربا النسيئة وقد نص الحديث على تحريم الربا فى ستة أعيان :

الذهب والفضة والقمح والشعير والتمر والملح . فعن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : (الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والملح بالملح مثلا بمثل يدا بيد ، فمن زاد أو استزاد فقد أربى ، الآخذ والمعطى سواء) . رواه أحمد والبخارى .

علة التحريم : هذه الأعيان الستة التى خصها الحديث بالذكر تنظم الأشياء الأساسية التى يحتاج

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتاب العربى .

الناس إليها والتى لا غنى لهم عنها ؛ فالذهب والفضة هما العنصران الأساسيان للنقود تنضبط بهما المعاملة والمبادلة فهما معيار الأثمان الذى يرجع إليه فى تقويم السلع . وأما بقية الأعيان الأربعة فهى عناصر الأغذية وأصول القوت الذى به قوام الحياة .

فإذا جرى الربا فى هذه الأشياء كان ضارا بالناس ومفضيا إلى الفساد فى المعاملة ، فمنع الشارع منه رحمة بالناس ورعاية لمصالحهم ويظهر من هذا أن علة التحريم بالنسبة للذهب والفضة كونهما ثمنا ، وأن علة التحريم بالنسبة لبقية الأجناس كونها طعاما ، فإذا وجدت هذه العلة فى نقد آخر غير الذهب والفضة أخذ حكمه ، فلا يباع إلا مثلا بمثل يدا بيد . وكذلك إذا وجدت هذه العلة فى طعام آخر غير القمح والشعير والتمر والملح ، فإنه لا يباع إلا مثلا بمثل يدا بيد .

روى مسلم عن معمر بن عبد الله عن النبى ﷺ : أنه نهى عن بيع الطعام إلا مثلا بمثل ، فكل ما يقوم مقام هذه الأجناس الستة يقاس عليها ويأخذ حكمها ، فإذا اتفق البدلان فى الجنس والعلة حرم التفاضل وحرم النساء أى التأجيل ، فإذا بيع ذهب بذهب أو قمح بقمح فإنه يشترط لصحة هذا التبادل شرطان :

١ - التساوى فى الكمية بقطع النظر عن الجودة والرداءة للحديث المذكور ، ولما رواه مسلم (أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ بشىء من التمر ، فقال له النبى ﷺ : ما هذا من تمرنا ؟ فقال الرجل : يارسول الله بعنا تمرنا صاعيه بصاع : فقال ﷺ : ذلك الربا ،ردوه ثم بيعوا تمرنا ثم اشتروا لنا من هذا) . وروى أبو داود عن فضالة قال : (أتى النبى ﷺ بقلادة فيها ذهب وخرز اشتراها رجل بتسعة دنانير أو سبعة ؛ فقال النبى ﷺ : لا ، حتى تميز بينهما قال : فرده حتى ميز بينهما) . ولمسلم : (أمر بالذهب الذى فى القلادة فنزع وحده ، ثم قال : الذهب بالذهب وزنا بوزن) .

٢ - عدم تأجيل أحد البدلين ، بل لابد من التبادل الفورى ، لقوله ﷺ : (إذا كان يدا بيد) ، وفى هذا يقول الرسول ﷺ :

(لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثلا بمثل ، ولا تُشِفُّوا : أى تفضلوا . بعضها على بعض ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ، ولا تبيعوا غائبا منها بناجز) . رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد .

وإذا اختلف البدلان فى الجنس واتحدا فى العلة ، حل التفاضل وحرم النساء . فإذا بيع ذهب بفضة أو قمح بشعير فهنا يشترط شرط واحدَ وهو الفورية . ولا يشترط التساوى فى الكم بل يجوز التفاضل .

روى أبو داود أن النبى ﷺ قال : (لا بأس ببيع البر بالشعير ، والشعير أكثرهما ، يدا بيد) ، وفى حديث عبادة عند أحمد ومسلم : (فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدا بيد) وإذا اختلف البدلان فى الجنس والعلة فإنه لا يشترط شىء فيحل التفاضل والنساء . فإذا بيع الطعام بالفضة حل التفاضل والتأجيل ، وكذا إذا بيع ثوب بثوبين أو إناء بإناءين . والخلاصة أن كل ما سوى الذهب والفضة

والمأكول والمشروب لا يحرم فيه الربا ، فيجوز بيع بعضه ببعض متفاضلاً ونسيئة ، ويجوز فيه التفرق قبل التقابض ، فيجوز بيع شاة بشاتين نسيئة ، ونقدا ، وكذلك شاة بشاة لحديث عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ أمره أن يأخذ فى قلائص الصدقة البعير بالبعيرين إلى الصدقة ، أخرجه أحمد وأبو داود والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم . ورواه البيهقى ، وقوى الحافظ ابن حجر إسناده . وقال ابن المنذر : ثبت أن رسول الله ﷺ اشترى عبدا بعبدين أسودين ، واشترى جارية بسبعة أرؤس وإلى هذا ذهب الشافعى .

مسائل تتعلق بالربا

قال جمهور الأئمة : لا يجوز بيع حيوان يؤكل بلحم من جنسه ، فلا يجوز بيع بقرة مذبوحة ببقرة حية يقصد منها الأكل ، لما رواه سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ نهى عن بيع الحيوان باللحم .

لا يجوز بيع الرطب . بما كان يابسا . روى مالك وأبو داود عن سعد بن أبى وقاص أن النبى ﷺ سئل عن بيع الرطب بالتمر ؟ فقال : أينقص الرطب إذا يبس ؟ قالوا نعم . فنهى عن ذلك . ونهى رسول الله ﷺ عن بيع العينة ، لأنه ربا وإن كان فى صورة بيع وشراء . ذلك أن الانسان المحتاج إلى النقود يشترى سلعة بثمن معين إلى أجل ، ثم يبيعها ممن اشتراها منه بثمن حال أقل ، فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذى أخذه عاجلاً . وهذا البيع حرام ويقع باطلا .

١ - روى ابن عمر أن النبى ﷺ قال : (إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد فى سبيل الله أنزل الله بهم بلاء ، فلا يرفعه حتى يراجعوا دينهم) .

٢ - وقالت العالية بنت أيفع بن شرحبيل (دخلت أنا وأم ولد زيد بن أرقم وامرأته على عائشة رضى الله عنها ، فقالت أم ولد زيد بن أرقم : إنى بعت غلاما من زيد بن أرقم بثمانمائة درهم نسيئة ، ثم اشتريته بستمائة درهم نقدا ، فقالت بئس ما اشتريت ، أبلغى زيد بن أرقم : أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب » أخرجه مالك والدارقطنى[1] .

الآيات:وبعد أن بين لنا الفقهاء رحمهم الله تعالى المسائل التى تتعلق بالربا نأخذ بعد ذلك فى تفسير الآيات ، حتى يتضح الأمر لمن أراد أن يذكر ، وليكون فى ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قال الشيخ المراغى الربا قسمان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

فالأول : يكون بإقراض قدر معين من المال لزمن محدود كسنة أو شهر مع اشتراط الزيادة فى نظير امتداد الأجل ، وهو المستعمل الآن فى المصارف المالية وهو الذى نص القرآن الكريم على تحريمه وكان متعارفاً فى الجاهلية وقت التنزيل قال ابن جرير : إن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه فيقول الذى عليه المال : أخر عنى دينك وأزيدك على مالك فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافاً مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه : اهـ .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق جـ ٣ ص ١٣٤ ط دار الكتاب العربى .

والتعامل بهذا النوع من الكبائر وقد ورد فى الحديث « لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده » .

والثانى:يكون فى بيع الشىء بنظيره مع زيادة أحد العوضين على الآخر كأن يبيعه إردبا من القمح الهندى بثلاث عشرة كيلة من القمح البلدى أو أقة عنب مصرى بأقة وربع من عنب أزمير أو قنطارا من فحم انجلترا بقنطار ونصف من فحم إيطاليا ، وهكذا الحكم فى جميع المكيلات والموزونات والنقدين (الذهب والفضة) لما جاء فى الخبر من قوله ﷺ : (لا تبيعوا الذهب بالذهب والورق بالورق (الفضة) والبُرّ بالبُرّ والتمر بالتمر والشعير بالشعير والملح بالملح إلا سواء بسواء عينا بعين يداً بيد)[١] . والتعامل به محرم أيضاً .

ويضيف الشيخ المراغى قائلاً : وقد زعم كثير من المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب بلاد المدنية والحضارة ونهلوا من مناهل العلم هناك ، إن تحريم الربا فى الإسلام هو العقبة الكئود فى مجاراة الأمم الإسلامية للبلاد الغربية فى الثروة التى هى مناط العزة والقوة فى العصر الحديث ويحتجون بأن المسلمين مُنُوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدى الأجانب إلا بتحريم الربا فإنهم لاحتياجهم إلى الأموال يأخذونها من الأجانب بالربا الفاحش ، ومن كان منهم غنيا لا يعطى ماله بالربا فمال الفقير يذهب ، ومال الغنى لا ينمو وهم يريدون بذلك أن الدين قد وقف عقبة كأداء فى أهم مسألة عمرانية اجتماعية ، وهذه حجة أوهى من بيت العنكبوت وأوهام يزينها لهم الشيطان لم يمحصوها حق التمحيص ، فإن المسلمين فى هذا العصر لا يحكمون الدين فى شىء من أعمالهم ومكاسبهم إذ لو حكموه لما استعانوا بالربا ولما جعلوا أموالهم غنائم لغيرهم ، فإن كانوا تركوا الربا لأجل الدين فهل هم تركوا الصناعة والتجارة لأجل الدين ؟ فالأمم جميعاً قد سبقتنا إلى إتقان ذلك فلماذا لا نتقن سائر المكاسب لنعوض على أنفسنا ما فاتنا من الكسب المحرم وديننا يدعونا إلى السبق فى إتقان كل شىء ؟ .

وفى الحق أن المسلمين قد نبذوا الدين وراءهم ظهريا ، فلم يبق منه إلا تقاليد وعادات ورثوها من آبائهم وأجدادهم ، فالدين لم يكن عائقاً لهم عن الرقى بل هو خير الأديان فى الدعوة إلى العمل والحث على الكسب كما قال تعالى : ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾ وقال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾[٣] .

فالأمة الإسلامية ما ارتفعت إلا بالدين وما سقطت بعد ما ارتفعت إلا بترك الدين مع الجهل بالسبب الذى أفضى بها إلى ذلك ، إلى أن صارت تجعل علة الرقى سبباً فى الانحطاط فلو اتبعت حكوماتنا وأفرادنا أوامر الدين وتركت التعامل بالربا مع الأجانب ، لما ضاعت ثروتنا ولا ذهب ملكنا ، وكان الدين وحده هو العاصم لنا فالربا : مسألة اجتماعية كبيرة اتفقت فى حكمها الأديان الثلاثة : اليهودية والنصرانية والإسلام ، لكن اختلف فيها أهل الأديان فاليهود كانوا يرابون غيرهم والنصارى يرابى بعضهم بعضاً ويرابون سائر الناس ، والمسلمون حفظوا أنفسهم من هذه الرذيلة ردحا طويلاً من الدهر ، ثم قلدوا

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٦٦٩ .
(٢) سورة الملك آية : ١٥ .
(٣) سورة الجمعة آية : ٩ .

غيرهم فيها ثم انتشرت بينهم فى العصر الحديث فى أكثر الأقطار ، والسر فى هذا أنهم قلدوا حكامهم فى هذا السبيل بل كثيراً ما ألزم الحكام الرعية بالتعامل بالربا أداء للضرائب التى يفرضونها عليهم . ويلخص الشيخ المراغى أسباب تحريم الربا فيقول : ويمكن أن نلخص الأسباب التى لأجلها حرم الدين الربا فيما يلى :

١ - إنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الصحيحة ، كأنواع الحرف والصناعات لأن رب المال إذا تمكن بعقد الربا من إنماء ماله ، خف عليه الكسب وسهلت لديه أسباب العيش فيألف الكسل ويمقت العمل ويتجه همه إلى أخذ أموال الناس بالباطل وتزداد شراهته فى الاستيلاء على كل ما يستطيع أن يبتزه من أموالهم فلا يرأف بفقير ولا يشفق على بائس ولا يرحم مسكينا ، وقد جرت عادة المرابين بأن يزداد طمعهم حين الأزمات كقحط فى البلاد أو حروب تشتد فيها الحاجة إلى الأقوات فيضطر الفقراء إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة الذين يستنزفون دماءهم ويستأثرون بالبقية الباقية من أموالهم .

٢ - إنه يؤدى إلى العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات إذ هو ينزع عاطفة التراحم من القلوب ويضيع المروءة ويذهب المعروف بين الناس ويحل القسوة محل الرحمة ، حتى إن الفقير ليموت جوعاً ولا يجد من يجود عليه ليسد رمقه ومن جراء هذا منيت البلاد ذات الحضارة التى تعاملت بالربا بمشاكل اجتماعية ، فكثيراً ما تألب العمال وغيرهم على أصحاب الأموال وأضربوا عن العمل الفينة بعد الفينة والمرة بعد المرة .

ومنذ فشا الربا فى البلاد المصرية ضعفت فيها عاطفة التعاون والتراحم وأصبح المرء لا يثق بأقرب الناس إليه ولا يقرضه إلا بمستند وشهود بعد أن كان المقرض يستوثق من المقترض ولو أجنبياً عنه بألا يحدث أحداً بأنه اقترض منه ، وما كان المقرض فى حاجة فى وصول حقه إليه إلى مطالبة ، بلا محاكم ومقاضاة .

٣ - إن الله جعل طريق التعامل بين الناس فى معايشهم أن يستفيد كل منهم من الآخر فى نظير عوض لكن فى الربا أخذ مال بلا عوض وهذا نوع من الظلم لأن للمال حقاً وحرمة فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه قهراً بطريق غير مشروع قال ﷺ : (حرمة مال الإنسان كحرمة دمه)[1] .

ولا ينبغى اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضاً من بقاء رأس المال فى يد المدين زمناً لو كان فيه فى يد الدائن لاستفاد منه بطريق وسائل الكسب كتجارة وزراعة ونحوها ، لأن هذا ربما لا يحصل وإن حصل فربما لا تتحقق الاستفادة ؛ أما أخذ الزائد فى الربا فمتيقن ولا يجوز مقابلة المحتمل الحصول بالمؤكد المتيقن .

٤ - أن عاقبته الخراب والدمار فكثيراً ما رأينا ناساً ذهبت أموالهم وخربت بيوتهم بأكلهم الربا وفى حديث ابن مسعود عن أحمد وابن ماجه وابن جرير : (إن الربا وإن كثر فعاقبته تصير إلى قل) .

والسر فى هذا أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر ، ويزين لهم الشيطان إنفاقه فى وجوه من الكماليات التى يمكن الاستغناء عنها ويغريهم بالمزيد من الاستدانة ولا يزال ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم فإذا حل الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ولا يزالون يماطلون

(١) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ ص ٥٧٣ ط دار الفكر .

ويؤجلون ، والدين يزيد يوماً بعد يوم حتى يستولى الدائنون قسراً على كل ما يملكون فيصبحون فقراء معدمين ، وصدق الله : ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ هذا تصوير لحال أكلة الربا عندما يقومون من قبورهم بعد الموت ، إنهم يقومون من القبور يوم القيامة كمن به صرع من الشيطان.وما من شك فى أن أكلة الربا من أولياء الشيطان فقد ملأوا بطونهم من الوباء والبلاء ، ولم يتحروا الحلال من الحرام ، ويرحم الله نساء المؤمنين كانت الواحدة منهن توصى زوجها كل صباح فتقول له يافلان : اتق الله فينا ولا تأكل حراما ، إننا نصبر على الجوع فى الدنيا لكننا لا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة . . إن تخبط الشيطان لهم إنما هى الحيرة فى أسوأ أحوالها ، إنهم كمن به جنون تراه دائماً شارداً ، غير مستقر فزعاً غير مطمئن ، وقد وردت للمفسرين أقوال يجمل بنا أن نذكرها مفصلة . . عن ابن عباس رضى الله عنه قال : آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يخنق . . وعنه أيضاً قال : « يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب » . وقرأ : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ وذلك حين يقوم من قبره .

وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء كما هو مذكور فى سورة سبحان : (أنه عليه السلام مر ليلتئذ بقوم لهم أجواف مثل البيوت فسأل عنهم فقيل : هؤلاء أكلة الربا) . رواه البيهقى مطولاً[١] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ . قال : هؤلاء أكلة الربا)[٢] رواه أحمد .

وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة فيفغر له فاه ، فيلقمه حجراً . . وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا[٣] يقول ابن كثير : وقوله : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه ، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن ، ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : « إنما الربا مثل البيع » وإنما قالوا : « إنما البيع مثل الربا » أى هو نظيره فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أى هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا وقوله تعالى : ﴿ **وأحل الله البيع وحرم الربا** ﴾ يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردا عليهم أى على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكماً وهو العليم الحكيم الذى لا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون[٤] .

وليس الجنون والحيرة والاضطراب الذى يصيب أكلة الربا ليس ذلك كله مقصوراً على قيامهم من

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٨٣ ط دار الشعب .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق .

قبورهم بل إن حالهم فى الدنيا كذلك فهم فى فزع دائم يقومون من نومهم مشدودين إلى جمع المال بأى وسيلة محرمة ولو كان لأحدهم واديان من ذهب لا بتغى ثالثاً ولا يملأ جوفهم إلا تراب القبر . فهم دائما فى حال صرع وجنون كأن بهم مساً من الشيطان ، فترى الواحد منهم كالذى استهواه الشياطين فى الأرض حيران بين موائد القمار والتعامل بالربا ، وقد يكون قولهم إنما البيع مثل الربا إمعانا منهم وإصراراً على حل الربا بل هو فى باب الحلال أوقع من البيع حيث جعلوا البيع مشبهاً والربا مشبهاً به وشتان ثم شتان بين المشبه والمشبه به . . ومن ثم وقد رد عليهم العلى الحكيم قائلا:﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ إذ أن البيع معاملة بعيدة عن الاستغلال والترهل وامتصاص الدماء ، أما الربا ففيه كل تلك العلل وشتان بين أن يشترى الإنسان سلعة كالقمح أو اللحم أو الفاكهة ليستفيد بها وبين أن يقترض شيئا من المال من أحد المرابين فيستغل عذره ويفرض عليه الزيادة على الشىء الذى أخذه من المال فيكون مثله كالحشرات التى تعيش على دماء الأصحاء حتى تتركهم تحت أطباق الثرى أجساداً هامدة ، ومن هنا فإن الإسلام أغلق باب الربا إذ فتح باب البيع وإغاثة الملهوف ، كذلك باب الصدقات والقرض الحسن والرهن للاستيثاق من أداء الدين ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ﴾ . فأى وجه من وجوه الشبه بين البيع والربا وقد أحب الله هذا وحرم ذاك « فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله » .

أى من بلغته الأحكام بتحريم الربا فانتهى عنه ولم يتعامل به فله ما سلف أى فقد عفا الله عما كان يتعامل به قبل بلوغ الأحكام وتجاوز عنه ربه إذ أنه لا ذنب له قبل مجىء موعظة الله ، وأمره إلى الله ، أى وقد أمر الله فيها بالعفو ، وهذا بالنسبة إلى الذين عاصروا الوحى ، أما الذين جاءوا بعد نزول الأحكام على رسول الله ﷺ فليس لهم عذر بعدما أكمل الله دينه ، وأتم نعمته ، ورضى لنا الإسلام دينا . وقد جاء النبى بتلك الشريعة بيضاء نقية لا يزيغ عنها إلا هالك ، ولذا قال تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى بعد نزول الحكم ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ أما من عاد بعد بيان الحكم ، فينتقم الله منه قال تعالى : ﴿ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . لأنهم عادوا إلى اقتراف المخالفات بعدما وضحت الأحكام وانجلت الظلماء وبرح الخفاء.ومن هنا فقد حرم الإسلام صورا من المعاملات ، كالعينة وصورتها أن الإنسان المحتاج إلى النقود يشترى سلعة بثمن معين إلى أجل ثم يبيعها ممن اشتراها منه بثمن حال أقل فيكون الفرق هو فائدة المبلغ الذى أخذه عاجلاً وهذا البيع حرام ويقع باطلا . . كذلك حرم الإسلام بيع المزاينة ،وهو بيع الرطب بالجاف كذلك حرم المحاقلة وهو بيع القمح فى سنابله فى الحقل بالقمح على الأرض ، فعلى المسلم أن يتحرى ويعلم أن الحرام بين والحلال بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام . فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن البر ما اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس فاستفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك ، واعلم بأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وأن الظلم

لا يدوم ، وإذا دام دمر ، قال تعالى: ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ فالتعبير بالمحق فيه من الدلالة ما فيه ، فالله يسحق الربا من أصوله فيذر الديار بلاقع ـ ومهما كثر مال المرابى فهو قليل لا بركة فيه كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون، ﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ قال شعيب لقومه « بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين » فاللهم ارزقنا الحلال وبارك لنا فيه وباعد بيننا وبين الحرام كما باعدت بين المشرق والمغرب إن شجرة الربا ثمرتها مرة كالحنظل لأنها خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، أما ثمرة الحلال فإنها مباركة قال تعالى: ﴿ ويربى الصدقات ﴾ أى يزيدها وينميها ويبارك فيها ، لأنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤ تى أكلها كل حين بإذن ربها ، والمرء فى ظل صدقته يوم القيامة حتى يقضى بين العباد ومن أراد الله فليلتمسه فى الفقراء عبدى أنفق أنفق عليك .

والمحسنــــون لهم على إحسانهم ... يــوم الإثابــة عشرة الأمثــال
وجزاء رب المحسنين يجل عــن ... عــدّ وعــن وزنٍ وعــن مكيــال

قال رسول الله ﷺ (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً ، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل)[١] .

قوله تعالى: ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ هاتان صيغتان من صيغ المبالغة (كفار أثيم) أى كثير الكفر والجحود لنعمة الله لا يعرف الشكر إلى قلبه سبيلا ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، جعظريا جواظا : أى قاسى القلب سىء الخلق ، فظ غليظ مهموم بأمر الدنيا ، غافل عن شئون الآخرة أثيم كثير الذنوب إنهم أكلة الحرام الذين رضعوا ألبان الاثم وشربوا من مائها الآسن . وعلى الجانب المقابل تشرق علينا أنوار الإيمان والعمل الصالح فيقول تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ هؤلاء آمنوا بالله رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ، فأحلوا ما أحل الله وحرموا ما حرم وجعلوا بينهم وبين النواهى حجاباً مستوراً وقنعوا بما قسم الله مصداقاً لقول الصادق المعصوم : (اتق المحارم تكن أعبد الناس وارضٍ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً وأحب لأخيك كما تحب لنفسك تكن مسلماً ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب)[٢] وعلى رأس تلك الأعمال الصالحة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، عبادة قلبية وعبادة مالية فمن أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا أرادت أن تتصدق مست درهم الصدقة بالمسك فيقال لها فى ذلك فتقول لأننى أضعه فى يد الله قبل أن أضعه فى يد المسكين أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾[٣] . وما جزاء هؤلاء ؟ . لهم أجرهم عند ربهم . . أولئك جزاؤ هم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العالمين . . ولا خوف عليهم مما سيأتى ولا هم يحزنون على ما مضى .

لا تــركنن إلى الــدنيــا ومــا فيهــا ... فــالموت لا شــك يفنينــا ويفنيهــا

(١) جامع الأحاديث للسيوطى جـ ٦ ص ١٣٤
(٢) الجامع الصغير للسيوطى جـ ١ صـ ١٤ دار الفكر
(٣) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين بتقواه فإنهم أسرع الناس امتثالا لأمر الله وذروا ما بقى من الربا ، أى أتركوا ما كان لكم عند الناس من زيادة على رأس المال فإن فعلتم ذلك فهذا دليل على إيمانكم فليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل .

وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل وابن حيان والسدى أن هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف وبنى المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا نؤدى الربا فى الإسلام بكسب الاسلام فكتب فى ذلك عتاب ابن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾،﴿ **فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم ، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار . .

قوله تعالى:﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ قال ابن عباس فأذنوا بحرب أى استيقنوا بحرب من الله ورسوله . وعنه قال : يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب ثم قرأ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ وقال على بن أبى طلحة عن أبى عباس ﴿ **فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله** ﴾ فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه ، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع وإلا ضرب عنقه .

قوله تعالى : ﴿ **فإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ .

التوبة ندم على ما فات وعزيمة على عدم العود وأداء الحقوق لأصحابها ،وليست التوبة كلمات تلوكها الألسنة وتتحرك بها الشفاه ، إنما التوبة كالدواء والذنوب كالداء ولكل داء دواء يستطب به ،وتوبة المرابى أن يأخذ رأس ماله دون زيادة حتى لا يظلم غيره وله الحق أن يأخذ رأس المال كاملاً حتى لا يظلم نفسه ﴿ **لا تظلمون ولا تظلمون** ﴾ . ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ . .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾ أمر من الله تعالى لأصحاب اليسار أن ينظروا المعسر الذى ضاقت يده إلى وقت الميسرة ، وذلك لأن الراحمين يرحمهم الرحمن ، وقد كان من عادة الجاهليين إذا حل دين أحدهم أن يقول للمدين إما أن تقضى وإما أن تربى فجاء الأمر من أرحم الراحمين بالإنظار بل وندبهم إلى أن يتصدقوا بالدين فإن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ، داووا مرضاكم بالصدقة وحصنوا أموالكم بالزكاة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء فما نقص مال من صدقة ، فإن كنتم تعلمون ما عند الله من عظيم الأجر وتفريج الكرب ، وزوال الغم وشفاء المريض لتصدقتم بالمال على ذوى الحاجات . .

﴿ وما أدراك ما العقبة فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ﴾ . ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ . جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر من الزاد فإن السفر طويل وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كئود .

قال ﷺ:(من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه)[1] وعن سليمان ابن بريدة عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقة) ، قال ثم سمعته يقول:(من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة) قلت سمعتك يارسول الله تقول « من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقه » ثم سمعتك تقول:(من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلاه صدقة) قال « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقه »[2] وعن محمد بن كعب القرظى أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبىء منه فجاء ذات يوم فخرج صبى فسأله عنه فقال نعم هو فى البيت فناداه . فقال يافلان : اخرج فقد أخبرت أنك ها هنا . فخرج إليه فقال ما يغيبك عنى ؟ فقال إنى معسر وليس عندى شىء قال آلله إنك معسر ؟ قال نعم فبكى أبو قتادة . ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول ﴿ من نفس عن غريمه أو محا عنه ، كان فى ظل العرش يوم القيامة ﴾[3] رواه مسلم فى صحيحه .

وعن حذيفه بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال ماذا عملت لى فى الدنيا ؟ قال : ما عملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها ـ قالها ثلاث مرات ـ قال العبد عند آخرها يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال وكنت رجلاً أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر . قال فيقول الله عز وجل : أنا أحق من ييسر ، ادخل الجنة »[4] .

وعن عبد الله بن سهل بن حنيف أن سهلا حدثه أن رسول الله ﷺ قال:« من أعان مجاهداً فى سبيل الله أو غازيا أو غارما فى عسرته أو مكاتباً فى رقبته أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله »[5] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر)[6] .

وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : (من كان له على رجل حق فأخره ، كان له بكل يوم صدقة)[7] .

قوله تعالى:﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون ﴾ روى أن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩١ ط الشعب .
(٢) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩١ ط الشعب .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩١ ط الشعب .
(٤) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .
(٥) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .
(٦) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .
(٧) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٩٢ ط الشعب .

هذه الآية ، آخر آية نزلت من القرآن العظيم فقال ابن لهيعة : حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول .

جاءت هذه الآية الكريمة ختاماً لآيات الربا حتى يعلم الناس أن الدنيا مهما أقبلت فهى مدبرة ، وأن العمر مهما طال فلابد من دخول القبر . فليحذروا عقاب الله فى يوم يجعل الولدان شيبا ، السماء منفطر به كان وعده مفعولاً . ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ❁ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ❁ والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾ . فياله من يوم ما أطوله ومن خطب ما أهوله ومن جبار ما أعدله ، ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ❁ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم . لله الواحد القهار ❁ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾ غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون مازرعوا إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فبئس ما صنعوا .

آية المداينة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ج وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ
بِالْعَدْلِ ج وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ج فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ
اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ج فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن
يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ج وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ج فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ
فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ج
وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ج وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ج ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ
عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ
فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ج وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ ج وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ج وَإِن
تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ج وَاتَّقُوا اللَّهَ ج وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ج وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾

المفردات : **تداينتم** : داين بعضكم بعضاً . **إلى أجل مسمى** : أى موعد محدود بالأيام والشهور والسنة ونحوها مما يفيد العلم لا بالحصاد وقدوم الحاج ، مما فيه جهالة ، **بالعدل** : أى بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين ، **ولا يأب**: أى لا يمتنع .**كما علمه الله** : أى على الطريق التى علمه الله إياها من كتابة الوثائق . **وليملل** : أى وليلق على الكاتب ما يكتبه والإملال والإملاء بمعنى ، يقال أمّل على الكاتب وأملى عليه . **ولا يبخس**:أى ولا ينقص . **سفيهاً**:أى ضعيف الرأى لا يحسن التصرف فى المال لضعف عقله . **أو ضعيفاً**:أى صبياً وشيخاً هرماً. **أو لا يستطيع أن يمل**:أى بأن كان جاهلاً أو أبكم أو أخرس ، **واستشهدوا شهيدين**:أى اطلبوا أن يشهد رجلان . **ترضون** : أى ترضون دينهم وعدالتهم . **أن تضل** أى تخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها . **ولا تسأموا** : أى لا تملوا ولا تضجروا . **أقسط** : أى أعدل . **وأقوم** أى وأعون على إقامتها على وجهها ، **وأدنى** : أى أقرب **ألا ترتابوا**:أى إلى انتفاء الريب فى جنس الدين وقدره وأجله . **تديرونها**:أى تتعاطونها بالتعامل يداً بيد . **والجناح** : الإثم والذنب **ولا يضار** أى ولا يفعل الضرر بالمتعاملين بالامتناع عن الكتابة أو الشهادة أو بالتحريف أو الزيادة أو النقص . **فسوق**:أى خروج عن الطاعة . **والرهان** واحدها رهن بمعنى مرهون . .

لما رغب الله تعالى عباده فى الإنفاق وضرب لذلك الأمثال ﴿ كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مئة حبة ﴾ وبين أن الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم مثلهم فى ذلك ﴿ كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ﴾ بعد ذلك نهى سبحانه وتعالى عن التعامل بالربا نهياً بلغ إلى حد أن قال الله سبحانه:﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ وذكر العباد باليوم الآخر فقال:﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ﴾ لما كان ذلك كذلك جاءت آية الدين وهى أطول آية فى كتاب الله ، بين الله فيها أحكاماً تتعلق بالمعاملات المالية ، ذلك لأن الإسلام أمر بالحفاظ على النفس والعقل والمال والعرض (فنعم المال الصالح للعبد الصالح) وللفقهاء كلام فى الدين نذكره مفصلاً :

يقول الشيخ السيد سابق : شرع الله الدين قربة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى لما فيه من الرفق بالناس والرحمة بهم وتيسير أمورهم وتفريج كربهم . وإذا كان الإسلام ندب إليه وحبب فيه بالنسبة للمقرض فإنه أباحه للمقترض ولم يجعله من باب المسألة المكروهة لأنه يأخذ المال لينتفع به فى قضاء حوائجه ثم يرد مثله .

روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : (من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه) . رواه مسلم وأبو داود والترمذى .

وعن أنس قال رسول الله ﷺ:(رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر فقلت : يا جبريل ما بال القرض أفضل من الصدقة ؟ قال : لأن السائل يسأل وعنده والمستقرض لا يستقرض إلا من حاجة) .

وعقد الدين عقد تمليك فلا يتم إلا ممن يجوز له التصرف ، ولا يتحقق إلا بالإيجاب والقبول كعقد البيع والهبة . وينعقد بلفظ القرض والدين والسلف وبكل لفظ يؤدى إلى معناه . فإذا ما تم العقد وحدد الأجل فليس للدائن أن يطالب بدينه قبل حلول الأجل ، قال تعالى:﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾ فهذا أمر بكتابة الدين حفاظاً على المال وعدم ضياعه . ويجوز الدين فى الثياب والحيوان فقد ثبت أن الرسول ﷺ استلف بكراً ، كما يجوز قرض ما كان مكيلا أو موزوناً أو ما كان من عروض التجارة كما يجوز قرض الخبز والخمير لحديث عائشة (قلت يا رسول الله إن الجيران يستقرضون الخبز والخمير ويردون زيادة أو نقصاً فقال : لا بأس إنما ذلك من مرافق الناس لا يراد به الفضل) .

وعن معاذ أنه سئل عن اقتراض الخبز والخمير فقال : سبحان الله إنما هذا من مكارم الأخلاق ، فخذ الكبير وأعط الصغير وخذ الصغير وأعط الكبير ، خيركم أحسنكم قضاء . . سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك [١] .

ولما شرع الله تعالى القرض ورغب فيه وأثاب عليه فإن حكمة المشروعية الرفق بالناس وتيسير أمورهم وبعيد كل البعد عن روح الإسلام إرهاق الناس والتعسير عليهم ، لذا فإن هناك قاعدة تقول « كل قرض جر نفعاً فهو ربا » فلا يجوز لصاحب المال أن يقصد من وراء القرض أى فائدة من المقترض وإنما عليه أن يقصد بعمله هذا وجه الله .

التعجيل بقضاء الدين قبل الموت :

روى الإمام أحمد أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن أخيه مات وعليه دين فقال : هو محبوس بدينه فاقض عنه . فقال يا رسول الله قد أديت عنه إلا دينارين ادعتهما امرأة ليس لها بينة فقال : أعطها فإنها محقة .

وروى أن رجلاً قال : (يا رسول الله أرأيت إن جاهدت بنفسى ومالى فقتلت صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر أدخل الجنة ؟ قال : نعم.فقال ذلك مرتين أو ثلاثاً قال : إلا إن مت وعليك دين وليس عندك وفاء وأخبرهم بتشديد أنزل فسألوه عنه فقال : الدين . . والذى نفسى بيده لو أن رجلاً قتل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل فى سبيل الله ما دخل الجنة حتى يقضى دينه) .

وعن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله (قال كان رسول الله ﷺ لا يصلى على رجل مات وعليه دين فأتى بميت فقال : أعليه دين ؟ قالوا : نعم ديناران فقال : صلوا على صاحبكم . فقال أبو قتادة الأنصارى : هما على يا رسول الله قال فصلى عليه رسول الله ﷺ فلما فتح الله على رسوله ﷺ قال أنا أولى بكل مؤمن من نفسه فمن ترك ديناً فعلى قضاؤه ومن ترك مالاً فلورثته) .

وحديث البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه،ومن أخذها يريد إتلافها ، أتلفه الله) .

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٣ ص ١٤٥ ، ١٤٧ ط ١ دار الفكر .

مطل الغنى ظلم :

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم ،وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع) رواه أبو داود وغيره .

استحباب إنظار المعسر : يقول الله سبحانه:﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ .

روى عن أبي قتادة أنه طلب غريماً له فتوارى ثم وجده فقال إني معسر فقال . آلله ،قال:فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:« من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه »

وعن كعب بن عمر قال :سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله فى ظله)(١) .

قوله تعالى : ﴿ **ياايها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾ هذا إرشاد من الله لعباده أن يكتبوا الدين خشية النسيان والجحود الذى قد يفضى إلى النزاع ويؤدى إلى العداوة والبغضاء . قال تعالى : ﴿ **وليكتب بينكم كاتب بالعدل** ﴾ أى بالقسط والحق ولا يجر فى كتـابته عـلى أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان .

قوله تعالى : ﴿ **ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب** ﴾ أى ليس للكاتب أن يمتنع عن الكتابة إذ سئل ذلك وذلك كما علمه الله فليكتب . . قوله تعالى ﴿ **وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا** ﴾ أى وليملل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين ولا ينقص منه شيئاً . . قوله جل شأنه : ﴿ **فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً** ﴾ أى سيء التصرف فى ماله محجوراً عليه لـلإسراف والتبـذير ﴿ **أو ضعيفاً** ﴾ أى صغيراً أو مجنوناً ﴿ **أولا يستطيع أن يمل هو** ﴾ وذلك لعجزه عن الكلام كأن يكون أبكم أو ألكن ﴿ **فليملل وليه بالعدل** ﴾ أى ولى أمره بالعدل ؛ أى بالقسط والحق ، قوله تعالى : ﴿ **واستشهدوا شهدين من رجالكم** ﴾ أى اطلبوا شهادة رجلين حتى تكون شهادتهما بينة لإثبات الدين . قوله تعالى : ﴿ **فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى** ﴾ وإنما قامت شهادة الرجل بامرأتين فى المعاملات لأن رسالة المرأة فى بيتها وتدبير المعيشة والإشراف على التربية ، فليست ذات خبرة فى المعاملات والأسواق فهى كثيراً ما يعتريهاالنسيان فى مثل هذه الأمور ، لذا بين الله تعالى الحكمة فقال : ﴿ **أن تضل إحداهما** ﴾ أى تبتعد عن المطلوب للنسيان أو عدم الخبرة فتذكر إحداهما الأخرى وسبحان الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وسبحان من يسر لعباده ما يليق بكل منهم فكل ميسر لما خلق له : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ وقال فى حق النساء : ﴿ **فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** ﴾(٢) .

---

(١) فقه السنة للشيخ السيد سابق ج ٣ ص ١٤٩ - ١٥٢ ط ١ دار الفكر
(٢) سورة النساء آية : ٣٤ .

روى الإمام مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الإستغفار فإنى رأيتكن أكثر أهل النار ، فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار ؟ قال : تكثرن اللعن وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن ، قالت يا رسول الله : ما نقصان العقل والدين ؟ قال : أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالى لا تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين[1] .

قوله تعالى:﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ أى أن الشاهدين يكونان معروفين بالعدالة حتى تقع شهادتهما موقع الرضا . قوله جل شأنه:﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ نهى من الله تعالى موجه إلى الشهداء ألا يمتنعوا عن أداء الشهادة إذا دعوا إليها وذلك حتى لا تضيع حقوق العباد ، قوله تعالى ﴿ ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ﴾ هذا توجيه إلهى كريم حفاظاً على الحقوق ؛ فالله تعالى ينهى عن الملل من كتابة الحقوق صغيرة كانت أو كبيرة ، كل إلى أجله ، وقد بين الله تعالى الحكمة من ذلك فقال:« ذلكم أقسط عند الله » أى أعدل ، « وأقوم للشهادة » ، أى أعون على إقامتها على وجهها « وأدنى ألا ترتابوا ﴾ أى أقرب الطرق إلى نفى الريبة والشك والظن السيىء وسوء النية .

قوله تعالى:﴿ إلاأن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم ﴾ أى إذا تم البيع والشراء وقبض البائع الثمن فليس عليكم جناح ألا تكتبوها ذلك لأنه لا نزاع ولا شحناء .

﴿ واشهدوا إذا تبايعتم ﴾ وذلك أيضاً لإثبات الحق فى البيع والشراء ، كما أمر سبحانه وتعالى قبل ذلك بكتابة الدين والإشهاد ، كل هذا حتى لا يكون هناك اختلافات تؤدى إلى العداوة والبغضاء قال سبحانه : ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ نهى موجه إلى كل كاتب وشهيد فليس للكاتب أن يحرف فى كتابته أو يغير حتى لا يكون هناك ضرر بأحد المتعاقدين ، والإسلام يقول فى قواعده الأصيلة : « لا ضرر ولا ضررا » . وعلى الشهيد ألا يكتم أو يغير فى شهادته ، إذ أن فى الكتمان والتغيير ضرراً بأحد المتعاقدين . قال تعالى : ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ أى إن وقع الضرر فذلك خروج عن طاعة الله وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وكما أمر الله تعالى بكتابة الدين فى أول الآية أمر بالتقوى فى ختامها إذ التقوى هى العاصمة والواقية من الوقوع فى المخالفات ، إذ هى خوف من الجليل فمن خاف الله فقد عرفه ومن عرفه فقد أحبه ومن أحبه فقد استضاء بنوره ثم قال سبحانه : ﴿ ويعلمكم الله ﴾ أى يبين لكم الأحكام التى فيها سعادتكم . ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾[2] ﴿ والله بكل شىء عليم ﴾ ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله[3] ﴾ ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[4] .

---

(١) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٧ ص ٥٨٥
(٢) سورة النساء آية : ٢٦
(٣) سورة البقرة آية : ١٤٠
(٤) سورة البقرة آية : ٢١٦
(٤) سورة البقرة آية : ٢٣٢
(٤) سورة آل عمران آية : ٦٦
(٤) سورة النور آية : ١٩
(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٢

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢٨٣)

هذا إرشاد من الله تعالى لعباده إن كانوا مسافرين وتعذرت الكتابة أى كتابة الحقوق لعدم وجود الكاتب أو من يحسن الكتابة ، فليكن هناك رهن يأخذه الدائن للاستيثاق من أداء دينه ، ولا يتم ذلك إلا بقبض الشيء المرهون وقد أجاز الإسلام الرهن للاستيثاق من أداء الدين فإن كان هناك أمان وثقة بين الدائن والمدين بأن كان المدين معروفاً بحسن الأداء وكرم المعاملة ، فليس هناك ما يدعو إلى الكتابة وعلى المدين أن يؤدى الدين فى وقته لأنه مؤتمن لدى الدائن ﴿ وليتق الله ربه ﴾ فلا يجحد ما عليه من الحق بحجة أنه ليس هناك كتابة تثبت ذلك وكما قال تعالى : ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ وقال هنا:﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ لأن كتمانها يؤدى إلى ضياع الحقوق ووقوع الظلم فيأكل بعض الناس أموال بعض بالباطل ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ لأن الكتمان عمل يؤدى إلى الإثم وسوء القصد وفساد النية والعداوة والبغضاء وكل هذه من أعمال القلوب وليعلم الجميع أن الله عليم بأعمال العباد وأفعالهم وخلجات نفوسهم وخطرات أفئدتهم لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم .

المالك هو الله

﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢٨٤)

لهذه الآية الكريمة تمام ارتباط بما قبلها وهو قوله تعالى : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴾(١) فإن الذى أحاط علمه بكل شيء له ما فى السموات وما فى الأرض . قال سبحانه : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(٢) . إنه المالك المتصرف الذى أحصى كل شيء عددا ، العليم بذات الصدور . الخبير بمكنون النفوس وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ .

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٣
(٢) سورة هود آية : ١٢٣

قوله تعالى : ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ المراد بما فى النفس ما استقر فيها وقوى بحيث أصبح ثابتا ، وذلك مثل الحسد الذى يؤدى إلى البغى،ومثل الظن السىء ومثل كتمان الشهادة ومثل البغضاء . كل هذه الأشياء من أعمال النفوس التى إذا استقرت وبلغت حد التمكن فإن الله تعالى يحاسب عليها بسببها ، أما حديث النفس الذى لم يصل حد العزم والتمكن والاستقرار ، فإن الله تعالى ، بفضله وكرمه قد تجاوز لهذه الأمة عما تحدثها بها أنفسها ما لم يعمل أحدهم أو يتكلم،وقد عاقب الله أصحاب الجنة الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ذلك أن ما فى نفوسهم قد وصل إلى حد العزم والتصميم على الفعل ، فعاجلهم الله بالعقوبة وهم نائمون . فإذا اما أبدى الإنسان وأظهر ما استقر فى نفسه من الآثام أو أخفاها فلم يظهرها فإن الله تعالى يحاسبه على ذلك فيغفر لمن يشاء بمحض فضله ويعذب من يشاء بمحض عدله ، وذلك بمقتضى حكمته وعلمه وإرادته . وقد تنزه سبحانه عن الظلم والعبث فهو الحكم العدل المقسط ، وهو العفو الكريم الحليم الرحيم المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل نقص ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم . وكان الله شاكراً عليما ﴾ . وقد جاء ختام الآية ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ فإن من له ما فى السموات وما فى الأرض من أخص خصائصه ، القدرة ﴿ قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء . وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ﴾ .

ولما نزلت هذه الآية توجه فريق من الصحابة إلى رسول الله ﷺ يشكون إليه شدة الحساب على ما فى النفس فماذا حدث ؟ لنستمع إلى ما رواه الإمام أحمد ومسلم عن أبى هريرة قال : (لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾ اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوْا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا : أى رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والصيام والجهاد والصدقة . وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ؟ فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم ، أنزل الله فى إثرها ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ﴾ الآية ، قال فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ إلى آخرها) . وقوله نسخها الله : أى أزال ما أخافهم من الآية الأولى وحوله إلى وجه آخر(٢) .

أركان الإيمان

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ
وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ
ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا

(١) سورة آل عمران آية : ٢٦
(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثيرج ١ ص ٥٠١ ط الشعب

لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

المفردات :

﴿ **لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ أى إن الرسل فى الرسالة والتشريع سواء لا يفضل بعضهم بعضاً ، **سمعنا** : أى سماع تدبر وفهم . **والتكليف** : الإلزام بما فيه كلفة . **والوسع** : ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولاعسر ، والاكتساب يفيد الجد فى العمل . **والمؤاخذة** : المعاقبة لأن من يراد عقابه يؤخذ بالقهر ، ﴿ **ما لا طاقة لنا** ﴾ أى ما لا قدرة لنا عليه ويشق علينا فعله ، **والإصر** : العبء الثقيل يأصر صاحبه ويحبسه مكانه ، إذ لا يطيق حمله لثقله ، والمراد به التكاليف الشاقة ، **مولانا** : أى مالكنا ومتولى أمورنا .

ورد فى فضل هاتين الآيتين أحاديث رويت عن رسول الله ﷺ ونسأل الله تعالى أن يلهمنا الرشد ويوفقنا إلى العمل الصالح ويجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه :

– عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلته كفتاه) .

– عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ (أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبى قبلى) .

– عن أبى إسحق عن الحارث عن على قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش .

– وعن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال : (إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأ بهن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان) .

– عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسى ضحك وقال : (إنهما من كنز الرحمن تحت العرش) وإذا قرأ ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾ استرجع .

– عن ابن عباس قال : بينما رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضاً فوقه ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط ، قال فنزل منه ملك فأتى النبى ﷺ فقال له : أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك ، فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفاً منهما إلا أوتيته[1] .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٥٠٥ – ٥٠٧ ط الشعب .

قوله تعالى:﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ﴾ إخبار عن إيمان الرسول ﷺ بكل ما أنزل الله عليه من الوحى المعصوم ، وكذلك المؤمنون كلهم آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا ، كما آمنوا بالملائكة ، هم سفراء الله إلى خلقه وهم عباد مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون . لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون . ما من موضع قدم فى السماء إلا وفيه ملك قائم أو راكع أو ساجد لله ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، وكما آمن المؤمنون بالله والملائكة آمنوا كذلك بالكتب المنزلة على الأنبياء توراة وإنجيلاً وزبوراً وقرآناً . كذلك آمنوا بالرسل ولم يفرقوا فى الإيمان بين رسول ورسول ، بل آمنوا بأن لله رسلاً وأنبياء وبدون استثناء كان الإيمان شاملاً لهم جميعاً . هذا على طريق الإجمال أما على طريق التفصيل فقد آمنوا بالرسل الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم وهم خمسة وعشرون جمعهم أحدهم فى قوله :

فى تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر ويبقى سبعة وهم
إدريس هود شعيب صالح وكذا ... ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومن آمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وجب عليه أن يؤمن بكل ما جاء به محمد ﷺ ، وذلك كالبعث بعد الموت والقدر خيره وشره . وقد جاء بعد ذلك التصديق بالقلب الالتزام المطلق . قال تعالى : ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا ﴾ إذ حقيقة الإيمان كما قال الهادى البشير : ﴿ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ﴾ . ثم طلبوا من الله غفران الذنوب لأنهم يعتقدون أن المصير والمرجع والمآب إليه . ولقد منّ الله عليهم بعد ذلك بقوله : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ أى لا يحملها إلا ماتطيق حمله . فإن الله تعالى فرض فرائض فأدوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرّم حرمات فلا تنتكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها . وقد دعا المؤمنون ربهم بتلك الدعوات : ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ والنسيان هو فعل الشىء بدون تذكر ،كمن شرب أو أكل ناسياً فى نهار رمضان . والخطأ هو فعل الشىء بدون قصد كمن سبق ماء المضمضة إلى جوفه وهو صائم ، ولقد بشر الصادق المعصوم الأمة بتلك البشارة فقال : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

قوله تعالى : ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ﴾ المراد بالإصر ماثَقُل من التكاليف كما كان ذلك فى بنى إسرائيل كقطع مكان النجاسة من الثوب ودفع ربع المال فى الزكاة . ثم جاءت هذه الدعوة الكريمة ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أى من الشدائد والبأساء والضراء والمصائب والبلاء . إذ أننا عبيد إحسانه ونسأله العافية . ثم جاء بهذه الدعوات ﴿ واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ﴾ اعف عنا فلا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا واغفر لنا فلا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا وارحمنا فلا تحملنا ما لا طاقة لنا به . فتوجهت كل دعوة من هذه الدعوات إلى مايناسبها من الدعوات السابقة .

﴿ أنت مولانا ﴾ أى مالك أمرنا فليس لنا مولى سواك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ برفع راية التوحيد ولواء الإسلام .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يكون لكل نفس ماكسبت من الخير وعليها ما اكتسبت من السوء لا تُظلم نفس شيئاً . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

وقد اشتملت سورة البقرة على أصول العقائد وشعائر العبادات ومناهج السلوك ومبادىء الأحكام وقواعد النظام فكان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة (أى السحرة) والبيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان . وقد بدأها الله تعالى بالحديث عن الإيمان وختمها كذلك . وجاء فى آخرها آيتان نزلتا من كنز تحت العرش فكانت هذه السورة شافية كافية ، وافية فمن أخذها فقد أخذ بحظ وفير ، وله عند الله أجر كبير . نسأل الله ثوابها والعمل بها إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير .

وصلى الله عليه سيدنا محمد البشير النذير .

سورة آل عمران

من أسمائها : آل عمران والزهراء.
عدد آياتها : مائتان بإجماع القراء .
وهذه السورة مدنية : باتفاق جميع المفسرين . وكذلك كل سورة تشتمل على ذكر أهل الكتاب .
وكلماتها : ثلاثة آلاف وأربعمائة وثمانون . وحروفها:أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمس وعشرون حرفاً .

مجموع فواصل آياتها (ل ق د ا ط ن ب م ر) يجمعها قولى : (لقد أطنب مُرّ) والقاف آخر آية واحدة ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ والهمز آخر ثلاث آيات ﴿ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ ﴿ إنك سميع الدعاء ﴾ ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ .

مضمون السورة : مناظرة وفد نجران ، إلى نحو ثمانين آية من أولها ، وبيان المحكم والمتشابه ، وذم الكفار ، ومذمة الدنيا ، وشرف العُقبى ، ومدح الصحابة ، وشهادة التوحيد ، والرد على أهل الكتاب ، وحديث ولادة مريم ، وحديث كفالة زكريا ، ودعائه ، وذكر ولادة عيسى ومعجزاته ، وقصة الحواريين ، وخبر المباهلة (من البهلة وهى اللعنة) وهى المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ . والاحتجاج على النصارى ، ثم أربعون آية فى ذكر المرتدين ، ثم ذكر خيانة علماء يهود ، وذكر الكعبة ، ووجوب الحج ، واختيار هذه الأمة الفضلى والنهى عن موالاة الكفار ، وأهل الكتاب ، ومخالفى الملة الإسلامية . ثم خمس وخمسون آية فى قصة حرب أحد ، وفى التخصيص ، والشكوى من أهل المركز (هو الموضع يؤمر الجند أن يلزموه . وأهل المركز هم الرماة الذين أمرهم الرسول عليه الصلاة والسلام أن يلزموا أماكنهم بجانب أحد) . وعذر المنهزمين ومنع الخوض فى باطل المنافقين ، وتقرير قصة الشهداء وتفصيل غزوة بدر الصغرى ثم رجع إلى ذكر المنافقين فى خمس وعشرين آية ، والطعن على علماء اليهود ، والشكوى منهم فى نقض العهد ، وترك بيانهم نعت رسول الله ﷺ المذكور فى التوراة ، ثم دعوات الصحابة ، وجدهم فى حضور الغزوات واغتنامهم درجة الشهادة ، وختم السورة بآيات الصبر والمصابرة والرباط .

فضل السورة : عن أبى بريدة عن أبيه رضى الله عنه مرفوعاً : « تعلموا البقرة وآل عمران فانهما الزهراوان يظلان صاحبها يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف »(١)

وجه اتصالها بماقبلها

١- إن كلاً منهما بدىء بذكر الكتاب وحال الناس فى الاهتداء به ـ فقد ذكر فى الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبون بين ذلك ، وفى الثانية طائفة الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وطائفة

(١) الترغيب والترهيب جـ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ ط الأوقاف .

الراسخين فى العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ، ويقولون كل من عند ربنا .

٢- إن فى الأولى تذكيراً بخلق آدم ، وفى الثانية تذكيراً بخلق عيسى وتشبيه الثانى بالأول فى أنه جرى على سنة سابقة فى الخلق .

٣ ـــ إن فى كل منها محاجة لأهل الكتاب ، لكن فى الأولى إسهاب فى محاجة اليهود واختصار فى محاجة النصارى ، وفى الثانية عكس هذا،لأن النصارى متأخرون فى الوجود عن اليهود فليكن الحديث معهم تالياً فى المرتبة للحديث الأول .

٤- إن فى آخر كل منهما دعاء ، إلا أن الدعاء فى الأولى ينحو نحو طلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربى أهلها ورفع التكليف بما لا يطاق ، وهذا مما يناسب بداءة الدين . والدعاء فى الثانية يرمى إلى قبول دعوة الدين وطلب الجزاء على ذلك فى الآخرة .

٥- إن الثانية ختمت بمايناسب بدء الأولى كأنها متممة لها ، فبدئت الأولى بإثبات الفلاح للمتقين ، وختمت هذه بقوله : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ
وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ (٣) مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ (٤) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ
(٥) هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمۡ فِى ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٦) هُوَ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى
قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ
وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٧) رَبَّنَا
لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ (٨) رَبَّنَآ إِنَّكَ
جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ (٩)

المفردات : ﴿ الٓمٓ ﴾ حروف هجائية فيها إشارة أن هذا القرآن معجز لا يستطيع أحد أن يأتى بسورة من مثله ﴿ الله ﴾ : علم على واجب الوجود لذاته وهو المتصف بالجلال والكمال والجمال والإله هو : المعبود بحق المستغنى عمّن سواه المفتقر إليه جميع ما عداه ﴿ الحى ﴾ ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة ﴿ القيوم ﴾ : القائم على كل شىء بكلاءته وحفظه ﴿ نزل ﴾ يفيد التدريج ، والقرآن ، نزل كذلك فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الحوادث وعبر عن الوحى مرة بالتنزيل وأخرى بالإنزال للإشارة إلى أن منزلة الموحَى أعلى من الموحِى إليه ومعنى كونه بالحق أن كل ما جاء به من العقائد والأحكام والحكم والأخبار فهو حق لا شك فيه . ﴿ بين يديه ﴾ هى الكتب التى أنزلت على الأنبياء السابقين ، ﴿ التوراة ﴾ : المقصود بها الكتاب المنزل على موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلاة ومعنى هذه الكلمة الشريعة ﴿ الإنجيل ﴾ : المراد به الكتاب المنزل على نبى الله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام وهذه الكلمة معناها البشارة ﴿ الفرقان ﴾ هو الحق الذى يفرق الله به بين الهدى والضلال . ﴿ الانتقام ﴾ : مأخوذ من النقمة يقال : انتقم منه إذا عاقبه بجنايته ، والتصوير جعل الشىء على صورة لم يكن عليها ، والصورة هيئة يكون عليها الشىء بالتأليف . ﴿ الأرحام ﴾ واحدها رحم ، وهى مستودع الجنين من المرأة والمحكم من أحكم الشىء بمعنى وثّقه وأتقنه . والأم فى اللغة الأصل الذى يتكون منه الشىء والمتشابه : يطلق تارة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً ، وتارة أخرى على ما يشتبه من الأمور ويلتبس . والزيغ : الميل عن الاستواء والاستقامة إلى أحد الجانبين والمراد به هنا ميلهم عن الحق إلى الأهواء الباطلة ، والتأويل : من أوَّل وهو الرجوع إلى الأصل ومنه الموضع الذى يرجع إليه ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ : هم المتفقهون فى الدين ، ﴿ من لدنك ﴾ : أى من عندك والمراد بالرحمة العناية الإلهية والتوفيق الذى لا يناله العبد بكسبه . وجمع الناس الحق حشرهم للحساب والجزاء . ﴿ لا ريب فيه ﴾ : أى إننا موقنون به لا نشك فى وقوعه لأنك أخبرت به وقولك الحق .

نزل صدر هذه السورة الكريمة فى وفد نجران وقد بلغ عدد الآيات التى نزلت بهذا الصدد ثلاث وثمانون آية ، وقصة هذا الوفد كما رواها ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر ، قالوا : إن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله ﷺ وكانوا نحو ستين راكباً وخاصموه فى عيسى ابن مريم وقالوا له من أبوه ؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى ﷺ : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا هو يشبه أباه ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ . قالوا : بلى . قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى ! قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا لا قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم ، كيف شاء وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ، ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ قالوا بلى . قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا إلا جحوداً . فأنزل الله : ﴿ الٓمٓ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر

تلك الآيات وهى الآية الثالثة والثمانون(١)

قال المفسرون ووجه الرد عليهم فيها - أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادىء ذى بدء ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حياً قيوماً : أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده ، ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب وأنزل التوراة ، ليبين أنه قد أنزل الوحى وشرع الشرائع قبل وجوده كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء وإنما هو نبى مثلهم ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل وعيسى لم يكن واهباً للعقول ، ثم قال إنه لا يخفى عليه شىء ليرد على استدلالهم على إلوهية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى عليه شىء مطلقاً سواء أكان فى هذا العالم أم فى غيره من العوالم السماوية ، وعيسى لم يكن كذلك ثم أبان أن الإله هو الذى يصور فى الأرحام ليرد على ولادة عيسى من غير أب ؛ إذ الولادة من غير أب ليست دليلا على الإلوهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف يشاء وعيسى لم يصور أحداً فى رحم ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

وقد بدأ الله تعالى هذه السورة الكريمة بتلك الحروف الهجائية ﴿ الم ﴾ التى جاءت إشارة إلى أن هذا الكتاب الذى نزل بتلك الحروف كتاب معجز : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾(٣) . وقد جاء قوله تعالى بعد ذلك ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ كالإجابة عن سؤال تقديره من أنزل هذا الكتاب المعجز ، وهذه كلمة حق ، فالله وحده هو الذى أنزله إذ غيره عاجز كل العجز أن يأتى بسورة من مثله ، قال تعالى فى سورة هود : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾(٤) . وقال عز وجل:﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾(٥) . وجل جلال الله ، إذ يصف ذاته الأقدس بالحياة والقيومية ففى آية الكرسى قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ . وفى سورة آل عمران ، يقول الله تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ وفى سورة طه : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً ﴾(٦) . وقد قال فريق من المفسرين : إن الحى القيوم هو اسم الله الأعظم ، الذى ما سئل به إلا أعطى وما دعى به إلا أجاب(٧) . وما أعظم أن يخبر الله عن ذاته بالوحدانية والحياة والقيومية ، وقد جاء فى الدعوات المأثورة : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لى شأنى

---

(١) أسباب النزول للنيسابورى ص ٦٨ ، ٦٩ ط دار زهران للنشر .
(٢) سورة الإسراء آية : ٨٨ .
(٣) سورة البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) سورة هود آية : ١٤ .
(٥) سورة النساء آية : ١٦٦ .
(٦) سورة طه آية : ١١١ .
(٧) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٢٩٣ ط وزارة الأوقاف .

كله ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين . . فلفظ الجلالة (الله) هو العلم العظيم على الذات الأقدس والإخبار عنه بلا إله إلا هو إخبار بالوحدانية ، قال ﷺ « أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله » وجميع الأنبياء من لدن آدم إلى أشرف الخلق محمد ﷺ عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هوقول لا إله إلا الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾[1] . والحياة صفة قديمة وجودية قائمة بذاته تعالى تصحح الإتصاف بصفات الكمال ، فهو الحى العالم المريد السميع البصير صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، القيوم على عباده الذى به قامت السموات والأرض ﴿ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره﴾[2] . القائم على كل نفس بما كسبت ﴿قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن﴾[3] . ﴿له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾[4] . إن صفة الحياة واجبة لذاته سبحانه فهو جل جلاله أول بلا بداية وآخر بلا نهاية لا يعتريه نقص ، ولا يطرأ على حياته فناء .

﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا . الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً[5]﴾ .

ولى فى فنـاء الخلق أكبـر عبـرة ... لمن كـان فى بحـر الحقيـقـة راق
شخـوص وأشكـال تمـر وتنقضى ... فـتفنى جمـيعـاً والمهـيمـن بـاق

قوله تعالى: ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق ﴾ أى هذا الإله الواحد الحى القيوم هو الذى نزل عليك الكتاب منجماً على حسب مقتضيات الحال وقد اقتضت حكمته العليا ومشيئته العظمى أن يتدرج فى التشريع لعباده لأنه عليم بذات الصدور وهذا الكتاب الذى نزله عليك قال عنه منزله ﴿وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم﴾[6] . هو فى منزلة عظمى ودرجة عليا وقد نزل متلبساً بالحق ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾[7] . ﴿وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾[8] . والحق ضد الباطل وهو اسم من أسماء الله تعالى . قال تعالى ﴿يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ وهذا الكتاب نزل مصدقاً ومؤيداً للكتب السابقة المنزلة على الأنبياء من قبل ؛ إذ صح كلها تنبع من مشكاة واحدة فهو الذى أنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس قال تعالى: ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين * وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥ .
(٢) سورة الروم آية : ٢٥ .
(٣) سورة الأنبياء آية : ٤٢ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .
(٥) سورة الفرقان الآيتان : ٥٨ ، ٥٩ .
(٦) سورة الزخرف آية : ٤ .
(٧) سورة فصلت آية : ٤٢ .
(٨) سورة الإسراء آية : ١٠٥ .

أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[١] . فالكتب السماوية من توراة وإنجيل وزبور وقرآن يصدق بعضها بعضا فسابقها يمهد للاحقها ولاحقها يكمل سابقها . قال عليه الصلاة والسلام : (مثلى ومثل النبيين قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون هلا وضعت تلك اللبنة فأنا تلكم اللبنة وأنا خاتم النبيين)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ المراد به الحجج الساطعة والبراهين القاطعة والأدلة الباهرة والبينات الواضحة التى يفرق بها العقلاء بين الحق والباطل والهدى من الضلال . ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[٣] . قال تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾[٤] وقال جل شأنه:﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلاً ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[٦] وتقوى الله تجعل المؤمن ينظر بنور الله فيرزقه الله فرقاناً يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم ﴾[٧] ليس لأحد حجة على الله بعد بيان الطريق المستقيم قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾[٨] ، وكفرهم بآيات الله جحود وإنكار وكبر وإستعلاء مع علمهم واستيقانهم أن الله حق ، قال سبحانه : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[٩] . وقال موسى لفرعون قال : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾[١٠] وما أعظم قوله جل شأنه:﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط﴾[١١] ، والعذاب الشديد هو المؤلم الموجع ﴿ وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التى تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * فى عمد ممددة ﴾[١٢] ، والله عزيز غالب لا يغلبه أحد ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾[١٣] ، وهو المنتقم الذى يجازى بالعقاب الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ومن على شاكلتهم من أهل السوء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾ دليل العليم المحيط والبصير فهو العليم البصير علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون وكلمة ﴿ شىء ﴾ نكرة جاءت فى سياق النفى فأفادت عموم العلم ودقته أى لا يخفى عليه أى شىء فى الأرض التى نعيش عليها

(١) سورة المائدة الآيات : ٤٦ – ٤٨ .
(٢) جامع الأحاديث للسيوطى ج ٦ ص ١٢
(٣) سورة البقرة آية : ٢٥٦ .
(٤) سورة الأنعام آية : ١٠٤ .
(٥) سورة الإسراء آية : ١٢ .
(٦) سورة يونس آية : ٥٧ .
(٧) سورة الانفال الآية : ٢٩
(٨) سورة آل عمران آية : ٤ .
(٩) سورة النمل آية : ١٢ .
(١٠) سورة الإسراء آية : ١٠٢ .
(١١) سورة فصلت الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .
(١٢) سورة الهمزة الآيات : ٥ ـ ٩ .
(١٣) سورة فاطر آية : ٤٤ .

ولا فى السماء التى تظلنا ، وهذا هو الكون الذى نحيا فيه ، فالأرض تحتنا والسماء فوقنا ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾(١) ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾(٢) .

يامن يرى مد البعوض جناحه — فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها — والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها — فى قاع بحر زاخر متجندل

إن هذا الذى أحاط بكل شىء علما وأحاط بكل شىء عدداً ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ أى يخلقكم فى الهيئة والصورة التى يشاؤ ها . . هو سبحانه . . وعالم الأرحام عالم عجيب ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾(٣) . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾(٤) . وقال سبحانه : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾(٥) » . وقال سبحانه: ﴿ ويعلم ما فى الأرحام(٤) ﴾ أى يعلم حقيقتها وأرزاقها وعددها وآجالها ويعلم ما فى الأرحام كلها من إنسان وحيوان فلا يقولن قائل إن العلم قد تقدم واستطاعت الأشعة أن تعرف ما فى الأرحام من ذكورة وأنوثة فنقول لمن قال : لقد غابت عنك أشياء كثيرة لأن تعبير النص القرآنى جاء بما ، لا ، بمن وما تطلق ويراد بها حقيقة الشىء فهل يستطيع العلم بأشعته أن يتوصل إلى حقيقة النطفة وهى نطفة إن كان المخلوق منها ذكراً أو أنثى ؟ وهل يستطيع أن يصل إلى حقيقة ما فى الأرحام من إنسان وحيوان وغير ذلك من المخلوقات والكائنات التى تتوالد وتتكاثر وهل يستطيع العلم بأشعته أن يعرف الأشياء المتعلقة بما فى الأرحام من كم وكيف وأجل ورزق وسعادة وشقاء وعمل إن هذه المسألة فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمها إلا الله .

﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾(٧) .

هذا خلق الله : وعالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم وقدرة الله الذى أنزل القرآن

(١) سورة الرحمن آية : ٣٣
(٢) سورة المجادلة آية : ٧
(٣) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ - ٢٣.
(٤) سورة الحج آية : ٥
(٥) سورة الرعد الآيات : ٨ ، ٩
(٦) سورة لقمان آية : ٣٤
(٧) سورة لقمان آية : ٣٤

وعلى صدق الرسول سيدنا محمد ﷺ الذى بعث بالقرآن فإن الأطوار التى يمر بها الإنسان ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(١) .

فيم خلقنا ؟ خلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ . فما هو الرحم ؟ يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ثم يذكرون أبعاده فيقولون إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتيمترات وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات . . والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم : قراراً مكيناً ، حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾ .

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا ، بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾(٢) . ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾(٣) ؟ .

﴿ مم خلق ﴾ : من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم ، نصف ملليمتر فى الثانية الواحدة ويتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الإنسان .

فكيف كان عالمنا فى عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم وجعل درجة الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاء وكان وزن الإنسان عندما بلغ سبعة أشهر . وهوفى الأرحام - خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر - كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا وهو طريق ضيق دقيق ؟.

ذلك لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تتقلص عضلاته - حيث أصبح الإنسان ضيفاً ثقيلاً عليه - فتقلصت العضلات فعبر الإنسان هذا المضيق الدقيق .

والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول:﴿ من أى شىء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره ﴾(٤) فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟ : يقول الله عز وجل : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(٥) . وبنظرة فاحصة فى قوله تعالى : ﴿ لا تعلمون شيئاً ﴾ ، تفيد نفى العلم بالكلية إذ يقول علماء اللغة إن النكرة فى سياق النفى : تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زودنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله

---

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ - ١٤
(٢) سورة الزمر آية : ٦
(٣) سورة الطارق آية : ٥
(٤) سورة عبس الآيات : ١٨ : ٢٠ .
(٥) سورة النحل آية : ٧٨

ولنقابل هذا بالشكر والشكر لله : أن نسخر نعم الله فى طاعته وألا نستعملها فى معصيته :

قال موسى عليه السلام لربه : « يا رب : كيف أشكرك » قال له يا موسى : «تذكرنى ولا تنسانى . إنك إن ذكرتنى : شكرتنى ، وإن نسيتنى كفرتنى » وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره وعجز فى يديه وهو يردد بلسانه قائلاً : « الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه » فقال له الرجل : فمن أى شىء عافاك ؟ قال له : « وهب لى قلباً ذاكراً ولساناً شاكراً » .

ثم أنشد يقول :

حمدت الله ربى إذ هدانى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت ... ويعرفه فؤادى باللطيف

قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أى إن الذى صوركم فى الأرحام واحد لا شريك له ، عزيز لا يغلب،حكيم لا يعبث ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

يا ابن آدم

أنت الذى ولدتك أمك باكياً ... والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا ... فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً
تذكر جميلى مذ خلقتك نطفة ... ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشا
وسلم إلى الأمر واعلم بأننى ... أدبر أحكامى وأفعل ما أشا

لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

انظر لتلك الشجرة ... ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة ... وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى ... يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة

***

انظر إلى الشمس التى ... جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها ... حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها ... فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة

***

انظر إلى المرء وقل من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه بقوة مفتكرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدرر المنتشرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

قيل لأحد العارفين بالله ما الدليل على وجود الله قال : ومتى غاب سبحانه حتى تسألونى عن وجوده ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وأنكره الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله وقيل للإمام على كرم الله وجهه : متى كان الله ؟ فقال رضى الله عنه ومتى لم يكن : هو الأول فلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه، الباطن فلا شىء دونه ، وهو بكل شىء عليم .

حبيبى لا يعادله حبيب وما لسواه فى قلبى نصيب
حبيب جل عن شخص وعينى ولكن عن فؤادى لا يغيب

قيل للامام على : هل رأيت ربك ؟ قال وكيف أعبد ما لا أرى . فقالوا فكيف رأيته ؟ قال إن كانت الأعين لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان .

قلوب العارفين لها عيون ترى ما لا يرى للناظرين
وأجنحة تطير بغير ريش إلى ملكوت رب العالمين

إن آيات الملكوت كلها ناطقة بوحدانية الخالق .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات وفى أبصارها الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أمَّا يشركون * أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أ إله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمّن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزاً أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون * أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أ إله مع الله قليلاً ما تذكرون * أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أ إله مع الله تعالى الله عما يشركون * أمّن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أ إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين * قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون﴾ (١) .

(١) سورة النحل الأيات/٥٩ - ٦٤ النمل .

تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت علينا وأوليت ، نستغفرك اللهم من كل ذنب وخطيئة ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك أنت الغنى ونحن الفقراء إليك سبحانك أنت القائل : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ .

المفردات : ﴿ محكمات ﴾ : ظاهرات الدلالة لا خلاف فى معناها .

﴿ متشابهات ﴾ يقال اشتبه الأمر عليه أى التبس ، فالمتشابهات التى لم يظهر معناها وتتضح ، بل خلف ظاهر اللفظ المعنى المراد ، وقيل ما استأثر الله بعلمه . ﴿ زيغ ﴾ ميل عن الحق . ﴿ تأويله إلا الله ﴾ معرفة حقيقيه وبيان ما يؤول إليه فى الواقع ﴿ الراسخون ﴾ الثابتون فى العلم المتأكدون منه

التفسير : قوله تعالى ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب﴾ يفيد أن الذى أنزل الكتاب هو الله وحده ، وذلك فيه رد على الذين قالوا : ﴿ إنما يعلمه بشر ﴾[(١)] . وقالوا : إنه ﴿ سحر مفترى ﴾[(٢)] وقالوا : ﴿ أساطير الأولين ﴾[(٣)] فإذا كان الله وحده هو الذى أنزله ، فقد تنزه الكتاب الكريم عن البشرية والسحر والأساطير ، فهو كما قال منزله جل شأنه : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾[(٤)] قوله جل شأنه : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب ﴾ هذا تقسيم لآيات القرآن إلى : محكم ومتشابه .

وفى القرآن الكريم آيات تفيد أن آيات القرآن محكمة كلها ، كما فى قوله جل شأنه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[(٥)] كما أن فى القرآن الكريم ما يفيد أن القرآن متشابه كله ، وفى هذه الآية التى بين أيدينا ما يفيد أن بعض آياته محكم وبعضها متشابه ؛ فكيف التوفيق بين هذه النصوص ؟ .

إذا قلت : إن آيات الكتاب محكمة كلها فأنت صادق ؛ لأن الإحكام معناه أنها جاءت فى نسق رتيب ونظام بديع متقن ، وإذا قلت : إن آيات القرآن متشابهة كلها كما فى قوله جل شأنه : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها ﴾[(٦)] فأنت صادق ؛ لأن التشابه هنا معناه : أن آياته يشبه بعضها بعضاً فى الصدق والسلامة من العيوب والخلل والاختلاف ، وأن القرآن كله من عند الله ، نقل إلينا بطريق التواتر نتعبد بتلاوته ، ونتحدى جميع العالم أن يأتوا بسورة مثله أما قوله جل شأنه : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ فإن المراد «بالمحكمات» الآيات الظاهرة الدلالة لفظاً ومعنى ، والمتشابهات هى الآيات التى يخفى على كثير من الناس ما تدل عليه ، فلها لفظ ولها معنى يدركه ويعرف حقيقته الله ، كما أن تفسيره يعرفه الراسخون والثابتون فى العلم ، وذلك كالآيات التى يوهم ظاهرها المشابهة فى قوله جل شأنه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[(٧)] وقوله : ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[(٨)] وقوله : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾[(٩)] وقوله : ﴿ ولتصنع على عينى ﴾[(١٠)] . فعلماء السلف ومنهم الإمام مالك بن أنس يقولون : «الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة» فإنه تعالى كان ولا

(١) جزء من الآية/١٠٣ من سورة النحل .
(٢) من الآية/٣٦ من سورة القصص .
(٣) جزء من آيات كثيرة منها الآية/٢٥ من سورة الأنعام .
(٤) الآية/١٠٥ من سورة الإسراء .
(٥) من الآية/١ ـ من سورة هود .
(٦) من الآية/٢٣ من سورة الزمر .
(٧) الآية/٥ من سورة طه .
(٨) الآية/٢٧ من سورة الرحمن .
(٩) من الآية/١٠ من سورة الفتح .
(١٠) من الآية/٣٩ من سورة طه .

مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان وهذا فى قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى﴾وهكذا يقال فى الآيات الباقيات، يقولون : الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والإيمان به واجب ، وقل ذلك : فى كل الآيات المتشابهات ، إذ أنهم يردون هذه الآيات إلى الآيات المحكمات ، ومن هذه الآيات المحكمات قوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما ﴾(٢) وقوله جل شأنه : ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾(٣) .

ويرى الخلف تأويل هذه الآيات وتفسيرها تفسيرا يليق بذات الله : فيفسرون الاستواء على العرش بمعنى الهيمنة الكاملة والعلو والرفعة ، ويفسرون الوجه بمعنى الذات ، واليد بمعنى القدرة ، والعين بمعنى العناية والرعاية ، ويفسرون الحديث الشريف « إن قلوب بنى آدم جميعا بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء »(٤) يفسرون الإصبعين بالإرادة والقدرة .

والفرق بين السلف والخلف أن السلف يثبتون الاستواء والوجه والعين واليد والإصبعين لكن بلا كيف ولا تمثيل ، إنما بدون تشبيه أو تجسيد ، وهذا هو المعنى الذى يليق بذات الله ؛ فلا العرش يحمله ولا الكرسى يسنده ، بل العرش وحملته والكرسى وعظمته : الكل محمول بجلال قدرته ، مقهور بعظيم إرادته .

أما الخلف فإنهم يؤولون هذه الآيات إلى المعانى التى تليق بالذات الأقدس ، ومن ثم فقد قالوا : إن قول السلف أسلم ، وقول الخلف أحكم ، والكل يهدف إلى التنزيه والتعظيم ، ونفى التجسيد والتشبيه ، والكل هدفه سليم وبرىء من الزيغ .

أما قوله تعالى : ﴿ **فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ هؤلاء هم أصحاب القلوب المريضة التى تميل بالهوى ، ويميل بها الهوى فتتنكب الصراط السوى ، وتجافى سبيل الحق ، إنهم لا يردون المتشابه إلى المحكم ؛ إنما يتبعون المتشابه بعيداً عن المحكم فيشبهون ويجسدون ، يبتغون بذلك الفتنة . أى : فتنة الناس فى دينهم ، وإشعال نار الكفر ، أو يشبهون الله بالحوادث ، هو سبحانه مخالف لخلقه ، تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته . بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، موصوف بلا نهاية ، واحد لا من علة ، وموجود لا من قلة ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزىء ، ولا متكيف ولا متلون ، لا يسأل عنه بما ، إذ لا يعرف حقيقة الله إلا الله ، ولا يسأل عنه بمتى ؛ لأنه خالق الزمان ، فلا يحكم عليه بالزمان ، وما خطر ببالك ، فالله بخلاف ذلك والقول الحق فى ذلك . ﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾(٥) .

إن الذين فى قلوبهم زيغ يتبعون المتشابه من الآيات ، بعيداً عن المحكمات التى هى أم الكتاب

---

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٢) الآية ١١١ من سورة طه .
(٣) سورة الإخلاص .
(٤) متفق عليه .
(٥) الآية ١١ من سورة الشورى .

وأصله ، ابتغاء إشعال الفتن وابتغاء تأويله ، أى البعد به عن مراد الله من التنزيه والتقديس والتمجيد والتعظيم .

ومن الذين فى قلوبهم زيغ ، والذين اتبعوا المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، هؤلاء الذين انحرفوا بشريعة المسيح فألهوه وعبدوه .

فقد كانوا يتبعون المتشابه من آيات القرآن ، فيميزون بها المسيح عن بقية البشر مثل قوله تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾[1] فرد القرآن عليهم بأن القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ ، بعض آياته محكمات واضحات ظاهرات لا خلاف بين ظاهر اللفظ والمعنى المراد منها كقوله تعالى مثلاً : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[2] وكقوله فى شأن عيسى : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل ﴾[3] وكآيات الأحكام مثل : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾[4] وهكذا المحكم كل ما لا يحتمل من التأويل المعتد به إلا وجهاً واحداً .

وهن ـ أى المحكمات : ﴿ أم الكتاب ﴾ وعماده ومعظمه وأصله الذى دعى الناس إليه ، ويمكنهم فهمه ، وعنها يتفرع غيرها ويحمل عليها ، وهى أكثر ما فى القرآن فإن اشتبه علينا من الآيات آية ، ردت إلى المحكم وحملت عليه ، مثلاً قوله تعالى:﴿ وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ ترد وتحمل على قوله:﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾[6] وقوله : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾[7] بمعنى أننا نؤمن بأن الكل من عند الله وأنه لا ينافى الأصل المحكم .

أما الآيات المتشابهات كقوله تعالى فى عيسى : ﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾ من سورة النساء ، وكقوله ﴿ متوفيك ورافعك إلى ﴾[8] فى شأن عيسى ، وكقوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ . ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ . فهذه آيات متشابهات تحمل عدة معان ، ويخالف ظاهر اللفظ فيها المعنى المراد ، فهى مما استأثر الله بعلمه ، فليس لكم أيها النصارى أن تحتجوا بأمثال هذه الآيات ، فإنها من المتشابه الذى يحتمل عدة معان ، والله أعلم بها ، وكيف لا تدينون بقوله تعالى : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ﴾[9] وتتمسكون بآيات استأثر الله بعلمها هو ﴿ **فأما الذين فى قلوبهم زيغ** ﴾ وميل عن الحق إلى الباطل ، فيتبعون المتشابه من القرآن وغيره ، ويتركون المحكم ابتغاء فتنة الناس وإضلالهم ، ولكى يتأولوا تأويلاً غير سائغ فى العقل ، ولكنه موافق لأوهامهم وضلالهم .

قوله تعالى:﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ المراد بالتأويل هنا ما يؤول إليه الشىء ويرجع ، مأخوذ من المآل وللتأويل هنا معنيان : فإن أريد به معرفة ما يؤول إليه من حقائق ، كحقيقة ما يجرى فى الدار الآخرة من

---

(١) من الآية/١٧١ من سورة النساء .
(٢) من الآية/٣٣ من سورة الأسراء .
(٣) الآية/٥٩ من سورة الزخرف .
(٤) من الآية/١٥١ من سورة الأنعام .
(٥) من الآية/١٧١ من سورة النساء .
(٦) من الآية/٥٩ من سورة الزخرف .
(٧) من الآية/٥٩ من سورة آل عمران .
(٨) من الآية/٥٥ من سورة آل عمران .
(٩) من الآية/١٧٢ من سورة النساء .

حساب وميزان وكتاب وصراط ؛ فقف على لفظ الجلالة ، وقل : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ إذ هذه من الأمور التى استأثر الله تعالى بعلم حقيقتها ، وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾[1] فقوله تعالى : ﴿ **هل ينظرون إلا تأويله** ﴾ أى ما ينتظر هؤلاء المكذبون إلا ما يؤول إليه حقيقة هذا اليوم ، ولا يعلم حقيقته إلا الله وحده .

وإن كان التأويل بمعنى التفسير فعليك أن تعطف قوله تعالى:﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ على لفظ الجلالة فتقرأ:﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم** ﴾ إذ أن التأويل هنا يأتى بمعنى التفسير كما فى قوله تعالى : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾[2] أى تفسيرها ، وقد كان ترجمان القرآن عبد الله بن عباس يقول : متحدثا بنعمة الله عليه ، إنى أعلم تأويله فأنا من الراسخين فى العلم ، وذلك ببركة دعوة النبى ﷺ له : (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل) وتكون جملة ﴿ **يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ جملة حالية أى فى محل نصب على الحال .

وإنما خص الراسخين فى العلم حتى لا ينفتح الباب أمام أصحاب الأهواء والجهلة .

أما إذا وقفت على لفظ الجلالة ، فإن جملة ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ مبتدأ وخبره ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ ومعنى ﴿ **آمنا** ﴾ أى صدقنا وأيقنا أن آيات الكتاب سواء فى ذلك محكمة ومتشابهة ، كل من عند ربنا .

ولما خص الله تعالى الراسخين بهذا الفضل قال : ﴿ **وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ أى وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا ذوو البصائر المستنيرة والعقول الراجحة ، التى امتازت بالتدبر والتفكر فى جميع الآيات المحكمة التى هى الأصول ، حتى إذا عرض لهم المتشابه بعد ذلك سهل عليهم أن يتذكروها ، ويردّوا المتشابه إليها ، ويقولوا فى المتشابه الذى هو نبأ عالم الغيب إن قياس الغائب على الشاهد قياس مع الفارق ، لا ينبغى للعقلاء أن يعتبروه .

ثم ذكر ما يدعون به ليهبهم الثبات على فهم المتشابه فقال : ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾ أى أن أولئك الراسخين فى العلم مع اعترافهم وإيمانهم بالمتشابه ؛ يطلبون إلى الله أن يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة ، فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فيخافون أن يقعوا فى الخطأ والخطأ قرين الخطر .

وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يدعو «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال : « وليس من قلب إلا وهو بين

(١) الآيات ٥٢ ، ٥٣ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية ٦ من سورة يوسف .

إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»[١] ﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ أى ربنا إنك تجمع الناس للجزاء فى يوم لا شك فيه ، وإنا موقنون به لأنك أخبرت به ، وقولك الحق ووعدت وأوعدت بالجزاء فيه وأنت لا تخلف وعدك .

وقد جاءوا بهذا الدعاء بعد الإيمان بالمتشابه ؛ ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يسلبهم الرحمة فى ذلك اليوم ، وهذا الخوف هو مبعث الحذر والتوقى منه .

ولسائل أن يقول : لِمَ كان فى القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ؟ ولم لم يكن كله محكماً يتساوى فى فهمه جميع الناس ، وهو قد نزل هاديا ، والمتشابه يحول دون الهداية ، لوقوع اللبس فى فهمه وفتح باب الفتنة فى تأويله لأهل التأويل . أجاب العلماء عن هذا بأجوبه كثيرة منها :

١ – أن فى إنزال المتشابه امتحانا لقلوبنا فى التصديق به ، إذ لو كان ما جاء فى الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه لأحد لما كان فى الإيمان به شىء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله .

٢ – إن فى وجوده فى القرآن حافزا لعقول المؤمنين إلى النظر فيه ، كيلا تضعف وتموت ، إذ السهل الجلى لا عمل للعقل فيه ، وإذا لم يجد العقل مجالا للبحث مات ، والدين أعز شىء على الإنسان ؛ فإذا ضعف عقله فى فهمه ضعف فى كل شىء ، ومن ثم قال : ﴿ والراسخون فى العلم ﴾ ولم يقل والراسخون فى الدين ، لأن العلم أعم وأشمل . فمن رحمته أن جعل فى الدين مجالاً لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه ، إذ بحثه يستلزم النظر فى الأدلة الكونية والبراهين العقلية ووجوه الدلالة ، ليصل إلى فهمه ويهتدى إلى تأويله .

٣ – إن الأنبياء بعثوا إلى الناس كافة ، وفيهم العالم والجاهل والذكى والبليد ، وكان من المعانى ، الحكم الدقيقة التى لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيقتها ؛ فجعل فهم هذا من حظ الخاصة ، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله ، والوقوف عند فهم المحكم ، ليكون لكل نصيبه على قدر استعداده ، فإطلاق كلمة الله﴿ وروح من الله ﴾ على عيسى ، يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة ، ومن ثم فتن النصارى بمثل هذا التعبير ، إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه ، واستحالة أن يكون لله أم أوولد بمثل ما دل عليه قوله:﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾[٢] .

لا عبرة إلا بالحق

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ
﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ

(١) رواه مسلم .
(٢) من الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿ **تغنى** ﴾ : أى تنفع . ﴿ **وقود** ﴾ : بفتح الواو أى حطب ونحوه و﴿ **الدأب** ﴾ : العادة . من دأب على العمل إذا جد فيه وتعب ثم غلب فى العادة . و﴿ **المهاد** ﴾ : الفراش . يقال مهد الرجل المهاد إذا بسطه . و﴿ **الآية** ﴾ : العلامة على صدق ما يقول الرسول .

لما ذكر الله تعالى حال الراسخين الذين آمنوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وأعلنوها صريحة مدوية لا لبس فيها ولا غموض ، وقالوا : ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ ذكر بعد ذلك حال الكافرين ، ومنهم الذين فى قلوبهم زيغ فاتبعوا ما تشابه من الآيات ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وكان قصدهم مريضاً وهدفهم شراً مستطيراً ، ومن ثم : فإن لابن عباس رضى الله عنه كلمة فى محكم الكتاب ومتشابهه يقول فيها : التفسير على أربعة أنحاء : تفسير لا يعذر أحد فى فهمه ، وتفسير تعرفه العرب من لغاتها ، وتفسير يعلمه الراسخون فى العلم ، وتفسير لا يعلمه إلا الله .

وعن مالك الأشعرى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لا أخاف على أمتى إلا ثلاث خلال ، أن يكثر لهم المال فيتحاسدوا فيقتتلوا وأن يفتح لهم الكتاب فيأخذه المؤمن يبتغى تأويله ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به** ﴾ وأن يزداد علمهم فيضيعوه ولا يسألون عنه) .

وعن رسول الله ﷺ : (إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به) .

قوله تعالى:﴿ **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ إخبار منه سبحانه بأن من كفر بالله وكذب بآياته ورسله لن ينفعه عند الله شىء ولن يغنيه ماله وولده فى دفع العذاب عنه ، فإنه كما قال سبحانه:﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا ﴾[1] وكما قال جل شأنه : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[2] وقوله : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[3] وقد جاء الرد مفحماً لهم عندما قالوا : ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾[4] قال لهم سبحانه : ﴿ وما

(١) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .
(٢) من الآية ٣١ من سورة الحج .
(٣) الآية ٥٥ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٣٥ من سورة سبأ .

أموالكم ولأولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾[١] فالمال والولد لا يغنيان شيئاً ، وما أجمل ما دعا به ابراهيم الخليل ربه : ﴿ ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[٢] وقد ردع القرآن هذا المفترى ، الذى ورد ذكره فى قوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولداً * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً ﴾[٣] ، فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظا فالموت يكفيه ، ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه .

قوله تعالى : ﴿ وأولئك هم وقود النار ﴾ أى حطبها كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[٤] .

عن أم الفضل : أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال : (هل بلغت) يقولها ثلاثاً ــ فقام عمر بن الخطاب ــ وكان أواها ــ فقال:اللهم نعم ، وحرصت وجاهدت ونصحت فاصبر !! فقال النبى ﷺ : (ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرأون القرآن فيقرؤ ونه ويعلمونه ، فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا فمن هذا الذى هو خير منا ؟؟ فما فى أولئك من خير) قالوا : يا رسول الله فمن أولئك ؟ قال : (أولئك منكم هم وقود النار)[٥] .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أى صنيع هؤلاء الكفار وحالهم وشأنهم ؛ مثل ذلك كله كصنيع آل فرعون وحالهم وشأنهم ، فالكل مكذب بآيات الله مستحق لعقابه ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر * أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾[٦] ، فكما كان مصير آل فرعون ، فسوف يكون مصير هؤلاء المكذبين على كر العصور والدهور ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾[٧] . ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾[٨] ، ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾[٩] ، ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[١٠] . ﴿ أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾[١١] نعم إن الذنوب تهلك الأمم ، وتلبسها لباس الخوف والجوع ، قف كثيراً عند قوله جل شأنه : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم

---

(١) الآية/٣٧ من سورة سبأ .
(٢) الآيات :/٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .
(٣) الآيات :/٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ من سورة مريم .
(٤) الآية :/٩٨ من سورة الأنبياء .
(٥) رواه مسلم .
(٦) الآيات :/٤١ – ٤٦ من سورة القمر .
(٧) من الآية : / ٦٢ من سورة الأحزاب .
(٨) من الآية :/٤٣ من سورة فاطر .
(٩) من الآية :/٤٣ من سورة فاطر .
(١٠) الآية :/١٣٧ من سورة آل عمران .
(١١) الآية :/٢١ من سورة غافر .
(١٢) الآية :/٦ من سورة الأنعام .

وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[١٢] ، وقال سبحانه : ﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله ؛ إنه قوى شديد العقاب ﴾[١] وشدة عقابه هى العدالة التى لا يشوبها ظلم ، فإنه تعالى يمهل ولا يهمل ، اقرأ قوله جل شأنه : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] وقوله : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٣] وقوله : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٤] .

إن الظلم لا يدوم ! وإذا دام دمر ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق باقية حتى قيام الساعة .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

قال سبحانه فى الحديث القدسى الجليل : (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[٥] .

قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾ جاء فى سبب نزول تلك الآية الكريمة ما روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : إن يهود المدينة لما شاهدوا غلب رسول الله ﷺ للمشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبى الأمى الذى بشرنا به موسى وفى التوراة نعته وهمّوا باتباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى ، فلما كان يوم أحد شكوا ، وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه ، وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكبا إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله ﷺ فنزلت .

وعن سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش،فقالوا له : لا يغرنك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أنا نحن الناس فنزلت[٦] .

فى هذه الآية الكريمة وعيد شديد وتهديد وويل وثبور . جاء هذا التهديد للكافرين ، ومنهم اليهود الذين غرّتهم أموالهم وأولادهم ، فحسبوا أن الماديات مقاييس للنصر ، ونسوا أن فى السماء مملكة ، وأن للكون إلها ، من خصائصه أنه يقول للشيء كن فيكون ، إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

ولقد جاء هذا الإنذار بأنهم سيغلبون فى الدنيا بأيدى الجماعة المؤمنة والفئة الموحدة : إنه إنذار لهم بأنهم سيُغلبون فى الدنيا وسيحشرون فى الآخرة إلى جهنم ، وبئس المهاد جهنم ، ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾[٧] .

---

(١) الآية :/٢٢ من سورة غافر .
(٢) الآية :/١٠٢ من سورة هود .
(٣) الآية :/١١٧ من سورة هود .
(٤) من الآية :/٥٩ من سورة القصص .
(٥) من حديث رواه البخارى ومسلم .
(٦) وتتمة كلام الرسول ﷺ : «فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم» من تفسير القرطبى عن ابن اسحاق ج ٤ ص ٢٤ .
(٧) الآية :/٤١ من سورة الأعراف .

ولما كان القوم لا يؤمنون إلا بالمحسوسات الملموسة فقد أقام لهم القرآن الكريم دليلا ماديا قاطعا على صدق ما قررته تلك الآية من حقائق ، وأثبتته من وعيد بالخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة : قال تعالى : ﴿ قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ﴾ هاتان الفئتان فئة المؤمنين وفئة الكافرين ، التقتا يوم بدر ﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾[(١)] . ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله . والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾[(٢)] .

وموضع العبرة أن المسلمين قبل نزول المعركة كانوا يرون المشركين قلة ! هكذا أراد الله حتى لا يشتد عليهم الموقف فينتابهم شىء من الضعف ، وكان المشركون كذلك قبل المعركة يرون المسلمين قلة ! أراد الله ذلك حتى يطمعوا فى قتالهم ، قال تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا وإلى الله ترجع الأمور ﴾[(٣)] . وبعد وقوع المعركة والتحام الصفوف ، كان المشركون يرون المسلمين مثليهم رأى العين ، أى رؤ ية لا خداع فيها ، وذلك ليقذف الله الرعب فى قلوب أعدائه ، وتم النصر لأولياء الله ، كما أحاطت الهزيمة بأعداء الله .

فليست العبرة بالقوى المادية ؛ إذ النصر الحقيقى لا يملكه إلا من بيده مقاليد السماوات والأرض ، فإليه يرجع الأمر كله : قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾[(٤)] . . صدقت ربنا وقولك دائما صدق : ﴿ فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ .

نعم إنهم أصحاب الأفئدة المستنيرة والقلوب الباصرة ؛ التى تدرك حكمة الله فى الأشياء ، فتسلك ببصرها مدارج الأنوار ، وتقف على حقائق الأسرار ، وتحيا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

متاع الحياة الدنيا

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾

المفردات :

﴿ الشهوات ﴾ : واحدها شهوة ، وهى رغبة النفس فى الحصول ، والمراد بها المشتهيات كما يقال :

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة الحج .
(٢) الآية : ٧٦ من سورة النساء .
(٣) الآية : ٤٤ من سورة الأنفال .
(٤) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الأنفال .

هذا الطعام شهوة فلان أى ما يشتهيه ، ﴿ والأنعام ﴾ واحدها نعم وهى الإبل والبقر والغنم ولا تطلق النعم إلا على الإبل خاصة . و﴿ المسوّمة ﴾ : هى التى ترعى فى الأودية والقيعان و﴿ الحرث ﴾ الزرع والنبات .

هذه الآية الكريمة اشتملت على ستة أمور سماها الله تبارك وتعالى الشهوات ، والشهوات كل ما تشتهيه النفس ، فإن سار فى طريق الله هذا الأمر وسلك سبيل الخير كان حبها خيرا ، أما إذا انحرف المسار عن طريق الجادة فقد هوى صاحبها ، لأن غضب الله قد حل عليه ، قال تعالى : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾(١) فحب النساء إن كان فى حدود ما شرع الله فى الحياة الزوجية فهو نعمة من نعم الله ، قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾(٢) أما إن كان ذلك فى طريق الغواية ، كالمخادنة والمسافحة ، فهو وقوع فى الرذيلة ، وهبوط إلى مستنقع آسن ، وما قيل فى حب النساء يقال فيما بعدها من البنين والمال ، فقد قال ﷺ : (نعم المال الصالح للعبد الصالح) أما إذا أدى المال إلى الشح والبخل والجبروت فبشر صاحبه بعذاب أليم قال تعالى: ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾(٣) . وقال جل شأنه : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ماكنتم تكنزون ﴾(٤) وحب البنين الذى جاء بين حب النساء وحب المال : إن كان لتقواهم وصلاحهم وجهادهم فى سبيل الله وما يقدمونه من نفع للإسلام فذلك خير عظيم ، أما إن كان هذا الحب مجبنة مبخلة ، أى داعيه إلى الجبن والبخل ، فذلك شر مستطير ، وقل فى ذلك ما شئت من وجوه اللهو والبعد عن الله ، بسبب كثرة الأولاد ، قال تعالى على لسان الكافرين : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾(٥) . فإن كانت الأولاد ستغرى الوالد وتطمعه فى الاعتداء على الآخرين ، فقد صار الأمر منذراً بالخطر ، وما قيل فى حب النساء والبنين والمال ، يقال فى الخيل والأنعام والحرث ، ولكن الحقيقة التى يجب أن ينتبه الجميع لها : أن متاع الدنيا قليل ، وكما قال مولانا جل شأنه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(٦) ، وكما قال سبحانه : ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾(٧) ، أى الحياة الكاملة الباقية الخالدة ، أما المرجع الحسن والمآل السعيد والمسكن الطيب فهو عند الله ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٨) .

فهل تبيع الخلد ياغافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال

(١) من الآية : ٨١ من سورة طه .
(٢) من الآية : ٢١ من سورة الروم .
(٣) الآية : ١٨٠ من سورة آل عمران .
(٤) من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة .
(٥) الآية : ٣٥ من سورة سبأ .
(٦) من الآيتين : ٧٧ ، ٧٨ من سورة النساء .
(٧) من الآية : ٦٤ من سورة العنكبوت .
(٨) من الآية : ٩٦ من سورة النحل .

الخير عند الله للمتقين

* قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ
إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ
وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

المفردات : النبأ والأنباء:لم يردا فى القرآن إلا لما له شأن عظيم:**و التقوى** : هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . **و الرضوان** : الرضا **والمطهرة** : الخالية من الشوائب الجسمية والنفسية . **والصبر** : حبس النفس عند كل مكروه يشق عليها احتماله . **و الصدق** يكون فى القول والعمل والوصف . يقال فلان صادق فى قوله وصادق فى عمله وصادق فى حبه و ﴿**القانتين**﴾ : أى المداومين على الطاعة والعبادة و ﴿ **المستغفرين بالأسحار** ﴾ : أى المصلين وقت السحور .

بعدما أخبر الله سبحانه بقوله ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾ ذكر بعد ذلك تفصيلا لحسن المآب ، فخاطب نبيه ومصطفاه ﷺ بقوله ﴿ **قل** ﴾ أى أخبرهم يامحمد بما هو خير مما تقدم من حب الشهوات الذى ذكر مفصلاً ، من النساء والبنين إلى آخره ، إنه الخير الكبير الذى أعده الله للمتقين من النعيم الحسى والمعنوى ، فقد تمثل النعيم الحسى فى جنات تجرى من تحتها الأنهار والأنهار فى الجنة كما بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ﴾[١] ويكمل نعيم الجنة بالخلود فيها،فهذا هو معنى الأمن ، إذ لا فزع ولا قلق ولا طرد ، كذلك يتمثل النعيم المادى فى الأزواج المطهرة ، والطهارة هنا بمعناها الواسع : حسية من الفضلات والإفرازات ومعنوية بطهارة القلوب من الحقد والحسد والبغضاء ، قال سبحانه : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[٢] ثم يأتى بعد ذلك النعيم المعنوىُ عندما يقول الله تعالى لأهل الجنة : أرضيتم فيقولون وكيف لا نرضى ياربنا وقد آتيتنا ما لم تؤت أحداً من خلقك ، فيقول أنا أعطيكم أكثر من هذا ، أحل عليكم رضوانى الذى لا أسخط بعده أبداً ، وهذا مصداق قوله جل شأنه : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[٣] .

رضاك خير من الدنيا وما فيها … ياماك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها … سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى … خير إلىَّ من الدنيا وما فيها

---

(١) من سورة الآية : ١٥ من سور محمد - ﷺ .
(٢) الآية : ١٧ من سورة السجدة .

قوله تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ دليل على أنه سبحانه حكيم يعطى الخير لأهله ، فمن رضى فله الرضا ، قد تنزه سبحانه عن العبث ، وقد منح هؤلاء العباد النعيم فى أكرم صورة ، فهم الذين قالوا : ﴿ ربنا آمنا ﴾ وهم الذين دعوه أن يغفر لهم ذنوبهم ، وأن يقيهم عذاب النار ، إنهم الذين وصفهم سبحانه بالصبر والصدق والطاعة وإنفاق المال فى سبيل الخير والاستغفار وقت السحر .

كان النبى ﷺ يأمر أصحابه بالتوبة والاستغفار فيقول : (أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله واستغفره فى اليوم مائة مرة)[١] .

ومن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وقد ورد فى الحديث ما يبين فضل الاستغفار فى الأسحار ،وثبت فى الصحيحين عن جماعة من الصحابة : أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله تبارك وتعالى فى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : « . . من كل الليل قد أوتر رسول الله ﷺ من أوله وأوسطه وآخره فانتهى وتره إلى السحر » .

وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يصلى من الليل ثم يقول : « يانافع[٢] هل جاء السحر ؟ فإذا قال : نعم ! أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح » ، وعن ابراهيم بن حاطب عن أبيه قال : سمعت رجلاً فى السحر فى ناحية المسجد وهو يقول : يارب أمرتنى فأطعتك وهذا السحر فاغفرلى . فنظرت فإذا هو ابن مسعود رضى الله عنه[٣] . . وعن أنس بن مالك قال : كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر فى آخر السحر سبعين مرة .

الوحدانية الخالصة

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا
جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ
فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ
أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

(١) متفق عليه .
(٢) نافع هو غلام عبد الله بن عمر وأحد أفراد سلسلة الذهب فى أسانيد الحديث المروى عن ابن عمر رضى الله عنهما .
(٣) خبر نافع وابن حاطب رواهما القرطبى فى التفسير ج ٤ ص ٣٩ ، ٤٠ .

المفردات: يقال: ﴿ **شهد** ﴾ الشيء وشاهده إذا حضره كما قال ﴿ وما شهدنا مهلك أهله ﴾[1] وقال: ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾[2]. والشهادة بالشيء الإخبار به عن علم، إما بالمشاهدة الحسية، وإما بالمشاهدة المعنوية وهي الحجة والبرهان، و ﴿ **أولوا العلم** ﴾ هم أهل البرهان القادرون على الإقناع، وهم يوجدون في هذه الأمة وفي جميع الأمم السالفة ﴿ **بالقسط** ﴾ أي بالعدل في الدين والشريعة، وفي الكون والطبيعة و ﴿ **الدين** ﴾ له في اللغة عدة معان: منها الجزاء، والطاعة والخضوع، ومجموعة التكاليف التي بها يدين العباد لله، وما يكلف به العباد يسمى شرعاً باعتبار وضعه وبيانه للناس، ودينا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع، وملة باعتبار أنها كتبت و ﴿ **الإسلام** ﴾ يأتي بمعنى الخضوع والاستسلام، وبمعنى الأداء تقول أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه، وبمعنى الدخول في السلم أي الصلح، والسلامة، وتسمية الدين الحق إسلاما يناسب كل هذه المعاني.

و ﴿ **حاجوك** ﴾: جادلوك و ﴿ **أسلمت** ﴾: أي أخلصت و ﴿ **الأميون** ﴾ مشركو العرب واحدهم أمي نسبوا إلى الأم لجهلهم كأنهم على الفطرة ﴿ **البلاغ** ﴾: أي التبليغ للناس.

روى الامام أحمد باسناده إلى الزبير بن العوام: قال: سمعت النبي ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ (وأنا على ذلك من الشاهدين يارب)[3].

هذه أعظم شهادة في الإسلام وإنما خص الملائكة وأولي العلم تشريفاً لهم وتكريماً، قال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله)[4] وكل المخلوقات من العرش إلى الفرش لو سألتها من خالقك لقالت بلسان الحال والمقال أنا مخلوقة للواحد الديان.

تأمل في الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنيَّة كالخيال
فكل الكائنات غداً ستفنى ويبقى وجه ربك ذي الجلال

وعجبت لمن أنكر الوحدانية، وهذا الكون باتساقه وانسجامه؛ ينطق بلسان اليقين: ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون** ﴾[5].

---

(١) من الآية: ٤٩/ من سورة النمل.

(٢) من الآية: ٨٥/ من سورة البقرة.

(٣) روى الإمام القرطبي عن الكلبي، قال: لما ظهر رسول الله ﷺ بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال احدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي الذي يخرج في آخر الزمان! . فلما دخلا على النبي ﷺ عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: «نعم» قالا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنا بك وصدقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: «سلاني». فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فأنزل الله تعالى نبيه ﷺ: ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط ﴾ فأسلم الرجلان وصدقا برسول الله ﷺ. أهـ ٤ ص ٤١.

(٤) متفق عليه.

(٥) من الآية ٢٢ من سورة الأنبياء.

سبحـانـك اللهم أنت الـواحـد كـل الوجـود عـلى وجـودك شـاهـد
يـاحـى يـاقيـوم أنت المـرتجى وإلى عـلاك عنـا الجبين السـاجـد

قال غالب القطان : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش ؛ فلما كانت ليلة أردت أن أنحدر إلى البصرة ، فقام فتهجد من الليل فقرأ بهذه الآية: ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم * إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ثم قال الأعمش: وأنا أشهد بما شهد الله به وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله وديعه ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ قالها مراراً قلت : لقد سمع فيها شيئاً ، فغدوت إليه فودعته ثم قلت يا أبا محمد إنى سمعتك تردد هذه الآية قال : أو ما بلغك ما فيها قلت : أنا عندك منذ شهر لم تحدثنى قال : والله لا أحدثك بها إلى سنة فأقمت سنة وكتب على بابه ذلك اليوم فلما مضت السنة قلت يا أبا محمد قد مضت السنة،قال : حدثنى أبو وائل عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عز وجل عبدى عهد إلىّ وأنا أحق من وفى بالعهد ادخلوا عبدى الجنة)[١] .

وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التى بين الله فيها صفات المتقين من الصبر والصدق والقنوت والإنفاق والاستغفار بالأسحار ، لأن هؤلاء الذين اتصفوا بتلك السجـايا الحميـدة من أوائل المـوحدين الشاهدين لله بأنه الواحد فى ذاته ، فلا قسيم له ، الواحد فى صفاتـه فلا شبيـه له ، الـواحد فى أفعـاله فلا شريك له ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر ، تنزه عن الشريك ذاته ، فهو الذى له الأمر كله ، و﴿ له الحكم وإليه ترجعون ﴾[٢] تقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلاغاية وموصوف بلا نهاية ، لا ينقصه نائل ولا يشغله سائل ، هو الأول فـلا شىء قبله ، الآخر فلا شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾[٣] : ﴿ له ملك السماوات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ﴾[٤] ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **قائماً بالقسط** ﴾ حال لازمة وصفة ثابتة لله جل شأنه فهو المهيمن على هـذا الكون بالعدل فكل فعله مبنى على الحكمة ، والقسط فى حق الله هو العدل المطلق ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[٦] ثم قال سبحانه : ﴿ **لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ أى أن كلمة التوحيد هى العدل نفسه وأن الشرك هو الظلم عينه ، قال لقمان

---

(١) رواه القرطبى فى تفسيره ج ٤ ص ٤٢ وقال : غالب القطان وثقة احمد بن حنبل ابن معين وأبو حاتم ،ثم قال : حسبك أن خرج له البخارى ومسلم فى كتابيهما : روى من حديث أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « من قرأ ﴿ شهد ار أنه لا إله هو وملائكة وألوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ عند منامه خلق ار له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة » وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما أو صنمان ، فلما نزلت هذه الآية أصبحت هذه الأصنام قد خرت ساجدة . . اهـ .

(٢) من الآيتين ٧٠ ، ٨٨ من سورة القصص .

(٣) من الآية : ٣ من سورة الحديد .

(٤) الآية ٢ : من سورة الحديد .

(٥) الآية : ٦ من سورة الحديد .

(٦) الآية : ٩٠ من سورة النحل .

لابنه : ﴿ يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾(١)وقال تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾(٢) . ﴿ العزيز ﴾ : هو القاهر الغالب ، الذى لا يقهر ولا يغلب ، الحكيم : أى المنزه عن العبث ، المبرأ من الظلم ، الحكم العدل المقسط .

قوله تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ كل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد ، هو الإسلام ، قال تعالى حكاية عن نوح يقول لقومه : ﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾(٣) وقال حكاية عن إبراهيم ويعقوب : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ۞ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾(٤) وقال سبحانه : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾(٥) وقال حكاية عن يوسف : ﴿ توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾(٦) ، وقال حكاية عن موسى وقومه : ﴿ وياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾(٧) وقال حكاية عن سليمان وملكة سبأ: ﴿ أن لا تعلوا علىّ وأتونى مسلمين ﴾(٨) ، وقالت ملكة سبأ : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾(٩) وقال مخاطباً عيسى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾(١٠) وقال عن النبيين : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا)(١١) وبشر أمة محمد ﷺ بأربع بشريات فى حجة الوداع : أولاها ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾(١٢) وثانيتها : (اليوم أكملت لكم دينكم ﴾(١٣) وثالثتها : (وأتممت عليكم نعمتى ﴾ ورابعها:﴿ ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ وإذا كان الله قد أكمل دينه فدين الله ليس فى حاجة إلى زيادة أبداً ، وإذا كان قد أتم نعمته فنعمة الله لا تنقص أبدا ، وإذا كان قد رضى لنا الاسلام دينا ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾ وقد حسم القرآن الموقف حسماً لا يقبل جدلاً حيث قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(١٤) اللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك ، وأن محمدا عبدك ونبيك ورسولك،رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، لا إله إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علماً ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات

(١) من الآية : ١٣ من سورة لقمان .
(٢) من الآية : ٢٥٤ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٧٣ من سورة يونس .
(٤) الآيتان : ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية : ١٣٦ من سورة البقرة .
(٦) من الآية : ١٠١ من سورة يوسف .
(٧) من الآية : ٨٤ من سورة يونس .
(٨) الآية : ٣١ من سورة النمل .
(٩) من الآية : ٤٤ من سورة النمل .
(١٠)الآية : ١١١ من سورة المائدة .
(١١)من الآية : ٤٤ من سورة المائدة .
(١٢)من سورةالآية : ٣ من سورة المائدة .
(١٣)من الآية : ١٤ من سورة الجن .
(١٤)من الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .

والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق والنبيون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت ولك حاكمت ، فاغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ؛ لا إله إلا أنت »(١) « نامت العيون وأنت الحى القيوم لا تأخذك سنة ولا نوم أغلقت الملوك أبوابها وبابك لا يغلق أستحى أن أسألك وأنا أنا ، ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت ، إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية »(١) .

يـامن يجيب العبد قبـل سؤالـه ويجـود لـلعـاصـين بـالغـفـران
وإذا أتـاه الـطالـبـون لـعـفـوه سـتر القبيح وجاد بـالإحسـان

ما بالكم ياقوم فى غفلة عن الله ، والله يقول فى كتابه : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم ﴾(٢) ويقول : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لونشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون)(٣) . ألم تقرأوا قوله تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾(٤) . لما كانت الساعة متحققة الوقوع عبر عن وقوعها بالفعل الماضى (أتى ﴾ كأنها قد وقعت وعبر عنها بالاقتراب فقال : (اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾(٥) .

ياأخا الاسلام :

تـزود من التقوى فـإنـك لا تـدرى إذا جن ليـل هل تعيش إلى الفجـر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقـد نسجت أكفانـه وهو لا يـدرى
وكم من عـروس زينوهـا لـزوجهـا وقـد قبضت أرواحهم ليلة القـدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم ظلمـة القبر
وكم من صحيح مات من غـير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

قوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾ هذا إخبار من الله جل جلاله عن الدافع النفسى الذى دفع أهل الكتاب إلى الاختلاف على أنبيائهم والخروج على شرائعهم وشعائرهم ، فقد تقرر أن الدين عند الله الإسلام ، فما السر فى اختلاف هؤلاء ؟ ! إن السر هو البغى والحسد الذى وقع بين رؤ سائهم وملوكهم وأحبارهم ورهبانهم ، فقد بغى بعضهم على بعض ، طلباً للرئاسة ، ولما هاجت عقارب البغضاء فى صدورهم ، وتحركت ثعابين الحقد فى نفوسهم ؛ تفرقوا شيعـاً وأحزاباً ، واختلفوا فى طبيعة المسيح : أهو الله أم هو ابن الله ؟ هل الإله شركة مساهمة : الأب والابن والروح القدس ؟ ! وانقسموا إلى يعقوبيين وملكانيين وشمعونيين ومارونيين : قال تعـالى : ﴿ إن الذين

(١) من أدعية الرسول ﷺ إذا قام الليل ذكرها النووى فى الأذكار والكاندهلوى فى حياة الصحابة .
(٢) الآيات الأولى من سورة الأنبياء .
(٣) الآيات من : ٩٧/ - ١٠٠ من سورة الأعراف .
(٤) الآية الأولى من سورة النحل .
(٥) الآية الأولى من سورة القمر .

فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبؤهم بما كانوا يفعلون ﴾[١] ثم وجه حبيبه ومصطفاه إلى أن يعلنها فى سمع الزمان صريحة مدوية : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[٢] ﴿ قل أغير الله أبغى ربا وهورب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[٣] . لقد بلغ من اختلافهم المبنى على الحسد والحقد أنهم كانوا يبشرون ببعثة النبى محمد ﷺ ؛ فلما جاء عربياً قرشياً ، قالوا كنا نطمع أن يكون منا من بنى إسرائيل ، فناصبوه العداء وتآمروا مع المشركين على حربه : قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين * بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين * وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب ﴾ هذا حكم من الله على الذين جحدوا آياته وأنكروا آلاءه وكفروا بالبراهين الساطعة والحجج القاطعة التى قامت فى الآفاق والأنفس ، وسواء أكانت الآيات هنا آيات تكوينية أم تشريعية[٥] ، فإنها دالة على وحدانية الله وقدرته ، فمن كفر بها فسوف يحاسب حساباً عسيراً ، وسوف يدعو ثبورا[٦] ويصلى سعيراً ، فإن الله سريع الحساب ، وإن الله حكم حكماً عادلاً إذ يقول:(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)[٧] .

هؤلاء الذين اختلفوا على شرائع أنبيائهم من أهل الكتاب ، وفرقوا دينهم وكانوا شيعاً ؛ إن جاءوك يجادلونك فماذا أنت قائل لهم ؟ لقن الله تعالى نبيه ماذا يقول لهم:﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن ﴾ أى إن جادلوك فلا تجادلهم فإن جدالهم مبنى على العناد والكبر ، ولكن قل لهم : ﴿ أسلمت وجهى لله ﴾ أى أخلصت إسلامى وانقيادى لله وحده ، ثم ماذا ؟ قال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ﴾ أى وجه هذا الأمر الذى جاء فى صيغة الاستفهام ﴿ أأسلمتم ﴾ أى قل لهؤلاء الذين اختلفوا على الأنبياء بغياً وحسداً ، وقل للأميين من مشركى العرب : قل لهم أسلموا ﴿ فإن أسلموا فقد اهتدوا ﴾ إلى صراط الله المستقيم ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٨] . ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع

(١) الآية : ١٥٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات : ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٣) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآيات : ٨٩ - ٩١ من سورة البقرة .
(٥) الآيات التكوينية ما كان من عجيب صنع الله فى خلق السموات والأرض وما فيهن . . والآيات التشريعية ما كان مما شرع الله لعباده من عبادات ومعاملات وحدود لتنظيم معاشهم والاستعداد لمعادهم .
(٦) الثبور:الويل والهلاك بعد الندم على ما تقدم من حابط العمل .
(٧) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٨) من الآيتين : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

بيننا وإليه المصير * والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب لهم حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾[١] . ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾[٢] . ﴿ فلاتذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[٣] .

إن الله تعالى يريد بهذه الآيات أن يرفع المشقة عن نبيه ﷺ ويدفع الأسى الذى كان يعانيه من شدة حرصه على إيمان هؤلاء فيقول:﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾[٤] ويقول : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين * وأقسموا بالله جهد إيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون * ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٥] .

ويقول تعالى لحبيبه ومصطفاه : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين * إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾[٦]

قوله تعالى : ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أى مطلع على خفايا النفوس عليم بذات الصدور .

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها ... فى قاع بحر زاخر متجندل

﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾[٧]

الله يدرى كل ما تضمر ... يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

جزاء عادل

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ

(١) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة الشورى .
(٢) الآية : ٩٩ من سورة المائدة .
(٣) من الآية : ٨ من سورة فاطر .
(٤) من الآية : ٢٧٢ من سورة البقرة .
(٥) الآيات : ٣٦ - ٤٠ من سورة النحل .
(٦) الآيات : ٣٣ - ٣٦ من سورة الأنعام .
(٧) الآية : ٧ من سورة طه .

بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾

المفردات : المرادب ﴿ الذين يكفرون ﴾ هم اليهود خاصة وقوله ﴿ بغير حق ﴾ أى بغير شبهة لديهم و(**حبط العمل**) : **بطل** . و(**البشارة والبشرى**) : **الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه ، واستعمالها فى الشر جاء على طريق التهكم والسخرية** .

ما جزاء هؤلاء القوم الذين قتلوا أنبياء الله ، وقتلوا الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر من المصلحين ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله ﴾(١) . . قتلوهم كبراً وبطراً بغير حق ، ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

لقد وردت عن الصادق المعصوم ﷺ أحاديث حول قتلهم الأنبياء واستهتارهم ، هذه الأحاديث تنفطر القلوب لهولها ، وتنخلع الأفئدة أسى ولوعة ، وتسيل الكبد لها مرارة :

عن عبيدة بن الجراح رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال (رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر). ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ **إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ يا أبا عبيدة : قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من بنى اسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل) . رواه ابن جرير . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قتلت بنو إسرائيل ثلاثمائة نبى من أول النهار وأقاموا سوق بقلهم من آخره » لقد حكم الله على هؤلاء بأحكام قال فيها : ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾(٣) .

جنايات يندى لها جبين البشرية حياءً وخجلاً : كفر بآيات الله وقتل لأشرف الخلق ؛ لأنبياء الله والآمرين بالمعروف ؛ وعصيان لأوامر الله ، واعتداءً على محارم الله وإساءة أدب مع الله تعالى . . . ألم يقولوا : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾(٤) .ألم يقولوا ؟ : ﴿ يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾(٥) . ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما

---

(١) من الآية : ٣٩ من سورة الأحزاب .
(٢) من الآية : ٦١ من سورة البقرة .
(٣)الآية : ١١٢ من سورة آل عمران .
(٤) من الآية : ١٨١ من سورة آل عمران
(٥) من الآية : ٦٤ من سورة المائدة .

قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾(١) .

واسمع معى إلى تلك الصحيفة المليئة بالجنايات التى اقترفوها ، قال تعالى : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا * ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً * فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيماً * وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيماً * وإن من أهل الكتاب ألا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً * فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴾(٢) .

فكانوا جديرين بأن يبشرهم الله بعذاب أليم ويحبط أعمالهم فى الدنيا والآخرة (وما لهم من ناصرين) ينصرونهم من دون الله .

الإعراض عن حكم الله

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات: ﴿ **ألم تر** ﴾: استفهام لتعجب النبى ﷺ من حالهم . و﴿ **الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** ﴾ هم اليهود و(النصيب) : الحظ و﴿ **الكتاب** ﴾ : التوراة ﴿ **ليحكم بينهم** ﴾ : أى ليفصل بين اليهود والداعى لهم وهو النبى ﷺ و(التولى) : الإعراض بالبدن. و (الإعراض) يكون بالقلب و(الافتراء) الكذب و(اليوم) : هو يوم الحساب والجزاء . ﴿ **ما كسبت** ﴾ : أى ما عملت من خير أو شر .

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : « دخل رسول الله ﷺ بين المدراس (مدرسة اليهود لدراسة التوراة) على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت

(١) الآيتان : ١٨١/ ، ١٨٢ من سورة آل عمران

(٢) الآيات : ١٥٣/ – ١٦١ من سورة النساء .

يا محمد ؟ قال : (على ملة إبراهيم ودينه) قالا : فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله ﷺ : (فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم) فأنزل الله الآية .

وهذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى فيها مدى ما عليه اليهود من إعراض عن الحق ونكوص عن الدعوة إلى الله ، هؤلاء الذين أوتوا جزءا من التوراة ؛ إذا جاءوا إلى رسول الله ﷺ ليحكموه فيما شجر بينهم ، كانوا إذا لم يكن الحكم على هواهم تولوا ، وانصرفوا بالأبدان وأعرضوا بالقلوب ، وقد حذر الله تعالى نبيه ﷺ من أفعالهم فقال : ﴿ ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم * سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾(١) .

هؤلاء القوم كانت لهم جرأة على الحق ، وكانوا مصابين بالصلف والكبرياء بعدما امتلأت نفوسهم وقلوبهم خداعاً وغروراً ، أعرضوا عن حكم الله وعن الرضا بما حكم ، وأعرضوا عن قبول الحق لأنهم قالوا : ﴿ لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾(٢) وهى الأيام التى عبدوا فيها العجل والتى قال الله فيها : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون ﴾ أى إن هؤلاء القوم بلغ من ضلالهم : أن الأمر الذى كانوا يفترونه فى دينهم من قولهم : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾(٤) ومن زعمهم أن لهم بالأنبياء صلة قرابة ونسب . كل ذلك غرهم وهذا محض افتراء ، فإن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ؛ ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لكل عاص ؛ ولو كان شريفا قرشياً . قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾(٥) فهؤلاء القوم الذين غرهم افتراؤهم فى دينهم : ﴿ وقالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾(٦) إنهم بافترائهم فى الدين يكونون قد ضربوا أسوأ الأمثال فى الانحطاط الخلقى ويكونون قد تبوءوا مستنقعاً عفناً من الرذائل ، ولذا قال تعالى بعد ذلك بأسلوب التعجب ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ﴾ إنه يوم القيامة يوم لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا . قال تعالى : ﴿ ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى ﴾(٧) .

إن الله تعالى خاطب هؤلاء القوم الذين اغتروا بافترائهم فى دين الله ، وزعموا أنهم شعب الله المختار ، فقال لهم مولانا : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين * واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾(٨) .

(١) من الآيتين : ٤١ ، ٤٢ من سورة المائدة .
(٢) من الآية : ١٠ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٨٠ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ١٨ من سورة المائدة .
(٥) الآيات : ١٠١ - ١٠٣ من سورة المؤمنون .
(٦) من الآية : ٧٥ من سورة آل عمران .
(٧) الآيات : ١٠ - ١٥ من سورة المعارج .
(٨) الآيتان : ٤٧ ، ٤٨ من سورة البقرة .

نعم ﴿فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[١] قال الرسول ﷺ لأقرب الناس إليه . . إلى ريحانته فاطمة : (يا فاطمة بنت محمد : اعملى لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا عباس يا عماه : اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة محمد : اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا)[٢] .

ليس هناك فى دين الله ما يسمى بشعب الله المختار ، فالناس جميعاً عبيد الله وهو ربهم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ، وليس هناك ما يقال نحن أبناء الله وأحباؤه ، بل ميزان العدالة عند الله : (إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٣] وليس فى منطق العدالة الإلهية ما يقال : إن لنا نسباً بالأنبياء ، بل إن هناك المنطق القرآنى العادل : ﴿ أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وإن إلى ربك المنتهى ﴾[٤] .

إن الولد يوم القيامة يلقى والده ويقول له يا أبت لقد كنت بك براً وإليك محسناً وعليك مشفقاً فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول والده : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك إننى أشكو مما منه تشكو !! صدقت يا ربنا ﴿ ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٥] . ﴿ لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[٦] . (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٧] وتلقى الأم ولدها يوم القيامة فتقول يا بنى : لقد كان بطنى لك وعاء وثديى لك سقاء وحجرى لك غطاء ؛ فهل أجد عندك حسنة يعود علىّ خيرها اليوم ؟ . فيقول : يا أماه ليتنى أستطيع ذلك إننى أشكو مما منه تشكين . . هذا هو منطق العدالة الإلهية : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[٨] .

الله مالك الملك

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ الملك ﴾ :السلطة والتصرف فى الأمر ﴿ بيدك الخير ﴾ الخير كله تتصرف فيه أنت وحدك (الولوج) : الدخول (الإيلاج) : الإدخال .

(١) الآيات : ٣٤ - ٣٧ من سورة عبس .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) من الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(٤) الآيات : ٣٦ - ٤٢ من سورة النجم .
(٥) من الآية : ٢٥ من سورة آل عمران .
(٦) من الآية : ١٧ من سورة غافر .
(٧) من الآية : ٤٧ من سورة الانبياء .
(٨) من الآية : ١٨ من سورة فاطر .

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك : أنه لما افتتح رسول الله ﷺ مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، هم أعز وأمنع من ذلك ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل الله الآية(١) .

وهاتان الآيتان ناطقتان بالجلال والعظمة لمالك الملك ، فبعدما أخبرنا سبحانه بأنه سيجمع الناس ليوم لا ريب فيه ، أخبر هنا بأنه الملك المتصرف بمشيئته وحكمه فهـو يؤ تى الملك من يشاء ، كما آتاه لـداود وسليمان ، وينزع الملك ممن يشاء ، كما نزعه من القياصرة والجبابرة والأباطرة ، وغيرهم من عاد وثمود وفرعون والنمروذ ﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(٢) ويقول الله تعالى عن ملك مصر فرعون ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾(٣) قال تعالى بعد ذلك فى سورة الدخان ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾(٤) فاللهم إنا نعوذ بك من السلب بعد العطاء ، ومن الفقر بعد الغنى ، ومن الضلالة بعد الهداية ، نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، وفعل الخيرات وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غـير مفتونين .

وكما أن مولانا جلت قدرته ، مالك الملك وملك الملوك ، يؤ تى الملك وينزعه ، فهو الذى يعز من يشاء بالطاعة ، ويذل من يشاء بالمعصية .

إذا المرء لم يلبس ثيابـاً من التقى — تقلب عريـانا ولـو كـان كـاسيـاً
وخـير لبـاس المـرء طاعـة ربـه — ولا خـير فى من كان لله عـاصيـا

لقد أعز الله الحبيب محمدا بالرسالة،وأذل عبد الله بن أبى بن سلول بالنفاق ولما قال ابن أبى : لئن رجعت إلى المدينة لأخرجن محمداً منها ذليلاً وأنا العزيز !! قال الله تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾(٥) .

فليعلم جبابرة الأرض أن دوام الحال من المحال ، وأن العدل أساس الملك ، وأن دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وأن الحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، وأن الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمرَّ ، وأن الدنيا إذا حلت أوْحَلت ، وإذا جلت أوْجَلت ، وإذا كست أوْكست ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت

---

(١) ورواه القرطبى عنهماج - ٤ ص ٥ ، وإن ذكر روايات أخرى كأسباب للنزول ، منها دمغ باطل نصارى نجران إذ قالوا : إن عيسى هو الله وروى عن معاذ بن جبل تعليم النبى ﷺ قراءة هاتين الآيتين عند الدين فإن سبحانه كفيل بالتوسعة لسداد الدين وقضائه وخرج أبو نعيم كما روى مثله عطاء الخراسانى عن معاذ .

(٢) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٣) الآية : ٤٠ من سورة القصص .

(٤) الآيات : من ٢٥ - ٢٨ من سورة الدخان ، أما : ﴿ فاخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ﴾ فهى الآيات : ٥٧ - ٥٩ من سورة الشعراء .

(٥) من الآية : ٨ من سورة المنافقون .

جفت ، وكم من قبور تبنى وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علا . . مات[١] .

ولى فى فنـاء الخلق أكبـر عبـرة   لمن كـان فى بحـر الحقيقـة راق
شخـوصٌ وأشكـالٌ تُمـر وتنقضى   فتفـنى جميعـاً والمهيمـن بـاق

قوله تعالى : ﴿ بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ أى أنت المتصرف ، فالخير كله بيدك ، لا يملكه غيرك ، وأنت الذى يحار الفهم فى قدرتك لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، ومن مظاهر تلك القدرة الباهرة : أنك ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل ﴾ ، من غيرك يستطيع ذلك ؟ أنت الذى تدخل جزءاً من الليل فى النهار فيقصر الليل ويطول النهار ، وتدخل جزءاً من النهار فى الليل فيطول الليل ويقصر النهار[٢] كرة معلقة فى فضاء رهيب ، تدور حول نفسها فيكون الليل والنهار ، وتدور حول الشمس مرة كل عام فتكون الفصول الأربعة ، من غيرك يستطيع هذا يا من تحديت الجبابرة والطواغيت ، وقلت : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته أن جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٣] .

سل الواحـة الخضراء والماء جاريـا   وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى   سل الليل والإصباح والطير شـاديا
فلو جن هـذا الليل وامتـد سـرمـداً   فمن غـير ربى يرجـع الصبح ثـانيـاً
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت   أفى كونكم من يمسك الـريح نـاهياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم   سـوى الله يجريـه كـما شـاء راويـا

ومن مظاهر القدرة الباهـرة أنه سبحـانه : يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، وهـذا الإخراج . قد يكون فى المعنويات مثل إخراج المؤمن من صلب الكافر ، وإخراج الكافر من صلب المؤمن ، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى خالد بن الوليد وعكرمة ابن أبى جهل يقول : « سبحان الله يخرج الحى من الميت » وقد يكون ذلك الإخراج فى المحسوسات ، كإخراج الخلايا الحية من الغذاء الميت وإخراج الإفرازات الميتة من الأجسام الحية .

ومن مظاهر مشيئتك الحكيمة أنك يا مولانا ترزق من تشاء بغير حساب ، أى بدون تعب ومشقة كما رزق الأمة الإسلامية بالبترول يجرى فى عروق الأرض .

---

(١) يعرض الشيخ هنا عجائب الدنيا التى لا يدوم حال منها لصاحبه فإن الدنيا إذا حلت فى عين صاحبها آذنت بالوحل كناية عن الخوض فى أوحال المعاصى ، وإذا جَلَتَ من الجلوة وهو الشهرة آذنت بالوجل وهو الخوف ومداهمة الاحداث ، وإذا كست صاحبها مظهرا براقا أوكسته بالخيبة والخسران بعد حين ، وإذا أينعت أى ازدهر حالها ، آذنت بالنعى وهو انقضاء النعمة والازدهار .
والقبور تبنى ولا يتوب الناس وكم من مريض عدنا فلم بالموعظة وخوف المرض والموت ، واعلامهم فإن العلالهم نذير بالموت .
(٢) كما يفهم من الآية الحقيقة الكونية التى تتمثل فى قدوم الليل على النهار وقدوم النهار على الليل فلا ينسلخ أحدهما فجأة ولا يدخل فجأة وهو المعنى اللغوى للايلاج وهو رأى ابن مسعود ، وما ذكر الشيخ هو رأى ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدى .
(٣) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .

هذا وقد ورد لفظ الحساب فى القرآن على ثلاثة أوجه :

١ - بمعنى التعب كما فى هذه الآية .
٢ - بمعنى العدد كما فى قوله تعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[1].
٣ - بمعنى المطالبة كما فى قوله : ﴿ فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾[2].

ولاية الكافرين

لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى
شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟
مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

المفردات : (الأولياء) واحدهم ولىّ وهو النصير . ﴿ **تقاة** ﴾ أى اتقاء وخوفا ﴿ **ويحذركم** ﴾ : أى يخوفكم و ﴿ **أمدا** ﴾ : المدة لها حد محدود . ﴿ **محضراً** ﴾ : أى حاضراً لديها .

روى أرباب السير أن بعض الذين كانوا يدخلون فى الإسلام يغترون بعزة الكافرين وقوتهم فيوالونهم ويركنون إليهم وليس هذا بالمستغرب بل هو أمر طبيعى فى البشر .

وروى عن ابن عباس أنه قال : كان الحجاج بن عمرو وابن أبى الحقيق وقيس بن زيد من اليهود ؛ يلازمون نفرا من الأنصار يفتنونهم عن دينهم ؛ فقال رفاعة بن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء اليهود . فأبى أولئك النفر إلا ملازمتهم . فأنزل الله الآية . وهذا نهى من الله تعالى موجه إلى الجماعة المؤمنة ، وهو إرشاد وتوجيه فى نفس الوقت للجماعة المؤمنة أن تتخذ المؤمنين أولياء ونصراء ، وألا تتخذالكافرين أصفياء ونصراء من دون المؤمنين ، فمن اتخذهم أوليـاء وأصفياء من دون المؤمنين ، فليس عمله هذا من طاعة الله فى شىء ، إنما هو بعيد كل البعد إلا أن يكون ذلك تقية لدفع ضرر أو جلب منفعة للأمة .

قال الشيخ المراغى رحمه الله فى تفسيره لهذه الآية : « أى لايصْطفِ المؤمنون الكافرين فيكاشفوهم

---
(١) من الآية : ١٠ من سورة الزمر .
(٢) من الآية : ٣٩ من سورة ص .

بالأسرار الخاصة بالشئون الدينية ، ويقدموا مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، إذ فى هذا تفضيل لهم عليهم ، وإعانة للكفر على الإيمان » . وخلاصة هذا نهى المؤمنين عن موالاة الكافرين لقرابة أو صداقة جاهلية ، أو جوار أو نحو ذلك من أسباب المصادقة والمعاشرة ؛ بل ينبغى أن يراعوا ما هم عليه مما يقتضيه الإسلام من الحب والبغض لمصلحة الدين فحسب ، ومن ثم تكون موالاة المؤمنين أجدى لهم فى دينهم من موالاة الكافرين . فإن كانت الموالاة والمحالفة لمصلحة المسلمين فلا مانع منها ، فقد حالف النبى ﷺ خزاعة وهم على شركهم ، كما لا مانع من ثقة المسلم بغيره وحسن معاملته فى أمور الدنيا ، ﴿ ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء ﴾ أى ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيما يضر مصلحة الدين ، فليس من ولاية الله فى شىء أى فليس بمطيع له ولا ناصر لدينه ، وصلة الإيمان بينه وبين ربه تكون منقطعة ، ويكون من الكافرين كما جاء فى الآية الأخرى . ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾[1] ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاه ﴾ أى إن ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم فى كل حال ؛ إلا فى حال الخوف من شىء تتقونه منهم ، فلكم حينئذ أن تتقوهم بقدر ما يتقى ذلك الشىء ، إذ القاعدة الشرعية « أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » وإن جازت موالاتهم لاتقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين ، وإذا فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة ، لفائدة تعود إلى الأولى إما بدفع ضرر أو جلب منفعة ، وليس لها أن تواليها فى شىء يضر المسلمين ، ولا تختص هذه الموالاة بحال الضعف بل هى جائزة فى كل وقت .

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التقية ؛ بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق ، لأجل توقى ضرر من الأعداء يعود إلى النفس أو العرض أو المال ، فمن نطق بكلمة الكفر مكرَها وقاية لنفسه من الهلاك ، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكون كافرا ، بل يعذر كما فعل عمار بن ياسر ، حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرها ، وقلبه ملىء بالإيمان وفيه نزلت الآية : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾[1] وكما عذر الصحابى الذى قال له مسيلمة : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فتركه وقتل رفيقه الذى سأله هذا السؤال فقال إنى أصم « ثلاثاً » فقدمه وقتله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : (أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه) ، وهى من الرخص لأجل الضرورات العارضة لا من أصول الدين المتبعة دائما ، ومن ثم وجب على المسلم الهجرة من المكان الذى يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلى التقية ، ومن كمال الإيمان ألا يخاف فى الله لومة لائم كما قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[2].وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾[3].

---

(١) الآية : ١٠٦ من سورة النحل .
(٢) من الآية : ١٧٥ من سورة آل عمران .
(٣) من الآية ٤٤ من سورة المائدة .

وكان النبى ﷺ وأصحابه يتحملون الأذى فى سبيل دعوة الدين ويصبرون عليه .

ويدخل فى التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة ، ولين الكلام لهم والتبسم فى وجوههم ، وبذل المال لهم لكف أذاهم وصيانة العرض منهم ، ولا يعد هذا من الموالاة المنهى عنها ، بل هو مشروع ؛ فقد أخرج الطبرانى قوله ﷺ : (ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة) ، وعن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده . . فقال رسول الله ﷺ : (بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة) ثم أذن له فألان له القول ، فلما خرج ، قلت يا رسول الله قلت ما قلت ، ثم ألنت له القول ! ؟ فقال ياعائشة : « إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه) رواه البخارى ، وروى قوله ﷺ (إنا لنكْشِر (نبتسم) فى وجوه قوم ، وإن قلوبنا لتقليهم) (تبغضهم) . ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى عقاب نفسه ، وفائدة ذكر ﴿ نفسه ﴾ الإيماء إلى أن الوعيد صادر منه تعالى ، وهو قادر على إنفاذه ولا يعجزه شىء عنه . وفى ذلك تهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالاة أعدائه ؛ لأن شدة العقاب بحسب قوة المعاقب وقدرته .

﴿ وإلى الله المصير ﴾ أى وإلى الله مرجع الخلق وجزاؤهم فيجزى كلا بما عمل : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى إنه سبحانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم إذ توالون الكافرين أو توادونهم أو تتقون منهم ما تتقون ، فإن كان ذلك يميل بكم إلى الكفر جازاكم عليه ، وإن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم ، ولم يؤاخذكم على عمل لا جريمة فيه على الدين ولا على أهله ، وهو إنما يجازيكم بحسب علمه المحيط بما فى السموات والأرض ، لأنه الخالق لهما . كما قال : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾[1] . ﴿ والله على كل شىء قدير ﴾ ، فهو يقدر على عقوبتكم فلا تجسروا على عصيانه وموالاة أعدائه ، إذ ما من معصية خفية كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها قادر على عقاب فاعلها . ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ﴾ أى احذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير حاضرا لديها ، فيكون ذلك غبطة وسروراً لها ، وتنعم بما أحسنت ، وتبتئس المسيئة وتغتم بما أساءت ، وتود أن ما عملت من السوء كان بعيدا عنها لم تره حتى لا تؤاخذ بجريرته ، ومعنى كونه محضرا أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لها .

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أى احذروا من سخط الله ، بترجيح جانب الخير وعمله على ما يزينه لكم الشيطان من عمل السوء ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)[2] .

﴿ والله رءوف بالعباد ﴾ . قال الحسن البصرى : ومن رأفته أن حذرهم نفسه وعرفهم كمال علمه وقدرته ، لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه ، ومن رأفته أيضا أن جعل الفطرة الإنسانية ميالة بطبعها إلى الخير ، مبغضة لما يعرض لها من الشر ، وأن جعل أثر الشر فى النفس قابلا للمحو بالتوبة و العمل الصالح .

---

(١) من الآية : ١٤ من سورة الملك .

(٢) جزء من الآية : ٣١ من سورة النور .

محبة الله فى اتباع رسوله

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

المفردات : (المحبة) : ميل النفس إلى الشىء لكمال أدركته فيه ، فيدعوها ذلك إلى التقرب إليه ﴿ **يغفر لكم** ﴾ . أى يتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة ﴿ **فإن تولوا** ﴾ : أى فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك .

روى أن هذه الآية نزلت حين دعا رسول الله ﷺ : كعب بن الأشرف ومن تابعه من اليهود إلى الإيمان فقالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[1] فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إنى رسول الله إليكم أدعوكم إليه ، فإن كنتم تحبونه فاتبعونى وامتثلوا أمرى يحببكم الله ويرضى عنكم .

ولما نزلت هذه الآية : ﴿قل إن كنتم تحبون الله . . . ﴾ قال عبد الله بن أبى ابن سلول : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ويأمرنا أن نحبه كما أحب النصارى عيسى فنزل قوله : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ أى قل لهم : أطيعوا الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وأطيعوا رسوله باتباع سنته والاهتداء بهديه .

وفى هذا إرشاد إلى أن الله إنما أوجب عليكم متابعته لأنه رسوله ، لا كما يقول النصارى فى عيسى .

وقد أخبر النبى ﷺ أنه : ﴿لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[2] وقد قرن الله تعالى طاعته بطاعة رسوله ، فقال : ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾[3] وقال فى آيات أخرى :﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا * خالدين فيها أبداً لا يجدون وليا ولا نصيرا * يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾[4] وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[5] وهنا لفتة طيبة فى قوله تعالى : ﴿ إذا دعاكم ﴾ ولم يقل إذا دَعَوَاكم أى الله ورسوله بغير المثنى ، لأن دعوة الرسول هى من دعوة الله تعالى ، وقال تعالى : (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾[6] ولم يقل أحق أن يرضوهما ، لأن إرضاء الرسول من إرضاء الله ، وقال جل جلاله : ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[7] . فمن تولى عن هذا وأعرض ، وأصرَّ على الباطل ، واستكبر عن الحق وأعرض عن ذكر ربه ﴿ **فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ الجاحدين للإيمان بالله والطاعة لرسوله .

---

(١) من آية ١٨ من سورة المائدة .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) من الآية : ٨٠ من سورة النساء .
(٤) الآيات : ٦٤ - ٦٦ من سورة الأحزاب .
(٥) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .
(٦) من الآية : ٦٢ من سورة التوبة .
(٧) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة الفتح .

إصطفاء الله

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

المفردات : (الاصطفاء) أخذ ما صفا من الشىء كالاستصفاء و(الذرية) فى أصل اللغة الصغار من الأولاد ، ثم استعملت عرفا فى الصغار والكبار للواحد ولأكثر من الواحد ، و (النذر) : ما يوجبه الإنسان على نفسه و(المحرر) : المخصص للعبادة والخدمة لا يشتغل بشىء آخر ، و(التقبل) : أخذ الشىء على وجه الرضا والقبول : ﴿ **أعيذها بك** ﴾: أى أمنعها وأجيرها بحفظك ، وأصل العوذ الالتجاء إلى الغير والتعلق به ، يقال : عاذ بفلان : إذا استجار به و ﴿ **الرجيم** ﴾: أى المرجوم المطرود من الخير و ﴿ **مريم** ﴾: بالعبرية خادم الرب و ﴿ تقبل الشىء ﴾: وقبله أى رضيه لنفسه ﴿ **وأنبتها** ﴾ : أى رباها بما يصلح أحوالها ، ﴿ **وكفلها زكريا** ﴾ : أى وجعل زكريا كافلا لها وزكريا من ولد سليمان بن داود عليهما السلام و﴿ **المحراب** ﴾ هنا هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ، وهو مقصورة فى مقدمة المعبد ، لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة ، يكون من فيه محجوبا عمن فى المعبد[1] ﴿ **أنى لك هذا** ﴾: أى من أين لك هذا والأيام أيام قحط وجدب ﴿ **بغير حساب** ﴾: بغير عد ولا إحصاء لكثرته .

بعدما بيَّن الله تعالى أن محبته مبنية على طاعة رسوله واتباعه ، ذكر هنا أنه ﴿ **اصطفى** ﴾: هذه الكوكبة الطاهرة ﴿ **آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران** ﴾ فيامن أنكرتم اصطفاء الله لخاتم الأنبياء حسدًا وبغيا من عند أنفسكم ، يا من أنكرتم ذلك على رسول الله ﷺ لماذا أقررتم باصطفاء الله لأنبياء سابقين ؟ ! قال تعالى : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون

(١) والأصل اللغوى فى المحراب صدر المكان أو على مكان فيه ، أو خلوة العبادة .

وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم * ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون * أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين * أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسئلكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين * ﴾(١) .

إن اصطفاء الله تعالى لآدم من وجوه كثيرة : فقد خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأدخله جنته ، وأهبطه منها لحكمة يعلمها سبحانه ، وتاب عليه وشرفه بالنبوة ، كما اصطفى نوحا بالرسالة وبداية الخلق ، وجعله أبا للبشرية بعد آدم ، وفتح به قلوبا غلفا وأرشد به الحائرين ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، كمااصطفى آل ابراهيم بجعل النبوة فيهم ،وآل عمران كذلك . . قوله تعالى : ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾ أى إن هؤلاء الأنبياء سلائل بعضها يلد بعضاً ، أويكون المقصود من هذا النص الكريم أنهم متماثلون فى الأخلاق العلية والاصطفاء الربانى والرسالات السامية ، فهم نور على نور ، وأصولهم طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، فآل عمران من آل إبراهيم ، وآل ابراهيم من نوح ، ونوح من آدم . ﴿ والله سميع عليم ﴾ فقد سمع دعاء امرأة عمران واسمها « حِنّا » وعمران هذا غير عمران الذى ورد ذكره فى الآية السابقة فى قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران ﴾ فعمران فى تلك الآية هو:أبو موسى وهارون ، وعمران فى الآية التى بين أيديناالآن هو أبو مريم وجد عيسى لأمه ، لقد نذرت أم مريم : إن رزقها الله بمولود لتجعلنه خالصا متفرغا لخدمة بيت المقدس . وسمع الله دعاءها لأنه السميع لأقوال عباده ، ﴿ يعلم القول فى السماء والأرض وهو السميع العليم ﴾(٢) .

﴿ فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى ﴾ ورب العزة يقول : ﴿ والله أعلم بما وضعت ﴾ وهذا تعبير يقصد به تشريف ما وضعت حيث أسند علم الله إليه وهو العليم بكل شىء ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه ﴾(٣) . وكما فى قوله جل جلاله:﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾(٤) .. وقوله تعالى : ﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أى ليست هذه الحقيقة كتلك الحقيقة ، فقد يتحمل الذكر من المشاق واحتمال الكد ما لا تستطيعه الأنثى ، خاصةوأن المقام مقام خدمة وعمل فى بيت المقدس قالت : ﴿ وإنى سميتها مريم ﴾ أى العَبَّادة الخادمة لبيتك ، ولما رزق النبى ﷺ بإبراهيم ، قال :« لقد رزقت الليلة بمولود سميته إبراهيم » ، وفيه دليل على جواز تسمية المولود عندما يولد ، قالت امرأة عمران : ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾ وكان لقولها هذا بركة من عند الله ورعاية ، فقد لجأت إلى الله واستجارت به ليحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم واستجاب الله تعالى : فحفظ مريم وابنها من الشيطان : روى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (كل بنى آدم ينخسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها ﴾(٥) .

(١) الآيات : ٨٣ - ٩٠ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية : ٤ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية : ٢٧٠ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٢٦ من سورة الكهف .

(٥) لفظ مسلم هكذا : ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان ، فيستهل إلا ابن مريم وأمه ، ثم قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم : ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتهامن الشيطان الرجيم ﴾

فتقبل الله مريم لخدمة بيته ﴿ **بقبول حسن وأنبتها** ﴾ ورباها ﴿ **نباتا حسنا** ﴾ وضمها إلى زكريا فكفلها بعناية ورعاية ، وقد أجرى الله الخير على يديها ، ففى أيام القحط والجدب ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا** ﴾ وهو الذى يسوقه الله إليها من مأكل ومشرب ، فيسألها زكريا سؤال تعجب ﴿ **يامريم أنى لك هذا** ﴾ أى من أين لك هذا فتجيبه بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **هو من عند الله** ﴾ ﴿ ياأيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾[1] .

ثم تضيف مريم قائلة : ﴿ **إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ فالمشيئة هنا مبنية على علم وحكمة و﴿ **بغير حساب** ﴾ أى بغير تعب ولا كد .

مع زكريا ويحيى

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾

المفردات:

﴿ **الذرية** ﴾ : الولد وتقع على الواحد وأكثر و(الطيب) : ما تستطاب أفعاله وأخلاقه ﴿ **سميع الدعاء** ﴾ أى مجيبه كما يقال : سمع الله لمن حمده إذ من لم يجب فكأنه لم يسمع . و﴿ **كلمة الله** ﴾ عيسى عليه السلام و(السيد) : الرئيس الذى يسود قومه (الحصور) من الحصر[2] وهو الحبس أى يحبس نفسه ويمنعها مما ينافى الفضل والكمال . ﴿ **من الصالحين** ﴾ : أى من أصلابهم والصلاح صفة تجمع الخير كله ، ﴿ **أنى يكون لى** ﴾ أى كيف يحصل لى . ﴿ **بلغنى الكبر** ﴾ : أى أدركنى كبر السن وأثر فىّ ، ﴿ **عاقر** ﴾ : أى عقيم لاتلد . ﴿ **آية** ﴾ : أى علامة أعرف بها ميقات الحمل إذا حدث لأتلقى النعمة بالشكر . ﴿ **ألا تكلم الناس** ﴾ أى لاتستطيع الكلام . و(الرمز) : أى الإشارة بيد أو رأس أو غيرهما ، وسمى الرمز كلاما لأنه يفيد ما يفيده الكلام ، ويدل على ما دل عليه ، و﴿ **العشى** ﴾ : الوقت من الزوال إلى الغروب . و﴿ **الإبكار** ﴾ : من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

---

(١) الآية : ٣ من سورة فاطر .

(٢) والحصور الذى لا يأتى النساء كأنه ممنوع يكون فى الرجال : عن ابن مسعود وغيره وعن ابن عباس وابن جبير وقتاده وعطاء وغيرهم . الذى يكف عن النساء ولا يقربهن مع القدرة ، واستحسن القرطبى الرأى الثانى لما فيه من مدح وثناء على يحيى : الجامع لأحكام القرآن : ج ٤ ص ٧٨ .

لما رأى زكريا ما رأى من صلاح مريم وتقواها ، والرزق الذى تكرّم الله تعالى به عليها فى هذا المكان المبارك ، ﴿ دعا زكريا ربه ﴾ : وكانت امرأته عاقرا . وقد كان طاعنا فى السن . قال تعالى فى سورة مريم : ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداءً خفيا * قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾[1] وفى سورة آل عمران قال تعالى : ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء** ﴾ .

فتأمل معى كيف وصف الذرية التى طلبها بالطيبة ، وفى سورة مريم قال : ﴿واجعله رب رضيا ﴾[2] إذ إن لم يكن طيبا رضيا كان وبالاً على أهله . كان نبى الله داود يدعو الله فيقول : « أسألك أربعا وأعوذ بك من أربع : أسألك لسانا ذاكرا ، وقلبا شاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا ، وزوجة تعيننى على أمر دينى ودنياى ، وأعوذ بك من مال يكون وبالاً علىّ ، ويستمتع به غيرى ، ومن ولد يكون علىّ سيداً ، ومن جار سوء ، ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب » .

لقد وصف زكريا ابنه بصفتين ، وأعطاه الله ولدا جمع فيه صفات الكمال ، فقد كان نبيا سماه الله يحيى ، لما فى ذلك الاسم من روح التفاؤل بأنه سيحيا ، ووصفه بأنه سيكون مصدقا بكلمة من الله ، والمقصود به المسيح ابن مريم ، الذى خلقه الله تعالى بكلمته ﴿ كن فيكون ﴾ . كما وصف الله يحيى بأنه سيكون سيد قومه ، ذا شرف ونباهة ذكر ، وهو أيضا من الصالحين ، أى هو صالح ومن ذرية قوم صالحين ، كما سبق . قال تعالى : ﴿ **ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾ قال جل شأنه : ﴿ **فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب** ﴾ فتأمل معى الحال التى كان عليها حين نادته الملائكة ، كان قائما يصلى ! إنها حالة من أشرف الحالات ! لم يكن لاهيا ولا ساهيا ولا غافلا ، لذا كان جديرا بأن تناديه ملائكة السماء : فبأى شىء أخبروه : ﴿ **أن الله يبشرك بيحيى** ﴾ . الله هو الذى يبشر ! فما أشرف هذه البشرى ، إنها من الله القادر المقتدر مالك الملك وملك الملوك ، ويبشر بمولود هو الذى سماه ولم يُسَمَّ بذلك الاسم أحد قبله ، قال تعالى : ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا﴾[3] . ما أجمل هذه البشرى . . المبشر بها هو الله ، وهى بشرى بمولد غلام لأبوين ؛ الأب قد بلغ من الكبر عتيا وامرأته عاقر ، وبأى غلام ؟ سماه الله وجعله مصدقا بنبيه عيسى ، وجعله سيدا وحصورا ، أى محبوسا عن الشهوات عفيفا ، ثم يأتى الشرف الذى لا يدانيه شرف . . إنه شرف النبوة . . ثم يصفه بأوصاف تمتلىء النفس لها سعادة ، فهو من الصالحين .

ويصفه فى سورة مريم فيقول : ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا * وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا * وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا * وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾[4] ماذا قال زكريا عندما بشِّرَ بيحيى ؟ ﴿ **قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر** ﴾ لم يكن هذا الاستفهام استبعادا ، فهو يعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأنه سبحانه قد أحاط بكل شىء علما ،

---

(١) الآيات : ٢ - ٤ من سورة مريم .
(٢) من الآية : ٦ من سورة مريم .
(٣) الآية : ٧ من سورة مريم .
(٤) الآيات : ١٢ - ١٥ من سورة مريم .

وأحصى كل شيء عددا ، إنما كان المقصود بالاستفهام الكيفية التى سيرزق بها الولد ، هل سيرزقان ، وهما على هذه الكيفية ، بلغه الكبر وامرأته عاقر ، أم أنهما سيرجعان إلى سن الشباب ؟؟ فجاء الرد من الله تعالى : ﴿ كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ وفى سورة مريم : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك ، قال ربك هو علىّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾(١) .

فطلب زكريا من ربه أن يجعل له آية وعلامة يستدل بها على أن امرأته حامل ، فقال له الله : ﴿ آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا ﴾ أى سيحبس لسانك عن الكلام ، فلا تتكلم إلا بالإشارة ، ثم أوصاه بكثرة الذكر فقال : ﴿ واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار ﴾ أى غدوة وأصيلا ، ولكن كيف يحبس لسانه عن الكلام ويؤمر بالتسبيح ؟ أليس التسبيح باللسان ؟ قالوا إن الكلام مع الناس هو الذى كان فيه حبس اللسان أما ذكره لله فتسبيحه إياه بكرة وأصيلا فكان لسانه ينطق به . . وولد يحيى وأعطاه الله من لدنه فضلا عظيما . روى أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب فقال : ما للعب خلقت .

مريم والمسيح

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

المفردات : (الاصطفاء الأول) قبولها محررة لخدمة بيت المقدس ، وكان ذلك خاصا بالرجال و (التطهير) يعم التطهير الحسى كعدم الحيض والنفاس ، وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد ، والتطهير المعنوى كالبعد عن سفاسف الأخلاق وذميم الصفات (الاصطفاء الثانى) بما اختصت به من ولادة نبى من غير أن يمسها رجل وهو اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل ، بل هى متهيئة ومعدة له وفيه شهادة ببراءاتها مما قذفها به اليهود . (القنوت) . الطاعة مع الخضوع !

روى ابن جرير وابن اسحق وابن المنذر : أن هذه الآيات وما بعدها نحو ثمانين آية ، نزلت فى نصارى نجران : إذ وفدوا على رسول الله ﷺ ، وكانوا نحو ستين راكبا ، وخاصموه فى عيسى ابن مريم ، وقالوا له : من أبوه ؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان ، فقال لهم النبى ﷺ : أنتم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا هو يشبه أباه ! قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى لا يموت ، وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا : بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا : بلى . قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا . قالوا لا . قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا : بلى .

(١) الايتان : ٨ ـ ٩ من سورة مريم .

قال : ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذى كما يغذى الصبى ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث ؟ . قالوا : بلى . قال فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ، ثم أبوا إلا جحوداً ! . . فأنزل الله ﴿ ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ إلى آخر هذه الآيات .

ووجه الرد عليهم - أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادىء ذى بدء ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حيا قيوما:أى قامت به السموات والأرض،وهى قد وجدت قبل عيسى،فكيف تقوم به قبل وجوده ،ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب ، وأنزل التوراة ، ليبين أنه قد أنزل الوحى وشرع الشرائع قبل وجوده ، كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده القرآن ، فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء ، وإنما هونبى مثلهم . ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل ، وعيسى لم يكن واهبا العقول ثم قال:﴿ إنه لا يخفى عليه شىء ﴾ليرد على استدلالهم على ألوهية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى شىء مطلقا ، سواء أكان فى هذا العالم أم غيره من العوالم السماوية ، وعيسى من غير أب إذ الولادة من غير أب ليست دليلا على الإلوهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق ، وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف شاء ، وعيسى لم يصور أحداً فى رحم أمه ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الكتاب وجعله قيما محكم العبارة محفوظا من الاحتمال والاشتباه ، وهو الأصل الذى دعا الناس إلى تدبر معانيه والعمل به ، وإليه يرجع فى فهم المتشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شىء والعقل على خلافه فتشابهت الدلالة ، ولم يمكن الترجيح كالاستواء على العرش وكون روح عيسى روح الله وكلمته ،ثم بين أن الناس فى هذا انقسموا فرقتين : فرقة زائفة يرجعون فى تأويله إلى أهوائهم وتقاليدهم ، لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد ، وفرقة يقولون آمنا به ونفوض علمه إلى ربنا وقد دعوه ألا يضلهم بعد الهداية ، ويرزقهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة .

وإنما أعدنا هنا ذكر سبب نزول الآيات التى وردت من أول السورة إلى نحو ثمانين آية ، لأن المقام هنا ذكر فيه المسيح وأمه ، والآيات الكريمة نزلت لإثبات وحدانية الخالق جل فى علاه ، ونفى الألوهية عمن سواه وإثبات بشرية المسيح وأمه ، قال تعالى : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء * ﴾ .

فهذا المشهد القرآنى هو المناط الذى تبنى عليه الأحكام من الوحدانية لله الخالق والبشرية للمسيح المخلوق فليكن القارىء على ذكر من هذا .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ المقصود بالملائكة هنا الأمين جبريل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾[١] ولا يمنع هذا من أن يكون المقصود الملائكة عند إخبارها بالاصطفاء والتطهير ، أما جبريل فهو المقصود بتبشيرها بمولد المسيح عليه السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقيا * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً* قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ .[٢]

وهذه الآية : ﴿ إن الله اصطفاك ﴾ جاءت تخصيصاً لمريم ، بعد تعميم الاصطفاء بقوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ والمقصود بالإصطفاء الأول فى الآية الكريمة اختيارها لخدمة بيت المقدس . مع أنها أنثى ، والتطهير هنا حسى ومعنوى ، أما كونه حسياً فقد طهرها الله من دم الحيض والنفاس وغير ذلك ، والمراد بالتطهير المعنوى تطهير قلبها ونفسها من الرذائل وتواقة الأشياء فقد كانت رضى الله عنها ذات همة عالية .

والمقصود بالاصطفاء الثانى : هو أن الله اختصها : بمولد المسيح على غير العادة المتبعة ، فقد خلقه الله فى رحمها بدون أن تتزوج ، وقد يكون المقصود بالاصطفاء الثانى ما جاء فى الحديث الشريف : (كمل من نساء العالمين أربع : مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة) .

قوله تعالى : ﴿ يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ هذا توجيه إلهى كريم لمريم أن تقدم الشكر لله تعالى على ما أنعم به عليها من الاصطفاء والتطهير وذلك بطاعتها لله وسجودها وركوعها فى الصلاة ، فالسجود والركوع من أهم الأركان لما فيهما من معنى الخضوع والتضرع لله ، وإنما قدم السجود على الركوع فى الذكر لأنه أقرب ما يكون العبد من الله وهو ساجد ، ولذا فإن السجود من مواضع استجابة الدعاء .

قوله جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ يطلق الوحى فى القرآن الكريم على معان :

(١) لكلام جبريل للأنبياء كما قال تعالى : ﴿ نوحى إليهم ﴾[٣] .
(٢) وللإلهام كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾[٤] .
(٣) ولإلقاء المعنى المراد فى النفس كما قال تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾[٥] .
(٤) وللإشارة كما قال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾[٦]

فالوحى : تعريف الموحى إليه بأمر خفى من إشارة أو كتابة أو غيرهما .

---

(١) من الآية ١٧ من سورة مريم .
(٢) الآيات : ١٦ - ١٨ من سورة مريم .
(٣) جزء من الآيات : ١٠٩ من سورة يوسف ، ٤٣ من سورة النحل ، ٧ من سورة الأنبياء .
(٤) من الآية : ٧ من سورة القصص .
(٥) الآية : ٥ من سورة الزلزلة .
(٦) من الآية : ١١ من سورة مريم .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ﴾ .

المراد بالأقلام السهام التى كانوا يضربون بها القرعة(١) ومعنى يختصمون أى يتنازعون فى كفالة مريم من الذى يضمها إليه ليربيها ويقوم على رعايتها وشأنها .

ومعنى الآية الكريمة أن هذا القصص الذى قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا ، من الأخبار التى لم تشهدها أنت ولا أحد من قومك ، ولم تقرأ فى كتاب ، ولا علمكها معلم ، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين ، لتكون دلالة على صحة نبوتك وإلزاماً لمن يحاجك من الجاحدين المعاندين .

قوله تعالى : ﴿ وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أى وما كنت شاهداً وهم يتنازعون ويختصمون فى كفالتها ولم يتفقوا عليها إلا بعد القرعة والمتنازعون كانوا من الخواص وأهل الفضل والدين،ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم فى القيام بشأنها وكفاية مهامها ، إما لأن عمران كان رئيساً لهم ، فأرادوا مكافأته قياماً ببعض ما يجب له من الحقوق ، وإما لأنهم وجدوا فى بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم ، وإما لأنهم رأوا فى ذلك القيام بواجب دينى إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة .

وقد جاءت هذه الآية عقب هذه القصة لبيان أنه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم لأنه أمى ، ولم يروها سماعاً عن أحد ، كما يعترف بذلك منكروا نبوته، لأنه نشأ بين قوم أميين ، فلم يبق له طريق للعلم إلا الوحى أو المشاهدة ، والوحى ينكرونه ؛ فلا سبيل بعدئذ إلا المشاهدة التى نفاها على سبيل التهكم ، لاستحالتها ونظير هذه الآية قوله : عقب قصة نوح عليه السلام ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾(٢) وقوله بعد قصة موسى وشعيب : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾(٣) والجاحدون من أهل الكتاب يقولون فيما وافق فيه القرآن كتبهم : إنه مأخوذ منها وفيما خالفها إنه ليس بصحيح ؛ لأنه خالفها ، وفيما لم يوجد فيها إنه غير صحيح لأنه لم يذكر فيها ، وهذا من المكابرة التى لا تغنى حجة لرد خصم على خصم ، والمسلمون يقولون إن ما جاء به القرآن هو الحق ، للأدلة القائمة على نبوة النبى ﷺ ، وحفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ، وما جاء فيه مخالفاً لما فى الكتب السابقة يعد مصححا لأغلاطها ، لانقطاع أسانيدها ، حتى إن أعظمها وأشهرها وهى الأسفار التى تنسب إلى موسى عليه السلام ؛ لا يعرف كاتبها ، ولا الزمن الذى كتبت فيه ، ولا اللغة التى كتبت بها أولاً .

[نص على هذا الشيخ المراغى فى تفسيره]

التبشير بالمسيح . .

إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾

(١) وروى أنها أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة .
(٢) من الآية ٤٩ من سورة هود .
(٣) من الآية ٤٦ من سورة القصص .

قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

المفردات : (الوجيه) : ذو الجاه والكرامة و ﴿ **المهد** ﴾ : مقر الصبى حين رضاعه . و (الكهل) من تجاوز الثلاثين إلى الأربعين ، ﴿ **الكتاب** ﴾ الكتابة والخط ، ﴿ **والحكمة** ﴾ : العلم الصحيح الذى يبعث الإرادة إلى نافع العمل ، ويقف بالعامل على نهج الصراط المستقيم لما له من بصر بفقه الأحكام وسر التشريع ، ﴿ **التوراة** ﴾ : كتاب موسى ، وقد كان المسيح عليماً به يبين أسراره لقومه ويحتج عليهم بنصوصه ، ﴿ **الإنجيل** ﴾ : هو الكتاب الذى أوحى إليه به ، (والخلق) التصوير والإبراز على مقدار معين وليس الإنشاء والاختراع (الهيئة) : الصورة ، و ﴿ **الأكمه** ﴾: الذى يولد أعمى ، ﴿ **الأبرص** ﴾ : هو الذى به برص أى بياض فى الجلد يتطير به ويهرب الناس منه خوف العدوى .

هذه آيات تحدد معالم الحق فى شأن المسيح عليه السلام ، فهو مخلوق وهو بشر وهو وأمه كما قال الله تعالى﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾[1] فقد حلَّ الإسلام كل المشاكل بقول الله تعالى : ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ تلك حقيقة لا يمارى فيها أحد . إنهما كانا يأكلان الطعام ، فمن أكل الطعام فهو جسم إذ الخلية الحية تتكون من هذا الغذاء ، ومن الخلايا تتكون الأنسجة ، ومن الأنسجة تتكون الأعضاء ، ومن الأعضاء تتكون الأجهزة . وهل الإنسان إلا مجموع هذه الأشياء ، ومن الطعام والشراب تكون الإفرازات التى تذهب إلى الأمعاء والمثانة ، هل ينكر أحد على وجه الدنيا أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، ومن كان شأنه كذلك فحتم عليه أن يذهب إلى الخلاء . . . تعالى

(١) من آية ١٨ من سورة المائدة .

الله عن ذلك علوا كبيراً ، قال جل شأنه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ [١]. والمراد بالكلمة التى بشر بها مريم، هو قوله تعالى: ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ [٢]. قوله جل شأنه : ﴿ وجيها فى الدنيا والآخرة ﴾ أى أنه ذو قوة ووجاهة عظيمة : فهو فى الدنيا ، له وجاهته فى قلوب المؤمنين بالله ، وهو فى الآخرة له شفاعته ومكانته عند الله ، فهو من أولى العزم من الرسل ، وهو من المقربين من الله وجنته ورضوانه ﴿والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم﴾ [٣] . ومن صفاته أنه يكلم الناس فى المهد، أى وهو فى أيامه الأولى بعد مولده ، فقد قال لأمه ساعة الولاده ، وبعد أن أخرجه الله من رحمها : ﴿ لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا * وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا * فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا * فأتت به قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا * يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا * قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا * وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا * والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا * ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون* وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ [٤] ومعنى قوله تعالى : ﴿ وكهلا ومن الصالحين ﴾ أى كما كلمهم فى المهد كذلك يكلمهم فى سن الكهولة ، وهى من الثلاثين إلى الأربعين [٥] ، ومن الصالحين أى هو صالح من ذرية قوم صالحين ، وقد أخبرنا النبى ﷺ عن الذين تكلموا فى المهد ، وقد تعجب عندما تعلم أن أكثرهم تكلموا دفاعاً عن الأعراض التى حاولت الكلاب أن تنهشها ، وذلك لما للأعراض من قدسية ومكانة .

الذين تكلموا فى المهد

روى الإمام مسلم بن الحجاج : بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وكان رجلاً عابداً ، فاتخذ صومعة ، فكان فيها ، فأتته أمه ، وهو يصلى ، فقالت : يا جريج . فقال : يا رب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب أمى وصلاتى ؛ فانصرفت ، فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جريج : فقال : أى رب أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته ، فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات ، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته ، وكانت امرأة بغى يتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه لكم . قال : فتعرضت له فلم يلتفت إليها ، فأتت راعياً كان يأوى إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت ، فلما ولدت قالت هو من جريج ، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه ، فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : زنيت بهذه البغى فولدت منك ، فقال : أين الصبى .

(١) الآية : ٥٩ من سورة الزخرف .
(٢) الآية : ٤٠ من سورة النحل .
(٣) الآيات : ١٠ ـ ١٢ من سورة الواقعة .
(٤) الآيات : ٢٤ ـ ٣٦ من سورة مريم .
(٥) وذلك عندما بدأ انتقاد الفريسيين والكتبة فى الهيكل .

فجاءوا به ، فقال : دعونى حتى أصل فصلى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن[1] فى بطنه ، وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعى ، قال : فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا نبنى لك صومعتك من ذهب !! قال : لا . أعيدوها من طين كما كانت ففعلوا . وبينا صبى يرضع من أمه فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعل ابنى مثل هذا فترك الثدى ، وأقبل إليه ، فنظر إليه ، فقال ، اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع ، قال:[2] فكأنى انظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فمه ، فجعل يمصها ، قال : ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون زنيت . . سرقت ! وهى تقول : « حسبى الله ونعم الوكيل » فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ؛ فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فهناك تراجعا الحديث ، فقالت : حلقى : مر رجل حسن الهيئة فقلت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فقلت : اللهم لا تجعلنى مثله ، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنيت سرقت ، فقلت : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ! فقلت : اللهم اجعلنى مثلها ، قال : إن ذاك الرجل كان جباراً ، فقلت : اللهم اجعلنى مثله ، وإن هذه يقولون لها : زنيت ولم تزن وسرقت ولم تسرق، فقلت :اللهم اجعلنى مثلها » .

وقد أخرج البخارى هذا الحديث فى كتاب الصلاة باب إذا دعت الأم ولدها فى الصلاة ، وفى كتاب أحاديث الأنبياء باب ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾ الآية .

شرح الحديث

(لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة الخ)

المهد هو وطاء الصبى وكل ما يسوى له وقد يكون سريره ، وعن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾[3] حجر أمه ، وقد ذكر فى هذا الحديث الثلاثة : وهم عيسى عليه السلام ، وصبى جريج ، والصبى المتعوذ من الجبار أن يكون مثله ، ولم يذكر غيرهم ، وقد ثبت فى الروايات الأخرى تكلم غير هؤلاء، فمن ذلك ما جاء فى صحيح مسلم ، من حديث صهيب فى قصة أصحاب الأخدود المذكورة فى آخر الصحيح ، وهو : أن امرأة جيء بها لتلقى فى النار ومعها صبى يرضع فتقاعست[4] ، وقال لها : « يا أمه اصبرى فإنك على الحق » فإذا انضم هذا إلى الثلاثة صاروا أربعة . وروى أحمد والبزار وابن حبان والحاكم من حديث ابن عباس رضى الله عنه : لم يتكلم فى المهد إلا أربعة ، فذكر الأولين المذكورين فى حديث مسلم ، ولم يذكر الثالث ، وذكر شاهد يوسف ، والصبى الرضيع الذى قال لأمه وهى ماشطة بنت فرعون لما أردوا إلقاء أمه فى النار : اصبرى يا أمه فإنا على الحق .

وأخرج الحاكم نحوه من حديث أبى هريرة ، فإذا ضممنا الاثنين الزائدين اللذين جاء بهما الحديث صاروا ستة ، وذكر الضحاك فى تفسيره أن يحيى عليه السلام تكلم فى المهد ، أخرجه الثعلبى . فإن كان هذا ثابتا صاروا سبعة .

---

(١) أى دفع بأصبعه فى بطن الصبى دون إيذاء .
(٢) القائل أبو هريرة - رواى الحديث عن رسول الله ﷺ .
(٣) من الآية : ٢٩ من سورة مريم .
(٤) تراجعت وقاومت الالقاء فى النار .

وذكر البغوى فى تفسيره أن إبراهيم الخليل تكلم فى المهد أيضا ، ومما ينبغى أن يعلم أنه اختلف فى شاهد يوسف فقيل كان صغيراً ، وهذا أخرجه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وسنده ضعيف ، وبه قال الحسن وسعيد بن جبير ، وأخرج عن ابن عباس أيضا ومجاهد أنه[١] كان ذا لحية ، وعن قتادة والحسن أيضاً كانَ حكيماً ، فإذا استبعدنا شاهد يوسف الذى اختلفت الرواية[٢] فيه ويحيى وإبراهيم اللذين لم نتأكد من ثيوب روايتهما ، كان المتكلمون فى المهد خمسة ، وإذا كان الأمر كذلك فكيف نوفق بين هذا وبين قوله ﷺ : (ولم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة) ؟ .

وقد سلك العلماء فى الجواب عن هذا مسالك ، فقال الإمام القرطبى « فى هذا الحصر نظر » ولعله ﷺ إنما أوحى إليه أولاً بثلاثة أخبرها ثم بعد ذلك أوحى إليه بما شاء الله تعالى مما أخبر به فى الأحاديث الأخرى[٣] .

وقال الإمام النووى فى شرحه على صحيح مسلم : « يحتمل أن يكون كلام الثلاثة المذكورين مقيداً بالمهد أما كلام غيرهم من الأطفال ففى غير المهد » ، ولكن يعكر عليه أن فى رواية ابن قتيبه : أن الصبى الذى طرحته أمه فى الأخدود كان ابن سبعة أشهر ومثله لا شك يكون فى المهد ، فما قاله النووى من أن الطفل الذى طرحته أمه فى الأخدود لم يكن فى المهد غير صحيح .

فإن قيل كلام هؤلاء الذين تكلموا فى المهد ؛ أكان بخلق العقل والتمييز الكاملين لهم ؟ أم بإجراء الكلام على ألسنتهم من غيرتعقل له ؟قلناقد أجاب على ذلك الإمام القرطبى فقال : « ثم كلام عيسى عليه السلام هو بأن الله تعالى خلق له فى المهد ما خلق للأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى حال كمالهم من العقل والفهم كما شهد القرآن ، وأما غيره فيحتمل أن الله تعالى خلق فيه عقلا كما يخلقه فى الكبار ، ويحتمل ان الله تعالى أجرى ذلك الكلام يعنى على لسانه وهو لا يعقل ، كما خلقه فى الذراع والحصى مع بقائهما على جماديتهما » .

هذه نبذة عن الذين تكلموا فى المهد ذكرناها بمناسبة الكلام عن عيسى ابن مريم فى قوله تعالى : ﴿ ويكلم الناس فى المهد وكهلاً ﴾ .

قوله جل شأنه : ﴿ قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ﴾ . أداة الاستفهام هنا ﴿ أنى ﴾ ومعناها كيف ،وهذا الاستفهام لا يقصد به الاستبعاد فهى تعلم أن الله على كل شىء قدير ؛ لكن تريد أن تستفهم عن الكيفية ! ولذا جاء الجواب : ﴿ قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ . أى أنه سبحانه وتعالى الذى خلق الأسباب والمسببات وجرت العادة على ذلك قادر أن يخرق العادة بقدرته فيغنى المسببات عن أسبابها ؛ وإلا فمن أبو آدم ومن أمه ؟

---

(١) أى أن إبراهيم كان ذا لحية وتكلم فى المهد .

(٢) اختلاف الرواية فى صغره أو كان كبيرا بالغا عاقلا .

(٣) نص كلام القرطبى : « ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : « لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة » بالحصر فإنه أخبر بما كان فى عمله مما أوحى إليه فى تلك الحال ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به » ص ٩١ ج ٤ .

﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾(١) ، والله جل شأنه لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً .

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .(٢)

ثم أخذت الآيات بعد ذلك تبين النعم الجليلة التى أنعم الله بها على المسيح ابن مريم قال جل شأنه : ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ﴾ المراد بالكتاب : الكتابة والخط ، أما الحكمة فهى علم غزير وحكم صواب وعمل موفق ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾(٣) والتوراة هو الكتاب المنزل على نبى الله موسى وبه أحكام وتشريعات ، والانجيل هو الكتاب المنزل على نبى الله عيسى ، وبه وصايا وتوجيهات ، وقد جاء الإنجيل مصدقاً لما فى التوراة قال تعالى : ﴿ وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل مصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾(٤) وجاء القرآن الكريم مصدقاً لما أنزل الله فى التوراة والانجيل ، ومهيمنا على جميع الكتب . . قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾(٥) . وقال جل جلاله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾(٦) .

وقد تكفل الله تعالى بحفظ القرآن الكريم ، فصانه عن التحريف والتغيير والتبديل قال جل شأنه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٧) .

قوله تعالى : ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وابرىء الاكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ﴾ .

هذا بيان لتخصيص رسالة المسيح ببنى إسرائيل ، فقد كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، إلا أن رسول الله ﷺ أرسل رحمة للعالمين : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾(٨) . وقال جل شأنه : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾(٩) ، وقال ﷺ : « كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، والمقصود بالأحمر غير العرب - وجعلت لى الأرض مسجداً وتربتها طهورا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر وأعطيت الشفاعة »(١٠) .

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة آل عمران . . وسيأتى الحديث عنها .
(٢) الآية : ٥٧ من سورة غافر .
(٣) الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٤٦ من سورة المائدة .
(٥) من الآية : ٤٨ من سورة المائدة .
(٦) الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة المائدة .
(٧) الآية : ٩ من سورة الحجر .
(٨) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٩) من الآية : ٢٨ من سورة سبأ
(١٠) رواه الشيخان .

ثم بعد ذلك عدد القرآن المعجزات وخوارق العادات التى أجراها الله على يـدى عبده ونبيـه ورسوله المسيح ابن مريم ، فقد كان يخلق من الطين والمراد بالخلق هنا التصوير إذ أن مادة الطين موجودة فكان المسيح يصور من الطين ما هو فى هيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وحده .

وقد روى أنه عليه السلام لما أعلمهم النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خفاش فأخذ طيناً وصوره ونفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض . قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه(١) .

أما إبراء الأكمه وهو الذى ولد فاقد البصر ، والأبرص وهو مرض بالجلد يورث به بياضاً ، فقد كان ذلك أيضاً من معجزات المسيح التى أجراها الله على يديه ، والمعجزة أمر خارق للعادة . يجريه الله على أيدى الأنبياء تصديقاً لهم مع عجز جميع المخلوقات عن الإتيان بمثله وتأتى المعجزة مناسبة لما اشتهر فى عصرها .

فالمصريون لما اشتهروا وبالسحر جاءت معجزة موسى إبطالاً لهذا السحر : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾(٢) . ولما اشتهر الطب فى عصر المسيح وأصبح فى درجة عالية من التفوق ؛ كانت معجزته إبراء الاكمه فيرتد بصيراً ، وإبراء الأبرص فيعود جلده كما كان جميلاً لا تشويه فيه .

ولما كان العرب قوم فصاحة وبلاغة ، جاء القرآن معجزة باهرة : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾(٣) .

والمعجزة إما تكون قولية كالقرآن الكريم وإما تكون تركية كترك إحراق النار لإبراهيم مع وجود الأسباب وزوال الموانع : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾(٤) .

حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، وحكمت محكمة السماء لإبراهيم بالإفراج فورا ، إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها فقد نزع الله تعالى من النار الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضافة والإشراق ، وجمع لإبراهيم بين البرودة والسلامة ، إذ لو اقتصرت النار على البرودة لتجمد إبراهيم من شدة البرودة ، ولو اقتصرت على السلامة لتألم إبراهيم من شدة حرارتها ، لكن البرودة مع السلامة جعلته يعيش الأيام التى قضاها فيها كأنه فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

وقد تكون المعجزة فعلية كعصى موسى ويده ، ومعجزات المسيح ، وحنين الجذع وتسبيح الحصى وانشقاق القمر ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ والإسراء والمعراج ، كل هذه معجزات أجراها الله على يدى حبيبه ومصطفاه ﷺ .

(١) القرطبى : ج ٤ ص ٩٤ .
(٢) الآيات : ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف .
(٣) الآية : ٨٨ من سورة الإسراء .
(٤) الآيتان : ٦٨ ، ٦٩ من سورة الأنبياء .

ولقد جمع الله له من المعجزات ما لا يحصره عد ، ولا يحيط به حد تكريماً له وتشريفاً . . وسبحان من قال له:﴿ وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ﴾(١) وقال له : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾(٢) .

إحياء الموتى

كان من المعجزات التى أجراها الله على يدى المسيح عليه السلام إحياء الموتى بإذن الله ، فقد ورد أنه أحيا فتاة قبل دفنها . قال قومى بإذن الله : فقامت ، ثم ماتت بعد ذلك ، كما أحيا موسى بإذن الله قتيل بنى إسرائيل عندما ضرب ببعض البقرة ، قال تعالى : ﴿ وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾(٣) . وهذا كله بإذن علام الغيوب لا شريك له . كذلك جرت سنة القرآن الكريم : أنه يمهد بقصة زكريا ويحيى قبل أن يحدثنا عن قصة المسيح عليه السلام وخلقه ، لأن الله تعالى يعلم أن البشر يربطون المسببات بالأسباب ، وقد يغفلون أن خالق الأسباب قد يخلق بغير الأسباب ، قال يوسف النجار لمريم لما جاءت بالمسيح تحمله « يامريم إن فى النفس لشيئا . قالت له وما هو قال : أينبت زرع بدون ماء ؟ قالت له : يايوسف إن الذى خلق الزرع والماء قادر على أن يخلق الزرع بدون ماء .

نرى فى سورة آل عمران أن الله تعالى مهد بقصة زكريا فقال ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ﴾ . . الخ القصة . ثم قال بعد ذلك : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ﴾ وفى سورة مريم قال تعالى:﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾(٤) الخ الآيات. ثم قال : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم ﴾(٥) وفى سورة الأنبياء قال تعالى : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ﴾(٦) . . الخ . ثم قال بعد ذلك : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾(٧) . فلا يحسبن عاقل أن معجزات الأنبياء من صنعهم ؛ إنما هى خوارق للعادات ، أجراها الله تعالى على أيديهم ، تصدقاً لهم ، مع تحدى الخلق حتى يكون فى ذلك آية بينة ، ودلائل واضحة على صدق الأنبياء . أما خالق المعجزات فهو الله .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾(٨) . ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(٩) . قال العلماء تحت

(١) من الآية : ٧٩ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ١٦٦ من سورة النساء .
(٣) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٢ من سورة مريم .
(٥) الآية : ١٦ من سورة مريم .
(٦) الآية : ٨٩ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية : ٩١ من سورة الأنبياء .
(٨) الآية : ٦٢ من سورة الزمر .
(٩) الآيات : ١٠٢ - ١٠٤ من سورة الأنعام .

عنوان : (الطبيعة لا تعقل) من كتاب (فى العقيدة الإسلامية والأخلاق) : من الغريب أن أى انتصار يحققه عالم مادى فى مجال المادة يجعله فخوراً مزهواً بنفسه وهو يقول : لقد قهرت الطبيعة !!

بينما هو فى نفس الوقت يعتقد أن الطبيعة هى خالقة كل ما فى الوجود ؛ أو هى التى تمنح الحياة لكل حى فى الكون !!

فكيف يكون إلهاً ذلك الذى يقهره الإنسان ؛ ومن ثم يعبده ؟ ! إن القول بالطبيعة عود بالعقل البشرى إلى الوثنية الأولى ، فلقد فكر الإنسان الأول فيما حوله ،وحاول تفسير ما يحيط به من أشياء ؛وحينما سيطر الغموض عليه شعر بضعفه وكان له أن يلتمس العون من قوى أخرى فألّه الشمس والقمر والنجوم والنار والأحجار والأبقار .

وجاءت الرسالات السماوية لتفسير الطريق أمام البشر ولتجعلهم سادة على كل ما فى الكون .

إلا أن بعض العقول لا ترضى بالسيادة ؛ بل تطمح وتعشق العبودية ولهذا راحت فى عصرنا الحاضر تجمع الأوثان السابقة ، تحت اسم الطبيعة ، وتدعى أنها الخالقة !ولنا أن نسأل : ما هى الطبيعة ؟أهى النار والماء والتراب والهواء ؟أهى الأرض والشمس والقمر والكواكب الأخرى ؟أهى القوانين التى يخضع لها الكون من الذرة إلى المجرة ؟أهى الصفات والخصائص التى تلازم المادة من حركة وسكون واجتماع وافتراق ؟ ! وقابلية للنمو والتغذى والتوالد والتكون ؟أهى الزمان والمكان وما يحدث فيهما ؟

وللحقيقة : فأيا كان الجواب فنحن نسأل سؤالاً آخر : ما هو الإنسان ؟

والإجابة نعرفها جميعاً ، : إنه كائن ناطق له إرادة ، ولهذا يقتضى المنطق أن يكون مفكراً حياً سميعاً بصيراً ذا إحساس خاص ، فهو وحده الذى يفرق بين العدل والظلم والفضيلة والرذيلة واقتضت الإرادة أن يكون ذا ضمير ونوازع ورغبات وآمال .

وبالعقل والإرادة استطاع الإنسان أن يخضع عناصر الطبيعة وأن يسخرها لخدمته ونعنى بالطبيعة هنا كل المفاهيم التى يقول بها الماديون .

وإذا كان الإنسان له هذه القدرات والصفات ؛ فهل استطاع أن يخلق أى شىء؟وهو جزء من الطبيعة ، وأرقى مافيها ؟!وهل استطاع أن يفسر كل ما يحيط به،وأن يصل إلى كل القوانين التى تحكم الكون ؟ ! لقد أثبت القانون الثانى للديناميكا الحرارية أن الكون مخلوق وعلى هذا نكرر السؤال : من خلقه ؟ !

والإنسان وهو السيد العاقل المدبر المختزن للمعلومات والمسخر لكل الآلات لم يخلقه ، لأنه مخلوق فهل يعقل أن تخلق المادة الصماء نفسها ؟ ! وهل يعقل أن تصنع المادة كل هذه التنظيمات فى الكون ؟ ! وهل يعقل أن تخلق المادة الصماء مع كل ما يحيط بها من قوانين ـ الإنسان العاقل ؟ !

إن فاقد الشىء لا يعطيه ، والطبيعة جاهلة لا تغنى شيئاً ، وعلى هذا نقول : إنه من المستحيل أن يكون العقل فى الإنسان ممن لا عقل له ، والإرادة فى الإنسان ممن لا إرادة له ، والسمع فى الإنسان ممن

لاسمع له ، والبصر فى الإنسان ممن لا بصر له ، والمشاعر والأحاسيس والأحكام والأخلاق ممن لا مشاعر ولا أحاسيس ولا أحكام ولا أخلاق له !!

إن القول بالطبيعة قول بإلغاء العقل فى الإنسان ، وبإلغاء قانون السببية وقانون التناقض فالأرض تخلق الأرض ، والشمس تخلق الشمس ، والنبات يخلق النبات ، والإنسان يخلق الإنسان ، وهكذا . . أو قل : إن شئت إن صفات الإنسان تخلق الإنسان وصفات الأرض تخلق الأرض،ويعنى هذا أن المعدوم يخلق وجوده والوجود يوجد نفسه وهذا ظهر البطلان .

يقول سيسيل هافان العالم البيولوجى بجامعات أمريكا : الحق أنه من قطرة الماء التى رأينا تحت المجهر ، إلى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر،لا يسع الإنسان إلا أن يعترف بأن خالق هذا النظام وتلك الدقة البالغة ، والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه هو الله ، ولولا ثقة الإنسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما أضاع الناس أعمارهم بحثاً عنها . . . ولو أنه كلما أجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها عن المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة ؛ فأى تقدم كان يمكن أن يحققه الإنسان ؟ ! لابد أن يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى !! فليس مما يعقله العقل أن يكون هنالك نظام أو قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم ومبدع ، وكلما وصل الإنسان إلى قانون جديد ، فإن هذا القانون ينادى قائلا : إن الله هو الخالق وليس الإنسان إلا مستكشفا » .

ويرد « سانتلانا » على من يقولون بأن الطبيعة هى الخالق قائلاً : أما القول بالطبيعة وأن لا شىء غيرها فهو لا يرضى العقل المتبصر .

فلو لم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد فمن أين حصل لهذا العالم هذا النظام العجيب والترتيب الغريب الذى حارت فيه العقول؟وكيف اجتمعت تلك الأجزاء وكيف تآلفت على اختلاف أشكالها وتباين موادها ،وكيف بقيت على تآلفها ؟ وكيف تجددت على نمط واحد المرة بعد المرة ؟ . . هذا وإذا افترضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شىء سواها فمن أين هذه القوة العقلية التى يجدها كل واحد فى نفسه ؟ وهى مع ما فيها من العجز والقصور وكثرة الخطأ من أظهر الشواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة فى هذا العالم . . هل يحتمل أن ما تضمنته عقولنا من البحوث الدقيقة والمآخذ العميقة وما خفقت به القلوب أصله من تلك الأجزاء . . إن المادة غير قادرة على أن تكون علة نفسها،فمن باب أحرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً فى درجة الوجود وإلا كان الأخس أصلاً لما هو أرفع منه وهذا ما يستبعده العقل وتأنفه الفطرة السليمة .

ونختم الكلام عن الطبيعة بقول كلووم مصمم العقل الألكترونى للجمعية العلمية لدراسة الملاحة الجوية بمدينة لانجلى فيلد : « إن الطبيعة لا تستطيع أن تصمم أو تبدع نفسها . . إن هذا الكون ليس إلا كتلة تخضع لنظام معين ، ولابد له من سبب أولى لا يخضع للقانون الثانى من قوانين الديناميكا الحرارية ، ولا بد أن يكون هذا السبب الأول غير مادى فى طبيعته : إنه هواللطيف الخبير .

الإنباء بالغيب

قال الله تعالى : ﴿ وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ هذه الآية الكريمة جاءت بعد بيان عدد من المعجزات التى أجراها الله على يد المسيح عليه السلام من إحياء الموتى إلى غير ذلك ومعنى ﴿ أنبئكم بما تأكلون وما تدخرون ﴾ . أنه كان عليه السلام يخبر الواحد منهم بما أكل وما سيأكل : وهذا أيضاً بوحى من الله ، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله . . قال جل شأنه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ❁ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً ﴾[1] فإذا كان السيد المسيح ينبىء قومه بما أكلوا أو بما سيأكلون ، فهذا ليس من عندياته إنما هو بإنباء الله له ، قال جل شأنه : لحبيبه ومصطفاه : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[2] وقال عظمت حكمته : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾[3] .

قوله تعالى: ﴿ ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ﴾ أى أن الشريعة المنزلة على المسيح لا تهدم ما جاء فى التوراة ؛ بل هى مكملة ومتممة ، وهكذا رسالات الأنبياء يمهد سابقهم للاحقهم ويكمل لاحقهم لسابقهم ، فهى كعقارب الساعة تبنى ولا تهدم ، وتضيف وتكمل ، فالثوان تكون الدقائق ، والدقائق تكون الساعات والساعات تكون الليل والنهار وهكذا دواليك .

قول تعالى: ﴿ ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ﴾ لقد حرم الله تعالى على اليهود أموراً ؛ جزاء بغيهم قال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أوما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[4] ، وقال جلت قدرته : ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ❁ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل﴾[5] فلما بعث المسيح أنزل الله فى شريعته تخفيفاً ، فأحل الله تعالى على لسان المسيح بعض أحكام كانت تفيد تحريم أشياء عليهم ، من ذلك أنه أباح لهم لحوم الإبل والسمك والشحوم والعمل يوم السبت .

قوله جل شأنه: ﴿ وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ﴾ المراد بالآية هنا المعجزات التى سبق بيانها من النفخ فى الطين بعد تصويره فيكون طيراً بإذن الله وإبراء الأعمى والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله، والإنباء بما أكلوا أو ما سيأكلون بإذن الله وإنما ذكرها هنا مجملة فى قوله تعالى : ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ ليبنى عليها الأمر بتقوى الله وطاعة رسوله .

قوله تعالى : ﴿ إن الله ربى وربكم فاعبدوه ﴾ هذا كقوله ﷺ لسفيان بن عبد الله ، وقد سأله سفيان فقال يا رسول الله : قل لى فى الإسلام شيئاً لا أسأل بعده أحداً غيرك ، فقال له مبعوث العناية الألهية : ﴿ قل

(١) الآيتان : ٢٧ - ٢٨ من سورة الجن .
(٢) من الآية : ١٨٨ من سورة الأعراف .
(٣) للآية : ٦٥ من سورة النمل .
(٤) الآية : ١٤٦ من سورة الأنعام .
(٥) الآية : ١٦٠ ، ١٦١ من سورة النساء .

آمنت بالله ثم استقم ﴾(١) نعم ؛ وهل الاستقامة إلا فى طريق الله ؛ إن إقرار المسيح بالربوبية لله دليل قاطع وبرهان ساطع على أنه مخلوق ومولود من رحم أمه،وتلك خصائص صفات البشر،ثم بعد ذلك يؤكد هذا المعنى بأنه عبد الله فيقول : ﴿ فاعبدوه ﴾ كما فى قوله جل شأنه : ﴿ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا * وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً * وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً * والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون * ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * وإن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾(٢) . وقد شاءت حكمة الله أن يختم سورة مريم بقوله : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عداً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾(٣) .

إن الصراط المستقيم هو توحيد الله وعبادته وحده ، فكل المخلوقات من السوس إلى الفرس ومن السماء إلى الأرض ، لو سألتها من خالقك لأجابتك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوقة للواحد الديان . كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ورضا كل يائس ، وقوة كل ضعيف وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه - وكما قال العلماء : « إن المستقيم أقرب صلة بين نقطتين » ، فإن التوحيد الخالص والعبادة الخالصة أقرب طريق إلى الجنة ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾(٤) ، وقال جل جلاله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور)(٥) .

مع المسيح

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ

(١) رواه الشيخان .
(٢) الآيات : ٣٠ - ٣٦ من سورة مريم .
(٣) الآيات : ٨٨ - ٩٥ من سورة مريم .
(٤) الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٥) الآيتان الأخيرتان من سورة الشورى .

﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥٧ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨ ﴾

المفردات : فى الأساس : أحسست منه مكراً ، وأحسست منه بمكر ، وما أحسسنا منه خيرا وهل تحس من فلان بخير وفى الكشاف : (أحس) : علم علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس و ﴿ الأنصار ﴾ : واحدهم نصير كالأشراف واحدهم شريف و ﴿ الحواريون ﴾ : واحدهم حوارى وحوارى الرجل صفيه وناصره ، (والمكر) تبرير خفى يفضى بالممكور به إلى ما لم يكن يحتسب ، وغلب استعماله فى التدبير السيء ، وإن كان يستعمل فى الحسن والسيء معاً ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾[1] .. والداعى إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره لجهله ، فكانت حاجة المربى أو القوّام على غيره ماسة إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه ، مثل الوصول إليه .. و (التوفى) : أخذ الشيء وافياً تاماً ، ثم استعمل بمعنى الإماتة ، كما قال تعالى : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها ﴾[2] . و﴿تطهيره ﴾ من الذين كفروا : براءته مما كانوا يرمونه بتهمة أمه بالزنا .

هذا مشهد قرآنى اشتمل على كثير من المواقف الناطقة بالحق والعدل والقسطاس المستقيم ، فقد سبق من الآيات ما يفيد أن السيد المسيح عليه السلام أعلن كلمة التوحيد عالية ، فقال : ﴿إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾[3] . وهذه الركيزة الأولى والقاعدة الأصيلة فى رسالات الأنبياء ، فقد بعثوا لتوحيد العقائد لا لتفريق القواعد،فكان رد الفعل لهذه لكلمة أن صدق البعض وكفر البعض ، وهذه عادة الناس مع الأنبياء ، فقد قال قوم سيدنا محمد ﷺ ـ كما أخبر القرآن : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾[4] ، هذا وقد دخل قومه بعدئذ فى دين الله أفواجاً ، وهذا منطوق قوله جل شأنه : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾[5] . وقال قوم المسيح عليه السلام : ﴿ نحن أنصار الله ، آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ وقال آخرون ما قالوا : من الافتراء الذى يؤدى إلى الكفر ، قال تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم

(١) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .
(٢) من الآية : ٤٢ من سورة الزمر .
(٣) من سورة آل عمران وقد سبق الحديث عنها .
(٤) الآيتان : ٤ ، ٥ من سورة « ص » .
(٥) سورة النصر .

قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلايؤمنون إلا قليلاً * وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾[١] ، وهكذا : آمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة ، فلما علم عيسى منهم الكفر نادى : ﴿ من أنصارى إلى الله قال الحواريون ﴾ وهم الأصفياء ﴿ نحن أنصار الله ﴾ أى الناصرون لدينه المعلنون لكلمته ﴿ آمنا بالله ﴾ وصدقنا أنه رب العالمين ، تصديقاً قلبياً جازماً ﴿ واشهد ﴾ يا نبى الله ﴿بأنا مسلمون ﴾ . وهكذا فالأنبياء جميعاً عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . ثم أضافوا ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ من الكتب والشرائع ﴿ واتبعنا الرسول ﴾ الذى جاءنا ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ على ذلك الإيمان والاتباع .

أما الطائفة الأخرى : فقد فكرت ودبرت لقتل المسيح بمساعدة الرومان وكادت له ، ونسيت أوتناست أن يد الله تعمل فى الخفاء ، وأنه سيفسد مكرهم وخداعهم وتدور الدائرة على من مكر ، فإن هناك إلهاً قادراً عالماً علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وثلاثة إذا كن لك كن عليك : البغى ، والمكر والنكث ، قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾[٢] وقال جل شأنه : ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾[٣] وقال تبارك اسمه : ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾[٤] .

لقد مكروا ودبروا ليصلوا إلى قتل نبى الله . والله تعالى دبر لينتقم وهو خير من يدبر وينتقم فألقى شبه المسيح على من مكر به ، ورفع المسيح إليه ونجاه ، وقتل صاحب المكر السيىء قال تعالى : ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا* بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[٥] .

قال جل شأنه: ﴿ ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ﴾ إذ أنه تعالى لايظلم أحداً ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٦] . ومن خير الله تعالى أنه رفع المسيح روحاً وجسداً قال سبحانه ممتناً عليه : ﴿ وإذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ .

هذه من نعم الله التى أنعم الله بها على المسيح . والوفاة تطلق ويراد بها كثير من المعانى فقد يقصد بها : توفية الأجر لأصحاب الدعوات والرسالات والمجاهدين والمسيح منهم ، بل من أوائلهم ، لأنه من أولى العزم ، وقد تطلق الوفاة ويرادبها النوم قال تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ﴾[٧] . وقد يراد بالوفاة الموت ، قال تعالى على لسان المسيح يوم القيامة:﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾[٨] . أى فلما أمتنى فى الدنيا قبل القيامة ، كنت أنت الرقيب عليهم . والذى نختاره فى قوله تعالى لعيسى : ﴿ إنى متوفيك ﴾ أى متوفيك أجرك على ما قدمته لهؤلاء القوم من نصح ، وعلى صبرك على أذاهم ، وما بذلوه فى سبيل قتلك ، لأن الآية سبقت لبيان ما أنعم الله به على المسيح ، بدليل قوله تعالى بعد

(١) الآيتان : ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ٢٣ من سورة يونس .
(٣) من الآية : ٤٣ من سورة فاطر .
(٤) من الآية : ١٠ من سورة الفتح .
(٥) الآيتان : ١٥٧ ، ١٥٨ من سورة النساء .
(٦) من الآية : ٤٤ من سورة يونس .
(٧) من الآية : ٦٠ من سورة الأنعام .
(٨) من الآية : ١١٧ من سورة المائدة .

ذلك ﴿ ورافعك إلى ﴾ أى منجيك من مكرمهم ، فقد خدعوا ودبروا ، وأنا انتقمت منهم ورفعتك إلىَّ ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أى مما قالوه من سب أمك ورميها بالبهتان العظيم ، فقد قال تعالى :

﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾ وقد رفع المسيح كما صرح بذلك القرآن الكريم ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾[1] وسينزل إلى الأرض فيكون نزوله علامة من علامات الساعة الكبرى ، قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : (لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضعن الجزية)[2] .

وفى القرآن الكريم آيات بينات سنزيد القول فيها تفصيلاً عندما نأتى إليها فى سورة النساء والزخرف . قال تعالى فى سورة النساء: ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾[3] أى قبل موت المسيح هذا تفسير للآية بمعنى أن الإسلام سيعم أرجاء الأرض ، حيث يرفع المسيح راية الإسلام عالية ﴿ ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا ﴾[4] وقال تعالى فى سورة الزخرف ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها ﴾[5] والضمير هنا عائد على عيسى الذى ذكر فى الآيات السابقة ، ومعنى علم الساعة أنه علامة على قربها ، وليس هناك ما يمنع عقلاً ولا شرعاً من نزول المسيح ودعوته الناس إلى الإسلام ، فلا داعى أبداً إلى الجدل العقيم فى هذه المسألة ، لأن النصوص فى الكتاب والسنة صريحة فضلاً عن كونها صحيحة .

قوله تعالى: ﴿ وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾ أى أن الذين اتبعوك فآمنوا بالله رباً وبك نبياً وبقولك لهم ﴿ إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[6] فهؤلاء مؤمنون ، ولا شك أن درجة المؤمن المعنوية والحسية أفضل عند الله من الكافرين ، ذا حُكم حَكم الله به . وهو مستمر إلى يوم القيامة .

قوله تعالى: ﴿ ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ خطاب من الله تعالى إلى الذين اختلفوا مع المسيح وطال عنادهم وكثر جحودهم ، فالله تعالى سوف يفصل بينهم ، فإنه يقضى بالحق وهو خير الفاصلين ، وسيكون الحكم والجزاء عادلاً ﴿ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ . وقوله جل شأنه: ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ﴾[7] ، أى بأنواع البلاء والشدائد والمصائب والهزائم : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[8] .

قوله سبحانه : ﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾ أى يجزيهم بالأجر غير منقوص كقوله تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾[9] ، لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى

---

(١) من الآية : ١٥٨ من سورة النساء .

(٢) متفق عليه وتتمة الحديث « ولتتركن القلاص فلا يسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » واللفظ لمسلم .

(٣) من الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٤) تتمة الآية : ١٥٩ من سورة النساء .

(٥) من الآية ٦١ من سورة الزخرف .

(٦) من الآية : ٦ من سورة الصف .

(٧) ، (٨) من الآية : ١٢٤ من سورة طه .

(٩) من الآية : ١٢٣ من سورة طه .

الآخرة . قال سبحانه : ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ كقوله جل جلاله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[1] . فالله تعالى إن يعاقبنا فبمحض العدل وإن يثبنا فبمحض الفضل : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ . أى إن ما سبق أن ذكرناه لك وتلوناه عليك من قصة امرأة عمران وزكريا ومريم والمسيح وقومه كل هذا جاءك به النبأ اليقين والذكر الحكيم الذى ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[3] كقوله تعالى فى سورة هود : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[4] .

المسيح وآدم والمباهلة

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

المفردات : ﴿ المثل ﴾ : الحال العجيبة والشأن البديع ، الامتراء : الشك ، البهلة (بالضم والفتح) اللعنة والدعاء . يقال (بهلة الله) : أي لعنه ثم شاع استعماله فى مطلق الدعاء يقال فلان يبتهل إلى الله فى حاجته : أى يدعوه . و ﴿ القصص ﴾ : تتبع الأثر ومنه قوله تعالى ﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾[5] أى تتبعى أثره ثم استعمل فى الكلام والحديث ، لأن القاص يتتبع المعانى ليوردها ، و﴿ العزيز ﴾ : أى ذو العزة الذى لا يغالبه أحد . ﴿ الحكيم ﴾ ذو الحكمة التى لا يساميه فيها أحد .

قوله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ﴾ هذا إخبار من الله جل شأنه ، وخطاب لكل من أوتى شيئاً من التدبر والعقل ، فبالمثل يتضح المراد من القضية ، وضوحاً أجلى من الشمس فى ضحاها ، فإن عيسى : إن كان الله تعالى قد خلقه من أم لا زوج لها ، فهذا ليس أغرق فى العجب ولا أبعد من خلق آدم ،

---

(١) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية : ٤٠ من سورة النساء .
(٣) من الآية : ٤٢ من سورة فصلت .
(٤) الآية : ٤٩ من سورة هود .
(٥) من الآية : ١١ من سورة القصص .

فآدم لا أب له ولا أم ، إنما خلقه الله من تراب اختلط بالماء ، فصار طيناً ، تغيرت رائحته ، فكان حمأ مسنونا ، ثم جف فكان صلصالاً ، ثم ازداد جفافاً فكان كالفخار ، ثم سواه الله إنساناً بعد أن أتى عليه حيناً من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ، ثم نفخ فيه من روحه ، فكان آدم ، قال جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمإ مسنون ﴾[٣] وقال تبارك وتعالى : ﴿ خلق الانسان من صلصال كالفخار ﴾[٤] وقال عز وجل : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين * فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾[٥] . إن الذى خلق من الطين بشراً سوياً ، قادر بالأولى أن يخلق عيسى بلا أب ، فمن أبو آدم وأمه وما حقيقته ؟ ! أليس الطين الذى لا حياة فيه ، فكيف نستبعد على الإله القادر الذى خلق آدم بلا أب ولا أم أن يخلق عيسى بلا أب ، بل أن عيسى إذا قيس بآدم لكان خلقه أهون ، لقد خلق فى زحام عادى ، وكان بشراً عادياً ، وقضى مدة الحمل فى بطن أمه ، وتغذى بغذائها وتنفس بتنفسها ، وعاش كما تعيش الأجنة فى الأرحام . ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٦] إن الذى خلق آدم بالكاف والنون ، هو الذى خلق عيسى بكلمة منه ، وهى الكاف والنون ، ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾ وكما قال سبحانه فى سورة مريم فى شأن المسيح : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾[٧] قال هنا فى سورة آل عمران : ﴿ **الحق من ربك فلا تكن من الممترين** ﴾ وهذا أسلوب تعريض بالمتشككين المترددين فى قبول الحق ، وفيه تثبيت لدعوة الحق ، إذ الحق لا يتعدد ، لأنه من الواحد جل شأنه ، وقد كان الصادق المعصوم ﷺ إذا قام من الليل ليصلى أثنى على الله بما هو أهله فقال : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت ولك حاكمت أنت إلهى ولا إله إلا أنت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت »[٨] .

قوله تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾ .

كان سبب نزول آية المباهلة وما قبلها من أول سورة آل عمران فى وفد نجران : أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون فى عيسى ، ويزعمون فيه مايزعمون من النبوة والإلوهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة رداً عليهم ، كما ذكره الإمام محمد بن إسحق بن يسار وغيره : قال ابن إسحق فى سيرته المشهورة وغيره : « وقدم على رسول الله ﷺ وفد نصارى نجران ستون راكباً ، فيهم أربعة عشر من أشرافهم يؤول أمرهم إليهم وهم : العاقب واسمه عبد المسيح ، والسيد وهو الأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة أخو بكر بن وائل ، وأويس

(١) الآية : ٢٠/ من سورة الروم .
(٢) من الآية : ٢/ من سورة الأنعام .
(٣) من الآية : ٢٦/ من سورة الحجر .
(٤) الآية : ١٤/ من سورة الرحمن .
(٥) الآيتان : ٧١/ ، ٧٢ من سورة ص .
(٦) الآية : ٦/ من سورة آل عمران .
(٧) من الآية : ٢١/ من سورة مريم .
(٨) رواه الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما ورواه النووى فى الأذكار والكاندهلوى فى حياة الصحابة .

ابن حارث ، وزيد وقيس ويزن وابناه ، وخويلد وعمرو وخالد وعبد الله ومحسن ، وأمر هؤلاء يؤول إلى ثلاثة منهم ، وهم العاقب ، وكان أمير القوم وذا رأيهم وصاحب مشورتهم ، والذى لا يصدرون إلا عن رأيه ، والسيد كان عالمهم وصاحب رحلهم ومجتمعهم ، وأبو حارثة بن علقمة وكان أسقفهم وصاحب مدارستهم ، وكان رجلا من العرب من بنى بكر بن وائل ، ولكنه تنصر فعظمته الروم وملوكها ، وشرفوه وبنوا له الكنائس وأخدموه لما يعلمونه من صلابته فى دينهم ، وقد كان يعرف أمر رسول الله ﷺ وصفته وشأنه مما علمه من الكتب السابقة ، ولكن حمله ذلك على الاستمرار فى النصرانية لما يرى من تعظيمه فيها وجاهه عند أهلها . . قال ابن إسحق : وحدثنى محمد بن جعفر بن الزبير قال : قدموا على رسول الله ﷺ المدينة ، فدخلوا عليه مسجده حين صلى العصر ، عليهم ثياب الحبرات : جبب وأردية فى جمال رجال بنى الحارث بن كعب ، قال : يقول من قابلهم من أصحاب النبى ﷺ ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم ، وقد حانت صلاتهم فقاموا فى مسجد رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ «دعوهم» فصلوا إلى المشرق ، قال : فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب عبد المسيح والسيد الأيهم ، وهم من النصرانية على دين الملك مع اختلاف أمرهم ، يقولون هو الله ويقولون هو ولد الله ويقولون هو ثالث ثلاثة ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ وكذلك النصرانية فهم يحتجون فى قولهم هو الله ، بأنه كان يحيى الموتى ويبرىء الأكمه والأبرص والأسقام ويخبر بالغيوب ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا ، وذلك كله بأمر الله وليجعله الله آية للناس ، ويحتجون فى قولهم بأنه ابن الله يقولون : لم يكن له أب يعلم وقد تكلم فى المهد بشىء لم يصنعه أحد من بنى آدم قبله ، ويحتجون على قولهم بأنه ثالث ثلاثة بقول الله تعالى فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا ، فيقولون لو كان واحداً ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ، ولكنه هو وعيسى ومريم ـ تعالى الله وتقدس وتنزه عما يقول الظالمون والخاسرون علواً كبيراً ـ وفى كل ذلك من قولهم : قد نزل القرآن ؛ فلما كلمه الحبران ، قال لهما رسول الله ﷺ : «أسلما» قالا : قد أسلمنا قال : «إنكما لم تسلما فأسلما» قالا : بلى قد أسلمنا قبلك . قال : «كذبتما : يمنعكما من الإسلام ادعاؤ كما لله ولدا ، وعبادتكما الصليب ، وأكلكما الخنزير» قالا فمن أبوه يا محمد ؟ فصمت رسول الله ﷺ عنهما ، فلم يجبهما ، فأنزل الله فى ذلك من قولهم واختلاف أمرهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها ، ثم تكلم ابن إسحق عن تفسيرها إلى أن قال : فلما أتى رسول الله ﷺ الخبر من الله والفصل من القضاء بينه وبينهم وأمر بما أمر به من ملاعنتهم إن ردوا ذلك عليه ، دعاهم إلى ذلك قالوا : يا أبا القاسم دعنا ننظر فى أمرنا ، ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه ، ثم انصرفوا عنه ثم خلوا بالعاقب وكان ذا رأى فقالوا : يا عبد المسيح ؛ ماذا ترى ؟ قال : والله يا معشر النصارى : لقد عرفتم أن محمداً لنبى مرسل ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ، ولقد علمتم أنه ما لاعن قوم نبياً قط فبقى كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، وانه للاستئصال منكم إن فعلتم ، فإن كنتم أبيتم إلا إلف دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه من القول فى صاحبكم ؛ فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم . . فأتوا النبى ﷺ فقالوا يا أبا القاسم : قد رأينا أن لا نلاعنك ونتركك على دينك ، ونرجع على ديننا ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا ، يحكم بيننا فى أشياء اختلفنا فيها فى أموالنا فإنكم عندنا رضا ، قال محمد بن جعفر : فقال رسول الله ﷺ : «ائتونى العشية أبعث معكم القوى الأمين» ، فكان عمر

ابن الخطاب رضى الله عنه يقول : ما أحببت الإمارة قط حبى إياها يومئذ ، رجاء أن أكون صاحبها ، فرحت إلى الظهر مهجراً[١] فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر سلم ، ثم نظر عن يمينه وشماله فجعلت أتطاول له ليرانى ، فلم يزل يلتمس ببصره ، حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح فدعاه فقال : «اخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه» قال عمر : فذهب بها أبو عبيدة رضى الله عنه .

روى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس : قال أبو جهل قبحه الله إن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على رقبته ؛ قال : فقال : «لوفعل لأخذته الملائكة عيانا ، ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ، ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلا» . وقد رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قدم على النبى ﷺ العاقب والطيب فدعاهما إلى الملاعنة ، فواعداه على أن يلاعناه الغداة . قال : فغدا رسول الله ﷺ فأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين ؛ ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيبا ، وأقرا له بالخراج[٢] قال : فقال رسول الله ﷺ «والذى بعثنى بالحق لو قالا لا ، لأمطر عليهم الوادى ناراً» قال جابر : وفيهم نزلت ﴿ **ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم** ﴾ وقال جابر : ﴿ **أنفسنا وأنفسكم** ﴾ رسول الله ﷺ وعلى بن أبى طالب ﴿ **وأبناءنا** ﴾ الحسن والحسين ﴿ **ونساءنا** ﴾ فاطمة وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه .

قوله تعالى : ﴿ **إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم** ﴾ أى ما قصصناه عليك يا محمد وأخبرناك به فى شأن عيسى من أنه بشر يأكل كما يأكل البشر ويشرب كما يشربون ، وينام ويمرض ويموت : هذا كله حق ، وهو حق اليقين بل عين اليقين ، فمن كذب به ، فاعلم أن الله عليم بالمفسدين ، وما من إله إلا الله ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون * قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعاً والله هو السميع العليم * قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين** ﴾ أى إن أعرضوا عن هذا الحق فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾[٤] واعلم بأن الله

(١) أى وقت الهجير يعنى جاء مبكرا وكانوا يؤخرون الظهر عن الهجير .
(٢) يعنى الجزية .
(٣) الآيات : ٧٢ - ٧٧ من سورة المائدة .
(٤) الآية : ١٢٧ من سورة النحل .

عليم بهم فإنهم مفسدون فى الأرض ، والله لا يحب المفسدين ، ولا يصلح عملهم فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

دعوة إلى أهل الكتاب

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

المفردات : ﴿ **أهل الكتاب** ﴾ : هم اليهود والنصارى . ﴿ **تعالوا** ﴾ : أى اقبلوا ووجهوا النظر إلى ما دعيتم إليه . ﴿ **سواء** ﴾ : أى عدل وإنصاف من بعضنا لبعض و ﴿ **الإله** ﴾ : هو المعبود الذى يدعى حين الشدائد ويقصد عند الحاجة ، لأنه وحده ذو السلطة الغيبية و (الرب) : هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد هنا ماله حق التشريع من تحريم وتحليل ﴿ **مسلمون** ﴾ : أى منقادون لله مخلصون له ، ﴿ **تحاجون** ﴾ : أىْ تجادلون ، و (الحنيف) : المائل عن العقائد الزائفة ، (المسلم) : هو الموحد المخلص المطيع له .

وجه الله تعالى الدعوة إلى أهل الكتاب أن يقبلوا على كلمة حق وعدل وإنصاف ، لا تعصب فيها ولا انحياز ، إنما يكون الغرض من كلمة الحق : أن يعبدوا الله وحده ، وألا يشركوا به شيئا ، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً ؛ يشرع الحلال والحرام ، إنما تكون التبعية فى ذلك للإله المعبود الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، الخالق البارىء المصور الحكيم ، الخافض الرافع القابض الباسط المحيى المميت المعز المذل الواسع الجامع الباعث الوارث ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[1] ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ١١٥ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية : ٤٠ من سورة يوسف .

فإن تولوا عما دعوتهم إليه يا محمد ، فقل أنت وأمتك ﴿ اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ ثابتون على دين الحق رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

وقد حوت هذه الآية وحدانية الإلوهية فى قوله : ﴿ ألا نعبد إلا الله ﴾ ووحدانية الربوبية فى قوله : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ﴾ .

وهذا القدر متفق عليه فى جميع الأديان ، فقد جاء إبراهيم بالتوحيد وجاء به موسى فقد ورد فى التوراة قول الله له : (إن الرب إلهك لا يكن لك آلهة أخرى أمامى لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض ولا تسجد لهن ولا تعبدهن) .

وكذلك جاء عيسى بمثل هذا ؛ ففى إنجيل يوحنا : (وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) . وجاء خاتم النبيين محمد ﷺ بمثل هذا : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾(١) .

وخلاصة المعنى : أنا وأنتم نعتقد أن العالم من صنع إله واحد .

روى عدى بن حاتم قال : «أتيت رسول الله ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب : فقال : (يا عدى اطرح عنك هذا الوثن» وسمعته يقرأ فى سورة براءة : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾(٢) فقلت له : يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال : (أما كانوا يحللون لكم ويحرمون فتأخذون بأقوالهم ؟ قلت نعم : فقال عليه الصلاة والسلام ، هو ذاك)(٣) .

قوله تعالى: ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ﴾ .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : «اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً . فأنزل الله ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ﴾ الآية .

﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم ﴾ أى أيها اليهود والنصارى : لم تتنازعون وتتجادلون فى إبراهيم ويدعى كل منكم أنه على دينه ؟

وقد كان إبراهيم موضع إجلال الفريقين لما فى كتبهم من الثناء عليه فى العهد العتيق . وقد أنحى القرآن باللائمة على هؤلاء الذين نسبوا إبراهيم إلى اليهودية أو النصرانية ، وإلى التوراة أو الإنجيل ، مع أن العقل يقضى بأن المتقدم فى الزمان – كيف يكون – تابعاً لما سيأتى بعده وقد كان إبراهيم قبل أن تنزل التوراة والإنجيل فكيف يكون متقدماً وتابعاً لما بعده !؟ إن هذا دليل على الحمق والسفه ، ولذا قال الله فى ختام

(١) آية الكرسى ٢٥٥ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ٣١ من سورة التوبة أو براءة .
(٣) رواه الشيخان واللفظ لمسلم .

الآية : ﴿ أفلا تعقلون ﴾ الفاء هنا عاطفة على محذوف تقديره : أجننتم فلا تعقلون ، وقد جاء هذا القول كما جاء فى آية أخرى فى سورة البقرة : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

معنى ﴿ حاججتم فيما لكم به علم ﴾ أى من أمر عيسى عليه السلام ، وقد قامت عليكم الحجة وتبين أن منكم من غلا وأفرط وادعى ألوهيته ، ومنكم من فرط وقال إنه دعىّ كذاب ، ولم يكن علمكم بمانع من الخطأ .

قال تعالى : ﴿ فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ﴾ أى فى شأن الخليل إبراهيم فقد وقعتم فى جهل مطبق لأحداث التاريخ وقواعد العقائد ، وهذا الجهل أدى بكم إلى الجدل العقيم الذى سلككم فى سلك الجاهلية جهلاً مركباً ، فليتكم تستمعون إلى ما قاله الله أصدق القائلين ، هو الذى يعلم وأنتم لا تعلمون .

قال الخليل بن أحمد[٢] : الرجال أربعة : رجل يدرى ويدرى أنه يدرى ، فذلك عالم فأسألوه ، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى ، فذلك غافل فنبهوه ، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى ، فذلك جاهل فعلموه ، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى ، فذلك مكابر فاتقوه .

ثم بين الله تعالى حقيقة شأن إبراهيم فقال : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفاً ﴾ أى مائلا عن العقائد الفاسدة ﴿ مسلما ﴾ لله ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٣] .

قال سعيد بن منصور عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لكل نبى ولاة من النبيين وإن وليىّ منهم أبى وخليل ربى عز وجل) ثم قرأ ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾[٤] .

هذه الآية الكريمة ترد على اليهود والنصارى الذى زعموا كذباً وبهتاناً أن إبراهيم ينتمى فى العقيدة إلى دين كل منهم ، فقال الله تعالى : لستم أولى الناس بإبراهيم لأنكم قد انحرفتم عن الجادة ، وكفرتم بالله ورسوله ، بل إن أولى الناس بإبراهيم الذين اتبعوه ونصروه وعبدوا الله وحده ، وهذا النبى محمد ـ ﷺ ـ ومن معه من الأنصار والمهاجرين هم أولى الناس بإبراهيم .

---

(١) الآية : ١٣٥ من سورة البقرة .
(٢) هو الخليل بن أحمد الفراهيدى ، من أعلام القرن الثانى الهجرى أول من صنف علم أوزان الشعر وأحصى لسيبويه عالم النحو المعروف . والخليل أول من ألف المعاجم فى العربية .
(٣) الآيتان : ١٣١ ، ١٣٢ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٦٨ من سورة آل عمران .

قوله تعالى:﴿ والله ولى المؤمنين ﴾ أى هو الذى يتولى الصالحين بالرعاية والنصر المبين ﴿ إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾[1] .

حديث عن أهل الكتاب

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ *

المفردات : ﴿ **ود الشىء** ﴾ : أحبه ، ﴿ **طائفة** ﴾ : أى جماعة وهم ا الأحبار والرؤ ساء ، ﴿ **والآيات** ﴾ : هنا ما يدل على صدق نبوة محمد ﷺ ، ﴿ **وتلبسون** ﴾ : أى تخلطون ، ﴿ **وجه النهار** ﴾ ، أى أوله . تقول : أتيته بوجه نهار وصدر نهار وشباب نهار . ﴿ آمن له ﴾ : صدقه وسلم له ما يقول ، كما قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف:﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾[2] و ﴿ **الفضل** ﴾ : الزيادة والمراد به هنا النبوة .

هذا المشهد القرآنى الكريم اشتمل على المواقف المليئة بمكر اليهود ، والقبائح التى كادوا بها للإسلام ، والحقيقة أن اليهود هم اليهود لو تركت الثعالب مكرها والكلاب نباحها والحيات لدغها والثعابين عضها ؛ ما ترك اليهود عداءهم للإسلام ومكرهم به .

قوله تعالى:﴿ **ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم** ﴾ لو هنا مصدريه مثل أن ، ما ، كى ، أن ، والتقدير تمنت طائفة من أهل الكتاب إضلالكم ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾[3] ، وغفل هؤلاء عن أنهم بذلك يضلون أنفسهم وما يشعرون ، فإن يد الله

(١) الآية : ١٩٦ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية : ١٧ من سورة يوسف .
(٣)الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .

تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[1] ثم وجه الله تعالى إليهم هذين السؤالين توبيخاً وتقريعاً :

﴿ **يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ أى لم الكفر بالآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ وأنتم تشهدون أنها حق ، قال تعالى:﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[2] .

قوله تعالى لرؤساء اليهود وأحبارهم : ﴿ **يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾ المراد بالحق هنا نبوة الرسول محمد ﷺ وقد كتموها ابتغاء مناصب الدنيا والسيطرة على العامة ، فقد يخشون أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ورسالته فينصرفوا عن رؤسائهم وأحبارهم الذين كانوا يحلون لهم ويحرمون عليهم .

قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾[3] كما سبق فى حديث عدى بن حاتم ، فابتغاء الباطل من الجاه والرئاسة أضلهم وأعمى أبصارهم ، وهم يعلمون أن النبى ﷺ حق فإنه خاتم الأنبياء قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لوشئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[4] .

قوله تعالى:﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون** ﴾ .

هذه إحدى ألاعيب اليهود ومكرهم بالمسلمين فقد تآمروا فيما بينهم أنهم إذا رأوا أصحاب النبى ﷺ أول النهار ، يؤمنون إيماناً ظاهرياً ، فإذا ما جاء آخر النهار كفروا ، وظنوا أنهم بذلك سيلقون الشكوك فى قلوب

(١) الآيتان : ٥٠ ، ٥١ من سورة النمل .
(٢) آخر آية فى سورة الفتح .
(٣) من الآية : ٣١ من سورة التوبة .
(٤) الآيات : ١٥٥ - ١٥٨ من سورة الأعراف .

المسلمين ، فيرجعون عن دينهم وينقلبون كفاراً ، إذ قد يظن ظانّ أنهم أهل الكتاب ، ويعرفون أكثر مما يعرف المسلمون .

ثم قال بعضهم لبعض ﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أى لا تصرحوا لأحد بما فى التوراة إلا إذا كان يهودياء وذلك حتى لا يؤ تى أحد من العلم مثل ما أوتيتم ، وحتى لا يحتج عليكم أحد بما أوتيتم من عند الله ، فيقيم عليكم البراهين بأنكم خاطئون في تكذيبكم برسالة محمد ﷺ ونبوته ، إذ كيف يكون ذلك ! ؟ وقد ورد ذكره فى التوراة والإنجيل ، فرد عليهم المولى تبارك وتعالى قائلا : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ أى ما أنزله إلى حبيبه ومصطفاه ، قال جل شأنه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى الى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ (١) ورد عليهم مولانا تبارك وتعالى قائلاً : ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ﴾ ومن فضله تعالى أن تفضل على نبى هذه الأمة بجعل رسالته عامة للعالمين ، وأحل له الغنائم ولم تحل لأحد قبله ، وجعل الأرض مسجدا وتربتها طهورا ، تخفيفا على أمته ، ونصره بالرعب بين يديه مسيرة شهر ، وأعطاه الشفاعة ، وجعله أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، وجعله الماحى الذى محا الله به الشرك ، والعاقب الذى لا نبى بعده ، فهو سبحانه وتعالى واسع الرحمة عليم بما فى القلوب ، فقد اطلع على قلوب أهل الأرض فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب أهل الأرض ، فاختاره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فاختارهم لصحبته ، ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ . ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ (٢) قال المفسرون المقصود بالناس هنا محمد ﷺ وأمته .

مواقف لأهل الكتاب

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

---

(١) آخر آيات سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣

(٢) من الآية : ٥٤ من سورة النساء .

المفردات : ﴿ **تأمنه** ﴾ : من أمنته بمعنى ائتمنته ، ويقال أمنته بكذا وعلى كذا والمراد بقنطار : عدد كثير ، و ﴿ بالدينار ﴾ : العدد القليل ، و ﴿ الأميون ﴾ : هم العرب ، و ﴿ السبيل ﴾ : المؤاخذة والذنب ، و﴿ بلى ﴾ كلمة تقع جوابا عن نفى سابق لتثبته والعهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، وإذا كان الالتزام من طرفين يقال عاهد فلان فلانا عهدا . ﴿ ويشترون ﴾ : أى يستبدلون والمراد بالعهد عهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة ، أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون ، والمراد بالأيمان : الأيمان الكاذبة . والثمن القليل : هو العوض الذى يأخذونه أو الرشا ، وجعل قليلا لأن كل ما يفوت الثواب ويوجب العقاب فهو قليل ، و ﴿ **لا خلاق لهم** ﴾ : أى لا نصيب لهم . ﴿ **ولا يكلمهم الله** ﴾ : أى يغضب عليهم . ﴿ **ولا ينظر إليهم** ﴾ : أى يسخط عليهم ويستهين بهم . ﴿ **ولا يزكيهم** ﴾ : أى لا يثنى عليهم .

بعد أن بين سبحانه خيانة أهل الكتاب فى الدين ، وكيدهم للمسلمين ليرجعوا عن دينهم ، وصدهم عن الدعوة لذلك الدين الجديد بكل وسيلة يستطيعونها ، زعما منهم أنهم شعب الله المختار ، وأن الدين الحق خاص بهم ، لا يعدوهم إلى شعب آخر ولا إلى أمة أخرى ، أردف ذلك بذكر حال طائفة أخرى منهم ، تخون الأمانات وتستحل أكل أموال الناس بالباطل تأويلا للكتاب وغرورا فى الدين .

﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما ﴾ أى ومن أهل الكتاب طائفة تشاكس المسلمين وتكيدهم ليرجعوا عن دينهم ، ومنهم طائفة أخرى تستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم : زعما منهم أن الكتاب لم ينههم إلا عن خيانة إخوانهم من بنى إسرائيل والخلاصة : أن أهل الكتاب طائفتان :

١ ـ طائفة تؤمن على كثير وقليل كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفا ومائتى أوقية من ذهب خالص فأداها إليه .

٢ ـ طائفة أخرى تخون الأمانة فإذا استودعتها القليل حجبته ولا تؤده إليك إلا إذا أدمت الوقوف على رأسها ، ملحا فى المطالبة أو لاجئا إلى التقاضى والمحاكمة ، ومن هؤلاء كعب بن الأشرف [1] استودعه قرشى دينارا فجحده ثم بين السبب فى فعلهم هذا فقال : **﴿ ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾** أى أن ذلك الترك لأداء الأمانة من قبل أنهم زعموا أنه لا تبعة ولاذم فى أكل أموال العرب ، وخلاصة هذا أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له ، بل هو مبغض عنده محتقر لديه فلا حقوق له ولا حرمة لماله ، فكل ما يستطاع أخذه منه فلا ضير فيه ، ولا شك أن هذا من الصلف والغرور والغلو فى الدين ، واحتقار المخالف الذى يستتبع اهتضام حقوقه . روى بن جرير : أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم فى الجاهلية فلما أسلموا تقاضوهم الثمن[2] فقالوا : ليس علينا أمانة لااقتضاء لكم عندنا لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم . فرد الله عليهم

(١) أو فنحاص بن عازوراء .
(٢) أى طلبوا ثمن ما باعوه لهم من قبل .

بقوله : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أى وهم يعلمون كذبهم فى ذلك ، لأن ما جاء من عند الله فهو فى كتابه ، والتوراة التى بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين ، ولا أكل أموالهم بالباطل ، ﴿ وهم يعلمون ﴾ ذلك حق العلم ، لكنهم لما لم يكتفوا بالكتاب ولجأوا إلى التقليد ، وعدوا كلام أحبارهم دينا ، وهؤلاء قالوا فى الدين بالرأى والهوى ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، ليؤيدوا اراءهم وقد وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم على ما يدعون .

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير ، قال : لما نزلت ﴿ ومن أهل الكتاب ـ إلى قوله ـ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾ قال النبى ﷺ : كذب أعداء الله ، ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمى هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر .

﴿ بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين ﴾ أى بلى ، وعليكم فى الأميين سبيل ، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات ، فمن أقرضك مالا إلى أجل أو باعك بثمن مؤجل ، وائتمنك على شىء ، وجب عليك الوفاء به وأداء الحق له فى حينه ، دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحكمت الشريعة .

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبا لذاته ، بل العبرة عندهم بالمعاهدة ، فإن كان إسرائيليا وجب الوفاء له ولا يجب الوفاء لغيره .

والعهد نوعان :

١ – عهد المرء لأخيه فى العقود والأمانات كما تقدم .

٢ – عهد الله تعالى ، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله .

واليهود لم يفوا بشىء منهما ، إذ لو وفوا بعهد الله لآمنوا بالنبى ﷺ واتبعوا النور الذى أنزل معه ، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى صلوات الله عليه .

وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد ـ المتقين الإخلاف والغدر ـ محبته تعالى ورحمته لهم فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا إيماء إلى : أن الوفاء بالعهود واتقاء الإخلاف فيها وفى سائر المعاصى والخطايا هو الذى يقرب العبد من ربه ، ويجعله أهلاً لمحبته ، أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله .

وفى هذا تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من اليهود ليسوا على حظ من التقوى ، وهى الدعامة الأساسية فى كل دين قويم .

﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾ . أى أن الذين يتعاهدون بعهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة ، بأن يلتزموا الصدق والوفاء بما سيتعاهدون عليه ويتعاقدون ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ،

وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ويتقوه فى جميع الأمور ، بما حلفوا عليه من قوله لهم :﴿لتؤمنن به ولتنصرنه-إلى قوله-ثمناً قليلاً﴾ هو العوض أو الرُّشا ــ أولئك لا نصيب لهم فى منافع الآخرة ونعيمها ، ويغضب عليهم ربهم ولا ينظر إليهم ،ولا يثنى عليهم يوم القيامة ، ولهم عذاب أليم هو الغلبة فى الألم قال القفال : « هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه فى الدنيا ، فإنما ذلك لسخطه عليه ، وقد يأمره بحجبه عنه هو ويقول : لا أكلمك ولا أرى وجهك ، وإذا جرى ذكره لم يذكر بالجميل » ا. هـ.
وصفوة القول : إن الله توعد الناكثين للعهد المخلفين للوعد بالحرمان من النعيم بالعذاب الأليم ، وبأنهم يكونون فى غضب الله بحيث لا ترجى لهم رحمة ، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة .

ولم يتوعد الله مرتكبى الكبائر من الزنا وشاربى الخمر ولاعبى الميسر وعاقّى الوالدين بينما توعد ناكثى العهود وخائنى الأمانات ، لأن مفاسدهما أعظم من جميع المفاسد التى لأجلها حرمت تلك الجرائم .

فالوفاء بها آية الدين البينة ،والمحور الذى تدور عليه المصالح العمرانية ، فمتى نكث الناس فى عهودهم زالت ثقة بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات وأساس النظام ، والإيمان بالله لا يجتمع مع الخيانة والنكث بالعهد ، ألا ترى أن النبى ﷺ جعله علامة النفاق فقال : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب،وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ﴾[1] .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن أنس رضى الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله ﷺ إلا قال :(لا إيمان لمن لا أمانة له،ولا دين لمن لا عهد له) فما بال كثير من المسلمين ــ حتى المتدينين منهم ــ استهانوا بالعهود . وأصبحوا لا يحفظون الأيمان ويرون ذلك شيئاً صغيراً ، مع كل ما رأوا من شديد التهديد والوعيد ، ويكبرون أمر المعاصى التى لم يتعودوها لعدم الإلف والعادة فقط ، مع أنها دون ذلك عند الله كما تدل عليه هذه الآية .

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت هذه الآية فى أبى رافع ولبابة بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف وحيى بن أخطب ؛ حرفوا التوراة وبدلوا نعت رسول الله ﷺ ، وحكم الأمانات وغيروها وأخذوا على ذلك الرشا .

وروى البخارى وغيره أن الأشعث بن قيس قال : « كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحد فيها ، فقدته إلى رسول الله ﷺ ، فقال:ألك بينة ؟ قلت لا : فقال لليهودى احلف فقلت : يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالى . فأنزل الله:﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله** ﴾الآية .

قال الحافظ ابن حجر والآية محتملة لأن يكون هذا سبب النزول أو ذاك ، والعمدة فى ذلك ما ثبت فى الصحيح .

أن الأيمان فى الإسلام لها خطورتها فعلى المسلم أن يعلم أن أشد الأيمان خطورة عند الله اليمين الغموس وهو الذى يتعمد صاحبه الكذب فيه كاليمين أمام القاضى ، وسمى غموساً لأنه يغمس صاحبه فى

(١) متفق عليه .

نار جهنم ، وعلى الحالف أن يعلم أن اليمين يجب مراعاتها من ثلاث جهات :

١ - إذا حلف فلا يحلف إلا للضرورة .

٢ - وإذا حلف فلا يحلف إلا بالله .

٣ - وإذا حلف وجب عليه أن يراعى الصدق فى يمينه .

قال ﷺ : « اليمين الغموس تذر الديار بلاقع »[١] أى خراباً يباباً لا خير فيها ولا بركة فى مالها أو أهلها .

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أمرنا بالصدق ، وحذرنا من الكذب ، ففى حديث صحيح الثبوت صحيح العبارة ، يقول الهادى البشير : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً)[٢] .

قال الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه : الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك .

قيل لرسول الله ﷺ أيكون المؤمن كذاباً قال : لا .

وأشد الكذب ، الكذب على الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾[٣] .

وقال ﷺ : (من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار) وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ۝ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾[٥] .

من كذبهم وافترائهم على الله

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨ ﴾

المفردات : ﴿ يلوون ألسنتهم ﴾ من اللى وهو اللف أى يفتلون ألسنتهم ليميلوها عن الآيات المنزلة إلى العبارات المحرفة .

﴿وإن منهم﴾ لجماعة من أحبارهم وعلمائهم ، يفتلون ألسنتهم ويميلونها عن الآيات المنزلة : بأن يزيدوا فى كلام الله أو ينقصوا أو يحرفوا الكلم عن مواضعه ، ويقرأوا كلامهم بنغم وترتيل ؛ فيوهموا الناس

(١) رواه الشيخان .
(٢) رواه الشيخان .
(٣) من الآيتين : ٣٧ من سورة الأعراف ، ١٧ من سورة يونس .
(٤) متفق عليه .
(٥) الآيتان : ٣٢ ، ٣٣ من سورة الزمر .

بأنه من التوراة ، وأن الكتاب جاء بذلك ﴿ **لتحسبوه من الكتاب** ﴾ والواقع أنه ليس منه ، ﴿ **ويقولون على الله الكذب** ﴾ ويفجرون ﴿ **وهم يعلمون** ﴾ أنه ليس من عند الله ؛ ولكن من عند الشيطان والهوى .

فهم لا يعَرِّضون ولكن يصرحون بذلك لقسوة قلوبهم وفرط جرأتهم وغرورهم .

الرد على أهل الكتاب فى إشراكهم بالله

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

المفردات : ﴿ **ربانيين** ﴾ نسبة إلى الرب وهو المتشدد فى الدين الملتزم طاعة الله ﴿ **أربابا** ﴾ جمع رب .

قيل إن رافع القرظى من اليهود ، ورئيس وفد نجران من النصارى قالا لرسول الله ﷺ : أتريد أن نعبدك ونتخذك ربا ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : (معاذ الله أن نعبد غير الله أو نأمر بغير عبادة الله . فما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى) • فنزلت هذه الآية .

والآية فى جملتها تكذيب لأهل الكتاب الذين يعتقدون عبادة عيسى والعزير .

والمعنى لا يصح لبشر يمن الله عليه بالكتاب ، ويهديه إلى الحكمة والصواب فى فهم ما أنزل الله عليه ويؤتيه النبوة والرسالة ، ثم بعد هذا يقول للناس : كونوا عباداً لى من دون الله : أى اعبدونى وحدى أو اعبدونى مع الله ، فهذا هو الشرك بعينه ؛ ولكن يقول : كونوا أيها الناس ربانيين متمسكين بالدين مطيعين لله أتم طاعة ، بسبب كونكم تعلمون الكتاب لغيركم ، وبسبب كونكم تدرسونه وتتعلمونه ، ولا يعقل أن يأمركم باتخاذ الملائكة والأنبياء آلهة تعبد من دون الله ؛ كما فعلت اليهود مع عزير والنصارى مع المسيح !! أو يأمركم هذا النبى بالكفر والفسوق ، والعصيان بعد أن أرسل هاديا لكم وكنتم مسلمين منقادين لله بالطبيعة والفطرة التى فطر الناس عليها ؟

ويؤخذ من هذه الآية أن التعليم الدينى والدراسة للإسلام إن لم تكن مصحوبة بالعمل والطاعة كانت وبالاً على صاحبها بل كان كالسراج يضىء للناس ويحرق نفسه .

الميثاق المأخوذ على أهل الكتاب

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ
لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟
وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

المفردات ﴿ أخذ الميثاق ﴾ قبوله ، الميثاق : العهد المؤكد ،﴿الإقرار﴾ قرَّ الشىء إذا ثبت ولزم قراره مكانه وأقر بالشىء إذا نطق بما يدل على ثبوته ﴿ إصرى ﴾ الإصر : العهد المؤكد الذى يمنعه من التهاون .

هذه السورة من أولها إلى هنا يدور معناها على إثبات رسالة محمد ﷺ ؛ الذى يجب أن يؤمن به الكل ، وأن دينه الحق وهو الإسلام ، وكل من تقدمه من الأنبياء والأمم قد أخذ عليهم الميثاق : أن يؤمنوا به إذا أدركوه فما بال أهل الكتاب اليوم قد نقضوا العهد وأعرضوا عن هذا الدين .

ومعنى الآيات : واذكر يامحمد وقت أن أخذ الله الميثاق على الأنبياء ، وتدخل أممهم معهم تبعا لهم ؛ مهما آتيناكم أيها المخاطبون من كتاب وحكم ونبوة ، ثم جاءكم رسول هو خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله مصدقاً لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه .

قال الله تعالى لمن أخذ عليهم الميثاق أأقررتم وقبلتم ذلك الذى ذكر من الإيمان بالرسول المصدق لما معكم ونصرتموه . أقبلتم عهدى وميثاقى المؤكد ؟؟

قالوا : أقررنا ونطقوا بما يدل على ثبوته ؛ قال تعالى : فليشهد بعضكم على بعض وأنا معكم جميعاً لا يغيب عن علمى شىء .

﴿ فمن تولى ﴾ بعد هذا الميثاق المأخوذ قديماً ، ولم يؤمن بالنبى المبعوث فى آخر الزمان المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره كما حصل من أهل الكتاب المعاصرين للنبى ﷺ ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ الخارجون من ميثاق الله الناقضون عهده .

وإذا كان الدين واحداً والرسل متفقين فى الأصول العامة للأديان ، فما بال أهل الكتاب المعاصرين ؟ أيتولون بعد هذا البيان ؛ فيبغون غير دين الله الذى هو الإسلام . ولله استسلم من فى السموات والأرض ، وخضعوا له وانقادوا لتصرفه بالتكوين والإيمان هنا ؛ إذ هو المتصرف فيهم وهم الخاضعون له فكل ما يحل بالناس إن كان عن رضى فهم طائعون ، وإن كان عن غير رضى فهم كارهون ، وإلى الله المرجع والمآب .

إيمان المؤمنين بكل الأنبياء

قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ
وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

المفردات : أى ﴿ **قل** ﴾ يامحمد أنت وأمتك ﴿ **آمنا بالله** ﴾ الواحد الأحد ﴿ **وما أنزل علينا** ﴾ نحن الأمة المحمدية ، وقدم الإيمان بالله على الإيمان بالمنَزَّل ، لأنه الأصل والأساس ، وقدم المنزل علينا على المنزل على الأنبياء السابقين لأنه هو الأصل ، فهو مصدر المعرفة ، وما سواه قد غير وبدل ؛ فلا يصلح أساساً للمعرفة ، والمنزل علينا هو القرآن الكريم ، ﴿ **وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط** ﴾ أولاده ﴿ **وما أوتى موسى** ﴾ من التوراة ﴿ **وعيسى** ﴾ من الإنجيل ﴿ **والنبيون** ﴾ كداود وسليمان وغيرهم ممن لا يعلمهم إلا الله سبحانه وتعالى .

لقد أمرنا الله بشيئين : الإيمان بالله والنبيين إيماناً لا نفرق فيه بين أحد منهم ، بل نؤمن بالكل على أنه نبى مرسل ، من قبل المولى جل شأنه لأمته يهديها سواء السبيل ولا نفعل كما فعل أهل الكتاب : يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ منقادون ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام** ﴾ الذى هو دين الأنبياء ، والدين الذى ارتضاه الله لعباده ، ومن يبتغ غيره ﴿ **فلن يقبل** ﴾ منه قطعاً ﴿ **وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ الذين خسروا أنفسهم ولم يزكوها بالإسلام فى الدنيا والآخرة .

حكم الكفر بعد الإيمان

كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟
مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

ورد فى سبب النزول : أنها نزلت فى أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت النبى ﷺ فى

كتابهم ، وأقروا بذلك ، وشهدوا أنه حق ، ولذا كانوا يستفتحون به على المشركين ، فلما بعث من غيرهم حسدوا العرب ، وأنكروه وكفروا به بعد إيمان ، وروى فى أسباب النزول عدة روايات أخرى فى الذين ارتدوا بعد إسلامهم(١) .

﴿ **كيف يهدى الله قوماً** ﴾ كهؤلاء اليهود والنصارى ﴿ **كفروا بعد إيمانهم** ﴾ وشهادتهم ﴿ **أن الرسول حق** ﴾ وجاءتهم الآيات الواضحات على صدقه وصدق رسالته .

﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ لأنفسهم فهم قد عرفوا الحق ، وتنكبوا عنه فلا أحد أظلم لنفسه منهم ، و ﴿ **أولئك جزاؤهم** ﴾ أنهم مطرودون من رحمة الله و ﴿ **أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين** ﴾ فالملائكة يدعون عليهم بالطرد من رحمته وكذلك الناس كلهم .

﴿ **خالدين** ﴾ فى النار ﴿ **لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون** ﴾ يمهلون بل سيؤخذون أخذ عزيز مقتدر هذا جزاؤهم ، إلا من تاب منهم بعد ذلك ، ورجع إلى الله وأصلح عمله وقلبه ﴿ **فإن الله غفور** ﴾ لما سبق ﴿ **رحيم** ﴾ بعباده حيث يقبل توبة التائب .

أصناف الكفار

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

هؤلاء الكفار ثلاثة أصناف : صنف كفر بعد إيمانه ، ثم تاب توبة صادقة من بعد ذلك ، فأولئك يقبل الله توبتهم إنه هو الغفور الرحيم .

وصنف كفر بالله ثم تاب ورجع ، ثم عاد إلى الكفر ، فلن تقبل توبته ، وقيل هم الكافرون يتوبون عن بعض الذنوب مع بقائهم على الكفر ، وهذا هو معنى ﴿ **لن تقبل توبتهم** ﴾ .

وصنف كفروا بالله وماتوا وهم كفار فلن يقبل من هؤلاء فدية مهما كثرت ولو كانت ملء الأرض ذهباً ، ﴿ **أولئك لهم عذاب أليم وما لهم فى الآخرة من ناصر ولا شفيع** ﴾(٢) .

---

(١) روى القرطبى عن ابن عباس : أن رجلا من الأنصار أسلم ثم ارتد والحق بالشرك ثم ندم ؛ فأرسل إلى قومه : سلوا لى رسول الله ﷺ فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدى الله كفروا بعد إيمانهم ﴾ إلى قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النسائى – القرطبى ج ٤ ص ١٢٩ .

(٢) قال قتادة وعطاء الخراسانى والحسن : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والانجيل ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ والقرآن ، وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته ، ثم ازدادوا كفرا بإقامتهم على كفرهم .

الإنفاق أيضاً

﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

بعد أن حاج الله أهل الكتاب ، وأبان أنهم يلبسون الحق بالباطل ، وأنهم لم يؤمنوا بالله بل يكتمون الحق ، وهم يعلمون أن محمداً ﷺ ، رسول الله قد بشر به فى التوراة والإنجيل ، بعد هذا : أراد أن يدلل على عدم إيمانهم بشح نفوسهم وبخلهم بالإنفاق . . والإنفاق لعمرى أكبر دليل على صدق الإيمان .

وأنهم لن يصلوا إلى البر ، ولن يكونوا بارين بالله إلا إذا أنفقوا مما يحبون ومن كريم ما يملكون ، أما وقد شحت نفوسهم برديء المال ؛ فضلاً عن كريمه ، فهم بعيدون عن الصدق فى دعواهم الإيمان والطاعة لمولاهم ، ﴿ وما تنفقوا من شىء ﴾ سواء أكان كريماً أم رديئاً ﴿ فإن الله به عليم ﴾ ولا يخفى عليه إخلاصكم ورؤ ياكم .

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب التفسير

الجزء الرابع

سورة آل عمران

من الآية رقم ٩٣ / ٢٠٠

سورة النساء

من الآية رقم ١ ٢٣

فرية اليهود فى تحريم بعض المطعومات

* كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

المفردات : ﴿ الطعام ﴾ المراد به المطعومات كلها وكثر استعماله فى الخبز والبر ، ﴿ حلا ﴾ حلالاً ، ﴿ إسرائيل ﴾ لقب يعقوب بن إسحق ، ومعناه الأمير المجاهد مع الله ، ثم شاع إطلاقه على جميع ذريته ، وهو المراد هنا . ﴿ افترى ﴾ اختلق وكذب ، ﴿ حنيفاً ﴾ : مائلاً عن الباطل إلى الحق .

مازال النص الكريم يحدثنا عن مكائد اليهود للإسلام ونبى الإسلام ، وهذه الآيات التى بين أيدينا تدحض شبهة أثاروها ضد نبى الإسلام ﷺ ؛ إذ قالوا : لو كان محمد نبياً حقاً ما استحل لنفسه الطعام الذى حرمه الله على إبراهيم ويعقوب ؛ مثل لحوم الإبل وشحوم البقر والغنم فجاء الرد مفحماً لهم .

إذ أن كل الطعام كان حلالاً لبنى إسرائيل ، قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، فلم يكن هناك طعام حرمه الله على إبراهيم أو إسحق أو يعقوب ، إنما حرم الله على إسرائيل أى شعب إسرائيل ما حرمه من الطعام فى قوله : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾(١) ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾(٢) ثم قوله سبحانه لرسوله الكريم : ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾(٣) فكل الطعام قبل أن تنزل التوراة كان حلالاً لإبراهيم وإسحق ويعقوب ، أما قوله تعالى : ﴿ **إلا ما حرم إسرائيل على نفسه** ﴾ . أى إلا ما حرم شعب إسرائيل ؛ أى كان سببا فى تحريمه على نفسه ، بما اقترفوه من ظلم وبغى ، وهذا صريح قوله جل شأنه : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ﴾(٤) فالباء هنا فى قوله تعالى : فبظلم ، وبصدهم تفيد السبب أى بسبب ماظلموا وما صدوا ،

(١ ، ٢) من الآية : ١٤٦ من سورة الأنعام .
(٣) الآية : ١٤٧ من سورة الأنعام .
(٤) الآية :١٦٠ من سورة النساء .

جزيناهم فحرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ؛ عقوبة رادعة لعلهم يتقون وينتهون ، ومن هنا فقد ثبت أن ادعاءهم فرية ما فيها مرية ؛ فما استحل رسول الله ﷺ شيئاً من الطعام كان محرماً على إبراهيم ، ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ **فأتوا بالتوراة فاتلوها** ﴾ وسوف تتبينون صدق قولنا ، ومع ذلك ، لم يجرؤوا أن يأتوا بالتوراة ؛ وتلك عادتهم ﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾(١) ثم جاء قوله تعالى بعد ذلك ، بعد إقامة الحجة عليهم ودحض شبههم : ﴿ **فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون** ﴾ وأى إنسان أشد ظلماً ممن كذب على الله وافترى وظل سادراً فى غيه وطغيانه ، إنه الظلم المبين وهم أهل الظلم ، والظلم فى دمائهم .

ثم بعد ذلك ذكر مكانة البيت الحرام ، وتشريف الله لإبراهيم فقال : ﴿ **قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً** ﴾ فإبراهيم هو أبو الأنبياء كان من ذريته إسماعيل وإسحق وأنبياء بنى إسرائيل من ذرية إسحق .. ومن ذرية إسماعيل ، جاء خاتم الأنبياء ، فإن كنتم صادقين أيها اليهود فى ادعائكم محبة إبراهيم ، ﴿ **فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا** ﴾ ولا تفتروا على نبينا كذباً ، ﴿ **وما كان** ﴾ إبراهيم ﴿ **من المشركين** ﴾ ، بل كان مسلماً موحداً مخلصاً . ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾(٢) .

البيت الحرام والحج

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

المفردات : ﴿ **ببكة** ﴾ : أى مكة والعرب كثيراً ما تبدل الباء ميماً وبالعكس . ﴿ **مباركاً** ﴾ : كثير الخيرات والبركة ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾ : موضع قيامه وعبادته ﴿ **حج** ﴾ الحَج .. والحج : القصد ، وفى الشرع : قصد بيت الله الحرام للنسك .

هذه هى الشبهة الثانية التى آثارها أهل الكتاب ؛ تكذيباً للنبى ﷺ فى دعوى : أنه على ملة إبراهيم : كيف تدعى أنك على ملة إبراهيم ، وأنك أولى الناس به ؛ وإبراهيم وإسحاق والأنبياء بعدهم كانوا يعظمون

---

(١) الآيات : ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ من سورة النور .
(٢) الآية : ٦٨ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

بيت المقدس ، ويصلون إليه ، فلو كنت على ما كانوا لعظمته ، ولما تحولت إلى الكعبة فخالفت الجميع ، والآية الكريمة تزيل الشبهة بأوضح بيان .

فى قوله تعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى بيكة** ﴾ ، رد على اليهود الذين أثاروا الشبه المريضة ضد نبى الإسلام ، فإنه ﷺ لما أمره الله تعالى بالصلاة جهة الكعبة المشرفة وتحولت القبلة من بيت المقدس ، قال : ﴿ السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾(١) وقالوا : لوكان محمد على ملة إبراهيم ما تحول عن بيت المقدس الذى توجهت إليه الأنبياء من ذرية إبراهيم ، فجاء الرد صريحاً وواضحاً ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(٢) وأى شىء فى تحويل القبلة وهل العبرة بالمشرق والمغرب ؟ .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ﴾(٣) فهل آمنتم بالنبيين وأقررتم برسالة خاتم النبيين . قال تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ﴾(٤) وأى القبلتين أولى ؟ أليس البيت الحرام أول بيت وضع للناس ؟ أليس إبراهيم وإسماعيل هما اللذان قال الله فى شأنهما : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾(٥) إنه بيت مبارك قال الله فى بركته : ﴿ أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾(٦) فتأمل معى جلال الله وسعة رحمته !! بيت يبنى فى صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء ؛ تصله الثمرات والفواكه رطبة ندية ؛ كأنها زرعت فيه ، بيت قال إبراهيم فى دعوته لربه : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾(٧) بعد أن دعا له بالأمن : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ﴾(٨) فإذا ما وقفت فى محراب الآيتين ؛ علمت أن دعوة الأمن قدمت على آية الثمرات ، وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الأمن أعظم نعمة من الثمرة ؛ فحياة غير آمنة فزع وقلق وجحيم مستعر ؛ قال الله تعالى فى آية من سورة النحل : ﴿ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾(٩) فقدم الأمن والطمأنينة على الرزق الرغد ، فما بالك إذا جمع الله لهذا البيت وهذا البلد الأمن والطمأنينة وتجبى إليه الثمرات ؛ ثمرات كل شىء ، اجتمعت النعمتان العظيمتان الأمن والثمرات ، وهذا البيت فيه هدى للعالمين . حيث من أتاه وطاف به شرح الله صدره وهدى قلبه ، إن الله ينزل كل يوم على حجاج بيته عشرين ومائة رحمة ، ستين للطائفين وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين ، وفى هذا البيت آيات بينات ، ودلائل قاطعات على مكانة إبراهيم ، ففيه المقام ، أى المكان الذى كان إبراهيم يقوم فيه يعبد الله تعالى ، ونزل

(١ ، ٢) الآية : ١٤٢ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ١٧٧ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ١٤٣ من سورة البقرة .
(٥) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .
(٦) من الآية : ٥٧ من سورة القصص .
(٧) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .
(٨) الآية : ٣٥ من سورة إبراهيم .
(٩) من الآية : ١١٢ من سورة النحل .

الحكم فى القرآن باتخاذ هذا المقام مصلى . . قال تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾(١) وجاء هذا الحكم مؤيداً لاستشارة عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ عندما قال : « ماضر لو صلينا فى مقام إبراهيم » فأى شىء يؤخذ على نبى الإسلام عندما يتوجه إلى أول بيت وضع للناس . إن تحويل القبلة له حكمته وشرفه .

تحويل القبلة*

قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾(٢) .

هذه الآية الكريمة فى شأن القبلة الإسلامية نقطة التحول بين عهدين من التشريع :

(تشريع مؤقت) كانت فيه القبلة إلى بيت المقدس ، وذلك منذ قدم رسول الله ﷺ المدينة فى اليوم الثانى عشر من شهر ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة إلى نصف رجب من السنة الثانية ، وجملة ذلك ستة عشر شهراً وثلاثة أيام .

(وتشريع ثابت دائم) أصبحت به القبلة هى الكعبة البيت الحرام ، وذلك من نصف رجب المذكور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها(٣) .

والذى يقرأ هذه الآية وسابقاتها ولاحقاتها ، يلمس مقدار عناية القرآن بشأن هذا التشريع وأطواره ، ففى بضع وعشرين آية ؛ يبسط القرآن قضية القبلة ويفصل فيها الفصل النهائى ، بعد أن يمهد لهذا الفصل تمهيداً شافياً كافياً .

تبدأ الآيات الكريمة بذكر إبراهيم عليه السلام وأن الله جعله إماما للناس وأمره ببناء البيت المطهر وجعله مثابة للناس وأمنا ومطافا ومصلى ، وبعد أن تقص الآيات كيف أن إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام قاما برفع قواعد البيت كما أمر الله ، وبعد أن تنبه إلى الصلة الروحية والصلة النسبية بين هذين الإمامين ونبى الإسلام ؛ تشير إلى أن تحول المسلمين عن قبلتهم السابقة المؤقتة إلى قبلة إبراهيم وإسماعيل سيثير عند خفاف الأحلام وضعاف العقول شيئاً من الريب والشكوك ، ثم تكر الآيات على هذه الشبهات نقضاً ودحضا ، مجلية وجه الحق فى هذا التشريع ، ثم تخلص من ذلك كله إلى إصدار نطقها الحاسم فيه :

---

(١) من الآية : ١٢٥ من سورة البقرة .
(*) استطراد من المؤلف بمناسبة الحديث عن البيت الحرام كأول بيت وضع للناس .
(٢) من الآية : ١٤٤ من سورة البقرة .
(٣) لم تتفق الأخبار على النصف من رجب كتاريخ لتحويل القبلة فقد روى أبو حاتم البستى ، صلى المسلمون إلى بيت المقدس سبعة عشر شهرا وثلاثة أيام ، وذلك أن قدومه المدينة كان يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول وأمره الله عز وجل باستقبال الكعبة يوم الثلاثاء للنصف من شعبان .

﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾[١] ولا تكتفى بإصدار هذا الأمر السماوى مرة واحدة بل نراها تكرره وتؤكده ثلاث مرات فى آيات متقاربة متوجهة إلى الرسول تارة وإلى المؤمنين تارة أخرى .

ترى ما سر هذا الاهتمام البالغ بتغيير القبلة وتوحيدها ؟ وما سر هذا التطور فى تشريعها ؟ لماذا لم يكن نظام الصلوات كنظام الدعوات المأثورة ، التى لا يشترط فى صحتها ولا فى قبولها أن يتخذ الداعى وضعاً خاصاً من الأوضاع ، ولا أن يلزم أسلوباً معيناً من الأقوال والأفعال ، ولا أن يتجه إلى جهة معينة من الجهات ؟ ولماذا كانت الجهة هذا البيت أو ذاك ؟ ولماذا جعلت عامة للأمة كلها أفرادًا وجماعات ؟ أليست الصلاة صلة بين العبد وربه ؟ أليست كل وظيفتها تحقيق هذه العبودية للرب والتماس المعونة منه ؟ أو ليس الله يسمع لمن حمده على أى وضع كان ، ويستجيب لمن يدعوه حيثما توجه ؟ ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[٢] .

هذه أسئلة تجول بالخواطر ولكنها لا تلبث بعد قليل من التأمل أن ينجلى وجه الحكمة فيها ؛ أجل إن قليلاً من التأمل يهدينا إلى أن الله جلت حكمته حين شرع الصلاة على هذا الوجه الموحد فى أسلوبه وصورته ، وحين نصب لنا فيها إماماً نبياً نقتدى به وبمن ينوب عنه ، وحين أقام لنا بيتاً نتوجه إليه فيها بوجوهنا ، ونحج إليه بقلوبنا وبأبداننا ، أراد بذلك كله أن تكون الصلاة عبادة جامعة بين علاقتى الايمان : المحبة لله ، والمحبة فى الله ، أراد ألا تكون الصلاة صلة واحدة ؛ بل مجموعة من الصلات ، صلة بين العبودية ، وصلة بينه وبين أئمته من المرسلين ، أو ممن يحمل رسالتهم ، وصلة بينه وبين إخوانه المؤمنين ، هذه الرابطة الروحية المثلثة بين المصلى وبين ربه وبين إمامه وبينه وبين سائر المأمومين . هذه الرابطة الروحية كثيراً ما تتمثل فى صورة مجسمة ، فى جماعة حاضرة نراها رأى العين ، ونحس فيها تزاحم المناكب وتجاوب الأصوات ، وتناسق الحركات والسكنات ، حتى إذا غابت هذه الجماعة عن الأبصار ، فإنها لن تغيب عن البصائر ؛ وإذا تجردت من الأشباح فإنها تبقى ماثلة فى القلوب والأرواح ، ومن ثم لا ينبغى للذى يصلى فى خلوته أن يظن نفسه منفرداً فى موقفه ؛ كلا بل يذكر أن عن يمينه وعن شماله ، ومن أمامه ومن خلفه ، ألوفاً من الصفوف فى مشارق الأرض ومغاربها ، يشدون أزره ويؤ يدونه فى جوهر مطالبه ، إنهم معه يستقبلون قبلته ذاتها ويرددون مقالته عينها ، إنه ليس فيهم من يقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » بل كلهم يقولون : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ . ليس فيهم من يقول : « اهدنى » بل كلهم يقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ وليس فيهم من يقول (السلام علىّ) بل كلهم يقول : (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)[٣] .

هكذا ينبغى لكل مصلٍ أن يعد نفسه عضواً فى وفد الرحمن ، لا يناجى ربه بلسانه بل بلسان إخوانه المؤمنين الحاضرين منهم والغائبين ، ألا وإن الوحدة التى يرمى هذا التشريع إلى تحقيقها لأوسع مجالاً وأبعد

---

(١) من الآية : ١٤٤ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ١١٥ من سورة البقرة .
(٣) من الشق الأول من التشهد فى الصلاة .

مدى من أن تقف عند حدود الجيل الحاضر ؛ إنها تريد أن تنتظم فى سياج واحد كل أهل القبلة من الأجيال الماضية والحاضرة والمستقبلة ، بل نقول إنها أوسع رقعة من أن تقف عند عصر النبوة المحمدية ، إنها تتجاوز ذلك العصر إلى عصور النبوات الأولى ، ذلك أن الشريعة المحمدية لم تنشىء هذه القبلة إنشاءً ، وإنما جاءت مصدقة مقررة للقبلة التى أسستها النبوات السابقة ، وهذا من أوضح الأدلة على سماحة الإسلام ، وسعة أفقه ، وشدة حرصه على جمع كلمة النبيين ، وتوحيد رابطة المؤمنين بالأديان السماوية كلها .

ولقد حقق الإسلام هذه الوحدة على مرحلتين متصاعدتين : ففى المرحلة الأولى انضم إلى صف إخوانه من الأنبياء السابقين ، وفى المرحلة الثانية والأخيرة صعد إلى الأصل الأصيل إلى الكعبة التى هى أول بيت وضع للناس ، منضماً بذلك إلى صف أبى الأنبياء الذى يؤمن كل أهل الأديان به وبقبلته ، وإن لم يستقبلوها فى صلاتهم .

أما بعد فقد كبر هذا التحويل على كثير من الناس وحسبوه لهواً وعبثاً أو حيرة وتردداً ، وما هو بعبث ولا تردد ، وإنما هو التصميم الأول نفسه يسير صاعداً نحو الهدف الأخير ، ولقد سماه علماء الظاهر نسخاً ، وما هو بنسخ إلا فى الصورة والرسم ، أما فى جوهره فهو التدرج فى توحيد كلمة الأديان ، أرأيت الولد البار حيث يسير قاصداً إلى بيت أبيه فإذا مر فى طريقه على بيت إخوته فإنه يأبى إلا أن يعرج عليهم ليقيم بينهم فترة ما ، تطييباً لخاطره ثم يكون مستقره فى البيت المشترك ، الذى يحمل اسم الأسرة كلها ، فذلك مَثَلُ التطور الذى حدث فى تشريع القبلة ، فبيت المقدس هو بيت الإخوة ، والكعبة هى بيت رأس الأسرة وهى منزل الجد الأعلى ، وإذا كان من مفاخر الإسلام أنه جمع بين القبلتين ؛ فإنه لم يكن همه ذات القبلة فى الأولى ولا فى الثانية ، وإنما كان همه أول الأمر وآخره هذا الانضمام والالتحام بين أسرة المؤمنين فى وحدة القصد والتوجه إلى المعبود الأعلى ، تحت لواء النبيين المرسلين : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾(١) ﴿ قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(٢) .

« اللهم اهدنا صراطك المستقيم وزدنا هدى ، آمين » .

مكة وطن روحى لجميع المسلمين(٣)

أيها الحجاج الأبرار :

هذا حرم الله تفتح لكم سماؤه تكريماً لوفودكم ، وتتطامن لكم أرضه ترحيباً بقدومكم ، وهذه ملائكة الرحمن تستقبلكم وتحييكم وتقود خطاكم وتهديكم أيها الضيف المكرمون : حنان ما أتى بكم اليوم ها هنا فى هذا القيظ الملتهب هواؤه ، المحترقة رمضاؤه أعلن حين يتهيب الناس فى بيوتهم أن يخرجوا من الكن إلى

---

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .
(٢) من الآية : ١٤٢ من سورة البقرة .
(٣) استطراد من المؤلف تال للاستطراد السابق .

الضحى ، وأن يتعرضوا للفح الريح فى الوقت الذى يخرج فيه القادرون على السعى إلى مرابع الظل الظليل ، ومساقط النسيم العليل ، فى مناطق الشمال وعلى شواطىء البحار ، تقبلون أنتم ضاحين فى العراء ضاربين فى أحشاء الصحراء ، تكابدون عناء الحل والارتحال ، تخوضون بحاراً من العرق والغبار ، فى بلد غير ذى زرع ولا قطر ، هلا أجلتم هذه الرحلة القاسية لمدة أخرى من السنين ، حتى يدور الزمان دورته ، فيجىء موسم الحج فى الشتاء ، أو فى الربيع . . هكذا يخوف الشيطان أولياءه ويخذل الضعفاء من أعدائه وهكذا يفكر أولو النعمة والمترفون فى كل أمة ، أما أنتم فقد سخرتم من كل هذه المعوقات والمثبطات ، إن حرارة الطبيعة قد انمحت وانهزمت أمام حرارة إيمانكم ، وإن وعورة السفر قد ذللتها صلابة عزائمكم ، وهكذا برهنتم على أن الإنسان ليس هو هذا الهيكل الحسى ، الذى تدركه الأبصار ، وأن قيادته وتصريف زمامه ليس كما يزعم الجاهلون بيد تلك القوى الطبيعية كلها بدنية كانت أو كونية ، برهنتم على أن فى الإنسان جوهرة أخرى أعظم من أن ينالها الحس ، السلطان فى الحقيقة سلطانهم والأمر النافذ على الجوارح هو أمرهم ، تلك هى المضغة التى إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب .

لقد شعرتم إذن بنداء الواجب يتردد صداه بين جوانحكم ، فلم يسعكم إلا أن أجبتموه سراعاً : لبيك . . لبيك لا نعرض محجمين ، ولا نقعد متثاقلين ، كذلك يفعل أولو الحزم والعزم ، هم أبداً سباقون إلى الخير مسارعون إلى البر ، لا يحتمل النداء الواجب عندهم تسويفاً ولا تأجيلاً ، ولا يبالون فى سبيله ما يبذلون من جهد وتضحية ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ﴾(١) فيه ﴿ ظمأ ولا نصب ولا مخمصة ﴾(٢) ، ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾(٣) ووفوا عليه جزاءهم . ألا فليكن فى سبيل الله ما كابدتم وتكابدون وفى صحيفة الحسنات ما بذلتم وتبذلون ؛ وليكن جزاؤكم عند الله موفوراً وسعيكم لديه مشكوراً ، أيها الضيف المكرمون ، لاتحسبوا حين أدعوكم باسم الضيف المكرمين ، أنى أعدكم ضيفاً ها هنا على أحد من البشر ، فإنما أنتم وفد الله وضيف الرحمن ، إنكم ها هنا لستم بدار غربة ولكنكم فى أرضكم ودياركم لئن كنتم قد فارقتم أوطانكم الخاصة المتفرقة ؛ لقد حللتم هنا فى وطنكم المشترك الجامع ، هذا هو البلد الحرام الذى جعله الله ﴿ للناس سواء العاكف فيه والباد ﴾(٤) فالمسلمون فيه سواسية : المقيمون والقادمون إليه ، لهم جميعا حق مشاع من مناسكه ومشاعره وآثاره ومعالمه ، لا ينازع فيه أحد أو تستأثر به أمة دون أمة ، أيها الحجيج البررة : كم تشاهدون ها هنا من آيات بينات ، وكم تستعيدون ها هنا من ذكريات محببات إلى القلوب ، ها هنا هبط الوحى من السماء ، ها هنا استوطن الأنبياء ، ها هنا بزغ نور الإسلام ، ها هنا مشى محمد ﷺ وصحبه ، ها هنا انتصر الحق وحزبه ، ها هنا طاف الأنبياء والصالحون ، ها هنا سعوا وهرولوا ، ها هنا صعدوا وانحدروا ، ها هنا ذبحوا ، ها هنا دعوا وابتهلوا ، ها هنا تصدقوا وبذلوا . فإن كنتم تريدون أن تسجلوا أسماءكم فى الكتاب الذهبى الذى أعده الله لهم فسيروا

(١ ، ٢ ، ٣) من الآيتين : ١٢٠ ، ١٢١ من سورة التوبة .
(٤) من الآية : ٢٥ من سورة الحج .

على مواضع أقدامهم واقتفوا سنتهم وآثارهم فى نصها وروحها ، ومظهرها ومخبرها ، ثم هذه الكعبة التى كنتم تحجون إليها بقلوبكم فى الصلوات ، وترنون إليها بأبصاركم من وراء الآفاق كل يوم عشرات المرات ها هى ذى منكم الآن رأى الأعين ، فاغتنموا وتزودوا إنها البقعة المطهرة . مطهرة لأن الله أمر أن تنزه عن كل رجس ، وعن كل إثم ، وعن كل ظلم ، حتى من الرفث والخصومة والجدال ، الصغيرة فيها كبيرة ، والخبث اليسير فيها ظلم عظيم : ﴿ ومن يرد فيه بإلحادٍ بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾[1] ومطهرة جعلها الله مغتسلاً للذنوب التى ترتكب فى كل مكان وفى كل شأن ، إلا ظلم الإنسان للإنسان فإنه لا تكفره صلاة ولا صوم ولا حج ولا قربان ، إنما يمحوه رد التبعات إلى أهلها أو استبراؤ هم منها .

أيها الحجاج المبرورون : لقد حدثتكم الآن عن أهداف هذه الرحلة المقدسة حديثاً يعرفه كل امرئ منكم فى نفسه ، وأود أن أحدثكم عنها حديثاً آخر ربما لا يعرفه منكم إلا القليل ؛ فعامة المؤمنين يفهمون من شعائر الحج أنها مأدبة روحية أعدها الله لعباده ، عند أول بيت وضعه للناس ، ليتزودوا فيها من أنواع القربات ، ويتعرضوا فيها لفيض الرحمات ، فكل واحد منهم حين يؤديها إنما يعنيه شأن نفسه وتزكيتها ، وشأن واجباته وتأديتها ؛ غير أن الإسلام أوسع أفقا وأبعد نظراً من أن تحده هذه الأهداف الفردية الضيقة وإلا فلماذا لم يترك لنا الخيرة فى أن نؤدى هذه الشعائر فرادى أو مجتمعين ، فى أى وقت من العام يشاؤه الواحد منا ، ولماذا أمرنا لزاماً أن نؤديها مجتمعين فى صعيد واحد ، وفى وقت واحد وفى زى واحد ، لابد أن هنالك سراً أو أسراراً يهدف إليها التشريع الإسلامى من وراء هذا التجمع والتكتل ، ولست محدثكم عن هذه الأسرار جملة وتفصيلا ، ولكنى أكتفى بواحد منها : أتدرون ما الأواصر التى ربط الله بها الأمة الإسلامية لتكون كالجسد الواحد ؟ كلنا نعرف منها آصرتين اثنتين : وحدة العقيدة ، ووحدة الشريعة ، إله واحد وكتاب واحد ، آصرتان عقليتان معنويتان ، ولكن الله أراد أن يضم إليهما آصرة ثالثة حسية ملموسة ، فبعث مناديا فى الناس أن يجتمع ها هنا وفود المسلمين من أقطار الأرض كل عام ، ليعبدوا هذا الإله الواحد بتلك الشريعة الواحدة على أرض واحدة هى أرض الوطن الروحى ، وهكذا تجسدت وحدة العقيدة ووحدة الشريعة فى وحدة الوطن الأعلى ، ذلك ليذكر المسلمون أنهم — وإن تفرقت أقطارهم واختلفت أنسابهم وألوانهم — فسوف تجمعهم جامعة الدين والله والوطن ، وأنه إذا جد الجد وجب أن يضحى كل فريق منهم بمصالحه الخاصة فى سبيل هذه المصلحة المشتركة العليا ، إن نظرة إلى خريطة العالم الإسلامى ترينا كيف أنه يمتد فى قلب العالم كتلة واحدة متصلة ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، وأنه كله يدور على محور واحد هو مكة المكرمة ، التى هى قلب الوطن الإسلامى ، وقطب رحاه ، إن هذا الوضع الجغرافى المتماسك القوى ، قد اختص به الإسلام بين سائر الأديان . ومع ذلك : فمن أعجب العجب أن الذى ينظر إلى الماضى القريب للأمة الإسلامية ؛ لا يجدها فى المكانة التى يؤهلها لها هذا الموقع الفريد ، ذلك أن تفتتها الإقليمى وانطواء كل شعب منها على نفسه أنساها هذه الرابطة العظمى ، ولقد كان المسلمون الأولون لا يعرفون هذه الحواجز الحديدية ، فكان التجار والراحلون ينتقلون من قطر إلى قطر وليس بيدهم جواز سفر

---

(١) من الآية : ٢٥ من سورة الحج .

إلا كلمة الإسلام ، فهل يعود الإخوة المؤمنون إلى هذا التقارب والترابط لتعوذ للوطن الإسلامى مناعته وحصانته ، فلا يبقى فيه بعدئذ عيش لتلك الطفيليات التى تمتص دماء أبنائه وتحنى أعناقهم ؟ وهل يكون لنا من موسم الحج هذه العبرة !! . . إنها ذكرى ، وإن الذكرى تنفع المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً** ﴾ .

فرض الله تعالى الحج على كل مستطيع ، وجعله أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام ، وقد رأينا تتمة للفائدة أن نذكر أحكاماً تتعلق بالحج ، ثم نعقب عليها ببيان كيفية الحج ، ثم نبين حجة الوداع التى أداها رسول الله ﷺ ، قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى .

تعريفه :

هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعى والوقوف بعرفة وسائر المناسك ، استجابة لأمر الله وابتغاء مرضاته ، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وفرض من الفرائض التى علمت من الدين بالضرورة .

فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام ، والمختار لدى جمهور العلماء أن إيجابه كان سنة ست بعد الهجرة ، لأنه نزل فيها قوله تعالى : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾[1] ، وهذا مبنى على أن الإتمام يراد به ابتداء الفرض ، ويؤيد هذا قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعى : ﴿ وأقيموا ﴾ رواه الطبرانى بسند صحيح ، ورجح ابن القيم أن افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر .

فضله :

رغب الشارع فى أداء فريضة الحج وإليك بعض ما ورد فى ذلك :

ما جاء فى أنه من أفضل الأعمال :

عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل ؟ قال : (إيمان بالله ورسوله) قيل : ثم ماذا ؟ قال : (ثم جهاد فى سبيل الله) قيل : ثم ماذا ؟ قال : (ثم حج مبرور)[2] .

والحج المبرور هو الحج الذى لا يخالطه إثم . وقال الحسن : أن يرجع زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة ، وروى مرفوعاً ـ بسند حسن ـ إن بره إطعام الطعام ولين الكلام .

ما جاء فى أنه جهاد :

١ ـ عن الحسن بن على رضى الله عنهما : أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ فقال : إنى جبان وإنى ضعيف فقال : (هلم إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج) رواه عبد الرزاق والطبرانى ورواته ثقات .

---

(١) من الآية : ١٩٦ من سورة البقرة .
(٢) رواه الشيخان .

٢ ـ وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج) رواه النسائى بإسناد حسن .

٣ ـ وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد ؟ قال : (لكن أفضل الجهاد حج مبرور) رواه البخارى ومسلم .

٤ ـ وروى عنها أنها قالت : يا رسول الله ألا نغزو ونجاهد معكم ؟ قال : (لكن أحسن الجهاد وأجمله الحج ، حج مبرور) قالت عائشة : فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله ﷺ .

ما جاء فى أنه يمحق الذنوب :

١ - عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) رواه البخارى ومسلم .

٢ - وعن عمرو بن العاص قال : لما جعل الله الإسلام فى قلبى أتيت رسول الله ﷺ : فقلت : ابسط يدك فلأبايعك . قال : فبسط فقبضت يدى . فقال : مالك ياعمرو ؟ قلت : أشترط ، قال : تشترط ماذا ؟ قلت أن يغفر لى قال : (أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله وأن الهجرة تهدم ما قبلها وأن الحج يهدم ما قبله) رواه مسلم .

٣ - وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة) رواه النسائى والترمذى وصححه .

ما جاء فى أن الحجاج وفد الله :

عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : (الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم) رواه النسائى وابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما ولفظهما (وفد الله ثلاثة : الحاج والمعتمر والغازى) .

ما جاء فى أن الحج ثوابه الجنة :

١ - روى البخارى ومسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) .

٢ - وروى ابن جريج ـ بإسناد حسن ـ عن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (هذا البيت دعامة الإسلام فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر كان مضموناً على الله إن قبضه أن يدخله الجنة وإن رده ، رده بأجر وغنيمة) .

فضل النفقة فى الحج :

عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : (النفقة فى الحج كالنفقة فى سبيل الله : الدرهم بسبعمائة ضعف) رواه ابن أبى شيبة وأحمد والطبرانى والبيهقى وإسناده حسن .

الحج يجب مرة واحدة :

أجمع العلماء على أن الحج لا يتكرر وأنه لا يجب فى العمر إلا مرة واحدة ــ إلا أن ينذره فيجب الوفاء بالنذر ــ وما زاد فهو تطوع .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يأيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا) فقال رجل : أكل عام يارسول الله ، فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال ــ ﷺ ــ (لو قلت : نعم ، لوجبت ولما استطعتم) ثم قال : (ذرونى ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم فإذا نهيتكم عن شىء فدعوه) رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يأيها الناس كتب عليكم الحج) فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يارسول الله ؟ فقال : (لوقلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا ، الحج مرة فمن زاد فهو تطوع) رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وصححه .

وجوبه على الفور أو التراخى :

ذهب الشافعى والثورى والأوزاعى ومحمد بن الحسن[١] : إلى أن الحج واجب على التراخى فيؤدى فى أى وقت من العمر ، ولا يأثم من وجب عليه بتأخيره متى أداه قبل الوفاة ، لأن رسول الله ﷺ أخر الحج إلى سنة عشرة ، وكان معه أزواجه وكثير من أصحابه ، مع أن إيجابه كان سنة ست ؛ فلو كان واجباً على الفور لما أخره ﷺ . قال الشافعى : فاستدللنا للناس على أن الحج فرضه مرة واحدة فى العمر أوله البلوغ وآخره أن يأتى به قبل موته .

وذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد وبعض أصحاب الشافعى وأبو يوسف[٢] : إلى أن الحج واجب على الفور . لحديث ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : (من أراد الحج فليعجّل فإنه قد يمرض المريض وتضل الراحلة وتكون الحاجة) . رواه أحمد والبيهقى والطحاوى وابن ماجه .

وعنه أنه ﷺ قال : (تعجلوا الحج ــ يعنى الفريضة ــ فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له) . رواه أحمد والبيهقى وقال : ما يعرض له من مرض أو حاجة .

---

(١) صاحب أبى حنيفة .
(٢) صاحب أبى حنيفة .

وحمل الأولون هذه الأحاديث على الندب ، وأنه يستحب تعجيله والمبادرة به متى استطاع المكلف أداءه .

شروط وجوب الحج :

اتفق الفقهاء على أنه يشترط لوجوب الحج الشروط الآتية :

١ - الإسلام .

٢ - البلوغ .

٣ - العقل .

٤ - الحرية .

٥ - الاستطاعة .

فمن لم تتحقق فيه هذه الشروط فلا يجب عليه الحج . وذلك أن الإسلام والبلوغ والعقل ، شرط التكليف فى أية عبادة من العبادات .

وفى الحديث : أن النبى ﷺ قال : (رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل)[١] .

والحرية شرط لوجوب الحج ؛ لأنه عبادة تقتضى وقتاً ويشترط فيها الاستطاعة بينما العبد مشغول بحقوق سيده وغير مستطيع . وأما الاستطاعة فلقول الله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ .

بم تتحقق الاستطاعة :

تتحقق الاستطاعة التى هى شرط من شروط الوجوب بما يأتى :

١ - أن يكون المكلف صحيح البدن ؛ فإن عجز عن الحج لشيخوخته أو زمانة[٢] أو مرض لا يرجى شفاؤه ، لزمه إحجاج غيره عنه إن كان له مال ، وسيأتى فى (مبحث الحج عن الغير) .

٢ - أن تكون الطريق آمنة بحيث يأمن الحج على نفسه وماله . فلو خاف على نفسه من قطاع الطريق أو وباء أو خاف على ماله من أن يسلب منه فهو ممن لم يستطع إليه سبيلاً .

وقد اختلف العلماء فيما يؤخذ فى الطريق من المكس والكوشان[٣] ، هل يعد عذراً مسقطاً للحج أم لا ؟ ذهب الشافعى وغيره إلى اعتباره عذراً مسقطاً للحج وإن قل المأخوذ .

وعند المالكية : لا يعد عذرا إلا إذا أجحف بصاحبه أو تكرر أخذه .

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) مرض مزمن .

(٣) أنواع من الضرائب كرسوم المرور بين حدود البلاد .

٣ ــ أن يكون مالكاً للزاد والراحلة .

والمعتبر فى الزاد : أن يملك ما يكفيه مما يصح به بدنه ويكفى من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية ، من ملبس ومسكن ومركب وآلة حرفة حتى يؤدى الفريضة ويعود .

والمعتبر فى الراحلة أن تمكنه من الذهاب والإياب سواء أكان ذلك عن طريق البر أم البحر أم الجووهذا بالنسبة لمن لا يمكنه المشى لبعده من مكة .

فأما القريب الذى يمكنه المشى فلا يعتبر وجود الراحلة فى حقه لأنها مسافة قريبة يمكنه المشى إليها .

وقد جاء فى بعض روايات الحديث : أن رسول الله ﷺ فسر السبيل بالزاد والراحلة .

فعن أنس رضى الله عنه قال : قيل يا رسول الله ما السبيل قال : (الزاد والراحلة) . رواه الدارقطنى وصححه .

قال الحافظ : والراجح إرساله : وأخرجه الترمذى من حديث ابن عمر أيضاً وفى إسناده ضعف .

وقال عبد الحق : طرقه كلها ضعيفه وقال ابن المنذر لا يثبت الحديث فى ذلك مسنداً والصحيح رواية الحسن المرسلة ، وعن على رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً) وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ رواه الترمذى وفى إسناده « هلال » ابن عبد الله وهو مجهول ، « والحارث » وكذبه الشعبى وغيره .

والأحاديث وإن كانت كلها ضعيفة إلا أن أكثر العلماء يشترط لإيجاب الحج الزاد والراحلة لمن نأت داره ومن لم يجد زاداً ولا راحلة فلا حج عليه .

قال ابن تيمية : فهذه الأحاديث ـ مسندة من طرق حسان . ومرسلة وموقوفة ، تدل على أن مناط الوجوب الزاد والراحلة مع علم النبى ﷺ أن كثيراً من الناس يقدرون على المشى .

وأيضاً فإن الله قال ـ فى الحج : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ إما أن يعنى القدرة المعتبرة فى جميع العبادات ـ وهو مطلق المكنة ـ أو قدراً زائداً على ذلك ، فإن كان المعتبر الأول لم يحتج إلى هذا التقييد كما لم يحتج إليه فى آية الصوم والصلاة ، فعلم أن المعتبر قدر زائد على ذلك ، وليس هو إلا المال ، وأيضاً فإن الحج عبادة مفتقرة إلى مسافة فافتقر وجوبها إلى ملك الزاد والراحلة كالجهاد .

ودليل الأصل قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ﴾[١] إلى قوله : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾[٢] .

---

(١) من الآية : ٩١ من سورة التوبة .
(٢) من الآية : ٩٢ من سورة التوبة .

وفى المهذب : وإن وجد ما يشترى به الزاد والراحلة ـ وهو محتاج إليه . لِدَيْن عليه ـ لم يلزمه حالاً كان الدين أو مؤجلاً ، لأن الدين الحال على الفور والحج على التراخى فقُدِّم عليه الدين ، والمؤجل يحل عليه فإذا صرف ما معه فى الحج لم يجد ما يقضى به الدين .

قال : وإن احتاج إليه لمسكن لابد من مثله أو خادم يحتاج إلى خدمته لم يلزمه ، وإن احتاج إلى النكاح ، وهو يخاف العنت ، قُدمَ النكاح لأن الحاجة إلى ذلك على الفور .

وإن احتاج إليه فى بضاعة يتجر فيها ليُحصِّل منها ما يحتاج إليه للنفقة فقد قال أبو العباس بن سريج : لا يلزمه الحج ؛ لأنه محتاج إليه فهو كالمسكن والخادم .

وفى المغنى : إن كان دين على ملىء باذل له يكفيه للحج لزمه ، لأنه قادر وإن كان على معسر أو تعذر استيفاؤه عليه لم يلزمه .

وعند الشافعية : أنه إذا بذل رجل لآخر راحلة من غير عوض ؛ لم يلزمه قبولها لأن عليه فى قبول ذلك مِنة وفى تحمل المنة مشقة ، إلا إذا بذل له ولده ما يتمكن به من الحج لزمه لأنه أمكنه الحج من غير منة تلزمه .

وقالت الحنابلة : لا يلزمه الحج ببذل غيره له ، ولا يصير مستطيعاً بذلك ، سواء أكان الباذل قريباً أم أجنبياً ، وسواء بذل له الركوبة والزاد أو بذل له مالاً .

٥ ـ ألا يوجد ما يمنع الناس من الذهاب إلى الحج كالحبس والخوف من سلطان جائر يمنع الناس منه .

حج الصبى والعبد :

لا يجب عليهما الحج ، لكنهما إذا حجا صح منهما ولا يجزئهما عن حجة الإسلام .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبى ﷺ : (أيما صبى حج ثم بلغ الحِنْث فعليه أن يحج حجة أخرى وأيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى) . رواه الطبرانى بسند صحيح .

وقال السائب بن يزيد « حج أبى مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين » رواه أحمد والبخارى والترمذى ، وقال قد أجمع أهل العلم : على أن الصبى إذا حج قبل أن يدرك فعليه الحج إذا أدرك وكذلك المملوك إذا حج فى رقه ثم أعتق فعليه الحج إذا وجد إلى ذلك سبيلا .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن امرأة رفعت إلى رسول الله ﷺ صبياً فقالت : ألهذا حج ؟ قال : (نعم ولك أجر) .

وعن جابر رضى الله عنه قال : «حججنا مع رسول الله ﷺ ومعنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم » . رواه أحمد . ثم إن كان الصبى مميزاً أحرم بنفسه وأدى مناسك الحج وإلا أحرم عنه وليه ولبى

عنه وطاف به وسعى ووقف بعرفة ورمى عنه . ولو بلغ قبل الوقوف بعرفة أو فيها : أجزأ عن حجة الإسلام ، كذلك العبد إذا أُعتق .

وقال مالك وابن المنذر : لا يجزئهما لأن الإحرام انعقد تطوعاً فلا ينقلب فرضاً .

حج المرأة :

يجب على المرأة الحج كما يجب على الرجل ، سواء بسواء ، إذا استوفت شرائط الوجوب التى تقدم ذكرها ، ويزاد عليها بالنسبة للمرأة أن يصحبها زوج أو محرم[١] .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم) ، فقام رجل فقال : يا رسول الله إن امرأتى خرجت حاجة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا فقال : (انطلق فحج مع امرأتك) رواه البخارى ومسلم .

وعن يحيى بن عباد قال : كتبت امرأة من أهل الرى إلى إبراهيم النخعى ، إنى لم أحج حجة الإسلام وأنا موسرة ليس لى ذو محرم فكتب إليها إنك ممن لم يجعل الله له سبيلا .

وإلى اشتراط هذا الشرط وجعله من جملة الاستطاعة . ذهب أبو حنيفة وأصحابه والنخعى والحسن والثورى وأحمد وإسحق .

قال الحافظ : والمشهور عند الشافعية اشتراط الزوج أو المحرم ، أو النسوة الثقات ، وفى قول : تكفى امرأة واحدة ثقة ، وفى قول ـ نقله الكرابيسى وصححه فى المهذب ـ تسافر وحدها إذا كان الطريق آمنا وهذا كله فى الواجب من حج أو عمرة .

وفى سبل السلام : قال جماعة من الأئمة : يجوز للعجوز السفر من غير محرم ، وقد استدل المجيزون لسفر المرأة من غير محرم ولا زوج ؛ إذا وجدت رفقة مأمونة ، أو كان الطريق آمنا ـ بما رواه البخارى عن عدى ابن حاتم قال : بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل فقال : (يا عدى هل رأيت الحيرة ، قال : قلت لم أرها وقد أنبئت عنها قال : (فإن طالت بك الحياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله) .

واستدلوا أيضاً : بأن نساء النبى ﷺ حججن بعد أن أذن لهن عمر فى آخر حجة حجها ، وبعث معهن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف .

وكان عثمان ينادى : ألا لا يدنو أحد منهن ولا ينظر إليهن وهن فى الهوادج على الإبل .

وإذا خالفت المرأة وحجت دون أن يكون معها زوج أو محرم ؛ صح حجها . وفى سبل السلام « قال ابن تيمية » : يصح الحج من المرأة بغير محرم وفى غير المستطيع .

---

(١) المحرم القريب الذى يحرم عليه الزواج منها كالأب أو الأخ . . الخ

وحاصله : أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة ؛ مثل المريض والفقير والمعضوب والمقطوع طريقه ، والمرأة بغير محرم وغير ذلك ؛ إذا تكلفوا شهود المشاهد أجزأهم الحج ، ثم منهم من هو محسن فى ذلك كالذى يحج ماشياً ، ومنهم من هو مسىء فى ذلك كالذى يحج بالمسألة ، والمرأة تحج بغير محرم ، وإنما أجزأهم لأن الأهلية تامة والمعصية إن وقعت فى الطريق لا فى نفس المقصود » .

وفى المغنى : لو تجشم غير المستطيع المشقة وسار بغير زاد وراحلة فحج كان حجه صحيحاً مجزئاً .

استئذان المرأة زوجها :

يستحب للمرأة أن تستأذن زوجها فى الخروج إلى الحج الفرض ، فإن أذن لها خرجت ، وإن لم يأذن لها خرجت بغير إذنه ، لأنه ليس للرجل منع امرأته من حج الفريضة ، لأنها عبادة وجبت عليها ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولها أن تعجل به لتبرىء ذمتها ، كما لها أن تصلى أول الوقت (١) . وليس له منعها ويلحق به الحج المنذور لأنه واجب عليها كحجة الإسلام .

وأما حج التطوع فله منعها منه . لما رواه الدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ فى امرأة كان لها زوج ولها مال فلا يأذن لها فى الحج قال : (ليس لها أن تنطلق إلا بإذن زوجها) .

من مات وعليه حج :

من مات وعليه حجة الإسلام أو حجة كان قد نذرها ؛ وجب على وليه أن يجهز من يحج عنه من ماله ، كما أن عليه قضاء ديونه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟ قال : (نعم حجّى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ أقضوا الله ؛ فالله أحق بالوفاء) رواه البخارى .

وفى الحديث دليل على وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أم لم يوص ، لأن الدين يجب قضاؤه مطلقاً ، وكذا سائر الحقوق المالية من كفارة أو زكاة أو نذر ، وإلى هذا ذهب ابن عباس وزيد بن ثابت وأبو هريرة والشافعى ؛ ويجب إخراج الأجرة من رأس المال عندهم .

وظاهر الحديث أنه يقدم على دين الآدمى ، إذا كانت التركة لا تتسع للحج والدين لقوله : ﷺ (فالله أحق بالوفاء) .

وقال مالك : إنما يحج عنه إذا أوصى ، أما إذا لم يوص فلا يحج عنه ؛ لأن الحج عبادة غلب فيها جانب البدنية فلا يقبل النيابة . وإذا أوصى حج من الثلث .

---

(١) أى كما أن الصلاة تجب لأول دخول وقتها ، فإن حجة الفريضة يلزم تعجيلها عند الاستطاعة وتمام الشروط عند كثير من العلماء .

الحج عن الغير :

من استطاع السبيل إلى الحج ثم عجز عنه لمرض أو شيخوخة ، لزمه إحجاج غيره عنه ، لأنه أيس من الحج بنفسه لعجزه ، فصار كالميت فينوب عنه غيره .

ولحديث الفضل بن عباس : أن امرأة من خثعم قالت : يا رسول الله : إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ . قال : نعم . وذلك فى حجة الوداع . . رواه الجماعة .

وقال الترمذى أيضاً : « وقد صح عن النبى ﷺ فى هذا الباب غير حديث ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم ، من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم يرون أن يحج عن الميت ، وبه يقول الثورى وابن المبارك والشافعى وأحمد وإسحاق .

وقال مالك : إذا أوصى أن يحج عنه حُج عنه .

وقد رخص بعضهم أن يحج عن الحى إذا كان كبيراً ، وبحال لا يقدر أن يحج وهو قول ابن المبارك والشافعى .

وفى الحديث دليل على أن المرأة يجوز لها أن تحج عن الرجل والمرأة وكذلك الرجل يجوز له أن يحج عن الرجل والمرأة ، ولم يأت نص يخالف ذلك .

إذا عوفى المريض :

إذا عوفى المريض بعد أن حج عنه نائبه فإنه يسقط الفرض عنه ولا تلزمه الإعادة لئلا تفضى إلى إيجاب حجتين وهذا مذهب أحمد .

وقال الجمهور : لا يجزئه ؛ لأنه تبين أنه لم يكن ميئوساً منه ، وأن العبرة بالانتهاء ؛ ورجح ابن حزم الرأى الأول فقال : إذا أمر النبى ﷺ بالحج عمن لا يستطيع الحج راكباً ولا ماشياً ، وأخيراً إن دين الله يقضى عنه ، فقد تأدى الدين بلا شك وأجزأ عنه .

وبلا شك أن ما سقط وتأدى فلا يجوز أن يعود فرضه بذلك إلا بنص ولا نص ها هنا . أصلا بعودته ، ولو كان ذلك عائداً لبين عليه الصلاة والسلام ذلك ، إذ قد يقوى الشيخ فيطيق الركوب .

فإذا لم يخبر النبى ﷺ بذلك ، فلا يجوز عودة الفرض عليه بعد صحة تأديته عنه .

شرط الحج عن الغير :

يشترط فيمن يحج عن غيره أن يكون قد سبق له الحج عن نفسه . لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما :

أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : لبيك عن شبرمة . فقال : أحججت عن نفسك ؟ قال : لا : قال : (فحج عن نفسك ثم حُج عن شبرمة) رواه أبو داود .

قال ابن تيمية : إن أحمد حكم - فى رواية ابنه صالح عنه - أنه مرفوع ، على أنه وإن كان موقوفا ، فليس لابن عباس فيه مخالف ، وهذا قول أكثر أهل العلم : أنه لا يصح أن يحج عن غيره من لم يحج عن نفسه مطلقاً مستطيعاً كان أو غير مستطيع : لأن ترك الاستفصال والتفريق فى حكاية الأحوال دال على العموم .

من حج لنذر وعليه حجة الإسلام :

أفتى ابن عباس وعكرمة ، بأن من حج لوفاء نذر عليه ولم يكن حج حجة الإسلام أجزاه ذلك عنهما .

وأفتى ابن عمر وعطاء بأنه يبدأ بفريضة الحج ثم يفى بنذره .

الاقتراض للحج :

عن عبد الله بن أبى أوفى قال : سألت رسول الله ﷺ عن الرجل لم يحج أيستقرض للحج ؟ قال : (لا) رواه البيهقى .

الحج من مال حرام :

ويجزىء الحج وإن كان المال حراماً ، ويأثم عند الأكثر من العلماء !!

وقال الإمام أحمد : لا يجزىء وهو الأصح ؛ لما جاء فى الحديث الصحيح : (أن الله طيب لا يقبل إلا طيباً) .

وروى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة ووضع رجله فى الغرز(١) فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه مناد من السماء : لبيك وسعديك زادك حلال وراحلتك حلال وحجك مبرور غير مأزور ، وإذا خرج بالنفقه الخبيثة فوضع رجله فى الغرز ؛ فنادى لبيك ، ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك زادك حرام ونفقتك حرام وحجك مأزور غير مأجور) .

أيها أفضل فى الحج : الركوب أم المشى ؟ :

قال الحافظ فى الفتح : قال ابن المنذر : اختلف فى الركوب والمشى للحجاج أيهما أفضل ؟

قال الجمهور :الركوب أفضل لفعل النبى ﷺ ، ولكونه أعون على الدعاء والابتهال ، ولما فيه من المنفعة .

وقال إسحاق بن راهويه . المشى أفضل لما فيه من التعب .

ويحتمل أن يقال : يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص . .

---

(١) الغرز هو الذى يمسك رجلى راكب الدابة ، وأصبح كناية عن الأخذ بأسباب الحج الفعلية كركوب السيارة أو الطيارة أو الباخرة .

روى البخارى عن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ رأى شيخاً يهادى بين ابنيه . فقال : (ما بال هذا) ؟ .

قالوا : نذر أن يمشى . قال : (إن الله عز وجل نهى عن تعذيب هذا نفسه لغنى ، وأمره أن يركب) .

التكسب والمكارى[1] فى الحج :

لا بأس للحاج أن يتاجر ويؤاجر ويتكسب وهو يؤدى أعمال الحج والعمرة .

قال ابن عباس : إن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون بـ « منى » وعرفة وسوق « ذى المجاز » ومواسم الحج فخافوا البيع وهم حرم . فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾[2] قال : كانوا لا يتجرون بـ « منى » فأمروا أن يتجروا إذا أفاضوا من « عرفات » رواه أبو داود .

وعن أبى أمامة التيمى : أنه قال لابن عمر : إنى رجل أكرى فى هذا الوجه وإن ناساً يقولون لى : إنه ليس لك حج فقال ابن عمر : أليس تحرم وتلبى وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمى الجمار ؟ قال : قلت بلى ! قال : فإن لك حجاً : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن مثل ما سألتنى فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية وقال : « لك حج » رواه أبو داود .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلاً سأله فقال : أوجر نفسى من هؤلاء القوم فأنسك معهم المناسك ألِىَ أجر ؟ قال ابن عباس نعم (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب)[3] رواه البيهقى .

حجة رسول الله ﷺ :

روى مسلم : قال : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبه وإسحاق بن إبراهيم جميعاً عن جعفر[4] بن محمد عن أبيه قال : « دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، فسأل عن القوم حتى انتهى إلىّ ؟ فقلت : أنا محمد بن على الحسين فأهوى بيده إلى رأسى فنزع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديى وأنا يومئذ غلام شاب فقال : مرحباً بك يا ابن أخى سل عما شئت ؟ فسألته (وهو أعمى) وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نساجة ملتحفاً بها كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ورداؤه إلى جنبه على المشجب . فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ : فقال بيده[5] : فعقد تسعاً ؛ فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ثم أذن فى الناس فى العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة حشد كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله .

---

(١) المكارى من يؤجر دابته للحاج ، وفى عصرنا من يؤجر سيارته ونحو ذلك .
(٢) من الآية : ١٩٨ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٢٠٢ من سورة البقرة .
(٤) هو المشهور بجعفر الصادق حفيد على زين العابدين بن الحسين بن على كرم الله وجهه ورضى عنهم أجمعين .
(٥) قال بيده أى أشار بيده فعقد تسعا من أصابع يديه .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحُليفه[١] فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ : كيف أصنع ؟ قال : « اغتسلى واستثفرى[٢] بثوب وأحرمى ، فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ثم ركب « القصواء »[٣] حتى إذا استوت به ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعرف تأويله وما عمل به من شىء عملنا به ، فأهل بالتوحيد : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » ، وأهل الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يردَّ رسول الله ﷺ شيئاً منه ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ؛ لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل[٤] ثلاثا ومشى أربعاً ، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[٥] فجعل المقام بينه وبين البيت . فكان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن[٦] فاستلمه ثم خرج من الباب إلى الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾[٧] . أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » ثم دعا بين ذلك قال مثل هذا ثلاث مرات ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى حتى إذا صعدنا مشى حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا . حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال : (لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت[٨] لم أسق الهدى وجعلتها عمرة فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة) .

فقام سراقة[٩] بن مالك فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم لأبد ؟ فشبَّك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى وقال : دخلت العمرة فى الحج مرتين لا بل لأبد أبد .

وقدم علىّ من اليمن ببُدن النبى ﷺ . فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حلَّ ولبست ثياباصبيغاً[١٠] ، واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : إن أبى أمرنى بهذا ، قال : فكان على يقول بالعراق[١١] : فذهبت

---

(١) فى الموضع الذى يسمى اليوم آبار على ، على بعد اثنى عشر كيلو مترا من قلب المدينة .
(٢) تجعل ثوبا بين فخذيها لتحفظ دم النفاس .
(٣) ناقة الرسول ﷺ .
(٤) الرمل الجرى الخفيف .
(٥) من الآية : ١٢٥ من سورة البقرة .
(٦) الركن هو مكان الحجر الأسود .
(٧) من الآية : ١٥٨ من سورة البقرة .
(٨) كناية عن أنه لو استطاع العودة إلى بدء إحرامه لجعلها إحراما بعمرة .
(٩) هو الفارس الذى خرج يوم الهجرة يريد القبض على رسول الله ﷺ ليفوز بجائزة قريش - مائة ناقة من حمر النعم - فساخت قوائم فرسه ثلاث مرات فاستأمن رسول الله ﷺ فأمنه وبشره بلبس سوارى كسرى ، وقد لبسهما فى خلافة عمر رضى الله عنه .
(١٠) ثيابا ملونة .
(١١) أى لما صار خليفة وجعل الكوفة عاصمة خلافته .

إلى رسول الله ﷺ محرِّشاً على فاطمة للذى صنعت ، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذكر عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها ، فقال صدقت ، صدقت ، ماذا قلت حين فرضت الحج ؟ .

قال : قلت : « اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك » .
قال : فإن معى الهدى فلا تحل .
قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به علىّ من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ مائة .

قال : فحلَّ الناس كلهم وقصَّروا إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى ، فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج وركب رسول الله ﷺ فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر(١) ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر فضربت له بنمرة(٢) فسار رسول الله ﷺ ، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية .

فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس(٣) أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا - ربا عباس بن عبد المطلب ؛ فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد إنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس اللهم أشهد ، اللهم أشهد ثلاث مرات .

ثم أذن ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر(٤) ، ولم يصل بينهما شيئا ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف(٥) فجعل ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل جبل المشاة بين يديه يستقبل القبلة فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلا حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه .

ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق(٦) للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رجله ويقول بيده اليمنى : أيها الناس السكينة السكينة ، كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد ، حتى أتى المزدلفة ؛ فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح(٧) بينهما شيئا ، ثم اضطجع رسول

---

(١) فجر يوم عرفة ، وسمى يوم التروية لأنهم يبعثون بالروايا - حاملات الماء إلى منى وعرفات تسبق الحجيج .
(٢) وفى مكان القبة - خيمة الرسول - بنى مسجد نمرة فى عرفات . (٣) أى زالت عن كبد السماء وهو أول وقت الظهر .
(٤) فى روايات أخرى أن صلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين بأذان وإقامتين .
(٥) حيث توجد اليوم علامة قائم أبيض على الصخرات بوسط الوادى .
(٦) شد زمامها حتى لا تسرع . (٧) أى لم يصل نافلة بينهما .

الله ﷺ حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحّده ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف الفضل بن عباس . وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما - فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن[١] يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل ، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر ، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل ، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر حتى آتى بطن محسر[٢] . فحرك قليلا « ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الحذف يرمى من بطن الوادى .

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثا وستين بيده ، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر[٣] وأشركه فى هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر ، فطبخت فأكلا من لحمها ، وشربا من مرقها ، ثم ركب رسول الله ﷺ ، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر . فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم[٤] فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فناولوه دلواً فشرب منه » ا . هـ

قال العلماء :

اعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد ، قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيراً أخرج فيه من الفقه مائة ونيفا وخمسين نوعاً . قال : ولو تقصى لزيد على هذا العدد قريب منه .

قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ، ولغيرهما بالأولى ، وعلى استثفار الحائض والنفساء وعلى صحة إحرامهما وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرم صوته بالتلبية ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ ، فإذا زاد فلا بأس ، فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن : لبيك مرهوبا منك ومرغوباً إليك .

وإنه ينبغى للحاج القدوم أولا إلى مكة ليطوف طواف القدوم ، وأن يستلم الركن - الحجر الأسود - قبل طوافه ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى ، والرمل أسرع المشى مع تقارب الخطا وهو الخبب وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين .

ثم يمشى أربعاً على عادته ، وأنه يأتى بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو : ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ .

---

(١) نساء فى الهوادج تجرى بهن الابل .
(٢) مكان قريب من عرفات .
(٣) ما بقى من المائة .
(٤) يسقون الناس لأن السقاية كانت فيهم ، لأن آباهم أعاد حفر زمزم .

ثم يجعل المقام بينه وبين البيت ويصلى ركعتين ويقرأ فيهما فى الأولى بعد الفاتحة سورة الكافرون وفى الثانية بعد الفاتحة الإخلاص . ودل الحديث على أنه يُشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد ، كما فعله عند الدخول ، واتفق العلماء على أن الاستلام سنة ، وأن يسعى بعد الطواف ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ، ويقف عليه مستقبل القبلة ، ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ويدعو ثلاث مرات ، ويرمل فى بطن الوادى وهو الذى يقال له « بين الميلين »[1] وهو أى الرمل مشروع فى كل مرة من السبعة الأشواط ، لا فى الثلاثة الأول كما فى طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو وبتمام ذلك تتم عمرته .

فإن حلق أو قصر صار حلالا وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة ، وأما من كان قارناً فإنه لا يحلق ولا يقصر ويبقى على إحرامه ، ثم فى يوم التروية وهو الثامن من ذى الحجة يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ويذهب هو ومن كان قارنا إلى منى والسنة أن يصلى بمنى الصلوات الخمس وأن يبيت بها هذه الليلة ، وهى ليلة التاسع من ذى الحجة ، ومن السُّنة كذلك ألا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل « عرفات » إلا بعد زوال الشمس وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً فى « عرفات » فإنه ﷺ نزل بنمرة وليست من عرفات . ولم يدخل ﷺ الموقف إلا بعد الصلاتين .

ومن السُّنة ألا يصلى بينهما شيئاً ، وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة ، وهذه إحدى الخطب المسنونة فى الحج ؛ والثانية أى من الخطب المسنونة ؛ يوم السابع من ذى الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر ، والثالثة أى من الخطب المسنونة يوم النحر . والرابعة - يوم النفر الأول وفى الحديث سنن وآداب منها . أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين ، وأن يقف فى عرفات راكباً أفضل ، وأن يقف عند الصخرات عند موقف النبى ﷺ ، أو قريباً منه وأن يقف مستقبل القبلة ، وأن يبقى فى الموقف حتى تغرب الشمس ، ويكون فى وقوفه داعيا لله عز وجل رافعاً يديه إلى صدره وأن يدفع بعد تحقيق غروب الشمس بالسكينة ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً .

فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعا بأذان واحد وإقامتين دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات ، وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء وإنما اختلفوا فى سببه .

فقيل : إنه نسك وقيل لأنهم مسافرون أى السفر هو العلة لمشروعية الجمع ، ومن السنن المبيت بمزدلفة ، وهو مجمع على أنه نسك وإنما اختلفوا فى كونه أى المبيت واجباً أو سنة .

ومن السُّنة أن يصلى الصبح فى المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك فيأتى المشعر الحرام ، فيقف ويدعو والوقوف عنده من المناسك : ثم يدفع منه عند إشعار الفجر إشعاراً بليغاً فيأتى بطن مُحسِّر[2] فيسرع السير فيه لأنه محل غضب الله فيه على أصحاب الفيل فلا ينبغى الأناة فيه ولا البقاء فيه .

---

(١) علامتان خضراوان فى المسعى .

(٢) فيه رجم أصحاب الفيل رجمتهم الطير الأبابيل .

فإذا أتى الجمرة وهى جمرة العقبة نزل ببطن الوادى ورماها بسبع حصيات كل حصاه كحبة الباقلاَّء ؛ أى الفول يكبر مع كل حصاة .

ثم ينصرف بعد ذلك إلى المنحر فينحر إن كان عنده هدى ، ثم يحلق بعد نحره ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة ، وهو الذى يقال له طواف الزيارة ، ومن بعده يحل له كل ماحرُمَ عليه بالإحرام ، حتى وطء النساء ، وأما إذا رمى جمرة العقبة ، ولم يطف هذا الطواف فإنه يحل له كل شىء ماعدا النساء ، هذا هو هدى رسول الله ﷺ فى حجه والآتى به مقتد به ﷺ وممتثل لقوله : « خذوا عنى مناسككم » وحجه صحيح .

كيفية أداء الحج :

إذا قارب الحاج الميقات استحب له أن يأخذ من شاربه وقص شعره وأظافره ، ويغتسل أو يتوضأ ، ويتطيب ويلبس لباس الإحرام ، فإذا بلغ الميقات[1] صلى ركعتين وأحرم بأى نوع : الحج إن كان مفرداً أو العمرة إن كان متمتعاً ، أو هما معاً إن كان قارناً .

وهذا الإحرام ركن لايصح النسك بدونه .

أما تعيين نوع النسك من إفراد أو تمتع أو قران فليس فرضاً . ولو أطلق النية ولم يعين نوعاً خاصاً صح إحرامه ، وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة ، وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع ، كلما علا شرفاً أو هبط وادياً ، أو لقى ركباً أو أحداً ، وفى الأسحار وفى دبر كل صلاة .

وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ومخاصمة الرفاق وغيرهم ، والجدل فيما لافائدة فيه ، وأن لا يتزوج ولا يزوج غيره ، ويتجنب أيضاً لبس المخيط والمحيط والحذاء الذى يستر مافوق الكعبين .

ولا يستر رأسه ولا يمس طيباً ولا يحلق شعراً ولا يقص ظفراً ، ولا يتعرض لصيد البر مطلقاً ، ولا لشجر الحرم وحشيشه ، فإذا دخل مكة المكرمة استحب له أن يدخلها من أعلاها ، بعد أن يغتسل من بئر ذى طوى بالزاهر ، إن تيسر له ، ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها من «باب السلام» ذاكراً أدعية دخول المسجد ومراعيا آداب الدخول ، وملتزماً الخشوع والتواضع والتلبية ، فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه وسأل الله من فضله ، وذكر الدعاء المستحب فى ذلك ، ويقصد رأساً إلى الحجر الأسود فيقبله بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها ، فإن لم يستطع ذلك أشار إليه .

ثم يقف بحذائه ملتزماً الذكر المسنون والأدعية المأثورة ، ثم يشرع فى الطواف ويستحب له أن يضطبع[2] ويرمل فى الأشواط الثلاثة الأول .

---

(١) الميقات هو أحد الأماكن التى حددها رسول الله ﷺ للقادمين من الآفاق إلى الحرم ، حيث يلزمه عنده بدء الإحرام

(٢) الاضطباع : تعرية الكتف الأيمن ووضع طرف الرداء تحت الإبط .

ويمشى على هينته فى الأشواط الأربعة الباقية ، ويسن له استلام الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسود فى كل شوط ، فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تالياً قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ فيصلى ركعتى الطواف ثم يأتى « زمزم » فيشرب من مائها ويتضلع[1] منه ، وبعد ذلك يأتى « الملتزم »[2] فيدعو الله عز وجل بما شاء من خيرى الدنيا والآخرة ، ثم يستلم الحجر ويقبله ويخرج من باب « الصفا » إلى الصفا تالياً قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾ الآية .

ويصعد عليه ويتجه إلى الكعبة ، فيدعو بالدعاء المأثور ثم ينزل فيمشى فى السعى ذاكراً داعياً بما شاء ، فإذا بلغ (ما بين الميلين) هرول ثم يعود ماشياً على رسله حتى يبلغ المروة فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعيا ذاكراً وهذا هو الشوط الأول وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط . وهذا السعى واجب على الأرجح ، وعلى تاركه كله أو بعضه دم ، فإذا كان المحرم متمتعاً حلق رأسه ، أو قصَّر وبهذا تتم عمرته ، ويحل له ما كان محظوراً من محرمات الإحرام حتى النساء . أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المتمتع من منزله ، ويخرج هو وغيره ممن بقى على إحرامه إلى منى فيبيت بها فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات . ونزل عند مسجد نمرة واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام ، يقصر فيهما الصلاة هذا إذا تيسر له أن يصلى مع الإمام : وإلا صلى جمعاً وقصراً حسب استطاعته حيث يكون من ساحة عرفات ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريباً منها ، فإن هذا موضع وقوف النبى ﷺ والوقوف بعرفة هو ركن الحج الأعظم ولا يسن ولا ينبغى صعود جبل الرحمة ، ويستقبل القبلة ، ويأخذ فى الدعاء والذكر والابتهال ، حتى يدخل الليل فإذا دخل الليل[3] أفاض إلى المزدلفة فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير ، ويبيت بها فإذا طلع الفجر وقف بالمشعر الحرام ، وذكر الله كثيرا حتى يسفر الصبح ، فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى منى .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم وبعد طلوع الشمس يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ، ثم يذبح هديه إن أمكنه ويحلق شعره أو يقصره وبالحلق يحل له كل ما كان محرماً عليه ما عدا النساء ، ثم يعود إلى مكة فيطوف بها طواف الإفاضة وهو طواف الركن فيطوف كما طاف طواف القدوم ، ويسمى هذا الطواف أيضا طواف الزيارة وإن كان متمتعاً سعى بعد الطواف .

وإن كان مفرداً أو قارنا وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر ، وبعد هذا الطواف يحل له كل شىء حتى النساء . ثم يعود إلى منى فيبيت بها . والمبيت بها واجب يلزم بتركه دم . وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث مبتدئاً بالجمرة التى تلى منى ثم يرمى الجمرة الوسطى ويقف بعد الرمى داعيا ذاكراً ثم يرمى جمرة العقبة ولا يقف عندها . وينبغى أن يرمى كل جمرة بسبع

---

(١) أى يملأ ما بين أضلاعه ، وذلك يعنى الشرب الوفير .

(٢) ما بين باب الكعبة والحجر الأسود .

(٣) أى تأكد غروب الشمس .

حصيات قبل الغروب ، ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك ثم هو مخير بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر ، وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع ، وهذا الطواف واجب . وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع ، إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات ، وإلا ذبح شاة ، ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات ، والطواف ، والحلق ، وبهذا تنتهى أعمال العمرة ، ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار ، وطواف الإفاضة ، والمبيت بمنى ، والذبح ، والحلق أو التقصير ، هذه هى خلاصة أعمال الحج والعمرة .

طواف الوداع والدعاء :

طواف الوداع سُمِّى بهذا الاسم لأنه لتوديع البيت ويطلق عليه طواف الصدر لأنه عند صدور[1] الناس من مكة وهو طواف لا رمل فيه وهو آخر ما يفعله الحاج غير المكى عند إرادة السفر من مكة . . روى مالك فى الموطأ عن عمر رضى الله عنه أنه قال : « آخر النسك الطواف بالبيت » أما المكى والحائض فإنه لا يشرع فى حقهما ولا يلزم بتركهما له شىء .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « رُخص للحائض أن تنفر إذا حاضت » رواه البخارى .

وفى رواية قال : « أُمِرَ الناس أنْ يكون آخر عهدهم بالبيت إلا أنه خُفف عن المرأة الحائض » .

وروى عن صفية زوج النبى ﷺ : أنها حاضت فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : « أحابستنا هى ؟ » فقالوا : إنها قد أفاضت قال : « فلا إذاً » .

حكمه : اتفق العلماء على أنه مشروع . لما رواه مسلم وأبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان الناس ينصرفون فى كل وجه . فقال النبى ﷺ : « لا ينفر أحدكم حتى يكون آخر عهده بالبيت » .

واختلفوا فى حكمه فقال مالك وداود وابن المنذر : إنه سنة لا يجب بتركه شىء وهو قول للشافعى :

وقالت الأحناف والحنابلة ورواية عن الشافعى : إنه واجب يلزم بتركه دم .

وقته : وقت طواف الوداع بعد أن يفرغ المرء من جميع أعماله ويريد السفر ليكون آخر عهده بالبيت كما تقدم فى الحديث . فإذا طاف الحاج سافر توّاً دون أن يشتغل ببيع أو بشراء ولا يقيم زمنا فإن فعل شيئاً من ذلك أعاده .

اللهم إلا إذا قضى حاجة فى طريقه أو اشترى شيئاً لا غنى له عنه من طعام ، فلا يعيد لذلك ، لأن هذا لا يخرجه عن أن يكون آخر عهده بالبيت ، ويستحب للمودع أن يدعو بالمأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو : « اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك حملتنى على ما سخرت لى من خلقك وسيرتنى فى بلادك

---

(١) الصدر : الرجوع .

حتى بلغتني بنعمتك إلى بيتك ، وأعنتني على أداء نسكي ، فإن كنت رضيت عني فازدد عني رضا ، وإلا فمن الآن فارض عني قبل أن تنأى عن بيتك داري ، فهذا أوان انصرافي ، إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا ببيتك ، ولا راغب عنك ولا عن بيتك ، اللهم فاصحبني العافية في بدني والصحة في جسمي والعصمة في ديني ، وأحسن منقلبي وارزقني طاعتك ما أبقيتني واجمع لي بين خيري الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير » .

قال الشافعي : أحب إذا ودع البيت أن يقف في الملتزم . وهو ما بين الركن والباب ، ثم ذكر الحديث .

أهل الكتاب وعنادهم وما يضمرونه للإسلام

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **شهيد** ﴾ : الشهيد العالم بالشيء المطلع عليه ﴿ **تصدون** ﴾ : تعرضون . ﴿ **تبغونها** ﴾ : تطلبونها ﴿ **عوجا** ﴾ : العوج الميل عن الاستواء في الأمور المعنوية كالدين مثلاً والمراد هنا الزيغ والتحريف .

في هاتين الآيتين سؤالان وجههما الله تعالى على لسان نبيه ومصطفاه ﷺ قصد بهما تقريع أهل الكتاب الذين كفروا بآيات الله خاصة ، الآيات الناطقة بنبوة خاتم المرسلين ﴿ **قل ياأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله** ﴾ أي ما كان ينبغي لكم أن تكفروا بتلك الآيات وأنتم تعلمون أن الله تعالى شهيد ومطلع على ما تخفى صدوركم وعليم بخلجات نفوسكم ، وما كان يليق بكم وينبغي لكم أن تصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، تقصدون بذلك اعوجاج الطريق وهو مستقيم واضح ، والحق أجلى من الشمس في ضحاها ، والقمر إذا تلاها ، وأوضح من ضوء النهار إذا جلاها ، فلماذا تريدون أن تنحرفوا بالسبيل وهي مستقيمة لا اعوجاج فيها ﴿ وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[1] .

---

(١) الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .

قوله تعالى : ﴿ وأنتم شهداء ﴾ : أى أنكم تعلمون هذه الحقائق علم الشاهد الذى يرى الحق كالشمس ، فلماذا الإنكار ولماذا الصد والله تعالى يقول : ﴿ والذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[١] بل لقد قال عبد الله بن سلام : «إنى والله لأعرف أن محمداً رسول الله أكثر مما أعرف ابنى ، قيل له وكيف ؟ قال : الله أعلم بابنى أما هذا فقد نزل الأمين من السماء بنبوته» .

قوله تعالى : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ أى اعلموا أن الله رقيب عليكم شهيد على أعمالكم وسوف يجازيكم بها ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[٢] .

الله يدرى كل ما تضمر يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لمْ تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

توجيهات وعظات

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ يعتصم ﴾ اعتصم بالشىء تمسك به فمنع نفسه من الوقوع فى الهلاك ﴿ حق تقاته ﴾ : تقاته وتقواه بمعنى واحد ، والحق أى الواجب الثابت وأصل الكلام : اتقاء حقاً : والمراد اتقوه التقوى الواجبة ﴿ حبل الله ﴾ : هو العهد أو القرآن و ﴿ شفا حفرة ﴾ : طرفها وأشفى على الشىء أشرف عليه .

---

(١) من الاية : ١٤٦ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ٤٢ من سورة ابراهيم .

سبب النزول :

روى أنه مر شماس بن قيس اليهودى ـ وكان شديد الكفر كثير الحسد على المسلمين ، مر بنفر من المسلمين من الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ يتحدثون ، فغاظه ذلك حيث اتحد الأوس والخزرج ، واجتمعوا بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية ـ من حروب أججها اليهود ـ وقال اللعين : مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار ، فأمر شاباً من اليهود كان معه أن اذهب إليهم وذكرهم بيوم بعاث وما كان بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيه للأوس . وما قيل فيه من الأشعار ، فتنازع القوم وتصايحوا : السيوف السيوف !! وجمع كل فريق منهم جموعه فبلغ النبى ﷺ هذا ؛ فخرج إليهم ومعه المهاجرون والأنصار ، وقال : (أتدعون بدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام وألف بين قلوبكم) . فعرف القوم أنها نزغة الشيطان وكيد العدو ، فألقوا السلاح وبكوا وتعانقوا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ .

خطاب كريم من رب كريم بعنوان كريم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ لبيك اللهم لبيك ؛ يأتى بعد ذلك التوجيه الحاسم الجازم ﴿ **إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ المقصود بهم اليهود .

ماذا يا علام الغيوب ، يا من تعلم خفايا الصدور ، يا من تعلم حقائق الأمور ، ودقائق خطرات النفوس ، ماذا لو أطعنا فريقا من الذين أوتوا الكتاب : ﴿ **يردوكم بعد إيمانكم كافرين** ﴾ بئس المصير الارتداد بعد الإيمان ، وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾[١] إن الصراع بين الحق والباطل ؛ دائم دائب مستمر ، حتى تقوم الساعة ، والصراع بين جماعة الحق وجماعة الباطل صراع عقيدة ، قال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾[٢] فعلى الجماعة المسلمة أن تحذر الأصابع التى تحيك لها المصايد والمكايد والشباك ، وعلى الجماعة المسلمة أن تلجأ إلى كتاب الله ، قال ﷺ : « ستكون فتنه . قال علىّ فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله » . نعم . وهل بعد كتاب الله من معتصم ، إنه العاصم من القواصم ؛ فيه خبر من بعدكم وحكم ما بينكم إنه حبل الله المتين ونوره المبين وذكره الحكيم .

ثم يأتى التعجب فى صيغة الاستفهام ﴿ **وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله** ﴾ جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوما : (أى المؤمنين أعجب إليكم إيمانا ؟ قالوا : الملائكة قال : وكيف لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ؟ قالوا : فنحن ؛ قال : وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟. قالوا : فأى الناس أعجب إيمانا ؟ قال : قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفا يؤمنون بما فيها) .

لن يكون هناك انحراف عن سبيل الجادة ، مادامت آيات الله تتلى عليكم ومادام فيكم رسوله ، فإن آيات الله عصمة من الزلل ، إنها حبل الله المتين ونوره المبين ، وذكره الحكيم ، ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى**

(١) من الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ٨ من سورة البروج .

إلى صراط مستقيم ﴾ هذه حقيقة لا تختلف ولا تتخلف ، ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[١] . فاللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والعصمة من كل ذنب .

ثم أمر تعالى بأن يُتقى حق التقوى فقال سبحانه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾ والتقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . ﴿ حق تقاته ﴾ . قال ابن مسعود : أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ هذه دعوة أراد الله تعالى بها التمسك بالإسلام ، فالسعيد هو من مات مسلما ، والشقى من مات على غير الإسلام ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[٣] وقال جل شأنه : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[٤] وقال تبارك وتعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[٥] فإذا كان الله أكمل ديننا فدين الله لا ينقص أبدا ، وإذا كان أتم نعمته علينا ، فنعمة الله ليست فى حاجة إلى زيادة . من أقوال من لا يعلمون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإذا كان الله رضى الإسلام لنا دينا ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ﴾[٦] ، ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياي ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[٧] إن الله تعالى أوصانا أن نموت على الإسلام ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾[٨] قال جابر : سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث : (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله قال أنا عند ظن عبدى بى فإن ظن بى خيرا فله وإن ظن بى شرا فله) .

وعن أنس قال : كان رجل من الأنصار مريض ، فجاءه النبى ﷺ يعوده ، فوافقه فى السوق ؛ فسلم عليه فقال له : (كيف أنت يا فلان ؟ قال بخير يا رسول الله أرجو الله وأخاف ذنوبى . فقال رسول الله ﷺ : لا يجتمعان فى قلب عبد فى هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف) .

---

(١) من الآيات : ١٢٣ - ١٢٦ من سورة طه .
(٢) روى البخاري عن عروة بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ (حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر) ورُوى ولما نزلت هذه الآية : قالوا يارسول الله من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم فأنزل الله عز وجل : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ روى ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد .
(٣) من الآية : ١٩ من سورة آل عمران .
(٤) الآية : ٨٥ من سورة آل عمران .
(٥) من الآية : ٣ من سورة المائدة .
(٦) من الآية : ١٤ من سورة الجن .
(٧) الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآية : ٨ من سورة آل عمران .

بعد أن أمر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بتقواه حق تقاته ؛ أمرهم جل شأنه أن يستمسكوا بحبله المتين ونهاهم عن الفرقة فقال : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** ﴾ وحبل الله هو : كتابه الحكيم وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا تنقضى ، عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[1] . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ، قال الإمام الشاطبى عن القرآن الكريم :

وخير جليس لا يمل حديثه ... تراوده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته ... من القبر يلقاه سناً متهللا
هنالك يهنيه مقيلا وروضة ... ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه ... وأجدر به سؤلا إليه موصلا
فيا أيها القارى به متمسكا ... مُجلاً له فى كل حال مبجلا
هنيئا مريئا والداك عليهما ... ملابس أنوار من التاج والحلى

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثا : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال) .

قوله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا** ﴾ النعمة هنا هى نعمة الإسلام وكفى بها نعمة وقد كان بين الأوس والخزرج محن وعداء وقتال قبل الاسلام ، وكان اليهود ينفخون فى هذه النار فتزداد اشتعالا ، ويعملون جهد طاقتهم أن تظل ألسنة اللهب مندلعة بين هاتين القبيلتين العظيمتين إلى أن أشرق فجر الاسلام ، وامتدت خيوطه إلى القلوب فبددت غياهب الظلمات ، وأضاءتها بنور التوحيد ، فانقلب العداء إخاءً ، والبغضاء محبة والشحناء وفاء ، والفرقة ولاء . ﴿ **فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار** ﴾ أى لو ظللتم على العداء الذى كنتم عليه ، والفرقة الضاربة أطنابها ؛ فقد دفعت بكم تلك الفرقة إلى حافة الهوية ، فأنقذكم الله منها بالإسلام ، وقد حذر الإسلام من الفرقة ، ودعا إلى الجماعة حيث قال تعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم

(١) من الآيتين : ١ ، ٢ من سورة الجن .

واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾⁽¹⁾ وقد بين النبى ﷺ الفرقة الناجية إذا اختلفت الأمة ، فقال : (أهل السنة والجماعة قيل وما السنة والجماعة يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابى) . بمثل ذلك البيان يبين الله آياته وأحكامه للأمة ، فيقول : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ فيا أمة الإسلام ليس بعد بيان الله من بيان ، وليس بعد آيات الله من آيات ، وليس بعد هداية الله من هداية : ﴿ قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين * وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تحشرون ﴾[2] .

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتحذير من التفرقة

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ
وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ
أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ
وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ
يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

المفردات : ﴿ أمة ﴾ : جماعة متحدة مؤتلفة ﴿ إلى الخير ﴾ : أى المنافع فى الدنيا والآخرة ﴿ تبيض ﴾ : تشرق وتسر ﴿ تسود وجوه ﴾ : تكتئب وتحزن ﴿ ظلما ﴾ : هو وضع الشىء فى غير موضعه .

خاطب الله سبحانه وتعالى الأمة الإسلامية بأسلوب الأمر الصريح فقال : ﴿ ولتكن منكم ﴾ أيها المسلمون ﴿ أمة ﴾ لها كيان ونظام ، أمة مؤتلفة الأعضاء موحدة الجهات ، لا ترهب أحدا ولا تخاف شيئا ، دينها قول الحق ورفع الظلم ، ولو كان عند سلطان جائر ، لا تخشى فى الله لومة لائم ، لها رياسة وقانون ، كل ذلك أشارت إليه كلمة واحدة وهى ﴿ أمة ﴾ إذ هناك فرق بين قولك : جماعة وأمة .

فعلى المسلمين جميعا واجب ؛ وهو تكوين تلك الأمة لتكون بهذا الوضع ، وعلى الأمة المكونة ، واجب : أن تقوم بمهمة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والذب عن حياض الدين ، ورفع منارة الحق والعدل ، فالمسلمون جميعا مكلفون بتكوين جماعة خاصة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف

---

(١) من الآية : ٤٥ من سورة الأنفال .
(٢) من الآيتين : ٧١ ، ٧٢ من سورة الأنعام .

والنهى عن المنكر ، فهذه الجماعة المكونة بهذا الوضع السابق ، لها حق الإشراف والتكوين والتوجيه والحساب والعمل على خدمة المسلمين ، وهذا أشبه بمجلس النواب ، على الأمة جميعا اختيار طائفة خاصة تقوم بتلك المهمة ، على سبيل الوجوب ، وفى سبيل قيامها بواجبها ، يجب أن تتوافر فيها شروط : العلم الدينى والعلوم التي يحتاج إليها من يخاطب الناس ، ويؤثر فيهم ، والتقوى والتخلق بأخلاق الأنبياء ، وأن يكون الداعية مثلا أعلى فى الخلق الكامل ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة .

فإذا توافرت هذه الشروط (فأولئك) البعيدون فى درجات الكمال ﴿ **هم المفلحون** ﴾ فى الدنيا والآخرة ، والأمة التى هداتها وقادتها بهذا الوضع ؛ لابد أن تكون العزة والكرامة لها ، ﴿ **ولا تكونوا** ﴾ أيها المسلمون ﴿ **كالذين تفرقوا واختلفوا** ﴾ اختلافاً كثيراً ، كما حصل لليهود والنصارى ﴿ **من بعد ما جاءهم البينات** ﴾ الواضحات التى تهديهم إلى السبيل لو اتبعوها ، وما ذلك إلا لأنهم تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولم تكن فيهم أمة تهديهم إلى الخير وترشدهم إلى الطريق ﴿ لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾(١) .

والاختلاف المنهى عنه هو : الاختلاف فى الأصول العامة للدين ، وتحكيم الهوى ، وإدخال السياسة المذهبية ، والبعد عن مناهل الشريعة والأخذ بالمتشابه .

أما الخلاف فى الوسائل ، وكيفية الأداء : كاختلاف المذاهب عندنا فى كيفية الوضوء ؛ لتعدد فعل النبى ﷺ ولأن القرآن يسمو بكل صورة قال بها إمام من الأئمة ، فلا شىء فيه ، إذ كلهم من رسول الله ﷺ ملتمس ، والمسلمون قد اختلفوا شيعاً وأحزاباً ، لما تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتركوا روح الدين واشتغلوا بالأمور الشكلية .

والأمة التى فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فأولئك جميعاهم المفلحون ، وأولئك المختلفون المتفرقون ، التاركون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿ **لهم عذاب عظيم** ﴾ لا يعرف له حد ولا يدرى له كنه ﴿ **يوم تبيض وجوه** ﴾ المؤمنين وتشرق ، ويسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، ﴿ **وتسود وجوه** ﴾ المختلفين ، الذين لم يتواصوا بالحق والصبر ، من أهل الكتاب والمنافقين ، وتظلم وتكتئب حينما يرون ما أعد لهم من العذاب المقيم * .

وقد وصفوا كذلك بأن الذل قد ألصق بهم حتى أثر فيهم ، كما يؤثر الضرب فى النقد(٢) ، فلا خلاص لهم من الذل أبدا ، إلا بسبب عهد لهم من الله ، وهو ما قررته الشريعة لهم من المساواة فى الحقوق والقضاء ،

---

(١) الأيتان : ٧٨ ، ٨٩ من سورة المائدة .

* هنا موضع الفجوة حيث تناول الشيخ تفسير قوله : « ضربت عليهم الذلة .. الخ » بينما لم يذكر تفسير كنتم خير أمة .. الخ .

(٢) لصناعة العملات المعدنية أساليب من صنع القوالب قديما والضرب على القوالب لتترك أثرها على وجهى العملة ، بينما أصبحت المسألة اليوم بآلات أوتوماتيكية ، فتخرج قطع بالآلاف صورة واحدة .

وتحريم الإيذاء وعهد من الناس ، وهو ما تقتضيه المشاركة فى الوطن ، والحاجة والانتفاع فى الصنعة والتجارة ، وصاروا مستحقين لغضب الله ، مستوجبين سخطه ، قد أحاطت بهم المسكنة إحاطة المكان بما فيه ، فهم فى الذل والفقر والحاجة أبدا ، ولا شك أنهم كذلك إلى الأبد ، وإن كانوا مياسير وأغنياء ، لأنهم ورثوا صفات الذل وضعف النفس وامتهانها ، بل باعوا الشرف لأجل المال ، فهم فى فقر دائم وذل مستمر ويتألهون المال . . ذلك الذى ذكر من هذه الصفات ، بسبب : أنهم يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء ، معتقدين أنهم على حق فيما يفعلون إذ يقتلون رجالاً يقولون ربنا الله ، وفى هذا تشنيع عليهم ، وأى تشنيع .

وما جرأهم على ذلك إلا فعل المعاصى ، واستمرارهم على معصية الله ؛ فإنه يجعل الران على قلوبهم ، ويفضى بهم إلى الوقوع فى الكبائر فمن جعل الصغائر ديدنه ، لم يكن بعيدا عليه الكفر وقتل الأنبياء ونسبة القتل إلى المعاصرين من اليهود كما قلنا ، لأنهم متنسبون إلى من فعل هذا الفعل ، وراضون عنه بل معتزون بهذا النسب ، على أنهم حاولوا قتل النبى ﷺ مرارا وعصمه الله منهم .

قوله تعالى : ﴿ فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾

أى فأما الذين تفرقوا واختلفوا فاسودت وجوههم ، فيقال لهم هذا القول فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فلابد أن يوجد فى الناس من يقول للأمة التى وقع فيها هذا الاختلاف ــ مثل هذا القول ، تغليظا لها ، لأن عملها لا يصدر إلا من الكافرين ، وأما فى الآخرة فيوبخهم الله تعالى بمثل هذا السؤال .

وقد جرى عرف القرآن أن يعد المتفرقين فى الدين من الكفار والمشركين كما جاء فى قوله : ﴿ ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون[1] ﴾ وقوله : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء[2] ﴾ .

كذلك يعد الخروج عن مقاصد الدين الحقيقة من الكفر ، لأن الإيمان اعتقاد وقول عمل ، وهو ذو شعب كثيرة من أجلها تحرى العدل ، واجتناب الظلم ، فمن استرسل فى الظلم كان كافرا كما قال تعالى ﴿ والكافرين هم الظالمون[3] ﴾ .

وكذلك من ترك الاتحاد والوفاق ، والاعتصام بحبل الدين كان من الكافرين بعد الإيمان .

﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ :

أى وأما الذين أبيضت وجوههم باتحاد الكلمة ، وعدم التفرق ، فيكونون فى الدنيا خالدين فى النعمة ماداموا على تلك الحال ، وخلودهم فى الرحمة فى الآخرة أظهر .

---

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الروم .
(٢) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

قوله تعالى: ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق ﴾ :

أى هذه الآيات نتلوها عليك مقررة ما هو الحق الذى لا مجال للشبهة فيه ، فلا عذر لمن ذهب فى الدين مذاهب شتى ، واتبع سنن السابقين ، وجعل القرآن عضين .

فعلينا أن نستمسك بما به أمر ووعد عليه بالفوز والنجاح ، ونترك ما عنه نهى وأوعد عليه بالعذاب الأليم ، حتى نكون أمة متفقة المقاصد ، ممتدة فى الدين ، فتجمع بين سعادتى الدنيا والآخرة .

﴿ وما الله يريد ظلما للعالمين ﴾ :

أى أن كل ما يأمرهم به وينهاهم عنه ، فإنما يريد به هدايتهم إلى ما يكمل فطرتهم ، ويتم به نظام جماعتهم ، فإذا هم فسقوا عن أسرة حل بهم البلاء ، وكانوا هم الظالمين لأنفسهم ، بتفرقهم واختلافهم ، إلى نحو ذلك من الذنوب التى تفسد نظم المجتمع ، وتجعل أهله فى شقاء .

ولا يحل عذاب بأمة إلا بذنب فشا فيها ، فزحزحها عن الصراط المستقيم ، كما قال عز وجل : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد(١) ﴾ .

ثم ذكر ما هو كالبرهان لنفى الظلم عنه تعالى ، فقال سبحانه :

﴿ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ : أى أنه تعالى مالك العباد والمتصرف فى شئونهم بحسب سنته الحكيمة التى لا تغيير فيها ولا تبديل ، كما قال : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا(٢) ﴾ .

وليس من أسباب ملكه شىء ناقص يحتاج إلى تمام فيتممه بظلم غيره ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ولأن الظلم ينافى الحكمة والكمال فى النظام وفى التشريع ، ومن حمل عبيده أو دوابه ما لاتطيق يقال إنه ظلمها ، ومن نقص امرأ حقه ظلمه ، قال تعالى : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا(٣) ﴾ .

خير أمة

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود
(٢) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب
(٣) الآية ٣٣ من سورة الكهف .

مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ :

أى أنتم خير أمة فى الوجود الآن ، لأنكم تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون إيمانا صادقا يظهر أثره فى نفوسكم ، فينزعكم عن الشر ، ويصرفكم إلى الخير ، وغيركم من الأمم قد غلب عليهم الشر والفساد . فلا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، ولا يؤمنون إيماناً صحيحاً .

وهذا الوصف يصدق على الذين خوطبوا به أولا ، وهم النبى ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه وقت التنزيل ، فهم الذين كانوا أعداء ، فألف بين قلوبهم ، واعتصموا بحبل الله جميعا ، وكانوا يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ولا يخاف ضعيفهم قويهم ، ولا يهاب صغيرهم كبيرهم ؛ وملك الإيمان قلوبهم ومشاعرهم ، فكانوا مسخرين لأغراضه فى جميع أحوالهم .

وهذا الإيمان هو الذى قال الله فى أهله : **﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا** بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون(١)﴾ ، وقال فيهم أيضا : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون(٢)﴾ .

وما فتئت هذه الأمة خير الأمم حتى تركت الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما تركتها إلا باستبداد الملوك والأمراء من بنى أمية ، ومن حذا حذوهم .

وأول من اجترأ منهم على إعلان هذه المعصية عبد الملك بن مروان ، حين قال على المنبر : من قال لى اتق الله ضربت عنقه .

ومازال الشر يزداد ، والأمر يتفاقم حتى سلبت هذه الأمة أفضل ما لها من مزية فى دينها ودنياها بعد الإيمان ، وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وإن هذه الخيرية لا تثبت لهذه الأمة إلا إذا حافظت على هذه الأصول الثلاثة ، الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر والإيمان بالله فإذا تركتها لم تكن لها هذه المزية ، ومن ثم أكد الأمر بهذه الفريضة فى آيات هذه السورة بما لم يعرف له نظير فى الكتب السابقة .

---

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات .
(٢) الآية ٢ من سورة الأنفال .

وقدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله فى الذكر ، مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات ، لأنهما سياج الإيمان وحفاظه ، فكان تقديمها فى الذكر موافقاً للمعهود عند الناس فى جعل سياج كل شيء مقدماً عليه .

قوله تعالى : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم ﴾ أى ولو آمنوا إيماناً صحيحاً يستولى على النفوس ، ويملك أزمة القلوب ، فيكون مصدر الفضائل والأخلاق الحسنة ، كما تؤمنون ـ لكان ذلك خيراً لهم مما يدّعونه من إيمان لا يزع النفوس عن الشرور ، ولا يبعدها عن الرذائل ، إذ هو لم يؤت ثمرات الإيمان الصحيح الذى يحبه الله ورسوله ، ولا كان أثرا من إثارة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

وبهذا تعلم أن الإيمان عنهم إيمان خاص له تلك الآثار التى تقدمت ، لا الإيمان الذى يدعيه كل من له دين وكتاب ، كما أنه إنما نفاه عن أكثر أفراد الأمة ، وأنهم هم الذين فسقوا وخرجوا عن حقيقة الدين ، ولم يبق عندهم إلا بعض الرسوم والتقاليد الظاهرة ـ لا عن جميعها ، إذ لا تخلو أمة ذات دين سماوى من هذا الإيمان ، ومن ثم قال : **﴿ منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾** أى منهم المؤمنون المخلصون فى عقائدهم وأعمالهم ، وأكثرهم فاسقون عن دينهم ، متمردون فى الكفر .

وما من دين إلا يوجد فيه الضالون والمعتدلون والمفرطون المائلون إلى الفسوق والعصيان ، ويكثر الاستمساك بالدين فى أوائل ظهوره ، كما يكثر الفسق بعد طول الأمد عليه ، كما قال الله تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون(١) ﴾ .

وعلى الجملة فالقرآن الكريم إذا عرض لوصف الأمم وبيان عقائدها وأخلاقها ، وزن ذلك بميزان دقيق يتحرى فيه ذكر الحقيقة مجردة عن كل مغالاة أو مبالغة ، بما لم يعهد مثله فى كتاب آخر .

فلو تصفحنا الأحكام التى حكم بها على أهل الكتاب ، وعرضناها على علمائهم وفلاسفتهم ومؤرخيهم لقالوا : إنها الحق الصراح .

﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ : أى أن هؤلاء الفاسقين لا يقدرون على إيقاع الضرر بكم ، بل غاية جهدهم أن يؤذوكم بالهجو القبيح ، والطعن فى الدين ، وإلقاء الشبهات ، وتحريف النصوص ، والخوض فى النبى ﷺ .

﴿ وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ﴾ أى وإن يقاتلوكم فى ميدان القتال ينهزموا من غير أن يظفروا منكم بشيء ، والمنهزم من شأنه أن يحول ظهره إلى جهة مقاتله ، ويستدبره فى هربه منه . فيكون قفاه إلى وجه من انهزم منه .

---

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد .

﴿ ثم لا ينصرون ﴾ أى ثم إنهم لا ينصرون عليكم أبدا ماداموا على فسقهم ، ودمتم على خير فيكم ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله .

وفى الآية ثلاث بشارات من أخبار الغيب تحققت كلها ، وقد صدق الله وعده .

ومما سبق تعلم أن هذا الحكم إنما يثبت لهم إذا حافظوا على نصر الله بنصر دينه ، كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[1] وكما قال فى وصف المؤمنين المجاهدين : ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله[2] ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾

أى إنهم ألزموا الذلة فلا خلاص لهم منها ، فما لهم معكم أنهم أذلاء فهزمو الحقوق ، رغم أنوفهم ، إلا بعهد من الله وهو ما قررته الشريعة إذا دخلوا فى حكمها من المساواة فى الحقوق والقضاء وتحريم الإيذاء ، وعهد من الناس وهو ما تقتضيه المشاركة فى المعيشة ، من احتياجهم إليكم واحتياجكم إليهم فى بعض الأمور .

﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾

أى وصاروا مستحقين غضب الله مستوجبين سخطه ، وأحاطت بهم المسكنة والصغار ، فهم تابعون لغيرهم ، يؤدون ما يضرب عليهم من المال وادعين ساكنين .

وهذا الوصف صادق على اليهود إلى اليوم فى كل بقاع الأرض ، وقد ارتفع الذل عنهم فى بلاد الإسلام بحبل من الله ، وهو ما ذكرناه فيما سلف من وجوب معاملتهم بالمساواة واحترام دمائهم وأعراضهم وأموالهم ، والتزام حمايتهم والذود عنهم بعد إنقاذهم من ظلم حكامهم السابقين ، وبحبل من الناس كما تقدم بيانه .

وأما ارتفاع المسكنة بأن يكون لهم ملك وسلطان يوما ما ، فالقرآن ينفيه عنهم ، لأنه لم يستثن من ذلك شيئاً ، كما استثنى فى الذلة ، فاقتضى بقاء ذلك عليهم إلى الأبد . لكنهم يقولون إنهم مبشرون بظهور مسيح

---

(١) الآية ٧ من سورة محمد .
(٢) الآية ١١٢ من سورة التوبة .

(مسيا) فيهم ؛ ومعناه ذو الملك والشريعة ، والنصارى يقولون : إن هذا الموعود به هو المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، والمراد بالملك الملك الروحانى .

ثم ذكر سبحانه سبب ذلك وعلته فقال : ﴿ **ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق** ﴾ .

أى ذلك الذى ذكر من ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، واستحقاقهم للغضب الإلهى بسبب كفرهم ، وقتلهم النبيين بغير حق تعطيهم إياه شريعتهم .

وفى النص على أن ذلك بغير حق مع أنه لن يكون إلا كذلك تشنيع عليهم وإثبات لأن ذلك حدث عن عمد لا عن خطأ . ثم أشار إلى سبب هذا الكفر والعدوان الشنيع فقال تعالى :

﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ أى أنه ما جرأهم على ذلك إلا سبق المعاصى ، واعتداؤهم على حدود الله ، والاستمرار على الصغائر يفضى إلى الوقوع فى الكبائر . **فمن جعلها ديدناً له واتخذها عادة وصل به ذلك إلى الكفر وقتل الأنبياء المرشدين .**

وقتل الانبياء وإن كان لم يصدر من اليهود الذين كانوا فى عصر التنزيل ، بل كان من أسلافهم ، لكنهم لما كانوا راضين به مصوّبين له نسب إليهم ، إذ صار خلقاً لهم يتوارثه الخلف عن السلف ، والأبناء عن الآباء .

والأمم متكاملة ينسب إلى مجموعها ما فشا فيها ، **وإن ظهر بعض آثاره فى زمن دون آخر .**

المؤمنون من أهل الكتاب

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

المفردات : ﴿ قائمة ﴾ : مستقيمة عادلة مأخوذة من قولك أقمت العود فقام بمعنى استقام . ﴿ آناء الليل ﴾ : جمع آن والمراد ساعات الليل . ﴿ يسارعون فى الخيرات ﴾ : يبادرون إلى فعل الخيرات . ﴿ يكفروه ﴾ : يمنعوا ثوابه .

هذه الآيات الكريمة يبين الله تعالى فيها أن أهل الكتاب ليسوا[1] سواء فى الكفر ، بل إن هناك منهم أمة مستقيمة على أوامر الله ونواهيه ، تمتثل الأوامر وتجتنب النواهى ، إنها أمة عرفت الله حق المعرفة فأخذت تتلو آياته فى ساعات الليل ، عندما نامت العيون ، وهجعت الأبدان ، وغارت النجوم ، وأرخى الليل سدوله ، هذه الأمة نظر الله إليها وأصلابها منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآية تنذر بعذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، إن هؤلاء الصالحين من أهل الكتاب يقومون بالليل والناس نيام ، وهم يسجدون امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾[2] .

---

(١) روى عن ابن مسعود : ليس أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ سواء ، وروى القرطبى عن أبى خيثمة ـ زهير بن حرب بسنده عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ ليلة صلاة العشاء ثم خرج الى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى فى هذه الساعة غيركم » قال وانزلت هذه الآية : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة » إلى قوله تعالى : والله عليم بالمتقين .

(٢) الآيات : ١٠٥ ـ ١٠٩ من سورة الإسراء .

إن هذه الأمة الصالحة أمثال عبد الله بن سلام ؛ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويعتقدون بالقدر اعتقاداً جازماً ، ومن آمن بالله واليوم الآخر يلزمه بمقتضى إيمانه بالله : أن يؤمن بملائكته وكتبه ورسله ، إن هذه الأمة القائمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، إذ الأمر والنهى لا يمكن لمجتمع أن يستقيم بدونهما ؛ قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾(١) وجاء على لسان لقمان لابنه : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾(٢) . وهؤلاء الصالحون يسارعون فى الخيرات قال تعالى : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾(٣) إذاً لقد وصف الله هذه الأمة أولاً : بالاستقامة ، وثانياً : بتلاوة آياته آناء الليل ، وثالثاً : بالسجود وهو أعظم أركان الصلاة ، إذ أن أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد ، رابعاً : ﴿ **يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ خامساً : ﴿ **ويأمرون بالمعروف** ﴾ سادساً : ﴿ **وينهون عن المنكر** ﴾ سابعاً : ﴿ **ويسارعون فى الخيرات** ﴾ ، فاستحقوا من الله بناء على هذه الحيثيات : أن يحكم لهم ﴿ **وأولئك من الصالحين** ﴾ وحيث كان ذلك كذلك فلن يضيع ما فعلوه عند الله ، ﴿ **إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا** ﴾(٤) . ﴿ **فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون** ﴾(٥) . ﴿ **وما يفعلوا من خير فلن يكفروه** ﴾ ولن يضيع ولن يجحد ولن ينسى لأن الذى يثيب على الأعمال ﴿ **عليم بالمتقين** ﴾ بصير بأحوالهم خبير بقلوبهم ، لا تضيع عنده الودائع ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾(٦)

الكافرون وأعمالهم يوم القيامة

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ
أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

(١) من الآية : ١١٠ من سورة آل عمران
(٢) الآية : ١٧ من سورة لقمان .
(٣) من الآية : ٧٧ من سورة الحج .
(٤) من الآية : ٣٠ من سورة الكهف .
(٥) الآية : ٩٤ من سورة الأنبياء .
(٦) الآية : ٤٠ من سورة النساء .

المفردات : ﴿ **لن تغنى** ﴾ : لن تجزى عنهم . ﴿ **صر** ﴾ : برد شديد . ﴿ **حرث** ﴾ : الحرث . إثارة الأرض للزرع والمراد النبات المزروع .

يخبر الله سبحانه وتعالى بأن أعداءه من الكفار ، مهما تنوعت فرق الكفر واختلفت مذاهبه ومشاربه ، فإنهم جميعاً ﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم** ﴾ التى ينفقونها للصد عن سبيل الله ، والتى يقصدون من ورائها الرياء والسمعة والشهرة الزائفة ، هذه الأموال لن تغنى عنهم من الله شيئاً كذلك ﴿ **ولا أولادهم** ﴾ الذين يظنونهم أنصاراً لهم ، كما أخبر الله تعالى عنهم فى قوله : ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾[١] . جاءت هذه الآية التى بين أيدينا فى سورة آل عمران ، لتخرس هذه الألسنة الكافرة ﴿ **إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ أى أنها لن تنجيهم من العقاب النازل بهم ، لأنهم ملازمون للنار وهم أصحابها : ﴿ إن الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾[٢] .

ثم ضرب الله مثلاً لإنفاق هؤلاء الكافرين : بأن هذه الأموال التى تنفق فى هذه الحياة الدنيا ؛ مثلها ﴿ **كمثل ريح** ﴾ فيها برد شديد هبت على زرع يرجى الخير منه فأهلكته ، وكان هذا منطق العدالة الإلهية ؛ قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه »[٣] فهؤلاء الكافرون لما أنفقوا ابتغاء الفتنة ، طلباً للرياء والسمعة ، وسعيا وراء الجاه والسلطان ، أهلك الله مطالبهم ، وجاءت العاقبة بخلاف ما كانوا يتوقعون ، ﴿ **وما ظلمهم الله** ﴾ وإنما جازاهم على ما قدمت أيديهم ، والحقيقة أنهم هم الذين ﴿ **يظلمون** ﴾ أنفسهم فقد وقفوا يحاربون الإسلام بكل ما يملكون ، من مال وجاه وسلطان وقعدوا بكل صراط يوعدون ﴿ ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجا ﴾[٤] فإذا أنزل الله بهم المهلكات والجائحات ، فذلك منطق العدل الذى يجازى كلاً بما قدمت يداه ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٥] .

---

(١) الآية : ٣٥ من سورة سبأ .
(٢) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة الأنفال .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) من الآية : ٨٦ من سورة الأعراف .
(٥) اللآية : ٤٤ من سورة يونس .

إرشاد وتوجيه للمؤمنين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

المفردات : (بطانة الرجل) : خاصته الذين يستبطنون أمره ، مأخوذة من بطانة الثوب للوجه الذى يلى البدن ، ويسمى الوجه الظاهر ظهارة ، وهى تستعمل للواحد والجمع مذكراً ومؤنثاً ، و﴿ من دونكم ﴾ : أى من غيركم و﴿ **يألونكم** ﴾ : من إلى فى الأمر يألو إذا قصر فيه ويقال : لا آلوك نصحاً ولا آلوك جهداً أى لا أمنعك نصحاً ولا أنقصك جهداً ، والخبال : النقصان ومنه رجل مخبول ومخبل ومختبل إذا كان ناقص العقل ، والفساد أى فساداً وضرراً . وودت كذا : أى أحببته . والعنت : المشقة . و﴿ **البغضاء** ﴾ : شدة البغض كالضراء شدة الضر . و﴿ **الكتاب** ﴾ : هنا : المراد به جنسَ الكتب كما يقال كثر الدرهم فى أيدى الناس ، و[عض الأنامل] : يراد به شدة الغيظ أحيانا ، كما يراد به الندم أحيانا أخرى ، و﴿ **ذات الصدور** ﴾ : الخواطر القائمة بالقلب ، والدواعى التى تدعو إلى الأفعال أو الصوارف التى ترفعها عنه ، و﴿ المس ﴾ : أصله ما كان باليد كاللمس ، وسمى كل ما يصل إلى الشىء مساً ، فقالوا : مسه التعب والنصب قال تعالى ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾[١] وقال : ﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر** ﴾[٢] و(الحسنة) : **المنفعة حسية كانت أو معنوية كصحة البدن والفوز بالغنيمة وأعظمها انتشار الإسلام وحصول الألفة بين المسلمين و(السيئة) : الفقر والهزيمة وحصول التفرقة بين الأقارب من ساء يسوء بمعنى قبح فهو سيئ والأنثى سيئة قال تعالى : ﴿ ساء ما يعملون ﴾[٣] (والكيد) : الاحتيال لإيقاع غيرك فى مكروه ، و(المحيط بالشىء) : هو الذى يحيط به من كل جوانبه ، ويراد به فى حق الله العلم بدقائقه**

(١) من الآية : ٣٨ من سورة ق .
(٢) من الآية : ٦٧ من سورة الاسراء .
(٣) من الآية : ٦٦ من سورة البقرة .

وتفاصيل أجزائه ، فلا يعزب عنه شيء منه قال تعالى : ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾[(١)] وقال : ﴿ والله محيط بالكافرين ﴾[(٢)] .

كانت الآيات السالفة حجاجاً من أهل الكتاب والمشركين ، وإلزامهم بالحجة ، وبياناً لأحوال المؤمنين ، وتذكيراً لهم بما يكون من سوء العاقبة يوم القيامة ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

والكلام فى هذه الآيات تحذير للمؤمنين من مخالطة الكافرين ؛ مخالطة تدعو إلى الإباحة بالأسرار ، والاطلاع على شئون المسلمين ، مما تقضى المصلحة بكتمانه ، وعدم معرفة الأعداء له .

ومما دعا إلى هذا النهى ، أنه كانت بين المؤمنين وغيرهم صلات خاصة تدعو إلى الإباحة بالأسرار إليهم ، كالنسب والمصاهرة والرضاعة والعهد والمحالفة ، إلى أن من طبيعة المؤمن أن يبنى أمره على اليسر والأمانة والصدق ، ولا يبحث عن عيوب غيره ، ولكن لما كان همّ المناصبين العداء من أهل الكتاب والمشركين إطفاء نور الدعوة ، وإبطال ما جاء به الإسلام ، والمسلمون لم يكن لهم غرض إلا نشر هذه الدعوة بسائر الوجوه التى يرونها كفيلة بإعلاء كلمة الدين ـ اختلف المقصدان وافترق الغرضان ، فلم يكن من الحزم أن يفضى الإنسان بسره إلى عدوه ، ويطلعه على خططه التى يدبرها للفوز ببغيته على أكمل الوجوه وأحكمها ، وأقربها للوصول إلى الغرض ، ومن ثم حذر الله المؤمنين من إطلاع عدوهم على أسرارهم . لما فى ذلك من تعريض مصلحة الملّة للخبال والفساد .

عن ابن عباس قال : «كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فأنزل الله فيهم هذه الآية ينهاهم فيهاعن مباطنتهم خوف الفتنة» أخرجه ابن إسحاق .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر** ﴾ أى لا تتخذوا أيها المؤمنون الكافرين كاليهود والمنافقين أولياء وخواص لكم دون المؤمنين إذا كانوا على تلك الأوصاف التى ذكرت فى هذه الآية .

١ ـ ﴿ **لا يألونكم خبالا** ﴾ أى لا يقصرون فى مضرتكم وإفساد الأمر عليكم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

٢ ـ يتمنون ضركم فى دينكم ودنياكم أشد الضرر .

٣ ـ يبدون البغضاء بأفواههم ويظهرون تكذيب نبيكم وكتابكم ، وينسبونكم إلى الحمق والجهل ومن اعتقد حمق غيره وجهله لا يحبه .

٤ ـ ما يظهرونه على ألسنتهم من علامات الحقد أقل مما فى قلوبهم منه .

فهذه الأوصاف شروط فى النهى عن اتخاذ البطانة من غير المسلمين فإذا اعتراها تغير وتبدل ، كما وقع من اليهود ، فبعد أن كانوا فى صدر الإسلام أشد الناس عداوة للذين آمنوا انقلبوا فصاروا عونا للمسلمين فى فتوح الأندلس ، وكما وقع من القبط إذ صاروا عونا للمسلمين على الروم فى فتح مصر ، فلا يمتنع حينئذ

(١) الآية : ٢٠ من سورة البروج .
(٢) من الآية : ١٩ من سورة البقرة .

اتخاذهم أولياء وبطانة للمسلمين ، فقد جعل عمر بن الخطاب رجال دواوينه من الروم(١) وجرى الخلفاء من بعده على ذلك إلى أن نقل عبد الملك بن مروان الدواوين من الرومية(٢) إلى العربية ، وعلى هذه السنة جرى العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين ، فى إسناد أعمال الدولة باليهود والنصارى حتى العصر الحاضر ، فإن كثيراً من سفراء الدولة العثمانية ووكلائها من النصارى . ومع كل هذا يرمينا الأجانب بالتعصب ويقولون : إن الإسلام لا تساهل فيه ، وهذا النهى المقيد بتلك الأوصاف شبيه بالنهى عن اتخاذ الكفار أنصارا وأولياء ، فى قوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾(٣) .

﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ أى قد أظهرنا لكم الدلالات الواضحة التى يتميز بها الولى من العدو ، ومن يصح أن يتخذ بطانة ومن لا يصح أن يتخذ ؛ لخيانته وسوء عاقبة مباطنته ﴿ إن كنتم ﴾ تدركون حقائق هذه الآيات التى تفرق بين الأعداء والأولياء ، وتعلمون قدر مواعظ الله وحسن عواقبها .

ثم ذكر نوعاً آخر من التحذير عن مخالطة الكافرين واتخاذهم بطانة ؛ وفيه تنبيه لهم على خطئهم فى ذلك ، وقد ضمنه أموراً ثلاثة كل منها يستدعى الكف عن مخالطتهم .

١ ـ ﴿ هٰأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ﴾ أى أنكم تحبون هؤلاء الكفار الذين هم أشد الناس عداوة لكم ، ولا يقصرون فى إفساد أمركم وتمنى عنتكم ، ويظهرون لكم العداوة والغش ، ويتربصون بكم ريب المنون ، فكيف بكم توادونهم وتواصلونهم ؟ وحب المؤمنين لهم وهم على تلك الشاكلة من أقوى البراهين على أن هذا الدين دين رحمة وتساهل لا يمكن أن يتصور ما هو أعظم منه فى ذلك .

٢ ـ ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أى أنكم تؤمنون بجميع ما أنزل الله من الكتب ؛ سواء منها ما نزل عليكم وما نزل عليهم ، فليس فى نفوسكم جحد لبعض الكتب الإلهية ، ولا للنبيين الذين جاءوا بها ، حتى يحملكم ذلك على بغض أهل الكتاب ، أما هم فيجحدون بعض الكتب ، وينكرون بعض النبيين .

وخلاصة هذا : أنهم لا يحبونكم مع أنكم تؤمنون بكتابهم وكتابكم ، فما بالكم لو كنتم لا تؤمنون بكتابهم ، كما أنهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ فأنتم أحرى ببغضهم ومع هذا تحبونهم ولا يحبونكم .

---

(١) روى القرطبى أن : عمر بن الخطاب قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا ، واستعينوا على أموركم ورعيتكم بالذين يخشون الله تعالى ، وقيل لعمر رضى الله عنه : إن ههنا نصرانيا من أهل الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ بطانة من دون المؤمنين» والحقيقة أن عمر بن الخطاب أخذ بنظام الدواوين دون أن يستعمل الروم أو الفرس .

(٢) عبد الملك بن مروان أول من سك نقودا عربية كوسيلة للاستقلال الاقتصادى ولم يذكر أى مصدر أن الدواوين كانت تكتب بالرومية ، ولكن أوراق البردى التى كانت تصنع فى مصر كان عليها شعار النصرانية فأمر عبد الملك بالغائه ، فلما هدده امبراطور القسطنطينية بسك عملة تسب الإسلام ونبيه ، أمر عبد الملك بسك عملة اسلامية «ملخصا عن رسالة النقود للمقريزى» .

(٣) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .

قال ابن جرير : فى الآية إبانة من الله عز وجل عن حال الفريقين أعنى المؤمنين والكافرين ، ورحمة أهل الإيمان ورأفتهم بأهل الخلاف لهم ، وقساوة قلوب أولئك وغلظتهم على أهل الإيمان ا . هـ .

وقال قتادة : فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوى إليه ويرحمه ، ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه (أفناه وأهلكه) ا . هـ .

وفى هذا توبيخ للمؤمنين بأنهم فى باطلهم أصلب منكم فى حقكم ، ونحو الآية قوله : ﴿ فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾[1].

٣ ـ ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ ، أى وإذا لقوا المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ ألانوا لهم القول ، حذراً على أنفسهم منهم ، فقالوا : آمنا وصدقنا بما جاء به محمد ﷺ ، وإذا هم صاروا فى خلاء حيث لا يراهم المؤمنون أظهروا شدة العداوة والغيظ منهم ، حتى ليبلغ الأمر إلى عض الأنامل كما يفعل أحدنا إذا اشتد غيظه وعظم حزنه على فوات مطلوبه . وإنما فعلوا ذلك لما رأوا من ائتلاف المؤمنين واجتماع كلمتهم ، وصلاح ذات بينهم ، ونصر الله إياهم حتى عجز أعداؤهم أن يجدوا سبيلاً إلى التشفى منهم فاضطروا إلى مداراتهم .

﴿ **قل موتوا بغيظكم** ﴾ هذا دعاء عليهم بازدياد الغيظ ، حتى يهلكوا كقولهم : دُمْ بعز . وبت قرير عين ، ونحو ذلك والمراد بذلك ازدياد قوة الإسلام وعز أهله .

وفى هذا عبرة للمسلمين لعلهم يتذكرون فيعلموا أن ما حل بهم من الازدراء ما كان إلا بزوال هذا الاجتماع والتفرق بعد الاعتصام .

﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ فيعلم ما تنطوى عليه صدوركم من البغضاء والحقد والحسد ، ولا يخفى عليه ما تقولون فى خلواتكم ، وما يبديه بعضكم لبعض من تدبير المكايد ونصب الحيل للمؤمنين ، وما تنطوى عليه صدور المؤمنين من حب الخير والنصح لكم ، ويجازى كلا على ما قدم من خير أو شر واعتقد من إيمان أو كفر .

﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾ أى إذا نالكم خير كانتصاركم على أعدائكم المقاومين لدعوتكم ودخول الناس فى دين الله أفواجاً ، أحزنهم ذلك وعز عليهم .

وإن نالتكم مساءة كالإخفاق فى حرب أو إصابة عدوّ لكم أو حدوث اختلاف بين جماعتكم فرحوا بذلك .

قال قتادة فى بيان ذلك : فإذا رأوا من أهل الإسلام ألفة وجماعة وظهوراً على عدوهم ، غاظهم ذلك وساءهم ، وإذا رأوا من أهل الإسلام فرقة واختلافا ، أو أصيب طرف من أطراف المسلمين سرهم ذلك ،

---

(١) من الآية : ١٠٤ من سورة النساء .

وأعجبوا به وابتهجوا ، وهم كلما خرج منهم قرين أكذب الله أحدوثته وأوطأ حملته وأبطل حجته وأظهر عورته ، وذلك قضاء الله فيمن مضى منهم ، وفيمن بقى إلى يوم القيامة ا . هـ .

﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾ أى وإن تصبروا على مشاق التكاليف فتمتثلوا الأوامر وتتقوا كل ما نهيتم عنه وحظر عليكم ، ومن ذلك اتخاذ الكافرين بطانة ـ فلا يضركم كيدهم ، لأنكم قد وفيتم لله بعهد العبودية ، فهو يفى لكم بحق الربوبية ، ويحفظكم من الآفات والمخافات ، كما قال سبحانه ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[1] .

قال بعض الحكماء : إذا أردت أن تكبت من يحسدك فاجتهد فى اكتساب الفضائل .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الصبر فى كل مقام يشق على النفس احتماله ، ولا شك أن حبس الإنسان سره عن وديده وعشيره ومعامله وقريبه مما يشق عليه ، فإن من لذات النفوس أن تفضى بما فى الضمير إلى من تسكن إليه وتأنس به .

ولما نهى المؤمنين عن اتخاذ بطانة من دونهم من خلطائهم وعشرائهم وحلفائهم ، لما بدا منهم من البغضاء والحسد ؛ حسن أن يذكرهم بالصبر على هذا التكليف الشاق عليهم ، واتقاء ما يجب اتقاؤه للسلامة من عواقب كيدهم .

وفى الآية عبرة للمسلمين فى معاملة الأعداء ، فإن الله أمر المؤمنين بالصبر على عداوة أولئك المبغضين الكافرين ، واتقاء شرهم ، ولم يأمرهم بمقابلة الشر بمثله ، إذ من دأب القرآن ألا يأمر إلا بالمحبة والخير ، ودفع السيئة بالحسنة كما قال : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾[2] فإن تعذر تحويل العدو إلى محب يدفع سيئاته بما هو أحسن منها ؛ جاز دفع السيئة بمثلها ، من غير بغى كما فعل النبى ﷺ مع بنى النضير ، فإنه حالفهم ووادّهم فنكثوا العهد ، وخانوا وأعانوا عليه عدوه من قريش وسائر العرب ، وحاولوا قتله فلم يكن هناك وسيلة لعلاجهم إلا قتالهم وإجلاءهم من ديارهم .

﴿ **إن الله بما يعملون محيط** ﴾ أى إنه تعالى عالم بعمل الفريقين ، ومحيط بأسباب ما يصدر من كل منهما ، ومقدماته ونتائجه وغاياته ، فهو الذى يعتمد على إرشاده فى معاملة أحدهما للآخر ، ولا يمكن أن يعرف أحدهما من نفسه ما يعلمه ذلك المحيط بعمله ، وعمل من يناهضه ويناصبه العداوة ، فهداية الله للمؤمنين خير وسيلة للوصول إلى أغراضهم ومآربهم .

وهذه الجملة كالعلة لكون الاستعانة بالصبر ، والتمسك بالتقوى شرطية للنجاح ، وخلاصة المعنى ـ أن الله قد دلكم على ما ينجيكم من كيد أعدائكم ، فعليكم أن تمتثلوا وتعلموا أنه محيط بأعمالهم ، وهو القادر على أن يمنعهم مما يريدون بكم فثقوا به وتوكلوا عليه .

---

(١) من الآيتين : ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .
(٢) من الآية : ٣٤ من سورة فصلت .

مع بدر وأحد

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت
طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ
نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ
يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا
وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾
وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

المفردات : (غدا) : خرج غدوة ـ والغدوة والغداة : ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس و﴿ **تبوىء** ﴾ أى تهيىء وتسوى و (المقاعد) واحدها مقعد : مكان القعود والمراد المواطن والمواقف . و (الهم) : حديث النفس وتوجهها إلى الشىء و (الطائفتان) : الجماعتان : وهما بنو سلمة وبنو حارثة من الأنصار ﴿ **أن تفشلا** ﴾ : أى تضعفا وتجبنا . ﴿ **وليهما** ﴾ : أى ناصرهما . و (التوكل) : من وكل فلان أمره إلى فلان إذا اعتمد عليه فى كفايته ولم يتوله بنفسه . **والأذلة** : واحدهم ذليل وهو من لا منعة له ولا قوة ، وقد كانوا قليلى العدة من السلاح والدواب والزاد ، و (**الكفاية**) : سد الحاجة وفوقها الغنى . و[**الإمداد**] : إعطاء الشىء حالا بعد حال ﴿ **بلى** ﴾ : كلمة للجواب كنعم لكنها لا تقع إلا بعد النفى وتفيد إثبات مابعدها ، و **الفور** : الحال التى لا بطء فيها ولا تراخى ، فمعنى ﴿ **من فورهم** ﴾ : أى من ساعتهم بلا إبطاء و ﴿ **مسوِّمين** ﴾ (بكسر الواو) من قولهم : مسوِّم على القوم : أى أغار عليهم ففتك بهم ، وقيل من التسويم بمعنى إظهار سيما الشىء وعلامته : أى معلمين أنفسهم أو خيلهم . و﴿ **طرفا** ﴾ : أى طائفة وقطعة منهم . و ﴿**يكبتهم** ﴾ من الكبت وهو شدة الغيظ أو الوهن الذى يقع فى القلب .

تحدثت سورة آل عمران عن غزوة أحد من أول قوله تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾ فهذه ستون آية تناولت غزوة أحد بكل مافيها من دروس وعبر ، والواقع أن هذه الغزوة مدرسة عظمى من مدارس التاريخ ، كان من أهم دروسها درس التمحيص ، قال تعالى : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ نعم كان لابد من أحد ولذا كان الرسول ﷺ إذا مر بهذا الجبل يقول : (أحد جبل يحبنا ونحبه) ولقد وقف الرسول ﷺ على هذا الجبل ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فارتج الجبل فقال له الصادق المعصوم وهو ينظر من وراء الحجب ويستشف الغيوب بوحي من علام الغيوب قال له : « اثبت أحد فإن فوقك نبياً وصديقاً وشهيدين » . وكان ماقاله الرسول حقاً ، فقد زكى الله عقله فقال : ﴿ والنجم إذا هوى * ماضل صاحبكم وما غوى ﴾[(١)] وزكى لسانه فقال : ﴿ وماينطق عن الهوى ﴾[(٢)] وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾[(٣)] وزكى جليسه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾[(٤)] وزكى فؤاده فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد مارأى ﴾[(٥)] وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ البصر وماطغى ﴾[(٦)] وزكاه كله فقال ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[(٧)] .

نعم كان لا بد من أحد في حياة المسلمين حتى يميز الله الخبيث من الطيب قال سبحانه وتعالى في هذه الآيات التي نزلت في أحد : ﴿ ماكان الله ليذر المؤمنين على ماأنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾[(٨)] لقد كانت غزوة أحد بوتقة انصهرت فيها المعادن وأعني بها معادن الرجال ، كما قال تعالى : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾[(٩)] إن الشدائد هي مقياس الصمود والوفاء ومقادير الرجال .

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوي من صديقي

﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون** ﴾ .

إن التضحية بالروح شيء يهون على أصحاب العقائد المؤمنين بالشهادة ، وهذا ماقرره الله تعالى في قوله ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ فإنهم إذا صمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، فلا ترى إلا رؤوساً تنثر ودماء تهدر .

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

---

(١) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة النجم .
(٢) الآية ٣ من سورة النجم .
(٣) الآية ٤ من سورة النجم .
(٤) الآية : ٥ من سورة النجم .
(٥) الآية : ١١ من سورة النجم .
(٦) الآية : ١٧ من سورة النجم .
(٧) الآية : ٤ من سورة «ن» .
(٨) من الآية : ١٧٩ من سورة آل عمران .
(٩) من الآية : ١٩ من سورة الرعد .

وضجت صدور العاديات ضبحاً ، فرأيت الميدان حركة دائبة متواصلة وصفها القرآن الكريم أدق وصف فى قوله جل شأنه : ﴿ والعاديات ضبحا ❊ فالموريات قدحاً ❊ فالمغيرات صبحاً ❊ فأثرن به نقعاً ❊ فوسطن به جمعاً ﴾(١) إذا كان ذلك كذلك فإن المؤمنين يشتاقون إلى الجنة أكثر من اشتياق الجنة إليهم فترخص أرواحهم فى أسواق الموت ، ويتلقون ضربات السيوف كأنها قبلات الملائكة .

وإذا كانت غزوة أحد قد غربلت القلوب ، ونخلت الرجال نخلاً ، فقد سبق أن حدثنا الكتاب العزيز عن الملأ من بنى إسرائيل ، الذين قال الله فيهم : ﴿ فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم ﴾(٢) وقال فيهم ﴿ فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده فشربوا منه إلا قليلا منهم ﴾(٣) وقال فى حق المؤمنين منهم : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾(٤) وجاء ذلك رداً على الذين قالوا : ﴿ لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾(٥) وهكذا صمدت القلة أمام الكثرة الجالوتية فكانت النتيجة أن القلة المؤمنة هزمت الكثرة الباغية الطاغية ، قال تعالى : ﴿ ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ❊ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾(٦) إن الذين وصفوا غزوة أحد بأنها كانت هزيمة كذبوا ، فلو هزم الرسول وأصحابه فمن الذين ينتصرون والله تعالى يقول : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾(٧) ويقول : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾(٨) ويقول : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾(٩) فهل هناك أدنى شك أن الرسول ﷺ وأصحابه أقوى الناس إيمانا ، لقد اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد ، فاختاره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطماً ... عهد الضلال وأدب السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا ... سنن الشريعة فارتقوا سعداء

إذا فما الذى حدث يوم أحد ؟ كل الذى حدث خلل فى النظام لا أكثر ، عبر عنه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون ﴾ فإن شئت فسم هذه الغزوة « مدرسة التمحيص » وإن شئت فسمها « يوم حمزة » وإن شئت فسمها : «ساعات شدة» أما أن تقول

---

(١) الآيات الأولى من سورة العاديات .
(٢) من الآية : ٢٤٦ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .
(٥) من الآية : ٢٤٩ من سورة البقرة .
(٦) الآيتان : ٢٥٠ ، ٢٥١ من سورة البقرة .
(٧) من الآية : ٤٧ من سورة الروم .
(٨) الآية : ٥١ من سورة غافر .
(٩) الآية : ٢١ من سورة المجادلة .

أنها هزيمة ، وتبلغ بنا الجرأة على الله ، أن أحدهم أراد أن يتملق طاغية من طغاة العصر ، فشبه هزيمته يوم النكسة بيوم أحد . !!

سبحانك هذا بهتان عظيم ! ! إنها جرأة على الله ونفاق رخيص ، وتزلف ممقوت ، وإن أردت دليلا على ذلك ؛ فاقرأ قوله تعالى : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا ﴾ [1] أفى سبيل المناصب الزائلة نبيع ديننا وننسى مبادئنا ﴿ ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ﴾ [2] إننى مازلت أؤكد : أن غزوة أحد كانت نصراً مبيناً مؤزرا ، وأقوى مافى النصر نصر الإنسان على نفسه ، ولم يكن فيها لون من ألوان الهزيمة ، فإن الهزيمة تتحقق بإحدى ثلاثة أشياء : إما بسلب الأرض ! ! ولم يحدث هذا يوم أحد ؛ فما أخذ المشركون من المسلمين أرضا ، كما حدث فى نكسة يونيو ، وإما بالقضاء على الجيش ؛ وذلك لم يحدث يوم أحد ؛ لقد صمدوا وأعادوا النظام ، قال تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [3] وإما أن تكون الهزيمة بتغيير عقيدة القوم ، ولقد عاد القوم مع رسول الله ﷺ وهم أشد إيمانا وأصلب عودا ، وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾ [4] فأى شيء من هذه الثلاثة وقع يوم أحد ! ؟ لا شيء ؛ فكيف تصف تطهير الصفوف بأنه هزيمة ، لا يقول هذا إلا مفتر كذاب ، يجرى وراء منصب وزارى ويسعى وراء المغنم أينما كان ، وحيثما حل ، ويبيع دينه بعرض من الدنيا ، وحساب هؤلاء عند الله يفصل بينهم ، وهو خير الفاصلين .

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز رحمه الله تعالى فى شأن غزوة أحد تحت عنوان «مواطن العبرة من غزوة أحد» : ستون آية من سورة آل عمران ، من قوله تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال . . إلى قوله ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير** ﴾ [5] نزلت كلها بعد غزوة أحد تسجيلا لوقائعها وتفسيرا لأسبابها ونتائجها ، وغزوة أحد ثانى الغزوتين المشهورتين فى صدر الجهاد الإسلامى ، والمسلمون حين يذكرون الغزوة الأولى ، غزوة بدر تغمر قلوبهم عند ذكراها موجة من البهجة والغبطة ، لأنها كانت أول ضربة كسروا بها قيود ذلهم واستضعافهم ، وسجلوا بها معجزة النصر على أعدائهم ، نصر القلة على الكثرة ، ونصر الضعف على القوة ، بل نصر قوة الحق والإيمان ، على قوة الجبروت والطغيان .

---

(١) الآية : ١٤١ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ٧١ من سورة الأنعام .
(٣) الآيات : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ من سورة آل عمران .
(٤) من الآيتين : ١٧١ ، ١٧٢ من سورة آل عمران .
(٥) من الآية : ١٢١ إلى ١٨٠ من سورة آل عمران .

ولكنهم حين يذكرون الغزوة الأخرى غزوة أحد يكادون يستقبلون ذكراها بملء قلوبهم حزنا وأسفا لما أصابهم فيها من قرح ولما وقع لهم فيها من محنة وبلاء .

ولو فقه الناس ، لكان اغتباطهم بيوم أحد أضعاف اغتباطهم بيوم بدر ، ذلك أن يوم بدر كان لونا واحداً من النصر ، وكانت منه عبرة واحدة من معجزة النصر ، أما يوم أحد فقد تطور الموقف فيه أطواراً ثلاثة ، وكان لكل طور منها سره وعبرته .

لقد كان أوله نصراً ظاهراً كيوم بدر ، بل كان النصر فيه أظهر وأبهر ، كان المشركون يوم بدر ألفاً وكان المسلمون يومئذ ثلثمائة ونيفا ، أى أنهم كانوا نحو الثلث من عدة أعدائهم .

أما فى يوم أحد فكان المشركون ثلاثة آلاف ، وكان المسلمون عند خروجهم ألفا ، ولكن نقص عددهم فى الطريق ، حيث تخلف عنهم عبد الله بن أبى فى ثلثمائة من المنافقين ، بل همت طائفتان من المؤمنين أن تتخلفا أيضا ولكن الله ثبتهما ؛ فأصبح جيش المسلمين سبعمائة فقط ، أى أقل من الربع ، ومع ذلك فقد اكتسحوا أمامهم الآلاف الثلاثة وأثخنوهم تجريحاً وتقتيلاً .

هذه هى الجولة الأولى أشارت الآية العزيزة إليها ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه** ﴾ أى تحشونهم حش الأعشاب وتحصدونهم حصد الهشيم وتستأصلونهم بإذن الله وتيسيره ، فلننظر الآن كيف تحول الموقف .

لقد كان الرسول الأعظم والقائد الملهم صلوات الله عليه قد بوأ المؤمنين مقاعد للقتال ، وخصص لكل طائفة منهم مجالا لا تتخطاه ، جعل فريقا من الرماة فوق الجبل ، يحمون ظهر الجيش ويشغلون العدو عنه ، وأصدر أمره إلى هذا الفريق بأن يثبتوا فى مراكزهم مهما تكن النتيجة قائلا لهم : (لا تبرحوا مكانكم نصرنا أو غلبنا حتى لو تخطفتنا الطير[1]) ولكن الذى حدث هو أنه لما فر المشركون منهزمين حتى وصلوا إلى رحال نسائهم واندفعت كتلة جيش المسلمين تجمع الغنائم والأسلاب ، ظنت فرقة الرمى أنه قد وضعت الحرب أوزارها وأنه لن يكون للمشركين رجعة فتحولت عن مراكزها واتجهت بدورها إلى جمع الغنائم .

وهكذا تركت فى ظهر الجيش ثغرة فطن لها فرسان المشركين ، فتسللوا منها ، وتتابع القوم وراءهم ، هنالك أخذ المسلمون على غرة من خلفهم ، فأصابهم الاضطراب والخور ، وفر أكثرهم مصعدين فى الوادى ، أى منحدرين فيه لا يلوون على شىء ، ولم يثبت إلا رسول الله ﷺ وقليل من أصحابه التفوا حوله ، وقد أخذتهم كلهم الجراح واستشهد منهم العشرات حتى نادى مناد : إن محمدا كان من بين القتلى فتراكمت بذلك ضروب الهم والغم على المسلمين : غم على ما فاتهم من النصر ، بعد إحرازه ، وغم على ما أصابهم من التقتيل والتمثيل ، وغم على تركهم الرسول خلفهم ورغبتهم بأنفسهم عن نفسه .

---

(١) روى البخارى عن البراء بن عازب : قال : لما كان يوم أحد ولقينا المشركين ، أجلس رسول الله ﷺ أناسا من الرماة وأمّر عليهم عبد الله بن جبير ، وقال لهم : « لا تبرحوا من مكانكم إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتمونا قد ظهروا علينا فلا تعينونا عليهم » الحديث .

وتلك هى الجولة الثانية التى يقول الله تعالى فى شأنها : ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ ويقول : ﴿ **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون** ﴾ .

أكثر الناس لا يعرفون عن غزوة أحد إلا هاتين المرحلتين وهذا هو ما يفسر شعور الحزن والأسى الذى يقترن فى نفوسهم بذكرى هذه الموقعة لأنها فى نظرهم قد انتهت بكارثة ، هؤلاء الناس يسقطون من حسابهم جولة ثالثة لها خطرها وهى جولة لا يقدرها حق قدرها إلا من عرف ما للشدائد والمحن من الفضل ، فى صهر النفوس ، وشحذ العزائم ، ورفع الروح المعنوية ، فى الجيوش القوية الإيمان السليمة الكيان ، ولعمرى لقد كان للوحى القرآنى أكبر نصيب فى إعلاء هذه الروح .

نعم لقد حزن المسلمون فى أول الأمر لما أصابهم ، ولكنهم لم يهنوا ولم يستكينوا ، إن حرارة الحزن عندهم لم تكن نارا تحرق القلوب ، ولكنها كانت نوراً يضىء الطريق ، لقد كانت ناراً وحسرات فى قلوب المنافقين وضعاف النفوس ، أولئك الذين ﴿ **أهمتهم أنفسهم** ﴾ فجعلوا يقولون : ﴿ **لو كان لنا من الأمر شىء ماقُتلنا ها هنا** ﴾ ولكنها عادت برداً وسلاماً فى قلوب المؤمنين ؛ إذ مسح الله على ناصيتهم بكف الهجوع والنوم ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم** ﴾ وما أن استيقظوا هادئين آمنين حتى أخذوا يتعرفون أسباب مصابهم ، ويوازنون مغتبطين بين خسائرهم وأرباحهم ، ويتأهبون فى الوقت نفسه بالكر على أعدائهم ، لئن كان قد جُرح منهم كثير لقد جَرَحُوا هم أيضا كثيراً ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله** ﴾ ولئن كان استشهد منهم اليوم سبعون ، لقد قتلوا فى الغزوة السابقة سبعين وأسروا سبعين ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم** ﴾ .

وفى الحق لقد عرفوا الآن أن ما أصابهم كان من كسب أيديهم ، وأنه كان بسبب معصية بعضهم لأمر القائد ، وتطلع بعضهم إلى عرض الدنيا ، ولكن ها هم أولاء يضمدون الآن جروحهم ، ويستعدون فى عزم وحزم لملاقاة عدوهم ، لا يزلزلهم التهديد بالجموع المحشودة لهم ، ولقد كان من بركات هذا التأهب والعزم المصمم ؛ أن ولى الأعداء راجعين إلى ديارهم وتلك هى الجولة الثالثة التى أشارت اليها الآيات الكريمة ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾ .

ويتساءل الناس بعد ذلك : لماذا لم تكن غزوات النبوة كلها انتصارات متتابعة دون خسارة كبيرة فى الأرواح ؟ فيجيب القرآن بأنه لو دام النصر هكذا ، لدخل الناس كلهم فى الإسلام ظاهراً لا اقتناعاً بالحق ، ولكن انضماماً إلى صف المنتصرين ، وإذن لا يتميز المؤمن من المنافق ، ولا يتبين من يعبد الله على حرف ممن يعبده فى السراء والضراء ، ولودام النصر هكذا ، ما نال المجاهدون شرف التضحية ، ودرجة الشهادة ، ولو دام النصر هكذا ، لداخل نفوس المؤمنين شىء من الزهو والغرور ، ولودام النصر هكذا ما انكشفت رءوس

الجريمة والفساد ، السفاكون لدماء أولياء الله ، المستحقون بذلك لمقت الله ، وهكذا يقول الله جلت حكمته ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا ﴾ ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ، ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾(١) .

وبعد فقد اشتاقت النفس إلى معرفة وقائع تلك الغزوة ولا ينبئك مثل خبير : وبين أيدينا كتاب (الرسول القائد) للواء الركن (محمود شيت خطاب) فلنصغ إلى ما جاء فيه عن غزوة أحد ؛ وما من شك فى أن أهل الخبرة إذا تحدثوا ؛ فإنما يتحدثون من منطق المعرفة التى لا تقبل تحريفا أو زيفاً .

غزوة أحد

١ - المسلمون :

سيطر المسلمون على الطرق التجارية المؤدية إلى الشام وإلى العراق سيطرة تامة ، ومنعوا قوافل قريش من سلوك هاتين الطريقين ، فلم يبق أمام قريش إلا التجارة مع الحبشة ، وهى تجارة غير رابحة بالنسبة إلى التجارة مع الشام ، وبذلك حلت بتجارة قريش ــ التى تعتمد عليها فى حياتها كل الاعتماد ــ نكبة قاضية .

كما سيطر المسلمون على المدينة ؛ وجعلوا منها قاعدة أمينة لدعوتهم وحركاتهم العسكرية المقبلة .

٢ - المشركون واليهود :

(ا) قريش :

حرصت قريش بعد نكبتها الكبرى فى بدر على الأخذ بثأرها من المسلمين ، وصممت على الاستعداد عسكرياً لاستعادة كرامتها وشرفها .

ولم تُغْنها غزوة « السويق » شيئاً بل زاد فرارها المشين أمام مطاردة المسلمين لها عاراً جديداً على عارها ببدر ، كما أثارت سرية زيد بن حارثة كوامن حقدها على المسلمين .

وقرر كبراء قريش تخصيص ربح تجارة قافلة أبى سفيان ــ التى جرت من أجلها معركة بدر ــ لإنجاز استعدادات معركة الثأر القادمة ، وإمدادها بالمواد والسلاح والرجال .

(ب) مشركو المدينة وما حولها :

أصبح مشركو المدينة ضعفاء جداً لإسلام أكثرهم ، وتظاهر الآخرون منهم بالإسلام كما هابت القبائل المجاورة قوة المسلمين ، فحالف أكثرهم المسلمين وانكمش الآخرون فى ديارهم خائفين .

---

(١) إلى هنا ينتهى حديث الدكتور محمد عبد الله دراز .

(جـ) اليهود :

لم يبق داخل المدينة بعد طرد بنى قينقاع أحد من اليهود ، أما اليهود الذين يسكنون فى ضواحى المدينة فقد خافوا من المسلمين ؛ خاصة بعد جلاء بنى قينقاع وقتل كعب بن الأشرف ، فتظاهروا بالمحافظة على عهودهم ولو أنهم أخفوا نقض تلك العهود .

قوات الطرفين

١ - المسلمون :

قوات المسلمين ستمائة وخمسون رجلاً وخمسون فارساً بقيادة الرسول ﷺ .

٢ - المشركون :

قوات المشركين ألفان وتسعمائة من قريش ومواليها وأحابيشها ومائة من بنى ثقيف . . بينهم سبعمائة دارع[1] فقط ، ومع القوة مائتا فرس ، وثلاثة آلاف بعير وهذه القوات بقيادة أبى سفيان ، وقد اصطحب أكثر زعماء قريش نساءهم للتشجيع ورفع المعنويات .

أهداف الطرفين

١ ـ المسلمون :

الدفاع عن المدينة ، وصد قريش عنها ، لتتوفر لهم الحرية الكاملة لنشر الدعوة إلى الإسلام بحرية وسلام .

٢ - المشركون :

أخذ ثاراتهم من المسلمين فى معركة بدر وسرية زيد بن حارثة ، لاستعادة كرامتهم وشرفهم بين العرب .

قبل المعركة

١ ـ المشركون

(ا) بعد إنجاز قريش استعداداتها للمعركة ، سلكت طريق مكة ـ المدينة ، حتى وصلت موضعاً قريباً من المدينة يسمى : « الصمغة » فأطلقت إبلها وخيلها ترعى زرع الأنصار هناك ، وتابعت سيرها حتى بلغت « العقيق » ثم نزلت عند بعض السفوح من جبل « أحد » على بعد خمسة أميال من المدينة .

(ب) كان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها . . عكرمة بن أبى جهل ، وكان اللواء عند طلحة ابن أبى طلحة من بنى عبد الدار .

(جـ) نظم المشركون قوتهم للقتال بأسلوب الصف وأمنوا حماية ميمنة الصفوف وميسرتها بالفرسان .

---

(١) الدارع لابس الدروع وكان هذا النوع من الجند يومئذ ، يعد جنديا حسن التجهيز والإعداد .

(د) بذلت نساء قريش ــ خاصة هند بنت عتبة زوج أبى سفيان ــ أقصى جهودهن لتشجيع قريش وبعث الحماسة فى نفوسهم لأخذ ثاراتهم من المسلمين .

٢ - المسلمون :

(ا) أرسل العباس عم الرسول ﷺ رسالة مع أحد الرجال ، يخبر بها الرسول ﷺ عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قواتها فأسرع الرجل بالرسالة ، حتى قطع الطريق بين مكة والمدينة فى ثلاثة أيام ، فوجد الرسول ﷺ ماكثاً بمسجد « قباء » فدفع إليه بالرسالة .

(ب) قرأ أبى بن كعب الرسالة على الرسول ﷺ فطلب ألا يبوح بمضمونها لأحد وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة .

(جـ) بعث النبى ﷺ رجلين من أصحابه ، لمعرفة الموضع الذى وصلته قريش فوجداها قاربت المدينة ، وأطلقت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .

(د) خشى المسلمون عاقبة هذه الغزوة ، لأن قريشاً أكملت استعداداتها بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ حروبها ، فبات المسلمون من أهل المدينة وعليهم السلاح بالمسجد ، كما بات الحراس فى مداخل المدينة لحراستها .

(هـ) جمع الرسول ﷺ أهل الرأى من المسلمين ، صباح يوم الجمعة ١٥ شوال من السنة الثالثة للهجرة لأخذ رأيهم فى كيفية لقاء العدو .

كان رأى النبى ﷺ أن يتحصنوا بالمدينة وأن يدعوا قريشاً خارجها ، فإذا دخلتها قاتلهم فيها قتال الشوارع ، فى منطقة يعرفها المسلمون كل المعرفة ولا تعرفها قريش ، مما يساعد المسلمين على ضرب قريش وإيقاع الخسائر الفادحة بها ، وكان رأى كبار الصحابة مثل هذا الرأى كما كان هذا رأى عبد الله ابن أبى .

ولكن الرجال الذين لم يشهدوا « بدراً » ــ خاصة الشباب منهم ــ تحمسوا للخروج ، وأيدهم رجال اشتركوا فى بدر حتى لا يرمى المسلمون بالجبن ، لاضطرارهم إلى القتال داخل المدينة ، فرأى الرسول ﷺ أن الأكثرية تؤيد الخروج فقال لهم : « إنى أخاف عليكم الهزيمة . . » فأبوا مع ذلك إلا الخروج ، فنزل على رأى الأكثرية لأن الشورى كانت أساس نظامه الذى لا يحيد عنه .

(و) أمر الرسول ﷺ صحابته أن يتهيئوا للخروج ، ودخل داره وتقلد سيفه وارتدى عدة القتال ثم خرج إلى الناس .

شعر القوم أنهم استكرهوا الرسول ﷺ على رأيهم ، وأظهروا الرغبة فى النزول على رأيه ، إلا أن النبى ﷺ وجد غضاضة فى الاضطراب بين شتى الآراء والتردد فى قراراته ، فقال : « ما ينبغى لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » ثم طلب إليهم الصبر عند البأس .

(ز) تقدم محمد ﷺ بألف رجل حتى نزل « الشخين » وهى « موضع فى ضواحى المدينة » وهناك رأى مع المسلمين مفرزة لا يعرف أهلها فلما سأل عنها علم أن أفرادها من اليهود حلفاء عبد الله بن أبى ، فرفض معاونتهم له إلا أن يسلموا أو يعودوا أدراجهم وقال : « لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك » فعادوا إلى المدينة .

انسحب بعدهم عبد الله بن أبى مع ثلاثمائة من أنصاره من المنافقين فبقى النبى ﷺ مع سبعمائة من أصحابه يستعد بهم لقتال ثلاثة آلاف .

(ح) عسكر المسلمون بالشعب من موضع « أحد » فى عدوة الوادى ، حيث جعل ظهر المسلمين إلى جبل « أحد » وكانت مجمل خطة الرسول ﷺ للقتال ما يلى :

أولاً : وضع خمسين من الرماة بإمرة عبد الله بن جبير فى موضع على طريق تؤدى من الجبل إلى خلف قواته ، وكان هدفه من وضع هذه القوة هو حرمان العدو من الالتفاف على قواته من الخلف ولتكون هذه القوة قاعدة أمنية لقواته : تحمى ظهرها وتستند إليها وتستر انسحابها عند الحاجة .

وأصدر لهذه القوة الأمر الجازم التالى : « احموا لنا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لا تبرحوا منه . وإن رأيتمونا نقبل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على بالنبل » .

ثانياً : نظم أصحابه صفوفاً للقتال بهم بأسلوب الصف وتخير الأشداء ليكونوا طليعة الصفوف .

ثالثاً : أصدر أوامره بألا يقاتل أحد إلا بأمر منه .

رابعاً : أخذ يشجع أصحابه ويحثهم على الصبر فى القتال .

(ط) ولبعث التنافس الشريف بينهم فى إظهار البطولة أخذ الرسول ﷺ سيفاً بيده فقال مخاطباً أصحابه : « من يأخذ هذا السيف بحقه » ؟ فقام إليه رجال فأمسكه عنهم حتى قام أبو دُجَّانة سماك بن خرشة .

فقال « وما حقه يارسول الله ؟ » فقال الرسول : « أن تضرب به العدو حتى ينحنى » وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل ، فأخذ السيف وأخرج عصابته الحمراء التى كانوا يسمونها « عصابة الموت » وعصب بها رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفين ، على عادته إذ يختال عند الحرب ، فلما رآه الرسول ﷺ يتبختر قال : « إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » .

(ى) بهذه الخطة وبهذا الاندفاع كان وضع المسلمين قبل نشوب القتال فى أحد .

سير القتال

١ ـ بدء المناوشات :

(أ) قامت مفرزة من قوات قريش ، بقيادة أبي عامر عبد عمرو بن صيفى الأوسى بالهجوم على قوات المسلمين ، فنشبت الحرب ، وكان أبو عامر هذا قد انتقل من المدينة إلى مكة ، يحرض قريشاً على قتال محمد ﷺ . ولم يكن شهد « بدراً » مع قريش فخرج إلى أحد فى خمسة عشر رجلاً من الأوس ، ومن عبيد أهل مكة ، وكانت المفرزة التى تحت إمرته مؤلفة من هؤلاء فقط ، وكان يزعم لقريش أنه إن نادى أهله المسلمين من الأوس الذين يحاربون فى صفوف محمد ﷺ ؛ استجابوا له وانحازوا معه ونصروا قريشاً !! خرج أبو عامر منادياً : « يامعشر الأوس ، أنا أبو عامر » فأجابه الأوس المسلمون : « لا أنعم الله بك عينا يافاسق » ثم هاجموه ونشب القتال بين الطرفين بعد أن أذن الرسول ﷺ للمسلمين بالقتال .

(ب) حاول أبو عامر وعكرمة بن أبى جهل أن يلتفًا على أجنحة المسلمين ، ولكن المسلمين رشقوهم بالحجارة ولم يكن من السهل الالتفاف على أجنحة المسلمين لاستنادها على هضاب جبل « أحد » ففشلت محاولات التفاف المشركين .

(جـ) هتف حمزة بن عبد المطلب بكلمة التعارف للمسلمين فى أحد : « أمت أمت » . ثم اندفع إلى قلب جيش المشركين ونادى حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة : « من يبارز ؟ » فخرج إليه على بن أبى طالب ؟ فقتله . واندفع أبو دجانة وفى يده سيف النبى ﷺ ، وعلى رأسه عصابة الموت فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، حتى شق صفوف المشركين . ثم رأى إنساناً يحث المشركين على القتال فحمل عليه بالسيف فإذا بهند بنت عتبة تولول فارتد عنها أبو دجانة مكرماً سيف الرسول ﷺ أن يضرب به امرأة ، فلله درك يا أبادجانة ما أكرمك .

٢ ـ اشتداد القتال

(أ) اندفعت قريش إلى القتال يثور فى عروقها طلب الثأر لمن قتل من أشرافها منذ عام ، وكان من ورائهم نساؤهم للتشجيع والحث على الاستبسال ، وقد أعدت غير واحدة منهن مولى ، وعدته بالخير الوفير لينتقم لها ممن فجعها ببدر فى أب أو أخ أو زوج أو عزيز ، وكانت هند بنت عتبة قد وعدت وحشياً الحبشى مولى جبير خيراً كثيراً ، إن هو قتل حمزة ، كما قال له جبير بن مطعم مولاه : وكان عمه قد قتل ببدر « إن قتلت حمزة عم محمد فأنت عتيق » وتربص وحشى بين الصفوف يترصد حمزة حتى رآه فى عرض الناس يحطم أبطال المشركين ، فصوب عليه حربته وقذفه بها فصابت بطن حمزة أسفل سرته وخرجت من بين رجليه فاستشهد على أثرها .

(ب) على الرغم من الخسارة الفادحة التى لحقت بالمسلمين باستشهاد حمزة ، فإن قواتهم بقيت مسيطرة على الموقف تماماً ، وأخذ لواء المشركين يسقط بين حين وآخر ، حمل عثمان بن أبى طلحة اللواء بعد أن قتل

علىّ طلحة بن أبى طلحة ، فلما لقى هذا مصرعه حمله أبو سعيد بن أبى طلحة ، فقتله على بن أبى طالب أو سعد بن أبى وقاص .

وتعاقب حملة لواء المشركين من بنى عبد الدار حتى قتل منهم تسعة ، ثم حمله مولى لهم ، وحملته امرأة بعد ذلك لتفرق المشركين عنه .

(جـ) زحفت صفوف المسلمين على صفوف المشركين بعد تصدعها ، فانهزم المشركون حتى أحاط المسلمون بنساء المشركين ، وحتى وقع الصنم الذى احتملوه للتبرك به من فوق الجمل الذى كان يحمله .

وأخذ المسلمون يطاردون المشركين حتى أبعدوهم عن معسكرهم ، ثم عادوا يجمعون الغنائم !! ورأى الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوا أماكنهم ، حتى ولو رأوه وأصحابه يقتلون ، فقال بعضهم لبعض : « لم تقيمون ها هنا فى غير شىء وقد هزم الله عدوكم وهؤلاء إخوانكم ينهبون عسكرهم ؟ »

واختلفوا فيما بينهم أيتركون مواضعهم أم يبقون فيها !؟ فأصر قائدهم عبد الله بن جبير على البقاء وعصاه أكثرهم وانطلقوا ، ولم يبق معه غير نفر دون العشرة واشترك المنطلقون من الرماة فى النهب .

٣ ــ هجوم المشركين المقابل :

(أ) انتهز خالد بن الوليد فرصة ترك رماة المسلمين لمواضعهم ، وكان على ميمنة خيل المشركين ، فهجم على مواضع الرماة التى تركوها ، واستطاع إجلاء الباقين منهم عن مواضعهم ؛ لقلة عددهم ، وعدم إمكانهم الصمود فى موضعهم الواسع بالنسبة لعددهم الذى أصبح قليلاً : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾[1] ولم يفطن المسلمون لهذه المباغتة ، وصاح خالد يعلن لقريش بأنه التف وراء المسلمين ، فعادت قوات قريش المنهزمة للقيام بهجوم مقابل حيوى ، ونادوا بشعارهم : ياللعزى ياهبل ، بينما قام خالد بالالتفاف من الخلف فأصبح المسلمون محاطين من كافة جوانبهم ؛ وتحرج موقفهم للغاية خاصة أن صفوفهم لم تكن رصينة فى مواضعها لتستطيع الصمود ، إذ تبعثر أفرادها لجمع الغنائم .

(ب) كانت هذه الحركة مباغتة تامة للمسلمين ؛ لم يكونوا يتوقعونها ، فتبعثر أكثرهم وبقى القليل منهم إلى جانب الرسول ﷺ ، يقاتلون ليشقوا لهم طريقاً من بين قوات قريش ، التى أطبقت عليهم من كل جانب ، واستشهد كثير من المسلمين وهم يحاولون شق طريقهم ، واستطاع المشركون أن يصلوا قريباً جداً من موضع الرسول ﷺ فرماه أحدهم بحجر أصاب أنفه وكسر رباعيته ، وتمالك الرسول نفسه وسار مع أصحابه الباقين ، فإذا به يقع فى حفرة حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون ، فأسرع إليه على بن أبى طالب وأخذ بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ١٦٦ آل عمران .

(٢) الآية : ٣١ من سورة محمد ـ ﷺ

(جـ) أخذ المشركون يديمون زخم هجومهم للقضاء على الرسول ﷺ وأصحابه ونادى أحدهم : بأنه استطاع قتل محمد ؟ ولكن أصحابه استماتوا فى الدفاع عنه .

كانت أم عمارة نسيبة الخزرجية قد خرجت أول النهار ومعها سقاء لها فيه ماء ، تدور على المسلمين لتسقى منهم من استسقى ، فلما أحاط المشركون بالمسلمين ، وأصبح الخطر الداهم محدقاً بالرسول ﷺ نفسه ، ألقت نسيبة سقاءها ، واستلت سيفاً وأخذت تذود عن محمد ﷺ بالسيف ، وترمى عن القوس[1] ، حتى خلصت الجروح إليها ، وصد أبو دجانة بجسمه النبال المنهالة صوب محمد ﷺ ، فحنى ظهره عليه والنبل يقع فيه ، ووقف سعد بن أبى وقاص إلى جانب محمد ﷺ ، يرمى بالنبل دونه والرسول يناوله النبل ويترصد له إصاباته .

ورمى الرسول بنفسه عن قوسه حتى تحطمت القوس ، وتساقط المسلمون حوله صرعى واحداً بعد الآخر ، مستقتلين فى الدفاع عنه ، حتى استطاعوا شق طريقهم عبر صفوف قريش إلى رابية مشرفة من روابى جبل أحد ، وتركت هذه الاستماتة أثرها فى قريش ، فتوقف زخم الهجوم قليلاً ، واستفاد المسلمون من هذه الفرصة السانحة ، فصعد الرسول ﷺ بهم إلى جبل أحد ، وفى طريق صعوده رآه كعب بن مالك ، الذى كان مع المسلمين الذين تفرقوا عنه ، لهول صدمة مباغتة قريش لهم . ولانتشار إشاعة قتل الرسول ﷺ ، فنادى كعب بأعلى صوته : « يامعشر المسلمين . . أبشروا . . هذا رسول الله » فلما سمعت قريش صيحة كعب لم يصدقها أكثرهم ، وحسبها صيحة أريد بها شد عزائم المسلمين ، إلا أن بعضهم اندفع وراء محمد ﷺ وصحابته ، وتقدم أبى بن خلف ، وهو يقول : « أين محمد ؟ لانجوت إن نجا » فطعنه الرسول ﷺ بحربة الحارث بن الصِّمَّة طعنة جعلته ينقلب عن فرسه ويعود أدراجه ليموت فى الطريق ، وهو أول قتيل قتل بيد الرسول ﷺ .

(د) وصل المسلمون إلى هضبة مرتفعة من جبل أحد ، ولكن خالد بن الوليد وصل بفرسانه قريباً منهم فقام المسلمون عليه بهجوم مقابل واستطاعوا صد قواته .

(هـ) ذهبت كافة محاولات قريش للقضاء على المسلمين أدراج الرياح ، إذ تجمعوا حول الرسول ﷺ ، وأصبحوا تحت قيادته ، بعد أن فرقهم جمع الغنائم ، وصدمة المباغتة عنه ، فأصبحوا متفرقين وبدون قيادة .

وبلغ الإعياء برجال قريش حداً بالغاً ، وفشلت محاولاتهم الهجومية المتكررة للقضاء على المسلمين نهائياً ، فقررت قريش إنهاء القتال .

وقبل العودة ، أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى : « أفيكم محمد ، » فلم يجيبوه فقال : « أفيكم ابن أبى قحافة ؟ » فلم يجيبوه . فقال : « أفيكم عمر بن الخطاب ؟ » فلم يجيبوه ، ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قريش أن قيام الإسلام بهم . فقال : « أما هؤلاء فقد كفيتموهم[2] » ، فلم يتمالك عمر أن

---

(١) ترمى بالنبال ، فكأنها كانت تقوم بدور مقاتلين اثنين ، مقاتل يصد البعيد بالرمى ، والثانى يدفع القريب بالسيف .
(٢) أى كفيتم جهدهم فى توحيد المسلمين بموتهم وذهابهم وكان صمت المسلمين عن الإجابة بأمر من الرسول ﷺ .

أجاب « ياعدو الله إن الذين ذكرتهم أحياء ، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك ، وإن محمداً يسمع كلامك الآن . . . » فقال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر ؛ والحرب سجال » ثم جعل يرتجز ويقول : « أعلُ هبل . . أعل هبل » فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبونه ؟ » قالوا : يارسول الله بماذا نجيبه ؟ قال : « قولوا : الله أعلى وأجل » قال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم » . فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبونه ؟ » فقالوا : وبماذا نجيبه ؟ فقال : « فقولوا : الله مولانا ولا مولى لكم » .

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : « وإن موعدكم بدر للعام القابل » . فقال الرسول ﷺ لرجل من أصحابه : « قل : نعم هو بيننا وبينك موعده وصدق الله العظيم : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ماأراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ؛ ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾[1] .

عودة الطرفين

١ ـ المشركون :

عاد المشركون أدراجهم إلى مكة ، فلما وصلوا موضع « الروحاء » على طريق المدينة ـ مكة سمع أبو سفيان بخروج المسلمين لقتاله ، فخاف أن يكون الرسول ﷺ قد جاء من المدينة بقوات جديدة ، فمر به معن الخزاعى ، وكان قد مر بمحمد ﷺ ومن معه ؛ فسأله أبو سفيان عن المسلمين فأجابه معن ؛ وكان لا يزال مشركاً . « إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم أشد ما يكون عليكم حقداً ومنكم للثأر طلباً . . » .

فكَّر أبو سيفان أن انكسار قواته إذا اصطدم بالمسلمين ثانية ؛ معناه خسارة انتصاره فى (أحد) ، والقضاء على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ، فلجأ إلى الحيلة وبعث مع ركب من بنى عبد القيس ، يقصدون المدينة أن يبلغوا محمداً ﷺ : أن أبا سيفان قد قرر السير إليهم ليستأصل بقيتهم ، ثم سارع بالرجوع إلى مكة .

٢ ـ المسلمون :

بعد عودة المشركين ووصول الرسول ﷺ وصحابته إلى المدينة ، قرر الرسول ﷺ القيام بحركة جريئة ، تخفف من وقع الهزيمة فى « أحد » ، وترد إلى المسلمين معنوياتهم ، وتدخل إلى روع اليهود والمنافقين الرهبة وتعيد إلى المسلمين سلطانهم بالمدينة المنورة قوياً كما كان .

لذلك خرج بأصحابه الذين شهدوا غزوة أحد فقط يوم الأحد ١٦ شوال من السنة الثالثة للهجرة ، أى فى اليوم الثانى من يوم أحد لمطاردة قوات قريش حتى وصل موضع « حمراء الأسد » ، وهى على مسافة

---

(١) الآية : ١٥٢ من سورة آل عمران .

ثمانية أميال من المدينة ، وعلى طريق المدينة ـ مكة ، جاءه من يخبره بأن قريشاً قررت السير إليه فلم تتضعضع معنويات المسلمين ، وقرروا لقاء قريش ، وبقوا ينتظرون هناك هذا الوعيد ثلاثة أيام ، فلما علموا بانسحاب قريش ، عادوا أدراجهم إلى المدينة . وبهذه الحركة الجريئة استرد المسلمون كثيراً من مكانتهم التى فقدوها فى « أحد » ، ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾[1]

خسائر الطرفين

١ ـ المشركون : قتل من قريش اثنان وعشرون رجلاً .
٢ ـ المسلمون : استشهد من المسلمين واحد وسبعون رجلاً

أسباب المحنة

١ ـ أنصر أم اندحار ؟

لا أتفق مع المؤرخين فى اعتبار نتيجة « أحد » نصراً للمشركين ، واندحاراً للمسلمين ، لأن مناقشة المعركة عسكرياً ، تظهر انتصار المسلمين ، على الرغم من خسائرهم الفادحة فى هذه المعركة ، ونبدأ المناقشة من الوجهة العسكرية البحتة لإظهار حقيقة نتائج غزوة أحد .

لقد انتصر المسلمون فى ابتداء المعركة ، حتى استطاعوا طرد المشركين من معسكرهم ، والإحاطة بنسائهم وأموالهم ، وتعفير لوائهم بالتراب ، ولكن التفاف خالد بن الوليد وراء المسلمين ، وقطع خط رجعتهم ، وهجوم المشركين من الأمام ، جعل قوات المشركين تطبق من كافة الجوانب على قوات المسلمين ، هذا الموقف فى المعركة جعل خسائر المسلمين تتكاثر ، ولكن بقى النصر . بجانبهم إلى الموقف الأخير ؛ ذلك لأن نتيجة كل معركة لا تقاس فى الناحية العسكرية بعدد الخسائر بالأرواح فقط ، بل تقاس بالحصول على هدف القتال الحيوى وهو القضاء المبرم على العدو مادياً ومعنوياً .

فهل استطاع المشركون القضاء على المسلمين مادياً ومعنوياً ؟

إن حركة خالد كانت مباغتة للمسلمين بلا شك ، وقيام المشركين بالهجوم المقابل وإطباقهم على قوات المسلمين من كافة الجوانب ، وهم متفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين ، كل ذلك كان يجب أن تكون نتائجه القضاء المبرم على كافة قوات المسلمين ، ولا يمكن أن يعد التفاف قوة متفوقة تفوقاً ساحقاً على قوة صغيرة أخرى من جميع جوانبها ، ثم نجاة تلك القوة الصغيرة بعد إعطاء خسائر عشرة بالمائة فقط من موجودها إلا انتصاراً لتلك القوة الصغيرة .

ولا يمكن اعتبار فشل القوة الكبيرة فى القضاء على القوة الصغيرة مادياً ومعنوياً ، فى مثل هذا الموقف الحرج للغاية ، إلا فشلاً لها .

---

(١) من الآية : ٨٤ من سورة النساء .

ولم تستطع قريش أن تؤثر على معنويات المسلمين أيضاً ، وإلا لما استطاع المسلمون الخروج لمطاردة قريش بعد يوم واحد فقط من يوم « أحد » ، دون أن تتجرأ قريش على لقاء المسلمين ، بعيداً عن المدينة ، خاصة أن الرسول ﷺ خرج للقاء قريش بقوته التى اشتركت (فعلا) بمعركة أحد ، دون أن يستعين بغيرهم من الناس .

إن نجاة المسلمين من موقفهم الحرج الذى كانوا فيه « بأحد » نصر عظيم لهم ، لأن أولى نتائج إطباق المشركين عليهم من كافة الجهات كان المفروض أن تكون القضاء التام ، ثم إن معركة « أحد » أتاحت للمسلمين معرفة المنافقين الذين كانوا بين صفوفهم بصورة لا تقبل الشك والمماراة ، وهذا مكسب عظيم لا يقدر بثمن ولا تعد خسائرهم بالأرواح إلى جانبه شيئاً مذكوراً .

٢ - أسباب خسائر المسلمين :

إن أسباب كثرة خسائر المسلمين فى معركة « أحد » هى مايلى :

(أ) عدم المطاردة :

لم يقم المسلمون بالمطاردة فى الصدمة الأولى من المعركة ، بعد انهزام المشركين بعيداً عن معسكرهم ، بل انشغلوا بالغنائم ، ولو أنهم قاموا بالمطاردة فوراً بعد انهزام المشركين ، لقضوا على قواتهم بسهولة ومن بعد ذلك يعودون لجمع الغنائم .

(ب) مخالفة الأوامر[1] :

تنفيذ الأوامر هو الضبط العسكرى الذى يعتبر روح الجندية ، والسبب المباشر المؤدى لكل انتصار فى كل معركة ، ومخالفة الرماة فى ترك مواقعهم والإسراع لجمع الغنائم ، خطأ كبير وقع فيه المسلمون حينذاك إذ كشف للعدو ظهورهم فاستفاد خالد من هذه الفرصة السانحة لتطويقهم من الخلف ، مما أدى إلى الإطباق عليهم من كافة الجهات .

(جـ) المباغتة :

المباغتة مبدأ من أهم مبادئ الحرب ، ومعناها ضرب العدو من مكان أو فى زمان ، أو بأسلوب لا يتوقعه ، بحيث يمكن تحطيم قوى العدو المادية والمعنوية ، وكان قيام خالد بن الوليد بالالتفاف وراء قوات المسلمين ، فى الوقت الذى انهزم فيه المشركون ، مباغتة تامة للمسلمين ، فارتبكت صفوفهم بدرجة لم يفرقوا معها بين قوات عدوهم وبين قواتهم ، كما تحطمت معنويات كثير منهم ، وأصبحوا لا يعرفون ما يصنعون .

---

(١) يعد السبب الثانى هو الأول فى المفهوم الايجابى بلزوم طاعة الرسول ﷺ طاعة مطلقة ؛ بينما السبب الأول هو الأول فعلا فى الأداء العسكرى البحت ، والحقيقة أن السببين ، وجهان لعملة واحدة إذ الطاعة المطلقة والأداء العسكرى الجاد من أهداف الرسول ﷺ وبهما يتحقق نصر الله .

إن هذه المباغتة أتاحت الفرصة لقريش للقضاء على المسلمين وإبادة قواتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستفادة من موقفهم الممتاز هذا ، فضيعوا هذه الفرصة السانحة ، لجعل معركة « أحد » حاسمة فى نتائجها .

دروس من أحد

١ ـ الحصول على المعلومات :

حصل المسلمون على المعلومات الكافية عن نوايا قريش وقوتها وحركتها ، من رسالة العباس عم النبى ﷺ ، قبل وقت مناسب من حركة قريش باتجاه المدينة لغزو المسلمين ، كما أرسل المسلمون دوريات استطلاعية قبل معركة « أحد » فعرفوا مواضع قوات قريش وأرسلوا دوريات استطلاعية بعد المعركة ، باتجاه حركة عودة المشركين .

لقد كان عمل المسلمين فى الحصول على المعلومات مفيداً فى منع المشركين من مباغتتهم فى المدينة .

٢ ـ القيادة :

كان لقريش فى معركة « أحد » قائد عام هو أبو سفيان ، ولم تظهر أية حنكَة لهذا القائد فى المعركة ، كما كانت سيطرته ضعيفة على ما يظهر ؛ بدرجة أن نساء المشركين مثلوا بشهداء المسلمين دون رغبته فلم يستطع أن يفعل شيئاً . ولو كانت قيادة أبى سفيان على شىء من الكفاءة ، لاستطاع الإيقاع بالمسلمين بعد تطويقهم التام أما قيادة الرسول ﷺ ، فقد ظهرت بشكل ظاهر فى هذه المعركة .

انتخب الموضع المناسب للمعركة ، واضطرت قريشاً إلى قبول المعركة فيه ، ونظم خطة القتال فانتخب مواضع الرماة لحماية ظهور المسلمين ، وخصص لهذه المواضع قوة كافية للدفاع عنها بإمرة قائد مسئول .

إن كل ذلك على أهميته لا يعتبر شيئاً بالنسبة إلى ظهور عبقرية قيادته فى أثناء القتال ، خلال الصفحة الثانية من معركة « أحد » حين طوق المشركون المتفوقون بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين قوة المسلمين القليلة ، بعد أن انهارت معنويات كثير منهم ؛ لما سمعوا خبر مقتل الرسول ﷺ فى المعركة ؛ فلجأوا إلى الهضاب بعيدا عن ساحة المعركة ، وبقى الرسول ﷺ ومعه شرذمة قليلة من المسلمين ، يقاومون وحدهم زخم هجوم قريش فى أوج قوته وعنفوانه .

لقد استطاع الرسول بهذا الموقف الصعب للغاية بالنسبة للمسلمين ؛ الموفق للغاية بالنسبة للمشركين ، أن يسيطر على الموقف فى معركة يائسة جداً ، ويقود الباقين من المسلمين لشق طريقهم من بين القوات المعادية المتفوقة المحيطة بهم ، ثم يحتل موضعاً مشرفاً ويقوم بإعادة تنظيم قواته الباقية ، ويعيد إليها

معنوياتها وبأسها وقوتها ؛ ويصد بها هجمات مقابلة شديدة للمشركين فيحيل الهزيمة المتوقعة إلى نصر ، لأنه اضطر قريشاً إلى اليأس من القضاء على المسلمين ، بعد أن كان فناء المسلمين أمراً « حتمياً » ثم اضطرهم إلى الانسحاب من المعركة ؛ بعد اليأس من إبادة المسلمين .

ولم يكتف بذلك بل خرج فى اليوم الثانى للمعركة لمطاردة قوات المشركين ، حتى اضطرهم إلى استعمال الحيلة بإرسال المعلومات الكاذبة للمسلمين ، عن اعتزامهم إعادة الكرة على قوات الرسول ﷺ ، فلم يكترث بهذا التهديد وإنما أعد العدة وقرر لقاء المشركين مهما تكن الظروف والأحوال[1] .

هذه قيادة عبقرية ؛ ظهرت للرسول ﷺ بهذه المعركة بشكل واضح كل الوضوح ، كان من بعض نتائجها أنها جعلت النصر إلى جانب المسلمين المغلوبين : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[2] .

٣ ــ القضايا التعبوية :

(أ) مخالفة الأوامر :

أخطأ رماة المسلمين فى مخالفتهم لأوامر الرسول ﷺ ، وانسحابهم من مواضعهم الأصلية لجمع الغنائم ، ولولا انسحابهم لما استطاع خالد بن الوليد ضرب مؤخرتهم ، ولما استطاعت قريش تطويق المسلمين . « إن مخالفة الأوامر فى « أحد » درس فى نتائج كل مخالفة عسكرية للأوامر فى الحرب ، وإن نتائجها المعروفة كافية لغرس هذا الدرس فى النفوس لكى لا يعود أحد لمثلها أبداً ». ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾[3] .

(ب) عدم المطاردة :

بعد كل هجوم ناجح لا بد من مطاردة عنيفة للقضاء على العدو . وقد أخطأ المسلمون فى عدم مطاردتهم للمشركين ، بعد فرار المشركين من مواضعهم ، وابتعادهم عن معسكرهم ، والتفاف المسلمين حول نساء المشركين ، ومواشيهم وإبلهم ، فى الصفحة الأولى من يوم « أحد » ، ولو قام المسلمون بالمطاردة إلى مسافة عشرة أميال على الأقل لأوقعوا بالمشركين خسائر فادحة ، ولانتهت معركة « أحد » بنتائج فى مصلحة المسلمين .

---

(١) وهو ما تشير إليه الآيات ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ ١٧٣ ، ١٧٤ آل عمران .

(٢) آية : ٢١ من سورة المجادلة .

(٣) آية : ١٣٢ من سورة آل عمران .. والمخالفة التى حصلت من الرماة هى التى أشارت إليها الآية ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة .. ﴾ الآية : ١٥٢ من آل عمران .

(جـ) أسلوب القتال :

لقد جرى القتال بين الطرفين بأسلوب الصفوف ، وبذلك استطاعت قريش أن تسيطر على المعركة ؛ بشكل أفضل من سيطرتها التى تجرى بأسلوب الكرّ والفر .

٤ ـ القضايا الإدارية :

(أ) الإدامة والنقلية :

كان المشركون متفوقين على المسلمين بإدامة قواتهم وإعاشتها وتسليحها وفى نقليتها تفوقاً محسوساً مما كان له أثر طيب على سير القتال لصالح المشركين .

(ب) الدفن :

دفن المشركون قتلاهم وتركوا قتلى المسلمين ، ولم يكتفوا بذلك بل مثلوا أشنع تمثيل ، فقد انطلقت هند بنت عتبة والنسوة اللائى معها يمثلن بالشهداء : يجدعن الآذان والأنوف . . ألخ .

أحد فى التاريخ :

لقد أجمع المؤ رخون على اعتبار نتيجة « أحد » نصراً للمشركين على المسلمين ولكن الحقائق العسكرية لا تتفق مع ما أجمع عليه المؤرخون .

لقد كان بإمكان المشركين القضاء على قوات المسلمين فى معركة « أحد » بعد أن استطاعوا إحاطتهم من كافة الجوانب بقوات متفوقة عليهم تفوقاً ساحقاً .

ومع ذلك استطاع محمد ﷺ أن يشق طريقه بين القوات المحيطة به ويخلص تسعة أعشار قواته من فناء أكيد .

إن فشل المشركين فى القضاء على قوات المسلمين بعد إحاطتهم بقواتهم المتفوقة يعتبر انْدَحاراً لهم .

وإن نجاح المسلمين فى الخروج من تطويق المشركين بخسائر عشرة بالمائة من قواتهم القليلة يعتبر نصراً لهم .

بالإضافة إلى نجاح المسلمين فى التخلص من الفناء التام فى معركة « أحد » ؛ فقد نجحوا فى معرفة المنافقين بين صفوفهم قبل المعركة وبعدها ، مما أتاح لهم القيام بالتطهير العام فى صفوفهم بعد « أحد » ، على هدى وبصيرة . وجزى الله الشدائد كل خير[1] .

وبذلك تظهر الفائدة العظيمة لغزوة أحد للمسلمين .

إن نتيجة معركة أحد نصر « تعبوى » للمشركين على المسلمين ولكنها فشل (سوقى) للمشركين ، ولا يعد النصر التعبوى شيئاً يذكر إلى جانب الفشل السوقى[2] .

(١) وهذا ما عنته الآيات : ١٥٤ ، ١٥٥ من سورة آل عمران .
(٢) يعنى بذلك تحقيق النصر الفعلى بحسم المعركة تماما لصالح السلامة التعبوية .

وصدق الله العظيم : ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين * ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾(١) .

شهداء المسلمين فى أحد رضى الله عنهم :

١ ـ المهاجرون :

(أ) من قريش ثم من بنى هاشم بن عبد مناف بن عبد المطلب :

١ ـ حمزة بن عبد المطلب عم النبى صلى الله عليه وسلم .

(ب) من بنى أمية بن عبد شمس :

٢ ـ عبد الله بن جحش « حليف لهم من بنى أسد بن خزاعة »

(جـ) من بنى عبد الدار بن قصى :

٣ ـ مصعب بن عمير .

(د) من بنى مخزوم بن يقظة :

٤ ـ شماس بن عثمان .

٢ ـ الأنصار :

(أ) من الأوس ثم من بنى عبد الأشهل :

٥ ـ عمرو بن معاذ بن النعمان .

٦ ـ الحارث بن أنس بن رافع .

٧ ـ عمارة بن زياد بن السكن .

٨ ـ سلمة بن ثابت بن وقش .

٩ ـ عمرو بن ثابت بن وقش .

١٠ ـ ثابت بن وقش « والد عمرو وسلمة » .

١١ ـ رفاعة بن وقش « أخو ثابت » .

١٢ ـ فيض بن قيظى .

١٣ ـ حباب بن قيظى .

١٤ ـ عباد بن سهل .

---

(١) الآيات : ١٣٨ - ١٤٢ من سورة آل عمران .

١٥ ـ الحارث بن سهل بن معاذ « ابن أخى سعد بن معاذ » .

١٦ ـ حسيل بن جابر « اليمان » والد حذيفة بن اليمان .

(ب) من أهل لاتج « اسم أطم من آطام المدينة » من بنى عبد الأشهل :

١٧ ـ إياس بن أوس بن عتيك بن عمرو .

١٨ ـ عبيد بن التيهان .

١٩ ـ عتيك بن التيهان .

٢٠ ـ حبيب بن زيد بن تيم .

(جـ) من بنى ظفر :

٢١ ـ يزيد بن حاطب بن أمية بن رافع .

(د) من بنى عمرو بن عوف ثم من بنى ضبعية بن زيد :

٢٢ ـ أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد .

٢٣ ـ حنظله الغسيل بن أبى عامر بن صيفى بن النعمان[١] .

٢٤ ـ قيس بن زيد بن ضبيعة .

٢٥ ـ مالك بن أمة بن ضبيعة .

(هـ) من بنى عبيد بن زيد .

٢٦ ـ أنيس بن قتادة .

(و) من بنى ثعلبة بن عمرو بن عوف :

٢٧ ـ أبو حبة بن عمرو بن ثابت « أخو سعد بن حيثمة لأمه » .

٢٨ ـ عبد الله بن جبير بن النعمان « أمير الرماة[٢] » .

(ز) من بنى السلم بن امرىء القيس بن مالك بن الأوس :

٢٩ ـ حيثمة « والد سعد بن حيثمة » .

٣٠ ـ عبد الله بن سلمة « حليف من بنى العجلان » .

(ح) من بنى معاوية بن مالك :

٣١ ـ سبيع بن حاطب بن الحارث بن قيس بن هيشة .

٣٢ ـ سويبق بن الحارث بن حاطب بن هيشة .

٣٣ ـ مالك بن عميلة « حليف لهم » .

---

(١) وذلك لأن الملائكة غسلته . . إذ قاتل وكانت به جنابة .
(٢) استمر فى موقعه مع قليل من الرماة التزاما لأمر الرسول ﷺ فاستشهدوا .

(ط) من بن حطمة :

٣٤ - الحارث بن عدى .

٣٥ - عمير بن عدى .

(ى) من بنى النجار ثم من بنى سواد بن مالك بن غنم :

٣٦ - عمرو بن قيس بن زيد .

٣٧ - قيس بن عمرو بن قيس « ابنه » .

٣٨ - ثابت بن عمرو بن زيد .

٣٩ - عامر بن مخلد .

(ك) من بنى مبذول :

٤٠ - أبو هبيرة بن الحارث بن علقمة .

٤١ - عمرو بن مطرف بن علقمة بن عمرو .

(ل) من بنى عمرو بن مالك بن النجار :

٤٢ - أوس بن ثابت بن المنذر « أخو حسان بن ثابت » .

(م) من بنى عدى بن النجار :

٤٣ - أنس بن النضير بن خضم « عم أنس بن مالك خادم النبى ﷺ » .

(ن) من بنى مازن بن النجار :

٤٤ - قيس بن مخلد .

٤٥ - كيسان « عبد لهم » .

(س) من بنى دينار بن النجار :

٤٦ - سليم بن الحارث .

٤٧ - نعمان بن عبد عمرو .

(ع) من بنى الحارث بن الخزرج :

٤٨ - خارجة بن زيد بن أبى زهير .

٤٩ - أوس بن أرقم بن زيد .

٥٠ - سعد بن الربيع بن عمرو بن أبى زهير .

(ف) من بنى الأنجر وهم بنو خدر :

٥١ - مالك بن سنان « والد أبى سعيد الخدرى » .

٥٢ - سعيد بن سويد بن قيس .

٥٣ ـ عتبة بن ربيع بن رافع .

(ص) من بنى ساعدة بن كعب بن الخزرج :

٥٤ ـ ثعلبة بن سعد بن مالك بن خالد .
٥٥ ـ ثقف بن فروة بن البدن :

(ق) من بنى طريف رهط سعد بن عبادة :

٥٦ ـ عبد الله بن عمرو بن وهب .
٥٧ ـ حمزة « حليف لهم من جهينة » .

(ر) من بنى عوف بن الخزرج ثم من بنى سالم ثم من بنى مالك بن العجلان :

٥٨ ـ نوفل بن عبد الله .
٥٩ ـ عباس بن عبادة بن نضلة .
٦٠ ـ نعمان بن مالك بن ثعلبة بن فهد .
٦١ ـ المحذر بن زياد العلوى « حليف لهم » .
٦٢ ـ عبادة بن الحسحاس .

(ش) من بنى سلمة بن حرام :

٦٣ ـ عبد الله بن عمرو بن حرام « والد جابر بن عبد الله » .
٦٤ ـ عمرو بن الجموح .
٦٥ ـ خلاد بن عمرو بن الجموح .
٦٦ ـ أبو أعين « مولى عمرو بن الجموح » .

(ت) من بنى سواد بن غنم :

٦٧ ـ سليم بن عمرو بن حديده .
٦٨ ـ عنترة « مولى سليم بن عمرو » .
٦٩ ـ سهل بن قيس بن أبى كعب .

(ث) من بنى زريق بن عامر :

٧٠ ـ ذكوان بن عبد بن قيس .
٧١ ـ عبيد بن عبد المعلى بن لودان من بنى حبيب .

قال الشيخ المراغى[1] تحت عنوان « استطراد دعت إليه الحاجة » :

« من هذه الآيات إلى ستين آية بعدها ، نزلت فى غزوة أحد ، فوجب ذكر طرف من أخبار هذه الواقعة ، ليستعين به القارىء على فهمها ، ويعرف مواقع أخبارها ، ويستيقن من حكمها وأحكامها ، ولكن عليك أن تعرف قبل هذا أن قريشاً اغتاظت من هجرة النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ، وحقدوا على أهلها إيواءهم للمسلمين ، وتهددوهم ، فكان لا بد من الاستعداد للدفاع ، وقد صار النبى ﷺ داعية للدين ، ورئيساً لحكومة المدينة ، وقائداً لجيشها . هذا وقد أدى دفاع المسلمين عن أنفسهم إلى سلسلة من الغزوات ، بها انتشر الإسلام بسرعة لم تعهد فى التاريخ ، وقد اشترك النبى ﷺ فى تسع من أشهرها أ . هـ .

وقعة بدر :

كانت قريش ترى أن محمداً وأصحابه شرذمة من الثوار ، يجب أن تقتل ، ولا سيما بعد أن صارت لهم القوة فى المدينة ، وهى على طريق التجارة إلى الشام ، فجد المسلمون فى مهاجمة قوافل مكة ، ونالوا أول انتصارهم فى السنة الثانية من الهجرة ، فى غزوة بدر - بئر بين مكة والمدينة كانت لرجل يسمى بدراً فسميت باسمه - وكانت هذه الواقعة نصراً مؤزراً للمسلمين ، وكارثة كبرى على المشركين وكان لها دوى عظيم فى أرجاء البلاد العربية ، من أقصاها إلى أقصاها .

وقعة أحد :

أحد جبل على نحو ميل من المدينة إلى الشمال .

ولما خذل المشركون فى وقعة بدر ، ورجع فلُّهم إلى مكة مقهورين - أخذ أبو سفيان يؤلب المشركين على رسول الله ﷺ ، إذ كان هو الرئيس بعد مقتل من قتِل من صناديد قريش ، فاجتمعوا للحرب وكانوا نحو ثلاثة آلاف ، فيهم سبعمائة دارع ، ومعهم مائتا فرس وقائدهم أبو سفيان بن حرب ، ومعه زوجته هند بنت عتبة ، وكان حجلة النساء خمس عشرة امرأة ، ومعهن الدفوف يضربن بها ويبكين على قتلى بدر ، ويحرضن المشركين على حرب المسلمين ، وساروا من مكة حتى نزلوا مقابل المدينة ، فى شوال سنة ثلاث من الهجرة ، وكان رأى رسول الله ﷺ المقام فى المدينة وقتالهم بها ، ورأى باقى الصحابة الخروج لقتالهم ، فخرج فى ألف من الصحابة ، إلى أن صار بين المدينة وأحد ، فانخذل عنه عبد الله بن أبى ابن سلول فى ثلث الناس ، ونزل رسول الله ﷺ الشعب من أحد ، وجعل ظهره إلى الجبل .

وكان عدة أصحاب رسول الله ﷺ سبعمائة ، فيهم مائة دارع ، ولم يكن معهم من الخيل سوى فرسين ، وكان لواء رسول الله ﷺ مع مصعب بن عمير ، وعلى ميمنة المشركين خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ، ولواؤهم مع بنى عبد الدار .

---

(١) شيخ الجامع الأزهر فى فترتين من الثلاثينيات والأربعينيات أيام الملكين فؤاد وفاروق .

ولما التقى الجمعان قامت هند زوج أبي سفيان ومعها النسوة يضربن بالدفوف وهى تقول : ويهاً بنى عبد الدار . . ويهاً حماة الأديار . . ضرباً بكل بتار .

وقاتل حمزة قتالاً شديداً ، ولما قتل مصعب بن عمير ، أعطى النبى ﷺ الراية لعلى بن أبى طالب .

ولما انهزم المشركون طمعت الرماة فى الغنيمة ، وفارقوا المكان الذى أمرهم النبى ﷺ بملازمته ؛ فأتى خالد بن الوليد مع خيل المشركين من خلف المسلمين ، ووقع الصراخ أن محمداً قد قتل ، وانكشف المسلمون وأصاب العدو منهم ، وكان يوم بلاء على المسلمين ، وكان عدد الشهداء سبعين رجلاً ، وعدد قتلى المشركين اثنين وعشرين رجلاً ، ووصل العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته حجارتهم ، حتى وقع وأصيبت رباعيته ، وشج فى وجهه وكلمت شفته وجعل الدم يسيل على وجهه ، وهو يقول : « كيف يفلح قوم قد خضبوا وجه نبيهم بالدم » وجعل يدعوهم إلى ربهم فنزل قوله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾[1] .

ودخنت حلقتان من حلق المغفر فى وجه رسول الله ﷺ فى الشجة ونزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجهه ﷺ ، فسقطت ثنية من ثنياته ، ثم نزع الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى ، وامتص مالك ابن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته وطمع فيه المشركون وأدركوه يريدون منه ما الله عاصمه منه كما قال : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[2] وأصابت طلحة يومئذ ضربة شديدة شلت يده ، وهو يدافع عن رسول الله ﷺ ، ومثلت هند وصواحبها بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ فجدعن الأنوف وصلمن الآذان ، واتخذن منها قلائد ، وبقرت عن كبد حمزة ، ولاكتها ولم تستسغها ، وضرب أبو سفيان شدق حمزة بزج الرمح ، وصعد الجبل وصرخ بأعلى صوته : الحرب سجال يوم بيوم ، اعل هبل (صنم الكعبة) أى ظهر دينك ، ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر العام القابل ، فقال النبى ﷺ : قولوا : هو بيننا وبينكم ، ثم سار المشركون إلى مكة وبحث رسول الله ﷺ عن عمه حمزة ، فوجده مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الأذن ، فقال : (لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين منهم) ، ثم أمر أن يسجى ببردته ثم صلى عليه ، فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى فوضعهم إلى جانب حمزة واحداً بعد واحد ، حتى صلى عليهم اثنتين وسبعين صلاة ، ثم أمر بحمزة فدفن ، واحتمل ناس من المسلمين قتلاهم إلى المدينة . . فدفنوهم بها ، ثم نهى رسول الله ﷺ عن ذلك ، وقال : (ادفنوهم حيث صرعوا) .

إذا علمت ما تقدم سهل عليك فهم هذه الآيات وما بعدها ، مما له صلة بهذه الوقعة الهامة فى تاريخ الإسلام ، وما فيها من عظة وعبرة للمسلمين ، فقد كانت نبراساً لهم فى كل حروبهم وأعمالهم ، فى حياة النبى ﷺ وبعده - إذ علموا أن مخالفة القائد الأعظم لها أسوأ الآثار ، وأن كل ما حدث فيها إنما جر إليه الطمع فى الغنيمة وجمع حطام الدنيا وهو ظل زائل وعرض مفارق .

---

(١) الآية : ١٢٨ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية : ٦٧ من سورة المائدة .

المعنى الجملى :

بعد أن نهى الله المؤمنين عن اتخاذ بطانة من الأعداء الذين كاشفوهم بالعداوة ، ثم أعلمهم ببغضهم إياهم ، ثم أمرهم بالصبر والتقوى ، وأنهم إذا فعلوا ذلك لا يضرهم كيدهم شيئاً ، ذكرهم فى هذه الآيات بوقعة أحد ، وما كان فيها من كيد المنافقين ، إذ أذاعوا عن المؤمنين من قالة السوء ما أذاعوا ، ثم خرجوا معهم وانشقوا عنهم فى الطريق ، ورجعوا بثلث الجيش ليوقعوا الفشل بين صفوفهم ، ويخذلوهم أمام عدوهم ، وما كان من كيد المشركين ، وتألبهم عليهم ، ولم يكن لذلك من واق إلا الصبر حتى عن الغنيمة التى طمع فيها الرماة ، فتركوا مواقعهم ، وإلا تقوى الله ، ومن أهم دعائمها طاعة الرسول فيما به أمر وعنه نهى ، وذكرهم أيضاً بما كان يوم بدر من نصرهم على عدوهم على قلتهم إذ جعلوا الصبر جنتهم ، وتقوى الله عدتهم ، فأصابوا من عدوهم ما أصابوا ، وكان لهم النصر عليهم ، مما لا يزال مكتوباً فى صحيفة الدهر ، مثلاً خالداً لصدق العزيمة ، والبعد عن مطامع هذه الحياة .

الإيضاح :

﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾ . أى واذكر لهم أيها الرسول وقت خروجك من بيتك غدوة سحر يوم السبت سابع يوم من شوال سنة ثلاث للهجرة ؛ تهيىء أمكنة للقتال ، منها مواضع للرماة للفرسان ، ومواضع لسائر المؤمنين .

﴿ **والله سميع عليم** ﴾ أى والله سميع لما يقول المؤمنون ؛ فيما شاورتهم فيه من موضع لقائك عدوك وعدوهم ، كقول من قال : اخرج بنا إليهم حتى نلقاهم فى خارج المدينة ، وقول من قال : لا تخرج إليهم وأقم بالمدينة حتى يدخلوها علينا ، ولما تشير به أنت عليهم ، عليم بأصلح تلك الآراء لك ولهم وبنية كل قائل ؛ من أخلص منهم فى قوله ، وإن أخطأ فى رأيه ، كالقائلين بالخروج إليهم ، ومن لم يخلص فى قوله ، وإن كان صواباً كعبد الله بن أبى ومن معه من المنافقين .

قال ابن جرير : ضرب الله مثلاً أو مثلين على صدق وعده فى الآية السابقة :

﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾ بتذكيرهم بما كان يوم أحد يوم وقوع المصيبة بهم عند ترك الرماة الصبر ـ وذنب الجماعة أو الأمة لا يكون عقابه مقصوراً على من اقترفه ، بل يكون عاماً ـ وبما كان يوم بدر إذ نصرهم على قلتهم وذلتهم .

﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ أى : والله سميع عليم حين همت بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحى عسكر رسول الله ﷺ - أن تضعفا وتجبنا عن القتال ، حين رأوا انخذال عبد الله بن أبى ومن معه عن رسول الله ﷺ .

وهذا الهم لم يكن عزيمة ممضاة ، ولكنه كان حديث نفس ، وقلما تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع ، فإن ساعدها صاحبها ذم ، وإن ردها إلى الثبات والصبر فلا بأس بما فعل ، ومما يدل على أن ذلك الهم لم يصل إلى حد العصيان قوله تعالى : ﴿ والله وليهما ﴾ أى متولى أمورهما لصدق إيمانها ، لذلك صرف الفشل عنهما وثبتهما فلم يجيبا داعى الضعف الذى ألم بهما عند رجوع المنافقين ، وكانوا نحو ثلث العسكر بل تذكروا ولاية الله للمؤمنين فوثقوا به وتوكلوا عليه .

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى إن المؤمنين ينبغى أن يدفعوا ما يعرض لهم من جزع أو مكروه ، بالتوكل على الله لا بحولهم وقوتهم ، ولا بأنصارهم وأعوانهم ، بعد أخذ الأهبة والعدة تحقيقاً لسنن الله فى خلقه ، إذ جعل الأسباب مفضية إلى المسببات وهو الخالق للسبب والمسبب ، والموجد للصلة بينهما .

فبقدرته تعالى ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، كما نصر المؤمنين يوم بدر على قلة منهم فى العدد والعُدد والسلاح ، وفى سائر عتاد الجيش ، ولذا قال : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ أى إنكم إن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ، وينصركم ربكم كما نصركم على أعدائكم ، وأنتم يومئذ فى قلة من العدد ، وفى غير منعة من الناس ، حتى أظهركم على عدوكم ، مع كثرة عددهم وعظيم منعتهم ، فأنتم اليوم أكثر عدداً منكم حينئذ ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم فى ذلك اليوم ، ولا ضير فى الذل إذا لم يكن عن قهر من البغاة والظالمين ، ولم يكن المؤمنون بمقهورين ولا بمستذلين من الكفار وإنما كانت قوتهم فى بداية تكوينها .

﴿ فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ أى فاتقوا الله ربكم بطاعته واجتناب محارمه ، لتعدوا أنفسكم لشكره على ما مَنَّ به عليكم ، من النصر على أعدائكم وإظهار دينكم ، ولما هداكم له من الحق الذى ضل عنه مخالفوكم ؛ إذ من لم يروض نفسه بالتقوى ، يغلب عليه الهوى واتباع الشهوات ، فلا يرجى منه الشكر لأنعم الله ، بصرفها فيما خلقت لأجله من الحكم والمنافع .

﴿ إذ تقول للمؤمنين ﴾ أى ولقد نصركم الله ببدر فى ذلك الحين ، الذى كنت تقول فيه : ﴿ ألن يكفيكم ﴾ . . إلخ .

أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبى أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربى يريد أن يمد المشركين فشق ذلك عليهم ، فأنزل الله : ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم ﴾ . . إلى قوله : ﴿ من الملائكة مسومين ﴾ فبلغته هزيمة المشركين ، فلم يمد أصحابه ، ولم يُمَدُّوا بالخمسة آلاف .

﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾ قال الفخر الرازى فى التفسير الكبير ، « أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : لم تقاتل الملائكة سوى فى يوم بدر ، وفيما سواه كانوا عدداً ومدداً لا يقاتلون ولا يضربون » .

﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾

أى بلى يكفيكم ذلك ، ثم وعدهم بالزيادة بشرط الصبر والتقوى ، حثا لهم عليهما وتقوية لقلوبهم ؛ أى إن تصبروا على لقاء العدو ومناهضتهم وتتقوا معصية الله ومخالفة نبيه ﷺ ، يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة ليعجل نصركم ويسهل فتحكم .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله أخبر عن نبيه محمد ﷺ أنه قال للمؤمنين : ﴿ ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ﴾ ثم وعدهم بعد الآلاف الثلاثة بخمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا ، ولا دلالة فى الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف ، ولا على أنهم لم يمدوا بهم ، وقد يجوز أن يكون الله لم يمدهم على نحو الذى ذكره من أنكر ذلك ، ولا خبر عندنا صحَّ من الوجه الذى يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة الآلاف ولا بالخمسة الآلاف ، وغير جائز أن يقال فى ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به ولا خبر فنسلم لأحد الفريقين قوله .

غير أنه فى القرآن دلالة على أنهم قد أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة ، وذلك قوله : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾(١) . أما فى أُحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها فى أنهم أمدوا ، وذلك أنهم لم يقعوا فى المحنة ونيل منهم ما نيل .

﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ﴾ قال الزجاج : وماجعل الله ذكر المدد إلا بشرى يعنى وماجعل الله ذلك القول الذى قاله الرسول ﷺ لكم ﴿ ألن يكفيكم ﴾ الآية إلا بشرى ، يفرج بها روعكم وطمأنينة لقلوبكم التى طرقها الخوف من كثرة عدد عدوكم ، وعظيم استعداده ، وفى هذا إيماء إلى أن فى ذكر الإمداد غايتين :

١ ــ إدخال السرور فى القلوب .

٢ ــ حصول الطمأنينة ببيان أن معونة الله ونصرته معهم فلا يجبنوا عن المحاربة .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ العزيز هو القوى الذى لا يمتنع عليه شىء ، والحكيم هو الذى يدبر الأمور مى خير السنن وأقوم الوسائل ، فيهدى لأسباب النصر الظاهرة والباطنة من يشاء ويصرفها عمن يشاء .

والمراد - أنه يجب توكلكم على الله ، لا على الملائكة ، فيجب على العبد ألا يتكل على الأسباب فقط بل يقبل على مسبب الأسباب ، إذ هو الذى لا يعجز عن إجابة الدعوات ، فعليكم ألا تتوقعوا النصر إلا من رحمته ولا المعونة إلا من فضله وكرمه .

فإن حصل الإمداد بالملائكة فليس ذلك إلا جزءاً من أسباب النصر ، وهناك أسباب أخرى كإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء ، ومعرفة المواقع كما فعل النبى ﷺ ، إذ سلك إلى أحد أقرب الطرق وأخفاها على العدو ، وعسكر فى أحسن موضع وهو الشعب (الوادى) وجعل ظهر عسكره إلى الجبل ، وجعل الرماة من

(١) الآية : ٩ من سورة الأنفال .

ورائهم ، إلى نحو ذلك من الأسباب التى تمكنه من الظهور على عدوه والغلبة عليه . فلما اختل بعض هذه التدبيرات ، وفات الرماة مواضعهم ، وقعوا فى الشدة .

﴿ ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾ أى أن المقصود من نصركم بإمداد الملائكة أن يهلك طائفة منهم ، ويخزى طائفة أخرى بالهزيمة ، فيرجعوا خائبين لا أمل لهم فى نصر .

وعبر بالطرف لأنه أقرب إلى المؤمنين من الوسط ، فهو أول ما يوصل إليه من الجيش ، وقد أهلك الله من المشركين طائفة أول الحرب يوم أحد ، قدر عددهم بنحو ثمانية عشر رجلاً ، وعبر بالخيبة دون اليأس لأن الأولى لا تكون إلا بعد توقع النصر وانتظاره ، والثانية بعده وبدونه ، وضد الخيبة الظفر وضد اليأس الرجاء .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، لبيان أن الأمر كله بيد الله ، فقال : **﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾** أى ليس إليك أيها الرسول من أمر خلقى إلا أن تنفذ فيهم أمرى ، وتنتهى فيهم إلى طاعتى ، ثم أمرهم بعد ذلك والقضاء فيهم بيدى دون غيرى ، أقضى فيهم وأحكم بالذى أشاء من التوبة أو عاجل العذاب بالقتل والنقم ؛ أو آجله بما أعددت لأهل الكفر بى من العذاب فى الآخرة .

﴿ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ أى ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم ليس لك من الأمر فى شىء .

روى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ قال يوم أحد : (اللهم ألعن أبا سفيان ، اللهم ألعن الحارث بن هشام ، اللهم ألعن صفوان بن أمية) ، فنزلت هذه الآية فتاب الله عليهم كلهم[1] . وروى أحمد ومسلم عن أنس « أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج فى وجهه ، حتى سال الدم على وجهه . فقال : كيف يفلح قوم فعلوا بنبيهم هذا ، وهو يدعوهم إلى ربهم فأنزل الله : **﴿ ليس لك من الأمر شىء ﴾** الآية .

وإن لما حدث فى وقعة أحد لحكمة دينية واجتماعية وحربية يمكن أن نجملها لك فيما يلى :

كان المؤمنون فى وقعة بدر واثقين بنصر الله لنبيه وإظهار دينه ، لم يضعف إيمانهم بسبب قلتهم وضعفهم ، ولا إخراج المشركين للمهاجرين من ديارهم وأموالهم ، ولما رأوا تباشير النصر ازدادوا إيماناً بأنهم المنصورون ، وأن جندهم هم الغالبون ، ولكن خيل إلى كثير منهم : أن النصر سيكون بالآيات وخوارق العادات ، من غير التزام السنن الإلهية التى جعلها الله فى هذا الكون ، وبنى عليها نظم الحياة ، وأن وجود الرسول بين ظهرانيهم ودعاءه ربه واستغاثته إياه ، أشد نكالاً بالعدو من اتباع السنن الظاهرة التى من أهمها التزام النظام العسكرى ، وإطاعة القائد ، وجودة التعبئة ، وحسن الحيلة والتدبير فى وضع الخطط الحربية ، وما إلى ذلك ، وفاتهم أن الدين الإسلامى دين الفطرة ، لا دين خوارق العادات وسلوك طريق المعجزات .

(١) وتوبة الله عليهم باسلامهم يوم فتح مكة .

فلما قصّروا بالأخذ بالأسباب يوم أحد ، ظهر عليهم عدوهم وجرح الرسول ﷺ ، وإن كان هو لم يقصر ولم ينهزم ، ولكن البلاء إذا نزل لا يخص من كان السبب فى وجوده ، كما قال تعالى : ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾(١) وكان من هذا درس عظيم للمؤمنين لمسوه بأيديهم ، وعلموا أن الرسول ﷺ بشر ليس له من أمر العباد شىء ، وإنما هو معلّم وأسوة حسنة فيما يعلم ، والأمر كله لله يدبره بمقتضى سننه فى الخلق .

هذا البيان الإلهى فى تلك الموقعة التى رأوا نتائجها بأعينهم ، برهان ساطع أمام الملأ على نبوة محمد ﷺ ، إذ لو كان زعيماً سياسياً ، ومؤسساً لبناء مملكة يريد توطيد دعائمها بفتوحه لأطراف البلاد ، لما قال مثل هذا القول فى مواطن الدفاع ، وحب النصر على الأعداء ، ولا سبيل للنصر على العدو إلا بالاستعداد والحيطة وحسن التدبير ، والكياسة الحربية ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾(٢) ولا قوة إلا بالعلم والمال ، ولا مال إلا إذا انتشر العدل فى الأمة ، وبث بين أفرادها روح التعاون والشورى فى مهام الأمور ، كما قال : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾(٣) .

﴿ ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴾ قال ابن جرير : أى لله جميع مابين أقطار السموات والأرض من مشرق الشمس إلى مغربها ، دونك ودونهم ، يحكم فيهم بما شاء ويقضى فيهم بما أحب ، فيتوب على من يشاء من خلقه العاصين أمره ونهيه ، ثم يغفر له ، ويعاقب من يشاء منهم على جرمه ، فينتقم منه ، فهو الغفور يستر ذنوب من أحب أن يستر عليه ذنوبه من خلقه بفضله عليهم بالعفو والصفح ، وهو الرحيم بهم فى تركه عقوبتهم عاجلاً على عظيم ما يأتون من المآثم .

وفى هذا تأديب من الله لرسوله ، وإعلام له بأن الدعاء على المشركين ولعنهم مما لم يكن ينبغى منك ، إذ الأمر كله لله ، وليس لأحد من أهل السموات والأرض شركة معه ، ولا رأى ولا تدبير فيهما وإن كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلاً ، إلا من سخره الله للقيام بشىء من ذلك ، فيكون خاضعاً لذلك التسخير لا يستطيع الخروج فيه عن السنن العامة ، التى قام بها نظام الاجتماع .

---

(١) من الآية : ٢٥ من سورة الأنفال .
(٢) من الآية : ٦٠ من سورة الأنفال .
(٣) من الآية : ٤٦ من سورة الأنفال .

أوامر وتوجيهات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾
وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾
۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾
ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن
يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

المفردات : ضعف الشيء : مثله الذى يثنيه ، فضعف الواحد واحداً ، لأنه إذا أضيف إليه ثناه ، وإذا ضاعفت الشيء منحت إليه مثله مرة فأكثر ، وهذه المضاعفة إما فى الزيادة فقط التى هى الربا ، وإما بالنسبة إلى رأس المال ، كما هو حاصل الآن فقد يستدين الإنسان المائة بثلاثمائة . ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أى اجعلوا لأنفسكم وقاية من عذابه . ﴿ **أعدت** ﴾ أى هيئت ، والمسارعة إلى المغفرة والجنة ؛ المبادرة إلى الأسباب الموصلة إليهما من الأعمال الصالحة ، ﴿ **عرضها السموات والأرض** ﴾ : يراد وصفها بالسعة والعرب تقول : دعوى عريضة أى واسعة عظيمة . ﴿ **السراء** ﴾ الحال التى تسر ، ﴿ **والضراء** ﴾ الحال التى تضر ، وفسرهما ابن عباس باليسر والعسر ، أى السعة والضيق ، ويقال كظم القربة أى ملأها وسد رأسها ، وكظم الباب سده ، وكظم البعير جرته ؛ وإذا ازدردها وكف عن الاجترار ، ثم قالوا : **كظم الغيظ** : فهو كاظم ، وكظمه الغيظ والغم ، أخذ بنفسه فهو مكظوم ، وكظيم ، قال الله تعالى : ﴿ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾[1] وأخذ فلان يكظم فلاناً : إذا أخذ بمجرى نفسه و﴿ **الغيظ** ﴾ ألم يعرض للنفس إذا هضم حق من حقوقها المادية كالمال ، أو المعنوية كالشرف ، والعرض ، فيزعجها ذلك ، ويحفزها على التحفظ والانتقام . **والعفو عن الناس** : التجاوز عن ذنوبهم ، وترك مؤاخذتهم ، مع القدرة على ذلك ، **والإحسان** : هنا الإنعام ، والتفضل على غيرك ، على وجه لا مذمة فيه ولا قبح . **الفاحشة** : الفعلة الشنيعة القبح ، التى

(١) جزء من الآية : ٥٩ من سورة النحل ، ومن الآية : ١٧ من سورة الزخرف .

يتعدى أثرها إلى غيرك ، كالزنا والغيبة ونحوهما ، **وظلم النفس** : هو الذنب الذى يكون مقصوراً على الفاعل . **وذكر الله** عند الذنب يكون بتذكر وعده ووعيده ، وأمره ونهيه وعظمته وجلاله ، **الإصرار** : الشدُّ ، من الصرِّ ويراد به شرعاً الإقامة على القبيح من غير استغفار ورجوع بالتوبة .

قوله تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ﴾** أى لا تأكلوا الربا حال كونه أضعافاً مضاعفة بتأخير أجل الدين الذى هو رأس المال ، وزيادة المال إلى ضعف ما كان ، كما كنتم تفعلون فى الجاهلية ، فإن الإسلام لا يبيح لكم ذلك ؛ لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته .

قال ابن جرير : لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة فى إسلامكم ، بعد إذ هداكم الله ، كما كنتم تأكلونه فى جاهليتكم ، وكان أكلهم ذلك فى جاهليتهم : أن الرجل منهم يكون له على الرجل مال إلى أجل . فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه ؛ فيقول له الذى عليه المال : أخر دينك عنى وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه .

وقال الرازى : كان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، فإذا جاء الأجل ولم يكن المدين واجداً لذلك المال ، قال الدائن زد فى المال حتى أزيد فى الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثانى فعل مثل ذلك ، إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها ، فهذا هو المراد من قوله تعالى : **﴿ أضعافاً مضاعفة ﴾** .

وربا الجاهلية هو ما يسمى فى عصرنا بالربا الفاحش ، وهو ربح مركب ، وهذه الزيادة الفاحشة كانت بعد حلول الأجل ، ولا شىء منها فى العقد الأول ، كأن يعطيه المائة بالمائة وعشرة أو أكثر أو أقل وكأنهم يكتفون فى العقد الأول بالقليل من الربح ، فإذا حل الأجل ولم يقض الدين ، وهو فى قبضتهم ، اضطروه إلى قبول التضعيف فى مقابلة الإنساء ، وهذا هو الربا النسيئة ، قال ابن عباس : إن نص القرآن الحكيم ينصرف إلى ربا النسيئة الذى كان معروفاً عندهم .

وعلى الجملة فالربا نوعان :

١ ــ ربا النسيئة وهو الذى كانوا يفعلونه فى الجاهلية ، وهو أن يؤخر دينه ، ويزيده فى المال ، وكلما أخره زاد فى المال ، حتى تصير المائة آلافاً مؤلفة .

وفى الغالب لا يفعل مثل ذلك إلا معدم محتاج ؛ فهو يبذل الزيادة ليفتدى من أسر المطالبة ، ولايزال كذلك يعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده ، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ، ويزيد مال المرابى من غير نفع يحصل منه لأخيه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ، ويوقعه فى المشقة والعذر ، فمن رحمة الله وحكمته وإحسانه إلى خلقه ؛ أن حرم الربا ولعن آكله ومؤكله وكاتبه وشاهده ، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله ، ولم يجئ مثل هذا الوعيد فى كبيرة غيره ، ولهذا كان من أكبر الكبائر .

٢ ــ ربا الفضل كأن يبيع قطعة من الحلى كسوار بأكثر من وزنها دنانير ، أو بيع كيلة من التمر الجيد بكيلة وحفنة من التمر الردىء ، مع تراضى المتبايعين ، وحاجة كل منهما إلى ما أخذه .

ومثل هذا لا يدخل فى نهى القرآن ، ولا فى وعيده ، ولكنه ثبت بالسنة : فقد روى ابن عمر قوله ﷺ : (لا تبيعوا الذهب بالذهب ، إلا مثلاً بمثل ، ولا تبيعوا الورق بالورق إلا مثلاً بمثل ، سواء بسواء ، ولا تشفوا بعضه على بعض إنى أخشى عليكم الرّماء - الربا -)(١) .

ولقد ورد فى الأثر : « إن آخذ الربا لا يقبل منه صدقة ولا جهاد ولا حج ولا صلاة » .

قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ أى احذروا أن تقعوا فيما نهاكم عنه ، أو أن تتركوا ما أمركم به فطريق فلاحكم : أن تمتثلوا الأوامر ، وتجتنبوا النواهى ، ثم أمر سبحانه وتعالى بتقوى النار فقال : ﴿ واتقوا النار التى أعدت للكافرين ﴾ . ومعنى ذلك : أن يحذر المسلم الأسباب التى تؤدى إلى عذاب النار ، كفعل الذنوب واقتراف المآثم ، وهذه الآية الكريمة تفيد أن النار خلقت وأعدت وهيئت . قال الله تبارك وتعالى فى شأن قوم نوح : ﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراًفلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا ﴾(٢) . وقال تعالى فى شأن آل فرعون : ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾(٣) وهاكم بعض الأحاديث النبوية التى ذكرت فيها النار وأصحابها والذنوب التى اقترفوها ، لعل الله تعالى يرزقنا البعد عما يغضبه ويهدينا سواء الصراط .

١ ـ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن ، قولوا : (اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيخ الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) رواه مالك ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

٢ ـ وعن أم حبيبة رضى الله عنها قالت : سمعنى رسول الله ﷺ وأنا أقول : اللهم أمتعنى بزوجى رسول الله وبأبى سفيان وبأخى معاوية ، فقال : (سألت الله لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة ، لن يعجل شيئاً منها قبل أجله ولا يؤخر ، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من النار وعذاب القبر ، كان خيراً وأفضل) . رواه مسلم .

٣ ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار : يا رب إن عبدك فلاناً استجار منى فأجره ، ولا سأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة : يا رب إن عبدك فلاناً سألنى فأدخله الجنة) . رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخارى ومسلم .

---

(١) متفق عليه .
(٢) الآية : ٢٥ من سورة نوح .
(٣) من الآيتين : ٤٥ ، ٤٦ من سورة غافر .

٤ - وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من سأل الله الجنة ثلاث مرات قالت الجنة اللهم أدخله الجنة ، ومن استجار من النار ثلاث مرا ت قالت النار : اللهم أجره من النار) . رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ولفظهم واحد ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٥ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله ملائكة سيارة يتبعون مجالس الذكر - فذكر الحديث - إلى أن قال : فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عبادٍ لك يسبحونك ويكبرونك ، ويهللونك ويحمدونك ويسألونك . قال : فما يسألونى ؟ قالوا يسألونك جنتك ، قال : وهل رأوا جنتى ؟ قالوا : لا أى رب ، قال : فكيف لو رأوا جنتى ؟ قالوا : ويستجيرونك . قال ومم يستجيروننى ؟ قالوا : من نارك يارب . قال : وهل رأوا نارى ؟ قالوا : لا . قال : فكيف لو رأوا نارى ؟ قالوا : ويستغفرونك . قال فيقول : قد غفرت لهم ، وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا) . الحديث رواه البخارى ومسلم واللفظ له .

صدقت ربنا وتعاليت فأنت القائل : ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[1] وصدق رسولك الكريم : إذ أمرنا أن نستعيذ من النار ، ونأخذ من الأعمال ما نتزود به للجنة ، فنعم الجنة دار المتقين ، وبئس المهاد فى جهنم مهاد الفاسقين .

١ - عن أنس رضى الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبى ﷺ : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾[2] . رواه البخارى .

٢ - وعن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار ، قال وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ثم أعرض وأشاح ثلاثاً ، حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » . رواه البخارى ومسلم .

٣ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[3] دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا فعم وخص ، فقال : (يابنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار يا فاطمة أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً) . رواه مسلم واللفظ له ، والبخارى والترمذى والنسائى بنحوه .

---

(١) الآية : ٦ من سورة التحريم .
(٢) من الآية : ٢٠١ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٢١٤ من سورة الشعراء .

وما للقلوب أصبحت لا تخشع ، وما للآذان أصبحت لا تسمع ، وما للعيون أصبحت لا تدمع ، وما للأبدان أصبحت لا تسجد لله ولا تركع .

يا أخا الإسلام اعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ، واسمع إلى هذا الحديث الذى رواه النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب فيقول : (أنذرتكم النار أنذرتكم النار ، حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامى هذا ، حتى وقعت خميصة كانت على عاتقه عند رجليه) . رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

٥ ــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إنما مثلى ومثل أمتى : كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقعون فيها) . رواه البخارى ومسلم .

٦ ــ وروى عن كليب بن حزن رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (اطلبوا الجنة جهدكم ، واهربوا من النار جهدكم ، فإن الجنة لا ينام طالبها ، وإن النار لا ينام هاربها ، وإن الآخرة اليوم محفوفة بالمكاره ، وإن الدنيا محفوفة بالملذات والشهوات ، فلا تلهينكم عن الآخرة) . رواه الطبرانى .

٧ ــ وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (يا معشر المسلمين : ارغبوا فيما رغبكم الله فيه، واحذروا مما حذركم الله منه ، وخافوا مما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ، ومن جهنم ، فإنها ولو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها حلتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبثتها عليكم) . رواه البيهقى ــ ولا يحضرنى الآن إسناده .

صور متنوعة :

٨ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : أُتىَ بفرس يجعل كل خطو منه أقصى بصره[١] فسار وسار معه جبريل عليه السلام ، فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شىء ، قال : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين تثاقلت رءوسهم عن الصلاة ، ثم أتى على قوم على أدبارهم رقاع ، وعلى أقبالهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام إلى الضريع والزقوم[٢] ورضف جهنم قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد ، ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها ، وهو يريد أن يزيد عليها ، قال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا رجل من أمتك عليه أمانة الناس

(١) هو البراق وكان ذلك فى خلال رحلة الإسراء .
(٢) الضريع والزقوم طعام أهل النار ، والرضف كذلك .

لا يستطيع أداءها وهو يريد أن يزيد عليها ، ثم أتى على قوم تقرض شفاهم وألسنتهم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شىء ، قال : يا جبريل ما هؤلاء ؟ قال : خطباء الفتنة ؛ ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فيريد الثور أن يدخل من حيث خرج فلا يستطيع ؟ قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ، فيندم عليها ، فيريد أن يردها فلا يستطيع ، ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيباً ، ووجد ريح مسك مع الصوت ، فقال : ما هذا ؟ قال : صوت الجنة تقول : يا رب ائتنى بأهلى ، وبما وعدتنى فقد كثر غرسى وحريرى وسندسى وإستبرقى ومرجانى وفضتى وذهبى ، وأكوابى وصحافى وأباريقى وفواكهى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى ائتنى بما وعدتنى ، قال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحاً ولم يشرك بى شيئاً ، ولم يتخذ من دونى أنداداً ، فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ومن أقرضنى جزيته ، ومن توكل علىَّ كفيته ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا لا خلف لميعادى ، قد أفلح المؤمنون تبارك الله أحسن الخالقين . فقالت : قد رضيت ، ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً . فقال : ياجبريل ماهذا الصوت ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول : يا رب ائتنى بأهلى وبما وعدتنى ؛ فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وغساقى وغسلينى وقد بعد قعرى واشتد حرى ، ائتنى بما وعدتنى ، قال : لك كل مشرك ومشركة وخبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت ، فذكر الحديث فى قصة الإسراء وفرض الصلاة وغير ذلك . رواه البزار عن الربيع بن أنس عن أبى العالية أو غيره عن أبى هريرة . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون ﴾ هذا أمر من الله تعالى بالطاعة بعد أن أمر بالتقوى ، ومع تقوى الله وطاعته وطاعة رسوله تكون الرحمة ، وليس بعد الرحمة من هدف ينشده المؤمنون لسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

لقد وصف الله تعالى المجتمع الإيمانى وصفاً دقيقاً فى قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾(١) ففى هذه الآية ستة أركان لا بد أن يقوم عليها المجتمع الإيمانى :

أولها : ولاية بعضهم بعضاً بالنصرة والمحبة والمودة ؛ بحيث يكونون فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ؛ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر .

وثانيها : الأمر بالمعروف إذ أن ذلك يؤدى إلى استمساك الناس بالخير والحق والصدق والأمانة .

إن المكارم أخلاق مطهرة ... الدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها ... والجود خامسها والفضل ساديها(٢)
والبر سابعها والشكر ثامنها ... والصبر تاسعها واللين باقيها

---

(١) الآية : ٧١ من سورة التوبة .
(٢) يعنى سادسها وإنما حورت الكلمة لضرورة وزن الشعر .

والنفس تعلم أنى لا أصدقها ولست أرشد إلا حين أعصيها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

وثالث الأركان : النهى عن المنكر ، فقد لعن الله بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، فصبت اللعنة على الذين كفروا منهم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ثم ماذا ؟ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه[١] ، وقد جاء فى حديث جامع للنبى ﷺ ، رواه الإمام الترمذى عن على رضى الله عنه قال فيه النبى ﷺ : (إذا صار المغنم دولاً والأمانة مغنماً ، والزكاة مغرما ، وأطاع الرجل زوجته وعق أمه ، وأكرم صديقه وجفا أباه وأكرم الرجل مخافة شره ، وتعلم لغير الله ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وصار زعيم القوم أرذلهم ، وشربوا الخمور واتخذوا القينات والمعازف ، ولبسوا الحرير ، ولعن آخر هذه الأمة أولها) . قال النبى ﷺ : (إذا فعلت الأمة ذلك حل بهم البلاء ، وقال فى آخر الحديث فليرتقبوا ريحاً حمراء أو خسفاً ومسخاً .

ورابع الأركان الصلاة . والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين[٢] ، وهى أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة[٣] ، كما أنها مفتاح الجنة ، ومن حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة[٤] ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاة يوم القيامة ، وكان مع فرعون وهامان وقارون وأبى بن خلف[٥] .

وخامس الأركان : ويؤتون الزكاة . وهى تمثل الجانب المالى فى الإسلام ، لأنها تشمل زكاة النقدين وعروض التجارة والأنعام والزروع والثمار ، والركاز فى باطن الأرض ، فلو طبقت بكل مصادرها ومقاديرها ما رأينا فى الطريق سائلاً ، ولا فى البيوت عاطلاً ، ولا فى السجون قاتلاً ، ذلك أيضاً بجانب صدقات الفطر ، والأضاحى ، والهدى الذى يذبح فى منى ، ويمثل ثروة حيوانية من أصواف وأوبار وأشعار ولحوم وجلود وعظام وقرون .

فلو أن هذه الثروات علبت بعد تصنيعها ووزعت على مستحقيها بالمجان ، لأطعمت بطوناً جائعة ،

---

(١) وذلك مفهوم الآية : ٧٨ من سورة المائدة .
(٢) من حديث نبوى رواه الشيخان .
(٣) معنى حديث رواه مسلم .
(٤) من حديث رواه الشيخان .
(٥) من الحديث السابق .

وكست أجساماً عارية ، وسدت ديوناً ، وزوجت عزاباً ، وأعتقت رقاب ذوى الحاجات ، وخلصتها من ذل السؤال ، فاللهم اهدنا صراطك المستقيم[(١)] .

والركن السادس : وهو طاعة الله ورسوله ، كما نص على ذلك الله تعالى فى قوله : ﴿ **ويطيعون الله ورسوله** ﴾ قال ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به)[(٢)] رواه مسلم .

الحكم الإلهى :

لقد حكم الله تعالى لهذا المجتمع الإيمانى إذا توافرت له تلك الأركان الستة بقوله : ﴿ **أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ قال الله تعالى فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ عن رب العزة قال : (إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى) .

وقال النبى ﷺ : (الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) .

نعم ما أعظم مجتمع التراحم ، فلو تراحم الناس ما كان بينهم جائع ولا عريان ، ولا مغبون ولا مهضوم ، ولأقفرت الجفون من المدامع ، ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ، ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع ، كما يمحو نور الصبح سواد الظلام ، فيأيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء ، وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

الوعد الحق :

ما وعد الله لهؤلاء المؤمنين والمؤمنات فى الآخرة ؟ .

قال جل شأنه : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[(٣)] .

صدقت ياربنا فأنت القائل : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾ .

إذا كان الأمر أمر الآخرة جاء الأمر بالمسارعة والمسابقة : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾[(٤)] والاستباق : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾[(٥)] التنافس : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[(٦)] . والحث على العمل : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾[(٧)] كما قال عمر رضى الله عنه :

---

(١) من فضل الله أن هدى بعض القائمين على شئون الحج إلى تنظيم هذه العملية باشراف إدارى وتنفيذى لبعض بيوت التنمية الإسلامية وتم توزيع لحوم هدى وذبائح أكثر من موسم من مواسم الحج وبدأ التنفيذ سنة ١٤٠٤ هـ . وتم التوزيع فى مخيمات لاجئى افغانستان ، السودان والصومال . . إلخ .

(٢) رواه مسلم .

(٣) الآية : ٧٢ من سورة التوبة .

(٤) من الآية ٢١ من سورة الحديد .

(٥) من الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

(٦) من الآية ٢٦ من سورة المطففين .

(٧) من الآية ٦١ من سورة الصافات .

التؤدة فى كل شىء إلا إذا كان الأمر أمر الآخرة وذلك كقوله تعالى فى شأن الدنيا : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوامن فضل الله ﴾[1] وقوله جل شأنه : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[2] .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل — الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا — لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم يا ابن آدم أن ما قدر على ماضغيك أن يمضغاه فلا بد أن يمضغاه ، فامضغه بعزة ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم ، وصدق أحدهم إذ يقول : نزح بحرين بغربالين وحفر بئرين بإبرتين وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا كأبيضين وكنس أرض الحجاز فى يوم شديد الهواء بريشتين ، خير لى من أن أقف على باب لئيم يضيع فيه ماء عينى .

لا تخضعن لمخلوق على طمع — فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة — إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به — وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه — فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك — كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وما أجمل ما قاله النبى ﷺ : (إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله واجملوا فى الطلب)[3] رواه مسلم .

إن الأمر بالمسارعة إلى أسباب المغفرة من التوبة والاستغفار ، وذكر الله وأداء الواجب ، والبعد عن المحرم ، كل هذا يؤدى إلى جنة واسعة كسعة السموات والأرض .

فالمراد بالعرض هنا السعة ، فلا يقولن قائل إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض ؛ فأين توجد النار ؟ لأن السموات والأرض شىء من ملك الله . وما السموات والأرض ، بالنسبة للكرسى ليس إلا كحلقة فى فلاة ، وما الكرسى بالنسبة للعرش إلا كحلقة فى فلاة ، وما العرش بالنسبة لعلم الله إلا حلقة فى فلاة ، فسبحان الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، وسبحان من له ما فى السموات وما فى الأرض ، وسبحان من وسع كرسيه السموات والأرض وسبحان من لا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم .

هذه الجنة بسعتها أعدت للمتقين وخلقت وهيئت : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً * يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء

(١) من الآية ١٠ من سورة الجمعة .
(٢) الآية ١٥ من سورة الملك .
(٣) رواه مسلم .

ولا شكورًا * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً * متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمسا ولازمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروها تقديراً * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً * عيناً فيها تسمي سلسبيلاً * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً * وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾[1] .

بم وصف الله المتقين ؟

قال جل شأنه : ﴿ **الذين ينفقون فى السراء والضراء** ﴾ . أى فى الرخاء والشدة واليسر والعسر والضيق والسرور ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ أى الذين يملكون أنفسهم عند الغضب فليس الشديد بالقوة البدنية إنما الشديد هو الذى يملك نفسه عند الغضب ، قال تعالى : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾[2] وقال ﷺ : (لا تغضب) .

﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ قال سبحانه : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾[3] .

وقال : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾[4] .

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلماً ... كعود زاده الإحراق طيبا

﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ والإحسان فى كل شىء أداؤه على وجهه الأكمل ، أو كما قال الصادق المعصوم : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[5] وكان لأحد الناس غلام[6] يصب له الماء فوقع الإبريق فى الطشت فطار الرشاش على وجه سيده ، فغضب السيد غضباً شديدا كأنه أسد ديس عرينه فقال له الغلام ياسيدى أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ قال له ياغلام : كظمت غيظى ،

---

(١) الآيات : ٥ - ٢٢ من سورة الإنسان .
(٢) من الآية : ٣٧ من سورة الشورى .
(٣) من الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(٤) الآية ٤٣ من سورة الشورى .
(٥) جزء من حديث رواه البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عن ، عن مجىء جبريل يسأل النبى ﷺ عن الإيمان والإسلام . . الخ .
(٦) اشتهر الخبر عن جعفر الصادق . . كما روى مثله عن ميمون بن مهران إذ جاءته جاريته ذات يوم بصحفة فيها مرق حار ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرق عليه ، فأراد ميمون أن يضربها ، فقالت الجارية : يامولاى استعمل قول الله تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ قال لها قد فعلت ، فقالت اعمل بما بعده ؛ ﴿ والعافين عن الناس ﴾ فقال قد عفوت عنك ، فقالت الجارية ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ فقال : قد أحسنت اليك فأنت حرة لوجه الله وروى مثله عن الأحنف بن قيس . ا. هـ . قرطبى جـ ٤ صـ ٢٠٧ .

قال الغلام : ﴿ والعافين عن الناس ﴾ قال : عفوت عنك . قال الغلام : ﴿ والله يحب المحسنين ﴾ قال السيد : أنت حر ولك منى ألف درهم . فانظر إلى آثار رحمة الله ، كيف نزل القرآن فى شدة الغضب على ابن آدم كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظامئة فأطفأ غضب القلوب وهدأ من ثورتها .

ومن صفات هؤلاء : أنهم إذا فعلوا شيئاً يغضب الله ، أو ظلموا أنفسهم بشىء من الذنوب ، بادروا بالتوبة فأقلعوا عن الذنب ، وندموا على ما فات ، وعزموا على عدم العودة ، وأدوا الحقوق لأصحابها ، والفرائض التى تكاسلوا عنها ، ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾[1] .

ما جزاء هؤلاء ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أنه لا يغفر الذنوب إلا الله كما قال تعالى : ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) . ما جزاؤهم ؟ وهم الذين وصفهم الله بالمنفقين فى السراء والضراء ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والتائبين المستغفرين ، الذين لا يصرون على ما فعلوا من المخالفات .

الحكم العادل :

قال جل شأنه : ﴿ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ . تباركت ربنا وتعاليت فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت ، ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾[2] .

نعم لهم مغفرة لذبوبهم فقد ذكروا الله واستغفروا لذنوبهم ، ولم يصروا على ما فعلوا : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿ فتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾[3] لهم مع المغفرة جنات وخلود ، ولهم فى الجنات نعيم مقيم ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم ﴾[4] .

وها نحن أولاء نسوق قبساً من السنة المطهرة ، ومن الأحاديث التى رويت عن رسول الله ﷺ فى صفة الجنة ونعيمها حتى نكون على علم بالوعد والوعيد وهكذا تكون حال المؤمن ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾[5] .

---

(١) الآية : ٢٠١ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان : ٧٣ ، ٧٤ من سورة الزمر .
(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .
(٤) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة التوبة .
(٥) من الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .

١ - عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ولا قاطع رحم) . رواه الطبرانى من رواية جابر الجعفى .

٢ - عن على رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾(١) إلى آخرها قال : قلت يارسول الله ما الوفد إلا ركب ؟ قال النبى ﷺ : (والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة ، عليها رحال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر ، وينتهون إلى باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب وإذا شجرة على باب الجنة ، ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من إحداهما جرت فى وجوههم نضرة النعيم ، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً ، فيضربون الحلقة بالصفيرة فلو سمعت طنين الحلقة ياعلى ؛ فيبلغ كل حوراء أن زوجها قد أقبل ، فتستخفها العجلة ، فتبعث قيمها فيفتح له الباب ، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخرله ساجداً مما يرى من النور والبهاء ، فيقول أنا قيمك الذى وكلت بأمرك فيتبعه فيقفو أثره ، فيأتى زوجته ، فتستخفها العجلة فتخرج من الخيمة فتعانقه وتقول : أنت حبى وأنا حبك وأنا الراضية فلا أسخط أبداً ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبداً ، وأنا الخالدة فلا أظعن أبداً ، فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت ، طرائق حمر وطرائق خضر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبتها ، فيأتى الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشاً ، على كل فراش سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يُرى مخ ساقها من باطن الحلل ، يقضى جماعهن فى مقدار ليلة ، تجرى من تحتهم أنهار مطردة ، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها من أى الألوان شاءوا ، ثم تطير فتذهب ، وفيها ثمار متدلية ، إذا اشتهوها انبعث الغصن إليهم ، فيأكلون من أى الثمار شاءوا ، إن شاء قائماً وإن شاء متكئا وذلك قول الله تعالى : ﴿ وجنا الجنتين دان ﴾(٢) وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ ﴾ . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب صفة الجنة عن الحارث وهو الأعور عن على مرفوعاً هكذا ، ورواه ابن أبى الدنيا أيضاً والبيهقى وغيرهما عن عاصم بن حمزة عن على موقوفاً عليه بنحوه وهو أصح وأشهر .

٣ - وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : (أن موسى عليه السلام سأل ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجىء بعدما دخل أهل الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ؟ فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب ، قال رب : فأعلاهم منزلة قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر) . رواه مسلم .

---

(١) الآية : ٨٥ من سورة مريم . (٢) من الآية : ٥٤ من سورة الرحمن .

عبرة وعظة

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾

المناسبة :

كان الكلام فى وقعة بدر وأحد وما حصل للمؤمنين فيهما ، وموقف الكفار وصفتهم ، مع بيان صفة المؤمنين وجزائهم ، ثم بعد هذا ذكر القرآن سنة الله فى الخلق وأن ما حصل كان موافقاً للسنة مع بيان الحكمة فيما وقع .

أى انظروا أيها المسلمون فأنتم أولى بالنظر والاعتبار ، انظروا إلى من تقدمكم من الأمم ، وسيروا فى الأرض حتى تقفوا على أخبار الماضين ، فستجدون أن لله طريقاً واحداً لا يتخلف :

قول تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[1] أى فإن أنتم أيها المسلمون سرتم سير الطائعين الموفقين ، وصلتم إلى ما وصلوا إليه حتما ، وإن سرتم سير العصاة المكذبين كانت عاقبتكم خسراً .

وفى هذا تنبيه لمن خالف النبى ﷺ يوم أحد ، فكأنهم انتصروا يوم بدر لسلوكهم سبيل الطائعين المتوكلين على الله ، وامتحنوا يوم أحد لأنهم تنازعوا ، ففشلوا وخالفوا أمر الرسول ولم يصبروا ولم يتقوا كما أمروا .

ففى الآية الكريمة سبيل الأمن والخوف ، وفى طيها الوعد والوعيد ، والقرآن الكريم يشير فى جملته إلى أن مشيئة الله تسير على نظم ثابتة ، قد ربطت فيها الأسباب بالمسببات ، والله قدير على كل شىء ، ففى الحرب أو الزرع أو التجارة مثلاً إذا سار فيها صاحبها على الطرق المألوفة والنظم المحكمة نجح ، وإن كان شريراً مجوسياً ، وإن جانب المألوف وركب رأسه واتبع غير المعقول ، كان من الخاسرين ولو كان شريفاً علويا .

---

(١) الآية : ٦٢ من سورة الأحزاب ، وهناك : ﴿ سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ٢٣ من سورة الفتح .

وأحق الناس بالسير على المعقول والاستفادة بهدى القرآن هم المؤمنون ، فى كل ما يأتون ويذرون ، والسير فى الأرض ومشاهدة الآثار أثبت فى معرفة الأخبار من التاريخ ورواية الأخبار « فما راء كمن سمعا » .

كل إنسان له عقل يفكر به ، يعرف أن الله سنة فى الكون لا تختلف عند جميع الناس فى كل العصور ، مؤمنهم وكافرهم ، وبارهم وفاجرهم ، والله يهدى من يحب إلى صراط مستقيم .

فبيان سنن الكون للناس جميعاً ، وأما كون ما ذكر هداية وعظة ، فهو خاص بالمتقين ، لأنهم المنتفعون بهدى القرآن ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾[1] ، ولذا قال الله : ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ .

وإذا كان المؤمنون هم المنتفعون بما ذكر ، فيجب ألا يضعفوا لما أصابهم من مس السلاح عند القتال ، وما يلزمه من التدبير ، ولا يحزنوا على من قتل منهم فى أحد ، فهو شهيد مكرم عند الله يوم القيامة ، وما وقع ليس نصراً للمشركين ولكنه درس للمسلمين ، لما فى تلك الغزوة من التربية لكم على المشاق ، وبيان أن خروجكم على نبيكم ومخالفة أمره ، خروج على سنة الله فى أسباب الظفر ، فلا تعودوا لمثله أبداً ، وكيف تهنون وتحزنون والحال أنكم الأعلون ، بمقتضى سنة الله فى جعل العاقبة للمتقين ؟ ألا تعلمون أن قتلاهم فى النار وقتلاكم فى الجنة ، والمراد بالنهى عن الوهن والحزن : النهى عن الاستسلام إلى ذلك ، بمعنى التأهب والاستعداد مع العزيمة الصادقة ، والتوكل على الله ، والوثوق بالنصر ، فإن الله وعد بذلك ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ فاعملوا بهذا .

وكيف تضعفون ولا تعملون ؛ لما أصابكم من الألم ، فأنتم إن أصابكم ألم فى أحد فقد أصاب الكفار ألم أكثر منه فى بدر ، وإن امتحنتم فى أحد فقد انتصرتم فى بدر .

فيوم لنا ، ويوم علينا ، ويوما نساء ، ويوما نسر ، والأيام دول ، والحرب سجال . . وتلك الأيام نداولها بين الناس ، فنجعل للباطل جولة فى ساعة وللحق دولة إلى قيام الساعة ، والعاقبة والنصر فى النهاية للمتقين الصابرين ، كل ذلك ليستقر العدل ويعم ، ويعلم الناس أن الدنيا لمن سلك طريق النجاح والفوز . . .

فعل الله ما فعل مع المؤمنين لحكم يعلمها ، وليتحقق إيمان المؤمنين ، ويظهر واضحاً ، ولذا قال النبى ﷺ بعد موقعة أحد : « لا يذهب معنا فى القتال (فى غزوة حمراء الأسد)[2] إلا من قاتل » فذهب المؤمنون وهم فى أشد التعب والنصب . ﴿ **ليعلم الله الذين آمنوا** ﴾ هذه العبارة وأمثالها تفيد تحقق الإيمان ، وحصوله فى الخارج حتى يحصل علم الله به ، فإذا علم الله إيمان فلان كان لابد أن يكون إيمانه حاصلاً فى الواقع ، إذ علم الله لابد أن يكون مطابقاً للواقع ، وعلى ذلك فالمعنى : فعل الله بكم ذلك ، لحكم هو

---

(١) الآية : ٢ من سورة البقرة .
(٢) فى اليوم التالى ليوم أحد مباشرة .

يعلمها وليتحقق إيمان المؤمنين ويظهر ، وليكرم الله أناسا منكم بالشهادة ، والقتل فى سبيل الله ؛ والاستشهاد درجة عظيمة سيأتى بيانها : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء ﴾[١] .

وهذه الشهادة لا يعطيها الله إلا لمن أحبه واصطفاه ، والله لا يحب الظالمين أبدا ، ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ وإيمانهم ، فهذه الحوادث العنيفة التى ترج المجتمع تمحص الإيمان الخالص ، من الإيمان المشوب بالضعف والاستكانة ، حتى تصفوا النفوس ، فلا يبقى فيها درن ، وكثير من الناس مصابون بداء الغرور الدينى ، فهم يفهمون فى أنفسهم أنهم كاملو الإيمان ، حتى إذا ما محصوا بالابتلاء اهتزوا ﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ، فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾[٢] . ففى غزوة أحد تخلف البعض وفر البعض وأصعدوا فى الجبل لا يلوون على أحد ، وثبت البعض حول النبى ﷺ حتى استشهدوا ، واتخذ البعض نفسه ترساً واقياً للنبى ﷺ ورضى الله عن الجميع ، ووفقنا حتى تقتدى بهم .

ومن الحكم العالية لله ، محق الكافرين فإنهم إذا ظفروا مرة طغوا وبغوا فيكون هلاكهم مرة واحدة وإذا هزموا كما فى بدر تقلمت أظفارهم وأصابهم الضعف والهلاك شيئا فشيئا حتى يبادوا والعاقبة للمتقين .

عتاب لبعض من شهد غزوة أحد

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

المفردات : ﴿ ولما ﴾ بمعنى لم إلا أن مدخولها متوقع الحصول فالمراد نفى الجهاد فى الماضى ، وتوقعه فى المستقبل

الجهاد : احتمال المشقة ومكافحة الشدائد ﴿ تمنون الموت ﴾ المراد تمنى الشهادة فى سبيل الله .

﴿ تلقوه ﴾ تشاهدوا هوله وتروا خطره ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ انقلب على عقبيه ، ونكص على عقبيه رجع وراءه والمراد رجعتم كفاراً بعد إيمانكم .

---

(١) من الآية ٦٩ من سورة النساء .
(٢) الآية : ١٤٣ من سورة آل عمران .

يبين الله فى هذه الآيات أن الثواب فى الآخرة منوط بالجهاد والصبر ، كما أن الفوز فى الدنيا منوط بإقامة العدل وسلوك الطرق المألوفة ، فسنة الله لا تختلف ، وقد ذكر مع هذا عتاباً لبعض من شهد أحداً .

لا ينبغى لكم أن تظنوا بالله الظنون ، وتصابوا بداء الغرور ، فتفهموا أن دخول الجنة يكون من غير جهاد فى الله ، وصبر على البأساء والضراء ، وحين البأس ، لأن دخول الجنة لا يكون إلا بالجهاد الكامل لإعلاء كلمة الله ، ورفع راية الوطن وهذا بجهاد العدو وجهاد النفس ، خاصة فى الشباب وجهاد حب المال عند البذل فى الأعمال العامة النافعة وغير ذلك .

وتمكن الصبر فى أنفسكم تمام التمكن على أداء التكاليف وعلى الطاعة وعلى البلاء والحوادث ، ونفى العلم من الله دليل على عدم وقوع الجهاد والصبر منكم ، فهو أبلغ من نفى الجهاد والصبر ، إذ هو كالدعوى ودليلها ، شبيه بهذا قوله تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ .

روى عن الحسن أنه قال : بلغنى أن رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون لئن لقينا مع النبى ﷺ لنفعلن ولنفعلن فابتلوا بذلك ، فلا والله ما كلهم صادق ، فأنزل الله : **﴿ ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه ﴾** .

نعم لقد كان كثير منكم يتمنى لو يستشهد فى سبيل الله تمنيا من نفسه استحق أن يعبر عنه المولى بهذا التأكيد **﴿ ولقد كنتم ﴾** ، حتى إذا جد الجد وقامت الحرب ، وشهدتم بأعينكم مشاهدة كاملة ، وأنتم تنظرون نظرة فاحصة ، ليست عاجلة ، توانيتم وانحزتم إلى الجبل وأصعدتم فيه لا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فلا يجيبه أحد ! .

وهذا عتاب . وأى عتاب ؟ نعم كان مع النبى من بايعه على الموت ، ودافع عنه دفاعاً مجيداً ، حتى قتل البعض ، ونجا البعض كما ثبت فى أحداث الغزوة ، ومع هذا كان الخطاب عاماً ، ليكون الإرشاد عاماً ، فيتهم المؤمنون الصادقون أنفسهم ليزدادوا إيماناً ، وليرعوى المقصرون فلا يعودوا لمثلها أبداً .

فى هذه الغزوة أشيع قتل النبى ﷺ ، وكانت هذه الإشاعة سبباً فى شيوع قالة السوء ، حتى قال بعض المنافقين لو كان نبيا ما قتل ، من لنا برسول إلى عبد الله بن أبى ليأخذ لنا الأمان عند أبى سفيان ؟ وهكذا مما جعل أنس بن النضر يبرأ إلى الله من مثل هذا الكلام ، ويقاتل حتى يقتل دفاعاً عن الدين . وكانت هذه الإشاعة سبباً فى انفضاض بعض الناس عن النبى ﷺ فعاتبهم الله بقوله : **﴿ وما محمد إلا رسول ﴾** كمن سبقه من الرسل ، فهم قد خلوا وانتهت حياتهم بموت كموسى وعيسى ، أو قتل كزكريا ويحيى ، ومع هذا ظلت دياناتهم كما هى ، وأتباعهم متمسكون بها ، فالمعقول أن تظلوا كما كنتم ، ولو مات أو قتل ، فإن الرسول بشر كسائر الأنبياء له فى الدنيا مهمة تنتهى بانتهاء أجله ، ومن كان يعبد الله فإن الله باق ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات .

أفتنقلبون على أعقابكم ، فترتدون عن دينكم ، أو يطير صوابكم لو مات أو قتل مع أنه رسول كسائر الرسل ، لم يدع أنه إله ، ولم يطلب لنفسه العبادة ، حتى إذا مات أو قتل تركتم دينه ورجعتم كفاراً .

﴿ ومن ينقلب على عقبيه ﴾ ويعود إلى الكفر ﴿ فلن يضر الله ﴾ بشيء من الضرر وإنما يضر نفسه ، وأما من ثبت على دينه ، وجاز هذا الامتحان الدقيق فهو من المجاهدين الصابرين الشاكرين ، الذين سيجزيهم الله الجزاء الأوفى ، وقد كانت هذه الآية تمهيداً لموت النبي ﷺ بعد أداء رسالته وقولاً فصلاً لأمثال عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

عتاب للمؤمنين وإرشادهم

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا
وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ
كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ
﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا
وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ
يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

المفردات : ﴿ مؤجلا ﴾ ذو أجل وهو المدة المضروبة للشيء ﴿ كأين ﴾ كلمة تفيد الكثرة ﴿ ربيون ﴾ جماعات كثيرة واحدهم ربى وهو الجماعة . الوهن : الضعف عامة ، وقيل في القلب ، والضعف : اختلال في الجسم ﴿ استكانوا ﴾ الاستكانة : الاستسلام والخضوع لأن صاحبها يسكن للخصم ﴿ إسرافنا ﴾ مجاوزة الحد في كل شيء .

المناسبة :

بعد ما لام القرآن المؤمنين على ما بدر منهم حينما بلغهم قتل النبي ﷺ لامهم : بأنه رسول كبقية الرسل لم يطلب لنفسه العبادة ، حتى إذا مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم كافرين ، إنما كان يأمركم بعبادة الله والله حي لا يموت . ومهمة الرسول البلاغ فقط ، فإذن ليس لوجوده دخل في استمرار عبادة الله .

وهنا يلومهم أيضاً على أن النبى لو قتل كما أشيع ، ما كان لكم أن تفعلوا ما فعلتم .

ليس من شأن النفوس ، ولا من سنة الله فيها ، أن تموت بغير إذنه أو مشيئته ، التى يجرى بها النظام العام فى الكون ، وارتباط الأسباب بالمسببات ، فالله وحده هو المتصرف فى كل شىء ، له الأمر ، فيأذن للملك بقبض الروح فى الموت العادى وغيره فى الإنس والجن ، حتى فى الملك نفسه الموكل بقبض الأرواح ، كتب هذا كتاباً محكماً ، موقتاً بوقت لا يتعداه ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾[1] . ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[2] .

وإذا كان العمر بيد الله ، وانقضاؤه بإذنه وإرادته ، فكيف يصح الجبن والوهن والضعف والتخاذل .؟؟

﴿ ومن يرد ثواب الدنيا ﴾ بجهاده وعمله ، أعطاه الله شيئاً من ثوابها ﴿ ومن يرد ثواب الآخرة ﴾ وجزاءها ، أعطاه الله شيئا من ثوابها ، على حسب إرادته ومشيئته ، فى كلا الحالين ، وأما أنتم يا من ضعفتم وفشلتم وتنازعتم وخالفتم أمر نبيكم وقائدكم ، لأجل الغنيمة ، وما الذى تريدونه بعملكم ؛ إن كنتم تريدون الدنيا ، فالله لا يمنعكم من ذلك ، ولكن ليس هذا طريقها ، إذ العمل الذى يدعوكم إليه محمد ﷺ هو للدنيا والآخرة .

والتعبير بقوله : ﴿ يرد ﴾ دليل على أن الإرادة للشخص هى التى تكيف العمل ، فتارة يكون خيراً ، وتارة يكون شراً . (إنما الأعمال بالنيات) وأن الله سبحانه وتعالى سيجزى الشاكرين عند حدوده ، الثابتين مع نبيه .

وكثير من الأنبياء السابقين قاتل معهم فى سبيل الله ولإعلاء كلمته ، جماعات فى أحرج الأوقات وأشدها ، فما وهنوا ولا ضعفوا ولا خضعوا للدنيا ومتاعها ، بل ظلوا كما هم لم تزعزعهم الأعاصير ، صابرين ثابتين والله يحب الصابرين ، الذين صابروا وصبروا ورابطوا واتقوا الله ، فهو : يهديهم ويرشدهم ، ولا شك أن هؤلاء مبالغون فى التعلق بربهم سبحانه وتعالى ، هذا عملهم ، أما قولهم فهو ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ﴾ واستر ما ألممنا به ، مما تعلمه ولا نعلمه ، واغفرلنا ﴿ إسرافنا ﴾ وتجاوزنا أمرك ، فهم مما فعلوا من الخير ، يرون أنفسهم مقصرين أو من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ؛ ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ على صراطك المستقيم وأمام عدوك المبين ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ والسعادة فيها بالرضا والقناعة والعزة وحسن التوكل على الله ، ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ وهو الجزاء الأوفى ؛ أولئك رضى الله عنهم ورضوا عنه ؛ ذلك هو الفوز العظيم ، وأنتم يا أصحاب الرسول وأمة محمد خاتم الأنبياء والمرسلين أولى بهذا .

---

(١) من الآية : ١١ من سورة المنافقون .
(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الأعراف .

متابعة الكافرين وعاقبتها

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

المفردات : ﴿ الرعب ﴾ شده الخوف ، ﴿ سلطانا ﴾ برهاناً وحجة ولما فيها من القوة على دفع الباطل ، سمى سلطاناً ﴿ مثوى ﴾ : المثوى المكان الذى يكون مقر الإنسان ومأواه .

سبب النزول :

روى أن بعض المنافقين حينما أذيع خبر مقتل النبى ﷺ ، قال : من لنا برسول إلى ابن أبى يأخذ أمانا لنا عند أبى سفيان ، وقال بعضهم لو كان نبياً ما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم ، وهذا أبو سفيان ينادى : العزى لنا ولا عزى لكم ، فنزلت هذه الآيات .

بعد ما رغَّب الله المؤمنين فى الاقتداء بأنصار الأنبياء السابقين ، وبيَّن جزاء هذا ، حذرهم من متابعة الكفار فإن فى ذلك خسارة لهم .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ كأبى سفيان وعبد الله بن أبى والداعين إليهما ، إن تطيعوهم يردوكم كافرين كما كنتم خاسرين فى الدنيا ، بالذلة بعد العزة ، وتحكم العدو فيكم ، وحرمانكم من السيادة والملك ، الذى وعده الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ﴿ ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[١] .

وأما خسران الآخرة فعذاب شديد يوم القيامة ، بل الله مولاكم ولا مولى لهم ، فلا يليق أن تفكروا فى ولاية أبى سفيان أو غيره ، ولا تأبهوا بكلام المنافقين الجبناء ، فالله نعم المولى وهو خير الناصرين .

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[٢] . ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[٣]

---

(١) من الآية : ٥٥ من سورة النور .
(٢) من الآية : ٨ من سورة المنافقون .
(٣) الآية : ١١ من سورة محمد ﷺ .

﴿ سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ بسبب شركهم بالله أصناماً وحجارة ، ليس لهم فى هذا حجة ولا برهان ، بل هم إذا خلوا وأنفسهم وجدوها تعبد معبودات ، كل حجتهم فى عبادتها ، أنهم وجدوا آباءهم لها عابدين .

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾[١] وعبادتهم الأصنام تورث فى عقولهم خبالاً ، وفى نفوسهم ضعفاً وأى ضعف ؟ وإذا رأوكم متمسكين بدينكم ، كان ذلك أدعى إلى إلقاء الرعب فى قلوبهم وشكهم فى أنفسهم ، وهذا ما حصل ويحصل دائماً .

هذا حالهم فى الدنيا ، وفى الآخرة مأواهم النار وبئس القرار ، فإنهم الظالمون المشركون ، أما إذا رأيت المؤمنين مع الكافرين ، وقد انعكست الآية وقد ألقى الله الرعب فى قلوب المؤمنين ، فاعلم أنهم ليسوا مؤمنين حقاً ولكنهم مسلمون بالوراثة والاسم فقط .

ما أصاب المسلمين فى أحد ، وسببه

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ

(١) من الآيتين : ٢٢ و ٢٣ من سورة الزخرف .

﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا
ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

المفردات : ﴿ **تحسونهم** ﴾ تقتلونهم ، من حسه أى أذهب حسه بالقتل . ﴿ **بإذنه** ﴾ : بأمره ودعوته ﴿ **فشلتم** ﴾ : جبنتم وضعفتم . ﴿ **صرفكم عنهم** ﴾ : كفكم عنهم وحولكم . ﴿ **ليبتليكم** ﴾ : ليختبركم ، والمراد ليعاملكم معاملة من يختبر ، والإفالله عالم لا يحتاج إلى اختبار ﴿ **تصعدون** ﴾ : من أصعد بمعنى أبعد فى الذهاب وأمعن فيه ﴿ **ولا تلوون على أحد** ﴾ : ولا تلتفتون لأحد . ﴿ **أخراكم** ﴾ : جماعتكم المتأخرة التى وقفت تدافع عن النبى ﷺ . ﴿ **فأثابكم** ﴾ : فجازاكم ﴿ **أمنة** ﴾ : الأمنة والأمن سواء ﴿ **الغم** ﴾ : ألم وضيق فى الصدر من الأمر الذى لا يدرى الخلاص منه ﴿ **لبرز** ﴾ : لخرج ﴿ **مضاجعهم** ﴾ : مصارعهم التى يصرعون فيها ﴿ **استزلهم** ﴾ : أوقعهم فى الزلل والخطأ .

سبب النزول :

روى الواحدى عن محمد بن كعب قال : لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد قال ناس : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى النصر ؟ فأنزل الله : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده** ﴾ الآية . وتلاها ذكر الحوادث وأسبابها .

وتالله لقد وفى لكم ربكم وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم المشركين ، وقت أن أخذتم تقتلونهم قتلاً ، وتفتكون بهم فتكاً ، كل ذلك بتيسير الله ومعونته وإذنه وإرادته .

نعم : صدقكم الله وعده ، حتى ضعفتم فى الرأى ، وجبنتم فى الحرب ، وفشلتم وتنازعتم واختلفتم ، فقال قائل : فلم وقوفنا وقد انهزم المشركون ؟

وقال بعضهم لا نخالف أمر الرسول أبداً ، وما ثبت مكانه إلا عبد الله بن جبير فى نفر قليل من أصحابه ، وكان ما كان من أمر محنتكم مما ذكر فى (غزوة أحد) .

﴿ **منكم من يريد الدنيا** ﴾ : وهم الذين تركوا أماكنهم طلباً للغنيمة ﴿ **ومنكم من يريد الآخرة** ﴾ وهم الذين ثبتوا فى مكانهم ، ولم يخالفوا أمر الرسول ﷺ ، ثم كفكم عنهم حتى تحولت الحرب ودالت دولة المشركين ، فعل هذا بكم ليمتحن إيمانكم ويتبين أمركم ، فيظهر الصادقون من المنافقين ، وقد عفا الله عنكم بذلك الابتلاء الذى محا أثر الذنب من نفوسكم ، وتاب عليكم لما ندمتم على ما فرط منكم ، إنه هو التواب الرحيم ، وهو ﴿ **ذو الفضل العظيم** ﴾ على المؤمنين ؛ وكم نقمة فى طيها نعم ﴿ **صرفكم عنهم** ﴾

وقت أن كنتم ﴿ **تصعدون** ﴾ فى الجبل ، وتبعدون فى السير لا تلتفتون وراءكم ، والحال أن رسول الله ﷺ ﴿ **يدعوكم** ﴾ قائلاً : « إلىَّ عباد الله إلى عباد الله ، أنا رسول الله ، من يكرَّ فله الجنة » . . ﴿ **يدعوكم** ﴾ فى الجماعة المتأخرة الذين ثبتوا مكانهم ولم تنخلع قلوبهم وظلوا يدافعون عن النبى ﷺ ، ﴿ **صرفكم** ﴾ الله ﴿ **عنهم** ﴾ فجازاكم ﴿ **غمَّا** ﴾ وغماً حين ابتلاكم بالمحنة ، بسبب غم ألحقتموه للنبى ﷺ بعصيانكم أمره ، ومخالفة رأيه .

ويصح أن يفهم ﴿ **أصابكم غماً** ﴾ ، بعد غم بإشاعة قتل النبى ﷺ ، وقتل الأحبة ، وفوات النصر والغنيمة ، وما فعل بكم ذلك كله إلا ليمرنكم على الشدائد ، فإنها هى التى تبنى الأفراد والأمم ، ولئلا تحزنوا على شىء فات ، ﴿ **ولا ما أصابكم** ﴾ من عدوكم ﴿ **والله خبير** ﴾ بأعمالكم مجازيكم عليها .

روى عن ابن الزبير رضى الله عنه أنه قال ، لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ ، حين اشتد علينا الخوف فأرسل الله علينا النوم ، والله إنى لأسمع قول معتب بن قشير والنعاس يغشانى ﴿ **لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا** ﴾ .

ثم أنزل الله الأمن على القلوب ، والطمأنينة على النفوس بالنعاس عليهم ، حتى كان يسقط السيف من أحدهم فيأخذه ، والنعاس فى هذه الحالة نعمة من نعم الله ، وحد فاصل بين حالتى الأمن والخوف .

هذا النعاس غشى طائفة من الناس هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله ﷺ ، ﴿ **وطائفة قد أهمتهم أنفسهم** ﴾ وملأ الخوف قلوبهم ، ما بهم هَمّ أنفسهم ، إلاهمّ الدين ولاهم الرسول والمسلمين ، وذلك لأنهم لا يثقون بنصر الله ولا يؤمنون بالرسول ﷺ ، فقلوبهم هواء ، هؤلاء هم المنافقون كمعتب بن قشير ومن لف لفه من أتباع ابن أبىّ ﴿ **يظنون بالله غير** ﴾ الظن ﴿ **الحق ظن الجاهلية** ﴾ الأولى ﴿ **يقولون** ﴾ لرسول الله ﷺ ﴿ **هل لنا من الأمر** ﴾ والنصر نصيب ؟ يسألون كالمؤمنين فى الظاهر والواقع أنهم ينكرون أن لهم شيئاً من النصر والغلب .

﴿ **قل** ﴾ يامحمد : ﴿ **إن الأمر** ﴾ والنصر ﴿ **كله لله** ﴾ ولا يكون من غيره ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ .(١) ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾(٢) .

وهم يضمرون فى أنفسهم العداوة والحقد لكم ، ويظهرون غير ذلك ، ولا غرابة فهم المنافقون المخادعون .

﴿ **يقولون لو كان لنا** ﴾ من النصر والفوز نصيب ، ما قتلنا ها هنا ، فمحنتنا دليل واضح على أن النصر لن يأتى لنا ، وأن محمداً ليس نبياً ، إذ لو كان نبياً ما حدث لنا ما حدث ، فهم يربطون بين النبوة والنصر ، وما علموا أن النصر من عند الله ، وتوفيقه ، وأن المحنة من أعمالهم ومخالفتهم ومع ذلك فالعاقبة للمتقين .

---

(١) من الآية : ٢١ من سورة المجادلة .
(٢) الآية : ١٧٣ من سورة الصافات .

وهؤلاء ختم الله على قلوبهم ، فغفلوا عن أن الأعمار بيد الله ، وأن النصر من عنده ، وأن الذين كتب عليهم القتل لابد من حصوله ، ولو كانوا ﴿ فى بروج مشيدة ﴾ قل لهم : ﴿ لو كنتم فى بيوتكم ﴾ وقد كتب عليكم القتل ﴿ لبـرز الذين كتب عليهم القتل ﴾ إلى حيث يصرعون ويقتلون فالحذر لا ينجى من القدر ، والتدبير لا يقاوم التقدير ، والأمر كله بيد الله ، والعاقبة للمتقين ، وقد فعل الله ما فعل ؛ ليمتحن الله ﴿ ما فى صدوركم ﴾ من الإخلاص والتقوى ، ﴿ وليمحص ما فى قلوبكم ﴾ من وساوس الشيطان حتى تصل إلى الغاية القصوى فى اليقين ، ﴿ والله عليم ﴾ بصاحبات ﴿ الصدور ﴾ التى لا تنفك عنها من الأسرار والضمائر ، فهو لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وهو الغنى عن الابتلاء والاختبار ، ولكن يفعل هذا لينكشف حال الناس بعضهم لبعض ، فلا ينخدع إنسان بظاهر أخيه .

﴿ إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ﴾ من المشركين والمسلمين وتركوا أماكنهم ، أو تولـوا فارين ، إنما أوقعهم الشيطان فى هذا الخطأ ، بسبب بعض أفعالهم السابقة ، فإن الذنب الذى يفعله الإنسان يترك نكتة سوداء فى القلب ، يرتكز عليها الشيطان فينفذ منها إلى الإنسان ويوحى إليه بالسوء .

﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ لما تابوا وأنابوا وكانت عقوباتهم فى الدنيا جوابر لهم ، ﴿ إن الله غفور ﴾ للذنوب ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل بالعقوبة .

بث روح التضحية والجهاد فى نفوس المؤمنين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ
وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

تفسير المفردات :

﴿ ضربوا ﴾ : سافروا فى الأرض للتجارة والكسب

﴿ لإخوانهم ﴾ : لأجل إخوانهم أى فى شأنهم والمراد بالأخوة ما هو أعم من أخوة النسب والدين والمودة

﴿ غزى ﴾ : جمع غاز وهو المقاتل (حسرة) ندامة فى قلوبهم لما بين الله فيما مضى سبب المحنة،وأن الشيطان قد (استزلهم) ببعض ما كسبوا بين هنا ما كسبوا به الشيطان لهم فيعتقدون هذا الخطأ الفاسد .

مازالت الآيات الكريمة تلقن الأمة المسلمة والجماعة المؤمنة دروساً ربانية ، إذا استمسكت بها الأمة كان السعد رائدها ، والتوفيق حليفها .

وفى هذه الآيات تثبيت للعقيدة وتوكيد للإيمان ، فإن الله واحد لا شريك له يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، وهو سبحانه القائل : ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾[1] .

فيأيها المؤمنون لا تكونوا كهؤلاء الكافرين ، ومرضى القلوب الذين أغشيت قلوبهم قطعاً من الليل مظلماً ، فقالوا فى شأن إخوانهم الذين خرجوا يضربون فى الأرض سعياً وراء الكسب الحلال ، أو خرجوا مقاتلين فى سبيل الله ، قالوا فى شأنهم : ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ كأنه لا يموت إلا من خرج ساعياً أو مجاهداً ، ونسوا أن الموت حق ، وأن العمر واحد لا يتقدم ولا يتأخر ، ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[2] فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ، ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ﴾ .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

وقد قال أحد الحكماء : « يموت الشجاع مرة ويموت الجبان مائة مرة » .

وقال أحد الحكماء :

ولست أبالى حين أُقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

وعندما حضرت خالد بن الوليد الوفاة على فراشه قال كلمته المأثورة :

« لقد خضت مائة معركة أو زهاءها ، وليس فى جسدى قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم ، وها أنذا أموت على فراشى كالبعير وكنت أود أن أموت شهيداً فى سبيل الله فلا نامت أعين الجبناء » .

هذا هو سيف الله المسلول ، الذي سله الله على أعدائه ، والذى قال فيه أبو بكر الصديق : « عقمت النساء أن يلدن مثل خالد ، والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » .

وقال عنه مارشال الجو الألمانى (هندنبرج) : « إن خالد بن الوليد أستاذ السرعة فى الحرب ، فقد طوق أعظم امبراطوريتين بذراعيه فى مدة لا تزيد على ثلاثة عشر شهراً . ومع ذلك مات على فراشه » . فليس الضرب فى الأرض أو القتال فى سبيل الله سبباً فى الموت وليس القعود فى البيوت سبباً فى الحياة .

---

(١) الأيتان : ١٠ ، ١١ من سورة المنافقون .

(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الأعراف .

تـزود من التقوى فـإنك لا تـدرى — إذا جن ليـل هل تعيش إلى الفجـر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً — وقـد نسجت أكفانـه وهو لا يـدرى
وكم من عـروس زينوهـا لـزوجهـا — وقــد نـزعت أرواحهم ليلة القــدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم — وقد أدخلت أجسادهم ظلمـة القبر
وكم من صحيح مات من غـير علة — وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

إن الذين قالوا لإخوانهم ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ . إنما قالوا ما قالوه ليكون مصير قولهم ﴿ حسرة فى قلوبهم ﴾ فإن لو تفتح عمل الشيطان .

هل نسى هؤلاء أن الله هو الذى يحيى ويميت فلا يملك أحدٌ الإحياء والإماتة إلا الله وهـو البصير بأعمال العباد . وقد رد الله تعالى عليهم رداً مفحماً ألقمهم الحجارة فى حلوقهم .

قال تعالى : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون * الذين قـالوا لإخـوانهم وقعدوا لـو أطاعـونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين * ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتهم الله من فضله ويستبشرون بـالذين لم يلحقـوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(١) .

وأنتم أيها المؤمنون مادمتم تجاهدون فى سبيل الله فسواء قتلتم أو متم ؛ فإن مغفرة الله ورحمته خيرلكم مما يجمع هؤلاء من عرض الدنيا وحطامها الزائـل ، واعلموا أنكم لـو أدركـكم الموت أو القتـل فإلى الله مصيركم وهو وليكم فنعم المولى ونعم النصير ، ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، وقد صدق أبو بكر الصديق : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

---

(١) من الآيات ١٦٦ - ١٧٠ من سورة آل عمران .

صاحب الخُلُقِ العظيم

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

المفردات : **(اللين فى المعاملة)** : الرفق والتلطف فيها ، **(الفظ)** : الخشن ، شرس الأخلاق ، الجافى فى المعاشرة وفى القول والفعل ، **(والغليظ)** : القاسى الذى لا يتأثر قلبه من شيء **(وانفض القوم)** : تفرقوا كما قال ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها ﴾(١) . **المشاورة** : من قولك شُرْت العسل إذا اجتنيتها واستخرجتها من موضعها ، والمراد بالأمر سياسة الأمة فى الحرب والسلم والخوف ، إلى نحو ذلك من المصالح الدنيوية **والتوكل** : إظهار العجز والاعتماد على الله والاكتفاء به فى فعل ما تحتاج إليه .

نزلت هذه الآيات عقب غزوة أحد التى وقع فيها ما وقع من الشدة والمحنة ، والتى أصيب فيها النبى ﷺ مع من أصيب ، فصبر وتجلد ولان فى معاملة أصحابه وخاطبهم بالرفق واللين ، ولم يعاقبهم ، وكان العتب مقترناً بالعفو من الله جلت قدرته ، وكان الصفح الجميل من رسوله الكريم ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم ﴾ .

وجاء عفو الله وصفح رسوله ، ووعد الله بالنصر لهم ، وتأييد كلمة الحق إلى أن تقوم الساعة ، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يشاورهم فى الأمر الذى يشمل سعادتهم فى الدارين ، وقد جاء نزول هذه الآية فى وقت يفيد أهمية الشورى ، فقد ذهب الرسول ﷺ إلى أحد وكان ما كان ، ونزلت هذه الآية بعد الغزوة ، ليقول له الله جلت قدرته ويبين له أنه مهما حدث من محنة وشدة ، فلا تترك مشاورتهم فى الأمر ، وسوف نعرض لبحث شامل كامل فى أهمية الشورى ومالها من مكانة . فى نظام الحكم فى الإسلام .

قوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أى لقد جاءت الرحمة الإلهية فجعلتك رحيم القلب بأصحابك ، وسوت الخلق الكريم فيك فأنت الرفيق ، ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾(٢) فأنت النعمة المسداة والرحمة المهداة ، ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة

---

(١) من الآية : ١١ من سورة الجمعة .
(٢) الآية : ١٢٨ من سورة التوبة .

للعالمين ﴾ . وقد قال الرسول ﷺ : (ما من مؤمن يشاك بشوكة إلا وجدت ألمها فى قلبى) . ولو كنت يامحمد سيىء الأدب أو قاسى القلب لانصرف هؤلاء من حولك ، ولكنك أنت الرحيم القلب العظيم الخلق ﴿ فاعف عنهم ﴾ وتجاوز عما وقع منهم فى هذه الغزوة ، واطلب من الله المغفرة لهم ، ولا تترك مشاورتهم فى الأمر ، فإن الشورى من أسباب الفلاح والنجاح .

وقد هلك من استبد برأيه ، فإذا ما أخذت الرأى ، وعزمت على الفعل ؛ فاعلم أنه لا خاب من استخار الخالق ، واستشار المخلوق ﴿ فتوكل على الله ﴾ أى فوض له عواقب الأمور ، فقد أخذت بالأسباب ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾[١] ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه ومار بك بغافل عما تعملون ﴾[٢] ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾[٣] .

ثم قال تعالى : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ ، أى اعلموا أيها المسلمون أن النصر من عند الله ؛ إن اتبعتم أوامره ، وسرتم وراء نبيكم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره ؛ أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[٤] وإذا نصركم الله فلا غالب لكم ، ولا تستطيع قوة من قوى الشر أن تغلبكم وتنتصر عليكم ، ذلك لأن الله غالب على أمره ، وقد رأيتم ذلك واقعاً حقيقياً يوم بدر ، وكما أن الله هو الناصر فإنه إن سلب قوماً التوفيق لعصيانهم ومخالفتهم لأمره ، حل بهم الخذلان والفشل ، ولن يجدوا لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ، فتوكلوا على الله وحده وجردوا النيَّة لله ، واعتصموا بالله وأخلصوا دينكم لله ، وعندها سيؤيدكم الله بروح من عنده ، ويثبت أقدامكم بعد النصر ، فلن يستطيع الغرور أن يقتحم عليكم أسوار أنفسكم المنيعة ، لأن الغرور مقبرة النجاح .

بحث فى الشورى :

جاء فى كتاب « فى النظام السياسى للدولة الإسلامية » للدكتور محمد سليم العوا ، ما نصه : « مبدأ الشورى من أهم المبادىء الدستورية الإسلامية ، وتكاد المصادر الإسلامية التى عنيت ببحث المسائل المتعلقة بنظام الحكم فى الدولة الإسلامية ، أن تجمع على أهمية الشورى وتصدرها مبادئ الإسلام السياسية ، ويتناول بحثنا فى موضوع الشورى أدلة حجيتها ومدى وجوبها ونطاقها ومدى إلزام الرأى الذى تنتهى إليه الشورى ، (وهو البحث المعروف بعنوان : هل الشورى ملزِمة أم معلِّمة) .

---

(١) من الآية : ٤١ من سورة الحج .
(٢) الآية الأخيرة : ١٢٣ من سورة هود .
(٣) الآية الأخيرة : ١٠٩ من سورة يونس .
(٤) الآية : ٧ من سورة محمد ﷺ .

أدلة حجية الشورى فى القرآن الكريم :

يستدل على حجية الشورى بالقرآن والسنة . أما القرآن الكريم فقد وردت فيه آيتان صريحتان ذكرت فيهما الشورى : كأمر واجب فى إحداهما ، وكوصف يمدح فاعلوه المتصفون به فى الثانية .

ففى الآية الأولى يخاطب القرآن الكريم رسول الله ﷺ فيقول له : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ﴾(١) . وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد التى خرج إليها الرسول ﷺ نزولاً على رأى أصحابه ، وكان رأيه أن يبقوا فى المدينة ويدافعوا عنها من داخلها ، وبينت الأحداث التى مرت بالمسلمين فى أثناء هذه الغزوة ، أن رأى الرسول ﷺ كان هو الأصوب والأصح ، ومع ذلك فقد أمر الله نبيه بعد هذه الأحداث بأن يستغفر لأصحابه وبأن يشاورهم فى كل ما يحتاج إلى مشاورة ، والنص بهذه الصورة وفى هذه الظروف ، نص قاطع لا يدع مجالاً للشك فى أن الشورى مبدأ أساسى من مبادىء النظام السياسى الإسلامى ، وقيمة عليا يجب على الأمة المسلمة أن تتمسك بها دائماً وتحت جميع الظروف .

أما الآية الثانية ، فهى قول الله تعالى فى سورة الشورى : ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٢) وهذه الآية مكية نزلت فى مكة ، ومن ثم فإن وصف المؤمنين بأن ﴿ أمرهم شورى ﴾ يفيد أن الشورى من خصائص الإسلام التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون ، سواء أكانوا يشكلون جماعة لم تقم لها دولة بعد ، وذلك كان هو حال المسلمين فى مكة ، أو كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما كان حال المسلمين فى المدينة .

وبالإضافة إلى هاتين الآيتين ، يرى الأستاذ الشيخ محمد عبده أن فى قوله تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾(٣) .

دليلاً أقوى على وجوب الشورى من الدليل المستمد من الآيتين السابق ذكرهما ، وهو يقرر ذلك ببيان : أن آية سورة الشورى تبين أن التشاور فى الأمور وصف ممدوح عند الله تعالى ، وأن آية سورة آل عمران الأخرى ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ توجب على الحاكم المشاورة ، ثم يستدرك قائلاً : ولكن إذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله (أى الحاكم) للأمر فماذا يكون إذا هو تركه ؟ وأما هذه الآية فإنها تفرض أن يكون فى الناس جماعة متحدون وأقوياء يتولون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو عام فى الحكام والمحكومين ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم » .

---

(١) وهى الآية التى نحن بصدد تفسيرها ، وتفرع البحث استطرادا فى شأن بيان حكمها الشرى والسياسى والعرفى .
(٢) الآية : ٣٨ من سورة الشورى .
(٣) الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

الشورى فى السنة النبوية :

أما السنة النبوية فإنها ذاخرة بالأمثلة العملية لاستشارة الرسول ﷺ لأصحابه حتى قال أبو هريرة رضى الله عنه « ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ » ومن ذلك استشارة الرسول ﷺ لأصحابه فى الخروج يوم بدر ، وفى المنزل الذى ينزله عندها ، وفى الخروج أو البقاء فى المدينة يوم أحد ، وفى مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة ، وغير ذلك كثير ، ومن هذه السنة العملية لرسول الله ﷺ تستفاد قاعدة عامة ، مؤداها : أن الحاكم أو الإمام يستشير الأمة - أو أولى الرأى فيها - فيما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى تبادل الآراء ، وذلك فى شأن الرسول ﷺ مسلَّم قاصر على الأمور التى لم يكن فيها وحى بفعل أمر معين أو تركه ، فإن كان محلا لوحى فلا مجال للمشاورة فيه .

أما بعد عصر الرسالة ، فإن الشورى قد تمتد حتى تغطى تلك المسائل المنصوص على أحكامها ، إذا كانت المناقشة خلال الشورى ، ترمى إلى الوصول إلى اتفاق على فهم ملائم - لظروف الوقائع أو الزمان أو المكان - لتطبيق النصوص ، بالإضافة إلى شمول الشورى - بطبيعة الحال - لتلك الأمور التى لم يرد فيها نص معين ، أى الأمور التى تركت للاجتهاد .

وجوب الشورى :

والرأى الراجح بين الفقهاء هو : أنه يجب على الحاكم مشاورة الأمة فى الأمور العامة ، بحيث إذا تركها الحاكم كان للأمة أن تطالبه بها ، وأن تبدى رأيها - ولو لم يطلب منها - فيما قد يكون لها فيه رأى .

وهذا الوجوب مستفاد من الآيتين الكريمتين اللتين قدمت ذكرهما ، فى أدلة حجية الشورى ، ففى الآية الأولى جاء الأمر إلى الرسول ﷺ : بأن يشاور أصحابه ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ . وإذا كانت المشاورة واجبة على رسول الله ﷺ - وهو يحكم دولة الإسلام الأولى - فإنها تجب كذلك - من باب أولى - على كل حاكم لدولة إسلامية بعده ، ويبدو ذلك واضحاً إذا تذكرنا أن الرسول ﷺ كان فى واقع الأمر مستغنيا عن المشاورة ، إذ يأتيه الوحى بحل ما قد يبدو مشكلاً من الأمور ، بينما لا سبيل أمام من بعده من الحكام إلا أن يستفيدوا من خبرات وآراء أولى الرأى فى الأمة .

وأما الآية الثانية : فقد جعلت الشورى وصفاً لازماً للمؤمنين يحفها من يمينها - فى النص القرآنى - وصف المؤمنين بالاستجابة لله ، وإقام الصلاة ، ومن يسارها وصفهم بالإنفاق مما رزقهم الله تعالى ، وذلك كله من فرائض الإسلام ، وواسطة عقد هذه الآية الكريمة هى الشورى ، التى مدح بها المؤمنون ، وكأن وصف الإيمان الكامل لا يتحقق بغيرها .

ومع أن القول بالوجوب - فى شأن الشورى - هو الأرجح عند الفقهاء المسلمين ، فقد ذهب البعض إلى أن الأمر الوارد بالشورى إنما هو للندب لا للوجوب وأن المقصود بهذا « الندب » هو تطييب قلوب الصحابة » . والواقع أن هذا لا يعدو أن يكون فهماً فى معنى الآية الكريمة ، وسبب نزولها .

وليس ثمة ما يمنع من القول بأن « تطييب القلوب » هو أحد أسباب الأمر بالشورى ، ولكنه ليس السبب الوحيد ، وليس أدل على ذلك من فعل الرسول ﷺ نفسه فى كثرة مشاورته لأصحابه ، وقد فطن الفقهاء المسلمون إلى هذه المعانى كلها ، فقرروا أن الشورى من عزائم الأحكام التى لابد من نفاذها (والعزائم الواجبات التى لا يجوز تركها) ورتبوا على ذلك أن من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب دون خلاف .

نطاق الشورى :

أما نطاق الشورى : أى المسائل التى يمكن أن تكون محلاً لها ، فذلك ما لا نجد له فى النصوص المقررة لوجوب الشورى تحديداً قاطعاً ، فقد ورد الأمر بالشورى فى القرآن الكريم ، واصفا إياها بأنها الشورى فى (الأمر) ، وفى هذه الكلمة من العموم والإطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة فى كل نواحى حياتها، فإذا تمشينا مع هذا الإطلاق والعموم في كلمة (الأمر) فإننا نستطيع القول بأن جميع الشئون العامة للأمة المسلمة يمكن ــ أو يجب ــ أن تكون محلاً للشورى ، غير أن مثل هذا الإطلاق ــ فى الواقع ــ لا يمكن أن يكون مراداً من النصوص التى تأمر بالشورى ، ذلك أنه يوجد قيدان يجب التقيد بهما فى هذا الخصوص أولهما : أن الشورى لا تكون فى أى مسألة ورد فيها نص فى القرآن الكريم أو السنة التى تعد تشريعاً عاماً ، فهذه الأمور خارجة بالضرورة عن نطاق الشورى ؛ ولا يمكن ــ بعد ورود النص ــ أن تكون محلاً لها ، اللهم إلا إذا كان موضوع الشورى هو تفسير النص أو تنفيذه ، ولا يكون ذلك ــ بداهة ــ إلا فيما بعد عصر الرسالة من عصور ، إذ يختص الرسول بذلك التفسير والتنفيذ خلال حياته ﷺ .

والقيد الثانى : هو أنه حين تعرض مسألة مَّا على الشورى فإنه لا يجوز أن ينتهى رأى المشيرين أو المستشارين إلى نتيجة تخالف نصاً من النصوص التشريعية الواردة فى القرآن الكريم أو السنة النبوية ، إذ مثل هذه المخالفة تمنع الأخذ بالرأى الذى تنتهى إليه الشورى ، ويجعلها من ثَم لا قيمة لها .

أما خارج دائرة هذين القيدين اللذين يمكن اعتبارهما شقين لقيد واحد (هو التزام النصوص فى الموضوعات التى تعرض للشورى وفى النتيجة التى تنتهى إليها) . فإن كل أمر مما لم يرد فيه نص يمكن أن يكون محلاً للشورى ، ما دام يتعلق بمسألة تعد من الشئون العامة للأمة .

إلزام الشورى :

ثم يقول الأستاذ المؤلف : « والصحيح هو التزام الحاكم بما تنتهى إليه الشورى » .

وإذا تبين هذا ، فإنه يصبح بيناً ، أن الحاكم وقد وجبت عليه الشورى ، يجب عليه أن يلتزم بنتيجتها ؛ والتى ينتهى إليها رأى أكثر المشورين ، وأنه لا دليل يصح الاستناد إليه فى تأييد من ذهب إلى أن الشورى معلمة وليست ملزمة .

وإنما الذى تدل عليه الأدلة جميعاً ـ من فعل الرسول ﷺ وصاحبيه ـ أن الشورى متى انتهت إلى رأى ؛ وجب على الإمام أو الحاكم تنفيذه .

ومن الجدير بالإشارة أن فعل رسول الله ﷺ فى الخروج فى غزوة أحد لقتال المشركين خارج المدينة ، واضح الدلالة على هذه القاعدة ، وعلى قاعدة التزام رأى الأكثرية ولو خالف رأى الحاكم ، أو رأى غيره من أولى الرأى .

والواقع أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثرية ، ووجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضى التزام رأى الأكثرية ، ويجب أن تكون الأقلية التى لم يؤخذ برأيها ؛ أول من يسارع إلى تنفيذ رأى الأكثرية ، وأن تنفذه بإخلاص باعتباره الرأى الذى يجب اتباعه ، ولا يصح اتباع غيره .

وليس للأقلية أن تناقش من جديد رأياً اجتاز دور المناقشة ، أو تناقش فى رأى وضع موضع التنفيذ ، وتلك سنة رسول الله ﷺ التى سنها للناس ، والتى يجب على كل مسلم اتباعها » .

وقد بين صحة هذا الرأى فى إيجاز بليغ الأستاذ الإمام محمد عبده بقوله : « إن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر ، والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر ، فكان ﷺ يستشير أصحابه ويرجع عن رأيه إلى رأيهم » . وقال الأستاذ محمد رشيد رضا : « وليس عندى عن الأستاذ فى هذه المسألة غير هذا » .

من ذلك كله تبين أن الشورى قاعدة من قواعد الإسلام الأساسية فى المجال السياسى ـ أو مجال الشئون الدستورية ـ تثبت حجيتها بدلالة نصوص آيات القرآن الكريم وبأحاديث الرسول ﷺ وسنته العملية .

الغلول وأشياء أخرى

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾
هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ
فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

المفردات : الغَلّ : الأخذ خفية كالسرقة ، ثم غلب استعماله فى السرقة من المغنم . قبل القسمة ، ويسمى الغلول أيضا ، و﴿ توفى كل نفس ما كسبت ﴾ ، أى تعطى جزاء ما عملت تاما وافيا . ﴿ باء ﴾ : رجع

والسخط : بفتحتين وبضم وسكون : الغضب العظيم ، والمأوى : المصير ﴿ هم درجات ﴾ ، أى ذو درجات ومنازل ، البصير هو الذى يشاهد ويرى حتى لا يغرب عنه ما تحت الثرى . ﴿ منّ ﴾ : أى أنعم وتفضل ﴿ من أنفسهم ﴾ أى من جنسهم من العرب ليفقهوا كلامه ﴿ ويزكيهم ﴾ أى يطهرهم من أدرانٍ الوثنية والعقائد الفاسدة ﴿ من قبل ﴾ : أى من قبل بعثة الرسول ﷺ ﴿ ضلال مبين ﴾ : أى ضلال بيِّن لا ريب فيه .

نفى الله تعالى نفياً قاطعاً الخيانة عن أنبيائه ، وجاء هذا النفى فى صيغة بلغت من القوة مداها : ﴿ وما كان لنبى أن يغل ﴾ والغلول يتمثل فى الخيانات فى أى مال ، وقد كثر استعماله فى المغانم ، ولما كان النبى ﷺ هو الرئيس للأمة ، والقائد للمجاهدين فى ميادين القتال ، فهو الصادق الأمين ، والأمين فى كل شىء ، أمين فى نظره وسمعه وقلبه ولسانه وعرضه ووجدانه ، فقد كان سيد الأمناء إذا قسم قسم بالعدل والقسطاس المستقيم ، وإذا حكم فحكمه العدل كله ، « لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطع محمد يدها»(١) فليطمئن المسلمون جميعاً إلى هذا القلب الرحيم ، والخلق العظيم ، ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ .

روى الامام أحمد بإسناده عن أبى مالك الأشجعى عن النبى ﷺ أنه قال : (أعظم الغلول عند الله ذراع من الأرض تجدون الرجلين جارين فى الأرض ـ أو فى الدار ـ فيقطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً ، فإذا قطعه طوقه من سبع أرضين يوم القيامة) .

وعن المستورد بن شداد قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا ، أو ليست له زوجة فليتزوج ، أو ليس له خادم ، فليتخذ خادما ، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ، ومن أصاب شيئاً سوى ذلك فهو غال) رواه الإمام أحمد .

وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب ، حدثنا حفص بن بشر ، حدثنا يعقوب القمى ، حدثنا حفص بن حميد ، عن عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ، ينادى يا محمد يا محمد ، فأقول : لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ! ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل جملاً له رغاء ، يقول : يا محمد يا محمد ! فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا له حمحمة ، فينادى يا محمد : فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل قسماً من أدم ، ينادى يا محمد يا محمد ! فأقول لا أملك لك من الله شيئاً ، قد بلغتك) .

روى الإمام أحمد بإسناده ، عن أبى حميد الساعدى ، قال : استعمل رسول الله ﷺ رجلاً من الأزد ، يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدى لى ، فقام رسول الله ﷺ على المنبر

(١) متفق عليه

فقال : (ما بال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدى لى . أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ؟ والذى نفس محمد بيده لا يأتى أحدكم فيها بشىء إلا جاء به يوم القيامة على رقبته ؛ إن كان بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر) ، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه !! ثم قال : (اللهم هل بلغت)[1] ثلاثاً .

وروى الامام أحمد بإسناده ، عن أبى حميد ، أن رسول الله ﷺ قال : (هدايا العمال غلول) .

وروى أبو عيسى الترمذى فى كتاب الأحكام ، عن معاذ بن جبل قال : بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن فلما سرت أرسل فى أثرى ، فرددت فقال : (أتدرى لم بعثت إليك ؟ لا تصيبنَّ شيئاً بغير إذنى ، فإنه غلول ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ لهذا دعوتك فامض لعملك) .

وروى الإمام أحمد بإسناده ، عن عدى بن عميرة الكندى ، قال : قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس من عمل لنا منكم عملاً فكتمنا مخيطا فما فوقه فهو غل ، يأتى به يوم القيامة) قال : فقام رجل من الأنصار أسود ــ قال مجاهد : هو سعد بن عبادة كأنى انظر إليه ــ فقال يا رسول الله اقبل منى عملك قال (وما ذاك ؟) قال سمعتك تقول كذا وكذا قال : (وأنا أقول ذاك الآن من استعملناه على عمل فليجئ بقليله وكثيره فما أوتى منه أخذه وما نهى عنه انتهى) .

وروى الإمام أحمد ، عن أبى رافع قال : كان رسول الله ﷺ إذا صلى العصر ، ربما ذهب إلى بنى عبد الأشهل ؛ فيتحدث معهم ، حتى ينحدر إلى المغرب ، قال أبو رافع : فبينما[1] رسول الله ﷺ مسرعاً إلى المغرب إذ مر بالبقيع فقال : «أف لك أف لك» فلزق فى درعى وتأخرت ، وظننت أنه يريدنى ، فقال : « مالك ؟ » قلت أحدثت حدثا يا رسول الله : قال «وما ذلك» ؟ قال : إنك قلت لى . قال لا «ولكن هذا قبر فلان بعثته ساعياً على آل فلان فغل نمرة ، فدرع الآن مثلها من نار» .

وعن عبادة بن الصامت قال : كان رسول الله ﷺ يأخذ الوبرة من ظهر البعير من المغنم ثم يقول : «ما لى فيه إلا مثل ما لأحدكم ، إياكم والغلول فإن الغلول خزى على صاحبه يوم القيامة ، أدوا الخيط والمخيط وما فوق ذلك ، وجاهدوا فى سبيل الله القريب والبعيد فى الحضر والسفر فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، إنه لينجى الله به من الهم والغم ، وأقيموا حدود الله فى القريب والبعيد ولا تأخذكم فى الله لومة لائم» رواه أحمد .

وعن عمرو بن شعيب عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : (ردوا الخياط والمخيط فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله يوم القيامة) رواه أحمد .

وروى أبو داود بإسناده عن أبى مسعود الأنصارى قال : بعثنى رسول الله ﷺ ساعياً ثم قال : (انطلق

(١) روى الشيخان مثله بلفظ مقارب .

أبا مسعود لا ألفينك يوم القيامة تجيء على ظهرك بعير من إبل الصدقة له رغاء قد غللته) قال : إذاً لا أنطلق . قال : (إذاً لا أكرهك) .

وعن أبي بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال : (إن الحجر يرمى به فى جهنم فيهوى سبعين خريفا ما يبلغ قعرها ويؤتى بالغلول فيقذف معه ثم يقال لمن غل به ائت به ؛ فذلك قوله : ﴿ **ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة** ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم خيبر أقبل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا : فلان شهيد وفلان شهيد حتى أتوا على رجل فقالوا فلان شهيد . فقال رسول الله ﷺ : (كلا إنى رأيته فى النار فى بردة غلها ــ أو عباءة) .

ثم قال رسول الله ﷺ : « اذهب فناد فى الناس ، إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون » . قال فخرجت فناديت «إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ كقوله جل شأنه : ﴿ **واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[2] وكقوله جل جلاله : ﴿ **فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[3] وكقوله تبارك وتعالى ﴿ **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾[4] .

فعلى كل عاقل مدرك أن يعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

يا من بدنياه اشتغل ... وغره طول الأمل
الموت يأتى بغتة ... والقبر صندوق العمل

عجبت لمن يؤمن بالموت كيف هو يفرح وعجبت لمن يؤمن بالنار كيف هو يضحك ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق ثم هو ينصب ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب غداً ثم هو لا يعجل ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم هو يطمئن إليها .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ... لا إله إلا الله أفنى بها عمرى
لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى ... لا إله إلا الله أدخل بها قبرى
لا إله إلا الله ألقى بها ربى

---

(١) ص ٤٢٣ ابن كثيرج ١٠ .
(٢) الآية : ٢٨١ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ٢٥ من سورة آل عمران .
(٤) الآية : ١١١ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ أى لا يستوى من اتبع رضوان الله فيما شرعه ، فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير ، وهذه لها نظائر كثيرة فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾[1] وقوله : ﴿ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾[2] قال تعالى : ﴿ هم درجات عند الله ﴾ قال الحسن البصرى ومحمد بن اسحاق : يعنى أهل الخير وأهل الشر درجات ، وقال أبو عبيدة الكسائى : منازل يعنى متفاوتون فى منازلهم ، درجاتهم فى الجنة ودركاتهم فى النار ، كقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾[3] ولهذا قال تعالى : ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ . أى وسيوفيهم إياها لا ينقصهم خيراً ولا يزيدهم شراً ؛ بل يجازى كل عامل بعمله .

قوله تعالى : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

هذه نعمة عظمى أنعم الله بها على عباده ، فقد شاءت حكمته جل شأنه أن يكون الرسول الكريم من أنفسنا ، أى من جنسنا ، وليس من جنس آخر ، وهذه من نعم الله على المؤمنين فهو من أنفسهم ، ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾[4] أى من جنسكم وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم ﴾[8] فهذا أبلغ فى الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم ، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته فى فهم الكلام عنه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعنى القرآن ﴿ ويزكيهم ﴾ أى يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذى كانوا متلبسين به فى حال شركهم وجاهليتهم ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعنى القرآن والسنة ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أى من قبل هذا ﴿ لفى ضلال مبين ﴾ أى لفى غىٍّ وجهل ظاهر جلى بين لكل أحد .

يا سيدى يا رسول الله معذرة ... إذا كبا فيك تبيانى وتبصيرى
ماذا أوفيك من قدر ومعرفة ... وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير ... تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
علا جبينك نور الحق منبلجاً ... وفى يديك لواء العدل والنور

(١) من الآية : ١٩ من سورة الرعد .
(٢) الآية : ٦١ من سورة القصص .
(٣) من الآية : ١٣٢ من سورة الأنعام .
(٤) من الآية : ٢١ من سورة الروم .
(٥) من الآية الأخيرة من سورة الكهف/ ١١٠ .
(٦) من الآية : ٢٠ من سورة الفرقان .
(٧) من الآية : ١٠٩ من سورة يوسف .
(٨) من الآية : ١٣٠ من سورة الأنعام .

إرشاد وبيان

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾
وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا
لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ
وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ
أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

المفردات : المراد بالمصيبة : ما أصابهم يوم أحد من قتل وفرار .

﴿ مثليها ﴾ : أى ضعفها بقتل سبعين من المشركين وأسر سبعين منهم يوم بدر .

﴿ أنى هذا ﴾ : أى من أين لنا هذا وهو تعجب مما حل بهم من هذا المصاب .

﴿ من عند أنفسكم ﴾ : أى لمخالفتكم أمر رسول الله ، ﴿ الجمعان ﴾ : جمع المؤمنين وجمع المشركين . ﴿ فبإذن الله ﴾ : أى بإرادته الأزلية وقضائه السابق بارتباط المسببات بأسبابها .

﴿ فادرءوا ﴾ : أى فادفعوا ، ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ : أى فى رفع المكاره بالحذر .

لما حدث ما حدث يوم أحد من محنة ، أدت إلى وقوع الفرار وتفريق الصف ، قال جماعة **﴿ أنى هذا ﴾** أى من أين هذا الذى حدث فقال لهم الله تعالى : **﴿ هو من عند أنفسكم ﴾** أى بما حدث منكم من مخالفة للأوامر ، حتى إذا فشلتم فى الأمر وتنازعتم ، وكان ما كان من عصيان ؛ كل هذا أدى إلى تلك النتائج **﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾** فهو القادر على وقوع ما حدث بكم ، وما حدث لأعدائكم .

ثم بين سبحانه أنه المريد فقال : **﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ﴾** أى بإرادته وأنتم يا أصحاب الرسول الكريم ﷺ إن كانت قد نزلت بكم مصيبة يوم أحد ، فقد أصبتم قبلها يوم بدر ، لقد استشهد منكم سبعون يوم أحد ، وأنتم يوم بدر قتلتم من المشركين سبعين ، وأسرتم سبعين ، وما حدث يوم أحد لم يكن عبثاً ؛ إنما كان لحكمة بالغة ، ليظهر أمامكم مدلول علم الله بالمؤمنين والمنافقين ، قال جل شأنه : **﴿ وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾** أى لو نعلم أن قتالاً سيؤدى إلى شىء أو مصلحة لاتبعناكم ، وقاتلنا ، وهذه معاذير

تدل على المرض الكامن فى النفوس ، والجبن والحرص على الدنيا ، وقد حكم الله تعالى على هذه الفئة التى مرضت قلوبها وتعقدت نفوسها ؛ فقال : ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون** ﴾ .

إن الانسان المؤمن دائماً يكون سليم القلب لا يخفى العداء ويظهر الود ، لايلقاك بوجه أبى بكر وقلب أبى لهب ، إنما هو شجاع فى الحق لا يخاف فيه لومة لائم ، وهذا هو الذى وصف الله به حزبه فقال : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[١] .

أما الذين يضمرون فى القلوب سوءاً ، ويقولون بالأفواه كلاماً معسولاً . لقد نسوا أو تناسوا أن الله يعلم ما يكتمون ، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ثم حدثنا القرآن الكريم عن هؤلاء المتخاذلين ، الذين ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[٢] .

قال الله فى شأنهم : ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ .

لقد أصيب هؤلاء بمصيبتين : لقد قعدوا عن الجهاد جبنا وخوفاً ، وطمعاً فى مغنم رخيص ، والمصيبة الثانية أنهم خذلوا غيرهم عن القتال ، وحاولوا محاولات شتى فى سبيل تثبيطهم ، ولما استشهد الأبرار الأخيار قال عنهم هؤلاء ﴿ **لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ إنه النفاق إذا هاجت عقاربه فى الصدور ، وتحركت ثعابين بغضائه فى النفوس المريضة ، واشتعلت فيها البغضاء اشتعال النار فى الحلفاء[٣] ، وهاج فيها الحقد فسرى سريان السم الزعاف فى الأحشاء ، وقد جاء الرد من الله جلت قدرته على هؤلاء المنافقين الجبناء الرعاديد ﴿ **قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ ومن الذى يستطيع ذلك ﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[٤] .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء منقول
فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول[٥]

(١) من الآيات : ٥٤ – ٥٦ من سورة المائدة .
(٢) الآية : ٨٧ من سورة التوبة .
(٣) الحلفاء بفتح الحاء وسكون اللام نبات نيلى ينمو قريبا من الشواطىء سريع الجفاف سريع الاشتعال . . وله فوائد طبية فى معالجة بعض الأمراض .
(٤) الآية : ٨ من سورة الجمعة .
(٥) من قصيدة كعب بن زهير عندما عاد تائبا مسلما بعد كفر وهجاء للاسلام والمسلمين . . فعفا عنه رسول الله ﷺ .

الشهداء أحياء

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ
بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟
حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

المفردات : **الاستبشار** : السرور الحاصل بالبشارة و ﴿ **الذين لم يلحقوا بهم** ﴾ هم الذين بقوا فى الدنيا . ﴿ **استجابوا** ﴾ أجابوا وأطاعوا و ﴿ **القرح** ﴾ الجراح فى يوم أحد . **الإحسان** : أن يعمل الانسان العمل على أكمل وجوهه الممكنة . **التقوى** : أن يخاف الإساءة والتعقيد فيه ، ﴿ **حسبنا الله** ﴾ أى الله كافينا . ﴿ **الوكيل** ﴾ : الكافى الذى توكل إليه الأمور ﴿ **فانقلبوا** ﴾ أى فرجعوا ، والمراد **بالنعمة** : السلامة والثبات على الإيمان وطاعة الرسول **والفضل** : هو الربح فى التجارة .

ما أعظم الشهادة وما أجل قدرها عند الله ، وما أكرم الشهداء وما أرفع منازلهم ودرجاتهم ؛ يكفيهم فخراً أن الله جلت قدرته قال فيهم : ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾[1] ويكفيهم مكانة أن الله تعالى قال فيهم : ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾[2] ويكفيهم قرباً من الله تعالى أنه جل شأنه قال فى شأنهم ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ .

قال محمد بن جرير عن أنس بن مالك فى أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرسلهم نبى الله إلى أهل بئر معونة قال : لا أدرى أربعين أو سبعين ، وعلى ذلك الماء عامر بن الطفيل الجعفرى ، فخرج أولئك النفر من

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة الحديد .
(٢) من الآية : ١٤٠ من سورة آل عمران وقد سبق تفسيرها .

أصحاب رسول الله ﷺ ، حتى أتوا غارا مشرفا على الماء ، فقعدوا فيه ، ثم قال بعضهم لبعض أيكم يبلغ رسالة رسول الله ﷺ أهل هذا الماء ، فقال ـ أراه أبو ملحان الأنصارى ـ أنا أبلغ رسالة رسول الله ﷺ ، فخرج حتى أتى حول بيوتهم واحتبى أمام البيوت ثم قال : يا أهل بئر معونة إنى رسول رسول الله إليكم ؛ إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، فآمنوا بالله ورسوله ، فخرج إليه رجل من كسر البيت برمح فضربه فى جنبه حتى خرج من الشق الآخر فقال : «الله أكبر فزت ورب الكعبة ، فاتبعوا أثره حتى أتوا أصحابه فى الغار ، فقتلهم أجمعين عامر بن الطفيل .

وقد قال مسلم فى صحيحه : عن مسروق قال : إنا سألنا عبد الله عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : (أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ فقالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا ، حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس بهم حاجة تركوا) .

وقد روى الإمام أحمد بإسناده عن أنس أن رسول الله ﷺ ، قال : (ما من نفس تموت لها عند الله خير يسرها أن ترجع إلى الدنيا إلا الشهيد فإنه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى مما يرى من فضل الشهادة) تفرد به مسلم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن جابر قال : قال لى رسول الله ﷺ : (أعلمت أن الله أحيا أباك فقال له : تمن . فقال له أرد إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى . قال إنى قضيت أنهم إليها لا يرجعون) .

وروى أحمد بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم قالوا ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ وما بعدها) .

عن جابر بن عبد الله قال : نظر إلىَّ رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : (يا جابر مالى أراك مهتمًّا ؟ . قلت يا رسول الله استشهد أبى وترك دَيْنا وعيالا ، قال : فقال : «ألا أخبركم ما كلم الله أحدا قط إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحاً) . قال على : والكفاح المواجهة . « قال سلنى أعطك ؛ قال : أسألك أن أرد إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية ، فقال الرب عز وجل إنه قد سبق منى القول إنهم إليها لا يرجعون ، قال أى رب فأبلغ من ورائى ، فأنزل الله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً ﴾ الآية .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية» تفرد به أحمد .

وروى الإمام أحمد عن محمد بن إدريس الشافعى ، عن مالك بن أنس عن الزهرى عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (نسمة[1] المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه ، قوله «يعلق» أى يأكل ، وفى هذا الحديث (إن روح المؤمن تكون على شكل طائر فى الجنة) وأما أرواح الشهداء فكما تقدم فى حواصل طير خضر ، فهى كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين ، فإنها تطير بأنفسها . فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على الإيمان .

قوله تعالى : ﴿ فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ أى إن هؤلاء الشهداء البررة فى حال فرح وسرور ، بما آتاهم الله من ﴿ جنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾[2] ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الله ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ أى أن الشهداء الذين سبقوا إلى الله يطلبون البشارة والسرور باستشهاد الذين لم يلحقوا بهم ، ولم يقدموا عليهم ، لما فى الشهادة من درجة عليا وإكرام وفضل ، فالشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، ويرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويأمن يوم الفزع ، ويشفع لسبعين من أهل بيته ، ويزوج باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار ، أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا وما فيها ﴿ ألا خوف عليهم ﴾ مما سيأتى ﴿ ولاهم يحزنون ﴾ على ما مضى ، لأنهم ﴿ يستبشرون بنعمة من الله وفضل ﴾ والله جلت حكمته وعظمت قدرته ﴿ لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ الذين قاتلوا فى سبيله لا لمغنم أو لمنصب ، أو عرض أو سمعة أو رياء ، إنما جاهدوا لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، واستجابوا لله والرسول ، فلبوا النداء ، عندما هتف الداعى ونادى بالجهاد ، وقد أصيبوا بالقرح والجروح يوم أحد ، وكان هذا يوم حمراء الأسد .

رُوى أن أبا سفيان وأصحابه لما رجعوا من أحد فبلغوا الروحاء «موضع بين مكة والمدينة» ندموا ؛ وهمّوا بالرجوع ، حتى يستأصلوا من بقى من المؤمنين ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فأراد أن يرهبهم ، ويريهم من نفسه وأصحابه قوة ، فندب أصحابه للخروج فى إثر أبى سفيان ، وقال : لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس ، فخرج رسول الله ﷺ مع جماعة من أصحابه ، حتى بلغوا حمراء الأسد (موضع على ثمانية أميال

---

(١) النسمة : النفس يعنى نفس المؤمن .

(٢) من الآيتين : ٢١ ، ٢٢ من سورة التوبة .

(٣) الآيات : ١٥ - ١٩ من سورة الذاريات .

من المدينة) وكان بأصحابه القرح فتحاملوا على أنفسهم حتى لا يفوتهم الأجر ، وألقى الله الرعب فى قلوب المشركين ، فذهبوا إلى مكة مسرعين ، فنزلت الآية .

وتسمى هذه الغزوة غزوة حمراء الأسد ، وهى متصلة بغزوة أحد .

قوله تعالى : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ أى وهم الذين قال لهم نعيم بن مسعود الأشجعى ومن وافقه وأذاع قوله ، وهم أربعة : إن أبا سفيان وأعوانه جمعوا الجموع لقتالكم فاخشوهم ولا تخرجوا للقائهم(١) .

وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة : أن الآية نزلت فى غزوة بدر الصغرى . ذاك أن أبا سفيان قال حين أراد أن ينصرف من أحد : يا محمد موعدنا موسم بدر القابل إن شئت ؛ فقال النبى ﷺ : ذاك بيننا وبينك إن شاء الله ، فلما كان العام القابل خرج أبو سفيان فى أهل مكة حتى نزل (مجنّة)(٢) من ناحية (مر الظهران) فألقى الله الرعب فى قلبه ، فبدا له الرجوع فلقى نعيم بن مسعود ، وقد قدم معتمرا ، فقال له أبو سفيان : إنى واعدت محمداً وأصحابه أن نلتقى بموسم بدر ، وإن هذا عام جدب ولا يصلحنا إلا عام نرعى فيه الشجر ونشرب فيه اللبن ، وقد بدا لى أن أرجع وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج ، فيزيدهم ذلك جرأة ، فألحق بالمدينة فثبطهم ولك عندى عشرة من الإبل أضعها فى يدى سهيل بن عمرو ، فأتى نعيم المدينة فوجد المسلمين يتجهزون لميعاد أبى سفيان ، فقال لهم : ما هذا بالرأى أتوكم فى دياركم وقراركم ولم يُفلت منكم إلا شريد ، وتريدون أن تخرجوا إليهم ، وقد جمعوا لكم الجموع عند الموسم ، فو الله لا يفلت منكم أحد ، فكان لكلامه وقع شديد فى نفوس قوم منهم ، فقال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده لأخرجن ولو وحدى) فخرج ومعه سبعون راكبا يقولون : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ . حتى وافى بدراً الصغرى « بدر الموعد » فأقام بها ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان فلم يلق أحداً ، لأن أبا سفيان رجع بجيشه إلى مكة وكان معه ألفا رجل ، فسماه أهل مكة جيش السويق وقالوا لهم إنما خرجتم لتشربوا السويق .

ووافى المسلمون سوق بدر وكانت معهم نفقات وتجارات فباعوا واشتروا أدَماً وزبيبا ، فربحوا وأصابوا بالدرهم درهمين ، وانصرفوا إلى المدينة سالمين غانمين .

﴿ فزادهم إيمانا ﴾ أى زادهم هذا القول إيمانا بالله وثقة به ، ولم يلتفتوا إلى تخويفهم ، بل حدث فى قلوبهم عزم وتصميم على محاربة هؤلاء الكافرين ، وطاعة للرسول ﷺ فى كل ما يأمر به وينهى عنه ، وإن أضناهم ذلك وثقل عليهم ، لما بهم من جراحات عظيمة وقد كانوا فى حاجة إلى قسط من الراحة وشىء من التداوى ، لكن وثوقهم بنصر الله وتغلبهم على عدوهم ، أنساهم كل هذه المصاعب ، فلبوا الدعوة سراعا .

---

(١) سبحان مقلب القلوب ، فقد أسلم نعيم بن مسعود فى غزوة الخندق وجاء إلى الرسول ﷺ يستأذن فى أن يصنع شيئا لخدمة الاسلام فقال له الرسول ﷺ : «خذل عنا فإن الحرب خدعة ، فذهب إلى قريش ويهود مرة ليشكك فيما كان الطرفان اتفقا عليه من النصرة حتى أتت الريح ففرقت جموع المشركين .

(٢) كانت سوقا من أسواق الموسم «موسم الحج» فى الجاهلية .

والخلاصة :

أن هذا القول الذى سمعوه زاد شعورهم بعزة الله ، وعظمته وسلطانه ، ويقينهم بوعد الله ووعيده ، وتبع ذلك زيادة فى العمل ودأب على إنفاذ ما طلب الرسول ﷺ ، ولولا ذلك ما أقدموا على الاستجابة على ما كاد يكون وراء حدود الإمكان .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليماً ﴾[1] .

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ أى قالوا معبرين عن صادق إيمانهم بالله : الله يكفينا ما يهمنا من أمر الذين جمعوا الجموع لنا ، فهو لا يعجزه أن ينصرنا على قلتنا وكثرتهم ، أو يلقى فى قلوبهم الرعب فيكفينا شر بغيهم وكيدهم ، وقد كان الأمر كما ظنوا ! فألقى الله الرعب فى قلب أبى سفيان وجيشه على كثرة عُددهم وتوافر عُددهم ، فولوا مدبرين ، وكان فى ذلك عزة لله ولرسوله وللمؤمنين . . أخرج ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » : وأخرج ابن أبى الدنيا عن عائشة رضى الله عنها «أن النبى ﷺ كان إذا اشتد غمّه مسح بيده على رأسه ولحيته ، ثم تنفس الصعداء وقال : حسبى الله ونعم الوكيل» .

وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (حسبى الله ونعم الوكيل أمان كل خائف) .

قوله تعالى : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ روى البيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن عيراً مرت فى أيام الموسم فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالا فقسمه بين أصحابه فذلك الفضل .

وأخرج ابن جرير عن السدى قال : أعطى رسول الله ﷺ حين خرج فى بدر الصغرى أصحابه دراهم ابتاعوا بها فى الموسم فأصابوا ربحاً كثيراً .

إن هؤلاء القوم الذين رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، لما قالوا : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وهى أمان الخائف ، ملأ الله قلوبهم طمأنينة وسكينة ، وقذف فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فانقلبوا راجعين ، ترفرف عليهم رايات الشيطان ، ويجللهم عار الهزيمة ، أما المؤمنون الصادقون فقد انقلبوا إلى أهلهم بنعمة التثبيت والسكينة وفضل من الله ، بما مَنَّ عليهم من الرزق .

وهكذا قال الإمام جعفر الصادق : عجبت لمن ابتلى بأربع كيف ينسى أربعاً ، عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وقد قال جل شأنه : ﴿ الذين قال لهم الناس

(١) الآية : ٢١ من سورة الأحزاب .

إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وقال الله بعد ذلك : ﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾[١] وقد قال الله بعد ذلك ﴿ فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾[٢] وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾[٣] وقد قال الله بعد ذلك : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾[٤] وعجبت لمن ابتلى بمكر الأعداء كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾[٥] وقد قال الله بعد ذلك ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾[٦] .

إن هذه الصفوة المختارة اتبعوا رضوان الله فساروا وراء كل ما يحقق هذا الرضوان من فعل الخيرات وترك المنكرات والفضل كله لله وحده ، يؤتيه من يشاء والله ذو فضل عظيم ، يختص برحمته من يشاء ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً ﴾[٧] قوله تعالى : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ . أى يخوفكم أولياءه ويوهمكم أنهم ذو بأس وذو شدة قال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ إذا سول لكم وأوهمكم ، فتوكلوا علىَّ والجأوا إلىَّ فإنى كافيكم وناصركم عليهم ، قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ﴾[٨] إلى قوله ﴿ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[٩] وقال تعالى : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾[١٠] وقال تعالى : ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[١١] وقال ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[١٢] وقال ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾[١٣] وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ﴾[١٤] وقال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[١٥].

---

(١) من الآية : ٨٣ من سورة الأنبياء .
(٢) من الآية : ٨٤ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء .
(٤) من الآية : ٨٨ من سورة الأنبياء .
(٥) من الآية : ٤٤ من سورة غافر .
(٦) من الآية : ٤٥ من سورة غافر .
(٧) الآية : ٤ من سورة الفتح .
(٨، ٩) : الآيات من ٣٦ - ٣٨ من سورة الزمر .
(١٠) من الآية : ٧٦ من سورة النساء .
(١١) من الآية : ١٩ من سورة المجادلة .
(١٢) الآية : ٢١ من سورة المجادلة .
(١٣) من الآية : ٤٠ من سورة الحج .
(١٤) من الآية : ٧ من سورة محمد ﷺ .
(١٥) الآيتان : ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

تثبيت النبى ﷺ

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ
حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا
نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ
عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن
رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

المفردات : ﴿ **ولا يحزنك** ﴾ : حزن يحزن أو حزن يحزن بمعنى يكدرك ويؤلمك ، ﴿ **حظا** ﴾ : نصيباً ، ﴿ **اشتروا الكفر** ﴾ : أخذوا الكفر بدلا من الإيمان كما يفعل المشترى يعطى شيئاً ويأخذ بدله .

﴿ **نملى** ﴾ : نمهل والإملاء الإمهال والتملية بين الإنسان وشأنه يفعل ما يشاء ومأخوذ هذا من قولهم أملى لفرسه إذا أرخى لها الحبل لترعى ما تشاء .

﴿ **ليذر** ﴾ : ليترك ، ﴿ **يميز** ﴾ : أى يميز من مازه بمعنى ميزه ، ﴿ **الخبيث من الطيب** ﴾ : المراد بهما المؤمن والمنافق ، ﴿ **يجتبى** ﴾ : يختار .

لما أظهر الكافرون والمنافقون ما كانوا يضمرونه للنبى ﷺ من أمثال قولهم لو كان محمد نبياً ما قتل وما هزم ، وأسرعوا فى نصرة الكفار وتثبيط المؤمنين عن القتال ، كل هذا كان يؤلم النبى ﷺ ويحزنه فنزلت هذه الآيات تسلية له وتثبيتاً لقلبه .

لما حدث يوم أحد ما حدث من محنة ، وتنازع فى الأمر وجروح وقرح ، وأصاب النبى ﷺ والمؤمنين شيء كثير من الأذى ، أظهر بعض المنافقين كفرهم ، وصاروا يخوفون المؤمنين ويؤيسونهم من النصر والظفر بعدوهم ، ويقولون لهم : إن محمداً طالب مُلك ، فتارة يكون الأمر له ، وتارة عليه ، ولو كان رسولاً من عند الله ما غلب ؛ إلى نحو هذه المقالة ، مما ينفر المسلمين من الإسلام ، فكان الرسول يحزن لذلك ، ويسرف فى الحزن ، فنزلت هذه الآيات تسلية له ، كما سلاه عما يحزن من إعراض الكافرين عن الإيمان ، أو طعنهم فى القرآن أو فى شخصه عليه الصلاة والسلام ، كقوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً ﴾[1] وقوله : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[2] .

---

(١) من الآية : ٦٥ من سورة يونس .
(٢) الآية : ٦ من سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ أى ولا يحزنك أيها الرسول مسارعة المنافقين وطائفة من اليهود ، إلى نصرة الكافرين واهتمامهم بشأنهم ، والإيجاف فى مقاومة المؤمنين ، بكل ما أوتوا من الوسائل ، ومن التشبيط للعزائم والنيل من نبيهم ودعوته ، وتأليب المشركين عليهم ، إلى نحو ذلك مما يدور فى خلد العدو لإيذاء عدوه .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا ﴾(١) .

وتوجيه الخطاب للنبى ﷺ تسلية له ، وإيذان بأنه الرئيس المعتنى بشئونه ، ثم علل هذا وأكمل التسلية بتحقيق نفى ضررهم أبدا بقوله : ﴿ إنهم لن يضروا الله شيئاً ﴾ أى أنهم لن يضروا أولياء الله ، وهم النبى وصحبه ، شيئاً من الضر ، فعاقبة هذه المسارعة فى الكفر وبال عليهم لا عليك ، ولا على المؤمنين ، فإنهم لا يحاربونك فيضروك ، وإنما هم يحاربون الله تعالى ، ولا شك أنهم أعجز من أن يفعلوا ذلك ، فهم إذن لا يضرون إلا أنفسهم ، وفى جعل مضرتهم مضرة لله تعالى تشريف لهم ، ومزيد مبالغة فى تسليته ﷺ .

ثم بين أنهم لا يضرون إلا أنفسهم فقال : ﴿ يريد الله ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ﴾ أى أن سر ابتلائهم ، ما هم فيه من الانهماك فى الكفر ، وقد قضى ذلك بحرمانهم من نعيم الآخرة ، وفق ما تقتضيه سنة الله وإرادته ، ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ أى أنهم على حرمانهم من الثواب ؛ لهم عذاب عظيم لا يقدر قدره .

وبعد أن بين حكم أولئك الذين يسارعون إلى نصرة الكفر ، والدفاع دونه ، ومقاومة المؤمنين لأجله ، وأرشد إلى أنه لا يؤبه بهم ، ولا يهتم بشأنهم ، فهم إنما يحاربون الله ، والله غالب على أمره ؛ أشار هنا إلى أن هذا حكم عام يشمل كل من آثر الكفر على الإيمان واستبدله به فقال : ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴾ ، أى أن الذين أخذوا الكفر بدلا من الإيمان ، رغبة فيما أخذوا وإعراضاً عما تركوا ، فلن يضروا الله شيئاً وإنما يضرون أنفسهم بما لهم من العذاب الأليم ، الذى لا يقدر قدره وفى هذا إيماء إلى شيئين :

١ - تأكيد عدم إضرارهم بالنبى ﷺ .
٢ - بيان سُخف عقولهم وخطل آرائهم ، إذ هم كفروا أولا ثم آمنوا ثم كفروا بعد ذلك ، وهذا دليل على شدة اضطرابهم ، وعدم ثباتهم ، ومثل هؤلاء لا يخشى منهم شىء ، مما يحتاج إلى أصالة الرأى وقوة التدبير .

ثم بين أن رغبة الكافرين عن الجهاد حباً فى الحياة ليس من الخير لهم فقال : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾ أى ولا يحسبن هؤلاء

---

(١) من الآية : ٤١ من سورة المائدة .

الكافرون ؛ أن إمهالنا لهم وإطالة أعمارهم خير لأنفسهم ، فإنه لا يكون كذلك إلا إذا ازدادوا فيه عملا صالحا ، ينتفعون به فى أنفسهم بتزكيتها وتطهيرها من شوائب الأدران وسىء الخلق ، وينتفع به الناس فى تهذيبهم وتحسين معايشهم ، ولكن هؤلاء لا يزدادون بجهلهم وسوء اختيارهم إلا إثما يضرهم فى أنفسهم ، بالتمادى فى مكابرة الحق ، وتأييد سلطان الشر فى الخلق ، فحياة هؤلاء المتخلفين عن الجهاد ليست خيراً من قتل أولئك الذين قتلوا يوم أحد ، إذ بقاؤهم صار وسيلة للخزى فى الدنيا والعقاب الدائم فى الآخرة ، وقتل هؤلاء صار سبيلاً للثناء الجميل فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى الآخرة .

فترغيب أولئك المثبطين عن الجهاد فى مثل هذه الحياة ، وتزيينها لهم ، مما لا ينبغى أن يروج إلا عند الجهال ، الذين لا يفهمون قيمة الحياة الحقة ، التى يجب أن تكون نصب عين العاقل .

والخلاصة ـ أن هذا الإمهال والتأخير ليس عناية من الله بهم ، وإنما هو قد جرى على سننه فى الخلق ، بأن ما يصيب الإنسان من خير أو شر فإنما هو ثمرة عمله ، ومن مقتضى هذه السنة : أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره ، وسبباً لاسترساله فى فجوره ، ونتيجة ذلك الإثم الذى يكسبه ، العذاب المهين .

وفى الآية من العبرة :

١ - إن من شأن الكافر أن يزداد كفراً بطول عمره ، ويتمكن من العمل بحسب استعداده .

٢ - إن من شأن المؤمن : إذا أنسأ الله أجله ، أن تكثر حسناته وتزداد خيراته ، فليجعل المؤمن هذا دستوراً فيما بينه وبين ربه ، ويحاسب نفسه على مقتضاه ، فإذا فقهه وعمل به ، خرج من الظلمات إلى النور ، وكان من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين .

ثم بين أن الشدائد هى محك صدق الإيمان فقال :

﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** ﴾ أى ما كان من سنن الله فى عباده ، أن يذر المؤمنين على مثل الحال التى كانوا عليها حين غزوة أحد ، حتى يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر حال كل منهما ، لأن الشدائد هى التى تميز قوىَّ الإيمان من ضعيفه ، وتزيل الالتباس بين الصادقين والمنافقين ، أما تكليف ما لا مشقة فيه ، كالصلاة والصدقة القليلة وغيرهما ، فيقبلها المنافق كما يقبلها صادق الإيمان ، لما فيها من حسن الأحدوثة والتمتع بمزايا الإسلام .

وفى الشدائد من الفوائد شىء كثير منها :

١ - اتقاء المنافق إذا علم نفاقه ، فقد يفضى صادق الإيمان ببعض أسرار الملة ، إلى المنافق لما يغلب من حسن الظن به ، حين يراه يؤدى الواجبات الظاهرة ويشارك الصادقين فى سائر الأعمال ، فإذا هو أفشاها عرف حاله وحذره المسلمون الصادقون .

٢ - أن تدرس الجماعة حالها ؛ إذ بتكشف أمر المنافقين تعرف أنهم عليها لا لها ، وكذلك تعرف حال ضعاف الإيمان الذين لم تربهم الشدائد .

٣ - إنها تدفع الغرور عن النفس إذ يغتر المؤمن الصادق ؛ فلا يدرك ما فى نفسه من ضعف فى الاعتقاد والأخلاق ، حتى تمحصه الشدائد وتبين له حقيقة أمره ، وقد يدور بخلد بعض الناس : أن أقرب وسيلة لتمييز المؤمن الصادق من المنافق ، أن يطلع الله المؤمنين على الغيب ، حتى يعرفوا حقائق أنفسهم وحقائق الناس الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، فيعرفوا أن فلاناً من أهل الجنة ، وفلاناً من أهل النار ، فأجاب الله عن هذا فقال :

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أى لم يكن من شأنه تعالى أن يطلع عامة الناس على الغيب ، إذ لو فعل ذلك لأخرج الإنسان من طبيعته ، فإنه تعالى خلقه ، يحصل رغائبه ويدفع المكاره عنه بالعمل الكسبى ، الذى تهدى إليه الفطرة وترشد إليه النبوة .

ومن ثم جرت سنته بأن يزيل هذا اللبس ، ويميز الخبيث من الطيب بالامتحان بالشدائد ، والتضحية بالنفس وبذل المال فى سبيل الحق والخير ، كما ابتلى المؤمنون فى وقعة أحد بخروج العدو بجيش عظيم لمقاتلتهم ، وابتلى الرماة منهم بالمخالفة ، وإخلاء ظهور قومهم لعدوهم ، وابتلوا بظهور العدو عليهم ، جزاء ما فعلوا من المخالفة ، فظهر نفاق المنافقين ، وزلزل ضعفاء المؤمنين زلزالا شديدا ، وثبت كملة المؤمنين ، وصاروا كالجبال الرواسى التى لا تزعزعها الرياح والأعاصير .

﴿ ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ﴾ أى ولكن الله يختار من رسله من يشاء ، فيطلعه على ما فى قلوب المنافقين من كفر ونفاق ، وعلى ما ظهر منهم من أقوال وأفعال ، كما حكى عنهم بعضه فيما سلف ، ويفضحهم به على رءوس الأشهاد ، ويخلصكم من كيدهم وخداعهم ، ونحو الآية قوله : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول ﴾(١) وفى التعبير بالاجتباء ؛ إشارة إلى أن الوقوف على أسرار الغيب منصب جليل ، تتقاصر عنه الهمم ، ولا يؤتيه الله إلا لمن اصطفاه لهداية الأمم .

وبعد أن رد على ما طعن به المنافقون فى نبوة محمد ﷺ ، من وقوع الكوارث التى حصلت فى أحد ، وبين أن فيه كثيرا من الفوائد : كتمييز الخبيث من الطيب ، أمرهم بالإيمان به فقال : ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أى فآمنوا بالله ورسله ، الذين ذكرهم الله فى كتابه ، وقص علينا قصصهم ، وعمم الأمر بالإيمان بالرسل جميعاً ، مع أن سوق الكلام فى الإيمان بالنبى ﷺ ، للإيماء إلى أن الإيمان به يقتضى الإيمان بهم ، لأنه ﷺ مصدق لما بين يديه من الرسل ، وهم شهداء على صحة نبوته .

﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ أى وإن تؤمنوا بما جاءوا به من أخبار الغيب ، مع تقوى الله بترك ما نهى عنه ، وفعل ما أمر به ، فلكم أجر عظيم لا يستطاع الوصول إلى معرفة كنهه .

وقل أن ذكر القرآن الإيمان إلا إذا قرن به التقوى ، كما قل أن ذكر الصلاة إلا قرن بها الزكاة ، حثاً على عمل البر والرأفة بالفقراء والبائسين ، وإشارة إلى أن الإيمان لا يكمل إلا بهما .

(١) من الآيتين : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .

البخل والادعاء الكاذب

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ
سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟
وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ
يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ
قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ
وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾

المفردات : ﴿ **ما آتاهم** ﴾ : أى ما أعطاهم من المال والعلم والجاه ، ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به** ﴾ : أى سيلزمون إثمه فى الآخرة كما يلزم الطوق الرقبة . ﴿ **ميراث السموات والأرض** ﴾ : أى ما يتوارثه أهلهما من مال وغيره ، ﴿ **سنكتب ما قالوا** ﴾ : أى سنعاقب عليه ولا نهمله ، ﴿ **ونقول ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ : أصل الذوق وجود الطعم فى الفم ثم استعمل فى إدراك سائر المحسوسات ، والحريق المحرق المؤلم ، ﴿ **وعذاب الحريق** ﴾ : أى عذاب هو الحريق أى سننتقم منهم ، ﴿ **عهد إلينا** ﴾ : أى أمرنا فى التوراة وأوصانا ، ﴿ **القربان** ﴾ : ما يتقرب به إلى الله من حيوان ونقد وغيرهما ، والمراد من النار : النار التى تنزل من السماء[1] ، ﴿ **البينات** ﴾ : هى المعجزات الواضحة ، ﴿ **الزبر** ﴾ : واحدها زبور : وهو الكتاب ، ﴿ **المنير** ﴾ : الواضح .

قوله تعالى : **﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾** .

---

(١) والنار التى تنزل من السماء هى الصواعق .

روى البخارى ، بإسناده عن أبي هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ (من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته ؛ مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزمتيه ـ يعنى بشدقيه ـ ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك) ثم تلا هذه الآية : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرًا لهم بل هو شر لهم ﴾ إلى آخر الآية .

وروى الإمام الحافظ أبو يعلى بإسناده ، عن ثوبان عن النبى ﷺ : (من ترك بعده كنزاً مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان ، يتبعه فيقول : من أنت ويلك فيقول : أنا كنزك الذى خلفت بعدك ، فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبع سائر جسده) إسناده جيد قوى .

وروى ابن جرير بإسناده عن أبي قزعة عن رجل عن النبى ﷺ قال : (ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده ، فيبخل به عليه ، إلا خرج له من جهنم شجاع يتلمظ حتى يطوقه) .

قوله تعالى : ﴿ ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾[(١)] فإذا كان الملك كله لله ، والأمر بيده جل فى علاه ، فالتزموا قوله جل شأنه : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾[(٢)] ولما كان الإنفاق وراءه من الدوافع ما هو كثير ، فقد ينفق الإنسان من المال ما يبتغى به وجه الله . وحده ، فيكون كما قال جل شأنه : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم * الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[(٣)] وكما قال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابلٌ فطل والله بما تعملون بصير ﴾[(٤)] .

وقد يكون الدافع للصدقة سمعة ورياءً ، ومنًّا وأذى ، فيكون المنفق كما حدثنا القران الكريم عنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[(٥)] وكما قال جل شأنه : ﴿ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾[(٦)] فالمال مال الله ، والكون ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، فإذا أنفقتم فابتغوا بالإنفاق وجه الله وحده ، ومن هنا فقد ختم الله الآية بقوله : ﴿ ولله ميراث

(١) الأيتان : ٢ ، ٣ من سورة الحديد .
(٢) الآية : ٧ من سورة الحديد .
(٣) الأيتان : ٢٦١ ، ٢٦٢ من سورة البقرة .
(٤) الآية : ٢٦٥ من سورة البقرة .
(٥) الآية : ٢٦٤ من سورة البقرة .
(٦) الآية : ٢٦٦ من سورة البقرة .

السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾ أى عليم بدقائق الأشياء وبواطن الأمور وحقائق الدوافع ، إن كانت لله ، أو للرياء والسمعة ، قال سبحانه فى الحديث القدسى الجليل « أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشركه » وقال فى الحديث القدسى الجليل «عبدى أنفق أُنفق عليك»[١] .

وكان يحيى بن معاذ يقول : عندما يموت ابن آدم يصاب بمصيبتين أولاهما أنه يترك ماله كله ، والثانية أنه يسأل عنه كله .

يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأمضيت وما عدا ذلك فذاهب وتاركه أياً كان .

وقد وردت عن النبى ﷺ أحاديث ، تدعو إلى البذل والعطاء ينشرح لها صدر المؤمن نورا ، منها على وجه المثال ما يلى ، حتى يقف المؤمن راغباً فى نور الوعد راهباً من نيران الوعيد :

- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فُلُوَّه[٢] ، حتى تكون مثل الجبل) . رواه البخارى ومسلم .
- وعن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : (إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلُوَّه أو فصيله[٣] حتى تكون مثل أحدٍ) رواه الطبرانى وابن حبان .
- عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله عز وجل ليدخل باللقمة الخبز وقبصة التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ؛ ثلاثة ، الجنة : رب البيت الآمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم الذى يناول المسكين ، فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدمنا) . رواه الحاكم والطبرانى .
- وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ ، قال : (ما نقصت صدقة من مال ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله عز وجل) رواه مسلم والترمذى .

قوله تعالى : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ .

قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾[٤] قالت لليهود : يا محمد افتقر ربك فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم .

---

(١) رواهما مسلم ، والأول رواه البخارى .
(٢) فلُوَّه أى فرسة التى يعتز بها أو دابته التى يركبها .
(٣) الفصيل ولد الناقة .
(٤) من الآية : ٢٤٥ من سورة البقرة .

وجاء فى سبب نزول هذه الآية أيضاً ، ما رواه ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أنه حدثه عن ابن عباس ، قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس[1] فوجد من يهود ناسا كثيرة ، قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال له أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول من عند الله ، قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوباً عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنياً ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ، ويعطينا ، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر رضى الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضرباً شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك . فقال رسول الله ﷺ : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر» فقال : يا رسول الله : إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأنهم أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال ؛ فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك ، وقال : ما قلت ذلك فأنزل الله فيما قال فنحاص : ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ الآية . رواه ابن أبى حاتم .

قوله تعالى : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ تهديد ووعيد ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ أى هذا قولهم فى الله ، وهذه معاملتهم رسل الله ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أى يقال لهم ذلك تقريعاً ، وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً ، وقوله تعالى ﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم فى كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها ، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما قال الله عز وجل : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات ﴾ أى بالحجج والبراهين ﴿ وبالذى قلتم ﴾ أى وبنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿ فلم قتلتموهم ﴾ أى فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ؟؟ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فاتبعوا الحق وانقادوا للرسل .

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير ﴾ أى لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كُذبوا ، مع ما جاءوا به من البينات ، وهى الحجج والبراهين القاطعة ﴿ والزبر ﴾ وهى الكتب المتلقاة من السماء ، كالصحف المنزلة على المرسلين ﴿ والكتاب المنير ﴾ أى الواضح الجلى .

وهكذا بين القرآن الكريم لنا ما انطوت عليه قلوب القوم من حقد وحسد وبغضاء للإسلام ، فقد أساءوا الأدب حتى مع الله خالق الأكوان ، ومبدع الإنسان ، فقالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، وقالوا يد الله

---

(١) دار كانت لليهود فى المدينة يجتمعون فيها حول علمائهم يدارسونهم التوراة ويلقون إليهم بتعاليمهم .

مغلولة ، وأساءوا الأدب مع الأنبياء وقتلوهم ، وناصبوهم العداء ، وادعوا كذباً وبهتاناً أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وادعوا أنهم شعب الله المختار ، وما زالوا وسيظلون يعيثون فى الأرض فسادا ، ويناصبون أهل الحق العداء ، أليسوا هم الذين قالوا لموسى : ﴿ اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ﴾[1] وكانت أقدامهم ما تزال مبتلة من ماء البحر قال : ﴿ أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾[2] أليسوا هم الذين قالوا لموسى ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾[3] أليسوا هم الذين قالوا لخاتم الأنبياء : ﴿ لن نؤمن لك حتى تأتينا بقربان تأكله النار ﴾ فألزمهم القرآن الحجة ودفعهم بالبينات ، إذ قال تعالى : ﴿ **قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** ﴾ هذه عادتهم وتلك طبيعتهم ، عادتهم اللجاج وطبيعتهم الالتواء ، والسخرية بأهل الحق والاستهزاء بأهل الإصلاح .

الموت والابتلاء

كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ
ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ
وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن
تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

المفردات : ﴿ **تُوَفَّوْن أجوركم** ﴾ : أى تعطونها وافية كاملة غير منقوصة ﴿ **زحزح عن النار** ﴾ نحّى عنها ففاز وسعد ونجا و ﴿ **متاع** ﴾ ما يتمتع به وينتفع مما يباع ويشترى و ﴿ **الغرور** ﴾ إصابة الغرّة والغفلة فيمن تخدعه وتغشه . ﴿ **لتبلون** ﴾ أى لتختبرن أى لتعاملنّ معاملة المختبرين ، لتظهر حالكم على حقيقتها ﴿ **فى أموالكم** ﴾ أى بالبذل فى سبيل الله وبالجوائح[4] والآفات ﴿ **وفى أنفسكم** ﴾ أى بالقتل والأسر فى سبيل الله وبالأمراض وفقد الأقارب ﴿ **الذين أوتوا الكتاب** ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿ **والذين أشركوا** ﴾ هم كفار العرب ﴿ **أذى كثيرا** ﴾ كالطعن فى الدين والافتراء على الله ورسوله و[**الصبر**] تلقى المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه ، مع دفعه بروية ومقاومة ما يحدث من الجزع ، و[**التقوى**] الابتعاد عن المعاصى ﴿ **من عزم الأمور** ﴾ أى من صواب التدبير وما ينبغى لكل عاقل أن يعزم عليه ، ويأخذ نفسه به من قولك عزمت عليك أن تفعل كذا ؛ أى ألزمتك إياه على وجه لا يجوز الترخص فيه .

---

(١) من الآية : ١٣٨ من سورة الأعراف .
(٢) الآية : ١٤٠ من سورة الأعراف .
(٣) من الآية : ٥٥ من سورة البقرة .
(٤) جمع جائحة وهى الكوارث التى تعم والنوائب التى تخص .

أخبر الله تعالى أن كل نفس لابد أن تذوق الموت ؛ وذلك بمفارقتها بدنها عندما يحين أجلها الذى قدره الله لها ، قال تعالى : ﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾(١) وقال جل شأنه : ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾(٢) وقال تبارك اسمه : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾(٣) وقال عز من قائل مخاطباً حبيبه ومصطفاه ﷺ ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾(٥) وقال تبارك اسمه : ﴿ ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾(٦) قال ابن أبى حاتم حدثنا عبد العزيز الأويسى ، حدثنا على ابن أبى على الهاشمى عن جعفر(٧) بن محمد بن على بن الحسين عن أبيه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : لما توفى النبى ﷺ ، وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسّه ولا يرون شخصه فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ إن فى الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك ، ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، قال جعفر بن محمد فأخبرنى أبى أن على بن أبى طالب قال أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام .

فالموت حكم قضاه الله على عباده ، ولو بقى أحد لأحد لبقى ابن المقعدين لهما ، والمقعدان رجل وامرأته بلغا من الكبر عتيا كان لهما ابن فتى قوى ، يحملهما إلى مسجد رسول الله ﷺ ليؤديا الصلاة ، وتخلفا ذات يوم فسأل الرسول ﷺ : « أين المقعدان ؟ قيل له يارسول الله لقد مات ابنهما !! فقال الصادق المعصوم « لو بقى أحد لأحد لبقى ابن المقعدين لهما » .

نعم كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت .

الموت كأس وكل الناس شاربه ... ياليت شعرىَ بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما ... يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما ... فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا ... وإن هفوا هفوة فالرب غفار

ثم ماذا بعد الموت ؟ البعث والجزاء ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فالدنيا قنطرة للآخرة ومزرعة لها .

---

(١) الأيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .
(٢) الآية ٨٨ من سورة القصص .
(٣) الأيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الزمر .
(٥) الأيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .
(٦) الآية ١١ من سورة المنافقون .
(٧) هو الملقب بجعفر الصادق .

غــداً تــوفى النفــوس مــا كسبت ويحصد الزارعــون ما زرعــوا !
إن أحسنــوا أحسنــوا لأنفسهم وإن أسـاءوا فبئس مـا صنعـوا

والسعيد هو الذى ينجو من النار ويدخل الجنة ، ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت أن السلامة فيهـا تـرك مـا فيهـا
لا دار للمرء بعـد المـوت يسكنها إلا التى كـان قبـل المـوت يبنيهـا
فـإن بنـاهـا بخير طـاب مسكنـه وإن بنـاهـا بشـر خـاب بـانيهـا
أيـن الملوك الـتى كـانـت مسـلّطة حتى سقـاها بكـأس الموت سـاقيهـا
أمـوالنـا لـذوى الميراث نجمعهـا ودورنـا لخـراب الـدهـر نبنيهـا
كم من مـدائن فى الآفاق قـد بنيت أمست خـرابـاً وأفنى الموت أهليهـا
لا تـركنن إلى الـدنيـا ومـا فيهـا فـالمـوت لاشـك يفنينـا ويفنيهـا
واعمل لدار غداً رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصـورهـا ذهب والمسـك طينتهـا والـزعفـران حشيش نـابت فيهـا

قال ﷺ : « لموضع سوط أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾ .

وعن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ، فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .

الدنيا دار فناء وما مثلها بالنسبة للآخرة إلا كما قال الصادق المعصوم .

« والله ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع إليه » لذا جاء التعبير القرآنى عن الحياة الدنيا بأنها ﴿ **متاع الغرور** ﴾ أى منفعة قليلة فانية ، تصيب وتخدع الغافلين ، وما الغرور إلا السراب الخداع ، فالناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، فإذا انتبهوا ندموا فإذا ندموا لا ينفع الندم .

حـكم المنيـة فى البـريـة جـار مـا هـذه الـدنيـا بـدار قـرار
بينـا يُـرى الإنسـان فيهـا مخبـراً حتى يُـرى خبـراً من الأخبـار
فـالـعيش نـوم والمنيـة يـقـظة والمـرء بـينهـما خـيـال سـارى
جُبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأحزان والأكدار
ومكلف الأيـام ضـد طبـاعهـا مـتـطلب فى المـاء جـذوة نـار

وكما قضى الله تعالى بالموت على عباده ، قضى بـالابتلاء فى المـال والنفس ، فمن نجح فى هـذا

الابتلاء ، فقد فاز بالخير العظيم ، قال جل شأنه : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفكسم ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[1] فلابد أن يبتلى المؤمن فى شىء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه فإن كان فى دينه صلابة ، زيد فى البلاء .

قوله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ هذا خطاب من الله جل شأنه للمؤمنين عند مقدمهم المدينة ، قبل وقعة بدر ، مسلياً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين ، وأمرٌ لهم بالصفح والصبر والعفو ، حتى يأتى الله بالفرج . فقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾ .

ذكر البخارى عند تفسير هذه الآية فقال : حدثنا أبو اليمان أنبأنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عروة بن الزبير : أن أسامة بن زيد حدثه : أن رسول الله ﷺ ، ركب على حمار عليه قطيفة فدكية ، وأردف أسامة بن زيد وراءه ، يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر ، حتى مر على مجلس فيه عبد الله بن أبى ابن سلول ، وذلك قبل أن يسلم ابن أبى ـ أى قبل أن يُظهر الإسلام ـ وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفى المجلس عبد الله بن رواحة فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة ؛ خمّر[2] عبد الله بن أبى أنفه بردائه ، وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله ﷺ ثم وقف ، فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبد الله بن أبى : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقاً ، فلا تؤذنا به فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه ، بلى يارسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى ﷺ يخفضهم حتى سكتوا ثم ركب النبى ﷺ دابته فسار ، حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال له النبى ﷺ : « ياسعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب » : يريد عبد الله بن أبى ، قال كذا وكذا ، فقال سعد يارسول الله اعف عنه واصفح ، فوالذى أنزل عليك الكتاب ، لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرة[3] على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله ، شرق بذلك فذلك الذى فعل به ما رأيت ، فعفا عنه رسول الله ﷺ »[4] وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب ، كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى ، قال الله تعالى : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين

---

(١) الآيات :/١٥٥ ـ ١٥٧ من سورة البقرة .

(٢) غطى أنفه ـ وفى بعض الروايات قبض أنفه .

(٣) يقصد المدينة المنورة .

(٤) وروى مسلم قريبا من معناه ، وقيل نزلت بعد ما قال فنحاص اليهودى « إن الله فقير ونحن أغنياء » فلطمه أبو بكر رضى الله عنه فشكاه إلى النبى ﷺ فنزلت الآية ، وقيل ردا على أشعار كعب بن الأشرف .. الخ .. القرطبى ج ٤ ص ٣٠٣ .

أشركوا أذى كثيرا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ﴾(١) .

وكان النبى ﷺ يتأول فى العفو ما أمره الله به ، حتى أذن الله له فيهم فلما غزا رسول ﷺ بدراً ، فقتل الله به صناديد كفار قريش ، قال عبد الله بن أبى ابن سلول ومن معه من المشركين وعبدة الأوثان : هذا أمر قد توجه ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام ، فبايعوا وأسلموا . . فكل من قام بحق أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر فلابد أن يؤذى ، فماله دواء إلا الصبر فى الله ، والاستعانة بالله ، والرجوع إلى الله .

من مساوىء أهل الكتاب

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

المفردات : [الميثاق] : العهد المؤكد . و ﴿ الذين أوتوا الكتاب ﴾ : هم اليهود والنصارى ﴿ لتبيننه للناس ﴾ أى لتظهرن جميع ما فيه من الأحكام والأخبار التى من جملتها نبوة محمد ﷺ : ﴿ ولا تكتمونه ﴾ : أى لا تؤولونه ولا تلقون الشبه الفاسدة والتأويلات المزيفة ﴿ فنبذوه وراء ظهورهم ﴾ : أى طرحوه ولم يعتدُّوا به ، ويقال للأمر المعتنى به : جعله نصب عينيه وألقاه بين عينيه ﴿ واشتروا به ثمنا قليلاً ﴾ : أى شيئاً من حطام الدنيا الفانية ﴿ بما أوتوا ﴾ أى بما فعلوا ﴿ أن يحمدوا ﴾ أى يحمدهم الناس . ﴿ بمفازة من العذاب ﴾ : : أى بمنجاة منه من قولهم فاز فلان : إذا نجا .

لقد أخذ الله تعالى العهد المؤكد على علماء اليهود والنصارى من الأحبار والرهبان وهم الذين عناهم الله بقوله ﴿ أوتوا الكتاب ﴾ وكان نص العهد ﴿ لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ ولكنهم فى سبيل أن يشتروا به ثمناً قليلاً وهو الدنيا الفانية الزائلة كتموا العهد ، وخانوا الميثاق ، وأنكروا نبوة الهادى البشير ﷺ ، لما جحدوا ذكر النبى الكريم فى التوراة والإنجيل ، ونبذوا هذا العهد وراء ظهورهم ، ولفظوه لفظ النواة ؛ حرصاً على الجاه الزائل ، والمنصب التافه ، والمغنم الفانى .

(١) الآية : ١٠٩ من سورة البقرة .

وقد توعد الإسلام الذين يكتمون العلم وعيداً شديداً : قال ﷺ : (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار)(١) .

وإذا كانت الآية قد نزلت فى علماء أهل الكتاب ؛ فإنها تعم كل من أعطاه الله علماً ينفع الله به العباد ، فعلى كل عالم أن يبين للناس الأحكام الربانية والتشريعات الإلهية ، وعليه أن يحذر الكتمان ، فإن هو خاف أن يُبَلِّغ الحق ، وخشى الناس ولم يخش الله ؛ ابتغاء الوصول إلى غرض دنيوى تافه وحقير ؛ فبئس ما اشترى به ، لقد اشترى بالكتمان دنيا يصيبها (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم)(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم** ﴾ قال البخارى حدثنا سعيد بن أبى مريم ، أنبأنا محمد بن جعفر ، حدثنى زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبى سعيد الخدرى : أن رجالاً من المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ ؛ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو ، تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا** ﴾ الآية(٣) . ومعنى قوله تعالى : ﴿ **يفرحون بما أتوا** ﴾ أى بما فعلوا من الخداع والمكر والنقائص يظنون أنهم قد نجحوا ، وفازوا وخدعوا المؤمنين ، وهم فى الحقيقة قوم خاسرون ، إذ أن الله تعالى حكم عليهم بأنهم ليسوا بمنجاة من العذاب ، ومن يفرح بفعل السوء ، ويحب أن يشكره الناس ويمدحوه ، ويحمدوه على شىء لم يفعله من الخير ؛ فهو يراوغ نفسه ويخدعها ، وليعلم هؤلاء أن الله جلت قدرته له ملك السموات والأرض ؛ فلا يخدع ، وله الملكوت كله ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ لو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، فإذا فعلت الخير فابتغ به وجه ربك ولاتكذب على الناس ، مدعياً أنك فعلت كذا وكذا ، وأنت لم تفعل ، تنتظر بذلك مدح الناس لك .

الله يدرى كل ما تضمر   يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع   خداع من يطوى ومن ينشر

كان المسيح ابن مريم عليه السلام يقول : يابنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن ألبسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله .

---

(١) رواه مسلم . (٢) الآية : ٧٧ من سورة آل عمران .

(٣) ورواه مسلم أيضا ، عن أبى سعيد وفى الصحيحين أن مروان ـ بن الحكم وكان أميرا على المدينة ـ قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقال : لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : مالكم ولهذه الآية : إنما أنزلت هذه الآية فى أهل الكتاب ، ثم تلا ابن عباس : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه ﴾ و﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ﴾ وقال ابن عباس : سألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروا بغيره ؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ، وما سألهم عنه .

الذكر والتفكر

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ
يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ
فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ
أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ
﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾
فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ
فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ
حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

المفردات : [الخلق] التقدير والترتيب الدال على النظام والإتقان . و ﴿ **السموات** ﴾ : ما علاك مما تراه فوقك ﴿ **والأرض** ﴾ : ما تعيش عليه ﴿ **اختلاف الليل والنهار** ﴾ تعاقبهما ومجىء كل منهما خلف الآخر ﴿ **لآيات** ﴾ لأدلة على وجود الله وقدرته ﴿ **الألباب** ﴾ واحدها لب وهو العقل ﴿ **قياماً وقعوداً** ﴾ واحدهما قائم وقاعد ﴿ **باطلاً** ﴾ أى عبثا لا فائدة منه ﴿ **سبحانك** ﴾ : أى تنزيهاً لك عما لا يليق بك ﴿ **قنا عذاب النار** ﴾ : أى اجعل العمل الصالح وقاية لنا من عذاب النار ويقال [أخزاه] : أى أذله وأهانه [الذنب] : هو التقصير فى المعاملة بين العبد وربه و [السيئة] : هى التقصير فى حقوق العباد ومعاملة الناس بعضهم بعضا ﴿ **وتوفنا** ﴾ : أى أمتنا و ﴿ **الأبرار** ﴾ واحدهم بارّ وهو المحسن فى العمل ﴿ **على رسلك** ﴾ : أى على تصديق رسلك و ﴿ **الميعاد** ﴾ الوعد ﴿ **استجاب** ﴾ : أى أجاب ﴿ **لا أضيع عمل عامل** ﴾ أى لا أترك ثوابه ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ أى مختلطون متعاونون ﴿ **فى سبيلى** ﴾ : أى بسبب طاعتى وعبادتى ودينى .

اشتمل هذا المشهد القرآنى الكريم على الذكر والفكر والدعاء ، والذكر هو استحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ووصفه جل ذكره بنعوت الجمال والجلال والكمال ، وذكر الله أكبر الوسائل فى النهى عن الفحشاء والمنكر ، لذا أمر الله به على كل حال فى الصلاة وغير الصلاة ، قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾(١) وقال جل شأنه : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾(٢) وقال فى هذه الآية : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ وقال جلَّ ذكره : ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾(٣) قال ﷺ : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا بلى ! قال : ذكر الله) .

واعلم يأخى أن الذكر على سبعة أنحاء : فذكر اللسان الثناء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر العينين البكاء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

ولابد للذكر أن يقترن بالتفكر ، فالذكر بلا تفكر خواء ، والتفكر بلا ذكر جفاء ، والذكر والتفكر وفاء وولاء ورضاء

وفى هذا المشهد دعوات من الذاكرين المتفكرين ، توجهوا بها إلى الله جلت قدرته ، وذكروا فيها اللفظ الكريم خمس مرات (ربنا) لذا قال جعفر الصادق(٤) : من سره أن يستجيب الله له فليذكر فى دعائه لفظ ربنا خمس مرات ، ثم تلا هذه الآيات الكريمة وقال : ألا تقرأون قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض ﴾ أى هذه فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه فى انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة ؛ من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات ، وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ، ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أى تعاقبهما وتقارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا ، فيطول الذى كان قصيراً ، ويقصر الذى كان طويلاً ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ لآيات لأولى الألباب ﴾ أى العقول التامة الزكية ، التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾(٥) ثم

---

(١) الآيتان : ٤١ ، ٤٢ من سورة الأحزاب .
(٢) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .
(٣) من الآية : ١٠٣ من سورة النساء .
(٤) هو جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه .
(٥) الآيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة يوسف .

وصف تعالى أولى الألباب ، فقال : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ كما ثبت فى الصحيحين عن عمران بن حصين : أن رسول الله ﷺ قال : « صلِّ قائماً ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جَنبك » أى لا يقطعون ذكره فى جميع أحوالهم ؛ بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم ﴿ ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ أى يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته ، وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته ، وقال الشيخ أبو سليمان الدارانى : إنى لأخرج من منزلى فما يقع بصرى على شىء إلا رأيت لله علىَّ فيه نعمة ، ولى فيه عبرة » رواه ابن أبى الدنيا .

وعن الحسن البصرى أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة ، وقال الفضيل :
قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقال سفيان بن عيينة : الفكرة نور يدخل قلبك ، وربما تمثل بهذا البيت :

إذا المرء كانت له فكرة ففى كل شىء له عبرة

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : طوبى لمن كان قِيلُه تذكراً ، وصمته تفكراً ، ونظره عبراً ، قال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وُطول الفكرة دليل على طرق باب الجنة ، وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ قط إلا علم ، ولا علم امرؤ قط إلا عمل ، وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله عز وجل حسن ، والفكرة فى نعم الله أفضل العبادة ، وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم بفكركم ، وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين ؛ إلى الجنة أو النار وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامعها وأطباقها ، وكان يبكىَ عند ذلك حتى يُرفع صريعاً من بين أصحابه وقد ذهب عقله .

وقال عبد الله بن المبارك : مر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال : ياراهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر ، كنز الرجال وكنز الأموال .

وعن ابن عمر أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه ، يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين فيقول : أين أهلُك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شىء هالك إلى وجهه ﴾[(١)] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ركعتان مقتصدتان فى تفكر خير من قيام ليلة ، والقلب ساه ، وقال الحسن البصرى : ياابن آدم كل فى ثلث بطنك واشرب فى ثلثه ودع ثلثه الآخر تتنفس للفكرة .

وقال بعض الحكماء : من نظر إلى الدنيا بغير العبرة انطمس من بصر[(٢)] قلبه بقدر تلك الغفلة . .

وقال بشر الحافى : لو تفكر الناس فى عظمة الله تعالى لما عصوه .

---

(١) من الآية : ٨٨ من سورة القصص .
(٢) بصر القلب هو البصيرة .

وقال الحسن عن عامر بن عبد قيس : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ يقولون : « إن ضياء الإيمان أو نور الإيمان التفكر » .

وعن عيسى عليه السلام أنه قال : ياابن آدم الضعيف ؛ اتق الله حيثما كنت وكن فى الدنيا ضعيفاً ، واتخذ المساجد بيتا ، وعلم عينيك البكاء ، وجسدك الصبر ، وقلبك الفكر ، ولا تهتم برزق غد .

وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه بكى يوماً بين أصحابه فسئل عن ذلك فقال : « فكرت فى الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ، ما تكاد شهواتها تنقضى حتى تكدرها مرارتها ، ولئن لم يكن فيها عبرة لمن اعتبر فإن فيها مواعظ لمن ادكر » .

وقال ابن أبى الدنيا : أنشدنى الحسين بن عبد الرحمن :

نزهة المؤمن الفكر * لذة المؤمن العبر تحمد الله وحده * نحن كل على خطر
رب لاه وعمره * قد تقضى وما شعر رب عيش قد كان فوق * المن مونق الزهر
فى خرير من العيون ، وظل من الشجر وسرور من النبات ، وطيب من الثمر
غيرته وأهله * سرعة الدهر بالغير نحمد الله وحده * إن فى ذا لمعتبر
إن فى ذا لعبرة * للبيب إن اعتبر

وقد ذم الله تعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال : ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون * وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[1] ومدح عباده المؤمنين : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾ قائلين : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أى ما خلقت هذا الخلق عبثا ؛ بل بالحق لتجزى ﴿ الذين أساءوا بما عملوا ﴾[2] وتجزى ﴿ الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[3] ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل ؛ فقالوا بالحق ﴿ سبحانك ﴾ أى عن أن تخلق شيئاً باطلاً ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ أى يأمن خلق الخلق بالحق والعدل ، يامن هو منزه عن النقائص والعيب والعبث ؛ قنا من عذاب النار بحولك وقوتك ، ووفقنا لأعمال ترضى بها عنا ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم وتجيرنا به من عذابك الأليم .

ثم قالوا : ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ أى أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أى يوم القيامة لا مجير لهم منا ، ولا مجير لهم عما أردت بهم ، ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان ﴾ أى داعيا يدعو إلى الإيمان وهو الرسول ﷺ : ﴿ أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ أى يقول آمنوا بربكم فآمنا ، أى فاستجبنا له واتبعناه ، أى بإيماننا واتباعنا نبيك ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أى استرها

---

(١) الأيتان : ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة يوسف .
(٢ ، ٣) من الآية : ٣١ من سورة النجم .

﴿ وكفر عنا سيئاتنا ﴾ فيما بيننا وبينك ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أى ألحقنا بالصالحين ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ﴾ قيل : معناه على الإيمان برسلك وقيل : معناه ما وعدتنا على ألسنة رسلك وهذا أظهر .

قوله تعالى : ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ أى على رؤوس الخلائق .

﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ أى لابد من الميعاد الذى أخبرت عنه رسلك وهو القيام يوم القيامة بين يديك .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران ، إذا قام من الليل لتهجده ؛ فقال البخارى رحمه الله :[١] بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : بت عند خالتى ميمونة[٢] فتحدث رسول الله ﷺ مع أهله ساعة ثم رقد : فلما كان ثلث الليل الآخر قعد فنظر إلى السماء فقال : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ الآيات . . ثم قام فتوضأ واستن ، ثم صلى إحدى عشرة ركعة[٣] ثم أذن بلال فصلى ركعتين ثم خرج فصلى بالناس الصبح وكان النبى ﷺ بعد قراءة هذه الآيات يدعو الله فيقول : (اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى سمعى نوراً وفى بصرى نوراً وعن يمينى نوراً وعن شمالى نوراً ومن بين يدى نوراً ومن خلفى نوراً ومن فوقى نوراً ومن تحتى نوراً وأعظم لى نوراً يوم القيامة) .

قال ابن مردويه : حدثنا على بن إسماعيل حدثنا أحمد بن على الحرانى حدثنا شجاع بن أشرس حدثنا حشرج بن نباتة الواسطى ، حدثنا أبو مكرم عن الكلبى وهو ابن جناب . عن عطاء قال : انطلقت أنا وابن عمر وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها ، فدخلنا عليها وبيننا وبينها حجاب ؛ فقالت ياعبيد ما يمنعك من زيارتنا ؟ قال : قول الشاعر زرْ غبا تزدد حبا ـ فقال ابن عمر ذرينا ، أخبرينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ ؛ فبكت وقالت كل أمره كان عجباً ، أتانى فى ليلتى حتى مس جلده جلدى ثم قال : « ذرينى أتعبد لربى عز وجل » قالت : فقلت والله إنى لأحب قربك وإنى أحب أن تعبد ربك ، فقام إلى القربة فتوضأ ، ولم يكثر صب الماء ، ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ، ثم سجد فبكى حتى بل الأرض ، ثم اضطجع على جنبه فبكى حتى إذا أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح قال فقال : يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر : فقال : ويحك يابلال وما يمنعنى أن أبكى وقد أنزل الله علىَّ فى هذه الليلة : ﴿ إن فى

---

(١) وروى مسلم مثله .

(٢) إحدى زوجات النبى ﷺ ، ذكر الحاكم عن ابن شهاب قال : خرج رسول الله ﷺ من العام القابل عام الحديبية معتمراً فى ذى القعدة سنة سبع وهو الشهر الذى صده المشركون عن المسجد الحرام ، حتى إذا بلغ يأجج ـ مكان ـ بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزن العامرية فخطبها عليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، وكانت أختها أم الفضل تحته ـ أى زوجة العباس ـ فزوجها العباس رسول الله ﷺ ، فأقام بسرف ـ مكان بعد ذلك بحين ، حتى قدمت ميمونة فبنى بها بسرف ، وقدر الله تعالى أن يكون موت ميمونة بنت الحارث بعد ذلك بحين ، فكان موتها حيث بنى بها رسول الله ﷺ ـ قال الحاكم وهو حديث صحيح على شرط مسلم .

(٣) وفى رواية : « ثلاث عشرة ركعة » .

خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ ثم قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » .

قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾ .

ومعنى الآية كما قال العلامة ابن كثير : أن المؤمنين ذوى الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره ، فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك بفاء التعقيب كما قال تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾

هذا تفسير للإجابة ؛ أى قال لهم مخبراً : إنه لا يضيع عمل عامل منكم لديه ، بل يوفى كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى ، وقوله : ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أى جميعكم فى ثوابى سواء ﴿ فالذين هاجروا ﴾(٢) أى تركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران ﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ أى ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ، ولهذا قال : ﴿ وأوذوا فى سبيلى ﴾ أى إنما كان ذنبهم إلى الناس ؛ أنهم آمنوا بالله وحده ، كما قال تعالى : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا وقتلوا ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل فى سبيل الله فيعقر جواده ، ويعفر وجهه بدمه وترابه ، وقد ثبت فى الصحيحين : أن رجلا قال : يارسول الله أرأيت إن قتلت فى سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ؛ أيكفر الله عنى خطاياى ؛ قال : (نعم) ، ثم قال : كيف قلت ؟ فأعاد عليه ما قال ، فقال : « نعم ! إلا الذى قال لى جبريل آنفا » ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى تجرى من خلالها الأنهار من أنواع المشارب ؛ من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن ، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وقوله : ﴿ ثوابا من عند الله ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم الكريم ؛ لا يعطى إلا جزيلا كثيراً ، كما قال الشاعر :

إن يعذب يكن غراما وإن يعط جزيلا فإنه لا يبالى

(١) الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .
(٢) تفصيل بعد إجمال لنوع من الأنواع التى لا يضيع الله عمل عامل منهم .
(٣) من الآية الأولى من سورة الممتحنة .
(٤) الآية : ٨ من سورة البروج .

وقوله : ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ أى عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً قال ابن أبى حاتم : ذكر عن دحيم بن إبراهيم ، قال : حدثنا الوليد بن مسلم أخبرنى جرير بن عثمان ؛ أن شداد بن أوس كان يقول : أيها الناس لا تتهموا الله فى قضائه ؛ فإنه لا يبغى على مؤمن ، فإذا أنزل بأحدكم شيئاً مما يحب فليحمد الله ، وإذا أنزل به شيئا مما يكره فليصبر وليحتسب فإن الله عنده حسن الثواب .

الجزاء العادل

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾
لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

المفردات : تقول : [غرنى] ظاهره ؛ أى قبلته على غفلة عن امتحانه(١) . ويقال فى الثوب إذا نُشر ثم أعيد إلى طيه رددته على غرِّه(٢) ، ﴿ تقلب الذين كفروا ﴾ : تَصَرفهم فى التجارات والمكاسب : ﴿ متاع قليل ﴾ أى ذلك الكسب والربح متاع قليل ، وإنما وصفه بالقلة لأنه قصير الأمد ﴿ مأواهم ﴾ مصيرهم ﴿ جهنم ﴾ هى الدار التى يجازى فيها الكافرون فى الآخرة و ﴿ المهاد ﴾ المكان الموطأ كالفراش و[النزل] : ما يهيأ للضيف النازل و ﴿ الأبرار ﴾ : واحدهم بار وهو المتصف بالبر ﴿ خاشعين ﴾ : أى خاضعين ﴿ اصبروا ﴾ : أى احبسوا نفوسكم عن الجزع مما ينالها و ﴿ صابروا ﴾ : أى اصبروا على شدائد الحرب مع أعداء الله و ﴿ رابطوا ﴾ : أى أقيموا فى الثغور رابطين خيولكم ، حابسين لها ، مترصدين للغزو ، و[التقوى] : أن تقى نفسك من غضب الله وسخطه ، و[الفلاح] : هو الفوز والظفر بالبغية المقصودة من العمل .

---

(١) أى دون امتحان لحقيقته .
(٢) أى أعدته إلى ظاهره .

بعدما بين الله تعالى ما أعده للمؤمنين والمؤمنات ؛ الذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيله ، وقاتلوا وقتلوا ، أعد لهم الله الدرجات العلى ، وأثابهم من فضله ورحمته ومغفرته ؛ ذكر الله تعالى بعد ذلك ما يفيد أن تقلب الكفار وتصرفهم وتنقلهم فى البلاد سعيا وراء تحصيل المال ، والحرص على الدنيا ، كل هذا عرض فان و ﴿ **متاع قليل** ﴾ لكن مصيرهم فى الآخرة نار وقودها الناس والحجارة ، عليها ملائكة غلاظ شداد ﴿ **وبئس المهاد** ﴾ مهادهم (لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين)[١] فأى بلاء هذا !! الفراش نار ، والغطاء نار ، اللهم أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة ، أما ﴿ **الذين اتقوا ربهم** ﴾ فامتثلوا أوامره واجتنبوا نواهيه ، فأولئك لهم جنات (فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم)[٢] هل يستوى ﴿ **بئس المهاد** ﴾ الذى أعد للكافرين ؛ مع قوله تعالى : ﴿ **نزلا من عند الله** ﴾ هل تستوى الأنهار التى تجرى مع ﴿ من هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾[٣] إن الذى عند الله خير للأبرار الأتقياء .

ثم أخبر سبحانه عن فريق من أهل الكتاب ؛ آمن بالله وما أنزل إلى رسول الله ، وما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل ، هذا الفريق خشعت قلوبهم[٤] لله جل شأنه ، فقاموا له يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، لم يبيعوا آخرتهم بدنياهم ، كذلك ﴿ **لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾ فالدنيا إلى شتات وكل حى إلى ممات ، وقد أخبر الله تعالى عن هذا الفريق بأن ﴿ **لهم أجرهم عند ربهم** ﴾ والذى حكم بهذا هو الله الذى سيحاسب الجميع ؛ دون ما عجز فهو سريع الحساب ، ودون ما نسيان : ﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ✽ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾[٥] ثم ختم الله تعالى هذه السورة الكريمة ؛ بتلك التوجيهات السديدة الرشيدة ، التى لو عمل بها المؤمنون لسعدوا فى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

أربعة أوامر ، ثم تعقبها نتيجة ، الأمر الأول : الصبر وهو ثبات باعث الدين ، وحبس النفس على ما تكره ، ومقاومة النفس الهوى ، لا تنقاد للقبائح ، فمعنى ﴿ **اصبروا** ﴾ أى احبسوا أنفسكم على تحمل الشدائد .

---

(١) الآية : ٤١ من سورة الأعراف .

(٢ ، ٣) من الآية : ١٥ من سورة محمد ﷺ ويقال لها أيضا سورة « القتال » .

(٤) هؤلاء هم عبد الله بن سلام وزيد بن سعنة وكعب الأحبار وغيرهم لم يبتغوا الأجر الكريم عند الله بشراء المجد الزائف مع الكفر فى الدنيا كغيرهم من أحبار اليهود ومن أصر على النصرانية من نصارى نجران وبطارقة هرقل ملك الروم الذين منعوه من الإيمان بمحمد ﷺ حفاظا على ملك أزاله الله بجهاد جند الإسلام .

(٥) الآيتان : ٥١ ، ٥٢ من سورة طه .

الأمر الثانى : ﴿ **وصابروا** ﴾ أى صابروا مع الأعداء فتحملوا أذاهم وجاهدوهم ، ولا تيأسوا من جهادهم .

الأمر الثالث : ﴿ **ورابطوا** ﴾ أى فى سبيل الله كما قال تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] وكذلك الرباط بجميع أنواع الأسلحة ، حتى يكون الدين كله لله ، وحتى لا تكون فتنة فى الأرض .

الأمر الرابع : ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أى خافوه فلا تعصوه ، واعملوا بما أنزل ، ولا تهملوه ، وارضوا بما قسم فلا تكفروه ، واستعدوا ليوم الرحيل فلا تنسوه ، ثم تأتى النتيجة بعد ذلك ﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ أى لتفلحوا وتلك نتيجة أكيدة ويقينية ، فمن صبر وصابر ورابط واتقى الله ؛ نال السعادة فى الدنيا ، ودار الكرامة فى الآخرة ، وسعد برضوان من الله ذلك هو الفوز العظيم .

(١) من الآية : ٦٠/ من سورة الأنفال .

سورة النساء

* **عدد آياتها** : مائة وسبعون وست ، نزلت بعد الممتحنة .
* **عدد كلماتها** : ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمس وأربعون ، وحروفها ستة عشر ألفا وثلاثون حرفا .

هذه السورة مدنية كلها : فقد روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ) .

وقد بنى النبى بعائشة فى المدينة فى شوال من السنة الأولى من الهجرة ووجه المناسبة بينها وبين آل عمران :

١ ـ أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ؛ وافتتحت هذه السورة بذلك ، وهذا من أكد المناسبات فى ترتيب السور .

٢ ـ أن فى السابقة ذكر قصة أحد مستوفاة ، وفى هذه بقية لها وهو قوله : ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين ﴾ فإنه نزل فى هذه الغزوة على ما ستعرفه بعد .

٣ ـ إنه ذكر فى السورة السالفة الغزوة التى بعد أحد وهى : « غزوة حمراء الأسد » بقوله : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ﴾ وأشير إليها هنا فى قوله : ﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ﴾ الآية .

* **اسم السورة** : سورة النساء الكبرى ، واسم سورة الطلاق سورة النساء الصغرى .
* **ما اشتملت عليه السورة** :

الأمر بتقوى الله فى السر والعلن ، وتذكير المخاطبين بأنهم من نفس واحدة ، بيان خلق آدم وحواء ، الأمر بصلة الرحم والنهى عن أكل مال اليتيم ، وما يترتب عليه من عظم الإثم والعذاب لآكليه ، بيان المناكحات وعدد النساء وحكم الصداق ، وحفظ المال من السفهاء ، وتجربة اليتيم قبل دفع المال إليه .

والرفق بالأقارب وقت قسمة الميراث ، وحكم ميراث أصحاب الفرائض ، وذكر ذوات المحارم .

وبيان طوْل الحرُة ، وجواز التزوج بالأمة ، والاجتناب عن الكبائر ، وفضل الرجال على النساء .

وبيان الحقوق ، وحكم السكران وقت الصلاة[1] ، وآية التيمم ، وذم اليهود . وتحريفهم التوراة ، وردّ الأمانات إلى أهلها ، وصفة المنافقين فى امتناعهم عن قبول أوامر القرآن ، والأمر بالقتال .

ووجوب رد السلام ، والنهى عن موالاة المشركين ، وتفصيل قتل العمد والخطأ .

---

(١) وذلك قبل نزول تحريم الخمر تحريما تاما ، وإن كان حكم صلاة السكران قائما .

وفضل الهجرة ، ووزر المتأخرين عنها ، والإشارة إلى صلاة الخوف من حال القتال ، والنهى عن حماية الخائنين ، وإيقاع الصلح بين الأزواج والزوجات ، وإقامة الشهادات ، ومدح العدل ، وذم المنافقين .

وذم اليهود ، وذكرقصدهم قتل عيسى عليه السلام ، وفضل الراسخين فى العلم .

وإظهار فساد اعتقاد النصارى ، وافتخار الملائكة والمسيح بمقام العبودية ، وذكر ميراث الكلالة ، والإشارة إلى أن الغرض من بيان الأحكام صيانة الخلْق من الضلالة ، فى قوله : ﴿ يبين الله لكم أن تضلُّوا ﴾ أى كراهة أن تضلُّوا .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ .

المفردات : ﴿ الناس ﴾ : اسم للجنس البشرى ﴿ تساءلون به ﴾ : أى يسأل به بعضكم بعضا بأن يقول : سألتك بالله أن تقضى هذه الحاجة ، ﴿ والأرحام ﴾ : أى خافوا من حق إضاعة الأرحام ، و[الرقيب] : المراقب ، وهو المشرف من مكان عال والمراد هنا بالرقيب الحافظ لأن ذلك من لوازمه .

قال ابن مسعود : إن فى سورة النساء لخمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا وما فيها قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾(٣) .

---

(١) الآية : ٤٠ من سورة النساء .
(٢) الآية : ٣١ من سورة النساء .
(٣) الآية : ٤٨ من سورة النساء .

وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[٢] .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : ثمانى آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت .

قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[٥] .

ثم ذكر قول ابن مسعود فى الآيات الباقيات .

وقد ورد فى تفسير هذه الآية الكريمة : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ أقوال عن المفسرين ، نرى أن خير ما قيل فى هذه الآية ؛ ما ذكره العلامة ابن كثير فى تفسيره العظيم ، حيث كان حريصاً كعادته ؛ أن يستشهد بالأحاديث الصحيحة والنصوص الصريحة ، وخير ما نفسر به القرآن : هو القرآن نفسه ، أو سنة رسول الله ﷺ ، لذا فإننا لا نريد شتاتاً فى الفكر ، أو شذوذاً فى الرأى ، فاخترنا أن نذكر هنا ما قاله ابن كثير .

قال رحمه الله تعالى :

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه ، وهى عبادته وحده لا شريك له ، ومنبهاً لهم على قدرته التى خلقهم بها ﴿ من نفس واحدة ﴾ وهى آدم عليه السلام ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ وهى حواء عليها السلام ؛ خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها فأعجبته ، فأنس إليها وأنست إليه .

وقد روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال : خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها فى الرجل ، وخلق الرجل من الأرض ، فجعلت نهمته فى الأرض فاحبسوا نساءكم[٦] .

وفى الحديث الصحيح : (إن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن استمتعت استمتعت بها وفيها عوج)[٧] .

---

(١) من الآية : ٦٤ من سورة النساء .
(٢) الآية : ١١٠ من سورة النساء .
(٣) الآية : ٢٦ من سورة النساء .
(٤) الآية : ٢٧ من سورة النساء .
(٥) الآية : ٢٨ من سورة النساء .
(٦) النهم . . شدة الرغبة فى الشىء .
(٧) رواه الشيخان .

وقوله : ﴿ وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ﴾ أى وذرأ منهما أى من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم فى أقطار العالم ، على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر .

ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ أى واتقوا الله بطاعتكم إياه قال إبراهيم ومجاهد والحسن ﴿ الذى تساءلون به ﴾ أى كما يقال أسألكم بالله وبالرحم ، وقال الضحاك واتقوا الله الذى تعاقدون وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ؛ ولكن بروها وصلوها ، وقرأ بعضهم ﴿ والأرحام ﴾ بالخفض[١] على العطف على الضمير فى به ، أى تساءلون بالله وبالأرحام كما قال مجاهد وغيره .

وقوله : ﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ أى هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم كما قال ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾[٢] وفى الحديث الصحيح : (أن تَعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٣] . وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ، ليعطف بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم ، وقد ثبت فى صحيح مسلم ؛ من حديث جرير بن عبد الله البجلى : أن رسول الله ﷺ حين قدم عليه أولئك النفر من مضر ـ وهم مجتابو النمار ، أى من عريهم وفقرهم ـ قام فخطب الناس بعد صلاة الظهر فقال فى خطبته : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ﴾ .

ثم قال : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾[٤] ثم حضهم على الصدقة فقال : (تصدق رجل من ديناره من درهمه من صاع بره من صاع تمره) وذكر تمام الحديث . وهكذا رواه أحمد وأهل السنن عن ابن مسعود فى خطبته الجامعة ، وفيها : ثم يقرأ ثلاث آيات هذه منها : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ الآية .

بحث فى حقيقة النفس أو الروح

قال العلماء : اختلف المسلمون فى حقيقة النفس أو الروح الذى يحيا به الإنسان ، وتتحقق وحدة جنسه ، على اختلاف أصنافه ، وأشهر آرائهم فى ذلك ، الرأى القائل :

إنها جسم نورانى علوى خفيف حىٌّ متحرك ، ينفذ فى جوهر الأعضاء ، ويسرى فيها سريان الماء فى الورد والنار فى الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار التى تفيض عليها من هذا الجسم

---

(١) الخفض هو الاعراب بالجرّ .

(٢) من الآية : ٦ من سورة المجادلة ، ومن الآية : ٩ من سورة البروج .

(٣) من الحديث الذى رواه الشيخان بسندهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر « الحديث » وفيه يسأل جبريل رسول الله ليبين للناس أمور دينهم . كما ذكر الرسول ﷺ فى ختام الحديث .

(٤) من الآية : ١٨ من سورة الحشر .

اللطيف ؛ وجد الحس والحركة الإرادية والفكر وغيرها ، وإذا فسدت هذه الأعضاء وعجزت عن قبول تلك الآثار ؛ فارق الروح البدن وانفصل إلى عالم الأرواح .

ومما يثبت ذلك أن العقل والحفظ والتذكر ؛ وهى أمور ثابتة قطعاً ؛ ليست من صفات هذا الجسد ، فلا بد لها من منشأ وجودى عبر عنه الأقدمون بالنفس أو الروح . وما مثلها إلا مثل الكهرباء .

فالماديون الذين يقولون لا روح إلا هذه الحياة ، يكون مثل الجسد عندهم مثل المستودع الكهربائى ، فهو بوضعه الخاص وبما يودع فيه من المواد ؛ تتولد فيه الكهرباء ، فإذا زال شىء مما أودع فيه أو أزيل تركيبه الخاص فقد الكهرباء ، وهكذا حال الجسم تتولد فيه الحياة بتركيب مزاجه بكيفية خاصة ، وبزوالها تزول الحياة .

والذين يقولون إن للأرواح استقلالا عن الجسد يكون مثل الجسد مثل الآلة التى تدار بكهرباء تأتى إليها من المولد الكهربائى ، فإذا كانت الآلة على وضع خاص فى أجزائها وأدواتها ؛ كانت مستعدة لقبول الكهرباء التى توجه إليها حتى تؤدى وظيفتها ، وإن فقدت منها بعض الأجزاء الرئيسية أو اختل وضعها الخاص تصبح غير قابلة للكهرباء ، ومن ثم لا تؤدى وظيفتها الخاصة بها .

الحفاظ على مال اليتيم

وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾

المفردات : [اليتيم] لغة : من مات أبوه مطلقاً ، لكن العرف خصصه بمن لم يبلغ مبلغ الرجال . ﴿ ولا تتبدلوا ﴾ : أى لا تستبدلوا ، ﴿ الخبيث ﴾ : هو الحرام ، ﴿ الطيب ﴾ : هو الحلال ، ﴿ حوباً كبيرا ﴾ : أى إثماً عظيماً ، [القسط] : النصيب ، وقسط : جار ، قال الله تعالى : ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾[1] وأقسط : عدل ، قال الله تعالى : ﴿ وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[2] ﴿ ما

(١) الآية : ١٥ من سورة الجن .
(٢) من الآية : ٩ من سورة الحجرات .

طاب لكم ﴾ : أى ما مال إليه القلب منهن ، ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ : أى اثنتين ، اثنتين ،وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً ، ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ : أى ذلك أقرب إلى عدم العول والجور ، ﴿ صدقاتهن ﴾ : مهورهن ، ﴿ نحلة ﴾ : عطية وهبة ، ﴿ هنيئاً مريئاً ﴾ : الهنىء ما يستلذ به الآكل ، المرىء : ما تجمل عاقبته كأن يسهل هضمه وتحسن تغذيته .

بعد أن أمر الله تعالى عباده بتقواه فقال : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾ أى اتقوا الله فلا تعصوه واتقوا الأرحام فلا تقطعوها ، أمر سبحانه عباده أن يعرفوا لليتيم قدره ، وأن يحافظوا على ماله ، وحذرهم بعد ذلك[1] من أكل مال اليتيم فقال : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾ أمرهم سبحانه أن يؤتوا اليتيم ماله ، إن أنسوا منه رشداً ، واليتيم هو الذى مات أبوه دون أن يبلغ الحلم ، وخير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم ، وقد أخبر الصادق المعصوم قائلاً : «أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة»[2] .

وقد ولد ﷺ يتيماً ، فكان فى مولده إشارة واضحة إلى إكرام اليتامى قال تعالى ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾[3] أى آواك إلى كفالة جدك ثم عمك .

وبعد أن أمر الله تعالى بإيتاء اليتامى أموالهم ، نهى الأوصياء أن يتبدلوا الخبيث بالطيب ، والخبيث هنا هو الحرام ، والطيب هو الحلال فالحرام لايدوم ، وإذا دام دمر ، ولو اختلط الحرام بالحلال لأكل الحرام الحلال .

أى لا تأكلوا مال اليتيم وهو خبيث حرام ، وتتركوا أموالكم وهى الحلال الطيب ، وقد ورد فى تفسير هاتين اللفظتين أقوال للمفسرين نجملها فيما يلى :

قال سفيان الثورى عن أبى صالح : «لا تعجل بالرزق الحرام ، قبل أن يأتيك الرزق الحلال الذى قدر لك» قال سعيد بن جبير : «لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم ، يقول : لا تتبدلوا أموالكم الحلال وتأكلوا أموالهم الحرام» .

وقال سعيد بن المسيب والزهرى : «لا تعط مهزولاً وتأخذ سمينا» . وقال إبراهيم النخعى والضحاك : «لا تعط زيفاً[4] وتأخذ جيداً» . وقال السرى : «كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم ويجعل مكانها الشاة المهزولة ، ويقول : شاة بشاة ، ويأخذ الدرهم الجيد ويطرح مكانه الزيف ويقول درهم بدرهم . وقوله : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ قال مجاهد : أى لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً ، وقوله : ﴿ إنه كان حوباً كبيرًا ﴾ قال ابن عباس : أى إثماً عظيماً .

---

(١) من الآية رقم ١٠ وهى التى ذكرت بعد ذلك الكلام .

(٢) حديث صحيح رواه الشيخان ، ونص البخارى : أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين .

(٣) الآية : ٦ من سورة الضحى .

(٤) النقود التى كانوا يتعاملون بها ذهب دنانير وفضة دراهم ، وكان منها زيوف وهى ما فى سكته غش فى عيار الذهب أو الفضة .

قوله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ . قال البخارى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله ، حدثنا إبراهيم بن سعد ، عن صالح بن كيسان ، عن ابن شهاب ، قال : «أخبرنى عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾ قالت يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قال عروة : قالت عائشة : وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فأنزل الله : ﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾[1] قالت عائشة : وقول الله فى الآية الأخرى ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾[2] فرغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال» .

قوله تعالى : ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أى انكحوا ما طاب لكم من النساء اثنتين اثنتين أو ثلاثاً ثلاثاً ، أو أربعاً أربعاً ، وهو كقوله تعالى : ﴿ جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ﴾[3] وهو أسلوب عربى فصيح كما تقول للقوم : اقتسموا هذه الدراهم الألف اثنين اثنين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً ، أى ليأخذ كل منكم اثنين لا يزيد عنها ، أو ثلاثاً لا يزيد عنها ، أو أربعاً لا يزيد عنها ، فكل منكم مخيرٌ بين هذه الأنصب الثلاثة ، اثنين أو ثلاث أو أربع ، ولا تجوز الزيادة فى التعدد عن أربع ، ذلك لأن هذه الآية وردت فى مقام الإباحة والامتنان فلو كانت الزيادة عن ذلك جائزة لذكرها الله تعالى ، وقد ورد من الأحاديث ما يدل على ذلك :

* روى الإمام أحمد ، عن سالم عن أبيه : أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبى ﷺ : «اختر منهن أربعاً» فلما كان فى عهد عمر طلق نساءه وقسم ماله بين بنيه ، فبلغ ذلك عمر ؛ فقال : إنى لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه فى نفسك . ولعلك لا تلبث إلا قليلاً ! وايم الله لتراجعنَّ نساءك ولترجعن مالك ، أو لأورثهن منك ، ولآمرن بقبرك فيرجم كما رجم قبر أبى رغال»[4] وهكذا رواه الشافعى والترمذى وابن ماجه .

* قال الشافعى : وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وهذا الذى قاله الشافعى مجمع عليه بين العلماء .

(١ ، ٢) من الآية : ١٢٧ من سورة النساء .

(٣) من الآية الأولى من سورة فاطر .

(٤) فهم عمر من ذلك الفعل الذى فعله أنه يريد حرمان زوجاته من الميراث بطلاقهن ، ولا يجوز لانسان أن يقسم ميراثه قبل وفاته لأن ذلك مرهون بالآجال .

* روى أبو داود وابن ماجه عن عميرة الأسدى قال : أسلمت وعندى ثمانى نسوة ، فذكرت للنبى ﷺ فقال «اختر منهنّ أربعاً» .

* وقال الشافعى فى مسنده عن نوفل بن معاوية الديلى ، قال أسلمت وعندى خمس نسوة ، فقال لى رسول الله ﷺ : « اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى ، فعمدت إلى أقدمهن صحبة عجوز عاقر معى منذ ستين سنة فطلقتها » .
فهذه كلها شواهد لحديث غيلان كما قاله البيهقى .

الحكمة من التعدد :

أباح الإسلام تعدد الزوجات لحكمة بالغة ، ذلك لأن الإسلام عالمى الرسالة ، فلم يبعث نبى الإسلام ﷺ لشعب دون شعب ، أو لأمة دون أمة ، إنما بعث رحمة للعالمين ، ومشاكل الناس لا تكاد تنتهى ، وكأنها سلسلة متصلة الحلقات ، يمسك بطرفها الأول آدم أبو البشر ، وبطرفها الثانى إسرافيل نافخ الصور ، ولما كان الإسلام كما قال رب العزة لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[١] لما كان ذلك كذلك ، فلابد أن يكون فى صيدليته الدواء لكل داء ، وتعدد الزوجات فى الإسلام علاج مشروط بالعدل ، فيه الوفاء وفيه الإبقاء على حسن المعاشرة ، ومن ثم فقد زلت أقدام قوم ، وتعثرت أقلامهم ، وانفلت خيالهم ، عندما قالوا إن التعدد للزوجات فى الإسلام أمر محال ، لأنه علق على العدل ، والعدل بينهن غير ممكن ، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ وبقوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[٢] ولو صلح لهم ذلك : للزم على قولهم أن يكون فى القرآن تناقض ؛ وحاش لله أن يكون فى كلامه تناقض ، فلقد أباح الله التعدد فكيف يعلقه على أمر محال ، إن الله جل شأنه لما أباح تعدد الزوجات ، كان فى ذلك امتنان منه تعالى على خلقه ، حيث أوجد لهم متسعاً ، وامتن عليهم بأنهم فى حاجة إليه ، فكيف ينفى ما أباحه وامتن به .

إن النفى والإثبات هنا لم يردا على محل واحد حتى يلزم التناقض ، أو حتى ينفى التعدد ، بل إن الجهة منفكة بين العدلين .

فالعدل فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ إنما هو عدل فى الأمور المادية كالمسكن والنفقة من مطعم وملبس ، أما العدل فى قوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فذلك عدل قلبى ، قال عنه النبى ﷺ : (اللهم إن هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك)[٣] .

العدل المادى أمر ممكن ، أما العدل القلبى فإن الله تبارك وتعالى لم يؤاخذ الإنسان فى ميله القلبى لإحدى الزوجات ، إنما نهى عن الميل الكلى ، قال جل شأنه : ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾[٤]

(١) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٢) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .
(٣) رواه مسلم .
(٤) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

والمرأة المعلقة هى التى أساء زوجها عشرتها ، فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة ، ومن ثم فأى تناقض ؟ اللهم لا تناقض فى كلامك ، وأى شىء الذى علق على مستحيل ، والعدل فى الآيتين مختلف ، عدل ممكن الوقوع جائز التحقيق ، وعدل فيه شىء من جهاد النفس ، وجه الله فيه الرجال إلى أن يقيموا الوزن بالقسط ما استطاعوا .

إن الله تعالى أباح تعدد الزوجات فى ظل العدالة ، فأى الموقفين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون .

أيعيش الرجل مع حليلة فيرضى ربه ؟ أم مع خليلة فيقع فى غضب الله ، خاسراً الدنيا والآخرة ؟ إذاً فليس التعدد فى الإسلام عبثا ، فقد لعن الله كل مزواج مطلاق كما لعن الذواقين والذواقات .

مزايا تعدد الزوجات عند الحاجة :

ذكر الشيخ المراغى فى تفسيره تحت هذا العنوان ما نصه : «الأصل فى السعادة الزوجية أن يكون للرجل زوج واحدة ، وذلك منتهى الكمال الذى ينبغى أن يربى عليه الناس ، ويعتزوا به ، لكن قد يعرض ما يدعو إلى مخالفة ذلك ، لمصالح هامة تتعلق بحياة الزوجين ، أو حاجة الأمة ، فيكون التعدد ضربة لازب لا غنى عنه ، ومن ذلك :

١ - أن يتزوج امرأة عاقراً ، وهو يود أن يكون له ولد ، فمن مصلحتها أو مصلحتهما معا ، أن تبقى زوجا له ؛ ويتزوج بغيرها ، ولاسيما إذا كان ذا جاه وثروة كأن يكون ملكاً أو أميراً .

٢ - أن تكبر المرأة وتبلغ سن اليأس ، ويرى الرجل حاجته إلى العقب ، وهو قادر على القيام بنفقة غير واحدة ، وكفاية الأولاد الكثيرين وتعليمهم .

٣ - أن يرى الرجل أن امرأة واحدة لا تكفيه لإحصانه ، لأن مزاجه الخاص يدفعه إلى الحاجة إلى النساء ، ومزاجها بعكس هذا ، أو يكون زمن حيضها طويلا ؛ يأخذ جزءاً كبيرا من الشهر ، فهو حينئذ أمام أحد أمرين : إما التزوج بثانية ، وإما الزنا الذى يضيع الدين والمال والصحة ، ويكون هذا شرّاً على الزوجة من ضم واحدة إليها مع العدل بينهما كما هو شرط الإباحة فى الإسلام .

٤ - أن تكثر النساء فى الأمة كثرة فاحشة ، كما يحدث عقب الحروب التى تجتاح البلاد ، فتذهب بالألوف المؤلفة من الرجال ، فلا وسيلة للمرأة فى التكسب فى هذه الحال ؛ إلا ببيع عفافها ، ولا يخفى ما بعد هذا من شقاء على المرأة التى تقوم بالإنفاق على نفسها ، وعلى ولدٍ ليس له والد يكفله ، لاسيما عقب الولادة ومدة الرضاعة .

والمشاهد أن اختلاط النساء بالرجال فى المعامل ومحال التجارة وغيرها من الأماكن العامة ، قد جر إلى كثير من هتك الأعراض والوقوع فى الشقاء والبلاء ، حتى كتبت غير واحدة من الكاتبات الإنجليزيات ، وأبانت أن هذا التدهور الخلقى لا علاج له إلا بتعدد الزوجات ، مع أن هذا ضد مصلحة المرأة وهى تنفر منه بمقتضى شعورها ووجدانها ، وهاك ما قالته إحداهن فى بعض جرائدهن بإيجاز وتلخيص :

«لقد كثرت الشاردات من بناتنا ، وقل الباحثون عن أسباب هذا البلاء ، وإنى لأنظر إليهن وقلبى ينفطر أسى وحزناً عليهن ، وماذا يفيد بثى وحزنى ، وإن شاركنى فيه الناس جميعاً ؟ لا فائدة إلا العمل على ما يمنع هذه الحال ، وهو كما رأى (تومس) إباحة التزوج بأكثر من واحدة ، وبهذه الوسيلة تصبح بناتنا ربات بيوت .

إذ لم يجر إلى هذا البلاء إلا إجبار الأوربى على الاكتفاء بامرأة واحدة ، فهو الذى جعل بناتنا شوارد ، وقذف بهن إلى أعمال الرجال ، ولابد أن يتفاقم الشر إذا لم يبح للرجل التزوج بأكثر من واحدة ، فأى ظن وحدس يحيط بعدد الرجال المتزوجين ، الذين لهم أولاد من السفاح ، وقد أصبحوا عالة وعارا على المجتمع ، ولو أبيح التعدد لما حاق بأولئك الأولاد وبأمهاتهم ما هم فيه من عذاب ، ولسلم عرضهن وعرض أولادهن من فداحة الحال التى نراها الآن » .

ونشرت كاتبة أخرى (مس إنى رود) فى جريدة أخرى تقول :

لأن يشتغلن فى البيوت خوادم ، أو شبه خوادم خير لهن وللمجتمع من اشتغالهن فى المعامل ، حيث تلوث البنت بأدران الرذيلة التى تبقى لاصقة بها مدى حياتها . . ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين ، فيها الحشمة والعفاف والطهارة ، والخادم والرقيق ينعمان بأرغد عيش ، ويعاملان كما يعامل أولاد البيت ، ولا تمس الأعراض بسوء ، وإنه لعار على بلاد الانجليز ؛ أن تجعل بناتها مثلاً للرذائل ، بكثرة مخالطتهن الرجال .

فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها ، وتقوم بأعمال البيت وتترك أعمال الرجل للرجال ، فذلك أضمن لعفافها ، وهو الكفيل بسعادتها . ا . هـ .

وصفوة القول :

أن تعدد الزوجات يخالف المودة والرحمة وسكون النفس إلى المرأة ، وهى أركان سعادة الحياة الزوجية ، فلا ينبغى لمسلم أن يقدم عليه إلا لضرورة ، مع الثقة بما أوجبه الله من العدل ، وليس وراء ذلك إلا ظلم المرء لنفسه وامرأته وولده وأمته .

ولقد راعى النبى ﷺ المصلحة فى اختيار كل زوجة من زوجاته ، فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم ، وعلم أتباعه احترام النساء ، وإكرام كرائمهن ، والعدل بينهن ، وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين ، يعلمن نساءهم الأحكام الخاصة بالنساء ، مما ينبغى أن يعلمنه منهن ، لا من الرجال ، ولو كان قد ترك واحدة ما كان فيها الغناء ، كما لو ترك التسع .

وقصارى القول أنه عليه السلام ما أراد بتعدد الزوجات ما يريده الملوك والأمراء والمترفون ؛ من التمتع بالنساء ، إذ لو كان قد أراد ذلك لاختارهن من حسان الأبكار ، لا من الكهلات الثيبات ، كما قال لمن اختار ثيبا : «هلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك وتضاحكها وتضاحكك» رواه الشيخان .

الربط بين الشرط والجواب :

فى قوله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ فى هذا النص الكريم حرف شرط هو «إن» وفعل شرط هو «خفتم» وجواب شرط هو «فانكحوا ما طاب لكم من النساء» .

﴿ فإن ﴾ : أداة الشرط ، ﴿ خفتم ألا تقسطوا ﴾ : فعل الشرط ، ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ : جواب الشرط ، فما هو الربط بين الخوف من عدم الإقساط والعدالة فى اليتامى وبين إباحة تعدد الزوجات .

لقد وردت للمفسرين آراء كثيرة فى شأن هذا الربط وقد اخترنا رأياً جديراً بالاعتبار ، ذكره فضيلة الشيخ محمد محمد المدنى[1] فى تفسير هذه الآية فقال رحمه الله[2] : «يتلخص هذا الربط فى :

١ - أن العرب فى الجاهلية كانوا يستضعفون اليتامى والنساء وكان من مظاهر هذا الاستضعاف :
أنهم كانوا يحرمون الصبى والمرأة من الميراث .
وأنهم كانوا يطمعون فى أموالهم ، إذا كانت لهم أموال غير الميراث أيضاً ، فكانوا يخلطونها بأموالهم ، ويتبدلون رديئهم بالجيد منها إذا شاؤوا ، ويميلون عليها فى أزماتهم ، ولا يتحرجون فى إنفاقها فى مصالحهم الخاصة .

وأنهم كانوا يعضلون[3] النساء كلما وجدوا سبيلاً إلى ذلك ، كى ينتفعوا من هذا العضل ، فإذا ورث الرجل زوجة أبيه أو زوجة أخيه كان له أن يعضلها حتى تفتدى منه بمال تدفعه له ، وإذا كره زوجته التى معه علقها فلم يطلقها ولم يعاملها معاملة الزوجة ، وذلك حتى تفتدى منه بمال تدفعه له ، وإذا كانت تحت يده يتيمة عضلها عن الزواج حتى لا تفلت أموالها منه . . . هكذا .

٢ - وقد جاء الإسلام بإبطال ذلك كله ، وجعل لليتامى حقوقاً ، وارتفع بهم عن أن يكونوا فى المجتمع محلاً للاستضعاف فى صورة من الصور ، فلما أخذ المسلمون تلك الأحكام ، وشدد النكير على من يظلم اليتامى والنساء ، وأصبح هناك روح عام متغلغل فى المجتمع الإسلامى ؛ ذلك هو الخوف من مخالطة اليتامى ، لئلا يصيبهم الوعيد بالعذاب ، فجاء القرآن بالرخصة فى ذلك ، فأباح لهم أن يخلطوا أموالهم بأموال اليتامى ؛ ماداموا لا يبتغون إلا الإصلاح ، وعرفهم بأن اليتامى ما هم إلا إخوتهم ، والأخ مُسَاوٍ لأخيه ، ويجب أن يكون بينهما كل مظاهر التعاون بين الأخوة ، فانتهت بذلك مشكلة الخلط حيث استجازوه بعد أن كانوا يتحرجون منه ، وبدت مشكلة أخرى هى : كيف يمكن أن يقوموا لليتامى بالقسط فى كل شىء ؟ .

---

(١) كان رحمه الله رئيسا لقسم الشريعة بكلية دار العلوم ، ثم عميدا لكلية الشريعة بجامعة الأزهر وأستاذا ورئيساً لأقسام الفقه بتلك الجامعة وتوفى رحمه الله فى عام ١٩٦٨ عائدا من الحج .

(٢) من كتابه : « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء» من الصفحات ٢٦٩ - ٢٧٥ .

(٣) يعضلونهن عن الزواج رغبة فى الانتفاع بأموالهن .

٣ - ولذلك كان الرجل ربما تحرج من ولاية شئون اليتامى ، وقد يكون مضطرا فى سبيل رعايتهم إلى أن يداخلهم ، وفيهم فتيات أو يرى أمهاتهم الأيامى ، وهو يدخل عليهم ويخرج ، وذلك فيه من الحرج ما فيه ، حيث لا تؤمن الدواعى النفسية ، من رجل يدخل على أيم من النساء ، وعلى بناتها ، وله الحق بحكم وصايته أن يراهن ، ويتحدث إليهن ، ويجلس معهن ، فإذا أراد أن يبتعد عن ذلك ، وأن يصد عن نفسه عوامل الفتنة بالابتعاد ، أو بتقليل الزيارة ، والتصرف ، فإنه سيكون مقصرا غير قائم لليتامى بالقسط على الوجه الذى أمر الله به ، وعلى الوجه الذى يقتضى إصلاح أموالهم ، ومعرفة مشاكلهم وإصلاح أنفسهم بالمعروف .

٤ - فالأوصياء إذا كانوا بين نارين ، من هذين الواجبين : واجب القيام بالقسط لليتامى على وجهه الصحيح ، وهو يقتضى ملابستهم ومداخلتهم والجلوس إليهم ، وفيهم من هى صالحة للزواج ، وبينهم – فى كثير من الأحيان – أمهم نفسها تلك الأم التى مات عنها زوجها ، ولعل فيها بقية من شباب ، وصلاحية للزواج – ومن واجب آخر هو واجب الاعتصام والابتعاد عن الفتنة ، والمؤمن لا ينبغى أن يضع نفسه وضعا يكون فيه فاتنا أو مفتونا ، فما السبيل إلى الخلوص من هذا المأزق ؟

إنه هو الحكم الذى شرعته الآية ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى ﴾ أى ألا تقوموا فيهم – وأقول فيهم لأنى أفهم أن الضمير لليتامى عامة ذكوراً وإناثاً – فإن خفتم ألا تقوموا فى شأنهم بالقسط تحرجاً من مداخلتهم ومجالستهم فى بيوتهم التى لا تخلو من يتيمات أو أيامى ، فالمخلص من ذلك هو : «تعدد الزوجات» .

إنه هو الذى يوجد فيه الحل لهذا الإشكال ، فقد أباح الله للرجل فى مثل هذا الظرف أن يكون له أكثر من واحدة ؛ إذا أمن الجور ، فليدخل الأوصياء من هذا الباب ، ومن كان منهم متزوجاً بواحدة ، فلا بأس عليه أن يضم إليها ما طاب له من النساء ، فيتزوج إحدى يتيماته ، أو يتزوج الأم نفسها ، وبذلك يصح دخوله هذا البيت دخولاً مأمون العاقبة ، فيجمع بذلك بين رعاية مصلحة اليتامى على الوجه المطلوب ، وبين وقاية نفسه ووقاية غيره من عوامل السوء والفتنة .

٥ - والآية الأخرى على هذا التفسير ، يبدو ارتباطها بهذه الآية ؛ وبغيرها من آيات إصلاح اليتامى واضحاً جلياً ، وذلك أنها تحدثنا عن سؤال المسلمين للنبى ﷺ فى النساء ، وعن بقايا تحرجهم من شئونهن ؛ كرغبة الولى فى يتيمته ، ومن عرف المجتمع فى عدم توريثهن ، أو توريث الولدان عامة ، فتقول : ﴿ ويستفتونك فى النساء ﴾ ثم تحيل على ما سبق تقريره فى الكتاب من أحكامهن وأحكام المستضعفين من الولدان ، وما أمروا به من القيام لليتامى عامة بالقسط ، كاملا دون عبث أو تهاون فى إقامته ، فتقول : ﴿ قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء ﴾ وانظر إلى قوله : ﴿ يتامى النساء ﴾ وكيف يشير إلى ما سبق من قوله ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ ثم تقول : ﴿ اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ وذلك هو نصيبهن فى

الميراث ، فالتعبير بقوله ﴿ ما كتب لهن ﴾ لا يليق إلا بشىء مكتوب مقرر مفروض ، وقد وصف الله الأنصبة بقوله فى آية المواريث : ﴿ فريضة من الله ﴾ وقد بينا أنه إذا فسر ذلك بفرض الصداق فإنه لا يناسب لأنه لم يتم زواج حتى يقال صداق ، وكتاب مكتوب ثم تقول : ﴿ وترغبون أن تنكحوهن ﴾ وهى الرغبة فى نكاح الأيم أو اليتيمة وهى المعبر عنها فى الآية السابقة بقوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم ﴾ أى أن إباحة التعدد ملاحظ فيها الرغبة ، وطيب المرأة فى نظر الراغب فيها ، إلى جانب الغرض الذى قدرناه وهو التمكن من أن يقام لليتامى بالقسط كاملا ، ثم تقول : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ فتعطف المستضعفين من يتامى الصبيان ؛ على المستضعفين من يتامى النساء ؛ لأن الولدان جمع وليد للصبى ، أما الأنثى فوليدة وجمعها ولائد ، وتختم بقوله تعالى : ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ أى لليتامى عامة بالقسط التام على ما أمر الله به فى مواضعه من الكتاب العزيز . ا . هـ .

تعدد زوجاته ﷺ

جاء فى كتابنا «حديث من القلب» بحث مستفيض عن الحكمة البالغة من تعدد زوجاته ﷺ وفى هذا البحث رد على المبطلين كتبناه تحت عنوان (دعوى باطلة) .

قلنا فى هذا الباب :

«نعم إنها دعوى ، لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها ، وباطلة لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الإسلام ـ ﷺ ـ ، ونبعت من قلوب تفرز البغضاء ، كما يفرز الكبد عصارة الصفراء ، لذلك رأينا ـ ونحن نتكلم عن زواج المصطفى ـ ﷺ ـ بالسيدة خديجة رضى الله عنها ، أن نعقب بهذا البحث لنلجم ألسنة الحاسدين الحاقدين ، الذين يحاولون أن يثيروا غبار الشبهات الباطلة ، على التعدد فى أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ وهم بذلك يفضحون ما فى قلوبهم من زيغ ، فلو تحول الناس جميعاً إلى كناسين ، ليثيروا التراب على السماء ، فسيثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السِّن بسامة المحيا .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة أن لا يرى نورها من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ، ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة ، وأنباء الغزو الثقافى ، إن الرسول لن يضيره أن تنبح عليه هذه الأصوات ، فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

وما ضر الورود وما عليها إذا المزكوم لم يطعم شذاها

نعم ثم نعم .

هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون أن توجهوا إليه هذه السهام الطائشة ؟ إنه الرجل الذى بعثه الله ﴿ شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] .

---

(١) من الآيتين : ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

ما يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر

وها نحن أولاء نسلط مدفعية الإسلام الثقيلة على هذه المواقع ، فنأتى عليها جميعاً فنذرها قاعاً صفصفاً .

إن قصة زواجه ـ ﷺ ـ من خديجة رضى الله عنها ، كما سنذكر توضح للإنسان وضوحاً لا تلتبس معه الرؤية ؛ أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يكن فى اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها ، فلو كان مهتماً بذلك ـ كبقية أقرانه من الشبان ـ لطمع فيمن هى أقل منها سناً ، أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير ، ولقد ظل هذا الزواج قائماً ؛ حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً ، وقد ناهز النبى ﷺ الخمسين من العمر ؛ دون أن يفكر خلالها فى الزواج بأية امرأة أخرى .

وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان ؛ هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء ، والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية ، ولكنه ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر ، دون أن يفكر ـ كما قلنا ـ بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة ، وكثيراً من الإماء ، دون أن يخرق بذلك عرفاً ، أو يخرج على مألوف أو عرف الناس يومئذ ؛ هذا فضلاً عن أنه تزوج خديجة وهى أيم ، وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه ، من المبشرين والمستشرقين ، وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ، ينعقون بما لا يسمعون ﴿ إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[1] .

إنهم يهرفون[2] بما لا يعرفون ، يحاولون أن يطاولوا السماء ، وأن يمدوا إلى الشمس يداً شلّاء .

إنهم يمضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبالا : لقد ظنوا أنهم واجدون فى موضوع زواج النبى ﷺ مقتلا يصاب به الإسلام ، ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ ، وتخيلوا أن بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد ، العازف فى معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

حاشا يا رسول الله !! والله ما علمنا عليك من سوء ، إنها فرية ما فيها مرية ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[3] .

---

(١) من الآية : ١٧١ من سورة البقرة .
(٢) يهرف يقول كلاما قيل قبله دون فهم أو إدراك كالببغاء .
(٣) من الآية : ٥ من سورة الكهف .

علمتنا سر الحياة وقدتنا — للخير والتوفيق والبركات
جنبتنا الزلل الكبير وصنتنا — من شهوة تطغى ومن نزوات
إن شرق القوم الكبار وغربوا — فإليك حتما منتهى الخطوات
ضلت علومهم برغم نبوغهم — وتعرضوا لمهالك خطرات
وتنكبوا سبل السلام وأقبلوا — يتشدقون بأجوف الكلمات
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا — ما غير دينك سُلَّم لنجاة

ما ثمة أدنى شك فى أن المستشرقين والمبشرين ؛ هم الخصوم المحترفون للإسلام ، يتخذون القدح فى هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها كما هو معلوم .

أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم ، فأكثرهم يخاصمون الإسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للإسلام ليس إلا نوعاً من الشارة التى قد يعلقها الرجل على صدره ، لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة ، ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز ، فخصومة هؤلاء للإسلام ليست سوى الرمز الذى يعلنون به عن هويتهم بين الناس .

إنهم ليسوا من هذا التاريخ الإسلامى فى شىء ، وإن ولاءهم إنما هو لهذا الفكر الاستعمارى ، الذى يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكرى ، من مبشرين ومستشرقين ، فهذا هو اختيارهم من قبل أى بحث ، ودون محاولة أى فهم .

أجل إن مخاصمتهم للإسلام ليست إلا مجرد شارة يَسِمُون بها أنفسهم بين قومهم ، وبنى جلدتهم ، وليست عملاً فكرياً بقصد البحث أو الحجاج وإلا فموضوع زواج النبى ﷺ ، من أهون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماماً .

يريدون أن يلصقوا به ﷺ ، صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد .

وموضوع زواجه ﷺ ، هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماماً .

فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها ، عفيف النفس دون أن ينساق فى شىء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله ، والرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب ضعف عمره[1] ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شىء مما

(١) كانت خديجة رضى الله عنها ــ عندما تزوجها الرسول ﷺ ــ فى الخامسة والأربعين من عمرها ، بينما كان النبى ﷺ فى الخامسة والعشرين على بعض الروايات ، والأربعين على روايات أخرى .

حوله ، وإن من حوله كثيراً ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل ، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة رضى الله عنها ثم من غيرها ، فإن لكل منهن قصة ، ولكل زواج حكمة وسببا ، يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ، ورفعة شأنه وكمال أخلاقه ، أيا كانت الحكمة والسبب ، فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة للرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان أحرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها ، خصوصاً وقد كان إذ ذاك خالى الفكر ، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية .

عناية الله به فى شبابه :

لقد أحاطه الله بعنايته ، وحماه برعايته ، فحفظه عن التلبس بما تنبو عنه الأذواق السليمة ، وتنفر منه الطباع المستقيمة ، فكان ﷺ فى شبابه نظيف السمع والبصر والقلب والثياب واليدين والقدمين .

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه[1] :

(ما هممت بشىء مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بينى وبينه ، ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله بالرسالة ، قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة : لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب . فقال أفعل : فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة ؛ سمعت عزفاً فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : عرس ، فجلست أسمع ؛ فضرب الله على أذنى ، فنمت ، فما أيقظنى إلا حر الشمس ، فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ما هممت بعده بسوء) .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا من لحضرته الشفاعة واللوا   والحوض قد أعطاكها المنان
لولا كتابك فى البرية لم يقم   للحق قسطاس ولا ميزان
فلك التحيات الزكيات العلى   ما هيئت للعاملين جنان

تجارته فى مال خديجة :

يروى ابن الأثير وابن هشام : أن السيدة خديجة كانت تاجرة ، وكانت ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم[2] إياه بشىء تجعله لهم منه ، فلما بلغها عن رسول الله ـ ﷺ ـ صدق الحديث

---

(١) رواه ابن الاثير والحاكم عن على بن أبى طالب ، وقال عنه صحيح على شرط مسلم ورواه الطبرانى عن حديث عمار بن ياسر .

(٢) المضاربة لون من المشاركة التى يقبلها الاسلام ، يشارك صاحب المال بماله ، والشخص أو الشريك الثانى بعمله ، ويتفق الشريكان على قسمة الأرباح ، ونسبة كل منهما والحجازيون يسمون المضاربة «قراضا» .

وعظمة الأمانة وكرم الأخلاق ؛ أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ، ومعه غلامها ميسرة ، وقد قبل محمد بن عبد الله ﷺ هذا العرض ، فرحل إلى الشام عاملاً فى مالها ومعه ميسرة فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيره ، وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم .

شهادة ميسرة له :

وجد ميسرة من خصائص النبى ﷺ وعظيم أخلاقه ؛ ما ملأ قلبه دهشة له وإعجاباً به .

رأى الصدق فى صورته الحقيقية ، ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته ، رآه سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى[1] ، سمحاً إذا اقتضى[2] ، رأى فيه الأمانة فى أسمى معانيها ، وقد صدق أبو حامد الغزالى ــ رحمه الله تعالى ــ إذ يقول : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ، ورفقاؤه فى السفر ، ومعاملوه فى الأسواق ، فلا تشكوا فى دينه .

نعم ، ليس الإسلام خطباً رنانة ، ولا عبارات طنانة ، ولا فلسفات عقيمة ، إن الإسلام فى حقيقته عقيدة وعمل ، وقد صدق الرسول ﷺ إذ يقول : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3] أدلى ميسرة بهذه الشهادة ، وإنها لشهادة حق ، وما زاد ميسرة على الحقيقة شيئاً ، فأنت يا رسول الله أهل لذلك ، وأكثر من ذلك :

القول فيك معطر الكلمات ... يا صاحب الأخلاق والآيات
أيام مولدك الكريم مضيئة ... فى كل ماض فى الزمان وآت
يوم أتى بك فى الوجود فإنه ... تاج الزمان وغرة السنوات
تتعاقب الأيام فى دورانها ... وترد كل جديده لموات
وضياك يسطع كل يوم نوره ... ويزيد فى الإشراق والنفحات

قصة زواجه بالسيدة خديجة
رضى الله عنها

أدلى ميسرة بهذه الشهادة البريئة إلى السيدة خديجة ، فوجدت فى نفسها قلباً طهوراً طيباً ، فتمكنت من القلب كل تمكن ، لقد أعجبت بصدقه وأمانته ، وكفى بهما ، إنه رأس مال ضخم ، ورصيد لا يلحق به ، ولا يشق له غبار ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، وكل أمة تتصف بالصدق والأمانة ، فالسعد رائدها ،

---

(١) أدى ما عليه لغيره .
(٢) إذا طلب ماله عند غيره .
(٣) متفق عليه .

والتوفيق حليفها ، ويلبسها الله لباس العز والشرف ، وكل أمة تتصف بالكذب والخيانة ؛ فالذل رائدها ، والخذلان حليفها ، ويذيقها ﴿ الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[(١)] .

لقد نال خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين ، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه ، تخطبه لنفسها ، ورأى الرسول ﷺ فى خديجة سيدة ذات خلق كريم ، وعقل راجح ، رغم فارق السن بينه وبينها كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة ، وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة إلا قليلا ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها[(٢)] ولا إلى حسبها ، وإنما نظر إلى عقلها وخلقها ، وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها وتصغر فى عين العظيم العظائم

كلم الرسول ﷺ أعمامه فوافقوا على هذا الزواج ، فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد ، فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين ، الأول : منهما (عتيق بن عائد التميمى) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمى) ، واسمه (هند بن زرارة) وبعد موتها ، طرق كثير من الرجال بابها ، لتكون لهم زوجاً ، فلم تفتح لهم بابها لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة ، حتى إذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ، ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط ، كسماسرة الأسواق ، لكنها رأت فى محمد ﷺ الإنسان الصادق الأمين ، فخطبته لنفسها ورأى فيها محمد ﷺ السيدة العفيفة الطاهرة فرضيها زوجاً .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقى خطبة الزواج ، وقف يقول :

«الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم ، وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجاً وبلداً حراماً ، وجعلنا الحكام على الناس ، أما بعد : فإن محمد بن عبد الله ــ ابن أخى ــ لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به براً وفضلاً ، وكرماً وعقلاً ، ومجداً ونبلاً ، وإن كان فى المال كلا ، فالمال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وإن لمحمد رغبة فى خديجة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما طلبتم من الصداق فعلىّ» .

يقول بعض المحققين الباحثين فى الرد على هذه الفرية[(٣)] ما نصه :

«لقد طعن كثير من سفلة البشر ، ومن أراذل المحترفين لمهنة التبشير ، فى محمد عليه الصلاة والسلام واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به ، وقالوا إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء .

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[(٤)] .

---

(١) من الآية : ١١٢ من سورة النحل .
(٢) وقد كانت ذات جمال ومال وحسب .
(٣) فرية أنه مزواج شهوانى حاشاه ﷺ .
(٤) من الآية : ٥ من سورة الكهف .

فى حين أن زواجه ﷺ ، يسمو بإنسانيته إلى الحد الذى لا يجاريه فيها إنسان ، ولا يباريه فيها بشر .

فلو أراد أن يضم فى بيته كرائم العقائل ونفائس الخرائد[١] لكان له ما يريد ، من أسمى بيوت العرب ، وأجمل الجوارى من سبايا فارس والروم يرفلن فى حلل الدمقس[٢] ، ويتحلين بأفخر الجواهر ، ولكان سماطه[٣] كسماط قيصر وكسرى .

كيف لا ؟ وقد كانت تحمل إليه الأموال ، حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفى كفه منها شىء ، وما شبع هو وآله من خبز الشعير ، وحاله من الغنى والجاه ما قدمناه وما وصفناه .

ولم يضم فى حريمه سوى المغتربات المكتهلات ؛ التى مات عنها زوجها فلم تجد مأوى ، والتى عز عليها العيش فى كنف غيره من الأزواج ، ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة هى عائشة ، ابنة رفيقه وصديقه أبى بكر الصديق رضى الله عنه ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار ﴾[٤] وعندما بلغت قسوة الحياة منتهاها ، وجاوزت الشدة مداها ، نزلت آية التخيير ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾[٥] .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق إلى حسن الاختيار ، واخترن دار القرار ، وقلن جميعاً : بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة ، فتمت لهن بذلك السعادة ، ونلن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة رضى الله عنها ؛ ولها أربعون سنة ، وهو ابن خمس وعشرين ، ولم يدفعه لزواجها سوى أنها خطبته لنفسها ، وكانت من أعف النساء ، وأعرقهن نسباً وحسباً ، ولها بعد ذلك فضل السابقة فى الإسلام ، فلم يتقدمها إليه رجل ولا امرأة ، وماتت وسنها خمس وستون سنة ، وكانت مدة مقامها معه ﷺ خمساً وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله عنها ؛ وفاء المتعة والحس ، بل وفاء الروح والنفس ، فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة ، وهى أصغر زوجاته وأحبهن إليه[٦] .

فترى من هذا أنه ﷺ قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ، ولم يتزوج عليها ، وإنما تزوجها لعفافها . وعقلها وطهرها ، ومعاونتها له ومناصرتها إياه . .

---

(١) الخريدة : الفريدة التى لا يوازيها شىء .
(٢) الدمقس الحرير الدمشقى الذى لا يقارن بغيره .
(٣) السماط : بساط يمد للطعام ، ويطلق على الموائد والولائم .
(٤) من الآية : ٤٠ من سورة التوبة .
(٥) الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب .
(٦) جاء فى الصحيحين ، عن عائشة رضى الله عنها : قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة ، لما كنت أسمعه يذكرها ، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها إلى خلائلها ، واستأذنت عليه أختها فارتاح لها ، ودخلت عليه امرأة فهش لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان .

وروى عنها أنها قالت له ﷺ مرة : هل كانت إلا عجوزا ، بدلك الله خيرا منها ، فقال عليه الصلاة والسلام : «لا والله ما أبدلنى خيرا منها . . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء» .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة سودة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة رضى الله عنها ، وكانت زوجاً للسكران بن عمرو ، وكان قد أسلم قديماً وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ، ومات حين قدما مكة ، ولو عادت إلى أهلها بعد موت زوجها ـ لعذبوها وفتنوها فى دينها فكفلها ﷺ ، وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ، ولم يكن معه غيرها ، ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة .

فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها حريصاً على إيمانه ، فاراً بعقيدته وتألفاً لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ، ونالوا صحبته ﷺ .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة عائشة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق الذى كان معه ﴿ **ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا** ﴾[1] ولم يتزوج بكراً غيرها .

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة ، علمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما ، وقد كانت رضى الله عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية ، خصوصاً ما يتعلق منها بالنساء ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة حفصة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، وكانت زوجاً لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر ، فتزوجها ﷺ مكافأة لها ، وحباً فى أبيها الذى سره كل سرور هذا النسب الشريف ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها ؛ الذى قتل فى سبيل الله ، وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ، ويجعله أهلاً لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[2] وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد ، بوحى من الله تعالى لتشريع : ﴿ **لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً** ﴾[3] . وقد كان زواجه بها إعفاء لها من

(١) من الآية : ٤٠ من سورة التوبة .

(٢) من الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

(٣) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .

إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها فيقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ، فما بالك بمطلقات الأرقاء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة :

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة ، وكانت زوجاً لعبد الله بن جحش رضى الله عنهما ، فقتل عنها يوم أحد ، فتزوجها ﷺ إيواء لها وجبراً لمصابها فى زوجها ، وحفظاً لدينها . . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة أم سلمة «هند بنت أبى أمية» وكانت زوجاً لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد ، وكانا أسلما قديماً وهاجرا إلى الحبشة ، ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة ، فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد ، فتزوجها ﷺ ، ويروى عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيراً منها إلا أخلفه الله خيراً منها» فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت فى نفسها : ومن خير من أبى سلمة ؟ ! رجل نال الصحبة وشهد المشاهد مع رسول الله ﷺ ، ولكنها استرجعت وقالتها ، فأخلف الله تعالى لها رسول الله ﷺ ، فآواها وحفظها . فترى من هذا ؛ أنه ﷺ تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته ، وكانت كثيرة الأولاد فآواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها جزاءً لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة أم حبيبة رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان ، وكانت زوجاً لعبيد الله بن جحش ، وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ومات بالحبشة ، وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تتنصر معه وخالفته واختارت الإسلام عليه ، فأتم الله لها الإسلام والهجرة والصحبة ، وأكمل لها الشرف لزواجها من رسول الله ﷺ .

ويروى أن أباها أبا سفيان قدم المدينة فدخل عليها فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه ، فقال : يا بنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت امرؤ نجس . فقال : لقد أصابك بعدى شر قالت : بل خير .

وقد خطبها ﷺ من ملك الحبشة ، حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها ، فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها[١] :

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة ، وقد تزوجها إيواء لها وتألفاً لقومها ، وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم : ابن أختها سيف الإسلام خالد بن الوليد فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار ، وكانت زوجاً لمسافع بن صفوان المصطلقى[٢] ، وقد قتل كافراً يوم المريسيع[٣] وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق ، وكانت سيدة بنى المصطلق ، وبنت سيدهم ، فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق . وقالوا : هم أصهار رسول الله ﷺ ، فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم ، وحسن إسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها وقد أنقذها من الأسر وأعتقها من الرق وأعزها من الذل .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب رضى الله عنها :

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت زوجاً لسلام بن مشكم القرظى ، ثم فارقها ، فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر[٤] ، فأخذت رضى الله تعالى عنها فى السبى فخيرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول ﷺ فاختارت الخيرة ، فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها من اليهود ، وقد أسلم كثير منهم .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!.

حكمة راشدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية ؛ لاتمت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة . هذا ما عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم ؛

---

(١) ذكرنا فى الهامش ٢ ــ عند تفسير قوله تعالى : ﴿إن فى خلق السموات . . ﴾ الآيات أن رسول الله ﷺ تزوجها فور رجوعه من الحديبية بقرية «سرف» وكانت أختها أم الفضل زوجة لعمه العباس رضى الله عنه .

(٢) من بنى المصطلق .

(٣) من غزوات الرسول ﷺ وكانت مع بنى المصطلق ، وكانت فى السنة السادسة من الهجرة ، وقالت عائشة رضى الله عنها «فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها» .

(٤) كانت غزوة خيبر فى صفر من السنة السابعة من الهجرة .

وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء ؛ والتى لا يستطيع تبليغها الرجال ؛ كالطهارة والغسل والحيض والنفاس ، والولادة والرضاع ، إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء على وجهها الأكمل سوى النساء .

ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين . على اختلاف طبقاتهم - فى ذلك الحين امرأة واحدة ، بل عدة نساء من عدة قبائل ، وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره ، وبسط شرائعه ، وقد ثبت أنهن أذعن عنه ﷺ علماً وفضلاً وفقها ، ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء ، من التمتع واللذة ليس غير ، لانتخب الحسان الأبكار ، والكواعب الأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

فهل يأتى بعد هذا مبشر غِرٌّ سمج عتل زنيم ؛ ويقول عنه ﷺ ، إنه شهوانى يميل إلى النساء فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما تتنزه ألسنتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؟ فسبحان من هدانا لدين الحق ، ودين النورِ دِينِ الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون ، وفضلا عن ذلك فلم تكن علاقاته - عليه أفضل الصلاة وأتم السلام - بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا ، وبأى زوجة مهما علت !

فقد عاشرهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ، بل الكلمة الرقيقة ، ولم تبد على سماته النظرة القاسية ، بل النظرة الحانية .

وما من رجل بلغ ما بلغ مَن المروءة والرقة وسعة الصدر ، إلا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدا منه التذمر والتضجر بأزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ، ونذر السوء حيال عمل ما ، ولكن الرسول ﷺ ، الذى أوتى جماع الفضائل ، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق ، الرسول الذى أرسل من البشر ، ليعلى من أقدار البشر ، ويرفع من شأنهم ، ويسمو بنوعهم ، لم يكن كذلك ، ولم يكن هذا منه عليه الصلاة والسلام ترددا أو ضعفاً ، بل كان كمالاً وجلالاً ، فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الإنسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها .

فإن من يقهر نفسه باختياره ليترفق بضعيف لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق ، فهو الشجاع الباسل القوى .

وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ وهو قصة التخيير فما هى تلك القصة .

قصة التخيير

﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾(١) .

إن رسول الله ﷺ لم يرد الحياة متعة فانية ، ولا زخارف براقة ، لأن قلبه كان مليئاً بالقناعة والرضا ، والإيمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبياً عبداً ، أو نبياً ملكاً ، فاختار أن يكون نبياً عبداً ، وقال فى ذلك (أجوع يوماً فأذكرك ، وأشبع يوماً فأشكرك) ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتنها ، ولو أرادها مملكة ونعيماً وخدماً وحشماً وترفاً لكان له ذلك .

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه ، فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام ، تسلوا عنه بالحلم

أيقال على هذا النبى ﷺ إنه كان غارقاً فى ملذات الحياة ، وكان شهوانيا إلى النساء ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

إن حياة هذا النبى ﷺ هى كما أخبرت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : « إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة بشهرين ولم يوقد فى بيت رسول الله نار يطبخ عليها »(٢)

أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول ﷺ فى بيته ؟

كان طعامهم فى معظم الأحيان التمر والماء ، ومع ذلك كانت العيشة راضية لا تسمع فيها لاغية ، إن السعادة مملكة قائمة بالنفس ما صورها السيد الجليل محمد ﷺ فى هذه الكلمات « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً ، وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » (٣) .

ليست السعادة فى إنتشاء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد(٤) ، إنما السعادة فى رضاك عن الله ، وفى رضا الله عنك ، وفى تزكية النفس وإشراق العقل ، وانتصار الذهن ، واستعلاء النفس على مطالب المادة ، وسيطرة القيم والمبادىء التى تحقق فى الإنسان إنسانيته .

---

(١) الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب .

(٢) من حديث رواه الشيخان عن عروة بن الزبير .

(٣) رواه الشيخان .

(٤) الناعمات ، والأملود واحدة الأماليد .

كيف يقال على هذا النبى إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية ، وهو الذى كان يمكث فى بيته شهرين ، ولم توقد فى بيته نار يطبخ عليها ؟ لله درك يارسول الله .

الحق أنت وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقها تيها من الأهوال والظلمات

إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بهاتين الآيتين ، فى أمر عرض له من أزواجه ، عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية ، وشهوة نسائية ؛ لوفر لهن هذه وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ، ولكن ماذا حدث ؟

اسمع إلى العلامة ابن كثير : يفسر هذا المشهد القرآنى ، بما تيسر من التقدير . يقول رحمه الله تعالى :

« هذا أمر من الله تبارك وتعالى : لرسوله ﷺ ، أن يخير نساءه بين أن يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن - رضى الله عنهن وأرضاهن - الله ورسوله والدار الآخرة ، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة » .

قال البخارى : حدثنا أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهرى ، قال : أخبرنى أبو سلمة بن عبد الرحمن : أن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ﷺ أخبرته : أن رسول الله ﷺ ؛ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه ، قالت : فبدأ بى رسول الله ﷺ ، فقال : « إنى ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أن أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه ، قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك ﴾ إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففى أى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة » .

وروى الإمام أحمد قال : حدثنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو ، حدثنا زكريا بن إسحاق ، عن أبى الزبير ، عن جابر رضى الله عنه ، قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ ، والناس ببابه جلوس ، والنبى ﷺ جالس ، فلم يؤذن له ؛ ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن ، فلم يؤذن له ! ثم أذن لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما فدخلا ، والنبى ﷺ جالس ؛ وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبى ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه : يارسول الله ؛ لو رأيت ابنة زيد (امرأة عمر) سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها ؟ فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه ، وقال : « هن حولى يسألننى النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها وقام عمر رضى الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ماليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله ﷺ ، فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال : وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها ،

فقال : (إنى أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك ، قالت وما هو ؟ قال : فتلا عليها ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك) . . الآية ! قالت عائشة رضى الله عنه : أفيك أستأمر أبوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال ﷺ (إن الله تعالى لم يبعثنى معنفاً ولكن بعثنى معلماً ميسراً لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها) . . انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى .

أرأيت يا أخا الإسلام لم كان التخيير وفيما كان ؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى : ﴿ أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلاً ﴾ أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الإنسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية ، هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟

سبحانك ربى لقد بعثته أسوة حسنة ، وقدوة طيبة .

إن هذا البيت ـ بيت النبوة ، لقد قال الله تعالى لنساء هذا البيت : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾[1] بيت يهبط فيه الأمين جبريل ، ورفقاؤه من كبار الملائكة ، بيت يتلقى الوحى من رب السماء ، بيت قرآنى يفوح منه أريج القرآن عطراً وريحاناً ، إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[2] .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد الكون فى ذكراك تذكرة ... وفى رحابك يسمو نظم أشعارى
من أنقذ الكون من شركٍ يدنسه ... وخلص الناس من تأليه أحجار
من نظم العرب من فوضى ومهزلة ... وطهر الأرض من رجس وأوضار
من لقن الناس أخلاقاً مهذبة ... وشاد للناس ديناً غير منهار
من حرر العبد من رق يكبله ... وحرر العقل من سخف بأفكار
من علم الكون قرآناً يرتله ... فتنصت الجن إعجاباً بتذكار

(١) الآية : ٣٤ من سورة الأحزاب .
(٢) من الآية : ٣٣ من سورة الأحزاب .

بحث قيم :

جاء فى كتاب الإسلام والعصر الحديث للأستاذ عبد الرزاق نوفل بحث قيم فى زواج الرسول ﷺ ، وقد آثرنا أن نثبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع . وها هو ذا نسوقه بنصه قال المؤلف :

« لم تظهر حكمة زواج الرسول ﷺ بمن تزوجهن ؛ إلا عندما اتسع أفق الفكر فى العصر الحديث ، فإذا استعرضنا زواج النبى ﷺ نجد أن كل زواج إنما كان يحقق غرضاً سامياً ، أو كسباً للدين ، أو عملاً بتشريع جديد ، وأن الرسول الأمين كان بعيداً كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم » .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقاً المخزومى ، ولما مات تزوجت أبا هالة التميمى ، فمات أيضاً ، بذلك ورثت عنهما مالا وفيراً ، علاوة على ما كانت تملكه ، وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوة على مالها ، مما جعلها مقصد القاصدين للزواج من كبار القوم ، وأشراف قريش .

ولكنها كانت ترد كل طالب ، فقد كانت عازفة عن الزواج ، وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبى الله ﷺ ليشرف على هذه التجارة ، لما سمعت عنه من أمانة واستقامة ، وعادت القافلة وقد حققت أرباحاً لم تعهدها ، ورواجاً لم تكن تتوقعه ، فلما سألت غلامها ميسرة - الذى صاحب الرسول ﷺ - روى لها رقة شمائل محمد ﷺ وجمال نفسه ، وصفاء قلبه وطهارة سريرته ، وحدثها عما شاهده من أمانته المطلقة ونزاهته وعفته ، فأرسلت له صديقتها (نفيسة بنت منبه) تقترح عليه أن يتزوجها ، وتزوجها الرسول ﷺ وهو شاب فى ريعان شبابه إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره ، فى حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد ﷺ رجل متعة ؟ وهل كان كما يقول عنه أعداء الإسلام مشغوفاً بالنساء ؟

وها هو ذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين وتكبره بخمسة عشر عاماً ! لقد شدت خديجة أزر الرسول برجالها وعصبتها ، حتى إنه عندما جاءه الوحى وخشى منه ؛ سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذى كان أول من بشر بنبوته وشجعه على إعلان الدعوة ؛ حيث قال له ، وقد قابله فى طواف بالكعبة « والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولَتُكَذَّبَنَّ ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشاً ؛ فيعلن لهم دعوة الله .

كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول - ﷺ - فى جهاده ، فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له ، وتدفعه إلى النضال والصبر ، وعاشت معه خمسة وعشرين عاماً أمضت منها خمس سنوات فى جهاد الدعوة تقاسمه ما يلقى من عنت وشدة حتى لقيت ربها ، ولها من العمر خمس وستون سنة .

وبعد موت خديجة ازدادت قريش فى أذاها للنبى ﷺ ، فخرج إلى الطائف يدعو إلى الإسلام ، فوجد من ثقيف التكذيب والإعراض .

وبعد عام من جهاده ، عاد إلى بيته بمكة فوجده قفراً ، فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول - ﷺ - به من وحشة ، أوعزوا إلى خولة بنت حكيم[1] حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه وتقضى حاجة بيته وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهما ، أو سودة بنت زمعة التى آمنت به وأسلمت وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة ، فقبل الرسول العزيز الزواج من الأخيرة التى كانت كبيرة السن ضامرة الجسد ، ليس فيها مشتهى للرجال ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات .

هذا هو زواج الرسول إذ أن ما تم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ما جد بعد ذلك من زواج .

فالمشاهد فى العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون أن يرتبطوا مع وزرائهم وقوادهم برباط المصاهرة ، بل إن قادة الأمم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم لتحقيقها لربط المسلمين الأول بعضهم ببعض ، وتزوج الرسول ﷺ بعائشة بنت وزيره الأول أبى بكر ، ثم تزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج الرسول بنته رقية لعثمان بن عفان ، فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب .

وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمداً ﷺ برجاله الأوائل أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، أقوى الرجال فى الإسلام ، وأول من أسلموا وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول - ﷺ - بزواجه ؛ فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب إخوانه وأصدقاؤه إلى أرملته يواسونها ويعرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراماً لزوجها وذلك للإشراف على شئون بيته .

وقد أبلى من المسلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى سبيل الله ورسوله ، ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله ، فتزوج الرسول ﷺ من بعض نساء شهداء المسلمين ، ممن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم ، ولم يجدن أزواجاً لهن ، إما لكبر سنهن ، أو لكثرة أولادهن ، فزاد ذلك من تعلق المسلمين برسولهم ﷺ ، ورفع من روحهم المعنوية ، وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل فى سبيل الله ؛ لم يعدم رجلا يشرف على بيته ، ولم يعدم أبا يحنو على أولاده ، ولو لم يجد من المسلمين لوجد نبى الله نفسه ﷺ بل حبب ذلك الإسلام لغير المسلمين فأسلموا ، ولذلك تزوج الرسول ﷺ من زينب - أم المساكين - زوجة عبد الله بن جحش - أحد أمراء جيش المسلمين الذى قتل فى وقعه أحد ، وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو فى الإسلام ، كما تزوج للسبب نفسه هنداً أم سلمة ، زوجة أبى سلمة أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة الذى أبلى بلاء حسناً فى الدعوة ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار المسلمين ومنهم أبو بكر وعمر

(١) روى خبر ذلك الطبرانى عن عائشة رضى الله عنها ، ورواه أحمد عن أبى سلمة ويحيى بن عبد الرحمن فى حديث طويل .

فرفضت ، حيث قالت : « إنى امرأة مسنة وأم أيتام ! » وعز على الرسول ﷺ أن تظل هذه السيدة حزينة وحيدة ؛ فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الإسلام فى زواج الرسول ﷺ يقول الله تعالى فى سورة الحجرات : ﴿ يأأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾(١) .

وقد كان الرق منتشراً فى بلاد العرب ، فدعا الإسلام إلى العتق وتحرير الرقيق ، وكان للسيدة خديجة زوجة النبى ﷺ عبد اسمه زيد ، وهبته لسيدنا محمد ﷺ ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة ، وقربه الرسول إليه ، حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد ، هذا العبد الذى تحرر هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره نداً له ، فيزوجه من ابنته مثلا ؟ لقد طلب زيد يوماً من الرسول - ﷺ - أن يزوجه زينب بنت جحش - ابنة عمة الرسول - فوافق عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن أسرتها ، وفى ذلك نزل القرآن الكريم إذ يقول الله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرًا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾(٢) .

وبذلك تزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب وكان ذلك تشريعاً جديداً للمسلمين وعملاً يقول الله تعالى : ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾(٣) .

ولم يدم ذلك الزواج طويلاً ، فطلب زيد الطلاق من زينب ، فكان رد النبى ﷺ كما جاء فى سورة الأحزاب ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾(٤) وأراد الله سبحانه وتعالى تشريعاً جديداً ، إذ كانت التقاليد لا تجيز للمدَّعِى(٥) أن يتزوج من كانت زوجاً لمن ادَّعاه ، كما لا تجيز للمتبنِّى أن يتزوج من كانت زوجاً لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة غيره فنهى عن ذلك الله تعالى إذ يقول : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾(٦) .

لذلك أمر الله بأن يكون الرسول ﷺ القدوة للناس فى ذلك ، وخشى فى نفسه أن يقول عنه الناس تزوج من كانت زوجاً لدعيه ، وكان يخفى فى نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما البعض ، حتى لا يتزوجها ، ولكن الله يبدى هذا التنافر ، فيقول المولى عز وجل فى سورة الأحزاب : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس ، والله أحق أن تخشاه ، فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا وكان أمر الله مفعولا ﴾(٧) .

---

(١) من الآية : ١٣ من سورة الحجرات .
(٢) الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب .
(٣) من الآية : ٢٢١ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .
(٥) من ادعى بنوة شخص أى « المتبنى » .
(٦) من الآية : ٤ من سورة الأحزاب .
(٧) من الآية : ٣٧ من سورة الأحزاب .

هذه هى حكمة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش ، وهى بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الإسلام ، من أن الرسول ﷺ كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جمالها فطلب من زوجها أن يطلقها ليتزوجها .

وأين كان الرسول ﷺ يوم أن كانت زينب عذراء ، وهى ابنة عمته ، والتى كان يعرفها تماماً ؟ أو لم تستهوه محاسنها وهى عذراء ؟

ولكنه الحقد على الإسلام ونبى الإسلام ؛ الذى يجعل الخصوم يفترون ، وهناك حكمة فى زواج الرسول ـ ﷺ إذ حقق به أهدافاً سياسية ، فعندما هَزَم المسلمون بنى قريظة ـ بعد حصار طويل ـ كانت ريحانة بنت عمرو ـ زوجة الحاكم أحد كبار بنى قريظة من نصيب الرسول ﷺ فى الغنائم ، فعرض الرسول عليها الإسلام فأسلمت فتزوجها ، وكان لزواجه منها أكبر الأثر فى نشر الدعوة الإسلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم ، وهز مشاعرهم إكرام الرسول ﷺ لإحدى سيداتهم بزواجه منها .

وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق كانت جويرية بنت الحارث ، بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس ، الذى طلب منها[1] أن تفتدى نفسها ، فاستعانت بالرسول ﷺ على فك أسرها ـ فعرض عليها الإسلام وأسلمت فتزوجها ، وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ﷺ فدخلوا جميعاً فى الإسلام .

ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر كانت صفية بنت حيى بن أخطب ضمن الأسرى فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا ما يفعله الفاتحون من ذوى الرحمة ، إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء فى الدول المهزومة حفظاً لكرامتهم وتخفيفاً من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الإسلام فى جزيرة العرب أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة ، الذى آوى المسلمين المهاجرين ، وأكرمهم ، ليكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبة ـ رملة بنت أبى سفيان ـ بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمة صادقة العقيدة ، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم ، وتمسكت بدينها تحافظ عليه ، وتقيم شعائره فى دولة غريبة ، كما كانت لفتة سياسية بارعة ، إذ أن أم حبيبة بنت أبى سيفان عدو الرسول الألد ، وأكبر مهاجمى الإسلام ، وبزواجه منها انتصر على آخر معقل من معاقل الكفر والشرك فى قريش ، انتصاراً دون إراقة دماء ، وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوة إلى الخارج ، أرسل رسله إلى الملوك والأمراء منهم : هرقل وكسرى والمقوقس يدعوهم إلى الإسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط فى مصر ؛ أنه أرسل للرسول هدايا فيها جاريتان إحداهما مارية القبطية التى تزوجها الرسول ﷺ ، وسيرين التى أهداها إلى حسان بن ثابت .

---

(١) الذى أخرجه ابن اسحاق وابن سعد والحاكم أنها هى التى كاتبته وجاءت إلى النبى ﷺ تستعينه على كتابها .

ولما أحل للنبى ﷺ الدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة ـ بعد صلح الحديبية ـ دخل الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء وظلوا أياماً ثلاثة هى ما اتفق عليه فى المعاهدة ، وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم لا يشربون خمراً ولا يأتون معصية ولا يتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجاراً أو أوثاناً ، وإنما دعوتهم الله أكبر الله أكبر ، زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارث ، خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول ﷺ وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها ، وأى تكريم ، وفتح لعائلتها التى كانت ومازالت على الكفر ، وقد صحت فراسة الرسول ﷺ ، كما كانت تصح دائماً ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى وقتل سدنتها ، وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواعاً ، وكذلك أسلم عثمان بن طلحة حارس الكعبة وبإسلامهم أسلم كثير من أهل مكة .

هذا هو زواج رسول الله ﷺ فهل منه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه للنساء ؟ وهل فى أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سبباً فى زواجه منها ؟

وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول ﷺ من زواجه ، لمصلحة الدعوة والدين ، لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف وانتفت الأسباب التى من أجلها أحل الله لنبيه تعدد الزوجات ، (زوجاته) نزل قول الله تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد)[1] .

هذا هو زواج الرسول ﷺ فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء ؟

وهل كان بين هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟

أو ليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبى ﷺ وعلى الحق أى افتراء ؟ اهـ .

وإلى هنا نكون قد أتينا على الحكمة البالغة التى من أجلها تعددت زوجات الرسول ﷺ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

لما أراد الله جل جلاله ... أن ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى ياسيدى ... فيضا من الأنوار والرحمات
يا صاحب الخلق الكبير عرفته ... وبسطته فى حكمة وأناة
وطلعت فى الليل البهيم مؤذناً ... بالحق والأنوار والصلوات
ودعوت للخيرات قوماً ضللوا ... ما كان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصبر من دعا ... وأقمت بين إساءة وأذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت فى ... أعناقهم فى عزة وثبات

(١) من الآية : ٥٢ من سورة الأحزاب .

فحظيت بالنصر المبين مؤزرا وأقمت حقك خافق الرايات
وضربته مثلاً لكل مكابر لا يستوى حق بغير حماة

الإسلام وتعدد الزوجات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا رسول الله ﷺ ، أن نعقب هذه بكلمة عن حكمة الإسلام البالغة فى إباحة تعدد الزوجات ، وقبل أن نسجل هذه السطور ؛ نود أن نبدأ بهذه القواعد التى تبنى عليها دائماً الحكم البالغة ، والأهداف السامية لتشريعات الله أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين .

١ ـ عالمية الدعوة :

القاعدة الأولى من تشريعات الإسلام : أنه شريعة عالمية وليس حكماً إقليمياً ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[١] وقال سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٢] . وقال جل جلاله ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾[٣] .

وقال عظمت حكمته : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ﴾[٤] .

وقال ﷺ : (كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود)[٥] .

وإذ قد تقرر ذلك فلابد أن يكون تشريع الإسلام شاملاً لكل مقتضيات الزمن ومحيطاً بكل نواحى الحياة .

٢ ـ عدالة السماء

القاعدة الثانية : أن الإسلام دين العدالة ، فهو فى كل ما شرع لا يعرف الجور ، ولا يتطرق الجور إلى أى مسألة من مسائله ، ولذلك فإن العدالة هى السمة الحقيقية فى تشريعات الله ، فليس لمكابر أو مجادل أن يقول إن فى تعدد الزوجات ـ أو غير ذلك من القضايا الإسلامية ، جوراً أو ظلماً ، لأن الله تعالى أحاط تشريعاته بالعدالة والمودة والرحمة ، قال سبحانه : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٦] .

وقال عز من قائل : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٧] .

---

(١) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٢) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية : ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٤) من الآية : ٣٣ من سورة التوبة ، ومن الآية ٢٨ من سورة الفتح ، ومن الآية : ٩ من سورة الصف .
(٥) رواه الشيخان ، وهو جزء من إحدى روايات حديث « أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى . . » .
(٦) الآية : ٢١ من سورة الروم .
(٧) من الآية : ٣ من سورة النساء .

وقال سبحانه وتعالى فى موضع آخر : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ﴾ .(١) وقال سبحانه : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾(٢) .

٣ ـ الإسلام يخاطب العقل :

القاعدة الثالثة : أن الإسلام فى تشريعاته منطقى وسديد ورشيد ، فهو لم يشرع ما تأباه العقول ، وتنبو عنه الأفهام ، وتمجه الأذواق ، بل جاء بشرع للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم .

جاء ليوحد العقائد ، لا ليفرق القواعد ، وقد قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشىء : وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء . وقال العقل : ليته ما نهى .

وقد صدق الله إذ يقول ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾(٣) .

وإذ يقول : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾(٤) .

وإذ يقول : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾(٥) .

وبناء على ما تقرر من قواعد ، فإن كل تشريع إسلامى ، له حكمته البالغة ، وله هدفه الرفيع .

الإسلام : دين عالمى . الإسلام : دين العدالة ، الإسلام : لا يجافى العقل الرشيد ولا المنطق السديد .

وقد جاءت حكمة الإسلام بالغة فى تعدد الزوجات .

إن إباحة تعدد الزوجات دواء لابد من وجوده فى صيدلية الإسلام العالمية ، وإلا فما الذى يعالج مشاكل العالم ، إذا لم يكن الدواء الذى يعالج به الداء هو تعدد الزوجات ؟

إن أحداث الحياة لا تثبت على حال واحدة فلابد أن يعالج الإسلام جميع مشاكلها ، ويداوى بالحكمة جروحها ، والإسلام كما عهدناه فى علاجه ؛ كالنسيم الهادىء ، يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة تقتل الجراثيم ؛ دون أن تحرق المريض .

---

(١) من الآية : ٨ من سورة المائدة .
(٢) من الآية : ٢٣٧ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ٣٠ من سورة الروم .
(٤) الآية : ١٦١ من سورة الأنعام .
(٥) من الآيتين : ١٢٣ ، ١٢٤ من سورة طه .

إن القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على رسوله هدى وشفاء ؛ لم يدع شيئاً لصالح البشرية إلا بينه ، ولا أمراً فيه صلاح الدنيا والآخرة إلا فعله .

وقد كان أوائل هذه الأمة - رضى الله عنهم - حين يحزبهم أمر ؛ أو تعترضهم مشكلة ، يهرعون إلى كتاب ربهم ، فيطيعونه فيما أمر ، وينتهون عما نهى عنه وزجر ، ولن يرضى الله أن يؤول كتابه تأويلاً يميل به إلى الهوى ، فإن هوى النفس شر داء تبتلى به المجتمعات .

فقد صرح القرآن أنه لا اختلاف فيه ، ولا مجال لأصحاب الهوى فى فهمه ، قال سبحانه : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[١] .

الله سبحانه وتعالى أباح تعدد الزوجات بمقتضى قوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾[٢] .

وهذه الإباحة ليس فيها غموض ، إذ الأمر فى هذه الآية الكريمة دليل الإباحة كما فى قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ﴾[٣] .

وكقوله تعالى : ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾[٤] .
وكقوله تعالى : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾[٥] .
فالأمر فى هذه الآيات لإباحة الفعل .

ولما أورد الله تعالى قيد العدل فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٦] علم أن هناك صنفين من التعدد : أحدهما تعدد مع العدل . وثانيهما : تعدد مع الجور ، الصنف الأخير هو المنهى عنه من مفهوم الآية الكريمة ، أما الذين زعموا أن التعدد غير جائز لأنه مبنى على العدل ؛ والعدل منفى كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[٧] غاب عنهم أن هذا المعنى لو تحقق كما فهموا ، لكان تناقضاً ولغواً ، والقرآن الكريم منزه عن ذلك ، تنزيهاً كاملاً ، ألم يقرأوا قوله تعالى : ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٨] .

ألم يقرأوا قوله جل شأنه : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[٩] .

إذ ليس من المعقول ولا من المستساغ ولا من المقبول ؛ أن يقول الله تعالى تزوجوا من تحبون متى تشاءون فى حدود الأربع ، فإن خفتم الجور فواحدة فحسب وبعد ذلك يقول : الجور محقق فى كل واحد من راغبى التعدد .

---

(١) الآية : ٨٢ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ٣ من سورة النساء .
(٣) من الآية : ١٦٨ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ١٧٢ من سورة البقرة .
(٥) من الآية : ١٤١ من سورة الأنعام .
(٦) من الآية : ٣ من سورة النساء .
(٧) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .
(٨) من الآيتين : ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .
(٩) الآية : ٨٣ من سورة النساء .

تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وكان الأحرى والأجدر - إذا كان هذا المعنى هو المقصود - ألا يذكر التعدد أصلاً إباحة أو حظراً ، أما وقد ذكر التعدد فى القرآن ، وأجمعت عليه الأمة الإسلامية فى شتى العصور بالقول والعمل ، فقد وجب فهم الآية القائلة بعدم استطاعة العدل وهى قوله تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ وجب فهمها بما فهمه أئمة التشريع ، وأساطين التفسير الذين قالوا : إن المقصود بالعدل غير المستطاع ؛ إنما هو العدل فى الميل القلبى ، والمحبة القلبية ؛ إذ أن قلوب بنى الإنسان بين يدى الرحمن ، يصرفها ويقلبها كيف شاء قال سبحانه ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾(١) .

لذا كان الرسول ﷺ ، يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك)(٢) ، ولو أنهم قرأوا بقية الآية الكريمة وهو قوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾(٣) لعلموا أن العدل هنا قلبى ، إذ أن الله لم يقل : فلا تميلوا بعض الميل ، لأن بعض الميل قد يقع ، وإذن : فالمنهى عنه هو الميل كله ، الذى يؤدى إلى كسر القلوب وعدم جبرها ، وإيجاد الجروح المؤلمة بها ، ولذلك عقب الله تعالى بعد ذلك بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾(٤) والمعلقة هى المرأة التى أساء زوجها معاشرتها ، فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة ، وبناء على ما سبق فلا تناقض فى كتاب الله ولا اختلاف ، إذ أن العدل فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾(٥) . المقصود به العدل فيما يملك الإنسان من الأمور المادية المحسوسة ، كالمساواة بين الزوجات فى المسكن والكسوة والنفقة والمبيت ، أما العدل فى الآية الثانية وهو قوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾(٦) فالمراد به العدل القلبى والمحبة القلبية وهذا عالجه القرآن بقوله : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾(٧) وعلى هذا يستقيم الميزان فى الفهم ، وينتفى التناقض والاختلاف ، عن أحكام الله سبحانه وتعالى ، جلت حكمته وعظمت رأفته .

ونخلص مما تقدم إلى أن التعدد للزوجات مباح شرعاً مادام ذلك قد شرعه الله وأباحه فى قوله : ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾(٨) وقد تأيد التعدد من سائر مصادر الشريعة ، منها ما هو صريح القرآن وما هو الإجماع .

فإذا ما ذهبنا إلى السنة النبوية نستهديها وجدنا قول الرسول ﷺ : (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم)(٩) .

ومفهوم المخالفة يقتضى جواز الجمع بين من عداهن ، وقد جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾(١٠) جواز الجمع بين من عداهما ، وقد أمر ﷺ : غيلان الثقفى حين أسلم وله عشر نسوة ، أن

الحديث ضعيف ولم يخرجه البخاري ولا مسلم

(١) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .

(٢) وفى رواية أخرى فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك رواه البخارى ومسلم وأحمد والقرطبى ج ٥ ص ٤٠٧ وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

(٣ ، ٤) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

(٥ ، ٨) من الآية : ٣ من سورة النساء .

(٦ ، ٧) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

(٩) رواه الشيخان وغيرهما من كتب السنة .

(١٠) من الآية : ٢٣ من سورة النساء .

يستبقى أربعاً منهن . . كل هذا يدل دلالة قاطعة ـ لا تقبل الشك أو الجدل ـ أن التعدد من بديهيات المباحات ، وأن التكلم فى منعه أو تحريمه يدخل تحت طائلة تحريم ما أحل الله ، وهو جريمة : ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾(١) .

ليس فى تعدد الزوجات أى مساس بمصلحة المرأة ، سواء أكانت متزوجة على أخرى أم متزوجاً عليها بأخرى .

فأما الحالة الأولى : فلا يوجد عقد زواج إلا وأحد طرفيه امرأة تملك زمام أمرها بيدها ، ولا تتزوج إلا برضاها ، فإن كان ذلك يضرها ففى وسعها ألا تتزوج بمتزوج ، وإن كانت فى عسر من أمرها ولا تستطيع أن تقوم بأولادها ، فقد فرج الله عليها بالزوج الذى يدفع عن كاهلها عبء الفاقة وذل العوذ ، وغائلة الجوع .

وأما الحالة الثانية : التى تعتبر أن الزواج عليها فاجعة لها ، فلا بأس من طلبها الطلاق ، لأن الإسلام لا يرضى بالضرر ، وشريعتنا السمحة لا تأبى ذلك .

ومهما يكن من شىء فإن تعدد الزوجات لا يخلو من خير ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾(٢) .

فقل لهؤلاء المجادلين : ﴿ أأنتم أعلم أم الله ﴾(٣) .

ثم قل لهم : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون)(٤) .

ويراعى الإسلام مراعاة دقيقة أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف لا بقصد الإسفاف والإسراف ، إذ أن الإسلام لا يرضى بالضرر أو الضرار فقاعدته الأولى « لا ضرر ولا ضرار » .

وقد يكون فى التعدد ناحية إنسانية أخلاقية ، قد تكون الزوجة مريضة مرضاً لا يمكنها من أداء واجبها نحو زوجها ، من ناحية المباشرة ، أو القيام بخدمته ، فهل الأولى والأفضل أن يرميها بعيداً ؛ ويقطع ما بينه وبينها من علاقة ، أو يبقى عليها مع زوجة تؤدى له حقوقه الشرعية .

وقد تكون الزوجة عاقراً لا تنجب ، والزوج يريد ولداً ، فهل الأفضل والأليق أن تطرد هذه الزوجة العاقر بعيداً عن كنفه ؛ بعد طول معاشرة ، أم يتزوج ويبقى على عشرتها فى حدود العدالة والمساواة الإنسانية التى أمر الله بها فى قوله : ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً ﴾(٥) ما من شك فى أن جانب الإنسانية يبدو واضحاً فى التعدد الذى أباحه أحكم الحاكمين .

---

(١) من الآيتين : ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .
(٢) من الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب .
(٣) من الآية : ١٤٠ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٢٣٢ من سورة البقرة ، ومن الآية : ٦٦ من سورة آل عمران ، الآية : ١٩ من سورة النور .
(٥) من الآية : ١٢٩ من سورة النساء .

وأما ما يدعيه البعض من أن التعدد يؤدى إلى إفساد العلاقات بين الإخوة غير الأشقاء ؛ فهى دعوة فاسدة فكم رأينا شقيقين يقتتلان وأخوين لأب متصافيين متحابين ، هذا وقد غاب عن هؤلاء الطاغين أن البلدان التى حرمت التعدد نشأ فيها الفجور والمخادنة ، وملئت فيها الملاجئ بأبناء الزنا والبيوت بالأبناء غير الشرعيين .

إن خالق الناس ومن هو أدرى بالناس من الناس ، قال بالتعدد ؛ فهل يجوز لإنسان مهما أوتى من علم وفهم أن يأتى فيقول : ألا إن التعدد نظام بغيض يقضى على المجتمع ويشتت شمل الأسرة ؟

هذا ولا يخفى ما فى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة ، فإن الرجال ـ فضلاً عن زيادة عدد النساء عليهم ـ معرضون لنقصان مستمر ، بسبب قيامهم بشاق الأعمال ، وبأعباء الحروب وغيرها ، وتعرضهم للمهالك ، وليس من الحكمة فى شىء أن ندع جانباً كبيراً من بناتنا بدون إحصان .

إن الأوربى يرفض تعدد الزوجات فى الوقت الذى يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات ، ويرى والد الفتاة فتاته مع عشيقها فيسر ويغتبط بل ويعد لهما جميع الوسائل وكافة السبل المؤدية لراحتهما وطمأنينتهما .

عظمة الإسلام

أما ديننا القيم وشريعتنا الغراء ، التى تحرم على الرجل النظر إلى المرأة ، وتحرم على المرأة النظر إلى الرجل ، فقد كان من العدالة أن توجد توازناً لهذه القاعدة ؛ فجعلت الزواج مكان السفاح ، ووضعت الحلال مكان الحرام ، وإلا فمن للعوانس وربات الخدور ؟ ألهن العهر والفجر ، ولنا العفاف والطهر ؟ أم لهن الجحيم ولنا النعيم ؟ .

وهل من المستحسن أن يكن حرائر أم يكن فواجر ؟ .

إن الإسلام شرع مبدأ تعدد الزوجات ، ليحمى المرأة من عدوان الرجل الظالم ، فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها معه إلا على حالة واحدة ، وهى أن تكون زوجة ؛ لها ولأولادها حقوق مقررة ، ولا يستطيع الرجل التنصل منها ، وفى الوقت نفسه حرم الزنا والمخادنة ، وجميع ما من شأنه الحط من مستوى المرأة وإنزالها من مرتبة الإنسانية ؛ إلى مرتبة الحيوانية .

والآن يوجد أمامنا ضربان من السلوك : أولهما يبيح تعدد الزوجات ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الآثمة ، ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض ، الخائضين فى ضروب الفحشاء والفساد .

وثانيهما : يحرم تعدد الزوجات ويبيح سائر العلاقات الآثمة ويجيز التلاعب بالأعراض والخوض فى ضروب الفحشاء .

بديهى أنه لا يوجد إنسان عنده ذرة من عقل فيختار القسم الثانى ، ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجماء ، وفى أى دين ، أو أى نظام ، أو أى عرف ؛ تكون الخليلة أفضل من الحليلة ؟ .

ويقولون أيضاً : إن الرجل الذى يعقب أولاداً من زوجتين يعتبر فى نظر المجتمع آثماً ؛ لأنه يخلق العداوة بين نسائه ، والبغضاء بين أبنائه ، فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولاداً من امرأتين ؛ إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية ، لا يعتبر آثماً ؟ ولا يكون خالقاً للعداوة بين نسائه وأبنائه ؟ وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[1] .

هذه شريعة الله ، شريعة الحق ، شريعة العدل . وهذا منهاج الخالق البارئ المصور ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2] .

شهادة الخصوم لنبى الإسلام

لم تكن شهادة الخصوم لنبى الإسلام مقصورة على الفلاسفة أو المفكرين ؛ فى القرن العشرين أو ما قبله من القرون القريبة ، إنما سبقت ذلك شهادات له ﷺ من بنى قومه ، الذين لقبوه قبل بعثته بالصادق الأمين ، لما رأوا فيه من كريم الخلق ، وحميد السجايا ورفيع الشمائل .

ونذكر هنا على وجه المثال لا الحصر ، هذا المشهد الذى شهد له فيه كبار القوم بالحكمة والذكاء والفطنة وسرعة البديهة . وقوة الإدراك ، ذلك المشهد هو اشتراكه ﷺ فى بناء الكعبة بعدما تصدعت ، ووقوفه بعد ذلك لحل مشكلة استعصى علاجها بين قومه ؛ ألا وهى وضع الحجر الأسود !! من الذى ينال هذا الشرف ويفوز بتلك الرفعة ؟؟ لقد أوشكوا أن تفصل السيوف بينهم وما أدراك ما السيوف إذا كانت هى الحكم فى الخلاف .

إذن فلتسفك الدماء ولتفصل الرؤوس فما الذى حدث ؟؟

ها نحن أولاء نذكر نبذة عن الكعبة شرفها الله ، وأبقاها كريمة عزيزة طاهرة تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس فى الجلاء ، الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الأنبياء إبراهيم عليه

---

(١) الآيات : ١ - ١١ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية : ١٤ من سورة الملك « تبارك » .

السلام ، بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التى نصبت ، بناها بوحى من الله تعالى ، وأمره له بذلك .

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾(١) .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾(٢) .

وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادى التى أوهت بنيانها وصدعت جدرانها ، وكان من بين هذه العوادى سيل عرم ؛ جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة ، حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها ، فلم تجد قريش بدًّا من إعادة تشييد الكعبة ، حرصاً على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة ، ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظاً من شرعة إبراهيم عليه السلام بين العرب ، ولقد شارك الرسول ﷺ قبل البعثة فى بناء الكعبة ، وإعادة تشييدها مشاركة فعالة فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا إزاره ، وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة فى الأصح . ولقد كان له ﷺ أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى أبداه حلا للمشكلة ، علماً منهم بأنه الأمين المحبوب من الجميع ، لقد كان لهذا الحكم الذى وفق الرسول له عظيم الأثر .

لقد اختلفت قريش أيهم له الفخار بوضع الحجر فى هذا المكان ، واستمر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه .

تحالف بنو عبد الدار وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم ، واقسموا على ذلك جهد أيمانهم ، حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ، وأدخلوا أيديهم فيها توكيداً لأيمانهم ، لذلك سموا « لعقة الدم » فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى ، ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنهم ، وكان فيهم شريفاً مطاعاً ، قال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا ، فلما رأوا محمداً ﷺ أول من دخل قالوا : هذا الأمين ؛ رضينا بحكمه ، وقصوا عليه قصتهم ، وسمع قولهم ، ورأى العداوة تبدو فى أعينهم ، ففكر قليلاً ثم قال : هلم إلىَّ ثوباً ؛ فأتى به فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ، ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعاً إلى ما يحازى موضع الحجر من البناء ، ثم تناوله محمد ﷺ من الثوب ووضعه فى موضعه ، وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر ، وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانية عشر ذراعاً ، ورفعوا بابها عن الأرض .

---

(١) من الآيتين : ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .
(٢) الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

هكذا وقف الصادق الأمين ﷺ موقفاً شهد له التاريخ فيه بالحكمة وبعد النظر ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ، ثاقب الفكر صائب الرأى عبقرى الفؤاد ، زكى القلب .

شهادات للفلاسفة والمفكرين
تولستوى

قال تولستوى الفيلسوف الروسى تحت عنوان : « من هو محمد » ؟

« إن محمداً ﷺ هو مؤسس ورسول الديانة الإسلامية التى يدين بها فى جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس (يعنى فى حساب وزمان تولستوى) ثم قال : ولد النبى محمد ﷺ فى بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، من أبوبين فقيرين ، وكان فى حداثة سنه راعياً يرعى الغنم ، وقد مال منذ صباه إلى الانفراد فى البرارى والأماكن الخالية ، حيث كان يتأمل فى الله وخدمته . أى طاعته .

إن العرب المعاصرين له عبدوا أرباباً كثيرة ، وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها ، فأقاموا لها أنواع التعبد ، وقدموا لها الضحايا المختلفة ، ومنها الضحايا البشرية ، ومع تقدم سن محمد ﷺ كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب ، وأن ديانة قومه ديانة كاذبة ، وأن هناك إلهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب ، وقد ازداد هذا الاعتقاد فى نفس محمد ﷺ حتى اعتزم أن يدعو مواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ فى فؤاده ، ثم دفعه إلى ذلك عامل داخلى[1] . وهو أن الله اصطفاه لإرشاد أمته . وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة ، وإنارة أبصارهم بنور الحق ، فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم الواحد القهار ، وذلك بحسب ما أوحى الله إليه ، وبمقتضى اعتقاده الراسخ ؛ وبعد ما وصف تولستوى الديانة الإسلامية وصفاً صحيحاً موجزاً قال : « وفى سنى دعوة محمد الأولى تحمل محمد كثيراً من الاضطهاد ، شأن كل نبى بعث قبله ، نادى أمته إلى الحق ، ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه ، بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمداً لم يقل إنه النبى الوحيد ، بل جاء متمماً للرسالات السابقة ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضاً » .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف قد نال خطاب ثناء وشكر من الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق .

كارليل

يقول الفيلسوف كارليل فى كتابه الأبطال « وإنى لأحب محمداً ﷺ لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى ، لا يعول إلا على نفسه ، ولا يدعى ما ليس فيه ، وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ ، توقيراً واحتراماً وإكباراً وإعظاماً ، وما كان بمكنته أن يقودهم ويعاشرهم

---

(١) لم يفهم الكتاب الغربيون أن الله أوحى إليه عن طريق الملك الذى أخبر ﷺ أنه رآه ، وأكد القرآن ذلك ، وشهد الصحابة بذلك حينما كان يأتى فى صورة بشر .

معظم أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة ، وهم ملتفون به ، يقاتلون بين يديه ، ويجاهدون حوله ، لقد كان فى هؤلاء العرب جفاء وغلظة ، وكانوا حماة الأنوف وأباة الضيم ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم ؛ حتى رضخوا له واستفادوا ، فذلك وايم الله بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل ؛ لما خضعوا له ولا أذعنوا .

وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد ﷺ قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ؛ لما كان مصيباً فى طاعتهم مقدار ما ناله فى ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا يكون الأبطال .

دائرة المعارف البريطانية

جاء فى دائرة المعارف البريطانية ما نصه :

« كان محمد ﷺ أظهر الشخصيات الدينية العظيمة ، وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً» .

دينسون

يقول دينسون عنه ﷺ فى كتابه : « الحركات كأساس للحضارة » ، « وفى القرنين الخامس والسادس الميلاديين كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى ، لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة ، كانت قد انهارت ، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ، وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التى قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة ، مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر بلا قانون ولا نظام ، وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم بأجمعه » .

جيمس متشنر

يقول عن رسول الله ﷺ : « إن محمداً ﷺ هذا الرجل الملهم الذى أقام الإسلام ، ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية فى قبيلة عربية تعبد الأصنام ، ولد يتيماً محباً للفقراء والمحتاجين ، والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين ، وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبة الجزيرة العربية وفى الشرق كله ، قد حطم الأصنام بيديه ، وأقام ديناً يدعو إلى الله وحده ، فأرشد العالم إلى أنه بشر مثلهم أرسله الله بشيراً ونذيراً » .

البروفيسور جارسون دى تاس

قال فى كتابه « الإسلام » : إن محمداً رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان منذ نعومة أظفاره مجانباً للرذيلة ، محباً للفضيلة ، حتى أطلق عليه بنو قومه الصادق الأمين والمصلح العظيم محمد ﷺ أعاد ما فقد من العدل والحرية والتسامح والفضيلة ، أتى الوحى من عند الله إلى رسوله الكريم ، ففتحت حججه

العقلية السديدة أعين أمة جاهلة ، فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين فى أحضان الرذيلة المظلمة ، ولنتصور سكان البادية حينما رأوا أصنامهم تكسر على مرآى ومسمع منهم ، وهم المشهورون بالشجاعة والصلابة فى الرأى وعدم الخضوع للغير ، أفلا يثور ثائرهم ويهبون لقتل محمد ﷺ ؟ ولكنه كان يتكلم بكلام الله ربه ، فقد كانوا يشعرون بذلك ، حيث يجدون فى نبرات صوته هدى وتأثيراً كبيراً ، ولهذا لم يستطيعوا القيام ضد تيار الحق ، ولم يجدوا بدا من السلوك فى التقاء الجديد ، لأنه اجتاح كل الموانع والسدود كما يجتاح السيل الجارف كل شىء يقف فى طريقه ، وهكذا انتصرت الفضيلة على الرذيلة وأخمدت قوة الله هاتيك الشرور والآثام وحررت الإنسانية من قبضة الوحشية » .

وفى الختام قال :

« وبالإجمال أتى الوحى من عند الله العلى القدير إلى رسوله ونبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ففتحت حججه العقلية أعين تلك الأمة الغافلة » .

لويل توماس

قال الكاتب الإنجليزى الكبير لويل توماس :

« قبل أن يكتشف خريستوف كولمب أمريكا بألف سنة ، أبصرت عينا الطفل القرشى محمد بن عبد الله النور فى مكة ، فكأن الله اختار هذا الطفل ليغير به تاريخ العالم ، وكان فى طفولته يرعى الماعز والغنم فيقودها إلى أعالى الجبال التى تحيط بمكة إحاطة السوار بالمعصم ، ولما شب وأينع راح يذهب إلى سوريا فى تجارة بمال إحدى نساء قريش (يشير إلى السيدة خديجة) وسرعان ما شعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان كانوا على ضلال ، يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير ، فبعث بدين متسامح رضى أن يقبله كل إنسان بدون مشقة ، وقد علم أصحابه حب آدم وإبراهيم وموسى وعيسى واعتبارهم أنبياء مرسلين » .

ثم قال توماس :

لقد كان محمد العربى القرشى النبى الهاشمى والرسول التهامى ؛ أول من وحد قبائل العرب المتنافرة فى تلك الجزيرة ، وأول من ألف قلوب شعوبها المتقاتلة ، وجمع كلمتها تحت راية واحدة .

جاء محمد وجمع كلمة العرب ووحد صفوف العرب ، ولكن لا باستعمال القوة والاعتماد على الشدة ، بل بكلام عذب حكيم أخذ منهم كل مأخذ ، فاتبعوه وآمنوا به ، وقد فاق فتى مكة جميع الرسل ، وقادة الرجال ، بصفات لم تكن معروفة لدى العرب ، فجمع بين القلوب المتفرقة وجعل منها قلباً واحداً .

مات النبى محمد ﷺ ، وتدفقت بعده موجة فتوحات الإسلام فاجتازت الصحارى ودخلت المدن ، وذلك لتجعل ذكراً خالداً أبدياً لذلك الرجل العظيم الذى أنتجته وأنبتته صحراء قاحلة ، فأثمر ثمراً لم يحلم به العالم من قبل ، وامتدت هذه الموجة فعمت آسيا وإفريقيا ، إلى أن استولت على أواسط أوربا تلك الموجة التى لم تلحق بها موجة الرومان فى إبان مجدهم وعهد عظمتهم » .

وفى الختام قال توماس :

« وفى ذلك العصر عصر فتوحات الإسلام ، قدم العرب للعالم أجمع أعلم رجال الإسلام وأكثرهم ثقافة ومعرفة ، وبذلك ؛ فإن الإسلام قد حل بالعالم وانتشر فى ربوعه بسرعة البرق » .

ادوارد مونتيه مدير جامعة جنيف

قال فى محاضراته التى ألقاها :

« . . ولقد انتشر الإسلام منذ نشأته بسرعة ، وقلما توجد بل لا توجد أبداً ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار ، وإن ما صادفه الإسلام من أول عهده كان عظيماً وباهراً ، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة ؛ التى وطدت سلطة نبى الإسلام ﷺ ، وإصلاحه بعيداً عن حدود بلاد العرب ، لقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن ؛ إن نجاح العقيدة الإسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوة السيف فى عهد محمد ﷺ ، وعهود خلفائه الأولين (يريد الخلفاء الأربعة) .

ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع ، فإن الفكرة لا تضع موضع الاعتبار ؛ العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها ، والوقوف على حقيقتها » وقال مونتيه فى محاضرة أخرى بجنيف :

« الإسلام فى واقع الأمر ينتشر نوعاً ما من تلقاء نفسه ، أريد أن أقول : إنه ينتشر بواسطة المسلمين أنفسهم لأن كل مسلم فى البلاد الوثنية كان رسولاً لدينه مبدئياً ، فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، وتلك خاصة من خاصيات الدين الإسلامى . أن يستحوذ تماماً على نفس المؤمن بكليته وجزئيته ، وأنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المبالين ، فإن الحمية من الصفات المميزة للدين الإسلامى ، وإننى أكرر أن المسلم غالباً يحمل فى جسمه أنسجة المبشر ، فالإسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التى تذهب للتجارة إلى البلاد الوثنية أو الديار التى تعبد فيها الأصنام ، فرسل الإسلام تدفعهم الغيرة للتبشير ، إلى الالتجاء إلى الوسائل المختلفة الملائمة لكل حالة ، خاصة فى البلاد ، وفى الشعوب التى يقومون فيها ، بأداء عملهم الدينى وهنا نرى العامل الدينى . يعمل عمله بجانب العاملين الاجتماعى والاقتصادى ، فالإسلام فى البلاد الشاسعة التى ينتشر فيها يمتد نفوذه وينبئ لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية فى أرقى الحالات وتباعاً يعتبر من أول وسائل التقدم والرقى » .

الدكتور ليتز

يقول : « إننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : إن الله الذى هو مصدر ينابيع الخير والبركات لو كان يوحى إلى عباده : فدين محمد ﷺ هو دين الوحى ، ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوى ووسائل التمييز بين الخير والشر ، ودفع الباطل هى الشاهدة على الإلهام .

فرسالة محمد هى هذا الإلهام .

البروفيسور يورسورت سميث

يقول : « عندما ألقى نظرة إجمالية أستعرض فيها صفات محمد ـ ﷺ وبطولته ، ما كان منها فى بدء نبوته وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة ـ وكم من بطولات المعجزة أحدثوا ـ أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة ، حتى أن الإنسانية لم تعرف له مثيلاً » .

عود على بدء

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ المراد هنا أن الاقتصار على الواحدة ، إن خيف عدم العدل أو فى سبيل إلى رفع الجور والظلم ، وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ ألا تعولوا ﴾ فالإسلام لحمته العدل ، وسداه الإنصاف ، ولحمته وسداه الحق(١) ، فإذا سئلت عن الإسلام فقل : إنه الصدق المطلق ، والعدل المطلق ، والحق المطلق ، إنه فى علاج المشاكل كالنسيم الهادىء يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب ، وكالحرارة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض ، إنه يداوى الجروح الدامية بمراهم الروحانيات الصافية ، وقد صدق مولانا جل شأنه إذ يقول : ﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾(٢) .

والله أكرمنا بكتاب الله ما أهاننا أحد ولو طبقنا تعاليمه لرفرفت راية الإسلام على كل بلد ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٣) .

قوله تعالى ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾(٤) .

الخطاب للأزواج ؛ أى وأعطوا النساء اللواتى تعقدون عليهن المهور عطاء هبة ، يكون رمزاً للمودة التى ينبغى أن تكون بينكما ، وآية من آيات المحبة ، ودليلاً على وثيق الصلة والرابطة التى تجمع شملكما ، وتحيط بسماء المنزل الذى تحلان فيه ، وقد جرى عرف الناس بعدم الاكتفاء بهذا العطاء ، فتراهم يردفونه بأصناف الهدايا والتحف ، من مآكل وملابس ومصوغات إلى نحو ذلك ، مما يعبر عن حسن تقدير الرجل للمرأة التى يريد أن يجعلها شريكته فى الحياة .

﴿ فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ أى فإن طابت نفوسهن بإعطائكم شيئاً من الصداق من غير ضرار ولا خديعة ؛ فكلوه هنيئا مريئا ولا ذنب عليكم ولا إثم فى أخذه .

ومن ثم لا يجوز للرجل أن يأكل شيئاً من مال امرأته ، إلا إذا علم أن نفسها طيبة به ، فإذا طلب منها شيئاً وحملها الخوف أو الخجل على إعطاء ما طلب ؛ فلا يحل له ، ألا ترى أن الله تعالى نهى عن أخذ شىء

(١) اللحمة والسدا ، هما خيوط النسيج فى الأنوال ، واللحمة هى الخيوط العرضية فى المكوك خيوط السدا الطولية .

(٢) الآية ١٤ من سورة الرعد ١٨٧ .

(٣) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٤ من سورة النساء .

من المرأة فى طور المفارقة فقال : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾(١) .

فالتحذير من أخذه فى طور الرغبة والتحبب ، وإظهار القدرة على ما يجب عليه من أعباء الزوجية ؛ من كفالة المرأة والإنفاق عليها يكون أشد وآكد ، ولكن حب المال جعل الرجال يماكسون فى المهر ، كما يماكسون(٢) فى سلع التجارة ، وصار حبهم للمحافظة على الشرف والكرامة دون حبهم للدرهم والدينار .

الحفاظ على المال

وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

المفردات : ﴿ السفهاء ﴾ واحدهم سفيه : وهو المبذر للمال المنفق له فيما لا ينبغى ، وأصل السفه الخفة والاضطراب ، ومنه قيل زمان سفيه : إذا كان كثير الاضطراب ، وثوب سفيه : ردىء النسج ، ثم استعمل فى نقصان العقل فى تدبير المال وهو المراد هنا ﴿ قياما ﴾ : أى تقوم بها أمور معايشكم وتمنع عنكم الفقر .

قال الراغب : القيام والقوام ما يقوم بـه الشىء ويثبت كالعماد والسناد(٣) لما يعمد ويسند به ، ﴿ وارزقوهم ﴾ : أى واعطوهم . و[القول المعروف] : ما تطيب به النفوس ، وتألفه ، كإفهام السفيه أن المال ماله لا فضل لأحد عليه ﴿ آنستم منهم رشداً ﴾ أى أبصرتم منهم حسن التصرف فى الأموال ، [الإسراف] : مجاوزة الحد فى التصرف فى المال ، و[البدار] : المبادرة والمسارعة إلى الشىء ، يقال بادرت إلى الشىء وبدرت إليه ﴿ فليستعفف ﴾ : أى فليعف ، والعفة : ترك ما لا ينبغى من الشهوات ، [الحسيب] : الرقيب . .

أمر الله تعالى بالمحافظة على : الدين ، والعقل ، والنفس ، والعرض ، والمال ، وهذه الأمور تسمى فى الإسلام بالكليات الخمس ، وما من شك فى أن المال نعمة لمن أحسن استعماله ، قال رسول ﷺ : (نعم

(١) من الآية ٢٠ من سورة النساء وسيأتى تفسيرها إن شاء الله .
(٢) المماكسة المساومة فى زيادة المهر أو إنقاصه ، كالمساومة فى ثمن بضاعة .
(٣) العماد : أعمدة البناء أو عمد الخيام لا يقوم البناء ولا الخيام ترفع إلا بها والسناد أى الأكتاف التى تقام خارج جدران البناء إذا أوشكت على الانهيار لتسندها .

المال الصالح للعبد الصالح)[١] لذا وجب على المسلم أن يكون حسن التصرف فى المال ، فلا إسراف ولا تقتير ، قال جل شأنه ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾[٢] . وقال تبارك اسمه : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾[٣] ووصف الله تعالى سلوك المؤمنين فى المال فقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[٤]..

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود « ما عال من اقتصد » .

وروى عن ابن عمر « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة ، والتودد إلى الناس نصف العقل ، وحسن العقل نصف العلم » .

وما من شك فى أن المال عصب الأمم ، ومصدر قوتها ، إذا كانت الأمم رشيدة فى تصرفها .

ونحن فى عصر أصبح المال فيه كما يقول الاقتصاديون « الورقة الرابحة على مائدة الدبلوماسية العالمية » ومن هنا فإن الإسلام حارب الثالوث المدمر « الفقر والجهل والمرض » فقد كاد الفقر يكون كفرا ، وكان النبى ﷺ يستعيذ بالله من : الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال ، ولم يذهب الفقر إلى بلد إلا قال له الكفر خذنى معك ، ولم تذهب البطالة إلى بلد إلا قالت الرذيلة لأصحابها خذينى معك ، وهل وجدت الشيوعية المضللة الملحدة أرضاً ترتع فيها وتلعب وتعشش وتبيض وتفرخ ؛ إلا أرضاً فيها الفقر قد ضرب أطنابه[٥] ، ونشب أظفاره هناك ، تبيض الشيوعية الإلحاد وتفرخ الزندقة ، بحجة القضاء على الفقر ، وهى فى الحقيقة توزع الفقر بسخاء ، وهى الظلم الاجتماعى الفادح الفاضح ، التى تغرس فى النفوس الصراع والحقد والبغضاء والشحناء ، وكلها تؤدى إلى حمامات الدم .

فما أعدل الإسلام عندما ينادى أبناءه فيقول رسول الإسلام ﷺ (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء)[٥] .

وما أعظم عدالة الإسلام عندما تقول الآيات : ﴿ آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[٦] . فالملكية فى الإسلام ملكية خاصة ، لكن المنفعة فى المال عامة . قال جل شأنه : ﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون ﴾[٧] .

---

(١) هو جزء من حديث طويل روته الكتب الأربعة .
(٢) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .
(٤) الأطناب جمع طنب ، وهى أطراف الخيمة الممتدة على ما تحتها من الأرض .
(٥) رواه الإمام أحمد .
(٦) من الآية : ٧ من سورة الحديد .
(٧) الآية : ٧١ من سورة النحل .

لقد وجه الله تعالى الخطاب إلى الأوصياء وأولياء الأمر ، فنهاهم عن إيتاء الأموال للسفهاء الذين لايحسنون التصرف ، بل يبذرون المال تبذيرا ، والمال قد جعله الله قياما ؛ تقوم به مصالح الحياة ، وركيزة تقضى بها المصالح ، وأضاف المال إلى الأولياء ــ مع أنه مال اليتامى أو القصر ــ وذلك لأن المجتمع الإسلامى جسد واحد ، فمال السفيه فى المحافظة يجب أن يكون كمال الوصى .

ثم أن القرآن الكريم نحا بالمال منحى عجيبا ، عندما قال تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ . والرزق يشمل النفقة المعلقة بالمطعم والمشرب والمسكن والكسوة وإنما نص على الكسوة هنا ، لأنه كثيرا مايقع الإهمال بشأنها ، هذا من الناحية المادية ، وإنما قال تعالى ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ أى فى الأموال ولم يقل ارزقوهم منها ، ليدفع الأوصياء إلى استثمار المال بالطرق المشروعة ؛ من تجارة ومضاربة وغير ذلك ، فيكون الرزق فى أرباح الأموال ، ولو قال منها لكان الرزق من المال نفسه فسرعان ما ينفد ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[1] ويقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[2] ثم يأتى بعد ذلك الجانب المعنوى فى المعاملة فيقول تعالى للأولياء : ﴿ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ سواء أكان السفية رجلاً أم امرأة ، والقول المعروف هو الذى يشتمل على الإرشاد والتوجيه وتطييب الخاطر ، كأن يقول الوصى للسفيه لا تجزع فالمال مالك ، وكأن يقول له احرص على مالك ، واغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك ، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً .

قوله جل ذكره : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ﴾ .

تباركت ربنا وتعاليت ؛ فقد أمرت بالمحافظة على مال اليتيم ، وجل جلالك إذ تقول : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾ وما أعظمك وأحلمك وما أكرمك وأنت القائل : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾[3] لقد بلغ من حرص الإسلام على مال اليتيم أن الله جل ذكره أمر الأوصياء قبل أن يؤتوا اليتيم ماله ، أن يختبروه فى السلوك والتصرف ؛ فإن آنسوا منه رشداً وسلوكاً مستقيماً فليدفع إليه ماله بنفس راضية مطمئنة ، وذلك عندما يبلغ اليتيم مبلغ النكاح ، أى السن التى يصلح بها أن يكون زوجاً ورب بيت وأبا ، وهذه السن تؤهله أن يكون كذلك ، فإن كان رشيداً سليم التصرف مستقيم الحال وجب على الوصى أن يدفع إليه ماله دون ما تردد .

قوله جل شأنه : ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ هذا نهى صريح عن الإسراف فى مال

---

(١) من الآية : ٢١٦ ، ٢٣٢ من سورة البقرة ومن الآية : ٦٦ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية : ٢٤ من سورة الأنفال .
(٣) من الآية : ٢٢٠ من سورة البقرة .

اليتيم سواء أكان الإسراف من جهة الوصى أم كان بالإنفاق على اليتيم ، فالإسراف ممقوت مذموم .

كذلك نهى الله تعالى الأوصياء أن يبادروا بإتلاف مال اليتيم قبل أن يكبر ، حتى إذا بلغ مبلغ الرجال لا يجد عند الوصى مالا ، فقد بادره الوصى بأكل ماله .

قوله جل شأنه : ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ هذا أمر من الله تعالى موجه إلى الأوصياء الذين يستثمرون مال اليتيم : أن يكونوا حريصين كل الحرص على ماله ، فإذا كان الوصى المستثمر غنياً ، فأولى به أن يعف عن المال ، حيث أن الله تعالى أغناه عنه ، وإن كان الوصى المستثمر فقيراً فعليه أن يتقى الله فى مال اليتيم ، فلا يبسط يديه كل البسط ، إنما يتقاضى منه بالمعروف ، مقابل تعبه فى استثمار مال اليتيم .

قال ابن جرير : إن الأمة مجمعة على أن مال اليتيم ليس مالاً للولى ، فليس له أن يأكل منه شيئا ، ولكن له أن يستقرض منه عند الحاجة كما يستقرض له ، وله أن يؤاجر نفسه لليتيم بأجرة معلومة ، إذا كان اليتيم محتاجاً إلى ذلك ، كما يستأجر له غيره من الأجراء ، غير مخصوص بها حال غنى ولا حال فقر ، وهكذا الحكم فى أموال المجانين والمعاتيه[1] .

قوله تعالى : ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا ﴾ هذا أمر من الله تعالى بالاشهاد عند الدفع ، وذلك قطعاً للخصومة وقطعاً لدابر النزاع ، يقتضى الوجوب كما رأى الإمامان مالك والشافعى ؛ فى أن الإشهاد واجب حتى لا تكون هناك خصومة بين الوصى واليتيم ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أى رقيباً ومحاسباً وشهيداً ، فأنتم أيها الأوصياء : إذا زورتم وحاولتم أن تضللوا فيما كتبتم وأشهدتم ؛ فاعلموا أنه تعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يعلم المفسد من المصلح ، وتذكروا جيداً قوله تعالى ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ ناراً فى الدنيا وسعيراً فى الآخرة فما أشقى هذا الذى باع آخرته بدنياه ، وخالف أوامر مولاه ، وسلك طريق الغواية واتبع هواه ﴿ ومن أظلم ممن اتبع هواه بغير علم ﴾[2] .

بيان حقوق اليتامى والنساء

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ

(١) المجنون فاقد العقل تماما ، أما المعتوه فهو الذى لا يهديه ماله من عقل محدود إلى حسن التصرف .

(٢) ليست آية ولعله يقصد قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ الآية/ ٥٠ من سورة القصص ، أو الآية/ ٢٩ من سورة الروم : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ .

وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ
ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ
ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

المفردات : ﴿ مفروضاً ﴾ : أى محتوماً لابد لهم أن يأخذوه . [الخشية] : الخوف محل الأمن ، [السديد] : العدل والصواب والسِّداد (بالكسر) ما يسد به الشيء كالثغر . (موضع الخوف من العدو) ، والقارورة (الزجاجة) .

و[صلى] اللحم صليا شواه ، فإذا أراد إحراقه يقال أصلاه إصلاء وصلاَّه تصليه . وصَلَى يده بالنار : ـ أدفأها ، واصطلى : استدفأ و[السعير] : النار المستعرة المشتعلة يقال سعَرت النار وسعَّرتها .

قال سعيد بن جبير وقتادة : كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، لا يورثون النساء ولا الأطفال شيئا ، فأنزل الله : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ أى الجميع فيه سواء فى حكم الله تعالى يستوون فى أصل الوراثة ؛ وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم بما يدلى به إلى الميت من قرابة أو زوجية أو ولاء ، فإنه لحمة كلحمة النسب .

وروى ابن مردويه عن جابر ، قال : أتت أم كُجَّة إلى رسول الله ﷺ ؛ فقالت يارسول الله ﷺ : إن لى ابنتين قد مات أبوهما وليس لهما شيء ، فأنزل الله تعالى : ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾[1] .

وهكذا اقتضت عدالة الإسلام : أن يكون للرجال نصيب من الميراث ، وأن يكون للنساء نصيب أيضا ، سواء أكان ما تركه الميت قليلاً أم كثيراً ، وسواء أكان الوارث ذكراً أم أنثى ، صغيراً أو كبيراً ، حتى ولو كان حملاً فى بطن أمه ﴿ تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ وهذا النصيب الذى شرعه الله مفروض ومشروع من قبله جل شأنه : ﴿ فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم ﴾[2] .

---

(١) الميت هو أوس بن ثابت الانصارى ، مات عن زوجته« أم كجة » وثلاث بنات فقام ابنا عمه : سُوَيْد وعَرْ فَجة ، فأخذا المال ولم يعطيا المرأة وبنات أوس شيئاً فلما نزلت الآية أمرهما النبى ﷺ بإيقاف التصرف فى المال حتى يفصل الله تعالى فى الأمر ، فنزلت ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم . . . الآيات ﴾ مختصراً عن الجامع لأحكام القرآن : ج ٥ ص ٤٦ ، ٤٧ فلما نزلت الآيات أمر سويدا وعرفجة أن يعطيا الزوجة الثمن والبنات الثلثين ، ويأخذا ما بقى من المال .

(٢) الآية : ١٨١ من سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ .

ما أعظم سماحة الإسلام وما أكرم تعاليمه : إنه يعالج النفوس بالحكمة ، ويداويها بالسماحة ، فهؤلاء المذكورون من أولى القربى واليتامى والمساكين غير الوارثين ؛ إذا حضروا قسمة المال ، فعليكم يا أصحاب الحقوق فى التركه أن تعطوهم من المال شيئا تطيبياً لخواطرهم ، وجبراً لكسرهم ، ومداواة لجروحهم ، حتى تظل النفوس راضية غير حاقدة ، ونظيفة غير حاسدة ، وطيبة غير حاقدة **﴿ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾** وقد شرع الإسلام الهدية وجعلها سبباً من أسباب المحبة .

قال ﷺ : (تهادوا تحابوا) وقال : (اصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله) وقال : (صاحب المعروف لا يقع وإذا وقع وجد متكأ) .

يا أخا الإسلام :

ازرع جميلاً ولو فى غير موضعه ... فلن يضيع جميل أينما وُضعَا
إن الجميل وإن طال الزمان به ... فليس حصاده إلا الذى زرعا

يا أخا الإسلام :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس واعلم أنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

وقد صدق رسول الله ﷺ إذ يقول : (الصلة والصدقة تعمران الديار وتزيدان فى الأعمار) وإذ يقول : (الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة) وما أعظمه صلوات الله وسلامه عليه إذ يعالج الجروح الدامية بتنسم الوحيات الصافية فيقول :

(أفضل الصدقة ، الصدقة على ذى الرحم الكاشح) أى الذى يضمر السوء والبغضاء لقريبه ، وإنما جاء هذا المعنى على هذا الوجه لأنك إذا تصدقت على من يبغضك ، فإن الصدقة تطفىء نار حقده ، فيصبح صديقاً حبيباً بعد ما كان عدواً لدوداً ، ولأنك إذا تصدقت على من يكرهك فقد جاهدت نفسك ، وخالفت هواك ، وجردت الصدقة وأخلصتها لله .

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى ﴾(١) صلوات ربى وسلامه عليك سيدى يا رسول الله : يا من كنتَ تعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وكنت فى عطائك أجود من الريح المرسلة ، يامن وصفت بالسخاء والحياء والكرم :

له همم لا منتهى لكبارها ... وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أنْ معشار جودها ... على البر صار البر أندى من البحر

---

(١) الآيتان : ٤٠ ، ٤١ من سورة النازعات .

لقد علمتنا السخاء ، حتى كان أصحابك إذا أعطوا عطاءً ودعا لهم المسكين دعوة رد على المسكين بمثلها ، فيسأل فى ذلك لماذا ترد على المسكين بدعوته ؟ . فيقول : حتى تكون دعوتى مقابل دعوته ؛ وتظل الصدقة خالصة لوجه الله :

تـراه إذا مـا جئتـه متـهـللاً كأنك تعطيه الـذى أنت نائله
ولـو لم يكن فى كفه غير روحه لجـاد بهـا فـليتـق الله سـائله

روى ابن أبى حاتم عن عبد الرزاق ، قال أخبرنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة : أن أسماء بنت عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق والقاسم بن محمد أخبراه : أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر قسم ميراث أبيه عبد الرحمن وعائشه حية ، فلم يدع فى الدار مسكيناً ولا ذا قرابة إلا أعطاه من ميراث أبيه ، قالا : وتلا ﴿ **وإذا حضر القسمة أولو القربى** ﴾ . قوله تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً** ﴾ .

هذا توجيه من الله تعالى للأوصياء على مال اليتامى وغيرهم ، فعلى كل من أراد أن يؤمن على حياة أولاده التأمين الصحيح ، أن يراعي في معاملته للناس ما يحبه لأولاده ، وليتقوا الله فى أموال الغير من يتيم وغيره ، وليقولوا قولا سديداً نافعاً طيباً ، فالكلمة الطيبة صدقة .

حكى ابن جرير عن طريق العوفى عن ابن عباس قال : المراد بالآية فليتقوا الله فى مباشرة أموال اليتامى ﴿ **ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً** ﴾ وهذا قول حسن يؤيده قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ أى كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك ؛ فعامل الناس فى ذراريهم إذا وليتهم ، فالبر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ، وبالكيل الذى تكيل به للناس سيكال لك به أو عليك :

لا تـظلمن إذا مـا كنت مقتـدراً فـالـظلم تـرجع عقبـاه إلى النـدم
تـنـام عينـك والمـظلوم منتبـه يـدعـو عليـك وعـين الله لم تنم

واعلم يا أخا الإسلام أن الدنيا ساعة ، فاجعلها طاعة ، وأن النفس طماعة ، فعودها القناعة ، فلا أمان للدهر ولو صفا ، ولا أمان للمال ولو كثر ، ولا أمان للسلطان ولـو قرب منـك ، ولا راحة فى الدنيا ، ولا شفاعة فى الموت ، ولا حيلة فى الرزق ، ولا راد لقضاء الله :

دنيـاك سـاعـاتٌ سِرَاعُ الـزوال وإنمـا الـعقـبـى خـلود المـآل
فـهـل تبيـع الخلد يـاعـاقـلاً وتـشـترى دنيـا المنى والـضـلال

* * *

عش راضيـاً واتـرك دواعـى الألم واعـدل مـع الـظالم مهـما ظلم
نهايـة الـدنـيـا فـنـاء فـعش فيهـا كـريمـاً واعتبـرهـا عـدم

* * *

تملك الناس الهوى والغرور وفتنة الغيد وسكنى القصور
ولو تزال الحجب بانت لهم زخارف الدنيا وعقبى الأمور

يا من تريد السعادة لذريتك الضعاف ؛ اعمل على إسعاد الآخرين .

لا تهين الفقير علك أن تركع يوماً والدهر قد رفعه

روى أن رجلاً من بنى إسرائيل : كان يأكل مع زوجته وأمامها دجاجتان فطرق الباب مسكين فنهره الرجل وزجره ، ودارت الأيام دورتها ، إذ البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، وافتقر الرجل وطلقت زوجته وإذا بها تتزوج بآخر ، وتجلس مع زوجها يأكلان ، فطرق الباب مسكين ؛ وكان أمام الرجل دجاجة ، فقال لزوجته اذهبى بها إلى المسكين ، فأعطته الدجاجة ورجعت باكية ! فعجب زوجها وقال أتبكين على الصدقة ؟ قالت : مالهذا أبكى ! قال : فما يبكيك ؟ قالت له : أتدرى من السائل ؟ إنه زوجى الأول ! فقال لها زوجها : أتدرين من أنا ؟ وأنا السائل الأول .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحىّ من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾(1) .

سبحانك ربى ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ﴾ . نعم : البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت اعمل ما شئت كما تدين تدان .

يا نائم الليل مسروراً بأوله إن الحوادث قد يأتين أسحاراً

لقد أعلم الله الذين يجترئون على حدوده ؛ فيأكلون أموال اليتامى ظلماً بغير وجه حق ؛ أعلمهم سبحانه : أنهم فى حقيقة الأمر يأكلون فى بطونهم ناراً ، وإنما عبر بالأكل هنا دون سواه من حاجات الحياة ؛ لأن الأكل هو الدافع الفطرى الأول ، الذى يجهد الإنسان نفسه فى سبيل الحصول عليه ، ولا يمنع هذا من أن أخذ مال اليتيم بغير حق فى أى وجه من الوجوه ، إنما هو عار وشنار ونار .

وفى الآخرة سيكون مآلهم إلى السّعير ، فما أعقل من نهى النفس عن الهوى ، وعف عن الحرام ، فالحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالك أمره
متلذذاً فيها بكل نفيسة متنعماً فيها بأنعم عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

---

(1) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران .

فأى عاقل يرضى لنفسه أن يأكل مالا يتأجج فى بطنه ناراً : ﴿ وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾(١) .

لما حضرت محمداً بن كعب القرظى الوفاة ، وكان غنياً ، سأله أصحابه ماذا تركت لأولادك من المال فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ادخرت مالى لنفسى عند ربى وادخرت ربى لأولادى(٢) .

يا ابن آدم ترفرف الروح على نعش الميت ، وتقول : ياأهلى يا أبنائى يـامن أخذتم أمـوالنا وسكنتم ديارنا ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بنا ، لقد جمعت المال من الحلال والحرام ، وتركته لكم ، تستمتعون به وسأسأل عنه وحدى يوم القيامة .

ماذا تقول يا ابن آدم إذ وضعت فى القبر وحيداً لا جليس ولا أنيس ولا صديق ولا رفيق ، ونادى عليك الملك فقال : (عبدى رجعوا وتركوك وفى التراب دفنوك ولو ظلوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحى الذى لا أموت)

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ﴾(٣) ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً * ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ، بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ، ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾(٤) .

احذر أيها العاقل أكل الحرام ، واحذر مال اليتيم فإنه نار .

جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يارسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات) .

يروى ابن أبى حاتم عن أبى سعيد الخدرى قال : قلنا يارسول الله : ما رأيت ليلة أسرى بك ؟ قال (انطلق بى إلى خلق من خلق الله كثير ، رجال كل رجل منهم له مشفر كمشفر البعير وقد وكل بهم رجال

---

(١) من الآيتين : ٢٠ ، ٢١ من سورة الحديد .

(٢) وما فعل القرظى ذلك إلا لما رواه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أحسن الصدقة جاز على الصراط ومن قضى حاجة أرملة أخلف الله فى تركته » .

(٣) من الآية : ٩٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآيات : ٤٦ – ٤٩ من سورة الكهف .

يفكون لحاء أحدهم ثم يجاء بصخرة من نار فتقذف في[1] أحدهم حتى يخرج من أسفله ، ولهم جؤار وصراخ . قلت : ياجبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء : ﴿ **الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ .

وقال السدى : يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة ؛ ولهب النار يخرج من فيه ، ومن مسامعه ؛ وأنفه وعينيه ؛ يعرفه كل من رآه يأكل مال اليتيم .

وقال ابن مردويه عن أبى برزة ، أن رسول الله ﷺ قال : (**يبعث يوم القيامة القوم من قبورهم تأجج أفواههم نارا**) قيل يارسول الله من هم ؟ قال : « ألم تر أن الله قال : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ الآية . قال ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ أحرِّج مال الضعيفين المرأة واليتيم ﴾ أى أوصيكم باجتناب مالهما .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ الآية ، انطلق من كان عنده يتيم ؛ فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشىء فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم ، وذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير** ﴾[2] الآية . فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم .

فانظر معى وتأمل عناية الاسلام الفائقة بالنساء واليتامى ، وكيف وردت أحكامهم بعد الأمر بتقوى الله مباشرة : ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً * وآتوا اليتامى أموالهم** ﴾ .

ثم يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة** ﴾ .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ .

ثم يقول جل ذكره : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾ .

ولله تعالى حكمة بالغة فى أن يولد النبى ﷺ يتيماً ، ففى يتمه عبرة وعظة ، فإكرام اليتيم إكرام لسيد اليتامى ﷺ الذى قال : (خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرَّم) والذى قال (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . واستوصوا بالنساء خيرا) والذى قال : (واتقوا الله فى النساء)[3] .

---

(١) أى فى فم أحدهم .
(٢) من الآية : ٢٢٠/ من سورة البقرة .
(٣) كلها من أحاديث الصحاح .

أحكام تتعلق بالميراث

يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

ونذكر أحكاماً تتعلق بالميراث حتى نضىء الطريق بأحكام الله تعالى .

قال ﷺ : (العلم ثلاثة : وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عاملة) رواه ابن ماجه والحاكم فى مستدركه عن أبى هيريرة[١] .

أصحاب الفروض

أصحاب الفروض : كل من له سهم مقدر فى كتاب الله ، أو سنة رسول الله ﷺ ، أو بالإجماع ،

(١) ورواه أبو داود والدارقطنى عن عبد الله بن عمرو بن العاص

وهم اثنا عشر[١] : أربعة من الذكور ، الزوج ، والأب والجد الصحيح والأخ لأم وثمانية من الإناث وهن : الزوجة ، والبنت ، وبنت الابن لأم ، والجدة الصحيحة ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، ولكل أحوال خاصة .

١ - الزوج :

يأخذ النصف عند عدم الفرع الوارث للزوجة ، مذكراً أو مؤنثاً ، من هذا الزوج أو من غيره : كالابن وابن الأبن ، والبنت وبنت الابن ، ويأخذ الربع عند وجود فرع وارث ، مذكراً أو مؤنثاً .

٢ - الزوجة :

تأخذ الربع سواء أكانت واحدة أم أكثر[٢] ، وذلك عند عدم الفرع الوارث للزوج ، مذكراً أو مؤنثاً وتأخذ الثمن عند وجود الفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً .

٣ - البنات :

يرثن بالتعصيب إذا كان معهن أخ مذكر واحد أو أكثر ، سواء أكن واحدة أم أكثر فتقسم بينهم التركة أو مابقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين .

وتأخذ الواحدة النصف ؛ إذا لم يكن معها أخ ولا أخت ، وتأخذ الثنتان فأكثر الثلثين إذا لم يكن معهن أخ لهن وإلا فللذكر مثل حظ الأنثيين .

٤ - بنات الابن :

لهن ست حالات : الثلثان التى للبنات عند عدم البنات والأبناء :

(١) أن تأخذ الواحدة السدس مع البنت الصُّلبية الواحدة ، تكملة للثلثين ، سواء أكانت بنت الابن واحدة أم متعددة ، إلا إذا كان يحذئها غلام فإنها تصير عصبة به ؛ ولا تأخذ إلا إذا بقى شىء فإن لم

(١) لم يذكر الشيخ الابن وابن الابن لعدم تحديد فرض محدد لهم ولم يذكر الأخ لأب والأخ الشقيق وابن الأخ ، وقد ذكرت كتب الفرائض والتفسير عدة الوارثين سبعة عشر عشرة من الرجال : وهم الابن وابن الابن وإن سفل ، الأب وأبو الأب « الجد » وإن علا ، والأخ وابن الأخ ، والعم وابن العم ، والزوج ومولى النعمة .

ويرث من النساء سبع : البنت وبنت الابن وإن سفلت ، والأم والجدة وإن علت والأخت والزوجة ومولاة النعمة « المعيقة » ونظمهم الناظم فى مايلى :

والوارثـــون إن أردت جمعهـــم * مـــع الإنـــاث الورثـــات معهـــم
عشرة مـــن جملـــة الذاكـــران * وسبـــع أشخـــاص مـــن النسوان
وهـــم وقـــد حصرتهـــم فـــى النظـــم * الابـــن وابـــن الابـــن وابـــن العـــم
والأب منهـــم وهـــو فـــى الترتـــيب * والجـــد مـــن قـــبل الأخ القـــريب
وابـــن الأخ الادنـــى أجل والعـــم * والـــزوج والسيـــد ثـــم الأم
وابنـــة الابـــن بعدهـــا والـــبنت * وزوجـــة وجـــدة وأخت
والمـــرأة المـــولاة اعنـــى المعيقـــة * خذهـــا الـــيك عـــدة محققـــة

(٢) عند تعدد الزوجات يقسم الربع أو الثمن بينهن جميعا .

يبق شيء سقطت معه ، ويسمى لذلك : «القريب المشئوم » ؛ وإذا كان الغلام أنزل منها درجة فإنه لا يعصبها فى هذه الحال لعدم حاجتها إليه .

(٢) أن تحجب بالبنتين ، إلا إذا كان بحذائها أو أسفل منها غلام ؛ فإنه يعصبها وتأخذ معه ما بقى وهو « القريب المبارك » . من هذا يظهر أن الغلام المحاذى لبنت الابن يعصبها حتماً أما السافل فلا يعصبها إلا إذا احتاجت إليه .

(٣) أن تحجب بكل غلام أعلا منها درجة ؛ فبنت الابن تُحْجبُ بالابن ، وبنت ابن الابن تحجب بابن الابن وهكذا الأب .

٥ - وللأب ثلاث حالات :

(أ) أن يأخذ السدس فرضاً فقط ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المذكر وإن نزل ، وحده أو مع غيره .

(ب) أن يأخذ السدس بالفرض ، ثم يأخذ بالتعصيب ما يبقى من أصحاب الفروض ، وذلك عند وجود الفرع الوارث المؤنث دون الذكر .

(حـ) أن يرث بالتعصيب فقط ، وذلك إذا انعدم الفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً .

٦ - الجد الصحيح :

هو من لا تدخل فى نسبته إلى الميت أنثى : كأبى الأب وأبى أب الأب فإن دخل فى نسبته إلى الميت أنثى كأبى الأم وأبى أم الأب فهو الجد الفاسد وهو من ذوى الأرحام .

والجد الصحيح كالأب إجماعاً لأن لفظ الأب يطلق عليه كما فى قوله تعالى : ﴿ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحق ويعقوب ﴾[1] . وقوله تعالى : ﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ﴾[2] .

فللجد أربع حالات : الثلاث المتقدمة فى الأب عند عدم الأب : والرابعة : أن يحجب بالأب وبكل جد أقرب منه لأنه يمت به .

ويخالف الجد الأب فى مسائل :

(١) أن أم الأب تحجب بالأب دون الجد لأنها تدلى بالأول دون الثانى .

(٢) أن الأخوة الأشقاء أو لأبٍ يحجبون بالأب دون الجد عند الصاحبين[3] وهو رأى علىّ وابن مسعود

---

(١) من الآية : ٣٨ من سورة يوسف .

(٢) من الآية : ٢٧ من سورة الأعراف .

(٣) الصاحبان: محمد بن الحسن وأبو يوسف ـ صاحبا أبى حنيفة

وزيد بن ثابت رضىَ الله عنهم ، وعليه الأئمة الثلاثة رضى الله عنهم ، وهو المختار للعمل ، وللجد مع الأخوة أحوال سيأتى بيانها .

(٣) المسألة العمرية : وهى ما إذا اجتمع الأبوان وأحد الزوجين ، فإن الأم تأخذ ثلث الباقى بعد نصيب أحد الزوجين ، ولو كان بدل الأب جد لأخذت ثلث المال كله .

٧ - الأم :

(ا) تأخذ ثلث التركه إذا لم يكن للميت فرع وارث ، ولا أكثر من واحد من الإخوة والأخوات .

(ب) أن تأخذ سدس التركة إذا كان للميت فرع وارث مذكر أو مؤنث ، أو كان له أكثر من واحد من الإخوة والأخوات من أى نوع .

(جـ) تأخذ ثلث الباقى بعد نصيبها من أحد الزوجين ، إذا كان معها الأب ـ وأحد الزوجين ، وليس معها فرع وارث ولا جمع من الأخوة أو الأخوات ، فتكون مع الأب كالحاجب بغيره وهى المسألة العمرية .

٨ - الجدة الصحيحة :

هى التى لا يدخل نسبتها إلى الميت جد فاسد ، فإن دخل فى نسبتها إليه جد فاسد كأم أبى الأم ، وأم أبى أم الأب ، فهى الجدة الفاسدة وهى من ذوى الأرحام .

وللجدة الصحيحة حالان :

(١) أن تأخذ السدس ؛ سواء أكانت واحدة أم أكثر ، وسواء أكانت من جهة الأب أم من جهة الأم ، وينقسم السدس بين الجدات بالتساوى ، ولو كانت إحداهن تدلى إلى الميت بجتهين أو أكثر كأم أم الميت التى هى أم أبى أبى الميت .

(٢) أن تحجب بالأم ، سواء أكانت الجدة أبوية أم أموية ، وتحجب الأبوية بالأب وبالجد ان أدلت به ، وتحجب البُعْدَىَ من الجدات من أى جهة بالقُرْبَى منهن من أى جهة ، ولو كانت القربى محجوبة ، فتحجب أم أم الأم بأم الأب وإن كانت الثانية محجوبة بالأب .

٩ - الأخوات الشقيقات : للأخوات الشقيقات خمس حالات :

(١) أن تأخذ الواحدة النصف إذا انفردت .

(٢) أن تأخذ الثنتان فأكثر الثلثين عند عدم الأخ الشقيق ، وإنما كان نصيب الأخوات كنصيب الأختين لأن نصيب البنات بالنص لا يزيد عن الثلثين ، والأخوات أولى بعدم الزيادة من البنات .

(٣) أن يرثن بالتعصيب بالغير إذا كان مع الواحدة أو الأكثر أخ شقيق أو أكثر ، فتقسم بينهم التركة أو ما بقى منها للذكر مثل حظ الأنثيين ، وإذا استغرقت الفروض التركة ، ولم يبق للأشقاء شىء بأن وجد معهم زوج وأم وأخوان لأم شارك الأشقاء أولاد الأم باعتبارهم أولاد أم مثلهم وقسم الثلث بينهم جميعاً من غير تفريق بين الذكر والأنثى وتسمى هذه : « المسألة المشتركة » .

(٤) أن يرثن بالتعصيب مع الغير : وذلك إذا كان مع الواحدة أو الأكثر بنت أو بنت ابن أو أكثر فلهن ما بقى بعد أصحاب الفروض .

(٥) أن يحجبن بالفرع الوارث المذكر وهو الابن وابنه وإن نزل وبا لأب دون الجد .

١٠ - الأخوات لأب :

هن كالأخوات الشقيقات عند فقدهن بإجماع العلماء ، قياساً على بنات الأبناء مع بنات الصلب ، فللأخوات لأب الأحوال الخمسة التى للشقيقات ، والأخ لأب معهن كالأخ الشقيق مع الشقيقات ، وإذا وجد معهن أحد من أولاد الأعيان كان لهن معه ثلاثة أحوال أخرى وهى :

١ - أن يكون الموجود من أولاد الأعيان عصبة : كالأخ الشقيق وحده ، أو مع الأخت الشقيقة ، وكالأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن ، وحينئذ تحجب الأخوات لأب ، سواء أكان معهن معصب وهو الأخ لأب أم لم يكن .

٢ - أن يكون الموجود من أولاد الأعياد شقيقين فأكثر ، ولسن عصبة فإنهن يحجبن الأخت لأب إلا إذا كان معها من يصحبها وهو الأخ لأب ، دون ابنه ، فتأخذ معه ما بقى من أصحاب الفروض للذكر مثل حظ الأنثيين وهو « الأخ المبارك » .

٣ - أن يكون الموجود من أولاد الأعيان واحدة ليست عصبة ، فللأخت لأب معها السدس تكملة للثلثين ، إلا إذا كان مع الأخت لأب من يعصبها ، فإنها تأخذ معه ما بقى من أصحاب الفروض ؛ إن بقى شىء وهو « الأخ المشئوم » .

١١ - الجد مع الإخوة : للجد مع الإخوة ثلاث حالات :

(١) أن يكون الموجود من الأخوة أو الأخوات وارثاً بالتعصيب ؛ كالأخ الشقيق أو لأب ، أو كالأخت الشقيقة أو لأب مع البنت أو بنت الابن ، وحينئذ يجعل الجد أخاً شقيقاً مع الأشقاء ، وأخاً لأب مع الأخوة الأب ، ولا يدخل فى المقاسمة حينئذ من يكون محجوباً من الإخوة أو الإخوات لأب .

(٢) أن يكون الموجود من الأخوات وارثاً بالفرض ؛ كأخت شقيقة أو لأب أو أختيه ، ولا معصب ، وحينئذ يرث الجد بالتعصيب فيأخذ ما يبقى بعد الفروض .

(٣) أن يأخذ السدس وذلك إذا كان توريثه على أحد الوجهين السابقين يحرمه أو ينقصه عن السدس ، وكل هذا من مذهب على رضى الله عنه ، إلا مقاسمة الجد للأخت إذا كانت عصبة مع البنت أو بنت الابن ، فإنها من مذهب زيد بن ثابت رضى الله عنه .

١٢ - الأخوات للأم :

لأولاد الأم ثلاث حالات :

(١) أن يأخذ الواحد السدس إذا انفرد مذكراً كان أو مؤنثاً .

(٢) أن يأخذ الاثنان فأكثر الثلث يقسم بينهم بالتساوى ، سواء أكانوا ذكوراً فقط أم إناثاً فقط أو ذكوراً أم إناثاً .

(٣) الحجب بالفرع الوارث مذكراً أو مؤنثاً وبالأصل الوارث المذكر أو جد ، ولا يحجبون بالأم وإن كانوا يدلون بها ــ ومن هنا نعلم أن الإخوة مطلقاً لا يرثون مع الفرع المذكر الوارث وكذلك مع الأب .

العصبة النسبية :

هى ثلاثة أنواع : (١) العاصب بنفسه وهو : كل ذكر لم يدخل فى نسبته إلى الميت أنثى ، ولا يحتاج فى عصوبته إلى غيره وهو منحصر فى جهات أربع :

١ - جهة البنوة كالابن وابن الابن وإن نزل .
٢ - جهة الأبوة كالأب والجد الصحيح وإن علا .
٣ - جهة الأخوة كالأخ الشقيق وابنه والأخ لأب وابنه .
٤ - جهة العمومة كعم الميت الشقيق وابنه ، وعمه لأب وابنه ، وعم أبى الميت الشقيق وابنه ، وعم أبى الميت لأب وابنه ، وأما العم لأم وهو أخو أبى الميت لأم ، وأخو جده لأم : فمن ذوى الأرحام .

العاصب بغيره :

هو كل أنثى احتاجت فى عصوبتها إلى غيرها من العاصب بنفسه ، وشاركته فى العصوبة ولا يكون هذا النوع إلا ممن فرضهن النصف أو الثلثان فينحصر فى أربع :

١ - البنات مع الابن .
٢ - بنات الابن مع ابن الابن المحاذى مطلقاً والسافل إذا احتجن إليه .
٣ - الأخوات الشقيقات مع الأخ الشقيق .
٤ - الأخوات لأب مع الأخ لأب .

وعلى ذلك لا تكون العمة عصبة مع العم ، ولا بنت العم عصبة مع ابن العم ، ولا بنت الأخ الشقيق أو لأب عصبة مع أخيها .

العاصب مع غيره :

وهو كل أنثى احتاجت فى عصوبتها إلى أنثى لم تشاركها فى العصوبة ، وهو منحصر فى اثنتين :

١ - الأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن .
٢ - الأخت لأب كذلك ، واعلم أن تقسيم العصبة إلى هذه الأنواع الثلاثة ؛ لا دخل له فى الترتيب فى استحقاق الميراث ، بل لذلك نظام روعى فيه تقديم الأقرب فالأقرب من غير نظر إلى نوع العصوبة وهو التقديم :

(أ)- بالجهة : فتقدم جهة البنوة ، ثم جهه الأبوة ، ثم الأخوة ثم العمومة ؛ فيقدم الابن وابن الابن وإن سفل على الأب والجد وإن علا ، وعلى الأخ وعلى العم ، ويقدم الأب على الأخ وعلى العم ، والجد يشارك الأخوة كما سبق ، ويقدم على العم ، ويقدم الأخ على العم .

(ب)- بالدرجة : وذلك عند اتحاد الجهة . فالابن مقدم على ابن الابن ؛ والأب مقدم على الجد والأخ مقدم على ابن الأخ ، وعم الميت مقدم على عم أبيه ، وهكذا . والله أعلم .

(حـ)- بقوة القرابة : وذلك عند اتحاد الجهة والدرجة ، فيقدم الأخ الشقيق على الأخ لأب ، كما تقدم عليه الأخت الشقيقة مع البنت أو بنت الابن ، ويقدم ابن الأخ الشقيق على ابن الأخ لأب ، ويقدم العم الشقيق على العم لأب وهكذا .

الإدلاء بجهتين :

قد يتصل الوارث بالمورّث من جهتين : كزوج هو ابن عم ، وكابن عم هو أخ لأم ، وكأم أم الأم التى هى أم أم الأب ، فإذا ترتب على تعدد الجهة تعدد صفة الوارث بالإضافة إلى المورث ؛ ورث من جهتين كالمثالين الأول والثانى ، وإذا لم تختلف الصفة مع تعدد الجهة ؛ ورث من جهة واحدة ، كالمثال الثالث ، وإذا حجب النوع الأول من جهة ورث من الجهة الأخرى ، وقل حظه ، أما إذا حجب النوع الثانى من جهة فإنه يرث من الجهة الأخرى ولا يتأثر نصيبه .

الحجـــب :

هو منع الشخص من كل الميراث أو بعضه ، مع قيام أهليته بألا يكون هناك مانع من موانع الإرث السابقة ، وهو نوعان :

١ - حجب حرمان كحجب الأخ لأم البنت وكحجب الأخ بالابن .

٢ - حجب نقصان كحجب الأم بالبنت من الثلث إلى السدس ، وقد علم بالاستقرار ستة لا يحجبون حجب حرمان وهم : الأبوان والزوجان والولدان .

الـــرد :

إذا بقى من التركه شىء بعد إلحاق فرائضها بأهلها ؛ ولم يكن هناك عاصب ؛ يرد الباقى على أصحاب الفروض ، وهذا رأى علىّ ــ رضى الله عنه ــ وجمهور الصحابة والفقهاء ، وعليه العمل ، وذهب جمهور القائلين بالرد إلى أنه يكون على أصحاب الفروض إلا الزوجين ، لأن سبب الإرث فى حقهما الزوجية وهى تنقطع بالموت ، بخلاف القرابة ، ومعروف أن من يرى الرد على أحد الزوجين إذ لم يكن هناك أحد من ذوى الفروض والعصبات النسبية ، وأولى الأرحام ، وعند الرد على ذوى الفروض لا يعتبر قرب الدرجة ولا قوة القرابة ، إلا بمقدار ما اعتبر فى الفروض المقدرة ، ولذلك لا يعطى الباقى كله لأقربهم كما فى العصبات بل يقسم بينهم بنسبة أنصبائهم بالطرق الآتية :

١ - إذا لم يكن فى المسألة من لا يرد عليه . وهو أحد الزوجين . فإن كان الورثة صنفاً واحداً ؛ فأصل المسألة عدد رءوسهم .

٢ - وإن كانوا صنفين فأكثر ؛ فأصل المسألة مجموع السهام التى يستحقونها .

٣ - واذا كان فيها من لا يرد عليه ، يجعل أصل المسألة مأخذ نصيب من لا يرد عليه ويعطى فرصة ، يقسم الباقى على من يرد عليهم بنسبة أنصبائهم ، وقد يحتاج فى أثناء ذلك إلى التصحيح اذا انكسرت السهام على الانصباء ، أو على عدد الرءوس ، وقد تنكسر عليهما ، فيكون فى المسألة تصحيحان .

نمـــــوذج

(١) توفى عن : ٥ بنات ، بنت ابن ، أخ لأم

	٥ بنات	بنت ابن	أخ لأم	
جـ ١	٢/٣	م	م	الأصل ٣
	٥	٠	٠	وبالرد ٥

(٢) توفى عن : أم ، أخت شقيقة ، أخت لأم

	أم	أخت شقيقة	أخت لأم	
جـ ٢	١/٦	١/٢	١/٦	الأصل ٦
	١	٣	١	

(٣) توفى عن : زوجة ، ٣ أخوات لأم

	زوجة	٣ أخوات لأم	
جـ ٣	١/٤	١/٣	الأصل ١٢
	٣	٤	وبالرد ٤
	١	٣	ومنه تصح

(٤) توفى عن : ٤ زوجات ، ٣ بنات ، ٦ جدات ص

	٤ زوجات	٣ بنات	٦ جدات	
جـ ٤	١/٨	٢/٣	١/٦	الأصل ٢٤
	٣	١٦	٤	وبالرد ٨
	١	٧		جزء السهم ٥
	٥	٢٨	٧	التصحيح ٤٠
	٤	٣	٦	جزء السهم ١٢
	٦٠	٣٣٦	٨٤	التصحيح ٤٨٠

أصول المسائل

المراد بأصل المسألة فى اصطلاح الفرضيين : أقل عدد يمكن أن تؤخذ منه سهام الورثة صحيحة من غير كسر ، فإذا كان فى المسألة صاحب فرض واحد ؛ فأصلها مأخذ ذلك الفرض ، وهو الأثنان للنصف والثلاثة للثلث والأربعة للربع ، وهكذا ، وبعبارة أخرى : أصل المسألة مقام الكسر الدال على الفرض ، وأذا كان فى المسألة أكثر من فرض ينظر إلى مقامات الكسور :

١ – فإذا كان بينهما تماثل (أى تساوى) مثل : ١/٣ ، ٢/٣ فأصل المسألة ذلك المأخذ المشترك وهو الثلاثة .

٢ – وإذا كان بينهما تداخل (وهو أن يكون أحدها مضافاً لغيره) مثل ١/٢ ، ١/٤ ، ١/٨ فأصل المسألة ذلك المضاعف وهو الثمانية .

٣ – وإذا كان بينهما توافق (وهو أن يكون للعددين عدد ثالث يقبل كل منهما القسمة عليه) مثل ١/٤ ، ١/٦ فإن كلا من الأربعة والستة يقبل القسمة على الاثنين) .

فأصل المسألة حاصل ضرب أحد العددين فى وفق الآخر ، ووفق العدد خارج قسمته على القاسم المشترك الأعظم ، فيكون أصل المسألة فى المثال السابق :

٤ × ٦/٢ أو ٦ × ٤/٢ = ١٢

٤ – وإذا كان بينهما تباين (وهو ألا يكون بينها نسبة من النسب الثلاث الماضية) مثل : ١/٤ ، ١/٣ فأصل المسألة حاصل ضرب العددين وهو فى المثال المفروض ٣ × ٤ = ١٢

والخلاصة أن أصل المسألة هى المضاعف البسيط للمقامات .

وإذا نظرت إلى الفروض المقدرة منفردة ومجتمعة ؛ تبين لك أن أصول المسائل تنحصر فى سبعة وهى : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٦ ، ٨ ، ١٢ ، ٢٤ .

نمـــوذج

(١) توفى شخص عن : أب ، ابن ابن

جـ ١	١/٦	ع	فالأصل ٦
	١	٥	ومنه تصح

(٢) توفى شخص عن : أم ، أخ لأم ، أخ شقيق

جـ ٣	١/٦	١/٦	ع	فالأصل ٦
	١	١	ع	ومنه تصح

(١) حرف العين تحت ابن الابن يعنى عصبه

(٣) توفى شخص عن : أب ، بنت ، بنت ابن

ج ٣	١/٦ وع	١/٢	١/٦	فالأصل ٦
	١ + ١	٣	١	ومنه تصح

(٤) توفى شخص عن : أب ، زوج ، ابن

ج ٤	١/٦	١/٤	ع	فالأصل ١٢
	٢	٣	٧	ومنه تصح

(٥) توفى شخص عن : أم ، زوجة ، بنتيه ، أخ لأب

ج ٥	١/٦	١/٨	٢/٣	ع	فالأصل ٢٤
	٤	٣	٨ + ٨	١	ومنه تصح

(٦) توفى شخص عن : أب ، أم ، زوجة ، أخ لأم

ج ٦	ع	١/٣ الباقى	١/٤	م	فالأصل ٤
	م	١	١	لاشىء	ومنه تصح

العــول

فى المسائل السابقة لم يزد مجموع السهام التى استحقها الورثة عن أصل المسألة ، وقد يزيد عليه ، وذلك ما يسمى عند الفرضيين بالعول ، وحينئذ يهمل الأصل الأول ويعتبر العول أصلا تقسم التركة بحسبه ليدخل النقص على كل وارث بنسبة نصيبه .

وبالاستقراء علم أن من أصول المسائل ما لايعول وهو : ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٨ ، وأن الستة تعول إلى ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، وأن الاثنى عشر تعول إلى ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، وأن الأربعة والعشرين تعول إلى ٢٧ .

نمـــوذج

(١) توفى عن : زوج ، أختين شقيقتين ، أخوين لأم

ج ١	١/٢	٢/٣	١/٣	**الأصل ٦**
	٣	٤	٢	**وبالعول ٩**

(٢) توفى عن : زوجة ، أختين شقيقتين ، أخت لأم

جـ ٢	١/٤	٢/٣	١/٦	الأصل ١٢
	٣	٨	٢	وبالعول ١٣

(٣) توفى عن : زوجة ، بنتين ، أبى أب ، أم أم

جـ ٣	١/٨	٢/٣	١/٦ ع	١/٦	الأصل ٢٤
	٣	١٦	٤	٤	وبالعول ٢٧

أولو الأرحام

يرث ذوو الأرحام إذا لم يوجد ذو فرض ولا عاصب أو كان هناك أحد الزوجين فقط كانت التركة كلها أو ما بقى منها لأولى الأرحام .

وهم اسم يشمل فى الأصل جميع الأقارب ، والفقهاء يطلقونه هنا على الأقارب غير ذوى الفروض والعصبات ، وقد اختلف فى توريثهم .

أصناف أولى الأرحام هم أصناف أربعة :

١ ـ أولاد البنات وإن نزلوا ، وأولاد بنات الابن وإن نزل .
٢ ـ الأجداد الساقطون والجدات الساقطات وإن علوا .
٣ ـ فروع أولاد الأم وإن نزلوا ، وفروع الأخوات الشقيقات أو لأب كذلك ، وبنات الإخوة الأشقاء أو لأب وفروعهن ، وإن نزلوا ، وبنات أبناء هؤلاء الإخوة وفروعهن كذلك .
٤ ـ ست طوائف مرتبون فى الاستحقاق على النحو الآتى :

١ ـ أعمام الميت لأم وعماته مطلقا (وقرابة هؤلاء من جهة الأب) وأخواته وخالاته جميعا (وقرابة هؤلاء من جهة الأم)
٢ ـ أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام الميت الأشقاء أو لأب ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكر وإن نزلوا .
٣ ـ أعمام أبى الميت لأم وعماته وأخواته وخالاته جميعاً ، (وقرابتهم من جهة الأب) وأعمام أم الميت وعماتها وأخوالها وخالاتها (وقرابتهم من جهة الأم)
٤ ـ أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام أبى الميت الأشقاء أو لأب ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا .

٥ ــ أعمام أبى أبى الميت لأم وعماته وأخواله وخالاته ، وأعمام أم أبى الميت وعماتها وأخوالها وخالاتها (وقرابة هؤلاء من جهة الأب) وأعمام أبى أم الميت وعماته وأخواله وخالاته ، وأعمام أم أم الميت وعماتها وأخوالها وخالاتها (وقرابة هؤلاء من جهة الأم)

٦ ــ أولاد هؤلاء جميعاً وإن نزلوا ، وبنات أعمام أبى أبى الميت الأشقاء أو لأب ، وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكرن وإن نزلوا وهكذا .

كيف يرث أولو الأرحــام ؟

كل طائفة من الطوائف السابقة تحجب ما بعدها ، فإذا لم يوجد الطائفة المستحقة إلا واحد ــ أخذ المال كله ، ذكراً كان أو أنثى ، وإذا وجد فيها أكثر من واحد ــ قدم الأقرب درجة ولو كان أنثى على الأبعد وإن كان ذكراً .

فإذا اتحدت الدرجة ولم يوجد مرجح من المرجحات الآتية : قسم المال على المستحقين للذكر مثل حظ الأنثيين .

الصنف الأول :

يشمل هذا الصنف الفروع غير الوارثة كما تقدم ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ ــ أن يكون بعضهم ولد صاحب فرض أى إن الأصل المباشر الذى يدلى به إلى الميت ــ لو كان حياً ــ لورث بالفرض ، وبعضهم ليس كذلك ، وحينئذ يحجب الأول الثانى كبنت بنت الابن مع ابن بنت البنت .

٢ ــ أن يكون كلهم ولد صاحب فرض ، أو كلهم ليس كذلك فتقسم التركة عليهم للذكر مثل حظ الأنثيين كابن بنت ابن مع بنت بنت ابن ، وكابن بنت بنت مع بنت بنت بنت . ولا يعتد بالإدلاء بجهتين هنا لأن جهة القرابة ــ وهى البنوة ــ واحدة .

الصنف الثانى :

يشمل هذا الصنف الأجداد الساقطين والجدات الساقطات ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ ــ أن يكون بعضهم مدليا إلى الميت بصاحب فرض دون بعض ، فيحجب الأول الثانى كالأمثلة (ا ، ب ، ج)

(ا)	(ب)	(ج)
أبى أم	أبى أبى	أبى أم
أم أبى	أم أبى	أم أبى
أم	أم	أبى أم
أبى	الميت	الميت

ــ الميت فالأول فى كل منهما يدلى بذى فرض فيحجب الثانى .

الصنف الثالث :

يشمل هذا الصنف من ذكرنا قبل : من فروع الأخوة والإخوات ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

١ ــ أن يكون بعضهم ولد عصبة دون بعض ، فيحجب الأول الثانى : كبنت ابن الأخ لأب مع ابن بنت أخ شقيق .

٢ ــ أن يكون كلهم ولد عصبة أو كلهم ولد ذى رحم ، وحينئذ يقدم أقواهم قرابة فيقدم من كان أصله لأبوين ، ثم من كان أصله لأب ، ثم من كان أصله لأم .

فإذا استووا فى قوة القرابة قسم المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين ، ولو كانوا من فروع أولاد الأم .

الصنف الرابع :

يشمل هذا الصنف ما ذكرنا قبل من الطوائف الست :

١ ــ **الطائفة الأولى** : أعمام الميت لأم وعماته وأخواله وخالاته ، ولا يأتى هنا اختلاف الدرجة ، وهم عند التعدد حالان :

(ا) أن تتحد جهة قرابتهم بأن يكونوا كلهم من جهة الأب ، أو كلهم من جهة الأم ، وحينئذ يقدم أقواهم قرابه ، فالعمة الشقيقة مقدمة على العمة لأب ، وهذه مقدمة على كل من العم والعمة لأم ، وكل من الخال والخالة الشقيقين ، مقدم على الخال والخالة لأب ، وكل من هذين مقدم على الخال والخالة لأم .

فإذا استووا فى القوة قسم المال بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين .

(ب) أن تختلف جهة قرابتهم : بأن يكون بعضهم من جهة الأب ، وبعضهم من جهة الأم ، وحينئذ تعطى قرابه الأب الثلثين ، وقرابة الأم الثلث ، ولا يفضل الأقوى فى جهة على الأضعف فى الأخرى ، فلا تفضل العمة الشقيقة مثلاً على الخال لأم ، ثم يقسم نصيب كل جهة بين آحادها على النحو السابق .

٢ ـ الطائفة الثانية : تشمل أولاد الطائفة الأولى ، وبنات أعمام الميت الأشقاء أو لأب وبنات أبنائهم وإن نزلوا ، وأولاد من ذكرن وإن نزلوا ، ولهم عند التعدد واتحاد الدرجة حالان :

(ا) أن تتحد جهة قرابتهم : بأن يكونوا كلهم من جهة الأب ، أو كلهم من جهة الأم ، وحينئذ يقدم ولد العاصب ولو كان أنثى ، وإنما يتأتى هذا فى قرابة الأب دون قرابة الأم ، إذ لا عاصب من جهتها على غيره ، فبنت العم الشقيق مثلاً تقدم على ابن العم لأم ، فإذا كانوا كلهم ولد عاصب ، أو كلهم ولد ذى رحم ـ قدم الأقوى قرابة فيقدم من كان أصله لأبوين ، ثم من كان أصله لأب ثم من كان أصله لأم .

(ب) أن تختلف جهة قرابتهم : بأن يكون بعضهم من جهة الأب ، وبعضهم من جهة الأم ، وحينئذ تعطى قرابة الأب الثلثين ، وقرابة الأم الثلث ، وما أصاب كل فريق يقسم بين آحاده على النحو السابق .

تنبيه : حكم الطائفتين : الثالثة والخامسة كحكم الطائفة الأولى .

وحكم الطائفتين : الرابعة والسادسة كحكم الطائفة الثانية .

موانع الإرث :

أولاً : القتل : وهو ما وقع عمداً ، من مكلف[1] بغير حق أو عذر ، والعامد هو المباشر للقتل مستقلاً أو شريكاً ، ولو كان أصلاً للمقتول ، وقوله ﷺ : (لا يقاد الوالد بولده)[2] معناه لا يقتل به ، وهو لا يستلزم بقاء حقه فى الميراث .

ويلحق بالعامد المتسبب الراغب فى القتل أو المعين : كالآمر والمحرض ، والدال وشاهد الزور ، الذى بنى على شهادته الحكم بالإعدام وتنفيذه ، والمكلف هو البالغ العاقل : فكل من الصبى والمجنون والمعتوه لا يمنع من الميراث بقتل مورثه ، لعدم التكليف . وحد البلوغ خمسة عشر عاما[3] .

ولايمنع من الميراث قتل بحق : بأن كان قصاصاً ، كقتل القاتل ، أو حداً ؛ كقتل المرتدّ ، أو دفاعاً عن النفس ، وكذلك لا يمنع من قتل بعذر : كقتل الزوج زوجته ، أو الزانى بها عند مفاجأتها حال الزنا ، وكالقتل مبالغة فى الدفاع .

ثانياً : اختلاف الدين ؛ لقوله ﷺ : (لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم)[4] ولأن الإرث مبنى على النصرة التامة ، ولا تناصر مع اختلاف الدين ، فلا توارث بين المسلمين وغيرهم ولو ذميين[5] ، أما المرتدّ عن دينه من المسلمين ، فسواء أكان ذكراً أم أنثى لا يرث أحداً من المسلمين ولا من غيرهم باتفاق ،

(١) المكلف : هو الحر البالغ العاقل
(٢) رواه الأربعة
(٣) وعلامة البلوغ الاحتلام أو القدرة على الانجاب
(٤) متفق عليه
(٥) ورث معاذ ومعاوية المسلم من الكافر الكتابى وغير الكتابى : الجامع لأحكام القرآن ج / ٥ ص ٥٩ ويراجع فتح البارى ج ١٢ ص ٤٣ ط بولاق

ويورث عنه ما اكتسبه من المال فى إسلامه أوردته عند الصاحبين ، وكذلك عند أبى حنيفة ؛ إلا كسب المرتد الذكر فى ردته ؛ فقد جعله فيئاً لبيت مال المسلمين . وجهة التسوية بين كسبى المرتد والمرتدة فى ردتها عند الصاحبين : أن كلاً منهما لا يقر على ردته بل يجبر على الرجوع إلى الإسلام ، فيعتبر حكم الإسلام فى حقه مراعاة لمصلحة وارثه لا لمصلحته .

ووجه التفرقة بينهما عند الامام . أن المرتدة لا تقتل بسبب ردتها بل تستتاب وتعزر حتى تعود إلى الإسلام أو تموت ، فلا يمكن اعتبار ردتها موتاً ، فيعتبر حكم الإسلام فى حقها ، أما المرتد فإنه يستتاب ثلاثة أيام ؛ فإن تاب وإلا قتل بسبب ردته ، فتعتبر ردته موتاً من باب إقامة السبب مقام المسبب فلا يمكن اعتبار حكم الإسلام فى حقه حال ردته ، ولا يكون أهلاً للملك ، فلا يثبت حق الورثة فيما اكتسبه فيها ، فيصبح ككل الأموال التى لا مالك لها حقاً لبيت مال المسلمين ، أما الكفار بعضهم مع بعض فيتوارثون والمراد بلا اختلاف فى الدين الكفر والإسلام .

المستحقون للتركة :

لا تقسم التركة على الورثة إلا بعد تجهيز الميت ، وتجهيز من مات قبله ممن تلزمه نفقته من غير إسراف ، ولا يعتبر مازاد عن الحاجة المعروفة فى الشرع ، ثم وفاء الدين وهذا هو مذهب الإمام أحمد ، أما الأئمة الثلاثة فيقدمون الديون على التجهيز ، وعلى هذا يكون التجهيز على أقارب الميت ، أو على من حضر من المسلمين ، أو على بيت المال .

قواعد عامة فى أحكام المواريث :

أولاً : أقارب الميت هم على الترتيب : البنوة - الأبوة - الحواشى هم : الإخوة الأشقاء ، ثم الإخوة للآباء ، ثم بنو الإخوة الأشقاء ، ثم بنو الإخوة للآباء ثم الأعمام ، ثم منهم الأعمام الأشقاء ، ثم بنو الأعمام للآباء وهؤلاء هم عصبة .

ثانياً : أما الإخوة لأم فليسوا من العصبة ؛ بل هم من أصحاب الفروض ، ففرض الأخ لأم ذكراً كان أو أنثى السدس ، وإذا تعددت الإخوة لأم فهم شركاء فى الثلث .

ثالثاً : العاصب إذا انفرد أخذ التركة كلها ؛ أما إذا تعدد فيقدم الأقرب فالأقرب كما ذكرنا ، وإذا كان معه صاحب فرض ، فيأخذ صاحب الفرض حقه أولاً والباقى للعاصب .

رابعاً : خمسة لا يسقطون بحال وهم : الأب ــ الأم ــ الزوج ــ الزوجة ــ ولد الصلب ذكراً كان أو أنثى .

خامساً : إن بنات الأعمام وبنات الإخوة والعمات لا يرثون ، لأنهم من ذوى الأرحام إلا إذا عدمت العصبة جميعهم .

سادساً : الأخ الشقيق يحجب الأخ للأب ، ولا يحجب الأخ لأم ، كذلك الأخ للأب لا يحجب الأخ لأم ، أنما الذى يحجب الأخ لأم أصل ذكر أو فرع ، ذكراً كان أو أنثى .

سابعاً : الإخوة والأخوات مع البنات عصبة ، بمعنى أن البنات يأخذن نصيبهن ، وهو الثلثان والبنت تأخذ النصف . والباقى للإخوة والأخوات للذكر مثل حظ الأنثيين .

ثامناً : البنت مع بنت الابن لها نصف التركة ، وبنت الابن لها السدس تكملة الثلثين ، وأما بنت الابن مع البنتين ، فليس لها حق فى الميراث ، إلا إذا وجد أخ يعصبها فيكون للذكر مثل حظ الأنثيين .

كذلك الأخت الشقيقة لها النصف والأخت لأب لها السدس تكملة الثلثين ، وعلى هـذا لا ترث الأخت لأب إلا إذا وجد أخ يعصبها ، فيكون للذكر مثل حظ الأنثيين .

تاسعاً : الأب يحجب الجد كما أن الجد الأقرب يحجب الجد الأبعد .

عاشراً : الأب لا يحجب الجدة إلا الجدة من جهته فقط .

الحادى عشر : الأم تحجب الجدات مطلقاً ، سواء كانت الجدات من جهة الأب أو الأم .

الثانى عشر : القربى من كل جهة تحجب البعدى من جهتها .

الثالث عشر : القربى من جهة الأم تحجب البعدى من جهة الأب ؛ ولا عكس ، بمعنى أن الجدة القربى من جهة الأب لا تحجب البعدى من جهة الأم بل يشتركان فى السدس على الصحيح .

الرابع عشر : الأجداد يشاركون الأخوات فى الميراث على رأى الجمهور ، وهناك طائفة من الصحابة وطائفة من التابعين والإمام أبو حنيفة يرون عدم توريث الإخوة والأخوات مع الأجداد .

الخامس عشر : قاتل الموروث لا يرث وكذلك الاختلاف فى الدين على رأى الجمهور وغير الجمهور[1] يورث المسلم الكافر ولا عكس .

السادس عشر : الأب نصيبه من الميراث السدس فرضاً والباقى تعصيباً وكذلك الجد .

السابع عشر : الأم لها الثلث إذا لم يوجد فرع وارث للميت ، أو أخوان فأكثر ذكوراً أو إناثاً ولو لم يكونوا وارثين ، وسواء كانوا أشقاء أو غير أشقاء وإلا فلها السدس .

الثامن عشر : الجدة نصيبها السدس .

التاسع عشر : للزوج نصف التركة إلا إذا كانت الزوجة لها ولد ذكراً أو أنثى فله الربع .

العشرون : للزوجة الربع إذا لم يكن للزوج ولد ولا بنت ، وإلا فلها الثمن والزوجات إذا تعددن يشتركن فى الربع أو الثمن .

الحادى والعشرون : إذا بقى شىء من التركة بعد استيفاء أصحاب الفروض يرد عليهم ما عـدا الزوج والزوجة .

---

(١) وهذا رأى معاذ ومعاوية

الثانى والعشرون : لا يرث ذوو الأرحام إلا إذا عدمت العصبة وتوريثهم (فى كتاب الميراث لفضيلة الشيخ حسنين مخلوف) .

الثالث والعشرون : لا تقسم التركة إلا بعد تنفيذ الوصية ، ونريد بالوصية الشرعية ، فإذا كانت غير شرعية كأن كان فيها امتياز لبعض الورثة من غير سبب يقتضى ذلك ، أو فيها مخالفة للشرع الشريف ؛ كأن أوصى بأن تجعل له مقصورة ، أو ينصب له سرادق ، أو يدفن فى كفن من حرير ، وهكذا فلا ينفذ شىء منها .

والوصية لا تنفذ إلا بعد أداء الدين ، ولا تنفذ إلا فى ثلث ما بقى من بعد الديون ، ولا تنفذ فيما زاد على الثلث ، إلا بإجازة الورثة ، وإذا كانت لوارث لم ينفذ فيها شىء إلا بإجازتهم جميعاً .

وإذا اجتمعت الوصية بدين الله والوصية لأجنبى نفذتا معاً ؛ وسعهما الثلث ، أو أجاز الورثة ، فوسعهما الكل ، فإن لم يسعهما الثلث أو الكل ؛ قسم عليهما بنسبة أسهمهما إذا كانتا مقدرتين لسهام وبعدد الجهات إن لم يكونا مقدرتين بها ، ولا يقدم أحد النوعين على الآخر ولا يجعل الوصايا التى لله جهة واحدة .

غفلة مستحكمة :

جرت العادات بأن من مات يحفظ من تركته حق الناس ، ولا يدخل فى حساب التركة حق الله تعالى كالزكاة والحج والنذر ، وهذا جحود وتقصير فى حق المتوفى ؛ ففى هذا عقوق له وتعذيب له .

وسواء وصَّى أو لم يوص ، نعم إذا لم يتمكن من أداء هذا الحق فى حياته ووصى بالأداء من التركة فلا ذنب عليه ، وإنما الذنب على الورثة إذا لم ينفذوها .

حق الورثة :

ما يبقى بعد هذه الحقوق الثلاثة هو حق الورثة ، وهم مرتبون فى الاستحقاق على الوجه الآتى :

١ ــ أصحاب الفروض وهم كل من له فرض مقدر فى كتاب الله كالزوج ، أو فى سنة رسول الله ﷺ كالجدة ، أو بالإجماع كحلول الجد الصحيح محل الأب ، وحلول بنت الابن محل البنت .

٢ ــ العصبات النسبية : وهم من أقارب الميت الأقربين غير ذوى الفروض - كل من يأخذ من التركة - ما أبقته الفرائض ، ويأخذ جميع التركة عند الانفراد .

وإنما يقدم صاحب الفرض على العاصب ، إذا لم يكن محجوباً فإذا كان محجوباً لم يقدم عليه ، كالأخت مع الابن ، فإنها وإن كانت من ذوى الفروض وهو من العصبات لا تقدم عليه لأنها محجوبة به .

٣ ــ الرد على أصحاب الفروض غير الزوجين ، وذلك إذا بقى من التركة شىء بعد إلحاق الفرائض بأهلها ولم يوجد عاصب ، فيرد الباقى على من عدا الزوجين بنسبة سهامهم .

٤ ـ ذوو الأرحام : وهم الأقارب غير ذوى الفروض والعصبات ، كابن البنت والخال ، فلا يرثون إلا إذا انعدم أصحاب الفروض والعصبات ، أو كان من أصحاب الفروض ، أحد الزوجين فقط .

٥ ـ الرد على أحد الزوجين : إذا لم يوجد غيره من أصحاب الفروض والعصبات وذوى الأرحام .

تنبيه : ماذكرته فى أحكام المواريث بالنسبة للأبناء والأحفاد ؛ كان قبل الوصية الجبرية التى صدرت فى سنة ١٩٤٦ فقد ورثت الأحفاد الذين يموت والدهم فى حياة جدهم ، بشرط أن يكون الإرث فى دائرة الثلث ، وأن يكون للطبقة الأولى فقط لأولاد البنات أما أولاد الذكور فتكون لجميع الطبقات : الأقرب فالأقرب .

تفسير آيات الميراث :

بعد بيان الأحكام المتعلقة بالميراث ، نأخذ بعون الله تعالى فى تفسير النص الكريم الذى أنزله الله على عبده ورسوله ﷺ بشأن الميراث ؛ فنقول وبالله التوفيق : بعد أن بين سبحانه حكم الميراث مجملاً فى قوله : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ ذكر هنا تفصيل ذلك المجمل ، فبين أحكام المواريث وفرائضها ، لإبطال ما كان عليه العرب من نظام التوارث فى الجاهلية ؛ من منع الأنثى وصغار الأولاد وتوريث بعض من حرمه الإسلام من الميراث .

وقد كانت أسباب الإرث فى الجاهلية ثلاثة :

١ ـ النسب : وهو لا يكون إلا للرجال الذين يركبون الخيل ويقاتلون العدو ويأخذون الغنائم ، وليس للضعيفين المرأة والطفل من ذلك شىء .

٢ ـ التبنى : فقد كان الرجل يتبنى ولد غيره ؛ فيكون له أحكام الولد فى الميراث وغيره .

٣ ـ الحلف والعهد : فقد كان الرجل يقول لآخر ؛ دمى دمك وهدمى هدمك (أى إذا أهدر دمى أهدر دمك) وترثنى وأرثك ، وتطلب بى وأطلب بك ، فإذا فعلا ذلك ومات أحدهما قبل الآخر كان للحى ما اشترط من مال الميت .

فلما جاء الإسلام أقرهم على الأول والثالث دون الثانى ، فقال : ﴿ **ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون** ﴾ والمراد التوارث بالنسب وقال : ﴿ **والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم** ﴾ والمراد به التوارث بالعهد . وقال : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾[1] والمراد به التوارث بالتبنى .

وزاد شيئين آخرين :

١ ـ الهجرة ، فكان المهاجر يرث من المهاجر إليه وإن كان أجنبياً عنه إذا كان بينهما مخالطة وود ولا يرثه غير المهاجر من أقاربه .

---

(١) من الآية : ٤ من سورة الأحزاب .

٢ ــ المؤاخاة - كان رسول الله ﷺ يؤاخى بين كل أثنين من الرجال ، وكان ذلك سبباً للتوارث ؛ ثم نسخ التوارث بهذين السببين بقوله : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾(١) .

ثم استقر الأمر بعد نزول أحكام الفرائض على أن أسباب الإرث ثلاثة : النسب ، والنكاح ، والولاء .

وسبب نزول الآية ما أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى من حديث جابر قال : جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله هاتان ابنتا سعد بن الربيع قتل أبوهما معك فى أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ، ولا تنكحان إلا ولهما مال ، فقال : (يقضى الله فى ذلك) فنزلت آية الميراث ﴿يوصيكم الله فى أولادكم﴾ الآية ، فأرسل رسول الله إلى عمهما فقال : «أعط بنتىْ سعد الثلثين ، وأمهما الثمن ، وما بقى فهو لك» قالوا وهذه أول تركة قسمت فى الإسلام .

صدقت يا رسول الله ﷺ لقد علمتنا ورغبتنا فى تعلم علم الفرائض ؛ فهو نصف العلم . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم ، وهو ينسى ، وهو أول شىء ينزع من أمتى) رواه ابن ماجه .

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية يوصيكم الله فى أولادكم ﴿ عن جابر بن عبد الله قال : عادنى رسول الله ﷺ وأبو بكر فى بنى سَلِمَة ماشيين ، فوجدنى النبى ﷺ لا أعقل شيئا ، فدعا بماء فتوضأ منه ثم رش على فأفقت ، فقلت : ما تأمرنى أن أصنع فى مالى يا رسول الله . فنزلت ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين »(٢) . ومعنى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ أى يأمركم بالعدل فيهم ، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم فى أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ؛ فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤنة النفقة . والكلفة ، ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق ، فناسب أن يعطى ضعفى ما تأخذه الأنثى .

وقد استنبط بعض الأذكياء من قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ أنه تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، حيث أوصى الوالدين بأولادهم ، فعلم أنه أرحم بهم منهم ، كما جاء فى الحديث الصحيح ؛ وقد رأى امرأة من السبى فُرِّق بينها وبين ولدها ، فجعلت تدور على ولدها ، فلما وجدته من السبى أخذته ، فألصقته بصدرها وأرضعته ، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : (أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك) . قالوا : لا يا رسول الله ! قال : (فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها) .

قال البخارى رواية عن ابن عباس ، قال : كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وجعل للأبوين لكل واحد منهما السدس والثلث ، وجعل

(١) من الآية : ٦ من سورة الأحزاب .
(٢) ورواه مسلم بمثله ، وزاد الترمذى : فقلت يانبى الله كيف أقسم مالى بين ولدى ؟ فلم يرد علىَّ شيئا فنزلت : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم ﴾ الآية

للزوجة الثمن والربع ، وللزوج الشطر والربع وإنما قال تعالى : ﴿ مثل حظ الأنثيين ﴾ أى للذكر منهم نصيب اثنتين من إناثهم ، إذا كانوا ذكوراً وإناثاً .

واختير هذا التعبير ولم يقل للأنثى نصف حظ الذكر إيماء إلى أن إرث الأنثى كأنه مقرر معروف ، وللذكر مثله مرتين ، وإشارة إلى إبطال ما كانت عليه العرب فى الجاهلية من منع توريث النساء .

والحكمة فى جعل حظ الذكر كحظ الأنثيين أن الذكر يحتاج إلى الإنفاق على نفسه وعلى زوجه فجعل له سهمان ، وأما الأنثى فهى تنفق على نفسها فحسب فإن تزوجت كانت نفقتها على زوجها .

ويدخل فى عموم الأولاد :

١ ــ الكافر لكن السنة بينت أن اختلاف الدين مانع من الإرث قال عليه الصلاة والسلام (لا يتوارث أهل ملتين) .

٢ ــ القاتل عمداً لأحد أبويه ، ويخرج بالسنة والإجماع .

٣ ــ الرقيق : وقد ثبت منعه بالإجماع لأن المملوك لا يملك بل كل ما يصل إلى يده من المال فهو ملك لسيده ومالكه ، فلو أعطيناه من التركة شيئا كنا معطين ذلك للسيد ، فيكون هو الوارث بالفعل .

٤ ــ الميراث من النبى ﷺ فقد استثنى بحديث : (نحن معاشر الأنبياء لا نورث)[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف** ﴾ أفاد هذا النص الكريم أن للبنت الصلبية ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن ترث بطريق التعصيب كما قال الله تعالى : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ .

الحالة الثانية : أن الثلثين للأنثيين فأكثر ، إذا لم يكن معهن ابن أو أكثر قال ابن قدامة : **أجمع أهل العلم على أن فرض البنتين الثلثان** .

الحالة الثالثة : النصف للواحدة ، قال تعالى : ﴿ **وإن كانت واحدة فلها النصف** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث** ﴾ .

أحوال الأب :

للأب ثلاثة أحوال : حالة يرث فيها بطريق الفرض ، وحالة يرث فيها بالتعصيب وحالة يرث فيها بالفرض والتعصيب معاً .

(١) رواه الترمذى عن الحارث عن على كرم الله وجهه : أن النبى صلى الله عليه وسلم قضى الدين قبل الوصية ..
وروى الدارقطنى من حديث عاصم بن ضمره عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين قبل الوصية وليس لوارث وصية »

الحالة الأولى :

يرث فيها بطريق الفرض ؛ إذا كان معه فرع وارث مذكر منفرداً ، أو مع غيره ، وفى هذه الحالة فرضه السدس .

الحالة الثانية :

يرث فيها بطريق التعصيب ؛ إذا لم يكن للميت فرع وارث مطلقاً ، مذكراً كان أم مؤنثاً ، فيأخذ كل التركة إذا انفرد ، أو الباقى من أصحاب الفروض إن كان معه أحد منهم .

الحالة الثالثة :

يرث فيها بطريق الفرض والتعصيب معاً ، وذلك إذا كان معه فرع وارث مؤنث ، وفى هذه الحال يأخذ السدس فرضاً ؛ ثم يأخذ الباقى من أصحاب الفروض تعصيباً .

أحوال الأم :

١ ـ تأخذ السدس ، إذا كان معها ولد أو ولد ابن أو اثنان من الإخوة أو الأخوات . مطلقاً سواء أكانوا من جهة الأب والأم ، أم من جهة الأب أو من جهة الأم .

٢ ـ تأخذ ثلث جميع المال ، إذا لم يوجد أحد ممن تقدم ذكرهم .

٣ ـ تأخذ ثلث الباقى ، عند عدم من ذكر بعد فرض أحد الزوجين ، وذلك فى مسألتين تسميان بالغراوين .

الأولى : فى حالة ما إذا ترك زوجاً وأبوين ، والثانية : ما إذا ترك زوجين وأبوين .

قوله تعالى : ﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾ أى يوصيكم بأن لأولاد من يموت منكم كذا من التركة ، ولأبويه كذا منها ، من بعد وصية يقع الإيصاء بها من الميت ، ويتحقق نسبتها إليه ، ومن بعد قضاء دين يتركه عليه وقدمت الوصية على الدين فى الذكر مع أن الدين مقدم عليها وفاء ، كما قضى به رسول الله ﷺ فيما رواه على[1] كرم الله وجهه ، وأخرجه عنه جماعة ، لأنها تؤخذ كالميراث بلاعوض فتشق على الورثة وجاء عطف الدين على الوصية بأو دون الواو إشارة إلى أنهما متساويان فى الوجوب متقدمان على قسمة التركة مجموعين أو منفردين .

قوله تعالى : ﴿ **آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعاً** ﴾ أى أنكم لا تدرون أى الفريقين أقرب لكم نفعاً آباؤكم أو أبناؤكم ! ؟ فلا تتبعوا فى قسمة التركات ما كان يتعارفه أهل الجاهلية ؛ من إعطائها للأقوياء الذين يحاربون الأعداء ، وحرمان الأطفال والنساء ، لأنهم من الضعفاء ، بل اتبعوا ما أمركم الله به ، فهو أعلم منكم بما هو أقرب نفعاً لكم ، مما تقوم به فى الدنيا مصالحكم وتعظم به فى الآخرة أجوركم .

﴿ **فريضة من الله** ﴾ أى فرض الله ما ذكر من الأحكام فريضة لا هوادة فى وجوب العمل بها .

﴿ **إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ أى إنه تعالى لعلمه بشئونكم ، ولحكمته العظيمة ، لا يشرع لكم إلا ما فيه المنفعة لكم ، إذ لا تخفى عليه خافية من وجوه المصالح والمنافع ، إلى أنه منزه عن الغرض والهوى ؛ اللذين من شأنهما أن يمنعا من وضع الشىء فى غير موضعه ، ومن إعطاء الحق لمن يستحقه .

حالة الزوج :

قال تعالى : ﴿ **ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين** ﴾ ذكرت هذه الآية أن للزوج حالتين :

الحالة الأولى : يرث فيها النصف ، وذلك عند عدم وجود الفرع الوارث وهو الابن وإن نزل ، والبنت وبنت الابن وإن نزل أبوهما ، سواء أكان منه أم من غيره .

الحالة الثانية : يرث فيها الربع عند وجود الفرع الوارث .

ميراث الزوجة :

قال الله تعالى : ﴿ **ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين** ﴾ إن للزوجة حالتين :

الحالة الأولى : استحقاق الربع عند عدم وجود الفرع الوارث سواء أكان منها أم من غيرها .

الحالة الثانية : استحقاق الثمن عند وجود الوارث ، وإذا تعددت الزوجات إذا اقتسم الربع أو الثمن بينهن بالسوية .

الزوجة المطلقة : والزوجة المطلقة طلاقاً رجعياً ترث من زوجها إذا مات قبل انتهاء عدتها ، ويرى الحنابلة توريث المطلقة قبل الدخول والخلوة من مطلقها فى مرض الموت إذا مات فى مرضه ما لم تتزوج ، وكذلك بعد الخلوة ما لم تتزوج ، وعليها عدة الوفاة .

أحوال الأخ لأم :

قال تعالى : ﴿ **وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم** ﴾ .

الكلالة من لا والد له ، ولا ولد ذكراً أو أنثى ، والمقصود بالأخ أو الأخت هنا الإخوة لأم ، ويتبين من الآية أن لهم أحوالاً ثلاثة :

١ ــ أن السدس للشخص الواحد ، سواء أكان ذكراً أم أنثى .

٢ ــ أن الثلث للاثنين فأكثر يستوى فيه الذكور والإناث .

٣ ــ لا يرثون شيئاً مع الفرع الوارث : كالولد ، وولد الابن ، ولا مع الأصل الوارث للذكر ، كالأب ، والجد ، فلا يحجبون بالأم أو الجدة .

كلمة عن الوصية :

قال الإمام النخعي : قبض رسول الله ﷺ ولم يوص (ومعنى هذا أن الرسول ﷺ لم يكن فى حاجة إلى أن يوصى ذلك لأن ما تركه ﷺ بعد وفاته فهو صدقة حيث قال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة (١) .

وقبض أبو بكر وقد وصى ، فإن أوصى الإنسان فحسن ، وإن لم يوص فحسن أيضاً ، ومن الحسن أن ينظر الإنسان فى قدر ما يخلف ومن يخلف ؛ ثم يجعل وصيته بحسب ذلك ، فإن كان ماله قليلا وفى الورثة كثرة لم يوص وإن كان فى المال كثرة أوصى بحسب ماله ، ويحسب حاجاتهم بعده كثرة وقلة .

وقد روى عن على أنه قال : لأن أوصى بالخمس أحب إلى من أن أوصى بالربع ، ولأن أوصى بالربع أحب إلى من أن أوصى بالثلث ، والضرار فى الوصية والدين يقع على وجوه :

١ ـ أن يوصى بأكثر من الثلث ، وهو لا يصح ولا ينفذ ، وعن ابن عباس أن الضرار فيها من الكبائر .

٢ ـ أن يوصى بالثلث فما دونه ، لا لغرض من القربة والتصدق لوجه الله ، بل لغرض تنقيص حقوق الورثة .

٣ ـ أن يقر بدين لأجنبى يستغرق المال كله أو بعضه ، ولا يريد بذلك إلا مضارة الورثة ، وكثيراً ما يفعله المبغضون للوارثين ، ولا سيما إذا كانوا كلالة ومن ثم جاء ذكر هذا القيد ﴿ غير مضار ﴾ فى وصية ميراث الكلالة ، لأن القصد إلى مضارة الوالدين أو الأولاد ، وكذا الأزواج نادر .

٤ ـ أن يقر بأن الدين الذى كان له على فلان قد استوفاه ، ووصل إليه .

﴿ وصية من الله ﴾ أى يوصيكم بذلك وصية منه عز وجل ، فهى جديرة أن يعتنى بها ويذعن للعمل بموجبها .

﴿ والله عليم حليم ﴾ أى : ﴿ والله عليم ﴾ بما ينفعكم ، وبنيات الموصين منكم ، ﴿ حليم ﴾ لا يعجل بعقوبتكم بمخالفة أحكامه ، ولا بالجزاء على مخالفتها عسى أن تتوبوا ، كما لا يبيح لكم أن تعجلوا بعقوبة من تبغضونه ، فتضاروه فى الوصية ، كما لا يرضى لكم بحرمان النساء والأطفال من الإرث .

وفى هذا إشارة إلى أنه تعالى قد فرضها ، وهو يعلم ما فيها من الخير والمصلحة لنا ، فمن الواجب أن نذعن لوصاياه وفرائضه ، ونعمل بما ينزل علينا من هدايته كما لا ينبغى أن يغر الطامع فى الاعتداء وأكل الحقوق ، تمتع بعض المعتدين بما أكلوا بالباطل ، فيظن أنهم بمنجاة من العذاب ، فيتجرأ على مثل ما تجرءوا عليه من الاعتداء ، فإنه إمهال يقتضيه الحلم لا إهمال من العجز وعدم العلم .

الحقوق المتعلقة بالتركة :

بعد تفسير الآيتين الكريمتين المتعلقتين بأحكام الميراث ، نرى أن نبين الحقوق المتعلقة بالتركة ؛ حتى يكون المسلم على بصيرة من أحكام الإسلام ، وحتى لا تزل قدم بعد ثبوتها .

(١) رواه الشيخان

قال الفقهاء : الحقوق المتعلقة بالتركة أربعة وهى كلها ليست بمنزلة واحدة ، بل بعضها أقوى من بعض ، فيتقدم على غيره فى الإخراج من التركة على الترتيب الآتى :

١ ـ الحق الأول : يبدأ من تركة الميت بتكفينه وتجهيزه .

٢ ـ الحق الثانى : قضاء ديونه .

٣ ـ الحق الثالث : تنفيذ وصيته من ثلث الباقى ؛ بعد قضاء الدين .

٤ ـ الحق الرابع : تقسيم ما بقى من ماله بين الورثة .

الترهيب من الدين :

الإسلام دين يدعو إلى حسن المعاملة ، قال رسول الله ﷺ : (رحم الله عبدا سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا قضى سمحاً إذا اقتضى)[1] ومن عظمة الإسلام أنه يحافظ على الدّين والنفس والعقل والمال والعرض ، ومن المحافظة على مال العباد نرى أن الله جلت قدرته لما أعطى الورثة حقوقهم قال : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾ وقال : ﴿ من بعد وصية يوصين بها أو دين ﴾ وقال : ﴿ من بعد وصية توصون بها أو دين ﴾ وقال : ﴿ من بعد وصية يُوصَى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حليم ﴾ إذاً فللدين خطورته ، ولما تفشى بين الناس أكل الديون ، والمماطلة فى أدائها . كان لابد أن نعيش مع أقوال الصادق المعصوم التى حذر فيها من أكل أموال الناس بالباطل ، والمماطلة فى أداء حقوق العباد .

١ ـ عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أعوذ بالله من الكفر والدين) فقال الرجل : يا رسول الله أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : (نعم) رواه النسائى .

المفردات : الكفر : الإشراك بالله وجحود نعمه .

الدين : الإستدانه وأخذ المال من الغير سلفة ، وقد رهب ﷺ من الدين حتى ساوى عقابه الكفر والطغيان

أتعدل الكفر بالدين قال : « نعم » أى الدين مثل الكفر يدعو إلى الذلة والمسكنة ، ويجلب العار والدمار والشقاء ، ويبعد المروءة والشهامة ويضع المستدين فى سلاسل الأسر والتحقير وفى عدمه طلب الاقتصاد والرغبة فى التوفير .

٢ ـ وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ قال : « الدّين راية الله فى الأرض فإذا أراد أن يُذِلّ عبداً وضعه فى عنقه » . رواه الحاكم .

٣ ـ عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يوصى رجلاً فيقول له : (أقل من الذنوب يهن عليك الموت ، وأقل من الدين تعش حراً) . رواه البيهقى .

٤ ـ وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه ، أنه سمع النبى ﷺ يقول : (لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها ، قالوا : (وماذاك يا رسول الله ؟ قال : « الدين ») رواه أحمد .

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى

٥ ــ وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من فارق روحه جسده وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الغلول ، والدين ، والكبر) رواه الترمذى .

المفردات : الغلول : السرقة من المغنم . الدين : أخذ مال الغير استدانة . الكبر : الخيلاء ، والبطر ، والعجب ، والكبرياء ، هذه صفات ذميمة من ابتعد عنها فاز بالجنة .

٦ ــ وعن أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعاً : (من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه ، وأرضى غريمه بما شاء ، ومن تداين بدين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات اقتص الله عز وجل لغريمه يوم القيامة) رواه الحاكم .

المفردات : تجاوز : عفا الله عن ذنوبه التى ارتكبها من جراء ضياع حقوق غيره . أرض غريمه : دائنه : بأن زاد فى حسناته وكافأه وأغدق عليه من نعيمه . اقتص : عذبه : لأنه أخذ وفى نفسه الغدر والنكث والخيانة ، ففيه طلب حسن النية وعقد العزيمة على الوفاء عند الميسرة .

٧ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله) . رواه البخارى .

المفردات : من أخذ أموال الناس : أى تسلمها بوجه من وجوه التعامل كالقرض أو للحفظ وديعة لله أو غير ذلك ، حال كونه ينوى ردها . أتلفه الله : أى أتلف أمواله فى الدنيا بكثرة المصائب ، ومحق البركة ، أو المراد إتلاف نفسه فى الدنيا ، أو تعذيبه فى الآخرة .

وفى الفتح[1] : وظاهره يحيل المسألة المشهورة ؛ فيمن مات قبل الوفاء بغير تقصير منه ، كأن يعسر مثلاً أو يفاجئه الموت ، وله مال مخبوء ، وكانت نيته وفاء دينه ، ولم يوف عنه فى الدنيا والظاهر أن لا تبعة عليه ، والحالة هذه فى الآخرة بحيث يؤخذ من حسناته لصاحب الدين . بل يكتفى الله عنه لصاحب الدين .

(قوله أتلفه الله) ظاهره أن الإتف يقع له فى الدنيا وذلك فى معاشه أو فى نفسه ، وهو علم من أعلام النبوة ، لما تراه بالمشاهدة ممن يتعاطى شيئاً من الأمرين .

وقيل المراد بالإتلاف عذاب الآخرة : قال ابن بطال : فيه الحض على ترك استئكال أمر الناس ، والترغيب فى حسن التأويه إليهم عند المدينة ، وأن الجزاء قد يكون من جنس العمل .

وقال الدوادى ، فيه أن من عليه دين لا يعتق ولا يتصدق وإن فعل رد أ .هـ . [جـ ٥ص ٣٥ الفتح] .

٨ ــ وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (من حمل أمتى ديناً ثم جهد فى قضائه ثم مات قبل أن يقضيه فأنا وليه) رواه أحمد . (أنا وليه) أى أنا الذى أدفع عنه .

(١) شرح البخارى

٩ ــ وعنها رضى الله عنها أنها كانت تداين فقيل لها : ما لك وللدين ؟ ولك عنه مندوحة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون) . فأنا التمس ذلك العون . رواه أحمد .

المفردات : مندوحة : خلاص أو مهرب . عون : مساعد .

١٠ ــ وعن عمران بن حصين ، رضى الله عنهما ، قال : كانت ميمونه تدّان فتكثر ، فقال لها أهلهافى ذلك ولاموها ، فقالت : لا أترك الدين وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من أحد يدان ديناً يعلم الله أنه يريد قضاءه ألا أداه الله عنه فى الدنيا) . رواه النسائى .

١١ ــ وعن صهيب الخير رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (أيما رجل تديّن ديناً وهو مجمع أن لا يوفيه إياه لقى الله سارقاً) . رواه ابن ماجه والبيهقى .

١٢ ــ وعن القاسم مولى معاوية رضى الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : (من تدين بدين وهو يبد أن يقضيه حريص على أن يؤديه ، فمات ولم يقض دينه ؛ فإن الله قادر على أن يرضى غريمه بما شاء من عنده ، ويغفر للمتوفى ، ومن تدين بدين وهو يريد أن لا يقضيه ؛ فمات على ذلك ولم يقض دينه فإنه يقال له : أظننت أن لن نوفى فلانا حقه منك ؟ فيؤخذ من حسناته فيجعل زيادة فى حسنات رب الدين . فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات رب الدين فجعلت فى سيئات المطلوب) . رواه البيهقى .

١٣ ــ وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته ليس ثم دينار ولا درهم) رواه ابن ماجه .

١٤ ــ وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعداً حيث توضع الجنائز ، فرفع رأسه قبل السماء ، ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته ، فقال : سبحان الله ، سبحان الله ، ما أنزل من التشديد ، قال فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلنا ما التشديد الذى نزل ؟ قال : (فى الدَّيْن ، والذى نفسى بيده لو قُتِل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى دينه) . رواه النسائى .

المفردات : يؤدى : والمعنى أن المجاهد مهما أصاب وجاهد فلا يدخل الجنة حتى يسدد دينه ، وفيه الترهيب من الدين ، وأن عقابه صارم ويدخل النار ، ولو كان المدين صالحا مجاهداً .

١٥ ــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ ذكر رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ! فقال : أئتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيداً ، فقال : فائتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلا ، قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجّله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ؛ فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفة منه إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم

أنى تسلفت فلانا ألف دينار ، فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا فقلت : كفى بالله شهيداً فرضى بك ، وإنى اجتهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى أستودعكها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ، فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، وأتى بالألف دينار ، فقال : والله مازلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك ؛ فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه ، قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئت فيه قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً) . رواه البخارى .

شرح الحديث :

أن رجلاً اقترض مبلغاً من آخر إلى زمن معلوم ، ولما آن أوان السداد ذهب إلى البحر فلم يجد مركباً فأتى بخشبة ووضع المبلغ فيها ورماها فى البحر ثقة بالله تعالى ، وهو نعم الشهيد الكفيل ، والدائن ينتظر مدينه على الميناء ، فرأى خشبة ، فأخذها للدفء ، فوجد فى وسطها الأمانة والرسالة .

هذه حادثة يرويها لنا سيدنا رسول الله ﷺ ، عن صالحين مؤمنين معتمدين على الله جلَّ وعلا ، أشرق نور الإيمان بالله تعالى فى قلوبهما وسطعت تعاليم نبيهما فى ذلك الوقت ، فهل فينا الآن هذا الإيمان وحب الخير والتوكل على الله ؟ ! وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله ؟ والوفاء والصدق ورد الودائع ؟ وقد قال الله تعالى فينا : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[1] اكتسبت الأمة الشرف العظيم ، والتفوق الباهر ، والخيرية من رسولها الصادق الأمين سيدنا محمد ﷺ ؛ الذى حكى لنا فعل رجلين من بنى إسرائيل ، رجاء أن نعمل مثلهما ، ونتقى الله ونثق به ، وندعوه رغباً ورهباً ونخشاه ، قال تعالى : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾[2] وفى البخارى فى باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغيرها فروى هذا الحديث .

وفى الفتح : فى الحديث جواز الأجل فى القروض ، ووجوب الوفاء به ، وقيل : لا يجب ؛ بل هو من باب المعروف ، وفيه التحدث عما كان فى بنى إسرائيل وغيرهم من العجائب ، للاتعاظ والأئتساء ، وفيه جواز التجارة فى البحر وجواز ركوبه ، وفيه بداءة الكاتب بنفسه ، وفيه طلب الشهود فى الدين ، وطلب الكفيل به ، وفيه فضل التوكل على الله تعالى وأن صح توكله تكفل الله بنصره وعونه أ . هـ [الفتح] .

١٦ ــ وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تزوج امرأة على صداق ، وهو ينوى أن لا يؤديه إليها ، فهو زان ! ومن أدان ديناً وهو ينوى أن لا يؤديه إلى صاحبه أحسبه قال فهو سارق) . رواه البزار وغيره .

---

(١) من الآية : ١١٠ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية : ٥٨ من سورة النساء .

المفردات : صداق : مهر . زان : مرتكب الفاحشة . سارق : خائن مجرم يأكل أموال الناس بالباطل .

١٧ ــ وعن ميمون الكردى عن أبيه رضى الله عنه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ؛ ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها ، خدعها ، فمات ولم يؤد إليها حقها ، لقى الله يوم القيامة وهو زان ، وأيما رجل استدان ديناً لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه ، خدعه ، حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقى الله وهو سارق) . رواه الطبرانى .

١٨ ــ وعن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : (يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه ؛ فيقال : يا ابن آدم : فيم أخذت هذا الدين ؟ وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يا رب : إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ، ولم أضيع ولكن أتى على : إما حرق ، وإما سرق ، وإما وضيعة ، فيقول الله : صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك ، فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه ؛ فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته) . رواه أحمد والطبرانى .

١٩ ــ وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الدين يقتضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين فى ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته فى سبيل الله ؛ فيستدين بتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة ؛ فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة) . رواه ابن ماجه .

٢٠ ــ وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله مع الدائن حتى يقضى دينه ، ما لم يكن فيما يكرهه الله) . قال : كان عبد الله بن جعفر يقول لخازنه : اذهب فخذ لى بدين ، فإنى أكره أن أبيت ليلة إلا والله معى ، بعد إذ سمعته من رسول الله ﷺ : رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

٢١ ــ وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله ؛ فقد ضار الله فى أمره ، ومن مات وعليه دين ، فليس ثَم دينار ولا درهم ، ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مؤمن : ما ليس فيه حبس فى ردغة (طعام أهل النار) الخبال ، حتى يأتى بالمخرج مما قال) . رواه الحاكم .

المفردات والشرح : حالت : منعت عقاباً فى الانتقام وتنفيذ أوامر الله . ضاد الله : كان لله عدواً وضداً ، وأعلن الحرب على الله تعالى ، لأنه ساعد المجرمين ، وضيع حقوق الله فى وساطة ! قال تعالى : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين * كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز * لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى

الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[(١)] . أى الذين يحادون الله هم العصاة . والفساق ، ووسطاء السوء وشفعاء الأشرار ، لذهاب معالم الحق وتفشى الباطل ، وضياع مظاهر العدل ، وإخفاء الأنوار المضيئة فى البر والخير ، فجند الله أنصار الحق .

من حاد الله : أى خالفه وعاداه ، أى من الممتنع أن تجد قوماً مؤمنين يوالون المشركين ، والمراد أنه لا ينبغى أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال مبالغة فى الزجر من مجانبه أعداء الله ومباعدتهم ، والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم أ . هـ [نسفى] .

وأنا أعد شركاء المجرمين شركاء لهم فى الذنب ، وقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾[(٢)] .

ينزع : يرجع والمعنى أن الذى يميل إلى النفاق والباطل وعصيان الله ؛ يستمر غضب الله ينصب عليه حتى يتوب إلى الله ، ويعترف بالحق وينصره ويدافع عنه .

٢٢ ــ وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ها هنا أحد من بنى فلان) ؟ فلم يجبه أحد ثم قال : « ها هنا أحد من بنى فلان » ؟ فلم يجبه أحد ثم قال : (ها هنا أحد من بنى فلان) ؟ فقام رجل فقال : أنا يا رسول الله فقال : (من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأوليين ؟) قال : (إنى لم أنوه بكم إلا خيراً ، إن صاحبكم مأسور بدينه) . فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشىء . رواه أبو داود ، والنسائى .

٢٣ ــ عن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة) . رواه الطبرانى .

٢٤ ــ عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه عبد - بعد الكبائر التى نهى الله عنها - أن يموت رجل وعليه دين ؛ لا يدع له قضاء) . رواه أبو داود .

٢٥ ــ وعن شفى بن ماتع الأصبحى رضى الله عنه ، أن النبى ﷺ قال : (أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى : يسعون ما بين الحميم والجحيم ، يدعون بالويل والثبور ، يقول بعض أهل النار لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى ، قال : فرجل معلق عليه تابوت من جمر ، ورجل يجر أمعاءه ، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً ، ورجل يأكل لحمه ، فيقال لصاحب التابوت ، ما بال الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ؛ فيقول إن الأبعد مات وفى عنقه أموال الناس لا يجد له قضاء أو وفاء) .

٢٦ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه) . رواه أحمد والترمذى .

(١) الآيات : ٢٠ ـ ٢٢ من سورة المجادلة .
(٢) الآية : ١٤ من سورة النساء .

٢٧ ــ وعن جابر رضى الله عنه ، قال : توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ، ثم آتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه فخطا خطوة ؛ ثم قال : (أعليه دين ؟ قلنا ديناران فانصرف فتحملهما أبو قتادة فأتيناه ، فقال أبو قتادة : الديناران علىّ ، فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم ، وبرئ منهما الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ، ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت : إنما مات أمس قال : فعاد إليه من الغد ؛ فقال : قد قضيتهما ، فقال رسول الله ﷺ : (الآن بردت جلدته) . رواه أحمد بإسناد حسن . [**الترهيب من مطل الغنى ، والترغيب فى إرضاء صاحب الدين**] .

٢٨ ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم ، وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع)[١] رواه البخارى .

المفردات : مطل : تأخير الحق وتسويف دفعه للدائن . الغنى : القادر على سداد الدين لديه بعد استحقاقه . ظلم : محرم عليه ، وخرج بالغنى العاجز عن الوفاء ، قال الشرقاوى : ولفظ المطل يشعر بتقدم الطلب ، فيؤخذ منه أن الغنى لو أخر الدفع مع عدم طلب صاحب الحق له لم يكن ظلماً .

حكى أصحابنا وجهين أن مطل الغنى عزيمة من إضافة المصدر للفاعل ، وقيل من إضافته للمفعول ، والمعنى أنه يجب وفاء الدين ، وإن كان مستحقه غنياً ، ولا يكون غناه سبباً لتأخره عنه ، وإذا كان كذلك فى حق الغنى فهو فى حق الفقير أولى .

٢٩ ــ وعن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يحب الله الغنى الظلوم ، ولا الشيخ الجهول ، ولا الفقير المختال) .

٣٠ ــ وروى عن خولة بنت قيس - امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما - قالت : قال رسول الله ﷺ : (ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيف الحق من قويها غير متعتع) ثم قال : (من انصرف غريمه وهو عنه راض صلت عليه دواب الأرض ونون الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط ، كتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر ظلم) . رواه البخارى .

فقه الأحاديث :

أولاً : الدين يعادل فى العقاب الكفر فى الذلة والإهانة ، وغلبة الدائن وسلطته على المدين .

ثانياً : الدين راية الضعف والمسكنة ترفرف على المدين بضعته .

ثالثاً : عدم الدين يجلب السعادة ، وتنسم الحرية ، والشعور بالكرامة والمروءة (أقلل من الدين) .

رابعاً : عدم الاستدانة بشارة الاستقامة ، وعنوان الهداية وطريق الجنة .

خامساً : ترك الدين فى الرخاء أحسن ، خشية أن يستدين فلا يجد ما يؤدى به ، وبذا يدخل جهنم

---

(١) وفى بعض الروايات « مطل الواجد ظلم »

بسبب دينه ، وتؤخذ حسناته للدائن وتطرح عليه سيئاته أيضاً ، انتقاماً منه وترضية لصاحب الدين .

سادساً : كثرة الاستدانة تجلب الفقر ، وتنزع البركة من المال ، وتنذر بالخراب والخسران (أتلفه الله) .

سابعاً : جواز الاستدانة عند الحاجة فقط ، شريطه نية الوفاء وحسن الأداء .

ثامناً : قضاء حاجات الناس ، وفك كروبهم محمدة ومجلبة للخير ، ورضوان الله .

تاسعاً : من أخذ مال الناس بنية عدم الوفاء ، كالغصب والنهب (لقى الله سارقاً) .

عاشراً : الزوج اذا لم يدفع المهر لزوجته فهو آثم ، وعيشته معها محرمة ، وهو عاص ربه (زان) .

الحادى عشر : لو مات المجاهد الذى أبلى بلاء حسناً فى نصر دين الله « وعليه دين ما دخل الجنة » .

الثانى عشر : توطيد العزيمة على حسن الأداء ، سعادة ومحبة من الله ، وأدعى لرحمته وزيادة البركة فى ماله . ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

الثالث عشر : المستدين لحاجة يؤدى الله عنه دينه ويكرمه ، (صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك) .

الرابع عشر : الدائن الذى يزيل كرب الناس ؛ مشمول بعز الله ورحمته (الله مع الدائن) .

مايريده ﷺ من المدين والدائن ونتائج اتباع نصائحه ﷺ :

أولاً : عدم المماطلة وترك التسويف ، إذا كان قادراً على الدفع .

ثانياً : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأدى دينه .

ثالثاً : حسن معاملة الدائن ليتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته .

رابعاً : كل من قدر على أداء ما افترض ، ولم يف ؛ حشر مع الظالمين وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين ، وحل عليه غضب الله وكراهته .

خامساً : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ، ويوقعها فى الذنوب المهلكة ، ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها ، أى طهرها من الخطايا .

سادساً : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ، ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع .

سابعاً : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه ، سجلت عليه الآثام بكرور الأزمان ، ثم ضرب ﷺ المثل الأعلى لوفائه وحلمه وحسن أدائه « يا خولة عديه واقضيه » ثم وسع خلقه ذلك الأعرابى الجاف الفظ الغليظ ، الذى اشتد عليه حتى قال : « أخرج عليك إلا قضيتنى » أى أعلن عليك الحرب وأشق عصا طاعتك إن لم تؤد حقى !! مسكين أيها الأعرابى شىء قليل أقترضه منك سيدنا رسول الله ﷺ ، وجئت

وليس عنده شيء مطلقاً لكن أبى كرمه ﷺ إلا أن يكرم وفادته ويغدق عليه بإحسانه ويرد ما أخذه مضاعفاً ، ثم دعا ﷺ الأعرابى : « أوفيت أوفى الله عنك » .

هكذا تكون مكارم الأخلاق وحسن الأداء مع البشاشة واللطف والجود ، وهنا درس مفيد وعظة بالغة لعلنا نعمل بها ، ونتخلق بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، يريد أصحابه أن يردوا جهل ذلك الأعرابى ويفهموه درجة السفير الأعلى المصطفى ﷺ ، فحضهم ﷺ على نصر الضعيف ومجاراة الحق ، والأخذ بيد الضعيف ، وهلا مع صاحب الحق كنتم » أرأيت أبدع من هذا ؟ يحض أصحابه ﷺ أن يكونوا فى صف صاحب الحق مهما سمت درجة المدين ، وقويت شوكته وعز سلطانه .

والأبدع من هذا أن خير الخلق زاهد راغب عن حطام الدنيا مستغرق فى طاعة الله ؛ فقرض من الأعرابى ، ثم قرض من خولة ما يؤدى به حق الأعرابى حتى أفرحه وأكسبه رضاه ، ولم يخرج من عند رسول الله ﷺ إلا وهو مبتسم جذل فرح ، ترفرف عليه راية الوفاء وحسن الأداء وطيب القضاء .

ثم قال ﷺ : (أولئك خيار الناس) أى الذين يدافعون عن الحق وينضمون إلى أصحاب الحق ويساعدون على تنفيذه ، وكذا دافع الحق بسهولة من صفات الأبرار الصالحين ، أفاضل الخلق وأطايبهم وأحسنهم ، فعليك أخى بحسن المعاملة ودفع ما عليك من الديون بالتى هى أحسن ، والتخلق بأخلاق نبيك ورسولك ﷺ فتفى بوعدك وتنجز ما عاهدت عليه ، وتتقى الله وتخشاه وتحسن كما أحسن الله إليك قال تعالى : ﴿ من كان يريد الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾[1] .

الآيات الدالة على إحسان الله إلى المتقين المؤمنين الذين يرعون حقوق الناس بالحق ويؤدونه :

(أ) قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون ﴾[2] .

يعنى البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ويؤخذ منها العمل بكتابه وتنفيذ أوامره واجتناب مناهيه ومنه رد الأمانة ﴿ بعد توكيدها ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿ كفيلاً ﴾ أى شهيداً شاهداً بتلك البيعة ، فإن الكفيل مراع لحال المكفول به ، رقيب عليه ، وقد اطلعت أيها المسلم على حديث رجل من بنى إسرائيل ورأيت حفظ الله ماله الذى رماه فى البحر فى خشبة .

وقال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن

---

(١) الآية : ٢٠ من سورة الشورى .

(٢) الآية : ٩١ من سورة النحل .

تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٢) .

(ب) قال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾(٣) .

(جـ) قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾(٤) .

(د) قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾(٥) .

(هـ) قال تعالى : ﴿ ذلك إن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغنى ذو الرحمة ﴾(٦) .

ذلك إشارة إلى إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم فعلوه ، أو ملتبسين بظلم وهم غافلون ، لم ينبهوا برسول ، سبحانه لا يخفى عليه عمل ، بل قدر عليه ثواباً أو عقاباً ﴿ الغنى ﴾ عن العباد والعبادة يترحم على عباده بالتكليف تكميلاً لهم ، ويمهلهم على المعاصى ، وفيه تنبيه على أن ما سبق ذكره من الإرسال والأوامر ليس نفع الله ، بل لترحمه على العباد ورأفة بهم .

(و) وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾(٧) .

أى مُبدِّلاً إيَّاها بالنعمة لخيانتهم ومعاصيهم ، يزيل الخير ويحفهم بالضر ، سبحانه ، وقال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾(٨) .

(ز) قال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾(٩) .

الترغيب فى كلمات يقولهن المديون والمهموم والمكروب والمأسور :

* عن على رضى الله عنه أن مكاتباً جاءه فقال : « إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنى فقال : ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك بمثل جبل صبير ديناً أداه الله عنك !! قل : اللهم أكفنى بحلالك عن حرامك ، واغننى بفضلك عمن سواك » رواه الترمذى .

* وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ؛ فإذا هو برجل من الأنصار يقال له أبو أمامة جالساً فيه ، فقال : (يا أبا أمامه ما لى أراك جالساً فى المسجد فى غير وقت الصلاة) ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يا رسول الله ، قال : (ألا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك) ؟! فقال : بلى يا رسول الله ، قال قل : (إذا أصبحت وإذا أمسيت ؛ اللهم إنى

(١) الآية : ٩٢ من سورة النحل .
(٢) الآية : ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الآية : ٣٤ من سورة الاسراء .
(٤) الآية : ١٢ من سورة الروم .
(٥) الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٦) من الآيات : ١٣١ ـ ١٣٣ من سورة الأنعام .
(٧) الآية : ٥٣ من سورة الأنفال .
(٨) الآية : ٣ من سورة الأنعام .
(٩) الآية : ٣٨ من سورة الحج .

أعوذ بك من الهم والحزن ، وأعوذ بك من العجز الكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال) . قال فقلت ذلك فأذهب الله عز وجل همى وقضى عنى دينى ، رواه أبو داود .

* عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : (ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد ديناً لأداه الله عنك) ؟! قل يا معاذ : اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء ، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك) . رواه الطبرانى .

* عن عائشة رضى الله عنها قالت : دخل على أبو بكر فقال : سمعت من رسول الله ﷺ دعاءً علمنيه ، قلت : ما هو ؟ قال : (كان عيسى ابن مريم يعلم أصحابه ، فقال : لو كان على أحدكم جبل ذهباً ديناً فدعا الله بذلك لقضاه الله عنه : اللهم فارج الهم وكاشف الغم ومجيب دعوة المضطرين ، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمنى ، فارحمني برحمة تغنينى بها عن رحمة سواك) قال أبو بكر رضى الله عنه ، وكانت على بقية من الدين وكنت للدين كارهاً فكنت أدعو الله بذلك فأتانى الله بفائدة[1] فقضى عنى دينى ، رواه البزار .

* عن ابن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : (ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى وذهاب همى) إلا أذهب الله عز وجل همه ، وأبدله مكان حزنه فرجاً ، قال : يا رسول الله : ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟ قال : (أجل ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن) . رواه أحمد .

* عن أبى بكر رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ، قال : « كلمات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ؛ فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، أصلح لى شأنى كله » . رواه الطبرانى .

وزاد فى آخره : لا إله إلا أنت .

* عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب) رواه أبو داود .

* وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجاب الله له » . رواه الترمذى .

(١) الفائدة هنا مايستفيده الإنسان من مال من عمل أو تجارة ، وليس الفائدة المعروفة الآن وهى الربا

* عن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حين جاوز البحر ببنى إسرائيل ؟ !) فقلت بلى يا رسول الله قال : (قولوا : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) . قال عبد الله : فما تركته منذ سمعته من رسول الله ﷺ . رواه الطبرانى .

* وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إذا نادى المنادى[1] فتحت له أبواب السماء ، واستجيب الدعاء ، فمن نزل به كرب أو شدة ؛ فليتحين المنادى ، فإذا كبر كبر ، وإذا تشهد تشهد ، وإذا قال : حى على الصلاة ، قال : حى على الصلاة ، وإذا قال : حى على الفلاح . قال : حى على الفلاح ، ثم يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجابة المستجاب لها ، دعوة الحق وكلمة التقوى ، أحينا عليها وأمتنا عليها ، وابعثنا عليها واجعلنا من خيار أهلها ، أحياء وأمواتا ، ثم يسأل الله حاجته) . رواه الحاكم .

* عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : (ما كربنى أمر إلا تمثل لى جبريل ؛ فقال يا محمد قل : توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل ، وكبره تكبيرًا) . رواه الطبرانى .

* عن محمد بن إسحاق رحمه الله ، قال : جاء مالك الأشجعى إلى النبى ﷺ ، فقال : أُسر ابنى عوف فقال له : (أرسل إليه أن رسول الله - ﷺ - يأمرك أن تكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله) فذكر الحديث[2] .

---

(١) المنادى هنا هو المؤذن ينادى بالصلاة

(٢) وتمام الحديث : « فأتاه الرسول فأخبره ، فأكب عوف يقول : لا حول ولاقوة إلا بالله وكانوا قد شدُّوه بالقد ـ السير من جلد غير مدبوغ يقيد به الأسير ـ فسقط القدُّ عنه ، فخرج فإذا هو بناقة لهم فركبها ، فأقبل فإذا هو بسرح القوم ـ ماشيتهم ـ فصاح بها ، فاتبع آخرها أولها ، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادى بالباب ، فقال أبوه : عوف ورب الكعبة !! فقالت أمه : واسوأتاه !! وعوف كئيب بألم مافيه من القد ـ فاستبق الأب الباب والخادم إليه ، فإذا عوف قد ملأ الفناء إبلا ، فقص على أبيه أمره وأمر الابل .

فأتى أبوه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبره بخبر عوف وخبر الابل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اصنع بها ما أحببت وماكنت صانعا بإبلك » ونزل : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ ٣ / الطلاق كذا فى الترغيب (٣ / ١٠٥) وذكر ابن كثير فى تفسيره (٤ / ٣٨٠) عن أبى حاتم ، وابن جرير فى تفسيره « ٢٨ / ٨٩ » عن السدى مختصراً ولم يذكر الحوقلة .. الخ .

الجزاء العادل

تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾ حدود الشيء : أطرافه التي يمتاز بها من غيره ، ومنه حدود الدار ، سميت بها الشرائع التي أمر الله باتباعها ونهى عن تركها ، فمدار الطاعة على البقاء فى دائرة هذه الحدود ، ومدار العصيان على اعتدائها . ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾ طاعة الله : هى ما شرعه من الدين على لسان رسوله ﷺ ، وطاعة الرسول : هى اتباع ما جاء به من الدين عن ربه ، فطاعته هى بعينها طاعة الله ، كما قال فى هذه السورة ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾(١) فهو إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله ؛ بما فيه منافع لنا فى الدنيا والآخرة ، وإنما ذكرها مع طاعة الله للإشارة إلى أن الإنسان لا يستغنى بعقله وعلمه عن الوحى ، وأنه لا بد له من هداية الدين ، إذ لم يكن العقل وحده فى عصر من العصور كافياً لهداية أمة ولا مرقياً لها بدون معونة الدين ، فاتباع الرسل والعمل بهديهم هو أساس كل مدنية ، والارتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الارتقاء المادى ، فالآداب والفضائل التى هى أسس المدنيات تستند كلها إلى الدين ، ولا يكفى فيها بناؤها على العلم والعقل ، ونحن نؤمن ونعتقد أنها أرفع مما نرى فى هذه الدنيا ، وليس لنا أن نبحث عن كيفيتها لأنها من عالم الغيب ، و﴿ **الفوز العظيم** ﴾ الظفر والفلاح الذى لا يذكر بجانبه الفوز بحظوظ الدنيا القصيرة بالأكدار . ﴿ **ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها** ﴾ وقال فى ذكر أهل الجنة ﴿ **خالدين** ﴾ وفى ذكر أهل النار ﴿ **خالداً** ﴾ إشارة إلى تمتع أهل الجنة بالاجتماع ، وأنس بعضهم ببعض ، والمترفون يسرون بمثل هذا التمتع ، وأما الذى فى النار فإن له من العذاب ما يمنعه من الأنس ، فكأنه وحيد لا يجد لذة فى الاجتماع بغيره ، ولا آنساً به يرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾(٢) وتعدى الحدود الموجب للخلود فى النهار : هو الاصرار على الذنب وعدم التوبة عنه فللمذنب حالان :

١ ــ غلبة الباعث النفسى من الشهوة أو الغضب على الإنسان ، حتى يغيب عن ذهنه الأمر الإلهى ، فهو يقع فى الذنب وقلبه غائب عن الوعيد لا يتذكره ، أو يتذكره ضعيفاً كأنه نور ضئيل يلوح فى ظلمة ذلك الباعث المتغلب ، ثم لا يلبث أن يزول أو يختفى ، حتى إذا سكنت الشهوة أو سكت الغضب وتذكر النهى

---

(١) من الآية : ٨٠ من سورة النساء .

(٢) الآية : ٣٩ من سورة الزخرف .

والوعيد ، ندم وتاب ، ولام نفسه أشد اللوم ، ومثل هذا جدير بالنجاة إذ هو من المسارعين إلى الجنة كما قال تعالى فى أوصافهم : ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾(١) .

٢ ـ أن يقدم المرء على الذنب ، جريئاً عليه متعمداً فعله عالماً بتحريمه ، مؤثراً له على الطاعة ، لا يصرفه عنه تذكر النهى والوعيد عليه ؛ ومثل هذا قد أحاطت به خطيئة فآثر شهوته على طاعة الله ورسوله ، فدخل فى عموم قوله تعالى : ﴿ بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٢) .

إذ من يصر على المعصية عامداً عالماً بالنهى والوعيد لا يكون مؤمناً بصدق الرسول ﷺ ولا مذعناً لشرعه الذى تنال الرحمة والرضا بالتزامه ، والعذاب والنكال بتعدى حدوده ، فالإصرار على العصيان وعدم استشعار الخوف والندم ، لا يجتمعان فى قلب المؤمن بالإيمان الصحيح ؛ المصدق بوعد الله ووعيده .

﴿ وله عذاب مهين ﴾ المهين المذل له ، وهو عذاب الروح فللعصاة عذابان : عذاب جسمانى للبدن العاصى باعتباره حيواناً يتألم ، وعذاب روحانى باعتباره إنساناً يشعر بالكرامة والشرف ويتأكم بالإهانة والخزى .

وهاتان الآيتان تنطقان بمنطق العدالة الإلهية ، فمن أطاع والتزم فله الجنة والفوز العظيم ، ومن عصى وتعدى الحدود فله النار والعذاب المهين ، ما لم يتب توبة نصوحاً ، فإن رحمة الله وسعت كل شىء ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾(٣) . ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ والذين لايدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾(٥) .

القبر باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما ... يرضى الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما ... فانظر لنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردس إن علموا ... وأن هفوا هفوة فالرب غفار

(١) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .
(٢) الآية : ٨١ من سورة البقرة .
(٣) الآية : ١١٠ من سورة النساء .
(٤) الآيات : ٥٣ ـ ٥٥ من سورة الزمر .
(٥) الآيات : ٦٨ ـ ٧١ من سورة الفرقان .

عقاب الفاحشة

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ١٦﴾

المفردات : ﴿ يأتين الفاحشة ﴾ يفعلنها ، والفاحشة ما فحش ذنبه وقبح جرمه كالزنا . ﴿ يتوفاهن ﴾ يقال توفيت ما لى على فلان واستوفية قبضته ، والمراد توفى أرواحهن ملك الموت .

للمفسرين أقوال فى هاتين الآيتين ، وقد ذكر صاحب كتاب (المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء)[١] ذكر أقوال المفسرين ، وأختار من بينها رأى أبى مسلم الأصفهانى عن مجاهد ، وهذا الرأى نرجحه أيضاً ونميل إلى صحته ، حيث إنه فهم الآيتين فهماً يفيد معنى مستقلاً ؛ فالآية الأولى وهى قوله تعالى : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم** ﴾ تتحدث عما يجرى بين النساء وهو ما يسمى بالسحاق وهو جريمة من جرائم الانحراف الجنسى ، والآية الثانية وهى قول تعالى : ﴿ **واللذان يأتيانها منكم فآذوهما** ﴾ تتحدث عما يجرى بين الرجال من اللواط والشذوذ الجنسى ، وتقتضينا الأمانة العلمية أن نذكر أقوال المفسرين فى هاتين الآيتين كما ذكرهما صاحب الكتاب (المجتمع الإسلامى) فقد ذكر تفسير هاتين الآيتين تحت عنوان (جريمتان فاحشتان)[٢] قال : (اختلاف بين المفسرين وبيان الراجح من الآراء) : عرضت سورة النساء لجريمتين من أشنع الجرائم الخلقية التى من شأنها أن تودى بالمجتمع ، وأن تسلب أعضاءه رجالاً ونساءا ما لكل منهما من خصائص ، وذلك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً * واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً** ﴾ وقد اختلف المفسرون فى مواضع من هاتين الآيتين : فاختلفوا فى المقصود من ﴿ **الفاحشة** ﴾ هنا ، واختلفوا فى المراد من ﴿ **اللاتى يأتين** ﴾ ومن ﴿ **اللذان يأتيانها** ﴾ وفى العقوبة المقررة فى هذا الشأن ، وهل نسخ حكمهما أو لم ينسخ ؟

ونحن نلخص الخلاف فى ذلك ونذكر ما هو الراجح من أقوال المختلفين باعتبار النظر فى القرآن وما يتفق وبلاغته ودلالته :

١ ــ يرى الجمهور أن الحديث فى هاتين الآيتين عن جريمة الزنا ، وأن العقوبة التى كانت على هذه الجريمة فى أول الإسلام تختلف باختلاف الجنسين ، فالنساء يعاقبن إذا ثبت عليهن جريمة الزنا بعقوبتين .

(١) هو فضيلة الشيخ محمد محمد المدنى - رحمه الله - عميد كلية الشريعة الاسبق

(٢) ص ٢٩٨ - ٣٠٣ من كتاب المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء

احداهما : مأخوذة من قوله تعالى ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم** .. ﴾ الآية وهى إمساكهن فى البيوت ، أى حبسهن فيها إلى أن يتحقق واحد من أمرين : إما أن يتوفاهن الموت ، وإما أن يجعل الله لهن سبيلاً غيره ، وهنا يأتى خلاف آخر فى المراد بهذه السبيل ، فبعضهم يقول : إن المراد بها أن يشرع الله فيهن حكماً آخر ، ويشيرون بذلك إلى حكم الزانية والزانى الذى جاء فى سورة النور ، بناء على أن سورة النورنزلت بعد سورة النساء ، وقد رووا فى ذلك حديثاً عن النبى ﷺ يقول فيه : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلاً : الثيب ترجم البكر تجلد » .

وبعضهم يرى أن السبيل هى النكاح المغنى عن السفاح أى أن يرزقهن الله تعالى بمن يتزوج بهن على ما كان منهن ، فيغفر لهن هذا الماضى الآثم .

والعقوبة الثانية : هى الإيذاء ويكون بالتوبيخ والتأنيب ؛ وقيل : بل هذا تعبير عن عقوبة تفويضية للأمة وهى المعروفة فى لسان الفقهاء « بالتعزير » وقيل : بل المراد الإيذاء الذى حددته فيما بعد سورة النور وهو الجلد ، وهذه العقوبة التى هى الإيذاء مأخوذة من الآية الثانية وهى قوله تعالى : ﴿ **واللذان يأتيانها منكم فآذوهما** ﴾ وعلى هذا يكون ﴿ **اللذان** ﴾ مقصوداً به « الزانيان » أى الرجل والمرأة وتكون عقوبة الرجل الزانى هنا هى الإيذاء خاصة .

وخلاصة هذا الرأى أن الجريمة المقصودة هى الزنا ، وأن العقوبة بالنسبة للمرأة هى الإمساك فى البيوت أى الحبس إلى أحد الأمرين المذكورين ،والإيذاء، إما العقوبة بالنسبة للرجل فهى الإيذاء فقط .

٢ ــ وقد اختلف الجمهور القائلون بهذا : فمنهم من قال إن هذا الحكم نسخ بما جاء فى سورة النور من قوله تعالى : ﴿ **الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة** ﴾ وقيل : لا نسخ ، ويجمع بين العقوبتين ، وقال بعضهم : إن عقوبة الإمساك فى البيوت المذكورة فى الآية الأولى نسخت لعقوبة الأذى المذكورة فى الآية الثانية ، وقالت فرقة : بل كان الإيذاء هو الأول ، ثم نسخ بالإمساك ، ولكن التلاوة أخرت وقدمت . . . الخ .[١]

٣ ــ ومن هذا يتبين أن الجمهور مضطرب اضطراباً كبيراً فى تفسير هاتين الآيتين ، وأن بعضهم يرى نسخ ما فيها ، وبعضهم لا يراه ، ثم الذين يرون النسخ يختلفون فى الناسخ ، وأنهم يجعلون الآية الثانية فى الرجال والنساء جميعاً على التغليب ، ويجعلون عقوبة الرجل هنا أقل من عقوبة المرأة ، ويختلفون فى السبيل التى ذكرت فى الآية الأولى ، وهذا مثل واضح من أمثلة الاختلاف والاضطراب التى تجعل الناظر فى القرآن الكريم فى حيرة .

رأى أبى مسلم وبيان رجحانه :

٤ ــ ولكن الذى يجرد نفسه من عاطفة تقليد الجمهور ؛ يستطيع أن يجد فى أقوال غيرهم ما هو أقرب

---

(١) تراجع كتب التفسير ، ومنها تفسير القرطبى ج ٥ ص ٨٤

إلى القبول ، وأدنى إلى إظهار بلاغة القرآن ، وفهم حكمته التشريعية على وجه يناسب عظمته وهدايته .
ونريد بذلك : الوجه الذى اختاره أبو مسلم الأصفهانى ، ونقله عن مجاهد ، وبيانه : [أن هاتين الآيتين تتحدثان عن جريمتين خاصتين ، غير جريمة الزنا ، إحداهما تقع بين النساء خاصة ، ولا دخل للرجال فيها ، وهى الجريمة المعروفة « بالسحاق » والجريمة الثانية تقع بين الرجال خاصة ، ولا دخل للنساء فيها ، وهى الجريمة التى تعرف « باللواط » فكل من الآيتين تتحدث عن واحدة من هاتين الجريمتين بالترتيب وتسند هذه الجريمة إلى من ارتكبها على وجه التحديد ؛ فتقول الآية الأولى : ﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم ﴾ وتقول اللآية الثانية : ﴿ واللذان يأتيانها منكم ﴾ وتضع كل من الآيتين العقوبة المناسبة للجريمة التى تتحدث عنها . فعقوبة النساء اللاتى يرتكبن هذه الفعلة المنكرة ؛ أن يمسكن ويحبسن فى البيوت كى يبتعدن عن الجو الذى يتمكنّ فيه من الاتصال بنساء غيرهن ، إلى أن يتوفاهن الموت ، فينتهى بذلك أمرهن ، أو يجعل الله لهن سبيلاً بزوجية يصلحن بها ، وتنسيهن هذا الداء الوبيل ، وتمكنهن من أداء واجبهن الطبيعى فى ظل الزواج ، وتعيد إليهن اعتبارهن كإناث خلقهن الله لغير ما انحرفن إليه من فساد عظيم .

أما الرجال ﴿ اللذان يأتيانها منكم ﴾ فعقوبتهم هى الإيذاء ، وهى عقوبة وضعها الشارع لولى الأمر ، فله - إذا ثبتت تلك الجريمة المنكرة على رجلين - أن يؤذيهما ، والأذى على درجات .

وللقانون المستمد من هذا التفويض أن ينظمه ، ويحدده كما تقضى بذلك المصلحة ، وكما يتناسب مع شيوع هذه الجريمة فى مجتمع ، أو قلتها فى مجتمع آخر ، فقد يرى تغليظ العقوبة إذا فشت الجريمة ردعاً لمرتكبيها ، ومن يخشى أن يقلدوهم ، وقد يرى تخفيفها لقلة مرتكبيها ، وأنها لم تعد داء عاماً يخشى على المجتمع من تفشيه .

وبذلك يتبين أن الآيتين فى جريمتين خاصتين ، غير جريمة الزنا ، وأن القرآن على هذا يكون قد استكمل التشريع لأحكام الجرائم الثلاث : الجريمة التى تكون بين رجل وامرأة ، والجريمة التى تكون بين امرأة وامرأة ، والجريمة التى تكون بين رجل ورجل ، فالأولى جاء حكمها فى سورة النور والثانية والثالثة جاء حكمهما فى سورة النساء . وعلى هذا فلا حاجة إلى القول بالنسخ ولا إلى ذلك الاضطراب الذى رأينا عليه الجمهور .

٥ ــ وعلينا أن نبين بعد هذا وجه الحكمة فى تشريع عقوبة لهاتين الجريمتين ، ولم عنيت سورة النساء بهما ، ولم خصصت سورة النور بالتشريع لجريمة الزنا ؟ وبيان ذلك كله : أن سورة النور تتحدث عن الآداب الطبيعية والسلوك المعتاد فى المجتمع ، وتبين حديثها عما يكون بين الرجال والنساء ، فتذكر الزانية والزانى ، وتذكر الذين يرمون المحصنات ، وتذكر الذي يرمون أزواجهم ، وتذكر الذين جاءوا بالإفك على سيدة شريفة هى عائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - وتذكر أن الخبيثات للخبيثين والخبيثين للخبيثات ، وأن الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات ، وتشرع حكم الاستئذان عند دخول البيوت وحكم غض الرجل بصره عن المرأة ، وغض المرأة بصرها عن الرجل ، وتذكر أحكام النساء من جهة الزينة ، وما يجوز إبداؤ ها منها وما لا يجوز ، وعلى من تبدى المرأة زينتها وترشد إلى آداب من يعيشون معاً ، وأنه يجب على بعضهم

الاستئذان فى أوقات معينة ، وتذكر حكم القواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً ، إلى غير ذلك : فجميع ما ذكرته سورة النور متعلق بما يكون بين الرجل والمرأة فلذلك لم يأت الحديث فيها عن جريمة الرجل والرجل ، ولا عن جريمة المرأة والمرأة .

أما مجىء ذلك فى سورة النساء فلأنها السورة التى تتحدث عن المقدمات الأساسية للمجتمع ، وكل واحدة من هاتين الجريمتين من شأنها أن تفسر رجولة الرجل ، وأن تفسر أنوثة المرأة ، فتجعل الرجل يخسر نفسه ، ولا يصلح لأن يكون زوجاً ورجلا له شخصيته وكماله وسموه ، على النحو الذى هيأه الله عليه ، ويجعل المرأة تخسر نفسها ولا تصلح لأن تكون زوجة كذلك ، وتنفر منهما فمن ذا الذى يرضى بأن يتزوج امرأة تكون مريضة بهذا الداء ؟ ومن هذه التى ترضى بأن تتزوج رجلاً يكون ملتوياً عن سنة الرجال ، متطلباً أو متقبلاً لهذا اللون من الجريمة والفاحشة المنكرة ؟ ثم متى تقوم المرأة بوظيفتها كأنثى إذا اتجهت هذا الاتجاه ، واكتفت من اللذة بهذا اللون الذى لا يثمر ثمرته ومتى يقوم الرجل بوظيفته وهو مكتف بما يرتكبه من شذوذ . . لهذا كانت هاتان الجريمتان أخطر على المجتمع من جريمة الزنا نفسها ، وكانتا أفعل فى هدم كيان المجتمع منها ، لأن احداهما تفسد رجولة الرجل ، والأخرى تفسد أنوثة المرأة ، فتأتى على الصنفين ـ اللذين يتكون منهما المجتمع من الأعماق وإذن فالسورة التى تهتم بوضع الأسس والقواعد لبناء مجتمع سليم ؛ ومن حقها أن تهتم بهذا الجانب الذى هو حماية الرجال من الرجال ، وحماية النساء من النساء ويتضمن ما قلناه بيان الحكمة فى هذا التشريع . أ هـ . بنصه .

التوبة وأحكامها

إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ السوء ﴾ العمل القبيح الذى يسوء فاعله فيشمل الصغائر والكبائر . ﴿ بجهالة ﴾ المراد بها الجهل والسفه ، بارتكاب ما لا يليق بالعاقل ، لا عدم العلم ، وذلك يكون عند ثورة الشهوة أو الغضب ، وكل من عصا الله فهو جاهل . ﴿ أعتدنا ﴾ هيأنا وأعددنا .

المراد بقوله تعالى : ﴿ يعملون السوء بجهالة ﴾ أي بسفه وحمق ، وكل من عصا الله فهو سفيه أحمق ، قال مجاهد وغير واحد : كل من عصى الله خطأ أو عمداً فهو جاهل ، حتى ينزع عن الذنب .

وقال قتادة عن أبي العالية : أنه كان يُحدِّث أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يقولون : « كل ذنب أصابه عبد فهو جهالة » رواه ابن جرير . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ ، فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره .

قال ابن جريج : أخبرني عبد الله بن كثير عن مجاهد ، قال : كل عامل بمعصية الله فهو جاهل حين عملها قال بن جريج ، وقال لى عطاء بن أبي رباح : نحوه ، وقال أبو صالح عن ابن عباس : من جهالته عمل السوء . وليس المراد بالجهالة هنا عدم المعرفة ! فالحلال بين والحرام بين ، إنما الذين يأتون السوء جاهلون سفهاء حمقى ، ورحمة الله تبارك وتعالى وسعت كل شيء ، فإنه (يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، فإذا كان الثلث الأخير من كل ليلة نادى ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفرٍ فأغفر له ، هل من سائل فأعطيه)[1] .

فيا من تشكو مرض البعد عن الله ؛ عليك بعروق الاخلاص ، وورق الصبر ، وعصير التواضع ، ضع ذلك في إناء التقوى ، وصب عليه ماء الخشية ، وأوقد عليه بنار الحزن ، وصفه بمصفاة المراقبة ، وتناوله بكف الصدق واشربه من كأس الاستغفار ، وتمضمض بالورع ، وابعد نفسك عن الحرص والطمع تشفى من مرضك بإذن الله .

وصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، يا من رسمت لنا الطريق واضحاً إلى الله ، طريق الطاعة والهدى والرشاد والعفاف والسداد ، فقلت : « المعرفة رأس مالي والعقل أصل ديني ، والحب أساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسي ، والثقة كنزي ، والحزن رفيقي ، والعلم سلاحي ، والصبر ردائي ، والرضا غنيمتي ، والزهد حرفتي ، واليقين قوتي ، والصدق شفيعي ، والطاعة حسبي ، والجهاد خلقي ، وقرة عيني في الصلاة »[2] .

قوله جل شأنه : ﴿ إنما التوبة على الله ﴾ أي ليس ذلك من باب الالتزام ، فليس هناك أحد يلزم الله بشيء ، لأنه الفاعل المختار ، إنما ذلك من باب الفضل والكرم ، فهو صاحب الإنعام ، وهو ذو الجلال والإكرام ، وإنما كان ذلك كذلك لأنه المريد العليم الحليم ، فتعطف وتكرم على الذين يتوبون من قريب ، ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾[3] تعطف عليهم بالتوبة متى علم منهم بصدق النية ، فالتائب حبيب الرحمن ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والتائب من الذنب وهو مصر عليه ؛ كالمستهزئ بربه ، فأولئك الذين يتوبون من قريب يتوب الله عليهم ﴿ وكان الله عليماً ﴾ بما تنطوى عليه القلوب من صدق أو خداع ، واقتضى علمه الحكمة البالغة ، فإنه جل شأنه يتوب على الصادقين المخلصين في توبتهم

---

(١) اقتباس من حديث رواه البخاري

(٢) رواه ابن ماجه والبيهقي

(٣) من الآية : ١٣٥ من سورة آل عمران .

﴿ يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار * يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾(١).

أما الذين يعملون السيئات ويسوفون فى التوبة ؛ حتى إذا ما دخلت شمس العمر منطقة الكسوف ، وانفض سوق الدنيا ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، وأرخى الستار على الحياة ، وكورت شمس الأجل ، وانكدرت نجومه وانتثرت كواكبه ، وبعثرت أيامه وأرخى الحجاب ﴿ قال ﴾ أحدهم ﴿ إنى تبت الآن ﴾ هؤلاء مخادعون كذابون لا يقبل الله منهم توبة ، لأنهم رأوا مصيرهم المؤلم ، فكانوا كما قال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾(٢) كذلك الذين ماتوا كفاراً لا يقبل منهم صرف ولا عدل ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾(٣) كذلك الذين سيدركون طلوع الشمس من مغربها وغروبها من مشرقها ، لن تقبل توبة من عصاتهم ولا إيمان من كفارهم ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ﴾(٤).

قال تعالى : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾ لأنه لما وقع الإياس من الحياة ، وعاين الملك ، وخرجت الروح فى الحق وضاق بها الصدر ، وبلغت الحلقوم وغرقت النفس صاعدة فى الغلاصم ، فلا توبة مقبولة حينئذ ولات حين مناص .

حسن معاشرة النساء

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾

(١) الآية : ٨ من سورة التحريم .
(٢) من الآيتين : ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .
(٣) الآية : ٩١ من سورة آل عمران .
(٤) من الآية : ١٥٨ من سورة الأنعام .

المفردات : ﴿ العضل ﴾ داء عضال أى شديد ، وعضلت المرأة بولدها ؛ إذا اختنقت رحمها به فخرج بعضه وبقى بعضه ، فالعضل الشدة والتضييق والحبس . ﴿ الفاحشة ﴾ الفعلة الشنيعة القبيحة . ﴿ مبينة ﴾ واضحة ظاهرة . ﴿ بالمعروف ﴾ مالا ينكره الشرع والعرف والطبع . ﴿ البهتان ﴾ الكذب . ﴿ أفضى ﴾ وصل إليها وصولاً خاصاً ، وهو ما يكون بين الزوجين . ﴿ وميثاقاً غليظاً ﴾ عهداً مؤكداً رابطه برباط قوى محكم .

روى البخارى وأبو داود « أنه كان إذا مات الرجل منهم كان أولياؤه أحق بامرأته ؛ إن شاء بعضهم تزوجها ، وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، فهم أحق بها من أهلها فنزلت هذه الآية فى ذلك .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة ، قال : جاءت كبيشة ابنة معن بن عاصم من الأوس إلى النبى ﷺ ، وكانت تحت أبى قيس بن الأسلت ، فتوفى عنها فجنح عليها (ضيق) ابنه ، قالت له : لا أنا ورثت زوجى ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت الآية .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ﴾ أى لا يحل لكم أيها الذين آمنوا ورسوله أن تسيروا على سنة الجاهلية ، فى هضم حقوق النساء ، فتجعلوهن ميراثاً لكم كالأموال والعبيد ، وتتصرفوا فيهن كما تشاءون وهن كارهات لذلك فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من يموت من أقاربه ، وإن شاء زوجها غيره ، وإن شاء أمسكها ومنعها الزواج .

﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ أى لا يحل لكم إرث النساء ولا التضييق عليهن ومضارتهن ، ليكرهنكم ويضطرون إلى الأفتداء منكم بالمال ، من ميراث وصداق ونحو ذلك ، فقد كانوا يتزوجون من يعجبهم حسنها ، ويزوجون من لا تعجبهم ، أو يمسكونها حتى تفتدى بما كانت ورثت من قريب الوارث ، أو ما كانت أخذت من صداق ونحوه ، أو كل هذا ، وربما كلفوها الزيادة إن علموا أنها تستطيعها . أخرج ابن جرير عن زيد قال : « كانت قريش بمكة ينكح الرجل منهم المرأة الشريفة ، ولعلها ما توافقه فيفارقها ، على ألا تتزوج إلا بإذنه ، فيأتى بالشهود فيكتب ذلك عليها ، فإذا خطبها خاطب فإن أعطت وأرضته أذن لها ، وإلا عضلها وكثيراً ما كانوا يضيقون عليهن ليفتدين منهن بالمال » .

﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ أى لا تعضلوهن فى أى حال إلا فى الحال التى يأتين فيها بالفاحشة المبينة ، دون الظنة أو الشبهة ، فإذا نشزت عن طاعتكم وساءت عشرتهن ، ولم ينفع معهن التأديب ، أو تبين ارتكابهن للزنا أو السرقة ، أو نحو ذلك من الأمور الفاحشة الممقوتة عند الناس ، فلكم حينئذ أن تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن من صداق وغيره من المال ، لأن الفحش قد أتى من جانبها وإنما اشترط فى الفاحشة أن تكون مبينة : أى ظاهرة فاضحة لصاحبها ، لأنه ربما ظلم الرجل المرأة بإصابتها الهفوة الصغيرة ، أو بمجرد سوء الظن والتهمة ، فمن الرجال الغيور السيىء الظن ، الذى يؤاخذ بأتفه الأمور ويعهده عظيماً .

وإنما أبيح للرجل أن يضيق على امرأته إذا أتت بهذه الفاحشة المبينة ، لأنها ربما كرهته ومالت إلى غيره فتؤذيه بفاحشة القول أو الفعل ، ليملها ويسأم معاشرتها فيطلقها ، فتأخذ ما كان أعطاها وتتزوج غيره ، وتتمتع بمال الأول ، وربما فعلت مع الثانى ما فعلت مع الأول ، فإذا علم النساء أن العضل والتضييق بيد الرجال ، ومما أبيح لهم إذا هن أهنهم ، فـإن ذلك يكفهن عن ارتكـابها والاحتيـال بها عـلى أرذل أنواع الكسب .

﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ أى وعليكم أن تحسنوا معاشرة نسائكم ، فتخالطوهن بما تألفه طباعهن ، ولا يستنكره الشرع ولا العرف ، ولا تضيقوا عليهن فى النفقة ، ولا تؤذوهن بقول ولا فعل ، ولا تقابلوهن بعبوس الوجه ولا تقطيب الجبين . وفى كلمة (المعاشرة) معنى المشاركة والمساواة ، أى عاشروهن بالمعروف وليعاشرنكم كذلك فيجب أن يكون كل من الزوجين مدعاة لسرور الآخر ، وسبب هناءته وسعـادته فى معيشته ومنزله ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[1] .

﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ أى فإن كرهتموهن لعيب فى أخلاقهن ، أو دمامة فى خلقهن ، مما ليس لهن فيه كسب ، أولتقصير فى العمل الواجب عليهن ، كخدمة البيت والقيام بشئونه ، مما لا يخلو عن مثله النساء فى أعمالهن أو لميل منكم إلى غيرهن ؛ فاصبروا ولا تعجلوا بمضارتهن ولا بمفارقتهن فربما كرهت النفس ما هو أصلح فى الدين ، وأوفى إلى الخير ومن ذلك :

١ ـ الأولاد النجباء ، فرب امرأة يملها زوجها ويود فراقها ، ثم يجيئه منها من تقر به عينه من الأولاد النجباء فيعلو قدرها عنده بذلك .

٢ ـ أن يصلح حالها بصبره وحسن معاشرته ، فتكون من أعظم أسباب سعادته وسروره فى انتظام معيشته ، وحسن خدمته ، ولا سيما إذا أصيب بالأمراض ، بالفقر والعوز ، فتكون خير سلوى وعون فى هذه الأحوال . فيجب على الرجل أن يتذكر مثل ذلك ، كما يذكر أنه قلما يخلو من عيب تصبر عليه امرأته فى احال والاستقبال . وقد جاء قوله : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ فى سياق حديث النساء دسْتُوراً إذا نحن اتبعناه كان له الأثر الصالح فى جميع أعمالنا ، وهدانا إلى الرشد فى جميع شئوننا ، فكثيراً مما يكرهه الإنسان يكون له فيه الخير ، ومتى جاء ذلك الخير ظهرت فائدة ذلك الشىء المكـروه ، والتجارب أصدق شاهد على ذلك .

فالقتال لأجل حماية الحق والدفاع عنه يكرهه الطبع لما فيه من المشقة ، لكن فيه إظهار الحق ونصره ورفعة أهله ، وخذلان الباطل وحزبه ، إلا أن الصبر على احتمال المكروه يمرن النفس على احتمال الأذى ، ويعودها تحمل المشاق فى جسيم الأمور .

---

(١) الآية : ٢١ من سورة الروم .

والخلاصة : إن الإسلام وصى أهله بحسن معاشرة النساء ، والصبر عليهن إذا كرههن الأزواج ، رجاء أن يكون فيهن خير ، ولا يبيح عضلهن وافتداءهن أنفسهن بالمال إلا إذا أتين بفاحشة مبينة ، بحيث يكون إمساكهن سبباً فى مهانة الرجل واحتقاره ، أو إذا خافا ألا يقيما حدود الله ، وفيما عدا ذلك يجب عليه إذا أراد فراقها أن يعطيها جميع حقوقها ، وهذا ما أشار إليه بقوله : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ﴾ أى وإذا رغبتم أيها الأزواج فى استبدال زوج جديدة ، مكان زوج سابقة كرهتموها لعدم طاقتكم الصبر على معاشرتها ، وهى لم تأت بفاحشة مبينة ، وقد كنتم أتيتموها مالاً كثيراً مقبوضاً ، أو ملتزماً دفعه إليها ، فصار ديناً فى ذمتكم ، فلا تأخذوا منه شيئاً بل عليكم أن تدفعوه لها ، لأنكم إنما استبدلتم غيرها بها لأغراضكم ومصالحكم ، بدون ذنب ولا جريرة تبيح أخذ شىء منها ، فبأى حق تستحلون ذلك ؟ وهى لم تطلب فراقكم ، ولم تسىء إليكم لتحملكم على طلاقها ؟ وإرادة الاستبدال ليست شرطاً فى عدم حل أخذ شىء من مالها ، إذا هو كره عشرتها وأراد الطلاق ، لكنه ذكر لأنه هو الغالب فى مثل هذا الحال .

ألا ترى أنه لو طلقها وهو لا يريد تزوج غيرها لأنه اختار الوحدة وعدم التقيد بالنساء وحاجاتهم الكثيرة ، فإنه لا يحل له أخذ شىء من مالها . ثم أنكر عليهم هذا الفعل ووبخهم عليه أشد التوبيخ فقال : ﴿ أتأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً ﴾ أى أتأخذونه باهتين آثمين ، وقد كان من دأبهم أنهم إذا أرادوا تطليق الزوجة ؛ رموها بفاحشة حتى تخاف وتشترى نفسها منه بالمهر الذى دفعه إليها .

وزاده إنكاراً آخر مبالغة فى التنفير من ذلك فقال : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ﴾ أى : إن حال هؤلاء الذين يستحلون أخذ مهور النساء إذا أرادوا مفارقتهن بالطلاق ، لا لذنب جنينه ولا لإثم اجترحنه من الإتيان بفاحشة مبينة ، أو عدم إقامة حدود الله ، وإنما هو الرأى والهوى وكراهة معاشرتهن - عجيب أيما عجب - فكيف يستسيغون أخذ ذلك منهن ، بعد أن تأكدت الرابطة بين الزوجين بأقوى رباط حيوى بين البشر ، ولابس كل منهما الآخر حتى صار أحدهما من الآخر بمنزلة الجزء المتمم لوجوده ، فبعد أن أفضى كل منهما إلى الآخر إفضاء ولابسه ملابسة يتكون منها الولد ، يقطع تلك الصلة العظيمة ، ويطمع فى مالها ، وهى المظلومة الضعيفة ، وهو القادر على اكتساب المال بسائر الوسائل التى هدى الله إليها البشر .

﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ قال قتادة : هذا الميثاق هو ما أخذ الله للنساء على الرجال بقوله : ﴿ فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾[1] وقد ورى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه نهى على المنبر أن يزاد فى الصداق على أربعمائة درهم ، ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول :

---

(١) من الآية : ٢٢٩ من سورة البقرة .

﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ فقال : اللهم عفواً كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر فقال : إنى كنت نهيتكم أن تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب[1] .

هذا وإن الشريعة لم تحدد مقدار الصداق بل تركت ذلك للناس لتفاوتهن فى الغنى والفقر ، فكل يعطى بحسب حاله ولكن جاء فى السنة الإرشاد إلى اليسر فى ذلك وعدم التغالى فيه ، فمن ذلك ما رواه أحمد والحاكم والبيهقى عن عائشة : « إن من يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها » . وإن التغالى فى المهور الآن قد صار من أسباب قلة الزواج ، وقلة الزواج تفضى إلى كثرة الزنا والفساد ، والغبن أخيرا على النساء أكثر ، وإنك لترى هذه العادة متمكنة لدى بعض الناس ، حتى إن ولى المرأة ليمتنع عن تزويج بنته للكفء الذى لا يرجى من هو خير منه ، إذا كان لا يعطيه ما يراه لائقاً بكرامته ، ويزوجها لمن هو دونه ديناً وخلقاً ، ومن لا يرجو لها سعادة عنده ، إذا هو أعطاه كثيراً من الذى يراه محققاً لأغراضه ، وهكذا تتحكم التقاليد والعادات حتى تفسد على الناس سعادتهم ، وتقوض نظم بيوتهم وهم لها منقادون بلا تفكير فى العواقب .

من يحرم التزوج بهن

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ
سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ
نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ سلف ﴾ أى مضى . ﴿ فاحشة ﴾ أى شديد القبح . ﴿ مقتاً ﴾ أى ممقوتاً مبغوضاً عند ذوى الطباع السليمة ، ومن ثم كانوا يسمونه نكاح المقت ، ويسمى الولد منه مقيتاً : أى مبغوضاً

(١) أخرج أبو حاتم البستى فى مسنده عن أبى العجفاء السلمى ، قال : خطب عمر بن الخطاب فقال : ألا لاتغالوا فى صدقات النساء فإنها لو كانت مكرمه فى الدنيا أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولابناته فوق اثنتى عشرة أوقية ، فقامت إليه امرأة فقالت : ياعمر ، يعطينا الله وتحرمنا ! أليس الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ﴾ ؟ فقال عمر : أصابت امرأة وأخطأ عمر ، وفى رواية فأطرق عمر ثم قال : كل الناس أفقه منك ياعمر ! ورواه ابن ماجه فى سننه عن أبى العجفاء بزيادة عن ذلك .

محتقراً . ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أى بئس طريقاً ذلك الطريق الذى اعتادوا سلوكه فى الجاهلية ، وبئس من يسلكه لم يزده السير فيه إلا قبحاً . و[الجناح] الإثم والتضييق .

بعد أن بين فى أوائل السورة حكم نكاح اليتامى ، وعدد من يحل من النساء ، والشرط فى ذلك ، وبين حكم استبدال زوج مكان زوج ، وما يجب من المعروف فى معاشرتهن ، وصل هذا ببيان ما يحرم نكاحه منهن .

قوله تعالى : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ﴾ ذكر الله هذا النكاح أولا ، ولم يذكره مع سائر المحرمات فى الآية التالية ، لأنه كان فاشياً فى الجاهلية ، وقد ذمه الله أقبح ذم ، فسماه فاحشة ، وجعله مبغوضاً أشد البغض ، أخرج ابن سعد عن محمد بن كعب قال : « كان الرجل إذا توفى عن امرأته كان ابنه أحق بها أن ينكحها إن شاء إن لم تكن أمه ، أو ينكحها من شاء فلما مات أبو قيس بن الأسلت ، قام ابنه محصن فورث نكاح امرأته ، ولم ينفق عليها ولم يورثها من المال شيئاً ، فأتت النبى ﷺ فذكرت ذلك له ، فقال : «ارجعى لعل الله ينزل فيك شيئاً ، فنزلت ﴿ ولا تنكحوا ﴾ الآية ، ونزلت أيضاً ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ﴾ الخ . والمراد بالنكاح العقد كما قال ابن عباس ، فقد روى ابن جرير والبيهقى عنه[1] أنه قال : « كل امرأة تزوجها أبوك دخل بها أو لم يدخل فهى حرام » والمراد من الآباء ما يشمل الأجداد إجماعاً ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ أى لكن ما سلف من ذلك لا مؤاخذة عليه . والخلاصة - إنكم تستحقون العقاب بنكاح ما نكح آباؤكم إلا ما قد سلف ومضى قبل نزول الأحكام .

﴿ إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾ أى إن نكاح أزواج الآباء تمجه الأذواق السليمة ، وتؤيد ذلك الشريعة التى هدى الله الناس بها . فهو قبيح محتقر ، والسالك فى طريقة مزدرى عند ذوى العقول الراجحة . قال الإمام الرازى - القبح ثلاثة أصناف : عقلى ، وشرعى ، وعادى ، وقد وصف الله النكاح بكل ذلك ، فقوله سبحانه ﴿ فاحشة ﴾ إشارة إلى الأول ، وقوله : ﴿ مقتاً ﴾ إشارة إلى الثانى ، وقوله ﴿ وساء سبيلاً ﴾ إشارة إلى الثالث .

بعد هذا بين الله أنواع المحرمات لأسباب وعلل تنافى ما فى النكاح من الصلة بين بعض البشر وبعض ، وهى عدة أقسام :

القسم الأول : منها ما يحرم من جهة النسب وهو أنواع :

١ - نكاح الأصول ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم ﴾ والمراد بالأم ما يشمل الجدات ؛ أى إن الله قد حرم عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم والمراد أنه حكم الآن بهذا التحريم والمتبع .

٢ - نكاح الفروع ، وذلك قوله : ﴿ وبناتكم ﴾ والمراد بهن ما يشمل بنات أصلابنا ، أو بنات أولادنا ، ممن كنا سبباً فى ولادتهن وأصولا لهن .

---

(١) يعنى عن ابن عباس

٣ - نكاح الحواشى القريبة ، وذلك ما عناه سبحانه تعالى بقوله : ﴿ **وأخواتكم** ﴾ سواء أكن شقيقات لكم أم كن لأم أو لأب .

٤ ، ٥ - نكاح الحواشى البعيدة من جهة الأب والأم ، وإليهما الإشارة بقوله : ﴿ **وعماتكم وخالاتكم** ﴾ والمراد بهما الإناث من جهة العمومة ومن جهة الخؤولة ، فيشمل أولاد الأجداد وإن علوا وأولاد الجدات وإن علون .

٦ - نكاح الحواشى البعيدة من جهة الأخوة ، وذلك قوله : ﴿ **وبنات الأخ وبنات الأخت** ﴾ من جهة أحد الأبوين ، أو كليهما .

القسم الثانى : ما حرم من جهة الرضاعة ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ **وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم ، وأخواتكم من الرضاعة** ﴾ وقد نزل الله سبحانه وتعالى الرضاعة منزلة النسب فسمى المرضعة أماً للرضيع ، وبنتها أختاً له ، فأعلمنا بذلك أن جهة الرضاع كجهة النسب .

وقد وضحت السنة ذلك ؛ فقال النبى ﷺ ، لما طلب إليه أن يتزوج ابنة عمه حمزة « إنها لا تحل لى ، إنها ابنة أخى من الرضاعة ، ويحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » رواه البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما .

وعلى ذلك جرى المسلمون جيلاً بعد جيل فجعلوا زوج المرضعة أباً للرضيع ، تحرم عليه أصوله وفروعه ، ولو من غير المرضعة ، لأنه صاحب اللقاح الذى كان سبب اللبن الذي تغذى منه الرضيع ، وقد روى البخارى عن ابن عباس أنه سئل عن رجل له جاريتان أرضعت إحداهما بنتاً ، والأخرى غلاماً ، أيحل للغلام أن يتزوج الجارية ؟ (قال لا ، اللقاح واحد) .

وقد غلب على الناس التساهل فى أمر الرضاعة ، فيرضعون الولد من امرأة أو من عدة نسوة ، ولا يهتمون بمعرفة أولاد المرضعة وأخوتها ، ولا أولاد زوجها من غيرها وإخوته ، ليعرفوا ما يترتب عليهم فى ذلك من الأحكام ؛ كحرمة النكاح وحقوق القرابة الجديدة التى جعلها الشارع كالنسب ، فكثيراً ما يتزوج الرجل أخته أو عمته أو خالته من الرضاعة وهو لا يدرى .

وظاهر الآية : أن قليل الرضاعة ككثيرها ، ويروى عن على وابن عباس والحسن والزهرى وقتادة ، وبه أخذ أبو حنيفة ومالك . وذهب جماعة إلى أن التحريم إنما يثبت بثلاث رضعات فأكثر ؛ لأن النبى ﷺ قال : « لا تحرم المصة والمصتان » وقد روى العمل به عن الإمام أحمد ، وذهب جماعة آخرون إلى أن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات ، ويروى هذا عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن الزبير ، وهو مذهب الشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه .

ولا يحرم الرضاع إلا فى سنة ومدته المحدودة بقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ (١) وهو مذهب عمر وابن مسعود وابن عباس ، وبه أخذ الشافعى وأحمد وصاحبا أبي حنيفة : أبو يوسف ومحمد .

وقد روى الدارقطنى عن ابن عباس قوله ﷺ : « لا رضاع إلا ما كان فى الحولين » وروى عن ابن عباس فى رواية أخرى والزهرى وحسن وقتاده أن الرضاع المحرم ما كان قبل الفطم ، فإن فطم الرضيع ولو قبل السنتين امتنع تأثير رضاعه فى التحريم ، وإن استمر رضاعه إلى ما بعد السنتين ، ولم يفطم : كان رضاعه محرماً .

القسم الثالث : محرمات المصاهرة التى تفرض بسبب الزواج وتحته الأنواع الآتية :

١ - ﴿ وأمهات نسائكم ﴾ ويدخل فى الأمهات الجدات ، ولا يشترط فى تحريم أم المرأة دخوله بالبنت ، بل يكفى مجرد العقد ، وبهذا قال جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وعليه الأئمة أصحاب المذاهب الأربعة .

٢ - ﴿ وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم ﴾ الربائب جمع ربيبة وربيب الرجل ولد امرأته من غيره ، سمى ربيبا لأن الرجل يربه ويسوسه ويؤدبه كما يؤدب ولده ، وقوله : ﴿ اللاتى فى حجوركم ﴾ وصف لبيان الحال الغالب فى الربيبة وهى أن تكون فى حجر زوج أمها ، وللإشعار بالمعنى الذى يوضح علة التحريم ، ويحرك عاطفة الأبوة فى الرجل ، وهو كونها فى حجره يحنو عليها حنوه على بنته ، ويدخل فى التحريم كل بنات امرأة الرجل إذا كان قد دخل بها وبنات بناتها وبنات أبنائها ، لأنهن من بناتها فى عرف اللغة ﴿ فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ أى إن الرجل إذا عقد نكاحه على امرأة ولم يدخل بها لا يحرم عليه بناتها ، وقال الحنفية : إن من زنى بامرأة يحرم عليه أصولها وفروعها وكذلك إذا لمسها بشهوة أو قبلها ، أو نظر إلى ما هنالك منها بشهوة . وكذلك أيضاً إذا لمس يد أم امرأته بشهوته ، فإن امرأته تحرم عليه تحريماً مؤبداً ، ولم يوافقهم على ذلك كثير من الأئمة ، لأنه لم يؤثر فيه خبر ، ولا أثر عن الصحابة فيه شيء ، وقد كانوا قريبى العهد بالجاهلية التى كان الزنا فاشياً فيها بينهم ، فلو كانوا فهموا لذلك مدركاً من الشرع وعلله ، لسألوا عنه وتوافرت الدواعى على نقل ما أفتوا به .

٣ - ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ الحلائل واحدها حليلة وهى الزوجة ، ويقال أيضاً للرجل حلي إذ أن الزوجين يحلان معاً فى مكان وفراش واحد . ويدخل فى الأبناء أبناء الصلب مباشرة أو بواسطة ، كابن الابن وابن البنت فحلائلهما تحرم على الجد ، كما يدخل الابن من الرضاعة ، فتحرم حليلته لما تقدم من قوله « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » .

القسم الرابع : ما حرم بسبب عارض ، إذا زال يزول ، وهو ما ذكره سبحانه بقوله : ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ أى وحرم عليكم الجمع بين الأختين فى الاستمتاع الذى يراد به الولد ، والمذاهب الأربعة متفقة على تحريم الاستمتاع بالأختين ، بملك اليمين أو بالنكاح أو بالنكاح والملك ، كأن يكون مالكاً لإحداهما ،

(١) من الآية : ٢٣٣ من سورة البقرة .

ومتزوجاً الأخرى ، فيحرم عليه أن يستمتع بهما ، ويجب عليه أن يحرم إحداهما على نفسه ، كأن يعتق المملوكة أو يهبها ويسلمها للموهوبه له .

ومثل هذا الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها ، لأن العلة موجودة فيه أيضاً ، وهى إفضاؤه إلى قطع ما أمر الله تعالى بوصله ، كما يدل عليه قوله ﷺ « فإنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم » . والضابط لذلك أنه يحرم الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابة ، لو كانت إحداهما ذكراً لحرم عليه بها نكاح الأخرى .

﴿ **إلا ما قد سلف** ﴾ أى لكن ما قد سلف قبل التحريم لا تؤاخذون عليه ، وقد كانوا يجمعون بين الأختين . أخرج أحمد وأبو داود وابن ماجه ، عن فيروز الديلمى : أنه أدركه الإسلام وتحته أختان فقال له النبى ﷺ : « أيتهما شئت » وعن ابن عباس : أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما حرم الله ؛ إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين .

﴿ **إن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ فلا يؤاخذكم بما سلف منكم فى زمن الجاهلية إذا أنتم عملتم بشريعة الإسلام ، ومن مغفرته أن يمحو من نفوسكم آثار الأعمال السيئة ، ويغفر لكم ذنوبكم إذا أنبتم إليه ، ومن رحمته أن شرع لكم من أحكام النكاح ما فيه المصلحة لكم ، وتوثيق الروابط بينكم لتتراحموا وتتعاونوا على البر والتقوى .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب التفسير

الجزء الخامس

سورة النساء

من الآية رقم ٢٤ / ١٤٧

*وَالْمُحْصَنَٰتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِ مِنۢ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (٢٤) وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَٰتِ الْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ الْمُؤْمِنَٰتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَٰتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٥)

المفردات :

﴿ **المحصنات** ﴾ واحدتهن محصنة (بفتح الصاد) يقال حصنت المرأة (بضم الصاد) حِصْنا محصانة : إذا كانت عفيفة ، فهى حاصن وحاصنة وحصان (بفتح الصاد) . ويقال أحصنت المرأة : إذا تزوجت ، لأنها تكون فى حصن الرجل وحمايته ، وأحصنها أهلها زوجوها . ﴿ **ما ملكت أيمانكم** ﴾ أى بالسبى فى حروب دينية وأزواجهن كفار فى دار الحرب ، فينفسخ عند ذلك نكاحهن ، ويحل الاستمتاع بهن بعد وضع الحامل حملها ، وحيض غير الحامل ثم طهرها ، والإحصان : العفة و[المسافح] : الزانى ، والاستمتاع بالشىء : هو التمتع به و[الأجور] واحدها أجر : وهو فى الأصل الجزاء الذى يُعطى فى مقابلة شىء مَّا من عمل أو منفعة والمراد به هنا المهر . ﴿ **فريضة** ﴾ أى حصة مفروضة محدودة مقدرة . ﴿ **ولا جناح** ﴾ أى لا حرج ولا تضييق [الاستطاعة] كون الشىء فى طوعك لا يتعاصى عليك ، و[الطول] الغنى والفضل من مال أو قدرة على تحصيل الرغائب ، ﴿ **والمحصنات** ﴾ هنا الحرائر ، ﴿ **والفتيات** ﴾ الإماء . ﴿ **محصنات** ﴾ أى عفيفات ، ﴿ **مسافحات** ﴾ مستأجرات للبغاء ، و[الأخدان] واحدهم خِدن وهو الصاحب ويطلق على الذكر والأنثى ، وهو أن يكون للمرأة خدن يزنى بها سراً فلا تبذل نفسها لكل أحد ، و﴿ **الفاحشة** ﴾ الفعلة القبيحة وهى الزنا ، والمحصنات هنا : الحرائر . و﴿ **العذاب** ﴾ هو الحد الذى قدره الشارع وهو مائة جلدة ، فنصفها خمسون ولا رجم عليهن لأنه لا يتنصف . ﴿ **العنت** ﴾ الجهد والمشقة .

المراد بالمحصنات من النساء هنا المتزوجات ، وهن من المحرمات اللائى ذكرهن الله تعالى فى قوله : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ إلى آخر الآيات فقد حرَّم الله الزواج بالمرأة المحصنة أى التى لها زوج ، وهى على عصمته ، وقد جاء الإحصان فى القرآن الكريم على أربعة معان :

١ ـ التزوج كما فى هذه الآية ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ .

٢ـ العفة كما فى قوله تعالى : ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ .

٣ـ الحرية كما فى قوله تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات ﴾ .

٤ـ الإسلام كما فى قوله تعالى : ﴿ فإذا أُحْصِنَّ ﴾ أى أسلمن .

واستثنى الله تعالى من المحصنات المملوكات ملك اليمين ، وهن النساء اللاتى وقعن أسيرات فى حرب دينية ، فقد رأى الإسلام من باب إكرامهن ورعايتهن أن يقسمن على المجاهدين ، إذا كانت المصلحة فى ذلك .

فإن كانت المصلحة فى غير ذلك ؛ بأن يكون هناك تبادل أسرى ، فإنهن يرجعن إلى أزواجهن من باب درء المفاسد .

هؤلاء السبى يحل نكاحهن ولو كن فى عصمة الرجال الكافرين ، ما دمن قد وقعن فى السبى فى حرب دينية ، ليس الهدف منها متاع الدنيا .

أخرج مسلم[١] عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : أصبنا سبيا يوم (أَوْطاس)[٢] ولهن أزواج فكرهنا أن نقع عليهن ، فسألنا النبى ﷺ فنزلت الآية فاستحللناهن .

وقال الحنفية إن من سُبى معها زوجها لا تحل لغيره ، إذ لابد من اختلاف الدار بين الزوجين دار الإسلام ودار الحرب . . .

إن الإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه ولكنه أدى إلى القضاء عليه فالإسلام هو محرر العبيد الذى كرَّم البشرية ، ونطقت آياته مصرحة بذلك قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾[٣] . جاء فى كتابنا رياض الجنة ، تحت عنوان «الإسلام محرر البشرية» ما نصه :

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم ، وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة البشرية إليه ، والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد ، وركز فيه سبل الإصلاح ! والإسلام هو الذى حرر العقل من

(١) ، (٢) أوطاس واد فى ديار هوازن ، وكانت غزوة أوطاس فى غزوة حنين بعد فتح مكة ونص حديث أبى سعيد كما رواه مسلم : « أن رسول الله ﷺ يوم حنين بعث جيشا إلى « أوْطاس » فلقوا العدو فقاتلوهم وظهروا عليهم وأصابوا لهم سبايا ، فكان ناس من أصحاب رسول الله ﷺ تحرجوا من غشيانهن من أجل أزواجهن من المشركين ، فأنزل الله عز وجل فى ذلك ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾

(٣) الآية : ٧٠/ من سورة الاسراء .

الجمود والتقليد وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير ! والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء .

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الإسلام ، فجعلوا من مسألة الرق ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه ، بعدما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن أو طعنة لغامز . ولو تدبر هؤلاء مسألة «الرق» لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الإسلام » .

يقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه «ما يقال عن الإسلام» .

مسألة الرق فى الإسلام موضع حملة من أقوى الحملات العصرية ، يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك .

ويتفق الماديون والمبشرون ؛ لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ؛ أولاهما : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الإنسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال فيهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون أن الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعدُ شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء . .

أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون ؛ فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ؛ قياسا على نجاح الإسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة ، مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم على حكومات الدول الغربية .

فالماديون والمبشرون يجتهدون ــ غاية الجهد ــ لنشر دعوتهم إغراء بالمال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب . ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم ، إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم فى الموطن ومصالح المعيشة ، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة «النخاسة» ، وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا «النخاسة» قديما وحديثا وهم ــ أى دعاة المادة والتبشير ــ أول من يعلم من تاريخ «النخاسة» أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين .

ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين . أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسمومة ، وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة ، فهى واضحة قريبة المنال ، كفيلة بإقناع من يستمع إليها ، مسلما كان أو غير مسلم ، ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير .

إن الأديان جميعا ـ قبل الإسلام ـ أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرما يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ، ويضلون عن سبيله . .

وجاء الإسلام ، فشرع العتق ، ولم يشرع الرق ، وقد ندب المسلمين إلى فك الإسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة .

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء ؛ مع استحسان فك الإسار بغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث فى يمينه ، ومن يظاهر من زوجه ، ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ، ومنها فدية الرقاب ـــ ولم يبق الإسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو ببذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة .

وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون ؛ قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الإسلام وأوجبه على الدولة الإسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة «فى الرقاب» .

فإذا كانت الدول غير الإسلامية لم تعرف لها نظاما تتبعه لإطلاق أسراها من الرق ، فهى المسئولة عن التقصير ، وليس على الإسلام أو الدولة الإسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الإسلامية وغيرها ، فنعلم أن هذه الدول الأخرى ، قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء ، منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى ، وحكومات المسلمين التى تجاورها ، ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الإسلامية ، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقا عليها بين المتقاتلين ؟ ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعا أكرم من صنع الإسلام ، يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق ، أو يوجبوه فى مقام التكفير والإحسان[1] ؟

إن صنيع الإسلام الذى أوجبه ـــ قبل أربعة عشر قرنا ـــ هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه ؛ فلا ندرى كيف يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

---

(١) وذلك ما نصت عليه الآية الكريمة من سورة « محمد » ﷺ : « حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . . » الآية/٤

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الإسلامى فى تشريعات الرق ، بغير استثناء دولة منها ، فى أحدث تشريعاتها الإنسانية كما تسميها : فالإسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء ، بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية ، أو منازعة اقتصادية ، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداء بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء ، جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى ، فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع ، وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدى الأرقاء ، ولا تنفق عليها أجورا ، فإن أصحاب الأموال والصناع معاً ، حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية : يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم ، أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة ؛ يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون ، وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها ، وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم ، فى سباق التنافس على التحرير ، واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الطريق أو ذاك .

فلما وصلت الحضارة الأوربية إلى هذا المدى ، بعد طول التعثر ، لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت ولا تزال مساومة واضطراراً ، وحيلة من حيل السياسة والإدارة ، وخطة من خطط التأجير والاستغلال . .

والفارق الأكبر فى مسألة الرق ــ من جانب الواقع التاريخى ــ هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الإسلامية ، وعددهم فى البلاد الغربية . حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين ، فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الإسلامية ــ بعد ثلاثة عشر قرنا ــ على ثلاثة ملايين ، أو نحو هذا العدد القليل ، بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليونا ، ولم يمض على قيام الحكم «الأبيض» هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وبعد هذا الفارق فى العدد ، هناك : فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الإسلامية والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال ، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم ، انتقاما من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته «البيض» ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا :

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية ، والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها ، وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام . . فإذا انعكست الآية ، وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب

الحملة الشعواء على الإسلام ، بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟ .

وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير .

وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى ، للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة . . ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟ إن الوقائع تثبت والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر : أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . ظلمات بعضها فوق بعض،فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة ، على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه . . كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادئ الذى يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة ، التى تقتل الجراثيم ، دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه «فى الدين والأخلاق والقومية» ما نصه:محمد ﷺ محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان ، إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله ؟ . . إن الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الإسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟ .

وإن تعجب لشىء فأعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق ، أبيضه وأسوده ، وأنهم الذين أفشوه ، ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : عن طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب ! وأنهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام.لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان وفى الرومان ، وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبدا لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال ؛ ومصداقه فى قصة يوسف ــ عليه السلام ــ ﴿ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين * قال جزاؤه من وجد فى رحله ، فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين ﴾[1] وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها ، يبيح له أن يقتل منهم

---

(١) الآيتان : ٧٤/ ، ٧٥ من سورة يوسف

من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ خاتم النبيين وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر ، وثورته على الربا ، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المستحكمة . . لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل ، موصدة المخارج ، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام ﷺ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لينطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها .

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحا واقعيا فى ظلال الإسلام فيقول : فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين . ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه ، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ؛ فاليوم لا الخطف ولا البيع والشراء ، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ولا القتل لم يعد شىء من ذلك كله ــ منذ ظهر الإسلام ــ يصلح مبررا لاستعباد الإنسان .

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء إلا فى حالة الاضطرار ، وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام ـ قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل ـ أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء . .

غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها ؛ أما الشبهة فهى أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ، قد ترك ــ إلى جانب هذه الأبواب ــ منفذا صغيراً لم يغلقه ، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين ــ فى هذا الحال ــ أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟ .

والجواب : أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية ؛ فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم ، لم نجد فيه أثراً لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً ، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾(١) كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير ، إلا فى حالة شاذة نادرة ، كان الأسير فيها معروفاً بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم ؛ عقوبة «مجرمى الحرب» .

بقى الاسترقاق ؛ وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة .

ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ ؛ تحرير رقبة ؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة .. فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له فى زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوباً فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ، ولا فى نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة اتقاء لخطره وكسراً لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى ، وإنما يتخذه إجراء مؤقتاً ، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ، ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، أعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية ؛ ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب . كان هو مفتاح القلوب فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل . قال تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة * وما أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴾(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : «من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضـوا من أعضائـه من النار»(٣) .

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهماً مقرراً فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين . .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح «قانون الكفارات» وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا ؛ كالحنث فى اليمين ، والفطر فى رمضان ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك . . ومن أهم هذه الأنواع : « كفارة الإساءة ، التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه ، وفى ذلك يقول رسول الرحمة صلوات

---

(١) من الآية :/٤ من سورة محمد ﷺ
(٢) الآيات :/١١ ـ ١٣ من سورة البلد
(٣) رواه ابن ماجه والترمذى

الله وسلامه عليه : «من لطم مملوكه أو ضربه ؛ فكفارته أن يعتقه»[١] . هذا جزاء الضربة أو اللطمة ، أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن حكمه -عند أكثر الأئمة- أن يصير العبد حرا بمجرد إصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه ، وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامى الرحيم ؛ لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين نرى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ينتظرون دورهم فى أستنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟ نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحبون حياة الإنسان ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات ، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم ؛ هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين « إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[٢] صدقت يا نبى الرحمة — صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ - منع لإنشائه وابتدائه . ٢ - عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ - عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معى : أما والله لعبد فى ظل الإسلام : خير من كثير من الأحرار فى كل نظام .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متئدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

أبعد كل هذا الوصايا بالبشرية وإحاطتها بالكرامة ؛ يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء ؟ إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساوين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد . «إن أباكم واحد ، وإن ربكم واحد»[٣] ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٤] . وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب وهى فوارق الانحراف البشرى ، والظلام الإنسانى . . فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع ، وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق — فى قليل أو كثير — من طبيعة الخلق والولادة ، والمأكل والمشرب والحياة ، وأسباب المعرفة والإدراك .

---

(١) رواه ابن ماجه والبيهقى

(٢) رواه البخارى ومسلم وباقى السنة

(٣) متفق عليه ، وهو من وصايا خطبة الوداع المشهورة

(٤) من الآية : ١٣/ — من سورة الحجرات

قوله تعالى : ﴿ والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم ﴾ لما كانت هاتان الآيتان تتعلقان بالأحكام فإننا نذكر ما ورد فيهما على ألسنة العلماء الفاقهين فنقول وبالله التوفيق .

وحرم عليكم نكاح المتزوجات ؛ إلا ما ملكت الأيمان بالسبى فى حروب دينية ، تدافعون بها عن دينكم ، وأزواجهن كفار فى دار الكفر ، وقد رأيتم من المصلحة ألا تعاد السبايا إلى أزواجهن ، فحينئذ ينحل عقد زوجيتهن ويكن حلالاً لكم .

وحكمة هذا أنه لما كان الغالب فى الحروب أن يقتل بعض أزواجهن ويفر بعضهم الآخر ولا يعود إلى بلاد المسلمين ، وكان من الواجب كفالة هؤلاء السبايا بالإنفاق عليهن ومنعهن من الفسق ؛ كان من المصلحة لهن وللمجتمع أن يكون لكل واحدة منهن أو أكثر ، كافل يكفيها البحث عن الرزق ، أو بذل العرض وفى هذا ما لا يخفى من الشقاء على النساء .

والإسلام لم يفرض السبى ولم يحرمه ، لأنه قد يكون من الخير للسبايا أنفسهن فى بعض الأحوال كما إذا استأصلت الحرب جميع الرجال من قبيلة محدودة العدد فإن رأى المسلمون أن من الخير أن ترد السبايا إلى قومهن جاز لهم ذلك عملاً بقاعدة «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح» فإن كانت الحرب لمطامع الدنيا وحظوظ الملوك ، فلا يباح فيها السبى .

وقوله ﴿ من النساء ﴾ قد جىء به لإفادة التعميم ، وبيان أن المراد كل متزوجة لا العفيفات ولا المسلمات .

وقد جاء الإحصان فى القرآن لأربعة معان ؟

١ - التزوج كما فى هذه الآية .
٢ - العفة كما فى قوله ﴿ محصنين غير مسافحين ﴾ .
٣ - الحرية كما فى قوله ﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات ﴾ .
٤ - الإسلام كما فى قوله ﴿ فإذا أحصن ﴾ أى : أسلمن .

أخرج مسلم عن أبى سعيد الخدرى ، أنه قال : أصبنا سبيا يوم (أوطاس) ولهن أزواج فكرهنا أن تقع عليهن فسألنا النبى ﷺ فنزلت الآية فاستحللناهن .

وقال الحنفية إن من سبى معها زوجها لا تحل لغيره ، إذ لابد من اختلاف الدار بين الزوجين ، دار الإسلام ودار الحرب .

﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أى كتب عليكم تحريم هذه الأنواع كتابا مؤكدا ، وفرضه فرضاً ثابتا محكما ، لا هوادة فيه ، لأن مصلحتكم فيه ثابتة ، لا يدخلها شك ولا تغيير . ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أى وأحل الله لكم ما وراء ذلكم ، مما هو خارج من مدلول اللفظ وإفادته ، ولا يتناوله بنص أو دلالة فيدخل بطريق الدلالة فى الأمهات الجدات وفى البنات بنات الأولاد ، وفى الجمع بين الأختين الجمع بين المرأة

وعمتها وخالتها ، كما يؤخذ بعض المحرمات من آيات أخرى كتحريم المشركات ، والمطلقة ثلاثا على مطلقها فى سورة البقرة[1] .

﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أى أحل لكم ما وراء ذلكم لأجل أن تبتغوه وتطلبوه بأموالكم التى تدفعونها مهراً للزوجة ، أو ثمناً للأمة . محصنين أنفسكم ومانعين لها من الاستمتاع بالمحرم ، باستغناء كل منكما بالآخر ، إذ الفطرة تدعو الرجل إلى الاتصال بالأنثى والأنثى إلى الاتصال بالرجل ليزدوجا وينتجا .

فالإحصان هو هذا الاختصاص الذى يمنع النفس أن تذهبه أى مذهب ، فيتصل كل ذكر بأى امرأة ، وكل امرأة بأى رجل ، إذ لو فعلا ذلك لما كان القصد من هذا إلا المشاركة فى سفح الماء الذى تفرزه الفطرة إيثاراً للذة على المصلحة ، إذ المصلحة تدعو إلى اختصاص كل أنثى بذكر معين لتتكون بذلك الأسرة ، ويتعاون الزوجان على تربية أولادهما فإذا انتفى هذا المقصد انحصرت الداعية الفطرية فى سفح الماء وصبه وذلك هو البلاء العام الذى تصطلى بناره الأمة كلها ، فإن بعض الدول الأوربية التى كثر فيها السفاح وقل النكاح بضعف الدين ، وقف نموها وقل نسلها وضعفت حتى اضطرت إلى الاعتزاز[2] بمحالفة بعض الدول الأخرى .

﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ أى وأى امرأة من النساء اللواتى أحللن لكم تزوجتموها ، فأعطوها الأجر وهو المهر بعد أن تفرضوه فى مقابلة ذلك الاستمتاع .

وسر هذا : أن الله لما جعل للرجل على المرأة حق القيام ، وحق رياسة المنزل الذى يعيشان فيه : وحق الاستمتاع بها ، فرض لها فى مقابلة ذلك جزاء وأجراً تطيب به نفسها ويتم به العدل بينها وبين زوجها .

والخلاصة : أن أى امرأة طلبتم أن تتمتعوا وتنتفعوا بتزوجها ، فأعطوها المهر الذى تتفقون عليه عند العقد ، فريضة فرضها الله عليكم ، وذلك أن المهر يفرض ويعين فى عقد النكاح ، ويسمى ذلك إيتاءً وإعطاءً ، ويقال عقد فلان على فلانة وأمهرها ألفاً ، كما يقال فرض لها ألفاً ، ومن هذا قوله تعالى : ﴿ وقد فرضتم لهن فريضة ﴾[3] وقوله : ﴿ ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ﴾[4] فالمهر يتعين بفرضه فى العقد ويصير فى حكم المعطى ، وقد جرت العادة بأن يعطى كله أو أكثره قبل الدخول ، ولكن لا يجب كله إلا بالدخول ، فمن طلق قبله وجب عليه نصفه لا كله ، ومن لم يعط شيئا قبل الدخول وجب عليه كله بعد .

﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ أى ولا تضييق عليكم إذا تراضيتم على النقص فى المهر بعد تقديره ، أو تركه كله ، والزيادة فيه ، إذ ليس الغرض من الزوجين إلا أن يكونا فى عيشة راضية يستظلان فيها بظلال المودة والرحمة ، والهدوء والطمأنينة ، والشارع الحكيم لم يضع لكم إلا ما فيه سعادة الفرد والأمة ، ورقى الشؤون الخاصة والعامة .

---

(١) وهو قوله تعالى : « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن . . » الآية
وقوله تعالى : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره . . » الآية .
(٢) أى طلب العزة
(٣) من الآية : /٢٣٧ من سورة البقرة
(٤) من الآية : /١٣٦ من سورة البقرة

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ وقد وضع لعباده من الشرائع بحكمته ما فيه صلاحهم ما تمسكوا به ، ومن ذلك أنه فرض عليهم عقد النكاح الذى يحفظ الأموال والأنساب ، وفرض على من يريد الاستمتاع بالمرأة مهراً يكافئها به على قبولها قيامه ورياسته عليها ، ثم أذن للزوجين أن يعملا ما فيه الخير لهما بالرضا فيحطا المهر كله أو بعضه أو يزيدا عليه .

ونكاح المتعة «وهو نكاح المرأة إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر» كان مرخصاً فيه فى بدء الإسلام ، وأباحه النبى لأصحابه فى بعض الغزوات لبعدهم عن نسائهم ، فرخص فيه فى مرة أو مرتين ، خوفاً من الزنا ، فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين ، ثم نهى عنه نهياً مؤبداً ، لأن المتمتع به لا يكون مقصده الإحصان وإنما يكون مقصده المسافحة وللأحاديث المصرحة بتحريمه تحريماً مؤبداً إلى يوم القيامة ، ونهى عمر فى خلافته وإشادته بتحريمه على المنبر ، وإقرار الصحابة له .

قوله تعالى : **﴿ ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ﴾** المحصنات : هنا الحرائر خاصة بدليل مقابلتها بالإماء ، والحرية كانت عندهم داعية الإحصان ، كما كان البغاء من شأن الإماء ، ومن ثم قالت هند للنبى ﷺ على سبيل التعجب : أو تزنى الحرة ؟ وعبر عن الإيماء بالفتيات تكريماً لهن وإرشاداً لنا إلى ألا ننادى بالعبد والأمة بل بلفظ الفتى والفتاة وقد روى البخارى قوله ﷺ : «لا يقولن أحدكم عبدى ! أمتى ! ولا يقل المملوك ربى ! ليقل المالك فتاى وفتاتى ، وليقل المملوك سيدى وسيدتى فإنكم المملوكون والرب هو الله عز وجل»(١) .

والمعنى : ومن لم يستطع منكم طولاً فى الحال أو المآل نكاح المحصنات ، اللواتى أحل لكم أن تبتغوا نكاحهن بأموالكم ، وتقصدوا بنكاحهن الإحصان لهن ولأنفسهم فلينكح أمة من الإماء المؤمنات ، والطول «هو السعة المعنوية أو المادية» يختلف باختلاف الأشخاص ، فقد يعجز الرجل عن التزوج بحرة ، وهو ذو مال يقدر به على المهر ، لنفور النساء منه لعيب فى خَلْقِه أو خُلقِه ، وقد يعجز عن القيام بغير المهر من حقوق المرأة الحرة ، فإن لها حقوقاً كثيرة من النفقة والمساواة وغير ذلك ، وليس للأمة مثل هذه الحقوق .

وقد قدر الحنفية المهر بدراهم معدودة ، فقال بعضهم : ربع دينار، وقال بعضهم : عشرة دراهم .

وليس فى الكتاب ولا فى السنة ما يؤيد هذا التحديد ، فقد ورد أن النبى ﷺ قال لمن يريد الزواج «التمس ولو خاتماً من حديد»(٢) وروى أن بعض المسلمين تزوج امرأة وجعل المهر تعليمها شيئاً من القرآن .

﴿ والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ﴾ أى فأنتم أيها المؤمنون إخوة فى الإيمان ، بعضكم من بعض ، كما قال : **﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾**(٣) فلا ينبغى أن تعدوا نكاح الأمة عاراً عند الحاجة إليه .

---

(١) رواه ابن ماجه

(٢) رواه الشيخان

(٣) من الآية : ٧١/ من سورة التوبة

وفى هذا إشارة إلى أن الله قد رفع شأن الفتيات المؤمنات ، وساوى بينهن وبين الحرائر ، وهو العليم بحقيقة الإيمان ودرجة قوته ، وكماله ، فرب أمة أكمل إيماناً من حرة ، فتكون أفضل منها عند الله ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾(١) .

﴿ **فانكحوهن بإذن أهلهن** ﴾ الأهل هنا الموالى المالكون لهن ؛ أى فإذا أحببتم نكاحهن ورغبتم فيه لأن الإيمان قد رفع من قدرهن فانكحوهن بإذن مواليهن .

وقال بعض الفقهاء : المراد من الأهل من لهم عليهن ولاية التزويج ، ولو غير المالكين ، كالأب والجد والقاضى والوصى ، إذ لكل منهم تزويج أمة اليتيم .

﴿ **وآتوهن أجورهن بالمعروف** ﴾ أى وأدوا إليهن مهورهن بإذن أهلهن ، إذ أن المهر هو حق المولى لأنه بدل عن حقه فى إباحة الاستمتاع بها .

وقال مالك : المهر حق للزوجة على الزوج ، وإن كانت أمة فهو لها لا لمولاها ، وإن كان الرقيق لا يملك شيئاً لنفسه ، لأن المهر حق الزوجة تصلح به شأنها ، ويكون تطييباً لنفسها ، فى مقابلة رياسة الزوج عليها ، وسيد الأمة مخيّر بين أن يأخذه منها بحق الملك ، أو يتركه لها لتصلح به شأنها ، وهو الأفضل والأكمل ومعنى قوله ﴿ **بالمعروف** ﴾ أى بالمعروف بينكم فى حسن التعامل ومهر المثل وإذن الأهل .

﴿ **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾ أى أعطوهن أجورهن حال كونهن متزوجات منكم ، لا مستأجرات للبغاء جهراً ، وهن المسافحات ، ولا سراً وهن متخذات الأخدان والأصحاب .

وقد كان الزنا فى الجاهلية قسمين : سرى وعلنى ، فالسرى يكون خاصاً فيكون للمرأة خدن يزنى بها سراً ، ولا تبذل نفسها لكل أحد ، والعلنى يكون عاماً وهو المراد بالسفاح ؛ قاله ابن عباس :

وكان البغايا من الإماء ينصبن الرايات الحمر لتعرف منازلهن. وروى عن ابن عباس أن أهل الجاهلية كانوا يحرمون ما ظهر من الزنا ، ويقولون إنه لؤم ، ويستحلون ما خفى ويقولون : إنه لا بأس به ، وقد نزل فى تحريم هذين النوعين قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾(٢) وقصارى القول : أن الله فرض نكاح الإماء ، مثل ما فرض نكاح الحرائر ، من الإحصان والعفة لكل من الزوجين ، لكن جعل الإحصان وعدم السفاح فى نكاح الحرائر من قبل الرجال أولاً وبالذات ، فقال : ﴿ **محصنين غير مسافحين** ﴾ لأن الحرائر ولا سيما الأبكار أبعد من الرجال عن الفاحشة ، وأقل انقياداً لطاعة الشهوة ، إلى أن الرجال هم الطالبون للنساء ، والقوامون عليهن ، وجعل قيد الإحصان فى جانب الإماء ، فاشترط على من يريد أن يتزوج أمة أن يتحرى فيها أن تكون محصنة مصونة فى السر والجهر ، فقال : ﴿ **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾ وذلك أن الزنا كان غالباً فى الجاهلية على الإماء ، وكانوا يشترونهن للاكتساب ببغائهن ،

---

(١) من الآية : ١٣/ من سورة الحجرات

(٢) من الآية : ١٥١/ من سورة الأنعام

حتى أن عبد الله بن أبي كان يكره إماءه على البغاء بعد أن أسلمن ، فنزل فى ذلك ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾[1] إلى أنهن لذلهن وضعفهن وكونهن مظنة للانتقال من يد إلى أخرى لم تمرن نفوسهن على الاختصاص برجل واحد ، يرى لهن عليه من الحقوق ما تطمئن به نفوسهن فى الحياة الزوجية ، التى هى من شؤون الفطرة .

﴿ فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾ أى : أن الإماء إذا زنين بعد إحصانهن بالزواج فعليهن من العقاب نصف ما على المحصنات الكاملات ، وهن الحرائر ، إذا زنين ، وهذا العقاب ما بينه سبحانه بقوله ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾[2] فتجلد الأمة المتزوجة خمسين جلدة،وتجلد الحرة مائة جلدة ، والسر فى هذا هو كون الحرة أبعد عن داعية الفاحشة والأمة ضعيفة عن مقاومتها ، فرحم الله ضعفها ، وخفف العقاب عنها ، وقد قيدوا المحصنات هنا بكونهن أبكاراً ، لأن من تزوجت تسمى محصنة بالزواج ، وإن آمت بطلاق أو بموت زوجها وحينئذ ترجم بالحجارة إذا زنت .

وفى الصحيحين عن عمر رضى الله عنه : «أن الرجم فى كتاب الله حق على من زنا إذا أحصن من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة أو كان حمل أو اعتراف ، وأمر النبى ﷺ يرجم ماعز الأسلمى والغامدية لاعترافهما بالزنا ، لكنه أرجأ المرأة حتى وضعت وأرضعت وفطمت ولدها» رواه مسلم وأبو داود .

﴿ ذلك لمن خشى العنت منكم ﴾ أى ذاك الذى ذكر لكم من إباحة نكاح الإماء ، عند العجز عن الحرائر ، جائز لمن خشى عليه الضرر من مقاومة دواعى الفطرة ، والتزام الإحصان والعفة ، ففى كثير من الأحيان تفضى هذه المقاومة إلى أمراض عصبية وغير عصبية ، إذا طال العهد على مقاومتها كما أثبت ذلك الطب الحديث .

﴿ وأن تصبروا خير لكم ﴾ أى وصبركم عن نكاح الإماء خير لكم . من نكاحهن ، لما فى ذلك من تربية قوة الإرادة ، وتنمية ملكة العفة ، وتغليب العقل على عاطفة الهوى ، ومن عدم تعريض الولد للرق ، وخوف فساد أخلاقه ، بإرثه منها المهانة والذلة ، إذ هى بمنزلة المتاع والحيوان ، فربما ورث شيئاً من إحساسها ووجدانها وعواطفها الخسيسة .

وروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : «إذا نكح العبد الحرة فقد أعتق نصفه وإذا نكح الحر الأمة فقد أرق نصفه» ورحم الله القائل :

إذا لم تكن فى منزل المرء حرة تدبـــره ضاعت مصالح داره

(١) من الآية : ٣٣/ من سورة النور
(٢) من الآية : ٢/ من سورة النور

إن معنى الزوجية حقيقة واحدة مركبة من ذكر وأنثى ، كل منهما نصفها ، فهما شخصان فى صورة واحد ، اعتباراً بالإحساس والشعور والوجدان والمودة والرحمة ، ومن ثم ساغ أن يطلق على كل منهما لفظ (زوج) لاتحاده بالآخر ، وإن كان فرداً فى ذاته مستقلاً فى شخصه .

﴿ والله غفور رحيم ﴾ فهو غفار لمن صدرت منه الهفوات ، رحيم بعباده إذ رخص لهم فيما رخص فيه ، ببيان أحكام شريعته ، فلا يؤاخذنا بما لا نستطيعه منها .

رحمة الله بعباده

يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

المفردات : ﴿ سنن ﴾ : جمع سنة وهى الطريقة والشريعة . ﴿ ضعيفاً ﴾ : غير قادر على مخالفة نفسه وهواه .

قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ جاءت هذه الآيات كأجوبة لأسئلة من شأنها أن تدور بخلد السامع لهذه الأحكام ، فيطوف بخاطره أن يسأل ـ ما الحكمة فى هذه الأحكام ؟ وما فائدتها للعباد ؟ وهل من كان قبلنا من الأمم السالفة كلف بمثلها ؟ فلم يبح لهم أن يتزوجوا كل امرأة ؟ وهل كان ما أمرنا الله به أو نهانا عنه تشديداً علينا أو تخفيفاً عنا ؟

والمعنى : يريد الله بما شرعه لكم من الأحكام ؛ أن يبين لكم ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وأن يهديكم مناهج من تقدمكم من الأنبياء والصالحين ، لتقتفوا آثارهم وتسيروا سيرتهم ، فالشرائع والتكاليف وإن اختلفت باختلاف أحوال الاجتماع والأزمان ، كما قال : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾[1] فهى متفقة فى مراعاة المصالح العامة للبشر ، فروح الديانات جميعاً توحيد الله وعبادته ، والخضوع له على صور مختلفة ، ومآل ذلك تزكية النفس بالأعمال التى تقوم بها وتهذيب الأخلاق ، لتبعد عن سيء الأفعال والأقوال .

﴿ ويتوب عليكم ﴾ أى ويريد أن يجعلكم بالعمل بتلك الأحكام تائبين راجعين ؛ عما كان قبلها من تلك الأنكحة الضارة ، التى كان فيها انحراف عن سنن الفطرة ، إذ كنتم تنكحون ما نكح آباؤكم ،

(١) من الآية : ٤٨/ من سورة المائدة

وتقطعون أرحامكم ،ولا تلتفتون إلى المعانى السامية التى فى الزوجية ، من تقوية روابط النسب ، وتجديد قرابة الصهر ، والسعادة التى تثلج قلوب الزوجين ، والمودة والرحمة اللتين تعمر بهما نفوسهما .

﴿ والله عليم حكيم ﴾ فبعلمه المحيط بما فى الأكوان ، شرع لكم من الدين ما فيه مصلحتكم ومنفعتكم ، وبحكمته لم يكلفكم بما يشق عليكم ، وبما فيه الأذى والضرر لكم ، وبها يتقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات .

﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ أى أنه تعالى بما كلفكم من تلك الشرائع ، يريد أن يطهركم ويزكى نفوسكم فيتوب عليكم .

﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ متبعو الشهوات هم الفسقة الذين يدورون مع شهوات أنفسهم ، وينهمكون فيها ، فكأنها أمرتهم باتباعها فامتثلوا أمرها ، فلا يبالون بما قطعوا من وشائج الأرحام ، ولا بما أزالوا من أواصر القرابة ، فليس مقصدهم إلا التمتع باللذة .

أما الذين يفعلون ما يأمر به الدين فليس غرضهم إلا امتثال أوامره ، لا اتباع شهواتهم ولا الجرى وراء لذاتهم .

﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ فأباح لكم عند الضرورة نكاح الإماء ؛ قاله مجاهد وطاووس وقيل بل خفف عنكم التكاليف كلها ، ولم يجعل عليكم فى الدين من حرج فشريعتكم هى الحقيقية السمحة كما ورد فى الحديث .

﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ يستميله الهوى والشهوات ، ويستشيطه الخوف والحزن ، ولا يقدر على مقاومة الميل إلى النساء، ولا يقوى على الضيق عليه فى الاستمتاع بهن .

وقد رحم الله عباده ، فلم يحرم عليهم منهن إلا ما فى إباحته مفسدة عظيمة ، وضرر كبير ، ولا يزال الزنا ينتشر حيث يضعف وازع الدين ، ولا يزال الرجال هم المعتدين فهم يفسدون النساء ، ويغرونهن بالأموال ، ويحجر الرجل على امرأته ويحجبها ، بينما يحتال على امرأة غيره ويخرجها من خدرها ، وإنه لغر جاهل ، أفيظن أن غيره لا يحتال على امرأته ، كما احتال هو على امرأة سواه ؟

فقلما يفسق رجل إلا يكون قدوة لأهل بيته فى الفسق والفجور ، وفى الحديث:«عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم» . رواه الطبرانى من حديث جابر .

الديـن المعاملـة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ
وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ
نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

المفردات : ﴿ لا تأكلوا ﴾ : المراد لا تأخذوا وإنما عبر بذلك عن الأخذ ، لأن الأكل هو المقصود المهم . ﴿ الباطل ﴾ : ما قابل الحق ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ : لا يقتل بعضكم بعضا .
﴿ عدواناً ﴾ : العدوان التعدى على الغير مع القصد ﴿ وظلماً ﴾ : هو تجاوز الحق بالفعل .
﴿ نصليه نارا ﴾ : ندخله ونحرقه .

لما كان الإسلام مستقيماً فى كل شئونه ، معتدلاً فى جميع أموره ، عدلاً فى كل قضاياه ، لما كان ذلك ، كذلك فقد أمر بالحفاظ على الدين عقيدة وشريعة ، كما أمر بالحفاظ على النفس والعرض والعقل والمال ، ونهى عن الاعتداء على المال ، وذلك بأكله بالباطل كالربا والرشوة والغصب والسرقة ، لكن إذا كان تجارة عن تراض فذلك حلال طيب ، كذلك إذا كان هبة ، فإن النبى ﷺ قال : « تهادوا تحابوا »(١) .

كذلك إذا دفع مضاربة وهو ما يسمى « بعقد القراض » وصورته أن يكون هناك مال من أحد الطرفين ، وعمل من الآخر ، فإن هذا كله مما شرعه الله ، وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : ادفعُوا مال اليتيم مضاربة .

واعلم أنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه ، وأن ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام .

إن الإسلام أحاط المال بالصيانة والعناية والرعاية ، فقال الله تبارك وتعالى فى هذا الشأن بعد آيات الصيام ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾(٢) .

كما أحاط مال اليتامى خاصة بأسوار منيعة حصينة فقال : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾(٣) .

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى حسن الخلق (١٦) .
(٢) الآية ١٨٨ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢ من سورة النساء .

وشدد الوعيد والنكير على الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً فقال سبحانه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾[١] .

وقال ﷺ فى شأن الرشوة ، وهى أيضاً من باب الباطل : (لعن الله الراشى والمرتشى والرائش)[٢] .

ولما كان المال شقيق الروح ؛ فقد جمع الله بين حرمة المال وحرمة النفس فى هذه الآية حيث قال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ والنفس هنا تشمل اعتداء الانسان على نفسه أو على نفس غيره ، فالمؤمنون جميعاً(كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[٣] .

لذا كانت نفس الغير كنفسك أنت ، (ولا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس والثيّب الزانى والتارك لدينه المفارق للجماعة)[٤] .

واعلم أن الآدميَّ بنيان الرب ، ملعون من هدمه ، ومن أعان على قتل مسلم ولو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه : (أيس من رحمة الله) .

﴿ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جنهم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾[٥] .

والقتل أحد السبع الموبقات ، أى المهلكات ، بل إن حرمة المسلم أعظم عند الله من حرمة البيت الحرام ، أوما علمت أن امرأة دخلت النارفى هرة ! لماذا ؟ لأنها (حبستها لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض)[٦] حتى ماتت جوعاً ، أوما علمت أن رجلاً دخل الجنة ، لأنه سقى كلباً كان قد اشتد به العطش فشكر الله له صنيعه ، فغفر له ؟.

هذا هو الإسلام إذا سُئلت عنه فقل : إنه دين الرحمة ، ربه رحمن رحيم ، وكتابه يقول فيه مولانا : ﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[٧] ونبيه يقول فيه مولانا : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٨] . لذا جاء ختام الآية ﴿ إن الله كان بكم رحيماً ﴾ .

---

(١) الآية ١٠ من النساء .
(٢) أخرجه الترمذى فى الأحكام (٩) . وأبو داود فى الأقضية (٤) . وابن ماجه فى الأحكام (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٦٤ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ٢١٢ ، ٣٨٧ ، ٣٨٨) وفى (٥ : ٢٧٩) .
(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) .
(٤) أخرجه البخارى فى الديات (٦) . ومسلم فى القسامة (٢٥ ، ٢٦) . وأبو داود فى الحدود (١) . والترمذى فى الحدود (١٥) وفى الديات (١٠) . والنسائى فى القسامة (٦) وفى التحريم (٥) . وابن ماجه فى الحدود (١) . والدارمى فى الحدود (٢) وفى السير (١١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٢ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥) وفى (٤ : ١٨١) .
(٥) الآية ٩٣ من سورة النساء .
(٦) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (١٦) وفى الأنبياء (٥٤) وفى المساقاة (٩) . ومسلم فى الكسوف (٩ ، ١٠)) وفى البر (١٣٣ ، ١٣٥) . وفى التوبة (٢٥) . والنسائى فى الكسوف (١٤ ، ٢٠) . وابن ماجه فى الإقامة (١٥٢) وفى الزهد (٣٠) . والدارمى فى الرقاق (٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٥٩ ، ١٨٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٣١٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٥٠١) وفى (٣ : ٣١٨ ، ٣٣٥ ، ٣٧٤) وفى (٤ : ٣٥١) .
(٧) الآية ٥٧ من سورة يونس .
(٨) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

ثم يقرن القرآن الكريم الوعد بالوعيد لتدور حال المسلّم بين الترغيب والترهيب ، فيقف بين نور الوعد ونيران الوعيد ، راغباً فى رحمة الله ، خائفاً من عقابه ، قال تعالى : ﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴾ أى من يخالف أوامرنا فيعتدى على المال والنفس وغير ذلك مما نهى الله عنه فقد ظلم نفسه ، وسوف ندخله ناراً . ﴿ وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾(١) ، ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾(٢) ، ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئنا كم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون * أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾(٣) . ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾(٤) . ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(٥) . ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٦) .

إننى أكتب هذه السطور والجفاف يجتاح القارة الأفريقية ، والقحط يهدد بسوء المصير ، ولعل فى هذا بلاغاً لقوم عابدين ، وإنذاراً يذكر البشرية بأن للكون إلهاً خالقاً . ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ (٧) .

فاللهم إنا نسألك ونتوجه إليك أن تستر العورات ، وتؤمن الروعات ، ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ، وارحمنا فإنك بنا راحم ، ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، والطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شىء قدير ، فإننا نعلم أنه لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة ، وأن الذنوب هى التى ترفع البركة من الأرض ، وإذا أراد الله بقوم قحطاً نادى مناد من قبل الله تعالى : « يا أمعاء اتسعى يابركة ارتفعى ياعين لا تشبعى » .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

وليت البشرية تتأمل سنة الله فى خلقه : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنّاهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ (٨) .

والله تعالى لا يُقهر ولا يستطيع أحد أن يعطل إرادته ، قال تعالى : ﴿ وكان ذلك على الله يسيرا ﴾(٩)
وقال جل شأنه : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾(١٠).

(١) الآية ٦ من سورة التحريم .
(٢) الآية ٧٦ من سورة الزخرف .
(٣) الآيات ٧٧ - ٨٠ من سورة الزخرف .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٦) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٧) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة نوح .
(٨) الآية ٦ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ١٩ ، ٣٠ من سورة الأحزاب .
(١٠) الآيات ١١ - ١٥ من سورة الشمس .

المبشرات

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

المفردات :

الاجتناب : ترك الشيء جانباً . والكبائر : واحدتها كبيرة ، وهى المعصية العظيمة . والسيئات : واحدتها سيئة ، وهى الغفلة التى تسوء صاحبها عاجلاً أو آجلاً والمراد بها هنا الصغيرة . ونكفر : نغفر ونمحو . ومدخلاً كريماً : أى مكاناً كريماً وهو الجنة .

هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾(١) .

فالله تعالى ، جلت قدرته ، وعمت رحمته ، علم أن فينا ضعفا ، ففتح لنا أبواب الأمل ، إذ يقول : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴾(٢) وإذ يقول : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾(٣) وإذ يقول : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾(٤) .

والله جل جلاله بعد أن نهى عن أكل أموال الناس بالباطل وعن قتل النفس ، وهما أكبر الذنوب المتعلقة بحقوق العباد وتوعد فاعل ذلك بأشد العقوبات ، نهى عن جميع الكبائر التى يعظم ضررها وتؤذن بضعف إيمان مرتكبها ووعد من تركها بالمدخل الكريم .

قوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أى إن تتركوا جانباً كبائر ما ينهاكم الله عن ارتكابه من الذنوب والآثام نمح عنكم صغائرها ، فلا نؤاخذكم بها .

وقد اختلف فى عدد الكبائر ، فقيل : هى سبع ، لما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)(٥)، وفى رواية لهما عن أبى بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أنبئكم

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم .
(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ٣ من سورة الزمر .
(٤) الآية ٤٩ من سورة الحجر .
(٥) أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٣) وفى الحدود ، وفى الطب (٤٨) . ومسلم فى الإيمان (١٤٤) . وأبو داود فى الوصايا .

بأكبر الكبائر ؛ قلنا بلى يا رسول الله ؛ قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئاً فجلس وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[١] . وفيها أيضاً من حديث ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه ؛ قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه)[٢] .

والأحاديث الصحيحة مختلفة فى عددها ، ومجموعها يزيد على سبعة ، ومن ثم قال ابن عباس لما قال له رجل : الكبائر سبع : قال : هى إلى سبعين أقرب ، إذ لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار . ومراده أن كل ذنب يرتكب لعارض يعرض على النفس من استشاطة غضب ، أو ثورة شهوة وصاحبه متمكن من دينه يخاف الله ولا يستحل محارمه فهو من السيئات التى يكفرها الله تعالى ، إذ لولا ذلك العارض القاهر للنفس ، لم يكن ليجترحها تهاونا بالدين ؛ إذ هو بعد اجتراحه يندم ويتألم ويتوب ويرجع إلى الله تعالى ، ويعزم على عدم العودة إلى اقتراف مثله ، فهو إذ ذاك أهل لأن يتوب الله عليه ويكفر عنه .

وكل ذنب يرتكبه الإنسان مع التهاون بالأمر وعدم المبالاة بنظر الله إليه ورؤيته إياه حيث نهاه ، فهو مهما كان صغيرا فى صورته أو فى ضرره يعد كبيراً من حيث الإصرار والاستهتار ، فتطفيف الكيل والميزان ولو حبة لمن اعتاده ، والهمز واللمز (عيب الناس والطعن فى أعراضهم) لمن تعوده ، كل ذلك كبيرة ولا شك !! وكان النبى ﷺ يذكر فى كل مقام ما تطلبه الحاجة ولم يرد الحصر والتحديد .

وقال بعض العلماء : الكبيرة كل ذنب رتب عليه الشارع حداً ، أو صرح فيه بوعيد . ﴿ وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ أى وندخلكم مكاناً لكم فيه الكرامة عند ربكم ، وهى الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار . والعرب تقول : أرض كريمة وأرض مكرمة أى طيبة جيدة النبات . قال تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم ﴾[٣] .

يقول الشيخ « محمد المدنى رحمه الله تعالى » تحت عنوان « الآيات المبشرة » ما نصه : قديماً تصور أحد الفلاسفة ما سماه « المدينة الفاضلة » أو « المجتمع المثالى » وفهم بعض الذين انساقوا مع الخيال أن تلك المدينة ، وهذا المجتمع هما أمل الإنسان الذى يصبو إليه ، وأن الحياة البشرية على هذا الكوكب ربما وصلت إلى تحقيقه يوماً ما ، فيصبح الناس ولا أخطاء ولا ذنوب ولا جرائم ولا عقوبات ولا حدود ؛ لأن كل فرد يعمل ما يجب عليه دون موجب إلا من ضميره ، وينتهى عما ليس من شأنه وعما يضر غيره أو يفسد شأنا من شئون الحياة ، ولا وازع له إلا من نفسه ، وحينئذ تكون الحياة متعة صافية خالية من كل ما يكدرها ، أو يجعل الناس على حبهم إياها يألمون منها ، ويود بعضهم لو استطاع التخلى عنها .

والحقيقة أن هذا خيال فيه تسلية للنفوس ، وأمل حلو قد يراود بعض الناس ، فيستريحون إليه من لأواء الحياة حيناً ، كما يستريح المرء عادة إلى الآمال التى لا تكون ، فشأن الإنسان وطبيعة تكوينه أنه إنسان ،

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٤٣) . والترمذى فى الشهادات (٣) وفى تفسير (سورة ٤ : ٥) والإمام أحمد فى (٥ : ٣٧) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ١٦٤ ، ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢١٦) . ومسلم فى الإيمان (١٤٥) . والترمذى فى البر (٤) .
(٣) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الشعراء .

ركبت فيه عوامل الإساءة والإحسان ، والخطأ والصواب ، والشر والخير ، والفساد والصلاح ، وهكذا من المتقابلات والأضداد ، ولولا ذلك ما صلح للحياة على الأرض ولا استحق أن يكون هو الخليفة فيها ، المخلوق لعمارتها بإذن الله ، دون غيره من الملائكة ﴿ الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ ، ودون الجان الذين خلقوا من مارج من نار ، ليمثلوا قوى العصيان والشر والتمرد .

إن الإسلام قد صور الإنسان على هذه الطبيعة الجامعة بين الصلاح والفساد ، فيما جاء به القرآن من قصة آدم حين أراد الله أن يخلقه ، وأن يجعله خليفة فى الأرض من دون الملائكة ، فتساءل هؤلاء قائلين : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾(١) .

فقولهم : ﴿ من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ معناه من يقع منه ذلك أحيانا ، وفى ذلك دلالة على أن أمر هذا الإنسان وطبيعة تكوينه ووظائف جسمه وأعضائه كانت منبئة بحاله ، مفصحة عما سيكون من أمره فى عمل الشر والفساد أحيانا . أما الخلق الآخر – الذين هم الملائكة – فإن طبيعة خلقهم ووظائفهم التى هيئوا لها ، تجعلهم على حالة لا يقع معها الخطأ ولا يقترف معها الاثم ولا العصيان والتمرد ، وإذن فبمقتضى علمهم وتفكيرهم قالوا إنهم أصلح لعمارة الأرض والخلافة فيها ، ولكن الله تعالى رد عليهم بأنه يعلم ما لا يعلمون وأجرى أمامهم من مقدرات هذا المخلوق وإمكانياته ما دلهم على أنه أليق منهم بعمارة الأرض على حاله التى خلق عليها ومع ما وصفوهُ به من أنه يأتى الفساد ويسفك الدماء ، ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال ياآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾(٢) .

فتعليم آدم الأسماء كلها . هو عبارة عما ركب فيه من غرائز وقوى يستطيع بها أن يعرف الخواص ، ويفحص الأشياء ويتتبع بالتجارب دخائلها ومنافعها وما فيها من قوى ظاهرة وباطنة ، فالإنسان بطبيعته طلق ؛ ولذلك نرى الطفل إذا أمسك بيده لعبة أو شيئا من الأشياء يقلبه ويديره ويتأمله ويحاول أن يحطمه ، ليعلم ما فيه أو ما ينتهى إليه ، ولا يستريح حتى يصل فى ذلك إلى حد يرضى شهوته الطبيعية فى التطلع والتعرف ، وبذلك كان الإنسان مخترعاً مبتدعا ، وكان خراجا ولّاجا طموحاً مجازفا فى سبيل إرضاء نفسه التواقة إلى الاستطلاع والكشف والمعرفة .

وما كان تعبير ابن عباس وغيره فى هذا المقام – بأن الله علم آدم الأسماء لكل شىء – حتى القصعة وحتى كذا وكذا والخ – إلا تمثيلا على ما يتصورون ، وإلا تقريبا لما خلق عليه الإنسان من إمكانه تصور الأشياء وتمثلها تمثل من يعرفها بأسمائها وأعلام أشخاصها .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات ٣١ – ٣٣ من سورة البقرة .

وقد اختلف الناس قديما وحديثا فى أن هذه الآيات تصور واقعاً قد كان حسًّا بين الله والملائكة ، أو تصور حقيقة الأمر ، ومعناه فى صورة أخذ ورد على النحو القولى ، وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك ، فإن الذى يهمنا هو أن القرآن الذى هو كتاب الإسلام ، يصور الإنسان من أول عهده بالأرض على صورته التى تؤذن بأنه مخلوق يصيب ويخطئ ويصلح ويفسد ، وبأن خلقه على هذه الطبيعة مقصود وملائم لوظيفته التى ندب لها وأوثر بها على غيره ، وأن هذا كله إنما وقع من الله تعالى بمقتضى علمه وحكمته وتمام مشيئته .

وهذا التصوير القرآنى لمبدأ الخلق ، ولطبيعة الإنسان الأول هو جزء من بيان الحقيقة الكونية الكبرى ، وهناك أجزاء أخرى فى بيان هذه الحقيقة منها ما ورد فى سورة (الحجر) : وفيه تصوير جانب العداوة بين الإنسان والشيطان ، وأن هذا الأخير يتوعد غريمه الأبدى فيقول : ﴿ قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علىّ مستقيم * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[1] .

وقد جاء هذا الحوار على الأسلوب نفسه الذى جاء عليه الحوار فى سورة البقرة وفسر بالتفسيرين السابقين ، والذى يعنينا من ذلك هو أن هناك بمقتضى الخلق ومشيئة الله تعالى الصادرة عن الحكمة والعلم ، عوامل إغواء بجانب هذا المخلوق المعهود إليهم بالخلافة فى الأرض ، وقد جاء مثل ذلك فى سورة الإسراء حيث يقول الله عز وجل : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا * قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلا * قال اذهب فمن تبعك منهم فإنَّ جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾[2] .

وقد عرضت سورة النساء نفسها إلى هذا الشأن حين تحدثت عن بعض الصور التى كانت تمثل ضلال المشركين ، وذلك حيث تقول : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبينا * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾[3] .

والغرض من هذا هو أن نعرف أن هذا الإنسان مخلوق على طبيعة تجعله مستعداً للخير والشر جميعاً . وأنه محاط بعوامل الإغراء والإغواء من الشيطان الذى يمثل قوة الشر والإفساد ، وقد أبقاه الله وخلده إلى يوم القيامة قائماً بهذا الدور مع التحذير منه . وتحصين الإنسان من دعوته بالهداية والإرشاد .

---

(١) الآيات ٣٩ - ٤٢ سورة الحجر .

(٢) الآيات ٦١ - ٦٥ سورة الإسراء .

(٣) الآيات ١١٧ - ١٢١ من سورة النساء .

وأن هذا الخلق على هذا النحو وعلى إحاطته بتلك العوامل هو ما أراده الله عن علم وحكمة ، لأنه هو المناسب لقدرات الخلافة والمستخلف وما استخلف عليه .

وليس من سبيلنا أن نتوسع فى البحث لنصل إلى بيان تلك المناسبة ، أو بعبارة أخرى إلى بيان كيف يناسب الأرض وعمارتها وإقامة الحياة ووجوه النشاط فيها ، أن يكون ساكنها والخليفة فيها على هذا الطراز الجامع بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، ليس من سبيلنا أن نتوسع فى بيان ذلك ، وإنما نريد أن نصل إلى أن الإسلام كما ينطق كتابه ــ يعرف وضع الإنسان حق المعرفة ، ولا يكلف الناس أن ينسوا هذا الوضع الطبيعى ، وأنه لذلك يسلك معاملته ، والتشريع له ، وتنظيم مجتمعه ، ما يتفق وهذه الحقيقة الواقعية من السبل .

فالإسلام لا يفرض أن الإنسان يمكن أن يكون مجتمعاً ملائكياً لا تقع فيه معصية ما ، ولا مجتمعاً مبرأ من كل عيب أو إثم ، فلا يقع فيه إلا الخير والصلاح والاستقامة وأداء الحقوق ونحو ذلك ، ولكنه فرض المجتمع الإنسانى مجتمعاً إنسانياً فعامل الفريقين على أنه قد يخطىء وقد يميل على الصراط المستقيم وقد يأتى الشر ، ويقع فى الفساد ، ولم يضق بهذا ، ولم ينظر إليه على أنه أمر يثير اليأس ، ويبعث على القنوط والإياس ، وإنما نظر إليه فى كثير من السماحة والرفق والإيناس والتبشير ، والمعالجة التى تعتمد الاعتراف بحقوق الفطرة ، وتتقبل المعذرة عما لا يمكن أن يجتنب دائماً بحكم الطبيعة .

رسالة الإسلام فى المجتمع رسالة رحمة وتيسير وتبشير :

لهذا كله كانت رسالة الإسلام فى بناء المجتمع رسالة رحمة وتبشير وتخفيف وتيسير ، لارسالة قسوة ولا تيئيس ولا تشديد ولا تحجير ولا تزمت ونستطيع أن نجد ذلك فى آيات من سورة النساء تصور أهداف التشريع الإسلامى للمجتمع تصويراً واضحاً رائعاً ، وهى قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ۞ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ۞ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[1] .

وكأنى بهذه الآيات الثلاث تصور لنا دعوة إلهية توجه إلى الناس ، يقول الله فيها : ياعبادى : إنما أريد مما أشرعه لكم من الأحكام ، ومما أوجهكم إليه من المبادىء والمثل والإرشاد ، أن أبين لكم ، فإن رحمتى تأبى أن أكلكم إلى مجرد تفكيركم ، فإن الإنسان قد يلتوى به التفكير ، وقد يرى حسنا ما ليس بالحسن ، وقبيحاً ما ليس بالقبيح ، وللعقول خداعها كما للحواس خداعها ، وللنفوس شهواتها ، وإملاءتها دون أن يشعر أصحابها فى كثير من الأحيان أنهم متأثرون بهوى ، أو نازعون عن شهوة ، فأنا أريد معاونتكم بالبيان والتوجيه لآخذ بأيديكم إلى الطريق القويم ، والحق المبين .

ياعبادى : إن رحمتى تأبى تركهم وتخلى بينكم وبين المرور لعصور من التجارب واستكشاف ما مر به الذين من قبلكم من سنن الحياة ، فأنا أقربها لكم ، وأهديكم إليها . وأوفر عليكم أحقاباً طوالاً ، تعقبونها

---

(١) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة النساء .

فى تتبعها ودراستها ، وإعادة تجربتها ، فخذوها منى مصفاة مهيأة فى صور تشريع وتنظيم وإرشاد وتوجيه .

ياعبادى : إنما أريد أن أتوب عليكم وأطهركم من كل ما عسى أن يدنسكم ، أو يلوث أعمالكم ، وأنا أعلم أنكم مخلوقون على وضع يجعلكم تذنبون أحياناً ، وتخطئون أحياناً ، ومن رحمتى وحكمتى أن أطهركم من الذنوب ، ولا أترككم تسترسلون فيها ، وتغوصون فى حمأتها وأن أفتح لكم باب التخلص من الأخطاء ، والتنقى من الأدناس والأرجاس ، فأريد أن أتوب عليكم ، أى أرجع لكم بالتطهير والتنقية والتنظيف ، بما أشرعه لكم من الشريعة ، فتطهروا بذلك أطهركم ، وتوبوا أتب عليكم .

ياعبادى : إن لى دعوة ولأعدائكم دعوة :

إن دعوتى هى تطهيركم ، وإفساح المجال أمامكم لتعودوا إلىّ ، فأعود إليكم . وذلك لا يكون إلا بأن تتوجهوا إلىَّ ، وأن تأخذوا عنى ، وأن تقبلوا منى ، وأن تسمعوا إلى ندائى وتوجيهى :

وأن هناك دعوة أخرى تصدر عن إرادة أخرى هى إرادة عدوكم ، الذين يتبعون الشهوات ويؤثرونها تلبية لدعوة الشيطان المتربص بكم الذى آل على نفسه ليغوينكم ، إن هذه الدعوة تقابل دائماً فى كل مجتمع دعوتى ــ أنا ربكم ــ فما من مجتمع إلا وفيه صوتان يناديان :

صوت الفضيلة والحق ، وصوت الرذيلة والباطل ، صوت الإصلاح والخير وصوت الإفساد والشرح ، صوت التماسك والاعتصام ، وصوت الانهيار والانحلال ، فأنا ربكم ، ومصدر كل خير ، وكل دعوة إلى الحق والصلاح ، فإلىَّ إلىّ ــ وهؤلاء أعداءكم ، ومصدر كل دعوة إلى الباطل والفساد ، فعنهم عنهم .

ياعبادى : إننى أنا ربكم ، أريد لكم التوبة والتطهر ، ولا تكون التوبة والتطهر إلاّ من ذنب ومن خطأ تقعون فيه ، وأنا لم أرفض أنكم ملائكة أبرار لا تعصون ولا تذنبون ، فأنا الذى خلقتكم ، وأنا الذى ركبت فيكم طبائعكم ، فإذا أذنبتم أو أخطأتم فذلك هو الشأن فيكم ، وكل ما أريده منكم هو أن تعودوا إلىّ ، وأن تستغفرونى ، وتتوبوا ، وعندئذ أقبلكم مرحباً بكم ، ولا أترككم تستمرئون العصيان وتغوصون فى أعماق الرذيلة والكبيرة أما أعدائى وأعداؤكم فيريدون لكم بدعوة التحلل والتفريط أن تميلوا ميلاً عظيماً ، فإذا ملتم هذا الميل العظيم فسد مجتمعكم ، واضطرب ، وعمتكم الفتن ، وخالطتكم عوامل الشقاء ، وتغلغلت فيكم مظاهر السوء ، فتحق عليكم كلمتى وسنتى فى الأمم :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[1] .

ياعبادى : إنكم ضعفاء ، خلقتكم محاطين بالشهوات والرغبات والحاجات ، وطبعتكم على طابع التلبية لهذه الملكات البشرية . الحيوانية ، ولذلك لم أشرع لكم من الأحكام ما يتنافى وتلك الطبيعة التى خلقتها بيدى ، وسويتها ونفخت فيها من روحى ، لحكمة أعلمها ، ومصلحة أقدرها ، وما أريد بتشريعى

---

(١) الآية ١٦ من سورة الإسراء .

إلا تنظيم هذه الطبيعة والاشراف على إعطائها حظوظها فى نسق منظم يعينها ولا يصادرها ، ويهذبها ولا يحرمها ، ويجذبها دائماً إلى الوسط ، فلا تفريط ولا إفراط ، تلك هى دعوة الله : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

حق الإنسان فى أن يخطئ وفى أن يعفى عن خطئه :

يتجلى مما ذكرناه فى هذا التمهيد أن القرآن يريد للمجتمع أن يكون متمسكاً بأهداب الأمل دائماً ، لا ييئس من روح الله ، ولا يشعر أفراده بأنهم مكبلون ، مترصدة عليهم الهفوات ، محاسبون على الصغيرة والكبيرة حساباً عسيرا فيه كثير من القسوة ، وكثير من الصرامة ، كما يتجلى مما ذكرناه أن القرآن يريد المجتمع فى الوقت نفسه متماسكاً غير متحلل ، ولا منساقاً مع الغرائز دون أن يعدلها ، ولا مع الدعوات المنحرفة دون أن يقاومها ، ولذلك نجد دعوة القرآن دائماً فى سورة النساء وفى غيرها دعوة وسطاً ، فلا هى بالدعوة التى تعتمد التخويف إلى درجة التيئيس والإقناط اللذين يفضيان بالمرء إلى الإبلاس والتحير والبلبلة ، ولا هى بالدعوة التى تطلق للإنسان عنان شهواته وآماله ورغباته إلى حد الانبعاث والاندفاع اللذين يفضيان به إلى الارتطام والتردى والعجز عن مكابدة ما لابد منه من الصواب .

فالإنسان فى نظر الإسلام مخلوق له قيمته وله كرامته ، وله حق الاعتراف بميله ، وحق الاعتراف بغرائزه ، وحق الصفح عن أخطائه والتقبل منه ، ولكنه مع هذا ليس بالمدلل المرفه والمتروك سدى ، وإنما هو مسئول مخاطب ، مكلف فى حدود ما يطيق وما يتلاءم مع طبيعته ومكوناته الخَلقية والخُلقية .

وسورة النساء تأخذ قسطاً عظيماً من تركيز المجتمع على هذين المبدأين ، وهنا نبين قسط سورة النساء من ناحية التبشير وبث روح الأمل فى المجتمع ، والقضاء على عوامل القنوط والخوف المفسدين .

الآيات المبشرات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت :

نجد فى كتب التفسير روايات متعددة تشير إلى اشتمال سورة النساء على آيات مبشرات ، من شأنها أن تملأ قلوب الناس . بمحبة الله ، وأن تحيى فيهم الآمال ، وأن تنفى عنهم عوامل اليأس والانقطاع عن الله .

فمن ذلك ما روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : أن فى سورة النساء خمس آيات ما يسرنى أن لى بها الدنيا ومافيها :

١ ــ ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ (٤٠)

٢ ــ ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾(٣١)

٣ ــ ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ (٤٨/٧٦)

٤ ــ ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ (٦٤) .

٥ ــ ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ (١١٠)

---

(١) الآية ٢٥ من سورة يونس .

وفى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : ثمان آيات نزلت فى سورة النساء خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس أو غربت أو لهن :

﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ .

والثانية : ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴾ .

والثالثة : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ ثم ذكر قول ابن مسعود سواءً فى الخمس الباقية .

دراسة للآيات المبشرات :

وقد قدمنا ما نكتفى به من الحديث عن الآيات الثلاث الأولى التى جاءت بها رواية ابن عباس ، أما الخمس الباقية التى جاءت بها رواية ابن مسعود فنتكلم عنها هنا حسب ترتيب السورة .

الآية الأولى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ .

إن الصلاح والفساد مرتبطان بالأعمال والنوايا ، وما لأفراد المجتمع من اتجاهات ، فإذا استقام أفراد المجتمع وعملوا الصالحات ، وكفوا عن السيئات ، كانت لهم نوايا واتجاهات طيبة ، استقام المجتمع على الطريقة وكان مجتمعاً صالحاً راشداً سعيداً والعكس بالعكس :

فإذا كان المجتمع يغلب على أفراده عمل السيئات ، وفساد النيات والاتجاهات ، وعدم الرغبة فى الأعمال الصالحة ، فإن هذا المجتمع لابد أن يضطرب ولابد أن يصبح العيش فيه ضنكاً وشقاء ، وأن يكون من المجتمعات الفاسدة التى لا يستطيع الفرد الوسط أن يطمئن إليها ، أو ينال القرار والرضا النفسى فيها .

اجتناب الكبائر يكفر عن الصغائر ويدخل الناس مدخلاً كريماً :

غير أن هذا الارتباط بين الحالة الخلقية والعملية والنفسية للأفرادوبين سعادة المجتمع وشقائه لا يمكن أن يتجاهل معه ما لابد منه من الأخطاء الجزئية أو المؤقتة أو الصغيرة ، أو ما يعبر عنه بالهفوات ، فلا يمكن أن نتصور مجتمعاً خالياً من الهفوات ومن الهنات الهينات .

ولا يمكن أن يكون أفراد المجتمع كلهم على الطريقة المثلى فى كل شىء ، لذلك لم يكن هدف القرآن الكريم أن يقيم مجتمعاً لا يخطىء أفراده ، ولم يكن من شروط التقوى فى المؤمن ألا يقع منه الذنب أصلاً . ولو كان الأمر كذلك لما كان المجتمع صورة ممكنة واقعية متمشية مع طبيعة الخلق وغرائز البشر ، وإنما يرمى القرآن إلى تخفيف ذلك ، ووضع الضوابط والقيود التى تهذب من هذه الغرائز ، وتحول بينها وبين الاندفاع الثائر المشطط المؤذى ، وهو فى سبيل ذلك ينظر إلى الصغائر والهفوات نظرة فيها كثير من التسامح والرحمة والعطف على الإنسان الذى خلق ضعيفاً ، والذى هو محل لتأثيرات داخلية ــ نفسية وهى الشهوات والمطامع ــ وخارجية شيطانية ــ ومنها المغريات الحسية أو الأدبية ــ .

ولذلك يعلن فى صراحة ووضوح أن يغفر الصغائر لمن انتهى عن الكبائر ، بل لا يقف عند هذا

الحد ، ولكنه يعد بجزاء إيجابى لمن ترك الكبائر ، أى تعفف عن مواقف الإثم الكبرى ، وذلك أن يدخله مدخلاً كريماً ، وليس فى الكلام ما يدل على أن هذا المدخل الكريم هو الآخرة فحسب حيث الجنة وما أعده الله للصالحين من نعيم ، ولكن الوعد صالح لأن يراد به أيضاً المدخل الكريم فى الدنيا ، حيث النجاح فى الحياة وأن يتبوأ الفرد فيها منزلة كريمة ومركزاً محترماً .

عمر بن الخطاب وجماعة من المصريين المتزمتين :

وقد أدرك ذلك عمر بن الخطاب على ما كان يعرف عنه من الشدة والحفاظ والتمسك ، فقد روى أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر فقالوا : نرى أشياءَ من كتاب الله عز وجل أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك ، فقدم وقدموا معه ، فلقى عمر رضى الله عنه فقال له عمر : متى قدمت ؟

فقال : منذ كذا . . كذا . . !

قال : أبإذن قدمت ؟ . . .

فقال : يا أمير المؤمنين إن ناساً لقونى بمصر فقالوا : إنا نرى أشياء فى كتاب الله أمر أن يعمل بها فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك .

قال : فاجمعهم لى . قال : فجمعتهم له فأخذ أدناهم رجلاً فقال : أنشدك بالله وبحق الإسلام عليك أقرأت القرآن كله ؟ قال : نعم .

قال : فهل أحصيته فى نفسك ؟ فقال : اللهم لا .

قال : فهل أحصيته فى بصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك ؟ فهل أحصيته فى أثرك ؟ ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم فقال : ثكلت عمر أمه : أتكلفون الناس على كتاب الله ، قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات ؟ وتلا : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ ثم قال : هل علم أهل المدينة أو قال : هل علم أحد بما قدمتم ؟ قالوا : لا : قال : لو علموا لوعظت بكم . ـ أى لعاقبتكم على هذا التزمت والتشدد ـ عقوبة تكون عظة لغيركم .

وهذا إنصاف عظيم من الإسلام . وحكمة ولباقة فى السياسة والتوجيه ، أما أنه إنصاف فذلك لما فيه من ملاحظة الطبائع والفطر والمؤثرات التى لا ينفك عنها إنسان ولا مجتمع مؤلف من أفراد الإنسان .

وأما أنه حكمة ولباقة فى السياسة والتوجيه فذلك لأنه يرمى إلى عدم فصل الألفة التى تربط الإنسان بالدين وقيادته وتأثيره ، فالله تعالى يقول بهذا لعباده إذا كنتم أخطأتم باقتراف بعض الصغائر فلا تيئسوا ولا تقنطوا ، فإن ترككم للكبائر هو فى ذاته عمل صالح من شأنه أن يطهر مجتمعكم ، وأن يدرأ عنكم كثيراً من ألوان الفساد ، بل من شأنه أن يجعلكم صالحين لأن تتلقوا فضل الله وتكريمه بإدخالكم فى الدنيا والآخرة مدخلاً كريماً ، ولا شك أن هذا يبعث فى الأفراد وفى المجتمع لوناً من الطمأنينة والاستبشار ، ويحول بين النفوس وما قد يعتريها من القنوط والهم والحزن وغير ذلك مما يفضى إلى الاسترسال فى فعل السيئات ،

وارتكاب الموبقات وفيه من ناحية أخرى : تقوية الإنسان على محاربة الرذيلة فى أقوى صروحها ، حيث تتوافر على هذه الحرب كرائم الجهود وتتجه إلى ميادينها العزمات فى قوتها . دون أن تشعر بأنها إذا خسرت المعركة فى ميدان الصغائر ، قد خسرت كل شىء فلا تستطيع أن تنهض من بعد .

إن القائد الحكيم لا يجزع ، ولا يترك لجنوده أن يجزعوه ، لأنهم خسروا معركة جزئية ، بل يوجههم إلى كسب المعارك الكبرى ، ولا يدع روح الهزيمة تتمكن من قلوبهم ، فيشغلهم ويضعفهم :

فهى إذن سياسة حكيمة ، وطريقة لبقة يسلكها المشرع الإسلامى على بصيره . ويدرك علماء التربية مالها من تأثير إصلاحى نفسى وعملى ، ومالها من إيحاء بترك عظائم الذنوب التى من شأنها إفساد النفوس ، وإفساد البيئات والمجتمعات .

ما هى الكبائر :

والكبائر التى أشير إليها فى هذه الآية قد مر كثير منها فيما تقدم قبل ذلك من سورة النساء ، فأكل أموال اليتامى من الكبائر ، وتعدد الزوجات مع عدم العدل بينهن من الكبائر ، والتفريط فى شئون الضعفاء والمحجور عليهم من الكبائر ، وتغيير ما فرضه الله فى المواريث من الكبائر ، وارتكاب الفاحشة بين الرجال أو بين النساء من الكبائر ، والإصرار على الذنوب وعدم التوبة منها من الكبائر ، وإساءة الرجال إلى النساء أو النساء إلى الرجال فى العشرة من الكبائر ، وظلم أحد الجنسين للآخر واهتضام حقه من الكبائر ، وتعدى حدود الله فى المحرمات من النسب أو من الرضاع أو من غيرهما من الكبائر . . . هكذا .

ولذلك جاءت هذه الآية الكريمة : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه ﴾ بعد ثلاثين آية من سورة النساء ذكر فيها حكم الله تعالى فى كثير من المسائل التى تتصل اتصالا وثيقاً بصلاح المجتمع ، ودرء المفاسد والموبقات العملية عنه .

ولهذا ورد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها . ثم تلا : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾

والواقع أن الكبائر لا تقف عندما ذكر فى هذه السورة قبل هذه الآية ، وأن ابن مسعود لا يقصد هذا ، وإنما يقول ابن مسعود ما يقول بيانا ، لأن هذه الآية جاءت فى ترتيب السورة بعد ذكر جملة من الكبائر مجىء القاعدة العامة التى تطبق على جزئيات كثيرة ، منها هذه الجزئيات التى مرت فى آيات السورة .

قد ورد فى بيان الكبائر كثير من الروايات ونذكر منها ــ بحسب ما يؤخذ من الروايات : الإشراك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ظلماً ، والفرار من الزحف ، ورمى المحصنات ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، والزنا ، وشرب الخمر ، واليمين الغموس ــ وهى التى يحلفها صاحبها عالما بكذبه ــ وأن يعرض الإنسان أبويه للعن بلعنه الناس ــ قال ﷺ : (من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه) ، قالوا : وكيف يلعن الرجل والديه ، قال : (يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه) .

ومن الكبائر الخوض فى أعراض المسلمين والسبتان بالسبة ـ أى إذا سب رجل آخر سبة فردها إليه سبتين .

ومن الكبائر : اليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، وسوء الظن بالله ، وتفضيل بعض الأولاد على بعض فى الوصية ، والوصية التى يقصد بها العذر ، والغلول ـ وهو الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها ـ وفى حكمه أكل أموال الأمة ظلماً ـ وغير ذلك .

والقاعدة أن كل ذنب من شأنه أن يترتب عليه فساد كبير ، أو أن يخرج بالمؤمن إلى دائر الفسق والفجور أو الظلم والطغيان أو الجحود بنعمة الله تعالى ، فهو كبيرة من الكبائر التى يجب على المؤمن أن يكون قوياً فى مقاومتها والتحفظ منها .

تنبيه :

ولا ينبغى أن يفهم من هذا أن الصغائر لا تقاوم ولا يعتد بها ، كأنها مباحات ، فإن الذنب ذنب ، والإصرار على الصغائر ربما كان من الكبائر أصلا ، وربما جر إليها فعلاً ، وغاية ما نريده من هذا الفصل هو أن نبين ما فى الإسلام من سماحة ، وما للقرآن من تبشير وتيسير وإدراك لطبيعة البشر ، وتوجيه إلى عدم اليأس والإبلاس ، وأن هذا من شأنه أن يجعل الإنسان قريب الرجوع إلى ربه ، سريع الإقلاع عن ذنبه ، وأن يحول بينه وبين أن يفقد ثقته بنفسه .

اسألوا الله من فضله

وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

المفردات : ﴿ التمنى ﴾ : تشتهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون وما لا يكون .
﴿ من فضله ﴾ : أى إحسانه ونعمه المتكاثرة .

جاء فى سبب نزول هذه الآية أن أم سلمة قالت : يارسول الله يغزو الرجال ولا نغزو ،ولنا نصف الميراث ، فأنزل الله : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾[1]

وفى رواية أخرى ، قالت أم سلمة : يارسول الله لا نقاتل فنستشهد ، ولا نقطع الميراث ، فنزلت الآية ، ثم أنزل الله : ﴿ أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ﴾[2] .

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ٨) .
(٢) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .

وفى هذه الآية :﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ توجيه ربانى ، وإرشاد إلهى إلى التأدب مع الله تبارك وتعالى . فقد اقتضت المشيئة الإلهية والحكمة الربانية أن يكون لكل إنسان ما قسم الله له ، فلا ينبغى أن يتمنى ويشتهى ما فضل الله به غيره عليه . فالله جلَّ شأنه جعل لكل من الفريقين نصيبا من اكتسابه ، سواء أكان ذلك النصيب فى الدنيا أم فى الآخرة .

فقد خص الله الرجال بما يناسب حالهم خلْقا وخُلُقا وعقلا وجسما ، وخص النساء بمثل ذلك مما يناسب أحوالهن . فالرجل أقوى من المرأة عقلا وخَلقا ، ليناسب ذلك الكدَّ الدءوب سعيا وراء تحصيل الرزق والمشى فى مناكب الأرض ، كما أن المرأة أقوى من الرجل حناناً وعاطفة ، ليناسب ذلك أمومتها ورعايتها للطفولة وتربية الأبناء ، والكل مأجور على عمله ، فالبر لا يبلى والذنب لا يُنسى ، والديَّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تُدان . ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾(١) . وفضل الله واسع لا يضيق ولا حجر عليه .

قال تعالى : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ قال رسول الله ﷺ : (سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج)(٢) .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان بكل شىء عليما ﴾ أى عليما بمصالح العباد ، فالمؤمن الحق هو الذى يرضى بما قسم الله ، فإن ما قد يراه شراً قد يكون الخير كامنا فيه ، وما قد يراه خيرا ، قد يكون الشر كامنا فيه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون(٣) ﴾

إيتاء كل ذى حق حقه

وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ الموالى ﴾ : من يحق لهم الاستيلاء على التركة ﴿ مما ترك ﴾ : أى وارثين مما ترك [والذين عقدت أيمانكم ﴾ : هم الأزواج ، فإن كلا من الزوجين له حق الإرث بالعقد ، والمتعارف عند الناس فى العقد أن يكون بالمصافحة باليدين .

بعدما نهى الله تعالى عن أكل الأموال بالباطل ، وقتل النفس ، وتمنِّى بعض الناس ما فضَّل الله به البعض الآخر ، بعد ذلك كله بين الله جل شأنه ، إن لكل من الرجال الذين لهم نصيب مما اكتسبوا ومن النساء اللواتى لهن نصيب مما اكتسبن ، موالى لهم حق الولاية على ما يتركون من كسبهم .

(١) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .
(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات (١١٥) .
(٣) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

ثم بين هؤلاء الموالى فقال سبحانه : ﴿ **الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم** ﴾ أى إن هؤلاء الموالى هم جميع الورثة من الأصول والفروع والحواشى والأزواج .

﴿ **فآتوهم نصيبهم** ﴾ أى فاعطوا هؤلاء الموالى نصيبهم المقدر لهم ، ولا تنقصوهم منه شيئا .

﴿ **إن الله كان على كل شىء شهيداً** ﴾ أى أن الله رقيب شاهد على تصرفاتكم فى التركة وغيرها ، فلا يطمعن من بيده المال أن يأكل من نصيب أحد الورثة شيئاً ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، كبيراً أم صغيراً ، وجاءت هذه الآية لمنع طمع بعض الوارثين فى بعض .

إصلاح الحياة الزوجية

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّـٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

المفردات : يقال هذا قيِّم المرأة وقوَّامها ، إذا كان يقوم بأمرها ويهتم بحفظها : وما به الفضل قسمان : فِطرِىّ ، وهو قوة مزاج الرجل وكماله فى الخلقة ، ويتبع ذلك قوة العقل وصحة النظر فى مبادىء الأمور وغاياتها ، وكسبى وهو قدرته على الكسب والتصرف فى الأمور ، ومن ثم كلف الرجال بالإنفاق على النساء ، والقيام برياسة المنزل . **والقنوت** : السكون والطاعة لله وللأزواج . **والحافظات للغيب** : أى اللاتى يحفظن ما يغيب عن الناس ، ولا يقال إلا فى الخلوة بالمرأة .

وتخافون أى تظنون . **ونشزت الأرض**: ارتفعت عما حواليها ، ويراد بها هنا معصية الزوج والترفع عليه . **والبغى** : الظلم وتجاوز الحد **والشقاق** : الخلاف الذى يجعل كلا من المختلفين من شق أى جانب ، وخوفه توقع حصوله بظهور أسبابه ، **والحكم** من له حق الحكم والفصل بين الخصمين . **وبعث الحكمين** : إرسالهما إلى الزوجين ، لينظرا فى شكوى كل منهما ، ويتعرفا ما يرجى أن يصلح بينهما .

جاء فى سبب نزول هذه الآية : « أن سعد بن الربيع ــ وكان من النقباء ــ نشزت عليه امرأته حبيبة بنت زيد بن أبى زهير ، فلطمها ، فانطلق أبوها معها إلى النبى ﷺ فقال : أفرشته كريمتى فلطمها ، فقال النبى ﷺ

« لتقتص من زوجها ، فانصرفت مع أبيها لتقتص منه ، فقال النبى ﷺ : ارجعوا ، هذا جبريل أتانى وأنزل الله هذه الآية فتلاها ﷺ وقال : أردنا أمرا وأراد الله أمرا ، والذى أراده الله خير » .

وقد جاء فى تفسير هاتين الآيتين أحكام قيمة ومواقف عظيمة ، شأن الإسلام فى كل أحكامه ، قال صاحب كتاب « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء » ، قال رحمه الله تعالى تحت عنوان : « حق كل من الزوجين على صاحبه » : عنيت السورة بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة ، فأوجب الله معاشرة النساء بالمعروف ، وبين أن عاطفة الحب والكره ليستا دائماً أمارة على المستقبل السعيد أو الشقى ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[1]

كما عنيت ببيان الأساس الذى يجب أن تقوم عليه حقوق كل من الرجال والنساء ، فبينت أن للرجل على المرأة حق الرياسة ، وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبته ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى :

﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ .

وتتلخص الأحكام التى جاءت بها هذه الآيات فيما يأتى :

١ ــ على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف .
٢ ــ على المرأة أن تطيع زوجها وتخضع لرياسته ، وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه فى نفسها وبيت زوجها ، فقد جعلها الله أمينة على ذلك .
٣ ــ على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله فى تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه ، فلا يتطلع النساء إلى ما خص الله به الرجال وجعلهم مفضلين فيه ، ولا يتطلع الرجال إلى ما خص الله به النساء ، وجعلهن مفضلات فيه .

أحوال الخلاف بين الزوجين :

(ا) نشوز المرأة وكيف يعالج :

رسمت سورة النساء الخطة التى تتبع فى حالة وقوع خلاف بين الزوجين ، وإذا تدبرنا الأقسام التى يكون عليها هذا الخلاف وجدناها ثلاثة ، ووجدنا السورة قد عرضت لكل قسم منها ، وأعطت الحكم المناسب له .

فالحالة الأولى : هى حالة الزوجة التى يخشى منها النشوز ، وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى : **﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾** .

(١) الآية ١٩ من سورة النساء .

ومن هنا أخذ الاصطلاح المشهور عن النشوز ، وهو فى الأصل الارتفاع ، ويراد به هنا أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه ، ولما كان خلاف النساء يرجع غالبا إلى ترفع المرأة وتعاليها عن قبول رياسة زوجها وطاعته ، سمى استعصاؤها عليه نشوزاً ، كأنها قد ارتقت عنه نشزا من الأرض . وفى الآية معنى يجب أن نلتفت إليه ، وأن نوجه به وجهة الإسلام فى وضع هذه العقوبات بين يدى الأزواج على زوجاتهم ، وخطته فى تنفيذها على سنة التدرج . ذلك أن الآية تقول ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن ﴾ فلا ترتب الحكم على وقوع النشوز ، ولكن على توقعه ، فخوف وقوع الشىء هو توقع حصوله ، وإنما يكون هذا التوقع أو هذا الخوف من الوقوع إذا ظهر فى أفق الزوجية بوادر تدل على أن المرأة تتجه إلى التخلص من سيطرة الزوج ورياسته ، وتسير فى الطريق المؤدية إلى عصيانه .

ولما كانت الأوائل تدل على الأواخر ، وكان شأن الخلاف أن يبدأ صغيرا ثم يكبر تدريجياً حتى يصبح جفاءً مستحكماً ، وبغضاً ليس من السهل اقتلاعه من القلوب ، فإن الله تعالى يرشدإلى المبادرة بالعلاج ، وألا ينتظر الأزواج حالة النشوز الفعلى ليبدأوا علاجهم ، ولهذا وضعت خطة هذا العلاج متمشية مع المعروف من أطوار الخلاف :

أولا : ﴿ فعظوهن ﴾ : فالبوادر الأولى الموحية بأن الزوجة سائرة فى طريق المخالفة والمغاضبة والاستعصاء ، يناسبها الخطوة الأولى وهى خطوة النصح والإرشاد فى رفق ولين ، وتلك هى المذكورة بقوله تعالى : ﴿ فعظوهن ﴾ .

وما أبلغ هذا اللفظ فى الدلالة على المراد ، فإن الوعظ نصح مبنى على التذكير بالخير فيما يرق له القلب ، أو التخويف من عواقب الشر على نحو من التحذير والتبصير ، فالزوج يبادر زوجته فى هذا الطور الأول حين يكون الخلاف مستترا ، أو على استحياء ، فينصحها نصحاً رقيقاً يستعمل فيه لباقته وحصافته ، ويذكرها فيه بذكرياتها الجميلة ، ويثنى فى تلطف على أخلاقها وأخلاق أسرتها ، ويحذرها شماتة الأعداء ، وأسف الأصدقاء ، ونحو ذلك دون أن يظهر بمظهر الضعف أو التذلل ، ولا بمظهر التهديد والتوعد .

وهذه الخطوة الأولى من خطوات العلاج الزوجى هى خطوة طبيعية ، وكل زوج وزوجة يعرفان ما لها من أثر فى إزالة كثير من أسباب الخلاف ، ومن حسم الشر فى منابعه ، وعدم السماح له بأن يأخذ طريقه إلى جو الأسرة ، فيفسده ويكدر صفاءه .

وينبغى أن يفهم أن هذه الخطوة الأولى المناسبة للبوادر الأولى ، لا تقف عند بذل هذا الوعظ والنصح مرة واحدة ، فإن الشأن فى هذه المرحلة تطول بعض الوقت ، وأنها تقابل فى الحين بعد الحين بالتذكير ، وما يناسب كل حالة من النصح والتحذير ، بل قد يكون من أساليب الوعظ والإصلاح أن يتسامح الرجل أحيانا ، وأن يغفر عن قدرة وتمكن ، لتعرف الزوجة فضله فى ذلك ، وأنه ليس متهورا مندفعاً من أول الأمر ، فإن ذلك يصلح كثيرا من النساء اللواتى لا تصلحهن الشدة والعنف .

ثانيا : ﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾ : فإذا لم تنجح الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن طوراً آخر من أطوار الخلاف، أو مقدمة أخرى من مقدمات هذا النشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها، ومن المناسب لذلك أن يظهر الرجل بمظهر المتعض ، وأن يعبر عن هذا الامتعاض بطريقة صامتة ، ولكنها بليغة فى صمتها، مؤثرة تأثيرا كثيرا فى المرأة ، فإن أكبر ما تعتز به المرأة أن ترى زوجها هائما بها ، شديد الميل إليها . فإذا وجدت منه ما يدل على الانصراف عنها ، وعدم التأثر بأنوثتها ، أحست أنها بدأت تدخل فى منطقة من الخطر ، وأن عليها ألا تسترسل ، ولذلك أمر الله تعالى بالهجران فى المضاجع ، ليظهر هذا الموقف السلبى من الرجل فى أقصى مداه ، لتشعر به المرأة واضحا ، وهذا هو السر فى أن التعبير جاء بقوله : ﴿ واهجروهن فى المضاجع ﴾ ، ولم يأت بمثل واهجروا مضاجعهن ، لأن هجر المضجع مع كونه هجرا إلا أنه على صورة تساعد على تقبله حينا والصبر عليه وقتاً ما ، ولكن الهجر فى المضجع أشد إفصاحا عن انصراف النفس ، لأنه هجر مع قرب الدواعى وتيسرها .

وبعض الناس يظن أن هذه الخطوة ليست بمجدية ، لأن المرأة مادامت متجهة إلى مخالفة الرجل ، سائرة فى طريق منازعته ، لا يهمها أن يبتعد عنها ، بل إن بعض النساء يرين ذلك خيراً لهن ، ولا يعبأن بهذا الأمر ، ولا يبالين كثيراً بأن يحدث أو لا يحدث ، ويزداد هذا الشعور بوجود الخلاف فإن الخلاف يجعل المرأة منصرفة عن هذا اللون من المتاع الزوجى الذى لا يحسن عادة إلا حين يكون الصفاء ، وخلو النفس من الأحزان ، فكيف يتصور حينئذ أن يكون هذا علاجا للمرأة فى حالة الخوف من نشوزها وترفعها وامتناعها ؟ .

وهذا الظن ليس بمقبول ، لأن العبرة بالغالب على طبيعة المرأة ، فإذا كان بعض النساء يرحبن بمثل ذلك فهن ولا شك ناقصات من حيث التكوين الجنسى وأولاء قليلات ، والشأن فى العلاج أن يعنى على الحالات الغالبة لا على الحالات الشاذة .

ثم إن هذا العلاج ليس مقصوداً لذاته ولكنه مقصود لتتخذ منه الزوجة دليلاً على امتعاض الزوج من تصرفها ، فإذا كان الزوج بعد عصيان نصحه ووعظه يبدو متلهفاً على زوجته ، ويصلها فى مضجعها ، متأثراً بدافع شهوته ، فإنه بذلك يظهر بمظهر غير جاد ، ويجعل الزوجة تشعر فى أعماق نفسها بأنها أقوى منه ، وأكبر تأثيراً عليه وأن لديها من المقدرة على تطويعه أعظم مما لديه ، وهنا تفسد الخطوة الأولى ، وتضيع هباء وبذلك يتبين أن هذه الخطوة الثانية لو أديت على وجهها ، وفى وقتها المناسب لها تكون خطوة فعالة وأنها على الأقل تكون سنادا طبيعيا للخطوة الأولى وإلا كان الرجل متصنعا فى نصائحه وعظاته ، ممثلا لدور الغاضب أو الآسف بينما هو الراغب الطالب .

ثالثا : ﴿ واضربوهن ﴾ : ولكن ينبغى أن نعلم أيضا أن أسلوب الهجران الزوجى لا يمكن أن يستمر طويلا ، فإن له بمقتضى الطبيعة البشرية مدى لا يحتمل الزوجان أكثر منه ، فهو إما أن يؤدى الغاية منه سريعا وإما أنه يعلم أنه هو أيضا غير مفيد فى تطويع هذا الإباء ، وتقويم هذا الاعوجاج وهنا تأتى الخطوة الثالثة ، لأن الخلاف قد انتقل من طور البوادر الأولى وامتحن بالخطوة الثانية فأسفر الامتحان عن ثباته

إليه ، عارفة أن ذلك خيرا لها ، وإذن فقد تنازلت هى عن بعض حقها ورضى الزوج بأن يبقيها ، ويقوم بجميع نفقاتها مع كونها غير موافقة له .

وقد يتصالحان على الطلاق بعوض ، فيعطيها الرجل مالا ومتاعا ، أو تتنازل هى له عن شىء من مالها أو من صداقها ، فلا جناح عليهما فى ذلك إذا تراضيا عليه .

٢ - وفى الآية الأولى بعد بيان هذا الحكم إرشاد للزوجين كليهما بأن يؤثرا الصلح بينهما على وجه من الوجوه دون أن يترافعا أو يتخاصما ، فإن العادة جرت بأن نفور الرجل من المرأة يكون لأسباب فى الغالب من النوع الحساس ، والتخاصم فى مثل هذه الحالة يكون عرضا لأسرار الأمر فى صورة صادقة أو كاذبة على القاضى أو من يقوم مقامه ، وقد يؤدى الموقف إلى كثير من المشكلات بين أقارب الزوج والزوجة ، فربما تعرض الزوج فى سبيل عرض مشكلته إلى ما يسىء الزوجة فى نفسها ويسىء أقاربها تبعا لذلك ، فيغضبون ويفكرون فى الانتقام من الزوج وربما يغضب للزوج أيضا أقاربه فيتسع مجال النزاع ، ولهذا أرشد الله كلا من الزوجين إلى ما هو خير وأولى بهما وهو التفاهم بينهما والتراضى فقال : ﴿ والصلح خير﴾ .

ولعل فى هذا ما يوحى بأن الشارع لا ينظر بعين الرضا إلى ما يدعو إليه بعض الناس فى عصرنا من التزام أن يكون الطلاق أمام القضاء ، وألا يأذن به القاضى إلا إذا كان له أسباب تبرره .

والحق أن هذه دعوة منافية للمصلحة ، وأنه لو استجيب لها لجرت على المجتمع كثيراً من الوبال ، وحسبنا أن المرأة التى يحكم لزوجها بطلاقها ستكون بعد هذا الحكم منظوراً إليها من الناس بنظرات الشك والتظنن ، فلا تكاد تجد من يقبل عليها من الأزواج .

ولا يصح أن يعترض على ذلك بأن الإسلام يبيح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر ، وبأنها فى سبيل إثبات هذا الضرر كثيرا ما أفاضت وتعرضت لأسرار ، وأن الأزواج يلاقون من ذلك شيئاً كثيراً فلا يضرهم ، ولا يجعل الناس ينظرون إليهم نظرات التظنن أو الاحتقار .

نقول : لا يصح أن يعترض بذلك ، لأن هذا قياس مع الفارق كما يقولون ، فإن وضع المرأة فى المجتمع يجعل شرفها وأمرها كله عرضة للتأثر السريع ، ولا كذلك للرجل .

٣ - ثم حذرتهما الآية من العقبات النفسية التى قد تحول بينهما وبين إتمام هذا الصلح ، فالعادة جرت بأن الصلح يحتاج إلى تقابل من الطرفين وتلاق فى منتصف الطريق ، فهذا يضحى ببعض التضحية ، والآخر يبادل تضحيته بمثلها ، أو بأكثر منها ، ولكن النفوس يحضرها الشح والضن ، فليس من اليسير أن تبذل أو أن تتنازل ، فعلى الزوجين أن يقاوما فى نفسيهما هذه الموانع النفسية وعلى الرجل فى ذلك القسط الأوفر ، فإنه بحكم وضعه من أول الأمر هو الطرف الباذل ، ثم هو الذى نشز أو أعرض أو اتجه إلى هذا النشوز أو الإعراض ، فبدرت منه بوادره ، فمن حق الزوجة عليه أن يرضيها وألا ينسى مكانتها منه وماضيها معه ولذلك يقول الله عز وجل : ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ .

فالخطاب للأزواج ، وهو ترغيب لهم فى أن يتناولوا هذا الأمر تناولا حسنا يخفف وقعه على الزوجات ، وتحذير لهم من أن يخرجوا فيه عن حدود التقوى والخوف من الله فيشتدوا حيث لا موجب للشدة ، أو يسرفوا فى الادعاء على الزوجات ، أو يجمدوا عن بذل ما يصلح نفوسهن ولا يبعث فيها الرضا والقبول .

٤ - ولما كان أكثر ما يبعث الكراهية نشوزا أو إعراضا فى قلب الرجل ، هو اتجاهه إلى زوجة أخرى ، فإن الآية الثانية جاءت بإرشاد مبنى على هذا الغرض ، ذلك أن من المحال على الرجل أن يعدل بين امرأتين لأن العدل ميزان يقتضى أن يكون هناك تكافؤ تام بين طرفين ، فإذا استطاع الرجل أن يحقق هذا التكافؤ أو هذا التوازن فى الميل القلبى والمحبة الزوجية التى من شأن المرأة أن تحسها بها بمقتضى غريزة الأنثى ، فالله تعالى لا يتحدث عن غير المستطاع ، فإنه لا تكليف إلا فى حدود الاستطاعة، ولكنه يقرر أولاً هذه الطبيعة ليكون تقريرها تمهيداً لما يأتى بعدها .

ثم ينهى عن أن يميل الرجال كل الميل عن زوجاتهم إذا كرهوهن ، فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرأة كالمعلقة فلا هى بزوجة تنال حقوقها الزوجية كاملة ، ولا هى بمطلقة تلتمس السعادة الزوجية فى تجربة أخرى ، ولا شك أن الإنسان يستطيع أن يعالج نفسه فى هذا الشأن فيُصل إلى تلطيف حدته العاطفية ويخفى جانبا كبيرا من ميله النفسى وذلك بأن يجبر نقصه العاطفى بالتلطف فى المعاشرة والتحايل بمختلف أساليب الرقة واللباقة ، لكيلا يجرح شعور المرأة ، فهذا فى الحقيقة نهى عن الاسترسال فى عاطفة البغض ، وعن تغذيتها بما يقويها ويجعل الزوج يميل كل الميل عن زوجته فيؤذيها .

وقد جاء ختام هذه الآية أيضا ترغيبا للرجال فى الإصلاح ومحاولة كل ما يؤدى إليه ، وتحذيرا من الخروج على أمر الله بالظلم والتمادى فى الإساءة ، وذلك ما يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وأن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما ﴾ فهو يغفر لكم ما عسى أن يكون من انسياق أحيانا مع دواعى الميل القلبى ، إذا كنتم تجاهدون ذلك حسب استطاعتكم رحمة بكم .

خطأ مشهور :

وبعض الناس يركب من هذه الجملة والجملة التى جاءت فى آية التعدد قياسا فيقول : إن الله تعالى نهى الرجال عن التعدد إذا خافوا العدل ، ثم قرر أن العدل بين النساء مستحيل على الرجال ، فالنتيجة أن التعدد منهى عنه .

وهذا شبيه بما يسمى فى علم المنطق « بالسفسطة » ، ومثله كمثل أن يشار إلى رسم مصور لفرس ثم يقال هذا فرس ، وكل فرس صاهل ، فهذا صاهل .

وإنما جاء الكذب فى النتيجة من أن « الفرس » فى القضية الصغرى غير الفرس فى القضية الكبرى ، فإن الذى فى الورق ليس فرسا وإنما هو صورة فرس ، والذى يصهل ليس من أفراده الذى فى الورق ، ولكن الذى فى الخارج حيوان متحرك ذو حياة .

وكذلك هنا ، فخوف العدل فى قوله : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ هو خوف الرجل من عدم القيام بحقوق الزوجات على سنة التوازن الدقيق والتكافؤ التام ؛ وهذا إنما يتصور ملاحظته فى التكليف إذا فسر العدل فيما يملك الزوج من النفقة وتوابعها ، ومن مقاومة الميل التام عن إحدى الزوجتين لتلطيف حدته ، وإلا كان إدخاله فى نطاق التكليف واشتراطه فى إباحة الحكم عبثا ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

أما العدل فى قوله جل شأنه : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فهو المساواة فى الميل القلبى والحب ، أى توزيع العاطفة القلبية على الزوجات بالقسطاس المستقيم ، وذلك هو المحال المنفى بحرف ﴿ لن ﴾ والدليل على ذلك أنه أتبع بقوله تعالى : ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أى لا أكلفكم العدل المطلق فى ذلك فهو محال ، وليس من شأنى أن أكلفكم محالا : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾(١) ولكن أكلفكم ما هو فى وسعكم ، وذلك هو عدم الاسترسال فى الميل وتغذيته بما يقويه ويجعله ميلا تاما ، وبهذا يتبين أن العدل المشترط هو العدل فيما يملك الرجال ، وأن العدل المنفى هو العدل الذى لا يستطاع .

وإنما أوضحنا هذا مع اشتهاره فى كتب التفسير ، ومع دلالة الروايات المروية فى أسباب النزول عليه لأننا أردنا أن يعلمه الذين تعودوا أن يثيروا هذا الاحتجاج ممن لا يقرءون كتب التفسير ، ولا يتيسر لهم فهم أسلوبها .

٥ - وقد جاءت الآية الثالثة بعد ذلك بالخطوة الأخيرة حين يتعذر الصلح ولا يكون هناك إلا التفرق بين الزوجين ، والتماس كل منهما حياة أهدأ فى ظل زوجية جديدة ، وهذا هو قوله تعالى : ﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعا حكيما ﴾ .

ومما ينبغى الالتفات إليه أن سورة النساء فى هذا كله وفى غيره من أحكام الزوجية لم تذكر الانفصال الزوجى إلا فى هذه الآية ، وهى آخر آية عرضت فيها السورة لشأن زوجى ، ثم هى لم تذكر طريقة الطلاق ولا أحكامه وتفاصيله كما جاء فى سورة البقرة مثلا ، وذلك لأن السورة التى تبنى نظام المجتمع فهى تشرع كل ما يتصل بهذا البناء ، أما إذا انتهى الأمر إلى أن يتفرق كل من الزوجين عن صاحبه فهذا ما تمر به السورة مراً ، وما تقرنه بفتح باب الأمل فى أن يغنى الله كلا من سعته ، حتى لا يتحطم فرد من المجتمع لهذه المصيبة إذا نزلت به ، وحتى يدرك من يقع له ذلك أن هذا هو مصلحته ، وفيه الخير المرجو له ، فإن الرجاء فى استقبال حياة جديدة ، خير من العيش فى حياة كلها كراهية ونزاع ، ولذلك تذكر الآية فى ختامها ما يبعث على الأمل ، وهو وصفه تعالى بأنه كان وما يزال ﴿ واسعاً ﴾ وتذكر أيضا ما يدل على أن الافتراق فى مثل هذه الحالة هو عين الحكمة وذلك هو وصفه تعالى بقوله : ﴿ حكيما ﴾ .

وإذن فهذا أيضا بناء فى المجتمع ، أو هو عصمة من أن تنهار نفوس هى لَبِنات فى بناء المجتمع ، أما تفاصيل هذا الافتراق وأساليبه وأحكامه التشريعية فقد تركته سورة النساء لغيرها .

---

(١) من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

(حـ) حالة الشقاق بين الزوجين :

وتلك هى الحالة الثالثة من حالات الخلاف بين الزوجين وقد جاء حكمها فى قوله تعالى : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ،إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا** ﴾ .

قد تقدم أن الحالة الأولى هى حالة الخوف من نشوز الزوجة ، وأن الحالة الثانية هى حالة الخوف من نشوز الزوج أو إعراضه ، وأن التشريع لهاتين الحالتين انبنى على اعتبار كل منهما مشكلة تحل عن طريق أحد الزوجين ، وما يتوسل به إلى إصلاح الآخر من تأديب أو تصالح ، أما هذه الحالة فهى حالة الشقاق الذى يخاف أن يكون بين الزوجين على المعنى الذى ذكرناه فى نظيريه من أن المراد بالخوف توقع الحصول بسبب ما يبدر من بوادر تؤذن بذلك ، وقد جاء التعبير عن هذا الخلاف بأسلوب إضافة الشقاق إلى ﴿ **بينهما** ﴾ وذلك قوله تعالى : ﴿ **شقاق بينهما** ﴾ فقد أضيف الشقاق إلى الظرف وقالوا إنه بمعنى : شقاق بينهما ، أو بمعنى أن البين جعل كأنه يحدث منه مشاقة .

والتفسير الثانى هو الأقوى لأنه يريد أن يقول إن خفتم شقاقاً فابعثوا حكما . . . الخ ، فإن الشقاق اليسير يترك للزوجين ولا يحتاج الأمر فيه إلى بعث حكمين ، وإنما المراد هوالخوف أن يصبح الشقاق هو قاعدة التعامل بين الزوجين ، وهذا يفيده جعل البين نفسه مصدرا للشقاق ، كأن مجرد النسبة القائمة بينهما أصبح هو بذاته مثار الشقاق والنزاع ، وهذا موقف إن دلت الدلائل على أنه قريب الوقوع ، كان على الأمة أو على ولاة الأمر فيها أن يتداركوه قبل أن يكون ، وأن يعالجوه بأن يبعثوا حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة كى يدرسا أمر الزوجين والصعاب التى توشك أن تعصف بما بينهما ، ويحاولا تذليلها ، وإصلاح ذات البين إذا أمكنهما ذلك ، وإنما جعل الحكمان من أهلهما لأن أهل الزوج والزوجة هم أقرب الناس إليهما ، والأمر فى نجاح هذه الزوجة أو فشلها ذو أثر فيهم على نحو ما ، وهم أدنى إلى الإخلاص فى حل مشكلة الزوجين ، وكل طرف منهما يمثل واحداً من الزوجين ويتحدث باسمه دون أن يكون الحديث صادرا من الزوجين ، ففى ذلك ابتعاد عن أسباب التوتر والمراء والمعاتبه التى قد تفسد مشروع الصلح إذا خرجت عن حدها ، وكثيرا ما تخرج .

وهذه الصورة من صور الخلاف تأتى فى المرتبة الوجودية عادة بعد حالة نشوز المرأة واستنفاد كل الوسائل من الرجل فى سبيل إصلاحها ، ومعنى ذلك أن كل العقوبات لم تفد تقويم النشوز ، وأن الأمر بعد ذلك قد دخل فى دور عناد وشقاق ، كما جاء فى آية أخرى تقول : ﴿ **فإن خفتم ألا يقيما حدود الله** ﴾(١) وعدم إقامة الزوجين حدود الله تبدو فى إخراجهما الزوجية عن كونها مودة ورحمة وسكنا ، على ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(٢) ولهذا جاءت بها الصورة بعد حالة نشوز المرأة وبعد بيان خطوات العلاج فهى تفرض أن هذا كله لم ينجح ، وأن الأمر صائر إلى شقاق ذات البين .

(١) الآية ٢٢٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢١ من سورة الروم .

العبادة والإحسان

﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾

المفردات : عبادة الله : الخضوع له والاستشعار بتعظيمه فى السر والعلن ، بالقلب والجوارح ، والإخلاص له بالاعتراف بوحدانيته ، إذاً لا يقبل عملاً بدونها . والإحسان إلى الوالدين : قصد البر بهما بالقيام بخدمتهما ، والسعى فى تحصيل مطالبهما ، والإنفاق عليهما بقدر الاستطاعة ، وعدم الخشونة فى الكلام معهما . وذى القربى : صاحب القرابة من أخ وعم وخال وأولاد هؤلاء ﴿ **والجار ذى القربى** ﴾ : هو الجار القريب . الجوار . ﴿ **والجار الجنب** ﴾ : هو البعيد القرابة ، ﴿ **والصاحب بالجنب** ﴾ : الرفيق فى السفر ، أو المستقطع إليك ، الراجى نفعك ورفدك ﴿ **وابن السبيل** ﴾ : هو المسافر أو الضيف . ﴿ **وما ملكت أيمانكم** ﴾ : عبيدكم وإماؤكم . المختال : ذو الخيلاء والكبر . الفخور : الذى يعدد محاسنه تعاظماً وتكبراً ﴿ **وأعتدنا** ﴾ هيأنا وأعددنا المهين : ذو الإهانة والذلة ﴿ **ورئاء الناس** ﴾ : أى للمراءاة والفخر بما فعل القرين : الصاحب والخيل . و ﴿ **ماذا عليهم** ﴾ أى أىّ ضرر يحيق بهم لو آمنوا وأنفقوا ؟ .

العبادة خضوع تام ، وانقياد وتسليم وتفويض ويقين قلبى ، بأن الأمر كله لله ، وأنه وحده المستحق للعبادة ، وهذا هو توحيد الألوهية ، وله أثر عظيم للعبد عند الله .

قال ﷺ لمعاذ بن جبل : (أتدرى ما حق الله على العباد ؟) قال : الله ورسوله أعلم . قال : (أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) ، ثم قال : (أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم)(١) .

---

(١) أخرجه البخارى فى اللباس (١٠١) وفى الجهاد (٤٦) وفى الاستئذان (٣٠) وفى الرقاق (٣٧) وفى التوحيد (١) . ومسلم فى الإيمان (٤٨ - ٥١) . والترمذى فى الإيمان (١٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٠٩ ، ٥٢٥ ، ٥٣٥) وفلا (٣ : ٢٦٠ ، ٢٦١) .

سبحانك ربى :

مـا فى الـوجـود سـواك رب يعبـد ... كلا ولا مـولى هنـاك فيـقـصـد
يـامن لـه عنت الـوجوه بـأسـرهـا ... رهبـاً وكـل الكـائنـات تـوحـد
أنت الإله الواحد الحق الـذى ... كل القلوب لـه تقر وتشهـد

وبعد الأمر بعبادته سبحانه وحده أوصى بالإحسان إلى الوالدين ؛ وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بـين عبادته والإحسان إلى الوالدين كقوله : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾[١] وكقوله : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾[٢] وكقـوله تعـالى : ﴿ وإذ أخذنـا ميثاق بنى إسـرائيل لا تعبـدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ﴾[٣] .

ثم عطف على الإحسان إليهما الإحسان إلى القرابات من الرجال والنساء ، كما جاء فى الحديث : (الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم صـدقة وصلة)[٤] ، وقـال ﷺ : (الصلة والصدقـة تعمران الديار وتزيدأن فى الأعمار) . (إن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله)[٥] كما أوصى سبحانه بالإحسان إلى اليتيم ، وهو الذى مات أبوه قبل أن يبلغ الحلم ، ويكون ذلك بحسن معاملته وصيانة ماله والإرعاء لشئونه ، قال عليه الصلاة والسلام : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)[٦] .

كما أوصى تعالى بالمساكين ، والمسكين هو الذى أسكنته الحاجة ، واستحى أن يسأل فيحرم ، قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم ﴾[٧] وقد يكون المسكين هو الذى لا يقوى على العمل لعاهة من العاهات ، فيكون أولى بالرعاية ، والإسلام هو دين الرحمة . كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : (لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لِمَ لَمْ تصلح لها الطريق ياعمر ؟) .

ولن يضيع إحسان عند الله ، فاصنع المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فإن صادف أهله فهو أهله ، وإن لم يصادف أهله فأنت أهله ، وصاحب المعروف لا يقع ، وإذا وقع وجد متكأ .

ازرع جميلاً ولو فى غير موضعه ... فلن يضيـع جميل أينما وُضعـا
إن الجميل وإن طال الزمان به ... فليس يحصده إلا الذى زرعـا

---

(١) الآية ١٤ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٨٣ من سورة البقرة .
(٤) أخرجه النسائى فى الزكاة (٨٢) . والترمذى فى الزكاة (٣٦) . والدارمى فى الزكاة (٣٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤٠٢) وفى (٤ : ١٨ ، ٢١٤ ، ٢٩٩) وفى (٥ : ٤١٦) .
(٥) أخرجه مسلم فى البر (١٧) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٩) .
(٦) أخرجه البخارى فى الطلاق (٢٥) وفى الأدب (٢٤) . ومسلم فى الزهد (٤٢) . وأبو داود فى الأدب (١٢٣) . والترمذى فى البر (١٤) . والإمام مالك فى الشعر (٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٧٥) وفى (٥ : ٣٣٣) .
(٧) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

وروى مسلم بإسناده عن عبد الله بن عمرو أنه قال للقهرمان له هل أعطيت الرقيق قوتهم ؟ قال : لا ، قال : فانطلق فأعطهم ، فإن رسول الله ﷺ قال : (كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوتهم)[١] .

ورواه مسلم بإسناده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : (للمملوك طعامه وكسوته ولا يكلف من العمل إلا ما يطيق)[٢] .

وروى البخاري ومسلم رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : (إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين فإنه ولى حره وعلاجه)[٣] .

وعن أبي ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (هم إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل أو ليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم)[٤] .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ﴾ أى مختالاً فى نفسه ، معجباً متكبراً ، فخوراً على الناس ، يرى أنه خير منهم ، فهو فى نفسه كبير ، وهو عند الله حقير ، وعند الناس بغيض .

قال مجاهد فى قوله : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً ﴾ يعنى متكبرا ﴿ فخوراً ﴾ يعنى بعد ما أعطى وهو لا يشكر الله تعالى ، يعنى يفخر على الناس بما أعطاه الله من نعمه ، وهو قليل الشكر لله على ذلك .

قوله تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ ، هذا بيان للمختال الفخور ، روى ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس : كان جماعة من اليهود يأتون رجالا من الأنصار ينصحون لهم ، فيقولون : لا تنفقوا أموالكم ، فإنا نخشى عليكم الفقر فى ذهابها ، ولا تسارعوا فى النفقة فإنكم لا تدرون ما يكون . فأنزل الله تعالى : ﴿ الذين يبخلون ﴾ إلى قوله : ﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ .

والمراد بالبخل فى الآية : البخل بالإحسان الذى أمر به فيما تقدم ، فيشتمل البخل بلين الكلام وإلقاء السلام والنصح فى التعليم وإنقاذ المشرف على التهلكة ، وكتمان ما آتاهم الله من فضله يشمل كتمان المال وكتمان العلم .

ثم بين عاقبة أمرهم وعظيم نكالهم فقال : ﴿ وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً ﴾ أى وهيأنا لهؤلاء بكبرهم وبخلهم وعدم شكرهم عذابا يهينهم ويذلهم ، فهو عذاب جامع بين الألم والذلة ، جزاء لهم على ما اقترفوا ، وسماهم الله كفارا للإيذان بأن هذه أخلاق وأعمال لا تصدر إلا من الكفور لا من المؤمن الشكور .

---

(١) أخرجه مسلم فى الزكاة (٤٠) .
(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (٤١) . والإمام مالك فى الاستئذان (٤٠) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٤٧ ، ٣٤٢) .
(٣) أخرجه البخارى فى العتق (١٨) وفى الأطعمة (٥٥) . ومسلم فى الإيمان (٤٢) . وأبو داود فى الأطعمة (٥٠) . والدارمى فى الأطعمة (٣٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٥٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٣٠) وفى (٣ : ٣٤٦) .
(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان (٢٢) وفى الأدب (٤٤) . ومسلم فى الإيمان (٤٠) . وأبو داود فى الأدب (١٢٤) . وابن ماجه فى الأدب (١٠) .

﴿ والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ﴾ الرئاء والرياء والمراءاة سواء ، أى أن مانعى الإحسان من أهل الفخر والخيلاء فريقان : فريق يبخلون ويكتمون فضل الله عليهم ، وفريق يبذل المال لا شكراً لله على نعمه ، ولا اعترافا لعباده بحق ، بل ينفقونها مرائين الناس : أى يقصدون أن يروهم فيعظموا قدرهم ويحمدوا فعلهم .

والكبرياء كما تكون من شىء فى نفس الشخص تكون أيضا بما يكون له من المال والنسب ، والمرائى أقل شرا من البخيل ، إذ هو يحمل الناس على قبول فخره ، وإختياله فى مقابلة ما يبذله لهم من مال ، فكأنه رأى لهم عليه حقا عوضا من التعظيم والثناء الذى يطلبه بريائه ، وأما البخيل فقد بلغ من احتقاره للناس أنه لا يرى لهم عليه شيئا من الحقوق ، فهو يكلفهم تعظيمه وأمواله مدخرة فى الصناديق .

والمرائى بخيل فى الحقيقة ، إذ هو إنما يبذل المال لمن لا حق لهم عنده ويبخل على أرباب الحقوق كالزوجة والولد والخادم والأقربين كالوالدين ، ولا يتحرى فى إنفاقه النفع العام ولا الخاص ، وإنما يتحرى مواطن التعظيم والمدح ، وإن كان الإنفاق ضاراً كالمساعدة على فسق أو فتنة ، فهو تاجر يشترى تعظيم الناس له وتسخيرهم للقيام بخدمته .

﴿ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ أى أن المرائين فى إنفاقهم يثقون بما عند الناس من المدح والثناء والتعظيم والإطراء ، ولا يثقون بما أعد الله لعباده من الثواب والجزاء ، ويفضلون التقرب إليهم على التقرب إليه ، فالله فى نظرهم أهون من الناس ، فمثل هؤلاء لا يعدون مؤمنين إيمانا حقيقيا بالله ولا باليوم الآخر ، بل إيمانهم ضرب من التخيل ليس له ما يؤيده من أثر فى القلب ، ولا إذعان للنفس ، فهم لا يعرفون الله ، وإنما يسمعون الناس يقولون قولا فيقلدونهم فيما يحفظونه منهم فهم لا يعرفون أنه موجد الكائنات ، النافذ علمه وقدرته فيما فى الأرض والسموات ، ولو كانوا مؤمنين باليوم الآخر ، وأن هناك حياة أبدية لما فضلوا عليها عرض هذه الحياة القصيرة .

ومن أمارات التفرقة بين المخلص والمرائى أن الأول قلما يتذكر عمله ، أو يذكره إلا لمصلحة ، كترغيب بعض الناس فى البذل ، كأن يقول إنى على ما بى من فقر قد أعطيت كذا درهما فى مصلحة كذا ! فاللائق بمثلك أن تبذل كذا وكذا درهما .

أما الثانى فهو يلتمس الفرص والمناسبات للفخر والتبجح بما أعطى وما فعل ، كما لا يبذل المال ولا يعمل العمل الصالح إلا بقصد الرياء والسمعة ، إذ ليس له وراء حظوظ الدنيا أمل ولا مطلب .

﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ أى أن هؤلاء المتكبرين ما حملهم على ما فعلوا إلا وسوسة الشيطان وهو بئس الصاحب والخليل ، والمقصد من هذا أن حالهم فى الشر كحال الشيطان .

وفى الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء فى مسيرته وأن الواجب اختيار القرين الصالح على قرين السوء ، وتعريفه لتنفير الأنصار من معاشرة اليهود الذين كانوا ينهونهم على الإنفاق فى سبيل الله ، وبيان أنهم شياطين يعدون الفقر وينهون عن العرف .

أما القرين الصالح فهو عون على الخير مرغوب فيه منفر بسيرته ونصحه عن الشر مبعد عنه مذكر بالتقصير مبصر بالعيوب ، وكم أصلح القرين الصالح فاسداً وكم أفسد قرين السوء صالحا .

﴿ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله ﴾ أى وما الذى كان يصيبهم من الضرر لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره فى العمل ؟ وفى هذا الأسلوب إثارة تعجب الناس من حالهم ، إذ هم لو أخلصوا لما فاتتهم متعة الدنيا ولفازوا مع ذلك بسعادة العقبى ، فكثيرا ما يفوت المرائى ما يرمى إليه من التقرب إلى الناس وامتلاك قلوبهم ويظفر بذلك المخلص الذى لم يكن من همه أن أحدا يعرف ما عمل فيكون الأول قد رجع بخفى حنين بينما الثانى فاز بسعادة الدارين .

فجهله جدير بأن يتعجب منه لأنه جهل بالله وجهل بأحوال الناس ، ولو آمن وأخلص ووثق بوعد الله ووعيده لكان فى هذا سعادته ، فالإيمان سلوى من كل فائتة وفقده عرضة لليأس من كل خير ، ومن ثم يكثر الانتحار من فاقدى الإيمان وأما المؤمن فأقل ما يؤتاه فى المصائب الصبر الذى يخفف وقعها على النفس وأكثره رحمة الله التى بها تتحول النقمة إلى نعمة بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكمال العبرة والتهذيب .

وقد يبتلى الله المؤمن ويمتحن صبره فيعطيه إيمانه من الرجاء به ما تخالط حلاوته مرارة المصيبة حتى تغلبها ، وقد يأنس أحيانا بها لعظم رجائه وصبره ، وهذا وإن كان نادرا فهو واقع حاصل .

﴿ وكان الله بهم عليما ﴾ فينبغى للمؤمن أن يكتفى بعلم الله فى اتصافه ولا يبالى بعلم الناس فهو الذى لا ينسى عمل العالمين ولا يظلمهم من أجرهم شيئا .

وفى هذه الآيات الكريمة الهداية الكافية فى معاملة الناس لربهم ، ولبعضهم بعضا ، ولكن المسلمين قصروا من اتباع هذه الأوامر وأعرضوا عن مساعدة ذوى القربى والجيران واليتامى والمساكين والشواهد على هذا كثيرة .

آية مبشـــــــرة

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾

إلهنا ما أعدلك ، ما أكرمك ، ماأحلمك ، إن فضلك عظيم ، وجودك كريم ، حكمت فعدلت ، وقدرت فعفوت ، وعلمت فحلمت ، الظلم حرمته على نفسك ، وجعلته بين عبادك محرماً ، ونهيتهم عنه فقلت فى حديثك القدسى : (يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[1] وهل تهلك الأمم إلا بالظلم ؟ وهل تقوض أركانها ويخر بنيانها إلا بالظلم ؟

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٦٠) .

﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[١] . ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾[٢] . ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٣]. ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٤] . ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ﴾[٥] . ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ﴾[٦] . ﴿ فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾[٧] . ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾[٨] . ﴿ وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾[٩] . ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾[١٠] .

إن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، تفتح لها أبواب السماء ، ويستقبلها الرب تبارك وتعالى ، ويقول وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين .

يابن آدم :

لا تظلمن إذا كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم متنبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ما أجل قوله تعالى : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[١١]. ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[١٢].

ابن آدم :

وإذا رُميت من الزمان بشدة ... وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن ... يدعوه من حبل الوريد وأقرب

لا تغرنك قوتك ، فإذا غرتك قوتك على ظلم الناس فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك .

واحذر من المظلوم سهماً صائباً ... واعلم بأن دعاءه لا يحجب
واحفظ لسانك واحترس من لفظه ... فالمرء يسلم باللسان ويعطب
ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً ... إن الكذوب يشين حراً يصحب
يلقاك يقسم أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب
يسقيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

---

(١) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٣) الآية ٥٩ من سورة القصص
(٤) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٦) الآية ١٠ من سورة الشعراء .
(٧) الآية ٢١ من سورة القصص .
(٨) الآية ٢٥ من سورة القصص .
(٩) الآية ١١ من سورة التحريم .
(١٠) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(١١) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(١٢) الآية ٤٤ من سورة يونس .

إذا غرتك قوتك فلم استحكمت فيك شهوتك ؟ وإذا غرك غناك فارزق عباد الله يوماً .

يـا نـائم الليـل مسـروراً بـأولـه ... إن الحوادث قـد يـأتين أسحـاراً

وإذا غرك سلطانك فاعلم أنه لو دامت لغيرك ما وصلت إليك .

وكم من جبال قد علت شرفـاتهـا ... رجـال فـزالـوا والجبـال جبـال

واعلم بأن الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست . وإذا جلت أوجلت ، وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات .

ولى فى فنـاء الخلق أكبـر عبـرة ... لمن كـان فى بحـر الحقيقـة راق
شخـوص وأشكـال تمـر وتنقضى ... فـتفنى جميعـاً والمهيمـن بـاق

شيئان لا تقربوهما : الإشراك بالله ، والإضرار بالناس .

جل جلال الله ، فقد اقتضى منطق العدالة الإلهية ألا يظلم مثقال ذرة ، وهى الهباءة التى نراها تتأرجح فى شعاع الشمس المتسلسل من ثنايا النافذة ، وجل جلالك إذ تضاعف الحسنات ، وتقول للملائكة الكاتبين : (إذا هم عبدى بفعل سيئة فلا تكتبوها حتى يفعلها ، فإن فعلها فاكتبوها له سيئة مثلها ،وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة ، وإذا هم بفعل حسنة ولم يفعلها فاكتبوها له حسنة ، فإن فعلها فاكتبوها بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف)(١) . أنت الذى تهب كثيراً ، وتجبر قلباً كسيراً ، وتغفر الزلات . وتقول هل من تائب فاغفر له ؟ أو سائل أقضى له الحاجات ؟

يقول الشيخ (محمد المدنى رحمه الله تعالى) فى تفسير قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ يقول ما نصه : « هذه مرتبة أخرى من مراتب الفضل الإلهى غير السابقة وفيها تبشير بأمرين عظيمين : أحدهما : ما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾

والذرة واحدة الذر وهو صغار النمل أو الهباء المنتشر فى الهواء ، والمراد أصغر ما يتصور من الأشياء ، فالله تعالى لا يظلم الناس شيئا ولو كان قليلاً فى وزنه كالذرة ، وذلك العدل الإلهى واقع فى الدنيا وفى الآخرة .

لكل درجات مما عملوا :

أما فى الدنيا فإن لكل عامل جزاء ما عمل ، وقد وضع الله تعالى من السنن الكونية ما يجعل النجاح والصلاح والفوز وأضدادها مرتبطة بعمل العامل وجودا وعدما ، وإتقاناً وإهمالا ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾(٢) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان (٣١) وفى الرقاق (٣١) . ومسلم فى الإيمان (٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦) وفى الصيام (١٦٤) . والترمذى فى فضائل الجهاد (٤) . وابن ماجه فى الصيام (١) . والنسائى فى الصيام (٤٢) . والدارمى فى الصوم (٥٠) . والإمام مالك فى الصيام (٥٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٤٤٦) .

(٢) الأيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

فلا يمكن أبداً فى سنة الله وعدله الكونى أن يعمل إنسان عملاً صالحاً إلا كان لهذا العمل الصالح نتائجه وثمراته الموازنة له بالقسطاس المستقيم ، فمن زرع أرضاً فبمقدار ما يعطيها من العناية ، وما يوفر لها من أسباب الصلاحية تعطيه من ثمراتها كثرة وجودة ، ومن أهملها فلم يعطيها قسطها من العناية أو من البذر أو من العمل أو أهمل أسباب الصلاحية التى يجب أن توفر لمثلها تجاويه على ذلك بالنسبة نفسها قلة فى الثمرات وضعفاً .

وقل مثل ذلك فى الذى يخلص فى نواياه ، وفى الذى يسلك الطريق المستقيم فى الحياة ، وفى الذى يحفظ أماناته التى ائتمنه الله أو الناس عليها ، وفى الذى يأخذ ويؤدى ما أسند إليه من عمل أخذاً قويا وأداء قوياً ، يأخذ الأعمال بقوة ويؤديها بقوة - والقوة فى ذلك هى الصدق والثبات والعناية الواجبة التى هى حق كل عمل ، وسنادكل عمل ، وما به قوام كل عمل - إن لذلك العدل الإلهى الكونى نتائجه بالضرورة لا يمكن أن تنفك عنه أو يختل ميزان تقديرها .

وإذا كنا نرى صوراً غير ذلك فى الحياة بين الحين والحين فننسب بعضها إلى الحظ الحسن ، وبعضها إلى الحظ السيىء ، فإن علمنا هو القاصر ، ولو علمنا كل الظروف وتتبعناها فى حيدة ونصفة لآمنا بأن سنة الحكيم العليم وطرده لا تتخلف ولا تظلم ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

والخلاصة أن الله تعالى لا يمكن أن ينقص العاملين أو يبخسهم أعمالهم وأن الأعمال نفسها لها ثمراتها الطبيعية كالمقدمات والنتائج ، فكما أن الإنسان لا يمكن أن يزرع عنباً فيجنى رمانا كذلك لا يمكن أن يعمل ويسعى على أصول صحيحة سليمة ثم يضيع عمله سدى ويذهب سعيه هباء .

هذا فى الدنيا بحسب النواميس التى هيأ الله عليها الكون والناس والأعمال والثمرات .

أما فى الآخرة فقد ورد من الآثار والأخبار ما يدل على مثل ذلك ، فالله سبحانه وتعالى لا يمكن أن ينقص عبداً من عباده فى دار الجزاء خيرا فعله ، غير أنه قد يرد على الفاعل فعله ، فلا يقبله ، لأنه لم يفعله ابتغاء وجهه ، أو لم يأت به على الصورة التى رسمها له ، وحينئذ لا يكون هذا الرد نقصاً للعبد ، وظلماً لحقه ، فإن العبد فى الحقيقة لم يعمل الخير ، ولكن عمل ما صورته صورة الخير ، أوما اعتبره هو خيراً وإن لم يكن خيراً .

ومما ورد فى السنة من التبشير بإيفاء العاملين أجر أعمالهم يوم القيامة ما روى فى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ الذى جاء فيه : (فيقول الله عز وجل : ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فاخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيرا)[2] . ثم يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : اقرءوا إن شئتم : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة .... ﴾ الآية .

(١) الآية ٤٤ من سورة يونس .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٥) وفى الرقاق (٣٥ ، ٥١) وفى الفتن (١٣) وفى التوحيد (٢٤ ، ٣٦) . ومسلم فى الإيمان (١٤٧ - ١٤٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦) وفى الفتن (٥٢ ، ١١٦) . وأبو داود فى اللباس (٢٦) والترمذى فى الفتن (١٧) وفى جهنم (١٠) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الزهد (١٦ ، ٣٧) . والدارمى فى المقدمة (٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١) .

لا حظ للكافرين من ثواب الآخـــرة :

وهنا يرد سؤال كثيرا ما يراود القلوب : هل الحكم فى عدم الظلم والنقص من جزاء الأعمال فى الدنيا والآخرة عام يشمل المؤمنين والكافرين جميعاً ، فالكافر أيضاً لا يظلم مثقال ذرة ؟ أو هذا شىء خاص بالمؤمنين ؟

والجواب : أن الآية تقول : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾ فقد حذف المفعول الأول للفعل فأفاد العموم ، ودل على ذلك تصريح الآية الأخرى التى تقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ﴾ فقد ذكرت المفعولين وكان المفعول الأول هو الناس والناس لفظ يعم المؤمن والكافر .

وهذه الدلالة بالنسبة للجزاء الدنيوى - لا معارض لها نقلاً ولا عقلاً ، فقوانين الحياة وسننها الطبيعية لا تفريق فيها بين مؤمن وكافر ، فمن استقام لشىء وأعطاه حقه استقام ذلك الشىء وتجاوب معه على قدر استقامته له ، وما وفّى إليه من حقه ، لا فرق فى تلك السنة الكونية بين مؤمن وكافر .

أما فى الآخرة فالقرآن الكريم صريح فى أن أعمال الكافرين هباء ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ﴾[(1)] ، ﴿ أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾[(2)] .

وقد اختلف المروى من السنة فى هذا الشأن ، فجاء فى بعض الأحاديث أن المشرك الذى فعل الخير يخفف عنه العذاب يوم القيامة ، ولكن لا يخرج من النار ، فيكون التخفيف عنه هو جزاء حسناته ، وجاء فى حديث آخر : « إن الله لا يظلم مؤمنا حسنة يثاب عليها الرزق فى الدنيا ويجازى بها فى الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته فى الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يعطى بها خيراً »[(3)] .

وإذن فهناك قدر متفق عليه بين الحديثين ، وهو أن الكافر لا ينال فى الآخرة ثواباً على عمل عمله فى الدنيا ، وإن جاز أنه سيخفف عنه من العذاب .

ســر التفرقة بين المؤمن والكافـــر :

والتفرقة بين المؤمن والكافر على هذا النحو أو ذاك قد تثير سؤالاً آخر : هل الله تعالى يحابى المؤمنين على الكافرين ؟

والجواب عن هذا السؤال : أن الأمر فى ذلك جاء على تمام العدل نفسه ، وأن التفرقة بينهما مما يقتضيه العدل ، وذلك أن المؤمن يعمل الخير والصلاح مبتغيا جزاءين : جزاء الدنيا الذى هو نتيجة إحسان الأعمال وإقامتها على سنن الصلاح ، وجزاء الآخرة الذى هو الثواب فى الجنة ، فهو مؤمن بأن هناك إلها يجازى ، وأن

---

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٣٩ من سورة النور .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى (٣ : ١٢٥ ، ١٢٣ ، ٢٨٣) .

هناك داراً أخرى ، وأن بها جنة وناراً الجنة للمتقين ، والنار للعاصين ، أما الكافر فإنما يعمل ما يعمل ابتغاء الدنيا فقط وليس مؤمنا بالله رباً ، ولا بالآخرة داراً للجزاء ، حتى يتوجه فى عمله إلى قصد ذلك .

فالله يعطى كل إنسان الجزاء الذى تطلبه وابتغاه دون أن ينقصه منه شيئاً ، ومثل ذلك كمثل رجلين : أحدهما باع سلعة بثمن بعضه معجل وبعضه مؤجل ، فإذا لم يعط المؤجل كالمعجل كان قد بخس حقه ، والثانى باع سلعته بثمن معجل فقط فليس له حق فى أن يأخذ شيئاً بعد هذا المعجل ، ولا يقال أنه بخس ، ولا أن صاحبه حوبى ، فكل منهما نال حقه وحصل على ثمن سلعته كاملا . هذا تقريب للأمر وبيان للسر يتضح منه أنه لا محاباة لمؤمن ولا ظلم لكافر .

ثم إن الكافر الجاحد بربه وبدار الجزاء قد ارتكب بهذا الكفر أشنع الجرائم التى تنافى العقول ، وتكابر الدلائل الواضحة فى الكون ، ومثل هذا فى الواقع لا يُرجى منه خير ولا نفع ، ولا عمل صالح فى شئون الحياة ، ولو أنا أحصينا عدد الذين ينكرون الله ولا يؤمنون برسله ولا بالدار الآخرة لوجدناهم على حالة من الاضطراب فى حياتهم العملية وعلى نحو من الفساد النفسى الذى لا يكاد يصلح معه عمل .

فافتراض نجاح الملحد فى الحياة افتراض لصور قليلة ، ومع ذلك فإن للحياة قوانينها وقد طبقت عليه ، أما افتراض أن يعمل الملحد الجاحد بربه عملاً من أعمال الخير والبر والصلاح يستحق به ثواب الآخرة فهو افتراض لما لا يكاد يكون ، ولو أنه حدث لكان دليلاً على اتجاه إلى الإيمان بدأ يراود نفس صاحبه وحينئذ يكون من عدل الله معه أن يحببه فيما اتجه إليه ، ولذلك ورد أن أعمال الخير تختم لصاحبها بخاتمة الخير فلو علم الله من إنسان صدقاً وبراً واتجاهاً إلى فعل الخير ، وكان كافراً فإنه كثيراً ما يوفقه إلى الإيمان ، وهذا على السنة المستفادة من قوله تعالى : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾[1] ، ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[2] .

الإحسان فوق العدل :

الأمر الثانى من الأمرين المبشر بهما فى هذه الآية ، هو ما يدل عليه قوله تعالى : **﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾** .

وهذا إحسان فوق العدل ، ولا تنافى بينه وبين العدل ، فالعدل يقتضى ألا يظلم العامل مثقال ذرة من جزاء عمله ، وهذا ما قرره الجزء الأول من الآية ، وسبق بيانه ، ولكن العدل لا يقتضى منع الزيادة فى جزاء الخير على سبيل الإحسان ، كما لا يقتضى منع العفو عن السيئة على سبيل الغفران ، وإذن فمقتضى **﴿ لا يظلم ﴾** غير مناف لمقتضى **﴿ يضاعف ﴾** .

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على أن الله تعالى يعامل عباده بمقتضى الإحسان حين يجزى

---

(١) الآية ٧٥ من سورة مريم .
(٢) الآية ١٧ من سورة محمد .

بالحسنة ، ولا يزيدهم عما يستحقون حين يجزى بالسيئة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾[١] ، ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾[٢] .

وقوله تعالى فى هذه الآية الأخيرة ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ مثل قوله فى آية النساء ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وذلك أن عطاءه تعالى واسع غامر من جهتين ، فهو أولا يضاعف الحسنة فيجعلها حسنات عشراً ليعط الجزاء على عشر ، ثم يمنح بعد ذلك أضعافاً كثيرة من لدنه لمن يشاء ، فآية البقرة تقرر ذلك حيث تقول : ﴿ يضاعف لمن يشاء ﴾ فلا تذكر مفعول ﴿ يضاعف ﴾ كما قالت سورة النساء ﴿ يضاعفها ﴾ ولكن سورة النساء تكمل هذا المعنى فيقول : ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ فيدل قوله تعالى : ﴿ من لدنه ﴾ على أنه يضاعف غير مضاعفة الحسنة ، وأما تسمية ذلك أجراً فلأنه ملحق بأجر الحسنة تابع لها ، وإن كان ﴿ من لدنه ﴾ أى زيادة بدون مقابل .

معنى مضاعفة العذاب للمجرمين وتبديل السيئات حسنات للمؤمنين :

ويرد هنا سؤال : إذا كان الله يضاعف السيئات ويضاعف الحسنات فما معنى قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق آثاماً ❁ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ❁ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[٣] .

فإن فى هذه الآيات ﴿ يضاعف له العذاب ﴾ ومضاعفة العذاب تتنافى مع قاعدة : ﴿ من جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾ وفى هذه الآيات أيضاً : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ وتبديل السيئات حسنات شىء غير مضاعفة الحسنات المفهوم من قاعدة ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ ، ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ ؟

والجواب - كالسؤال - يتألف من نقطتين :

الأولى : أن « مضاعفة العذاب » لم ترد فقط فى هذه الآيات من سورة الفرقان وإنما وردت فى عدة مواضع من القرآن الكريم ، ونحن جميعاً هنا لنعرف مواقعها المعنوية فيساعدنا ذلك على إدراك مراميها ، وتبين السر فى تلك المضاعفة على الذنوب فيها .

ففى سورة هود : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة هم كافرون ❁ أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾[٤] .

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ٦٨ ، ٦٩ من سورة الفرقان .
(٤) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة هود .

وفى سورة الأحزاب : ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[١] .

وفيها أيضاً : ﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا * ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾[٢] .

وفى سورة الأعراف : ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾[٣] .

وفى سورة الإسراء خطاباً للرسول ﷺ : ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً ﴾[٤] .

وفى سورة (ص) : ﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفا فى النار ﴾[٥] .

وهذه المواضع كلها تتحدث عن نوع خاص من الذنوب ، هو الذنوب التى ليس حذرها قاصراً على المذنب فى نفسه ، ولكنه يتعداه إلى غيره ، لأنه قدوة أو متبوع أو متصد لإضلال غيره ، فعليه إثمان : إثم كسبه لنفسه ، وإثم احتمله بإفساد غيره .

وهذا هو شأن الصادّين عن سبيل الله ، الذين تذكرهم سورة هود ، وشأن نساء النبى اللواتى هن فى مركز القدوة ، وشأن السادة والكبراء الذين ضلوا وأضلوا كما حدثتنا عن هؤلاء وأولئك سورة الأحزاب ، وسورة الأعراف وسورة (ص) .

أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه وآله فهو القدوة العظمى ، وركونه إلى المشركين لو وقع فعلا - حاشاه - فقد صانه الله وعصمه - لكان أكبر كارثة تحق على الدعوة وتصيب صميم الإسلام ، فماذا يحدث لو ضعف حامل لواء الدعوة وسقط صريعاً أمام الشرك ؟ .

وإذن فالمضاعفة فى هذا كله إنما هى جزاء وفاق لذنب له صفة التكرر والتعدد وتجاوز النفس إلى الغير ، وهذا على ما جاء فى قوله ﷺ : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[٦] ، وما من جريمة قتل نفس بغير حق إلا كان على ابن آدم الأول وزر منها - يريد ابن آدم الذى قتل أخاه بغير الحق ، فكان أول من سن هذه السنة السيئة .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأحزاب .
(٢) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة الأحزاب .
(٣) الآيتان ٣٨ و ٣٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٦١ من سورة ص .
(٦) أخرجه مسلم فى العلم (١٥) وفى الزكاة (٦٩) . والنسائى فى الزكاة (٦٤) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١) .

وآية الفرقان تتحدث عن ذوى جرائم مزدوجة فتقول : ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ والإشارة إلى ما تقدم من دعوة إله آخر مع الله ، وقتل النفس بغير الحق ، والزنا ، وذلك أن الشرك ظلم للنفس بما فيه من إضلالها ، وسوء أدب فى حق الألوهية ، وقتل النفس فيه هدم لبناء أقامه الله ، وفيه اعتداء على حق المقتول فى الحياة ، والزنا فيه تلويث لشرف الزانى ، وتلويث لشرف من زنى بها ، فالمضاعفة جزاء وفاق فى هذا كله ، وليس فيها ظلم ولا تجاوز عن سنة المجازاة بالمثل .

النقطة الثانية من نقطتى الجواب عن السؤال الأول : أن تبديل السيئات حسنات جاء فى آية الفرقان جزاء على ثلاثة أشياء : التوبة والإيمان وعمل الصالحات ، وذلك قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .

فالتوبة تمحو الذنب ، والإيمان يمحو الشرك ويحجبه ، وعمل الصالحات حسنات منشأة تحل مكان السيئات الممحوة ، فبعد أن كان الشخص مشركا داعياً مع الله إلَهاً آخر ، مرتكباً للفواحش ، تاب من شركه ، فآمن وتاب من عمله واستأنف أعمالاً صالحة جديدة ، فحلت هذه مكان السابقة ، فهذا هو تبديل سيئاتهم حسنات ، وليس معناه أن الله يقلب السيئة نفسها ويغير حقيقتها إلى العكس ، فان الحقائق لا تغير ، وليس معناه كذلك أن الله يجزيهم عن السيئة جزاء الحسنة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولكن المعنى كما أوضحنا أن التوبة تمحو السيئات والعمل الصالح الجديد يأتى مكان العمل السيىء السابق .

وقد جاء بعد آية الفرقان هذه ما يشبه أن يكون إشارة إلى هذا وذلك قوله تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾(١) ، فمعنى ﴿ فمن تاب ﴾ ومن رجع عن ذنبه واستبرأ منه وتطهر ، ومعنى ﴿ وعمل صالحاً ﴾ استأنف جديداً من الصالحات بعد توبته وتطهره ، ومعنى ﴿ فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ فإنه يرجع بهذا إلى ربه رجوعاً قوياً مخلصاً ، فيكون أهلاً لأن يقبل ويتحول بذلك من حال إلى حال .

وفى مواضع أخرى من القرآن الكريم ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾(٢) ، ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية ﴾(٣) ، ﴿ وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾(٤) ، وفى ذلك تصريح بمعنى التبديل الذى ذكرناه من أنه وضع شىء مكان شىء ، لا قلب الحقائق ، ولا قلب الجزاء على الأعمال .

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٩٥ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٠١ من سورة النحل .
(٤) الآية ٥٥ من سورة النور .

مكـــانة الصـــادق المعصـــوم

فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (اقرأ على) ، فقلت : يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : (نعم إنى أحب أن أسمعه من غيرى) ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ فقال (حسبك الآن) ، فإذا عيناه تذرفان[1] .

أما الفاء فى قوله تعالى : ﴿ فكيف ﴾ فإنها فاء الفصيحة التى أعربت عن شرط مقدر ، فيصير المعنى : إذا كنا لا نظلم مثقال ذرة فكيف الحال إذا جئنا من كل أمة بشهيد يشهد على أعمال أمته ، وجئنا بك يا محمد شهيداً على هؤلاء كما فى قوله جل شأنه : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم مِّنْ أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾[2] .

إن منطق العدالة الإلهية قد بلغ مداه ، إذ لا ظلم اليوم مع إقامة الشهادة على أعمال الأمم : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[3] .

﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴾ و﴿ لو ﴾ هنا تفيد التمنى ، كما أنها تؤول ما بعدها بمصدر ، فكأنهم ودوا وتمنوا تسوية الأرض بهم كما فى قوله جل شأنه : ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا ﴾[4] .

إن الله جل شأنه وصف المؤمنين بقوله : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾[5] . وبقوله : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[6] .

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤ : ٩) وفى فضائل القرآن (٣٢ ، ٣٥) . ومسلم فى المسافرين (٢٤٧ ، ٢٤٨) . وأبو داود فى العلم (١٣) . والترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ١١) .

(٢) الآية ٨٩ من سورة النحل .

(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٤٠ سورة النبأ .

(٥) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة المعارج .

(٦) الآيات ٥٧ - ٦١ من سورة المؤمنون .

تلك حال المؤمنين خوف وإشفاق ووجل ، حتى كان أبو بكر رضى الله عنه يقول : يا ليتنى شعرة فى صدر رجل مؤمن . وكان عمر يقول : ليت أمى لم تلدنى ليتها كانت عقيماً . فماذا نقول نحن ؟ لا يسعنا إلا أن نقول : اللهم عاملنا بفضلك ، وعاملنا بما أنت أهله ، ولا تعاملنا بما نحن أهله ، فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ، ولا ينفع التمنى من هؤلاء الذين تمنوا أن تسوى بهم الأرض ، لأن اليوم لا تقبل فيه معذرة ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ فإنه تعالى عليم بذات الصدور : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٢] ، سبحانه علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

جاء رجل إلى ابن عباس فقال له : سمعت الله عز وجل يقول - يعنى إخباراً عن المشركين يوم القيامة - أنهم قالوا : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ، وقال فى الآية الأخرى : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ فقال ابن عباس : أما قوله : ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا : تعالوا فلنجحد ، فقالوا : والله ربنا ما كنا مشركين ، فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم ، ﴿ ولا يكتمون الله حديثا ﴾ .

أحكام تتعلق بالصلاة والطهارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

المفردات : **الغائط** : المنخفض من الأرض كالوادى ، وأهل البادية والقرى الصغيرة يقصدونه عند قضاء الحاجة للستر والاستخفاء عن الناس . **ملامسة النساء** : الإفضاء إليهن . **تيمموا** : اقصدوا . **الصعيد** : وجه الأرض . **الطيب** : الطاهر . **العفو** : ذو العفو . **العفو عن الذنب** : محوه وجعله كأن لم يكن . **الغفور** : ذو المغفرة . **المغفرة** : ستر الذنوب بعدم الحساب عليها .

ذكر الله تعالى مشهدا من مشاهد القيامة فى قوله : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ﴾ فهذا مقام يقوم العبد فيه

---

(١) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .
(٢) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

لله رب العالمين ، وفى هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ مقام آخر يقوم العبد فيه لله رب العالمين ، فلا بد أن يكون حاضر القلب والعقل ، فقد مدح الله المؤمنين بقوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾(١) .

وهل الخشوع إلا حضور القلب وسكون الجوارح ؟ فلو حضر قلبك لسكنت جوارحك .

قال الحسن رضى الله عنه : من أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ، ومن أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يكلمنا ونكلمه ويحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه » .

وكان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال »(٢) .

إذ الصلاة كهف المؤمن ، ومفتاح الجنة ، وأول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله .

وقد قيل لحاتم الأصم : كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ فقال رضى الله عنه : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، وأن الله مطلع على ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا صليت لا أدرى أقبلها الله أم ردها على .

وقد نزلت هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ قبل أن ينزل تحريم الخمر قاطعا فى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾(١) .

ولما كانت هذه الآية التى نهى الله فيه المؤمنين أن يقربوا الصلاة حالة السكر ، لما كانت تتعلق بأحكام شرعية ، فإننا نذكر هنا ما ذكره الفقهاء من أحكام عملية .

قال الفقهاء : لا تصلوا حال السكر حتى تعلموا قبل الشروع فيها ما تقرأونه وماستعملونه ، ذاك أن حال السكر لا يتأتى معها الخشوع والخضوع والحضور مع الله بمناجاته بكتابه ، وذكره ودعائه ، وهذا الخطاب موجه إلى المسلمين قبل السكر بأن يجتنبوه إذا ظنوا أنهم سيصلون ، ليحتاطوا ، فيجتنبوه فى أكثر الأوقات ، وقد كان هذا تمهيدا لتحريم السكر تحريماً باتاً لا هوادة فيه ، إذ من ينفى أن يجىء عليه وقت الصلاة وهو سكران يترك الشرب عامة النهار وأول الليل لتفرق الصلوات الخمس فى هذه المدة ، فلم يبق للسكر إلا وقت النوم من بعد العشاء إلى السحر ، فيقل الشراب لمزاحمة النوم له ، وأول النهار من صلاة الفجر إلى وقت

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب (٧٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٣٦٤ ، ٣٧١) .

(٣) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

الظهيرة وقت الكسب والعمل لأكثر الناس ، ويقل أن يسكر فيه إلا أصحاب البطالة والكسل . وقد ورد أنهم كانوا بعد نزولها يشربون بعد العشاء فلا يصبحون إلا وقد زال السكر . وصاروا يعلمون ما يقولون .

روى أبو داود والترمذى عن على كرم الله وجهه قال : « صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً ، فدعانا وشهانا من الخمر ، فأخذت منا وحضرت الصلاة فقدمونى ، فقرأت (قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون . ونحن نعبد ما تعبدون)[1] فنزلت الآية . وروى ابن جرير عن على كرم الله وجهه أن الإمام كان يومئذ عبد الرحمن ، وأن الصلاة صلاة المغرب - وكان ذلك قبل أن تحرم الخمر .

ويفترق المعنى بين الأسلوبين ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى** ﴾ ولا تقربوا الصلاة سكارى إذ الأول يتضمن النهى عن السكر الذى يخشى أن يمتد إلى وقت الصلاة ، فيفضى إلى أدائها فى أثنائه .

وخلاصة المعنى عليه أحذروا أن يكون السكر وصفا لكم عند حضور الصلاة ، فتصلوا وأنتم سكارى ، فامتثال هذا النهى إنما يكون بنهى السكر فى وقت الصلاة وفيما يقرب منها ، والثانى يتضمن النهى عن الصلاة حال السكر فحسب ، وأما نهيهم عن الصلاة جنبا فلا يتضمن نهيهم عن الجنابة قبل الصلاة لأنها من سنن الفطرة وإنما ينهاهم عن الصلاة فى أثنائها ، حتى يغتسلوا ، ولهذا قال : ﴿ **جنبا** ﴾ فى أى حال إلا حال كونكم ﴿ **عابرى سبيل** ﴾ أى مجتازين الطريق .

وقد ورى أن رجالا من الأنصار كانت أبوابهم فى المسجد ، وكان يصيبهم الجنابة ، ولا يجدون ممراً إلا فيه ، فرخص لهم فى ذلك ، ولم يأمر النبى ﷺ بسد تلك الأبواب والكوى إلا فى آخر عمره الشريف ، ولم يستثن إلا خوخة أبى بكر رضى الله عنه . والخوخة الكوة والباب الصغير ﴿ **حتى تغتسلوا** ﴾ أى لا تقربوا الصلاة جنبا إلى أن تغتسلوا ، إلا ما رخص لكم فيه من عبور السبيل إلى المسجد .

وحكمة الاغتسال من الجنابة : أن الجنابة تحدث تهيجا فى الأعصاب فيتأثر البدن كله ، ويحدث فتور وضعف فيه ، يزيله الاغتسال بالماء ، ومن ثم ورد فى الحديث : « إنما الماء ند الماء »[2]. رواه مسلم .

والخلاصة : أن الدين طلب الصلاة حال العلم والفهم وتدبر القرآن والذكر ، وذلك يتوقف على الصحو وترك السكر ، كما طلب أن يكون الجسم نظيفاً نشيطاً وذلك لا يكون إلا بإزالة الجنابة . ولما كانت الصلاة فريضة موقوته لا هوادة فيها لأنها تذكر المرء ربه وتعده للتقوى ، وكان الاغتسال من الجنابة يتعسر فى بعض الحالات ويتعذر فى بعضها الآخر رخص سبحانه لنا فى ترك الماء والاستعاضة عنه بالتيمم ، فقال : ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحدكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم** ﴾ المراد بالمرض المرض الذى يخاف زيادته باستعمال الماء كبعض الأمراض الجلدية والقروح كالحصبة والجدرى أو نحو ذلك ، والسفر يشمل الطويل والقصير ، والمراد

---

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ١٢) .

(٢) أخرجه مسلم فى الحيض (٨١) . وأبو داود فى الطهارة (٨١) . والنسائى فى الطهارة (١١٣) . وابن ماجه فى الطهارة (١١٠) . والدارمى فى الوضوء (٧٤) . والإمام أحمد فى (٣ : ٢٩ ، ٣٦) وفى (٥ : ١١٥ ، ١١٦ ، ٤١٦ ، ٤٢١) .

بالمجىء من الغائط الحدث الأصغر بخروج شىء من أحد السبيلين (القبل والدبر) وملامسة النساء : غشيانهن .

ففى هذه الحالات (المرض - السفر - فقد الماء عقب الحدث الأصغر الموجب للوضوء والحدث الأكبر الموجب للغسل) اقصدوا وتحروا صعيدا طيبا : أى وجها طاهرا من الأرض لا قذارة فيه ولا أوساخ ، فامسحوا بوجهكم وأيديكم منه ثم صلوا .

والخلاصة : أن حكم المريض والمسافر إذا أراد الصلاة كحكم المحدث حدثا أصغر أو ملامسة النساء ولم يجد الماء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط ، قاله الأستاذ الإمام .

لكن المعروف فى المذاهب الأربعة أن شرط التيمم فى السفر فقد الماء ، فلا يجوز مع وجودة ، وهنا بخلاف ظاهر الآية . ومن تأمل فى رخص السفر التى منها قصر الصلاة ، وإباحة الفطر فى رمضان ، لا يستنكر أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء مع وجود الماء ، وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين ، فالمشاهد أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد للماء فى هذا الزمان الذى سهلت فيه وسائل السفر فى السكك الحديدية والبواخر ، فكيف تكون المشقة للمسافرين على ظهور الإبل فى مغاور الحجاز وجبالها ؟ فأشق ما يشق فى السفر الغسل والوضوء ، وإن كان الماء حاضراً مستغنى عنه ، ففى البواخر يوجد الماء وتوجد الحمامات للاغتسال بالماء الساخن والماء البارد ، ولكنها خاصة بالأغنياء الذين يركبون فى الدرجة الأولى والثانية ، وهؤلاء الأغنياء منهم من يصيبه دوار شديد يتعذر منه الاغتسال ، أو خفيف يشق معه الاغتسال ولا يتعذر ، فإذا كانت هذه السفن التى يوجد فيها الماء على هذه الحال يتعسر فيها الاغتسال أو يتعذر فكيف يكون الاغتسال فى قطر السكك الحديدية ، أو فى قوافل الجمال والبغال ؟ .

روى أن هذه الآية نزلت فى بعض أسفار النبى ﷺ ، وقد انقطع عقد لعائشة ، فأقام النبى ﷺ يلتمسه والناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فلما نزلت وصلوا بالتيمم جاء أسير بن الحضير إلى مضرب عائشة فجعل يقول ما أكثر بركتكم يا آل أبى بكر . وفى رواية يرحمك الله يا عائشة ما نزل بك أمر تكرهينه إلا جعل الله تعالى فيه للمسلمين فرجا .

ثم ذكر منشأ السهولة واليسر فقال : ﴿ **إن الله كان عفوا غفورا** ﴾ العفو هنا التيسير والسهولة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو** ﴾(١) وقوله ﷺ : « **قد عفوت عن صدقة الخيل والرقيق** »(٢) ، أى اسقطتها تيسيرا عليكم ، ومن عفوه وتسهيله أن أسقط فى حال المرض والفر وجوب الوضوء والغسل .

وفى ذلك إيماء إلى أن ما كان من الخطأ فى صلاة السكارى كقولهم : قل يا أيها الكافرون أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون - مغفوراً لهم لا يؤاخذون عليه .

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزكاة (٤ ، ١٥) . وأبو داود فى الزكاة (٥ ، ١١) . والإمام مالك فى الزكاة (٣٩ ، ٤٠) وفى الجهاد (٢١) . والإمام أحمد فى (١ : ١٨ ، ٩٢ ، ١١٣ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨) .

قال السيد حسن صديق خان فى شرحه « الروضة الندية » : قد كثر الاختباط فى تفسير هذه الآية : ﴿ **وإن كنتم مرضى أو على سفر** ﴾ الخ ، والحق أن قيد عدم وجود الماء راجع إلى قوله : ﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء** ﴾ فتكون الأعذار ثلاثة : السفر والمرض وعدم وجود الماء فى الحضر ، وهذا ظاهر على قول من يقول : إن القيد إذا وقع بعد جمل متصلة كان قيداً لآخرها ، وأما على قول من يقول إنه يكون قيداً للجميع إلا أن يمنع مانع فكذلك أيضا لأنه قد وجد المانع هنا من تقييد السفر والمرض بعدم وجود الماء ، وهو أن كل واحد منها عذر مستقل غير هذا الباب كالصوم ، ويؤيد هذا التيمم التى وردت مطلقة وغير مقيدة بالحضر . أ هـ .

ومنه تعلم أن رأيه كرأى الأستاذ الإمام من أن السفر وحده عذر كاف فى التيمم وجد الماء أو لم يوجد .

حـديث عن أهـل الكتـاب

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ **ألم تر** ﴾ أى ألم تنظر ، ﴿ **نصيبا** ﴾ حظا ، ﴿ **السبيل** ﴾ الطريق القويم ، ﴿ **وليا** ﴾ أى يتولى شئونكم ، ﴿ **نصيرا** ﴾ معينا يدفع شرهم عنكم . ﴿ **من الذين هادوا** ﴾ هم اليهود ، ﴿ **غير مسمع** ﴾ يحتمل أن يكون المعنى غير مسمع مكروها ، أن يكون غير مقبول منك ولا مجاب إلى ما تدعو إليه ، ﴿ **وراعنا** ﴾ إما بمعنى ارقبنا وانظرنا نكلمك ، وإما بمعنى كلمة عبرانية كانوا يتسابون بها ، وهى (راعينا) ، ﴿ **ليا بألسنتهم** ﴾ أى فقال بها وتحريفا . طعنا فى الدين : قدحاً فيه ، ﴿ **أقوم** ﴾ أعدل وأسد ، ﴿ **إلا قليلا** ﴾ أى إلا قليلا من الايمان لا يعبأ به .

بعد أن ذكر الله سبحانه فى سابق الآيات كثيرا من الأحكام الشرعية ، ووعد فاعلها بجزيل الثواب ، وأوعد تاركها بشديد العقاب ، انتقل هنا إلى ذكر حال بعض الأمم الذين تركوا أحكام دينهم وحرفوا كتابهم ، واشتروا الضلالة بالهدى ، لينبه الذين خوطبوا بالأحكام المتقدمة إلى أن الله مهيمن عليهم كما هيمن على من قبلهم ، فإذا هم قصروا أخذهم بالعقاب الذى رتبه على ترك أحكام دينه فى الدنيا والآخرة .

والمؤمنون بالله حقا بعد أن سمعوا الوعد والوعيد المتقدمين لا بد أن يأخذوا بهذه الأحكام على الوجه الموصل إلى إصلاح الأنفس ، وذلك هو الأثر المطلوب منها ، ولن يكون ذلك إلا إذا أخذت بصورها ومعانيها ، لا بأخذها بصورها الظاهرة فحسب .

وقد اكتفى بعض الأمم من الدين ببعض رسومه الظاهرة فقط ، كبعض اليهود الذين كانوا يكتفون ببعض القرابين وأحكام الدين الظاهرة ، وهذا لا يكفى فى اتباع الدين والقيام به على الوجه المصلح للنفوس كما أراده الله ، فأرشدنا سبحانه وتعالى إلى أن عمل الرسوم الظاهرة فى الدين كالغسل والتيمم لا يغنى عنهم شيئا إذا لم يطهروا القلوب حتى ينالوا مرضاته ، ويكونوا أهلا لكرامته ، ولا يكون حالهم كحال بعض من سبقهم من الأمم .

﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾ أى ألم تنظر إلى هؤلاء الذين أعطوا طائفة من الكتاب الإلهى ، كيف حرموا هدايته واستبدلوا بها ضدها ، فهم يختارون الضلالة لأنفسهم ، ويريدون أن تضلوا أيها المؤمنون طريق الحق القويم كما ضلوا هم ، فهم دائبون على الكيد لكم ليردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، والتعبير بالشراء دون الاختيار للإيماء إلى أنهم كانوا فرحين بما عملوا ظانين أن الخير كل الخير فيما صنعوا ، والتعبير بالنصيب يدل على أنهم لم يحفظوا كتابهم كله إذ هم لم يستظهروه زمن التنزيل كما حفظ القرآن ، ولم يكتبوا منه نسخا متعددة فى العصر الأول كما فعلنا ، حتى إذا ما فقد بعضها قام مقامه بعض آخر ، بل كان عند اليهود نسخة من التوراة هى التى كتبها موسى عليه السلام فقدت . ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ **فنسوا حظا مما ذكروا به** ﴾ .

والخلاصة : أنهم لم يأخذوا الكتاب كله ، بل تركوا كثيرا من أحكامه لم يعملوا بها ، وزادوا عليها ، والزيادة فيه كالنقص منه ، فالتوراة تنهاهم عن الكذب وإيذاء الناس وأكل الربا ، وكانوا يفعلون ذلك ، وزاد لهم علماؤهم ورؤساؤهم كثيرا من الأحكام والرسوم الدينية فتمسكوا بها ، وهى ليست من التوراة ، ولا مما يعرفونه عن موسى عليه السلام .

فالذى لم يعمل به التوراة قسمان : أحدهما ما أضاعوه ونسوه ، وثانيهما ما حفظوا حكمه وتركوا العمل به ، وهو كثير أيضا ﴿ **والله أعلم بأعدائكم** ﴾ أى والله أعلم منكم بمن هو عدوكم ، فأنتم تظنون فى المنافقين أنهم منكم وماهم منكم ، فهم يكيدون لكم فى الخفاء ، ويغشونكم فى الجهر ، فيبرزون الخديعة فى معرض النصيحة ، ويظهرون لكم الولاء والرغبة والنصرة ، والله أعلم بما فى قلوبهم من العداوة والبغضاء .

﴿ **وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً** ﴾ فهو الذى يرشدكم إلى ما فيه خيركم وفلاحكم ، وهو الذى ينصركم على أعدائكم بتوفيقكم لصالح العمل والهداية لأسباب النصر من الاجتماع والتعاون ، وسائر الوسائل التى تؤدى إلى القوة ، فلا تطلبوا الولاية من غيره ولا النصرة من سواه ، وعليكم باتباع السنن التى وصفها فى هذه الحياة ، ومنها عدم الاستعانة بالأعداء الذين لا يعملون إلا لمصالحهم الخاصة كاليهود وغيرهم .

﴿ من الذين هادوا ﴾ هذا بيان للمراد من الذين أوتوا الكتاب بأنهم يهود ونصارى ، ثم بين المراد من اشترائهم الضلالة بالهدى فقال: ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ التحريف يطلق على معنيين : أحدهما تأويل القول بحمله على غير معناه الذى وضع له كما يؤولون البشارات التى وردت فى النبى ﷺ ، ويؤولون ما ورد فى المسيح ويحملونه على شخص آخر ، ولا يزالون ينتظرونه إلى اليوم ، وثانيهما أخذ كلمة أو طائفة من الكلم من وضع من الكتاب ووضعها فى موضع آخر ، وقد حصل هذا فى كتب اليهود ، خلطوا ما يؤثر عن موسى بما كتب بعده بزمن طويل ، وكذلك ما وقع فى كلام غيره من أنبيائهم .

واعترف بهذا بعض العلماء من أهل الكتاب ، وقد كانوا يقصدون بهذا التحريف الإصلاح فى زعمهم ، وسبب هذا النوع من التحريف أنه وجدت عندهم قراطيس متفرقة من التوراة ، بعد فقد النسخة التى كتبها موسى عليه السلام ، وأرادوا أن يؤلفوا بينها فجاء فيها ذلك الخلط بالزيادة والتكرار .

﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ﴾ أى يقول هؤلاء اليهود للنبى ﷺ : سمعنا قولك ، وعصينا أمرك ، وقد روى عن مجاهد أنهم قالوا للنبى ﷺ : سمعنا قولك ولكن لا نطيعك ، وكذلك كانوا يقولون له : ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ يدعون عليه ، على معنى لا أسمعك الله فى الموضع الذى يقول فيه المتأدبون للمخاطبين : لا سمعت أذى ، أولا سمعت مكروها .

وكذلك كانوا يقولون له : راعنا ، وقد روى أن اليهود كانوا يتسابّون بكلمة (راعينا) العبرانية ، فسمعوا بعض المؤمنين يقولون للنبى ﷺ : راعنا ، من المراعاة ، فافترضوها ، وصاروا يلوون ألسنتهم بالكلمة ويصرفونها إلى المعنى الآخر .

﴿ ليًّا بألسنتهم وطعنا فى الدين ﴾ أى هم يلوون ألسنتهم فيجعلونها فى الظاهر راعنا ، وبلىّ اللسان وإمالته (راعينا) قصدا منهم للسباب والشتم والسخرية ، أو جعله راعيا من رعاة الغنم ، أو من الرعونة ، ومن تحريف اللسان وليّه خطابهم للنبى ﷺ وتحيته بقولهم : (السام - الموت - عليكم) يوهمون بقتل اللسان وجمته أنهم يقولون له (السلام عليكم) وقد ثبت هذا فى صحيح الأحاديث كما ثبت أن النبى ﷺ بعد أن علم عنهم ذلك كان يجيبهم بقوله (وعليكم) أى كل أحد يموت .

﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ﴾ أى ولو أنهم قالوا سمعنا قولك ، وأطعنا أمرك ، لعلمهم بصدقك ، ولوجود الأدلة والبينات المتظاهرة على ذلك ، وكذلك لو قالوا : اسمع منا ما نقول وانظرنا : أى أمهلنا وانتظرنا ولا تعجل علينا حتى نتفهم عنك ما تقول ، لكان ذلك خيراً لهم وأصوب مما قالوه ، لما فيه من الأدب والفائدة وحسن العاقبة .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال : ﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم ﴾ أى ولكن خذلهم الله وأبعدهم عن الطاعة بسبب كفرهم ، إذ قضت سنة الله فى البشر بأن الكفر يمنع صاحبه من التفكر والتروى والأدب فى الخطاب ، ويجعله بعيدا من الخير والرحمة ، فلا يمت إليهما بسبب ، ولا يصل إليهما برحم ولا نسب .

﴿ فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ أى فهم لا يؤمنون إلا إيمانا قليلاً لا يعتد به . فهو لا يصلح عملا ولا يطهر نفساً ، ولا يرقى عقلاً ، ولو كان إيمانهم بنبيهم وكتابهم إيماناً كاملاً لهداهم إلى التصديق بمن جاء مصدقاً لما معهم من الكتاب ، وبين لهم ما نسوا منه ، وما حرفوا فيه ، كما جاءهم بمكارم الأخلاق والنظم الكاملة فى الاجتماع والتشريع ، وبما إن اتبعوه كانوا على الهدى والرشاد وعلى الحق والسداد .

توجيه وتحذير

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

المفــــردات : ﴿ **الكتاب** ﴾ التوراة ، ﴿ **نطمس** ﴾ الطمس : إزالة الأثر بمحوه أو إخفائه كما تطمس آثار الدار وأعلام الطرق إما بأن تنقل حجارتها وإما بأن تسفوها الرياح ، ومنه الطمس على الأموال فى قوله تعالى : ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾[١] أى أزلها وأهلكها ، والطمس على الأعين فى قوله تعالى : ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم** ﴾[٢] إما إزالة نورها وإما محو حدقتها ، والوجه تارة يراد به الوجه المعروف ، وتارة وجه النفس وهو ما تتوجه إليه من المقاصد ، كما قال تعالى : ﴿ أسلمت وجهى لله ﴾[٣] وقال : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾[٤] وقال : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾[٥] .

والأدبار واحدها دبر ، وهو الخلف والقفا ، والارتداد : هو الرجوع إلى الوراء ، إما فى الحسيات وإما فى المعانى ، ومن الأول الارتداد والفرار فى القتال ، ومن الثانى قوله : ﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم** ﴾[٦] ، ﴿ **نلعنهم** ﴾ نهلكهم ، ﴿ **كما لعنا أصحاب السبت** ﴾ أى كما أهلكنا أصحاب السبت ، وقيل مسخهم الله وجعلهم قردة وخنازير كما أخرجه ابن جرير عن الحسن .

هذا خطاب من الله تبارك وتعالى إلى أهل الكتاب ، يأمرهم فيه سبحانه أن يؤمنوا بالكتاب الذى نزله على خاتم أنبيائه محمد ﷺ ، إذ هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وهو الصدق المطلق الذى لا تعتريه شبهة ، ولا تشوبه شكوك ، وهو مصدقا لما جاء فى الكتب السماوية تصديقا يدل على أنه من عند الله وحده ، فآمنوا يا أهل الكتاب بما فى هذا القرآن من عقائد وشرائع وشعائر .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة يونس .
(٢) الآية ٦٦ من سورة يس .
(٣) الآية ٢٠ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٢٢ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٣٠ من سورة الروم .
(٦) الآية ٢٥ من سورة محمد .

قوله تعالى : ﴿ **من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها** ﴾ قال بعضهم : معناه من قبل أن نطمس وجوها ، فطمسها هو ردها إلى الأدبار ، وجعل أبصارهم من ورائهم ، ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن نطمس وجوها فلا نبقى لها سمعا ولا بصرا ولا أنفا ، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار .

وقال العوفى عن ابن عباس فى الآية وهى ﴿ **من قبل أن نطمس وجوها** ﴾ وطمسها أن تعمى .

﴿ **فنردها على أدبارها** ﴾ يقول نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه .

قال مجاهد من قبل أن نطمس وجوها عن صراط الحق فنردها على أدبارها أى فى الضلال .

قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عباس والحسن نحو هذا .

وقوله تعالى : ﴿ **أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت** ﴾ يعنى الذين اعتدوا فى سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير . قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ قل هل أنبئكم بشرٍّ من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضلُّ عن سواء السبيل ﴾[٢] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾[٣] ، وقال جل جلاله : ﴿ **فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾[٤] .

قوله جل شأنه : ﴿ **وكان أمر الله مفعولاً** ﴾ المراد بالأمر هنا الأمر التكوينى ، أى إذا أراد الله شيئا فهو بالغ أمره ﴿ إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٥] ، ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾[٦] .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٦٠ من سورة المائدة .
(٣) الآية ١٦٣ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٦٦ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٦) الآية ١١ من سورة الرعد .

آية مبشـــــــرة

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾

من الآيات المبشرات التى وردت فى سورة النساء ، وفيها يخبر العلى الكريم أنه لا يغفر لمن لقيه مشركاً ، وذلك لأن الشرك ذنب من الذنوب التى تحجب المغفرة عن العبد ، أما ما دون ذلك فإن الله يغفر لمن يشاء ، فالكل محكوم بمشيئة الله ، والذنب الوحيد الذى لا يغفر هو الشرك ، إذ أن من يشرك بالله فقد افترى واقترف إثما متناهيا فى الإجرام ، إذ أن التوحيد هو الفطرة الصافية ، وكل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أويمجاسنه أو ينصرانه .

وأنت إذا سألت العالم كله من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان . ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾[1] . جاء ت هذه الآية بعد قوله جل شأنه : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾[2] .

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقد وردت فى معنى هذه الآية الكريمة أحاديث نورد بعضها فيما يلى :

الحديث الأول : روى الإمام أحمد بإسناده عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « الدواوين عند الله ثلاثة ، ديوان لا يعبأ الله به شيئا ، وديوان لا يترك الله منه شيئا ، وديوان لا يغفره الله . فأما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ الآية . وقال : ﴿ أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ﴾ وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئا فظلم العبد لنفسه فيما بينه وبين الله من حرم يوم تركه أو صلاة فإن الله لا يغفر ذلك ويتجاوز إن شاء ، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئا فظلم العباد بعضهم بعضاً ، القصاص لا محالة » .

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .
(٢) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ من سورة الإسراء .

الحديث الثانى : روى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله ، وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئاً : فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك ، وقال : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ، وأما الظلم الذى يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وأما الظلم الذى لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدين لبعضهم من بعض » .

الحديث الثالث : روى الإمام أحمد بإسناده عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً »[(١)] .

الحديث الرابع : روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله يقول : يا عبدى ما عبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان منك ، يا عبدى إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لقيتك بقرابها مغفرة)[(٢)] .

الحديث الخامس : روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ثلاثاً ، ثم قال فى الرابعة على رغم أنف أبى ذر)[(٣)] .

من قبائح القوم

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

المفردات : **الفتيل** : ما يكون فى شق نواة التمر مثل الخيط ، وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير كما يضرب بمثقال الذرة ، قال الراغب : **الإثم** والآثام اسم للأفعال المبطئة عن الثواب : أى عن الخيرات التى يثاب المرء عليها . وقد يطلق الإثم على ما كان ضارا .

من شر ما يبتلى به المرء أن يزكى نفسه ، إذ فى تزكيته نفسه ما يشعر بالأنانية والاعتداد بالذات ومركب النقص . قال جَلّ شأنه : ﴿ إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذا أنتم أجنة فى

(١) أخرجه أبو داود فى الفتن (٦) . والنسائى فى التحريم (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ٩٩) .
(٢) أخرجه مسلم فى الذكر (٢٢) . والترمذى فى الدعوات (٩٨) . وابن ماجه فى الأدب (٥٨) . والدارمى فى الرقاق (٧٢) ، والإمام أحمد فى (٥ : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠) .
(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (١) وفى بدء الخلق (٦) وفى اللباس (٢٤) وفلا الاستئذان (٣٠) وفى الرقاق (١٣ ، ١٤) وفى التوحيد (٣٣) . ومسلم فى الإيمان (١٥٣ ، ١٥٤) وفى الزكاة (٣٢ ، ٣٣) . والترمذى فى الإيمان (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٥٢ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٨٥) وفى (٦ : ١٦٦ ، ٤٤٢) .

بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾[١] . وكان رسول الله ﷺ يقول : (رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه) .

وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : ياليتنى شعرة فى صدر رجل مؤمن .

وكان الفاروق يقول وهو على فراش الموت : ولا تزكونى بما ليس فىَّ فإن الله أعلم بحالى منكم .

وقد ألقى القرآن الكريم باللائمة على قوم زكوا أنفسهم فقالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾[٢] ، ﴿ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة ﴾[٣] . ورد عليهم القرآن فى الآية الأولى : ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وفى الآية الثانية بقوله : ﴿ قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ﴾ وهذا استفهام تقريرى موجه إلى كل من يعقل الخطاب .

﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ أى اعلم أيها المخاطب أن من قبائح هؤلاء القوم أنهم يدَّعون التزكية والطهر لأنفسهم ، وكان عليهم أن يوقنوا بأن الله يزكى من يشاء ، إذ هو العليم بذات الصدور ، الخبير بدقائق الأمور .

وقد بلغ من أدب أحد الصالحين أن رجلا أثنى عليه ، فردَّ عليه العبد الصالح بتلك الكلمات النورانية قائلا : « اللهم اجعلنى خيراً مما يظنون ولا تؤاخذنى بما يقولون واغفر لى ما لا يعلمون » . قال تبارك اسمه ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾[٤] .

ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ ولا يظلمون فتيلا ﴾ . وهذا مظهر من مظاهر العدل . ومن أسمائه تعالى أنه الحكم العدل . فهؤلاء القوم مع كثرة ما اقترفوه من جرائم ومخالفات وجنايات فإن الله مع ذلك لا يظلمهم شيئا ، ولو كان هذا الشىء كالخيط فى شق النواة ، حتى أن الله تعالى يخفف العذاب عن قوم أتوْا أفعالا ينفع الله بها العباد فى الدنيا ، ولكنهم ماتوا على الكفر : يخفف العذاب عن أبى طالب لكفالته رسول الله ﷺ يوم مات جده عبد المطلب وهو ابن ثمانى سنوات ووقوفه كجبهة دفاع خارجية ، يقول للرسول الكريم : يا ابن أخى قل ما شئت فو الله لا أسلمك إليهم أبدا :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسَّد فى التراب دفينا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

قال ﷺ : (أخف الناس عذابا يوم القيامة أبو طالب) .

كما يخفف العذاب عن أبى لهب يوم الأثنين ، ذلك لأنه لما بُشر بمولد الهادى البشير ، وكان ذلك يوم

(١) الآية ٣٢ من سورة النجم .
(٢) الآية ١٨ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٨٠ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢١ من سورة النور .

الاثنين أعتق جاريته ثويبة التى زفت إليه هذا النبأ السعيد . قال أحد الصالحين فى أبى لهب :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه … وتبت يداه فى الجحيم مخلدا
أتى أنه فى يوم الاثنين دائما … يخفف عنه للسرور بأحمد
فما الظن بالعبد الذى كان عمره … بأحمد مسرورا ومات موحدا

وقد كانت أول جرعة لبن نزلت فى جوف المصطفى من جارية عمه أبى لهب ، وكان عتقها إيذانا للعالم أجمع بأن هذا المولود السعيد هو محرر العبيد . ولقد كان ذلك كذلك .

فمبعوث العناية الإلهية هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة . جعل من رعاة الغنم زعماء للأمم . ومن عباد الحجر قادة للبشر :

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

أنت الذى قاد الجيوش محطما … عهد الضلال وأدَّب السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا … سنن الشريعة فارتقوا سعداء

قوله تعالى : ﴿ **انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا** ﴾ هذا تعقيب على ما اقترفه القوم من جرائم وما اقترفوه من كذب على الله . فقد قال بعضهم : عزير ابن الله ، وقال آخرون : المسيح ابن الله . وقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه . فانظر أيها المخاطب وتعجب ! كيف يفترون على الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم ، وكفى بالكذب على الله إثما وبهتانا ، وسقوطا إلى الهاوية ، وعذابا أليما .

قال تعالى : ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ﴾[1] ، وقال جل شأنه : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾[2] . وقد حذَّر الصادق المعصوم من الكذب ومن سوء مصير الكاذبين فقال : (إيَّاكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذَّابا)[3] .

ضلال القوم وتضليلهم

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الزمر .
(٣) أخرجه الترمذى فى البر (٤٦) . ومسلم فى البر (١٠٤ ، ١٠٥) . وأبو داود فى الأدب (٨٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٤ ، ٣٩٣ ، ٤٣٢ ، ٤٤٠) .

عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾

المفردات : **الجبت** : هو الردىء الذى لا خير فيه ويراد به هنا : الأصنام والأوهام والخرافات والدجل . والطاغوت : ما تكون عبادته والإيمان به سببا للطغيان والخروج من الحق من مخلوق يُعبَد ، ورئيس يُقَلَّد ، وهوى يُتَّبع ، وروى عن عمر ومجاهد أنه الشيطان ، والنقير : النقرة التى فى ظهر النواة ، ومنها تنبت النخلة يضرب بها المثل فى الشىء الحقير التافه ، كما يضرب المثل بالقطمير وهو القشرة الرقيقة التى على النواة بينها وبين التمرة ، **والحسد** : تمنى زوال النعمة عن صاحبها المستحق لها ، والمراد بالناس هنا محمد ﷺ ومن آمن معه . **والفضل** : النبوة والكرامة فى الدين والدنيا ، **والكتاب** : العلم بظاهر الشريعة ، **والحكمة** : العلم بالأسرار المودعة فيها ، والملك العظيم : ما كان لأنبياء بنى إسرائيل كداود وسليمان عليهما السلام ، وصدّ عن الشىء : أعرض عنه ، ونار مُسْعرة : موقدة ، ويقال أوقدت النار وأسعرتها .

جاء فى سبب نزول هذه الآيات ما رواه ابن إسحاق عن ابن عباس قال : كان الذين حزَّبوا الأحزاب من قريش وغطفان وبنى قريظة ، هم حُيىُّ بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق ، وأبو عمارة ، وهوذة بن قيس ، وباقيهم من بنى النضير ، فلما قدموا على قريش قالوا هؤلاء أحبار اليهود وأهل العلم بالكتب الأولى ؛ فاسألوهم أدينكم خير أم دين محمد ؟ فسألوهم فقالوا : دينكم خير من دينه وأنتم أهدى منه وممن اتبعه ، فأنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ملكا عظيما** ﴾ قاله السيوطى فى لباب النقول . .

وروى عن عكرمة أن كعب بن الأشرف انطلق إلى المشركين من كفار قريش فاستجاشهم على النبى ﷺ ، وأمرهم أن يغزوه ، وقال : إنا معكم نقاتله ، فقالوا : إنكم أهل كتاب وهو صاحب كتاب ، ولا نأمن أن يكون هذا مكرا منكم ، فإن أردت أن تخرج معنا فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما ففعل ، ثم قالوا : نحن أهدى أم محمد ؟ فنحن ننحر الكوْماء (الناقة الضخمة السَّنام) ونسقى اللبن على الماء ، ونصل الرحم ، ونَقرى الضيف ونطوف بهذا البيت ، ومحمد قطع رحمه وخرج من بلده ، فقال : بل أنتم خير وأهدى .

فتأمل معى كيف ضل هؤلاء الناس ! لقد ضلوا ضلالاً بعيدا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ، لقد شهدوا شهادة زور عندما أخبروا المشركين من أهل مكة بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، لقد آمنوا بالجبت والطاغوت ، واعتقدوا فى الأوهام والدجل والخرافات ، واتبعوا كل طاغوت طغى وتكبر ، واتخذوا الشيطان وليا من دون الله . ومن يتخذ الشيطان قرينا فساء قرينا ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضلَّ ضلالا بعيداً ﴾(١) ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾(٢) .

---

(١) الآية ١١٦ من سورة النساء .
(٢) الآية ٣١ من سورة الحج .

وكان واجبا عليهم وقد أوتوا نصيبا من الكتاب ، وقرأوا ما فيه من نبوة سيدنا محمد ﷺ أن يقروا ويعترفوا للمشركين ، وقد سألوهم أن محمدا وأتباعه على هدى . إنهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً . فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[(١)] .

كانت العاقبة كما أخبر سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله . ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾ وكفى باللعن عاقبة ، وكفى به سوءاً . إن الذى طُرد من رحمة الله لا ناصر له فى الدنيا والآخرة ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له ومالهم من دونه من وال ﴾[(٢)] ، ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[(٣)] ، ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[(٤)] .

قوله تعالى : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا** ﴾ هذا توبيخ وتقريع لليهود على بخلهم . و ﴿ أم ﴾ هنا بمعنى بل . والهمزة أى بل ألهم نصيب من الملك لقد ضيعوه بظلمهم وبغيهم وطغيانهم . ولو كان لهم نصيب من الملك لبخلوا بما آتاهم الله ، ولأمسكوا عن إعطاء النقير وهو الغشاء الرقيق على ظهر النواة .

ثم انتقل من الحديث عن بخلهم إلى الحديث عن حسدهم فقال سبحانه : ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾ .

قال المفسرون : المراد بالناس : محمد ﷺ ، فقد حسدوه لما أنزل الله عليه الرسالة . حسدوه عليها ، وكانوا يريدونها فيهم . قال تعالى : ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[(٥)] .

قوله تعالى : ﴿ **فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما** ﴾ : يريد سبحانه وتعالى أن يبين ما عليه اليهود من الحسد للرسول الكريم ، ولماذا يحسدونه بالذات ، ولم تكن نبوته بدعا من الرسل ، فقد سبق أن آتى الله آل إبراهيم وهم إسحاق ويعقوب وما تناسل منهما من الأنبياء ، آتاهم الكتب من توراة وانجيل وزبور وقرآن وحكمة وهى أسرار التشريع أو السنة ، وصحف ، كما آتاهم ملكا عظيما ، فما الغرابة فى إنزال الكتاب على محمد ﷺ .

وفى الآية دلالة ونبوءة على التمكين لهذه الأمة فى قوله تعالى ﴿ **وآتيناهم ملكا عظيما** ﴾ وقد مكن الله تعالى لهذه الأمة بقيام دولة كانت نواتها الأولى بالمدينة المنورة ، وامتدت فى أرجاء الدنيا من حدود الصين شرقا

(١) الآية ١٤ من سورة النمل .
(٢) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٥٢ من سورة غافر .
(٤) الآية ١٨ من سورة غافر .
(٥) الآية ٨٩ من سورة البقرة .

إلى أبواب باريس غربا ، ومن حدود سيبريا شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ، تعانق الجوزاء ، وتزاحم الشمس فى الجلاء ، خير أمة أخرجت للناس ، تقوم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله . أمة تصون ولا تبدد ، تحمى ولا تهدد ، تبنى وتشيد ، تشدّ أزر الصديق ، ترد كيد العدو ، تنشر ألوية الأمن والأمان على ربوع البسيطة .

لقد حسد اليهود هذه الأمة على نبيها وكتابها ، على عيدها يوم الجمعة ، على تحية السلام ، كما حسد الكفار من أهل مكة نبى هذه الأمة على رسالته : وقالوا ﴿ لولا نُزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[1] قصدوا بالقريتين مكة والطائف ، وقصدوا برجل مكة الوليد بن المغيرة ، وقصدوا برجل الطائف عروة بن مسعود الثقفى فقال لهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ثم قال : ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾[2] .

قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ﴾ أى من الأمم من آمن بما أنزلنا من الكتاب والحكمة وسلك طريق النجاة ، ومنهم من كفر وصدَّ عنه غيره ، فكفى بجنهم نارا مستعرة له . ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا ﴾[3] فلا تحزن ولا تذهب نفسك عليهم حسرات : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[4] ، ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[5] .

مصير الكافرين والمؤمنين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

المفردات : ﴿ نصليهم ﴾ : نشويهم بالنار ، يقال شاة مصلية أى مشوية . ﴿ نضجت ﴾ : احترقت وتهرأت وتلاشت ، من قولهم نضج الثمر واللحم نضجا : إذا أدركا . ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ أى ليدوم لهم ذوقه ولا ينقطع كما تقول للعزيز : أعزك الله ، أى أدام لك العز وزادك فيه ، والعزيز : هو القادر الغالب

(١) الآية ٣١ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ١٦٧ من سورة النساء .
(٤) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٦ من سورة الكهف .

على أمره ، **والحكيم** : هو المدبر للأشياء وفق الحكمة والصواب ، **ومطهرة** : أى من العيوب والأدناس الحسية والمعنوية ، وقوله ﴿ **ظلا ظليلا** ﴾ كقوله ليل أليل وصف للمبالغة والتأكيد فى المعنى : أى ظل وارف لا يصيب صاحبه حر ولا سموم ، ودائم لا تنسخه الشمس ، وقد يعبر بالظل عن العزة والمتعة والرفاهية فيقال : « السلطان ظل الله فى أرضه » . **والآيات** : الأدلة التى ترشد إلى أن هذا الدين حق ، ومن أجّلها القرآن لأنه أول الدلائل وأظهر الآيات وأوضحها ، والكفر بها يعم إنكارها والغفلة عن النظر فيها وإلقاء الشبهات والشكوك مع العلم بصحتها عنادا وحسدا . **والخلود** : الدوام وقد أكده بقوله أبدا ، **ومطهرة** : أى بريئات من المعايب الجسمانية والطباع الردية .

لما أخبر الله تعالى عن الفريقين : فريق المؤمنين وفريق الصادين المكذبين بقوله : ﴿ **فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا** ﴾ . لما أخبر سبحانه بذلك فصَّل مصير كل فقال سبحانه : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا** ﴾ أى جحدوا بها وكذَّبوا ، وآياته ظاهرة الدلالة ، واضحة المعنى ، جلية فى مغزاها ومرماها ومعناها ومبناها . ما مصير هؤلاء الجاحدين المكذبين ؟ قال سبحانه : ﴿ **سوف نصليهم ناراً** ﴾ . وقد قالوا : إن التنكير فى لفظ نار يفيد عظمها ، والتفخيم من شأنها .

ثم بين سبحانه مدى ما سيلقاه هؤلاء فى تلك النار فجاء التعبير بأداة الشرط ﴿ **كلما** ﴾ التى تفيد التكرار فقال جل شأنه : ﴿ **كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ .

ويكفيك أن تقف عند قوله جلّ شأنه : ﴿ **نضجت** ﴾ أى احترقت وتهرأت وتلاشت ، والتعبير بالجلود دون اللحم يفيد حقيقة علمية ، إذ أن الجلد هو مركز الإحساس فى الإنسان .

يقول الأستاذ الدكتور عبد العزيز إسماعيل فى كتابه « الإسلام والطب الحديث » إن أعصاب الألم هى فى الطبقة الجلدية ، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف ، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذى لا يتجاوز الجلد يحدث ألما شديداً بخلاف الحرق الشديد الذى يتجاوز الجلد إلى الأنسجة ، لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألما كثيرا ؛ فالله يقول لنا : إن النار كلما أكلت الجلد الذى فيه الأعصاب نجدده ، كى يستمر الألم بلا انقطاع ، ويذوقوا العذاب الأليم ، وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان : ﴿ **وكان الله عزيزا حكيما** ﴾ .

وبعد بيان هذه الصورة التى تسيل لها النفس مرارة وألما ، وينصدع لها الفؤاد لوعة وحسرة ، بين الله الحكمة من ذلك فقال : ﴿ **ليذوقوا العذاب** ﴾ أى ليدوم لهم العذاب كما استمروا على الكفر فى الدنيا وأصروا عليه واستكبروا استكبارا .

ويكفى أن أسوق لك هذا المشهد من مشاهد القرآن عن أهل النار فى طعامهم وشرابهم ، قال سبحانه :﴿ إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾[1] .

---

(١) الآيات ٤٣ - ٤٩ من سورة الدخان .

هذا طعامهم . فما شرابهم ؟ قال تعالى : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾(١) .

لا يفعل هذا إلا عزيز حكيم غالب لا يغلبه أحد ، وحكيم تنزه ذاته عن العبث . إنه الله العزيز الحكيم .

قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا** ﴾ هذا من باب اقتران الوعد بالوعيد ، وسمى القرآن مثانى لأنه يثنى الوعد بالوعيد ، ويبين نور الوعد ونيران الوعيد ، يصف الله المؤمنين بقوله : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾(٢) .

وهكذا حال المؤمن الصالح مع الله . وليس الإيمان كلاما تلوكه الألسنة ، وتنبس به الشفاه ، وإنما الإيمان كما ورد فى هذه الآية ما اقترن بالعمل الصالح ﴿ **آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ وقد جاء فى الحديث الشريف : (ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا ! لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل) .

ما مصير هؤلاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ؟ سيدخلهم ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . فقارن بين هؤلاء وأولئك : أما الكافرون فسوف ﴿ **نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾ .

أما هؤلاء المؤمنون ﴿ **سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ . ثم تأتى بعد ذلك نعمة الخلود لتمتلئ النفس أمنا وطمأنينة ، فالخلود فى النعيم يعدل النعيم . ثم ماذا ؟ لهم فيها أزواج وأى أزواج ! ﴿ **أزواج مطهرة** ﴾ : طهارة معنوية من الحقد والحسد والغل والبغضاء ، إنهن قاصرات الطرف إنهن حور مقصورات فى الخيام ، وطهارة حسية من الحيض والنفاس والعرق والفضلات ، ﴿ **وندخلهم ظلا ظليلا** ﴾ والتعبير بالظل فيه معنى العيشة الهانئة الراضية المطمئنة ، ووصف الظل بأنه ظليل ، فيه المبالغة فى هذا النعيم .

وكما سقنا فى أهل العذاب صورة من مشاهد القيامة ، فإننا نسوق فى أهل النعيم صورة من صور الهناء والحبور : قال تعالى : ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقَّاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروها تقديرا * وَيُسْقَوْن فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا * عيناً فيها تسمى سلسبيلا * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً * وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيما وملكا كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاءً وكان سعيكم مشكوراً ﴾(٣) .

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٩٠ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيات ١١ - ٢٢ من سورة الإنسان .

الأمانة والحكم

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

المفردات : **الأمانة** الشيء الذى يحفظ ليؤدى إلى صاحبه ، ويسمى من يحفظها ويؤديها حفيظاً وأمينا ووفيًا ، ومن لا يحفظها ولا يؤديها خائنا . **والعدل** : إيصال الحق إلى صاحبه من أقرب الطرق إليه ، **والتأويل** : بيان المآل والعاقبة .

ذكر ابن إسحق بسنده فى سبب نزول هذه الآية عن صفية بنت شيبة أن رسول الله ﷺ لما نزل بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ةفدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة وقد استكن له الناس فى المسجد . قال ابن إسحق : فحدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام على باب الكعبة فقال : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمىّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج) وذكر بقية الحديث فى خطبة النبى ﷺ يومئذ إلى أن قال : (ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك فقال رسول الله ﷺ : (أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال له : هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم وفاء وبر)[1] .

قال ابن جرير : حدثنى القاسم حدثنا الحسين عن حجاج عن ابن جريج فى الآية قال : نزلت فى عثمان بن طلحة : (قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل فى البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾ فدعا عثمان إليه فدفع إليه المفتاح) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الديات (١٧ ، ٢٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ١١ ، ٣٦ ، ١٠٣) وفى (٣ : ٤١٠) وفى (٥ : ٤١٢) .

الأمانة هى الرعاية لحقوق الله تعالى ، وقد جاء ذكرها فى مواضع كثيرة من الكتاب العزيز . قال تعالى : ﴿ فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربَّه ﴾[1] ، وقال جلَّ ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[2] . وقال سبحانه فى صفة المؤمنين : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾[3] . وقال عظمت حكمته : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾[4] . وفى الأحاديث الشريفة ما يدل على عظم الأمانة وخطر شأنها : من ذلك قول الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : (أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك)[5] وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عزَّ وجلَّ على عباده من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر الله عزَّ وجلَّ بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك فى الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة كما ثبت فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجمَّاء من القرناء)[6] .

روى ابن أبى حاتم بإسناده عن عبد الله بن مسعود قال : إن الشهادة تكفر كل ذنب إلا الأمانة يؤتى بالرجل يوم القيامة وإن كان قد قتل فى سبيل الله فيقال : أد أمانتك فيقول : فأنى أؤديها وقد ذهبت الدنيا ؟ فتمثل له الأمانة فى قعر جهنم فيهوى إليها فيحملها على عاتقة . قال فتنزل عن عاتقه فيهوى على أثرها أبد الآبدين .

وقد ورد عن النبى ﷺ أنه قال : (أربع إذا كن فيك فلا تبالى بما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة) وقال عليه الصلام والسلام : (لا إيمان لمن لا أمانة له)[7] .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾ ، إنما جاء الأمر بالحكم مقترنا بأداء الأمانة لأن الحكم بالعدل أمانة ، فمن جار وظلم فقد خان الأمانة ، وقد نهى الله تعالى عن خيانتها ، فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾[8] ، وأمر سبحانه بالعدل فقال : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾[9] .

---

(١) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٨ من سورة المؤمنون .
(٤) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .
(٥) أخرجه أبو داود فى البيوع (٧٩) . والترمذى فى البيوع (٣٧) . والدارمى فى البيوع (٥٧) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤١٤) .
(٦) أخرجه مسلم فى البر (٦٠) . والترمذى فى القيامة (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٣٣ ، ٤١١) .
(٧) أخرجه الإمام أحمد فى (٣ : ١٣٥ ، ١٥٤ ، ٢٠١ ، ٢٥١) .
(٨) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .
(٩) الآية ١٥٢ من سورة الأنعام .

وبين أن هذا العدل صراط مستقيم فقال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾[١] .

وهل المستقيم إلا أقرب صلة بين نقطتين ، وهذا هو العدل بعينه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾[٢] .

وقد بلغ الإسلام فى العدل مبلغ بلغ الآفاق ، وعرف فى أرجاء الدنيا شرقاً وغرباً ، بل لقد وصل إلى درجة جعلت على بن أبى طالب وقد كانت بينه وبين يهودى خصومة ، كان القاضى فيها عمر ، أن غضب على بن أبى طالب عندما ناداه أمير المؤمنين عمر بكنيته فقال له : يا أبا الحسن ، وفى الكنية تكريم ، كيف يناديه بكنيته وينادى على اليهودى باسمه ، وقد ورد فى الحديث الشريف ما يدعو إلى عدل الحاكم أيا كان موقعه والقاضى أيا كان مكانه ، قال ﷺ : (إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه)[٣] .

وجاء فى الحديث أنه يؤتى بالقاضى العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى معه أنه لم يقض بين اثنين فى تمرة « وما من وال يلى أمر عشرة إلا جاء يوم القيامة يداه مغلولتان إلى عنقه حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور »[٤] .

وقد ورد فى كتب الفقه أحكام تتعلق بالعدل والقضاء نرى من الأهمية بمكان أن نسجلها على تلك الصفحات لما لها من وقع مؤثر فى حياة الأمة الإسلامية ، لقد كان الإمام عبد الله بن عباس يقول : أكثروا من ذكر عمر فإنكم إذا ذكرتموه فإنكم ذكرتم العدل ، وفى ذكر العدل ذكر لله تعالى ، ذلك لأن الله هو الحكم العدل .

جاء فى كتب الأحكام الشرعية تحت عنوان القضاء ما نصه :

إن العدل قيمة من القيم الإسلامية العليا ، ذلك أن إقامة الحق والعدل هى التى تشيع الطمأنينة وتنشر الأمن وتشد علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، وتقوى الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وتنمى الثروة ، وتزيد فى الرخاء ، وتدعم الأوضاع ، فلا تتعرض لخلخلة أو اضطراب ، ويمضى كل من الحاكم والمحكوم إلى غايته فى العمل والإنتاج ، وخدمة البلاد دون أن يقف فى طريقه ما يعطل نشاطه ، أو يعوقه عن النهوض وإنما يتحقق العدل بإيصال كل حق إلى مستحقه ، والحكم بمقتضى ما شرع الله من أحكام ، ويتجنب الهوى بالقسمة بين الناس بالسوية ، وما كانت مهمة رسل الله إلا القيام بهذا الأمر وإنفاذه ، وما كانت وظيفة أتباع الرسل إلا السير على هذا النهج كى تبقى النبوة تمد الناس بظلها الظليل . ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[٥] .

---

(١) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٩٠ من سورة النحل .
(٣) أخرجه الترمذى فى الأحكام (٤) . وابن ماجه فى الأحكام (٢) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٤٣١) .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

القضاء فى الإسلام :

ومن أهم الوسائل التى يتحقق بها القسط وتحفظ الحقوق وتصان الدماء والأعراض والأموال : إقامة النظام القضائى الذى فرضه الإسلام ، وجعله جزءاً من تعاليمه وركيزة من ركائزه التى لابد منها ولا غنى عنها ، وكان أول من تولى هذه الوظيفة فى الإسلام الرسول ﷺ ، فقد جاء فى المعاهدة التى تمت بعد الهجرة بين المسلمين واليهود وغيرهم : « إنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله » .

وقد أمره الله عز وجل أن يحكم بما أنزل فقال : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً * واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾(١) .

وتولى قضاء مكة على عهد رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد ، كما تولى على بن أبى طالب كرم الله وجهه قضاء اليمن .

روى أهل السنن وغيرهم أن علياً لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضياً قال : يارسول الله بعثتنى بينهم وأنا شاب لا أدرى ما القضاء فضرب رسول الله ﷺ فى صدرى وقال : (اللهم اهده وثبت لسانه)(٢) . قال على : فو الذى فلق الحبة ما شككت فى قضاء بين اثنين .

وعن على كرم الله وجهه أن الرسول ﷺ قال : (يا على إذا جلس إليك الخصمان فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول فإنك إذا فعلت ذلك تبين لك القضاء)(٣) .

فيم يكون القضاء :

والقضاء يكون فى جميع الحقوق سواء أكانت حقوقاً لله أم حقوقاً للأدميين وقد أفاد ابن خلدون أن منصب القضاء استقر آخر الأمر على أن يجمع مع الفصل بين الخصوم « استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين بالنظر فى أحوال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السنة وفى وصايا المسلمين وأوقافهم وتزويج الأيامى عند فقد أوليائهن على رأى من يراه والنظر فى مصالح الطرقات والأبنيه وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من متعلقات وظيفته وتوابع ولايته » .

منزلة القضاء :

والقضاء فرض كفاية لدفع التظالم وفصل التخاصم ويجب على الحاكم أن ينصب للناس قاضياً ومن أبى أجبره عليه .

---

(١) الأيتان ١٠٥ ، ١٠٦ من سورة النساء .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأحكام (١) . والإمام أحمد فى (١ : ١١١) .
(٣) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٦) .

وإذا كان الإنسان فى جهة لا يصلح للقضاء غيره تعين عليه ووجب عليه الدخول فيه ، وقد رغب الإسلام فى الحكم بين الناس بالحق وجعله من الغبطة .

روى البخارى عن عبد الله بن عمر أن الرسول ﷺ قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس »(١) .

ووعد القاضى العادل بالجنة :

فعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (من طلب قضاء المسلمين حتى يناله ثم غلب عدله جوره فله الجنة ، ومن غلب جوره عدله فله النار)(٢) . وعن عبد الله بن أبى أوفى أن النبى ﷺ قال : (إن الله مع القاضى ما لم يجر فإذا جار تخلى الله عنه ولزمه الشيطان) .

أما ما جاء من الأحاديث فى التحذير من الدخول فى القضاء مثل ما رواه سعيد المقبرى أن الرسول ﷺ قال : (من ولى القضاء فقد ذبح بغير سكين)(٣) ، فإنها ترجع إلى الأشخاص الذين لا علم لهم بالحق ، ولا قدرة لهم على الصدع به ، ولا يتمكنون من ضبط أنفسهم ، ولا كبح جماحها ومنعها من الميل إلى الهوى .

والذى يرشد إلى هذا حديث أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال قلت يارسول الله : (ألا تستعملنى ؟ قال : فضرب بيده على منكبى ثم قال : يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها)(٤) .

وعن أبى موسى الأشعرى قال : دخلت على النبى ﷺ أنا ورجلان من بنى عمى فقال أحدهما : يارسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل . وقال الآخر . مثل ذلك ، فقال : (لا أنا والله لا نولى هذا العمل أحداً يسأله أو أحداً يحرص عليه)(٥) .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من ابتغى القضاء وسأل فيه شفعاء وكّل إلى نفسه ومن أكره عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده)(٦) .

والخوف من العجز عن القيام بالقضاء على الوجه الأكمل هو السبب فى امتناع بعض الأئمة عن الدخول فى القضاء .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأحكام (٣) وفى العلم (١٥) وفى الزكاة (٥) وفى الاعتصام (١٣) . ومسلم فى المسافرين (٢٦٨) . وابن ماجه فى الزهد (٢٢) . والإمام أحمدفى (١ : ٣٨٥ ، ٤٣٢) .
(٢) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٢) .
(٣) أخرجه الترمذى فى الأحكام (١) . وأبو داود فى الأقضية (١) . وابن ماجه فى الأحكام (١) والإمام أحمد فى (٢ : ٢٣٠ ، ٢٦٥) .
(٤) أخرجه مسلم فى الإمارة (١٦) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٣ ، ٢٦٧) .
(٥) أخرجه البخارى فى الأحكام (٧) . ومسلم فى الإمارة (١٤) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٣) .
(٦) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٣) . والترمذى فى الأحكام (١) . وابن ماجه فى الأحكام (١) . والإمام أحمد فى (٣ : ١١٨ ، ٢٢٠) .

ومن طريف ما يروى فى هذا : أن حياة بن شريح دعى إلى أن يتولى قضاء مصر فلما عرضه عليه الأمير امتنع فدعا له بالسيف فلما رأى ذلك أخرج مفتاحاً كان معه وقال : هذا مفتاح بيتى ولقد اشتقت إلى لقاء ربى فلما رأى الأمير عزيمته تركه .

من يصلح للقضاء :

ولا يقضى بين الناس إلا من كان عالماً بالكتاب والسنّة ، فقيها فى دين الله ، قادراً على التفرقة بين الصواب والخطأ ، بريئاً من الجور ، بعيداً عن هوى .

وقد اشترط الفقهاء فى القاضى أن يبلغ درجة الاجتهاد ، فيكون عالماً بآيات الأحكام وأحاديثها ، عالماً بأقوال السلف ما أجمعوا عليه وما اختلفوا فيه ، عالماً باللغة ، وعالماً بالقياس ، وأن يكون مكلفاً ، ذكراً ، عدلاً ، سميعاً بصيراً ، ناطقاً .

وهذه الشروط تعتبر حسب الإمكان ، ويجب تولية الأمثل فالأمثل ، فلا يصح قضاء المقلد ولا الكافر ولا الصغير ولا المجنون ولا الفاسق ولا المرأة ، لحديث أبى بكرة قال : لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال : (لن يفلح قوم ولوّا أمرهم امرأة)(١) .

وقد اشترط الفقهاء أيضاً مع هذه الشروط تولية الحاكم للقاضى ، فإنها شرط فى صحة قضائه ، وهذا بخلاف المتداعيين إذا ارتضيا حكماً يقضى بينهما ممن ليس له ولاية القضاء ، فقد أجازه مالك وأحمد .

وقد ذكر الله لنا المثل الأعلى فى القضاء فقال جل شأنه : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾(٢) .

وإذا كان هذا الخطاب موجهاً إلى داود عليه السلام فهو فى الواقع موجه إلى ولاة الأمور ، لأن الله لم يذكر ذلك إلا ليبين لنا المثل الأعلى فى الحكم وأن داود - وهو نبى معصوم - يخاطبه الله بقوله : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ ، فإذا كان النبى وهو معصوم يخشى عليه من اتباع الهوى فأولى بأن يخشى على غيره من غير المعصومين .

وعن أبى بريدة عن أبيه عن النبى ﷺ قال : (القضاة ثلاثة : واحد فى الجنة واثنان فى النار : فأما الذى فى الجنة فرجل عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار)(٣) .

ومع الكتاب والسنة كان بعض القضاة يرجع فى قضائه إلى أقوال الأئمة واختيار الرأى القوى الذى يتفق مع الحق .

---

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (٨٢) وفى الفتن (١٨) . والترمذى فى الفتن (٧٥) . والنسائى فى القضاة (٨) .
(٢) الآية ٢٦ من سورة ص .
(٣) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٢) . وابن ماجه فى الأحكام (٣) .

(أحكام تتعلق بالقضاء)

ذكر محمد بن يوسف الكندى أن إبراهيم بن الجراح تولى القضاء فى سنة ٢٠٤ هـ ، وقد قال عمر بن خالد : ما صحبتُ أحداً من القضاة كإبراهيم بن الجراح ؛ كنت إذا عملت له المحضر وقرأته عليه أقام عنده ما شاء الله أن يقيم ويرى فيه رأيه ، فإذا أرادأن يقضى به دفعه إلىّ لأنشىء منه سجلاً فأجد فى ظهره : قال أبو حنيفه كذا ، وفى سطر قال ابن أبى ليلى كذا ، وفى سطر آخر قال أبو يوسف ، وقال مالك كذا ، ثم أجد على سطر منها علامة كالخط فأعلم أن اختياره وقع على ذلك القول ، فأنشئ السجل عليه .

وقد رأى بعض العلماء إلزام القضاة بالقضاء بمذهب معين منعاً للاضطراب وبلبلة الأفكار . قال الدهلوى : إن بعض القضاة لما جاروا فى أحكامهم صار أولياء الأمور يلزمون القضاة بأن يحكموا بمذهب معين لا يَعْدُونه ولم يقبل منهم إلا ما لا يريب العامة ويكون شيئاً قد قيل من قبل .

قضاء من ليس بأهل للقضاء :

قال العلماء : كل من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم ، فإن حكم فهو آثم ولا ينفذ حكمه ، وسواء وافق الحق أم لا ، لأن إصابة الحق اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعى ، فهو عاص فى جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا ، وأحكامه مردودة كلها ، ولا يعذر فى شىء من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ إن الله نِعِمَّا يعظكم به ﴾ هذا أسلوب من أساليب المدح فى لغتنا الجميلة ، أى نعمة مّا يأمركم به الله ويرشدكم إليه ، فكل أمر الله خير لكم وكل إرشاد منه فيه سعدكم : ﴿ فمن اتّبع هُدَاىَ فلا يَضِلُ ولا يشقى * ومن أعرضَ عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى[(١)] ﴾ . فما بالك إذا كان هذا الأمر الناهى هو السميع البصير؟ قال تعالى : ﴿ إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ أحاط بكل شىء علماً وأحصى كل شىء عدداً ، يسمع دبيب أرجل النحلة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء .

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها ... فى قاع بحر زاخر متجندل

ومن أصدق من الله قيلا ومن أصدق من الله حديثا ومن أحسن من الله حكماً ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ ، ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ ، ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[(٢)] .

---

(١) الآيات من ١٢٣ : ١٢٦ من سورة طه .

(٢) الآيات : ٢٦ - ٢٨ من سورة النساء .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ ، هذه الآية الكريمة مبينة لأصول الدين فى الحكومة الإسلامية :

١ - الأصل الأول : القرآن الكريم والعمل به ، هو طاعة الله تعالى .

٢ - الأصل الثانى : سنة رسوله ﷺ والعمل به ، طاعة الرسول ﷺ .

٣ - الأصل الثالث : إجماع أولى الأمر ، وهم أهل الحل والعقد الذين تثق بهم الأمة من العلماء والرؤساء فى الجيش والمصالح العامة ، كالتجار والصناع والزراع ورؤساء العمال والأحزاب ومديرى الصحف ورؤساء تحريرها ، وطاعتهم حينئذ هى طاعة أولى الأمر .

٤ - الأصل الرابع : عرض المسائل المتنازع فيها على القواعد والأحكام العامة المعلومة فى الكتاب والسنة ، وذلك قوله : ﴿ **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ .

فهذه الأصول الأربعة هى مصادر الشريعة ، ولابد من وجود جماعة يقومون بعرض المسائل المتنازع فيها على الكتاب والسنة فمن يختارهم أولو الأمر من علماء هذا الشأن ، ويجب على الحكام الحكم بما يقرّونه .

وبذلك تكون الدولة الإسلامية مؤلفة من جماعتين : الأولى الجماعة المبينة للأحكام الذين يسمون الآن «الهيئة التشريعية» ، والجماعة الثانية جماعة الحاكمين والمنفذين ، وهم الذين يسمون «الهيئة التنفيذية» . وعلى الأمة أن تقبل هذه الأحكام وتخضع لها سراً وجهراً ، وهى بذلك لا تكون خاضعة لأحد من البشر ، لأنها لم تعمل إلا بحكم الله تعالى أو حكم رسوله ﷺ بإذنه ، أو حكم نفسها الذى استنبطه لها جماعة أهل الحل والعقد والعلم والخبرة من أفرادها الذين وثقت بإخلاصهم وعدم اتفاقهم إلا على ما هو الأصلح لها . ﴿ **إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ أى ردوا الشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله بعرضه على الكتاب والسنة إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فإن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله ، كما أنه يهتم باليوم الآخر أشد من اهتمامه بحظوظ الدنيا .

وفى هذا دليل على أن من لا يقدم اتباع الكتاب والسنة على أهوائه وحظوظه فإنه لا يكون مؤمناً حقاً .

﴿ **ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ أى ذلك الرد للشىء المتنازع فيه إلى الله ورسوله خير لكم ، لأنه أقوى الأسس فى حكومتكم ، والله أعلم منكم بما هو الخير لكم ، ومن ثَمّ لم يشرع لكم فى كتابه وعلى لسان رسوله إلا ما فيه مصالحكم ومنافعكم ، وما هو أحسن عاقبة لما فيه من قطع عرق التنازع ، وسد ذرائع الفتن .

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن : (بم تقضى ؟ قال : بكتاب الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله . قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبرأيى)[1] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأقضية رقم (١١) . وأخرجه الترمذى فى الأحكام رقم (٣) .
وأخرجه الدارمى فى المقدمة رقم (٢٠) . وأخرجه الإمام أحمد فى (٥) ـ رقم ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .

من مواقف المنافقين

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن
يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾
فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ
إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل
لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

المفردات : الزعم فى أصل اللغة : القول حقا كان أو باطلاً ، ثم كَثُر استعماله فى الكذب . قال الراغب : الزعم حكاية قول يكون فطنة للكذب ، وقد جاء فى القرآن فى كل موضع ذم القائلين به كقوله : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ﴾[1] ، وقوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا ﴾[2] ، والطاغوت : معناه طغيان كثير . ضلالا بعيدا : أى بعيدا صاحبه عن الحق ، إذ هو لا يهتدى إلى الطريق الموصلة إليه . صُدوداً : أى إعراضا متعمدا عن قبول حكمك . إحسانا : أى فى المعاملة بين الخصوم . وتوفيقاً : أى بينهم وبين خصومهم بالصلح . فأعرض عنهم : أى اصرف وجهك عنهم . وعظهم : أى ذكّرهم بالخير على الوجه الذى ترق له قلوبهم . قولاً بليغاً : أى يبلغ من نفوسهم الأثر الذى تريد أن تحدثه فيها .

لما أوجب الله تعالى التحاكم إلى كتابه وسنة رسوله فى قوله جل شأنه : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[3] .

لما كان ذلك كذلك ألقى الله تعالى باللائمة على قوم زعموا زوراً وبهتاناً أنهم آمنوا بالله ورسوله وآمنوا بما أنزل على الأنبياء من قبله ، لكن سلوكهم كان يناقض ما يزعمونه ، فقد رووا : (أن عمر رضى الله عنه كان يمر ذات يوم فوجد رجلين أحدهما يهودى والآخر يزعم أنه مسلم وكان بينهما خصومة ، فقال اليهودى :

---

(١) الآية ٧ من سورة التغابن .
(٢) الآية ٥٦ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء .

رضيت بمحمد حكماً . وقال الذى يزعم الإسلام : رضيت بكعب بن الأشرف ـ وهو يهودى ـ حكماً . فلما ذهبا إلى رسول الله ﷺ لم يرض المنافق بحكم رسول الله ، فلما سمع عمر هذا القول سأل الذى يزعم الإسلام ويريد أن يتحاكم إلى الطاغوت ـ كعب بن الأشرف ـ قال لهما : انتظر حتى أقضى بينكما ، وعاد ومعه سيفه ، ثم سمع منهما مرة أخرى ، ثم سأل المنافق : هل رددت حكم رسول الله ولم ترض به ؟ فلما أقر المنافق بأنه رده ولم يرض به ضرب عمر عنقه . وقال هذا جزاء من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ) . فنزلت الآيات على الصادق المعصوم تبين وقائع هذا الحادث ، وفى هذا دليل على أن مجرد الإرادة فى التحاكم إلى الطاغوت تعتبر زعماً كاذباً ينافى ما ورد فى قوله جل شأنه : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾(١) هل هناك عاقل يملك فكراً سليماً يرفض حكم الله ورسوله ؟ .

إن الله تعالى يقرر حال هؤلاء الذين فى قلوبهم مرض ، وألسنتهم أحلى من العسل ، فيقول فى شأنهم : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ۞ وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ۞ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ۞ أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾(٢) .

فما موقف المؤمنين الصادقين من هذا ؟ . . ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ۞ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتَّقْهِ فأولئك هم الفائزون ﴾(٣) .

هؤلاء المؤمنون هم الذين صدق فيهم قول الله تعالى ﴿ وما زادهم إلا إيمانا وتسليما ﴾(٤) وقول رسوله ﷺ : (ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدّقه العمل)(٥) .

أمَّا مَرْضى القلوب من المنافقين فإنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، والطاغوت هو كل من زاد طغيانه وتجاوز حدود الحق ، ولم يرض بالله حكماً ، ولا برسوله تشريعاً ، وقد أمرنا جميعا أن نكفر به . إنهم يريدون التحاكم إليه ويريد الشيطان فى نفس الوقت أن يضلهم ضلالا بعيداً ، ومع ذلك فإن الله تعالى يدعوهم إليه ويرشدهم إلى الحق وهم مصرون على باطلهم ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً** ﴾ ، إنهم لا يكتفون بضلالهم ، إنما يصدون ويمنعون غيرهم عن حكم الله ورسوله ، فكيف حال هؤلاء إذا أصابتهم مصيبة بسبب ما قدمته أيديهم من العصيان والمخالفة ، فقتل منهم ذلك الذى أراد أن يتحاكم إلى كعب بن الأشرف ، إنهم عند نزول المصائب سيأتونك

(١) الآية ٦٥ من سورة النساء .
(٢) الآيات ٤٧ - ٥٠ من سورة النور .
(٣) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة النور .
(٤) الآية ٢٢ من سورة الأحزاب .
(٥) أخرجه البخارى فى الإيمان رقم (١٨) .

يحلفون الأيمان الكاذبة ، ويقولون إنهم ما أرادوا إلا إحسانا وتوفيقا ، وأى إحسان وأى توفيق فى الإعراض عن حكم الله ورسوله ، والذهاب إلى غيره من الطواغيت ، يقولون له رضينا بك حكما ، هل غفل هؤلاء أن الله يعلم ما فى قلوبهم ؟ .

فما موقفك أنت يا محمد ؟ أعرض عنهم ، فإنهم حيات وعقارب تلدغ وهى ناعمة الملمس ، والمنافقون فى كل زمان ومكان عالة على المجتمع فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة فى الضراء ، ومع إعراضك عن ألاعيبهم عظهم لتقطع المعاذير عليهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولاً يبلغ قرار قلوبهم ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزا حكيما ﴾(١) .

وللمنافقين فى القرآن مشاهد يندى لها جبين الحياء خجلاً : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾(٢) ثم يأتى الحكم عليهم فى قوله جل شأنه : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾(٣) ثم يأتى نور الأمل فى رحمة الله لمن تاب وأتاب ، فيقول تبارك وتعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يُؤتِ الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾(٤) .

طاعة الرسول

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

المفردات : إذن الله : إعلامه الذى نطق به وحيه وطرق آذانكم ، كقوله : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول . استغفروا الله : أى طلبوا مغفرته وندموا على ما فعلوا . واستغفر لهم الرسول : أى دعا الله أن يغفر لهم . **يحكموك** : يجعلوك حكماً ويفوضون الأمر إليك . وشجر : اختلف واختلط الأمر فيه ، مأخوذ من التفاف الشجر فإن الشجر تتداخل بعض أغصانه فى بعض . حرجاً : ضيقاً . قضيت : حكمت . التسليم : الانقياد والإذعان .

---

(١) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٢) الآيتان ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٤٥ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٤٦ من سورة النساء .

يخبر الله سبحانه وتعالى بأنه ما أرسل رسولاً إلا وجبت طاعته على من أرسله إليهم ، فإذا ما كان ذلك كذلك فقد حرم عليهم أن يخالفوه لأنه مبلغ عن الله تعالى ، فطاعته من طاعة الله ، وذلك كله بإذن الله وقدرته ومشيئته وتوفيقه ، وقد جاءت هذه الآية بعد الآيات التى تحدثت عن مواقف المنافقين ، وكيف لم يرضوا برسول الله حكما ، وهو الذى ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، فما كان ينبغى لهؤلاء المنافقين أن يخالفوا لرسول الله أمراً ، أو يعصوا له حكماً ، لأن الله تعالى أوجب طاعته على قومه ، ومع ذلك فإنه سبحانه لا يقنط أحدا من رحمته ، فلو أن هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالذنوب والمخالفات جاءوك يا محمد فطلبوا من الله المغفرة ، واستغفرت لهم ، فإن رحمة الله لن تضيق بهم ، لأنه التواب الرحيم ، عظيم التوبة واسع الرحمة من شأنه المغفرة .

أنت الذى تهب الكثير ... وتجبر القلب الكسير وتغفر الذلات
وتقول هل من تائب مستغفر ... أو سائل أقضى له الحاجات

وقد ذكر جماعة ، منهم الشيخ منصور الصباغ فى كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبى قال : كنت جالساً عند قبر النبى ﷺ فجاء أعرابى فقال : السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول : ﴿ **ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما** ﴾ ، وقد جئتك مستغفرا لذنبى مستشفعاً بك إلى ربى . ثم أنشد يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسى الفداء لقبرٍ أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابى ، فغلبتنى عينى فرأيت النبى ﷺ فى منامى فقال : (يا عتبى ، ألحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له) .

قوله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ . روى الإمام البخارى بإسناده عن عروة قال : خاصم الزبير رجلاً فى شجار الحرة فقال النبى ﷺ : (اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك) فقال الأنصارى : يا رسول الله إن كان ابن عمتك ؟ فتلوّن وجه رسول الله ﷺ ثم قال : (اسق يا زبير ثم أحبس الماء حتى يرجع إلى الجُدُر ثم أرسل الماء إلى جارك)(١) ، فاستوعى النبى ﷺ للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ الآية .

(١) أخرجه البخارى فى المساقاة (٦ - ٨) وفى الصلح (١٢) وفى تفسير سورة (٤) رقم (١٢) . وأخرجه أبو داود فى الأقضية (٣١) . والترمذى فى تفسير سورة (٤) رقم (١٣) . والنسائى فى القضاة (١٩ ، ٢٧) . وابن ماجه فى المقدمة (٢) وفى الرهون (٢٠) . والإمام أحمد فى (١) رقم (١٦٥) وفى (٤) رقم (٥) .

وهذه الآية الكريمة يقسم فيها سبحانه بذاته ـ وهو رب كل شيء ومليكه ـ على أن إيمان هؤلاء موقوف على ثلاثة أشياء :

١ - أن يحكموك فيما شجر بينهم من خصومة ونزاع .
٢ - ألا يكون في أنفسهم ضيق ولا حرج من قضائك .
٣ - أن يُسَلِّموا ويفوّضوا ويذعنوا من غير أن يكون في النفوس أدنى اعتراض . قال ﷺ : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

وفي هذه الآية دليل على عصمة النبي ﷺ ، وأنه لا يقضي إلا بالحق ، ولا ينطق عن الهوى . كما أن فيها دليلاً على أن دلائل الإيمان الحق في الرضا بحكمه ، وسلامة الصدور من الضيق ، والتسليم الكامل الذي لا يشوبه اعتراض أو ضجر .

إمتحان ونتائج

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

المفردات : **كتبنا** : أي فرضنا ، **ما يوعظون به** : أي من الأوامر والنواهي المقرونة بذكر حكمها وأحكامها ، والوعد لمن عمل بها والوعيد لمن صدّ عنها ، **والتثبيت** : التقوية وجعل الشيء ثابتاً راسخاً .

الإيمان الحق طاعة وتسليم وإذعان ، فإذا ما أمر الله أو نهى فالمؤمن يمتثل الأمر ويجتنب النهي أياً كان المأمور به والمنهي عنه ، وقد أخبر الله جل شأنه في هذه الآيات أن هناك نوعاً من البشر لم تسلم قلوبهم ولم تتمكن بشاشة الإيمان من شغاف أفئدتهم ، يدل على ذلك أن الله لو أمرهم أن يقتلوا أنفسهم أو يهاجر أحدهم من داره إلى بلد آخر ما فعل ذلك إلا القليل منهم ، فإنهم يحرصون على الحياة والإقامة في دورهم ، ولو علموا جزاء الامتثال لأمر الله ، وفعلوا ما يعظهم الله به لكان ذلك خيراً لهم وأعظم تمكيناً ، ولكان لهم عند الله الأجر العظيم ، والمثوبة الكبرى ، وحسبهم أن الله تبارك وتعالى سينعم عليهم بنعمة الهداية إلى الصراط المستقيم ، والهداية توفيق وإرشاد وتوجيه قويم وسداد وفضل من الله وإنعام ورفعة منه وإكرام ، قال تعالى : ﴿من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾[1] .

---

(١) الآية ١٧ من سورة الكهف .

طاعة الله والرسول

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُولَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

المفردات : الصدّيق : من غلب عليه الصدق ، وقيل من صدق فى قوله واعتقاده كما قال : ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صدّيقا نبيا ﴾(١) ، **والشهيد** : هو الذى يشهد بصحة الدين تارة بالحجة والبرهان ، وأخرى بالسيف والسِّنان ، **والصالح** : من صلحت نفسه وصلح عمله ، وغلبت حسناته سيئاته .

قالت عائشة رضى الله عنها : «جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله : إنك لأحب إلى من نفسى وأحب إلىّ من أهلى وأحب إلى من ولدى ، وإنى لأكون فى البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك ، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين ، وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك ، فلم يرد عليه النبى ﷺ حتى نزلت عليه : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً** ﴾ .

وعن عائشة رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ يقول : (ما من نبى يمرض إلا خُير بين الدنيا والآخرة) ، وكان فى شكواه التى قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعته يقول : ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين** ﴾ فعلمت أنه خير .

وقال ابن جرير : حدثنا المثنى حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع قوله : ﴿ **ومن يطع الله والرسول** ﴾ الآية قال : إن أصحاب النبى ﷺ قالوا : قد علمنا أن النبى ﷺ له فضل على من آمن به فى درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه ، وكيف لهم إذا اجتمعوا فى الجنة أن يرى بعضهم بعضاً ، فأنزل الله . فى ذلك يعنى هذه الآية فقال – يعنى رسول الله ﷺ – (إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون فى رياض فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به فهم فى روضة يحبرون ويتنعمون فيه) .

ما أعظم نعمة الله على الذين يطيعون الله ورسوله ، وطاعة الله ورسوله تتمثل فى اتباع الكتاب والسنة . قال سبحانه وتعالى : ﴿ الذين إن مكّنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف

---

(١) الآية ٥٦ من سورة مريم .

ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[١] . وما من أمة تسير على نهج الله ورسوله إلا كان السعد رائدها ، والنصر حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾[٢] .

وما من أمة تنحرف عن هذا المنهج الكريم إلا كان الذل رائدها ، والانحطاط سبيلها ، وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٣] .

فما جزاء الذين يطيعون الله فى الدنيا والآخرة ؟ إنهم مع النبيين فى جوار الله فى الجنة ومع الصدّيقين والشهداء والصالحين ، ونعم الجوار جوارهم ، ونعم الرفيق هذا ، ونعم الفضل ذلك ، لأنه من الله العليم الذى علم ما فى الصدور ، وما فى النفوس ، بل إنه يعلم السر وأخفى من السر .

فى حديث قدسى صحيح يقول الله تعالى : (من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولسانه الذى يتكلم به ، وقلبه الذى يعى به ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استنصرنى لأنصرنه ، ولئن استعاذ بى لأعيذنه ، ويكون جارى فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)[٤] .

فاللهم إنا نسألك عيش السعداء ، وموت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، والهدى يوم الضلالة .

توجيه وبيان

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة طه .
(٣) الآيات ١٢٤ - ١٢٦ من سورة طه .
(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣٨) .

المفردات : **حِذركم** ، الحِذرْ والحَذَر : الاحتراس والاستعداد لاتّقاء شر العدو . **النَّفر** : الانزعاج عن الشىء وإلى الشىء ، كالنزوع عن الشىء وإلى الشىء . ومن الأول : ﴿ ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ليذّكروا وما يزيدهم إلا نفوراً ﴾(١) ، ومن الثانى النفر إلى الحرب . **والثُّبات** : واحدها : ثُبة وهى الجماعة المنفردة . **والتبطؤ** : يطلق على الإبطاء وعلى الحمل على البطء . **والبطء** : التأخر عن الانبعاث فى السير ، **مصيبة** : كقتل وهزيمة ، **شهيدا** : أى حاضرا معهم . **فضل** : كفتح وغنيمة .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا خذوا حِذْركم** ﴾ هذا بيان وإرشاد وتوجيه من الله تبارك اسمه إلى الأمة الإسلامية فى الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى ، وقد جاء ذلك بعد بيان الأحكام التى تتعلق ببناء المجتمع ، ببناء الفرد والأسرة ، وفى ذلك ، لتكون الأحكام شاملة كاملة ، والتوجيهات شافية كافية ، فالله سبحانه يبين لنا من الأحكام ما فيه سعادتنا وفوزنا ، فبعد حماية الجبهة الداخلية باتباع الأحكام التى تبنى المجتمع السليم ، يأمر سبحانه وتعالى بحماية الجبهة الداخلية من الأعداء ، وذلك بأخذ المسلمين حذرهم واحتراسهم ، وذلك بإعداد القوة ، وتوحيد الصف ، وتوضيح الهدف ، قال تعالى : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾(٢) .

ويكون ذلك أيضاً ببذل المال فى سبيل الله ، وإعداد المقاتلين ، فمن جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزى ، قال سبحانه : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾(٣) ، وقال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٤) .

والإسلام فى سياسته الخارجية يدعو إلى السلام إلا إذا اعتدى على أرض الإسلام معتد ، أو وطأت أقدام العدو أرض المسلمين ، هنا يجب التغير العام ، يقول تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٥) فإذا تباطأ المسلمون ألقى عليهم ربهم ذلك التحذير : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير ﴾(٦) .

وما غُزِى قوم فى عقر دارهم إلا ضربت عليهم الذلة ، وأمة الإسلام أمة دعوة تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن

(١) الآية ٤١ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة .
(٤) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .
(٥) الآية ٤١ من سورة التوبة .
(٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة التوبة .

ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، فإذا وقف لهذه الدعوة بالمرصاد جبار عنيد ، أو شيطان مريد ، أو أفّاق أثيم ، وقاتل فى سبيل الصد والإضلال ، ومنع الناس عن الدخول فى هذا الدين ، وجب التصدى له ، ذلك لأن الإسلام ما استعمل السيف إلا للقضاء على السيف . قال تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[1] .

قالوا غزوتَ ورسل الله ما بُعثوا ... بقتل نفسى ولا جاءوا بسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
فالشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعا وإن تلقه بالسيف ينحسم

وقال آخر :

ووضع الندى فى موضع السيف بالفتى ... مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وقال شوقى فى همزيته :

الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة ... للحق لاضغن ولا شحناء

وقد بيّن الله للمسلمين أن يأخذوا بأساليب القتال حتى لا يتمكن منهم عدو ، فيقول : ﴿ فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ﴾ وذلك حسب ما يمليه عليكم واقع الميدان .

يقول الشيخ المراغى فى تفسيره لهذه الآيات : ﴿ يأيها الذين آمنوا خذوا حِذركم ﴾ أى احترسوا واستعدوا لاتّقاء شر العدو بأن تعرفوا حاله ومبلغ استعداده وقوته ، وإذا كان لكم أعداء كثير فاعرفوا ما بينهم من وفاق وخلاف ، واعرفوا الوسائل لمقاومتهم إذا هجموا ، واعملوا بتلك الوسائل ، ويدخل فى ذلك معرفة حال العدو ومعرفة أرضه وبلاده وأسلحته واستعمالها ، وما يتوقف على ذلك من معرفة الهندسة والكيمياء وجر الأثقال ، وعلى الجملة اتخاذ أُهْبة الحرب المستعملة فيها ، من طيارات وقنابل ودبابات وبوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات ، إلى نحو ذلك ، حتى لا يهاجمكم على غِرّة ، أو يهددكم فى دياركم ، وحتى لا يعارضكم فى إقامة دينكم أو دعوتكم إليه .

وقد كان النبى ﷺ والصحابة على علم بأرض عدوهم ، كما كان لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار ، «قلم المخابرات» ولما أخبروه بنقض قريش للعهد «إخلالهم بشروط المعاهدة فى صلح الحديبية» استعد لفتح مكة ، و لم ينجح أبو سفيان فى تجديد العهد مرة أخرى ، وقد كان يظن أن المسلمين لم يعلموا بنكثهم له .

---

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

وقد قال أبو بكر لخالد بن الوليد فى حرب اليمامة : حاربهم بمثل ما يحاربونك به : السيف بالسيف ، والرمح بالرمح . وما رواه الحاكم عن عائشة : «لا يغنى حذر من قدر»[1] لا يناقض أخذ الحذر ، لأن الأمر بالحذر داخل فى القدر ، فالأمر به لندفع عنا شر الأعداء ، لا لندفع القدر ونبطله ، إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتى فيه الأسباب على قدر المسببات ، والحذر من جملة الأسباب ، فهو عمل بمقتضى القدر لا بما يضاده .

﴿ فانفروا ثُبات أو انفروا جميعا ﴾ ، أى فانفروا جماعة فى إثر جماعة بأن تكونوا فصائل وفرقا — إذا كان الجيش كبيراً ، أو موقع العدو يستدعى ذلك ، أو تنفر الأمة كلها جميعا إذا اقتضت الحال ذلك بحسب قوة العدو .

والخلاصة : إنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات ، وإما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق بحسب حال العدو .

وامتثال هذا الأمر يقتضى أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد ، بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب ويتمرن عليها وأن تقتنى السلاح الذى تحتاج إليه فى هذا النضال ، وتعلم كيفية استعماله فى كل زمان بما يناسبه . ومن هذا تعلم أن الحكومة الإسلامية يجب عليها أن تقيم هذا الواجب بنفسها ، لا أن تبقى عالة على غيرها ، وعلى الأمة أن تساعدها عليه ، بل تلزمها إياه إذا قصرت فيه بعكس ما نراه الآن من تراخى الأمم الإسلامية وضعفها وتوانيها فى ذلك ، حتى طمعت فيها كل الدول التى تجاورها ، واجتاحتها من أطرافها ، واجتثت كثيرا من كُوَرها وأقاليمها .

وقد شدد الدين أيما تشديد فى هذا الأمر فجاء مثل هذا فى قوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ ، وجاءت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

﴿ وإن منكم لمن ليبطئن ﴾ أى ليتثاقلن ويتأخرنّ عن الجهاد والخطاب لجماعة المؤمنين بحسب الظاهر ، ومنهم المنافقون وضعفة الإيمان والجبناء ، فالمنافقون يرغبون عن الحرب لأنهم لا يحبون أن يبقى الإسلام وأهله ، ولا أن يدافعوا عنه ، ويحموا بيضته ، فهم يبطئون عن القتال ، ويبطئون غيرهم عن النفر إليه ، والجبناء وضعفة الإيمان يبطئون بأنفسهم عن القتال خورا وخوفا من صليل السيوف ومن الكر والفر ومقابلة العدو .

وهو شاكى السلاح . ثم فصل أحوال هؤلاء الضعفاء فقال : ﴿ فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا ﴾ ، أى قال ذلك المبطىء فرِحا بما فعل ، حامداً رأيه ، شاكرا ربه ، إذا أصابتكم المصيبة من قتل أو هزيمة إن الله قد أنعم علىّ بالقعود فلم أكن حاضرا معهم فيصيبنى مثل ما أصابهم من البلاء والشدة .

---

(١) وأخرجه الإمام أحمد فى (٥) رقم (٢٣٤) .

﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾ ، أى ولئن منَّ الله عليكم بالظفر ، وفتح البلاد فغنمتم ، وأخذتم السبايا والأسرى ، ليقولن قول من ليس منكم ، ومن لم تجمعه مودة بكم ـ ليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا ـ فهو قد نسى ما يجب عليه من مد يد المعونة إليكم ، وبذل كل ما يمكنه من نفس أو مال ليتم ذلك الظفر ، ولكن ضعف إيمانه أو جبنه منعه عن هذا ، إذ هذا التمنى بعد فوات الفرصة دليل على ضعف العقل ، وكونه ممن يشرى الحياة الدنيا بالآخرة .

وفى قوله : ﴿ كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾ تقريع وتوبيخ بألطف القول وأرق العبارة ، إذ أن قليلا من المودة كان ينبغى أن يمنح مثل هذا التمنى ، وأن يعد هذا الإحجام نعمة ، فهذا يشعر بأن صاحبه لا يرى نعمة الله على المؤمنين نعمة وفضلا عليه ، ولا ما يصيبهم من جهد وبلاء كأنه يصيبه هو ، مع أن القرآن يصرّح بأن المؤمنين إخوة ، والحديث يدل على أنهم كأعضاء الجسم الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضا .

ومن فوائد هذا الأسلوب أنه يؤثر فى نفس سامعه تأثيرا لا يدنو من مثله الطعن بهجر القول ، إذ يدعو صاحبه إلى التأمل والتفكر فى حقيقة حاله ، ومعاتبة نفسه ، والتوبة إلى ربه ، والرجوع إلى أوامر دينه .

الترغيب فى الجهاد

* فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ
وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ
ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ
ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

المفردات : سبيل الله : هى تأييد الحق والانتصار له بإعلاء كلمة الدين ونشر دعوته ، ودفاع الأعداء إذا هددوا أمتنا ، أو أغاروا على أرضنا ، أو نهبوا أموالنا ، أو صدونا عن استعمال حقوقنا مع الناس .

ويشرون : أى يبيعون كما جاء فى قوله : ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾[١] وقوله : ﴿ ولبئس ما شروا به أنفسهم ﴾[٢] وقوله : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾[٣] . **الطاغوت** : من الطغيان وهو مجاوزة الحق والعدل والخير إلى الباطل والشر . **والكيد** : السعى فى الفساد على وجه الحيلة .

بعد أن بين الله تعالى حال المعوِّقين والمثبِّطين والمبطِّئين عن القتال فى سبيله جل جلاله ، أمر سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين الذين يبيعون الحياة الدنيا وما فيها من عرض ومال وولد فى سبيل أن ينالوا ما عند الله فى الآخرة من نعيم مقيم ، فقال سبحانه : ﴿ **فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة** ﴾ ويشرى بمعنى يبيع من باب قوله جل شأنه ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾ وقوله جل شأنه : ﴿ وشروه بثمن بخس ﴾ وقوله تبارك اسمه : ﴿ بئس ما شروا به أنفسهم ﴾ ، فالذين يشرون ويبيعون الدنيا الفانية الزائلة فى سبيل الآخرة الباقية يقول فيهم جل وعز : ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾[٤] .

وبيّن الله تعالى عاقبة المجاهدين بعد ذلك فقال : ﴿ **ومن يقاتل فى سبيل الله فيُقتَل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ ، وإنما قال فيقتل ولم يقل أو يغلب ، لأن المقاتل فى سبيل الله فائز دائما ، فإذا قتل فإنه ينال الشهادة ، وعندئذ لا يقال عنه قد غلب ، لأن الشهادة فوز ورفعه إلى أعلى الدرجات ، ألا ترى أن الشهيد يغفر له بأول قطرة من دمه كل ذنب ، وأنه يرى مقعده من الجنة ، ويقيه الله فتنة القبر ، ويشفع لسبعة من أهل بيته ويزود باثنتين وسبعين حورية ، ويلبسه الله تاج الوقار ، أقل ياقوتة فيه خير من الدنيا والآخرة .

ثم يأتى هذا الاستفهام العجيب الذى فيه حث وحضٌ وتحريض على القتال فى سبيل الله ، فيقول سبحانه : ﴿ **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله** ﴾ أى لإعلاء كلمته والارتفاع بشأن دينه ، فتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، وهذا غرض من أشرف الأغراض وأنبلها ، كذلك من دوافع القتال حماية المستضعفين الذين بسط الجبابرة سطوتهم عليهم لتخرجوهم مما هم فيه من ذل وهوان ، إذ العزة لله ورسوله والمؤمنين .

ثم يبين سبحانه من هم المستضعفون ، فيقول : ﴿ من الرجال والنساء والولدان ﴾ ـ الذين ـ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون . سبيلا ويبين فى هذا المقام أن هؤلاء يلهجون بأكف الضراعة يسألونه سبحانه قائلين : ﴿ **ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا** ﴾ إن الظالم مهما طال فجره ، وامتد ليله ، لابد له من نهاية ، فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والحرام

(١) الآية ٢٠ من سورة يوسف .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢٠٧ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ٢٠ - ٢٢ من سورة التوبة .

لا يدوم وإذا دام لا ينفع ، وويل للظالم من يوم ما أطوله ، وخطب ما أهوله ، وجبار ما أعدله ، ويل له من يوم يقول الله فيه للمظلوم أيها المظلوم : تقدم ، ويقول للظالم : أيها الظالم لا تتكلم .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

يقول سبحانه فى الحديث القدسى الجليل : «اشتد غضبى على من ظلم من لم يجد له ناصرا غيرى ، واشتد غضبى على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره»(١) وصلى الله وسلم على الصادق المعصوم إذ يقول : (من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الاسلام)(٢) وإذ يقول : (إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم) ، (ان الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)(٣) . اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٤) فيا أخا الإسلام :

احذر من المظلوم سهماً صائدا واعلم بأن دعاءه لا يحجب
وإذا رُميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

وهذا غرض نبيل من أغراض مشروعية القتال فى الإسلام ، ليخرج الناس من عبادة الأوثان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

ثم بين سبحانه أن الناس فريقان هما : حزب الرحمن ، وحزب الشيطان . فيقول جل جلاله : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾ . والشهيد هو من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، لا لمغنم ولا لعرض ، ولا ليقال إنه شجاع ، والذين يقاتلون فى سبيل الطاغوت هم حزب الشيطان ، والطاغوت هو كل من تجاوز حدود الخير والحق والصدق ، والأصل فيه أنه طاغ ، وزيدت الواو والتاء للمبالغة فى الطغيان ، وتجاوز الحد .

فيا حزب الله ويا جماعة الإسلام قاتلوا أولياء الشيطان وأعوانه ونصراءه وقرناءه ولا تهولنكم كثرة عددهم وعُددهم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، واعلموا ان حيل الشيطان ومكايده ومصايده ، وشراكه وشباكه ، كلها أوهام وخيال وأحلام ، أما القوة الحقيقية فكامنة فى الاعتماد على الله

---

(١) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط . (الترغيب والترهيب . ج ٣ . ص ١٤٧) .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير ، وهو حديث غريب (الترغيب والترهيب . ج ٣ . ص ١٥٣) .
(٣) أخرجه البخارى فى التفسير سورة (١١) رقم (٣) . وأخرجه مسلم فى البر (٥) . والترمذى فى التفسير سورة (١١) رقم (٢) . وابن ماجه فى الفتن (٢٢) .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾(١) . إن القوة لله جميعاً ، ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾(٢) .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

أنت الـذى قـاد الجيـوش محـطماً عهـد الضـلال وأدب السـفهـاء
وسمـوت بـالبشـر الـذين تعلمـوا سنن الشريعـة فـارتقـوا سعـداء

فلا نامت أعين الجبناء

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

المفردات : ﴿ **كفوا أيديكم** ﴾ : أى عن القتال . ﴿ **كُتب عليهم** ﴾ : أى أُمِرُوا به . ﴿ **يخشون الناس** ﴾ : أى يخافون أن يقتلهم المشركون . ﴿ **كخشية الله** ﴾ : أى كما يخافون أن ينزل عليهم بأسه وعذابه . ﴿ **لولا أخرتنا إلى أجل قريب** ﴾ : أى هلا تركتنا حتى نموت حتف أنوفنا بآجالنا القريبة . ﴿ **متاع الدنيا** ﴾ : ما يستمتعون به من لذاتها . ﴿ **قليل** ﴾ : أى سريع الزوال . ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت** ﴾ : أى فى أى مكان كنتم يلحقكم الموت . (البروج المشيدة) : القصور العالية المطليه بالشيد وهو الجص أو الحصون والقلاع المتينة التى تعتصم فيها حامية الجند . ﴿ **حسنة** ﴾ : أى شىء يحسن عند صاحبه كالرضاء والخصب والظفر بالغنيمة . ﴿ **سيئة** ﴾ : هى ما تسوء صاحبها كالشدة والبأساء والضراء والهزيمة والجروح والقتل . ﴿ **يفقهون حديثا** ﴾ : يفهمون كلاما يوعظون به .

(١) الآية ٤١ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الأنفال .

يقص الله تعالى علينا فى هذه الآيات حالة قوم كانت الحرب بينهم ضروساً قبل الإسلام وعلى أتفه الأسباب كانوا يشهرون سيوفهم وتظل الحرب بينهم سنين عددا ، فلما جاء الإسلام وأضاء نوره أمرهم الله تعالى أن يكفوا أيديهم عن إراقة الدماء ، لأن الدماء فى الإسلام غالية ، وأمرهم أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فالصلاة كهف المؤمن وتاركها ملعون ، وجاره إن رضى به ملعون ، وهى عماد الدين ، من أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين ، وهي مفتاح الجنة ، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ، وكلما أذن المؤذن لها قالت الملائكة : يا بنى آدم قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فاطفئوها ، والمقصود بها نار الذنوب ، وإنما تطفأ نار الذنوب بماء الصلاة العذب الفرات السلسبيل ، وكما قال وليم وير لقد جاء محمد والعرب يشربون الخمر خمس مرات فى اليوم فلما صدر الأمر بتحريمها أراقوا كؤوسها فى الطرقات ، وأدوا الصلاة خمس مرات فى اليوم ، فإذا كانت الصلاة لتطهير النفوس ، فإن الأمر فى الزكاة لتطهير الأموال ، فكما قال النبى ﷺ : (لن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء) ، وفى الزكاة تطهير للأموال كما أن فيها تطهيراً للقلوب من الغل والحقد والحسد والبغضاء ، قال تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وإن الله هو التواب الرحيم ﴾(١) . قال ﷺ (حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء)(٢) ، وقال : (صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، وصدقة السر تطفىء غضب الرب ، وصلة الرحم تزيد فى العمر ، وما منع قوم زكاة مالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا)(٣) .

أمر الله هؤلاء كما أمر عباده بكف الأذى ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، لكن العجب العجيب لحال هؤلاء الذين كانوا يتقاتلون ويتناحرون قبل الإسلام فلما فرض الله عليهم القتال فى سبيله لإعلاء دينه ونصرة لا إله إلا الله ، إذ بفريق منهم يضعف ويجبن ، وقالوا : ﴿ ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾ وفى هذه العبارة ما فيها من الاعتراض واللوم وحب الدنيا ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أى هلا تركتنا حتى نأخذ متاعنا من الدنيا ، ونموت على فراشنا ، فيرد عليهم المولى تبارك اسمه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ . فالدنيا مهما أعطت وتزينت لأصحابها ، وأخذت زخرفها ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمر الله ليلاً أو نهاراً ، فجعلها حصيداً كأن لم تغن بالأمس وكم أذاقت أناساً أفاريق استحلوها ، ثم جمحت بهم طامحة ، ورمحتهم مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، ذلك لأنها إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قصور تبنى وما تبنا ، وكم من مريض عدنا وما عدنا ، وكم من ملك رفعت له علامات ، فلما علا مات .

هى الدار ما الأنفاس إلا نهائب لديها وما الأجسام إلا عقائر
إذا أحسنت يوماً أساءت ضحى غدٍ فإحسانها سيف على الناس باتر

(١) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة التوبة .
(٢) رواه أبو داود فى المراسيل . ورواه الطبراني والبيهقى مرفوعا . والمرسل أشبه (الترغيب والترهيب . ج ١ . ص ٢٦٤) .
(٣) رواه ابن ماجه ، والبزار ، والبيهقى من حديث ابن عمر . واللفظ لفظ البيهقى (الترغيب والترهيب . ج ١ . ص ٢٧٠) .

يرحم الله أبا بكر كان يقول : « احرص على الموت توهب لك الحياة» . وكم كان حزن خالد بن الوليد وهو على فراش الموت وهو يردد هذه الكلمات : «لقد خضت مائة معركة أو زهاءها ، وليس فى جسمى قيد شبر إلا وفيه ضربة بسيف ، أو طعنة برمح ، أو رمية بسهم فى سبيل الله ، أموت على فراشى كالبعير وكنت أود أن أموت شهيداً فلا نامت أعين الجبناء» .

﴿ والآخرة خير لمن اتقى ﴾ . أما الدنيا فمثلها كسوق قامت ثم انفضت ، ربح فيها من ربح ، وخسر فيها من خسر .

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيراً فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم يقول تعالى : ﴿ ولا تظلمون فتيلاً ﴾ . نعم الآخرة عند ربك للمتقين ، وعدالة الله تشمل الجميع ، وتعم الأولين والآخرين ، فلا ظلم ولو بمقدار ذلك الخيط الذى فى شق نواة البلح ، ويسمى فتيلا ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾(١) ، وقال جل ذكره : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾(٢) . وقال تبارك اسمه : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾(٣) . ولقد رد الله تعالى بأعظم رد وأقوى حجة على هؤلاء الجبناء الذين ﴿ قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ فقال : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٤) فمن أراد مؤنساً فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن لم يكفِه شىء من هذا فإن النار تكفيه .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء منقول
فإذا حملت إلى القبور جنازة فاعلم بأنك بعدها محمول

فاعلم أن الموت آتيك ولو سكنت البروج المشيدة فى شواهق الجبال ، ولو أقمت فى الحصون المنيعة فى جو السماء ، مهما كنت وأينما وجدت فأنت فى ملك الله ، وهذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، أو تطرف فيه طرفة عين ، أو يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن من لا يغفل ولا ينام ، الوجود ملكه ، والقضاء

---

(١) الآية ١٧ من سورة غافر .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة غافر .
(٤) الآية ٨ من سورة الجمعة .

حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين * وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾[1] . قال جبريل للصادق المعصوم ﷺ : (يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه) .

واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس ، لا خير فى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب وحرامها عقاب . نعم ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ وميت اليوم يشيعه ميت الغد .

فاعمل لله بقدر حاجتك إليه ، واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها ، واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها ، واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها ، واعمل للنار بقدر صبرك عليها ، الموت نوم أكبر ، والنوم موت أصغر ، فتجربة الموت تمر بنا كل ليلة .

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

ومما سجله القرآن على ضعفاء الإيمان ، ما حكاه الله تعالى فى قوله : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ﴾ .

هؤلاء الناس عندهم ضعف ومرض فى قلوبهم ، إن كانوا فى سعة من الرزق وعافية فى أبدانهم نسبوا ذلك إلى الله ، فإن أصابتهم شدة من فاقة أو مرض نسبوا ذلك إلى الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ، وتشاءموا به ، كما حدث ذلك لكليم الله موسى ، قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون * فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطّيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] والطِّيَرة هى التشاؤم ، وهى شرك بالله ، فإذا تطاير أحدكم فلا يرجع ، قال الرسل لقومهم : ﴿ ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين * قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسَّنكم منا عذاب أليم ﴾[3] .

وقد جاء الرد صريحا من الله جل فى علاه إذ يقول : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ إذ الله خالق كل شىء ﴿ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ ما لهم لا يفهمون ، وما لهم فى بعد عن الإدراك ، وما

---

(١) الآيات ٥٩ - ٦٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان ١٣٠ ، ١٣١ من سورة الأعراف .

(٣) الآيات ١٦ - ١٨ من سورة يس .

لقلوبهم فى أكنة ، وفى آذانهم وقر ، ومن بينهم وبين الهدى حجاب ﴿ **ما أصابك من حسنة فمن الله** ﴾ ، أى بتوفيقه وإرشاده وفضله ﴿ **وما أصابك** ﴾ أيها المخاطب ﴿ **من سيئة فمن نفسك** ﴾ كسباً واختياراً . أما أنت أيها الرسول الكريم ، فما عليك إلا البلاغ ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾(١) ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾(٢) .

وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد .

طاعة الرسول من طاعة الله

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

جاء فى سبب نزل هذه الآية : ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ روى مقاتل أن النبى ﷺ كان يقول : (من أحبنى فقد أحب الله ومن أطاعنى فقد أطاع الله ، فقال المنافقون : ألا تسمعون إلى ما يقول هذا الرجل ؟ لقد قارف الشرك قد نهى أن نعبد غير الله ، ويريد أن نتخذه ربا ، كما اتخذت النصارى عيسى فأنزل الله هذه الآية) .

نعم إن طاعة الرسول من طاعة الله ، لأنه مبلّغ عنه جل فى علاه ، والآمر الناهى فى الحقيقة هو الله ، وقد جرت سنته سبحانه وتعالى أن يوحى إلى أنبيائه ورسله بما يأمر وينهى ، قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(٣) .

---

(١) الآية ٧٩ من سورة النساء .
(٢) الآية ١٦٦ من سورة النساء .
(٣) الآيات ١٦٣ - ١٦٥ من سورة النساء .

وإذا كانت طاعة الرسول من طاعة الله فإن اتباعه من محبة الله : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفوررحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[١] ، كذلك رضاه من رضا الله قال تعالى : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾[٢] ، كذلك الاستجابة له من الاستجابة لله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[٣] . وسوف يندم العصاة وهم فى جهنم على عدم طاعتهم لله ورسوله : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾[٤] .

وقد حذر الله من مغبة مخالفة رسوله الكريم قال تعالى : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾[٥] ، ثم قال : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[٦] . فطاعة الرسول ﷺ واجبة ، وعصيانه ضلال مبين ، وليس فى طاعته شىء مما ادعى المنافقون من أنها كما ذهب النصارى فى المسيح ابن مريم ، فالطاعة غير العبادة : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلاهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٧] .

أما اليهود والنصارى فقد قال الله فى شأنهم : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[٨] .

قال أهل الحق من علماء العقائد :

فالمؤمن الحق لا يكون خاضعاً إلا لخالقه وحده دون أحد من خلقه ، والخروج عن ذلك شرك وهو نوعان :

١ - أن ترى لبعض المخلوقات سلطة غيبية وراء الأسباب العادية ، ومن ثم ترجو نفعها ، وتخاف ضرها ، وتدعوها وتذل لها . وذلك هو الشرك فى الألوهية .

٢ - أن ترى لبعض المخلوقين حق التشريع والتحليل والتحريم ، كما فسر النبى ﷺ قوله تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ بطاعتهم فيما يحللون ويحرمون ، وذلك هو الشرك فى الربوبية ، ذاك أن المؤمن يجب أن يكون أعز الناس نفساً ، وأعظمهم كرامة ، فلا يرضى أن يستعبده سلطان ظالم ، ولا حاكم مستعبد ، إذ هو يعلم علم اليقين أن الكل عبيد مسخرون لله تعالى ، يخضعون لأمره ، وأن ذلك منتهى سعادتهم فى الدارين .

---

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٦٢ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢٤ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ٦٦ من سورة الأحزاب .
(٥) الآية ٦٣ من سورة النور .
(٦) الآية ٦٣ من سورة النور .
(٧) الآية ١١٠ من سورة الكهف .
(٨) الآية ٣١ من سورة التوبة .

﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ ، أى ومن أعرض عن طاعتك التى هى طاعة الله فليس لك أن تكرهه عليها ، لأنك ما أرسلت إلا مبشراً ونذيراً ، ولم ترسل مسيطراً أو رقيباً ، تحفظ على الناس أفعالهم وأقوالهم ، فالإيمان والطاعة إنما يكونان بالاختيار بعد الإقناع والاختبار .

﴿ ويقولون طاعة ﴾ ، أى ويقول ذلك الفريق الذين أخبر الله عنهم أنهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، إذا أمرهم النبى ﷺ بأمر : أمرك طاعة — أى أمرك مطاع إظهاراً لكمال الانقياد والخضوع ، ﴿ فإذا برزوا من عندك بيَّت طائفة منهم غير الذى تقول ﴾ . البراز — بفتح الباء — الأرض الفضاء ، والتبييت وما يدبر فى الليل من رأى ونية ، وعزم على عمل ، ومنه تبييت العدو للإيقاع به ليلا ، أى إذا خرجوا من المكان الذى يكونون معك فيه إلى البراز وهم منصرفون إلى بيوتهم دبر جماعة منهم ليلا غير الذى قالوا لك . وأظهروه من الطاعة نهاراً .

روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : «هم ناس يقولون عند رسول الله ﷺ : آمنا بالله ورسوله ليأمنوا على دمائهم وأموالهم وإذا برزوا من عند رسول الله ﷺ خالفوا إلى غير ما قالوا عنده فعاتبهم الله على ذلك» .

﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ ، أى يبينه لك فى كتابه ويفضحهم بمثل هذه الآيات وفى هذا من التهديد شيء كثير .

﴿ فأعرض عنهم ﴾ ولا تهتم بما يبيتون ولا تؤاخذهم بما أسروا ولم يعلنوا ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى فوّض الأمر إليه وثق به فى جميع أمورك ، فإن الله يكفيك شرهم وينتقم لك منهم ، ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ لمن توكل عليه ، فهو قادر على إيقاع الجزاء بهم ، وعليم بمقدار ما يستحقون منه لا يعجزه منه شيء .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ . أصل التدبر التأمل فى أدبار الأمور وعواقبها ، ثم استعمل فى كل تأمل سواء كان نظرا فى حقيقة الشيء وأجزائه أو سوابقه وأسبابه أو لواحقه وأعقابه ، وتدبر الكلام هو النظر والتفكر فى غاياته ومقاصده التى يرمى إليها ، وعاقبة من يعمل به ومن يخالفه . أى أجَهِلَ هؤلاء القوم حقيقة الرسالة ، وكنة هذه الهداية فلا يتدبرون القرآن الذى يدل على حقيقتها ؟ ولو تدبروه لعرفوا أنه الحق من ربهم ، وأن ما وعد به المتقين الصادقين وما أنذر به الكافرين والمنافقين واقع لا محالة ، فهو إذ صدق فى الإخبار عما يبيتون فى أنفسهم من القول يصدق كذلك فيما أخبر عن سوء مصيرهم والوبال ، والنكال فى عاقبتهم .

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾ ، أى من بشر أو ملك أو جن ، أو من أى مخلوق لا من عند الله الذى أرسله به لوجدوا فيه اختلافا كثيراً لأسباب كثيرة :

١ - أن أى مخلوق لا يستطيع تصوير الحقائق كما صورها القرآن بلا اختلاف ولا تفاوت فى شيء منها .

٢ - أنه حكى عن الماضى الذى لم يشهده أحد منهم ولم يقف على تاريخه ، وعن الآتى فوقع كما أنبأ

به ، وعن الحاضر فأخبر عن خبايا الأنفس ومكنونات الضمائر ، كما أخبر عما بيتته هذه الطائفة مخالفاً لما تقول للرسول أو ما يقوله لها ، فتقبله فى حضرته وترفضه فى غيبته .

٣ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتى بمثله فى بيان أصول العقائد وقواعد الشرائع وسياسة الشعوب والقبائل مع عدم الاختلاف والتفاوت فى شىء من ذلك .

٤ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتى بمثله فى سنن الاجتماع ، ونواميس العمران ، وطبائع الملل والأقوام ، مع إيراد الشواهد وضرب الأمثال ، وتكرار القصة الواحدة بالعبارات البليغة ، تنويعا للعبرة وتلويناً للموعظة ، واتفاق كل ذلك وتواطئه على الصدق وبراءته من الاختلاف والتناقض .

٥ - أن أحداً لا يستطيع أن يأتى بمثله فيماجاء به من فنون القول وألوان العبر فى أنواع المخلوقات فى الأرض أو فى السموات ، فقد تكلم على الخلق والتكوين ، ووصف جميع الكائنات كالكواكب ونظامها ، والرياح والبحار والحيوان والنبات وما فيها من الحكم والآيات ، وكان فى كل ذلك يؤيد بعضه بعضا ، لاتفاوت فيه ولا اختلاف بين معانيه .

٦ - أنه أخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة ، وما فيها من الحساب على الأعمال والجزاء العادل ، وكان فى كل ذلك جاريا على سنة الله تعالى فى تأثير الأعمال الاختيارية فى الأرواح ، مع الالتئام بين آيات كثيرة وهو غاية الغايات فى ذلك ، عند من أوتى الحكمة وفصل الخطاب .

هذا إلى أنه نزل منجّماً بحسب الوقائع والأحوال ، وكان النبى ﷺ عند نزول الآية أو الآيات يأمر بأن توضع فى محلها من سورة كذا ، وهو يحفظه حفظاً ، وقد جرت العادة بأن من يأتى بكلام من عنده فى مناسبات مختلفة لا يتذكر جميع ما سبق له فى السنين الطوال ، ولا يستحضره ، حتى يجعل الآخر موافقا للأول ، مع أن بعض الآيات كان ينزل فى أيام المحن والكروب ، وبعضها عند تنازع الأقوام حين الخصام ، إلا أن كر الغداة ومر العشى لا يزيده إلا جدة ، ولا يزيد أحكامه إلا ثباتا ورسوخاً ، وكلما اتسعت دائرة العلوم والمعارف ، ونمت أحوال العمران ، زاد إيمان الناس به ، إذ تتوثق روابط الصلة بين الدين والعلم ، وتتظاهر أحكامه مع نواميس الاجتماع وشئون الكون .

والخلاصة : أن تدبر القرآن وتأمل ما امتاز به هو طريق الهداية القويم ، وصراط الحق المستقيم ، فإنه يرشد إلى كونه من عند الله ، وإلى وجوب الاهتداء به ، وإلى أنه معقول فى نفسه ، موافق للفطرة ، ملائم للمصلحة ، وفيه سعادة الخلق فى الدنيا والآخرة ، ولو تدبر المسلمون القرآن واهتدوا به فى كل زمان لما فسدت إخلاقهم وآدابهم ، ولما ظلم واستبد حكامهم ، ولما زال ملكهم وسلطانهم ، ولما صاروا عالة فى معايشهم على سواهم . وهذا التدبر لا يمنع أن يستنبط أولو الأمر الأحكام العامة فى السياسة والقضاء والإدارة وتتبعهم فيها سائر الأمة .

من قبائح المنافقين

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾

المفردات : أذاع الشيء وأذاع به : نشره وأشاعه بين الناس . ورد الشيء : أرجعه وأعاده . والاستنباط : استخراج ما كان مستتراً عن الأبصار . فضل الله : هو هدايتكم بطاعة الرسول . إلا قليلا : أى قليلاً منكم ممن أوتوا صفاء الفطرة وسلامتها .

هذا توجيه إلهى وإرشاد ربانى يتعلق بأسرار الأمة فى السلم والحرب والأمن والخوف ، وهذا التوجيه يدعو الأفراد أن لا يذيعوا ما أمر الله برده إلى الرسول ﷺ فى حياته ، وإلى العلماء المتخصصين بعد وفاته ، إذ فى إذاعته ونشره أضرار تعود على المجتمع الإسلامى ، فإذا ما ردوه إلى أهل الحل والعقد ، وإلى أهل المشورة والمجالس المتخصصة ، والذين عناهم القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾ وخلاف الجميل إذاعة الأسرار ، خاصة ما يتعلق منها بالشئون العسكرية والأمن ، ثم يختم الله تبارك اسمه بقوله : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً** ﴾ ، أى لولا فضله عليكم ببيان الأحكام والإرشاد إلى طريق النجاة ، ولولا رحمته بكم فى الشدائد والمحن ، وأنه جل فى علاه يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، لولا ذلك لسلكتم طرق الشياطين فسلكوا بكم إلى الهاوية ، وما أدراك ما هى ، نار حامية ، لولا ذلك لترديتم إلى الدرك الأسفل ، وانحدرتم إلى حضيض الضبراء ، ولا عاصم لكم من أمر الله إلا من رحم ، وما نجا من ذلك منكم إلا القليل الذى امتلأ قلبه نورا وهدى وضياء .

وحرض المؤمنين

فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾

المفردات : **التحريض** : الحث على الشيء بتزيينه وتسهيل الأمر فيه . **والبأس** : القوة ، وكان بأس الكافرين متجها إلى إذلال المؤمنين لإيمانهم . **والتنكيل** : معاقبة المجرم بما يكون فيه عبرة ونكال لغيره بحيث يمنعه أن يفعل مثل فعله .

خطاب من الله تبارك اسمه لرسوله الكريم ، يحثه فيه على قتال الجاحدين المنكرين ، فكل فعل فى سبيل الله وابتغاء مرضاته له عند الله مكانة عظمى ، فلا يكن فى صدرك حرج مما قاله المنافقون ، عندما أمرهم الله بالقتال : ﴿ قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وحرض المؤمنين على القتال ، كما أمرك الله فى قوله : ﴿ يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾(١) . وأعلم أنك لست مسئولا عن أفعال هؤلاء ، فإنك لا تكلف إلا نفسك .

وفى هذه الآية إشارة إلى شجاعة الرسول الكريم ، ومدى إقدامه فى حومات الوغى وساحات القتال ، لقد وقف يوم حنين فى جموع المشركين تحيط به قلة من المؤمنين ينادى بأعلى صوته : (أنا النبى لاكذب أنا ابن عبد المطلب) . سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا داعيا للواحد الديان   يا هازما للبغى والطغيان
يا رافعاً صوت العدالة عالياً   ومؤذنا فى الناس بالقرآن

وكما قالوا : إن القتل أنفى للقتل ، فإن الحرب أنفى للحرب ، وما استعمل الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف ، والإسلام لا يعرف السلم الأعزل ، إنما السلم فى الإسلام سلم مسلح . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾(٢) ، وقال ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ ، يفيد الوعد فى قوله ﴿ عسى ﴾ والله لا يخلف الوعد ، فيكون هذا أمراً حقاً ووعدا صدقاً ، والبأس : المراد به القوة التى كان الكافرون يصدون بها من آمن ، ويريدون أن يذلوا بها جماعة المسلمين ، والله أشد بأساً . وقوة . قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحاً صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾(٤) والله أشد تنكيلاً وعقوبة رادعة ، فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ﴿ يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾(٥) .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .
(٤) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٦٤ من سورة الأنفال .

الشفاعة نوعان

مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ
مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾

المفردات : قال الراغب : **الشفع** : ضم الشىء إلى مثله ، **والشفاعة** : الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه ، **نصيب** : حظ ، **كفل** : نصيب ، **مقيتا** : أى مقتدرا أو حافظاً أو شاهدا . قال الراغب : وحقيقته قائماً عليه يحفظه ويعينه ، فهو مأخوذ من القوت ، وهو ما يمسك الرمق من الرزق ، وتحفظ به الحياة ، يقال قاته يقوته إذا أطعمه قوته ، وأقاته يقيته إذا جعل له ما يقوّته ، **والتحية** : مصدر حياهُ إذا قال له حياك الله ، وهى الأصل الدعاء بالحياة ثم صار اسما لكل دعاء وثناء كقولهم : أنعم صباحاً ، وأنعم مساء ، وعم صباحاً وعم مساء . وجعل الشارع تحية المسلمين «السلام عليكم» إشارة إلى أن الدين دين سلام وأمان . **الحسيب** : المحاسب على العمل كالجليس بمعنى المجالس وقد يراد به المكافىء والكافى من قولهم : حسبك كذا إذا كان يكفيك .

بعد أن أمر الله تعالى رسوله بقتال أعداء الله ، وأمره بتحريض المؤمنين على القتال ووعده برد كيد الخائنين ، وأخبره بأنه تعالى أشد بأسا وأشد تنكيلا ، بين بعد ذلك خطر الشفاعة ، وأنها مسئولية يتحمل الإنسان الشافع عاقبتها إن خيرا أو شرا ، فإذا كانت الشفاعة حسنة بأن كانت لنصرة مظلوم ، أو تقوية الحق بضم رأى الإنسان إلى غيره ، فللشافع نصيب من الحسنات ، لأن من دلَّ على الخير فهو كفاعله ، ومن شفع لمظلوم فقد أغاثه من ظلم وقع عليه ، وإغاثة المظلوم موقف نبيل .

وقد اشتد غضب الله على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره ، كذلك اشتد غضبه تعالى على من ظلم من لم يجد له ناصرا إلا الله . فمن ضم رأيه إلى رأى المشفوع عنده ، انقاذاً للمشفوع له فى الحق ودفع الظلم فسوف يؤتيه الله من لدنه أجراً عظيماً ، لأن شفاعته حسنة .

أما من شفع شفاعة سيئة ، بأن حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد حادَّ الله ورسوله ، وضادّ أحكام الله فى العدالة والله سبحانه وتعالى عند ما يقرر أن من يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها فذلك لما يترتب على الشفاعة السيئة من ضياع الحقوق ، ووضع الأمور فى غير نصابها ، والنقاط على غير حروفها ، وتسمية الأشياء بغير أسمائها ، ووضع الرجل المناسب فى المكان اللا مناسب وذلك بالشفاعة السيئة مما يثبط

همة أصحاب الهمم ، ويقوض حوافز المجتهدين ، لأن فى ذلك ظلما مبينا ، والظلم مرتعه وخيم . والله تعالى ينادى فى حديثه القدسى الجليل فيقول : (يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا)[١] .

وكم كان غضب رسول الله ﷺ شديدا عندما جاءه الحِب بن الحِب أسامة بن زيد يشفع لامرأة سرقت وكانت من شريفات قومها . هنا يحسم الرسول ﷺ الموقف بكلمات موجزة المبنى عظيمة المعنى : (أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة) ؟ ثم يبين الخطر المترتب على الشفاعة إذا كانت فى غير حق فيقول : (إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه . وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)[٢] .

هذا منطق العدالة فى الإسلام ، والعدل فى الإسلام لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، ويوم يخطئ ميزان العدل فسوف يخطىء الحساب فيأتى بأوخم العواقب وكم من أناس اعتمدوا على مالهم من محسوبية ووجاهة ووساطة ، فكانوا غير أكفاء . وتبوءوا مقاعد فى شواهق الجبال ، فكانوا عالة على الأمة فى السراء وسواساً ينخر فى نظام المجتمع ساعة الضراء . وخسرت الأمة بسببهم خسرانا مبينا .

فمن هنا أمر الله المؤمنين بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[٣] وأخبرهم بقوله : ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾[٤] وبقوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[٥] وحثهم على الخير بقوله : ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾[٦] ووعدهم بقوله : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[٧] .

فلو أننا طبقنا تلك الأصول ما رأيت فى البيوت عاطلا ، ولا فى الطريق سائلا ، ولا فى السجون قاتلا ، ولمحت العدالة الشقاء من المجتمع كما يمحو نور الصبح مداد الظلام .

وقد صدق الرسول الكريم إذ يقول فى الشفاعة الحسنة : (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ما شاء)[٨] .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان على كل شىء مقيتا ﴾ أى مقتدرا . فهو الذى يملك الثواب والعقاب وبيده

---

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) .
(٢) أخرجه البخارى فى فضائل أصحاب النبى (١٨) وفى الأنبياء (٥٤) وفى الحدود (١٢) . وأخرجه مسلم فى الحدود (٨ ، ٩) . وأخرجه أبو داود فى الحدود (٤) . والترمذى فى الحدود (٦) . والنسائى فى السارق (٥ ، ٦) ، وابن ماجه فى الحدود (٦) . والدارمى فى الحدود (٥) . والإمام أحمد فى (٣) ٣٨٦ ، ٣٩٥ . وفى (٥) ٤٠٩ . وفى (٦) ٣٢٩ .
(٣) الآية ١١٩ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٨١ من سورة يونس .
(٥) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٦) الآية ٧٧ من سورة الحج .
(٧) الآية ٩٦ من سورة الأعراف .
(٨) أخرجه البخارى فى الزكاة (٢١) وفى الأدب (٣٦ ، ٣٧) وفى التوحيد (٣١) . وأخرجه مسلم فى البر (١٤٥) . وأبو داود فى الأدب (١١٧) . والترمذى فى العلم (١٤) . والنسائى فى الزكاة (٦٥) . والإمام أحمد فى (٤) ٤٠٠ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ .

موازين القسط يثيب على الشفاعة الحسنة ، ويعاقب على الشفاعة السيئة ، وهو سبحانه إن يثب فبمحض الفضل وإن يعاقب فبمحض العدل ، ولا يظلم ربك أحدا .

وينتقل بنا النظم الكريم من أحكام الشفاعة إلى التحية فى الإسلام فيقول سبحانه : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ . والتحية فى الإسلام هى السلام ، والسلام ، كلمة طيبة الوقع على القلوب المؤمنة . ويكفى التحية شرفاً أن السلام اسم من أسماء الله الحسنى ، كما يكفيها شرفا أنها تحية الله إلى رسوله ومصطفاه «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته» . ويكفيها شرفا أنها كانت الرد الكريم من رسول الله على ربه . «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ، والجنة دار السلام . قال تعالى : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾[2] . قال جلّ شأنه : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾[1] . وتحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿ سلام عليكم بما صبرتم ﴾[3] . وتحية الله لعباده المؤمنين يوم القيامة سلام : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[4] . والمتقون فى الجنة ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما ﴾ . وليلة القدر ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ .

ولو علم المسلمون ما فى تحية الإسلام من حسنات ما عدلوا عنها إلى غيرها من تحيات الأجانب ، ولاعتزوا بتحية الإسلام . فالله تعالى يعطى على تلك التحية ثلاثين حسنة : السلام عليكم عشر حسنات ، ورحمة الله مثل ذلك ، وبركاته مثل ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ **فحيوا بأحسن منها** ﴾ أى زيدوا على من بدأ بها فتلك أحسن من التحية ، ﴿ **أو ردوها** ﴾ : أى قولوا مثلما قال البادئ بها فإن الرد مفروض ، والزيادة مندوب إليها ، قال سلمان الفارسى رضى الله عنه : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله فقال : (وعليك السلام ورحمة الله) ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يارسول الله ورحمته ، فقال له رسول الله ﷺ : (وعليك السلام ورحمة الله وبركاته) . ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : (وعليك) ، فقال له الرجل : يا نبى الله بأبى أنت وأمى أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت على . فقال : (إنك لم تدع لنا شيئا قال الله تعالى : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ فرددناها عليك) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابّوا أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم أفشوا السلام بينكم)[5] . .

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآيه ٧٥ من سورة يونس .
(٣) الآية ٢٤ من سورة الرعد .
(٤) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .
(٥) أخرجه مسلم فى الإيمان (٩٣ ، ٩٤) . وأبو داود فى الأدب (١٣١) . والترمذى فى الاستئذان (١) . وفى القيامة (٥٦) . وأخرجه ابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الأدب (١١) . وأخرجه الإمام أحمد فى (١) ١٦٥ ، ١٦٧ . وفى (٢) ٣٩١ ، ٤٤٢ ، ٤٧٧ ، ٤٩٥ ، ٥١٢ .

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة المنورة واجتمع أهلها عليه قال لهم : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)[١] . .

وقد نظم الرسول ﷺ إلقاء السلام بسنته بحيث يسلم القادم على من يقدم عليه ، وإذا تلاقى الرجلان يبدأ الكبير فى السن أو القدر بالسلام ، وقد جاء فى الصحيحين أنه : «يسلم الراكب على الماشى والماشى على القاعد والقليل على الكثير»[٢] وروى : «أن النبى ﷺ مر بصبيان فسلم عليهم» . وروى الترمذى : «أنه مرَّ بنسوة فأومأ بيده بالتسليم»[٣] . وقد ورد فى الصحيحين قوله ﷺ : (إن أفضل الإسلام وخيره إطعام الطعام وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)[٤] وروى الحاكم قوله ﷺ : (أفشوا السلام تسلموا) .

دخلت جارية للحسين بن على رضى الله عنه . دخلت عليه وبيدها باقة من الريحان فأهدتها له تحية خالصة من قلبها فأعتقها الحسين . فقال له بعض أصحابه : أتعتقها من أجل شىء من الريحان ؟ فقال : إنما أعتقتها لأنها حيتنى والله تعالى يقول : ﴿ فحيوا بأحسن منها ﴾ ولم أجد أحسن من تحيتها إلا عتقها .

قوله تعالى : ﴿ إن الله كان على كل شىء حسيبا ﴾ أى يجزى كلا بعمله ويحاسب كلا حسب نيته وفعله . قال جل شأنه : ﴿ فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٥] . فمن ردَّ التحية بأحسن منها فله عند الله أجره ، ومن يفعل مثقال ذرة خيرا يره .

وبعد بيان الأحكام السابقة فيما مضى من الآيات ينتقل بنا النظم الكريم إلى حقيقة الحقائق ونور الأنوار ، إلى ضياء التوحيد والبعث قال تعالى : ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴾ . نعم . . إنها الحقيقة التى رفع الأنبياء لواءها . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٦] . فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال صلوات ربى وسلامه عليه : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله) .

سبحانك ربى :

ما فى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ولا مولى هناك فيُقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

---

(١) أخرجه الترمذى فى الأطعمة (٤٥) وفى القيامة (٤٢) . وأخرجه ابن ماجه فى الأطعمة (١) وفى الإقامة (١٧٤) . وأخرجه الدارمى فى الأطعمة (٣٩) وفى الصلاة (١٥٦) وفى الاستئذان (٤) . وأخرجه الإمام أحمد فى (٢) ١٥٦ ، ١٧٠ ، ١٩٦ . وفى (٥) ٤٥١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الاستئذان (٥ ، ٦) . ومسلم فى الأدب (٤٦) . وأبو داود فى الاستئذان (٦) . والترمذى فى الاستئذان (١٤) . والإمام مالك فى السلام (١) . والإمام أحمد فى (٣) ٤٤٤ . وفى (٦) ١٩ ، ٢٠ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الاستئذان (٦) .

(٤) أخرجه البخارى فى الاستئذان (٩) . ومسلم فى الإيمان (٦٣ ، ٦٥) . وأبو داود فى الأدب (١٣١) . والنسائى فى الإيمان (١١ ، ١٢) وابن ماجه فى الأطعمة (١) والدارمى فى الرقاق (٤) . والإمام أحمد فى (٣) ٣٧٢ .

(٥) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

(٦) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

إنك إن سألت العالم كله من سمائه إلى أرضه ومن عرشه إلى فرشه وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديَّان . والدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر . وميت اليوم يشيعه ميت الغد ، فخذ من مفرك لمقرك ، واعلم أنه لابد لك من قرين يدخل معك قبرك وهو حى وتدخل معه وأنت ميت ، فإن كان صالحا أكرمك وإن كان لئيما خذلك ، فاجعله صالحا ، فإنه عملك . واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل . واذكر يوم ينفض عنك أحباؤك ويطول عواؤك وينادى عليك ملك الملوك فيقول : عبدى رجعوا وتركوك وفى التراب دفنوك ، ولو ظلوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا ، وأنا الحى الذى لا أموت .

الله تعالى يقسم على أن البعث حق فيقول : ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ ، وفى هذا اليوم تُوفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا :

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

فاغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ . سبحانك اللهم لا أحد أصدق منك ، فأنت أصدق القائلين ، فلك الحمد ، أنت قيوم السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن . أنت الحق وقولك الحق ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، ومحمد حق ، والنبيون حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت ولك خاصمت ولك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ولا إله إلا أنت .

حديث عن أهل النفاق

* فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا
تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ
لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ
لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟
إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

المفردات : **الفئة** : الجماعة ، والركس بوزن النصر : إرجاع الشيء منكوسا على رأسه إن كان له رأس ، أو متحولا عن حال إلى أردأ منها كتحول الطعام والعلف إلى الرجيع والروث ، والمراد به هنا تحولهم إلى الغدر والقتال بعد أن أظهروا الولاء والتحيز إلى المسلمين ، **والسبيل** : الطريق ، **والولى** : النصير والمعين ، **يتصلون** : أى يتصلون بهم ، **الميثاق** : العهد ، حصرت : ضاقت ، السلم : **الاستسلام والانقياد** ، **الفتنة** : الشرك ، **ثقفتموهم** : وجدتموهم ، **السلطان** المبين : الحجة الواضحة .

جاء فى سبب نزول هذه الآية :

روى ابن جرير عن ابن عباس أنها نزلت فى قوم أظهروا الإسلام بمكة وكانوا يعينون المشركين على المسلمين ، فاختلف المسلمون فى شأنهم وتشاجروا فنزلت الآية .

– وعن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين : فرقة تقول نقتلهم وفرقة تقول لا ، هم المؤمنون فأنزل الله : ﴿ فما لكم فى المنافقين

فئتين ﴾ فقال رسول الله ﷺ : (إنها طيبة وإنها تنفى الخبث كما ينفى الكير خبث الحديد)[١] .

– ذكر محمد بن إسحق بن يسار فى وقعة أحد أن عبد الله بن أبى بن سلول رجع يومئذ بثلث الجيش ، رجع بثلاثة مائة وبقى النبى ﷺ فى سبعة مائة .

– وقال العوفى عن ابن عباس : نزلت فى قوم كانوا بمكة قد تكلموا بالإسلام وكانوا يظاهرون المشركين فخرجوا من مكة يطلبون حاجة لهم فقالوا : إن لقينا أصحاب محمد فليس علينا منهم بأس . وإن المؤمنين لما أخبروا أنهم قد خرجوا من مكة قالت فئة من المؤمنين : اركبوا إلى الجبناء فاقتلوهم فإنهم يظاهرون عليكم عدوكم . وقالت فئة أخرى من المؤمنين : سبحان الله أو كما قالوا : أتقتلون قوما قد تكلموا بمثل ما تكلمتم به من أجل أنهم لم يهاجروا ولم يتركوا دماءهم وأموالهم فكانوا بذلك فئتين والرسول عندهم لا ينهى واحدا من الفريقين عن شىء فنزلت : ﴿ فما لكم فى المنافقين فئتين ﴾ .

يخاطب الله تعالى جماعة المؤمنين بهذا الاستفهام الإنكارى فيقول : ما لكم قد انقسمتم فى الحكم على هؤلاء المنافقين إلى جماعتين : جماعة ترى أنهم مسلمون ، وآخرون يرون أنهم كافرون . والله سبحانه وتعالى يحكم عليهم بأنهم كافرون فقد أركسهم بما كسبوا ، أى ردهم على رءوسهم منكوسين ، وأهلكهم بسبب ما قدمت أيديهم من الإثم والعدوان ومعصية الرسول وخيانتهم وخداعهم وتآمرهم على المسلمين ونبى الإسلام . ومن أجرى الله عليه سنته بسبب ضلاله وعناده ، فلن يهديه أحد : ﴿ أتريدون أن تهدوا من أضل الله ﴾ ؟ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين . قال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[٢] وقال جل شأنه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٣] . ﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾[٤] إلى الهدى ، فقد صار صدره ضيقا حرجا كأنما يصعَّد فى السماء . وهؤلاء الذين نافقوا لم يقتصر أذاهم على الضرر الظاهرى بل ما تخفى صدورهم أكبر . قال تعالى فى شأنهم : ﴿ ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ : أى أن هؤلاء يتمنون لكم الكفر لتكونوا سواء فى الكفر مثلهم فماذا أنتم فاعلون مع هؤلاء ؟

قال تعالى : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله ﴾ أى لا تتخذوا منهم أنصارا ولا أعوانا حتى يحسنوا إليكم وذلك بإظهار المودة والإسلام ويكون ذلك بالهجرة فى سبيل الله والانضمام إلى معسكر المسلمين فإن تولوًا عن الإيمان وانصرفوا عن الانضمام إلى معسكر التوحيد بالهجرة فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ، أى فى أى مكان ، ولا تتخذوا منهم وليًا يلى شئونكم ولا نصيرا تستعينون به .

---

(١) أخرجه البخارى فى فضائل المدينة (٢ ، ١٠) وفى تفسير سورة (٤) رقم (١٥) . وفى الأحكام (٤٥ ، ٤٧ ، ٥٠) وفى الاعتصام (١٦) . وأخرجه مسلم فى البر (٥٣) . وأبو داود فى الجنائز (١) . والنسائى فى الحج (١٢ ، ١٣) وفى البيعة (٢٢) . وأخرجه ابن ماجه فى المناسك (٣) وفى الطب (١٨) وفى الفتن (٣٣) . والإمام مالك فى المدينة (٤ ، ٥) . والإمام أحمد فى (١) ٢٥ ، ٣٨٧ . وفى (٢) ٢٣٧ ، ٢٤٧ ، ٤٣٩ . وفى (٣) ٢٩٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٦٥ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ . وفى (٥) ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

(٢) الآيات ٨ – ١٠ من سورة الليل .

(٣) الآية ١٧ من سورة فصلت .

(٤) الآية ١٤٣ من سورة النساء .

وقد استثنى الله تعالى من هؤلاء فريقين رفع عنهم السيف قال فى شأن الفريق الأول : ﴿ **إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ أى جماعة لهم اتصال بقوم عُقدت بينكم وبينهم عهود ومواثيق . والفرقة الثانية يقول الله فى شأنهم : ﴿ **أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم** ﴾ أى ضاقت صدورهم عن قتالكم أو قتال قومهم ولم تنشرح صدورهم للقتال فهم واقفون موقف الحياد ما حكم هؤلاء ؟

قال تعالى : ﴿ **فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم** ﴾ ، أى انقادوا لكم ، ﴿ **فما جعل الله لكم عليهم سبيلا** ﴾ أى إلى قتالهم وليس لكم عليهم حجة فى القتال ، وقد أظهر الله تعالى على المؤمنين نعماءه واضحة إذ يقول : ﴿ **ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم** ﴾ وهو سبحانه الذى كفَّ أيديهم عنكم .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن الحسن أن سُراقة بن مالك المُدْلجى حدثهم قال : (لما ظهر رسول الله ﷺ على أهل بدر وأحد وأسلم من حولهم قال سراقه : بلغنى أنه عليه الصلاة والسلام يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومى من بنى مُدْلج فأتيته فقلت أنشدك النعمة ، فقالوا : مَهْ ، فقال دعوه ، تريد ؟ قلت بلغنى أنك تريد أن تبعث إلى قومى وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا وإن لم يسلموا لم تخش بقلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد فقال : (اذهب معه فافعل ما يريد) فصالحهم خالد على ألا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم ، ومن وصل إليهم من الناس كان له مثل عهدهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ودوا لو تكفرون** ﴾ حتى بلغ : ﴿ **إلا الذين يصلون** ﴾ فكان من وصل إليهم كانوا معهم على عهدهم .

قوله تعالى : ﴿ **ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها** ﴾ . نزلت هذه الآية فى قوم مذبذبين لا هم مسلمون ولا هم كافرون ، إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا لقوا الكافرين قالوا إنا معكم . روى عن مجاهد أن ناسا كانوا يأتون النبى ﷺ فيسلمون رياء ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون فى الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ها هنا وها هنا فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا .

هؤلاء القوم المذبذبون ﴿ **كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها** ﴾ ، أى كلما دعاهم المشركون إلى الشرك وقعوا فيه مرة ، إنهم يتظاهرون بالإسلام مرة ويتظاهرون بالكفر أخرى ، ليأمنوا جانب الكافرين . فما موقف الإسلام منهم ؟ .

بين الله الحكم فى هؤلاء المترددين فقال : ﴿ **فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا** ﴾ ، أى حجة دافعة ودليلا قاطعا على قتالهم ، لأنهم إن لم يعتزلوا ويلقوا الانقياد والإذعان لكم ، ويكفوا أيديهم عن العدوان ، فإنهم عندئذ يكونون خطرا يهدد الجماعة المسلمة ، فهم عندئذ لا أمان لهم مع توافر الأدلة على وجوب قتالهم حماية لأمة الإسلام . وهذا حكم الله فى أولئك المذبذبين المترددين .

قال الرازى : قال الأكثرون وهذا يدل على أنهم إذا اعتزلوا قتالنا وطلبوا الصلح منا وكفوا أيديهم عن قتالنا لم يجز لنا قتالهم ولا قتلهم . ونظيره قوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ﴾(١) إذ خص فيها الأمر بقتال من يقاتلنا دون من لم يقاتلنا . وقوله جلّ شأنه : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾(٢) .

القتل الخطأ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾

لما كانت الآيات المتقدمة بصدد بيان أحكام القتال بين المسلمين وأعدائهم ، جاءت -هذه الآية تنفى بشدة أن يقع القتل العمد بين أفراد الجماعة المسلمة ، وجاء التعبير عن هذا المعنى بأسلوب الحصر فى القتل الخطأ الذى انتفى فيه عنصر القصد . ذلك لأن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب ، يكاد يجعل المستحيل ممكنا ، فهو صانع العجائب ، كما صور ذلك الرسول الكريم فى قوله : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر)(٣) . وكما صوره فى قوله : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا)(٤) وفى قوله : (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(٥) ، وفى قوله : (المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى) . فما بالك برسالة يقول الله لصاحبها : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٦) ، ويتحدث صاحبها عن بعثته فيقول : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(٧) ، إنه تشريع جاء الرسول به كالشمس فى ضحاها

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٦١ من سورة الأنفال .
(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) . ومسلم فى البر (٦٦) .
(٤) أخرجه البخارى فى الصلاة (٨٨) وفى الأدب (٣٦) وفى المظالم (٥) . وأخرجه مسلم فى البر (٦٥) . والترمذى فى البر (١٨) . والنسائى فى الزكاة (٦٧) . والإمام أحمد فى (٢-١٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ .
(٥) أخرجه مسلم فى الإيمان (٧١ ، ٧٢) . والبخارى فى الإيمان (٧) . والترمذى فى القيامة (٥٩) والنسائى فى الإيمان (١٩ ، ٢٣) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الجنائز (١) . وأخرجه الدارمى فى الاستئذان (٥) وفى الرقاق (٢٩) والإمام أحمد فى (١) ٨٩ . وفى (٣) ١٧٦ ، ٢٠٦ ، ٢٥١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ .
(٦) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٧) أخرجه الإمام مالك فى حسن الخلق (٥) . والإمام أحمد فى (٢) ٣٨١ .

وسنة كالقمر إذا تلاها . فمن تبعهما وسلك منهجهما عاش فى ضوء النهار إذا جلاّها ومن أعرض عن هذا النهج عاش فى ظلمة الليل إذا يغشاها .

قال الفاروق لرسول الله ﷺ يوما : يا رسول الله إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفتكتب بعضها ؟ فقال له الصادق المعصوم : (أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ ـ أى متحيرون ـ لقد جئتكم بها بيضاء نقية . ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى)(١) .

نعم لقد جاء بها الرسول نقية بيضاء وجاء بها غيره دموية حمراء .

يا سيدى يا رسول الله معذرة إذا كبا فيك تبيانى وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير تدعو إلى الله فى بشر وتيسير
على جبينك نور الحق منبلجا وفى يديك لواء العدل والنور

إذن ما كان للإسلام أن يتصور أن يقع بين المؤمنين قتل عمد لأن الإيمان يكسب أصحابه حسا مرهفا ويغرس فيهم المشاعر النبيلة والسجايا الحميدة والشمائل الكريمة ، فإن كان هناك قتل فإنه خطأ غير مقصود ، كمن يرمى صيداً فيصيب إنسانا ، وهنا فإن الإسلام لا يقف موقفا سلبيا من الدماء ولو كانت خطأ ، فالإسلام يكره رؤية الدماء إلا فى ميادين القتال ، وفى حدود ما شرع الله ، لا يعرف حمامات الدم ولا معتقلات سيبريا بل إن نبى الإسلام يقول : (لا تنزع الرحمة إلا من شقى)(٢) ، ويقول : (من لا يرحم لا يرحم)(٣) .

لقد انتفض عملاق الإسلام عمر انتفاضة العصفور إذا بلّه ماء المطر عندما رأى فى رحلته إلى الشام رجلا يقف فى حر الشمس ، وعلم أنهم أوقفوه هكذا لأنه ذمى لم يدفع الجزية المفروضة عليه ، فصاح غاضبا : ما كان ينبغى لكم أن تفعلوا هذا ، ألم تسمعوا قوله ﷺ : (إن الله يعذب الذين يعذبون الناس فى الدنيا) .

لقد أوجب الإسلام الكفارة فى القتل الخطأحتى لا يدع مجالا للإهمال واللامبالاة والعبث بأرواح العباد : فإن كان القتيل مؤمنا وجبت فيه أحكاما ذكرها الله تعالى فى قوله : ﴿ **فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا** ﴾ . ولما كانت هذه الآية الكريمة قد اشتملت على أحكام فقهية فإننا نذكر تلك الأحكام كما وردت فى مظانها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٣) ٣٨٧ .
(٢) أخرجه الترمذى فى البر (١٦) . والإمام أحمد فى (٢) ٣٠١ ، ٤٤٢ ، ٤٦١ ، ٥٤٩ .
(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (١٨ ، ٢٧) . ومسلم فى الفضائل (٦٥) . وأبو داود فى الأدب (١٤٥) . والترمذى فى البر (١٢) . والإمام أحمد فى (٢) ٢٢٨ ، ٢٤١ ، ٢٦٩ ، ٥١٤ .

قال الفقهاء : قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ المقصود بتحرير الرقبة عتقها من الرق ، أى ومن قتل مؤمنا خطأ بأن أراد رمى صيد أو غرض فأصاب مؤمنا أو ضربه بما لا يقتل عادة كأن صفعه باليد ، أو ضربه بعصا فمات ، وهو لم يكن يقصد قتله ، فعليه عتق رقبة من أهل الإيمان ، لأنه لما أعدم نفسا مؤمنة كان كفارته أن يوجد نفسا «والعتق كالإيجاد من العدم» .

﴿ ودية مسلمة إلى أهله ﴾ الدية : هى المال الواجب بالجناية على الحر فى النفس أو فيما دونها ، ويعطى إلى ورثة المقتول عوضا عن دمه : أى وعليه من الجزاء مع عتق الرقبة دية يدفعها إلى أهل المقتول ، وقد بينتها السنة وحددتها على الوجه الذى كان مقبولا عند العرب وهى مائة بعير مختلفة فى السن أو قيمتها إذا حصل التراضى بين الدافع والمستحق ، ودية المرأة نصف دية الرجل ، لأن المنفعة التى تفوت أهل الرجل بفقده أعظم من المنفعة التى تفوت بفقدها .

وقد روى أن رسول الله ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتابا جاء فيه : « إن من اعتبط (قتل بغير سبب شرعى) مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود (أى قصاص يقتل به) إلا أن يرضى أولياء المقتول وإن فى النفس الدية مائة من الإبل ، ثم قال : وعلى أهل الذهب ألف دينار»[1] .

وفى هذا دليل على أن دية الإبل على أهلها إذا كانت هى رأس أموالهم ، وأن الذين يتعاملون بالذهب كأهل المدن تكون من الذهب أو الفضة ، وعلى أن هذا أصل لا قيمة للإبل .

﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ ، أى أن الدية تجب على القاتل قتلا خطأ لأهل المقتول إلا أن يعفوا عنها ويسقطوها باختيارهم ، لأنها إنما وجدت تطيبا لقلوبهم حتى لا تقع عداوة ولا بغضاء بينهم وبين القاتل ، وتعويضا عما يفوتهم من المنفعة بقتله ، فإذا هم عفوا فقد طابت نفوسهم وانتقى المحذور وكانوا هم ذوى الفضل على القاتل . وقد سمى الله هذا العفو تصدقا ترغيبا فيه .

﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى فإن كان المقتول من أعدائكم وهو مؤمن كالحارث بن يزيد كان من قريش وهم أعداء النبى ﷺ والمؤمنون فى حرب معهم ، ولم يعلم المسلمون إيمانه لأنه لم يهاجر ، وقد قتله عياش حين خروجه مهاجرا وهو لم يعلم بذلك ، ومثله كل من آمن فى دار الحرب ولم يعلم المسلمون بإيمانه حين قتله فالواجب على قاتله عتق رقبة من أهل الإيمان فقط ولا تجب الدية لأهله لأنهم أعداء يحاربون المسلمين فلا يعطون من أموالهم ما يستعينون به على قتالهم والتنكيل بهم .

﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ وهم الذين عاهدوكم على السلم لا يقاتلونكم ولا تقاتلونهم كما هو حال الدول فى العصر الحاضر يعقد بعضهم معاهدات ومواثيق مع بعض آخر ألا يقاتلوهم ولا يساعدوا عليهم عدوا . ﴿ فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أى فالواجب فى قتل المعاهد كالواجب فى قتل المؤمن دية إلى أهله تكون عوضا عن حقهم وعتق رقبة مؤمنة تكون كفارة عن حق الله الذى حرم قتل

(١) أخرجه أبو داود فى الديات (١٦) . والنسائى فى القسامة (٤٧) . والإمام مالك فى الزكاة (٤٣) . وفى العقول (٢) .

المعاهد ، كما حرم قتل المؤمن ، ولم يعين هذه الدية للإشارة إلى أن للعرف العام والخاص حكمة ، ولاسيما إذا ذكر ذلك فى عقد الميثاق الذى بينهما ، لأن هذا النص يكون أقطع لعرق النزاع وأجدر بالتراضى .

وقد اختلف الفقهاء فى دية غير المسلمين لاختلاف الرواية فى ذلك . روى أحمد والترمذى أن النبى ﷺ قال : (عقل «دية» الكافر نصف دية المسلم)[1] وروى عن أحمد «أن ديته كدية المسلم إن قتل عمدا وإلا فنصف ديته» ، وذهب الزهرى وأبو حنيفة إلى أن ديته كدية المسلم لظاهر الآيـة فى أهل الميثـاق ، وهم المعاهدون ، وأهل الذمة . وعلى الجملة فالروايات متعارضة ، ومن ثم اختلف الفقهاء ، وظاهر الآية يدل على أن الدية على القاتل ، ولكن السنة بينت أن العاقلة «العائلة» وهم عصبته الأقربون هم الذين يدفعون الدية . وحكمة هذا تقرير التضامن بين الأقربين وإذا عجزت العاقلة عن دفعها جعلت فى بيت المال «وزارة المالية» .

﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ ، أى فمن لم يجد رقبة يعتقها بأن لم يجد ما لا يشتريها به من مالكها ليحررها من الرق أو لم يجد رقيقا «وهذا مقصد من مقاصد الإسلام» فعليه صيام شهرين متتابعين قمريين لا يفصل بين يومين منهما إفطار فى النهار فإن أفطر يوما بغير عذر شرعى استأنفه وكان ما صامه قبل كأن لم يكن .

﴿ توبة من الله ﴾ أى قد شرعها لكم ليتوب عليكم ويطهر نفوسكم من التهاون وقلة التحرى التى تفضى إلى القتل الخطأ .

﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ ، أى وكان الله عليما بأحوال النفوس وما يطهرها ، حكيما فيما شرعه من الأحكام والآداب التى بها هدايتكم وإرشادكم إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة .

القتل العمد

وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

المفردات : ﴿ خالدا فيها ﴾ : أى ماكثا إلى الأبد أو ماكثا طويلا ، ﴿ غضب الله عليه ﴾ : أى انتقم منه ، ﴿ لعنه ﴾ : أبعده عن رحمته ، ﴿ أعدله ﴾ : أى هيأ له .

القتل العمد هو : أن يقصد المكلف قتل إنسان معصوم الدم بما يغلب على الظن أنه يُقتل به . ويفهم من هذا التعريف أن جريمة القتل العمد لا تتحقق إلا إذا توفرت فيها الأركان الآتية :

---

(١) أخرجه الترمذى فى الديات (١٦) . والإمام أحمد فى (٢) ١٨٣ . ٢٢٤ .

١ - أن يكون القاتل عاقلا ، بالغا ، قاصد القتل . أما اعتبار **العقل والبلوغ** : فلحديث على رضى الله عنه وكرم الله وجهه أن النبى ﷺ قال : (رفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يُفيق وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم)(١) .

وأما اعتبار **العمد** : فلما رواه أبو هريرة رضى الله عنه قال : «قتل رجل فى عهد رسول الله ﷺ ، فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فدفعه إلى ولىِّ المقتول ، فقال القاتل : يا رسول الله ، والله ما أردت قتله ، فقال النبى ﷺ للولى : (أما أنه إن كان صادقا ثم قتلته دخلت النار) فخلاه الرجل وكان مكتوفا بنسعه «سير من الجلد» فخرج يجر نسعته قال : فكان يسمى «ذا النسعة»(٢) .

وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ قال : (العمد قود (قصاص) ، إلا أن يعفو ولى المقتول)(٣) . وروى ابن ماجه أنه ﷺ قال : (من قتل عامدا فهو قود ، ومن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا)(٤) .

٢ - أن يكون المقتول آدميا ، ومعصوم الدم : أى أن دمه غير مباح .

٣ - أن تكون الأداة التى استعملت فى القتل مما يُقتل بها غالبا . فإذا لم تتوفر هذه الأركان . فإن القتل لا يعتبر قتلا عمدا .

أداة القتل :

ولا يشترط فى الأداة التى يقتل بها سوى أنها مما تَقْتُل غالبا . وقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ رضَّ (كسر) رأس يهودى بين حجرين ، لأنه فعل ذلك بجارية من الجوارى»(٥) .

ومن هذا القبيل القتل بالإحراق بالنار ، والإغراق بالماء ، والإلقاء من شاهق ، وإلقاء حائط عليه وخنق الأنفاس ، وحبس الإنسان ، ومنع الطعام والشراب عنه حتى يموت جوعا ، وتقديمه لحيوان مفترس .

ومنه ما إذا اشهد الشهود على إنسان معصوم الدم بما يوجب قتله ، ثم بعد قتله يرجعون عن الشهادة ، ويقولون : تعمدنا قتله ، فهذه كلها من الأدوات التى غالبا ما تقتل . ومن قدم طعاما مسموما لغيره وهو يعلم أنه مسموم دون آكله ، فمات به اقتص منه .

---

(١) أخرجه البخارى فى الحدود (٢٢) وفى الطلاق (١١) ، وأخرجه أبو داود فى الحدود (١٧) . والترمذى فى الحدود (١) . وابن ماجه فى الطلاق (١٥) . والدارمى فى الحدود (١) ، والإمام أحمد فى (٦) ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٤ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الديات (٣) . والنسائى فى القسامة (٦ ، ٧) . وابن ماجه فى الديات (٣٤) .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الديات (٤) . والإمام أحمد فى (٢) ١٨٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الجزية (١٠ ، ١٧) . ومسلم فى العتق (١٩) . وأبو داود فى الديات (١٥) . والنسائى فى القسامة (٣٢) . وابن ماجه فى الديات (٨) . والإمام أحمد فى (١) ٦ ، ٨١ ، ١٥١ . وفى (٢) ٤٥٠ ، ٥٢٦ .

(٥) أخرجه البخارى فى الخصومات (١) وفى الوصايا (٥) وفى الديات (٤ ، ١٢) . وأخرجه مسلم فى القسامة (١٧) وأبو داود فى الديات (١٠) . وابن ماجه فى الديات (٢٤) . والدارمى فى الديات (٤) . والإمام أحمد فى (٣) ١٩٣ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ .

روى البخارى ومسلم : «أن يهودية سمت النبى ﷺ فى شاة ، فأكل منها لقمة ثم لفظها ، وأكل معه بشر بن البراء ، فعفا عنها النبى ﷺ ولم يعاقبها» . أى أنه عفا عنها قبل أن تحدث الوفاة لواحد ممن أكل «فلما مات بشر بن البراء قتلها به»[١] .

الآثار المترتبة على القتل العمد :

إن القتل العمد يوجب أمورا أربعة :

١ - الإثم .
٢ - الحرمان من الميراث والوصية .
٣ - الكفارة .
٤ - القود أو العفو .

فلا يرث القاتل من ميراث المقتول شيئا ، لا من ماله ولا من ديته إذا كان من ورثته ، سواء أكان القتل عمداً أم كان خطأً . وقاعدة الفقهاء فى ذلك : «من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه» وروى البيهقى عن خلاس أن رجلا رمى بحجر فأصاب أمه فماتت من ذلك ، فأراد نصيبه من ميراثها ، فقال له إخوته : لا حق لك ، فارتفعوا إلى على كرم الله وجهه فقال على رضى الله عنه : «حقك من ميراثها الحجر ، فأعزمه الدية ، ولم يعطه من ميراثها شيئا» . وقال الإمام مالك : إن القتل إن كان خطأً ــ ورث من المال دون الدية .

أحاديث فى الوعيد للقتل العمد :

- عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة فى الدماء)[٢] .

- وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات : قيل : يا رسول الله : وما هنَّ ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[٣] .

- وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما)[٤] ، وقال ابن عمر رضى الله عنهما : إن من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله .

- وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق)[٥] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الهبة (٢٨) .
(٢) أخرجه البخارى فى الديات (١) وفى الرقاق (٤٨) . وأخرجه مسلم فى القسامة (٢٨) . والترمذى فى الديات (٨) . والنسائى فى التحريم (٢) . وابن ماجه فى الديات (١) والإمام أحمد فى (١) ٣٨٨ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .
(٣) أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٣) وفى الحدود (٤٤) وفى المحاربين (٣٠) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (١٤٤) .
(٤) أخرجه البخارى فى الديات (١) . وأبو داود فى الفتن (٦) . والإمام أحمد فى (٢) ٩٤ .
(٥) أخرجه الترمذى فى الديات (٧) . وابن ماجه فى الديات (١) . والنسائى فى التحريم (٢) .

– وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو قال : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : (ما أطيبك ، وما أطيب ريحك ، وما أعظمك وما أعظم حرمتك والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمتك : ماله ودمه)(١) .

– وعن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : (لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا فى دم مؤمن لأكبهم الله فى النار)(٢) .

– ورُوى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقى الله مكتوبا بين عينيه : آيس من رحمة الله)(٣) .

– وعن جندب بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم امرئ مسلم أن يُهريقه كما يذبح به دجاجة كلما تعرض لباب من أبواب الجنة حال الله بينه وبينه ، ومن استطاع منكم أن لا يجعل فى بطنه إلا طيبا فليفعل فإن أول ما ينتن من الإنسان بطنه)(٤) .

– وعن معاوية رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا ، أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا)(٥) .

– وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سأله سائل : فقال : يا أبا العباس هل للقاتل من توبة ؟ فقال ابن عباس كالمعجب من شأنه : ماذا تقول ؟ فأعاد عليه مسألته ، فقال : ماذا تقول ؟ مرتين أو ثلاثا . قال ابن عباس سمعت نبيكم ﷺ يقول : (يأتى المقتول متعلقا رأسه بإحدى يديه متلبيا قاتله باليد الأخرى تشخب أوداجه دما حتى يأتى به العرش ، فيقول المقتول لرب العالمين : هذا قتلنى فيقول الله عز وجل للقاتل : تعست ويذهب به إلى النار)(٦) .

– وعن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إذا أصبح إبليس بث جنوده فيقول : من أخذل اليوم مسلما ألبسته التاج . قال : فيجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى طلق امرأته ، فيقول : يوشك أن يتزوج . ويجىء لهذا فيقول : لم أزل به حتى عقَّ والديه ، فيقول : يوشك ، أن يبرهما . ويجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى أشرك . فيقول : أنت ، أنت ويجىء هذا فيقول : لم أزل به حتى قتل ، فيقول ، أنت أنت ، ويلبسه التاج) .

(١) أخرجه الترمذى فى البر (٨٥) . وابن ماجه فى الفتن (٢) . والدارمى فى المناسك (٧٦) .
(٢) أخرجه الترمذى فى الديات (٨) .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الديات (١) .
(٤) وأخرج البخارى الحديث مختصرا فى الأحكام (٩) .
(٥) أخرجه النسائى فى التحريم (١١) والإمام أحمد فى (١) ٢٤٠ .
(٦) أخرجه النسائى فى التحريم (٢) وفى القسامة (٤٩) . وأخرجه الترمذى فى التفسير سورة (٤) رقم ١٥) . والإمام أحمد فى (١) ٢٤٠ ، ٢٩٤ ، ٣٦٤ .

– وعن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (يخرج عُنق من النار يتكلم يقول : وكلت اليوم بثلاثة : بكل جبار عنيد ، ومن جعل مع الله إلها آخر ، ومن قتل نفسا بغير حق فينطوى عليهم فيقذفهم فى حمراء جهنم)(١) .

هل لقاتل العمد من توبة ؟

للعلماء فى توبة قاتل المؤمن عمدا آراء ثلاثة :

١- يرى ابن عباس وفريق من السلف أن قاتل المؤمن عمدا لا تقبل له توبة وهو خالد فى النار أبدا ، ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد والنسائى عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمنا متعمدا)(٢) وأخرج البيهقى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعان على دم امرئ مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة : آيس من رحمة الله تعالى)(٣) ، وروى عن البراء بن عازب أن النبى ﷺ قال : (لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله من قتل مؤمن ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار) ، وعن ابن عمر أنه عليه الصلاة والسلام قال : (لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله تعالى على مناخرهم فى النار وإن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر به)(٤) .

وهؤلاء يرون أن التائب من الشرك وقد كان قاتلا زانيا تقبل توبته ، ولا تقبل توبة المؤمن الذى ارتكب القتل وحده ، إذ الأول لم يؤمن بالشريعة التى تحرم هذه الأمور ، فله شبه عذر إذا هو كان متبعا لهواه بالكفر وما يتبعه ولم يكن ظهر له صدق النبوة ، فلما ظهر له الدليل على أن ما كان عليه كفر وضلال وتاب وأناب وعمل صالحا كان جديرا بالعفو .

وأما المؤمن الموقن بصحة النبوة ، وحرمة القتل ، فلا عذر له ، إذ هو يعلم أن المؤمن أخ له ونصير ، فكيف يعمد بعد هذا إلى الاستهانة بأمر الله وحكمه ، وتوهين أمر دينه ، بهدم أركان قوته ، ومن ثم يهون المسلمون ويضعفون ويكون بأسهم بينهم شديدا . وإنك لترى أنه ما انحلت الرابطة بين المسلمين وانفصمت عروة الوفاق بينهم إلا بعد أن أقدم بعضهم على سفك دماء بعض ورجحوا شهوة الغضب والانتقام على أمر الله تعالى ، ومن رجح شهوات نفسه الضارة على أمر الله وعلى مصلحة المؤمنين بغير شبهة فهو جدير بالخلود فى النار والغضب واللعنة ، إذ هؤلاء قد تجرءوا على حدود دينه ولم يبق للشرع حرمة فى قلوبهم .

قال فى الكشاف : هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد ، والإبراق والإرعاد أمر عظيم ، وخطب جليل ، ومن ثم روى عن ابن عباس أن توبة قاتل المؤمن عمدا غير مقبولة . . والعجب من قوم يقرءون هذه

(١) أخرجه الترمذى فى جهنم (١) . والدارمى فى الرقاق (٩٥) . والإمام أحمد فى (٢) ٣٣٦ . وفى (٣) ٤٠ .
(٢) أخرجه النسائى فى التحريم (١١) . والإمام أحمد فى (١) ٢٤٠ .
(٣) سبق تخريجه .
(٤) سبق تخريجه .

الآية ويرون ما فيها ويسمعون هذه الأحاديث (التى تقدم ذكرها) وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة واتباعهم هواهم ، وما يخيل إليهم مناهم أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[١] .

٢ - يرى فريق آخر أن المراد بالخلود : المكث الطويل لا الدوام ، لتظاهر النصوص القاطعة بأن عصاة المؤمنين لا يدوم عذابهم . وما فى الآية إخبار من الله بأن جزاءه ذلك لا بأنه يجزيه ذلك كما جاء فى قوله عز اسمه : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[٢] ، فإنه لو كان المراد منها أنه سبحانه يجزى كل سيئة بمثلها لعارض قوله جلَّ شأنه : ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ ، ومن ثم روى عن النبى ﷺ مرفوعا أنه قال هو جزاؤه إن جازاه .

وبهذا قال جمع من العلماء وقالوا : هو كما يقول الإنسان لمن يزجره عن أمر : إن فعلت فجزاؤك القتل والضرب ، وهو إن لم يجازه لم يكن كذابا ، وقد روى عن ابن عباس جواز المغفرة بلا توبة أيضا ، وقال فى الآية هى جزاؤه ، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

٣ - ويرى فريق ثالث أن حكم الآية إنما هو للقاتل المستحل ، وحكمه مما لا شك فيه . وعكرمة وابن جُريج فسرا متعمدا مستحلا فى الآية . أى : ومن يقتل مؤمنا متعمدا لقتله مستحلا له ، فجزاؤه جهنم خالدا فيها أبدا .

الأمر بالتبيُّن

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنًا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾

المفردات : **الضرب فى الأرض** : السير فيها بالسفر للتجارة أو الجهاد ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه أو بقوائم راحلته ، ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ : أى لجهاد أعدائكم فتبينوا أى تثبتوا وتأنَّوْا ، ﴿ **ألقى إليكم السلام** ﴾ : أى انقاد واستسلم لكم فلم يقاتلكم ، ﴿ **عرض الحياة الدنيا** ﴾ : أى متاعها الحاضر الذى يأخذ منه البر والفاجر ﴿ **مغانم كثيرة** ﴾ : أى رزق وفضل كثير .

جاء فى سبب نزول هذه الآية روايات كثيرة منها : ما أخرجه البخارى والترمذى والحاكم وغيرهم عن

---

(١) الآية ٢٤ من سورة محمد .
(٢) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

والآية تنفى المساواة بين القاعدين الذين لا عذر لهم وبين المجاهدين بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله ، إذ أن المساواة غير واردة فكيف يسوى بين قوم قعدوا وآخرين خرجوا يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ؟ قال تعالى : ﴿ فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة ﴾ وقد أخبر النبى ﷺ عن فضل المجاهدين فقال : (إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)(١) ، وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (من رمى بسهم فله أجره درجة) ، فقال رجل يا رسول الله وما الدرجة ؟ فقال : (أما أنها ليست بعتبة أمك ما بين الدرجتين مائة عام)(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ المراد بالحسنى هى الجنة ، قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾(٣) بعد قوله جل شأنه : ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(٤) ، والمراد بالزيادة فى قوله جل شأنه : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ رؤ ية الله تعالى قال سبحانه : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾(٥) ، وقال عليه الصلاة والسلام : (إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر)(٦) ، وإنما حكم الله لكل منهم ، أي من القاعدين والمجاهدين ، بالجنة ، لأنهم مؤمنون رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

ثم قال سبحانه : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجر عظيماً ﴾ . ولا يدرك مدى هذه الدرجة وذلك الأجر العظيم إلا الله ، لذا فصلها سبحانه بعد ذلك بقوله : ﴿ درجات منه ومغفرة ورحمة ﴾ وهذا دليل على عظم الأجر وعلى أن رحمة الله وسعتهم فضلاً وتكرماً ، وإن مغفرته قد شملت ذنوبهم حيث ثبتت أقدامهم على طاعة الله ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ .

الهجرة وفضلها

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٤) وفى التوحيد (٢٢) . وأخرجه النسائى فى الجهاد (١٨) . والإمام أحمد فى (٢) ٢٣٥ ، ٣٣٩ .
(٢) أخرجه أبو داود فى العتاق (١٤) . والإمام أحمد فى (٤) ١١٣ .
(٣) الآية ٢٦ من سورة يونس .
(٤) الآية ٢٥ من سورة يونس .
(٥) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامه .
(٦) أخرجه البخارى فى المواقيت (١٦ ، ٢٦) وفى الأذان (١٢٩) . وفى التفسير سورة (٥٠) رقم (٢) وفى الرقاق (٥٣) وفى التوحيد (٣٤) . وأخرجه أبو داود فى السنة (١٩) . والترمذى فى الجنة (١٦) . والإمام أحمد فى (١٣) ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ .

سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

المفردات : توفى الشيء : أخذه وافيا تاماً ، وتوفى الملائكة للناس : قبض أرواحهم حين الموت . والمأوى : المسكن . ﴿ مراغماً ﴾ : مكانا للهجرة ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فيرغم بذلك أنوف من كانوا مستضعفين له . ﴿ وقع أجره على الله ﴾ : أى وجب ، والوقوع والوجوب يتواردان على معنى واحد .

جاء فى سبب نزول هذه الآية ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم**) : أخرج ابن المنذر وابن جرير عن ابن عباس قال : «أن سبب نزول الآية أن قوماً من أهل مكة قد أسلموا وكانوا يخفون الإسلام ، فأخرجهم المشركون معهم يوم بدر فأصيب بعضهم ، فقال المسلمون : هؤلاء كانوا مسلمين فأكرهوا فاستغفروا لهم ، فنزلت الآية فكتبوا بها إلى من بقى بمكة منهم ، وأنه لا عذر لهم ، فخرجوا فلحق بهم المشركون ففتنوهم ، فرجعوا فنزلت : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾[(1)] فكتب إليهم المسلمون بذلك ، فتحزنوا فنزلت : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾[(2)] ، فكتبوا إليهم بذلك فخرجوا فلحقوهم فنجا من نجا وقتل من قتل» .

بعد أن بيّن الله تعالى أجر المجاهدين من درجات ومغفرة ورحمة ، وبين فضل الجهاد بالنفس والمال ، بين بعد ذلك ما للهجرة من أحكام وما على تركها من وعيد للمتقاعسين ، ووعد للمهاجرين ، وقد أمر النبى ﷺ بالسمع والطاعة والهجرة والجهاد والجماعة ، وقد رفع الله شأن قوم هاجروا فقال سبحانه : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[(3)] ، وقال سبحانه : ﴿ لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾[(4)] ، وقال عز وجل : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[(5)] ، وقال سبحانه : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾[(6)] .

(١) من الآية ١٠ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ١١٠ من سورة النحل .
(٣) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٩٥ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٨ من سورة الحشر .
(٦) الآية ١٠٠ من سورة التوبة .

وقد أوعد الله الذين قعدوا عن الهجرة وهم قادرون عليها ورضوا بالذل والهوان كما رضوا بأن يقيموا فى دار الكفر وتخلفوا عن نصرة الرسول وأصحابه ، أوعدهم جهنم وساءت مصيرا ، كما وعد الذين هاجروا بأن أجرهم قد وقع على الله حتى لو ماتوا قبل الوصول ، قال ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)(١) .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾ أى إن الذين تتوفاهم الملائكة وتقبض أرواحهم حين انتهاء آجالهم حالة كونهم ظالمى أنفسهم برضاهم بالإقامة فى دار الذل والظلم حيث لا حرية لهم فى أعمالهم الدينية ولا يتمكنون من إقامة دينهم ونصره وتأييده ﴿ **قالوا فيم كنتم ؟** ﴾ أى تقول لهم الملائكة بعد توفيها لهم فى أى شىء كنتم من أمر دينكم ؟ أى أنهم لم يكونوا فى شىء منه إذ هم قدروا على الهجرة ولم يهاجروا .

﴿ **قالوا كنا مستضعفين فى الأرض** ﴾ هذا اعتذار عن تقصيرهم الذى وبخوا عليه ، أى إننا لم نستطع أن نكون فى شىء يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف الكفار لنا فعجزنا عن القيام بواجبات الدين بين أهل مكة ، وهذه حجة لم تتقبلها الملائكة ، ومن ثم ردوا عليهم المعذرة فقالوا لهم : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا منها ؟** ﴾ وترحلوا إلى قطر آخر من الأرض تقدرون فيه على إقامة الدين وتحرروا أنفسكم من رق الذل الذى لا يليق بالمؤمن ولا هو من خصاله .

﴿ **فأولئك مأواهم جهنم** ﴾ أى أن أولئك الذين فصلت حالهم القطيعة نسكنهم فى الآخرة جهنم لتركهم ما كان مفروضاً عليهم ، إذ كانت الهجرة واجبة فى صدر الإسلام .

﴿ **وساءت مصيرا** ﴾ أى وقبحت جهنم مصيرا لهم لأن كل ما فيها يسوؤهم وفى هذا إيماء إلى أن الرجل إذا كان فى بلد لا يتمكن فيه من إقامة دينه كما يجب لبعض الأسباب ، أو علم أنه فى غير بلده أقوم بحق الله وأدوم على العبادة ، وجبت عليه الهجرة ، أما المقيم فى دار الكفر ولا يمنع ولا يؤذى إذ هو عمل بدينه ، وأقام أحكامه بلا نكير ، فلا يجب عليه أن يهاجر ، كما هو مشاهد من المسلمين المقيمين فى بلاد الإنكليز الآن ، إلا أن الإقامة فيها ربما كانت سبباً من أسباب ظهور محاسن الإسلام وإقبال الناس عليه .

﴿ **إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان** ﴾ أى أن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله غير صادقين فى اعتذارهم ، أما الاستضعاف الحقيقى فهو عذر مقبول كأولئك الشيوخ الضعفاء والعجزة كعباس بن أبى ربيعة وسلمة بن هشام ، والنساء كأم الفضل أم عبد الله بن عباس والولدان كعبد الله المذكور وغيره .

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الوحى (١) وفى العتق (٦) وفى مناقب الأنصار (٤٥) وفى الطلاق (١١) وفى الأيمان (٢٣) وفى الحيل (١) . وأخرجه مسلم فى الإمارة (١٥٥) . وأبو داود فى الطلاق (١١) . والنسائى فى الطهارة (٥٩) وفى الطلاق (٢٤) وفى الأيمان (١٩) . وأخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢٦) .

﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ﴾ أى أنهم قد ضاقت بهم الحيل فلم يستطيعوا ركوب حيلة واحدة منها وعُمِّيت عليهم الطرق فلم يهتدوا طريقاً منها إما للعجز كمرض وزمانه وإما للفقر وإما للجهل بمسالك الأرض ومضايقها بحيث لو خرجوا لهلكوا كما قالوا فى أمثالهم : «قتلت أرض جاهلها» . وقد أثر عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : كنت أنا وأمى من المستضعفين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون إلى الهجرة سبيلاً ، والمراد بالولدان هنا المراهقون الذين قربوا من البلوغ وعقلوا ما يعقل الرجال والنساء فيلحقون بهم فى التكليف بوجوب الهجرة معهم أو أن تكليفهم هو تكليف أوليائهم بإخراجهم من ديار الكفر . ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ﴾ أى أن أولئك المستضعفين الذين لم يهاجروا للعجز وتقطع الأسباب يرجى أن يعفو الله عنهم ولا يؤاخذهم بالإقامة فى دار الكفر .

وفى هذا إيماء إلى أن أمر الهجرة مشدد فيه ولو بإستعمال الحيل والبحث عن مضايق السبل وبذا لا يخدع أحد ممن يحب وطنه نفسه فيعد ما ليس بمانع مانعاً .

وفى هذا رمز إلى تعظيم أمر الهجرة وإلى أن تركها جرم عظيم وإلى أنه ينبغى أن يترصد لها الفرصة السانحة ويعلق قلبه بها .

﴿ وكان الله عفوا غفورا ﴾ أى وكان شأن الله تعالى العفو عن الذنوب التى لها أعذار صحيحة بعدم المؤاخذة عليها ومغفرتها بسترها وعدم فضيحة صاحبها فى الآخرة .

ثم رغب سبحانه فى أمر الهجرة ونشط المستضعفين لما جرت به العادة من أن الإنسان يتهيب الأمر المخالف لما اعتاده وأنس به ، ويتخيل مصاعب ومشقات لا توجد إلا فى خياله ، وأن ما يتصوره بعض الناس من عسر الهجرة لا محل له ، وأن عسرها إلى يسر فقال : ﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ﴾ ، أى أن من يهاجر فى سبيل الله : أى لقصد رضاه وإقامة دينه كما يجب وكما يحب الله تعالى يجد فى الأرض سبيلاً يرغم به أنوف من كانوا مستضعفين له ، ومأوى يصيب فيه الخير والسعة فوق النجاة من الاضطهاد والذل ، وفى هذا وعد للمهاجرين فى سبيله بتسهيل سبل العيش لهم وإرغامهم أعداءهم والظفر بهم .

وبعد أن وعد سبحانه من يهاجر بالظفر بما يحب ومن وجد أن السبل ميسورة أمامه ، ومن سعة العيش ، وعد من يموت فى الطريق قبل وصوله دار الهجرة بالأجر العظيم الذى ضمنه له عز وجل إذا كان يقصد بهجرته رضا الله ونصرة رسوله فى حياته وإقامة سننه بعد وفاته ، وكان مستحقاً لهذا الأجر ، ولو مات بعد أن تجاوز عتبة الباب ولو لم يصب تعباً ولا مشقة ، فإن نية الهجرة مع الإخلاص كافية لاستحقاقه له كما فى الحديث : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) فقال : ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ . وفى إبهام هذا الأجر وجعله حقا واجباً عليه تعالى إيذان بعظم قدره وتأكيد ثبوته ووجوبه . ولله تعالى أن يوجب على نفسه ما يشاء وليس لغيره أن يوجب عليه شيئاً ، إذ لا سلطان فوق سلطانه .

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ ، أى وكان شأن الله الغفران أزلا وأبداً لأمثال هؤلاء المهاجرين الذين دعاهم إيمانهم لترك أوطانهم لإقامة دينه واتباع سبيله ، والرحمة الشاملة لهم بعطفه وإحسانه .

روى ابن جرير عن ابن جبير : أنها نزلت فلا جندب بن ضمرة ، وكان بلغه قوله تعالى : ﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾ وهو بمكة حين بعث بها رسول الله ﷺ إلى مسلميها فقال لبنيه : احملونى فإنى لست من المستضعفين ، وإنى لأهتدى إلى الطريق ، وإنى لا أبيت الليلة بمكة ، فحملوه على سرير وتوجهوا به إلى المدينة ، وكان شيخاً كبيراً ، فمات بالتنعيم (موضع قرب المدينة) ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله ويقول : اللهم هذه لك وهذه لرسولك ﷺ ، أبايعك على ما بايع عليه رسولك ، ولما بلغ خبر موته الصحابة رضى الله عنهم قالوا لبنيه : مات بالمدينة فنزلت .

وقد ذكر غير واحد من العلماء أن من سار لأمر فيه ثواب ، كطلب علم وحج وكسب حلال ومات قبل الوصول إلى المقصد ، فله هذا الحكم . أخرج البيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من خرج حاجاً فمات كتب له أجر الحاج إلى يوم القيامة ، ومن خرج معتمراً فمات كتب له أجر المعتمر إلى يوم القيامة ، ومن خرج غازيا فى سبيل الله فمات كتب له أجر الغازى إلى يوم القيامة)(١) .

السبب فى شرع الهجرة فى صدر الإسلام

شرعت الهجرة فى صدر الإسلام لأسباب ثلاثة تتعلق بحال الفرد وحال الجماعة :

١ - البعد عن الاضطهاد فى أمور الدين بإقامة شعائره ، بحيث يكون المسلم حراً فى تصرفه كما يعتقد ، فكل شخص يظن أنه ربما يُفتن عن دينه ، أو يكون ممنوعاً من إقامته ، يجب عليه أن يهاجر منه إلى مكان لا خطر فيه على نفسه ولا على دينه ، فإن لم يفعل ذلك فقد ارتكب إثماً كبيراً ، وحمل وزراً عظيماً .

٢ - تلقى الدين والتفقه فيه ، وقد كان ذلك فى عصر النبى ﷺ حين كان إرسال الدعاة والمرشدين من قبله متعذراً لتصدى المشركين لهم وحرمانهم من أداء وظائفهم لما لهم من القوة والبطش .

وهذا الحكم فى كل من يقيم ببلد ليس فيه علماء يقيمون أحكام الدين ، عليه أن يهاجر إلى بلد يتلقى فيه أمور دينه ، وأحكام شريعته .

٣ - إنه يجب على جماعة المسلمين أن تكون لهم دولة قوية ، تنشر دعوة الإسلام ، وتقيم أحكامه وحدوده ، وتحمى دعاته وأهله من عدوان العادين ، فإذا خيف على هذه الدولة من غارة الأعداء وجب على المسلمين أينما كانوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها ، مهما بعدت دارهم ، وشط مزارهم ، وإلا كانوا راضين بضعفها ومعينين لأعداء الإسلام على إبطال الدعوة وتشريد الدعاة .

وقد كانت هذه الأسباب موفورة قبل فتح مكة ، فلما يسر الله فتحها وقوى الإسلام على الشرك فى جزيرة العرب كلها ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وأرسل النبى ﷺ إلى أطراف الجزيرة وغيرها من

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد (٩) . والإمام أحمد فى (٥) ٢٤١ .

يعلم الناس شرائع الإسلام ، زالت هذه الأسباب . وقد روى ابن عباس أن النبى ﷺ قال : (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا)(١) . وإذا وجد أحد الأسباب الثلاثة المتقدمة فى أى عصر وجبت الهجرة ، وأهمها اعتداء الكفار على بلاد المسلمين وخوف استيلائهم عليها .

صلاة الخوف

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ
ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ
وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ
أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ **ضربتم فى الأرض** ﴾ : أى سافرتم فيها ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه وعصاه ، أو بقوائم راحلته . والقصر بالفتح من القِصر ضد الطول . وقصرت الشىء : جعلته قصيراً ، والجناح : التضييق من جنح البعير إذا انكسرت جوانحه (أضلاعه) لثقل حمله . ﴿ **يفتنكم** ﴾ : يؤذوكم بقتل أو غيره . إقامة الصلاة : الذكر الذى يدعى به للدخول فيها . والأسلحة : واحدها سلاح وهو كل ما يقاتل به كالسيف والخنجر والمسدس والبندقية من أسلحة العصر الحاضر . ﴿ **قضيتم الصلاة** ﴾ : أى أديتموها فأقيموا الصلاة أى ائتوا بها مقوّمة تامة الأركان والشروط . ﴿ **كتابا موقوتا** ﴾ فرضاً منجماً فى أوقات محدودة لا بد من أدائها فيها .

كان الكلام فى سابق الآيات فى الجهاد والحث عليه لإقامة الدين وحفظه ، وإيجاب الهجرة لأجل ذلك وتوبيخ من لم يهاجر من أرض لا يقدر على إقامة دينه فيها ، والجهاد يستلزم السفر وذكر هنا أحكام من

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (١٩٤) . وأبو داود فى الجهاد (٢) . والنسائى فى البيعة (١٥) .

سافر للجهاد أو هاجر فى سبيل الله إذا أراد الصلاة وخاف أن يفتن بها عنها ، فبين أنه يجوز له أن يقصر منها ، وأن يصلى جماعتها بالطريقة التى ذكرت فى الآية الثانية من هذه الآيات .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا** ﴾ ، أى إذا سافرتم أى سفر ، **فليس** عليكم تضييق ولا ميل عن محجة الدين إذا قصرتم الصلاة ، أى تركتم شيئاً منها فتكون قصيرة بشرط أن تخافوا فتنة الكافرين لكم بالقتل أو الأسر أو غيرهما ، وليس هذا خاصاً بزمن الحرب ، بل إذا خاف المصلى قطّاع الطريق كان له أن يقصر هذا القصر ، وليس هذا هو قصر الصلاة الرباعية فى السفر المبين فى كتب الفقه ، إذ هذا مأخوذ من السنة المتواترة ، بل المراد هنا القصر فى صلاة الخوف المذكور فى الآية الأولى والمبين فى الآية التى بعدها وفى سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا** ﴾ .

فالآية التى هنا بصدد القصر من عدد الركعات بأن تصلى طائفة مع الإمام ركعة واحدة فإذا أتمتها تأتى الطائفة الأخرى وهى التى كانت تحرس الأولى فتصلى معه الركعة الثانية ، وآية البقرة فى القصر من هيئة الصلاة بالترخيص فى عدم إقامة صورتها بأن يكتفى المشاة والركبان بالإيماء عن الركوع والسجود .

صلاة القصر فى السفر وشرطها

كان النبى ﷺ يصلى الظهر والعصر والعشاء فى السفر ركعتين ركعتين ، وكذلك فعل أبو بكر وعمر وسائر الصحابة ؛ ففى صحيح البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : «صحبت رسول الله ﷺ فكان فى السفر لا يزيد على ركعتين ، وأبا بكر ، وعمر ، وعثمان»[١] ، يعنى فى صدر خلافته ، وإلا فعثمان قد أتم فى آخر خلافته وكان ذلك أحد الأسباب التى أُنكِرت عليه وقد خُرِّج لفعله تأويلات .

قال ابن القيم : وأحسن ما اعتذر به عن عثمان أنه تزوج بمنى ، والمسافر إذا أقام فى موضع وتزوج فيه أتم صلاته فيه ، وهو قول الحنفية والمالكية .

وقد روى الشيخان عن عائشة قالت : «فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زيد فى صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر»[٢] .

وقال عمر بن الخطاب : صلاة السفر ركعتان والجمعة ركعتان والعيد ركعتان تمام غير قصر على لسان محمد ﷺ وقد خاب من افترى . وكان قد سأل النبى ﷺ ما بالُنا نقصر ؟ فقال له رسول الله ﷺ : (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته)[٣] .

(١) أخرجه البخارى فى التقصير (١١) . والنسائى فى التقصير (٥) . وابن ماجه فى الإقامة (٧٣ ، ١٢٤) . والإمام أحمد فى (١) ٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ . وفى (٢) ٢٠ ، ٣١ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٥٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة (١) . ومسلم فى المسافرين (١) . والنسائى فى الصلاة (٣) . والإمام مالك فى السفر (٨) .

(٣) أخرجه مسلم فى المسافرين (٤) . وأبو داود فى السفر (١) . والترمذى فى تفسير سورة (٤) رقم (٢٠) . والنسائى فى الخوف (١) . وابن ماجه فى الإقامة (٧٣) . والدارمى فى الصلاة (١٧٩) . والإمام أحمد فى (١) ٢٥ ، ٣٦ . وفى (٦) ٦٣ .

وقال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر : إنما نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف فى القرآن ولا نجد صلاة السفر فى القرآن ، فقال له ابن عمر : يا أخى إن الله بعث محمداً ﷺ ولا نعلم شيئاً فإنما نفعل كما رأينا محمداً ﷺ يفعل .

فالحق ما عليه الحنفية وغيرهم من وجوب القصر فى السفر خلافا للشافعية الذين أجازوا الإتمام .

وشرط القصر فى الصلاة والإفطار فى رمضان : أن يكون السفر مسيرة ثلاثة أيام ولياليها بسير الإبل ومشى الأقدام ، بالاقتصاد فى البر ، وجرى السفينة والريح معتدلة فى البحر ، لحديث أنس أنه قال حين سئل عن قصر الصلاة : «كان رسول الله ﷺ إذا خرج مسيرة ثلاثة أيام أو ثلاثة فراسخ صلى ركعتين» . رواه أحمد .

وقدره الشافعى بمسيرة يومين ، وحقق المرحوم أحمد الحسينى بك فى كتابه (دليل المسافر) أن هذه المسافة تقدر بنحو ٨١ ك م عند الحنفية ، و ٨٩ ك م لدى الشافعية والمالكية والحنابلة ، وعلى هذا فالمسافر من القاهرة إلى طنطا فما فوقها يقصر الصلاة عند الحنفية لأن المسافة بينهما ٨٧ ك م ، وإلى المحطة التى تليها (شبرا النملة) لدى المذاهب الثلاثة لأن المسافة بينهما ٩٣ ك م .

كيفية صلاة الخوف

ثم بيّن سبحانه ما قبله من النص المجمل الوارد فى مشروعية القصر وبيان كيفيته عند الضرورة ، وذكر هذا البيان فى القرآن ، واكتفى فيما عداه بالبيان بطريق السنة لمزيد الحاجة إليه ، لما فيه من كثرة التغيير عن الهيئة الأصلية فقال : ﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم** ﴾ ، أى : وإذا كنت أيها الرسول فى جماعتك من المؤمنين وأردت أن تقيم بهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك بعد أن تجعلهم طائفتين ، ولتقف الطائفة الأخرى بإزاء العدو يحرسون المصلين خوفاً من الاعتداء ، وليحمل الذين يقومون معك فى الصلاة أسلحتهم ولا يدعوها وقت الصلاة ، لئلا يضطروا إلى المكافحة عقبها مباشرة ، أو قبل إتمامها ، فيكونوا مستعدين لها .

﴿ **فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم** ﴾ أى فإذا سجد الذين يقومون معك فى الصلاة فليكن الذين يحرسونكم من خلفكم إذ أحوج ما يكون المصلى للحراسة حين السجود لأنه يرى من يهم به ويجب حينئذ أن يكون الباقون مستعدين للقيام مقامهم والصلاة مع النبى ﷺ كما صلوا وهو قوله : ﴿ **ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم** ﴾ أى ولتأت الطائفة الأخرى الذين لم يصلوا لاشتغالهم بالحراسة فليصلوا كما صلت الطائفة الأولى وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم فى الصلاة كما فعل الذين من قبلهم .

وحكمة الأمر بالحذر للطائفة الثانية أن العدو قلما يتنبه أول الصلاة لبدء المسلمين فيها ، إذ هو إذا رآهم

صفاً ظن أنهم قد اصطفوا للقتال واستعدوا للحرب والنزال ، فإذا رآهم سجدوا علم أنهم فى صلاة فيخشى أن يميل على الطائفة الأخرى عند قيامها فى الصلاة كما يتربص ذلك بهم عند كل غفلة .

وقد بيّن الله تعالى علة الأمر بأخذ الحذر والسلاح حتى فى الصلاة فى قوله : ﴿ ودّ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾ أى تمنى أعداؤكم الذين كفروا بالله وبما أنزل عليكم لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم التى بها بلاغكم فى سفركم بأن تشغلكم صلاتكم عنها فيميلون حينئذ عليكم ويحملون حملة واحدة وأنتم مشغولون بالصلاة واضعون السلاح تاركون حماية المتاع والزاد فيصيبون منكم غِرّة فيقتلون من استطاعوا قتله وينتهبون ما استطاعوا نهبه فلا تغفلوا عنهم وقد يعرض لبعض المحاربين أعذار يشق عليكم حمل السلاح مع ثقله فى ثيابكم وربما أفسد الماء السلاح إذ يجعله يصدأ ، أو إذا كنتم مرضى بالجروح أو غير الجروح من العلل ، ولكن يجب عليكم فى جميع الأحوال أن تأخذوا حذركم ولا تغفلوا عن أنفسكم ولا عن أسلحتكم وأمتعتكم ، فإن عدوكم لا يغفل عنكم ولا يرحمكم ، والضرورات تقدر بقدرها .

﴿ إن الله أعد للكافرين عذابا مهيناً ﴾ بما هداكم إليه من أسباب النصر بأخذ الأهبة والحذر والاعتصام بالصبر والصلاة ، رجاء ما عند الله من المثوبة والأجر ، فهذا العذاب المهين هو عذاب غلبة المسلمين وانتصارهم عليهم إذا قاموا بما أمرهم الله تعالى به ويؤيده قوله تعالى : ﴿ إنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ ، وقوله : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ﴾(١) .

روى البخارى أن هذه الرخصة التى فى الآية نزلت فى عبدالرحمن بن عوف وكان جريحاً . وروى أحمد والحاكم والبيهقى عن ابن عباس الزرقى قال : «كنا مع رسول الله ﷺ فى عُسفان فاستقبلنا المشركون وعليهم خالد بن الوليد ، وهم بيننا وبين القبلة ، فصلى بنا النبى ﷺ الظهر ، فقالوا : قد كانوا على حال لو أصبنا غرتهم . ثم قالوا : يأتى عليهم الآن صلاة هى أحب إليهم من أبنائهم وأنفسهم . فنزل جبريل بين الظهر والعصر بهذه الآيات : ﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة ﴾ .

وقد روى عن النبى ﷺ يوم ذات الرقاع : «أن طائفة صفت مع النبى ﷺ وطائفة وجاه العدو (اتجاهه) فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة الثانية التى بقيت من صلاته فأتموا فسلم بهم»(٢) ، وسميت هذه الغزوة ذات الرقاع لأنها نقبت أقدامهم فلفوا على أرجلهم الرقاع والخرق . وقد قال بهذه الصلاة أفقه الصحابة عليهم الرضوان : على وابن عباس وابن مسعود وابن عمرو وزيد بن ثابت وأبو هريرة وأبو موسى ، ومن فقهاء الأمصار : مالك والشافعى وغيرهما .

---

(١) الآية ١٤ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه مسلم فى المسافرين (٣٠٥ ، ٣١٠) . وأبو داود فى السفر (١٤ ، ١٦) . والنسائى فى الخوف (١٠ ، ١٣ ، ١٨) . والدارمى فى الصلاة (١٨٥) . والإمام مالك فى الخوف (٢) . والإمام أحمد فى (٢) ١٣٢ ، ١٤٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤ .

﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾ أى فإذا أديتم الصلاة على هذه الصورة فاذكروا الله تعالى فى أنفسكم بتذكر وعده بنصر من ينصرونه فى الدنيا ونيل الثواب فى الآخرة ، وبألسنتكم بالحمد ، والتكبير والدعاء ، وعلى كل حال تكونون عليها من قيام فى المسابقة والمقارعة وقعود للرمى أو المصارعة واضطجاع من الجروح أو المخادعة ، فذكر الله مما يقوى القلوب ويعلى الهمم ويجعل متاعب الدنيا حقيرة ومشاقها سهلة ، والثبات والصبر يعقبهما الفلاح والنصر ، كما قال تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾(١) .

والخلاصة : إننا أمرنا بالذكر على كل حال نكون عليها فى الحرب ، كما يدل على ذلك السياق ، فأجدر بأن نؤمر به فى حال السلم ، إذ أن المسلمين فى جهاد مستمر وحروب دائمة ، فهم تارة يجاهدون الأعداء ، وأخرى يجاهدون الأهواء ، ومن ثم أمرهم الله بالذكر فى كثير من الآى كقوله : ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾(٢) لما فى ذلك من تربية النفس وصفاء الروح ، وتذكير جلال الله وعظمته ، وأن كل شىء هين فى سبيله وابتغاء مرضاته .

وقد روى ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : لا يفرض الله على عباده فريضة إلا جعل لها جزاء معلوما ، ثم عذر أهلها فلا حال العذر غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حداً ينتهى إليه ، ولم يعذر أحداً فى تركه إلا مغلوباً على عقله ، فقال : «فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم» : أى بالليل والنهار فى البر والبحر وفى السفر والحضر والغنى والفقر والسقم والصحة والسر والعلانية وعلى كل حال .

﴿ فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ﴾ الاطمئنان : السكون بعد اضطراب وانزعاج : أى فإذا سكنت قلوبكم من الخوف وأمنتم بعد أن تضع الحرب أوزارها فأدوا الصلاة بتعديل أركانها ومراعاة شرائطها ولا تقصروا من هيئتها كما أذن لكم حال الخوف . ثم علل وجوب المحافظة على الصلاة حتى فى وقت الخوف ولو مع القصر منها فقال : ﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴾ ، يقال وقت العمل يقتُهُ ووقَّته توقيتا إذا جعل له وقتا يؤدى فيه ؛ أى أن الصلاة كانت فى حكم الله فرضاً مؤكدا فى أوقات محدودة لابد من أدائها فيها بقدر الإمكان فأداؤها فى أوقاتها مع القصر بشرطه خير من تأخيرها لتؤدى كاملة تامة .

والحكمة فى توقيتها فى تلك الأوقات المعلومة أن الأشياء إن لم يكن لها وقت معين لا يحافظ عليها الجمع الغفير من الناس .

إلى ما فى هذا النوع من الذكر المهذب للنفس من التربية العملية للأمة الإسلامية بأن تلتزم أداء أعمالها فى أوقات معينة مع عدم الهوادة فيها ومن قصر فيها فى تلك الأوقات الخمسة فى اليوم والليلة ، فهو جدير بأن ينسى ربه ويغرق فى بحار الغفلة ، ومن قوى إيمانه وزكت نفسه لا يكتفى بهذا القدر القليل من ذكر الله ومناجاته ، بل يزيد عليه من النوافل ما شاء الله أن يزيد .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٩١ من سورة آل عمران .

والخلاصة : أن الصلوات الخمس إنما كانت موقوته لتكون مذكرة للمؤمن بربه فى الأوقات المختلفة لئلا تحمله الغفلة على الشر أو التقصير فى الخير ولمن يريد الكمال فى النوافل والأذكار أن يختار الأوقات التى يرى أنها أوفق بحاله .

أحكام تتعلق بصلاة الخوف

اتفق العلماء على مشروعية صلاة الخوف لقول الله تعالى : ﴿ **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾ .

قال الإمام أحمد : ثبت فى صلاة الخوف ستة أحاديث أو سبعة أيها فعل المرء جاز .

قال ابن القيم : أصولها ست صفات وإليك بيانها :

١ - أن يكون العدو فى غير جهة القبلة فيصلى الإمام فى الثنائية بطائفة ركعة ثم ينتظر حتى يتموا لأنفسهم ركعة ويذهبوا فيقوموا تجاه العدو ، ثم تأتى الطائفة الأخرى فيصلون معه الركعة الثانية ، ثم ينتظر حتى يتموا لأنفسهم ركعة ويسلم بهم ، فعن صالح بن خوات عن سهل بن أبى خيثمة «أن طائفة صفت مع النبى ﷺ وطائفة وجاه العدو فصلى بالتى معه ركعة ثم ثبت قائماً فأتموا لأنفسهم ثم انصرفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التى بقيت من صلاته ثم ثبت جالساً فأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم»(١) رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

٢ - أن يكون العدو فى غير جهة القبلة فيصلى الإمام بطائفة من الجيش ركعة والطائفة الأخرى تجاه العدو ، ثم تنصرف الطائفة التى صلت معه الركعة وتقوم تجاه العدو ، وتأتى الطائفة الأخرى فتصلى معه ركعة ثم تقضى كل طائفة لنفسها ركعة ، فعن ابن عمر قال : صلى رسول الله ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة والطائفة الأخرى مواجهة للعدو ثم انصرفوا وقاموا فى مقام أصحابهم مقبلين على العدو ، وجاء أولئك ثم صلى بهم النبى ﷺ ركعة ثم سلم ثم قضى هؤلاء ركعة وهؤلاء ركعة . رواه أحمد والشيخان .

والظاهر أن الطائفة الثانية تتم بعد سلام الإمام ، من غير أن تقطع صلاتها بالحراسة فتكون ركعتاها متصلتين ، وأن الأولى لا تصلى الركعة الثانية إلا بعد أن تنصرف الطائفة الثانية من صلاتها إلى مواجهة العدو . فعن ابن مسعود قال : ثم سلم وقام هؤلاء فصلوا لأنفسهم ركعة ثم سلموا .

٣ - أن يصلى الإمام بكل طائفة ركعتين ، فتكون الركعتان الأوليان له فرضاً ، والركعتان الأخريان

---

(١) سبق تخريجه .

له نفلا ، واقتداء المفترض بالمتنفل جائز ، فعن جابر أنه ﷺ «صلى بطائفة من أصحابه ركعتين ثم صلى بآخرين ركعتين ثم سلم» . رواه الشافعي .

٤ - أن يكون العدو فى جهة القبلة فيصلى الإمام بالطائفتين جميعاً مع اشتراكهم فى الحراسة ومتابعتهم له فى جميع أركان الصلاة إلى السجود ، فتسجد معه طائفة وتنتظر الأخرى حتى تفرغ الطائفة الأولى ثم تسجد ، وإذا فرغوا من الركعة الأولى تقدمت الطائفة المتأخرة مكان الطائفة المتقدمة وتأخرت المتقدمة ، فعن جابر قال : (شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف فصفنا صفين خلفه والعدو بيننا وبين القبلة فكبر النبى ﷺ فكبرنا جميعاً ، ثم ركع وركعنا جميعاً ، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ، ثم انحدر بالسجود والصف الذى يليه وقام الصف الآخر فى نحر العدو ، فلما قضى النبى ﷺ السجود والصف الذى يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ، ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ، ثم ركع النبى ﷺ وركعنا جميعاً ثم رفع رأسه ورفعنا جميعاً ، ثم انحدر بالسجود والصف الذى يليه الذى كان مؤخراً فى الركعة الأولى ، وقام الصف المؤخر فى نحر العدو ، فلما قضى النبي ﷺ السجود بالصف الذى يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا ، ثم سلم النبى ﷺ وسلمنا جميعاً»[1] .

٥ - أن تدخل الطائفتان مع الإمام فى الصلاة جميعاً ثم تقوم إحدى الطائفتين بإزاء العدو وتصلى معه إحدى الطائفتين ركعة ثم يذهبون فيقومون فى وجاه العدو ، ثم تأتى الطائفة الأخرى فتصلى لنفسها ركعة والإمام قائم ثم يصلى بهم الركعة الثانية ، ثم تأتى الطائفة القائمة فى وجاه العدو فيصلون لأنفسهم ركعة والإمام والطائفة الثانية قاعدون ثم يسلم الإمام ويسلمون جميعاً .

فعن أبى هريرة قال : «صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف عام غزوة نجد فقام إلى صلاة العصر فقامت معه طائفة وطائفة أخرى مقابل العدو وظهورهم إلى القبلة ، فكبر فكبروا جميعاً الذين معه والذين مقابل العدو ثم ركع ركعة واحدة وركعت الطائفة التى معه ثم سجد فسجدت الطائفة التى تليه والآخرون قيام مقابل العدو ثم قام وقامت الطائفة التى معه فذهبوا إلى العدو فقابلوهم ، وأقبلت الطائفة التى كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو ، ثم قاموا فركع ركعة أخرى وركعوا معه وسجد وسجدوا معه ، ثم أقبلت الطائفة التى كانت مقابل العدو فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قاعد ومن معه ، ثم كان السلام فسلم وسلموا جميعاً ، فكان لرسول الله ﷺ ركعتان ولكل طائفة ركعتان» رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

٦ - أن تقتصر كل طائفة على ركعة مع الإمام فيكون للإمام ركعتان ولكل طائفة ركعة ، فعن ابن عباس : أن النبى ﷺ صلى بذى قرد فصف الناس خلفه صفين صفاً خلفه وصفاً موازى العدو فصلى بالذين خلفه ركعة ثم انصرف هؤلاء إلى مكان هؤلاء وجاء أولئك فصل بهم ركعة ولم يقضوا ركعة . رواه النسائى .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأذان (٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤) . وفى التهجد (٣٦) . وأخرجه مسلم فى الجهاد (١٦) . والنسائى فى الصلاة (٢٠) .

وعن رسول الله ﷺ أنه قال : (فرض الله الصلاة على نبيكم ﷺ فى الحضر أربعاً وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة ﴾(١) .

وعن ثعلبة بن زهدم قال : «كنا مع سعيد بن العاص بطبرستان فقال : أيكم صلى مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف ؟ فقال حذيفة : أنا . فصلى بهؤلاء ركعة وبهؤلاء ركعة ولم يقضوا» . رواه أبو داود والنسائى .

الإسلام ينهى عن الوهن

وَلَا تَهِنُوا فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

المفردات : الوهن : الضعف . والابتغاء : الطلب .

هذا نهى كريم يوجهه الله تعالى إلى أمة الإسلام ، ينهاهم فيه عن الضعف فى طلب الأعداء جهاداً فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، ذلك لأن الجهاد عزة وكرامة ورفعة ، وشهامة يرفع الله به أقواماً ويخفض بتركه آخرين ، وإن كان فى الجهاد آلام وجراح ومخمصة ونصب ، إلا أن للمجاهد بكل أمر من تلك الأمور أجراً عظيماً . قال الله تبارك اسمه : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾(٢) . وقال فى حق هؤلاء المجاهدين : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾(٣) .

فإن كنتم أيها المؤمنون تألمون ألماً نفسياً أو بدنياً ، فإن عدوكم كذلك يألم كما تألمون ، إلا أن الذى يهون عليكم آلامكم ويأسوا جراحاتكم ويرضى أنفسكم أنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، فأنتم ترجون الجنة ونعيمها ، وما أعده الله لكم من النعيم المقيم ، فقد أعد لكم سبحانه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ﴾ (٤) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١) ٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ . وفى (٢) ٢٠ ، ٣١ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٣٥ ، ١٥٤ .
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .
(٣) الآيتان ١٢٠ ، ١٢١ من سورة التوبة .
(٤) الآيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سورة آل عمران .

أما أعداؤكم فقد حرموا هذا النعيم بكفرهم وعصيانهم لله ، ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[١] . ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾[٢] . فأنتم ترجون الجنة والمثوبة وهم لا يرجون ذلك ، وكان الله عليماً بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ، حكيماً تنزه عن العبث ، فوضع الأمور فى نصابها ، أعطاكم الجنة فضلاً ، وأدخل أعداءكم النار عدلاً ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[٣] .

من دروس القرآن الكريم

إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

---

(١) الآية (١١) من سورة محمد .
(٢) الآية (١٢) من سورة محمد .
(٣) الآيتان (٧ ، ٨) من سورة الزلزلة .

المفردات : ﴿ **بما أراك الله** ﴾ : أى بما عرفك وأوحى به إليك . ﴿ **خصيماً** ﴾ : أى تخاصم وتناضل عنهم . ﴿ **يختانون أنفسهم** ﴾ : يخونونها ويتكلمون ما يخالف الفطرة مما يعود عليهم بالضرر . والمجادلة : أشد المخاصمة . والوكيل : هو الذى يوكل إليه الأمر فى الحفظ والحماية . والمراد بالسوء هنا : ما يسوء الإنسان به غيره : وبالظلم : ما كان ضرره خالصاً بالعامل كالحلف الكاذب . والاستغفار : طلب المغفرة من الله مع الشعور بقبح الذنب والتوبة منه ، والكسب : ما يجر منفعة ، أو يدفع مضرة . والإثم : الذنب . والخطيئة : الذنب غير المتعمد ، والإثم ما يصدر عنه مع ملاحظة أنه ذنب . يرم به : أى يقذفه به ويسنده إليه . ﴿ **احتمل** ﴾ : كلف نفسه أن تحمل . والبهتان : الكذب على غيرك بما يبهت منه ويتحير عند سماعه .

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[١] وكقوله تبارك اسمه : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾[٢] ، وكقوله تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾[٣] .

قوله جل شأنه : ﴿ **لتحكم بين الناس بما أراك الله** ﴾ فيه بيان للحكمة التى أنزل الله من أجلها الكتاب على رسوله ، فإن الهدف الأسمى والغاية العليا والحكمة القصوى من إنزال الكتاب على نبيه ومصطفاه ، ما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[٥] ، وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[٦] وقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾[٧] وقوله : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾[٨] ، وقوله : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾[٩] .

وكما قال الله تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ أفغير الله ابتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[١٠] . قوله : ﴿ **بما أراك الله** ﴾ أى بما أعلمك وأوحى إليك .

وما من شك فى أن القرآن كله عدل لا يعرف الظلم من قريب أو بعيد ، وقد كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه بعد أن يقضى بين الناس يحذرهم من الغش والزور والبهتان ويقول لهم كلمات تشيب من هولها الولدان وتقشعر منها الأبدان .

---

(١) الأيتان (٤١ ، ٤٢) من سورة فصلت .
(٢) الآية (١٠٥) من سورة الإسراء .
(٣) الآية (١٤) من سورة الرعد .
(٤) الآية (٥٧) من سورة الأنعام .
(٥) الآية (٤٤) من سورة المائدة .
(٦) الآية (٤٥) من سورة المائدة .
(٧) الآية (٤٧) من سورة المائدة .
(٨) الآية (٤٩) من سورة المائدة
(٩) الآية (٥٠) من سورة المائدة .
(١٠) الأيتان (١١٤ ، ١١٥) من سورة الأنعام .

ثبت فى الصحيحين عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : (ألا إنما أنا بشر وإنما أقضى بنحو مما أسمع ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها)[١] . وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا أسامة بن زيد عن عبد الله بن رافع عن أم سلمة قالت : جاء رجلان من الأنصار يختصمان إلى رسول الله ﷺ فى مواريث بينهما قد درثت ليس عندهما بينة فقال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلى وإنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضى بينكم على نحو مما أسمع ، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له قطعة من النار يأتى بها انتظاماً فى عنقه يوم القيامة) ، فبكى الرجلان وقال كل منهما : حقى لأخى . فقال رسول الله ﷺ : (أما إذا قلتما فاذهبا فاقتسما ثم توخيا الحق بينكما ثم استهما ثم ليحلل كل منكما صاحبه)[٢] .

قصة الآيات

لهذه الآيات قصة اشتملت على المعانى والعبر شأن قصص القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يُفترى ﴾[٣] وقال : ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[٤] .

روى ابن جرير عن قتادة : أن هؤلاء الآيات أنزلت فى شأن طعمة بن أبيرق ، وكان رجلا من الأنصار وهو أحد بنى ظفر سرق درعاً لعمه كان وديعة عنده ثم قذفها على يهودى كان يغشاهم يقال له زيد بن السمين فجاء اليهودى إلى نبى الله ﷺ يهتف ، فلما رأى ذلك قومه بنو ظفر جاءوا إلى نبى الله ﷺ ليعذروا صاحبهم وكان نبى الله عليه الصلاة والسلام قد هم بقبول عذره حتى أنزل الله فى شأنه : ﴿ ولا تجادل ﴾ الخ . وكان طعمة قذف بها بريئا فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة فأنزل الله فيه : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ أى لا تخاصم ولا تناضل ولا تدافع عن من خانوا إذ لا مكانة للخيانة فى الإسلام . وهذا تثبيت لموقف الرسول ، فإنه لم يكن قد قضى فى القضية ، بل كل ما فى الأمر أنه قد هم بالقضاء ، فنزلت الآيات مبينات حقيقة الموقف قال تعالى : **﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيماً ﴾** . وقال جل شأنه فى نهاية القصة : **﴿ ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾** .

---

(١) أخرجه البخارى فى المظالم (١٦) وفى الأحكام (٢٠ ، ٢٩ ، ٣١) . وأخرجه مسلم فى الأقضية (٥) .
(٢) أخرجه أبو داود فى الأقضية (٧) . والإمام أحمد فى (٦) ٣٢٠ .
(٣) الآية (١١١) من سورة يوسف .
(٤) الآية (١٧٦) من سورة الأعراف .

وهكذا انكشف أمر المنافقين ، وافتضح مكنون أسرارهم ، إنهم كالخفافيش لا يسيرون إلا في الظلمات ، وتغشى أعينهم أنوار الحق ، وقد قال الله لرسوله : ﴿ واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ ، إذ أن قلب رسول الله ﷺ أنظف القلوب وأنقاها وأخشاها لله وأتقاها وأطيبها وأزكاها ، قال عبد الله بن مسعود : اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختاره لرسالته ، لقد زكى الله تعالى عقله فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾[(١)] ، وزكى لسانه فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[(٢)] ، وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾[(٣)] ، وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾[(٤)] ، وزكى فؤاده فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[(٥)] ، وزكى بصره فقال : ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[(٦)] ، وزكى أصحابه فقال : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[(٧)] ، وزكى الله أهل بيته فقال : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾[(٨)] .

ولن يستطيع المنافقون أن يثيروا الشبهات على هذا الجو الصافى الكريم .

ما ضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ... أن لا يرى نورها من ليس ذا بصرِ

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر المرء طعم الماء من سقم

وما ضر الورود وما عليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

ومهما حاول المنافقون أن يثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونها على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

ما يضر البحرَ أمسى زاخراً ... إن رمى فيه غلام بحجر

وأنّى لهم أن يحجبوا ضوء الشمس أو نور القمر ؟ إنهم كذبابة وهنانة تحاول بجناحيها أن تكسف ضوء شمسنا ، وتخسف نور قمرنا ، بل وأنّى لهم ذلك وقد زكى الله نبينا كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[(٩)] . نعم ﴿ واستغفر الله ﴾ أى ألزم الاستغفار فى كل أمر من أمورك ، فإن من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق فرجا ومن كل شدة مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب . ولقد كان الصادق المعصوم يقول : (يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله وأستغفره فى اليوم مائة مرة)[(١٠)] . قوله

(١) الآية (٢) من سورة النجم .
(٢) الآية (٣) من سورة النجم .
(٣) الآية ٤ من سورة النجم .
(٤) الآية (٥) من سورة النجم .
(٥) الآية (١١) من سورة النجم .
(٦) الآية (١٧) من سورة النجم .
(٧) الآية (٢٩) من سورة الفتح .
(٨) الآية (٣٣) من سورة الأحزاب .
(٩) الآية (٤) من سورة القلم .
(١٠) أخرجه البخارى فى الدعوات (٣) . ومسلم فى الذكر (٤٢) . وأبو داود فى الديات (٣) . وابن ماجه فى الأدب (٢٥٧) . والإمام أحمد فى (٤) ٢١١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٤١٠ . وفى (٥) ٤١١ .

تعالى : ﴿ إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ صيغتان من صيغ المبالغة فعول وفعيل ، أى عظيم المغفرة عظيم الرحمة لمن يقف ببابه ويلوذ بجانبه . وقد كان أحد الصالحين يناجى ربه فيقول : الهى . . أستحى أن أسألك وأنا أنا . . ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت ؟ إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

وقال آخر :

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير الآثم
أدعوك ربِّ كما أمرت تكرما ... فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضى ... وجميل عفوك ثم أنى مسلم

قوله تعالى : ﴿ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ﴾ أى لا تنافح ولا تدافع عن الذين يخونون أنفسهم بارتكاب المخالفات عندما يؤذون المؤمنين والمؤمنات بأى صورة من صور الإيذاء سواء كان ذلك أذى بالعين أو الأذن أو السرقة أو الغيبة أو غير ذلك مما يضر المسلمين . ﴿ إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ﴾ أى كثير الخيانة والإثم . وعجيب أمر هؤلاء يستخفون من الناس ويخافونهم ، ولا يستخفون من الله والله معهم أينما كانوا .

الله يدرى كل ما تضمر ... يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

وكيف يكون منهم ذلك ويبيتون ما لا يرضى الله من القول ويعزمون على إحداث الفتنة والضلال ويكذبون على رسول الله ويريدون أن يتهموا البرىء ، وكان الله بما يعملون محيطا .

قوله تعالى : ﴿ هأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ﴾ ، خطاب إلى المنافقين فيه توبيخ وتبكيت وتقريع ، فقد وقفوا موقف الدفاع عن صاحبهم الذى سرق وأخذوا يجادلون عنه أمام الصادق المعصوم ﷺ ، فقال لهم الله تعالى : ﴿ فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة ﴾ . لا أحد يستطيع ذلك . قال تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾(١) ، وقال سبحانه : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾(٢) ، وقال جل شأنه : ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ أمن يكون عليهم وكيلا ﴾ ، أى يكلون إليه أمرهم ويفوضون إليه شئونهم ، وكل مسئول عن عمله . ﴿ كل نفس بما كسبت رهينه * إلا أصحاب اليمين ﴾ ، ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه ﴾(٤) . قال تعالى فى سورة عبس : ﴿ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾(٥) .

---

(١) الآية (٣٨) من سورة النبأ .
(٢) الآية (١٠٥) من سورة هود .
(٣) الآيتان (٣٥ ، ٣٦) من سورة المرسلات .
(٤) الآيتان (١١ - ١٤) من سورة المعارج .
(٥) الآية (٣٧) من سورة عبس .

ثم لماذا يصر الباطل على موقفه ويحاول أن يصارع الحق فى عرصات الدنيا ؟ وماذا على أهل الباطل لو آمنوا بالله واليوم الآخر وتابوا إلى الله وأنابوا واستغفروا ؟ أوما قرءوا قوله تعالى : ﴿ **ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً** ﴾ . وقوله جل شأنه ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾[1] . أو لم يعلم هؤلاء أن المسئولية فى الإسلام مسئولية فردية ؟ قال تعالى : ﴿ **ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾[2] .

وكيف تصل الحال بهؤلاء المنافقين إلى حد أنهم يريدون أن يرموا البراء بما اقترفوا هم من الخطايا والآثام ؟ ألم يعلموا حكم الله فى هذا ؟ ألم يسمعوا قوله تبارك اسمه : ﴿ **ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾ نعم البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت . اعمل ما شئت كما تدين تدان .

وفى نهاية المطاف : فى هذه القصة يبين الله تعالى فضله على نبيه ومصطفاه وأنه ثبته على الحق وعصمه من شراك أهل الضلال وشباكهم فقال : ﴿ **ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شىء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾ .

وكيف يستطيع أحد على وجه الأرض أن يضل من عصمه الله من الخطأ وأحاطه بالعناية والرعاية والصيانة وخاطبه قائلاً : ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** ﴾[3] .

أحكام تتعلق بالقضاء

ماذا يجب على القاضى

على القاضى أن يسوِّىَ بين الخَصمين فى خمسة أشياء :

١ - فى الدخول عليه

٢ - والجلوس بين يديه

٣ - والإقبال عليهما

٤ - والاستماع لهما

٥ - والحكم عليهما .

(١) الآية (٨٢) من سورة طه .

(٢) الآيات (٣٦ - ٤١) من سورة النجم .

(٣) الآية (٦٧) من سورة المائدة .

والمطلوب منه التسوية بينهما فى الأفعال ، ولا ينبغى أن يلقِّن واحداً منهما حجته ولا شاهداً شهادته ، لأن ذلك يضر بأحد الخصمين .

ولا يلقن المدعى الدعوى والاستحلاف ، ولا يلقن المدعى عليه الإنكار والإقرار ، ولا يلقن الشهود أن يشهدوا أو لا يشهدوا ولا أن يضيف أحد الخصمين دون الآخر ، لأن ذلك يكسر قلب الآخر ولا يجيب هو إلى ضيافة أحدهما ولا إلى ضيافتهما ماداما متخاصمين .

وروى : أن النبى ﷺ كان لا يضيف الخصم إلا وخصمه معه ولا يقبل الهدية من أحد .

عن بريدة أن النبى ﷺ قال : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقاً[1] فما أخذه بعد ذلك فهو غلول » .

وقال عليه الصلاة والسلام « لعنة الله على الراشى والمرتشى فى الحكم » رواه أحمد .

رسالة عمر بن الخطاب فى القضاء

لقد وضع عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – الدستور المحكم للقضاء فى الرسالة التى أرسلها إلى قاضيه أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – ونذكرها فيما يلى : بسم الله الرحمن الرحيم . « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس[2] سلام عليك أما بعد :

« فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أولى إليك فإنه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له ، آس . بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حَيْفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين ؛ إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهُدِيت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل » .

« الفهم الفهم فيما تَلَجْلَجَ فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ، ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية فإنه أنفى للشك وأجلى للعَمَى » .

« المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلودا فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان ، وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام » .

---

(١) « رزقناه رزقا » أى أدينا إليه أجر عمله والغُلُول أخذ المال بغير استحقاق .

(٢) عبد الله بن قيس هو اسم أبى موسى وأبو موسى كنيته ولقبه الأشعرى .

المفردات

١ - آس بين الناس	:	سو بينهم
٢ - حَيْفَكَ	:	أى ميلك معه لشرفه
٣ - تَلَجْلَج	:	تردد
٤ - ظنين	:	متهم
٥ - درأ	:	دفع
٦ - القلق والضجر	:	ضيق الصدر وقلة الصبر
٧ - تخلق الناس	:	أظهر لهم فى خلقه خلاف نيته .

جزاء من يفعل الخير

* ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾

المفردات : النجوى : المسارة بالحديث ، أو هو جمع واحِدُهُ نجىّ بمعنى المتناجين : أى المتسارين . المعروف : ما تعرفه النفوس وتقره وتتلقاه بالقبول . ابتغاء الشىء : طلبه .

أخرج البيهقى عن أبى أيوب الأنصارى : أن النبى ﷺ قال له : « يا أبا أيوب ألا أدلك على صدقة خير لك من حمر النعم ؟ فقال : بلى يارسول الله ، قال : تصلح بين الناس إذا تفاسدوا ، وتقرب بينهم إذا تباعدوا » ، وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة إصلاح ذات البين » .

النجوى : عبارة عن الحديث الذى يدور بين الناس سرّاً ، وقد نفى الله تعالى الخيرية عن كثير من هذا الحديث ، أما الذى رغَّب فيه الشرع الكريم ، فذلك كالأمر بالصدقة والمعروف أو الإصلاح بين الناس ، وقد ألقى الله تعالى باللائمة على قوم نهاهم عن النجوى فعادوا إليها قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاؤ وك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴾[1] ثم وجه الله المؤمنين إلى النجوى التى يحبها فقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون ﴾[2] ثم بين سبحانه وتعالى مصدر النجوى المنهى عنها فقال ﴿ إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[3] .

(١) سورة المجادلة آية : ٨ .
(٢) سورة المجادلة آية : ٩ .
(٣) سورة المجادلة آية رقم : ١٠ .

فياحبذا النجوى إذا كانت بالبر والتقوى والأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس ، ولا حبذا النجوى إذا كانت بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، كما حدث من المنافقين الذين سبق ذكرهم فى قوله تعالى ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا ﴾[1] وقد سبق شرح ذلك فى قصه طعمة بن أبيرق المنافق ، وقد وعد الله تعالى الآمرين بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس أجراً عظيماً ، إن هم فعلوا ذلك ابتغاء مرضاة الله بعيداً عن الرياء والسمعة ، فهو سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيره تركه وشريكه ومن أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . فالإخلاص كلمة طيبة كشجرة طيبه أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، والرياء كلمة خبيثة كشجرة خبيثة أجتُثّت من فوق الأرض مالها من قرار ، ومن تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله .

إتباع غير سبيل المؤمنين

وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾

المفردات : المشاقة : المعاداة والمخالفة مأخوذة من الشّق كأن كل واحد من المتعاديين يكون فى شِق غير الذى فيه الآخر .

بعد أن وعد الله تعالى أهل الخير بالجزاء الحسن والأجر العظيم ، أوعد أهل الضلال الذين شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى واتبعوا غير سبيل المؤمنين ، أوعدهم بأنه سيوليهم الوجهة التى تولوها وأرادوها ؛ هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فقد أوعدهم بأنه سبحانه سيصليهم جنهم وساءت مصيرا .

إن الذين شاقوا الرسول وخرجوا على تعاليمه وناصبوه العداء ؛ لاسيا بعد ما تبين لهم الهدى واضحاً ، هؤلاء لاخلاق لهم فى الآخرة ، ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين * يوم يبعثهم الله جميعا فينبؤهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾[2] وقال سبحانه : ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[3] ومن

(١) الآية : ١٠٨ من سورة النساء .
(٢) سورة المجادلة آية رقم : ٥ ، ٦
(٣) سورة المجادلة آية رقم : ٢٠ .

يتبع غير سبيل المؤمنين ويخرج على إجماعهم الذى قال فيه الصادق المعصوم « لا تجتمع أمتى على ضلالة » . فإن الله تعالى يوجهه إلى ما توجه إليه وكان له فيه كسب واختيار وفى الآخرة مصيره النار وبئس القرار قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[1] .

الشرك ذنب لا يغفر

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾

المفردات : **يدعون** : أى يتوجهون ويطلبون منها المعونة لهيبة غيبية لا يعقل الإنسان معناها ، **والشيطان** : هو الخبيث المؤذى من الجن والإنس ، **والمريد والمارد** : من مرد على الشىء إذا مرن عليه حتى صار يأتيه بلا تكلف ، والمراد أنه مرد على الإغواء والإضلال أو تمرد واستكبر عن الطاعة .

واللعن : هو الطرد والإبعاد مع السخط والإهانة ، **والنصيب** : الحصة والسهم من الشىء ، **والمفروض** : المعيَّن **والأمانى** : جمع أمنية يقال تمنى الشىء إذا أحب أن يكون له وإن لم يتخذ له أسبابه .

والتمنى : تقدير شىء فى النفس وتصويره فيها سواء أكان عن تخمين وظن أم كان عن رؤية وبناء على أصل ، ولكنه يغلب فيما يبنى على الحَدْس والتخمين وما لا حقيقة له ، **البتك** : القطع ، وسيف باتك : أى

(١) سورة طه : الآيات ١٢٣ - ١٢٦ .

قاطع ، والتبتيك : التقطيع ، والغرور : الباطل ، والمحيص : المهرب والمخلص ، يقال : وقعوا فى حَيصَ بيصَ وفى حاص باص أى فى أمر يعسر التخلص منه .

الشرك كفر بوحدانية الله ، فقد يكون الكفر ناشئاً عن النفاق[١] وقد يكون ناشئاً عن الشرك[٢] ، وقد يكون ناشئاً عن العناد[٣] ، وقد يكون ناشئاً عن الكبر[٤] .

وقد تجلت رحمة الله تعالى بعباده أنه يغفر من الذنوب ما دون الشرك : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[٥] .

ولما كان الشرك أكبر الذنوب لما فيه من جحود الوحدانية بعد ظهور الآيات الدالة على إفراد المعبود بالعبادة واعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ؛ لما كان ذلك كذلك فإن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به ، قال جل جلاله ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خرَّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[٦] ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنيٌ حميد * وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾[٧] فما عاقبة الشرك ؟ .

قال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ جافى الحق وتنكب الجادة ، وحاد عن الصراط المستقيم ، وخاب وخسِرَ وَسَفَهَ نفسه وعقله ، يتمثل ذلك فى أن المشركين لا يلجأون إلى الله إنما يلجأون إلى أصنام ومخلوقات لا تملك موتاً ولا حياة ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعاً ، لا يخلقون ذباباً ولو اجتمعوا له ، إن يدعون من دونه إلا إناثاً كمناة والعزى ، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا من الجنَّةِ والناس ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾[٨] وقد يكون شيطان الإنس شراً من شيطان الجن .

ووصف الشيطان بأنه مريد لطغيانه وتمرده على أوامر الله ، لذلك استحق اللعنة ، قال تعالى : ﴿ لعنه الله ﴾ أى طرده من رحمته مذءوما مدحورا لذا قال : ﴿ لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ قال له الله : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾[٩] لذا فإن سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وجاءت صور الضلال فى قوله جل شأنه : ﴿ ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ .

أما الإضلال فيكون بالشرك وعدم قبول الحق والإصرار على الباطل ، وأما الأمانى فتكون بتزيين الشهوات واللذات ، وأما التبتيك فهو شق آذان الأنعام كالبحيرة التى تنذر لآلهتهم ، وأما تغيير خلق الله فقد

---

(١) النفاق إظهار الإيمان وإبطان الكفر .
(٢) الشرك عبادة من لا يستحق أن يعبد من الكائنات من دون الله .
(٣) العناد معرفة الحق ورفضه رغم معرفته .
(٤) الكبر التعالى وعدم الاستجابة للحق كما فعل إبليس حينما رفض أمر الله بالسجود لآدم .
(٥) الآية رقم : ١١٠ من سورة النساء .
(٦) جزء من الآية رقم : ٣١ من سورة الحج .
(٧) سورة لقمان الأيتان رقم/١٢ ، ١٣ .
(٨) جزء من الآية رقم : ١١٢ من سورة الأنعام .
(٩) جزء من الآية رقم : ٦٥ من سورة الإسراء

يكون حسيا كالواصلة[١] والموصلة والواشمة والمستوشمة والمتنمصة والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله ، وقد يكون معنويا ، وذلك بتغيير الفطرة التى فطر الناس عليها ، وهى أى الفطرة دين الله قال تعالى : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٢] : قال ﷺ (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه) .

﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ﴾ فى الدنيا والآخرة فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى : ﴿ يعدهم ﴾ أى بالفقر إذا أنفقوا فى سبيل الله ، وبالغنى إذا مارسوا الميسر وأكل الربا وقبلوا الرُّشى ، ﴿ ويمنيهم ﴾ . بمغفرة الله لهم بعد اقترافهم هذه الذنوب : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٣] .

وقد حكم الله على أفعال الشيطان من الوعد والأمانى فقال : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾ أى باطلاًوخداعا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء . أو كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف كما حكم على أتباعه بقوله : ﴿ أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾ أى مفرا ولا مهربا .

ثم حكم سبحانه لأوليائه الذين آمنوا بـه ربـاً وبـالإسلام دينـا وبمحمد ﷺ نبيـاً ورسولاً « وعملوا الصالحات » فاجتمع لهم التصديق بالجنات والإقرار باللسان والعمل بالأركان حكم لهم سبحانه بقوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ . فما أجمل الخلود الأبدى فى النعيم المقيم ، هذا وعد من الله والله تعالى إذا وعد أنجز : ﴿ وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ﴾ لا أحد أصدق من الله قولاً ولا أحد أصدق من الله حديثاً ولا أحد أصدق من الله وعداً .

منطق العدالة الإلهية

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾

(١) الواصلة من تصل شعرها بما ليس منه والموصلة من تحترف وصل الشعر والواشمة من تحترف صناعة الوشم والمستوشمة من تطلب الوشم من الواشم والمترصة التى تنتف شعر الحواجب وما أشبه للتجمل والمتفلجات اللاتى يلجأن إلى تفليج ما بين الأسنان للحسن .

(٢) سورة الروم آية رقم : ٣٠ . (٣) سورة فاطر ، آية رقم : ٦ .

المفردات : **الأماني** : واحدها أمنية وهى الصورة التى تحصل فى النفس من تمنى الشىء وتقديره ، وكثيراً ما يطلق التمنى على ما لا حقيقة له ، ومن ثم يعبرون به عن الكذب كما قال عثمان رضى الله عنه : « ما تعنيت ولا تمنيت منذ أسلمت » ، **ولياً** : أى يلى أمره ويدفع العقاب عنه ، **ولا نصيرا** : أى ينصره وينقذه مما يحل به ، **والنقير والنقرة** : النكتة التى تكون فى ظهر النواة وبها يضرب المثل فى القله ، **الحنيف** : المائل عن الزيغ والضلال ، **والخليل** : المحب لمن يحبه من الخُله (بالضم) وهى المودة والمحبة التى تتخلل النفس وتمازجها قال شاعرهم[١] .

قد تخللت مسلك الروح منى ... وبذا سمى الخليل خليلا

محيطاً : أى عالماً بالأشياء قادراً عليها .

أخرج ابن أبى شيبة عن الحسن موقوفا « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » وقال الحسن : إن قوما غرتهم المغفرة فخرجوا من الدنيا وهم مملؤ ون بالذنوب ولو صدقوا الظن لأحسنوا العمل .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السُّدّى قال « التقى ناس من المسلمين واليهود والنصارى فقال اليهود للمسلمين . نحن خير منكم ، ديننا قبل دينكم وكتابنا قبل كتابكم ونبينا قبل نبيكم ونحن على دين إبراهيم ولن يدخل الجنة إلا من كان هودا ، وقالت النصارى مثل ذلك ، فقال المسلمون : كتابنا بعد كتابكم ونبينا بعد نبيكم وقد أمرتم أن تتبعونا وتتركوا أمركم فنحن خير منكم نحن على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ولن يدخل الجنة إلا من كان على ديننا فأنزل الله ﴿ **ليس بأمانيكم** ﴾ . الخ الآية ، فأفلج[٢] الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان الأخرى .

قوله تعالى : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب** ﴾ أى ليس فضل الدين وشرفه ولا نجاه أهله به أن يقول القائل منهم : إن دينه أفضل وأكمل ؛ بل عليه أن يعمل بما يهديه إليه فإن الجزاء إنما يكون على العمل ، لا عمل التمنى والغرور : فليس أمر نجاتكم ولا أمر نجاة أهل الكتاب منوطا بالأمانى فى الدين فالأديان لم تشرع للتفاخر والتباهى ولا تحصل فائدتها بالانتساب إليها دون العمل بها .

ثم أكد ذلك وبينه بقوله : ﴿ **من يعمل سوءاً يجز به** ﴾ أى أن من يعمل سوءاً يلق جزاءه ، لأن الجزاء بحسب سننه تعالى أثر طبيعى للعمل ، لا يتخلف فى اتباع بعض الأنبياء وينزل بغيرهم كما يتوهم أصحاب الأمانى والظنون ، فعلى الصادق فى دينه أن يحاسب نفسه على العمل بما هداه إليه كتابه ورسوله ويجعل ذلك المعيار فى سعادته ، لا أن يجعل تكأته أن هذا الكتاب أكمل ولا أن ذلك الرسول أفضل .

(١) الشاعر هو بشار بن برد ذكره الإمام القرطبى فى الجزء الخامس صـ ٤٠٠ .
(٢) أفلج الله حجتهم جعلها ظاهرة غالبة على غيرها .

روى « أنه لما نزل قوله ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾ راع ذلك أبا بكر وأخافه فسأل النبى ﷺ ، قال : من ينج مع هذا يارسول الله ؟ فقال له النبى ﷺ : أما تحزن ؟ أما تمرض أما يصيبك البلاء ؟ قال بلى يارسول الله قال : « هو ذاك »[١] .

وأخرج مسلم وغيره عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله تعالى فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « سددوا وقاربوا فإن فى كل ما أصاب المسلم كفارة ، حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها » ، والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ومن ثم . يرى عامة العلماء أن الأمراض والأسقام ومصائب الدنيا وهمومها يكفر الله بها الخطايا .

ويرى بعضهم أن المصايب لا تكفِّر إلا إذا أثرت فى النفس تأثير صالحاً ، وكانت سبباً فى قوة الإيمان وترك السوء والتوبة منه والرغبة فى صالح العمل بما تحدثه من العبرة ، فتكون مربية لعقله ونفسه ، أما إذا ضاعفت الذنوب كالمصايب التى تحمل صاحبها على الجزع ومهانة النفس وضعف الإيمان إلى ذنوب أخرى لم يكونوا ليقترفوها لولا المصيبة فلا تكفر شيئا من الخطايا بل تزيدها .

﴿ ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيرا ﴾ أى من يعمل السوء ويستحق العقاب عليه لا يجد له وليًّا غير الله يتولى أمره ويدفع الجزاء عنه ، ولا نصيرا ينصره وينقذه مما يحُل به ، لا من الأنبياء الذين تفاخر بهم ولا من غيرهم من المخلوقات التى اتخذها بعض البشر آلهة وأربابا ، فكل تلك الأمانى تكون أضغاث أحلام ، وإنما يكون المدار فى ذلك على الإيمان والأعمال كما قال :

﴿ ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً ﴾ أى ومن يعمل كل ما يستطيع عمله من الأعمال التى تصلح بها النفوس فى أخلاقها وآدابها وأحوالها الاجتماعية ، سواء أكان العامل ذكراً أم أنثى ، وهو مطمئن القلب بالإيمان — فأولئك العاملون المؤمنون بالله واليوم الآخر يدخلون الجنة بزكاء أنفسهم وطهارة أرواحهم ، ولا يظلمون من أجور أعمالهم شيئا ولو حقيراً كالنقير .

وفى هذه الآية وما قبلها من العبرة والموعظة ما يهدم صروح الأمانى التى يأوى إليها الكسالى وذوو الجهالة من المسلمين ؛ الذين يظنون أن الله يحابى من يسمى نفسه مسلما ويفضله على اليهودى والنصرانى لأجل هذا اللقب ، فالذين يفخرون بالانتساب إليه وقد نبذوه وراء ظهورهم وحرموا الاهتداء بهديه هم فى ضلال مبين .

وبعد أن بين سبحانه أن النجاة والسعادة منوطان[٢] بصالح الأعمال مع الإيمان ، أردف ذلك ذكر درجات الكمال فقال : ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ أى لا أحد أحسن ممن جعل

---

(١) رواه القرطبى ج ٥ صـ ٣٩٧ ، ٣٩٨ بألفاظ مختلفة روايات عدة .
(٢) منوط به مرتبط به وجوداً وعدماً .

قلبه خالصاً لله وحده فلا يتوجه إلى غيره فى دعاء ولا رجاء ، ولا يجعل بينه وبينه حجابا من الوسطاء والشفعاء ، ولا يرى فى الوجود إلا هو ويعتقد أنه سبحانه ربط الأسباب بالمسببات ؛ فلا يطلب شيئا إلا من خزائن رحمته ، ولا يأتى بيوت هذه الخزائن إلا من مسالكها . وهى السنن والأسباب التى سنها فى الخليقة .

وهو مع هذا الإيمان الكامل والتوحيد الخالص . محسن للعمل متحل بأحسن الأخلاق والفضائل .

وقد عبر عن توجه القلب بإسلام الوجه لأن الوجه أعظم مظهر لما فى النفس من إقبال وسرور وكآبة ، وفيه هو الذى يدل على ما فى السريرة .

﴿ واتبع ملة إبراهيم حنيفا ﴾ أى واتبع إبراهيم فى حنيفيته التى كان عليها بميله عن الوثنية وأهلها وتبريه مما كان عليه أبوه وقومه منها ، قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾(١) .

﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾ أى اصطفاه الله لإقامة دينه فى بلاد غلبت عليها الوثنية ، وأفسد الشرك عقول أهلها ، وقد بلغ من الزلفى عند ربه ما صح به أن يسمى خليلا ، فقد اختصه بكرامة ومنزلة تشبه الخليل لدى خليله ، ومن كانت له هذه المنزلة كان جديراً أن تتبع ملته وتؤتس طريقته ، والخلاصة ـ إنه مَنَّ عليه بسلامة الفطرة وقوة العقل وصفاء الروح وكمال المعرفة وفنائه فى التوحيد .

ثم ذكر ما هو كالعلَّة لما سبق بقوله : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ أى أن كل ما فى السموات والأرض ملك له ومن خلقه مهما اختلفت صفات المخلوقات ، فجميعها مملوكة عابدة له خاضعة لأمره ، ﴿ وكان الله بكل شىء محيطا ﴾ إحاطة قهر وتسخير ، وإحاطة علم وتدبير ، وإحاطة وجود ؛ لأن هذه الموجودات ليس وجودها من ذاتها ، ولا هى ابتدعت نفسها ، بل وجودها مستمد من ذلك الوجود الأعلى ، فالوجود الإلهى هو المحيط بكل موجود ، فوجب أن يخلص له الخلق ويتوجه إليه العباد وقد جاءت هذه الآية خاتمة لما تقدم لفوائد :

١ - بيان الدليل على أنه المستحق وحده لإسلام الوجه له والتوجه إليه فى كل حال : لأنه هو المالك لكل شىء وغيره لا يملك لنفسه شيئا .

٢ - نفى ما يتوهم فى اتخاذ الله إبراهيم خليلاً من أن هناك شيئاً من المقاربة فى حقيقة الذات والصفات .

٣ - التذكير بقدرته تعالى على إنجاز وعده ووعيده فى الآيات التى قبلها إذ من له ما فى السموات والأرض خلقاً وملكاً فهو أكرم من وعد .

---

(١) سورة الزخرف الآيات رقم : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ .

استفتاء وإفتاء وإرشاد

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟
لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ
بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ
ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟
بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

المفردات : يستفتونك : أى يطلبون منك الفتيا ، يفتيكم : يبين لكم ما أشكل عليكم ، يقال أفتاه إفتاء وفتيا وفتوى ، وأفتيت فلانا رؤياه عبرتها له . ما كتب لهن : أى ما فرض لهن من الميراث ، وأن تقوموا : أى تعنوا عناية خاصة ، بالقسط : أى بالعدل ، خافت : أى توقعت ما تكره بوقوع بعض أسبابه أو ظهور بعض أماراته ، نشوزا : ترفعاً وتكبرا ، إعراضا : ميلا وانحرافاً ، فلا جناح : أى لا إثم ولا حرج ، أحضرت الأنفس الشح : أى إن الشح حاضر لها لا يغيب عنها ، والمعلقة التى ليست مطلقة ولا ذات بعل ، من سعته : من غناه . واسعاً : غنياً .

أخرج ابن جرير قال : كان لا يرث إلا الرجل الذى قد بلغ أن يقوم فى المال ويعمل فيه ، ولا يرث الصغير ولا المرأة شيئاً ، فلما نزلت آيات المواريث فى أول سورة النساء شق ذلك على الناس ، وقالوا : أيرث الصغير الذى لا يقوم فى المال ، والمرأة التى هى كذلك ، فيرثان كما يرث الرجل ؟ فرجوا أن يأتى فى ذلك حديث من السماء ، فانتظروا فلما رأوا أنه لا يأتى حديث قالوا : لئن تم هذا إنه لواجب ما عنه بد ، ثم قالوا : سلوا ؛ فسألوا النبى ﷺ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية قوله تعالى ﴿ **ويستفتونك فى النساء** ﴾ أى يطلبون منا الفتيا فى شئونهن المالية والاجتماعية ، فإن للنساء فى الإسلام رسالة تقوم بها على تربية النشء وصيانة الرجال ؛ فلو قام الرجال بمعرفة الحقوق والواجبات التى بينها الله تعالى فى كتابه وسنة رسوله ﷺ كذلك لو قامت النساء بمعرفة الحقوق والواجبات ، فأدى كل من الرجال والنساء من الواجبات ما أوجبه الله عليه وأخذ حقوقه بالمعروف ؛ لاستقامت شئون الفرد والأسرة والمجتمع .

ولقد بين الله تعالى الحقوق والواجبات فى قوله : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[١] والمقصود بالدرجة ما بينه الله تعالى فى قوله : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾[٢] .

ولما كثر السؤال فى شئون النساء فقد فصل القرآن الكريم أحكام تلك الشئون فى مواضع عديدة من سورة البقرة والنساء والنور والأحزاب والطلاق والتحريم ، وفى هذه السورة يقول تعالى : ﴿ **قل الله يفتيكم فيهن** ﴾ والله جلت قدرته وعظمة حكمته قوله الحق وحكمه الصدق ، فما أجدر الأمة أن تأخذ بأحكام ربط ، ثم يقوله سبحانه : ﴿ **وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن** ﴾ أى والذى سبق بيانه فى هذه السورة الكريمة ، والذى يبتلى عليكم فيها ، فيه بيان وإيضاح وتفصيل فى يتامى النساء ، فلقد تحدثت السورة عن حقوق اليتيم وقد جاء الأمر بإيتاء اليتامى أموالهم فى الآية الثانية ، بعد أن أمرت الآية الأولى بتقوى الله وتقوى الأرحام من القطيعة ، جاءت الآية الثانية تأمر برعاية اليتيم فى ماله قال تعالى : ﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن** ﴾ بين الله تعالى الحكم فى هذا ، فقد كانوا يمنعون الإناث من الميراث وكذلك الولدان الذين لم يبلغوا الحلم فجاء الحكم واضحاً وصريحاً فى قوله جل شأنه ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا ﴾[٤] ثم فصل الله تعالى ذلك الحكم فى قوله : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾[٥] فأثبت بذلك حقوق النساء والمستضعفين من الولدان ، أما قوله تعالى فى شأن يتامى النساء ﴿ **وترغبون أن تنكحوهن** ﴾ الرغبة هنا تحتمل معنيين : إما أن تكون رغبة فى نكاحهن لجمالهن وإما أن تكون رغبة عن نكاحهن وعدم تزويجهن لغيركم ؛ طمعاً من الولى فى مال اليتيمة ، فيبقيها تحت يده دون أن يزوجها لغيره ، حتى يستولى على مالها ، وقد بين الله الحكم فى ذلك فيما يتلى علينا فى الكتاب فى قوله ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾[٦] فعلى الولى أن يرعى حق الله فى اليتيمة ، فلا يمنعها من الزواج إن تقدم لها من يرضى دينه وأمانته ، وعليه أن يجاهد نفسه ويتقى الله فلا يمدن عينيه إلى مالها فإن خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم ، وقد أشار النبى ﷺ بأصبعيه قائلاً « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة » وقد جاء فيما يتلى علينا فى الكتاب ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا ﴾[٧] فليعلم ولى اليتيم أن « البر لا يبلى وأن الذنب لا ينسى وأن الديان لا يموت فاعمل

---

(١) جزء من الآية رقم : ٢٢٨ من سورة البقرة .
(٢) جزء من الآية رقم : ٣٣ من سورة النساء .
(٣) الآية رقم : ٢ من سورة النساء .
(٤) الآية رقم : ٧ من سورة النساء .
(٥) جزء من الآية رقم : ١١ من سورة النساء .
(٦) جزء من الآية رقم : ٣ من سورة النساء .
(٧) الآية رقم : ١٠ من سورة النساء

ما شئت كما تدين تدان »[١] وبالكيل الذى تكيل به للناس سيكال به عليك ، فمن أراد أن يحفظ الله عليه ماله ، ويبارك فى ذريته من بعده ، فليعمل بقوله جل شأنه : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً ﴾[٢] .

وكما أوصى الله باليتامى خيراً فى مالهن وزواجهن ومعاملتهن ، أوصى بالمستضعفين من الولدان فقال : ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ وقد كانوا يحرمون من الميراث ، ففصل الله فى الأمر وأمر بايتائهم حقوقهم كما أمر بالقيام لليتامى بالقسط ورعاية الشئون الخاصة بالمعاملة من حيث جميع نواحيها ، ثم رغب الله تعالى فى فعل الخير حتى يشحذ الهمم ويحرك كوامن النفوس فقال : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ﴾ .

نشوز الرجل

قال تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا ﴾ إذا كان النشوز من جهة المرأة تخيف خروجها على طاعة الزوج وتمردها على حسن المعاشرة فإن الله تعالى بين طرق الإصلاح فى قوله : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليًّا كبيراً ﴾[٣] .

وإن كان النشوز من جهة الرجل ، فإن الله تعالى يبين طريق الإصلاح فى ذلك فقال : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير ﴾ وقد يكون الصلح بإعطائه شيئاً من مالها على سبيل أن ترضى نفسه ويطيب قلبه وقد يكون الصلح بتنازلها عن بعض حقوقها[٤] .

روى أن امرأة أراد زوجها أن يطلقها لرغبته عنها وكان لها منه ولد فقالت : لا تطلقنى ودعنى أقوم بتربية ولدى وتقسم لى فى كل شهرين . فقال : إن كان هذا يصلح فهو أحب لى والصلح خير من الطلاق والشقاق والخلاف الذى يهدم كيان الأسرة ويقطع رابطة من أقدس الروابط .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما فيما افتدت به ﴾[٥] وإن كان النشوز منهما معاً يبين الله الحكم فى ذلك فقال : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾[٦] .

---

(١) استخدام وتضمين من حديث نبوى شريف لفظه : « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان » .
(٢) الآية رقم : ٩ من سورة النساء .
(٣) جزء من الآية رقم/٣٤ من سورة النساء
(٤) ذكر الإمام القرطبى رأيا لمقاتل بن حيان : أن يعطيها من ماله ليعوضها عن نشوزه ج ٥ صـ ٤٠٥ .
(٥) جزء من الآية رقم : ٢٢٩ من سورة البقرة .
(٦) الآية رقم : ٣٥ من سورة النساء .

أما قوله تعالى : ﴿ **وأحضرت الأنفس الشح** ﴾ فمعناه أن النفوس قد لا يغيب البخل عنها إلا من شاء الله له الفلاح فهو ممن أدركهم الحق بلطف بره فى قوله تعالى : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[١] فإذا كان الإصلاح بإعطاء شىء من المال أو بالتنازل عن بعض الحقوق فى سبيل إصلاح الأسرة ودوام المعاشرة فإن ذلك أمرٌ محبوب ومرغوب بل إن ذلك من عزم الأمور التى رغب الله تعالى فيها بقوله : ﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ .

العدل بين النساء

قال تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** ﴾ . العدل فى هذه الآية غيره فى قوله تعالى : ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٢] ، إذ العدل فى أية التعدد المقصود به العدل المادى فى النفقة والسكنى أما العدل فى هذه الآية ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ فالمقصود به العدل القلبى فقد يميل القلب إلى إحداهن بعض الميل فعلى المرء أن يقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك »[٣] ، فالميل من أعمال القلوب ، لذا كان المنهى عنه كل الميل لا بعضه ، وهذا أمر ممكن فلا تناقض بين الآيتين ، حاشا لله أن يقع فى كلامه أدنى تناقض ؛ وذلك لأن العدل هناك عدل مادى وهو ممكن أما العدل هنا فهو ميل قلبى قد يقع بعضه فلا شىء فيه ، والمنهى عنه أن يقع كله لذلك قال تعالى : ﴿ **فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** ﴾ والمرأة المعلقة هى التى أساء زوجها عشرتها فلا هى متزوجة ولا هى مطلقة ، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى : أن صدق النية فى الإصلاح وتقوى الله يغفر الله به ما قد يتجاوزه العبد من صغائر الأمور ، قال سبحانه : ﴿ **وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾ .

داء استعصى دواؤه

إذا تعسر العلاج وتعذر الدواء ولم يكن هناك مفر من الطلاق فإن الله تعالى عالج هذا الموقف بقوله : ﴿ **وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته** » ، وذلك حتى لا يخطئ الحساب فيأتى بأوخم العواقب والقاعدة فى ذلك أنه « لا ضرر ولا ضرار » فليذهب كل من الزوجين إلى حال سبيله ، وكان الله واسعاً حكيماً ، واسع الرحمة والمغفرة موصوف بالحكمة منزه عن العبث .

---

(١) جزء من الآية رقم : ٩ من سورة الحشر .

(٢) فى الآية الثانية من سورة النساء .

(٣) حديث نبوى شريف رواه الإمام القرطبى ج ٥ صـ ٤٠٧ وقد روى فى نفس السياق عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » .

التقوى هى السلاح الأقوى

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (١٣١) وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٣٢) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا (١٣٣) مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا (١٣٤)

المفردات : وصينا : أى أمرناهم أمراً مؤكدا ، أوتوا الكتاب من قبلكم : المقصود بالكتاب التوراة والزبور والإنجيل ، غنيا : أى مستغنيا عن كل ما سواه . حميدا : أى محمود فى ذاته وصفاته وأفعاله .

بعدما بين الله تعالى من الأحكام ما فيه سعادة الخلق ، ذكر سبحانه هنا أنه مالك الملك المتصرف العليم المريد القدير الغنى الحميد الوكيل المقتدر السميع البصير ، وأنه سبحانه شرع ما شرع وبين من الأحكام ما بين لصالح الخلق ، وأنه تعالى قد وصى الأمم السابقة كما وصى أمة خاتم الأنبياء بتقواه جل فى علاه ، فالتقوى هى السلاح الأقوى ، وهى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقىَّ هو السعيد
فتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى : ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما فى السموات وما فى الأرض وكان الله غنيا حميدا ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[١] فهو سبحانه لا تضره معصية العاصين كما لا تنفعه طاعة الطائعين ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٢] .

جاء فى الحديث القدسى « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرِّى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى

---

(١) جزء من الآية رقم : ٧ من سورة الزمر .
(٢) الآية رقم : ٤٦ من سورة فصلت .

لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر ، ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم والبخارى واللفظ لمسلم :

هو سبحانه الوكيل القائم على كل نفس بما كسبت ، القيوم على جميع خلقه ، الذى يجب أن تكلوا إليه أموركم ، وتعتمدوا عليه فى قضاء حوائجكم ، قال تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ .

كن عن همومك معرضا ... وكِل[1] الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة ... تسليك عما قد مضى
فلربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط لك ... فى عواقبه رضا
الله يفعل مايشاء ... فلا تكن متعرضا

ومن مظاهر قدرته جل فى علاه أنه القادر على إفنائكم ؛ ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾[2] وكقوله جل فى علاه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾[3] .

وكقوله جل جلاله : ﴿ والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[4] .

إذا كان ذلك معلوماً لديكم أيها الناس فابتغوا ما عند الله من ثواب الدنيا والآخرة ، وادعوا الله مخلصين له الدين ، وقولوا : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾[5] ولا تجعلوا همكم ومبلغ علمكم الدنيا ، « فإن من أصبح وهمه الدنيا فرق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتبه الله له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمره وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة »[6] ومن ثم جاء قوله تعالى مرشدا وهاديا : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾[7] فاطلبوهما معا ، فالدنيا قنطرة للآخرة ، وهى كسوق قام ثم انفض ، ربح فيه من ربح وخسر

(١) فعل أمر من وكل : كِل .
(٢) الآيات رقم : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ــ من سورة فاطر .
(٣) الآية رقم : ١٧ من سورة المائدة .
(٤) جزء من الآية رقم/٣٨ من سورة القتال أو محمد ــ ﷺ .
(٥) جزء من الآية رقم : ٢٠١ من سورة البقرة وهو من أدعية القرآن الكريم التى علمها رسول الله ﷺ لأصحابه وأهله .
(٦) من تحذير رسول الله ﷺ لأصحابه .
(٧) من الآية رقم : ١٣٤ من سورة النساء .

فيه من خسر ، والدنيا دار مفر والآخرة دار مقر ، فخذوا من مفركم لمقركم ، واعلموا أن الله سميع لأقوالكم بصير بأعمالكم رقيب على حركاتكم وسكناتكم فاعبدوا الله كأنكم ترونه فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم .

كونوا شهداء لله

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا (١٣٦) ﴾

المفردات : ﴿ قوامين ﴾ جمع قوام وهو المبالغ فى القيام بالشىء حتى يأتى به على خير وجه ، انظر إلى قوله تعالى ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾[١] : ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ﴾[٢] : ﴿ وأقيموا الشهادة ﴾[٣] ، ﴿ تلووا ﴾ أى ألسنتكم بالشهادة والمراد تحرفونها ولا تأتون بها على وجهها ، فإن اللَّىَّ هو التحريف وتعمد الكذب ﴿ تعرضوا عنها ﴾ لا تؤدوها .

قال عبد الله بن رواحة لما بعثه النبى ﷺ يخرص[٤] على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : (والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلىَّ ولأنتم أبغض إلىَّ من أعدائكم من القردة والخنازير[٥] وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم على أن لا أعدل فيكم ؟ فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض) . وقال ﷺ : (خير الشهداء الذى يأتى بالشهادة قبل أن يسئلها) .

وفى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴾ أى بالعدل ، والعدل لا يتجزأ ، كما أن الشهادة إذا أديت لله وابتغاء مرضاته فإنها أيضا لا تتجزأ ولا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ، فإذا رأيت كالشمس فاشهد وإلا فلا ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك ، والعدل هو العدل ، والشهادة : هى الشهادة على نفسك وعلى والديك والأقربين والغنى والفقير ، فلا مراعاة

---

(١) جزء من آيات كثيرة فى سور القرآن أولها سورة البقرة الآية رقم : ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ .
(٢) جزء من الآية رقم : ٩ من سورة الرحمن .
(٣) جزء من الآية رقم : ٢ من سورة الطلاق .
(٤) أرسله رسول الله ﷺ ليقدر ما عليهم من أموال وثمار .
(٥) إشارة منه إلى ما عذب الله به بعضهم فى الآية ﴿ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت . . ﴾ الآية : ٦٠ من سورة المائدة .

ولا انحراف ولا إعراض ، فلا يحملنكم الهوى كما لا تحملنكم العصبية والمحسوبية على ترك العدل : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[١] والحق أحق أن يتبع ، وإن تلووا الشهادة بألسنتكم لتحرفوها أو تعرضوا عن قول الحق فإن الله كان بما تعملون خبيرا بدقائق الأمور وحقائقها .

ثم يأتى الخطاب الثانى بالثبات على الإيمان : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل** ﴾ ، أى اثبتوا وداوموا على الإيمان بالله وحده لا شريك له ، وآمنوا برسوله داعيا إلى الله بإذنه ، وآمنوا بالقرآن الذى نزل على رسوله منجما حسب الأسباب ومقتضيات الأحوال ، كما أمرهم سبحانه أن يؤمنوا بالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل : من توراة وزبور وإنجيل ، فمن كفر بنبى أو بكتاب فقد كفر كفرا مخلدا فى النار ، كذلك قال الله تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً** ﴾ . فما من نبى بعثه الله إلا ودعا قومه بالإيمان بهذه الأصول فمن خرج عن أصل منها فقد خسر خسرانا مبينا وضل ضلالاً بعيداً .

صفات المنافقين وخصائصهم

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

(١) جزء من الآية رقم : ٨ من سورة المائدة .

المفردات : ﴿ بشر ﴾ المراد أنْذِر وإنما قال بشر تهكما بهم . ﴿ العزة ﴾ القوة والمنعة .[1] ﴿ يتربصون بكم ﴾ ينتظرون وقوع أمر بكم . ﴿ نستحوذ عليكم ﴾ الاستحواذ هو الاستيلاء والمراد ألم نغلبكم ونتمكن من قتلكم فأبقينا عليكم ومنعنا المؤمنين من قتلكم .

أخبر الله تعالى فى قوله : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ﴾ أخبر عن قوم لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم ، فهم مذبذبون بين الإيمان والكفر ، لا يثبتون على حال ولا يستقرون فى أى مجال ، لقد آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا وازدادوا ضلالا فازدادوا كفرا : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾[2] من أحوال هؤلاء : ﴿ إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون ﴾[3] . إنهم من ذوى الوجوه المتقلبة والقلوب المريضة ، يلبسون لكل مقاما لبوسه ، يأكلون على كل الموائد ، قلوبهم أَمَرُّ من الصبر[4] وألسنتهم أحلى من العسل ، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه ، همهم بطونهم وقبلتهم نساؤهم ، إذا رأوك حسدوك ، وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، السُّنة عندهم بدعة ، والبدعة عندهم سنة ، هؤلاء الذين ازدادوا كفرا لن يغفر الله لهم حيث ماتوا على ذلك ، ولن يهديهم سبيلا إلى الجنة إذ أنهم سيبعثون على ما ماتوا عليه .

قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما ﴾ البشارة لا تستعمل غالبا إلا فى سار الأخبار إذ هى مأخوذة من انبساط بشرة الوجه ، فاستعمالها فى الأخبار السيئة يكون من باب التهكم والتوبيخ ، أى بشر المنافقين بالعذاب المؤلم الذى لا يقْدَر قدره ولا يحيط بكنهه إلا علام الغيوب .

ثم بين الله بعض صفاتهم التى تستوجب الذم فقال : ﴿ الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾ أى هؤلاء المنافقون هم الذين يتخذون الكافرين المعادين للمؤمنين أولياء وأنصارا ، ويتجاوزون ولاية المؤمنين ويتركونها ، ويمالئون الكافرين عليهم اعتقادا منهم أن الدولة ستكون لهم ، فيجعلون لهم يدا عندهم .

ثم وبخهم الله على ما فعلوا فقال : ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ﴾ العزة : القوة والمنعة : أى إن كانوا هم بذلك يطلبون عندهم الغلبة والمنعة ، فإن العزة لله يؤتيها من يشاء ، فعليهم أن يطلبوها منه تعالى بصادق إيمانهم واتباعهم هدايته التى أرشد إليها أنبياءه ، وبينوا لهم أسبابها ، وقد آتاها

---

(١) (يخوضوا) لما كان الكلام من المنافقين منافيا لطبيعة الايمان والحق كانوا كمن يلقون بأنفسهم فى لجة ويخوضوا فيها .
(٢) الآية رقم/٨ من سورة البقرة .
(٣) الآية رقم ١٤ من سورة البقرة .
(٤) كناية عن الحقد الشديد المرارة ، والصبر والصبار نبات مر الطعم شديد المارة .
(٥) الآيتان رقم : ٩٠ ، ٩١ من سورة آل عمران .

المؤمنين ، حينما اهتدوا بكتابه ، وساروا على سنته ونهجوا نهجه ، فلما أعرضوا عن هذه الهداية التى اعتز بها أسلافهم ذلوا وخنعوا لعدوهم وصار منهم منافقون يوالون الكافرين ، يبتغون عندهم عزة وشرفا وما هم بمدركين .

قوله تعالى : ﴿ **وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة نَهْىٌ من الله تعالى للمؤمنين عن القعود مع هؤلاء النفر المارقين ، الذين مرضت قلوبهم بداء النفاق وهو كما قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **إنكم إذاً مثلهم** ﴾ أى إذا جالستموهم وهم يكفرون ويستهزئون بالآيات فإنكم تشتركون معهم فى الإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وقد حكم الله على كل من المنافقين والكافرين بحكمه العادل القاطع الذى لا يقبل نقضا ، فقال : ﴿ **إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا** ﴾ فالكفر كله ملة واحدة ؛ سواء أكان ناشئاً عن نفاق أو جحود أو شرك أو عناد أو كبر .

قوله تعالى ﴿ **الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين** ﴾ . هذه أحوال المنافقين فى كل زمان ومكان ، تراهم دائماً إذا الريح مالت مالوا حيث تميل فهم دائما فى حالة تربص وانتظار ، إن كان النصر للمؤمنين أطلقوا لسيقانهم الريح طمعاً فى الغنائم وعرض الدنيا ، ويقولون لهم ﴿ **ألم نكن معكم** ﴾ وإن كانت الدائرة للكافرين سعوا إليهم ، وقالوا لهم ﴿ **ألم نستحوذ عليكم** ﴾ الاستفهام هنا للتقرير أى : لقد تمكنا منكم وكنا نستطيع هزيمتكم ولكننا لم نفعل ذلك ، ولقد منعناكم من المؤمنين وحميناكم منهم ، كل ذلك يبتغون به عرض الحياة الدنيا الزائل ومتاعها الفانى ، وماذا عليهم لو صدقوا الله ورسوله ؟ لذا جاء الحكم من الله العلى الكبير ﴿ **فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** ﴾ فكلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾(٢) .

من صفات المنافقين

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

(١) جزء من الآية رقم : ٦٨ من سورة الأنعام .

(٢) الآيتان رقم : ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

المفردات : الخداع : إيهام غيرك أن الشيء على ما يحب ويريد ، بتزيينك له وهو على غير ذلك ، كسالى : واحدهم كسلان وهو المتثاقل المتباطئ المراءاة : من الرؤية وهى أن يكون من يرائيك بحيث تراه كما يراك فالمرائى يريهم عمله وهم يرونه استحسان ذلك العمل . الذبذبة حكاية صوت الحركة للشيء المعلق ، ثم استعملت فى كل اضطراب وحركة .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم من صفات المنافقين إلى صفات المنافقين ، أن أفعالهم مبنية على الخداع ، حتى بلغوا من ذلك مبلغاً ظنوا به أنهم يخادعون الله علام الغيوب ، وعميت قلوبهم عن حقيقة الأمر ونسوا أن الله يعلم خائنه الأعين وما تخفى الصدور ، والله خادعهم أى مجازيهم على فعلهم هذا .

الله يدرى كل ما تضمر يعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

ومن صفاتهم أيضاً أنهم : إذا قاموا إلى الصلاة قاموا وهم فى حالة كسل وتباطؤ وتثاقل ، كأنهم يحملون على ظهورهم جبالا ، مع أن الله تعالى جعل فى الصلاة راحة للقلوب إذا صلت ، وسكينة للنفوس إذا كلت كان رسول الله ﷺ يقول لبلال رضى الله عنه « ارحنا بها يا بلال » والصلاة مفتاح الجنة وهى كهف المؤمن قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾(١) وقال : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾(٢) وقال : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾(٣) .

وقد سأل الإمام على كرم الله وجهه رسول الله ﷺ قائلا له : « ما سنتك يارسول الله ؟ قال : المعرفة رأسمالى والعقل دينى ، والحب أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات رياضة أبدان وطهارة أردان وتهذيب وجدان وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم المصابرون والمثابرون وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع ، وكيف سادت العلية بالزعاع حين مست الأرض الحياة ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة سواء فى عتبة الله .

إن المؤمنين إذا وقفوا بين يدى الله فى الصلاة عاشوا فى روحانيات صافية ، إنهم عندئذ يسلكون مدارج الأنوار ، ويقفون على حقائق الأسرار ، ويعيشون فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

(١) الآيتان الأوليان من سورة المؤمنون .
(٢) الآية التاسعة من سورة المؤمنون .
(٣) الآيات رقم : ١٩ إلى ٢٣ من سورة المعارج .

أما المنافقون إذا قاموا إلى الصلاة فهم كسالى متباطئون ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، لا يقصدون بها وجه الله ، ولا يؤدونها ابتغاء مرضاته ، إنما يراءون بها الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، أى عندما يراهم الناس ، حتى يظهروا أمامهم مخبتين خاشعين ، فإذا ما خلوا بأنفسهم بارزوا الله بالعظائم : ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ﴾[(١)] إنهم مذبذبون مترددون متحيرون لا هم كافرون ولا هم مؤمنون ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم وراء الهوى ووراء المصلحة والمنفعة والغنائم ، ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ﴾[(٢)] إنهم محكوم عليهم بالضلال لأنهم سدوا منافذ المعرفة عن رؤية الحق ، ﴿ صم بكم عمى فهم لا يرجعون ﴾[(٣)] ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[(٤)] فلن تجد لهؤلاء سبيلا إلى طريق الهدى والحق أعاذنا الله منهم وعافانا من أفعالهم .

نهى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ **أولياء** ﴾ أى لا تتخذوا الكافرين أعواناً ونصراء . ﴿ **من دون المؤمنين** ﴾ أى حالة كونكم متجاوزين لهم . ﴿ **سلطانا** ﴾ حجة قوية ظاهرة ﴿ **الدرك الأسفل** ﴾ الطبقة التى فى قعر جنهم .

لما بينت الآيات السابقة قبائح المنافقين الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يبتغون عندهم العزة ، ونسوا أن العزة لله جميعاً ، فمن أراد قوة فالله يكفيه ، ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه ، ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه ، ومن أراد واعظاً فالموت يكفيه ، ومن أراد مؤنساً فتقوى الله تكفيه ومن لم يكفه شيء من هذا فإن النار تكفيه .

---

(١) جزء من الآية رقم : ١٠٨ من سورة النساء .
(٢) الآية رقم : ١٧ من سورة البقرة .
(٣) الآية رقم : ١٨ من سورة البقرة .
(٤) من الآية رقم : ٥ من سورة الصف .

لما كان ذلك كذلك فقد وجه الله النهى الحازم الجازم إلى الجماعة المسلمة المؤمنة ينهاهم سبحانه عن اتخاذ الكافرين أعوانا ونصراء من دون المؤمنين ، فإن الكفر كله ملة واحدة ، سواء أكان كفر نفاق أو كفر شرك أو عناد أو مكابرة ثم قال لهم سبحانه ﴿ **تريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً** ﴾ أى حجة قوية على استحقاقكم العقاب .

﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار** ﴾ والمقصود به قعر جنهم فالنار دركات كل درك أسفل من غيره والجنة درجات لأن كل درجة[١] أعلى مما قبلها .

ذلك لأن النفاق فى العقيدة أشد من الكفر فاستحق المنافقون أن يكونوا فى الدرك الأسفل ، لأن الكافر يُظْهِرُ كفره ، أما المنافق فيظهر الإيمان ويضمر الكفر ، لذا استحقوا الدرك الأسفل ولن تجد لهم من ينصرهم من دون الله .

هل لهم من توبة

الذنوب كالأمراض ، والتوبة كالدواء ، ولكل داء دواء يستطب به ، وقد أراد الله وسعت رحمته أن يفتح باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها وتغرب فى مشرقها ، عندئذٍ لا يقبل الله توبة من كافر قال تعالى : ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ﴾[٢] .

ولما كانت الأمراض مختلفة اختلف الدواء باختلافها ، فتوبة آكل الربا كما قال الله تعالى : ﴿ وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾[٣] وتوبة آكل مال اليتيم أن يرد الحقوق إلى أصحابها ، وتوبة المغتاب أن يستسمح من اغتابه ، ويمدحه فى المجالس الذى ذمه فيها ، إلى غير ذلك وقد جاءت توبة المنافقين مبينة فى قوله جل شأنه : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله** ﴾ فيشترط فى هذه التوبة أن تكون إقلاعاً عن الذنب وعزماً على عدم العود وندماً على ما فات ، وإصلاحاً بين الناس وبين الإنسان ونفسه ، واعتصاماً بالله وكتابه وسنة رسوله ، وإخلاصاً فى الدين لا رياء فيه ولا سمعة ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[٤] قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾[٥] . إذا تمت لهم تلك الشروط فى توبتهم حكم الله لهم بقوله : ﴿ **فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى**

---

(١) الدرك المنزلة الوضيعة والدرجة المنزلة الرفيعة .
(٢) جزء من الآية رقم : ١٥٨ من سورة الأنعام .
(٣) جزء من الآية رقم : ٢٧٩ من سورة البقرة .
(٤) الآية رقم : ١١٠ من سورة الكهف .
(٥) جزء من الآية رقم : ٢ من سورة الزمر .

الله المؤمنين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيما * ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ . إن الله تعالى لا يعذب العاصى حبًّا فى العقاب ، ولا تعطشاً إلى العذاب ، ولا تصيداً للأخطاء إنما بمنطق العدالة الإلهية ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون ﴾[1] ، ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ﴾[2] فإن شكر هؤلاء العصاة وآمنوا واعتصموا بالله وجعلوا وجهتهم إرضاء الله رفع الله عنهم كل ابتلاء وانتقام ، وشكر الله لهم صنيعهم وأثابهم عليه جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومنحهم رضوانه وأولاهم مغفرته ، وكان الله شاكراً عليماً .

---

(١) الآيتان رقم ٢٥ ، ٢٦ من سورة القلم .
(٢) من الآية رقم ٢٨ من سورة ص .

محتويات المجلد الأول

الصفحة

الجـزء الثانى
(سورة البقرة الآيات من ١٤٢ ــ ٢٥٢)

الجـزء الثالث

(سورة البقرة الآيات من ٢٥٣ ـ ٢٨٦ ـ سورة آل عمران الآيات من ١ ـ ٩٢)

الصفحة

الجـزء الرابـع

(سورة آل عمران الآيات من ٩٣ ـ ٢٠٠ ـ سورة النساء الآيات من ١ ـ ٢٣)

الجـزء الخامس

(سورة النساء الآيات من ٢٤ ــ ١٤٧)

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثانى

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء السادس

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهـــر بالســوء

* لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

المفردات : ﴿ **الجهر** ﴾ : الإعلان يقال جهر برأيه أعلنه ، ﴿ **السوء** ﴾ : كل ما يسوؤك فعله أو قوله ، ﴿ **إلا من ظلم** ﴾ : أى وقع عليه ظلم . ﴿ **سميعاً** ﴾ : أى للأقوال . ﴿ **عليماً** ﴾ : أى بالأفعال والنيات . ﴿ **إن تبدوا** ﴾ : أى تظهروا ﴿ **عفوًا** ﴾ :يتجاوز عن السيئات .

التفســير

اشتملت هذه الآية الكريمة على خلق إسلامى ، عسى أن يستمسك به المسلمون فى عصر كثر فيه القيل والقال ، والجهر بالسوء فى كل مجال ومكان وقد ورد فى هذه الآية أقوال للأئمة المفسرين .

عن ابن عباس رضى الله عنهما يقول : لايحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله « إلا من ظلم » وإن صبر فهو خير له .

وقال الحسن البصرى : لايدعو عليه ، وليقل اللهم أعنى عليه واستخرج حقى منه[١]، وفى رواية عنه قال : قد أرخص له أن يدعوَ على من ظلمه من غير أن يعتدى عليه ، وقال عبد الكريم بن مالك الجزرى : فى هذه الآية هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه لقوله تعالى : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[٢].

---

(١) وتتمة الدعاء : « اللهم حُل بينه وبين ما يريد ما يريد من ظلمى « القرطبى جـ ٦ ص ١ »

(٢) الآية رقم ٤١ من سورة الشورى

(٣) الآية رقم ٢٩ من سورة فاطر

(٤) الآية رقم ٣١ من سورة إبراهيم

وعن أبى هريرة أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : إن لى جاراً يؤذينى فقال له : « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق فكل من مربه قال : مالك ؟ قال جارى يؤذينى فيقول اللهم العنه اللهم أخزه قال : فقال الرجل : أرجع إلى منزلك والله لا أوذيك أبداً

قوله تعالى ﴿ **إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا** ﴾

بعدما بين سبحانه أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول ، إلا من كانت له مظلمة ، فله الحق أن يجهر بها طلباً للإنصاف والعدل ، وضرب الرسول ﷺ أمثالاً فى سنته الشريفة ، بعد ذلك رغب الله فى الخير وفعله ، سواء أكان على سبيل العَلَن أو السر ، ما دامت النيات خالصة لله ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ﴾[1] وقال تعالى ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ﴾[2] وقال جلت قدرته ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ﴾[3] وقال عظمت حكمته ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[4] وهنا فى هذه الآية ﴿ **إن تبدوا خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً** ﴾ وإذا كان فعل الخير سراً أو علانية عملاً جليلاً ؛ فإن العفو عن السوء خصلة من خصال الكرم إذ العفو عند المقدرة صفة من أجل الصفات .

ورد فى الأثر أن حملة العرش يسبحون الله فيقول بعضهم سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفى الحديث الصحيح « ما نقص مال من صدقة ولا زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً ومن تواضع لله رفعه » .

عاقبة الكفر والإيمان

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٥٢﴾

المفردات : ﴿ سبيلا ﴾ : طريقا . ﴿ أعتدنا ﴾ : هيأنا وأعددنا .

---

(١) الآية رقم /٢٩ من سورة فاطر
(٢) الآية رقم /٣١ من سورة ابراهيم
(٣) الآية رقم /٢٧ من سورة البقرة
(٤) الآية رقم /٢٦ من سورة البقرة

بين الله سبحانه هذه الآيات أن للإيمان ركنين ينبى عليهما ماعداهما ، ولا يقبل الإيمان بدونهما ، وهما الإيمان به وبجميع رسله بدون تفرقة بين رسول وآخر ، ومن أنكرهما[1] أو أحدهما فقد كفر ، وعاقبته العذاب الأليم فى جهنم وبئس القرار .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا** ﴾

إن الكافرين بالرسل فريقان : فريق لايؤمن بأحد منهم لإنكارهم النبوات ، وزعمهم أن ما أتى به الأنبياء من الهدى والشرائع هو من عند أنفسهم لا من عند الله ، وأكثر الملحدين فى هذا العصر من ذلك الفريق .

وفريق آخر يؤمن ببعض الرسل دون بعض ، كقول اليهود نؤمن بموسى ونكفر بعيسى ومحمد ، فهما ليسا برسولين ، وقول النصارى نؤمن بموسى وعيسى ونكفر بمحمد ، والفريقان كافرون مستحقون للعذاب ولا عبرة بما يدّعونه إيمانا .

﴿ **وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً** ﴾ . أى وأعددنا لكل كافر سواء أكان منهم أم من غيرهم عذابا فيه ذل وإهانة لهم جزاء كفرهم الذى ظنوا فيه العزة والكرامة .

ذلك أن من يؤمن بالله ولا يؤمن بوحيه إلى رسله لا يكون إيمانه صحيحاً ، ولا يهتدى إلى ما يجب لله من الشكر ، ولا يعرف كيف يعبده على الوجه الذى يرضيه ، ومن ثم نرى أمثال هؤلاء ماديين لا تهمهم إلا شهواتهم .

كما أن من يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض . كأهل الكتاب – لا يعتد بقولهم ، لأن الإيمان بالرسالة على الوجه الحق : إنما يكون بفهمها وفهم صفات الرسل ووظائفهم وتأثير هدايتهم ، ومن فهم هذا حق الفهم علم أن صفات الرسل قد ظهرت بأكملها فى محمد ﷺ ، فهو قد جاء بكتاب حوى مالم يحوه كتاب آخر ، مع إنه نشأ بين قوم أميين ، ونُقِل كتابُه وأصولُ دينه بالتواتر القطعى والأسانيد المتصلة دون غيره من الكتب .

وبعد أن ذكر حال الفريقين السالفى الذكر ، ذكر حال فريق ثالث فقال : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم** ﴾ أى والذين آمنوا بالله وجميع الرسل وعملوا بشريعة آخرهم ، علما منهم بأن جميعهم مرسل من عند الله وما مثلهم إلا كمثل ولاة يرسلهم السلطان إلى البلاد ، ومثل الكتب التى جاءوا بها مثل القوانين التى يصدر السلطان مراسيمه للعمل بها ، فكل وال منهم إنما ينفذ أوامر السلطان ، وكل قانون يعمل به لأنه منه ، وكل قانون جديد ينسخ ما قبله ويمنع العمل به ، أولئك يؤتيهم الله أجورهم بحسب حالهم فى العمل ، لأنهم وقد صح إيمانهم به وبرسله ،

(١) من أنكر الألوهية الحقة لله فقد كفر ، ومن أنكر الرسالات جملة أو تفصيلا فقد كفر

ويهديهم إلى العمل الصالح إذ هو الأثر اللازم لذلك الإيمان الصحيح .

ولم يقل فى هؤلاء إنهم هم المؤمنون حقاً كما قال ، فى ﴿ أولئك هم الكافرون حقا ﴾ لئلا يدور بخلد أحد أن كمال الإيمان يوجد بدون العمل الصالح ، فيغتر بذلك ويترك العمل النافع ، وهذا مما يتلاءم مع نصوص الدين ، فلقد وصف الله المؤمنين حقاً بقوله : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[1]

﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أى وكان الله غفوراً لهفوات من صح إيمانه ولم يشرك بربه أحداً ، ولم يفرق بين أحد من رسله ، رحيما به يعامله بالإحسان ويضاعف حسناته ويزيد على ما وعد تفضلا منه ورحمة .

من قبائح أهل الكتاب

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ
فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ
الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ
وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾
فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ
بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا
عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا
قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا
لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

المفردات : ﴿ **جهرة** ﴾ : المراد رؤيته جهرة[2] .. ﴿ **الصاعقة** ﴾ : نار تنزل من السماء والظاهر أنها الشرارة الكهربائية التى تظهر فى السماء .. البينات : الدلائل الواضحة على نبوة موسى كفلق البحر واليد البيضاء والعصا . ﴿ **الطور** ﴾ : اسم الجبل الذى كانوا مقيمين أسفله ... لا تعدوا فى السبت : لا تظلموا أنفسكم بالصيد فيه .. ﴿ **غلف** ﴾ : جمع غلاف وهو الظرف والمراد أوعية للعلم

(١) الآيات رقم ٢،٣،٤ من سورة الأنفال
(٢) أى كما يرى الناس بعضهم مواجهة تعالى الله عن ذلك

فليست فى حاجة إلى ما يقول ، ويصح أن يكون جمع أغلف والمراد : مغطاة بأغطية خلقية لا يصل إليها شىء مما تقول ... ﴿ **طبع الله عليها** ﴾ : ختم الله عليها بالخاتم وقيل صارت كالنقود المسكوكة فلا تقبل غير النقش الذى عليها ... ﴿ **بهتانا** ﴾ : كذباً يبهت صاحبه عند سماعه ويتعجب منه

قوله تعالى : ﴿ **يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء** ﴾ ، قال محمد بن كعب القرظى والسدى وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتابا من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، وقال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان[١] بتصديقه فيما جاءهم به ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد ، كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ، كما هو مذكور فى سورة « سبحان »[٢] فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾[٣]

ولقد أظهر الله مكنون نفوسهم ، وما انطوت عليه من عناد ، فقال فى سورة الأنعام ﴿ ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾[٤]

قوله تعالى : ﴿ **فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة** ﴾ وذلك كما جاء بيانه فى سورة البقرة : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾[٥] وهنا يقول تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصاعقة بظلمهم** ﴾ والصاعقة نار من السماء ، أو ما يعبر عنه بالشرارة الكهربية ، أزهقت أرواحهم

ومن قبائحهم : أنهم اتخذوا العجل فى غيبة موسى كما جاء ذلك مفصلاً فى سورة الأعراف فى قوله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾[٦] وقال الله تعالى فيهم : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾[٧] وقد جاءت قصة العجل مفصلة فى سورة طه فى قوله جل شأنه ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى . قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى .. ﴾ إلى أن يقول تعالى : ﴿ **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً . ولقد قال لهم هارون من قبل ياقوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى .**

---

(١) أى إلى أشخاص بأسمائهم وأعيانهم
(٢) سورة الاسراء و بنى اسرائيل
(٣) الآيات رقم ٩٠،٩١،٩٢،٩٣ من سورة الاسراء
(٤) الآية رقم ٧ من سورة الأنعام
(٥) الآية رقم /٥٥ من سورة البقرة
(٦) الآية رقم /١٤٨ من سورة الأعراف
(٧) الآية رقم /١٥٢ من سورة الأعراف

قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾[١]

كل ذلك حدث بعدما جاءهم موسى بالآيات البينات ، كاليد و العصا وفلق البحر فعفا الله عن ذلك كما جاء فى قوله جل شأنه فى سورة البقرة : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾[٢] وفى قوله جل شأنه : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾[٣] وآتى الله موسى سلطانا مبينا وحجة قوية على صدق رسالته قوله تعالى : ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ الطور [٤] هو الجبل الذى كانوا يقيمون فى واديه فإن اليهود لما تمردوا واستكبروا على الأخذ بأحكام الله فى التوراة وعتوا عتواً كبيراً ، لأنهم كما يقول بعض الحكماء : إن شعب بنى إسرائيل شعب ملح الرقبة ، لما كان منهم ذلك رفع الله الجبل فوق رؤوسهم ليدفعهم دفعاً إلى الأخذ بما فى التوراة كما قال تعالى فى سورة الأعراف ﴿ أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾[٥] وقوله تعالى ﴿ بميثاقهم ﴾ أى بسبب أخذ الميثاق عليهم ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجَّداً ﴾ . المقصود به باب بيت المقدس أخبرناهم بذلك على ألسنة رسلنا إليهم ، والمقصود : ادخلوا الباب ساجدين خاضعين لله تواضعاً ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت ﴾ فقد نهاهم الله عن صيد الحيتان يوم السبت ، ولكنهم خادعوا واستعملوا الحيل . كما هو شأنهم فى كل زمان ومكان - قال تعالى فى سورة الأعراف . ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾[٦]

قوله تعالى : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ الميثاق الغليظ العهد المؤكد ، أى : وأخذنا عهداً ليأخذن التوراة بقوة وليقيمن حدود الله ولا يتعدونها ويتبع ذلك البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام وهو موجود إلى الآن فى الفصل التاسع والعشرين ومن بعده من سفر تثنية الاشتراع ، وهو آخر التوراة التى بأيديهم .

قوله تعالى : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ﴾ .

هذه جرائم اقترفها اليهود ، نقضوا العهود والمواثيق وهذا طبعهم وديدنهم ، قال تعالى ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون ﴾[٧]. وكفروا بآيات الله وأنكروا المعجزات قال تعالى ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً

(١) الآيات من /٨٣ إلى ٩١ من سورة طه
(٢) الآية رقم /٥٢ من سورة البقرة
(٣) الآية رقم / ٥٤ من سورة البقرة
(٤) من جبال سيناء وهو جبل المناجاة انزلت التوراة على موسى عنده
(٥) الآية رقم /١٧١ من سورة الأعراف ونتق الجبل رفعه من مكانه فوقهم حتى ظنوا أنه سيسقط عليهم
(٦) الآية رقم /١٦٣ من سورة الأعراف
(٧) الآية رقم /٥٢ من سورة الأنفال

كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون . إن هؤلاء متبرما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . قال أغير الله أبغيكم إلهاً ﴾[١] واعجب معى لقوم رأوا الآيات بأعينهم وأحسوها وعاشوا فيها ، فالبحر قد انفلق وصار كل فرق كالطواد العظيم وأقدامهم لا تزال مبتلة بماء البحر ، جحدوا كل هذا ونسبوا من أنجاهم ،(وقالوا ياموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة)ومن جرائمهم أنهم يقتلون الأنبياء ثم يقيمون أسواقهم كأن شيئا لم يكن ومن الذين قتلوهم زكريا ويحيى .

قوله تعالى ﴿ **بغير حق** ﴾ هذا للبيان لا للاحتراز ، فليس هناك من الأنبياء ما يقتل بحق ، لأنهم إذا ذكروا بآيات الله ﴿ **قالوا قلوبنا غلف** ﴾ أى مغلفة محجوبة عن الحق كما قال مشركوا العرب لرسول الله ﷺ ﴿ قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب ﴾[٢].

قوله تعالى ﴿ **بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا**﴾**والمراد بالطبع الختم، وذلك بحجب النور عنها بسبب كفرهم وجحودهم** ﴿ **فلا يؤمنون إلا قليلا** ﴾ والإيمان القليل كالعدم كإيمانهم ببعض الأنبياء وكفرهم بالآخرين .

قوله تعالى ﴿ **وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما** ﴾ ، أى وبكفرهم بعيسى ، ورمى أمه وقذفها بالبهتان ، وهو أعظم الكذب والمراد به الزنا ، قال تعالى : ﴿ **فأتت به قومها تحمله قالوا** يامريم لقد جئت شيئا فريا . ياأخت هارون ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمك بغيا ﴾[٣]

قوله تعالى : ﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله** ﴾ وهذا منهم إدعاء باطل وكذب على الله ورسوله ، وقد وصفوه بأنه رسول الله لا لإيمانهم بذلك ، إنما قالوها على سبيل التهكم والسخرية ﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ أى وما قتلوه كما أدعوا وما صلبوه كما أشاعوا إنما خلع الله شبهه على الذى دل عليه ، وهو يهوذا الأسخريوطى قال الشيخ المراغى فى تفسيره :

هذا القول المؤذن بالجرأة على الحق بالباطل والاستهزاء بآيات الله وذكروه بوصف الرسالة تهكماً واستهزاء بدعوته ، بناء على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم ، ، لا الألوهية – كما ادعت النصارى – إذ جاء فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلّه الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته »

﴿ **وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم** ﴾ أى والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس ، ولكن وقع لهم الشبه ، فظنوا أنهم صلبوا عيسى ، وهم إنما صلبوا غيره ، ومثل هذا الشبه يحدث كثيرا فى كل زمان ، وتحكى عنه نوادر وحوادث غاية فى الغرابة لكنها قد وقعت فعلا .

فقد ذكر بعض المؤلفين فى الطب الشرعى من الإنجليز حادثة وقعت سنة ١٥٣٩ فى فرنسا استحضر فيها ١٥٠ شخصا للتعرف على شخص يدعى (مارتين جير) جزم أربعون منهم بأنه هو هو ،

---

(١) الآيات رقم /١٣٨ ، ١٣٩ ، وجزء من ١٤٠ من سورة الاعراف ومعنى متبر ماهم فيه أن عملهم باطل يعاقب فاعله بالعذاب الشديد

(٢) الآية رقم /٥ من سورة فصلت السجدة (٣) الآيتان رقم /٢٧ ، ٢٨ من سورة مريم

وقال خمسون إنه غيره ، والباقون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدوا رأيا ، ثم اتضح من التحقيق ان هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون وعاش مع زوجة مارتين محوطا بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات ، وكلهم مصدق أنه مارتين ، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم فى محكمة أخرى فأحضر ثلاثين شاهدا أقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقون

على أن هذا الحادث[١] من خوارق العادات التى أيد الله بها نبيه عيسى بن مريم عليه السلام وأنقذه من أعدائه ، فألقى شبهه على غيره وغير شكله فخرج من بينهم وهم لا يشعرون ، وفى أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا الوجه .

قوله تعالى : ﴿ **وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن** ﴾

المعنى أن الذين اختلفوا فى شأن عيسى من أهل الكتاب لفى تردد من حقيقة أمره ، إذ ليس لهم به من علم قطعى الثبوت وإنما هم يتبعون الظن والقرائن التى ترجح بعض الآراء على بعض ، وقد جاء فى بعض الأناجيل التى يعوّلون عليها أنه قال لتلاميذه : (كلكم تشكون فيَّ هذه الليلة) أى الليلة التى يطلب فيها للقتل (إنجيل متى)

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه أو عرف الناس بأنهم سيشكون فيه فى ذلك الوقت ، وخبره صادق قطعاً ، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من دونهم فى أمره ؟

قوله تعالى : ﴿ **وماقتلوه يقينا** ﴾ أى وما قتلوا عيسى بن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه ، إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة والأناجيل التى يعول عليها صريحة فى أن الذى أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطى ، وقد جعل لهم علامة أن من قبّله يكون هو المسيح ، فلما قبّله قبضوا عليه ، وإنجيل برنابا[٢] يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطى نفسه ظنا أنه هو المسيح لأنه ألقى عليه شبهه ومن هذا تعلم أن الجند ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية .

الخـلاصة : أن روايات المسلمين جميعها متفقة على : أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدى قتله فقتلوا آخر ظنا منهم أنه هو — فإن قال قائل : إذا كان المسيح قد نجا من القتل والصلب ، فأين (هو) ؟؟

نقول : إن الله تعالى أجاب عن هذا ﴿ **بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ وهذه عقيدة المسلم ، وليس رفع عيسى أمراً غريباً بعد أن أخبرنا الله تعالى بقوله : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها** ﴾[٣] فليس رفع أهل الأرض إلى السماء بمستبعد على من يمسك

(١) أى إلقاء الله الشبه على يهوذا الحاورى الذى خان رسول الله عيسى عليه السلام

(٢) ينظر فى الفصول : الخامس عشر بعد المائتين وما بعده من انجيل برنابا بتحقيق الشيخ محمد رشيد رضا – رحمه الله – وطبع محمد على صبيح سنة ١٩٥٤

(٣) جزء من الآية رقم /٤ من سورة الحديد

السماوات والأرض أن تزولا وليس ببعيد على من قال وقوله الحق : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾[١] وبعد قوله تعالى : ﴿ **بل رفعه الله إليه** ﴾ يجب التسليم واليقين فيما قاله أصدق القائلين ، وليس لأحد أن يتجاوز حدود العبودية ، فيسأل كيف رفع وكيف حاله فى السماء ؟ لأن ما أخبرنا الله به وجب التصديق به والوقوف عنده ، ومعاذ الله أن يقول المسلم رجماً بالغيب

قوله تعالى : ﴿ **وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ عزيزاً لا يغلب ولايعجز حكيماً لا يعبث ، فقد رفعه بعزته وقدرته وفى الوقت الذى هجموا عليه ليقتلوه فكان حكيما إذ نجاه منهم

قوله تعالى : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً ﴾ الضمير فى قوله تعالى ﴿ **ليؤمنن به** ﴾ أى بالمسيح ، والضمير فى قوله تعالى : ﴿ **قبل موته** ﴾ **أى قبل موت الكتابى ، فما من أحد من أهل الكتاب يحضره الموت : يهوديا كان أو نصرانيا إلا ويرى المسيح وقد برأ من أقوالهم فيه ، يأتيه مقراً بأنه عبد الله ورسوله موبخا إياه بما قاله فيه من أنه الله أو ابن الله ، فإذا ما قامت الساعة وقف المسيح شهيداً عليهم بالضلال ومجاوزة الحق ﴿ وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾[٢] وإنما يسأله الله هذا السؤال وهو العليم بكل شيء ويعلم أنه دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله وحده ، يسأله ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجارة فى حلقومهم على لسانه ، أى هذا الذى زعمتموه إلها أو ابنا لله يبرأ من قولكم ويعلنها صريحة واضحة فى ساحة العرض على الله .**

قال بعض العلماء[٣] فى تفسير هذه الآية : ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ الخ ...

أى وإن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق فى أمر عيسى وسواه من أمور الدين ، فيؤمن بعيسى إيمانا حقا لازيغ فيه ولاضلال ، فاليهودى يعلم أنه رسول صادق فى رسالته وليس بالكذاب ، والنصرانى يعلم أنه عبد الله ورسوله ، وليس بإله ولا هو بابن لله وفائدة إخبارهم بذلك بيان أنه لا ينفعهم حينئذ فعليهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه ، مع عدم الجدوى والفائدة ﴿ **ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً** ﴾ أى ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم ، كما حكى الله عنه من قوله : ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً

(١) جزء من الآية رقم ٤٤ من سورة فاطر

(٢) الآيتان رقم /١١٦ ، ١١٧ من سورة المائدة

(٣) قال بذلك ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة ، رواه القرطبى ج ٦ ص ١٠ وما بعدها

مادمت فيهم ﴾[1] فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال التكليف والاختيار ، وعلى الكافر بالكفر ، إذ هو مرسل إليهم وكل نبى شهيد على قومه كما قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[2]

وقد ورد فى الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته ، روى البخارى عن عبادة بن الصّامت قال : قال رسول الله ﷺ « إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته ، وإن الكافر إذا أحضر (حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته » وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما « ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار »

وهذا يؤيد ماروى عن ابن[3] عباس رضى الله عنها فى تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح مع الإنكار الشديد والتقبيح .

جرائمهم وعقوبتهم

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

المفردات : ﴿ **هادوا** ﴾ : المقصود بهم اليهود . ﴿ **بظلم** ﴾ : أى بسبب الظلم فالباء تفيد السببية . ﴿ **بصدهم** ﴾ : منعهم . ﴿ **الراسخون** ﴾ : الثابتون فى العلم المتقنون له .

كلمة عن المسيح ابن مريم

قبل أن نأخذ فى تفسير هاتين الآيتين نرى من المفيد – وقد سبق الحديث عن المسيح ابن مريم – نرى أن نذكر هنا ماورد فى شأن المسيح من نزوله قبل الساعة ، وذلك تتمة للفائدة .

يقول الشيخ محمد الغزالى فى كتابه مائة سؤال عن الإسلام الجزء[4] الثانى

وردت أحداث بين يدى الساعة نحب أن نشرح بعضها من ذلك نزول عيسى بن مريم وعيسى بشر

(١) جزء من الاية رقم /١١٧ من سورة المائدة
(٢) الآية رقم /٤١ من سورة النساء
(٣) القرطبى ج ٦ ص ١٠ وما بعدها
(٤) ص ٧٩ وما بعدها

كريم ونحن المسلمين نرفض أن يكون إلهًا أو ابن إله وكتابنا يقول فيه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾[١].

ثم يقول : ﴿ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴾[٢] وهذا تلميح إلى نزول عيسى قبيل الساعة بيد أن السنة جاء بها تصريح واضح ، قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية »

ولماذا ينزل ؟ ليكذب بنفسه من زعموه آلها وهم جماهير غفيرة ، وفى حديث آخر : أنه سينزل بين المسلمين وهم أتباعه الحقيقيون فيقاتل معهم الصليبيين حتى يهزمهم ويسقط دولتهم ، عن جابر بن عبد الله قال رسول الله ﷺ « لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ، فينزل عيسى بن مريم فيقول له أميرهم : تعالى صلى بنا - يعرض عليه إمامة المسلمين - فيقول عيسى : لا إن بعضكم على بعض أمراء ، تكرمة الله تعالى لهذه الأمة .

والحديث يشير إلى أن الإسلام خاتم الرسالات وأن عيسى لن يجىء بجديد »[٣]

قوله تعالى : ﴿ **فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا** ﴾ . ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآية سببين من الأسباب الكثيرة التى عاقب الله اليهود بها عقاباً دنيويا وأخرويا ، وكفى بالظلم داء وهل أهلك الله الأمم إلا عندما استشرى فيها هذا الداء الوبيل ، وآيات القرآن العظيم خير شاهد على ما ذكرنا ، من ذلك قوله تعالى ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٤] وقوله جل شأنه ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[٥] وقوله تبارك اسمه ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٦] وقوله عز وجل : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٧] وقوله جل جلاله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[٨] وقوله عظمت حكمته : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىَّ المصير ﴾[٩] وقال رسول الله ﷺ : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » وقال : « من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم ، فقد خرج عن الإسلام » وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾[١٠]وجاء فى الحديث القدسى الجليل عن الله تعالى ، قال : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »

وجاء فى حديث قد سى آخر عن الله تعالى قال : « أشتد غضبى على من ظلم من لم يجد له ناصرا غيرى ، واشتد غضبى على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره »

---

(١) سورة الزخرف الآية /٦١
(٢) سورة الزخلاف الآية /٦٢
(٣) مائة سؤال عن الاسلام ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٠
(٤) جزء من الآية رقم ١٣ من سورة يونس
(٥) جزء من الآية رقم ١١٧ من سورة الكهف
(٦) الآية رقم ١١٧ من سورة هود
(٧) جزء من الآية رقم ٥٩ من سورة القصص
(٨) الآية رقم ٤٥ من سورة الحج
(٩) الآية رقم /٤٨ من سورة الحج
(١٠) الآية رقم /١١٣ من سورة هود

فإذا أضيف إلى ظلم اليهود صدهم ومنعهم كثيرا من الناس عن سبيل الله وطريق الهداية ، كان الجرم فظيعا وكانوا جديرين بأن يحرم الله عليهم طيبات كانت قد أحلت لهم ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا عليهم كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿ **وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما** ﴾ ، أى بسبب أخذهم الربا وقد نهوا عنه على ألسنة أنبيائهم ، والتوراة التى بين أيديهم إنما تصرح بتحريم أخذهم الربا من شعبهم ومن إخوانهم دون الأجانب ، فقد جاء فى سفر الخروج : « إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابى لا تضعوا عليه ربا » وفى سفر تثنية الاشتراع « لا تقرض أخاك بربا ربا فضة أو ربا شيء ما مما يقرض بربا للأجنبي تقرض بربا تقرض بربا » ولكن لأخيك لا تقرض بربا وهذه عبارة التوراة التي كتبت بعد السبي[٢]، وثبت تحريفها بالشواهد الكثيرة ، أما النسخة التي كتبها موسى فقد فقدت باتفاق اليهود والنصارى ، وأنبيائهم قد نهوا عن الربا إطلاقاً ، فلم يقيدوه بشعب إسرائيل كقول داود في المزمور الخامس عشر : « فضته يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة من البريء » وقول سليمان في سفر الأمثال : « المكثر ماله بالربا والمرابحة فلن يرحم الفقراء بجمعه » .

﴿ **وأكلهم أموال الناس بالباطل** ﴾ أى بالرشوة والخيانة ونحوهما مما أخذ فيه المال بلا مقابل يعتد به .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾[٣] والسحت : الكسب الحرام فقد كانوا يأخذون أثمان الكتب التى يكتبونها بأيديهم ثم يقولون هى من عند الله .

وبعد أن ذكر وجوه الذنوب التى اقترفوها والجرائم التى ارتكبوها يبين جزاءهم عليها فى الآخرة فقال :

﴿ **وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما** ﴾ أى وأعددنا للذين كفروا منهم برسل الله عذابا مؤلما فى نار جهنم خالدين فيها أبدا .

وبعد أن بين فى هذا السياق سوء حال اليهود وكفرهم وعصيانهم وأطلق القول فى ذلك ، وكان هذا مما يوهم أنه شامل لكل أفرادهم ، جاء الاستدراك عقبه ببيان حال خيارهم الذين لم يذهب عمى التقليد بنور عقولهم ، فقال : ﴿ **لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك** ﴾ أى لكن أهل العلم الصحيح بالدين منهم ، المستبصرون فيه غير التابعين للظن ، الذين لا يشترون به ثمنا قليلا من المال والجاه ، والمؤمنون من أمتك إيمان إذعان لا إيمان عصبية وجدل ، يؤمنون بما أنزل إليك من البينات والهدى ، وما أنزل على موسى وعيسى وغيرهما من الرسل ، ولا يفرقون بين الله ورسله

(١) الآية رقم /١٤٦ من سورة الأنعام

(٢) عندما حزب البابليون المعبد أسروا جميع شعب اليهود وساقوهم عبيدا إلى بابل

(٣) جزء من الآية رقم /٤٢ من سورة المائدة ، وقد كان الفرنسيون والكتبة فى ساحة المعبد يبيعون النصوص منسوبة إلى الله وماهى من عند الله

بهوى ولا عصبية .

روى ابن إسحق والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الآية نزلت فى عبد الله بن سلام وأسَيد بن سعيه وثعلبة بن سَعْيه حين فارقوا يهود وأسلموا .

﴿ **والمقيمين الصلاة** ﴾ أى وأخص منهم المقيمين الصلاة الذين يؤدونها على وجه الكمال فهم أجدر المؤمنين بالرسوخ فى الإيمان . إذ إقامتها بإتمام أركانها علامة كمال الإيمان واطمئنان النفس به .

« والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » أى والمؤمنون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر مثل المقيمين الصلاة فى استحقاق المدح بالتبع ، إذ إقامتها تستدعى إيتاء الزكاة ، فإن الذى يقيمها على الوجه الذى طلبه الدين لا يمنع الزكاة ، إذ هى مما تزكى النفس وتعلى الهمة وتهون على النفس المال قال تعالى : ﴿ إنّ الإنسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين ﴾[1] الآيات

﴿ **أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما** ﴾ أى هؤلاء الذين وصفوا بما ذكر كله سنعطيهم أجرا عظيما لايُدرِكُ وَصفَه إلا علام الغيوب .

لا نبوة بلا وحى

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

المفردات : ﴿ أوحينا ﴾ : الإيحاء يأتى فى اللغة على معان ، فيها : الإشارة كقوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾[2] والإلهام ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[3]. وعلى مايكون غريزة ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ﴾[4] وعلى الإعلام فى خفاء ﴿ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾[5] الأسباط جمع سبط وهو ولد

(١) الآيات رقم /١٩، ٢٠، ٢١ من سورة المعارج
(٢) جزء من الآية رقم /١١ من سورة مريم
(٣) جزء من الآية رقم /٧ من سورة القصص
(٤) جزء من الاية رقم /٦٨ من سورة النحل
(٥) جزء من الآية رقم /١١١ من سورة الأنعام

الولد والمراد أبناء يعقوب لصلبه أو أولاد أولاده ... ﴿ زبورا ﴾ : مكتوبا وكل كتاب زبور والمراد به الكتاب المنزل على داود عليه السلام ﴿ المناسبة ﴾ : نعى الله على أهل الكتاب عموماً أنهم يفرقون بين الأنبياء فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، ثم تعرض القرآن لليهود خاصة وأنهم سألوا محمداً ﷺ ﴿ عناداً واستكباراً ﴾ : أن ينزل عليهم كتاباً من السماء آية لهم ، ولم يكن هذا العناد جديداً على اليهود ، فقد سألوا موسى قديماً أكبر من هذا ، وفعلوا القبائح وكفروا بعيسى[1] وبهتوا أمه وحاولوا قتله وصلبه الخ ما ذكر .

ولولا هذا لآمنوا بك وصدقوك ، فأنت أوضح دليلاً وأقوم قيلا ، على أن الإيحاء من الله إليك كان كالأنبياء السابقين ، فمالهم يفرقون بين نبى ونبى ؟ وما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ؟

إنا بما لنا من العظمة والقدرة ، قد أوحينا إليك يا محمد هذا القرآن إيحاءً كإيحائنا إلى الأنبياء قبلك ، فلست بدعاً من الرسل وهم قد آمنوا بهم ، فكيف يطلبون منك أن تنزل عليهم كتابا من السماء ؟ على أنهم لو آمنو بالرسل حقيقة لآمنوا بك ، فالوحى جنس واحد لم يتغير ، وفى كتبهم البشارة بك ووصفك ، وحقيقة الإيحاء – كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده فى رسالة التوحيد .

عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة

إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى المشهورين من الأنبياء قبلك ، كنوح ، وخص بالذكر أولاً لأنه أقدم نبى مرسل على أن قومه كذبوه فعذبوا ، وهو الأب الثانى للبشر ، وأوحى إلى النبيين من بعده لاسيما إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ، والذى يدين له العرب وأهل الكتاب ، وإسماعيل ابنه الأكبر وأبو العرب وجد المصطفى ﷺ ، وإسحاق ابن إبراهيم وأبو يعقوب المسمى بإسرائيل ، وإليه تنسب اليهود والأسباط ، وهم حفدة يعقوب ، وقيل أولاده لصلبه وعددهم عشرة ، وأولاد يوسف اثنان فكان المجموع اثنى عشر سبطاً ، وهم فى نسل إسحاق كالقبائل فى نسل إسماعيل ، وعيسى بن مريم ، وقدم على غيره لأنه محل طعن اليهود ، وأيوب ويونس وهارون وسليمان بن داود ، وخص هؤلاء جميعاً بالذكر مع اندراجهم فى لفظ النبيين لشرفهم وكرامتهم على الله .

وآتينا داود كتاباً زبوراً ، قال القرطبى[2]: كان فيه مائة وخمسون سورة ، ليس فيها حكم من الأحكام ، وإنما هى حكم ومواعظ ، وتمجيد وثناء على الله تعالى ، وأرسلناك كما أرسلنا رسلا غير هؤلاء ، قد قصصناهم عليك من قبل فى سورة الأنعام ، ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾[3] الآيات وأجمع السور لقصصهم سورة هود والشعراء[4].

(١) بهتوا من البهتان وهو التهمة الباطلة وهو ما سبق ذكره فى الآية رقم ١٥٦ بكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما

(٢) الجامع لاحكام القرآن لأبى عبد الله القرطبى ج ٦ ص ١٧

(٣) الآيات من رقم /٨٤ إلى ٨٧ من سورة الأنعام

(٤) وكذلك سورة الأعراف ، بينما لخصت أخبارهم سور أخرى كالأنبياء والصافات وص

وهناك أرسلنا رسلا لم نقصصهم عليك لأن أممهم مجهولة غير معروفة ، وليس فى ذكرهم كبير فائدة ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك** ﴾ سورة هود[1] ﴿ **وكلم الله موسى تكليما** ﴾ وخص موسى بهذه الكرامة على سبيل التأكيد ، لأن قومه هم المقصودون بالحديث ، وقد كلم الله موسى تكليماً خاصاً ممتازاً عن غيره ، أما كيف كان ؟ وهل كان مشافهة أم لا ؟ فالله أعلم بذلك كله ، على أن وقوفنا على أسرار الأثير واستخدامه ونقل الحديث بالراديو والتلفزيون ، جعل الإعتراضات القديمة شيئا بسيطا لا يعبأ به فالله الذى أقدر بعض المخلوقات على الوصول إلى هذا قادر جداً على خلق أشياء ليس لها مقياس معروف ولا حد مألوف .

﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ﴾[2] والظاهر أن تكليم موسى عليه السلام كان من النوع الثانى .

الخـــلاصة : إنا أوحينا إليك يا محمد كما أوحينا إلى فلان وفلان من الأنبياء ، وآتيناك كتابا كما آتينا بعضهم كتابا ، وأرسلناك للناس كافة رسولا ، كما أرسلنا لهم رسلا ، فما لهؤلاء القوم يفرقون بين نبى ونبى ، ويؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، أرسلنا أولئك الرسل الذين قصصنا عليك بعضا منهم مبشرين من يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر بالثواب الأبدى جنة خالدين فيها أبداً ، ومنذرين من يكفر بالله ورسله واليوم الآخر بالعقاب الصارم ناراً وقودها الناس والحجارة ، أرسلنا لئلا يكون للناس حجة على الله ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[3] .

وحجتهم أنهم يقولون لولا أرسلت إلينا رسلا تبين لنا الشريعة ، وتعلمنا ما لم نعلم إذ القوة البشرية مهما تكن تعجز عن إدراك كل جزئيات الخير والشر ، على أن عامة الناس لا يفرقون بين الضار والنافع ، مع احتياج الكل إلى قادة يقودونهم إلى الصراط المستقيم ، صراط الله العزيز الحميد ، ومن الذى كان يأتى بأخبار الغيب من حساب وجزاء وثواب وعقاب ؟ وما أتى به الرسل موافق لسنن الفطرة السليمة ملائم للطبائع الزكية ، ومع ذلك يترتب عليه ثواب عظيم وعقاب أليم .

وكان الله عزيزا لا يغلبه متعنت ولا مكابر ، حكيما فى كل صنع صنعه ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[4].

وهؤلاء اليهود قد أنكروا نبوة النبى ﷺ ، ولم يشهدوا برسالته وهى أوضح من الشمس فسألوه كتابا من السماء إنهم لا يشهدون بذلك ، ولكن الله يشهد بالقرآن ، وكفى به شاهداً فالله أنزله عليك بعلمه الخاص ، الذى لايعلمه سواه ، ولقد صدق الله فى وصفه ﴿ **ذلك الكتاب لاريب فيه** ﴾[5] تحدَّيْت به الكل فعجزوا ﴿ **قل لئن** اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان

(١) الآية رقم /١٢٠ من سورة هود
(٢) من الآية رقم /٥١ من سورة الشورى
(٣) الآية رقم /١٣٤ من سورة طه
(٤) جزء من الآية ١٥ من سورة الإسراء
(٥) جزء من الآية الثانية من سورة البقرة

بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(١) وهو القرآن الكامل فى كل شىء ، المشتمل على قوانين وشرائع تكفل لمن يتبعها حياة سعيدة وعزة ورخاء .

فكأن القرآن بهذا يشهد للنبى ﷺ بصدقه ولسان حاله يقول صدق محمد فى كل ما يبلغه عن ربه ، والملائكة ومنهم جبريل يشهدون لك بالرسالة ، فثبتت شهادة الله تعالى بما أنزله عليك من القرآن ، إذ لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، ولو اجتمع الإنس والجن ، ولا يعقل أن يكون من وضعك ، فأنت النبى الأمى العربى الذى نشأ فى بيئة جاهلية .

﴿ قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم ﴾(٢) الأنعام .

جـزاء الكافـرين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

التفسـير

بعد أن دلت الآيات على نبوة محمد ﷺ ، وأنه لاحجة للكفار المعاندين ، وأن الله شهد له بما أنزله عليه بعلمه من القرآن ، أخذ ينذر الكفار ويهددهم بالعذاب الشديد ، وينذرهم سوء العاقبة وبئس المصير ، إن الذين كفروا بالله ورسوله ، وصدوا عن سبيل الله بأعمالهم التى يقلدهم فيها غيرهم ، قد ضلوا وأضلوا ضلالاً بعيداً عن الصواب جداً ، إن الذين كفروا وظلموا أنفسهم وغيرهم باتباعهم الشيطان ، وبعدهم عن هدى الرحمن ، لم يكن من شأن الله وصفته أن يغفر لهم ، فالله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولم يكن ليهديهم ويوفقهم إلى طريق أبداً إلا طريق جهنم وبئس المصير ، فهم قد ملأوا النفس والقلب من ظلام الكفر والضلال ، حتى لم يعد فيه متسع للنور والهداية ، هؤلاء لهم جهنم خالدين فيها خلوداً أبدياً ، الله أعلم بما يتناسب مع ما قدموا من أعمال وما جبلوا عليه وكان ذلك على الله سهلاً ويسيرا .

يا أيها الناس : قد جاء كم الرسول الكامل والمعهود عند أهل الكتاب ، جاءكم بالقرآن والحق والخير والهدى والفلاح ، فآمنوا يكن الإيمان خيراً لكم ، آمنوا واقصدوا خيراً لكم ، وإن تكفروا فاعلموا أن الله معذبكم ومجازيكم على كفركم فليس هناك عذر لمعتذر ، وليس وراء الموت إلا الجنة أو النار ، وليس

(١) الآية رقم /٨٨ من سورة الاسراء

(٢) من الآية رقم /١٩ من سورة الأنعام

يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض ولا يجهل شيئاً فيهما، وهو الغنى عن عبادتكم وما ذلك كله إلا أن لله مافى السموات ومافى الأرض ملكا وخلقا وعبيداً وتصريفاً وحكماً ، سبحانه وتعالى العليم بخلقه الحكيم فى صنعه .

المسيح بن مريم فى نظر القرآن

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا (١٧١) لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢) فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧٣)

المفردات : ﴿ لاتغلوا ﴾ : الغلو مجاوزة الحد من جهة التفريط أو الإفراط[1] « وكلمته » المراد أنه حدث بكلمة « كن » التكوينية لا بمادة أخرى كغيره من الناس ﴿ وروح ﴾ : وجد بنفخ من روح الله وهو جبريل ﴿ يستكبر ﴾ : الاستكبار أن يجعل الإنسان نفسه كبيرة غروراً منه وإعجابا بها

المناسبة :

بعد أن حاجَّ الله اليهود وألزمهم كلمة التقوى والطريقة المثلى أردف ذلك بمحاجة النصارى وألزمهم جميعاً الرأى الوسط فى عيسى بن مريم .

التفســـير

يا أهل الكتاب لا تكونوا مغالين فى الدين ، ومتجاوزين الحدود فيه فلا تكفروا بعيسى وتبهتوا أمه ، وتحقروه وتهينوه كما فعلت النصارى ، ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الثابت بالنقل المتواتر ، الذى يستحيل معه الكذب ، أو المؤيد بالحجج العقلية الدامغة ، أما القول بالحلول واتخاذ الصاحبة والولد ، فكذب وبهتان وخرافة وثنية ، موسى وعيسى والأنبياء جميعاً براء منها .

إنما المسيح عيسى بن مريم البتول الطاهرة الصِّدِّيقة النقية التى أنبتها الله نباتا حسناً ، وكفَّلها زكريا الرجل الصالح ، والتى برأها القرآن الكريم ، إنما المسيح عيسى رسول الله إلى بنى إسرائيل ، أمرهم

(١) التفريط أى التقصير عن الواجب من الحق والافراط أى الزيادة فى الآثام والخطايا

بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وأمرهم بعبادة الله وحده ونهاهم عن الكفر به والشرك والتثليث ، وزهدهم فى الدنيا ، وحثهم على التقوى ، وبشرهم بخاتم النبين والمرسلين : ﴿ ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[١] وإنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وهو مكون بكلمته « كن » التكوينية : ﴿ إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[٢] نعم كل مولود له سبب ظاهر وهو اتصال الجنسين ، وله سبب حقيقى وهو إرادة الله المعبر عنها بكلمة ﴿ كن ﴾ فلما انتفى مع عيسى السبب الأول بالبرهان ، ثبت أن عيسى خلق بالسبب الثانى ، وهو كلمة « كن » ، أوصلها إلى مريم بواسطة جبريل : ﴿ إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ﴾[٣] وهو مؤيد بروح كائنة منه سبحانه وتعالى ، لا بعضا منه كما فهم المسيحيون ، وإلا لكان كل شىء بعضاً من الله بدليل قوله : ﴿ وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه ﴾[٤] وكونه مؤيداً بروح منه يؤيده قوله : ﴿ وأيدناه بروح القدس ﴾[٥] وقيل المعنى أن عيسى خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل ويوضحه قوله تعالى : ﴿ التى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ﴾[٦]، ﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا ﴾[٧]

وقال بعضهم المعنى أن المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ورحمة[٨] منه وبقوله قوله تعالى : ﴿ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا ﴾[٩] وما لنا نعجب من خلق عيسى بلا أب ؟ حتى تنكب المسيحيون الطريق ، وانغمسوا فى الشرك والتثليث لهذا !

فهذا آدم خلق بلا أب وأم : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ﴾[١٠]، وهذه حواء خلقت من آدم فقط .

وبماذا نرد أصول الحيوانات جميعاً ، وكما يقولون هل البيضة أصل أم الفرخة ؟ أيا كان فمن الذى أوجد الأصل الأول من الفرخة أو البيضة ؟ هو الله بلا تناسل وتزاوج معروف .

ومن الغريب أن بعض النصارى يفهمون قوله تعالى « وروح منه » أن عيسى ابن الله ، أو جزء الإله ، أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، والذى أوقع المسيحيين فى هذا هو المتشابه فى التوراة والإنجيل ، وما وصل إليهم عن طريق الوثنيين من اليونان والرومان والمصريين القدماء ، والبراهمة .

فالديانة المسيحية الصحيحة ديانة مبنية على أساس التوحيد الخالص البرىء لله سبحانه : ذاتا وصفة وفعلا ، ولكن الكنيسة أدخلت هذه الوثنيات والعقائد الزائفة فى عقول أبنائها لأمر فى أنفسهم ، ولما رأوا

---

(١) من الآية رقم /٦ من سورة الصف

(٢) جزء من آيات عديدة فى سور القرآن الكريم /١١٧ من سورة البقرة ، ٤٧ من سورة آل عمران ٣٥ من سورة مريم ٦٨ من سورة غافر

(٣) جزء من الآية رقم ٤٥ من سورة آل عمران

(٤) جزء من الآية رقم /١٣ من سورة الجاثية

(٥) جزء من الآية رقم /٨٧ من سورة البقرة

(٦) جزء من الآية رقم /١٢ من سورة التحريم ، ٩١ من سورة الأنبياء

(٧) جزء من الآية رقم /١٧ من سورة مريم

(٨) ذكره الامام القرطبى فى تفسيره ص ٢٣ من الجزء السادس

(٩) جزء من الآية رقم ٢١ من سورة مريم

(١٠) جزء من الآية رقم /٥٩ من سورة آل عمران

القرآن يعارضهم فى ذلك كذبوه وأنكروه ، وهو الذي برأ مريم من قول اليهود ، ووضع عيسى الموضع اللائق ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾[1] وفى أقوال الأحرار من المسيحية ما يؤيد هذا ، وهى موجودة فى كتاب الشيخ رشيد رضا (تفسير الشيخ محمد عبده) الجزء السادس عند تفسير هذه الآية ، وإذا كان الأمر كذلك : فآمنوا بالله الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، وآمنوا برسله جميعاً لا فرق بين نبى ونبى ، ولا تقولوا الآلهة ثلاثة « الأب والابن والروح القدس » أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر، وكل منها إلّه كامل ، ومجموعها إلّه واحد فإن هذا إشراك بالله وترك للتوحيد الذى هو ملة أبيكم إبراهيم ، وهذا كلام ينا فى العقل الراجح والفكر السليم ، إذ كيف يكون واحداً وثلاثة ؟ وكيف يحل الإلّه فى بعض خلقه وكيف يتحد ، وهل طبيعة : الإلّه كطبيعة البشر أظن[2] لا.. بل طبيعة البشر تتنافى مع طبيعة الملك فهذا لا يأكل ولا يشرب وعيسى وأمه كانا يأكلان ويشربان[3].

وما ميزة عيسى عن غيره من الأنبياء ؟ أرسل مؤيداً بالمعجزات ، وكانت كغيرها لم تجر على سنن الطبيعة ، بل بقدرة الله وقوته كما نص القرآن الكريم ، وموسى الكليم ومحمد ﷺ كذلك ، فكيف تقولون إن عيسى إلّهٌ ؟ ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ وقولوا قولا يكن خيراً لكم ، وأجدى من هذا العبث والوثنية والعصبية الحمقاء إنما الله إلّه واحد لا إلّه إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون ، سبحانه أن يكون له ولد فليس المسيح إبنه ، إذ الولد يقتضى اتصالاً جنسياً بالأم ، وحاجة إليه وإلى أمه حتى يبرز إلى الوجود ، أفيليق هذا ؟ لا ... ياقوم : الله له مافى السموات ومافى الأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وتصريفاً ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[4]

لا فرق فى ذلك بين الملائكة والنبيين والناس أجمعين ، وهل الإلّه فى حاجة للولد ؟ ليقيم اسمه ويحفظ ذكره ويرثه بعد موته ، وهل هو فى حاجة إلى الولد ليعينه ؟ كلا فالله قوى قادر مالك الملكوت حىّ دائم باق بعد فناء خلقه ، صاحب الأمر والتصريف ، وكفى بالله وكيلا .

وهذا عيسى نفسه يقول فى إنجيل يوحنا « وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلّه الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته » فهذا نص صريح فى أن المسيح رسول الله فقط ، وفى الإنجيل أيضاً « من يقبلكم يقبلنى ومن يقبلنى يقبل الله الذى أرسلنى » لن يتكبر المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة الذين هم أعظم من المسيح خلقا وقوة ، فهم أعلم بذات الله ومكانته . ومن يستنكف عن عبادة الله وحده ويتكبر ويدعى الإشراك أو التثليث فيحشرهم إليه جميعا ، ويجازيهم على كل ذلك فأما

(١) الآية رقم /٣٤ من سورة مريم

(٢) الظن هنا بمعنى اليقين الجازم

(٣) وقد جاء ذلك فى الآية رقم /٧٥ من سورة المائدة : « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ... » الآيه

(٤) الايات رقم /٩٣،٩٤،٩٥ من سورة مريم

من آمن بالله وحده والعاملون الصالحات ، فيوفيهم أجورهم كاملة ويزيدهم من فضله ، فهو واسع الفضل كثير الخير .

وأما الذين استنكفوا وتكبروا فهم المعذبون عذاباً أليما فى الدنيا والآخرة ، ﴿ لايجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ ﴿ يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾[1].

الدعـوة العامـة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

المناسـبة :

بعد أن حاجّ القرآن النصارى فأفحمهم ، ومن قبل ذلك حاج اليهود فألزمهم ، وناقش المنافقين وكشف سترهم ، وظهرت نبوته ﷺ ظهور الشمس في رابعة النهار ، نادى الناس جميعاً ودعاهم إلى اتباعه .

أيها الناس قد جاءكم برهان واضح ونور ساطع ، يبين لكم حقيقة الإيمان بالله ، وهو من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ذلك البرهان هو محمد ﷺ النبى العربى الأمى ، الذى نشأ فى الجاهلية لم يجلس إلى معلم ولم يؤدبه مؤدب ، ولم يتعلم فى جامعة ولا تخرج فى معهد ، ولم يعد إعداداً لتحمل أكبر رسالة فى الوجود من إنسان !

كان فى شبابه الأمين الصادق ، وعند رجولته الكاملة كان الداعية إلى الله بأقوى أسلوب وأوضح بيان ، وقد كان المثل الأعلى فى عمله وعلمه ورسالته ، وسياسته وقيادته وزعامته ، فحقاً أدبه ربه فأحسن تأديبه ، نعم كان برهانا عن صدق رسالته ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[2]

وأنزل الله إليكم مع هذا البرهان نوراً مبينا هو القرآن الكريم ، ظهر فى الوجود بعد ما عميت القلوب وغشيت الأبصار من الوثنية المشركة واليهودية الكاذبة والمسيحية الضالة ، ظهر فى الكون فأنار الوجود وأضاء القلوب وأحيا النفوس ، وأوضح الطريق لعبادة الله حق العبادة وكان محكم التنزيل كاملا فى السياسة والاقتصاد والاجتماع ، والعمران والعلوم الكونية والإلهية والسياسية الحربية للأمم

فحقاً هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾[3] فمن تأمل هذا البرهان القوى ، وذلك النور

---

(١) الآية رقم /١٦ من سورة الانفطار

(٢) من الآية رقم /١٢٤ من سورة الأنعام

(٣) الآيات من /١٩١ إلى ١٩٥ من سورة الشعراء .

السماوي ، ظهر له أن محمداً ﷺ برهان من الله وحجة على أحقية هذا الدين ، وأن كتابه القرآن أنزله الله بعلمه وشهد له بصدقه .

فأما الذين آمنوا به واتبعوا نوره واعتصموا بحبله فسيدخلهم ربهم فى رحمته وفضله فى الدنيا والآخرة ويهديهم إلى صراطه المستقيم ، فمن يعمل بالقرآن وحكمه كانت له العزة فى الدنيا والكرامة ، وفى الآخرة الجنة والرضوان والسلامة .

حق الأخوة فى الميراث

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

المفردات : ﴿ **هلك** ﴾ : مات .

سبب النزول :

روى أحمد والشيخان[١] عن جابر بن عبد الله قال : « دخل علىّ رسول الله ﷺ وأنا مريض لا أعقل فتوضأ ثم صب على فعقلت ، فقلت : إنه لايرثنى إلا كلالة[٢] فكيف الميراث ؟ فنزلت آية المواريث »

وقال الخطابى أنزل الله فى الكلالة آيتين إحداهما فى الشتاء وهى التى فى أول السورة وفيها إجمال ، ثم أنزلت الأخرى فى الصيف وفيها كمال البيان وقيل إنها من آخر الآيات نزولا[٣]

يطلبون منك الفتيا أيها الرسول ، فيمن يورث كلالة – كجابر بن عبد الله – الذى ليس له ولد وارث ولا والد ، وله إخوة من أب وأم ، إذ هؤلاء لم يفرض لهم شيء ، إن الذى تقدم أول السورة الأخ لأم ونصيبه السدس فإن زاد فالثلث فقط كنصيب أمه .

والتفصيل إن امرؤ مات وليس له ولد ولا والد ، وله أخت لأب أو شقيقة (لأب وأم) ، فلها

---

(١) أحمد بن حنبل والشيخام : البخارى ومسلم

(٢) الكلالة من مات ليس له ولد ولا والد هذا رأى جمهور أهل العلم وقال غيرهم هم الورثة غير الأبناء والآباء : باختصار عن الجامع لاحكام القرآن ج ٥ ص ٧٦ ، ٧٧، ٧٨

(٣) ذكره الامام مسلم عقب الحديث السالف ذكره

نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ذكر أو أنثى على الصحيح ، فإن كان من يرث بالأخوَّة أختين فلهما الثلثان مما ترك أخوهما ، وكذا إن كن أكثر من ثنتين – كأخوات جابر – فقد كن تسعاً ، وفى رواية سبعا ، فلهن الثلثان والباق لمن يوجد من العصبة على ماهو مفصل فى أبواب الميراث وإن كان الأخوة : رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين فى حظهما وهو الثلثان ، يبين الله لكم هذه الأحكام لتعرفوها وتعملوا بها ، فلا تضلوا أبداً ، ﴿**والله بكل شىء عليم**﴾ فعليكم التمسك بهذه الأحكام إذ هى مصدر الخير والبركة لكم .

سورة المائدة

جاء فى كتاب بصائر ذوى التمييز[١] ما نصه :

اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع سوى آية واحدة ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ فإنها نزلت يوم عرفة فى الموقف ورسول الله ﷺ راكب على ناقته العضباء فسقطت الناقة على ركبتيها من ثقل الوحى وشرف الآية .

وعدد آياتها مائة وعشرون فى عد الكوفى ، واثنتان وعشرون فى عد الحجاز والشام ، وثلاث وعشرون فى عد البصرى .

وكلماتها ألفان وثمان مائة وأربع ، وحروفها أحد عشر ألفاً وتسع مائة وثلاثة وثلاثون حرفاً .

وسميت بسورة المائدة لا شتمالها على قصة نزول المائدة من السماء .

مقاصد السورة

الأمر بوفاء العهود وبيان ، ما أحله الله تعالى من البهائم ، وذكر تحريم المحرمات ، وبيات إكمال الدين ، وذكر الصيد ، والجوارح ، وحِلّ طعام أهل الكتاب ، وجواز نكاح المحصنات منهن ، وتفصيل الغسل والطهارة والصلاة ، وحكم الشهادات والبينات ، وخيانة أهل الكتاب القرآن ومن أنزل عليه ، وذكر المنكرات من مقالات النصارى ، وقصة بنى إسرائيل مع العمالقة ، وحبس الله تعالى إياهم فى التيه ، وحديث قتل قابيل أخاه هابيل ، وحكم قطاع الطريق ، وحكم السرقة وحد السرّاق ، وذم أهل الكتاب وبيان نفاقهم وتجسسهم ، وبيان الحكم بينهم ، وبيان القصاص فى الجراحات وغيرها ، والنهى عن موالاة اليهود والنصارى ، والرد على أهل الردة وفضل الجهاد ، وإثبات ولاية الله ورسوله للمؤمنين ، وذم اليهود فى قبائح أقوالهم ، وذم النصارى بفاسد اعتقادهم ، وبيان كمال عداوة الطائفتين للمسلمين ، ومدح أهل الكتاب الذين قدموا من الحبشة ، وحكم اليمين وكفارتها وتحريم الخمر ، وتحريم الصيد على المحرِم ، والنهى عن السؤالات الفاسدة وحكم شهادات أهل الكتاب وفصل الخصومات ، ومجاورة الأمم رسلهم فى القيامة ، وذكر معجزات عيسى ونزول المائدة ، وسؤال الحق تعالى إياه فى القيامة تقريعاً للنصارى وبيان نفع الصدق يوم القيامة للصادقين .

فضل السورة :

عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال : « نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ وهو على راحلته فلم تستطع أن تحمله حتى نزل عنها » ويروى بسند ضعيف : « من قرأ هذه السورة أعطى من الأجر بعدد كل يهودى ونصرانى فى دار الدنيا عشر حسنات ، ومحى عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات »

(١) هو كتاب بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز لمؤلفه مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادى المتوفى سنة ٨١٧هـ

وفى رواية : « من قرأ هذه السورة أعطى بكل يهودى ونصرانى على وجه الأرض ذرات ، بكل ذرة منها حسنة ودرجات كل درجة منها أوسع من المشرق إلى المغرب سبعمائة ألف ألف (ضعيف)

ويروى أنه قال : يا على من قرأ سورة المائدة شفع له عيسى وله من الأجر مثل أجور حواريى عيسى ويكتب له بكل آية قرأها مثل ثواب عُمَّار بيت المقدس .

قال الشيخ المراغى فى تفسيره : هذه السورة تسمى سورة المائدة وسورة العقود وسورة المنقذة ، وهى مدنية بناء على المشهور من أن المدنى مانزل بعد الهجرة ولو فى مكة ، وقد روى فى الصحيحين عن عمر رضى الله عنه : أن قوله تعالى ﴿ **اليوم أكملت لكم دنيكم** ﴾ الخ نزلت عشية يوم عرفة يوم الجمعة عام حجة الوداع .

مناسبتها لما قبلها :

ووجه التناسب بينها وبين سورة النساء يتبين فيما يلى :

١ - أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحا وضمناً ، فالصريح : عقود الأنكحة والصداق والحلف والمعاهدة والأمان ، والضمنى : عقود الوصية والوديعة والوكالة والإجارة

٢ - أن سورة النساء مهدت لتحريم الخمر وسورة المائدة حرمتها البتة فكانت متممة لشىء مما قبلها .

٣ - أن معظم سورة المائدة فى محاجة اليهود والنصارى ، مع ذكر شىء عن المنافقين والمشركين ، وقد تكرر ذكر ذلك فى سورة النساء وأطيل فيه فى آخرها

ووجه تقديم النساء وتأخير المائدة : أن الأولى بدئت بيأيها الناس وفيها الخطاب بذلك فى مواضع وهذا بالتنزيل المكى ، والثانية بيأيها الذين آمنوا وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهذا أشبه بالتنزيل المدنى المتأخر عن الأول .

روى عن النبى ﷺ أنه قرأ سورة المائدة فى حجة الوداع وقال : « يأيها الناس إن سورة المائدة آخر ما نزل فأحلوا حلالها وحرموا حرامها »

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ
مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا
ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ
وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ

ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

المفردات : ﴿ **أوفوا** ﴾ : الوفاء الإتيان بالشيء وافيا كاملاً لا نقص فيه ﴿ **بالعقود** ﴾ : بالعهود المؤكدة الموثقة ، وهى تشمل عقود الشرع فيما أحل وحرم وفرض ، وعقود الناس بعضهم مع بعض فى البيع والشراء والمناكحة وغير ذلك ﴿ **بهيمة** ﴾ : وهى مالا عقل لها سميت بذلك لإبهام أمرها من جهة نقص نطقها وفهمها وعدم تميزها وعقلها ، وخصها العرف بذوات الأربع مع حيوان البر والبحر ﴿ **الأنعام** ﴾ : هى الإبل والبقر الشامل للدواب والجواميس والضأن الشامل للخراف والمعز ، وألحق بها الظباء وبقر الوحش وحمره ﴿ **شعائر** ﴾ : جمع شعيرة ، مأخوذ من الشعور والإعلام ، والمراد معالم دينه وخصت بمناسك الحج ﴿ **الهدى** ﴾ : ما يهدى إلى الحرم ويذبح فيه للفقراء ﴿ **القلائد** ﴾ : جمع قلادة وهو ما يعلق فى العنق ﴿ **آمّين** ﴾ : قاصدين ﴿ **شنآن** ﴾ : بغضهم بغضاً شديداً ﴿ **لايجرمنكم** ﴾ : لايحملنكم ولا يكسبنكم ﴿ **البر** ﴾ : ما اطمأن إليه القلب ﴿ **الإثم** ﴾ : كل ذنب ومعصية وهو ماحاك فى الصدر وخِفْت أن يطلع عليه الغير .

التفسير

هذا خطاب كريم من رب كريم جاء بعنوان الإيمان ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ والله جلَّت قدرته وعظمت حكمته ، يخاطب المؤمنين لأنهم أسرع الناس امتثالا لتنفيذ أمره واجتناب نهيه

أتى رجل عبد الله بن مسعود فقال : اعهد إلىَّ ، فقال : « إذا سمعت الله يقول ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه » وعن الزهرى قال : « إذا قال الله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ افعلوا فالنبى ﷺ منهم »

ولصدر هذه السورة الكريمة من القيم والمعانى والتوجيهات والإرشادات الإلهية ، ماجعلنا نقف موقف المعتبر ، عندما نعلم أن هذه الآيات كانت نص خطاب بعث به النبى ﷺ عمرو بن حزم إلى أهل اليمن ، قال ابن أبى حاتم بإسناده عن عمرو بن حزم عن أبيه قال : هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذى كتبه لعمر وبن حزم ، حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة ويأخذ صدقاتهم ، فكتب له كتابا وعهدا ، وأمره فيه بأمره ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من الله ورسوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمر وبن حزم ، وقد أمره فيه بتقوى الله فى أمره كله فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »

المراد بالعقود : العهود ، فالوفاء بالعهد سمة بارزة من سمات الإسلام وقيمة راسخة من قيمه الأخلاقية ومثله العليا ، قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد

جعلتم الله عليكم كفيلا ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾[٢] ومن صفات المؤمن أنه إذا قال صدق ، وإذا عاهد أوفى ، وإذا وعد أنجز

ومن خصال المنافق أنه إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان ، ومن كانت فيه من هذه الخصال كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، ومن كانت فيه تلك الخصال كان منافقا خالصا ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون .

وقال الضحاك (أوفوا بالعقود) أى ما أحلَّ الله وحرم ، وما أخذ الله من الميثاق على من أقرَّ بالإيمان بالنبى والكتاب : أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الغرائض من الحلال

وقال زيد بن أسلم (أوفوا بالعقود) قال : هى ستة : عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن المراد بالعقود عهود الله التى عهد بها إلى عباده : أى ما أحلَّ وما حرم وما فرض وما حُدّ فى القرآن كله ، لاغَدْر فيها ولا نكث .

وقال الراغب : العقود ثلاثة أضرب : عقد بين الله وبين العبد ، وعقد بينه وبين غيره من البشر ، وكل واحد منها إما أن يوجبه العقل الذى أودعه الله فى الإنسان ويتوصل إليه ببديهة العقل ، أو بأدنى نظر ، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى ﴾[٣] وإما أن يوجبه الشرع ، وهو مادلنا عليه كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

وأساس العقود فى الإسلام هو هذه الجملة ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما عقده وارتبط به من قول أو فعل ، كما أمر الله ، مالم يحرم حلالا أو يحلل حراما ، كالعقد على أكل شىء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر (القمار) والرشوة ونحو ذلك .

ثم شرع يفصل الأحكام التى أمر بالإيفاء بها ، وبدأ بما يتعلق بضروريات معايشهم فقال : (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، والمراد بالأنعام : الضأن والمعز والإبل والبقر ، وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتا فى بطن أمه إذا ذبحت : عن أبى سعيد : قال « قلنا يارسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة فى بطنها الجنين أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : كلوه إن شئتم ، فإن ذكاته ذكاة أمه » قال الترمذى حديث حسن وقد ألحق ببهيمة الأنعام الظباء وبقر الوحش ، والإضافة فى قوله تعالى ﴿ **بهيمة الأنعام** ﴾ إضافة تفيد البيان أى بهيمة هى الأنعام ، كما فى قوله تعالى ﴿ فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾[٤] أى آية هى الليل ، وآية هى النهار .

(١) جزء من الآية رقم /٩١ من سورة النحل
(٢) جزء من الآية رقم /٣٤ من سورة الاسراء
(٣) جزء من الآية رقم /١٧٣ من سورة الأعراف
(٤) جزء من الآية رقم /١٢ من سورة الاسراء

قوله تعالى : ﴿ **إلا مايتلى عليكم** ﴾ أى ما سيأتى بيانه فى قوله جلَّ ذكره : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم وما ذبح على النصب** ﴾ فهذه المذكورات من الأنعام ماعدا الخنزير وإنما حَرُمَتْ لعارض طرأ عليها كالموت بدون تذكية .

قوله تعالى : « غير محلى الصيد وأنتم حرم » غير هنا منصوب على الحال : أى حالة كونكم غير محلّى الصيد وأنتم حرم ، كالظباء وبقر الوحش وحمار الوحش ، وذلك كما فى قوله جلَّ ذكره ﴿ حرم عليكم صيد البر مادمتم حرما ﴾[1] فالله تعالى إذا كان قد أباح صيد الظباء وبقر الوحش وغيرهما من الحيوانات التى لايمكن الوصول إليها إلا بالصيد ، فإنه تعالى حرَّم على المحرمين أن يصطادوا مادامو حرما ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتقتلوا الصيد وأنتم حرم ﴾[2] .

قوله تعالىٰ : ﴿ **إن الله يحكم ما يريد** ﴾ المقصود بالحكم هنا القضاء ، فهو سبحانه الذى يقضى بحرمة هذا وحل ذاك كما يشاء سبحانه ، ومشيئته منزهة عن العبث ، لأنه الحكيم المريد العليم جلَّت حكمته ووسعت رحمته وعظمت رأفته ، وليس لغيره أن يحكم على الأشياء بالحل والحرمة لهوى فى نفسه ، ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وماظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون ﴾[3].
وقال الله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لما تصفُ ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾[4].

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لاتحلوا شعائر الله** ﴾ : المقصود بشعائر الله هنا مناسك الحج والعمره وقيل سائر فرائض دينه من حلال وحرام وحدود حدها لكم . ومعنى لاتحلوها : أى لاتخالفوا أحكام الله فيها ، والمقصود بالشهر الحرام : الأشهر الأربعة : وهى ثلاثة سرد[5] وواحد فرد وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر بين جمادى وشعبان .

وقد حرَّم الله القتال فى هذه الأشهر إلا إذا اعتُدى على المسلمين فيها : قال تعالى : ﴿ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾[6]. وقال جلَّ ذكره : ﴿ الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله ﴾[7]. وقال تبارك اسمه : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾[8]

والمقصود بالهدى : ما يهْدى من الأنعام إلى البيت الحرام للتوسعة على أهل هذا المكان ، فلا تمنعوه

(١) جزء من الآية رقم /٩٦ من سورة المائدة
(٢) جزء من الآية رقم /٩٥ من سورة المائدة
(٣) الايتان رقم /٥٩، ٦٠ من سورة يونس
(٤) الآيتان رقم /١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل
(٥) سرد أى متتالية
(٦) جزء من الآية رقم /٢١٧ من سورة البقرة
(٧) جزء من الآية رقم /١٩٤ من سورة البقرة
(٨) جزء من الآية رقم /٣٦ من سورة التوبة

من بلوغه محله من بيت الله بأخذه غصبا وذبحه أو سرقته أو حبسه عند من أخذه ، والمقصود بالقلائد : ماعلق فيه قلادة تميزه عن غيره وتفيد أن هذا مُهدى إلى بيت الله الحرام ، فلا تمنعوا الهدى مقلداً أو غير مقلد .

قوله تعالى : ﴿ **ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً** ﴾ نزل هذا النص فى الحطم بن هند البكرى[١]: كان قد أغار على سرح المدينة ، فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت ، فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا فى طريقه إلى البيت ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿ **ولاآمين البيت الحرام** ﴾ ، والمقصود بالآمين القاصدين البيت فى الحج أو العمرة ، وقد يُراد بالفضل التجارة كما فى قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾[٢] والمقصود بالرضوان ما يترضون به الله تعالى بأداء الحج والعمرة والإهداء إلى الحرام .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا حللتم فاصطادوا** ﴾ أى إذا فرغتم من الإحرام وتحللتم فقد أبيح لكم ما كان محرما من الصيد فاصطادوا إن شئتم .

قوله تعالى : ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا** ﴾ أى لايحملنكم شدة بغضكم لقوم سبق أن صدوكم عن المسجد الحرام - كما حدث يوم الحديبية - لايحملنكم ذلك على الاعتداء عليهم ، فالإسلام دين العدل لايتصيد الأخطاء ، ولا يظلم من أجل البغض والشنآن ، وليس للهوى فى حكمة نصيب :

قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى . واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[٣]

قوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ البر جماع الخير وشعبه كثيرة متعددة ، جاء بيانها فى قوله تعالى : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقواوأولئك هم المتقون ﴾[٤]

وقد جاء فى الحديث الشريف « البر حسن الخلق ، والإثم ماحاك فى النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » رواه مسلم وأصحاب السنن .

---

(١) اسمه فى الجامع لأحكام القرآن « شريح بن ضُبَيْعة البكرى أو الكندى ، وفيه أن جند رسول الله ﷺ أخذوه عام عُمرة القطنيه وقد جاء مقتمرا ، وقد قتل الحطم مرتدا فى ردة اليمامة ، وكان الهدى الذى ساقه للكعبة مما سبق أن سرقه من سرح المسلمين حول المدنية

(٢) جزء من الآية رقم /١٩٨ من سورة البقرة

(٣) هى الآية رقم /٩ من سورة المائدة وسوف يأتى تفسيرها إن شاء الله

(٤) جزء من الآية رقم /١٧٧ من سورة البقرة

وروى أحمد والدارمى عن وابصة بن معبد الجهنى أنه قال : « أتيت رسول الله ﷺ فقال : « جئت تسأل عن البر والإثم ؟ قلت نعم . وكان قد جاء لأجل ذلك ، فأخبره النبى ﷺ بما فى نفسه وأجابه فقال : « استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ماحاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

ومن باب التعاون على البر والتقوى قوله ﷺ : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » قيل يارسول الله هذا نصرته مظلوما فكيف أنصره إذا كان ظالما ؟ قال : تحجزه وتمنعه من الظلم فذاك نصره » انفرد به البخارى .

وقوله ﷺ : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى لايخالطهم ولا يصبر على أذاهم » رواه الترمذى وابن ماجة .

وقوله ﷺ «الدال على الخير كفاعله » رواه أحمد .

وقوله ﷺ : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لاينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لاينقص ذلك من آثامهم شيئا » رواه البخارى – وقال أيضا ﷺ : « من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام » . رواه الطبرانى – قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ أى احذروا عقوبته وخافوه ، فالتقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، وهو سبحانه شديد العقاب على من خالفه ، واسع الرحمة والمغفرة لمن أطاعه والتزم شرعه .

أحكام تتعلق بالمحرمات

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾

التفسير

جاءت هذه الآية الكريمة مفصّلة لما أجمل فى قوله تعالى: ﴿ **إلا مايتلى عليكم** ﴾ الذى جاء استثناءً من قوله جلَّ شأنه : ﴿ **أحلت لكم بهيمة الأنعام** ﴾ وقد بين الله تعالى فى تلك الآية أحكام التحريم فى

عشرة أشياء نبين معناها فيما يلي :

﴿ **الميتة** ﴾ : وهى ما ماتت وحدها بدون فعل فاعل ، وفى الشرع هى التى لم تُذَكَّ ذكاة شرعية ، وقد حرمت لما فيها من الضرر إذ الغالب أنها ماتت من مرض ، وبقى فيها ميكروبه وجراثيمه التى تعيش فى الدم بعد الوفاة ، أما إذا ذكيت فإن الدم الذى يحمل الجراثيم أو أغلبها ينزل منها ، على أنها[١] مما تعافها النفوس الطيبة وتأنف من أكلها الطباع السليمة .

﴿ **الدم** ﴾ : والمراد به الدم المسفوح – لا المتجمد كالكبد والطحال – إذ هو مباءة للجراثيم الفتاكة ، على أنه مستقذر عند الطبع السليم ، ومما يعسر هضمه ، وهو من فضلات الجسم الضارة كالبراز ، فدل ذلك على أنه لايحل أكله أبدا .

﴿ **ولحم الخنزير** ﴾ : وهو ثالثة الأثافى ، والمراد لحمه وعظمه ودهنه ، إذ هو حيوان قذر لا يأكل إلا القاذورات والمواد العفنة ، وقد أثبت الطب الحديث أن أكله يولد الدودة الشريطية والدودة الوحيدة والحلزونية ، على أنه عسير الهضم ، ضار بالمعدة ضرراً بالغاً ، ولولا مايستعين به بعض الغربيين من الأدوية ما أكلوه ، على أن أكثر الدول حرمت ذبحه ، وهل تقبل النفوس الطيبة على أكل حيوان كهذا ؟

والإسلام حينما حرم الكلب والخنزير لم يكن متعديا ولا متجنيا ، بل لما فيهما من الضرر والخطورة ، وإنما ينظر الشرع للجماهير والشعب ، لا لبعض أفراد يُعْنَوْن بكلابهم مثلا ، فلا يطعموهم الإشهى اللحم !!

﴿ **ما أهل لغير الله به** ﴾ : والإهلال رفع الصوت ، وقد كانوا يرفعون صوتهم عند الذبح فى الجاهلية بقولهم : باسم اللات والعزى الخ ، فماذبح وقد ذكر عليه اسم غير الله كان حراما أكله ، إذ أكله مشاركة لأهله فى عبادة غير الله ، وهذا مما يجب إنكاره لا المشاركة فيه .

﴿ **المنخنقة** ﴾ : هى ما ماتت خنقا بأى شكل كان ، وهى نوع من الميتة التى لم تذك ذكاة شرعية ، وإنما خصها القرآن بالذكر مع اندراجها فى الميتة لئلا يظن أنها ماماتت حتف أنفسها بل بفعل فاعل فتحل ، ولكن الشرع شرط الذكاة ليتأكد الإنسان مما يأكل ويثق من صحة مايتغذى به .

﴿ **الموقوذة** ﴾ هى التى ماتت بعصاً أو بحجر بلا ذكاة شرعية ، وكانوا يأكلونها فى الجاهلية ، والوقذ يحرم فى الإسلام لأنه تعذيب للحيوان شديد ، وليست معه ذكاة ومن هنا حرمت .

ويدخل فى الموقوذة مارمى بعصا أو حجر ليس له حد ، وما رمى بالبندق (وهو كرة من الطين تجفف ويرمى بها بعد يبسها)[٢] وكذا الحصاة ، فإن هذا كله لايفقأ عينا ولاينكى عدوا ولا يحرز صيدا وليس سببا للقتل غالبا ، أما الرصاص المستعمل الآن فى سلاح الصيد فجائز شرعا على الصحيح[٣].

(١) أى الميتة

(٢) يرمى بهذه الكور أو الحصى الصلب بمقلاع أو نبل ، فإن أدرك الطير أو الحيوان وفيه رمق فذكى أى ذبح وهو على حياة حل أكله

(٣) وسبب الجواز أنه يسيل الدم فصار فى معنى الذكاة

﴿ **المتردية** ﴾ : هى ماسقطت من مكان عال كجبل أو هوت فى بئر فماتت بسبب ذلك وهى كالميتة لايحل أكلها بدون تذكية ، ويجوز عقرها فى أى مكان[١] للضرورة فتحل .

﴿ **النطيحة** ﴾ : وهى مانطحتها بهيمة أخرى فماتت وهى حرام كالميتة .

﴿ **ما أكل السبع** ﴾ : وهى ما قتلت بافتراس حيوان كالسبع والذئب والنمر مثلا والمراد مابقى منها بعد السبع لا ما أكلت كلها ، وكانوا فى الجاهلية يأكلون مابقى من السباع والوحوش .

﴿ **إلا ما ذكيتم** ﴾ : أى إلا ما أدركتموه حيا مما سبق فذكيتموه : من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة ، وما أكل السبع جزءا منه ، وما أهل لغير الله به ، فإذا كانت فيه حياة ولو بسيطة بأن يطرف عينا أو يضرب برجل أو يد ثم ذكيتموه ذكاة شرعية صار حلالا ، وإلا فلا أما الميتة والدم ولحم الخنزير فلا تحل أصلا ذكيت أم لا .

﴿ **ما ذبح على النصب** ﴾ : وهو آخر المحرمات العشر والنصُب حجارة حول الكعبة قيل كان عددها ثلاثمائة وستين حجرا وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها تقربا للأصنام ، وهو نوع مما ذكر عليه اسم غير الله تعالى فحرم أكله لهذا – وقد أضاف القرآن الكريم إلى محرمات الطعام التى كان الجاهليون يستحلونها خرافة أخرى كانوا يعملونها وهى :

﴿ **الاستقسام بالأزلام** ﴾ : **أى معرفة ماقسم له بواسطة الأزلام ، وكانت ثلاثة أنواع فى الجاهلية :**
﴿ **نوع** ﴾ : كان مع الشخص وعدده ثلاثة مكتوب على واحد افعل والثانى لا تفعل والثالث غفل ..
﴿ **النوع الثانى** ﴾ : سبعة قداح واحدها قِدْح وكانت عند هبل فى جوف الكعبة مكتوب عليها ما يدور بين الناس من النوازل .

﴿ **النوع الثالث** ﴾ : هو قداح الميسر وعددها عشرة : سبعة منها فيها حظوظ وثلاثة غفل[٢].. إلى آخر ماهو معروف .

أى وحرم عليكم معرفة ماقُسِم لكم بالأزلام ، والحكمة فى هذا أنه من الخرافات والأوهام التى تعوق نشاط الفردِ والأمة ، ومدعاة للكسل والسير على غير بصيرة وهدى ، على أنها تجعل الناس ألعوبة فى يد الكهان[٣]، والإسلام برىء من هذا كله ..

وفى هذه الأيام شاعت معرفة الحظ والاستقسام بأوراق « الكوتشينة » و(الودع) و(الفنجان) وهذا كله منكر شرعا لايليق بعقل المسلم .

على أن معرفة الحظ والنصيب بواسطة المسبحة أو المصحف شىء لايعرفه الشرع والقرآن

(١) وذلك إذا ادركت وفيها رمق من حياة
(٢) أى فارغة ليس فيها شىء
(٣) وهم الذين كانوا يوكل إليهم الاستقسام بالأزلام وكانت لهم حيل حتى يحصلوا على أعظم أجر

والاستخارة الواردة شرعا أن يصلى الإنسان ركعتين نفلا للاستخارة ، ثم يدعو الله بدعاء بشرح به صدره لما يريده إن كان خيرا له فى دينه ودنياه ، وللنبى ﷺ دعاء فى الاستخارة يقول فيه : « اللهم إنى أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسالك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علاَّم الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر (ويسمى حاجته) خير لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى فاقدره لى ويسره لى ثم رضنى به ، وإن كنت تعلم أنه شر لى فى دينى ودنياى وعاقبة أمرى فاصرفه عنى واصرفنى عنه واقدر لى الخير حيث كان » .

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم فسق** ﴾ أى أن المذكورات التى حرَّمها الله تعالى فسق وخروج عن طاعة الله ، لمن خالف أمر الله فيها.

وقد ذكر الله تعالى فى ختام هذه الآية أربع بشريات : أولاها : ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون** ﴾ ، وثانيتها ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾ وثالثتها ﴿ **وأتممت عليكم نعمتى** ﴾ ورابعتها : ﴿ رضيت لكم الإسلام دينا ﴾[1] قال ﷺ « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم » وإذا كان الله تعالى قد أكمل دينه فليس دين الله فى حَاجة إلى زيادة أبدا ، وإذا كان قد أتم نعمته فنعمة الله لاتنقضى أبدا ، وإذا كان قد رضى لنا الإسلام دينا فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا .

قوله تعالى : ﴿ **فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم** ﴾ هذا استثناء مما سبق ذكره من المحرمات فللضرورة أحكامها ، إذ أن الضرورات تبيح المحظورات ، فمن أصابته مخمصة وجوع يكاد يعصف به ولم يكن مائلا إلى اثم أو معصية ، فقد أبيح له أن يأكل بقدر ما يرد جوعته ويروى غلته ولا إثم عليه لأنه اندرج تحت مظلة المغفرة الإلّهية والرحمة الربانية ، فما أكرمك من إلّه وما أعظمك من رب رحيم أرأف بعباده من الأم بولدها .

قال ﷺ : « إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته » لفظ ابن حبان ، وفى لفظ لأحمد « من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة »

---

(١) روى الائمة عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر فقال يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم تقرأونها لو علينا انزلت معشر يهود لاتخذنا ذلك اليوم عيدا ، قال : وأى آية ؟ قال : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فقال عمر : إنى لأعلم اليوم الذى أنزلت فيه ، والمكان الذى انزلت فيه ، نزلت على رسول الله ﷺ بعرفة فى يوم جمعة – لفظ مسلم ، وعند النسائى ليلة جمعة .

وروى أنها لما نزلت فى يوم الحج الأكبر وقرأها رسول الله ﷺ : بكى عمر ، فقال له رسول الله ﷺ : « ما يبكيك » أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص ، فقال له النبى ﷺ : « صدقت » وروى مجاهد أن هذه الآية نزلت يوم فتح مكة والأول هو الأصح ، وقد نزلت والنبى ﷺ واقف بعرفة بعد صلاة العصر على ناقة العضباء ، فكاد عضد الناقه ينقدُّ – ينكسر – من ثقل الوحى فبركت

ماذا أحل لهم

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

المفردات : ﴿ **الطيب** ﴾ : ضد الخبيث . ﴿ **والجوارح** ﴾ : واحدها جارحة ، وهى الصائدة من الكلاب والفهود والطيور ، من الجرح بمعنى الكسب قال تعالى ﴿ ويعلم ماجرحتم بالنهار ﴾[١] أى ما كسبتم ، و﴿ **مكلبين** ﴾ : من التكليب وهو تعليم الكلاب وإضراؤها بالصيد ، ثم استعمل فى تعليم الجوارح مطلقا . ﴿ **المحصنات** ﴾ : هنا الحرائر وقيل العفيفات عن الزنا . ﴿ **والأجور** ﴾ : المهور ، والمراد بالمحصنين الأعفَّاء عن الزنا . ﴿ **مسافحين** ﴾ : مجاهرين بالزنا . ﴿ **متخذى أخدان** ﴾ : مُسرِّين به ، والخِدْن : الصديق يقع على الذكر والأنثى[٢] . ﴿ **حبط عمله** ﴾ : بطل ثواب عمله .

جاء فى سبب نزول هذه الآية مارواه ابن أبى حاتم بإسناده إلى عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين : أنهما سألا رسول الله ﷺ فقالا : يارسول الله قد حرمَ الله الميتة فماذا يحل لنا منها ، فنزلت ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات** ﴾ أى الذبائح الحلال الطيبة لهم .

وقال تعالى ﴿ **ممّا علمتم من الجوارح مكلبين** ﴾ أى كما أحلَّ الله تعالى الطيبات وهى كلمة جامعة يندرج تحتها كل ما تستطيبه النفوس النظيفة ، فإنه سبحانه أحلَّ لنا ما تصطاده الجوارح من الكلاب والفهود وغير ذلك مما نسلطه على الحيوان فيصطاده ، وللصيد فى الشريعة الغراء أحكام نجملها فيما يلى :

تعريف الصيد :

الصيد هو اقتناص الحيوان المتوحش بالطبع الذى لايقدر عليه حكمه : وهو مباح أباحه الله سبحانه بقوله ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾[٣] والصيد مباح كله ماعدا صيد الحرم . وصيد البحر جائز فى

(١) جزء من الآية رقم /٦٠ من سورة الأنعام

(٢) أى يطلق على الذكر والانثى

(٣) جزء من الآية الثالثة التى سبق شرحها من هذه السورة

كل حال ، وكذلك صيد البر إلا فى حالة الإحرام يقول الله تعالى : ﴿ أحلَّ لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرِّم عليكم صيد البر مادمتم حرما ﴾[١].

الصيد الحرام :

والصيد المباح هو الصيد الذى يقصد به التذكية ، فإن لم يقصد به التذكية ، فإنه يكون حراما لأنه من باب الإفساد وإتلاف الحيوان لغير منفعة .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل الحيوان إلالمأكلة : روى النسائى وابن حبان أن النبى ﷺ قال : « لاتتخذوا شيئا فيه الروح غرضا »[٢]. ومر صلوات الله وسلامه عليه على طائر قد اتخذه بعض الناس هدفا يصوبون إليه ضرباتهم فقال : « لعن الله من فعل هذا »

شروط الصائد :

ويشترط فى الصائد الذى يحل أكل صيده ما يشترط فى الذابح بأن يكون مسلما أو كتابيا فصيد اليهودى والنصرانى كذبيحته يؤكل .

الصيد بالسلاح الجارح وبالحيوان :

والصيد قد يكون بالسلاح الجارح كالرماح والسيوف والسهام ونحوها ، وفى هذا يقول الله سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾[٣] وقد يكون بواسطة الحيوان ، وفيه يقول الله سبحانه : ﴿ **يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وماعلمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب** ﴾ .

وعن أبى ثعلبة الخشنى قال : قلت يارسول الله إنا بأرض صيد . أصيد بقوسى وبكلبى المعلم وبكلبى الذى ليس بمعلم فما يصلح لى ؟ فقال : « ماصدت بقوسك فذكرت اسم الله عليه فكل ، وما صدت بكلبك غير المعلم فأدركت ذكاته فكل » ورواه البخارى ومسلم .

شروط الصيد بالجوارح :

والصيد بالجوارح مثل الصقر والبازى والفهد والكلب وغيرها مما يقبل التعليم جائز بالشروط الآتية :

١ — تعليم الحيوانات الصيد ، ويعرف ذلك بأن يأتمر إذا أُمر ، وينزجر إذا زجر .

---

(١) جزء من الآية رقم /٩٦ من هذه السورة « المائدة »

(٢) أى هدفا توجهون إليه وسائل الصيد دون طلب الاستفادة منه

(٣) هى صدر الآية رقم /٩٤ من هذه السورة — المائدة .

٢ - أن يمسك على صاحبه بترك الأكل من الصيد ، فإن أكل فقد أمسك على نفسه فلا يحل صيده ، ففى حديث عدى بن حاتم قال الرسول ﷺ له : إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله عليها فكل مما أمسكن عليك ، وإن أكل الكلب فلا تأكل فإنى أخاف أن يكون مما أمسك على نفسه .

٣ - أن يرسله ويذكر اسم الله عليه : بالنسبة للتسمية قال مالك : كل ماذبح ولم يذكر عليه اسم الله فهو حرام ، سواء ترك ذلك الذكر عمدا أو نسيانا وهو قول ابن سيرين وطائفة من المتكلمين ، وقال أبو حنيفة : إن ترك الذّكر عمدا حرّم ، وإن ترك نسياناحل .

وقال الشافعى : يحل متروك التسمية سواء كان عمدا أم خطأ إذا كان الذابح أهلا للذبح : عن عائشة أن قوما قالوا : يارسول الله إن قوما يأتوننا باللحم لاتدرى أذكر اسم الله عليه أم لا ؟ قال : سموا عليه أنتم وكلوا ، قالت « وكانوا حديثى عهد بالكفر » أخرجه البخارى وغيره .

أما قصد إرسال الحيوان فإنه شرط من شروط لصيد فإذا انبعث الحيوان الجارح من تلقاء نفسه من غير إرسال ولا إغراء من الصائد فلا يجوز صيدهع ، ولا يحل أكله عند مالك والشافعى وأبى ثور وأصحاب الرأى ، لأنه صاد لنفسه من غير إرسال وأمسك عليها ، ولاصنع للصائد فيه ، فلا ينسب إليه ، لأنه لا يصدق عليه الحديث المتقدم : « إذا أرسلت كلابك المعلمة .. الخ » فمفهوم الشرط أن غير المرسل لايكون كذلك وقال عطاء والأوزاعى يؤكل صيده إذا كان أخرج للصيد وكان معلما .

قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله إن الله سريع الحساب** ﴾ أى أطيعوا أمره واجتنبوا نهيه فإنه تعالى محاسبكم على أفعالكم فى الدنيا والآخرة ، واعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قوله تعالى : ﴿ **اليوم أحل لكم الطيبات** ﴾ : أى على سبيل التفصيل فقد كانت حلالا من قبل على سبيل الإجمال . ﴿ **وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم** ﴾ المقصود بالطعام هنا الذبائح : فللمسلم أن يأكل من ذبيحة اليهودى أو النصرانى ، وكما أباح الله تعالى للمؤمن أن يتزوج بالحرائر من المؤمنات فقد أباح له أن يتزوج بالحرائر من أهل الكتاب ، وأن يؤتيهن مهورهن مبتغيا بذلك الإحصان والعفة ، دون سفاح أو مخادنة : قال تعالى : ﴿**والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان** ﴾ فمن جحد هذه الأحكام الإيمانية فقد حبط عمله وضاع تعبه وضلَّ سعيه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيات الله يظلمون ، قال تعالى : ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ .

أحكام تتعلق بالصلاة والطهارة

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ

بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾

المفردات : ﴿ **وجوهكم** ﴾ : جمع وجه وهو ما به تقع المواجهة وحده طولا ما بين منبت شعر الرأس إلى منتهى اللحين ، وعرضا ما بين الأذنين . ﴿ **المرافق** ﴾ : جمع مرفق وهو أعلى الذراع وأسفل العضد . ﴿ **الكعبين** ﴾ : العظمان الناتئان عند اتصال الساق بالقدم من الجانبين ﴿ **جنبا** ﴾ : أى أصابتكم جنابة بمجامعة النساء وإنزال المنى .

التفسير

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى عهوده الخاصة بالحلال والحرام فى الطعام والنكاح أخذ يبين ما يقتضيه هذا من الشكر لله والصلاة ، ومفتاحها الوضوء والغسل والتيمم ، وختم الآية ببيان الحكمة فى الطهارة وتذكيرنا بالعهود والمواثيق التى التزمناها

روى عن النبى ﷺ : « مفتاح الجنة الصلاة ، ومفتاح الصلاة الطهور » .

فرائض الوضوء :

إذا أردتم القيام إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، واغسلوا أيديكم إلى المرافق ، فالمرافق تغسل من باب مالايتم الواجب إلا به فهو واجب ، وامسحوا برءوسكم » امسحوا ولو شعرة واحدة عند الشافعى رضى الله عنه ، وربع الرأس عند الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، وعلى كل الرأس عند مالك للاحتياط ، وقد فعل النبى ﷺ هذا كله ، والآية تحتمل كل هذا إذا هاء فى قوله تعالى قد تكون للإلصاق أو للتبعيض أو زائدة صلة ، ولا تنس أن خلافهم رحمة . ﴿ **وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين وهما داخلان كالمرفقين

ومن فرائض الوضوء النية عند الشافعى واستدل بقوله تعالى : ﴿ **إذا قمتم** ﴾ وبحديث « إنما الأعمال بالنيات » والترتيب كذلك لقوله ﷺ : « ابدءوا بما بدأ الله به » وتوسط مسح الرأس بين غسل اليدين والرجلين يدل على الترتيب ، وعلى ذلك فتكون فروض الوضوء : النية ، وغسل الوجه ، وغسل اليدين ، ومسح بعض الرأس وغسل الرجلين والترتيب ، وله سنن كثيرة نذكرها فيما يلى :

سنن الوضـــوء

١ – التسمية فى أوله :

ورد فى التسمية للوضوء أحاديث ضعيفة ، لكن مجموعها يزيدها قوة تدل على أن لها أصلا ، وهى بعد ذلك أمر حسن فى نفسه ، ومشروع فى الجملة .

٢ – الســـواك :

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء » . رواه مالك والشافعى والبيهقى وعن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » رواه أحمد والشافعى والنسائى والترمذى ، ويسنُّ لمن لا أسنان له أن يستاك بإصبعه ، لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : يارسول الله الرجل يذهب فوه أيستاك ؟ قال : نعم – قلت : كيف يصنع ؟ قال : « يدخل إصبعه فى فيه » رواه الطبرانى .

٣ – غسل الكفين ثلاثا فى أول الوضوء :

لحديث أوس ابن أوس الثقفى رضى الله عنه قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ فاستوكف ثلاثا (أى غسل كفيه) رواه أحمد والنسائى ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده فى إناء حتى يغسلها ثلاثا ، فإنه لايدرى أين باتت يده » رواه الجماعة .

٤ – المضمضة ثلاثا :

لحديث لقيط بن صبره رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا توضأت فمضمض » رواه داود البيهقى .

٥ – الاستنشاق والاستنثار ثلاثا :

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا توضأ أحدكم فليجعل فى أنفه ماء ثم ليستنثر » رواه الشيخان وأبو داود .

٦ – تخليل اللحية :

لحديث عثمان رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان يخلّل لحيته » رواه ابن ماجه والترمذى وصححه ، وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا توضأ أخذ كفا من ماء فأدخله تحت حنكه فخلَّل به ، وقال : « هكذا أمرنى ربى عزّ وجلّ » رواه أبو داود والبيهقى

٧ – تخليل الأصابع :

لحديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إذا توضأت فخلل أصابع يديك

ورجليك » رواه أحمد والترمذى ، وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يخلل أصابع رجليه بخنصره » رواه الخمسة إلا أحمد .

٨ – تثليث الغسل :

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنهم قال جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثا ثلاثا ، وقال : « هذا الوضوء فمن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم » رواه أحمد ومسلم والترمذى .

٩ – والتيامن :

أى البدء بغسل اليمين قبل غسل اليسار من اليدين والرجلين ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يحب التيامن فى تنعله وترجله وطهوره وفى شأنه كله » متفق عليه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا لبستم وإذا توضأتم فابدءوا بأيمانكم » رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

١٠ – الدلك :

وهو إمرار اليد على العضو مع الماء أو بعده ، عن عبد الله بن زيد رضى الله عنه : أن النبى ﷺ أتى بثلث مُدّ[١] فتوضأ فجعل يدلك ذراعيه » رواه ابن خزيمة وعنه رضى الله عنه : أن النبى ﷺ توضأ فجعل يقول هكذا يدلك » رواه أبو داود .

١١ – الموالاة :

أى تتابع غسل الأعضاء بعضها إثر بعض بألا يقطع المتوضئ وضوءه بعمل أجنبى يعدُّ فى العرف انصرافا عنه وعلى هذا مضت السنة .

١٢ – مسح الأذنين :

عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ مسح فى وضوئه رأسه وأذنيه ظاهرهما وباطنهما وأدخل أصبعيه فى صماخى أذنيه » رواه أبو داود .

١٣ – إطالة الغرة والتحجيل :

أما إطالة التحجيل فبأن يغسل ما فوق المرفقين والكعبين ، لحديث أبى هريرة عن النبى ﷺ : « إن أمتى يأتون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء » قال أبو هريرة : فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل . رواه أحمد الشيخان ،

---

(١) المدّ مكيال كانوا يكيلون به كاللتر والصاع خمسة أمداد أى خمس لترات

١٤ - الاقتصاد فى الماء وإن كان الاغتراف من البحر :

لحديث أنس رضى الله عنه قال : « كان النبى ﷺ يغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد ، ويتوضأ فقال : « ما هذا السرف يا سعد » ؟ فقال : وهل فى الماء من سرف ؟ قال : « نعم وإن كنت على نهر جار » رواه أحمد وابن ماجه .

١٥ - الدعاء أثناءه :

فى حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ بوضوء فتوضأ ، فسمعته يدعو يقول : « اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسّع لى فى دارى وبارك لى ف رزق » فقلت : يانبى الله سمعتك تدعو بكذا وكذا قال : « وهل تركن من شىء ؟ » رواه النسائى .

١٦ - الدعاء بعده :

لحديث عمر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » رواه مسلم .

١٧ - صلاة ركعتين بعده :

لحديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لبلال : « يا بلال حدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام ، إنى سمعت دَقَّ نعليك بين يدى فى الجنة ، قال : ماعملت عملا أرجى عندى من أنى لم أتطهر طهورا فى ساعة من ليل أو نهار إلا صليت بذلك الطهور ماكُتِبَ لى أن أصلى » متفق عليه .

نواقض الوضوء :

ما خرج من السبيلين ، النوم على غير هيئة المتمكن ، وتلاقى بشرتى ذكر وأنثى ، وعند الأحناف اللمس لاينقض مطلقا ، وقيل بالشهوة ينقض فقط ، ومسّ فرج الآدمى بباطن الكف ، وخالف بعضهم فى هذا ، وليست نواقض الوضوء فى الآية ولكن تعميماً للفائدة ذكرت .

الغســـل :

هو تعميم البدن بالماء الطاهر وله أسباب منها الجنابة وتكون بإيلاج الحشفة أو قدرها من الذكر فى فرج ، أو بنزول المنى ، وكذا الولادة وكذا الحيض والنفاس[1]، فمن كان جنبا أو عنده سبب من أسباب الغسل المتقدمة وأراد الصلاة فعليه بالغسل مع النية « وإن كنتم جنبا فاطهروا » .

التـيمم :

هو ضربتان للوجه واليدين بنية من تراب طاهر له غبار وقيل لا يشترط وله أسباب منها تعذر

---

(١) ولا صلاة على الحائض والنفساء حتى يرتفع الدم وعندئذ تغتسل لاستباحة فريضة الصلاة

استعمال الماء لمرض أو سفر أو أحدث الشخص حدثا أصغر أو حدثا أكبر (كما تقدم فى الغسل) أو طلب الماء فلم يجده أو جاء أحد منكم من الغائط ﴿ أولا مستم النساء ﴾ (جامعتم) فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا .

حكمة مشروعية الوضوء والغسل :

للوضوء والغسل فوائد أهمها :

١ - إن غسل البدن كله وغسل الأطراف يفيد صاحبه نشاطاً وهمة ، ويزيل ما يعرض للجسد من الفتور والاسترخاء ، بسبب الحدث أو بغيره من الأعمال التى تؤثر تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ويعطيها حقها من الخشوع ومراقبة الله تعالى .

إذ المشاهد أنه إذا بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقاع أو الإنزال حصل تهيج عصبى كبير ، يعقبه فتور - بحسب سنة رد الفعل - ولا يعيد نشاطه إلا غسل البدن كله .

٢ - إن النظافة ركن الصحة البدنية فإن الوسخ والأقذار مجلبة الأمراض والأدواء الكثيرة ، ومن ثم نرى الأطباء يشددون فى أيام الأوبئة والأمراض المعدية فى المبالغة فى النظافة ، وجدير بالمسلمين أن يكونوا أصحّ الناس أجساداً وأقلهم أمراضا ، لأن دينهم مبنى على المبالغة فى نظافة الأبدان والثياب والأمكنة ، فإذا هم فعلوا ما أوجبه الدين تنتفى الأسباب التى تولد جراثيم الأمراض عند الناس .

٣ - تكريم المسلم نفسه لدى نفسه وأهله وقومه الذين يعيش معهم ، إذ من كان نظيف البدن والثياب كان جديرا بحضور كل مجتمع ، ولقاء أشراف الناس وفضلائهم ، ومن كان وسخاً قدراً فإنه يكون محتقراً عند كرام الناس ، ولا يعدونه أهلا لأن يحضر مجالسهم ويشعر فى نفسه بالضعة والهوان .

ولأجل هذا ورد الأمر بالغسل والطيب ، ولبس الثياب النظيفة يوم الجمعة ، لأنه يوم يجتمع فيه الناس فى المساجد لعبادة الله تعالى : روى مالك والشافعى وأحمد والبخارى ومسلم من طرق عدة : أن النبى ﷺ قال : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم » أى بالغ مكلف .

وبعد أن بين سبحانه هذه الأحكام وذكر رفع الحرج الذى تم به الإنعام ذكرنا بنعمه التى أنعم بها علينا فقال :

﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا** ﴾ أى وتذكروا أيها المؤمنون إذ كنتم كفاراً متباغضين ، فأصبحتم بهداية الدين إخواناً متحابين ، وتذكروا العهد الذى عاهدكم به حين بايعتم رسوله محمداً ﷺ على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ،

والعسر واليسر ، حين قلتم له سمعنا ما أمرتنا به ونهيتنا عنه ، وأطعناك فيه فلا نعصيك فى معروف ، وكل ماجئتنا به فهو معروف ، وكل نبى بعث فى قوم أخذ عليهم ميثاق الله بالسمع والطاعة ، وقبول الدعوة والدخول فى الدين ، يعد قبولاً لهذا العهد فعلينا أن نعد هذا التذكير خطابا لنا كما عده

السلف من الصحابة خطابا لهم .

﴿ **واتقوا الله** ﴾ فلا تنقضوا عهده وتخالفوا ما أمركم به وما نهاكم عنه ، سواء أكان فى هذه الآيات أم فى غيرها .

﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فلا يخفى عليه ما أضمره كل واحد ممن أخذ عليه الميثاق ، من نية الوفاء به أو عدم الوفاء وما تنطوي عليه السرائر من الإخلاص أو الرياء .

وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى أن يكون بعباده رحيماً لا **يكلفهم** بهابنية عنتهم أو ما يشق عليهم ، ومن مظاهر تلك الرحمة أنه تعالى لما بين وجوب الطهارتين ، وكان المسلم لابد له من طهارة الوضوء مرة أو أكثر من ذلك فى اليوم ، ولابد له من الغسل فى كل أسبوع أو أكثر غالباً ، بيِّن الرخصة فى تركهما عند المشقة أو العجز ، لأن الدين يُسْر لاحرج فيه ولا عنت ، فقال : ﴿ **وإن كنتم مرضى** ﴾ أى وإن كنتم مرضى مرضاً جلديا كالجدرى والجرب وغيرهما كالقروح والجروح ، أو أى مرض يشق فيه استعمال الماء أو يضر.

﴿ أو على سفر ﴾ طال أو قصر مهما كان السبب فيه ، ومن شأن السفر أن يشق فيه الوضوء والغسل .

﴿ **أو جاء أحد منكم من الغائط** ﴾ : الغائط المكان المنخفض من الأرض ويراد به شرعاً قضاء الحاجة من بول وغائط ، أى أحدثتم الحدث الموجب للوضوء عند إرادة الصلاة ونحوها ، كالطواف ، ويسمى : الحدث الأصغر

﴿ أو لامستم النساء ﴾ المراد بالملامسة المباشرة المشتركة بين الرجال والنساء والحدث الموجب للغسل يسمى : الحدث الأكبر .

﴿ **فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه** ﴾ أى إذا كنتم على حال من هذه الأحوال الثلاث : المرض أو السفر أو فقد الماء عند الحاجة إليه لإحدى الطهارتين ، فاقصدوا ترابا أو مكانا من وجه الأرض طاهراً لا نجاسة فاضربوا بأيديكم عليه وألصقوها بوجوهكم **وأيديكم إلى الرسغين ، بحيث يصيبها أثر منه .**

﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾ أى ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم فى هذه الآية ، وفى غيرها ، حرجاً ما ، أى أدنى ضيق وأقل مشقة ، لأنه تعالى غنى عنكم رحيم بكم ، فلا يشرع لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم ﴿ **ولكن يريد ليطهركم به** ﴾ من الأقذار والرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة ، فتكونوا أنظف الناس أبدانا وأزكاهم نفوساً وأصحهم أجساداً وأرقاهم أرواحاً .

﴿ **وليتم نعمته عليكم** ﴾ فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ، والإنسان إنما هو روح وجسد ، والصلاة تطهر الروح وتزكى النفس فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتعود المصلى مراقبة ربه فى السر والعلن وخشيته حين الإساءة ، والرجاء فيه لدى الإحسان والطهارة التى جعلها الله شرطاً

للدخول فى الصلاة ومقدمة لها تطهيراً للبدن وتنشيطه فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها ، فما أجل نعم الله على عبادة وما أجدر من هدى بهداه بدوام الشكر عليه ، ومن ثم ختم الآية الكريمة بقوله : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾[1] أى وليعدكم بذلك لدوام شكركم على تلك النعم الظاهرة والباطنة .

العدالة فى الإسلام والتذكير بنعم الله

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

المفردات : ﴿ **قوامين** ﴾ : جمع قوّام ، وهو المبالغ فى القيام بالشىء والإتيان به مقوماً تاماً كاملاً ﴿ **بالقسط** ﴾ : بالعدل . ﴿ **يجرمنكم** ﴾ : يحملنكم ويكسبنكم ﴿ **خبير** ﴾ الخبرة العلم الدقيق الذى يؤيده الاختبار ﴿ **يبسطوا إليكم أيديهم** ﴾ يقال بسط إليه لسانه إذا شتمه وبسط إليه يده إذا بطش به .

التفسير

بعد أن أمر سبحانه عباده بالوفاء بالعقود عامة ، ثم امتن عليهم بإباحة كثير من الطيبات لهم ، وتحريم ما يضرهم من الطعام إلا فى حال الضرورة ، ثم ذكر حل طعام أهل الكتاب ونسائهم إذا كن محصنات ، ثم أمرهم بالطهارة مع رفع الحرج عنهم : ذكر هنا ما ينبغى أن يكون من معاملتهم سواهم ، سواء أكانوا أعداء أم أولياء ، ثم ذكر وعده لعباده الذين يعملون الصالحات ، ووعيده لمن كفر وكذب بالآيات ، وختمها بذكر المنة الشاملة والنعمة الكاملة ، إذ أنقذهم من أعدائهم وأظهرهم عليهم ، وكانوا على وشك الإيقاع بهم ، ولكن رحمهم وكبت أعداءهم وردهم صاغرين ، ليكون الشكر أتم والوفاء ألزم .

---

(١) من الفوائد التى يحسن بكل مسلم أن يعلمها أن محراب المسجد الجامع فى قرطبة الأندلس – الفردوس المفقود – أن منشىء المحراب الذى اقيم سنة ٣٥٤ هـ على عهد الحكم المستنصر الأموى وبأمره : كتبوا آية الوضوء فى داخل تجويف المحراب ، وكتبوا فى قمته قوله تعالى من سورة آل عمران : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا .. الخ الآيات

وما تزال هذه الآيات باقة إلى اليوم فى هذا المحراب الجليل رغم زوال حكم المسلمين منذ أكثر ن خمسة قرون وسبحان من له الدوام وقد كان هذا المسجد يسع عشرين ألف مصل

﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله** ﴾ : أى ليكن من دأبكم وعادتكم القيام بالحق فى أنفسكم بالإخلاص لله فى كل ماتعملونه من أمر دينكم وأمر دنياكم ، بأن تريدوا بعملكم الخير والتزام الحق ، بدون اعتداء على أحد ، وفى غيركم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء مرضاة الله .

﴿ **شهداء بالقسط** ﴾ الشهادة هنا عبارة عن إظهار الحق للحاكم ليحكم به ، أو إظهاره بقوله بالحكم به أو الإقرار به لصاحبه ، وفى كل حال تكون بالعدل بلا محاباة لمشهود له ولا لمشهود عليه ، لأجل قرابة أو مال أو جاه ولا تركه لفقر أو مسكنة .

فالعدل هو ميزان الحقوق : إذ متى وقع الجور فى أمة لأى سبب زالت الثقة من الناس ، وانتشرت المقاصد وتقطعت روابط المجتمع ، فلا يلبث أن يسلط الله عليهم بعض عباده الذين هم أقرب منهم إلى العدل فيذيقوهم الوبال والنكال ، وتلك سنة الله فى حاضر الأمم وغابرها ولكن الناس لا يعتبرون .

﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا** ﴾ : أى ولا تحملنكم العداوة والبغضاء لقوم على عدم العدل فى أمرهم ، بالشهادة لهم بحقهم ، إذا كانوا أصحاب حق ، أو الحكم لهم بذلك ، فالمؤمن يؤثر العدل على الجور والمحاباة ، ويجعله فوق الأهواء وحظوظ الأنفس ، وفوق المحبة والعداوة مهما كان سببهما

﴿ **اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾ هذه الجملة توكيد للجملة السالفة للعناية بأمر العدل ، وأنه فريضة لا هداوة فيها ، لأنه أقرب لتقوى الله ، والبعد عن سخطه ، وتركه من أكبر المعاصى لما ينشأ عنه من المفاسد التى تقوض نظم المجتمعات ، وتقطع الروابط بين الأفراد ، وتجعل بأسهم بينهم شديدا .

﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ أى الأعمال التى يصلح بها أمر العباد فى أنفسهم وفى روابطهم الاجتماعية ، ومن أهمها العدل فيما بينهم ، وتقوى الله فى جميع أحوالهم .

ثم بين سبحانه : ما وعدهم به بعد ، أن ذكره أولا مجملاً لتتوجه النفس للسؤال عنه ، حتى إذا جاء تأكد فى النفس وتقرر هذا الوعد ، فقال :

﴿ **لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ المغفرة الستر ، والإيمان والعمل الصالح يستران ويمحوان من النفس ما يكون فيها من سوء أثر الأعمال السالفة ، فيغلب عليها حب الحق والخير ، وتكون أهلا للوصول إلى عالم القدس والطهر ، والأجر العظيم هو الجزاء المضاعف على الإيمان والعمل الصالح ، فضلاً من الله ورحمة من لدنه

قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ ﴿ الكفر ﴾ : هنا هو الكفر بالله ورسله ، لا فارق فى ذلك بين كفر بالجميع وكفر بالبعض ، ﴿ وآيات الله قسمان ﴾ : آياته المنزلة على رسله ، وآياته التى أقامها فى الأنفس والآفاق ، كالدلالة على وحدانيته وكماله وقدرته وإرادته ، وعلى صدق رسله فيما يبلغون عنه ، ﴿ الجحيم ﴾ : النار العظيمة كما قال تعالى حكاية عن قوم إبراهيم ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾[1] .

أى أن هؤلاء الكفار المكذبين سيصلون العذاب فى نار عظيمة أعدها الله لمن كفر وكذب بآياته ، لأن نفوسهم قد فسدت وسوء أعمالهم قد ران على قلوبهم ، فأصبحوا حتما عميا لا يبصرون ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم** ﴾ .

روى من طرق عدة أن الآية نزلت فى رجل من قبيلة محارب هم بقتل النبى ﷺ : أرسله قومه لذلك ، وكان بيده سيف وليس مع النبى ﷺ سلاح ، وكان منفرداً روى الحاكم من حديث جابر قال : « قال على رأس رسول الله ﷺ وقال : من يمنعك منى ؟ قال : « الله » فوقع السيف من يده ، فأخذه النبى ﷺ ، وقال : « من يمنعك » ؟ قال : كن خير آخذ ، قال : « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله » قال : أعاهدك ألا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله ، فجاء إلى قومه وقال جئتكم من عند خير الناس » وفى رواية أخرى : « إن السيف الذى كان بيد الأعرابى كان سيف النبى ﷺ علقه فى شجرة نام تحتها وقت الراحة ، فأخذه الرجل ، وجعل يهزه ، ويهم بقتل النبى ﷺ ، ثم سقط من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ وقال من يمنعك منى ؟ قال لا أحد ثم صاح رسول الله ﷺ بأصحابه فأخبرهم وأبى أن يعاقبه » .

وعلى هذا فالمراد : تذكيرهم بنعمة الله عليهم بدفع الشر والمكروه عن نبيهم ﷺ فإنه لو حصل ذلك لكان من المحن الكبرى التى تصيب المسلمين ، وقيل إن المراد تذكيرهم بما أنعم الله عليهم من قوة الاسلام ، وعظمة شوكة المسلمين ، فبعد أن كانوا أذلاء مغلوبين على أمرهم ، بدل الله الحال غير الحال ، وأصبحوا أعـزة بعد الذلة ، وغالبين بعد أن كانوا مقهورين ، فهو سبحانه يذكر المسلمين بوقائع الأعتداء كلها سواء فى ذلك حادثة المحاربى وأمثالها ، لأن حفظه لأولئك السلف ، هو حفظه لذلك الدين القويم ، فالنبى ﷺ قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة وأصحابه هم الذين تلقوها عنه وأدوها لمن بعدهم قولا وعملا ومن فوائد هذا التذكير للمتأخر ترغيبه فى التأسى بالسلف فى القيام بما جاء من الدين من الحق والعدل والبر ومعنى قوله : « إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم » أى شارفوا أن يمدوا أيديهم إليكم بصنوف البلاء ، من قتل ونهب ، فكف الله تعالى بلطفه ورحمته أيديهم عنكم فلم يستطيعوا تنفيذ ما هموا به .

﴿ واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أى واتقوا الله الذى أراكم قدرته على أعدائكم وقت ضعفكم وقوتهم ، وتوكلوا عليه وحده ، فقد أراكم عنايته بمن يكلون أمورهم إليه ، بعد مراعاة سننه والسير عليها فى اتقاء كل ما يخشى ضرُّه وتسوء عاقبته ، لا على أوليائكم وحلفائكم ، لأن الأولياء قد

(١) الآية رقم ٩٧ من سورة الصافات .

تنقطع بهم الأسباب ويجيبون داعى اليأس إذ اشتد البأس ، والخلفاء قد يعذرون كما عذر بنو النضير وغيرهم ، ولكن المؤمن المتوكل على الله إذا هم أن ييأس تذكر أن الله وليه ، وهو الذى بيده ملكوت كل شيء ، وهو الذى يجير ولا يجار عليه ، فتتجدد قوته ويفر منه اليأس فينصره الله ويخذل أعداءه ، كما حدث لأولئك الكملة المتوكلين مع سيد المرسلين ، أيام ضعفهم وقلتهم وفقرهم وتألب الناس كلهم عليهم .

الميثاق وكيف نقضوه

* وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

﴿ **نقيبا** ﴾ : نقيب القوم كبيرهم الذى يعنى بهم وبمصالحهم ويعرف دخائلهم وهو الضامن لهم . ﴿ **عزرتموهم** ﴾ : نصرتموهم ومنعتوهم من الأعداء . ﴿ **لعناهم** ﴾ : طردناهم من رحمتنا . ﴿ **قاسية** ﴾ : شديدة مغلقة لا تقبل خيراً . ﴿ **خائنة** ﴾ : أى خيانة أو نفس خائنة . ﴿ **فأغرينا** ﴾ : الزمناهم وألصقنا بهم .

بعد أن أمرنا الله تعالى بالوفاء باسهود ، وذكرنا بموجب هذا الوفاء من إحلال الحلال وتحريم الحرام ، وتبصيرنا بالاستعداد للصلاة ، ثم ذكرنا بنعمة والمواثيق التى أخذها علينا ، أخذ يعرض لنا حال أهل الكتاب وقد نقضوا الميثاق ، وكيف كان جزاؤهم فى الدنيا والآخرة ، لعل المسلمين يتعظون بمن سبقهم من الأمم .

روى أنه لما نجا بنو إسرائيل من فرعون وصحبه ، أمرهم الله بالسير إلى بيت المقدس وكان يسكنها الكنعانيون الجبابرة ، وقال لهم : إنى جعلتها لكم وطنا فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها وإنى ناصركم وأمر نبيه موسى عليه السلام أن يأخذ من كل سبط نقيبا ، يكون كفيلا بتنفيذ ما أمروا به ، فاختار النقباء وأخذ الميثاق على بنى إسرائيل ، وتكفل له النقباء ، وسار بهم فلما دنا من الأرض المقدسة بعث النقباء يتحسسون الأخبار ، فرأوا أجساما قوية وشوكة وقوة فهابوهم ورجعوا ، وحدثوا قومهم بما رأوا ، وقد

كان موسى أمرهم ألا يخبروا أحداً بما يرون فنقضوا العهد . إلا نقيبين منهم . وهما اللذان قال فيهم القرآن : ﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهماآدخلوا عليهم الباب ﴾[١] ولقد أخذ الله العهود والمواثيق على بنى إسرائيل بواسطة نبيهم موسى عليه السلام ليعملن بالتوراة وليقبلنها بجد ونشاط ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾[٢] ولازال هذا العهد موجوداً فى التوراة وأمرناه أن يختار اثنى عشر نقيبا منهم يتولون أمور الأسباط ويقومون على رعايتهم ، وبعثناهم يتجسسون العدو ليقاتلوه ، وقال الله على لسان موسى : إنى معكم وناصركم على عدوكم ، ومطلع عليكم ومجازيكم على أعمالكم ، ثم أعطاهم العهد الموثق : ﴿ **لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة** ﴾ وأديتموها كاملة تامة الأركان مستوفية الشروط وأنفقتم بعض المال الذى به تزكو نفوسكم وتطهر ، ﴿ **وآمنتم برسلى** ﴾ التى سترسل لكم بعد موسى عليه السلام ، كداود وسليمان ويحيى وزكريا ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، ونصرتموهم ومنعتوهم من الأعداء ، ووقفتم إلى جانبهم فى السراء والضراء وأقرضتم الله قرضا حسنا طيبة به نفوسكم ، مع أنكم تقرضون غنياً له خزائن السموات والأرض قادراً كريما يضاعف الحسنة إلى عشرة أمثالها بل إلى سبعمائة تالله إنكم إن فعلتم هذا :

إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسل ونصرتهم والقرض الحسن) لأكفرن عنكم سيئاتكم فإن الحسنات يذهبن السيئات وأنتم بذلك تستحقون الرضوان ودخول الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ومن يكفر بعد ذلك منكم وينقض الميثاق فقد ضل السبيل الواضح وأخطأ الطريق المستقيم الذى رسمه الله لعباده الأبرار .

وهؤلاء اليهود - كما وصفهم القرآن غير مرة - دأبهم العناد وديدنهم الكفر والعصيان ، وجزاؤهم الطرد والحرمان فبنقضهم الميثاق ، وكفرهم بالله ورسله ، وعدم نصرتهم لهم وعدم تعظيمهم وتوقيرهم ، استحقوا المقت والغضب واللعن والطرد من رحمة الله ، وكان نقضهم الميثاق مفسدا لفطرتهم مدنساً لنفوسهم ، فإن الذنب الذى يرتكبه الإنسان يترك نكتة سوداء فى القلب ، فإذا كثرت المعاصى اسود القلب وأصبح فى أكنة لا يصل إليه النور والهدى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ وكذلك رأيناهم يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويفترون على مريم البتول وابنها عيسى عليه السلام الذى أرسل لهم ليهديهم سواء السبيل ، بل حاولوا قتله وافتخروا بذلك ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ﴾[٥] فبسبب هذا بعدوا عن رحمة الله وطردوا منها شر طردة ، وأصبحت قلوبهم قاسية كالحجارة أو أشد قسوة ، وصاروا يحرفون الكلم عن مواضعه فيقدمون ويؤخرون ويحذفون منه ويغيرون معناه ويبدلون ﴿ ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ﴾[٦] . وقد نسوا حظاً من التوراة كبيرا .

وذلك أن موسى عليه السلام توفى والتوراة التى كتبها وأمر بحفظها - وكانت نسخة واحدة - قد فقدت باتفاق المؤرخين من اليهود والنصارى عند سبى البابليين لهم ، وإغارتهم عليهم ولم يكن عندهم

(١) جزء من الآية ٢٣ من هذه السورة - المائدة .

(٢) جزء من الآيتين رقم ٦٣ ، ٩٣ من سورة البقرة .

(٣) فى أكنة « محجوب عن مصادر الهداية » وذلك قد حكاه الله إذ قال : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » الآية رقم ٢٥ من سورة الأنعام ، ٤٦ من سورة الاسراء .

(٤) جزء من الآية رقم ٧ من سورة البقرة .

(٥) جزء من الآية ١٥٧ من سورة النساء .

(٦) جزء من الآية رقم ٤٦ من سورة النساء .

غيرها ، وما كانوا حفظوها[1] كلها ، نعم هناك أسفار خمسة تنسب إلى موسى عليه السلام ، فيها أخبار عن موته وحياته ، وأنه لم يقم أحد بعده مثله ، كتبت بعد موته بزمن طويل قيل كتبها عزرا الكاهن معتمداً على ما بقى عند شيوخهم الذين بقوا بعد الأسر والقتل .

أفلا تراهم نسوا حظاً منها كبيرا ، وكما يقول القرآن فى موضع آخر ﴿أوتوا نصيبا من الكتاب﴾[2] ومن العلماء من يرى أن معنى الآية أنهم تركوا أحطاماً كثيرة من التوراة والله أعلم بكتابه .

ألا ترى هذا من أعظم المعجزات على صدق الرسول محمد ﷺ : حيث أخبرهم بدخائل نفوسهم ، وأما أنت يا محمد فلا تأس عليهم ، ولا تعجب من عنادهم ، فهاهم قديما قد فعلوا كل شىء ، ولا تزال تطلع فيهم على خيانة بعد خيانة تصدر منهم على سبيل المبالغة ، إلا قليلاً منهم ممن آمن وحسن إيمانه وإذا كان الأمر كذلك فاعف عنهم واصفح إذا تابوا أو بذلوا الجزية إن الله يحب المحسنين .

ولقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب من النصارى ، فنسوا حظاً عظيماً مما ذكروا به ، ولذلك كان جزاؤهم أن الله ألزمهم العداوة والبغضاء ، حتى صارت صفة لازمة لهم لاصقة بهم إلى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعونه ، والمنصف للتاريخ يعرف أن المسيح توفى ولم يكن هناك إنجيل مكتوب ، وقد اضطهد اليهود أتباعه وتلاميذه وشردوهم حتى قتلوا أكثرهم ، فلما هدأت الأحوال ودخل قسطنطين الملك الديانة المسيحية أخذوا يكتبون الأناجيل ولذلك كانت كثيرة ومختلفة متباينة . وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون فى الدنيا ويجازيهم عليه حتما .

من قبائح اهل الكتاب

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾

يا أهل الكتاب قد جاءكم محمد ﷺ مؤيداً بمعجزة القرآن المعجزة الباقية الخالدة ، فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، هذا النبى قد بين لكم كثيرا من الأحكام والآيات التى كنتم تخفونها عن العوام ، فقد روى : أن هذه الآية نزلت حينا كتموا حكم الزانى المحصن ، وأقسم النبى ﷺ على حبرهم[3] ابن صوريا وناشده حتى اعترف به وقد أنكروا غير ذلك من بشارة التوراة والإنجيل بالنبى ﷺ ووصفه ، فبينه القرآن لهم ، ولقد كان بيان القرآن لما كتموه سببا فى إسلام كثير من أحبارهم وعلمائهم . يبين الله بواسطة رسوله كثيراً مما تخفون ، ويعفو عن كثير مما لا تمس الحاجة إليه ، ولا تفيد الدعوة فى شىء ، وهم يعلمون أنهم يخفون غير الذى أبداه الرسول .

(١) المراد حفظ آياتها عن ظهر قلب .
(٢) جزء من الآية ٢٣ من سورة آل عمران .
(٣) الحبر أحد علماء بنى اسرائيل .

﴿ يا أهل الكتاب ﴾ ﴿ قد جاءكم من الله نور ﴾ هو النبى محمد ﷺ أو هو القرآن ، أو هو دينه ، وجاءكم كذلك كتاب مبين بين الحقيقة ، وأظهر المكنون ، يهدى به الله من اتبع رضوانه طرق الخير التى تنجيه من العذاب الأليم ، ويخرج من اتبعه من ظلمات الشرك والخبث والخرافة والأوهام الباطلة ، إلى نور الإسلام وهدى القرآن الذى أنزله بعلمه ومشيئته وتوفيقه ، ويهدى من اتبعه صراطا مستقيماً يوصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

كفر النصارى ومناقشتهم

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ يملك ﴾ : يدفع ويمنعه وأصله الضبط والحفظ التام . ﴿ يهلك ﴾ : يميت ويعدم . ﴿ فترة ﴾ : سكون وهدوء من الرسل والمراد انقطاع الوحي وعدم ظهور الرسل مدة من الزمن .

قال أهل الحق من علماء العقيدة والتفسير :

بعد أن أقام الله سبحانه الحجة على أهل الكتاب عامة ، بين ما كفر به النصارى خاصة . قوله تعالى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ قال أهل الحق . المسيحيون فى هذا فرق ثلاث : الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت (أى إصلاح النصرانية) وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون ، وصار هو المذهب السائد فى أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وإنجلترا وألمانيا ، وقد أزال هذا المذهب كثيرا من التقاليد والخرافات النصرانية التى كانت قبله ، واستبدل بها تقاليد أخرى ، ومع كل هذا فهؤلاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح – الذى هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء – فلا يزالون يقولون بالتثليث ، ويعدون الموحد غير مسيحى ، كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان .

وجميع فرق النصارى فى هذا العصر تقول : إن الله هو المسيح ابن مريم وإن المسيح ابن مريم هو

الله ، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة ، إذ كان بعضهم يفسر الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة ، والقول بها لا ينافى توحيد الخالق ، كما أنه يوجد الآن فى نصارى أوربا وغيرهم موحدون يعتقدون أن المسيح نبى ورسول وليس إلها .

قال الدكتور يوسف البروتستانتى فى تاريخ الكتاب المقدس : « طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر ، الله الآب ، والله الابن والله الروح القدس ، فإلى الأب ينتمى الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفداء وإلى الروح المقدس التطهير ، غير أن هذه الثلاثة الأقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء » والعمدة عندهم فى هذه العقيدة عبارة جاءت فى إنجيل يوحنا وهى : « فى البدء كانت الكلمة والكلمة كان عند الله والله هو الكلمة » وقد فسروا الكلمة بالمسيح ، فيصير معنى الفقرة الثالثة فى إنجيل يوحنا : « والله هو المسيح بن مريم » وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم ، ولاشك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثنيى الشرق والغرب ﴿ **قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا** ﴾ . أى قل أيها النبى الكريم لهؤلاء النصارى : من يقدر على دفع الهلاك والموت عن المسيح وأمه ، بل عن سائر الخلق جميعاً إن أراد أن يهلكهم ويبيدهم .

وخلاصة هذا أن المسيح وأمه من المخلوقات القابلة للفناء والهلاك كسائر أهل الأرض ، فإذا أراد الله أن يهلكهما ويهلك أهل الأرض جميعاً لا يستطيع أحد أن يرد إرادته ، لأنه هو مالك الملك الذى يصرفه بمقتضى مشيئته وإرادته ، وإذا كان المسيح لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ولا عن أمه الهلاك ، كما لا يستطيع أن يدفعه عن غيره ، فكيف يكون هو الله الذى بيده ملكوت كل شىء ؟

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال :

﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أى فمن يملك من الله شيئا إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة ؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف فى السموات والأرض وما بينهما ، أى وما بين العالمين العلوى والسفلى بالنسبة إليكم .

ثم دفع شبهة تتردد فى صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال : ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ أى أن تلك الشبهة التى عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله ، هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالا عجيبة لا تصدر من عامة البشر ، فالله له ملك السموات والأرض ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته ، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة ، كأصول أنواع الحيوان ، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام ، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط ، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى ، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض ، ولا على ألوهية لبعضها ، ولا حلول الإله الخالق فيها فسنة الله فى خلق المسيح ومزاياه لا تدل على كونه إلها وربا ، لأن هذه المزايا فى الخلق كلها بمشيئة الخالق ، ولا يخرج ها المخلوق عن كونه مخلوقاً ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ وبقدرته [illegible] يشاء فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى ، وتارة بدون أب ولا أم كما فى آدم ، وأخرى من أم ولا أب له ، كما فى عيسى عليه السلام .

والخلاصة : إن كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته وإنما يعد بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى ، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون عن علم كسبى يجهله غيرهم أو عن تأييد ربانى لا صنع لهم فيه ولا تأثير .

روى ابن اسحق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أتى رسول الله ﷺ ابن أبى[1] وبحرى بن عمرو وشماس بن عدى من اليهود ، فكلمهم وكلموه ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته فقالوا : ما تخوفنا يا محمد ؟؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه ، كما قالت النصارى ذلك فأنزل الله فيهم : ﴿ **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه** ﴾ إلى آخر الآية . وقد جاء إطلاق هذا اللفظ « أبناء الله » فى الإنجيل على الملائكة وعلى المؤمنين الصالحين ، كما حكاه متى فى وعظ المسيح على الجبل ، من قوله ﴿ **طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون** ﴾ وكقول بولس فى رسالته إلى أهل رومية ﴿ **لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله** ﴾ ومن هذا يعلم أن « ابن الله » يستعمل فى كتبهم بمعنى حبيب الله ، الذى يعامله معاملة الآب لابنه من الرحمة والإحسان والتكريم ، ولكن النصارى تحكموا فى هذا اللقب فجعلوه بمعنى الابن الحقيقى للمسيح وبالمعنى المجازى بالنسبة إلى غيره من الصالحين .

وقد رد الله عليهم بقوله لنبيه : ﴿ **قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء** ﴾ أى قل لهم أيها النبى إذا كان الأمر كما زعمتم فلم يعذبكم الله بذنوبكم فى الدنيا كما ترون ؟ من تخريب الوثنيين[2] لمسجدكم الأكبر ولبلدكم المرة بعد المرة ، ومن إزالة ملككم من الأرض ، والأب لا يعذب ابنه والحبيب لا يعذب حبيبه ، فلستم إذاً أبناء الله ولا أحباؤه ، بل أنتم بشر من جملة ما خلق ، والله سبحانه لا يحابى أحداً ، وإنما يغفر لمن يعلم أنه مستحق للمغفرة ، ويعذب من يعلم أنه مستحق للعذاب ، فارجعوا عن غروركم بأنفسكم وسلفكم وكتبكم ، فكل هذا لا يجزيكم فتيلا ولا قطميرا ، وإنما الذى ينفعكم هو الإيمان الصحيح وصالح الأعمال ، فالجزاء إنما يكون عليها لا على الأسماء والألقاب : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير** ﴾ أى إنه تعالى الخالق ذو التصرف المطلق فى كل شىء بمقتضى علمه وحكمته وعدله وفضله ، وجميع المخلوقات عبيد له لا أبناء ولا بنات: ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[3] وفى ختمها بقوله ﴿ **وإليه المصير** ﴾ إشارة إلى أنه سيعذبهم فى الآخرة على هذا الكفر والدعاوى الباطلة ، وأنهم عندما يصيرون إليه يعلمون أنهم عبيد آبقون يجازون ، لا أبناء ولا أحباء يحابون .

وقد كان اليهود يعتقدون أنهم شعب الله الخاص ميزهم عن سائر البشر فليس لشعب آخر أن يطلب مساواته بهم أو إن كان أصح منهم إيمانا وأصح أعمالا ، ولا ينبغى أن يتبعوا محمداً ﷺ ، لأنه عربى لا إسرائيلى ، الفاضل لا يتبع المفضول ، والله لا يعاملهم إلا معاملة الوالد لأبنائه الأعزاء .

(١) فى ابن اسحق والقرطبى : نعمان بن أحنا وبحرى بن عمر وشماس بن عدى .
(٢) أى الغز والبابلى وهدم الهيكل . (٣) الآية رقم ٩٣ من سورة مريم .

والنصارى قد زادوا عليهم غروراً ، فهم مد ادعوا أن المسيح فداهم بنفسه وأنهم أبناء الله بولادة الروح والمسيح ابنه الحقيقى ويخاطبون الله تعالى بلقب الأب .

وقد جاهد النبى ﷺ غرور اليهود جهاداً عظيماً ، ولم يجد ذلك فيهم شيئاً ، فرفضوا دعوته وردوا ما جاءهم به ، من أن العمل مرضاة الله ، وبه تنال تزكية النفس وإصلاحها ، كما جاهد صلف النصارى وكبرهم[1] وكانوا زمن التنزيل أشد من اليهود فساداً وظلماً وعدوانا ، بشهادة المؤرخين ، ومع كل هذا يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم ليسوا فى حاجة إلى إصلاح دينهم ولا دنياهم كما فعل اليهود مثل ذلك .

والخلاصة – أن هذه الآيات تبين لنا سنة الله فى البشر وأن الجزاء إنما يكون على أعمال لا على الأسماء والألقاب ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل** ﴾ أى قد جاءكم رسولنا الذى بشر تم به فى كتبكم ، وأخبركم به أنبياؤكم فقد جاء على لسان موسى : ﴿ أنه سيقيم نبيا من بنى إسماعيل إخوتكم ﴾ وعلى لسان عيسى : « أنه سيجىء البارقليط روح الحق الذى يعلمكم كل شىء » وفى الإنجيل الرابع إن اليهود أرسلوا اكهنة ولاويين « أحباراً » فسألوا يوحنا عليه السلام : أأنت المسيح ؟ قال : لا ، أأنت إيلياً ؟ قال : لا ، أأنت النبى ؟ قال : لا، هذا الرسول هو محمد بن عبد الله النبى الأمى يبين لكم على فترة من الرسل ، أى على انقطاع منهم وطول عهد بالوحى – جميع ما أنتم فى حاجة إليه من أمور دينكم ودنياكم من عقائد أفسدتها عليكم نزعات الوثنية ، وأخلاق وآداب صحيحة أفسدها عليكم أفراطكم فى الأمور المادية ، والروحية ، وعبادات وأحكام تصلح أمور الأفراد والمجتمع .

ويدخل فى ذلك ما بينه لكم مما كنتم تخفون من الكتاب ، لإقامة الحجة عليكم ، ولولا أنه رسول من عند الله لما تسنى له أن يعرف شيئاً مما جاد به .

وقد أرسل صلوات الله عليه وسلامه وقد فشا التغيير والتحريف فى الشرائع المتقدمة – لتقادم عهدها وطول زمانها – فاختلط فيها الحق بالباطل والصدق بالكذب ، وصار ذلك عذراً ظاهراً فى إعراض الخلق عن العبادات ، إذ لهم أن يقولوا : يا إلهنا عرفنا أنه لابد من عبادتك ، ولكن كيف نعبدك ؟ فبعث الله محمداً ﷺ فى ذلك الحين لإزالة هذا القدر الذى بينه سبحانه بقوله ﴿ **أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير** ﴾ أى : إننا إنما بعثناه إليكم كراهة أن تقولوا ما جاءنا من بشير يبشرنا بحسن العاقبة للمؤمنين ، وينذرنا بسوء عاقبة المفسدين الضالين .

ثم بين أنه أزال هذا العذر فقال : ﴿ **فقد جاءكم بشير ونذير** ﴾ يبين لكم أمر النجاة والخلاص والسعادة الأبدية وأنها منوطة بالإيمان والأعمال وأن الله لا يحابى أحدا . ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ ومن دلائل قدرته نصر نبيه ﷺ وإعلاء كلمته فى الدنيا ، وفى ذلك رمز لكم إن كنتم من ذوى

(١) الصلف التعالى والتكبر .

الأحلام ، إلى مايكون له من المنزلة فى الدار الآخرة روى ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ، قال : دعا رسول الله ﷺ يهود إلى الإسلام فرغبهم فيه وحذرهم فأبوا عليه فقال لهم معاذ بن جبل وسعد بن عبادة وعقبة بن وهب : يا معشر يهود : اتقوا الله ، فوالله لتعلمن أنه رسول الله لقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته فقال رافع بن حر يخله ووهب بن يهودا : إنا ما قلنا لكم هذا ، وما أنزل الله من كتاب من بعد موسى ، ولا أرسل الله بشيرا ولا نذيرا » فأنزل الله الآية .

بنو إسرائيل والأرض المقدسة

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ **ملوكا** ﴾ : أحراراً عندكم ما يكفيكم . ﴿ **المقدسة** ﴾ : الطاهرة ومن الأوثان وعبادتها . ﴿ **ولا ترتدوا على أدباركم** ﴾ : لا ترجعوا عما أمرتم به . ﴿ **جبارين** ﴾ : جمع جبار وهو الطويل القوى المتكبر العاتى مأخوذ من قولهم نخلة طويلة لا ينال ثمرها . ﴿ **يتيهون** ﴾ : التيه الحيرة ومنه صحراء تيهاء إذا تحير فيها سالكها لعدم الأعلام التى يهتدى بها .

وهذا حديث بين نبى الله موسى وبنى إسرائيل يذكرهم فيه بآلاء الله ونعمه التى أنعم بها عليهم ، فقد جعل فيهم أنبياء كثيرين وجعل فيهم ملوكاً أحراراً ، وآتاهم ما لم يؤت أحداً من عالم زمانهم ، وبعد أن ذكرهم بهذه النعم العظمى والآلاء الكبرى ، أمرهم أن يستعدوا للجهاد ، ويفتحوا الأرض المقدسة ، والمقصود بها على الأرجح أرض فلسطين ، وقد أخبرهم بأن الله قد كتب لهم هذه الأرض إن هم دخلوها ، ونهاهم موسى عن الارتداد والنكوص ، حتى لا يقعوا فى الخسران المبين ، ولكن حقيقة اليهود تتغلب ولا تتغير فالجبن والخور والاستكانة ، والحرص على الحياة من أصول طباعهم ، قالوا : ﴿ يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ .

إذاً فأى فضل لهم إذا دخلوها بغير جهاد . وهنا يعمل الإيمان عمله فى رجلين منهم ، فيقولان بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ **ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ ولكن صوت الباطل يصرخ ويصيح فى عرصات الدنيا ، وبكل وقاحة قالوا لموسى : ﴿ **إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ فتأمل معى كيف جعلوا من الله رباً لموسى وحده ﴿ **اذهب أنت وربك** ﴾ أو ليس الله رب العالمين ، أو ليسوا من العالمين ؟ ثم انظر كيف وصل التبجح بهم حداً بعيد المدى فقالوا لنبى الله ﴿ **إنا هاهنا قاعدون** ﴾ .

يرحم الله أصحاب محمد ﷺ عندما قالوا له يوم بدر وكانوا كما وصفهم رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ **اللهم فإنهم جياع فأطعمهم ، اللهم فإنهم حفاة فاحملهم ، اللهم فإنهم عراة فاكسهم** ﴾ .

هؤلاء الجياع العراة الحفاة وقفوا أمام قوم غلاظ الأكباد جفاة الطباع قساة القلوب ، فماذا قال هؤلاء الجياع العراة الحفاة ، لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ، قالوا : ﴿ يا رسول الله لقد آمنا بك وصدقناك ، وعلمنا أن ما جئت به هو الحق ، والله يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، لا يتخلف منا رجل واحد ، فامض على بركة الله ، لعل الله يريك منا ما تقربه عينك ، وإنا لصدق فى الوعد صبر عند اللقاء ، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا ها هنا قاعدون ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، يا رسول الله سالم من شئت وعاد من شئت ، وصل حبال من شئت ، واقطع حبال من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، ودع لنا ما شئت ، والذى بعثك بالحق إن الذى تأخذه من أموالنا أحب إلينا مما تدعه لنا ﴾[1] .

فتأمل معى منطق أصحاب رسول الله الذى باشرت بشاشة الإيمان شغاف قلوبهم فجعلت من المتسحيل ممكنا ، ثم تأمل موقف بنى إسرائيل الذين تربعت الدنيا على قلوبهم ، فجعلتها فى غطاء عن ذكر الله ، فكانوا لا يستطيعون سمعاً ، وفى نهاية المطاف ، قال موسى : ﴿ **رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ فجاء الحكم جازماً من أسرع الحاسبين وأعدل العادلين ، قال : ﴿ **فإنها محرمة عليهم** ﴾ ثم حكم عليهم بالتيه أربعين عاماً جزاء وفاقاً ، فقد حيروا الأنبياء وقتلوهم واعتدوا على حرمات الله ، وإن قبائحهم لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿ **فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ المارقين المتمردين جاء فى كتاب الظلال[2] فى تفسير هذا المشهد ما نصه : ﴿ **إنا لنلمح فى كلمات موسى عليه السلام إشفاقه من تردد القوم ونكوصهم على الأعقاب ، فلقد جربهم من قبل فى مواطن كثيرة ، فى خط سير الرحلة الطويلة ، جربهم وقد أخرجهم من أرض مصر ، وحررهم من الذل والهوان باسم الله وبسلطان الله الذى فرق لهم البحر ، وأغرق لهم فرعون وجنده فإذا هم يمرون على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فيقولون : « يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » وما يكاد يغيب**

(١) يراجع فى هذا النص : ابن اسحاق ، وسيرة ابن هشام ، والطبقات الكبرى وتاريخ الطبرى ، وابن خلدون وابن الأثير وغيرها من كتب السير والتاريخ والمغازى عند الحديث عن غزوة بدر .

(٢) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ج ٢ ص ٦٩٤ إلى ٦٩٨ .

عنهم فى ميقاته مع ربه ، حتى يتخذ السامرى من الحلى التى سرقوها معهم من نساء المصريين عجلاً ذهبا له خوار ، ثم إذا هم عاكفون عليه يقولون : إنه إلٓه موسى الذى ذهب لميقاته ، وجربهم وقد فجر لهم من الصخر ينابيع فى جوف الصحراء ، وأنزل عليهم المن والسلوى[1] طعاماً سائغاً ، فإذا هم يشتهون ما اعتادوا عليه من أطعمة مصر - أرض الذل بالنسبة لهم - فيطلبون بقلها وقثاءهاوفومها وعدسها وبصلها ، ولا يصبرون عما ألفوا من طعم وحياة ، فى سبيل العزة والخلاص والهدف الأسمى الذى يسوقهم موسى إليه وهم يتسكعون ، وجربهم فى قصة البقرة التى أمروا بذبحها فتلكأوا أو تسكعوا فى الطاعة والتنفيذ ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ ، وجربهم وقد عاد من ميقات ربه ومعه الألواح وفيها ميثاق الله عليهم وعهده ، فأبوا أن يعطوا الميثاق وأن يمضوا العهد من ربهم ، بعد كل هذه الآلاء وكل هذه المغفرة للخطايا ، ولم يعطوا الميثاق حتى وجدوا الجبل منتوقاً فوق رؤوسهم « وظنوا أنه واقع بهم » لقد جربهم فى مواطن كثيرة طوال الطريق الطويل ، ثم ها هو ذا معهم على أبواب الأرض المقدسة : أرض الميعاد التى من أجلها خرجوا ، الأرض التى وعدهم الله أن يكونوا فيها ملوكاً ، وأن يبعث من بينهم الأنبياء فيها ليظلوا فى رعاية الله وقيادته ، لقد جربهم فحق له أن يشفق ، وهو يدعوهم دعوته الأخيرة فيحشد فيها ألمع الذكريات وأكبر البشريات وأضخم المشجعات وأشد التحذيرات .

﴿ يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ نعمة الله ووعده الواقع من أن يجعل فيهم أنبياء ويجعلهم ملوكاً وإيتائه لهم بهذا وذلك ما لم يؤت أحداً من العالمين، حتى ذلك التاريخ والأرض المقدسة التى هم مقدمون عليها مكتوبة لهم بوعد الله ، فهى إذن يقين ، وقد رأوا من قبل كيف صدقهم الله وعده ، وهذا وعده الذى هم عليه قادمون ، والارتداد على الأدبار هو الخسران المبين ولكن إسرائيل هى إسرائيل الجبن والتمحل والنكوص على الأعقاب ونقض الميثاق ﴿ قالوا : يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها مكشوفة بلا حجاب ، ولو رفيق من التجمل ، ذلك انهم أمام الخطر ، فلا بقية اذن من تجمل ، ولا محاولة إذن للتشجع ، ولا مجال كذلك للتمجل ، إن الخطر ماثل قريب ، ومن ثم لا يعصمهم فته حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب هذه الأرض ، وان الله قد كتبها لهم - فهم يريدونه نصراً رخيصاً لا ثمن له ولا جهر فيه ، نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى ﴿ إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ﴾ . ولكن تكاليف النصر ليست هكذا كما تريدها يهود وهى فارغة القلوب من الإيمان .

﴿ قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ، ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف من الله فهذان رجلان من الذين يخافون الله ، ينشىء لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين ، ويرزقهما شجاعة فى وجه الخطر

(١) المن ندوة عليه كانوا يجدونها كل صباح على الصخور ، والسلوى طائر كطائر السمان يقع فى أيديهم بلا جهد حتى يذبحوه ويأكلوه .

الموهوم ، وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان فى ساعة الشدة ، وقيمة الخوف من الله فى مواطن الخوف من الناس ، فالله سبحانه لا يجمع فى قلب واحد بين مخافتين : مخافته - جل جلاله - ومخافة الناس ، والذى يخاف الله لا يخاف أحداً بعده ، ولا يخاف شيئاً سواه ﴿ **ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون** ﴾ قاعدة فى علم القلوب وفى علم الحروب ، أقدموا واقتحموا فمتى دخلتم على القوم فى عقر دارهم انكسرت قلوبهم ، بقدر ما تقوى قلوبكم ، وشعروا بالهزيمة فى أرواحهم وكتب لكم الغلب عليهم ﴿ **وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين** ﴾ فعلى الله وحده يتوكل المؤمن ، وهذه هى خاصية الإيمان وعلامته ، وهذا هو منطق الإيمان ومقتضاه ، ولكن لم يقولان هذا الكلام ؟ لبنى إسرائيل ؟! ﴿ **قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ هكذا فى وقاحة العاجز الذى لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مد اللسان ، أما النهوض بالواجب فيكلفه وخز السنان ﴿ **فاذهب أنت وربك** ﴾ فليس بربهم إذا كانت ربوبتيه ستكلفهم القتال . ﴿ **إنا ها هنا قاعدون** ﴾ لا نريد ملكاً ولا نريد عزاً ، ولا نريد أرض الميعاد ودونها لقاء الجبارين !

هذه هى نهاية المطاف بموسى عليه السلام ، نهاية الجهد الجهير والسفر الطويل ، واحتمال الرذالات والإنحرافات والالتواءات من بنى إسرائيل ، نعم ها هى ذى نهاية المطاف ، نكوصاً عن الأرض المقدسة وهو معهم على أبوابها ، ونكولاً عن ميثاق الله وهو مرتبط معهم بالميثاق ، فماذا يصنع وبمن يستجير ؟ ﴿ **قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** ﴾ دعوة فيها الألم وفيها الالتجاء وفيها الاستسلام وفيها بعد ذلك المفاصلة والحسم والتصميم .

وإنه ليعلم أن ربه يعلم أنه لا يملك إلا نفسه وأخاه ، ولكن موسى فى ضعف الإنسان المخذول ، وفى إيمان النبى الكليم ، وفى عزم المؤمن المستقيم ، لا يجد متوجها إلا لله يشكو له بثه ونجواه ، ويطلب إليه الفرقة الفاصلة بينه وبين القوم الفاسقين ، فما يربطه بهم شىء بعد النكول عن ميثاق الله الوثيق ... ما يربطه بهم نسب ، وما يربطه بهم تاريخ ، وما يربطه بهم هذه الدعوة إلى الله وهذا الميثاق مع الله ، وقد فصلوه ، فانبت ما بينه ونبيهم إلى الأعماق .. وما عاد يربطه بهم رباط ، إنه مستقيم على عهد الله وهم فاسقون ، إنه مستمسك بميثاق الله وهم ناكصون ، هذا هو أدب النبى وهذه هى خطة المؤمن ، وهذه هى الآصرة التى يجتمع عليها أو يتفرق عليها المؤمنون ، لا جنس ... ولا نسب ... لا قوم ... لا لغة لا تاريخ ... لا وشيجة كل وشائج الأرض ... إذا انقطعت وشيجة العقيدة ، وإذا اختلف المنهج والطريق . واستجاب الله لنبيه وقضى بالجزاء العدل على الفاسقين ﴿ **وقال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** ﴾ .

وهكذا أسلمهم الله . وهم على أبواب الأرض المقدسة للتيه وحرم عليهم الأرض التى كتبها لهم ، والأرجح أنه حرمها على هذا الجيل منهم حتى تنبت نابتة جديدة وحتى ينشأ جيل غير هذا الجيل .. جيل يعتبر بالدرس وينشأ فى خشونة الصحراء وحريتها ... صلب العود ، جيل غير هذا الجيل الذى أفسده الذل والاستعباد والطغيان فى مصر ، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل ، والذل والاستعباد والطغيان يفسد

فطرة الأفراد وكما يفسد فطرة الشعوب ، ويتركهم السياق هنا فى التيه لا يزيد على ذلك ، وهو موقف تجتمع فيه العبرة النفسية ... إلى الجمال الفنى على طريقة القران فى التعبير .

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس مما قصه الله عليهم من القصص فحين واجهوا الشدة – وهم قلة – أمام نفير قريش فى غزوة بدر ، قالوا لنبيهم ﷺ : إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم ﴿ **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون** ﴾ لكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون وكانت هذه بعض آثار المنهج القرآنى فى التربية بالقصص عامة ... وبعض جوانب حكمة الله فى تفصيل قصة بنى إسرائيل .

نبأ ابنى آدم

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

المفردات : ﴿ **واتل** ﴾ : التلاوة القراءة ﴿ **نبأ** ﴾ : هو الخبر المهم . ﴿ **قربانا** ﴾ : ما يتقرب به إلى الله سبحانه وتعالى من الذبائح وغيرها ﴿ **بسطت إلى يدك** ﴾ مددتها لتعتدى على . ﴿ **تبوء** ﴾ : ترجع بعقاب يعادل الإثم ويساويه . ﴿ **فطوعت له نفسه** ﴾ : شجعت وزينت . ﴿ **سوأة** ﴾ : السوأة العورة والمراد الجثة . ﴿ **ياويلتى** ﴾ : يافضيحتى احضرى والويل حلول الشر والويلة الفضيحة والبلية : أى وافضيحتاه . ﴿ **والأجل** ﴾ : فى الأصل الجناية ، يقال : وأجل عليهم شرا : أى جنى عليهم جناية ثم استعمل فى تعليل الجنايات ثم اتسع فيه فاستعمل فى كل سبب . ﴿ **والبينات** ﴾ : الآيات الواضحة ، ﴿ **والإسراف** ﴾ : البعد عن حد الاعتدال مع عدم المبالاة .

هذه قصة تربوية ، تعبرعن مدرسة من مدارس القرآن ، تفيض عبرة وتتفجر حكمة ، لذا أمر الله

رسوله ومصطفاه ﷺ أن يتلوها على البشرية جمعاء .

وسماها القرآن نبأ لأن النبأ هو الخبر العظيم ، وأضاف النبأ إلى ابنى آدم لأن مكمن العبرة فيهما ، فعليهما تدور أحداث القصة : لقد خلق الله الأرض طاهرة التربة طيبة مباركة ، فملأها أهلها ذنوبا وانحرافات ومخالفات وجرائم وجنايات .

وكأنى بك يا ابن آدم وقد حملت على آلة حدباء إلى مثواك الأخير ، ووضعت على شفير القبر ، وكأنى بالقبر يقول لك بلسان حاله : يا ابن آدم : أتركت الدنيا أم الدنيا تركتك ؟ أجمعت الدنيا أم الدنيا جمعتك ؟ أعجلت المنية أم المنية عاجلتك ؟ يا ابن آدم لقد خرجت من التراب وعدت إلى التراب ... خرجت من التراب بغير ذنب وعدت إلى التراب بكل ذنب ، اعلم يا ابن آدم أن لابد لك من قرين يدفن معك وهو حى ، وتدفن معه وأنت ميت : إن كان كريما أكرمك ، وإن كان لئيما خذلك ، اجعله صالحا فإنه عملك .

أول جريمة وقعت على ظهر الأرض : الحسد عندما حسد إبليس آدم فخالف أمر الله فى السجود له ، ووسوس له حتى أخرجه من الجنة ، ثم حسد قابيل هابيل ، وكانت الجريمة الثانية القتل ، والقرآن الكريم عندما ذكر هذه القصة نص على مكمن العبرة فيها ، فقال : ﴿ **إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر** ﴾ وإن كان المفسرون قد ذكروا أسبابا لتقديم هذا القربان ، نذكر بعضها فنقول وبالله التوفيق :

عن ابن عباس قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها . وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخوالد ميمة : أنكحنى أختك وأنكحك أختى ، فقال : لا أنا أحق بأختى ، فقربا قربانا فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع فقتله .

وروى ابن أبى حاتم باسناده ، عن محمد بن على بن الحسين ، قال : قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل : إن ربى عهد إلى أنه كائن من ذريتى من يقرب القربان فقربا قربانا ، حتى تقر عينى إذا تقبل قربانكما ، فقربا وكان هابيل صاحب غنم ، فقرب أكولة غنم خير ماله ، وكان قابيل صاحب زرع فقرب مشاقة[1] من زرعه ، فانطلق آدم معهما ، ومعهما قربانهما ، فصعدا الجبل فوضعا قربانهما ، ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان ، فبعث الله نارا حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق ، فاحتمل قربان هابيل وترك قربان قابيل ، فانصرفوا وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه ، فقال : ويلك يا قابيل رد عليك قربانك فقال قابيل : أحببته فصليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ، ورد على قربانى ، فقال قابيل لهابيل : لأقتلنك وأستريح منك : دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك ، وكان يتوعده بالقتل ، إلى أن احتبس هابيل ذات عشية فى غنمه ، فقال آدم : يا قابيل أين أخوك ؟ قال : وبعثتنى له

(١) المشاقة من الزرع أسوأ ما نتج من الأرض .

راعيا لا أدرى ؟ فقال آدم : ويلك يا قابيل انطلق فاطلب أخاك ، فقال قابيل فى نفسه : الليلة أقتله ، وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب[1] ، فقال : يا هابيل تقبل قربانك ورد على قربانى ، لأقتلنك ، فقال هابيل : قربت أطيب مالى ، وقربت أنت أخبث مالك ، وإن الله لا يقبل إلا الطيب ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾ فلما قالها غضب قابيل فرفع الحديدة وضربه بها ، فقال : ويلك يا قابيل : أين أنت من الله ؟ كيف يجزيك بعملك : فقتله فطرحه فى حوبة من الأرض ، وحثا عليه شيئا من التراب .

روى العوفى عن ابن عباس قال : من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه ، وإنما كان القربان يقربه الرجل ، فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا : لو قربنا قربانا ، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فتأكله ، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار ، فقربا قربانا وكان أحدهما راعيا ، وكان الآخر حراثا ، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها وقرب الآخر بعض زرعه ، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع ، وإن ابن آدم قال لأخيه : أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد على ، فلا والله لا ينظر الناس إلى وأنت خير منى ، فقال ﴿ **لأقتلنك** ﴾ فقال له أخوه ما ذنبى ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾[2] .

قصة الآيات

لهذه الآيات قصة ، وقصص القرآن كلها عبرة وعظة لأولى الألباب ، وقد وضح المفسرون هذه القصة توضيحاً فيه العبرة والعظة ، قالوا : إن الله تعالى يسوق هذه القصة : ليبين طبائع النفوس الموروثة ، وما يفعله الحسد الكامن والداء الباطن ، الذى يقضى على أقوى سبب وأمتن رابطة ، وهى الأخوة ، وكيف كان السبب فى أول قتل فى الأرض ؟ فإذاً لا تأس يا محمد ولا تعجب من فعل اليهود ﴿ **إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم** ﴾ فهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم ربهم من فضله ، على أن هذا طبع فى أبناء آدم واتل يا محمد على قومك وعلى كل من تبلغه دعوتك ، اتل عليهم نبأ هاماً وخبراً متلبساً بالحق والصدق لا مبالغة فيه ولا كذب ، كما يفعل اليهود فى أخبارهم وكتبهم من التحريف والتبديل : خبر ابنى آدم لصلبه على الأصح ، قيل هما : قابيل (القاتل) وهابيل القتيل ، وكانت عادتهم أن يتزوج ذكر البطن الأولى أنثى البطن الثانية وبالعكس ، فصادف أن قابيل معه توأم جميلة ، ومع هابيل توأم دميمة رغب عنها قابيل ، وطلب توأمه وحسد هابيل عليها ، فلما احتكما إلى أبيهما آدم قال : كل منكم يقرب قرباناً ، والذى يتقبله الله منه بالحريق يأخذ الجميلة ، فقدم قابيل - وكان زارعا - قليلاً من سنبل القمح ، وقدم هابيل - وكان راعيا للغنم - كبشاً سميناً ، فتقبل الله من هابيل ولم يتقبل من قابيل ، فحنق عليه أكثر ، وقال : ﴿ **لأقتلنك** ﴾ قال هابيل : ولم يا أخى وما ذنبى فى أن الله لم يتقبل منك ؟ فأصلح نفسك ، وقدم مخلصاً لوجه الله ، فإنما ﴿ **يتقبل الله من المتقين** ﴾ يا أخى لئن مددت إلى يدك بالسوء تريد أن تقتلنى ظلماً وعدوانا ﴿ **ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك** ﴾ أبدا .

---

(١) أى عائد من المرعى .

(٢) ذكر هذه الروايات الامام السيوطى فى الدر المنثور ج ٢ ص ٢٧٣ .

وذلك لأنى أخاف الله رب العالمين ، الذى تعهدنا بالعناية والرعاية ، وخلقنا على أتم خلق وأكمله ، فمن يتعدى على هذا الخلق السوى فقد استحق العقاب الشديد !! يا أخى : أنى لا أريد مقابلة الجريمة بالجريمة أصلاً ، فإنك إن فعلتها تبوء بإثم قتلى وإثمك الخاص بك ، الذى كان من شأنه عدم قبول قربانك ، فارجع عما أنت مقدم عليه !! وكيف يريد المؤمن أن يأثم أخوه ؟ والجواب أنه أراد ذلك حينما بسط إليه يده بالقتل فعلاً ﴿ **وجزاء سيئة مثلها** ﴾[1] . إنك يا أخى إن فعلتى هذا الجرم فستكون من أصحاب النار الملازمين لهما ، ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ !!! ونرى أنه نفره من القتل بثلاث : الخوف من الله ، أن يبوء بإثمه وإثم نفسه ، كونه من أصحاب النار ومن الظالمين ..

والقاتل مهما كانت نفسه ملوثة بحب الانتقام والقتل ، يرى فى الإقدام على هذا العمل جرماً وفظاعة ويترد ولا ينزال كذلك حتى تشجعه الأمارة بالسوء ﴿ **فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله** ﴾ وهدم ما بناه الله وأتقنه ، ﴿ **فأصبح من الخاسرين** ﴾ وأى خسارة أكبر من هذه الخسارة فى الدنيا والآخرة ؟؟

ويُرى أنه لما قتله ، لم يعرف كيف يوارى جثته ، ويتحير ذلك ﴿ **فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض** ﴾ منقبا على غذائه[2] ، فحفر حفرة ، فرآه قابيل ففطن إلى مثل عمله ، ففعل لأخيه مثلها وواراه فيها ، وقال : ﴿ **ياويلتى** ﴾ احضرى فقد حان وقتك ، ﴿ **أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب** ﴾ ؟ والندم الذى حصل لم يكن على القتل بل على عجزه عن مواراة أخيه .

بسبب هذا الجرم الشنيع والفعلة القبيحة ، التى فعلها ابن آدم ﴿ **كتبنا على بنى إسرائيل** ﴾ وإنما خصهم القرآن بالذكر ، وإن كان القتل محرما قبلهم من الأمم السابقة ، لأن التوراة أول كتاب حرم فيه القتل كتابة بسبب طغيانهم وسفكهم الدماء وقتلهم الأنبياء بسبب الحسد الكامن فى نفوسهم ...

كتبنا على بنى إسرائيل ومن بعدهم : ﴿ **أنه من قتل نفساً بغير نفس** ﴾ أى بدون قصاص ﴿ **أو** ﴾ بدون ﴿ **فساد فى الأرض** ﴾ يزلزل الأمن والطمأنينة ، ويهلك الحرث والنسل وذلك مثل قطع الطريق ، من يفعل شيئاً من ذلك ﴿ **فكأنما قتل الناس جميعاً** ﴾ واعتدى على المجتمع البشرى كله !! أفلا يكون هذا الجرم فظيعاً ؟ إنه لفظيع ، ولذلك كان من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله ﴿ **ومن يقتل مؤمناً متعمداً** ﴾[3] الآية من سورة النساء .

ومن هنا تعلم أن نفس القتيل ليست ملكه ، بل هو ملك للمجتمع الذى يعيش فيه ، فمن اعتدى على نفس ولو كانت نفسه (بالانتحار) استحق عقاب الله الشديد يوم القيامة .. ومن أحيا نفساً بأى سبب كان ، ﴿ **فكأنما أحيا الناس جميعاً** ﴾ ، إذ كل نفس عضو فى المجتمع . ﴿ **ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات** ﴾ الواضحات كالشمس أو أشد ، ﴿ **ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون** ﴾ بعد هذا البيان الساطع .

وهذه الآية تقرر بوضوح مبدأ تكافل الأمة الواحدة وتضامنها كوحدة خاصة .

---

(١) جزء من الآية ٤٠ من سورة الشورى . (٣) آية رقم ٩٣ من سورة النساء .

(٢) ذكر الله الوجه بعض المفسرين ، لكن الوجه الأشهر هو اقتتال الغراب مع أخه ثم حفره له فدفن : يراجع القرطبى ج ٦ ص ١٤١ .

حد الحرابة

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

المفردات : ﴿ **يحاربون** ﴾ : الحرب ضد السلم والأمن على النفس والمال . ﴿ **فسادا** ﴾ : الفساد ضد الصلاح ، وكل من أخرج شيئاً عن وضعه الصالح له يقال إنه أفسده . ﴿ **ينفوا من الأرض** ﴾ : ينقلوا من البلد أو القطر الذى أفسدوا فيه إلى غيره .

روى أحمد والبخارى ومسلم ، وأصحاب السنن ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ﴿ أن ناساً من عُكْل وعرينة [١] قدموا على النبى ﷺ وتكلموا بالإسلام فاستوخموا المدنية (وجدوها رديئة المناخ) فأمر لهم النبى ﷺ بذور (بضع من الإبل) وراع وأمرهم أن يخرجوا فليشربوا من أبوالها وألبانها ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة[٢] كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعى النبى واستاقوا الذور ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم فسملوا أعينهم (كحلوها بمسامير الحديد المحماة) وقطعوا أيديهم وتركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم ﴾[٣] .

زاد البخارى أن قتادة الذى روى الحديث عن أنس قال « بلغنا أن النبى ﷺ عليه وسلم بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة » .

إن هاتين الآيتين تضمننا عقاب المحاربين المفسدين فى الأرض الذين يعملون أعمالاً مخلة بالأمن على الأنفس والأموال والأعراض فى بلاد الإسلام ، معتصمين فى ذلك بقوتهم مع عدم الإذعان لأحكام الشريعة باختيارهم ، وهو أن يطاردهم الحكام ويتتبعوهم حتى إذا قدروا عليهم عاقبوهم بتلك العقوبات ، بعد تقدير كل مفسدة بقدرها ، ومراعاة المصلحة العامة ، ومن تاب قبل القدرة عليه لا يعاقب بما هنا من العقوبات ، بل حكمه حكم سائر المسلمين .

قوله تعالى : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض** ﴾ أى إن جزاء الذين يفعلون ما ذكر عقابهم ما سيذكر بعد على سبيل الترتيب والتوزيع على جناياتهم ومفاسدهم ، لكل منها ما يليق بها من العقوبة .

---

(١) قبيلتان من قبائل العرب . (٢) أرض خارج المدينة ذات حجارة سوداء .

(٣) روى الحديث بالفاظ مختلفة دون اختلاف فى المعنى : القرطبى ج ٦ ص ١٤٨ .

وقد جعل هذا النوع من العدوان محاربة لله ورسوله ، لأنه اعتداء على الحق والعدل الذى أنزل الله على رسوله ، ولما فيه من عدم الإذعان لدينه وشرعه فى حفظ الحقوق ، كما قال تعالى فى المصرين على أكل الربا : ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾[1] فمن لم يذعنوا لأحكام الشريعة يعدوا محاربين لله والرسول ، ويجب على الإمام الذى يقيم العدل ويحفظ النظام أن يقاتلهم على ذلك ، كما فعل أبو بكر بما نعى الزكاة حتى يفيئوا ويرجعوا إلى أمر الله ، ومن رجع منهم فى أى وقت يقبل منه ويكف عنه ، وقوله : ﴿ **ويسعون فى الأض فساداً** ﴾ أى يسعون فيها سعى فساد ، أى مفسدين لما صلح من أمور الناس فى نظم الأجتماع وأسباب المعاش .

وجمهور العلماء على أن الآية نزلت فى قطاع الطريق من المسلمين كما تدل على ذلك حادثه العرنيين الذين خدعوا النبى ﷺ والمسلمين بإظهار الإسلام ، حتى إذا تمكنوا من الإفساد بالقتل والسلب عادوا إلى قومهم وأظهروا شركهم معهم ، وقد عاقبهم النبى ﷺ بمثل عقوبتهم ، عملاً بقوله تعالى ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[2] ويشترط فى المحاربين ثلاثة شروط .

١ – أن يكون معهم سلاح وإلا كانوا غير محاربين .

٢ – أن يكون ذلك فى الصحراء فإن فعلوا ذلك فى البنيان لم يكونوا محاربين كما قال أبو حنيفة والثورى وإسحق .

٣ – أن يأتوا مجاهرة ويأخذوا المال ، فإن أخذوه خفية فهم سراق ، وإن اختطفوه وهربوا فهم منتهبون لا قطع عليهم ، وكذا إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة فاستلبوا منها شيئاً لأنهم لا يرجعون إلى قوة ومنعة ، وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم فهم قطاع طريق . والجزاء الذى يعاقب به أمثال هؤلاء المفسدين أحد أنواع أربعة : إما القتل ، أو الصلب ، أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، أو النفى من الأرض ، وفوض لأولى الأمر الاجتهاد فى تقدير العقوبة بقدر الجريمة .

والحكمة فى عدم التعيين والتفصيل : أن المفاسد كثيرة تختلف باختلاف الزمان والمكان ، وضررها يختلف كذلك ، فمنها القتل ومنها السلب ومنها هتك الأعراض ، ومنها إهلاك الحرث والنسل . أى قطع الشجر وقلع الزرع وقتل المواشى والدواب . أو الجمع بين جريمتين أو أكثر من هذه المفاسد ، فالإمام أن يقتلهم إن قتلوا أو يصلبهم إن جمعوا بين أخذ المال والقتل ، أو يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف إن اقتصروا على أخذ المال ، أو ينفوا من الأرض إن أخافوا الناس وقطعوا عليهم الطرق .

وهؤلاء المفسدون ضوعفت لهم العقوبات ، فالقتل العمد يوجب القتل ، ويجوز لولى الأمر العفو وترك القصاص ، فغلظ ذلك فى قاطع الطريق ، وصار القتل حتما لا هوادة فيه ، ولا يجوز العفو عنه ، وأخذ المال يتعلق به قطع اليد اليمنى فى غير قاطع الطريق ، فغلظ فى قاطع الطريق بقطع الطرفين ، وإن جمعوا بين القتل وأخذ المال جمع فى حقهم بين القتل والصلب ، لأن بقاءهم مصلوبين فى ممر الطرق يكون سببا لاشتهار إيقاع هذه العقوبة فيصير ذلك زاجراً لغيرهم على الإقدام على مثل هذه المعصية ، وإن اقتصروا على مجرد الإخافة عوقبوا بعقوبة خفيفة وهى النفى من الأرض .

(١) سورة البقرة آية : ٢٧٩ .
(٢) جزء من الآية ٤٠ من سورة الشورى .

ثم بين آثار هذه العقوبة فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ **لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾ أى ذلك الذى ذكر من عقابه ذل لهم وفضيحة فى الدنيا ، ليكونوا عبرة وعظة لغيرهم من المسلمين ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم بقدر تأثير إفسادهم فى تدنيس نفوسهم وتدسيتها ، وظلمة أرواحهم بما اجترحت من الذنوب والآثام .

ثم استثنى ممن يستحقون العقوبة من تاب فقال : ﴿ **إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم** ﴾ أى لكم أن تعاقبوا هذا العقاب الذى تقدم ذكره من قطعوا الطريق وعاثوا فى الأرض فساداً ، إلا من تابوا إلى الله وأنابوا من قبل أن يتمكن منهم الحاكم ويقدر على عقوبتهم ، فإن توبتهم حينئذ وهم فى قوة ومنعة جديرة بأن تكون قوية خالصة لله ، صادرة عن اعتقاد بقبح الذنب والعزم على عدم العودة إلى فعل مثله ، وليس سببها الخوف من عقاب الدنيا ، وإذا فهم قد تركوا الإفساد ومحاربة الله ورسوله ، ومن ثم لا يجمع لهم بين أشد العقاب فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، بل يصيرون لمغفرة الله ورحمته كما قال : ﴿ **فاعلموا أن الله غفور رحيم** ﴾ أى فاعلموا أن الله غفور لما فرط من ذنوبهم ، رحيم بهم يرفع العقاب عنهم ، وهذه التوبة ترفع عنهم حق الله كله من عقاب فى الدنيا والآخرة ، ولكن تبقى حقوق العباد فلمن سلبهم التائب أموالهم أيام إفساده أن يطالبوه بها ، ولمن قتل منهم أحداً أن يطالبوه بدمه ، وهم مخيرون بين القصاص والدية والعفو فقد ثبت عن الصحابة إسقاط الحد عمن تاب ، ولم يثبت أن أحداً تقاضى التائب حقاً ولم يسمع له الحاكم وإذا فتوبته لا تصح إلا إذا أعاد الأموال المسلوبة إلى أربابها فإذا رأى ولى الأمر إسقاط حق مالى عن المفسد مراعاة للمصلحة العامة ، وجب أن يضمنه من بيت المال .

طريق الفلاح

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ **الوسيلة** ﴾ : ما يتوصل به إلى تحصيل المقصود وهى القربة وتطلق على منزلة فى الجنة . ﴿ **والجهاد** ﴾ : بذل الطاقة واستفراغ الوسع . ﴿ **تفلحون** ﴾ : أى تفوزون برضى الله فى الدنيا والآخرة . ﴿ **ليفتدوا به** ﴾ : أى ليدفعوه فدية . ﴿ **عذاب مقيم** ﴾ : دائم وباق لا يرفع عنهم .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون** ﴾ خطاب كريم من رب كريم إلى المؤمنين الكرماء ، وقد أمرهم سبحانه فى هذه الآية بثلاثة أوامر ، كلها تشتمل على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم :

أمرهم بالتقوى وابتغاء الوسيلة والجهاد فى سبيله ، ثم رتب سبحانه وتعالى على هذه الأمور الثلاثة أعظم العواقب وأشرف وأنبل الأهداف ، وهل هناك أسمى وأشرف من الفلاح ؟ إنه السعادة الأبدية ، والسعادة مملكة لا يهبها إلا مالك الملك وملك الملوك ، أما التقوى فهى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل ، فمن خاف الله فقد عرفه ومن عرفه فقد أحبه ، ومن أحبه الله كان سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها[١] ، ولسانه الذى يتكلم به ، وقلبه الذى يعى به ، ولئن سأل الله ليعطينه ، ولئن استعاذ به ليعيذنه ، ولئن استنصره لينصرنه ، ويكون جار الله فى الجنة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴿ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[٢] . والتقوى هى السلاح الأقوى ، وهى سنام الأمر وعموده ، ومحلها الصدر ، كما أخبر بذلك الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه ، مشيرا إلى صدره قائلا : « التقوى ها هنا » فهى عمل من أعمال القلوب لا يطلع عليه إلا الله .

والتقوى هى مدار تفريج الكروب وستر العيوب وتكفير الذنوب وإحياء القلوب ، قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[٣] وقال : ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ﴾[٤] وقال : ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾[٥] وهى الكلمة الجامعة التى وصّى الله بها كل الأمم . قال تعالى : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾[٦] وهى حصن الأمان للذرية إذا مات عائلها . قال تعالى : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله ﴾[٧] .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

ويأتى الأمر الثانى بعد التقوى داعيا جماعة المؤمنين إلى ابتغاء الوسيلة ، والوسيلة هى : التقرب إلى الله بالأعمال الصالحة التى شرعها فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، ومنها ما ورد فى الحديث القدسى

(١) وذلك لما جاء فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت نفسى عن شىء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأنا أكره مسارته » .

(٢) جزء من الآية ٧٠ من سورة النساء .

(٣) جزء من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٤) جزء من الآية ٤ من سورة الطلاق .

(٥) جزء من الآية ٥ من سورة الطلاق .

(٦) جزء من الآية ١٣١ من سورة النساء .

(٧) جزء من الآية ٩ من سورة النساء .

الجليل عن الله عز وجل « ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه » . فكل عمل صالح تقربت به إلى الله فهو الوسيلة التى أمر الله عباده المؤمنين بابتغائها . قال جل شأنه : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾(١) .. ولم يؤثر عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أن سألوا غير الله كشف الضر أو جلب النفع ، وليس من معنى الوسيلة أن تسأل غير الله كشف ضر أو جلب نفع ، بل العقيدة الحقة أن تعلم علم اليقين بل حق اليقين وعين اليقين أن الله تعالى هو الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، المعطى المانع ، المحيى المميت ، الباعث الوارث ، الواجد الماجد ، القهار الجبار الغفار ، بيده الأمر كله ﴿ وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(٢) . أخرج الإمام أحمد بإسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كنت رديف النبى ﷺ فقال : يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ قلت : بلى فقال : احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، قد جف القلم بما هو كائن ، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا عليه ، واعلم أن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » .

وقد تأتى الوسيلة ويراد بها أعلى منزلة فى الجنة ، وقد روى الإمام مسلم بإسناده عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن سمع النبى ﷺ يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على فإنه ﷺ صلى على صلاة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « سلوا الله لى الوسيلة فإنه لم يسألها لى عبد فى الدنيا إلا كنت له شهيدا أو شفيعا يوم القيامة » .

ثم يأتى بعد ذلك الأمر بالجهاد فى سبيل الله ، وهو من أعظم الأمور فى الإسلام شأنا قال تعالى : ﴿ وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون ﴾ . والجهاد هو بذل الطاقة واستفراغ الوسع فى سبيل إعلاء كلمة لا إلّه إلا الله ، ويشمل الجهاد بالنفس والمال والكلمة فى سبيل الدعوة إلى الله ، كما يشمل جهاد النفس وكبح جماحها بثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات ، لئلا تتردى فى القبائح : قال تبارك اسمه فى جهاد النفس والمال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾(٣) . وقال تعالى فى شأن الجهاد بأوسع معانيه : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾(٤) . فمن اتقى الله وابتغى إليه الوسيلة بالعمل الصالح وجاهد فى سبيله كان أهلا بتلك الغاية النبيلة والشرف

(١) الآية ٥٧ من سورة الاسراء .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٣) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .
(٤) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

العظيم ، كان أهلا للفلاح والفوز والنجاح ، فاللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم** ﴾ هذا وعيد جاء بعد الوعد ، فقد وعد الله تعالى المؤمنين المتقين المتقربين إلى الله بالعمل الصالح ، المجاهدين فى سبيله وعدهم بالفلاح والفوز المبين ، وهو يشمل سعادة الدارين . قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[١] يأتى الوعيد بعد ذلك بالنار للذين كفروا وجحدوا، سواء أكان كفرهم ناشئا عن شرك أم عناد أم إنكار أم نفاق ، فالكفر كله ملة واحدة . هؤلاء الذين قال الله تعالى فهم : ﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ﴾[٢] .

هؤلاء لو يملكون ما فى الأرض جميعا ومثله معه – كما قال تعالى – ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم : قال تعالى ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم ومالهم من ناصرين ﴾[٣] فيوم القيامة هو يوم العدالة : قال تعالى : ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه كلا إنها لظى ﴾[٤] . وقال جل شأنه : ﴿ فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٥] . وصدق ربنا إذ يقول : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[٦] ويزيد القرآن الكريم هذا المقام توكيدا ، وهذا الوعيد تثبيتا فيقول : ﴿ **يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم** ﴾ أى ثابت دائم . هم يريدون والله يريد غير ما يريدون ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[٧] ويزيد الله تعالى هذا المعنى جلاء فيقول : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[٨] .

• عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له : يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع فيقال : هل تفتدى بقراب الأرض ذهبا ؟ قال فيقول نعم يارب ، فيقول الله تعالى : كذبت قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل فيؤمر به إلى النار » . رواه مسلم وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال « يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة » قال فقلت لجابر بن عبد الله يقول الله ﴿ **يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها** ﴾

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٢) الآية ٢٣ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيتان ٩٠ ، ٩١ من سورة آل عمران .
(٤) الآيات ١١ – ١٥ من سورة المعارج .
(٥) الآيات ٣٣ – ٣٧ من سورة عبس .
(٦) الآيتان ٨٨ – ٨٩ من سورة الشعراء .
(٧) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة الزخرف .
(٨) الآيات ٢١ – ٣٠ من سورة النبأ .

قال اتل أول الآية ﴿ **إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به** ﴾ الآية ألا إنهم الذين كفروا [١] .

حد السرقة

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾
فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **السارق** ﴾ : من يأخذ المال خفية من حرز مثله . ﴿ **نكالا** ﴾ : مأخوذ من النكل وهو القيد ، ولاشك أن هذه عقوبة تمنع الناس من ارتكاب السرقة .

أحكام تتعلق بالسرقة

إن الإسلام قد احترم المال ، من حيث إنه عصب الحياة ، واحترم ملكية الأفراد له ، وجعل حقهم فيها حقا مقدسا ، لا يحل لأحد أن يعتدى عليه بأى وجه من الوجوه ، ولهذا حرم الإسلام : السرقة ، والغصب ، والاختلاس ، والخيانة ، والغش ، والتلاعب بالكيل والوزن ، والرشوة واعتبر كل ما أخذ بغير سبب مشروع أكلا للمال بالباطل . وشدد فى السرقة ، فقضى بقطع يد السارق التى من شأنها أن تباشر السرقة ، وفى ذلك حكمة بينة ، إذ أن اليد الخائنة بمثابة عضو مريض يجب بتره ليسلم الجسم ، والتضحية بالبعض من أجل الكل مما اتفقت عليه الشرائع والعقول ، كما أن فى قطع يد السارق عبرة لمن تحدثه نفسه بالسطو على أموال الناس ، فلا يجرؤ أن يمد يده إليها ، وبهذا تحفظ الأموال وتصان : يقول الله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا . نكالا من الله ، والله عزيز حكيم** ﴾ .

حكمة التشديد فى العقوبة :

والحكمة فى تشديد العقوبة فى السرقة دون غيرها من جرائم الاعتداء على الأموال ، هى ما جاء فى شرح مسلم للنووى[٢] : قال القاضى عياض رضى الله عنه : « صان الله الأموال بإيجاب القطع على السارق ، ولم يجعل ذلك فى غير السرقة ، كالاختلاس والانتهاب والغصب ، لأن ذلك قليل بالنسبة إلى السرقة ، ولأنه يمكن استرجاع هذا النوع بالاستدعاء إلى ولاة الأمور ، وتسهل إقامة البينة عليه بخلاف السرقة ، فإنها تندر إقامة البينة عليها فعظم أمرها ، واشتدت عقوبتها ، ليكون أبلغ فى الزجر عنها » .

(١) رواه القرطبي عن يزيد الفقير عن جابر بعبارة مختلفة والمعنى واحد ج ٦ ص ١٥٩ .
(٢) ص ١٨٠ من الجزء الحادى عشر : طبع محمود وتوفيق سنة ١٩٤٥ .

أنواع السرقة :

والسرقة أنواع :

١ - نوع منها يوجب التعزير . ٢ - ونوع منها يوجب الحد .

والسرقة التى توجب التعزير هى السرقة التى لم تتوفر فيها شروط إقامة الحد ، وقد قضى الرسول ﷺ بمضاعفة الغرم على من سرق مالا قطع فيه : قضى بذلك فى سارق الثمار المعلقة ، وسارق الشاة من المرتع . ففى الصورة الأولى : أسقط عن سارق الثمر والكثر (جمار النخل) ، وحكم : أن من أصاب شيئا منه بفمه . وهو محتاج إليه . فلاشىء عليه ، ومن خرج منه بشىء فعليه غرامة مثليه والعقوبة ، ومن سرق منه شيئاً فى جرينه « الجرن » فعليه القطع إذا بلغت قيمة المسروق النصاب الذى يقطع فيه . وفى الصورة الثانية : قضى فى الشاة التى تؤخذ من مرتعها بثمنها مضاعفا ، وضرب نكال (أى ضربا يكون فيه عبرة لغيره » . وقضى فيما يؤخذ من عطنه بالقطع ، إذا بلغ النصاب الذى يقطع فيه سارقه .

رواه أحمد والنسائى والحاكم وصححه .

السرقة التى عقوبتها الحد نوعان :

الأول : سرقة صغرى : وهى التى يجب فيها قطع اليد .

الثانى : سرقة كبرى ، وهى أخذ المال على سبيل المغالبة ويسمى الحرابة ، وتسمى أيضا قطع الطريق ، وهى خروج طائفة مسلحة فى دار الإسلام لإحداث الفوضى وسفك الدماء ، وسلب الأموال وهتك الأعراض وإهلاك الحرث والنسل ، وعقوبتها : القتل أو الصلب أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف أو النفى من الأرض[1] .

وكلا منا الآن منحصر فى السرقة الصغرى .

تعريف السرقة :

السرقة : هى أخذ الشىء فى خفية ، يقال : استرق السمع : أى سمع مستخفيا ويقال : هو يسارق النظر إليه ، إذا اهتبل غفلته لينظر إليه . وفى القرآن الكريم يقول الله سبحانه : ﴿ إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾[2] فسمى الاستماع فى خفاء استراقا . وفى القاموس : السرقة والاستراق : المجىء مستتراً لأخذ مال الغير من حرز .. وقال ابن عرفة : « السارق عند العرب هو ما جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له » . ويفهم مما ذكره صاحب القاموس وابن عرفة أن السرقة تنتظم أمورا ثلاثة :

١ - أخذ مال الغير .

(١) سبق شرح ذلك عند تفسير قوله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ... الآيات رقم ٣٣ ، ٣٤ من هذه السورة .

(٢) آية ١٨ من سورة الحجر .

٢ - أن يكون هذا الأخذ على جهة الاختفاء والاستتار .
٣ - أن يكون المال محرزاً . أى موضوعا فى مكان خاص وليس فى مكان عام مشاع فلو لم يكن المال مملوكا للغير ، أو كان الأخذ مجاهرة ، أو كان المال غير محرز ، فإن السرقة الموجبة لحد القطع لا تتحقق .

المختلس والمنتهب والخائن غير السارق :

ولهذا لا يعتبر الخائن ، والمنتهب ، ولا المختلس سارقا ، ولا يجب على واحد منهم القطع وإن وجب التعزيز : فعن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ليس على خائن[١] ولا منتهب[٢] ولا مختلس[٣] قطع » . رواه أصحاب السنن والحاكم والبيهقى . وعن محمد بن شهاب الزهرى قال : « إن مروان بن الحكم أتى بإنسان قد اختلس متاعا فأراد قطع يده ، فأرسل إلى زيد بن ثابت يسأله عن ذلك ، فقال زيد : ليس فى الخلسة قطع » . رواه مالك فى الموطأ . قال ابن القيم : وأما قطع يد السارق فى ثلاثة دراهم وترك قطع المختلس والمنتهب والغاصب فمن تمام حكمة الشارع أيضا ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه ، فإنه ينقب الدور ، ويهتك الحرز ، ويكسر القفل ، ولا يمكن لصاحب المتاع الاحتراز بأكثر من ذلك ، فلو لم يشرع قطعه لسرق الناس بعضهم بعضا ، وعظم الضرر واشتدت المحنة بالسراق . بخلاف المنتهب والمختلس ، فإن المنتهب : هو الذى يأخذ المال جهرة بمرأى من الناس فيمكنهم أن يأخذوا على يديه ويخلصوا حق المظلوم ، أو يشهدوا له عند الحاكم . وأما المختلس : فإنه إنما يأخذ المال على حين غفلة من مالكه وغيره ، فلا يخلو من نوع تفريط يمكن به المختلس من اختلاسه ، وإلا فمع كمال التحفظ والتيقظ لا يمكنه الاختلاس فليس كالسارق ، بل هو بالخائن أشبه .

وأيضا فالمختلس إنما يأخذ المال من غير حرز مثله غالبا ، فإنه الذى يغافلك ويختلس متاعك فى حال تخليك وغفلتك عن حفظه ، وهذا يمكن الاحتراز منه غالبا فهو كالمنتهب وأما الغاصب فالأمر منه ظاهر ، وهو أولى بعدم القطع من المنتهب ، ولكن يسوغ كف عدوان هؤلاء بالضرب والنكال والسجن الطويل والعقوبة بأخذ المال .

الصفات التى يجب اعتبارها فى السارق وتستوجب حد القطع :

١ - **التكليف** : بأن يكون السارق بالغا عاقلا ، فلا حد على مجنون ولا صغير إذا سرق لأنهما غير مكلفين ، ولكن يؤدب الصغير إذا سرق ، ولا يشترط فيه الإسلام ، فإذا سرق الذمى أو المرتد فإنه يقطع ، كما أن المسلم يقطع إذا سرق من الذمى .

٢ - **الاختيار** : بأن يكون السارق مختارا فى سرقته ، فلو أكره على السرقة فلا يعد سارقا ، لأن الإكراه يسلبه الاختيار ، وسلب الاختيار يسقط التكليف .

---

(١) الخائن هو من يأخذ المال ويظهر النصح للمالك .
(٢) المنتهب : هو الذى يأخذ المال غصبا مع المجاهرة والاعتماد على القوة .
(٣) المختلس : هو من يخطف المال جهراً ويهرب .

٣ – ألا يكون للسارق فى الشىء المسروق شبهة[1] ، فإن كانت له فيه شبهة فإنه لا يقطع ، ولهذا لا يقطع الأب ولا الأم بسرقة مال ابنهما ، لقول الرسول ﷺ « أنت ومالك لأبيك » وكذلك لا يقطع الابن بسرقة مالهما أو مال أحدهما لأن الابن يتبسط فى مال أبيه وأمه عادة ، ولا يقطع أحد من الأصول والفروع ، أى الآباء والأجداد والأبناء وأبناء الأبناء .

الصفات التى يجب اعتبارها فى المال المسروق :

أولا : أن يكون مما يتمول ويملك ويحل بيعه وأخذ العوض عنه ، فلا قطع على من سرق الخمر والخنزير ، حتى لو كان المالك لهما ذميا لأن الله حرم ملكيتهما والانتفاع بهما بالنسبة للمسلم وللذمى على السواء ، وكذلك لا قطع على سارق أدوات اللهو مثل العود والكمنج والمزمار ، لأنها آلات لا يجوز استعمالها عند كثير من أهل العلم ، فهى ليست مما يتمول ويتملك ويحل بيعه . وأما الذين يبيحون استعمالها فهم يتفقون مع من يحرمها فى عدم قطع يد سارقها لوجود شبهة ، والشبهات مسقطة للحدود .

ثانيا : أن يبلغ الشىء المسروق نصابا ، فإن من العادة التسامح فى الشىء الحقير من الأموال . وذهب جمهور العلماء إلى أن القطع لا يكون إلا فى سرقة ربع دينار من الذهب ، أو ثلاثة دراهم من الفضة ، أو ما تساوى قيمته ذلك لما روى عن عائشة رضى الله عنها : أن الرسول ﷺ « كان يقطع يد السارق فى ربع دينار فصاعدا » وفى رواية مرفوعا « لا تقطع يد السارق إلا فى ربع دينار فصاعدا » .

عقوبة السرقة :

إذا ثبتت جريمة السرقة وجب إقامة الحد على السارق فتقطع يده اليمنى من مفصل الكف وهو الكوع لقوله تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ ولا يجوز العفو عنها من أحد . لا من المجنى عليه ولا من الحاكم . طالما وصلت إلى الإمام ،قال ﷺ : « تجافوا العقوبة بينكم ، فإذا انتهى بها إلى الإمام فلا عفا الله عنه إن عفا » فإذا سرق ثانيا تقطع يده اليسرى ثم إذا عاد إلى السرقة تقطع رجله اليمنى ثم إذا سرق يعزر ويحبس كما قال الإمام الشافعى وغيره . وتحسم يد السارق بعد القطع فتكوى بالنار أو تتخذ أى طريقة من الطرق حتى ينقطع الدم فلا يتعرض المقطوع للتلف والهلاك ، ومن التنكيل بالسارق والزجر لغيره أمر الشارع بتعليق يد السارق المقطوعة فى عنقه .

هذا حكم من أحكام الله تعالى شرعه وفرضه ، وهو أعلم بما يصلح به عباده ، ومن أصدق من الله قيلا ؟ لا أحد ، ومن أصدق من الله حديثا ؟ لا أحد ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[2] ؟ ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[3] إن من أعظم نعم الله تعالى على عباده نعمة الأمن بأوسع معانيه : الأمن على النفس والمال والعقل والعرض ، ومن ثم فقد حد الحدود ، ولله تعالى فرائض فلا تضيعوها ، وحرمات فلا تنتهكوها ،

(١) أى وجه من وجوه الاستحقاق .
(٢) آية ١٤٠ من سورة البقرة .
(٣) آية ٢٣٢ من سورة البقرة ، ٦٦ من سورة آل عمران .

وحدود فلا تعتدوها وقد سكت سبحانه وتعالى عن أشياء رحمة بنا – من غير نسيان – فلا تسألوا عنها .

وليس هناك أى داع يدعو وهؤلاء الذين يهرفون بما لا يعرفون إلى أن يشنوا هذه الحملة الشعواء على حدود الإسلام ، إنهم عندما يعارضون تطبيق الشريعة وينظرون إلى هذه الشريعة الغراء نظرة قاصرة ، إنهم بذلك يمضغون الهواء ، ويفتلون من الرمال حبالا ، فأى شرع بلغ ما بلغ شريعة الله من العدل والحق ؟ إنها تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فالله جل جلاله جعل الحدود جوابر وزواجر ، وكفارات للذنوب وهى فى نفس الوقت فيها الدرس الواعى ، والنصح الرشيد لكل من تسول له نفسه الأمارة بالسوء أن يعكر صفو المجتمع ، ويخل بأمنه ، فيعتدى على حقوق الآخرين ، إذ تنتهى حرية المرء عندما تبدأ حرية غيره ، ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(١) ولقد كان لحد السرقة النصيب الأوفى من الافتراء الذى شنه هؤلاء الذين هاجت عقارب الحقد فى قلوبهم ، وتحركت ثعابين البغضاء فى صدورهم ، فباسم الرحمة الزائفة ، والشفقة الكاذبة اعترضوا ، وباسم الضلال المبين والمدنية المزورة ، قلبوا للإسلام ظهر المجن ، ولبسوا له ثوب النمر ، فنسوا حظا مما ذكروا به ، نسوا أن الذى شرع هذه الحدود هو أرحم الراحمين ، الذى قال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾(٢) بل هو أرأف بنا من الأم بولدها .

روى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ عن الأمين جبريل عن رب العزة أنه قال « إن أردتم رحمتى فارحموا خلقى » ونسوا أن رسول الإسلام هو الذى قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن » . « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

وقد بلغ من جرأتهم أنهم قالوا زورا وبهتانا وظلما وعدوانا قالوا : إن الفـاروق رضى الله عنه عطل حد السرقة فى عام الرمادة .. سبحانك هذا بهتان عظيم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، فما كان لفاروق هذه الأمة أن يعطل حداً من حدود الله ، وهو الذى كان يقول لبطنه الذى تأثر من كثرة ما أكل بالزيت فكان يحدث أصواتا ، كان يقول لبطنه : «قـرقـر أولا تقرقر لن تذوق اللحم حتى يشبع أطفال المسلمين » . إنه لم يعطل حدا ، ولكنه رأى بثاقب فكره وصائب رأيه ، وعميق فهمه ونفاذ بصيرته ، كما اقتضت العدالة ذلك – رأى أن إقامة حد السرقة لم تستوف الشروط ، وإذا لم يستوف الحد شروطه بسبب شبهة المجاعة ، فمن الظلم أن يقام ، فهل يرضون لعمر أن يكون ظالما ، والحد يدرأ بالشبهة ، وعمر هو الذى قال عنه ابن عباس : أكثروا من ذكر عمر . فإنكم إذا ذكر تموه ذكرتم العدل ، وفى ذكر العدل ذكر لله تعالى يا أمير المؤمنين :

إن جاع فى شدة قوم شركتهمو	فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة والدنيا بقبضته	فى الزهد منزلة سبحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته	أو من يحاول للفاروق تشبيها

(١) آية ٤٤ من سورة يونس .
(٢) جزء من الآية ١٥٦ من سورة الأعراف .

يوم اشتهت زوجه الحلوى فقال لها　　من أين لى ثمن الحلوى فأشريها
ما زاد عن قوتنا فالمسلمون به　　أولى ، فقومى لبيت المال رديها

إن إقامة الحدود جانب عظيم من جوانب الرحمة ، إذ كيف يعامل اللص ، وهو الذئب الذى يسطو على الآمنين ؟ كيف يعامل بالإحسان والعطف والرحمة بمفهومها الحقيقى ؟ إن الرحمة لابد أن تصاحبها الحكمة ، لذا قد ختم الله تعالى بقوله تعالى « عزيز حكيم » والحكمة وضع الشىء فى نصابه ، ومن الحكمة أن تقص أنياب الذئب ومخالبه :

ووضع الندى فى موضع السيف بالفتى　　مضر كوضع السيف فى موضع الندى

جىء لأمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ذات يوم بسارق ، فلما هم بقطع يده ، قالت له أم السارق : اعف عنه يا أمير المؤمنين فهذه أول مرة ! قال لها العبقرى الفذ : لو كانت أول مرة لستره الله ، ولعل أمير المؤمنين قد تذكر قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾[1] وقد صدق عمر عندما قال قولته لأم السارق فقد ظهر بعد ذلك واتضح أنه سرق ست عشرة مرة .

وبعد بيان الأحكام المتعلقة بحد السرقة بقى ها هنا كلمة عن ختام الآية بقوله تعالى : « والله عزيز حكيم » فقد سمعها أعرابى من قارئ وقد ختمها بقوله « والله غفور رحيم » فقال له : ما هكذا نزلت : قال له : أتحفظها أيها الأعرابى ؟ قال : لا . ولكنه تعالى عز فحكم فقطع ولو أنه غفر ، رحم ، فما قطع فلما رجع إليها قارئها وجدها كما قرأها الأعرابى « والله عزيز حكيم » وقد قال أحدهم :

يد بخمس مئين عسجد وُديت　　ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقضٌ مالنا إلا السكوت له　　وأن نعوذ بمولانا من النار

فرد عليه أحد الحكماء بهذا البيت :

عز الأمانة أغلاها وأرخصها　　ذل الخيانة فافهم حكمة البارى

فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة .

توبة السارق

قال ﷺ : السارق إذا تاب سبقته يده إلى الجنة ، فإذا لم يتب سبقته إل النار . وسنعرض من أحاديث الصادق المعصوم وسنته الحكيمة فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ أى من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلابد من ردها إليهم . أو بدلها . عند الجمهور ، وقد روى الحافظ أبو الحسن

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة فقال : ما إخاله سرق ! فقال السارق : بلى يا رسول الله ، قال : « اذهبوا به فاقطعوه ثم احسموه ثم ائتونى به » فقطع فأتى به فقال : « تُبْ إلى الله » فقال : تبت إلى الله ، فقال : « تاب الله عليك » .

وروى ابن ماجه بسنده : أن عمر بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى سرقت جملا لبنى فلان فطهرنى ، فأرسل إليهم النبى ﷺ : فقالوا إنا افتقدنا جملا لنا ، فأمر به فقطعت يده وهو يقول : الحمد لله الذى طهرنى منك ، أردت أن تدخلى جسدى النار .

وعن عبد الله بن عمر وقال : سرقت امرأة حليا ، فجاء الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله سرقتنا هذه المرأة ، فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا يدها اليمنى ، فقالت المرأة : هل من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم** ﴾ .

وهذه المرأة هى المخزومية التى سرقت ، وحديثها ثابت فى الصحيحين من رواية الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة التى سرقت فى عهد النبى ﷺ فى غزوة الفتح . فقالوا : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ، فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله . فأتى بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل » فقال له أسامة : استغفر لى يا رسول الله فلما كان العشى قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإنى والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ثم أمر بتلك المرأة التى سرقت فقطعت يدها . قال عائشة : فحسنت توبتها بعد وتزوجت وكانت تأتى بعد ذلك ، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ . وقد روى النسائى أن امرأة كانت تستعير الحلى للناس ثم تمسكه « أى عندها » فقال رسول الله ﷺ لتتب هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله وترد ما تأخذ على القوم ثم قال رسول الله ﷺ : « قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها » .

فما أعظم رحمة الله وما أحلمه بعباده ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم ﴾[1] فيا إلهى إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى فأنت القائل : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾[2] وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

قوله تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾ : جاءت هذه الآية عقب آية التوبة ، ليعلم الله عباده أنه ما تاب عليهم وما قبل توبتهم لحاجته إليهم ، بل كان ذلك كذلك بمحض منه وفضله ، فإنه سبحانه مالك الأمر كله : فالقضاء حكمته والوجود ملكه ، وكل الكائنات طوع إرادته ، فهو المالك المتصرف يغفر لمن يشاء لحكمة يعلمها هو ، ويعذب من يشاء لحكمة يعلمها سبحانه . فقد تنزه فعله عن العبث لأنه الحكيم وليست المشيئة مبنية على

(١) آية ٥٣ من سورة الزمر .
(٢) جزء من الآية ١٥٦ من سورة الاعراف .

هوى أو غرض حاش لله . بل إنها مبنية على العدل المطلق ، والحق المطلق والصدق المطلق : قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾(١) وقال جل شأنه فى حق قوم موسى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٢) وقال عز من قائل : ﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾(٣) .

ولما ذكر سبحانه أن مالك السماوات والأرض المتصرف فى شئون الكون ، ناسب ذلك أن يختم الآية بقوله : ﴿ **والله على كل شيء قدير** ﴾ إذ يلزم أن يكون المتصرف قادراً فما بالك بالإله الأكبر الذى ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾(٤) فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة ، أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا .

من مساويء اليهود

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ **الحزن** ﴾ : ألم يجده الإنسان عند فوت ما يحب ، و﴿ **سارع إلى الشيء** ﴾ : إذا أسرع إليه من خارج ليصل إليه ، و﴿ **أسرع فيه** ﴾ : إذا أسرع فيه وهو داخل فيه ، وهنا كان الكفار داخلين فى ظرف الكفر ، محيطا بهم سرادقه ، و﴿ **الفتنة** ﴾ : الاختبار كما يفتن الذهب بالنار فيظهر

(١) آية ١٧ من سورة فصلت .
(٢) جزء من الآية ٥ من سورة الصف .
(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .
(٤) جزء من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

مقدار ما فيه من الغش والزغل ، و﴿ **السحت** ﴾ : ما خبث من المكاسب وحرم فلزم عنه العار وقبح الذكر ، كثمن الكلب والخنزير والخمر والرشوة فى الحكم . ﴿ **والقسط** ﴾ : العدل

خطاب من الله الكريم إلى نبيه الكريم بعنوان الرسالة ، والذى يقرأ خطاب الله لرسوله فى القرآن يجد الإكرام والحفاوة ، فالله جلت قدرته وتعالت عظمته زاد محمداً ﷺ تكريما وحباه فضلا من لدنه عميما : إذا نادى على نبىّ من أنبيائه ناداه باسمه فترى الخطاب الكريم إلى آدم : ﴿ يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[1] كذلك إلى غيره من الأنبياء : ﴿ يا نوح اهبط بسلام منا ﴾[2] و﴿ يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾[3] ﴿ يا موسى إنى أنا ربك ﴾[4] ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾[5] ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام ﴾[6] ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾[7] ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ﴾[8] .

فإذا أراد سبحانه أن يخاطب حبيبه ومصطفاه ، خاطبه بعنوان الرسالة : ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر ﴾ أو بعنوان النبوة : ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ﴾[9] حتى فى مقام الملاطفة الربانية : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ﴾[10]. وفى مقام التشريع : ﴿ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾[11]. وإذا نادى على نسائه أضافهن إليه بعنوان النبوة ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾[12] إنه التكريم ومن أحق بالتكريم منه ـ نبىّ أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، وبساطة يحيى ، ورحمة عيسى .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

البدر دونك فى حسن وفى شرف والبحر دونك فى خير وفى كرم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له وأنت أحييت أجيالا من العدم

إنه خاتم النبيين ورسول الله رب العالمين ﷺ وفى هذا النص الكريم تسلية له ﷺ ﴿ **لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر** ﴾ لا يكن فى صدرك أى ضيق من أفعال هؤلاء الذين يسارعون فى الكفر ، ولقد بلغ من قبائحهم : أنهم أضافوا إلى المسارعة فى الكفر رذيلة من أخص الرذائل وسجية من أحط السجايا ، أضافواالنفاق ﴿ **يقولون آمنا بأفواههم** ﴾ والله جلت قدرته يحكم على ما فى قلوبهم فيقول ﴿ **ولم تؤمن قلوبهم** ﴾ لقد حسبوا أن لهم ما يشاءون من القول ، ونسوا أن هناك إلَهًا يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[13].

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة البقرة ، ومن الآية ١٩ من سورة الاعراف .
(٢) جزء من الآية ٤٨ من سورة هود .
(٣) جزء من الآية ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الصافات .
(٤) جزء من الآية ١١ ، ١٢ من سورة طه .
(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة ص .
(٦) جزء من الآية ٧ من سورة مريم .
(٧) جزء من الآية ١٢ من سورة مريم .
(٨) جزء من الآية ٥٥ من سورة آل عمران .
(٩) جزء الآية ٤٥ من سورة الأحزاب .
(١٠) جزء من الآية الأولى من سورة التحريم .
(١١) جزء من الآية الأولى من سورة الطلاق .
(١٢) جزء من الآية ٣٢ من سورة الأحزاب .
(١٣) الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البقرة .

إن النفاق مرض اجتماعى خطير ، والمنافقون هم الآكلون على كل الموائد ، إنهم عالة على المجتمع أوقات السّرّاء، وسوس ينخر فى عظام الأمة حين الضراء ، والبأساء : قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران . أبى يغترون أم على يجترئون » فلا يحزنك ما يفعله هؤلاء المارقون ، واصبر واحتسب .

قوله تعالى : ﴿ **ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك** ﴾ : هذا حديث عن اليهود بعد الحديث عن المنافقين . وهل اليهود والمنافقون إلا شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، لقد وصف الله تعالى المنافقين بأنهم إخوان اليهود : قال تعالى فى سورة الحشر : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوايقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبداً . وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾[١] .. والله سبحانه وتعالى يخبر هنا : أن من اليهود من يسمعون الكذب ويسمعون لقوم آخرين لم يأتوك ، فينقلون عنهم الحديث وهم كاذبون . كذلك من صفاتهم المتأصلة فيهم : أنهم يحرفون الكلم ويغيرونه من بعد مواضعه ، ومن صور هذا التحريف قولهم : ﴿ **إن أوتيتم هذا فخذوه ، وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ وبمعرفة سبب النزول يبدو المعنى جليا واضحا : أخرج أحمد ومسلم وأبو داود وابن جرير وابن المنذر عن البراء بن عازب قال : « مر النبى ﷺ بيهودى محمما مجلودا ، فدعاهم فقال : أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قالوا : نعم . فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟ قال : اللهم لا ، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك ، تجد حد الزانى فى كتابنا الرجم ، ولكنه كثر فى أشرافنا ، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع ، فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم ، فقال النبى ﷺ : اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذا أماتوه وأمر به فرجم فأنزل الله ﴿ يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إلى قوله إن أوتيتم هذا فخذوه ﴾[٢] .

وأخرج أحمد والبخارى ومسلم عن عمر قال : « إن اليهود أتوا النبى ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا فقال : ما تجدون فى كتابكم ؟ قالوا نسخم وجوههما ويخزيان ، قال : كذبتم إن فيها الرجم ﴿ **فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ فجاءوا بالتوراة وجاءوا بقارئ لهم أعور يقال له ابن صوريا فقرأ حتى إذا أتى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك فرفع يده فإذا هى تلوح (أى آية الرجم) فقالوا : يا محمد إن فيها الرجم ، ولكننا كنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما ، فلقد يجأ عليها (ينحنى) يقيها الحجارة بنفسه » .

وهكذا وصف الله هؤلاء المارقين بأنهم سماعون للكذب ، وهو ما كانوا يرددونه من الأباطيل ،

(١) آية ١١ من سورة الحشر .
(٢) أفاض القرطبى فى ذكر روايات عدة فى ذلك الشأن ج ٦ ص ١٧٦ ، ١٧٧ وما بعدهما .

وإنكار ذكر النبوة المحمدية فى التوراة ، كما أنهم سماعون لقوم آخرين ، وقد يكون المقصود بهؤلاء القوم الآخرين رؤساء اليهود ، وقد يكون المعنى أنهم يسمعون لهم ، أى يسمعون لما يقال فى مجالس الرسول والمؤمنين ، لأجل أن يبلغوه إلى الذين لم يأتوا رسول الله .

ووصفهم الله تعالى أيضا بأنهم يحرفون الكلم من بعد مواضعه أى يغيرون ما فى التوراة من أحكام .

ثم جاءت جملة ﴿ **يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا** ﴾ جاءت مفسرة لقوله جل شأنه : ﴿ **يحرفون الكلم من بعد مواضعه** ﴾ ذلك لأنهم تآمروا فيما بينهم واتفقوا على أن يخفوا آية الرجم ، وقال بعضهم لبعض : إن أعطاكم محمد حكم الجلد فخذوه وإن لم يعطكم إياه فاحذروه أى احذروا أن تأخذوا الرجم ، وذلك كما تبين لنا فى ذكر سبب النزول ، ثم عقب الله تعالى على مواقف هولاء بقوله ﴿ **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا** ﴾ فقد امتحن الله هؤلاء فى دينهم ، فظهر كفرهم بخاتم الأنبياء ﷺ ، وتجلت الحقائق التى كانوا يثنون صدورهم عليها ، فهم سماعون للكذب ينقلون الأباطيل إلى رؤسائهم ، كما أن رؤساءهم يضلونهم عن سواء السبيل ، يحرفون كلام الله فى التوراة يخفون أحكام الله التى جاء بها القرآن مؤيداً لما فى التوراة ، فظهرت الفتنة ووضح الامتحان ، فسقطوا فى الفتنة ، ومن كان شأنه كذلك فلن تملك له من الله شيئا ، ثم حكم عليهم مولانا بعد ذلك بقوله ﴿ **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم** ﴾ ذلك لأنهم استحبوا العمى على الهدى ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، قال تعالى : ﴿ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[١] .

ما جزاء هؤلاء ؟ قال تعالى : ﴿ **لهم فى الدنيا خزى** ﴾ وذلك بفضح تآمرهم وخداعهم قال تعالى : ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[٢] . هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فقد قال تعالى : ﴿ **ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾ . فالجزاء من جنس العمل ، فهؤلاء لما عظمت جرائمهم ، عظم عذابهم واشتد .

ثم أضاف الله تعالى إلى الصفات السابقة ما يؤكد بعضها ويضيف جديدا إليها : قال تعالى : ﴿ **سماعون للكذب أكالون للسحت** ﴾ فأكد سماعهم للكذب والإرجاف بالشائعات المغرضة ، والأباطيل المجافية للحق ، وتوكيد هذه الصفة دليل قاطع على تأصلها فيهم ، وفى التعبير بصيغة المبالغة ﴿ **سماعون** ﴾ ما يدل على مدى إسرافهم فى تلك الرذيلة ، بحيث أصبحت من الفحش بمكان .. ثم يصفهم تعالى بأنهم ﴿ **أكالون للسحت** ﴾ وهكذا بصيغة المبالغة أيضا . والسحت ما تناهى فى الحرمة فهم المتعاملون بالربا ، الآكلون للرشى ، المجافون للحق . قال تعالى : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل ﴾[٣] . قوله تعالى : ﴿ **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم** ﴾ أى إن جاءوك متحاكمين

(١) الآيات ٨ - ١٠ من سورة الليل .
(٢) من آية رقم ٩ من سورة البقرة .
(٣) من الآية ١٦٠ من سورة النساء .

إليك فأنت مخيّربين الحكم بينهم ، والإعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم ، وهذا التخيير خاص بالمعاهدين دون أهل الذمة ، فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكموا بين الأجانب الذين هم فى بلادهم وإن تحاكموا إليهم ، بل هم مخيرون يرجحون فى كل حال ما يرونه من المصلحة .

وأما أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا ، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام فى البيوع والمواريث وسائر العقود ، إلا فى بيع الخمر والخنزير فإنهم يقرون عليه فيما بينهم دون المسلمين قوله تعالى ﴿ **وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا** ﴾ أى عند إعراضك عنهم فلا تخش منهم أحدا ، ولا تخف منهم ضرراً ، فقد تعهد الله تعالى بحفظك فى قوله : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[1] .
قوله تعالى : ﴿ **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾ هذا توجيه إلهى فيه البيان الشافى والجواب الوافى ، فالإسلام هو العدل والحق والقسط وحكم الله عادل مقسط ، مع الأحباء والأعداء ، فالعدل هو العدل لا يتجزأ ولا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[2] . قوله تعالى : ﴿ **وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ : هذا تعجب من الله تعالى لحال هؤلاء الذين أنزل الله عليهم كتابا فيه هدى ونور هو التوراة ، وفيها حكم الله واضح جلى وهم يعلمون ذلك علم اليقين ، ومع ذلك يحكمونك وبعد تحكيمهم لك وعلمهم بأنك الحق وحكمك الحق ، وأنت مصباح الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات ، مع علمهم بهذا كله يتولون معرضين عن حكم الله ويحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

إن الله تعالى حكم عليهم بقوله : ﴿ **وما أولئك بالمؤمنين** ﴾ إذ كيف يتأتى الإيمان مع الإعراض والتولى عن حكم الله قال تعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[3] فهذا هو منطق الإيمان الصحيح : تحكيم يتبعه عدم الحرج أى حرج مما قضى الله ورسوله ، يصحبه تسليم مطلق وتفويض وإذعان ورضا ..

الحاكمية لله وحده

إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

(١) جزء من الآية ٦٧ من سورة المائدة وسيأتى تفسيرها وذكر أسبابه ولها .
(٢) الآية ٨ من سورة المائدة وقد سبق تفسيرها .
(٣) الآية ٦٥ من سورة النساء .

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

المفردات : ﴿ **التوراة** ﴾ : الكتاب الذى أنزل على موسى . ﴿ **والذين هادوا** ﴾ : هم اليهود . و﴿ **الربانيون** ﴾ : هم المنسوبون إلى الرب بمعنى الخالق المدبر لأمر الملك ، و﴿ **الأحبار** ﴾ : واحدهم حبر وهو العالم . ﴿ **بما استحفظوا من كتاب الله** ﴾ : أى بما طلب إليهم حفظه منه ، و﴿ **شهداء** ﴾ : أى رقباء على الكتاب وعلى من يريد العبث به : ﴿ **قفاه** ﴾ : به تقفية : جعله يقفو أثره كما قال : ﴿ وقفينا من بعده بالرسل ﴾[1] . و﴿ **الفاسقون** ﴾ : أى الخارجون من حظيرة الدين المتجاوزون لأحكامه وآدابه .

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ : إخبار منه جل شأنه بأن التوراة كتاب سماوى أنزله العليم الحكيم على موسى الكليم ، فما حكم به نبى الله محمد ﷺ فى تلك الحادثة التى وقعت بين اليهود ، جاء موافقا لما حكم الله به فى التوراة ، فلا مجال لهؤلاء الذين حاولوا أن يقفوا موقف المساومة من شرع الله المنزل على خاتم الأنبياء وعلى كليم الله موسى : يقولون : ﴿ إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾[2] وقد حكم رسول الله ﷺ حكماً صادقا ، حكم به الله تعالى فى كتاب التوراة . قوله تعالى : ﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا** ﴾ : فى هذا النص إشارة صريحة بأن النبيين دينهم واحد هو الإسلام ، وليس هناك أى اختلاف بينهم فى العقيدة . عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله . فهؤلاء النبيون الذين كلفوا بأحكام التوراة من لدن موسى يحكمون بما فيها للذين هادوا (أى اليهود) ، كذلك يحكم بها الربانيون والأحبار . والمراد بالربانين العلماء العباد ، وبالأحبار العلماء الذين استحفظهم الله كتابه واستودعهم إياه ، وطلب منهم حفظه ، وكانوا عليه شهداء شهادة صدق بأنه من قبل الله . قوله تعالى : ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون** ﴾ : مصداق ذلك قوله جل شأنه : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ﴾[3] . وقوله جل شأنه : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[4] .. فمن تصدى للحكم بما أنزل الله والدعوة إلى الله كان واجبا عليه أن يخشى الله وحده ، فمن أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن

(١) جزء من الآية ٨٧ من سورة البقرة .
(٢) جزء من الآية ٤١ من سورة المائدة وقد سبق تفسيرها .
(٣) جزء من الآية ٣٩ من سورة الأحزاب .
(٤) جزء من الآية ٢٨ من سورة فاطر .

أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته . **قوله تعالى : ﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا ﴾** : المراد بالثمن القليل هو الدنيا والسلطان والجاه ، وقد كان اليهود ينكرون رسالة رسول الله ﷺ ويجحدون ما جاء بشأنه فى التوراة حسداً منهم له ، وبغيا وظلما وعدوانا ، يبتغون من وراء ذلك الرئاسة والزعامة وحب الدنيا ، والدنيا مهما أعطت وتزينت فهى ثمن قليل تافه .

قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ : هذا النص الكريم اقتضتنا الأمانة العلمية أن نوضح أقوال العلماء فيه : فماذا قالوا فى الحكم بغير ما أنزل الله ؟

(١) قال عبد العزيز بن يحيى الكنانى : قوله ﴿ بما أنزل الله ﴾صيغة عموم ، فقوله : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ معناه : من أتى بضد حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ، قال : وهذا حق ، لأن الكافر هو الذى أتى بضد حكم الله تعالى فى كل ما أنزل الله ، فالمراد ترك الحكم بجميع ما أنزل الله ، قال : ويدخل فى ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام ، أما الفاسق فإن لم يأت بضد حكم الله إلا فى القليل وهو العمل ، أما فى الاعتقاد والإقرار فهو موافق ، وقال أيضا : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) فهو كافر ، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل فى هذه الآية . ومثل هذه ما قيل : إن المراد بعموم النفى بحمل (ما) على الجنس ، ولاشك أن من لم يحكم بشىء مما أنزل الله تعالى لا يكون مصدقا ولا نزاع فى كفره .

(٢) وقال ابن الأنبارى : يجوز أن يكون المعنى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ فقد فعل فعلا يضاهى أفعال الكفار[1] ويشبه من أجل ذلك الكافرين ، وهو عدول عن الظاهر .

(٣) ومنهم من تأول الآية على الحكم بمخالفة النص تعمدا من غير جهل به ولا خطأ فى التأويل ، حكاه البغوى عن العلماء عموما .

(٤) ومنهم من تأول على أن ذلك يختلف باختلاف الحاكم ، فإن حكم بما عنده على أنه من عند الله فهو تبديل له يوجب الكفر ، وإن حكم به هوى ومعصية فهو ذنب تدركه المغفرة ، على أصل أهل السنة فى الغفران للمذنبين .

(٥) قال ابن القيم : والصحيح أن الحكم بما أنزل الله يتناول الكفرين الأكبر والأصغر بحسب حالة الحاكم ، فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى الواقعة مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر ، وإن اعتقد أنه غير واجب وأنه مخير فيه مع يقينه أنه حكم الله فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأه فهذا مخطئ له حكم . وروى عنه أيضا : ليس بالكفر الذى يذهبون إليه : رواه الحاكم فى مستدركه وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ... يؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر والحاكم وصححه والبيهقى فى سننه عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : فى الكفر الواقع فى أولى الثلاث : إنه ليس بالكفر الذى تذهبون إليه ...

---

(١) وقد روى هذا المعنى عن ابن عباس : القرطبى ج ٦ ص ١٩٠ .

إنه ليس كفرا ينقل عن الملة ، كفرا دون كفر . وقال ابن طاوس : وليس كمن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله .

(٦) وقال عطاء : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق رواه ابن جرير . وعن على بن الحسين قال : كفر ليس ككفر الشرك ، وظلم ليس كظلم الشرك ، وفسق ليس كفسق الشرك .. فكأنهم حملوا الآية على كفر النعمة لا على كفر الدين(١) ..

(٧) وقيل : فيه إضمار ، أى من لم يحكم بما أنزل الله رداً للقرآن وجحداً لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قال ابن عباس ومجاهد : فالآية عامة على هذا : وقال ابن مسعود والحسن : هى عامة فى كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار ، أى معتقدا ذلك مستحلا له ، فأما من يفعل ذلك وهو معتقد أنه يرتكب محرما فهو من فساق المسلمين ، وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له . وقال عكرمة : قوله تعالى ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ إنما يتناول من أنكر بقلبه وجحد بلسانه ، أما من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقر بلسانه كونه حكم الله ، إلا أنه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله تعالى ، ولكنه تارك له ، فلا يلزم دخوله تحت هذه الآية . وقال ابن عباس : ومن جحد ما أنزل الله فقد كفر ،ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق رواه ابن جرير ... وعلى هذا فالآية متروكة الظاهر ، فإن الحكم وإن كان شاملا لفعل القلب والجوارح . لكنه المراد به هنا عمل القلب وهو التصديق ، ولا نزاع فى كفر من لم يصدق بما أنزل الله تعالى ، وهذا الرأى وهو أن المراد بالآية من جحد حكم الله المنزل فى الكتاب هو اختيار الإمامين الجليلين ابن جرير الطبرى وفخر الدين الرازى ، وإن لم يرتضه ابن القيم حيث جعله تأويلا مرجوحا .

(٨) إن هذه الآية ونظيرتها نزلت ثلاثتها فى الكفار ممن بدل حكم الله كما جاء فى صحيح مسلم من حديث البراء ، فأما المسلم فلا يكفر وإن ارتكب كبيرة ، وقال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطارى وعكرمة وعبيد الله والحسن البصرى وغيرهم ، نزلت فى أهل الكتاب ، وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال : الثلاث آيات التى فى المائدة ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ الآية ، ليس فى أهل الإسلام منها شىء ، هى فى الكفار ، وأخرج ابن حاتم عن عكرمة ، وابن جرير عن الضحاك نحو ذلك .

ولعل وصفهم بالأوصاف الثلاث باعتبارات مختلفة : فلإنكارهم ذلك وصفوا بالكافرين ، ولوضعهم الحكم فى غير موضعه وصفوا بالظالمين ، ولخروجهم عن الحق وصفوا بالفاسقين .

أو أنهم وصفوا بها باعتبار أطوارهم وأحوالهم فى الامتناع عن الحكم ، فتارة كانوا على حال تقتضى الكفر وتارة على أخرى تقتضى الظلم والفسق .

(٩) ويرى بعض المفسرين أنها نزلت فى اليهود خاصة فتكون مختصة بهم ، وبينه بعضهم بقوله :

---

(١) وهو كفر النعمة عند الاباضية : انظرها من ص ١٩٠ من تفسير القرطبى .

(ومن لم يحكم) من هؤلاء الذين سبق ذكرهم (بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) . قال عبد الرزاق عن إبراهيم ولعله النخعى : نزلت الآيات فى بنى اسرائيل . رواه ابن جرير . وقال ابن عباس : فى خصوص بن قريظة والنضير ... وأخرج سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما أنزل الله : (فأولئك هم الكافرون) الظالمون الفاسقون ، فى اليهود خاصة . وقال الشعبى : هى فى اليهود خاصة ، واختاره النحاس[1] قال : ويدل على ذلك ثلاثة أشياء منها : أن اليهود قد ذكروا قبل هذا فى قوله (للذين هادوا) فعاد الضمير عليهم ، ومنها أن سياق الكلام يدل على ذلك ... ألا ترى أن بعدها (وكتبنا عليهم) فهذا الضمير لليهود بالإجماع وأيضا فإن اليهود هم الذين أنكروا الرجم والقصاص . فإن قال قائل : (مَنْ) إذا كانت للمجازاة فهى عامة ، إلا أن يقع دليل على تخصيصها ، قيل له : (مَنْ) هنا بمعنى الذى ، مع ما ذكرناه من الأدلة ، والتقدير : واليهود الذين لم يحكموا بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ... واختار هذا الرأى القرطبى[2] والطبرى . قال الطبرى : الأولى فى كفار أهل الكتاب ، لأن ما قبلها وما بعدها من الآيات نزلت فيهم وهم المعنيون بها ، وهذه الآيات سياق الخبر عنهم ، فكونها خبرا عنهم أولى .

(١٠) وقال آخرون : بل نزلت هذه الآيات فى أهل الكتاب والمراد بها جميع الناس ، مسلموهم وكفارهم ، ونسب هذا القول إلى عمر وعلى رضى الله عنهما ، وهو قول إبراهيم والحسن ومسروق .

(١١) وقال بعضهم : عنى بالكافرين أهل الإسلام ، وبالظالمين اليهود ، وبالفاسقين النصارى ، وهو اختيار أبى بكر بن العربى قال : لأنه ظاهر الآيات .. وفى أحكام الجصاص (٤ - ٩٣) : الأولى بالمسلمين والثانية لليهود والثالثة للنصارى .

وعند الشعبى قال : نزلت (الكافرون) فى المسلمين ، و(الظالمون) فى اليهود ، و(الفاسقون) فى النصارى وعنه قال : هذه الآيات التى فى المائدة ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ فينا أهل الإسلام .. ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ قال فى اليهود .. ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ قال فى النصارى) .. قال الألوسى بعد كلام الشعبى : ويلزم على هذا أن يكون المؤمنون أسوأ حالا من اليهود والنصارى إلا أنه قيل : إن الكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ ، والكافر إذا وصف بالفسق والظلم أشعر بعتوه وتمرده فيه ، وكلام حذيفة يمكن أن يؤيد هذا الرأى .

(١٢) وقال الخوارج (وهم يحتجون بهذه الآية) : إنها تقضى فى أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافرا كذلك احتج الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافرغير مؤمن ، ووجه الاستدلال بها أن كلمة (مَنْ) فيها عامة شاملة لكل من لم يحكم بما أنزل الله ، فيدخل الفاسق المصدق أيضا ، لأنه غير حاكم وعامل بما أنزل الله .

---

(١) القرطبى : ج ٦ ص ١٩٠ .

(٢) جزء ٦ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

والحق الذى لا مراء فيه فى هذه الآية : وهو الرأى المؤيد المنصور : أن الآية عامة فى أهل الكتاب وغيرهم شاملة لليهود والنصارى والمسلمين وأن الحاكم بغير ما أنزل الله فهو كافر ، وأن الكفر فيها هو الكفر المخرج عن الملة والأدلة والآثار الآتية تثبت ذلك وتوضحه :

- أن هذه الآية وإن نزلت فى اليهود حين أنكر واحد الرجم إلا أن القاعدة تقول : العبرة لعموم اللفظ لا بخصوص السبب .
- قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم** ﴾ كلام أدخل فيه لفظ ﴿ **من** ﴾ فى معرض الشرط فيكون للعموم ، فهو يفيد أن هذا غير مختص بطائفة معينة بل كل من ولى الحكم يشمله ذلك ..
- إذا حكم على أهل الكتابين بالكفر والفسق والظلم إذا لم يحكموا بالتوراة والإنجيل فنحن المسلمين من باب أولى إذا لم نحكم بالقرآن ، على أن الصحيح أن الآيات تشمل أهل الكتاب وغيرهم .
- أخرج الحاكم وصححه وعبد الرزاق وابن جرير عن حذيفة أن الآيات الثلاث ذكرت عنده فقال رجل إن هذا فى بنى إسرائيل ، فقال حذيفة : نعم الأخوة لكم بنى اسرائيل ،إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مرة ، كلا والله لتسلكن طريقهم قد الشراك[1] .
- ويروى أن حذيفة سئل عن هذه الآيات : أهى فى بنى إسرائيل ؟ قال : هى فيهم ، ولتسلكن سبيلهم حــذو النعل بالنعل[2] .
- قال ابن جرير عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة فقال : من السحت ، فقالا : وفى الحكم ؟ قال : ذلك الكفر ، ثم تلا ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ ونقل مثل ذلك عن على بن أبى طالب كما أخرجه عن ابن جميلة .
- وقال السدى : يقول الله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله** ﴾ فتركه عمدا أوجار اهم وهو يعلم فهو من الكافرين .
- قال القشيرى : عزى إلى الحسن والسدى أن من ارتشى وحكم بغير حكم الله فهو كافر .
- وعن الحسن : نزلت فى أهل الكتاب ، وهى علينا واجبة .
- وعن عبد الرزاق : عن إبراهيم - ولعله النخعى - نزلت هذه الآيات فى بنى إسرائيل ، ورضى الله لهذه الأمة بها .
- قال الألوس : والوجه أن هذه كالخطاب عام لليهود وغيرهم وهو مخرج مخرج التغليظ ، واختلاف الأوصاف لاختلاف العبارات ، والمراد من الأخرين فيها الكفر أيضا عند بعض المحققين وذلك بحملها على الفسق والظلم الكاملين .
- قال أبو السعود (ومن لم يحكم بما أنزل الله) كائنا من كان دون المخاطبين خاصة ، فإنهم مندرجون فيه اندراجا أوليا ، إن لم يحكم بذلك مستهينا به منكراً له كما يقتضيه ما فعلوه عن تحريف آيات الله تعالى اقتضاء بينا ﴿ **فأولئك هم الكافرون** ﴾ لأستهانتهم به .

---

(١) القرطبى ج ٦ ص ١٩٠ . (٢) الشراك هو سير النعل الذى يمسك بالقدم وقد فسرتها الرواية التى بعدها .

والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبلها أبلغ تقرير ، وتحذير من الإضلال به أشد تحذير ... حيث علق الحكم فيه بالكفر بمجرد ترك الحكم بما أنزل الله تعالى ، فكيف وقد انضم إليه الحكم بخلافه ، لاسيما مع مباشرة ما نُهوا عنه من تحريفه ووضع غيره موضعه ، وادعاء أنه من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا .

- ويجاب على الرأى القائل : ليس مجرد عدم الحكم بما أنزل الله يكون كفرا ، فإن الكفر معناه الجحود والإنكار ، ويجاب عنه بأن الآية لم تقل « ومن لم يعتقد بما أنزل الله » . وقد رد هذا الرأى ابن القيم وأبطله إذ قال : فإن نفس جحوده كفر ، سواء أحكم أو لم يحكم .
- وحكى البغوى عن العلماء عموما أن الكفر عند الحكم بمخالفة النص تعمدا من غير جهل به ولا خطأ فى التأويل .
- ويمكن أن يجاب عن الرأى القائل : كفر دون كفر ، بما قاله الرازى : وهو ضعيف ، لأن لفظ الكفر إذا أطلق انصرف إلى الكفر فى الدين بأنه خلاف ظاهر اللفظ فلا يصار إليه .

قوله تعالى : **﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفـارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾** : هذا منطق العدالة الإلٓهية والله هو الحكم العدل ، لا فرق عنده بين غنى وفقير ولا رفيع ووضيع ، ولا صغير وكبير ، ولا أمير وخفير ، فالكل أمام حكمه سواء . ولما كان الظلم فاشيا فى بنى إسرائيل أوجب الله عليهم أن يقوموا لله بالقسط فى تنفيذ أحكامه ، كما شرع لهم المساواة فى أخذ الحقوق ، وألزمهم بهذه الأحكام إلزاما لا يقبل نقدا ولا تغييرا . فإذا كان الله قد خاطب الجماعة المؤمنة من أمة محمد ﷺ بقوله : **﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾** ... إلى قوله : ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾[1] .. إذا كان الله قد خاطب الأمة بهذا الخطاب وعبر بالقصاص لأنه لفظ القصاص ينبئ عن المساواة ، فإنه جلت قدرته كتب على بنى إسرائيل فى التوراة القصاص فى النفس وما دونها من الأعضاء والجروح ، وفى هذا تفصيل وفضل بيان لأمة محمد ﷺ إذ شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد ناسخ ، وقد بدأت الآية بالقصاص فى النفس إذ بها الحياة وبفقدها الموت ، وانتقل إلى العين إذ هى عضو الرؤية وبالرؤية تتجلى العظمة الإلٓهية فى الكون علوية وسفلية : قال تعالى : ﴿ الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾[2] . وانتقل من العين إلى الأنف لأنه عضو الجمال فى الوجه ، لذا لما أراد الله تعالى فى سياق الذم أن يذكر ذلك الكافر العنيد قال : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين سنسمه على الخرطوم ﴾[3] فشبه أنفه بأنف الفيل .

(١) الآيتان ١٧٨ ، ١٧٩ من سورة البقرة . (٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الملك . (٣) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة (ن) .

ثم انتقل بعد ذلك إلى الأذن وقد أودع الله فيها سر السمع ، والسمع نعمة عظمى ومنفذ من منافذ المعرفة ، لذا فى مجال المعرفة يقدم السمع على البصر : قال تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[(١)] ... ثم ينتقل النص الكريم إلى السن ، وللسن وظيفة صوتية وجمالية وهضمية .

وبعد ذلك تأتى الجروح وهى مختلفة باختلاف مواقعها ، لذا وجبت الدقة فى تنفيذ الحكم بشأنها ، ومن ثم فقد جاءت مقترنة بلفظ القصاص حتى تكون المساواة فيها مرعية ومأخوذة فى الاعتبار .

وبعد الحكم بالقصاص يفتح الله تعالى باب رحمته ، فيرغب ويدعو إلى العفو ، فهو الذى شرع القصاص ، وهو سبحانه الذى رغب فى العفو ، وفى القرآن الكريم آيات تصف المؤمنين بالقصاص مرة والعفو أخرى . فتقرأ قوله تعالى فى القصاص : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾[(٢)] ونقرأ فى العفو : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾[(٣)] ونقرأ فى القصاص : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[(٤)] ونقرأ فى العفو : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾[(٥)] . ونقرأ فى القصاص : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[(٦)] . ونقرأ فى العفو : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾[(٧)] . ونقرأ فى القصاص : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾[(٨)] . ونقرأ فى العفو : ﴿ فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف ﴾[(٩)] ونقرأ فى القصاص هنا : ﴿ **وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس** ﴾ . ونقرأ فى العفو : ﴿ **فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾ أى فمن تصدق بالعفو وعفا عن الجانى ، فذلك العفو كفارة لذنوب من عفا وهو المجنى عليه .

وفى هذا النص الكريم أحكام إليك بيانها :

- استدل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مقرراً ولم ينسخ كما هو المشهور عند الجمهور .
- احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة ، وكذا ورد فى الحديث الذى رواه النسائى وغيره أن رسول الله ﷺ كتب فى كتاب عمرو بن حزم « أن الرجل يقتل بالمرأة » ، وفى الحديث الآخر « المسلمون تتكافأ دماؤهم » .
- إذا ثبتت مشروعية القصاص بهذا النص فإن العفو وارد : عن أنس بن مالك أن الربيع عمة أنس كسرت ثنية جارية ، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا : فأتوا رسول الله ﷺ فقال : « القصاص » فقال أخوها أنس بن النضر يا رسول الله تكسر ثنية فلانة : قال فرضى القوم وعفَوْا وتركوا القصاص فقال رسول الله ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » . أخرجاه فى الصحيحين .

(١) الآية ٧٨ من سورة النحل .
(٢) الآية ٣٨ من سورة الشورى .
(٣) جزء من الآية ٣٧ من سورة الشورى .
(٤) (٥) أجزاء من الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(٦) آية ٤١ من سورة الشورى .
(٧) آية ٤٣ من سورة الشورى .
(٨) جزء من الآية ١٧٨ من سورة البقرة .
(٩) جزء من الآية ١٧٨ من سورة البقرة .

- قوله تعالى : ﴿ والجروح قصاص ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ، قال تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح ، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم ، إذا كان عمدا فى النفس وما دون النفس ، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيها بينهم ، إذا كان عمدا فى النفس وما دون النفس ، (رواه ابن جرير وابن أبى حاتم) .
- الجراح تكون تارة فى مفصل فيجب فيه القصاص بالإجماع كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك ، وأما إذا لم تكن الجراح فى مفصل بل فى عظم فقال مالك رحمه الله فيه القصاص إلا فى الفخذ وشبهها لأنه مخوف خطر ، وقال أبو حنيفة وصاحباه لا يجب القصاص فى شىء من العظام إلا فى السن .
- لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه ، فإن اقتص من قبل الاندمال ثم زاد جرحه فلا شىء له ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد : أن رجلا طعن رجلا بقرن فى ركبته فجاء إلى النبى ﷺ فقال : أقدنى (أى اقتص لى) فقال : حتى تبرأ ، ثم جاء إليه فقال : أقدنى فأقاده ، فقال : يا رسول الله : عرجت فقال : « قد نهيتك فعصيتنى فأبعدك الله وبطل عرجك » ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه .
- لو اقتص المجنى عليه من الجانى فمات من القصاص فلا شىء عليه عندما مالك والشافعى وأحمد بن حنبل ، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم ، وقال أبو حنيفة تجب الدية فى مال المقتص ، وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعى والحكم بن عتيبة وعثمان البستى يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة ويجب الباقى فى ماله .
- قوله تعالى : ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : من عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب . وقال الهيثم بن العريان النخعى : رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية فسألته عن قوله الله (فمن تصدق فهو كفارة له) قال يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به .

أما تفسير النبى ﷺ لتلك الآية فهو القول الفصل حيث قال صلوات ربى وسلامه عليه عنها : « هو الذى تكسر سنه أو تقطع يده أو يقط الشىء منه أو يجرح فى بدنه فيعفو عن ذلك » . قال : فيحط عنه قدر خطاياه فإن كان ربع الدية فربع خطاياه ، وإن كان الثلث فثلث خطاياه ، وإن كانت الدية حطت عند خطاياه كذلك » ... قال ابن جرير : دفع رجل من قريش رجلا من الأنصار فاندقت ثنيته ، فرفعه الأنصارى إلى معاوية ، فلما ألح عليه الرجل قال : شأنك وصاحبك ، قال : وأبو الدرداء عند معاوية ، فقال أبو الدرداء سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من مسلم يصاب بشىء من جسده فيهبه إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة » فقال الأنصارى : أنت سمعته من رسول الله ﷺ فقال : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، فخلى سبيل القرشى .وقال ﷺ « من تصدق بدم

فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت » .

قوله تعالى ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ : جاء ذلك النص الكريم ختاما لتلك الآية لأن سياقها يدل على العدالة والمساواة ، والعدل وضع الشيء فى موضعه ، فمن وضعه فى غير موضعه فقد جافى العدالة ، فأصبح من الظالمين ، فمن لم يحكم بما أمر الله بالعدل فهو ظالم متجاوز لحدود الله ، والظلم مرتعه وخيم ، كما أنه ظلمات يوم القيامة ، والعدل أساس الملك . ودولة الباطل ساعة ، ودول الحق باقية حتى قيام الساعة : قال تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[١] . وقال ﷺ : إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين.وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى بإرسال عيسى عليه السلام وأن قد قفى به على آثار أنبياء بنى إسرائيل ، أى أتبع رسالته برسالتهم ، ثم أخبر سبحانه أن المسيح بعث مصدقا ومؤمنا بالتوراة التى سبقته ، وأنه جل جلاله قد آتاه الإنجيل فيه هدى يهدى الحائرين إلى سبيل الرشاد ، ونور يخرج الضالين من الظلمات إلى طريق الله رب العالمين ..

وكما أن عيسى جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة عاملا بأحكامه ، فقد جاء الإنجيل مصدقا لأحكام التوراة مؤيدا لها ، كما جاء هدى وموعظة للمتقين ، وقد بعث الأنبياء فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، جاء سابقهم ليبشر بلاحقهم ، كما جاء اللاحق مكملا للسابق ، فهم دائما فى حركة بناء لا هدم فيها ، فهم دائما يتابعون الترق وليسوا فى حاجة إلى أن يقاوموا التدلى . قال سيدهم وخاتمهم ﷺ : « مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون به ويقولون : هلا وضعت تلك اللبنة ؟ فأنا تلكم اللبنة وأنا خاتم النبيين .

وإذا كانت التوراة قد اشتملت على الأحكام فإن الإنجيل قد اشتمل على الوصايا الروحية التى تخفف من غلواء اليهود وترقق من قسوة قلوبهم ، كما أحل الإنجيل بعض ما حرم الله على اليهود فى التوراة . وقد حكم الله تعالى للتوراة بالهدى والنور فقال : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور** ﴾ فقد حكم تعالى أيضا للإنجيل بالهدى والنور فقال ﴿ **وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور** ﴾ . وكما أوجب على أهل التوراة أن يحكموا بما فيها كذلك أوجب على أهل الإنجيل أن يحكموا بما فيه قال سبحانه : ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه** ﴾ فإن هم تجاوزوا ذلك فقد خرجوا على أحكام الله فجزاؤهم أن يحكم عليهم بالفسق قال تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

---

(١) الآية ١١٧ من سورة هود . (٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

وجوب الحكم بما أنزل الله تعالى

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

المفردات : ﴿ **مهيمنا** ﴾ : رقيبا وحافظا لما تقدمه من الكتب وشاهدا عليه . ﴿ **شرعة** ﴾ : الشرعة فى اللغة الطريق الذى يتوصل به إلى الماء ، والطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة ، وفى لسان الشرع : ما شرعه الله لعباده من الدين وأحكامه . ﴿ ومنهاجا ﴾ : طريقا مستمرا واضحا. ﴿ **فاستبقوا** ﴾ : تسابقوا وسارعوا إلى الطاعات . ﴿ **أن يفتنوك** ﴾ : أى يميلوا بك من الحق إلى الباطل .

المناسبة :

فيما مضى تكلم القرآن عن التوراة والإنجيل ، وما فيهما من نور وهدى وموعظة للمتقين أما القرآن الكريم والدستور المبين ، الذى نزل على الرسول الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين فها هو ذا .

قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ : المقصود بالكتاب هنا القرآن الكريم ، وإنما عبر عنه بالكتاب لأنه أجلى من الشمس فى ضحاها ، وأعظم وضوحا من القمر إذا تلاها ، وأشد ظهورا من النهار إذا جلاها ، فمن أعرض عما فيه تخبط فى ظلمة الليل إذا يغشاها .

وفى أسلوب الخطاب ﴿ **إليك** ﴾ تشريف لصاحب الرسالة العصماء ، وقد وصف الله تعالى القرآن فى هذه الآية بثلاث صفات : ﴿ **بالحق** ﴾ ﴿ **مصدقا لما بين يديه** ﴾ ﴿ **ومهيمنا عليه** ﴾ .

أما كونه بالحق : فإنه تنزيل من حكيم حميد ، وبأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾[1] وأما كونه مصدقا لما بين يديه من الكتب السابقة ، فذلك لأن التوراة

---

(١) جزء من الآية ١٠٥ من سورة الاسراء .

والإنجيل منزلان أيضا من قبل الله جلت قدرته وعظمت حكمته : قال تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾[١] .

ثم وصف الله القرآن بكونه مهيمنا على الكتب السابقة ، أى شاملاً وكافيا ورقيبا : قال عمر ذات يوم : يا رسول الله إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفنكتب بعضها ؟ قال الصادق المعصوم : أمتهوكون أنتم كما تهوكت اليهود والنصارى ؟ أى متحيرون لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى . قوله تعالى : ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ : هذا تفريغ وترتيب على ما مضى ، لما ثبت أن الكتاب نزل بالحق ، ومصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمناً عليه ، وجب الحكم بما فيه : قال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا . وإنك لتهتدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٢] . فالقرآن روح يحيى الموات ، ونور يبدد غياهب الظلمات ، قال على : يا رسول الله ما المخرج من الفتن ؟ قال الصادق المعصوم : ﴿ عليكم بكتاب الله تبارك وتعالى ﴾ ، وقال ﷺ ﴿ كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾ : هذا تصريح فيه نهى عن اتباع الأهواء ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر : قال تعالى لنبيه داود : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[٤] وهوى النفس قد أعيا الطبيب المداوى ، لذلك قص علينا القرآن الكريم قصة بلعام بن باعورا أحد أحبار بنى إسرائيل فقال : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾[٥] وكيف يتبع الهوى من جاءه الحق ؟ وهل الإيمان إلا اتباع الحق : قال ﷺ : (لا يـؤمن أحـدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) . قوله تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ : عقيدة الأنبياء كلهم واحدة قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٦] فكلهم دعا إلى وحدانية الألوهية والربوبية : قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى

(١) الآيات ٢٩ - ٣٠ من سورة الأحقاف .
(٢) الآيتان الأخيرتان من سورة الشورى .
(٣) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .
(٤) الآية ٢٦ من سورة (ص) .
(٥) الآيتان ١٧٥ ، ١٧٦ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[1] . قال ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات ديننا واحد) .

أما الشرائع والشعائر فقد تختلف فى الأوامر والنواهى حسب ما تقتضيه الحكمة الإلهية فيما يصلح أحوال العباد ، فللأتباع موسى شرعة ومنهاج ، كذلك أتباع المسيح ، تنتهى هذه الشرائع ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، فقد جاءت رسالته خاتمة لما سبقها مهيمنة على كل الرسالات عالمية : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾[2] . وقال سبحانه : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعاملين نذيرا ﴾[3] . ففى القرآن نبأ من قبلنا ، وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا ، وهو بالفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم ، وهو الهادى إلى صراط مستقيم ، لا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا ﴾[4] من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » .

قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم** ﴾ : فمشيئة الله سبحانه صالحة أن يجمعكم على كتاب واحد ونبى واحد ، ولكن اقتضت الحكمة العليا أن تتعدد الأنبياء والشرائع ، ليبلونا أينا أحسن عملا ، وليتبين الذين يطيعون والذين لا يمتثلون الأمر .

قوله جل شأنه : ﴿ **فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون** ﴾ : هذا أمر من الله جلت قدرته ، يريد به سبحانه أن يوجه عباده إلى ما يصلحهم دنيا وأخرى ، وذلك باستباقهم إلى الخيرات والمسارعة إليها والتنافس فيها ، وأول ما يجب الاستباق إليه الإيمان بنبوة سيدنا محمد ﷺ فهو خاتم الأنبياء الذى أمرنا أن نؤمن بكل الأنبياء : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[5] . واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعا** ﴾ وهناك سينبئكم الله بما كنتم فيه تختلفون ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾[6] ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[7] .

قوله تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾ : هذا توكيد بوجوب الحكم بما أنزل الله ، والأمر يقتضى الوجوب ، إذ لم يصرفه عن الوجوب صارف ، فما بالك وقد جاء مقرراً ومؤكداً لما سبق قوله تعالى ﴿ **واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾ وذلك بتغيير أى حكم من الأحكام المنزلة عليك ، كتغيير الرجم بالجلد . إلى غير ذلك ، فما عليك إلا أن تبلغ أحكام الله

---

(١) الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٢) جزء من الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٣) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٤) من الآيتين ١ ، ٢ من سورة الجن .
(٥) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .
(٦) جزء من الآية ١٤٠ من سورة البقرة .
(٧) جزء من الآيات ٢١٦ من سورة البقرة .

كما أنزلت ، فإن تولوا وانصرفوا ولجوا فى طغيانهم يعمهون ﴿ **فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم** ﴾ فما بالك لو أصابهم بذنوبهم كلها ، إذاً ما ترك عليها من دابة ﴿ **وإن كثيراً من الناس لفاسقون** ﴾ أى من هؤلاء الذين يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾[١] وهؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بقوله ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾[٢] ومن على شاكلتهم ومن لف لفهم وذهب مذهبهم ودار فى فلكهم . قوله تعالى ﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون** ﴾ أى أيعرضون عن حكم الله فيبغون حكم الجاهلية ، والجاهلية قد تكون فى العقيدة ، كما فى قوله تعالى ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله ﴾[٣] وقد تكون الجاهلية فى الحكم ، كمن حكم بغير ما أنزل الله ، وقد تكون الجاهلية فى الغريزة والشهوة ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[٤] وقد تكون الجاهلية حماقة كما فى قوله تعالى ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾[٥] وفى جاهلية الحكم يلقى القرآن الكريم باللائمة على هؤلاء الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، فتركوا الحكم بما أنزل الله ، وابتغوا قوانين وأحكاماً من هنا وهناك ، لا تصون عرضاً ولا تحفظ مالاً ولا نفسا ولا عقلاً ولا ديناً ﴿ **ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾ لا أحد فالله هو الحكم العدل ﴿ لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾[٦] وهو الواحد الأحد لا يشرك فى حكمه أحدا سبحانه عز من قائل ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[٧] .

النهى عن موالاة الكافرين

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ **مرض** ﴾ : شك ونفاق . ﴿ **دائرة** ﴾ : ما يدور به الزمان من المصائب والإحن التى تحيط بالمرء إحاطة الدائرة بما فيها . ﴿ **حبطت** ﴾ : بطلت أعمالهم .

(١) جزء من الآية ٤١ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها .
(٢) جزء من الآية ٤٢ من هذه السورة وقد سبق تفسيرها .
(٣) جزء من الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٤) جزء من الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .
(٥) جزء من الآية ٢٦ من سورة الفتح .
(٦) جزء من الآية ٢٧ من سورة الكهف .
(٧) من الآيات ١٢٣ – ١٢٦ من سورة طه .

روى الرواة[1] : أنه جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لى موالى من اليهود كثيراً عددهم وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبى : إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من موالاة موالى ! فقال الرسول ﷺ لعبد الله بن أبى : « يا أبا الحباب : أرأيت الذى نفست به من ولاء يهود على عبادة فهو لك دونه » قال : إذن أقبل ، فنزلت الآية يا من اتصفتم بهذا الوصف وهو الإيمان بالله ورسوله سواء كان هذا باللسان فقط ولا إخلاص معه ، أو كان إيماناً صادقاً ومعه الإخلاص ، لا يليق بكم أن تفعلوا ما نهاكم الله عنه ، من اتخاذ اليهود والنصارى أولياء ، تلقون إليهم بالمودة ، وتسرون إليهم بما أخفيتم وما أعلنتم ، وتتحابون إليهم وتصادقونهم ، إذ بعض اليهود أولياء بعض وبعض النصارى أولياء بعض ، والكل متفق على كلمة واحدة هى : بغضكم بغضاً شديداً ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، أى من جملتهم ، وحكمه حكمهم . وهذا تشديد على المنافقين الذين يتخذون صداقات ، ويرتبطون بصلات باليهود والنصارى وأعداء الدين ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أنفسهم بموالاة الكفار أيا كان السبب فترى يا محمد وكذا كل من تصح منه الرؤية ، ترى الذين فى قلوبهم مرض الشك والنفاق كعبد الله بن أبى وأضرابه ، يسارعون فى موالاتهم ويرغبون فيها رغبة أكيدة خالصة للشيطان ، وانظر إلى تعبير القرآن ﴿ يسارعون فيهم ﴾ بدل يسارعون إلى موالاتهم ، للإشارة إلى أنهم منتقلون من بعض مراتبها إلى بعض ، فهم مستقرون فيها ، يقولون متعللين : ﴿ نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ تدور علينا من دوائر الدهر ودولة من دولة بأن ينقلب الأمر للكفار واليهود ، وتدول الدولة على المسلمين ، فنحتاج إليهم فلا يسعفوننا بالميرة والطعام ، أرأيت كيف لا يثق المنافقون بوعد الله ! وأن حزب الله هم المفلحون . ﴿ عسى الله أن يأتى بالفتح ﴾ وعسى فى القرآن وعد محتوم ، فإن الكريم متى أطمع أطعم ، وإذا وعد حقق ، فما ظنك بأكرم الأكرمين ؟ ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾[2] والمراد بالفتح فتح مكة ، أو فتح من عنده شامل لتأسيس الدولة وانتظام شؤونها واستقرارها فى الوجود ﴿ أو أمر من عنده ﴾ يفضح حال المنافقين ويهتك سترهم ويرد كيدهم فى نحورهم ، وقد صدق الله وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، فيصبح أولئك المنافقون نادمين على ما أسروا وكتموا ، ويقول الذين آمنوا تعجبا وتعريضا وشماتة بهم ، مخاطبين اليهود ومشيرين إلى المنافقين الذى كانوا يوالونهم ، وقد بدت الأمور على غير ما كانوا يرجون ﴿ أهؤلاء ﴾ ﴿ المنافقون ﴾ ﴿ الذين أقسموا بالله جَهد أيمانهم إنهم لمعكم ﴾ أيها اليهود ﴿ حبطت أعمالهم ﴾ التى كانوا ينافقون بها من صلاة وصوم ﴿ فأصبحوا خاسرين ﴾ دنيا وأخرى . وهذا مرض خطير ينتشر فى الأمم الضعيفة المستعبدة ، ترى الكثير من أبنائها الذين فى قلوبهم ضعف وفى نفوسهم مرض يلجئون إلى الأعداء من الأجانب ، يتخذون عندهم يداً ، لأنهم ليسوا مؤمنين بالنصر ، وأن الدولة لهم ، يا قوم : أسمعوا وعوا واعتبروا ، فإنما يتذكر أولو الألباب .

(١) تفسير القرطبى ٦ ص ٢١٦ .

(٢) جزء من الآيات : ١٢٠ من سورة المائدة .

المرتدون المحاربون لهم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

المفردات : ﴿ **يرتد** ﴾ : الارتداد الخروج من الإسلام والدخول فى الكفر مطلقاً ، أو بسبب ترك ركن الزكاة أو غيره من أركان الإسلام جهاراً وعناداً . ﴿ **يحبهم** ﴾ : يجازيهم على أعمالهم أحسن الجزاء وأتمه ، ﴿ **يحبونه** ﴾ : يخلصون له فى العمل ويطيعونه فى كل أمر ونهى . ﴿ **أذلة** ﴾ : جمع ذليل بمعنى عاطفين عليهم . ﴿ **أعزة** ﴾ : جمع عزيز ، بمعنى أنهم متعالون عليهم . ﴿ **راكعون** ﴾ : خاشعون وخاضعون . ﴿ **حزب الله** ﴾ : الحزب الجماعة المجتمعة التى حزبها أمر من الأمور وألم بها أمر فى اتجاه خاص .

روى أنه قد ارتد عن الدين إحدى عشرة قبيلة : ثلاث أيام النبى ﷺ وسبع أيام أبى بكر رضى الله عنه ، وجبلة بن الأيهم أيام عمر رضى الله عنه .

فالذين ارتدوا أيام النبى ﷺ .

١ – بنو مدلج ورئيسهم الأسود العنسى تنبأ باليمن وكان كاهناً وأهلكه الله على يد فيروز الديلمى .

٢ – بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب ، تنبأ وأرسل كتاباً إلى النبى ﷺ وفيه أنه شريك ، وأن الأرض قسمان ، فكتب له النبى : من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب : السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، وقاتله أبو بكر رضى الله عنه والذى قتله وحشى قاتل حمزة .

٣ – بنو أسد وزعيمهم طليحة بن خويلد ، ارتد أيام النبى ﷺ وقاتله أبو بكر فى خلافته ، ففر إلى الشام ثم أسلم وأحسن إسلامه . المرتدون أيام أبى بكر :

١ – غطفان وزعيمهم قرة بن سلمة . ٢ – فزارة قوم عيينة بن حصن .

٣ – بنو سليم قوم الفجاءة عبد ياليل ٤ – بنو يربوع قوم مالك بن نويرة .

٥ – بعض بنى تميم وزعيمتهم سجاح بنت المنذر الكاهنة .

٦ – كندة قوم الأشعث بن قيس ٧ – بنو بكر بن وائل الحطم بن زيد .

وقد ارتد أيام عمر جبلة بن الأيهم من الغسانيين ، تنصر ولحق بالشام وله فى ذلك شعر وحوادث ، وسبب ارتداده أنه كان بمكة فطاف فوطئ إزاره رجل من بنى فزارة ، فلطمه جبلة فهشم

أنفه ، فاستعدى الفزارى عليه عمر رضى الله عنه ، فحكم إما بالعفو أو القصاص فقال جبلة : اتقتص منى وأنا ملك وهو سوقة .

الإسلام بجلاله وكماله وعقيدته وشريعته دين الفطرة ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[١] .

قيل لأعرابى لم آمنت بمحمد فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته لم يأمر ، ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى . وإذا سألت أى مسلم يملك عقلاً راجحاً وقلباً صادقاً ويقيناً راسخاً عن نهجه فى الإسلام ، لقال لك بلسان الحال والمقال : المعرفة رأسمالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقه كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر إلى الله فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى والجهاد خلقى ، وقرة عينى فى الصلاة . إن كل جملة من هذه الجمل درة تتألق فى تاج العلا والمجد المائل ، إنها تنطق بالحكمة وفصل الخطاب ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون ﴾[٢] إن بشاشة الإيمان إذا تمكنت من شغاف القلوب تكاد تجعل المستحيل ممكنا ، والملح الأجاج عذباً فراتا سلسبيلا ، ولا يغير هذه الفطرة إلا من كان فى قلبه مرض ، بحيث يدخل الإسلام دخول غير متمكن ﴿ يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾[٣] ومرضى القلوب فى الدنيا كثر يظهرون الايمان باللسان فيقولون ﴿ آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض ﴾[٤] هؤلاء الذين قالوا آمنا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم ، سمّاعون للكذب ، لا يتجاوز الإيمان حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من تعجبهم حالهم ، إن هذا الخطاب العلوى يقول لهؤلاء : يا معشر من آمن من يرتد منكم عن دينه فيغيره ويبدل نعمة الله كفراً ، فإن الله غنى عن العالمين فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يبدد هذا الكون ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾[٥] إنه من يرتد عن دين الله فسوف يأتى الله بقوم يعرفون لله حقه وللدين قدره ، إنهم حزب الله الذين وصفهم بتلك الصفات .

(يحبهم ويحبونه)

(يجاهدون فى سبيل الله)

(ولا يخافون لومة لائم)

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة البقرة .

(٣) من الآية ١١ من سورة الحج .

(٤) من الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة البقرة .

(٥) الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة فاطر .

(الذين يقيمون الصلاة)

(ويؤتون الزكاة) (وهم راكعون)

إن هذه المبادىء تؤدى إلى نتيجة حتمية الوقوع ، حكم بها العليم القدير العلى العظيم فى قوله ﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ كما حكم بها فى قوله : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[١] . إن هذا الحزب لا يغير مبدأ ولا ينحرف عن هدف ، لأن قائده صاحب الرسالة العصماء ﷺ الذى قالها فى سمع الزمان عالية مدوية ﴿ والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ﴾ فقال له عمه أبو طالب يا ابن أخى قل ما شئت فوالله لا أسلمك إليهم أبداً ، ثم أنشد .

والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد فى التراب دفينا
ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينا

إن قائد هذا الحزب : هو الذى وقف فى جموع المشركين يوم حنين يقول بقوة دونها قوة الجبال الرواسى : أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب إن هذا الحزب فى صراع دائم مستمر مع حزب الشيطان الذى قال فيه المولى تبارك اسمه ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[٢] فتأمل معنى حزب الشيطان خاسراً أذل ، وحزب الرحمن هو حزب الله غالبٌ مفلح ﴿ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[٣] إن حزب الله لا يوالى أعداء الله من اليهود والنصارى ، لأنه ملتزم بقوله تعالى : ﴿ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ﴾[٤] ملتزم بقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودُّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾[٥] إنه مستبصر بقول الله جل شأنه : ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾[٦] وحسبك أن تعلم أن الله يحب هؤلاء القوم الذين هم حزب الله ، فما بالك بحب الله : إنه الرضا كله والسعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة ، إن الله يحبهم كما أنهم يحبونه ، قيل لأبى بكر

(١) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة المجادلة .
(٢) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة المجادلة .
(٣) من الآيتين : ٨١ ، ٨٢ من سورة الأنعام .
(٤) من الآية ٥١ من سورة المائدة وقد سبق شرحها .
(٥) الآية : ١١٨ من سورة آل عمران .
(٦) من الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

رضى الله عنه : بم عرفت ربك قال عرفت ربى بربى ، ولو لا ربى ما عرفت ربى ، وكان بعضهم يقول فى مناجاته لله تعالى .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

إنهم متواضعون فيما بينهم أذلة على المؤمنين ، لكنها ذلة فيها كرامة ونبل ، أعزة على الكافرين ، وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾(١) إنهم المجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، عقدوا مع الله تعالى عقد بيع وشراء ، وسجل الله هذا العقد فى كتبهم السماوية وقال فى ذلك : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾(٢) إنهم الشجعان الذين لا يخافون فى الله لومة لائم ، إنهم حزب الله : الله وليهم والرسول زعيمهم والمؤمنون جماعتهم ، ومن كان هذا شأنه التزم حدود الله ، فأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وهو راكع خاضع متواضع لله .

فبادر يا أخا الإسلام بالانضمام إلى حزب الله ، وقف عند حدوده والزم مبادئه ، لتكون من الذين حكم الله لهم بأنهم : ﴿ كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

النهى عن موالاة أعداء الله

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ أُوْلَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الفتح .
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .
(٣) من الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

دَخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ
يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ
ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾

المفردات : ﴿ **هزوا** ﴾ : سخرية . ﴿ **ولعبا** ﴾ : اللعب واللعب ضد الجد . ﴿ **ناديتم إلى الصلاة** ﴾ : دعوتم لها بالأذان والإقامة . ﴿ **تنقمون** ﴾ : نقم ينقم أنكر وعاب عليه قولا أو عملا . ﴿ **مثوبة** ﴾ : جزاء وثوابا من ثاب إليه إذا رجع ولاشك أن الجزاء يرجع إلى صاحبه . ﴿ **طاغوت** ﴾ : كل ما عبد من دون الله وعبادته مجاز عن طاعته .

يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، وكذا المشركين ، لا تتخذوهم أولياء أبدا ، فإنهم يودون عنتكم ومشقتكم ، وقد ﴿ بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾[1] بعضهم أولياء بعض ، مع أن موالاتهم تغضب الله ورسوله . وهم الذين اتخذوا دينكم ومشاعره هزوا وسخرية ، ومظهراً من مظاهر اللعب والضحك ، ولا شيء أشق على النفس من استهزاء المعاند له وسخريته به وبرأيه وشعاره ، ﴿ **واتقوا الله** ﴾ أيها الناس واخشوا عذابه ووعيده على الموالاة ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ . كرر الله نهى المؤمنين عن موالاة أعدائهم من الكفار ، تنفيرا لهم عنها وتسجيلا على الكفار فعلهم . وبعد أن أثبت الله استهزاءهم للدين على وجه العموم ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾[2] سجل عليهم استهزاءهم لنوع خاص هو عماد الدين وأساسه ، وهى الصلاة ، ﴿ **وإذا ناديتم إلى الصلاة** ﴾ بالأذان والإقامة اتخذوا هذه المناداة والصلاة ﴿ **هزوا ولعبا** ﴾ وما ذلك المستهجن القبيح : إلا لأنهم قوم لا عقل لهم يرشدهم ، ولا رأى يهديهم بل هم فى ضلالهم يعمهون ، إذ ما أروع هذا النداء الذى يهز القلوب ويجلوها ، ويطهر النفوس ويزكيها ، يا سبحان الله أهذا النداء يضحك ؟ الله أكبر . الله أكبر ، نعم : الله أكبر من كل شيء فى الوجود ، استفتاح ياله من استفتاح ، وانظر إلى إتباعه بالشهادتين لله ورسوله ، وهما ركنا الإيمان ودعامته ، وما أروع قول المؤذن حيّ على الصلاة : أى أقبلوا عليها بجد ونشاط ونفس راضية مطمئنة ، وحى على الفلاح ، وهل هناك فلاح أكثر من هذا وأعلى ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[3] الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال : أتى رسول الله ﷺ نفر منالیهود أبو ياسر بن أخطب ورافع ابن أبى رافع فى جماعة فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[4] فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته ، وقالوا : لا نؤمن بمن آمن به وروى أنهم قالوا لا نعلم شرا من دينكم فنزلت الآيات ﴾[5] .

(١) من الآية : ١١٨ من سورة آل عمران .
(٢) من الآية ١٤ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٤) من الآية : ١٣٦ من سورة البقرة .
(٥) ورواه القرطبى ج ٦ ص ٢٣٣ .

قل يا أهل الكتاب ما تنقمون منا وما تعيبونه علينا إلا إيماننا بالله ورسله إيمانا صادقاً خالصاً ، مع وصف الله سبحانه وتعالى بكل كمال وتنزيه عن كل نقص ، وكذا الرسل جميعاً عليهم السلام لا نفرق بين أحد منهم ، مع وصفهم بما يليق بهم شرعاً ، وكذا ما أنزل عليهم من الكتب ﴿ **إن أكثركم لفاسقون** ﴾ وخارجون عن حدود العقل والرأى والدين الصحيح ، يا عجبا كل العجب أيجعل مناط المدح عنوان الذم ﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهم : ﴿ **هل أنبئكم** ﴾ أيها المستهزئون بديننا القائلون ﴿ **لا نعلم شراً من دينكم** ﴾ بما هو ﴿ **شر من ذلك** ﴾ الدين الذى تنقمون به علينا دين ﴿ **من لعنه الله وغضب عليه** ﴾ بسبب سوء فعله وهذا تبكيت لهم شديد بذكر جرائم آبائهم وجزائهم عليها إذ اللعن والغضب نهاية العقاب والمؤاخذة من الله لهم . ودين من ﴿ **جعل منهم القردة والخنازير** ﴾ ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾[1] ﴿ **أولئك شر مكانا وأضلّ عن سواء السبيل** ﴾ وكان التعبير بشر مع أن هذا الدين خير محض مجاراة لهم فى اعتقادهم ومشاكلة للفظهم ، وهاك سيئة أخرى تقتضى وحدها عدم الموالاة . ﴿ **وإذا جاءوكم** ﴾ وحضروا مجالسكم خصوصاً مجلس الرسول ﷺ ﴿ **قالوا آمنا** ﴾ باللسان فقط ، والحال أنهم دخلوا متلبسين بالكفر مؤزرين لا يفارقهم ﴿ **وهم قد خرجوا به** ﴾ والله أعلم بما يكتمون حين الدخول من النفاق ، وعند الخروج من العزم على الكيد والمكر ، وما ملئت به قلوبهم من الحسد والبغضاء لكم ، فاحذروهم ولا توالوهم ﴿ **وترى كثيرا منهم يسارعون** ﴾فى ارتكاب ﴿ **الإثم والعدوان** ﴾ ويقبلون عليهما راغبين فيهما بجد ونشاط ، ويقبلون على ﴿ **أكلهم السحت** ﴾ والدنيىء من المحرم تالله ﴿ **لبئس** ﴾ العمل عملهم وياضلال هؤلاء !! أما وجدوا من يرشدهم ؟ أما وجدوا من نيكر عليهم ﴿ **لو لا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم** ﴾ والكذب والبهتان فى أمور الدين ﴿ **وأكلهم السحت** ﴾ تالله ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ هؤلاء الأحبار . ولعل سائلاً يقول لم يقال فى جانب الشعب ﴿ **لبئس ما كانوا يعملون** ﴾ وفى جانب الأحبار والعلماء ﴿ **لبئس ما كانوا يصنعون** ﴾ والجواب : أن الفعل ما يصدر من الإنسان مطلقا ، فإن قصد كان عملا وإن صاحبه دوام ومرونة وإتقان ، كان صنعة وكان صاحبه صانعاً . وفاعل المعصية من الناس تدفعه شهوته ونفسه إليها ، وأما الذى ينهاه من الأحبار والعلماء بالطبع ، لا شهوة معه تدفعه إلى العمل ، ولا إلى عدم الإنكار ، كان أشد إثماً ، وأعظم جرماً من الفاعل نفسه روى ابن عباس (ما فى القرآن أشد توبيخاً من هذه الآية) يريد أنها حجة على العلماء إذا هم قصروا فى الهداية والارشاد .

من سيئات اليهود التى تبعدهم من طريق السعادة فى الدارين

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ

(١) الآية : ٦٥ من سورة البقرة .

وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

المفردات : ﴿ **اليد** ﴾ : تطلق على الجارحة ، وتطلق مجازاً على النعمة وعلى العطاء[1] . ﴿ **مغلولة** ﴾ : ممسكة عن الإنفاق . ﴿ **غلت أيديهم** ﴾ : أمسكت عن الإنفاق والخير . ﴿ **مبسوطتان** ﴾ : المراد كثير العطاء . ﴿ **أقاموا التوراة** ﴾ : عملوا بما فيها على أتم وجه وأكمله وكذا الإنجيل . ﴿ **مقتصدة** ﴾ : معتدلة .

روى الطبرانى عن ابن عباس قال : قال رجل من اليهود ، قيل هو النباش بن قيس ، وقيل هو فنحاص كبير[2] بنى قينقاع ، قال للنبى ﷺ : إن ربك بخيل لا ينفق ! فأنزل الله هذه الآية . بعد أن عدد الله من سيئاتهم وسجل عليهم بعض أعمالهم الموروثة ختم بذكر سيئة من أفظع سيئاتهم : ألا وهى وصف الله سبحانه بما لا يتفق أبداً مع العقل ، ولا يقول به رجل من أهل الكتاب وقالت اليهود ، أى بعضهم : ﴿ **يد الله مغلولة** ﴾ : وغل اليد وبسطها مجاز عن البخل وعدم الجود ، ألا ترى إلى قوله سبحانه ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾[3] وقول النبى ﷺ ﴿ أطولكن يداً أسرعكن لحوقاً بى يوم القيامة ﴾[4] . والمراد بطول اليد الجود والكرم قال بعضهم هذا لمّا أصابتهم أزمة مالية ، ﴿ **غلت أيديهم** ﴾ وأمسكت عن الجود والخير ، فهم القوم البخلاء الأنانيون ، لعنهم الله بما قالوا ، فهو الكريم ويحب كل كريم ، و﴿ **يداه مبسوطتان** ﴾ للعطاء ، ﴿ **ينفق كيف يشاء** ﴾ على وفق الحكمة الإلٰهية ، فهو يعطى ويمنع ويقبض ، ويبسط لحكمة هو أعلم بها ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾[5] ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء ﴾[6] وتالله ﴿ **ليزيدن** ﴾ الذى ينزل عليك من الآيات البينات التى تكشف تسترهم ، وتطلعك على أعمالهم ونواياهم ، ليزيدنهم ذلك ﴿ **طغيانا** ﴾ وجحوداً وبطراً يا سبحان الله ﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ ما كان سبباً فى الخير يكون عندهم سبباً فى الشر .

(١) والمقصود هنا أنهم يقصدون – خاسئين خاسرين فى قصدهم – أن نعم الله عليهم أقل مما يستحقون .

(٢) روى القرطبى بسنده عن عكرمة : ... قال هذا فنحاص بن عازوراء (لعنة الله) وأصحابه ، وكان لهم أموال فلما كفروا بمحمد ﷺ قل ما لهم ، فقالوا : إن الله بخيل ، ويد الله مقبوضة عنا فى العطاء ١٠ . هـ ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٣) جزء من الآية : ٢٩ من سورة الاسراء .

(٤) أخرج الشيخان ، واللفظ لمسلم ، عن عائشة رضى الله عنها : قالت : قال رسول الله ﷺ : « أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا » قالت : فكن يتطاولن أيتهن أطول يدا ، قالت : وكانت أطولنا يدا زينب (بنت جحش) لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق ، وفى طريق آخر قالت : فكنا إذا اجتمعنا فى بيت احدانا بعد وفاة رسول الله ﷺ نمد أيدينا فى الجدار نتطاول فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش ... فعرفنا حنئذ أن النبى ﷺ انما أراد طول اليد بالصدقة ... الاصابة (٤/ ٣١٤) وحياة الصحابة (١٦٩/٢) .

(٥) من الآية ٢٦ من سورة الرعد .

(٦) من الاية ٢٧ من سورة الشورى .

ولقد حكم عليهم بأن ألقى بينهم ﴿ **العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾[1] فلا يهمنك أمرهم ولا تغتر باتفاقهم فى فلسطين المنكودة ، **فهى سحابة صيف لهم** ، وتنبيه من الله لنا علنا نثوب إلى رشدنا ونرجع إلى ديننا . و﴿ **كلما أوقدوا ناراً للحرب** ﴾ فى الخارج أو الداخل كإثارة الفتن وتشتيت الكلمة وتأليب العدو ، كلما فعلوا هذا أطفأ الله نارهم ، وأبطل عملهم ، وهم دائما ﴿ **يسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين** ﴾ وسيجازيهم على ذلك بأقسى أنواع العقاب ثم بعد ذلك وسعت رحمته كل شىء ، وفتح باب كرمه للتائبين الذين يقبلون عليه ، ولو كانوا من أهل الكتاب أو غيرهم ﴿ ولو **أن أهل الكتاب آمنوا** ﴾ بكتبهم وبالقرآن ولم يحرفوا ولم يركبوا رءوسهم ﴿ **واتقوا** ﴾ الله فى كل أعمالهم ﴿ **لكفرنا عنهم سيئاتهم** ﴾ التى اقترفوها ومحونا عنهم أوزارها ﴿ **ولأدخلناهم جنات النعيم** ﴾ ﴿ **ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل** ﴾ المنزلين من عند الله بنور التوحيد والهداية ، ولم يسمعوا لأحبارهم ومفترياتهم ، وآمنوا بما أنزل إليهم من ربهم لاسيما القرآن الكريم . وعملوا بما فيها على خير وجه وأتمه ، لبسط الله الرزق لهم وأنزل عليهم الخير والتوفيق ، وأكلوا من كل جانب وفى هذا إشارة إلى أن العمل الصالح مع الإيمان الكامل مدعاة لرضى الرب وسعة الرزق والسعادة فى الدنيا والآخرة ، مع سلوك الطرق المعروفة والنظم المألوفة فى عالم الاقتصاد ، ومن أهل الكتاب ، وكذا كل أمة فى الوجود - جماعة قليلة معتدلة فى الرأى ، والكثير الغالب منهم فاسقون وخارجون عن أصول الدين والعقل (الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة) .

تبليغ الرسول للدين

*يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

المفردات : ﴿ **يعصمك** ﴾ : يحفظك مأخوذ من عصام القربة وهو ما يربط به فمها من خيط أو سير جلد . ﴿ **الصابئون** ﴾ : الخارجون عن الأديان كلها ، وقيل هم قوم عبدوا الملائكة ، وصلوا إلى غير القبلة .

روى ابن مردويه عن ابن عباس قال : سئل رسول الله ﷺ : أى آية من السماء أنزلت أشد عليك ؟ فقال : كنت بمنى أيام موسم واجتمع مشركو العرب وأفناء الناس[2] فنزل جبريل فقال ﴿ **يا أيها**

(١) من الآية : ١٤ من سورة الحشر .
(٢) أصنافهم وقبائلهم المختلفة ، والموسم هو موسم الحج .

الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴾ فقلت : أيها الناس من ينصرنى على أن أبلغ رسالات ربى ولكم الجنة ؟ أيها الناس قولوا لا إله إلا الله وأنا رسول الله إليكم تفلحوا وتنجوا ولكم الجنة ، قال ﷺ فما بقى رجل ولا امرأة ولا صبى إلا يرمون على بالتراب والحجارة ويقولون كذاب صابئ فجاء عمه العباس فأنقذه منهم وطردهم عنه .

نادى الله سبحانه وتعالى حبيبه بوصف الرسالة التى تقتضى التبليغ التام الكامل : ﴿ **أيها الرسول بلغ** ﴾ جميع ﴿ **ما أنزل إليك من ربك** ﴾ لا تخش أحداً ولا يهمنك شىء أبداً ، **فإنك إن لم تبلغ الكل** ﴿ **فما بلغت رسالته** ﴾ فكأن كتمان شىء من الرسالة ولو إلى أجل هو كتمان الكل ، تفظيعاً لجرم الكتمان ، وكيف يكتم الرسل ﷺ شيئاً من الرسالة خوفاً أو خشية : ﴿ **والله يعصمك من الناس** ﴾ أجمعين يعصمك من القتل والفناء ، أما العذاب والشدائد والآلام والحروب والإحن فهى الحوادث التى تصنع الرجال ، والبوتقة التى صهرت الناس ، فظهر المؤمن الصادق من المنافق الكاذب وكيف يكون رسول الله والله لا يعصمه ؟ وهو المعصوم : انظر كيف يضل المسيحيون حين يعتقدون صلب المسيح وقتله ؟ ولعل الحكمة فى هذه الآية أن يعرف الجميع أن النبى ﷺ رسول رب العالمين بلغ جميع ما أنزل إليه من ربه لم يكتم شيئاً ولم يخص أحداً بشىء ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[1] إن ﴿ **الله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ الذى يؤذونك ويعاندونك ﴿ **قل** ﴾ هم ﴿ **يا أهل الكتاب** ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ **لستم على شىء** ﴾ يعتقد به من أمر الدين ، ولا ينفعكم الأنتساب إلى موسى وعيسى والنبيين ﴿ **حتى تقيموا التوراة والإنجيل** ﴾ وإقامتها : العمل بكل ما فيها من التوحيد الخالص ، والبشارة بالنبى ﷺ وصفته ، وحتى تقيموا ﴿ **ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ على لسان محمد ﷺ ، وهو القرآن المصدق لما تقدمه من الكتب والمكمل للرسالات السابقة ، ونحن أيها المسلمون لسنا على شىء أبداً حتى تقيم القرآن ونعمل بأحكامه ونهتدى بهديه فى كل أمورنا وأقسم الله ﴿ **ليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك** ﴾ وهو القرآن ﴿ **طغيانا** ﴾ على طغيانهم ﴿ **وكفراً** ﴾ على كفرهم وذلك بسبب حسدهم الكامن ﴿ حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾[2] . أما القليل منهم الذين يؤمنون بالله وبكتبه ، فلا يزيدهم القرآن إلا هدى ورشاداً وخيراً وإسعاداً . وإذا كان هذا شأن القرآن ، فلا يهمنك أمرهم و﴿ **فلا تأس على القوم الكافرين** ﴾ وهاك قانون عام وحكم شامل للجميع على اختلاف أشكالهم وألوانهم ، ولا غرابة فهى الرسالة العامة ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾[3] ﴿ **إن الذين آمنوا** ﴾ باللسان كالمنافقين ﴿ **والذين هادوا** ﴾ من أتباع موسى عليه السلام والذين صبئوا وخرجوا عن حدود الأديان ﴿ **والنصارى** ﴾ من أتباع المسيح عليه السلام ﴿ **من آمن** ﴾ منهم ﴿ **بالله** ﴾ ورسله ﴿ **واليوم الآخر** ﴾ إيمانا صادقاً ﴿ **وعمل** ﴾ عملاً ﴿ **صالحاً** ﴾ ﴿ **فلا خوف عليهم** ﴾ أبداً من عذاب يوم القيامة ﴿ **ولا هم يحزنون** ﴾ أبدا بل هم فى جنات النعيم على الأرائك ينظرون .

---

(١) من الآية : ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ٢٨ من سورة سبأ .

العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ ، وكفى بالكفر داءً وكفى به جريمة وجناية ووباءً ، إن الله تعالى أطلق الكفر ولم يذكر متعلقه لأنهم كفروا بكل ما جاء به المرسلون ، كفروا بالوحدانية والأنبياء والبعث والحساب والجزاء ، إن مصيرهم خسران : ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله** ﴾ ومصيرهم ندم ، ونار الندم تتأجج فى الأضلاع ، ﴿ **حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها** ﴾ أى يا ندامتنا أحضرى وتعالى على ما قصرنا فى أمور الدار الآخرة، يقولون هذا وهم يحملون أوزارهم وذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم . ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[1] .

(ألا ساء ما يزرون) وبئس ما يحملون .

تزود من حيـــاتك للمعـــــاد وقـــــــم لله واجمع خير زاد
ولا تركـــن إلى الدنيـــا كثيرا فإن المال يجمـــع للنفـــــاد
أتــرضى أن تكــون رفيــق قوم لهــم زاد وأنــت بغيــر زاد

كان حاتم الأصم رضى الله عنه إذا راودته نفسه لتميل به إلى الهوى ذهب إلى مقبرة مهجورة ونام فيها ثم ينادى قائلاً : ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ ثم ينهض قائما ويقول : يا حاتم لقد رجعت فاعمل قبل أن تموت فيقال لك : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾ . صدقت يا سيدى يا رسول الله إذ قلت : ﴿ والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا ﴾ .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدبـــاء منقــول
فإذا حملت إلى القبــور جنــازة فاعلــم بأنك بعدهــا محمــول

قوله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ . هذا بيان لحقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة ، فالدنيا لعب فى الصغر ولهو فى الكبر ، أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء وميت الغد يشيع ميت اليوم .

لا تركنــن إلى الدنيــا ومـــا فيها فالموت لاشك يفنينــا ويفـــنيها
واعمــل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والـــــرحمن منشيها
قصورهـا ذهب والمسك طيـــنتها والزعفــــران حشيش نابت فيها

كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية .

---

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة العنكبوت .

﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ . أجننتم فلا تعقلون !!

دنياك ساعات سراع الزوال — وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا — وتشترى دنيا المنى والضلال

تثبيت وتسلية

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ
يَجْحَدُونَ (٣٣) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا
وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ
فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ
عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)

المفردات ﴿ **ليحزنك** ﴾ : الحزن ألم نفسى يكون عند فقد محبوب أو امتناع مرغوب أو حدوث مكروه . ﴿ **يجحدون** ﴾ : الجحود إنكار ما ثبت، فى القلب أو إثبات ما نفى فيه . ﴿ **نبأ** ﴾ : هو الخبر ذو الشأن العظيم . ﴿ **كبر** ﴾ : يقال كبر على فلان الأمر أى عظم عنده وشق عليه وقعه . ﴿ **إعراضهم** ﴾ : الإعراض التولى والانصراف عن الشيء رغبة عنه ، أو احتقاراً له . ﴿ **أن تبتغى** ﴾ : أن تطلب ما فى طلبه كلفة ومشقة من البغى وهو تجاوز الحد ويكون فى الخير والشر . ﴿ **نفقا** ﴾ : السرب فى الأرض وهو حفرة نافذة لها مدخل ومخرج . ﴿ **سلماً** ﴾ : المرقاة من السلامة لأنه هو الذى يسلمك إلى مصعدك .

هذا تثبيت لرسول الله ﷺ وتسلية له عندما يشتد عليه الأذى من كلامهم وقولهم إنه ساحر كذاب إلى غير ذلك ، وحاشا رسول الله أن يكون كذلك والله تعالى يقول له : ﴿ **إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك** ﴾ فأنت الصادق الأمين ، ولكن الحقيقة أنهم يجحدون بآياتى فلا يكن فى صدرك حرج مما يقولون ، فلست بدعا من الرسل فقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على الأذى حتى أتاهم نصر الله ولا تبديل لكلماته سبحانه وتعالى . ﴿ **ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾ ما ثبت الله به فؤادك ، إنك من المتوكلين على الله فسلم له الأمر فليس لك من الأمر شيء ، أتستطيع إن كان كبر عليك إعراضهم أن تطلب نفقاً فى باطن الأرض أو تصعد سلما إلى السماء وترقى فيها فتأتهم بآية ، ليس لك من الأمر شيء فالأمر كله لله ﴿ **فلا تكونن من الجاهلين** ﴾ وهذا تعريض بهم هم وتوبيخ لهم على جهلهم الذى تأصل فى نفوسهم ، أما أنت فقل لهم سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ، أنت عبدى ورسولى ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين

وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[١] .

حقائق قرآنيـــة

إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

تفسير المفردات : ﴿ **يستجيب** ﴾ استجاب الدعاء إذا لبّاه وقام بما دعاه إليه بالتدريج . ﴿ **يسمعون** ﴾ : أى سماع حق لا عناد فيه قال تعالى ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾[٢] . ﴿ **آية** ﴾ : خارق من خوارق العادات . ﴿ **قادر** ﴾ : لا يعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض .

الناس فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فريق تتلى عليه آيات الله فيسمعها سماع قبول ، وينظر إليها نظرة اعتبار وتذكر ، نظرة خالية من الهوى والعناد والاستكبار ، وهؤلاء يستجيبون لما دعاهم الله ، فهم كالتربة الصالحة للإنبات تقبل الماء وتنبت الكلأ وفريق تتلى عليه الآيات فيظل متكبرا سادراً فى غلوائه ، لا ينظر ولا يعتبر ولا يسمع سماع قبول ، وهم موتى القلوب أبعد الناس عن الانتفاع بما يسمعون ، هؤلاء يترك أمرهم إلى الله فهو الذى يبعثهم بعد موتهم ، فيحاسبهم ويجازيهم ثم إليه يرجعون ، هو القادر على ذلك وحده فلا تبخع نفسك عليهم حسرات ، إذ ليس فى استطاعتك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلى الله الحساب .

وقال المشركون المعاندون بعد نزول الآيات تترى التى لو لم يكن فيها إلا القرآن لكفى قالوا : هلا نزل عليه آية من ربه كما اقترحنا . وقالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾[٣] كيف تطلبون منى هذه الآيات وهل أنا إلا بشر ورسول وليس يقدر الرسول على إنزال آية من الآيات ، وإنما القادر هو الله فقط على إجابتكم لما تطلبون .

وقد مضت سنة الله فى الأمم أن إجابة المعاندين إلى ما طلبوا لم تكن سبباً لهدايتهم أبداً ، بل كانت سبباً فى عذابهم واستئصالهم ، فإنزال آية مما اقترحوا لا يكون خيراً لهم ، بل هو شر ، ولكن أكثرهم

(١) الآيتان ١٢٠ - ١٢٢ من سورة هود .
(٢) الآية ١٠ من سورة الملك .
(٣) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء .

لايعلمون ، وطلبهم تعجيز للنبى ﷺ لا للهداية ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾

من دلائل قدرة الله وكمال علمه

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

المفردات : ﴿ **دابّة** ﴾ : الدبيب . المشى الخفيف . والدابة كل ما يدب على الأرض من الحيوان . ﴿ **والطائر** ﴾ : كل ذى جناح يطير فى الهواء . ﴿ **أمم** ﴾ : جمع أمة ، وهى كل جماعة يجمعهم أمر كدين أو لغة أو صفة أو عمل

الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ، ينزل الآيات حسب الحكمة والمصلحة ، وها هى ذى مظاهر القدرة ، وشمول العلم ، وكمال التدبير ، لا يوجد نوع من أنواع الدواب يدب على الأرض ، ولا نوع من أنواع الطير الذى يطير فى الجو ، إلا وهو أمم مماثلة لكم أيها الناس ، لهم أرزاق وآجال ونظام محكم وطبائع تتلاءم مع خلقتهم وتكوينهم ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وخص دواب الأرض بالذكر لأنها مرئية للكفار ، أماملكوت الله فى السموات ففيه ما لا يعلمه إلا الله وحده .

وهذه الآية توجه أنظارنا إلى البحث والدرس فى طبائع الحيوان ، والاستفادة من ذلك ، فقد خلق الله لنا جميع ما فى الأرض لننتفع منه ونسخره لمصلحتنا ، وما فرطنا فى الكتاب من شيء أبداً ، ولا قصرنا فى أى شيء أبداً .

وقال ابن عباس إن المراد بالكتاب هو أم الكتاب (وهو خلق غيبى سنجل فيه كل ما كان وما سيكون على حسب السنن الإلهية) .

وقيل : الكتاب هنا هو علم الله المحيط بكل شيء ، شبه بالكتاب ثابتاً لا ينسى .

وقيل : هو القرآن ، ففى القرآن السياسة العامة الإسلامية من ناحية الاقتصاد والاجتماع والدين ، وفيه الأصول العامة الأخرى للدين كالسنة والقياس والإجماع والجزئيات، ثم إلى ربهم يحشرون ، ويجازون على أعمالهم .

والذين كذبوا بآياتنا المنزلة الدالة على كمال القدرة ، وتمام العلم والحكمة ، صم لا يسمعون دعوة

الحق والهدى سماع قبول ، وبكم لا ينطقون بما عرفوا من الحق ، وهم يتخبطون فى الظلمات ظلمات الجهل والكفر والعادات القبيحة ، من يشأ الله يخذله ويضله ولا يلطف به ، لأنه ليس من أهل اللطف ، حيث ثبت فى علمه القديم أنه أهل لما هو فيه من شقاء وعذاب ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ، لأنه أهل لذلك فى علمه ، وهكذا كانت الحكمة فيما اختاره الله أزلا وفق علمه ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ، إنه خبير بعباده ، بصير بخلقه . إلى الله وحده يلجأ العبد فى الشدائد ، مع ضرب الأمثال بالأمم السابقة .

قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾
بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم
بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟
مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا
هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾

المفردات : ﴿ **أرأيتكم** ﴾ : أسلوب عربى يفيد التعجب وأن ما بعده غريب عن الصواب والمراد أخبرونى . ﴿ **فيكشف** ﴾ : أى يزيل ما تدعونه إلى كشفه . ﴿ **بالبأساء** ﴾ : الشدة والعذاب والقوة ، وتطلق البأساء على الحرب والمشقة . ﴿ **الضراء** ﴾ : من الضر ضد النفع . ﴿ **يتضرعون** ﴾ : التضرع إظهار الضراعة والخضوع بتكلف . ﴿ **مبلسون** ﴾ : متحسرون يائسون من النجاة . ﴿ **دابر القوم** ﴾ : آخرهم الذى يكون فى أدبارهم .

يا أيها الرسول قل لأولئك المشركين : أخبرونى إن أتاكم عذاب الله الذى نزل بأمثالكم من الأمم السابقة كالخسف والريح الصرصر والغرق ، أو أتتكم الساعة وهولها ، والقيامة وما فيها ، أخبرونى إن حصل هذا أغير الله تدعون ؟ لينجيكم من هذا العذاب وهوله . إن كنتم صادقين فى دعوى الإلوهية لهؤلاء ، والأصنام الذى زعمتم أنهم فيكم شركاء ولكم شفعاء ، والسؤال للتبكيت والإلزام بل (إضراب لإبطال ما تقدم) إياه وحده تدعون ، وله وحده تتجهون ، وبه وحده تستعينون ، حتى يكشف عنكم ما ألم بكم من ضر ، أو مسكم من شدة ، يكشف ما تدعون إليه إن شاء كشفه وكان فيه حكمة ، وأنتم تنسون ما تشركون ، وتتركون آلهتكم ، ولا تذكرون فى ذلك الوقت إلا الله : ﴿ فإذا ركبوا فى

الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[١] .

وذلك أن الإنسان أودع فى فطرته توحيده عز اسمه ، وأما الشرك فشىء عارض للإنسان بالتقليد ، شاغل للذهن بالفساد وقت الرخاء ، حتى إذا جد الجد دعوا الله مخلصين له الدين ، وضل عنهم ماكانوا يعبدون . ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ﴾[٢] .

ثم أخذ القرآن يضرب الأمثال بالأمم السابقة فقال : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾ رسلاً مبشرين ومنذرين ولكن أممهم عصوا وبغوا ﴿ فأخذناهم بالبأساء ﴾ والشدائد ﴿ والضراء ﴾ والمهالك التى تجعل المغرور يراجع نفسه ويفكر فى أمره ولذا يقول الله ﴿ لعلهم يتضرعون ﴾ ويلجئون ، ومع هذا فكثير من الناس لا تنفهم هذه الزواجر ولا تروعهم هذه الشدائد .

فهلا تضرعوا حين جاءهم بأسنا وكانوا خاشعين تائبين ، ولكن أنَّى لهم هذا وقد قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، فلم تؤثر فيهم النذر ، ولم تنفعهم العبر ، وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون . وبئس ماكانوا يصنعون

فلما نسوا ماذكروا به وأعرضوا عما أنذروا به فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ناحية ، ومتعناهم بالحياة الدنيا ، استدراجاً وإملاء ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[٣]

حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، بلا إنذار ولا استئذان ، أخذناهم بغتة فإذا هم متحسرون يائسون من رحمة الله ، فقطع دابر القوم عن آخرهم ، حتى لم يبق منهم أحد والحمد لله رب العالمين ، وفى هذا إشارة إلى أن إبادة القوم المفسدين نعمة من الله رب العالمين ، وأن فى الضراء والسراء عبرة وعظة للناس ، وإنما يتذكر أولو الألباب .

من أدلة التوحيد

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

(١) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ٣٠ من سورة الروم .
(٣) الآية ٢٤ من سورة لقمان .

المفردات : ﴿ **نصرّف الآيات** ﴾ : نقلبها ونكررها على وجوه مختلفة . ﴿ **يصدفون** ﴾ : يعرضون عن ذلك ﴿ **يمسهم** ﴾ : المس اللمس باليد بما يسيء غالباً من ضر أو شد .

قل لهم يا محمد لهؤلاء المشركين : أخبرونى ماذا أنتم فاعلون إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم ، إذ هو الذى وهب لكم السمع والبصر والفؤاد ، وإذا سلبها منكم عدتم صماً وعمياً لا تسمعون قولاً ، ولا تبصرون طريقاً ، ولاتعقلون نفعاً ولا ضرراً ، ولا حقا ولا باطلا ، ماذا تفعلون مع آلهتكم التى تدعونهم وترجون شفاعتهم ، ولو فعل الله بكم ذلك من إلّه غير الله يأتيكم بهذا؟ لا إلّه إلا الله وحده هو الذى يقدر على ذلك ، ولو كان ما اتخذتموه آلهة تنفع أو تضر لردت عليكم هذا ، وإن كنتم تعلمون بلا شك أنها لا تقدر على شيء أصلا ، بل إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، فلماذا تدعونهم ؟

والدعاء عبادة ، والعبادة لا تكون إلا لله وحده القهار ، واهب الوجود ، الحق المعبود سبحانه وتعالى ، انظر يا من يتأتى منه النظر كيف يصرف الله القول ويكرره بألوان مختلفة ، وعلى أساليب متعددة فى غاية الوضوح والبيان ، ثم هم بعد ذلك يعرضون ويصدفون عن النظر إليها بعين بريئة ، خالية من حجب التقليد وغطاء العصبية وداء الحسد .

قل لهم : أخبرونى إن أتاكم العذاب من الله كما أتى لمن قبلكم من المكذبين الضالين عذاب الخسف والاستئصال والهلاك، وأتاكم هذا العذاب بغتة بلا مقدمات ، أو أتاكم العذاب جهرة وعيانا بمقدماته وأنتم تنظرونه .

أخبرونى ماذا أنتم فاعلون ؟ هل يهلك بهذا إلا القوم الظالمون ، الذين ظلموا أنفسهم بسلوكهم طريق الشرك والباطل .

وما نرسل المرسلين إلا مبشرين من آمن بالثواب ، ومنذرين من عصى بصارم العذاب ، ولا عليهم شيء بعد هذا أبدا ، سواء عليهم آمن الناس أم كفروا : ﴿ إن عليك إلا البلاغ ﴾[1] أما الله سبحانه وتعالى فهو المجازى ، فمن آمن وأصلح نفسه فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[2] وهم فى الدنيا متدرعون بسلاح الإيمان والصبر ، ودرع التقوى والشكر ، إن مسهم خير شكروا ، أو ضر صبروا ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم ﴾[3]

ومن كذب وتولى ، وأعرض عن ربه وغوى ، فإنه يمسه العذاب ، ويصيبه فى الدنيا والآخرة جزاء كفره وفساده .

وإن أصابه خير فى الدنيا فمتاع قليل ، ثم يضطره الله إلى عذاب النار وبئس المصير .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الشورى .

(٢) الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢٣ من سورة الحديد .

مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وتبعات الرسالة

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ **خزائن** ﴾ :جمع خزانة وهى ما يخزن فيه الشيء ويحفظ ، والمراد القسم بين الخلق وأرزاقهم . ﴿ **الغيب** ﴾ : ما غاب عن جميع الخلق واستأثر الله بعلمه... ﴿ **الأعمى والبصير** ﴾ : المراد بهما الضال والمهتدى .. ﴿ **الولى** ﴾ : الناصر .. ﴿ **ولا تطرد** ﴾ : الطرد الإبعاد .. ﴿ **بالغداة** ﴾ : الغداة والغدوة ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس .. ﴿ **العشى** ﴾ : آخر النهار والمراد جميع الأوقات ﴿ **فتنّا** ﴾ : ابتلينا واختبرنا .. ﴿ **من الله عليهم** ﴾ : أنعم الله عليهم .

وهكذا يبين الكتاب العزيز حقيقة النبوة : إنها البشرية فى أسمى معانيها ، وأرق مبانيها . قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[١]. وجاء فى سورة هود حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا . الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذاً لمن الظالمين ﴾[٢] .

وفى سورة الأنعام يخاطب الله تعالى نبيه الكريم فيقول : ﴿ **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله** ﴾ أى لا أملك خزائن الأرزاق ، إنما الأمر كله لله اختص سبحانه وتعالى بملكية الأشياء كلها ، فهو العليم بشئون عباده القدير ، على تصريفها ، الحكيم فى تقسيمها ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق ، وكان الإنسان قتوراً ﴾[٣].

كما أنى لا أعلم الغيب الذى هو من خصائص الألوهية ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف . (٢) الآية ٣١ من سورة هود . (٣) الآية ١٠٠ من سورة الإسراء .

ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا ﴾[١].

﴿ قل لا يعلم من فى السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيَّان يُبعثون ﴾[٢] إن هذا هو منطق الحق المبين وتلك هى العقيدة الصحيحة المستقيمة السليمة ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ماشاء الله . ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[٣].

﴿ **ولا أقول لكم إنى ملك** ﴾ وهذا تقرير وإخبار عن حقيقة الأنبياء ، إنهم بشر أوحى الله إليهم بالرسالة لأن طبيعة الملائكة لاتتكيف مع حياة البشر ، فالملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال اللطيفة ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا يتزوجون ولا يتناسلون ولا ينامون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، لا يعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا . قال ﷺ : ﴿ أطَّت السماء أطًّا ، وحُقَّ لها أن تئط ، مامن موضع قدم فى السماء إلاوفيه ملك قائم أوراكع أو ساجد لله ﴾[٤]. وقد قال سبحانه وتعالى عنهم ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[٥]. وقال عنهم ﴿ بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٦].

وقد شاءت الحكمة الإلٰهية أن يكون الأنبياء بشراً ليقفوا على مشاكل البشر ، ويعيشوا معهم ليلهم ونهارهم ويأكلوا ويشربوا ويتزوجوا ويتناسلوا ،وقد ردَّ الله سبحانه وتعالى افتراءات أهل الباطل الذين قالوا للأنبياء : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾[٧]. وقال على لسان رسوله ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلٰهكم إلٰه واحد ﴾[٨].

فليست البشرية طعنا فى الرسالة مادامت قد اتصفت بصفات الكمال البشرى . فالأنبياء قد اتصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، وأحاطهم الله بالعصمة ، فحفظ ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأىِّ أمر قد نهى الله عنه . وقد ردَّ الله تعالى على هؤلاء المنكرين فقال : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزَّلنا عليهم من السماء ملكا رسولاً ﴾[٩].

قوله تعالى : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ : هذا التزام بمنهج السماء لا يحيد عنه الأنبياء جاء فى

---

(١) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن .

(٢) الآية ٦٥ من سورة النمل .

(٣) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد (٩) . وابن ماجه فى الزهد (١٩) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٣) .

(٥) الآية ٢٠ من سورة الأنبياء .

(٦) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٧) الآية ١١ من سورة إبراهيم .

(٨) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٩) الآية ٩٥ من سورة الإسراء .

الحديث القدسى الجليل : (صدق عبدى فيما يبلغ عنى) .

والصدق فى الأنبياء صفة أصيلة وقاعدة قوية وجليلة . قال تعالى فى حق خاتم الأنبياء : ﴿ ولو تقوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾(١). وقال تعالى : ﴿ ومابنطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** ﴾ : ليس العمى والبصر هنا بالمعنى الحسى إنما المقصود بهما الضلالة والهدى . قال تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾(٣). وقال تعالى : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾(٤). وقال جلَّ شأنه : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾(٥).

ولما كُفَّ بصر عبد الله بن عباس رضى الله عنه قال :

إن أذهــب الله من عينى نورهـــا ... ففى فـؤادى وعقـلى منهمـا نور
عقــلى ذكى وقلــبى مـاحــوى دخــلا ... وفى فمى صـارم كالسيف مشهور

وإنما يعبر عن الضلال بالعمى لما فيه من حيرة . وقد نعى الله تعالى على هؤلاء ماهم فيه من حيرة . قال تعالى : ﴿ كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا . قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾(٦).

إن أمرهم لعجيب وأى عجب إذ كيف يحارون وقد أرسل الله إليهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأنزل لهم كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ووهبهم عقولا ليميزوا بها الظلمات من النور أفلايتفكرون ؟ أفلايتدبرون القرآن ؟ أم على قلوب أقفالها ؟ أفلايبصرون ؟ أفلايعقلون ؟ قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض .

قوله تعالى : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون** ﴾ : المقصود بالإنذار الإخبار بما يبعث الخشية والخوف من عقاب الله ، فمن خاف سلم ومن ذاق حلاوة الإيمان عرف ، ومن حُرِم انحرف . والإنذار بالقرآن خير إنذار ، ثم من هؤلاء الذين يُنْذَرون ؟ إنهم الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم . قال تعالى : ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾(٧). وقال جلَّ شأنه : ﴿ وما يدريك لعلَّ الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾(٨).

(١) الآيات ٤٤ - ٤٦ من سورة الحاقة .
(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة النجم .
(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج .
(٤) الآية ١٩ من سورة الرعد .
(٥) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ٧١ من سورة الأنعام .
(٧) الآيات ٤٥ من سورة النازعات .
(٨) الآية ١٨ من سورة الشورى .

وحال المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، والوعد والوعيد ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾(١).

إن هؤلاء الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم ولىٌّ ولاشفيع غير الله ، فهم إذا استعاذوا استعاذوا بالله وإذا سألوا سألوا الله ، وإذا استعانوا استعانوا بالله ، وإذا توكلوا توكلوا على الله . فليس لهم سوى الله لذلك يقولونها بصدق ووفاء ﴿ إيَّاك نعبد وإياك نستعين ﴾(٢) .

يارب حبك فى دمى وكيانى ... نور أغرُّ يذوب فى وجدانى
أنا لا أُضام وفى رحابك عصمتى ... أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

إنهم جددوا السفينة لأن البحر عميق ، وأكثروا الزاد لأن السفر طويل ، وأخلصوا العمل لأن الناقد بصير ، وخففوا الحمل لأن العقبة كئود ، وصاموا عن الدنيا وأفطروا على الموت ، وأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

أنذرهم بالقرآن لعلهم يتقون التقوى محلها الصدر وليس هناك سلاح أقوى من التقوى .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى :﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾(٣)

روى أحمد وابن جرير والطبرانى فى جماعة آخرين عن عبد الله بن مسعود قال : مر الملأ من قريش على النبى ﷺ وعنده صهيب وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا : يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك ؟ أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ؟ أنحن نكون تبعا لهؤلاء ؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم أن نتبعك . فأنزل الله فيهم ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا** ﴾ **إلى قوله تعالى** ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾

عندما تقاس القيم بالماديات فقد اختلَّت معاييرها ، وعندما توزن المبادىء بالدرهم والدينار فقد اهتزت مقاييسها ، ومن ثَمَّ فإن الميزان الذى وزن به الإسلام القيم كان أدق من ميزان الذهب ، إنه ميزان التقوى : ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾(٤).

ليس الغنى مع سوء الخلق شرفا ، وليس الفقر مع الأخلاق عيبا : ﴿ مر رجل غنى على رسول الله

(١) الآيات ٥٧ – ٦١ من سورة « المؤمنون » .
(٢) الآية ٤ من سورة الفاتحة .
(٣) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

ﷺ فقال الرسول لأصحابه : ماتقولون فى هذا ؟ قالوا : يارسول الله : هو حرىٌّ إذا قال أن يستمع له ، وإذا خطب أن يُزوج وإذا شفع أن يُشفع ثم مرَّ رجل فقير فقال الرسول لأصحابه : وما تقولون فى هذا ؟ قالوا : يارسول الله هو حرىٌّ إذاقال أن لا يُسمع له ، وإذا خطب ألا يُزوج ، وإذا شفع ألا يُشفع فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده إن هذا الفقير خير من ملء الأرض مثل هذا الغنى ﴾[١].

لقد قالوا لرسول الله ﷺ : إن أردتنا أن نؤمن بك فاطرد هؤلاء الصعاليك من مجلسك ، فجاء الجواب من قبل الحق جلَّ جلاله : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فُرطاً ﴾[٢]. فما كان من رسول الله صلوات ربى وسلامه عليه إلا أن بسط لهم رداءه وأجلسهم عليه وقال لهم : مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيرا .

لقد كان بلال عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، وكان يسومه سوء العذاب فاشتراه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأعتقه ، فكان عمر رضى الله عنه إذا لقى بلالاً قال : ﴿ بلال سيدنا وأعتقه سيدنا ﴾[٣].

فإذا مااختلت موازين الناس واهتزت القيم فى أنفسهم قاسوا الأمور بمقياس المادة فصارت كل سيئة للغنى فى نظر الناس حسنة ، وكل حسنة للفقير فى نظر الناس سيئة . فالغنى إذا كان بخيلا قالوا إنه متزن ، وإذا كان أبكم قالوا إنه عاقل ، وإذا كان جبانا قالوا إنه رزين .. والفقير إذا كان كريما قالوا إنه متلاف وإذا كان فصيحا قالوا إنه ثرثار ، وإذا كان شجاعا قالوا إنه متهور ..

وهكذا الدنيا إذا أقبلت على إنسان خلعت عليه محاسن غيره ، فإذا أعرضت عنه سلبته محاسن نفسه ، وإذا كانت الرياح مواتية باض الحمام على الوتد فإذا صارت عاصفة مدمرة بال الحمار على الأسد .

يمشى الفقير وكل شىء ضده ... والناس تغلق دونها أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب ... ويرى العداوة لايرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت رجل الغنى ... حنت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيرا ماشيا ... نبحت عليه وكشّرت أنيابها

لقد جاء الإسلام لبنا خالصا سائغا للشاربين فسوى فى الحقوق والواجبات بين السوقة والملوك فالناس من جهة التصوير أكفاء ، لافضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب .. قيل لسلمان الفارسى رضى الله عنه : ابن من أنت ياسلمان ؟ فقال : (أنا ابن الإسلام)[٤] نعم ياسيدى :

لعمرك ماالإنسان إلا ابن دينه ... فلا تترك التقوى اتكالا على النسب

---

(١) أخرجه البخارى فى النكاح (١٥) وفى الرقاق (١٦) . وابن ماجه فى الزهد (٥) . (٢) الآية ٢٨ من سورة الكهف .
(٣) أخرجه البخارى فى فضائل أصحاب النبى (٢٣) . (٤) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ١٢٨) .

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حُط بالشرك النسيب أبو لهب

قيل لبلال بن رباح رضى الله عنه : يا بلال من أبوك ؟ فقال : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة ..

هذا هو الإسلام يحترم أهل التقوى ويجل أهل الصلاح . قال ﷺ : (من أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة . ومن أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له ﴾[1] .

عش راضيا واترك دواعى الألم واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش فيهاكريما واعتبرها عدم

إن هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى أى أول النهار وآخره : والمراد فى كل وقت سواء أكان المقصود بهذا الدعاء صلاة أو ذكراً أو مطلق العبادة فإنهم لا يبتغون من وراء ذلك ولا يريدون إلا وجه الله﴿ **ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء** ﴾ ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[3] ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾[4].

لقد قالوا لنبى الله نوح عليه السلام : ﴿ ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ﴾[5]. وقالوا له :﴿ **أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾[6] فما كان جوابه إلا أن قال لهم : ﴿ وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾[7].

قال تعالى : ﴿ **فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾ : وهذا تعريض بأهل الجاهلية الذين احتقروا الضعفاء وغمطوهم حقهم وقال قائلهم :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا

وحاشا رسول الله أن يطرد الضعفاء فهو حبيبهم الذى قال :(طوبى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة ﴾ . هو الأمى الذى علَّم المتعلمين واليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب البائسين ، والفقير الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط إلى شاطىء النجاة ومرفأ المفلحين . جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، ومن عُبَّاد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم .

إن الله تعالى جعل هذه الدنيا دار ابتلاء ليختبر الأقوياء بالضعفاء والأغنياء بالفقراء ولو شاء ربكم لجعل الناس أمة واحدة . ولقد صدق الله تعالى وهو يقول : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾[8]. وإذ يقول :

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢) .
(٢) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٨ من سورة المدثر .
(٤) الآية ٢١ من سورة الطور .
(٥) الآية ٢٧ من سورة هود .
(٦) الآية ١١١ من سورة الشعراء .
(٧) الآيات ١٢ – ١٥ من سورة الشعراء .
(٨) الآية ٢ من سورة الملك .

﴿ وكذلك فتنَّا بعضهم ببعض ﴾[١] أى اختبرنا بعضهم ببعض وامتحناهم . قال تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون . وكان ربك بصيرا ﴾[٢]. ثم يبين تعالى الحكمة البالغة فى قوله : ﴿ **أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا** ﴾ أى أفضَّلهم علينا وهم فقراء ونحن أغنياء ؟ فيأتى الجواب الصحيح والرد الصريح : ﴿ **أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ . ثم يأتى البيان فى آية أخرى ليكون نوراً على نور : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون.ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسرراً عليها يتكئون . وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين ﴾[٣]

مرحبا بالمؤمنين

وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

المفردات : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ : السلام السلامة من العيوب والآفات ،وهو الأمان والتحية والقبول ، وهو من أسمائه سبحانه وتعالى . ﴿ **كتب** ﴾ : فرض وأوجب ، ﴿ **بجهالة** ﴾ : الجهالة السفه والخفة التى تقابل الحكمة والعقل ، ﴿ **ولتستبين** ﴾ : تتضح وتظهر .

وهذا مزيد تكريم من الله الكريم لأهل الإيمان والتقى : (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم) والسلام تحية الإسلام وقد حيا الله تعالى نبيه بالسلام فقال : (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) . فلم يكن رد النبى على ربه : السلام عليك يا الله لأن الله هو السلام إنما جاء الرد يفيض رحمة ووفاءً ويشع نوراً وبهاء : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين : إنه لم ينس إخوانه الأنبياء عندما قال : السلام علينا ، كما لم ينس أتباع الأنبياء من الصالحين ، ولا عجب فهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة . لما سمع أعرابيا يقول : (اللهم ارحمنى ومحمداً ولا ترحم أحداً سوانا . قال له ياأعرابى لقد حجَّرت واسعا)[٤] .

إن السلام هو تحية الله للمؤمنين ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما ﴾[٥] والجنة دار

(١) الآية ٥٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٣) الآيات ٣٢ – ٣٥ من سورة الزخرف .
(٤) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) .
(٥) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

السلام . قال تعالى : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[١]. وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٢]. وليلة القدر سلام هى حتى مطلع الفجر . وقد أُمِر النبى ﷺ إذا جاءه هؤلاء المؤمنون أن يحييهم بالسلام .

قوله تعالى : ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ هذا فضل من الله لا يدانيه فضل ، ونعمة لا يُلحق بها ولا يُشق لها غبار . فشعاع من رحمة الله تطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبه تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا ، فيا إلهى إن لم أكن أهلا لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى ، فأنت القائل : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير الآثم

قوله تعالى : ﴿ **كتب ربكم على نفسه** ﴾ أى أن ذلك بمحض فضله ، لم يلزمه به أحد . فهو الواحد القهار الفاعل المختار . فيامن كتبت على نفسك الرحمة :

أدعوك ربِّ كما أمرت تضرعا ... فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضا ... وجميل عفوك ثم إنى مسلم

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى غلبت غضبى)[٣].

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق أخرج كتابا من تحت العرش إن رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقا لم يعملوا خيرا مكتوب بين أعينهم عتقاء الله ﴾[٤].

وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عاصم بن سليمان عن أبى عثمان النهدى عن سلمان فى قوله ﴿ **كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ قال إنا نجد فى التوراة عطفتين أن الله خلق السماوات والأرض وخلق مائة رحمة أو جعل مائة رحمة قبل أن يخلق الخلق ثم خلق الخلق فوضع بينهم رحمة واحدة وأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة قال فبها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتباذلون وبها يتزاورون وبها تحن الناقة وبها تنج البقرة وبها تثغو الشاة وبها تتتابع الحيتان فى البحر ، فإذا كان يوم القيامة جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده ورحمته أفضل وأوسع .

---

(١) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٤ من سورة الرعد .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة (١٣) .
(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢ ، ٣) . وأبو داود فى الجهاد (١٢٦) .

قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل (أتدرى ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا) ثم قال ﴿ أتدرى ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم ﴾[1]. رواه الإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ **أنه من عمل منكم سوءا بجهالة** ﴾ : قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل . والجهالة هى السفه وخفة العقل . فالعاقل هو الذى يوظف عقله فيما خلقه الله له فيميز الخبيث من الطيب ، وعجبت لامرئ يقول فيه القائل :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

وما أعظم رحمتك يا إلهى : لا تقنط أحدا من رحمتك فأهل ذكرك أهل عبادتك وأهل طاعتك أهل محبتك ، وأهل شكرك أهل زيادتك ، وأصحاب المعاصى لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، وإن لم يتوبوا فأنت طبيبهم . أنت حبيبهم لأنك تحب التوابين وتحب المتطهرين . وأنت طبيبهم تبتليهم بالشدائد لتطهرهم من الذنوب والخطايا ، وأنت أرأف بعبادك من الأم بولدها . إذا قال العبد : يارب قد أخطأت ، قلت له يا عبدى وأنا قد سترت فإذا قال يارب قد تبت ، قلت له : وأنا قد غفرت . بابك يقبل المطرودين ويعفو عن المذنبين . تبسط يدك بالليل ليتوب مسىء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسىء الليل .

أنت الذى تهب الكثير وتجبر القلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

التوبة عزم وإقلاع وندم وأداء للفرائض ، وتصميم على عدم العود ، والإصلاح بناء لكل قيمة كريمة وإيجابيات فى الخير . فمن كان شأنه كذلك من التوبة والإصلاح فقد استحق مغفرة الله ورحمته .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين** ﴾ مثل ذلك الذى سبق من الآيات البينات الواضحات نفصل ونوضح ليتبين الرشد من الغى ولتتضح سبيل المجرمين ، وينكشف خداعهم ، فالحق واضح ، والمنادى صائح والطريق لائح ، وقد بدا الصبح لذى عينين : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[2]. ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون ؟ ﴾[3]. ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[4].

﴿ وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[5] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٤٦) . ومسلم فى الإيمان (٤٨ ، ٤٩) .
(٢) الآية ٢٨ من سورة ص .
(٣) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة القلم .
(٤) الآية ٢١ من سورة الجاثية .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

الرد على المعاندين

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

المفردات : ﴿ **نهيت** ﴾ : صرفت وزجرت ﴿ **بينة من ربى** ﴾ : البينة كل ما يتبين به الحق من الحجج العقلية والآيات الحسية . ﴿ **يقص** ﴾ : يذكر ﴿ **الفاصلين** ﴾ : الفصل القضاء والحكم .

يا أيها الرسول قل لهؤلاء المشركين . إنى نهيت وصرفت عن عبادة ما تدعونهم وتطلبون منهم الخير ودفع الضر من صنم أو وثن أو عبد مهما كان شأنه صرفت عن هذا كله بالآيات القرآنية والآيات الحسية . وما ركب الله فى من عقل رشيد وروح طيبة طاهرة وفطرة سليمة بعيدة عن أسر التقليد وقيد الجهل وداء الحسد .

قل لهم لا أتبع أهواءكم فإن عبادتكم غير الله سندها وحجتها الهوى فقط ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[1] أما عبادة الله فلها الحجة البالغة والبرهان الساطع .

وفى كل شىء له آيـــــة تدل على أنـــه الواحـــد

وعبادة غير الله ضلال وشرك فإن اتبعتكم فقد ضللت إذا وما أنا فى عداد المهتدين وفى هذا تعريض بأنهم ليسوا من الهداية فى شىء وهم فى ضلال مبين قل لهم إنى فيما أخالفكم فيه من عبادة غير الله وفيما أدعوكم إليه من عبادة الله على بينة من ربى وحجة واضحة لا تقبل شكا ولا جدلا ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾[2] فالقرآن هو الحجة البينة والمعجزة الخالدة والآية الباقية التى تقوم مقام قول الله :

صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى وأما أنتم فقد كذبتم بالقرآن واتبعتم الشيطان وكفرتم بالرحمن ، ياللعجب تكذبون بالقرآن . وما دعا إليه وتدعون إلى اتباع الهوى والضلال والتقليد الأعمى فبئس ما تصنعون !

وكانوا يشتبهون فى القرآن ورسالة النبى ﷺ لأن الله لم ينزل عليهم ماطلبوا فأزال القرآن هذا بقوله للنبى ﷺ .

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآية ٢ من سورة البقرة .

قل لهم ما عندى ما تستعجلون به وتطلبونه على عجل من الله ولم أقل لكم إنى أقدر على هذا ، وما الحكم فى هذا إلا لله الواحد القهار ، وكل شىء عنده بمقدار ، والله يقص القصص الحق فى وعده ووعيده ، وهو خير الحاكمين .

قل لهم لو أن عندى ما تستعجلون به ، ولو أن الله أمكننى من إيقاع العذاب بكم وجعله من قوتى الكسبية لأوقعته عليكم ، ولقضى الأمر بينى وبينكم ، والله قد وعدنى النصر ووعده الحق وقد تحقق ما وعد .

وهناك حديث عن أبى هريرة يفيد ان ملك الجبال ناداه وقال يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وقد بعثنى ربك لك لتأمرنى بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين فقال النبى ﷺ بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يؤمن بالله .

والملخص فى هذا : أن هذه الآية دلت على سؤالهم العذاب وجوابه ﷺ والحديث ليس فيه سؤال بل عرض عليه ملك الجبال فلهذا استأنى بهم وترفق عليهم والله أعلم بالظالمين . كيف يعاقبهم ؟ ومتى يعاقبهم وعلى أى صورة يكون جزاؤهم ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

كمال علمه سبحانه وتعالى

۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾

المفردات : ﴿ **مفاتح** ﴾ : جمع مفتح وهو المخزن أو جمع مفتح وهو المفتاح الذى تفتح به الأقفال . ﴿ **يتوفاكم** ﴾ : التوفى أخذ الشىء وافيا كاملا ، والتوفية إعطاء الشىء تاماً وافيا وهو يطلق على الموت والنوم . ﴿ **جرحتم** ﴾ : كسبتم بالجوارح ويستعمل اللفظ فى الشر والخير والاجتراح فعل الشر خاصة . ﴿ **يبعثكم** ﴾ : يوقظكم من النوم . ﴿ **حفظة** ﴾ : هم الكرام الكتبة من الملائكة .

المناسبة

طلبوا من النبى آيات خاصة ، كما تقدم ، واستعجلوا بها فرد القرآن عليهم بأن الكل فى قبضته وهو القاهر فوق عباده ، ولا يملك الرسول شيئاً ثم بين هنا أن ما استعجلوه به ليس فيما يدخل فى علم النبى حتى يخبرهم فى أى وقت يقع ، وإنما هو مما استأثر الله بعلمه ، وهو العليم بكل شيء .

عنده وحده سبحانه ما يتوصل به إلى الغيب المحجوب عن الكل ، أى عنده علم الغيب ، إذ العلم صفة تنكشف بها لله سبحانه وتعالى معلومات الغيب والشهادة ، وإنما أطلق المفتاح وأراد العلم للإشارة إلى أن الغيب المستور فى أماكن بعيدة لا يصل إليها أى مخلوق ، كالخزائن المغلقة بالأبواب والأغلاق ، ولها مفاتيح محكمة وقيل المعنى وعنده خزائن الغيب على أن المراد بالمفاتيح الخزائن .

لا يعلمها إلا هو وحده الذى يعلم السر وأخفى وهذه الجملة إذن توكيد للجملة السابقة ، وهو يعلم كل ما فى البر وكل ما فى البحر ، فهو يعلم المشاهدات كما يعلم المغيبات ، والله يعلم ما تسقط من ورقة فى أى زمان أو مكان ، فهو يعلم الأحوال المتعلقة بالذوات السابقة إذ سقوط الورق حال فى الأحوال ، وذكره إشادة إلى جميع الأحوال . وليست هناك حبة فى ظلمات الأرض السحيقة ، وأغوارها البعيدة ، ولا شيء رطب ، ولا شيء يابس ، أى ولاحى بالمعنى العام ولا يابس إلا فى مكنون علمه الثابت الذى لا يمحى ، كما أن الشيء المسجل المكتوب كتابة لا يمحى ، وقيل المعنى كل ذلك فى اللوح المحفوظ والله أعلم بكتابه . والخلاصة أنه سبحانه يعلم الغيب والشهادة ، والأحوال الظاهرة والباطنة ، والرطبة واليابسة . أما أنتم أيها الناس .. فالله يتوفاكم بالليل أى ينيمكم فيه ، ويقبض أرواحكم إليه ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، ويعلم ما كسبتم فى النهار علما سابقاً على عملكم ، فهو يعلم أن منكم من يكفر ، ومنكم من يعصى ربه ، ثم يعد هذا الموت الأصغر الذى فيه يقبض أرواحكم إليه ويعلم أعمالكم بعد ما يبعثكم فى الدنيا نهاراً ليعمل كل عمله ، وليقضى أجل مسمى عنده ، وعمر محدود لكل منكم ثم إليه مرجعكم بالموت الأكبر لا إله غيره ، ثم ينبئكم والمراد يجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر . وهو القاهر فوق عباده المتسلط عليهم ، المتصرف فيهم ، يفعل بهم ما يشاء إيجاداً وإعداما ، وإحياء وإماتة . وهو يرسل عليكم حفظة من الملائكة يحفظون أعمالكم ويحصونها عليكم ﴿ **وإن عليكم لحافظين ، كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون** ﴾ سورة الانفطار . سبحان الله .. ما أعجب شأننا .. علينا رقيب وعتيد .. يحصون علينا أعمالنا ويكتبون ولا يغفلون ، ومع هذا نعصى الله جهرة وسرا ؟ .. سبحانك أنت أرحم الراحمين ..

ولعل سائلا يقول : ما الحكمة فى الحفظة الكتبة والله أعلم بكل شيء والجواب أن المكلف إذا عرف هذا كان أزجر له وأبعد عنه الفحشاء والمنكر ، وأقرب إلى عقل بعض الناس ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾[1] .

(١) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

يرسل الحفظة الكرام البررة يحصون الأعمال مدة الحياة حتى إذا انتهى الأجل وتم القضاء ، وجاءت أسباب الموت ومقدماته ، توفته رسلنا وهم ملك الموت وأعوانه ، والحال أنهم لا يفرطون ولا يقصرون بزيادة أو نقصان ، ثم ردوا بعد هذا جميعا إلى الله وإلى حكمه ، وما الحكم الحق الذى يعطى بالعدل إلا له ، له الحكم وإليه الأمر ، لارادّ لقضائه ولا معقب لحكمه ، وهو أسرع الحاسبين يحاسب الكل فى أقل وقت وأسرعه لا يشغله شأن عن شأن وفى الحديث (إن الله يحاسب الكل فى مقدار حلب الشاة) .

من مظاهر القدرة والرحمة

قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

المفردات : ﴿ **ظلمات البر والبحر** ﴾ : ظلمات الليل والسحب والمطر ، وقيل المراد ظلمات معنوية . ﴿ **تضرعاً** ﴾ : التضرع المبالغة فى الضراعة والتذلل والخضوع . ﴿ **خفية** ﴾ : بالضم والكسر الخفاء والاستتار . ﴿ **الكرب** ﴾ : الغنم الشديد .

يسلك القرآن المسالك المتعددة لغرس شجرة التوحيد فى قلوب العرب ببيان مظاهر القدرة والرحمة بالخلق ، فقال ما معناه : قل لهم : من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ؟ ومن ينقذكم من شدائد الأيام وهولها ؟ ومن ينير لكم السبيل إذا غم الطريق وأظلم ، ومن يسكن على كل شيء ، تدعونه متضرعين متذللين مع رفع الصوت والبكاء ، وقد يكون فى السر والخفاء ، قائلين لئن أنجيتنا من هذه الظلمات لنكونن ممن يوحدك ويشكرك ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوُا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[1] قل لهم : الله ينجيكم من هذه الأهوال ومن كل كرب وغم ، ثم أنتم بعد هذا تشركون بالله غيره ، ومن هذا نفهم أن الإنسان بطبيعته يلجأ إلى الله فى الشدة والمكروه وفى النجاة ينسى نفسه ويعود إلى جهله .

قدرة الله على إيقاع العذاب على العصاة

قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ

(١) الآية ٢٢ من سورة يونس

قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾

المفردات : ﴿ **يلبسكم** ﴾ : من اللبس والمراد يخلط أمركم عليكم خلط اضطراب واختلاف وأصل التركيب يلبس عليكم أمركم . ﴿ **شيعاً** ﴾ : جمع شيعة وهم كل قوم اجتمعوا على أمر واتفقوا فيه . ﴿ **نصرف** ﴾ : نحولها من نوع إلى آخر من فنون الكلام . ﴿ **يفقهون** ﴾ : يفهمون بالدليل والحجة . ﴿ **مستقر** ﴾ : وقت استقرار وحصول .

قل لهؤلاء المشركين : الله هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً لا يعرف كنهه ولا يقف على حقيقته إلا الله سبحانه وتعالى ، ينزل عليكم من فوقكم كالرجم بالحجارة والآفات أو يصعد إليكم من تحتكم كالزلازل والبراكين والخسف المعهود فى الأمم السابقة أو يخلط أمركم عليكم خلط اضطراب واختلاف ، حتى تكونوا فرقاً وشيعاً وأحزاباً وجماعات ، كل فرقة لها اتجاه خاص ولون خاص ، تتقاتلون وتتحاربون ، ويذيق بعضكم بأس بعض وشدته . حتى يقتل بعضكم بعضاً . وعن ابن عباس المراد بمن فوقكم فى الآية أمراؤكم ، ومن تحت أرجلكم أى عبيدكم وسفلتكم ، انظر يا من يتأتى منه النظر كيف نصرف الآيات ، ونقلبها على وجوهها المختلفة ، لعلهم بهذا يفقهون الحق ، ويدركون السر ، ولاشك أن التنويع فى الأداء وطرق الأبواب فى الحجج ، سبيل إلى الفهم وإدراك الحقائق ، ولكن عند من ينظر النظر البرىء الخالى من الحجب الكثيفة الموروثة كالتقليد .

وقد كذب بالقرآن قومك ، وهو الحق الذى لاشك فيه ، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . قل لهم لست عليكم بوكيل : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾(١) لكل نبأ مستقر ، تظهر فيه حقيقته ، ولكل أمة أجل ، ولكل أجل كتاب تعلمون به صدق الوعد والوعيد ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾(٢) .

والعذاب فى الآية ورد منكراً فيشمل المجاعة والقحط، والصيحة والرجفة والريح الصرصر والزلازل والحجارة من سجيل والبراكين ويشمل ما تلقيه الطائرات وما تقذفه المدافع وما فى السفن والغواصات من الطوربيد والألغام التى تنفجر فتبيد الناس ، وما القنابل الذرية عنكم ببعيد . روى عن ابن عباس من طريق أبى بكر بن مردويه عن النبى ﷺ قال : (دعوت الله أن يرفع عن أمتى أربعا فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع اثنتين دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء ، والخسف من الأرض وألا يلبسهم شيعا ، وألا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع عنهم الخسف والرجم ، وأبى أن يرفع الآخرين)(٣) .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة ق . (٢) الآية ٥٣ من سورة فصلت . (٣) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ١٣٥ ، ٣٢٥) .

وقد تأكد كلام الرسول ﷺ فها هى ذى الأمة المحمدية قد وقاها الله من الخسف والرجم ، وأكرمها لأجل نبيها فلم يعذبها بعذاب الاستئصال . وأما الخلافات الحزبية والفرق والشيع ، وقتال بعضنا لبعض فظاهر للعيان ولا يزال الشر يأتينا من هذا الباب وأن بعضنا سبب الويل بنفاقه مع المستعمر واتحاده معه واستخدام الأجنبى له وما الحوادث التى تترى علينا ونشاهدها ببعيدة . وفى حديث ثوبان (وإنى أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة ، وألا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبى بعضهم بعضاً)

ومازال ملك للمسلمين إلا بسبب نزاعهم وخلافهم ، واتصال بعضهم بالأجنبى العدو اللدود .. تنبهوا ياقوم وارجعوا إلى دينكم وقرآنكم فالخير لايمكن أن يكون إلا فيه وتذكروا . وإنما يتذكر أولو الألباب .

المستهزئون بالقرآن وجزاؤهم

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَـٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ **يخوضون** ﴾ : أصل الخوض الدخول فى الماء ثم استعمل فى غمرات الأشياء أى مجاهلها تشبيها لها بغمرات الماء ، والمراد الاندفاع فى الحديث والاسترسال فيه والدخول فى الباطل مع أهله . ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ : انصرف عنهم . ﴿ **الذكرى** ﴾ : التذكر . ﴿ **ولكن ذكرى** ﴾ : المراد تذكيراً . ﴿ **تبسل نفس** ﴾ : البسل حبس الشىء ومنعه بالقوة ومنه أسد باسل ، وشجاع باسل أى يحمى نفسه ويمنعها ، المراد حبسهم فى النار ومنعهم من الثواب . روى عن سعيد بن جبير أن هذه الآية نزلت فى المشركين المستهزئين بالقرآن والنبى ﷺ .

وإذا رأيت يا محمد وكذا كل مسلم . الذين يخوضون فى آياتنا بالتكذيب والاستهزاء ، فأعرض عنهم ، ولا تجالسهم حتى يخوضوا فى غير حديث الكفر والاستهزاء ، ومثلهم من يخوضون فى القرآن بتأويله تأويلا باطلا يوافق أهواءهم واتجاههم ، لاتجالسهم وابتعد عنهم ، وقد روى هذا الرأى عن ابن عباس

رضى الله عنه ، ولعل السر فى ذلك أنك إذا أعرضت عنهم وقمت من مجلسهم كان أدل على عدم مشاركتهم فيما يقولون ، وعلى عدم الرضا عما يفعلون وهذه بلاشك أدعى للكف عن الخوض والاستهزاء غالباً ، وإذا خاضوا فى غير ذلك الحديث فلا مانع من مجالستهم والتحدث إليهم . قال القرطبى : ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكراً ، وعرف أنه لا يقبل منه وعظاً ولا نصيحة فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه وإن أنساك الشيطان قبح مجالستهم والنهى عنها ، ثم تذكرتها فلا تقعد بعدها مع هؤلاء القوم الذين ظلموا أنفسهم بالتكذيب والاستهزاء .

وهنا بحث بسيط :

هل يجوز على النبى ﷺ النسيان ؟ وإذا جاز فهل فى كل شىء أم فى شىء خاص ؟ والجواب عن الأول يجوز النسيان عليه بغير وسوسة من الشيطان ﴿ واذكر ربك إذا نسيت ﴾[١] وقد ثبت وقوعه من آدم ﴿ فنسى ولم نجد له عزماً ﴾[٢] ومن موسى ﴿ لا تؤاخذنى بما نسيت ﴾[٣] وثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ سها فى الصلاة وقال (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكرونى)[٤] .

إنساء الشيطان للإنسان بعض الشىء ليس من قبيل السلطان عليه والتصرف فيه ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٥] والجواب عن الثانى أن الصحيح أن النبى ﷺ لا ينسى فيما يبلغه عن ربه ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ﴾[٦]

وقيل يجوز أن ينسى والله ينبهه حتما . وما على الذين يتقون الله ويتركون غيرهم يخوضون فى الباطل ويستهزئون بالقرآن من شىء أبدا ولكن إذا تركوهم بعد الموعظة وأعرضوا عنهم فهم يذكرونهم بهذا لعلهم يتقون الله فلا يخوضون فى غمرات الشرك مرة ثانية حياء ممن يجالسهم أو كراهة إساءتهم .

وقيل المعنى ولكن عليهم أن يذكروهم ذكرى فلعلهم يتقون الله . يا أيها الرسول . دع الذين اتخذوا دينهم الذى كان يجب أن يتبعوا ويهتدوا به اتخذوه لعباً ولهواً فإنهم لما عملوا هذه الأعمال التى ختم الله بها على قلوبهم ودس بها نفوسهم ولم يعملوا ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون فقد أضاعوا عمرهم فيما لا يفيد وهذا هو اللعب وشغلوا أنفسهم عن الجد والعمل المفيد ، وهذا هو اللهو وغرتهم الدينا وغرهم بالله الغرور ، أعرض عنهم ، ولا تبال بأمثال هؤلاء ، وذكر به من يخاف وعيد ، خوف أن تبسل كل نفس فى الآخرة بما كسبت ، وترهن بما عملت ، وتحبس بما قدمت ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[٧] ليس لكل نفس من دون الله ولى يلى أمرهم ويدفع عنها شرها وليس لها شفيع يشفع لها ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[٨] وكيف يكون غير هذا وإن تفد النفس نفسها بكل فدية وعدل يتساوى مع الذنب

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الكهف . (٢) الآية ١١٥ من سورة طه . (٣) الآية ٧٣ من سورة الكهف .

(٤) أخرجه البخارى فى الصلاة (٣١) . ومسلم فى المساجد (٨٩) . وأبو داود فى الصلاة (١٩٠) . والنسائى فى السهو (٢٥) وابن ماجه فى الإقامة (١٣٣) .

(٥) الآية ٦٩ من سورة النحل . (٦) الآية ١٦ من سورة القيامة .

(٧) الآية ٣٨ من سورة المدثر . (٨) الآية ١٨ من سورة غافر .

لا يقبل منها أصلا ﴿ واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾[١] أولئك الذين اتخذوا القرآن هزوآ وسخرية واتخذوا دينهم لعباً ولهواً حرموا الثواب وأسلموا أنفسهم للعذاب وحبسوا فى نير العقاب ولهم شراب من حميم وغساق جزاء من ربك وفاقا ولهم عذاب أليم .

الإسلام والشرك

قُلْ أَنَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

المفردات : ﴿ **أعقابنا** ﴾ : جمع عقب وهو مؤخر الرجل وتقول العرب فيمن أحجم بعد إقدام رجع على عقبيه ، ونكص وارتد على عقبه ، ورجع القهقرى . ثم صار يطلق على كل تحول مذموم . ﴿ **استهوته الشياطين** ﴾ : ذهبت بعقله وهواه . ﴿ **حيران** ﴾ : تائها ضالا عن الجادة لا يدرى ما يصنع . ﴿ **الصور** ﴾ : القرن وهو كالبوق ينفخ فيه فيصعق من فى السموات والأرض ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون .

قال السدى : « قال المشركون للمسلمين اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد فأنزل الله عز وجل : ﴿ **قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا** ﴾ أى فى الكفر (بعد إذ هدانا الله) فيكون مثلنا مثل الذى استهوته الشياطين فى الأرض ، يقول مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق ، فحيرته الشياطين واستهوته فى الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم يقولون : إائتنا فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ . ومحمد هو الذى يدعو إلى الطريق والطريق هو الإسلام » رواه ابن جرير .

ثم قرر سبحانه وتعالى أن هداه هو الهدى الحقيقى الذى لا يزيغ عنه إلا هالك . فمن سار على هذا الطريق لا تزل قدمه ، ولا تتغير خطاه ، ومن حاد عنه فهو كالذى استهوته الشياطين بضلالها وعتوها وطغيانها وفجورها ، فصار فى الأرض حيران ، وكفى بالحيرة ضلالاً وبهتاناً ، وهل من ابتلى بالحيرة يقر له قرار أو يطمئن له جنان .

(١) الآية ١٢٣ من سورة البقرة .

وكيف يحار من علم أن القرآن : هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والهادى إلى الصراط المستقيم ، الذى لا تضل به الأفئدة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

قل لهم يا محمد : وأمرنا لنسلم لرب العالمين ، ونذعن لأوامره . ونتبع أحكامه ، ونسلك طريقه ﴿ قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾(١) . ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾(٢) ﴿ قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شىء ﴾(٣) .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً وكل الكائنات توحد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد
أنت الإلّه الواحد الحق الذى كل القلوب له تقر وتشهد

وكما أمرنا لنسلم لرب العالمين ، كذلك أمرنا بإقام الصلاة، وتقوى الله ، وأن أقيموا الصلاة واتقوه ، وإقامة الصلاة أداؤها تامة مستقيمة مستوفية شروطها وأركانها ، وإذا كان الناس فى زماننا هذا يعرفون وجوب الصلاة من الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، ويعرفون شروط صحتها كستر العورة ، ودخول الوقت ، والطهارة ، واستقبال القبلة ، إن كان يعرفون ذلك فقد غفل كثير منهم عن معرفة شروط قبولها ، وهى مسألة من الأهمية بمكان ، إذ ما قيمة شىء يؤدى على غير وجه من القبول ، وقد اجتمع شروط قبولها فى حديث قدسى جامع مانع قال تعالى .

﴿ إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى ، ولم يستطل على خلقى ، ولم يبت مصراً على معصيتى ، وقطع نهاره فى ذكرى ، ورحم المسكين ، وابن السبيل والأرملة ، ورحم المصاب ﴾ ثم يعقب الحديث بعد ذلك مبيناً ما لهؤلاء من الفضل فيقول تعالى ﴿ ذلك نوره كنور الشمس ، أكلأه بعزتى ، واستحفظه ملائكتى ، اجعل له فى الظلمة نوراً وفى الجهالة حلماً ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة ﴾ .

فياليت قومى يعلمون بما للمصلين من أجر وفضل عند ربهم ولما كان للصلاة تلك المكانة، فقد بدأ الله بها مكارم الأخلاق ، وكريم الشمائل ، وختمها بها ، ففى سورة المؤمنون يقول تعالى ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ،

(١) الآية ١٤ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٦٤ من سورة الأنعام .

والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾[1] ثم يختم الله تلك الصفات النبيلة فى الصلاة فيقول ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ .

وفى سورة المعارج يذكر الله المصلين ثم يذكر الصفات التى يتحلى بها المؤمنون ثم يختمها بذكر الصلاة أيضاً قال تعالى ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعا . إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾[2] وبعد ذكر صفات المؤمنين يقول تعالى ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **وهو الذى إليه تحشرون** ﴾ أى هذا الذى هو جدير بأن تعبدوه وتوحدوه ولا تشركوا به شيئاً ، هو الذى ستحشرون إليه وحده ، فلا ملجأ لكم ولا ملجأ من الله إلا إليه ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[3] فإليه المآب والرجعى ، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ، واليوم عمل ولا حساب ، وغداً حساب ولا عمل .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذاً فيها بكل نفيسة متمتعاً فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

إن هذا الإله القادر هو المعبود بحق ، ومن مظاهر عظمته وقدرته أنه خلق السموات والأرض بالحق قال سبحانه ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية ﴾[4] وقال جل شأنه ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾[5] وقال سبحانه ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[6] .

واذكر أيها المخاطب يوم يقول كن فيكون .

فسبحان من أمره بالكاف والنون وسبحان من يدبر الكون ويفصل الآيات ويخلق ما يشاء ويختار ومن صفات هذا الإله القادر أنه لا يقول إلا الحق ، قوله الحق وله الملك هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

واذكر أيها المخاطب يوم ينفخ فى الصور ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[7].

---

(١) الآيات ١ – ٨ من سورة المؤمنون .
(٢) الآيات ١٩ – ٢٣ من سورة المعارج .
(٣) الآية ١٨ من سورة الحاقة .
(٤) الآية ٨٥ من سورة الحجر .
(٥) الآية ١٦ من سورة الأنبياء .
(٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة الدخان .
(٧) الآيات ١٣ – ١٨ من سورة الحاقة .

ومن صفات هذا الإله القادر ﴿ إنه عالم الغيب والشهادة ﴾[١] ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾[٢] .

فيا دنيا أين بحارك ، وأين أنهارك ، وأين أشجارك ، وأين قصورك ، أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين عاشوا فى خير الله وعبدوا غير الله ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار .

ولى فى فناء الخلـق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقـة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى تفنى جميعـا والمهيمـن باق

﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾[٣] . ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[٤] . ﴿ إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير ﴾[٥] . ومن صفات هذا الإله القادر أنه هو الحكيم الخبير . حكيم تنزه فعله عن العبث خبير أحاط بدقائق الأشياء علماً وأحاط بدقائقها وأحصاها عدداً .

إبراهيم مع أبيه وقومه

۞وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

المفردات : ﴿ **إبراهيم** ﴾ : خليل الرحمن وأبو إسماعيل وجد العرب وأبو الأنبياء عليهم السلام جميعاً ، آزر أبو إبراهيم أو عمه وقيل غير ذلك . ﴿ **ملكوت** ﴾ : ملك الله وسلطانه فيها . ﴿ **جن عليه الليل** ﴾ : ستره بظلمته . ﴿ **كوكبا** ﴾ : نجماً مضيئاً . ﴿ **أفل** ﴾ **الأفول** : غيبوبة الشيء بعد ظهوره . ﴿ **بازغاً** ﴾ **البزوغ** : ابتداء الطلوع . ﴿ **فطر السموات والأرض** ﴾ : أخرجها إلى الوجود لا على مثال سابق . ﴿ **حنيفا** ﴾ : مائلا عن الشرك والضلال .

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة غافر .
(٣) الآيتان ٢٣ من سورة الحجر .
(٤) الآية ٤٣ من سورة مريم .
(٥) الآية ٤٣ من سورة ق .

وهذا مشهد مهيب من مشاهد التوحيد ، وقف فيه إبراهيم موقف العزة بمقام الوحدانية ، فكل الأنبياء عملوا بمعسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾[١] .

قال ﷺ (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)[٢] وقال ﷺ (جددوا إيمانكم قالوا : يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إلّه إلا الله)[٣] .

إنها كلمة التوحيد ، عليها نحيا وعليها نموت، وفى سبيلها نجاهد، وعليها نلقى الله .

ولقد جاهد إبراهيم أصدق الجهاد فى سبيل إعلاء كلمة الله ، وضرب الشرك فى جبهتين من أعتى الجبهات : جبهة الأصنام ، وجبهة الكواكب ، قال لأبيه : ﴿ **أتتخذ أصناما آلهة** ﴾ وسواء أكانت تلك الأصنام بشراً أو حجراً أو حديداً أو معدنا من المعادن فكلها معبودات باطلة ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[٤] .

ولقد أخذ إبراهيم يخاطب أباه بالبراهين الساطعة ، والحجج القاطعة : ﴿ **أتتخذ أصناما آلهة** ﴾ هذا استفهام تسيل له الكبد مرارة ، والفؤاد لوعة ، فماذا كان رد أبيه عليه ، اقرأ معى قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يا أبت لما تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سوياً . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم . لإن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا . واعتزلكم وماتدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا ﴾[٥] ولما رأى إبراهيم من أبيه إصراراً على ما هو عليه تبرأ منه قال الله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[٦].

وهكذا دار الصراع بين الحق والباطل ، وبين سماحة الحق وحماقة الباطل .

وقعت أحداث خطيرة ، فإن إبراهيم ظل صامداً فى دعوته لا تؤثر فيه الأحداث الجسام ، لأن الله تعالى أيده بروح من عنده ، وثبت قلبه باليقين ، فقد أعمل بصره وبصيرته فى علم اليقين ، وحق اليقين ، وعين اليقين، فأراه الله ملكوت السموات والأرض ، وما اشتملت عليه الكائنات من أدلة وبراهين تؤكد

(١) الآيات ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٨ ، ٣٣) . ومسلم فى الإيمان (١ ، ٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٥) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٣٥٩) .

(٤) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .

(٥) الآيات ٤١ — ٤٩ من سورة مريم .

(٦) الآية ١١٤ من سورة التوبة .

من قبائح اليهود

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ
فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ
ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾

لا يزال الكلام فى أهل الكتاب ، وتعداد سوءاتهم وقبائحهم ، خصوصاً اليهود تالله ﴿ **لقد أخذنا** ﴾ العهد الموثق على ﴿ **بنى إسرائيل** ﴾ ليؤمنن بالله ورسله ولا يكتمونه أبداً ، ﴿ **وأرسلنا إليهم رسلاً** ﴾ يؤكدون هذا العهدويجددون هذا الميثاق حتى يكونوا على ذكر منه أبداً ، ولكنهم اليهود ﴿ **كلما جاءهم رسول** ﴾ من عند الله بما لا تهواه أنفسهم ، لأنهم لا يهوون إلا الشر ، ناصبوه العداء ، وساموه سوء العذاب ، وكأن سائلا سأل وقال : ماذا كانوا يفعلون ؟ فأجيب ﴿ **فريقا** ﴾ منهم ﴿ **كذبوا** ﴾ ولم يؤمنوا ﴿ **وفريقا** ﴾ منهم كانوا ﴿ **يقتلون** ﴾ من غير ذنب ولا جريرة ، إلا أنهم كانوا يقولون : ربنا الله لعنهم الله قد ظنوا ظنا يكاد يكون كاليقين : أنهم لا تكون لهم ﴿ **فتنة** ﴾ أبداً ولا يختبرون بالشدائد أصلا ، وكيف يكون هذا وهم كما يعتقدون أبناء الله وأحباؤه ، وهم من نسل الرسل الكرام فلا يعذبون بذنوبهم أبداً . ﴿ **فعموا** ﴾ لهذا ﴿ **وصموا** ﴾ عن آيات الله التى أنزلها فى كتبه وعموا عما يحصل لهم من الإنذارات والشدائد ، فلم يتعظوا بشىء أبداً ، وصموا عن سماع القوارع من الحجج والآيات البينات ثم تابوا بعد عبادتهم العجل ، وقبل الله توبتهم ﴿ **ثم عموا وصموا** ﴾ مرة ثانية حيث طلبوا رؤية الله وقتلوا الأنبياء كزكريا ويحيى ، وحاولوا قتل عيسى بن مريم وخالفوا أوامر الله ورسله . وقوله تعالى ﴿ **كثير منهم** ﴾ يفيد أن أكثرهم العصاة ، وأقلهم المؤمنون الصالحون ، وأما نحن أيها المسلمون حذار حذار من ادعائنا وغرورنا بدون العمل ، حذار حذار من ألا نلتفت إلى التنبهات و القوارع التى تصيبنا ، حذار من أن ينطبق علينا هذا الكلام .

الإله عند المسيحيين

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ
مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن
لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ
وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ

وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾

تالله : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم** ﴾ وكيف لا يكفرون وقد ضلوا ضلالا بعيداً جداً عن العقل والدين ، إذ هم يقولون إن الله مركب فى ثلاثة أقاليم أى « أصول » : الأب والابن والروح القدس . وقد حل الأب فى الابن واتحد وكون روح القدس وكل واحد من هذه الثلاثة عين الآخر والثلاثة واحد ، والواحد ثلاثة ... ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[1] على أن خلاصة أقوالهم : إن الله هو المسيح ، والمسيح هو الله ولقد رد القرآن عليهم : كيف تقولون هذا البهتان ، وقد قال المسيح بن مريم ﴿ **يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ فقد أمرهم بعبادة الله وحده ، معترفاً بأنه ربه وربهم ، ودعاهم إلى التوحيد الخالص من كل شرك ، وهذا هو عيسى يحذرهم عاقبة الشرك والوثنية : ﴿ **إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين** ﴾ أنفسهم باتخاذ الشركاء والآلهة من نصير ينصرهم ولا شفيع يشفع لهم وينقذهم ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[2] ﴿ **لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ أى واحد من ثلاثة التى هى الأقانيم الثلاثة ﴿ **وما من إله** ﴾ فى الوجود يستحق العبادة ﴿ **إلا إله واحد** ﴾ أحد فرد صمد ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾[3] سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ **وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾ أعموا ﴿ **فلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه** ﴾ ويرجعون إليه ﴿ **والله** ﴾ كتب على نفسه الرحمة وهو الغفور الرحيم : أما حقيقة المسيح عيسى بن مريم : فهو رسول كبقية الرسل أيد بالمعجزات الخوارق للعادة كالنبيين السابقين وكما أيد المصطفى ﷺ بالمعجزة الباقية الخالدة (القرآن) ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾[4] وأما أمه فهى الصديقة الطاهرة المطهرة نفخ الله فيها من روحه ، وصدقت بكلمات ربها فكانت من القانتين ، وأما حقيقتهما الشخصية والنوعية فمساوية لسائر البشر بدليل أنهما ﴿ **يأكلان الطعام** ﴾ ليقيما به أودهما ومرت بهما ظروف خاصة وعامة كغيرهما وهما يذهبان إلى الخلاء ليقضيا حاجتهما ! فهل يكون أمثال هذين آلهة تعبد !؟ ﴿ **انظر** ﴾ يا من يتأتى منك النظر ﴿ **كيف نبين لهم الآيات** ﴾ ثم بعد ذلك يغالون فى البعد عن المنطق السليم وكيف ﴿ **يؤفكون** ﴾ يصرفون عن استبانة الحق كأن عقولهم فقدت بسبب التقاليد وظيفتها .

---

(١) من الآية ٥ من سورة الكهف .

(٢) من آية الكرسى : ٢٥٥ سورة البقرة .

(٣) من سورة الأخلاص .

(٤) من الآية : ١٧١ من سورة النساء وقد سبق تفسيرها .

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟
كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى
ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ .

تفسير المفردات :

﴿ **الغلو** ﴾ : الإفراط وتجاوز الحد . ﴿ **أهواء** ﴾ : آراء قوم دعت إليها الشهوة دون الحجة والبرهان . ﴿ **لعن** ﴾ : اللعن الطرد من الرحمة . ﴿ **يعتدون** ﴾ : يتجاوزون حدود الله . ﴿ **لا يتناهون** ﴾ : لا ينهى بعضهم بعضاً . ﴿ **يتولون الذين كفروا** ﴾ : يتخذونهم أولياء وأنصاراً وأعواناً . ﴿ **لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ : أسلوب ذم . والمعنى : قبح فعلهم وساء .

التفسير

لما بيّن الله تعالى حقيقة المسيح وأمّه فى كلمات موجزة وجيزة وقال : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صدِّيقة كانا يأكلان الطعام ﴾(١) لما بين الله ذلك جاء الخطاب موجها إلى الصادق المعصوم ولكل عاقل منصف ﴿ **قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضراً ولا نفعاً . والله هو السميع العليم** ﴾ وهذا أسلوب استفهام إنكارى فيه توبيخ وتقريع : أى ما كان ينبغى لكم أيها العقلاء أن توصدوا أبواب المعرفة وتغلقوا نوافذ العلم ، وتعطلوا وظائف الحواس . فتتجاوزوا الحدود وتعبدوا من دون الله مالا يملك ضراً ولا نفعاً لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا سواء أكان المعبود بشراً أم حجراً أم حديداً أم ملكاً كريماً .

---

(١) من الآية ٧٥ سورة المائدة .

فيا من عبدتم المسيح هل كان المسيح إلا كما قال الله تعالى فيه : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾(١) هل كان إلا بشرا يأكل الطعام ؟ وفى التعبير يأكل الطعام ما يفيد أن الطعام يتحول بعد الهضم والامتصاص إلى خلايا تقوم ببناء الأنسجة ، وتقوم الأنسجة ببناء الأعضاء التى تقوم بتكوين الأجهزة .. إن من كان شأنه كذلك فلا بد أن يجرى عليه ما يجرى على بقية البشر من نوم ويقظة ومرض وصحة وإخراج للفضلات من بول وغائط وعرق ، ولا بد أن يموت ، فكيف يُتصور أن من كان شأنه كذلك يُعبد من دون الله ؟ ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾(٢) .

إن الضار النافع هو الله ، والقابض الباسط هو لله ، والمعطى المانع هو الله ، والخافض الرافع هو الله ، والمحيى المميت هو الله ، والمعز المذل هو الله ، والسميع العليم هو الله .

قوله تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق** ﴾ : الغلو مذموم لأنه تجاوز المعقول ولأنه إفراط والافراط رذيلة ، كما أن التفريط كذلك . والاعتدال فضيلة ، لذا جاء الإسلام وسطا . قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾(٣) أى عدولاً . وقال جل شأنه فى مدح الوسطية : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾(٤) . وقال : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾(٥) . وقال : ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾(٦) . حتى لما قال بنو إسرائيل عن البقرة : ﴿ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك ﴾(٧) . ولما كان الغلو ممقوتا مذموما وصف الله تعالى بأنه ﴿ **غير الحق** ﴾ . لذا كان السيد الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه يقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله فقولوا : عبد الله ورسوله » . ومن ثم فإن المسيح وهو فى المهد قال : ﴿ إنى عبد الله ﴾(٨) .

وخاتم الأنبياء المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم كان من أحب أسمائه إليه فى القرآن « عبد الله » ، فى قوله تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾(٩) . ومن عجب أنك تقرأ فى القرآن الكريم وفى أرقى المنازل وأرفعها تقرأ أخبار الله تعالى عن رسوله بعنوان العبودية . ففى مقام

(١) الآية ٥٩ سورة الزخرف .
(٢) الآية ١٧ سورة المائدة .
(٣) من الآية ١٤٣ سورة البقرة .
(٤) الآية ٦٧ سورة الفرقان .
(٥) الآية ٢٩ سورة الإسراء .
(٦) من الآية ١١٠ سورة الإسراء .
(٧) من الآية ٦٨ سورة البقرة .
(٨) من الآية ٣٠ سورة مريم .
(٩) الآية ١٩ سورة الجن .

الإسراء وهو مقام رفيع : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾(١) وفى مقام المعراج وهو مقام تناهى فى العلو والسمو تقرأ : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾(٢) فالعبودية لله عز وربوبية الله للعبد فخر ، حتى كان بعضهم يناجى ربه فيقول : « كفانى عزا أن أكون لك عبداً . وكفانى فخرا أن تكون لى رباً » .

لذا كان هناك فرق شاسع بين أن يكون العبد عبدا مملوكا لغيره من البشر وبين أن يكون عبدا لله خالصا ، فالعبد المملوك لغيره من البشر يعود خيره على سيده ، والعبد المملوك لله وحده يعود خير سيده (وهو الله) عليه . من كان يريد العزة فلله العزة جميعا .

ومما زادنى شرفا وقدرا ... وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى ... وأن صيرت أحمد لى نبيا

ثم ينهى الله أهل الكتاب عن اتباع أهواء قوم عرفوا بالضلال والإضلال فقال : ﴿ **ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل** ﴾ فالضلال الأول مقيد بالقبلية ، أى أنهم كانوا أسبق ضلالا ، والإضلال الثانى متعدٍ إلى كثير ممن اتبعوهم ، والضلال الثالث مقيدٍ بأنه عن سواء السبيل . والهوى نوازع النفس إلى مسالك الشر ، ويشمل كل رأى صادر عن شهوة أو غرض ، لذا كان نهى النفس عنه درجة من درجات القرب إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ : هذا عقاب منه جلت قدرته لقوم كفروا من بنى إسرائيل ، فكان الكفر بمثابة الحيثية الأولى من هذا الحكم . نعم وهل يستحق اللعنة والطرد من رحمة الله إلا من توافرت فيه تلك الحيثيات . لقد لعن الله هؤلاء الكافرين من بنى إسرائيل على لسان السابقين من الأنبياء كداود وعيسى ابن مريم . قال العوفى عن ابن عباس : لعنوا فى التوراة والإنجيل وفى الزبور وفى الفرقان .. وقد بين الله تعالى من أسباب لعنهم ما فيه مزدجر لغيرهم . فقال : ﴿ **ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ عصوا من ؟ عصوا المليك المقتدر ، جبار السماوات والأرض ، عصوا الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، عصوا من يعلم السر وأخفى ، عصوا من أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا عصوا السميع الذى يسمع دبيب أرجل النملة السمراء فوق الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، عصوا العليم الذى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

(١) من الآية ١ سورة الإسراء .

(٢) الآية ١٠ سورة النجم .

(٣) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة النازعات .

وكانوا يعتدون ، يتجاوزون حدود الله فقد فرض الله تعالى فرائض فلا تضيعوها ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها .

ومن أسباب لعنة الله لهم ــ بل من أقوى الأسباب ، شيوع المنكر فيهم ، ومع ذلك لا يتناهون عنه ، فقد كانوا يفعلونه ويجاهرون الله بالمعصية . وقد ذمَّ الله تعالى فعلهم هذا ، فقال عزَّ من قائل : ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾ . فتلك هى الأسباب كما بينها الله تعالى ، وهذا هو حكمه عليهم : لعنة وطرد من رحمة الله . وما جرى عليهم يجرى على غيرهم من الأمم إن هم فعلوا فعلهم . فقد أعد الله تعالى الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشيا . وأعد النار لكل عاص ولو كان حرا قرشيا . وقد حدثنا القرآن الكريم عن تدمير الله لقرى لوط فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك ﴾[1] . ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ وماهى من الظالمين ببعيد ﴾[2] . وأشد ما تبتلى به الأمم وتصاب به المجتمعات شيوع المنكر بين أفرادها . قال رسول الله ﷺ . « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول ياهذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده . فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ــ ثم قال : ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم** ﴾ إلى قوله ﴿ **فاسقون** ﴾ ــ ثم قال ــ كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرن على الحق أطرا أو تقصرنه على الحق قصرا » رواه الترمذى .

إن قاعدة إصلاح المجتمع تقوم على التناصح فالناس بخير ماتناصحوا : قال ﷺ : الدين النصيحة . قلنا : لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » فالنصيحة هى ركن الدين الأعظم . لذا نهى الإسلام عن الغش والنفاق . قال تعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾[3] . وقال ﷺ : « من غشنا فليس منا » وقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نذكر منها ما يوفى هذا المقام حقه :

قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد المسىء ولتأطرنه على الحق أطرا أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض أو ليلعنكم كم لعنهم » .

قال ﷺ : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » . رواه الترمذى .

(١) الآية ٨٢ وجزء من الآية ٨٣ سورة هود .
(٢) جزء من الآية ٨٣ سورة هود .
(٣) الآية ١٤٥ سورة النساء .

قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم .

قال ﷺ : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرون فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » . رواه الإمام أحمد .

قال النبى ﷺ : « إذا عملت الخطيئة فى الأرض كان من شهدها فكرهها ، كان كمن غاب عنها ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » رواه أبو داود .

قال النبى ﷺ : « لن يهلك الناس حتى تعذروا أو يعذروا من أنفسهم » .

عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قام خطيبا فكان فيما قال : « ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه » قال فبكى أبو سعيد وقال : قد والله رأينا أشياء فهبنا .

قال رسول الله ﷺ : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » رواه الترمذى .

قال رسول الله ﷺ : « لا يحقر أحدكم نفسه » قالوا يارسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال « يرى أمر الله فيه فقال ثم لا يقول فيه فيقول الله له يوم القيامة ما منعك أن تقول فى كذا كذا وكذا فيقول خشية الناس فيقول فإياى كنت أحق أن تخشى » .

قال رسول الله ﷺ : « إن الله يسأل العبد يوم القيامة حتى يقول ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لعنه الله عبدا حجته قال يارب رجوتك وفرقت الناس » .

قال ﷺ : « لا ينبغى لمسلم أن يذل نفسه » قيل وكيف يذل نفسه قال « يعترض من البلاء لما لا يطيق » رواه الترمذى .

عن أنس بن مالك قال : قيل يارسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قال « إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم » قلنا يارسول الله وما ظهر فى الأمم قبلنا ، قال . الملك فى صغاركم والفاحشة فى كباركم والعلم فى رذالكم » . قال زيد تفسير معنى قول النبى (ﷺ) والعلم فى رذالكم إذا كان العلم فى الفساق » تفرد به ابن ماجه .

قوله تعالى ﴿ **ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا** ﴾ وهذه جريمة أخرى من جرائم اليهود الذين اتخذوا من كفار مكة وقبائل المشركين أعوانا وأنصارا وأولياء . فقد سأل الكفار حُيِّى بن أخطب : أَيُّنا على حق ؟ أنحن أم محمد . فقال لهم : بل أنتم على حق ومحمد على ضلال . قالها وهو يعلم علم اليقين أنه كاذب فقد قرأ صفة النبى (ﷺ) فى التوارة ، وقد ذكر الله هذا الموقف الأليم فى قوله :

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾[1] . وقد ذم الله تعالى صنيعهم هذا فقال عز من قائل ﴿ **لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيرا منهم فاسقون** ﴾ . فى هذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع على كفر هؤلاء المارقين ، فإنهم لو كانوا يؤمنون بالله ربا ومحمد ﷺ نبيا والقرآن كتابا منزلا من عند الله ما اتخذوا الكافرين أولياء إذ أن اتخاذهم أولياء دليل على جحودهم وتمردهم على المؤمنين . ثم بين الله تعالى العلة فى اتخاذهم الكافرين أولياء فقال : ﴿ **ولكن كثيرا منهم فاسقون** ﴾ أى خارجون على حدود الله عاصون لأوامره مخالفون لآيات وحيه وتنزيله وهذا هو شأن اليهود فى كل زمان ومكان يضمرون الحقد والبغضاء للجماعة المؤمنة ويناصبونها أشد العداء ويحقدون على رسول الله ﷺ حقدا أسود ويتآمرون عليه ويحاولون كثيرا القضاء عليه بالسم مرة والخديعة أخرى ، ولكن الله تعالى يعصمه ويرعاه وعين الله تلكؤه وتحميه . إنهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا .

(١) الآية ٥١ سورة النساء .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء السابع

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

حقائق يقررها القرآن الكريم

۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً
لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ
رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن
يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

المفردات : ﴿ **عداوة** ﴾ العداوة والمحبة صفتان من صفات النفس يظهر أثرهما فى القول والعمل . ﴿ **قسيسين** ﴾ : واحد قس ، وقسيس ، وهو رئيس من رؤساء النصارى والأصل فيه أن يكون عالما بدينهم وكتبهم . ﴿ **رهبانا** ﴾ : واحده راهب وهو العابد المنقطع للعبادة . ﴿ **تفيض من الدمع** ﴾ : تمتلىء دمعا حتى يتدفق من جوانبها لكثرته . ﴿ **فأثابهم** ﴾ : جازاهم .

قال سعيد بن جبير والسدى وغيرهما : نزلت فى وفد بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ ليسمعوا كلامه ويروا صفاته ، فلما رأوه وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ثم رجعوا إلى النجاشى فأخبروه .

وقال قتادة : هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم ، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا . واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت فى صفة أقوام بهذه المثابة سواء كانوا من الحبشة أو غيرها .

قوله تعالى ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** ﴾ ، وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهتة للحق ، وغمط للناس وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما خلا يهودى بمسلم قط إلا هم بقتله) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى** ﴾ أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله ، فيهم مودة للإسلام وأهله فى الجملة ، وما ذاك إلا لما فى قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ﴾[(١)] وفى كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر . ﴿ **ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون** ﴾ .. أى يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم ، واحدهم قسيس وقس أيضا وقد يجمع على قسوس والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة ، وهى الخوف ، كراكب وركبان وفارس وفرسان ، قوله تعالى : ﴿ **وأنهم لا يستكبرون** ﴾ أى أن من صفاتهم التواضع ، والكبر والاستكبار هو بطر الحق وغمط الناس . قال تعالى : ﴿ **فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾[(٢)] وقال ﷺ : (لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر)[(٣)] . لذلك وصفهم الله تعالى بعد ذلك بقوله : ﴿ **وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول** ﴾ أى من القرآن ﴿ **ترى أعينهم تفيض من الدمع** ﴾ حتى يتدفق من كل جانب فيضانا ناشئا مما عرفوا من الحق الذى أنزل على محمد ﷺ إذ هو مصدق لما معهم من الكتاب ومطابق لما وصف عندهم ، ولم يمنعهم عن ذلك عتو وعناد متأصل فيهم ، هذا حالهم ، أما مقالهم فيقولون : ربنا آمنا بك وبرسلك ، خصوصاً محمد ﷺ ، فاكتبنا مع الشاهدين الذين يشهدون يوم القيامة للأنبياء والرسل وهم أمة محمد ﷺ ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾[(٤)] أى مانع يمنعنا من الإيمان بالله الذى لا إله إلا هو ؟ ويصدنا عن اتباع ما جاءنا من الحق على لسان ذلك الرسول المبشر به فى كتابنا إذ هو روح الحق وإنا لنطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الذين صلحت نفوسهم وطهرت أرواحهم بالعقائد الصحيحة والمثل العليا وهم أتباع هذا النبى الكريم .

والمعنى : لا مانع من الإيمان بعد أن ظهرت الحجة ووضح الطريق ، ونحن نطمع فى أن نكون فى عداد الأبرار والأخيار من أصحاب محمد ﷺ فأثابهم الله وجازاهم بما قالوا عن عقيدة راسخة ونفس مطمئنة راضية وآتاهم جنات تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ، هؤلاء المسيحيون الأحرار الذين نظروا فى تعالم المسيح الحقيقية فوقفوا على سرها ، وتكشفت لهم جنباتها ، ورزقوا فكراً حرا ، وعقلا رشيداً ، وروحاً طيبة ، بعيدة عن التعصب تدين بمبدأ

(١) الآية ٢٧ من سورة الحديد . (٢) الآية ٢٩ من سورة النحل .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٥) وفى الرقاق (٣٥ ، ٥١) وفى الفتن (١٣) وفى التوحيد (٢٤ ، ٣٦) وأخرجه مسلم فى الإيمان (١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٢٦) وفى الفتن (٥٢ ، ١١٦) وأخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦) والترمذى فى الفتن (١٧) وفى جهنم (١٠) وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الزهد (١٦ ، ٣٧) والدارمى فى المقدمة (٨) والإمام أحمد فى (١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٤٥١) وفى (٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢١٥) وفى (٣ ، ١٢ ، ١٧) وفى (٤ : ١٥١) وفى (٥ ، ١٩٨ ، ١٩٩) .

(٤) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

« الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من أى وعاء خرجت »[(١)] .

أما السواد الأعظم من المسيحيين الذين غرقوا فى بحار التعصب ولم ينظروا ولم يفكروا وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، أو من عرفوا الحق وأعرضوا عنه ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ فهؤلاء وهؤلاء يقول الله فيهم ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على صدق نبينا «أولئك هم أصحاب الجحيم» الملازمون لها .

هلك المتنطعــون

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

المفردات ﴿ **طيبات** ﴾ : ما تستلذه النفس ويميل إليه القلب . ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ : لا تتجاوزوا الحدود المرسومة لكم . ﴿ **طيبا** ﴾ : غير مستقذر حسًّا أو معنى . ﴿ **اتقوا الله** ﴾ : خافوه . ﴿ **أنتم به مؤمنون** ﴾ : أى مصدقون بواحديته .

جاء فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : (ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكنى أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى)[(٢)] .

وعن ابن عباس : نزلت هذه الآية فى رهط من أصحاب النبى ﷺ قالوا : نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا ونسيح فى الأرض كما يفعل الرهبان ، فبلغ ذلك النبى ﷺ فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك فقالوا : نعم ، فقال النبى ﷺ : (لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأنام وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتى فهو منى ومن لم يأخذ بسنتى فليس منى) .

وعن ابن عباس أيضا أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإنى حرّمت علىّ اللحم ، فنزلت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى العلم (١٩) ، وابن ماجه فى الزهد (١٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى النكاح (١) . ومسلم فى النكاح (٥) . والنسائى فى النكاح (٤) والدارمى فى النكاح (٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٥٨) وفى (٣ : ٢٤١ ، ٢٥٩ ، ٢٨٥) وفى (٥ : ٤٠٩) .

أحكام فقهية

ذهب الشافعى وغيره إلى أن من خرم مأكلا أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ولا كفارة عليه أيضا ولقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ ، ولأن الذى حرم اللحم على نفسه كما فى الحديث المتقدم لم يأمره النبى ﷺ بكفارة ، وذهب آخرون منهم - الإمام أحمد بن حنبل - إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين كما إذا التزم تركه باليمين فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، كما أفتى بذلك ابن عباس وكما فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم ﴾[2] ، وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين ، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير . والله أعلم .

أقوال أخرى

قال ابن جريج عن عكرمة أن عثمان بن مظعون وعلى بن أبى طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالما مولى أبى حذيفة فى أصحابه تبتلوا فجلسوا فى البيوت ، واعتزلوا النساء ، ولبسوا المسوح ، وحرموا طيبات الطعام واللباس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل ، وهموا بالاختصاء ، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ .

يقول : لا تسيروا بغير سنة المسلمين ، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس ، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار ، وما هموا به من الاختصاء ، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال : (إن لأنفسكم حقا وإن لأعينكم حقا ، صوموا وأفطروا ، وصلوا وناموا ، فليس منا من ترك سنتنا ، فقالوا : اللهم أسلمنا واتبعنا ما أنزلت وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسلة ، ولها شاهد من الصحيحين من رواية عائشة أم المؤمنين كما تقدم ذلك ولله الحمد والمنة . وقال أسباط عن السدى فى قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس ، ثم قام ولم يزدهم على التخويف ، فقال ناس من أصحاب النبى ﷺ كانوا عشرة منهم : على بن أبى طالب ، وعثمان بن مظعون : ما حقنا إن لم نحدث عملا فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم ، فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك ، وأن يأكل بالنهار ، وحرم بعضهم النوم ، وحرم بعضهم النساء ، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء ، فكان لا يدنو من أهله ، ولا يدنون منه فأتت امرأته عائشة رضى الله عنها ، وكان يقال لها الحولاء ، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبى ﷺ : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون لا تمتشطين ولا تتطيبين ؟ فقالت : وكيف أمتشط وأتطيب وما وقع على زوجى وما رفع عنى ثوبا منذ كذا وكذا ؟

(١) الآية ١ من سورة التحريم .

(٢) الآية ٢ من سورة التحريم .

قال : فجعلن يضحكن من كلامها ، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن فقال : (ما يضحككن) قالت : يا رسول الله إن الحولاء سألتها عن أمرها فقالت ما رفع عنى زوجى ثوباً منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال : (مالك يا عثمان) قال : إنى تركته لله لكى أتخلى للعبادة ، وقص عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه فقال رسول الله ﷺ : (أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك) ، فقال يا رسول الله : إنى صائم فقال : (أفطر) فأفطر وأتى أهله ، فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت فضحكت عائشة وقالت : مالك يا حولاء فقالت : إنه أتاها أمس وقال رسول الله ﷺ : (ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ألا إنى أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عنى فليس منى) ، فنزلت ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا** ﴾ يقول لعثمان لا تجبّ نفسك ، فإن هذا هو الاعتداء ، وأمرهم أن يكفروا عن أيمانهم فقال : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تعتدوا** ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا فى التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، كما قاله من قاله من السلف ، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا فى تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ، ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾[2] ، وقال : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾ فشرع الله عدل بين الغالى فيه والجافى عنه لا إفراط ولا تفريط ولهذا قال : ﴿ **لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ ثم قال : ﴿ **وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً** ﴾ ، أى فى حال كونه حلالا طيبا ﴿ **واتقوا الله** ﴾ ، أى فى جميع أموركم واتبعوا طاعته ورضوانه واتركوا مخالفته وعصيانه ، ﴿ **الذى أنتم به مؤمنون** ﴾ .

وما أعظم قوله تعالى : ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ★ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ★ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾[3] .

أحكام تتعلق بالإيمان

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ

(١) الآية ٨٩ من سورة المائدة . (٢) الآية ٣١ من سورة الأعراف . (٣) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الأعراف .

يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

المفردات ﴿ **اللغو فى اليمين** ﴾ : ما يجرى على اللسان بغير قصد . ﴿ **كفارته** ﴾ : أعمال تكفر بعض الذنوب أى تغطيها وتسترها . ﴿ **من أوسط** ﴾ : المراد الوسط فى الطعام بلا مبالغة فى التقتير أو الإسراف . ﴿ **أو تحرير** ﴾ : عتق رقبة .

وردت فى اليمين اللغو أقوال نبينها فى ما يلى :

قال الشافعى : هو قول الرجل فى الكلام من غير قصد : لا والله بلى والله . وقيل هو فى الهزل ، وقيل فى المعصية ، وقيل على غلبة الظن ، وهو قول أبو حنيفة وأحمد ، وقيل فى اليمين فى الغضب ، وقيل فى النسيان ، وقيل هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس واستدلوا بقوله ﴿ **لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم** ﴾ والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله : ﴿ **ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان** ﴾ أى بما صممتم عليه منها وقصدتموها .

(**فكفارته إطعام عشرة مساكين**) . يعنى محاويج من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه ، وقوله ﴿ **من أوسط ما تطعمون أهليكم** ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة : أى من أعدل ما تطعمون أهليكم .

واختار ابن جرير أن المراد بقوله : ﴿ **من أوسط ما تطعمون أهليكم** ﴾ أى فى القلة والكثرة . والاعتدال فى كل شىء مطلوب شرعاً ، والأوسطية هى التى بين الإسراف والتقتير ، وقد ذكروا فى مقدار الطعام أن يغذيهم ويعشيهم غداء وعشاء مشبعين من أكل من أكل وسط ، أما الكسوة فخير ما قيل فيها هو ما رآه مالك وابن حنبل وهو أن يعطيهم من الثياب ما تصح به الصلاة ، أما تحرير الرقبة فهو عتقها سواء أكانت مؤمنة أم غير مؤمنة ، فهو مخير بين هذه الأمور : الإطعام ، أو الكسوة ، أو التحرير ، فمن لم يجد ذلك ولم يستطع إطعاماً أو كسوة أو عتقاً فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعة على الصحيح ، وقد فسروا الاستطاعة بأن يكون عنده ما يزيد على إطعام أهله يوماً وليلة . فإنْ عجز عن ذلك كله استقر الحق فى ذمته حتى يستطيع ، ذلك المذكور كفارة أيمانكم إذا حلفتم حلفا شرعيا وحنثتم ،واحفظوا أيمانكم، فلا تبذلوها لأتفه الأسباب ، ولا تجعلوها عرضة ، وإن حنثتم فاحفظوها بالكفارة ، وإن حلفتم فلا تنسوا ما حلفتم عليه ، ولا تحنثوا إلا لضرورة ، ويكون الحنث فيها أفضل من السير مع اليمين ، مثل هذا البيان الشافى الواضح يبين الله لكم آياته وأحكام دينه ليعدكم ويؤهلكم لشكره على نعمه جل شأنه .

أما اليمين الغموس ، وهى التى يقصد بها ضياع حق لمسلم ، أو يقصد بها غش أو خيانة ، فلا يكفرها عتق ولا صدقة ولا صيام ، بل لابد من توبة ورجوع إلى الله ، مع أداء الحقوق لأربابها ، قال رسول الله ﷺ : (من حلف على يمين صَبْر وهو فيها فاجر يقتطع بها مال امرىء مسلم لقى الله وهو

عليه غضبان)[١] : رواه البخارى ومسلم . يقول الله : (ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم * ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إن ما عند الله هوخيرلكم إن كنتم تعلمون)[٢] . وقد ذم الله تعالى كل من يكثر الحلف فقال : ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾[٣] فعليك أيها المسلم أن تراعى فى الأيمان هذه التوجيهات الشرعية :

١ - لا تحلف إلا لضرورة تدعوك لذلك .

٢ - إذا حلفت فلا تحلف إلا بالله وحده لا شريك له ، فمن حلف بغير الله فقد كفر وأشرك ، أما الذى يحلف بما شاء من المخلوقات فهو الله وحده لأنه خالق الكائنات ، وقد حلف سبحانه بأنواع من مخلوقاته كالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والسماء والأرض ، ونفس وما سواها ، كما حلف بالتين والزيتون ، وطور سنين ، والبلد الأمين ، ولكنه لم يحلف بحياة أحد إلا بحياة النبى ﷺ فقال : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون)[٤] .

والله ما خلق الإله وما برى بشرا يُرى كمحمد بين الورى
يا سيد العقلاء يا خير الورى يا من أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا وطلعت فى الأكوان بدرا نيراً

٣ - وإذا حلفت فلا تحلف إلا صادقا ، لأن الحلف بالله كاذبا يعتبر من الكبائر ، وهى يمين الغموس التى قال عنها النبى ﷺ (اليمين الغموس تذر الديار بلاقع) أى خرابا يباباً ، واليمين الفاجرة منفقة للسلعة ، ممحقة للربح ، وإنما سميت غموسا لأنها تغمس صاحبها فى نار جهنم جزاء وفاقاً ، لأنه حلف بالله كاذبا متعمدا .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون** ﴾ أى يفصل لكم أحكامه تفصيلاً بيناً واضحاً ، فليكن منكم الشكر له تعالى على ما أنعم به عليكم من البيان ، وتفصيل الأحكام ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليكم حكيم ﴾[٥] .

تحريم الخمر والميسر وغيرهما

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ

(١) أخرجه البخارى فى الأيمان (١١ ، ١٧) وفى التفسير (سورة ٣) (٢) وفى الأحكام (٣٠) وأخرجه مسلم فى الأيمان (١٧٦ ، ٢٢٠) والترمذى فى تفسير سورة ٤ (٦) ، (٣ ، ٤٩٥) (٥ : ٢١١ ، ١١٢) .

(٢) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة النحل .

(٣) الآية ١٠ من سورة القلم .

(٤) الآية ٧٢ من سورة الحجر .

(٥) الآية ٢٦ من سورة النساء .

فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ
ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

المفردات ﴿ **الخمر** ﴾ : كل شراب مسكر . ﴿ **الميسر** ﴾ : فى أصل اللغة : القمار بالقداح فى كل شيء ، ثم غلب فى كل مقامرة . ﴿ **الأنصاب** ﴾ : حجارة كانت حول الكعبة يذبحون قرابينهم عندها . ﴿ **الأزلام** ﴾ : قطع رقيقة من الخشب كالسهم كانوا يستقسمون بها . ﴿ **رجس** ﴾ : مستقذر حساً ومعنى . ﴿ **طعموا** ﴾ : طعم الشيء يطعمه ذاق طعمه عن طريق الأكل أو الشرب .

روى أن عمر كان يدعو الله تعالى قائلا : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافيا . فلما نزلت آية البقرة ظل على دعائه ، ولما نزلت آية النساء ظل كذلك على دعائه ، فلما نزلت آية المائدة وسمع قوله تعالى : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ ، قال انتهينا .. انتهينا . وكانت هذه الآية هى الفاصلة القاضية .

روى أن عمر قال حين سمع ﴿ **إنما الخمر والميسر** ﴾ : أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام : بعداً لك وسحقاً ، وتركها الناس وأراقوها فى الطرقات . وروى عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا وثملوا واعتدى بعضهم على بعض ، فلما صحوا جعل يرى الرجل منهم الأثر بوجهه ولحيته فيقول : صنع بى أخى فلان هذا ، لو كان رءوفا بى ورحيما ما صنع هذا . وقد وقعت بينهم ضغائن فأنزل الله ﴿ **إنما الخمر والميسر** ﴾ فقال ناس : هى رجس ، وهى فى بطن فلان مثلاً وقد قتل يوم أحد ، وفى بطن فلان وقد قتل يوم بدر ، فأنزل الله : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح** ﴾ الآية .

ولعلك تسأل : ما الحكمة فى تحريم الخمر تدريجيا .

وما علمت أنها الحكمة العالية ، والدواء الناجع لهذا الداء المتأصل الذى أدمنت العرب على شربه ، فلو حرمت الخمر دفعة واحدة لكان ذلك أدعي لتنفير الناس من الدين كله .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ بالله ورسوله ، والذين خالط قلوبهم نور الإسلام وبرد اليقين : اعلموا أن هذا الوصف يوجب عليكم الامتثال لأمر الله والتزام حدود الشرع ، واعلموا أنما الخمر ، وهى ما خامر العقل أى ستره فأستره ، رجس من عمل الشيطان وصنعه وهو عدوكم اللدود ، الذى لا يعمل إلا للشر ، ولا يزين إلا للهلاك .

ولقد خطب عمر بن الخطاب يوماً على منبر الرسول ﷺ فقال : (قد نزل تحريم الخمر يوم نزل وهى من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل)[1] : وهذا أبين بيان فى حقيقة الخمر ، يخطب عمر بالمدينة على مرأى ومسمع من صحابة رسول الله ﷺ ، وهم أهل اللسان والبيان ، وأعلم الناس بلغة القرآن ، فلا ينكر أحد عليه ، ولا يستفسر أحد عن نوع دون نوع ، ولا ننسى قوله ﷺ : (كل مسكر خمر وكل مسكر حرام)[2] فإذن كل مادة مغيبة للعقل مهلكة للصحة فهى خمر وإن تعددت الأسماء ، وإذا ثبت هذا بطل رأى القائلين بأن الخمر لا تكون إلا من العنب ، وما كان من غيره لا يسمى خمراً .

والنبيذ قديما عبارة عن تمر أو زبيب ينقع فى ماء حتى يحلو الماء فيشرب ، وهذا حلال حيث لم يختمر ولم يسكر ، وأقرب الأشياء به ما يسمى بالخشاف فى مصر ، أما النبيذ المستعمل الآن فخمر وحرام ومسكر .

إنما ذلك رجس وقذارة ، وأى رجس أكبر من هذا ، فالخمر والميسر مستقذران حساً ومعنى من ناحية الشرع والعقل ، وهما من عمل الشيطان وصنعه ، فاجتنبوا هذا الرجس واتركوه ، واجعلوه فى جانب ، وأنتم فى جانب ، رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وسلامة أبدانكم .

وبعد هذا يبين الله السر فى هذا الأمر ويبين خطرهما فى الدنيا والآخرة وضررهما اجتماعياً ودينياً .

أما الخطر الاجتماعى فالشيطان ، إنما يريد لكم بشرب الخمر ولعب الميسر أن تقع بينكم العداوة والبغضاء فيقضى على جماعتكم ، ويشتت شملكم ، ويهدم كيانكم ، والإسلام حريص جداً على أخوتكم واتحادكم وتضامنكم وإزالة أسباب الشقاق والنزاع فيما بينكم .

والشواهد على هذا كثيرة واضحة ، ولا غرابة فى هذا ، فالخمر تذهب العقل الواعى وتستره ، وهو الذى يدرك قواعد العرف والدين التى تمنعنا عن الشر والوقوع فيه ، فإذا ضاع واستتر ظهر الإنسان بشهواته وطبيعته الحيوانية ، يأتى الدنية ، ويقوم بأحط الأعمال وأقذرها .

والميسر وما فيه من ربح وخسارة بلا عمل ولا تجارة مثار العداوة والبغضاء فى نفس الخاسر وحزبه .

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٥ (١٠) وفى الأشربة (٢ ، ٥) وأخرجه مسلم فى تفسير ٣٢ (٣٣) . وأخرجه أبو داود فى الأشربه (١) . والنسائى فى الأشربة (٢٠) .

(٢) أخرجه مسلم فى الأشربه (٧٣ ، ٧٥ ، ٦٤ ، ٦٩) وأخرجه البخارى فى الأدب (٨٠) وفى الأحكام (٢٢) وفى المغازى (٦٠) ، وأخرجه أبو داود فى الأشربه (٥ ، ٧) . والترمذى فى الأشربه (١ ، ٢) . والنسائى فى الأشربة (٨ ، ٤٠ ، ٤٩) وابن ماجه فى الأشربه (٩ ، ١٣ ، ١٤) والدارمى فى الأشربه (٨) . والإمام مالك فى الضحايا (٨) . والإمام أحمد فى (١ ، ٢٧٤ ، ٢٨٩ ، ٣٥٠) وفى (٢ ، ١٦ ، ٢٩ ، ٣١ ، ١٨٥) وفى (٣ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ١١٢ ، ١١٩ ، ٢٣٧) وفى (٤ ، ٤١٠ ، ٤١٦ ، ٤١٧) وفى (٥ : ٣٥٦) وفى (٦ : ٣١٤ ، ٣٣٣) .

أما ضياع الشخصية وفناء الشباب وهلاك الصحة والانغماس فى تيار الرذيلة فشىء لا ينكره عاقل ، ولا يحتاج إلى نص .

وأما الناحية المالية فحدث عنها ولا حرج ، فكم من البيوت خربت ، وكم من الأموال بددت على الموائد الخضراء والحمراء فى الليل والنهار .

وأما الخطر الدينى ، وما أدراك ما هو ، فهما يصدان عن ذكر الله الذى يجلى القلوب ويزكيها ، ويطهر النفوس ويهديها ، وهما يمنعان عن الصلاة التى هى عماد الدين ، إذ السكران لا عقل له ولا قلب ، فكيف يهتدى إلى الخير وإلى الصلاة ولاعب الميسر يجلس الساعة والساعات بل يواصل ليله بنهاره لا يدرى ما حوله ، ولا يشعر بنفسه ، قد نسى بيته وأهله وولده ، وإنه ليقضى الوقت بين الأوراق والنار تشتعل فى بيته فلا يغيث أهله مع الناس ، فكيف يفكر فى الصلاة ؟ على أنه إذا صلى ، صلى بلا روح ، وبلا قلب ، فهل أنتم يا من اتصفتم بوصف الايمان وتحليتم به منتهون ؟

بعد هذا البيان اللاذع والقول الفاضح ، وهذا أمر بالانتهاء جاء على أسلوب بليغ جداً ، يدركه من يقف على أسرار بلاغة القرآن . وكيف لا يكون هذا شأن الخمر والميسر وقد نفَّر الله منهما ، وأكد تحريمها بوجوه من التأكيد أهمها :

- سماهما رجسا من عمل الشيطان ، بل قصرهما على الرجس لا يتعديانه إلى غيره .
- وقرنهما بالأنصاب والأزلام ، وأنت تعرف أنهما من أعمال الشرك وخرافات الوثنية . (مدمن الخمر كعابد الوثن) .
- وعلق الفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة على اجتنابهما .
- وجعلهما مثار العداوة والبغضاء ومبعث الشقاق والشحناء .
- وهما يصدان عن ذكر الله والله يقول : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[(١)] .

وكان ختام الآية بقوله : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ على ما فيه من البلاغة والبيان ، أتم صارف للمسلمين عنهما وصاد ؟

وأطيعوا الله تعالى فيما أمركم به ، وأطيعوا الرسول فيما بينه لكم ، واحذروا عاقبة المخالفة وما تجر من الخيبة والندامة ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[(٢)] .

فإن توليتم بعد هذا فلا تلومن إلا أنفسكم ، واعلموا أنما على رسولنا البلاغ فقط وعلينا الحساب والجزاء ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ﴾[(٣)] .

ومن مات قبل التحريم فلا شىء عليه ، إذ هناك قانون عام وهو : ليس على الذين آمنوا وعملوا

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد . (٢) الآية ٦٣ من سورة النور . (٣) الآية ١٩ من سورة الانفطار .

الصالحات كالذين ماتوا قبل تحريم الخمر وغيره ، ليس عليهم جناح فيما طعموه إذا ما اتقوا الله وعملوا الصالحات الباقيات التى شرعت فى حياتهم ، كالصلاة والصيام وغيرهما ثم اتقوا ما حرم عليهم وآمنوا بما نزل فيه وفى غيره ، ثم استمروا على التقوى والإحسان وعمل الصالحات ، والله يحب المحسنين المتقنين أعمالهم المخلصين فيها .

التداوى بالخمر : قال النبى ﷺ : (إنه ليس بدواء ولكنه داء ، وما جعل الله شفاء أمتى فيما حرم عليها)(١) .

وقول النبى ﷺ إنه داء أكده رأى الطب ، إذ أن الخمر تولد أمراضا كثيرة يموت بها فى كل عام عدد لا يحصى من الناس ، وفكرة التداوى بالخمر حيلة شيطانية حتى تتمكن من النفس وتصبح عادة يصعب انتزاعها .

وحكم شارب الخمر : أربعون جلدة ، وقيل ثمانون ، فقد روى أن النبى ﷺ جلد أربعين وفعل أبو بكر مثله ، فلما كان عمر استشار الناس فقال عبد الرحمن : أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر .

ومثل الخمر كل مادة يحصل منها ضرر مالى أو جسمانى أو خطر اجتماعى أو خطر دينى كالحشيش والأفيون أو أى مادة أخرى فهى محرمة حرمة الخمر .

الصيد فى الإحرام وجزاؤه

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ
مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ
ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ
مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ
أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ
صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُواْ
ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾

(١) أخرجه البخارى فى الأشربة (١٥) . والدارمى بمعناه فى الأشربه (٦) . ومسلم فى الأشربة (١٢) . وأبو داود فى الطب (١١) . والترمذى فى الطب (٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى الحدود (٢ ، ٤ ، ٥) ومسلم فى الحدود (٣٥ ، ٣٦ ، ٣٨) وأبو داود فى الحدود (٣٥ ، ٣٦) وابن ماجه فى الحدود (١٦) والدارمى فى الحدود (٩) . والإمام أحمد فى (١ : ٨٢ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٥) وفى (٣ : ٦٧ ، ١١٥ ، ١٧٦ ، ٢٤٧) .

المفردات ﴿ **ليبلونكم** ﴾ : ليعاملنكم معاملة من يختبركم . ﴿ **تناله أيديكم** ﴾ : يكون فى متناول اليد . ﴿ **حرم** ﴾ : محرمون بحج أو عمرة أو فى مكان الحرم . ﴿ **عدل** ﴾ : مساوٍ له .وبال أمره : عاقبة أمره الثقيلة . ﴿ **للسيارة** ﴾ : جمع سيار وهو المسافر .

أحل الله لنا أكل الطيبات من الرزق واستثنى الخمر وما شاكلها ، وهنا أضاف لها الصيد فى الإحرام وبين جزاءه .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ بالله وبرسوله ﴿ **ليبلونكم الله** ﴾ ليعاملنكم معاملة من يختبركم ﴿ **بشيء من الصيد** ﴾ أى بعض منه وهو صيد البر لا صيد البحر ، اختبركم بإرساله بحيث يسهل تناول بعضه بالأيدى ، وبعضه بالرماح ، وكيف لا يكون هذا اختباراً وابتلاء والمصيد طعامه لذيذ ، واصطياده حبيب إلى النفس ، خصوصا فى الأسفار ، فإذا أضيف إلى ذلك كثرته وعدم تأبيه كان هذا اختباراً ، وأى اختبار ، يفعل الله هذا ليعلم علم ظهور وانكشاف من يخافه بالغيب ومن يخافه أمام الناس فقط ، كالمنافقين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم والله عالم بكل شيء ، ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم بالامتثال .

فمن اعتدى منكم بعد ذلك البيان البين فله عذاب شديد فى الدنيا والآخرة مؤلم غاية الألم .

يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان ، وصدقتم بالرسول ، وآمنتم بالقرآن : لا تقتلوا صيد البر ، وهذا النهى هو الابتلاء المذكور فى الآية السابقة : لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة ، أو فى مكان الحرم ، وإن لم تحرموا ، وذلك إجلالا للحج وشعائره ، واحتراما للمكان وهيبة له ، وهو مباءة للناس والطير وأمن لهم ، وهذا فى الحرم المكى ، أما الحرم المدنى فلا يجوز فيه الاصطياد لأحد ، ولا قطع الشجر كحرم مكة ، فإن فعل هذا أحد أثم ولا جزاء عليه عند مالك والشافعى ، وورد عن رسول الله فى الصحيح : (اللهم إن إبراهيم حرم مكة وإنى أحرم المدينة مثل ما حرم به مكة ، لا يختلى خلاها ـــ الخلى النبات الرقيق مادام رطبا ويختلى يقطع ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها)[1]

ومن قتله منكم عامداً قاصداً له فعليه جزاء من الأنعام مماثل له فى هيئته وصورته إن وجد المثل وإلا فقيمته ، وقيل يقوم من أول الأمر واعلم أن ما يجزى عن الصيد شيئان دواب وطير فيجزى ما كان من الدواب بنظرة فى الخلقة والصورة ففى النعامة بدنة وحمار الوحش بقرة وفى الظبى شاة ألخ .

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٧١ ، ٧٤) وفى المدينة (١) وفى البيوع (٥٣) وفى الأنبياء (١٠) وفى المغازى (٢٧) وفى الأطعمة (٣٥) وفى الدعوات (٣٥) وفى الاعتصام (٦) . وأخرجه مسلم فى الحج (٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٥ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٨) وأخرجه أبو داود فى المناسك (٦٦) والترمذى فى المناقب (٦٧) والنسائى فى الحج (١١٠ ، ١١١ ، ١٢٠) وابن ماجه فى المناسك (١٠٤) والإمام مالك فى المدينة (١٠) . والإمام أحمد فى (١ : ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ١٨٥) وفى (٣ : ٢٣ ، ١٤٩ ، ١٥٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٣ ، ٣٩٣) وفى (٤ : ٣١ ، ٣٢ ، ٤٠ ، ٧٧ ، ١٤١) .

وقد ورد عن جابر عن النبى ﷺ قال : « فى الضبع إذا أصابه المحرم كبش وفى الظبى شاة وفى الأرنب عناق »[١] والعناق الأنثى من المعز لم تبلغ سنة .

واعلم أن الآية الكريمة : أفادت أن القتل العمد فيه الجزاء والسنة النبوية أفادت أن الخطأ كذلك وعن سعيد بن جبير : لا أرى فى الخطأ شيئاً أخذاً بظاهر الآية والله أعلم بكتابه .

والصيد الذى نهت عنه الآية كل حيوان وحشى يؤكل لحمه ، فلا شىء فى قتل الحمار الأهلى مثلا ، ولا مالا يؤكل لحمه من السباع والحشرات والفواسق كالحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور . وألحق مالك بالكلب الذئب والأسد والنمر . « ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم » من أهل المعرفة والعدل من المؤمنين ، وإنما احتجنا للتحكيم لأن المماثلة بين النعم والصيد مما تخفى على كثير ، خصوصاً فى هذه الأيام وقد توالدت أشكال وأصناف من الحيوان والطيور ، ومالا مثل له يحكم فيه بالقيمة . « يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة » واصلا إليها يذبح عندها ويفرق على مساكين الحرم .

نعم عليه جزاء مماثل لما قتل أو كفارة هى أن يقوّم الصيد الذى أصابه فينظر كم ثمنه من الطعام ، فيطعم لكل مسكين مدا أو يصوم مكان كل مد يوما وعند أبى حنيفة يقوم الصيد أولاً وجد له مثل أولا ، والآية لا تمنع هذا روى ابن جرير عن ابن عباس قال : إذا قتل المحرم شيئا من الصيد فعليه من الجزاء فإن قتل ظبيا أو نحوه فعليه ذبح شاة تذبح بمكة فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام .

أوجبنا هذا ليذوق عاقبة أمره ، وسوء فعله ، حيث هتك حرمة الإحرام ، عفا الله عما سلف قبل نزول الآية .

ومن عاد بعد هذا ، فينتقم الله منه ، أشد الانتقام فى الآخرة ، والله عزيز الأنتقام ، لا يغلبه عاص أو مذنب .

أيها المسلمون : أحل لكم صيد البحر سواء كان حياً أو ميتاً قذفه البحر أو طفا على وجهه أو انحسر عنه الماء فهو الحل ميتته الطهور ماؤه أحله الله متاعاً لكم وللسيارة المسافرين ، فمن كان مقيما فليأكل من صيده الطاهر الطازج ، ومن كان مسافرا فعنده السمك المحفوظ ، وحرم عليكم صيد البر من الوحش والطير ما دمتم حرماً ، أى فلا مانع من أكل ما صاده غيركم أو صدتموه فى غير الإحرام عن النبى ﷺ قال : (صيد البر حلال لكم ما لم تصيدوه أو يُصد لكم واتقوا الله الذى إليه تحشرون) .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المناسك (٩٠) . والإمام مالك فى الحج (٢٣٠) . وابن ماجه فى المناسك (٩٠) .

البيت الحرام والشهر الحرام ومكانتهما

* جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾

المفردات ﴿ **جعل** ﴾ : يصح أن تفسر بالجعل التكويني الخلقي ، أو التشريعي . ﴿ **الكعبة** ﴾ : البيت المربع . وقيل المرتفع ، وقد غلب اسمها على البيت المقدس الذي بناه إبراهيم وإسماعيل بمكة عليهما السلام . ﴿ **قياماً للناس** ﴾ : ما به يقوم أمرهم ، ويصلح شأنهم ، (الشهر الحرام والهدى والقلائد) تقدم تفسير ذلك أول السورة .

قال الرازي : الله تعالى حرم في الآية المتقدمة الاصطياد على المحرمين ، فكان الطير والوحش آمنا على نفسه وولده ، وفي هذه الآية أفاد أن الحرم سبب لأمن الناس وهدايتهم وسبب لحصول الخيرات والسعادة في الدنيا والآخرة .

جعل الله الكعبة البيت قياما للناس الذين يسكنونها ، حيث يجلب إليهم الخيرات ورزقهم من الثمرات ، ويجعل قلوب الناس تهوى إليهم ، وتعطف عليهم ، وبذلك يكون أمرهم ويصلح شأنهم ، وهكذا من حج إليها واعتمر يجدون فيها الخير والسعادة والراحة والطمأنينة كل ذلك إجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي ﴾[١] الآية . وجعلها الله قياماً للناس في أمر دينهم ، المهذب لأخلاقهم ، المزكي لأنفسهم ، أليست مكان الحج ؟ الذي هو ركن من أركان الدين ، فيه يعقد المؤتمر العام للمسلمين الذي يهرعون إليه من كل فج عميق ، كبارهم وزعماؤهم وأغنياؤهم ، يتباحثون ويقفون على أمور دينهم ، وتنبعث القوة في نفوسهم ، ويتجدد الإسلام في أعماقهم ، وتتأكد الرابطة بينهم ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[٢] . وجعل الله الشهر الحرام قياما للناس لذلك ، فهو مثابة للناس وأمن في الجاهلية والإسلام ، فيه يأمنون على أنفسهم وتجارتهم وأموالهم ، فيه يلقى السلاح ، وتهدأ النفوس ، وتسكن الفتن ، وتخمد نار الحرب المستعرة . ألست معي في أنه قيام للناس ﴿ أو لم يروا أن جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾[٣] .

وكان الهدى والقلائد قياما للناس ، فمن بذلها قومت له دينه ، وكفرت عنه ذنبه ، وطهرت له نفسه ، وزكت ماله ، وجعلته آمنا على نفسه ، وهي عند من يأخذها قوام حياته .

كل ذلك لتعلموا أن هذه الأمور لحكم الله يعلمها ، ولا يمكن أن تصدر إلا من عالم بما في السماوات والأرض ، وأنه بكل شيء عليم ، والناظر إلى الحج يجده دعامة من أقوى الدعائم للاسلام ،

(١) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم . (٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات . (٣) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت .

يعرفه الغربيون ويعرفون أثره فى نفوس المسلمين ، وما يحصل بسببه من تقويه أواصر الصلات وإذكاء روح الدين بين المؤمنون .

ترغيب وترهيب

ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ
مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ
فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات ﴿ **الخبيث والطيب** ﴾ : الحلال والحرام . ﴿ **الألباب** ﴾ : العقول .

الله سبحانه عليم بكل شىء ، وعليم بما فى السموات وما فى الأرض ، وهو القاهر فوق عباده ، الرحمن الرحيم ، ومقتضى هذا كله أنه لم يخلقنا عبثا ، ولم يتركنا هملا ، بل لا بد من جزاء العاصى ، وإثابة المطيع واعلموا أن الله شديد العقاب ، وسريع الحساب ، وقوى العذاب لمن عصى وطغى، وتجبر وبغى ، وهو رءوف بالعباد غفور للسيئات رحيم بمن عمل سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح ، وأما من نشأ طائعاً ولم تدنس نفسه بسوء أبدا فهنيئا له الرضوان ، ثم هنيئا .

وإذا كان الأمر كذلك فاعلموا أنه ما على الرسول إلا البلاغ ، وعلى الله وحده الحساب ، وإليه المرجع والمآب ، والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ، وهو الذى يعلم السر وأخفى ، والغيب والشهادة ، فاتقوا الله واحذروا حسابه ، قل لهم يا أيها الرسول لا يستوى الخبيث والطيب ، والحلال والحرام ، وهل يستوى الجيد والردىء ، وكيف يستويان : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض . أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[1] .

﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء مايحكمون ﴾[2] .

قل لهم لا يستوى الخبيث والطيب أبدا ولو **أعجبك** كثرة الخبيث من العصاة والكفار ، وقلة الطيب من المسلمين والأبرار ، فاتقوا الله يا أولى الألباب ، وتذكروا فإنما يتذكر أولو العقول الصحيحة الذين يحكمون أحكاماً سليمة موفقة ، تفرق بين النافع حقيقة وإن شابه تعب ومشقة وبين الضار المهلك وإن زينت له الدنيا وازخرفت .

السؤال الضار

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ

(١) الآية ٢٨ من سورة ص . (٢) الآية ٢١ من سورة الجاثية .

ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾

روى مسلم عن أبى هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : ﴿ أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله !؟ قال : لو قلت نعم لوجبت . ولو وجبت لما استطعتم فأنزل الله هذه الآية ﴾[1] :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله ﴿ لا تسألوا عن أشياء ﴾ من أمور الدين ودقائقه التى تركت رحمة بكم وإشفاقاً عليكم . وقيل المعنى : لا تكثروا من السؤال عما لا يعنيكم من أحوال الناس وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ ولا تجسسوا ﴾[2] .

وليس المراد النهى عن السؤال مطلقا فى أمور الدين ، لابل قد أقر الشرع سؤالهم عن توضيح أحكام العدة والخمر وغيرهما ، فلا حرج فى مثل هذا ، وإنما الحرج فى التشدد فى العمل وكثرة التكاليف ، لأن هذا قد يؤدى للإهمال وقد يؤدى إلى الخروج من الدين كما حصل فى الأمم السابقة .

وقد سأل سائل منهم النبى ﷺ عن أبيه من هو وهل الحج واجب فى كل سنة أم لا وغير ذلك ، من الأسئلة المحرجة التى فيها العنت والمشقة على الناس ، والله أعلم بخلقه وقدرته . وإن يسألوا عن غير هذه المسائل الشائكة مما تمس الحاجة إليه من تحريم أو تحليل أو حكم جديد يجابوا إلى طلبهم فإنه خير ، وقد أباح الله هذا النوع من السؤال فالنهى إذن فى شىء لم يكن لهم حاجة إلى السؤال فيه ، وكان الإجابة عنه مشقة وزيادة كلفة وقيل لا تسألوا عن أشياء عفا الله عنها ﴿ إن تبدلكم تسؤكم ﴾ وعلى هذا خرج حديث ثعلبة الخشنى قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تبحثوا عنها) .

قد سأل مثلهم قوم قبلكم فلما أجيبوا وفرضت عليهم كفروا بها وقالوا ليست من عند الله ، وما قوم صالح وأصحاب المائدة منكم ببعيد .

فاعتبروا يا أولى الأبصار ولا تشددوا فيشدد الله عليكم فإن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه الدين فسددوا وقاربوا .

نوع من ضلال الجاهلية

مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ

(١) أخرجه البخارى فى الأعتصام (٢) . ومسلم فى الحج (٤١٢) . والنسائى فى المناسك (١) وابن ماجه فى المقدمة (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣١٤ ، ٣٥٥ ، ٣٦٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٤٨٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٨) .

(٢) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ
قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

المفردات ﴿ **بحيرة** ﴾ : هى الناقة يبحرون أذنها أى يشقونها شقاً واسعا إذا نتجت خمسة أبطن وكان الخامس أنثى ، وكان يمنح درها للطواغيت فلا يحلبها أحد . (السائبة) . الناقة التى تسيّب لآلهتهم فترعى حيث شاءت ، ولا يحمل عليها ولا يجز صوفها ، ولا يأخذ لبنها إلا ضيف . ﴿ **الوصيلة** ﴾ : الشاة أو الناقة التى تصل أخاها . فقد كانوا إذا ولدت الشاة ذكراً كان لآلهتهم وإذا ولدت أنثى كانت لهم ، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم ، وقيل فى تفسيرها غير ذلك . ﴿ **الحام** ﴾ : الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا مرعى .

أيها المسلمون ما جعل الله فى الدين الإسلامى من بحيرة ولا سيب سائبة ولا وصل وصيلة ولا حمى حامياً ، أى ما شرع ذلك ولا أمر به ، فما كان يفعله الجاهليون فهو رد عليهم غير مقبول منهم .

ولكن الذين كفروا إذ يفعلون ما يفعلون إنما يفترون على الله الكذب حيث قالوا أمرنا الله بهذا : ﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا .. إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾[1] .

وإذا قيل لهم تعالوا أيها الضالون إلى نور القرآن ، وإلى هدى الرسول ، وحكموا عقولكم ، وانزعوا عنها غطاء التعامى عن آيات الله ، قالوا غروراً وجهلاً وسفهاً وحمقاً : ﴿ **حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ فآباؤنا مصدر التشريع الصحيح ، ايتبعونهم ويتركون الدين الصحيح والتشريع القويم ولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً أبداً ولا يهتدون إلى خير أصلاً ، ولا غرابة فهم الذين عاشوا فى العداوة والبغضاء والحروب والغارات وشرب الخمر ووأد البنات وعمل الفحش والمنكرات .

وهل كانت هناك جاهلية جهلاء وضلالة عمياء أسوأ من هذا .

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ
جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بعد ما سبق من توجيهات تتعلق بالأحكام الشرعية وتنفى ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم ما أحل الله من البحيرة والسائبة وغير ذلك ، نعى القرآن الكريم عليهم ما كانوا عليه من تقليد الآباء ، وأن

(١) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

ذلك كان معولا من معاول الهدم ، إذ أن المسئولية فى الإسلام فردية ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾(١) فما بالنا إذا كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ؟ إن الخطب عندئذ فادح والهول جسيم .

بعد ذلك يأتى الخطاب من صاحب العظمة والكبرياء إلى الجماعة المؤمنة التى عرفت بإيمانها واستجابتها لأوامر الله ورسوله . جاء الخطاب مرشدا وموجها لأمر جد خطير تبنى عليه قوة الأمة وتأثيرها فى عالم البشر ، إنه الأمر بالتزام شئون أنفسها ، وذلك بالإعداد والتكوين والاتحاد والألفة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإذا ما استمسكت الجماعة المؤمنة بأحكام ربها ونفذت أوامره وطبقت شرائعه ، فإن أى قوة على وجه الأرض مهما كان ضلالها ، لا يمكن أن تضير هذه الجماعة التى أصبحت كالبنيان المرصوص والتى أصبحت سماتها كما صورها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٢) .

ومن الخطأ الشائع أن يقال إن الإنسان متى لزم شأن نفسه أصبح خاليا من مسئولية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فذلك فهم سقيم برئت منه ساحة الآية الكريمة . فخبرنى بربك كيف يكون للمجتمع كيان إذا لزم كل إنسان نفسه فلم يأمر بمعروف ولم ينه عن منكر ، إنه مجتمع الرذائل والخور ، إنها السلبية القاتلة والآية تدعو إلى قوة المجتمع الإسلامى : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ هكذا بصيغة الجمع ولو كانت كما يدعون ويزعمون لجاء الخطاب بصيغة الإفراد : ﴿ **يا أيها المؤمن عليك نفسك** ﴾ ما من مجتمع يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا كان العز رائده والنصر حليفه وألبسه الله لباس العز والشرف . ومامن مجتمع لا يؤمر فيه بمعروف ، ولا ينهى فيه عن منكر إلا كان الذل رائده ، والفشل حليفه ، وأذاق الله أهله الخوف والجوع بما كانوا يصنعون : الدين النصيحة ، والناس بخير ماتناصحوا ، وها نحن أولاء نسوق من الأحاديث ما يجعل المعنى جليا جلاء يزيل كل لبس وينفى كل غموض :

قال العوفى عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية : يقول تعالى إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال ونهيته عنه من الحرام فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به .

قال الإمام أحمد : حدثنا قيس قال : قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ الآية وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه)(٣) .

وروى الإمام أبو عيسى الترمذى قال : حدثنا أبو أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشنى فقلت :

(١) الآية ٣٨ من سورة المدثر . (٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .

(٣) أخرجه أبو داود فى الملاحم (١٧) . والترمذى فى الفتن (٨) وفى تفسير سورة ٥ (١٧) . وأخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٠) . والإمام أحمد فى (١ ، ٢ ، ٥ ، ٧ ، ٩) وفى (٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦) وفى (٦ : ٣٣٣) .

له : كيفَ تصنع فى هذه الآية ؟ قال أية آية قلت : قول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لايضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيرا . سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : (بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعا وهوى متبعا ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم) قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلا منا أو منهم ، قال : (بل أجر خمسين منكم)[١] .

وقال عبد الرزاق : أنبأنا معمر عن الحسن أن ابن مسعود رضى الله عنه سأله رجل عن قول الله : ﴿ **عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنها اليوم مقبولة ولكن قد يوشك أن يأتى زمانها تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا فلا يقبل منكم فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل .

ورواه أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العالية عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل** ﴾ قال : كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوسا فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه فقال رجل من جلساء عبد الله : ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر : فقال آخر إلى جنبه : عليك بنفسك فإن الله يقول : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ الآية ، قال : فسمعها ابن مسعود فقال : مه لم يجيء تأويل هذه بعد ، إن القرآن أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزل ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ بيسير ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، ما ذكر من الساعة ، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب ، ما ذكر من الحساب والجنة والنار . فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ولم تلبسوا شيعا ، ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا ، وإذا اختلفت القلوب والأهواء وألبستم شيعا وذاق بعضكم بأس بعض ، فامرؤ ونفسه وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية. رواه ابن جرير .

وليعلم المسلمون أن الله تبارك وتعالى لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان دواد وعيسى ابن مريم لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . فكن يا أخى كما قال لقمان لابنه : (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنّ ذلك من عزم الأمور)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ تنبيه للغافلين الذين شغلتهم الدنيا عليهم أن يعلموا أنه لابد من يوم يُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون . فاليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل . كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول لعمر بن مهاجر : إذا رأيتنى ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى وقل لى : اتق الله يا عمر فانك ستموت .

(١) أخرجه أبو داود فى الملاحم (٧) . والترمذى فى تفسير سورة ٥ (١٨) وابن ماجه فى الفتن (٢١) .
(٢) الآية ١٧ من سورة لقمان .

نعم هذا نموذج رفيع من النماذج التى تخرجت فى مدرسة الإسلام فمن خاف سلم ، ومن ذاق عرف ، ومن حُرم انحرف .

غدا توفى النفـــوس ما كسبت   ويحصد الزارعـــون ما زرعـــوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهـــم   وإن أساءوا فبـئس ما صنعـــوا

أحكام تتعلق بالوصية عند الموت

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ
مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ
تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ
وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ
يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن
شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ
أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾

المفردات ﴿ **شهادة** ﴾ : هى قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصير أو بصيرة . ﴿ **ضربتم فى الأرض** ﴾ : سافرتم ، لأن المسافر يضرب الأرض برجليه . ﴿ **تحبسونهما** ﴾ : تمسكونهما . ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ شككتم فى صدقهما فيما يقران به . ﴿ **عُثر** ﴾ اطلع وأعثر عليه : أعلمه به . ﴿ **الأوليان** ﴾ : تثنية أولى وهو الأحق بالشىء . ﴿ **أدنى** ﴾ : أقرب .

عندما نذكر سبب نزول هذه الآيات يتضح لنا معناها ، كما يتجلى لنا مدى حرص الإسلام على أداء الأمانات كاملة غير منقوصة ، ومدى حرصه على الصدق دونما نظر إلى العواقب ، فالصدق منجاة ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك . وقد مدح الله تعالى الصادقين عندما خرطهم فى سلك المسلمين والمؤمنين ، فقال : ﴿ والصادقين والصادقات ﴾[1] وحكم للمتصفين بتلك الفضائل بقوله : (أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) . وهل يستطيع إنسان أن يكتم الله شيئا .

الله يدرى كل ما تضمـــــــر   يعلـم ما تخفـى ومـا تظهـــر
وإن خدعت النـاس لم تستطـع   خداع من يطـوى ومـــن ينشر

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحزاب .

الله تعالى عليم بذات الصدور ، يعلم خائنة الأعين ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى .

جاء فى سبب نزول هذه الآيات : كان تميم الدّارى ، وعدى بن بدّاء رجلين نصرانيين يتّجران إلى مكة فى الجاهلية ، ويطيلان الإقامة بها ، فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة حولا متجرهما إلى المدينة ، فخرج بديل مولى عمرو بن العاص تاجرا حتى قدم المدينة فخرجوا جميعا تجارا إلى الشام . حتى إذا كانوا ببعض الطريق اشتكى بديل فكتب وصية بيده ثم دسها فى متاعه ، وأوصى إليهما أن يوصلا متاعه إلى أهله . فلما مات فتحا متاعه ، فأخذا منه شيئا ثم حجراه كما كان وقدما المدينة على أهله ، فدفعا متاعه ، ففتح أهله متاعه فوجدوا كتابه وعهده وما خرج به وفقدوا شيئا فسألوهما عنه فقالوا : هذا الذى قبضنا له ، ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا : هذا الذى قبضنا له ، ودفع إلينا ، فقالوا لهما هذا كتابه بيده ، قالوا : ما كتمنا له شيئا ، فترافعوا إلى النبى ﷺ فنزلت هذه الآية ، فأمر رسول الله ﷺ أن يستحلفوهما فى دبر صلاة العصر بالله الذى لا إله إلا هو . ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا ، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا ، ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مموه بالذهب فقال أهله : هذا من متاعه ، قالا : نعم ولكنا اشتريناه منه ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذب نفوسنا ، فترافعوا إلى النبى ﷺ فنزلت الآية ﴿ **فإن عثر على أنهما استحقا إثما** ﴾ فأمر النبى ﷺ رجلين من أهل بيت الميت أن يحلفا على ما كتما وغيبا ويستحقانه .. ثم إن تميما أسلم وبايع النبى ﷺ وقال : صدق الله ورسوله أنا أخذت الإناء مع صاحبى[1] .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت** ﴾ ، هذا بيان حكم من أحكام الله تعالى يتعلق بالوصية عند الموت فى السفر بدليل قوله تعالى : ﴿ **إن أنتم ضربتم فى الأرض فأصابتكم مصيبة الموت** ﴾ فالمقصود بالضرب فى الأرض هو السفر للتجارة أو غيرها ، قال تعالى : ﴿ وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ﴾[2] فإذا شعر المسافر بدنو أجله ، وأراد أن يكتب وصيته لأهله يخبرهم فيها بما يريد كإثبات ما معه من مال ومتاع سيتركه بعد موته ، فعليه أن يشهد على تلك الوصية اثنين ذوى عدل . قوله تعالى ﴿ **منكم** ﴾ أى من المسلمين إن وُجدا ، ﴿ **من غيركم** ﴾ أى من غير المسلمين إن لم يوجد سوى ذلك . وهذه مسألة خاصة وحكم خاص بالسفر .

كيف يشهدان

قال تعالى ﴿ **تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة الله إنا إذا لمن الآثمين** ﴾ . معنى تحبسونهما أى تمسكونهما (من بعد الصلاة) : أى صلاة العصر كما فعل رسول الله ﷺ أو أى صلاة أخرى ، فيحلفان بالله قائلين : ﴿ **لا نشترى به ثمنا ولو كان ذا قربى ولا نكتم شهادة الله** ﴾ بمعنى أننا لا نشترى باليمين أى متاع من متاع الدنيا ، ولا نحيف

(١) أخرجه البخارى فى الوصايا (٣٥) . وأبو داود فى الأقضية (١٩) . والترمذى فى تفسير سورة ٥ (٢٠) .
(٢) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

فى الشهادة طمعا فى عرض فان ولو كان الموصى من ذوى قربانا ، فإننا لا نطمع فيما ترك . وإنما تكون هذه الشهادة وذلك القسم عندما يقع الشك والريبة فى قلوب الورثة ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله جل شأنه ﴿**إن ارتبتم**﴾ أى شككتم ووقع فى نفوسكم أن الشاهدين قد خانا وكتما شيئا من متاع الميت بدليل قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **فإن عثر على أنهما استحقا إثما** ﴾ أى ظهر واتضح أن الشاهدين قد وقع منهما ما يدل على الخيانة فى الأمانة فالحكم كما قال تعالى : ﴿ **فآخران يقومان مقامهما** ﴾ أى فشاهدان آخران يقومان مقام الشاهدين اللذين عُثر على أنهما خانا ، وليكن هذان الشاهدان الآخران من الذين استحقا الأوليان عليه ، والمقصود بالأوليين : الوارثان من أقارب الميت .

كيف يشهد الأوليان

قال تعالى : ﴿ **فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين** ﴾ وبهذه الشهادة يرد إلى الورثة ما كتمه الشاهدان الأولان أو خاناه . وقول الأوليين : ﴿ **وما اعتدينا** ﴾ أى ما حدث منا تجاوز للحق عندما شهدنا بعد شهادتهما إننا إن فعلنا ذلك فإننا من الظالمين ، ولكننا شهدنا عندما عثر على أنهما استحقا إثما .

أدنى السبل إلى إظهار الحق

قال تعالى : ﴿ **ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها** ﴾ أى ذلك الذى ذكرناه أقرب السبل لإتيان الشهود بالشهادة على وجهها الصحيح إذ أنه يدعو إلى خوف الشهود أن ترد أيمان بعد أيمانهم فيكون ذلك من الفضائح ما فيه ومن الخزى والتشهير ما يندى له جبين الحياء خجلا .

قوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله واسمعوا** ﴾ : ما أعظم أن يأتى الأمر بالتقوى بعد بيان الأحكام إذ التقوى هى صمام الأمن فى تنفيذ أوامر الله ، أليست التقوى هى السلاح الأقوى ، بلى لأنها الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، وما أجمل أن يأتى الأمر بالسمع بعد الأمر بالتقوى . قال تعالى فى حق المؤمنين ﴿ وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ الخارجين عن طاعته وقد يكون ذلك بمخالفة أمره والبعد عن طاعته . وخيانة الأمانة وكتمان الشهادة واستحقاق الإثم والكذب فى أداء اليمين من هذا القبيل .

من مشاهد القيامة

* يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾

اذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل وهو يوم القيامة : فياله من يوم ما أطوله ويا له من خطب ما أهوله ! وياله من جبار ما أعدله ! إنه يوم سيجمع الله فيه المرسلين فيسألهم : ﴿ **ماذا أجبتم** ﴾ قال

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾(١)

وقد بين الله تعالى أنه سيسأل الذين أرسل إليهم فقال : ﴿ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾(٢) وقال : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾(٣) ، وقال : ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾(٤) . وبين أنه سيسأل الرسل فيقول : ﴿ **ماذا أجبتم** ﴾ فيجيب الرسل قائلين : ﴿ **لا علم لنا** ﴾ ، والدافع لتلك الإجابة إما أن يكون لما أصابهم من ذهول من أهوال هذا اليوم العصيب . قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٥) . وإما أن يكون المقصود بإجابتهم أن لا علم لنا بجانب علمك فأنت الذى أحطت بكل شيء علماً ، وأحصيت كل شيء عدداً ، وأنت علام الغيوب علمت ما كان وعلمت ما يكون وعلمت ما سيكون ، وعلمت ما لا يكون ، لو كان كيف كان يكون .

وهكذا سأل الله الرسل ، وبهذا أجابوا : وهكذا سأل الذين أرسل إليهم وهكذا تبينت الحقائق : قال تعالى : ﴿ فلنقصنَّ عليهم بعلم وما كنا غائبين * والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾(٦) .

حديث عن المسيح بن مريم

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

المفردات ﴿ **روح القدس** ﴾ : جبريل عليه السلام الذى يؤيد به الله رسله بالتعليم والتثبيت . ﴿ **فى المهد وكهلا** ﴾ : فى حالتى الصغر والكبر . ﴿ **الكتاب** ﴾ : المراد كل ما يكتب . ﴿ **والحكمة** ﴾ : العلم النافع . ﴿ **الأكمه** ﴾ من ولد أعمى . ﴿ **سحر** ﴾ : السحر هو التمويه والتخيل

(١) الآية ٦ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٩٢ من سورة الحجر .
(٤) الآية ٢٤ من سورة الصافات .
(٥) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٦) الآيات ٧ – ٩ من سورة الأعراف .

بالباطل حتى يرى الإنسان الشيء على غير حقيقته . ﴿ **الحواريون** ﴾ الأصحاب الخلص للمسيح .

واذكر يا محمد ﴿ **إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك** ﴾ ، فقد أنعمت عليك بالنبوة ، وجعلتك آية للناس ورحمة منا ، وجعلت خلقك معجزة ، إذ خلقتك من غير أب ، وأنعمت على والدتك بالاصطفاء والطهر ، ﴿ وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾[١] .. ومن نعمى عليك أننى أيدتك بالروح القدس أى الروح الطاهر وهو جبريل الأمين . وقد كنت من الذين تكلموا فى المهد حيث قلت لأمك : ﴿ لا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾[٢] وقلت لقومك : ﴿ إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ﴾[٣] فكان كلامك هذا بمثابة دعوة إلى الله وتبرئة لساحة أمك البتول الطاهرة الناسكة . وكما دعوتهم فى مهدك دعوتهم فى كهولتك .. ومن نعمى عليك أننى علمتك الكتابة وأنعمت عليك بالحكمة . والحكمة علم غزير وعمل موفق وحكم صواب . قال تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾[٤] . كذلك علمتك التوراة والإنجيل ، فعرفت ما فى التوراة من أحكام ، وما فى الإنجيل من وصايا . وأظهرت على يديك المعجزات وخوارق العادات فتأتى من الطين كصورة الطير فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه الذى ولد أعمى فترد عليه بصره ، والأبرص المصاب بهذا الداء الجلدى الخطير فتشفيه من مرضه ، وكل ذلك بإذنى ومن المعجزات التى أجريتها على يديك أنك تخرج الموتى من قبورهم بإذنى . ومن نعمى عليك أننى كففت أذى بنى إسرائيل عنك ومنعتك منهم بعنايتى ورعايتى وحفظى لك وصيانتى ، إذ جئتهم بالبينات الواضحات ، وخوارق العادات ، فقال الكافرون منهم كما قالوا للأنبياء من قبلك : إن هذا إلا سحر مبين : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[٥] . ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[٦] .

وهل هناك وجه شبه بين السحر والمعجزة : إن المعجزة حقيقة واقعة لامراء فيها ، أما السحر فإنه تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل لا يستند إلى أرض من الواقع ، فهل إبراء الأكمه وشفاء الأبرص تخيلات وأوهام ؟ وهل إخراج الموتى من القبور أحياء تخيلات وأوهام ، كلا . بل إنها معجزات وحقائق . وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق ﴿ ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾[٧] .

ومن نعمى عليك أننى أوحيت إلى الحواريين وهم أصحابك الخلص وحى إلهام كالوحى إلى أم موسى ﴿ **أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾ فى الآية دليل على أن دين الأنبياء

(١) الآية ٤٢ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٢٤ من سورة مريم .
(٣) الآية ٣٠ من سورة مريم .
(٤) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٥) الاية ٤٣ من سورة فصلت .
(٦) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الذاريات .
(٧) الآيتان ٧ ، ٨ من سور الجاثية .

جميعا هو الإسلام : قال نوح ﴿ (وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[١] ، وقال إبراهيم ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾[٢] وقال يوسف ﴿ توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[٣] وقال يعقوب ﴿ لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[٤] وقال الله تعالى فى حق الأنبياء : ﴿ يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾[٥] وقال فى حق خاتمهم : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين★لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[٦] .

قصة المائـدة

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

المفردات ﴿ **الحواريون** ﴾ : الأصحاب الخلص للمسيح . ﴿ **مائدة** ﴾ : هى الخوان الذى عليه الطعام أو الطعام نفسه . ﴿ **اللهم** ﴾ : يا الله . ﴿ **عيدا** ﴾ : فرحا وسرورا أو يوما يجتمع الناس فيه للعبادة كعيد الفطر مثلا يعود كل سنة .

وقصة المائدة عبرة وعظة لمن يطلب من الله آيات غير التى أنزلت ، وعاقبة ذلك ، وهى فى الجملة تسلية للنبى ﷺ وتبين له طبائع الناس وسيرتهم مع أنبيائهم .

هذه قصة المائدة التى سميت هذه السورة الكريمة باسمها ، وقد تسمى السورة فى القرآن الكريم بأعجب ما فيها ، كسورة البقرة إذ لها شأن عجيب ، وهذه السورة سميت بالمائدة أيضا لأن المائدة آية من آيات الله تعالى ، وقد يراد بالمائدة الخوان الذى عليه الطعام ، وقد تطلق أيضا على الطعام نفسه ، لكن الذى يجب الوقوف عنده كثيراً كيف يقول الحواريون وهم الأصحاب الخلص لنبيهم عيسى ﴿ **هل يستطيع ربك** ﴾ وهو سؤال خطير خاصة وأن الله قد أجرى على يدى المسيح من المعجزات ما يملأ النفس يقيناً وصدقاً وإيمانا وإذعانا لقدرة الله تعالى وعظمته فإذا كان هذا قد صدر من الحواريين ، فما بالنا بغيرهم .

(١) الآية ٩١ من سورة النمل .
(٢) الآية ١٣١ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٠١ من سورة يوسف .
(٤) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٤٤ من سورة المائدة .
(٦) الاية ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

من هنا فقد أعمل العلماء عقولهم فى تخريج هذه الآية مستظلين بظل الشرع واقفين عند حدود النص ، فقالوا فى تفسير هذا المشهد ، قال العلماء : واذكر يا محمد وقت قول الحواريين لعيسى ابن مريم والمراد فى مثل هذا التركيب ذكر ما حصل فى الوقت لا نفس الوقت . قال الحواريون وهم المؤمنون الخلّص ردا على عيسى حين قال : ﴿ من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ ، ومع هذا قالوا : ﴿ **هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء** ﴾ .

وهذا سؤال لا يليق بهم قطعاً ولذا خرجه العلماء على وجوه احسنها أن يستطيع بمعنى يطيع كاستجاب بمعنى أجاب ، أو المعنى : هل تستطيع أمر ربك ، أى سؤاله ، وقيل إنه سؤال عن الاستطاعة على حسب الحكمة الإلهية ، أى هل ينافى الحكمة إنزال المائدة أم لا ؟ فإن ما ينافى الحكمة لا يقع قطعاً وإن كان ممكنا .

ولذا قالوا معتذرين عن إيراد السؤال بهذه الصورة نريد أن نأكل منها ، فنحن فى حاجة إليها ، ونحن إذا أكلنا تطمئن قلوبنا وتهدأ نفوسنا ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ فى أن الله تعالى أرسلك نبياً واختارنا أعوانا لك ، وقد رضى عنا بإجابته سؤالنا .

﴿ **ونكون عليها من الشاهدين** ﴾ لله بالوحدانية ولك بالرسالة والنبوة ، إذ هذه كالدليل على ذلك .

قال عيسى ابن مريم يا ربنا يا مالك أمرنا ومتولى شئوننا أنزل علينا مائدة من السماء يراها هؤلاء وتكون لنا معشر المؤمنين مصدر فرح وسرور ويوم نزولها نتخذه عيدا نجتمع فيه للعبادة والشكر ويعود علينا كل عام باليمن والإقبال لأولنا وجودا وآخرنا كذلك وتكون آية منك ودلالة وحجة ترشد القوم إلى صحة دعوتى وصدق رسالتى ، وارزقنا ما به نقيم أودنا ونغذى أجسامنا وعقولنا فأنت خير الرازقين ، ترزق من تشاء بغير حساب .

قال الله تعالى : ﴿ **إنى منزلها عليكم** ﴾ وقد نزلت ، إذ وعده الحق وقوله الصدق ، فمن يكفر بعد نزول هذه الآية المقترحة فإنى أعذبه عذاباً شديداً لا أعذب هذا العذاب لأحد من العالمين ، إذ اقترح آية بعد الآيات الكثيرة التى نزلت كهذه المائدة آية يشترك فى إدراكها جميع الحواس ، ثم بعد هذا يكفر بها ويستهزئ ، فإنه يستحق من الله عذابا دونه عذاب الكفار جميعاً .

وورد فى قصة المائدة روايات كثيرة عن شكلها ولونها وطعامها ، والظاهر والله أعلم أنه كان لخيال الإسرائيلين فيها نصيب ، ونحن نلتزم حدود القرآن والسنة الصحيحة ، وفقنا الله إلى الصواب .

فى ساحة العدل يوم القيامة

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ

سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي
وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟
ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ
وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

المفردات ﴿ **ما فى نفسى** ﴾ : المراد تعلم سرى ولا أعلم سرك . ﴿ **شهيداً** ﴾ : حفيظا بما أمرتهم . ﴿ **الرقيب** ﴾ : من المراقبة وهى المراعاة والمراد الحافظ لهم والعالم بهم . ﴿ **العزيز** ﴾ : الذى لا يغلبه أحد . ﴿ **الحكيم** ﴾ : المنزه عن العبث،الذى يضع الأمور فى نصابها . ﴿ **صدقهم** ﴾ : الصدق هو مطابقة الخبر للواقع والكذب هو بخلاف ذلك .

هذا مشهد من مشاهد القيامة فى ساحة هى ساحة العدل الإلهية الكبرى ، وفى يوم يجمع الله فيه الرسل ، وقد خص الله تعالى المسيح على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وهو يعلم أنه إمام من أمة التوحيد وأحد الأنبياء الذين عملوا وصبروا وجاهدوا وسماهم الله أولوا العزم من الرسل ، فهو أحد خمسة قال الله فيهم ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾[(١)] وذكرهم فى قوله : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا ﴾[(٢)] وذكرهم تعالى فى قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾[(٣)] الآية .

إنما خص الله تعالى المسيح بهذا السؤال : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾ ليظهر براءته مما قاله النصارى فيه وفى أمه ، وليكون ذلك إعلانا وبياناً لبطلان ما ادعاه هؤلاء النصارى من افتراء وكذب وبهتان على نبى الله وأمه ، وليكون فى ذلك توبيخ وتقريع وتسفيه لما اعتقدوه ، لذا جاء الجواب من المسيح صريحاً ﴿ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ﴾ أى أن هذا دليل على أن ما قالوه فى شأنه وشأن أمه لا يمت للحق بأدنى صلة ، بل هو يجافى الحق ويناقضه ، ثم يؤكد المسيح

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف . (٢) الاية ٧ من سورة الأحزاب . (٣) الآية ١٣ من سورة الشورى .

هذا المعنى بما يفيد طهارة القلب ، وطهارة اللسان ، فيقول : ﴿ **إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك** ﴾ أى أنك تعلم سرى الذى انطوت عليه نفسى ولا أعلم ما فى ذاتك فأنت الذى أحطت بكل شىء علماً وأحصيت كل شىء عدداً علمت ما كان وعلمت ما يكون ، وعلمت ما سيكون وعلمت ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ **إنك أنت علام الغيوب** ﴾ وكأن سؤالا استشفه المسيح فأجاب عنه كأن سؤالا قيل فيه فماذا قلت لهم إذاً؟ فأجاب عنه ﴿ **ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن أعبدوا الله ربى وربكم** ﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ﴾[1]

﴿ **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم** ﴾ . أى شاهدا على أفعالهم وأقوالهم مدة وجودى فيهم : ﴿ **فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم** ﴾ المطلع على أفعالهم ، وما تخفى صدورهم وأنت الشهيد على كل شىء الحفيظ على كل فعل .

قوله تعالى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ، هذا تفويض وتسليم لله تعالى بالأمر كله إن تعذبهم لما اقترفوه فإنهم عبادك وأنت السيد الأكبر والملك الأعظم الذى بيده ملكوت كل شىء وإن تغفر لهم فإنهم عبادك وأنت القائم على القائم بنفسك فالوجود ملكك والقضاء حكمتك وكل الكائنات طوع إرادتك إن تعذبهم فبعزتك التى لا تقهر وإن تغفر لهم فبحكمتك التى تنزهت عن العبث فأنت الضار النافع الخافض الرافع العزيز الحكيم المحيى المميت المعز المذل القاهر القادر المقدم المؤخر الأول والآخر الظاهر والباطن .

وهذه الآية تتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبرى من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب ، وقد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها .

روى الإمام أحمد بإسناده عن أبى ذر قال صلى النبى ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك** ﴾ الآية ، فلما أصبح قلت : يا رسول الله مازلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : ﴿ إنى سألت ربى عز وجل الشفاعة لأمتى فأعطانيها وهى نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً ﴾[2] .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبى ﷺ تلا قول عيسى : ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ فرفع يديه فقال : (**اللهم أمتى**) وبكى فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد – وربك أعلم – فاسأله ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال

(١) الآيتان ٧٢ ، ٧٣ من سورة المائدة .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ١٤٩) .

وهو أعلم فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك[1] .

وعن حذيفة بن اليمان قال : « غاب عنا رسول الله ﷺ يوما فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : (إن ربى عز وجل استشارنى فى أمتى ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت أى رب ، هم خلقك وعبادك . فاستشارنى الثانية فقلت له كذلك فقال لى : لا أخزيك فى أمتك يا محمد وبشرنى أن أول من يدخل الجنة من أمتى معى سبعون ألفا ، مع كل ألف سبعون ألفا ، ليس عليهم حساب ، ثم أرسل إلى فقال : ادع تجب ، وسل تعط . فقلت لرسوله : أو معطى ربى سؤلى ؟ فقال : ما أرسلنى إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطانى ربى ولا فخر ، وغفر لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ، وأنا أمشى حياً صحيحاً ، وأعطانى أن لا تجوع أمتى ولا تغلب ، وأعطانى الكوثر ، وهو نهر فى الجنة يسيل فى حوض ، وأعطانى العز والنصر والرعب يسعى بين يدى أمتى شهراً ، وأعطانى أنى أول الأنبياء يدخل الجنة ، وطيب لى ولأمتى الغنيمة ، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا ولم يجعل علينا فى الدين من حرج) »[2] .

وعن ابن عباس قال : « قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : (يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا) ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابى فيقال : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول : كما قال العبد الصالح : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد** ﴾ ۞ ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ ، فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم »[3] رواه البخارى . قوله تعالى : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ الإشارة هنا إلى يوم القيامة والصدق منجاة ، والإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك ، على الكذب حيث ينفعك . وأول درجات الصدق صدق اليقين مع الله ، حتى فسر بعضهم الصدق هنا بالتوحيد . وهذه الآية دليل على أن سؤال الله للمسيح سيكون يوم القيامة ولا يقال لما عبر بالماضى بقوله : ﴿ **وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم** ﴾ ، لأن الحكمة فى هذا التعبير إفادة تحقق الوقوع كما فى قوله جل شأنه إخباراً عن القيامة : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[4] وكما قال جل شأنه : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ۞ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[5]

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (٣٤٦) .
(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٣) . والبخارى فى التوحيد (٣٣) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٥٩) .
(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٨ ، ٤٨) وفى تفسير سورة ٥ (١٤) وفى الرقاق (٤٥) وأخرجه مسلم فى الجنة (٥٦ ، ٥٩) والترمذى فى القيامة (٣) وفى تفسير سورة ٨ (٢) وأخرجه النسائى فى الجنائز (١١٨ ، ١١٩) وابن ماجه فى الزهد (٣٣) . والدارمى فى الرقاق (٨٠ ، ٨٢) والإمام أحمد فى (١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨) وفى (٦ : ٥٣ ، ٩٠) .
(٤) الآية ١ من سورة النحل .
(٥) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .

قوله تعالى : ﴿ **لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حِوَلا ﴾[١] وكقوله جل شأنه : ﴿ لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾[٢] ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول سلونى سلونى أعطكم قال : فيسألونه الرضا فيقول رضاى أحلكم دارى ، وأنالكم كرامتى ، فسلونى أعطكم فيسألونه الرضا قال : فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى) .

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى ... خير إلىَّ من الدنيا وما فيها

قوله تعالى : ﴿ لله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾ ، هذه الآية فيها فصل القضاء بعد براءة المسيح عليه السلام مما قاله أهل الضلال ، أجابه الله تعالى بقوله ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم** ﴾ ، ثم جاءت هذه الآية تقضى بالحق ، فالذى يملك الكون كله من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه هو الله مالك الملك وملك الملوك لا شريك له فى ذاته ولا صفاته ولا أفعاله ، فالمسيح عبد من عباده وكل الكائنات طوع إرادته .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد

﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر .

يا من له عنت الوجوه بأسرها ... رهباً وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

---

(١) الآية ١٠٨ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الحجر .

سورة الأنعام

هذه السورة مكية سوى ست آيات منها : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، هذه الآيات نزلت بالمدينة فى مرتين وباق السورة نزلت بمكة دفعة واحدة .

عدد آياتها : مائة وخمس وستون آية عند الكوفيين ، وست عند البصريين والشاميين ، وسبع عند الحجازيين .

وعدد كلماتها : ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة ، وعدد حروفها اثنا عشر ألفا ومائتان وأربعون .

ولهذه السورة اسمان : سورة الأنعام لما فيها من ذكر الأنعام مكرراً ﴿ **وقالوا هذه أنعام وحرث** ﴾ ﴿ **ومن الأنعام حمولة وفرشاً** ﴾ ﴿ **وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها** ﴾ وسورة الحجة لأنها مقصورة على ذكر حجة النبوة وأيضاً تكررت فيه الحجة ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم** ﴾ ﴿ **قل فلله الحجة البالغة** ﴾ .

مقصود السورة على سبيل الإجمال

ما اشتمل على ذكره : من خلق السموات والأرض وتقدير النور والظلمة ، وقضاء آجال الخلق ، والرد على منكرى النبوة ، وذكر إنكار الكفار فى القيامة ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ، وذكر تسلية الرسول ﷺ عن تكذيب المكذبين ، وإلزام الحجة على الكفار ، والنهى عن إيذاء الفقراء ، واستعجال الكفار بالعذاب ، واختصاص الحق تعالى بالعلم المغيب ، وقهره وغلبته على المخلوقات ، والنهى عن مجالسة الناقضين ومؤانستهم ، وإثبات البعث والقيامة ، وولادة الخليل عليه السلام وعرض الملكوت عليه ، واستدلاله حال خروجه من الغار ، ووقوع نظره على الكواكب والشمس والقمر ، ومناظرة قومه ، وشكاية أهل الكتاب وذكرهم حالة النزع ، وفى القيامة وإظهار برهان التوحيد ببيان البدائع والصنائع ، والأمر بالإعراض عن المشركين ، والنهى عن سب الأصنام وعبادتها ، ومبالغة الكفار فى الطغيان ، والنهى عن أكل ذبائح الكفار ، ومناظرة الكفار ومحاولتهم فى القيامة ، وبيان شرع عمر بن لحى فى الأنعام بالحلال والحرام ، وتفصيل محرمات الشريعة الإسلامية ، ومحكمات آيات القرآن والأوامر والنواهى من قوله تعالى ﴿ **قل تعالوا** ﴾ إلى آخر ثلاث آيات ، وظهور أمارات القيامة وعلاماتها فى الزمن الأخير ، وذكر جزاء الإحسان الواحد بعشرة ، وشكر الرسول على تبريه من الشرك والمشركين ورجوعه إلى الحق فى محياه ومماته وذكر خلافة الخلائق وتفاوت درجاتهم وختم السورة بذكر سرعة عقوبة الله لمستحقيها ورحمته ومغفرته لمستوجبيها بقوله ﴿ **إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ .

الآيات المتشابهات

فى هذه السورة الكريمة آيات تشابهت مع آيات فى سور أخرى ، وقد ذكرها صاحب البصائر فقال :

قوله تعالى : ﴿ **فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء** ﴾ ، وفى الشعراء ﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم ﴾ لأن سورة الأنعام متقدمة فقيد التكذيب بقوله ﴿ **بالحق لما جاءهم** ﴾ ثم قال : ﴿ **فسوف يأتيهم** ﴾ على التمام .

وذكر فى الشعراء ﴿ فقد كذبوا ﴾ مطلقاً لأن تقييده فى هذه السورة يدل عليه ثم اقتصر على السين هناك بدل ﴿ فسوف ﴾ ليتفق اللفظان فيه على الاختصار .

قوله : ﴿ **ألم يرواكم أهلكنا** ﴾ فى بعض المواضع بغير واو كما فى هذه السورة وفى بعضها بالواو وفى بعضها بالفاء هذه الكلمة تأتى فى القرآن على وجهين : أحدهما متصل بما كان الاعتبار فيه بالمشاهدة ، فذكره بالهمز والواو ، ليدل الهمز على الاستفهام والواو على عطف جملة على جملة قبلها ، وكذا الفاء ، ولكنها أشد اتصالاً بما قبلها ، والثانى متصل بما الاعتبار فيها بالاستدلال ، فاقتصر على الهمز دون الواو والفاء ليجرى مجرى الاستئناف ، ولا ينقض هذا الأصل قوله تعالى : ﴿ **ألم يروا إلى الطير** ﴾ فى النحل ، لاتصالها بقوله : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم** ﴾ وسبيله الاعتبار بالاستدلال فبنى عليه : ﴿ ألم يروا إلى الطير ﴾ .

قوله : ﴿ **قل سيروا فى الأرض ثم انظروا** ﴾ فى هذه السورة فحسب وفى غيرها : ﴿ **سيروا فى الأرض فانظروا** ﴾ لأن ثم للتراخى والفاء للتعقيب . وفى هذه السورة تقدم ذكر القرون فى قوله : ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن** ﴾ ثم قال : ﴿ **وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾ . فأمروا باستقراء الديار وتأمل الآثار وفيها كثرة فيقع ذلك ﴿ **فى** ﴾ سير بعد سير وزمان بعد زمان فخصت بثم الدالة على التراخى بعد الفعلين ليعلم أن السير مأمور به على حدة ولم يتقدم فى سائر السور مثلها فخصت بالفاء الدالة على التعقيب قوله : ﴿ **الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون** ﴾ ليس بتكرار لأن الأول فى حق الكفار (والثانى) فى حق أهل الكتاب . قوله ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ . وقال فى يونس ﴿ **فمن** ﴾ بالفاء وختم الآية بقوله ﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ لأن الآيات التى تقدمت فى هذه السورة عطف بعضها على بعض بالواو .

وهو قوله : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم بهومن بلغ.. وإننى برىء** ﴾ **ثم قال** : ﴿ **ومن أظلم** ﴾ وختم الآية بقوله : ﴿ **الظالمون** ﴾ ليكون آخر الآية موافقاً للأول . وأما فى سورة يونس فالآيات التى تقدمت عطف بعضها على بعض بالفاء وهو قوله : ﴿ فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ﴾ ثم قال : ﴿ فمن أظلم ﴾ (بالفاء) وختم الآية بقوله : ﴿ المجرمون ﴾ أيضاً موافقة لما قبلها وهو قوله :

﴿ كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾ فوصفهم بأنهم مجرمون : وقال بعده ﴿ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ﴾ فختم الآية بقوله : ﴿ المجرمون ﴾ ليعلم أن سبيل هؤلاء سبيل من تقدمهم .

قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ وفى يونس ﴿ يستمعون ﴾ لأن ما فى هذه السورة نزل فى أبى سفيان والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة وأمية وأبى بن خلف فلم يكثروا ككثرة قوله ﴿ من ﴾ فى يونس لأن المراد بهم جميع الكفار فجمل ههنا مرة على لفظ ﴿ من ﴾ فوُحِّد لقلتهم ومرة على المعنى فجمع لأنهم وإن قلوا جماعة وجمع ما فى يونس ليوافق اللفظ المعنى وأما قوله فى يونس ﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ فسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار** ﴾ ، ثم أعاد فقال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم** ﴾ لأنهم أنكروا النار فى القيامة وأنكروا الجزاء والنكال فقال فى الأولى : ﴿ **إذ وقفوا على النار** ﴾ ، وفى الثانية : ﴿ **على ربهم** ﴾ أى جزاء ربهم ونكاله فى النار وختم بقوله : ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ ليس غيره وفى غيرها بزيادة : ﴿ نموت ونحيا ﴾ لأن ما فى هذه السورة عند كثير من المفسرين متصل بقوله : ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين** ﴾ ولم يقولوا ذلك بخلاف ما فى سائر السور ، فإنهم قالوا ذلك فحكى الله تعالى عنهم قوله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو** ﴾ قدم اللعب على اللهو فى موضعين هنا وكذلك فى القتال والحديد ، وقدم اللهو على اللعب فى الأعراف والعنكبوت وإنما قدم اللعب فى الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر فى الحديد : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ﴾ . كلعب الصبيان ﴿ ولهو ﴾ كلهو الشبان ﴿ وزينة ﴾ كزينة النسوان ﴿ وتفاخر ﴾ كتفاخر الإخوان ﴿ وتكاثر ﴾ كتكاثر السلطان . وقريب من هذا فى تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله : ﴿ وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا ﴾ ، وقدم اللهو فى الأعراف لأن ذلك فى القيامة فذكر على ترتيب ما انقضى وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا وأنه سريع الانقضاء قليل البقاء ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ﴾ أى الحياة التى لا بداية لها ولا نهاية لها فبدأ بذكر اللهو لأنه فى زمان الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا .

قوله تعالى : ﴿ **لعلهم يتضرعون** ﴾ فى هذه السورة ، وفى الأعراف : ﴿ يضرعون ﴾ بالإدغام لأن ههنا وافق ما بعده وهو قوله : ﴿ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ ومستقبل تضرعوا يتضرعون لا غير .

قوله تعالى : ﴿ **انظر كيف نصرف الآيات** ﴾ مكرر لأن التقدير : انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون عنها فلا نعرض عنهم بل نكررها لعلهم يفقهون .

قوله تعالى : ﴿ **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك** ﴾ فكرر ﴿ لكم ﴾ وقال فى هود : ﴿ ولا أقول إنى ملك ﴾ فلم يكرر ﴿ لكم ﴾ لأن فى هود تقدم ﴿ إنى لكم نذير ﴾ وعقبه ﴿ وما نرى لكم ﴾ وبعده ﴿ أن أنصح لكم ﴾ فلما تكرر ﴿ لكم ﴾ فى القصة أربع مرات اكتفى بذلك .

قوله : ﴿ **إن هو إلا ذكرى للعالمين** ﴾ فى هذه السورة وفى سورة يوسف : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ منوناً لأن فى هذه السورة تقدم ﴿ بعد الذكرى ﴾ و﴿ لكن ذكرى ﴾ فكان ﴿ الذكرى ﴾ أليق بها .

قوله تعالى : ﴿ **يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى** ﴾ فى هذه السورة ، وفى آل عمران : ﴿ وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ﴾ ، وكذلك الروم ويونس : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ ، لأن (ما) فى هذه السورة وقعت بين أسماء الفاعلين وهو فالق الحب فالق الإصباح وجاعل الليل سكناً واسم الفاعل يشبه الاسم من وجه فيدخله الألف واللام والتنوين والجر (من وجه) وغير ذلك ويشبه الفعل من وجه فيعمل عمل الفعل ولا يثنى (ولا) يجمع إذا عمل وغير ذلك ولهذا جاز العطف عليه بالاسم نحو قوله : ﴿ الصابرين والصادقين ﴾ وجاز العطف عليه بالفعل نحو قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ ونحو قوله تعالى : ﴿ سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ﴾ فلما وقع بينهما ذكر ﴿ يخرج الحى من الميت ﴾ بلفظ الفعل و﴿ مخرج الميت من الحى ﴾ بلفظ الاسم عملا بالشبهين وأخر لفظ الاسم لأن الواقع بعده اسمان والمتقدم اسم واحد بخلاف ما فى آل عمران لأن ما قبله وما بعده أفعال وكذلك فى يونس والروم قبله وبعده أفعال : فتأمل فيه فإنه من معجزات القرآن .

قوله تعالى : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ ثم قال : ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون** ﴾ وقال بعدهما : ﴿ **إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ ، لأن من أحاط علماً بما فى الآية الأولى صار عالماً لأنه أشرف العلوم فختم بقوله : ﴿ **يعلمون** ﴾ والآية الثانية مشتملة على ما يستدعى تأملا وتدبراً ، والفقه علم يحصل بالتفكر والتدبر ولهذا لا يوصف به الله سبحانه وتعالى ، فختم الآية بقوله تعالى : ﴿ **يفقهون** ﴾ ومن أقر بما فى الآية الثالثة صار مؤمناً حقاً فختم الآية بقوله : ﴿ يؤمنون ﴾ وقوله : ﴿ **ذلكم الآيات** ﴾ فى هذه السورة لظهور الجماعات وظهور الآيات (عم جميع) الخطاب وجمع الآيات قوله : ﴿ **أنشأكم** ﴾ وفى غيرها : ﴿ خلقكم ﴾ لموافقة ما قبلها وهو ﴿ **أنشأنا من بعدهم** ﴾ وما بعدها : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات** ﴾ ، قوله ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ وفى الآية الأخرى : ﴿ متشابها وغير متشابه ﴾ لأن أكثر ما جاء فى القرآن من هاتين الكلمتين جاء بلفظ التشابه نحو قوله : ﴿ وأتوا به متشابهاً ﴾ ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ ، ﴿ تشابهت قلوبهم ﴾ ، ﴿ وأخر متشابهات ﴾ ، فجاء ، ﴿ مشتبهاً وغير متشابه ﴾ فى الآية الأولى و ﴿ متشابهاً وغير متشابه ﴾ فى الآية

الأخرى على تلك القاعدة ثم كان لقوله ﴿ تشابه ﴾ معنيان : أحدهما التبس والثانى تساوى وما فى البقرة معناه : التبس فحسب فبين بقوله ﴿ مشتبهاً ﴾ ومعناه : ملتبساً أن ما بعده من باب الالتباس أيضا لا من باب التساوى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربكم لا إلٰه إلا هو خالق كل شىء** ﴾ فى هذه السورة ، وفى المؤمن : ﴿ خالق كل شىء لا إلٰه إلا هو ﴾ لأن فيها قبله ذكر الشركاء والبنين والبنات فدفع قول قائله بقوله : ﴿ **لا إلٰه إلا هو** ﴾ ثم قال : ﴿ **خالق كل شىء** ﴾ وفى المؤمن قبله ذكر الخلق وهو : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ لا على نفى الشريك فقدم فى كل سورة ما يقتضيه ما قبله من الآيات .

قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون** ﴾ وقال فى الآية الأخرى من هذه السورة ﴿ **ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون** ﴾ لأن قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك** ﴾ وقع عقيب آيات فيها ذكر الرب مرات وهما : ﴿ جاءكم بصائر من ربكم ﴾ الآيات : فختمها بذكر الرب ليوافق (آخرها أولها) .

قوله تعالى ﴿ **ولو شاء الله ما فعلوه** ﴾ وقع بعد قوله : ﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ** ﴾ فختم بما بدأ .

قوله تعالى : ﴿ **سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء** ﴾ وقال فى النحل : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ﴾ فزاد ﴿ من دونه ﴾ مَرتين وزاد ﴿ نحن ﴾ لأن لفظ الإشراك يدل على إثبات شريك لا يجوز إثباته ودل علّى تحريم أشياء وتحليل أشياء من دون الله فلم يحتج إلى لفظ ﴿ من دونه ﴾ بخلاف لفظ العبادة فإنها غير مستنكرة وإنما المستنكرة عبادة شىء مع الله سبحانه وتعالى ولا يدل على تحريم شىء مما دل عليه (أشرك) فلم يكن بد من تقييده بقوله تعالى ﴿ من دونه ﴾ ولما حذف ﴿ من دونه ﴾ من الآية مرتين حذف معه ﴿ نحن ﴾ لتطرد الآية فى حكم التخفيف .

قوله تعالى : ﴿ **نحن نرزقكم وإياهم** ﴾ وفى سبحان : ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ على الضد لأن التقدير : من إملاق (بكم) نحن نرزقكم وإياهم وفى سبحان : ﴿ خشية إملاق ﴾ يقع بهم (نحن نرزقكم وإياكم) .

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ وفى الثانية : ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ وفى الثالثة : ﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ لأن الآية الأولى مشتملة على خمسة أشياء كلها عظام جسام وكانت الوصية بها من أبلغ الوصايا ، فختم الآية بما فى الإنسان من أشرف السجايا وهو العقل الذى امتاز به الإنسان عن سائر الحيوان ، والآية الثانية مشتملة على خمسة أشياء يقبح تعاطيها وارتكابها ، وكانت الوصية بها تجرى مجرى الزجر والوعظ فختم الآية بقوله : ﴿ تذكرون ﴾ أى تتعظون بمواعظ الله ، والآية الثالثة مشتملة على ذكر الصراط المستقيم والتحريض على اتباعه واجتناب متافيه ، فختم الآية بالتقوى التى هى ملاك العمل وخير الزاد .

قوله تعالى : ﴿ **جعلكم خلائف الأرض** ﴾ فى هذه السورة ، وفى يونس والملائكة : ﴿ جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ لأن فى هذه العشر الآيات تكرر ذكر المخاطبين مرات فعرفهم بالإضافة وقد جاء فى السورتين على الأصل وهو ﴿ جاعل فى الأرض خليفة ﴾ ﴿ وجعلكم مستخلفين فيه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ ، وقال فى الأعراف : ﴿ إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ لأن ما فى هذه السورة وقع بعد قوله : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها** ﴾ .

وقوله : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾ فقيد قوله : ﴿ غفور رحيم ﴾ باللام ترجيحاً للغفران على العقاب ووقع ما فى الأعراف بعد قوله تعالى : ﴿ وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ فقيد العقاب باللام لما تقدم من الكلام وقيد المغفرة أيضاً بها رحمة منه للعباد لئلا يترجح جانب الخوف على الرجاء وقدم ﴿ سريع العقاب ﴾ فى الآيتين مراعاة لفواصل الآيات .

مناسبتها لسورة المائدة

فى المائدة محاجة أهل الكتاب ، وفى هذه محاجة المشركين ، والمائدة ذكرت المحرمات بالتفصيل لأنها من آخر القرآن نزولاً ، والأنعام ذكرت ذلك جملة .

من دلائل التوحيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

المفردات ﴿ **الحمد** ﴾ : هو الثناء الحسن والذكر الجميل . ﴿ **خلق** ﴾ الخلق فى اللغة التقدير ، أى جعل الشىء ، بمقدار معين على حسب علمه ، وفى أبى السعود : الجعل الإنشاء والإبداع كالخلق ، غير أن الخلق مختص بالإنشاء التكوينى ، وفيه معنى التقدير والتسوية ، والجعل عام للإنشاء كما قال تعالى : ﴿ **وجعل الظلمات والنور** ﴾ ، وللتشريع والتقنين كما مر فى قوله ﴿ **جعل الله الكعبة البيت الحرام** ﴾[1] ويختص الجعل بأن فيه معنى التضمين كإنشاء منشأ من منشىء . ﴿ **يعدلون** ﴾ : يجعلون له عدلا مساوياً وشريكاً له منافساً . ﴿ **أجلا** ﴾ الأجل المدة المضروبة للشىء ، وقضى أجلا بمعنى حكم به وضربه . ﴿ **تمترون** ﴾ : تشكون فى دلائل البعث والتوحيد .

---

(١) الآية ٩٧ من سورة المائدة .

أثنى سبحانه وتعالى على نفسه ، بما علم به عباده الثناء عليه ، فالحمد لله ، وكل ثناء ثابت له ، إذ هو متصف بكل كمال ومنزه عن كل نقص ، وثابت له الخلق والإيجاد والإنشاء والإبداع ، وقد وصف سبحانه وتعالى هنا بصفتين من موجبات الحمد والثناء ، وهما خلق السماوات والأرض ، وجعل الظلمات والنور .

أما خلق السماوات والأرض ، وما فيهما من العوالم والنظام والتقدير والإحكام فشيء يعترف به المشركون والمؤمنون على السواء ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولون الله ﴾[1] فهذه السماوات وما فيها من نجوم وأفلاك وشموس وكواكب ، كل له مدار وله شروق وأفول ، بعضها مضيء وبعضها له نور ، وهذا الهواء المحيط بالأرض ، وهذا الأثير الذى ينقل الصوت ، أليس هذا يدل على الوحدة والكمال ؟ .

﴿ **الحمد لله الذى خلق السماوات** ﴾ وما فيها وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى . أما الأرض ، وما أدراك ما هى ، كوكب سيار وفلك دوار ، كانتا رتقاً **ففتقناهما** ، وهى معلقة فى الفضاء ، وتدور حول الشمس وعليها الجبال الرواسي وفيها الأنهار والبحار وعليها نسير وفيها نعيش ، وهى كروية ولا يقع الماء من جوانبها ، ولا يتدفق عند قطبيها ، من الذى خلق هذا وقدره ؟ إنه هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد .

الحمد لله قد جعل الظلمات والنور ، وهل الظلمات والنور من المحسوسات أم هما من المعقولات أم اللفظ عام للجميع ؟

والقرآن الكريم جرى على جمع الظلمات وإفراد النور ، لأن ظلمات الشرك والكفر أسبابها وأشكالها وألوانها مختلفة وكثيرة ، أما نور الحق والهدى فطريقها واحد ، وللظلمات الحسية أسباب ، لأن الظلمة تحصل بحجب النور بالجسم والأجسام مختلفة وكثيرة ، وللنور مصدر واحد وإن اختلف قوة وضعفا ، وشكلا وصورة .

﴿ **ثم الذين كفروا** ﴾ بعد هذا كله ﴿ **يعدلون** ﴾ بالوحدانية الشرك ، ويجعلون لمن خلق وأوجد وأنشأ وأبدع ، شريكا مساوياً له ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[2] ، أبعد هذا يكون شك فى وحدانية الله وكماله ؟

ثم استأنف القرآن كلاما خاطب به المشركين والمعاندين ، مذكراً لهم بما هو ألصق بهم ، وهو خلقهم من طين ، أو من ماء مهين ، فهذا أبونا آدم خلق من طين ، وها نحن أولاء نتكون من منى وبويضة ، وهما من دم الذكر والأنثى ، والدم من الغذاء من الحيوان والنبات ، وهما يرجعان إلى الأرض ، وقيل المعنى خلق أباكم آدم من طين .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان . (٢) الآية ٥ من سورة الكهف .

ثم ضرب لنا أجلا نعيش به فى الدنيا إلى وقت محدود ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[١] وهناك أجل آخر مسمى عنده هو أجل الدنيا وانتهاؤها ، ومصيرها إلى الحياة الآخرة لا يعلم به إلا هو ، ولم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبياً مرسلا . ﴿ ويسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾[٢] .

ثم أنتم بعد هذا تمترون وتشكون فى خلقكم مرة ثانية ، أى فى البعث ، فالذى خلق الجنين فى بطن أمه من ماء مهين وجعله يتنفس ، ولو تنفس بالهواء العادى لمات ، وجعله يتغذى بدم الحيض ، وهو الدم القذر القاتل ، أليست هذه حياة عجيبة ؟

حقاً إنها لعجيبة ، والذى أحيانا على هذا الوضع قادر على إحياء الموتى يوم القيامة : ﴿ **وهو الله فى السماوات وفى الأرض** ﴾ نعم هو الله الموصوف بكل كمال ، وخالق السماء والأرض وما فيهما ، هذه حقائق معروفة ، وأمر شهد به الخلق جميعا ، وفى ابن كثير معنى هذه الآية المدعو الله فى السماوات وفى الأرض أى يعبده ويوحده ويقر له بالألوهية من فى السماوات ومن فى الأرض ويسمونه الله ويدعونه رغباً ورهبا إلا من كفر ، وهذه الآية كقوله تعالى :﴿ وهوالذى فى السماء إلٰه وفى الأرض إلٰه ﴾[٣] أى هو إلٰه من فى السماء وإلٰه من فى الأرض ، وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ **يعلم سركم وجهركم** ﴾ خبر بعد خبر وصفة أخرى ، وقيل المعنى هو الله يعلم سركم وجهركم فى السماوات والأرض ويعلم ما تكسبون فهو سبحانه العليم الخبير .

سبب كفرهم وعاقبته

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن
قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا
وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾

المفردات ﴿ **معرضين** ﴾ : الإعراض التولى عن الشىء .. ﴿ **بالحق** ﴾ : أى بالأمر الثابت المتحقق فى نفسه والمراد به هنا الدين . ﴿ **أنباء** ﴾ جمع نبأ وهو الخبر المهم . ﴿ **من قرن** ﴾ القرن من الناس القوم المقترنون فى زمن واحد ، ومدته من الزمن مائة سنة وقيل غير ذلك . ﴿ **السماء** ﴾ : المراد المطر . ﴿ **مدرارا** ﴾ مبالغاً فيه فى الكثرة والغزارة .

ما تقدم من الآيات كان فى إثبات الوحدانية ، وكمال الربوبية لله سبحانه وتعالى وإثبات البعث وأن

(١) الآية ٣٤ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨٤ من سورة الزخرف .

الله الذى يعترفون له بخلق السماوات والأرض هو الاله المعبود بحق ، المحيط علماً بكل شيء لا إله إلا هو ... ولكنهم أشركوا بالله وكذبوا رسله ولم يؤمنوا بهذه الآيات الكونية ولا الآيات القرآنية التى تناديهم ليصدقوا بها ويصدقوا برسولها ﷺ وهذه الآيات تشير إلى سبب التكذيب والكفر .

وما تأتيهم أى آية من آيات ربهم الذى رباهم ، وتعهدهم فى حالتى الضعف والقوة وكفل لهم الرزق ، وآتاهم من كل شيء ، وخلق لهم جميع ما فى الأرض ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ ﴿ وما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ من سورة الأنبياء .

فهم لم ينظروا نظرة اعتبار وتأمل ، ولم يجردوا أنفسهم من قيد التقليد وحمى العصبية ، وحماقة الجاهلية ، فهم إذا أتتهم آية أعرضوا وقالوا سحر مستمر ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾[1] .

فبسبب هذا قد كذبوا بالحق والدين الصدق ، الذى دعا إليه القرآن الكريم ، وجاء به النبى الأمين ، من الدعوة إلى العقائد الصحيحة ، والآداب الكريمة والمثل العليا ، ولكون الإعراض طبيعة فيهم وغريزة ، كذبوا بسرعة فائقة عقب الدعوة مباشرة وكان عاقبة أمرهم خسرانا ، وسوف يأتيهم أخبار وأحوال الذى كذبوا به وهو القرآن ، سيأتيهم نبأ هذا التكذيب وعاقبته ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[2] ، وقد أتى حيث هزموا بغزوة بدر ، وجاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفوجا ، هذا فى الدنيا .

وقال الرازى فى تفسيره : كان حال هؤلاء فى كفرهم على ثلاث مراتب : إعراض عن التأمل ، ثم تكذيب ، وثالثة الأثافى استهزاء بآيات الله وكلامه ، عجبا لهؤلاء . ألم يعلموا نبأ من كان قبلهم ، وخبرهم مع رسلهم وكيف كان مآلهم ؟ كم أهلكنا من قبلهم من قوم أعطيناهم ما لم نعط لكم ، ومكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وأعطيناهم من أسباب الاستقلال والملك والغنى ما لم نعط لكم ، أفكان هذا كله مانعا لنا من إنزال العقوبة الصارمة بهم لما أعرضوا وكذبوا واستهزءوا ؟ ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر** ﴾[3] لا هذا ولا ذاك .

نعم كان قوم عاد وثمود ، وقوم فرعون ، وإخوان لوط ، على جانب كبير من رغد العيش وسعة السلطان ، متعناهم ووسعنا لهم فى الرزق ، وأرسلنا عليهم المطر غزيراً ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحت بيوتهم ، ووسط مزارعهم ، فكما كفروا بأنعم الله أذقناهم العذاب الشديد ، وأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قوماً آخرين ، وجيلا آخر أدرك ما حل بغيره فسار على غير منواله ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود ﴾[4] والمسلمون اليوم أخوف ما أخاف عليهم هذا

(١) الآية ١٣٢ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٨ من سورة هود .
(٣) الآية ٤٣ من سورة القمر .
(٤) الآيات ١٢ – ١٤ من سورة البروج .

الإعراض عن آيات الله والتكذيب بها عملياً ، أخاف عليهم أن يحيق بهم عاقبة أمرهم ، فهى سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

شبهاتهم فى الرسالة والرد عليها

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾

المفردات ﴿ **كتابا** ﴾ : صحيفة مكتوبة . ﴿ **قرطاس** ﴾ : الورق الذى يكتب فيه . ﴿ **وللبسنا** ﴾ : اللبس الستر والتغطية ، والمراد جعلنا أمرهم يلتبس عليهم فلا يعرفونه .

كان النبى ﷺ يضيق ذرعاً بقومه من جراء تكذيبهم وعنادهم . ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ﴾[1] ، وكانوا يكثرون فى طلب الآيات الخاصة ، فرد الله عليهم بما ألزمهم .

ولو نزلنا عليك يا محمد كتاباً مكتوباً من السماء فى قرطاس حتى ولو كان هذا الكتاب معلقاً بين السماء والأرض وفيه دعوتهم إلى الدين بالحجة لماآمنوا به ، ولما صدقوك فى ذلك بل ولقالوا : ما هذا إلا سحر وخيال ظاهر ليس فيه حقيقة ، وانظر إلى تعبير القرآن الكريم : نزّلنا بالتشديد ، وقوله : ﴿ **كتابا فى قرطاس** ﴾ ، والكتاب لا يكون إلا فيه ، ثم قوله ﴿ **فلمسوه بأيديهم** ﴾ ، وقلبوا فيه وبالغوا فى ذلك ، كل هذه أساليب تفيد المبالغة وتأكيد النزول وتأكدهم منه ، ومع هذا يقولون : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ، وكان الكفار قد اقترحوا اقتراحين أولهما : أن ينزل على الرسول ملك من السماء يرونه ويكون معه نذيراً ومؤيداً له ونصيراً ، ذلك أنهم يفهمون أن الرسول بشر والرسالة تتنافى مع البشرية ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾[2] . ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾[3] الفرقان ، وقد حكى الله عنهم هذا كثيراً فى سورة هود وإبراهيم وغيرهما ، وقد رد الله على اقتراحهم هذا بأنه لو أنزل الله ملكا كما اقترحوا لقضى الأمر وهلكوا ثم لا ينظرون ولا يمهلون ، إذ جرت سنة الله فى خلقه ، إذا تعصب قوم وطلبوا آية غير التى أنزلت إليهم ، وأجيبوا إلى طلبهم ، ثم لم يؤمنوا ، يهلكهم الله بعذابه ويقضى عليهم . وهؤلاء من أمة الدعوة المحمدية ، وقد قضى الله ألا يهلكهم بعذاب الاستئصال تكريماً للنبى ﷺ وعسى أن يأتى من نسلهم من يعبد الله حقا ، وقد كان هذا .

الاقتراح الثانى : هلا نزلت الملائكة علينا بالرسالة ، وكان الرسول ملكا لا بشرا ﴿ ما هذا إلا بشر

---

(١) الآية ١٢ من سورة هود . (٢) الآية ٣٣ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٧ من سورة الفرقان .

مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾[١] فأنت ترى أن اقتراحهم الثانى مبنى على الغرور الكاذب والجهل الفاضح ، وأن هذا النبى الأمين الصادق الكريم لا يستحق هذه الرسالة ، فإن كان ولابد من إرسال بشر فنحن أولى منه ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾[٢] ؟ .

فيرد الله عليهم : لو جعلنا الرسول ملكا لجعلناه رجلا حتى يمكن التفاهم معه والأنس به ومخاطبته ، ولو جعلناه بشرا لعاد الأمر كما كان وللبسنا عليهم واختلط الأمر عليهم ، فإن هذا الرجل سيقول لهم إنى رسول الله كما يقول ﷺ ، أما اختصاص محمد دون غيره بالرسالة وتشريفه بالنبوة فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

تسلية النبى ﷺ

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

المفردات ﴿ **استهزئ** ﴾ : الاستهزاء السخرية والاحتقار ويتبع ذلك غالباً الضحك .
﴿ **فحاق** ﴾ : أحاط بهم فلم يكن لهم منه مخرج .

يخبر الله تعالى نبيه الكريم بصيغة القسم ، إن الكفار قد استهزأوا قديماً برسل كثير عددهم ، عظيم شأنهم رسل من قبلك ، فليس استهزاؤهم بك بدعاً بل أنت مسبوق فى ذلك ،فلا تحزن عليهم ، ولا تك فى ضيق مما يعملون فهذا شأن الكفار قديما وحديثا . واعلم أنه قد أحاط بهم ، فلم يكن لهم منه مخرج ، وليس لهم مفر ، ولن يفلتوا من عاقبة فعلهم أبدا .

فالآية إرشاد للنبى ﷺ ببيان سنة الله فى الخلق وأن العاقبة للمتقين ، وأن العذاب والخزى للكافرين والمستهزئين ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾[٣] .

وإن ارتبتم أيها المشركون فى ذلك فقل لهم : سيروا فى الأرض وتنقلوا فيها لتقفوا بأنفسكم على تاريخ من سبقكم من عاد وثمود ، وطسم وجديس وقوم فرعون وإخوان لوط (فما راءٍ كمن سمعا) سيروا فى الأرض ثم انظروا واعتبروا كيف كان عاقبة المكذبين ؟

أسلوب آخر فى إثبات الوحدانية والبعث

قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ

(١) الآية ٢٤ من سورة المؤمنون . (٢) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف . (٣) الآية ٩٥ من سورة الحجر .

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ
عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾

المفردات ﴿ **كتب** ﴾ : فرض وأوجب على نفسه . ﴿ **ليجمعنكم** ﴾ : المراد ليحشرنكم . ﴿ **خسروا أنفسهم** ﴾ : المراد بالخسارة هنا ترك ما يقتضيه العقل والعلم . ﴿ **ما سكن** ﴾ : من السكون أو السكنى والمراد عدم الحركة . ﴿ **فاطر السماوات والأرض** ﴾ منشئهما ومبدعهما على غير مثال سابق . ﴿ **يصرف عنه يومئذ** ﴾ : يبعد عنه . ﴿ **رحمه** ﴾ : أنجاه من الهول الأكبر .

ما هو هذا القرآن يعود إلى إثبات الوحدانية لله والكمال له ، وإثبات البعث والجزاء بأسلوب آخر ، ونمط عال فى الأداء ، وطرقا للسمع من جميع الأنحاء ، حتى لا يمل السامع مع زيادة التكرير والتثبيت فهذا هو المقصود المهم والهدف المرجو للقرآن الكريم .

قل لهم يا محمد لمن ما فى السماوات والأرض ؟ ولمن هذا الكون ما فيه وهذا الوجود وما يحويه ؟ لمن هذه السماوات وقد ازينت ؟ وهذه الكواكب وقد انتثرت .

ولمن هذه الأرض وقد مدت ؟ وفيها الأنهار الجوارى والجبال الرواسى والعوالم التى لا يحيط بها إلا خالقها . قل لهم : هذا كله لله واهب الوجود ، الكبير المعبود ، مالك الملكوت ذو الرحمة والجبروت ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

وهذا سؤال وجوابه ، قد أمر بهما ﷺ فى القرآن لأنه هو الجواب المتعين ، ولا يمكن لمنصف أن ينكر هذا أبدا ﴿ ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ فهم معترفون بهذا ولكن لسوء تفكيرهم يقولون فى الأصنام : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[1] فبئس ما يصنعون ، على أن فى السؤال وجوابه تبكيتا لهم وتوبيخا ، وقد بنى عليه شيء آخر من لوازمه ، قد يجهله المسئولون أو ينكرونه لعنادهم وحماقتهم .

فالله الذى برأ السماوات والأرض ، وله كل ما فيهما مما لا نعلم عنه إلا قليلا ومما هو كالذرة بالنسبة للجبل الأشم ، قد أوجب على نفسه ، وقوله على نفسه لتأكيد الوعد وتحقيقه أوجب الرحمة على عباده إذ هو الرحمن الرحيم ، ليجمعنا ليوم القيامة ويحشرنا لنأخذ الجزاء على أعمالنا ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[2] . ﴿ ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[3] والثواب والعقاب على الأعمال من مظاهر الرحمة

(١) الآية ٣ من سورة الزمر . (٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . (٣) الآية ٣١ من سورة النجم .

بالخلق حتى يعرف الخلق ذلك ومتى علم هذا كف باغى الشر عن شره ، وأسرع باغى الخير فى عمله ، مع أنه ليس من العدل ولا الرحمة ألا يجازى المحسن على إحسانه وألا يعاقب المسىء على إساءته ، وكذلك من مظاهر الرحمة هدايتنا إلى معرفته ، ونصب الأدلة على توحيده بما أنتم مقرون به من خلق السماوات والأرض .

وقد سبقت رحمته غضبه وزادت عليه ، فهو يجازى الحسنة بعشر أمثالها ، وقد تضاعف أضعافاً لمن يشاء ، والسيئة بمثلها فقط ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾[(١)] وأخص هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ممن يكذبون بيوم القيامة ، وهم من فسدت فطرتهم ، وساءت نفوسهم فلم يهتدوا بنور الدين ، وحرموا أنفسهم من النظر والتفكير فى هذا الكون وآياته ، بعين العقل والحكمة ، وإنما أعماهم التقليد وسوء الرأى وحمى العصبية وداء الحسد عن النظر الصحيح والفهم السليم ، ولم تكن لهم عزيمة صادقة وإرادة حازمة ، تجعلهم يتركون ما كان عليه الآباء إلى ما وافق العلم والعقل والرأى ، نعم هؤلاء الذين خسروا أنفسهم ، فهم لا يؤمنون أبدا بالبعث والثواب والعقاب ، لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار ولم يتحرك وله ما تحرك ولم يسكن ، فهو المتصرف تصرفاً كاملا فى كل شىء خصوصاً ما سكن وخفى فى الليل ، ومن باب أولى ما تحرك وسكن فى النهار .

فأنت معى أن القرآن تعرض لجميع الأمكنة فى السماوات والأرض ولكل الأزمنة فى الليل والنهار ، وهذا إشارة إلى كمال إحاطته وتمام تصرفه ، وهو السميع لكل قول ودعاء العليم بكل فعل ونية .

ومن نتائج ذلك عدم اتخاذ الأولياء من دون الله . قل لهم يا محمد أغير الله أتخذ وليا ينصرنى ؟ أو يدفع ضرراً عنى ، أو يجلب خيراً لى ؟ والاستفهام لإنكار اتخاذ غير الله وليا من الأصنام والشفعاء ، أما اتخاذ الأصحاب والأصدقاء من المؤمنين فلا شىء فيه مادام فى حدود كسبه وتصرفه الذى منحه الله لبنى جنسه ، قال لهم : أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟ أغير الله فاطر السماوات والأرض ومبدعهما لا على مثال سابق ، أغير الله أتخذه وليا يلى أمورى ؟ فإن من فطر السماء والأرض وأبدعهما من غير تأثير ولا شفيع يجب أن يخص بالعبادة وحده ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[(٢)] .

والله سبحانه وتعالى يطعم ويرزق الناس وليس فى حاجة إلى أحد ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾[(٣)] ، وفى هذا تعريض بمن يتخذون من العباد آلهة وهم محتاجون إلى الطعام وما يتبعه من الحاجة إلى الخلاء ، أما من يعبد غير الإنسان فعبادته ضرب من الخيال والجنون . أما وقد ظهرت هذه الحقائق بادية للعيان ، فقل يا محمد إنى أمرت أن أكون أول من أسلم وجهه لله وانقاد ، حيث ثبت أن له ما فى السماوات والأرض ملكا وخلقا وعبيداً وتصريفا وحكما ، وله ما سكن وما تحرك ، وهو السميع البصير ، فاطر السماوات والأرض ، واهب الرزق والحياة ، غير محتاج لأحد ، ليس كمثله شىء ، لهذا

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٤ من سورة الفاتحة . (٣) الآية ٥٧ من سورة الذاريات .

أمرت أن أكون أول من أسلم ، ونهيت عن الشرك بالله وإنى أخاف إن عصيت ربى عذابا عظيماً يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله .

وإذا كان هذا حال النبى ﷺ الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، المعصوم خاتم النبيين والمرسلين ، فما بالنا نحن ؟ وما بالك يا ابن آدم ؟ وإنك لمسكين مغرور حيث تتعلق بالأوهام والالتجاء لغير الله .. من يدفع عنه يومئذ ذلك العذاب فقد رحمه الله ونجاه ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾[1] وذلك هو الفوز الواضح العظيم .

الأمر كله لله

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

المفردات ﴿ **الضر** ﴾ : وضده النفع هو ما يسوء الإنسان فى نفسه أو بدنه أو عرضه أو ماله . ﴿ **بخير** ﴾ : هو ما يرغب فيه الكل وتطمح إليه النفس كالعقل والعلم والعدل وضده الشر . ﴿ **القاهر** ﴾ : القهر الغلبة والتذليل معا . ﴿ **شهادة** ﴾ : هى إخبار عن علم ومعرفة واعتقاد بنى على المشاهدة بالبصر أو البصيرة .

هذه الآيات تملأ قلوب المؤمنين ثقة بالله واعتمادا عليه وحده ، وعقيدة المسلم (إن الأمر كله لله) . الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع إرادته ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، فإذا مسك ضر أو أصابك ما تكرهه فى نفسك أو مالك أو عرضك فاعلم بأنه لا يكشف هذا الضر إلا الله ، فكل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، إنه عز كل ذليل وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . وكما أنه هو الذى يكشف الضر ، فهو الذى ينعم بالخير من عافية وراحة بال وهدوء حال ورزق ومال وولد . ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم * يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾[2] . سبحانك لا خالق سواك ولا رازق غيرك ، جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة فاطر .

كان يقول : ﴿ اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾ : هذا أسلوب حصر وقصر ، فلا قاهر غيره ولا غالب سواه ، واحد بلا عدد ، قائم بلا عمد ، باق بلا أمد ، حكيم تنزه عن العبث ، خبير علم حقائق الأشياء ودقائقها ، تنزهت عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة وموجود لا من علة ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار .

يا صاحب الهم إن الهم منفـــرج أبشر بخير فإن الفـــــــارج الله
اليـأس يقطـع أحيانــا بصاحبــه لا تيـأسنَّ فإن الكافـــــىَ الله
الله يحدث بعـــد الـــعسر ميسرة لا تجزعـــنَّ فإن الصانــــع الله
إذا بُلـيـت فثـــق بالله وارض به إن الـذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحـــــد فحسبك الله فى كلٍّ لك الله .

قوله تعالى : ﴿ **قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم** ﴾ : هذا خطاب كريم من رب كريم موجه إلى رسول كريم فيه يقين للقلوب المؤمنة منه وإفحام لقلوب المعاندين : ﴿ **أى شىء أكبر شهادة** ﴾ ؟ **ويأتى الجواب فى وضوح وصراحة** ﴿ **قل الله شهيد بينى وبينكم** ﴾ وحيث إنه لا شىء أكبر شهادة من الله فكفى بالله شهيداً وكفى به عليماً وكفى به خبيراً . من أصدق من الله حديثا ؟ لا أحد أصدق من الله قيلا ؟ لا أحد . أأنتم أعلم أم الله ؟ الله يعلم وأنتم لا تعلمون . الله شهيد بينى وبينكم ؟ فهو الحق وقوله الحق ووعده الحق ولقاؤه حق ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون** ﴾ : الوحى هنا خاص بالأنبياء ، وهو إعلام الله تعالى نبيا من أنبيائه بحكم من أحكامه بواسطة أو بغير واسطة ، أو هو عرفان يجده النبى فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله ، قال تعالى : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء**

---

(١) أخرجه البخارى فى الأذان (١٥٥) وفى الاعتصام (٣) وفى القدر (١٢) وفى الدعوات (١٧) . وأخرجه مسلم فى الصلاة (١٩٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦) وفى المساجد (١٣٧ ، ١٣٨) . وأخرجه أبو داود فى الصلاة (١٤٠) وفى الوتر (٢٥) وفى الأدب (٨٨) . وأخرجه الترمذى فى الصلاة (١٠٨) والنسائى فى التطبيق (٢٥) وفى السهو (٨٥ ، ٨٩) وأخرجه الدارمى فى الصلاة (٧١ ، ٨٨) . والإمام مالك فى القدر (٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٨٧) وفى (٤ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٨٥) .

(٢) الآية ٢٥ من سورة النور .

حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء ؟ إنه على حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[١] .

فتأمل معى كيف اختلفت وسائل الوحى وطرقه وكيف تعددت أشكاله : فقد يكون بالقذف فى القلب كما قال ﷺ : « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »[٢] .

وقد يكون من وراء حجاب كما كلم الله موسى تكليما ، وقد يكون بواسطة الملك جبريل فيوحى الله ما يشاء بإذنه تعالى ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا ﴾[٣] .

فللوحى حرس ملائكى وحفظة كرام ، وجبريل هو كبير أمناء وحى السماء وسفير الأنبياء الذى يجوب الآفاق ويطوى بأجنحته السبع الطباق ، وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[٤] .

فانظر كيف جعل الوحى روحا يحيى الموات ونورا يبدد غياهب الظلمات . ثم تأمل معى كيف كانت كلمة الوحى الناطقة بالصدق . صدق الوحدانية وأساس الرسالات : ﴿ أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ وصلوات ربى وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله يا من أعلنتها فى سمع الزمان صريحة مدوية : « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله » فمن ادعى وحيا بعد رسول الله فإنه كذاب أشر ، ومن ادعى رسالة وقال إن محمدا خاتم النبيين ولم يختم المرسلين قلنا : إن النبوة أعم من الرسالة ، فمن ختم الأعم فقد ختم الأخص . لذا نقرر أن لا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة ، وقد أخبرنا أصدق القائلين بأنه أكمل الدين وأتم النعمة ورضى لنا الإسلام دينا . فقد أنزل على الرسول فى حجة الوداع قوله الذى انتظم أربع بشريات : ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ﴾[٥] . ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ . فمن ادعى رسالة بعد رسول الله كما يقول أصحاب الأديان الوضعية التى صنعها الاستعمار على عينيه وأغدق عليها من ماله وأجلب عليها بخيله ورجله ، من ادعى منهم رسالة سألناه : ما طبيعة هذا الدين الذى جئت به إن قال إنه الإسلام قلنا له : لقد أكمل الله الدين ، فإذا كان قد أكمله فإن دين الله ليس فى حاجة إلى زيادة أبداً وإذا كان قد أتم النعمة فنعمة الله لا تنقص أبدا . وإذا كان قد رضى لنا الإسلام دينا فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ..

---

(١) الآيات ٥١ – ٥٣ من سورة الشورى .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى التجارات (٢) .
(٣) الآيات ٢٦ – ٢٨ من سورة الجن .
(٤) الآية ٢ من سورة النحل .
(٥) الآية ٣ من سورة المائدة .

فإذا قال إنه غير الإسلام . قلنا له : بيننا وبينك بعد المشرقين فبئس القرين : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾ أى لأنذركم بالقرآن ، فأنا لكم نذير مبين بين يدى عذاب شديد ، كما أننى أنذر من بلغه هذا القرآن فى مشارق الأرض ومغاربها من إنس وجان . وهذا دليل على عموم رسالته ودوامها إلى أن يقوم الناس لرب العالمين . فدعوة الإسلام دعوة عالمية خاتمة دائمة فقد جاء فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **ومن بلغ** ﴾ أى من بلغه القرآن فكأنما رأى النبى ﷺ وكلمه . جاء فى الحديث الشريف عن النبى ﷺ أنه قال : ﴿ بلغوا عن الله فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله ﴾[٢] . وقال الربيع بن أنس : حق على من اتبع رسول الله ﷺ أن يدعو كالذى دعا رسول الله ﷺ وأن ينذر بالذى أنذر .

قوله تعالى : ﴿ **أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ، قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون** ﴾ هذا تقرير لقضية التوحيد التى قامت عليها السماوات والأرض . فبعدما أثبتت الآية فى صدرها أن الله أكبر شهادة وهو شهيد بينه وبينهم أكدت هذا المعنى بسؤال وجواب . جاء السؤال مصورا بتلك العبارة الرصينة : ﴿ **أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى** ﴾ ، وجاءت الإجابة بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ **قل لا أشهد** ﴾ وجاء التوكيد فى صورة من روائع البيان وتصديق الجنان : ﴿ **قل إنما هو إله واحد** ﴾ إنه نداء الفطرة السليمة التى ولد كل مولود عليها ولكن كدّرت صفوها ظلمات القلوب الجائرة التى عبثت بها الأهواء الزائفة . قال ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يمجسانه أو يهودانه أو ينصرانه)[٣] . نعم إنه نداء الفطرة فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان . ﴿ تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[٤] .

تأمل فى نبات الأرض وانظر — إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لُجين شاخصات — بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات — بأن الله ليس له شريك

وبعد إثبات الوحدانية تأتى البراءة من كل ما يشركون ، وما أجل قوله تعالى حكاية عن إبراهيم مع

---

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٠) . والترمذى فى العلم (١٣) . والدارمى فى المقدمة (٤٦) . والإمام أحمد فى (٢ ، ١٥٩ ، ٢٠٢ ، ٢١٤) .
(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (٧٩ ، ٩٢) وفى تفسير سورة ٣٠ (١) وفى القدر (٣) . وأخرجه مسلم فى القدر (٢٢ - ٢٥) . والترمذى فى القدر (٥) . والإمام مالك فى الجنائز (٥٣) .
(٤) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

قومه : ﴿ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[١] .

كان لأبى ذر الغفارى رضى الله عنه صنم يعبده أيام الجاهلية ، فجاء ذات يوم ليقدم له مراسيم الطاعة والولاء ، فوجد بللاً برأسه فنظر فى الأمر : من الذى أصابه بالبلل فوجد ثعلبا ، فعلم أنه بال على صنمه ، فنظر أبو ذر إلى معبوده وقال فى عبارة رصينة نسج خيوطها من ضياء التوحيد قال :

أربٌ يبـــول الثعلبان برأسه ؟ لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب
فلو كان ربّــا كان يمنــع نفسه فلا خير فى رب نأتـه المطــالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها وآمــنت بالله الــذى هو غالب

حقا إن الله صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة كفى به وليا وكفى به نصيرا .

افتراء على الله

ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ
﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

المفردات ﴿ **آتيناهم الكتاب** ﴾ : المراد بهم اليهود والنصارى . ﴿ **يعرفونه** ﴾ : أى النبى ﷺ . ﴿ **كما يعرفون أبناءهم** ﴾ : المراد بالتشبيه إثبات الحقيقة فى كل . ﴿ **تزعمون** ﴾ : أى تدعون كذبا لذا قالوا : زعموا مطية الكذب . ﴿ **فتنتهم** ﴾ : الفتنة الاختبار والمراد عاقبة الشرك . ﴿ **كذبوا على أنفسهم** ﴾ : خدعوها بالأباطيل .

روى أن كفار قريش سألوا أهل الكتاب عن رأيهم فى النبى ﷺ وفى دينه فقالوا : ليس فى التوراة والإنجيل شىء يدل على نبوته ، وقد شهد له الله بالرسالة والصدق فبقى أن يثبت كذب أهل الكتاب فى شهادتهم ومن هنا كانت المناسبة .. وقد روى « أن عمر بن الخطاب لما قدم المدينة سأل عبد الله بن سلام عن هذه المعرفة فقال يا عمر : لقد عرفته فيكم حين رأيته كما أعرف ابنى . وأشهد أنه حق من عند الله » .

(١) الآيات ٧٧ – ٨٢ من سورة الشعراء .

إن الذين أنكروا نبوة خاتم الأنبياء إنما أساءوا إلى أنفسهم فلن يضير الشمس أن ينكر ضوءها من بعينيه رمد :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ولن يضير البحر الطهور أن يلقى فيه غلام بحجر :

ما يضر البحر أمسى زاخرا ... أن رمى فيه غِلام بحجر

ولن يعيب الورود ألا يشم عطرها مزكوم :

وما ضرَّ الورود وما عليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وكما قال الحكيم المتنبى :

ومن يك ذا فم مرٍّ مريض ... يجد مُرّاً به الماء الزلالا

إن الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ كالذى أراد أن يثير التراب على السماء فأثاره على نفسه وبقيت السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .. إن الدليل على صدق الإسلام ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام أنه أمرنا أن نؤمن بجميع الأنبياء . قال تعالى : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربَّنا وإليك المصير ﴾(١) .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(٢) وقد جمع الله له الأنبياء والمرسلين فى ليلة الإسراء وقال له : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾(٣) فاستحى الرسول أن يسأل .

لقد قال القرآن كلمته الحاسمة التى جاءت فصل الخطاب فى تلك القضية ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما ﴾(٤) .. وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(٥) ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ﴾(٦) إن الذين أنكروا نبوة محمد ﷺ قد خسروا أنفسهم . فالله تعالى

(١) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .
(٤) الآيات ١٥٠ – ١٥٢ من سورة النساء .
(٥) الآية ١٩ من سورة آل عمران .
(٦) الآية ٢١٣ من سورة البقرة .

يقول فى حديثه القدسى الجليل : (وعزتى وجلالى لو سلكوا إلى كل طريق ، واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد) .

الله أكبر إن ديـــن محمـــــد وكتابــه أقــوى وأقــوم قيـلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديـلا

إن الذين أنكروا نبوة محمد وجحدوا رسالة الإسلام خسروا أغلى ما يملكون ، لم يخسروا مالا ولا ولدا ولا سلطانا خسروا النفوس ، فهم لا يؤمنون كما قال تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾[١] . وكما قال جلّ شأنه : ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾[٢] ... ثم ينتقل النظم الكريم إلى مشهد من مشاهد القيامة مع هؤلاء الكاذبين المفترين فيقول جلّ شأنه : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون** ﴾[٣] .

هذا سؤال يوجهه علام الغيوب فى ساحة العدل الإلهية الكبرى يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد ، يقول الله للمشركين : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون أنهم ينفعون ويضرون ويخلقون ويرزقون ؟ وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتبكيت جاءت الإجابة عنه بالكذب والبهتان والحنث فى يمين الله . قال تعالى : ﴿ **ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ وقد فسرت الفتنة هنا بمعانى كثيرة : فسرت بالاختبار والابتلاء والحجة والمعذرة ، والمقصود بهذا نتيجة الابتلاء والاختبار . وقد أقسموا بالله كذباً وبهتاناً وقالوا فى نص الحلف : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ فاعجب لجرأتهم على الله أيقسمون بالله كذباً أمام من يعلم السر وأخفى ؟ أمام من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ؟

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أتاه رجل فقال : يا ابن عباس سمعت الله يقول : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ فقال : إنهم رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة ، فقالوا : تعالوا فلنجحد ، فيجحدون ، فيختم الله على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثا ، فهل فى قلبك الآن شىء ؟ إنه ليس من القرآن شىء إلا ونزل فيه شىء ولكن لا تعلمون وجهه . لذلك كان التعقيب على قولهم ، يأخذ بالألباب ، فقد يستولى عليك العجب عندما تقرأ قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ إنهم لم يكذبوا على الله :

الله يدرى كل ما تضمـــــر يعلـم ما تخفـى ومـا تظهـر
وإن خدعت الكـل لم تستطـع خداع من يطـوى ومـن ينشر

(١) الآية ٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٢٢ من سورة الأنعام .

إنهم كذبوا على أنفسهم ، وجاءت نتيجة الكذب أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴿ **وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ وهذا كقوله تعالى : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ﴾ .

من مواقف الكفار

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

المفردات ﴿ **الأكنة** ﴾ : جمع كنان وهو الغطاء والستر . ﴿ **وقرا** ﴾ : صمما وثقلا فى السمع . ﴿ **آية** ﴾ : علامة دالة على صدق الرسول . ﴿ **أساطير** ﴾ : جمع أسطورة وهى الخرافة . ﴿ **وينأون** ﴾ : يبعدون عنه ويعرضون .

هذه بعض مواقف أهل الكفر الذين جبلت قلوبهم على الإنكار والجحود فمن هؤلاء المعاندين من يأتى ليستمع إلى ما يقوله صاحب الرسالة العصماء وما يتلوه عليهم من الآيات لم يأت هو بقصد الهداية ، إنما جاءوا ليهزأوا مما يتلى عليهم ، وقد علم الله منهم ذلك فجعل على قلوبهم أكنة وأغطية وحجباً تمنع وصول الحق إليها ، هذه الأكنة مانعة من الفقه والفهم والمعرفة كما قال الله تعالى : ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾(١) . وكما قال جل شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون** ﴾(٢). وكما أن القلوب حجبت عن الفقه والمعرفة فإن الأذان قد صمت عن سماع ما يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ففى الآذان وقر وصمم كما أن على القلوب أكنة ، كما أن النفوس قد أصرت على عدم الإيمان ، قال تعالى : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾(٣) . ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداءً صمٌّ بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾(٤) .

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبدا ﴾(٥) .

فمن أين يأخذ الحق طريقة إلى هؤلاء وقد سدت منافذ المعرفة . وأحيطت مجالات الفهم بأسوار عالية تمنع من تسرب النور إلى القلوب ، ومن مواقف هؤلاء المعاندين أنهم إذا جاءوك ، يا مبعوث العناية الإلهية ويا شمس الهداية الربانية ، لا يأتون طالبين الحق إنما يأتون محاولين ليدحضوا الحق بالباطل . ماذا

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنفال .
(٢) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٧١ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٥٧ من سورة الكهف .

يقولون إذا جاءوك ؟ يقولون : إن هذا إلا أساطير الأولين . هكذا كانوا يصفون آيات القرآن : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾[١] ، ويقصدون بالأساطير الخرافات والخزعبلات . ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾[٢] ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **وهم ينهون عنه وينئون عنه** ﴾ : وهذا موقف آخر من مواقفهم السيئة القبيحة . جمعوا فى هذا الموقف بين سوأتين : **الأولى** : أنهم ينهون الناس عن اتباع سيد الخلق صلوات ربه وسلامه عليه . **والثانية** : أنهم ينأون ويبتعدون عن اتباع الحق ، فهم كما قال الله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ ، فالنهى صد عن سبيل الله ، والنأى كفر ، فاستحق هؤلاء أن يحكم عليهم مولانا جل شأنه بالهلاك والإهلاك قال تعالى : ﴿ **وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون** ﴾ .

من مشاهد القيامة

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

المفردات ﴿ **وقفوا على النار** ﴾ : يقال وقف على الشىء عرفه وتبينه ، ووقف نفسه على الشىء حبسها ، ومنه وقف العقار على الفقراء . ﴿ **ياليتنا** ﴾ : كلمة يراد بها التمنى وهو طلب الأمر المستحيل أو ما فيه عسر . ﴿ **نرد** ﴾ : نرجع إلى الدنيا . ﴿ **بدا لهم** ﴾ : ظهر ووضح

هذا مشهد رهيب من مشاهد القيامة . إنها سلسلة متصلة الحلقات من الأهوال الجسام ، تبدأ من سكرات الموت . قال تعالى : ﴿ إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم . اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾[٤] ثم تدرج السلسلة فى حلقاتها : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٥] . ثم ماذا فى عالم البرزخ : ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشياً ﴾[٦] ثم ماذا : ﴿ أغرقوا فأدخلوا نارا ﴾[٧] ثم تتحرك الأهوال حتى يبعثوا من القبور : ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ، قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾؟ فيقال لهم : ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق

---

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥ من سورة الكهف .
(٣) الآية ٦ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ٩٣ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ٤٦ من سورة غافر .
(٧) الآية ٢٥ من سورة نوح .

المرسلون ﴾[١] . ثم يأتى الحشر : فكيف حالهم فى هذا اليوم العصيب ؟ قال تعالى : ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[٢] ، ثم يأتى دور الصحف حيث يأخذون كتبهم بشمائلهم ومن وراء ظهورهم ، فيقول كل منهم : ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه ﴾[٣] فيقال من قبل الحق جل جلاله : ﴿ خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾[٤] .

ثم ماذا ؟ إلى المشهد المهيب . إنهم وقفوا على النار ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾[٥] فماذا يقولون وقد وقفوا على النار موقف التمنى والندم ؟ يقولون : ﴿ ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾[٦] .

ندم البغاة ولات ساعة مندم

وهل ينفع الندم ؟ ليت . وهل ينفع شيء ؟ ليت . ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا *ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[٧] وهل تنفع عودتهم إلى الدنيا ؟ قال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير . فذقوا فمالظالمين من نصير * إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾[٨] .

فماذا كان الجواب على تمنيهم هذا ؟ وما نيل المطالب بالتمنى . قال تعالى : ﴿ **بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل** ﴾ أى ظهر واتضح لهم ما كانوا يخفون من الكفر والتكذيب بالقيامة ومشاهدها . فمن كفر بشيء أخفاه ومن كذب بشيء طواه فى نفسه . لقد كانوا يكذبون بالنار فرأوها رأى العين . ﴿ يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون * أصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[٩] .

قوله تعالى :﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾ . هذا إخبار ممن يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، إخبار عن حال هؤلاء المارقين المراوغين إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الكفر والتكذيب والجحود ، وإنهم لكاذبون فيما قالوه : ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ قوله تعالى ﴿ بل ﴾ حرف إضراب إبطالى يفيد إبطال ما قالوه سابقا .

(١) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة يس .
(٢) الآية ٩٧ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان ٢٥ - ٢٩ من سورة الحاقة .
(٤) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة الحاقة .
(٥) الآية ٥٣ من سورة الكهف .
(٦) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .
(٧) الآيات ٢٧ - ٢٩ من سورة الفرقان .
(٨) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة فاطر .
(٩) الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الطور .

نعم . لعادوا لما نهوا عنه وقالوا : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾ ، هكذا يخبر علام الغيوبَ عن حقائق هؤلاء إنهم لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ضلالهم وبهتانهم وقولهم : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا ﴾ فهم فى زعمهم سيموتون ولا شيء بعد الموت وما هى إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر كما قالوا . وجاء الرد عليهم من العلى الأعلى : ﴿ قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

من مواقف الآخرة

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

المفردات ﴿ **الساعة** ﴾ : هى الوقت المحدد المعروف وتطلق فى لسان الشرع على الوقت الذى ينقضى به أجل الدنيا وتبدأ به الحياة الأخرى . ﴿ **بغتة** ﴾ : فجأة . ﴿ **ياحسرتنا** ﴾ : الحسرة : الندم على ما فات كأن المتحسر قد انحسر وانكشف عنه الجهل الذى حمله على ما ارتكبه . ﴿ **ما فرطنا** ﴾ : التفريط التقصير فى الشيء مع القدرة على فعله . ﴿ **أوزارهم** ﴾ : جمع وزر : وهو الحمل الثقيل ويطلق فى لسان الشرع على الإثم والذنب كأنه لثقله على صاحبه كالحمل الذى يثقل ظهره . ﴿ **لعب** ﴾ : هو العمل الذى لا يقصد به نفع أو دفع ضر . ﴿ **لهو** ﴾ : ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه .

مازال النظم الكريم يعرض لصور أهل الشرك والعناد والجحود فقد وقفوا على النار فى المشهد السالف ، وهم فى هذا المشهد وقفوا بين يدى الحق جل جلاله فيسألهم سبحانه وهو العليم الخبير يسألهم سؤال تبكيت وتقريع وتوبيخ : ﴿ **أليس هذا بالحق** ﴾ أى أليس هذا الذى ترونه من بعث وحشر ونشر وصحف وصراط وميزان وجنة ونار . فماذا يقولون ؟ هل ينكرون أو يجادلون أو يراوغون أو يمارون ؟ لقد انقطعت المعاذير وبرح الخفاء وانكشفت الأسرار .

﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[1] .

﴿ **قالوا بلى وربنا** ﴾ . هذه إجابة بلغت فى صراحتها ووضوحها مبلغ الشمس وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، فيصدر الله سبحانه حكمه العادل فيهم مدعماً بالحيثيات . قال : ﴿ **فذوقوا**

(١) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة ق .

عظمة الله ووحدانيته ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾[١] ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾[٢] .

وكذلك ﴿ نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾ ليعلم علم اليقين ، وليكون من الموقنين ، فماذا كان جواب قومه الذين حطم إبراهيم أصنامهم ، وغاب آلهتهم ، وسفه أحلامهم ، لقد وقف منهم موقف المناظرة ، يرخى العنان للخصم ليلقمه بالحجارة فى حلقه ويفحمه ، ويزهق باطله ، ويرسل قذائف الحق تدمر مواقع الباطل ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[٣] .

لقد قال لقومه عندما جن عليه الليل ، وأرخى سدوله ، رأى كوكبا فقال لقومه على سبيل الفرض الجدلى توصلاً إلى الحق : هذا ربى ، فلما غاب ذلك الكوكب قال إبراهيم : لا أحب الأفلين ، أى ما كان ينبغى إن كان هذا الكوكب معبوداً أن يأفل ويغيب ، فما الذى غيبه ؟ إن الذى غيبه هو خالقه الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا .

وينتقل إبراهيم عن الكوكب وأفوله إلى القمر وبزوغه وظهوره ، فيقول إبراهيم من باب إرخاء العنان للخصم ، والجدل الموصل إلى الحق : هذا ربى ، فلما أفل وغاب ، قال إبراهيم معرضا بقومه : لإن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، أى من هؤلاء الذين تنكبوا الجادة ، وحادوا عن الطريق المستقيم ، وفى التلميح ما يغنى عن التصريح ، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة.

فلما انتقل إلى الشمس وقد أشرقت بنور ربها ، قال إبراهيم ، هذا ربى هذا أكبر ، أى أكبر من الكوكب والقمر ، فلما أفلت الشمس وغابت وطوتها ظلمة الليل ، أعلن إبراهيم النتيجة الصادقة التى لا يمارى فيها إلا كل أفاك أثيم ، قال : يا قوم إنى برىء مما تشركون .

ثم بين لهم طريق الهدى والرشاد ، والحق والسداد : إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، فهو خالقهما وما فيهما ، بل ﴿ ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾[٤] حنيفاً مائلاً عن الشرك ، وما أنا من المشركين .

فماذا كان جواب قومه بعدما حطم دولة الأصنام ، وسفه تلك الأحلام التى يشغشغ فيها الهواء ، قالوا ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾[٥] حكمت محكمة الأرض بالإعدام حرقا ، وحكمت محكمة السماء بالإفراج فوراً ﴿ قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾[٦] .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إله إلا الله أفنى بها عمرى ، لا إله الله يغفر بها ذنبى ، لا إله إلا الله ألقى بها ربى ، لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، كيف يعبدون غير الله ، وغير الله باطل ، كيف

---

(١) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٠١ من سورة يونس .
(٣) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٥٦ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ٦٨ من سورة الأنبياء .
(٦) الآية ٦٩ ، ٧٠ من سورة الأنبياء .

يسجدون للكائنات وينسون خالق الكائنات، ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[1] .

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضره
كيف نمت من حبة وكيف صارت شجره
فانظر وقل من ذا الذى يخرج منها الثمره
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمره
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره
انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدرر المنتثره
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمره
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره
انظر إلى المرء وقل من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه بقوة مفتكره
انظر إلى الشمس التى جذوتها مستعره
فيها ضياء وبها حرارة منتشره
من ذا الذى أوجدها فى الجو مثل الشرره

المؤمنون أحق بالأمن

وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ
وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا
لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ
يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

المفردات : ﴿ **وحاجه قومه** ﴾ : المحاجة المجادلة والمغالبة . وتطلق على ما يدلى به الخصم فى

(١) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .

إثبات الدعوى وعلى رد دعوى الخصم وهى بهذا إما حجة دامغة أو شبهة واهية . ﴿ بظلم ﴾ : المراد به الشرك لأنه الظلم الأكبر .

ها هو ذا إبراهيم قد جاء قومه بالحق ، وأورد لهم البينات من الحجج الدامغة والأدلة القاطعة ، حيث تمشى معهم ، ونزل إلى مستواهم ، وفى النهاية أثبت أن الله الذى فطر السموات والأرض هو المعبود بحق لا إله إلا هو . وحاجه قومه بأوهى الحجج ، وأتوا بشبهات هزيلة لا تنهض دليلا إلا عند الذين ختم الله على قلوبهم وجعل على سمعهم وبصرهم غشاوة ، فقد قالوا : إنا نتخذهم آلهة تقربنا إلى الله ، وتشفع عنده ، ونحن قد وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، وإياك يا إبراهيمَ والآلهة واحذرهم فإنا نخاف عليك منهم قال إبراهيم : أتحاجونى فى الله ، إن هذا لشىء عجيب ، كيف ذلك ؟ والله خلق السموات والأرض وله ملكوت ، لا يحيط به إلا هو ، وهو القادر على كل شىء ، وهذه الأصنام لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا ترى،بل هى مخلوقة لكم ، ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[1]. أتحاجونى فى الله وقد هدانى إلى سواء السبيل ، ولا أخاف هذه الأصنام أبداً ، فهى لا تنفع نفسها ولا غيرها ، ولا تضر ، وكيف أخاف ما تشركون به ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأنا لا أخافهم فى وقت من الأوقات إلا وقت أن يشاء الله ربى وربكم لى شيئاً من الألم . أو الضر ، فينزل بى ما يشاء ، كأن يقع على صنم فيصيبنى، أو ينزل شهاب من السماء فيحرقنى كل ذلك بمشيئة الله وحده ، أما أن لهذه الأصنام شيئاً فى أنفسها أو فى غيرها ، فهذا شىء لا يدور بخلد عاقل ولا ينطق به إنسان كامل . أعميتم فلا تتذكرون شيئاً أصلا ، حتى تسووا بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله واهب الوجود وبين الحجر أو الكواكب المخلوقة .

عجباً لكم كيف أخاف آلهتكم التى ينادى العقل الحر بأنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تخافون إشراككم بالله غيره ، وقد قامت الحجج العقلية والنقلية على أنه الإله الواحد الأحد الفرد الصمد . وإذا كان هذا هو الواقع فأينا أهدى سبيلا ، وأحسن رأيا ، وأقوم قيلا ، وأحق بالأمن وعدم الخوف ، إن كنتم من أهل العلم والعقل والفكر الحر-الذين آمنوا أحق الناس بالأمن والطمأنينة ، لأنهم آمنوا بالله ورسله ، وسلكوا طرق العقل والحكمة ، ولم يخلطوا إيمانهم بظلم كالشرك ، أولئك لهم الأمن الكامل التام فى الدنيا والآخرة ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، روى البخارى ومسلم (أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وقالوا يا رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه فقال ﷺ ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم »)[2] وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم حجة له على قومه ، ولا غرابة فى ذلك فالله يرفع من يشاء من عباده ، درجات بعضها فوق بعض ، فهذه درجة الإيمان ، وأخرى درجة العلم ، وثالثة درجة الحكمة والتوفيق ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، إن ربك عليم بخلقه .

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٨ ، ٤١) . ومسلم فى الإيمان (١٩٧) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٧٨ ، ٤٢٤ ، ٤٤٤) .

إبراهيم أبو الأنبياء ومكانته

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

المفردات : ﴿ **اجتبيناهم** ﴾ : اخترناهم واصطفيناهم . ﴿ **لحبط** ﴾ : بطل عنهم عملهم . ﴿ **الحكم** ﴾ : العلم النافع والفقه فى الدين وقيل القضاء بين الناس .

كان إبراهيم عليه السلام أمة ، وكان من القانتين ، وهو من أولى العزم ، وهو أبو الأنبياء ، فما من نبى بعده إلا وهو من سلالته ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب ﴾[(١)] ووهبنا له على كبر منه وعقم من امرأته ويأس إسحاق ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾[(٢)] جزاء إيمانه الكامل وإحسانه الشامل ونجاحه فى ابتلاء الله له بذبح ولده إسماعيل . فإبراهيم من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء فهو من سلالة نوح ﴿ ونوحاً هدينا من قبل ﴾[(٣)] وهدينا من ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، فهى ذرية طيبة ﴿ ذرية بعضها من بعض ﴾[(٤)] وإبراهيم واسطة العقد ، جده نوح ، وأولاده الأنبياء ، وكذلك نجزى المحسنين وهدينا من ذريته كذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين ، وهدينا من ذرية إسماعيل ابنه لصلبه ، وجد المصطفى ﷺ ، إسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلاً فضلنا على عالمى زمانهم . وهدينا بعض آبائهم وذرياتهم وإخوانهم ، إذ لم يكن الكل مهديا إلى الخير ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾[(٥)]

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الحديد .
(٢) الآية ٧١ من سورة هود .
(٣) الآية ٨٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٣٤ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٢٦ من سورة الحديد .

ولقد اجتبيناهم واخترناهم،وخصصناهم بمزايا كثيرة ، وهديناهم صراطا مستقيما ﴿ **ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده** ﴾ ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾ ولو أشركوا بالله شيئاً لكان جزاؤهم أن تحبط أعمالهم ، إذ توحيد الله سبحانه وتعالى هو المزكى للنفوس ، المطهر للأرواح ، هو أساس الثواب ، ومناط الأجر ، فإذا انهار الأساس فلا يبقى معه ثواب للعمل أصلا ﴿ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾[1] .

أولئك المذكورون جميعا ينهلون من معين واحد ولهم رسالة واحدة هى إرساء قواعد التوحيد فى الدنيا لله سبحانه وتعالى ، وإن اختلفت فى الشكل وطرق الأداء والمعجزات تبعاً لظروف كل زمن وأمة ، أولئك الذين آتيناهم الكتاب كصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داود وإنجيل عيسى ، وآتيناهم الحكم والعلم والفهم الصادق والنبوة ، ولاشك أن كل نبى كذلك ، إذ أساس النبوة العلم والفقه والفهم والفطانة .

فالنبوة قيادة وزعامة فى الدين والدنيا ، وهل تتم بدون هذا ، أما الحكم بمعنى فصل القضاء والحكم بين الناس فلم يعط لكل نبى ، وهذه مراتب الفضل فيهم فكل من أوتى الكتاب أوتى الحكمة والنبوة ، وكل من أوتى النبوة أوتى الحكم ، وليس كل من أوتى النبوة أوتى الكتاب فإن يكفر بالكتاب والحكم والنبوة التى أوتيت كلها لك يا محمد فإن يكفر بها كفار قريش فقد وكلنا بعنايتها ، ووفقنا للإيمان بها والعمل على خدمتها ، والدعوة إليها ، قوما كراماً ليسوا بكافرين بها ، والمراد بهؤلاء القوم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين ، أولئك الذين هداهم الله ووفقهم ، فهم أئمة الدين وأعلام الهدى فبهداهم هذا اقتد يا محمد ، وقد جمع جميع خصالهم فى الخير فكان خاتم النبين ، وإمام المرسلين ، قل لهم لا أسألكم على القرآن أجراً ولا منفعة خاصة ، وما هو إلا ذكرى للعالمين ، وهدى للمتقين .

إثبات رسالة الرسل وأثرها

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

(١) الآية ٦٥ من سورة الزمر .

المفردات : ﴿ **وما قدروا الله** ﴾ : يقال قدرت الشيء عرفت مقداره ، والمراد ما عرفوا الله حق المعرفة . ﴿ **قراطيس** ﴾ : جمع قرطاس وهو ما يكتب فيه من ورق أو غيره . ﴿ **مباركا** ﴾ : كثير البركة . ﴿ **أم القرى** ﴾ : المراد بها مكة المكرمة .

قوله تعالى ﴿ **وما قدروا الله حق قدره** ﴾ : أى ما عرفوه حق معرفته وما وصفوه بما يليق بذاته ، فقد وجب له كل كمال ، واستحال عليه كل نقص . فهو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق . ومن مظاهر عدم معرفتهم بقدرته أنهم أنكروا الرسالات السماوية المنزلة على أنبيائه وصفوة عباده : ﴿ **إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء** ﴾ فقد جعلوا من البشرية منطلقا لإنكار الرسالات ، كما قال سبحانه فى بيان ذلك ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذجاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[١] .

وقد أنكر الله عليهم هذه المقولة ، قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾[٢] . قال الكافرون : ﴿ **إن هذا لساحر مبين** ﴾ . وجاء الرد من الله تعالى صريحا واضحا على ما قالوه من إنكار الرسالات وإنزال الكتب . فقال سبحانه : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ﴾[٣] . إن الذى أنزله هو الذى أنزل القرآن على محمد .. وكما وصف الله تعالى التوراة بأنها هدى ونور ، فقد وصف القرآن بأنه روح ونور . قال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾[٤] فالروح يحيى الموات والنور يبدد غياهب الظلمات .

أشرق النور فى العوالم لما ... بشرتها بأحمد الأنباء
جاء للناس والسرائر فوضى ... لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرع الله ... والحق والصواب وراء
تلك آى الفرقان أرسلها الله ضياء ... يهدى بها من يشاء
ولجبريل جيئة وذهاب ... وهبوط إلى الثرى وارتقاء
نسخت سنة النبيين والرسل ... كما ينسخ الضياء الضياء

وقد نعى الله تعالى على القوم أنهم جعلوا من التوراة قراطيس ومفردها قرطاس ، وهو ما يكتب فيه . ونقلوا من الأصل إلى تلك القراطيس جملا ، أظهروا بعضها وأخفوا كثيرا منها . والويل كل الويل لهؤلاء . ﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا . فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾[٥].

(١) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٢ من سورة يونس .
(٣) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(٥) الآية ٧٩ من سورة البقرة .

لقد بشر الله تعالى فى التوراة ببعثة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، ووصفه فى التوراة ببعض صفته فى القرآن . قال له فى التوراة (يا أيها النبي إنا أرسالناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزاً للأميين . أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، وليس بفظ ولا غليظ ، ولاصخّاب فى الأسواق . ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا « لا إله إلا الله » فيفتح أعينا عميا ، وآذاناً صماً وقلوبا غلفاً) ومع ذلك البيان الواضح الصريح ، فإن اليهود أخفوا صفته ﷺ فى التوراة وكتموها . قال تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[١].

وقل لهم يا محمد : ﴿ **وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم** ﴾ . ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[٢] .

إنهم يعرفون هذا كما يعرفون أبناءهم ولكنهم يجادلون فى الحق بعدما تبين لهم . وتأتى الإجابة بعد ذلك فى قوة ووضوح ، فيخاطب الله رسوله قائلا : ﴿ **قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾ وهذه إجابة عن سؤال سبق : ﴿ **من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى** ﴾ أى الله هو الذى أنزله . قل هذا ودعهم يلعبون فى خوضهم وعبثهم ، كما يلعب الصبية ويخوضون .

قوله تعالى : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه** ﴾ والمقصود به القرآن الكريم . ففيه البركة والهدى والشفاء والرحمة والضياء . من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هُدِى إلى صراط مستقيم ومن أوصاف هذا الكتاب الكريم أنه جاء مصدقا لما بين يديه من الكتب لأنها تنبع من مشكاة واحدة . وأنزلناه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ولتنذر أم القرى ومن حولها . والمقصود بأم القرى مكة المكرمة ، فإن موقعها على وجه البسيطة يمثل مركز الدائرة ، ومن حولها . فالإنذار شامل والرسالة عامة للعالمين . فقد كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبُعث رسول الله ﷺ لكل أحمر وأسود . ﴿ تبارك الذى نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٣] ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾[٤] . ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٥].

﴿ **وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾

قوله تعالى : ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ هذه شهادة حق من الملك الحق لقوم امتلأت قلوبهم بنور اليقين ورسخت العقيدة فى أفئدتهم بحيث تزول الجبال ولا تزول العقائد . وهكذا الإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا . فبينما يحدثنا الكتاب الكريم عن قوم لجوا فى طغيانهم يعمهون ، فهم فى ريبهم يترددون . وأصروا واستكبروا استكبارا ﴿ **وقالوا ما أنزل الله على بشر من شئ** ﴾ يجد هنا فريقا شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ،

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢ من سورة الجمعة .
(٣) الآية ١ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

آمنوا بالآخرة ، ومن آمن بالآخرة فقد آمن بالله ربًّا وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . إذ أن العلم بالآخرة إنما جاء عن طريق الله ورسله وكتبه ومن هنا فإنهم يؤمنون بالكتاب ومن آمن بالكتاب أقام حدوده ، فأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه ، وامتثل أمره واجتنب نهيه ، ومن أول الأوامر بعد التوحيد المحافظة على أداء الصلوات ، إذ هى مفتاح الجنة ، من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهانا ونجاة . ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة ، وكان مع فرعون وهامان وقارون وأبيّ بن خلف .

عاقبة الافتراء على الله

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

المفردات : ﴿ **افترى** ﴾ : اختلق الكذب . ﴿ **غمرات الموت** ﴾ : واحدها غمرة وهى الشدة . غمرات الموت سكراته . ﴿ **باسطوا أيديهم** ﴾ : مادوا أيديهم . ﴿ **الهون** ﴾ : والهوان : الذل الهوْن اللين والرفق . ﴿ **خولناكم** ﴾ : أعطيناكم ومنحناكم ، والخوَل الخدم والحشم ﴿ **بينكم** ﴾ : هو بمعني الصلة أو هو ظرف والاتصال مفهوم من الكلام . ﴿ **ضل** ﴾ : أى غاب

قوله تعالى ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا** ﴾ : الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفى أى لا أحد أظلم ممن كذب على الله وقد خاب من افترى . فلا أحد أظلم ممن ادعى لله صاحبة وولداً ، أو أن له شريكا فى ملكه ، فإنه سبحانه قد تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته . واحد فى ذاته لا قسيم له ، واحد فى أفعاله لا شريك له ، واحد فى صفاته لا شبيه له ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فمن أظلم ممن كذب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه، أليس فى جهنم مثوى للكافرين .

كذلك لا أحد أظلم ممن قال أوحى إلىَّ ولم يوح إليه شيء ، وذلك كمسيلمة الكذاب ومن سار على دربه من دعاة الضلال ، الذين ادَّعوا الرسالة ، وقالوا إن محمدا ختم النبوة ، ولم يختم الرسالة ، وكذبوا ، إذ لا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة فالنبوة أعم من الرسالة . فإذا كان سيدنا محمد ﷺ قد ختم النبوة

وهى الأعم فإنه يكون قد ختم الرسالة وهى الأخص .. وهؤلاء الكذّابون بأى شيء نزل الوحى عليهم ؟ إن قالوا بغير الإسلام قلنا لهم : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(١). وإن قالوا : إن الوحى نزل عليهم بشرع الإسلام قلنا لهم : لقد أكمل الله الدين وأتمّ النعمة ورضى لنا الإسلام دينا أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ، كذلك لقد خاب وخسر هؤلاء الذين قالوا : سننزل مثل ما أنزل الله ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾(٢). إنه الخسران المبين والإفلاس الروحى الشنيع مامصير هؤلاء الكذّابين ؟ قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذا الظالمون فى غمرات الموت** ﴾ أى شدته وسكراته ﴿ **والملائكة باسطوا أيديهم** ﴾ أى العذاب .

قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق.ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾(٣).

وتقول لهم الملائكة على سبيل التحدى : ﴿ **أخرجوا أنفسكم** ﴾ أى أخرجوها من العذاب وما كان لهم أن يستطيعوا ذلك . إن العذاب يبدأ من الموت . قال تعالى ﴿ **اليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ والهون هو الهوان والذل ، ذلك بما كنتم تقولون على الله غير الحق فافتريتم عليه الكذب ، وللكذب صور كثيرة لا تكاد تحصى ، فهو ظلمات بعضها فوق بعض .

﴿ **وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ والكبر غمط الناس وبطر الحق ، ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر وفى هذه الآية الكريمة من الأهوال وقت احتضار الظالمين ما تنخلع له القلوب وتنفطر من هوله الأفئدة ، والناس عند الاحتضار لهم مشاهد ومواقف تختلف باختلاف الإيمان والكفر . وفى هذا المقام وردت أحاديث كثيرة :

– عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه ، قلنا : يارسول الله كلنا يكره الموت ؟ قال : ليس ذلك كراهية الموت ، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقى الله فأحب الله لقاءه ، وإن الفاجر أو الكافر إذا حضر جاءه ماهو صائر إليه من الشر ، أو ما يلقى من الشر فكره لقاء الله فكره الله لقاءه ﴾ . (رواه الإمام أحمد)

– روى الإمام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عودينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال : ﴿ **استعيذوا بالله من عذاب القبر** ﴾ مرتينّ أو ثلاثا . ثم قال : ﴿ إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه

(١) الآية ٨٥ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٣) الآية ٥٠ من سورة الأنفال .

مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان . قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها وفى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . قال : فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول : ربى الله فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة قال . فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذى كنت يسرك . هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير فيقول أنا عملك الصالح . فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .. قال وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجه معهم المسوح فجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضب قال : فتفرق فى جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط** ﴾ فيقول الله : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ : ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾ فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له بابا إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول ومن أنت فوجهك الوجه يجىء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة)[١]

---

(١) أخرجه أبو داود فى السنة (٢٤) . والترمذى فى التفسير (سورة ١١٣ ، ١١٤ : ١) . والإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** ﴾ . هذا إخبار منه تعالى لهؤلاء الذين كذبوا على الله وقالوا افتراء عليه إنه قد أوحى إلينا ، أو قالوا سننزل مثل ما أنزل الله ، وذاقوا عذاب الهون وهم فى غمرات الموت ابتداء ، وسوف يخلدون فى العذاب بما كانوا يقولون على الله غير الحق ،وكانوا عن آياته يستكبرون ، لقد خرجوا من الدنيا ولم يأخذوا منها شيئاً ، ومن الذى سيأخذ من الدنيا إلا عمله ﴿ **وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة** ﴾ أى حفاة عراة غرلاً ﴿ **وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم** ﴾ فلم تأتوا من الدنيا بشىء ، ولم تأخذوا منها فتيلاً ولا نقيرا ولا تطميراً . يقول ابن آدم : مالى مالى يا ابن آدم ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت ، وتصدقت فأمضيت ، وما عدا ذلك فذاهب وتاركه لغيرك كائنا من كان .

لا تركنن إلى القصور الفاخره
واذكر عظامك حين تمسى ناخره
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل
يارب إن العيش عيش الآخره
أزف الرحيل إلى ديار الآخره
فاجعل إلهى خير عمرى آخره
فلئن رحمت لأنت أكرم راحما
وبحار جودك يا إلهى زاخره
آنس مبيتى فى القبور ووحشتى
وارحم عظامى حين تمسى ناخره

قوله تعالى

﴿ **وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون** ﴾ المراد بالشفعاء كل الذين عبدوه من دون الله ، وقالوا إنهم شفعاؤنا عند الله ، وزعموا أن لهؤلاء الشفعاء نصيباً فيهم من العبادة ، فأشركوهم مع الله هؤلاء ، وأولئك من الذين عَبَدوا والذين عُبدوا ، سيتقطع الوصل بينهم يوم القيامة ، وتنفصل عُرى المودة بينهم ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾[2] وفى موضع آخر يقول تعالى ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار ﴾[3]

---

(١) الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيات ٩١ - ٩٣ من سورة الشعراء .
(٣) الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة البقرة .

أبعد هذه القطيعة يقولون إنهم شفعاؤنا عند الله تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت فى الحديث القدسى الجليل ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه ﴾(١) نعم لا إله إلا الله هو المعبود بحق ولا معبود سواه لقد غاب عنهم الشركاء وتبرأوا منهم فيا إلهى تولنا فيمن توليت وقنا واصرف عنا شر ما قضيت

صور من عظمة الخالق

* إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **فالق** ﴾ : الفلق والفتق الشق فى الشىء . مع إبانه بعضه عن بعض ﴿ **الحب** ﴾ : الثمر يكون فى الأكام والسنبل ﴿ **النوى** ﴾ : جمع نواة ما تكون فى الثمر والزبيب وما شاكله . ﴿ **تؤفكون** ﴾ : تصرفون ﴿ **سكنا** ﴾ : ما يسكن فيه الإنسان مكانا كالبيت وزمانا كالليل وهو المراد . ﴿ **حسبانا** ﴾ : بالحساب والعدد . ﴿ **يفقهون** ﴾ : الفقه الفهم مع العمق فى التفكير . ﴿ **متراكبا** ﴾ : يتراكم بعضه فوق بعض ﴿ **طلعها** ﴾ : الطلع أول ما يبدو ويظهر من الزهر قبل أن ينشق عنه الغلاف ﴿ **قنوان** ﴾ : هو العذق كالعنقود ﴿ **ينعه** ﴾ : نضجه واكتماله

إن الإله الذى يستحق العبادة والتقديس هو الذى يتصف بهذا ويعمل هذه الأعمال التى يعجز عن أقلها الأوثان والشركاء والأصنام بل والخلق مجتمعين متكتلين سبحانه وتعالى جل جلاله .

إن الله فالق الحب والنوى ، يخرج الزرع كالنجم والشجر من الحب ، والنوى ، والحياة هنا بمعنى

(١) أخرجه مسلم فى الزهد (٤٦) . وابن ماجه فى الزهد (١) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤٦٦) وفى (٤ : ٢١٥) .

النمو والتغذية ، ولاشك أن الحب والنوى ميت بهذا المعنى ، وبعضهم يتوسع فى الحياة ، ويقول إن الحب والنوى فيها حياة بدليل لو عقما لما أنبتا ولكن اللغة لا تساعدهم ، وكانوا يمثلون قديماً بإخراج الحيوان من النطفة أو البيضة ، ولكن العلم الحديث أثبت أن فى النطفة حياة ، وكذا فى البيضة .

وقيل إن الرأى الصحيح إن الحيوان يخرج بمعنى يتكون من الغذاء وهو ميت ، ويخرج من الحيوان لبنه وفضلاته وهى ميتة ، وكون خلايا الجسم الحى تتكون من غذاء كاللبن والنبات مع عدم الحياة فى الغذاء ، دليل على كمال القدرة ، والله مخرج الميت من الحى فيخرج الحب والنوى من النبات الحى ، ويخرج اللبن والفضلات من الحيوان الحى ، سبحانه وتعالى من قادر حكيم عليم ، فكيف تؤفكون : تصرفون عن طريق الهدى والفلاح ، والله فالق الإصباح ، قد فلق ظلمة الليل وشقها بعمود الصبح عند طلوع الفجر ، وجعل الليل سكنا للحيوان الحى ، يستريح فيه من التعب ، ويسكن جسمه من الألم ، وأعصابه من التفكير والنصب ، والليل وقت سكون وراحة ، والنهار وقت عمل ونشاط ، وجعل الشمس والقمر يجريان بحساب وتقدير وترتيب ونظام محكم لا يختل أبداً لتعلموا بهما عدد السنين والحساب ،

فانظر وفقك الله للخير للآيات الكونية الثلاث : شق الإصباح ، وسكون الليل ، ونظام الشمس والقمر وحسبانهما ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[1]

وهو الذى جعل لكـم النجوم : والمراد بها ماعدا الشمس والقمر مما لايعلمه إلا هو ، جعلها علامات للسارى ، بها يهتدى للوقت من الليل ، أو من السنة ، ويعرف المسالك والطرق والجهات ، جعلها لتهتدوا بها فى ظلمات الليل والماء ، أو المراد ظلمة الخطأ والضلال

ولما فى عالم السماء من صنع وإحكام وتقدير ونظام ، قد فصل الله الآيات القرآنية ، والآيات الكونية ، وهما يدلان على حكم الله وتمام علمه ولا يستخرج كل هذا ، ولا يهتدى به إلا أهل العلم والنظر ﴿ فاعتبروا يا أولى الإبصار ﴾[2] ولذا اختتمت الآية بقوله تعالى ﴿ **قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾ .

هذه آيات الله الكونية فى الأرض والسماء وهاهى ذى آياته فى أنفسنا وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءً قد خلقكم من ذكر وأنثى ، وجعلكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، وفى هذا إرشاد إلى التواد والمحبة والتعاطف بين الخلق جميعاً ، وإشارة إلى كمال القدرة ، وتمام العلم والحكمة ، خلقكم من نفس واحدة ، ولكم مستقر فى الأصلاب ومستودع فى الأرحام ، والاستقرار مكث غير محدود بزمن ولا وقت ، وهو أقرب إلى الثبات ، والاستيداع مكث موقوف معرض للرد والرجوع ، ولهذا كان الاستقرار فى الأصلاب ، والاستيداع فى الأرحام ، وبعضهم عكس ، وبعضهم قال غير ذلك ، والله أعلم .

---

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآية ٢ من سورة الحشر .

قد فصلنا الآيات ووضحناها لقوم يفقهون ، ويقفون على الأسرار الخفية بذكائهم ، وعمق تفكيزهم ، ولاشك أن النظر فى الخلق والتكوين الإنسانى يحتاج إلى دقة ونظر وفهم .

وهاهى ذى آياته التكوينية فى النبات .

وهو الذى أنزل من السحاب الذى فى السماء ماء ، فجعل منه كل شىء حى ، فأخرج به المولى جل شأنه نبات كل صنف من الأصناف ، فالتربة واحدة ، والماء واحد ، ولكن الشكل والطعم مختلف ، سبحانك يارب ، أنت القوى القادر ﴿ تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ﴾[1] فى الشجرة الواحدة ، ثمر حسن ، وآخر ردىء .

ثمر ناضج ، وثمر نيىء ، ثمر طعمه جميل ، وآخر قبيح ، سبحان الله ، أليس هذا من دلائل الوحدانية والقدرة ، فأخرج الله من النبات شيئاً غضا أخضر ، وهو ما تشعب من أصل النبات ، وذلك كورق النجم وغصن الشجر ، ويخرج من هذا الأخضر حباً جافاً صلبا متراكبا بعضه فوق بعض فى السنبل ، أما الشجر فهذا النخل عنوانه ، يخرج من طلعها قنوان دانية القطوف ، سهلة التناول ، ويخرج الله من النبات الأخضر جنات من أعناب وغيره من الفواكه والثمار كالزيتون والرمان مشتبها فى الشكل والورق والثمر ، وغير مشتبه فى لون الثمر ، وطعمه فمنها الحلو والحامض ، والمز بل منها ماهو كاليوسفى والبرتقال أو كالنارنج ، انظر إلى ثمر ما ذكر نظرة اعتبار وفحص إذا أثمر النبات ، وكيف يصير هذا الثمر من درجة إلى درجة حتى يصل إلى كمال نضجه ، وتمام منفعته ، وكيف يكون الثمر أجوف فارغاً ، ثم تمتلىء بالخير والبركة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون بالله ، أو فيهم الاستعداد لذلك .

الرد على المفترين

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ **خرقوا** ﴾ : خلق وخرق واخترق كلها بمعنى واحد ، قال الراغب : الخلق فعل الشىء على تدبير ورفق ﴿ **والخرق** ﴾ : قطع الشىء على سبيل الفساد . ﴿ **بديع** ﴾ : مبدع على غير مثال سابق ومنه البدعة لأنه لا نظير لها ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ : الإدراك اللحاق والوصول إلى الشىء

أشرك الناس بالله شركاء من دونه وأقسم إبليس : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، وقد

(١) الآية ٤ من سورة الرعد

عبدوا الملائكة وقالوا : إنها بنات الله ، وأطاعوا الشياطين فى أمور الشرك بالله ، وقال المجوس : إن للخير إلٰهاً وللشر إلٰها هو إبليس ، وذلك قوله تعالى ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن** ﴾ .

والله وحده خلقهم وما يعبدون ، فكيف سواه ، واختلق بعض الناس بجهلهم وحماقتهم بنين لله وبنات ، سبحانه وتعالى عما يشركون ، فقد قالت اليهود : عزير ابن الله ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله ، وقال المشركون من العرب : الملائكة بنات الله .

كيف يكون ذلك ؟ والله مبدع السموات والأرض وما فيهن ، فهو الخالق البارئ المصور ، كيف يكون له ولد ؟ ولم تكن له صاحبة ، والولد لابد فيه من تزاوج وتناكح ، وهل يعقل أن تكون له صاحبة تجانسه وتشاكله ، وهو المنزه عن المثيل والشريك : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1]

وكيف يكون له ولد ؟ وقد أقر الكل بأنه خلق السموات والأرض ، أفيكون فى حاجة إلى ولد وله كل شيء ، سبحانه وتعالى ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خلق كل شيء فاعبدوه وحده فهو الموصوف بكل كمال ، المنزه عن كل نقص، الخالق البارىء ، فاطر السموات والأرض ومبدعهما، وهو على كل شيء قدير ، والله سبحانه لا تدركه الأبصار ، ولا تراه رؤية إحاطة وشمول حتى تعرف كنهه وتحيط به ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه ﴾[2].

والآية الكريمة لا تنفى الرؤية التى وردت بها الأحاديث الصحيحة والله يدرك الأبصار : يراها ويدرسها ويقف على حقيقتها وكنهها ، وإلى هنا لم يعرف أحد حقيقة الضوء ، أو حقيقة البصر ، ولماذا لم تر الأذن ، ولم تسمع العين ؟ ولماذا كان عصب العين ينقل إشارة الرؤية ؟ وعصب السمع ينقل إشارة السمع ؟ ولكن الله وحده هو الذى يدرك الأبصار ويعلمها ، وهو اللطيف بذاته ، الخبير بدقائق خلقه وخفاياهم .

الطريق واضح

قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾
وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ
مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

المفردات : ﴿ **بصائر** ﴾ : جمع بصيرة وتطلق على العقيدة القلبية وعلى المعرفة الثابتة ، والحجة البينة ، ويقابلها البصر الذى يدرك به الأشياء الحسية . ﴿ **عمى** ﴾ : المراد بالعمى هنا الضلال الدال على

(١) الآية ١١ من سورة الشورى . (٢) الآية ٢٢٥ من سورة البقرة .

الحيرة . ﴿ **حفيظ** ﴾ : رقيب .﴿ **درست** ﴾: أى قرأت وفى الحديث « كان يدارسه القرآن » ومنه الدرس والمدرسة وهى تشير إلى التذليل بكثرة القراءة .

بعدما يبين الله سبحانه وتعالى من الآيات البينات التى نشرها فى الأفاق والأنفس ، وأدحض حجج الذين جعلوا له شركاء ، وأثبت أنه الواحد المتصرف المالك القادر الذى لا تدركه الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار . بعد هذا البيان الشافى الكافى الوافى : **قال تعالى** ﴿ **قد جاءكم بصائر من ربكم** ﴾ أى قد جاءكم من البراهين والآيات على تلك القضية نتائج لا تختلف ولا تتخلف ، فقال سبحانه ﴿ **فمن أبصر فلنفسه** ﴾ أى من اهتدى إلى النور وسار وراء موكب الهداية الربانية ، وانتفع بشمس العناية الإلهية ، فإنما ذلك كله لنفسه ، ومن عمى وضل عن السبيل ، وتنكب الجادّة ، وحاد عن الصراط السوى ، فعلى نفسه ، إذ المسئولية هنا فردية ، كل امرئ بما كسب رهين ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ .

يلقى الولد أباه يوم القيامة فيقول : يا أبت لقد كنت بك براً ، وإليك محسناً ، وعليك مشفقاً ، فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول له أبوه : يا بنى ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له : يا بنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثديى لك سقاء فهل أجد عندك حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول لها : يا أماه ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . اقرأوا إن شئتم ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** ﴾[1] .

فبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن يأتى يوم يفر المرء فيه من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

غداً توفى النفـــوس ما كسبت ويحصد الزارعــون ما زرعــوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهـــم وإن أساءوا فبـئس ما صنعــوا

قل لهم ذلك يا محمدوأبلغهمإنك لست عليهم بحفيظ ولا برقيب ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[2] .

---

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٢) الآيات ١٢٣ - ١٢٧ من سورة طه .

قوله تعالى ﴿ **كذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون** ﴾ أى ومثل ذلك الذى سبق من البيان والتوضيح نصرف الآيات ونتوعها ، من وعد ووعيد ، وخوف ورجاء ، وقصة وعقيدة ، وأحكام وبيان ، لما بعد الموت لنقطع المعاذير ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾[(١)] وليقولوا لقد قرأت علينا وبلّغتنا إن لم يقولوها بلسان المقال ، فسيقرون بها بلسان الحال ﴿ **ولنبينه لقوم يعلمون** ﴾ والعلم نور ، فمن أراد الدنيا فعليه بالعلم ، ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ، ومن أرادهما معا فعليه بالعلم ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾[(٢)] قوله جل شأنه ﴿ اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إلٓه إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ أى التزم بما أنزلناه عليك من الوحى ، واعلم بأن لا إلٓه إلا الله ، وأعرض عن جهلهم وذلك كما قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيماً ، واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[(٣)] .

لما نزل على النبى ﷺ قوله تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[(٤)] سأل الصادق المعصوم ﷺ الأمين جبريل عنها فقال جبريل يا رسول الله لا أدرى حتى أسأل رب العزة فلما سأل رب العزة قال له السلام يقرؤك السلام ويقول لك ﴿ **صل من قطعك وأعط من حرمك واعف عمن ظلمك** ﴾ وهذا هو التفسير الرفيع للخلق العظيم الذى تحلى به سيد الأنبياء ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾[(٥)] .

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلماً ... كعود زاده الإحراق طيبا

ثم يقول سبحانه وتعالى لنبيه ومصطفاه ﴿ ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظا وما أنت عليهم بوكيل » هو كقوله جل شأنه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾[(٦)] وقوله ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين.وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾[(٧)] . فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فلست رقيباً عليهم ، ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[(٨)] **فلا تبخع نفسك عليهم من الأسف ، فلست عليهم بوكيل ، فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** : ﴿ **كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين** ﴾[(٩)] .

(١) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٩ من سورة الزمر .
(٣) الآيات ١ - ٣ من سورة الأحزاب .
(٤) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ١١٨ من سورة هود .
(٧) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة يونس .
(٨) الآية ٥٦ من سورة القصص .
(٩) الآية ٢ من سورة الأعراف .

سد الذرائع

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ
إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن
جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾

جاء فى سبب نزول هذه الآية ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله** ﴾ ما روى أن زعماء قريش ذهبوا إلى أبى طالب وقالوا له : أنت كبيرنا وسيدنا وإن محمداً قد آذانا وآذى آلهتنا ، فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ، ولندعه وإلهه ، وقالوا للنبى ﷺ : لتكفن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتم من يأمرك فنزلت الآية : حرص الإسلام أشد الحرص على سد أبواب الشر وضرب حولها أسواراً عالية وأقام حولها حصوناً مكينة ومن أبواب الشر التى سد الإسلام الطريق أمامها سب آلهة المشركين فهى وإن كانت لا تضر ولا تنفع ولا تسمع ولا تبصر كما قال تعالى ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾[١] وكما قال جل شأنه ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها ﴾[٢] .

ومع كون معبوداتهم كذلك إلا أن الله تعالى نهى المؤمنين عن سب تلك الآلهة حتى يقطع الطريق على هؤلاء المشركين الذين إذا سمعوا ذلك سبوا الله جل جلاله ، متجاوزين حدود الأدب والأخلاق ، لأنهم جاهلون خفاف العقول سفهاء الأحلام ، وكذلك أى مثل ذلك الذى يفعله الجاهلون زينا لكل أمة عملهم ، وجاء التزيين أثراً وجزاء لما فعلوه من المخالفات لأوامر الله ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴾[٣] ثم إن المصير والمرجع إلى الله فينبئهم بما كانوا يعملون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون . قوله تعالى ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ﴾ ، ومن قبائح هؤلاء وما استقر فى نفوسهم من الجحود والظلم ، أنهم أقسموا بأغلظ الأيمان وأشدها ، والجهد والاجتهاد بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع ،

---

(١) الآية ١٤ من سورة فاطر . (٢) الآيتان ١٩٤ ، ١٩٥ من سورة الأعراف . (٣) الآية ٨ من سورة فاطر .

أقسموا على ماذا أقسموا لئن جاءتهم آية من الآيات التى يقترحونها ليؤمننَ بها ، وذلك كما قال تعالى ﴿ قالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ﴾[١] فماذا كان الرد ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا** ﴾ وماذا كان الرد : قل إنما الآيات عند الله القادر الحكيم ، مالك الملك ، وملك الملوك ، ثم لماذا يقترحون هذا ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقومٍ يؤمنون .

ولماذا يقولون هذه الحجج الباطلة إنهم لا يقصدون من ورائها إلا اللجاج والعناد ، وهل إذا جاءت يؤمنون فعلا قال تعالى ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[٢] لقد شق القمر بأمر الله فماذا قالوا قالوا إن محمداً سحر أعيننا قال تعالى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٣] .

وقال جل شأنه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٤] .

وقال عز من قائل : ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ وهل يغيب عنا ما قاله الأقوام السابقون لأنبيائهم ، أو ما قرأت قوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك ﴾[٥].

وحكاية عن المسيح مع قومه ﴿ إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾[٦] .

كذلك يخاطب الله الجماعة المؤمنة بقوله ﴿ **وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون** ﴾ أى حتى لو جاءتهم الآيات التى اقترحوها فما يزيدهم ذلك إلا طغيانا كبيراً ، لذلك كان جزاؤهم اللائق بهم ، أن يقلب الله أفئدتهم وأبصارهم فلا تستقر قلوبهم على حال، ولا تثبت أبصارهم على حقيقة ، لأنهم لم يؤمنوا به أول مرة ، فالقلوب فى أكنة تمنعها من رؤية الحق ، وعلى الأبصار غشاوة ، تحجب عنها ضياء المعرفة . ﴿ **ونذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾ أى يتحيرون ويتخبطون فى ظلمهم وضلالهم جزاء وفاقا ﴿ **إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذاباً** ﴾[٧] .

نسأل الله تعالى علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع .

---

(١) الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء . (٤) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس . (٦) الآية ١١٠ من سورة المائدة .
(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر . (٥) الآية ٤٩ من سورة الزخرف . (٧) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة النبأ .
(٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثامن

المكتب المصري الحديث

الإصرار على العناد بالباطل

* وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

المفردات : ﴿ **وحشرنا** ﴾ : جمعنا . ﴿ **قبلا** ﴾ : جمع قبيل كرغيف ورغف ، أى ضمناء وكفلاء ، وقبلا أى مواجهة ومقابلة ، ومنه قيل : قُبُل الرجل ودبره ، وقرىء قِبَلا أى عياناً ومواجهة . ﴿ **شياطين** ﴾ : قال ابن عباس : كل عات متمرد من الجن والإنس فهو شيطان (**يوحى**) الإيحاء الإعلام مع الخفاء والسرعة كالإيماء والمراد ما يوسوس به الشياطين من الجن والإنس . ﴿ **زخرف** ﴾ : الزخرف الزينة ، ومنه سمى الذهب زخرفاً ، وجعل تمويههم زخرفاً لتزيينهم إياه . ﴿ **غروراً** ﴾ : خداعاً باطلا . ﴿ **ولتصغى** ﴾ : صغى إليه مال وصغى فلان وصغوه معك ميله وهواه . ﴿ **وليقترفوا** ﴾ : اقتراف المال اكتسبه ، والذنب اجترحه .

روى عن ابن عباس أن النبى ﷺ أتى جماعة من كفار مكة وزعمائها وقالوا : أرنا الملائكة يشهدون بأنك رسول الله ، أو ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم . أحق ما تقول أم باطل ؟ أو ائتنا بالله والملائكة قبيلا فنزلت الآية . وهذا تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » مع تسلية النبى ﷺ بذكر طبائع الناس ، وما يلاقيه الأنبياء فى دعوتهم .

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة فرأوهم بأعينهم المرة بعد المرة ، كما قالوا : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾(1) ولو كلمهم الموتى بأن نحييهم لهم ، فيخبروهم بما رأوا من ثواب وعقاب كما قالوا : ﴿ فأتوا بآبائنا ﴾(2) . ولو أنا حشرنا عليهم ، وجمعنا لهم من كل شيء من الآيات والدلائل غير الملائكة والموتى معاينة ومواجهة ليكون ذلك دليلا على صدق دعواك ، أو جمعنا عليهم كل شيء ضمناء وكفلاء بصفة ما بشرنا به وأنذرنا ، لو حصل كل هذا ما كان من شأنهم الإيمان ، ولا كان استعدادهم يقتضى ذلك ، لأنهم ينظرون إلى الآيات نظرة تعنت وعداوة ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، فلم ينظروا إلى الآيات نظرة جزئية للهداية ، والعبرة حتى يتعظوا ويؤمنوا ﴿ ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن

(1) الآية ٢١ من سورة الفرقان . (2) الآية ٣٦ من سورة الدخان .

يفقهوه وفى آذانهم وقراً ﴾[1] لكن لو شاء الله إيمانهم لآمنوا : ولكنه يتركهم وفطرتهم التى تتنافى مع سلوك طريق الخير والانتفاع بهدى القرآن ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾[2] مع تبصرتهم وهدايتهم إلى طريق الخير والشر ﴿ وهديناه النجدين ﴾[3] .

ولكن أكثر المشركين يجهلون ذلك فيقسمون بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية مما اقترحوا ليؤمنن بها ، وما يشعرون بقلوبهم وما انطوت عليه ، وبما ختم عليها حتى صارت كأنها من أكنة ، وقيل : ولكن أكثر المسلمين يجهلون نفوس الكفار وما هى فيه ، فيميلون إلى إنزال الآيات المقترحة عليهم يؤمنون . وهكذا سنة الله فى الخلق . منهم مهتد وكثير منهم فاسقون ، لا يرجعون إلى صوابهم أبدا ، وهكذا سنته مع أنبيائه جعل لكم منهم أعداء من الجن والإنس خصوصاً أولى العزم منهم ليعظوا بدرجات الصبر والعمل ، فالنبى ﷺ يدعو إلى الخير جاهداً ، والمشركون يدعون إلى الخير كما يزعمون جهدهم ، فمن باب تنازع البقاء لابد من حصول العداوة والبغضاء والعاقبة للمتقين ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾[4] . **كما جعلنا هؤلاء أعداء لك جعلنا لكل نبى جاء قبلك أعداءهم شياطين الإنس والجن** ، روى أبو ذر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال له عقب صلاة : « يا أبا ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الإنس والجن ؟ قال : قلت يا رسول الله : وهل للانس شياطين ؟ قال نعم : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم ﴾ الآية[5] » وقال مجاهد وقتادة والحسن أن من الإنس شياطين ومن الجن شياطين ، **أما مظهر عداوة هؤلاء للنبى والمسلمين فإنه يوحى بعض شياطين الجن إلى بعض شياطين الإنس وكذلك يوحى بعض الجن إلى بعض ، وبعض الإنس إلى بعض وعن مالك بن دينار . أن شيطان الإنس أشد علىّ من شيطان الجن ، إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عنى ، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرنى إلى المعاصى عياناً .**

يوحى بعضهم إلى بعض بالقول المزخرف المزين ، وبالوسوسة وبالإغراء بالمعاصى والتمويه والخداع بالباطل ، ولو شاء ربك ما فعلوه أبداً فذرهم وما يفترون ، يفعلون هذا ليغروهم بالفساد ولتصغى إليه قلوب الكفار والفُسّاق . فإنها تميل إلى الشر وتجنح إلى الفساد ، لأنه الموافق لإهوائهم ، وليترتب على ذلك أن يرضوه ويطمئنوا إليه وأن يكتسبوا معه من الآثام والمعاصى ما هم مكتسبون .

الشهادة للنبى ﷺ بالصدق

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الإسراء .

(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٠ من سورة البلد .

(٤) الآية ٥١ من سورة غافر .

(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب (١٧) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٦٥) .

المفردات : ﴿ **حكما** ﴾ : الحاكم من يتحاكم إليه الناس ، ويحكم بينهم بالحق أو بغيره ، والحَكَمْ من يحكم بالحق فقط كما قال القرطبى . ﴿ **مفصلا** ﴾ : مبيناً فيه الحق إلى حد لا يحتاج معه إلى شيء خارج عنه والمراد هنا أنه كلمة الله وافية فى الإعجاز والدلالة على صدق الرسول . ﴿ **لا مبدل** ﴾ : لا مغير .

ما لكم تطلبون آيات الله حكما بيننا ؟ وليس لى أن أتعدى حكم الله ولا أن أتجاوزه إذ هو الحكم العدل ، وهو الذى أنزل إليكم القرآن كتاباً مفصلا فيه كل شيء مبينا لكل حكم ، جامعاً لكل خير ، فيه الهدى والنور ، والعلم والعرفان ، وهو المعجزة الباقية الدالة على صدق رسالتى لما فيه من الآيات ولما أعجز جهابذة البلاغة وأرباب البيان ، مع التحدى الصارخ لهم .. شهد لى بالصدق ، وعليكم بالكذب والبهتان ، والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنصارى . يعلمون أنه الحق المنزل من عند الله مشتملا على النور والهدى ، ومتلبساً بالحق والعلم إذ هو من جنس الوحى الذى نزل عليهم ، وقد جاءهم فى كتبهم البشارة بالنبى ﷺ وصفته ، فهم أدرى الناس به ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[1] وقد اعترف بذلك من أنار الله بصيرته منهم واهتدى .

والخلاصة أنكم تتحكمون فى طلب المعجزات والآيات الدالة على صدق الرسول ، وقد حصل ذلك بوجهين :

(ا) القرآن وهو المعجزة الباقية القائمة مقام قوله تعالى: [صدق عبدى فى كل ما يبلغه عنى] .

(ب) معرفة أهل الكتاب وشهادتهم للنبى محمد بالصدق .

فإذا كان هذا حاصلا فلا تكونن من الشاكين ، وهذا لون من ألوان التهييج والإلهاب كقوله «فلا تكونن من المشركين» .

وتمت كلمة ربك ، وقرئ كلمات ربك ، نعم تم كلام الله فلا يحتاج إلى شيء آخر وأصبح كافيا وافيا فى الإعجاز ، والدلالة على الصدق ، وقيل تمت كلمة ربك فيما وعدك به من النصر على الأعداء ، وأوعد به المستهزئين والكافرين من الخذلان والهلاك ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ۞ إنهم لهم المنصورون ۞ وإنّ جندنا لهم الغالبون ﴾[2] .

نعم تمت كلمة ربك صدقاً فيما أخبر به ، وعدلا فيما حكم به ، ومن أصدق من الله قيلاً ؟ ومن أعدل من الله حكما ؟

ثم كان كل ما أخبر جل شأنه من أمر ونهى ، ووعد ووعيد ، وقصص وخبر صادقا عادلا ، لا مبدل لكلماته ، ولا راد لقضائه فهو القادر على كل شيء ، الحكيم فى كل صنع ، السميع لكل قول ، العليم بكل حال ووضع سبحانه وتعالى عما يشركون .

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآيات ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات .

إرشادات وأحكام

وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

المفردات : ﴿ **يخرصون** ﴾ : يحدسون ويقدرون والخرص الحدس والتخمين، والخارص يقطع بما لا يجوز القطع به إذ لا يقين معه . ﴿ **فصَّل** ﴾ : بيَّن وأزال عنكم اللبس فى المحرمات . ﴿ **الإثم** ﴾ : القبيح وفى لسان الشرع ما حرمه الله . ﴿ **لفسق** ﴾ : معصية وخروج عن دائرة الدين .

قوله تعالى : ﴿ **وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾ هذا إخبار من العليم الخبير بواقع أهل الأرض فالأكثرية والأغلبية إن أطعتهم أضلوك عن سبيل الله وهذا كقوله جل شأنه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[1] ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[2] ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[3] ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[4] ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾[5] ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[6] وكقوله تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾[7] وكقوله جل شأنه ﴿ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ﴾[8] .

قال أحد الحكماء :

تعيِّرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها إن الكرام قليل

وما ضرنا إن قليل وديننا صحيح ودين الآخرين عليل

(١) الآية ١٧ من سورة هود .
(٢) الآية ٢٤٣ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٧١ من سورة الزخرف .
(٥) الآية ٧١ من سورة الصافات .
(٦) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .
(٧) الآية ١٣ من سورة سبأ .
(٨) الآية ٢٤ من سورة ص .

ثم يخبر جلت قدرته عن منشأ ضلال هؤلاء فيقول ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ فإتباع الظن يفيد عدم استقرار اليقين فى نفوسهم ، والخرص هو التخمين ، وكل من الظن والتخمين لا يفيد يقيناً ، إنما يفيد ظناً وتخميناً ، وإن الذى أخبر بهذا هو من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

يقول سبحانه ﴿ **إن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ فما دام ربك أعلم بحال هؤلاء فلا تتبع أهواءهم ، وتوكل على الله إنك على الحق المبين ، قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، فالعلم صفة انكشاف ،وهى صفة من صفات الله سبحانه وتعالى ، فبالعلم نعلم أن الله سبحانه وتعالى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فقد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عددا ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فهو سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .
قوله تعالى ﴿ **فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين** ﴾ فى هذه الآية إخبار من الله تعالى بإباحة الأكل من الذبائح التى ذكر اسم الله عليها ، إن كنتم بآياته مؤمنين ، فكلوا منها دون ما خوف ولا حرج ، ولماذا لا تأكلون منها وأى شىء يمنعكم من ذلك وقد ذكر اسم الله عليها وقد شاءت حكمة الله تعالى وإرادته أن فصل لكم وبيَّن ووضح ما حرمه عليكم ، جاء ذلك فى قوله تعالى ﴿ **قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به** ﴾[١] وجاء فى ذلك قوله تعالى ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا من دنيكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾[٢] .

وفى الآية التى بين أيدينا وهى قوله تعالى ﴿ **وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه** ﴾ فى هذه الآية ما يفيد أن المضطر له أن يتناول من المحرم ما يبعد عنه الهلاك ء فإذا كانت الضرورات تبيح المحظورات فإن الضرورة تقدر بقدرها ، قال تعالى : ﴿ فمن اضطر فى مخمصة ﴾ أى جوع ومسغبة ﴿ غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴾ وقال جل شأنه ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ **وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين** ﴾ أى المتجاوزين لحدود الله وهم الذين أحلوا وحرموا حسب أهواءهم ﴿ وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ﴾[٤] .

(١) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٣ من سورة المائدة .
(٣) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٣٩ من سورة الأنعام .

وهم الذين سيبوا السائبة وبحروا البحيرة فأضلوا الناس بغير علم ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ﴾(١) قال تعالى ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾(٢) .

وقال جل شأنه ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾(٣) قوله تعالى **﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾** قال قتادة : **﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾** أى سره وعلانيته قليله وكثيره . وهذا كقوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾(٤).

ولذلك حكم الله تعالى على من اقترف الإثم ظاهراً أو باطناً بقوله **﴿ إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾** عن النواس بن سمعان قال سألت رسول الله ﷺ عن الإثم فقال « الإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع الناس عليه »(٥) .

قوله تعالى **﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾** وفى هذه الآية الكريمة أحكام شرعية نذكر تفصيلها عن العلامة ابن كثير ثم نذكرها ملخصة عن تفسير المراغى .

قال العلامة ابن كثير :

استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان الذابح مسلماً ، وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً ، وهو مروى عن ابن عمر ونافع مولاه وعامر الشعبى ومحمد بن سيرين ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل نصرها طائفة من أصحابه المتقدمين والمتأخرين ، وهو اختيار أبى ثور وداود الظاهرى ، واختار ذلك أبو الفتوح محمد ابن محمد بن على الطائى من متأخرى الشافعية فى كتابه الأربعين ، واحتجوا لمذهبهم هذا بهذه الآية وبقوله فى آية الصيد ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾(٦) ثم قد أكد فى هذه الآية بقوله **﴿ وإنه لفسق ﴾** والضمير قيل عائد على الأكل ، وقيل عائد على الذبح لغير الله .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة المائدة .

(٢) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل .

(٣) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .

(٤) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

(٥) أخرجه مسلم فى البر (١٤ ، ١٥) . والترمذى فى الزهد (٥٢) . والدارمى فى البيوع (٢) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٨٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨) وفى (٥ : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦) .

(٦) الآية ٤ من سورة المائدة .

وبالأحاديث الواردة فى الأمر بالتسمية عند الذبيحة والصيد كحديثى عدى بن حاتم وأبى ثعلبة « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك »[(١)] وهما فى الصحيحين وحديث رافع بن خديج « **ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه** » وهو فى الصحيحين أيضا وحديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال للجن « لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه »[(٢)] رواه مسلم وحديث جندب بن سفيان البجلى قال : قال رسول الله ﷺ « من ذبح قبل أن يصلى فليذبح مكانها أخرى ومن لم يكن ذبح حتى صلينا فليذبح باسم الله »[(٣)] .

وعن عائشة رضى الله عنها أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندرى أذكر اسم الله عليه أم لا ! قال: «سموا عليه أنتم وكلوا»[(٤)] قالت وكانوا حديثى عهد بالكفر رواه البخارى .

ووجه الدلالة أنهم فهموا أن التسمية لابد منها ، وخشوا أن لا تكون وجدت من أولئك لحداثة إسلامهم ، فأمرهم بالاحتياط بالتسمية عند الأكل ، لتكون كالعوض عن المتروكة عند الذبح إن لم تكن وجدت ، وأمرهم بإجراء أحكام المسلمين على السداد . والله أعلم .

والمذهب الثانى فى المسألة أنه لا يشترط التسمية بل هى مستحبة ، فإن تركت عمدا أو نسياناً لا يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعى رحمه الله وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد نقلها عنه حنبل ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ونص على ذلك أشهب بن عبد العزيز من أصحابه ، وحكى عن ابن عباس وأبى هريرة وعطاء بن أبى رباح والله أعلم . وحمل الشافعى الآية الكريمة ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق** ﴾ على ما ذبح لغير الله كقوله تعالى ﴿ **أو فسقا أهل لغير الله به** ﴾[(٥)] وقال ابن جريج عن عطاء « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » قال : ينهى عن ذبائح كانت تذبحها قريش للأوثان ، وينهى عن ذبائح المجوس ، وهذا المسلك الذى طرقه الإمام الشافعى قوى ، وقد حاول بعض المتأخرين أن يقويه بأن جعل الواو فى قوله ﴿ **وإنه لفسق** ﴾ حالية أى : لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه فى حال كونه فسقاً ، ولا يكون فسقاً حتى يكون قد أهل به لغير الله .

ثم ادعى أن هذا متعين ولا يجوز أن تكون الواو عاطفة ، لأنه يلزم فيه عطف جملة اسمية خبرية على جملة فعلية طلبية ، وهذا ينتقض عليه بقوله ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم** ﴾ فإنها عاطفة لا محالة ، فإن كانت الواو التى ادعى أنها حالية صحيحة على ما قال امتنع عطف هذه عليها فإن عطفت

(١) أخرجه البخارى فى الذبائح (٢ ، ٣ ، ٧ - ١٠) . ومسلم فى الصيد (١ - ٣) . وأبو داود فى الأضاحى (٢٢) . والترمذى فى الصيد (١ ، ٦) . والنسائى فى الصيد (١ - ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١) وابن ماجه فى الصيد (٣)

(٢) أخرجه مسلم فى الصلاة (١٥٠) . والترمذى فى تفسير (سورة ٤٦ : ٣) . والإمام أحمد فى (١ : ٤٣٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩) .

(٣) أخرجه البخارى فى الأضاحى (١٢) وفى العيدين (٢٣) وفى الذبائح (١٢ ، ١٧) . وأخرجه مسلم فى الأضاحى (١ - ٣) . والترمذى فى الأضاحى (١٢) . والنسائى فى الضحايا (٤ ، ١٧) . وابن ماجه فى الأضاحى (١٢) .

(٤) أخرجه البخارى فى التوحيد (١٣) وفى البيوع (٥) وفى الذبائح (٢١) . وأبو داود فى الأضاحى (١٣ ، ١٩) . والنسائى فى الضحايا (٢١ ، ٣٦ ، ٣٩) وابن ماجه فى الذبائح (٤) . والإمام مالك فى الذبائح (١) .

(٥) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام .

على الطلبية ، ورد عليه ما أورد على غيره ، وإن لم تكن الواو حالية بطل ما قال من أصله . والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أنبأنا جرير عن عطاء عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى الآية ﴿ **ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه** ﴾ قال هى الميتة . ثم رواه عن أبى زرعة عن يحيى ابن أبى كثير عن ابن لهيعة عن عطاء وهو ابن السائب به .

وقد استدل لهذا المذهب بما رواه أبو داود فى المراسيل من حديث ثور ابن يزيد عن الصلت السدوسى مولى سويد بن ميمون أحد التابعين الذين ذكرهم أبو حاتم بن حبان فى كتاب الثقات قال : قال رسول الله ﷺ : « ذبيحة المسلم حلال ذكر اسم الله أو لم يذكر إنه إن ذكر لم يذكر إلا اسم الله » وهذا مرسل يعضد بما رواه الدارقطنى عن ابن عباس أنه قال : « إذ ذبح المسلم ولم يذكر اسم الله فليأكل فإن المسلم فيه اسم من أسماء الله » واحتج البيهقى أيضاً بحديث عائشة رضى الله عنها المتقدم أن ناساً قالوا يا رسول الله إن قوماً حديثى عهد بجاهلية يأتوننا بلحم لا ندرى أذكروا اسم الله عليه أم لا ؟ فقال « سموا أنتم وكلوا » قال : فلو كان وجود التسمية شرطاً لم يرخص لهم إلا مع تحققها والله أعلم .

والمذهب الثالث فى المسألة أن ترك البسملة على الذبيحة نسيانا لم يضر وإن تركها عمداً لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه ، وإسحق بن راهويه ، وهو محكى عن على وابن عباس وسعيد بن المسيب وعطاء وطاوس والحسن البصرى وأبى مالك وعبد الرحمن بن أبى ليلى وجعفر بن محمد وربيعة بن أبى عبد الرحمن ونقل الإمام أبو الحسن المرغينانى فى كتابه الهداية الإجماع قبل الشافعى على تحريم متروك التسمية عمداً ، فلهذا قال أبو يوسف والمشايخ لو حكم حاكم بجواز بيعه لم ينفذ لمخالفة الإجماع وهذا الذى قاله غريب جداً وقد تقدم نقل الخلاف عمن قبل الشافعى والله أعلم . وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله من حرم ذبيحة الناس فقد خرج من قول جميع الحجة وخالف الخبر الثابت عن رسول الله ﷺ فى ذلك يعنى ما رواه الحافظ أبو بكر البيهقى أنبأنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا أبو أمية الطرسوسى حدثنا محمد بن يزيد حدثنا معقل ابن عبيد الله عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « المسلم يكفيه اسمه إن نسى أن يسمى حين يذبح فليذكر اسم الله وليأكله »

وهذا الحديث رفعه خطأ . أخطأ فيه معقل بن عبيد الله الجزرى ، فإنه وإن كان من رجال مسلم إلا أن سعيد بن منصور وعبد الله بن الزبير الحميدى روياه عن سفيان بن عيينة عن عمرو عن أبى الشعثاء عن عكرمة عن ابن عباس من قوله فزادا فى إسناده أبا الشعثاء ووثقاه ، وهذا أصح ، نص عليه البيهقى وغيره من الحفاظ ، ثم نقل ابن جرير وغيره عن الشعبى ومحمد بن سيرين أنهما كرها متروك التسمية نسيانا والسلف يطلقون الكراهة على التحريم كثيرا والله أعلم . إلا أن من قاعدة ابن جرير أنه لا يعتبر قول الواحد ولا الاثنين مخالفاً لقول الجمهور فيعده إجماعاً فليعلم هذا والله الموفق. قال ابن جرير حدثنا ابن وكيع حدثنا أبو أسامة عن جبير بن يزيد قال سئل الحسن [سأله رجل] أتيت بطير كذا فمنه ما قد ذبح فذكر اسم الله عليه ومنه ما نسى أن يذكر اسم الله عليه ، واختلط الطير فقال الحسن : كله كله ،

قال وسألت محمد بن سيرين فقال : قال الله ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ﴾ .

واحتج لهذا المذهب بالحديث المروى من طرق عند ابن ماجه عن ابن عباس وأبى هريرة وأبى ذر وعقبة بن عامر وعبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ « ان الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[1] وفيه نظر والله أعلم . وقد روى الحافظ أبو أحمد بن عدى من حديث مروان بن سالم القرقسانى عن الأوزاعى عن يحى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله أرأيت الرجل منا يذبح وينسى أن يسمى فقال النبى ﷺ « اسم الله على كل مسلم» ولكن هذا إسناده ضعيف فإن مروان بن سالم القرقسانى أبا عبد الله الشامى ضعيف تكلم فيه غير واحد من الأئمة ، والله أعلم .

وقد أفردت هذه المسألة على حدة وذكرت مذاهب الأئمة ومآخذهم وأدلتهم ووجه الدلالات والمناقضات والمعارضات والله أعلم.وقد جاء فى تفسير المراغى مانصه فى قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ أى لا تأكلوا أيها المؤمنون مما مات فلم تذبحوه ، ولا ما أهل لغير الله به مما ذبحه المشركون لأوثانهم ، فإن أكل ذلك فسق ومعصية كما جاء فى الآية الأخرى ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ ثم لخص الأحكام فقال : قال مالك : كل ما ذبح ولم يذكر اسم الله تعالى عليه فهو حرام ، ترك الذكر عمداً أو سهواً .

وقال أبو حنيفة : إن ترك الذكر عمداً حرم وإن ترك نسيانا حل .

وقال الشافعى : متروك التسمية عمداً أو سهواً حلال إذا كان الذابح مسلماً .

قوله تعالى ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾ أى وأن شياطين الإنس والجن الذين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ليوحون إلى أوليائهم بالوسوسة والتلقين الخادع ما يجادلونكم به من الشبهات ، وإن أطعتموهم فيها فجاريتموهم فى هذه العبادة الوثنية الباطلة إنكم لمشركون مثلهم ، فإن التعبد لغير الله شرك ، كدعاء غير الله ، وسائر ما يتوجه به من العبادات لغيره ، وإن كان لأجل التوسل بذلك الغير إليه ليقرب المتوسل إليه زلفى ، ويشفع له عنده كما يفعل أهل الوثنية .

وأولياء الشياطين لم يجادلوا أحدا من المؤمنين فيما لم يذكر اسم الله عليه ، ولا اسم غيره عليه من الذبائح المعتادة التى لا يقصد بها العبادة ، فمن يأكل هذه الذبائح لا يكون مشركاً ، وكذلك من يأكل الميتة بل يكون عاصيا إن لم يكن مضطراً .

قال عكرمة : وأن الشياطين يعنى : مردة المجوس ليوحون إلى أوليائهم من مشركى قريش زخرف القول ، ليصل إلى نبى الله وأصحابه ممن أكل الميتة ، ذلك أنه لما نزل تحريم الميتة سمعه المجوس من أهل فارس فكتبوا إلى قريش وكانت بينهم مكاتبة : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يتبعون أمر الله ، ثم

(١) أخرجه ابن ماجه فى الطلاق (١٦) .

يزعمون أن ما يذبحونه حلال ،وما يذبحه الله حرام ، فوقع فى أنفس ناس من المسلمين من ذلك شيء فأنزل الله هذه الآية .

ثم قال : ﴿ **وإن أطعتموهم** ﴾ يعنى فى استحلال الميتة ﴿ **إنكم لمشركون** ﴾ قال الزجاج : وفيه دليل على أن كل من أحل شيئاً مما حرم الله تعالى أو حرم شيئاً مما أحل الله تعالى فهو مشرك لأنه أثبت مشرعاً سوى الله وهذا هو الشرك بعينه .

وما يذبح عند استقبال ملك أو أمير أو وزير أفتى بعض الحنفية بتحريم أكله لأنه مما أهل به لغير الله وقال بعض الشافعية هم إنما يذبحونه استبشاراً بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود ومثل هذا لا يوجب التحريم وهذا هو الراجح الذى عليه المعوَّل .

أهل الحق وأهل الباطل

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

المفردات : ﴿ **أكابر** ﴾ : أكابر القوم رؤساؤهم . ﴿ **مجرميها** ﴾ : الإجرام ما فيه الفساد والضرر من الأعمال . والمجرمون الفاعلون لهذه الأعمال ﴿ **قرية** ﴾ : البلد الذى يجمع الناس كالعاصمة مثلاً . وقد تطلق على الشعب والأمة . ﴿ **يمكروا** ﴾ : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة .

قوله تعالى ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه** ﴾ المراد بالميت ميت القلب ، وهذا حال الناس قبل الهداية ، فإذا ما اهتدوا زادهم الله هدى وآتاهم تقواهم ، فأصبحوا أحياء عندما تسرى فيهم روح الهداية ، ويجعل الله لهم نوراً يمشون به فى الناس ، وذلك كما قال جل شأنه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[١] ففى هذه الآية العظيمة وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه روح ونور وهاد .

روح يحيى الله به الموات ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه** ﴾ ونور يبدد غياهب الظلمات ﴿ **وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس** ﴾ وهاد يهدى إلى سواء الصراط إنه حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والهادى إلى الصراط المستقيم فاعجب معى لأمة ربها نور ﴿ **الله نور السموات والأرض** ﴾ وقرآنها نور ، فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أرسلنا ونبيها نور ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[٢] كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى غياهب الظلمات .

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الشورى . (٢) الآية ١٥ من سورة المائدة .

إذا زرت بعد البيت قبر محمد وأبصرت مثوى الأعظم العثرات
وفاضت من الدمع العيون مهابة لأحمد بين الستر والحجرات
وأشرق نور تحت كل ثنية وضاع أريج تحت كل حصاة
فقل لرسول الله يا خير مرسل أبثك ما تدرى من الحسرات
شعوبك فى شرق البلاد وغربها كأصحاب كهف فى عميق سبات
بأيمانهم نوران ذكر وسنة فما بالهم فى حالك الظلمات

قوله تعالى ﴿ **كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى ليتبين به الفرق الشاسع والبون البعيد بين أهل الحق وأهل الباطل ، والمثل حال عجيبة يتبين بها الفرق بين من جاء المثل فى شأنه وبين غيره ، قال تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور * إن أنت إلا نذير ﴾[1] وقال جل شأنه : ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا افلا تذكرون ﴾[2] وقال تبارك اسمه : ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[3].

قوله تعالى ﴿ **كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾ أى مثل هذا الذى سبق ومن مثله فى الظلمات مثل ذلك التزيين الذى زين الشيطان به أعمال الكافرين فرأوا أعمالهم حسنة ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾[4] وقال جل شأنه ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾[5] قوله تعالى ﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون** ﴾ أى كما جعلنا فى قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ثم تكون لهم العاقبة كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ﴾[6] وقال تعالى ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ﴾[7] قيل معناه أمرناهم بالطاعة فخالفوا فدمرناهم وقيل أمرناهم أمراً قدرياً كما قال ههنا ﴿ **ليمكروا فيها** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **أكابر مجرميها ليمكروا فيها** ﴾ قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ قال سلطنا شرارهم فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب وقال مجاهد وقتادة ﴿ أكابر مجرميها ﴾ عظماؤها قلت وهكذا قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾[8] وقوله تعالى ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على

(١) الآيات ١٩ — ٢٣ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٢٤ من سورة هود .
(٣) الآية ١٩ من سورة الرعد .
(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٥) الآية ٢٤ من سورة النمل .
(٦) الآية ٣١ من سورة الفرقان .
(٧) الآية ١٦ من سورة الإسراء .
(٨) الآية ٣٤ ، ٣٥ من سورة سبأ .

آثارهم مقتدون ﴾[١]

والمراد بالمكر ههنا دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال كقوله تعالى إخباراً عن قوم نوح : ﴿ ومكروا مكراً كبارا ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين* وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾[٣] .

وقوله تعالى ﴿ **وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون** ﴾ أى وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم ، كما قال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾[٤] وقال ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾[٥]

صورة من عنادهم

وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

المفردات : ﴿ **صَغار** ﴾ : الصغار الذل والهوان ، والصغر القلة فى المحسوسات .

﴿ **أجرموا** ﴾ : ارتكبوا ما فيه جرم .

قوله تعالى ﴿ **وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ أى إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، أى حتى تأتينا الملائكة من الله بالرسالة ، كما تأتى إلى الرسل كقوله جل وعلا ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾[٦]

وقوله ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ أى هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه كقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمت ربك ﴾[٧] يعنون لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير جليل مبجل فى أعينهم ﴿ **من القريتين** ﴾ أى من مكة والطائف وذلك أنهم قبحهم الله كانوا يزدرون بالرسول صلوات الله وسلامه عليه بغيا وحسداً وعناداً واستكباراً كقوله تعالى مخبر عنه ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾[٨]

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٢٢ من سورة نوح .
(٣) الايات ٣١ — ٣٣ من سورة سبأ .
(٤) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٢٥ من سورة النحل .
(٦) الآية ٢١ من سورة الفرقان .
(٧) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الزخرف .
(٨) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .

وقال تعالى ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا ﴾[١]

وقال تعالى ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[٢] هذا وهم معترفون بفضله وشرفه ونسبه وطهارة بيته ومرباه ومنشئه صلى الله وملائكته والمؤمنون عليه حتى أنهم كانوا يسمونه بينهم قبل [أن يوحى إليه « الأمين »] وقد اعترف بذلك رئيس الكفار أبو سفيان حين سأله هرقل ملك الروم وكيف نسبه فيكم ؟ قال هو فينا ذو نسب قل هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال لا – الحديث بطوله الذى استدل ملك الروم بطهارة صفاته عليه السلام على صدق نبوته وصحة ما جاء به. روى الإمام أحمد بإسناده عن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة واصطفى من بنى كنانة قريشاً واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم »[٣] انفرد بإخراجه مسلم .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه »[٤] وروى الإمام أحمد بإسناده عن المطلب ابن أبى وداعة قال : قال العباس بلغه ﷺ بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فقال « من أنا » ؟ قالوا أنت رسول الله فقال: « أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه وجعلهم فريقين فجعلنى فى خير فرقه وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتاً فأنا خيركم بيتا وخيركم نفساً »[٥]

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « **قال لى جبريل قلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد رجلا أفضل من محمد وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها فلم أجد بنى أب أفضل من بنى هاشم** » رواه الحاكم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: « إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فبعثه برسالته ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن وما رآه المسلمون سيئاً فهو عند الله سىء »[٦]

قوله تعالى ﴿ **سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون** ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاءوا فإنه سيصيبه يوم القيامة بين

---

(١) الآية ٤١ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ١٠ من سورة الأنعام .
(٣) أخرجه مسلم فى الفضائل (١) . والترمذى فى المناقب (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٠٧) .
(٤) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٣) .
(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب (١) .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٣٧٩) .

يدى الله صغار وهو الذلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا فى الدنيا.

كقوله تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾(١) أى صاغرين ذليلين حقيرين .

وقوله تعالى ﴿ **وعذاب شديد بما كانوا يمكرون** ﴾ لما كان المكر غالبا إنما يكون خفياً وهو التلطف فى التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقاً ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾(٢) كما قال تعالى ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾(٣) أى تظهر المستندات والمكنونات والضمائر وجاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ينصب لكل غادر لواء عند إسته يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان بن فلان »(٤) والحكمة فى هذا أنه لما كان الغدر خفياً لا يطلع عليه الناس فيوم القيامة يصير علما منشوراً على صاحبه بما فعل .

أمارة الهداية وعلامة الضلال

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ قَدِ ٱسۡتَكۡثَرۡتُم مِّنَ ٱلۡإِنسِۖ وَقَالَ أَوۡلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلۡإِنسِ رَبَّنَا ٱسۡتَمۡتَعَ بَعۡضُنَا بِبَعۡضٖ وَبَلَغۡنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِيٓ أَجَّلۡتَ لَنَاۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٢٨﴾

المفردات : ﴿ **يشرح صدره** ﴾ : يقال شرح الله صدره فانشرح أى وسعه لقبول الإيمان والخير، وقيل الشرح الفتح والبيان وقيل هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب ﴿ **ضيقاً** ﴾ : ضد الواسع ﴿ **حرجاً** ﴾ : هو أضيق الضيق ﴿ **الرجس** ﴾ : العذاب وقيل الشيطان ﴿ **دار السلام** ﴾ : دار السلامة وهى الجنة .

(١) الآية ٦٠ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٩ من سورة الطارق .

(٤) أخرجه البخارى فى الجزية (٢٢) وفى الأدب (٩٩) وفى الحيل (٩) وفى الفتن (٢١) . وأخرجه مسلم فى الجهاد (٨ ، ١٠ – ١٧) . وأبو داود فى الجهاد (١٥٠) . والترمذى فى السير (٢٨) وفى الفتن (٢٦) . وابن ماجه فى الجهاد (٤٢) والدارمى فى البيوع (١١) . والإمام أحمد فى (١ : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٤١) وفى (٢ : ١٦ ، ٢٩ ، ٤٨) وفى (٣ : ٧ ، ١٩ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦١) .

قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ أى ييسره له وينشطه ويسهله لذلك فهذه علامات على الخير كقوله تعالى ﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾[١] وقال تعالى ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون ﴾[٢]. وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله **﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ يقول تعالى يوسع قلبه للتوحيد والإيمان به**

وعن أبى جعفر رضى الله عنه قال سئل رسول الله ﷺ أى المؤمنين أكيس ؟ قال « **أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم لما بعده استعداداً** »[٣] .

قال وسئل النبى ﷺ عن هذه الآية **﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ﴾ قالوا كيف يشرح صدره يارسول الله ؟ قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح » قالوا فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ قال « الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل لقاء الموت »[٤] .

قوله تعالى ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ﴾

قال الشيخ المراغى : فمن كان أهلاً بإرادة الله وتقديره لقبول دعوة الاسلام الذى هو دين الفطرة والهادى إلى طريق الحق والرشاد وجد لذلك فى نفسه انشراحاً واتساعا بما يشعر به قلبه من السرور فلا يجد مانعا من النظر الصحيح فيما ألقى إليه فيتأمله وتظهر له عجائبه وتتضح له دلالته فتتوجه إليه إرادته ويذعن له قلبه بما يرى من ساطع النور الذى يستضىء به لبه وباهر البرهان الذى يتملك نفسه .

وسئل رسول الله ﷺ عن كيف يشرح صدره يا رسول الله قال: **« نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح** قالوا : فهل لذلك من أمارة يعرف بها قال الإنابة إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزول الموت » .

قوله تعالى ﴿ ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء ﴾ أى أن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام والذنوب يجد فى نفسه وصدره ضيقاً أيما ضيق إذا طلب إليه التأمل فيما يدعى له من دلائل التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس لما استحوذ على قلبه من باطل التقاليد والاستكبار عن مخالفة ما ألفه وسار عليه الناس وتضعف إرادته عن ترك ما هو عليه فتكون إجابته الداعى إلى الدين الجديد ثقيلة عليه ويشعر بالعجز عن احتمالها ويكون مثله من صعد فى الطبقات العليا فى السماء إذ يشعر بضيق شديد فى التنفس وكلما صعد فى الجو أكثر شعر بضيق أشد حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى من ذلك شعر بتخلخل الهواء سبيلا إلى البقاء فإن هو قد بقى منها مات اختناقاً .

(١) الآية ٢٢ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٧ من سورة الحجرات.
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٣١) . والدارمى فى المقدمة (٥٦) .
(٤) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٣١) .

وخلاصة ذلك أن الله ضرب مثلا لضيق النفس المعنوى يجده من دعى إلى الحق وقد ألف الباطل وركن إليه بضيق التنفس الذى يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجو حتى لقد يشعر بأنه أشرف على الهلاك وهو لا محالة هالك إن لم يتدارك نفسه وينزل من هذا الجو إلى طبقات أسفل .

سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر ولم يفقه معرفة كنهها إلا بعد أن مر على نزولها نحو أربعة عشر قرنا وتقدم فن الطيران الآن علم الطيارين بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك ودل على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء وقد علم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة فى الهواء من الطبقات السفلى وأنه كلما صعد الانسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق فى التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه حتى لقد يحتاجون أحيانا إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير فى تلك الطبقات وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيرا جليا لأنهم لم يهتدوا لسرها وجاء الكشف الحديث وتقدم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبته العلم ومن هذا صح قولهم الدين والعلم صنوان لا عدوان وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفى أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ .

أى مثل ذلك الضيق والحرج فى صدور أهل الضلال نجعل الرجس والعذاب على الذين لا يؤمنون بالله رباً ، ولا الإسلام دينا ولا محمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وما ظلمناهم ولكنه كانوا هم الظالمين ، قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(١) .

وقال جلت حكمته : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾(٢) وقال عز وجل : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾(٣) .

هذه سنة الله التى لا تختلف ولا تتخلف على مر الأعصار . واختلاف الأمصار . ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾(٤) ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾(٥) ﴿ وهذا صراط ربك مستقيما ﴾(٦) لا ترى فيه عوجاً ولا أمتا . ولا تعرجا ولا التواء ، ولا شذوذا ولا نشازا ولا انحرافا . إذ المستقيم أقرب صلة بين نقطتين . وهذا هو صراط الله .

ولقد علمنا الله كيف ندعوه فى سورة الفاتحة التى نقرأها كل يوم سبع عشرة مرة على الأقل فى صلواتنا ، فنقول : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾(٧) وقال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾(٨) وجل جلال الحق إذ يقول : ﴿ قد

(١) الآية ٥ من سورة الصف .
(٢) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٣) الآيات ٥ - ١٠ من سورة الليل .
(٤) الآية ٤٣ من سورة فاطر .
(٥) الآية ٣٨ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ٦ من سورة الفاتحة .
(٨) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

فصلنا الآيات لقوم يذكرون ﴾[١] .

إن الذين اتبعوا هذا الصراط المستقيم قد اتبعوا هدى الله ، فوعدهم الله تعالى بوعدين : ألا يضلوا ولا يشقوا . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾[٢] .

وهؤلاء لهم دار السلام عند ربهم والسلام ، اسم جليل وجميل يملأ النفس طمأنينة وسكينة ، وللكلمة رنين طالما اهتزت له أعواد المنابر ، ووصل إلى أعماق القلوب ، أليس السلام اسماً من أسماء الله عز وجل : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾[٣] .

أليس اسماً من أسماء الجنة ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾[٤] ثم أليس السلام تحية الله إلى حبيبه ومصطفاه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، أليس السلام تحية الإسلام : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، أليس السلام تحية الملائكة لأهل الجنة : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٥] ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[٦] .

والولايه هنا ولاية نصرة ومحبة ، ومن كان الله وليه لا يخيب سعيه ، ولا يضل سؤله ، ولا تتعثر قدمه ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٧] وما سمى الولى ولياً إلا لأن الله يتولاه بالحفظ والعناية :

وإذا العناية لاحظتك عيونها　　　نم فالمخاوف كلهن أمان

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٨] .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته　　　أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها　　　فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما　　　فإنه الركن إن خانتك أركان

قوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس** ﴾ .

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، يذكرنا الله تعالى به حتى نكون على حذر من أتباع الشياطين ، وكما علمنا أن القرآن قد أنزله الله مثانى ، فقد قرن الوعد بالوعيد ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، تكون حال المؤمن بين الرجاء والخوف .

---

(١) الآية ١٢٦ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة طه .
(٣) الآية ٢٣ من سورة الحشر .
(٤) الآية ٢٥ من سورة يونس .
(٥) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .
(٦) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٨) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

فبعدما حدثنا القرآن الكريم عن أنعمه تعالى على عباده المؤمنين ، وما أعد لهم من دار السلام ، وما أحاطهم به من ولاية ورعاية بعد ذلك ، عرض علينا مشهدا من مشاهد أهل النار فقال ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً** ﴾ اى اذكر أيها المخاطب هذه الصورة التى تمثلت أمامك ، إنها توحى إليك بجماعة كثيرة جمعت بين الإنس والجن ، وقد وجه الله تعالى إلى الجن هذا الخطاب : ﴿ **يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس** ﴾ أى أكثرتم من إغوائهم وإضلالهم وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾[١] .

وطرق الإغواء كثيرة متنوعة ، وشعب الضلال مختلفة ملتوية ، ومن ثم فقد جاءت الظلمات بصيغة الجمع لكثرتها ، وجاء النور بصيغة الإفراد لأنه الحق ، والحق لا يتعدد ، قال تعالى : ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾[٢] وقال جل شأنه : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٣] وقال تبارك اسمه : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا** ﴾ .

المراد بالاستمتاع هو انتفاع كل من الفريقين بعضهم ببعض ، فالجن استمتع بإغواء الإنس وإضلالهم ، والإنس استمتع بما أوقعه الجن فيه من الملذات ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، وسيبرأ التابع والمتبوع كل من عمل الآخر . قال سبحانه : ﴿ **ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعُوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾[٥] .

إن استمتاع بعضهم ببعض يبدو جليا فى أن الجن قد أمروا ، والإنس قد عملوا ، ويوم القيامة تتجلى هذه الصورة فى ساحة الحساب : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾[٦] .

إن شيطان الإنس قد يكون شراً من شيطان الجن ، لذا جاء مقدماً فى قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ .

قال أحدهم :

---

(١) الآيات ٦٠ – ٦٢ من سورة يس .
(٢) الآية . أولى من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٤) الآية الأولى من سورة إبراهيم .
(٥) الآية ١٦٦ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى بى الحال حتى صار إبليس من جندى

وقد أصدر الله تعالى حكمه على الفريقين فقال : ﴿ النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء ﴾ وهذا حكم صادق عادل ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[1] ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾[2] .

أما معنى الاستثناء فى قوله تعالى ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ فأرجح الأقوال . أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعوا فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ ، وقال قتادة : الله أعلم بثناياه .

قوله تعالى : ﴿ إن ربك حكيم عليم ﴾ شاءت حكمته أن يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأحاط علمه بكل شىء ، فقد علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

إن هؤلاء الذين استمتع بعضهم ببعض ، قضوا حياتهم فى الإغواء والملذات ، حتى بلغوا آخر الأجل الذى قضوه فى الدنيا ، فظلوا غافلين حتى أتاهم اليقين ، وأدرجوا فى أكفان القدر ، فكان مثواهم ومحل إقامتهم النار

كل بلاء دون النار عاقبة وكل نعيم دون الجنة حقير
تزود من التقوى فإنك لا تدرى إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد أدخلت أجسادهم فى ثرى القبر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر

من مشاهد القيامة

وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

(١) الآية ١١١ من سورة النحل . (٢) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .

المفردات : ﴿ نُوَلّى ﴾ : من الولاية والإمارة . أو جعل بعضهم أنصاراً وأولياء لبعض . ﴿ يقُصّون ﴾ : يتلونها مع التوضيح والتبيين ، وفى المصباح : قصصت الخبر قصاً ، أى حدثته على وجهه . ﴿ درجات ﴾ : مراتب من أعمالهم وجزاؤها .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون** ﴾ .

قال قتادة : إنما يولى الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولى المؤمن أين كان ، وحيث كان ، والكافر ولى الكافر أينما كان ، وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمنى ولا بالتحلى . واختاره ابن جرير .

وقال معمر : عن قتادة فى تفسير الآية : يولى الله بعض الظالمين بعضاً فى النار ، يتبع بعضهم بعضا .

وقال مالك بن دينار : قرأت فى الزبور (أنى أنتقم من المنافقين بالمنافقين جميعا) وذلك فى كتاب الله قوله تعالى ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً** ﴾ . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا** ﴾ قال : ظالمى الجن ، وظالمى الإنس ، وقرأ : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾(١) قال : ونسلط ظلمة الجن على ظلمة الإنس .

قال ﷺ : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه »(٢) .

ومعنى الآية الكريمة كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التى أغوتهم من الجن ، كذلك نفعل بالظالمين نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعض ببعض ، جزاء على ظلمهم وبغيهم .

قال تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ٭ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾(٣) .

قوله تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ .

وهذا مشهد آخر من مشاهد القيامة ، يوجه الله تعالى فيه السؤال إلى الجن والإنس ، ليقطع عليهم المعاذير لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل : ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى** ﴾ أى يتلونها ويفصلونها تفصيلا ، وهذا هو منطق العدالة الإلهية . قال تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ وقال جل شأنه ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير . إذا **أُلقوا فيها سمعوا لها**

(١) الآية رقم ٣٦ من سورة الزخرف .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأحكام (٦) .
(٣) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة التوبة .

شهيقاً وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾[١]

ولقد أرسل النبى ﷺ إلى الجن والإنس . وقد استمع الجن إلى القرآن من خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه ، قال تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾[٢] .

إذاً فقد أرسل الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وبلغ الرسالات ، وزودنا بالعقول والأفهام ، فلا حجة لمحتج ، ولا عذر لمعتذر .

فكان جوابهم ﴿ **بلى شهدنا على أنفسنا** ﴾ وهذا فى نفس الوقت إقرار وشهادة ، فالإقرار حجة قاصرة على المقر ، وهو فى نفس الوقت يشهد على غيره ، كما أن غيره بإقراره شاهد عليه ، قال تعالى : ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾[٣] إذاً فالنار مثواهم : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾[٤] .

قوله تعالى ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون** ﴾ .

اقتضت عدالته جل جلاله أنه لن يهلك أهل الطغيان والبغى إلا بعد أن ينذرهم ، فيفيقوا من غفوتهم ، ويستيقظوا من سباتهم ، وينتبهوا من غفلتهم ، هذا منطق عدالته جل جلاله ، إنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، بل إنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال تعالى ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٥] .

وهو القائل فى الحديث القدسى الجليل : [يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا][٦] .

ولما أهلك الله الطغاة ، ودمر الجبابرة ، وحطم القياصرة ، وهدم الأكاسرة ، قال : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليهم حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٧] .

---

(١) الآيات ٦ – ٩ من سورة الملك .
(٢) الآيتان ٣٠ – ٣١ من سورة الأحقاف .
(٣) الآية ١٣٠ من سورة الأنعام .
(٤) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة الزمر .
(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٦) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٦٠) .
(٧) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

وقال جل جلاله : ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾[١].

وهكذا اقتضت عدالة الله أن ينذر ويحذر ، فإذا كذب بها أهل البغى حق عليهم القول ، فدمرهم الله تدميرا ، قال تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾[٢] .

وقال سبحانه : ﴿ كذبت ثمود بالنذر ﴾[٣] .

والله جل فى علاه قد استحال فى حقه الظلم ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾[٤] .

وهذا منطق العدالة الإلهية : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[٥] فلن يهلك الله القرى إلا إذا أتت من الجرائم والمخالفات والاستكبار عن طاعة الله ، وعصيان الرسل ، ما يستحق إيقاع الهلاك بهم ، ولن يهلكها الله بظلم ، فحاشاه أن يظلم ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ .

وهذا توكيد لمنطق العدل الإلهى ، فلكل من الفريقين الطائعين والعاصين منازل ينزلون بها ، فأهل الجنة فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وأهل المعاصى فى نار الجحيم .

وهذا المعنى قرره القرآن الكريم فى كثير من مواضعه ، قال تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[٧] وقال سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا * أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾[٨] .

قوله تعالى : ﴿ **وما ربك بغافل عما يعملون** ﴾ .

وهذا إخبار منه جل فى علاه بأنه لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ، قال تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً ﴾[٩] وقال سبحانه : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾[١٠] وقال عز من قائل : ﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[١١] وقال جلت حكمته : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد** ﴾ ﴿ ألم تر أن الله يعلم

---

(١) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة القمر .
(٢) الآيتان ٤، ٥ من سورة القمر .
(٣) الآية ٢٣ من سورة القمر .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ١٣٤ من سورة طه .
(٦) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٧) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٨) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة الكهف .
(٩) الآية ٤٩ من سورة الكهف .
(١٠) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء
(١١) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .

ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[١] .

وعيد وتهديد

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

المفردات : ﴿ **يذهبكم** ﴾ : يهلككم . ﴿ **من ذرية** ﴾ : من نسل قوم آخرين . ﴿ **مكانتكم** ﴾ : حالكم التى أنتم عليها .

وربك الغنى عن خلقه وعن عبادتهم ، والكل فقير إلى رحمته وعفوه ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾[٢] وهو ذو الرحمة بأوليائه وأهل طاعته ، رحمته وسعت كل شىء ، إذ كل ما عاداه محتاج إليه فى وجوده وبقائه ، ومحتاج إلى الأسباب التى جعلها الله قوام وجوده وحياته .

إن يشأ يذهبكم يا أهل مكة ويأت بخلق غيركم أفضل منكم وأطوع ، وإن يشأ يستخلف من بعدكم من يشاء من الأقوام ، فإنه هو الغنى القادر على إهلاككم وإنشاء قوم آخرين من ذريتكم ، أو ذرية غيركم ، يكونون أسمى منكم روحاً ، وأصفى منكم نفساً ، وقد صدق الله وعده ، فأذهب المستكبرين المعاندين الجاحدين من زعماء الشرك ، واستخلف من بعدهم قوماً آخرين هم الصحابة والسابقون من الأنصار والمهاجرين ، وبعد هذا الإنذار فى الدنيا ، إنذار فى الآخرة ، وهو إنما توعدون من جزاء وثواب آت لا شك فيه ، وما أنتم بمعجزين الله بهرب ولا منع .

﴿ **وهو القاهر فوق عباده** ﴾ .

قل لهم يا محمد : يا قوم اعملوا على مكانتكم وطريقتكم التى أنتم عليها ، إنى عامل على طريقتى ومكانتى التى هدانى إليها ربى ، ورباني عليها ، ولسوف تعلمون من تكون له العاقبة الحسنى والنهاية العظمى . قال الزمخشرى فى تفسيره (الكشاف) : اعملوا على مكانتكم تحتمل وجهين ، اعملوا على تمكنكم ، وأقصى استطاعتكم ، وإمكانكم أو اعملوا على جهتكم وحالكم التى أنتم عليها ، والمراد اثبتوا على كفركم وعداوتكم ، فإنى ثابت على الإسلام ، فسوف تعلمون الذى تكون له العقبى يوم القيامة ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾[٣] .

(١) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٢) الآية ١٥ من سورة فاطر .
(٣) الآية ٢٤ من سورة سبأ .

وهذا إنذار لطيف المسلك . دقيق المأخذ ، مع التوجه إلى النظر والفكر وحسن الأدب وبيان السبب فى الحكم للنبى ﷺ إذ لا يفلح الظالمون بالكفر .

صورة من جاهلية العرب

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا
كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ
إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ
سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ
عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾
قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ
وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

المفردات : ﴿ **ذرأ** ﴾ : أى خلق وأبدع . ﴿ **ليردوهم** ﴾ : ليهلكوهم بالإغواء . ﴿ **ليلبسوا عليهم دينهم** ﴾ : يخلطوا عليهم دينهم . ﴿ **حجر** ﴾ : الحجر أصله المنع ومنه سمى العقل حجراً لمنعه صاحبه والمراد الحرام . ﴿ **وصفهم** ﴾ : أى جزاء وصفهم .

أثر من آثار وسوسة الشيطان للإنسان ، وعمل من أعمال إبليس ، وصورة من صور الجاهلية الجهلاء ، التى كانت عليها العرب قبل الإسلام .

وجعلوا لله مما خلق من الحرث والأنعام نصيبا مفروضا ، وقدراً محدوداً ، وجعلوا كذلك نصيبا لمن أشركوهم مع الله من الأوثان والأصنام ، فقالوا هذا لله بزعمهم وتقولهم الذى لا بينة عليه ، ولا حجة فيه ، وهذا لشركائنا ومعبوداتنا نتقرب به إليها . والمروى أنهم كانوا يجعلون فى مالهم نصيبا لله ينفقونه لإطعام الفقراء والمساكين وإكرام الضيفان والصبيان ، ونصيبا للآلهة يعطى لسدنتهم وخدمهم ، وما ينفق على معابدهم ، وما كان لشركائهم خاصة لا يصرف إلى الوجوه التى جعلوها لله ، بل يجعلونه للسدنة وخدمة الأصنام والأوثان ، وما كان لله فهو واصل إلى شركائهم ، **ألا ساء الحكم حكمهم ، وبئس ما يصنعون ؟**

إذ هم اعتدوا على الله بالتشريع الفاسد وأشركوا به غيره ، وفضلوه عليه . والحال أن الله هو الذى خلق كل شىء ، وما عملوه لاسند له من عقل أو شرع ، أليست هذه جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ؟

ومثل ذلك التزيين لقسمة القرابين من الحرث والأنعام بين الله والآلهة زين لكثير من المشركين شركاؤهم قتل أولادهم ، وكان مظهر التزيين أنهم خوفوهم الفقر فى الحاضر والمستقبل . ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[1] وخوفهم ، فقتلوا البنات خوف العار والفقر والزواج من غير الكفء .

وثالثة الأثافى أنهم كانوا يمنونهم بأن قتلهم أولادهم قربى إلى الآلهة ، كما فعل عبد المطلب حين نذر قتل ابنه عبد الله .

وقد سمى الله المتزينين لهم من شياطين الإنس كالسدنة ، أو شياطين الجن سماهم الله شركاء ، لأنهم أطاعوهم طاعة فى التبجيل والاحترام ، كما فعل أهل الكتاب مع رجال الدين ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾[2] زين لهؤلاء قتل الأولاد ليردوا المشركين ويهلكوهم بالإغواء ، وليخلطوا عليهم أمر دينهم الذى يدعونه ، وهو دين إسماعيل وملة إبراهيم . والواقع أنه ليس فيه شىء من هذا ، ولو شاء الله ما فعلوا هذا أبدا ، ولكن مشيئة الله للناس جميعا أن يكونوا واختيارهم ما جبلوا عليه من اختيار أى الطريقين بدون جبر ولا قهر .

أما أنت يا رسول الله ، فذرهم ولا يهمنك أمرهم ، ودعهم وما يفترون فى حقك وحقنا ، فعلى الله حسابهم .

ثم ذكر صورة ثالثة من صور الجاهلية ، المشوهة .
أنهم قسموا أموالهم وأقواتهم إلى ثلاثة أقسام :

(ا) فتارة أنعام وأقوات تكون محبوسة على معبوداتهم وأوثانهم ويقولون هى محجوزة للآلهة ، لا يطعمها إلا من تشاء من رجال ونساء ، وقولهم هذا بزعمهم وادعائهم الخالى من الحجة والبرهان .

(ب) أنعام حرمت ظهورها ، فلا تركب ولا يحمل عليها ، وهى البحيرة والسائبة والحامى .

(جـ) أنعام لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح ، بل يهلون بآلهتم وحدها عند الذبح .

وقد قسموا هذا التقسيم مفترين على الله ، كاذبين عليه ، والله من ذلك برىء ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ﴾[3] والله سيجزيهم الجزاء الذى يستحقونه بما كانوا يفترون .

﴿ **وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا** ﴾ والمراد بها البحائر المشقوقة الآذان والسوائب ، خالص خلوصاً مبالغاً فيه لذكورنا فقط ، ومحرم على نسائنا وكانت السوائب إذا ولدت

(١) الآية ٣١ من سورة الإسراء . (٢) الآية ٣١ من سورة التوبة . (٣) الآية ٥٩ من سورة يونس .

ذكرا ، جعلوها للذكور خاصة ، وإذا ولدت أنثى جعلت للنتاج ، وإن كان فى بطنها ميتا جعل شركة بين الذكر والأنثى ، سيجزيهم الله جزاء وصفهم إنه حكيم عليم .

ولقد نعى الله سبحانه وتعالى على مشركى العرب أمرين عظيمين ، هما قتل الأولاد ، ووأد البنات ، وتحريم ما رزقهم الله من الطيبات ، وحكم عليهم بالخسران والسفه ، وعدم العلم والافتراء على الله ، والضلال وعدم الاهتداء ، إذ كيف تقتل ابنك خشية الفقر أو العار وتحرم طيبات أحلت لك ؟

فأما الخسران فالولد نعمة من الله وزينة فى الدنيا ، فإذا سعى لإزالتها استحق الغضب من الله لاعتدائه ، وقال الناس : إنه قتل ابنه خوف أن يأكل طعامه ، وخسر عاطفة الأبوة التى هى مصدر الرحمة والحنان ، وجعلها مصدر الاعتداء والفناء ، وأما السفه فهل هناك سفه أكثر من قتله ابنه وفلذة كبده خوف الفقر أو خوف العار ؟ وربما كان الولد مصدر الخير لأهله ، وهل من يفعل هذا لا يعد فى مصاف الجهلاء ؟ أعوذ بالله من عادات الجاهلية .

وأما الافتراء على الله والكذب عليه ، فقد جعلوه ديناً وهم كاذبون ، وأما ضلالهم فهم لم يرشدوا إلى خير أصلا لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولم يسيروا وراء عقل ولا شرع أخرج البخارى (إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام) ﴿ **قد خسر الذين قتلوا أولادهم** ﴾ ... إلى قوله تعالى .. ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ .

من مظاهر قدرة الله ونعمه مع الرد على المشركين

* وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ
وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾
وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ
ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

المفردات : ﴿ **أنشأ** ﴾ : خلق وأوجد بالتدريج . ﴿ **جنات** ﴾ : بساتين

الكروم والأشجار الملتفة الأغصان ؟ سميت كذلك لأنها تجن الأرض أى تسترها . ﴿ **معروشات** ﴾ : محمولات على العرائش والدعائم التى يوضع عليها كالسقف مثلا . ﴿ **حمولة** ﴾ : ما أطاق الحمل والعمل من الإبل والبقر وغيرها . ﴿ **وفرشاً** ﴾ : ما يفرش للذبح من الضأن والمعز وصغار الإبل وغيرها ، أو ما يتخذ صوفه للفرش . ﴿ **حصاده** ﴾ : قطافه . ﴿ **الضأن** ﴾ : ذوات الصوف من الغنم . ﴿ **المعز** ﴾ وهى ذوات الأشعار والأذناب القصار من الغنم .

المناسبة

لما افترى الكفار على الله الكذب ، وأحلوا وحرموا ، وأشركوا معه غيره ، دلهم على وحدانيته تعالى ، ومظاهر قدرته وأنه مصدر التشريع والتحريم لأنه تعالى هو الخالق وحده ، المبدع لهذه الكائنات وصاحب هذه النعم الجليلة .

وربكم القادر الرحيم بكم الرحمن ، هو الذى أنشأ تلك الجنات وأبدع هذه البساتين سواء منها المعروش القائم على العمد والسقف كبستان العنب ، وغير المعروش كبقية الفواكه والأشجار ، حتى العنب نفسه فيه المعروش وغير المعروش ، وأنشأ النخل ، وخص بالذكر لكثرته عند العرب وشيوعه فى بلادهم ، وانتفاعهم بكل ما فيه حتى ضربوه مثلا للمؤمن ينتفع بكل أجزائه ، وأنشأ الزرع الشامل لكل ما يزرع ويحرث مما هو أساس القوت وغيره ، كالقمح والشعير وغيرها ، وهذا النخل والزرع مع أنه يسقى بماء واحد ، وفى تربة واحدة ، ومتشابه فى المنظر العام ، إلا أنه يختلف فى الأكل فهذا الجيد ، وذلك المتوسط أو الردىء وهذا الحلو،وذاك المر الخ ...

فسبحانك يارب أنت القادر الحكيم .

وأنشأ الزيتون والرمان متشابهاً فى المنظر العام ، وغير متشابه فى الطعم والأكل يا سبحان الله هذه التغيرات خلقت بطبعها أم لابد لها من مغير ؟ وهل هو الله سبحانه أم غيره من الشركاء والأصنام ؟ أليس هو الله الرحمن الرحيم ؟ ولو شاء لخلقنا ولم ينعم علينا بغذاء جميل المنظر لذيذ الطعم سهل التناول .

أليس هذا من مظاهر القدرة الكاملة ، والحكمة التامة ، والوحدانية الشاملة ، للذات والصفات ، فهذا الماء ذو الكثافة من رفعه فى العود الأخضر إلى أعلى ؟ حتى انتهى إلى ورق أخضر ،ولون أزهر ، وجنى جديد ، وطعم لذيذ ، وشكل جميل ، وهذا غذاء النحل يصير عسلا ، وغذاء الظبى يصير مسكا ، وغذاء الحيوان يصير روثا !

أين من يقولون خلق الكون بالطبع ؟ أين من يكفرون بالرحمن ؟ أين من يعصون الله فى أرضه وتحت سمائه ؟

كلوا أيها الناس من ثمر هذا الزرع والجنات إذا أثمر ، واشكروا نعمه عليكم ،بأن تأتوا حقه الذى

فرض عليكم يوم حصاده وقطافه ، قبل أن تشح به نفوسكم ، ففيه حق معلوم للسائل والمحروم ، وهذه هى الزكاة المطلقة التى وجبت فى صدر الإسلام ، ثم كانت الزكاة المقيدة المحددة الواجبة فى الآيات المدنية .

ولا تسرفوا فالإسراف خطأ مطلقا ولو فى الشىء الحلال ، ولا تسرفوا فى الأكل ، ولا تسرفوا فى التصرف ، وقد قيل : لا سرف فى الخير ، ولا خير فى السرف ، والرأى هو التوسط فى كل شىء .

وأنشأ من الأنعام كباراً تصلح للحمل والعمل ، وصغارا كالفصلان والغنم والمعز مثلا ، تفرش على الأرض للذبح ، ويتخذ من شعرها ووبرها فرشٌ ولباسٌ .

وكلوا مما رزقكم الله ، وانتفعوا بلحمها ولبنها ووبرها وشعرها ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان فتحرموا ما أحل الله . أو تحلوا ما حرم الله ، فإن الشيطان عدوكم الظاهر : ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾[1] .

وهذه الأنعام ثمانية أزواج : فهى إبل وبقر وغنم ومعز ، وكل منها ذكر وأنثى ، وقد أنشأ الله من الضأن اثنين الكبش والنعجة ، ومن المعز اثنين التيس والعنزة ، ومن الإبل اثنين الجمل والناقة ، ومن البقر اثنين الثور والبقرة .

قل لهم أيها الرسول تبكيتاً وتوبيخا : أحرم الله الذكرين من الكبش والتيس؟أم حرم الأنثيين من النعجة والعنزة نبئونى بعلم إن كنتم صادقين؟أم حرم الذكرين من الجمل والثور أم حرم الأنثيين من الناقة والبقرة ؟ أم حرم الله ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ .

وقد كان المشركون فى الجاهلية يحرمون بعض الأنعام كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى ، ما احتج الله سبحانه وتعالى عليهم بأن لكل من الضأن والمعز والإبل والبقر ذكر أو أنثى ، فإن كان قد حرم منها الذكر وجب أن يكون كل ذكورها حراما ، وإن كان حرم جل شأنه الأنثى وجب أن يكون كل إناثها حراما ، وإن كان حرم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، وجب تحريم الأولاد كلها .

والله تعالى ما حرم عليهم شيئا من هذه الأنواع ، وإنهم لكاذبون فى دعوى التحريم ، وقد فصل الله ذلك أتم تفصيل ، مبالغة فى الرد عليهم ثم زاد فى الإنكار فقال : بل أكنتم حضوراً أو قد وصاكم الله بهذا ؟ أى أعندكم علم يؤثر عن الإنكار من رسله ؟ أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم مشافهة بغير واسطة ؟ كلا ما حصل هذا ولا ذاك ، وإنما أنتم تفترون على الله الكذب ، وتقولون هذا حلال وهذا حرام وتقولون على الله ما لا تعلمون .

وبعد أن نفى طريقى العلم ، وهو التلقى من الرسل أو من الله . أثبت أنه لا أحد أظلم ممن ثبت أنه

(١) الآية ١٦٩ من سورة البقرة .

افترى على الله الكذب ليضل الناس بغير علم ، أما جزاؤكم فإن الله لا يهدى القوم الظالمين ، ولا يوفقهم إلى الرشاد وإلى الهدى والخير أصلا .

المحرمات

قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ **محرماً** ﴾ : محظورا أو ممنوعا . ﴿ **طاعم يطعمه** ﴾ : آكل يأكله . ﴿ **مسفوحاً** ﴾ : مصبوبا سائلا يجرى من المذبوح . ﴿ **رجس** ﴾ : قذر قبيح . ﴿ **شحومهما** ﴾ : المراد الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش . وكذا الشحم الذى يكون على الكلية . ﴿ **الحوايا** ﴾ : مجتمع الأمعاء فى البطن . ﴿ **بأسه** ﴾ : عذابه .

بعد أن ذكر سبحانه فى سابق الآيات أنه ليس لأحد أن يحرم شيئاً من الطعام ولا غيره إلا بوحى من ربه على لسان رسله ، ومن فعل ذلك يكون مفتريا على الله معتديا على مقام الربوبية ، ومن أتبعه فى ذلك فقد اتخذه شريكاً لله تعالى ، وأبان من هذا الافتراء ما حرمته العرب فى جاهليتها من الأنعام والحرث قفى على ذلك بذكر ما حرمه على عباده من الطعام على لسان خاتم رسله ، وألسنة بعض الرسل قبله .

أخرج عبد بن حميد عن طاووس قال : إن أهل الجاهلية كانوا يحرمون أشياء ويستحلون أشياء فنزلت ﴿ **قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرماً** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل لا أجد فى ما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به** ﴾ .

أى قل أيها الرسول ،لهؤلاء المفترين على الله الكذب فيما يضرهم من تحريم ما لم يحرم عليهم ، وقل لغيرهم من الناس لا أجد فيما أوحاه إلى ربى طعاما محرما على آكل يريد أن يأكله إلا أن يكون ميتة لم يُذَكَّ ذكاة شرعية وذلك شامل لما مات حتف أنفه ، وللمنخنقة والموقوذة والنطيحة ونحوها ، أو دماً مسفوحاً أى سائلاً كالدم الذى يجرى من المذبوح فلا يدخل فيه الدم الجامد كالكبد والطحال وفى الحديث

« أحلت لنا ميتتان : السمك والجراد ، ودمان : الكبد والطحال »[1] أو لحم خنزير ، فإن كل ذلك خبيث تعافه الطباع السليمة .

وهو ضار بالأبدان الصحيحة ، أو فسقاً أهل لغير الله به وهو ما يتقرب به إلى غيره تعبدا وبذكر اسمه عليه عند ذبحه . ﴿ **فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم** ﴾ أى فمن دفعته ضرورة الجوع وفقد الحلال إلى أكل شيء من هذه المحرمات حال كونه غير مريد لذلك ولا قاصد له ولا متجاوز حد الضرورة فإن ربك الذى لم يحرم ذلك إلا لضرره – غفور رحيم فلا يؤاخذه بأكل ما يسد به مخمصته ويدفع عنه ضرر الهلاك .

قوله تعالى ﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر** ﴾ أى ما ليس منفرج الأصابع كالإبل والنعام والأوز والبط كما ورد ، وحرمنا عليهم من البقر والغنم دون غيرهما شحومهما الزائدة التى تنتزع بسهولة وهى ما على الكرش والكلى أما الشحوم التى على الظهر وفى الذيل فحلال بدليل قوله ﴿ **إلا ما حملت ظهورهما** ﴾ وإلا ما حملته الأمعاء فتلخص أن المحرم عليهم من الشحوم هو شحم الكرش والكلى فقط .

وإنما حرم الله عليهم ذلك عقوبة لهم فى قتلهم الأنبياء بغير حق ، وصدهم عن سبيل الله ، وأخذهم الربا ، واستحلالهم أموال الناس بالباطل ، وفى ذكر هذا تكذيب لليهود فى قولهم إن الله لم يحرم علينا شيئاً وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه .

ولما كان هذا إخباراً عن شيء جرى قديما لم يكن للنبى ﷺ ولا لأحد من قومه علم به قال وإنا لصادقون ومن أصدق من الله حديثاً ؟ فإن كذبوك بعد هذا وقالوا : إن الله رحيم واسع الرحمة كريم فكيف يحرم ما أحله ؟ قل لهم : لهم نعم ربكم ذو رحمة واسعة ، ولكن من عصى وبغى لابد من عقابه فإنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين فى حق أنفسهم ، وحق الله .

حجة داحضة

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

(١) اخرجه ابن ماجه فى الاطعمة (٣١) .

المفردات : ﴿ **تخرصون** ﴾ : الخرص الحذر والتخمين والمراد تكذبون . ﴿ **الحجة** ﴾ : الدلالة المبينة للدين الحق . ﴿ **هلم** ﴾ : أى أحضروا . ﴿ **يعدلون** ﴾ : يتخذون له عدلا مساويا .

من حجج المشركين الباطلة قولهم ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء** ﴾ وقد رد عليهم مولانا تبارك وتعالى بقوله ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا** ﴾ لقد قطع الله المعاذير على العباد فقد أرسل رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً، وقد أنزل الله كتباً تتلى فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، وقد زود الله عباده بالعقل والكسب والاختيار ، فرفع قلم التكليف عن المجانين ، وبين الهدى من الضلال ، وميز الحق من الباطل .

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[1] .

أبعد قول الله تعالى ﴿ قد تبين الرشد من الغى ﴾ تكون هناك حجة لكل معتد أثيم ، إن الله تعالى بين وأنذر ، وقد أعذر من أنذر ، وعفا وتاب على من عاد بعد معصية ، وفتح باب التوبة إلى أن تطلع الشمس من مغربها ، وتغرب فى مشرقها ، ورفع التكليف عن كل خطأ ونسيان واستكراه ، وعن المجنون حتى يفيق ، والنائم حتى يستيقظ ، والصبى حتى يحتلم ، ولم يكلفنا إلا بما نستطيع ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[2] ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[3] ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ﴾[4] .

أبعد هذا البيان يقولون على الله كذباً وبهتاناً ﴿ **لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا** ﴾ إنها حجة داحضة :

يقول الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه أن الله تعالى أراد بنا وأراد منا ، فأخفى ما أراد بنا وأظهر ما أراد منا ، فاحتججنا بما أراد بنا وتركنا ما أراد منا ، كذلك فإن مثل علم الله فينا كما قال النبى ﷺ كمثل السماء التى أظلتكم والأرض التى أقلتكم ، فكما لا يستطيعون الخروج من السماء والأرض ، كذلك لا يستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب كذا لا يحملكم علم الله ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[5] .

وقال جل شأنه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[6] . وقال تبارك اسمه :

---

(١) الآية ٢٥٦ البقرة .
(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٤) الآية ١٦ من سورة التغابن .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .

﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(١) وقال عظمت حكمته ﴿ وأما من بخل واستغنى ✽ وكذب بالحسنى ✽ فسنيسره للعسرى ﴾(٢) .

وقال : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ✽ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ✽ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ✽ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ✽ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين ✽ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾(٣) .

وقال جلت حكمته : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾(٤) وقال : ﴿ وهديناه النجدين ﴾(٥) وقال : ﴿ ونفس وما سواها ✽ فألهمها فجورها وتقواها ﴾(٦) .

فأى حجة لمحتج بعد هذا البيان ، وقد رد الله تعالى فى موضع آخر جاء فى سورة النحل . رد على هؤلاء المفترين فقال ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء ﴾(٧) قال تعالى رداً عليهم : ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين . ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾(٨) .

إن هذه الحجج التى تشدقوا بها وردت فى مواضع عن الكتاب العزيز مثل ﴿ لو شاء الرحمن ما عبدناهم . مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾(٩) .

ثم بين الله تعالى أنهم مقلدون لآبائهم . جاحدون على كفرهم ، فقال : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾(١٠). وفى موضع آخر يقول جلت قدرته ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾(١١).

وقد دحض الله أقاويلهم تلك فى قوله ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ✽ قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ✽ فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(١٢).

فإذا كان هؤلاء قد احتجوا بالمشيئة فأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، وحرموا من الحرث والأنعام ما لم يحرمه الله ، وأحلوا أشياء وحرموا أخرى تبعاً لأهوائهم ، ثم احتجوا بمشيئة الله ، فإن الله

---

(١) الآية ٥ من سورة الصف .
(٢) الآيات ٨ – ١٠ من سورة الليل .
(٣) الآيات ٥٤ – ٥٩ من سورة الزمر .
(٤) الآية ٣ من سورة الإنسان .
(٥) الآية ١٠ من سورة البلد .
(٦) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الشمس .
(٧) الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٨) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة النحل .
(٩) الآية ٢٠ من سورة الزخرف .
(١٠) الآية ٢٢ من سورة الزخرف .
(١١) الآية ٤٧ من سورة يس .
(١٢) الآيات ٢٣ – ٢٥ من سورة الزخرف

تعالى قد بين وأوضح ، لذلك جاء كلامه مبنياً على التكذيب الذى كذبه آباؤهم ، والذين من قبلهم حتى ذاقوا بأس الله وعذابه ، جزاء وفاقا على عنادهم وافترائهم .

﴿ **قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا** ﴾ وهل تستطيعون أن تقيموا الأدلة على صدق ما تقولون . وما تزعمون ، إن تتبعون إلا الظن والتخمين والكذب ، وإن أنتم إلا تخرصون ، أما الحجة البالغة فإنها لله وحده ، فإنه يقول الحق وهو يهدى السبيل . ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ أى لفطركم على الهداية كالملائكة المكرمين ، لكنه زودكم بالكسب والاختيار ، وسوف يجزيكم على حسن مباشرتكم للأسباب ، أو سوء مباشرتها ، لذا فعليكم أن تعملوا بما أمركم وتنتهوا عما نهاكم ، قال جل جلاله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ **كل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا** ﴾ أى أحضروا ما عندكم من الشهود الذين يشهدون على تحريم ما حرمت من الحرث والأنعام ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم يا محمد ، لأنك لا تشهد إلا بالحق ، لأنك الرسول الحق ، الذى تتلقى عن الله الحق ، وهؤلاء قوم يتبعون الهوى ، وهوى النفس قد أعيا كل طبيب ، وأعمى كل لبيب . ﴿ **ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ ﴿ **والذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ وكفى بذلك ضلالا بعيدا وطغياناً كبيرا وعتوا ونفورا . إنهم مع تكذيبهم بآيات الله واتباعهم الهوى ، يعدلون بالله آلهة أخرى ، وكفى بذلك افتراء على الله ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾[٣] ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾[٤] .

أصول الإسلام والفضائل

* قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

(١) الآية ٩ من سورة النحل . (٢) الآية ٩ من سورة النحل . (٣) الآية ٤٨ من سورة النساء . (٤) الآية ١١٦ من سورة النساء

المفردات : ﴿ **تعالوا** ﴾ : أقبلوا والأصل أن يقوله من كان فى مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عم . ﴿ **أتل** ﴾ : أقرأ . ﴿ **إملاق** ﴾ : فقر . ﴿ **الفواحش** ﴾ : ما عظم جرمه وذنبه كالكبائر أو الخطيئة التى بلغت الغاية فى الفحش . ﴿ **أشده** ﴾ : كمال رجولته وتمام حنكته ومعرفته .

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا – إلى قوله تعالى : لعلكم تتقون** ﴾ .

وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : فى الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ثم قرأ ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ الآيات .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **أيكم يبايعنى على ثلاث** » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ حتى فرغ من الآيات « **فمن وفى فأجره على الله ومن انتقص منهن شيئا فأدركه الله به فى الدنيا كانت عقوبة ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه** »[1] .

يقول الله تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ قل : يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿ **قل** ﴾ لهم ﴿ **تعالوا** ﴾ أى هلموا وأقبلوا ﴿ **أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ أى أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقا ، لا تخرصاً ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿ **ألا تشركوا به شيئا** ﴾ وكأن فى الكلام محذوفاً دل عليه السياق وتقديره وأوصاكم ﴿ **ألا تشركوا به شيئاً** ﴾ ولهذا قال فى آخر الآية ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ .

وتقول العرب : أمرتك أن لا تقوم ، وفى الصحيحين من حديث أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أتانى جبريل فبشرنى أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ؟ وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق . قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن شرب الخمر »[2] .

وفى بعض الروايات إن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٣١٣ ، ٣٢٠) .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلح (٥) وفى الأحكام (٣٩) وفى الآحاد (١) وفى الشروط (٩) وفى الأيمان (٣) وفى الحدود (٣٠ ، ٣٤ ، ٣٨) وأخرجه مسلم فى الحدود (٢٥) وفى القضاة (٢٢) . وأخرجه أبو داود فى الحدود (٢٥) والترمذى فى الحدود (٨) وابن ماجه فى الحدود (٧) والإمام مالك فى الحدود (٦) والإمام أحمد فى (٤ : ١١٥ ، ١١٦) .

فى الثالثة «وإن رغم أنف أبى ذر» فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : «وإن رغم أنف أبى ذر» [(١)] .

وعن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى : [يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى فإنى أغفر لك على ما كان منك ولا أبالى ، ولو أتيتنى بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بى شيئاً ، وإن أخطأت حتى تبلغ خطاياك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك] [(٢)] .

ولهذا شاهد فى القرآن قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[(٣)] .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود : «من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة» [(٤)] .

وعن رسول الله ﷺ : «لا تشركوا بالله شيئاً وإن قطعتم أو صلبتم أو حرقتم» [(٥)] .

قوله تعالى ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾ أى وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحسانا ، أى أن تحسنوا إليهم ، كما قال تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾[(٦)] .

والله تعالى كثيرا ما يقرن بين طاعته وبر الوالدين كما قاله : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[(٧)] .

فأمر بالاحسان إليهما وإن كانا مشركين بحسبهما . وقال تعالى ﴿ وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا ﴾[(٨)] .

عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال سألت رسول الله ﷺ : (أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٤) . والبخارى فى اللباس (٢٤) .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات (٩٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٧٢) .

(٣) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٠ - ١٥٣) وفى الزكاة (٣٢ ، ٣٣) . وأخرجه البخارى فى العلم (٤٩) وفى الجنائز (١) وفى التوحيد (٣٣) وفى الرقاق (١٣ ، ١٤) وفى الاستقراض (٣) وفى بدء الخلق (٦) وفى الاستئذان (٣٠) . وأخرجه الترمذى فى الإيمان (١٨) . والنسائى فى الصلاة (١) وفى الجهاد (١٨) . وابن ماجه فى الديات (١) وفى الأدب (٥٨) وفى الزهد (٣٧) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٧٤ ، ٣٨٣ ، ٤٢٥ ، ٤٤٢) وفى (٢ : ١٧٠) وفى (٣ : ٧٩) وفى (٤ : ١٤٨ ، ١٥٢) وفى (٥ : ١٤٥ ، ١٦٢) وفى (٦ : ٢٤ ، ٤٤٧ ، ٤٥٠) .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٣) . وللإمام أحمد (٤ : ١١) وفى (٥ : ٣٢٨) .

(٦) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الإسراء .

(٧) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة لقمان .

(٨) الآية ٨٣ من سورة البقرة .

على وقتها » قلت ثم أى ؟ قال « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال « الجهاد فى سبيل الله » قال ابن مسعود حدثنى بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادنى)[1] .

عن أبى الدرداء وعن عبادة بن الصامت كل منهما يقول أوصانى خليلى رسول الله ﷺ « أطع والديك وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل »[2] .

قوله تعالى ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم** ﴾

لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الإحسان إلى الأبناء والأحفاد ، فقال تعالى ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ذلك ، فكانوا يئدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، ولهذا ورد فى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ « أى الذنب أعظم » قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أى ؟ قال « أن تزانى حليلة جارك » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾[3] .

وقوله تعالى ﴿ **من إملاق** ﴾ قال ابن عباس وقتادة والسدى وغيره : هو الفقر ، أى ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل :

وقال فى سورة الاسراء ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق** ﴾ أى لا تقتلوهم خوفا من الفقر فى الآجل ، ولهذا قال هناك ﴿ **نحن نرزقهم وإياكم** ﴾ فبدأ برزقهم للاهتمام بهم ، أى لاتخافوا من فقركم بسبب رزقهم ، فهو على الله ، وأما هنا فلما كان الفقر حاصلا قال ﴿ **نحن نرزقكم وإياهم** ﴾ لأنه الأهم ههنا والله أعلم ، وقوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[4] كقوله تعالى : ﴿ **قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾ .

جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » .

وقال عبد الملك بن عمير عن وزاد عن مولاه المغيرة قال : قال سعد بن عبادة : لو رأيت مع امرأتى رجلا لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: « اتعجبون من غيرة سعد ؟ فو الله

(١) أخرجه البخارى فى الأدب (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢) (٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٢٠ ، ١٦٤ ، ٢٠٧) .

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٢ : ٣) (وسورة ٢٥ : ٢) وفى الأدب (٢٠) وفى الديات (١) وفى الحدود (١٩) وفى التوحيد (٤٠ ، ٤٦) ، وأخرجه مسلم فى الإيمان (١٤١ ، ١٤٢) . وأبو داود فى الطلاق (٥٠) . والترمذى فى التفسير (سورة ٢٥ : ١ ، ٢) . والنسائى فى التحريم (٤٤) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤) .

(٤) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .

لأنا أغير من سعد ، والله أغير منى ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »[١]

قوله تعالى ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾ .

وهذا مما نص تبارك وتعالى على النهى عنه تأكيدا ، وإلا فهو داخل فى النهى عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فقد جاء فى الصحيحين عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[٢] .

قوله تعالى ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾ أى هذا مما وصاكم به لعلكم تعقلون عن الله أمره ونهيه .

قوله تعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما نزل الله : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن** ﴾ و﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً** ﴾ فانطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشئ فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ **ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم** ﴾ قال : (فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم)رواه أبو داود .

وقوله تعالى ﴿ **حتى يبلغ أشده** ﴾ أى حتى يحتلم .

قوله تعالى ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط** ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل فى الأخذ والإعطاء كما توعد على تركه فى قوله تعالى :

﴿ ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[٣] .

وقد أهلك الله أمة من الأمم كانوا يبخسون المكيال والميزان ، قال تعالى : ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾[٤] .

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٦ : ٧) و(سورة ٧ : ١) وفى النكاح (١٠٧) وفى التوحيد (١٥ ، ٢٠) . وأخرجه مسلم فى اللعان (١٧) وفى التوبة (٣٢ — ٣٥) . والترمذى فى الدعوات (٩٥) . والدارمى فى النكاح (٣٧) والأمام أحمد فى (١ : ٣٨١ ، ٤٢٦ ، ٤٣٦) وفى (٤ : ٢٤٨) .

(٢) أخرجه البخارى فى الديات (٦) . ومسلم فى القسامة (٢٥ ، ٢٦) . وأبو داود فى الحدود (١) . والترمذى فى الحدود (١٥) . والنسائى فى التحريم (٥ ، ١١ ، ١٤) . والدارمى فى السير (١١) . والإمام أحمد فى (١ : ٦١ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ١٦٣ ، ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥) وفى (٦ : ١٨١ ، ٢١٤) .

(٣) الآيات ١ — ٦ من سورة المطففين .

(٤) الآيتان ٩٤ ، ٩٥ من سورة هود .

وقال ﷺ :
« ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان » [١] .

وقوله تعالى : ﴿ **لا نكلف نفسا إلا وسعها** ﴾ أى من اجتهد فى أداء الحق ، وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وبعهد الله أوفوا** ﴾ قال ابن جرير : يقول بوصية الله التى أوصاكم بها ، فأوفوا وإيفاء ذلك أن تطيعوه فيما أمركم ونهاكم ، وتعملوا بكتابه وسنة رسوله ، وذلك هو الوفاء بعهد الله ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** ﴾ يقول تعالى : هذا أوصاكم به وأمركم به ، وأكد عليكم فيه ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ أى تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل هذا ، وقرأ بعضهم بتشديد الذال وآخرون بتخفيفها .

قوله تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ وفى قوله : ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه** ﴾[٣] **ونحو هذا فى القرآن قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم** عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله ، ونحو هذا قال مجاهد .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال :
خط رسول الله ﷺ خطا بيده ثم قال « هذا سبيل الله مستقيما » وخط عن يمينه وشماله ثم قال « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[٤] .

وعن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ : « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما وعن جنبتى **الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى باب الصراط داع يقول : يا أيها الناس هلم ادخلوا الصراط المستقيم جميعاً ، ولا تفرقوا ، وداع يدعو من فوق الصراط فإذا أراد** الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه فإنك إن فتحته تلجه ، فالصراط الإسلام ، والسوران حدود الله ، والأبواب المفتحة محارم الله ، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٢) .
(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٣ من سورة الشورى .
(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق (٤) . وابن ماجه فى الزهد (٢٧) .

والداعى من فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مسلم »[1] رواه الترمذى والنسائى. قوله تعالى ﴿ فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ إنما وحد سبيله ، لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها ، كما قال تعالى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[2] .

حجة الله على عبادة

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم
بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾
أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟
لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا
كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

المفردات : ﴿ **طائفتين من قبلنا** ﴾ : هم اليهود والنصارى . ﴿ **دراستهم** ﴾ : قراءتهم وعلمهم . ﴿ **بينة** ﴾ : البينة والبيان ما به يظهر الحق . ﴿ **وصدف عنها** ﴾ : ومنع الناس عنها .

لقد ذكر القرآن الكريم الوصايا العشر بعد ما تكلم على أسس الدين وأصوله ، ثم قفى ذلك بالحديث على القرآن وأثره ، ورد بعض شبه المعاندين ، وافتتح ذلك بالكلام على التوراة ، فهى أشبه بالقرآن من الإنجيل والزبور ، لاشتمالها على الأحكام كثيراً ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم** ﴾ وهو كذا وكذا الخ الوصايا العشر السابقة ، ثم أخبركم بأنا آتينا موسى الكتاب تماما للنعمة والكرامة والخير والهداية على المؤمن المحسن .

نعم كان تماما على من أحسن ، ويؤيد هذا المعنى قراءة من قرأ تماماً على الذين أحسنوا أى فى اتباعه ، والنظر فيه ، والاهتداء بهديه ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ﴾[3] (آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء) من أحكام الشريعة عبادتها ومعاملتها ، وهدى لمن اهتدى به ، ورحمة لمن تمسك به فينجيه من الضلالة والبهتان ، آتينا موسى الكتاب بهذا الوصف ، وبهذه الحكمة ليجعل قومه محل رجاء للإيمان بالله ، وموضع الفوز فى دار الكرامة ودار السلام .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ٨٢ ، ١٨٣) والترمذى فى الأدب (٧٦) .
(٢) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة . (٣) الآية ٢٤ من سورة السجدة .

وهذا القرآن الذى تليت عليكم آياته البينات بأسلوبه العربى المعجز ، هو الكتاب لا ريب فيه ، أنزلناه كثير البركات ، عظيم الشأن ، كثير الخير فى الدين والدنيا ، قد جاء بأكثر مما جاءت به التوراة فاتبعوا ما هداكم إليه ، واتقوا ما نهاكم عنه ، فهو حبل الله المتين ونوره اليقين ، جمع طريق الفلاح فى الدنيا والآخرة ، فاعملوا به لتكون رحمة الله رحمة لكم فى حياتكم ومعادكم .

أنزلنا إليك الكتاب المرشد إلى توحيد الله والهادى إلى سبيله ، والموصل إلى تزكية النفوس وتطهيرها من أدران الشرك والفسوق والعصيان ، لئلا تقولوا يوم الحساب إنما أنزل الكتاب على اليهود والنصارى من قبلنا ، وإن كنا عن دراستهم وقراءة كتبهم وتفهمها لغافلين ، لا ندرى ما هى ، لأنها بلسان غير عربى ، ولأنا مشغولون بغيرها ولم ندع إليها . ولئلا تقولوا كذلك لو أنا أنزل علينا الكتاب الهادى إلى سواء السبيل لكنا أهدى منهم ، وأحسن حالا لصفاء نفوسنا وقوة عزائمنا وذكاء عقولنا وإرهاف إحساسنا : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾[١] .

فرد الله عليهم بقوله تبكيتاً لهم وتأنيباً : إن صدقتم فيما تقولون فقد جاءكم كتاب بيّن الحق ، واضح الحجج ، سديد البرهان ، تام الأصول والفروع والأحكام ، فهو البينة الفاصلة ، والحجة الكاملة ، وهو هاد لمن تدبره واتعظ به ، ورحمة عامة للناس لما فيه من الدعوة إلى المثل العليا ، زيادة عن الدعوة إلى الدين الحق ، وإذا كان الأمر كذلك فمن أظلم ممن كذب بآيات الله .

نعم لا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله التى على هذا الوصف ، ومنع الناس عنها ، وعن النظر فيها ، والإيمان بها ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[٢] .

سنجزى الذى يمنعون الناس عن الإيمان بآياتنا العذاب السيء الشديد ، إذ هم يحملون أوزارهم وأوزاراً مع أوزارهم ، وبما كانوا يمنعون غيرهم من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، واتباع هدى القرآن ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾[٣] .

تهديد وإنذار

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

المفردات : ﴿ **ينتظرون** ﴾ : ينتظرون .

(١) الآية ٤٢ من سورة فاطر . (٢) الآية ٢٦ من سورة الأنعام . (٣) الآية ٨٨ من سورة النحل .

بعد ما وصف الله القرآن وأثره ، وأنذر من يكذبه بصارم العقاب ، أتبع هذا بحقيقة المشركين وما ينتظرون ، هل ينظر هؤلاء إلا أن تأتيهم الملائكة كما اقترحوا ، أو يأتي ربك كما طلبوا ، وقالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾[١] ﴿ أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ﴾[٢] . أو تأتيهم بعض آيات ربك التى اقترحوها بكفرهم ، وقولهم ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ﴾[٣] ونحو ذلك .

فهم فى الحقيقة لا ينتظرون بمجيء الملائكة ، أو مجيء ربك ، أو مجيء بعض آيات ربك ، فهم متمادون فى التكذيب ولا أمل فيهم أبدا ، ولا خير فيهم أصلا ، وقيل : هم لا ينظرون إلا ملائكة الموت أو أمر الله أى وعده ووعيده ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٤] .

﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك** ﴾ الآيات الدالة على قرب قيام الساعة ، أو بعض الآيات الموجبة للإيمان الاضطرارى ، لا ينفع هذا الإيمان نفساً لم تكن آمنت من قبل ، فإن الإيمان تكليف وعمل واختبار ، وليس فى هذا الوقت واحد منها ، ولا ينفع هذا الإيمان نفساً آمنت من قبل ولم تعمل عملا صالحاً ، إذ ليس الإيمان وحده كافيا فى سقوط العذاب عن الشخص ، بل لابد من إيمان وعمل ، ولذلك كان القرآن دائما يقرن الإيمان بالعمل ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً ﴾[٥] ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾[٦] .

وقد ورد فى الحديث أن بعض الآيات هى طلوع الشمس من المغرب ، واضطراب هذا الكون .

أخرج أحمد والترمذى عن أبى هريرة : « ثلاثة إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض »[٧] .

قل لهم يا محمد انتظروا ، وما تتوقعون من إماتة الدعوة ، وقتل الرسول ، وهلاك الدين ، إنا منتظرون أمر ربنا ووعده الصادق لنا ، ووعيده المتحقق لأعدائنا : ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾[٨] .

﴿ **اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ وهذا تهديد ووعيد شديد إذ هم ينتظرون أمراً قد قضى الله فيه ، إذ أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

---

(١) الآية ٢١ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٩٢ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٩٢ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٣٣ من سورة النحل .
(٥) الآية ٨٨ من سورة الكهف .
(٦) الآية ٢٧٧ من سورة البقرة .
(٧) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٤٩) ، وأخرجه أحمد فى (١ : ١٩٢) وفى (٢ : ١٦٤ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٧٥ ، ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٩٥ ، ٤٩٥) وفى (٣ : ٣١ ، ٩٨) وفى (٤ : ٦ ، ٧ ، ٣٩٥ ، ٤٠٤) والترمذى فى الفتن (٢١) وفى تفسير (سورة ٦ : ٨ ، ٩) و(سورة ٣٦ ، ٢) .
(٨) الآية ١٠٢ من سورة يونس .

عاقبة الاختلاف وعدم الاتحاد

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ ١٥٩

روى أبو داود والترمذى عن معاوية قال ما معناه : « قام فينا رسول الله ﷺ فقال : ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، اثنتان وسبعون فرقة فى النار ، وفرقة واحدة فى الجنة ، وهى الجماعة »[(١)] .

وعلى هذا تكون الآية الكريمة شاملة لأهل الكتاب ولغيرهم من فرق المسلمين ، وهى مسوقة للتحذير من الاختلاف ، واتباع الآراء والبدع والمتشابهات ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على شرع أنبيائهم ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات ﴾[(٢)] وقد ورد ﴿ **اللهم إيمانا كإيمان العجائز** ﴾ إيمان بعيد عن الشبه والخلافات الضارة .

إن الذين فرقوا دينهم ، واختلفوا فيه ، وأقروا ببعض ، وكفروا ببعض ، وأوّلوا نصوصه على حسب أهوائهم ونزعاتهم ، وكانوا شيعاً ، كل شيعة تدين برأى إمامهم ، وتتعصب له ، لست أنت يا رسول الله من قتالهم وسؤالهم وعقابهم فى شىء ، وإنما عليك تبليغ الرسالة وإظهار شعائر الدين الحق الذى أمرت بالدعوة إليه ، أنت يا محمد برىء منهم ، وهم منك براء ، إنما أمرهم وحسابهم على الله وحده ، ثم ينبئهم فى الآخرة ويجازيهم أحسن الجزاء بما كانوا يفعلون .

الجزاء على العمل

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ١٦٠

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه قال: « إن الله تعالى كتب الحسنات والسيئات فمن هم بحسنة ولم يفعلها كتبت له عند الله حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة ولم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة »[(٣)] .

من جاء يوم القيامة بالخصلة الحسنة والفعلة الطيبة جازاه الله عليها عشر حسنات ، والمضاعفة بعد ذلك إلى سبعمائة أو ما شاء بعد ذلك من زيادة الله أعلم بها ، تختلف على حسب مشيئته تعالى وعلمه

(١) أخرجه أبو داود فى السنة (١) ، والدارمى فى السير (٧٤) .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣١) وفى التوحيد (٣٥) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٥٩) وأخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٦ : ١٠) والإمام أحمد فى (١ : ٢٢٧ ، ٢٧٩) وفى (٣ : ١٤٩) .

بأحوال المحسنين « إذ من يبذل درهما ونفسه غير راضية لا يكون كمن ينفقه طيبة به نفسه مسرورة بعملها »[١] .

ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها فقط وهم لا يظلمون ، أى لا ينقصون من أعمالهم شيئاً ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٢] .

التوحيد والإخلاص فى العقيدة والعمل والجزاء على ذلك

قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

المفردات : ﴿ **دينا قيما** ﴾ : يقوم به أمر الناس ونظامهم فى الدنيا والآخرة أو قائماً مستقيماً لا عوج فيه . ﴿ **حنيفاً** ﴾ : مائلاً عن الضلالة إلى الاستقامة والمراد مائلا عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام . ﴿ **نسكى** ﴾ : عبادتى من حج وغيره . ﴿ **محياى ومماتى** ﴾ : المراد ما آتيه فى حياتى وموتى . ﴿ **وازرة** ﴾ : الوزر الحمل الثقيل ، والمراد النفس الآثمة المذنبة .

هذا ختام سورة جامعة لأصول التوحيد ، شارحة للعقيدة الإسلامية ، وبخاصة أحوال البعث والجزاء ، وإثبات الرسالة وما يتبع ذلك ولهذا كان ختامها خلاصة ما تقدم .

قل يا محمد إننى هدانى الله ووفقنى إلى صراط مستقيم لا عوج فيه ، هو الدين القيم الموصل إلى سعادة الدارين ، الذى يقوم به أمر الناس فى معاشهم ومعادهم ، وبه يصلحون ، هذا الدين هو ملة أبيكم إبراهيم الخليل فالتزموه حال كونه حنيفا مائلا عن جميع وسائل الشرك والباطل إلى الدين الحق الذى من دعائه فى كل صلاة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾[٣] .

وما كان إبراهيم من المشركين أبداً ، فأما من يعتقد أن الملائكة بنات الله أو عزير أو المسيح ابن الله فهؤلاء هم المشركون ، وليسوا على ملة إبراهيم ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾[٤] هذا الدين هو دين الإخلاص ، والعمل لله هو

(١) أخرجه البخارى فى الإجارة (١) . ومسلم فى الزكاة (٧٩) . وأبو داود فى الزكاة (٥ ، ٤٣) والإمام مالك فى البيوع (٩٢) .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٦ من سورة الفاتحة .
(٤) الآية ١٢٥ من سورة النساء .

الذى ارتضاه لأنبيائه ، ورسله ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[1] ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[2] . هذا هو التوحيد الخالص فى العقيدة .

قل لهم يا محمد إن صلاتى ودعائى ونسكى وعبادتى وما آتيه فى حياتى كلها ، بل وحياتى ومماتى ، كل ذلك خالص لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين المنقادين إلى امتثال أمر الله .

والآية الشريفة جامعة لكل أعمال المسلم ، فيجب عليه أن يوطد العزم ويعقد النية على أن صلاته وعبادته وحياته وما يأتيه فيها وموته وما يلاقى فيه كل ذلك لله لا شىء آخر فإن عاش فلله وإن مات فلله له الحكم وله الأمر .

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

فالمسلم لا يحرص على الحياة ، ولا يرهب الموت ، بل يكون الموت فى سبيل الله أسمى أمانيه لا يقعد عن الجهاد ، ولا يتوانى عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهكذا جند الله الصحابة رضوان الله عليهم .

قل لهم يا محمد أغير الله أبغى ربا ، وأشركه فى العبادة وأتوجه إليه فى الدعاء ، والله سبحانه رب كل شىء وخالق كل شىء .

﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾[3] .

أما الجزاء على هذا فهذا نظامه :

ولا تكسب كل نفس إثماً أو ذنباً إلا كان عليها جزاؤه ووزره ، ولا تزر نفس وزر غيرها أبداً ، بل كل نفس بما كسبت رهينة ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، فهذا هو الدين ، دين العمل والجد ، لا دين الأمانى والغرور الكاذب .

وهذه الوصية من أعظم دعائم الإصلاح للمجتمع البشرى ، ومن أعلى مزايا الدين الإسلامى ، ومن أقوى معاول الهدم للوثنية .

ثم إلى ربكم مرجعكم لا إلى غيره ، ثم هو وحده ينبئكم ويجازيكم على أعمالكم التى كنتم فيها تختلفون .

سنة الله فى الخلق

وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

(١) الآية ١٩ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران . (٣) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

هذا هو الدواء لا غير ، وهذا هو العلاج فحسب ، به تهدأ النفوس وتطمئن القلوب .

فنحن خلائف من تقدمنا ، فليس لنا بقاء ، وكما وصلت إلينا ستخرج منا ، ونحن خلائف فلا ملك لنا ولا تصريف فى الواقع ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾[1] .

إذا كان هذا فلم هذا التناحر والتهالك والتباغض والتكالب ، ولماذا تبخلون بما جعلكم مستخلفين فيه .

والله سبحانه رفع بعضكم فوق بعض درجات فى العلم والعمل والغنى والفقر ، ليبلوكم جميعا كل بما عنده ، فيختبر الغنى هل يؤدى زكاة ماله ، هل يتصدق بالفضل من ماله ، هل يعطف على الفقير والمحتاج والمسكين ، أم هو نهم جشع صلد صلب كالحجر ، نعم ويبلو الفقير هل يصبر ويرضى ، أم يشكو ويكفر ؟

وإذا كان الله سبحانه قد رفع بعضنا فوق بعض فما علينا إلا العمل والجد والصبر والرضا بقضاء الله وقدره ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وإن ما أصابك لم يكن ليخطئك ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾[2] .

وعلى الجملة فهذا علاج نفسى لعلل السخائم والتحاسد والعلاج الاقتصادى معروف . تشير إليه الآية أيضا ، وهو الاشتراكية الإسلامية الممثلة فى الزكاة المطلقة والمقيدة ، والنظم المالية المعروفة فى الفقه الإسلامى .

إن ربك سريع العقاب ، شديد العذاب لا يهمل ، وإن أمهل يُمكّن للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يخلق فى الضعيف المسكين قوة يحاد لها الملك الجبار ، فاعتبروا بما مر بنا من الآيات ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾[3] وإنه لغفور لكل تائب ، رحيم بكل محسن .

---

(١) الآية ٧ من سورة الحديد .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الحديد .
(٣) الآية ٣٠ من سورة الشورى .

سورة الأعراف

هذه السورة نزلت بمكة إجماعاً .

وعدد آياتها مائتان وست آيات ، فى عد قراء الكوفة والحجاز ، وخمس فى عد قراء الشام والبصرة .

وكلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة ، وحروفها أربعة عشر ألفا وثلاثمائة وعشرة أحرف .

قال صاحب البصائر رحمه الله تعالى ولهذه السورة ثلاثة أسماء : سورة الأعراف فى ﴿ ونادى أصحاب الأعراف ﴾[1] وهو سور بين الجنة والنار . والثانى : سورة الميقات لاشتمالها على ذكر ميقات موسى فى قوله ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا ﴾[2] . الثالث : سورة الميثاق لاشتمالها على حديث الميثاق فى قوله : ﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾[3] . وأشهرها سورة الأعراف .

مقصود السورة

على سبيل الإجمال : تسلية النبى ﷺ فى تكذيب الكفار إياه ، وذكر وزن الأعمال يوم القيامة ، وذكر خلق آدم ، وإباء إبليس من السجود لآدم ، ووسوسته لهما للأكل من الشجرة ، وتحذير بنى آدم من قبول وسوسته ، والأمر باتخاذ الزينة وستر العورة فى وقت الصلاة ، والرد على المكذبين ، وتحريم الفواحش ظاهراً وباطناً .

وبيان مذلة الكفار فى النار ، ومناظرة بعضهم بعضاً ، ويأسهم من دخول الجنة ، وذكر المنادى بين الجنة والنار ، ونداء أصحاب الأعراف لكلا الفريقين ، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا ، وحجة التوحيد والبرهان على ذات الله تعالى وصفاته ، وقصة نوح والطوفان ، وذكر هود وهلاك عاد ، وحديث صالح وقهر ثمود ، وخبر لوط وقومه ، وخبر شعيب وأهل مدين ، وتخويف الآمنين من مكر الله ، وتفصيل أحوال موسى (وفرعون والسحرة واستغاثة بنى إسرائيل وذكر الآيات المفصلات وحديث خلافة هارون وميقات موسى) وقصة عجل السامرى فى غيبة موسى ، ورجوع موسى إلى قومه ومخاطبته لأخيه هارون .

وذكر النبى العربى ﷺ ، والإشارة إلى ذكر الأسباط ، وقصة أصحاب السبت ، وأهل أيلة ، وذم علماء أهل الكتاب .

وحديث الميثاق ، ومعاهدة الله تعالى الذرية ، وطرد بلعام بسبب ميله إلى الدنيا ، ونصيب جهنم من الجن والإنس ، وتخويف العباد بقرب يوم القيامة ، وإخفاء علمه على العالمين ، وحديث صحبة آدم وحواء فى أول الحال ، وذم الأصنام وعبادها ، وأمر الرسول بمكارم الأخلاق ، وأمر الخلائق بالإنصات والاستماع لقراءة القرآن .

(١) الآية ٤٨ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٧٢ من سورة الأعراف .

والإخبار عن خضوع الملائكة فى الملكوت وانقيادهم بحضرة الجلال فى قوله ﴿ يسبحونه وله يسجدون ﴾[1] .

المتشابهات

قوله : ﴿ **ما منعك** ﴾ هنا وفى (ص) ﴿ **يا إبليس ما منعك** ﴾ وفى الحجر ﴿ **قال يا ابليس مالك** ﴾ بزيادة ﴿ **يا إبليس** ﴾ فى السورتين لأن خطابه قرب من ذكره فى هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ **إلا إبليس لم يكن من الساجدين.قال ما منعك** ﴾ فحسن حذف النداء والمنادى ولم يقرب فى (ص) قربه منه فى هذه السورة ، لأن فى (ص) ﴿ **إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين** ﴾ بزيادة ﴿ **استكبر** ﴾ فزاد حرف النداء والمنادى فقال : ﴿ **يا إبليس مامنعك** ﴾ وكذلك فى الحجر فإن فيها ﴿ **إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾ بزيادة ﴿ **أبى** ﴾ فزاد حرف النداء والمنادى فقال ﴿ **يا إبليس مالك** ﴾ .

قوله : ﴿ **ألا تسجد** ﴾ وفى (ص) ﴿ **أن تسجد** ﴾ وفى الحجر ﴿ **ألا تكون** ﴾ فزاد فى هذه السورة ﴿ **لا** ﴾ وللمفسرين فى ﴿ **لا** ﴾ أقوال :

قال بعضهم : ﴿ **لا** ﴾ صلة كما فى قوله ﴿ **لئلا يعلم** ﴾ وقال بعضهم : الممنوع من الشىء مضطر إلى خلاف ما منع منه ، وقال بعضهم معناه من قال لك : لا تسجد ، وقد ذكر فى مطولات مبسوطة والذى يليق بهذا الموضع ذكر السبب الذى خص هذه السورة بزيادة ﴿ **لا** ﴾ دون السورتين .

قال تاج القراء : لما حذف فيها يا إبليس ، واقتصر على الخطاب جمع بين لفظ المنع ولفظ لا ، زيادة فى النفى ، وإعلاماً أن المخاطب به إبليس ، خلافاً للسورتين ، فإنه صرح فيهما باسمه .

وإن شئت قلت : جمع ما فى هذه السورة وبين ما فى (ص) والحجر فقال : ما منعك أن تسجد ، مالك ألا تسجد ، وحذف مالك لدلالة (الحال ودلالة) السورتين عليه ، فبقى ما منعك ألا تسجد ، وهذه لطيفه فاحفظها .

قوله : ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ وفى (ص) مثله وقال فى الحجر ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر** ﴾ فجاء على لفظ آخر ، لأن السؤال فى الأعراف و(ص) : ﴿ **ما منعك** ﴾ فلما اتفق السؤال اتفق الجواب ، وهو قوله ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ ولما زاد فى الحجر لفظ ﴿ **تكون** ﴾ فى السؤال وهو قوله ﴿ **مالك ألا تكون مع الساجدين** ﴾ زاد فى الجواب أيضاً لفظ الكون فقال ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر** ﴾ .

قوله ﴿ **أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ وفى الحجر وفى (ص) ﴿ **رب فأنظرنى** ﴾ لأنه سبحانه لما اقتصر فى السؤال على الخطاب ، دون صريح الاسم فى هذه السورة ، اقتصر فى الجواب أيضا على الخطاب دون ذكر المنادى . وأما زيادة الفاء فى السورتين دون هذه السورة ، فلأن داعية إلغاء ما تضمنه

(١) الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف .

النداء من أدعو ، أو أنادى نحو قوله ﴿ **ربنا فاغفر لنا** ﴾ أى أدعوك ، وكذلك داعية الواو فى قوله ﴿ **ربنا وآتنا** ﴾ فحذف المنادى ، فلما حذفه حذفت الفاء .

قوله ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ هنا وفى السورتين ﴿ **فإنك** ﴾ لأن الجواب يبنى على السؤال . ولما خلا السؤال فى هذه السورة عن الفاء خلا الجواب عنه ، ولما ثبت الفاء فى السؤال فى السورتين ثبتت فى الجواب ، والجواب فى السور الثلاثة إجابة ، وليس باستجابة .

قوله ﴿ فبما أغويتنى ﴾ فى هذه السورة وفى (ص) ﴿ **فبعزتك لأغوينهم** ﴾ وفى الحجر ﴿ **رب بما أغويتنى** ﴾ لأن ما فى هذه السورة موافق لما قبله فى الاقتصار على الخطاب ، دون النداء ، وما فى الحجر موافق لما قبله من مطابقة النداء ، وزاد فى هذه السورة الفاء (التى هى للعطف ليكون الثانى مربوطاً بالأول ، ولم يدخل فى الحجر ، فاكتفى بمطابقة النداء (لا متناع النداء) منه ، لأنه ليس بالذى يستدعيه النداء ، فإن ذلك يقع مع السؤال والطلب ، وهذا قسم عند أكثرهم ، بدليل ما فى (ص) وخبر عند بعضهم والذى فى (ص) على قياس ما فى الأعراف دون الحجر ، لأن موافقتهما أكثر على ما سبق ، فقال ﴿ **فبعزتك** ﴾ والله أعلم .

وهذا الفصل فى هذه السورة برهان لامع ، وسأل الخطيب نفسه عن هذه المسائل ، فأجاب عنها وقال ! إن امتصاص ما مضى إذا لم يقصد به أداء الألفاظ بعينها كان اتفاقها واختلافها سواءً ، إذا أدى المعنى المقصود ، وهذا جواب حسن إن رضيت به كفيت مؤنة السهر إلى السحر .

قوله ﴿ **قال اخرج منها مذءوما مدحوراً** ﴾ ليس فى القرآن غيره ، لأنه سبحانه لما بالغ فى الحكاية عنه بقوله ﴿ **لأقعدن لهم** ﴾ بالغ فى ذمه ، فقال : ﴿ **اخرج منها مذءوماً مدحوراً** ﴾ والذأم أشد الذم .

قوله ﴿ **وهم بالآخرة كافرون** ﴾ ما فى هذه السورة جاء على القياس وتقديره : وهم كافرون بالآخرة تقدم ﴿ **بالآخرة** ﴾ تصحيحاً لفواصل الآية ، وفى هود ، لما تقدم ﴿ **هؤلاء الذين كذبوا على ربهم** ﴾ ثم قال ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ ولم يقل ﴿ **عليهم** ﴾ والقياس ذلك التبس ، أنهم هم أم غيرهم ، فكرر وقال ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾ ليعلم أنهم هم المذكورون لا غيرهم ، وليس (هم) هنا للتأكيد كما زعم بعضهم ، لأن ذلك يزاد مع الألف واللام ملفوظاً أو مقدراً .

قوله ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح** ﴾ هنا ، وفى الروم بلفظ المستقبل ، وفى الفرقان وفاطر بلفظ الماضى ، لأن ما قبلها فى هذه السورة ذكر الخوف والطمع ، وهو قوله ﴿ **وادعوه خوفاً وطمعاً** ﴾ وهما يكونان فى المستقبل لا غير ، فكان يرسل بلفظ المستقبل أشبه بما قبله ، وفى الروم قبله . ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره** ﴾ فجاء بلفظ المستقبل ليوافق ما قبله ، وأما فى الفرقان فإن قبله ﴿ **كيف مد الظل** ﴾ وهو الذى جعل لكم (ومرج وخلق) وكان الماضى أليق به ، وفى فاطر مبنى على أول السورة ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا** ﴾

وهما بمعنى الماضى فبنى على ذلك ﴿ **أرسل** ﴾ بلفظ الماضى ليكون الكل على مقتضى اللفظ الذى خص به .

قوله : ﴿ **لقد أرسلنا نوحاً** ﴾ هنا بغير واو ، وفى هود والمؤمنين ﴿ **ولقد** ﴾ بالواو ، لأنه لم يتقدم فى هذه السورة ذكر رسول ، فيكون هذا عطفاً عليه ، بل هو استئناف كلام ، وفى هود تقدم ذكر الرسل مرات ، وفى المؤمنين تقدم ذكر نوح ضمنا ، لقوله ﴿ **وعلى الفلك تحملون** ﴾ لأنه أول من صنع الفلك ، فعطف فى السورتين بالواو .

قوله ﴿ **أبلغكم** ﴾ فى قصة نوح وهود بلفظ المستقبل ، وفى قصة صالح وشعيب ﴿ **أبلغتكم** ﴾ بلفظ الماضى لأن (ما) فى قصة نوح وهود وقع فى ابتداء الرسالة و(ما) فى قصة صالح وشعيب وقع فى آخر الرسالة ، ودنو العذاب .

قوله ﴿ **فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ وفى يونس ﴿ **فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك** ﴾ لأن أنجينا ونجينا للتعدى ، لكن التشديد يدل على الكثرة والمبالغة ، وكان فى يونس ﴿ **ومن معه** ﴾ ولفظ ﴿ **من** ﴾ يقع على أكثر مما يقع عليه ﴿ **الذين** ﴾ لأن ﴿ **من** ﴾ يصلح للواحد والاثنين والجماعة والمذكر والمؤنث ، بخلاف الذين ، فإنه لجمع المذكر فحسب ، وكان التشديد مع (من) أليق .

قوله : ﴿ **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم** ﴾ وفى هود ﴿ **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ لأن فى هذه السورة بالغ فى الوعظ فبالغ فى الوعيد ، فقال ﴿ **عذاب أليم** ﴾ وفى هود لما اتصل بقوله ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ وصفه بالقرب فقال ﴿ **عذاب قريب** ﴾ وزاد فى الشعراء ذكر اليوم لأن قبله : ﴿ **لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ والتقدير لها شرب يوم معلوم فختم الآية بذكر اليوم فقال عذاب يوم عظيم .

قوله ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم** ﴾ على الوحدة .

وقال ﴿ **وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** ﴾ حيث ذكر الرجفة وهى الزلزلة ، وَحّد الدار وحيث ذكر الصيحة جمع لأن الصيحة كانت من السماء ، فبلوغها أكثر وأبلغ من الزلزلة . فاتصل كل واحد بما هو لائق به .

قوله : ﴿ **وتنحتون الجبال بيوتا** ﴾ فى هذه السورة وفى غيرها ﴿ **من الجبال** ﴾ لأن (ما) فى هذه السورة تقدّمه ﴿ **من سهولها قصوراً** ﴾ فاكتفى بذلك .

قوله ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾ وفى غيرها ﴿ **فساء مطر المنذرين** ﴾ لأن ما فى هذه وافق ما بعده وهو قوله ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ قوله : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة** ﴾ بالاستفهام . وهو استفهام تقريع وتوبيخ وإنكار ، وقال بعده ﴿ **أئنكم لتأتون** ﴾ فزاد مع الاستفهام (إن) لأن التقريع والتوبيخ والإنكار فى الثانى أكثر ، ومثله

فى النمل ﴿ **أتأتون** ﴾ وبعده ﴿ **أئنكم** ﴾ وخالف فى العنكبوت فقال ﴿ **أئنكم لتأتون الفاحشة** ﴾ ﴿ **أئنكم لتأتون الرجال** ﴾ فجمع بين أئن وأئن وذلك لموافقة آخر القصة فإن فى الآخر ﴿ **إنا منجوك** ﴾ وإنا منزلون فتأمل فيه فإنه صعب المستخرج .

قوله : ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ هنا بلفظ الاسم وفى النمل ﴿ **قوم تجهلون** ﴾ بلفظ الفعل ، لأن كل إسراف جهل وكل جهل إسراف ، ثم ختم الآية بلفظ الاسم موافقة لرءوس الآيات المتقدمة ، وكلها أسماء للعالمين ، الناصحين ، المرسلين ، جاثمين،كافرون ، مؤمنون ، مفسدون ، وفى النمل وافق ما قبلها من الآيات وكلها أفعال : تبصرون يتقون يعلمون .

قوله : ﴿ **وما كان جواب قومه** ﴾ بالواو فى هذه السورة وفى سائر السور (فما) بالفاء لأن ما قبله اسم والفاء للتعقيب والتعقيب يكون مع الأفعال . فقال فى النمل ﴿ **تجهلون فما كان** ﴾ وكذلك فى العنكبوت ﴿ **وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان** ﴾ وفى هذه السورة ﴿ **مسرفون وما كان** ﴾ وقال ﴿ **أخرجوهم من قريتكم** ﴾ فى هذه السورة وفى النمل ﴿ **أخرجوا آل لوط** ﴾ ما فى هذه السورة كناية فسرها ما فى السورة التى بعدها وهى النمل ويقال : نزلت النمل أولافصرح فى الأولى وكنّى فى الثانية .

قوله ﴿ **كانت من الغابرين** ﴾ ههنا وفى النمل ﴿ **قدرناها من الغابرين** ﴾ أى كانت فى علم الله من الغابرين .

قوله ﴿ **كذلك يطبع الله** ﴾ وفى يونس ﴿ **نطبع** ﴾ بالنون لأن هذه السورة قد تقدم ذكر الله سبحانه بالتصريح والكناية فجمع بينهما .

فقال : ﴿ **ونطبع على قلوبهم** ﴾ بالنون . وختم الآية بالتصريح فقال ﴿ **كذلك يطبع الله** ﴾ وأما فى يونس فمبنى على ما قبله من قوله ﴿ **فنجيناه** ﴾ ﴿ **وجعلناهم** ﴾ ﴿ **ثم بعثنا** ﴾ بلفظ الجمع فختم بمثله فقال ﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ .

قوله ﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **قال للملأ حوله** ﴾ لأن التقدير فى هذه الآية : قال الملأ من قوم فرعون وفرعون بعضهم لبعض . فحذف ﴿ **فرعون** ﴾ لاشتمال الملأ من قوم فرعون على اسمه كما قال ﴿ **وأغرقنا آل فرعون** ﴾ أى آل فرعون وفرعون فحذف ﴿ **فرعون** ﴾ لأن آل فرعون اشتمل على اسمه فالقائل هو فرعون نفسه ، بدليل الجواب وهو ﴿ **أرجه** ﴾ بلفظ التوحيد والملأ هم المقول لهم إذ ليس فى الآية مخاطبون بقوله : ﴿ **يخرجكم من أرضكم** ﴾ غيرهم فتأمل فيه فإنه برهان للقرآن شاف .

قوله : ﴿ **يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **من أرضكم بسحره** ﴾ لأن الآية الأولى فى هذه السورة بنيت على الاقتصار ﴿ **وليس** ﴾ كذلك الآية الثانية ولأن لفظ الساحر يدل على السحر قوله ﴿ **وأرسل** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **وابعث** ﴾ لأن الإرسال يفيد معنى البعث ويتضمن نوعاً من العلو لأنه يكون من فوق فخصت هذه السورة به لما التبس ليعلم أن المخاطب به فرعون

دون غيره .

قوله ﴿ **بكل ساحر عليم** ﴾ وفى الشعراء بكل ﴿ **سحار** ﴾ لأنه راعى ما قبله فى هذه السورة ، وهو قوله : ﴿ **إن هذا لساحر عليم** ﴾ وراعى فى الشعراء الإمام فإن فيه ﴿ **بكل سحار** ﴾ بالألف وقرئ فى هذه السورة ﴿ **بكل سحار** ﴾ أيضاً طلباً للمبالغة ، وموافقة لما فى الشعراء .

قوله ﴿ **وجاء السحرة فرعون قالوا** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون** ﴾ لأن القياس فى هذه السورة وجاء السحرة فرعون وقالوا أو فقالوا لابد من ذلك لكن أضمر فيه ﴿ **فلما** ﴾ فحسن حذف الواو .

وخص هذه السورة بإضمار ﴿ **فلما** ﴾ لأن ما فى هذه السورة وقع على الاختصار والاقتصار على ما سبق ، وأما تقديم فرعون وتأخيره فى الشعراء ، لأن التقدير فيهما فلما جاء السحرة فرعون قالوا لفرعون ، فأظهر الأول فى هذه السورة لأنها الأولى ، وأظهر الثانى فى الشعراء لأنها الثانية .

قوله ﴿ **قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **إذا لمن المقربين** ﴾ ﴿ **إذا** ﴾ فى هذه السورة مضمرة مقدرة لأن ﴿ **إذا** ﴾ جزاء ، ومعناه إن غلبتم قربتكم ، ورفعت منزلتكم ، وخص هذه السورة بالإضمار اختصاراً . قوله : ﴿ **إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ وفى طه : ﴿ **وإما أن نكون أول من ألقى** ﴾ راعى فى السورتين أواخر الآى ومثله ﴿ **فألقى السحرة ساجدين** ﴾ فى السورتين وفى طه ﴿ **سجداً** ﴾ وفى السورتين أيضا ﴿ **آمنا برب العالمين** ﴾ وفى طه ﴿ **رب العالمين** ﴾ وفى السورتين ﴿ **رب موسى وهارون** ﴾ وفى طه ﴿ **رب هارون وموسى** ﴾ وفى هذه السورة ﴿ **فسوف تعلمون لأقطعن** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **فلسوف تعلمون لأقطعن** ﴾ وفى طه ﴿ **فلأقطعن** ﴾ وفى السورتين ﴿ **ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ وفى طه ﴿ **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾ .

وهذا كله لمراعاة فواصل الآى ، لأنها فرعية يبنى عليها مسائل كثيرة .

قوله ﴿ **آمنتم به** ﴾ وفى السورتين : ﴿ **آمنتم له** ﴾ لأن هنا يعود إلى رب العالمين وهو المؤمن ﴿ **به** ﴾ سبحانه وفى السورتين يعود إلى موسى لقوله ﴿ **إنه لكبيركم** ﴾ وقيل آمنتم به وآمنتم له واحد .

قوله ﴿ **قال فرعون** ﴾ وفى السورتين ﴿ **قال آمنتم** ﴾ لأن هذه السورة مقدمة على السورتين ، فصرح فى الأولى وكنى ، فى الأخريين ، وهو القياس وقال الإمام لأن (ما) هنا بعد عن ذكر فرعون فصرح وقرب فى السورتين ذكره فكنى .

قوله ﴿ **ثم لأصلبنكم** ﴾ وفى السورتين ﴿ **ولأصلبنكم** ﴾ لأن (ثم) يدل على أن الصلب يقع بعد التقطيع وإذا دل فى الأولى علم فى غيرها ولأن الواو يصلح لما يصلح له (ثم) قوله ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ بزيادة ﴿ **لا ضير** ﴾ لأن هذه السورة اختصرت فيها القصة وأشيعت فى الشعراء ، وذكر فيها أول أحوال موسى مع فرعون إلى آخرها فبدأ بقوله ﴿ **ألم نربك فينا وليداً** ﴾ وختم بقوله ثم ﴿ **أغرقنا الآخرين** ﴾ فلهذا وقع زوائد لم تقع فى الأعراف وطه

فتأمل تعرف إعجاز التنزيل .

قوله ﴿ **يسومونكم سوء العذاب يقتلون** ﴾ بغير واو على البدل .

قوله ﴿ **لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله** ﴾ هنا وفى يونس : ﴿ **قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعا إلا ما شاء الله** ﴾ لأن أكثر ما جاء فى القرآن من لفظ الضر والنفع معاً جاء بتقديم لفظ الضر ، لأن العابد يعبد معبوده خوفا من عقابه أولا ، ثم طمعاً فى ثوابه ثانياً يقويه قوله : ﴿ **يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾ .

وحيث تقدم النفع تقدم لسابقه لفظ تضمن نفعاً ، وذلك فى ثمانية مواضع : ثلاثة منها بلفظ الاسم ، وهى ههنا ، والرعد ، وسبأ . وخمسة بلفظ الفعل وهى فى : الأنعام ﴿ **مالا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ وفى آخر يونس ﴿ **مالا ينفعك ولا يضرك** ﴾ وفى الأنبياء ﴿ **مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم** ﴾ وفى الفرقان ﴿ **مالا ينفعهم ولا يضرهم** ﴾ وفى الشعراء ﴿ **أو ينفعونكم أو يضرون** ﴾ أما فى هذه السورة فقد تقدمه ﴿ **من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل** ﴾ فقدم الهداية على الضلالة .

وبعد ذلك ﴿ **لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء** ﴾ فقدم الخير على السوء ، فكذلك قدم النفع على الضر ، وفى الرعد ﴿ **طوعاً وكرهاً** ﴾ فقدم الطوع وفى سبأ ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ فقدم البسط ، وفى يونس قدم الضر على الأصل ، ولموافقته ما قبلها ﴿ **لا يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ وفيها ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر** ﴾ متكرر فى الآية ثلاث مرات .

وكذلك ما جاء بلفظ الفعل فلسابقه معنى يتضمن فعلاً ، أما سورة الأنعام ففيها ﴿ **ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها** ﴾ ثم وصلها بقوله ﴿ **قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا** ﴾ وفى يونس تقدمه قوله ﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين** ﴾ ثم قال ﴿ **ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك** ﴾ وفى الأنبياء تقدمه قول الكفار لإبراهيم فى المجادلة ﴿ **لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم** ﴾ وفى الفرقان تقدمه قوله ﴿ **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل** ﴾ وعد نعماً جمة فى الآيات ، ثم قال ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم** ﴾ تأمل فإنه برهان ساطع للقرآن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾
ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

المفردات : ﴿ **المص** ﴾ : هذه حروف تكتب كأنها كلمة ، وعند القراءة تقرأ هكذا : ألف لام ميم ، صاد وهى كغيرها مما افتتح به سورة البقرة وآل عمران .

ويراد بها الإشارة إلى أن هذا الكتاب الكريم معجز ، فقد نزل بهذه الحروف وما شابهها من حروف الهجاء ، وقد تحدى القرآن فصحاء العرب الذى يتكلمون بهذه الحروف ، تحداهم أن يأتوا بحديث مثله فعجزوا ، أو بعشر سور فعجزوا ، أو بسورة فعجزوا . قال تعالى ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ۞ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[١] . ﴿ **حرج** ﴾ : ضيق وألم . ﴿ **ذكرى** ﴾ تذكر نافع وموعظة حسنة .

﴿ **كتاب أنزل اليك** ﴾ هذا خبر فيه تشريف للكتاب ، إذ أن الذى أنزله هو رب الأرباب ، مالك الملك وملك الملوك ، كما أن فيه تشريفاً لمن أنزل الله عليه الكتاب ، وهو مبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، الرجل الذى علم المتعلمين ، وبعث الأمل فى قلوب اليائسين ، وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ، ومعترك الأمواج ، إلى بر النجاة وشاطىء الأمان إلى طريق الله رب العالمين ، هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد لتخرج الناس من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور التوحيد والهدى ، لترتفع بالبشرية من حضيض الغبراء إلى باذخ العلياء .

فلا يكن فى صدرك أى حرج من تبليغه . وهذا تثبيت لفؤاد المصطفى ﷺ ، فإنه لاقى الكثير والكثير من الأذى ، وعناد المعاندين فى سبيل تبليغ الدعوة . قال تعالى ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ، ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٢] .

وقال عز من قائل : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل ﴾[٣] .

وقال تبارك وتعالى ﴿ ولقد نعلم أنه يضيق صدرك بما يقولون ۞ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ۞ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[٤] .

وقال عظمت حكمته ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ۞ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٥] .

وقد أنزل الله هذا الكتاب على هذا النبى المصطفى مبيناً أنه للإنذار والذكرى قال ﴿ **لتنذر به وذكرى للمؤمنين** ﴾[٦] وفى الإنذار تخويف وترهيب ، وللذكرى طمأنينة وترغيب ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[٧] وبين الترهيب والترغيب تؤتى الموعظة ثمرتها والهدف المنشود منها .

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٢ من سورة هود .
(٤) الآيات ٩٧ – ٩٩ من سورة الحجر .
(٥) الآيتان ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .
(٦) الآية ٢ من سورة الأعراف .
(٧) الآية ٥٥ من سورة الذاريات .

ثم وجه سبحانه وتعالى الخطاب إلى البشرية جمعاء فقال ﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون** ﴾ .

قال ﷺ « اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم »(١) .

وقال « كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم » ثم تلا قوله تعالى ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾(٢) .

روى الترمذى بسنده عن الحارث الأعور عن على قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنه ستكون فتن كقطع الليل المظلم قيل : فما النجاة منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، من علم علمه سبق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به فقد هدى إلى صراط مستقيم »(١) .

قال الله تعالى ﴿ **ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ أى لاتتجاوزواهذا الذى أنزل إليكم من ربكم ، ولا تفارقوه ، بل التزموه بالاتباع والتنفيذ ، ولا تأخذوا تشريعكم وأحكامكم من غيره ، مهما كانت ولايته ، سواء كان من طواغيت الجن والشياطين ، أم من جبابرة البشر ، فلا حكم ولا تشريع إلا من الله ، والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم ، وما أنت عليهم بوكيل ، فالولاية الحق لله وحده ، والسلطان الحق لله وحده ، والتشريع الحق لله وحده .

﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له** ﴾(٤) .

وقد أكمل الله دينه ، وأتم نعمته ، ورضى لنا الإسلام دينا ، وقد ذاق حلاوة الإيمان من رضى بالله رباً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولا .

﴿ **قليلاً ما تذكرون** ﴾ أى قليلاً تذكركم ، وكثيراً ما تغفلون ، وقليلاً ما تشكرون ، وكثيرا ما تجحدون ، وقليلا ما تؤمنون ، والله غالب على أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة (٢٢ ، ٢٣) .
(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة (٤٢) .
(٣) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن (١) . والترمذى فى ثواب القرآن (١٤) .
(٤) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .

عاقبة الظالمين

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **كم** ﴾ : كلمة وضعت للتكثير . ﴿ **قرية** ﴾ : هى مكان اجتماع الناس وقيل تطلق على الناس أنفسهم . ﴿ **بياتا** ﴾ : ليلا والمراد الإغارة على العدو ليلا والإيقاع به على غرة . ﴿ **بأسنا** ﴾ : عذابنا وهلاكنا . ﴿ **قائلون** ﴾ : من القيلولة وهى استراحة وسط النهار والمراد نائمون فى الظهيرة . ﴿ **دعواهم** ﴾ : دعاؤهم وقولهم .

يقول الله تعالى ﴿ **وكم من قرية أهلكناها** ﴾ أى بمخالفة رسلنا وتكذيبهم ، فأعقبهم ذلك خزى الدنيا موصولا بذل الآخرة ، كما قال تعالى ﴿ ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾[١] وكقوله : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين*وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٣] .

وقوله ﴿ **فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون** ﴾ أى فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتا أى ليلا ، أو هم قائلون من القيلولة وهى الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ، ولهو ، كما قال ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا و هم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾[٤] وقال : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾[٥] .

وقوله ﴿ **فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ، كقوله تعالى ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين : فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾[٦] .

(١) الآية ١٠ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص .
(٤) الآيتان ٩٧ ، ٩٨ من سورة الأعراف .
(٥) الآيات ٤٥ – ٤٧ من سورة النحل .
(٦) الآيات ١١ – ١٥ من سورة الأنبياء .

عاقبة الكفر فى الآخرة

فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ
فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

قوله ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم** ﴾ كقوله:﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾[(١)] وقوله ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ﴾[(٢)] .

فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضا عن إبلاغ رسالاته ، ولهذا قال على عن بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾ قال عما بلغوا .

عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده ﴾[(٣)] .

قوله تعالى ﴿ **فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين** ﴾ .

قال ابن عباس : يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون .

﴿ **وما كنا غائبين** ﴾ يعنى أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[(٤)] .

قوله تعالى ﴿ **والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون** ﴾ .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة القصص .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه البخارى فى الجمعة (١١) وفى الجنائز (٣٢) وفى الاستقراض (٢٠) وفى الوصايا (٩) وفى العتق (١٧ ، ١٩) وفى النكاح (٨١ ، ٩٠) وفى الأحكام (١) . وأخرجه مسلم فى الإمارة (٢٠) . وأبو داود فى الإمارة (١ ، ١٣) . والترمذى فى الجهاد (٢٧) . والإمام أحمد فى (٢ : ٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٢١) .

(٤) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

يقول تعالى ﴿ والوزن ﴾ أى للأعمال يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أى لا يظلم تعالى أحداً ، كقوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ماهيه * نار حامية ﴾[٣] .

قال تعالى: ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾[٤] .

قال العلماء : والذى يوضع فى الميزان يوم القيامة قيل : الأعمال وإن كانت أعراضا ، إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً ، قال البغوى يروى نحو هذا عن ابن عباس ، كما جاء فى الصحيح من أن « البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف »[٥] .

ومن ذلك فى الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : « من أنت فيقول أنا القرآن الذى أسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك »[٦] .

وفى حديث البراء فى قصة سؤال القبر: « فيأتى المؤمن شاب حسن اللون طيب الريح فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح »[٧] .

وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق .

وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء فى حديث البطاقة فى الرجل الذى يؤتى به ويوضع له فى كفة تسعة وتسعون سجلاً كل سجل مد البصر ثم يؤتى بتلك البطاقة فيها لا إله إلا الله « فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم ، فتوضع تلك البطاقة فى كفة الميزان » قال رسول الله ﷺ « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة »[٨] رواه الترمذى .

وقيل : يوزن صاحب العمل كما فى الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين فلا يزن عند الله جناح بعوضه »[٩] ثم قرأ: ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ .

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٣) الآيات ٦ — ١١ من سورة القارعة .
(٤) الآيات ١٠١ — ١٠٣ من سورة المؤمنون .
(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين (٢٥٢ ، ٢٥٣) . والترمذى فى ثواب القرآن (٥) . والدارمى فى فضائل القرآن (١٥) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٧٣) وفى (٥ : ٢٤٩) وفى (٥ : ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٦١) .
(٦) أخرجه ابن ماجه فى الأدب (٥٢) .
(٧) أخرجه مسلم فى الألفاظ (٢٠) . وأبو داود فى الترجيل (٦) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢٠) وفى (٤ : ٢٨٧) .
(٨) أخرجه الترمذى فى الإيمان (١٧) . وابن ماجه فى الزهد (٣٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢١٣) .
(٩) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ١٨ : ٦) ومسلم فى المنافقين (١٨) .

وفى مناقب عبد الله بن مسعود أن النبى ﷺ قال : « أتعجبون من دقة ساقيه والذى نفسى بيده لهما فى الميزان أثقل من أحد »[١].

وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها ، والله أعلم .

من نعم الله تعالى على عباده

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

المفردات ﴿ **مكناكم** ﴾ : من التمكين أى التمليك وقيل جعلنا لكم فيها أمكنة تتبوأونها . وتتمكنون من الإقامة بها .

﴿ **معايش** ﴾ : جمع معيشة وهى ما تكون به العيشة والحياة من المطاعم والمشارب .

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل فيها رواسى وأنهارا ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتا ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش ، أى مكاسب ، وأسباباً يكسبون بها ويتجرون فيها ويتسببون أنواع الأسباب ، وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك ، كقوله : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[٢] .

آدم والملائكة وإبليس

وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ **فاهبط** ﴾ : الهبوط الانحدار والسقوط من مكان إلى ما دونه وهو إما حسى أو معنوى . ﴿ **أن تتكبر** ﴾ : أن تجعل نفسك أكبر مما هى عليه . ﴿ **الصاغرين** ﴾ : الصغار الذلة

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٤٢١) . وفى (٥ : ١٣١)

(٢) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

والهوان . ﴿ **انظرنى** ﴾ : أمهلنى . ﴿ **فبما أغويتنى** ﴾ : فبما أوقعتنى فى الغواية وهى ضد الرشاد . ﴿ **مذءوماً** ﴾ : معيباً من ذأم الشىء عابه . ﴿ **مدحوراً** ﴾ : مطروداً مبعداً .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم** ﴾ أى أردنا خلقكم وقدرنا ذلك فى العلم الأزلى ، فخلقنا المادة التى أنشأكم الله فيها ، ثم صورناها ، وقد يكون المراد ولقد خلقنا أباكم آدم من طين ، ثم صورناه بعد ذلك ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا ، وإنما خاطب الله الذرية بما أنعم به على أبيهم ، لأن تكريم الأب تكريم لهم كما قال تعالى لبنى إسرائيل المعاصرين لسيد المرسلين ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ .

ومعلوم أن هذه النعم قد أنعم الله بها على أجدادهم ، فذكر الله بها الأشياء ، لأن نعم الآباء والأجداد نعمة على الأبناء .

ولقد أمر الله تعالى الملائكة وكان إبليس بينهم ، ولم يكن منهم ، أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم ، ولم يكن سجود عباده ، لأنه لا معبود إلا الله ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال له مولانا تبارك وتعالى : ما منعك ألا تسجد أى ما حملك على عدم السجود وقد تكون (لا) فى قوله جل شأنه ما منعك ألا تسجد مزيدة للتوكيد ، أى ما منعك من السجود ، وهو المقصود هنا ، لقد أمره الله بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين .

﴿ **قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ وزعم أن المخلوق بعنصره وجحد أن الفضل للأتقى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾(٢) .

فالمخلوق لا ترجع أفضليته إلى عنصره ، فالعناصر ليست الميزان فى التكريم ، فحق عليه غضب الله وسخطه ، قال ﴿ **فاهبط منها** ﴾ أى اخرج من زمرة الملائكة ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فإن الملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

فاخرج إنك من الصاغرين الأذلاء ، ﴿ **قال أنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ أى أخرنى ، قال ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ أى من المؤخرين . ﴿ **قال فبما أغويتنى** ﴾ أى بما أوقعتنى فى الغواية ﴿ **لأقعدن لهم صراطك المستقيم** ﴾ وذلك للإغواء .

﴿ **ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ أى من الأمام والوراء ، فمن ذهب منهم ليفعل الخير وقفت له فى طريقه بالمرصاد ، ومن ذهب ليقترف المعصية دفعته إليها دفعاً ﴿ **وعن أيمانهم وعن شمائلهم** ﴾ أسد باب الطاعة ، وأفتح باب الغواية ، لكنه لعنه الله لم يستطع أن يأتينا من فوقنا ، أو تحتنا ، ذلك لأن جهة الفوق تنزل منها الرحمات ، وجهة التحت مكان السجود ، فإذا سجد ابن آدم اعتزل

---

(١) الآية ٥٧ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

الشيطان يبكى يقول : « يا ويلى أمر ابن ادم بالسجود فسجد فدخل الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فدخلت النار » .

لذا حذر الله بنى آدم من هذا العدو اللدود ، قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾(١) .

وقال عز وجل : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾(٢) .

قوله تعالى ﴿ **قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين** ﴾ أى من الجن والإنس . ممن كفر وعصى ، ومذءوماً بمعنى معيباً ، ومدحوراً بمعنى مطروداً ، كما قال تعالى ﴿ وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾(٣) وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾(٤) .

وقد شاءت حكمته أن رحمته وسعت كل شىء ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾(٥) .

قال إبليس لرب العزة ، ﴿ **لأغوينهم** ﴾ ما دامت أرواحهم فى أبدانهم ، فقال له رب العزة وعزتى وجلالى لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى .

سبحان من علم الغيوب ووصفه ستر العيوب وكل ذاك سماح
أخفيت ذنب العبد عن كل الورى كرما فليس عليه ثم جناح
منك التفضل والتكرم والرضا أنت الإلـه المنعم الفتاح

أهل ذكرك، أهل عبادتك، أهل طاعتك، أهل محبتك، أهل شكرك، أهل زيادتك ، أهل معصيتك لا تقنطهم من رحمتك ، إن تابوا إليك فأنت حبيبهم ، فإنك تحب التوابين وتحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا فأنت طبيبهم ، تبتليهم بالمصائب لتطهرهم من الذنوب والمعايب . الحسنة عندك بعشرة أمثالها ، وتزيد والسيئة بمثلها ، وتعفو ، وأنت أرأف بعبادك من الأم بولدها .

آدم فى الجنة

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .
(٢) الآيات ٦٠ — ٦٢ من سورة يس .
(٣) الآية ٣٥ من سورة الحجر .
(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة .
(٥) الآية ٨٢ من سورة طه

إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾
قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

المفردات : ﴿ **فوسوس** ﴾ : الوسوسة الصوت الخفى المكرر ، ومنه قيل لصوت الحلى وسوسة ، والمراد هنا ما يجدونه من الخواطر التى تزين ما يضر . ﴿ **ماوُورى** ﴾ : ما ستر وغطى . ﴿ **من سوءاتهما** ﴾ : السوءة ما يسوء الإنسان ويؤلم ، فإذا قيل سوأة الإنسان كان المراد عورته لأنه يسوؤه ظهورها . ﴿ **وقاسمها** ﴾ : أقسم لهما بجد ونشاط . ﴿ **فدلاهما** ﴾ حطهما عن منزلتهما من الجنة . ﴿ **ذاقا الشجرة** ﴾ أكلا منها . ﴿ **وطفقا** ﴾ أخذا وشرعا . ﴿ **بغرور** ﴾ : الغرور الخداع بالباطل . ﴿ **يخصفان** ﴾ : يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة .

إذا كانت قصة آدم قد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى مواضع كثيرة ، فليس ذلك تكراراً ، إنما قصص القرآن كثمار الجنة ، كلما رزق أهل الجنة منها من ثمرة رزقا ، قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ، فإذا كانت ثمار الجنة قد تشابهت إلا أنها قد تنوعت فى طعومها وروائحها ، وإذا كانت القصة فى القرآن قد ذكرت فى مواضع شتى ، فليس ذلك من باب التكرار ، إنما كل قصة فى موضعها لها مغزاها ومبناها ومعناها ، ولها فائدتها المستقلة ، ولها مكانتها من طبقات البلاغة الرفيعة العالية ..

ولما كان آدم نموذجا للبشرية التى عمرت الأرض ، فإن الله تعالى قد أجرى على يديه شئونا كان لابد منها لتكون امتداداً منه لذريته ، فالله جلت قدرته أسجد له الملائكة تكريما له وتفضيلا .. قيل لبلال ابن رباح : « ابن من أنت يا بلال ؟ فقال : أن ابن الذى أسجد الله له الملائكة » .

وإذا كان إبليس قد أبى أن يسجد ، ففى ذلك درس لبنى آدم ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[1] .

وبعد قصة السجود أدخله الله الجنة مع زوجه ليكون لبنى آدم فى ذلك عبرة ، يعلمون منها أن الزواج سنة المرسلين ، وأنه شركة مساهمة رأس مالها المودة والرحمة ، وأنه آية من آيات الله ، وإن تعجب فعجب أن تأتى آية الزواج بين الآيات الكونية ، كأن الزواج سنة من سنن الكون لا يستقيم بدونها ، ولا يقوم بعيدا عنها ..

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .

فقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] : إذا تأملت موقع هذه الآية الكريمة لرأيت أنها سبقت بقوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾[٢] فإذا ما تأملت لحاقها وجدته قول الله جلت قدرته : ﴿ ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم * إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾[٣] .

فهذه آية الزواج وهذا سياقها ، وذاك لحاقها ، كأنها سنة مركوزة فى سنن الكون ، لذلك جاء التعبير القرآنى صريحا واضحا : ﴿ **اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ ولقد أسكن الله آدم الجنة لتشتاق نفسه إليها بعد أن يعيش فيها ، فيمتد هذا الشوق إلى قلوب أبنائه فيعملون أعمالا تقربهم إليها . ولقد نهاه الله عن قرب الشجرة يمتد ذلك التكليف إلى أبنائه . ولقد نسى آدم فنسى أبناؤه ، ولقد أكل من الشجرة فأذنب أبناؤه ، ولقد تاب ليتوب أبناؤه .

قال ﷺ : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »[٤] .

ولقد وسوس الشيطان لآدم فوسوس لأبنائه ، ولقد تاب آدم فتاب الله عليه ، وهذه رحمة من الله تعالى بآدم وأبنائه إن هم تابوا وأنابوا : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا * إنه هو الغفور الرحيم ﴾[٥] ، ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما * ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ سواء أكانت هذه الجنة دار الجزاء ، أم كانت جنة بربوة فوق الأرض ، فليست العبرة فى حقيقة الجنة ، إنما العبرة كامنة فيما حدث فى تلك الجنة ، نعم إنه لا طائل من الخلاف فى حقيقة تلك الجنة التى أدخل الله فيها آدم : أهى الجنة التى أعد الله فيها لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ أم هى جنة خاصة بآدم ؟

ثم إنه لا طائل من البحث عن نوع تلك الشجرة التى نهى الله آدم وزوجه أن يقرباها ، إذ لو كان فى تعيينها خير لعينها الله ، كما عين الشجرة التى أمرت مريم أن تهزها فقال : ﴿ وهزى إليك بجذع النخلة ﴾[٧] . ولقد سبق فى علم الله الأزلى أن آدم وأبناءه سيعمرون الأرض : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾[٨] . وفى سورة الأعراف ، وقبل أن يحدثنا القرآن عن قصة آدم نقرأ قوله

---

(١) الآية ٢١ من سورة الروم . (٢) الآية ٢٠ من سورة الروم . (٣) الآية ٢٢ من سورة الروم .

(٤) أخرجه الترمذى فى القيامة (٤٩) . وابن ماجه فى الزهد (٣٠) . والدارمى فى الرقاق (١٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ١٩٨) .

(٥) الآية ٥٣ من سورة الزمر . (٦) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة الفرقان . (٧) الآية ٢٥ من سورة مريم .

(٨) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

تعالى : ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ﴾[١] .

وقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يمر آدم بتلك المواقع : يدخل الجنة ، ويوسوس له الشيطان ، ويأكل من الشجرة ، ويتوب الله عليه ، ويهبط إلى الأرض ، ويتناسل ، وتأتى كلمة الله الفاصلة ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[٢] .

قوله تعالى : **﴿ فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .**

إن الوساوس التى يلقيها الشيطان فى نفس ابن آدم أشد من وقع السهام على الأكباد ، ولها دبيب كدبيب النمل ، ولا يشترط أن يكون إبليس قد دخل الجنة ليوسوس لآدم ، بل إنه يستطيع ذلك دون أن يدخلها ، بل يستطيع أن يكلمه عن بعد ، وأبناء آدم يجب أن يكونوا على حذر من هذا ، وخير لهم أن يعلموا قول رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[٣] .

وإذا وسوس الشيطان فإنه يأتى الإنسان من مأمنه ، لذا فقد جاء لآدم من نفس المأمن **﴿ مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾** أى مانهاكما عن الأكل منها إلا لهذا الغرض ، فقد نهاكما حتى لا تكون لكما صفة الملائكة من شدة وقوة وطول الأجل ، وحتى لا تكونا خالدين كما قال سبحانه فى سورة طه ﴿ فوسوس إليه الشيطان ، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[٤] .

فالشيطان يعرف أن الإنسان يحب التملك والخلود ، فالله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، وجرت عادة الناس فيها أن من عضته بنابها ذمها ساخطا عليها وشكاها مستزيداً لها ، فكل بنى آدم إلا ما رحم ربى يحبون الخلود فى الدنيا ولو كان طعامها زقوما وهواؤها سموما ، وماؤها آسنا .

ثم أراد الشيطان أن يقنع آدم بما يقول فأقسم بالله إنه من الناصحين لهما . قال تعالى : **﴿ وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ﴾** . ولم يكن آدم يعرف أن هناك من تبلغ به الجرأة فيقسم بالله كاذبا . وكان أحد الصالحين يقول : « من خدعنا بالله انخدعنا به » (ورأى المسيح ابن مريم لصا يسرق فسأله : ما دعاك إلى هذا ، فقال اللص : والله ما سرقت. فقال المسيح: صدقت وكذبت عيناى تعظيما ليمين الله) .

قوله تعالى : **﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ﴾ .**

---

(١) الآية ١٠ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٢٥ من سورة الأعراف .

(٣) أخرجه البخارى فى الأحكام (٢١) وفى بدء الخلق (١١) وفى الاعتكاف (١١ ، ١٢) . وأخرجه أبو داود فى الصوم (٧٨) وفى السنة (١٧) وفى الأدب (٨١) . وأخرجه ابن ماجه فى الصيام (٦٥) . والدارمى فى الرقاق (٦٦) . والإمام أحمد فى (٣ : ١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩) وفى (٦ : ٣٣٧) .

(٤) الآية ١٢٠ من سورة طه .

ما كان آدم ليتصور أن أحدا من خلق الله يعرض يمين الله للكذب ، لذلك بذل إبليس أقصى جهده فى سبيل أن يدفع آدم إلى الأكل من الشجرة ، فاستعمل سلاح القسم .

فدلاهما (أى أهبطهما) بغرور وخداع خبيث ، فأكلا من الشجرة . ولما ذاقاها بدا لهما ما ووری عنهما من سوءاتهما . والسوءة كل ما يسوء الإنسان النظر إليه ويراد بها هنا (العورة) وهكذا من سار فى طاعة الله ألبسه الله ثيابا تقيه من عوادى الشيطان ، ومن تاب إلى الله ستره الله .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا

وليس صحيحاً ما يقال إن المقصود بالشجرة التى أكل منها آدم شجرة الجنس ، فمن قال بذلك فقد قال بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فألفاظ القرآن عربية تفسر بالقواعد العربية ، واللفظ إما حقيقة أو مجاز ، ولا يمكن أن يلجأ إلى المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة ، بشرط أن تكون هناك قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى . وبشرط أن تكون هناك علاقة بين الحقيقة والمجاز ، فإذا قلت : سمعت أسدا يخطب ، فإن الحقيقة هنا متعذرة إذ الخطابة مستحيلة فى حق الأسد . إذن فالأسد هنا مجاز عن الخطيب الشجاع ، وبينه وبين الخطيب علاقة هى التشابه فى الشجاعة ، هكذا تقرر قواعد اللغة التى نزل بها القرآن الكريم بلسان عربى مبين .

فأين القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصلى فى قوله تعالى ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ . وفى قوله جل شأنه : ﴿ **فلما ذاقا الشجرة** ﴾ . وأين العلاقة التى بين الحقيقة والمجاز ؟ إن الشجرة هنا هى الشجرة بوضعها الحقيقى ، لا صلة له بما يقوله الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويحملون الألفاظ مالا تحتمل ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، اللهم إنه لا علاقة ولا قرينة فلا مجاز ، إنما الشجرة لفظ استعمل فيما وضع له فهو على حقيقته .

إن آدم وحواء لما بدت لهما سوءاتهما طفقا وشرعا يخصفان عليهما من ورق الجنة . أى يضعان ورقة فوق ورقة ، لأن ستر السوءات من نداء الفطرة السليمة .

وناداهما ربهما قائلا ومذكرا : ﴿ **ألم أنهكما عن تلكما الشجرة** ﴾ بقولى لكما : ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ ألم ﴿ **أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين** ﴾ .

ولقد شعر آدم وحواء بنار الندم وبوخزها الأليم ، فأقرا واعترفا وتابا وأنابا وتضرعا إلى مالك الملك وملك الملوك ﴿ **قالا : ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .. وكانت هذه كلمات تلقاها آدم من ربه فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم .

﴿ **قال اهبطوا** ﴾ : (أى إلى الأرض التى كتب الله لكم أن تعمروها) والمقصود بالخطاب هنا آدم وحواء وإبليس بعضكم لبعض عدو . وعداوة الشيطان لابن آدم فى غنى عن البيان .

﴿ قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ . وغير بعيد عنا ما سبق ذكره فى قوله تعالى : ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[١] .

ولقد شاءت الحكمة الإلهية العليا أن يظل هذا الصراع بين الحق والباطل إلى يوم الوقت المعلوم ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[٢] .

وشاءت حكمة الله أن يكون لآدم وذريته مستقر فى الأرض ومتاع إلى حين ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ كما قال جلت حكمته : ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٣] .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

توجيه وتحذير

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ **الريش** ﴾ : لباس الحاجة والزينة . ﴿ **ولباس التقوى** ﴾ : ما يلبس من الطاعة فيكون كالثياب التى تقى صاحبها من الوقوع فى مخالفات وذنوب . ﴿ **والفتنة** ﴾ : الابتلاء والاختبار من قولهم فتن الصائغ الذهب أو الفضة إذا عرضهما على النار ليعرف الزيف من النّضار . ﴿ **والقبيل** ﴾ : الجماعة كالقبيلة ، وقيل القبيلة : من كان لهم أب واحد ، والقبيل أعم .

جاءت هاتان الآيتان بعد ذكر قصة آدم فكانتا بمثابة الدرس والعبرة ، ولابد لكل قصة من عبرة ودرس ، فقد امتن الله تعالى على البشرية بأنه أنزل عليها لباسا يوارى السوءة ويستر العورة ، وهذه نعمة لا نستطيع أن نوفى الله شكرها . لكن حسبنا أن نقول : اللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، نحمدك على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .

(١) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٩٠ من سورة يوسف .
(٣) الآية ٥٥ من سورة طه .

إذا كان إبليس بوساوسه قد دلى آدم وحواء بغرور منه فبدت لهما سوآتهما . فإن الله جلت قدرته قد أنزل علينا من الثياب ما نوارى به سوءاتنا . والتعبير بـ ﴿ أنزلنا ﴾ يفيد أن مصدر الإنعام والإكرام وأن ولى النعم هو الله ، وأن الخير بين يديه والشر ليس إليه .

ومع اللباس الذى يستر الأجسام والعورات أنزل ريشا وهو ثياب الزينة التى فيها حسن وجمال ، والله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده . قال رسول الله ﷺ : « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان فى ذمة الله وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا »[١] .

وخير من لباس الزينة لباس التقوى : فالتقوى هى السلاح الأقوى ، فإذا كان اللباس يستر الأبدان ويقيها شر الحر والبرد ، فإن لباس التقوى هو ثياب القلوب يقيها وساوس الشيطان ونوازع النفس إلى مسالك الشر .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى   تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه   ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ **ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون** ﴾ أى ذلك الذى تقدم ذكره من إنزال الثياب والرياش آية من آيات الله عليكم ونعمة من نعمه التى لا تحصى ، لعلهم يذكرون : فجل جلال الله خيره إلى العباد نازل وشرهم إليه صاعد ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[٢] .

قال رسول الله ﷺ « والذى نفس محمد بيده ما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرا فخير وإن شرا فشر » .

قوله تعالى : ﴿ **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما** ﴾ .

بعد أن أرشد الله تعالى عباده إلى أن يتخذوا من اللباس ما يوارى سوءاتهم وكان ذلك الإرشاد امتنانا منه سبحانه وتعالى وتكرما ، حذر الله بعد ذلك بنى آدم من الوقوع فى شراك الشيطان ومصايده ومكايده وشباكه . فقال : ﴿ **يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان** ﴾ وللشيطان فتن يوقع ابن آدم فيها فيشغله بذلك عن ذكر الله ﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾[٣] .

وللشيطان مداخل جاء النهى عنها فى قوله جل شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ وبين عاقبة ذلك فقال : ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾[٤] .
ثم ذكر سبحانه وتعالى أن من أهداف الشيطان أن ينزع عن ابن آدم نعمة اللباس ليريه سوءته وفى

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٤٤) .
(٢) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .
(٣) الآية ٣٨ من سورة النساء .
(٤) الآية ٢١ من سورة النور .

ذلك دليل على أن الإنسان مفطور ومجبول على ستر سوءته فهذا أمر فطرى ، لكن البشرية لما انحرفت عن طريق ربها وسلكت النفوس إلى نوازع الشر بدلت نعمة الله كفراً فأحلوا قومهم دار البوار . نزعت لباسها الذى أنزل الله لها فتعرت من الفضائل ، وما أجمل تعبير القرآن الكريم ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ﴾[1] .

ففى التعبير بالانسلاخ ما يفيد التشويه ، فقد كانت الآيات تزين صاحبها وتكسوه ثوب الجمال والجلال والكمال ، فلما تركها وانفصل عنها أصبح شائها قبيحا ، كذلك يفعل الشيطان مع ابن آدم عندما ينزع عنه لباسه فتبدو سوءته ، وقد كان ﷺ يدعو الله فيقول : اللهم استرعوراتنا وآمن روعاتنا .

فانظر كيف قرن ستر العورة بالأمن من الروعات . بل قدم الستر على الأمن ، لتعلم البشرية جمعاء أن الستر نعمة من أجل النعم ، ويوم تفقد البشرية هذه النعمة ، فقد انخرطت فى سلك العجماوات . بل إن هناك من الحيوانات أنواعا أبت أن تواقع إناثها إلا بعيدا عن عيون الرقباء ، فما أحوج ابن آدم إلى أن يسلك طريق الله ، إن للشيطان مكايد ، ولتلك المكايد عواقب وبعد هذه العواقب تدمير وهلاك . فكم قوّض من أمم عندما احترقت بنار الشهوات ..

﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** ﴾ والعدو الذى لا يرى أشد خطرا وأشد تنكيلا من العدو الذى يرى قال صاحب البردة :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك الـــنصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

إن الشيطان بمكايده قد يصل بالإنسان إلى مرحلة هى غاية فى الذلة ، فيزين له القبيح فيراه حسنا . قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾[2] وقال جل شأنه : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾[3] ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[4]. ذلك لأن شبيه الشيء منجذب إليه ، وأن الطيور على أشكالها تقع . ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ﴾[6] . وقال جل شأنه : ﴿ ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾[7] .

وهناك حزبان : حزب الرحمن وحزب الشيطان ولكل منهما أولياء وتابعون. قال الله تعالى مخبرا عن حزب الرحمن : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم

---

(١) الآية ١٧٥ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٢٤ من سورة النمل .
(٣) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(٦) الآية ٢٦ من سورة النور .
(٧) الآية ١١٩ ــ ١٢١ من سورة النساء .

أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ . وقال جل شأنه مخبرا عن حزب الشيطان : ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون * إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾(١) وقد يصل الشيطان بالإنسان إلى مرحلة يصبح الإنسان فيها أستاذا فى الغواية يقول أحدهم :

وكنت امرأً من جند إبليس فارتقى بى الحال حتى صار إبليس من جندى

وقد بين الله عز وجل حال ذلك الذى انسلخ من الآيات بأنه أصبح متبوعا والشيطان تابعا فقال : ﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ ولم يقل فتبع الشيطان فاللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال .

افتراء على الله

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

المفردات : ﴿ **الفاحشة** ﴾ الفعلة المتناهية فى القبح ، والمراد بها هنا طواف أهل الجاهلية عُراة كما ولدتهم أمهاتهم ويقولون : لا نطوف بيت ربنا فى ثياب عصيناه بها . ﴿ **والقسط** ﴾ : الاعتدال فى جميع الأمور ، وهو الوسط بين الإفراط والتفريط . ﴿ **وإقامة الشىء** ﴾ : إعطاؤه حقه وتوفيته شروطه كإقامة الصلاة وإقامة الوزن بالقسط . ﴿ **والوجه** ﴾ : قد يطلق على العضو المعروف من الإنسان كما فى قوله ﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام ﴾(٢) وقد يطلق على توجه القلب وصحة القصد كما فى قوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً ﴾(٣) .

لما ذكر سبحانه وتعالى أن هناك من اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، فجعلهم الله تعالى أولياء للذين لا يؤمنون ، ذكر هنا صورة من صور أولياء الشيطان وما أكثرها فقال : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها** ﴾ لقد كان يطوفون بالبيت عراة رجالا ونساء فإذا سئلوا عن ذلك قالوا : ما كان ينبغى لنا أن نطوف فى ثياب عصينا الله فيها ، وهذا القول كما يقولون عذر أقبح من

---

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة المجادلة .
(٢) الآية ١٤٤ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٣٠ من سورة الروم .

الذنب . فإذا ما نصحهم الناصحون ، ووجههم أهل المعرفة ، قالوا : وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . ثم يزيدون الأمر كذبا وبهتانا فيقولون : والله أمرنا بها . فجاء الرد والجواب : ﴿ **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ .

وفى هذا الاستفهام توبيخ وتبكيت وتقريع ، فمن أضل ممن اتبع هواه بغير علم ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فمن أظلم من افترى على الله كذباً ، ومن أشد ضلالا ممن قال على الله ما لم يقله ؟ ومن أعظم جرما ممن يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ؟ ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا * أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾(١) .

إن شر ما ابتليت به البشرية التقليد الأعمى : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾(٢) .

فكيف طوعت لهؤلاء أنفسهم أن يسندوا فعل الفاحشة إلى أمر الله ؟ إن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء . ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾(٣) . ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم ﴾(٤) .

إن الإسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، والفحشاء تنافى الفطرة وتجافيها ، فإذا ما انحرفت الأهواء بالنفوس حادت عن طريق الجادة وتنكبت الصراط السوى ، لذلك قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل : ليته ما أمر . ولم ينه عن شيء وقال العقل : ليته ما نهى .

إن الإسلام جلال وكمال وجمال وهو المستقيم الذى لا اعوجاج فيه ، دعا الناس إلى ما يسعدهم ونهاهم عما يضرهم ، قال تعالى : ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾(٥) .

إن العمل الصالح من أخص خصائص الفطرة السوية ، وإنه ليكسب صاحبه الحياة الطيبة فى الدنيا والأجر الحسن فى الآخرة ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٦) .

---

(١) الآية ٢١ من سورة لقمان .
(٢) الآيات ٢٢ – ٢٥ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٩٠ من سورة النحل .
(٤) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة .
(٥) الآيات ١٢٣ – ١٢٦ من سورة طه .
(٦) الآية ٩٧ من سورة النحل .

إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴿ **قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** ﴾ . لقد ظلوا فى جاهليتهم يطوفون بالبيت عراة الأجسام وفى طوافهم يصفرون ويصفقون ﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلامكاء وتصدية ﴾[١] أى صفيراً وتصفيقاً ، ظلوا كذلك إلى أن نزل صدر سورة براءة وفيه يقول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ .

ولما حج أبو بكر رضى الله عنه بالمسلمين بالعام التاسع وكان هو الأمير على الحجيج ، ولحق به على ابن أبى طالب يحمل معه صدر سورة براءة أخذ على يبلغ المشركين فى مكة وأعلن فى صراحة وحزم أن لن يحج بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة كافر ، وبإعلان تلك المبادىء وانتهاء مدة الهدنة التى حددها الله تعالى بأربعة أشهر فى قوله : ﴿ فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله ﴾[٢] بعد هذا كله علموا أنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فدخلوا الإسلام أفواجا ، فصنعهم الإسلام على عينيه وأحاطهم بالعناية والرعاية ثم أنشأهم خلقا آخر ، فجعل منهم قادة للأمم بعد أن كانوا رعاة للغنم ، وصنع منهم زعماء للبشر بعد أن كانوا عبادا للحجر .

ولما حج رسول الله ﷺ حجة الوداع لم يكن بينهم من يدعو غير الله ، بل كانوا جميعا يهتفون « بلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » . وارتفعت الحناجر تشق أجواز الفضاء : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، وتغيرت الحال غير الحال ، فطافوا بالبيت برداء وإزار ، وأقاموا وجوههم عند كل مسجد عابدين لله وحده حنفاء مخلصين له الدين ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾[٣] . وهذا هو القسط والاعتدال وإخلاص العبودية لله .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

قوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ : أى كما خلقكم أول مرة تعودون يوم القيامة كقوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾[٤] . وكقوله جل شأنه : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾[٥] .

والناس فى العودة فريقان قال تعالى ﴿ **فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ . فمن اتبع هدى

(١) الآية ٣٥ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .
(٣) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الكهف .

الله وسار على صراطه المستقيم وأخلص له الدين يعود يوم القيامة فى زمرة السعداء ، فلا يضل ولا يشقى ومن يعش عن ذكر الرحمن ويعرض عنه فإن له معيشة ضنكا ويعود فى الآخرة كما قال الله تعالى : ﴿ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾(١) ذلك لأنه حقت عليه الضلالة ، وما حقت عليهم الضلالة إلا أنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله .

والشياطين هنا تشمل شياطين الإنس والجن ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾(٢) . لقد اتخذوهم أولياء فأحلوا لهم وحرموا ، وزينوا لهم القبيح فرأوه حسنا ، فظلموا عباد الله وأضلوهم . ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا * وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا * وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾(٣) .

وقمة المأساة وذورة الضلال أن يسىء الإنسان ويحسب أنه على هدى قال تعالى : ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ . قال جل شأنه : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً ﴾(٤) .

بيان وإرشاد

يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

نداء من الله تبارك وتعالى إلى بنى آدم الذين من الله عليهم بإنزال اللباس الذى يوارى السوءات واللباس الذى هو الزينة والجمال ، الذى سماه القرآن الكريم ريشاً ، نداء كريم من رب عظيم ، أمرهم فيه سبحانه أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد والمسجد هو كل مكان يسجد فيه لله رب العالمين ، كما تفيد اللغة . وسواء أكان الأمر بأخذ الزينة عند الصلاة أو عند قصد المسجد ، فإن ذلك أمر مرغوب فيه ، فإن الله تعالى جميل يحب الجمال ، فما بالك إذا كان التجمل لله وفى أسمى المواطن ، وقد شرع الله الغسل ،

(١) الآية ١٢٤ من سورة طه .
(٢) الآية ١١٢ من سورة الأنعام .
(٣) الآيات ٢٧ — ٣١ من سورة الفرقان .
(٤) الآيات ١٠٣ — ١٠٦ من سورة الكهف .

وأمر بالتجمل والنظافة [فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زارنى فى بيتى ، وحق على المزور أن يكرم زائره] (١) كما جاء فى الحديث القدسى .

وإن من سمات الإسلام أن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ، وقد قال رسول الله ﷺ « إن الله جميل يحب الجمال قال رجل يا رسول الله الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنا أهذا من الكبر ؟ قال رسول الله ﷺ الكبر غمط الناس وبطر الحق » (٢) .

وقد أرشد الرسول ﷺ أمته إلى أهمية النظافة فقال : « تنظفوا فإن بنى إسرائيل لم يتنظفوا لنسائهم فزنت نساؤهم » .

ولما أمر الله عباده المؤمنين بأخذ الزينة عند كل مسجد أباح لهم الأكل والشرب فى غير مخيلة أو سرف ، وفى هذه الآية الكريمة جمع الله الطب كله إذ يقول : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ .

قال أحد الزنادقة لأحد علماء المسلمين : إن كتابكم خلا من الطب فقال له العالم المسلم إن الله تعالى جمع الطب كله فى نصف آية فقال : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾ .

والناظر فى كتاب الله جل وعلا يجد فيه الصحة الغذائية فى مثل قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ﴾(٤) وقوله جل وعلا : ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾(٥) وقوله جل شأنه : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ .

كما يجد الصحة الوقائية فى مثل قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ﴾(٦) . وقوله جل جلاله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾(٧) .

كما يجد الطب الاجتماعى فى قوله جل شأنه ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(٨) .

كما يجد الطب النفسانى فى قوله تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾(٩) .

فهل ترك القرآن شيئا فيه مصالح العباد إلا أمر به ، أو شيئا فيه مفسدة إلا نهى عنه ألا يعلم من

(١) أخرجه مسلم فى المساجد (٢٨٢) . وابن ماجه فى الإقامة (١٩٧) . والإمام أحمد فى (٣ : ٣٩) وفى (٤ : ١٥٧) وفى (٥ : ١٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦) . والترمذى فى البر (٦٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٥ ، ٤٢٧) .

(٣) الآية ١٦٨ من سورة البقرة .

(٤) الآية ٢٣٣ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٤١ من سورة الأنعام .

(٦) الآية ٣ من سورة المائدة .

(٧) الآية ٩٠ من سورة المائدة .

(٨) الآية ٢١ من سورة الروم .

(٩) الآية ٥٣ من سورة الزمر .

خلق وهو اللطيف الخبير . إن للإنسان دوافع فطرية لا يستغنى عنها بشر منها . اللباس والطعام والشراب . وقد جاءت هذه الثلاثة فى تلك الآية الكريمة . وللنبى ﷺ فى هذه الأمور الثلاثة أحاديث نذكرها فيما يلى :

- قال رسول الله ﷺ :« ألبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم وإن خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر» [(١)] .
- وقال رسول الله ﷺ :« عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم» [(٢)] .
- وقال صلى الله عليه وسلم : « كلوا واشربوا وألبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده »[(٣)] .
- وقال رسول الله ﷺ : «ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه . حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه فإن كان فاعلاً لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» [(٤)] .
- قال رسول الله ﷺ :« إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت» [(٥)]

قوله تعالى ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق** ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ﴾[(٦)] .

والزينة ما دامت فى غير سرف أو مخيلة فإنها من الأمور المباحات التى أنعم الله بها على عباده ، وكذلك الطيبات من الرزق . فإن الله تعالى بعث نبيه ﷺ بشرع هو للأمم المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالأب الرحيم بعثه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحل الطيبات ويحرم الخبائث ، يوحد العقائد ولا يفرق القواعد وقد انساب أصحابه فى أرجاء الدنيا ينشرون العدل والحق والحرية يعملون على البناء ويقضون على معاول الهدم ، أطبوا المريض بدوائهم وأمنوا الخائف فى رحابهم ، وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم . صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لهم .

قوله تعالى : ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾ . قال إبراهيم لربه : ﴿ رب اجعل هذا بلد آمنا ، وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾[(٧)] .

وأراد إبراهيم أن يكون الرزق مقصورا على المؤمنين ، لكن الحليم الكريم سبحانه ، قال : ﴿ **ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير** ﴾ .﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[(٨)] فإذا كان المؤمن وغير المؤمن يأكلون فى

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز (١٢) وفى اللباس (٥) . وأخرجه البخارى فى اللباس (٢٤) . وأبو داود فى الطب (١٤) وفى اللباس (١٣) . وأخرجه الترمذى فى الجنائز (١٨) . والنسائى فى الجنائز (٣٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، ٣٢٨ ، ٣٥٥ ، ٣٦٣) وفى (٥ : ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٧ - ٢٠) .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى اللباس (٥) .

(٣) أخرجه البخارى فى اللباس (١) . والنسائى فى الزكاة (٦٦) . وابن ماجة فى اللباس (٢٣) . والامام أحمد فى (٢ : ١٨١ ، ١٨٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الأطعمة (٥٠) . والترمذى فى الزهد (٤٧) .

(٥) أخرجه ابن ماجه فى الأطعمة (٥١) .

(٦) الآية ٨٧ من سورة المائدة .

(٧) الآية ١٢٦ من سورة البقرة .

(٨) الآية ٦ من سورة هود .

الدنيا من رزق الله ، فإن الطيبات من الرزق خالصة للذين آمنوا فى دار النعيم إذ أن غير المؤمنين قد حرم الله عليهم الجنة ومأواهم النار وما للظالمين من أنصار .

قوله جل شأنه : ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى مثل هذا التفصيل الذى سبق نبين الأحكام ونوضحها توضيحا لقوم يعلمون ، فالعلم نور وضياء حبذا إذا كان علما نافعا مقترنا بالعمل الصالح ، اللهم إنا نسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء ، ونعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع ودعاء لا يسمع .

المحرمات

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣)

المفردات : ﴿ **الفواحش** ﴾ : واحدها فاحشة، وهى الخصلة التى يقبح فعلها لدى أرباب الفطر السليمة والعقول الراجحة ، ويطلقونها أحيانا على الزنا والبخل والقذف بالفحشاء والبذاء المتناهى فى القبح . ﴿ **والإثم** ﴾ : لغة القبيح الضار ، وهو شامل لجميع المعاصى كبائرها كالفواحش وصغائرها كالنظر بشهوة لغير الحليلة . ﴿ **والبغى** ﴾ : تجاوز الحد : وقد قالوا : بغى الجرح ، إذا تجاوز الحد فى الفساد ، ومنه قوله تعالى ﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ﴾[1] .

لما لبس المسلمون الثياب وطافوا بالبيت عيرهم المشركون بذلك فقال الله : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين حرموا ما أحل الله من الطيبات والرزق واللباس ما حرم ربى هذا ، وإنما حرم الفواحش وما قبح جرمها كالزنا ما ظهر منه وما بطن ، وإذاعة السوء ، وخيانة الوطن ، والخروج على الجماعة ، وهكذا كل ذنب يكون خطره جسيما ، وكذا حرم الإثم الذى يوجب الذنب ، وحرم البغى وتجاوز الحقوق وقيد البغى بغير الحق ، لأن التجاوز إذا كان للمصلحة ومع التراخى فلا شىء فيه . وحرم الإشراك بالله غيره من صنم أو وثن لم ينزل به سلطانا وحجة ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ﴾[2] .

وحرم كذلك أن تقولوا على الله مالا تعلمون أى بغير علم ولا حجة ، والقول على الله وعلى دينه يكون بتحليل حلال أو تحريم حرام بلا سند ولا حجة ، وهو القول بالرأى ، وهذا منشأ تحريم الأديان ، واتباع الهوى والشيطان ، كما فعل أهل الكتاب ﴿**ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام** ﴾[3] بل علينا ألا نتخطى أصول الدين من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس وهذه الأصول لم تترك شيئا .

(١) الآية ٢٣ من سورة يونس .
(٢) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ١١٦ من سورة النحل .

لكل أمة أجل

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

المفردات : ﴿ **أجل** ﴾ : وقت مضروب الله أعلم به . ﴿ **ساعة** ﴾ أقل وقت يمكن فيه قضاء عمل من الأعمال .

لكل أمة أجل محدود ووقت مضروب يعلمه الله سبحانه ، وتنتهى عنده، كما أن لكل شيء فى الوجود أجلا كذلك ، فلكل أمة زمان معلوم ، تكون فيه سعيدة عزيزة أو شقية ذليلة .

فعزة الأمم وسعادتها تكون بامتثال الشرع وذيوع الفضيلة .

والتمسك بأهداب الدين والمثل العليا ولها فى ذلك أجل محدود .

وشقاء الأمم وذلها يكون ببعدهم عن الفضيلة ، وذيوع الرذيلة وشيوع الغش والرشوة والفساد والإسراف والظلم والإثم والبغى ، ولها فى ذلك أجل محدود .

أما فناء الأمم وهلاكها بالإبادة لمخالفتها الشرع فانتهى ببعثه الرسول ﷺ ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[1] .

وقد جرت سنته تعالى بذلك مع جميع الأمم فنرى فى أمم الغرب أمة قوية عزيزة ، لأنها تتمسك بالفضيلة والاعتدال وعدم الإسراف ، ولها أجل محدود ما دامت متمسكة بالحق ، وبجانبها أمة ذليلة مهينة لأنها تتمسك بالرذيلة والإسراف ، والأمة الإسلامية أولى بالتمسك بالمثل العليا وعدم الإسراف ومجاوزة الحد فى شيء ، وبخاصة وأن دينها يأمرها بهذا والله سبحانه وتعالى إذا قضى على أمة بالفناء فى ساعة لا تتقدم ولا تتأخر أصلا فهذا تهديد ووعيد لمن يخالف الأمر ويسير على غير هدى .

مهمة الرسول وعاقبة العمل

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يا بنى آدم إن تأتيكم رسل منكم تعرفونهم ، ويمكنكم الحكم على أعمالهم ، يقصون عليكم آياتى

(١) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

ويتابعونها آية بعد آية ، مبشرين ومنذرين ، داعين إلى الفضيلة ، ناهين عن الرذيلة ، وهذه هى مهمة الرسل قديما وحديثا ، فمن اتقى وأصلح نفسه بالعمل والنية الصادقة فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كذبوا بآياتنا ورفضوها كبراً وعناداً واستكباراً عن الحق ، وعتوا كما فعل زعماء قريش أولئك هم أصحاب النار فيها خالدون ، وماكثون مكثا الله أعلم به .

عاقبة الكذب على الله مع
ذكر مشهد من مشاهد
يوم القيامة

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ
فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ
لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾
وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

المفردات : ﴿ **اداركوا** ﴾ : تلاحقوا وادارك بعضهم بعضاً واجتمعوا . ﴿ **ضعفاً** ﴾ : هو المثل الزائد على مثله مرة أو مرات .

لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذباً ، واختلق زورا وبهتانا ، بأن حرم حلالا ، أو حلل حراماً ، أو نسب إليه ولداً أو شريكاً ، أو كذب بآياته واستكبر عنها واستهزأ بها .

أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب المكتوب ، والقدر المقدور ، فى الرزق والعمر والمتاع فى الدنيا والحظ ، حتى إذا جاءتهم ملائكة الموت متوفين لهم قابضين لأرواحهم قالوا لهم : تأنيباً وتوبيخاً : أين ما كنتم تدعونهم من دون الله من الشركاء والشفعاء ، قالوا ضلوا عنا وغابوا ، لا ندرى مكانهم ، ولا نرى أثرهم ، فنحن لا نرجو منهم خيراً ولا نفعاً ، وشهدوا على أنفسهم ، واعترفوا عليها بأنهم كانوا بعبادتهم ودعائهم لهم كافرين .

وهذا تحذير للكافرين الموجودين من عواقب الكفر والضلال يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك

الظالمين المكذبين بآيات الله وهم كفار العرب ادخلوا مع أمم قد سبقتكم فى الكفر ، وفى دخول النار وهم أولياؤكم من الجن والإنس .

﴿ كلما دخلت ﴾ جماعة ورأت ما حل بها من الخزى والنكال ﴿ لعنت أختها ﴾ فى الدين والملة ، إذ هى قد ضلت باتباعها ، والامتداد بكفرها حتى إذا تداركوا فى النار جميعاً . واجتمعوا قالت أخراهم فى الدخول وهم الأتباع والسفلة لأولاهم أى فى شأنهم وحقهم ، وهم السادة والزعماء قالوا مخاطبين الله ﴿ ربنا هؤلاء ﴾ أى السادة ﴿ أضلونا ﴾ وأثروا علينا فآتهم ضعفاً من عذاب النار ، لإضلالهم لنا زيادة على عذاب ضلالهم فى أنفسهم .

قال الله لهم : لكل منكم ضعف من العذاب بإضلاله فوق العذاب على ضلاله ، ولكنكم لا تعلمون عذابهم .

وقالت أولاهم لأخراهم : إذا كان الأمر كما ذكرتم من أننا أضللناكم فما كان لكم علينا من أدنى فضل تطلبون به أن يكون عذابكم دون عذابنا ، فيقول الله لهم ذوقوا جميعاً العذاب كاملاً ، بما كنتم تكسبون

جزاء الكافرين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾

المفردات : ﴿ الجمل ﴾ : البعير الذى طلع نابه . ﴿ سم الخياط ﴾ : ثقب الإبرة . ﴿ المجرمين ﴾ : أجرم قطع الثمرة من الشجرة ثم استعمل فى كل إفساد . ﴿ مهاد ﴾ : فراش . ﴿ غواش ﴾ : جمع غاشية وهى ما يغشى الشىء أى يغطيه كاللحاف .

إن الذين كذبوا بآياتنا الدالة على الوحدانية والبعث ، وعلى صدق الرسول ، مع بيانها للأحكام ولأصول الدين ، إن الذين كذبوا بها واستكبروا عنها لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، ولا تصعد إليها أعمالهم ، فإنها هباء منثور لا خير فيه .

﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[1] .

---

(١) الآية رقم ١٠ من سورة فاطر .

ولا يدخلون الجنة أبدا ، فهم مطرودون من رحمة الله ، ومثل ذلك الجزاء يجزى به كل من أجرم فى حق الله ، وفى خلق نفسه ، وفى حق إخوانه من المسلمين .

لهؤلاء من نار جهنم فراش يفترشونه ، ولحاف يلتحفون به ، فهم والعياذ بالله بين طبقات جهنم ماكثون ، وهى محيطة بهم ، والله محيط بأعمالهم وبئس المصير مصيرهم ، ولا غرابة فى ذلك كذلك نجزى الظالمين .

جزاء المؤمنين

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ **وسعها** ﴾ : طاقتها وما تقدم عليه حال السعة والسهولة . ﴿ **نزعنا** ﴾ : قلعنا . ﴿ **غل** ﴾ : حقد وحسد . ﴿ **أورثتموها** ﴾ : صارت إليكم كما يصير الميراث إلى صاحبه .

هذا وعد ربك بالحق بعد ما أوعد الكافرين ، وهكذا نظام القرآن وعد ووعيد ، ليتميز الحق من الباطل ، والمؤمن من الكافر .

والذين آمنوا بالله ورسله وعملوا العمل الصالح الذى ارتضاه ربهم لهم ، أولئك الموصوفون بما ذكر من معانى الكمال والصدق ، المشار إليهم ، المتميزون لعلو درجتهم ، هم أصحاب الجنة الملازمون لها ، وهم فيها خالدون وقد جاء قوله تعالى ﴿ **لا نكلف نفساً إلا وسعها** ﴾ بين العمل وجزاءه على سبيل الاعتراض ، للإشارة إلى أن هذا العمل الصالح الذى يستحق صاحبه دخول الجنة ، ليس شاقاً ولا فوق طاقة البشر ، بل هو عمل سهل فى متناول اليد ، متى حل فى قلب الإنسان نور الإيمان ، وهدى القرآن ، هم فى الجنة خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر ، ولا يكدرهم كدر ، ولا يؤلمهم ألم .

وليس بينهم شر ، لأن الله نزع ما فى صدورهم من حسد وعداوة وغل وحقد ، وهكذا نعيم الجنة : أكلها دائم ، وظلها كذلك ، وفيها الأنهار تجرى من تحتهم ، فيرونها تفيض بالماء وهم فى غرفاتهم آمنون ، فيزدادون حبوراً وسروراً ، وقالوا شاكرين نعمه : الحمد لله الذى هدانا لهذا العمل حتى أخذنا ذلك الثواب ، وما كان من شأننا ولا من مقتضى تفكيرنا أن نهتدى إليه بأنفسنا لولا أن هدانا الله ، ووفقنا لاتباع الرسل .

وقالوا لما رأوا كل شئ يجرى على حسب ما أخبر به الرسل ، لقد جاءت الرسل بالحق ، وصدقنا الله وعده فى الدنيا ، وهذه الملائكة تناديهم ﴿ سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[1] .

فهذه هى الجنة التى أورثتموها ، وصارت لكم كما يصير الميراث جزاء أعمالكم .

وفى الآية دليل على أن الانسان يدخل الجنة بعمله ، وفى الحديث لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته .

والمخرج من هذا أن عمل الإنسان مهما كان لا يستحق به ذلك النعيم الواسع العريض ، لولا رحمة الله وفضله ، ومن ثم قيل فى الحديث ﴿ فسددوا وقاربوا ﴾ أى لا تبالغوا . والله أعلم .

حوار بين أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف

وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا۟ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

المفردات : ﴿ **فأذن** ﴾ :الأذان والتأذين رفع الصوت بالإعلام . ﴿ **لعنة الله** ﴾ : اللعن الطرد من الرحمة مع الإهانة . ﴿ **عوجا** ﴾ : ذات عوج أى غير مستقيمة ولا مستوية . ﴿ **حجاب** ﴾ : سور بين الجنة والنار . ﴿ **الأعراف** ﴾ : جمع عرف مأخوذ من عرف الديك والفرس ويطلق على أعلى الشىء وكل مرتفع . ﴿ **بسيماهم** ﴾ : السيما والسيمياء العلامة . ﴿ **صرفت** ﴾ : حولت .

هذا فريق فى الجنة وهذا فريق فى النار ، وقد حصل بينهما حوار حكاه القرآن إظهاراً للحق ، وإعلانا عن خطر الكفر والإيمان ، وبيانا لعاقبة كل .

وما نراه الآن من مخترعات يغنينا عن الكلام فى كيفية سماع الكلام ، ورؤية الأشخاص ، مع البعد فى المكان فالله على كل شىء قدير .

نادى أصحاب الجنة قائلين يا أصحاب النار ، يا أهل الكفر والفسوق والعصيان والضلال

(١) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

والبهتان : إن الحال والشأن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ولقد جاءت رسل ربنا بالحق ، وصدق الله وعده ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العذاب والألم ؟

هل وجدتموه حقا ؟ قالوا : نعم وجدنا ما وعدنا ربنا على الكفر ، فهذه هى النار تتميز غيظاً ، وتقول هل من مزيد ؟

فأذن مؤذن بينهم بحيث سمع صوته أصحاب النار ، وأصحاب الجنة أذن قائلا .

ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين ظلموا أنفسهم بعدم الإيمان ، وهم الذين يصدون عن سبيل الله بغيا وعدوانا ، ويطلبونها معوجة غير مستقيمة حتى ينفر الناس منها ، ويبتعدوا عنها ، وهم بالآخرة كافرون .

وبين أهل الجنة وأهل النار سور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، وعلى أعالى ذلك السور رجال يرون أهل الجنة وأهل النار ، ويعرفون كلاً بعلامة ﴿ وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾[1] .

هؤلاء الذين على الأعراف رجال موحدون ، قصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار ، وقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة أن سلام عليكم طبتم ، فنعم أجر العاملين ، وهم لم يدخلوا ، أى الجنة ، ولكنهم يطمعون فيها ، فهم بين الخوف والرجا .

وإذا صرفت أعين أصحاب الأعراف من النظر إلى أهل الجنة ، إلى النظر إلى أهل النار من غير قصد ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

حوار بين أصحاب الأعراف وأصحاب النار

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٤٩﴾

هذا حوار بين أصحاب الأعراف وبين أهل النار ، فأصحاب الأعراف ينادون رجالاً من أهل النار وقد عرفوهم بسيماهم قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾[2] وقال جل شأنه : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾[3].

---

(١) الآيات ٣٨ – ٤٢ من سورة عبس .

(٢) الآية ٤١ من سورة الرحمن .

(٣) الآيات ٤٠ ، ٤٢ من سورة عبس .

وقال عز من قائل : ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾(١).

إنهم سود الوجوه ، زرق العيون ، قال سبحانه : ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرقا ﴾(٢).

إن أصحاب الأعراف قد عرفوا هؤلاء الجبابرة الطغاة الظلمة بتلك العلامات ، فقالوا لهم موبِّخين : ﴿ **ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون** ﴾ .

أى هل أغنى عنكم جمعكم شيئاً ، لقد تجمعتم ضد الحق وتعصبتم للباطل ، وحشدتم للإسلام ونبيه وأتباعه كل ما تملكون من قوة ، فجيَّشتم الجيوش ، وجمعتم الأموال ، فهل أغنى كل ذلك شيئاً : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم ﴾(٣).

وهل أغنى عنكم استكباركم عن قبول الحق ، لقد أعماكم الكبر ، ووضع على أعينكم غشاوة حتى زين الشيطان لكم سوء أعمالكم ، فرأيتم القبيح حسناً ، والضلالة هدى ، فهل أغنى جمعكم وكبركم شيئاً كلا ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله * فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه ﴾(٤).

ثم نظر أهل الأعراف إلى الذين كانوا مستضعفين في الأرض ، أمثال بلال وعمار وصهيب وخباب ، وقالوا لأهل النار : ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة** ﴾ فقد كان المستكبرون يظنون أن من حرم المال في الدنيا والجاه والقوة فسيحرم يوم القيامة من دخول الجنة ، حتى قال أحدهم وقد دخل جنته في الدنيا ﴿ ما أظن أن تبيد هذه أبداً * وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾(٥).

وكان هذا منهم جهلاً بحقائق الأمور ، لأن الله تعالى لا يعبأ بصورنا وأموالنا ، إنما بقلوبنا وأعمالنا ، قال سبحانه : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(٦).

فليس الغنى ميزاناً للعمل ، وليس الفقر ميزاناً للعمل ، إنما الميزان الصحيح هو تقوى الله ، قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾(٧).

(١) الآية ٦٠ من سورة الزمر . (٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الأنفال . (٥) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة الكهف .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة طه . (٤) الآيات ٢٥ - ٣٠ من سورة الحاقة . (٦) الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(٧) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة المؤمنون .

إن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبداً حبشياً ، وأعد النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً : ﴿أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمت ربك خير مما يجمعون * ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[1].

وبعد أن ينتهى هذا الحديث الموجه من أصحاب الأعراف إلى أهل النار ، يقال لأهل الأعراف : أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون .

قال حذيفة : (إن أصحاب الأعراف قوم تكافئت أعمالهم ، فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم فى طلب الشفاعة ، فأتوا آدم فقالوا : يا آدم أنت أبونا فاشفع لنا عند ربك . فقال : هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمته إليه غضبه ، وسجدت له الملائكة غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابنى إبراهيم .

فيأتون إبراهيم ﷺ فيسألونه أنه يشفع لهم عند ربهم ، فيقول : هل تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً ؟ هل تعلمون أن أحداً أحرقه قومه بالنار فى الله غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابنى موسى .

فيأتون موسى عليه السلام فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً ، وقربه نجيا غيرى ؟ فيقولون : لا . فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا عيسى .

فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون له : اشفع لنا عند ربك . فيقول : هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب ؟ فيقولون : لا . فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله غيرى ؟ قال : فيقولون : لا . فيقول : أنا حجيج نفسى ، ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم .

فيأتونى فأضرب بيدى على صدرى . ثم أقول : أنا لها . ثم أمشى حتى أقف بين يدى العرش ، فآتى ربى عز وجل ، فيفتح لى من الثناء ما لم يسمع السامعون بمثله . قط ، ثم أسجد . فيقال لى : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، ثم أثنى على ربى عز وجل ، ثم أخر ساجداً ، فيقال لى : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى . فأقول : ربى أمتى . فيقول: هم لك ، فلا يبقى نبى مرسل ، ولا ملك مقرب ، الا غبطنى بذلك المقام ، وهو المقام المحمود .

(١) الآيات ٣٢ - ٣٦ من سورة الزخرف .

فآتى بهم الجنة ، فاستفتح فيفتح لى ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له نهر الحيوان حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصباؤه الياقوت ، فيغتسلون منه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة ، وريح أهل الجنة ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقى فى صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال مساكين أهل الجنة »[١].

بين أصحاب النار وأصحاب الجنة

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾

سأل ابن عباس أى الصدقة أفضل فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله »[٢].

وقد أخبر الله تعالى عن ذلة أهل النار وما سيكونون عليه من سوء المآل ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٣].

أنهم سينادون على أهل الجنة يسألونهم الماء والطعام ، فيقول لهم أهل الجنة : ﴿ **إن الله حرمهما على الكافرين** ﴾ لقد كانوا فى الدنيا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآيات الله كذاباً ، فكان جزاؤهم أن يقال لهم ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ وأن يقال لهم : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً ﴾[٤].

وأن يقال لهم : ﴿ إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلي في البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾[٥].

وأن يقال لهم : ﴿ خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم ههنا حميم * ولا طعام إلا من

---

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ١٧ : ١٩) وفى الجمعة (٦٣) وفى القيامة (١٠) . والبخارى فى التوحيد (١٩ ، ٢٤ ، ٣٦) وفى الرقاق (٥١) وفى الأنبياء (٣) وفى تفسير (سورة ١٧ : ٥) . ومسلم فى الايمان (٣٢٢ ، ٣٢٧) . وأبو داود فى الجهاد (١١٤) . والنسائى فى السهو (٤٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٧) . والدارمى فى السير (٢٨) . والامام أحمد فى (٢ : ١٧٢ ، ٤٣٦ ، ٤٥٢) وفى (١٥ ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٣٩٣) .

(٢) أخرجه أبو داود فى الزكاة (٤١) .

(٣) الآية ٢٧ من سورة يونس .

(٤) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٥) الآيات ٤٣ – ٤٩ من سورة الدخان .

غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون ﴾[١] ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴾[٢] ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾[٣] ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾[٤].

إن هؤلاء الذين حرموا نعيم الجنة ، اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فما أقاموا للدين وزناً ، ولا للشرع غبرة ، بل كانوا كما قال تعالى : ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون * ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴾[٥].

إن هؤلاء الذين غرتهم الحياة الدنيا بزخرفها ومتاعها ، جهلوا أن الدينا مزرعة للآخرة . وما الإنسان فيها إلا وديعة ، ولابد يوماً أن ترد الوديعة ، وأن ميت الغد يشيع ميت اليوم ، فلا طمأنينة لدنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾[٦].

وقال عز وجل : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[٧].

قوله تعالى : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ .

أى يعاملهم معاملة من نسيهم ، لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه ، كما قال تعالى : ﴿ في كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾[٨] وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة كقوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[٩] وقوله : ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[١٠] وقال تعالى : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾[١١].

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : نتركهم كما تركوا لقاء يومهم هذا .

وقال مجاهد : نتركهم في النار .

وقال السدى : نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا .

وفى الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : [ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك

---

(١) الآيات ٣٠ - ٣٧ من سورة الحاقة .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٣) الآية ٥٦ من سورة الواقعة .
(٤) الآية ١٨٢ من سورة آل عمران .
(٥) الآيات ١٠٥ - ١١١ من سورة المؤمنون .
(٦) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
(٧) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .
(٨) الآية ٥٢ من سورة طه .
(٩) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(١٠) الآية ١٢٦ من سورة طه .
(١١) الآية ٣٤ من سورة الجاثية .

الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . فيقول : أظننت أنك ملاق ؟ فيقول : لا . فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى][(١)] .

قيام الأدلة عليهم

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ **بكتاب** ﴾ : المراد القرآن . ﴿ **فصلناه** ﴾ : بيناه أتم بيان . ﴿ **تأويله** ﴾ : ما يؤول إليه أمره أى عاقبته .

يقطع الله المعاذير على العباد ، فقد أرسل إليهم رسلاً ، وأنزل إليهم كتباً ، وأمدهم بالعقل الذي يميزون به الخبيث من الطيب ، والهدى من الضلال ، فقد جاء الكتاب مفصلاً على علم لا جهل فيه ، وبيان لا خفاء فيه ، ووضوح لا لبس فيه ، جاء هدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إذ هم الذين يستفيدون بما فيه ، فيترجمونه إلى عمل ، وهل الإيمان إلا ما وقر فى القلب وصدقه العمل ؟ وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

إن هذا الكتاب المبين جاء هادياً ، مشتملاً على النذارة والبشارة : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ۞ ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴾[(٢)] .

لقد اهتدى به أهل الإيمان فزادهم الله هدى ، أما الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا فلم ينتفعوا به ، وأعرضوا عن ذكر الله فصاروا لا ينتظرون إلا تأويل هذا الكتاب . أى ما تؤول إليه أحكامه ، وما اشتمل عليه من الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، والمراد بتأويله عاقبة ما يصير إليه ، وإنما يكون ذلك يوم القيامة ﴿ يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾[(٣)].

وذلك عندما يأتيهم اليقين ، وتصير الحقائق شاخصة أمامهم ، لا تحتمل لبساً ولا غموضاً ، فتلك هي الجنة دار المتقين ، وهذه هى النار التى كانوا بها يكذبون .

---

(١) أخرجه مسلم فى الزهد (١٦) .
(٢) الآيتان ١، ٢ من سورة هود .
(٣) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

فيقال لهم : ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾[١] عندئذ يعضون على أيديهم ندماً ، ويقولون : ﴿ **هل : لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل** ﴾ قال سبحانه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٢] وقال عز من قائل : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٣].

وتأتي كلمة الفصل من الحكم العدل ﴿ **قد خسروا أنفسهم** ﴾ بدخولهم النار والخلود فيها ، وضل عنهم ما كانوا يفترون ، أى غاب عنهم وبعد الذين زعموهم شركاء وشفعاء ، ﴿ لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٤].

صور من عظمة الخالق

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾

المفردات : ﴿ **ربكم** ﴾ : الرب السيد المالك والمربى . ﴿ **الله** ﴾ : علم الذات الأقدس والإله هو المعبود الذى منه النفع والضر ويتقرب إليه بالعبادة والدعاء وليس للموحدين إله إلا الله . ﴿ **أيام** ﴾ : جمع يوم وهو الوقت المحدود بطلوع الشمس إلى غروبها . ﴿ **استوى** ﴾ : في اللغة بمعنى استقر ومنه استوى على الكرسي وعلى ظهر الدابة أى استقر . استوى بمعنى قصد واستوى بمعنى استولى وظهر والمراد يتصرف فيه بما يريد[٥]. ﴿ **العرش** ﴾ : قال الجوهرى هو سرير الملك . ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ : والعرش سقف البيت وهودج المرأة وقيل العرش الملك والسلطان ومنه ثل عرشه إذا ذهب ملكه ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ : يجعل الليل كالغشاء أى يذهب نور النهار . ﴿ **حثيثاً** ﴾ : الحث والحض . بمعنى واحد وهو الإعجال والسرعة والمعنى يطلبه من غير فتور .

إن ربكم ومالك أمركم ومتولى شئونكم هو الله لا إله إلا هو ، فاعبدوه وحده ، واستعينوا به وحده ، فهو الذي خلق السموات وعوالمها ، وقدرها ، وأحكم نظامها ، وخلق الأرض ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها ، وقدر أقواتها ، وأحكم نظامها ، كل ذلك في ستة أيام الله أعلم بمقدارها

(١) الآية ١٥ من سورة الطور .
(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .
(٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر .
(٤) الآية من سورة الأنعام .
(٥) انظر مذهب السلف فى معنى كلمة استوى وهو المذهب الحق ولن يجوز العدول عنه انظر ص ١٨٨

وحدودها ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾(١) .

ولو أراد خلقها فى لحظة لخلقها ﴿ إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾(٢) ولكنه ذكر هذه المدة ليعلم العباد التأني والتثبت فى الأمور ، وأن خلق السموات والأرض ليس بالشىء الهين ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾(٣).

وما ورد من أن الأيام الستة هي كأيام الدنيا ، وأنه بدئ الخلق يوم الأحد ، فروايات الله أعلم بها ، وأنها إسرائيليات .

إن ربكم أيها الناس جميعاً الله الذى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ودبر أمورها وحده ، فيجب عليكم أن تعبدوه وحده ، ثم إنه تعالى قد استوى على عرشه واستقام أمره ، واستقر على هيئة الله أعلم بها ، مع البعد عن مشابهة الحوادث في شيء .

ولقد سئل مالك رضى الله عنه في ذلك فقال : الاستواء معلوم ، أى فى اللغة - والكيف - أى كيفية الاستواء - مجهول والسؤال عن هذا بدعة .

وهذا القدر كاف ، وهذا رأى الصحابة . رضى الله عنهم أجمعين ، ورأى السلف ، قبول ما جاء من غير تكيف ولا تشبيه ، وترك معرفة حقيقتها إلى الله .

وأما الخلف فيؤولون ويقولون : استوى على عرشه بعد تكوين خلقه على معنى أنه يدير أمره ويصرف نظامه على حسب تقديره وحكمته ﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾(٤).

والله سبحانه جعل الليل يغشى النهار بظلمته ويستره بلباسه حتى يذهب نور النهار ، ليتم قوام الحياة ، فالليل للسكون ، والنهار للمعاش ، والليل يطلب النهار دائماً من غير فتور مع الإعجال والسرعة .

وخلق الشمس والقمر والنجوم التى لا يعلمها إلا الله،حالة كونها مسخرات ومذللات بأمره ، كل يدور في فلكه إلى أجل مسمى عنده ، ألا له الخلق ، أى المخلوقات كلها كبيرها وصغيرها ، فلا دخل لهذه الكواكب في شيء ، وله الأمر والنهى والتصريف والتدبير ، ليس لأحد دخل فى شيء سبحانه وتعالى عما يصفون ، وتبارك الله رب العالمين .

من آداب الدعــاء

ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا

(١) الآية ٤٧ من سورة الحج .
(٢) الآية ٨٢ من سورة يس .
(٣) الآية ٥٧ من سورة غافر .
(٤) الآية ٣ من سورة يونس .

وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

المفردات : ﴿ **تضرعاً** ﴾ : التضرع التذلل وإظهار الخضوع . ﴿ **خُفْية** ﴾ : الخفية ضد العلانية . ﴿ **خوفاً** ﴾ : هو توقع الشر والمكروه . ﴿ **طمعاً** ﴾ : هو توقع الخير .

ادعوا ربكم الذى تعهدكم وأنعم عليكم نعمه التى لا تحصى ، وبخاصة ما مضى فى الآية السابقة . ادعوه متضرعين مبتهلين . مخلصين ، فالدعاء مخ العبادة ، ادعوه مخفين الدعاء متسترين ، فالإخفاء حسن مندوب إن لم يكن واجباً ، إذ هو أبعد عن الرياء والسمعة ، وأنت لم تدع غائباً أو ناسياً ، فالله أقرب إلينا من حبل الوريد ، وهو السميع البصير .

على أن الله مدح العبد الصالح زكريا فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾[1].

وقد كان دعاء الصحابة وعملهم في الخفاء ، إنه لا يحب المعتدين المتجاوزين الحدود المرسومة خصوصاً في الدعاء ، فمن رفع صوته للرياء ، أو بالغ في الصيغة ، أو طلب غير المشروع ، أو دعا غير الله مهما كان ، فالدعاء عبادة يجب أن يكون لله كل هذا عدم تجاوز في حدود الدعاء .

ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، بما خلق فيها ، وما هداكم إلى الانتفاع بها وتسخيرها .

والإفساد في الأرض شامل لإفساد النفوس بالقتل . والاعتداء ، وإفساد المال بالسرقة والنصب ، وإفساد الدين بالكفر والمعاصى ، وإفساد العقل بالمسكرات .

ادعوه خائفين من عقابه ، متوقعين مكروهاً من عذابه ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وادعوه طامعين في ثوابه ، مؤملين فى جزائه ، إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[2]

من أدلة البعث

وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

(١) الآية ٣ من سورة مريم .

(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .

المفردات : ﴿ **الرياح** ﴾ :جمع ريح ولها أسماء عند العرب وإذا جمعت كانت فى معنى الخير وإذا أفردت كانت فى معنى الشر كما فى قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً ﴾[1] ﴿ **بشراً** ﴾ : مبشرات ﴿ **أقلّت** ﴾ : حملت ﴿ **البلد** ﴾ : الموضع من الأرض عامراً كان أو خلاء ﴿ **الثمرات** ﴾ : واحده ثمرة وهى الحمل الذى تخرجه الشجرة ﴿ **نكد** ﴾ : لا خير فيه ﴿ **نصرف** ﴾ تغير وتبدل

هذا أثر من آثار رحمة الله بالخلق ، ودليل على قدرته على البعث ، إن ربكم هو الذى يرسل الرياح مبشرات بين يدى رحمته ، بقدوم المطر ، والمطر رحمة من الله بالخلق ، حتى إذا حملت الرياح سحاباً ثقالاً بالماء ، سقناه إلى بلد ميت لا ماء فيه ، فأنزلنا به الماء ، فأخرجنا به أنواع الثمار على اختلاف أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها ، مثل الإخراج وإيجاد أنواع النبات والثمار من الأرض بعد نزول المطر ، نخرج الموتى ونبعثهم ، فالله قادر على كل شيء يخرج الحى من الميت ، والميت من الحى ، فانتبهوا رجاء أن تتذكروا ، وتتعظوا ، فتؤمنوا بالبعث والحياة الآخرة .

مع هذا فهناك من ينكر البعث بعد ظهور أماراته ، لا غرابة فى ذلك ، فالناس فى الفهم والإدراك كالأرض ، منها طيبة طاهرة المعدن تخرج نباتاً حسناً ، ومنها خبيثة التربة كالأرض السبخة ، أو الحجرية ، لا تخرج نباتاً حسناً ، بل نباتها لا خير فيه ، مثل ذلك التصريف البديع يصرف الله الآيات لقوم يشكرون النعم .

قصة نوح عليه السلام

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ
لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ
وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

المفردات : ﴿ **عذاب يوم** ﴾ : المراد به يوم القيامه ﴿ **الملأ** ﴾ :أشراف القوم ورؤساؤهم لأنهم يملأون العيون بهجة ورواء ﴿ **ضلال** ﴾ الضلالة والضلال العدول عن طريق الحق والذهاب عنه ﴿ **وأنصح** ﴾ : أرشد إلى المصلحة مع حسن النية ﴿ **ذكر** ﴾ أى وعظ من ربكم ﴿ **الفلك** ﴾ : السفينة ﴿ **عمين** ﴾ : واحده عَمٍ ، وهو ذو العمى ، قيل المراد عمى البصيرة ، وقيل هو عام .

(١) الآية ١٦ من سورة فصلت .

أنهى الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة الكلام عن مظاهر القدرة والوحدانية ، ثم ختم الكلام بذكر البعث ، وأنه كالخلق الأول .

ثم قفّى على ذلك بذكر قصص الأنبياء السابقين ، وكيف لاقوا من أممهم العنت والتكذيب ، وكيف آل أمر هذه الأمم ، وفى هذا عبرة وعظة لأمة محمد ﷺ ، وتسكين للنبى الكريم ﷺ ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[1] ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾[2].

أقسم الله سبحانه وتعالى لأهل مكة بأنه أرسل نوحاً إلى قومه ، ونوح هو النبى الأول الذى أرسل إلى قومه ، كما ثبت فى حديث الشفاعة ، فقال : يا قوم - وياأهلى وعشيرتى : اعبدوا الله ربكم الذى خلقكم فسواكم وعدلكم على أتم صورة ،وأكمل نظام ، هو الذى خلق لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه،سبحانه وتعالى هو المعبود بحق ، لا إلّه إلا هو ، ما لكم من إلّه غيره تدعونه وتتضرعون إليه ، آمركُم بهذا لأنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقعه ، وشديد هوله .

قال الملأ من قومه ، وهكذا أشراف الأمم ورؤساؤهم دائما ، أعداءللهداة والمرشدين، قالوا : إنا لنراك فى غمرة من الضلال أحاطت بك ، إذ كيف تنهانا عن عبادة آلهتنا : وُد ــ سواع ــ يغوث ــ يعوق ــ نسر إن هذا لضلال مبين ظاهر .

قال نوح مجيباً لهم : ياقوم ، ليس بى ضلالة ، وليس بى خروج عن الحق والرشاد إذ أمرتكم بتوحيد الله وعبادته وحده دون الآلهة ، ولكنى رسول من رب العالمين ، أهديكم إلى سبيل الرشاد ، وأدعوكم إلى ما فيه سعادتكم فى الدنيا والآخرة ، أبلغكم رسالات ربى من التوحيد الخالص ، والإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وما فيه من جنة ونار ، وثواب وعقاب ، وأبلغكم الأحكام العامة ، من عبادات ومعاملات .

وأنصح لكم ، وأحذركم عقاب الله ، وأذكركم به : [**الدين النصيحة**] قلنا لمن يارسول الله ؟ قال : « لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[3].

وأعلم من الله مالا تعلمون ، ووعظى لم يكن عن جهل ، وإنذاركم عاقبة الشرك ، كل ذلك عن علم، فنصحى لكم عن علم يقينى . لاتعلمونه ، أكذبتم وعجبتم أن جاءكم ذكر ووعظ من ربكم على لسان رجل منكم ؟!

وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ، ويقولون : ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وكيف

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود . (٢) الآية ١١١ من سورة يوسف .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان (٤٢) . ومسلم فى الإيمان (٦٥) . وأبو داود فى الأدب (٥٩) . والترمذى فى البر (١٧) . والنسائى فى البيعة (٣١ ، ٤١) . والدارمى فى الرقاق (٤١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٥١) وفى (٢ : ٢٩٧) وفى (٤ : ١٠٢ ، ١٠٣) .

يكون الرسول بشراً ولو شاء ربك لأنزل ملائكة .

ومهمتى لكم أنى أحذركم عامة الكفر ، وأنذركم بين يدى عذاب شديد ، لينذركم ، ولتتقوا عذاب يوم عظيم ، وتخشوا بسبب الإنذار هذا اليوم ، وليعدكم بالتقوى لرحمته سبحانه وتعالى التى ترجى لكل من أجاب الدعوة .

أما هؤلاء الكفار ، فقد كذبوه وأصروا على تكذيبه ، وخالفوا أمر ربهم ، ولجوا فى طغيانهم يعمهون ولم يؤمن معه إلا قليل ، وكان عاقبتهم أن نجى الله نوحاً والذين آمنوا معه برحمة منه ، فركبوا فى السفينة ، ونجوا من الغرق .

وأغرق الذين كذبوا بآيات الله ، وكفروا بها ، ولا غرابة فى ذلك فهم قوم عمون عن الهدى والرشاد ، قد طمس الله على قلوبهم ، وختم عليها وعلى أبصارهم غشاوة ، فلا يرون خيراً أبداً .

فاياكم ياأمة الدعوة أن تكونوا مثلهم ، وحذار ثم حذار أن تسيروا على منوالهم « **وفى سورة هود تفصيل أوسع لهذه القصة** » .

قصة هود عليه السلام

* وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ
ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ
نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ
سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

المفردات : ﴿ **أخاهم** ﴾ : المراد واحد منهم كما قالوا ياأخا العرب ﴿ **فى سفاهة** ﴾ : السفاهة

خفة حلم وسخافة عقل ﴿ **خلفاء** ﴾ : المراد خلفتوهم فى الأرض ﴿ **آلاء** ﴾ : واحدها ألَىٌّ وهى النعمة ﴿ **رجس** ﴾ : عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿ **وقع عليكم** ﴾ : حق عليكم ووجب ﴿ **غضب** ﴾ : انتقام ﴿ **أتجادلوننى** ﴾ : المجادلة المماراة والمخاصمة ﴿ **دابر القوم** ﴾ : آخرهم والمراد استئصالهم جميعاً

قال محمد ابن إسحق : هم ولد عاد ابن إرم بن عوص بن سام بن نوح .

قال العلامة ابن كثير : هؤلاء هم عاد الأولى ، والذين ذكرهم الله ، وهم أولاد عاد بن إرم الذين كانوا يأوون إلى العمد فى البر . كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾[1] وذلك لشدة بأسهم وقوتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾[2].

وقد كانت مساكنهم باليمن بالأحقاف ، وهى جبال الرمل .

قال محمد بن إسحق : عن محمد بن عبد الله بن أبى سعيد الخزاعى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة : (سمعت علياً يقول لرجل من حضرموت : هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مدرة حمراء ذا أراك وسدر كثير بناحية كذا وكذا ، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ، والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه . قال : لا ، ولكنى قد حدثت عنه . فقال الحضرمى : وما شأنه ياأمير المؤمنين قال : فيه قبر هود عليه السلام) . رواه ابن جرير .

ويروى أيضاً : أنهم كانوا يسكنون باليمن بين عمان وحضرموت ، وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض ، وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله ، وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله ، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام ، وهو من أوسطهم نسباً ، وأفضلهم موضعاً ، فأمرهم أن يوحدوا الله ، ولا يجعلوا معه إلهاً غيره وأن يكفوا عن ظلم الناس ، فأبوا عليه وكذبوه ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ واتبعه منهم ناس وهم يسير ، يكتمون إيمانهم .

فلما عتت عاد على الله ، وكذبوا نبيه ، وأكثروا فى الأرض الفساد . وتجبروا . وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع ، كلمهم هود فقال ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون ﴾[3] ﴿ وقالوا يا هود ما جئتنا ببينه وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾[4] أى بجنون ﴿ قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى

(١) الآيات ٦–٨ من سورة الفجر .
(٢) الآية ١٥ من سورة فصلت .
(٣) الآيات ١٢٨–١٣١ من سورة الشعراء .
(٤) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة هود .

وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾[١] قال محمد بن إسحق فلما أبوا إلا الكفر به أمسك الله عنهم القطر .أ.هـ.

وقد بينت سورة الأحقاف ما حدث للقوم بعد أن اشتدت حاجتهم إلى المطر ، وما أصابهم من العذاب الأليم ، قال جل شأنه : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾[٢].

ولقد بين الله تعالى بعد هذه الآيات الدرس المستفاد مما حدث ، لتكون فيه العبرة لجبابرة الأرض ، فقال سبحانه ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة * فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[٣] .

إن قصة عاد مع نبى الله هود فيها من الدروس ما يدمر طغاة الأرض ، وحسبك أن تعلم أن عاداً غرتهم قوتهم ، وركبوا رؤوسهم ، وعشش الشيطان فى تلك الرؤوس ، فباض فيها الإلحاد ، وأفرخ فيها الجبروت ، حتى قالوا : من أشد منا قوة ، وجاء الرد من رافع السماء بلا عمد ﴿ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾[٤] .

وجاء العقاب الأليم الشديد ﴿ فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾[٥] .

وجاء العقاب ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾[٦] وجاء العقاب ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابى ونذر ﴾[٧]

قوله تعالى ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً** ﴾ أى كما أرسلنا نوحاً إلى قومه كذلك أرسلنا هوداً إلى عاد ﴿ قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ .

وأى اعتراض على هذا الأمر ، أليست الكائنات كلها شاهدة بلسان الحال والمقال على وحدانية الخالق .

(١) الآيات من ٥٤-٥٦ من سورة هود .
(٢) الآيات ٢١-٢٥ من سورة الأحقاف .
(٣) الآية ٢٦ من سورة الأحقاف .
(٤) الآية ١٥ من سورة فصلت .
(٥) الآية ١٦ من سورة فصلت .
(٦) الآيات ٦-٨ من سورة الحاقة .
(٧) الآيات ١٨-٢١ من سورة القمر

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

فماذا كان جوابهم ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ هذا هو منطق الباطل ، منطق الدجل والتهريج والحمق والنزق ، وهل يرتفع صوت الباطل إلا بالجدل العقيم من السفيه فى الفريقين ،هل يتهم الآمر بالتوحيد بالسفه والتوحيد منطق الحق ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ .

هل السفه فى أهل الإصلاح والحق ، إن خفة الأحلام وسخف العقول فى أهل الشرك ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[(١)].

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

ثم هل جرموا عليه كذباًوقد عصم الله أنبياءه من الكذب من مهدهم إلى لحدهم ، قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل [صدق عبدى فيما يبلغ عنى] هل كذب الأنبياء على الخلق ، وأجرموا عليهم كذبا ، بل كان خاتمهم يلقب بالصادق الأمين ، حتى صار ذلك علما عليه ، ولكن الباطل هو الباطل ، يعربد فى عرصات الأرض ، فاذا تصدى له الحق ركب رأسه فدمره الحق ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾[(٢)] ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾[(٣)] ﴿ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد ﴾[(٤)].

فماذا قال هود عليه السلام ﴿ **قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين** ﴾ .

هذا هو منطق الحق ينساب انسياب الماء الطهور ، وينبلج انبلاج الضوء يبدد غياهب الظلمات فى هدوء وطمأنينة ، ويمحو فلول الدجى فى ثبات وشموخ ورسوخ وبزوخ ، ليس بى سفاهة وأى سفاهة فى كلام هود ، وأنا لكم ناصح أمين أى سفه فى النصح .

إن أهل الباطل دائماً مصابون بالإفلاس الفكرى ، والجدل العقيم .

ثم يقول هود ﴿ **أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم** ﴾ أى عجب فى هذا ، وأى غرابة فى أن يكون الرسول بشرا ، إن بشريته هى المنطق السديد ، لأنه يدعو بشرا فلابد أن يكون عارفاً بدوافع البشر ، خبيراً بحاجاتهم ، ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمنُّ على من يشاء من عباده ﴾[(٥)] وقال سبحانه :

(١) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٨١ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٤٩ من سورة سبأ .
(٥) الآية ١١ من سورة إبراهيم .

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[١]

ثم ذكرهم هود بنعمة الله عليهم ، فقال ﴿ **فاذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون** ﴾ .

إن استخلافهم فى الأرض بعد قوم نوح لعبرة ، كان عليهم أن يدزكوها ، وإن فى بسطة الله لهم فى الخلق والقوة لنعمة يجب أن يشكروها، وأن يذكروا تلك الآلاء ليفلحوا وينجحوا ، ولكن يأبى منطق الباطل إلا أن يلج فى عتو ونفور ، فبدلاً من أن يقولوا اللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، بدلوا نعمة الله كفرا ﴿ **قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ .

فكان مثلهم فى ذلك كمثل القوم الذين قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٢]

بدلاً من أن يقولوا : فاهدنا إليه ، فماذا كان رد هود قال ﴿ **قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين** ﴾ .

نعم إن هذا هو القول الفصل.فقد حق عليهم الرجس والسخط ، ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾[٣] ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون ﴾[٤] .

يأمرهم بتوحيد الخالق فيجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق فى أسماء لا مسميات لها ، وما نزل الله بها من سلطان . ولا إذن ولا برهان ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[٥]

لقد بال الثعلب ذات يوم على صنم كان يعبده أحدهم قبل الإسلام فوقف يتأمل صنمه وأنشد :

أربٌّ يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب
فلو كان رباً كان يمنع نفسه ... فلا خير فى رب نأته المطالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها ... وآمنت بالله الذى هو غالب

وكان لابد من العاقبة ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، قال تعالى ﴿ **فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين** ﴾ قال جل شأنه ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾[٦] .

---

(١) الآية ٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٦ من سورة غافر .
(٤) الآية ٣٣ من سورة يونس .
(٥) الآية ٩٨ من سورة الأنبياء .
(٦) الآيات ٥٨ – ٦٠ من سورة هود .

نعم إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . اقرءوا إن شئتم ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(١)

وهكذا طويت عاد كما يطوى البرق معصرات الغمام ، وأدرجت فى أكفان القدر ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد ﴾(٢).

نبكى على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الألى جمعوا الكنوز فما بقين وما بقوا
من ذا الذى ضاق القضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلق

أين من بنى وشيد ، وعمر ومجد ، أين الفراعنة الشداد ، أين ثمود وأين عاد تلك بيوتهم خاوية سكنتها الذئاب العاوية فهل يرى لهم من باقية ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام * يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار * وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد * سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار * ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾(٣)

قصة صالح مع قومه عليه السلام

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود . (٢) الآيات ٦-١٤ من سورة الفجر . (٣) الآيات ٤٢-٥٢ من سورة إبراهيم .

مُفۡسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ
أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحٗا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ
يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن
لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

المفردات : ﴿ **ثمود** ﴾ : قبيلة من العرب كانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، سميت باسم جدهم ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وأخوّة صالح لهم : أخوة فى النسب كأخوة هود لقومه ﴿ **آية** ﴾ : هى البينة أى المعجزة الظاهرة الدلالة ، ﴿ **واذكروا** ﴾ : أى تذكروا ﴿ **وبوأكم فى الأرض** ﴾ : أى أنزلكم فيها وجعلها مباءة لكم ﴿ **والأرض** ﴾ : أرض الحجر بين الحجاز والشام ﴿ **تنحتون** ﴾ : النحت النحر فى الشيء الصلب ﴿ **ولا تعثوا** ﴾ : العيث والعثى : الفساد ﴿ **استكبروا** ﴾ : عتوا وتكبروا ﴿ **وعقروا الناقة** ﴾ : نحروها وأصل العقر الجرح ، وعقر الإبل قطع قوائمها وكانوا يفعلون ذلك بها قبل نحرها لتموت فى مكانها ولا تنتقل ﴿ **وعتوا** ﴾ : تمردوا مستكبرين ، التمرد والامتناع إما عن عجز وضعف ، ومنه عتا الشيخ عتيا :إذا أسنَّ وكبر ،وإما عن قوة كعتو الجبارين والمستكبرين . ويقولون نخلة عاتية : إذا كانت عالية يمتنع جناها على من يريدها إلا بمشقة التسلق والصعود ﴿ **الرجفة** ﴾ : المرة من الرجف وهو الحركة والاضطراب ، يقال رجف البحر : إذا اضطربت أمواجه . ورجفت الأرض : زلزلت واهتزت ، ورجف القلب والفؤاد من الخوف ﴿ **دارهم** ﴾ دار الرجل ما يسكنها هو وأهله ، ويطلق على البلد وهو المراد هنا ، وجثم الناس : قعدوا لاحراك بهم ، قال أبو عبيدة:الجثوم للناس والطير كالبروك للإبل .

كانت قبيلة ثمود من قبائل العرب البائدة وقد كانوا خلفاء لقوم عاد بعد أن أهلكهم الله ، فورثوا أرضهم وديارهم . وآتاهم الله نعما كثيرة ، وأرسل إليهم صالحا نبيا فيهم يهديهم إلى الصراط السوىّ ، ولكنهم عصوا وتكبروا وكفروا ، وطالبوا صالحا بآية فبعث الله إليهم ناقة تصديقا له ولكنهم عقروها وعتوا عن أمر ربهم فقال لهم : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، بعدها نزل عذاب الله ووعده ، ونجى الله صالحا والذين آمنوا معه ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا أثرا بعد عين ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود ، وتلك عقبى الظالمين ، ومآل الفاسقين .

روى الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمر قال : لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ، ونصبوا

لها القدور ، فأمرهم النبى ﷺ فأهراقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم ، حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « أنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم »(١).

وروى أيضا الإمام أحمد بإسناده عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »(٢).

وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هارون المسعودى عن إسماعيل بن واسط عن محمد بن أبى كبشة الأنمارى عن أبيه قال :« لما كان فى غزوة تبوك تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فنادى فى الناس [الصلاة جامعة] قال : فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعنزة وهو يقول : وما تدخلون على قوم غضب الله عليهم » فناداه رجل منهم : نعجب منهم يا رسول الله ؟ قال : « أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك » ؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وبما هو كائن بعدكم ، فاستقيموا أو سددوا ، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئا ، وسيأتى قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئاً » .

قوله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره** ﴾

أى وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، كما أرسلنا نوحا إلى قومه ، وهودا إلى قومه وجاء الأمر هنا بعبادة الله وحده وهو توحيد الألوهية كشأن كل نبى يبعث إلى قومه ، فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، وهو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول : لا إلّه إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(٣) وقال جلَّ شأنه : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾(٤) .

وقال صلوات ربى وسلامه عليه : أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى « **لا إلّه إلا الله** » .

لقد سارت مواكب التوحيد يقودها الأنبياء ، وأتباعهم. الذين رفعوا راياتهم . خفاقة تناطح الجوزاء ، وتزاحم الشمس فى الجلاء ، ومشى على وجه الزمان بنورها قوم أتقياء أنقياء أعلنوها فى قوة الإيمان. وقالوا : لا إلّه إلا الله ، عليها نحيا وعليها نموت ، وفى سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله ، سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف فى رحابنا ، وسنتلو على الدنيا كتاب جهادنا . صُمَّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة (٥٣) وفى الأنبياء (١٧) وفى تفسير (سورة ١٥ : ٢) . وأخرجه مسلم فى الزهد (٣٨ ، ٣٩) والإمام أحمد فى (٢ :٩، ٦٦، ٧٢، ٧٤، ٩١، ٩٦، ١١٣، ١١٧)

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة (٥٣) وفى الأنبياء (١٧) وفى تفسير (سورة ١٥ :٢) . ومسلم فى الزهد (٣٩،٤٨) . الإمام أحمد فى (٢:٩، ٥٨، ٦٦، ٧٢، ٧٤، ١١٣، ١١٧، ١٣٧) .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء . (٤) الآية ٣٦ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ **قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية** ﴾ .

البينة الحجة القاطعة ، والبرهان الساطع على صدق رسالته ، وقد طلبوا منه آية تدل على صدقه ، فكانت الآية هى الناقة التى أخبر الله عنها بقوله : ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ، ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾[١] .

كانت هناك بئر فى ثمود ، أمرهم نبى الله صالح أن يكون لهم شرب فى يومهم (أى نصيب من الماء) وللناقة نصيبها من الماء ، وقد روى أن اليوم الذى كان مخصصا للناقة كانوا يشربون من ألبانها ، وكان الله تعالى يسوق لهم من الألبان ما يغنيهم عن شرب الماء ، فقطع المعاذير أمامهم ، وإنما أضيفت الناقة إلى لفظ الجلالة تشريفا لها ، حتى لا يمسوها بسوء من خشية الله وتوقيره ، وليذروها تأكل فى أرض الله ، وترتع فى خيراته ، ونهاهم أن يمسوها بسوء ، وأنذرهم بالعذاب الأليم إن هم فعلوا ذلك . قال تعالى : ﴿ هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ وفى آية أخرى : ﴿ فيأخذكم عذاب قريب ﴾[٢] .

وذلك لأن العذاب قد وقع بعد عقرها بثلاثة أيام . وفى سورة الشعراء ﴿ فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾[٣] لأنه كان يوما عصيبا يجعل الولدان شيبا .

ثم ذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم ، وأن النعمة تقابل بالشكر لابالجحود . قال تعالى : ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد * وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا * فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ .

ولقد سجّل لهم التاريخ حذقهم ومهارتهم فى فن المعمار ، كما سجل لهم القرآن الكريم ذلك . جاء فى سورة الحجر : ﴿ ولقد كذّب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾[٤] .

كما سجل لهم القرآن الكريم ما كانوا فيه من النعيم والهناء ورغد العيش ، وأن النعيم الذى كانوا فيه كان يُلح عليهم أن يعرفوا لله فضله ويشكروا له آلاءه .

جاء فى سورة الشعراء ﴿ كذبت ثمود المرسلين إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فيما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾[٥]

---

(١) الآيات ١٥٣-١٥٦ من سورة الشعراء . (٣) الآية ١٥٦ من سورة الشعراء . (٥) الآيات ١٤١-١٥٢ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٦٤ من سورة هود . (٤) الآيات ٨٠-٨٢ من سورة الحجر .

وقد اتخذ القوم من سهول الأرض قصورا يقضون فيها الصيف ، واتخذوا من الجبال بيوتا يقضون فيها أيام الشتاء ، وقطعوا الصخور ونحتوا الجبال . قال تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾(١) .

كان عليهم أن يأخذوا العبرة من عاد ، وكيف سحب التاريخ عليهم أذيال الفناء ، فأصبحت بيوتهم خاوية تنعق فوقها البوم والغربان ، بعد أن كانت مشرئبة الأعناق ، تصدح فوقها بلابل السعادة قال تعالى : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾(٢) فلما لم تأخذ ثمود العبرة من عاد أصابها مثل ما أصاب عادا . قال تعالى : ﴿ وثمود فما أبقى ﴾(٣) .

نعم كان عليهم أن يذكروا آلاء الله ويلهجوا بالثناء عليه ، قال تعالى :﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ قال موسى عليه السلام : (يارب كيف أشكرك ؟ قال تذكرنى ولا تنسانى . إنك إن ذكرتنى شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى) .

وهذا نبى الله سليمان بن داود ، لما وجد عرش بلقيس أمامه قبل أن يرتد إليه طرفه ، لم يستطع الغرور أن يتسوَّر عليه حصون نفسه المنيعة ، فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾(٤) .

وها هوذا خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه تُعرض عليه الجبال لتكون له ذهبا وفضة فيأبى ، ويخيره مولاه بين أن يكون نبيا عبدا أو نبيا ملكا فيقول يارب : « بل نبيا عبدا أجوع يوما فأذكرك وأشبع يوما فأشكرك »(٥) .

يقول صاحب البردة :

وراودته الجبـال الشم من ذهـب ... عن نفسـه فأراهـا أيما شـمم

وأكدت زهـده فيهـا ضـرورته ... إن الضـرورة لاتعـدو على العصـم

وجلَّ جلال الله إذ يقول فى الحديث القدسى الجليل : [ابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك ، لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع . إذا كنت معافى فى بدنك آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها](٦) .

فصلوات ربه وسلامه على نبي أعطاه الله شجاعة موسى ، وشفقة هارون ، وإقدام داود ، وعظمة سليمان ، وصبر أيوب ، ورحمة عيسى ، وبساطة يحيى . ﷺ إذ يقول : **« وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »** .

فيا إلهى :

رضـاك خـير من الدنيـا وما فيها ... يا مـالك النفس قاصيها ودانيهـا

---

(١) الآية ٩ من سورة الفجر .
(٢) الآية ٥٠ من سورة النجم .
(٣) الآية ٥١ من سورة النجم .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النمل .
(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد (٣٥) .
(٦) أخرجه البخارى فى التوحيد (٣٨) والحرث (٢٠) ، والإمام أحمد فى (٢:٢٠، ٥١) .

فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى خير إلىَّ من الدنيا وما فيها

لقد ذكَّرهم نبى الله صالح بنعم الله عليهم ، فقد استخلفهم من بعد عاد ، ومكَّن لهم فى الأرض ، وهيأ لهم سبل العيش ، فجعلوا من سهول الأرض قصورا ، ونحتوا من جبالها بيوتا ، ثم أمرهم بذكر الله وآلائه عليهم ، ونهاهم عن الإفساد فى الأرض ، فلو كانوا ذوى ألباب راشدة ، وعقول مفكرة ، لاستجابوا لله ، وأنابوا إليه جَلَّ فى علاه ، ولكن بادر الملأ الذين استكبروا من قومه ، بادروا المستضعفين الذين آمنوا بقولهم : ﴿ **أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه** ﴾ .

لم يكن استفهامهم على وجه الحقيقة ، أو لطلب الفهم ، إنما كان على وجه الاستهزاء والتوبيخ والتقريع ، فكان جواب المؤمنين المستضعفين : ﴿ **إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾

جاء الجواب مفحما وجازما ، فلم يقل المؤمنون فى جوابهم : نعم نعلم أنه مرسل من ربه ، إنما كان الجواب أعم وأشمل : إنا بما أرسل به مؤمنون ، فزادوا فى الجواب زيادة تدل على تصديقهم الجازم ، وإيمانهم المطلق بكل ماأرسل به نبى الله صالح . والمستضعفون هم أتباع الرسل الذين قامت على أكتافهم الدعوات ، والذين صمدوا أمام الأحداث وتمرسوا بالشدائد ورخصت أرواحهم فى أسواق الموت ، وجادوا بالنفس إن ضنَّ الجُواد بها،فماذا كان جواب المستكبرين ؟

قالوا : ﴿ **إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾ فتأمل معى البون الشاسع والفرق البعيد بين القولين.قال المستضعفون : ﴿ **إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ وقال المستكبرون : ﴿ **إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾ .

إنه الفرق بين الإيمان المطلق والكفر المطلق ، إنهما نقيضان لا يجتمعان ، وضدان لا يلتقيان ﴿ ومايستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات * إن الله يسمع من يشاء وماأنت بمسمع من فى القبور ﴾[1].

ثم تأمل مدى الاستكبار عن قبول الحق إذ كان القياس أن يقول المستكبرون : ﴿ **إنا بما أرسل به كافرون** ﴾ ليكون على غرار قول المستضعفين : ﴿ **إنا بما أرسل به مؤمنون** ﴾ . لكنهم لم تطاوعهم أنفسهم الأمَّارة حتى يقولوا : ﴿ **إنا بما أرسل به** ﴾ فإنهم ينكرون الرسالة من أصل ولا يرضون أن يقروا بها .

ووقعت الواقعة ، ورجَّت الأرض رجًّا ، وتكهرب الجو ، ودخلت الشمس فى منطقة الكسوف ، وخسف القمر ، فأصبحت أيامهم بلا شمس ، ولياليهم بلا قمر ، ففكروا وقدروا وعبسوا وبسروا ثم أدبروا واستكبروا ، فتآمر تسعة منهم على قتل صالح وأهله ولكن يد الله كانت تعمل فى الخفاء ، فجعل تدبيرهم ، وكيدهم فى نحرهم .

(١) الآيات ١٩-٢٢ من سورة فاطر .

استمع معى إلى ما جاء فى سورة النمل ، يعبر التعبير الصادق عن هذا المشهد . قال جلّ شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله . فإذا هم فريقان يختصمون * قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطيّرنابك وبمن معك قالوا طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون * وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولنّ لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾[1].

فأهلك الله هؤلاء التسعة قبل قومهم ، أما القوم فقد تآمروا على عقر الناقة وعصيان أمر الله ، ولجُّوا فى عتو ونفور ، فسلطوا أشقاهم واسمه « قدار بن سالف » فعقر الناقة ، وإنما أسند الله العقر إليهم لأنهم حرضوا على ذلك ورضوا عنه . قال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوَّاها * ولا يخاف عقباها ﴾[2].

لقد عقروا الناقة بعد ما كفروا بالله وخالفوا أمره . قال تعالى : ﴿ **فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم** ﴾ وبدلا من أن يقولوا : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه** ﴾ قالوا : ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[3] .

لقد قالوا : ﴿ **ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ .

وتلك مواقف أهل الباطل ، عندما يركبون رءوسهم التى عشش الشيطان فيها فباض الإلحاد وأفرخ الكبر قال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ، فظلموا بها ﴾[4] .

فكان لابد من الجزاء ، قال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ . وقد جاء الإخبار عن عذابهم فى مواضع غير قليلة من القرآن ، وهذه الآية إحداها .. وفى سورة هود يقول تعالى : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بُعداً لثمود ﴾[5]. وفى سورة فُصِّلت يقول تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾[6]. وفى سورة الحاقة يقول تعالى : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾[7].

ولا تعارض بين هذه الآيات فقد رُجَّت الأرض كإنذارهم بنزول العذاب ، ثم جاءت الصيحة ، ثم أعقبتها الصاعقة ، فكانت أنواع العذاب كلها هى الطاغية التى عمتهم وشملتهم بعد صعق أرواحهم . قال تعالى : ﴿ كذَّبت ثمود بالنذر * فقالوا : أبشراً منا واحدا نتبعه إنا إذن لفى ضلال وسعر * أأُلقى الذكر

---

(١) الآيات ٤٥-٥٢ من سورة النمل .
(٢) الآيات ١١-١٥ من سورة الشمس .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٥) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة هود .
(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٧) الآية ٥ من سورة الحاقة .

عليه من بيننا بل هو كذّاب أشر * سيعلمون غدا من الكذّاب الأشر * إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾(١).

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وسبحان الوارث الباعث ، الواجد الماجد الواحد المحيى المميت المعز المذل ، الباسط القابض ، الرافع الخافض سبحان من أفنى ثمود فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . والملك اليوم لله الواحد القهّار والأمر يومئذ لله :

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة ... لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى ... فتفنى جميعا والمهيمن باق

يا ابن آدم :

دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال

وكانت النهاية ﴿ **فتولى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾.

إنها قمة المأساة ،وذروة الملهاة ، ألايقبل الناس نصح الناصحين الأمناء ، لقد قالها صالح بعدما حُمَّ القضاء وحلّ البلاء ، ونزل القدر المحتوم ، كما قالها الصادق المعصوم لأهل بدر من طغاة المشركين بعدما وُضعت جثثهم فى القليب ، فجعل يقول :« يأبا جهل بن هشام ، ياعتبة بن ربيعة يا شيبة بن ربيعة ويا فلان بن فلان : هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا » فقال له عمر يارسول الله « **ما تكلم من أقوام قد جيفوا** » . فقال : « والذى نفسى بيده ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون » (٢) .

وفى السيرة أنه عليه السلام قال لهم : « بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم » .

وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ﴾ أى فلم تنتفعوا بذلك لأنكم لا تحبون الحق ولا تتبعون ناصحا ، ولهذا قال : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

---

(١) الآيات ٢٣-٣١ من سورة القمر .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨٦) وفى المغازى (٨) . ومسلم فى الجنة (٧٦،٧٧) . والنسائى فى الجنائز (١١٧) . والإمام أحمد فى (١٣١:٢) .

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

المفردات : ﴿ لوط ﴾ : هو لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم عليه السلام ، ولد في (أورالكلدانيين) في الطرف الشرقي من جنوب العراق وكانت تسمى أرض بابل ، وكان قد سافر بعد موت والده مع عمه إبراهيم ﷺ إلى ما بين النهرين وكان يسمى جزيرة قورا ، وهناك كانت مملكة أشور ، ثم أسكنه إبراهيم شرق الأردن لجودة مراعيها ، وكان في ذلك المكان المسمى بعمق السديم بقرب البحر الميت أو بحر لوط ، قرى خمس ،سكن لوط في إحداها المسماة بسدوم ، وكانت تعمل الخبائث ولا يوجد الآن ما يدل على موضعها بالتحديد ، وبعض الناس يقول : إن البحر قد غمرها ولا دليل لهم على ذلك . ﴿ **لتأتون الرجال** ﴾ : مأخوذ من قولهم أتى المرأة إذا غشيها . ﴿ **من الغابرين** ﴾ : أي الباقين في عذاب الله ، يقال غبر الشيء إذا مضى ، وغبر إذا بقى .

يخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل لوطا إلى قومه فقال لهم : ﴿ **أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ثم بين جلَّ ذكره نوع تلك الفاحشة فقال : ﴿ **إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ .

وفي سورة النمل يقول سبحانه : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه : أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾[1].

فوصفهم هنا بالجهل ، وهنا بالإسراف ، لأن الإسراف والجهل متلازمان ، فكل مسرف جاهل ، وكل جاهل مسرف .

وفي سورة العنكبوت يعدد جرائمهم المنكرة وفعالهم الشنيعة . قال تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه : إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر ﴾[2] .

فهذه فعال وخصال بلغت من القبح مدى بعيدا ، ويكفى أنهم [illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

العالمين ، وهو قلب الفطرة السليمة عن وجهها الصحيح ، بتصريف الشهوة فى غير ما وضعت له ، فقد خلق الله تعالى الناس من ذكر وأنثى ، وشرع لهم ما ينظم سلوكهم على طريق مستقيم ، فلما انحرفت البشرية عن الصراط السوى وغَيَّرت المنهج الربَّانى ، كان ما كان من عقاب سماوى ، فقد سمعنا بمرض سماه البعض لعنة السماء ، وهو مرض خطير استشرى كالسم فى الأحشاء والنار فى الحلفاء ، وانتشر فى الأوساط الراقية التى عُرفت بالمدنية الحديثة . انتشر فى أمريكا ودول أوربا ويسمى « الإيدز » .

وقد صدر كتاب يحمل عنوانه اسم هذا المرض ، وقد جاء فيه من المعلومات عن هذا المرض ما يعطينا صورة وافية عن كل مايتعلق به ، وكتبه مؤلفه د. رفعت كمال فى صورة سؤال وجواب نحاول التقاط ما يلقى الضوء على أهمية الموضوع وخطورته ولم استحق آل لوط العقاب على فعلتهم تلك :

اكتشفت العلماء وجود مرض الإيدز فى عام ١٩٨١ ، حيث بلغ عدد المصابين بهذا المرض حتى الآن حوالى ١٢ ألف مريض ، وصل عدد الوفيات بينهم إلى النصف . ويمكن أن يحمل الإنسان عدوى المرض دون أن تظهر عليه أى أعراض ، وفى هذه الحالة يمكن أن تنتقل منه العدوى إلى الآخرين عن طريق تداخل سوائل الجسم مثل : الدماء ، السائل المنوى ، الدموع ، اللعاب .. والتى يوجد فيها الفيروس المسبب للمرض فتحدث العدوى خلال اللقاء الجنسى، أو نقل الدماء من شخص مريض إلى شخص سليم ، أو استعمال محقن واحد فى حقن شخصين ، وبذلك تنتقل العدوى من شخص لآخر .

فإذا هاجم فيروس المرض الخلايا التى تدافع عن الجسم ضد غزو الميكروبات فإن هذه الخلايا تعجز عن أداء دورها ، ويتم تدمير قدرة الجسم على مقاومة الأمراض .

ويحدث لمريض الإيدز تلك الأعراض : تضخم الغدد الليمفاوية مع استمرار هذا التضخم لأكثر من شهر ــ ظهور أورام حمراء داكنة وتظهر فى أى مكان بالجسم ، وهى تزيد فى الحجم – حدوث نقص واضح فى وزن الجسم ، ويكون ذلك خلال شهرين – فقدان الشهية – الإحساس بالتعب والإرهاق عند القيام بأقل مجهود – ارتفاع فى درجة الحرارة – العرق بغزارة خصوصا أثناء الليل – سعال جاف مصحوب بارتفاع فى درجة الحرارة – إحساس بالضيق عند التنفس ــ الإصابة بالإسهال ــ ضعف فى العضلات – ظهور بعض البثرات – ظهور بقع بيضاء فى الفم وهذه البقع تكون سميكة نوعا ما .. وتظهر على كل أجزاء الفم من الداخل .

إن العدوى فى البيت الواحد تنتقل بين الزوجين خلال اللقاء الجنسى، ومن الأم الحامل إلى جنينها ، أما الطفل المولود قبل إصابة الأم أو الابن الشاب فإنه لا يصاب بالعدوى ..

وتعتبر فترة الحضانة لهذا المرض هى الفترة التى تبدأ من التعرض إلى العدوى ، وتنتهى مع ظهور أعراض المرض ، وهى تتراوح بين عامين وخمسة أعوام ، يكون فيها المريض قادرا على نقل العدوى للآخرين خلال هذه الفترة وقد اتضح أن ٩٠٪ من الحالات التى سجلت فى هذا المرض تنقسم إلى مجموعتين :

– المجموعة الأولى : هؤلاء المصابون بالشذوذ الجنسي .

– المجموعة الثانية : هؤلاء الذين يتعاطون المواد المخدرة عن طريق الحقن فى الوريد حيث تستعمل مجموعة منهم حقنة واحدة فى حقن المخدر ... وتنتقل بذلك العدوى من مريض إلى آخر سليم .

إن آثار هذا المرض لا تقتصر على التأثير الصحى الضار على جسم المريض ، بل إن للمرض آثاره النفسية المدمرة : فالناس تهرب من وجه مريض الإيدز – والأهل يرفضون إقامته معهم أو الإشراف على علاجه – وأصحاب الأعمال يفصلون كل من تظهر عليه الأعراض – حتى العاملون فى المستشفى ، إنهم يتحاشون الاقتراب من هؤلاء المرضى خوفا من انتقال العدوى .

فالرعب من عدوى هذا المرض يصيب من يزاول الشذوذ الجنسى ، ومن لا يزاوله ، حيث أكدت استطلاعات الرأى العام فى أمريكا أن ٣٠٪ من الناس يؤكدون أن هذا المرض سيصبح وباء عالميا ، وأن الكل يبحث عن الإجراءات الوقائية التى يمكن أن تحميه من الخطر القادم الغامض حيث يسبب استسلام الجسم للعدوى بلا مقاومة ، والخطير فى هذا المرض أن المصاب به طول حياته يصبح حاملا للعدوى .

وقد تأكد أن لهذا الفيروس خاصية محددة هى الهجوم على الخلايا الليمفاوية المعروفة باسم « تى ٤ » وهى نوع من الكرات البيضاء المتخصصة فى مقاومة جراثيم الأمراض ، وكذلك بعض أنواع السرطان ، وعندما يهاجم الفيروس هذه الخلايا الليمفاوية فإنه يدمر الحامض الخلوى المعروف باسم دى – ان – ايه (DNA) وهو الحامل للوراثة فى نواة الخلية .

وقد اتضح أن الفيروس يفرز نوعا من البروتين له قدرة التغلب على الخلية « تى ٤ » بحيث تكون الحصيلة هى خروج كميات كبيرة من الفيروسات فى فترة وجيزة جدا . وقد تأكد أن هذا البروتين يصيب الخلايا الليمفاوية بالشيخوخة المبكرة ، مما ينهى حياتها فى وقت مبكر .

إن المتتبع لإحصائيات عدد المرضى « بالإيدز » يجد أنها فى البلاد التى زاد فيها الترف والفسق حيث يفسدان أخلاق الأمم ، ويباعدان بينها وبين منهج الله .

تقول الإحصائيات ، فى فرنسا ٣٠٠ حالة – فى ألمانيا الغربية ١٦٢ حالة – فى بريطانيا ١٨٤ حالة أما فى آسيا فإن الحالات أقل بكثير .. أما الرقم الهام الذى يكشف عن مدى انتشار الإيدز فى الولايات المتحدة الأمريكية فهو ١٢ ألف مريض ، من هؤلاء مات ستة آلاف والباقون يعانون من المرض بلا شفاء .

ولكن .. لماذا ينتشر الإيدز بين الشواذ جنسيا ؟

يقول الأطباء العاملون فى هذا المجال : إن الخلية التى يهاجمها الفيروس ويعيش بداخلها .. وهى الخلية التى تتولى الدفاع عن الجسم .. تتراكم بكميات كبيرة بجانب المستقيم ، وذلك حتى تدافع عن الجسم إذا ما هاجمه أى ميكروب يتسرب من المستقيم . ولذلك فقد ظهرت حالات الإيدز المتزايدة بين الشباب ، وخاصة هذا الشباب الذى يزاول الشذوذ الجنسى .

صدقت يا سيدى يارسول الله فقد كنت تنظر من وراء الحجب ، وتستشف الغيوب بما أوحى الله به إليك . فقد زكى الله عقلك فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾[١] وزكى لسانك فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[٢] وزكى شرعك فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾[٣]. وزكى معلمك فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾[٤] وزكى فؤادك فقال : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[٥] وزكى بصرك فقال ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[٦] وزكى رسالتك فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٧] وزكاك كنت فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[٨] .

إذا كان هناك من سمىَّ « الإيدز » بلعنة السماء فقد سبقتهم ياسيدى يارسول الله بأربعة عشر قرنا من الزمان عندما قررت تلك الحقيقة الناطقة بالحق فقلت : « لم تظهر الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم »[٩].

بنيت لهم من الأخلاق ركنا ... فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نورا ... وكان من النحوس لهم حجابا
وكان جنابهم فيها مهيبا ... وللأخلاق أجدر أن تهابا

وللفقهاء فى اللواط كلمة

إن جريمة اللواط من أكبر الجرائم ، وهى من الفواحش المفسدة للخلق وللفطرة وللدين والدنيا ، بل وللحياة نفسها ، وقد عاقب الله عليها بأقصى عقوبة فخسف الأرض بقوم لوط ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل جزاء فعلتهم القذرة .

وقد أمر الرسول ﷺ بقتل فاعله ولعنه : روى أبو داود عن ابن عباس أن رسول ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ؛ فاقتلوا الفاعل والمفعول به »[١٠] .

وروى النسائى عن ابن عباس أن رسول ﷺ قال : « لعن الله من عمل عمل قوم لوط .. لعن الله من عمل عمل قوم لوط .. لعن الله من عمل عمل قوم لوط »[١١] .

قال الشوكانى :

« وما أحق مرتكبى هذه الجريمة ، ومقارفى هذه الرذيلة الذميمة بأن يعاقب عقوبة يصير بها عبرة

---

(١) الآية ٢ من سورة النجم .
(٢) الآية ٣ من سورة النجم .
(٣) الآية ٤ من سورة النجم .
(٤) الآية ٥ من سورة النجم .
(٥) الآية ١١ من سورة النجم .
(٦) الآية ١٧ من سورة النجم .
(٧) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٨) الآية ٤ من سورة القلم .
(٩) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٢) .
(١٠) أخرجه الترمذى فى الحدود (٢٤) . وابن ماجه فى الحدود (١٢) . وأبو داود فى الحدود (٢٨) . والإمام أحمد فى (١:٢٦٩) .
(١١) أخرجه الإمام أحمد فى (١:٣٠٩،٣١٧) .

للمعتبرين ، ويعذب تعذيبا يكسر شهوة الفسقة المتمردين فحقيق بمن أتى بفاحشة قوم ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، أن يَصْلَى من العقوبة بما يكون فى الشدة والشناعة مشابها لعقوبتهم ، وقد خسف الله تعالى بهم ، واستأصل بذلك العذاب بكرهم وثيبهم » .

وقد شدد الإسلام فى عقوبة هذه الجريمة لآثارها السيئة وأضرارها فى الفرد والجماعة .. ومع إجماع العلماء على حرمة هذه الجريمة ، وعلى وجوب أخذ مقترفيها بالشدة إلا أنهم اختلفوا فى تقدير العقوبة المقررة لها إلى مذاهب ثلاثة :

١ – مذهب القائلين بالقتل مطلقا .

٢ – ومذهب القائلين بأن حده حد الزانى : فيجلد البكر ويرجم المحصن .

٣ – ومذهب القائلين بالتعزير .

المذهب الأول :

يرى أصحاب الرسول ﷺ ، والناصر والقاسم بن إبراهيم والشافعى فى قول : أن حده القتل ولو كان بكراً سواء كان فاعلا أو مفعولا به . واستدلوا بما يأتى :

١ – عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « **من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به** » .

٢ – وعن على (أنه رجم من عمل هذا العمل) . أخرجه البيهقى .

قال الشافعى : وبهذا نأخذ برجم من يعمل هذا العمل محصنا كان أو غير محصن .

٣ – وعن أبى بكر : أنه جمع الناس فى حق رجل ينكح كما ينكح النساء . فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك فكان من أشدهم يومئذ قولا على بن أبى طالب عليه السلام حيث قال : « هذا ذنب لم تعص به أمة من الأمم ، إلا أمة واحدة صنع الله بها ما قد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار . فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد يأمره أن يحرقه بالنار » .. أخرجه البيهقى .

المذهب الثانى :

ذهب سعيد بن المسيب ، وعطاء بن أبى رباح ، والحسن وقتادة والنخعى ، والثورى والأوزاعى ، وأبو طالب ، والإمام يحيى ، والشافعى فى قول إلى أن حده حد الزانى ، فيجلد البكر ويُغرَّب ، ويرجم المحصن .

واستدلوا بما يأتى :

١ – أن هذا الفعل نوع من أنواع الزنا ، لأنه إيلاج فرج فى فرج ، فيكون اللائط والملوط به داخلين تحت عموم الأدلة الواردة فى الزانى المحصن والبكر ، ويؤيد هذا حديث رسول الله ﷺ : « إذا أتى

الرجلُ الرجلَ فهما زانيان » .

٢ – أنه على فرض عدم شمول الأدلة الواردة فى عقوبة الزنا لهما ، فهما لاحقان بالزانى بطريق القياس .

المذهب الثالث :

ذهب أبو حنيفة ، والمؤيد بالله ، والمرتضى والشافعى فى قول إلى تعذير مرتكب هذه الفاحشة ، لأن الفعل ليس بزنا فلا يأخذ حكمه .. وقد رجح الشوكانى مذهب القائلين بالقتل ، وضعف المذهب الأخير لمخالفته للأدلة ، وناقش المذهب الثانى فقال : « إن الأدلة الواردة بقتل الفاعل والمفعول به مطلقا مخصصة لعموم أدلة الزنا الفارقة بين البكر والثيب على فرض شمولها لمرتكب جريمة قوم لوط ، ومبطلة للقياس المذكور على فرض عدم الشمول لأنه يصير فاسد الاعتبار ، كما تقرر فى الأصول » .

مبحث علمى فى أضرار الشذوذ الجنسى :

ننقل ذلك البحث ملخصا من كتاب (القرآن والطب) للدكتور محمد وصفى حيث تتمثل تلك الأضرار فيما يلى :

الرغبة عن المرأة :

من شأن اللواطة أن تصرف الرجل عن المرأة ، وقد يبلغ به الأمر إلى حد العجز عن مباشرتها ، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج ، وهى إيجاد النسل .. ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج فإن زوجته تكون ضحية من الضحايا فلا تظفر بالسكن ولابالمودة ولا بالرحمة التى هى دستور الحياة الزوجية ، فتقضى حياتها معذبة معلقة ، لاهى متزوجة ولا مطلقة .

التأثير فى الأعصاب :

وإن هذه العادة تغزو النفس ، وتؤثر فى الأعصاب تأثيرا خاصا : أحد نتائجه الإصابة بالانعكاس النفسى فى خلق الفرد ، فيشعر فى صميم فؤاده بأنه ما خلق ليكون رجلا ، وينقلب الشعور إلى شذوذ ، به ينعكس شعور اللائط انعكاسا غريبا فيشعر بميل إلى بنى جنسه ، وتتجه أفكاره الخبيثة إلى أعضائهم التناسلية .

ولا يقتصر الأمر على إصابة اللائط بالانعكاس النفسى ، بل هناك ما تسببه هذه الفاحشة من إضعاف القوى النفسية الطبيعية فى الشخص كذلك ، وما تحدثه من جعله عرضة للإصابة بأمراض عصبية شاذة ، وعلل نفسية شائنة ، تفقده لذة الحياة ، وتسلبه صفة الإنسانية والرجولة ، فتحيى فيه لوثات وراثية خاصة ، وتظهر عليه عصبية كامنة تبديها هذه الفاحشة ، وتدعو إلى تسلطها عليه . ومثل هذه الآفات العصبية النفسية ، الأمراض السادية ،والماسوشية ، والفيتشزم ، وغيرها .

التأثير على المخ :

واللواط بجانب ذلك بسبب اختلالا كبيرا فى توازن عقل المرء ، وارتباكا عاما فى تفكيره ، وركودا غريبا فى تصوراته ، وبلاهة واضحة فى عقله ، وضعفا شديدا فى إرادته . وإن ذلك ليرجع إلى قلة الإفرازات الداخلية التى تفرزها الغدة الدرقية ، والغدد فوق الكلى ، وغيرها مما يتأثر باللواط تأثراً مباشراً ، فيضطرب عملها وتختل وظائفها . وإنك لتجد هنالك علاقة وثيقة بين (النيور ستايتا) واللواط ، وارتباطا غريبا بينهما . فيصاب اللائط بالبله والعبط وشرود الفكر وضياع العقل والرشاد .

السويداء :

واللواط إما أن يكون سببا فى ظهور مرض السويداء أو يغدو عاملا قويا على إظهاره وبعثه . ولقد وجد أن هذه الفاحشة وسيلة شديدة التأثير على هذا الداء من حيث مضاعفتها له وزيادة تعقيدها لأعراضه ويرجع ذلك للشذوذ الوظيفى لهذه الفاحشة المنكرة وسوء تأثيرها على أعصاب الجسم .

عدم كفاية اللواط :

واللواط علة شاذة وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية ، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ، لا تقوم بإرضاء المجموع العصبى ، شديدة الوطأة على الجهاز العضلى ، سيئة التأثير على سائر أجزاء البدن .

وإذا نظرنا إلى فسيولوجيا الجماع والوظيفة الطبيعية التى تؤديها الأعضاء التناسلية وقت المباشرة ، ثم قارنا ذلك بما يحدث فى اللواط وجدنا الفرق بعيدا والبون بين الحالتين شاسعا ، ناهيك بعدم صلاحية الموضع وفقد ملاءمته للوضع الشاذ .

ارتخاء عضلات المستقيم وتمزقه :

وإنك إذا نظرت إلى اللواط من ناحية أخرى وجدته سببا فى تمزق المستقيم وهتك أنسجته وارتخاء عضلاته وسقوط بعض أجزائه وفقد السيطرة على المواد البرازية وعدم استطاعة القبض عليها ، ولذلك تجد الفاسقين دائمى التلوث بهذه المواد المتعفنة بحيث تخرج منهم بغير إرادة أو شعور .

علاقة اللواط بالأخلاق :

واللواط لوثة أخلاقية ومرض نفسى خطير فتجد جميع من يتصفون به سيئ الخلق فاسدى الطباع ، لايكادون يميزون بين الفضائل والرذائل . ضعيفى الإرادة ليس لهم وجدان يؤنبهم ولا ضمير يردعهم ، لا يتحرج أحدهم ولا يردعه رادع نفسى عن السطو على الأطفال والصغار واستعمال العنف والشدة لإشباع عاطفته الفاسدة والتجرؤ على ارتكاب الجرائم التى نسمع عنها كثيرا ونطالع أخبارها فى الجرائد السيارة وفى غيرها . ونجد تفاصيل حوادثها فى المحاكم وفى كتب الطب .

اللواط وعلاقته بالصحة العامة :

واللواط فوق ما ذكرت يصيب مقترفيه بضيق الصدر ، ويرزؤهم بخفقان القلب ، ويتركهم بحال من الضعف العام ، يعرضهم للإصابة بشتى الأمراض ، ويجعلهم نهبة لمختلف العلل والأعصاب .

التاثير على أعضاء التناسل :

ويضعف اللواط كذلك مراكز الإنزال الرئيسية فى الجسم ، ويعمل على القضاء على الحيوية المنوية فيه . ويؤثر على تركيب مواد المنى ثم ينتهى الأمر بعد قليل من الزمن بعدم القدرة على إيجاد النسل والإصابة بالعقم مما يحكم على اللائطين بالانقراض والزوال .

التيفود والدوسنطاريا :

ونستطيع أن نقول : إن اللواط يسبب بجانب ذلك العدوى بالحمى التيفودية والدسنطاريا ، وغيرهما من الأمراض الخبيثة التى تنتقل بطريقة التلوث بالمواد البرازية المزودة بمختلف الجراثيم ، المملوءة بشتى أسباب العلل والأمراض .

أمراض الزنا :

ولا يخفى أن الأمراض التى تنتشر بالزنا يمكن أن تنتشر كذلك بطريقة اللواط ، وتصيب أصحابه ، فتفتك بهم فتكا ذريعا . فتبلى أجسامهم ، وتحصد أرواحهم .

مما تقدم نتبين حكمة التشريع الإسلامى فى تحريم اللواط وتظهر دقة أحكامه فى التنكيل بمقترفيه ، والأمر بالقضاء عليهم ، وتخليص العالم من شرورهم .

بماذا أجاب القوم

لقد كان الجواب يدعو إلى الأسى ، وما كان ينبغى منهم أن يقابلوا النصيحة بالإعراض والدعوة إلى النجاة بالفظاظة والغلظة .

إنه الباطل إذا أفلس يختلق ، ويدَّعى ، ويعربد ، ولا أساس له من الحق ، ولا نصيب له من الصدق ، قال تعالى :

﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾

فأعجب معى هل التطهر صار تهمة ؟ هل النقاء أضحى جريمة ؟ هل العفة أصبحت جناية ؟ إنهم يختلقون ويهرفون بما لا يعرفون ، ومثلهم فى ذلك كمثل القائل الذى يمدح قوماً ويصفهم بالشجاعة فيقول :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

سبحانك ربى هل أصبح النقاء والسمو الخلقى والتحلى بالفضيلة تهماً يلام عليها صاحبها ، إذاً لابد من

كلمة فصل تحكم هذا الصراع بين الحق والباطل ، بين السمو إلى علياء الطهر والارتكاس فى حمأة الرذيلة ، وهل يملك كلمة الفصل إلا رافع السماء بلا عمد .

إن الباطل سيظل يعربد فى عرصات الدنيا ، ولن يعربد إلا فى غفلة أهل الحق ، وسيظل كذلك حتى يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق ، يلفظ أنفاسه الأخيرة .

وجاءت كلمة الفصل قال تعالى ﴿ **فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أى من الباقين فى العذاب فقد خانت الله ورسوله ، لذلك استحقت هذا الجزاء .

لقد رجموا بالحجارة التى أشبهت المطر الغزير المدرار ، حتى جاء التعبير القرآنى غاية فى البلاغة عندما شبه الحجارة وكثرتها بالمطر الغزير ، قال تعالى ﴿ **فأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين** ﴾[1]

ولهؤلاء القوم قصة فصلها العلى الحكيم فى سورة هود ، فبعد أن نزلت الملائكة بالبشرى على إبراهيم توجهوا بعد ذلك إلى نبى الله لوط لينزلوا العذاب بالقوم ، فالملائكة رحمة بالصالحين ، كما أنهم ينزلون بالنقمة على أعداء الله الفاسقين ، ولننتقل إلى سورة هود لنستمع إلى تفصيل هذا المشهد قال سبحانه :

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جآء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود * ولما جاءت رسلنا لوطاً سىء بهم وضاق بهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب * وجاء قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئآت قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد * قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴾[2].

شعيب عليه السلام وقومه

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ

(١) الآية ١٧٣ من سورة الشعراء .
(٢) الآيات ٧٤-٨٣ من سورة هود .

﴿ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **يقال بخسه حقه** ﴾ : أى نقصه . ﴿ **الإفساد** ﴾ : شامل لإفساد نظام الاجتماع بالظلم وأكل أموال الناس بالباطل وإفساد الأخلاق والآداب بارتكاب الإثم والفواحش . وإفساد العمران بالجهل وعدم النظام ، وإصلاحها : هو إصلاح حال أهلها بالعقائد الصحيحة ، والأعمال الصالحة المزكية للأنفس ، والأعمال المرقية للعمران ، المحسنة لأحوال المعيشة . ﴿ **والصراط** ﴾ : الطريق . ﴿ **توعدون** ﴾ : تخوفون الناس . وروى عن ابن عباس أنهم كانوا يجلسون فى الطريق فيقولون لمن أتى إليهم إن شعيباً كذاب فلا يفتننكم عن دينكم ﴿ **فكثركم** ﴾ : أى بما بارك فى نسلكم .

يخبر الله سبحانه وتعالى أنه أرسل إلى أهل مدين نبياً كريماً هو شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، فإذا كان نبى الله لوط قد بعث إلى قوم انحرفوا بمجتمعهم إلى الحضيض ، والدرك الأسفل ، فأفسدوا فطرة الله عندما أتوا الذكران من العالمين ، فإن نبى الله شعيبا عليه السلام قد بعث لقوم طغى عليهم المال ، فطففوا المكيال والميزان .

وإذا كان المال عصب الحياة ، فإن الأنبياء بعثوا ليعلموا الناس الحلال والحرام ، بعد أن يأمروهم بتوحيد الله تعالى ذاتا وصفاتا وأفعالاً والحلال خير كله ، والحرام شر كله :

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله ياأولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾[1]

والمال إذا كان من الحلال يصير نعمة ينعم الله بها على عباده ، نعم المال الصالح للعبد الصالح ، فإذا دخله الحرام صار نقمة على صاحبه ، فإنه لا تزول قدمك من بين يدى الله عز وجل حتى تسأل عن أربع : شبابك فيم أبليته ، وعمرك فيم أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته . وفيم أنفقته ، وعلمك ماذا صنعت فيه .

وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه هو من هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان الرسول يقول عنه:(هذا خالى فليرنى امرؤ خاله) قال سعد : يارسول الله سل الله أن يجعلنى مجاب الدعوة قال له : (ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، فوالذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف باللقمة الحرام فى جوفه فلا يقبل الله منه دعاء ، ولا يقبل منه عمل أربعين يوماً ، ومن نبت جسمه من حرام فالنار أولى به)[2].

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة المائدة . (٢) أخرجه البخارى فى الأذان (٩٥) . ومسلم فى المساقاة (١٣٨) . والدارمى فى الرقاق (٦٠) .

وقد كانت الزوجات الصالحات يقلن لأزواجهن كلمة ليت نساءنا يعرفنها ، كانت المرأة تقول لزوجها سعيا وراء لقمة العيش : يافلان اتق الله فينا،ولا تأكل حراما ، إننا نصبر على الجوع فى الدنيا ، ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة.

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

ليست السعادة فى الانتشاء بالكئوس المترعة ، أو الاستمتاع بالغيد الأماليد ، أو كثر المال ، إنما السعادة فى غنى النفس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

سمع أحد الصالحين فى مجلسه رجلا يقول : اللهم ارض عنى . فقيل له : لو رضيت عن الله لرضى عنك . قال : فيكف أرضى عن الله ؟ قال له : يوم ترضى بالنقمة رضاك بالنعمة ، فقد رضيت عن الله .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى يد
وإدراك الذى يأتى قريب ولكن الذى يمضى بعيد

لقد عرض نبى الله شعيب على قومه المنهج الربانى العظيم ، قال يا قوم:اعبدوا الله مالكم من إله غيره

ومن مبدأ التوحيد والعقيدة يكون المنطلق إلى التشريع والتوجيه ، فمن عبد الله وحده فقد عرفه ، ومن عرف الله فقد اتقاه ، ومن اتقى الله فقد خاف من الجليل ، وعمل بالتنزيل ، ورضى بالقليل ،وأعد الزاد ليوم الرحيل .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا ولو كان كاسيا

وخير لباس المرء طاعة ربه
ولا خير فى من كان لله عاصيا

يقول شعيب بعد ذلك لقومه : ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ أى لقد قامت الحجج والبراهين على صدق وعصمتى من الكذب ، فأوفوا الكيل والميزان ، فإن المعاملة هى الركن العظيم فى الدين ، لذا قال أحدهم : إذا أثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ، ومرافقوه فى السفر ، ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى دينه ، وفى الإيفاء وفاء ، والوفاء فضيلة .

ثم نهاهم عن البحس فقال ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أى لاتنقصوهم حقهم ، فإن البخس

ضرب من ضروب الظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، فالحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع ، والظلم لا يدوم وإذا دام دمر ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾(١) ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىَّ المصير ﴾(٢) .

ثم ينهاهم عن الإفساد فى الأرض ، فيقول ﴿ **ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها** ﴾

وهذا محور الارتكاز لكل مجتمع فالإفساد له صور كثيرة ، فالظلم إفساد ، والرشوة إفساد ، والربا وسفك الدماء وهتك الأعراض والاعتداء على الناس إفساد .

ثم يقدم النصح فى صورة كريمة فيقول ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾

قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء وقال العقل : ليته ما نهى .

إنه نداء الفطرة ومنطق الحق المبين فإذا كان الإفساد شراً كله فإن الإصلاح خير كله ، وقد جاء ذلك مفصلا فى سورة هود قال تعالى ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط * وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولاتعثوا فى الأرض مفسدين * بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(٣) .

وفى سورة الشعراء يقول تعالى ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين * وزنوا بالقسطاس المستقيم * ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾(٤)

وفى سورة الأعراف ينهاهم شعيب عن قطع الطريق على الناس ، فإن للطريق حقا ، بينه السيد الجليل محمد ﷺ فى قوله: « فإن أبيتم إلا الجلوس فى الطرقات فأعطوا الطريق حقه . قالوا : وماحق الطريق يارسول الله ؟ قال كف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وغض البصر »(٥)

يقول لهم شعيب ﴿ **ولاتقعدوا بكل صراط توعدون** ﴾

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٣) الآيات ٨٤-٨٦ من سورة هود .

(٤) الآيات ١٧٦-١٨٤ من سورة الشعراء .

(٥) أخرجه البخارى فى الاستئذان (٢) . ومسلم فى اللباس (١١٤) وفى السلام (٢،٣) . والإمام أحمد فى (٣:٣٦،٤٧) .

أى تخوفون الناس وتهددونهم ، ﴿ **تصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا** ﴾ أى تريدون الدعوة إلى الله معوجة بعد استقامتها ، بصد الناس عنها وتهديدهم وتخويفهم منها .

ثم يذكرهم بنعم الله عليهم فيقول ﴿ **واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم** ﴾ والكثرة فيها قوة ، وهى نعمة ، ثم يحذرهم من عاقبة المفسدين من الأمم السابقة التى أهلكها الله فيقول ﴿ **وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ .

وفى سورة هود يقول : ﴿ وياقوم لايجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾[1]

وفى سورة الأعراف يقول لهم بعدما عانى من عنادهم وصبر على إيذائهم ﴿ **وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾

حتى الأمر بالصبر لم يمتثلوا له ولم يرضوا به ، إن الرسل لما قالوا لهم﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[2] قال لهم أهل الضلال والبهتان والظلم والطغيان ﴿ لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد * واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴾[3] .

انتهى الجزء الثامن ويليه بمشيئة الله تعالى الجزء التاسع مبدوءا بقوله تعالى :

۞قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾

---

(١) الآيتان ٨٩،٩٠ من سورة هود .
(٢) الآية ١٢ من سورة إبراهيم .
(٣) الآيات ١٣–١٥ من سورة إبراهيم .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء التاسع

المكتب المصرى الحديث

مازال الحديث عن قصة نبى الله شعيب على نبينا وعليه الصلاة والسلام . ونبدأ من الحديث ما كان قد انقطع بقوله تعالى :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

المفردات : ﴿ الرجف ﴾ : الحركة والاضطراب والمراد بها الزلزلة ومنه ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾[1] ﴿ وغنى بالمكان يغنى ﴾ : كرضى يرضى . إذا نزل به وأقام فيه ﴿ والأسى ﴾ : شدة الحزن . وكانت مدين تمتد من خليج العقبة إلى موآب وطور سينا وفى رواية إنها كانت تمتد من شبه جزيرة سينا إلى الفرات . ومدين تطلق على القبيلة كما تطلق على المدينة . وشعيب هو ابن ميكيل بن يشحر . وكان يلقب بخطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته .

هل صبروا حتى يحكم الله ، لقد قالوا له متهكمين ساخرين : ﴿ ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[2] . وقالوا له كما جاء فى سورة الشعراء ﴿ إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشرٌ مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[3] وفى سورة الأعراف ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ .

(١) الآية ١٤ من سورة المزمل .
(٢) الآيتان ٨٧، ٨٨ من سورة هود .
(٣) الآيات ١٨٥-١٨٧ من سورة الشعراء .

خيروه بين أمرين : الإخراج من القرية ، أو الدخول فى ملة الكفر ﴿ **قال أو لو كنا كارهين** ﴾ أى أترغموننا على ذلك ولو كنا كارهين ، إن الدخول فى الكفر أمر محال دونه ضرب الرقاب ﴿ **قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها** ﴾ .

أبعد النجاة وإنعام الله علينا بالتوحيد ، والتزام الصراط المستقيم ، والسير فى طريق الهدى والنور ندعوَ من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ﴿ ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ﴾[1] ﴿ **وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علماً** ﴾ هذا تفويض مطلق للمشيئة العليا ، فالوجود ملك الله والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه ، واحد بلا عدد ، وقائم بلا عمد ، وباق بلا أمد ، علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر . يقص الحق وهو خير الفاصلين ، أحاط بكل شىء علماً وأحصى كل شىء عددا .

﴿ **على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** ﴾ أى احكم بيننا وبين هؤلاء فأنت أعدل العادلين ، وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين ، لاراد لقضائك ، ولا معقب لحكمك .

فهل أطاعوا وأذعنوا وانقادوا وسلموا لله الأمر ، إن ذلك كله كان صرخة فى واد ، ونفخة فى رماد .

لقد أسمعت لو ناديت حياً ... ولكن لا حياة لمن تنادى
ونار لو نفخت بها أضاءت ... ولكن أنت تنفخ فى رماد

فأعجب معى لما قاله القوم بعد هذا النصح والترغيب والترهيب ، ونور الوعد ونيران الوعيد ، إن هؤلاء لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ،ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ، اسمع ماذا كان ردهم : ﴿ **وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ .

ترصّد وسبق إصرار على الجناية ، وسفه وعناد وبطر للحق ، وتصميم على الباطل ، وتحريض على دعوة الله ، إذاً لقد بلغ السيل الزبى ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، فلابد من كلمة الفصل ، ولا يملك كلمة الفصل إلا الحكم العدل : ﴿ **فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين** ﴾ رجت الأرض رجاً ، لأنهم أرجفوا المؤمنين وهددوهم ، وأوعدوهم ، فلابد أن يكون الجزاء من جنس العمل لقد أصبحوا فى دارهم أجساداً هامدة ﴿ **الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها** ﴾ أى كأنهم لم يكونوا مقيمين فى تلك الديار ، ليس الذين اتبعوه من الخاسرين ، بل هم المفلحون الفائزون المؤمنون المتقون : ﴿ **الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين** ﴾ .

وهل هناك خسران أشد من أن يخسر الإنسان نفسه ، بعذاب فى الدنيا والآخرة ، وكانت نهاية المأساة أن يقول شعيب وقد أصبحت ديارهم خاوية على عروشها ﴿ **يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين** ﴾ .

كلمة تسيل لها النفس مرارة ، وتتفتت لها الكبد حسرة ولقد قالها الرسول ﷺ لصناديد قريش ،

(١) الآية ٧١ من سورة الأنعام .

وجبابرة المشركين بعد أن وضعت أجسادهم فى القليب بعد بدر ، قال لهم : « لقد وجدت ما وعدنى ربى حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ بئس عشيرة النبى أنتم كنتم لنبيكم» قالوا : يارسول الله أتخاطب قوما قد جيفوا . قال : « والله ما أنتم بأسمع لما أقول منهم إنهم يسمعون ، ولكنهم لا يتكلمون » .

وفى سورة هود يقول تعالى فى شأن أهل مدين:﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾[1] .

كانت الرجفة من الأرض، فأتبعتها الصيحة من السماء.

وفى سورة الشعراء يقول الله فى حق مدين ﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[2] .

وذلك لأنهم كذبوه ، وطلبوا منه أن يسقط عليهم كسفا من السماء ، فأرسل الله إليهم سحابة دكناء استظلوا بها من وهج الشمس ، وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، وقد سال فيها لعاب كالمهل يشوى الوجوه . فإذا السحابة لا ظل فيها ، لقد أمطرتهم ناراً﴿ **إنه كان عذاب يوم عظيم** ﴾ فأعجب معى لرجفة وصيحة وعذاب يوم عظيم . فاللهم اهدنا بفضلك فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك اللهم لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت ، إنك سبحانك تقضى بالحق ولا يقضى عليك .

دروس وعبر

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾

المفردات : ﴿ **القرية** ﴾ : المدينة الجامعة لزعماء الأمة ورؤسائها (العاصمة) ﴿ **البأساء** ﴾ : الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر ﴿ **الضراء** ﴾ : ما يضر الإنسان فى بدنه أو نفسه أو معيشته ﴿ **والأخذ بها** ﴾ : جعلها عقابا لهم . ﴿ **التضرع** ﴾ : إظهار الضراعة أى الضعف والخضوع و﴿ **عفوا** ﴾ : كثروا ونموا . ﴿ **من قولك** ﴾ : عفا النبات والشعر إذا كثر . ﴿ **بغتة** ﴾ : فجأة .

بعد أن ذكر سبحانه حال الأمم السابقة مع أنبيائهم ، وبين ما فى قصصهم من العظة والعبرة ، فقد كانت العاقبة فى كل حال للمتقين ، والدائرة تدور على المبطلين .

(١) الآيتان ٩٤،٩٥ من سورة هود . (٢) الآيات ١٨٩-١٩١ من سورة الشعراء .

أشار هنا إلى سنة الله فى الأمم التى تكذب رسلها ، أن ينزل بها اكبؤس وشظف العيش وسوء الحال فى دنياهم ،ليتضرعوا إلى ربهم وينيبوا إليه بالإقلاع عن كفرهم ، والتوبة من تكذيب أنبيائهم ، وفى هذا من التحذير لقريش ، والتخويف لهم ، مالا يخفى ، ثم ذكر أنه بدل الرخاء بالبؤس ، ليعتبروا ويشكروا لكنهم لم يفعلوا فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون** ﴾

أى إن سنتنا قد جرت ولا مبدل لها ، أننا إذا أرسلنا نبيا فى قوم وكذبوه أنزلنا بهم الشدائد والمصائب ،لنعدهم ونؤهلهم للتضرع والإخلاص فى دعائنا بكشفها ، وقد ثبت بالتجارب لدى علماء الأخلاق أن الشدائد تربى الناس ، وتصلح فساد أحوالهم ، فالمؤمن قد يشغله هناء العيش عن حاجته إلى ربه ، لكن الشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها له بفقدها ، وتنبه الشدائد والأهوال إلى وجود الرب الخالق المدبر لأمور الخلق ، وتذكره الأهوال بمصدر هذا النظام فى الكون .

﴿ **ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة** ﴾ أى ثم أعطينا بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة ، الرخاء والسعة .

﴿ **حتى عفوا** ﴾ أى حتى كثر عددهم ونموا ، إذ أن الرخاء مما يكون سببا فى كثرة النسل ، وبه تتم النعمة فى الدنيا على الموسرين ، ، ومن هذه الحسنات ما حدث لقوم هود من النعم التى بطروا بها ، وذكرهم هود بها فى قوله ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[1].

وكذا ما قاله صالح لقومه ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوّأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾[2]

وقالوا ﴿ **قد مس آباءنا الضراء والسراء** ﴾ أى قالوا قولا يدل على أنهم لا يعتبرون بأحداث الزمان . قالوا : قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وما نحن إلا مثلهم ، فيصيبنا مثل ما أصابهم ، والدهر بالناس قلب ، وتلك عادة الدهر بأبنائه ، فلا الضراء عقاب على ذنب يرتكب ، ولا السراء جزاء على صالحات تكتسب .

وخلاصة هذا — أنهم لم يفهموا السنن التى وضعها المولى سبحانه فى أسباب السعادة والشقاء فى البشر ، والتى أرشد إليها قوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[3].

ومن ثم لم يتذكروا ولم يعتبروا حين ذكرهم رسولهم ، بل أعرضوا ونأوا ﴿ **فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ أى فكان عاقبة أمرهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة ، وهم لا شعور لديهم بما سيحل بهم ، إذ هم قد جهلوا سنن الله التى وضعها فى شئون الاجتماع ، فلا هم اهتدوا إليها بعقولهم ، ولا هم صدقوا الرسل فيما أنذروهم به ، وجاء بمعنى الآية قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا

(١) الآية ٦٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٧٤ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١١ من سورة الرعد .

عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾[1].

فالكافرون إذا مسهم الشر يئسوا وابتأسوا ، وإذا مسهم الخير بطروا واستكبروا وبغوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل ، والمؤمنون بالله وما جاء به رسله تكون الشدائد والمصايب تربية لهم وتمحيصا .

ولما ترك المسلمون هدى القرآن فى حكوماتهم ومصالحهم العامة ، فى أعمال الأفراد ، سلبهم الله ما أعطاهم من أنواع العلم والحكمة ، واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ،فاتبعوا أهل الكتاب فى خرافاتهم وضلالهم وتقليد آبائهم وأجدادهم ، وطلب النفع والضر من دجالى الأحياء ، وقبور الأموات ، فغشيهم الجهل ، والنابتة منهم قلدوا الإفرنج فى الفسق والفجور ،وشرما وصلوا إليه فى طور فساد حضارتهم ، وقلدوهم حتى فيما لايوافق أحوالهم وبلادهم ومصالحهم .

وهكذا ضلت الفئتان عن هدى القرآن ، وأضاعتا ما بقى من ملك الإسلام .

توجيه وتحذير

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات : ﴿ **بركات السماء** ﴾ : تشمل معارف الوحى العقلية ، ونفحات الإلهام الربانية ، والمطر ونحوه ، مما يوجب الخصب والخير فى الأرض ، وبركات الأرض : الخصب والمعادن ونحوهما ، و﴿ **البأس** ﴾ : العذاب :و﴿ **بياتا** ﴾ : أى وقت بيات وهو الليل ، و﴿ **الضحى** ﴾ : انبساط الشمس وامتداد النهار ويسمى به الوقت و﴿ **يلعبون** ﴾ : أى يلهون من فرط غفلتهم ، ﴿ **المكر** ﴾ : التدبير الخفى الذى يفضى بالممكور به إلى مالا يحتسب ، وهداه السبيل وهداه إليه وهداه له: أى دل عليه وبينه له.

بعد أن بين عز اسمه أخذه أهل القرى الذين كذبوا رسلهم ، وكفروا بما جاءوا به وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بما فتنوا فيه من أفانين الشرك والمعاصى ، كما حكى الله فى محاورتهم لرسلهم وإجابة الرسل لهم بما سلف ذكره .

ذكر هنا لأهل مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم ، لو آمنوا بالرسل ،

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام .

واهتدوا بهديهم ، وعتبروا بسنة الله فى الأمم من قبلهم ، فإن سنته تعالى فى الأمم واحدة ، لا تبديل فيها ولا تحويل .

﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾ .

أى ولو أن أهل مكة ومن حولهم من أهل القرى ، آمنوا بما دعاهم إليه خاتم الرسل صلوات الله عليه وسلم من عبادته تعالى وحده ، واتقوا ما نهاهم عنه من الشرك والفساد فى الأرض ، لم يعهدوها من قبل ، فتكون لهم أبواب نعم وبركات غير التى عهدوا فى صفاتها و نمائها وثباتها وأثرها فيهم ، فأنزل عليهم الأمطار النافعة التى تخصب الأرض ، وتكسب البلاد رفاهية العيش ، وآتيناهم من العلوم والمعارف وفهم سنن الكون ما لم يصل إلى مثله البشر من قبل .

والخلاصة — أنهم لو آمنوا لوسعنا عليهم الخير من كل جانب ، ويسرناه لهم بدل ما أصابهم من عقوبات بعضها من السماء وبعضها من الأرض .

والقاعدة التى أقرها القرآن الكريم أن الإيمان الصحيح ، ودين الحق ، سبب فى سعادة الدنيا ، ويشارك المؤمنين فى المادى منها الكفار كما قال تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء** ﴾ أى إن ذلك الفتح كان ابتلاء واختباراً لحالهم ، وكان من أثره فيهم البطر والأشر ، بدلا من الشكر لمولى النعم ، فكان نقمة لا نعمة ، وفتنة لا بركة ، ولكن المؤمنين إذا فتح الله عليهم كان أثره فيهم شكر الله عليه ، والاغتباط بفضله ، واستعماله فى سبيل الخير دون الشر ، وفى الإصلاح دون الإفساد ، ويكون جزاؤهم على ذلك زيادة النعم فى الدنيا ، وحسن الثواب عليها فى الآخرة .

﴿ **ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** ﴾ أى ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا فأخذناهم بما كانوا يعملون من أعمال الشرك والمعاصى التى تفسد نظم المجتمع البشرى .

وذلك الأخذ بالشدة أثر لازم لكسبهم المعاصى بحسب السنن التى وضعها المولى فى الكون ويكون فيه العبرة لأمثالهم إن كانوا يعقلون هذه النواميس العامة التى لا تبديل فيها ولا تغيير .

ثم عجب من حالهم وذكر من غفلتهم فقال : ﴿ **أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون** ﴾ أى أجهل أهل مكة وغيرهم من أهل القرى الذين بلغتهم الدعوة ، والذين ستبلغهم ، ما نزل بمن قبلهم ، وغرهم ماهم فيه من نعمة ، فأمنوا أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم نائمون ؟

﴿ **أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون** ﴾ أى أو أمن أهل القرى أن يأتيهم عذابنا فى وقت الضحى وهم منهمكون فى أعمالهم التى كأنها لعب أطفال ، لعدم الفائدة التى تترتب عليها .

والخلاصة — أنه تعالى خوفهم نزول العذاب بهم فى أوقات الغفلات ، إما حين النوم ، وإما وقت الضحى ، إذ يكثر فيهن تشاغل الناس باللذات .

﴿ **أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاالقوم الخاسرون** ﴾ أى أكان سبب أمنهم إتيان بأسنا بياتا أو ضحى وهم غافلون عن مكر الله بهم بإتيانهم بأسنا من حيث لا يحتسبون ولا يقدرون ؟ إن كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم ، فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

وإذا كانت الآية ناطقة بأن أمن الصالح المتعبد من مكر الله جهل يورث الخسران ، فما بال من يأمن مكر الله وهو مسترسل فى معاصيه اتكالا على عفوه ومغفرته ورحمته ؟ وقد كان النبى ﷺ يكثر الدعاء بقوله : « اللهم يامقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك »[١]، وذكر سبحانه أن الراسخين فى العلم يدعونه فيقولون : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ﴾[٢].

وكما أن الأمن من مكر الله خسران ومفسدة ، فاليأس من رحمة الله كذلك ، فكلاهما مفسدة تتبعها مفاسد .

﴿ **أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون** ﴾ .

أى أكان ما ذكر من آياتنا مجهولا لأهل القرى،وأنه هو سنة الله ، ولم يتبين لأولئك الذين يرثون الأرض من بعد أهلها قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، أن شأننا فيهم كشأننا فيمن سبقهم فهم خاضعون لمشيئتنا . فلو نشاء أن نعذبهم بسبب ذنوبهم لعذبناهم ، كما أصبنا أمثالهم ممن قبلهم بمثلها وأهلكناهم كما أهلكناهم ، فإن لم نهلكهم بالعذاب نطبع على قلوبهم فلا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[٣] إذ أن قلوبهم قد ملئت بمعتقدات وشهوات تصرفها عن غيرها فجعلهم من ﴿ الأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾[٤].

وقد كان فى مثل هذا القصص عبرة للمسلمين أيما عبرة ، فكتابهم يقص عليهم قصص الأمم قبلهم ، ويبين لهم أن ذنوب الأمم لا تغفر كذنوب الأفراد ، وسنته فيها لا تتبدل ولا تتحول ، فكان عليهم أن يتقوا كل ما قصه من ذنوب الأمم التى هلك بها من قبلهم ، وزالت بهم الدولة لأعدائهم ، ولكنهم قصروا فى وعظ الأمة بها ، وإنذارهم عاقبة الإعراض عنها وترك الإعراض عن تدبرها ، وكان عليهم أن يعتبروا بقول النبى ﷺ : « شيبتنى هود وأخواتها »[٥] وقوله تعالى : ﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين * أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾[٦].

---

(١) أخرجه الترمذى فى القد (٧) وفى الدعوات (١٢٤،٨٩) . وابن ماجه فى الدعاء (٢) . والإمام أحمد فى (٤١٨،١٨٢:٤) وفى (٣١٥،٣٠٢،٢٩٤،٢٥١،٩١:٦) .

(٢) الآية ٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ١٠١ من سورة يونس .

(٤) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

(٥) أخرجه الترمذى فى (تفسير سورة ٦:٥٦) .

(٦) الآيتان ٦٩،٦٨ من سورة المؤمنون .

عبرة وعظة

﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾

المفردات : ﴿ **العهد** ﴾ : الوصية والوصية تارة يراد بها إنشاؤها وإيجادها وأخرى يراد بها مايوصَى به ويقال عهدت إليه أى وصيته بفعله أو حفظه وهو إما أن يكون بين طرفين وهو المعاهدة وإما من طرف واحد بأن يعهد إليك بشيء أو تلزم بشيء : و﴿ **الميثاق** ﴾ : هو العهد الموثق بضرب من ضروب التوكيد . قال الراغب : عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به فى الكتاب وألفه رسله وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها أ . هـ ﴿ **والفسوق** ﴾ : الخروج عن كل عهد فطرى وشرعى بالنكث والغدر وغير ذلك من المعاصى ووجدنا الأولى بمعنى : ألفينا والثانية بمعنى : علمنا .

هذا خطاب وجه إلى النبى ﷺ تسلية وتثبيتاً له على الصبر على دعوته ، بتذكيره بما فى قصص أولئك الرسل مع أقوامهم ، من وجوه العبر والمواعظ ، وبيان أن ما يلاقيه منهم من ضروب العناد والاستكبار والإيذاء ليس بدعاً بين الأمم ، بل ذلك طريق سلكه كثير من الأمم المجاورة لهم ، كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، وغيرهم ممن تقدم ذكرهم ، وقصصهم يدور على ألسنتهم بحكم الجوار لهم ، وطروق أرضهم فى حلهم وترحالهم فى رحلتى الشتاء والصيف .

﴿ **تلك القرى نقص عليك من أنبائها** ﴾ أى تلك القرى التى بعد عهدها ، وطال الأمد على تاريخها ، وجهل قومك حقيقتها ، نقص عليك بعض أنبائها مما فيه العبرة لقومك ولك .

والمراد بها القرى المعهودة فى هذا القصص ، والحكمة فى تخصيصها بالذكر أنها كانت فى بلاد العرب وما جاورها ، وكان أهل مكة وغيرهم ممن وجهت إليهم الدعوة أول الإسلام يتناقلون بعض أخبارها ، وهى جميعا طبعت على غرار واحد فى تكذيب الرسل ، والمماراة فيما جاءوا به من النذر ، فحل بهم النكال بعذاب الاستئصال فالعبرة فى جميعها واحدة ، ومن ثم فصلها من قصة موسى الآتية لأن قومه آمنوا به ، وإنما كذب فرعون وملؤه فعُذِّبوا .

﴿ **ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل** ﴾

أى ولقد جاء أهل تلك القرى رسلهم بالبينات الدالة على صدق دعوتهم ، وبالآيات التى اقترحوها

عليهم لإقامة حجتهم ، فجاء كل رسول قومه بما أعذر به إليهم ، ولكن لم يكن من شأنهم أن يؤمنوا بعد مجيء البينات بما كذبوا به من قبل مجيئها ، حين بدء الدعوة إلى التوحيد ، وعبادة الله وحده ، بما شرعه ، وترك الشرك والمعاصى .

ذاك إذن شأن المكذبين عناداً أو تقليداً ، أن يصروا على التكذيب بعد إقامة البينة ، إذ لا قيمة لها فى نظرهم فهم إما جاحدون معاندون ضلوا على علم ، وإما مقلدون يأبون النظر والفهم .

وفى معنى الآية قوله فى سورة يونس ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾(١)

﴿ **كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين** ﴾ أى مثل ما ذكر عن عناد هؤلاء وإصرارهم على الضلال ، وعدم تأثير الدلائل والبينات فى عقولهم ، يكون الطبع على قلوب من ران الكفر على قلوبهم ، وصار العناد ديدنهم ، سنة الله فى أخلاق البشر وأحوالهم ، إذ هم يأنسون بالكفر وأعماله ، وتستحوذ أوهامه على عقولهم ، ويملأ حب الشهوات أفئدتهم ، فلا يقبلون بحثا ، ولا فيما هم عليه نقدا ، فما مثلها إلا مثل السكة التى طبعت على طابع خاص أثناء صهر معدنها . وإذابته ، ثم جمدت ، فلا تقبل بعد ذلك نقضا ، ولا شكلا آخر .

وفى الآية تسلية للنبى ﷺ ، وإعلام له بأن أهل مكة قد وصلوا إلى حال من الجمود والعناد وفساد الفطرة ، وإهمال النظر والعقل ، ولا تؤثر فيها البينات وإن وضحت ، ولا الآيات وإن اقترحت .

وقد كانوا يقترحون عليه الآيات وكان يتمنى أن يؤتيه الله ما اقترحوا منها ، حرصا على إيمانهم ، حتى يبين الله له طباعهم وأخلاقهم ليعرف مبلغ أمرهم فى قبول دعوته ، وأنه لا أمل له فيهم بحال .

﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد** ﴾ أى وما وجدنا لأكثر أولئك الأقوام عهدا مّا يفون به ، سواء إن كان عهد الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، إذ قد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبى ، فوق جميع القوى ، وعلى إيثار الحسن واجتناب غيره . وعلى حب الكمال وكراهة النقص . أم كان العهد الذى أخذه ربهم عليهم وهم فى الأصلاب ، أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا معه غيره بلا دليل ولا حجة من عقل ولا شرع ، وقد جاء فى صحيح مسلم « يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم» (٢) وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (٣)

(١) الآية ٧٤ من سورة يونس .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٦٣) . والإمام أحمد فى (١٦٢:٤) .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨٠) و تفسير (سورة ٣٠ :١) وفى القدر (٣) . وأخرجه مسلم فى القدر (٢٢،٢٣،٢٤) . والإمام أحمد فى (٣١:٢،٣٤٦) .

﴿ وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أى وإننا وجدنا أكثرهم خارجين على كل عهد فطرى ، وشرعى وعرفى .

فهم ناكثون غادرون للعهود مرتكبون أفانين للمعاصى وفى التعبير بالأكثر إيماء إلى أن بعضهم قد آمن والتزم كل عهد عاهده الله عليه أو تعاهد عليه مع الناس وهذا من دأب القرآن فى تحقيق الحقائق على وجه الصدق بحيث لا تشوبها شبهات المبالغة بما يسلب أحدا حقه أو يعطى أحداً حق غيره .

قصة موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ
أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ
يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ
أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾
قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾
قَالَ أَلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ * وَأَوْحَيْنَآ
إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾
فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾
رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى
ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ
لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ
رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

المفردات : ﴿ **موسى** ﴾ : هو موسى بن عمران (بكسر العين) وأهل الكتاب يقولون : (عَمرام) بفتح أوله وإنما سمى موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر فالماء بالقبطية (مو) والشجر (سى) وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته فى تابوت . (صندوق) وأقفلته إقفالا محكما وألقته فى (نهر النيل) خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم ويتركون نساءهم . ﴿ **وفرعون** ﴾ : لقب لملوك مصر كلقب قيصر لملوك الروم وكسرى لملوك الفرس . والراجح لدى كثير ممن يعنون بالتاريخ المصرى القديم أن فرعون موسى هو الملك منفتاح وكان يلقب بسليل الإله (رع) أى الشمس وقد كتب بجانب هيكله الذى بدار الآثار المصرية الآية الكريمة ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾[1] و﴿ **الملأ** ﴾ : أشراف القوم وظلموا بها : جحدوا بها وكفروا و ﴿ **حقيق** ﴾ : أى جدير وخليق به . يقولون أنت حقيق بكذا كما يقول : أنت جدير به وخليق به ﴿ **والنزع** ﴾ : إخراج الشيء من مكانه وتأمرون : أى تشيرون فى أمره . يقولون : مرنى بكذا على معنى : أشر على وأدل برأيك . ﴿ **وأرجئ** ﴾ : أى أرجئ أمره وأخره ولا تفصل فيه بادى الرأى و﴿ **فى المدائن** ﴾ : أى مدائن ملكك و﴿ **حاشرين** ﴾ : أى جامعين سائقين السحرة منها ﴿ **عليم** ﴾ : أى بفنون السحر ماهو فيها . ﴿ **لقف الشىء وتلقفه** ﴾ : تناوله بحذق وسرعة ﴿ **والمأفوك** ﴾ : المصروف عن وجهه الذى يحق ان يكون عليه ومن ثم يقال للرياح التى عدلت عن مهابها مؤتفكة كما قال : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ﴾[2] وقال : ﴿ قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾[3] أى يصرفون عن الحق فى الاعتقاد إلى الباطل . وعن الصدق فى المقال إلى الكذب وعن الجميل فى الفعل إلى القبيح فالإفك يكون بالقول كالكذب وقد يكون بالفعل كعمل سحرة فرعون وانقلبوا عادوا . وصاغرين أى أذلة بما رزئوا به من الخذلان والخيبة وألقى السحرة ساجدين : أى خروا سجداً لأن الحق بهرهم واضطرهم إلى السجود . ﴿ **المكر** ﴾ : صرف الإنسان عن مقصده بحيلة . وهو نوعان محمود ويراد به الخير ومذموم يقصدون به الشر . وتقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ان تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والعكس بالعكس . والصلب الشد على خشبة ونحوها وشاع فى تعليق الشخص بنحو حبل فى عنقه ليموت وهو المتعارف اليوم ونقمت الشىء : إذا انكرته إما باللسان وإما بالعقوبة كما قال تعالى : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾[4] ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله ﴾[5] و﴿ **أفرغ علينا** ﴾ : أى أفض علينا صبرا يغمرنا كما يفرغ الماء من القرب ..

هذه هى القصة السادسة من قصص الأنبياء التى ذكرت فى هذه السورة ، وفيها من الإيضاح والتفصيل مالم يذكر فى غيرها ، لأن معجزات موسى كانت أقوى من معجزات غيره ممن سبق ذكرهم ، وجهل قومه كان أفحش .

(١) الآية ٩٢ من سورة يونس .
(٢) الآية ٩ من سورة الحاقة .
(٣) الآية ٣٠ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٧٤ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٨ من سورة البروج .

وقد ذكرت قصته فى عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة ؛ وذكر اسمه فى سور كثيرة زدات على مائة وثلاثين مرة ، وسر هذا أن قصته أشبه قصص الرسل بقصص النبى ﷺ ، إذ أنه أوتى شريعة دينية ونبوية .

وكون الله تعالى به أمة عظيمة ، ذات ملك ومدنية .

وقصة موسى دار فيها الصراع العنيف بين الحق والباطل ، بين المعجزة والسحر ، بين الإيمان والكفر ، بين كبر فرعون وتواضع موسى ، بين ادعاء الألوهية وحقيقة النبوة ، بين ما كان عليه فرعون من الزيف والطيش والحماقة والسفاهة والنزق ، وبين ما كان عليه موسى من الخلق الرفيع والحلم الجميل والتمسك بكلمة الله ، والصفح والصبر وقوة العزيمة والإصرار على الواحدنية ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾[1] .

فانظر البوْن الشاسع ، والفرق البعيد المدى ، بين منطق الحق وتهريج الباطل ، فالحق أبلج ، والباطل لجلج .

ثم تأمل معى هذا الحوار الذى دار بين عدو الله فرعون ، وكليم الله موسى ، عندما عرض موسى عليه الحق لما أمره الله تعالى بقوله ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين . قوم فرعون ألا يتقون * قال ربِّ إنى أخاف أن يكذبون * ويضيق صدرى ولاينطلق لسانى فأرسل إلى هارون * ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ، قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون * فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل * قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين * قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل * قال فرعون وما رب العالمين * قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لمن حوله ألا تستمعون * قال ربكم ورب آبائكم الأولين * قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون * قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال لئن اتخذت إلَهًا غيرى لأجعلنك من المسجونين * قال أو لو جئتُك بشئ مبين * قال فأت به إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين * قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾[2] .

فهذه صورة واضحة المعالم ، بينة الحقائق ، جلية فى معانيها ومبانيها ومراميها ومغازيها ، تعطيك إلى أى حد كان صلف فرعون ، وهو يتمرغ فى ظلمات كبره ، بينما موسى فى ثباته كأنه الجبال الشم ، وفى هدوئه كأنه الرواس الشامخات ، إن الحق هو الحق ولو تغير له أهل الأرض جميعاً ، إن الشمس فى عليائها ، فهل

(١) الآيتان ١٠١، ١٠٢ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات ١٠- ٣٥ من سورة الشعراء .

يستطيع أحد أن ينفخ فى الشمس فيطفئها ، إنه أطهر من السحابة فى سمائها ، وأنصع من ماء الغمام ، إنه القمر فى نوره الوضاء ، يبدد الغياهب ، ويمحو فلول الدجى ، إنه النهار إذا تجلى ، فهل يستطيع أحد أن ينكر ضوء النهار ، إلا أن يكون قد ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة .

فرعون يسأل وفى قرارة نفسه لا يريد الوصول إلى الحق ، إنما يريد الجدل العقيم ، والهروب من مجابهة النبوة ﴿ **ألم نربك فينا وليدا** ﴾ ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ ﴿ **إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون** ﴾ ﴿ **لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين** ﴾ .

فيرد موسى بكلمات كأنهن الياقوت والمرجان ﴿ **أو لو جئتك بشىء مبين** ﴾

إن الحق ليهرب من مجابهة الباطل ، لأن الحق ثابت الأركان ، وطيد البنيان ، لا يؤثر فيه كر الزمان ، مهما تباعدت أيامه ، واختلفت الناس فيه من حيث المشارب والنوازع والمذاهب والملل والنحل ،لأن جوهره أصفى من الصفاء . و قد قال أهل الحق : حقائق الأشياء ثابتة . والعلم بها متحقق . كما قالوا : حقيقة الشىء ما به الشىء هو هو ، فهل يستطيع أحد أن يسلب الشىء عن ذاته .

لقد طار صواب فرعون ، وهو يرى الحقائق دامغة والبراهين ساطعة ، والحجج قاطعة ، لقد قال لهامان ﴿ يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ﴾[1] .

قال تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصُدَّ عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾

إن البعوضة التى قالت للنخلة وقد سقطت عليها أيتها النخلة استمسكى فإننى راحلة عنك ، قالت النخلة أيتها البعوضة : والله ما شعرت بك حين سقطت علىّ فكيف وأنت راحلة عنى ، إن قافلة الحق تسير والكلاب تعوى ، فهل يضر السحاب نبح الكلاب ، ولو تحول الناس جميعا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء . ضاحكةَ السن ، بسامة المحيا .

ويزداد فرعون صلفا وتيهاً فيعلن على قومه الذين استخفهم فأطاعوه ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾[2] قال تعالى ﴿ واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾[3] .

وكان لابد من كلمة الفصل ولا يملكها إلا عالم الغيب والشهادة الذى خلق السموات والأرض بالحق قال تعالى : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[4]

(١) الآية ٣٦ ، ٣٧ من سورة غافر .
(٢) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٣) الآية ٣٩ من سورة القصص .
(٤) الآيات ٤٠-٤٢ من سورة القصص .

وفى سورة النازعات يحدثنا الكتاب الكريم عن كبرياء فرعون وصلفه وطيشه ونزقه : ﴿ هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾(١)

ومع هذا الإجرام البالغ المقيت ، والتعصب الأعمى للباطل والجبروت ، والقسوة من فرعون يقول الله لموسى وهارون : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى * اذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾(٢).

قال قتادة رضى الله عنه وهو يقرأ هذه الآيات : يارب ما أحلمك وماأكرمك ، وماأعظمك ، إذا كان هذا حكمك بفرعون الذى قال: ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ ، فكيف يكون حكمك بعبد قال : سبحان ربى الأعلى ، وإذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال ﴿ **ما علمت لكم من إلّه غيرى** ﴾ فكيف يكون حلمك بعبد قال : لا إلّه إلا الله سبحانك أنت الحليم الكريم ، الرحيم الحليم لا ينقصك سائل . ولا يشغلك شاغل .

أنت الذى تهب الكثير وتجبر الـ ـقلب الكسير وتغفر الزلات
وتقول هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات

لقد أيد الله تعالى موسى بالمعجزات ، وخوارق العادات ، وبالآيات البينات ، بل وأجراها على يديه قبل أن يذهب إلى الطاغية العنيد ، والجبار المستكبر ، اقرأ معى هذا المشهد من سورة طه : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى ياموسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إلّه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى * وما تلك بيمينك ياموسى . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى * قال ألقها ياموسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى * قال . خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى * ويسرلى أمرى * واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾(٣).

بهذا اليقين ومنطق الحق المبين ، انطلق موسى إلى فرعون ، وبتلك الآيات البينات والمعجزات وخوارق العادات ذهب موسى إلى رجل غره جهله ، فظن أنه المعبود ، وأنه الإلّه ، وأنه الرب ، فعاث فى الأرض

(١) الآيات ١٥-٢٦ من سورة النازعات . (٢) الآيات ٤٢-٤٤ من سورة طه . (٣) الآيات ٩-٣٦ من سورة طه .

فسادا ، وملأ أرجاءها ظلماً وعنادا . وغرته كبرياؤه فنادى ﴿ أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين * فلولا أُلقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفا ومثلاً للآخرين ﴾(١).

إلى هذا الطاغية توجه موسى على بركة الله ، قال تعالى ﴿ **ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ .

أى بعثنا موسى بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ﴿ **إلى فرعون وملأه** ﴾ ، وذلك لأن استبداد فرعون ومعه أشراف قومه صيَّره ذلك الاستبداد إلى حاكم لايعرف رأياً إلا رأيه ، ولا يُسمع إلا لقوله ، وفى القرآن الكريم ما يدل على ذلك ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾(٢).

وأقوى شيء يدمر المجتمع الاستبداد بالرأى ، قال تعالى فى شأن فرعون : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود * واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾(٣).

ومن ثم فقد جعل الله تعالى الشورى صفة من صفات المؤمنين ، قال تعالى ﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٤).

وليست الشورى فى الإسلام ترفاً عقلياً ، أو ملهاة يتلهى بها الناس ، إنما الشورى ملزمة ، وقد أمر الله تعالى رسوله بها عقب انصرافه من غزوة أحد ، وفيها من المحن ما فيها قال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾(٥) وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأصحابه ذات يوم وقد قال له أحدهم : اتق الله ياعمر . فغضب بعض الجالسين كيف يقول لعمر هذا . فقال لهم عمر : « لا خير فيكم إن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نقبلها » ويرحم الله صاحب العمرية إذ يقول

يارافعاً راية الشورى وحارسها   جزاك ربك خيراً عن محبيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به   رغم الخلاف ورأى الفرد يشقيها

والناس بخير ما تناصحوا ، قال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه : « الدين النصيحة قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وقد كان للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز مستشار خاص قال له عمر : إذا رأيتنى ضللت الطريق فخذ بمجامع ثوبى وهزنى ، وقل لى اتق الله ياعمر . فإنك ستموت .

---

(١) الآيات ٥١-٥٦ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٣٩ من سورة غافر .
(٣) الآيتان ٩٨، ٩٩ من سورة هود .
(٤) الآية ٣٨ من سورة الشورى .
(٥) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

وقد كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول رحم الله امرءاً أهدى إلىّ عيوبى .

إن فرعون لما طغى وبغى صير شعبه كماً مهملا ، فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين ، لقد أرسل الله إليه موسى بآيات بينات ، ومعجزات واضحات ، منها اليد والعصا .

قوله تعالى ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ أى كانت عاقبة أمرهم عجيبة وغريبة ، وعلى رأس المفسدين فرعون ، فالقيادة قدوة ، والسمكه تفسد من رأسها ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[١] .

كيف يعلو الإنسان فى الأرض وأوله نطفة قذرة وآخره جيفة قذرة ، وهو بين هذا وذاك يحمل فى جوفه العذرة ، تنتنه عرقة ، وتؤذيه بقة ، وتقتله شرقة .

وتأمل معى كيف أن الله يمهل ولا يهمل ، وكيف صبر على فرعون فلم يرسل له نبياً عندما طغى فى الأرض ، بل أوحى إلى أم نبى أن ترضع وليدها ، فإذا خافت عليه فلتلقه فى اليم يأخذه عدو الله وعدو لهذا النبى .

إلهنا ما أحلمك ، ما أعظمك ، ما أكرمك ، ما أصبرك.إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرأوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة أن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾[٢] .

نعم لا أحد أصبر من الله . وسبحان الله إذ يقول : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون * وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين * وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾[٣] .

إن يد الله تعمل فى الخفاء ، فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها ، أو يقترح عليها ، وسبحانك ربى إذ تقول ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه

(١) الآيات ٤-٦ من سورة القصص .
(٢) الآيات ١٠٢-١٠٤ من سورة هود .
(٣) الآيات ٧-١١ من سورة القصص .

لكم وهم له ناصحون * فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون*ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلماً وكذلك نجزى المحسنين ﴾[١]

دع المقادير تجرى فى أعنتها ... ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حال

وسبحان القائل فى شأن موسى : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى * أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى * إذتمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى . واصطنعتك لنفسى ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ **وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾

هذا إقرار صادق من نبى صادق ، من إلّه صادق ، فرسالة موسى ، أمر ثابت معلوم من الدين بالضرورة ، وقوله : ﴿ **من رب العالمين** ﴾ إخبار عن أن الله جل جلاله هو رب الأكوان كلها، لا رب سواه وما فرعون فى ملك الله إلاهباءة فى شعاع الشمس المتسلل من حنايا النافذة ، ويوم يغتر بنفسه فما هو إلا بعوضة وهنانة تحاول أن تحجبنا بجناحيها ضوء الشمس ، أو نور القمر .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا ... أقصر فإنك مأكول ومشروب

إن موسى حقيق وجدير وأهل على ألا يقول على الله إلا الحق ، فالصدق من أخص خصائص الأنبياء ، والكذب عليهم محال ، فإنهم يبلغون عن الله ، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله .

وقد أخبر الله تعالى عن خاتمهم ﷺ بقوله ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحدٍ عنه حاجزين ﴾[٣].

(١) الآيات ١٢-١٤ من سورة القصص .
(٢) الآيات ٣٧-٤١ من سورة طه .
(٣) الآيات ٤٤-٤٧ من سورة الحاقة .

إن الله تعالى أخبر موسى عندما أرسله بقوله : ﴿ **اذهب إلى فرعون إنه طغى** ﴾ لذلك فإن موسى قرن دعوته بالبينة ، فقال : ﴿ **قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾ وذلك كقوله تعالى : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾[1] وأخذ فرعون يسأل وموسى يجيب قال :

﴿ فمن ربكما ياموسى * قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولاينسى * الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[2]

ماذا قال فرعون لموسى قال ﴿ **إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين** ﴾ فانظر إلى مدى الغلظة والفظاظة موسى يقول له حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ، وهو يقول له إن كنت من الصادقين ، إنه الكبر المدمر ، والزلزال العاصف ، الذى يجعل صاحبه ينسى ربه ﴿ **فألقى موسى عصاه فإذا هى ثعبان مبين** ﴾ ظاهر للعيان واضح وضوح الشمس ، وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، ﴿ **ونزع يده** ﴾ أى من جيبه ﴿ **فإذا هى بيضاء** ﴾ اللون تتلألأ وتتألق كأنها درة فى تاج الوقار أمام الناظرين .

وكان على فرعون أن يقر ويذعن ، ويخضع لله ، ولكن أهل الباطل لا يمكن أن يسلموا إلا إذا رأوا العذاب الأليم ، فيضطرون للتسليم على رغم أنوفهم تسليماً ظاهرياً حتى تحين لهم الفرصة ، قال تعالى : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[3]

﴿ **قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون** ﴾

أى قال الملأ من قوم فرعون لفرعون : إن هذا لساحر عليم فقال لهم فرعون مصدقاً على كلامهم : إن هذا لساحر عليم ، كما جاء فى سورة الشعراء ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم * يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ .

ولم يكن هذا سحرا ، فإن المعجزات لاتتفق مع السحر ، فالمعجزة أمر خارق للعادة ، يظهره الله على أيدى الأنبياء تصديقا لهم فيما جاءوا به عند التحدى ، مع جميع الخلق على أن يأتوا بمثله ، وقد تكون

(١) الآيات ٤٧، ٤٨ من سورة طه .
(٢) الآيات ٤٩-٥٥ من سورة طه .
(٣) الآيات ٩٠-٩٢ من سورة يونس .

المعجزة تركته ، كترك إحراق النار لإبراهيم ، فإنها لم تمسه بسوء مع وجود المقتضى للإحراق ، وزوال المانع ﴿ قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾(١) .

فقد نزع الله منها الحرارة والإحراق ، وأبقاها على الإضاءة والإشراق .

وقد تكون المعجزة فعلية كمعجزات موسى وعيسى ، وقد تكون قولية كالقرآن الكريم : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(٢)

أما السحر فإنه أوهام فى العقل ، وتخيلات فى الحس ، قال تعالى ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ قال جل شأنه : ﴿ **فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ .

يقول الشيخ المراغى فى تفسيره

أنواع السحر ثلاثة :

١ - ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة معروفة للساحر مجهولة عند من يسحرهم بها كالزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيهم .

ولو ادعى علماء الطبيعة والكيمياء فى هذا العصر السحر فى أواسط إفريقيا وغيرها من البلاد التى يروج فيها السحر لأروهم العجب العجاب ، من غرائب الكهرباء وغيرها ، حتى لو ادعوا فيهم الألوهية لخضعوا لهم فضلا عن النبوة والولاية .

٢ ـــ الشعوذة التى ملاك أمرها خفة اليدين فى إخفاء بعض الأشياء ، وإظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها من البلاد المتمدينة .

٣ -- ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية فى الأنفس الضعيفة ، القابلة للأوهام والانفعالات ، التى يسميها علماء النفس (بالأنفس الهستيرية) وأصحاب هذا النوع يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم من يكتب الأوفاق والطلسمات للحب والبغض ، إلى نحو ذلك .

ومن ذلك ما استحدث فى هذا العصر من التنويم المغناطيسى .

وعلى الجملة فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم ، كما ثبت بنص الكتاب الكريم ، وبالاختبار الذى لم يبق فيه شك بين العلماء فى هذا العصر . أهـ

وأعجب معى كيف قال فرعون لمن حوله : ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ ومتى كان المستبدون بالرأى يطلبون الأمر والمشورة من غيرهم ، ألم يقل فرعون ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ فلماذا لجأ إليهم الآن يطلب منهم

(١) الآيتان ٦٩، ٧٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

المشورة ، ولكنها عادة المستكبرين عندما تحيط بهم الشدائد ، وتحكم الحبال على رقابهم ، ترى الأسد الهصور ينقلب نعامة . وترى النمر الجسور يصير فأراً .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل ساحر عليم ﴾ .

أى أخر النظر فى أمره حتى نبارزه بعلمائنا فى السحر ، فأرسل فرعون رجال شرطته فى مدائن مصر ، وجاءوا برجال السحر قال تعالى فى سورة الشعراء ﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون*لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾(١) .

فانظر إلى تحيز الناس إلى الباطل ، وكيف تحيزوا لسحرة فرعون ولم يقولوا من باب الإنصاف لعلنا نتبع الفريق الغالب ، حتى يكونوا فى حكمهم عادلين ، ولكن الناس على دين ملوكهم ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً .

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

لقد اجتمعوا بفرعون فى جلسة خاصة . والباطل دائما يسعى إلى الدنيا ولا يعرف الطريق إلى الحق ، لقد كان كل هدفهم عرض الدنيا فطمأنهم سيدهم على ذلك ، وزادهم أنهم إن كسبوا المباراة فسيقربهم إليه ، ويخلع عليهم الأوسمة والنياشين والمناصب .

واجتمع الناس لميقات يوم معلوم وجاء الموعد المضروب ،وليس هناك عبارة تشرح المقام ، أفضل مما ذكره الله تعالى فى قوله الكريم وقرآنه العظيم ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى * قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى * فلنأتينك بسحرمثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى * فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى*قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى * قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى * فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى * قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى*قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا*إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى*إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات

(١) الآيات ٣٨-٤١ من سورة الشعراء .

فأولئك لهم الدرجات العلى*جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾(١).

وفى سورة الأعراف ﴿ **قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين** ﴾ وهذا يدل على مدى ثقتهم فى باطلهم ، إنهم يخيرون موسى فى الإلقاء .

﴿ **قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم** ﴾ أى أوقعوا فيهم الرهبة والفزع

﴿ **وجاءوا بسحر عظيم** ﴾ فى نظر العيون التى شغلتها التخيلات الباطلة ، ولكن الحق أقوى وأبقى ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين .

قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون** ﴾ .

فاعجب معى لعصاً تفتح فاها بعدما تحولت ثعبانا مبيناً ، فهى فى منظرها ثعبان ، وفى خفتها كالحية . وفى هولها كأنها جان ، ابتلعت كل ما يأفكون وما يأتون به من باطل السحر .

﴿ **فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** ﴾ وفى كلمة ﴿ **وقع** ﴾ ما يدل على أن الحق كأن جسم ثقيل له وزنه وأثره ، وليس بالسفساف التافه .

﴿ **فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين*قالوا آمنا برب العالمين*رب موسى وهارون** ﴾ .

وذلك لما استقر فى يقينهم من الحق المبين ، ولما رسخ فى قلوبهم من أن عصا موسى ليست سحراً ، إنما هى حقيقة واقعة ، هنالك غضب فرعون وانتفخت أوداجه ، لقد كانوا فى الصباح يقسمون بعزته ويقولون ﴿ **بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون** ﴾ فأمسوا بعدما ظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون ، أمسوا يقسمون بالحى القيوم . ويقولون ﴿ **والذى فطرنا فاقض ما انت قاض** ﴾ لقد كانوا فى الصباح سحرة كفرة ، فأمسوا عند الله شهداء بررة .

﴿ **وقال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين** ﴾

فماذا قالوا له ؟قالوا بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ فإن النهاية أننا إلى الله صائرون وكل العباد غداً بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون.

﴿ **وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ أى هل تكره منا وتعيب علينا إلا إيماننا بآيات ربنا لما جاءتنا ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** ﴾ .

---

(١) الآيات ٥٦-٧٦ من سورة طه .

الملأ قالوا لفرعون بعد ظهور الحق

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

المفردات : ﴿ **ويذرك** ﴾ : يتركك ﴿ **يستحيى** ﴾ : يبقيهم أحياء .

ولما كان أمر السحرة ومن تبعهم من الناس حينما انضموا إلى موسى وآمنوا به على مشهد من الجموع المحتشدة ، لما كان هذا يقض مضاجع فرعون وملئه ، قالوا لفرعون : أتذر موسى وقومه أحراراً فى الأرض ، يدعون لدينهم ، ويكثر سوادهم ، ويتركك موسى مع آلهتك فلا يعبدونك . ولايعبدونها وفى هذا فساد للأرض ، وذهاب للملك .

قال فرعون : سنقتل أبناءهم ، ونستبقى نساءهم أحياء ، فلا يكثرون كما كنا نفعل قبل ولادة موسى ، ليعلموا أنا على هذا قادرون ، وأنا فوقهم قاهرون ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[1].

ولما سمع بنو إسرائيل ذلك خافوا ، فطمأنهم موسى وقال : ﴿ **استعينوا بالله** ﴾ وحده فهو المعين على الشدائد ، الدائم الباقى ، القادر على كل شيء ،واصبروا فالصبر سلاح المؤمن ، واعلموا أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده واعلموا أن العاقبة للمتقين والنصر للمؤمنين ، فليس كما يظن فرعون وقومه .

ولكن هذه الوصية لم تهدئ من روعهم ، فقالوا والأسى يحز فى نفوسهم : ﴿ **أوذينا** ﴾ من قبل مجيئك ، ومن بعد إرسالك ، فقد كنا نسام الخسف ، ونذوق المر ، ونعذب فى أبداننا وتقتل أولادنا ويسومونناسوء العذاب، وها أنت ذا ترى اليوم مانحن فيه ! قال موسى لهم :رجائى من الله – والله محققه إذا شاء – أن يهلك عدوكم ويجعلكم خلفاء فى الأرض وسادة بعد أن كنتم عبيداً ، وسينظر كيف تعملون ؟ وسيجازيكم على عملكم إن كان خيراً فخيرٌ وإن كان شراً فشر .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة غافر .

جزاء العصاة فى الدنيا

وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

المفردات : ﴿ **بالسنين** ﴾ : جمع سنة وهى بمعنى الحول إلا أنه أكثر استعمالها فى السنة المجدبة كما هنا . ﴿ **الحسنة** ﴾ : المراد الخصب والنماء ﴿ **سيئة** ﴾ : المراد بها ما يسوءهم من جدب وقحط أو ما يصيبهم فى البدن أو المال ﴿ **يطيروا** ﴾ : يتطايروا ويتشاءموا ، ولعل السر فى إطلاق التطير على التشاؤم أن العرب كانت تعقد الأمل فى الخير على الطائر إذا طار يمينا وتتوقع الشر إذا كان من جهة اليسار ﴿ **طائرهم** ﴾ : المراد ما قضى لهم وقدر ﴿ **الطوفان** ﴾ : ما يطوف بالإنسان ويغشاه وغلب من طوفان الماء ﴿ **الجراد** ﴾ : حيوان طائر يأكل النبات ﴿ **والقمل** ﴾ : هو السوس الذى يظهر فى القمح وقيل هو الدود الذى يأكل الزرع .

أقسم الله سبحانه وتعالى إظهاراً لكمال العناية بمضمون القسم عليه ، لما له من الأثر فى تربية النفوس ، أقسم إنه أخذ آل فرعون بالقحط والجدب والسنين العجاف ، وقد شاع استعمال القرآن كلمة أخذ فى العذاب والشدة ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ﴾[1] .

ولقد أخذناهم بهذا كله لعلهم يتذكرون ويتعظون ، وذلك أن من سنته تعالى أن يرسل الزواجر من المصائب والآفات والنقص فى الثمرات تنبيها لعل أصحابها ترجع وتتوب ، فإن تابت واهتدت كان الخير وإلا فالهلاك المحتوم ، والقضاء المعلوم ، وقد كان آل فرعون من النوع الأخير ، ومثلهم كل شخص أو أمة لم تنتبه للزواجر ، ولم تتعظ بالحوادث فى كل زمان إلى يوم القيامة. فإذا جاءت أمة فرعون الحسنة من الخير والنماء ، والزيادة فى الثمرات قالوا إنما أوتينا هذا على علم ومعرفة ، وهذا لنا نستحقه بعملنا ، وإن أصابتهم سيئة الجدب وقلة الثمرة وهلاك الزرع تشاءموا واطّيروا بموسى ومن معه .

يا سبحان الله ! أهكذا يكون ضيق العقل وفساد الرأى وعدم التوفيق ؟ فهم يقولون عند حلول المصائب بهم ما هذا إلا بشؤم موسى وقومه ، وغفلوا عن سيئات أعمالهم ، وشرور أنفسهم ﴿ إن تصبهم

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .

حسنة يقولوا هذه من عند الله ،وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله ﴾ .

ألا إن كل ما يصيبهم من خير وشر فهوبقضاء الله وقدره ، والله قد قضى أن يكون الخير ابتلاء أيشكر صاحبه أم يكفر ؟ وقضى أن يكون الشر ابتلاء كذلك هل يرجع صاحبه عن الغى والفساد أم يظل سادراً فى الطغيان والضلال ؟!!

والله قد قضى كذلك أن تكون أعمال العباد سبباً فيما ينزل بهم من خير وشر غالبا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الحكمة الإلهية فى تصريف الكون ، ولا يعلمون كيف ربطت الأسباب بمسبباتها ، ولا أن كل شىء عنده بمقدار فليس هناك شىء بشؤم موسى أو غيره ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون .

ومع ذلك كله فقد قالوا مهما تأتنا به من آية تستدل بها على صدقك ، وأنك محق فى دعوتك ، وسموا ما يأتى به موسى آية ، كما يقول فقط لا عن اعتقاد : مهما تأتنا به من الآيات لتسحرنا بهاوتصرفنا عما نحن فيه بلطف ورقة فما نحن لك بمصدقين أبداً ، ولا متبعين رسالتك هذا ما كان منهم أما جزاؤهم عليه .

فقد أرسل الله عليهم الطوفان والسيل فأغرقهم ، وأتلف زراعتهم كما ورد فى التوراة وأرسل عليهم الجراد الذى يأكل ما اخضر من ثمارهم وزرعهم ، وأرسل عليهم القمل وهى صغار الذر (كالدودة) التى تأتى عندنا اليوم فتأكل البرسيم وباقى الزروع فى لحظة ، وأرسل عليهم الضفادع وجعل ماءهم كالدم .

كل ذلك آيات مفصلات واضحات ، لا تخفى على عاقل أنها من عند الله وأنها عبرة ونقمة لهم ، وهذه آيات دالة على صدق موسى إذ قد توعدهم بوقوع كل واحدة منها على وجه التفصيل لتكون دلالتها على صدقه واضحة لا تحتمل التأويل ، وهذا معنى آيات مفصلات .

أما هم فاستكبروا وعاندوا ولم يعتبروا بعد هذا كله ، وكانوا قوماً مجرمين .

وهذه الآيات تشير أولا إلى ربط الأسباب بالمسببات على حسب مشيئته تعالى وثانيا إلى أن الآفات التى تصيب الزرع فتهلكه والثمر فتنقصه هذا كله بسبب أعمال الناس فمن أعمالنا سلط علينا ، وما الآفات التى يرسلها الله كل عام علينا ببعيدة وحذار أن تقولوا نحن لا نستحق هذا ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، وفقنا الله للخير .

عاقبة الكفر وخلف الوعد

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا
ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم

بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾

المفردات : ﴿ **الرجز** ﴾ : العذاب الشديد الذى يضطرب له الناس ﴿ **ينكثون** ﴾ : ينقضون العهد والنكث فى الأصل نقض الغزل ثم استعمل نقض العهد ﴿ **اليّم** ﴾ : البحر سمى بذلك لأنه مقصود والتيمم القصد .

ولما وقع عليهم ذلك العذاب الشديد الشامل لكل نقمة من النقم الخمس السابقة ، قالوا يا موسى : ادع لنا ربك بسبب ما عهده عندك من النبوة والرسالة ، والكرامة والمحبة ، ونحن نقسم لك لئن كشفت عنا ذلك الرجز لنؤمنن لك ، ولنصدقن بك وبرسالتك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل إلى أرض الميعاد .

فلما كشفنا عنهم العذاب ، وأزلنا عنهم هذا العقاب ، إلى أجل محدود هم بالغوه لامحالة ، فمعذبون فيه ، لا ينفعهم ما تقدم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلول ذلك اليوم ... إذهم يمكثون فى العذاب الواحد من الطوفان والجراد الخ أسبوعا ثم يسألون موسى الدعاء برفعه ، ويعدونه بالايمان وإرسال بنى إسرائيل ثم ينكثون العهد وينقضونه .

ولما حان الأجل المضروب انتقمنا منهم فأغرقناهم فى البحر ، وذلك بسبب تكذيبهم بالآيات كلها التى نزلت عليهم ، وكانوا غافلين عما يعقبها من العذاب فى الدنيا والآخرة .

هذا لأكثرهم وبعضهم آمن وبعضهم كان يكتم إيمانه .

من نعم الله على بنى إسرائيل

وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

المفردات : ﴿ **مشارق الأرض ومغاربها** ﴾ : المراد جميع جهاتها ، والارض هى أرض الشام ومصر . ﴿ **كلمة ربك** ﴾ : وعده لهم . ﴿ **دمّرنا** ﴾ : الدمار الهلاك والخراب ﴿ **يعرشون** ﴾ : يبنون .

وأورثنا القوم من بنى إسرائيل الذين كانوا يستضعفون بقتل أبنائهم ، واستحياء نسائهم ، وإسامتهم سوء العذاب أورث الله هؤلاء المستضعفين الأرض التى باركنا فيها بالخصيب والنماء ،وكثرة الخيرات والأمطار ، وأورثناهم مشارقها من حدود الشام ، ومغاربها من حدود مصر ، وتمت كلمة ربك الحسنى ، وتحقق وعده الأسمى . ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم

الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾[١].

وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ، وهكذا نتيجة الصبر ، وحسن تلقى الأمر ، أما من يخلعه جزعه ويهلكه هلعه ، فتكون عاقبة أمره خسرا .

ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من المبانى والقصور والعمارات والدور ، وما كانوا يقيمون من العرائش والسقف فى الجنات والبساتين ، وهكذا من يقوم وقلبه عامر بالإيمان ، وروحه مليئة باليقين والإسلام ، يقوم ضد عدو الله ولو كان فرعون مصر صاحب الحول والطول ، والجند والحشم والمال والخدم ، يقوم لله ولإزالة الفساد والطغيان ، فالله معه وناصره ومؤيده

وقد كان موسى وهارون ومن معهما كذلك ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[٢].

نعم الله على بنى اسرائيل وما قابلوها به

وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾

المفردات : ﴿ **جاوزنا** ﴾ : جاز الشيء وجاوزه وتجاوزه عدّاه وانتقل عنه ﴿ **يعكفون** ﴾ : لمكف عكف على الشيء أقبل عليه ولازمه تعظيما له ﴿ **أصنام** ﴾ : جمع صنم وهو ما يصنع من خشب أو حجر أو معدن أو عجوة رمزاً لشيء حقيقى أو خيالى ليعظم تعظيم العبادة والتمثال لابد أن يكون مثالاً لشيء حقيقى فإن عبد فهو صنم . ﴿ **متبّر** ﴾ : التبار الهلاك . ﴿ **باطل** ﴾ : هالك وزائل لا بقاء له .

أنعم الله على بنى إسرائيل نعما لا تحصى ، حيث نجاهم من فرعون وملئه ، وأهلك عدوهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وجاوز بهم البحر آمنين ، وأغرق فرعون وقومه ، ومع هذا لم يقابلوا النعم بما يجب من الشكر والطاعة ، بل قابلوها بالكفر والعصيان وهكذا كان اليهود قديما وحديثا ، وفى هذا تسلية للنبى ﷺ .

﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر** ﴾ أى تجاوزوه بعناية الله ورعايته ، حتى كان الله معهم بذاته ، فلما انتقلوا عنه ورأوا قوماً « قيل من العرب وقيل من غيرهم » عاكفين على أصنام لهم ومقبلين عليها ومعظمين لها

(١) الآيتان ٥،٦ من سورة القصص .
(٢) الآية ٧ من سورة محمد .

﴿ قالوا ياموسى اجعل لنا إلٰهًا كما لهم آلهة ﴾ . وهذا الطلب منهم دليل على أن تقديس الأصنام وعبادة غير الله كانت متأصلة فى نفوسهم ، وفيهم حنين لها ، وهذا شأن من دخل فى دين الله حديثا فقد روى مثل هذا عن بعض الصحابة فرد عليهم النبى ﷺ أبلغ رد وأكده ولقد رد موسى على من طلب منه هذا الطلب بقوله : إنكم قوم تجهلون ما يجب لله سبحانه من صفات التقديس والكمال ، وتجهلون حقيقة التوحيد الخالص له سبحانه ، وأنه ليس فى حاجة إلى شفيع أو واسطة بل هو أقرب إلى عبده من حبل الوريد ، وتجهلون حقيقة الرسالة بدليل طلبكم منى هذا !! إن هؤلاء القوم العاكفين على أصنامهم مقضى على ماهم فيه بالهلاك والتبار إذ أنها لا تنفع أبداً ولاتضر ، وباطل عملهم فى الدنيا والآخرة ، وفى تعبير القرآن إشارة إلى أن عبدة الأصنام هم المعرضون للهلاك ، وأن عملهم هذا إلى زوال وفى هذا بشارة بزوال عهد الوثنية من تلك الأرض قل لهم ياموسى : أغير الله خالق السماوات والأرض المنعم عليكم بهذه النعم أطلب لكم إلٰها غيره ؟ إن هذا لشىء عجيب .

وكيف تطلبون هذا وهو فضلكم على عالمى زمانكم . واذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون ، وأنقذناكم من ذل العبودية ، ونار الاستعمار وأنهم كانوا يسومونكم العذاب السيء : يقتلون أبناءكم الذكور ، ويتركون نساءكم أحياء ، وفى ذلكم المذكور من الإنجاء من فرعون وعمله ، والإنعام عليكم بهذه النعم بلاء واختبار من ربكم عظيم ، والمراد بذكر الوقت ذكر ما حصل فيه حتى يشكروا الله سبحانه ويخصونه وحده بالعبادة والتقديس .

نزول التوراة

* وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ
لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا
وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ
مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ
سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى
وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ
مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

المفردات : ﴿ ميقات ربه ﴾ : الوقت المحدد لعمل من الأعمال كمواقيت الصلاة والصوم

﴿ **اخلفنى** ﴾ : كن خليفتى فيهم ﴿ **تجلى ربه** ﴾ : انكشف وظهر نوره ﴿ **دكا** ﴾ : مدكوكا ﴿ **صعقاً** ﴾ : مصعوقاً مغشياً عليه ﴿ **أفاق** ﴾ : رجع كما كان ﴿ **بقوة** ﴾ : بعزيمة ونشاط .

من نعم الله تعالى على بنى إسرائيل أنه أنزل عليهم التوراة فيها هدى ونور،وعند إنزال التوراة على نبى الله موسى واعده الله تعالى ثلاثين ليلة ، صامها موسى ثم شعر بخلوف فمه فكره أن يكلم الله برائحة فم الصائم ، فاستاك ليزيل تلك الرائحة ، فأمره الله أن يصوم عشراً أخرى ، إذ إن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

قال تعالى : ﴿ **وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة** ﴾ وهذا ما جاء فى قوله تعالى :﴿وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾[1].

وقبل أن يذهب موسى إلى ميقات ربه ، أوصى أخاه هارون أن يخلفه فى قومه بالخير ، وأن يكون مصلحاً بينهم ، ولا يتبع سبيل المفسدين ، وتلك وصية جاءت من باب التثبيت والتنبيه من باب ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾[2] ذلك لأن هارون كان نبيا يدرك كل هذه المعانى ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك** ﴾ .

أى لما جاء موسى فى الوقت الذى حدده الله له وكلمه الله من وراء حجاب، وسمع موسى كلام الله اشتاق لرؤيته الكريمة ، فسأل الله الرؤية فقال له الله تعالى : لن ترانى فليس هناك من يقوى على رؤيتى لعظم جلالى . روى الإمام مسلم عن النبى ﷺ « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه (أنواره) ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

ثم أراد ربك أنه يخفف من وقع الأمر على نفس موسى ، فقال له﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين** ﴾ .

فقد اختار الله لموسى من مخلوقاته الشيء القوى الثابت الراسخ الباذخ الشامخ ، اختار له الجبل ، أيثبت الجبل عندما يتجلى الله عليه بنوره إن الجبل عندما تجلى له الله ساخ فى الأرض من جلال الأنوار الإلهية ، ولما رأى موسى ذلك خر مغشيا عليه فلما أفاق قال لرب العزة : سبحانك تقدست وتنزهت ، إن أحداً من الكائنات لا يقوى على أن يصمد أمام نور جلالك وبهائك وسلطانك ، تبت إليك وأنا أول المؤمنين بذلك.وقد جاء فى الحديث الصحيح ما يفيد أن موسى سيكون ممسكاً بجانب العرش يوم القيامة .

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال ﴿ استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم : والذى اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودى : والذى اصطفى موسى على العالمين . فغضب المسلم على اليهودى فلطمه ، فأتى اليهودى إلى رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك فقال رسول الله ﷺ « لا تخيرونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا

(١) الآية ٥١ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٣٦ من سورة النساء .

موسى ممسك بجانب العرش فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى ، أم كان ممن استثنى الله عز وجل»[١] أخرجاه فى الصحيحين

رؤية الله فى الآخرة

وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عز وجل فى الدار الآخرة فى الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها ، لحديث أبى سعيد وأبى هريرة وهما فى الصحيحين: «أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة » ؟ فقال : « هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونهما سحاب ؟ » قالوا لا . قال : « إنكم ترون ربكم كذلك »[٢] .

وفى الصحيحين عن جرير قال : (نظر رسول الله ﷺ إلى القمر ليلة البدر فقال: « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ولا قبل غروبها فافعلوا »[٣]

وفى الصحيحين عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى الله عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن »[٤] .

وفى افراد مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال : يقول الله تعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ؟ وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب ، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم وهى الزيادة » ثم تلا هذه الآية ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[٥].

وعن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ « إن أدنى أهل الجنة منزلة لينظر فى ملكه ألفى سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه ينظر إلى أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لينظر فى وجه الله كل يوم مرتين » رواه أحمد .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾[٦]وجل ثناؤه إذ يقول فى حق الكافرين ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾[٧].

(١) أخرجه البخارى فى الخصومات (١) وفى الأنبياء (٣١) وفى تفسير (سورة ٧:٢) وفى الرقاق (٤٣) وفى التوحيد (٣١) وأخرجه مسلم فى الفضائل (١٦٠) . وأبو داود فى السنة (١٣) ، والإمام أحمد فى (٦٤:٢) .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٨:٤) فى الإيمان (٣٠٢) وفى الزهد (١٦) . وأبو داود فى السنة (١٩) والإمام أحمد فى (١٦:٣) .

(٣) أخرجه البخارى فى المواقيت (١٦،٢٦) وفى الأذان (١٢٩) وفى تفسير (سورة ٥٠:٢) وفى الرقاق (٥٢) وفى التوحيد (٢٤) ، وأخرجه مسلم فى الإيمان (٢٩٩،٣٠٠،٣٠٢) . وأبو داود فى السنة (١٩) . والترمذى فى الجنة (١٦) . والإمام أحمد فى (١٦:٣،١٧،٢٦،٢٧) .

(٤) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٤) وفى تفسير (سورة ٥٥:١) . ومسلم فى الإيمان (٢٩٦) . والترمذى فى الجنة (٣) . وابن ماجه فى المقدمه (١٣) . والدارمى فى الرقاق (١٠١) . والإمام أحمد فى (٤١١:٤،٤١٦) .

(٥) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٩٧) . (٦) الآيتان ٢٢،٢٣ من سورة القيامة . (٧) الآية ١٥ من سورة المطففين .

قوله تعالى ﴿ **قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين** ﴾ : هنا يخبر تعالى أنه قد اصطفى موسى واختاره للنبوة والكلام والرسالة السماوية . لقد قال له : ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ [1]. وقال له : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾ [2]. وقال له ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ [3] وقال عنه : ﴿ فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ [4] ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ [5] ..

والمراد بالناس فى قوله تعالى : ﴿ **إنى اصطفيتك على الناس** ﴾ المراد بهم ناس زمانه إذ أن محمدا ﷺ هو المصطفى على الناس أجمعين . ولما كان موسى نبيا رسولا وأنزل الله عليه كتابا . فقد أمره الله أن يأخذ ما آتاه من الفضل والمنة ويكون من الشاكرين لله على نعمته لأن شكر المنعم واجب .

قوله تعالى : ﴿ **وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين** ﴾ .

وهذه نعمة من نعم الله تعالى على موسى وعلى بنى إسرائيل فقد أنزل الله تعالى عليه الألواح وكتب فيها من المواعظ وتفصيل الأحكام ما يهدى ويرشد إلى صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وكان فى ذلك تطييب لنفس موسى لما لم يُجبَ إلى طلب الرؤيا لأنه لاطاقة له بها.ثم يأمره تعالى بعد ذلك أن يأخذ ما فى الألواح بقوة وعزيمة فإن أوامر الله ونواهيه ومواعظه إنما شُرعت لتُنَفَّذ وتُطبق ويُعمل بها ولم تنزل ليُضرب بها عرض الحائط وتوضع فى المتاحف ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [6]. ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ [7] . ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ [8]. ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ [9]. ﴿ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ [10]

ثم أمره تعالى أنْ يأمر قومه بأن يأخذوا بأحسن ما فى هذه الألواح من مواعظ وأحكام . وهذا أمر بالأخذ بالمثل العليا حتى يكون المكلف متابعا للترق لا مقاوما للتدلى . ثم أخبر سبحانه بعد ذلك بأنه سيريهم دار الفاسقين أى عاقبة الذين يُخالفون عن أمر الله والذين لا يتلقون أحكامه بالقبول والعمل، فالخروج عن أحكام الله فسق ، وهذا إخبار فيه وعيد وتهديد وبيان لمن خالف وعصى وأبى واستكبر . قال تعالى : ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** ﴾ . فإن لله تعالى سننا فى كونه .

ومن هذه السنن ما ذكره تعالى فى قوله ﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى

---

(١) الآية ١٣ من سورة طه .
(٢) الآية ٣٩ من سورة طه .
(٣) الآية ٤١ من سورة طه .
(٤) الآية ٦٩ من سورة الأحزاب
(٥) الآية ١٦٤ من سورة النساء .
(٦) الآية ٤٤ من سورة المائدة .
(٧) الآية ٤٥ من سورة المائدة .
(٨) الآية ٤٧ من سورة المائدة .
(٩) الآية ٤٩ من سورة المائدة .
(١٠) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى*قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[١].

ومن سننه تعالى فى خلقه ما جاء فى قوله ﴿ إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾[٢].

وفى قوله : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبُّوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾[٣]. وفى قوله : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[٤].

الجزاء العادل

سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

المفردات : ﴿ **يتكبرون** ﴾ : الكبر غمط الحقوق وعدم الخضوع لها ، ويصحبه احتقار الناس غالبا . ﴿ **الرشد** ﴾ : الرُّشد والرشاد الصلاح والاستقامة وضده الغى والفساد .

[إن الله تعالى يحب ثلاثة وحبه لثلاثة أشد ، ويبغض ثلاثة وبغضه لثلاثة أشد : يحب الطائعين وحبه للشاب الطائع أشد ، ويحب الكرماء وحبه للفقير الكريم أشد ، ويحب المتواضعين وحبه للغنى المتواضع أشد . ويبغض العصاة وبغضه للشيخ العاصى أشد ، ويبغض البخلاء وبغضه للغنى البخيل أشد ، ويبغض المتكبرين وبغضه للفقير المتكبر أشد] .

ولقد أوعد الإسلام المتكبرين بسوء المصير . قال تعالى : ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾[٥] وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » ، قال رجل : يارسول الله ، الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فهل هذا من الكبر ؟ قال رسول الله ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال : الكبر غمط الناس وبطر الحق »[٦] .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكّر الناس فيما فى بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

(١) الآيات ١٣٣-١٣٧ من سورة طه . (٣) الآية ٩٦ من سورة الأعراف . (٥) الآية ٧٢ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٨١ من سورة يونس . (٤) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٦) أخرجه أبو داود فى اللباس (٢٦) . والترمذى فى البر (٦٠) . والإمام أحمد فى (١: ٣٨٥، ٢٣٧) .

يا ابن التراب ومأكـول التراب غـداً   أقصـر فإنـك مأكـول ومشـروب

لقد حكم الله تعالى وحكمه العدل على المتكبرين بأنه سيصرفهم عن آياته جزاء وفاقا ، فلا يفهمونها ولا يفقهون ما فيها ، لا يدركون الحجج القطعية ولا يفهمون البراهين الساطعة ، ولكن يُمنعون من الرؤية الصحيحة لأنهم زاغوا ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾(١).

ومن أفعالهم أنهم إن يروا كل آية لا يؤمنوا بها سواء أكانت آية فى الآفاق ، أو فى الأنفس ، أو متعلقة بالأحكام ، أو من دلائل التوحيد والعظمة الإلهية . قال تعالى : ﴿ إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾(٢). وقال جلّ شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذَّبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾(٣). وقال جلَّ شأنه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾(٤).

لقد أراهم الله آياته فصدفوا عنها وكذَّبوا بها، فلما تنكبوا الجادة وحادوا عن طريق الله المستقيم صارت قلوبهم فى أكنة ، وفى آذانهم وقر ، وعلى أبصارهم غشاوة وبينهم وبين الحق حجاب ، إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا . لقد شاقوا الله ورسوله ، واتبعوا غير سبيل المؤمنين فاستحقوا أن يُصرفوا عن آيات الله وفهمها وتدبرها ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن * أم على قلوب أقفالها ﴾(٥).

لقد استحقوا هذا الجزاء لأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ، والتكذيب والغفلة معولان يدمّران المجتمعات ، ويقوضان بنيان الأمم . وقد حكم الله تعالى على المكذبين بآياته ولقائه بأن أعمالهم قد حبطت فصارت هباءاً منثوراً قال جلّ شأنه : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم * هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾(٦).

إنه منطق العدالة الإلهية ، فالتكذيب بالآيات واليوم الآخر وبال وخسران مبين : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها * وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٧).

إن الله تعالى كثيرا ما يذكِّر العباد بلقائه ، وأنه لابد من يوم يُرجعون فيه إلى الله ، وأنهم غداًبين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيُعرضون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟!

(١) الآية ٥ من سورة الصف .
(٢) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٣) الآيات ٢–٥ من سورة القمر .
(٤) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٥) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة محمد .
(٦) الآية ١٤٧ من سورة الأعراف .
(٧) الآيتان ١، ٢ من سورة الحج .

غـدا توفّى النفوس ما كسـبت ويحصـد الزارعـون ما زرعـوا
إن أحسـنوا أحسـنوا لأنفسـهم وإن أسـاءوا فبئس ما صنعـوا

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[1]. ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[2]. ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[3]

بنو إسرائيل والعجل

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)

المفردات : ﴿ الحُلىّ : (بالضم والتشديد) ﴾ واحدها حَلْىٌ (بالفتح والتخفيف). والعجل : ولد البقرة ، والجسد : الجثة وبدن الإنسان والشىء الأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف. ﴿ **والخوار** ﴾ : صوت البقر كالرغاء لصوت الإبل – وسقط فى يده وأسقط فى يده (بضم أولهما على البناء للمفعول) أى ندم ، وذكرت اليد لأن الندم يحدث فى القلب وأثره يظهر فيها بعضّها أو الضرب بها على أختها كما قال سبحانه فى النادم ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾[4] ولأن اليد هى الجارحة العظمى وربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾[5].

تأثر بنو إسرائيل بالوثنية التى كان عليها أهل مصر من عبادة عجل (أبيس) ، لذلك لما جاوز الله بهم البحر ، ومروا بقوم يعكفون على أصنام لهم ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ قال : ﴿ أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين ﴾ .

إن بنى إسرائيل أخذهم الحنين إلى عبادة العجل وأقدامهم ما زالت مبتلة بماء البحر ، ونعمة الله عليهم بالنجاة ماثلة أمام أبصارهم ، إنهم عبدوا الذهب والفضة من دون الله ، وقبل رحيلهم من مصر ، قامت نساؤهم بجمع الحلى من نساء مصر ، فجمعوا كثيرا من الذهب والفضة على سبيل العارية ، والعارية مردودة ، لكنهن جمعنها والنية معقودة على أخذها وعدم ردها . وعندما خرج بنو إسرائيل من مصر رجالا ونساءاً، أخذوا حلى المصريين معهم .

(١) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ٤٢ من سورة الكهف .
(٥) الآية ١٠ من سورة الحج .

ولما ذهب موسى لميقات ربه لينزل الله عليه التوراة ، وقال لأخيه هارون : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾[١] اتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ، والذى أضلهم وصنع لهم هذا العجل من الحلى ، رجل منافق يسمى السامرى قال تعالى : ﴿ فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلٰهكم وإلٰه موسى فنسى ﴾[٢] أى فنسى موسى إلٰهه هنا فذهب يلتمسه هناك

قال تعالى : ﴿ **ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ . وقال جل شأنه : ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا ﴾[٣]..

فماذا كانت صورة هذا العجل ؟

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل : هل صار لحما ودماً له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر ؟ على قولين والله أعلم اهـ .

ويرى الرأى الأول : قتادة والحسن البصرى فى جماعة آخرين ، وتعليل ذلك عندهم أن السامرى رأى جبريل حين جاوز ببنى إسرائيل البحر راكبا فرسا ما وطئ بها أرضا إلا حلت فيها الحياة واخضرّ نباتها فأخذ من أثرها قبضة فنبذها فى جوف تمثال العجل فحلت فيه الحياة ، وصار يخور كما يخور العجل .

ويرى جماعة آخرون الرأى الثانى ويقولون : إن خُواره كان بتأثير دخول الريح فى جوفه وخروجها من فيه ، ذلك أنه صنع تمثال عجل مجوفا ووضع فى جوفه أنابيب على طريق فنية مستمدة من دراسة علم الصوت وجعل وضعه على مهب أنابيب الرياح فمتى دخله الريح فى جوف التمثال انبعث منه صوت يشبه خوار العجل .

وقال آخرون : بل كان ذلك الخوار تمويها وعملا منه يشبه عمل الحواة ذلك أنه جعل التمثال أجوف ، وجعل تحت الموضع الذى نصب فيه من ينفخ فيه من حيث لا يشعر الناس . فسمعوا الصوت من جوفه كالخوار ، والناس يفعلون مثل هذا فى النافورات التى تجرى فيها المياه ، وبهذا الطريق ونحوه ظهر الصوت من التمثال ثم ألقى فى روع الناس أن هذا العجل إلٰههم وإلٰه موسى فعبدوه كلهم إلا هارون كما قال الحسن .

﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربَّكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾[٤].

قوله تعالى : ﴿ **ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين** ﴾ .

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ٨٨ من سورة طه .

(٣) الآية ٨٩ من سورة طه .

(٤) الآيتان ٩٠، ٩١ من سورة طه .

أى لما اشتد ندمهم بعد علمهم بضلالهم لجأوا إلى الله متضرعين يسألونه الرحمة والمغفرة ، وقالوا : لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين .

وهكذا تعددت جرائم بنى إسرائيل فى جنب الله ، فبعد مجاوزتهم البحر قالوا : يا موسى اجعل لنا إلـٰها كما لهم آلهة ، ثم اتخذوا العجل من بعد ذلك ، إلى غير ذلك من الجرائم المشينة التى سبق ذكرها فى سورة النساء .

عودة موسى إلى بنى إسرائيل

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ
رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى
وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ
لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ
غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى
ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

المفردات : ﴿ **أسفا** ﴾ : الأسف الغضب الشديد أو الحزن ، والأسيف الشديد الغضب . ﴿ **أعجلتم** ﴾ : عجل عن الأمر تركه غير تام وأعجله عنه غيره حمله على تركه ناقصا . ﴿ **الألواح** ﴾ : مفرده لوح وهو ما كتب فى التوراة . ﴿ **غضب** ﴾ : المراد ما أمروا به من قتل أنفسهم . ﴿ **وذلة** ﴾ : خروجهم من ديارهم وهوانهم على الناس . ﴿ **نسختها** ﴾ : ما نسخ وكتب منها . ﴿ **يرهبون** ﴾ : الرهبة الخوف الشديد .

وعاد موسى إلى قومه بعدما تلقى الألواح من ربه ، وفيها التوراة وفيها الهدى والنور ، والموعظة الحسنة ، وتفصيل كل شىء ، وكان الله تعالى قد أخبره بفتنة السامرى لهم ، واتخاذهم العجل للعبادة ، فرجع إلى قومه غضبان أسفا ، شديد الغضب لله ، فما كان الأنبياء يغضبون لأنفسهم ، إنما يغضبون إذا انتهكت حرمات الله ، ويرحم الله صاحب الهمزية النبوية إذ يقول فى حق خير البرية :

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت مالا تفعل الأنواء

وإذا خطبت فللمنابر هزة
تعزو الندى وللقلوب بكاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا
لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة
للحق لا ضغن ولا شحناء

إن موسى عليه السلام لما غضب كانت غضبة لله وفى الله ، وهل الإيمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله ، فمن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ، فقد استكمل الإيمان .

وبين موسى سبب غضبه ، قال : ﴿ **بئسما خلفتمونى من بعدى** ﴾ أى بئس الذى خلفتمونى به بعد ما ذهبت لميقات ربى . ﴿ **أعجلتم أمر ربكم** ﴾ وتركتموه ناقصا غير تام ، أم استعجلتم ففعلتم ما فعلتم ﴿ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى ﴾[1] واشتد الغضب بموسى ﴿ **فألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ كما جاء تفصيل ذلك فى سورة طه .

﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمرى * قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾[2] .

وفى سورة الأعراف ﴿ **قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** ﴾ .

وإنما خاطبه بابن أم ليثير فى نفسه عوامل الرحمة ، وكوامن العاطفة ، ولقد كان هارون حليما رحيما ، وكان شعب إسرائيل ملح الرقبة عنيدا ، وفى كلمات هارون عليه السلام ما يدعو إلى الشفقة عليه والرحمة به ، فقد قال : ﴿ **إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء** ﴾ وشماتة الأعداء داء عضال له تأثيره فى نفوس الأحرار . ﴿ **ولا تجعلنى مع القوم الظالمين** ﴾ فإننى أبرأ إلى الله مما صنعوا ، عندئذ وعى موسى هذا الدرس من أخيه لما فيه من صدق وأمانة فتوجه إلى الله جل فى علاه قائلا ﴿ **رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين** ﴾ .

وهذه مناجاة كريمة من نبى كريم لرب كريم ، فالمغفرة وطلب الرحمة من نعم الله تعالى على عبده ،

(١) الآية ٨٦ من سورة طه .
(٢) الآيات ٩٢-٩٤ من سورة طه .

فشعاع من رضى الله يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبه تزهق الروح ، ولو انغمست فى نعيم الدنيا قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا :

بك أستجير ومن يجير سواك
فارحم ضعيفا يحتمى بحماك
يارب قد أذنبت فاغفر زلتى
أنت المجيب لكل من ناداك

قوله تعالى ﴿ **إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين** ﴾ .

أما الغضب فذلك لأن الله تعالى أمرهم بقتل أنفسهم ليكون فى ذلك القتل توبة لهم ، كما جاء فى سورة البقرة فى قوله تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾(١) .

وأما الذلة فهوانهم على الناس ، وهوانهم على الله بهذا العمل ، وكذلك نجزى المفترين المبتدعين فى دين الله ، فشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . قال تعالى : ﴿ وقد خاب من افترى ﴾(٢) وقال جل شأنه ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾(٣) .

قوله تعالى ﴿ **والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾

سبحانك ما أكرمك ، ما أحلمك ، ما أحكمك ، ما أعدلك ، ما أعظمك ، ما أرحمك ، تبسط يدك بالليل ليتوب مسىء النهار ، وتبسط يدك بالنهار ليتوب مسىء الليل ، وتنادى هل من تائب فأتوب عليه ، هل من سائل فأعطيه ، هل من مستغفر فأغفر له . أنت القائل فى كتابك ﴿ إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾(٤) وأنت القائل ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما . يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا ﴾(٥) وأنت القائل ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾(٦) .

وسبحانك أنت القائل ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾(٧) .

وأنت القائل : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾(٨) .

وأنت القائل ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيما ﴾(٩) .

(١) الآية ٥٤ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٦١ من سورة طه .
(٣) الآية ٨١ من سورة طه .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٥) الآيات ٢٦-٢٨ من سورة النساء .
(٦) الآية ٣١ من سورة النساء .
(٧) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٨) الآية ١١٠ من سورة النساء .
(٩) الآية ١٤٦ من سورة النساء .

وأنت القائل ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾ (١).

وأنت القائل : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾ (٢)

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة ... فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن ... فبمن يلوذ ويستجير الآثم
أدعوك رب كما أمرت تضرعا ... فإذا رددت يدى فمن ذا يرحم
مالى إليك وسيلة إلا الرضا ... وجميل عفوك ثم أنى مسلم

قوله تعالى ﴿ **ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون** ﴾ .

وسكوت الغضب سكونه ، وهدوء النفس ، أخذ موسى الألواح بعد أن سكن غضبه ، وفيها قد كتب من **الأحكام والمواعظ مافيه هدى ورحمة** ، **هدى** من الضلالة إلى طريق الله ، ورحمة بالعباد إن هم سلكوا طريق ربهم ، وعملوا بما أنزل عليهم ، وهل ينتفع بالهدى والرحمة إلا الذين يخافون الله ، ويخضعون له ﴿ والذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ (٣).

وهل ينتفع بالهدى والرحمة إلا ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ (٤)

يارب حبك فى دمى وكيانى
نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رضائك عصمتى
أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

قال قتادة : فى قوله تعالى ﴿ **أخذ الألواح** ﴾ قال : رب إنى أجد فى الألواح خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون السابقون – أى آخرون فى الخلق سابقون فى دخول الجنة – رب اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها وكان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا ولم يعرفوه ، وإن الله أعطاهم من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم . قال : رب اجعلهم أمتى. قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول ، وبالكتاب الآخر . ويقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور

(١) الآية ٤٩ من سورة الحجر .
(٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ٢ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

الكذاب فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم ، ويؤجرون عليها ، وكان من قبلهم من الأمم إذا تصدق بصدقة فقبلت منه بعث الله عليها نارا فأكلتها ، وإن ردت عليه فتأكلها السباع والطير ، وإن الله أخذ صدقاتهم من غنيهم لفقيرهم . قال : رب فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إنى أجد فى الألواح أمة إذا همّ أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائه . رب اجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال : ربى إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم ، فاجعلهم أمتى . قال : تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن نبى الله موسى قال : اللهم اجعلنى من أمة أحمد .

موسى أثناء المناجاة وأحكام أخرى

وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ
أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن
تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ * وَٱكْتُبْ
لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ
وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ
وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

المفردات : ﴿ **الرجفة** ﴾ : الصاعقة التى تزلزل القلوب والأبدان . ﴿ **حسنة** ﴾ : المراد صحة وعافية وغنى عن الناس واستقلالا فى الدولة . ﴿ **هُدْنا** ﴾ : رجعنا وتبنا . ﴿ **الأمّى** ﴾ : الذى لا

يقرأ ولا يكتب ﴿ **إصْرهم** ﴾ : الإصر الثقل الذى يأصر صاحبه أى يحبسه عن الحركة لثقله .
﴿ **الأغلال** ﴾ : جمع غل وهو الحديد الذى يجمع بين يد الأسير وعنقه والمراد التكاليف الشاقة .

ذكر المفسرون أن الله قد أوحى إلى موسى أن يختار سبعين رجلا من بنى إسرائيل ويصطفيهم ، ويأتى بهم إليه ، وقد اختلفوا هل كان هذا عقب عبادتهم العجل ليتوبوا ؟ أو كان هذا عند طلب موسى للرؤية .

فاختار موسى سبعين رجلا لميقاتنا ، وأمرهم أن يصوموا ، وأن يتطهروا ثم خرج بهم إلى طور سيناء ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا ساجدين ، وسمعوا المولى جل شأنه وهو يكلم موسى بأمره ونهيه . افعل ولا تفعل ثم انكشف الغمام :

فأقبلوا على موسى وطلبوا منه الرؤية ، قيل لم يصدقوا أن الذى أمرهم بقتل أنفسهم هو الله حتى يروه ، فوعظهم موسى وزجرهم فقالوا : يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة . فقال ﴿ **رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى** ﴾ .

وبعض العلماء يقول : طلب موسى الرؤية مع علمه بعدم إمكانه ليسمعوا الرد عليه ، فيكون هذا أبلغ من الرد عليهم ، ولذا أجيب بلن ترانى .

ورجف بهم الجبل ، وصعقوا حينما ألحوا فى طلب الرؤية ، لما أخذتهم الرجفة قال موسى : ﴿ **رب لوشئت أهلكتهم من قبل** ﴾ هذا حينما عبدوا العجل ، وقيل حين طلب الرؤية ، وأهلكتنى معهم كذلك قبل أن أرى ما رأيت .

قال موسى : ﴿ **أتهلكنا بما فعل السفهاء منا** ﴾ حيث طلبوا الرؤية لك جهاراً قياساً منهم على سماع كلامك ، وهو قياس فاسد ، وقيل ما فعله السفهاء هو عبادة العجل ﴿ **ما هى إلا فتنتك** ﴾ وابتلاؤك ، حين كلمتنى فسمعوا كلامك ، وطلبوا الرؤية ، تضل بالمحنة الجاهلين غير الثابتين من معرفتك ، ولست ظالما لهم أبداً ، بل هذا موافق لطبعهم ﴿ **وتهدى بها من تشاء** ﴾ من عبادك التائبين المؤمنين ، وهذا موافق لطبعهم ، والله أعلم بعباده ، فلو تركوا وشأنهم لاختار كل منهم ماهو فيه ، وما قدر له ﴿ **أنت ولينا** ﴾ يارب ﴿ **فاغفر لنا وارحمنا** ﴾ ، واستر عيوبنا برحمتك ، يا أرحم الراحمين .

﴿ **وأنت خير الغافرين** ﴾ تغفر الذنوب ، وتعفو عن السيئات ، بلا سبب ولا علة ، لأن رحمتك وسعت كل شىء .

﴿ **واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة** ﴾ هى نعمة الصحة والعافية والرزق الحسن والتوفيق فى العمل والاستقلال فى الدولة ، واكتب لنا فى الآخرة حسنة هى نعمة الثواب الجزيل ، والعطاء الكثير . إنا هدنا إليك ، وتبنا ، ورجعنا إلى حظيرة الإيمان بالعمل لا بالقول فقط .

قال الله : إن رحمتى سبقت غضبى ، وإن عذابى أصيب به من أشاء من عبادى المسيئين لأنفسهم بالعمل الفاسد ، وفى قراءة : إن عذابى ﴿ **أصيب به من أساء** ﴾ .

وأما رحمتى ونعمتى وفضلى فقد وسعت كل شيء فى الكون ، وسعت الكافر والعاصى ، والمسلم واليهودى وعابد العجل إلخ ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾(١) فسمائى تظلهم ، وأرضى تقلهم ، وبرزقى يعيشون ، وبخيرى يتمتعون ، وأنا أدعوهم دائماً إلى الصراط المستقيم ، ومع هذا كله فبعضهم خارجون عن دينى .

فإذا كان الأمر كذلك من إصابة عذابى من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شيء ﴿ **فسأكتبها** ﴾ كما دعوت يا موسى أى أثبتها خالصة غير مشوبة بالعذاب الدنيوى ﴿ **للذين يتقون** ﴾ الله فى كل شيء ، ﴿ **ويؤتون الزكاة** ﴾ وخصت بالذكر لأنه يخاطب قوماً ماديين نفعيين مانعين للزكاة ، وسأكتبها كتابة خاصة للذين ﴿ **هم بآياتنا** ﴾ كلها ﴿ **يؤمنون** ﴾ .

سأكتب رحمتى الواسعة للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، وسأكتبها كتابة خاصة للذين هم بآياتنا كلها يؤمنون ، وهم ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ وهذه الأوصاف تنطبق على محمد المفرد العلم ، فهو رسول ونبى أمى ، وقد كان أهل الكتاب يصفون العرب بأنهم أميون ﴿ ليس علينا فى الأميين سبيل ﴾(٢) .

وقد وصفه القرآن الكريم ووصف رسالته بأوصاف :

١ — النبى الأمى ، وفى هذا الوصف إشادة إلى كمال صدقه ، حيث أتى بالقرآن المعجز فى أخباره وقصصه وحكمه وأصوله العامة فى السياسة والاجتماع والدين ، مع أن من نزل عليه أمى بين أميين . يا سبحان الله .

٢ — وهو محمد ، الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، فبشارته وصفته وزمانه فى التوراة والإنجيل ، وقد عرفوا ذلك كله كما يعرفون أبناءهم أو أكثر ، وآمن به بعض علمائهم الأحرار من اليهود ، كعبد الله بن سلام ، ومن النصارى كتميم الدارى رضى الله عنهم جميعا ، وفى كتاب (إظهار الحق) لعالم هندى تحقيق هذا الموضوع لمن أراد الزيادة .

٣ — ٤ — أنه يأمرهم بالمعروف شرعاً ، وهو ما تعرفه العقول الرشيدة ، ولا تنكره الطباع السليمة ، وهو ينهاهم عن المنكر شرعاً وهو ما تنكره النفوس الأبية الكاملة فى العقل والسمو الروحى ، ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾(٣).

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٧٥ من سورة آل عمران .

(٣) الآية ٣٦ من سورة النحل .

٥ – يحل لهم الطيبات التى تستطيبها الأذواق السليمة من الأطعمة الحلال ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾[١] .

٦ – ويحرم عليهم الخبائث ، مما تأباه النفوس السليمة كالميتة والدم المسفوح ، ويأباه العقل الراجح كالخنزير ، خصوصا عندما عرفنا الطب أنه يولد الدودة الوحيدة فى جسم من يأكله .

٧ – وقد وضع عنهم التكاليف الشاقة التى تأمرهم وتثقل عليهم ، والأغلال التى كانت فى أعناقهم ، كقتل النفس عند التوبة ، وقطع مكان النجاسة ، إلخ . فدينه اليسر . وشريعته السمحة السهلة ، والحنيفية البيضاء .

فالذين آمنوا به وبرسالته ، وحموه ونصروه ، مع الإجلال والإكبار ، واتبعوا النور الذى أنزل معه فأولئك البعيدون فى درجات الكمال ، المتميزون على غيرهم هم المفلحون حقاً ، ويدخل فى ذلك دخولا أولياً قوم موسى عليه السلام ، الذين ينطبق عليهم الوصف العام .

قوله تعالى ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إلّه إلا هو يحيى ويميت** ﴾ .

وهذا النص الكريم يعطى الدلالة القاطعة على عموم رسالته ﷺ ودوامها ، وأنها لاصقة لما قبلها ولا ينسخها شيء ، قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل : [وعزتى وجلالى لو سلكوا إلىَّ كل طريق واستفتحوا علىَّ كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد] .

فالإيمان به ﷺ أمر معلوم من الدين بالضرورة .لا ينكره إلا جاحد ختم على قلبه . فكان من الذين قال الله فيهم ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهيناً ﴾[٢] .

وآيات القرآن خير شاهد على عموم رسالته ، قال تعالى : ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾[٣] وقال : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾[٤] وقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٥] وقال : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾[٦]

وروى عنه ﷺ أنه قال « أعطيت خمساً لم يعطهن نبى قبلى ولا أقوله فخراً : بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتى يوم القيامة فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً »[٧] رواه أحمد بإسناد جيد .

(١) الآية ٧٥ من سورة البقرة . (٣) الآية ١٩ من سورة الأنعام . (٥) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيتان ١٥٠،١٥١ من سورة النساء . (٤) الآية ٣٨ من سورة سبأ . (٦) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٧) أخرجه البخارى فى التيمم (١) وفى الصلاة (٥٦) . ومسلم فى المساجد (٣) . والنسائى فى الغسل (٢٦) .

وروى الإمام مسلم بإسناده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن إلا بى إلا دخل النار »(١)

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

قوله تعالى ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾ إن الأمية شرف ومعجزة لرسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون * بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾(٢).

أشرق النور فى العوالم لما ... بشرتها بأحمد الأنباء
جاء للناس والسرائر فوضى ... لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرع ... الله والحق والصواب وراء
تلك آى الفرقان أرسلها الله ... ضياء يهدى به من يشاء
نسخت سنة النبيين والرسل ... كما ينسخ الضياء الضياء

إن الذين آمنوا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولاً ، هم الفائزون .

قال تعالى ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(٣) .

وقوله تعالى ﴿ **الذى يؤمن بالله وكلماته** ﴾ أى أنه قد جمع بين القول والعمل ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾(٤).

ففى اتباعه الهدى والنور ، وفى الإيمان به الحياة الكريمة الطيبة ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾(٥).

حديث عن بنى إسرائيل

وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن

(١) أخرجه مسلم فى الايمان (٢٤٠) .
(٢) الآيتان ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ١٥٢ من سورة النساء .
(٤) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .

طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ
هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ
خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ
فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ
ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ
كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

المفردات : ﴿ **قطّعناهم** ﴾ : أى صيرناهم قطعاً وفرقا كل فرقة منها سبط . ﴿ **والسِّبط** ﴾ : ولد الولد مطلقا وقد يخص بولد البنت وأسباط بنى إسرائيل سلائل أولاده العشرة : أى ماعدا لاوى وسلائل ولدى ابنه يوسف وهما إفرايم ومنسى إذ سلائل لاوى نيطت بها خدمة الدين فى جميع الأسباط ولم تجعل سبطا مستقلا (والأمة)، الجماعة التى تؤلف بين أفرادها رابطة خاصة أو مصلحة واحدة أو نظام واحد . ﴿ **والاستسقاء** ﴾ : طلب الماء للسقيا . والانبجاس والانفجار واحد . يقال : بجسه فانبجس وبجّسه فتبجس كما يقال فجره . أى شقه فانفجر وقال الراغب : الانبجاس أكثر ما يقال فيما يخرج من شىء ضيق والانفجار يستعمل فيه وفيما يخرج من شىء واسع، والغمام : السحاب مطلقا أو الأبيض منه أو الرقيق . و ﴿ **المن** ﴾ : مادة بيضاء تنزل من السماء كالطل حلوة الطعم شبيهة بالعسل وإذا جفت كانت كالصمغ . ﴿ **والسلوى** ﴾ : طير يشبه السمانى (السمان) لكنه أكبر منه . القرية : قيل طبريه والعرب تسمى المدينة قرية . ﴿ **حاضرة البحر** ﴾ : أى قريبة منه على شاطئه ﴿ **يعدون فى السبت** ﴾ : أى يتجاوزون حكم الله بالصيد المحرم عليهم فيه و﴿ **حيتانهم** ﴾ : سمكهم . و﴿ **يوم سبتهم** ﴾ : أى تعظيمهم للسبت يقال سبتت اليهود تسبت إذا عظمت السبت بترك العمل فيه وتخصيصه للعبادة و﴿ **شُرَّعا** ﴾ : أى ظاهرة على وجه الماء ﴿ **نبلوهم** ﴾ : نختبرهم .

قوله تعالى ﴿ **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾

إخبار من الله جل جلاله أن من قوم موسى جماعة اتبعوا طريق الهدى والحق ، وبهذا الحق يعدلون بين الناس .

وذلك كقوله تعالى ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾[1].

(١) الآيات ١١٣-١١٥ من سورة آل عمران .

ولقوله جل شأنه ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾(١).

وكقوله تعالى ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون.وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٢).

وكقوله تعالى ﴿الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾(٣).

وكقوله تعالى ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾(٤).

﴿ **وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمما** ﴾

أى فرقنا قوم موسى الذين كان منهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، ومنهم الظالمون والفاسقون ، فجعلناهم اثنتى عشرة فرقة ، تسمى أسباطا أى أمما وجماعات ، يمتاز كل منهم بنظام خاص فى معيشته وبعض شئونه .

﴿ **وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا** ﴾

أى وأوحينا إلى موسى حين استسقاه قومه فاستسقى ربه لهم ، أن اضرب بعصاك الحجر ، فضربه فنبعت منه عقب ضربه إياه اثنتا عشرة عينا من الماء بقدر عدد أسباطهم ، وخص كل واحد بعين منها للزحام وحفظا للنظام .

﴿ **وظللنا عليهم الغمام** ﴾ أى وسخرنا لهم الغمام يلقى عليهم ظله فيقيهم لفح الشمس من حيث لا يحرمون فائدة نورها وحرها المعتدل ، ولولا السحاب فى التيه لأحرقتهم حرارتها ، إذ لم يكن هناك من الشجر ما يستظلون به .

﴿ **وأنزلنا عليهم المن والسلوى** ﴾

فسهلنا عليهم الطعام والشراب على أحسن الوجوه ، وكان المنّ يقوم مقام الخبز عندهم ، ويكفى الألوف من الناس ، وتقوم السمانى مقام اللحوم والطيور الأخرى .

﴿ **كلوا من طيبات مارزقناكم** ﴾

أى وأنزلنا عليهم ما ذكر قائلين لهم كلوا من طيبات مارزقناكم ، وفى ذلك تنبيه وتذكير بما كان يجب عليهم من شكر هذه النعم .

---

(١) الآية ١٩٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآيات ٥٣–٥٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ١٢١ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ١٠٧–١٠٩ من سورة الإسراء .

﴿ **وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾

أى وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، بل ظلموا أنفسهم وأضروها بهذا الجحود والإنكار ، وقد كان ذلك من دأبهم وعادتهم آناً بعد آن ،وقد جاء فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر مرفوعا [يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى]

ولاشك أن من ظلم نفسه كان لغيره أظلم ، وإن كان ظلمه لنفسه مما يجهل أنه ظلم لها . إذ يتجلى له فى صورة المنفعة وتكون عاقبته مضرة ، وهكذا الحال فى جميع الظالمين والمجرمين ، فهم يظنون أنهم بظلمهم وإجرامهم ينفعون أنفسهم ، جهلا منهم للعواقب ، وقلة تدبر ما ينبغى أن يُتَفطَّن له .

قوله تعالى ﴿ **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين * فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون** ﴾ .

تقدم مثل هاتين الآيتين فى سورة البقرة ، غير أن بين الموضعين فروقا ذكرها المفسرون فيما يلى :

١ – أنه قال هنا : ﴿**اسكنوا القرية** ﴾ وفى سورة البقرة ﴿ **ادخلوا** ﴾

والفائدة هنا أتم ، لأن السكنى تستلزم الدخول دون العكس .

٢ – أنه قال هنا : ﴿ **وكلوا منها حيث شئتم** ﴾ وفى سورة البقرة ﴿ **فكلوا منها حيث شئتم رغداً** ﴾ . فجاء العطف هناك بالفاء ، لأن بدء الأكل يكون عقب الدخول ، كأكل الثمرات والفواكه التى تكون فى كل ناحية من القرية ، أما السكنى فأمر ممتد يكون الأكل فى أثنائه لا عقبه ، كما وصف هناك الأكل بالرغد وهو الواسع الهنىء ، لأن الأكل فى أول الدخول يكون أكثر ، وبعد السكنى والإقامة لا يكون كذلك .

٣ – أنه قال هنا : ﴿ **وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً** ﴾ وقدم هنا ما أخر هناك وأخر ما قدمه ، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين ، فالاختلاف فى التعبير دالّ على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذاك ، وبين عكسه ، إذ لا فارق بين أن يدعو بقولهم . ﴿ **حطة** ﴾ أى حط عنا أوزارنا وخطايانا ، الذى هو بمعنى قولنا : اللهم غفراً .

فى حال التلبس بالتواضع والخضوع وتنكيس الرءوس شكراً لله على نعمه عنه دخول القرية ، وبين أن يبدءوا بتنكيس الرءوس والخضوع والتواضع ثم يدعون بقولهم ﴿ **حطة** ﴾ .

٤ – أنه قال هنا : ﴿**سنزيد المحسنين** ﴾ بدون واو ، وهناك ﴿**وسنزيد المحسنين** ﴾ بالعطف ، والمعنى واحد ، وترك الواو أول على أن الزيادة تفضل من الله ليست مشاركه للمغفرة فيما جعل سببا لها من الخضوع والسجود والاستغفار والدعاء بحط الأوزار .

٥ - أنه قال هاهنا : ﴿فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم﴾ مزيد منهم على مثله فى سورة البقرة .

ومعنى تبديلهم قولا غير الذى قيل لهم : أنهم عصَوْا بالقول والفعل ، وخالفوا الأمر مخالفة تامة ، لا تحتمل اجتهاداً ولا تأويلا ، فلم يراعوا ظاهر مدلول اللفظ ولا الفحوى ، والمقصود منه حتى كأن المطلوب منه غير الذى قيل لهم .

٦ - أنه قال هنا : ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء بما كانوا يظلمون ﴾ وقال هناك ﴿ وأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ فالاختلاف بين الإنزال والإرسال ، وهو خلاف لفظى ، وبين عليهم وعلى الذين ظلموا ، وبين يظلمون ويفسقون ، وفائدته بيان أنهم كانوا يجمعون بين الظلم الذى هو نقص للحق ، أو إيذاء للنفس أو للغير ، والفسق الذى هو الخروج عن الطاعة ، والرجز العذاب ، الذى تضطرب له القلوب ، أو يضطرب له الناس فى شئونهم ومعايشهم .

والعبرة فى هذا القصص أن نعلم أن الله يعاقب الأمم على ذنوبها فى الدنيا ، قبل أن يعذبها فى الآخرة ، وأن نبتعد بقدر الطاقة عن الظلم والفسق ، فقد عاقب الله بنى إسرائيل بظلمهم ، ولم يحل دون عقابه ما كان لهم من فضائل ومزايا ، لكثرة الأنبياء منهم ، وتفضيلهم على العالمين .

قوله تعالى ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

هذه الآية الكريمة تفصيل لما جاء فى قوله تعالى ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾ .

وهذه القرية قيل إنها طبرية ، وقيل أيلة ، والمقصود ما حدث فيها من اليهود ، وهذا سؤال موجه إليهم ، والمقصود بهم المعاصرون لرسول الله ﷺ ، أى اسأل هذه الذرية عما فعل أجدادهم فى السبت ، فقد حرم الله تعالى عليهم الصيد فيه ابتلاءً واختباراً منه ، واصطادوا وجاوزوا الحدود بعدما نهاهم الله تعالى بقوله ﴿لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا﴾ وحذر ذريتهم من الكفر بك ، حتى لا ينالهم من العذاب مانال أجدادهم المعتدين .

وقد كان من ابتلاء الله لهم أن حيتانهم ، أى السمك كانت تأتيهم ظاهرة على وجه الماء يوم السبت ، وفى غير يوم السبت لا تأتيهم ، وهذا بلاء منه تعالى واختبار لهم ، فاحتال القوم على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التى معناها فى الباطن تعاطى الحرام .

قال الفقيه ابن بطة : حدثنا أحمد بن محمد بن سلم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد .

الإعذار إلى الله وعاقبة المخالفين

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ
رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟
قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ (١٦٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا
مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
(١٦٨) فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ
سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا
يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩)
وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ (١٧٠) * وَإِذْ نَتَقْنَا
ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

المفردات : ﴿ **أمة منهم** ﴾ : أى جماعة منهم . ﴿ **المعذرة** ﴾ : بمعنى العذر وهو التنصل من الذنب فمعنى معذرة إلى ربكم : قيام منا بعذر أنفسنا إلى الله تعالى . و﴿ **نسوا ما ذكروا به** ﴾ : أى تركوه ترك الناس وأعرضوا عنه إعراضا تاما و﴿ **السوء** ﴾ : العمل الذى تسوء عاقبته . ﴿ **البئيس** ﴾ : الشديد البأس وهو الشدة أو من البؤس وهو الردة أو الفقر ﴿ **والعتو** ﴾ : الإباء والعصيان و﴿ **خاسئين** ﴾ : أى أذلاء صاغرين . قال سيبويه : أذن : أعلم . وأذَّن : نادَى وصاح للإعلام ومنه ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ ومثله ﴿ **تأذن ربك ليبعثن** ﴾ ! أى ليسلطن و﴿ **يسومهم** ﴾ : يذيقهم ويوليهم . ﴿ **وقطعناهم** ﴾ : فرقناهم ﴿ **أمما** ﴾ : أى جماعات . دون ذلك : أى منحطون عنهم ﴿ **وبلوناهم** ﴾ : امتحناهم والحسنات النعم والسيئات : النقم و﴿ **الخلف** ﴾ : (بسكون اللام) يستعمل فى الأشرار (وبالتحريك) فى الأخيار و﴿ **الكتاب** ﴾ : التوراة . ﴿ **والعرض** ﴾ : (بالتحريك) متاع الدنيا وحطامها . و﴿ **الأدنى** ﴾ : أى الشيء الأدنى والمراد به الدنيا ﴿ **ودرسوا ما**

فيه ﴾ : قرءوه فهم ذاكرون له . و﴿ **يمسّكون** ﴾ : أى يتمسكون به ويعملون . و﴿ **نتقنا الجبل** ﴾ أى رفعناه كما روى عن ابن عباس أو زلزلناه وهو مرفوع يقال نتق السقاء : إذاهزه ونفضه ليخرج منه الزبد أو اقتطعناه كما هورأى كثير من العلماء والظلة : كل ما أظلك من سقف بيت أو سماء أو جناح طائر والجمع ظلل وظلال .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يتبين لنا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب ، ولا تستقيم حياة المجتمعات بدونه ، فالناس بخير ما تناصحوا . قال ﷺ : « الدين النصيحة قلنا لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[١].

وعلى الناصح الأمين أن يقصد بنصحه وجه الله تعالى ، وليس عليه إدراك المقاصد . قال تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾[٢]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ﴾[٣]. وقال تبارك اسمه : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[٤].

إن بنى إسرائيل شعب صلب الرقبة عنيد . لقد كان من بينهم جماعة تقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوعظ والإرشاد ، ترغيبا وترهيبا وعداً ووعيدا ، فقالت لهم جماعة أخرى على سبيل اللوم : ﴿ **لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا** ﴾ فقد وصفوا هؤلاء القوم بأن الله تعالى سيهلكهم أو يعذبهم عذابا شديدا .

وفى هذا الوصف دليل قاطع ، وبرهان ساطع على سوء أعمالهم ، وكثرة مخالفتهم ، وازدياد سيئاتهم ، أى أن الوعظ أصبح لا يجدى مع هؤلاء ، فقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، ولجوا فى طغيانهم يعمهون ، فهم فى ريبهم يترددون ، أصبح المعروف فيهم منكرا ، وصار المنكر فيهم معروفا ، وأضحى الذئب فيهم راعيا ، وبات الخصمُ العنيد قاضيا .

فبأى شيء أجاب الواعظون على سؤال اللائمين . إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما قال سيد الأنام محمد ﷺ : « لتأمرن بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر وإلا ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يُستجاب لهم »

ومن ثمَّ فقد أجاب الواعظون : ﴿ **معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون** ﴾ أى أنهم قصدوا بالوعظ هدفين نبيلين : أنهم أعذروا إلى الله أولا حتى لا يتحملوا ذنب الساكت عن الحق ، فالساكت عن الحق شيطان أخرس ، وأنهم قصدوا بوعظهم أن يؤدى ذلك إلى أن يبعث الله نور الهداية فى قلوبهم ، وذلك على سبيل الرجاء .

(١) سبق تخريج الحديث أكثر من مرة .
(٢) الآية ٩٩ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٢١ من سورة الغاشية .
(٤) الآية ٤٥ من سورة ق .

إن خاتم الأنبياء ﷺ بيَّن معالم المجتمع المستقيم فقال : « إذا كان أمراؤكم خياركم وأغنياؤكم سمحاءكم وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض أولى بكم من بطنها »

كما بيَّن معالم المجتمع المعوج فقال : « وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض أولى بكم من ظهرها »[١].

وفى القرآن الكريم آيات بينات فيها البيان الشافى والدواء الناجع لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، لقد بيَّن الله لنا معالم المجتمع السعيد فى قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾[٢].

كما بيَّن معالم المجتمع الشقى فى قوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون ﴾[٣].

لقد قام دعاة الخير بالوعظ والإرشاد فبرئت ساحتهم ، أما القوم الذين مرنوا على المخالفات فلم يقبلوا لأهل الخير وعظا ، بل استغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، فكان لابد من كلمة الفصل ولا يملكها إلا الله وحده ، فكان الجزاء العادل والحكم الفاصل : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾.

هذه كلمة الفصل والله جلَّ جلاله إذا حكم فلا معقب لحكمة ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، يقص الحق وهو خير الفاصلين . إن الناس إذا نسوا ما ذكروا به فقد أتوا بهتانا وإثما مبينا ، وجاءوا إثما وزوراً . لقد أنجى الله الذين ينهون عن السوء . قال تعالى : ﴿ ثم ننجى رُسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾[٤]. وقال عزَّ من قائل : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٥].

ولابد أن يلقى الظالمون مصيرهم فالظلم لا يدوم وإذا دام دمَّر، والحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع . وقد اقتضت سنة الله فى خلقه أنه لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

قال تعالى ﴿ **وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس** ﴾

وهذا منطق العدالة الإلهية . وهل يدمر الأمم إلا الظلم . قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٦]. وقال جلَّت حكمته : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[٧]. وقال عزَّ من قائل : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٨]. وقال تبارك فى علاه : ﴿ وماكنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٩]. وقال أصدق القائلين : ﴿ فكأيِّن من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية

(١) أخرجه الترمذى فى الفتن (٧٨) .
(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٠٣ من سورة يونس .
(٥) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٦) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٧) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٨) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٩) الآية ٥٩ من سورة القصص .

على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[١].

إن الله تعالى لما أخذ الظالمين بعذاب شديد ذكر السبب فى ذلك فقال : ﴿ **بما كانوا يفسقون** ﴾ . والفسق خروج على أوامر الله وتمرد على أحكامه ، وتعطيل شرعه من أشد أنواع الفسوق ، وتكذيب آياته والاستهزاء بها من أشد المخالفات .

وقد بيَّن الله تعالى بعض صور هذا العذاب الشديد الذى أخذ به الظالمين فى قوله : ﴿ **فلما عتوا عن مانهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين** ﴾ .

والعتو : تمرد وطغيان ونفور وشرود عن الحق . وللمفسرين رأيان فى مسخ هؤلاء قردة :

يرى البعض أنهم مسخوا خلقا وجسما فكانوا قردة حقيقيين .

ويرى الآخرون أنهم مسخوا خُلقا وقلبا فكانوا فى أخلاقهم وقلوبهم يحاكون القردة فى الخفة والتقليد .

ومهما يكن فإن الله تعالى جعلهم خاسئين أذلاء وسيظلون أذلاء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فإن الله تعالى قد ضرب الذلة عليهم أينما ثقفوا وقد باءوا بغضب من الله ، وضُربت عليهم المسكنة ، ولم يكن ذلك ظلما ولا عدوانا لهم ، إن الله لا يظلم مثقال ذرة . لذلك فقد بين الله تعالى بعد ذلك أسباب حكمه عليهم فقال : ﴿**ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ تأذَّن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربَّك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ .

أى واذكر يا محمد إذ أعلم ربك هؤلاء القوم الظالمين ، ليبعثن عليهم من خلقه من يذيقهم العذاب الأليم ، جزاء بغيهم وظلمهم ، فسلَّط عليهم المجوس ثم نصارى الروم ، ثم أقواما آخرين مثل : ألمانيا أيام الحرب العالمية . وهذه سنة الله فى خلقه ﴿ ولله مافى السماوات ومافى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[٢]

وتاريخ اليهود ملىء بالجرائم والقبائح فقد ملأوا طباق الأرض فسادا ، بكل ما تحتمله هذه الكلمة من معان ، فقد سألوا موسى قائلين : ﴿ أرنا الله جهرة ﴾[٣] بل قالوا ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾[٤]، وقالوا له : ﴿اجعل لنا إلـٰها كما لهم آلهة ﴾[٥] ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءهم من البينات ، وصدوا عن سبيل الله ، وأخذوا الربا ، وأكلوا أموال الناس بالباطل ، وكفروا وقالوا على مريم بهتانا عظيما ، وقالوا كذبا وبهتانا : ﴿ إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم ﴾[٦] بل لقد أساءوا الأدب حتى مع

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .
(٣) الآية ١٥٣ من سورة النساء .
(٤) الآية ٥٥ من سورة البقرة .
(٥) الآية ١٣٨ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ١٥٧ من سورة النساء .

الله جلَّ فى علاه لقد قالوا : ﴿ إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾[١] وقالوا : ﴿ يد الله مغلولة ﴾[٢]. و﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾[٣]. وقالوا : ﴿ عزير ابن الله ﴾[٤] وقتلوا أنبياء الله .

ولما بعث نبى الله محمد ﷺ ناصبوه العداء الشديد ، فأتى بنو قينقاع عملا لايأتيه إلا وغد نذل جبان لئيم ، عندما كشفوا ثوب امرأة مسلمة ، فبدت سوءتها فأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة .

ثم تحالف بنو قريظة مع المشركين وأتوا الخيانة العظمى يوم غزوة الأحزاب ، فحق فيهم قول الله تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾[٥]

أما بنو النضير فبئس ما صنعوا : فقد تآمروا على قتل رسول الله ﷺ بأسلوب فيه مكر الثعالب وسم العقارب وفحيح الأفاعى . فكان جزاؤهم كما قال جلَّ شأنه : ﴿ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾[٦] .

وما يوم خيبر ببعيد ، عندما دسَّت يهودية السُّم لرسول الله ﷺ فى ذراع شاة إلى غير ذلك من المؤامرات التى لا تكاد تُحصى .

إنهم دأبوا على سفك الدماء ، وقتل الأبرياء ، ﴿ كلما جاءهم رسول بمالا تهوى أنفسهم فريقا كذَّبوا وفريقا يقتلون ﴾[٧] . ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وماهم من ناصرين ﴾[٨].

ذلك حكم الله على هؤلاء المارقين من شذّاذ الآفاق ، وبغاة البشر ، وأولاد الأفاعى ، الذين عكفوا على حرب الإسلام والطعن فى نبيه الكريم ، والكيد للمسلمين . وما جمعية « عبد الله بن سبأ » اليهودى الذى تظاهر بالإسلام منّا ببعيد ، فقد كان على رأس جمعية سرية ارتكبت من الجرائم ما يستحى الشيطان من فعله ، ويتضاءل إبليس أمامه، لقد قامت هذه الجمعية السرية بقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وهو يصلى الفجر ، كما قام عبد الله بن سبأ بتأليب المسلمين على عثمان بن عفان رضى الله عنه حتى انتهى الأمر بقتله ، وقامت بإشعال نار العداء بين صفوف المسلمين حتى كانت موقعة الجمل وموقعة صفين .

وقاموا على امتداد التاريخ بتأليب قوى الشر على المسلمين ، حتى قامت لهم دولة فى فلسطين ، ففى

(١) الآية ١٨١ من سورة آل عمران
(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٣١ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٣٠ من سورة التوبة .
(٥) الآيتان ٢٦،٢٧ من سورة الأحزاب .
(٦) الآيات ٢-٤ من سورة الحشر .
(٧) الآية ٧٠ من سورة المائدة .
(٨) الآيتان ٢١،٢٢ من سورة آل عمران .

اليوم الخامس عشر من شهر مايو ارتفع على ربوع فلسطين علم أبيض ذو نجمة زرقاء مسدسة الأضلاع ، ومن يومها صارت فلسطين وطنا بلا شعب لشعب بلا وطن ، ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[١].

إن واقع المسلمين تسيل له الكبد مرارة ، وينخلع له الفؤاد أسى ، وقد أصبحوا كالغنم الشريدة فى الليلة الشاتية . ويوم يعودون إلى الله سيمكنهم الله من أكتاف عدوهم ، وينصرهم عليهم ، ويشفى صدور قوم مؤمنين ، إن الله عزيز لايُقهر حكيم مُنزه عن العبث ﴿ كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٢].

إنه سبحانه بعث على اليهود من يسومونهم سوء العذاب بمحض عدله جزاءً وفاقا ، إن ربك لسريع العقاب لمن عصاه وأعرض عن ذكره ، واتبع هوى النفس ، كما أنه غفور رحيم وسعت رحمته كل شىء وعمت مغفرته كل من تاب وصدق النية مع الله . قال تعالى ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى *وإنى لغفَّار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[٣].

قوله تعالى : **﴿ وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾** :

من عقاب الله تعالى لهؤلاء القوم أنه قطعهم فى الأرض فرقا ، ومزَّقهم فئات تفرقوا فى دول الأرض : فى روسيا وأمريكا ودول أوروبا ، وعلى امتداد القارات وإذا كانوا قد قامت لهم دولة فى فلسطين فلن تقوم الساعة حتى نقاتلهم فيختبىء اليهودى وراء الحجر فينادى الحجر قائلا : ﴿ يا مسلم إن ورائى يهوديا تعال فاقتله ﴾[٤]

وذلك يوم نعود إلى المنهج الربَّانى ، فيكون الله غايتنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا ، والجهاد سبيلنا ، والموت فى سبيل الله أسمى أمانينا . يومها ستردد الأمة الإسلامية نشيدها المقدس : سنطبُّ المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف فى رحابنا ، وسنتلو على الدنيا كتاب جهادنا . صُمَّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

يومها سيتحقق وعد الله لعباده المؤمنين : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[٥].

---

(١) الآية ٢١٧ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢١ من سورة المجادلة . (٣) الآيتان ٨١، ٨٢ من سورة طه .

(٤) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٥) . والإمام أحمد فى (١:٣٧٥) وفى (٢:١٦٧، ٣١٧) وفى (٥:١٦) . ومسلم فى الفتن (٧٩-٨٢) . والترمذى فى الفتن (٥٦) .

(٥) الآيتان ٤٠، ٤١ من سورة الحج .

إن الله تعالى قد أخبر بأن النصر لمن ينصره ، فقال عز من قائل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[١]

فوالله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو أقمنا شرعه لرفرفت راية الحبيب محمد على كل بلد ، وقد صدق الفاروق عمر إذ يقول : « لقد كنا أذلاء فأعزَّنا الله بالإسلام ، فإذا ابتغينا العزة فى غيره أذلنا الله » .

فما للقلوب أصبحت لا تخشع ؟! وما للآذان أصبحت لا تسمع ؟! وما للأعين أصبحت لا تدمع ؟! وما للأجسام أصبحت لا تسجد ولا تركع .

يا أخا الإسلام قم مزق الضلوع كمدا على هذا الفساد الشائع ، وسلسل الدموع حزنا على هذا الخلق الضائع ، ويوم ينادى الحجر على المسلم ليقتل من اختبأ وراءه من اليهود ، إنما يناديه باسم الإسلام لا باسم القومية أو الحزبية أو الاشتراكية ، فتلك أوثان الجاهلية ، فالإسلام دين الله الذى ارتضاه لنا . ويوم يصير الإسلام المنهج الذى نلتزم به فى حياتنا فلن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تهزمنا ، لأن وعد الله صدق ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[٢].

وقد أخبر الله تعالى عن بنى اسرائيل بأن منهم صالحين وهم الذين نهوا عن المنكر وآمنوا بموسى ، كما آمنوا بمحمد عندما أدركوا زمانه وأن منهم غير الصالحين كالذين اعتدوا فى السبت وأتوا من المخالفات ما أخبر الله عنهم فى كتابه كما أخبر جلَّ شأنه أنه ابتلاهم بالحسنات والنعم ليشكروا ، كما ابتلاهم بالسيئات ليزدجروا ويرجعوا عن غيِّهم وطغيانهم .. وتلك سنة الله فى خلقه .. قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون * فلولا إذجاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزينَّ لهم الشيطان ماكانوا يعملون * فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيُغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾

أى جاء من ذرية هؤلاء القوم خلف كانت تلك صفاتهم : ورثوا التوراة وقرأوا أحكامها ، ولكنهم لم يعملوا بشيء منها . لقد فُتحت عليهم الدنيا فانساقوا وراءها انسياقا ، ووراء عرضها الأدنى القريب ، فجمعوا المال ولم يُبالوا ولم يَرعَوْا لله عهدا ، جمعوا المال من السحت والحرام والرشا ، وغرَّتهم الأمانى

(١) الآية ٧ من سورة محمد . (٢) الآية ٥٥ من سورة النور . (٣) الآيات ٤٢–٤٥ من سورة الأنعام .

وقالوا سيُغفر لنا ، وبنوا تلك الأمانى على أنهم من سلالات الأنبياء ، وأنهم شعب الله المختار ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه ، ولم يكونوا صادقين لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[1] وإن الله تعالى أعد الجنة لكل طائع ولو كان عبدا حبشيا وأعدَّ النار لكل عاص ولو كان حراً قرشيا . كان رسول الله ﷺ يقول لفاطمة : « يا فاطمة اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا »

قال تعالى : ﴿ فإذا نُفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خَفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ﴾[2].

إن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن مما يدل على أن هؤلاء القوم لم يكونوا صادقين مع الله أنهم بعد أن قالوا سيُغفر لنا لم يصدق عملهم قولهم . قال تعالى : ﴿ **وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه** ﴾ فهم مع الدنيا يدورون حيث دارت ، وقد حذَّر الصادق المعصوم ﷺ أمته من الارتماء فى أحضان الدنيا فقال : « والله ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه » ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزينَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[3].

ولقد فتحت الدنيا على المسلمين فأنكر بعضهم بعضا فتفرق جمعهم وتمزقت كلمتهم فتداعت عليهم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، وصاروا غُثاءًا كغثاء السيل عندما ألقى الوهن فى قلوبهم فأحبوا الدنيا وكرهوا الموت ، ونُزع الرعب من قلوب أعدائهم فحاربوهم فى شتى الميادين سياسيا واقتصاديا وعسكريا وثقافيا ، فأصبحوا كالأيتام على موائد اللئام ، وصاروا فى ذيل القافلة ليس لهم كلمة ولا يؤخذ لهم رأى وهم يملكون الموقع والأرصدة والطاقة والعقيدة والثروة البشرية .. كما يقول القائل :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما هان ممتنعا عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شىء فى يديه

وكما يقول آخر :

ويقضى الأمر حين تغيب تيمٌ ... ولا يُستأذنون وهم شهود

لقد صاروا غرباء فى أوطانهم وأضحوا كما قال القائل :

ما للمنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى

ولقد أخذ الله الميثاق والعهد المؤكد على هؤلاء القوم الذين ورثوا التوراة ألا يقولوا على الله إلا الحق ولكنهم غيروا وبدلوا وحرفوا الكلم عن مواضعه ومن بعد مواضعه بعد ما درسوا فى الكتاب وقرأوه ،

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات . (٢) الآيات ١٠١-١٠٣ من سورة المؤمنون .

(٣) أخرجه البخارى فى الجزية (١) وفى المغازى (١٢) وفى الرقاق (٧) . وأخرجه مسلم فى الزهد (٦) . والترمذى فى القيامة (٢٨) . وابن ماجه فى الفتن (١٨) . والإمام أحمد فى (١٣٧:٤) .

ولكنهم بعد الدراسة والقراءة كانوا كمثل الحمار يحمل أسفارا ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقوْن غيا . ولو أنصفوا وعقلوا ورشدوا لعلموا أن الدار الآخرة خير وأبقى وأنها الحيوان أى الحياة الكاملة التى لا نصب فيها ولا لغوب ، وأن الجنة هى دار القرار لايشقى من دخلها ولا ييأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، وله فيها أزواج مطهرة من الحور العين اللائى يقلن : نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الخالدات فلا نبيد ، طوبى لمن كان لنا وكنا له .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ **والذين يُمسِّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾ .

هذا وعد من أكرم الأكرمين وأعدل العادلين لكل من يستمسك بكتابه ويعمل بما فيه من أحكامه وعلى رأسها إقامة الصلاة . وعد بألا يضيع الله أجره فى الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾[1]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾[2] .

وقد أخبر الله عن العاملين بالكتاب المقيمين للصلاة بأنهم المصلحون ، ذلك لأن الإيمان بناء وشموخ ورسوخ وبزوخ وارتقاء.فالمؤمن لا يعرف السلبية لأنه كالغيث أينما وقع نفع ، لا يعرف الإضرار بالناس لأنه من البررة الكرام ، ينظر إلى خلق الله بعين ثاقبة وقلب سليم لا يعرف حقدا ولا حسدا ولا بغضاء ولا شحناء ، فهو سخى النفس ، سليم الصدر ، يعرف الإيثار ولا يطيق الأثرة يبنى ولا يهدم ، يصون ولا يبدد ، ملتزم بأمر ربه ، يقول الحق وينطق الصدق ويحكم العدل .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون** ﴾ .

إخبار من الله تعالى عن آية من آياته مع بنى إسرائيل ، أنهم قوم ماديون حسيون ، بلغ من جرأتهم على الله أنهم قالوا لموسى : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة .. إنهم عبدوا العجل الذى صنعوه من الحلى ، إنهم لا يعرفون الرحمة كما وصفهم الله فى قوله : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ﴾[3].

لقد تلكأوا فى تنفيذ أحكام التوراة فأراهم الله آية شاهدوها بأبصارهم ورأوها رأى العين . رفع الجبل العظيم فوق رءوسهم حتى صار كأنه غمامة تظلهم ورأوه هكذا وظنوا أنه واقع بهم أى سيغوص بهم فى

(١) الآية ١٢٣ من سورة طه . (٢) الآية ٣٠ من سورة الكهف . (٣) الآية ٧٤ من سورة البقرة .

أعماق الأرض – روى أن بنى إسرائيل أبَوْا أن يقبلوا التوراة ، فرُفِع الجبل فوقهم وقيل لهم إن قبلتم العمل بها وإلا ليقعن عليكم ، فوقع كل منهم ساجدا على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهوديا يسجد إلا على حاجبه الأيسر ويقولون هى السجدة التى رُفِعَت عنا بها العقوبة حين امتثلنا ما أمرنا به .

لقد أمرهم الله تعالى أن يأخذوا الكتاب بقوة وعزم لأن الالتواء مركوز فى طباعهم وهم مجبولون على العناد كما أمرهم أن يذكروا ما فى التوراة ليكون فى ذلك السلوك تقوى الله والتقوى هى السلاح الأقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد

ميثاق من الله على عباده

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

المفردات : ﴿ **أخذ** ﴾ : أخرج ، وإنما عبّر به لأنه يدل على الاصطفاء والتمييز . ﴿ **الظهور** ﴾ : واحدها ظهر ، وهو ما فيه العمود الفِقْرى لهيكل الإنسان الذى هو قوام بنيته فيصح أن يعبر به عن جملة الجسد . ﴿ **والذرية** ﴾ : سلالة الإنسان من الذكور والإناث ، والشهادة تارة قولية كما قال : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾[(١)] وتارة تكون حالية كما قال : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾[(٢)] أى حالهم شاهدة عليهم بذلك لا أنهم قائلون ذلك .

العلم بوحدانية الله مركوز فى فطر الخلائق وطباع الكائنات ، فمن شذ عن التوحيد فذلك شذوذ فى الرأى ونشاز فى التفكير ، فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

سبحانك اللهم أنت الواحد
كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى ياقيوم أنت المرتجى
وإلى علاك علا الجبين الساجد

(١) الآية ١٣٠ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١٧ من سورة التوبة .

سبحانك ربى أنت الواحد فى ذاتك لاقسيم لك ، الواحد فى صفاتك لاشبيه لك ، الواحد فى أفعالك لاشريك لك .

يا من له عـنـت الوجـوه بأسـرها رهبـا وكل الكائنـات توحـد

أنت الإلّه الواحـد الحـق الـذى كل القلـوب له تقـر وتشهـد

لذلك فإن فريقا من المفسرين يرى أن قوله تعالى ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾ .

يرى هذا الفريق أن الآية تخبر عن الإيمان الفطرى الذى ركزه الخالق العظيم فى خلقه ، ومن ثم فإن منطوق الآية يقول من بنى آدم ، ولم يقل من آدم ، ويقول من ظهورهم.ولم يقل من ظهره ، والمراد بالذرية ما يتوالد من البشر جيلا بعد جيل ، فإن الله جلت قدرته أقام فى الكون من الأدلة مالا تحصره عد ، ولا يحيط به حد ، وكلها ناطقة على وحدانية الله ، وكفى بتلك الآيات حجة على العباد ، قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ﴾[١] .

وكما أن الشهادة تكون بلسان المقال ، فإنها يضا تكون بلسان الحال ، وذلك كقوله تعالى ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾[٢]

هذا وقد ذكر العلامة ابن كثير من الأحاديث ما يؤيد الإيمان الفطرى فى هذه الآية ، كما ذكر الرأى الآخر الذى يرى أن الله استخرج الذرية من ظهر آدم ، وأخذ عليهم الميثاق بو حدانيته، فشهدوا وأقروا . ونحن نسوق ما ذكره ابن كثير تتمة للفائدة .

قال رحمه الله تعالى فى هذه الآية :

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ، ومليكهم ، وأنه لا إلّه إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك ، وجبلهم عليه قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾[٣] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « كل مولود يولد على الفطرة » وفى رواية « على هذه الملة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون

(١) الآيتان ٥٣ و٥٤ من سورة فصلت . (٢) الآية ١٧ من سورة التوبة . (٣) الآية ٣٠ من سورة الروم .

فيها من جدعاء »[1] وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال ، قال رسول الله ﷺ « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم »[2].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى السرى بن يحيى أن الحسن بن أبى الحسن حدثهم عن الأسود بن سريع من بنى سعد قال غزوت مع رسول الله ﷺ أربع غزوات قال : فتناول القوم الذرية بعد ما قتلوا المقاتلة . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاشتد عليه ثم قال :« ما بال أقوام يتناولون الذرية » فقال رجل : يارسول الله أليسوا أبناء المشركين ؟ فقال « إن خياركم أبناء المشركين ألا إنها ليست نسمة تولد إلا ولدت على الفطرة فما تزال عليها حتى يبين عنها لسان فأبواها يهودانها وينصرانها »[3].

قال الحسن : والله لقد قال الله فى كتابه ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ وقد رواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن عليه عن يونس بن عبيد عن الحسن البصرى به . وأخرجه النسائى ، فى سننه من حديث هشيم بن يونس بن عبيد عن الحسن قال حدثنى الأسود بن سريع فذكره ولم يذكر قول الحسن البصرى واستحضاره الآية عند ذلك .

ثم ساق رحمه الله تعالى الأحاديث التى تؤيد الرأى الآخر فقال : وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .

روى الإمام أحمد عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال : فيقول : نعم . فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك . قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئاً فأبيت إلا ان تشرك بى »[4] أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة به .

وروى الامام أحمد عن ابن عباس رضى الله عنه قال عن النبى ﷺ قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ثم كلمهم قبلا »[5] قال ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إلى قوله – المبطلون** ﴾ وقد روى هذا الحديث النسائى فى كتاب التفسير من سننه .

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٩٢،٧٩) وفى تفسير (سورة ٣٠ : ١) وفى القدر (٦٦) . وأبو داود فى السنة (١٧) والامام مالك فى الجنائز (٥٣) . والإمام أحمد فى (٣٩٣،٢٧٥،٣٣:٢) .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٦٣) . والإمام أحمد فى (١٦٢:٤) .

(٣) أخرجه مسلم فى الجهاد (٢٨) .

(٤) أخرجه البخارى فى الايمان (١١) . ومسلم فى الإيمان (٣٣٨،٢٩٩،٢٠٣) . وأبو داود فى الأدب (٤٧) . والترمذى فى الحدود (١٢) وفى القيامة (١٣) . والنسائى فى البيعة (٣٨،١٨،١٧،٩) . وابن ماجه فى الفتن (٢٣) . والدارمى فى الوضوء (١) . والإمام أحمد فى (٣٠١،٢٦٣،٢٦٢،٢٠٢،٥:١) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى (٢٠٨،٤١:٦) .

وروى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس قال : « أخرج الله ذرية آدم من ظهره كهيئة الذر وهو فى أذى من الماء » .

وعن جرير قال : «مات ابن للضحاك بن مزاحم ابن ستة أيام قال : فقال : يا جابر إذا أنت وضعت ابنى فى لحده فأبرز وجهه وحل عنه عقده ، فإن ابنى مجلس ومسئول . ففعلت به الذى أمر ، فلما فرغت قلت : يرحمك الله عما يسأل ابنك ؟ من يسأله إياه ؟ فإن يسأل عن الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم . قلت : يا أبا القاسم وما هذا الميثاق الذى أقر به فى صلب آدم ؟ قال : حدثنى ابن عباس قال إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خلقها إلى يوم القيامة فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وتكفل لهم بالأرزاق ثم أعادهم فى صلبه ، فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر فوفى به نفعه الميثاق الأول ، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقربه لم ينفعه الميثاق الأول ، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة » .

فهذه الطرق كلها مما تقوى وقف هذا على ابن عباس والله أعلم .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن مسلم بن يسار الجهنى : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية **﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾** فقال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال « إن الله خلق آدم عليه السلام ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية . قال : خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون » . فقال رجل : يارسول الله ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ « إذا خلق الله العبد للجنة استعمله بأعمال أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » (١) رواه أبو داود والنسائى .

قال الترمذى عند تفسيره هذه الآية حدثنا عبدبن حميد حدثنا أبو نعيم حدثنا هشام بن سعد عن زيد ابن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور . ثم عرضهم على آدم فقال : أى رب من هؤلاء ؟ قال هؤلاء ذريتك . فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيص ما بين عينيه قال : أى رب من هذا ؟ قال هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له داود . قال : رب وكم جعلت عمره ؟ قال ستين سنة قال : أى رب قد وهبت له من عمرى أربعين سنة . فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت قال : أولم يبق من عمرى أربعون سنة . قال : أو لم تعطها ابنك داود . قال: فجحد آدم ، فجحدت ذريته ، ونسى آدم فنسيت ذريته ، وخطىء آدم فخطئت ذريته » (٢) ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(١) أخرجه أبو داود فى السنة (١٦) . والترمذى فى تفسير (سورة ٧:٢) والإمام مالك فى القدر (٢) .
(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٧:٢) . والإمام أحمد فى (١:٢٥١، ٢٩٩، ٣٧١) .

قال أبو جعفر الرازى : عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب فى قوله تعالى ﴿ **وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم** ﴾ قال : فجمعهم له يومئذ جميعاً ما هو كائن منه إلى يوم القيامة فجعلهم فى صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا وأخذ عليهم العهد والميثاق ، ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى** ﴾ قال : فإنى أشهد عليكم السموات السبع ، والأرضين السبع ، وأشهد عليكم أباكم آدم أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا ، اعلموا أنه لا إله غيرى ، ولا رب غيرى ، ولا تشركوا بى شيئاً وإنى سأرسل إليكم رسلا لينذروكم عهدى وميثاق ، وأنزل عليكم كتبى . قالوا : نشهد أنك ربنا وإلهنا ، لا رب لنا غيرك ، ولا إله لنا غيرك ، فأقروا له يومئذ بالطاعة ، ورفع أباهم آدم فنظر إليهم فرأى فيهم الغنى والفقير ، وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : يارب لو سويت بين عبادك ؟ قال : إنى أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السُّرُج ، عليهم النور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة ، والنبوة فهو الذى يقول تعالى : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾(1) الآية . وهو الذى يقول ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله** ﴾ ومن ذلك قال ﴿ هذا نذير من النذر الأولى ﴾(2) ومن ذلك قال : ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد ﴾(3) الآية رواه عبد الله بن الإمام أحمد .

وبعد أن ساق ابن كثير هذه الأحاديث الشريفة ، عقب عليها بقوله : ثم قال قائلون من السلف والخلف إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد ، وقد فسر الحسن الآية بذلك . ولهذا قال ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم** ﴾ ولم يقل من آدم . ﴿ **من ظهورهم** ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ **ذريتهم** ﴾ أى جعل نسلهم جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن .

كقوله تعالى ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ﴾(4) وقال ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾(5) وقال ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾(6)

ثم قال ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ أى أوجدهم شاهدين بذلك قائلين له حالا وقالا ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ﴿ **قالوا شهدنا على أنفسنا** ﴾ وتارة تكون حالا كقوله ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾(7) أى حالهم شاهد عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك ، وكذا قوله تعالى ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾(8).

كما أن السؤال تارة يكون بالقال وتارة يكون بالحال كقوله ﴿ وآتاكم من كل ماسألتموه ﴾(9).

قالوا : ومما يدل على أن المراد بهذا هذا أن جعل هذا الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه .

---

(1) الآية ٧ من سورة الأحزاب .
(2) الآية ٥٦ من سورة النجم .
(3) الآية ١٠٢ من سورة الأعراف .
(4) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .
(5) الآية ٦٢ من سورة النمل .
(6) الآية ١٣٢ من سورة الأنعام .
(7) الآية ١٧ من سورة التوبة .
(8) الآية ٧ من سورة العاديات .
(9) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

فإن قيل إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده ، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ماجاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد ولهذا قال ﴿ **أن تقولوا** ﴾ أى لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ **إنا كنا عن هذا** ﴾ أى التوحيد ﴿ **غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا** ﴾ الآية .

لقد قطع الله المعاذير وأبطل حجج المجادلين بالباطل قال تعالى : ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهار وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون * أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون * أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون * أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[1]

هذه الأدلة الناطقة بواحدانية الله عز وجل ، الشاهدة بكماله المطلق ، وعزته القائمة ، ومملكته الدائمة ، لا يجادل فيها إلا كل أفاك أثيم ، إنها قائمة مع كل زمان ومكان ، وفى كل عصر ومصر ، السماء وارتفاعها ، والكواكب ومدارها ، والشمس وشعاعها ، والأرض واتساعها ، و البحار وأمواجها ، والجبال ورسوخها ، الكل يشهد بجلال الله ، ويقر بكماله ، ويعلن بشكره ، ولا يغفل عن ذكره ، فكل أثر يدل على مؤثر . وتحت هذه القاعدة تتدرج أدلة العناية والإتقان والارتباط والكمال والواجب .

الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

إن أصحاب الفطر السليمة ، وأولى الأفئدة المستقيمة ، تقر لخالقها بالوحدانية ، وتصفه بصفات الكمال ، وتنزهه عن كل نقص ، إن الله أقام الأدلة لئلا يقول الناس يوم القيامة ، إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل فأشركنا مثلهم تقليدا لهم ﴿ **أفتهلكنا بما فعل المبطلون** ﴾ وهذه حجة داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، فلا تقليد للمبطلين ، لأن الله تعالى زودنا بالعقل ، وأرسل إلينا رسلاً مبشرين ومنذرين ، وأنزل الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وقال ﴿ **وكذلك نفصل الآيات** ﴾ أى نبينها ونوضحها ، و﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ . أى ليهتدوا ويرجعوا عن ماهم عليه من الضلال والبهتان ، ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما ﴾[2].

(١) الآيات ٦٠-٦٤ من سورة النمل .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

درس وعبرة

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن
تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ
ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا
لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ
ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

المفردات : ﴿ **التلاوة** ﴾ : القراءة . ﴿ **النبأ** ﴾ : الخبر الذى له شأن . ﴿ **وانسلاخه منها** ﴾ : كفره بها ونبذه لها من وراء ظهره ويقال لكل من فارق شيئا بحيث لاتحدثه نفسه بالرجوع إليه انسلخ منه . و﴿ **أتبعه** ﴾ : أدركه ولحقه . قال الجوهرى : يقال أتبعت القوم : إذا سبقوك فلحقتهم . و﴿ **من الغاوين** ﴾ : أى الراسخين فى الغواية بعد أن كان مهتديا . ﴿ **أخلد إلى الأرض** ﴾ : أى ركن إلى الدنيا ومال إليها . ﴿ **واللهث** ﴾ : بالفتح واللهاث بالضم التنفس الشديد مع إخراج اللسان ويكون لغير الكلب من شدة التعب والإعياء أو من العطش وللكلب فى كل حال سواء أصابه ذلك أم لا و ﴿ **تحمل عليه** ﴾: أى تشد عليه وتطرده . ﴿ **وساء الشىء** ﴾ : يسوء فهو سىء إذا قبح وساءه يسوءه مساءة والمثل : الصنعة . ﴿ **الذرء** ﴾ : لغة الخلق يقال ذرأ الله الخلق أوجد أشخاصهم . ﴿ **والخلق** ﴾ : التقدير أى إيجاد الأشياء بتقدير ونظام لاجزافا . ﴿ **والجن** ﴾ : الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بالحواس والقلب يطلق أحيانا على المضغة الصنوبرية الشكل فى الجانب الأيسر من جسد الإنسان وأحيانا على العقل والوجدان الروحى الذى يسمونه أحيانا (بالضمير) وهو محل الحكم فى أنواع المدركات والشعور الوجدانى ، لما يلائم أو يؤلم ، وهو كثير بهذا المعنى فى الكتاب الكريم ﴿ سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ ﴿ قلوب يومئذ واجفة ﴾[1] ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[2].

وسر استعمال القلب فى هذا المعنى مايراه الإنسان من انقباض أو انشراح حين الخوف والإشمئزاز ، أو حين السرور والابتهاج ﴿ **والفقه** ﴾ : العلم بالشىء والفهم له ، وفسره الراغب بالتوصل بعلم شاهد إلى علم

(١) الآية ٨ من سورة النازعات . (٢) الآية ٤٦ من سورة الحج .

غائب ، وقد استعمله القرآن فى مواضع كثيرة بمعنى دقة الفهم والتعمق فى العلم ، ليترتب عليه أثره وهو الانتفاع به ، ومن ثم نفاه عن الكفار والمنافقين لأنهم لم يدركوا كنه المراد مما نفى فقهه عنهم ففاتتهم المنفعة مع العلم المتمكن من النفس .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾ قال : هو رجل من بنى إسرائيل يقال له بلعم بن باعوراء .

وقال مالك بن دينار : كان من علماء بنى إسرائيل ، وكان مجاب الدعوة ، يقدمونه فى الشدائد، بعثه نبى الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعوه إلى الله ، فأقطه وأعطاه ، فتبع دينه وترك دين موسى عليه السلام .

وقال سفيان بن عيينة : عن حصين عن عمران بن الحارث عن ابن عباس : هو بلعم بن باعوراء .

وهكذا انسلخ ذلك الحبر من آيات الله ، فأصبح عرضة للفتن ، كما يصبح اللحم عرضة بعد سلخه للعوامل المختلفة ، لقد كانت الآيات تزينه كما يزين الجلد اللحم ، فأصبح بعد الانسلاخ شائهاً قبيحاً ، وما كان يستطيع أن يعود إليها لأن الانسلاخ يفيد ذلك فهل من المستطاع أن يعود الجلد إلى اللحم بعد انسلاخه .

﴿ **فأتبعه الشيطان** ﴾ أى صار الشيطان تابعا له وهو المتبوع كما قال القائل :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى ... بى الحال حتى صار إبليس من جندى

﴿ **فكان من الغاوين** ﴾ أى صار راسخاً فى الغواية والضلال ، ونعوذ بالله تعالى من الشقاء بعد السعادة ، ومن الضلالة بعد الهدى ، ومن الفقر بعد الغنى ، كما نعوذ به من شماتة الأعداء ، وعضال الداء .

عن حذيفة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رؤيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله ، انسلخ منه ونبذه وراء ظهره ، وسعى على جاره بالسيف ، ورماه بالشرك . قال : قلت : يا نبى الله أيهما أولى بالشرك المرمىّ أو الرامى قال : ﴿ بل الرامى ﴾ . هذا إسناد جيد .

قوله تعالى ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه** ﴾ هذا إخبار من الله جلت قدرته عن أن مشيئته صالحة لهداية هذا الذى غوى ، لكنه أبى وأصر واستكبر عن طاعة ربه ، وذلك عندما أخلد إلى الأرض ، ومال إليها مطمئنا بها قلبه ، واتبع هواه ، والهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر .

وانظر إلى تعبير القرآن الكريم عن الدنيا بالأرض ، فكل من يهوى إليها ويرتبط بها ناسياً ربه وآخرته

فقد حق عليه قوله تعالى ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾[١] وقوله جل شأنه ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[٢].

أما هوى النفس فقد أعيى الأطباء قال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[٣].

ولقد بين الله تعالى حال هؤلاء المارقين الناكصين على أعقابهم الذين انقلبوا خاسرين وارتدوا على ادبارهم بين الله حالهم فى قوله ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث** ﴾.

إنها صفات الذين تمرغوا فى أوحال المادة ، تراهم دائما فى تعب إن أعطوا طمعوا فى المزيد لأن قلوبهم لا تعرف الرضا وإن منعوا إذا هم يسخطون ، فهم بين الطمع والسخط فى تعب ونصب لو كان لاحدهم واديان من مال لابتغى ثالثاً ولا يملأ عينيه إلا التراب ، إنهم كالكلب إن حملت عليه وطردته وزجرته يلهث ويتنفس بصعوبة وتعب ، وإن أنت تركته فإنه يلهث ويتنفس بصعوبة فهو لاهث دائما ، كذلك الأشقياء من أهل الدنيا.

ولما فى هذه القصة من عبرة فإن الله جل وعلا أمر حبيبه أن يقصها على كل عاقل ، قال تعالى : ﴿ **فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ بعدما بين له سبحانه أن هذا المثل مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فتلك صفتهم .

ثم قال سبحانه : ﴿ **ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا** ﴾ أى ساءت تلك الصفة وقبح شأن هؤلاء ، فإن الله تعالى بين لهم الهدى من الضلال ، فاستحبوا العمى على الهدى ، فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، قال تعالى ﴿ **وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾

إن المهتدى هو الذى يهديه الله ، فهذا هو السعيد الذى يعيش فى كنف الله ورعايته ، يصون حدوده ، ويمتثل أمره ، ويجتنب نهيه ، أما من ضل فقد غوى وخسر .

قال تعالى ﴿ **من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون** ﴾ وما أكثرهم من الجن والإنس ، إنهم كثير إنهم عطلوا منافذ المعرفة ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، فقد ختم عليها ، ولهم أعين لا يبصرون بها إذ عليها غشاوة، ولهم آذان لا يسمعون بها لأن فيها وقرا ، ومن بينهم وبين النور حجاب ، إنهم كالأنعام بل هم أضل.

قال تعالى ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾.

(١) الآية ٨١ من سورة طه . (٢) الآيتان ٧، ٨ من سورة يونس . (٣) الآية ٢٦ من سورة ص .

وقال جل شأنه ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾(١).

وقال جل شأنه ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾(٢) وقال جل شأنه ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ﴾(٣).

إنهم أضل من الدواب لأن الدابة لا تنكر جميل صاحبها ، فهى وفية له لا تجحد فضله عليها ، أما هؤلاء فقد جحدوا شكر المنعم ، وبدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار .

أسماء الله الحسنى

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

المفردات : ﴿ **الحسنى** ﴾ : مؤنث الأحسن ﴿ **يلحدون** ﴾ : الإلحاد هو الميل عن الطريق الحق .

روى أن بعض المسلمين دعا الله فى صلاته ودعا الرحمن فقال المشركون محمد وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون رباً واحداً ، فما بال هذا يدعوا اثنين ؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

﴿ **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها** ﴾ وقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »(٤).

والذى عليه أهل العلم أنها جمعت من القرآن والسنة ، فهى توقيفية ، ولكنها لا تنحصر فى تسعه وتسعين ، بدليل حديث ابن مسعود عن رسول الله أنه قال : « ماأصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فىّ حكمك ، عدلُ فى قضائك ، أسألك بكل اسم هولك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدل مكانه فرحاً ﴾(٥).

وذروا الذين يكذبون فى أسمائه ، ويسمونه بما لم يتسم به ، ولم ينطق به فى كتاب الله ، ولا سنة رسوله ، هؤلاء سيجزون بما كانوا يعملون .

(١) الآيتان ٢٢، ٢٣ من سورة الأنفال . (٢) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة الأنفال . (٣) الآية ٥٥ من سورة الأنفال .
(٤) أخرجه البخارى فى الدعوات (٦٩) . ومسلم فى الذكر (٥) وابن ماجه فى الدعاء (١٠) .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى (١ :٣٩١، ٤٥٢) .

ومعنى أن أسماءه توقيفية أنه لا يسمى سخياً ، وإن سمي جواداً . ويسمى رحيماً ولا يسمى رفيقاً ، ويسمى عالماً ولا يسمى عاقلا . وفى القرآن ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾[1] أفتسمى الله مخادعاً ؟ حاش لله افتحسبه مكاراً ؟ حاش لله بل يدعى بأسمائه ولا نلحد فيها أبداً .

المهتدون والضالون

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم
مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ
﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

المفردات : ﴿ **يهدون** ﴾ : يرشدون الناس إلى الحق والخير ﴿ **يعدلون** ﴾ : يجعلون الأمور متعادلة لا زيادة فيها ولا نقصان على ما ينبغى ﴿ **سنستدرجهم** ﴾ : الاستدراج من الدرجة وهى المرقاة بمعنى الصعود والنزول درجة بعد درجة ، والمراد سنأخذهم درجة بعد درجة بإدنائهم من العذاب شيئاً فشيئاً ﴿ **وأملى لهم** ﴾ : من الإملاء وهو الإسهال ﴿ **كيدى** ﴾ : الكيد والمكر هو التدبير الخفى الذى يقصد به غير ظاهره حتى ينخدع المكيد ، والمتين القوى من المتن وهو الظهر (يعمهون) يترددون فى حيرة وعمى . بعد أن ذكر الله أنه خلق لجهنم كثيراً من الخلق لا قلوب لهم ولا أعين ولا آذان يصلون بها إلى الخير . ثم ذكر بعد ذلك ما يجعل الإنسان قوى الإيمان . ذكر هنا أن فى أمة الدعوة المحمدية فريقين : مهديين وضالين ، مع ذكر وجوب الفكر والنظر فى ملكوت السماء والأرض علنا نصل إلى الخير .
وبعض من خلقنا ، وأرسلنا لهم الرسل خاصة أمة الدعوة المحمدية أمة يهدون بالخير ، ويرشدون إليه ، وبه يحكمون فيما يعرض لهم حتى تكون أمورهم متعادلة ، لا زيادة فيها ولا نقصان ، ويكونوا أمة وسطاً عدولاً ، كما أخبر عنهم القرآن ، روى عن على بن أبى طالب قال : لتفترقن هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا فرقة، يقول الله ﴿ **وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** ﴾ فهذه هى التى تنجو من هذه الأمة .

والذين كذبوا باياتنا ندعهم فى الضلال تائهين ، ونستدرجهم من حيث لا يعلمون ، ونملى لهم بإعطاء النعم استدراجاً حتى لا يرعووا عن غيهم ، مع أنا نمهلهم فلا نرسل لهم المحذرات والمنبهات ، وما

(١) الآية ١٤٢ من سورة النساء .

علموا أن سنة الله فى الخلق لا تتغير ، وأن الله يملى لهم ويمدهم بالمال والنعم ، حتى يغتروا ولا يتنبهوا ، كيداً لهم ومكراً بهم ، لا حباً فيهم ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[١] نعم . ﴿ إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴾ .

وهاهم أولاء المشركون ظلوا مغرورين بأن الحرب يومان يوم لنا ويوم علينا ، معتزين بقوتهم وكثرة عددهم ، وبقلة عدد المسلمين ، وما علموا أن هذا مكر بهم وكيد لهم ، ولقد كان فتح مكة آية على ذلك .. أكذبوا الرسول ولم يتفكروا فى شأنه وشأن دعوته ؟ إنهم إن تفكروا فى ذلك أوشكوا الابد أن يعرفوا الحق ، وأن صاحبهم ليس به جنة . ولقد حكى القرآن عنهم : ﴿ أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق ولكن أكثرهم للحق كارهون ﴾[٢] ﴿ يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾[٣]

كذبوا وضلوا ، إن هو إلا نذير مبين بين يدى عذاب شديد ، وهو منذر ناصح ، ومبلغ أمين ، وكيف لا نعرفون هذا وهو صاحبكم وأنتم أدرى الناس به ؟ .

أكذبوا الرسول ولم ينظروا فى هذه العوالم المحكمة الدقيقة ، المنظمة البديعة ، فإن هذا دليل على الوحدانية الكاملة ، والعلم التام والقدرة .

ولو نظروا بعين البصيرة لاهتدوا إلى الخير ، أو لم ينظروا فى كل ما خلقه الله ، وأن الحال والشأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ، وحان وقت قدومهم على ربهم بالأعمال .

لو نظروا لاحتاطوا وعملوا لذلك اليوم ، حتى ينالوا الجزاء الأوفى . لعل أجلهم قد اقترب فما لهم لا يبادرون إلى التصديق والإيمان بالقرآن والنبى ﷺ قبل فوات الفرصة ، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق ؟ وبأى حديث بعده يؤمنون ؟ .

هؤلاء فقدوا الاستعداد للخير والهدى والإيمان بالنبى ، والعمل بالقرآن ، فكانوا هم الضالين ﴿ **ومن يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم** ﴾ يترددون ، وفى باطلهم ينغمسون ، ألا تعلم أن القلب يصدأ كما يصدأ الحديد ، وأن العمل الفاسد يجعل على القلب حاجزاً سميكا حتى لا يهتدى إلى الخير أبداً ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾[٤].

علم الساعة عند ربى

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

(١) الآيتان ٥٥،٥٦ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ٧٠ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ٦ من سورة الحجر .
(٤) الآية ١٤ من سورة المطففين .

المفردات : ﴿ **الساعة** ﴾ : هى فى اللغة جزء غير معين من الزمن ، وعند الفلكيين جزء من أربع وعشرين من اليوم ، والمراد بها هنا الوقت الذى يموت فيه كل حى ويضطرب نظام العالم أى عند النفخة الأولى للصور ﴿ **أيان مرساها** ﴾ : متى إرساؤها واستقرارها ﴿ **لا يجليها** ﴾ : لا يظهرها ولا يكشفها ﴿ **حفى** ﴾ : مبالغ فى السؤال عنها . قد تكلم القرآن عن أجل الفرد فى قوله ﴿ وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ﴾ فناسب بعده أن يتكلم عن الساعة العامة التى فيها نهاية الدنيا كلها .

يسألونك يا محمد عن الساعة متى تكون ؟ ، ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد ﴾[1] وفى التعبير بالإرساء إشارة إلى أن قيام الساعة إنهاء هذه الحركة الدائبة فى السماوات والأرض .

قل لهم إنما علمها عند ربى وحده ، وإليه يرجع الأمر كله لا يجليها لوقتها ، ولا يظهر أمرها ، ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده ، فلا يطلع أحداً من خلقه على وقتها ، ولو كان ملكا مقربا ، أو نبيا مرسلا ، عظم أمرها عند الملائكة والثقلين فى السماء والأرض لخفاء وقتها ، ولهول وصفها وشدة وقعتها ، فهم مضطربون خائفون ، لا تأتيكم أيها الناس إلا بغتة وفجأة ، أى منهمكون فى الدنيا وتعميرها .

عجبا لهم يسألونك ملحين عنها كأنك حفى عنها ، ومبالغ فى السؤال عنها . قل لهم إنما علمها عند الله عالم الغيب والشهادة .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون السر فى إخفائها ، فلو عُلمت لاضطرب نظام الكون ، واختل العمران ، وهكذا يخفى الله ليلة القدر ، وساعة الإجابة ، لحكم هو يعلمها ، ولينشط الناس فى طلبها ، والعمل لها فى وقت أكثر ، وللساعة علامات وأشراط وردت فى الصحيح من السنة ، ويقال : لها علامات صغرى وكبرى .

الرسول إنسان لا يملك شيئاً بل هو نذير وبشير

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

المفردات : ﴿ **الغيب** ﴾ : هو ما غاب عنا ، وهو حقيقى لا يعلمه أحد ، وإضافى يعلمه بعض الخلق كالأنبياء والرسل ﴿ **الخير** ﴾ ما يرغب فيه سواء كان مادياً كالمال أو معنويا كالعلم ﴿ **والسوء** ﴾ : ما يرغب عنه .

سألوا النبى وألحفوا فى السؤال تناسب أن يبين القرآن حقيقة الرسالة .

هذا هو القول الفصل ، الذى ليس بالهزل ، مفخرة من مفاخر الإسلام ، وأسس من أسسه السليمة ،

(١) الآية ١٨ من سورة الشورى .

حارب القرآن بهذه الآية وأمثالها أفكاراً جاهلية وعقائد وثنية ، وانظر إلى هنا ، وإلى ما يفهمه المسيحيون عن عيسى عليه السلام نعم ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾(١).

قل يا محمد أنا بشر ، شرفت بالرسالة ، وحملت تلك الأمانة ، فلا أملك لنفسى أى نفع كان ، ولا أدفع عن نفسى أى ضرر كان ، إلا ما شاء الله ، وأنا بشر لا أعلم الغيب ، وإنما الغيب عند الله وحده ، فكيف تسألوننى عن الساعة كأنى حفى بها ؟ أما لو كنت أعلم الغيب حقيقة لا ستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء أبداً ، والواقع غير هذا . إذ أنا بشر كبقية الناس ، شرفنى الله بالرسالة فقط ، وما أنا إلا نذير لكم وبشير ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لُدًّا ﴾(٢).

والخلاصة أن الرسل خلق من خلقه وعباد مكرمون لا يشاركون الله فى صفاته ولا سلطان لهم على علمه وتدبيره ، وشرفهم الله بالرسالة وهم القدوة الصالحة للعباد فى الدنيا ..

حقيقة التوحيد

* هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

المفردات : ﴿ **ليسكن إليها** ﴾ : ليطمئن ويسكن من الاضطراب النفسى ﴿ **تغشاها** ﴾ : أتاها لقضاء ما تطلبه الغريزة الجنسية ﴿ **حملت** ﴾ : علقت منه والحمل ما كان فى بطن أو على شجرة والحمل ما كان على ظهر ﴿ **فمرت** ﴾ : استمرت إلى وقت ميلاده من غير سقوط ﴿ **فلما أثقلت** ﴾ : حان وقت ثقلها وقرب وضعها ﴿ **صالحا** ﴾ : المراد نسلا صالحاً فى الجسم والفطرة .

هذه سورة بدأت بالكلام على القرآن والتوحيد ثم تبع ذلك كلام على النشأة الأولى وما تبع ذلك ، ثم الكلام على قصص الأنبياء خصوصاً موسى ، وها هو ذا يختمها بالكلام على التوحيد وعلى القرآن .

هو الذى خلقكم يابنى آدم من جنس واحد ، وطبيعة واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن إليها ، ويطمئن بها ، فإن الجنس إلى جنسه ميال ، وجعل منها زوجها حتى إذا بلغا سن الحلم وهو السن التى معها تظهر الغريزة الجنسية فى الرجل والمرأة . وجدا أنفسهما – خاصة الرجل – مضطرباً ومحتاجاً إلى الزوجة لتهدأ نفسه وتسكن من اضطرابها ، وبهذا وحده يتحقق بقاء النوع الإنسانى .

(١) الآية ١٩ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .

فلما تغشاها واتصل بها الاتصال الجنسى المعروف حملت منه حملا كان خفيفاً فى أول الأمر لم تشعر به ، فلما أثقلت وصارت ذا ثقل بكبر الولد فى بطنها ، وحان وقت الوضع ، دعوا الله ربهما مقسمين لئن أتيتنا ولداً صالحاً تام الخلقة قوى البنية سليم الفطرة لنكونن لك يارب من الشاكرين .

وقد آتاهما الله ذلك ، وكانت الفطرة لكل مخلوق الميل إلى الاسلام والتوحيد فلما آتاهما النسل الصالح جعلا أى بعض بنى آدم من الذكور والاناث له شركاءفيما آتاهما ، واتجها إلى غير الله الذى أعطاهما ، تعالى الله عما يشركون .

وقد رأى بعض المفسرين فى هذه الآية أن المراد خلقكم يابنى آدم من نفس واحدة هى آدم ، وجعل منها زوجها وهى حواء ، وأن الشرك كان من بعض أولادهما ككفار مكة واليهود والنصارى ، وقد نسب إليهما ، والمراد أولادهما بدليل ، ﴿ **فتعالى الله عما يشركون** ﴾ وفى الكشاف أن المراد بالزوجين الجنس لا فردان معينان .

ثم أخذ القرآن فى نقاش هؤلاء المشركين ، أيشركون بالله شيئا لا يخلق أبداً أى شىء ؟ بل إنه لا يملك نفعا ولا ضراً لنفسه ولا لغيره ، والحال أن ما يشركون به من صنم أو وثن هو مخلوق ضعيف إن يسلبه الذباب شيئاً لا يستطيع إنقاذه منه ولا يستطيع لهؤلاء المشركين نصراً فى أى ميدان ، وإن تدعوهم إلى هدايتكم لا يستجيبون لكم وكيف يستجيبون .

وكيف يداوى القلب من لا قلب له

يستوى عندهم دعاؤكم وبقاؤكم صامتين ، والإله المعبود ، والرب الموجود لا يكون بهذا الوضع أبداً فهو السميع البصير ، العليم الخبير ، الناصر القادر سبحانه وتعالى .

حقيقة الأصنام والأوثان

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ
ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

المفردات : ﴿ **تدعونه** ﴾ : الدعاء النداء وغالبا يكون لدفع ضر أو جلب خير والمراد تعبدون ﴿ **يبطشون** ﴾ : يصولون بها ﴿ **فلا تُنْظرون** ﴾ : أى تمهلون . هذا تمام للكلام السابق وهكذا شأن

القرآن فى إثبات التوحيد ونفى الشرك .

هؤلاء الذين تعبدونهم من دون الله هم مخلوقون مثلكم ، فلا يصح أن يكون المخلوق محل عبادة وتقديس من مخلوق مثله .

وإن تعجبوا فعجب حالكم ، تستكثرون الرسالة على بشر منكم خصه الله بالعلم والمعرفة ، وقوة اليقين ونور البصيرة ، ثم تعبدون من دون الله حجارة ، وإن كنتم صادقين فادعوهم ، وإن كانوا كذلك فليستجيبوا لكم .

ولكن كيف يكون ذلك؟

وهم أحط درجة ممن يعبدونهم ، فليس لهم أرجل يمشون بها ، وليس لهم أيد يصولون بها ، وليس لهم أعين يبصرون بها ، ولا آذان يسمعون بها ، إذ هم حجارة صماء ، أو صنيع من طين وماء ، أو من عجوة ، أو حلاوة . كصنم بنى حنيفة .

أكلت حنيفة ربها عام التقحم والمجاعة

على أن النبى ﷺ أمر بأن يتحداهم ويدعوهم لأمر عملى فقيل له : قل لهم يا محمد : ادعوا شركاءكم وآلهتكم من دون الله ، ثم تعاونوا معهم على أن تكيدوا لى وتوقعوا بى المكروه بأى شكل كان ولا تمهلون ، ومع هذا لم يعملوا شيئاً فيه . وهذا رد عليهم فى قولهم إنا نخاف عليك من آلهتنا . والرسول يعلل ذلك بقوله : إن متولى أمرى هو الله ولينا ، وهو ربنا الذى أنزل الكتاب الذى يدعو إلى التوحيد والبر والصدق ، وهو الذى يتولى الصالحين من عباده،أما أنتم أيها المشركون فوليكم الشيطان ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾[1]

والذين تدعونهم من دون الله ،وتخصونهم بالعبادة والتقديس لا يستطيعون لكم نصراً ، حتى ولا أنفسهم ينصرون ، بل وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم إلى سواء السبيل لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك والحال أنهم لا يبصرون شيئاً أفيليق بكم إن كنتم عقلاء أن تتخذوا هؤلاء آلهة ؟

من خلق القرآن فى معاملة الناس والشيطان

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟
فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .

المفردات : ﴿ **العفو** ﴾ : ما أتى عفواً وسهلا من غير كلفه ولا مشقة ﴿ **ينزغنك** ﴾ : النزغ كالنخس والوكز هو إصابة الجسم بشيء محدد كالإبرة والمهماز والمراد وسوسة الشيطان ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ : المراد الجأ إليه وتذكره ﴿ **طائف** ﴾ : لمة منه وطاف : أى ألم ﴿ **يمدونهم** ﴾ :يكونون مدداً لهم .

هذه هى آسس المعاملة الحسنة ، ودعائم الخلق الكامل الذى به يرضى الناس عن الإنسان ، ورضا الناس من رضا الله ، فألسنة الخلق أقلام الحق ، وبهذه الأمور تجتمع القلوب النافرة ، والنفوس الهائمة : خذ ما أتى من الناس عفوا ، لاتكلفهم بما يشق عليهم ويستعصى من الأفعال بل كن سمحا سهلاً « يسروا ولا تعسروا »[(١)] حديث شريف .

خـــذ العفو منى تستديمى مـــودتى
ولا تنطقـــى فى ســـورتى حـــين أغضـــب

ولله در معاوية حيث يقول : لو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت ، إن شدوها أرخيتها ، وإن أرخوها شددتها .

وأمر بالمعروف الذى تعاون عليه المسلمون من كل ما أمر به الشرع ، فالمعروف اسم جامع لكل خير من طاعة وإحسان ، وأعرض عن الجاهلين ، نعم أعرض عن الجاهل الأحمق واجعل كأنك لم تسمع ولم يقل ، وعلى العموم لكل صنف من الناس معاملة ، ولا تنس قوله تعالى : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾[(٢)].

هذه جوامع الكلم : خذ العفو ،وأمر بالعرف ،وأعرض عن الجاهلين ، وجوامع الخلق ولقد صدقت السيدة عائشة حيث تقول : كان خلقه القرآن .

أما معاملة الشيطان العدو اللدود فإما ينزغنك منه نزغ ، أو يُثر فيك داعية من دواعى الشر كالغضب والشهوة حتى يجعلك ثائراً متأثراً ، كتأثر الدابة إذا نخست بالمهماز (المنخاز) .

فاعلم أن العلاج هو اللجوء إلى الله ، والتوجه إليه بالقلب ، والاستعاذة بالله من شر الشيطان ووسوسته ، والانتقال من هذا الجو وتغييره بقدر الإستطاعة ، فالله سريع بكل دعاء ، عليم بكل قصد ونية .

واعلم أن الشيطان أقسم ليغوينهم جميعاً إلا العباد المخلصين فإنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . وقد روى عن النبى ﷺ ما معناه « ما منكم أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال وأنا إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم »[(٣)]!

إن الذين اتقوا الله وخافوا منه إذامسهم طائف من الشيطان ، وألمت بهم لمة منه تذكروا الله وما اعده

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (٦٠) وفى الأحكام (٢٢) . والدارمى فى المقدمة (٢٤) .

(٢) الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه مسلم فى المنافقين (٦٩) . والدارمى فى الرقاق (٢٥) . والإمام أحمد فى (١:٣٨٥،٣٩٧،٤٠١،٤٦٠) .

للمتقين الأبرار ، وما أعد للعصاه الفجار ، فإذا هم مبصرون طريق الحق والخير ، فالمؤمن الكامل قوى الإيمان كالجسم الصحيح ، لا تدخله جراثيم المرض ، وإن دخلت ماتت ، كذلك المؤمن لا تدخله الوساوس ، وإن دخلت تذكر وطردها،وكل إنسان يشعر بدوافع للخير ، ودوافع للشر فالأول لمة الملك ، والثانية لمة الشيطان .

قال النبى ﷺ « إن للشيطان لمة وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق واما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد منكم ذلك فليعلم أنه من الله وليحمد الله على ذلك ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان »[1] ثم قرأ:﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ﴾[2] .

وإخوانهم وهم الجهلاء غير المتقين الله-الشياطين يمدونهم وينصرونهم ويتعاونون معهم على الاثم والعدوان ثم هم لا يقصرون أبدا فى ذلك .

القرآن من عند الله

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾

المفردات : ﴿ **لولا اجتبيتها** ﴾ : هلا جمعتها من تلقاء نفسك واختلقتها ؟

كانوا طلبوا من النبى ﷺ آيات كونية خاصة ، فلما لم يجابوا إلى طلبهم قالوا على سبيل التعنت هلا اختلقت آية وجمعتها من عندك ، يقصدون أن كل ما ينزل من القرآن إنما هو من عند محمد ، قل لهم يا محمد ﴿ **إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى** ﴾ فقط وليس لى أن أخترع ، أو آتى شيئا من عندى ، إنما أنا رسول ولست قادراً على إيجاد الآيات التى طلبتموها، وما لكم تطلبون غير هذا القرآن وهو بصائر من ربكم ، وحجج وآيات واضحة دالة على صدقه ، وأنه من عند الله ، وهو كالبصائر للقلوب التى تنير طريق الفلاح ، وهو هدى ورحمة ولكن لقوم يؤمنون بالله وبالحياة الآخرة فمن آمن به وحافظ عليه وحكم به فأولئك هم المفلحون دون سواهم .

من آداب استماع القرآن والذكر

وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ۩

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٢: ٣٥) .

(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة .

المفردات : ﴿ **فاستمعوا** ﴾ : الاستماع يزيد عن السمع بالإنصات والقصد والنية ﴿ **تضرعا** ﴾ : من الضراعة والذلة والخضوع ﴿ **وخيفة** ﴾ : خائفين ﴿ **بالغدو** ﴾ : الغدو جمع غدوة وهى ما بين الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ **والآصال** ﴾ : جمع أصيل وهو ما بعد العصر إلى الغروب .

إذا قرىء القرآن الكريم فاستمعوا له بإنصات وأدب ، وقصد مع السكون والخشوع رجاء أن ترحموا من الله فإنه لا يستمع لكلامه بأدب وحسن استماع إلا المخلصون الذين فى قلوبهم نور الإيمان ، وبرد اليقين ، أما من أهمتهم الدنيا وأقضت مضاجعهم حتى أصبحت قلوبهم خلوا من نور الإيمان ، تراهم عند سماع القرآن لاينصتون أبدا ، بل ويتكلمون فى توافه الأمور . والآية عامة فى سماع القرآن فى الصلاة والخطبة وغيرها .

أيليق بالمسلم أن يتكلم فلا يستمع ويتكلم جاره فيستمع ؟

واذكر ربك فى نفسك ، وذلك بذكر أسمائه وصفاته وشكره واستغفاره ، والمهم التذكير بالقلب ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] .

اذكره ضارعاً متذللاً خاضعاً خائفا راجياً ثوابه مع إتمام الاسم وعدم استعمال مايخل به،اذكره بلسانك وقلبك ذكراً دون الجهر وفوق السرأى اذكره وسطا بين هذا وذاك ﴿ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا ﴾[2]

وأنسب الأوقات للذكر وقت الصباح ، والمساء ، وبقية النهار للعمل ، وتحصيل الرزق .

وإياك أيها المسلم أن تكون من الغافلين عن ذكر الله بقلبك واعلم أن الذين عند ربك من الملائكة والمقربين لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه فى الليل والنهار وله وحده يسجدون فكيف بك ؟

سجود التلاوة : يكون عندما يسمع المسلم هذه الآية وأمثالها التى ستأتى وقد شرعه الله لنا إرغاماً لمن أبى السجود من المشركين واقتداء بالملائكة المقربين،وروى أن النبى كان يقول فى سجوده:« اللهم لك سجد سوادى وبك آمن فؤادى اللهم ارزقنى علماً ينفعنى ، وعملا يرفعنى » .

وروى أيضا:« إذا قرأ ابن آدم آية السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى فيقول : يا ويله ، أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار »[3].

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد.

(٢) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٣٣) . وابن ماجه فى الإقامة (١٠٢) . والإمام أحمد فى (٢:٤٤٣) .

سورة الأنفال

قال صاحب البصائر : اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع ، وعدد آياتها خمس وسبعون ، وعدد كلماتها ألف ومائة وخمس وتسعون كلمة . وحروفها خمسة آلاف ومائتان وثمانون .

ولهذه السورة اسمان : سورة (الأنفال) ،لكونها مفتتحة بها ، ومكررة فيها ، وسورة (بدر) لأن معظمها فى ذكر حرب بدر فأجرى بها .

مقصود السورة

قطع الأطماع الفاسدة من الغنيمة التى هى حق لله ولرسوله ، ومدح الخائفين الخاشعين وقت سماع القرآن ، وبعث المؤمنين حقاً ، والإشارة إلى ابتداء حرب بدر ، وإمداد الله تعالى صحابة نبيه بالملائكة المقربين ، والنهى عن الفرار من صف الكفار ، وأمر المؤمنين بإجابة الله ورسوله ، والتحذير عن الفتنة ، والنهى عن خيانة الله ورسوله ، وذكر مكر كفار مكة فى حق النبى ﷺ ، وتجاسر قوم منهم باستعمال العذاب ، وذكر إضاعة نفقاتهم فى الضلال والباطل ، وبيان قسم الغنائم ، وتلاقى عساكر الإسلام ، وعساكر المشركين ، ووصية الله المؤمنين بالثبات فى صف القتال ، وغرور إبليس طائفة من الكفار ، وذم المنافقين فى خذلانهم لأهل الإيمان ، ونكال ناقضى العهد ليعتبر بهم آخرون ، وتهيئة غدر المقاتلة والمحاربة والميل إلى الصلح عند استدعائهم الصلح ، والمن على المؤمنين بتأليف قلوبهم ، وبيان عدد عسكر الإسلام ، وعسكر الشرك ، وحكم أسرى بدر ، ونصرة المعاهدين لأهل الإسلام ، وتخصيص الأقارب وذوى الأرحام بالميراث ، فى قوله:﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ إلى آخر السورة .

المتشابهات

قوله ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم** ﴾ ثم قال بعد آية : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم** ﴾ أجاب عن هذا بعض أهل النظر وقال : ذكر فى الآية الأولى عقوبته إياهم عند الموت ، كما فعله بآل فرعون ومن قبلهم من الكفار ، وذكر فى الثانية ما يفعله بهم بعد موتهم .

قال الخطيب : الجواب عندى : أن الأول إخبار عن عذاب لم يمكن الله أحداً من فعله ، وهو ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند نزع أرواحهم ، والثانى إخبار عن عذاب مكن الناس من فعل مثله ، وهو الإهلاك والإغراق .

قال تاج القراء : وله وجهان [آخران] محتملان أحدهما : كدأب آل فرعون فيما فعلوا ، والثانى : كدأب آل فرعون فيما فعل بهم فهم فاعلون فى الأول ، مفعولون فى الثانى .

والوجه الآخر : أن المراد بالأول كفرهم بالله ، وبالثانى تكذيبهم بالأنبياء ، لأن تقدير الآية : كذبوا الرسل بردهم آيات الله . وله وجه آخر وهو أن يجعل الضمير فى (كفروا) لكفار قريش على تقدير :

كفروا بآيات ربهم كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ، وكذلك الثانى كذبوا بآيات ربهم كدأب آل فرعون .

قوله ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ هنا بتقديم أموالهم وأنفسهم ، وفى براءة بتقديم (فى سبيل الله) لأن فى هذه السورة تقدم ذكر المال والفداء والغنيمة فى قوله ﴿ **تريدون عرض الدنيا** ﴾ و﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم** ﴾ أى من الفداء .

﴿ **فكلوا مما غنمتم** ﴾ فقدم ذكر المال . وفى براءة تقدم ذكر الجهاد وهو قوله ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم** ﴾ وقوله : ﴿ **كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله** ﴾ فقدم ذكر الجهاد . وذكر هذه الآى فى هذه السورة ثلاث مرات : فأورد فى الأولى ﴿ **بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ وحذف من الثانية ﴿ **بأموالهم وأنفسهم** ﴾ اكتفاء بما فى الأولى وحذف من الثالثة ﴿ **بأموالهم وأنفسهم** ﴾ وزاد : ﴿ **فى سبيل الله** ﴾ اكتفاء بما فى الآيتين . **مناسبتها لما قبلها** : أنها فى بيان أحوال النبى ﷺ مع قومه ، وسورة الأعراف مبينة لأحوال الرسل مع أقوالهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا
تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ (٤)

المفردات : ﴿ **الأنفال** ﴾ : واحدها نفل (بالتحريك) من النفل بالسكون وهو الزيادة على الواجب ومنه صلاة النفل والمراد به هنا الغنيمة،وقيل:الغنيمة كل ما حصل مستغنما بتعب أو بغير تعب وقبل الظفر أو بعده والنفل يحصل للإنسان قبل القسمة من الغنيمة ﴿ **والبين** ﴾ : يطلق على الاتصال والافتراق ، وعلى كل ما بين طرفين كما قال : ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾[1] وذات البين : الصلة التى تربط بين شيئين ﴿ **والوجل** ﴾ : الفزع والخوف ﴿ **والدرجات** ﴾ : منازل الرفعة ومراقى الكرامة .

نزلت هذه الآيات فى غنائم غزوة بدر ، إذ تنازع فيها من حازها من الشبان وسائر المقاتلة ، فقد روى

(١) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

أبو داود والنسائى عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : « من قتل قتيلا فله كذا وكذا ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا » فأما المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، وأما الشبان فسارعوا إلى القتل والغنائم ، فقالت المشيخة للشبان : إنا كنا لكم ردءاً ولو كان منكم شيء للجأتم إلينا ، فاختصموا إلى النبى ﷺ فنزلت : ﴿ يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾[1] .

وروى أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن سعد بن أبى وقاص : أنه قتل سعيد بن العاص وأخذ سيفه ، واستوهبه النبى ﷺ فمنعه إياه ، وأن الآية نزلت فى ذلك فأعطاه إياه لأن الأمر كله إليه ﷺ .

﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ أى يسألونك أيها الرسول عن الأنفال لمن هى ؟ أللشبان أم للشيوخ ؟ أو للمهاجرين هى أم للأنصار؟﴿ **قل الأنفال لله والرسول** ﴾ أى قل لهم الأنفال لله ، يحكم منها بحكمه ، وللرسول يقسمها بحسب حكم الله تعالى ، وقد قسمها ﷺ بالسواء .

وقد بين الله بهذا أن أمرها مفوض إلى الله ورسوله ، ثم بين مصارفها ، وكيفية قسمتها فى آية الخمس ﴿ **واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه** ﴾ إلخ .

وللإمام أن ينفل من شاء من الجيش ما شاء قبل التخميس ، وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أنه قال : « قتل أخى عُمَير يوم بدر فقتلت به سعيد بن العاص وأخذت سيفه فأعجبنى فجئت به إلى النبى ﷺ ، فقلت : إن الله شفى صدرى من المشركين فهب لى هذا السيف ، فقال لى عليه الصلاة والسلام : ليس هذا لى ولا لك اطرحه فى القبض ، فطرحته وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى ، وأخذ سلبى . فما جاوزت إلا قليلا حتى نزلت سورة الأنفال فقال لى رسول الله ﷺ ! يا سعد سألتنى السيف وليس لى ، وقد صار لى فخذه »[2].

﴿ **واتقوا الله** ﴾ أى فاجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة والتنازع والاختلاف الموجب لسخط الله ، لما فيه من المضار ولاسيما فى حال الحرب .

﴿ **وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ أى وأصلحوا ما بينكم من الأحوال ، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق ، وهذا الإصلاح واجب شرعاً ، وعليه تتوقف قوة الأمة وعزتها ، وبه تحفظ وحدتها.روى عن عبادة بن الصامت قال : نزلت هذه الآية فينا معشر أصحاب بدر حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا ، فنزعه الله من أيدينا ، فجعله لرسوله ، فقسمه بين المسلمين على السواء ، وكان فى ذلك تقوى الله ، وطاعة رسوله ، وإصلاح ذات البين .

﴿ **وأطيعوا الله ورسوله** ﴾ فى كل ما يأمر به وينهى عنه ، ويقضى به ويحكم ، فالله تعالى مالك أمركم ، والرسول مبلغ عنه ، ومبين لوحيه بالقول والفعل والحكم .

وعلى هذه الطاعة تتوقف النجاة فى الآخرة ، والفوز بثوابها ، والرسول ﷺ يطاع فى اجتهاده أمر

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد (١٤٤) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٥:٢٧٢) .

الدنيا المتعلق بالمصالح العامة ، ولاسيما فى الشئون الحربية ، لأنه القائد العام فمخالفته تخل بالنظام ، وتؤدى إلى الفوضى التى لا تقوم للأمة معها قائمة ، ولأئمة المسلمين من حق الطاعة فى تنفيذ الشرع وإدارة شئون الأمة وقيادة الجند ما كان له صلى الله عليه وسلم ، بشرط عدم معصية الله تعالى ، ومشاورة أولى الأمر .

﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ أى إن كنتم كاملى الإيمان فامتثلوا هذه الأوامر الثلاثة ، إذ كماله يقتضى ذلك ، لأن الله أوجبه ، فالمؤمن بالله حقا يكون له من نفسه وازع يسوقه إلى الطاعة واتقاء المعاصى ، إلا أن يعرض له ما يغلبه عليها أحيانا من ثورة شهوة ، أو سورة غضب ، ثم لا يلبث أن يفىء إلى أمر الله ، ويتوب إليه مما عرض له.

وقد وجه الله تعالى نداءات ربانية كريمة فى هذه السورة،لو أخذت بها الأمة لكان النصر رائدها ، والتوفيق حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ، ولو عملت بها ما أهاننا أحد ، ولرفرفت راية النبى محمد على كل بلد قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذ لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار** ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون** ﴾ وقال تبارك اسمه :﴿ **يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾ وقال عز وجل ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا اماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾ وقال عظمت حكمته ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم** ﴾ وقال جلت قدرته ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ .

ولقد بين الله تعالى فى صدر هذه السورة خصال المؤمنين الكاملين ، فقال : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم** ﴾ أى خوفا من عذابه وعقابه ، وليس الذكر كلمات تلوكها الألسنة ، وتتحرك بها الشفاه ، إنما الذكر استحضار عظمة الله تعالى فى القلب ، ونعته بنعوت الجلال والجمال والكمال .

قال عز من قائل ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾[1].

لذا فإن الذكر على سبعة أنحاء ، فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضا .

قال ﷺ « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم . وخير لكم من إنفاق الخير والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ قلنا : بلى . قال ذكر الله »[2].

فالمؤمنون إذا ذكر الله وجلت القلوب خوفا من جلاله وعظمته ، فإذا ما ذكروا رحمته وعفوه ومغفرته

---

(١) الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأدب (٥٣) . والترمذى فى الدعوات (٦) . والنسائى فى أيمان (١) .

اطمأنت القلوب : قال تعالى ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[١]

وهكذا حال المؤمن ، فهو بين الوعد والوعيد ، وبين الرجاء والخوف ، حتى يقوم الميزان بالقسط ﴿ **وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا** ﴾ .

وذلك لأنهم يستمعون إلى كلام الله بتدبر وتفكر ، فمن أراد أن يكلم الله فليدخل فى الصلاة ، ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾[٢] .

إنهم إذا قرأوه وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، نظر الله تعالى إليهم فى جوف الليل واصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقا إليها ، وإذا مر بآيه تنذر من عذاب النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه .

وقد حذر الرسول ﷺ من أقوام يرجعون فى القرآن ، ترجيع الغناء والنوح ، يقرأونه بلحون أهل الكتابيين ، ولحون أهل العشق ، لا يتجاوز حناجرهم . مفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم حالهم .

فيأيها المسلمون اقرءوا القرآن وابكوا وإن لم تبكوا فتباكوا ، إن البيت الذى يقرأ فيه القرآن يتسع لأهله ، ويكثر خيره ، وتسكنه الملائكة ، وتطرد منه الشياطين .

ومن استمع إلى آية من القرآن كتبت له حسنة مضاعفة ، فإذا تلاها كانت له نوراً يوم القيامة ، وفى فضل القرآن مراتب لا تحصى ومراقيه لا تستقصى ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ إنهم يأخذون فى الأسباب ، ولله عاقبة الأمور ، على المرء أن يسعى وليس عليه إدراك المقاصد ، قال تعالى ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾[٣] .

فعلى الفلاح أن يحرث أرضه ، ويبذر الحب ، ويتعهد النبات ، ويكل الزرع إلى الله ، قال تعالى ﴿ أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[٤] .

إن المؤمنين لا يعتمدون إلا على الواحد الديان ، إنهم لا يتطايرون ، ولا يكتوون ، وعلى ربهم يتوكلون .

﴿ **الذين يقيمون الصلاة** ﴾ أى يؤدونها مستقيمة بشروطها وسننها وأركانها ، قال حاتم الأصم رضى الله عنه : إذا دخلت الصلاة جعلت كأن الكعبة أمامى ، والموت ورائى . والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى. والصراط تحت قدمى . والله تعالى مطلع على من أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردها على .

قال تعالى : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[٥] .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .
(٢) الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٣) الآية ١٥ من سورة آل عمران .
(٤) الآيتان ٦٣،٦٤ من سورة الواقعة .
(٥) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

قوله تعالى ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أى ينفقون بعضا مما رزقناهم ، وهذا البعض يسير ، قال تعالى ﴿ ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾(١).

ثم حكم الله تعالى لهم بعد ذلك بقوله ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ﴾ أى فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ومغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم فى دار السلام . والله وليهم بما كانوا يعملون.

حديث عن غزوة بدر

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَـٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَـٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ **الشوكة** ﴾ : الحدة والقوة وأصلها واحدة الشوك ، شبهوا بها أسنة الرماح . ﴿ **الطائفتان** ﴾ : طائفة العير الآتية من الشام وطائفة النفير التى جاءت من مكة للنجدة . و﴿ **غير ذات الشوكة** ﴾ : هى العير . و﴿ **دابر القوم** ﴾ : آخرهم الذى يأتى فى دبرهم ويكون من ورائهم و﴿ **يحق الحق** ﴾ : أى يعز الإسلام لأنه الحق ﴿ **ويبطل الباطل** ﴾ : أى يزيل الباطل وهو الشرك ويمحقه .

بدئت القصة بغزوة بدر الكبرى التى كانت أول فوز للمؤمنين، وخذلان للمشركين ، مع بيان أحكام الغنائم التى غنمها المسلمون منهم ، ثم ذكر هنا أول القصة ، وهو خروج النبى ﷺ من بيته ، وكراهة فريق من المؤمنين لذلك ، وقد كان من مقتضى الإيمان الإذعان لطاعته والرضا بما يفعله بأمر ربه ، وما يحكم أو يأمر به . ﴿ **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون** ﴾

أى أن الأنفال لله يحكم فيها بالحق ، ولرسوله يقسمها بين من جعل الله لهم الحق فيها بالسوية . وإن كره ذلك بعض المتنازعين فيها ، ممن كانوا يرون أنهم أحق بها ، كإخراج ربك إياك من بيتك بالحق للقاء إحدى الطائفتين من المشركين ، وقد كان كثير من المؤمنين كارهين لذلك ، لعدم استعدادهم للقتال ، ولنحو هذا من الأسباب التى تعلم مما يلى .

وبيان ذلك أن رسول الله لما سمع بأبى سفيان مقبلا بعيره ، من الشام ، ندب المسلمين إليهم . وقال : هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها ، لعل الله أن ينفلكموها . فخف بعضهم . وثقل بعضهم ،

(١) الآيات ٣٦-٣٨ من سورة محمد .

ظنا منهم أن رسول الله ﷺ لايلقى حربا . وكان أبو سفيان قد استنفر عندما دنا من الحجاز من يتجسس الأخبار ، ويسأل من لقى من الركبان ، تخوفا على أمر الناس حتى أصاب خبراً من بعض الركبان، أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولغيرك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفارى فبعثه إلى أهل مكة ، وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعا إلى مكة .

وخرج رسول الله ﷺ الناس بذلك ، واستشارهم .

فقام أبو بكر رضى الله عنه فقال فأحسن ، ثم قام عمر فقال فأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله به فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون** ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (مدينة باليمن) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه . فقال رسول الله ﷺ خيراً ودعا لهم بالخير .

ثم قال رسول الله « أشيروا على أيها الناس . وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يارسول الله إنا برءاء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمامنا ، نمنعك مما نمنع منه آباءنا ونساءنا . وكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى نصرته إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم »

فلما قال رسول الله ﷺ ذلك . قال له سعد بن معاذ . والله لكأنك تريدنا يارسول الله قال : أجل . فقال قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أمرك الله ، فوالذى بعثك بالحق لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما يتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله . فسر رسول الله ﷺ لقول سعد . ونشطه ذلك .

ثم قال « سيروا على بركة الله ،وأبشروا ، فإن الله وعدنى إحدى الطائفتين :العير القادمة من الشام وعلى رأسها أبو سفيان ، أو النفير الآتى من مكة لنجدتهم وعلى رأسهم أبو جهل ، والله لكأنى الآن انظر إلى مصارع القوم » . ﴿ **يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ أى يجادلك المؤمنون فى الحق وهى تلقى النفير لإيثارهم عليه تلقى العير كراهية للقاء المشركين ، وإنكار المسير إلى قريش حين ذكروا لهم بعد أن تبين لهم الحق بإخبارك أنهم سينصرون أينما توجهوا – ويقولون ما كان خروجنا إلا للعير – وهلا قلت لنا لنستعد ونتأهب ، وما كان هذا إلا لكراهتهم للقتال ، إذ أنهم كانوا فى حال ضعف ، فكان من حكمة الله أن وعدهم أولا إحدى طائفتى قريش تكون لهم على طريق الإبهام لا على طريق التعيين فتعلقت آمالهم بطائفة العير القادمة من الشام ، لأنها كسب عظيم لا مشقة فى إحرازه لضعف الحامية .

فلما ظهر لهم أنها فاتتهم ونجت ، إذ ذهبت من طريق سيف البحر (طريق الشاطىء) وأن طائفة النفير خرجت من مكة بكل مالدى قريش من قوة ، وأنها قد قربت منهم ووجب عليهم قتالها إذ تبين أنها هى الطائفة التى وعدهم الله تعالى بالنصر عليها – صعب على بعضهم لقاؤها على قلتهم وكثرتها ، وضعفهم وقوتها ، وعدم استعدادهم للقتال كاستعدادها ، وطفقوا يعتذرون إلى النبى ﷺ بأنهم لم يخرجوا إلا للعير ، لأنه لم يذكر لهم قتالاً فيستعدوا له .

ولكن الحق تبين بحيث لم يبق للجدل فيه وجه ، فلا ينبغى أن يقال أن طائفة العير هى مراد الله لأنها نجت ، ولا بأن يقال إنا لم نعّد للقتال عدته لأنه مهما تكن حالها فلابد من الظفر بها لوعد الله به ، فإذاً لا وجه للجدل إلا للجبن والخوف من القتال . ﴿ **كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** ﴾ أى كأنهم لشدة ما هم فيه من جزع ورهب يساقون إلى موت محقق لا هرب منه ، لوجود أماراته وأسبابه ، حتى كأنهم ينظرون إليه بأعينهم ، إذ ما بين حالهم وحال عدوهم من التفاوت فى القوة والعدد والخيل والزاد قاض بذلك ، ولكن الله تعالى وعد رسول الله والمؤمنين بالظفر والنصر عليهم (ووعده لا يتخلف)أما هذه الأسباب العادية فكثيرا ما تتخلف ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله الذى بيده كل شىء وهو القادر على كل شىء . وهكذا أنجز الله وعده لرسوله والمؤمنين ، وكان لهم الظفر والفوز على عدوهم ، وكان هذا نصراً مؤزراً للمسلمين على المشركين ، وبه علا ذكرهم . ﴿ **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم** ﴾ أى واذكروا حين وعد الله إياكم أن إحدى الطائفتين لكم تتسلطون عليها وتتصرفون فيها .

﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ أى وتتمنون أن الطائفة غير ذات الشوكة : (وهى العير) تكون لكم لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً ، وعبر عنها بذلك تعريضا لكراهتهم للقتال وطمعهم فى المال ﴿ **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته** ﴾ أى ويريد الله بوعده غير ما أردتم يريد أن يثبت الحق الذى أراده بكلماته أى بآياته المنزلة على رسوله فى محاربة ذات الشوكة ، وبما أمر به الملائكة من نزولهم للنصرة ، وبما قضى به من أسر المشركين وقتلهم ، وطرحهم فى قليب (بئر) بدر .

﴿ **ويقطع دابر الكافرين** ﴾ أى ويهلك المعاندين جملة ، ويستأصل شأفتهم ، ويمحق قوتهم ، وقد كان الظفر ببدر فاتحة الظفر فيما بعدها إلى أن قطع الله دابر المشركين بفتح مكة .

قال صاحب الكشاف : يعنى أنكم تريدون الفائدة العاجلة ، وسفاسف الأمور ، وألا تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله عز وجل يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ، ونصرة الحق ، وعلو الكلمة ، والفوز فى الدارين ، وشتان بين المرادين ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم وأعزكم وأذلهم . أ.هـ.

﴿ **ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون** ﴾ أى وعد الله بما وعد وأراد بإحدى الطائفتين ذات الشوكة ليحق الحق وهو الإسلام ويثبته، ويبطل الباطل وهو الشرك ويزيله (**ولو كره المجرمون**) أولا الاعتداء والطغيان ، ولا يكون ذلك بالاستيلاء على العير ، بل بقتل أئمة الكفر من صناديد قريش الذين خرجوا إليكم من قلة ليستأصلوكم .

غزوة بدر الكبرى

المعركة الحاسمة الأولى للإسلام

ويحسن هنا أن نذكر ما جاء فى كتاب (الرسول القائد) تأليف اللواء محمود شيت خطاب ، فقد أفاض فى الحديث عن غزوة بدر من الناحية العسكرية حتى يكون المسلم على ذكر مما جاء منها ، فإن تلك الغزوة قد ثبتت دعائم المسلمين ، وأعلى الله بها كلمة الإسلام ، وسماها الله تعالى ﴿ يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ فنقول وبالله التوفيق :

قال المؤلف تحت عنوان الموقف العام :

١ - المسلمون :

ازداد عدد المسلمين فى المدينة وازدادوا قوة وتماسكا ، ولكن حالتهم الاقتصادية كانت متردية ، لأن أكثر المهاجرين فروا بأنفسهم وعقيدتهم من قلة ، وتركوا أموالهم هناك ، ولأن الأنصار شاركوا المهاجرين فى أرزاقهم القليلة ، فلا عجب إذا رأينا المسلمين يفكرون جدياً فى استخلاص أموالهم من قريش .

٢ - المشركون واليهود :

أصبح للمشركين ثأر عند المسلمين فى قتل عمرو بن الحضرمى ، فلابد من الأخذ بهذا الثأر حتى تعود لقريش وحلفائها كرامتهم وهيبتهم عند العرب ، كما أن الطريق التجارية الحيوية بين الشام ومكة أصبحت تحت رحمة المسلمين وحلفائهم ، كما أن انتشار نفوذ المسلمين وازدياد قوتهم يوماً بعد يوم لايتفق مع احتكار قريش للسيادة على العرب . تلك هى العوامل المهمة التى جعلت قريشاً تفكر جدياً فى انتهاز أول فرصة للقضاء على الدين الجديد ، وكان اليهود فى المدينة يثيرون الحرب الباردة ضد المسلمين ، ويحاولون اختلاق المشاكل لهم ، ويقومون بواجب « الرتل الخامس »[1] لقريش .

قوات الطرفين

١ - المسلمون :

بلغت قوة المسلمين (٣٠٥) رجال من المهاجرين والأنصار ، بقيادة الرسول ﷺ ، وكان معهم فرسان فقط وسبعون بعيراً يتعاقب الرجلان والثلاثة والأربعة على البعير الواحد .

٢ - المشركون :

بلغت قوة المشركين (٩٥٠) رجلا ، أكثرهم من قريش ، ومعهم مائتا فرس يقودونها ، وعدد كبير من الإبل لركوبهم وحمل أمتعتهم ، وكانت هذه القوة بقيادة عدد من رجالات قريش .

(١) يقصد به « الطابور الخامس » والمقصود به الجواسيس .

أهـــداف الطرفـــين

١ – المسلمون :

(أ) الاستيلاء على القافلة التجارية لقريش بقيادة أبى سفيان ، التى كان يحميها مابين ثلاثين وأربعين رجلا .

(ب) البقاء فى « بدر » بعد إفلات القافلة حتى يتسامع المشركون بقوة المسلمين فيهابونهـم ، ويتركون لهم حرية نشر الدعوة لدينهم .

٢ – المشركون :

(أ) حماية القافلة التجارية القادمة من الشام .

(ب) عند إفلات القافلة تضاربت الآراء فى القتال أو العودة ، فتغلب رأى القائلين بالقتال للأخذ بثأر عمر بن الحضرمى ، وللقضاء على قوات المسلمين ، ولتعرف العرب قوة قريش وسطوتها .

قبل المعركة

١ – المسلمون :

(أ) خرج أبو سفيان أوائل الخريف من السنة الثانية للهجرة فى تجارة كبيرة إلى الشام ، وقد أراد المسلمون اعتراضها فى غزوة « العشيرة » عند ذهابها إلى الشام ، ولكنها تملصت منهم .

وتحيّن المسلمون عودتها من الشام ، فبعث الرسول ﷺ طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ، ينتظرانها ، حتى إذا وصلا « الحوراء » على طريق الشام – مكة مكثا هناك ، فلما مرت القافلة بهم ، أسرعا إلى المسلمين يخبران النبى ﷺ بأمرها .

ندب الرسول ﷺ المسلمين للخروج ، وقال لهم : « هذه عير قريش فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها » وخف بعض الناس ، وثقل بعض ، لأنهم لم يظنوا أن الرسول سيخوض معركة حاسمة ضد المشركين بل ظنوا أن الغزوة ستكون عبارة عن مناوشات طفيفة ، كما حدث فى السرايا والغزوات السابقة ، وأراد جماعة لم يسلموا أن ينضموا إلى المسلمين طمعاً فى الغنيمة ، فأبى النبى ﷺ عليهم الانضمام أو يؤمنوا بالله ورسوله .

(ب) تحركت قوات المسلمين فى المدينة لثمان خلون من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة بالترتيبات التالية :

أولاً : دورية استطلاعية أمامية للحصول على المعلومات عن اتجاهات القافلة التجارية ونوايا قريش .

ثانيـا : القسم الأكبر مؤلف من كتيبتين : كتيبة المهاجرين ورايتها مع على بن أبى طالب وعمير بن هاشم : وكتيبة الأنصار ورايتها مع سعد بن معاذ ، وهاتان الرايتان سوداوان .

ثالثاً : مؤخرة بإمرة قيس بن أبى صعصعة .

رابعا : راية المسلمين العامة بيضاء مع مصعب بن عمير بن هاشم .

(ج) سلكت قوات المسلمين العامة طريق القوافل بين المدينة وبدر البالغ طوله حوالى (١٦٠) كيلو متراً ، وقد قسم الرسول ﷺ الإبل المتيسرة وعددها سبعون بعيراً على أصحابه ، وكان من نصيبه مع على بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد الغنوى بعير واحد يتعاقبونه : تماماً كما يفعل أى فرد من قواته .

قال شريكا الرسول فى البعير : « نحن نمشى عنك » . فقال : « ماأنتما بأقوى منى ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » . وأراد بذلك المساواة مع أى فرد من قواته ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[1].

(د) انطلق المسلمون مسرعين خوفا من إفلات قافلة أبى سفيان منهم ، وبثوا عيونهم يتعرفون الأخبار ، فلما وصلوا قريبا من « الصفراء » بعث الرسول دورية استطلاعية قوتها رجلان إلى « بدر » للحصول على المعلومات عن قريش وقافلتها ، فلما وصل المسلمون « وادى ذفران » جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلتهم .

(هـ) أخبر الرسول ﷺ أصحابه بما بلغه من أمر قريش طالباً مشورتهم فأدلى أبو بكر وعمر برأييهما ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : « يارسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى « برك الغماد » لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » .

فسكت الناس فقال الرسول : أشيروا على أيها الناس ، وكان يريد بكلمته هذه الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ولم يبايعوه على صد اعتداء خارج مدينتهم ، فكان الرسول ﷺ يخشى ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا ممن يهاجمه فى المدينة فلما أحس الأنصار أن الرسول ﷺ يريد سماع رأيهم ، قام سعد بن معاذ وقال « لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ » فقال : « أجل » .

قال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً : إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله » .

وارتحلوا جميعا حتى إذا كانوا على مقربة من « بدر » انطلق الرسول ﷺ أمام قواته وبصحبته أبو بكر ، حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، قال الشيخ : « لا أخبركما حتى تخبرانى « ممن أنتما ؟ » » .

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم .

قال النبى ﷺ : « إذا أخبرتنا أخبرناك » .

علم الرسول ﷺ من شيخ العرب أن عير قريش قريبة منه ، فقال شيخ العرب « نحن من ماء » . ثم انصرف وصاحبه عنه والشيخ يقول : « مامن ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ » وهكذا لم يخبره الرسول عن هويته حتى لا تعلم قريش بمواضع المسلمين .

(و) أرسل الرسول ﷺ دوريتى استطلاع غرضهما الحصول على معلومات عن قوة قريش ومواضعها .

الدورية الأولى مؤلفة من على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه ، استطاعت الوصول إلى ماء بدر ، وعادت ومعها غلامان لقريش ، فاستنطقهما الرسول ، وعلم منهما أن قريشاً وراء الكثيب « بالعدوة القصوى » ولما أجابا : « بأنهما لا يعرفان عدد رجال قريش » سألهما : « كم ينحرون يومياً ؟ » . فأجابا : « يوماً تسعاً ويوماً عشراً » .

فاستنبط الرسول ﷺ من ذلك أنهم بين التسعمائة والألف وعرف من الغلامين كذلك أن أشراف قريش خرجوا لمنعه.

والدورية الثانية مؤلفة من رجلين من المسلمين وصلا ماء بدر ، فسمعا جارية تطالب صاحبتها بدين عليها والثانية تجيبها : « إنما تأتى العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذى لك » فعاد الرجلان فأخبرا الرسول بما سمعا .

(ز) تأهب المسلمون لخوض المعركة وعسكروا فى أدنى ماء من بدر فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول ، فقال : « أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » . قال : « بل هو الحرب والرأى والمكيدة » .

قال الحُباب : « يارسول الله : فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم ، فنعسكر فيه ، ثم نعود ما وراءه من الآبار ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون » .

أنفذ الرسول ﷺ هذا الرأى ، فما حل نصف الليل حتى تحول المسلمون إلى معسكرهم الجديد ، وامتلكوا مواقع الماء ، وأعلن الرسول لأصحابه : « أنه بشر مثلهم ، وأن الرأى شورى بينهم ، وأنه لا يقطع برأى دونهم ، وأنه فى حاجة إلى حسن مشورة صاحب المشورة الحسنة منهم » ...

وأنجزوا بناء الحوض وملأوه ماءًا، ثم غوَّروا المياه الأخرى ، وتم كل ذلك ليلا ، ثم أخذوا قسطهم من الراحة بقية الليل ، ليكونوا أقوياء فى الصراع الوشيك .

٢ — المشركون :

علم أبو سفيان بخروج الرسول لاعتراض قافلته حين رحلته إلى الشام فخاف أن يعترضه المسلمون حين عودته .

لقد كانت القافلة حوالى ألف بعير موقرة بالأموال ، إذ لم يبق أحد من قريش رجالا ونساءألم يساهم فيها بحظ حسب إمكانياته الاقتصادية حتى قوم ما تحمله القافلة بخمسين ألفاً من الدنانير .

ولما تأكد أبو سفيان من خروج الرسول ﷺ وأصحابه للتعرض لقافلته العزلاء إلا من ثلاثين أو أربعين رجلا ، استأجر ضمضم بن عمرو الغفارى ، فبعثه مسرعاً إلى مكة ليستنفر قريشاً إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها فى أصحابه .

وصل ضمضم إلى مكة ، فقطع أذن بعيره ، وجدع أنفه وحول رحله ، ووقف هو عليه وقد شق قميصه من قبل ومن دبر ، وجعل يصيح : يامعشر قريش ، اللطيمة اللطيمة ، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه ... لا أرى أن تدركوها . الغوث الغوث ...

ولم تكن قريش فى حاجة إلى من يستنفرها ، فقد كان لكل فرد منها فى العير نصيب . ولما فرغت قريش من جهازها وأجمعت المسير ، ذكرت ماكان بينها وبين بنى « كنانة » من الحرب والحزازات ، فخشوا أن تضربهم « كنانة » من الخلف ، وكاد هذا المحذور يقعدهم عن الخروج لولا أن جاء مالك ابن جعشم المدلجى ، وكان من أشراف بنى كنانة ، فقال أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه » ...

إذ ذاك قررت قريش الخروج خاضعة لرأى دعاة الحرب وعلى رأسهم أبو جهل ، أشد الناس عداوة للمسلمين ، وعامر بن الحضرمى أخو عمر بن الحضرمى الذى قتله المسلمون فى « نخلة » والذى يحرض على الأخذ بثأره . ولم يتخلف من أشراف قريش غير أبى لهب الذى أرسل مكانه رجلا آخر . كما حشد هؤلاء كافة القادرين على حمل السلاح من قريش وحلفائهم . وسبق أبو سفيان قافلته للحصول على المعلومات عن قوة المسلمين ومواضعهم فلما ورد ماء بدر وجد عليه مجدى بن عمر ، فسأله : « هل رأى أحدا من المسلمين ؟ فأجاب مجدى : « لم أر إلاراكبين أناخا إلى هذا التل » وأشار إلى حيث أناخ الرجلان من المسلمين .

فحص أبو سفيان مناخهما ، فوجد فى روث بعيريهما نوى عرفه فى علائف يثرب فأدرك أن الرجلين من اصحاب محمد ، وأن جيشه منه قريب ، فرجع إلى القافلة ليغير طريقها نحو الساحل ، تاركاً بدراً إلى يساره ، وأسرع فى مسيره حتى بعدت المسافة بين القافلة وبين قوات المسلمين ، وأرسل أبو سفيان إلى قريش يطلب منهم أن يعودوا أدراجهم إلى مكة لنجاة قافلتهم من المسلمين .

وأرسلت قريش عمير بن وهب الجمحى ليستطلع لهم قوة المسلمين ، فرجع إليهم ليخبرهم أنهم ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ولاكمين لهم ولامدد ولكنهم قوم ليس لهم منعة ولاملجأ إلا سيوفهم ، فلا يموت منهم رجل قبل أن يقتل رجلا مثله ، تضاربت آراء قريش ، منهم من يريد الرجوع ومن هؤلاء بنو زهرة الذين رجعوا فعلا ، ومنهم من يريد البقاء ، ومعنى ذلك الاصطدام بالمسلمين . قال أبو جهل زعيم الذين أرادوا البقاء لقتال المسلمين : « والله لا نرجع حتى نرد بدراً ، فنقيم عليه ثلاثة ننحر الجزور

ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعرف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها » .

وقصد حكيم بن حزام عتبة بن ربيعة فقال : « ياأبا الوليد ، إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها . هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟ » .

قال عتبة : « وماذا يا حكيم » ؟

قال حكيم : «ترجع بالناس ، وتحمل أمر حليفك عمر بن الحضرمى » .

قال عتبة : « قد فعلت . أمن علىّ بذلك ، إنما هو حليفى فعلى عقله وما أصيب من ماله ؛ فأت ابن الحنظلية – يقصد أبا جهل – فإنى لا أخشى أن يشجر – أى يخالف بين الناس ويحملهم على عدم الوفاق – أمر الناس غيره ».

قال حكيم : « فانطلقت حتى جئت أبا جهل ، فوجدته مثل درعاً – أى أخرج درعه – من جرابها ، يهنئها – أى يتفقدها ويعدها للقتال – فقلت يا أبا الحكم ، إن عتبة أرسلنى إليك بكذا وكذا » .

قال أبو جهل : « انتفخ والله سحره – يقصد أن عتبة جبن حين رأى محمداً وأصحابه – كلا والله لانرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور ، وفيهم ابنه تخوفكم عليه ».

وبعث أبو جهل إلى عامر بن الحضرمى فقال : « هذا حليفك يريد أن يرجع الناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم وانشد خفرتك » . فقام عامر بن الحضرمى فاكتشف ، ثم صرخ « واعمراه .. واعمرا » .

ولما علم عتبة بقول أبى جهل : « انتفخ والله سحره » قال : « سيعلم مصفرا سته – أى الجبان – من انتفخ سحره ، أنا أم هو ؟ » .

ولم يبق مفر ولا مهرب من القتال .

سير القتال

١ – أنجز المسلمون قبل بدء القتال مايلى :

(أ) انتخب الرسول ﷺ موضعاً مشرفاً على منطقة القتال فى بدر وبنى فيه مقره – العريش – وأمّن حراسة هذا المقر .

(ب) جرى ترتيب المقاتلين فى صفوف وساوى الرسول ﷺ بين الصفوف بعد أن شجّع أصحابه وحرّضهم على الصبر فى القتال . وأمر الرسول أصحابه أن يصدّوا هجمات المشركين وهم مرابطون فى مواقعهم وقال لهم : « إذا اكتنفكم القوم ؟ فانضحوهم بالنبل ، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا » ...

(ج) كانت كلمة التعارف بين المسلمين وشعارهم فى القتال . أحد .. أحد[1].

٢ – دخل المسلمون المعركة بالأسلوب الآنف الذكر : مقر قيادة كامل وسيطرة لقائد واحد وأسلوب جديد فى القتال لم تعرفه العرب من قبل ، هو أسلوب الصف .

٣ – اما المشركون فقد مارسوا أسلوب قتال « الكر والفر » بدون قيادة منظمة ولا سيطرة ، بحيث جرى قتالهم كأفراد لا كمجموعة موحدة .

٤ – بدأ المشركون الهجوم أولاً ، إذ هجم الأسود بن عبد الأسد على الحوض الذى بناه المسلمون قائلا : « أعاهد الله لأشربنّ من حوضهم أو لأهدمنّه أو لأموتنّ دونه » فتصدى له حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف ضربة أطارت نصف ساقه ، ومع ذلك حبا إلى الحوض لاقتحامه ، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه .

٥ – برز من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة ، فخرج إليهم فتية من الأنصار ، ولكن الرسول أعادهم وطلب خروج عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب ، لأنهم من أهله فهو يؤثرهم بالخطر على غيرهم ، ولأن شجاعتهم وممارستهم للقتال معروفة ، لذلك فإن نجاحهم مضمون على رجالات قريش ، مما يرفع معنويات المسلمين ويضعضع معنويات المشركين .

بارز عبيدة عتبة ، وبارز على الوليد ، وبارز حمزة شيبة ، فأما حمزة فلم يمهل شيبة ان قتله وكذلك فعل على .

وأما عبيدة وعتبة فقد جرح كلاهما الآخر ، فكرّ على وحمزة بأسافهما على عتبة فأجهزا عليه واحتملا صاحبهما .

٦ – استشاط المشركون غضباً لهذه البداية السيئة ، فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم وهاجمتهم فرسانهم إلا أن صفوف المسلمين بقيت صامدة فى مواضعها ، تصوب نبالها على المشركين متوخية إصابة ساداتهم بالدرجة الأولى ولم يفطن المشركون لأسلوب المسلمين الجديد فى القتال ، مما جعل رجالات المشركين تتهاوى بوابل نبال المسلمين المصوّبة تصويباً دقيقاً ، والمسيطر عليها .

٧ – ونزل الرسول ﷺ بنفسه يقود صفوف المسلمين ، وأخذت هذه الصفوف تقترب رويداً رويداً من فلول المشركين التى فقدت قادتها .. حتى تبعثرت قوات المشركين .

وحينذاك فقط أصدر الرسول ﷺ أمره لقواته : « شدوا » ومعنى ذلك القيام بالمطاردة .

وبدأت مطاردة المسلمين لفلول المشركين ، وأخذوا يجمعون الغنائم والأسرى .

٨ – ابتدأت معركة بدر صباح يوم الجمعة ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وانتهت مساءه ، وبقى المسلمون ثلاثة أيام فى بدر بعد المعركة ثم غادروها عائدين إلى المدينة .

(١) وهى ما تعادل فى الجيوش الحديثة كلمة السر .

خسائر الطرفين

١ - المسلمون :

استشهد أربعة عشر مسلماً : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

٢ - المشركون :

قتل سبعون رجلا وأسر سبعون أيضاً

أسباب انتصـــار المســلمين

١ - قيادة موحدة :

كان الرسول هو القائد العام فى معركة « بدر » وكان المسلمون يعملون يداً واحدة تحت قيادته : يوجههم فى الوقت الحاسم للمحل الحاسم للقيام بعمل حاسم ، وهذا هو واجب القائد الكفء .

وكان ضبط المسلمين فى تنفيذ أوامر قائدهم مثالاً رائعا للضبط الحقيقى المتين ، وإذا كان الضبط أساس الجندية ، وإذا كان الجيش الممتاز هو الذى يتحلى بضبط ممتاز ، إذا كان الأمر كذلك ، فقد كان جيش المسلمين جيشاً ممتازاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان .

إن معنى الضبط فيما أرى ، هو طاعة الأوامر وتنفيذها بحرص وأمانة وعن طيب خاطر .

وقد كان المسلمون ينفذون أوامر قائدهم بحرص شديد وأمانة نادرة ، وبشوق وطيب خاطر عظيمين ، ومن حقهم أن يفعلوا ذلك ، لأن قائدهم يتحلى بصفات القائد المثالى .

صبر فى الشدائد ، وشجاعة نادرة فى المواقف الحرجة ، ومساواة لنفسه بأصحابه ، واستشارتهم فى كل عمل حاسم ، وأخذه بالمشورة .

رأى الخطر محدقاً بأصحابه قبل المعركة ، لأنهم قليلون وقريش تفوقهم عَدَدًا وعُدَدًا .. فقابل ذلك بالصبر والتوكل على الله ، وشجع أصحابه على الصبر فى القتال .

وعندما اشتدت المعركة نزل يخوضها بنفسه ، وحسبك شهادة على بن أبى طالب سيد الشجعان حيث يقول : « إنا كنا إذا اشتد الخطب واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم « بدر » ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدو »[1].

ولم يؤثر نفسه بمال أو راحة على أصحابه ، وقد رأيت كيف ساوى نفسه مع أصحابه حتى فى أعقاب الإبل والمشى على الأقدام .

وشاور أصحابه حين بلغه خبر خروج قريش ، وسمع رأى المهاجرين والأنصار فى لقاء المشركين وقبل

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد (٧٩) .

مشورة أحد أصحابه فى تبديل معسكره فى بدر حين نزل بأدنى ماء منها ، فانتقل بالمسلمين إلى حيث أشار الحباب ، وغور القلب وبنى حوضاً على القليب الذى أتاه .

واستشار المسلمين فى أمر الأسرى بعد المعركة ، وعمل بالرأى الذى ابداه أبو بكر ومشايعوه .

تلك مزايا القائد المثالى فى كل زمان ومكان .

ولابد للقائد من مقر يسيطر منه على المعركة فبنى العريش فوق رابية مشرفة على ساحة المعركة وكان لمقره حرس بإمرة أمر مسئول .

كل ذلك جعل المسلمين يقاتلون كرجل واحد ، لغاية واحدة ، بقيادة قائد واحد ، هذا عامل مهم من عوامل النصر فى كل حرب ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾(1).

أما المشركون فلم يكن لهم قائد عام ، كان أكثر سراة قريش مع قوات المشركين ، ولكن البارزين من هؤلاء على ما يظهر هما رجلان : عتبة بن ربيعة ، وأبو جهل .

وقد رأيت كيف أنهما لم يكونا على رأى واحد ، ولم يكن لهما هدف واحد ، بل إنهما كانا أقرب إلى العداوة منهما إلى الإخاء .

لذلك ، فقد طغت الأنانية الفردية على المصلحة العامة أثناء القتال ، وحاول كل رجل من رجالات قريش أن يظهر نفسه بطلا لتتحدث العرب عنه ، دون أن يكترث بأثر ذلك على نتائج المعركة .

٢ – تعبئة جديدة :

طبق الرسول ﷺ فى « مسير الاقتراب » من المدينة إلى بدر تشكيلا لا يختلف بتاتاً عن التعبئة الحديثة فى حرب الصحراء ، كانت له مقدمة ، وقسم أكبر ، ومؤخرة ، واستفاد من دوريات الاستطلاع فى الحصول على معلومات وتلك هى الأساليب الصحيحة لتشكيلات سير الاقتراب فى حرب الصحراء ، حتى فى العصر الحاضر .

أما فى المعركة فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف ، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكر والفر ، ولابد لنا من بيان الفرق بين الأسلوبين ، لمعرفة عامل من أهم عوامل انتصار المسلمين ، القتال بأسلوب الكر والفر ، هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم على العدو ، النشابة منهم ، والذين يقاتلون بالسيوف ، ويطعنون بالرماح ، مشاة وفرساناً ، فإن صمد لهم العدو أو أحسوا بالضعف نكصوا ، ثم أعادوا تنظيمهم ، وكروا ، وهكذا يكرون ويفرون ، حتى يكتب لهم النصر أو الفشل .

والقتال بأسلوب الصفوف يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة أو أكثر على حسب عددهم ، وتكون الصفوف الأمامية من المسلمين بالرماح ، لصد هجمات الفرسان ، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من

(١) الآية ٧ من سورة محمد .

المسلحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الأعداء ، وتبقى الصفوف فى مواضعها بسيطرة قائدها إلى أن يُفقِد زخم المهاجمين بالكر والفر شـدته ، عند ذاك تتقدم الصفوف متعاقبة بالزحف على العدو .

يظهر من ذلك أن أسلوب الصفوف يمتاز على أسلوب الكر والفر بأنه يؤمن الترتيب بالعمق ، فتبقى دائما بيد القائد قوة احتياطية يعالج بها المواقف التى ليست بالحسبان ، كأن يصد هجوماً مقابلا للعدو ، أو يضرب كميناً لم يتوقعه ، أو أن يحمل أجنحته التى يهددها العدو بفرسانه أو بمشاته ثم يستثمر الفوز بالاحتياط من الصفوف الخلفية عند الحاجة .

إن أسلوب الصفوف يؤمن السيطرة على القوة بكاملها ، ويؤمن احتياطاً للطوارىء ، ويصلح للدفاع والهجوم فى وقت واحد .

أما أسلوب الكر والفر فيجعل القائد يفقد السيطرة ، ولا يؤمن له أى احتياط للطوارىء .

إن تطبيق الرسول ﷺ لأسلوب الصفوف فى معركة بدر عامل مهم من عوامل انتصاره على المشركين .

والتاريخ العسكرى يحدثنا بأن سر انتصار القادة العظام كالإسكندر ،وهانيبال قديما ، ونابليون ، وملتكه ، وروميل ، وروتشيلد حديثا ، هو أنهم طبقوا أسلوباً جديداً فى القتال غير معروف ، أو قاتلوا بأسلحة جديدة غير معروفة .

استعرض الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال ، فعندما رآهم يتزاحمون ، ويدنو بعضهم من بعض ، جعلهم صفوفاً ، وأخذ يعدل صفوفه ، وبعد ذلك خطبهم حاثاً لهم على الجهاد ، وأمرهم أن يصدوا هجوم العدو وهم مرابطون فى مواقعهم ، وذلك بتسديد النبال إلى صدور العدو ، كما أمرهم ألا يحملوا إلا بأمر منه ، فلما تهاوت رجال قريش ، وضعف زخم هجومهم ، أصدر إلى المسلمين أمره بالهجوم ، ثم بالمطاردة بعد انهزام المشركين .

لقد سيطر الرسول ﷺ على الصفوف فى دفاعها وهجومها ومطاردتها ، حتى لم يتقدم أحد للمبارزة إلا بأمر منه ، ولم يقم المسلمون بأى عمل إلا بأمر منه ، وبذلك أمن السيطرة والاحتياط اللازم تماماً ، كما فى الحرب الحديثة .

لقد طبق الرسول ﷺ أسلوباً جديداً فى القتال ، فانتصر .

٣ – عقيدة راسخة :

رأيت كيف كان جواب المهاجرين والأنصار للرسول ﷺ حين استشارهم فى قتال قريش .

لقد علم المسلمون بأن قريشاً تفوقهم فى العدد والعُدَد ، وأن عدد قوات قريش ثلاثة أمثال عدد المسلمين ، ومع ذلك اعتزموا على الصمود إلى النهاية . كما علموا أن قافلة قريش فاتتهم ، فلم يبق هناك كسب مادى يرجونه ، ومع ذلك صمموا على القتال .

لقد كانت للمسلمين أهداف معينة يعرفونها ويؤمنون بها ، هى أن تترك الحرية الكاملة لهم لبث دعوتهم ، حتى تكون كلمة الله هى العليا .

فما هى أهداف قريش من حربها ، إلا أن تنحر الجزور ، وتطعم الطعام ، وتشرب الخمر ، وتعزف القيان ، فتسمع العرب بمسيرها ، فيهابونها أبداً بعدها ، كما قال أحد زعمائهم وهو أبو جهل .

وهل تستطيع تسمية ذلك أهدافاً أم ذلك طيش وغرور وعصبية جاهلية ؟

فى هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء ، والإخوة بالإخوة . خالفت بينهم المبادىء ، ففصلت بينهم السيوف .

كان أبو بكر مع المسلمين . وكان ابنه عبد الرحمن مع المشركين . وكان عتبة بن ربيعة مع قريش ، وكان ولده أبو حذيفة مع المسلمين .

وعندما استشار الرسول ﷺ عمر بن الخطاب فى مصير الأسرى ، قال عمر : « أرى أن تمكننى من فلان – قريب عمر – فأضرب عنقه ، وتمكن علياً من عقيل بن أبى طالب فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين ، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم » .

فما الذى يدفع لمثل هذا القول إلا عقيدة راسخة ، وإيمان عظيم ، وهل يستطيع الذين لا عقيدة لهم ، ولا تحمل صدورهم إلا أهواء الجاهلية ، وعصبية الأنانية ، وحب الظهور أن يقاتلوا فى بسالة وشجاعة كما يقاتل أمثال هؤلاء من أصحاب اليقين الثابت ، والعقيدة الراسخة .

٤ – معنويات عالية :

شجع الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال وأثناءه ، وقوى عزائمهم ومعنوياتهم ، حتى لا يكترثوا بتفوق قريش عليهم بالعدد ، ولم تكن معنويات الكبار الذين مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين هى العالية فحسب ، إنما كانت معنويات الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حرباً ولا قتالا ، عالية أيضا .

قال عبد الرحمن بن عوف .

« إنى لفى الصف يوم بدر إذا التفتّ فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن فكأنى لم آمن بمكانتهما إذ قال لى أحدهما سراً من صاحبه : يا عم أرنى أبا جهل . فقلت : يا ابن أخى ما تصنع به ؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه » .

« وقال لى الآخر سراً من صاحبه مثله ، فأشرت لهما إليه فشدا عليه مثل الصقرين : فضرباه حتى قتلاه »

وقد استشهد هذان البطلان فى بدر ، وهما ابنا عفراء : عوف بن الحارث الخزرجى الأنصارى ،

ومعوذ بن الحارث الخزرجى الأنصارى .

فإذا كانت معنويات الفتيان الأحداث بهذا المستوى الرفيع ، فكيف تكون معنويات الرجال ؟!

لقد أثبتت كافة الحروب فى كافة أدوار التاريخ أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية ، لنيل النصر ، ما لم يتحل المقاتلون بالمعنويات العالية بالإضافة إلى كل ذلك .

لقد كان تنظيم وتسليح الإيطاليين فى الحرب العالمية الثانية ممتازاً، كما كان عددهم ضخماً ، فلم يغن عنهم كل ذلك لأن معنوياتهم كانت منهارة ، ولذلك كانوا عبئاً ثقيلاً على حلفائهم الألمان فى كل معركة اشتركوا فيها معهم ، بل كان الحلفاء يعتبرون المناطق التى تشغلها القوات الإيطالية فراغا عسكريا لا يكترث به .

إن المعنويات القتالية التى كان يتحلى بها المسلمون فى بدر من أهم أسباب نصرهم فى تلك المعركة الحاسمة .

لقد كانت معركة بدر صراعاً حاسماً بين عقيدتين ، فانتصرت العقيدة التى تستحق البقاء على العقيدة التى لا تستحق البقاء .

دروس من بدر

١ – الاستطلاع :

استفاد الطرفان من دوريات الاستطلاع فى الحصول على المعلومات ، ليحولوا دون مباغتتهم ، وكان حصول الطرفين على المعلومات عن القوات ومواقعها عن الأرض جيداً مفيداً . وقد ظهرت لنا فائدة استنطاق الأسرى الذى أجراه الرسول ﷺ مع غلامى قريش قبل المعركة فى معرفة عدد قوات قريش ، كما كان استنتاج أبى سفيان من فحصه روث ركائب المسلمين اللذين استطلعا موقع بدر ، ومعرفته هويتهما رائعا حقاً .

إن تشبث الطرفين بالحصول على المعلومات حرم الطرفين من مبدأ المباغتة فى الزمان والمكان ، فلم يستفد أحد الطرفين من هذا المبدأ الحيوى فى هاتين الناحيتين أو فى إحداهما على الأقل ، فى هذه المعركة .

٢ – القيادة :

برزت مزايا الرسول ﷺ فى القيادة بمعركة بدر الشجاعة ، وضبط الأعصاب وعقد المؤتمرات الحربية قبل وأثناء وبعد المعركة ، ومساواة أصحابه مع نفسه بكل شىء كما طبق الرسول القائد لأول مرة شروط انتخاب المقر الملائم للمعركة ، وأمّن حراسته .

٣ – الضبط والمعنويات والعقيدة :

ظهر بوضوح أثر الضبط المتين ، والمعنويات العالية ، والعقيدة الراسخة ، فى انتصار المسلمين على قريش ، وستبقى هذه المزايا حيوية لكل انتصار فى كل حرب .

٤ – القضايا التعبوية :

(أ) **فى مسير الاقتراب** : كانت ترتيبات المسلمين فى مسير الاقتراب ملائمة جداً : مقدمة ، وقسم أكبر ، ومؤخرة ، وراية لكل من المهاجرين والأنصار ، وراية عامة للقوات كلها ، كما كانت دوريات الاستطلاع أمام الرتل تحول دون مباغتته ، وهى تزوده بالمعلومات عن قريش .

إن ترتيبات المسلمين فى مسير الاقتراب تشابه تماماً ترتيبات القوات النظامية الحديثة فى مسير الاقتراب فى حرب الصحراء .

(ب) **فى القتال** : استخدم المسلمون لأول مرة « أسلوب الصف » فى قتالهم ضد قريش ، بينما جمدت قريش على أسلوب الكر والفر ، وبذلك استطاع الرسول السيطرة على قواته ، والاحتفاظ باحتياط للطوارىء .

لقد باغت الرسول ﷺ قريشاً فى قتاله بأسلوب « الصف » والمباغتة بالأسلوب من مزايا القائد العبقرى .

لقد كان أسلوب الصف فى القتال أسلوباً جديداً بينما كان أسلوب الكر والفر أسلوباً بالياً .

(ج) **كلمة التعارف** : كانت كلمة التعارف فى القتال بين المسلمين أحد .. أحد ، وبذلك استطاعوا أن يتعارفوا فى المعركة وهذا الأسلوب متبع فى المعارك الحديثة .

إن ظروف المعركة ليست ظروفا اعتيادية ، ومن الضرورى أن يكون هناك أسلوب واضح للتعارف بين المقاتلين، خاصة وأن المسلمين والمشركين حينذاك كانوا يتشابهون فى كل شيء : فى الأشكال ، والقيافة ، وفى التسليح ، والتنظيم مما يزيد أهمية كلمة التعارف ، ويجعل لها قيمة أعظم مما لو كان الطرفان المتحاربان يختلفان فى أشكالهم ، وقيافتهم ، وتسليحهم ، وتنظيمهم .

٥ – القضايا الإدارية :

(أ) **الأرزاق** : كان المشركون ينحرون بين تسعة من الإبل وعشرة يوميا لتأمين الطعام الحار للمقاتلين ، وكانت هذه الإبل تقدم من سراة قريش .

أما المسلمون فقد كانوا يكتفون غالباً بالتمر والسويق لأن حالتهم الاقتصادية كانت ضعيفة حينذاك .

(ب) **الماء** : بنى المسلمون حوضاً للماء فى (بدر) وملأوه بالماء واستفادوا منه يوم القتال ، أما بقية مياه بدر فغوروها ، لئلا يستفيد منها المشركون ، أما المشركون فكانوا محرومين من الماء يوم القتال مما جعل شجعانهم يحاولون اقتحام حوض المسلمين . فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلا .

لقد كان لنقص الماء عند المشركين يوم القتال أثر كبير فى اندحارهم .

(ج) **الغنائم** : جمع الرسول ﷺ غنائم المعركة وقسمها بالتساوى بين المسلمين من أهل بدر ، ومن

عاونهم على إحراز النصر : جعل للفارس سهمين يستعين بالسهم الزائد على إعاشة فرسه ، وإعدادها للحرب ، وجعل للراجل سهما واحداً ، وجعل للورثة حصة من استشهد ببدر ، وجعل حصة لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد (بدراً) لأنه كان قائما بعمل المسلمين ، وبقى فى المدينة ، بأمر الرسول ، ولمن حرضه حين الخروج إلى بدر وتخلف لعذر قبله الرسول .

إن النصر فى الحرب لا يحرزه المقاتلون فقط ، بل يتعاون على إحرازه المقاتلون فى الخطوط الأمامية ، والعاملون فى الخلف ، لتهيئة أسباب النصر للمقاتلين ، لذلك لم ينس الرسول ﷺ العاملين فى الخلف **حين قسم الغنائم** بين الناس .

(د) الأسرى

أولاً : أمر الرسول ﷺ بقتل أسيرين لشدة عداوتهما للمسلمين حريصين على التنكيل بهم شديدين فى إيذاء المستضعفين منهم وكانا من ألد خصوم الدعوة .

ثانيا : أما الأسرى الباقون وعددهم ثمانية وستون فقد وزعهم الرسول ﷺ على صحابته قائلا « استوصوا بالأسارى خيراً » .

ثم فادى الأغنياء الأسرى بالمال فكان الواحد منهم يدفع ما بين الألف درهم إلى الأربعة آلاف ، أما فقراء الأسرى فأطلق سراح بعضهم دون مقابل ، كما كلف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة ثم أطلق سراحهم بعد تعليم هؤلاء الأطفال .

(و) القتلى والجرحى :

حفر المسلمون قليباً دفنوا فيه قتلى المشركين وهذا ما يطابق تعاليم الحرب الحديثة فى وجوب دفن قتلى الأعداء .

كما اعتنى المسلمون بجرحى المشركين فضمدوا جراحاتهم أسوة بجرحى المسلمين .

(ز) التهذيب :

استفاد المسلمون من الأسرى المتعلمين تعليم أطفالهم ، فكان هؤلاء الأطفال النواة الأولى لكتاب الوحى ، ولحملة الثقافة الإسلامية فيما بعد .

الاستغاثة بالله

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ
إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ
يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ

رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ
أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ
وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ
فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ **تستغيثون ربكم** ﴾ : استغاث طلب الغوث والمعونة ليخلص من شدة . ﴿ **ممدكم** ﴾ : ناصركم ومعينكم . ﴿ **مردفين** ﴾ : متبعين بعضهم بعضاً مأخوذ من أردفه إذا أركبه وراءه . ﴿ **يغشيكم** ﴾ : المراد يجعله عليكم كالغطاء من حيث اشتماله عليكم . ﴿ **النعاس** ﴾ : فتور فى الأعصاب يعقبه النوم فهو مقدمة له . ﴿ **رجز الشيطان** ﴾ : الرجز والركس الشيء المستقذر والمراد وسوسة الشيطان . ﴿ **وليربط على قلوبهم** ﴾ ليثبتها ويوطنها على الصبر . ﴿ **الرعب** ﴾ : الخوف الكثير . ﴿ **فوق الأعناق** ﴾ : المراد الرءوس (بنان) هو أطراف الأصابع من اليدين والرجلين والمراد الأيدى والأرجل . ﴿ **شاقوا** ﴾ : خالفوا وعادوا إذ هم أصبحوا فى شق وناحية والرسول فى شق وناحية .

سبب النزول :

روى عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف أو يزيدون فاستقبل النبى ﷺ القبلة ، ثم مد يده وجعل يهتف بربه « اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض » فما زال يهتف بربه ماداً يديه مستقبلا القبلة حتى سقط رداؤه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه وقال : كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله الآية .. وفى رواية فخرج رسول الله وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[1] .

اذكروا يا أمة محمد وقت استغاثتكم ربكم قائلين أى ربنا انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين ، أغثنا والمراد بالذكر تذكير لهم بالنعم ليشكروا ، وقد استغاث النبى ﷺ كذلك كما روى ، وبذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال وملاقاة النفير من قريش أخذوا يدعون الله ويستغيثون .

واعلم أن النصر فى الحروب إنما يرجع إلى أسباب حسية ومعنوية إن تحققت جاء النصر من الله : والله سبحانه هو الموفق لسلوك أسباب النصر أو أسباب الهزيمة والنبى ﷺ يعلم ذلك ، وأن لله سننا مع خلقه لا تتخلف ، وأن عنده آيات يؤيد بها رسله ، ولكنه لما رأى ضعف المسلمين وقلة عددهم وتهيبهم

(١) الآية ٤٥ من سورة القمر .

من القتال ، استغاث الله ليوفقه إلى سنن النصر ، ويؤيده فتقوى الروح المعنوية فيتحقق النصر ، وقد استغاث الصحابة كما استغاث ، ولقد استجاب الله الدعاء وأمدهم بألف من أعيان الملائكة يردف بعضهم بعضا حتى يتحقق قوله فى سورة آل عمران ﴿ بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ﴾[١] : ﴿ بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾[٢] وماجعل الله ذلك المدد الإلهى إلا بشرى بأن النصر لكم ، وأن الله معكم ، ولتسكن قلوبكم . ويهدأ روعكم فتلقون الأعداء ثابتين مطمئنين .

واعلموا أن النصر من عند الله لا من عند غيره أبداً ، وأن الله عزيز لا يغالب حكيم فى كل صنع .

وهل الملائكة قاتلت بالفعل كما ورد فى بعض الروايات ؟ أو هى قوة معنوية وتكثير للسواد ولم يحاربوا ، بل ثبتت قلوب المسلمين ، وقويت روحهم المعنوية بهم ، الله أعلم على أن المتفق عليه أنهم لم يقاتلوا يوم أحد ، لأن الله علق النصر على الصبر والتقوى ولم يحصلا .

واذكروا إذ ألقى الله عليكم النعاس حتى غشيكم كما روى البيهقى عن على كرم الله وجهه قال : « ما كان فينا إلا المقداد ، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت الشجرة حتى أصبح » .

ولاشك أن النعاس يزيل الخوف ومن دلائل الأمن والطمأنينة والوثوق بالنصر .

ولقد نزلوا فى بدر منزلاً فى كثيب (تل) أعفر تسوخ فيه الأقدام ، وليس فيه ماء ، وقد احتلم بعضهم ليلا ، ولما أصبحوا ظمئوا وصلوا مجنبين محدثين ، وكان المشركون على الماء فوسوس لهم إبليس وقال لو كنتم على حق وفيكم نبى لما صليتم بجنابة وبغير وضوء ، ولما كنتم عطاشى وهم على الماء . فأنزل الله مطراً كان على المشركين وابلا شديداً ، وكان على المسلمين طلا خفيفا طهرهم من الرجس والدنس ، والجنابة والحدث وقضى على وسوسة الشيطان وأصبحوا يطئون الرمل بسهولة ، فثبتت أقدامهم ، وسكنت قلوبهم ، وسبق رسول الله وأصحابه إلى الماء فنزلوا عليه ، وصنعوا الحياض ثم غوروا ما عداها من المياه وبنى لرسول الله عريش على تل مشرف على المعركة .

واذكروا إذ يوحى ربك إلى الملائكة بالإلهام أنى معكم معية إعانة ونصر وتأييد . فثبتوا قلوب المؤمنين ، وقووا عزائمهم ، وذكروهم وعد الله ورسوله ، وأنه لا يخلف الميعاد .

وقد روى أن الملائكة كانت تسير بين الصفوف وتبشرهم بالنصر إنا معكم ، سنلقى فى قلوب الكافرين الرعب . فاضربوا رءوسهم التى فوق الأعناق واقطعوها ، واقطعوا أيديهم التى طالما عصت الله .

ذلك النصر المؤزر للنبى وصحبه ، وذلك الخذلان والهزيمة للمشركين بسبب أنهم عادوا الله ورسوله ، وأصبحوا فى شق والرسول فى شق ، وهل تستوى الظلمات والنور ؟

(١) الآية ١٢٤ من سورة آل عمران . (٢) الآية ١٢٥ من سورة آل عمران .

ومن يعاد الله ورسوله فإن له فوق الهزيمة والألم والخزى فى الدنيا عذاباً شديداً ، فإن الله شديد عقابه سريع حسابه .

توجيهات حربية للمؤمنين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ
دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ
مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن
تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ
فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ **زحفاً** ﴾ : زحف إذا مشى على بطنه كالحية أو دب على مقعده كالصبى أو مشى بثقل فى الحركة واتصال وتقارب خطو ، والعسكر المجتمع كأنه شخص واحد إذا تحرك يبدو أنه بطىء زاحف والواقع أنه سريع . ﴿ **الأدبار** ﴾ جمع دبر وهو ما يقابل القبل ويطلق على الظهر والمراد الهزيمة . ﴿ **متحرفاً** ﴾ : تحرف وانحرف مال إلى حرف أى إلى جانب . ﴿ **متحيزاً** ﴾ : منحازاً إلى جماعة أخرى أى منضما إليها . ﴿ **ليبلى المؤمنين** ﴾ البلاء الاختبار بإعطاء النقم لاختبار الصبر ، والنعم لاختبار الشكر ، والمراد هنا الابتلاء بالنعم . ﴿ **تستفتحوا** ﴾ : أن تطلبوا الفتح والنصر فى الحرب والفصل فى الأمر .

يا أيها الذين آمنوا بالله ، وصدقوا به وبرسوله ، يجب عليكم إذا لقيتم الذين كفروا فى ميدان الحرب حالة كونهم كالزاحفين على أدبارهم فى بطء السير ، إذ الجيش إذا كثر عدده يرى فى سيره بطيئاً والواقع أنه سريع ، وقد زحف الكفار على المسلمين يوم أن انتقلوا من مكة إلى بدر ، فيجب عليكم والحالة هكذا ألا تولوهم الأدبار ، وألا تفروا منهم مهما كثر عددهم وأنتم قلة بل اثبتوا وقاتلوا فالله معكم عليهم ، وقد خص بعض العلماء هذا إذا كان الكفار لا يزيدون على الضعف ومن يولهم يومئذ دبره فى القتال ، ومن يفر منهم ويجبن عن قتالهم فعليه غضب من الله ومأواه جهنم .

فالفرار من الزحف إذا التقى الجيشان كبيرة من الكبائر ، كما ورد فى الحديث يستحق صاحبها الغضب الشديد والعذاب الأليم ، إلا رجلا منحرفا من مكان إلى مكان رآه أصلح فى ضرب العدو ، أو أراد أن يوهم العدو أنه يفر حتى يستدرجه بعيداً عن صحبه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فتلك من خدع

الحرب المحبوبة ، أو رجلا منتقلا من جماعة إلى جماعة أخرى رأى أنها فى حاجة إليه ، فيشد أزرهم ، ويقوى عزمهم .

يا أيها الذين آمنوا إذا حاربتم الكفار فلا تولوهم ظهوركم أبداً ، ولا تفروا منهم ، فأنتم أولى بالثبات والشجاعة ، فأنتم تطلبون إحدى الحسنيين ، وقد وعدكم الله بالنصر .

انظروا إلى ما حصل فى غزوة بدر ، قد نصركم الله بها وأنتم قلة فى العدد ، وما كان ذلك إلا بتأييد الله ، وتثبيت قلوبكم ومدكم بالملائكة ، وبإلقاء الرعب فى قلوب أعدائكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذى كسر شوكتهم فى الواقع ، ولكن الله قتلهم بأيديكم ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾[1] .. الآية .

ولقد كان من المسلمين بعد أن رجعوا من غزوة بدر ، افتخار كثير ، فكان الواحد يقول : أنا قتلت ، أنا أسرت ، فعلمهم الله أن ذلك فخر كاذب لا يليق ، ووجههم توجيها حسناً حتى يلجئوا إليه ، ويعتمدوا عليه وحده فقال : ﴿ **فلم تقتلوهم** ﴾ بقوتكم ﴿ **ولكن الله قتلهم** ﴾ بتأييده ونصره وإنزال الملائكة وإلقاء الرعب وهو على كل شىء قدير .

روى أنه لما طلعت قريش قال رسول الله ﷺ : « هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها يكذبون رسولك اللهم إنى أسألك ما وعدتنى فأتاه جبريل فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فرمى بها وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه » .

وما رميت يا محمد حين رميت الحصى ، ولكن الله رمى ، وهذا ظاهره التناقض ، ولكن المعنى وما رميت يا محمد فإنه الأثر الذى حدث من قبضة التراب التى رميتها أثر كبير ، حيث وصل إلى عيون الجيش كله ، وهذا لا يمكن أن يكون من بشر وإن تكن أنت الذى رميت فى الظاهر فصورة الرمى للرسول ﷺ وأثر الرمى وما حدث منه لله سبحانه وتعالى .

فعل الله ذلك كله لتقام حجته على الكفار بتأييد رسوله ونصره على عدوه ، وإن اختلفت الإمكانيات الحربية ، وليعطى المؤمنين الذين فارقوا ديارهم وأموالهم عطاء حسناً بالغنيمة والنصر وحسن السمعة ورد الاعتبار ، إن الله سميع لكل قول والتجاء إليه ، عليم بكل نية وعمل ، ذلكم القتل والرمى والإعطاء حق من الله تعالى موهن كيد الكافرين ومكرهم بالنبى ﷺ وصحبه وأنهم يريدون القضاء على الدعوة قبل أن يشتد أمرها ، وذلك كله حق فقد رد كيدهم فى نحورهم ، ورجعوا مهزومين مطرودين .

روى أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتى بما لا يعرفون فأمته الغداة . فكان ذلك منه استفتاحاً .

وروى أنهم تعلقوا بأستار الكعبة قبل خروجهم وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين ، فأجابهم الله بقوله استهزاءاً بهم وتوبيخاً لهم على عملهم وتعجبا من حالهم .

(١) الآية ١٤ من سورة التوبة .

﴿ **إن تستفتحوا** ﴾ أيها الكفار فقد ﴿ **جاءكم الفتح** ﴾ وهذا منتهى التهكم إذ جاءهم الهلاك والذلة ، ﴿ **وإن تنتهوا** ﴾ وتسلموا وتتركوا عداوة النبى ﷺ ﴿ **فهو خير لكم** ﴾ وأجدى ، وإن تعودوا إلى محاربته نعد نحن إلى نصره وهزيمتكم ، ولن تغنى جماعتكم وقوتها شيئا ولو كثرت ﴿ **وأن الله مع المؤمنين** ﴾ بالنصر والتأييد والتوفيق إلى سلوك طريق النجاح والفلاح ، والعاقبة للمتقين .

تحذير من مخالفة الدين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ **الصم** ﴾ : الصمم عدم السمع والأصم الأطرش . ﴿ **البكم** ﴾ : البكم عدم الكلام والأبكم الأخرس . ﴿ **الدواب** ﴾ : جمع دابة وهى ما تدب على الأرض والغالب استعمالها فى الحشرات والدواب التى تحمل على ظهرها وإذا أريد منها الإنسان كان المقصود الاحتقار .

يا أيها الذين اتصفتم بالإيمان ، أطيعوا الله ورسوله فيما أمر أو نهى ، ولا تعرضوا عن الأمر بالجهاد وبذل المال وغيرهما ، والحال أنكم تسمعون المواعظ والزواجر فى القرآن والحديث .

وإياكم أن تكونوا كالذين قالوا سمعنا ، والحال أنهم لا يسمعون أبدا ، إن شر المخلوقات عند الله من لا يصغى بسمعه إلى الحق فيتبعه ، ويعتبر بالموعظة الحسنة فيعمل بها ، فإن من لا يستخدم جهاز السمع فيما خلق له كان كأنه فاقد له فهو أصم عن الحق والخير والهدى والفلاح والبكم الذين لا يقولون الحق . ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا حاسة الكلام ، والذين لا يعقلون الفرق بين النور والظلام ، والهدى والضلال ، والإسلام والكفر .

إذ لو استخدموا عقولهم ، وأبعدوا عنها ذل التقليد وحمى العصبية الجاهلية لعقلوا المنفعة ، وأدركوا الصالح المفيد ، ولكنهم كالبهائم لا يعقلون .

ولو علم الله فيهم الميل إلى الخير والسداد والاستعداد إلى الإيمان والهدى ، ولم تفسد فطرتهم بسوء القدوة وفساد التربية ، لأسمعهم بتوفيقه سماع تدبر ، ووفقهم لكلامه وكلام رسوله ، ولكنه لو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ، فهم لا خير فيهم أصلاً ، ومن يلق إليه شىء لا يخلو من واحدة من أربع .

١ - معاند لا يسمع أبداً بل يجعل أصابعه فى أذنيه .

٢ - منافق يسمع أبداً ويتظاهر بالقبول ساعة الحضور ، ثم هو لا يتدبر ولا يفهم شيئاً .

٣ – يستمع ليتسقط العيوب ويتلمس السقطات .

٤ – يسمع فيهتدى بنور الحق وهم الفئة المؤمنة الموفقة المهدية إلى يوم القيامة .

فيا أيها المسلمون اسمعوا القرآن ، وتدبروا معناه ، واهتدوا بهديه ، ولا تسمعوه تسلية أو تعزية أو تبركاً فقط .

الإستجابة لداعى القرآن

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ناداهم الله بوصف الإيمان الذى يوجب الامتثال والاستجابة ، ثم أمرهم بأن يستجيبوا لله ولرسوله ، وذلك بالطاعة والامتثال إذا دعاهم لما يحييهم ، وحثهم على الخير لهم ، وحرضهم على ما به يسعدون فى الدنيا والآخرة .

وقد دعانا الرسول للإيمان والقرآن والهدى والجهاد ، ومن حرم من هذا فهو ميت لا حياة فيه . ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾(١) فخذوا ما آتاكم الرسول بقوة وعزم ونشاط وجد فالخير فيه ، وسعادة الدارين معه .

واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ويفصل بينهما ، والمعنى أن المسلم يجب ألا يغتر بعمله وطاعته ، وألا يأمن مكر الله ولو كانت إحدى رجليه فى الجنة ، فالقلوب بين أصابع الرحمن ، والله يحول بين المرء وقلبه ، فالواجب عليه دائماً أن يغذى قلبه بالعمل ، ويجلوه بالذكر ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٢) .

والواجب على المسلم العاصى ألا ييأس من روح الله ، فالله يحول بين المرء وقلبه ، وعلينا أن نسرع دائما فى الخير ولا نألوا جهداً فى تحصيله ، فالله يحول بين المرء وقلبه ، فيموت قبل قفل أبواب الخير أو التوبة الصادقة .

وعلينا أن نحذر خطرات القلوب وأمراضها فالله عليم بذات الصدور ، وهو يفصل بين المرء وقلبه ، ومن كان كذلك فهو أقرب إلى الله من حبل الوريد .

(١) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

﴿ **واعلموا أنكم إليه تحشرون** ﴾ فأسرعوا فى العمل ، وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وأعدوا العدة ليوم الحشر .

واتقوا فتنة لا تصيبن الظالمين خاصة ، بل تعمهم وغيرهم ، كالفتن القوية التى تهز كيان الأمة وتزعزع أركانها ، كفتنة الملك والسيادة أو الخلافات السياسية وما يتبعها من أحزاب وانقسام . وكالأحزاب الدينية ، وكظهور البدع ، والكسل عن الجهاد ، أو ظهور المنكرات مع إقرارها ، والالتواء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فهذه فتن لا تصيب أصحابها فقط ، بل تلتهم نيرانها الأمة جميعاً إذ هم بين رجلين ، رجل اشترك فى الإثم ، ورجل سكت عنه ولم يمنعه ، فهو كالمشترك معه .

انظروا إلى الفتن التى لاحقت الإسلام فى العصر الأول كفتنة عثمان ، وحادثة الجمل ، ومقتل الحسين ، وغيرها ، وكيف كان أثرها .

واعلموا أن الله شديد العقاب على من خالف أمره ، فهو معاقبه فى الدنيا والآخرة ، واذكروا أيها المهاجرون ، وقيل الخطاب لجميع المؤمنين فى عصر التنزيل ، واذكروا وقت أن كنتم قلة مستضعفين فى مكة ، والمشركون معكم بحولهم وطولهم يذيقونكم سوء العذاب ، وأنتم تخافون أن يأخذوكم بسرعة قاطعة كما كان يتخطف بعضهم بعضاً خارج الحرم ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم** ﴾ .

﴿ **فآواكم** ﴾ أيها المهاجرون إلى الأنصار . ﴿ **وأيدكم بنصره** ﴾ وبما أرسل لكم من الملائكة ووفقكم لسبل النجاح ، وبما ألقى فى قلوب أعدائكم من الرعب والخوف ، والله رزقكم من الطيبات رزقا حسنا ، رجاء أن تقوموا بالشكر .

وفى الآية عبرة وعظة لنا فالله يعامل أولياءه ، وأحبابه من المؤمنين إذا امتثلوا أمره بهذا ، أى يؤويهم ويؤيدهم وينصرهم على أعدائهم ، ويجعلهم أعزة وملوكاً ، ويرزقهم من طيبات الرزق ، كل ذلك رجاء قيامهم بالشكر ، فإن شكروا زادهم الله ، وإن لم يشكروا ولم يمتثلوا كما هو حال المسلمين اليوم أصبحوا أذلة فى ديارهم ، مستعبدين فى أوطانهم ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

الخيانة من صفات المنافقين

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

المفردات : ﴿ **لا تخونوا** ﴾ : الخيانة والخون يدلان على النقص واخلاف ما كان يرجى ومنه قيل خانه الحظ ، وخانته رجلاه ثم استعمل الخون والخيانة فى ضد الامانة والوفاء . ﴿ **والأمانة** ﴾ : تدل على كل التمام وهى حق مادى أو معنوى يجب عليك أداؤه . ﴿ **فتنة** ﴾ : هى الاختبار والإبتلاء أو المراد بها الإثم والعذاب .

روى أنها نزلت فى أبى لبابة ، وكان حليفا لبنى قريظة من اليهود ، فلما خرج إليهم النبى ﷺ بعد إجلاء بنى النضير ، وحاصرهم حصاراً شديداً دام إحدى وعشرين ليلة ، وقد طلبوا من النبى ﷺ أن يرسل إليهم أبا لبابة ، وكان مناصحاً لهم ، لأن أمواله وعياله فيهم ، فبعثه إليهم فقالوا له : ما ترى ؟ هل ننزل على حكم سعد بن معاذ كما طلب محمد ﷺ ؟ فأشار إلى حلقه أى أن حكم سعد الذبح .. قال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله ، فنزلت الآية ؟ وقد شد نفسه على سارية المسجد ، وأبى الطعام والشراب حتى الموت ، أو يتوب الله عليه ، ومكث سبعة أيام وبعدها تاب الله عليه ، وفك النبى وثاقه .

يا من اتصفتم بالإيمان وتصديق الرحمن ، والاهتداء بالقرآن لا تخونوا الله فتعطلوا فرائضه ، ، أو تنقصوا شيئاً من أحكامه التى بينها لكم فى كتابه ، فإن ذلك خيانة تتنافى مع الإيمان ، ولا تخونوا الرسول فيما أمركم به أو نهاكم عنه ، ولا تخونوه فترغبوا عن بيانه للقرآن فهو أدرى وأقرب فخيانة الله والنبى عبارة عن تعطيل فرائض الدين ، وعدم العمل بأحكامه والاستنان بسنته ، فإن هذا كله نقص لا يليق بالمؤمن المؤتمن على دينه ، على أن الخيانة من صفات المنافقين ، والأمانة من صفات المؤمنين .

ولا تخونوا الأمانة التى فى أيديكم لغيركم ، سواء كانت معاملات مالية أو شئونا أدبية أو سياسية ، أو سراً من الأسرار ، أو عهداً من العهود ، والحال أنكم تعلمون خطر الخيانة وسوء عاقبتها دنيا وأخرى ، وأنتم تعلمون الأمانة ومكانتها ، وقيل المعنى وأنتم تعلمون أن هذا خيانة ، وذلك أمانة كما حصل لأبى لبابة .

واعلموا أن أموالكم وأولادكم فتنة وابتلاء وأى فتنة وابتلاء ؟

إذ المال عند الإنسان شقيق الروح ، يركب الأخطار ، ويتحمل المشاق فى سبيل الحصول عليه فإذا هو أعطى المال ؟ فهل يشكر ويرضى ؟ أم يكفر ويعصى ؟ وإذا حرم منه يصبر ويرضى أم يغضب ويلعن ؟ أليس هو فتنة وابتلاء ؟ على أن المال وحبه الغريزى قد يدفع صاحبه إلى عمل يوقعه فى المهالك والمصائب .

وأما الولد فقطعة من أبويه وفلذة كبدهما ، وثمرة فؤادهما ، وحبه فطرة وطبيعة عند والديه ، ومن ثم يحملهما ذلك على بذل النفس والنفيس فى سبيل راحته وسعادته وقد يؤدى ذلك إلى اقتراف الذنوب والآثام ، وركوب الشطط فى سبيله ، أليست الأولاد فتنة بهذا المعنى وابتلاء ، وقد ورد ﴿ الولد ثمر الفؤاد وإنه مجبنة مبخلة محزنة ﴾[1] أى يدعو إلى ذلك كله .

والواجب على المؤمن أن يتقى الله فى المال فيكسبه من طريق الحلال وينفقه فى سبيل الله ، وعلى العموم يتبع أوامر الدين ، ويخالف نفسه وهواه فإن المال فتنة وابتلاء ، ويتقى الله فى الولد ، فلا يكون حبه داعية من دواعى ارتكابه الإثم والعدوان ويراقب الله فيه فينشئه تنشئة صالحة دينية ، ولا يدفعه حب الولد إلى أن يكون فى جمع المال له كحاطب الليل .

(١) أخرجه ابن ماجه فى الأدب (٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٧٢) وفى (٥ : ٢١١) .

واعلموا أن الله عنده أجر عظيم وخير كثير ، هو خير من الدنيا وما فيها ، فارعوا الأمانة ، ولا تخونوا الله ورسوله .

تقوى الله وأثرها

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿ **إن تتقوا الله** ﴾ : التقوى من الوقاية وهى امتثال الأمر واجتناب النهى لأن هذا يكون وقاية للعبد من النار . ﴿ **فرقاناً** ﴾ : فارقاً بين الحق والباطل .. الخيانة سببها الإفراط فى حب المال والولد غالباً ، وعلاج هذا كله هو التقوى والاعتدال .

يا أيها المؤمنون إن تتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه يجعل لكم فرقاناً ، فيكون المسلم حيث أمره الله ولا يكون حيث نهاه الله ، هذه التقوى إن حصلت لعبد جعل الله له نوراً يمشى به بين الناس ، وحكمة يهتدى بها وعلماً نافعاً وعملا صالحاً ، وهذا كله يجعله يفرق بين الحق والباطل والنافع والضار ، ويهتدى إلى الصراط المستقيم . كيف لا ؟ والمتقرب إلى الله بالنوافل يكون ربانيا ويكون المولى جل شأنه سمعه وبصره ويده ورجله ، أفتراه يضل بعد هذا ؟ ألست معى فى أن التقوى هى السبيل الأقوى ؟ إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ، ويكفر عنكم سيئاتكم السابقة ، ويسترها ويغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات النعيم ، والله سبحانه ذو الفضل العظيم .

تآمرهم على رسول الله

وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾

المفردات : ﴿ **ليثبتوك** ﴾ : أى ليشدوك بالوثاق ويرهقوك بالقيد والحبس،حتى لا تقدر على الحركة . ﴿ **والمكر** ﴾ : هو التدبير الخفى لإيصال المكروه إلى الممكور به من حيث لا يحتسب،والغالب أن يكون فيما يسوء ويذم من الكذب والحيل،وإذا نسب إلى الله كان من المشاكلة فى الكلام بتسمية خيبة المسعى فى مكرهم أو مجازاتهم عليه باسمه . ﴿ **والأساطير** ﴾ : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وأحدوثة وأحاديث وهى الأقاصيص التى سطرت فى الكتب بدون تمحيص ولا تثبت من صحتها .

روى الإمام محمد بن إسحق بن يسار صاحب المغازى عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : وحدثنى الكلبى عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس « أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم إبليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له : من أنت ؟ قال : شيخ من أهل نجد ، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضركم ولن يعدمكم رأيى ونصحى : قالوا : أجل ، ادخل فدخل معهم فقال : انظروا فى شأن هذا الرجل والله ليوشكن أن يواثبكم فى أمركم بأمره . فقال قائل منهم : احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة إنما هو كأحدهم . قال : فصرخ عدو الله الشيخ النجدي فقال : والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم ، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ، قالوا : صدق الشيخ ، فانظروا فى غير هذا . قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع ، وأين وقع إذا غاب عنكم أذاه واسترحتم ، وكان أمره فى غيركم . فقال الشيخ النجدى : والله ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله ، وطلاقة لسانه ، وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه ؟ والله لئن فعلتم ثم استعرض من العرب ليجتمعن عليه ، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم . ويقتل أشرافكم ، قالوا صدق والله فانظروا رأياً غير هذا .

قال : فقال أبو جهل لعنه الله : والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد لا أرى غيره ، قالوا وما هو ؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلاما شابا وسيطا نهداً ثم يعطى كل غلام منهم سيفا صارما ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها ، فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه . قال : فقال الشيخ النجدى : هذا والله الرأى . القول ما قال الفتى لا أرى غيره . قال : فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له .

فأتى جبريل النبى ﷺ فأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله ﷺ تلك الليلة ، وأذن الله عند ذلك بالخروج .

وأنزل الله عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده ﴿ **وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ .

وأنزل فى قولهم : تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾[1] فكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة ، للذى اجتمعوا عليه من الرأى .

(١) الآية ٣٠ من سورة الطور .

وعن السدى نحو هذا السياق وأنزل الله فى إرادتهم إخراجه قوله تعالى ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾[١].

وكذا روى العوفى عن ابن عباس وروى عن مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك .

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق فأقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به ، وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فأمره أن لا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه ، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه فخرج ومعه حفنة من تراب ، فجعل يذرها على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ ، وهو يقرأ ﴿ يس * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين * على صراط مستقيم * تنزيل العزيز الرحيم * لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون * لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون * إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾[٢] .

وقد روى ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال دخلت فاطمة على رسول الله ﷺ وهى تبكى فقال « ما يبكيك يا بنية ؟ » قالت يا أبت ومالى لا أبكى وهؤلاء الملأ من قريش فى الحجر يتعاهدون باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونك ، وليس منهم إلا من قد عرف نصيبه من دمك . فقال « يا بنية ائتنى بوضوء » فتوضأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد ، فلما رأوه قالوا : ها هو ذا ، فطأطأوا رؤوسهم ، وسقطت رقابهم بين أيديهم ، فلم يرفعوا أبصارهم ، فتناول رسول الله ﷺ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال « شاهت الوجوه » فما أصاب رجلا منهم حصاة من حصياته إلا قتل يوم بدر كافرا ، ثم قال الحاكم صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ولا أعرف له علة .

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرازق أخبرنا معمر أخبرنى عثمان الجريرى عن مقسم مولى ابن عباس أخبره ابن عباس فى قوله ﴿ **وإذ يمكر بك** ﴾ الآية.قال : « تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ ، وقال بعضهم : بل اقتلوه . وقال بعضهم بل أخرجوه ، فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فبات على رضى الله عنه على فراش رسول الله ﷺ وخرج النبى ﷺ حتى لحق بالغار ، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه ﷺ ، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليا رد الله تعالى مكرهم ، فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدرى فاقتصوا أثره ، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت ، فقالوا : لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال»[٣] .

(١) الآية ٧٦ من سورة الإسراء . (٢) الآيات ١ – ٩ من سورة يس .
(٣) أخرجه البخارى فى اللباس (١٦) . والإمام أحمد فى (٦ : ١٩٨) .

وقال محمد بن إسحق عن محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير فى قوله ﴿ **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** ﴾ أى : فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتك منهم .

إن يد الله تعمل فى الخفاء ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد ﴾(١) . ﴿ وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾(٢) ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله * إن الله عزيز ذو انتقام ﴾(٣) قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم أياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ .

هذا موقف من مواقفهم التى تدل دلالة قاطعة على أنهم مفلسون . وفى نفس الوقت معاندون ﴿ **لو نشاء لقلنا مثل هذا** ﴾ وما يمنعكم أن تقولوا وأنتم فى مجال التحدى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾(٤) ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾(٥) .

﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾(٦) .

﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سوَر مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾(٧) .

﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾(٨) .

لقد عجزوا وهم أرباب البلاغة وأساطين الفصاحة . فماذا يفعلون ، أظهروا خبيئة أنفسهم التى هاجت فيها عقارب البغضاء وجراثيم السوء ، وعقارب الحقد ، وعناكب الخراب ، فماذا يقولون عن القرآن بعد عجزهم قالوا :«إن هذا إلا أساطير الأولين» وكذبوا ، فكلام الله حق منزه عن الباطل ، بعيد عن الخرافات ﴿ وبالحق أنزلنا وبالحق نزل ﴾(٩) ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه * تنزيل من حكيم حميد ﴾(١٠).

لقد كان القرآن ومازال وسيظل غضا ، نديا ، يتقاطر نورا ورحمة ، لا تستطيع القرون وإن تباعدت أن تصيب أسلوبه بشىء من الجفاف ، من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن علم علمه سبق ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب

---

(١) الآيات ١٢ - ١٦ من سورة البروج .
(٢) الآية ٤٦ من سورة إبراهيم .
(٣) الآية ٤٧ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٨٩ من سورة الإسراء .
(٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة يونس .
(٧) الآيات ١٣ ، ١٤ من سورة هود .
(٨) الآية ٣٤ من سورة الطور .
(٩) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .
(١٠) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

معه الآراء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب اقرءوه وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا .

الله أكبر إن ديـــن محمـــــد وكتابـه أقـوى وأقـوم قيـلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنـده طلع الصباح فأطفئوا القنديـلا

كبر وعناد

وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ
إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ
فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

المفردات : ﴿ **مكاء** ﴾ : صفيراً . ﴿ **تصدية** ﴾ : تصفيقاً .

واذكر إذ قالت قريش : اللهم إن كان هذا القرآن هو الحق من عندك لاشك فيه ولا مرية ، فعاقبنا على الكفر به ، بحجارة من سجيل كما عاقبت أصحاب الفيل ، ومرادهم إنكار كونه حقاً منزلا من عند الله ، كأنهم قالوا إن كان الباطل حقاً فأتنا بعذاب أليم ، تراهم علقوا نزول العذاب على محال فى ظنهم ، وفى تعبيرهم ﴿ **هذا هو الحق** ﴾ المفيد للتخصيص تهكم بمن يقول : القرآن حق . فهذا أسلوب بليغ فى الجحود والإنكار .

إن كان هذا القرآن هو الحق دون غيره ، فأمطر علينا حجارة من السماء هى الحجارة المسومة للعذاب أو ائتنا بعذاب أليم آخر .

وهذا هو بيان لموجب التأخير فى إجابة دعائهم .

وما كان من مقتضى سنة الله ورحمته وحكمته أن يعذبهم بعذاب الاستئصال وأنت فيهم ، قد بعثت رحمة للعالمين ، وما عذب الله أمة ونبيها معها .

وما كان الله ليعذبهم والحال أنهم يستغفرون ، أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر لما عذبهم الله أبداً ، ولكنهم قوم مردوا على الكفر والشرك فلن يتوقع منهم ذلك ، وقيل وما كان ينبغى تعذيبهم وفيهم من يستغفر الله من المؤمنين الذين بين ظهرانيهم .

وتقييد نفس العذاب بكون الرسول معهم دليل على أن العذاب يترصدهم ، وأنهم معذبون لا محالة بدليل قوله تعالى : ﴿ وماهم ألا يعذبهم الله ﴾ ؟ على معنى وأى شىء ثابت لهم حتى ينتفى عنهم العذاب ، فهم معذبون لا محالة .

وكيف لا يعذبون ؟ وهم يصدون الناس عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله عنه عام الحديبية ، ألم يخرجوا النبى وصحبه من المسجد الحرام ؟ أفلا يكون هذا صداً عنه ؟ وكانوا يقولون نحن أولياء البيت الحرام نصد من نشاء وندخل من نشاء ، فيرد الله عليهم بقوله وما كانوا أولياءه ، وكيف يكونون أولياء له مع شركهم وعداوتهم للنبى ﷺ ؟ وما أولياؤه وأحبابه إلا المتقون المؤمنون من المسلمين فقط ، وليس كل مسلم يوصف بأنه ولى الله .

ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك ، وقيل منهم من يعرف حقيقة نفسه .. وقد كانوا يطوفون بالبيت عراة رجالاً ونساءاً مع الصفير والتصفيق وقد سجل الله عليهم ذلك . وما كان صلاتهم عند البيت الكريم إلا صفيراً وتصفيقاً فكان طوافهم وصلاتهم من قبيل اللهو واللعب .

فذوقوا العذاب الأليم المعد لكم بسبب كفركم وشرككم .

لا يصلح الله عمل المفسدين

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ **حسرة** ﴾ : ندامة وألماً . ﴿ **فيركمه** ﴾ : أى فيجمعه .

قال محمد بن إسحق : حدثنى الزهرى ومحمد بن يحيى بن حبان وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعيد بن معاذ قالوا : لما أصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بعيره ، مشى عبد الله بن أبى ربيعة وعكرمة بن أبى جهل وصفوان بن أمية فى رجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة ، فقالوا يا معشر قريش إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا قال : ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله عز وجل ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ .

وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير والحكم بن عيينة وقتادة والسدى وابن أبزى أنها نزلت فى أبى سفيان ونفقته الأموال فى أحد لقتال رسول الله ﷺ .

وقال الضحاك : نزلت فى أهل بدر .

وعلى كل تقدير فهى عامة وإن كان سبب نزولها خاصا ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أى ندامة حيث لم تجد شيئاً ، لأنهم أرادوا إطفاء نور الله ، وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزى لهم فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه ، وسمع بأذنه ، ما يسوؤه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزى الأبدى ، والعذاب السرمدى .

ولهذا قال ﴿ **فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس فى قوله ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ : فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء .

وقال السدى : يميز المؤمن من الكافر . وهذا يحتمل أن يكون هذا التميز فى الآخرة كقوله ﴿ **ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم** ﴾ . وقوله : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ وقال فى الآية الأخرى ﴿ **يومئذ يصدعون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ .

ويحتمل أن يكون هذا التمييز فى الدنيا بما ظهر من أعمالهم للمؤمنين ، وتكون اللام معللة لما جعل الله للكافرين من مال ينفقونه فى الصد عن سبيل الله ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب** ﴾ أى من يطيعه بقتال أعدائه الكافرين ، أو يعصيه بالنكول عن ذلك ، كقوله : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله * وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لا تبعناكم** ﴾ .

وقال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾(١) .

وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾(٢) ونظيرتها فى براءة أيضا .

فمعنى الآية على هذا إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم ، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها فى ذلك ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً** ﴾ أى يجمعه كله ، وهو

(١) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران . (٢) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران .

جمع الشيء بعضه على بعض كما قال تعالى فى السحاب ﴿ **ثم يجعله ركاما** ﴾ أى متراكما متراكبا ﴿ **فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾ أى هؤلاء هم الخاسرون فى الدنيا والآخرة .

ترغيب وترهيب

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

هذا خطاب من الله تعالى إلى الأمة الإسلامية فى صورة رئيسها ورسولها محمد ﷺ ، أن يبلغ المشركين بهذا الخبر الإلهى ﴿ **إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف** ﴾ .

جاء فى الصحيح من حديث أبى وائل عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر »[١] .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال: « الإسلام يجب ما قبله والتوبة تجب ما كان قبلها »[٢] .

وقوله ﴿ **وإن يعودوا** ﴾ أى يستمروا على ما هم فيه ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ أى فقد مضت سنتنا فى الأولين أنهم إذا كذبوا واستمروا على عنادهم أنا نعاجلهم بالعذاب والعقوبة .

قال مجاهد فى قوله : ﴿ **فقد مضت سنة الأولين** ﴾ أى فى قريش يوم بدر وغيرها من الأمم .

وقال السدى ومحمد بن إسحق : أى يوم بدر .

وقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ .

قال البخارى حدثنا الحسن بن عبد العزيز حدثنا عبد الله بن يحيى حدثنا حيوة بن شريح عن بكر بن عمر عن بكير عن نافع عن بن عمر أن رجلا جاء فقال : يا أبا عبد الرحمن ألا تصنع ما ذكر الله فى كتابه ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾[٣] فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه ؟ فقال : يا ابن أخى أُعَيَّرَ بهذه الآية ولا أقاتل أحب إلى من أن أُعَيَّرَ بالآية التى يقول الله عز وجل ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمداً** ﴾ إلى آخر الآية قال : فإن الله تعالى يقول ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ قال ابن عمر قد

---

(١) أخرجه البخارى فى المرتدين (١) . ومسلم فى الإيمان (١٨٩ ، ١٩٠) . وأبو داود فى الديات (٢٥) . وابن ماجه فى الزهد (٢٩) . والدارمى فى القدمة (١) وفى الديات (٢٥) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٧٩ ، ٤٠٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٦٢) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ١٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٣) الآية ٩ من سورة الحجرات .

فعلنا على عهد رسول الله ﷺ ، إذ كان الإسلام قليلا ، وكان الرجل يفتن فى دينه ، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة . فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال : فما قولكم فى على وعثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولى فى على وعثمان : أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه ، وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون (١) .

عن سعيد بن جبير قال : « خرج علينا – أو إلينا – ابن عمر رضى الله عنهما فقال : كيف ترى فى قتال الفتنة ؟ فقال : وهل تدرى ما الفتنة ؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة ، وليس يقتالكم على الملك » (٢) .

هذا كله سياق البخارى رحمه الله .

وقال عبيد الله عن نافع عن ابن عمر : [أنه أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا . إن الناس قد صنعوا ما ترى وأنت ابن عمر بن الخطاب وأنت صاحب رسول الله ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ قال : يمنعنى أن الله حرم على دم أخى المسلم . قالوا : أو لم يقل الله ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ؟ ﴾ قال : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين كله لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله] (٣) .

كذا روى حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أيوب بن عبد الله اللخمى قال : (كنت عند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فأتاه رجل فقال : إن الله يقول ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ قال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله) .

وكذا رواه حماد بن سلمة فقال ابن عمر : (قاتلت أنا وأصحابى حتى كان الدين كله لله ، وذهب الشرك ، ولم تكن فتنة ، ولكنك وأصحابك تقاتلون حتى تكون فتنة ، ويكون الدين لغير الله) رواهما ابن مردويه .

وقال أبو عوانة عن الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : قال ذو البطين يعنى أسامة بن زيد : (لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا . فقال سعد بن مالك : وأنا والله لا أقاتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا . فقال رجل : ألم يقل الله ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ فقالا : قد قاتلنا حتى لم تكن فتنة . وكان الدين كله لله) رواه ابن مردويه .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة : ٢) حديث (٣٠) وتفسير (سورة : ٥) حديث (٨) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٧٠) . (٣) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (١) .

وعن ابن عباس ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** ﴾ يعنى لا يكون شرك .

وكذا قال أبو العالية ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، والسدى ، ومقاتل بن حيان ، وزيد بن أسلم .

وقال محمد بن اسحق بلغنى عن الزهرى عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا (حتى لا تكون فتنة حتى لا يفتن مسلم عن دينه) .

وقوله : ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس فى هذه الآية قال : يخلص التوحيد لله .

وقال الحسن وقتاده وابن جريج ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ أن يقال لا إله إلا الله .

وقال محمد بن إسحق : ويكون التوحيد خالصاً لله ليس فيه شرك . ويخلع ما دونه من الأنداد .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿ **ويكون الدين كله لله** ﴾ : لا يكون مع دينكم كفر . **ويشهد** لهذا ما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إلّه إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله عز وجل »[١] .

وفيهما عن أبى موسى الأشعرى قال سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله عز وجل فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله عز وجل »[٢] .

وقوله ﴿ **فإن انتهوا** ﴾ أى بقتالكم عما هم فيه من الكفر فكفوا عنه ، وإن لم تعلموا بواطنهم ﴿ **فإن الله بما يعملون بصير** ﴾ كقوله : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾[٣] وفى الآية الأخرى ﴿ فإخوانكم فى الدين ﴾[٤] وقال ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾[٥] .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال لا إلّه إلا الله فضربه فقتله فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال لأسامة « أقتلته بعد ما قال لا إلّه إلا الله . وكيف تصنع بلا إلّه إلا الله يوم القيامة » فقال يا رسول الله إنما قالها تعوذاً قال « هلا شققت عن قلبه ؟ » وجعل يقول

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان (١٧) وفى الزكاة (١) وفى الصلاة (٢٨) . ومسلم فى الإيمان (٣٢) . وأبو داود فى الزكاة (١) وفى الجهاد (٩٥) . والترمذى فى الإيمان (٢٠) . والنسائى فى الزكاة (٣) .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم (٤٥) وفى التوحيد (٢٨) . ومسلم فى الإمارة (١٥٠ ، ١٥١) . والترمذى فى فضل الجهاد (٦) وابن ماجه فى الجهاد (١٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٩٧ ، ٤٠٥ ، ٤١٧) .

(٣) الآية ٥ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٥ من سورة الأحزاب .

(٥) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .

ويكرر عليه « من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة » قال أسامة : حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذ » (١)

وقوله : ﴿ **وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير** ﴾ أى وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ، فاعلموا أن الله مولاكم سيدكم وناصركم على أعدائكم ، فنعم المولى ونعم النصير .

وقال محمد بن جرير : حدثني عبد الوارث بن عبد الصمد حدثنا أبي حدثنا أبان العطار حدثنا هشام ابن عروة عن عروة أن عبد الملك بن مروان كتب إليه يسأله عن أشياء فكتب إليه عروة : سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذى لا اله إلا هو، أما بعد: فإنك كتبت إلى تسألني عن مخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وسأخبرك به ولا حول ولا قوة إلا بالله : كان من شأن خروج رسول الله ﷺ من مكة أن الله أعطاه النبوة ، فنعم النبي ، ونعم السيد ، ونعم العشيرة ، فجزاه الله خيرا ، وعرفنا وجهه فى الجنة ، وأحيانا على ملته . وأماتنا ، وبعثنا عليها ، وإنه لما دعا قومه لما بعثه الله به من الهدى والنور الذى أنزل عليه لم يبعدوا منه أول ما دعاهم إليه ، وكانوا يسمعون له حتى إذا ذكر طواغيتهم ، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكر ذلك عليه ناس ، واشتدوا عليه وكرهوا ما قال ، وأغروا به من أطاعهم ، فانعطف عنه عامة الناس فتركوه إلا من حفظه الله منهم، وهم قليل ، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث ثم ائتمرت رءوسهم بأن يفتنوا من اتبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال ، فافتتن من افتتن ، وعصم الله من شاء منهم ، فلما فعل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة ، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي ، لا يظلم أحد بأرضه ، وكان يثنى عليه مع ذلك . وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ، وكانت مساكن لتجارهم يجدون فيها كثيراً من الرزق ، وأمنا ومتجراً حسناً . فأمرهم بها النبي ﷺ ، فذهب إليها عامتهم لما قهروا بمكة ، وخافوا عليهم الفتن .

ومكث هو فلم يبرح ، فمكث بذلك سنوات يشتدون على من أسلم منهم ، ثم إنه فشا الإسلام فيها ، ودخل فيه رجال من أشرافهم ومنعتهم ، فلما رأوا ذلك استرخوا استرخاءً عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه ، وكانت الفتنة الأولى هى التى أخرجت من خرج من أصحاب رسول الله ﷺ قبل أرض الحبشة مخافتها وفراراً مما كانوا فيه من الفتن والزلزال ، فلما استرخى عنهم ودخل فى الإسلام من دخل منهم ، تحدث باسترخائهم عنهم ، فبلغ من كان بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ أنه قد استرخى عمن كان منهم بمكة ، وأنهم لا يفتنون فرجعوا إلى مكة وكادوا يأمنون بها ، وجعلوا يزدادون ويكثرون .

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٥٨) . وأبو داود فى الجهاد (٩٥) . وابن ماجه فى الفتن (١) . والإمام أحمد فى (٤ : ٤٣٩) وفى (٥ : ٢٠٧) .

وأنه أسلم من الأنصار بالمدينة ناس كثير . وفشا الإسلام بالمدينة وطفق أهل المدينة يأتون رسول الله ﷺ بمكة ، فلما رأت قريش ذلك تآمروا على أن يفتنوهم ويشتدوا فأخذوهم ، فحرصوا على أن يفتنوهم ، فأصابهم جهد شديد ، فكانت الفتنة الآخرة ، فكانت فتنتان : فتنة أخرجت من خرج منهم إلى أرض الحبشة حين أمرهم النبى ﷺ بها ، وأذن لهم فى الخروج إليها ، وفتنة لما رجعوا ورأوا من يأتيهم من أهل المدينة .

ثم إنه جاء رسول الله ﷺ من المدينة سبعون نقيباً رءوس الذين أسلموا فوافوه بالحج ، فبايعوه بالعقبة ، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم على أنا منك وأنت منا ، وعلى أن من جاء من أصحابك أو جئتنا فإنا نمنعك مما نمنع منه أنفسنا ، فاشتدت عليهم قريش عند ذلك ، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يخرجوا إلى المدينة ، وهى الفتنة الآخرة التى أخرج فيها رسول الله ﷺ أصحابه ، وخرج هو ، وهى التى أنزل الله عز وجل فيها ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾ ذكره ابن كثير .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء العاشر

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

تقسيم الغنائم

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ
مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ
مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي
مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي
أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴾

المفردات : ﴿ **الغُنم والمغنم والغنيمة** ﴾ : ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادى وقولهم القرم بالغنم أى يقابل به . ﴿ **و الفىء** ﴾ : كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك بعد أن تضع الحرب أوزارها وتصير الدار دار إسلام وهو لكافة المسلمين وليس فيه الخمس . ﴿ **والنفل** ﴾ : ما يحصل للإنسان من الغنيمة قبل قسمتها .

لما أمر الله سبحانه بقتال الكفار المعتدين الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى لا تكون فتنة ، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم ، وكان ذلك مستبقا لأخذ الغنائم فيهم ، ناسب أن يذكر بعده ما يرضيه سبحانه فى قسمة الغنائم على الوجه الذى شرعه ، والجمهور على أن هذه الآية نزلت فى غزوة بدر ، وعلى أن ابتداء فرض قسمة الغنائم كان بها .

﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ .

أى واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين فاجعلوا أولا خمسه لله تعالى ، ينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة ، كالدعوة للإسلام ، وإقامة شعائره ، وعمارة الكعبة وكسوتها . ثم أعطوا الرسول منه كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة ، ثم أعطوا منه ذوى القربى من أهله وعشيرته نسباً وولاء ، وقد خص الرسول ﷺ ذلك ببنى هاشم وبنى أخيه المطلب المسلمين ، دون بنى عبد شمس ونوفل ، ثم المحتاجين من سائر المسلمين وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل .

روى البخارى عن مطعم بن جبير (من بنى نوفل) قال : (مشيت أنا وعثمان بن عفان (من بنى عبد شمس) إلى رسول الله ﷺ فقلنا يا رسول الله : أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة ، فقال رسول الله ﷺ : « إنما بنو المطلب وبنو هاشم شىء واحد »[1]) .

وسر هذا أن قريشا لما كتبت الصحيفة وأخرجت بنى هاشم من مكة وحصرتهم فى الشعب ، لحمايتهم له ﷺ ، دخل معهم فيه بنو المطلب ، ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل ، إلى ما كان من عداوة بنى أمية بن عبد شمس لبنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبى ﷺ ويؤلب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ، ودانت له العرب بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علىّ وقاتله .

والحكمة فى تقسيم الخمس على هذا النحو ــ أن الدولة التى تدير سياسة الأمة لابد لها من المال لتستعين به على القيام بالمصالح العامة كشعائر الدين ، والدفاع عن الأمة ، وهو ما جعل الله فى الآية ، ثم نفقة رئيس حكومتها وهو سهم الرسول فيها ، ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم وأظهرهم تمثيلا لشرفه وكرامته ، وهو سهم ذوى القربى ، ثم ما يكون لذوى الحاجات من ضعفاء الأمة ، وهم الباقون .

ولا يزال هذا الاعتبار مراعى معمولا به فى كثير من الدول مع اختلاف شئون الاجتماع والمصالح العامة ، فالمال الذى يرصد للمصالح العامة يدخل فى موازين الوزارات المختلفة ما بين جهرية وسرية ، ولاسيما الأمور الحربية ، وكذلك راتب ممثل الدولة من ملك أو رئيس جمهورية ، منه ما هو خاص بشخصه ، ومنه ما هو لأسرته وعياله ، ومن موازين الدولة ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوهما .

ولكن اليتامى والمساكين وابن السبيل لا تجعل لهم الدولة فى هذا العصر حقاً فى أموال الدولة ، وإن كان بعض الدول تعطيهم أموالاً من الأوقاف الخيرية التى تتولى أمر استغلالها ، وإنفاق ريعها على المستحقين له ، وبعضها تخصص إعانات للعمال المتعطلين فى وقت الحاجة .

وعن ابن عباس أنه قال : ﴿ **فإن لله خمسه** ﴾ مفتاح كلام أى أنه ذكر على سبيل التبرك ، وإنما أضافه سبحانه إلى نفسه لأنه هو الحاكم فيه ، فيقسمه كيف شاء ، وليس المراد منه أن لله سهماً مفرداً ،

(١) أخرجه البخارى فى المناقب (٢) .

لأن ما فى السموات والأرض فهو لله ، وبهذا قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعى فقد قالوا : سهم الله وسهم رسوله واحد ، وذكر الله للتعظيم .

﴿ **إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان** ﴾ .

أى إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إذعان ، فاعلموا أن ما غنمتم من شىء قل أو كثر ، فأن لله خمسه لأنه هو مولاكم وناصركم ، وللرسول الذى هداكم به وفضلكم على غيركم ، واقطعوا الأطماع عنكم ، وارضوا بحكم الله فى الغنائم ، وبقسمة رسوله فيها .

ويوم الفرقان هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الإيمان والكفر ، وهو يوم بدر الذى التقى فيه الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين فى الحرب والنزال ، وقد كان ذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ .

﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ : ومن قدرته أن نصركم على قلتكم وجوعكم وضعفكم وبلوغ عدوكم ثلاثة أضعاف عددكم ، أو أكثر ، وأيد رسوله ، وأنجز وعده .

﴿ **إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى** ﴾ : العدوة مثلثة العين . جانب الوادى ، والدنيا مؤنث الأدنى ، وهو الأقرب ، والقصوى مؤنث الأقصى ، وهو الأبعد .

والمعنى – إن كنتم أمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا فى ذلك اليوم ، فى الوقت الذى كنتم مرابطين فيه بأقرب الجانبين من الوادى إلى المدينة ، وفيه نزل المطر لا فى غيره ، والأعداء فى الجانب الأبعد عنها ولا ماء فيه ، وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام .

﴿ **والركب أسفل منكم** ﴾ أى والعير التى خرج المسلمون للقائها فى مكان أسفل من مكانكم ، وهو ساحل البحر كما تقدم ، إذ كان أبو سفيان قادماً بها من الشام .

﴿ **ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد** ﴾ أى ولو تواعدتم أنتم وهم للقتال . وعلمتم مالهم ومالكم لاختلفتم فى الميعاد كراهة الحرب لقلتكم ، وعدم إعداد العدة لها ، وانحصار همكم فى العير وبأساً من الظفر بها ، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال ، لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ ، ولا يأمنون نصر الله له ، لأن كفر الكثيرين منهم به كان استكباراً أو عناداً لا اعتقاداً .

﴿ **ولكن ليقضى الله أمراً كان مفعولا** ﴾ أى ولكن تلاقيتم على غير موعد ولا رغبة فى القتال ، ليقضى الله أمرا كان فى علمه وحكمته أنه واقع لا محالة ، وهو القتال المفضى إلى خزيهم ونصركم عليهم ، وصدق وعده لرسوله ، وإظهار دينه على الدين كله . ولو كره المشركون .

﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حى عن بينة** ﴾ البينة الحجة الظاهرة أى فعل ، ذلك ليترتب على قضاء هذا الأمر ، أن يهلك من الكفار من هلك عن حجة بينة مشاهدة بالبصر على حقيقة الإسلام

بإنجاز وعده لرسوله ومن معه من المؤمنين بحيث تنتفى الشبهة ولا يكون هناك مجال للاعتذار عند الله عن إجابة الدعوة ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها وعاينها فيزداد يقينا بالإيمان ونشاطاً فى الأعمال .

﴿ **وإن الله لسميع عليم** ﴾ لا يخفى عليه شىء من أقوال الكافرين والمؤمنين ولا من عقائدهم وأفعالهم فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم من الأقوال الصادرة عن عقيدة والأعذار التى يعتذر بها عن تقصيره فى أعماله ويعلم ما يكنه من ذلك ومن غيره ويجازى كلا بحسب ما يسمع ويعلم .

والخلاصــــة :

إن غزوة بدر قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم ، كما بشرهم النبى ﷺ ، وحجته البالغة على الكافرين بخذلانهم وانكسارهم ، كما أنذرهم الرسول ﷺ ، ولا مجال فى ذلك للمكابرة والتأويل .

﴿ **إذ يريكهم الله فى منامك قليلا** ﴾ أى أنه تعالى سميع لما يقول أصحابك ، عليم بما يضمرونه ، إذ يريك الله عدد عدوك وعددهم قليلا فى الرؤيا المنامية ، فتخبر بها المؤمنين وتطمئن قلوبهم وتقوى آمالهم بالنصر ، فيجترئون عليهم .

﴿ **ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر** ﴾ أى ولو أراك ربك عددك وعددهم كثيرا لفشل أصحابك ، وخافوا ، ولم يقدروا على حرب القوم ، ولوقع بينهم النزاع وتفرق الآراء فى أمر القتال إذ منهم القوى الإيمان والعزيمة فيطيع الله ورسوله ويقاتل ومنهم الضعيف الذى يثبط عن القتال بمثل الأعذار التى جادلوا بها الرسول ﷺ ، كما تقدم فى قوله ﴿ **يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ .

﴿ ولكن الله سلم ﴾ أى ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الآراء ، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان .

﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ .

أى إنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذى تضيق به ، فتحجم عن القتال ، ومن شعور الإيمان والتوكل الذى يبعث فى النفس الطمأنينة والصبر ، فيحملها على الإقدام ، ويسخر لكل منهما الأسباب التى تفضى إلى ما يريده منها .

﴿ **وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا** ﴾ .

الخطاب هنا للرسول ﷺ والمؤمنين أى وفى الوقت الذى يريكم الله الكافرين عند التلاقى معهم عددا قليلا ، بما أودع فى قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم ، وتثبيتكم بملائكته ، والاستهانة بهم ، ويقللكم فى أعينهم لقلتكم بالفعل ، ولما كان عندهم من عجب وغرور بأنفسهم ، حتى لقد قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور (أى لقلتهم يكفيهم جزور واحد فى اليوم) .

والخلاصـــــة

إنه فعل ذلك ليقدم كل منكم على قتال الآخر ، فهذا واثق بنفسه ، مدل ببأسه ، وهذا متكل على ربه ، واثق بوعده ، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم ، ليقضى بنصركم عليهم أمراً كان فى علمه مفعولا ، وهو أن تكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ومن ثم هيأ الأسباب وقدرها تقديرا .

نصائح وتوجيهات

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

بعد أن ذكر سبحانه نِعَمَهُ على رسوله وعلى المؤمنين يوم بدر قفى على ذلك بذكر أدبين عظيمين إذا التقوا بعدوهم :

١ — الثبات وتوطين النفس على اللقاء مع عدم التوانى والتكاسل .

٢ — ذكر الله كثيرا وهو ذكره بألسنتهم وقلوبهم ، تنبيها إلى أن الانسان يجب ألا يخلو قلبه من ذكره فى أشد الأوقات حرجاً ، وقد طلب إلينا الثبات ، والطاعة لله ورسوله ، حتى لا نفشل وتدول علينا الدولة .

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا** ﴾ أى إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار فاثبتوا لهم ، ولا تفروا أمامهم ، فإن الثبات قوة معنوية طالما كانت السبب فى النصر والغلب بين الأفراد والجيوش ، انظر إلى الرجلين الجلدين يتصارعان ، فيعيا كل منهما وتضعف قوته ، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعا ، ولكن قد يخطر له أن خصمه ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة ، فيكون له الفلج والفوز على خصمه ، وهكذا فى الحروب ، فإن من أهم أسباب النصر فيها الثبات وعدم اليأس . بل الثبات نافع فى كل أعمال البشر ، فهو الوسيلة فى الفوز والنجاح فيها .

﴿ **واذكروا الله كثيرا** ﴾ أى وأكثروا من ذكر الله فى أثناء القتال فى قلوبكم ، بذكر قدرته ، ووعده بنصر رسله والمؤمنين ، ونصر كل من يتبع سنتهم ، بنصر دينه وإقامة سننه ، وبأن النصر بيده ومن عنده يؤتيه من يشاء ، وبألسنتكم بالتكبير ونحوه وبالدعاء والتضرع إليه ، مع اليقين بأنه لا يعجزه شىء .

﴿ **لعلكم تفلحون** ﴾ : أى إن الثبات وذكر الله هما وسيلتان من وسائل الفوز . ويعدان للفلاح فى القتال فى الدنيا وفى نيل الثواب فى الآخرة .

وفى ذلك إيماء إلى أنه يجب على العبد ألا يفتر عن ذكر الله أكثر ما يكون همًّا ، وأشغل ما يكون قلباً ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك ، وإن كانت متوزعة عن غيره .

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أى وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح فى القتال وفى غيره ، وأطيعوا رسوله كذلك فهو المبين لكلام ربه ، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم ، وهو القائد الأعظم فى القتال ، فطاعته هى جماع النظام . والنظام ركن من أركان الظفر ، وهو المشارك لكم فى الرأى والتدبير والاستشارة فى الأمور .

﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ أى ولا يكن منكم تنازع واختلاف فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة ، وذهاب القوة ، فيتغلب عليكم العدو .

وأصل الريح الهواء المتحرك ، ثم استعيرت للقوة والغلبة ، لأنه لا يوجد فى الأجسام ما هو أقوى منها ، فهى تهيج البحار ، وتقتلع الأشجار ، وتهدم الدور والقلاع ، ومن ثم يقال هبت رياح فلان إذا جرى أمره على ما يريد كما يقال : ركدت رياحه إذا ضعف أمره ، وولت دولته .

﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ أى واصبروا على الشدائد وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده فالله مع الصابرين يمدهم بمعونته وتأييده ومن كان الله معيناً له فلا يغلبه غالب .

تحذيـر

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ
بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ
إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ
فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ
إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾
ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن
قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

المفردات : ﴿ **الذين خرجوا** ﴾ : هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير والبطر : إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الرياسة ، ويعرف ذلك فى الحركات المتكلفة ، والكلام الشاذ . ﴿ **والرئاء** ﴾ : أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ليثنوا عليه ويعجبوا به . ﴿ **وتراءت الفئتان** ﴾ : قربت كل منهما من الأخرى وصارت بحيث تراها وتعرف حالها . ﴿ **ونكص** ﴾ : رجع القهقرى وتولى إلى الوراء والمنافق من يظهر الإسلام ويسر الكفر والذين فى قلوبهم مرض : هم ضعاف الإيمان تملأ قلوبهم الشكوك والشبهات فتزلزل اعتقادهم حينا وتسكن حينا آخر . ﴿ **أدبارهم** ﴾ : أى ظهورهم وأقفيتهم . ﴿ **وعذاب الحريق** ﴾ عذاب النار بعد البعث . ﴿ **والدأب** ﴾ : العادة المستمرة .

بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالثبات عند لقاء العدو ، وذكر الله كثيرا ، وطاعة الله ورسوله ، نهاهم عن التنازع ، لأنه يؤدى إلى الفشل والضعف ، وأمرهم بالصبر ، فإن الصبر عاقبته نصر ، والله يحب الصابرين .

بعد ذلك نهاهم الله جلت قدرته أن يكونوا مثل الكافرين الذين خرجوا من ديارهم بطراً وكبراً وافتخاراً ، يراءون الناس ، ويصدون عن سبيل الله ،ما فعلوا ذلك إلا لأن قلوبهم قد أصبحت خراباً عشش فيها الشيطان ، وتراكمت عليها الظلمات ، وذلك لأن الفرق شاسع بين الجماعة المؤمنة ، والجماعة الكافرة ، فالمؤمنون خرجوا من ديارهم لا يقصدون مغنما ولا عرضا قريباً ، إنما تجردوا لله ، وأخلصوا دينهم لله ، كما علمهم سيد الإنسانية محمد صلوات ربى وسلامه عليه فى قوله: « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » لقد شموا ريح الجنة وهم فى طريقهم إلى ساحات القتال حتى لقد كان الواحد منهم يقول لزوجته قبل خروجه مقاتلا : لقاؤنا فى الجنة إن شاء الله .

لقد جاء رجل إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح وهو يقود المعارك فى بلاد الشام ، وسأله : ألك شىء تريد أن تبلغه إلى رسول الله ﷺ ؟ فقال له أبو عبيدة : كيف وقد لحق الرسول بالرفيق الأعلى ؟ قال الرجل : لقد عزمت على خوض المعركة . وقد سألت ربى أن يرزقنى الشهادة فقال له أبو عبيدة : أبلغ رسول الله منى السلام . ونزل الرجل المعركة ونال الشهادة ، لأنه صدق الله فصدقه الله وعده ، ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور * أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[١] .

إن هؤلاء الذين استحقوا نصر الله عقدوا معه معاهدة صلح ، بين الله تعالى نصوصها فى قوله ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر و لله عاقبة الأمور ﴾[٢] .

(١) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤١ من سورة الحج .

إن الله تعالى منحهم النفس والمال ، فلما باعوا النفوس والمال لله تعالى قبل الله منهم هذا البيع ، واشترى منهم أنفسهم وأموالهم ، وكان الثمن فى هذا العقد غالياً ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة .

لقد سجل الله هذا العقد فى ثلاث كتب مقدسة قال تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾(١) .

وقد ذكر الله تعالى لهذا العقد شروطاً لابد من توافرها لصحة العقد ونفاذه ، قال تعالى فى بيان تلك الشروط : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾(٢) .

تلك معالم الجهاد عند الجماعة المؤمنة .

أما جماعة الكفر فقوم غلاظ الأكباد ، جفاة الطباع ، قساة القلوب ، خرجوا بطراً أو أشراً وكبراً وصلفا وحمقاً وطيشاً ونزقاً وحمية الجاهلية ، قال تعالى لعباده المؤمنين ﴿ **ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط** ﴾ محيط بعلمه وقدرته وإرادته وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا . لقد قال أبو جهل يوم بدر فى صلف وتيه ، واللات والعزى لا نرجع حتى ننحر الجزور ونشرب الخمور ، وتغنى علينا القيان ، ونقتل محمداً وصحبه ، ويسمع بنا العرب . فكان المصير تشيب من هوله الولدان ، وتقشعر منه الأبدان ، قتل أبو جهل ، وألقى فى القليب مع سبعين من صناديد المشركين ، ونادى عليهم ناشر الهدى وواسع الندى صلوات ربى وسلامه عليه ، نادى عليهم : يا أبا جهل بن هشام ، يا أمية بن خلف ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة : لقد وجدت ما وعدنى ربى حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ قال جماعة من الصحابة : أتناديهم يا رسول الله وقد جيفوا ، قال الصادق المعصوم ، والله ما أنتم بأسمع لما أقوله منهم إنهم يسمعون ولكنهم لا يتكلمون (٣) .

تباركت ربنا وتعاليت يامن قلت وقولك الحق "وقد خاب من افترى" وقلت وقولك الصدق ﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾(٤) .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله .

---

(١) الآية ١١١ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١١٢ من سورة التوبة .

(٣) أخرجه مسلم فى الجنة (٧٧) . والنسائى فى الجنائز (١١٧) . والإمام أحمد فى (١ : ٧٢) وفى (٣ : ١٠٤ ، ١٧٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٣) وفى (٦٠ : ١٧٠ ، ٢٢٠ ، ٢٨٧) .

(٤) الآية ٨١ من سورة طه .

أنت الذى قاد الجيوش محطماً عهد الضلال وأدب السفهاء
وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فارتقوا سعداء

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[١] .

وشتان بين قوم وليهم الرحمن ، وآخرين وليهم الشيطان ، لقد خرج الشيطان يوم بدر وزين لهم أعمالهم ، ومناهم الأمانى الكاذبة وقال لهم : ﴿ **لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** ﴾ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، ولما نزلوا حومة الوغى ، وحمى الوطيس ، واحمرت الحدق ، وصمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، ورخصت الأرواح فى أسواق الموت ، فلا ترى إلا رؤوساً تنثر ، ودماءاً تهدر ، لما كان ذلك كذلك ، ونزلت الملائكة يقودهم جبريل ، ورآه إبليس ولى الأدبار هارباً لا يلوى على شىء ، ورجع القهقرى فلما سئل قال : ﴿ **إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ .

وقد صور القرآن الكريم هذا الموقف أروع صورة بأبلغ بيان قال تعالى : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب** ﴾ .

وهذه عادة الشيطان بعد أن يزين لابن آدم السوء فيراه حسناً ، يعلن براءته منه ، ويلبس ثياب الرهبان وقلبه قلب ذئب ضار غادر لئيم قال تعالى ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾[٢] وقال جل شأنه ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾[٣] .

فما موقف المنافقين ومرضى القلوب من الجماعة المجاهدة فى سبيل الله ، إنهم المرجفون فى الأرض ، المثيرون للفتن ، المروجون للشائعات والأضاليل والأباطيل ، لقد رموا المؤمنين بالغرور لقلة عددهم وعُددهم ، ونسوا أو تناسوا أنه كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وجهلوا أنه من يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ، عزيز لا يغلب ، حكيم تنزه عن العبث ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ﴾[٤] .

---

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .
(٣) الآية ١٦ من سورة الحشر .
(٤) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة محمد .

من كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[١] .

﴿ إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ .

والنفاق مرض اجتماعى خطير ، والمنافقون فى كل زمان ومكان ، عالة على المجتمع فى السراء ، وسوس ينخر فى عظام الأمة حالة الضراء ، يلقاك أحدهم عناقاً ، ويقسم بالله إنه لا يطيق لك فراقا ، ملاك كريم ، فى مظهره شيطان رجيم فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر وقلب أبى لهب . ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[٢] .

هؤلاء وأمثالهم لو تراهم فى سكرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾[٣] وما أجل قوله تعالى ﴿ كلا إذا بلغت التراق * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق * فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى * أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾[٤] .

إن الملائكة تخبرهم بمصيرهم وهم فى غمرات الموت فيقولون لهم : اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون ، ويقولون لهم ذوقوا عذاب الحريق قال تعالى : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾[٥] وقال عز من قائل : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾[٦] .

فاللهم ارزقنا قبل الموت توبة ، وعند الموت شهادة ، وبعد الموت جنة ونعيما ، وملكا كبيرا ، وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم ، يا حى يا قيوم ، ياذا الجلال والإكرام .

﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ جاءت هذه الآية الكريمة بمثابة العلة للمعلول ، فما فعل الله تعالى بهم ما فعل إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السوء والإثم والعدوان ، وكفى بالكفر إثما مبيناً ، وبهتاناً عظيماً

والله تعالى منزه عن الظلم ، ولا يحب الظالمين ، فالظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة :

(١) الآية ١١ من سورة محمد . (٣) الآيات ٨٣ – ٨٧ من سورة الواقعة . (٥) الآية ٢٧ من سورة محمد .
(٢) الآيات ٢٠٤ – ٢٠٦ من سورة البقرة . (٤) الآيات ٢٦ – ٣٦ من سورة القيامة . (٦) الآية ٥٠ من سورة الأنفال .

[يا عبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا][1] .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[2] وتبارك الله إذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[3] وإذ يقول : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[4] .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا   فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه   يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله تعالى ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب** ﴾ .

يخبر تعالى عن الكافرين الذين أعد الله لهم عذاب الحريق بأن شأنهم وعادتهم كعادة آل فرعون الذين أرسل الله إليهم موسى وهارون بالمعجزات الخارقة ، والآيات الباهرة ، التى قال الله تعالى فيها : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾[5] .

قال جل شأنه ﴿ ولقد جاء آل فرعون النذر * كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾[6] .

فهؤلاء الكافرن من قومك يا محمد شأنهم كشأن الكافرين من آل فرعون . لقد أخذناهم بذنوبهم كما أخذنا آل فرعون بذنوبهم . ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾[7] .

وما أجل قوله تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[8] قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغير أنعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم** ﴾ .

هذه سنة الله فى كونه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ، وكان أمر الله قدراً مقدورا . لا ينزل بلاء إلا بذنب ، ولا يرفع إلا بتوبة ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٦٠) .
(٢) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٥) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .
(٦) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة القمر .
(٧) الآية ٤٣ من سورة القمر .
(٨) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة الذاريات .

ويعفو عن كثير ﴾(١) .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإلّه ... فإن الإلّه سريع النقم

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم * وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وماهم من دونه من وال ﴾(٢) ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾(٣) .

وفعل الله كله لحكمة بالغة فهو السميع لأقوال عباده العليم بذوات الصدور ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

قوله تعالى ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى أن آل فرعون أضافوا إلى الكفر التكذيب بآيات الله ومعجزاته ، فإنهم لما كفروا بالله ربا كذبوا بآياته التى أجراها على أيدى أنبيائه ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ، وبين الله تعالى كيف أهلكهم ولماذا أهلكهم ، فقال ﴿ **وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين** ﴾ الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، والحرام لا يدوم ، وإذ دام لا ينفع ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٤) .

شر الدواب عند الله

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الشورى .
(٢) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٧ من سورة إبراهيم .
(٤) الآيات ٥٧ – ٦٨ من سورة الشعراء .

المفردات : ﴿ **الدابة** ﴾ : لفظ غلب استعماله فى ذوات الأربع ، وأصله كل مادب على وجه الأرض وهو المراد هنا . ﴿ **عند الله** ﴾ : أى فى حكمته وعلمه و ﴿ **الذين عاهدت منهم** ﴾ : هم طوائف من يهود المدينة . و ﴿ **ثَقِفَهُ** ﴾ : أدركه وظفر به . ﴿ **فشرد بهم** ﴾ : أى نكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضى العهد . ﴿ **من خلفهم** ﴾ : هم كفار مكة وأعوانهم من مشركى القبائل الموالية لهم ، ﴿ **والنبذ** ﴾ : الطرح . ﴿ **على سواء** ﴾ : أى على طريق واضح لاخداع فيه ولا خيانة ولا ظلم . ﴿ **سبقوا** ﴾ : أى أفلتوا من الظفر بهم . ﴿ **لا يعجزون** ﴾ : أى لا يجدون الله عاجزاً عن إدراكهم ، بل سيجزيهم على كفرهم .

بعد أن بين حال مشركى قريش فى قتالهم له ببدر – قفى على ذلك بذكر حال فريق آخر من الكفار الذين عادوا النبى ﷺ ، وقاتلوهم وهم اليهود الذين كانوا فى بلاد الحجاز .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآيات فى ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت .

وقال مجاهد : نزلت فى يهود المدينة ، وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف ، وهو فيهم كأبى جهل فى مشركى مكة .

ثم ذكر سبحانه ما يجب أن يعمل مع أمثالهم من الخونة ، وبين أن الرسول آمن من عاقبة كيدهم ومكرهم .

﴿ **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** ﴾ أى إن شر ما يدب على وجه الأرض فى حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان :

١ – **الإصرار على الكفر والرسوخ فيه** : بحيث لا يرجى إيمان جملتهم ، أو إيمان جمهورهم ، لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول ﷺ . معاندون له ، جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم ، وفيهم يقول سبحانه وتعالى ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾[1] وإما مقلدون جامدون على التقليد لا ينظرون فى الدلائل والآيات . وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذى غلب استعماله فى ذوات الأربع ، ولإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط ، بل هم أضل من العجماوات ، لأن لها منافع وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى فى أمثالهم ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ .[2]

٢ – **نقض العهد** ، وقد كان النبى ﷺ عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهداً أقرهم فيه على دينهم ، وأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، فنقض كل منهم عهده .

روى عن ابن عباس أنهم بنو قريظة ، نقضوا عهد رسول الله ﷺ ، وأعانوا عليه بالسلاح فى يوم

(١) الآية ١٤٦ من سورة البقرة ، والآية ٢٠ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٤٤ من سورة الفرقان .

بدر ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ، ومالأوا الكفار على رسول الله ﷺ يوم الخندق ، وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم على محاربة النبى ﷺ . وقوله ﴿ **وهم لا يتقون** ﴾ : أى لا يتقون الله فى نقض العهد ولا فيما قد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم .

وبعد أن بين سبحانه أنهم قد تكرر منهم نقض العهد — أردف ذلك ذكر ما يجب أن يعاملوا به فقال : ﴿ **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم** ﴾ أى إنك إن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم فى الحرب — فنكل بهم أشد التنكيل حتى يكون ذلك سببا لشرود من وراءهم من الأعداء وتفرقهم ، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة الندّة عن أمكنتها .

وإنما أمر الله رسوله ﷺ بالإثخان فى هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمته لهم ، وتجديده لعهدهم بعد نقضه ، لئلا ينخدع مرة أخرى بكذبهم ، لما جبل عليه من الرحمة وحب السلم واعتبار الحرب ضرورة تترك إذا زال سببها ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها** ﴾ وهم قد أوهموه المرة أنهم يرغبون فى السلم ، واعتذروا عن نقضهم العهد . وكانوا فى ذلك مخادعين .

﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ أى لعل من خلفهم من الأعداء يذكرون النكال فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال .

روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ خطب فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو فقال (أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ثم قال — اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم)[١] .

وفى ذلك إيماء إلى شيئين :

١ — أن الحرب ليست محبوبة عند الله ولا عند رسوله ، وإنما هى ضرورة يراد بها منع البغى والعدوان وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[٢] .

٢ — أن استعمال القسوة مع الناقضين للعهد والبادئين بالحرب والتنكيل بهم لتشريد من وراءهم أمر لابد منه للعظة والإعتبار ، حتى لا يعودوا إلى مثلها هم ولا غيرهم ، ولا يزال الأمر كذلك فى هذا العصر ، وإن كانوا يريدون به الانتقام وشفاء ما فى الصدور من الأحقاد والتمتع بالمغانم من مال وعقار .

وبعد أن ذكر حكم ناقضى العهد حين سنوح الفرصة قفى على ذلك بحكم من لا ثقة بعهودهم فقال :

﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء** ﴾ أى وإن توقعت من قوم معاهدين خيانة ونكثا للعهد بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها ، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها ، بأن تنبذ

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٢٢ ، ١١٢ ، ١٥٦) . ومسلم فى الجهاد (٢٠) وفى الإمارة (١٤٦) . وأبو داود فى الجهاد (٨٩) . والترمذى فى فضائل الجهاد (٢٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤١١) .

(٢) الآية ١٧ من سورة الرعد .

إليهم عهدهم ، وتنذرهم بأنك غير مقيد به ، ولا تهتم بأمرهم بطريق واضح لا خداع فيه ولا استخفاء .

والحكمة فى هذا أن الإسلام لا يبيح الخيانة مطلقا .

وخلاصة ذلك : لا تحاربهم قبل أن تعلمهم أنك قد فسخت العهد الذى بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم .

﴿ **إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ أى إن الخيانة مبغوضة بجميع ضروبها ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرة . روى البيهقى أن النبى ﷺ قال : (ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء – من عاهدته فوف بعهده مسلما كان أو كافراً ، فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلما كان أو كافرا ، ومن ائتمنك على أمانة فأداها إليه مسلماً كان أو كافراً) .

وبعد هذا أنذر أولئك الخائنين ما سيحل بهم من عقاب فقال : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا** ﴾ أى ولا يظنن الذين كفروا أنهم سبقونا ونجوا من عاقبة خيانتهم وشرهم ، ونحو الآية قوله ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾[1] .

﴿ **إنهم لا يعجزون** ﴾ أى إنهم لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه بمكرهم وخيانتهم ، بل هو سيجزيهم ، ويمكن منهم فى الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم ، وإذاقتهم عاقبة كيدهم ، والآية بمعنى قوله تعالى ﴿ واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين ﴾[2] .

وخلاصة ذلك قطع أطماعهم فى الانتفاع بهذا النبذ والغلبة على المؤمنين .

وفى الآية إيماء إلى أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع الأعداء المخالفين فى الدين ، وما حرمه من الخيانة فيها ، لم يكن عن ضعف ولا عن عجز ، بل عن قوة وتأييد إلهى ، فقد نصر الله رسوله والمؤمنين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم ، وأجلى من أبقاه السيف منهم من جوار معقل الإسلام (شبه جزيرة العرب) .

إعداد القوة

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) * وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ

(١) الآية ٤ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ٢ من سورة التوبة .

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **الإعداد** ﴾ : تهيئة الشيء للمستقبل . ﴿ **والرباط والمربط** ﴾ : الحبل الذى تربط به الدابة ، ورباط الخيل حبسها واقتناؤها . ﴿ **والإرهاب والترهيب** ﴾ : الإيقاع فى الرهبة وهى الخوف المقترن بالاضطراب . ﴿ **وجنح للشيء وإليه** ﴾ أى مال يقال جنحت الشمس للغروب أى مالت إلى جانب الغرب الذى تغيب فى أفقه . ﴿ **والسلم** ﴾ : بفتح السين وكسرها والسلام : الصلح وضد الحرب والإسلام دين السلم والسلام كما قال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾[1]. ﴿ **وحسبك الله** ﴾ : أى كافيك وناصرك عليهم .

كأن سائلا قال : ما جزاء هؤلاء الخائنين الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه وصارت الخيانة ديدنهم وعادتهم ؟ ﴿ الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ﴾[2] ما جزاء هؤلاء ؟ وماذا نصنع بهم ؟

فكان الجواب ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ .

روى مسلم عن عقبة بن عامر ان سمع النبى ﷺ وقد تلا هذه الآية يقول : (ألا إن القوة الرمى)[3] قالها ثلاثا .

وهذا الحديث الشريف يعتبر من دلائل النبوة ، فإن الحرب تختلف فى أدواتها من زمان إلى زمان ، ومن عصر إلى عصر ، ومن مصر إلى مصر ، فجاء حديثه ﷺ إشراقة نبوية تدل على أن هذه القوة التى فسرها بالرمى صالحة لكل زمان ، فقد يكون الرمى بالمدفعية باختلاف أنواعها ، كما يكون بقاذفات القنابل والدبابات مهما تطاول الزمان وانفسح المكان .

وفى قوله جل شأنه ﴿ **ما استطعتم** ﴾ دليل على أن الجماعة المؤمنة يجب أن تبذل أقصى جهدها ، وتستفرغ ما فى وسعها فى سبيل قوتها ومناعتها ، فليس السلام فى الإسلام سلاماً ذليلا ، إنما هو سلام عزيز كريم ، تحميه القوة ، ولا يمكن أن يقوم الحق وحده بلا قوة .

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... بقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
فالشر إن تلقه بالخير ضقت به ... ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم

(١) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة . (٢) الآية ٥٦ من سورة الأنفال .
(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة (١٦٧) . وأبو داود فى الجهاد (١٤ ، ٢٣) . والترمذى فى تفسير (سورة ٨ : ٥) . وابن ماجه فى الجهاد (١٩) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٥٧) .

وجل جلال الله إذ يقول ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[١] .

فالعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة ، وإذا كانوا يقولون القتل أنفى للقتل ، فإنا نقول : الاستعداد للحرب أنفى للحرب .

وما استعمل الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف .

كذلك أمر الله تعالى أن نعد الرباط لحماية الثغور ، وصيانة الحدود ، والرباط فى سبيل الله له أجر جزيل عند الله ، ومازال للخيل دور عظيم فى ذلك الرباط ، كل هذا لإرهاب العدو وإيقاع الخوف فى نفسه والاضطراب فى فؤاده ، والرعب فى قلبه .

أما حقيقة الأمر فبيد الله وحده قال تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاءً حسنا إن الله سميع عليم * ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين ﴾[٢] .

فإعداد القوة والرباط على الحدود فيه إرهاب وأخذ بالأسباب ، أما الفاعل الحقيقى فهو الله وحده ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[٣] .

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾[٤] . ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾[٥]. ﴿ ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم * يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ﴾[٦] .

إنكم بهذه القوة وهذا الرباط ترهبون عدو الله وعدوكم ، فتأمل معى هذا التعبير القرآنى الرائع ، كيف جعل من العدو الواحد عدوين حتى لا يستهين المسلمون بأمره ، فهو عدو الله العلى القدير ، وعداوته بكم مستمدة من عداوته لله ، وهل الإيمان إلا الحب فى الله ، والبغض فى الله . كما قال تعالى فى شأن فرعون ﴿ يأخذه عدو لى وعدو له ﴾[٧] .

كذلك ترهبون آخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، فسواء كان العدو من اليهود الخائنين ، أو من أهل الشرك الجاحدين ، أو من الوثنيين أو المثلثين أو غير ذلك من الملل والنحل ، فإن الكفر كله ملة واحدة ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾[١] .

(١) الآية ٢٥ من سورة الحديد .
(٢) الآية ١٧ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ١١ من سورة محمد .
(٤) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .
(٦) الآيات ٤ – ٨ من سورة محمد .
(٧) الآية ٣٩ من سورة طه .

ولما كان إعداد القوة يلزمه إنفاق المال لشراء السلاح وغير ذلك ، فقد قرن الله تعالى إنفاق المال بإعداد القوة والرباط ، فقال ﴿ **وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ . كما قال جل شأنه ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[٢] .

وكما قال سبحانه ﴿ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾[٣] .

وكما قال تبارك اسمه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾[٤] .

فيا جماعة المؤمنين اصطلحوا مع الله ، وأخلصوا دينكم لله واستيقظوا ، لأعداء الله ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾ .

أى إذا مال العدو للسلم ، والمسلمون فى موقع العزة وهم الغالبون ولم يفقدوا موضع قدم من أرض الإسلام ، إن كان ذلك كذلك فالسلام هنا عزيز وكريم ، وسياسة الإسلام الخارجية تقوم على السلام والحرب ، استثناء ودواء لداء استعصى علاجه ، ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول فى أمير الأنبياء :

الحرب فى حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء
داويت متئداً وداووا طفرة ... وأخف من بعض الدواء الداء
والبر عندك ذمة وفريضة ... لا منة ممنونة وجباء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة ... للحق لا ضغنٌ ولا شحناء

إن السلام فى الإسلام مسلح وعزيز ، ويوم يجنح العدو للسلام وهو مغتصب لموضع قدم فى أرض

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١١١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢٠ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٠ من سورة الصف .

الإسلام فإن الإسلام ينهى عن هذا السلام ، قال تعالى ﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾[١] .

أما إذا استوفى السلام شروطه ، وكانت يد المسلمين هى العليا فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم .

﴿ **وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله** ﴾ وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً ، فمن توكل على السميع العليم لايخيب سعيه ، ولا تزل قدمه ، ولا يضل سؤله ومن كان الله حسبه فلن يخدعه أحد ، لأنه لا يخدع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فمن وجد الله فماذا فقد ، ومن كان الله معه فمن عليه ، وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا . [يا عبادى إنكم لن تملكوا ضرى فتضرونى ولن تملكوا نفعى فتنفعونى][٢] .

إن هذا الإله القادر هو الذى أيدك بنصره والمؤمنين ، وألف بين قلوبهم أى بالإيمان والصدق واليقين والصبر ، لا لمنفعة ولا مغنم ولا عرض ، وإنما بالحب الصادق والوفاء الكريم ، والمال لا يشترى الوفاء ، ولا يقوى على استغلاله ، قال ابن عباس : (إن الرحم لتقطع وإن النعمة لتكفر وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شيء ثم قرأ ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم**) .

لقد كانوا على قلب رجل واحد اعتصموا بحبل الله جميعا فلم يتفرقوا ، وأنعم الله عليهم بنعمة الأخوة فأصبحوا إخوانا ، فأطبوا المريض بدوائهم ، وأمنوا الخائف فى رجائهم ، وقرأوا على الدنيا كتاب جهادهم ، صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لهم ، ما منهم من أحد فى ميادين القتال إلا ويتمنى أن يموت قبل صاحبه ، لقد اتخذوا الإيثار خلقاً ، ونبذوا الأثرة ، وتلك هى الأخوة فى الله .

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

فاستحقوا بذلك هذا الوسام الرفيع فى قول الله تعالى ﴿ **لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ . وهل يقوى على ذلك التأليف إلا العزيز الذى لا يغلب ، الحكيم الذى تنزه عن العبث ، فيا من ألفت بين قلوبهم ألف بين قلوبنا ، ووحدنا صفاً وهدفاً .

التحريض على القتال

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟

(١) الآية ٣٥ من سورة محمد .
(٢) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) .

أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

المفردات : ﴿ **حسبك** ﴾ : أى كافيك ما يهمك . ﴿ **والتحريض** ﴾ : الحث على الشىء . ﴿ **لا يفقهون** ﴾ : أى لا يدركون حكمة الحرب وما يقصد بها من سعادة فى الدنيا والآخرة . ﴿ **والضعف** ﴾ : (بالفتح والضم) يشمل المادى والمعنوى وقيل هو بالضم ما يكون فى البدن وبالفتح لما يكون فى الرأى والعقل والنفس .

بعد أن أمر الله رسوله بالجنوح للسلم إذا جنح لها الأعداء ، وربما كان جنوحهم لها مظنه الخداع والمكر ووعده أن يكفيه أمرهم إذا أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب ، وضروب الإيذاء والشر ، وامتَّن عليه بتأييده له بنصره ، وبالمؤمنين إذ سخرهم له وألف بين قلوبهم باتباعه ، قفى على ذلك بوعده بكفايته له ولهؤلاء المؤمنين الذين ألف قلوبهم فى حالى الحرب والسلم ، هذا تقدمة لأمره بتحريضهم على القتال حين الحاجة إليه . كما إذا بدأ العدو بالحرب أو نقض العهد أو خان فى الصلح .

﴿ **يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين** ﴾ أى أن الله تعالى كاف لك كل ما يهمك من أمر الأعداء وغيرهم ، وكاف لمن أيدك من المؤمنين ، ونحو الآية قوله ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[١] وقوله ﴿ قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[٢] .

وإذا كان دأب المؤمنين أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل » فأجدر بأنبيائه أن يكونوا أكمل توحيدا وتوكلا عليه من غيرهم ، ولا سيما خاتم أنبيائهم . والمراد بالمؤمنين جماعتهم من المهاجرين والأنصار ، ولاسيما من شهد منهم بدرا .

﴿ **يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال** ﴾ أى حرض المؤمنين على القتال ورغبهم فيه ، لدفع عدوان الكفار من إعلاء كلمة الحق والعدل وأهلهما على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما إذ ذاك من ضرورات الاجتماع البشرى ، وسنة التنازع فى الحياة والسيادة .

والخلاصــة :

حثهم على ما يقيهم أن يكون حرضاً أو يكونوا من الهالكين ، بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم إياهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين .

(١) الآية ١٧٣ من سورة آل عمران . (٢) الآية ٣٨ من سورة الزمر .

﴿ **إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا** ﴾ .

أى إن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم وفقههم مائتين من الكافرين الذين جردوا من هذه الصفات الثلاث ، وهذا عبرة منه تعالى وبشارة ، بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين ، بعون الله وتأييده .

والخلاصـــة :

ليصبرن الواحد لعشرة ، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية ، سواء قلوا أو كثروا ، بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم الفرار منهم ، إذا بدأوهم بالقتال .

﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ أى أنتم تغلبونهم وهم بهذه النسبة،بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب وما يراد بها من مرضاة الله عز وجل فى إقامة سننه العادلة ، وإصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ، ومن وجوب مراعاة أحكامه وسننه بإعداد كل ما يستطاع من قوة ، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسنيين النصر والغنيمة الدنيوية ، أو الشهادة والسعادة الأخروية .

وحالهم يخالف حالكم فى كل ما تقدم ، ولاسيما منكرى البعث والجزاء منهم ، كمشركى العرب فى ذلك العصر ، واليهود الذين أعمتهم المطامع المادية ، وحب الشهوات ، فهم أحرص على الحياة منكم لعدم اعتقادهم بسعادة أخروية ، إلى أن أهل الكتاب يظنون أنهم يحصلون عليها بنسبهم وشفاعة أنبيائهم .

وفى الآية إشارة إلى أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يتعلق بحياة البشر ، وارتقاء الأمم ، ومن ثم كانت المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين .

وهكذا كان المسلمون فى العصور الأولى حين كانوا يعملون بهداية دينهم ، وكانوا بها أرباب ملك واسع ، وعز وجاه ، ودانت لهم الشعوب الكثيرة ، حتى إذا ما تركوا هذه الهداية زال مجدهم وسؤددهم ، وذهبت ريحهم ، ونزع منهم أكثر ذلك الملك ، وبعد أن بين الله تعالى المرتبة العليا التى ينبغى أن تكون للمؤمنين قفى على ذلك ببيان ما دونها من مرتبة الضعف فقال : ﴿ **الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ .

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر الواحد من العشرة فجاء التخفيف فقال ﴿ الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ﴾ قال : فلما

خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم ﴾[1] .

وبهذا الحديث استدل العلماء على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الكفار ، وتحريم الفرار عليه منهما ، سواء طلباه أو طلبهما ، وسواء وقع ذلك وهو واقف فى الصف مع العسكر ، أو لم يكن هناك عسكر .

والخلاصـــة :

إن أقل حال للمؤمنين مع الكفار فى القتال أن ترجح المائة منهم على المائتين ، والألف على الألفين ، وإن هذه رخصة خاصة بحال الضعف كما كان الحال فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الآيات ، وهو وقت غزوة بدر ، حين كان المؤمنون لا يجدون ما يكفيهم من القوت ، ولم يكن لديهم إلا فرس واحد ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدين للحرب ، وكانوا أقل من ثلث المشركين الكاملى الأهبة والعُدة .

ولما كملت للمؤمنين القوة كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر ، وينتصرون عليهم وما تم لهم فتح ممالك الفرس والروم وغيرهم إلا بذلك .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ فى عهده ومن بعده القدوة فى ذلك ، فقد كان الجيش الذى أرسل إلى مؤتة من مشارف الشام للقصاص ممن قتلوا رسوله الحارث بن عمير الأزدى ثلاثة آلاف ، وكان الجيش الذى قاتلهم من الروم ومتنصرة العرب مائة وخمسين ألفا .

وقوله : بإذن الله : أى بمعونته وتوفيقه وبمعنى الآية قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾[1] .

وفى ذلك إيماء إلى أن من سنن الله فى الغلب أن يكون للصابرين على غيرهم ، وفى هذا تحذير للمؤمنين أن يغتروا بدينهم ، ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله ، ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور ، ومعرفة سنن الله فى خلقه .

توجيه ربانى

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٥٩) وفى تفسير (سورة ٨ : ٧) وسورة (٢٢ : ١) . وأخرجه أبو داود وفى الجهاد (٩٦) . والترمذى فى تفسير (سورة ٤ : ٢٤) وسورة (٦ : ٤) . والنسائى فى الوصايا (١١) وفى الخيل (١٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢٩ ، ٣٩١) وفى (٣ : ١٠٣) .

المفردات : ﴿ **الأسرى** ﴾ : واحدهم أسير ، وهو من الأسر وهو الشد بالإسار أى القيد من الجلد ، وكان من يؤخذ من العسكر فى الحرب يشد لئلا يهرب ، ثم صار يطلق على أخيذ الحرب وإن لم يشد . ﴿ **والإثخان** ﴾ : فى كل شيء: قوته وشدته ، يقال قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وكذلك أثخنته الجراح ، والثخانة الغلظ ، فكل شيء غليظ فهو ثخين . ﴿ **والعرض** ﴾ : ما يعرض ولا يدوم سمى به حطام الدنيا لأنه حديث قليل اللبث . ﴿ **ومسكم** ﴾ : أى أصابكم . ﴿ **وفيما أخذتم** ﴾ : أى لأجل ما أخذتم من الفداء .

بعد أن ذكر سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى حال الغزو والجهاد أمام أعدائهم الكافرين من الصبر والثبات على القتال ، ومن تفضيل السلم إذا جنح العدو إليها ، قفى على ذلك بذكر أحكام الأسرى ، لأن أمورهم يفصل فيها بعد القتال غالبا كما وقع فى وقعة بدر كما يقع فى كل زمان .

روى ابن أبى شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : « لما كان يوم بدر جيء بالأسارى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه يا رسول الله قومك وأصلك ، استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحه رضى الله عنه أنت فى واد كثير الحطب فأضرمه عليهم ناراً فقال العباس رضى الله عنه وهو يسمع ما يقول : أقطعت رحمك ؟ فرحل النبى ﷺ ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحه ، فخرج رسول الله ﷺ فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن وإن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال ﴿ فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ﴾ ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[٢] ، ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٣] وإن مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال : ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[٤] أنتم عالة فلا يفلتن أحد إلا بفداء ، أو ضرب عنق – فقال عبد الله رضى الله عنه يا رسول الله ﷺ إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله ﷺ فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع على الحجارة منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ﷺ إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله تعالى ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى . إلى آخر الآيتين** ﴾ » .

وروى عن أحمد من حديث ابن عباس قال : « لما أسروا الأسارى (يعنى يوم بدر) قال رسول الله ﷺ لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنوالعم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للإسلام فقال

(١) الآية ٣٦ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ١١٨ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٨٨ من سورة يونس .
(٤) الآية ٢٦ من سورة نوح .

رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟ قال لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل (أخيه) فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان - نسيب لعمر - فأضرب عنقه ، ومكن فلانا من فلان قرابته ، فإن هؤلاء أئمة الكفر و صناديده فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان قلت يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ، فقال رسول الله ﷺ : أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة منه وأنزل الله عز وجل ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾[1] .

وفى هذا الحديث تصريح بأن الذين طلبوا منه ﷺ اختيار الفداء كثيرون ، وإنما ذكر فى أكثر الروايات أبو بكر رضى الله عنه ، لأنه أول من أشار بذلك ولأنه أكبرهم مقاماً . وروى ابن المنذر عن قتادة قال : أراد أصحاب محمد الفداء يوم بدر ففادوهم بأربعة آلاف ، أربعة آلاف .

﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** ﴾ أى ما كان من شأن نبى من الأنبياء ولا من سنته فى الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المن والفداء ، إلا بعد أن يثخن فى الأرض ، أى إلا بعد أن يعظم شأنه فيها ، ويتم له الغلب والقوة بقتل أعدائه ، لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتال والقتل كما قال :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

إلا أن كثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة ، وذلك يمنع من الجرأة والإقدام على مالا ينبغى ، ومن ثم أمر الله به .

وخلاصة ذلك : أن اتخاذ الأسرى إنما يكون خيراً ورحمة ومصلحة للبشر ، إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل - ففى المعركة الواحدة بإثخانهم لأعدائهم من المشركين والمعتدين ، وفى الحالة العامة التى تعم كل معركة وكل قتال ، فبإثخانهم فى الأرض بالقوة العامة والسلطان الذى يرهب الأعداء .

﴿ **تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة** ﴾ أى تريدون عرض الدنيا الفانى الزائل ، وهو المال تأخذونه من الأسرى فداء لهم ، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقى بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه ، ما دمتم تعملون بها ، ويدخل فى ذلك الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة إرادة الإثخان فى الأرض والسيادة فيها لإعلاء كلمة الحق وإقامة العدل .

وفى ذلك إنكار لعمل وقع من جمهور المؤمنين على خلاف تلك القاعدة التى تقتضيها الحكمة والرحمة ، وما كان للنبى ﷺ إقرار مثل هذا العمل ، ومن ثم عاتبهم الله على ما فعلوا بعد بيان سنة النبيين ، كما عاتب رسوله أيضا .

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد (٥٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٣١ ، ٣٣) .

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ ومن ثم يجعل أولياءه يغلبون أعداءه ، ويتمكنون منهم قتلا وأسراً ، ويطلق لهم أخذ الفداء ، ولكنه يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا ، ونحو الآية قوله : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[1] .

ولا تتم مهمة العزة إلا بتقديم الإثخان فى الأرض والسيادة فيها على المنافع العرضية ، بمثل فداء الأسرى من المشركين وهم فى عنفوان قوتهم وكثرتهم .

وعلى هذه القاعدة جرت الدول العسكرية فى العصر الحديث ، فإذا رأت من البلاد التى تحتلها أدنى بادرة من المقاومة بالقوة نكلت بأهلها أشد التنكيل ، فتخرب البلاد ، وتقتل الأبرياء مع المشاغبين ، بل لا تتعفف من قتل النساء والأطفال نيران المدافع ، وقذائف الطائرات والدبابات .

ولكن الإسلام – وهو دين الرحمة والعدل – لا يبيح شيئاً من ذلك .

﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسّكمْ فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ أى ولولا كتاب من الله سبق فى علمه الأزلى ألا يعذبكم والرسول فيكم ، وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم – لمسكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .

أخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال : « اختلف الناس فى أسارى بدر ، فاستشار النبى ﷺ أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر فادهم ، وقال عمر اقتلهم ، فقال قائل : أرادوا قتل الرسول ﷺ وهدم الإسلام ويأمره أبو بكر بالفداء ، وقال قائل : لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أقر بقتلهم . فأخذ رسول الله ﷺ بقول أبى بكر ففاداهم فنزل ﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ فقال رسول الله « إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر » .

وبعد أن عاتبهم على أخذ الفداء أباح لهم أكل ما أخذوه ، وَعَدَّهُ من جملة الغنائم التى أباحوها فى أول السورة فقال : ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ﴾[2] أى فكلوا مما غنمتم من الفدية حال كونه حلالا بإحلاله لكم طيبا فى نفسه لا خبث فيه مما حرم لذاته كالدم ولحم الخنزير .

﴿ واتقوا الله ﴾ فى أن تعودوا إلى أكل شىء من أموال الناس كفاراً كانوا أو مؤمنين من قبل أن يحله لكم ربكم .

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أى إنه غفور لذنبكم بأخذ الفداء وإيثار جمهوركم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإثخان أو لإعزاز الحق وأهله بإذلال الشرك وكبت حزبه ، رحيم بكم إذ أباح لكم ما أخذتم وأباح لكم الانتفاع به .

وخلاصة ما تقدم – إنه ليس من سنة الأنبياء ولا مما ينبغى لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم

(١) الآية ٦٩ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ٨ من سورة المنافقون .

أو يمن عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين ، لئلا يفضى أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم ، وما فعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال كان ذنباً سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذى تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عتابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى وعلى خلاف سنته — لمسهم عذاب عظيم فى أخذهم ذلك ، وإنه أحل لهم ما أخذوا وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله لهم .

رحمة الله الواسعة

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

لما أخذ الرسول ﷺ الفداء من الأسرى شق عليهم أخذ أموالهم ، فأنزل الله هذه الآية استمالة لهم وترغيبا فى الإسلام ، ببيان ما فيه من خيرى الدنيا والآخرة ، وتهديداً وإنذاراً لهم ببقائهم على الكفر ، وخيانته ﷺ ، وبشارة للنبى ﷺ بحسن العاقبة والظفر له ، ولمن تبعه من المؤمنين .

روى أن الآية نزلت فى العباس وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، وكان العباس أسيراً يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر ، فلم تبلغه النوبة حتى أسر ، فقال العباس : كنت مسلماً إلا أنهم أكرهونى ، فقال النبى ﷺ : إن يكن ما تذكره حقاً فالله يجزيك ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس : فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب على فقال : أما شىء خرجت لتستعين به علينا فلا ، قال : وكلفنى الرسول فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية ، وفداء نوفل بن الحارث ، فقال العباس : تركتنى يا محمد أتكفف قريشاً ، فقال رسول الله ﷺ : أين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لا أدرى ما يصيبنى ؟ فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل فقال العباس : وما يدريك ؟ قال أخبرنى ربى ، قال فأنا أشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ، ولقد كنت مرتاباً فى أمرك فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب . قال العباس : فأبدلنى الله خيرا من ذلك ، لى الآن عشرون عبداً ، وإن أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا ، وأعطانى زمزم وما أحب أن لى بها جميع أموال مكة وأنا أنتظر المغفرة من ربى .

﴿ يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ﴾ .

أى قل للذين فى أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء : إن كان الله تعالى يعلم أن فى قلوبكم الآن إيماناً أو سيظهر فى حينه - كما يدعى بعضكم - يعطكم إذ تسلمون ما هو خير لكم مما أخذه المؤمنون منكم من الفداء بما تشاركونهم فى الغنائم وغيرها من النعم التى وعد المؤمنون بها . روى أبو الشيخ عن ابن عباس : أن العباس وأصحابه قالوا للنبى ﷺ : آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله فنزل ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً** ﴾ الآية .

﴿ **ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾ أى ويغفر لكم ما كان من الشرك وما استتبعه من السيئات والأوزار ، والله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه ، رحيم بالمؤمنين ، فيشملهم بعنايته وتوفيقه ، ويعدهم للسعادة فى الدنيا والآخرة . وفى ذلك من الحض على الإسلام والدعوة إليه مالا يخفى .

﴿ **وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل** ﴾ .

أى وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى الإسلام والرغبة عن قتال المسلمين ، فلا تخف مما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال ، فإنهم قد خانوا الله من قبل ، فنقضوا الميثاق الذى أخذه على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية ، وبما آتاهم من العقل الذى يتدبرون به سنن الله فى خلقه .

﴿ **فأمكن منهم** ﴾ يقال مكنه من الشىء وأمكنه منه : أى ممكنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر ، مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم ، وعددك وعددهم ، وهكذا سيمكنك ممن يخونونك من بعد .

﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ : فهو يعلم ما ينتوونه وما يستحقونه من عقاب ، حكيم سيفعل ما يفعل بحسب ما تقتضيه حكمته البالغة ، فينصر المؤمنين ويظهرهم على الكافرين .

وفى الآية من العبر :

(١) إنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى فى الإيمان ، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر وعادوا إلى البغى والعدوان .

(٢) إن فيها بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة فى كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ، ماداموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية التى علمت مما تقدم . روى البخارى عن أنس « أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فى ترك فداء عمه العباس رضى الله عنه وكان فى أسرى المشركين يوم بدر فقالوا : ائذن لنا فنترك لابن أختنا العباس فداءة (كانت جدته أنصارية) فقال ﷺ : والله لا تذرون منه درهما » .

وقد كان فداء الأسير أربعين أوقيه ذهباً ، فجعل على العباس مائة أوقية وعلى عقيل ثمانين ، فقال له العباس : أللقرابة صنعت هذا ؟ قال : فأنزل الله تعالى ﴿ **يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم** ﴾ الآية فقال العباس (بعد إسلامه) وددت لو

كان أخذ منى أضعافها لقوله تعالى ﴿ **يؤتكم خيراً مما أخذ منكم** ﴾ .

وبعد أن ذكر تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلم ، وما يجب أن يعمل مع الأسرى ، ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك . وولاية الكافرين بعضهم لبعض ، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار ما دام العهد محفوظاً غير منبوذ ولا منكوث فقال :

الإيمان والهجرة والجهاد

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ
وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن
وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ
إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ
﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ
ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

قسم الله المؤمنين أربعة أقسام ، وبين حكم كل منها ومنزلته من بينها :

(١) المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر إلى صلح الحديبية .

(٢) الأنصار الذين كانوا بالمدينة وآووا النبى ﷺ والمهاجرين عند هجرتهم إليهم .

(٣) المؤمنون الذين لم يهاجروا .

(٤) المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

١ ــ ﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ .

أى هؤلاء الكملة هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فراراً بدينهم من فتنة المشركين ، إرضاءاً لربهم ، ونصرا لرسوله ﷺ ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله : أى بذلوا الجهد بقدر الوسع ، واقتحموا المشاق . أما ما كان من بذل الأموال فهو قسمان :

(ا) ما ينفق فى التعاون والهجرة والدفاع عن دين الله ونصر دينه وحماية رسوله .

(ب) ما يكون بسخاء الأنفس بترك ما تركوه فى أوطانهم عند خروجهم منها . وما كان من بذل الأنفس فهو أيضا ضربان :

(ا) قتال الأعداء وعدم المبالاة بكثرة عَدَدهم وعُددهم .

(ب) ما يكون قبل القتال من احتمال المشاق ومغالبة الشدائد والصبر على الاضطهاد والهجرة من البلاد ، وما يصحب ذلك من سغب وتعب ونحو ذلك .

٢ـ ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ أى والذين آووا الرسول ومن هاجر من أصحابه ونصروهم وأمنوهم من المخاوف ، فقد كانت يثرب ملجأ المهاجرين ، شاركهم أهلها فى أموالهم وآثروهم على أنفسهم وقاتلوا من قاتلهم وعادوا من عاداهم ومن جراء هذا جعل الله حكمهم حكم المهاجرين فى قوله :

﴿ **أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى يتولى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر فى القتال وما يتعلق به من الغنائم لأن حقوقهم ومرافقهم مشتركة ، ويجب عليهم كفاية المحتاج وإغاثة المضطر منهم .

٣ ــ ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا** ﴾ الولاية بفتح الواو وكسرها ، وقيل هى بالفتح خاصة بالنصر والمعونة والنسب والدين ، وبالكسر فى الإمارة وتولى الأمور العامة ، لأنها من قبيل الصناعات والحرف ، أى أن المؤمنين المقيمين فى أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم ودارهم دار حرب وشرك لا يثبت لهم شىء من ولاية المؤمنين الذين فى دار الإسلام ، إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم . أما من أسره الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار ، ويجب على المسلمين السعى فى فكاكهم بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة ، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذمة أيضا .

﴿ **وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق** ﴾ .

أى إنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار أو اضطهدوهم لأجل دينهم وطلبوا نصركم عليهم ، فعليكم أن تساعدوهم بشرط أن يكون الكفار حربيين لا عهد بينكم وبينهم ، أما إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم ولا تباح خيانتهم وغدرهم بنقض العهد والمواثيق ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ فعليكم أن تقفوا عند حدوده ، وأن تراقبوه وتتذكروا إطلاعه على أعمالكم ، وتتوخوا فيها الحق والعدل ؟ وتتقوا الهوى الذى يصد عن ذلك .

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سراً وجهراً امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية ، فشعار أهلها الوفاء بالعهود والبعد عن الخيانة والغدر . وإن أعظم دول المدنية فى العصر الحاضر تنقض عهودها جهرة متى وجدت الفرصة سانحة ، ولاسيما عهودها للضعفاء ، وتتخذها خداعا مع الأقوياء ،

وما أكثر قول الدولة الألمانية : ما المعاهدات إلا قصاصات ورق ، وقال بسمارك أكبر ساسة هذه الدولة : المعاهدات حجة القوى على الضعيف ، وأبرع الساسة فى التنصل منها بالتأويل هم الإنكليز .

﴿ **والذين كفروا بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى فى النصرة والتعاون على قتال المشركين ، فهم فى جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين ، وإن كانوا شيعا يعادى بعضهم بعضا ، ولم يكن فى الحجاز حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود ، وكان اليهود يتولون المشركين وينصرونهم على النبى ﷺ والمؤمنين ونقضوا العهود التى كانت بينه وبينهم فقاتلهم حتى أجلاهم من خيبر . ﴿ **إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** ﴾ أى إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض ، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى عهدهم وينبذوه على سواء — يقع من الفتنة والفساد فى الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذى يفضى إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم واضطهادكم فى دينكم بصدكم عنه كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة .

ثم فضل الله المهاجرين والأنصار على غيرهم فقال :

﴿ **والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم** ﴾ .

أى لهم مغفرة تامة من ربهم تمحو ما فرط منهم من السيئات ، ورزق كريم فى دار الجزاء ، لأنهم قد تركوا الأهل والوطن وبذلوا النفس والمال وأعرضوا عن سائر اللذات الجسمانية ، وعملوا ما يقربهم من ربهم فى دار النعيم .

﴿ **والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾ .

أى والذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم فأولئك منكم أى فيلتحقون بالمهاجرين الأولين والأنصار ربما تقدم من الولاية والجزاء .

وفى جعلهم منهم دليل عن فضل السابقين على اللاحقين يرشد إلى ذلك قوله تعالى ﴿ لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾(١) وقوله تعالى ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾(٢) ولا يخفى ما فى الآية من ترغيب فى الإيمان والهجرة .

﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ .

أولوا الأرحام : هم أصحاب القرابات ، والأرحام واحدها رحم (بزنة قُفْل وكَتِف) وأصله رحم المرأة

---

(١) الآية ١٠ من سورة الحديد .
(٢) الآية ١٠٠ من سورة التوبة .

وهو موضع تكوين الولد ، سمى به الأقارب لأنهم من رحم واحد ، أى وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر ، وبالتوارث فى دار الهجرة فى ذلك العهد وفى كل عهد ، وقوله فى كتاب الله ، أى فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذى القربى .

والخلاصـــة :

أن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه وبره ومقدم عليه فى جميع الولايات المتعلقة به ، كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغيرها ، وإذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة فالقريب أولى كما قال تعالى ﴿ وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىءفلأهلك فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك - فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » أى فللمستحق من الأجانب .

﴿ **إن الله بكل شىء عليم** ﴾ أى فهو سبحانه وتعالى إنما شرع لكم هذه الأحكام فى الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق وصلة الأرحام وأحكام القتال والغنائم وسفن التشريع والأحكام - عن علم واسع محيط بكل شىء من مصالحكم الدينية والدنيوية ، ونحو الآية قوله « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم » زادنا الله علماً بفقه كتابه ، ووفقنا للعمل بأحكامه وآدابه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعه أحسنه ، إنه هو السميع المجيب .

(١) الآية ٣٦ من سورة النساء .

سورة براءة

مقدمـــة

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مدنية بالاتفاق .

وعدد آياتها مائة وتسع وعشرون عند الكوفيين ، وثلاثون عند الباقين .

عدد كلماتها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة .

وحروفها عشرة آلاف وسبعمائة وسبع وثمانون حرفاً .

ولهذه السورة ثمانية أسماء : **الأول** براءة ؟ لافتتاحها بها ، **الثانى** سورة التوبة ، لكثرة ذكر التوبة فيها (ثم تاب عليهم ليتوبوا) (لقد تاب الله على النبى) **الثالث** الفاضحة ، لأن المنافقين افتضحوا عند نزولها . **الرابع** . المبعثرة ، لأنها تبعثر عن أسرار المنافقين ، وهذا الاسمان رويا عن ابن عباس . **الخامس** المقشقشة . لأنها تبرئ المؤمن ، فتنظفه من النفاق وهذا عن ابن عمر . **السادس** البحوث ، لأنها تبحث عن نفاق المنافقين . وهذا عن أبى أيوب الأنصارى . **السابع** سورة العذاب لما فيها من انعقاد الكفار بالعذاب مرة بعد أخرى (سنعذبهم مرتين) **الثامن** الحافرة ، لأنها تحفر قلوب أهل النفاق بمثل قوله : ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ ﴿ فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم ﴾ .

مقصد السورة إجمالاً

وَسْم قلوب الكفار بالبراءة ورد العهد عليهم ، وأمان مستمع القرآن وقهر أئمة الكفر وقتلهم ، ومنع الأجانب من عمارة المسجد الحرام ، وتخصيصها بأهل الإسلام ، والنهى عن موالاة الكفر ، والإشارة إلى وقعة حرب حنين ومنع المشركين من دخول الكعبة ، والحرم ، وحضور الموسم والأمر بقتل كفرة أهل الكتاب وضرب الجزية عليهم .

وتقبيح قول اليهود والنصارى فى حق عزير وعيسى عليهما السلام ، وتأكيد رسالة الرسول الصادق الحق ، وعيب أحبار اليهود فى أكلهم الأموال بالباطل ، وعذاب مانعى الزكاة ، وتخصيص الأشهر الحرم من أشهر السنة ، وتقديم الكفار شهر المحرم ، وتأخيرهم إياه والأمر بغزوة تبوك ، وشكاية المتخلفين عن الغزو ، وخروج النبى ﷺ مع الصديق رضى الله عنه من مكة إلى الغار بجبل ثور واحتراز المنافقين من غزوة تبوك ، وترصدهم وانتظارهم نكبة المسلمين ورد نفقاتهم عليهم ، وقسم الصدقات على المستحقين ، واستهزاء المنافقين بالنبى ﷺ ، وبالقرآن وموافقة المؤمنين بعضهم بعضاً ، ونيلهم الرضوان الأكثر بسبب موافقتهم .

وتكذيب الحق للمنافقين فى إيمانهم ونهى النبى عن الاستغفار لأحيائهم ، وعن الصلاة على أمواتهم ، وعيب المقصرين على اعتذارهم بالأعذار الباطلة .

وذم الأعراب فى صلابتهم ، وتمسكهم بالدين الباطل ، ومدح بعضهم بصلابتهم فى دين الحق ، وذكر

السابقين من المهاجرين والأنصار ، وذكر المعترفين بتقصيرهم ، وقبول الصدقات من الفقراء ودعاءهم على ذلك ، وقبول توبة التائبين ، وذكر بناء مسجد ضرار للغرض الفاسد ، وبناء مسجد قباء على الطاعة والتقوى ، ومبايعة الحق تعالى عبيده باشتراء أنفسهم وأموالهم ومعاوضتهم عن ذلك بالجنة ، ونهى إبراهيم الخليل من استغفار المشركين ، وقبول توبة المتخلفين المخلص من غزوة تبوك ، وأمر ناس بطلب العلم والفقه فى الدين ، وفضيحة المنافقين ، وفتنتهم فى كل وقت ، ورأفة الرسول ﷺ ورحمته لأمته وأمر الله نبيه بالتوكل عليه فى جميع أحواله بقوله ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ الآية .

المتشابهات

قوله : ﴿ **واعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾ وبعده ﴿ **واعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول للمكان ، والثانى للزمان ، وتقدم ذكرهما فى قوله ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ .

قوله ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ وبعده ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ ليس بتكرار ؟ لأن الأول فى المشركين ، والثانى فى اليهود ، فيمن حمل قوله : ﴿ **اشتروا بآيات الله ثمنا قليلاً** ﴾ على التوراة .وقيل : هما فى الكفار وجزاء الأول تخلية سبيلهم ، وجزاء الثانى إثبات الأخوة لهم ومعنى (بآيات الله) القرآن .

قوله : ﴿ **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله** ﴾ ثم ذكر بعده (كيف) واقتصر عليه ، فذهب بعضهم إلى أنه تكرار للتأكيد ، واكتفى بذكر (كيف) عن الجملة بعد ، لدلالة الأولى عليه . وقيل تقديره : كيف لا تقتلونهم ولا يكون من التكرار فى شىء .

قوله : ﴿ **لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة** ﴾ وقوله : ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ الأول للكفار والثانى لليهود . وقيل ذكر الأول . وجعله جزاء للشرط ، ثم أعاد ذلك ، تقبيحاً ، فقال : ﴿ **ساء ما يعملون لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾ . فلا يكون تكراراً محضاً .

قوله ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم** ﴾ إنما قدم (فى سبيل الله) لموافقة قوله قبله (وجاهدوا فى سبيل الله) وقد سبق ذكره فى الأنفال . وقد جاء بعده فى موضعين ﴿ **بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ ليعلم أن الأصل ذلك ، وإنما قدم هنا لموافقة ما قبله فحسب .

قوله تعالى ﴿ **كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون** ﴾ بزيادة باء ، وبعده ﴿ **كفروا بالله ورسوله** ﴾ و ﴿ **كفروا بالله ورسوله** ﴾ بغير باء فيهما ، لأن الكلام فى الآية الأولى إيجاب بعد نفى ، وهو الغاية فى باب التأكيد ، وهو قوله ﴿ **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله** ﴾ فأكد المعطوف أيضاً بالباء ليكون الكل فى التأكيد على منهاج واحد ، وليس كذلك الآيتان بعده ، فإنهما خلتا من التأكيد .

قوله : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم** ﴾ بالفاء ، وقال فى الآية الأخرى . ﴿ **ولا تعجبك** ﴾ بالواو ، لأن الفاء يتضمن معنى الجزاء والفعل الذى قبله مستقبل ﴿ ولا ينفقون إلا ﴾ أى : إن يكن منهم ما ذكر فجزاؤهم ، وكان الفاء ها هنا أحسن موقعاً من الواو التى بعدها قبلها ﴿ **كفروا بالله ورسوله وماتوا** ﴾ بلفظ الماضى

وبمعناه والماضى لا يتضمن معنى الشرط – ولا يقع من الميت فعل وكان الواو أحسن .

قوله ﴿ **ولا أولادهم** ﴾ بزيادة (لا) وقال : فى الأخرى ﴿ **وأولادهم** ﴾ بغير (لا) لأنه لما أكد الكلام الأول بالإيجاب بعد النفى وهو الغاية ، وعلق الثانى بالأول تعليق الجزاء بالشرط ، اقتضى الكلام الثانى من التوكيد ما اقتضاه الأول فأكد معنى النهى بتكرار (لا) فى المعطوف .

قوله تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليعذبهم** ﴾ ، وقال : فى الأخرى : ﴿ **أن يعذبهم** ﴾ لأن (أن) فى هذه الآية مقدرة ، وهى الناصبة للفعل ، وصار اللام ها هنا زيادة كزيادة الباء ، (ولا) فى الآية . وجواب آخر : وهو أن المفعول فى هذه الآية محذوف ، أى يريد الله أن يزيد فى نعمائهم بالأموال والأولاد ، ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا . والآية الأخرى إخبار عن قوم ماتوا على الكفر فتعلق الإرادة بما هم فيه ، وهو العذاب .

قوله : ﴿ **فى الحياة الدنيا** ﴾ وفى الآية الأخرى ﴿ **فى الدنيا** ﴾ لأن (الدنيا) صفة للحياة فى الآيتين فأثبت الصفة، والصفة فى الأولى ، وحذف الموصوف فى الثانية اكتفاء بذكره فى الأولى ، وليست الآيتان مكررتين ، لأن الأولى فى قوم ، والثانية فى آخرين ، وقيل : الأولى فى المنافقين والثانية فى اليهود .

قوله : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله** ﴾ وفى الصف ﴿ **ليطفئوا نور الله** ﴾ هذه الآية تشبه قوله : ﴿ **يريد الله أن يعذبهم** ﴾ و﴿ **ليعذبهم** ﴾ حذف اللام من الآية الأولى ، لأن مرادهم إطفاء نور الله بأفواههم ، وهو المفعول به ، والتقدير : ذلك قولهم بأفواههم ، ومرادهم إطفاء نور الله بأفواههم ، والمراد الذى هو المفعول به فى الصف مضمر تقديره : ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب – يريدون ذلك – ليطفئوا نور الله فاللام لام العلة .وذهب بعض النحاة إلى أن الفعل محمول على المصدر ، أى إرادتهم لإطفاء نور الله .

قوله : ﴿ **ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ هذه الكلمات تقع على وجهين : أحدهما : ذلك الفوز بغير (هو) وهو فى القرآن فى ستة مواضع : فى براءة موضعان ، وفى النساء ، والمائدة والصف والتغابن ، وما فى النساء (وذلك) بزيادة واو . والثانى ذلك هو الفوز بزيادة (هو) وذلك فى القرآن فى ستة مواضع أيضاً : فى براءة موضعان وفى يونس والمؤمن والدخان والحديد وما فى براءة أحدهما بزيادة الواو وهو قوله ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾ وكذلك ما فى المؤمن بزيادة واو . والجملة إذا جاءت بعد جملة من غير تراخ بنزول جاءت مربوطة بما قبلها إما بواو العطف . وإما بكناية تعود من الثانية إلى الأولى ، وإما بإشارة فيها إليها . وربما يجمع بين اثنين منها . والثلاثة ؟ للدلالة على مبالغة فيها . ففى السورة ﴿ **خالداً فيها ذلك** ﴾ و﴿ **خالدين فيها ذلك** ﴾ ومنها أيضا ﴿ **ورضوان من الله أكبر ذلك هو** ﴾ فجمع بين اثنين . وبعدهما ﴿ **فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو** ﴾ فجمع بين الثلاثة ، تنبيهاً على أن الاستبشار من الله يتضمن رضوانه والرضوان يتضمن الخلود فى الجنان .

قال تاج القراء : ويحتمل أن ذلك لما تقدمه من قوله : ﴿ **وعداً عليه حقاً فى التوارة والإنجيل والقرآن** ﴾ فيكون كل واحد منهما فى مقابلة واحد وكذلك فى المؤمن تقدمه ﴿ **فاغفر ، وقهم ، وأدخلهم** ﴾ فوقعت فى مقابلة الثلاثة .

قوله : ﴿ **وطبع على قلوبهم** ﴾ ثم قال بعد : ﴿ **وطبع الله على قلوبهم** ﴾ لأن قوله (وطبع) محمول على رأس الآية ، وهو قوله : ﴿ **وإذا أنزلت سورة** ﴾ فبنى مجهول على مجهول ، والثانى محمول ، على ما تقدم من ذكر الله تعالى مرات وكان اللائق : وطبع الله ، ثم ختم كل آية بما يليق بها ، فقال فى الأولى : لا يفقهون ، وفى الثانية : لا يعلمون ، لأن العلم فوق الفقه ، والفعل المسند إلى الله فوق المسند إلى المجهول .

قوله : ﴿ **وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون** ﴾ ، وقال فى الأخرى : ﴿ **وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون** ﴾ لأن الأولى فى المنافقين ، ولا يطلع على ضمائرهم إلا الله تعالى ، ثم رسوله بإطلاع الله إياه عليها ، كقوله : ﴿ **قد نبأنا الله من أخباركم** ﴾ والثانية فى المؤمنين وطاعات المؤمنين وعباداتهم ظاهرة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وختم آية المنافقين بقوله : (ثم تردون) فقطعه عن الأولى ، لأنه وعيد . وختم آية المؤمنين بقوله : (وستردون) لأنه وعد ، فبناه على قوله (فسيرى الله) .

قوله : ﴿ **إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ وفى الأخرى ﴿ **إلا كتب لهم ليجزيهم الله** ﴾ (لأن الآية الأولى) مشتملة على ما هو من عملهم ، وهو قوله : ﴿ **ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً** ﴾ ، وعلى ما ليس من عملهم . وهو الظمأ والنصب والمخمصة ، والله سبحانه بفضله أجرى ذلك مجرى عملهم فى الثواب ، فقال : ﴿ **إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ أى جزاء عمل صالح ، والثانية مشتملة على ما هو من عملهم ، وهو إنفاق المال فى طاعته ، وتحمل المشاق فى قطع المسافات ، فكتب لهم بعينه ، لذلك ختم الآية بقوله : ﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ . لكون الكل من عملهم فوعدهم حسن الجزاء عليه وختم الآية بقوله : ﴿ **إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ حين ألحق ما ليس من عملهم بما هو من عملهم ، ثم جازاهم على الكل أحسن الجزاء .

وجه المناسبة

ووجه المناسبة بينها وبين ما قبلها - الأنفال - أنها كالمتممة لها فى معظم ما فى أصول الدين وفروعه ، وفى التشريع الذى جله فى أحكام القتال والاستعداد له ، وأسباب النصر فيه ، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضى لذلك وأحكام الولاية فى الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، والكافرين بعضهم مع بعض ، وأحوال المؤمنين الصادقين والكفار المذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب ، فما بدىء به فى الأولى أتم فى الثانية - وهاك أمثلة على ذلك :

(١) تفصيل الكلام فى قتال المشركين وأهل الكتاب .

(٢) ذكر فى الأولى صد المشركين عن المسجد الحرام ، وأنهم ليسوا بأوليائه ، وجاء فى الثانية ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله ﴾ إلى آخر الآيات .
(٣) ذكرت العهود فى سورة الأنفال ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها .
(٤) ذكر فى سورة الأنفال الترغيب فى إنفاق المال فى سبيل الله ، وجاء ذلك بأبلغ وجه فى براءة .
(٥) جاء فى الأولى ذكر المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، وفصل فى الثانية أتم تفصيل .

ولم يكتب الصحابة ولا من بعدهم البسملة فى أولها ، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور ، وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة وقيل لأنها جاءت لرفع الأمان والابتداء بالبسملة مذكورا فيها اسم الله موصوفاً بالرحمة يوجبه .

النص الكريم

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

المفردات : ﴿ **البراءة** ﴾ : من برىء من الدَّيْن إذا أسقط عنه ، ومن الذنب ونحوه إذا تركه وتباعد عنه . ﴿ **والمعاهدة** ﴾ : عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها وكان كل فريق يضع يمينه فى يمين الآخر ويوثقونها بالأيمان ، ومن جراء ذلك سميت أيماناً فى قوله تعالى : ﴿ **إنهم لا أيمان لهم** ﴾ أى لا عهود لهم ، والسياحة فى الأرض : الانتقال والتجوال فيها ، ويراد بها هنا حرية الانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر لا يعرض المسلمون لهم فيها بقتال . وقوله . ﴿ **غير معجزى الله** ﴾ ، أى لا تفوتونه بالهرب والتحصن والخزى : الذل والفضيحة بما فيه عار . ﴿ **والأذان** ﴾ : الإعلام بما ينبغى أن يعلم .

﴿ **ويوم الحج الأكبر** ﴾ : هو يوم النحر الذى تنتهى فيه فرائض الحج ويجتمع فيه الحاج لإتمام مناسكهم . ﴿ **ثم لم ينقصوكم شيئاً** ﴾ : أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا أحد منكم ولم يضروكم . ﴿ **ولم يظاهروا** ﴾ : أى لم يعاونوا . ﴿ **انسلاخ الأشهر** ﴾ : انقضاؤها والخروج منها يقال : سلخ فلان الشهر وانسلح منه ومنه قوله تعالى ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ . ﴿ **والحرم** ﴾ : وهى الأشهر التى حرم الله فيها قتالهم فى الأذان والتبليغ بقوله : ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ وقوله : ﴿ **وخذوهم** ﴾ : أى بالأسر . ﴿ **والأخيذ** ﴾ : الأسير ، واحصروهم : أى امنعوهم من الخروج واحبسوهم . ﴿ **والمرصد** ﴾ : الموضع الذى يرقب فيه العدو ، يقال رصدت فلانا أرصده : إذا ترقبته ، أى اقعدوا لهم على كل مرصد . ﴿ **واستجاره** ﴾ : طلب جواره أى حمايته وأمانه ، وقد كان من عادات العرب حماية الجار والدفاع عنه حتى أنهم يسمون النصير ، جاراً . ﴿ **وأجره** ﴾ : أى ، أمنه ، ومأمنه أى مسكنه الذى يأمن فيه ، وهو دار قومه ، وقول لا يعلمون أى ما الإسلام وما حقيقته ، فلابد من إعطاء الأمان حتى يفهموا بحق ولا يبقى لهم معذرة .

قال العلامة ابن كثير : هذه السورة من آواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخارى حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة عن ابن اسحاق قال : « سمعت البراء بن عازب يقول آخر آية ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾ وآخر سورة نزلت براءة »[١] .

وإنما لم يبسمل فى أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة فى أولها فى المصحف الإمام بل اقتدوا فى ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وأرضاه كما قال الترمذى .

حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد ومحمدبن أبى جعفر وابن أبى عدى وسهيل بن يوسف قالوا حدثنا عوف بن أبى جميلة أخبرنى يزيد الفارسى أخبرنى ابن عباس قال : « قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها فى السبع الطوال ما حملكم على ذلك ؟ فقال عثمان بن عفان : كان رسول الله ﷺ مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتها فى السبع الطول »[٢] وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من طرف آخر عن عوف الأعرابى به وقال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك وهم بالحج ثم ذكر أن

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة ٤ : ٢٧ – وسورة ٩ : ١) . ومسلم فى الفرائض (١١ ، ١٢) .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٩ : ١) . والإمام أحمد فى (١ : ٥٧ ، ٦٩) .

المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عاداتهم فى ذلك وأنهم يطوفون بالبيت عراة فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضى الله عنه أميرا على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويُعلِم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا وأن ينادى فى الناس ﴿ **براءة من الله ورسوله** ﴾ فلما قفل أتبعه بعلى بن أبى طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ . لكونه عصبة له .

قوله تعالى ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين** ﴾ .

أى هذه براءة وتبرؤ من الله تعالى ورسوله ﷺ إلى الذين عاهدتم من المشركين .

قال بعض أهل العلم : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة أو من له عهد دون أربعة أشهر فيكمل له أربعة أشهر فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان لقوله تعالى ﴿ **فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم** ﴾ الآية . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته وهذا أحسن الأقوال وأقواها .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ الآية قال حد الله للذين عاهدوا رسوله أربعة أشهر يسيحون فى الأرض حيث شاءوا ، وأجل أجل من ليس له عهد انسلاخ الأشهر الحرم من يوم النحر إلى سلخ المحرم ، فذلك خمسون ليلة .

فأمر الله نبيه إذا انسلخ المحرم أن يضع السيف فيمن لم يكن بينه وبينه عهد بقتلهم حتى يدخلوا فى الإسلام ، وأمر بمن كان له عهد إذا انسلخ أربعة أشهر من يوم النحر إلى عشر خلون من ربيع الآخر أن يضع فيهم السيف أيضاً حتى يدخلوا الإسلام .

وقال أبو معشر المدنى حدثنا محمد بن كعب القرظى وغيره قالوا : « بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرا على الموسم سنة تسع وبعث على بن أبى طالب بثلاثين أو أربعين آية من براءة فقرأها على الناس يؤجل المشركين أربعة أشهر يسيحون فى الأرض فقرأها عليهم يوم عرفة أجلهم عشرين من ذى الحجة والمحرم وصفر وشهر ربيع الأول وعشرا من ربيع الآخر وقرأها عليهم فى منازلهم وقال : لا يحجن بعد عامنا هذا مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان »[1] .

قوله تعالى ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ أى سيروا مطمئنين فى الأرض لمدة أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله ، أى غير فارين أو فائتين من عقابه ، فالسموات السبع وما أظلت ، والأرضون وما أقلت فى قبضته جل جلاله ، وهى مطويات بيمينه ، واعلموا كذلك أن الله مخزى الكافرين فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبالقتل والهزيمة ، وأما فى الآخرة فبالعذاب الأليم .

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة (١٠) وفى الحج (٦٧) وفى الجزية (١٦) وفى المغازى (٦٦) وفى التفسير (سورة ٩ : ٢ ، ٣ ، ٤) ومسلم فى الحج (٤٣٥) . وأبو داود المناسك (٦٦) . والترمذى فى تفسير (سورة ٩ : ٦) . والنسائى فى الحج (١٦١) . والدارمى فى الصلاة (١٤٠) وفى السير (٦٢) . والإمام أحمد فى (١ : ٣) وفى (٢ : ٢٩٩) .

قوله تعالى ﴿ **وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله** ﴾ .

المقصود بالأذان هنا الإعلام وهذا الإعلام صادر من الله على لسان رسوله ومصطفاه إلى الناس يوم الحج الأكبر ، المقصود به يوم النحر ، أن الله برىء من المشركين ورسوله ، وهذا توكيد لما جاء فى أول السورة .

ثم دعاهم سبحانه إلى التوبة فقال ﴿ **فإن تبتم فهو خير لكم** ﴾ خير لكم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فإن الإسلام عزة وكرامة ورفعة وشموخ وعلو إلى عالم الطهر والنقاء والصفاء ، وأما فى الآخرة فقد وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم .

ثم أعقب الوعد بالوعيد فقال سبحانه ﴿ **وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾ وكيف يعجزونه جلّ فى علاه والوجود ملكه والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه وتعالى ، تنزهت عن الشريك ذاته ،وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف وبالإحسان موصوف معروف بلا غاية وموصوف بلا نهاية ، كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له،واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، قوة كل ضعيف وغنى كل فقير ومفزع كل ملهوف ، وعز كل ذليل ، من تكلم سمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه أول بلا بداية وآخر بلا نهاية ، ﴿ وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾[1] ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾[2] .

قوله تعالى ﴿ **وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ أى جزاء ما قدموا ، وبما كسبت أيديهم وكان الأصل أن تكون البشارة بما يسر ، ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه لكانوا أهلاً لتلك البشارة ، لكنهم لما كفروا وعصوا الرسول استحقوا أن تكون البشارة إخباراً بعذاب أليم .

قال البخارى رحمه الله : حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا الليث حدثنى عقيل عن ابن شهاب قال : أخبرنى حميد بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قال : « بعثنى أبو بكر رضى الله عنه فى تلك الحجة فى المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمعنى أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » . قال حميد : « ثم أردف النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فأمره أن يؤذن ببراءة . قال أبو هريرة فأذن معنا على فى أهل منى يوم النحر ببراءة وأن لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان » . وروى الإمام أحمد بإسناده عن محرز بن أبى هريرة عن أبيه قال كنت مع على بن أبى طالب حين بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال : ما كنتم تنادون ؟ قال : كنا ننادى أنه لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ولا

(١) الآية ٤٤ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٦١ من سورة النحل .

يطوف بالبيت عريان . ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو مدته إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله برىء من المشركين ورسوله ولا يحج هذا البيت بعد عامنا هذا مشرك ، قال فكنت أنادى حتى صحل صوتى » .

وقال الشعبى حدثنى محرز عن أبى هريرة عن أبيه قال : « كنت مع على بن أبى طالب رضى الله عنه حين بعثه النبى ﷺ ينادى فكان إذا صحل ناديت فقلت بأى شىء كنتم تنادون ؟ قال بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يحج بعد عامنا هذا مشرك » .

وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على قال : « لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر ليقيم الحج الأكبر للناس ، فقيل يا رسول الله لو بعثت إلى أبى بكر فقال « لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى » ثم دعا عليا فقال « اذهب بهذه القصة من سورة براءة وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته فخرج على رضى الله عنه على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر فى الطريق فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج إذ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر قام على بن أبى طالب فأذن بالناس بالذى أمره رسول الله ﷺ فقال يا أيها الناس : إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد عند رسول الله ﷺ فهو إلى مدته : فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قدما على رسول الله ﷺ فكان هذا من براءة فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام وأهل المدة إلى الأجل المسمى » .

قوله تعالى ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين** ﴾ .

فى هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى بأن من كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإنه يجب الوفاء به إلى مدته بشرط ألا ينقص المسلمين شيئا ، ولم يظاهر عليهم أحدا من الأعداء ، فإذا توافر للمعاهد ما ذكر وجب إتمام العهد إلى مدته ، فما أعظم الإسلام فى وفائه ، وما أجمله فى عدله وعهده ووعده إنه الوفاء المشروط بعدم النقصان ومظاهرة الأعداء ليكون ذلك دليلا على حسن النيات .

قال جل شأنه : ﴿ إن العهد كان مسئولا ﴾(١) .

فما أعظم قوله تعالى فى ختام تلك الآية : ﴿ **إن الله يحب المتقين** ﴾ . إن التقوى هى السياج المنيع الذى يقى أصحابه الوقوع فى الزلل والارتكاس فى حمأة الرذيلة . إن التقوى هى الخوف من الجليل

(١) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .

والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . قال تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾[٢] .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم** ﴾ .

هناك أقوال فى الأشهر الحرم ما هى ؟ نختار منها ما ذهب إليه ابن عباس وجماعة ، من أن المراد بها أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله تعالى ﴿ **فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **فإذا انسلخ الأشهر الحرم** ﴾ أى إذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرمنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها ، فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم وخذوهم أسرى ، واحصروهم بالتضييق عليهم ، واقعدوا لهم كل مرصد ، وسدوا عليهم المنافذ ، وأحكموا قبضتكم عليهم ، فهذه أوامر أربعة : القتل والأسر والحصر ، والقعود لهم فى كل مرصد .

ثم فتح الله تعالى لهم باب الرحمة والأمل والتوبة والمغفرة ، فقال ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ كما قال فى آية أخرى : ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾[٣] . ومن هاتين الآيتين يستفاد تخلية السبيل والأخوة فى الدين .

وقد جعل الله تعالى من مظاهر التوبة إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهما من أعظم أركان الإسلام . ففى الصلاة إشارة إلى العبادة البدنية والروحية ، وفى الزكاة إشارة إلى العبادة المالية ، وكثيرا ما قرن القرآن الكريم بينها فى صيغ متنوعة وصور مختلفة ، فقد يعبر عنهما بصيغة الماضى كما فى قوله جل شأنه ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾[٤] .

وقد يعبر عنهما بصيغة المضارع كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾[٥] .

وقد يأتيان فى صورة الأمر كما فى قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا ﴾[٦] .

وقد يردان بصيغة الصفة كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة ﴾[٧] وقد

(١) الآية ٢٦ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٥ من سورة الأحزاب .
(٤) الآية ١٨ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٦) الآية ٢٠ من سورة المزمل .
(٧) الآية ١٦٢ من سورة النساء .

يأتيان بصيغة المصدر كما فى قوله جل شأنه : ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾[١] . وقد رويت عن رسول الله ﷺ أحاديث تفيد ما لمكانة هاتين العبادتين من عظمة فى الإسلام نسوق منها قوله ﷺ :

– جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة)[٢] .

– وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلوا صلاتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ﴾[٣] رواه البخارى فى صحيحه .

– وقال الإمام أبو جعفر بن جرير بسنده عن الربيع بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا يشرك به شيئا فارقها والله عنه راض)[٤] وقال أنس : هو دين الله الذى جاءت به الرسل وبلغوه عن ربهم قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما أنزل . قال الله تعالى ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم** ﴾ قال : توبتهم خلع الأوثان وعبادة ربهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، ثم قال فى آية أخرى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ﴾ .

– وقال أبو إسحق عن أبى عبيدة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : أمرتم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ومن لم يزك فلا صلاة له .

– وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة وقال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه .

ولما ذكر تعالى التوبة ناسب ذلك أن يقرنها بالمغفرة والرحمة ، فسبحانه من رب غفور ، وسعت رحمته كل شيء ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، لو يعلم المدبرون عنه كيف انتظاره لهم ، ورفقه بهم ، وشوقه لمغفرة ذنوبهم ، لماتوا شوقا إليه ، ولتقطعت أوصالهم من محبته . هذه الحال للمدبرين عنه فكيف بالمقبلين عليه ؟ !

يارب حبك فى دمى وكيانى ... نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى ... أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

سبحانك من إله قطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

(١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة النور .
(٢) سبق تخريج هذا الحديث .
(٣) أخرجه البخارى فى الصلاة (٢٨) . والترمذى فى الإيمان (٢) . والنسائى فى التحريم (١) وفى الإيمان (١٥) والإمام أحمد فى (٣ : ١٩٩ ، ٢٢٥) .
(٤) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة (٩) .

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمدا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرا فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

قوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون** ﴾ .

وهذا باب آخر من أبواب الرحمة الإسلامية والسماحة والمروءة والندى ، فقد فتح الإسلام باب (الإجارة) فقال الله لرسوله الكريم ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك** ﴾ وطلب جوارك وأمانك فأعطه هذا الأمان ، وأسمعه كلام الله الذى أنزله على صدرك غضا ندياً ، يتقاطر نورا ورحمة . أسمعه هذا الكلام الذى لو نزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، وأعطه هذا الأمان حتى يبلغ مأمنه من وطن ودار ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون الحق فهم معرضون ، فلعلهم بعد سماع كلام الله يتقون أو يحدث لهم ذكرا .

إن الإسلام يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد ، يقيم دعوته على البراهين الساطعة ، والحجج القاطعة . قيل لأعرابى لم آمنت بمحمد ؟ فقال لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل : ليته ما أمر . ولم ينه عن شىء وقال العقل : ليته ما نهى .

إن أتباع هذا الدين هم الذين أعلنوها فى سمع الزمان عالية مدوية : سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائف فى رحابنا ، وسنتلوا على الدنيا كتاب جهادنا صمت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا .

قال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وإن أحد من المشركين استجارك** ﴾ قال : إنسان يأتيك ليسمع ما تقول ، وما أنزل عليك ، فهو آمن حتى يأتيك فتسمعه كلام الله ، وحتى يبلغ مأمنه حيث جاء ، ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاءه مسترشداً أو فى رسالة كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش منهم عروة بن مسعود ، ومكرز بن حفص ، وسهيل بن عمرو وغيرهم واحدا بعد واحد يترددون فى القضية بينه وبين المشركين ، فرأوا من إعظام المسلمين رسول الله ﷺ ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر فرجعوا إلى قومهم وأخبروهم بذلك وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم .

ولهذا أيضا لما قدم رسول مسيلمة الكذاب على رسول الله ﷺ قال له : أتشهد أن مسيلمة رسول الله ؟ قال نعم ، فقال رسول الله ﷺ « لولا أن الرسل لا تقتل لضربت عنقك » .

وقد قيض الله له ضرب العنق فى إمارة ابن مسعود على الكوفة ، وكان يقال له ابن النواحة ظهر عنه فى زمان ابن مسعود أنه يشهد لمسيلمة بالرسالة فأرسل إليه ابن مسعود فقال له : إنك الآن لست فى

رسالة ، وأمر به فضربت عنقه لا رحمه الله ولعنه .

والغرض أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام فى أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية أو نحو ذلك من الأسباب ، وطلب من الإمام أو نائبه أمانا أعطى أمانا ، ما دام مترددا فى دار الإسلام ، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه .

لكن قال العلماء لا يجوز أن يمكن من الإقامة فى دار الإسلام سنة ، ويجوز أن يمكن من إقامة أربعة أشهر وفيما بين ذلك فيما زاد على أربعة أشهر ونقص عن سنة قولان عن الإمام الشافعى وغيره من العلماء رحمهم الله .

المشركون والعهود

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ
فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ
لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾
ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾
لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن
نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ
لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

المفردات : ﴿ **ظهر عليه** ﴾ : غلبه وظفر به .و ﴿ **ورقب الشىء** ﴾ : رعاه وحاذره لأن الخائف يرقب العقاب ويتوقعه ، ومنه فلان لا يرقب الله فى أموره : أى لا ينظر إلى عقابه فيركب رأسه فى المعصية .و ﴿ **الإل** ﴾ : القرابة قال ابن مقبل :

أفسد النـاس خلـوف خلفـوا قطعـوا الإل وأعـراق الرحـم

و﴿ **الذمة والذمام** ﴾ : العهد الذى يلزم من ضيعه الذم ، وكان خفر الذمام ونقض العهد عندهم من العار . ﴿ **فاسقون** ﴾ : أى خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها . ﴿ **نكثوا** ﴾ : أصل النكث نقض الحبل ثم استعير لنقض العهد . ﴿ **لا أيمان** ﴾ : المراد لا عهود لهم .

قوله تعالى ﴿ **كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين** ﴾ .

هذا استفهام إنكارى يفيد النفى ، وهو أبلغ من التصريح بالنفى لما فيه من التبكيت والتوبيخ والتقريع ، أى لا عهد لهؤلاء المشركين الناكثين للعهود الناقضين للعهود ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام وهم المعنيون فى قوله جل جلاله ﴿ **إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين** ﴾ .

وهنا عبر عن هذه الشروط بقوله تعالى ﴿ **فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم** ﴾ فاشترط للوفاء بالعهد استقامتهم على ما شرط وعدم النكث .

ثم أكد سبحانه ألا عهد للمشركين فقال ﴿ **كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة** ﴾ أى كيف يكون لهم عهد وهم يتربصون بكم الدوائر ، وينتهزون الفرص ، فإنهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم لا يراعون فيكم قرابة ، ولا عهداً ، فالخيانة فى دمائهم إنهم مخادعون مراوغون ، ومن مظاهر خداعهم أنهم يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون .

هؤلاء المراوغون ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ﴿ وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾[1] إن قلوبهم قد طويت على الخيال والخداع والدخل ، اتخذوا أيمانهم جنة ، ﴿ **اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ .

لقد اشتروا الدنيا وهى مهما بلغت قليلة ضئيلة اشتروها بأغلى الأشياء بآيات الله فصدوا عن سبيله وقعدوا بكل صراط يعدون ، ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجاً ، قبح فعلهم ، وساء صنيعهم ، وأصبح عملهم شنيعاً إذ لا شىء أشد سوءاً من أن يبيع الإنسان آخرته بدنياه ، فالدنيا مهما أقبلت فهى مدبرة ، ومهما أعطت فهى مولية ومهما ضحكت فهى مكشرة .

هى الدنيـــا تقـــول بملء فيها ... حذارى حذارى من بطشى وفتكى
فـلا يغرركمـوا منـى ابـتسام ... فقـولى مضحك والفعل مبكـى
إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ... وإذا جلت أوجلت وإذا أينعت نعت
وكم من قصور تبنى ومــا تبنــا ... وكم من مريض عدنا ومــا عدنــا
وكم من ملك رفعت له علامات ... فلمـــــــــــا علا مات

ثم أكد الله تعالى نقضهم للعهد فقال ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون** ﴾ أى لا يراعون قرابة ولا عهداً فى مؤمن ، لأن الاعتداء شيمة من شيمهم ، فهم طغاة متجبرون ، ومع كل تلك السخائم التى جبلوا عليها فإن الله تعالى فتح باب التوبة ، فقد وسعت رحمته كل شىء لمن تاب وآمن

(١) الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

وعمل صالحاً ثم اهتدى فقال ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ .

إذ لو علموا ما نقضوا لله عهداً ، ولا خانوا لمؤمن ذمة ، ولما علم الله منهم تلك الطباع الملتوية عقب على هذه الآية بقوله ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾ .

وذلك لأن ضرب الرؤوس منهم يخيف الأتباع . ويفزعهم ، وهؤلاء جبناء رعاديد وأنتم يا أتباع محمد الأبطال الصناديد ، والعبد يقرع بالعصا والحر تكفيه المقالة .

تحريض على قتال المشركين

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

كيف لا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم التى أقسموا بها عند المعاهدة ، ونقضوا عهدهم من بعد توكيده ، وهذا استفهام لإنكار عدم قتالهم ، وهو يفيد الحض على القتال والحث عليه ، ببيان شناعة جرمهم ، وعظيم فعلهم المقتضى للقتال ، ألا تراهم هموا بإخراج الرسول من مكة ، أو حبسه حتى لا يراه أحد ، أو قتله بأيدى عصابة مكونة من القبائل حتى يضيع دمه ﴿ وإذ يمكر بك الذى كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله ﴾[1] .

وقد بدأوكم بالقتال أولا وقد قيل : الشر بالشر والبادئ أظلم ، وقد كان منهم كل ذلك إذ نقضت قريش العهد ، وأعانت بنى بكر على خزاعة وقتلوا منهم كثيرا ، حتى استنجدوا برسول الله ، وقد أخرجوا النبى ﷺ من بلده مكة ، وأخرجوا غيره من المهاجرين ، وبدءوا بالقتال يوم بدر .

ثم قال بعد هذه الحجج : أتخشونهم وتتركون قتالهم خشية وخوفاً ، إن كانت الخشية هى المانعة فالله أحق بها إن كنتم مؤمنين ، إذ شرط الإيمان الخوف من الله وحده ، وخشيته دون سواه وهذا الاستفهام يفيد الإنكار والتوبيخ ولكن للمنافقين ولمن كانوا يعظمون أمر القتال ، ويرون أنه لا يليق برحمة الإسلام ، وعطفه على الناس .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

ثم بعد هذا البيان الكامل أمرهم بالقتال فقال : ﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم** ﴾ إذ هو الفاعل حقيقة وأنتم باشرتم العمل فى الظاهر ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾(١) إن تقاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم بالقتل والأسر والهزيمة ، وينصركم عليهم نصراً مؤزراً ، ما دمتم تنصرون الله بطاعته ، ويشف صدور قوم مؤمنين كانت قد ملئت غيظاً وألماً من أفعال المشركين بهم فى مكة .

وقيل إن خزاعة شفى الله صدرها بحرب المسلمين لقريش وأحلافهم ، ويذهب غيظ قلوبهم بما كابدت قريش من المكاره والمكايد .

وقد أنجز الله وعده وصدق عبده ، ونصر جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وهذا تحريض للقتال بأسلوب بليغ مع تبليغ أن النصر للمسلمين .

ويتوب الله بعد ذلك على من يشاء من عباده حسب مشيئته المبنية على الحكمة البالغة ولا غرابة فالله عليم بخلقه لا تخفى عليه خافية حكيم لا يفعل إلا ما فيه الخير والحكمة لعباده .

تمحيص المسلمين

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

والمراد بالوليجة : البطانة وصاحب سر مأخوذ من الولوج وهو الدخول وصاحبك يدخل فى محيط أسرارك .

يقول تعالى ﴿ **أم حسبتم** ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لانختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ، ولهذا قال ﴿ **ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة** ﴾ أى بطانة ودخيلة ، بل هم فى الظاهر والباطن على النصح كله ولرسوله ، فاكتفى بأحد القسمين عن الآخر كما قال الشاعر :

وما أدرى إذا يممت أرضا ... أريد الخير أيهما يلينى

ولقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى ﴿ ألم * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(٢) .

وقال تعالى ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾(٣) الآية . وقال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه ﴾(٤) الآية .

(١) الآية ١٧ من سورة الأنفال .
(٢) الآيات ١ - ٣ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ٢١٤ من سورة البقرة .
(٤) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران .

والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عبيده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وأمضاه .

المشركون لا يعمرون المساجد

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ **أن يعمروا** ﴾ : عمارة المسجد فى اللغة تشمل لزومه والإقامة فيه وعباده الله فيه وبنيانه وترميمه وخدمته والإرعاء عليه والعناية به . ﴿ **مساجد** ﴾ : جمع مسجد وهو مكان السجود ثم استعمل فى البيوت الخاصة بعبادة الله وحده والمراد المسجد الحرام . ﴿ **شاهدين على أنفسهم بالكفر** ﴾ : شاهدة حال لا مقال . ﴿ **حبطت** ﴾ : أى بطلت وضاعت فكانت هباء منثورا . ﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ : عسى فى كلام الله تفيد تحقق الوقوع .

روى عن ابن عباس رضى الله عنه : « أنه لما أسر العباس يوم بدر عيره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم ، وأغلظ له على فى القول فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا وتنسون محاسننا ؟ فقال على : ألكم محاسن ؟ فقال : نعم ، إننا نعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقى الحاج ، فأنزل الله عز وجل رداً على العباس هذه الآيات » .

والمراد أنها تتضمن الرد على العباس وأمثاله لأنها وقعت عقب قوله وهى مناسبة لنقض عهودهم ، وعدم حجهم البيت ، ومنعهم منه ، إذ أنها تفيد منع خدمتهم وعمارتهم للمسجد الحرام أيضاً .

يخبر سبحانه وتعالى بأن المشركين ما ينبغى لهم أن يعمروا مساجد الله حالة كونهم شاهدين على أنفسهم بالكفر ، فالمسجد مهابط الرحمة ، ومنازل السكينة ، ومنارات الهدى ، و بروج التوحيد . ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾(١) .

فكيف يتأتى للمشركين أن يعمروها وهى بيوت الله فى الأرض ، وعمارها زوارها ، فطوبى لعبد تطهر فى بيته ثم زار الله فى بيته ، وحق على المزور أن يكرم زائره .

إن المشركين قد حبطت أعمالهم ، وخاب سعيهم ، وضل سؤلهم ، فالله سبحانه وتعالى لا يقبل من عبد عملا إلا إذا كان صوابا خالصا ، والشرك يحبط الأعمال ويجعلها عارية من الصواب والإخلاص .

(١) الآية ١٨ من سورة الجن .

جاء فى الحديث القدسى الجليل ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه ﴾[١] .

لذا حكم الله على أعمالهم بأنها محبطة ، وحكم عليهم بالخلود فى النار ثم بين تعالى إن الذين يعمرون مساجد الله هم المؤمنون بالله واليوم الآخر ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ولا يخشون إلا الله ، فاستحقوا أن يكونوا أهلا للهداية قال تعالى :

﴿ **فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين** ﴾ وعسى فى كلام الله حق ، وقد أخبر النبى ﷺ عن فضل المساجد وعمارها فقال ﴿ إنما عمار المساجد هم أهل الله ﴾ رواه البزار .

وقال ﷺ ﴿ إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم ﴾ رواه الدارقطنى .

وعن أنس رضى الله عنه مرفوعاً « يقول الله : [وعزتى وجلالى إنى لأهم بأهل الأرض عذابا فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وإلى المتحابين فى وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم] . وروى الإمام أحمد بإسناده عن معاذ بن جبل ان النبى ﷺ قال : « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية ، فإياكم والشعاب ، وعليكم بالجماعة ، والعامة والمسجد »[٢] . وعن عمرو بن ميمون الأزدى قال : « أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون إن المساجد بيوت الله فى الأرض وإنه حق على الله أن يكرم من زاره فيها » . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من سمع النداء بالصلاة ثم لم يجب ولم يأت المسجد ويصل فلا صلاة له وقد عصى الله ورسوله » .

وقال ﷺ : (بشر المشائين فى الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة)[٣] .

اللهم اجعلنا من أوتاد المساجد ، الذين جلساؤهم الملائكة ، إن غابوا افتقدوهم ، وإن مرضوا عادوهم ، وإن كانوا فى شدة دعوا الله لهم .

فضل الإيمان والجهاد

* أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَجَٰهَدَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٩) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟
وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (٢٠)
يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ
ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢)

(١) أخرجه مسلم فى الزهد (٤٦) . وابن ماجه فى الزهد (٢١) . (٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٢٢٣ ، ٢٤٣) .
(٣) أخرجه الترمذى فى الصلاة (٥١) . وأبو داود فى الصلاة (٤٩) . وابن ماجه فى المساجد (١٤) .

المفردات : ﴿ **السقاية** ﴾ : الموضع يسقى فيه الماء فى المواسم وغيرها . ﴿ **وسقاية العباس** ﴾ : موضع بالمسجد الحرام يستقى فيه الناس ، وهى حجرة كبيرة فى جهة الجنوب من بئر زمزم لا تزال مائلة إلى الآن ، وقد يراد بالسقاية الحرفة كالحجابة وهى سدانة البيت ، والسقاية والحجابة أفضل مآثر قريش وقد أقرها الإسلام وفى الحديث : « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمى إلا سقاية الحاج وسدانة البيت »[1] .

وقد كانت قريش تسقى الحاج الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان يليها العباس بن عبد المطلب فى الجاهلية والإسلام .

هذه الآيات مكملة لما قبلها مبينة أن عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين ، وأن إسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه .

روى مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال : « كنت عند منبر رسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم ما أبالى ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر : بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ – وذلك يوم الجمعة ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله ﷺ لأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله ﴿ أجعلتم سقاية الحاج ﴾ إلى قوله ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ﴾ .

الخطاب فى الآية للمؤمنين الذين تنازعوا – أى الأعمال أفضل – والمراد : إنه لا ينبغى أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة ، كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، فإن السقاية والعمارة وإن كانتا من أعمال البر والخير فأصحابهما لا يدانون أهل الايمان والجهاد فى علو المرتبة وشرف المقدار ، وقد صرح بهذا فى قوله : ﴿ **لا يستوون عند الله** ﴾ أى لا يساوى الفريق الأول الفريق الثانى ، لا فى صفته ولا فى عمله فى حكم الله ، ولا فى مثوبته وجزائه عليه لافى الدنيا ولافى الآخرة ، فضلا عن أن يفضله كما يزعم كبراء مشركى قريش الذين كانوا يتبجحون بخدمة البيت ويستكبرون على الناس بها .

﴿ والله لا يهدى الظالمين ﴾ .

أى لا يهديهم إلى الحق فى أعمالهم ، ولا إلى الحكم العدل فى أعمال غيرهم ، إذ ليس فى سنته تعالى فى أخلاق البشر وأعمالهم أن يهدى الظالم إلى شيء من ذلك ، ومن أقبح الظلم تفضيل خدمة حجارة

---

(١) أخرجه أبو داود فى الديات (١٧ ، ٢٤) ، وابن ماجه فى الديات (٥) . والإمام أحمد فى (٢ : ١١ ، ٣٦ ، ١٠٣) وفى (٣ : ٤١٠) وفى (٥ : ٧٣ ، ٤١٢) .

البيت ، وحفظ مفتاحه ، وسقاية الحاج على الإيمان بالله وحده ، إذ به تطهر الأنفس من أدناس الشرك وخرافاته ، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذى يزع النفس عن البغى والظلم ويحبب إليها الحق والعدل ، ويرغبها فى الخير وعمل البر ، ابتغاء مرضاه الله لا للفخر والرياء ، وعلى الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال لإحقاق الحق ، وإبطال الباطل .

ثم بين سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم والمشركين الظالمين فقال : ﴿ **الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله** ﴾ .

أى هم أعظم درجة وأعلى مقاماً فى مراتب الفضل والكمال فى حكم الله ، وأكبر مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم إياهما من أفضل القربات بعد الإسلام .

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسى والمالى أعلى مرتبة وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائنا من كان ، ويدخل فى ذلك أهل السقاية والعمارة .

﴿ **وأولئك هم الفائزون** ﴾ .

أى وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته دون من لم يكن مستجمعا لهذه الصفات الثلاث ، وإن سقى الحاج وَعَمَر المسجد الحرام ، فإن ثواب المؤمن على هذين العملين دون ثوابه على الهجرة والجهاد ، ولا ثواب للكافرعليهما فى الآخرة ، فإن الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر يحبط الأعمال البدنية ، وإن فرض فيها حسن النية .

ثم فصل سبحانه ذلك الفوز العظيم بقوله :

﴿ **يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبداً** ﴾ .

أى يبشرهم ربهم فى كتابه على لسان رسوله ، وعلى لسان ملائكته حين الموت برحمة منه ورضوان كامل من لدنه لا يشوبه سخط ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولهم فيها نعيم مقيم لا يزول على عظمته وكماله ، حال كونهم ، خالدين فيها أبدا .

﴿ **إن الله عنده أجر عظيم** ﴾ .

أى إن ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل الذى من أشقه الهجرة ، والجهاد عظيم لا يقدر قدره إلا الله الذى تفضل به ومنحه لعباده المكرمين ، ولاسيما على الإيمان الكامل الباعث على هجرة الوطن ومفارقة الأهل والسكن ، وعلى إنفاق المال الذى هو أحب شىء إلى النفس ، وعلى بذل النفس التى هى أعز شىء على الإنسان .

فما أجدرهم أن يبشرهم بأنواع من الأجر والجزاء ما بين روحى وجسمى ، فالأول الرحمة

والرضوان ، والرضوان هو نهاية الإحسان ، وهو أعلى النعيم ، وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ﴾[١] .

وما رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ؟ فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك . فيقولون : ربنا وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا)[٢] .

والثانى هو النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

الإيمان والحب فى الله والبغض فى الله

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿ **استحب** ﴾ : كذا وأحبه ، بمعنى . ﴿ **والظلم** ﴾ : وضع الشيء فى غير موضعه . ﴿ **والعشيرة** ﴾ : ذو القرابة الأدنون الذين من شأنهم التعاون والتناصر . ﴿ **والاقتراف** ﴾ : الاكتساب . ﴿ **وكساد التجارة** ﴾ : ضد رواجها . ﴿ **والتربص** ﴾ : الانتظار . ﴿ **وأمره** ﴾ : عقوبته إن عاجلا أو آجلا .

لما أعلن الله براءته وبراءة رسوله من المشركين ، وآذنهم بنبذ العهد بعد أن ثبت أنه لا عهد لهم ، عز ذلك على بعض المسلمين ، وتبرم به ضعفاء الايمان ، وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبى ﷺ يوم فتح مكة ، وكان موضع الضعف نصرة القرابة وعصبية النسب ، إذ كان لا يزال لكثير منهم أولوا قرابة من المشركين يكرهون قتالهم ، ويتمنون إيمانهم ، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان وليجة وبطانة منهم .

من أجل هذا بين الله فى هاتين الآيتين أن فضل الإيمان والهجرة والجهاد ، ونيل ما بشر الله به أهله

(١) الآية ٧٢ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق (٥١) وفى التوحيد (٣٨) . ومسلم فى الجنة (٩) . والترمذى فى الجنة (١٨) . والإمام أحمد فى (٣ : ٨٨ ، ٩٥) .

من رحمته ورضوانه ودخول جناته ، لا يكمل إلا بترك ولاية الكافرين ، وإيثار حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله على حب الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ﴾ .

أى لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم فى القتال ، وتظاهرون لأجلهم الكفار ، أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين وما يستعدون به لقتال المشركين إن أصروا على الكفر ، وآثروه على الإيمان ، فإن فى ذلك قوة المشركين على قتال المؤمنين وخضداً لشوكتهم .

وقد حدث ذلك منذ ظهور الإسلام وإلى نزول هذه السورة ، فقد كتب حاطب بن أبى بلتعة ، وهو من أهل بدر ، وقد استخفته نعرة القرابة إلى مشركى مكة خفية يعلمهم بما عزم عليه النبى ﷺ من قتالهم ، ليتخذ له بذلك يداً عندهم يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة ، وفى ذلك نزلت سورة الممتحنة للنهى عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .

﴿ ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

أى ومن يتولهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم ، بوضعهم الموالاة فى غير موضعها منهم ، قد وضعوا الولاية فى موضع البراءة ، والمودة فى محل العداوة ، وقد حملهم على هذا الظلم نعرة القرابة وحمية الجاهلية .

ونحو الآية قوله فى سورة الممتحنة : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عند الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾[١] .

وبعد أن بين ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان ، انتقل إلى بيان سبب ذلك فقال :

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ﴾ .

أى قل لهم : وإن كنتم تفضلون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة ، على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله الذى وعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية فى الآخرة ، فانتظروا حتى يأتى أمر الله : أى عقوبته التى تحل بكم عاجلا أو آجلا .

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها فى أربعة :

(١) مخالطة الأقارب وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ، ثم ذكر الباقى بلفظ العشيرة .

---

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .

(٢) الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

(٣) الرغبة فى تحصيل الأموال وتثميرها بالتجارة .

(٤) الرغبة فى الأوطان والدور التى بنيت للسكنى .

وخلاصة ذلك : إن كانت رعاية هذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله ، ومن المجاهدة فى سبيله ، فتربصوا بما تحبون حتى يأتى الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة .

ولا يخفى ما فى ذلك من الوعيد والتهديد ، ومن الإيماء إلى أنه إذا وقع التعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم نبذ الثانية وإلقاؤها وراءه ظهريا .

وبتفصيل ما تقدم من الآية نجد أنها حوت أمورا ثمانية من أفضل ما يحب :

(ا) **حب الأبناء للآباء** : وهو غريزى فى النفوس ، فالولد بضعة من أبيه ، يرث بعض صفاته وطبائعه من جسمية وخلقية ، وقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم فى أسواقهم ، وفى معاهد الحج ، كما قال تعالى حاثا على ذكره : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً ﴾[1] .

(ب) **حب الآباء للأبناء** : وهو غريزى أيضا ، وحب الوالد للولد أقوى وأبقى من عكسه ، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه أو أشد ، ويحرم نفسه كثيراً من الطيبات ، ويقوم بتربيته وتعليمه ، إذ هو مناط الآمال وزينة الحياة كما قال تعالى : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾[2] .

(ج) **حب الإخوة** : وهو يلى فى المرتبة حب البنوة والأبوة ، وهو حب يقتضيه التناصر والتعاون فى الكفاح فى الحياة ، والبيوت التى سلمت فطرة أهلها ، وكرمت أخلاقهم ، يحبون أخوتهم كأنفسهم وأولادهم ، ويوقرون كبيرهم ، ويرحمون صغيرهم ، ويكفلون من يتركه أبوه فيتربى مع أولادهم كأحدهم .

(د) **حب الزوجة** : وبالزوجية يتحد بشران يتمم وجود كل منهما وجود الآخر ، وينتجان بشراً مثلهما ، ومن ثم امتن الله علينا به فقال : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[3] .

(هـ) **حب العشيرة** : وهو حب عصبية وتعاون وولاية ونصر فى مواطن القتال والنزال والذود عن الحمى والحريم ، وهو يكون على أشده فى أهل البداوة ، ومن على مقربة منهم من أهل الحضر .

(و) **حب الأموال المقترفة** : أى المكتسبة وهو أقوى من حب الأموال الموروثة لأن عناء النفس فى جمعها يجعل لها فى قلبه منزلة لا تكون لما يجىء من المال عفوا .

(ز) **حب التجارة التى يخشى كسادها فى حال الحرب** ، وقد كان لبعض المسلمين من أهل مكة

(١) الآية ٢٠٠ من سورة البقرة . (٢) الآية ٤٦ من سورة الكهف . (٣) الآية ٢١ من سورة الروم .

تجارة يخشون كسادها فى ذلك الحين ، لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين ، وكانت أسواقها تنصب فى موسم الحج ، وقد منع منه المشركون بنص الآيات السابقة واللاحقة .

(ح) **حب المساكن الطيبة المرضية** ، وقد كان لبعض المسلمين دور حسنة فى مكة ، كانوا يتمتعون فيها بالإقامة والسكنى ، لما فيها من المرافق وأسباب الراحة .

فهذه الثمانية الأنواع من الحب تجعل القتال مكروها مبغوضا لدى النفوس ، فوق ماله من بغض بمقتضى ذاته كما قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ﴾[١] .

أما حبه تعالى فيجب أن يكون فوق هذه الأنوع ، لفضله وإحسانه بالإيجاد والإعدام ، وتسخير منافع الدنيا للناس ، وهو يتفاوت بتفاوت معارف الإنسان فى آلاء الله فى خلقه ، وإدراك ما فيها من الإبداع والإتقان : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾[٢] .

وكذلك حب رسوله يجب أن يكون فوق هذه أيضا ، فإنه ﷺ كان المثل الأعلى فى أخلاقه وآدابه ، وقد أرسله الله هداية للعالمين إلى يوم الدين .

﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

أى الخارجين من حدود الدين والشريعة ، ومن سلامة الفطرة إلى فساد الطباع ، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد .

وقد جرت سنته تعالى أن يكون الفاسقون محرومين من الهداية الفطرية التى يهتدى إلى معرفتها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح ، ومن ثم فهم يؤثرون حب القرابة والمنفعة الطارئة ، كالمال والتجارة ، على حب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيله .

هذا ، وقد جاءت أحاديث كثيرة فى فضل حب الله ورسوله ، منها ما رواه الشيخان من حديث أنس مرفوعاً « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »[٣] .

وعنه أيضا : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »[٤] .

وما رواه البخارى عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا نفسى التى بين جنبى ، فقال النبى ﷺ :

---

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة . (٢) الآية ٣١ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان (٦٦ ، ٦٧) . والبخارى فى الإيمان (٩ ، ١٤) وفى الإكراه .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (٦٩ ، ٧٠) . والبخارى فى الإيمان (٨) .

لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك ، فقال عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى ، فقال له النبى ﷺ : الآن يا عمر » .

والوسيلة إلى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر وتدبر القرآن والتزام أحكام الشرع .

والذكر الحق ، هو ذكر القلب مع حسن النية ، وصحة القصد ، وتأمل سنن الله وآياته فى الخلق ، وأن تذكر حين رؤية كل شىء من صنع الله ، وسماع كل صوت من مخلوقات الله ، أنه يسبح بحمده ويدل على قدرته وحكمته ورحمته .

ومن أقام فرائض الله كما أمر ، وترك معاصيه كما نهى ، فإنه يصل بفضل الله إلى المقام الذى أشار إليه فى الحديث القدسى : [وما تقرب إلىّ عبدى بشىء أحب إلىّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها][1] رواه البخارى .

يوم حنين

لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا
وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ
رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾

المفردات : ﴿ **المواطن** ﴾ : واحدها موطن وهو مقر الإنسان ومحل إقامته كالوطن ، والمراد بالموطن هنا مشاهد الحرب ومواقعها . ﴿ **وحنين** ﴾ : واد على ثلاثة أميال من الطائف ، وغزوته تسمى غزوة أوطاس ، وغزوة هوازن . ﴿ **والإغناء** ﴾ : إعطاء ما يدفع الحاجة . ﴿ **والرحب** ﴾ : السعة . ﴿ **ومدبرين** ﴾ : أى هاربين لا تلوون على شىء . ﴿ **والسكينة** ﴾ : الهيئة النفسية التى تحصل من سكون النفس واطمئنانها ، وهى ضد الانزعاج وقد تطلق على الرزانة والوقار .

فى هذه الآيات الكريمة يؤكد الله تعالى نصره للمؤمنين فى مواطن كثيرة ، كما يذكرهم سبحانه بما حدث لهم يوم حنين ، حيث كانوا كثرة كاسرة ، أدخلت علاجب فى النفوس ، ولكنها كانت أعباءً ثقيلا على الكواهل ، فالإسلام لا يعبأ بالكثرة ، لأنه يؤمن بالواحد ، ولما قالوا : لن نغلب اليوم من قلة ، لم تغنى عنهم كثرتهم شيئاً ، ولم تعد عليهم بفائدة ، بل ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وولوا مدبرين لا يلوون

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق (٣٨) .

على شىء ﴿ **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين** ﴾ .

وما كان الله تعالى ليذرهم ، فهو وليهم وناصرهم ، والمدافع عنهم ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾ لكن مقتضى الحال قد يكون من الخير أن يلقن الله عباده دروساً فى التربية تعينهم على الصمود أمام الأحداث ، والتمرس بالشدائد ، فتداركهم الحق بلطف بره ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، فطمأن النفوس ، وجمع القلوب ، وألزمها الوقار ، وأنزل جنوداً لم تروها ، فكانت نتيجة المعركة نصراً للجماعة المؤمنة ، وتعذيباً للكافرين ، وذلك جزاؤهم ﴿ **وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين** ﴾ .

وقد شاءت الحكمة الإلهية ، والرحمة الربانية ، أن يقرن الله الوعد بالوعيد ، فيفتح الله باب التوبة لأصحاب النيات الصادقة ، حيث يشملهم برعايته ومغفرته ورحمته ، وهو التواب الرحيم .

قال تعالى ﴿ **ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم** ﴾ .

إلهى :

ما زلت أعرف بالإساءة دائماً ويكون منك الصفح والغفران
لم تنتقصنى إن أسأت وزدتنى حتى كأن إساءتى إحسان
منك التفضل والتكرم والرضا أنت الإله المنعم المنان

روى أبو يعلى عن جابر أن عدد غزواته ﷺ إحدى وعشرون ، **قاتل بنفسه فى ثمان** : بدر ، وأحد ، والأحزاب ، والمصطلق ، وخيبر ، ومكة ، وحنين ، والطائف .

وبعوثه وسراياه ست وثلاثون . واختار جمع من العلماء أن المغازى والسرايا كلها ثمانون ، ولم يقع فى بعضها قتال .

ونصرهم فى كل قتال إما نصراً كاملا وهو الأكثر ، وإما نصراً مشوبا بشىء من التربية على ذنوب اقترفوها كما فى أحد ، إذ نصرهم ثم أظهر عليهم العدو لمخالفتهم أمر القائد الأعظم فى أهم أوامر الحرب ، وهو حماية الرماة لظهورهم ، وكما فى حنين من الهزيمة فى أثناء المعركة والنصر التام فى آخرها .

غزوة حنين

وهذه وقائع غزوة حنين كما تحدث عنها كتاب « الرسول القائد » .

غزوة حنين وحصار الطائف

الموقف العام

١ – المسلمون :

كان لفتح مكة أكبر الأثر فى توحيد شبه الجزيرة العربية كلها تحت ظل الاسلام ، كما كان له أثر معنوى عميق على المسلمين والمشركين على حد سواء ، فأصبحت شبه الجزيرة العربية قوة ذات عقيدة واحدة ، وهدف واحد ، ولم يبق على الشرك إلا بعض القبائل كقبيلتى هوازن وثقيف ، ومن الواضح أن قضية إسلام هذه القبائل أصبحت قضية وقت ليس إلا ، لانهيار أكبر حصن للشرك : مكة ، ولانهيار أكبر عدو للإسلام : قريش .

٢ – المشركون :

سمعت هوازن وثقيف وبعض القبائل الأخرى بفتح مكة ، فقررت أن تقوم بغزو المسلمين قبل أن يقوم المسلمون بغزوهم ، وأخذت تحتشد فى منطقة الطائف .

ولكن انتشار الإسلام فى تلك القبائل ، جعل الكثيرين من أفرادها وفخوذها يتخلفون عن هذا التحشد ، إذ تخلفت كعب وكلاب أشجع ، كما تخلفت قبائل أخرى ، ورجال من ذوى العقول .

كان التردد ظاهراً على القبائل المحتشدة ، وكان الاختلاف واضحاً بينها ، ولم تكن معنوياتها عالية .

قوات الطرفين

١ – المسلمون :

اثنا عشر ألفاً ، بين راكب وراجل ، بقيادة الرسول ﷺ : ألفان من أهل مكة ، وعشرة آلاف من المسلمين الذين حضروا الفتح .

٢ – المشركون :

قبيلة هوازن « عدا عقيل بن كعب بن ربيعة ، وبشر بن كعب بن ربيعة وبنى كلاب بن ربيعة ، وسائر إخواتهم » ومعظم قبيلة ثقيف بقيادة مالك بن عوف النضرى ، من هوازن .

أهداف الطرفين

١ – المسلمون :

ضرب القبائل المحتشدة قبل أن يستفحل أمرها ، وتهدد مكة نفسها ، ومن فيها من المسلمين .

٢ – المشركون :

القضاء على قوات المسلمين ، وأخذ المبادأة منهم .

قبل المعـركة

١ – المسلمـون :

سمع الرسول ﷺ بأخبار تحشد هوازن وثقيف لمهاجة المسلمين ، فأرسل عبد الله بن أبى حدرد الأسلمى ، وأمره أن يذهب إلى منطقة تحشد المشركين للتأكد من صحة تلك الأخبار .

وعاد عبد الله الأسلمى من واجبه ليخبر المسلمين بأن قبائل هوازن وثقيف قد أنجزت تحشدها فى منطقة وادى أوطاس ، وأنها تنوى مهاجمة المسلمين .

قرر الرسول ﷺ مهاجمة هذه القبائل ليحتفظ بالمبادأة بيد المسلمين ، وبدأ بإنجاز الإستعدادات الضرورية للحركة .

وبلغ الرسول ﷺ أن عند صفوان بن أمية دروعاً وسلاحاً ، فاستعارها من صفوان ليكمل بها تسليح قوته ، وكان عددها مائة درع مع أسلحتها .

ولما أنجز المسلمون استحضاراتهم ، تحركوا باتجاه حنين ، وكانت المقدمة مؤلفة من قسم بقيادة خالد بن الوليد ، وأمامها القطعات الراكبة من الفرسان ، وكان القسم الأكبر مؤلفاً من القبائل الأخرى ، وأمام كل قبيلة رايتها ، وكانت الكتيبة الخضراء المؤلفة من المهاجرين والأنصار فى مؤخرة القسم الأكبر ، ومعها الرسول ﷺ .

وصل جيش المسلمين فجراً إلى وادى حنين ، وذلك الجيش الذى قال المسلمون عنه : لن تغلب اليوم من قلة .

٢ – المشركون :

احتشدت هوازن وثقيف فى وادى حنين (أوطاس) ومعهم نساؤهم وأطفالهم وأموالهم ، وقد أراد مالك بن عوف قائدهم أن تكون الذرارى والأموال مع المقاتلين ، حتى يشعر كل رجل منهم وهو يقاتل أن حرمته وثروته وراءه ، فلا يفر عنها .

وقد اعترض دريد بن الصمة وهو فارس مجرب قائلا لمالك : « هل يرد المنهزم شيء ؟ إن كانت الدائرة لك لم ينفعك إلا رجل برمحه وسيفه ، وإن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك ». فكان جواب مالك : « والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وكبر علمك ، والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى » .

اضطرت هوازن إلى الأخذ برأى مالك ، وكان شاباً فى الثلاثين من عمره ، قوى الإرادة ، ماضى العزيمة ، شجاعاً ، ولكنه كان سقيم الرأى متهوراً ، سيء المشورة .

كانت خطة مالك تتلخص فى احتلال قمم وادى حنين ومضيق الوادى ، فإذا دخلت قوات المسلمين فى الوادى ، باغتهم المشركون بالرمى عليهم بالنبال من كل جانب لتحطيم صفوفهم ، ثم القيام

بالهجوم لإجبارهم على الانسحاب ، وأكمل المشركون احتلال هضاب الوادى ومضايقه قبل دخول المسلمين إليه ، وكمنوا فى مواضعهم المستورة ، انتظاراً لجيش المسلمين .

القتـــال

١ - هجوم المشركين :

دخلت قوات المسلمين وادى حنين فجراً ، وكان وادياً أجوف منحدراً ، ينحط فيه الركبان كلما أوغلوا ، كأنهم يسيرون إلى هاوية ، فلما استقرت أكثر قوات المسلمين فى الوادى ، رماهم المشركون بوابل من سهامهم ، فلم يعرف المسلمون مصدر ذلك الرمى ، لأن الظلام كان سائداً وقتذاك ، ولأن مواضع المشركين كانت مخفية تماماً ، فانسحبت مقدمة المسلمين وجرفت أمامها قوات المسلمين الأخرى ، فانقلب انسحاب المسلمين إلى هزيمة .

ورأى أبو سفيان هزيمة المسلمين فقال : « لا تنتهى هزيمتهم دون البحر » .

وقال آخرون ممن أسلموا حديثاً مثل قوله ، بل إن شيبة بن عثمان بن طلحة الذى قتل أبوه فى غزوة أحد ، حاول اغتيال الرسول ﷺ فى هذا الموقف العصيب ، ليدرك ثأر أبيه من محمد ﷺ . وترك المشركون مواضعهم للقيام بالمطاردة بعد انسحاب المسلمين ، وكان يتقدم هوازن رجل على جمل له أحمر ، بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل ، وهو كلما أدرك المسلمين طعن برمحه ، وهوازن وثقيف منحدرون وراءه يطعنون ، وانتشر الفزع بين المسلمين ، وازدحمت المسالك بالسابلة ، وارتبكت الصفوف واختلطت القبائل ببعضها ، وركبت الإبل بعضها بعضا وهى مولية بأصحابها وتعقدت الأمور .

٢ - هجوم المسلمين المقابل :

ثبت الرسول ﷺ فى مكانه ، وثبت معه عشرة من أهل بيته ومن المهاجرين ، بينهم عمه العباس ، وأخذ الرسول ينادى الناس إذ يمرون به منهزمين « أين أيها الناس ؟ أين ؟ هلموا إلى أنا رسول الله أنا محمد ابن عبد الله » فلا يرد عليه أحد .

عند ذلك أمر الرسول ﷺ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى : يا معشر الأنصار يا أصحاب البيعة يوم الحديبية :

وكرر العباس النداء حتى تجاوبت أصداؤه فى جنبات الوادى ، وسمع النداء المهاجرون والأنصار فأخذوا يكافحون ليبلغوا مصدر الصوت ، فرمى أكثرهم درعه وترك بعيره ، واستصحب معه سيفه وترسه فقط ليبلغ مصدر الصوت بسرعة .

واجتمع حول الرسول ﷺ نحو مائة مسلم وهم يصيحون لبيك فاستقبل الرسول ﷺ بهم المشركين ، وصمدوا فى مواضعهم ، حتى فتر هجوم المشركين ، وكان النهار قد طلع والمشركون قد تركوا مواضعهم ، فلا يحتاج المسلمون إلا إلى الصمود لإيقاع بعض الخسائر بالمشركين ، لكى تتزعزع

معنوياتهم وينسحبوا من الميدان ، ولولا صمود هذا العدد القليل من المسلمين ومشاغلتهم المشركين لكانت خسائر المسلمين فى تلك المعركة كبيرة جداً .

وأخذ عدد المسلمين الصامدين يتزايد ، وهناك بدأوا الهجوم المقابل على المشركين ، وعندما رأت هوازن وثقيف أن المقاومة لا تجديهم نفعاً ، وأنهم لا يستطيعون صد هجوم المسلمين انسحبوا من ميدان المعركة تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين ، ولم يكن للمشركين ساقة لحماية الانسحاب ، فانقلب انسحابهم إلى هزيمة .

٣ – المطاردة

انسحب أكثر ثقيف باتجاه الطائف ، وكان معهم مالك بن عوف ، وانسحبت هوازن والقبائل الأخرى باتجاه أوطاس ونخلة ، وقام المسلمون بالمطاردة ، وأعلن النبى ﷺ أن من قتل مشركا فله سلبه ، ووصلت مطاردة المسلمين إلى أوطاس ، فأوقعوا بهوازن هناك خسائر فادحة بالأرواح ، كما وصلوا إلى نخلة فأوقعوا بهوازن هناك خسائر فادحة بالأرواح ، كما وصلوا إلى نخلة فأوقعوا بالمنسحبين إلى هناك خسائر فادحة أيضاً ، كما استسلم كثير من المشركين أسرى ، ولما عاد حديثو العهد بالإسلام من هزيمتهم رأوا الكثيرين من المشركين أسرى مصفدين بالأغلال .

حصار الطائف

وصل بعض المسلمين بمطاردتهم إلى الطائف التى التجأ المنهزمون من المشركين إليها ، وكانت مدينة محصنة ذات أسوار وحصون قوية ، ولها أبواب تغلق عليها .

وتجمعت أرتال المسلمين التى طاردت المنسحبين إلى أوطاس ونخلة بعد إنجاز واجباتها برتل المسلمين الذى طارد ثقيفا باتجاه الطائف ، لإجبار ثقيف على الإستسلام .

إلا أن ثقيفا سددت نبالها على المسلمين الذين كانوا قريبين من الحصون ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر ، فقرر الرسول ﷺ الانسحاب بعيداً عن مرمى النبل ، واستقر المسلمون هناك .

وفكر المسلمون فى وسيلة يستطيعون بها إجبار الطائف على الاستسلام ، فأشار سلمان الفارسى بقذف حصونها بالمنجنيق . وبمهاجمة تلك الحصون بالدبابات .

رمى المسلمون الطائف بالمنجنيق ، وتقرب بعضهم بحماية الدبابات إلى سور الطائف ليخرقوه ، ولكن أهل الطائف استطاعوا إحباط هذا الهجوم . إذا أحموا قطعاً من الحديد بالنار حتى إذا انصهرت ألقوها على الدبابات الخشبية ، فحرقتها ، فانسحب المسلمون المحتمون بها من تحتها لئلا يحترقوا ، فرمتهم ثقيف بالنبل بعد انكشافهم من حماية الدبابات .

أعلن الرسول ﷺ أنه سيعتق كل عبد يأتيه من الطائف ، ففر إليه حوالى عشرين من عبيد أهلها ، فعرف منهم أن المواد الغذائية كثيرة جداً لدى ثقيف ، كذلك آثر أن يرفع الحصار بعد أن استمر حوالى

شهر واحد ، تاركاً أمر استسلام ثقيف إلى الزمن وخاصة أن الكثيرين من رجالها اعتنقوا الإسلام .

خسائر الطرفين

١ – **المسلمون** : كانت خسائرهم كبيرة جداً فى الأرواح .

٢ – **المشركون** : كانت خسائر المشركين فى الأرواح كبيرة جداً ، أما خسائرهم فى الأموال فكانت:

أربعة وعشرين ألف بعير .

أربعين ألف شاة .

أربعة آلاف أوقية من الفضة .

ستة آلاف نسمة من السبى .

أسباب ترك محاصرة الطائف

يمكن إجمال أسباب ترك المسلمين محاصرة الطائف بما يلى :

١ – قوة حصون الطائف وشجاعة بنى ثقيف ، وتكديس المواد الغذائية فيها ، كل ذلك جعل استسلامها للمسلمين صعبا يحتاج إلى مدة طويلة .

٢ – أصبحت الفترة بين ترك المسلمين المدينة فى رمضان حتى حصار الطائف والبقاء هناك حوالى شهر واحد أصبحت الفترة حوالى شهرين تقريباً ، وهذه المدة ليست قليلة بالنسبة للمسلمين الذين دخلوا الاسلام حديثاً ، مما جعل بعضهم يرغب فى سرعة الرجوع ، كما أن الوقت ثمين بالنسبة للرسول ﷺ لتوطيد دعائم الإسلام .

٣ – قرب حلول الشهر الحرام « ذى القعدة » .

٤ – انتشار الإسلام فى ثقيف مما جعل دخول ثقيف كلها فى الإسلام أكيداً لا يحتاج إلا إلى الوقت .

وقد نظمت مقاومة المسلمين ضد ثقيف بعد إسلام مالك بن عوف ، حيث استعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه ، فكان يقاتل بهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه ، حتى ضيق عليهم الخناق ، فالتجأوا إلى الرسول ﷺ وأسلموا .

الغنائـــم

١ – **التكديس** :

بعد انتهاء معركة حنين كدس الرسول ﷺ كافة الغنائم فى موضع « الجعرانة » حتى يتفرغ للمطاردة ، وحصار الطائف ، ثم يعود بعد ذلك إلى توزيعها .

٢ – **التوزيع** :

بقيت الغنائم غير موزعة مدة طويلة لأن الرسول ﷺ كان ينتظر قدوم وفد من هوازن إليه تائبين ، ولكنه اضطر إلى تقسيم الغنائم بعد أن بلغ انتظاره لهوازن حوالى شهر واحد ، دون أن يحضر إليه أحد ،

وخاصة أن الأعراب وحديثى الإسلام أخذوا يلحون على الرسول ﷺ طالبين تقسيم الغنائم .

وشرع بتقسيم الغنائم ، وبدأ بالمؤلفة قلوبهم فأعطاهم أوفى العطاء وأجزله .

أخذ أبو سفيان مائة من الإبل ، وأربعين أوقية من الفضة ، فقال : وابنى معاوية ؟ فمنح مثلها لمعاوية ، فقال : وابنى يزيد ، فمنح مثلها لابنه يزيد .

وأقبل رؤساء القبائل وأصحاب الطمع يتسابقون إلى ما يمكن أخذه ، وشاع أن محمداً ﷺ يعطى عطاء من لا يخشى الفقر ، وأوجس الناس خيفة إن أفشى محمد ﷺ هذه الأعطيات لمن يفدون عليه أن تنقص حصتهم من الغنائم ، فألحوا فى أن يأخذ كل فيئه ، وأكب عليه الأعراب يقولون : يا رسول الله أقسم علينا فيئنا ، فقام الرسول ﷺ إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبرة فجعلها بين أصبعيه ، ثم رفعها فقال : « يا أيها الناس مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم »[1] .

وقد كان نصيب المؤلفة قلوبهم من هذه الغنائم أو فى نصيب ، أما المسلمون الأولون من المهاجرين والأنصار فقد كان نصيبهم لا يذكر .

٣ - إعادة السبى :

بعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلماً ، وخيرهم رسول الله ﷺ بين أبناءهم ونساءهم وبين أموالهم ، فاختاروا أبناءهم ونساءهم ، فقال رسول الله ﷺ « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم وإذا ما صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم » .

نفذت ذلك هوازن ، فأجابهم الرسول ﷺ : « أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم » قال المهاجرون وما كان لنا فهو لرسول الله ، وكذلك قال الأنصار .

ولكن الأقرع بن حابس عن تميم ، وعينية بن حصن عن فزارة ، رفضا إعادة السبى كما رفض عباس بن مرداس ، هنالك قال النبى ﷺ (أما من تمسك منكم بحقه من السبى فله بكل إنسان ستة فرائض من أول سبى أصيبه) .

وهكذا رد المسلمون كافة السبايا إلى هوازن .

المشركون نجس

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد (١٢١ ، ١٤٩) . والنسائى فى الفىء . والإمام مالك فى الجهاد (٢٢) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٢٨) وفى (٥ : ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٢٣٦) .

لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ
عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن
دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ
كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ **النجس** ﴾ : من نجس الشيء إذا كان قذراً غير نظيف ، والاسم النجاسة ، وقال الراغب : النجاسة : القذارة ، وهى ضربان : ضرب يدرك بالحاسة ، وضرب يدرك بالبصيرة ، وهذا ما وصف الله به المشركين فقال ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ ويقال نجسه ، إذا جعله نجسا ، ونجسه : أزال نجسه ومنه تنجيس العرب ، وهو شيء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة على الصبى ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان ، والناجس والنجيس ، داء خبيث لا دواء له ا هـ . ﴿ **والعيلة** ﴾ : الفقر ، يقال عال الرجل يعيل عيلا وعيلة إذا افتقر فهو عائل ، وأعال : كثر عياله ، وهو يعول عيالا كثيرين : أى يمونهم ويكفيهم أمر معاشهم . ﴿ **والفضل** ﴾ : العطاء والتفضل . ﴿ **ولا يدينون دين الحق** ﴾ : يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذه ديناً وعقيدة . ﴿ **ودين الحق** ﴾ : هو الدين الذى أنزله الله على أنبيائه . ﴿ **والجزية** ﴾ : ضرب من الخراج يضرب على الاشخاص لا على الأرض ، وجمعها جزى (بالكسر) . ﴿ **واليد** ﴾ : السعة والقدرة . ﴿ **والصغار والصغر** ﴾ : ضد الكبر ويكون فى الأمور الحسية والمعنوية ، والمراد به هنا الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته التى بها تصغر أنفسهم لديهم بفقد الملك وعجزهم عن مقاومة الحكم . ﴿ **عزير** ﴾ : هو الذى يسميه أهل الكتاب عزرا ، وينتهى نسبه إلى العازار بن هارون عليه السلام . ﴿ **ويضاهئون** ﴾ : أى يشابهون ويحاكون . ﴿ **وقاتلهم الله** ﴾ : جملة أصلها الدعاء ثم كثر استعمالها حتى قيلت على وجه التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء . ﴿ **والإفك** ﴾ صرف الشيء عن وجهه ، يقال أفك فلان أى صرف عقله عن إدراك الحقائق ، ورجل مأفوك العقل . ﴿ **والأحبار** ﴾ : واحدهم حبر (بالفتح والكسر) وهو العالم من أهل الكتاب . ﴿ **والرهبان** ﴾ : واحدهم راهب ، وهو لغة الخائف ، وعند النصارى هو المتبتل المنقطع للعبادة . ﴿ **والإرادة** ﴾ : القصد إلى الشيء ، وقد تطلق على يفضى إليه وإن لم يرده فاعله فيقال فى الرجل المسرف المبذر : يريد أن يخرب بيته أى أن تبذيره يفضى إلى ذلك فكأنه يقصده ، لأن فعله فعل من يقصد ذلك . ﴿ **ونور الله** ﴾ : هو

دين الإسلام . ﴿ **وأظهره على الشيء** ﴾ : جعله فوقه مستعليا عليه .

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يخاطب الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين الصادقين ، الطاهرين قلوباً ، الصادقين عقيدة ، فيخبرهم بأن المشركين نجس فى عقيدتهم وفى قلوبهم فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وقد كان هذا الحكم ضمن القرارات التى أعلنها الإسلام فى العام التاسع من الهجرة ، عندما توجه أبو بكر الصديق على رأس البعثة الإسلامية إلى مكة لأداء الحج ، ولحق به على بن أبى طالب ، فأعلنوا أنه لا يحج بعد العام مشرك ، ولن يدخل الجنة كافر ، ولن يطوف بالبيت عريان .

قال الإمام أبو عمرو بن الأوزاعى : كتب عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : أن امنعوا اليهود والنصارى من دخول مساجد المسلمين ، وأتبع نهيه قول الله تعالى ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ .

وقال عطاء : الحرم كله مسجد لقوله تعالى ﴿ **فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ .

وقد دلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد فى الصحيح (المؤمن لا ينجس)[1] .

وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات ، لأن الله تعالى أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم .

وقال أشعث : عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ . رواه بن جرير .

قوله تعالى ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم** ﴾ .

هذا النص الكريم بمنزلة الجواب عن سؤال قد تلوكه الألسنة ، كأن سائلا قال : إننا بعد مقاطعة المشركين فستؤدى تلك المقاطعة إلى كساد التجارة والركود الإقتصادى ، فطمأن الله القلوب ، بأنه العليم بمصالح العباد ، الحكيم المنزه عن العبث ، أمره حكمة ، ونهيه مصلحة ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، فلا يمكن أن يأمر بأمر فيه ضرر بعباده .

فإن خفتم أيها المسلمون فقرا ، أو ضيقا ماليا ، بعد مقاطعة المشركين ، فسوف يغنيكم الله من فضله ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾[2] .

وقد صدق الله وعده ، وأنجز عهده ، فأجرى فى أرض المسلمين ذلك الذهب الأسود فى عروق الأرض ، فالبترول هو عصب الحروب ، وغذاء الصناعات ، والورقة الرابحة على مائدة الدبلوماسية

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٨) وفى الغسل (٢٣، ٢٤) . ومسلم فى الحيض (١١٥) . والنسائى فى الطهارة (١٧١) . وابن ماجه فى الطهارة (٨٠) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٣٥ ، ٣٨٢) وفى (٥ : ٣٨٤) .

(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

العالمية ، هذا بالإضافة إلى مختلف المعادن المدفونة فى تلكم الأرض المباركة . قال ﷺ : (التمسوا الرزق فى خبايا الأرض) .

فالأمة الاسلامية أغنى أمة على وجه البسيطة ، إنها صاحبة العقيدة الصحيحة ، تملك الثروة البشرية ، والموقع الجغرافى الممتاز ، والأرصدة والطاقة والمعادن ، فلا عرفت قدرها ، وشكرت أنعم الله عليها ، وجاهدت فى سبيل إعلاء كلماته .

تباركت ربنا وتعاليت ، فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت .

قوله تعالى ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾ .

استدل بهذه الآية الكريمة من يرى أنه لا تؤخذ الجزية إلا من أهل الكتاب أو من أشبههم كالمجوس ، كما صح فيهم الحديث أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر ، وهذا مذهب الشافعى وأحمد وقال أبو حنيفة رحمه الله : بل تؤخذ من جميع الأعاجم سواء كانوا من أهل الكتاب أو المشركين ولا تؤخذ من العرب إلا من أهل الكتاب ، وقال الإمام مالك : بل يجوز أن تضرب الجزية على جميع الكفار من كتابىّ ومجوسىّ ووثنىّ وغير ذلك .

وإذا كان الإسلام قد فرض الجزية على غير المسلمين فإنما فرضها على القادرين منهم ، أما غير القادرين فقد تجاوز الإسلام عنها بالنسبة لهم ، بل إن الجزية قد تختلف باختلاف المقدرة ، فقد تكون ثمانية وأربعين درهما فى العام ، وقد تكون أربعة وعشرين ، وقد تكون اثنى عشر .

وقد اقتضى منطق العدالة الاسلامية أن يفرض الزكاة على المسلمين ، والجزية على غيرهم ، وليس فى هذا أى ظلم أو إجحاف ، فقد قرر الله تعالى أنه لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، وإنما هذه الجزية بمنزلة ما يسمى فى العصر الحديث بضريبة الدفاع ، فإن الجيش الإسلامى يقوم بالدفاع عن رعاياه ، فأى ظلم فى هذا حتى ترتفع الأصوات بالباطل ، وتعلن الحرب الشعواء على الإسلام .

والله جلت قدرته أمر بقتال هؤلاء إن امتنعوا عن دفع الجزية ، لأنهم عصاة متمردون لا عذر لهم ، وكافرون برسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ولو أنهم أقاموا التوارة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ، لعلموا أن الله تعالى قد بشر ببعثة نبى الهدى محمد ﷺ .

قال تعالى ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاةوالذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروهواتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[1] .

(١) الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأعراف .

﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إلٓه إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا . أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً . والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[٣] .

سئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة : فقال : والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن . « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفوا ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إلٓه إلا الله فيفتح بها عيوناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً ﴾[٤] . قال تعالى لرسوله فى حديثه القدسى : [وعزتى وجلالى : لو سلكوا إلىّ كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يا محمد] .

الله أكبر إن دين محمد — وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده — طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

إن الذين كفروا بمحمد ﴿ **لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق** ﴾ لأن الكفر بمحمد ﷺ كفرٌ بالله ، وتكذيب بكلامه ، وكيف يحرمون ما حرم الله ورسوله ، وهم لا يؤمنون بالله ولا برسوله ، وكيف يدينون دين الحق ، وقد كفروا بالله الحق ، لقد قبل الإسلام منهم الجزية عن يد أى عن قدرة فلا يدفعها العاجز وهم صاغرون ، خاضعون لأحكام الله ، فالدينونة لله والدين كله لله لا رب سواه ، إن الحكم إلا لله ، وحده لا شريك له إذا حكم عدل ، وإذا قال صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا عاهد أنجز ، يقول صدقاً ، ويحكم عدلاً ﴿ والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾[٥] .

قوله تعالى ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون** ﴾ .

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٢٩ من سورة الفتح . (٣) الآيات ١٥٠ – ١٥٢ من سورة النساء .
(٤) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٨ : ٣) وفى البيوع (٥٠) . والدرامى فى المقدمة (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٧٤) .
(٥) الآية ٢٠ من سورة غافر .

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم هذه المقالة الشنيعة ، والفرية على الله تعالى ، فأما اليهود فقالوا فى العزير إنه ابن الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وذكر السدى وغيره أن الشبهة التى حصلت لهم فى ذلك أن العمالقة لما غلبت على بنى إسرائيل ، فقتلوا علماءهم ، وسبوا كبارهم ، بقى العزير يبكى على بنى إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه ، فبينما هو ذات يوم إذمر على جبانة ، وإذ امرأة تبكى عند قبر وهى تقول : وامطعماه واكاسياه فقال لها : ويحك من كان يطعمك قبل هذا ؟ قالت : الله . قال : فإن الله حى لا يموت قالت : يا عزيز فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بنى اسرائيل ؟ قال : الله ، قالت : فلم تبكى عليهم ؟ فعرف أنه شىء قد وعظ به .

ثم قيل له : اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه ، وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخا إن أطعمك فكله ، فذهب ففعل ما أمر به ، فإذا الشيخ فقال له : افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات ، فرجع عزير وهو من أعلم الناس بالتوارة . فقال يا بنى اسرائيل : قد جئتكم بالتوراة فقالوا : يا عزير ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلما وكتب التوراة بأصبعه كلها ، فلما تراجع الناس من عدوهم ، ورجع العلماء أخبروا بشأن عزير ، فاستخرجوا النسخ التى كانوا أودعوها فى الجبال ، وقابلوها بها ، فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم : إنما صنع هذا لأنه ابن الله .

فأى ظلم أعظم من هذا الجرم أن ينسبوا لله ولداً ، كما قالت النصارى عن المسيح ابن مريم ، فقد نسبوه لله تعالى وجل جلال الله ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم * ذلكم الله ربكم لا آله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾(١) .

﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ، قيماً لينزر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا * ماكثين فيه أبدا * وينذر الذى قالوا اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾(٢) .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾(٣) .

لقد كذب الله تعالى هؤلاء الضالين المضلين ولعنهم فقال ﴿ **ذلك قولهم بأفواههم** ﴾ أى كلام يقال بالألسنة ولا حقيقة له ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن

(١) الآيات ١٠١ – ١٠٤ من سورة الأنعام . (٢) الآيات ١ – ٥ من سورة الكهف . (٣) الآيات ٨٨ – ٩٥ من سورة مريم .

عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله مالا تعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾[١] .

إنهم يضاهئون ويشابهون قول الذين كفروا من قبل من مشركى العرب وغيرهم من الوثنيين .

﴿ **قاتلهم الله** ﴾ وهذا دعاء عليهم باللعنة والطرد من رحمة الله .

﴿ **أنى يؤفكون** ﴾ أى كيف يصرفون عن الحق . جل جلال الله فقد تقدس عن الشريك ذاته ، وتنزهت عن مشابهة الأغيار صفاته .

قوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ .

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير من طرق عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة وكان رئيساً فى قومه طىء ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ، فتحدث الناس بقدومه فدخل على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدى ما تقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضرك . أيضرك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلها غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال ﴿ إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون ﴾[٢] .

وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسير ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله** ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

وقال السدى : استنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا** ﴾ أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ . ﴿ **لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ أى تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

قوله تعالى ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون** ﴾ .

---

(١) الآيات ٦٨ – ٧٠ من سورة يونس .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٢٧ ، ٥٣) .

هذا وعدٌ من الله للجماعة المؤمنة بحفظ الدين وصيانة الدعوة ، فمن جال بخاطره أن يطفىء نور الله بنفخة من فمه فليطفىء الشمس فى علاها ، إن الناس جميعاً إذا تحولوا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على أنفسهم ، وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن ، بسامة المحيا . إن فى قوله تعالى ﴿ يأبى الله إلا أن يتم نوره ﴾ ما يدل على قوة الله وقدرته ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليماً قديرا ﴾(١) .

إن سنة الله اقتضت أن تسير القافلة والذئاب تعوى ، وهل يضر السحاب نبح الكلاب ، نعم سيتم الله نوره ولو كره الكافرون ولو حقد الحاقدون ، فالحق أحق أن يتبع ، ودولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ بَل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾(٢) ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾(٣) .

قوله جل شأنه ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ .

إنه النبى محمد الذى بعثه الله هادياً ومبشراً ونذيراً ، إنه الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة والسراج المنير ، الهادى إلى صراط الله رب العالمين ، أرسله بالهدى ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾(٤) ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٥) .

كتاب لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا تبلى جدته ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ،ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

ولقد أرسل الله رسوله بدين الحق وهو الإسلام وقد أظهره الله على الدين كله ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٦) .

والإسلام هو كلمة الله العليا فمن ابتغى الهدى فى غيره ضل وهوى ، أظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴿ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾(٧) .

فكم زالت ريـاض من رباهـا وكم بادت نخيلٌ فى البـوادى
ولكـن نخلـة الإسلام تنمـو على مر العـواصف والعـوادى
ومجدك فى حمى الإسلام باقٍ بقـاء الشمس والسبـع الشداد

(١) الآية ٤٤ من سورة فاطر .
(٢) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٨١ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٢ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٦) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(٧) الآية ١١٩ من سورة آل عمران .

الأحبار والرهبان وكنز المال

*﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾

المفردات : ﴿ **أكل الأموال** ﴾ : يراد به أخذها والتصرف فيها بسائر وجوه الانتفاع . ﴿ **والصد** ﴾ : المنع . ﴿ **وسبيل الله** ﴾ : هى طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة وأساس ذلك التوحيد والتنزيه . و ﴿ **الكنز** ﴾ هنا : خزن الدنانير والدراهم فى الصناديق ، أو دفنها فى التراب مع الامتناع عن الإنفاق فيما شرعه الله من البر والخير .و ﴿ **يحمى عليها** ﴾ : أى تضرم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها .

يخبر سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن هناك من علماء اليهود ، وعباد النصارى من يأكلون أموال الناس بالباطل ، وأوجه الباطل كثيرة منها : الرشوة والربا والغصب والسرقة ، ويصدون عن سبيل الله وذلك ببيعهم الآخرة بالدنيا وتضليل العامة ، وعدم قول الحق . قال ابن المبارك :

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها

وإذا كان القرآن الكريم يحدثنا عن علماء اليهود وعباد النصارى ففى حديثه عنهم تحذير لنا معشر المسلمين – قال تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾[1] .

جاء فى الحديث الصحيح « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا : اليهود والنصارى ؟ قال « فمن ؟ » وفى رواية أخرى قالوا : فارس والروم ؟ قال : (فمن الناس إلا هؤلاء ؟)[2] .

والحاصل التحذير من التشبه بهم فى أقوالهم وأحوالهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله** ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم فى الناس يأكلون أموالهم بذلك كما كان لأحبار اليهود على أهل الجاهلية شرف ، ولهم عندهم خرج وهدايا وضرائب تجىء إليهم ، فلما بعث رسول الله ﷺ استمروا على ضلالهم وكفرهم وعنادهم ، طمعا منهم أن تبقى لهم تلك الرياسات فأطفأها الله بنور النبوة ، وسلبهم إياها وعوضهم الذل والصغار وباءوا بغضب من الله تعالى .

---

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد . (٢) أخرجه الترمذى فى الفتن (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٢١٨ ، ٣٤٠) .

ولما كان الناس يتبعون علماء الدين والعباد وأصحاب الأموال ، فقد حذر الله تعالى الأغنياء من كنز المال قال سبحانه : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ .

قال ابن عمر : الكنز هو المال الذى لا تؤدى زكاته . وما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين وما كان ظاهرا لا تؤدى زكاته فهو كنز .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أيما مال أديت زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا فى الأرض ، وأيما مال لم تؤد زكاته فهو كنز يكوى به صاحبه وإن كان على وجه الأرض .

وروى البخارى من حديث الزهرى عن خالد بن أسلم قال : (خرجنا مع عبد الله بن عمر فقال : هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله طهرة للأموال) .

ولما كان الإسلام دين الاعتدال ، فقد دعا النفوس إلى التزام الصراط المستقيم ، لا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تقصير .

كما حذر من السقوط فى بريق الذهب والفضة ، والارتماء فى أحضان المادة .

قال ﷺ : (ما الفقر أخشى عليكم ولكنى أخشى أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[(١)]) .

وقال ﷺ : (تبا للذهب ، وتبا للفضة) يقولها ثلاثا ، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : فأى مال نتخذ ؟ فقال عمر رضى الله عنه : أنا أعلم لكم ذلك فقال : يا رسول الله إن أصحابك قد شق عليهم وقالوا فأى المال نتخذ ؟ قال : (لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين أحدكم على دينه)[(٢)] .

وعن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾ كبر ذلك على المسلمين وقالوا : ما يستطيع أحد منا يدع لولده مالا يبقى بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم ، فانطلق عمر وأتبعه ثوبان فأتى النبى ﷺ فقال : يا نبى الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية . فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم وإنما فرض المواريث من أموال تبقى بعدكم » قال فكبر عمر ثم قال له النبى ﷺ (ألا أخبرك بخير ما يكنز المرء ؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها سرته ، وإذا أمرها أطاعته وإذا غاب عنها حفظته)[(٣)] .

وقال رسول الله ﷺ : (إذا كنز الناس الذهب والفضة ، فاكنزوا هؤلاء الكلمات : اللهم إنى

(١) أخرجه البخارى فى المغازى (١٢ ، ١٧) وفى الجهاد (٣٨) وفى الجزية (١) وفى الرقاق (٧) . وأخرجه مسلم فى الزكاة (١٢١) وفى الزهد (٦) . والترمذى فى القيامة (٢٨) . وابن ماجه فى الفتن (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٤٨ ، ٥١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٣٦٦) .

(٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة (٣٢) . وابن ماجه فى النكاح (٥) .

أسألك الثبات فى الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك حسن عبادتك وأسألك قلبا سليما ، وأسألك لسانا صادقا وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ .

قالوا : من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذب به . وهؤلاء لما أحبوا المال وكنزوه وقدموه على طاعة الله ولم ينفقوه فى سبيله ، كان وبالا عليهم فى الآخرة . فعند ما يموت ابن آدم يصاب بمصيبتين : الأولى أنه يترك ماله كله . والثانية أنه يسأل عنه كله .

ولذلك لما حضرت محمد بن كعب القرظى الوفاة وكان غنيا ، قالوا له : كم تركت لأولادك من المال ، قال : « ادخرت مالى لنفسى عند ربى ، وادخرت ربى لأولادى » .

يا ابن آدم :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

هذه الأموال تُصهر فى نار جهنم فتكوى بها الجباه المتجبرة ، والجنوب التى طالما تمرغت فى الحرير ، والظهور التى طالما نامت على النعيم ، ونسيت البؤساء والمساكين ، ثم يقال لهم تبكيتا وتقريعا : هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ، كما فى قوله تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾(٢) وكما فى قوله جل شأنه ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ إذ البشارة عادة إخبار بما يسر ، لكنها جاءت هنا على طريقة التقريع والتوبيخ .

قال سفيان عن الأعمش عن عبد الله بن عمرو بن مرة عن مسروق عن عبد الله بن مسعود : « والذى لا آله غيره لا يكوى عبد بكنز فيمس دينار دينارا ولا درهم درهما ولكن يوسع جلده فيوضع كل دينار ودرهم على حدته » .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : « بلغنى أن الكنز يتحول يوم القيامة شجاعا يتبع صاحبه وهو يفر منه ويقول : أنا كنزك . لا يدرك منه شيئا إلا أخذه » .

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير بسنده عن ثوبان أن رسول الله ﷺ كان يقول : « من ترك بعده كنزا ، مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يتبعه ويقول : ويلك ما أنت ؟ فيقول : أنا كنزك الذى

(١) أخرجه النسائى فى السهو (٦١) . والترمذى فى الدعوات (٢٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٢٣ ، ١٢٥) .
(٢) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

تركته بعدك ولا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعها سائر جسده » رواه ابن حبان فى صحيحه .

عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار)[(١)] .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : (ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شيء إلا دينار أرصده لدين)[(٢)] .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألق الله فقيرا ولا تلقه غنيا » قال : يا رسول الله كيف لى بذلك ؟ قال « ما سئلت فلا تمنع ، وما رزقت فلا تخبأ » قال يا رسول الله كيف لى بذلك ؟ قال رسول الله ﷺ : « هو ذاك وإلا فالنار » .

قال رسول الله ﷺ : « لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ولكن يوسع جلده فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

عدة الشهور والنسىء

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ **الشهور** ﴾ : واحدها شهر وهو اسم للهلال سميت به الأيام . و ﴿ **الكتاب** ﴾ : هو اللوح المحفوظ كما قال تعالى ﴿ علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ . و ﴿ **الحرم** ﴾ : واحدها حرام من الحرمة بمعنى التعظيم . و ﴿ **الدين** ﴾ : الشرع والقيم أى الصحيح المستقيم الذى لا عوج فيه . و ﴿ **كافة** ﴾ : أى جميعا . و ﴿ **النسىء** ﴾ : من نسأ الشيء ينسؤه نسأ . و ﴿ **منسأة** ﴾ : إذا أخره أى الشهر الذى أنسىء تحريمه : أى أخر عن موضعه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٢٦٢ ، ٢٧٦) .

(٢) أخرجه البخارى فى التمنى (٢) وفى الاستئذان (٣٠) وفى الرقاق (١٤) . وأخرجه مسلم فى الزكاة (٣١ ، ٣٢) وابن ماجه فى الزهد (٨) والأمام أحمد فى (٢ : ٢٥٦ ، ٣١٦ ، ٣٤٩ ، ٣٩٩ ، ٤١٩ ، ٤٥٨ ، ٤٥٧ ، ٤٦٧ ، ٥٣٠) وفى (٥ : ١٤٩ ، ١٥٢) .

هذه الآيات عود على بدء إلى الكلام فى أحوال المشركين وقد كان الكلام فى قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية من قبيل الاستطراد ، اقتضاه ما قبله ، وهو حكم قتال المشركين ومعاملتهم .

﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض ﴾ .

أى إن مبلغ عدة الشهور اثنا عشر شهرا فيما كتبه الله ، وأثبته من نظام سير القمر ، وتقديره منازل ، منذ خلق السموات والأرض على هذا الوضع المعروف لنا من ليل ونهار إلى الآن .

والمراد بقوله : **﴿ يوم خلق السموات والأرض ﴾** الوقت الذى خلقهما فيه باعتبار تمامه ونهايته فى حملته ، وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله ، وخلق كل منهما وما فيهما .

وقوله : **﴿ فى كتاب الله ﴾** أى فى نظام الخلق والتقدير والسنن الإلٓهية فيه ، أو فى حكمه التشريعى كحرمة الأشهر الحرم ، وكون الحج أشهراً معلومات ، وكون ما يتعلق بالشهور من الفرائض والسنن كالحج والصيام ، وعدة المطلقات والرضاع فالمعتبر فيه الأشهر القمرية ومن حكمة ذلك أنه يجعل الصيام والحج يدور فى جميع أجزاء السنة ، ومنها ما يشق فيه أداؤهما ، ومنها ما يسهل فيه ذلك .

﴿ منها أربعة حرم ﴾ أى منها أربعة فرض الله احترامها وحرم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولى والعملى ، وإن كانت قد أخلت بذلك أحيانا اتباعاً لأهوائها وهذه الأشهر منها ثلاثة متواليات وهى : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم وواحد فرد ، وهو رجب .

روى أحمد عن أبى بكرة أن النبى ﷺ خطب فى حجة الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق قال (ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان)

ثم قال : (ألا أى يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى.ثم قال : أى شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . ثم قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا : بلى.ثم قال : أى بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . قال : أليست البلدة ؟ قلنا : بلى قال : فإن دماءكم وأموالكم ، وأحسبه قال . وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا لا ترجعوا بعدى ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض . ألا هل بلغت ؟ ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه ﴾[1] .

---

(١) اخرجه البخارى فى العلم (٣٠ ، ٣٧) وفى الزكاة (٣١) وفى الحج (١٣٢) . ومسلم فى الإيمان (٣٧٨) . وأبو داود فى الأمارة (١١) . وابن ماجه فى المناسك (٧٦) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٣٠) وفى (٣ : ٨٠ ، ١٠٩ ، ٢٠٢) وفى (٧٦١٤ ، ١٦٨) .

﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى ما ذكر من عدة الشهور وتقسيمها إلى حرم وغيرها ، وعدد الحرم منها ، هو الحق الذى يدان الله تعالى به دون النسىء .

وقد يكون المعنى ــ ذلك هو الشرع الصحيح الذى كان عليه إبراهيم وإسماعيل فى الحج وغيره ، وما يتعلق بالأشهر من الأحكام ، وقد تمسكت العرب به وراثة منهما ، حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له بسوء ، على شدتهم فى أخذ الثأر ، وضراوتهم بسفك الدماء .

﴿ **فلا تظلموا فيهن أنفسكم** ﴾ أى فلا تظلموا فى الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وقد خص بعض الأزمنة وبعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضى ترك المحرمات فيها ، تنشيطا للنفوس على زيادة العناية بما يزكيها ويطهرها ، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه .

ومن ثم جعل الله العبادات الدائمة خفيفة لا مشقة فى أدائها ، كالصلوات الخمس ، وخص يوم الجمعة بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين ، وسماع خطبتين ، تذكيرا وموعظة حسنة ، تقوى فى المؤمن ، حب الخير والتعاون على البر والتقوى .

وخص رمضان بوجوب صيامه فى كل سنة .

وخص أياماً معدودات من ذى الحجة بأداء مناسك الحج وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعداداً للسفر لأداء النسك .

وحرم مكة وما حولها فى جميع السنة لتأمين الحج والعمرة التى تؤدى فى كل وقت ، وحرم رجب فى وسط السنة لتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره ، ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه . ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة** ﴾ .

أى قاتلوهم جميعا وكونوا يدا واحدة على دفع عدوانهم ، وكف أذاهم ، كما يقاتلونكم كذلك ، ذاك أنهم إنما يقاتلونكم لدينكم وإطفاء نوره ، لا للانتقام ولا للعصبة ، ولا لكسب المال كما هو دأبهم فى قتال قويهم لضعيفهم ، فأنت حينئذ أجدر وأولى بالاتحاد لدفع العدوان ، وجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الشيطان هى السفلى والله عزيز حكيم .

﴿ **واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾ بنصرهم ومعونتهم وتوفيقهم لما فيه خيرهم وصلاحهم ، فمن يتق الظلم والعدوان فى الأرض ، وأسباب الفشل والخذلان فى القتال ، من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء ومخالفة سنن الله فى الاجتماع ، يكن الله معه ، ومن كان الله معه فلا يغلبه أحد ﴿ **إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله** ﴾ .

المراد بالنسىء تأخير حرمة شهر إلى آخر .

بيان هذا أن العرب ورثت فى مكة من إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال فى الأشهر الحرم ، لتأمين الحج وطرقه ، ولما طال عليهم الأمر غيروا وبدلوا فى المناسك ، وفى تحريم الأشهر ، ولاسيما المحرم إذ كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارة ثلاثة أشهر متواليات ، فأحلوا شهر المحرم وأنسأوا تحريمه إلى صفر ، لتبقى الأشهر الحرم أربعة كما كانت ، وفى ذلك مخالفة للنص ولحكمة التحريم .

وقد كان من عادتهم فى ذلك أن يقوم رجل من كنانة فى أيام منى ، حيث يجتمع الحجيج فيقول : أنا الذى لا يرد لى قضاء . فيقولون : صدقت ، فأخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر فيحل لهم المحرم ، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالا ، ثم صاروا ينسئون غير المحرم ، ويسمون النسىء باسم الأصل ، فتتغير أسماء الشهور كلها .

وبذلك يعلم أن النسىء تشريع دينى ملتزم ، غيروا به ملة إبراهيم اتباعا للهوى وسوء التأويل ، ومن ثم سماه الله زيادة فى الكفر ، أى إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله زائد على شركهم بالله وكفرهم به ، إذ حق التشريع له وحده ، فمنازعته فى ذلك شرك فى ربوبيته ، وهم يضلون به سائر الكفار الذين يتبعونهم فيها ، ويظنون أنهم لم يخرجوا به عن ملة ابراهيم ، إذا واطأوا عدة ما حرم الله من الشهور فى ملته ، ولم يزيدوا ولم ينقضوا وإن قدموا وأخروا مع أن المقصد فى ذلك العدد ، والتخصيص لا مجرد العدد ، وإذ لم يفعلوا ذلك فقد استحلوا ما حرم الله .

﴿ **زين لهم سوء أعمالهم** ﴾ أى زين لهم الشيطان أعمالهم ، بهذه الشبهة الباطلة إذ اكتفوا بالعدد ولم ينقصوا منه شيئاً ولم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة .

﴿ **والله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾ إلى الحكمة فى أحكام شرعه ، وجعلها مبنية على مصالح الناس فى دينهم ودنياهم ، أفراداً وجماعات ، فالهداية الموصلة إلى سعادة الدارين من آثار الإيمان ، والعمل الصالح ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾[1] .

وأما الكافرون فيتبعون أهواءهم ، وما يوسوس لهم به الشيطان ، فيوقعهم فى الشقاء والخسران .

إيقاظ الهمم بالجهاد

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم
بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا
تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ

---

(١) الآية ٩ من سورة يونس .

إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

المفردات : ﴿ **النفر والنفور** ﴾ : الفرار من الشيء أو الإقدام عليه بخفة ونشاط يقال نفرت الدابة والغزال نفوراً ونفر الحجيج من عرفات نفراً واستنفر الملك العسكر إلى القتال وأعلن النفير العام فنفروا خفافاً وثقالا . و ﴿ **التثاقل** ﴾ : التباطؤ وهو من الثقل المقتضى للبطء . و ﴿ **المتاع** ﴾ : ما يتمتع به من لذات الدنيا . و ﴿ **الغار** ﴾ : النقب العظيم فى الجبل والمراد به هنا غار جبل ثور . و ﴿ **الصاحب** ﴾ : هو أبو بكر رضى الله عنه . و ﴿ **السكينة** ﴾ : سكون النفس واطمئنانها وهو ضد الإنزعاج والإضطراب . و ﴿ **كلمة الله** ﴾ : هى التوحيد . و ﴿ **كلمة الذين كفروا** ﴾ : هى الشرك والكفر .

الكلام من هنا إلى آخر السورة كلام فى غزوة تبوك ومالابسها من هتك ستر المنافقين ، وضعفاء الإيمان ، وتطهير المؤمنين من عوامل الشقاق ، إلا آيتين جاءتا فى آخرها ، وإلا ما جاء فى أثنائها من بعض الحكم والأحكام جرياً على سنة القرآن فى أسلوبه الذى اختص به .

ومناسبة الآيات لما قبلها أن الكلام السابق كان فى حكم القتال مع اليهود ، وبين حقيقة أحواله من خروجهم من هداية الدين فى العقائد والأعمال والفضائل التى تهذب النفوس وتزكيها ، والكلام هنا فى غزوة تبوك ، والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى ، وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها .

وتبوك موضع فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، فهى تبعد عن الأولى ستمائة وعشرة كيلو مترات ، وعن الثانية ٦٩٢ كم .

وكان السبب فى هذه الغزوة ما بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة ، من أن الروم جمعت جموعاً معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب ، حتى وصلت طلائعهم إلى البلقاء ، بإمرة قائد عظيم منهم يدعى قباذ ، وعدد جنده أربعون ألفا ، فندب النبى الناس بالخروج لقتالهم ، وأعلمهم الجهة التى يغزونها .

وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام للتجارة ، وقال : يا رسول الله هذا مائة بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائة أوقية من الفضة. فقال النبى ﷺ : (ما يضر عثمان ما عمل بعدها)[1] .

ثم خرج لمقابلتهم ولما لم يجد من يقاتله عاد ولم يهاجم شيئاً من بلاد الشام وكان ذلك فى رجب سنة ٩ هـ « تسعة » .

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب (١٨) . والإمام أحمد فى (٥ : ٦٣) .

﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ .

الخطاب للمؤمنين فى جملتهم ، تربية لهم بما لعله وقع من منافقيهم وضعفائهم ، أى يأيها الذين آمنوا ما الذى عرض لكم مما يخل بالإيمان أو بكماله من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم ، وإخلادكم إلى الراحة واللذة ، حين قال لكم الرسول : انفروا فى سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم ، والقضاء على دينكم الحق ، الذى هو سبيل سعادتكم ؟ فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال فى سبيل الله كما قال ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[١] وكان من أسباب تثاقلهم أمور :

ا - أن الزمن كان وقت حر شديد .

ب - أنهم كانوا قريبى عهد بالرجوع من غزوتى الطائف وحنين .

ج - أنهم كانوا فى عسرة شديدة ، وجهد جهيد من قلة الطعام .

د - أن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه وآن وقت تلطف الحر . لأن رجبا وافق أكتوبر فى تلك السنة .

روى ابن جرير عن مجاهد قال : أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح وبعد حنين ، وبعد الطائف ، أمروا بالنفير فى الصيف حين اخترقت النخل (اجتنى ثمرها) وطابت الثمار ، واشتهوا الظلال ، وشق عليهم المخرج فقالوا : منا الثقيل وذو الحاجة والضيق والشغل والمنتشر به أمره فى ذلك كله .

وكان من دأب النبى ﷺ إذا خرج إلى غزوة أن يورى بغيرها لما تقتضيه المصلحة من الكتمان إلا فى هذه الغزوة فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظهر .

وكانت حكمة الله فى إخراجهم وهو يعلم أنهم لا يلقون فيها قتالا ، تمحيص المؤمنين وخزى المنافقين ، وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من الكفر ، وتربص الدوائر بالمؤمنين .

﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ :

أى أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية ، بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية ؟ ومن يفعل ذلك فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

﴿ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾ .

أى فما هذا الذى تتمتعون به فى الدنيا مشوباً بالمنغصات والآلام إذا قيس بما فى الآخرة من النعيم المقيم والرضوان من المولى ، إلا شىء قليل لا يرضى عاقل أن يتقبله بدلا منه .

روى أحمد ومسلم والترمذى عن المسور أن النبى ﷺ قال : (والله ما فى الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه فى أليم ثم يرفعها فلينظرّ بم يرجع)[٢] .

---

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٥٥) . والترمذى فى الزهد (١٥) وابن ماجه فى الزهد (٣) .

أى أن نعيم الدنيا فى قلته وقلة زمنه إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله .

﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوماً غيركم ﴾ .

أى إن لم تخرجوا إلى ما دعاكم الرسول ﷺ للخروج إليه ، يعذبكم عذابا أليما فى الدنيا ، يهلككم به كقحط وغلبة عدو ، ويستبدل بكم قوماً غيركم يطيعونه ويطيعون رسله ، لأنه قد وعد بنصره وإظهار دينه على الدين كله . ﴿ **ولن يخلف الله وعده** ﴾ وقد جرت سنته بأن الأمم التى لا تدافع عن نفسها ، ولا تحمى ذمارها ، لا بقاء لها ، وتكون طعاماً للآكلين ، وغذاءًا شهياً للمستعمرين .

﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ .

أى ولا تضروا الله شيئاً من الضرر فى تثاقلكم عن طاعته ، ونصرة دينه ، فهو الغنى عنكم فى كل أمر ، وهو القاهر فوق عباده ، وكل من فى السموات والأرض مسخر بأمره ، ولكن قد جعل للبشر شيئاً من الإختيار ، ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم .

﴿ والله على كل شىء قدير ﴾

أى والله قادر على كل شىء ، فهو يقدر على إهلاككم والإتيان بغيركم ، إن أصررتم على عصيان رسوله ، وتثاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه . ممن يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، ولا يخشون فى الحق لومة اللائمين ، كما قال : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[1] .

ثم رغبهم ثانية فى الجهاد فأبان لهم أنه تعالى المتوكل بنصره على أعداء دينه ، أعانوه أو لم يعينوه ، وهو قد فعل ذلك به وهو فى قلة من العدد والعدو فى كثرة ، فكيف وهو من العدد فى كثرة والعدو فى قلة فقال :

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ .

أى إن لم تنصروا الرسول الذى استنصركم فى سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله ، وأعداء رسوله فسينصره الله بقدرته وتأييده ، كما نصره حين أجمع المشركون على الفتك به واضطروه إلى الخروج والهجرة حال كونه أحد اثنين ، وثانيهما أبو بكر فى غار جبل ثور ، حين كان يقول لصاحبه إذ رأى منه أمارة الحزن لا تخف ولا تحزن إن الله معنا بنصره ومعونته وحفظه وتأييده ، فلن يعلم بنا المشركون ولن يصلوا إلينا .

روى البخارى ومسلم من حديث أنس قال : (حدثنى أبو بكر قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه ، فقال عليه الصلاة والسلام : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما) .

---

(١) الآية ٣٨ من سورة محمد .

وخلاصة ذلك إلا تنصروه بالنفر لما استنفركم له ، فإن الله قد ضمن له النصر فهو ينصره فى الوقت الذى اضطره المشركون إلى الهجرة ، حين كان ثانى اثنين فى الغار ، وكان صاحبه قد ساوره الحزن فقال له : لا تحزن إن الله معنا ، ونحن لا نكلف أكثر مما فعلنا من الإستخفاء .

﴿ **فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها** ﴾ .

أى فأنزل الله طمأنينته التى يسكن عندها القلب على رسوله ، وقواه بجنود من عنده وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر والأحزاب وأحد ، وقيل بل هم ملائكة أيده بهم فى حال الهجرة ، يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار ، ويصرفونها عنهما ، فقد خرج والشبان المتواطئون على قتله وقوف ولم ينظروه .

﴿ **وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا** ﴾ .

أى وجعل كلمة الشرك والكفر هى السفلى ، وكلمة الله وهى دينه المبنى على أساس توحيده تعالى والمشتمل على الأحكام والآداب الفاضلة ، والخالى من شوائب الشرك وخرافات الوثنية – هى العليا بظهور نور الاسلام وإزالة سيادة المشركين فى تلك الجزيرة بعد كفاح طويل دارت فيه الدائرة عليهم : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ﴾[1] .

﴿ **والله عزيز حكيم** ﴾ : أى والله غالب على أمره ، حكيم إذ يضع الأشياء فى موضعها وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته ، وأذل من ناوأه من المشركين .

غزوة تبوك

الموقف العام

١ – المسلمون :

سيطر الإسلام بعد فتح مكة وإخضاع هوازن على شبة جزيرة العرب كلها حتى حدود الشام والعراق ، وأصبح المسلمون مسئولين عن إدارة هذه البلاد وتنظيم حياتها العسكرية والاجتماعية ، ولم يبق فى البلاد العربية كلها قوة تجرؤ على مناهضة المسلمين وإعلانهم بالعداء ، ولكن الإسلام دين العرب وحدهم ، بل هو للناس كافة ، فلابد من تأمين حرية نشر تعاليمه بين العرب وغيرهم : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾[2] .

وإذا كان الإسلام قد انتشر فى شبه الجزيرة العربية ، فقد آن الأوان لنشره خارجها ، بعد أن أصبح المسلمون بدرجة من القوة والتنظيم تساعدهم على حماية حرية انتشاره بين الناس كافة .

٢ – المنافقون :

استمر المنافقون فى المدينة على الرغم من قلتهم وتظاهرهم بالإسلام على تثبيط الهمم ، ونشر الروح

(١) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

الإنهزامية ، وخلق الفتن والمشاكل للمسلمين ، ولكنهم لم يكونوا بدرجة من الأهمية والقوة بحيث يحسب لهم المسلمون أى حساب . وقد أصبحوا على مر الزمن معروفين لأهل المدينة لا تخفى أعمالهم على أحد . وكان باستطاعة الرسول ﷺ تطهير المدينة منهم ، لولا رغبته فى أن يثوبوا إلى رشدهم ، ولو بعد حين .

٣ – المشركون :

لم يبق للمشركين فى شبه الجزيرة العربية أية قيمة عسكرية خاصة بعد إسلام قريش زعيمة القبائل العربية وعميدة المشركين ، فقد انتشر الإسلام فى القبائل العربية انتشاراً ساحقاً ، وأصبح إسلام المتخلفين من المشركين أمراً لاشك فيه ، وفعلا بدأت وفود المشركين تتسابق إلى المدينة لإعلان إسلامها ، وأخذ العرب يدخلون فى دين الله أفواجاً ، لقد أصبح خطر المشركين لا قيمة له من الناحية العسكرية .

٤ – الرومان :

كانت أحوال الإمبراطورية الرومانية مضطربة خاصة فى بلاد الشام فقد كثر تذمر الناس من ظلم حكام الرومان وإرهاقهم بالضرائب ، لذلك أقبل كثير من القبائل العربية الخاضعة لحكم الروم على اعتناق الإسلام .

أسلم فروة بن عمر الجذامى قائد إحدى الفرق الرومانية التى قاتلت المسلمين فى غزوة مؤتة ، فقبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة ، وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية ، ولكن فروة أصر على إسلامه فقتل .

إن انتشار الإسلام بين نصارى العرب أقضّ مضاجع الرومان ، وجعلهم يفكرون فى القضاء على الدين الجديد قبل أن يستفحل أمره ، فقاموا بتحشيد قواتهم على حدود الشام الجنوبية استعداداً لمهاجمة المسلمين ، واستخدموا الأنباط الذين كانوا يتاجرون مع المدينة لنقل المعلومات إليهم عن المسلمين ، تلك المعلومات التى أكدت لهم تزايد قوة المسلمين مادياً ومعنوياً بحيث أصبحت تلك القوةُ خطراً داهماً يهدد الإمبراطورية الرومانية .

أسباب غزوة تبوك

١ –أسباب مباشرة :

تحشدت قوات الروم لغزو حدود العرب الشمالية ، والقضاء على سلطة الإسلام هناك ، فقد بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن القيصر هرقل قد رزق أصحابه لسنة وأجليت معه لخم وجذام وعاملة وغسان ، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء .

٢ – أسباب غير مباشرة :

(أ) حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية ، بعد انتشاره داخلها .

(ب) تقوية محتويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم – تلك القبائل التى أخذت تقبل على اعتناق الإسلام ، على الرغم من مكافحة الروم لهذا الاتجاه .

(جـ) محو آثار انسحاب المسلمين من مؤتة من النفوس .

أهداف الطرفين

١ – المسلمون :

حماية حرية نشر الإسلام فى بلاد الشام ، إذ هى المنفذ المهم لنشره خارج شبه الجزيرة العربية ، كما أنها المتنفس الحيوى للتجارة العربية .

٢ – الروم :

القضاء على منافسة المسلمين للإمبراطورية الرومانية فى السيطرة على العرب الخاضعين للروم ، وتحديد انتشار الدعوة الإسلامية فى بلاد الشام .

قوات الطرفين

١ – المسلمون :

ثلاثون ألفاً بقيادة الرسول ﷺ ، معهم عشرة آلاف فرس .

٢ – الروم :

قوات نظامية كبيرة من الروم يساندها العرب من لخم وجذام وعاملة وغسان .

الاستعدادات

١ – المسلمون :

أمر الرسول ﷺ بإنجاز استعدادات الحركة لقتال الروم ، ولم يكتم نواياه فى هذه الغزوة كما كان يفعل فى الغزوات السابقة ، كى يباغت بهذا الكتمان عدوه قبل أن يستطيع التهيؤ للقتال ، فقد كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها ، حتى كانت غزوة تبوك ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، وغزو عدو كثير ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، وأخبرهم بوجهه الذى يريده ليتهيئوا لذلك .

لم يكتم نواياه فى غزوة تبوك ، لأن المسافة طويلة يجب قطعها صيفاً ، فلابد من إكمال المئونة والنقلية للمجاهدين قبل الحركة ، حتى لا يؤدى نقص القضايا الإدارية إلى فشل المسلمين فى تحقيق هدفهم المنشود .

وليس من السهل تجهيز قوات المسلمين الكبيرة بما تحتاجه من مئونة ونقلية وأسلحة ، ما لم يشارك أغنياء المسلمين فى تجهيز هذا الجيش مشاركة فعالة ، فأقبل هؤلاء الأغنياء على بذل أموالهم بسخاء ، وعن طيب خاطر ، كما أقبل المسلمون من كل فج تلبية لداعى الجهاد .

وانتهز المنافقون فرصة شدة الحر ، ونضوج الثمار ، وطول المسافة ، وقوة العدو ، فأخذوا يثبطون العزائم ، وينشرون الروح الانهزامية بين المسلمين ، ولكنهم فشلوا فى محاولاتهم إذ لم يتخلف من المسلمين أحد غير ثلاثة رجال ، ولم يقبل الرسول ﷺ أن يستعين بالقوات التى جمعها عبد الله بن أُبى ، لأنه لم يكن يثق بإخلاص تلك القوات ، فبقى ابن أبى وأصحابه من المنافقين فى المدينة .

وبقى فى المدينة بعض المسلمين الذى لم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون . وأنجز جيش العسرة استعداداته ، وتحشد خارج المدينة ، وأصبح مستعداً للحركة من كافة الوجوه .

٢ - الروم :

وزع هرقل رواتب سنة كاملة على قواته النظامية ، كما وزع كثيراً من المال على القبائل العربية الخاضعة لسيطرته ، تشجيعاً لهم لمعاونة جيشه فى الصراع الوشيك .

وبعد إنجاز استعدادات قواته ، أرسل طلائعها إلى (البلقاء) لستر التحشد الذى تم بعد ذلك فى منطقة تبوك .

الحركـــة

١ - المسلمون :

ترك جيش المسلمين المدينة فى رجب من السنة التاسعة للهجرة ، وأخذ يقطع الصحراء القاحلة فى موسم الحر الشديد ، فلما وصل منازل ثمود فى (الحجر) تلك المنطقة التى تهب فيها العواصف الرملية بين حين وآخر ، فتطمر قافلة بكاملها ، وأوصى الرسول ﷺ أصحابه ألا يخرج أحدهم إلا ومعه صاحبه ، وهناك عطش المسلمون عطشاً شديداً حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ، ويشربون ماءها ، ولولا سقوط المطر عليهم يومذاك ، لهلك كثير من المسلمين عطشاً .

واستمر الجيش على السير حتى وصل تبوك ، وكانت المراحل تقطع ليلا للتخلص من الحر الشديد ، وعند تبوك ، لم يجدوا قوات الروم هناك ، فقرر الرسول ﷺ البقاء فى تبوك بقواته الرئيسية ، بعد أن علم بانسحاب الروم إلى الشمال .

٢ - الروم :

ثم تحشدت قوات الروم المؤلفة من جنودها النظاميين ، ومن القبائل العربية الموالية لها فى تبوك ،

قبل وصول المسلمين إليها ، ولكن المعلومات التى وصلتهم عن ضخامة جيش المسلمين ، وقوة معنوياتهم ، اضطرت الروم إلى الانسحاب من تبوك شمالا .

السيطرة على المنطقة

١ – مصالحة صاحب أيلة :

وجه الرسول ﷺ إلى يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة رسالة يطلب فيها منه أن يذعن للمسلمين أو يغزوه ، فأقبل يوحنا بنفسه إلى الرسول ﷺ ، وقدم له الهدايا والطاعة .

وكان نص وثيقة الصلح بين المسلمين ويوحنا ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة ، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله ومحمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول ماله دون نفسه وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وإنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر » .

واتفق الطرفات على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثمائة دينار فى كل عام .

٢ – مصالحة أهل الجرباء وأذرح :

تم الصلح بين المسلمين وأهل الجرباء – وهى قرية فى منطقة عمان بالبلقاء من أرض الشام ، وبين المسلمين وأهل أذرح ، هى بلدة قريبة من الجرباء – على الجزية أيضاً .

٣ – مصالحة أهل دومة الجندل :

بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد فى أربعمائة وعشرين فارساً إلى دومة الجندل ، فباغت خالد الأكيدر الكندى مليكها ، وأخاه حسان وهما يطاردان بقر الوحش ، فقتل وأسر الأكيدر ، فهدده خالد بالقتل إن لم تفتح دومة الجندل أبوابها للمسلمين .

فتحت المدينة أبوابها فداءًا لمليكها ، فدخلها المسلمون وغنموا منها ألفى بعير ، وثمانمائة شاة ، وأربعمائة وسق من بر وأربعائه درع ، وذهب بها خالد ومعه الأكيدر حتى لحق بالنبى ﷺ فى المدينة فحقن الرسول ﷺ دم الأكيدر ، وصالحه على الجزية ، وتركه يعود إلى قومه فى دومة الجندل .

عودة المسلمين

أقام المسلمون حوالى عشرين يوماً فى منطقة تبوك ، انتظاراً لعودة جيوش الروم ، وتأمينا للحدود الشمالية بعقد المعاهدات مع سكانها ، ودعما لهيبة الإسلام فى نفوس القبائل ، والعمل لحماية حرية نشر الدعوة فى تلك الأرجاء ، فلما أنجزوا كل ذلك تحركوا عائدين إلى المدينة .

وصل المسلمون إلى المدينة ، فجاء المتخلفون عن الخروج يعتذرون ، وكان هؤلاء المتخلفون

قسمين : القسم الأول من المنافقين المتظاهرين بالإسلام ، وهؤلاء أعرض عنهم الرسول ﷺ تاركا لله حسابهم ، والقسم الثانى من المسلمين الذين لا شائبة فى إسلامهم ، وهم ثلاثة ، كعب بن مالك ، ومرارة ابن الربيع ، وهلال بن أمية وهؤلاء اعترفوا بذنبهم ، فأمر الرسول ﷺ أن يعرضوا عنهم حتى يأتى أمر الله .

النفير العام

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾

المفردات : ﴿ **العرض** ﴾ : ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع مما لاثبات له ولا بقاء وليس فى الوصول إليه كبير عناء ويقال سير قاصد . ﴿ **وسفر قاصد** ﴾ : أى هين لا مشقة فيه من القصد وهو الاعتدال . و ﴿ **الشقة** ﴾ : الطريق لا تقطع إلا بعناء ومشقة . و ﴿ **العفو** ﴾ : التجاوز عن التقصير وترك المؤاخذة عليه .

قوله تعالى ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً** ﴾ .

أى فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، شيباً وشباناً .

وفى رواية قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً ، جهزونى يا بنى فقال بنوه يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير . فدفنوه فيها .

قوله تعالى ﴿ **وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ .

هذا ترغيب منه سبحانه وتعالى فى الجهاد بالمال والنفس وذلك لأن المال به تقوى العزائم فى القتال ، وذلك بإعداد المجاهد وتسليحه إلى غير ذلك ، فالمال عصب الحياة ، وغذاء القتال ، وكذلك المجاهدة بالنفس والتضحية بكل غال وثمين .

قال ﷺ : (تكفل الله للمجاهد فى سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة)[١] .

ولهذا قال تعالى ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ **لو كان عرضاً قريباً وسفرا قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ .

هذا توبيخ وتقريع لهؤلاء المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ﷺ ، الذين اصطنعوا الأعذار ، واختلقوا الأسباب .

قال ابن عباس المراد بالعرض القريب : الغنيمة القريبة وسفراً قاصداً أى قريباً لاتبعوك أى لكانوا جاءوا معك ﴿ **ولكن بعدت عليهم الشقة** ﴾ أى المسافة إلى الشام ﴿ **وسيحلفون بالله** ﴾ أى لكم إذا رجعتم إليهم ﴿ **لو استطعنا لخرجنا معكم** ﴾ أى لو لم يكن لنا أعذار لخرجنا معكم قال تعالى ﴿ **يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون** ﴾ .

وتلك أخلاق المنافقين فى كل عصر ومصر ، إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا عاهدوا غدروا ، وإذا خاصموا فجروا ، وإذا ائتمنوا خانوا ، عالة على المجتمع فى السراء ، وسوس ينخر فى عظامه أيام الضراء .

والنفاق مرض اجتماعى خطير فتاك ، والمنافقون هم المعوقون للعزائم ، المثبطون للهمم ، إذا رأوك حسدوك وإذا تواريت عنهم اغتابوك ، السنة عندهم بدعة ، والبدعة عندهم سنة ، لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا من المصحف إلا رسمه ، همهم بطونهم ، وقبلتهم نساؤهم ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون . ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ .

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حصين بن سليمان الرازى حدثنا سفيان بن عيينة عن مسعر عن عون قال : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة فقال : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » .

وقال قتادة : عتابه كما تسمعون .

ثم أنزل التى فى سورة النور فرخص له فى أن يأذن لهم إن شاء فقال ﴿ **فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم** ﴾ .

قال مجاهد نزلت هذه الآية فى أناس قالوا : استأذنوا رسول الله ﷺ فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٨، ٣٠) وفى الجهاد (٢) وفى الخمس (٨) . ومسلم فى الامارة (١٠٤) . والنسائى فى الجهاد (١٤) . وابن ماجه فى الجهاد (١) . والإمام مالك فى الجهاد (٢) .

(٢) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة المجادلة .

يأذن لكم فاقعدوا . ولهذا قال تعالى ﴿ **حتى يتبين لك الذين صدقوا** ﴾ أى فى إبداء الأعذار ﴿ **وتعلم الكاذبين** ﴾ .

يقول تعالى هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم فى القعود ، لتعلم الصادق منهم فى إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو إن لم تأذن لهم فيه .

ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذنه فى القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله فقال ﴿ **لا يستأذنك** ﴾ أى فى القعود عن الغزو . ﴿ **الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم** ﴾ بأنهم يرون الجهاد كربة ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا والله عليم بالمتقين .

قوله تعالى ﴿ **إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون** ﴾ أى لا يستأذنك فى الجهاد ، وإبداء الأعذار والقعود عنه إلا الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وذلك لما فى قلوبهم من الريبة والتردد وحب الدنيا وكراهية الموت . فإن القلوب المؤمنة تجد ريح الجنة فى الجهاد بل وتجد الجنة فى ظلال السيوف ، إنها قلوب رضيت بالله رباً وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً .

أما القلوب التى أصيبت بمرض النفاق فإنها مظلمة ، لا ترى نور الله . فهى ﴿ كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض ﴾[1] .

هذه الظلمات المتراكمة تجعل صاحبها يعيش فى قلق وريبة وتردد ﴿ **إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾ .

مواقف المنافقين من الجهاد والمجاهدين

*وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ

(١) الآية ٤٠ من سورة النور .

بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ
إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ
وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ
كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾
لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ
فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ
أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ
إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾

المفردات : ﴿ **الخبال** ﴾ : الاضطراب فى الرأى والفساد فى العمل كضعف القتال والخلل فى النظام . ويقال وضع الرجل إذا عدا مسرعا وأوضع راحلته إذا حملها على الإسراع . و ﴿ **خلال** ﴾ الأشياء : ما يفصل بينها من فروج ونحوها . و ﴿ **الفتنة** ﴾ : التشكيك فى الدين والتخويف من الأعداء . و ﴿ **سماعون لهم** ﴾ : أى ضعفاء العزيمة يسمعون قولهم . و ﴿ **تقليب الشيء** ﴾ : تصريفه فى كل وجه من وجوهه والنظر فى كل ناحية من أنحائه والمراد أنهم دبروا الحيل والمكايد ودوروا الآراء فى كل وجه لإبطال دينك . ﴿ **الفرق** ﴾ : (بالتحريك) الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وإدراكه . و ﴿ **الملجأ** ﴾ : المكان الذى يلجأ إليه الخائف ليعتصم به كحصن أو قلعة أو جزيرة فى بحر أوقنة فى جبل . و ﴿ **المغارات** ﴾ : واحدها مغارة وهى الكهف فى الجبل يغور فيه الإنسان ويستتر . و ﴿ **المداخل** ﴾ :(بالتشديد) السرب فى الأرض يدخله الإنسان بمشقة . و ﴿ **الجماح** ﴾ : السرعة التى تتعذر مقاومتها . ﴿ **اللمز** ﴾ : العيب والطعن فى الوجه . ﴿ **والهمز** ﴾ : الطعن فى الغيبة ورغبة ورغب فيه : أحبه ، ورغب عنه : كرهه.ورغب إليه : طلبه وتوجه إليه .

قوله تعالى : ﴿ **ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة** ﴾ أى لو أراد هؤلاء المنافقون أن يخرجوا معك إلى الغزو والجهاد والقتال لأعدوا لذلك الخروج عدته ، وتهيأوا له . ﴿ **ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين** ﴾ وذلك لسابق علم الله فيهم ، فقد كره خروجهم معكم لما فيه من الفساد والإفساد فثبطهم وأخر خروجهم . فليس الخروج غاية لهم ، بل إن مكانهم فى القعود مع القاعدين المتخلفين فهذا هو مقتضى الحكمة . أن توضع الأشياء فى مكانها الصحيح .

ثم بين تعالى ما سوف يترتب على خروجهم من الفساد والإفساد وتمزيق الصف وتثبيط الهمم ،

فقال : ﴿ **لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين** ﴾ .

جل جلال الله فهو العليم بذات الصدور ، الخبير بدقائق الأشياء ، المحيط بحقائقها ، فقد بين سبحانه فى هذه الآية خبيئة تلك النفوس المريضة وما يعتمل فيها من شر وسوء . فلو خرجوا فى صفوف المجاهدين ما زادوهم عددا فى الخير ، بل لكانت زيادتهم له خبالا ، أى اضطرابا فى الرأى ، وفسادا فى العمل ، لأسرعوا فى صفوف المسلمين يقصدون الفتنة والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها .

وفى صفوف المسلمين سماعون لهؤلاء المنافقين يستنصحونهم الرأى ، لأنهم لا يعلمون حقيقتهم ، وخفايا نفوسهم ، ويحسنون النية لهم لجهلهم بأحوالهم ، ويجوز أن يكون المعنى أن فى صفوف المجاهدين قوم اندسوا بقصد أن ينقلوا أخبار الجماعة المسلمة إلى هؤلاء المنافقين ، وأنهم جواسيس لحساب هؤلاء المثبطين المفسدين .

وفى هذا تحذير للجماعة المسلمة من شرور هؤلاء ، وأخذ الحيطة من جهتهم فإنهم كالجراثيم التى تفتك بالمجتمع فتكا ذريعا فتذره أثرا بعد عين ، وتدعه حطاما لا يغنى شيئا ، والله عليم بالظالمين ، خبير بمكنون صدورهم ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون** ﴾ :

هذا إخبار منه تعالى عن حال هؤلاء الذين مرضت قلوبهم بالبغضاء والشحناء . لقد طلبوا الفتنة من قبل حين قدوم الرسول وأصحابه إلى المدينة ، فاتحدوا مع اليهود ، ووقفوا معهم فى خندق واحد ، وقفوا مع بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، وقلبوا لك الأمور وفكروا ودبروا ، وتآمروا حتى جاء الحق ، فنصرك الله على هؤلاء البغاة الطغاة ، وظهر أمر الله جليا وهم كارهون لنصر الله لك ، يتظاهرون بالإسلام ، ويتربصون بكم الدوائر .

فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ إن النفوس الحاقدة لا تعرف معروفا ، ولا تنكر منكرا ، إلا ما أشربت من هواها فإن الحقد يعمى ويصم . فالمنافقون كما وصفهم الله تعالى فى قوله ﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾(٢) .وقوله تعالى ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ :

روى محمد بن إسحاق بسنده عن رسول الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهازه للجد بن قيس أخى بنى سلمة « هل لك يا جد العام فى جلاد بنى الأصفر ؟ » فقال: يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ، فوالله لقد عرف قومى مارجل أشد عجبا بالنساء منى وإنى أخشى إن رأيت نساء

(١) الآية ٤ من سورة المنافقون .
(٢) الآية ١٤ من سورة البقرة .

بنى الأصفر أن لا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال : « قد أذنت لك » . ففى الجد بن قيس نزلت هذه ﴿ **ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى** ﴾ .

الآية : أى إن كان إنما يخشى من نساء بنى الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم .

وفى هذه الآية الكريمة يظهر الله تعالى ما فى نفوس هؤلاء الذين يستأذنون ليؤذن لهم بالقعود ، ويبدون من الأعذار ما يدل على خبثهم وخداعهم ، إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، إنهم الخبثاء يلتمسون لأنفسهم الأعذار التى لا تثبت أمام الحق . إنهم يدعون الطهر والعفة ، ويخشون الافتتان بنساء الروم ، وهم قد سقطوا فى الفتنة من أخمص أقدامهم إلى منابت شعورهم ، وتمرغوا فى أوحال الأرض ، وشربوا من كأس المعصية حتى سكروا بخمر الرذيلة ، وإن جهنم لمحيطة بهؤلاء الكافرين ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ﴾[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ **إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون** ﴾ .

فى هذه الآية إظهار لما انطوت عليه نفوس هؤلاء من شماتة وعداء ، فهم بين أمرين : إن رأوا المسلمين فى خير امتلأت نفوسهم ضيقا وضجرا حسدا من عند أنفسهم ، وإن رأوهم فى شدة فإنهم فى شماتة بالغة يقولون : قد أخذنا حذرنا ، وأعددنا العدة من قبل . وهذا لأنهم لا يؤمنون بقضاء الله وقدره ، ثم يعرضون عن المؤمنين وقلوبهم مليئة بالفرح الشامت بما حل بالجماعة المؤمنة من شدائد .

لذلك لقن الله عباده المؤمنين الجواب الشافى فى الرد على هؤلاء المعاندين المكابرين فقال : ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ .

هذا هو التسليم المطلق والتفويض الكامل لصاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته لا تطرف فى هذا الوجود طرفة عين ، ولا تهب نسمة هواء ، ولا يحدث فى هذا الكون حدث كبير وصغير إلا بإذن من لا يغفل ولا ينام يقول تعالى فى الحديث القدسى الجليل : [عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد] .

كن عن همومك معرضا ... وكل الأمور إلى القضا
وانعم بطول سلامة ... تسليك عما قد يمضى
فلربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولرب أمر مسخط ... لك فى عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن معترضا

(١) الآية ١٤٥ من سورة النساء .

إن عقيدة المسلم تجعله يوقن بأن كل شيء بقضاء ، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له ، لأنه سيده ومولاه ، المالك المتصرف ، إنه يعلم علم اليقين أن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، فقد جرى القلم بما هو كائن . وقد جفت الأقلام وطويت الصحف ، إنهم على ربهم يتوكلون ، فهم مؤمنون معتمدون على خالقهم ، يأخذون فى الأسباب ويفوضون عواقب الأمور لمن يقول وقوله الحق ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾(١) .

ثم يزيد الله المؤمنين يقينا بحسن العاقبة ، وأنهم فى خير سواء انتصروا أم قتلوا .

أما حال الأعداء المارقين فشر إما تعذيب من الله ، أو قتل على أيدى المسلمين فيقول سبحانه :

﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ :

أى قل لهؤلاء هل تنتظرون بنا إلا إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة : وكلا الأمرين خير ، وقد كتب الله تعالى النصر لمن نصره فقال : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾(٢) .

ثم بين حال الذين ينصرون الله فقال : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(٣) .

ولقد كرم الله الشهداء الذين نزلوا حومة القتال يجاهدون فى سبيل الله لتكون كلمة الله هى العليا ، قال سبحانه : ﴿ والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾(٤) .

ومن هنا فإن أمر المؤمن كله خير إما النصر وإما الشهادة .

أما المنافقون ومرضى القلوب فنحن ننتظر بهم أن يصيبهم الله بعذاب من عنده ، كما حدث للأمم السابقة كعاد وثمود ، أو ينزل الله العذاب بهم بقتل المؤمنين لهم وأسرهم . **﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾** . قال تعالى : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(٥) .

وبعد أن لقن الله تعالى عباده المؤمنين الإجابة الصحيحة **﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾** قال الله تعالى لعباده أن يخبروا هؤلاء المنافقين بأن الله تعالى لن يقبل منهم أى نفقة فقال سبحانه : **﴿ قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين ﴾** :

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٢) الآية ٤٠ من سورة الحج .
(٣) الآية ٤١ من سورة الحج .
(٤) الآيات ٤ - ٦ من سورة محمد .
(٥) الآيات ١٢١ - ١٢٣ من سورة هود .

إن الله تعالى لا يقبل العمل من العبد إلا بشرطين : أن يكون صوابا أى على الوجه الذى أمر الله به ، وأن يكون خالصا لا رياءً فيه ولا سمعة .. وهؤلاء المنافقون خلت أعمالهم من الصواب والإخلاص ، سواء أدوا أعمالهم طائعين رياءً أمام المؤمنين ، أو مكرهين خوفا من العقاب . فلن يتقبل الله منهم شيئا ، لأنهم فاسقون خارجون على حدود الله ، فأعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف .

وقد بين الله تعالى العلة فى عدم قبول أعمالهم ولاسيما النفقة فقال : ﴿ **وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون** ﴾ .

وليس بعد الكفر ذنب فالكفر يحبط الأعمال . قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾[(١)] وقال جل شأنه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا ﴾[(٢)] .

وكيف يقبل الله عملا من كافر به وبرسوله ، وإن تظاهر بخلاف ذلك ولو صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فإنهم يأتون الصلاة كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ، وإذا أنفقوا أنفقوا كارهين خوفا من العقوبة لا ابتغاء مرضاة الله . وقد أخبر الصادق المعصوم ﷺ :(أن الله لا يمل حتى تملوا وأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا)[(٣)] . فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملا لأنه إنما يتقبل من المتقين .

وقد بين الله تعالى أن أموال هؤلاء وأولادهم إنما هى وبال عليهم فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم** ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾[(٤)] وقال ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[(٥)] .

وقوله ﴿ **إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا** ﴾ .

قال الحسن البصرى : بزكاتها والنفقة منها فى سبيل الله .

وقوله ﴿ **وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ أى ويريد أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ليكون ذلك أنكى لهم ، وأشد لعذابهم عياذا بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الإستدراج لهم فيما هم فيه .

قوله تعالى ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجئاً أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون** ﴾ .

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم ، أنهم ﴿ **يحلفون بالله إنهم لمنكم** ﴾

---

(١) الآية ١ من سورة محمد . (٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة (٦٥) . والترمذى فى تفسير (سورة ٢ : ٣٦) وفى الأدب (٤١) والدرامى فى الرقاق (٩) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٣٨) .

(٤) الآية ١٣١ من سورة طه . (٥) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون .

يمينا مؤكدة ، ﴿ **وما هم منكم** ﴾ أى فى نفس الأمر ﴿ **ولكنهم قوم يفرقون** ﴾ أى فهو الذى حملهم على الحلف .

﴿ **لو يجدون ملجأ** ﴾ أى حصناً يتحصنون به ، وحرزاً يتحرزون به ﴿ **أو مغارات** ﴾ وهى التى فى الجبال ﴿ **أو مدخلاً** ﴾ وهو السرب فى الأرض والنفق ، قال ذلك فى الثلاثة ابن عباس ومجاهد وقتادة .

﴿ **لولوا إليه وهم يجمحون** ﴾ أى يسرعون فى ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرها لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون فى هم وحزن وغم ، لأن الإسلام وأهله لا يزال فى عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن لا يخالطوا المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ **لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون * ولو أنهم رضوا ماآتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ .

يقول تعالى ﴿ **ومنهم** ﴾ أى ومن المنافقين ﴿ **من يلمزك** ﴾ أى يعيب عليك ﴿ **فى** ﴾ قسم ﴿ **الصدقات** ﴾ إذا فرقتها ويتهمك فى ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم ، ولهذا ﴿ **إن أعطوا** ﴾ من الزكاة رضوا ﴿ **وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون** ﴾ أى يغضبون لأنفسهم .

قال ابن جريج أخبرنى داود ابن أبى عاصم قال : «أتى النبى ﷺ بصدقة فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت . قال : ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية »[(١)] .

وقال قتادة فى قوله ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾يقول : ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات ، وذكر لنا (أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى ﷺ وهو يقسم ذهبا وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت . فقال نبى الله ﷺ : (ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى) ثم قال نبى الله (احذروا هذا وأشباهه فإن فى أمتى أشباه هذا يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم)[(٢)] .

وذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول : (والذى نفسى بيده ما أعطيكم شيئا ولا أمنعكموه ، إنما أنا خازن)[(٣)] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ ، ٢١٩) .

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب (٢٥) وفى التوحيد (٢ ، ٣ ، ٥ ، ٧) . ومسلم فى المسافرين (٢٧٥) وفى الزكاة (١٤٢ - ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٨) آ وأبو داود فى السنة (٢٨) . والترمذى فى الفتن (٢٤) والنسائى فى الزكاة (٧٩) . وابن ماجه فى المقدمة (١٢) .

(٣) أخرجه مسلم فى الزكاة (٩٨) . والبخارى فى الخمس (٧) . وأبو داود فى الأمارة (١٣) . والأمام أحمد فى (٢ : ٣١٤) وفى (٣ : ٤٧٥) وفى (٤ : ٩٩ ،) .

وهذا الذى ذكره قتادة يشبه ما رواه الشيخان من حديث الزهرى عن أبى سلمه عن أبى سعيد فى قصة ذى الحويصرة واسمه حرقوص لما اعترض على النبى ﷺ حين قسم غنائم حنين فقال له اعدل فإنك لم تعدل فقال « لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل » . ثم قال رسول الله ﷺ وقد رآه مقفياً (إنه يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنهم شر قتلى تحت أديم السماء ﴾[١] .

ثم قال تعالى منبها لهم على ما هو خير لهم من ذلك فقال : ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾ .

فتضمنت هذه الآية الكريمة أدبا عظيماً ، وسراً شريفاً ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده ، وهو قوله ﴿ **وقالوا حسبنا الله** ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده فى التوفيق لطاعة الرسول ﷺ ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والإقتفاء بآثاره .

مصارف الزكاة

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

من طبيعة الإنسان حب المال ، وقد يكون الغنى أشد حباً والطمع فيه شديد ، وضعيف الإيمان دائما لا يرضى بما يعطى ، وقد كان المنافقون وضعفاء الإيمان لا يرضون بقسمة الرسول ﷺ : ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات** ﴾ .

على أن للمال سطوة وشهوة ، قد تجمح ببعض الأغنياء وأولياء الأمور فيميلون عن طريق الحق فى صرف الزكاة ، لذلك بين القرآن مصرف الصدقة الواجبة . والآية مناسبة لما قبلها ، قاضية على أطماعهم ، مبينة حقيقة ماصنع الرسول معهم ، وأنهم مخطئون فى اعتراضهم .

﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾ ولغيرهم من الأصناف الثمانية ، لا تتعداهم إلى غيرهم أبداً ، والمراد إنما هى لهم لا لغيرهم ، قد فرضها الله منه ، والله عليم بخلقه ، حكيم فى فعله .

وهذه الأصناف هى :

١ ــ **الفقير** : المقابل للغنى ، والقرآن دائماً يذكرهما متقابلين ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾[٢] وهو المحتاج .

---

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٣) وفى المغازى (٦١) وفى الأنبياء (٦) وفى تفسير (سورة : ١٠) . ومسلم فى الزكاة (١٤٣، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦) . وأبو داود فى السنة (٢٨) . والنسائى فى الزكاة (٧٩) وفى التحريم (٢٦) ، والإمام أحمد فى (٣ : ٤ ، ٧٣) .

(٢) الآية ٦ من سورة النساء .

٢ – **المسكين** : عديم الحركة من حاجته وضعفه ، فالفقر والمسكنة يلتقيان فى الحاجة .
٣ – **والعاملين عليها** : كالكتبة والحراس والصيارفة والمشرفين على الجمع .
٤ – **والمؤلفة قلوبهم** : وهو صنف من الناس كان يعطيهم الرسول ، وأبو بكر ، من باب تأليف القلوب وجمعها على الإسلام ، لضعف فى إيمانهم ، أو لحكمة فى عطائهم ، وهذا حق للإمام بفعل ما فيه المصلحة .
٥ – **وفى الرقاب** : والمراد الصرف للإعانة فى فك الرقاب وعتقها من ذل الرق ، وبؤس الأسر ، ويدخل فى ذلك المال المدفوع لفك الأمة وعتقها من ذل الاستعمار ، وكيد الدخيل الأجنبى .
٦ – **والغارمين** : وهم من عليهم غرامة مالية أثقلت كواهلهم ، كديون عليهم استدانوها فأغرقت مالهم ، أو هم قوم عزموا فى سبيل صلح بين الناس ، أو جمع شمل المسلمين .
٧ – **وفى سبيل الله** : والمراد به هنا مصالح المسلمين العامة التى بها قوام أمر دينهم ودولتهم ، من كل خير يعود على المجموع ، وهذا يشمل تسهيل العمل لكل عاطل ، وعلاج كل مريض ، وتعليم كل جاهل ، وبالأخص التعليم الدينى .
٨ – **وابن السبيل** : وهو المنقطع عن بلده فى سفر لم يتيسر له شىء من المال ، فيعطى حتى يصل إلى ماله .

والظاهر – والله أعلم – أن السر فى التعبير باللام المفيدة للملك فى أصناف خاصة ، هم الفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ، وبقى فى صنفين هما فى الرقاب وفى سبيل الله : أن (اللام) أصحابها أشخاص يملكون و(فى) أصحابها ليسوا أشخاصاً ، بل المراد أوصافاً ومصالح عامة للمسلمين ، والترتيب فى الآية ملحوظ ومقصود .

أذى المنافقين للنبى ﷺ والرد عليهم

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

المفردات : ﴿ **يؤذون** ﴾ : الأذى ما يؤلم الإنسان فى نفسه أو ماله أو بدنه قليلا كان أو كثيراً . ﴿ **أذن** ﴾ : هذا من باب تسمية الإنسان باسم جزء منه للمبالغة فى وصفه بوظيفته كما قالوا للجاسوس عين .

لون آخر من ألوان نفاقهم ، ذكر مناسباً لذكر لمزهم عليه ، ونقدهم له فى تقسيم الغنائم والصدقات .

وبعض هؤلاء المنافقين الذين يؤذون النبى ، ويصفونه بصفات تتنافى مع نبوته ورسالته ، وشهادة الحق له بأنه على خلق عظيم ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١] .

وهكذا عمل المنافقين دائما خارج عن حدود العقل والواقع ، يقولون فى شأن النبى ﷺ هو أذن يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، ويرمون إلى أنه لا يميز بين هذا وذاك ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم ﴾[٢] وإنما هو النبى الكريم ، صاحب الخلق الكامل ، والإحساس العالى ، لا يجابه أحداً بما يؤلمه ، ولا ينقد أحداً بما يؤذيه ، بل يقول دائما : ما بال قوم ؟ ما بال رجال ؟ .

وقد كان ﷺ يعامل المنافقين بظاهر حالهم ، ويجرى عليهم أحكام الشريعة الإسلامية وآدابها التى يعامل بها الناس .

ولقد رد الله عليهم ولقنه الجواب : قل ﴿ **هو أذن خير** ﴾ لا أذن شر كما تعملون . فهو لا يقبل مما يسمعه إلا الخير ، وما وافق الشرع ، ولا يسمع الباطل ولا الغيبة ولا النميمة ولا الجدال ولا المراء .

ثم فسر المراد بأذن خير : بأنه يؤمن بالله ، وما يوحيه إليه من أخبار الغيب ، وأسرار السماء ، وبما يوحى إليه من أخباركم وأخبار غيركم ، ويؤمن للمؤمنين ، إيمان جنوح وميل وائتمان للمهاجرين والأنصار ، وصادقى الإيمان ، أما المنافقون فلا يميل لهم ، ولا يصدق خيرهم ، وفى هذا تهديد لهم بأن الله ينبئه بأسرارهم وأخبارهم ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ﴾[٣] .

وهو رحمة للمؤمنين فقد هداهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ، وفى قوله ﴿ **منكم** ﴾ إشارة إلى أن منهم من يدعى الإيمان ، وهو كاذب فيه ، وإشارة إلى أنه عالم بأن منهم المنافقين ، ولكن لحسن خلقه يعاملهم بالحسنى حتى يؤذن بغيرها .

والذين يؤذون رسول الله فى كل ما يتعلق بالرسالة كوصفه بالسحر والكذب وعدم الفطنة الخ ، لهم عذاب أليم ، إذ هم كفروا بهذا . أما الإيذاء الخفيف فيما يتعلق بشخصه فحرام فقط ، مع أنه لا يصدر من مؤمن أبداً ، وإيذاء أهل بيته حرام كذلك .

من آثار النفاق

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ

(١) الآية ٤ من سورة القلم . (٢) الآية ٥ من سورة الكهف . (٣) الآية ٦٤ من سورة التوبة .

وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن
طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

المفردات : ﴿ **يحادد الله** ﴾ : المحاداة كالمعاداة مأخوذة من الحد أى طرف الشيء وهكذا كل عدو يكون فى ناحية وشق بالنسبة لخصمه وعدوه . ﴿ **يحذر** ﴾ : الحذر الخوف فى المستقبل من شيء خاص . ﴿ **فخرج** ﴾ : الإخراج يشمل إظهار مكنون الصدور وإخراج الحب من الأرض والنفى من الوطن . ﴿ **نخوض** ﴾ : خاض بالعمل الباطل لا الحق لأنه مأخوذ من الخوض فى البحر أو الوحل والمراد الإكثار من العمل الذى لا ينفع .

إن من عادة المنافقين والكاذبين ، ومن يرتكبون جرماً ، أن يشعروا بحرج موقفهم ، وكأن الناس جميعاً مطلعون عليهم عالمون بأحوالهم ، ولذلك تراهم يكثرون من الحلف حتى تبتعد عنهم الشبهة المحيطة بهم .

وقد كان المنافقون كثيراً ما يحلفون ويعتذرون ، والله يعلم إنهم لكاذبون .

يحلفون لكم أيها المؤمنون أنهم برءاء مما نسب إليهم قولا وفعلا ، ليرضوكم فتطمئنوا لهم ، وتثقوا فيهم ، وهم قد فهموا أنهم بهذا يضمونكم لصفوفهم .

فيرد الله عليهم ويكشف سترهم حيث يقول : يحلفون لكم ليرضوكم ، والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء ، من المؤمنين ، وإرضاء الله ورسوله بالإيمان الصادق والعمل الكامل ، والبعد عن النفاق ، وقد أفرد (الضمير) (أن يرضوه) ليعلموا أن رضاء الرسول رضاء الله .

﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ هذا إن كانوا مؤمنين حقاً ، إذ علامة الإيمان ثقة بالله وحب له ولرسوله ، والعمل على رضاهما بامتثال الأمر ، واجتناب النهى ، « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »[1] .

﴿ **ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله** ﴾ حتى يكون فى جانب والله ورسوله فى جانب آخر ، فإن له نار جهنم يصلاها وبئس القرار قراره ، له نار جهنم خالداً فيها ، وذلك هو الخزى العظيم ، والنكال والذل المهين .

المنافقون مذبذبون بين الإيمان والكفر ، شاكون مرتابون فى الوحى ، وصدق الرسول ﷺ ، وهذا الشك والارتياب يدعوهم إلى الحذر والإشفاق ، بل هو لازم له ، إذ لو كانوا موقنين بكذب الرسول لما جاءهم الحذر ، ولو كانوا مؤمنين حقا لما كان لهذا الخوف والحذر محل ، لهذا يصفهم القرآن بقوله : ﴿ **يحذر المنافقون أن تنزل** ﴾ على المؤمنين ﴿ **سورة** ﴾ كاشفة لهم ، فاضحة أستارهم ، مبينة

(١) أخرجه مسلم فى الايمان (٦٦ ، ٦٧) . والبخارى فى الأيمان (٩ ، ١٤) وفى الأكراه (١) .

نفاقهم كهذه السورة ، ولذلك سميت الكاشفة والفاضحة .

يحذرون من سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، والمراد اللازم وهو فضيحتهم ، وكشف عورتهم ، وبيان شكهم وارتيابهم ، وتربصهم الدوائر بالمسلمين ، وإنذارهم بما قد يترتب على ذلك من عقابهم ، وقد كان المنافقون دائمى الاستهزاء بالنبى والمؤمنين ، كما مر ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ .

ولذلك يأمر الله نبيه بأن يقول لهم ، قل استهزئوا كما تشاءون ، وهذا تهديد لهم شديد ، ووعيد عليه ﴿ **إن الله مخرج ما تحذرون** ﴾ إخراجه من مخبئات الضمير ، ومكنونات الصدور ، وقد حصل ذلك وظهر نفاقهم لكل الناس .

روى عن قتادة قال : « بينما رسول الله ﷺ فى غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ، هيهات . فأطلع الله نبيه على ذلك فقال : احبوا على هؤلاء للركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا وقلتم كذا . قالوا : يا نبى الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم هذه الآية » على طريقة القسم للتأكيد ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ عن أقوالهم التى يقولونها نفاقاً من وراء الرسول ، ليقولن إنا كنا غير جادين ومنكرين ، بل هازلين لاعبين ، وهذا كفر محض ، فإن من يهزأ بالله وآياته ورسوله فهو كافر بها .

قل لهم ألم تجدوا ما تستهزئون به فى خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله ، فقصرتم الهزؤ عليها ، ثم تظنون أن هذا عذر مقبول ، فتتكلمون به بلا حياء ولا خوف . ولكن المنافقين لا يفقهون ﴿ **لا تعتذروا** ﴾ أبداً بهذا أو بغيره ﴿ **قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ فى الظاهر ، وظهر أمركم ، وبدأ الصبح لذى عينين .

والآية صريحة فى أن الخوض فى كتاب الله ورسوله وصفاته سبحانه وتعالى كفر حقيقى .

﴿ **إن نعف عن طائفة منكم** ﴾ ونقبل توبتها الخالصة ﴿ **نعذب طائفة** ﴾ أخرى لإصرارها على النفاق ، وارتكابها الآثام ، لأنهم كانوا مجرمين .

المنافقون وصفاتهم وجزاؤهم

ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ
مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟
بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى

خَاضُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾
أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ
وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ **بخلاقهم** ﴾ : الخلاق النصيب . ﴿ **حبطت** ﴾ : بطلت . ﴿ **المؤتفكات** ﴾ : جمع مؤتفكة من الإتفاك ، وهو الانقلاب والخسف ، والمراد أصحاب قرى قوم لوط . هذا بيان عام لأصل النفاق مع ذكر جزائه فى الدنيا والآخرة ، وضرب الأمثال بحالهم وحال من تقدمهم ، على أن المنافقين فى العصر الإسلامى الأول ضربوا الرقم القياسى فى النفاق .

﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم** ﴾يشبه بعضاً ، وذرية بعضها من بعض ، فهم متشابهون وصفاً وعملاً ، ذكراً وأنثى ، وهذا دليل على تأصل الداء وتمكنه من نفوسهم ، حتى صار كالغرائز الموروثة .

ثم بين الله وجه الشبه فقال : هم يأمرون بكل منكر ، ويدعون إليه ، والمنكر ما أنكره بالطبع السليم ، والعقل الراجح ، وما نهى عنه الشرع الشريف ﴿ **وينهون عن المعروف** ﴾ شرعاً وعقلا وطبعاً ، ألا لعنة الله عليهم .

﴿ **ويقبضون أيديهم** ﴾ عن الإنفاق ، ويبخلون بمالهم عن الجهاد ، وهذا من أهم علامات النفاق ، ولقد ورد فى الحديث : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان)[1]

وفى رواية « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وهكذا النفاق أساس الشر ، وأصل البلاء ، ومجمع كل رذيلة فى الوجود .

﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، نسوا التقرب إليه ، ونسوا جلاله وعظمته ، وشرعه وآياته وحسابه وعقابه ، فنسيهم ، وجزاهم على عملهم فحرمهم من حبه وذكره ، والتمتع بدينه وآياته ، والإنفاق فى سبيله ، وحرمهم من الثواب والرضوان ، ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون** ﴾ .

إن المنافقين هم الفاسقون ، الخارجون عن حدود العقل والدين والمصلحة العامة والخاصة ، هم الفاسقون لا غير .

أما ما أعد لهم من عقاب وجزاء فها هو ذا وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ، وعدهم نار جهنم خالدين فيها ، وفى ذكر الرجال فيهم والنساء دليل على عموم الوصف ، وتأصل الداء ، وتأخير

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان (٢٤) وفى الأدب (٦٩) . ومسلم فى الايمان (١٠٧ ، ١٠٩) . والترمذى فى الايمان (١٤) .

ذكر الكفار ، دليل على أن النفاق أخطر من الكفر الصريح .

ثم لم يكتف بهذا بل زاد فى عقابهم ، والتنكيل بهم ، فقال : ﴿ **هى حسبهم** ﴾ نعم وفى جهنم جزاء يكفيهم عقابا لهم ، ولعنهم فى الدنيا والآخرة ، وطردهم من رحمته وتوفيقه فى الدنيا وفى الآخرة ، لهم العذاب الشديد ، ولهم عذاب مقيم ثابت لا يتحول ولا يزول ، ويظهر ـــ والله أعلم ـــ أن القرآن يريد أن يوفيهم العذاب الحسى والمعنوى الذى يتكافأ مع نفاقهم وعملهم .

ثم خاطب الله سبحانه المنافقين المعاصرين للنبى ﷺ بعد ذلك بقوله : « أنتم أيها المنافقون الذين آذيتم الله ورسوله والمؤمنين ، كأولئك المنافقين السابقين مع أنبيائهم » .

وهكذا لا يخلو عصر من النفاق ، إذ هو مرض يصيب بعض النفوس ، أنتم مثلهم مغرورون بما لكم ، مفتونون بأولادكم ، ولكنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولاداً ، ولم يكن لهم فى دنياهم إلا مطلب واحد هو المتاع الفانى ، والعَرَضَ الزائل ، والتمتع بالمال والولد ، فكان نصيبهم نصيب الحيوان ، يتمتع ويأكل ويتناسل ، فاستمعتم بنصيبكم من المال والولد والعرض الزائل ، كاستمتاعهم بنصيبهم ، لم تفضلوا عليهم بشىء من التمتع بكلام الله المحكم ، الذى نزل على خير الأنبياء ، وسيد المرسلين ﷺ فكنتم أجدر منهم باللائمة ، وأحق بالعذاب والنكال ، فأنتم فعلتم الخبائث كما فعلوا مع توافر دواعى الشر عندهم ، وتوافر دواعى الخير عندكم .

﴿ **وخضتم** ﴾ : فى حمأة الرذيلة والفسق كالخوض الذى خاضوه ، ﴿ **أولئك حبطت أعمالهم** ﴾ فى الدنيا . وفسدت ، لأنها أعمال للرياء والسمعة ، وقد ظهر نفاقهم فيها ، وفى الآخرة لهم العذاب الأليم ، لأن شرط الثواب عليها الإيمان ، وهم لم يؤمنوا حقيقة ، بل نافقوا .

﴿ **وأولئك هم الخاسرون** ﴾ الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، وقد ضل سعيهم فى الدنيا والآخرة . ﴿ **ألم يأتهم نبأ** ﴾ السابقين من قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم إبراهيم ، وأصحاب مدين ، وقوم لوط ؟ والاستفهام للتقرير والتوبيخ .

هؤلاء أتتهم رسلهم بالبينات ، فأعرضوا وكذبوا ، فجاءهم العذاب ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت عاداً ، والصيحة التى أبادت ثمود ، والعذاب الذى هلك به نمرود ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط ، وهم فيها .

﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ حينما عذبهم ، وقد أنذرهم ، ومن أنذر فقد أعذر ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ والغرض من ضرب هذا المثل أن يفهم الكفار والمنافقون جيداً أن سنة الله مع الخلق لا تتغير ولا تتبدل ، وأن العذاب سينزل بهم حتماً ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ﴾ فاعتبروا يا أولى الأبصار .

المؤمنون وصفاتهم وجزاؤهم

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

المفردات : ﴿ **أولياء بعض** ﴾ : المراد بالولاية هنا ما يعم النصرة فى الشدائد ، والأخوة والمحبة والمودة . ﴿ **جنات** ﴾ : هى البساتين الكثيرة الأشجار ، الملتفة الأغصان ، التى تستر ما تحتها من الأرض ، ﴿ **وجنات عدن** ﴾ : عدن اسم لمكان خاص فى الجنة كالفردوس . هكذا أسلوب القرآن ، يذكر الشيء ثم يردفه بمقابله ، ليتجلى الفرق ، ويظهر للعيان بأجلى معانيه ، وليعلم المنافقون أنهم ليسوا على شيء من الإيمان ، إذ صفته ما يذكر هنا من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف ، أما إيمانهم الظاهر فهو نفاق وخداع لا ينفع أبداً .

﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء** ﴾ بعض بالنصرة والمعونة والمساعدة فى السراء والضراء ، والوقوف بجانب بعض فى الشدائد والمكروه ، بعضهم أولياء بعض ولاية أخوة ومودة ومحبة وصداقة ، فنبيهم ﷺ يقول : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منهم عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[(١)] ويقول : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[(٢)] .

هذا هو أساس الإيمان وطبعه ، لا فرق بين ذكر وأنثى ، وقد كانت النساء فى العصر الأول يقمن بالمعونة والنصرة فى الحروب وغيرها ، على قدر طاقتهن ، مع التجمل بالأدب والحياء ولبس لباس الدين والعفاف .

وانظر يا أخى فى وصف المؤمنين ﴿ **بعضهم أولياء بعض** ﴾ وفى وصف المنافقين ﴿ **بعضهم من بعض** ﴾ ترى أن المنافقين لا ولاية بينهم ولا أخوة ، تبلغ درجة الإيثار والنصرة فى الحروب ، ولكنها أخوة كلام فقط ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾[(٣)] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب (٢٧) . ومسلم فى البر (٦٦) .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة (٨٨) وفى الأدب (٣٦) وفى المظالم (٥) . ومسلم فى البر (٦٥) . والترمذى فى البر (١٨) . والنسائى فى الزكاة (٦٧) . والإمام أحمد فى (٤ : ١٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩) .

(٣) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة الحشر .

فالمنافقون بعضهم يشبه بعضاً فى الشك والنفاق والإرتياب ، ولكن لا صلة بينهم ولا تآلف ، إذ الولاية والصلة والأخوة هى من صفات المؤمنين ، أصحاب العقائد الراسخة ، ولذا يقول الله فيهم ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** ﴾ ولاية النصرة فى الدفاع عن الحق والعدل والكرامة ، والدعوة إلى الله ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر .

وبالعكس : المنافقون يأمرون بالمنكر ، وينهون عن المعروف ، ولا غرابة ، فهاتان الصفتان من أبرز صفات المؤمنين ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾(١) .

﴿ **ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾ وهاتان صفتان فى مقابلة وصف المنافقين بأنهم نسوا الله ، وبأنهم يقبضون أيديهم ، وإقامة الصلاة إتيانها مقومة كاملة تامة الأركان والشروط ، فيها الخضوع الكامل والخشوع لله ، ومراقبته وذكره .

أما صلاة المنافقين فللرياء والنفاق ، إذا قاموا إليها قاموا كسالى ، وإتيان الزكاة دليل كمال الإيمان ، والخشية من الله ، والأمل فى رضائه ورضوانه .

وخُصَّ هذان الركنان بالذكر ، لأنهما علاج الهلع والجزع والبخل والخور ، فهذه أمراض تدفع صاحبها إلى الإحجام عن الدفاع عن الحق ، وإعلاء كلمة الله ، وتدفعه إلى الشح الصاد عن الإنفاق ، فى سبيل الله ، ولذا كان المنافقون أجبن الناس ، وأبخلهم انظر إلى قوله تعالى ﴿ إن الانسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين ﴾(٢) .

وقد جعل الله هذه الأربع : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإتيان الزكاة . أساس النجاح فى الدنيا ، ووسيلة العمران ، وإقامة الدولة المسلمة الصالحة ، للتمكين فى الأرض ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(٣) والمؤمنون والمؤمنات لهم صفات فوق ذلك ، إنهم يطيعون الله ورسوله بامتثال الأمر ، واجتناب النهى فى كل أمورهم .

﴿ **أولئك سيرحمهم الله** ﴾ ويدخلهم فى رحمته الواسعة التى كتبها لهم ، رحمة خالصة من شوائب الكدر والشقاء ، إن الله عزيز لا يغلب ، حكيم فى كل صنع ، وهذا تذييل مناسب لهذا العطاء الكبير للمؤمنين .

﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات** ﴾ جزاءًا لهم ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

وعدهم الله جنات موصوفة بأنها ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ فليس فيها تعب ولا مشقة ولا

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران . (٢) الآيات ١٩ - ٢٦ من سورة المعارج . (٣) الآية ٤١ من سورة الحج .

عطش ، ولا ألم كما أن مياهها طاهرة نظيفة لا تتغير بالمكث ، ولا تفسد بالوقوف وهم خالدون فيها إلى ما شاء الله ، ومقيمون بها إقامة أبدية ، ووعدهم ﴿ **مساكن طيبة** ﴾ يتمتعون بها مشتملة على جميع المرافق من أثاث ورياش وزينة ورزق ومتاع ، هذه المساكن ﴿ **فى جنات عدن** ﴾ ومكانها الطيب هذا هو المتاع الجسمانى فى الآخرة ، وأما متاع الروح فالرضا والرضوان ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ من ذلك كله إذ لا يقدر قدره ، وقيل إن الرضوان رؤية الله يوم القيامة ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[1] .

هذا جزاء الإيمان فى مقابلة جزاء النفاق السابق .

ألا بئس ما يصنعون ، ذلك الذى ذكر من الوعد للمؤمنين والمؤمنات بالنعيم الجسمانى والروحانى ، هو الفوز العظيم .

أما المتاع فى الدنيا فعرض زائل ، مشوب بالألم والتعب والهم والنصب .

أيها المؤمنون هذه هى الموازين الحقيقية للإيمان وجزائه ، فانظروا إلى أنفسكم فى أى مكان هى ، وحاسبوها قبل ان تحاسبوا .

معاملة النبى للكفار والمنافقين

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ
﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا
لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ
وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ
وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

المفردات : ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ : الخشونة والشدة فى المعاملة وهى ضد اللين . ﴿ **الجهاد والمجاهدة** ﴾ : استفراغ الجهد والوسع فى مدافعة العدو ، وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر ، مجاهدة الشيطان ، مجاهدة النفس والهوى ، ويشير إلى هذه كلها قوله تعالى ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾[2] ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ﴾[3] وقال ﷺ : (جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم) . وقال : (جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم) والجهاد باللسان إقامة الحجة والبرهان ، والجهاد باليد الجهاد بالسيف وكل الوسائل الحربية . ﴿ **ونقم منه الشىء** ﴾ : أنكره وعابه عليه .

(١) الآية ٢٦ من سورة يونس .
(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٣) الآية ٤١ من سورة التوبة .

بعد أن وصف الله تعالى المؤمنين بشريف الصفات ، ووعدهم بأجزل الثواب ، وأرفع الدرجات ، أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين وإنذارهم بالجهاد كالكفار المجاهدين بكفرهم ، إذا هم استرسلوا فى إظهار ما ينافى الإسلام من الأموال والأفعال ، كالقول الذى قالوه وأنكروه بعد أن أظهره الله عليه وكذبهم فى إنكارهم ، وجهادهم ألا يعاملوا معاملة المؤمنين الصادقين ، فيقابلونة بالغلظة والتجهم ، لا بالطلاقة والبشر إلى نحو ذلك . ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ .

أى ابذل أيها النبى جهدك فى مقاومة هاتين الطائفتين اللتين تعيشان بين ظهرانيك ، بمثل ما يبذلان من جهد فى عداوتك ، وعاملهما بالغلظة والشدة التى توافق سوء حالهما .

وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين ، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة ، أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه ، وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان : أى بالحجة والبرهان .

وكان الكفار اليهود يؤذون النبى ﷺ حتى بتحريف السلام عليه ، بقولهم : (السام عليكم) والسام الموت ، فيقول : (وعليكم) .

ثم تكرر نقضهم للعهد حتى كان من أمرهم ما تقدم ذكره .

وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام والظاهر ، فجرأهم هذا على أذاه بنحو قولهم : (هو أذن) فأمره الله فى هذه الآية بالغلظة على الفريقين فى جهاده التأديبى لهم ، لأن أمثالهم لا علاج له إلا هذا كما قال :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وهو جهاد فيه مشقة عظيمة ، لأنه موقف وسط بين رحمته ، ولينه للمؤمنين المخلصين ، وشدته فى قتاله لأعدائه المحاربين ، يجب فيه إقامة العدل ، واجتناب الظلم ، وأثر عن عمر أنه قال « أذلوهم ولا تظلموهم » .

وفى هذه الغلظة تربية للمنافقين ، وعقوبة لهم ، يرجى أن تكون سببا فى هداية من لم يطبع الكفر على قلبه ، وتحط به خطايا نفاقه ، فتقطيب وجهه ﷺ فى وجوههم تحقير لهم ، يتبعه فيه المؤمنون ، ومن ير أنه محتقر بين قومه وأبناء جنسه من الرئيس وغيره يضيق صدره ، ويحاسِبْ نفسه ، ويثُبْ إلى رشده ، ويتبْ إلى ربه .

وهذه السياسة الحكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين ، وإسلام ألوف الألوف من الكافرين .

﴿ **ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ أى لا مأوى لهم يلجأون إليه ، إلا دار العذاب التى لا يموت من أوى إليها ، ولا يحيا حياة طيبة ، وبئس المصير هى ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

والخلاصـــة :

أنهم قد اجتمع لهم عذابان : عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة . وعذاب الآخرة بأن تكون جهنم مأواهم .

ثم ذكر سبحانه الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار وهى : أنهم أظهروا الكفر بالقول ، وهموا بشر ما يغرى به من الفعل ، وهو الفتك برسول الله ﷺ .

وقد أظهره الله عليه وأنبأه بأنهم سينكرونه إذا سألهم ، ويحلفون على إنكارهم ليصدقهم ، كدأبهم من قبل ، فقد كانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾[1] ويخوضون فى آيات الله وفى رسوله . استهزاء خرجوا به من الايمان الذى يدعونه إلى الكفر الذى يكتمونه فقال :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ﴾ .

أى يحلفون بالله إنهم ما قالوا تلك الكلمة التى نسبت إليهم ، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التى رويت عنهم ، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة ، لأنه لا ينبغى ذكرها ، ولئلا يتعبد المسلمون بتلاوتها ، وأصح ما قيل فيها ما رواه ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ جالساً فى ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان فإذا جاء فلا تكلموا ، فلم يلبثوا ان طلع رجل ازرق . فدعاه رسول الله فقال له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فتجاوز عنهم فأنزل الله :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ .

أما همهم بما لم ينالوا : فهو اغتيال رسول الله ﷺ فى العقبة منصرفه من تبوك ، ذاك أنه لما رجع رسول الله ﷺ قافلا من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، مكر برسول الله ﷺ ناس من المنافقين ، فتآمروا ان يطرحوه من عقبة فى الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، فلما غشيهم رسول الله ﷺ أخبر خبرهم ، فقال : (من شاء منكم أن يأخذ . ببطن الوادى فإنه أوسع لكم) وأخذ رسول الله ﷺ العقبة وأخذ الناس ببطن الوادى إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله ﷺ ، فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا ، وقد هموا بأمر عظيم .

وأمر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عمار أن يأخذ زمام الناقة وأمر حذيفة أن يسوقها ، فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه ، فغضب رسول الله ﷺ ، وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله ﷺ فرجع ، ومعه محجن ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن ، وأبصر القوم وهم متلثمون ، ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة ، وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ فلما أدركه قال « اضرب الراحلة يا حذيفة ، وامش أنت يا عمار وراءها » .

(١) الآية ١٦ من سورة المجادلة .

فأسرعوا حتى استووا بأعلاها ، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس ، فقال النبى ﷺ لحذيفة « هل عرفت من هؤلاء الركب أحداً » قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون . فقال رسول الله ﷺ « هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا » قال : لا والله يا رسول الله قال « فإنهم مكروا ليسيروا معى حتى إذا طلعت فى العقبة طرحونى منها » قالوا: أو لا تأمر بهم يا رسول الله إذاً فنضرب أعناقهم ؟ قال « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمداً قد وضع يده فى أصحابه » فسماهم لهما وقال : « أكتماهم » .

والصحيح فى عددهم ما رواه مسلم أن رسول الله ﷺ قال : (فى أمتى اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ، ولا يجدون ريحها ، حتى يلج الجمل فى سم الخياط ، ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة (خراج ودمل كبير يظهر فى الجوف يقتل صاحبه كثيرا) سراج من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم) .[١]

أى كأنه سراج من النار . ﴿ **وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ أى وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام ، وبعثة الرسول ﷺ فيهم شيئاً يقتضى الكراهة والهم بالانتقام إلا إغناء الله تعالى ورسوله من فضله بالغنائم التى هى عندهم أحب الأشياء لديهم فى هذه الحياة، وكانوا كسائر الأنصار فقراء ، فأغناهم الله ببعثة الرسول ونصره ، وبما آتاه من الغنائم كما وعده ، ومن ثم قال ﷺ للأنصار ﴿ وكنتم عالة فأغناكم الله بى ﴾[٢] .

﴿ **فإن يتوبوا يك خيرا لهم** ﴾ أى فإن يتوبوا من النفاق وما يصدر عنه من مساوئ الأقوال والأفعال ، يكن ذلك المتاب خيرا لهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبما فيه من التوكل على الله ، والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والعمل لما فيه السعادة فى الآخرة ، ومعاشرة الرسول ﷺ ، ومشاهدة فضائله ، وأخوة المؤمنين بعضهم لبعض وما فيها من الود والوفاء الكامل ، والإيثار على النفس ، إلى نحو ذلك .

وأما فى الآخرة فبما علمت مما وعد الله به المؤمنين من الجنات ، التى تجرى من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة . ﴿ **وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة** ﴾ أى وإن أعرضوا مما دعوا إليه من التوبة ، وأصروا على النفاق ، وما ينشأ منه من المساوىء الخلقية والنفسية — يعذبهم الله عذابا أليماً فى الدنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهلع ، كما قال سبحانه ﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾[٣] وقال : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾[٤] فهم فى جزع دائم ، وهم ملازم .

(١) أخرجه مسلم فى المنافقين (٩ ، ١٠) .
(٢) أخرجه البخارى فى المغازى (٥٦) . ومسلم فى الزكاة (١٣٩) .
(٣) الآية ٥٧ من سورة التوبة .
(٤) الآية ٤ من سورة المنافقون .

وأما فى الآخرة فحسبك ما تقدم من وعيدهم بتلك النار التى تطلع على الافئدة .

﴿ وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير ﴾ أى ومالهم فى الأرض كلها من يتولى أمورهم ، ولا من ينصرهم ، ويدافع عنهم ، وإن من خذله الله فلا يقدر أحد أن يجبره .

أما فى الدنيا فقد أغلقت فى وجوههم الأبواب ، فقد خص الله ولاية الأخوة والمودة والنصرة بالمؤمنين والمؤمنات دون المنافقين والمنافقات ، وقد قضى الإسلام على جوار الجاهلية ، وعلى أحلافهم ، من أهل الكتاب فى الحجاز بالقتل والجلاء .

وأما فى الآخرة فقد تظاهرت النصوص على أنه لا ولىّ ولا ظهير للكفار والمنافقين .

خيانة العهد

* وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾

هذه الآيات بيان لحال طائفة أخرى من المنافقين ، أغناهم الله بعد فقر وإملاق ، وقد كانوا يلجأون إلى الله وقت البأساء والضراء فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له والطاعة لشرعه إذا هو كشف ضرهم ، وأغناهم بعد فقرهم ، فلما استجاب دعاءهم نكصوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ، وهضموا حقوق الخلق – ومثل هؤلاء يوجدون فى كل زمان ومكان .

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ .
أى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالاً وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها ، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به ، والإنفاق فى سبيل الله : كإعداد العدة للجهاد ، وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها ، بما يرقى بها فى مختلف شئونها .

﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ .

أى فلما رزقهم وأعطاهم ما طلبوا – بخلوا بما آتاهم ، وأمسكوه ، فلم يتصدقوا منه بشىء ، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة ، وإصلاح حالهم وحال أمتهم ، كما عاهدوا الله عليه ، ولم يكن ذلك التولى عارضا طارئا ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة ، بحافز نفسى ملك عليهم أمرهم ، ومنعهم عن التصدق ، بحيث إذا ذُكِّروا بما يجب عليهم لا يذكرون ، وإذا دُعوا لا يستجيبون .

﴿ **فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾ .

قال الليث : يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صيرت عاقبة أمره كذلك كما قال الهذلى :

أودى بنى وأعقبونى حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

أى أعقبهم ذلك البخل والتولى بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان نفاقاً فى قلوبهم ، متمكنا منها وملازما لها إلى يوم الحساب فى الآخرة ، لأنه لا رجاء معه فى التوبة .

ثم ذكر سببين هما من أخص أوصاف المنافقين – إخلاف الوعد ، والكذب فقال : ﴿ **بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** ﴾ أى أن سنة الله فى البشر قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق فى القلب ويقويه ، كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوة ورسوخاً فى النفس ، وهكذا جميع الأخلاق والعقائد تقوى وترسخ بالعمل الذى يصدر منها .

فهؤلاء لما كان قد رسخ فى نفوسهم خلف الوعد ، واستمراء الكذب ، مكن ذلك النفاق فى قلوبهم بمقتضى سننه وتقديره .

أخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، والبيهقى عن ابن عباس فى قوله ﴿ **ومنهم من عاهد الله** ﴾ الآية : أن رجلا من الأنصار يقال له ثعلبة أتى مجلسا فأشهدهم قال : لئن آتانى الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه ، وتصدقت ، وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله ، فآتاه الله من فضله ، فأخلف ما وعده ، فأغضب الله بما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن . ﴿ **ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب** ﴾ .

أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون ، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول – أن الله يعلم السر الكامن فى أعماق نفوسهم الذى يخصون به من يثقون به ممن هو مشارك لهم فى النفاق ، وأن الله يعلم الغيوب كلها ، لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به ، وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه .

من أخلاق المنافقين

ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ
مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ
لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾

المفردات : ﴿ **لمزه** ﴾ : عابه . ﴿ **والمطوع** ﴾ : أى المتطوع ، وهو من يؤدى ما يزيد على

الفريضة . ﴿ **والصدقات** ﴾ : واحدها صدقة . ﴿ **والجهد** ﴾ : (بالضم والفتح) . ﴿ **الطاقة** ﴾ : وهى أقصى ما يستطيعه الإنسان . ﴿ **وسخر منه** ﴾ :استهزأ به احتقاراً .

بعد أن ذكر سبحانه بخل المنافقين وشحهم بأموالهم ، حتى بعد أن عاهدوا الله على الصدقة إذا آتاهم من فضله – أردف ذلك ببيان أنهم لم يقتصروا فى جرمهم على هذا الحد ، بل جاوزوا ذلك إلى لمز المؤمنين وذمهم فى صدقاتهم غنيهم وفقيرهم ، وأنهم لهذا قد وصلوا إلى حد لم يعدلهم فيه أدنى حظ من الإسلام ، ولا أدنى نفع من استغفار الرسول ودعائه لهم ، لرسوخهم فى الكفر بالله ورسوله ، وعدم الرجاء فى إيمانهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود البدرى قال : لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل (يحمل بعضنا لبعض بالأجر) فجاء أبو عقيل (اسمه الحبحاح) بنصف صاع وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله غنى عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياءاً ، فنزلت ﴿ **الذين يلمزون** ﴾[1]

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : (حث رسول الله ﷺ على الصدقة فى غزوة تبوك ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وقال : يا رسول الله مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها وأمسكت نصفها فقال : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » وتصدق يومئذ عاصم بن عدى بمائة وسق ثلاثمائة وعشرين رطلا من تمر وجاء أبو عقيل بصاع من تمر) الحديث .

﴿ **الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات** ﴾ .

أى أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين ويعيبونهم فى أمر الصدقات التى هى أظهر آيات الإيمان ، ويذمونهم فى أكمل فضائلهم ، ويقولون ما فعلوها لوجه الله ، وإنما فعلوها رئاء الناس .

فلمزهم هنا فى مقدارها وصفة أدائها لا فيها نفسها ، واللمز هناك فى قسمتها ، وقد جاء فى بعض الروايات (أن النبى ﷺ حث على الصدقة فجاء عمر بصدقة وجاء عثمان بصدقة عظيمة ، وكثير من أصحابه بصدقات فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر بنفسه) .

﴿ **والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم** ﴾ .

أى ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم : أى الفقراء الذين تصدقوا بقليل ، هو مبلغ جهدهم ، وآخر طاقتهم ، فيستهزئون بهم احتقاراً لما جاءوا به وعدًّا له من الحماقة والجنون .

وخص هؤلاء بالذكر وإن كانوا داخلين فى المتطوعين ، لأن مجال لمزهم عند المنافقين أوسع ، والسخرية منهم أشد ، وهم أهل الإجلال والإكبار والأحق بالثناء .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٩ : ١١) .

﴿ سخر الله منهم ﴾ أى فجازاهم الله بمثل ذنبهم ، فجعلهم سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين بفضيحتهم فى هذه السورة ، ببيان مخازيهم وعيوبهم .

﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ تقدم بيانه فى هذه السورة بهذا اللفظ وغيره .

ثم بين سبحانه عقابهم وسواهم بالكافرين فقال :

﴿ **استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** ﴾ .

أى إن تدع هؤلاء المنافقين ، وتسأل الله أن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها ، وترك فضيحتهم بها ، أولا تدع ، فلن يستر الله عليهم ولن يعفو عنهم ، ولكنه يفضحهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة .

ويراد بالسبعين فى مثل هذا الأسلوب الكثرة لا العدد المعين ، فالمراد أنك مهما أكثرت من الإستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم ، وقد كان ﷺ يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله فيتوب عليهم ويغفر لهم ، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له ويقول : (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون)[1] رواه ابن ماجه . ﴿ **وذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله** ﴾ .

أى من أجل جحودهم وحدانية الله ، وعدم إيقانهم بما وصف به تعالى نفسه من العلم بالسر والنجوى ، وسائر الغيوب ، وجحودهم وحيه لرسوله ﷺ ، وبما أوجبه من اتباعه ، وجحودهم بعثه للموتى ، وجزائهم على أعمالهم – لم يعف عن ذنوبهم ولا عما دسوا به أنفسهم من الآثام والمعاصى . ﴿ **والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾ .

أى إن سنة الله قد جرت فيمن أصروا على فسوقهم ، وتمردوا فى نفاقهم ، وأحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الإستعداد للتوبة والإيمان ، فلا يهتدون إليهما سبيلا .

المتخلفون عن الجهاد

فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

﴿ **فرح** ﴾ : الفرح شعور النفس بالارتياح والسرور . ﴿ **المخلفون** ﴾ : الذين تركهم رسول الله عند خروجه إلى غزوة تبوك . ﴿ **خلاف** ﴾ : مصدر كالمخالفة وقد يراد به معنى (بعد وخلف) فيكون ظرفاً ويصح المعنيان هنا .

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٤) وفى المرتدين (٥) . ومسلم فى الجهاد (١٠٤) . وابن ماجه فى الفتن(٢٣) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧) .

هذه الآيات فى بيان حال المتخلفين عن القتال ، وما يجب من معاملتهم وقد نزلت فى أثناء السفر ، ولازلنا فى الكلام على المنافقين وصفاتهم وأعمالهم فى غزوة تبوك .

فرح المتخلفون من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله عند خروجه إلى غزوة تبوك ، وقعدوا فى بيوتهم مخالفين أمر رسول الله ﷺ ، قعدوا لأنهم لا يؤمنون أن فى الغزو خيراً ، وامتثالاً لأمر ربهم ورسوله ، وقالوا لإخوانهم ﴿ **لا تنفروا فى الحر** ﴾ وتتركوا مهام أعمالكم ومصالحكم .

قل لهم يا محمد : نار جهنم التى أعدت للمخالفين العصاة أشد حراً ، فهى تلفح الوجوه ، وتنضج الجلود وتنزعها ، ولو كانوا يفقهون ذلك ، ويعتبرون ، لما خالفوا وعصوا ، وآثروا راحة الجسم راحة قليلة على هذا العذاب الدائم ، والنار التى أعدت لهم ، وكان وقودها الناس والحجارة ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ، ليس هذا أمراً حقيقياً . بل يراد تهديدهم .

وبيان أن هذا هو الأجدر بهم على حسب حالهم ، وما تستوجبه أعمالهم ، إذ لو كانوا يفقهون خطر ما فاتهم من أجر ، وما سيلاقيهم من عذاب وخيم ، لضحكوا قليلاً ولبكوا كثيراً ، وهذا جزاء لهم بما كانوا يعملون ، ويكسبون من الجرائم ،ويقترحون من الآراء .

كيف عامل النبى ﷺ زعماء النفاق

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

المفردات : ﴿ **الخالفين** ﴾ : المراد المتخلفون من النساء والصبيان على أن الخالف قد يستعمل ويراد به من لا خير فيه ولا غناء معه .

هذه الآية الكريمة نزلت فى سفره ﷺ وهو راجع من غزوة تبوك ، وهى من دقائق القرآن ، لأن أئمة الحديث ذكروا فى الصحيحين أحاديث تتعارض معها ، مثل حديث صلاة النبى ﷺ على عبد الله ابن أبى زعيم المنافقين،ولكن أليس من الخير أن نسير مع القرآن الكريم ؟ فإنه أضبط متنا وسندا ، بل هو المحفوظ الذى تكفل الله بحفظه ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ .

وقد جمع بعض العلماء فى الكتب المطولة بين الحديث والآية .

قد تخلف المتخلفون عن رسول الله ، وفرحوا بمقعدهم مخالفين لأمر الله ورسوله ، وكرهوا الجهاد ، بل وثبطوا عنه وخذلوا غيرهم ، بقولهم ﴿ **لا تنفروا فى الحر** ﴾ فترتب على هذا كله ما هنا من المعاملة القاسية الشديدة . ﴿ **فإن رجعك الله** ﴾ وردك من سفرك ﴿ **إلى طائفة** ﴾ وجماعة خاصة من المتخلفين ، تلك الطائفة هم المنافقون الذين سبق ذكرهم ﴿ **فاستأذنوك للخروج** ﴾ أيا كان نوعه فقل لهم ﴿ **لن تخرجوا معى أبداً** ﴾ على أى شكل كان ، وبأى وضع (ولن تقاتلوا معى عدواً) أبداً فى المستقبل بأى كيفية كانت !! وذلك لأنكم ﴿ **رضيتم بالقعود أول مرة** ﴾ وتخلفتم بلا عذر ، وحنثتم فى أيمانكم الفاجرة وفرحتم بالقعود ، بل وتبطتم عن الجهاد .. ﴿ **فاقعدوا مع الخالفين** ﴾ المسيئين الذين لا خير فيهم أبداً ، ولن تنالوا شرف الصحبة والجهاد ، فهذا شرف رفيع ، ووسام عال ، لا يناله إلا المؤمنون المخلصون .

﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبداً** ﴾ فى المستقبل ﴿ **ولا تقم على قبره** ﴾ أبداً داعياً له ومستغفرا وقد سبق قوله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾ نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة على المنافقين ، والقيام على قبورهم ، وأن يدعو لهم كما كان يفعل إذا مات مؤمن بعد دفنه : (استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل)[(١)] . وقد نص الفقهاء على العمل بهذا الحديث ..

وهذا يعارض ما نعلمه من أن المنافقين كان النبى ﷺ يجرى عليهم أحكام الإسلام العامة ، والجواب كما ظهر لى – والله أعلم – أن هذه الآيات نزلت فى زعماء النفاق الذين علم الله أنهم لا خير فيهم أبداً ، وهم سيموتون على الشرك والنفاق ، وعدم التوبة ، وقد أعلم الله نبيه بهم كما فى الحديث ، وأما غيرهم فكان يدعو لهم رجاء التوبة والتوفيق ، وبعضهم آمن وتاب .

قال الواقدى : أنبأنا معمر عن الزهرى قال : قال حذيفة قال لى رسول الله ﷺ (إنى مسر إليك سراً فلا تذكره لأحد : إنى نهيت أن أصلى على فلان وفلان) رهط ذوى عدد من المنافقين : قال : فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلى على أحد استتبع حذيفة ، فإن مشى مشى معه ، وإلا لم يصل عليه .

ولعل الحكمة فى خصوص هؤلاء أن الله علم أنهم ماتوا على الكفر ، أو سيموتون عليه ، فلا تنفعهم شفاعة ولا استغفار ولا صلاة أبداً ، ولذلك كان تعليل النهى لا تصل على أحد منهم مات لأنهم ﴿ **كفروا بالله و رسوله وماتوا وهم فاسقون * ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾ .

وقد تقدم مثل هذا مع فارق هو ذكر لا فى الآية السابقة ﴿ ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ وهو يصدق بالنهى عن الإعجاب بكل منهما ، وفى الآية الكريمة هنا حذف لا ، فيفيد الكلام النهى عن الإعجاب بهما مجتمعين ، ولكل كلمة مع صاحبها مقام يقتضيه الحال ، والله أعلم بكتابه .

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٦٠) وفى مناقب الأنصار (٣٨) . ومسلم فى الجنائز (٦٤) . وأبو داود فى الجنائز (٦٩) . والنسائى فى الجنائز (٢٧ ، ١٠٣) . والامام أحمد فى (٢ : ٥٣٩) .

موقف المنافقين من الجهاد

وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

المفردات : ﴿ **الطول** ﴾ : الغنى والمقدرة والمراد أولوا المقدرة على الجهاد المفروض . ﴿ **ذرنا** ﴾ : اتركنا . ﴿ **القاعدين** ﴾ : المراد مع المتخلفين .

هذه عادة المنافقين ومن فى قلوبهم مرض الشك والنفاق ، كلما أنزلت سورة تدعو الناس ببعض آياتها إلى الإيمان بالله والجهاد مع رسول الله ﷺ استأذنك أولوا المقدرة على الجهاد بالمال والنفس ، استأذنوك فى التخلف ، منتحلين شتى الأعذار قائلين اتركنا مع القاعدين من النساء والصبيان والعجزة ، هؤلاء رضوا بأن يكونوا مع المتخلفين من النساء والصبيان والعجزة ، وطبع على قلوبهم فلم يعد يدخل إليها نور العلم والوعد ، والهداية والنور ، حتى كأنها قد ختمت عليها .

ولا غرابة فى ذلك ، فهم قوم لا يفقهون الخير والرشد حتى يهتدوا إليه ، لكن الرسول والذين آمنوا معه بمقتضى إيمانهم الخالص الراسخ فى قلوبهم جاهدوا فى سبيل الله ، وبذلوا النفس والنفيس ، طيبة قلوبهم ، مستريحة ضمائرهم ، متهللة وجوههم بشراً وسروراً ، لأنهم وجدوا الفرصة سانحة لاقتناص ثواب الجهاد فى سبيل الله .

وأولئك البعيدون فى درجات الكمال والجلال ، لهم الخيرات التى لا يعلمها إلا الله فى الدنيا ، كشرف النصر ، ومحو الكفر ، والتمتع بالغنيمة ، والسيادة فى الأرض ، وأولئك هم المفلحون السعداء ﴿ **أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم** ﴾ .

المتخلفون من الأعراب

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

وجاء المعتذرون من الأعراب ليأذن لهم النبى ﷺ فى التخلف عن النفير العام فى غزوة تبوك ، وهم قوم عامر بن الطفيل ، جاءوا يقولون يا رسول الله إن نحن غزونا تغير علينا أعراب طىء فقال لهم

رسول الله : (قد أنبأنى الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم) .

وقال ابن عباس هم قوم تخلفوا ، فأذن لهم النبى ﷺ والظاهر أن عذرهم كان حقا ، والآية تحتمل هذا وذاك .

وقعد عن القتال وعن المجىء للاعتذار الذين كذبوا الله ورسوله من الأعراب ، وأظهروا الإيمان بهما كذبا وإيهاماً ، وهؤلاء المنافقون حقيقة فى العقيدة ، وقد قعدوا عن القتال بجرأة على الله وعلى رسوله ﴿ **سيصيب الذين كفروا منهم** ﴾ أى ممن كذبوا الله ورسوله ، ومن المعتذرين بغير عذر شرعى ، سيصيب هؤلاء ﴿ **عذاب أليم** ﴾ غاية الألم .

الضعفاء والمرضى

لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

المفردات : ﴿ **الضعفاء** ﴾ : جمع ضعيف وهو ضد القوى والمراد من لا قوة لهم فى أبدانهم تمكنهم من الجهاد . ﴿ **حرج** ﴾ : المراد ليس عليهم ذنب ولا إثم . ﴿ **نصحوا** ﴾ : أخلصوا لله ورسوله فى القول والعمل . ﴿ **من سبيل** ﴾ : من طريق يسلك لمؤاخذتهم .

لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ولا يطلب منها ما هو فوق طاقتها ، وعلى ذلك فكل من عجز عن شىء سقط عنه ولا يكلف به ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج ولا على المريض حرج ﴾[1] .

وروى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (لقد تركتم بالمدينة أقواما ما سرتم سيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه . قال : يا رسول الله وكيف يكونون معناوهم بالمدينة . قال : حبسهم العذر)[2] .

ألست معى فى أن هذة الآية وأشباهها من القرآن والحديث بينت أنه لا حرج على المعذورين عذراً شرعياً ، وهم قوم عرف عذرهم كالشيوخ والعجائز ، وأهل الزمانة والهرم ، والعمى والعرج ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون ، فكل هؤلاء ليس عليهم ذنب ولا إثم ، إذا نصحوا لله ورسوله، وأخلصوا لها النية ، وأحسنوا الطوية ، وعرفوا الحق سبحانه وتعالى وأحبوه ، وأحبوا أولياءه ، وبغضوا أعداءه .

(١) الآية ٦١ من سورة النور ، والآية ١٧ من سورة الفتح .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد (٣٥) وفى المغازى (٨١) . وأبو داود فى الجهاد (١٩) . وابن ماجه فى الجهاد (٦) . والإمام أحمد فى (٣ : ١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٣٠٠ ، ٣٤١) .

والنصيحة الخاصة لله ولرسوله (فى هذه الحال الحربية) هى عمل كل ما فيه المصلحة العامة للأمة ، من كتمان السر ، والحث على البر ، وإلهاب الشعور ، وتوحيد الصفوف ، ومحاربة الخائنين ، والقضاء على الطابور الخامس .

روى عن تميم الدارى أن رسول الله ﷺ قال : (الدين النصيحة ثلاثا قلنا : لمن يا رسول الله ﷺ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم)[1] .

قال العلماء النصيحة لله إخلاص الإعتقاد فى الوحدانية ، ووصفه بكل كمال وتنزيهه عن كل نقص . وامتثال أمره واجتناب نهيه .

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه ، وحبه وحب آل بيته ، ومن سار بسيرته ، وإحياء سنته بالمدارسة والتفقه والعمل بها ، والدفاع عنها .

والنصيحة لكتابة قراءته ، والتفقه فيه ومدارسته والتخلق به ، والدفاع عنه .

والنصيحة لرسوله التصديق بنبوته ، والتزام طاعته فى أمره ونهيه ، وحبه وحب من أحبه وحب آل بيته ، ومن سار بسيرته ، وإحياء سنته بالمدارسة والتفقه والعمل بها ، والدفاع عنها .

والنصح لعامة المسلمين إرشادهم إلى الطريق الحق ، والإرعاء عليهم ، وحب الخير لهم ، والسهر على مصالحهم كل على قدر طاقته .

﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ على معنى ليس هناك سبيل يسلكها ناقد على من أحسن العمل ، وأخلص النية ، فكل عمل تعمله وأنت ترضى ربك فأنت محسن ، والله يجازى المحسن بمضاعفة حسنته ، والمسيء بقدر إساءته ،فإذا كان هؤلاء المعذورون عذراً شرعياً قد نصحوا لله ورسوله ، وأخلصوا فى أعمالهم ، فليس لأحد عليهم سبيل ، ما داموا محسنين أعمالهم ، والله غفور رحيم .

روى أن بنى مقرن كانوا سبعة أخوة من أصحاب رسول الله ﷺ وقد هاجروا وأتوا رسول الله فى غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ، فتولوا وأعينهم تفيض مع الدموع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون !! وهذه الآية هى التى نزلت فى شأنهم ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون** ﴾ .

ولعل الحكمة فى التعبير بالإتيان لأجل الحمل ، والاعتذار عنه بعدم وجدان ما يحمل عليه من دابة أو غيرها ، هى افادة العموم ، ليشمل الدابة والسيارة والطيارة وغيرها . والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخارى فى الايمان (٤٣) . ومسلم فى الإيمان (٩٥) . وأبو داود فى الأدب (٥٩) . والترمذى فى البر (١٧) . والنسائى فى البيعة (٣١ ، ٤١) . والدرامى فى الرقاق (٤١) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٥١) وفى (٢ : ٢٩٧) وفى (٤ : ١٠٢ ، ١٠٣) .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الحادى عشر

المكتب المصرى الحديث

﴿ إن الله بكل شىء عليم ﴾ أى إنه تعالى عليم بجميع الأشياء ، ومن جملتها حاجة الناس إلى البيان ، فهو يبين لهم مهمات الدين بالنص القاطع ، حتى لايضل فيها اجتهادهم بأهواء أنفسهم ، ومن أجل ذلك لم يؤاخذ إبراهيم فى استغفاره لأبيه قبل أن تتبين له حاله ، وكذلك لا يؤاخذ النبى والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم ، وأولى القربى منهم . قبل هذا التبيين لحكم الله تعالى .

ولما منعهم من الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولى قربى ، وذلك يستدعى التبرؤ منهم ، وعدم انتظار النصرة من أحد ، بين أن النصر لايكون إلا من جهته تعالى فقال :

﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ أى أنه تعالى مالك كل موجود ، ومتولى أمره فى السموات والأرض ، وهو الذى يهب الحياة بمحض قدرته ومشيئته ، ومقتضى سننه فى التكوين ، ويميت من يشاء حين انقضاء أجله ، وليس لكم أيها المؤمنون من يتولى أموركم ، ولا من ينصركم على عدوكم غير الله تعالى ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولى القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة ، من ذوى الأرحام ، ولا فى غير ذلك من أوامره ونواهيه .

توبـة الله تعـالى

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

المفـردات : ﴿ **العسرة** ﴾ الشدة والضيق . ، ﴿ **يزيغ** ﴾ زاغ مال ، ﴿ **الرَّحب** ﴾ السعة ، ﴿ **ملجأ** ﴾ لجأ إلى الحصن وغيره : لاذ إليه واعتصم به ، ﴿ **رءوف** ﴾ الرأفة : العناية بالضعيف والرفق به ﴿ **رحيم** ﴾ الرحمة : السعى فى إيصال المنفعة .

قال مجاهد : فى قوله تعالى : **﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ﴾**

نزلت هذه الآية فى غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر ، فى سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء .

قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتناولون التمرة بينهم يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم ، وأقفلهم من غزوتهم .

وقال ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبى هلال عن عتبة بن أبى عتبة عن نافع بن جبير بن مطعم عن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب فى شأن العسرة فقال عمر بن الخطاب : (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً ، فأصابنا فيه عطش ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى أن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع ، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده . فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله عز وجل قد عوّدك فى الدعاء خيراً فادع لنا فقال : « تحب ذلك ؟ » قال : نعم ، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى سالت السماء ، فأهطلت ، ثم سكنت فملؤا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر) .

وقد فسر ابن عباس التوبة على النبى ﷺ هنا بقوله فى سياق هذه الغزوة ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾[1] أى إن التوبة كانت من اجتهاد لم يقره الله عليه ، إذ غير كان خيراً منه ، وتوبة المهاجرين والأنصار وهم خلّص المؤمنين ، كانت من تثاقلهم فى الخروج ، حتى ورد الأمر الحتم والتوبيخ على التثاقل إلى الأرض ، ومنهم من كان ذنبه السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين .

وتوبة الله على عباده توفيقهم للتوبة وقبولها منهم .

﴿ **الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾ أى الذين اتبعوه ولم يتخلفوا عنه وقت الشدة والضيق ، وكانت عسرة فى الزاد إذ كان الوقت نهاية فصل الصيف الذى نفدت فيه مئونتهم من التمر ، وأول فصل الخريف الذى بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد ، ولا يمكن حمل شىء منه ، فكان يكتفى الواحد منهم أو الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم ومنه المدوّد واليابس ، ومنهم من تزود بالشعير المسوس والإهالة (الشحم المذاب) الزنخة المتغيرة الرائحة ، وعسرة فى الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذى فى كرشه ويبلوا به ألسنتهم – وعسرة فى الظهر (فى الإبل) حتى كان العشرة يتعقبون بعيراً واحداً – وعسرة فى الزمن إذ كان فى حرارة القيظ (شدة الحر) .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه فى ساعة العسرة : عسرة الظَّهر ، وعسرة الزاد ، وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر رضى الله عنهم حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فى قيظ شديد فنزلنا منزلاً فأصابنا عطش شديد ، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع) الحديث كما ذكرنا سابقاً .

﴿ **من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ أى إنه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيغ

(١) الآية ٤٣ من سورة التوبة .

بعضهم عن الإيمان ، وهم الذين تخلفوا لغير علة النفاق ، وهم الذين وصفهم الله بأنهم عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، واعترفوا بذنوبهم ، فقبل الله توبتهم كما ذكر فيما سلف .

﴿ إنه بهم رءوف رحيم ﴾ أى إن ربهم رءوف رحيم بهم ، فلا يهملهم بأن ينزع الإيمان منهم بعد ما أبلوْا فى الله وأبلوْا مع رسول الله ، وصبروا فى البأساء والضراء .

قوله تعالى :

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن أخى الزهرى محمد بن عبد الله عن عمه محمد بن على الزهرى أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبيد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فقال كعب بن مالك : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر .

وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة . وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً ، فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ — يريد الديوان .

قال كعب : فقلَّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر فتجهز إليها رسول الله ﷺ فتجهز إليها الناس وأنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعدما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم — وياليت أنى فعلت — ثم لم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه فى النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل .

ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » ؟ فقال رجل من بنى سلمة : حبسه يا رسول الله بُراده . والنظر فى عطفيه . فقال معاذ بن

جبل : بئسما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ .

قال كعب بن مالك فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أنج منه بشىء أبداً ، فأجمعت على صدقه ، فأصبح رسول الله ﷺ .

وكان إذا قدم من سفر بدأ المسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

حتى جئت ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ، ألم تكن قد اشتريت ظهراً » ؟ فقلت : يا رسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك بصدق تجد على فيه إنى لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ، ما كان لى عذر والله ، ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » .

فقمت وقام إلى رجال من بنى سلمة واتبعونى ، وقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى قال : ثم قلت لهم : هل لقى معى هذا أحد . قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان . قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما ما قيل لك ، فقلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، لى فيهما أسوة .

قال فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف فاجتنبنا الناس ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا ، وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت : أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم ، وأقول فى نفسى : أحرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه ، وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى ، وأحب الناس إلىّ فسلمت عليه ، فوالله ما رد علىّ السلام فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى

أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم .

قال : ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاء ، فدفع إلى كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك فى دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال فقلت حين قرأته : وهذا أيضاً من البلاء . قال : فتيممت به التنور فسجرته به .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك . قال : فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر مايشاء .

قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله أن هلال شيخ ضعيف ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يقربك » . قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شىء ، وإنه والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه . قال : فقلت : والله لاأستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت علىّ نفسى ، وضاقت علىّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك . قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى ، نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئونى بتوبة الله ، يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد ، فإذا برسول الله ﷺ جالس فى المسجد ، والناس حوله . فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر

عليك منذ ولدتك أمك » ، قال : قلت يا رسول الله أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : «لا بل من عند الله » قال : وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه ، قلت : يا رسول الله : إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » . قال : فقلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يا رسول الله إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت .

قال : فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث . منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وأنى لأرجو الله أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى .

(قال) وأنزل الله تعالى ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم ★ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ★ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق لرسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال الله تعالى : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ★ يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾[١] .

قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله أمرنا حتى قضى الله فيه ، فلذلك قال الله عز وجل ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا** ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه ، فقبل منه[٢] .

هذا حديث ثابت متفق على صحته ، رواه صاحبا الصحيح : البخارى ومسلم ، من حديث الزهرى بنحوه .

فقد تضمن هذا الحديث تفسير هذه الآية الكريمة بأحسن الوجوه وأبسطها .

---

(١) الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٩ : ١٨) وفى الإيمان (٢٤) . ومسلم فى التوبة (٥٤) . والنسائى فى المساجد (٣٨) . والإمام أحمد فى (١ : ٢٥٦) وفى (٣ : ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩) وفى (٤ : ٢٢٥) .

وكذا روى عن غير واحد من السلف فى تفسيرها .

كما رواه الأعمش عن أبى سفيان عن جابر بن عبد الله فى قوله تعالى : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ قال هم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار .

وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغير واحد ، وكلهم قال : مرارة بن ربيعة ، وكذا فى مسلم بن ربيعة فى بعض نسخه ، وفى بعضها مرارة بن الربيع ، وفى رواية عن الضحاك مرارة بن الربيع ، كما وقع فى الصحيحين وهو الصواب .

ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم ، نحواً من خمسين ليلة ، بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، أى مع سعتها ، فسددت عليهم المسالك والمذاهب ، فلا يهتدون ما يصنعون ، فصبروا لأمر الله ، واستكانوا لأمر الله وثبتوا حتى فرج الله عنهم ، بسبب صدقهم رسول الله ﷺ فى تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم ، ولهذا قال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ .

أى أصدقوا ، والزموا الصدق تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً .

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى الى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[1] . أخرجاه فى الصحيحين .

وقال شعبة عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، اقرءوا إن شئتم ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ هكذا قرأها ، ثم قال : فهل تجدون لأحد فيه رخصة .

وعن عبد الله بن عمرو فى قوله : ﴿ **اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ قال مع محمد ﷺ وأصحابه .

وقال الضحاك مع أبى بكر وعمر وأصحابهما .

وقال الحسن البصرى : إن أردت أن تكون مع الصادقين فعليك بالزهد فى الدنيا ، والكف عن أهل الملة .

---

(١) أخرجه مسلم فى البر (١٠٣، ١٠٤، ١٠٥) . والبخارى فى الأدب (٦٩) . وأبو داود فى الأدب (٨٠) والترمذى فى البر (٤٦) . وابن ماجه فى المقدمة (٧) وفى الدعاء (٥) . والدارمى فى الرقاق (٧) . والإمام مالك فى الكلام (١٦) . والإمام أحمد فى (١: ٣، ٥، ٧، ٨، ٩، ١١، ٣٨٤، ٤٠٥، ٤٣٢) .

توجيهات وترغيب فى الجهاد

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

المفـــردات : ﴿ **يرغبوا** ﴾ رغب فى الشىء : أحبه وآثره ، ورغب عنه : كرهه ، وقد جمع بينهما فى الآية . ﴿ **ظمأ** ﴾ الظمأ : شدة العطش ، ﴿ **نصب** ﴾ النصب : الإعياء والتعب ، ﴿ **مخمصة** ﴾ المخمصة : الجوع الشديد ، ﴿ **يغيظ** ﴾ الغيظ : الغضب ، ﴿ **نيلاً** ﴾ أى أسرا وقتلاً وهزيمة ، ﴿ **واديا** ﴾ الوادى : كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل .

بعد أن ذكر عز اسمه توبته على المتخلفين الذين حسنت نياتهم ، ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون ، أكد هنا وجوب متابعة الرسول والغزو معه ، لما فيه من الأجر العظيم ، وحظر تخلف أحد عنه إلا بإذنه .

﴿ **ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه** ﴾ .

أى لا ينبغى لأهل المدينة حاضرة الإسلام ، ومقر الرسول ﷺ ، ولا من حولهم من الأعراب ، كمزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم ، أن يتخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزو فى سبيل الله ، كما فعل بعضهم فى غزوة تبوك ، ولا فى غيره من شئون الأمة ، ومصالح الملة ، ولا أن يفضلوا أنفسهم على نفسه ، فيرغبوا فى الراحة والسلامة ولا يبذلوها فيما يبذل فيها نفسه الشريفة ، بل عليهم أن يصحبوه فى البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط ، علماً بأنها أعز نفس على الله وأكرمها ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض فى شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، فضلاً عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .

والخلاصة : أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله ﷺ ، التى لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه ، وفى ذلك نهى شديد عن عملهم ، وتوبيخ لهم عليه وتهييج لمتابعته ﷺ بأنفة وحمية .

﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ .

أى لم يكن لهم حق التخلف ، بل يجب عليهم الاتباع ، بسبب أن كل ما يصيبهم فى جهادهم من أذى ، وإن كان قليلاً ، كظمأ لقلة الماء ، أو نصب لبعد الشُّقة ، أو لقلة الظهر ، أو مجاعة لقلة الزاد ، ومن إيذاء للعدو وإن صغر ، كوطء أرضه الذى بعده استهانة بقوته ، فيغيظه أن تمسه أقدام المؤمنين ، أو حوافر خيولهم ، أو النيل منه بجرح أو قتل أو أسر أو هزيمة أو غنيمة ، إلا كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح ، يجزى عليه بالثواب العظيم ، وما أكثر هذه الأعمال الصالحات التى تشمل كل حركة من بطشة يد ، أو وطأة قدم ، أو عروض جوع أو عطش ، أو نحو ذلك .

وفى الآية إيماء إلى أن من قصد خيرا كان سعيه فيه من قيام أو قعود ، أو مشى أو كلام أو نحو ذلك ، مشكوراً مثابا عليه ، وإلى أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش فى الغنيمة ، لأن وطء ديارهم مما يغيظهم ، ولقد أسهم النبى ﷺ لابنى عامر وقد قدما بعد تقضّى الحرب .

ثم علل هذا الأجر العظيم بقوله :

﴿ **إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ أى إن الله لا يدع محسنا أحسن فى عمله ، فأطاعه فيما أمره وانتهى عما نهاه عنه ، أن يجازيه على إحسانه ، ويثيبه على صالح عمله ، ومن ثم كتب لمن أطاعه من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب الثواب على كل ما فعلوا ، فلم يضع لهم أجرا على عمل عملوه .

﴿ **ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم** ﴾ أى كذلك شأنهم فيما ينفقون فى سبيل الله صغر أو كبر ، قل أو كثر ، وفى كل واد يقطعونه فى سيرهم غادين أو رائحين ، إلا كتب لهم أجرهم على ذلك ، جزاء لهم على عملهم ، ولا يترك شىء منه أو ينسى .

﴿ **ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾ أى ليجزيهم بكتابته فى صحف أعمالهم ، كأحسن ما يجزيهم على خير أعمالهم التى كانوا يعملونها ، وهم يقيمون فى منازلهم .

وخلاصة ذلك إنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر ، جزاء أحسن من جزائهم على أعمالهم الجليلة فى غير الجهاد بالمال والنفس ، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة فى غيره من أنواع الميراث ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكبيرة فيما عداه من الأعمال الصالحات .

توجيهات ربانية

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

المفردات : ﴿ **نفر** ﴾ : خرج للقتال ولولا : كلمة تفيد الحض والحث على مايدخلها عليها إذا كان مستقبلاً واللوم على تركه إذا كان ماضيا فإن كان مما يمكن تلافيه فربما أفاد الأمر به ﴿ **فرقة** ﴾ الفرقة : الجماعة الكثيرة . ﴿ **طائفة** ﴾ الطائفة : الجماعة القليلة . ﴿ **ليتفقهوا** ﴾ التفقه : تكلف الفقاهة والفهم وتجشم مشاق تحصيلها ﴿ **يحذرون** ﴾ حذره : تحرّز منه .

هذه الآية جاءت متممة لأحكام الجهاد مع بيان حكم العلم والنفقة فى الدين من قِبَل أنه وسيلة للجهاد بالحجة والبرهان ، وهو الركن الركين فى الدعوة إلى الإيمان ، وإقامة دعائم الإسلام ، ولم يشرع جهاد السيف إلا ليكون حماية وسياجا لتلك الدعوة من أن تلعب بها أيدى المعتدين من الكافرين والمنافقين .

روى الكلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : لما شدّد الله على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبداً ففعلوا ذلك ، وبقى رسول الله ﷺ وحده ، فنزل ﴿ **وما كان المؤمنون** ﴾ الآية

﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة** ﴾ أى وما كان شأن المؤمنين ، ولا مما يطلب منهم أن ينفروا جميعا فى كل سرية تخرج للجهاد ، فإنه فرض كفاية متى قام به بعض سقط عن الباقين ، لا فرض عين على كل شخص ، وإنما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للجهاد .

﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾ .

أى فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة منهم ، كأهل بلد أو قبيلة طائفة وجماعة ، ليتسنى لهم ، أى للمؤمنين فى جملتهم فى الدين بأن يتكلف الباقون فى المدينة الفقاهة فى الدين بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات ، وما يكون منه ﷺ من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويوضح المجمل بالعمل به .

ولينذروا قومهم الذين نفروا للقاء العدو إذا رجعوا إليهم : أى ليجعلوا أهم قصد لهم من الفقاهة إرشاد هؤلاء وتعليمهم ، وإنذارهم عاقبة الجهل وترك العمل بما عملوا ، رجاء أن يخافوا الله ، ويحذروا عاقبة عصيانه ، وأن يكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته والحجاج عنه ، وبيان أسراره للناس ، لا أن يوجهوا أنظارهم إلى الرياسات والمناصب العالية ، والترفع عن سواد الناس ، وكسب المال

والتشبه بالظلمة والجبارين فى ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضا .

وفى الآية إشارة إلى وجوب التفقه فى الدين ، والاستعداد لتعليمهم فى مواطن الإقامة ، وتفقيه الناس فيه بالمقدار الذى تصلح به حالهم ، فلا يجهلون الأحكام الدينية العامة التى يجب على كل مؤمن أن يتعرفها ، والناصبون أنفسهم لهذا التفقه على هذا القصد لهم عند الله من سامى المراتب مالا يقل فى الدرجة عن المجاهد بالمال والنفس فى سبيل إعلاء كلمة الله ، والذود عن الدين والملة ، بل هم أفضل منهم فى غير الحال التى يكون فيها الدفاع واجبا عينيا على كل شخص .

حماية حدود الدولة الإسلامية

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

لما أمر سبحانه فيما سبق بقتال المشركين كافة ، أرشدهم فى هذه الآية إلى طريق السداد فى هذا الباب ، وهو أن يبدءوا بقتال من يليهم ، ثم ينتقلوا إلى الأبعد فالأبعد وهكذا ، وقد فعل النبى ﷺ وصحابته كذلك ، فقد حارب قومه ، ثم انتقل إلى غزو سائر العرب ، ثم إلى غزو الشام ، ولما فرغ صحابته من الشام دخلوا العراق .

وكذلك فى أمر الدعوة فقد قال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[١] ثم أمر بالدعوة العامة ، وقتال من يقف فى طريقها من المشركين فقال ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾[٢].

﴿ يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾

أى قاتلوا الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام ، ذاك أن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة إلى الدين ، والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة إلى الأقرب فالأقرب من الكفار ، كما قال تعالى لرسوله : ﴿ لتنذر أم القرى ومن حولها ﴾[٣].

وهذا الترتيب أولى لوجوه كثيرة ، منها قلة النفقات ، والحاجة فيه إلى الدواب والآلات ، وسهولة معرفة حال الأقرب من الأسلحة والعسكر ، ولأن ترك الأقرب، والاشتغال بالأبعد لا يؤمن معه من هجوم العدو على الذرارى والضعفاء ، ومن ثم كان هذا هو الطريق المتبع فى الدعوة والنفقات والصدقات ، وما يدار فى المجالس من شراب ونحوه ، فكان النبى ﷺ يعطى من على يمينه وإن لم يكن أفضل الجالسين ، ثم

(١) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٢٩ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٩٢ من سورة الأنعام ، الآية ٧ من سورة الشورى .

الذى يليه ، ثم الذى يليه ، وقال للأعرابى الذى كان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من المائدة « كل مما يليك »[١].

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ : الغلظة – مثلثة – الشدة والخشونة ، أى وليجدوا فيكم جرأة وصبرا وعنفا فى القتل والأسر ونحو ذلك ، كما قال : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾[٢] والغلظة فى زمن الحرب مما تقتضيه الطبيعة والمصلحة ، لما فيه من شدة الزجر ، والمنع عن القبيح .

وفى الآية إيماء إلى أنه قد يحتاج حينا إلى الرفق واللين ، وأخرى إلى العنف والشدة لا أن يقتصر على الغلظة فحسب ، فإن ذلك مما ينفر ويوجب تفرق الناس عنهم ، وإنما أمروا بذلك فى القتال وما يتصل بالدعوة إلى الإسلام ، للإرشاد إلى أنه يجب أن تكون حالهم فى الأمور العامة مبنية على الرفق والعدل ، والتؤدة فى المعاملة ، ومن ثم صار ذلك من أخص صفات المسلمين .

﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ : أى واعلموا أن الله معكم بالمعونة والنصر إذا اتقيتموه ، وراعيتم أحكامه وسننه ، وابتعدتم عن التقصير فى أسباب النصر والغلب ، من إعداد العدة المناسبة للزمان والمكان التى عناها الله بقوله : ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾[٣] ومن الثبات والصبر والطاعة وحسن النظام ، وترك التنازع والاختلاف ، وكثرة ذكر الله ، والتوكل عليه فيما وراء الأسباب والسنن المعروفة .

من أحوال المنافقين

وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ
رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ
يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

بعد أن ذكر سبحانه ضروباً من مخازى المنافقين ، كتخلفهم عن غزوة تبوك ، وتعلقهم لذلك بالأيمان الفاجرة ، ذكر هنا ضروبا أخرى من تلك المثالب ، كتهكمهم بالقرآن ، وتسللهم لواذا حين سماعه . وهذا آخر ما نزل مما يبين تأثير القرآن فيهم وفى المؤمنين .

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة (٢) . ومسلم فى الأشربة (١٠٨، ١٠٩) . والترمذى فى الأطعمة (٤٧) . وابن ماجه فى الأطعمة (٨) . والدارمى فى الأطعمة (١، ١٥) . والإمام مالك فى صفة النبى (٣٢) .

(٢) الآية ٧٣ من سورة التوبة ، الآية ٩ من سورة التحريم .

(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

﴿ **وإذا ما أنزلت سورة** ﴾ : أى وإذا أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ سورة من سور كتابه الكريم ، فمن المنافقين من يقول لإخوانه على سبيل الاستهزاء هذه المقالة ، ليثبتوا على النفاق ، أو يقول لمن يلقاه من المؤمنين مشككا لهم ﴿ **أيكم زادته هذه** ﴾ السورة ﴿ **إيمانا** ﴾ أى يقينا بحقيقة القرآن والإسلام ، وصدق الرسول ﷺ ، أى أيكم زادته تصديقا جازما مقترنا بإذعان النفس وخضوعها ، وأشعرته بلزوم العمل بها لتيقنه بصدق الرسول الذى أنزلت عليه .

والإيمان على هذا النحو يزيد بنزول القرآن فى عهد الرسول ، ولاسيما من يحضر نزوله ويسمعه منه ، وكذا يزيد بسماعه من غيره فى قلب المؤمن قوة إذعان ورغبة فى العمل والقرب من الله .

قال تعالى مجيبا عن هذا السؤال ، مبينا حالهم وحال المؤمنين فقال :

﴿ **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون** ﴾

أى فأما المؤمنون فيزيدهم نزول القرآن زيادة اليقين ، واطمئنان القلب ، ويزيدهم قوة فى العمل به ، والتقرب إلى ربهم ، وهم يستبشرون بنزولها ، لما يرجون من خير الزيادة ، بتزكية أنفسهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

﴿ **وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون** ﴾ :

أى وأما الذين فى قلوبهم شك وارتياب دعاهم النفاق بإسرار الكفر وإظهار الإسلام ، فزادتهم كفرا ونفاقا مضموما إلى كفرهم ، ونفاقهم السابق ، واستحوذ ذلك عليهم ، واستحكم فيهم ، إلى أن ماتوا على الكفر والنفاق على مقتضى سننه تعالى فى تأثير الأعمال فى صفات النفس ، وتغيير هواجس الفكر .

ثم عجب من حالهم وقد كان لهم زاجر فيما يرون فقال : ﴿ **أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين** ﴾ :

أى أو يجهلون هذا ، ويغفلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاما بعد عام من ضروب الابتلاء والاختبار التى تظهر استعداد النفوس للإيمان والكفر ، والتفرقة بين الحق والباطل ، وينظرون إلى الآيات الدالة على صدق الرسول ﷺ فى كل ما أخبر به من نصر الله لمن اتبعه ، وخذلان أعدائه ، ووقوع ما أنذرهم به ، ومن إنباء الله بما فى قلوبهم ، وفضيحتهم بما يكتمون من أعمالهم .

﴿ **ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون** ﴾ : أى ثم هم مع كل هذا تمر عليهم الأعوام تلو الأعوام ولا يتوبون من نفاقهم ولا يتعظون بما يحل بهم من العذاب ، أفبعد هذا برهان على قلة الاستعداد للإيمان . وانطفاء نور الفطرة ، ولله در القائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وبعد أن بين حال تأثير إنزال السورة فى المنافقين وهم غائبون عن مجلس الرسول ﷺ ، بين حالهم وهم فى مجلسه ﷺ حين نزولها ، واستماع تلاوته لها فقال :

﴿ **وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض** ﴾ : أى وإذا أنزلت سورة وهم فى المجلس تسارقوا النظر ، وتغامزوا بالعيون ، على حين تخشع أبصار المؤمنين ، وتنحنى رءوسهم ، وتشاوروا فى الانسلال من المجلس خفية لئلا يفتضحوا بما يظهر عليهم من سخرية وإنكار ، قائلا بعضهم لبعض : ﴿ **هل يراكم من أحد** ﴾ أى هل يراكم الرسول ﷺ أو المؤمنون إذ قمتم من المجلس .

﴿ **ثم انصرفوا** ﴾ : أى ثم انصرفوا جميعا من مجلس الوحى متسللين لواذاً ، كراهة منهم لسماعه ، وانتظارا لسنوح فرصة الغفلة عنهم ، فكلما لمح أحد منهم غفلة عنه انصرف .

﴿ **صرف الله قلوبهم** ﴾ : أى صرف الله قلوبهم عن الإيمان الصادق ، والاسترشاد بآيات كتابه إلى مافى ملكوت السموات والأرض من دلائل قدرته ، وهذه الجملة : إما إخبار بذلك ، أو دعاء عليهم به ، والمآل فى هذه واحد فى كلامه تعالى .

﴿ **بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ : أى ذلك الصرف بسبب أنهم قوم فقدوا فهم الحقائق وما يترتب عليها من الأعمال ، فلا يفقهون ما يسمعون من الآيات لعدم تدبرها والتأمل فى معانيها ، مع موافقتها للعقل وهدايتها إلى الحق والعدل ، لأنهم وطنوا أنفسهم على الإعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل ، أحق هو أم باطل ؟ أخير هو أم شر ؟ وأنّى لمثل هؤلاء - وتلك حالهم - أن يهتدوا بنزول الآيات والسور ؟

صاحب القلب الرحيم

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

المفردات : ﴿ **من أنفسكم** ﴾ : أى من جنسكم . ﴿ **عزيز** ﴾ : أى شاق . ﴿ **عنتم** ﴾ العنت : المشقة ولقاء المكروه الشديد . ﴿ **حريص** ﴾ الحرص : شدة الرغبة فى الحصول على مفقود ، وشدة عناية بموجوده . ﴿ **رءوف** ﴾ الرأفة : الشفقة . ﴿ **رحيم** ﴾ الرحمة : الإحسان .

لما أمر الله رسوله فى هذه السورة أن يبلغ الخلق تكاليف شاقة يعسر تحملها إلا على من خص بوجوه التوفيق والكرامة ، ختمها بما يوجب تحملهم تلك التكاليف ، فبين أن هذا الرسول منهم ، فما يحصل له من عز وشرف فهو عائد إليهم ، إلى أنه يشق عليه ضررهم ، وتعظم رغبته فى إيصال خيرى الدنيا

والآخرة إليهم ، فهو كالطبيب المشفق ، والأب الرحيم عليهم ، والطبيب الحاذق ، ربما أقدم على علاج يصعب تحمله ، والأب الرحيم ربما ركن إلى ضروب من التأديب يشق على النفس احتمالها .

كما قال الشاعر :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

قال أبى بن كعب رضى الله عنه : إن هاتين الآيتين آخر مانزل من القرآن .

لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب أنه قال : آخر آية نزلت : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾[1] وآخر سورة نزلت : « براءة » وعن ابن عباس : آخر آية نزلت ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾[2] وكان بين نزولها وموته ﷺ ثمانون يوما .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ :

أى لقد جاءكم أيها العرب رسول من جنسكم ، والآية بمعنى قوله ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ﴾[3]

ذاك أن منته على قومه أعظم ، وحجته بكتابه أنهض ، وأولى قومه به قبيلته قريش ، ثم عشيرته الأقربون بنو هاشم وبنو المطلب ، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم ، وقد وجه دعوته إلى الأقرب فالأقرب ، فآمن العرب بدعوته مباشرة ، وآمن العجم بدعوة العرب ، والعرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه له ﷺ بالتبليغ والعمل ، وبما شاهدوا من آيات الله فى شخصه .

وقد امتن الله عليه وعلى قومه بالقرآن المجيد ، فقال : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾[4] أى وإنه لشرف لك ولهم تذكرون به فى العالم ، ويدون لكم فى بطون الكتب والدفاتر .

وإنما قاومه أكابر قومه أنفة واستكبارا عن اتباعه ، إذ هم يرونه دونهم ، إلى أن فى اتباعه إقراراً بكفرهم وكفر آبائهم الذين يفاخرون بهم ، إلى أنهم لم يكونوا على ثقة من فوزه ونيلهم باتباعه مجد الدنيا وسعادة الآخرة .

﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ :

أى شديد عليه عنتكم ولقاؤكم المكروه ، لأنه منكم ، فليس من الهين عليه أن تكونوا فى الدنيا أمة ذليلة بغتتها أعداؤها بالسيطرة عليها ، والتحكم فيها ، ولا أن تكونوا فى الآخرة من أصحاب النار التى وقودها الناس والحجارة .

---

(١) الآية ١٧٦ من سورة النساء .
(٢) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢ من سورة الجمعة .
(٤) الآية ١٤ من سورة الزخرف .

﴿ **حريص عليكم** ﴾ : أى حريص على اهتدائكم وصلاح شأنكم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[1].

﴿ **بالمؤمنين رءوف رحيم** ﴾ : أى هو شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين ، فكل ما يدعو إليه من العمل بشرائع الله فهو دليل على ثبوت هذه الصفات له ، وكل شاق فيها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه .

وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى قوله : ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ : إنه ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبى ﷺ مضريها وربيعها و يمانيها ، يريد أن نسبه تشعب فى جميع قبائل العرب وبطونها .

﴿ **فإن تولوا فقل حسبى الله** ﴾ : أى فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فقل حسبى الله فإنه يعينك عليهم ، ويكفيك أمر توليهم ، وما يتبعه من عداوتهم وصدهم عن سبيله ، وقد بلغت وما قصرت . ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ : أى لا معبود سواه ألجأ إليه بالدعاء والإعانة ، وهو الكافى والمعين .

﴿ **عليه توكلت** ﴾ : أى عليه وحده توكلت ، فلا أكل أمرى فيما أعجز عنه إلى غيره .

﴿ **وهو رب العرش العظيم** ﴾ : العرش مركز تدبير أمور الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾[2]، وعظمته بعظمة الرب الذى استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذى هو مركز تدبيره ، وعظمة العرش والملك فى الملأ الأعلى وفيما دونه هى مظهر عظمة الله سبحانه وتعالى ، ودليل على أنه وحده الإلٓه الحق الذى لا ينبغى أن يعبد غيره ، ولا يتوكل على سواه ، وهو المالك للعالم كله ، والمدبر لهم .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم من زيد بن ثابت فى جمع القرآن وكتابته فى عهد أبى بكر أنه قال : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة الأنصارى لم أجدها مع أحد غيره . ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ : إلى آخرها .

يريد أنه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المكتوب فى الرقاع والأكتاف والعسب إلا عنده وقد كانتا محفوظتين معروفتين لكثير ، كما صرح بذلك فى الروايات الأخرى .

فقد أخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : (أتى الحارث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ **لقد جاءكم رسول من أنفسكم** ﴾ : إلى قوله ﴿ **وهو رب العرش العظيم** ﴾ إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدرى ، والله إلا أنى أشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما وحفظتهما . فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ، ولو كانت ثلاث آيات لجعلتهما سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت فى آخر براءة) .

(١) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .
(٢) الآية ٣ من سورة يونس .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر أن رجلا من الأنصار جاء بهما عمر فقال عمر : لا أسالك عليها بينة أبدا ، وكذلك كان رسول الله ﷺ يقرؤها .

ومن هذه الروايات يعلم أن الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين ، إلا أنهم اختلفوا فى موضعهما ، ففى بعضها أنهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبى ﷺ ، وفى بعضها أنهما وضعتا بالرأى والاجتهاد ، ولكن المعتمد هو الأول ، لأن من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ .

قال الحافظ ابن حجر فى شرح البخارى : (إن زيدا لم يكن يعتمد فى جمع القرآن على علمه ، ولا يقتصر على حفظه ، واكتفاؤه بخزيمة وحده إنما كان لأنه لم يجدهما مكتوبتين عند غيره ، وإن كانتا محفوظتين عنده وعند غيره ، وحسبك دليلا على ذلك قوله : إنهم كانوا يسمعون رسول الله ﷺ يقرؤها ، فهو صريح فى أن البحث عمن كتبها فقط) .

فجملة القول إن الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين لكثير من الصحابة ، وإنما اختلفوا حين الجمع فى موضع كتابتهما ، حتى شهد من شهد أن النبى ﷺ هو الذى وضعهما فى آخر سورة براءة ، وفاقا لقول أبى بن كعب ، وهو أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتبا عن النبى ﷺ ، وكذا زيد بن ثابت ، وكان عدد المختلفين فى موضعهما قليلاً ، فلما كُتبتا فى المصاحف وافق الجميع على وضعهما هذا ، ولم يروا أى اعتراض على ذلك ممن كتبوا لأنفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود رضى الله عنه .

ســورة يونس

مقدمـــة

قال صاحب البصائر :

اعلم أن هذه السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها مائة وعشر آيات عند الشاميين ، وتسع عند الباقين ، وعدد كلماتها ألف وأربعمائة وتسع وتسعون كلمة ، وحروفها سبعة آلاف وخمس وستون . وسميت سورة يونس لما فى آخرها من ذكر كشف العذاب عن قوم يونس ببركة الإيمان عند اليأس ، فى قوله : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾ .

مقصود السورة

إثبات النبوة ، وبيان فساد اعتقاد الكفار فى حق النبى ﷺ والقرآن ، وذكر جزائهم على ذلك فى الدار الآخرة .

وتقدير منازل الشمس والقمر لمصالح الخلق ، وذم القانعين بالدنيا الفانية عن النعيم الباق ، ومدح أهل الإيمان فى طلب الجنان ، واستعجال الكفار بالعذاب ، وامتحان الحق تعالى خلقه باستخلافهم فى الأرض .

وذكر (عدم تعقل) الكفار كلام الله ، ونسبته إلى الافتراء والاختلاق والإشارة إلى إبطال الأصنام وعبادتها ، وبيان المنة على العباد بالنجاة من الهلاك فى البر والبحر ، وتمثيل الدنيا بنزول المطر ، وظهور ألوان النبات والأزهار .

ودعوة الخلق إلى دار السلام ، وبيان ذل الكفار فى القيامة ، ومشاهدة الخلق فى العُقْبى ما قدموه من طاعة ومعصية ، وبيان أن الحق واحد وما سواه باطل ، وإثبات البعث والقيامة بالبرهان والحجة الواضحة .

وبيان فائدة نزول القرآن ، والأمر بإظهار السرور والفرح بالصلاة والقرآن ، وتمييز أهل الولاية من أهل الجناية .

وتسلية النبى ﷺ بذكر شيء من قصة موسى ، وواقعة بنى إسرائيل مع قوم فرعون ، وذكر طمس أموال القبطيين ، ونجاة الإسرائيليين من البحر ، وهلاك أعدائهم من الفرعونيين .

ونجاة قوم يونس بإخلاص الإيمان فى وقت اليأس ، وتأكيد نبوة النبى ﷺ ، وأمره بالصبر على جفاء المشركين وأذاهم فو قوله : ﴿حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ .

المتشـــابهات

قوله : ﴿ **إليه مرجعكم جميعا** ﴾ وفى هود ﴿ **إلى الله مرجعكم** ﴾ لأن مافى هذه السورة خطاب للمؤمنين والكافرين جميعاً ، يدل عليه قوله ﴿ **ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا** ﴾ الآية .

وكذلك مافى المائدة : ﴿ **مرجعكم جميعا** ﴾ لأنه خطاب للمؤمنين والكافرين ، بدليل قوله ﴿ **فيه تختلفون** ﴾ ومافى هود خطاب للكفار ، يدل عليه قوله ﴿ **وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ .

قوله : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر** ﴾ بالألف واللام لأنه إشارة إلى ما تقدم من الشر فى قوله : ﴿ **ولو يعجل الله للناس الشر** ﴾ فإن الضر والشر واحد ، وجاء الضر فى هذه السورة بالألف واللام وبالإضافة .

قوله : ﴿ **وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ بالواو لأنه معطوف على قوله : ﴿ **ظلموا** ﴾ من قوله : ﴿ **لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا** ﴾ ، وفى غيرها بالفاء للتعقيب .

قوله : ﴿ **فمن أظلم** ﴾ بالفاء لموافقة ما قبلها ، وقد سبق فى الأنعام قوله : ﴿ **مالا يضرهم ولا ينفعهم** ﴾ وسبق فى الأعراف .

قوله : ﴿ **فيما فيه يختلفون** ﴾ وفى غيرها ﴿ **فيما هم فيه** ﴾ بزيادة (هم) لأن هنا تقدم ﴿ **فاختلفوا** ﴾ فاكتفى به عن إعادة الضمير ، وفى الآية ﴿ **بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض** ﴾ بزيادة (لا) وتكرار (فى) لأن تكرار (لا) مع النفى كثير حسن فلما كرر (لا) كرر (فى) تحسينا للفظ ، ومثله فى سبأ فى موضعين ، والملائكة .

قوله : ﴿ **فلما أنجاهم** ﴾ بالألف لأنه وقع فى مقابلة ﴿ **أنجينا** ﴾ .

قوله : ﴿ **فأتوا بسورة مثله** ﴾ وفى هود ﴿ **بعشر سور مثله** ﴾ لأن ما فى هذه السورة تقديره : بسورة مثل سورة يونس ، فالمضاف محذوف فى السورتين ، ومافى هود إشارة إلى ما تقدمها من أول الفاتحة إلى سورة هود ، وهو عشر سور .

قوله : ﴿ **وادعوا من استطعتم** ﴾ هنا ، وكذلك فى هود ، وفى البقرة ﴿ **شهداءكم** ﴾ لأنه لما زاد فى هود ﴿ **وادعوا** ﴾ زاد فى المدعوين ، ولهذا قال فى سبحان : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن** ﴾ لأنه مقترن بقوله ﴿ **بمثل هذا القرآن** ﴾ والمراد به كله .

قوله : ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك** ﴾ بلفظ الجمع وبعده : ﴿ **ومنهم من ينظر إليك** ﴾ بلفظ المفرد ، لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبى ﷺ بخلاف النظر وكان فى المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظ المعنى ، ووحّد ﴿ **ينظر** ﴾ حملاً على اللفظ ، إذ لم يكثر كثرتهم .

قوله : ﴿ **ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا** ﴾فى هذه الآية فحسب ، لأن قبله قوله ﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً** ﴾ .

وقوله : ﴿ إليه مرجعكم جميعا ﴾ يدلان على ذلك ، فاكتفى به .

قوله : ﴿ لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ﴾ فى هذه السورة فقط ، لأن التقدير فيها : لكل أمه أجل فلا يستأخرون إذا جاء أجلهم ، فكان هذا فيمن قتل ببدر ، والمعنى لم يستأخروا .

قوله : ﴿ ألا إن الله ما فى السموات والأرض ﴾ ذكر بلفظ ما ، لأن معنى ما ههنا المال فذكر بلفظ (ما) دون (من) ولم يكرر (ما) اكتفاء بقوله قبله ﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض ﴾ .

قوله : ﴿ ألا إن الله مافى السموات ومن فى الأرض ﴾ ذكر بلفظ (من) وكرر لأن هذه الآية نزلت فى قوم آذوا رسول الله ﷺ ، فنزل فيهم ﴿ ولا يحزنك قولهم ﴾ فاقتضى لفظ (من) مكرر لأن المراد : من فى الأرض ههنا لكونهم فيها ، لكن قدم ذكر ﴿ من فى السموات ﴾ تعظيما ثمّ عطف ﴿ من فى الأرض ﴾ على ذلك .

قوله : ﴿ مافى السموات ومافى الأرض ﴾ ذكر بلفظ (ما) فكرر لأن بعض الكفار قالوا : اتخذ الله ولداً ، فقال سبحانه : له مافى السموات وله مافى الأرض ، أى اتخاذ الولد إنما يكون لدفع أذى أو جلب منفعة ، والله مالك مافى السموات ومافى الأرض (وكان)الموضع (موضع) [ما وموضع] التكرار للتأكيد والتخصيص .

قوله : ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ ومثله فى النمل . وفى البقرة ، ويوسف ، والمؤمن : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فوافق قوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ وكذلك فى النمل تقدم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ فوافقه . وفى غيرهما جاء بلفظ التصريح . وفيها أيضا قوله : ﴿ فى الأرض ولافى السماء ﴾ فقدم الأرض لكون المخاطبين فيها ، ومثله فى آل عمران وإبراهيم وطه والعنكبوت،وفيها ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ بناء على قوله ﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ .

ومثله فى الروم : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ فحسب .

قوله : ﴿ قالوا : اتخذ الله ولدا ﴾ بغير واو ، لأنه اكتفى بالعائد عن الواو والعاطف .

ومثله فى البقرة على قراءة ابن عامر ! ﴿ قالوا اتخذ الله ولدا ﴾ قوله : ﴿ كذبوا ﴾ سبق .

قوله : ﴿ فنجيناه ﴾ سبق. ومثله فى الأنبياء والشعراء . وقوله ﴿ ونطبع على ﴾ قد سبق .

قوله : ﴿ من فرعون وملأهم ﴾ هنا فحسب بالجمع . وفى غيرها ﴿ وملإه ﴾ لأن الضمير فى هذه السورة يعود إلى الذرية ، وقيل : يعود إلى القوم ، وفى غيرها يعود إلى فرعون .

قوله : ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ وفى النمل : ﴿ من المسلمين ﴾ لأن قبله فى هذه السورة ﴿ ننج المؤمنين ﴾ فوافقه ، وفى النمل أيضا وافق ما قبله ، وهو قوله : ﴿ فهم مسلمون ﴾ وقد تقدم فى يونس ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ .

مناسبتها لما قبلها

ووجه مناسبتها لما قبلها أن السابقة ختمت بذكر رسالة النبى ﷺ ، واختتمت بها هذه ، وأن جل تلك فى أحوال المنافقين ، وما كانوا يقولونه ، وما كانوا يفعلونه حين نزول القرآن ، وهذه فى أحوال الكفار وماكانوا يقولونه ، وماكانوا يفعلونه حين نزول القرآن ، وهذه فى أحوال الكفار وماكانوا يقولونه فى القرآن .

وليس التناسب بين السور سببا فى هذا الترتيب الذى بينهما فكثيراً ما نرى سورتين بينهما أقوى تناسب فى موضوع الآيات ، وقد فصل بينهما كما فصل بسورتى الهمزة واللهب وموضوعهما واحد ، وقد يجمع بينهما تارة أخرى كما نصل بين سور الطواسين وسور آل حاميم وسورتى المرسلات والنبأ .

ومن الحكمة فى الفصل بين القوية التناسب فى المعانى ، أنه أدنى إلى تنشيط تالى القرآن ، وأبعد به عن الملل ، وأدعى له إلى التدبر ، ولهذه الحكمة عينها تُفَرَّق مقاصد القرآن فى السورة الواحدة كالعقائد ، والاحكام العملية ، والحكم الأدبية ، والترغيب والترهيب ، والأمثال والقصص ، والعمدة فى كل ذلك التوقيف والسماع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

المفردات : ﴿ **الكتاب** ﴾ : القرآن الكريم . ﴿ **الحكيم** ﴾ ذو الحكمة ، لاشتمال الكتاب عليها ، ﴿ **أوحينا** ﴾ الوحى : الإعلام الخفى لامرىء بما يخفى على غيره ، ﴿ **أنذر** ﴾ الإنذار : الإخبار بما فيه تخويف . ﴿ **بشر** ﴾ التبشير : الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء . ﴿ **صدق** ﴾ الصدق : يكون فى الأقوال ، ويستعمل فى الأفعال ، فيقال صدق فى القتال إذا وفاه حقه ، وكذب فيه إذا لم يفعل ذلك ، ويطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل ، وجاء فى التنزيل : ﴿ مقعد صدق ﴾[1] ، ﴿ ومدخل صدق ﴾[2] ، ﴿ ومخرج صدق ﴾ ، ﴿ وقدم صدق ﴾ ويراد بالقدم هنا السابقة والتقدم والمنزلة الرفيعة ، ﴿ **ساحر** ﴾ :أى يؤثر فى القلوب ويجذب النفوس فهو جاء مجرى السحر ، ﴿ **مبين** ﴾ ظاهر .

قوله تعالى ﴿ **آلـر** ﴾ هذه الحروف تقرأ ساكنة غير معربة : ألف . لام ، را ، والأخير منها غير مهموز ، والحكمة فى مجيئها أول السورة تنبيه السامع إلى ما يتلى عليه بعدها ، لأجل العناية بفهمه حتى

(١) الآية ٥٥ من سورة القمر . (٢) الآية ٨٠ من سورة الإسراء .

لا يفوته شيء مما يسمع ، فهى من وادى حروف التنبيه نحو (ألا) و (ها) الداخلة على اسم الاشارة .

وفى هذه الحروف إشارة إلى إعجاز هذا الكتاب الحكيم ، وفى ذلك من التحدى ما فيه ، ومن ثم فقد جاءت الإشارة بعدها بقوله تعالى ﴿ **تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ أى التى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ولما كان هذا الكتاب الكريم المعجزة الخالدة التى تثبت صدق نبوته ﷺ ، وقد جاءت الآية بعد ذلك تنكر على الذين عجبوا من الوحى إلى خاتم الانبياء لكونه رجلا منهم .

قال جل شأنه ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾

قال الضحاك : عن ابن عباس (لما بعث الله تعالى محمدا ﷺ رسولا أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا مثل محمد ، قال : فأنزل الله عز وجل ﴿ **أكان للناس عجباً** ﴾ الآية)،

وقد قالوا للأنبياء قبله مثل ما قالوه له قال تعالى : ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك** ﴾[١]. فقد قالوا ﴿ أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾[٢].

وقال نوح وهود لقومهما ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾[٣]. وقال تعالى مخبرا عن كفار قريش ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾[٤].

وجاء فى سورة إبراهيم قوله تعالى ﴿ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[٥]

وفى سورة الإسراء جاء قوله تعالى ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولاً * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولاً * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً * قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾[٦].

(١) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٦ من سورة التغابن .
(٣) الآية ٦٣ ، ٦٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٥ من سورة ص .
(٥) الآيات ١٠-١٢ من سورة إبراهيم .
(٦) الآيات ٩٠-٩٦ من سورة الإسراء .

وقال جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين * قال رب انصرنى بما كذبون ﴾(١).

قوله تعالى ﴿ **أن هم قدم صدق عند ربهم** ﴾ إلى سابقة فضل عند الله ، والله خير من ينجز وعدا ، ويوفى بالعهد ، فهؤلاء المؤمنون المتقون لما قدموا الأعمال الصالحة سبقتهم إلى جنات النعيم ، وهم بذلك قد وقفوا على حقائق الأسرار ، وسلكوا مدارج الأنوار ، أليس هم الذين يدعون ربهم ﴿ رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾(٢) لقد صدقوا مع الله فصدقهم الله ، ليجزى الله الصادقين بصدقهم .

فنالوا بصدقهم منازل الصالحين ، ومدارج السالكين ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾(٣)

فكانت أعمالهم لها حق السبق فى جزائهم الأوفى ، أصبح لهم الفردوس نزلا ، لا يبغون عن الجنات حولا .

لا تركـنـن إلى الدنيـا ومـا فيهـا فالموت لاشـك يفنينا ويفنيهـا
واعمـل لدار غـدا رضـوان خازنهـا والدار أحمد والرحمـن منشيهـا
قصـورها ذهـب والمسـك طينتهـا والزعفران حشيش نابت فيهـا

قوله تعالى ﴿ **قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾ هذا موقف أهل العناد فى كل حين ، وهذا منطق الباطل كما قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾(٤).

إن الباطل معروف بالجدال والعناد ، جدل عقيم ، وعناد مستمر قال تعالى ﴿ بل لجوا فى عتو ونفور ﴾(٥) ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا غفل أهل الحق ، ولسوف يظل الباطل يعربد فى عرصات الدنيا حتى يتصدى له الحق فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل ، ولن يضيع حق وراءه مطالب ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾(٦)

لقد انشق القمر أمام أعينهم فماذا قالوا ، اسمع إلى ما قالوا ، وسلسل الدموع أسفا على هذا البهتان المبين ، والإنكار الفاجر ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغنى

(١) الآيات ٢٣ : ٢٦ من سورة المؤمنون
(٢) الآية ٨٠ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان ٥٤، ٥٥ من سورة القمر .
(٤) الآيات ٥٢–٥٥ من سورة الذاريات .
(٥) الآية ٢١ من سورة الملك .
(٦) الآية ١٧ من سورة الرعد .

النذر ﴾(١)

قال تعالى : ﴿ فويل يومئذ للمكذبين * الذين هم فى خوض يلعبون *يوم يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾(٢) .

من دلائل التوحيد

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ
ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟
يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ
ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى
ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

المفردات : ﴿ **الخلق** ﴾ : لغة التقدير . ﴿ **أيام** ﴾ اليوم : لغة الوقت الذى يحده حدث يحدث فيه وإن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التى وجدت بعد خلق الليل والنهار ﴿ **العرش** ﴾ : مركز التدبير ولا نعلم كنهه ولاصفته . ﴿ **يدبر** ﴾ التدبير : النظر فى إدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود ، وتدبير الأمر ، أو القول : هو التفكير فيما وراءه وما يراد منه وينتهى إليه .

﴿ **القسط** ﴾ العدل : ﴿ **حميم** ﴾ : الحميم : الماء الشديد الحرارة . ﴿ **ضياء .. نورا** ﴾ : الضياء والنور : بمعنى واحد لغة ، والضوء أقوى من النور استعمالا بدليل هذه الآية ، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار ، والنور لما كان مكتسبا من غيره ، ويدل على ذلك قوله : ﴿ وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾(٣) **والسراج** : نوره من ذاته : والضياء والضوء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التى ترى فى قوسى السحاب فهو سبق أضواء وقد كشف توفى العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلونه عصر التنزيل . والتقدير . جعل الشىء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان كما قال : ﴿ **وخلق كل شىء فقدره تقديرا** ﴾(٤)

(١) الآيات ١-٥ من سورة القمر .
(٢) الآيات ١١-١٦ من سورة الطور .
(٣) الآية ١٦ من سورة نوح .
(٤) الآية ٢ من سورة الفرقان

وقال : ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾[١] والمنازل واحدها منزل ، وهومكان النزول وهى ثمانية وعشرون منزلا معروفة لدى العرب بأسمائها .

بعد أن افتتح سبحانه السورة بذكر آيات الكتاب ، وأنكر على الناس عجبهم أنه يوحى إلى رجل منهم ، يبشرهم على الأعمال الصالحة بالثواب ، وينذرهم على الكفر والمعاصى بالعقاب ، قفى على ذلك بذكر أمرين :

١ – إثبات أن لهذا العالم إلهاً قادراً نافذ الحكم بالأمر والنهى ، يفعل ما يشاء ، وهو العليم الخبير .

٢ – إثبات البعث بعد الموت والجزاء على الأعمال من ثواب وعقاب وهما اللذان أخبر بهما الأنبياء .

﴿ إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ﴾ .

أى إن ربكم هو الله الذى خلق العوالم السماوية التى فوقكم ، وهذه الأرض التى تعيشون على ظهرها ، فى سته أزمنة ، قد تمَّ فى كل زمن منها طور من أطوارها ، وقدرها بمقادير أرادها ، ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير لهذا الملك العظيم ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام ، واقتضته حكمته من الإحكام ، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، ما يهديهم به لما فيه كما لهم من عبادته وشكره ، وبذلك تصلح أنفسهم ، وتطهر قلوبهم ، وتستنير أفئدتهم ، لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة فى الدنيا ، والنعيم المقيم فى الآخرة ، كما لا يستنكر أن هذا الوحى منه عز وجل إذ هو من كمال تقديره وتدبيره ، ولا يقدر عليه سواه .

﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾

أى لا يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى إلا من بعد إذنه . والآية بمعنى قوله سبحانه ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[٢] وقد جاء فى كتابه تعالى أنه لا يشفع أحد عنده بإذنه إلا من ارتضاه للشفاعة . كما قال ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾[٣] ومن أذن له بالشفاعة لا يشفع إلا لمن رضى له الرحمن لإيمانه وصالح عمله ، كما قال ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[٤] .

وفى هذا إيماء لدحض العقيدة التى كان يعتقدها مشركوا العرب ومقلدوهم من أهل الكتاب ، من أن الأصنام والأوثان وعبادة المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله بما يدفع عنهم الضرر ، ويجلب لهم النفع ، كما حكى الله عن عبدة الأصنام قولهم : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٥] .

---

(١) الآية ٣٩ من سورة يس (٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة . (٣) الآية ١٠٩ من سورة طه .
(٤) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ٣ من سورة الزمر .

وفى هذه العقيدة حجة عليهم ، إذ يقال لهم – إنكم إذا كنتم تؤمنون بأن لله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم بما يقربكم إليه زلفى ، وهو قول عليه تعالى بغير علم ، فما بالكم تنكرون وتعجبون ان يوحى إلى من يشاء ويصطفى من عباده من يعلمهم ما يهديهم إلى العمل الموصل إلى السعادة ، والهادى إلى طريق الرشاد ؟!

﴿ **ذلكم الله ربكم فاعبدوه** ﴾

أى ذلكم الموصوف بالخلق والتقدير والحكمة والتدبير ، والتصرف فى أمر الشفاعة ، يأذن بها لمن يشاء ، هو الله ربكم المتولى شؤونكم ، فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئا ولا تشركوا معه أحداً فى شفاعة ولا غيرها ، فالشفعاء لا يملكون لكم من دونه نفعاً ولا ضراً ، بل هو الذى يملك ذلك وحده ، وهو قد هداكم إلى أسباب النفع والضر المكتسبة بالعقول والمشاعر التى سخرها لكُم ، وإلى أسباب النفع والضر الغيبية بوحيه ، فلا تطلبوا نفعاً ولا ضراً إلا بالأسباب التى سخرها لكم ، وما تعجزون عنه أو تجهلون أسبابه فادعوه فيه تعالى وحده ، يحصل لكم ما فيه ترغبون . أو يدفع عنكم ما تكرهون .

﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ أى أتجهلون هذا الحق الواضح ، فلا تتذكرون أن الذى خلق السموات والأرض وانفرد بتدبير هذا العالم هو الذى يجب أن يعبد ، ولا يعبد سواه ، وذلك هو مقتضى الفطرة ، والإعراض عنه غفلة يجب التنبيه إليها .

وفى ذلك إيماء إلى أنه لا ينبغى أن نوجه وجوهنا شطر قبور الأولياء والصالحين ، ونشد الرحال إلى من بَعُد منهم ، ونتقرب إليهم بالنذور ، ونطوف بهم كما يطوف الحاج بيت الله الحرام ، داعين متضرعين خاشعين ، نطلب منهم ما عجزنا عنه بكسبنا من دفع ضر أو جلب نفع ، وكيف نتذكر هذه الآيات وأمثالها التى تجعل العبادة خاصة به تعالى ، وما الدعاء إلا مخ العبادة وروحها ، وأجلى مظاهرها ، كما جاء فى الأثر : ﴿ الدعاء مخ العبادة ﴾[1].

ولكن بعض العلماء وبعض الناس يتأولون هذه العبادة ويسمونها توسلا واستشفاعاً ، والأسماء لا تغير من قيمة الحقائق شيئا فذلك بعينه هو ما كان يدعيه المشركون وأهل الكتاب . ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ .

﴿ **إليه مرجعكم جميعاً** ﴾ : أى إلى ربكم وحده دون غيره من معبوداتكم وشفعائكم وأوليائكم ترجعون جميعاً بعد الموت ، وفناء هذا العالم الذى أنتم فيه لا يتخلف منكم أحد .

﴿ **وعد الله حقا** ﴾ : أى وعد الله ذلك وعداً حقاً لا خلف فيه .

﴿ **إنه يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ : أى إن شأنه تعالى أن يبدأ الخلق وينشئه حين التكوين ، ثم يعيده فى نشأة أخرى بعد انحلاله وفنائه ، وقد اتفق العلماء جميعاً ، ماديوهم وروحيوهم على ان الارض وجميع

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعاء (١) .

الأجرام السماوية قد وجدت بعد أن لم تكن ، وإن كانوا لايزالون يبحثون عن كيفية تلك النشأة ، والقوة المتصرفة فى أصل مادتها .

وهم جميعاً متفقون على توقع خراب هذه الأرض والكواكب المرتبطة بها فى هذا النظام الشمسى الجامع لها ، بأن تصيب الأرض قارعة من الأجرام السماوية تبسها بساً ، فتكون هباء منبثاً ، وها هو ذا قد حصل البدء بالفعل ، والإعادة أهون من البدء فمن قدر على البدء يكون أقدر على الإعادة ، كما قال فى سورة الروم ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾[١].

ومما يقرب ذلك أن علماء الطبيعة أثبتوا أن هذه الأجسام الحية فى انحلال وتجدد دائمين ، فما ينحل منها ويبخر فى الهواء ، أو يموت فى داخل الجسم ثم يخرج منه ، تحل محله مواد حية جديدة ، حتى يفنى جسد كل حيوان فى سنين قليلة ، ويتجدد غيره .

﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾

أى أنه تعالى يعيدهم لأجل جزائهم بالعدل ، فيعطى كل عامل حقه من الثواب الذى جعله لعمله وهذا المعنى قد جاء فى آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ وقضى بينهم بالقسط ﴾[٣].

والعدل فى الأمور كلها مما يتطلبه الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[٤] وقال ﴿ قل أمر ربى بالقسط ﴾[٥]

والجزاء بالعدل لا يمنع أن يزيدهم ربهم شيئاً من فضله ، ويضاعف لهم ، كما وعد على ذلك فى آيات أخرى منها قوله تعالى : ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾[٦].

وقوله : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[٧]

﴿ والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ :

أى إن الكافرين لهم من الجزاء شراب من حميم يقطع أمعاءهم ، وعذاب شديد الألم بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة إلى الموت ، كدعاء غير الله من الأوثان والأصنام ، وسائر المعاصى التى يزينها لهم الشيطان ، ويصدهم بها عن الإيمان .

وتعليل الرجوع إليه تعالى بأنه لجزاء المؤمنين الصالحين ، بيان منه بأنه المقصود بالذات ، إذ هو الذى يكون به منتهى كمال الارتقاء البشرى للذين زكوا أنفسهم ، وطهروا قلوبهم ، وأخبتوا إلى ربهم ، فيلقى من عمل الصالحات من النعيم المادى ما هو خال من الشوائب التى تخالطه فى نعيم الدنيا ، ومن النعيم

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الروم .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٥٤ من سورة يونس .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الحديد .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٣٠ من سورة فاطر .
(٧) الآية ٢٦ من سورة يونس

الروحى وهو رضوان الله الأكبر مما لا يعلم كنهه فى هذه الحياة أحد ، كما قال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾(١).

وجاء فى الحديث القدسى . [أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر](٢) رواه البخارى .

وأما جزاء الكافرين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدنيسهم لأنفسهم بالكفر والخطايا ، فليس من المقاصد التى اقتضتها الحكمة الإلهية فى خلق الإنسان ، ولكنها مقتضى العدل ، ومقتضى مشيئته تعالى فى ارتباط الأسباب بالمسببات ، والعلل بالمعلولات .

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ .

وهذه بعض الآيات الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى ، فهو الواحد فى ذاته لا قسيم له ، الواحد فى صفاته لا شبيه له ، الواحد فى أفعاله لا شريك له .

الشمس والبدر من أنواع حكمته ... والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجّده ... والموج كبّره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدّسه ... والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم ... والعبد ينسى وربى ليس ينساه

فأنت ترى فى هذه الآية الكريمة دلائل القدرة الباهرة ، والعناية الفائقة ، والإرادة الحكيمة ، والقصد المدبر .

﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾(٣).

وما أجمل هذا النظام البديع ، والاتقان الرائع ، فى الخلق الواحد القادر المريد : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾(٤)

قف خاشعاً أمام هذا الجلال فى قوله جل شأنه ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرألكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذّكرون * وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى

---

(١) الآية ١٧ من سورة السجدة .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٨) وفى تفسير سورة (٣٢ : ١) وفى التوحيد (٣٥) . وأخرجه مسلم فى الإيمان (٣١٢) وفى الجنة (٢-٥) . والترمذى فى تفسير سورة (٣٢ : ٢) و(٥٦ : ١) وابن ماجه فى الزهد (٣٩) . والإمام أحمد فى (٥ : ٣٣٤) . (٥ : ٣٣٤) .

(٣) الآية ٢ من سورة الرعد

(٤) الآية ٤٠ من سورة يس .

الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾[١].

ثم قف ملياً أمام هذا الاستفهام الإنكارى فى قوله جلت حكمته : ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾[٢].

ثم قف شاكراً أمام هذا الفضل العظيم الذى تمثل فى قوله تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾[٣].

ثم قف خاشعاً عند هذا الجلال ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾[٤].

ثم قف مذعناً أمام تلك الحقيقة ﴿ والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ﴾[٥].

ثم املأ قلبك بنور التوحيد وضياء الهدى وجلال التصديق أمام تلك النتيجة بعد المقدمات : ﴿ إلٰهكم إلٰه واحد ﴾[٦].

ما أعظمك من إلٰه قادر ، قلت وقولك الحق ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[٧].

ما أعظمك من إلٰه خلقت كل شىء فقدرته تقديرا ، وقلت وقولك الحق : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلاً ﴾[٨].

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً** ﴾ أى إن ربكم الذى خلق السموات والأرض ، هو الذى جعل الشمس مضيئة نهاراً والقمر منيراً ليلاً ، ودبر أمور معاشكم هذا التدبير البديع ، فأجدر به وأولى أن يدبر أمور معادكم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب .

﴿ **وقدره منازل** ﴾ أى وقدر سير القمر فى فلكه منازل ، ينزل كل ليلة فى واحد منها ، لا يجاوزها ولا يقصر دونها ، وهى ثمانية وعشرون ، يرى القمر فيها بالأبصار ، وليلة أوليلتان يحتجب فيهما فلا يرى .

﴿ **لتعلموا عدد السنين والحساب** ﴾ أى لتعلموا بما ذكر من صفة النيرين وتقدير المنازل حساب الأوقات من الأشهر والأيام ، لضبط عباداتكم ومعاملاتكم المالية والمدنية ، ولولا هذا النظام المشاهد

(١) الآيات ١٢–١٦ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٧ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٨ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٩ من سورة النحل .
(٥) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة النحل .
(٦) الآية ٢٢ من سورة النحل .
(٧) الآيات ٣٧–٤٠ من سورة يس .
(٨) الآية ١٢ من سورة الإسراء .

لتعذر العلم بذلك على الأميين من أهل البدو والحضر . إذ حساب السنين والشهور الشمسية لا يعلم إلا بالدراسة ، ومن ثم جعل الشارع الحكيم الصوم والحج وعدة الطلاق بالحساب القمرى ، الذى يعرفه كل أحد بالمشاهد ، ولعبادتى الصيام والحج حكمة أخرى وهى دورانهما فى جميع فصول السنة ، فيعبد المسلمون ربهم فى جميع الأوقات ، من حارة وباردة ومعتدلة .

وقد حث الشارع على الانتفاع بالحساب الشمسى بنحو قوله تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾[١] وقوله : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾[٢]

﴿ **ما خلق الله ذلك إلا بالحق** ﴾ أى ما خلق الله الشمس ذات ضياء تفيض أشعتها على كواكبها التابعة لها ، فتنبعث الحرارة فى جميع الأحياء ، وبها يبصر الناس جميع المبصرات ، ويقومون بأمور معايشهم وسائر شئونهم ، وما خلق القمر ذا نور مستمد من الشمس تنتفع به السيارة فى سيرهم ، وقدره منازل يعرف بها الناس السنين والشهور ، ما خلق ذلك إلا مقترنا بالحق الذى تقتضيه الحكمة والمنفعة لحياة الخلق ، ونظام معايشهم ، فلا عبث فيه ولا خلل .

فكيف يعقل بعد هذا أن يخلق هذا الإنسان ويعلمه البيان ، يعطيه من كمال الاستعداد ما لم يعط غيره ، ثم يتركه بعد ذلك سدى ، يموت ويفنى ولا يعود ويبعث ، لتجزى كل نفس بما كسبت ، فيجزى المتقون بصالح أعمالهم ، والمشركون والظالمون المجرمون بكفرهم وجرائمهم ، كما قال تعالى : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين * مالكم كيف تحكمون ﴾[٣]

﴿ **يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾ أى يبين الدلائل من حكم الخلق على رسوله مفصلة منوعة ، من كونية وعقلية ، لقوم يعلمون دلاله الأدلة ، ويميزون بين الحق والباطل باستعمال عقولهم فى فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق النيّرين على هذا النظام البديع لا يمكن أن يخلق الانسان سدى .

﴿ **إن فى اختلاف الليل والنهار** ﴾ : أى فى حدوثهما وتعاقبهما بمجيء كل منهما خلفة للآخر ، وفى طولهما وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الأرض من الشمس ، وما لهما من نظام دقيق بحسب حركة الشمس اليومية والسنوية ، وفى طبيعة كل منهما وما يصلح فيه من نوم وسكون ، وعمل دنيوى ودينى .

﴿ **وما خلق الله فى السموات والأرض** ﴾ : من أحوال الجماد والنبات والحيوان ، ويدخل فى ذلك أحوال الرعود والبروق والسحاب والأمطار ، وأحوال البحار من مد وجزر ، وأحوال المعادن العجيبة فى تركيبها وأوضاعها المختلفة ، إلى نحو ذلك مما ذكر فى علم المواليد الثلاثة .

﴿ **لآيات لقوم يتقون** ﴾ : أى دلائل عظيمة على وجود الصانع ووحدانيته وحكمته فى الإبداع والإتقان ، وفى تشريع العقائد والأحكام ، لقوم يتقون مخالفة سننه تعالى فى التكوين ، وسننه فى التشريع ،

(١) الآية ٥ من سورة الرحمن . (٢) الآية ١٢ من سورة الإسراء . (٣) الآيتان ٣٥،٣٦ من سورة القلم .

فلله سنن فى حفظ الصحة ، من خالفها مرض ، وله سننه فى تزكية الأنفس من خالفها وأفسدها بارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن جوزى فى الآخرة أشد الجزاء .

جزاء الغافلين عن آيات الله

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ **يرجون** ﴾ قال فى المصباح **رجوته** : أمّلته أو أردته قال تعالى ﴿ لا يرجون نكاحا ﴾(١) أى لا يريدونه ، ويستعمل بمعنى الخوف ، لأن الراجى يخاف ألا يدرك ما يرجوه ، وقيل الرجاء مجرد التوقع الذى يشمل ما يسر وما يسوء . ﴿ **لقاءنا** ﴾ اللقاء : الاستقبال والمواجهة ﴿ **اطمأنوا** ﴾ : الأطمئنان : سكون النفس إلى الشىء وارتياحها به .. ﴿ **مأواهم** ﴾ المأوى : الملجأ الذى يأوى إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج ، من مكان آمن ، أو إنسان نافع ، وقد أطلق على الجنة فى ثلاث آيات ، وعلى النار فى بضع عشرة آية .

وهكذا يبين الله حال المكذبين الغافلين عن آياته ، إنهم لا يريدون لقاء الله ولا يتوقعون ذلك ، بل إنهم يكرهون هذا اللقاء ولا يخافونه ، ﴿ فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هى المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى ﴾(٢).

لقد رضى هؤلاء الغافلون عن آيات الله بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، وركنوا إليها ، فما جزاؤهم ؟ فقد غفلوا عن آيات الله الكونية والتذكية ، إن جزاءهم ومأواهم وملجأهم جهنم ، وليس هذا عبثا ، إنما هو الجزاء العادل ، بسبب ماكسبوا وما اقترفوا من الذنوب والآثام ، قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولوشئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾(٣)

إن الإخلاد إلى الأرض هو الميل إليها باطمئنان ، وأن الذين أخلدوا إليها عاشوا فى تعب ، وأقاموا فى نصب ، فكان حالهم كحال الكلب تراه يخرج لسانه ويتنفس بصعوبة سواء حملت عليه وزجرته أو تركته فى راحة ودعة ، كذلك أهل الدنيا لو كان لأحدهم وادمن ذهب لابتغى واديين ، ولا يملأ عيونهم إلا التراب .

من أصبح وهمّه الدنيا فرّق الله عليه شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولاينال من الدنيا إلا ما كتب الله له ، ومن أصبح وهمّه الآخرة ، جمع الله عليه شمله ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة .

(١) الآية ٦٠ من سورة النور . (٢) الآيات ٣٧-٤١ من سورة النازعات . (٣) الآيات ١٧٥-١٧٧ من سورة الأعراف .

دنيـاك سـاعات سـراع الزوال ... وإنمـا العقبـى خـلـود المـآل
فهـل تبيـع الخلـد يا غافـلاً ... وتشـترى دنيـا المنى والضـلال

* * *

عش راضـيا واترك دواعـى الألم ... واعـدل مع الظالم مهمـا ظلم
نهـاية الدنيـا فنـاء فعش ... فيهـا كريمـاً واعتـبرها عـدم

* * *

ويا فؤادى تلك دنيـا الخيال ... فلاتنؤ تحت الهمـوم الثقـال
سلم له الأمـر فمحـو الذى ... خطـت يد الأقدار أمـرٌ محـال

ما أعظم أن يلجأ العبد إلى خالقه ، معتقدا أن الدنيا مزرعة للآخرة ، وأن ميت الغد يشيع ميت اليوم ، فكيف يركن إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، جل الله جلاله إذ يقول : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾(1).

وعظمت حكمته إذ يقول : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلاً نمدُ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾(2).

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾(3)

الدنيا دار مفر والآخرة دار مقر ، فخذ من مفرك إلى مقرك ، وكن فى الدنيا كأنك غريب أوعابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور .

تزود من حياتـك للمعـاد ... وقـم لله واجمـع خـير زاد
ولا تركـن إلى الدنيـا كثـيرا ... فإن المـال يجمـع للنفـاد
أترضـى أن تكـون رفيـق قـوم ... لهـم زاد وأنت بغـير زاد

* * *

تزود من التقوى فإنـك لا تدرى ... إذا جـن ليـل هـل تعيش إلى الفجـر
فكـم من فتى أمسى وأصبح ضـاحكا ... وقـد نسجت أكفانه وهـو لا يدرى
وكـم من عروس زينوهـا لـزوجهـا ... وقـد قبضـت أرواحهـم ليلة القـدر

* * *

وكـم من صغـار يرتجـى طـول عمرهم ... وقـد أُدخلـت أجسادهم ظلمة القبر
وكـم من صحيح مـات من غـير علـة ... وكـم من سقيم عاش حينا من الدهـر

(1) الآيتان ١٥، ١٦ من سورة هود . (2) الآيات ١٨-٢١ من سورة الإسراء . (3) الآية ٢٠ من سورة الشورى .

تزود من الدنيا فإنك راحل وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع

جزاء المؤمنين

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

المفردات : ﴿ **دعواهم** ﴾ الدعوى : الدعاء ، وهو للناس النداء والطلب المعتاد بينهم فى دائرة الأسباب المسخرة لهم ، ولله هو دعاؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه ، والضراعة له فيما لايقدر عليه أحد من خلقه من دفع ضر أو جلب نفع . ﴿ **سبحانك** ﴾ : أى تنزيهاً لك وتقديساً . ﴿ **تحيتهم** ﴾ التحية : التكرمة بقولهم : حيّاك الله ، أى أطال عمرك . ﴿ **سلام** ﴾ السلام : السلامة من مكروه

بعد أن ذكر الله تعالى وعيد أهل النار ، قفّى بذكر نعيم أهل الجنة ، وبيّن نور الوعد ونيران الوعيد تأتى الحكمة البالغة فى الخوف والرجاء من شأن المؤمن ، قال تعالى:﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين ﴾[(١)].

وقال جل شأنه ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[(٢)].

وقال جل شأنه ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾[(٣)].

إن هؤلاء الأبرار الأنقياء ، الأطهار الأتقياء ، الأخيار الأصفياء قد قرنوا الإيمان بالعمل الصالح ، إذ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوما غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

كان المسيح ابن مريم يقول : يا بنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان ، وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ، ولكن البسوا ثياب الملوك ، وألينوا قلوبكم لخشية الله .

قال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ **يهديهم ربهم بإيمانهم** ﴾ قال : يكون لهم نورا يمشون به .

---

(١) الآية ٩٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيات ٥٧–٦١ من سورة المؤمنون .

(٣) الآيات ٢٥ ٢٨ من سورة الطور .

وقال ابن جريج : فى الآية يمثل له عمله فى صورة حسنة ، وريح طيبة إذا قام من قبره يعارض صاحبه ويبشره بكل خير ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك فيجعل له نوره من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالى ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ والكافر يمثل له عمله فى صورة سيئة ، وريح منتنة ، فيلزم صاحبه ويلاده حتى يقذفه فى النار .

وقوله تعالى ﴿ تجرى من تحتهم الأنهار ﴾ أى من تحت قصورهم وأشجارهم ، فهم فى ظلال الأشجار وعلى شواطىء الأنهار ، يتمنعون بدانى الثمار ، والاستمتاع بالحور الأبكار ، وأعظم من هذا كله رؤية الواحد الغفار ، إنهم الذين تكون لهم الحور العين ﴿ نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن الخالدات فلا نبيد ، طوبى لمن كان لنا وكنا له ﴾(١). ﴿ إن من دخل الجنة ، لايفنى شبابه ولاتبلى ثيابه ، وما دخلوها إلا بفضل الله ، وما فضل الله ببعيد عن أهل كرامته وطاعته ، إن أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق ، وأكثر ما يدخلهم النار البطن والفرج ﴾(٢)

فاحرص على أربع خصال صدق حديث ، وحسن خليقة ، وحفظ أمانة ، وعفة طعمه .

ولقد دلنا الصادق المعصوم على الطريق إلى الجنة فقال عليه الصلاة والسلام ﴿ عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقا ... ﴾(٣).

والصدق هنا بأوسع معانيه يشمل الصدق مع الله ورسوله ، والصدق فى المعاملة مع الناس ، والصدق مع النفس ، وعندئذ يكسون شجاعة أدبية ، وهل نجىّ هؤلاء النفر الذين خُلّفوا إلا صدقهم مع الله ورسوله ، إننى يملؤنى الفخار ، ويثلج صدرى أن أسوق هذا الحديث الذى يعتبر مدرسة من مدارس النبوة الطاهرة ، إنه حديث الثلاثة الذين صدقوا الله فصدقهم الله وعده ، إنه مدرسة تربوية اجتماعية ، ياليت قومى يقفون عندها ، ويعملون بدروسها ، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً .

وها أنا ذا أسوق الحديث بطوله ثم أعقب عليه بما استنبطه العلماء منه ، من الأحكام النافعة الشافية الكافية الوافية عسى الله أن يجعلنا من الصادقين ، ويدخلنا الجنة بصدقهم ﴿ قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾(٤).

---

(١) أخرجه الترمذى فى الجنة (٢٤) . والإمام أحمد فى (١٥٦:١) .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٢١) . والترمذى فى الجنة (٢) . والدارمى فى الرقاق (٩٨،١٠٠) والإمام أحمد فى (٢:٣٠٥،٣١٩،٣٧٠،٤٠٧،٤١٦،٤٤٥،٤٦٢) .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب (٦٩) . ومسلم فى البر (١٠٣،١٠٥) وأبو داود فى الأدب (٨٠) . والترمذى فى البر (٤٦) . وابن ماجه فى المقدمة (٧) . والدارمى فى الرقاق (٧) . والإمام مالك فى الكلام (١٦) . والإمام أحمد فى (١:٨،٣٨٤،٤٠٥،٤٣٢) .

(٤) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

قال الإمام أحمد حدثنا يعقوب بن إبراهيم ، حدثنا ابن أخي الزهرى محمد بن عبد الله ، عن عمه محمد بن مسلم الزهرى ، أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن عبيد الله بن كعب بن مالك – وكان قائد كعب من بنيه حين عمى – قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك فقال كعب بن مالك : (لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزاة غزاها إلا فى غزاة تبوك غير أنى كنت تخلفت فى غزاة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها وإنما خرج رسول الله (ﷺ) يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، والله ماجمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزاة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز ، وعدوا كثيرا فخلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان .

قال كعب : (فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزاة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصعر ، فتجهز إليها رسول الله ﷺ والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض من جهازى شيئا ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئا ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه ، فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم ، وليت أنى فعلت ، ثم لم يقدر ذلك لى .

فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموصا عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذره الله عز وجل ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « ما فعل كعب بن مالك » ؟

(فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى ، وطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا ، وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لم أنج منه بشيء أبدا ، فأجمعت صدقه .

فأصبح رسول الله ﷺ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل

ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فيقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرا ؟ » فقلت : يارسول الله إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك بصدق تجد علىّ فيه إنى لأرجو عقبى ذلك من الله عز وجل والله ، ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « أما هذا فقد صدقفقم حتى يقضى الله فيك » .

فقمت وقام إلىّ رجال من بنى سلمة واتبعونى ، فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ، ولقد عجزت إلا أن تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، قال : فو الله ما زالوا يؤنبونى حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، قال : ثم قلت لهم : هل لقى معى هذا أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : فمن هما ؟ قالوا :مرارة بن الربيع العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا ، لى فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لى .

قال : ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا . حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول فى نفسى : أحرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى .

حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادةوهو ابن عمى ، وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله مارد علىّ السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم .

قال : ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذ أنا بنبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال : فطفق الناس يشيرون له إلىّ حتى جاء ، فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك فى دار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . قال : فقلت

حين قرأته وهذا أيضاً من البلاء . قال فتيممت به التنور فسجرته به .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله ﷺ يأتينى يقول : يأمرك رسول الله ﷺ أن تعتزل امرأتك : فقلت أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها ، قال : وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك قال : فقلت لامرأتى الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ما يشاء .

قال : فجاءت امرأة هلال بن أميه رسول الله ﷺ فقالت : يارسول الله إن هلالا شيخ ضعيف ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ولكن لا يقربك » قالت : وإنه والله ما به من حركة إلى شىء وإنه والله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك فقد أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه . قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما أدرى ما يقول فيها رسول الله ﷺ إذا استأذنته ، وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، قال : ثم صليت صلاة الصبح صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك . قال : فخررت ساجدا ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عز وجل بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبى مبشرون وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم ، وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك يومئذ غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما .

وانطلقت أؤم رسول الله ﷺ ، وتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنونى بتوبة الله يقول : ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس فى المسجد ، والناس حوله ، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ ، قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قال : قلت أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله »

قال : وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يارسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ، وإلى رسوله . قال :

« أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال : فقلت فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يا رسول الله إنما نجانى الله بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت .

قال : فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ، أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى .

قال : وأنزل الله تعالى ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم * وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ إلى آخر الآيات

قال كعب : فوالله ما أنعم الله علىّ من نعمة قط بعد أن هدانى للإسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ يومئذ ، أن لا أكون كذبته فأهلك ، كما هلك الذين كذبوه ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد فقال الله تعالى ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾

قال : (وكنا أيها الثلاثة الذين خلفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ، ولذلك قال الله تعالى ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذى مما خلفنا بتخليفنا عن الغزو ، وإنما هو عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه)(١). حديث متفق عليه .

الأحكام المستنبطة من هذا الحديث

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث هذه الفوائد منها : إباحة الغنيمة لهذه الأمة ، وفضيلة أهل بدر والعقبة ، والمبايعة مع الإمام ، وجواز الحلف من غير استحلاف ، وتورية المقصد إذا دعت إليه ضرورة ، والتأسف على مافات من الخير ، وتمنى المتأسف عليه ، ورد الغيبة ، وهجران أهل البدعة .

وأن للإمام أن يؤدب بعض أصحابه بإمساك الكلام عنه ، وترك من تاب الزوجة ، واستحباب صلاة القادم ، ودخوله المسجد أولاً ، وتوجه الناس إليه عند قدومه ، والحكم بالظاهر وقبول المعاذير ، واستحباب البكاء على نفسه ، وأن مسارقة النظر فى الصلاة لا تبطلها ، وفضيلة الصدق .

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٩:١٨) وفى الإيمان (٢٤) . ومسلم فى التوبة (٥٣) . والنسائى فى المساجد (٣٨) . والإمام أحمد فى (٢٥٦:١) وفى (٤٥٧:٣، ٤٥٨، ٤٥٩) وفى (٢٢٥:٤) .

وأن السلام ورده كلام ، وجواز دخوله بستان صديقه بدون إذنه ، وأن الكناية لا يقع بها الطلاق مالم ينوه ، وإيثار طاعة الله ورسوله على مودة الغريب .

وخدمة المرأة والاحتياط بمجانبة ما يخاف منه الوقوع فى منهى عنه ، إذ كعب لم يستأذن فى خدمته امرأته لذلك ، وجواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالى إذا كان لمصلحة .

واستحباب التبشير عند تجدد النعمة واندفاع الكربة ، واجتماع الناس عند الإمام فى الأمور المهمة ، وسروره بما يسر أصحابه ، والتصدق بشيء عند ارتفاع الحزن ، والنهى عن التصدق بكل المال عند خوف عدم الصبر ، وإجازة البشير بخلعه الثوب ، وتخصيص اليمين بالنية ، وجواز العارية ، ومصافحة القادم ، والقيام له ، واستحباب سجدة الشكر : والتزام مداومة الخير الذى انتفع به .

قوله تعالى : ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

قال ابن جريج : أخبر أن قوله ﴿ **دعواهم فيها سبحانك اللهم** ﴾ قال : إذا مر بهم الطير يشتهونه قالوا : سبحانك اللهم ، وذلك دعواهم فيأتيهم الملك بما يشتهونه فيسلم عليهم فيردون عليه ، فذلك قوله ﴿ **وتحيتهم فيها سلام** ﴾ قال : فإذا أكلوا حمدوا الله ربهم فذلك قوله ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وروى عن أبى بن كعب مرفوعا إلى النبى ﷺ : « إن أهل الجنة إذا قالوا : سبحانك اللهم ، أتاهم ما يشتهون » .

فالكلمة إذاً علامة بين أهل الجنة وخدمهم على إحضار الطعام وغيره ، فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على التنزيه والسلام والحمد : ففى لفظه (سبحانك اللهم) تنزيه للحق جلَّ جلاله عن كل نقص ، إذ هذا اللفظ لا يصح أن يُطلق على أحد إلا عليه سبحانه ، ومن ثمَّ فلكل أعجوبة (سبحان الله) . ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾[١] ، ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾[٢]، ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[٣].

وقد جاء التسبيح فى القرآن بصيغ كثيرة : جاء بصيغة الماضى كما فى قوله تعالى : ﴿ سبح لله مافى السماوات ومافى الأرض ﴾[٤] وبصيغة المضارع ﴿ يسبح لله مافى السماوات ومافى الأرض ﴾[٥].

(١) الآية ١ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ١٧ من سورة الروم .
(٣) الآية ٤٢ من سورة الأحزاب .
(٤) الآية ١ من سورة الحشر الآية ١ من سورة الصف .
(٥) الآية ١ من سورة الجمعة .

وبصيغة الأمر ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[١]. وبصيغة على المصدر ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ﴾[٢]. وبصيغة الصفة ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين ﴾[٣].

فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار . وهو الواحد القهار .

أما السلام فتحية الله إلى نبيه : (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) وتحيته تعالى إلى المؤمنين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾[٤]. وتحية الملائكة لأهل الجنة ﴿ جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٥].

والسلام اسم من أسمائه الحسنى ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾[٦].

والجنة دار السلام ﴿ لهم دار السلام عند ربهم ﴾[٧].

وتحية الخزنة لأهل الجنة سلام : ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾[٨].

وتحية الإسلام سلام ((ألالن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام))[٩].

وقد كان أول بيان ألقاه الرسول ﷺ عند قدومه المدينة : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام) .

أما الحمد فحقيقته الثناء على الله بما هو أهله . فهو الحقيق بذلك لما أسداه على عباده من نعم لا تحصى وخير لا يُستقصى . ولسان أهل الجنة يلهج بالحمد عند دخولها ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾[١٠]. وكذلك لسان الملائكة ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾[١١].

(١) الآية ١ من سورة الأعلى . (٤) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الأحزاب . (٧) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١ من سورة الإسراء . (٥) الآيتان ٢٣،٢٤ من سورة الرعد . (٨) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

(٣) الآية ١٤٣ من سورة الصافات . (٦) الآية ٢٣ من سورة الحشر .

(٩) أخرجه مسلم فى الإيمان (٩٣) . والترمذى فى الأطعمة (٤٥) . وفى القيامة (٥٦،٤) وفى الأستئذان (١) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) وفى الإقامة (١٧٤) وفى الأدب (١١) . والدارمى فى الصلاة (١٥٦) وفى الاستئذان (٢٦) . والإمام أحمد فى (١٦٥:١،١٦٧) وفى (٤٧٧:٢) وفى (٢٨٢:٤،٢٩١،٢٩٣،٣٠١) وفى (٤٥١:٥) .

(١٠) الآية ٧٤ من سورة الزمر . (١١) الآية ٧٥ من سورة الزمر .

وفى القرآن الكريم خمس سور افتتحها القرآن الكريم بالحمد : سورة الفاتحة ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ والأنعام ﴿ الحمد لله الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ والكهف (الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا) وسبأ ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير) وفاطر ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

فاللهم لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، أحمدك على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك ، يا من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن ناداه .

حكمة بالغة

* وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ **يعجل** ﴾ تعجيل الشىء : تقديمه على أوانه المقدر له أو الموعود به ، ﴿ **استعجالهم بالخير** ﴾ : الاستعجال به : طلب التعجيل له ، والعجلة من غرائز الإنسان كما قال تعالى ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾[1] فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز أو للنجاة مما هو منه ، ﴿ **لقضى إليهم أجلهم** ﴾ قضاء الأجل : انتهاؤه ، ﴿ **فنذر** ﴾ : نترك ، ﴿ **طغيانهم** ﴾ الطغيان : مجاوزة الحد فى الشر من كفر وظلم وعدوان ، ﴿ **يعمهون** ﴾ العمه : التردد والتحير فى الأمر أو فى الشر ، ومرّ : أى مضى فى طريقته التى كان عليها من الكفر بربه . ﴿ **القرون** ﴾ : الأمم واحدها قرن وهم القوم المقترنون فى زمن واحد ، وجاء فى الحديث الشريف : (خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم)[2] ﴿ خلائف ﴾ الخلائف : واحدها خليفة ، وهو من يخلف غيره فى شىء ، ﴿ **ننظر** ﴾ نشاهد ونرى .

(١) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء .
(٢) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة (١) وفى الرقاق (٧) .

﴿وكان الإنسان عجولا﴾ اقتضت حكمة الله تعالى أن يعامل خلقه على أنهم يحبون تعجيل ماهم فيه مصلحة ، فلو أنه عجَّل لهم الشر عندما يستعجلونه كما يتعجلون الخير لقضى عليهم قضاء مبرما ، لقد سألوا الله تعالى فقالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(١) ولو أنصفوا لقالوا : **فاهدنا إليه** : وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾(٢) ويقول : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾(٣). قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنمْ لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾(٤).

إن الإنسان عجول فى طلب ما يعود عليه بالنفع . فلو أن الله تعالى عجَّل له الشر الذى سأله كما يريد الإنسان تعجيل الخير لقضى الله لأجل المحتوم ، ولما ترك على ظهرها من دابة ، لكن حكمة الله اقتضت ألا يعجل كعجلة أحدنا ، بل إنه صبور يمهل ولا يهمل ، ويملى للظالم ، ويذر الذين لا يتوقعون لقاءه فى غيِّهم وطغيانهم يتحيرون ويترددون ، وفى خوضهم يلعبون .

ثم يبين لنا الله تعالى حال جماعة من الناس عرفوا الله فى الشدة ونسوه فى الرخاء فيقول سبحانه :

﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما** ﴾ :

أى دعانا على كل حال من أحواله مضطجعا على جنبه أو قاعدا أو قائما يسألنا كشف الضر عنه ، فلما كشفنا عنه ما نزل به من ضر مرَّ سادرا فى غيه ، عاصيا لأمر ربه ، طاغيا باغيا لاهيا ساهيا ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا مابهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾(٥) .

﴿ **كذلك زُيِّن للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾. كأن لم يكن بينه وبين الله من قبل ذلك دعاء وتضرع .

والناس فى هذا المجال كثير ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق * يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٦). ويقول تعالى : ﴿ وإذا مسَّكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه * فلما نجّاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا * أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١ من سورة المعارج .
(٣) الآية ٦ من سورة الرعد .
(٤) الآيات ٥٣–٥٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٧٥ من سورة المؤمنون .
(٦) الآيتان ٢٢،٢٣ من سورة يونس .

لكم وكيلا . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ﴾(١) .

إلهنا ما أحلمك ، ما أرحمك ، ما أكرمك . أنت القائل وقولك الحق : ﴿ ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾(٢).

ولقد بيَّن الله تعالى بعد ذلك أن الظلم هو الذى دمَّر أهل القرون السالفة قال تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا** ﴾ وذلك كقوله جلَّ شأنه ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لمَّا ظلموا ﴾(٢) وقوله : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾(٣) وقوله : ﴿ فكأيِّن من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾(٤). وقوله : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىَّ المصير ﴾(٥).

الظلم لا يدوم ، وإذا دام دمَّر ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم مرتعه وخيم .

جاء فى الحديث القدسى الجليل : (اشتد غضبى على من ظلم من لم يجد له ناصراً غيرى . واشتد غضبى على من وجد مظلوما فقدر أن ينصره فلم ينصره) .

وجاء فى الحديث الشريف : « من مشى مع ظالم ليقويه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج عن الإسلام »

قال تعالى فى الحديث الجليل : [يا عبادى لقد حَّرمت الظلم على نفسى وجعلته محرَّما بينكم فلا تظالموا] .

ولقد أقام الله الحجة على هؤلاء المعاندين ، وقطع عليهم الأعذار بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، قال تعالى ﴿ **وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ : نعم وما كانوا ليؤمنوا لأنهم ﴿ استحبوا العمى على الهدى ﴾(٦) ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾(٧) ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾(٨) قال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرَّفنا الآيات لعلهم يرجعون ۞ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾(٩).

وليس هذا العقاب مقصورا على أمم سلفت بل إن البر لا يبلى والذنب لاينْسى والديَّان لايموت ، اعمل ما شئت كما تدين تُدان .

قال تعالى : ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ وقال فى شأن قوم لوط : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا

(١) الآيات ٦٧-٦٩ من سوره الإسراء .
(٢) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٥٩ من سورة القصص .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٦) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٨) الآية ٥ من سورة الصف .
(٩) الآية ٨٣ من سورة غافر .
(١٠) الآيتان ٢٧،٢٨ من سورة الأحقاف .

عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون** ﴾ وذلك كقوله تعالى : ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[2].

وهكذا ليظهر مدلول علم الله القديم فينظر كيف تعملون فأنتم من خلفتم من قبلكم ليكن لكم معتبر فيما حدث لهم ، فأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا وبغى وطغى وتجبَّر فإن الله لا يغفل ولا يهمل ، بل هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

جزاء المفترين

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

بعد أن بدأ سبحانه السورة بذكر الكتاب الحكيم ، وإنكار المشركين الوحى على رجل منهم ، ثم أقام الحجة على الوحى والتوحيد والبعث بخلق العالم علويه وسفليه ، وبطبيعة الإنسان وتاريخه وغرائزه ، أعاد هنا الكلام فى شأن الكتاب نفسه ، وتفنيد ما اقترحه المشركون على الرسول ﷺ بشأنه ، وحجته البالغة عليهم فى كونه وحياً من عند الله تعالى.

قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله** ﴾ .

أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات الكتاب الذى أنزل إليك حال كونها بارزات فى أعلى أسلوب من البيان ، دالات على الحق ، ساطعات الحجة والبرهان ، قالوا لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ : ﴿ **ائت بقرآن غير هذا أو بدله** ﴾ .

(١) الآيتان ٨٢،٨٣ من سورة هود . (٢) الآيتان ١٢٨،١٢٩ من سورة الأعراف .

أى ائت بكتاب آخر نقرؤه ليس فيه مالا نؤمن به من البعث والجزاء على الأعمال ، ولا ما نكرهه من ذم آلهتنا ، والوعيد على عبادتها ، أو بدّله بأن تجعل بدل الآية المشتملة على الوعيد آية أخرى ، ولم يكن مقصدهم من هذا إلا أن يختبروا حاله بمطالبته بالإتيان بقرآن غيره فى جملة ما بلغهم من سوره ، فى أسلوبها ونظمها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل ، لما يكرهونه منه من تحقير آلهتهم ، وتكفير آبائهم ، حتى إذا فعل هذا أو ذاك كانت دعواه أنه كلام الله أوحاه إليه ، دعوى لا يعول عليها ، وكان قصارى أمره أنه امتاز عنهم بنوع من البيان ، خفيت عليهم أسباب معرفته ، ولم يكن بوحى من الله كما يزعمه .

﴿ **قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى** ﴾ أى قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأنى ، ولا مما تجيزه لى رسالتى أن أبدله من تلقاء نفسى ، ومحض رأيى ، وخالص اجتهادى .

ثم أكبر ما قبله فقال : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلى ، والاهتداء بهديه ، فإن بدل الله منه شيئا بنسخه بلغت عنه ما أراد ، وما علىّ إلا البلاغ .

ثم علل ما سبق بقوله : ﴿ **إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ أى إنى أخاف إن فعلت أى عصيان عذاب يوم عظيم الشأن ، ألا وهو يوم القيامة ، فكيف بى إذا عصيته بتبديل كلامه اتباعا لأهوائكم .

ثم لقنه الله الجواب عن الشق الأول وهو التغيير لأهميته بقوله : ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به** ﴾ يقال : دريته ودريت به أى علمته أى قل لهم لو شاء الله ألا أتلو عليكم هذا القرآن ما تلوته عليكم ، فإنما أتلوه بأمره وتنفيذ مشيئته ولو شاء الله ألا يعلمكم به بإرسالى إليكم لما أرسلنى ، ولما أدراكم به ، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم النافع لتهتدوا به ، وتكونوا بهدايته خلائف فى الأرض ، وهذا لن يكون بكتاب آخر كما قال ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾(١) فهو قد أنزله عالما بأن فيه كل ما يحتاج إليه البشر من الهداية وأسباب السعادة .

﴿ **فقد لبثت فيكم عمراً من قبله** ﴾ أى فقد مكثت بين ظهرانيكم عمراً طويلا من قبله ، وهو أربعون سنة ، لم أتل عليكم سورة من مثله ، ولا آية تشبه آياته ، لا فى العلم والهداية ، ولا فى البيان والبراعة .

﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أى أفلا تعقلون أن من عاش أربعين سنة لم يقرأ كتابا ، ولم يلقن من أحد علما ، ولم يتقلد دينا ، ولم يمارس أساليب البيان وأفانين الكلام من شعر ونثر وخطابة وفخر وعلم وحكمة ، لا يمكنه أن يأتى بمثل هذا القرآن المعجز لكم ولجميع الدارسين لكتب الأديان ، فكيف تقترحون علىّ أن آتى بقرآن غيره ، وقد كان أكثر أنبياء بنى إسرائيل قبل نبوتهم على شىء من العلم كما قال تعالى فى موسى ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ﴾(٢) وقال فى يحيى ﴿ وآتيناه الحكم صبيا ﴾

(١) الآية ٥٢ من سورة الأعراف . (٢) الآية ١٤ من سورة القصص . (٣) الآية ١٢ من سورة مريم .

﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ﴾ أى إن شر أنواع الظلم والإجرام فى البشر شيئان :

١ – افتراء الكذب على الله ، وذلك بما اقترحتموه على الإتيان بقرآن غيره .

٢ – التكذيب بآيات الله بما اجترحتموه من السيئات .

وقد نعيت عليكم الثانى منهما ، فكيف أرضى لنفسى الأول وهو شر منه ، وإن أهم أغراض رسالتى الإصلاح ، ولأجله أحتمل المشاق ، وأقبل فى سبيله كل إرهاق ، فلا فائدة لى فى هذا الإجرام .

﴿ إنه لا يفلح المجرمون ﴾ أى إنه لا يفوز الذين اجترموا الكفر فى الدنيا ، إذا لقوا ربهم ولاينالون الفلاح .

عبادة باطلة

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

بعد أن بين فى الآيات السالفة أنهم طلبوا منه أحد أمرين : إما الإتيان بقرآن غير هذا أو تبديله ، لأن فيه نبذا لآلهتهم وطعنا فيها ، وتسفيها لآرائهم فى عبادتها ، نعى عليهم هنا عبادة الأصنام ، وبين لهم حقارة شأنها ، إذ لا تستطيع نفعا ولا ضرا ، فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها من دون الله ، ويجعل لها الشفاعة عنده ، وليس لديهم برهان على ما يدعون سبحانه وتعالى عما يشركون .

﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ : أى ويعبدون مالا يملك لهم ضرا ولا نفعا من الأصنام وغيرها ، حال كونهم متجاوزين ما يجب من عبادته تعالى وحده ، فهم يعبدونه ويعبدون معه غيره كما قال تعالى :

﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾[1] .

وفى الآية إيماء إلى أن سبب عبادتها وضلالهم فيما يدعون هو اعتقادهم فيها المقدرة على الضر والنفع ، فرد عليهم خطأهم بأنه وحده هو القادر على نفع من يعبده ، وضر من يشرك بعبادته غيره فى الدنيا والآخرة .

وقد دل تاريخ البشر فى كل طور من أطواره على أن كل ما عبد الانسان من دون الله من صنم أو وثن ، فإنما عبده لاعتقاده فيه القدرة على النفع والضر بسلطان له فوق الأسباب المعروفة ، كعبادته للأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب ، والأصنام المصنوعة من المعادن والحجارة أو غير المصنوعة

(١) الآية ١٠٦ من سورة يوسف .

كاللات ، وهى صخرة كانت بالطائف يلت عليها السويق ، عظِّمت حتى عبدت أو الأشجار كالعزى معبودة قريش .

﴿ **ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾ : أى ويقولون فى سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يملكون الضر والنفع بأنفسهم إيمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى ـ وهؤلاء لا شفعاء عنده ـ ونحن إنما نعبدهم ونعظم هياكلهم ، ونطيبها بالعطر ، ونقدم لهم النذور ، ونهل لهم عند ذبح القرابين بذكر أسمائهم وبدعائهم ، والاستغاثة بهم لأنهم يشفعون لنا عند الله ، ويقربوننا إليه زلفى ، ويدفعون بجاههم عنا البلاء ، ويعطوننا ما نطلب من النعماء .

وقد روى عكرمة أن النضر بن الحارث قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لى اللات والعزى . فأساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلب من الله لابد أن يكون بواسطة المقربين عنده ، إذ هم لا يمكنهم التقرب من الله ، والحظوة عنده بأنفسهم ، لأنها مدنسة بالمعاصى .

أما الموحدون فيعتقدون أنه يجب على العاصى أن يتوجه إلى الله وحده تائبا إليه ، طالبا مغفرته ورحمته .

﴿ **قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض** ﴾

أى قل لهم أيها الرسول مبيناً لهم كذبهم ، ومنكرا عليهم افتراءهم على ربهم : أتخبرون الله بشىء لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء فى السموات من ملائكته ، وفى الأرض من خواص خلقه ، ولو كان له شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم ، إذ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء فإن هؤلاء لا وجود لهم عنده ، وإنكم قد اتخذتم ذلك قياسا على ما ترونه من الوساطة عند الملوك الجاهلين بأمور رعيتهم والعاجزين عن تنفيذ مشيئتهم فيهم ، بدون وساطة الوزراء ، وذوى المكانة فيهم .

وبهذا ثبت بطلان الشرك فى الألوهية ، وهو عبادة غير الله مهما يكن المعبود ، وبطلان الشرك فى الربوبية بادعاء وساطة المعبود فى الخلق والتدبير ، أو الشفاعة عند الله إذ ليس لمعبود بذاته ولا بتأثير خاص له عند خالقه يحمله على نفع من شاء ، ولا ضر من شاء ، أو كشف ضر عنه كما يعتقده عباد الأولياء من البشر إلى اليوم ، فكل ذلك للرب وحده ، ولا يعلم إلا بوحيه ، فادعاء ذلك لغيره كذب لا مستند له .

وفى هذا حجة على زوار الأضرحة والقبور الذين يقولون : إن هؤلاء الأولياء أحياء عند ربهم كالشهداء ، فهم يضرون وينفعون ، لا كالأصنام ، وقد جهلوا أن الله يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرا ولا نفعا بعبادتهم له ، مع ما آتاه من المعجزات ، وأظن أن الأمر لا يبلغ بهم أن يجعلوا السيد البدوى ، وسيدنا الحسين ، والسيدة زينب أفضل عند الله ولا أقرب منه ، وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس بأنه لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ﴿ قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله ﴾[1].

﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ :

(١) الآية ٤٩ من سورة يونس .

أى تنزه ربنا وعلا علوا كبيرا عما يشركون به من الشفاعة والوسطاء ، وما يفترونه عليه من أن لأحد من خلقه وساطة عنده ، وشفاعة لديه ، تقرب إليه زلفى ، ففى هذا تحقير لمقام الربوبية والألوهية ، وتشبيه الرب بعبيده من الملوك الجاهلين .

وفى هذا إيماء إلى أن شئون الرب وسائر مافى عالم الغيب لا يعلم إلا بخبر الوحى .

كلمة سبقت من ربك

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾

بعد أن أقام الأدلة على فساد عبادة الأصنام ، وبين سبب هذه العبادة ، ذكر هنا بيان ما كان عليه الناس من الوحدة فى الدين ، وما صاروا إليه من الاختلاف والفرقة فيه .

﴿ **وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا** ﴾ أى إن الناس جميعاً كانوا أمة واحدة على فطرة الإسلام والتوحيد ، ثم اختلفوا فى الأديان ، وإلى ذلك الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »[(١)].

فبعث الله فيهم النبين والمرسلين لهدايتهم ، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه ، ثم اختلفوا فى الكتاب أيضا بغياً بينهم ، واتباعاً لأهوائهم .

﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون** ﴾ أى ولولا كلمة حق سبقت من ربك فى جعل الجزاء العام فى الآخرة ، لعجله لهم فى الدنيا بإهلاك المبطلين المعتدين ، وفى الآية وعيد شديد على اختلاف الناس المؤدى إلى العدوان والشقاق ، ولا سيما الاختلاف فى الكتاب الذى أنزل لإزالة الشقاق .

موقف المعاندين

وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

بعد أن حكى سبحانه عن المشركين إنكارهم للوحى إلى بشر مثلهم ، ورد عليهم مقالتهم بالحجج التى

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٩٣،٨٠) وفى تفسير (سورة ٣٠ ١:٣٠) وفى القدر (٣) . ومسلم فى القدر (٢٢-٢٥) وأبو داود فى السنة (١٧) والترمذى فى القدر (٥) . والإمام مالك في الجنائز (٥٢) . والإمام أحمد فى (٢:٢٢٣،٢٥٣،٢٧٥،٢٨٢،٣١٥،٣٤٧،٣٩٣،٤١٠،٤٨١) وفى (٣:٤٣٥) وفى (٤:٢٤) .

تثبت بطلان شركهم ، وإنكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول ﷺ بالإتيان بقرآن غير هذا الذى يدل فى نظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته على أنه وحى من كلام الله ، حكى عنهم فى هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال آية كونية غير القرآن ، مع ما فيه من الآيات العلمية والعقلية الدالة على النبوة والرسالة ، ثم رد على ذلك .

﴿ **ويقولون لولا أنزل عليه آيةٌ من ربه** ﴾ أى قالوا مرارا وتكرارا ولا يزالون يقولون : هلا أنزل على محمد ﷺ آيه كونيه كآيات الأنبياء ، الذين يحدثنا عنهم كنوح وشعيب وهود ، وقد جاء هذا الاقتراح هنا مجملا ، وأجاب عنه جوابا مجملا ، لأن كلا منهما سيبق مفصلا فى سور أخرى ، كقوله فى سورة الفرقان ﴿ وقالوا ما لِهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنةٌ يأكل منها ﴾[١].

وحكى عنهم أنهم طالبوه بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابه مطلبهم فقال : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾[٢].

فلقنه الله الرد عليهم بقوله : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون ﴾[٣].

أى وما صرفنا عن إرسال الآيات التى اقترحوها إلا تكذيب الأولين كعاد وثمود بها ، وأنها لو أرسلت كذبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال ، كما مضت بذلك سنتنا ، وقد قضينا ألا نستأصلهم لأنهم أمة خاتم النبيين الباقية ، وأنه هو رحمته العامة الشاملة ، وفيهم من يؤمن ، أو يولد له من يؤمن .

وقد أتى الله رسوله ﷺ آيات علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ، ولا أمره بالتحدى بها ، بل كانت لضرورات استدعتها ، كاستجابة بعض أدعيته ﷺ كشفاء المرض ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة بدر وغزوة تبوك ، وتسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين ، وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيخ فى الرمل ببدر .

وعلى الجملة فحجة النبى ﷺ على نبوته هى كتابه المعجز بهدايته وعلومه روى الشيخان والترمذى عن أبى هريرة مرفوعاً : (ما من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[٤].

﴿ **قل إنما الغيب لله** ﴾ : أى أن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة وعلقتم إيمانكم بنزوله من

---

(١) الآيتان ٧،٨ من سورة الفرقان . (٢) الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان (٣٣١،٣٣١) . وابن ماجه فى الزهد (٣٦) . والإمام أحمد فى (٢:٣٤١،٤٥١) .

الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، ولا علم لى به ، فإن كان قدّر إنزال آية علىّ فهو يعلم وقتها وينزلها فيه ، ولا أعلم إلا ما أوحاه إلى .

﴿ فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾ : لما يفعله الله بى وبكم ، فقد اجترأتم على جحود الآيات ، واقتراح غيرها ، والآية بمعنى قوله : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتّبع إلا ما يوحى إلىَّ وما أنا إلا نذير مبين ﴾[1].

وقد جاء تفسير ما ينتظرونه منه فى قوله فى آخر هذه السورة ﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إنّى معكم من المنتظرين ﴾[2].

وفى الآية إنذار بما سيحل بهم من العذاب بخذلانهم ، ونصر الرسل عليهم فى الدنيا ، وماوراءها من عذاب الآخرة .

نماذج من الناس

وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ **أذقنا** ﴾ أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ويستعمل فى إدراك الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة ﴿ **مكر** ﴾ المكر : التدبير الخفى الذى يفضى بالممكور به إلى مالا يتوقعه ، ومكره تعالى تدبيره الذى يخفى على الناس بإقامة سننه ، وإتمام حكمه فى نظام العالم ، وكله عدل وحق ، فإن ساء الناس سموه شرا ، وإن كان جزاء عدلا ﴿ **رسلنا** ﴾ الرسل هنا : الكرام الكاتبون من الملائكة ﴿ **يسيركم** ﴾ التسيير : جعل الشىء أو الشخص يسير بتسخيره تعالى أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو سفينة . ﴿ **الفلك** ﴾ : السفينة أو السفن واحد وجمع . ﴿ **طيبة** ﴾ الطيب : من كل شىء

(١) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة يونس .

ما يوافق الغرض والمنفعة يقال رزق طيب ونفس طيبة وشجرة طيبة . ﴿ **عاصف** ﴾ العاصف : الذى يعصف الأشياء ويكسرها يقال ريح عاصف وعاصفة وأحيط به هلك كما يحيط العدو بعدوه فيسد عليه سبل النجاة ﴿ **يبغون** ﴾ البغى : مازاد على القصد والاعتدال من بغى الجرح ، إذا زاد حتى ترامى إلى الفساد .

بعد أن ذكر عز اسمه أن القوم طلبوا من الرسول ﷺ آية أخرى سوى القرآن ، وذكر جوابا عن هذا بأنه مما لا يملك ذلك ، لأن هذا من الغيب الذى استأثر بعلمه ، قفى على ذلك بجواب آخر وهو أن أولئك المشركين لا يقنعون بالآيات إذا رأوها بأعينهم ، بل يكابرون حسهم ولا يؤمنون ، إذ من عاداتهم اللجاج والعناد ، فكثيراً ما جاءتهم الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله فى أفعاله ثم هم يمكرون فيها ، ولا تزيدهم إلا ضلالا .

﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا** ﴾ :

أى وإذا رزقنا المشركين بالله فرجا بعد كرب ، ورخاء بعد شدة أصابتهم ، بادروا إلى المكر ، وأسرعوا بالمفاجأة به فى مقام الشكر ، فإذا كانت الرحمة مطرا أحيا الأرض وأنبت الزرع ودربه اللبن بعد جدب وقحط أهلك الحرث والنسل ، نسبوا ذلك إلى الكواكب أو الأصنام ، وإذا كانت نجاة من هلكة وأعوزهم معرفة عللها وأسبابها عللوها بالمصادفات ، وإذا كان سببها دعاء نبى أنكروا إكرام الله له وتأييده بها ، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى ، وكما فعل مشركو مكة إثر القحط الذى أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ ، ثم رفع عنهم بدعائه عليه الصلاة والسلام ، فمازادهم ذلك إلا كفرا وجحودا .

روى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :

أن قريشا لما استعصوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسنى سيدنا يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، وحتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزل الله تعالى ﴿ فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم ﴾[(١)] فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد إنك جئت تأمرنا بصلة الرحم ، وإن قومك قد هلكوا ، فادع الله لهم ، فدعا لهم فكشف الله عنهم العذاب ، ومطروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول يطعنون فى آيات الله ، ويعادون رسوله ﷺ ويكذبونه [(٢)].

﴿ **قل الله أسرع مكراً** ﴾ : أى قل لهم : إن الله أسرع منكم مكرا ، فهو قد دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون فى إطفاء نور الإسلام ، وقد سبق فى تدبيره لأمور العالم ، وتقديره للجزاء على الأعمال قبل وقوعها أن يعاقبكم على مكركم فى الدنيا قبل الآخرة ، وهو عليم بما تفعلون لا تخفى عليه خافية .

---

(١) الآيتان ١٠، ١١ من سورة الدخان .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٤ : ٢) . ومسلم فى المنافقين (٤٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٠، ٤٣١، ٤٤١) .

﴿ **إن رسلنا يكتبون ما تمكرون** ﴾ : أى إن الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله بإحصاء أعمال الناس وكتبها ، للحساب عليها فى الآخرة يكتبون ما تمكرون به . وفى ذلك تنبيه إلى أن ما دبروا ليس بخاف عليه تعالى وإلى أن انتقامه واقع بهم لا محالة ، وعلينا أن نعتقد بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى بمعرفة صفتها وإنما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاماً حكيما فى إحصاء أعمالنا ، لأجل أن نراقبه فيها ، فنلتزم الحق والعدل والخير ، ونجتنب أضدادها .

ثم ضرب مثلا من أبلغ أمثال القرآن ليظهر لهم ويتضح بما هم عليه فقال ﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر** ﴾ : أى أنه تعالى هو الذى وهبكم القدرة على السير فى البر وسخر لكم الإبل والدواب وفى البحر بما سخر لكم من السفن التى تجرى فى البحر ، والقطر التجارية والسيارات ، وفى الهواء بالطائرات التى تسير فى الجو .

﴿ **حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين** ﴾ .

أى حتى إذا كنتم فى الفلك التى سخرناها لكم ، وجرت بمن فيها بسبب ريح مواتيه لهم فى جهة سيرهم ، وفرحوا بما هم فيه من راحة وتمتع بمنظره الجميل ، وهوائه العليل ، جاءت ريح شديدة قوية ، فاضطرب البحر وتموج سطحه كله ، فتلقاهم من جميع الجوانب والنواحى بتأثير الريح ، واعتقدوا أنهم هالكون لا محالة بإحاطة الموج بهم ، فبينما يهبط الريح العاصف بهم فى لجج البحر ، حتى كأنهم سقطوا فى هاوية ، إذا به يثب بهم إلى أعلى ، كأنهم فى قمة الجبل الشاهق .

فإذا ما نزلت بهم نُذُر العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب ، ودعوا الله مخلصين له الدين ليكشف عنهم ما حل بهم ، ولا يتوجهون معه إلى ولىّ ولا شفيع ، مما كانوا يتوسلون بهم إليه حال الرخاء ، وقد صمموا العزيمة على طاعته ، وقالوا : ربنا لئن أنجيتنا من هذه التهلكة لنكونن من الشاكرين ، ولا نتوجه فى تفريج كروبنا وقضاء حاجتنا إلى وثن ولا صنم ، ولا إلى ولىّ ولا نبىّ .

وفى الآية إيماء إلى أن الناس جبلوا على الرجوع إلى الله حين الشدائد ، ولكن بعض المسلمين فى هذا العصر لا يدعون حين أشد الأوقات حرجاً إلا الميتين ، ويتأول ذلك لهم بعض العلماء ويسمونه توسلا أو نحو ذلك .

قال السيد حسن الهندى فى تفسيره (فتح الرحمن) : (فيا عجبنا لما حدث فى الإسلام من طوائف يعتقدون فى الأموات ، فإذا عرضت لهم فى البحر مثل هذه الحالة دعوا الأموات ، ولم يخلصوا لله كما فعله المشركون ، كما تواتر ذلك إلينا تواترا يحصل به القطع ، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية ، وأين وصل بها أهلها ، وإلى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلط عليهم حتى

انقادوا له انقيادا ما كان يطمع فى مثله ، ولا فى بعضه من عبادة الأصنام ، ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[١]

وقال الألوسى فى تفسيره : (وأنت خبير بأن الناس اليوم إذا اعتراهم أمر خطير ، وخطب جسيم فى بر أو بحر . دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا يرى ولا يسمع ، فمنهم من يستغيث بأحد الأئمة . ومنهم من يضرع إلى شيخ من مشايخ الأمة ، ولاترى فيهم أحداً يخص مولاه بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد يمر له ببال أنه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الأهوال ، فبالله تعالى عليك قل لى : أى الفريقين أهدى سبيلا ، وأى الداعيين أقوم قيلا و إلى الله المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ، واتخذت الاستعانة بغير الله للمنجاة ذريعة وخرقت سفينة الشريعة) . ا.هـ .

﴿ **فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق** ﴾ :

أى فلما نجاهم مما نزل بهم من الشدة والكربة فاجئوا الناس فى الأرض التى يعيشون فيها بالبغى عليهم ، والظلم ، مع الإمعان فى ذلك والإصرار عليه .

وفى قوله ﴿ **بغير الحق** ﴾ تأكيد للواقع ، وتذكير بقبحه ، وسوء حال أهله ، أو لبيان أنه بغير حق عندهم أيضاً ، بأن يكون ظلما ظاهراً لا يخفى على أحد قبحه ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ **ويقتلون النبيين بغير الحق** ﴾[٢] وبعد أن حكى المثل خاطب البغاة فى أى مكان كانوا وفى أى زمان وجدوا منها واعظاً فقال :

﴿ **يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا** ﴾ : أى : يأيها الغافلون عن أنفسكم : أما كفاكم بغيا على المستضعفين منكم اغترارا بقوتكم وكبريائكم ، إنما بغيكم فى الحقيقة على أنفسكم ، لأن عاقبة وباله عائدة إليكم ، وإنما تتمتعون ببغيكم متاع الحياة الدنيا الزائلة ، وهى تنقضى سراعاً ، والعقاب باق ، وأقله توبيخ الضمير والوجدان .

﴿ **ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ : أى ثم إنكم ترجعون إلينا بعد هذا التمتع القليل ، فننبئكم بما كنتم تعملون من البغى والظلم ، والتمتع بالباطل ، ونجازيكم به .

وفى الآية إيماء إلى أن البغى مجزى عليه فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلقوله ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ ولما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والبخارى (ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخر له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم)[٣] والذى رواه أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ [ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكث والبغى ثم تلا : ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾، ﴿ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله ﴾[٤]، ﴿ **فمن** نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾[٥].]

(١) الآية ١٥٦ من سورة البقرة . (٢) الآية ٦١ من سورة البقرة
(٣) أخرجه مسلم فى الزهد (٢٣) . وأبو داود فى الأدب (٤٣) . والترمذى فى القيامة (٥٧) . والإمام أحمد فى (٥ : ٣٦) .
(٤) الآية ٤٣ من سورة فاطر . (٥) الآية ١٠ من سورة الفتح .

وأما فى الآخرة فكفى دلالة على ذلك ما أفادته الآية من التهديد والوعيد .

والخلاصة : إن البغى وهو أشنع أنواع الظلم يرجع على صاحبه لما يولد من العدواة والبغضاء بين الأفراد ولما يوقد من نيران الفتن والثورات فى الشعوب ، انظر إلى من يبغى على مثله تجده قد خلق له عدوا ، أو أعداء ، ممن يبغى عليهم ، ولاشك أن وجود الأعداء ضرب من العقوبة ، فهم يقتصون لأنفسهم منه بكل الوسائل التى يقدرون عليها ، وإن هم لم يفعلوا ذلك فإنه يرى فى أعينهم من أنواع الحنق والغضب مالا يخفى عليه ، فيتأجج قلبه حسرة وندامة على ما فعل ، ويود أن لو لم يكن قد خلق لنفسه هذه الحزازات والضغائن المتغلغلة فى النفوس .

مثل الحياة الدنيا

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

ما أروع هذا التشبيه ، وما أعظم هذا البيان ، إن فيه عبرة لمن يخشى ، فالدنيا مهما أقبلت فهى مدبرة ، ومهما تزينت فهى زائلة ، ودوام الحال من المحال ولو دامت لغيرك ما وصلت إليك .

إن حالها كماء نزل من السماء فاختلط به نبات الأرض ، فصار زرعا أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها بهذا النبات وازيَّنت ، وأصبحت حدائق ذات بهجة ، وجنات ألفافا ، تشابكت أغصانها ، وتنوعت ألوانها وتعددت طعومها ، واختلفت روائحها الزاكية وظنَّ أهلها أنهم قادرون عليها ، ونسوا أن للكون إلٰها عليما قديرا سميعاً بصيرا ، وطغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وتجبروا وتكبروا على خلق الله إذا كان ذلك كذلك فليرتقبوا الخسف والمسخ ، وليتربصوا حتى يأتى الله بأمره .

قال تعالى : ﴿ **أتاها أمرنا ليلا أو نهارا** ﴾ : ليلا وهم نائمون أو نهارا وهم غافلون ، قال جلَّ شأنه : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[١].

وقال جلَّ شأنه : ﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون ﴾[٢]

(١) الآيات ٩٧-٩٩ من سورة الأعراف . (٢) الآية ٤ من سورة الأعراف .

فإذا ما جاء بأس الله ، وحقت كلمة العذاب على الظالمين ، ونفذ القضاء كانت النهاية ، كما قال مولانا ﴿ فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ﴾ أى كأن لم تكن قائمة فى الوقت القريب ، وكان أمر الله قدرا مقدورا ، إذا قضى فلا رد لما قضى ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

فيا أيها العاقل لا تأمن للدهر ولو صفا ، ولا للمال ولو كثر ولا للسلطان ولو قرب منك :

هى الأيام لاتبقى عزيزا — وساعات السرور بها قليله
إذا نشر الضياء عليك نجم — وأشرق فارتقب يوما أفوله

ويا أيها العاقل لا تأمن لدنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء . واعلم بأن ميت الغد يشيع ميت اليوم .

فما من كاتب إلا ويفنى — ويبقى الدهر ماكتبت يداه
فلا تكتب بكفك غير شىء — يسرك فى القيامة أن تراه

قوله تعالى ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ أى مثل ذلك البيان ، والتوضيح بالأمثال ، نفصل الآيات ونبينها لقوم زودهم الله بالعقل والنظر والفكر ، فإن التفكير فى الإسلام فريضة ، والغفلة عن آيات الله جريمة .

قال تعالى ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها .أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1].

وقال جلّ شأنه ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾[2].

دار السلام

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ * لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟
ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ
عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

(١) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف .

المفردات : ﴿ **دار السلام** ﴾ : هى الجنة ، ﴿ **السلام** ﴾ : السلامة من جميع الشوائب والأكدار . ﴿ **يرهق** ﴾ رهقه : غشيه وغلب عليه حتى غطاه وحجبه ، وقوله : ﴿ **ولا ترهقنى من أمرى عسرا** ﴾ [1] أى لا تكلفنى ما يشق علىّ ويعسر . ﴿ **قتر** ﴾ القتر : الدخان الساطع من الشِّواء والحطب . وكذا كل غبرة فيها سواد . ﴿ **عاصم** ﴾ العاصم : المانع

بعد ما بين سبحانه أن حال الدنيا وشأنها كماء أنزله من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ، وبين أن الأرض إذا أخذت زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، كانت النهاية المحتومة وكان المصير الذى لا مفر منه ﴿ **فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس** ﴾ .

بعد هذا البيان دعا الله تعالى عباده إلى الجنة دار السلام ، وتسمية الجنة بدار السلام توحى بسلامة هذه الدار من النصب والوصب والهم والحزن والغم والأذى . قال تعالى ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾[2]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[3].

ويكفى المؤمن تشريفا وتكريما أن يكون فى جوار الله ، قال تعالى فى حديثه القدسى : [ويكون جارى فى الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين] .

قوله تعالى ﴿ **ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ : الهداية قد تكون بمعنى الهداية والإرشاد ، كما فى قوله جلَّ شأنه لحبيبه ومصطفاه : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[4].

وقد تكون الهداية بخلق قدرة الطاعة فى العبد كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾[5].

ومشيئة الله تعالى مبنية على العلم والحكمة منزهة عن العبث . قال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى * وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[6].

وقال جلَّ شأنه : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[6]. وقال سبحانه : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٤٥-٤٨ من سورة الحجر .
(٣) الآية ١٢٧ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(٥) الآية ٥٦ من سورة القصص .
(٦) الآيات ١ ١٠ من سورة الليل .
(٧) الآية ٥ من سورة الصف .

الساخرين★ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين★ أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين★ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾[١].

والمراد بالصراط المستقيم ما بينه الله تعالى فى قوله ﴿ صراط الله الذى له مافى السماوات ومافى الأرض ﴾[٢]. وفى قوله ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ﴾[٣].

وهل هناك أعظم استقامة من الإسلام . ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[٤] ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[٥] .

ولست أدرى سوى الإسلام لى وطنا
الشام فيه ووادى النيل سيان
وكلما ذكر اسم الله فى بلد عددت أرجاءه من لب أوطانى

قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ هذا منطق العدل والفضل ، فالحسنى هى الجنة ، والزيادة رؤية الله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة ﴾[٦].

إن الذين أحسنوا أعمالهم لله وأخلصوا له الدين ضمن الله لهم السعادة فى الدارين .

قال تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾[٧].

وقال جلَّ شأنه : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[٨].

وقال جلَّ شأنه : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٩].

وقال جلَّت حكمته : ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾[١٠].

فما أعظم هذه الزيادة ! إن رؤية الله أسمى درجات السمو الروحى ، وأعظم مراتب الرقى فى نعيم الجنة قال ﷺ : [إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر][١١].

وقد حرم الله الكافرين من هذه النعمة العظمى ، قال سبحانه : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾[١٢].

(١) الآيات ٥٤-٥٩ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٥٣ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٧ من سورة الفاتحة .
(٤) الآية ١٩ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(٦) الآيتان ٢٢، ٢٣ من سورة القيامة .
(٧) الآية ٣٠ من سورة النحل .
(٨) الآية ٤١ من سورة النحل .
(٩) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(١٠) الآية ١٢٢ من سورة النحل .
(١١) أخرجه البخارى فى المواقيت (١٦، ٢٦) وفى الاذان (١٢٩) وفى تفسير (سورة ٥٠ : ٢) وفى الرقاق (٥٢) وفى التوحيد (٢٤) . وأبو داود فى السنة (١٩) . والترمذى فى الجنة (١٦) . والإمام أحمد فى (٣: ١٦، ١٧، ٢٦، ٢٧) .
(١٢) الآية ١٥ من سورة المطففين .

إن المؤمنين بيض الوجوه ، أعزاء كرماء ، لا تعلو وجوههم قتر ولا ذلة ﴿ كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفى نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف فى وجوههم نضرة النعيم * يُسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون ﴾(١).

قال تعالى فى حق هذا الفريق السعيد : ﴿ **أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون** ﴾ . وفى الخلود ما يوحى بالأمن والطمأنينة ويقين بالاستقرار .

يا أهل الجنة إن لكم أن تسعدوا فلا تشقوا أبدا ، ولكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ، ولكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، ولكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ﴿ وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾(٢) .

يا ابن آدم : ليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، ولبست فأبليت، وتصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه لغيرك كائنا من كان .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة** ﴾ .

هذا هو منطق العدالة ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾(٣) .

قال جلَّ شأنه : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(٤). وقال عزَّ من قائل : ﴿ ولله مافى السماوات ومافى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾(٥) ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾(٦).

إن أهل الشقاء سود الوجوه تعلو وجوههم غبرة سوداء ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾(٧).

قال تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يُفعل بها فاقرة ﴾(٨).

---

(١) الآيات ١٨-٢٨ المطففين .
(٢) الآيتان ٧٢،٧٣ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء
(٤) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٥) الآية ٣١ من سورة النجم .
(٦) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية ١٠٦ من سورة آل عمران .
(٨) الآيتان ٢٤،٢٥ من سورة القيامة .

وقال سبحانه : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾[(١)].

قوله تعالى : ﴿ **ما لهم من الله من عاصم** ﴾ أى ليس هناك مانع يمنع عذاب الله عنهم ، قال تعالى : ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾[(٢)]. وقال جلَّ شأنه : ﴿ ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[(٣)]. وقال سبحانه : ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبِعُوا من الذين اتَّبعُوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب*وقال الذين اتَّبعُوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[(٤)].

وقال عزَّ من قائل : ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون*قالوا وهم فيها يختصمون * تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين * وما أضلنا إلا المجرمون * فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم*فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين*وإن ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾[(٥)] .

قوله تعالى : ﴿ **كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما** ﴾ : هذه صورة تقشعر منها الأبدان ، وتشيب من هولها نواصى الولدان ، صورة لأهل الشقاء لما اكتنف وجوههم من الغبرة والذلة ، كأنها غُطِّيت بقطع من الليل البهيم المظلم ، فأصبحت كظلمات بعضها فوق بعض ، وتلك الصورة القاتمة المقبضة المحزنة المخزية المؤسفة الأليمة جاءت دلالة على ظلمة قلوبهم ، وسوء أعمالهم ، فالبر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديَّان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ، ويارب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة .

فبادروا بالأعمال الصالحة سبعا ، هل تنتظرون إلا فقرا مُنسيا ، أو غنى مُطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مُفنداً ، أو موتا مجهزا ، أو الدجَّال . فشر غائب يُنتظر أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر .

دنيــاك ســاعات ســراع الزوال ... وإنمــا العقبــى خــلود المــآل
فهــل تبيــع الخــلد يا غافــلا ... وتشــترى دنيــا المنى والضــلال

وبعد أن جوزوا بالسيئة ، وعلت وجوههم قترة ، وخيَّم عليهم الذل والهوان ، وصاروا ما لهم من الله من عاصم ، وغطيت وجوههم بقطع من الليل من شدة ما اكتنفها من ظلمات ، يأتى الحكم عليهم بعد ذلك بالخلود فى هذا العذاب .

وفى ذلك من الآلام النفسية ما فيه بعد الآلام الجسية ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون * لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[(٦)] .

---

(١) الآيات ٤٠-٤٢ من سورة عبس .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الشورى .
(٣) الآية ١٨ من سورة غافر .
(٤) الآيتان ١٦٦، ١٦٧ من سورة البقرة .
(٥) الآيات ٩٤-١٠٤ من سورة الشعراء .
(٦) الآيتان ٧٧، ٧٨ من سورة الزخرف .

إن الحكم عليهم بالخلود يبعث فى النفوس أقصى أنواع الألم ، وأقسى ما يعتمل فى النفس من عذاب ﴿ قالوا ربَّنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾(١).

وقال تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾(٢).

وقال جلَّ شأنه : ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾(٣).

وقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾(٤).

فيا أيها العقلاء اعلموا أن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، والعاقل من أخذ من دار مفره إلى دار مقره ، وعلى كل عاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، ذاكراً الموت . فاليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾(٥)

فاعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

فالسعيد من مات ولا يشقى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾(٦).

تزود من التقوى فإنك راحـل وسـارع إلى الخـيرات فيمـن يسـارع
فمـا المـال والأهـلون إلا ودائـع ولابد يومـا أن ترد الودائـع

من مشاهد القيامة

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

(١) الآيات ١٠٦-١٠٨ من سورة المؤمنون . (٣) الآية ٢٠ من سورة السجدة . (٥) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٢) الآية ٥٦ من سورة النساء . (٤) الآيتان ١٦٨،١٦٩ من سورة النساء . (٦) الآيات ١٢٤-١٢٦ من سورة طه .

المفردات : ﴿ **نحشرهم** ﴾ الحشر : الجمع من كل جانب إلى موقف واحد ، ﴿ **مكانكم** ﴾ : كلمة يراد بها التهديد والوعيد ، أى الزموا مكانكم . ﴿ **زيّلنا** ﴾ : فرقنا وميزنا . ﴿ **تبلو** ﴾ : تختبر ﴿ **ما أسلفت** ﴾ قدّمت ﴿ **وضل** ﴾ : ضاع وذهب .

وهذا مشهد من مشاهد القيامة الصورة فيه صورة حشر وجمع ، التقى الجميع فى صعيد القيامة من جن وإنس وغير ذلك من المخلوقات التى أحاط الله بها علماً ، وأحصاها عدداً قال تعالى ﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً * وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾[٢].

فى هذا المشهد يقول الله تبارك وتعالى للمشركين ومعبوداتهم ألزموا مكانكم ، وذلك من باب التبكيت والتقريع لهم ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾[٣].

قوله تعالى ﴿ **فزيلنا بينهم** ﴾ أى فرقنا بين المؤمنين والمشركين ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾[٤] أى انفصلوا عن المؤمنين ، أو أن يكون المراد فرقنا بين المشركين ومعبوداتهم ، ليعلم المشركون أن المعبود من دون الله لا يملك نفعا ولا ضراً ولا شفاعة ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله ﴾[٥] ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين ﴾[٦] ﴿ فإذا جاءت الطّامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ماسعى * وبرزت الجحيم لمن يرى. فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هى المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأوى ﴾[٧] ﴿ فإذا جاءت الصّاخّة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٨]

قال تعالى : ﴿ ولا يسئل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تئويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه * كلا إنها لظى ﴾[٩] ، ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴾[١٠]

إن الأم تلقى ولدها يوم الحشر فتقول له . يابنى لقد كان بطنى لك وعاء ، وكان حجرى لك غطاء ، وكان ثديى لك سقاء ، فهل أجد معك من حسنة يعود علىّ خيرها اليوم ؟ فيقول : يا أماه. ليتنى أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكين . ويلقى الولد أباه فيقول : يا أبت ، لقد كنت بك برا ، وإليك محسناً ، وعليك مشفقا ، فهل أجد معك من حسنة يعود علىّ خيرها اليوم ؟ فيقول : يا بنى ليتنى

---

(١) الآية ٩٩ من سورة الكهف .
(٢) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الكهف .
(٣) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة المرسلات .
(٤) الآية ٥٩ من سورة يس .
(٥) الآية ١٩ من سورة الانفطار .
(٦) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة المدثر .
(٧) الآيات ٣٤ - ٤١ من سورة النازعات .
(٨) الآيات ٣٣ - ٣٧ من سورة عبس .
(٩) الآيات ١٠ - ١٥ من سورة المعارج .
(١٠) الآيات ٩٨ - ١٠١ من سورة الأنبياء .

أستطيع ذلك ، إننى أشكو مما منه تشكو . اقرأوا إن شئتم قوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدعُ مُثقَلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[١] .

واقرأوا قوله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا * اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون * فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين** ﴾

لقد تبرأ الشركاء من عبادتهم إياهم ، فقد كانت عبادتهم باطلة ، بنيت على زور وبهتان ، وإنما عبدوهم بهوى النفس والشيطان ، فالمعبود بحق هو الله ، والعبادة الحقة إفراد المعبود بالعبادة ، مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا ، لقد تبرأ المعبود من عابده ، إذ المعبود لا يملك شيئا ، ولا يغنى فتيلا ولا نقيرا أو قطميرا ، وسبحان من قال ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾[٣].

﴿ **فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم** ﴾ ولقد قال الله كلمة الفصل وجاء ذلك فى قوله تعالى ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذّبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم ﴾[٤].

ولقد قرر هؤلاء المعبودون أنهم كانوا فى غفلة عن عبادة هؤلاء الضالين ، لأن الكون كله يشهد بضلالهم وبهتانهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ، هنالك تختبر النفوس فى ما قدمت من أعمال إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، لقد ردوا إلى الله مولاهم الحق الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ، وضل عن المشركين وغاب عنهم ماكانوا يفترونه من شركاء ، فلم يغنوا عنهم شيئا .

قال تعالى : ﴿ **هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾

وقال جل جلاله ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٥].

---

(١) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٢) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة فاطر .
(٤) الآيات ٥١ – ٥٥ من سورة الواقعة .
(٥) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

المالك المتصرف هو الله

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ
ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾
فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟
ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن
شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن
لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ
لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بعد أن بين جنايات المشركين على أنفسهم ، وبين فساد معتقداتهم ، وما سيلقونه من الجزاء على ما فعلوا ، قفى على ذلك بإقامة الحجج على المشركين فى إثبات التوحيد والبعث ، ثم أردفه بإثبات النبوة والرسالة والقرآن .

﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ : أى قل أيها الرسول لهؤلاء المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله عليكم من الأمطار ومن الأرض بما ينبته من شتى النباتات ، من نجم وشجر ، تأكلون منه ، وتأكل أنعامكم .

﴿ **أم من يملك السمع والأبصار** ﴾ أى وقل لهم : من يملك ما تتمتعون به من حاستى السمع والبصر ، وأنتم بدونها لا تدرون شيئاً من أمور العالم ، وتكون الأنعام والهوام بل الشجر خيراً منكم باستغنائها عمن يقوم بضرورات معاشها .

وخص هاتين الحاستين بالذكر ، لأن عليهما مدار الحياة الحيوانية ، وكمال الحياة الإنسانية ، إذ بهما تحصيل العلوم الأولية .

من خلق هذه الحواس ووهبها للناس ، وحفظها مما يعتريها من الآفات ؟

ولاشك أن الجواب عن ذلك السؤال لاحاجة فيه إلى الفكر فإن هم تأملوا فى ذلك ازدادوا علماً وإعجاباً بإنعام الله بهما ، وإيمانا بأنه لا يقدر غيره على إيجادهما .

﴿ **ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى** ﴾ أى ومن ذا الذى بيده أمر الموت والحياة . فيخرج الحى من الميت والميت من الحى فيما تعرفون من المخلوقات ، ومالا تعرفون ، فالله هو الذى يخرج النبات من الأرض الميتة ، بعد إحيائه إياها بماء المطر النازل عليها من السماء ، كما قال تعالى ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾[1]

وعلامة الحياة فى النبات النمو ، وفى الحيوان النمو والإحساس والحركة بالإرادة . ولم يكونوا يصفون أصول الإحياء بالحياة كالحب والنوى وبيض الحيوان ومنيّه ، ومن ثم مثلها إخراج الحىّ من الميت والميت من الحى ، بخروج النخلة من النواة ، والطائر من البيضة وعكسهما ، وهو تفسير صحيح عند علماء اللغة ، غير صحيح عند علماء المواليد الثلاثة ، وبه تحصل الدلالة على قدرة الله وحكمته وتدبيره ورحمته لدى المخاطبين .

وإذا كان أرباب الفنون أثبتوا أن فى أصول النبات كالبذور والنوى والبيض والمنىّ حياة ، فهم يثبتون أيضاً أن أصول الأحياء فى الأرض كلها خرجت من مادة ميتة ، فقد قالوا : إن الأرض كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ، ثم صارت ماء ، ثم نبتت اليابسة فى الماء ، ثم تكون من الماء النبات والحيوان فى أطوار شتى .

وقالوا أيضا إن الغذاء من الطعام الميت الذى يُحرق بالنار ، ويتولد منه الدم ، ومن هذا الدم يكون البيض والمنى المشتملان على مادة الحياة .

وقالوا أيضاً : إن بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرهما ، مما يفرزه البدن وتتجدد فيه مواد جديدة ، تحل محل ما خرج منها وفنى .

الخلاصة : إن علماء المواليد قالوا : الحى لا يخرج إلا من حى ، ولكن الحياة الأولى هى من خلق الله الحى بذاته المحيى لغيره .

﴿ **ومن يدبر الأمر** ﴾ أى ومن يلى تدبير أمر الخليقه جميعاً بما أودعه فى كل منهما من السنن ، وقدره من النظام .

﴿ **فسيقولون الله** ﴾ أى فسيجيبون عن هذه الأسئلة الخمسة بلا تلعثم ولا تلكؤ . بأن فاعل هذا كله هو الله رب العالم كله ومليكه . إذ لا جواب غيره ، وهم لا يجحدون ذلك ولا ينكرونه .

﴿ **فقل أفلا تتقون** ﴾ أى فقل لهم أيها الرسول : أفلا تتقون سخطه وعقابه لكم ، بشرككم وعبادتكم لغيره ممن لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً .

(١) الآية ٢١ من سورة الزمر .

﴿ **فذلكم الله ربكم الحق** ﴾ أى فذلكم المتصف بكل تلك الصفات السالفة هو الله المربى لكم بنعمه ، والمدبر لأموركم ، وهو الحق الثابت بذاته ، الحى المحيى لغيره ، المستحق للعبادة دون سواه .

﴿ **فماذا بعد الحق إلا الضلال** ﴾ أى فماذا بعد الرب الحق الثابت ربوبيته إلا الضلال ، أى الباطل الضائع المضمحل ، فالذى يفعل تلك الأمور هو الرب الحق ، وعبادته وحده هى الهدى ، وماسواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، وكل من يعبد غيره معه فهو مشرك مبطل ضال .

﴿ **فأنى تصرفون** ﴾ أى فكيف تتحولون عن الحق إلى الباطل ، وعن الهدى إلى الضلال ، مع علمكم بما كان به الله هو الرب الحق ، فما بالكم تقرون بتوحيد الربوبية دونه توحيد الألوهية ، فتتخذون مع الله آلهة أخرى .

﴿ **كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا** ﴾ أى مثل ذلك الذى حقت به كلمة ربك من وجوه الربوبية والألوهية وكون الحق ليس بعده لمن تنكب عنه إلا الضلال ، حقت كلمة ربك : أى وعيده على الذين خرجوا من حظيرة الحق ، وهو توحيد الألوهية والربوبية ، وهداية الدين الحق .

﴿ **أنهم لا يؤمنون** ﴾ أى هى أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم إليه رسلنا من التوحيد والهدى ، ومهما تكن الآية بينة والحجة ظاهرة قوية .

وليس المراد أنه يمنعهم من الإيمان بالقهر ، بل هم يمتنعون منه باختيارهم لفقدهم نور البصيرة ، واستغلال العقل ، فلا يتوجهون إلى التمييز بين الحق والباطل والهدى والضلال ، لرسوخهم فى الكفر واطمئنانهم به بالتقليد ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده . قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون** ﴾ .

هذا ضرب آخر من الحجة ، أقامهُ سبحانه دليلا على توحيده ، وبطلان الإشراك به ، جاء بطريق السؤال للتوبيخ ، وإلزام الخصم ، فإن الكلام إذا كان ظاهراً جلياً ثم ذكر على سبيل الاستفهام وفوّض الجواب إلى المسئول يكون أوقع فى النفس ، وأبلغ فى الدلالة على الغرض .

﴿ **قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله ، أو من دون الله من الأصنام أو الأرواح الحالة فيها كما تزعمون ، أو الكواكب السيارة ، أو غيرها من الأحياء كالملائكة والجن ، من له هذا التصرف فى الكون يبدأ الخلق فى طور ، ثم إعادته فى طور آخر ؟

---

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

ولما كانوا لا يجيبون عن هذا السؤال كما أجابوا عن الأسئلة الأولى لإنكارهم للبعث والمعاد ، لقن الله رسوله الجواب فقال :

﴿ قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ إذ القادر على بدء الخلق يكون قدرا على إعادته بالأولى ، وهم ينكرون إعادة الأحياء الحيوانية ، دون الأحياء النباتية ، إذ هم يشاهدون بدء خلق النبات فى الأرض حين ما يصيبها ماء المطر فى فصل الشتاء ، وموته بجفافها فى فصل الصيف والخريف ، ثم إعادته بمثل ما بدأه مرة بعد أخرى ، ويقرون بأن الله هو الذى يفعل البدء والإعادة ، لأنهم يشاهدون كلا منهما ، وهم لا يسلمون إلا بما يرون بأعينهم ، أو يلمسونه بأيديهم .

وقد أمر الله رسوله أن يرشدهم إلى جهلهم وينبههم للتفكير فى أمرهم فقال ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أى فكيف تصرفون من الحق الذى لا محيد عنه وهو التوحيد إلى الضلال البيّن وهو الإشراك وعبادة الأصنام ، وذلك من دواعى الفطرة ، وخاصة العقل حين تفكيره فى المصير .

ثم جاء باحتجاج آخر على ما ذكره ، إلزاما لهم عقب الإلزام الأول ، فسألهم عن شأن من شئون الربوبية المقتضى لاستحقاق الألوهية ، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية ، فقال :

﴿ قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هل من أولئك الشركاء من يهدى إلى الحق بوجه من وجوه الهداية التى بها تتم حكمة الخلق ، كما يدل على ذلك قوله ﴿ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾(١) .

والهداية أنواع : هداية الغريزة والفطرة التى أودعها الله فى الإنسان والحيوان ، وهداية الحواس من سمع وبصر ونحو ذلك ، وهداية التفكير والاستدلال بوساطة هذه الوسائل ، وهداية الدين وهو للنوع البشرى فى جملته بمثابة العقل للأفراد ، وهداية التوفيق الموصل بالفعل إلى الغاية بتوجيه النفس إلى طلب الحق ، وتسهيل سبله ، ومنع الصوارف عنه .

ولما كانوا لا يستطيعون أن يدّعوا أن أحداً من أولئك الشركاء يهدى إلى الحق ، لا من ناحية الخلق ، ولا من ناحية التشريع ، لقن الله رسوله الجواب فقال :

﴿ قل الله يهدى للحق ﴾ أى قل هو الله سبحانه الذى يهدى إلى الحق دون غيره ، بما نصب من الأدلة والحجج ، وأرسل من الرسل ، وأنزل من الكتب ، وهدى إلى النظر والتدبر ، وأعطى من الحواس .

﴿ أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يُتّبع أم من لا يَهِدّى إلاّ أن يهدى ﴾

قرأ يعقوب وحفص (يهدى) بكسر الهاء وتشديد الدال ، وأصله يهتدى ، أى أفمن يهدى إلى الحق

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .

ومن الله أحق أن يتبع فيما يشرعه ، أم من لايهدى غيره ولا يهتدى لنفسه إلا أن يهديه غيره . وهو [illegible] تعالى [illegible] لا يهدى غيره

ويدخل فيمن نفى عنهم الهداية ممن اتخذوا شركاء – المسيح عيسى بن مريم ، وعزير ، والملائكة . وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه ، كما قال تعالى فى سورة الأنبياء ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ﴾(١).

﴿ **فما لكم كيف تحكمون** ﴾ أى أىّ شىء أصابكم ، وماذا حلّ بكم حتى اتخذتم هؤلاء شركاء ، وجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذى لا خالق ولا رازق ولا هادى لكم سواه ، كيف تحكمون جواز عبادتهم وشفاعتهم عنده بدون إذنه .

وفى هذا تعجيب من حالهم ، وسوء صنعيهم ، وقبيح فعلهم .

وبعد أن أقام الحجج على توحيد الربوبية والألوهية ، بين حال المشركين الاعتقادية فقال :

﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظناً** ﴾ أى أكثرهم لا يتبعون فى شركهم وعبادتهم لغير الله ، وإنكارهم للبعث وتكذيبهم للرسول عليه الصلاة والسلام . إلا ضرباً من ضروب الظن ، قد يكون ضعيفاً ، كأن يقيسوا غائباً على شاهد ، ومجهولاً على معروف ، ويقلدوا الأباء اعتقاداً منهم أنهم لا يكونون على باطل فى اعتقادهم ، ولاضلال فى أعمالهم .

وقليل منهم كان يعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق . والهدى ، وأن أصنامهم وسائر معبوداتهم لا تضر ولا تنفع ، ولكنهم يجحدون بآيات الله ، ويكذبون رسوله ﷺ عناداً واستكباراً وخوفاً على زعامتهم أن تضيع سدى ، فيصبحون تابعين بعد أن كانوا متبوعين .

ثم بين حكم الله فى الظن فقال : ﴿ **إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً** ﴾

الحق هو الثابت الذى لاريب فيه فى ثبوته وتحقيقه ، أى أن الشك لا يقوم مقام اليقين فى شىء ، ولا يتنفع به حيث يحتاج إلى اليقين .

إن الظن لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين فيما يطلب فيه ذلك ، كالعقائد الدينية ،ولهذا أرى أن إيمان المقلد غير صحيح(٢).

﴿ **إن الله عليم بما يفعلون** ﴾ أى أن الله عليم بما كانوا يعملون بمقتضى اعتقاداتهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها ، كتكذيبهم للرسول ﷺ مع قيام الأدلة القطعية على صدقه ، واتباعهم للظن كالتقليد بإتباع الأباء والأجداد .

---

(١) الآية ٧٣ من سورة الأنبياء .

(٢) وفى هذه القضية آراء كثيرة .

وفى الآية إيماء إلى أن أصول الإيمان تبنى على اليقين دون الظن ، فالعلم المفيد للحق ما كان قطعياً من كتاب أو سنة ، وهو الدين الذى لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، وما دونه مما لا يفيد إلا الظن فلا يؤخذ به فى الاعتقاد ، وهو متروك للاجتهاد فى الأعمال : اجتهاد الأفراد فى الأعمال الشخصية ، وإجتهاد أولى الأمر فى القضاء ، مع سلوك طريق الشورى حتى يتحقق العدل والمساواة فى المصالح العامة .

القرآن لاريب فيه من رب العالمين

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾

بعد أن ذكر عز اسمه الأدلة على أن القرآن من عنده ، وأن محمداً ﷺ عاجز كغيره عن الإتيان بمثله ، ثم أتى بالحجج على بطلان شركهم ، واتباع أكثرهم لأدنى الظن وأضعفه فى عقائدهم ، عاد إلى الكلام فى تفنيد رأيهم فى الطعن على القرآن بمقتضى هذا الظن الضعيف لدى الأكثرين منهم ، والجحود والعناد من الأقلين ، كالزعماء والمستكبرين .

قوله تعالى ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ أى لا يصح ولا يعقل أن يفتريه أحد على الله من دونه ، وينسبه إليه ، إذ لا يقدر على ذلك غيره عز وجل ، فإن ما فيه من علوم عالية ، وحكم سامية ، وتشريع عادل ، وآداب اجتماعية ، وإنباء بالغيوب الماضية والمستقبلة ، ليس فى طوق البشر ، ولا هو داخل تحت قدرته ، وفى حيز مكنته ، ولئن سلم أن بشراً فى مكنته ذلك فلن يكون إلا أرق الحكماء والأنبياء والملائكة ، ومثل هذا لن يفترى على الله شيئاً .

ولقد ثبت أن أشد أعداء النبى ﷺ هو أبو جهل ، قال : إن محمداً لم يكذب على بشر قط ، أفيكذب على الله ؟

﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ أى ولكن كان تصديق الذى تقدمه من الوحى لرسل الله تعالى بالإجمال ، كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله عليهم ، بدعوته إلى أصول الدين الحق : من الإيمان بالله واليوم الآخر ، وصالح الأعمال ، بعد أن نسى بعض هذا بقية أتباعهم ، وضلوا عن بعض ، ولم يكن محمد النبى الأمى يعلم شيئاً من ذلك لولا الوحى من ربه .

﴿ **وتفصيل الكتاب** ﴾ أى وتفصيل ما كتب وأثبت من الشرائع والأحكام ، والعبر والمواعظ ، وشئون الاجتماع .

﴿ **لاريب فيه** ﴾ أى لا ينبغى لعاقل أن يرتاب فيه ، لوضوح برهانه لأنه الحق والهدى .

﴿ **من رب العالمين** ﴾ أى من وحيه ، لا افتراء من عند غيره ، **فلا اختلاف فيه** كما قال تعالى ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيرا ﴾(١).

وبعد أن أبان أنه أجل وأعظم من أن يفترى لعجز الخلق عن الإتيان بمثله ، انتقل إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعاندين الذين قالوا : إن محمداً ﷺ قد افتراه ، وفنَّد مزاعمهم ، وتعجب من حالهم ، وشنيع مقالهم ، وتحداهم أن يأتوا بمثله فقال : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين۝بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾

أى ما كان ينبغى أن تقولوا إن محمداً ﷺ افتراه من عند نفسه واختلقه ، إذ لو كان الأمر كما تقولون وأنه اختلقه وافتراه ، فأتوا بسورة مثله فى نظمه وأسلوبه وعلمه ، وافترُوها فى موضوعها ، لا تلتزمون أن تكون حقا فى أخبارها ، فإن لسانه لسانكم ، وكلامه كلامكم ، وأنتم أشد مرانا وتمرساً للنثر والنظم منه ، واطلبوا من يعينكم على ذلك من دون الله — ولن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا — فإن جميع الخلق عاجزون عن هذا ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضم لبعض ظهيرا ﴾(٢) إن كنتم صادقين فى زعمكم أنه مفترى .

وإذ قد عجزتم عن ذلك مع شدة تمرّسكم ، ولم يوجد فى كلام أولئك الذين نصبت لهم المنابر فى سوق عكاظ ، وبهم دارت رحى النظم والنثر ، وتقضت أعمارهم فى الإنشاء والإنشاد مثله ، فهو ليس من كلام البشر ، بل هو من كلام خالق القوى والقدر .

ومن البين أنه ما كان لعاقل مثله — ﷺ — أن يتحداهم هذا التحدى لو لم يكن موقناً أن الإنس والجن لايستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى جملته ولا سورة مثله ، إذ لو كان هو الذى أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه لكان عقله وذكاؤه يمنعانه من الجزم بعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة والباطنة عن الإتيان بسورة مثل ما أتى هو به .

إذ العاقل الفطن يعلم أن مايمكنه من الأمر قد يمكن غيره ، بل ربما وجد من هو أقدر منه عليه .

والخلاصة : أن محمدا ﷺ كان على يقين من عند ربه ، وأنه ﷺ كغيره لا يقدر على الإتيان بمثله .

ثم انتقل من إظهار بطلان ما قالوه فى القرآن بتحديه لهم ، إلى إظهار بطلان قولهم هذا ببيان أن كلامهم ناشىء من عدم علمهم بحقيقة أمره ، واختبار حاله ، فقال :

(١) الآية ٨٢ من سورة النساء . (٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ أى بل هم سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبروا ما فيه ، ويقفوا على ما احتوى عليه من الأدلة والبراهين الدالة على أنه كما وصف آنفا ، ومن قبل أن يعلموا أنه ليس مما يمكن أن يؤتى بمثله

﴿ **ولما يأتهم تأويله** ﴾ أى ولم يأتهم إلى الآن ما يئول إليه ويكون مصداقا له بالفعل ، ويقع ما أخبر به من الأمور المستقبلة .

وخلاصة ذلك – أنهم على إعجاز القرآن من جهة اللفظ والمعنى والإخبار بالغيب – قد أسرعوا فى تكذيبه قبل أن يتدبروا أمره ، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به – وفى تكذيب الشىء قبل علمه المتوقع حصوله – شناعة وقصر نظر لاتخفى على عاقل ، وفيه دليل على أنهم متعمدون .

﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾ أى مثل هذا التكذيب بلا تدبر ولا تأمل كذب الذين من قبلهم من مشركى الأمم رسلهم ، بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذى أوعدهم به .

﴿ **فانظر كيف كان عاقبة الظالمين** ﴾ أى فانظر أيها الرسول الكريم كيف كان عاقبة الظالمين لأنفسهم بتكذيب رسلهم ، لتعلم مصير من ظلموا أنفسهم من بعدهم ، وهذه العاقبة هى التى بينها الله فى قوله : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1]

وقد أنذر الله قوم محمد ﷺ بمثل ما نزل بالأمم قبلهم فى الدنيا بهذه الآية وغيرها من هذه السورة ، كما أنذرهم عذاب الآخرة ، وكذبه المعاندون المقلدون فى كل ذلك ظناً منهم أنه لايقع .

موقفه صلى الله عليه وسلم
من المكذبين

وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤٠) وَإِن كَذَّبُوكَ
فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٤١) وَمِنْهُم
مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ (٤٢) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ
أَفَأَنتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ (٤٣) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ

(١) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ
قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ
رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ
أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا
مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ
تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ
تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ
لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ
بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به وربك أعلم بالمفسدين** ﴾

هذا إخبار منه – جلَّ فى علاه – بأن من الذين أرسل إليهم رسول الله ﷺ من يؤمن بهذا القرآن العظيم ، ويصدق بما فيه تصديقاً جازما لالبس فيه ولاغموض ، كما أن منهم من لايؤمن به ، ويدعى أنه مفترى من دون الله ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالمفسدين المكذبين الذين عشش الشيطان فى رءوسهم فباض فيها الإلحاد وفرَّخ فيها الزندقة . والذين قال فيهم : ﴿ إن الذين حقَّت عليهم كلمة ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾(1) .

وقال فيهم ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكِّرت أبصارنا بل

(1) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

نحن قوم مسحورين ﴾[١]. وقال فيهم : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[٢].

ولقد بيَّن الله تعالى لرسوله الكريم كيف يقف من هؤلاء المكذبين فقال ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾

وهذا منطق الحق المبين بلسان اليقين ، إذ الحق أبلج ، والباطل لجلج ، ومهما عربد الباطل فى عرصات الأرض فلسوف يدفعه الحق فإذا هو زاهق ، ولن يضر السحاب نبح الكلاب . والناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شراً فشر ، فإن كذبك هؤلاء المعاندون فقل لهم ﴿ **لى عملى ولكم عملكم** ﴾ ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى . وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[٣]. ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[٤]. ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[٥].

﴿ **أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾ ذلك كقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾[٦] إلى آخرها . وكقول الخليل إبراهيم ومن معه لقومهم المشركين ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[٧].

قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون * إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ :

فى هذه الآيات يبين جلّت حكمته أن من هؤلاء المكذبين من يستمعون إليك وأنت تقرأ عليهم من آى الذكر الحكيم ، والقرآن العظيم ، والأحاديث التى تبين الأحكام ، وتصحح المفاهيم لكنهم إذا استمعوا لا يستمعون بقصد الاستجابة والعمل ، إنما تسمع الآذان وبينها وبين القلوب حجاب ، قال تعالى : ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾[٨]

ولقد أدَّب الله عباده المؤمنين بأدب الاستماع فقال : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم

(١) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .
(٣) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٤) الآية ٣٨ من سورة المدثر .
(٥) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٦) الآيات ١ - ٣ من سورة الكافرون .
(٧) الآية ٤ من سورة الممتحنة .
(٨) الآية ١٦ من سورة محمد .

ترحمون ﴾[١]. ونهاهم أن يتشبهوا بهؤلاء الذين إذا أسمعوا لايستجيبون فقال سبحانه ﴿ ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولاتولوا عنه وأنتم تسمعون * ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ﴾[٢].

وقد بين الله حال هؤلاء المعرضين فى قوله ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[٣].

﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[٤]

﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لايعقلون ﴾

إذ كيف يتأتى لبشر أن يسمع الأصم وأن يهدى المجنون ﴿ أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ﴾[٥]، إن عليك إلا البلاغ المبين .

ومنهم من ينظر إليك وإلى وجهك الوضّاء ، وما أنت عليه من خلق عظيم ، وما حباك الله به من منح ودرجات وحسن سمت واستقامة سلوك ، ومع ذلك لايهتدى ولايقتدى ، بل ينظر نظر سخرية واستهزاء . قال تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا . أهذاالذىبعث الله رسولا ﴾[٦].

وفى آية أخرى ﴿ وإذ رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم ﴾[٧].

فلايكن فى صدرك حرج مما يقولون ﴿ **أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لايبصرون** ﴾ ﴿ إنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾[٨]

لقد بلَّغت وأديت ونصحت . ﴿ وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا ﴾[٩].

وقد بعثت بالحنيفية السمحة ، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك ، ولن يقبضك الله إليه حتى يقيم بك الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صُماً ، وقلوبا غلفا

﴿ **إن الله لايظلم الناس شيئا** ﴾ إذ هو الحكم العدل ، حرَّم الظلم على نفسه كما حرَّمه على عباده ، جاء فى الحديث عن أبى ذر عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه عزَّ وجلَّ [يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا] إلى أن قال فى آخره « يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[١٠]رواه مسلم

(١) الآية ٢٠٤ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .
(٣) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٥) الآية ٤٠ من سورة الزخرف .
(٦) الآية ٤١ من سورة الفرقان .
(٧) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء .
(٨) الآيتان ٨٠ ، ٨١ من سورة النمل .
(٩) الآية ٧٩ من سورة النساء .
(١٠) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) .

نعم لا يلومن . إلا نفسه . قال تعالى : ﴿ **ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾ ومعاذ الله أن يظلم مثقال ذرة ، وهو الذى سمى نفسه الحق ، فقال : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾(١) . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾(٢) .

ثم ينتقل بنا الحديث بعد ذلك إلى ساحة الحساب فيبين لنا حال هؤلاء الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا لما كذَّبوا بلقاء الله ، قال تعالى :

﴿ **ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين** ﴾ .

هذا مشهد رهيب وموقف مهيب من مواقف الحشر وساحات الحساب ، إنهم عندما يُحشرون يستقصرون أعمارهم فى الدنيا ، كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار . قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ﴾(٣) . وقال جلَّ شأنه : ﴿ ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾(٤) . وكقوله جلَّ شأنه : ﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾(٥) وقال جلَّ شأنه : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾(٦) .

فالدنيا مهما طال عمرها فعمرها قصير وخطرها حقير . قال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾(٧) .

فالدنيا دار مفر والآخرة دار مقر والعاقل من يأخذ من مفره إلى مقره فلا أمان لدنيا أولها بكاء وأوسطها عناء وآخرها فناء ، وليعلم كل عاقل أن ميت الغد يشيع ميت اليوم .

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يوما على آلة حدباء منقول
فإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

نعم كأن لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها :

تالله لو عاش الفتى فى دهره ... ألفا من الأعوام مالك أمره
متنعما فيها بكل نفيسة ... متلذذاً فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة ... كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى ... بمبيت أول ليلة فى قبره

فالدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، إنهم عندما يجتمعون فى ساحة الحشر يتعارفون بينهم فيعرف

(١) الآية ٢٥ من سورة النور . (٤) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف (٦) الآية ٤٦ من سورة النازعات .
(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة . (٥) الآيات ١٠٢ - ١٠٤ من سورة طه . (٧) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون
(٣) الآية ٥٥ من سورة الروم .

بعضهم بعضا لكن كل واحد مشغول بشأنه ﴿ ولا يسئل حميم حميما * يبصّرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه كلا ﴾[١]. ﴿ فإذا جاءت الصاخّة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٢]

قوله تعالى : ﴿ **قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين** ﴾ :

وأى خسران أشد من هذا الخسران ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾[٣].

وأى هوان أشد من هذا الهوان ، إنهم لما كذبوا بلقاء الله شقوا ، وأى شقاء أشد من حالهم الذى هم فيه . قال تعالى : ﴿ **وما كانوا مهتدين** ﴾ إذ لو اهتدوا لزادهم الله هدى وما كذبوا بلقاء الله وإنما كانت قلوبهم ستمتلئ يقينا بأن لقاء الله حق فأحبوا لقاء الله ، ومن أحب لقاء الله أحب لقاءه .

قوله تعالى : ﴿ **وإما نُرينَّك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون . ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ﴾ .

يخبر الله تعالى رسوله ومصطفاه أنه سيُرى هؤلاء المكذبين بعض الذى وعدهم من الانتقام والعذاب فى الدنيا حتى تقرعيون المؤمنين بوعد الله ، وقد حدث ذلك عندما أخذهم الله بالسنين ، وأوقع بهم الهزائم ، فإن توفيناك يا محمد فإنهم لن يفلتوا منا يوم الحساب ، فإلينا مرجعهم والله تعالى خير شهيد على أفعالهم ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين . يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد . ألم تر أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، إن الله بكل شيء عليم ﴾[٤].

فى هذا اليوم العظيم يكون لكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى الله بينهم بالقسط ، قال تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ﴾[٥].

وقال جلّ شأنه : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[٦]. وقال

(١) الآيات ١٠ – ١٥ من سورة المعارج .
(٢) الآيات ٣٣ – ٣٧ من سورة عبس .
(٣) الآية ٣١ من سورة الأنعام .
(٤) الآيات ٥ – ٧ من سورة المجادلة .
(٥) الآيتان ٦٨ ، ٦٩ من سورة الزمر .
(٦) الآية ٤١ من سورة النساء

جلَّ شأنه : ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾[١].

وأول الأمم التى يقضى بينها يوم القيامة أمة نبينا محمد ﷺ إكراما لنبينا كما جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق)[٢] فأمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين .

قوله تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾

هذا سؤال أرادوا به استعجال الساعة تهكما منهم بأمر الله تعالى ، قال جلَّ شأنه : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾[٣]. وقد جاء الجواب على سؤالهم هذا متمثلا فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ﴾[٤] أى ﴿ ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾[٥] وذلك كقوله جلَّ شأنه : ﴿ يسألونك عن الساعة أيَّان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[٦].

قوله تعالى : ﴿ **لكل أمة أجل** ﴾ أى زمان مقدر ، وحين معلوم ، إذا حان هذا الأجل ، ونزل بهم القدر المحتوم والمصير المقدور فلا يستأخرون ساعة عن أجلهم ، ولا يستقدمون عنه ساعة ، لكل أجل كتاب .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون * أثُمَّ إذا ما وقع آمنتم به ءآلئن وقد كنتم به تستعجلون * ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله ومصطفاه : ﴿ **قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا** ﴾ وهذا خطاب موجه إلى الذين يستعجلون الساعة وهم مكذبون بها : ماذا أنتم فاعلون باستعجالكم إذا نزل العذاب بكم ليلا أو نهاراً ، وما الذى يستعجل به المجرمون إذا نزل بهم العذاب ، فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا : إنا كنا ظالمين ، قال تعالى :

(١) الآية ٧١ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٥٤) وفى الأيمان (١) وفى الرؤيا (٤٠) وفى التوحيد (٣٥) . ومسلم فى الجمعة (١٩ – ٣٣) . والنسائى فى الجمعة (١) وابن ماجه فى الإقامة (٧٨) وفى الزهد (٣٤) . والدارمى فى المقدمة (٨) .

(٣) الآية ١٨ من سورة الشورى . (٤) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف . (٥) الآية ٥٧ من سورة الأنعام .

(٦) الآيتان ١٨٧ ، ١٨٨ من سورة الأعراف .

﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ﴾(١)

ثم إذا ما وقع بكم العذاب آمنتم به . قال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾(٢). وقال جلَّ شأنه فى أمر فرعون ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إلٓه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين * ءآلئن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾(٣).

ثم يقال يوم القيامة للكافرين الجاحدين المعاندين : ﴿ **ذوقوا عذاب الخلد** ﴾ وذلك مقتضى العدالة الإلٓهية ﴿ **هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون** ﴾ ذلك بما قدَّمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .

قوله تعالى : ﴿ **ويستنبؤنك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين * ولو أن لكل نفسى ظلمت ما فى الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون** ﴾ .

لقد كانوا يطلبون الأخبار من رسول الله عن هذا السؤال المتعلق بالبعث بعد الموت : ﴿ **أحق هو** ﴾ أى ﴿ إذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾(٤) ﴿ **وأقسموا بالله جهدا أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾(٥)

﴿ ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن** نقول له كن فيكون ﴾(٦).

ولقد أجاب الرسول ﷺ كما أمره الله فى قوله : ﴿ **قل إى وربى إنه لحق** ﴾ كما أجاب فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ﴾(٧) وفى قوله تبارك اسمه : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾(٨)

قوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ أى وما بعثكم يوم الحشر والحساب بمعجز لنا . ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾(٩).

ويوم القيامة يود الظالمون لو أن لأحدهم ملء الأرض ذهبا لافتدى به من سوء العذاب ، لكنهم

---

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .
(٣) الآيات ٩٠ - ٩٢ من سورة يونس .
(٤) الآية ٤٩ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٣٨ من سورة النحل .
(٦) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة النحل .
(٧) الآية ٣ من سورة سبأ .
(٨) الآية ٧ من سورة التغابن .
(٩) الآيات ٧٧ - ٧٩ من سورة يس .

عندما يجدون حقائق القيامة ماثلة أمام العيون يُسرون الندامة . والله تعالى يقضى بينهم بالقسط . وهم لا يُظلمون ، والله يقضى بالحق وهو يهدى السبيل .

قوله تعالى : ﴿ **ألا إن لله ما فى السماوات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون * هو يحيى ويميت وإليه ترجعون** ﴾

وهذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الذى يملك السماوات والأرض ، قادر على أن يعيد الأجسام بعد فنائها : ﴿ أو ليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[1] ﴿ **ألا إن وعد الله حق** ﴾ ، ﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون * أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون** ﴾[2]

قوله تعالى ﴿ **هو يحيى ويميت وإليه ترجعون** ﴾ جاءت هذه الآية كالنتيجة بعد المقدمات ، فإن الذى ملك السماوات والأرض وما بينهما قادر على أن يحيى ويميت ، فهو المحيى المميت الرافع الخافض الباسط القابض الوارث الباعث المعز المذل الأول والآخر ، الظاهر والباطن الجبار ذو القوة المتين ، فالرجوع إليه وحده لا شريك له ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[3].

القرآن شفاء لما فى الصدور

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

المفردات : ﴿ **موعظة** ﴾ العظة : الوصية بالحق والخير ، واجتناب الباطل والشر . ﴿ **شفاء** ﴾ الشفاء : الدواء ﴿ **وهدى** ﴾ الهدى : بيان الحق المنقذ من الضلال ﴿ **ورحمة** ﴾ الرحمة : الإحسان ﴿ **بفضل الله** ﴾ فضل الله : هو توفيقهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والهدى ﴿ **برحمته** ﴾ رحمته : هى الثمرة التى نتجت من ذلك وبها فضلوا جميع الناس .

بعد أن ذكر الأدلة على أسس الدين الثلاثة وهى الوحدانية والرسالة والبعث ، قفى على ذلك بذكر التشريع العملى ، وهو القرآن الكريم ، وقد أجمل مقاصد هذا التشريع فى أمور أربعة :

يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾

(١) الآيات ٨١ : ٨٣ من سورة يس . (٢) الآية ٦ — ٨ من سورة الروم . (٣) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .

أى يا أيها الناس قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون إليه من المقاصد الخمسة التى تصلح حالكم وأنفسكم ، والشفاء للأمراض الباطنية والهداية الواضحة للصراط المستقيم الذى يوصل لسعادة الدنيا والآخرة والرحمة الخاصة للمؤمنين من رب العالمين .

وخلاصة إن الآية الكريمة أجملت إصلاح القرآن الكريم لأنفس البشر فى أربعة أمور :

١ – **الموعظة الحسنة** : بالترغيب والترهيب بذكر ما يرقق القلب ، فيبعثه على الفعل أو الترك ، وقد جاء فى معنى الآية قوله : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾(١) وقوله ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾(٢) .

٢ – **الشفاء لما فى القلوب** : من أدواء الشرك والنفاق وسائر الأمراض التى يشعر من أجلها بضيق الصدر ، كالشك فى الإيمان والبغى والعدوان وحب الظلم وبغض الحق والخير .

٣ – **الهدى إلى طريق الحق** : واليقين والبعد من الضلال فى الاعتقاد والعمل .

٤ – **الرحمة للمؤمنين** : وهى ما تثمر لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم ، ومن آثارها بذل المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وكف الظلم ، ومنع التعدى والبغى ، وإجمال ذلك : أن موعظة القرآن وشفاءه لما فى الصدور من أمراض الكفر والنفاق وجميع الرذائل ، وهداه إلى الحق والفضائل موجهات إلى أمة الدعوة ، وهم جميع الناس ، والمؤمنون قد اختصوا بما تثمره هذه الصفات الثلاث من الرحمة ، لأنهم هم الذين ينتفعون بها .

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يبلغ المؤمنين بأن يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الإيمان ، وبالرحمة الخاصة بهم ، الجامعة لكل ما ذكر قبلها من مقاصد الشريعة ، فقال سبحانه ﴿ **قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا** ﴾ أى قل لهم : ليفرحوا بفضل الله وبرحمته ، أى إن كان شيء فى الدنيا يستحق ان يفرح به فهو فضل الله ورحمته .

روى ابن مردويه وأبو الشيخ عن أنس مرفوعاً « فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله »
وعن الحسن والضحاك وقتاده ومجاهد « فضل الله الايمان ورحمته القرآن » .

﴿ **هو خير مما يجمعون** ﴾ أى إن الفرح بهما أفضل وانفع مما يجمعونه من الذهب والفضة والأنعام والحرث والخيل المسومة ، وسائر خيرات الدنيا ، لأنه هو سبب السعادة فى الدارين ، وتلك سبب السعادة فى الدنيا الزائلة فحسب ، فقد نال المسلمون فى العصور الأولى بسببه الملك الواسع والمال الكثير مع الصلاح والإصلاح ، مما لم يتسن لغيرهم من قبل ولا من بعد .

وبعد أن جعلوا ديدنهم جمع ومتاع الدنيا ، ووجهوا همتهم إليه ، وتركوا هداية القرآن فى إتقانه والشكر عليه ، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدى أعدائهم .

(١) الآية ٢٣١ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .

إفحام المفترين

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

مقتضى التوحيد الحق أن يعتقد المسلم أن الذى يملك التحليل والتحريم هو الله وحده ، ومن هنا فإن الله تعالى يأمر حبيبه ومصطفاه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين ﴿ **أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ، فجعلتم منه حراماً وحلالا** ﴾ أى أخبرونى لماذا حرمتم أشياء قد أحلها الله ، وأحللتم أخرى قد حرمها الله ، لقد حرمتم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، وشرعتم فى الأنعام والحرث تشريعا ما أنزل الله به من سلطان .

والله تعالى يقول فى سورة المائدة : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لايعقلون * وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾[١] .

وكما جاء فى قوله تعالى فى سورة الأنعام ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾[٢]

وكما فى قوله تعالى ﴿ وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾[٣]

إن هؤلاء الذين حرموا وأحلوا تبعا لأهوائهم وأنفسهم المريضة ، يلقى الله تعالى عليهم باللائمة ، فيقول : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[٤].

ويقول سبحانه ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾[٥]

سلهم يا محمد وقل لهم ﴿ **آلله أذن لكم أم على الله تفترون** ﴾ فإذا كان الله تعالى لم يأذن لهم بذلك

(١) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المائدة .
(٢) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام .
(٣) الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩ الأنعام .
(٤) الآية ٣١ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٢١ من سورة الشورى .

لأنه تعالى لا يشرك فى حكمه أحداً ، فبقى القسم الآخر وهو افتراؤهم على الله ، فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا

ثم يبين تعالى الوعيد للمفترين فيقول ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يفترون ﴾(١).

قوله تعالى : ﴿ **وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة** ﴾

إن عقابهم لشديد ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾(٢)

قال تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾(٣)

قوله جل شأنه ﴿ **إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون** ﴾

سبحانه عمت رحمته ، ووسعت آلاؤه عباده ، فسخر لهم ما فى السموات والأرض جميعاً منه ، وبنى التحليل والتحريم على حكمة بالغة يعلمها هو ، ومن أصدق من الله حديثا؟ لا أحد ، ومن أصدق من الله قيلاً؟. لا أحد ، قل أأنتم أعلم أم الله ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء وقال العقل ليته مانهى

ومن هنا فإن شكر المنعم واجب ، وأفضل الشكر تسخير الجوارح لطاعة الله .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾(٤).

الرقيب الأعلى

وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ (٦١)

(١) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس .
(٢) الآيات ٤ – ٦ من سورة المطففين
(٣) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة النحل .
(٤) الآيات ١١٢ – ١١٤ من سورة النحل .

المفـردات : ﴿ **شأن** ﴾ الشأن : الأمر العظيم . تقول العرب . ما شأن فلان أى ما حاله . ﴿ **تفيضون** ﴾ أفاض فى الشيء : أو من المكان . اندفع فيه بقوة أو بكثرة ﴿ **يعزب** ﴾ عزب : الرجل بإبله يعزب أى بعد وغاب فى طلب الكلأ ﴿ **ذرة** ﴾ الذرة : النملة الصغيرة وبها يضرب المثل فى الصغر والخفة وتطلق على الدقيقة من الغبار الذى يرى فى ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت . ﴿ **كتاب** ﴾ الكتاب : هو اللوح المحفوظ .

بعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن فضله على عباده كثير ، وأن الواجب عليهم أن يشكروه بدوام طاعته ، وترك معصيته ، وأن القليل منهم هم الشاكرون ، قفّى على ذلك بتذكيرهم بإحاطة علمه بشئونهم وأعمالهم ، ما دق منها وما عظم فى جميع ملكوت السموات والأرض ، حتى يحاسبوا أنفسهم على تقصيرهم فى ذكره وشكره وعبادته .

﴿ **وما تكون فى شأن** ﴾ أى وما تكون أيها الرسول الكريم فى أمر من أمورك الهامة ، خاصة كانت أو عامة ، مما تعالج بها شئون الأمة بدعوتها إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، إنذاراً لها وتبشيرا ، وتعليماً وعملا .

﴿ **وما تتلو منه من قرآن** ﴾ أى وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك ، تعبدا به ، أو تبليغاً له .

وفى التعبير بالشأن وهو الأمر ذو البال دلالة على أن جميع أموره ﷺ كانت عظيمة ، حتى ما كان منها من مجرى العادات ، لأنه ﷺ كان فيها قدوة صالحة .

وبعد أن خاطب رسوله ﷺ انتقل إلى خطاب الأمة كلها فى شئونها وأعمالها ، فقال :

﴿ **ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه** ﴾

أى ولا تعملون أى عمل خيراً كان أو شراً ، شكرا كان أو كفراً ، وإن كان المثقال الذرة إلا كنا رقباء عليكم إذ تخوضون فيه ، فنحفظه عليكم ، ونجازيكم به .

﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ :

أى وما يبعد عن علمه ، ولا يخفى عليه أقل شيء يبلغ وزنه ثقل ذرة فى الوجود السفلى والعلوى .

وفى التعبير بالإفاضة دليل على أن ما يفيض الإنسان مهتماً به مندفعا فيه ، جدير بألا يغفل عن مراقبة ربه فيه ، وإطلاعه عليه .

وكذلك فى التعبير بيعزب الدال على الخفاء والبعد ، دليل على أن ما شأنه أن يغيب ويبعد عنا من أعمالنا لا يغيب عن علمه تعالى ، وقدم ذكر الأرض لأن الكلام مع أهلها .

ثم أكد سبحانه ما سبق ، وبين إحاطة علمه بكل شيء ، فقال :

﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾

أى ولا شيء أصغر من الذرة مما لا تبصرونه من دقائق الكون وخفاياه ، ولا أكبر من ذلك وإن عظيم مقداره كعرشه تعالى ، إلا وهو معلوم له ومحصى عنده فى كتاب عظيم الشأن ، وهو الكتاب الذى كتب فيه مقادير الموجودات كلها ، إكمالاً للنظام ، وبيانا لضبط جميع الأعمال ، وفى معنى الآية قوله ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * وما لاتبصرون ﴾[1]

وفى ذلك إشارة إلى أن فى الوجود أشياء لاندركها ، وقد أثبت العلم الحديث بوساطة الآلات التى تكبر الأشياء أضعافا مضاعفة ، أن هناك أشياء لا يمكن رؤيتها إلا إذا كبرت عن حقيقتها آلاف المرات ، كالجراثيم ، ولم تكن تخطر على البال فى عصر التنزيل ، وقد ظهرت للناس الآن ، فهى من روائع الإعجاز العظيمة الدالة على أنه من كلام العليم الخبير .

أولياء الله

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾

المفردات : ﴿ **أولياء** ﴾ الأولياء : جمع ولىّ من الولى وهو القرب يقال تباعد بعد ولى : أى بعد قرب ، وأولياء الله هم المؤمنون المتقون . ﴿ **البشرى** ﴾ هى الخبر السار الذى تنبسط به بشرة الوجه فتتهلل وتبرق أساريره .

كل من كان تقياً كان لله ولياً ، والإيمان والتقوى هما الركيزتان الأساسيتان فى الولاية ، فالولى كل عبد مؤمن تقى ، وإنما سمى وليا لأن الله تعالى تولاه بالحرص ، وهو تولى حقوق الله بالرعاية ، وأولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله ، فإذا رأيت أحدهم ذكرك بالله .

روى ابن جرير بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء . قيل : من هم يارسول الله لعلنا نحبهم ؟ قال : هم قوم تحابوا فى الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ » .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول ﷺ : « يأتى من أفناء الناس

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة الحاقة .

ونوازع القبائل قوم لم تصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا فى الله ، وتصافوا فى الله ، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور ، فيجلهم عليها يفزع الناس ولا يفزعون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون))[١].

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى الدرداء رى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ قال : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له »[٢]

أما بشراه فى الآخرة فهى الجنة قال تعالى ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾[٣]

وروى مسلم بسنده عن أبى ذرأنه قال يارسول الله . الرجل يعمل العمل ويحمده الناس عليه ويثنون عليه به فقال رسول الله ﷺ ((تلك عاجل بشرى المؤمن))[٤].

وقيل المراد بذلك : بشرى الملائكة للمؤمن عند احتضاره بالجنة والمغفرة ، كقوله تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾[٥]

وفى حديث البراء رضى الله عنه ((أن المؤمن إذا حضره الموت جاءه ملائكة بيض الوجوه ، بيض الثياب ، فقال : اخرجى أيتها الروح الطيبة إلى روح وريحان ورب غير غضبان . فتخرج من فمه كما تسيل القطرة من فم السقاء)) .

وأما بشراهم فى الآخرة فكما قال تعالى ﴿ لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[٦]

وقال تعالى : ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٧]

﴿ **لاتبديل لكلمات الله** ﴾ أى هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ، ولا يغير ، بل هو تقرر ، وثبت كائن لا محالة ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٥:٣٤٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (١:٢١٩،٣١٥) وفى (٣:٥،١١٩،١٢٢،١٣٧،٢١٩) وفى (٥:٤٤،٥٠،٣١٥،٣٢١) ، وفى (٦:١٢٩،١٥٣،٢٣٢،٤٤٥،٤٤٧،٤٥٢) .

(٣) الآية ٢١ من سورة التوبة .

(٤) أخرجه مسلم فى البر (١٦٦) . وابن ماجه فى الزهد (٢٥) . والإمام أحمد فى (٥:١٥٦،١٥٧،١٦٨) .

(٥) الآيات ٣٠ – ٣٢ من سورة فصلت . (٦) الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء . (٧) الآية ١٢ من سورة الحديد .

العزة لله

﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾﴾

المفردات : ﴿ **العزة** ﴾ : الغلبة والقوة . ﴿ **يخرصون** ﴾ الخرص : الحزر والتقدير للشيء الذى لا يجرى على قياس من وزنه أو كيل أو زرع كخرص الثمر على الشجر والحب فى الزرع ويستعمل بمعنى الكذب أيضا لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين ﴿ **مبصرا** ﴾ المبصر : ذو الإبصار بقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء .

هذا تثبيت من الله تعالى لحبيبه ومصطفاه ﴿ **ولا يحزنك قولهم** ﴾ لا تبتئس بما كانوا يعملون ﴿ ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾[1] ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾[2] فقد قالوا عن الله إن له صاحبة وولدا ، وقالوا عن المرسلين إنهم سحرة مجانين ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[3] ﴿ كذلك ماأتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتولّ عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[4]

وسبحان من يقول لرسوله الكريم ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[5]

لا تحزن ﴿ **إن العزة لله جميعاً** ﴾ فهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، فمن كان الله معه فمن عليه ، ومن وجد الله فماذا فقد . ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾[6] ﴿ **أليس الله بعزيز ذى انتقام** ﴾[7] .

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعزّبه ... وكن عفيفا وعظّم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما ... استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

(١) الآية ١٢٧ من سورة النحل .
(٢) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٣) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٤) الآيات ٥٢ – ٥٥ من سورة الذاريات .
(٥) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ٣٦ من سورة الزمر .
(٧) الآية ٣٧ من سورة الزمر .

إن ذلك الإلٓه القادر هو السميع للأقوال ، العليم بكل الأحوال ، هو المالك المتصرف ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته.

﴿ **ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض** ﴾ فكل ما سواه فهو باطل ﴿ **وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء** ﴾ إنما هى أوهام لا حقيقة لها ، وخيال عابر لا صحة لوجوده ، وأسماء لا مسميات لها : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى * ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى * إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾(١)

فهؤلاء الذين اتخذوا من دون الله ما زعموهم شركاء لله ، ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ ويكذبون

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك لقال لك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان ، إنه خالق الكونين المكانى والزمانى ، فالمكانى أرض وسماء ، والزمانى ليل ونهار .

﴿ **هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا** ﴾

وجل جلال الحق إذ يقول ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامه من إلٓه غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إلٓه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٢)

وفى هذا القدر كفاية لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والندى وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً

فيا أيها العقلاء : انظروا فى ملكوت السموات والأرض ، وتأملوا فى هذا النظام البديع ، والنسق الرتيب ، ورددوا معى قوله تعالى ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ .

---

(١) الآيات ١٩ – ٢٣ من سورة النجم . (٢) الآيات ٧١ – ٧٣ من سورة القصص .

تنزيه ما بعده تنزيه

قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ **ولدا** ﴾ الولد : يستعمل مفرداً وجمعاً وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسرفيهما ﴿ **سبحانه** ﴾ : كلمة تنزيه وتقديس وتستعمل للتعجب ﴿ **سلطان** ﴾ السلطان : الحجة والبرهان .

بعد أن حكى سبحانه وتعالى أن من المشركين من اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عنده ، قفى على ذلك بذكر ضرب آخر من أباطيلهم ، وهو زعمهم أنه تعالى جده اتخذ ولداً ، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون واليهود والنصارى على السواء .

﴿ **قالوا اتخذ الله ولدا** ﴾ أى وقال المشركون : الملائكة بنات الله ، وقالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح بن الله . ﴿ **سبحانه** ﴾ أى تنزه ربنا عما لا يليق بربوبيته وألوهيته ، ويمكن أن يكون المعنى – عجيب أن تصدر منهم الكلمة الحمقاء .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله : ﴿ **هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ : أى أن الله غنى عن خلقه جميعاً ، فإن كل ما فى الوجود من العالم العلوى والسفلى ، ملك له ولا حاجة له إلى شىء منه ، وجميعه فى حاجة إليه ولا يجانسه شىء منه ، فالإنسان يحتاج إلى الولد ، إما للنصرة والمعونة ، وإما للإعزاز به لدى الأهل والعشيرة .

وإما لأنه زينة يلهو به فى صغره ويفخر به فى كبره ، وإما للحاجة إليه فى قضاء مصالحه أو لانتظار رخده وبره حين عجزه أو فقره وإما لبقاء ذكره بعد موته ، والله غنى عن كل ذلك ولا حاجة له إلى شىء من هذه المنافع ، فهو مستغن أزلاً وأبدا .

﴿ **إن عندكم من سلطان بهذا** ﴾ : أى ليس عندكم من الدلائل والبراهين ما يؤيد صحة هذا القول الذى تقولونه بلا علم ولا وحى إلهى .

ثم أكد ماسلف ﴿ **أتقولون على الله مالا تعلمون** ﴾ : أى أتقولون على الله قولا لاتعلمون حقيقته ، وتنسبون إليه تعالى مالا يجوز إضافته إليه ، ولاسيما بعد مجىء ما ينقضه من الأدلة العقلية ، والوحى الإلهى .

وفى الآية إيماء إلى أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وأن العقائد الدينية لابد فيها من دليل قاطع ، وإن التقليد فيها غير سائغ .

﴿ قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾

أى قل لهم : إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الشركاء إليه ، أو باتخاذه ولدا لنفسه ، أو بدعوى أن الأولياء يطلعون على أسرار خلقه ، ويتصرفون فى ملكه ، لا يفوزون بالتمتع بالنعيم بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى ، ولا ينجون من عذاب الآخرة .

﴿ متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾

أى هؤلاء لهم متاع فى الدنيا حقير يتلهون به فى حياة قصيرة هى الحياة الدنيا ، إذ مهما يبلغ هذا المتاع من العظمة ككثرة مال ، أو عظم جاه ، فهو قليل بالنسبه إلى ما عند الله فى الآخرة للصادقين المتقين ، ثم يرجعون إلى ربهم بالبعث بعد الموت وما فيه من أهوال الحشر والحساب ، فيذيقهم العذاب الشديد بسبب كفرهم بآياته ، وبالافتراء عليه ، وتكذيب رسله ، بعد أن قامت عليهم الحجة .

وفى الآية إيماء إلى أن ما نظن أنه فلاح بالحصول على منافع الدنيا المادية والمعنوية فهو لا يعتد به بالنسبة إلى ما عند الله من حظ عظيم ونعيم مقيم .

نبأ نوح

* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ
ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ
وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ
خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾

المفردات : ﴿ **نبأ** ﴾ النبأ : الخبر له خطر وشأن . ﴿ **مقامى** ﴾ المقام : الإقامة والمكث ﴿ **أجمعوا أمركم** ﴾ والإجماع العزيمة على الأمر عزماً لا تردد فيه ، كما قال شاعرهم : أجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء ﴿ **غمة** ﴾ الغمة : الستر واللبس يقال إنه لقي غمة من أمره : إذا لم يهتد له ﴿ **اقضوا إلى** ﴾ قضاء الأمر : أداؤه وتنفيذه قال تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ ﴿ **تنظرون** ﴾ الإنظار : التأخير والإمهال ﴿ **خلائف** ﴾ أى يخلفون الذين هلكوا بالغرق ﴿ **المنذرين** ﴾ : المخوفون بالله وعذابه .

بعد أن ذكر سبحانه عناد المشركين لرسوله ﷺ ، وتكذيبهم له ، بعد أن قامت البراهين على صدقه ، قفى على ذلك بذكر أقوام الرسل قبله تسلية له ﷺ ، وبيانا بأن قومه لم يكونوا بدعاً فى عنادهم وتكذيبهم له ، بل سبقهم فى مثل فعلهم كثير من بالغى الأمم ، وكانت العاقبة فوز الرسل عليهم ، وأتم الله لهم النصر ، فلعل أولئك القوم يتدبرون حالهم ، فينزجروا بما فيه مزدجر لهم ، ويعترفوا بصدقه ﷺ ويؤمنوا به قبل أن تفوت الفرصة السانحة ، فيندمون ولات ساعة مندم .

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ﴾

أى وأقرأ أيها الرسول على المشركين من أهل مكة وغيرهم فيما أوعدتهم به من عقاب الله لهم على مقتضى سننه فى المكذبين لرسله من قبلك ، خبر نوح حين قال لقومه يا قوم إن كان قد شق عليكم قيامى فيكم بالدعوة إلى عبادة ربكم ، وتذكيرى إياكم بآياته الدالة على وحدانيته ووجوب عبادته ، فإننى قد وكلت أمرى إلى الله الذى أرسلنى ، واعتمدت عليه وحده بعد أن أديت رسالته بقدر طاقتى .

﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ : أى فأعدوا أمركم ، واعزموا على ما تقدمون عليه فى أمرى مع شركائكم الذين تعبدونهم من دون الله ، كما أدعو ربى وأتوكل عليه .

﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ : أى ثم لا يكن أمركم الذى تعتزمونه خفياً عليكم ، فيه حيرة . ولبس ، بل كونوا على بصيرة كيلا تتحولوا عنه . **﴿ ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾** : أى ثم أدوا إلى ذلك الأمر بعد إجماعه واعتزامه ، وبعد استبانته التى لا غمة فيها ، ولا التباس ، بأن تنفذوه بالفعل بعد استيفاء مقدماته كلها ، ولا تمهلونى بتأخير هذا القضاء .

الخلاصـــة : إن نوحاً طلب إلى قومه على كثرتهم وقوتهم أن يفعلوا ما استطاعوا من الإيقاع به ، مطالبة المدل ببأسه وقوته ، المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، فأمرهم بإجماع أمرهم بصادق العزيمة وقوة الإرادة ، وأن يضموا إلى هذه القوة النفسية قوة الإيمان بشركائهم وآلهتهم ، وألا يكون فى أمرهم الذى أجمعوا عليه شىء من الغمة والخفاء الذى قد يوجب الوهن والتردد فى التنفيذ .

﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾

أى فإن أعرضتم عن تذكيرى بعد دعائى إياكم ، وتبليغ رسالة ربى إليكم ، فلن يضرنى ، فإنى لم أسألكم على ما دعوتكم إليه أجرا ، ولا جزاء ، وما جزاء عملى وثوابى إلا على ربى الذى أرسلنى إليكم ، فهو يوفينى إياه آمنتم أو توليتم ، وأمرت أن أكون من المنقادين بالفعل لما أدعوكم إليه .

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ﴾ : أى فأصروا على تكذيبه بعد أن أقام عليهم الحجة بقوله وعمله فى حقيقة دعوته فنجيناه هو ومن آمن معه فى السفينة التى كان يصنعها بأمرنا .

﴿ وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾

أى وجعلنا الذين نجينا مع نوح فى السفينة خلائف فى الأرض من قومه الذين كذبوه ، بعد أن أنذرناهم فأغرقناهم ، وحقت عليهم كلمة ربك .

فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة الذين أنذرهم رسولهم ، وقوع عذاب الله بهم ، وأصروا على تكذيبهم ، وهكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، أما عاقبة المؤمنين المتقين لك فاقرأ إن شئت قوله ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] .

الطبع على قلوب الكافرين

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

المفردات : ﴿ **نطبع** ﴾ الطبع على القلوب : هو عدم قبولها شيئا غير ما رسخ فيها واستحوذ عليها ﴿ **المعتدين** ﴾ جمع مفرده المعتدى والمعتدى : المتجاوز حدود الحق والعدل اتباعاً لهوى النفس وشهواتها .

بعد أن ذكر عز اسمه قصص نوح مع قومه ، وبين عاقبة أمرهم حين كذبوه ونصر الله له عليهم ، بين هنا عبرة أخرى من عبر مكذبى الرسل ، وسنة من سننه فيهم ، عسى أن يعتبر بها أهل مكة ، فيعلموا أن لله سننا لا تبديل فيها ولا تحويل ، فيتقوا مثل تلك العاقبة التى حلت بمن قبلهم من المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، واتقاؤها فى مكنتهم وهو بأيديهم يمكنهم أن يجتنبوه ، ويبتعدوا عن أسبابه كالكفر والاعتداء والظلم ونحوه .

﴿ **ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات** ﴾

أى ثم بعثنا من بعد نوح رسلا مثله إلى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فى تكذيب رسلهم ، فقد أرسل هود إلى عاد ، وصالح إلى ثمود ، ولم يرسل رسول منهم إلى كل الأقوام الذين كانوا فى زمانه أما شعيب ، فإنه أرسل إلى قومه أهل مدين وإلى جيرانهم أصحاب المؤتفكة ، فقد كانوا متحدين معهم لغة ووطنا ، فجاء كل رسول منهم قومه بالحجج الدالة على صدقه فى رسالته بحسب ما يتسنى لهم فهمه من الأدلة العقلية والحسية .

﴿ **فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل** ﴾ أى فما استقام لقوم من أولئك الأقوام أن يؤمن المتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ، ممن كان مثله فى سبب كفره ، وهو استكبار الرؤساء ، وتقليد الدهماء .

﴿ **كذلك نطبع على قلوب المعتدين** ﴾ : أى مثل هذا الطبع ، وعلى ذلك النهج نطبع على قلوب المعتدين أمثالهم فى كل قوم كقومك ، إذ كانوا مثلهم فى اللجاج والعتوّ والاستكبار فى الأرض . ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[2].

---

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر

(٢) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب .

طرف من قصة موسى عليه السلام

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟
قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٦) قَالَ
مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۚ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (٧٧) قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا
عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (٧٨) وَقَالَ
فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (٧٩) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ
(٨٠) فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ
ٱلْمُفْسِدِينَ (٨١) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (٨٢) فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ
مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ
لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ (٨٣) وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم
مُّسْلِمِينَ (٨٤) فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ (٨٥) وَنَجِّنَا
بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٦) وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا
بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ (٨٧) وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ
إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۚ
رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (٨٨)
قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨٩) * وَجَٰوَزْنَا
بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ
ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ (٩٠) ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ
عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ (٩١) فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ

كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

المفردات : ﴿ **ملإيه** ﴾ الملأ : أشراف القوم الذين يجتمعون على رأى ﴿ **لتلفتنا** ﴾ لفته : عن كذا : صرفه . ﴿ **ذرية** ﴾ الذرية : فى اللغة صغار الأولاد وتستعمل فى الصغار والكبار عرفا . ﴿ **يفتنهم** ﴾ الفتون : الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الفعل أو الترك ، والمراد هنا الاضطهاد والتعذيب . ﴿ **لعال** ﴾ العلو : القهر والاستبداد . ﴿ **أن تبوء** ﴾ تبوء الدار : اتخذها مباءة ومسكنا يبوء ويرجع إليها كلما فارقها لحاجة ﴿ **قبلة** ﴾ القبلة : ما يقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه ومنه قبلة الصلاة . ﴿ **زينة** ﴾ الزينة : الحلل والحلىّ والأثاث والرياش والماعون والأموال ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك . ﴿ **اطمس** ﴾ الطمس : الإزالة يقال طمس الأثر ومحته الريح : إذا زال . ﴿ **واشدد على قلوبهم** ﴾ الشد على القلب : الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان يقال : جاز المكان وجاوزه ﴿ **وجاوزنا** ﴾ تجاوزه : إذا قطعه حتى خلفه وراءه ويقال تبعته حتى اتبعته إذا كان قد سبقك فلحقته . ﴿ **ننجيك** ﴾ : نجعلك على نجوة من الأرض والنجوة : المكان المرتفع من الأرض والآية : العبرة والعظة . ﴿ **مبوأ صدق** ﴾ : أى منزلا صالحًا مرضيًا : وأصل الصدق ضد الكذب ولكن جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا مكان صدق ، إذا كان كاملا فى صفة ، صالحًا للغرض المقصود منه ، كأنهم أرادوا أن كل ما يظهر فقيه من الخير فهو صادق والعلم هنا علم الدين .

هذا جانب من قصة كليم الله موسى ، وتلك القصة قد ذكرها القرآن فى مواضع كثيرة ، وفى كل موضع من المعانى والمقاصد ما يملأ النفس روعة وجلالا ، وهنا يذكر سبحانه أنه بعث موسى وهارون بعد الرسل الذين تقدموهما ، بعثهما إلى فرعون وملإه .

ولقد جاءت بعثة هارون تلبية لدعوة موسى ، فإن الله تعالى لما قال له : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى * ويسرلى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾[1].

وفى سورة القصص جاء قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون * وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون * قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[2].

(١) الآيات ٢٤ - ٣٦ من سورة طه . (٢) الآيات ٣٣ - ٣٥ من سورة القصص .

فماذا كان موقف فرعون وملإه ؟ لقد استكبروا وكانوا قوما مجرمين ، والاستكبار عن الحق نذير شؤم ، إذ الهلاك يأتى بعد الاستكبار ، فما بالك وقد جمعوا مع الاستكبار السخرية من الحق . قال تعالى ﴿ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون * وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ﴾[١].

وقال تعالى ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إنَّ هذا لسحر مبين** ﴾ . ولم تكن هذه اللهجة خاصة بفرعون وملإه ، إنما كانت لغة المكذبين فى كل عصر ، فقد قالوا لرسول الله ﷺ عند انشقاق القمر : إن محمدا سحر أعيننا .

وهكذا أطلقوا لفظ السحر على آيات الله المعجزة ، قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾[١]

وقال سبحانه : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتولّ عنهم فما أنت بملوم * وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[٣] . وقال سبحانه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[٤].

إن منطق الباطل قائم على الزور والبهتان والجحود والتكذيب والإنكار والسخرية والسفسطة إذ كيف توصف المعجزات بأنها سحر ، والمعجزة حقيقة واقعة ، فقلب العصا ثعبانا كان أمرا حقيقيا لامراء فيه ولا لبس ولا غموض ، وانشقاق القمر كان كذلك ، والمعجزة بأنواعها فعلية كانت أو قولية أو تركية ، حقائق ثابتة .

أما السحر فإنه أوهام فى العقل ، وتخييلات فى الحس ، قال تعالى : ﴿ يخُيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾[٥] وقال جلَّ جلاله : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾[٦].

فالبون شاسع والمدى بعيد . لذا قال لهم موسى : ﴿ **أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا** ﴾

فاعجب معى لكلمة الحق وكلمة السحر ، فآيات الله حق ، وما يأتى به السحرة باطل .

قال تعالى : ﴿ **ولا يفلح الساحرون** ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾[٧]

فماذا كان منطق الباطل بعد ذلك ؟

﴿ **قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ .

---

(١) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة الزخرف .
(٢) الآيات ١ ، ٣ من سورة القمر .
(٣) الآيات ٥٢ — ٥٥ من سورة الذاريات .
(٤) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٦٦ من سورة طه .
(٦) الآية ١١٦ من سورة الأعراف .
(٧) الآية ٦٩ من سورة طه .

فانظر معى كيف صرفوا الحديث إلى أمر لاصلة له بسياق الحديث قبله ، وكأنَّ القضية عندهم قضية كبرياء ووجاهة فى الأرض ، وعظمة وملك ورئاسة .

ثم انظر إلى تلك المأساة المحزنة والمخزية والمؤسفة :

﴿ **أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ إنه التقليد المذموم ، والإصرار على الباطل : ﴿ أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون ﴾(١) . ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾(٢) . ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لوجئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(٣).

وأى كبرياء تلك التى يحرصون عليها ؟ ويخشون أن تكون لموسى وهارون ؟!

إن أصحاب الرسالات لا يريدون فى الأرض علوا ولا فسادا ولا كبرياء ، إنما هم كما قال فيهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾(٤). وكما قال جلَّ ذكره : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾(٥) . وكما قال جلَّ ذكره : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾(٦). فأى كبرياء يسعى وراءها أصحاب الرسالات ؟!

ثم انظر إصرار المكذبين على باطلهم إذ يقولون : ﴿ **وما نحن لكما بمؤمنين** ﴾ كما فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ﴾(٧).

فماذا كان رأى فرعون فى هذا الموقف المحتدم ؟ لقد كان رأيه عجيبا ، فقد أمر بجمع السحرة ليدخل فى معركة فاصلة بينه وبين موسى وهارون : ﴿ **وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم** ﴾ فاعجب لقوله ﴿ **بكل ساحر عليم** ﴾ إنه أراد بذلك أن يحشد أكبر قوة ضاربة فى مجال السحر ، ظناً منه أن المعارك يُحكم لها أو عليها بالكثرة العددية ، ونسى أو تناسى أن المعركة هنا بين الحق والباطل ولقد كان فرعون يعلم هذا ، كما جاء فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾(٨)

لقد جمع فرعون السحرة كما قال تعالى : ﴿ فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ﴾(٩) وكان الموعد يوم الزينة ، قال تعالى : ﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون ﴾(١٠)

(١) الآية ١٠٤ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٢١ من سورة لقمان .
(٣) الآيات ٢٢ – ٢٥ من سورة الزخرف .
(٤) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الحديد .
(٦) الآية ٩٠ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ١٣٢ من سورة الأعراف
(٨) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .
(٩) الآية ٥٣ من سورة الشعراء .
(١٠) الآية ٨٠ من سورة يونس .

وهكذا أراد موسى أن يلقوا أولا حتى يأتى الحق فيدمغ الباطل ، قال تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[١].

فماذا كان مصير المعركة ؟ قال تعالى : ﴿ **فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾ .

إن من أسماء الله تعالى الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟!

لقد جاء تفصيل هذا المشهد فى الأعراف وطه والشعراء : قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ماكانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين . وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾[٢].

نعم لا إله غيرك ، ولا رب سواك ، إن الله تعالى مع الحق ، وإذا كان للباطل صولة . وجولة فإن العاقبة للحق . ومهما عربد الباطل فى عرصات الدنيا فلابد أن يصرعه الحق .

قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار بن الحارث ، حدثنا عبد الرحمن يعنى الدشتكى أخبرنا أبو جعفر الرازى عن ليث وهو ابن أبى سليم قال : بلغنى أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله تعالى ، تقرأ فى إناء فيه ماء ، ثم يصب على رأس المسحور الآية التى من سورة يونس ﴿ **فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين . ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون** ﴾ .

والآية الأخرى ﴿ **فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون** ﴾[٣] إلى آخر أربع آيات ، وقوله : ﴿ **إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾[٤]

قوله تعالى : ﴿ **فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين** ﴾

إن هذه الآية الكريمة تصور هذا الجو الرهيب الكئيب المكفهر ، تصوره بما فيه من وعيد وتهديد ، وزجر وإرهاب وتعذيب وقتل وتشريد ، إن الذين آمنوا وهم الشباب آمنوا على خوف من فرعون ، هذا الشيطان الأكبر الذى ملأ طباق الأرض جورا وظلما وفسادا . ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾[٥].

وما أدق قوله تعالى : ﴿ ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين ﴾[٦].

---

(١) الآية ١٨ من سورة الأنبياء . (٣) الآية ١١٨ من سورة الأعراف (٥) الآية ٤ من سورة القصص .
(٢) الآيات ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف . (٤) الآية ٦٩ من سورة طه (٦) الآيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة الدخان .

فتأمل كيف جعل العذاب المهين هو فرعون ، لقد آمن من آمن على وجل من أن يفتنهم فرعون ومن معه ، فإنه شرير متكبر متجبر . وهل هناك تجبر بعد أن يدعى لنفسه الألوهية . ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلٓه غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إلٓه موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يُرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[1]

لقد هدد فرعون بكل ألوان العذاب حتى قال : ما حكاه القرآن الكريم ﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربّه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[2] .

أما موسى فقد قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾[3].

لقد علا فرعون فى الأرض ﴿ فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[4].

ولقد أراد موسى بعد أن فصل الله فى معركة الحق مع الباطل ، وآمن من آمن ، أراد موسى أن يثبت جذور العقيدة فى سويداء القلوب ، فقال لقومه : ﴿ **ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾

إذ الإسلام إذعان وانقياد وتسليم وتفويض لله تعالى . وحقيقة الإسلام أن يسلم لله وجهك . ﴿ ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ﴾[5].

ومن علامات الإيمان التوكل على الله والاعتماد عليه ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾[6].

فمن آمن بالله توكل عليه ومن توكل عليه فقد أسلم له وانقاد لأمره ورضى بقضائه . فاللهم ارضنا بقضائك وبارك لنا فى قدرك حتى لا نحب ما أخرت ولا تأخير ما عجلت .

قال رسول الله ﷺ لأصحابه ذات يوم : أمؤمنون أنتم ؟ قال عمر : نعم يارسول الله . قال : « **فما حقيقة إيمانكم** ؟ » قالوا : نصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ونشكر فى الرخاء . قال « **مؤمنون ورب الكعبة** » .

وحسبك أيها المسلم أن تتدبر قول ربك : ﴿ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يُرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[7].

---

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة القصص .
(٢) الآية ٢٦ من سورة غافر .
(٣) الآية ٢٧ من سورة غافر .
(٤) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .
(٥) الآية ٢٢ من سورة لقمان .
(٦) الآية ٣ من سورة الطلاق .
(٧) الآية ١٢٣ من سورة هود .

لقد أجاب قومه قائلين : ﴿ **على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾ .

وهذا دعاء جاء مطابقا لمقتضى الحال كأنهم يسألون الله تعالى ألا يبتليهم بما يُشمت بهم عدوهم فيقول العدو : لو كان هؤلاء المؤمنون على حق ما ابتلوا ، فإن الظالمين أهل شماتة ، فقلوبهم مظلمة تهيج فيها عقارب الحقد ، وثعابين البغضاء ، وطلب النجاة من الله أمر مرغوب فيه ، فالكافر لا يرقب فى المؤمن إلاً ولاذمة ، فاللهم تداركنا بلطف برك .

ولقد أمر الله تعالى موسى وهارون أن يتبوآ لقومهما بمصر بيوتا يعبدون الله تعالى فيها ، ويقيمون الصلاة ، وفى المحافظة على عبادة الله بشرى للمؤمنين بالسعادة والفلاح فى العاجل والآجل .

قال جلَّ شأنه : ﴿ **وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين** ﴾

ورأى نبى الله موسى ما رأى من جبروت فرعون وظلمه وعسفه وحنقه وطيشه ، فدعا عليه ربه حتى يستريح منه البلاد والعباد والشجر والدواب .

﴿ **وقال موسى ربَّنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل الذين لا يعلمون** ﴾ .

والمراد بالزينة : الحُلل والحُلىّ والأثاث والرياش والماعون .

الأموال : ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك ، .

والطمس : الإزالة يقال : طمس الأثر وطمسته الريح : إذا زال .

والشد على القلب : الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان .

وإنما قال تعالى : ﴿ **قد أجيبت دعوتكما** ﴾ بضمير التثنية مع أن موسى هو الذى دعا ، لأن هارون كان يؤمن على دعاء موسى ، فكأنه دعا معه . وأمره تعالى لهما بالاستقامة كأمره لرسوله محمد ﷺ فى قوله : ﴿ فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ﴾[1] والمراد بالاسقامة الثبات على الإيمان ، كما قال الصادق المعصوم لسفيان بن عبد الله : « قل آمنت بالله ثم استقم »[2].

وتأخذ الآيات البينات بعد ذلك فى بيان المشهد الختامى لفرعون وقومه ، فيقول جل شأنه :
﴿ **وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى إذا أدركه الغرق ، قال آمنت أنه لا إلّه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ .

(١) الآية ١١٢ من سورة هود . (٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (٦٢) . والإ[illegible] ـد فى (٤١٣:٣) وفى (٣٨٥:٤) .

إنه مشهد ينطق بالجلال والعظمة تقشعر لهوله الأبدان يقول الله تعالى فى وصفه : ﴿ فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ (١).

لقد ادلهمّت الخطوب ، واحتدمت المحن ، فهؤلاء بنو إسرائيل وعلى رأسهم موسى وهارون يقفون موقفا صعبا ، فالبحر أمامهم والعدو وراءهم ، وأى عدو ! إنه الجبار العنيد صاحب الصولة والصولجان ، ورجل البغى والطغيان ، لقد أتبعهم بجنده وخيله وسلاحه وجبروته .

هنا بلغت القلوب الحناجر ، قال قوم موسى وقد ارتجفوا من هول ما رأوا : ﴿ إنا لمدركون ﴾ (٢)

قال موسى بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ، من منطق الإيمان الذى إذ اباشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يحرك العوالم ويسير الجبال ويجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، قال ﴿ كلا إن معى ربى سيهدين ﴾ (٣).

وهنا تأتى النجدة من رافع السماء بلا عمد . قال تعالى : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثمَّ الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾ (٤).

لقد قطع الله تعالى البحر ببنى إسرائيل وخلّفه وراءهم بعدما جعله طرقا يابسة بعدد أسباطهم الاثنى عشر ، ورأى موسى بعد عبور البحر أن يضربه بعصاه حتى يعيده كما كان ، فلا يتمكن فرعون من عبوره ، فقال له الله تعالى : ﴿ واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ﴾ (٥) .

وظن فرعون أن البحر قد سُخر له كما سُخر لموسى وأن الأمور بيده وأنه الفعَّال لما يريد ، ونسى أو تناس أن للكون إلَهًا يدبر أحكامه ويفعل ما يشاء . قال تعالى ﴿ **فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا** ﴾

لا ليعبر البحر فحسب إنما لينزل بهم العقاب والعذاب ، فكان الجزاء من جنس العمل : هاج الموج فكان كالجبال ، كما قال تعالى فى سورة طه : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ (٦).

فالتعبير بالموصول هنا لإفادة التهويل والتفخيم ﴿ **ما غشيهم ، وأضل فرعون قومه وماهدى** ﴾

لقد أطبقت عليهم الأمواج ، فإذا فرعون ينادى عندما أدركه الغرق ﴿ **آمنت أنه لا إلَه إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل** ﴾ .

وحملته نفسه الأمارة وكبره المقيت على ألا ينطق بلفظ الجلالة ، فلم يقل أنه لا إلَه إلا الله ، وإنما قال

---

(١) الإيات ٦٠ – ٦٢ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٦١ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ٦٢ من سورة الشعراء .
(٤) الآيات ٦٣ – ٦٨ من سورة الشعراء .
(٥) الآية ٢٤ من سورة الدخان .
(٦) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة طه .

﴿ **إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين** ﴾ ولكن إيمانه مغشوش ، وإسلامه زائف ، لم يكن إيمانه تصديقا ، ولم يكن إسلامه إذعانا ، إنما لأنه أدركه الغرق .

لذا جاء الرد قاطعا ، والجواب حاسما وساطعا ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾

أى أتقول ذلك الآن لما أدركك الغرق ، ترجو النجاة ولم تتخذ لها الأسباب كيف يكون ذلك كذلك والسفينة لا ترسو على يبس . ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوما غرَّتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

يقول الله تعالى فى فرعون وأمثاله : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا لتكون لمن خلفك وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون** ﴾ :

هذا الجانب من جوانب العبرة ، فقد شاءت إرادة الله واقتضت حكمته أن ينجو فرعون بجسده ، ولتلقه الرياح على شاطىء البحر جسداً جامداً لا حراك فيه ولا حياة ، ذلك الذى كان يقول أنا ربكم الأعلى ، فيقول ما علمت لكم من إله غيرى ، فأى إله هذا الذى مات ، ومن الذى أماته ، فسبحانه صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[2]

وهكذا بعد ذكر الجبابرة وطغاة البشر يأتى الله بجانب العبرة ، كما قال تعالى بعد ذكر قوم لوط ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[3] وكما قال ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾[4] وكما قال فى سورة القمر ﴿ فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[5] وكما قال فى شأن فرعون ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[6] وكما قال بعد ذكر الأنبياء فى سورة هود ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾[7]

وكما قال بعد ذكر الجبابرة فى سورة العنكبوت ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً

(١) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .
(٢) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران .
(٣) الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات .
(٤) الآية ٣٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة القمر .
(٦) الآية ٢٦ من سورة النازعات .
(٧) الايتان ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة هود .

ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾[١].

فهل من مدكر وهل من معتبر ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوّأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾

بعد أن ذكر سبحانه خاتمة فرعون وجنوده ، قفى على ذلك بذكر عاقبة بنى إسرائيل ، وفى هذا عبرة لمكذبى محمد ﷺ ، والجاحدين من قومه المفترين بقوتهم وكثرتهم وثروتهم ، فقد كان فرعون وقومه أكثر منهم عددًا ، وأشد قوة ، وأوفر ثروة ، وقد جعل الله سننه فى المكذبين واحدة ، ففكروا أيها المكذبون فى عاقبة أمركم ، وتدبروا مليا خوف أن يحل بكم مثل ما حل بهم ، وها هو ذا أهلك أكثر زعمائهم ، وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين ، وأعطاهم أعظم ملك فى العالمين .

﴿ **ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق** ﴾ : أى ولقد أسكناهم منزلا مرضيا وهو منزلهم ، وهو بمعنى قوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ﴾[٢].

﴿ **ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى ورزقناهم من اللذائذ فيها ، وقد جاء وصفها فى كتبهم بأنها تفيض لبنا وعسلا ، وفيها كثير من الغلات والثمرات والأنعام ، وصيد البر والبحر .

﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم** ﴾ أى فما اختلف بنو إسرائيل إلا بعد ما علموا بقراءة التوراة ، والوقوف على أحكامها ، ذلك أنهم كانوا قبل أن يبعث محمد ﷺ مجمعين على نبوته والإقرار به ، وبمبعثه ، غير مختلفين فيه بالنعت الذى كانوا يجدونه مكتوبا عندهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفر به بعض ، وآمن آخرون .

﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أى إن هذا النوع من الاختلاف لا سبيل لإزالته فى دار الدنيا ، بل سيقضى الله بينهم فى الآخرة فيميز المحقين من المبطلين ، ويدخل الأولين الجنة ، والآخرين النار وبئس القرار .

---

(١) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .

تقرير صدق القرآن

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

المفردات : ﴿ **حقت عليهم كلمة ربك** ﴾ : أى ثبت عليهم قضاؤه وحكمه .

إن الله عز وجل قد ذكر بنيإسرائيل ﴿ **فما اختلفوا حتى جاءهم العلم** ﴾ وهم حملة الكتاب (التوراة والإنجيل) ، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم إذ أمر رسول الله مكتوب عندهم ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد هنا جل شأنه أن يؤكد علمه بصحة القرآن ، وصدق نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، على سبيل المبالغة ، فقال : فإن وقع منك شك فرضاً وتقديراً (كما تقول لابنك . إن كنت ابنى حقا فافعل كذا) مما أنزلنا إليك من قصص نوح وموسى مثلا، فقل لعلماء أهل الكتاب الذين يقرءون الكتاب الذين يقرءون الكتاب من قبلك ، والمراد أنهم على علم تام بصحة ما أنزل إليك ، وهم يصلحون لمراجعة مثلك ومساءلتهم ، فضلا عن غيرك .

فالغرض وصف الأحبار بالعلم لا وصف النبى ﷺ بالشك والريب ، وعن ابن عباس رضى الله عنه « لا والله ما شك طرفة عين ولا سأل أحداً منهم » .

وقيل خوطب رسول الله ﴿ **كنت فى شك** ﴾ والمراد أمته ، أو من يقع فى شك ، فعليه بالرجوع إلى مصادر العلم من الكتب الإلٰهية ، ومناقشه أهل العلم ورجاله ، تالله لقد جاءك الحق الثابت من ربك الذى لاشك فيه أبدا . ولا ريب ، فلاتكونن من الممترينالشاكين ، والمراد ذم على ما أنت عليه ، ولا تكوننّ من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين فى الدنيا والآخرة ، وفى هذا تعريض بالكفار المكذبين الخاسرين الضالين .

﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك** ﴾ وثبت فيهم حكمه وقضاؤه ﴿ **لا يؤمنون** ﴾ أبداً ، وليس المعنى أن الله يمنعهم من الإيمان ، بل هم الذين يختارونه ويكسبونه ، والمراد أن من علم الله فيهم شرًّا لابّد من حصوله ، لأن علم الله لا يتخلف .

إن هؤلاء الذين علم الله أنهم لا يؤمنون ، هم لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية كونية أو علمية أو قرآنية لايؤمنون ، حتى يروا العذاب الأليم ، وحينئذ لا ينفعهم إيمان ولا توبة .

متى يكون الإيمان صحيحاً

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

المفردات : ﴿ **الرجس** ﴾ : القذارة .. وأقبح الخبث المعنوى

الإيمان الذى ينفع صاحبه هو الإيمان وقت التكاليف ، أما إذا حصل فى وقت تسقط فيه التكاليف ، وذلك عند حشرجة الموت ، أو عند الغرق كما حصل لفرعون . أو عند نزول العذاب فلا ينفع نفساً ، والحالة هذه إيمانها ، فهلا كانت قرية من القرى التى أرسل فيها الأنبياء السابقون آمنت فى وقت ينفعها الإيمان ، أى وقت العمل ، لاوقت نزول العذاب ، واستحالة العمل.والمعنى : ما كانت قرية آمنت إلا قوم يونس آمنوا لما ذهب مغاضباً ، وحذرهم العذاب الشديد ، ورأوا تباشيره .

فلما آمنوا كشفنا عنهم العذاب ، ومنعنا عنهم الخزى والهلاك فى الدنيا : ومتعناهم لما آمنوا إلى انقضاء آجالهم المقدرة لهم .

﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً** ﴾ بأن يخلقهم وفيهم الاستعداد للإيمان فقط كالملائكة ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكن شاءت مشيئته العالية لحكمة هو يعلمها ، أن يخلق الإنسان وفيه استعداد للخير والشر ، وللإيمان وللكفر ، وتركه بلا إلجاء وقسر ، بل جعل له الحرية الكاملة لاختيار أحد الطريقين ، بعد أن هداه النجدين ، وأبان له الأمرين .

﴿ **أفأنت تكره الناس** ﴾ على الإيمان ؟ لا إكراه فى الدين لمخلوق أبداً ، وإنما الذى يقدر على الإكراه هو الله سبحانه القادر على كل شىء .

﴿ **وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله** ﴾ وإرادته ﴿ **ويجعل الرجس** ﴾ والهلاك ﴿ **على الذين لا يعقلون** ﴾ ولا يختارون الخير ، ولايسلكون سبل الرشاد والسداد ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، لعلكم تذكرون .

إنذار وبشارة وحث على العلم

قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾
فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

المفردات : ﴿ **أيام الذين خلوا** ﴾ : المراد وقائع الذين مضوا ، وحوادثهم .

يأمرنا الله سبحانه وتعالى بالنظر والتفكير بعين البصيرة والاعتبار ﴿ **انظروا ماذا فى السموات والأرض** ﴾ من آيات الله البينات ، انظروا ما فيها ، من نظام رتيب ، وترتيب عجيب ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[(١)]

انظر إليها بعين البصر والبصيرة ، تجد خالق هذا الكون على هذا النظام لا يمكن أن يتركه هملا ، ولم يخلقه عبثاً ، وهذا يدعو إلى التصديق بالرسل ، والإيمان بالقرآن والوحى .

ولكن ﴿ **ما تغنى الآيات** ﴾ القرآنية والآيات الكونية ﴿ **عن قوم لا يؤمنون** ﴾ بالله ورسله ، ولم يستخدموا عقولهم فيما خلقت من أجله ، وليس المراد بقوله تعالى فيما مضى ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾[(٢)] المجانين بل الذين لم يستخدموا العقول فيما خلقت له من المعرفة الصادقة ، والإيمان الكامل ، فهل ينتظر الذين لم يؤمنوا ولم يستفيدوا من الآيات إلا وقائع وحوادث كالتى نزلت بمن مضى من الأقوام السابقين ، وقد مر عليك جزء منها ، فى هذه السورة .

قل لهم إذا كان الأمر كذلك ﴿ **فانتظروا إنى معكم من المنتظرين** ﴾

وفى النهاية قد حكم الله حكماً لارادّ له ، إنه سينجى رسله والمؤمنين ، حكم بذلك وقدر وقال فى كتابه ﴿ **كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين** ﴾ ومن أصدق من الله قيلا ؟ ومن أوفى بعهده من الله ، وفى هذه الآية وجوب النظر فى الكون والبحث عما فيه للاعتبار ، وتربية الخشية من الله صاحبه ، والايمان به ، وحث على العلم والبحث فى الكون .

ولا غرابة ، فأنت إذا علمت أن أول ما نزل على نبيك محمد ﷺ قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾[(٣)] أدركت أن الإسلام دين علم وعمل ، وأن نبيك الأمى هو المعلم الأول .

(١) الآيات ٣٨ — ٤٠ من سورة يس .
(٢) الآية ١٠٠ من سورة يونس .
(٣) الآية الأولى من سورة العلق .

المبادىء العامة للدعوة الإســلامية

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ
أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ
فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ
وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾

المفردات : ﴿ **يتوفاكم** ﴾ : يقبض أرواحكم . ﴿ **حنيفا** ﴾ : مائلاً عن الشرك ما يتبعه ﴿ **بضر** ﴾ : من مرض أو ألم .

قل يا محمد للناس جميعاً قولاً مجملاً مختصراً ، تبين فيه الخطوط الرئيسية لرسالتك العامة الشاملة ﴿ **إن كنتم فى شك** ﴾ قليل ﴿ **من دينى** ﴾ ورسالتى فاعلموا أنى ﴿ **لا أعبد الذين تعبدون من دون الله** ﴾ أبداً كالأحجار والأصنام والأوثان والبشر فهؤلاء جميعاً لا ينفعون ، ولا يضرون أنفسهم ، فكيف يتصور منهم نفع أو ضر لغيرهم ؟ ﴿ **ولكن أعبد الله** ﴾ وحده لا أشرك به شيئاً سبحانه وتعالى ﴿ **الذى يتوفاكم** ﴾ إليه وإليه مرجعكم وجزاؤكم ، وعنده حسابكم الدقيق الذى أحصى كل شيء عدداً ﴿ **وأمرت أن أكون من المؤمنين** ﴾ الناجين من عذاب يوم القيامة .

وهذا الوصف بالإيمان يجمع جميع شعبه ونواحيه وأمرت بأن ﴿ **أقم وجهك** ﴾ خالصاً لله ولدينه مائلا عن الشرك بكل صوره . وأشكاله ، البسيطة والكبيرة ، ونهيت عن أن أكون من المشركين .

﴿ **ولاتدع** ﴾ يا محمد متجاوزاً الله سبحانه ﴿ **مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين** ﴾ لنفسك .

واعلم ان الله سبحانه وتعالى ﴿ **إن يمسسك بضر** ﴾ فى جسمك أو فى مالك بأى شكل كان ﴿ **فلا كاشف** ﴾ لهذا الألم والضر ﴿ **إلا هو** ﴾ .

وإن يرد بك خيراً فى دينك أو دنياك فلا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا مانع لفضله ، سبحانه وتعالى عما يصفونه ، بل فضله يصيب به من يشاء من خلقه ، حسب حكمته وعلمه وهو الحكيم فى أمره ، العليم بخلقه ، وهو الغفور الرحيم .

خلاصـــة ما مضى

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾

هذه خاتمة المطاف فى تلك السورة العظيمة التى شرحت الأسس العامة للدين ، وبينت عقائد الإسلام التى ينكرها مشركو العرب من توحيد الله ، والوحى والرسالة والبعث والجزاء ، وما ينكرونه من صفات الله سبحانه ، وتكلمت عن القرآن الكريم وهدايته ، وما فيه من خير للبشرية جميعاً ، وكيف كانت الأمم السابقة ما حصل لها نتيجة كفر من كفر ، وإيمان من آمن ، هذا النداء مأمور به الرسول الأعظم ، هو للناس جميعاً على اختلاف أشكالهم وألوانهم ، من سمع منهم بالقرآن ومن سيسمع فى المستقبل ، وهو إجمال عام لما فى السورة .

﴿ **قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم** ﴾ على لسان رجل منكم أوحى إليه هذا الحق الثابت ، الذى لاشك فيه ، كتاب أحكمت آياته ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] ﴿ **فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل** ﴾ على نفسه ﴿ **وما أنا عليكم بوكيل** ﴾ إن أنا إلا نذير بشير .

﴿ **واتبع** ﴾ يا محمد ﴿ **ما يوحى إليك من ربك** ﴾ فى هذا القرآن علماً وعملاً وتعليماً وحكماً وهدايه وإرشاداً ﴿ **واصبر** ﴾ كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم حتى يحكم الله بينك وبينهم ، ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ .

يا أيها الناس : إن الله الذى وضع نظاماً دقيقاً محكماً لهذا الكون وما فيه ، لم يختل ولن يختل ، لا يعقل أن يترك الانسان المكرم عنده ، المشرف من خلقه بلا نظام ولا قانون يحكمه ويهديه ، والله قد أنزل القرآن ، وفيه حكم الله وآياته وقوانينه الصالحة النافعة ، قوانين إلهية ، ودساتير ربانية ، صنعها صانع السماء والأرض ، وأوجدها موجد هذا الكون .

أفبعد هذا تتركونها إلى غيرها ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾[2]

---

(١) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

سورة هود

مقدمــة

عدد آياتها مائة وثلاث وعشرون ، وكلماتها ألف وتسعمائة وإحدى عشرة كلمة ، وحروفها سبعة آلاف وستمائة وخمسة .

قال صاحب البصائر :

وسميت سورة هود لاشتمالها على قصة هود .

المقصود الإجمالى من السورة : بيان حقيقة القرآن ، واطلاع الحق سبحانه على سرائر الخلق وضمائرهم ، وضمانه تعالى لأرزاق الحيوانات ، والإشارة إلى تخليق العرش ، وابتداء حاله ، وتفاوت أحوال الكفار وأقوالهم ، وتحدى النبى ﷺ العرب بالإتيان بمثل القرآن ، وذم طلاب الدنيا المعرضين عن العقبى ، ولعن الظالمين وطردهم ، وقصة أهل الكفر والإيمان

وتفصيل قصة نوح ، وذكر الطوفان ، وحديث هود ، وإهلاك عاد ، وقصة صالح وثمود ، وبشارة الملائكة لإبراهيم وسارة بإسحاق ، وحديث لوط وإهلاك قومه ، وذكر شعيب ومناظرة قومه إياه .

والإشارة إلى قصة موسى وكون فرعون يكون مقدم قومه إلى جهنم .

وذكر جميع أحوال القيامة ، وتفصيل الفريقين والطريقين .

وأمر الرسول ﷺ بالاستقامة ، والتجنب من أهل الظلم والضلال ، والمحافظةعلى الصلوات الخمس والطهارة ، وذكر الرحمة فى اختلاف الأمة ، وبيان القصص وأنباء الرسل ، لتثبيت قلب النبى ﷺ ، والأمر بالتوكل على الله فى كل حال

المتشابهات :

قوله ﴿ **فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا** ﴾ بحذف النون والجمع ، وفى القصص ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم** ﴾ عدّت هذه الآية من المتشابه فى فصلين : أحدهما حذف النون من (فإلم) فى هذه السورة ، وإثباتها فى غيرها ، وهذامنفصل الخطاب ، وذكر فى موضعه . والثانى جمع الخطاب ههنا ، وتوحيده فى القصص ، لأن مافى هذه السورة خطاب للكفار ، والفعل لمن استطعتم ، وما فى القصص خطاب للنبى ﷺ ، والفعل للكفار .

قوله ﴿ **وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾

قوله ﴿ **لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون** ﴾ وفى النحل ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ لأن هؤلاء صدوا

عن سبيل الله ، وصدوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا فهم الآخرون ، يضاعف لهم العذاب ، وفى النحل صدوا فهم الخاسرون

قال الإمام (الإسكافى) : لأن ما قبلها فى هذه السورة (يبصرون ، يفترون) لا يعتمدان على ألف بينهما ، وفى النحل (الكافرون والغافلون) فللموافقة بين الفواصل ، جاء فى هذه السورة : الأخسرون وفى النحل : الخاسرون .

قوله ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال** ﴾ بالفاء وبعده :﴿ فقال الملأ ﴾بالفاء وهو القياس .

قوله : ﴿ **وأتانى رحمة من عنده** ﴾ وبعده ﴿ **وأتانى منه رحمة** ﴾ وبعدهما ﴿ **ورزقنى منه رزقاً حسنا** ﴾ لأن عنده ، وإن كان ظرفاً فهو اسم فذكر فى الأولى بالصريح والثانية والثالثة بالكناية لتقدم ذكره ، فلما كنى عنه قدم لأن الكناية يتقدم عليها الاسم الظاهر ، نحو : ضرب زيد عمراً فإن كنيت عن عمرو قدمته نحو عمرو ضربه زيد ، وكذلك زيد أعطانى درهما من ماله ، فإن كنيت عن المال قلت : المال زيد أعطانى منه درهماً .

قال الإمام : لما وقع ﴿ **آتانى رحمة** ﴾ فى جواب كلام فيه ثلاثه أفعال كلها متعد إلى مفعولين ليس بينهما حائل بجار ومجرور ، وهو قوله : ﴿ **مانراك إلا بشراً مثلنا ومانراك اتبعك** ﴾ و ﴿ **نظنكم كاذبين** ﴾ أجرى الجواب مجراه ، فجمع بين المفعولين من غير حائل ، وأما الثانى فقد وقع فى جواب كلام قد حيل بينهما بجار ومجرور ، وهو قوله ﴿ **قد كنت فينا مرجوا** ﴾ لأن خبر كان بمنزلة المفعول ، لذلك جعل فى الجواب بين المفعولين بالجار والمجرور

قوله ﴿ **أأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله** ﴾ فى قصة نوح وفى غيرها ﴿ **أجراً إن أجرى** ﴾ لأن فى قصة نوح وقع بعدها ﴿ **خزائن** ﴾ ولفظ المال للخزائن أليق .

قوله ﴿ **ولا أقول إنى ملك** ﴾ وفى الأنعام ﴿ **ولا أقول لكم إنى ملك** ﴾ لأن (ما) فى الأنعام آخر الكلام (بدأ) فيه بالخطاب ، وختم به وليس (ما) فى هذه السورة آخر الكلام بل آخره ﴿ **تزدرى أعينكم** ﴾ فبدأ بالخطاب ، وختم به فى السورتين .

قوله ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هوداً** ﴾ فى قصة هود وشعيب بالواو ، وفى قصة صالح ولوط : ﴿**فلما** ﴾ بالفاء لأن العذاب فى قصة هود وشعيب تأخر عن وقت الوعيد ، فإن فى قصة هود ﴿ **فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم** ﴾ وفى قصة شعيب ﴿ **سوف تعلمون** ﴾ والتخويف قارنه التسويف ، فجاء بالواو والمهلة ، وفى قصة صالح ولوط وقع العذاب عقيب الوعيد ، فإن فى قصة صالح ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام** ﴾ وفى قصة لوط : ﴿ **أليس الصبح بقريب** ﴾ فجاء بالفاء للتعجيل والتعقيب .

قوله ﴿ **وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة** ﴾ وفى قصة موسى ﴿ **فى هذه لعنة** ﴾ لأنه لما ذكر فى الآية الأولى الصفة والموصوف اقتصر فى الثانية على الموصوف للعلم به ، والاكتفاء بما فيه .

قوله ﴿ **إن ربى قريب مجيب** ﴾ وبعده ﴿ **إن ربى رحيم ودود** ﴾ لموافقة الفواصل ، ومثله ﴿ **لحليم أوّاه منيب** ﴾ وفى التوبة ﴿ لأوّاه حليم ﴾ للرَّوى فى السورتين .

قوله : ﴿ **وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب** ﴾ وفى إبراهيم ﴿ **إنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب** ﴾ لأن فى هذه السورة جاء على الأصل (وتدعونا) خطاب مفرد ، وفى إبراهيم لما وقع بعده (تدعوننا) بنونين لأنه خطاب جمع حذف النون استثقالاً للجمع بين النونات ، ولأن فى سورة إبراهيم اقترن بضمير قد غير ما قبله بحذف الحركة ، وهو الضمير المرفوع فى قوله ﴿ **كفرنا** ﴾ فغيرت قبله فى ﴿ **إنا** ﴾ بحذف النون وفى هود اقترن بضمير لم يغير ما قبله ، وهو الضمير المنصوب ، والضمير المجرور ، فى قوله ﴿ **فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا** ﴾ فصح كما صح قوله ﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** ﴾ ثم قال ﴿ **وأخذت الذين ظلموا الصيحة** ﴾ التذكير والتأنيث حسنان لكن التذكير أخف فى الأولى وفى الأخرى وافق ما بعدها ، وهو ﴿ **كما بعدت ثمود** ﴾ .

قال : الإمام : لما جاءت فى قصة شعيب مرة الرجفة ، ومرة الظلة ، ومرة الصيحة ، ازداد التأنيث حسنا .

قوله : ﴿ **فى ديارهم** ﴾ فى موضعين فى هذه السورة فحسب ، لأنه اتصل بالصيحة وكانت من السماء فازدادت على الرجفة ، لأنها الزلزلة وهى تختص بجزء من الأرض فجمعت مع الصيحة ، وأفردت مع الرجفة .

قوله : ﴿ **إن ثموداً** ﴾ بالتنوين ذكر فى المتشابه ، وثمود من الثُّمد وهو الماء القليل ، جعل اسم فعله ، فهو منصرف من وجه ، وممنوع من وجه ، فعرفوه فى حالة النصب لأنه أخف أحوال الاسم ، ومنعوه فى حالة الرفع لأنه أثقل أحوال الاسم ، وجاء الوجهان فى الجر ، لأنه واسطة من الخفة والثقل .

قوله ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم** ﴾ وفى القصص ﴿ **مهلك القرى** ﴾ لأن الله سبحانه وتعالى نفى الظلم عن نفسه بأبلغ لفظ يستعمل فى النفى ، لأن هذه اللام لام الجحود ولا يظهر بعدها أن ولا يقع بعدها المصدر ، ويختص بكان ولم يكن ، ومعناه مافعلت فيما مضى ولا أفعل فى الحال ، ولا أُفعل فى المستقبل (وكان) الغاية فى النفى وفى القصص لم يكن صريح ظلم فاكتفى بذكر اسم الفاعل وهو لأحد الأزمنة غير معينة ثم نفاه .

قوله ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من اليل ولا يلتفت منكم أحد** ﴾

استثنى فى هذه السورة من الأهل قوله ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ ولم يستثن فى الحجر اكتفاء بما قبله وهو قوله ﴿ **إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته** ﴾ فهذا الاستثناء الذى انفردت به سورة الحجر ، قام مقام الاستثناء من قوله ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من اليل** ﴾ . وزاد فى الحجر (واتبع أدبارهم) لأنه إذا ساقهم وكان من ورائهم علم بنجاتهم ، ولا يخفى عليه حالهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ
إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ
لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

روى أبو يعلى بسنده عن عكرمة قال : قال أبو بكر سألت رسول الله ﷺ ما شيبك ؟ قال « شيبتني هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت »(١)

المفـردات : ﴿ **آلر** ﴾ : حروف هجائية تنطق بأسمائها فيقال (ألف ــ لام را) وتشير إلى إعجاز القرآن العظيم ، وقد يكون المراد بها التنبيه . ﴿ **أحكمت** ﴾ إحكام البناء : كالقصر والحصن : إتقانه حتى لا يقع فيه خلل . ﴿ **فصلت** ﴾ تفصيل : العقد بالفرائد : جعل خرزه أو مرجانه بلون بين كل خرزتين من لون آخر . ﴿ **متاعا** ﴾ المتاع : كل ما ينتفع به فى المعيشة وحاجة البيوت . ﴿ **أجل مسمى** ﴾ الأجل المسمى : هو العمر المقدّر . ﴿ **يثنون** ﴾ ثنى الشيء : عطف بعضه على بعض فطواه وإثناء الثوب إطواؤه وثناه عنه : لواه وحوله وثناه عليه أطبقه وطواه ليخفيه فيه وثنى عنانه عنى : تحول وأعرض ﴿ **ليستخفوا** ﴾ الاستخفاء : محاولة الخفاء واستغشى الثوب تغطى به كما قال حكاية عن نوح عليه السلام ﴿ وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾(٢) .

قوله تعالى ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ :

قال مجاهد وقتادة : أى هى محكمة فى لفظها ، مفصلة فى معناها .

وجاء فى تفسير المراغى : هذا كتاب عظيم الشأن ، جليل القدر ، جعلت آياته محكمة النظر والتأليف ، واضحة المعانى ، لا تقبل شكا ولا تأويلا ولا تبديلا ، كأنها الحصن المنيع الذى لا يتطرق إليه خلل ، وجعلت فصولا متفرقة ، فى سورة تبين حقائق العقائد والأحكام والمواعظ ، وجميع ما أنزل له الكتاب من الحكم والفوائد ، فكأنها العقد المفصل بالفرائد ، ولا عجب فقد أنزلت من لدن حكيم يقدر حاجة عباده ، ويعيطهم ما فيه الخير لهم ، خبير بعواقب ذاك ومصادره وموارده . أهـ .

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير (سورة ٥٦:٦) . (٢) الآية ٧ من سورة نوح .

فقد جمع الله تعالى لهذا الكتاب العزيز الإحكام والتفصيل ، فهو لفظ حامل ومعنى به قائم ، ورباط بينهما ناظم ، ويكفى هذا الكتاب شرفاً وقدراً أن الله تعالى قد توكل بحفظه فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(١).

قوله تعالى : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير** ﴾ .

وهذا هو الأصل فى رسالات السماء ، توحيد الله تعالى ربا والهاً وصفات وأسماء ، ولقد نص الكتاب العزيز على ذلك فقال سبحانه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾(٢) وقال : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾(٣) وقال : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ﴾(٤) وقال ﴿ **وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره** ﴾ ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره ﴾(٥). ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره ﴾(٦) وقال سبحانه ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إلّه إلا أنا فاتقون ﴾(٧).

قوله جل شأنه : ﴿ **إننى لكم منه نذير وبشير** ﴾

نذير بالعذاب ، وبشير بالجنة .

جاء فى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ صعد الصفا فدعا بطون قريش الأقرب ثم الأقرب فاجتمعوا فقال : « يا معشر قريش أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تصبحكم ألستم مصدقى ، فقالوا : ما جربنا عليك كذباً قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد »(٨).

قوله تعالى : ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ .

وكما أمرتكم بتوحيد الله تعالى ، وإفراده بالعبادة ذاتا وصفاتا وأفعالا ، فإننى أمركم بالاستغفار والتوبة ، والاستغفار طلب المغفرة ، والتوبة إقلاع عن الذنب ، وعزم على عدم العود ، وندم على ما فات ، وأداء الفرائض ، والوفاء بالحقوق .

قال تعالى فى شأن نبيه نوح ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾(٩).

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٤) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة هود .
(٥) الآية ٦١ من سورة هود .
(٦) الآية ٨٤ من سورة هود .
(٧) الآية ٢ من سورة النحل .
(٨) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ١١١:١) و (سورة ٢٦:٢) . ومسلم فى الإيمان (٣٥٥) .
(٩) الآيات ١٠ - ١٢ من سورة نوح .

وفى شأن هود ﴿ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ﴾[١]

وفى شأن صالح ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾[٢]

وفى شأن شعيب ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾[٣]

وها هو ذا خاتم الأنبياء والمرسلين يقول لهم ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه** ﴾ وكان يقول « يأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب إلى الله واستغفره فى اليوم مائة مرة ».[٤]

وليس الجزاء مقصورا على الدنيا وحدها ، بل إن الله تعالى جمع بين السعادتين للمستغفرين التائبين ، فقال : ﴿ **يمتعكم متاعاً حسنا** ﴾ أى فى الدنيا قال تعالى ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ﴾[٥] وقال جل شأنه ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوّئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[٦] وقال : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٧] وقال ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾[٨].

وفى هذا الموضع يقول سبحانه : ﴿ **يمتعكم متاعاً حسناً** ﴾ فيحييكم حياة طيبة آمنة مطمئنة ، يأتيكم فيها الرزق رغداً من كل مكان ، أما فى الآخرة فسيؤتى كل ذى فضل فضله ، حيث يعطى على الحسنة عشر أمثالها ويزيد ، ويجزى على السيئة مثلها ويغفر .

وبعد ذلك يقرن الوعيد بالوعد حتى يقوم الميزان بالقسط بين الترهيب والترغيب فيقول ﴿ **وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير** ﴾ :

أى فإن أعرضتم وانصرفتم ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً * السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴾[٩]، ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾[١٠].

فيا له من يوم ما أطوله ، ومن خطب ما أهوله ، ومن جبار ما أعدله ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن

---

(١) الآية ٥٢ من سورة هود .
(٢) الآية ٦١ من سورة هود .
(٣) الآية ٩٠ من سورة هود .
(٤) أخرجه البخارى فى الدعوات (٣) . ومسلم فى الذكر (٤٢) . وأبو داود فى الديات (٣) . وابن ماجه فى الأدب (٥٧) والإمام أحمد فى (٤:٢١١، ٢٦٠، ٢٦١، ٤١٠) وفى (٥:٤١١) .
(٥) الآية ٣٠ من سورة النحل .
(٦) الآية ٤١ من سورة النحل .
(٧) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٨) الآية ١٢٢ من سورة النحل .
(٩) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة المزمل .
(١٠) الآية ٢٩ من سورة الإنسان .

زلزلة الساعة شيء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[١].

إنه يوم كبير الخطر ، لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

ثم يؤكد سبحانه أنه لا مفر من لقائه ، فيقول ﴿لميتون * **مرجعكم وهو على كل شيء قدير** ﴾ كان ذلك على ربك حتماً مقضياً ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[٢] ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٣]. ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[٤]

والله تعالى هو القدير على بعثكم وحشركم . ونشركم وحسابكم . وجزائكم ، لا يعجزه شيء فى السماوات ولا فى الأرض ، لا يشغله سائل ، ولا ينقصه نائل .

قوله تعالى ﴿ **ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾ .

أى إن هؤلاء الكافرين الكارهين لدعوة التوحيد يحنون ظهورهم ، وينكسون رءوسهم ، كأنهم يحاولون طىّ صدورهم على بطونهم ، حين سماع القرآن ليستخفوا منه ﷺ حين تلاوته فلا يراهم حين نزول هذه القوارع على رءوسهم .

روى ابن جرير وغيره أن ابن شداد قال : كان أحدهم إذا مر بالنبى ﷺ ثنى صدره كيلا يراه أحد .

﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ :

أى إن ثنى صدورهم ، وتنكيس رءوسهم ، ليستخفوا من الداعى لهم إلى توحيد ربهم ، لا يغنى عنهم شيئا ، فإن ربهم يعلم ما يسرون ليلاً حين يستغشون ثيابهم فيغطون بها جميع أبدانهم ، ثم ما يعلنون نهاراً .

﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ : أى إنه تعالى عليم بأسرار الصدور ، وخواطر القلوب ، فاحذروا أن يطلع عليكم ربكم وأنتم مضمرون فى صدوركم الشك فى شيء من توحيده ، أو أمره أو نهيه .

قال زهير بن أبى سلمى :

فلا تكتمن الله ما فى قلوبكم ... ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ... ليوم حساب أو يعجل فينقم

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ٨ من سورة الجمعة .
(٤) الآيات ٦٠ — ٦٢ من سورة الأنعام .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثاني عشر

المكتب المصري الحديث

الرزق والخلق

* وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ **الدابة** ﴾ : اسم لكل نسمة حية تدب على الأرض زحفا أو على قوائم ثنتين فأكثر وغلب عرفا على ما يركب من الخيل والبغال والحمير . والدبُّ والدبيب : الانتقال الخفيف البطىء كدبيب الطفل والشيخ المسن والعقرب ﴿ **والمستقر** ﴾ : مكان الاستقرار من الأرض . ﴿ **والمستودع** ﴾ : حيث كان مودعاً قبل الاستقرار فى صلب أو رحم أو بيضة ﴿ **والعرش** ﴾ : مركز نظام الملك ومصدر التدبير . ﴿ **والبلاء** ﴾ : الاختبار والامتحان . ﴿ **والأمة** ﴾ : الطائفة أو المدة من الزمن كما قال تعالى ﴿ وادّكر بعد أمة ﴾(١) وأصلها الجماعة من نوع واحد ، أو دين واحد ، أو زمن واحد ﴿ **مصروفاً عنهم** ﴾ : أى مدفوعاً ومجبوراً . ﴿ **وحاق** ﴾ : نزل وأحاط .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل
الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا
لكنه خلق الإنسان من عجل

اعلم ياأخا الإسلام علم اليقين ، بل عين اليقين ، بل حق اليقين أنه لايملك الروح والرزق إلا الله ﴿ وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾(٢) وماقدر على ماضغيك أن تمضغاه فلابد أن تمضغاه فامضغه بعزة ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فمه (ولو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطانا)(٣).

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : علمت أن رزقى لا يأخذه غيرى ، فاطمأن قلبى ، وعلمت أن

(١) الآية ٤٥ من سورة يوسف . (٢) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد (٣٣) . وابن ماجه فى الزهد (١٤) . والإمام أحمد فى (١ :٣٠،٥٢) .

عملى لا يقوم به سواى فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع علىّ فاستحييت أن يرانى على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرنى فأعددت الزاد للقاء الله .

اعلم يا ابن آدم أن الله قد ضمن الأرزاق لكل خلقه ، وليس الرزق مقصوراً على المأكل والمشرب ، إنما هو أعم من ذلك وأرحب أفقاً ، فهدوء البال رزق ، والعافية رزق ، وحسن التدبير رزق ، والعلم رزق ، والذكاء رزق ، والصحة رزق.

وقد ضمن الله تعالى الأرزاق لكل خلقه ، فهو يعطى الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ﴾(١) . ﴿ وما خلقت الانس والجن إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٢).

﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾(٣) ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾(٤) ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون * وفى السماء رزقكم وما توعدون *فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾(٥)

وما من دابة فى الأرض إلا وقد ضمن الله رزقها وهداها إليه ، فالطير تغدو خماصاً وتروح بطانا : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾(٦).

والرزق قد جاء مقترنا بعلم الله المحيط ، فسبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون.

قال تعالى ﴿ **ويعلم مستقرها ومستودعها** ﴾ : يعلم مستقرها على تلك الأرض كما علم مستودعها من قبل فى عالم الأرحام ، كل فى كتاب مبين ، وكل شىء أحصيناه كتابا ، وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴿ قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى *كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾(٧).

وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام . وتقدير هذه الأيام فى علم الله تعالى ﴿ **وكان عرشه على الماء** ﴾ أى قبل خلق السموات والأرض ، والعرش غيب من الغيوب ، وهو خلق عظيم لايعلمه إلا خالق القوى والقدر .

(١) الآية ١٢٦ من سورة البقرة . (٣) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت . (٥) الآيات ٢٠ – ٢٣ من سورة الذاريات .
(٢) الآيات ٥٥ – ٥٨ من سورة الذاريات (٤) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس (٦) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة طه .
(٧) الآيات ٥١ – ٥٥ من سورة طه .

وتفيد هذه الآية خلق الماء قبل خلق السموات والأرض ، قال تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[١] وقال : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾[٢].

وقد سخر الله لنا مافى السموات ومافى الأرض ليختبرنا بالعمل قال تعالى ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ﴾[٣].

وقال سبحانه ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ﴾ وفعل الله تعالى مبنى على الحكمة منزه عن العبث ، لذا فقد جاء البعث بعد ذكر الخلق ، قال تعالى : ﴿ **ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ .

أى ما أردت يامحمد بذكر البعث إلا لكى تصرفنا عن هذه الدنيا واستمتاعنا بلذائذها ، هكذا قال الكافرون ، ولقد طلبوا تعجيل العذاب استهزاء ، ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب ﴾[٤] قال تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ماكنتم تعملون ﴾[٥].

قال تعالى : ﴿ **ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة** ﴾ أى أجلناه إلى أجل معلوم قدره الله فى علمه القديم ، ليقولن استهزاءاً بوعد الله ورسوله ﴿ **مايحبسه** ﴾ ما يمنعه فيأتى الرد القاطع والوعيد الحاسم ﴿ **ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ .

﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلا * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريبا ﴾[٦].

إنه يوم ينزل بهم هذا العذاب لايصرف عنهم ، ليس له دافع من الله ، وعندما يحيط بهم الذى كانوا يستهزئون به فى الدنيا ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٧].

نماذج من البشر

وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنبياء . (٣) الآيات ١ - ٣ من سورة الملك . (٥) الآيات ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ٤٥ من سورة النور . (٤) الآية ١٦ من سورة ص . (٦) الآيات ١ - ٦ من سورة المعارج .
(٧) الآية ٢٥ من سورة النور .

المفردات : ﴿ **الإذاقة** ﴾ : هنا : الإعطاء القليل . ﴿ **النزع** ﴾ : السلب والحرمان ﴿ **واليئوس** ﴾ : شديد اليأس من عود تلك النعمة ﴿ **والكفور** ﴾ : كثير الكفران والجحود لما سلف عليه من النعم ﴿ **والنعماء والنعمة والنُّعمى** ﴾ : الخير والمنفعة ويقابلها الضراء والضر . ﴿ **وفرح** ﴾ : بطر مغتر بهذه النعمة . ﴿ **فخور** ﴾ : متعاظم على الناس بما أوتى من النعم مشغول بذلك عن القيام بشكرها .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه خلق السموات والأرض ليبلو الإنسان أيشكر أم يكفر ؟ قفىَّ على ذلك طبيعة الإنسان فى ذلك ، وهى أنه إذا أصابته نعماء ثم نزعت منه قنط من روح الله وكفر بها ، وإذا أذاقه نعمة بعد بؤس بطر وفخر – هكذا شأن الإنسان – إلا من صبر وشكر وعمل صالحا .

﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور** ﴾ :

أى ولئن أعطينا الإنسان نوعا من أنواع النعم ، كرخاء عيش ، وبسطة رزق وصحة وأمن وولد بار ، رحمة مبتدأة منا أذقناه لذاتها ، فكان شديد الأغتباط بها ، ثم سلبنا ذلك بما يحدث من الأسباب التى قدرها الله فى الخليقة كالمرض والموت والعسر ، إنه ليظل فى هذه الحال شديد اليأس من الرحمة ، قاطعا للرجاء من عود تلك النعمة ، كثير الكفران لغيرها من النعم التى لا يزال يتمتع بها فضلا عما سلف منها .

والخلاصة : أنه يجمع بين اليأس بعودة ما نُزع منه ، والكفر بما بقى له ، لحرمانه من فضيلتى الصبر والشكر .

﴿ **ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور** ﴾

أى ولئن كشفنا عنه الضراء التى أصابته وحل محلها نعماء ، كشفاء من مرض ، وزيادة قوة ، وخروج من عسر إلى يسر ، ونجاة من خوف وذل ، إنه ليقولن : ذهب ما كان يسوءنى من المصايب والضراء ولن يعود ، وماهى إلاسحابة صيف قد تقشّعت ، وعلىّ أن أنساها وأتمتع بتلك اللذات ، وإنه حينئذ لشديد الفرح بما يهيجه البطر بتلك النعمة ، وإنه ليغالى فى الفخر والتعالى على الناس ، والاحتقار لمن دونه فيها .

الخلاصة : أنا إذا منحنا هذا الإنسان اليئوس الكفور نعماء أذقناه لذتها بعد ضراء ، باقترافه أسبابها لم يقابلها بشكر الله عليها ، بل يبطر ويفخر على الناس ، ولا يقوم بما يجب عليه من مواساة البائسين الفقراء ، وعمل الخير لبنى الانسان ، كفاء ماهو متمتع به من تلك النعم .

ثم استثنى سبحانه من جنس الإنسان فيما ذكر من حاليه السالفتين قبل الصابرين الذين يعملون الصالحات فقال :

﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾

أى إلا الذين صبروا على ما أصابهم من الضراء إيمانا بالله ، واحتسابا للأجر عنده ، وعملوا الصالحات حينما يكشفها ، ويبدل النعماء بها ، ويشكره باستعمالها ،فيما يرضيه من عمل البر والخير لعباده ، أولئك

لهم مغفرة من ربهم تمحو ماعلق بأنفسهم من ذنب أو تقصير ، وأجر كبير فى الآخرة على ماوفقوا لعمله من بر وخير كثير .

والخلاصة : إن الإنسان وإن كان مؤمنا حق الإيمان لا يسلم من ضيق صدر حين حلول الضراء والمصائب ، وذلك مما ينافى كمال الرضا ، كما لا يسلم حين النعماء من شىء من الزّهو والتقصير فى الشكر ، فيغفر له كل منهما بصبره وشكره ، وإنابته إلى ربه .

وقد جاء بمعنى الآية قوله تعالى ﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾(١).

ووصف الأجر بالكبير – لما حواه من نعيم سرمدى ، وأمن من العذاب ، ورضا من الله عز وجل ، ونظر إلى وجهه الكريم ، ورضوان من الله أكبر .

لا يضيق صدرك

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

المفردات : ﴿ **لعل** ﴾ : هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النهى ﴿ **وضيق الصدر** ﴾ : يراد به الغم والحزن . ﴿ **الكنز** ﴾ : ما يدخر من المال فى الأرض . ﴿ **والوكيل** ﴾ : الرقيب الحفيظ للأمور الموكل بحراستها . ﴿ **والاستجابة للداعى** ﴾ : إجابته . ﴿ **والإسلام** ﴾ : الإذعان والخضوع والإنقياد .

اقترح المشركون على رسول الله ﷺ أمورا علقوا إيمانهم عليها ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾(٢).

كما اقترحوا عليه أن ينزل عليه كنز أو يأتى معه ملك .. إلى غير ذلك من المقترحات التى بلغت حداً لا يُطاق ، ولا يقبله عقل . حتى لقد قالوا له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، فنزل التثبيت والإرشاد والتوجيه من الله : لا تترك بعض ما أوحى إليك من الكتاب ، ولا يضيق صدرك بما يقولون من إنزال الكنز ، ومجىء الملك ، إن أنت إلا نذير ، والأمر كله لله ، فهو الوكيل الرقيب على عباده ﴿ وقل الحق

(١) سورة العصر . (٢) الآيات ٩٠ ، ٩٣ من سورة الإسراء .

من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾(١).

قال جل شأنه : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾(٢).

ثم ينتقل الحديث إلى ضرب آخر من ضروب العناد المقيت والجدل العقيم إلى قولهم عن القرآن « إنه مفترى » كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾(٣).

ولقد تحداهم الله تبارك وتعالى وهم الذين ملكوا أزِمَّة اللغة ، وعرفوا بأنهم أصحاب الفصاحة وأرباب البلاغة ، لقد تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن فقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾(٤)

فعجزوا فتحداهم أن يأتوا بعشر سور كما فى قوله تعالى : ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾(٥) فعجزوا .. فتحداهم أن يأتوا بسورة كما فى قوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾(٦).

فتأمل معى هذه الدرجة القصوى من التحدى والتى قال الله تعالى فيها : **﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾** وقال فيها : **﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾** بل لقد بيَّن لهم نتيجة هذا التحدى فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾(٧).

لقد عجزوا وبلغ من عجزهم أن ﴿ قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾(٨) وإذ قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(٩) .

ولو كانوا يستطيعون أن يأتوا لأتوا فذلك أيسر سبيلا من خوضهم المعارك المسلحة التى خاضوها مع المسلمين ، لكنهم قوم آثروا اللجاج والعناد على قبول الحق كما قال تعالى : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾(١٠).

قوله تعالى : **﴿ فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾** .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف . (٢) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة يونس . (٣) الآيات ٤ — ٦ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ٣٤ من سورة الطور . (٥) الآية ١٣ من سورة هود . (٦) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٨٨ من سورة الإسراء . (٨) الآية ٣١ من سورة الأنفال . (٩) الآية ٢٢ من سورة الأنفال .
(١٠) الآية ٥٦ من سورة الكهف .

أى إن لم يستجب لكم هؤلاء الأعوان الذين قال الله فيهم : ﴿ **وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ وفى قوله : ﴿ **وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ . فإن لم يستجيبوا لكم وعجزتم عن الإتيان بسورة أو بعشر ، فما لكم بعد ذلك من حجة ولا برهان ، فقد بدا الصبح لذى عينين وبرح الخفاء وظهر الحق .

فاعلموا أن هذا القرآن أنزل بعلم الله وحده ، وأن الذى أنزله واحد لا شريك له لا إلّه إلا هو ،وإذا كان ذلك كذلك . وهو كذلك . حقا . فأسلموا وانقادوا وأذعنوا واسمعوا وأطيعوا ، ولا تجادلوا فى الحق بعد ما تبين ، فإن الحق واضح ، والطريق لائح ، والمنادى صائح .

الويل لهؤلاء

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

المفردات : ﴿ **نوف إليهم** ﴾ : أى نوصل إليهم ، ﴿ **ولا يبخسون** ﴾ : لا ينقصون ، ﴿ **وحبط** ﴾ : أى فسد وبطل ولم ينتفعوا به .

قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية أن أهل الرياء يعطون بحسناتهم فى الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرا ، يقول من عمل صالحا التماس الدنيا صوما أو صلاة أو تهجدا بالليل لا يعمله إلا التماس الدنيا يقول الله تعالى : أوفيه الذى التمس فى الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذى كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو فىِ الآخرة من الخاسرين .

وقال قتادة : من كانت الدنيا همه ونيته وطلبته جازاه الله بحسناته فى الدنيا ثم يفضى إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاء ، وأما المؤمن فيجازى بحسناته فى الدنيا ، ويثاب عليها فى الآخرة .

قال ﷺ : [من أصبح وهمه الدنيا فرّق الله عليه شمله وجعل فقره بين عينيه ولا ينال من الدنيا إلا ما كتب الله له . ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله عليه شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة][1].

وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾[3].

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد (٢) . وأبو داود فى الزكاة (٣٤) . والترمذى فى القيامة (٣٠) . والإمام أحمد فى (٥:١٨٣) .

(٢) الآيات ١٨ — ٢١ من سورة الإسراء .

(٣) الآية ٢٠ من سورة الشورى .

دلائل صدق النبوة

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

المفردات : ﴿ **البينة** ﴾ : ما يتبين به الحق كالبرهان فى الأمور العقلية ، والنصوص فى الأمور النقلية ، والتجارب فى الأمور الحسية ، والشهادة فى القضاء ﴿ **ويتلوه** ﴾ : يتبعه ، والشاهد : هو القرآن ، ﴿ **والموعد**﴾ : مكان الوعد وهى النار يردها كما قال : ﴿ **ليس لهم فى الآخرة إلا النار** ﴾ . ﴿ **والمرية** ﴾ : الشك .

وفى هذه الآية الكريمة يخبرنا الله جلّت قدرته عن الذين هم على بينة من ربهم وحجة وبرهان ، والمراد بالبينة هنا الفطرة التى فطر الله الناس عليها من الاعتراف بأنه هو الحق لا إلّه إلا هو ، كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها ﴾[1].

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : [كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟][2].

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حماد عن رسول الله ﷺ قال:[يقول الله تعالى إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا][3].

وفى المسند والسنن [كل مولود يولد على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه] فالمؤمن باق على هذه الفطرة .

أما الشاهد الذى يتلوه من ربه فقيل إنه جبريل ، وقيل محمد ﷺ ، والصحيح أنه القرآن الذى نزل به جبريل من لدن حكيم خبير ، على قلب البشير النذير ، صلوات ربى وسلامه عليه .

وقال فى شأنه رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ قل أى شىء أكبر شهادة قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾[4]

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز (٩٢،٧٩) وفى التفسير (سورة ٣٠ :١) وفى القدر (٣) . ومسلم فى القدر (٢٤،٢٢) . وأبو داود فى السنة (١٧) . والإمام مالك فى الجنائز (٥٣) . والإمام أحمد فى (٢٣٣:٢، ٢٧٥، ٣١٥، ٣٤٧، ٣٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم فى الجنة (٦٣) . والإمام أحمد فى (١٦٢:٤) . (٤) الآية ١٩ من سورة الأنعام .

فالقرآن شاهد صدق ، ودليل حق على نبوته ﷺ ، إذ هو الكتاب المعجز المتعبد بتلاوته ، المنقول إلينا بالتواتر ، المشتمل على قواعد العقائد وشعائر العبادات ومبادىء الأحكام ومناهج السلوك .

كذلك من دلائل صدق نبوته كتاب موسى الذى بشَّر ببعثه خاتم المرسلين وقال الله له فيه : [أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولاصخَّاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إلَه إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صماً وقلوبا غلفا] (١).

قال تعالى : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **أولئك يؤمنون به** ﴾ أى أولئك الذين على بينة من ربهم ، وعلى فطرة الإيمان ونور الإسلام ، يؤمنون بهذا القرآن إيمانا جازما مبنيا على اليقين القطعى ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب** ﴾ [أى من طوائف البشر] فالنار موعده ومثواه ومأواه .

جاء فى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار] (٢).

قوله تعالى : ﴿ **فلاتك فى مرية منه** ﴾ أى لا تكن أيها المخاطب فى شك من هذا الكتاب فإنه تنزيل من الرحمن الرحيم . كما قال تعالى : ﴿ آلم * تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك ﴾ (٣).

قوله تعالى : ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ كقوله جلَّ شأنه : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (٤) وقوله جلَّ جلاله : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ (٥).

لا أحد أظلم من هؤلاء

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَـٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟

(١) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٨ : ٣) وفى البيوع (٥٠) . وأبو داود فى المقدمة (٢) وفى فضائل القرآن (١) .
(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (٢٤٠) .
(٣) الآيات ١ – ٣ من سورة السجدة .
(٤) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .
(٥) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .

يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾

المفردات : ﴿ **الأشهاد** ﴾ : واحدهم شاهد . ﴿ **واللعنة** ﴾ : الطرد من الرحمة . ﴿ **والصد عن سبيل الله** ﴾ : الصرف عنه . ﴿ **والعوج** ﴾ : الالتواء . ﴿ **ومعجزين فى الأرض** ﴾ : أى لا يمكنهم أن يهربوا من عذابه . ﴿ **وضل** ﴾ : أى غاب . ﴿ **ولاجرم** ﴾ : أى حقا .

يخبر سبحانه وتعالى أنه لا أحد أظلم ممن افترى عليه سبحانه كذبا فى أقوال أو أفعال أو تشريعات أو أحكام أو توحيد (**ومن**) هنا للاستفهام الإنكارى الذى يفيد النفى .

فمن افترى على الله كذبا بأن قال على الله ما لم يقله ، وحكم بغير ما أنزل ، هؤلاء يُعرضون على النار فى ساحة الحساب ، حيث يشهد عليهم الأشهاد ويقولون هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، وكفاهم بهذا خزيا ، وحسبهم بتلك الشهادة فضيحة . ألا لعنة الله على الظالمين ، فالظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم مرتعه وخيم ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمَّر . ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربَّنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾[1].

وفى حديث ابن عمر فى الصحيحين وغيرهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [إن الله يدنى المؤمن حتى يضع كنفه عليه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال فإنى سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته . وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين][2].

هؤلاء الظالمون الذين استحقوا لعنة الله كانوا فى الدنيا يصدون الناس عن الإيمان بالله ، ويصرفونهم عن اتباع سبيل الله ، ويبغون السبيل المستقيمة ، عوجاً ملتوية متعرجة . وقد أضافوا إلى تلك الجرائم كفرهم باليوم الآخر . إن أولئك الضالين المضلين لم يكونوا بقادرين على أن يهربوا من عقاب الله . وليس لهم أعوان ولا أنصار يمنعون العذاب عنهم . فلا أحد يستطيع أن يقف حائلا بين هؤلاء وبين أمر الله . ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾[3].

هؤلاء يضاعف لهم العذاب جزاء ضلالهم وإضلالهم ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد

(١) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة ابراهيم .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب (٦٠) وفى المظالم (٢) وفى التفسير (سورة ١١ :٤) وفى التوحيد (٣٦) . ومسلم فى التوبة (٥٢) . وابن ماجه فى المقدمة (١٣) . والإمام أحمد فى (٢:٧٤،١٠٥) .

(٣) الآية ١١ من سورة الرعد .

ضلوا ضلالا بعيدا * إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾(١) .

قال جلَّ شأنه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون** ﴾ أى لشدة كفرهم وطغيانهم وعنادهم عطلوا حواسهم كما فى قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾(٢). وكما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾(٣).

﴿ **أولئك الذين خسروا أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ وأى خسران بعد أن عطلوا حواسهم ، وأغلقوا نوافذ المعرفة ، وبدلوا نعمة قومهم كفرا وأحلوا قومهم دار البوار .

ومما يزيدهم حسرة على حسرتهم أن أصنامهم التى عبدوها قد ضلَّت عنهم يوم القيامة وغابت ، لذلك تراهم فى النار يقولون : ﴿ فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾(٤). لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . أى حقا أنهم هم الأخسرون أعمالا . ﴿ الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾(٥).

أصحاب الجنة

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (٢٣) * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٤)

المفردات : ﴿ **أخبتوا** ﴾ : أصل الإخبات قصد الخبت وهو المكان المطمئن المستوى والمراد خشعوا وأخلصوا لله .

أما من كان عكس هذا فالله يقول فيه : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وخشعوا له ، واطمأنت نفوسهم بالإيمان ، ولانت قلوبهم ، ووجلت بالقرآن أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

مثل الكافر والمؤمن كالأعمى والأصم والسميع والبصير هل يستويان مثلا ، أتجهلون هذا المثل الحسى والفارق الكبير فلا تتذكرون ؟

(١) الآيات ١٦٧ – ١٦٩ من سورة النساء .
(٢) الآية ٢٦ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٤) الآيتان ١٠٠ – ١٠١ من سورة الشعراء .
(٥) الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الكهف .

قصة نوح

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ
عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا
وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ
نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ
فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ
أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا
تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ
عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ
أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمۡ نُصۡحِيٓ إِنۡ أَرَدتُّ أَنۡ أَنصَحَ
لَكُمۡ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغۡوِيَكُمۡۚ هُوَ رَبُّكُمۡ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ
ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ
إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا
تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن
قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوۡفَ
تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ
ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ

ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ
رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ
يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ
قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾
وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى
ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى
وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ
صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ
أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ
يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ
مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

القصة فى القرآن الكريم

إن من أغراض القرآن المهمة إثبات التوحيد وما يتبعه من إثبات النبوة والبعث ، والكلام فى التشريع للفرد والجماعة والأمة ، والقصص الخاص بالأمم السابقة وهو غالبا يساق فى السور المكية والمبدوءة بأحرف مقطعة كهذه السورة مثلا .

وهنا يظهر سؤال لماذا سيقت القصة فى القرآن ؟ وما السر فى اختلاف الأسلوب للقصة الواحدة ؟ ولماذا كررت فى عدة سور ؟

ولقد كان القصص فى كل لغة لونا من ألوان الأدب الفنى الرائع ، لما له من الأثر النفسى فى قلوب سامعيه ، والقصص فى القرآن ينبئنا عن أخبار الأنبياء والرسل ، وما حصل لهم ، وكيف قاموا بدعوتهم ، وكيف عالجوا أزماتهم ، وما انتهى إليه أمرهم ، وعلى العموم فهو مدرسة إلهية معلموها الأنبياء ، وتلاميذها الأمم .

ولقد سيقت للعبرة والعظة ، حيث يقف المسلمون والمشركون على أحوال من تقدمهم من الأمم ، فيعتبر ذوو الألباب ويتعظون ، وفيها التسلية الكاملة للنبى ﷺ وصحبه ، من حيث يقفون على أخبار الرسل وأممهم ، وكيف كانت العاقبة للمتقين ، والدائرة على الكافرين المعاندين .

وفى هذا تثبيت لهم ، وشحذ لعزائمهم ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[١] ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[٢] والعبرة والعظة تظهر فى قوله تعالى ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذين بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[٣] .

ولقد سيقت القصة دليلا على صدق الرسول ، وأن خبره من السماء ، إذ هو يقص أخبارا ماكان يعلمها هو ولا أحد من قومه ، ولا يكون هذا إلا بوحى من السماء ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ .

﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾[٤]

وهى علاج للقلوب ، ودواء للنفوس ، لما فيها من أخبار الأمم وما حل بالعاصين من عاجل بأس الله ، فأهل اليقين وغير هم إذا تلوها تراءى لهم من ملكه وسلطانه وعظمته وجبروته ، حيث يبطش بأعدائه ما تذهل منه النفوس ، وتشيب منه الرؤوس « شيبتنى سورة هود وأخواتها » صدق رسول الله .

والقصة مدرسة للمؤمنين المنتفعين بهدى القرآن ﴿ **هدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾ . فيها أحسن الدروس ، وأقوى الأمثال التى تضرب لتحمل الدعاة والمرشدين ﴿ **إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ ﴿ **يا قوم ليس بى سفاهة ولكن رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين** ﴾ ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾ إلى آخر ما فى قصة نوح .

أما تكرارها فى القرآن فلما فى أغراضها ومقاصدها من معان جليلة وفوائد سامية يحرص القرآن دائماً على ذكرها لتكون ماثلة أمام أعين المسلمين بكل لون وأسلوب ، ولا غرابة فإنا نرى أصحاب الثورات والدعوات دائما فى كل خطبة وفى كل موقف يرددون مبادئهم وأغراضهم وأعمالهم بأساليب مختلفة .

ولعل السر فى اختلاف الأسلوب فى القصة الواحدة تجديد النشاط وطرد السآمة والملل من نفس القارئ والسامع ولا تنس أن لكل سورة لونا خاصا وصفة خاصة وجرسا خاصاً ، وفواصل خاصة وحالا للمخاطب خاصة تتناسب مع السياق وعلى العموم فلكل قصة سياق يتناسب مع ما سبقها وما أتى بعدها وهذا بحث يحتاج إلى كتاب يبحث فيه حال القصة الواحدة مع كل الملابسات السابقة .

(١) الآية ٣٥ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود .
(٣) الآية ١١١ من سورة يوسف .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة يوسف .

المفردات : ﴿ **الملأ** ﴾ : الأشراف والزعماء . ﴿ **وأراذل** ﴾ : واحدهم أرذل وهو الخسيس الدنىء . ﴿ **وبادى الرأى** ﴾ : أى ظاهره قبل التأمل . ﴿ **أرأيتم** ﴾ : أى أخبرونى . ﴿ **والبينة** ﴾ : مايتبين به الحق . ﴿ **وعمّيت** ﴾ : أخفيت . ﴿ **وطرده** ﴾ : أبعده . ﴿ **وتجهلون** ﴾ : أى تسفهون عليهم وهو من الجهالة التى تضاد العقل والحلم . ﴿ **وتذكرون** ﴾ : أصله تتذكرون . ﴿ **وزرى** ﴾ : على فلان زراية : عليه واستهزأ به . ﴿ **أصل الجدال** ﴾ : هو الصراع وإسقاط المرء صاحبه على الجدالة وهى الأرض الصلبة ثم استعمل فى المخاصمة والمنازعة بما يشغل عن ظهور الحق ووضوح الصواب . ﴿ **والنصح** ﴾ : تحرى الخير والصلاح للمنصوح له والإخلاص فيه قولاً وعملاً . ﴿ **الإغواء** ﴾ : الإيقاع فى الغى وهو الفساد الحسى والمعنوى ﴿ **والإجرام** ﴾ : الفعل القبيح الضار الذى يستحق فاعله العقاب . ﴿ **ابتأس** ﴾ : اشتد بؤسه وحزنه . ﴿ **والفلك** ﴾ : السفينة ، ويطلق على الواحد والجمع والمراد بالأعين هنا : شدة الحفظ والحراسة ﴿ **وسخر منه** ﴾ : استهزأ به . ﴿ **ويخزيه** ﴾ : يذله ويفضحه . ﴿ **ومقيم** ﴾ : أى دائم . ﴿ **الفور والفوران** ﴾ : الارتفاع القوى . يقال فى الماء إذا نبع وجرى وإذا علا وارتفع والمراد منه هنا اشتداد غضب الله على أولئك المشركين الظالمين لأنفسهم وللناس وحلول وقت انتقامه منهم . ﴿ **والتنور** ﴾ : ما يخبز فيه الخبز – اتفقت فيه لغة العرب والعجم . ﴿ **وأهل بيت الرجل** ﴾ : نساؤه وأولاده وأزواجهم . ﴿ **ومجريها ومرساها** ﴾ : أى إجراؤها وإرساؤها . ﴿ **ومعزل** ﴾ : أى مكان عزلة وانفراد . ﴿ **وآوى** ﴾ : أى ألجأ وعصمه : حفظه ﴿ **والبلع** ﴾ : ازدراد الطعام والشراب بسرعة . ﴿ **وغاض الماء** ﴾ : غار فى الأرض ونضب . ﴿ **والجودى** ﴾ : جبل بالموصل .

بعد أن ذكر بعثة النبى الكريم ، وأثبت بالبرهان أنه رسول من رب العالمين ، وأن القرآن وحى من الرحمن الرحيم ، قفى على ذلك بقصص الأنبياء قبله ، ليبين لقومه أن محمداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل ، وأنه إنما بعث بمثل ما بعث به من قبله من الدعوة إلى عبادة الله وحده ، والإيمان بالبعث والجزاء ، فحاله معهم كحال من قبله من الرسل عليهم السلام مع أقوامهم جملة وتفصيلا ، كما قال سبحانه ﴿ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾[1].

قوله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إنى لكم نذير مبين** ﴾ .

أى ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه قائلاً لهم إنى لكم نذير من الله أنذركم بأسه على كفركم به ، فآمنوا به وأطيعوا أمره .

ثم فسر هذا الإنذار بقوله : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ أى بألاتعبدوا إلا الله ، ولا تشركوا به شيئا .

(١) الآية ٧٧ من سورة الإسراء .

وكانوا أول من أشرك بالله ، واتخذوا الأنداد ، وكان هو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، ثم علل هذا بقوله :

﴿ **إنى أخاف عليكم** ﴾ أى إن لم تخصوه بالعبادة ، وتفردوه بالتوحيد ، وتخلعوا ما دونه من الأنداد والأوثان ، أخاف عليكم من الله عذاب يوم مؤلم عقابه ، وعذابه لمن عذب فيه .

وقد أجابوه عن مقالته بأربع حجج داحضة ظنا منهم أنها تكفى فى رد دعوته :

١ - ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا** ﴾ :

أى أن الأشراف والزعماء بادروا إلى الجواب بقولهم : ما أنت إلا بشر مثلنا فى الجنس ، لا مزية لك علينا تجعلنا نطيعك ونذعن لنبوتك .

٢ - ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى** ﴾ :

أى وإنا لم نرمتبعيك إلا الأخساء كالزراع والصناع ، ومن فى حكمهم فى المكانة الاجتماعية ، بادى الرأى قبل التأمل فى عواقبه ، والنظر فى مستنده ، وترجيح العقل له ، وهذا مما يرجح رد الدعوة والتولى عنها .

٣ - ﴿ **وما نرى لكم علينا من فضل** ﴾ :

أى وما نرى لك ولمن اتبعك أدنى امتياز عنا من قوة أو كثرة أو علم أو أصالة رأى ، يحملنا على اتباعكم ، ويجعلنا ننزل عن جاهنا ومالنا ونكون نحن وأنتم سواء .

٤ - ﴿ **بل نظنكم كاذبين** ﴾ :

أى بل إنا نرجح الحكم عليك وعليهم بالكذب ، فأنت كاذب فى دعوى النبوة ، وهم كاذبون فى تصديقك ، وهذه الشبهة الأخيرة طعن على نوح عليه السلام ، أشركوا فيها أتباعه ولم يجابهوه بها وحده ، كما أنهم جعلوها ظنا ولم يجزموا بها ، لأن ذلك كاف فى رد دعوته ، وعدم الدخول فى دينه .

قوله تعالى : ﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعُمّيت عليكم** ﴾ :

أى قال ياقومى . أخبرونى ماذا ترون وماذا تقولون ، إن كنت على حجة فيما جئتكم به من ربى ، يتبين لى بها أنه الحق من عنده ، لا من عندى ، ومن كسبى البشرى . الذى تشاركوننى فيه ، وآتانى رحمة من عنده ، وهى النبوة ، وتعاليم الوحى التى هى سبب رحمة خاصة لمن يهتدى بها ، فحجبها عنكم جهلكم وغروركم بالمال والجاه ، فلم تتبينوا منها ما تدل عليه من التفرقة بينى وبينكم ، فمنعتم فضل الله عنى بحرمانى من النبوة .

قوله تعالى : ﴿ **أنلزمكموها وأنتم لها كارهون** ﴾ :

أى أنكرهكم على قبولها وأنتم معرضون عنها غير متدبرين لها ، كلا إنا لا نفعل ذلك ، بل نكل أمركم إلى الله حتى يقضى فى أمركم ما يرى ويشاء ، وما علىّ إلا البلاغ .

وهذا أول نص فى دين الله على أنه لا ينبغى أن يكون الإيمان بالإكراه .

وفى هذه الآية إثبات لنبوته عليه السلام ، ورد لإنكارهم لها وتكذيبه ومن معه فيها ، وإبطال لشبهتهم فى أنه بشر مثلهم ، وقد فاتهم أن المساواة فى البشرية لا تقتضى استواء أفراد الجنس فى الكمالات والفضائل ، فالمشاهدة والتجارب تدل على التفاوت العظيم بين أفراد البشر فى العقل والفكر والرأى والأخلاق والأعمال ، حتى أن الواحد منهم ليأتى بضروب من الإصلاح لقومه بالعلم والعمل يعجز عن مثلها الألوف من الناس فى أجيال كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ **وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله** ﴾ :

أى لا أسألكم على نصيحتى لكم ، ودعوتكم إلى توحيد الله ، وإخلاص العبادة له إلا خيركم ومصلحتكم ، ولا أريد بذلك مالا فأكون متهماً فيه عندكم لمكانة حب المال من أنفسكم واعتزازكم به علىّ وعلى الفقراء من أتباعى ، فما أجرى على ذلك إلا على الله الذى أرسلنى ، فهو الذى يجازينى ويثيبنى عليه .

ومثل هذه المقالة قد صدرت من جميع الأنبياء بعده فجاءت على لسان هود ، وصالح ، وشعيب ، ومحمد ، صلوات الله عليهم أجمعين ، كما ترى ذلك فى سورة الشعراء محكيا عنهم .

قوله تعالى : ﴿ **وما أنا بطارد الذين آمنوا** ﴾ :

أى ليس من شأنى ، ولا بالذى يكون منى أن أبعد من يؤمن بى وأنحيه عنى ، احتقاراً له على أى حال كانت صفته .

وفى هذا إيماء إلى الجواب عن قولهم ﴿ **وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا** ﴾ وقد روى أنهم قالوا له : يا نوح إن أحببت أن نتبعك فاطرد هؤلاء ، فإنا لن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء .

ثم علل الامتناع من طردهم بقوله : ﴿ **إنهم ملاقوا ربهم** ﴾ : أى إن هؤلاء الذين تسألوننى طردهم صائرون إلى ربهم ، وهو سائلهم عما كانوا يعملون فى الدنيا ، ولا يسألهم عن حسبهم وشرفهم .

﴿ **ولكنى أراكم قوماً تجهلون** ﴾ أى تجهلون ما يمتاز به البشر بعضهم عن بعض ، من اتباع الحق والتحلى بالفضائل ، وعمل البر والخير ، وتظنون أن الميزة إنما تكون بالمال والجاه .

وقد جاء هذا المعنى فى قصته من سورة الشعراء ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمى بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين ﴾[1]

(١) الآيات ١١١ — ١١٥ من سورة الشعراء .

قوله تعالى : ﴿ **وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم** ﴾ :

أى وياقوم لا أجد أحداً يمنع عنى ما أستحقه من عقاب الله إن طردتهم بعد إيمانهم ، واتباعهم إياى فيما بلغتهم ، فإن ذلك ظلم عظيم يستحق شديد العقاب ، مهما تكن صفة من اجترحه ، كما قال فى سورة الأنعام ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾(١).

﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ : أى أفلا تتفكرون فيما تقولون ، وهو ظاهر الخطأ لائحه فتنتهوا عنه ، فإن لهم رباً ينصرهم وينتقم لهم .

قوله تعالى : ﴿ **ولا أقول لكم عندى خزائن الله** ﴾ :

أى ولا أقول لكم بادعائى للنبوة والرسالة إن عندى خزائن رزق الله ، أتصرف فيها بغير وسائل الأسباب المسخرة لسائر الناس ، فأنفق على نفسى وعلى من تبعنى بالتصرف فيها بخوارق العادات ، بل أنا وغيرى فى الكسب سواء ، إذ ذلك ليس من موضوع الرسالة ، ولا من خصائص النبى ، ولو كان كذلك لا تبع الناس الرسل لأجلها ، بل الغاية من بعث الرسل تزكية الأنفس بمعرفة الله وعبادته ، وتأهيلها لمثوبته فى دار كرامته ورضاه عنها ، يوم لا ينفع مال ولا بنون .

﴿ **ولا أعلم الغيب** ﴾ :

فلا أمتاز عن سائر البشر بعلم مالا يصل إليه علمهم الكسبى من مصالحهم ومنافعهم ومضارهم فى معايشهم . وكسبهم ، فأخبر بها أتباعى ليفضلوا عليكم ، ومن ثم أمر الله نبيه أن يقول لقومه ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء ﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ **ولا أقول إنى ملك** ﴾ : من الملائكة أرسلت إليكم ، فأكون كاذباً فيما أدعى ، بل أنا بشر مثلكم أمرت بدعائكم . إلى الله ، وقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم .

وفى هذا دحض لشبهتهم ، إذ زعموا أن الرسول من الله إلى البشر يجب أن يفضلهم ، ويمتاز عنهم ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يكون ملكاً يعلم مالا يعلمه البشر ، ويقدر على مالا يقدر عليه بشر .

قوله تعالى : ﴿ **ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً** ﴾ :

أى ولا أقول للذين اتبعونى وآمنوا بالله وحده . وأنتم تنظرون إليهم نظرة استصغار واحتقار ، فتزدريهم أعينكم لفقرهم ورثاثة حالهم : لن يؤتيهم الله خيرا ، وهو ما وعدوه على الايمان والهدى من سعادة الدنيا والآخرة .

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٨٨ من سورة الأعراف .

﴿ **الله أعلم بما فى أنفسهم** ﴾ :

أى الله أعلم بما فى صدورهم ، وبما آتاهم من الإيمان على بصيرة ، ومن اتباع رسوله بإخلاص وصدق سريرة ، لا كما زعمتم من اتباعهم إياى بادى الرأى ، بلا بصيرة ولا علم .

﴿ **إنى إذاً لمن الظالمين** ﴾ :

أى إنى إذا قضيت على سرائرهم بخلاف ما أبدته لى ألسنتهم على غير علم منى بما فى نفوسهم ، أكون ظالماً لهم بهضم حقوقهم

قوله تعالى : ﴿ **قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ :

أى قال قومه له : قد حاججتنا فأكثرت جدالنا ، واستقصيت فيه ، فلم تدع حجة إلا ذكرتها حتى مللنا وسئمنا ، ولم يبق لدينا شىء نقوله ، كما قال فى سورة نوح حكاية عنه ﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً * فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ﴾[1] أى فأتنا بما تعدنا من عذاب الله الدنيوى الذى تخافه علينا ، وهو الذى أراده بقوله ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾ إن كنت صادقاً فى دعواك أن الله يعاقبنا على عصيانه فى الدنيا . قبل عقاب الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ **قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين** ﴾ :

أى قال لهم نوح حين استعجلوا العذاب : ياقوم إن هذا العذاب بيد الله لا أملكه ، وهو الذى يأتيكم به إن تعلقت مشيئته فى الوقتَ الذى تقتضيه حكمته ، ولستم بفائتيه هربا منه إن أخره لحكمة يعلمها ، وهو واقع لا محالة متى شاء ، لأنكم فى ملكه وسلطانه ، وقدرته نافذة عليكم .

قوله تعالى : ﴿ **ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم** ﴾ :

أى إن نصحى لكم لا ينفعكم بمجرد إرادتى له فيما أدعوكم إليه ، بل يتوقف نفعه على إرادة الله تعالى له ، وقد مضت سنته كما دلت عليه التجارب أن النصح إنما يقبله المستعد للرشاد ، ويرفضه من غلب عليه الغى والفساد ، باجتراحه أسبابه من غرور بغنى وجاه ، أو باتباع هوى وحب شهوات ، تمنع من طاعة الله تعالى .

والخلاصــة : أن معنى إرادة الله إغواءهم اقتضاء سننه منهم أن يكونوا من الغاوين ، لا خلقه للغواية فيهم ابتداء ، من غير عمل منهم ، ولا كسب لأسبابها ، فإن الحوادث مرتبطة بأسبابها ، والنتائج متوقفة على مقدماتها .

قوله تعالى : ﴿ **هو ربكم وإليه ترجعون** ﴾ :

أى هو مالك أموركم ومدبرها بحسب سننه المطرده فى الدنيا ، ولكل شىء عنده قدر ، ولكل قدر أجل ، وإليه ترجعون فى الآخرة فيجازيكم بما كنتم تعملون من خير وشر، ولا تظلمون نقيرا .

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة نوح .

قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون** ﴾

أى بل أيقول مشركو مكة إن محمداً افترى خبر قوم نوح ، فأمره الله أن يجيبهم بقوله :

﴿ **قل إن افتريته فعلى إجرامى** ﴾ : أى إن كنت افتريته على الله كما تزعمون فما عليكم فى ذلك من بأس ، إنما إثم ذلك وعقابه علىّ ، ومن كان يؤمن أن هذا إجرام يعاقب عليه فاعله ، فما الذى يحمله على اقترافه .

﴿ **وأنا برىء مما تجرمون** ﴾:

أى كما أنى برىء من آثامكم وذنوبكم فحكم الله العدل أن يجزى كل امرئ بعمله ، كما قال سبحانه ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾ :

أى وأوحى الله إلى نوح بعد أن استعجل قومه العذاب ، ودعا عليهم دعوته التى حكاها الله عنه ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾(١)

أنه لن يؤمن أحد منهم فيتبعك على ما تدعوه إليه ، إلا من قد آمن من قبل ، فيظل على إيمانه ، فلا يشتدن عليك البؤس والحزن بعد اليوم بما كانوا يفعلون فى السنين الطوال من العناد والإيذاء والتكذيب لك ، ولمن آمن معك ، فأرح نفسك بعد الآن من جدالهم ، ومن إعراضهم واحتقارهم ، فقد آن زمن الانتقام ، وحان حين العذاب .

قوله تعالى : ﴿ **واصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ :

أى واصنع الفلك الذى سننجيك ومن آمن معك فيه ، وأنت محروس ومراقب برعايتنا ، أى إننا حافظوك فى كل آن فلا يمنعك من حفظنا مانع ، وملهموك ومعلموك بوحينا كيف تصنعه ، فلا يعرض لك خطأ فى صنعته ، ولا فى وصفه .

ونحو الآية قوله لموسى ﴿ ولتصنع على عينى ﴾(٢) وقوله لمحمد ﷺ ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾(٣) .

قوله تعالى ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ .

أى ولا تراجعنى فى شىء من أمرهم من دفع العذاب عنهم ، وطلب الرحمة لهم ، فقد حقت عليهم كلمة العذاب ، وقضى عليهم بالإغراق .

والخلاصــة : لا تأخذنك بهم رأفة ، ولا شفقة .

(١) الآية ٢٦ من سورة نوح . (٢) الآية ٣٩ من سورة طه . (٣) الآية ٤٨ من سورة الطور .

قوله تعالى:﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾ .

أى وشرع يصنع الفلك ، وكلما مر عليه جماعة من كبراء قومه استهزءوا به ، وضحكوا منه ، وتنادروا عليه ، ظنا منهم أنه أصيب بالهوس والجنون .

روى أنهم قالوا له : أتحولت نجاراً بعد أن كنت نبياً ، وليس ذلك بالغريب منهم ، فإنه ما من أحد يسبق أهل عصره بما فوق عقولهم من قول أو فعل إلا سخروا قبل أن يكتب له النجاح فيه .

قوله تعالى ﴿ **إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** ﴾ .

أى قال لهم نوح مجيباً لهم عن سخريتهم ، إن تسخروا منا اليوم وتجهلونا ، لرؤيتكم مالا تتصورون له فائدة ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون جزاء وفاقاً نسخر منكم اليوم لجهلكم ، وغدا لما سيحل بكم .
﴿ **فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾

أى فإن كنتم لا تعلمون اليوم فائدة ما نعمل ، وماله من عاقبة محمودة ، فسوف تعلمون بعد تمامه من يأتيه عذاب يفضحه ويجلب له العار والخزى فى الدنيا وهو عذاب الغرق ، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة بعد ذلك ، وكل ما فى الدنيا فهو هين لين بالنسبة إلى ما يكون فى الآخرة لانقضائه وزواله ، وبقاء ذاك ودوامه .

قوله تعالى ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور** ﴾

أى حتى إذا جاء وقت أمرنا بهلاكهم ، ونبع الماء من التنور ، وارتفع بشدة كما تفور القدر بغليانها ، وكان ذلك علامة لنوح عليه السلام ، والأقرب أن يكون المراد من التنور وجه الأرض ، ويكون المعنى حتى إذا نبع الماء من وجه الأرض .

وقوله تعالى ﴿ **قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين** ﴾ .

أى حتى إذا أمرنا قلنا لنوح آنئذ : احمل فى السفينة من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين اثنين ذكرا وأنثى ، لتبقى بعد غرق سائر الأحياء فتتناسل ، ويبقى نوعها على الأرض .

قوله تعالى ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن** ﴾ :

أى واحمل فيها أهل بيتك ذكرانا وإناثا ، إلا من سبق القول بأنهم من المغرقين بسبب ظلمهم ، كما قال :﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ واحمل من صدّق واتبعك من قومك .

وقوله تعالى : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ منهم ، قيل إنهم كانوا ثمانية : نوحا عليه السلام وأهله وأبناءه الثلاثة وأزواجهم ، ولم يبين الله ورسوله لنا عددهم ، فحصره فى عدد معين من قبيل الحدس والتخمين ، كما لم يبين لنا أنواع الحيوان التى حملها ، ولا كيف حملها وأدخلها السفينة ، وقد فصل ذلك فى سفر التكوين .

وقوله تعالى ﴿ **وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها** ﴾ :

أى فحملهم نوح وقال : اركبوا فيها باسم الله جريانها وإرساؤها ، فهو الذى يتولى ذلك بحوله وقوته ، وحفظه وعنايته ، وقد يكون المعنى أن نوحا أمرهم بأن يقولوها كما يقولها على تقدير : اركبوا فيها قائلين باسم الله ، أى بتسخيره وقدرته مجراها حين تجرى ، ومرساها حين يرسيها لا بحولنا ولا بقوتنا .

﴿ **إن ربى لغفور رحيم** ﴾ : أى إن ربى لواسع المغفرة لعباده حيث لم يهلكهم بذنوبهم ، بل يهلك الكافرين الظالمين منهم ، رحيم بهم إذ سخر لهم هذه السفينة لنجاة بقية الإنسان والحيوان من هذا الطوفان الذى اقتضته مشيئته .

أخرج الطبرانى وغيره عن الحسن بن على رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا الفلك أن يقولوا : باسم الله الملك الرحمن الرحيم (باسم الله مجريها) الآية) .

وقوله تعالى ﴿ **وهى تجرى بهم فى موج كالجبال** ﴾ : أى هى تجرى بهم فى موج يشبه الجبال فى علوه وارتفاعه وامتداده ، ومن كابد ما يحدث فى البحار العظيمة من الأمواج حين ما تهيجها الرياح الشديدة ، عرف أن المبالغة فى هذا التشبيه غير بعيدة ، فإن السفينة لترى كأنها تهبط فى غور عميق كواد سحيق ، يرى البحر من جانبيه كجبلين عظيمين يكادان يطبقان عليها ، وبعد هنية يرى أنها قد اندفعت إلى أعلى الموج كأنها فى شاهق جبل ، تريد أن تنقض منه ، والملاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها ، لئلا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها .

ثم بين أن نوحا دعته الشفقة على ابنه فناداه ، كما أشار إلى ذلك بقوله : ﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنىّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين** ﴾ :

أى وناداه حين الركوب فى السفينة وقبل أن تجرى بهم ، وكان فى منعزل بعيد عن أبيه وإخوته ومن آمن من قومه ، يا بنى اركب معنا الفلك ولا تكن مع الكافرين الذين قضى عليهم بالهلاك .

فرد ابنه عليه : ﴿ **قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء** ﴾ أى قال : سأصير إلى جبل أتحصن به من الماء فيحفظنى من الغرق .

فأجابه نوح مبينا له خطأه : ﴿ **قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾ :

أى وقال نوح لابنه لا شيء يعصم أحدا فى هذا اليوم العصيب من عذاب الله الذى قضاه على الكافرين ، فليس الأمر أمر ماء يُتَّقَى بالأسباب العادية ، وإنما هو انتقام من أشرار العباد الذين أشركوا بالله ، وظلموا أنفسهم وظلموا الناس بطغيانهم فى البلاد ، لكنه يحفظ من رحم ويعصمه ، وقد اختص بهذه الرحمة من حملهم فى السفينة ، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتى حال بين الولد ووالده فكان من المغرقين الهالكين .

وقد وصف سبحانه هذا الطوفان فى سورة القمر ، قال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مُدّكِر * فكيف كان عذابى ونذر ﴾[١] .

وإنه لمنظر تشيب من هوله الولدان ، ماء ينهمر من السماء انهمارا وأرض تتفجر فتفيض ماء ثجاجا ، يصير بحراً متلاطم الأمواج ، تغطت من تحته الأرض بجبالها ووديانها ، وخفيت من فوقه السماء بكواكبها وشمسها ، وكانت عليه السفينة كما كان عرش الله على الماء فى بدء التكوين .

ثم ذكر ما حدث بعد هلاكهم مبينا قدرته تعالى فقال : ﴿ **وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقُضى الأمر واستوت على الجودِىّ وقيل بُعدا للقوم الظالمين** ﴾ .

أى وجاء نداء من الملأ الأعلى ، خوطبت به الأرض والسماء : يا أرض ابلعى ماءك الذى عليك ، والذى تفجر من باطنك ، وياسماء كفّى عن المطر ، فلم يلبث أن غاض الماء امتثالا للأمر ، وقضى الأمر بإهلاك الظالمين ، واستقرت السفينة راسية على جبل الجودى ، وقيل هلاكا وسُحقا للظالمين ، وبُعدا لهم من رحمة الله بما كان من ظلمهم وفقدهم الاستعداد للتوبة والرجوع إلى الله عز وجل .

قوله تعالى ﴿ **ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين** ﴾ :

أى ونادى نوح ربه إثر ندائه لابنه الذى تخلف عن السفينة ، ودعا إليها فلم يستجب ، فقال : يارب إن ابنى هذا من أهلى الذى وعدتنى بنجاتهم ، إذ أمرتنى بحملهم فى السفينة ، وإن وعدك الحق الذى لا خُلْف فيه ، وأنت خير الحاكمين بالحق ، كما قلت ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾[٢] فحكمك يصدر عن كمال العلم والحكمة ، فلا يعرض له الخطأ ولا الحيف والظلم .

والخلاصة : أن نوحا كان يريد أن ينجو ابنه الذى تخلف عن السفينة من الغرق بعد أن دعاه إليها ، ومن البين أن هذا الدعاء لابد أن يكون بعد المحاورة مع ابنه قبل أن يحول بينهما الموج .

﴿ **قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عَمَلٌ غير صالح** ﴾ :

أى قال الله تعالى : يا نوح إنه ليس من أهلك الذين أمرتك أن تحملهم فى الفلك لإنجائهم ، وقد بين سبحانه سبب ذلك بأنه ذو عمل غير صالح ، أى فهو يتنكب الصلاح ، ويلتزم الفساد .

﴿ **فلا تسألْنِ ما ليس لك به علم** ﴾ .

أى فلا تسألنى فى شىء ليس لك به علم صحيح ، وقد سمى دعاءه سؤالا ، لأنه تضمن ذكر الوعد بنجاة أهله ، وما رتبه عليه من طلب نجاة ولده .

(١) الآيات ٩ – ١٦ من سورة القمر . (٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

وفى الآية إيماء إلى أنه لا يجوز الدعاء بطلب ما هو مخالف لسنن الله فى خلقه ، بإرادة قلب نظام الكون لأجل الداعى ، ولا بطلب ما هو محرم شرعا ، وإنما يجوز الدعاء بتسخير الأسباب ، والتوفيق فيها ، والهداية إلى العلم بالمجهول من السنن والنظام ، لنكثر من عمل الخير ، ونزيد من عمل البر والإحسان .

﴿ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ :

أى إنى أنهاك أن تكون من زمرة من يجهلون ، فيسألونه تعالى أن يبطل حكمته وتقديره فى خلقه ، إجابة لشهواتهم وأهوائهم فى أنفسهم أو أهليهم أو محبيهم ، وفى ذلك دليل على أن من أكبر الجهالات أن نسأل بعض الصالحين والأولياء ما نهى الله عنه نبيا من أولى العزم من رسله ، أن يسأله إياه ، فإن ذلك يقضى بأن الله يعطيهم مالم يعط مثله لرسله .

ثم ذكر طلب نوح المغفرة من ربه على ما فرط منه من السؤال ، حاكيا عنه : **﴿ قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾ :**

أى قال نوح : رب إنى ألتجئ إليك وأحتمى بك من أن أسألك بعد الآن شيئا لا أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة ، وإن لم تغفر لى ذنب هذا السؤال الذى سولته الرحمة الأبوية ، وطمعى فى الرحمة الربانية ، وترحمنى بقبول توبتى برحمتك التى وسعت كل شىء ، أكن من الخاسرين فيما حاولته من الربح بنجاة أولادى كلهم وسعادتهم بطاعتك ، وأنت أعلم بهم منى .

والعبرة فى الآية من وجوه :

(١) إن ما سأله نوح لابنه لم يكن معصية لله تعالى خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كان خطأ فى اجتهاد بنية صالحة ، وعَدَّ هذا ذنباً لأنه ما كان ينبغى لمثله من أرباب العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه ، ومثل هذا الاجتهاد لم يُعصم منه الأنبياء ، فهم يقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم حينا بعد حين .

(٢) أنه لا علاقة للصلاح بالوراثة والأنساب ، بل يختلف ذلك باختلاف استعداد الأفراد ، وما يحيط بهم من البيئة والآراء والمعتقدات ، ولو كان للوراثة تأثير كبير لكان جميع أولاد آدم سواء ، ولكان سلائل أبناء نوح المؤمنين الذين نجوا معه فى السفينة كلهم مؤمنين .

إنه تعالى يجزى الناس فى الدنيا والآخرة بإيمانهم وأعمالهم ، لا بأنسابهم ، ولا يحابى أحدا منهم لأجل الآباء وإن كان من الأنبياء والمرسلين .

(٤) إن من يغتر بنسبه ولا يعمل ما يرضى ربه ، ويزعم أنه أفضل من العلماء العاملين والأولياء الصالحين ، فهو جاهل بكتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

﴿ قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾ :

أى قال الذى بيده ملكوت كل شيء ، ومدبر أمر العالم كله لنوح ، بعد أن انتهى الطوفان ، وأقلعت السماء عن المطر ، وابتلعت الأرض ماءها ، وصارت السكنى على الأرض والعمل عليها سهلا ممكنا : يا نوح اهبط من الجودى الذى استوت عليه السفينة ، ممتعا بسلام وتحية منا ، كما قال تعالى ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾[1] وبركات فى المعايش والأرزاق ، تفيض عليك وعلى من معك فى السفينة ، وعلى ذريات يتناسلون منهم ، ويتفرقون فى الأرض ، فيكونون أمما مستقلا بعضها من بعض ، ومنهم أمم آخرون من بعدهم سنمتعهم فى الدنيا بالأرزاق والبركات ، ولا يصيبهم لطف من ربهم ورحمة منه كما يصيب المؤمنين ، فإن الشيطان سيغويهم ويزين لهم الشرك والظلم والبغى ، ثم يمسهم العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، لأنهم لا يحافظون على السلام ، بل يبغى بعضهم على بعض ، لتفرقهم واختلافهم فى هداية الدين التى بعث بها المرسلون ، ويكون جزاؤهم فى الآخرة النار وبئس القرار .

ثم ذكر لنبيه ﷺ أن هذا قصص من عالم الغيب لا يعرفه هو ولا قومه من قبل ، فقال : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ :

أى هذا القصص الذى قصصته عليك من خبر نوح وقومه من أخبار الغيب لم تشهدها حتى تعلمها ، نوحيها إليك نحن فنعرّفها تفصيلا ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل الوحى الذى نزل مبينا لها ، وربما كان يعلمها هو وقومه على سبيل الإجمال .

﴿ **فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ : أى فاصبر على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من قومك من أذى كما صبر نوح على قومه ، فإن سنة الله فى رسله وأقوامهم أن تكون العاقبة بالفوز والنجاة للمتقين الذين يجتنبون المعاصى ويعملون الطاعات ، فأنتم الفائزون المفلحون ، والمصرّون على عداوتكم هم الخاسرون الهالكون .

قصة هود عليه السلام

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ
﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً
إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا
عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ

---
(١) الآية ٧٩ من سورة الصافات .

أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾
إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا
مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا
رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ
عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

المفردات : ﴿ **فطرنى** ﴾ : خلقنى على الفطرة السليمة . ﴿ **مدراراً** ﴾ : كثيرا . ﴿ **اعتراك** ﴾ : أصابك . ﴿ **آخذ بناصيتها** ﴾ : المراد مسخرها ومصرفها كيف شاء . ﴿ **جبار** ﴾ : القاهر الذى يجبر غيره على اتباعه . ﴿ **عنيد** ﴾ : لا يذعن إلى الحق مهما كان .

قوله تعالى : ﴿ **وإلى عادٍ أخاهم هودا** ﴾ :

أى وأرسلنا هوداً إلى قبيلة عاد ، وهى عربية وكانت تسكن الأحقاف فى شمال حضرموت ، وغربى عمان ، وكانت قبيلة ذات بطن ، وكانوا أصحاب زرع وضرع ، زادهم الله بسطة فى الجسم والمال ، وهم خلفاء قوم نوح ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[1] ، ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين ﴾[2] .

أرسل اليهم أخاهم هودا ، من أوسطهم نسبا وأكرمهم بيتا ، قال لهم : يا قومى ويا أهلى اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به غيره ، مالكم من إلٰه غيره ، خلقكم ورزقكم ، وأمدكم بما تعلمون ومالا تعلمون ، إن أنتم إلا مفترون على الله الكذب فى اتخاذكم الشركاء والأوثان .

وكان فى قبيلة عاد مترفون ألفوا التعالى على الغير ، واستمتعوا بالنعم حتى امتلأت قلوبهم كبرا وبغيا وفسادا وضلالا ، وهؤلاء هم أعداء الحق دائما ، إذ يرون فى النبوة نورا يعمى أبصارهم ، ويفتح أذهان العامة فيأخذون حقهم ، فتكسر شوكتهم ، وتضيع دولتهم ، لذلك نرى مع كل نبى أن أول كافر به هم أشراف قومه ، إذ كيف يخضعون لواحد منهم بشر مثلهم ؟ ! !

(١) الآية ٦٩ من سورة الأعراف . (٢) الآيات ١٢٨ – ١٣٣ من سورة الشعراء .

قال هؤلاء : أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ؟ إنا إذاً لفى ضلال مبين ، ما أنت إلا شخص لك غرض خاص فى هذه الدعوة .

فيرد عليهم هود : يا قوم لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من عبادة الله وحده ونبذ الشرك والشركاء ، لا أسألكم عليه أجرا حتى تتهمونى بطلب المنفعة ، وأن لى غرضا ، ما أجرى إلا على الذى خلقنى على الفطرة السليمة ، وهدانى إلى الحق الذى أدعو إليه ، أفلا تعقلون ما أدعوكم إليه ، وتميزون بين الحق والباطل .

ويا قوم استغفروا الله من ذنوبكم ثم توبوا إليه توبة نصوحا ، إنكم إن فعلتم ذلك يرسل المطر عليكم كثيرا ، فأنتم فى حاجة إليه ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، وعزا زيادة على عزكم ، وإياكم والإعراض عن دعوتى فإن فيها الخير والفلاح .

قالوا : إنا لنراك فى سفاهة وضعف عقل ، وخروج عن جادة الصواب ، وإنا لنظنك من الكاذبين .

قال هود : ليس بى سفاهة ، وكيف أكون كذلك وأنا رسول رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى ، وأنا لكم ناصح أمين .

اشتد الأمر بعد ذلك ، وقالوا : يا هود ما جئتنا بحجة قوية تدل على أنك رسول من الله ، وما نحن بتاركى آلهتنا صادرين عن قولك من تلقاء نفسك ، وما نحن لك بمؤمنين ومصدقين برسالتك ، إن نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بسوء ، حين تعرضت لهم ، وإنك اليوم مصاب بخبل فى العقل ، وجنون فى الرأى .

قال هود : إنى أشهد الله إنى بلغت ما كلفت به ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون به ، وإذا كان الأمر كذلك وأن آلهتكم لها قدرة على عمل ، فأجمعوا أمركم ، واجمعوا شركاءكم ، ثم كيدونى جميعا ولا تمهلون ، إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ووكلت له أمر حفظى ، وهو على كل شىء قدير ما من دابة فى الأرض أو السماء إلا هو آخذ بناصيتها ، ومصرف أمرها ، ومسخرها إلى أجل مسمى ، إذ له ملك السماوات والأرض ، إن ربى على صراط مستقيم ، هو طريق الحق والعدل .

فإن تتولوا بعد هذا ، ولم تطيعوا أمرى ، فقد بلغت ما أرسلت به إليكم ، وأبرأت ذمتى من الله ، وسيستخلف ربى قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ ، وقائم ورقيب ... وهذه هى النهاية .

ولما جاء وقت أمرنا ونزول عذابنا ، نجينا هودا ومن معه من المؤمنين برحمة خاصة بهم ، لا تتعداهم إلى غيرهم ، ونجيناهم من عذاب غليظ فظيع ﴿ إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾[1] .

---

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة القمر .

﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾(١) .

وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله أى جنس الرسل وجنس الآيات الصادقة بآية ورسول ، وهم قد اتبعوا أمر كل جبار ، يجبر غيره على اتباع رأيه ، وهم الأشراف العنيدون الذين لا يخضعون للحق مهما كان ، وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ، وطرداً من رحمة الله ، ولحقت بهم من كل مَنْ وقف على خبرهم بعد ذلك لعنة .

ألا إن عادا كفروا بربهم ، وجحدوا بآياته ، وكذبوا رسله ، ألا بعدا وطرداً من رحمة الله لعاد ، وهم قوم هود .

قصة صالح عليه السلام

* وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ
ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟
يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ
مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ
رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ
نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ
قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ
ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ
يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

المفردات : ﴿ **استعمركم فيها** ﴾ : جعلكم تعمرونها . ﴿ **مريب** ﴾ : الريب الظن والشك يقال رابنى من فلان أمر يريبنى ريبا ، إذا استيقنت منه الريبة ، فإذا أسأت به الظن ولم تستيقن منه الريبة قلت أرابنى منه فهو مريب . ﴿ **فذروها** ﴾ : اتركوها . ﴿ **فعقروها** ﴾ : قتلوها . ﴿ **الصيحة** ﴾ :

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الحاقة .

المرة الواحدة من الصوت الشديد المراد بها الصاعقة التى أحدثت رجفة فى القلوب ، وصعق بها الكافرون . ﴿ **جاثمين** ﴾ : ساقطين على وجوههم مصعوقين ، والجثوم للطائر كالبروك للبعير . ﴿ **يَغْنَوْا** ﴾ : يقال غنى بالمكان أقام به .

قوله تعالى : ﴿ **وإلى ثمود أخاهم صالحا** ﴾ :

أى ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا ، وثمود هم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم أخاهم صالحا ، فأمرهم بعبادة الله وحده .

قال تعالى : ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره** ﴾ :

والتوحيد هو أصل الرسالات السماوية . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[2] .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، والتوحيد هو إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالاً ، وكل الرسالات التى بُعث بها الرسل كان هدفها توحيد العقائد ، لا تفريق القواعد .

وكل الأنبياء بُعثوا بالإسلام ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾[3] ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[4] .

ولما أمرهم صالح بعبادة الله وحده ، أقام الدليل على وحدانيته جلَّ شأنه فقال : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ أى ابتدأ خلقكم منها . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ **واستعمركم فيها** ﴾ أى جعلكم تعمرونها ، وقد جاء ذلك المعنى مفصلا فى قوله تعالى ﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٣٦ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٩ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(٥) الآيات ٥ - ٧ من سورة الحج .

وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فى ما ها هنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم .وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **فاستغفروه ثم توبوا إليه** ﴾ أى اسألوه المغفرة من ذنوب سلفت ، وتوبوا إليه فيما سيأتى ، إن ربى قريب مجيب ، قال رجل لرسول الله : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه . فنزل قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾(٢) .

وإذا رميت من الزمان بشدة — وأصابك الأمر الأشق الأصعبُ
فاضرع لربك إنه أدنى لمن — يدعوه من حبل الوريد وأقربُ

قوله تعالى : ﴿ **قالوا يا صالح قد كنت فينا مَرجُوًّا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مُريب** ﴾ :

أى قد كنت فينا موضع رجاء ، نستشيرك فى عظائم الأمور لما لك من عقل راجح ، ولب مستنير ، أما وقد أمرتنا بما أمرتنا من ترك ما كان يعبد آباؤنا ، فقد أوقعتنا فى شك مفسد ، وظن مريب ، ينافى الطمأنينة ، ومثل هذا ما جاء فى قوله تعالى فى قصة هود : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾(٣) .

وهذه دعوى أهل الباطل فى كل زمان ومكان ، جدال وإنكار للحق ، وكبر وصلف ، وطيش وحمق وسفه ، قال تعالى : ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير** ﴾ .

لقد جاء صالح يفيض حلما ورشدا وحكمة وجلالا : يا قوم ، هكذا بلغة المشفق الناصح الأمين : أخبرونى إن كنت على بينة وبرهان قاطع ودليل ساطع فيما أدعوكم إليه من التوحيد ، وعقيدة الحق والدين الصحيح ، وآتانى الله منه رحمة فجعلنى نبيا ، فمن ذا الذى يمنع عنى عذاب الله إن عصيته وخالفت أمره ، وكتمت دعوته ، فما تزيدوننى بأقوالكم هذه إلا خسرانا مبينا ومعاذ الله أن أكون من الجاهلين الخاسرين .

قوله جل شأنه ﴿ **ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب** ﴾ :

---

(١) الآيات ١٤١ – ١٤٩ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ١٨٦ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٧٠ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٥ من سورة غافر .

كانت الناقة معجزة وآية لصالح عندما طلبوا منه ذلك ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربَّك لهو العزيز الرحيم ﴾[١] .

وفى سورة هود أمهلهم صالح ثلاثة أيام بعد عقرها . قال تعالى : ﴿ **فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾ :

ذلك لأنه وعد من الله ، لقد خالفوا أمر الله فذبحوا الناقة ، قال تعالى فى سورة القمر : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كُل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾[٢] .

وقال جل شأنه فى سورة الشمس : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوَّاها * ولا يخاف عقباها ﴾[٣] .

وفى سورة فصلت يقول تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٤] .

وهكذا كان العذاب : صيحة أعقبتها صاعقة ، فكان الهلاك .

قال تعالى : ﴿ **فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا** ﴾ ، كما فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾[٥] .

﴿ **وأخذ الذين ظلموا الصيحة** ﴾ أى صيحة الصاعقة ﴿ **فأصبحوا فى ديارهم جاثمين** ﴾ على وجوههم كأن لم يكونوا مقيمين بها قبل ذلك ، ﴿ **ألا إن ثمود كفروا ربهم** ﴾ وجحدوه ﴿ **ألا بعدا** ﴾ وهلاكا ولعنا ﴿ **لثمود** ﴾ .

أما صالح بعد هلاكهم فقد تولى عنهم ، وقال هذه العبارة التى تسيل لها الكبد مرارة والنفس لوعة وجوى ﴿ **يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ .

إنها قمة المأساة ، وإن شئت فقل إنها قمة الملهاة ، أن الناس لا يحبون الناصحين .

ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتى والنصح أغلى ما يُباع ويوهبُ

---

(١) الآيات ١٥٣ – ١٥٩ من سورة الشعراء .
(٢) الآيات ٢٧ – ٣١ من سورة القمر .
(٣) الآيات ١١ – ١٥ من سورة الشمس .
(٤) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة فصلت .
(٥) الآية ١٠٣ من سورة يونس .

إبراهيم والبشرى

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ
حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ
إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ
إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ
﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ
﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ
لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ
عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

المفردات : ﴿ **فما لبث** ﴾ : أى ما أبطأ . ﴿ **وحنيذ** ﴾ : أى مشوى بالرضف وهى الحجارة المحماة . ﴿ **ولا تصل إليه** ﴾ : أى لا تمتد للتناول . ﴿ **ونكره وأنكره** ﴾ : ضد عرفه ﴿ **وأوجس القلب فزعا** ﴾ : أحسَّ به ﴿ **ولوط** ﴾ : هو ذلك النبى الكريم ، وهو ابن أخى إبراهيم وأول من آمن به . ﴿ **وياويلتا** ﴾ : أصلها يا ويلى : وهى كلمة تقال حين يفاجأ الإنسان أمر مهم من بلية أو فجيعة أو فضيحة على جهة التعجب منه أو الاستنكار له أو الشكوى منه ، ﴿ **والبعل** ﴾ : الزوج وجمعه بعولة ﴿ **وأمر الله** ﴾ : قدرته وحكمته ﴿ **وحميد** ﴾ : أى تحمد أفعاله . ﴿ **ومجيد** ﴾ : أى كثير الخير والإحسان . ﴿ **الروع** ﴾ : (بالفتح) الخوف والفزع (وبالضم) النفس . ﴿ **والحليم** ﴾ : الذى لا يحب المعاجلة بعقاب ، ﴿ **والأواه** ﴾ : الكثير التأوه مما يسوء ويؤلم ، ﴿ **والمنيب** ﴾ : الذى يرجع إلى الله فى كل أمر ﴿ **وغير مردود** ﴾ : أى غير مدفوع ، لا بجدال ولا بشفاعة .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام** ﴾ :

وهؤلاء هم الضيف المكرمون ، الذين ورد ذكرهم فى سورة الذاريات فى قوله جل شأنه : ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم *

فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾[١] .

وهؤلاء الرسل من الملائكة المكرمين ، جاءوا ليزفوا البشرى إلى إبراهيم بمولد غلام له هو إسحاق ، كما بشروه بأن إسحاق سيعيش حتى يولد له يعقوب ، وقد جاءت هذه البشرى فى حال عجيبة ، فقد كانت سارة عاقرا وكان إبراهيم شيخا كبيرا .

ولما جاءت الملائكة إبراهيم قالوا سلاما ، فرد عليهم التحية قائلا : سلام ، وكان رد التحية بأحسن منها ، ذلك لأنه رد بالرفع ﴿ سلام ﴾ أى تحيتى سلام ، وهى جملة إسمية تدل على الثبوت والاستقرار ، كما يقول علماء البيان ، وكان خليل الرحمن مضيافا كريما ، فما أبطأ فى تقديم القرى وإكرام الضيف ، لقد جاءهم بعجل سمين قد شواه حتى يكون أطيب لحما ، وأحب إلى النفس .

قال تعالى : ﴿ **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ لكنه فوجىء بهم لا يمدون أيديهم إليه .فأنكر حالهم . ولم يعرفهم ، وأحس منهم خيفة ، ولم يكن ذلك امتناعا منهم ، إنما تلك طبيعتهم التى جبلها الله عليهم فإن الملائكة المكرمين لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، بل يسبحون الله بالليل والنهار لا يفترون ، فالتسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يوصفون بذكورة أو أنوثة ﴿ بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٢] .

قال تعالى : ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾ .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾[٣] .

فماذا حدث بعد هذا ؟

قال تعالى : ﴿ **وامرأته قائمة فضحكت** ﴾ عجبا لحال هؤلاء الذين يمتنعون عن تناول هذا اللحم الطيب .

وهنا جاءت البشرى من الملائكة ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ .

فما أجمل أن يبشر الإنسان بغلام له عقب .

---

(١) الآيات ٢٤ - ٣٠ من سورة الذاريات .
(٢) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة العنكبوت .

فماذا قالت سارة ؟ قالت : ﴿ **ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب** ﴾ .

وهذه الكلمة : ﴿ **ياويلتا** ﴾ تقال للتعجب من أمر مفاجىء ، فقد عجبت على أى حال ستلد وهى العجوز ، وقد بلغ زوجها سن الشيخوخة التى يبست فيها العظام ، واشتعل الرأس شيبا ، وأكدت هذا القول بقولها : ﴿ **إن هذا لشىء عجيب** ﴾ .

لذا جاء الرد من الملائكة : ﴿ **أتعجبين من أمر الله** ﴾ والأمر هنا أمر تقدير وإرادة نافذة . ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[1] فزكريا عندما قال : ﴿ أنَّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾[2] .

جاء الجواب : ﴿ كذلك قال ربك هو علىَّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا ﴾[3] .

ومريم عندما قالت : ﴿ أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ﴾[4] كان الجواب : ﴿ كذلك قال ربك هو علىَّ هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ﴾ .

ثم قالت الملائكة : ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ .

ثم ماذا بعد البشرى ؟ لقد ذهب عن إبراهيم الروع والخوف الذى اعتراه ، فإذا هو يجادل فى قوم لوط ، وقد جاءت صورة تلك المجادلة فى سورة العنكبوت فى قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾[5] الآية .

وقد وصف الله تعالى خليله إبراهيم بقوله : ﴿ **إن إبراهيم لحليم أوَّاه منيب** ﴾ والحلم صفة من أجلّ الصفات ، إذ هو الصبر عند الغضب ، وإن شدة الجهالة لا تزيد الحليم إلا حلما . جاء فى الحديث الشريف ﴿ كاد الحليم أن يكون نبيا ﴾ كما وصفه تعالى بأنه ﴿ **أواه** ﴾ أى كثير التأوه والتوجع لما يثير ويؤلم ، فهو صاحب القلب السليم والوجدان اليقظ ، ذو قلب منيب ، يرجع دائما إلى الله .

ثم يأتى القول الفصل فى شأن قوم لوط فيقول تعالى : ﴿ **يا إبراهيم أعرض عن هذا** ﴾ أى عن الجدال فى قوم لوط ﴿ **إنه قد جاء أمر ربك** ﴾ أى هكذا قضى الله فى شأنهم ، ولا راد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، وهو سريع الحساب ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود أى لا مرد له من الله ، مالهم من الله من عاصم ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾[6] .

فسبحان من بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يُجار عليه ، علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، علم فحكم ، وحكم فعدل ، وأراد فنفذت إرادته ، وقال فصدق ، وأمر فأرشد ، ونهى فوجَّه ، هو الأول فلا شىء قبله ، والآخر فلا

---

(١) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٢) الآية ٨ من سورة مريم .
(٣) الآية ٩ من سورة مريم .
(٤) الآية ٢٠ من سورة مريم .
(٥) الآية ٣١ من سورة العنكبوت .
(٦) الآية ١١ من سورة الرعد .

شىء بعده ، الظاهر فلا شىء فوقه ، الباطن فلا شىء دونه ، وهو بكل شىء عليم ﴿ وسع كرسيه السماوات والأرض ولايؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾[1] .

قصة لوط عليه السلام

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

المفردات : ﴿ **سىء بهم** ﴾ : أى وقع فيما ساءه وغمه بمجيئهم . ﴿ **الذرع والذراع** ﴾ : منتهى الطاقة يقال مالى به ذرع ولا ذراع : أى مالى به طاقة . ويقال : ضقت بالأمر ذرعا إذا صعب عليك احتماله . ﴿ **والعصيب** ﴾ : الشديد الأذى ، ﴿ **ويقال هُرِع وأهرع** ﴾ : (بالبناء للمجهول) : إذا حُمِل على الإسراع . وقال الكسائى : لا يكون الإهراع إلا إسراعا مع رِعْدة من برد أو غضب أو حمى أو شهوة . ﴿ **ولا تخزون** ﴾ : أى لا تخجلونى . ﴿ **والضيف** ﴾ : يطلق على الواحد والجمع . ﴿ **والرشيد** ﴾ : ذو الرشد والعقل . ﴿ **لو أن لى بكم قوة** ﴾ : أى على الدفع بنفسى . ﴿ **أو آوى إلى ركن شديد** ﴾ : من أرباب العصبيات القوية الذين يحمون اللاجئين ويجيرون المستجيرين . ﴿ **السرى** ﴾ : (بالضم) والإسراء فى الليل : كالسير بالنهار . ﴿ **والقطع من الليل** ﴾ : الطائفة منه . ﴿ **والسجيل** ﴾ : الطين المتحجر كما جاء فى الآية الأخرى ﴿ حجارة من طين ﴾[2] . وقال الراغب : هو حجر وطين مختلط أصله فارسى فعرِّب . ﴿ **ومنضود** ﴾ : أى وضع بعضه على بعض وأعد لعذابهم ، ﴿ **ومسومة** ﴾ : أى لها سومة (بالضم) أو علاقة خاصة فى علم ربك .

وعلى جناح السرعة انتقلت الملائكة الكرام من بيت إبراهيم الخليل إلى بيت ابن أخيه لوط وكان قد

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة . (٢) الآية ٣٣ من سورة الذاريات .

ابتُلى بقوم وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾(١) .

إن الملائكة لما نزلت على لوط سىء بهم ، أى استاء لمجيئهم ، فقد نزلوا بين قوم ضاعت بينهم القيم ، واهتزت المعايير ، واختلت موازين المثل ، فأصبح المعروف بينهم منكرا ، والمنكر معروفا ، كما صار الذئب عندهم راعيا ، وأضحى الخصم العنيد بينهم قاضيا .

من أجل هذا خشى لوط عليهم من هؤلاء القوم الغلاظ الأكباد ، الجفاة الطباع ، القساة القلوب ، وضاق بهم ذرعا وطاقة ، فإنهم ضيف وللضيف واجب عند الكرام ، فكيف يؤدى واجب الضيافة بين هؤلاء الأوغاد الأنذال ، لقد وصف يوم مجيئهم لديه بأنه يوم عصيب وشديد .

وما أن استقر الضيف المكرمون عنده حتى جاءه قومه يسرعون يراودونه عن ضيفه ، ومن قبل مجيئهم كانوا يعملون السيئات ، ويأتون المنكرات ، وهنا بلغ السيل الزبى ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، قال لوط : ﴿ **يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم** ﴾يقصد بنات قومه ، فكل نبى فى قومه كالوالد الرحيم ، فاتقوا الله واحذروا عقوبته ، ولا تخزون ولا تفضحون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ، أى ذو رشد وعقل ينهاكم عما تفعلون .

وبكل صفاقة وخلاعة ، **قالوا** له : ﴿ **لقد علمت مالنا فى بناتك من حق** ﴾ أى أنهم لا يأتون النساء ، إنما يأتون الذكران من العالمين ، وإنك لتعلم ما نريد .

قال لهم نبى الله لوط ﴿ **لو أن لى بكم قوة** ﴾ أى ليتنى أملك من القوة ، ما أستطيع أن أدفعكم بها ، أو آوى إلى ركن شديد ، أو قوم ذى عصبية ، أستطيع بهم أن أكف بأسكم وأدفع شركم .

وإذا بالملائكة الكرام تقول له : ﴿ **يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾

وهذا كقوله جلَّ شأنه : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا قالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾(٢) .

ولقد نفذ لوط تعليمات ربه فأسرى بأهله ليلا . وما أن جاء الصبح حتى قامت الملائكة بشن الغارة التى دمرتهم ، وقال الله فيها : ﴿والمؤتفكةأهوى فغشَّاها ما غشَّى ﴾(٣) وقال فيها : ﴿ وإن لوطا لمن

---

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة النجم .

المرسلين * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين * ثم دمّرنا الآخرين * وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾(١) .

وقال : ﴿ ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾(٢) .

وقال : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا ﴾(٣) .

وقال : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابى ونذر ﴾(٤) .

وقال هنا فى سورة هود : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها** ﴾ : ذلك لأنهم غيروا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، فأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق الله لهم من أزواجهم.

﴿ **وأمطرنا عليها** ﴾ : أى على تلك القرى حجارة من سجيل منضود ، وهو الطين المتحجر الذى تتابع حتى قضى عليهم قضاء مبرما ، هذه الحجارة كانت مسومة عند ربك (أى معلمة) ، ما أخطأت واحدة منها صاحبها الذى سيموت بها ، وليس هذا الانتقام مقصورا على قوم لوط ، إنما هو ممتد حتى يصل إلى كل ظالم وطاغية .

قال تعالى : ﴿ **وماهى من الظالمين ببعيد** ﴾ : إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾(٥) .

وهكذا أرخى الستار على تلك المأساة البشرية ، التى انحرفت عن طريق الجادّة ، فصاروا عن الصراط ناكبين . ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾(٦) .

قصة شعيب عليه السلام

* وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَـٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى

(١) الآيات ١٣٣ – ١٣٨ من سورة الصافات .
(٢) الآية ٧٤ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٤٠ من سورة الفرقان .
(٤) الآيات ٣٧ – ٣٩ من سورة القمر .
(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٦) الآية ٦٣ من سورة النور .

ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾
قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا
مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۚ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ
مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ
لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟
يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۚ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ
وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ
ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۚ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا
جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

المفردات : ﴿ **بخير** ﴾ : بثروة وسعة فى الرزق . ﴿ **تبخسوا** ﴾ : تنقصوا الأشياء أو تعيبوها . ﴿ **تعثوا** ﴾ : تفسدوا والمراد لا تفسدوا فى الأرضَ قاصدين الفساد . ﴿ **الحليم** ﴾ : ذو الأناة والتروى الذى لا يتعجل بأمر قبل الثقة من فائدته . ﴿ **والرشيد** ﴾ : الذى لايأمر إلا بما استبان له من الخير والرشد . ﴿ **والمخالفة** ﴾ : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى قوله أو فعله أو حاله ، يقال خالفنى فلان إلى كذا إذا قصده وأنت مولٍ عنه ، وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصد له . ﴿ **وأناب إلى الله** ﴾ : رجع اليه . ﴿ **وجرم الذنب أو المال** ﴾ : كسبه . ﴿ **ورحيم** ﴾ : عظيم الرحمة للمستغفرين . ﴿ **ودود** ﴾ : كثير اللطف والإحسان إليهم . ﴿ **الفقه** ﴾ : الفهم الدقيق المؤثر فى النفس الباعث على العمل . ﴿ **والرهط** ﴾ : الجماعة من الثلاثة إلى السبعة أو العشرة . ﴿ **لرجمناك** ﴾ : لقتلناك

بالرمى بالحجارة . ﴿ **بعزيز** ﴾ : أى ذى عزة ومنعة . ﴿ **واتخذه ظهريا** ﴾ (بالكسر والتشديد) أى جعله نسيا منسيا لا يذكر كأنه غير موجود . ﴿ **ومحيط** ﴾ : أى محص ما تعملون . ﴿ **وعلى مكانتكم** ﴾ : على غاية تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم ، يقال مكُن مكانه : إذا تمكن أبلغ تمكن . ﴿ **وارتقبوا** ﴾ : أى وانتظروا . ﴿ **والصيحة** ﴾ : أى صيحة العذاب . ﴿ **وجاثمين** ﴾ : أى باركين على ركبهم مُكبيّن على وجوههم . ﴿ **وغنى بالمكان** ﴾ : أقام به . ﴿ **وبعدا** ﴾ : أى هلاكا لهم .

وأرسلنا إلى قبيلة مدين ، وكانت تسكن الحجاز مما يلى الشام ، وكانوا فى غنى وسعة ، إلا أنهم طففوا الكيل ونقصوا الوزن ، وعاثوا فى الأرض الفساد ، أرسلنا لهم شعيبا من أوسطهم نسباً ، وأعلاهم خلقا ، قال لهم : يا قومى ويا أهلى (وهذا مما يدعو إلى الإجابة والقبول) اعبدوا الله وحده ، لا تشركوا به شيئاً ، مالكم إله غيره يتصف بما اتصف به الله جل شأنه حتى يعبد .

ألست معى فى أن الرسل جميعا متفقون فى طلب عبادة الله وحده ، أما الأمور العملية فكل يعالج ناحية الضعف فى أمته ، ولذا قال شعيب : يا قومى اعبدوا الله ولا تنقصوا الكيل والميزان فيما تبيعون ، وكانوا ﴿ إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أى ينقصون ﴿ أنهم مبعوثون ﴾[1] ومحاسبون .

امتثلوا الأمر ، واجتنبوا النهى ، لأنى أراكم بخير وعافية ، وغنى وسعة ، وهذا يدعو إلى شكر الله وامتثال أمره ، ولأنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط عذابه لكم ، إذا أنتم أصررتم على العصيان .

﴿ **ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط** ﴾ والعدل وهذا أمر بالواجب بعد النهى عن ضده لتأكيد ، وتبينها على أنه لا بد منهما قصدا .

﴿ **ولا تبخسوا الناس أشياءهم** ﴾ فى كيل أو وزن ، أو عد فى حق حسى أو معنوى ، ولا تعيبوا شيئا لا يستحق العيب ولا تفسدوا فى الأرض بأى نوع من الفساد حالة كونكم قاصدين له .

واعلموا أن ما يبقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة ، وأحمد عاقبة مما تبتغونه لأنفسكم من تطفيف فى الكيل ، أو نقص فى الوزن ، وصدق الله ﴿ **بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

﴿ **وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾ ورقيب ، إن علىّ إلا البلاغ ، وعلى الله الحساب .

﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك** ﴾ تقتضى بتأثيرها فيك أن تحملنا على ترك ما كان يعبد آباؤنا من أصنام ، نتخذهم قربى إلى الله ، ولست أنت خيرا منهم حتى نتركهم ونتبعك . والاستفهام فى الآية للإنكار والسخرية بشعيب ﴿ **أصلاتك تأمرك أن نترك** ﴾ ما نفعله فى أموالنا من تنمية واستغلال على حسب نشاطنا واجتهادنا ، أليس هذا حجرا على حريتنا ، وحدا لنشاطنا ؟

(١) الآيات ٢ - ٤ من سورة المطففين .

إنك يا شعيب لأنت الحليم ، المتأنى فى حكمه ، العاقل المتروى ، والرشيد الذى لا يأمر إلا بما استبان له فيه وجه الخير والرشاد ، وهذا التأكيد الكثير فى كلامهم يفيد الاستهزاء والتعريض به .

انظروا إلى رد شعيب عليهم فى هذه الاتهامات :

﴿ **يا قوم** ﴾ ويا أهلى أخبرونى ماذا أفعل معكم ومع نفسى ، إن كنت على يقين تام ، وحجة واضحة من ربى ، تفيد أن ما أمركم به هو من عند الله لا من عند نفسى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد رزقنى من فضله وخيره رزقا حسنا كثيرا ، حصل لى من طريق الكسب الحلال ، فأنا رجل ملىء ، وخبير بما ينمى المال .

أخبرونى ماذا أفعل ؟ وماذا أقول لكم غير الذى قلت ؟

﴿ **وما أريد أن أخالفكم** ﴾ مائلا إلى ما نهيتكم عنه ، بل أنا متمسك به قبلكم ، لأنى أرى فيه الخير والرشاد فى الدنيا والآخرة ، وأنا ما أريد إلا الإصلاح والخير العام لى ولكم ما استطعت ، إلى ذلك سبيلا ، ليس لى فيما أفعل غرض خاص .

ومن هنا نأخذ أن العاقل يجب أن يكون عمله مراعى فيه حق الله ورسوله ، وحق نفسه ، وحق الناس عليه .

﴿ **وما توفيقى** ﴾ وهدايتى إلى الخير إلا بالله وحده ، عليه توكلت وإليه أنيب ، إذ هو المرجع والمآب ، والنافع والضار ، لا أرجو منكم خيرا ، ولا أخاف ضرا .

ويا قوم لا يحملنكم شقاق وخلافى معكم فى الرأى والعقيدة على العمل الضار ، الذى يترتب عليه أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح بالغرق ، أو قوم هود بالريح العاتية ، أو قوم صالح بالصيحة الطاغية ، وما عذاب قوم لوط منكم ببعيد ، زمانا ولا مكانا ولا إجراما .

﴿ **واستغفروا ربكم** ﴾ من ذنوبكم ﴿ **ثم توبوا إليه** ﴾ واعملوا صالحا من الأعمال ، إن ربى وربكم عظيم الرحمة ، كثير المودة ، فإنكم إن فعلتم ذلك يمتعكم متاعا حسناً فى الدنيا والآخرة .

قالوا يا شعيب : ما نفهم كثيرا مما تقول فهما عميقا ، ولا نفهم له معنى ولا حكمة ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، لا حول لك ولا قوة ، فكيف يقبل منك هذا الذى يوصلك إلى الرياسة فى الدين والدنيا ، على أنا لو أردنا البطش بك لما منعنا مانع ، ولولا عشيرتك الأقربون لفتكنا بك فتكاً يتناسب مع عملك معنا ، ومن ذم آلهتنا ، وطلبك الحجر علينا فى تصرفنا ، أى نقتلك رميا بالحجارة ، ﴿ **وما أنت علينا بعزيز** ﴾ .

﴿ **قال يا قومى أرهطى** ﴾ وأسرتى أعز وأكرم عليكم من الله الذى أدعوكم اليه ، وأشركتم به ،

وجعلتم مراقبته والخوف منه وأمره ونهيه وراءكم ظهريا ، كالأمر الذى يهون على صاحبه فينساه ولا يحسب له حسابا ﴿ **إن ربى بما تعملون محيط** ﴾ علماً فسيجازيكم على عملكم .

ويا قوم اعملوا ما استطعتم على منتهى يمكنكم فى قوتكم ، إنى عامل على مكانتى وحالتى ، وغدا سوف تعلمون الذى يأتيه عذاب يخزيه ويذله فى الدنيا والآخرة ، ومن هو كاذب فى قوله ﴿ لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾[1] .

وانتظروا مراقبين من سيقع عليه العذاب ، إنى معكم من المنتظرين ، وهذا الأمر ﴿ اعملوا وارتقبوا ﴾ للتهديد والوعيد من واثق بقوته وبربه .

﴿ **ولما جاء أمرنا** ﴾ وحانت ساعة التنفيذ ﴿ **نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة** ﴾ خاصة بهم وما ذلك على الله بعزيز ﴿ **وأخذت الذين ظلموا الصيحة** ﴾ التى أخذت ثمود فأصبحوا جاثمين ، وجوههم منكبة على الأرض كالطير الجاثمة ، وأصبحت ديارهم خاوية على عروشها ، كأنهم لم يقيموا فيها وقتا من الأوقات ، ألا بعدا وهلاكا لمدين كما بعدت وهلكت ثمود .

موسى وفرعون

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ
وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ
ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **سلطان مبين** ﴾ : المراد حجة قوية ظاهرة ، وقيل هى العصا . ﴿ **يقدم** ﴾ : أى يتقدم يقول قدمهم يقدمهم إذا تقدمهم . ﴿ **فأوردهم النار** ﴾ : أدخلهم فيها . ﴿ **الرفد المرفود** ﴾ : المراد بئس العطاء المعطى لهم وقيل الرفد القدح والرفد مافى القدح من الشرب ، والمراد بئس ما يسقونه فى النار عندما يردونها .

﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا** ﴾ التسع المفصلة فى غير هذه السورة ، وأرسلناه بحجة قوية كقوة السلطان ، ظاهرة لا غموض فيها ، وهى محاورته مع فرعون ، وقيل هى عصاه ، أرسلناه إلى فرعون وملئه وهم أشراف قومه ، وقادة شعبه ، ومستشاروه فى الرأى ، وأما بقية الشعب فتابع لهم ، وسائر وراءهم بدون تفكير ، فاتبع الأشراف أمر فرعون ، ونفذوه حرفيا فى الكفر بموسى ، وإحضار السحرة ، وقتلهم لمن آمنوا ، وما أمر فرعون برشيد أبداً ، بل هو الغواية والضلال ، والشر والفساد .

---
(١) الآية ٨٨ من سورة الأعراف .

وهذا فرعون كبير قومه وقائدهم إلى الشر فى الدنيا ، يتقدمهم يوم القيامة إلى النار ، فيدخلون فيها جميعا ، وبئس الورد المورود الذى دخلوه وهو جهنم ، وذلك لأن وارد الماء يرده للتبريد ، ولذة الشرب ، ووارد النار يحترق بلهيبها ويتلظى بنارها .

﴿ **وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة** ﴾ هم من المقبوحين ، ويوم القيامة يسقون ماء حميما يقطع الأمعاء ، مع اللعنة عليهم فى الدنيا والآخرة ، وبئس هذا العطاء المعطى لهم ، جزاء ما قدموا من سيء الأعمال .

العبرة والعظة من القصص بعذاب الدنيا

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟
أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ
وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ
أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

المفردات : ﴿ **تتبيب** ﴾ : مأخوذ من التباب أى الخسران والهلاك يقال تب فلان وتبت يده ، أى خسر وهلك .

ذلك الذى ذكرنا بعض أنباء القرى التى ظلمت نفسها ، وعصيت رسلها ، نقصه عليك للعبرة والعظة ، ولمعان أخر ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه من القرى ماله بقايا آثار باقية ، كالزرع القائم ، ومنها ما عفى ودرس حتى لم يعد له أثر كالزرع المحصود ، وما ظلمناهم فى شيء أبدا ، بل أرسلنا لهم الرسل لهدايتهم وتنوير بصائرهم ، ولكنهم ظلموا وبغوا وما ازدادوا إلا فجورا وضلالا ، أنذرتهم رسلهم بالعذاب فتماروا بالنذر ، واتكلوا على آلهتهم فى دفع العذاب عنهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم شيئا لما جاء أمر ربك ، وما زادهم غير هلاك وضلال ، فإنهم باتكالهم عليهم إزدادوا كفرا وإصرارا ، وظلما وضلالا .

ومثل ذلك الأخذ بالعذاب والنكال أخذ ربك إذا أخذ القرى فى حال تلبسها بالظلم فى كل زمان ومكان ، إن أخذه أليم شديد موجع قاس ، فاعتبروا يا أولى الأبصار ، فهل من مدّكر .

يا كفار قريش : لستم بأقوى منهم ، وأشد بأسا ، وليس رسولكم بأقل من إخوانه الرسل : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[1] .

(١) الآية ٩ من سورة الروم .

العبرة العامة فى هذا القصص بعذاب الآخرة

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ
﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ
وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا
مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ
سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً
غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

المفردات : ﴿ **شقى** ﴾ : الشقى من استحق النار لإساءته . ﴿ **سعيد** ﴾ : من استحق الجنة لعمله بعد فضل الله ورحمته . ﴿ **الزفير** ﴾ : إخراج النفَس . ﴿ **الشهيق** ﴾ : رده مع السرعة والجهد . ﴿ **مجذوذ** ﴾ : مقطوع مأخوذ من جذه يجذه إذا قطعه أو كسره .

قوله تعالى ﴿ **إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود** ﴾ :

يخبر تعالى بأن فى إهلاكنا الكافرين ، وإنجائنا المؤمنين ، لآية أى عظة واعتباراً على صدق موعودنا فى الآخرة ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[(1)] وقال تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾[(2)] .

وقوله : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس** ﴾ أى أولهم وآخرهم ، كقوله : ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾[(3)] .

﴿ **وذلك يوم مشهود** ﴾ أى عظيم ، تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، إن تك حسنة نضاعفها .

وقوله ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ أى ما نؤخر إقامة القيامة إلا لأنه قد سبقت كلمة الله فى وجود أناس معدودين من ذرية آدم ، وضرب مدة معينة إذا انقطعت وتكامل وجود أولئك المقدر خروجهم قامت الساعة .

---

(١) الآية ٥١ من سورة غافر . (٢) الآية ١٣ من سورة إبراهيم . (٣) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

ولهذا قال ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ : أى لمدة مؤقتة لا يزاد عليها ولا ينتقص منها .

﴿ **يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ : أى يوم يأتى يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله ، كقوله : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾(١) وقال ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾(٢) .

وفى الصحيحين فى حديث الشفاعة : (ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم سلم)(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ أى فمن أهل الجمع شقى ، ومنهم سعيد ، كما قال : ﴿ فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴾(٤) .

عن ابن عمر عن عمر قال : لما نزلت ﴿ **فمنهم شقى وسعيد** ﴾ سألت النبى ﷺ فقلت يارسول الله: علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ؟ فقال : (على شيء قد فرغ منه ياعمر وجرت به الأقلام ولكن كل ميسر لما خلق له)(٥) .

ثم بيّن تعالى حال الأشقياء وحال السعداء فقال :

﴿ **فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد** ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ **هم فيها زفير وشهيق** ﴾ قال ابن عباس : الزفير فى الحلق ، والشهيق فى الصدر ، أى تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب ، عياذا بالله من ذلك .

﴿ **خالدين فيها مادامت السموات والأرض** ﴾ : قال الإمام أبو جعفر بن جرير : من عادة العرب ، إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبدا ، قالت هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون هو باق ، ما اختلف الليل والنهار، يعنون بذلك كله أبداً . فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال : ﴿ **خالدين فيها مادامت السموات والأرض** ﴾ .

وعن ابن عباس قوله : ﴿ **مادامت السموات والأرض** ﴾ قال : لكل جنة سماء وأرض .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : مادامت الأرض أرضا ، والسماء سماء .

(١) الآية ٣٨ من سورة النبأ . (٢) الآية ١٠٨ من سورة طه .

(٣) أخرجه البخارى فى الأذان (١٢٩) وفى التوحيد (٢٤) . ومسلم فى الايمان (٢٩٩) .

(٤) الآية ٧ من سورة الشورى .

(٥) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة : ٩٢ : ٧) وفى القدر (٢) وفى التوحيد (٥٤) . ومسلم فى القدر (٧ ، ٩) . وأبو داود فى السنة(١٦) . والترمذى فى القدر (٣) . وابن ماجه فى المقدمة (١٠) وفى التجارات (٢) . والإمام أحمد فى (١ : ٦) وفى (٤ : ٤٢٧ ، ٤٣١) .

وقوله ﴿ **إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد** ﴾ كقوله : ﴿ **النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم** ﴾[١] .

وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء ، على أقوال كثيرة ، حكاها الشيخ أبو الفرج بن الجوزى فى كتابه (زاد المسير) وغيره من علماء التفسير ، ونقل كثيرا منها الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله فى كتابه .

وعن ابن عباس والحسن أيضا : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعوا فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : (لا إله إلا الله) كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك ، من حديث أنس وجابر وأبى سعيد وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا فى تفسير هذه الآية الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ **وأما الذين سُعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا** ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ **ففى الجنة** ﴾ أى فمأواهم الجنة ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أى ما كثين فيها أبدا ﴿ **ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك** ﴾ .

معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمرا واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فله المنة عليهم دائما ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس .

وقال الضحاك والحسن البصرى : هى فى حق عصاة الموحدين الذين كانوا فى النار ، ثم أخرجوا منها ، وعقب ذلك بقوله ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾ أى غير مقطوع قاله مجاهد ، وابن عباس ، وغير واحد ، لئلا يتوهم متوهم بعد ذكره المشيئة أن ثم انقطاع أو لبس أو شىء ، بل حتم له بالدوام وعدم الانقطاع كما بين هناك أن عذاب أهل النار فى النار دائما مردود إلى مشيئته ، وأنه بعدله وحكمته عذبهم .

ولهذا قال : ﴿ **إن ربك فعال لما يريد** ﴾ كما قال ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾[٢] .

وهنا طيب القلوب . وثبت المقصود بقوله : ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾

وقد جاز فى الصحيحين : [يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت] [٣].

وفى الصحيح أيضا ﴿ فيقال يا أهل الجنة إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا

(١) الآية ١٢٨ من سورة الأنعام . (٢) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق (٥٠) وفى التفسير (سورة ١٩ : ١) . ومسلم فى الجنة (٤٠) . والترمذى فى الجنة (٢٠) . والدرامى فى الرقاق (٩٠) . والامام أحمد فى (٢ : ١١٨) وفى (٣ : ٩ ، ٣٣٠) .

تهرموا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ﴾[1] .

توجيهات وإرشادات

فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ
نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ
أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ
يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ
رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً
وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ
مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنة (٢٢) . والترمذى فى التفسير (سورة ٣٩ : ١٠) والدرامى فى الرقاق (١٠٣) . والامام أحمد فى (٢ : ٣١٩) وفى (٣ : ٣٨ ، ٩٥) .

المفردات : ﴿ **طرف الشيء** ﴾ : الطائفة منه والنهاية . ﴿ **فطرفا النهار** ﴾ : الغدو والعشى وروى عن الحسن وقتادة والضحاك : أنهما صلاة الصبح والعصر . ﴿ **والزلف** ﴾ : واحدها زلفة وهى الطائفة من أول الليل لقربها من النهار وقال الحسن : هما زلفتان صلاة المغرب وصلاة العشاء . ﴿ **وذكرى** ﴾ : عبرة وعظة . ﴿ **للذاكرين** ﴾ : أى المعتبرين المتعظين . ﴿ **لولا** ﴾ : كلمة تفيد التخصيص والحث على الفعل . ﴿ **القرون** ﴾ : واحدهم قرن وهو الجيل من الناس قيل هو ثمانون سنة وقيل سبعون سنة وشاع تقديره بمائة سنة . ﴿ **والبقية** ﴾ : ما يبقى من الشيء بعد ذهاب أكثره واستعمل كثيرا فى الأنفع والأصلح لأن العادة قد جرت بأن الناس ينفقون أردأ ما عندهم ، ويستبقون الأجود ، ويقال أترفته النعمة ، أى أبطرته وأفسدته . ﴿ **وكلمة ربك** ﴾ : أى قضاؤه وأمره . ﴿ **القصّ** ﴾ : تتبع أثر الشيء للإحاطة به كما قال تعالى ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ﴾[1] .

﴿ **والنبأ** ﴾ : الخبر الهام . ﴿ **ونثبت** ﴾ : أى نقوّى ونجعل فؤادك راسخا كالجبل . ﴿ **على مكانتكم** ﴾ : أى على تمكنكم واستطاعتكم .

قوله تعالى : ﴿ **فلاتَكُ فى مرية مما يعبد هؤلاء ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص** ﴾ :

أى فلاتك فى شك مما يعبد هؤلاء المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل ، أى ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء فى الجهالات وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء ، فيعذبهم عذابا أليما لا يعذبه أحداً ، وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها فى الدنيا قبل الآخرة .

قال سفيان الثورى : عن جابر الجعفى عن مجاهد عن ابن عباس ﴿ **وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص** ﴾ قال : ما وعدوا من خير أو شر .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : لموفوهم من العذاب نصيبهم غير منقوص .

ثم قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختُلِف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾ .

يذكر سبحانه وتعالى أنه أتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه ، فمن مؤمن به ومن كافر به ، فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم** ﴾

قال ابن جرير : لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم ، لقضى الله بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه ، كما قال تعالى :

(١) الآية ١١ من سورة القصص .

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[١] فإنه قد قال فى الآية الأخرى ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون ﴾[٢]. ثم أخبر تعالى أنه سيجمع الأولين و الآخرين من الأمم ويجزيهم بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

فقال : ﴿ **وإنّ كلا لمّاً ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير** ﴾ .

أى عليم بأعمالهم جميعها جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها . وفى هذه الآية قراءات كثيرة يرجع معناها إلى هذا المعنى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير** ﴾ :

يأمر الله تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ، ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان وهو البغى ، فإنه مصرعه ، حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن شىء ، ولا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون** ﴾ :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لا تداهنوا .

وقال العوفى عن ابن عباس : هو الركون إلى الشرك .

وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم .

وقال ابن جرير عن ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا . وهذا القول حسن ، أى لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ **فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون** ﴾ أى ليس لكم من دون الله من ولى ينقذكم ، ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

قوله تعالى : ﴿ وأقم الصلاة طرفى النهار وزُلَفًا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين * واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾ قال : يعنى الصبح والمغرب . ﴿ **وزلفا من الليل** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم : يعنى صلاة العشاء .

وقوله ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب قال : كنت إذا سمعت من رسول الله حديثا فنفعنى الله بما شاء أن ينفعنى منه وإذا حدثنى عنه أحد أستحلفته فإذا

(١) الآية ١٥ من سورة الأسراء . (٢) الآية ١٢٩ من سورة طه . (٣) الآية ٣٢ من سورة يس .

حلف لى صدقته ، وحدثنى أبو بكر-وصدق أبوبكر - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:(ما من مسلم يذنب ذنبا فيتوضأ ويصلى ركعتين إلا غفر له)[١] .

وفى الصحيحين عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان : أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ثم قال : هكذا رأيت رسول الله يتوضأ وقال : (من توضأ وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه)[٢] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحارث مولى عثمان يقول : جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا عثمان بماء فى إناء - أظنه سيكون فيه قدر فتوضأ ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا ثم قال (من توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما بينه وبين صلاة الصبح ثم صلى العصر غفر له ما بينه وبين صلاة الظهر ثم صلى المغرب غفر له ما بينه وبين صلاة العصر ثم صلى العشاء غفر له ما بينه وبين صلاة المغرب ثم لعله يبيت يتمرغ ليلته ثم إن قام فتوضأ وصلى الصبح غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء وهن الحسنات يذهبن السيئات)[٣] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (أرأيتم لو أن بباب أحدكم نهرا غمرا يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يارسول الله قال (كذلك الصلوات الخمس يمحو الله بهن الذنوب والخطايا)[٤] .

وقال مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول :(الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر)[٥] .

وروى الإمام أحمد عن أبى أيوب الأنصارى عن رسول الله ﷺ كان يقول : (إن كل صلاة تحط ما بين يديها من خطيئة) .

وقال أبو جعفر بن جرير عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ (جعلت الصلوات كفارات لما بينهن) فإن الله قال ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الوتر (٢٦) . والترمذى فى الصلاة (١٨١) وفى التفسير (سورة ٣ : ١٤) . وابن ماجه فى الإقامة (١٩٣) . والامام أحمد فى (١ : ٢ ، ٩ ، ١٠) .

(٢) أخرجه البخارى فى الوضوء (٢٤ ، ٢٨) وفى الصوم (٢٧) . ومسلم فى الطهارة (٣ ، ٤) . وأبو داود فى الطهارة (٥١) . والنسائى فى الطهارة (٢٧ ، ٦٨ ، ٩٣) .

(٣) أخرجه الأمام أحمد فى (٣ : ٤٩٥) .

(٤) أخرجه البخارى فى المواقيت (٦) . ومسلم فى المساجد (٢٨٣ ، ٢٨٤) . والترمذى فى الأدب (٨٠) . والنسائى فى الصلاة (٧) . وابن ماجه فى الأقامة (١٩٣) . والدرامى فى الصلاة (١) . والإمام مالك فى السفر (٩١) . والإمام أحمد فى (١ : ٧٢ ، ١٧٧) وفى (٢ : ٣٧٩ ، ٤٢٧ ، ٤٤١) .

(٥) أخرجه مسلم فى الطهارة (١٦) . والامام أحمد فى (٢ : ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤) .

وقال البخارى عن ابن مسعود أن رجلا أصاب من امرأة قبلة فأتى النبى ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ فقال الرجل : يارسول الله ألى هذا ؟ قال : (لجميع أمتى كلهم)هكذارواه فى كتاب الصلاة .

وروى الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن جرير عن ابن مسعود قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنى وجدت امرأة فى بستان ففعلت بها كل شيء غير أنى لم أجامعها قبلتها ولزمتها ولم أفعل غير ذلك . فافعل بى ما شئت ، فلم يقل رسول الله ﷺ شيئا فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لو ستر على نفسه . فأتبعه رسول الله ﷺ بصره ثم قال (ردوه على) فردوه عليه فقرأ عليه ﴿ **أقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ فقال معاذ وفى رواية عمر يارسول الله آله وحده أم للناس كافة ؟ فقال (بل للناس كافة) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذى نفسى بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قال : قلنا : وما بوائقه يانبى الله ؟ قال (غشه وظلمه ولا يكسب عبد مالا حراماً فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار إن الله لا يمحو السىء بالسىء ، ولكن يمحو السىء بالحسن إن الخبيث لا يمحو الخبيث)[١] .

وقال ابن جرير : كان فلان بن معتب رجلا من الأنصار فقال : يا رسول الله دخلت على امرأة فنلت منها ما ينال الرجل من أهله إلا أنى لم أواقعها ، فلم يدر رسول الله ما يجيبه ، حتى نزلت هذه الآية ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ فدعاه رسول الله فقرأها عليه .

وعن معـاذ بن جبل أنه كان قاعدا عند النبى ﷺ فجاء رجل فقال : يارسول الله ما تقول فى رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً يصيبه الرجل من امرأته إلا قد أصاب منها غير أنه لم يجامعها ؟ فقال له النبى ﷺ (توضأ وضوءا حسنا ثم قم فصل) فأنزل الله عز وجل هذه الآية يعنى قوله ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار** ﴾فقال معاذ : أهى له خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : (بل للمسلمين عامة) .

وقال ابن جرير عن سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول : إن رجلا أتى النبى ﷺ فقال يارسول الله أقم فىّ حد الله (مرة أو اثنتين) فأعرض عنه رسول الله ثم أقيمت الصلاة ،فما فرغ النبى ﷺ من الصلاة قال : (أين هذا الرجل القائل أقم فىّ حدّ الله) قال أنا ذاقال أتممت الوضوء وصليت معنا آنفاً ؟ قال : نعم ، قال : (فإنك من خطيئتك كيوم ولدتك أمك فلا تعد) وأنزل الله على رسول الله ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ .

(١) أخرجه الامام أحمد فى (١ : ٣٨٧) .

وقال الإمام أحمد بن على بن زيد عن أبى عثمان قال : كنت مع سلمان الفارسى تحت شجرة ، فأخذ منها غصنا يابسا فهزه حتى تحات ورقه ، ثم قال : أبا عثمان ألا تسألنى لم أفعل هذا ؟ قلت : ولم تفعله ؟ قال : هكذا فعل رسول الله ﷺ فقال : (إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما يتحات هذا الورق)[(١)] وقال : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ .

وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حبيب عن ميمون بن أبى شبيب عن أبى ذر أن رسول الله ﷺ قال (اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[(٢)] .

وقال أحمد عن أبى ذر قال قلت يارسول الله أوصنى ، قال (إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها) قال قلت يارسول الله : أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟ قال هى أفضل الحسنات) .

وقال الحافظ الموصلى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ (ما قال عبد لا إله إلا الله فى ساعة من ليل أو نهار إلا طلست ما فى الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات) .

قوله تعالى : ﴿ **واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾ .

الصبر هو مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح ، كما أنه ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات ، لئلا يتردى فى الرذائل ، وقد يكون الصبر نفسياً ومادياً ، وقد جعل الله ثواب الصابرين بغير حساب فقال ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[(٣)] .

ولمّا قال إخوة يوسف له : ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[(٤)] .

فبالتقوى والصبر انتقل يوسف من غيابة الجب إلى غاية الحب ، ومن النوم على الحصيرة إلى التربع على عرش مصر .

وبالتقوى والصبر قال له إخوته : ﴿ لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾[(٥)] وبالتقوى والصبر قال لهم ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾[(٦)] وبالتقوى والصبر قال يوسف بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[(٧)] .

فاللهم إنا نسألك صبرا عند البلاء ، وشكرا عند الرخاء ، ورضا بمر القضاء .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى (٤ : ٧٠) وفى (٥ : ٤٣٧ ، ٤٣٩) . والدرامى فى الوضوء (٤٥) .

(٢) أخرجه الترمذى فى البر (٥٥) . والدرامى فى الرقاق (٤٧) . والامام أحمد فى (٣ : ٥) وى (٥ : ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦) .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٩٠ من سورة يوسف .

(٥) الآية ٩١ من سورة يوسف .

(٦) الآية ٩٢ من سورة يوسف .

(٧) الآية ١٠١ من سورة يوسف .

قوله تعالى : ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين** ﴾ .

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد فى الأرض ، وقوله : ﴿ **إلا قليلا** ﴾ أى قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرا ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر .

كما قال تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[١] .

وفى الحديث : (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب ﴾[٢] .

ولهذا قال تعالى ﴿ **فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه** ﴾ : أى استمروا على ما هم عليه من المعاصى والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ **وكانوا مجرمين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ .

يخبر الله تعالى بأنه لم يهلك قرية إلا وهى ظالمة لنفسها ، ولم يأت قرية مصلحة بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾[٣] وقال : ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٤] .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمَّر ، وهل يبيد المجتمعات إلا الظلم ، قال تعالى ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمةفهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[٥] ، ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[٦] ، ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٧] ، ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[٨] ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[٩] .

---

(١) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .
(٢) أخرجه الامام أحمد فى (١ : ٥ ، ٧) .
(٣) الآية ١٠١ من سورة هود .
(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٦) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٧) الآية ٥٩ من سورة القصص .
(٨) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٩) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة الذى يقول فى حديثه القدسى الجليل : (ياعبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا)[١] .

وسبحان القائل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾[٢] . وجل جناب الحق إذ يقول ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٣] ، ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين * إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ .

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس أمة واحدة من إيمان أو كفر ، كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يزالون مختلفين* إلا من رحم ربك** ﴾ :

أى ولا يزال الخُلْف بين الناس فى أديانهم واعتقادات مللهم ونحلهم ومذاهبهم وآرائهم .

وقوله : ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ : أى إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبى وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه وآزروه ، ففاز بسعادة الدنيا والآخرة ، لأنهم الفرقة الناجية كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن من طرق يشد بعضها بعضا : (إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة وأن النصارى افترقت على ثنتين وسبعين فرقة وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين شعبة كلها فى النار إلا فرقة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : (ما أنا عليه وأصحابى)[٦] . رواه الحاكم فى مستدركه بهذه الزيادة .

وقال عطاء : ﴿ **ولا يزالون مختلفين** ﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس . ﴿ **إلا من رحم ربك** ﴾ يعنى الحنيفية . وقال قتادة : أهل رحمة الله أهل الجماعة ، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم ، وأهل معصيته أهل فرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم .

وعن طاوس أن رجلين اختصما إليه فأكثرا ، فقال طاوس : اختلفتما وأكثرتما . فقال أحد الرجلين : لذلك خُلقنا . فقال طاوس : كذبت . فقال : أليس الله يقول ﴿ **ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم** ﴾ قال : لم يخلقهم ليختلفوا ، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة . وكما قال

(١) **الآية ١٠١ من سورة هود**
(٢) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٣) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .
(٤) أخرجه أبو داود فى السنة (١) . والدرامى فى السير (٧٤) .
(٥) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٦) الآية ٩٩ من سورة يونس .

ابن عباس قال : للرحمة خلقهم ولم يخلقهم للعذاب ، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة ويرجع معنى هذا القول ، إلى قوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ .

يخبر تعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره لعلمه التام وحكمته النافذة ، أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (اختصمت الجنة والنار . فقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم . وقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . فقال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء . وقال للنار : أنت عذابى أنتقم بك ممن أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشئ الله لها خلقا يسكن فضل الجنة ، وأما النار فلا تزال تقول هل من مزيد حتى يضع عليها رب العزة قدمه ، فتقول : قط قط وعزتك)(٢)

قوله تعالى ﴿ **وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾ .

يقول تعالى : وكل أخبار نقصها عليك من أنباء الرسل المتقدمين من قبلك مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى ، وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وخذل أعداءه الكافرين ، وكل هذا مما نثبّت به فؤادك ، أى قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة .

وقوله : ﴿ **وجاءك فى هذه الحق** ﴾ : أى هذه السورة المشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين بهم ، وأهلك الكافرين ، جاءك فيها قصص حق ، ونبأ صدق وموعظة يرتدع بها الكافرون ، وذكرى يتذكر بها المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ **وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ :

يقول الله تعالى آمرا رسوله أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ **اعملوا**

(١) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد (٢٥) . والأمام أحمد فى (٢ : ٥٠٧) .

على مكانتكم ﴾ أى على طريقتكم ومنهجكم ، ﴿ **إنا عاملون** ﴾ أى على طريقتنا ومنهجنا ﴿ **وانتظروا إنا منتظرون** ﴾ أى ﴿ فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾[1] .

وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده وجعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

قوله تعالى : ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ :

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتى كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه وأناب إليه ، وقوله﴿ **وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾ أى ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء فى الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم فى الدارين ، سبحانه أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا .

فاللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت رب العرش العظيم ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . اعلم أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا .

اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ، يا نعم المولى ويا نعم النصير ، سبحانك ربنا وإليك المصير ، وصلى الله على البشير النذير .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة القصص .

سورة يوسف

مقدمة

قال صاحب البصائر : هذه السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها مائة وإحدى عشرة ، وكلماتها ألف وسبعمائة وست وسبعون ، وحروفها سبعة آلاف ومائة وست وستون .

وسميت بسورة يوسف لاشتمالها على قصته .

مقصود السورة إجمالا : عرض العجائب التى تتضمنها : من حديث يوسف ويعقوب ، والوقائع التى فى هذه القصة ، من تعبير الرؤيا ، وحسد الأخوة ، وحيلهم فى التفريق بينه وبين أبيه ، وتفصيل الصبر الجميل من جهة يعقوب ، وبيع الأخوة أخاهم بثمن بخس ، وعرضه على البيع والشراء ، بسوق مصر ، ورغبة زليخا وعزيز مصر فى شرائه ، ونظر زليخا إلى يوسف ، واحتراز يوسف منها ، وحديث رؤية البرهان وشهادة الشاهد ، وتعيير النسوة زليخا ، وتحيرهنّ فى حسن يوسف ، وجماله ، وحبسه فى السجن ، ودخول الساقى والطباخ إليه ، وسؤالهما إيَّاه ودعوته إياه إلى التوحيد ونجاة الساقى ، وهلاك الطباخ ، ووصية يوسف للساقى بأن يذكره عند ربه ، وحديث رؤيا مالك بن الريان ، وعجز العابرين عن عبارته ، وتذكر الساقى يوسف ، وتعبيره لرؤياه فى السجن ، وطلب مالك يوسف ، وإخراجه من السجن ، وتسليم مقاليد الخزائن إليه .

ومقدم إخوته لطلب الميرة ، وعهد يعقوب مع أولاده ، ووصيتهم فى كيفية الدخول إلى مصر ، وقاعدة تعريف يوسف نفسه لبناميين ، وقضائه حاجة الإخوة وتغييبه الصاع فى أحمالهم ، وتوقيف بنيامين بعلة السرقة ، واستدعائهم منه توقيف غيره من الإخوة مكانه ، ورده الإخوة إلى أبيهم ، وشكوى يعقوب من جور الهجران ، وألم الفراق ، وإرسال يعقوب إياهم فى طلب يوسف وأخيه ، وتضرع الإخوة بين يدى يوسف ، وإظهار يوسف لهم ما فعلوه معه من الإساءة وعفوه عنهم ، وإرساله بقميصه صحبتهم إلى يعقوب ، وتوجه يعقوب من كنعان إلى مصر ، وحوالة يوسف ذنب إخوته على مكايد الشيطان ، وشكره لله تعالى على ما خوّله من الملك ، ودعائه وسؤاله حسن الخاتمة ، وجميل العاقبة ، وطلب السعادة ، والشهادة ، وتعيير الكفار على الأعراض من الحجّة .

والإشارة إلى قصة يوسف عبرة للعالمين فى قوله ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ إلى آخر السورة .

المتشابهات

قوله : ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ ليس فى القرآن غيره . أى عليم : علّمك تأويل الأحاديث ، حكيم : اجتباك للرسالة .

قوله : ﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل ﴾ فى موضعين ، وليس بتكرار : لأنه

ذكر الأول حين نُعِي إليه يوسف ، والثانى حين رفع إليه ما جرى على بنيامين .

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ ومثلها فى القصص وزاد فيها ﴿ واستوى ﴾ ، لأن يوسف عليه السلام أوحى إليه وهو فى البئر ، وموسى عليه السلام أوحى إليه بعد أربعين سنة ، وقوله ﴿ واستوى ﴾ إشارة إلى تلك الزيادة .

ومثله : ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ بعد قوله : ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ معاذ الله ﴾ هنا فى موضعين ، وليس بتكرار ، لأن الأول ذكره حين دعته إلى المواقعة ، والثانى حين دعى إلى تغيير حكم السرقة .

قوله : ﴿ قلن حاش لله ﴾ فى موضعين : أحدهما فى حضرة يوسف حين نفين عنه البشرية بزعمهن ، والثانى بظهر الغيب حين نفين عنه السوءَ .

قوله : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ فى موضعين : ليس بتكرار ، لأن الأول من كلام صاحبى السجن ليوسف ، والثانى من كلام إخوته له .

قوله : ﴿ يا صاحبى السجن ﴾ فى موضعين: الأول ذكره يوسف حين عدل عن جوابهما اللأ دعائهما إلى الإيمان ، والثانى حين عاد إلى تعبير رؤياهما ، تنبيها على أن الكلام الأول قد تم .

قوله : ﴿ **لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون** ﴾ كرر (لعل) مراعاة لفواصل الآى ، ولو جاء على مقتضى الكلام لقال لعلنى أرجع إلى الناس فيعلموا ، بحذف النون على الجواب ، ومثله فى هذه السورة سواء قوله : ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون ﴾ أى لعلهم يعرفونها فيرجعوا .

قوله : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ فى موضعين : الأول حكاية عن تجهيزه إياهم أول ما دخلوا عليه ، والثانى حين أرادوا الانصراف من عنده في المرة الثانية ، وذكر الأول بالواو ، لأنه أول قصصهم معه ، والثانى بالفاء ، عطفا على (ولما دخلوا) وتعقيبا له .

قوله : ﴿ تالله ﴾ فى ثلاثة مواضع : الأول يمين منهم أنهم ليسوا سارقين ، وأن أهل مصر بذلك عالمون ، والثانى يمين منهم أنك لو واظبت على هذا الحزن والجزع تصير حرضا ، أو تكون من الهالكين ، والثالث يمين منهم أن الله فضله عليهم ، وأنهم كانوا خاطئين .

قوله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك ﴾ وفى الأنبياء ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾ بغير (من) لأن (قبل) اسم للزمان السابق على ما أضيف إليه ، و(من) يفيد استيعاب الطرفين ، وما فى هذه السورة للاستيعاب . وقد يقع (قبل) على بعض ما تقدم كما فى الأنبياء ، وهو قوله : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾[1] ثم وقع عقبه ﴿ وما أرسلنا قبلك ﴾[1] فحذف (من) لأنه هو بعينه .

(١) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الأنبياء .

قوله ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض ﴾ بالفاء . وفى الروم ، والملائكة بالواو ، لأن الفاء يدل على الاتصال والعطف ، والواو يدل على العطف المجرد . وفى هذه السورة قد اتصلت بالأول كقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا ﴾[1] .

حال من كذبهم ومانزل بهم ، وليس كذلك فى الروم والملائكة .

قوله : ﴿ ولدار الآخرة خير ﴾ بالإضافة ، وفى الأعراف ﴿ والدار الآخرة خير ﴾[2] على الصفة ، لأن هنا تقدم ذكر الساعة ، فصار التقدير : ولدار الساعة الآخرة ، فحذف الموصوف ، وفى الأعراف تقدم قوله : ﴿ عرض هذا الأدنى ﴾[3] أى المنزل الأدنى ، فجعله وصفا للمنزل ، والدار الدنيا والدار الآخرة بمعناه ، فأجرى مجراه .

قال الشيخ المراغى رحمه الله تعالى فى تفسيره لسورة يوسف : رأينا أن نقدم لك أيها القارىء صورة موجزة تبين لك حال هذا النبى الكريم والعبرة من ذكر قصته فى القرآن العظيم ، لتكون ذكرى للذاكرين ، وسلوة للقارئين والسامعين .

يوسف الصديق : مثل كامل فى عفته

يوسف عليه السلام آية خالدة على وجه الدهر ، تتلى فى صحائف الكون بكرة وعشيا ، تفسر طيب نجاره وطهارة إزاره ، وعفته فى شبابه وقوته فى دينه ، وإيثاره لآخرته على دنياه ، وأفضل هداية تمثل للنساء والرجال المثل العليا فى العفة والصيانة التى لا تتم لأحد من البشر إلا بصدق الإيمان بالله ، ومراقبته له فى السر والعلن .

وسورته منقبة عظمى له ، وآية بينة فى إثبات عصمته ، وأفضل مثل عملى يقتدى به النساء والرجال ، فبتلاوتها يشعر القارىء بما للشهوة الخسيسة على النفس من سلطان . ويسمع بأذنه تغلب الفضيلة فى المؤمن على كل رزيلة . بقوة الإرادة ، ونوازع الشرف والعصمة ، ففيها أحسن الأسوة للمؤمنين من الرجال والنساء .

فيها قصة شاب كان من أجمل الناس صورة ، وأكملهم بنية ، يخلو بامرأة ذات منصب وسلطان وهى سيدة له وهو عبدها ، يحملها الافتتان بجماله على أن تُذِل نفسها له ، وتخون بعلها فتراوده عن نفسه (وقد جرت العادة حتى فى الطبقات الدنيا منزلة وتربية أن يكون النساء مطلوبات لا طالبات) فيسعها من حكمته ، ويريها من كماله وعفته ما هو أفضل درس فى الإيمان بالله ، والاعتصام بحبله المتين ، وفى حفظه أمانة سيده الذى أحسن مثواه ، فيقول ﴿ إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون ﴾ فتشعر حينئذ بالذل والمهانة والتفريط فى الشرف والصيانة ، وتحقير مقام السيادة والكرامة .

إلا أن فيها أعظم دليل على صبره وحلمه ، وأمانته وعدله ، وحكمته وعلمه ، وعفوه وإحسانه ، فكفى شاهدا على صبره أن إخوته حسدوه فألقوه فى غيابة الجب ، وأخرجته السيارة وباعوه بيع العبيد ، وكادت له امرأة العزيز فزُج به فى السجن ، فصبر على أذى الإخوة وكيد امرأة العزيز ومكر النسوة ، إذ

(١) الآية ١٠٩ من سورة يوسف . (٢) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف . (٣) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف .

علم ما فى الفاحشة من مفاسد وما فى العدل والإحسان من منافع ومصالح ، فآثر الأعلى على الأدنى ، فاختار عقوبة الدنيا بالسجن على ارتكاب الإثم .
وكانت العاقبة أن نجاه الله ورفع قدره ، وأذل العزيز وامرأته ، وأقرت المرأة ، والنسوة ببراءته ، ومكن له فى الأرض وكانت عاقبته النصر ، والملك والحكم ، والعاقبة للمتقين . قال سبحانه ﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

وأما عدله وأمانته وعلمه وحكمته ، فقد ظهرت جليا حين تولى الحكم فى مصر أيام السبع سنين العجاف التى أكلت الحرث والنسل ، وكادت توقع البلاد فى المجاعات ، ثم الهلاك المحقق ، لولا حكمته وعدله بين الناس ، والسير بينهم بالسوية . وعلى الصراط المستقيم بلا جنف ، ولا ميل مع الهوى .

ما فى قصة يوسف من عبرة

إن فى هذه القصة لعبرة أيما عبرة لعلية القوم وساداتهم ، رجالهم ونسائهم ، مُجّانهم وأعفَائهم ، من نساء ورجال ، فإن امرأة العزيز لم تكن من قبل غوية ، ولا كانت فى سيرتها غير عادية ، لكنها ابتُليت بحب هذا الشاب الفاتن الذى وضعه عزيز مصر فى قصره ، وخلى بينه وبين أهله ، فأذلت نفسها له ، بمراودته عن نفسه ، فاستعصم وأبى وآثر مرضاة ربه ، فشاع فى مصر ، دورها وقصورها وذلها له، وإباؤه عليها ، كما قال سبحانه ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ .

وقد ذكرنها بالوصف « امرأة العزيز » دون الاسم منها استعظاما لهذا الأمر منها ، ولا سيما وأن زوجها عزيز مصر أو رئيس حكومتها ، وقد طلبت الفاحشة من مملوكها ، وفتاها الذى هو فى بيتها وتحت كنفها ، وذلك أقبح لوقوعها منها ، وهى السيدة ، وهو المملوك ، وهو التابع وهى المتبوعة ، وقد جرت العادة بأن نفوس النسوة تعزف عن مثل هذه الدناءة ، ولا ترضى لنفسها بهذه الذلة التى تشعر بالمساواة لا بالسيادة ، وبالضعة لا بالعظمة ، ولله فى خلقه شئون .
وقد تضمن وصف النسوة لها بهذا الوصف أنها لم تقتصد فى حبها ، ولا فى طلبها .

أما الأولى : فقولهن فيها ﴿ قد شغفها حبا ﴾ أى قد وصل حبه إلى شغاف قلبها (الغشاء المحيط به) وغاص فى سويدائه ، كما قال شاعرهم :

يعلم الله أن حبك منى ... فى سواد الفؤاد وسط الشغاف

وأما الثانى فقولهن : « تراود فتاها عن نفسه » .

فلما سمعت بهذا المكر القولى ، قابلتهن عليه بمكر فعلى ، فقد جمعتهن وأخرجه عليهن ، فلم يشعرن إلا وأحسن خلق الله قد طلع عليهن بغتة ، فراعهن ذلك الحسن الفتان ، وفى أيديهن مُدى يقطعن بها مما يأكلنه ، فقطعن أيديهن وهن لا يشعرن بما فعلن ، مأخوذات بذلك الحسن . كما جاء فى قوله سبحانه

﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم * قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴾ .

فلما هددته بالسجن والإذلال بعد أن هتك سترها ، وكاشفت النسوة فى أمرها ، وتواطأن معها على كيدها ، آثر عليه السلام الاعتقال فى السجن على ما يدعونه إليه من الفحش والخنا ﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين * فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ .

وإنه ليستبين من هذا القصص أن امرأة العزيز كانت مالكة لقياد زوجها الوزير الكبير ، تصرفه كيف شاءت ، وشاء لها الهوى ، إذ كان فاقدا للغيرة كأمثاله من كبراء الدنيا صغار الأنفس ، عبيد الشهوات .

قال فى الكشاف عند ذكر ما رأوا من الشواهد الدالة على براءته : وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها . وفتلها منه فى الذروة والغارب ، وكان مطواعه لها ، وجملا ذلولا زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عين من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه ، لإلحاق الصغار به كما أوعدته ، وذلك لما أيست من طاعته ، وطمعت فى أن يذلله السجن ، ويسخر لها .ا.هـ .

وإنا لنستخلص من هذه القصة الأمور التالية :

١ — إن النقم قد تكون ذريعة لكثير من النعم ، ففى بدء القصة أحداث كلها أتراح ، أعقبتها نتائج كلها أفراح .

٢ — إن الأخوة لأب قد توجد بينهم ضغائن وأحقاد ، ربما تصل إلى تمنى الموت أو الهلاك أو الحوائج التى تكون مصدر النكبات والمصائب .

٣ — أن العفة والأمانة والاستقامة تكون مصدر الخير والبركة لمن تحلى بها ، والشواهد فيها واضحة ، والعبرة منها ماثلة لمن اعتبر وتدبر ، ونظر بعين الناقد البصير .

٤ — إن أسسها ودعامتها هو خلوة الرجل بالمرأة فهى التى أثارت طبيعتها وأفضت بها إلى إشباع أنوثتها ، والرجوع إلى هواها وغريزتها ، ومن أجل هذا حرم الدين خلوة الرجل بالمرأة ، وسفرها بغير محرم ، وفى الحديث (ما اجتمع رجل وامرأة إلا والشيطان ثالثهما)[1] .

وإنا لنرى فى العصر الحاضر أن الداء الدوىّ ، والفساد الخلقى ، الذى وصل إلى الغاية (وكلنا نلمس آثاره ونشاهد بلواه) ما بلغ إلى ما نرى إلا باختلاط الرجال بالنساء فى المراقص والملاهى والاشتراك معهم فى المفاسد والمعاصى ، كمعاقرة الخمور ، ولعب القمار فى أندية الخزى والعار ، وسباحة النساء مع الرجال فى الحمامات المشتركة .

(١) أخرجه الترمذى فى الرضاع (١٦) وفى الفتن (٧) . والإمام أحمد فى (١ : ١٨ ، ٢٦) وفى (٣ : ٣٣٩ ، ٤٤٦) .

وبعد : فهل لهذه البلوى من يفرج كربتها ، وهل لهذا الليل من يزيل ظلامه ، وهل لهذه الجراح من آس وهل لهذه الفوضى من علاج . ولهذه الطامة من يقوم بحمل عبئها عن الأمة ، ويكون فيه من الشجاعة ما يجعله يرفع الصوت عاليا بالنزوع عن تلك الغواية ، ويرد أمر المجتمع ، والحرص على آدابه إلى ما قرره الدين ، وسار عليه سلف المسلمين المتقين ، فيصلح أمره ، وتزهو الفضيلة ، وتنشأ نابتة جديدة تقوم على حراسة الدين فى بلاد المسلمين ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

هدانا الله إلى سبيل الفلاح ، وسدد خطانا إلى طريق النجاح ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾

روى البيهقى أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا لموافقتها لما عندهم ، وهو من رواية الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى ﴿ **الٓر** ﴾ هذه بعض حروف الهجاء ، ويراد بها الإشارة إلى إعجاز هذا الكتاب المبين الواضح الدلالة .

قال الله تعالى : ﴿ **تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ وكتاب الله تعالى هو المخرج من الفتن ، لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء .

قال الإمام الشاطبى رضى الله عنه :

وخير جليس لا يمل حديثه
وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته
من القبر يلقاه سنىً متهللا
هنالك يهنيه مقيلا وروضة
ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه
وأجدر به سؤلا إليه موصلا

فيا أيها القارى به متمسكاً
مجلا له فى كل حال مبجلا
هنيئاً مريئاً والداك عليهما
ملابس أنوار من التاج والحلى

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون** ﴾

ذلك لأن لغة العرب أشرف اللغات ، وقد زادها الله شرفا ورفعة بإنزال القرآن بها ، قال تعالى فى سورة الزخرف : ﴿ حم•والكتاب المبين•إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون•وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾ :

عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : أنزل على النبى ﷺ القرآن ، قال فتلاه عليهم زمانا ، فقالوا : يارسول الله لو قصصت علينا ؟ ما أنزل الله عز وجل ﴿ **الر تلك آيات الكتاب المبين** ﴾ إلى قوله ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ ثم تلاه عليهم زمانا فقالوا : يارسول الله لو حدثتنا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الآية وذكر الحديث .

وبما يناسب ذكره عن هذه الآية الكريمة المشتملة على مدح القرآن ، وأنه كاف عن كل ما سواه من الكتب ، ما رواه أحمد عن جابر بن عبد الله أن عمر بن الخطاب أتى النبى ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبى ﷺ قال : فغضب وقال : (أمتهوّكون فيها ياابن الخطاب ؟ والذى نفسى بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شىء ، فيخبرونكم بحق فتكذبونه ، أو بباطل فتصدقونه ، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى) .

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال : جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إنى مررت بأخ لى من قريظة فكتب لى جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال فتغير وجه رسول الله ﷺ قال عبد الله بن ثابت : فقلت له : ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا قال : فسرى عن النبى ﷺ وقال (والذى نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم إنكم حظى من الأمم وأنا حظكم من النبيين)[٢] .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن خالد بن عرفطة قال : كنت جالسا عند عمر إذ أتى برجل من عبد القيس مسكنه بالسوس فقال له عمر : أنت فلان بن فلان العبدى ؟ قال : نعم قال : وأنت النازل

(١) الآيات ١ – ٤ من سورة الزخرف .
(٢) أخرجه الامام أحمد فى (٤ : ٢٦٦) وفى (٣ : ٤٧١) .

بالسوس ؟ قال : نعم فضربه بقناة معه قال : فقال الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال له عمر اجلس فجلس فقرأ عليه :

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . آلر تلك آيات الكتاب المبين*إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص – إلى قوله – لمن الغافلين** ﴾ فقرأها عليه ثلاثا ، وضربه ثلاثا ، فقال له الرجل : مالى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أنت الذى نسخت كتاب دانيال ؟ قال : مرنى بأمرك أتبعه . قال : انطلق فامحه بالحميم والصوف الأبيض ، ثم لا تقرأه ولا تقرئه أحداً من الناس ، فلئن بلغنى عنك أنك قرأته أو أقرأته أحدا من الناس لأنهكنك عقوبة ، ثم قال : اجلس فجلس بين يديه فقال : انطلقت أنا فانتسخت كتابا من أهل الكتاب ثم جئت به فى أديم فقال لى رسول الله ﷺ (ما هذا فى يدك ياعمر ؟) قال : قلت يا رسول الله كتاب نسخته لنزداد به علما إلى علمنا فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودى بالصلاة جامعة فقالت الأنصار : أغضب نبيكم ﷺ ، السلاح السلاح فجاءوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال (يا أيها الناس إنى أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لى اختصارا ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهوكوا ولا يغرنكم المتهوكون) قال عمر : فقمت فقلت : رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبك رسولا . ثم نزل رسول الله ﷺ) وقد رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره .

رؤيا يوسف

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

المفردات : ﴿ **لأبيه** ﴾ : هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم روى أحمد والبخارى أن النبى ﷺ قال (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم) ﴿ **أحد عشر كوكبا** ﴾ : هم إخوته ، وكانوا أحد عشر نفراً . ﴿ **الشمس والقمر** ﴾ : أبوه وأمه . ﴿ **والسجود** ﴾ : من سجد البعير إذا خفض رأسه لراكبه حين ركوبه ، وكان من عادة الناس من تحية التعظيم بفلسطين ومصر وغيرهما الانحناء مبالغة فى الخضوع والتعظيم وقد استعمله القرآن فى انقياد كل المخلوقات لإرادة الله وتسخيره ، ولا يكون السجود عبادة إلا بالقصد والنية ، للتقرب إلى من يعتقد أن له

عليه سلطانا غيبيا فوق سلطان الأسباب المعهودة . ﴿ وقص الرؤيا ﴾ : الإخبار بها على وجه الدقة والإحاطة . ﴿ وكاد له ﴾ : إذا دبر الكيد لأجله لمضرته أو لمنفعته كما قال ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ . ﴿ والاجتباء ﴾ : من جبيت الشيء (إذا حصلته لنفسك والتأويل الإخبار بما يؤول إليه الشيء فى الوجود وسميت الرؤيا أحاديث باعتبار حكايتها والتحديث بها .

﴿ والآل ﴾ أصلها : أهل وهو خاص بمن لهم شرف وخطر فى الناس كآل النبى ﷺ وآل الملك .

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد فى قصصك عليهم من قصة يوسف ، إذ قال لأبيه ، وأبوه هو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام كما قال الإمام أحمد عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال (الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم)[١] رواه البخارى .

وعن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أى الناس أكرم قال (أكرمهم عند الله أتقاهم) قالوا ليس عن هذا نسألك قال (فأكرم الناس يوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله) قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : (فعن معادن العرب تسألونى) قالوا : نعم . قال (فخياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا)[٢] .

وقال ابن عباس : رؤيا الأنبياء وحى ، وقد تكلم المفسرون على تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكبا عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلا سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه .

روى هذا عن ابن عباس والضحاك وقتادة وسفيان الثورى وقد وقع تفسيرها حين رفع أبويه على العرش وهو سريره وأخوته بين يديه ﴿ وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قال يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين** ﴾ :

ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به ، وإذا رأى ما يكرهه فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثا ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لن تضره)[٣] .

وقال رسول الله ﷺ (الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر فاذا عبرت وقعت)[٤] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٩) وفى المناقب (١٣) وفى التفسير (سورة ١٢ : ١) . والترمذى فى التفسير (سورة ١٢ : ١) . والأمام أحمد فى (٢ : ٩٦ ، ٣٣٢ ، ٤١٦) .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء (٨ ، ١٤ ، ١٩) وفى المناقب (١ ، ٢٥) وفى التفسير (سورة ١٢ : ١) . ومسلم فى الفضائل (١٦٨) . والامام أحمد فى (٤ : ١٠١) .

(٣) أخرجه مسلم فى الرؤيا (٤) . والدرامى فى الرؤيا (٥) . والامام أحمد فى (٣ : ٨) وفى (٥ : ٣٠٣) .

(٤) أخرجه الأمام أحمد فى (٤ : ١٠ ، ١١) . وابن ماجه فى الرؤيا (٦) . والدرامى فى الرؤيا (١١) .

ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد فى حديث (استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها فإن كل ذى نعمة محسود) .

وما قال يعقوب لابنه يوسف : لا تقصص رؤياك على إخوتك إلا حرصا عليه منهم ، وذلك خشية الحسد فيكيدون له كيدا ، ويحتالون عليه احتيالا ، حتى يوقعوه فى مالا تحمد عقباه ، وذلك بما يوحيه الشيطان إليهم ، وبما يوسوسه لهم ، إن الشيطان للإنسان عدو مبين، أعاذنا الله تعالى من شره .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم** ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن قول يعقوب لولده يوسف إنه كما اختارك ربك ، وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ، ﴿ **كذلك يجتبيك ربك** ﴾ أى يختارك ويصطفيك لنبوته ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، قال مجاهد : يعنى الرؤيا ، ويتم نعمته عليك أى بإرسالك والإيحاء إليك . ولهذا قال ﴿ **كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم** ﴾ أى هو أعلم حيث يجعل رسالته ، كما قال فى الآية الأخرى .

التآمر على يوسف

۞ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ
إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ
أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ
مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ
فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ
مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ
وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ
عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ
وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً
يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا

فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

المفردات : ﴿ **الناصح** ﴾ المشفق المحب للخير . ﴿ **الرتع** ﴾ : الاتساع فى الملاذ والمراد باللعب لعب المسابقة والانتصال بالهام ونحوهما ، مما يتدرب به لمقابلة الأعداء ، وتعليم فنون الحرب . ﴿ **والحزن** ﴾ : ألم النفس من فقد محبوب أو وقوع مكروه . ﴿ **والخوف** ﴾ : "والخوف" ألم النفس من توقع مكروه قبل وقوعه . ﴿ **والعصبة** ﴾ : الجماعة التى تعصب بها الأمور وتكفى بآرائها الخطوب . ﴿ **وخاسرون** ﴾ : ضعفاء عاجزون أو هالكون لا غناء عندهم ولا نفع . ﴿ **أجمعوا** ﴾ : أى عزموا عزما لا تردد فيه . ﴿ **وأوحينا إليه** ﴾ : أى ألهمناه كما فى قوله تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى ﴾(١) . ﴿ **والعشاء** ﴾ : من الغروب إلى العتمة : أى حين يخالط سواد الليل بقية بياض النهار . ﴿ **والاستباق** ﴾ : تكلف السبق فى العدو أو فى الرمى . ﴿ **والمتاع** ﴾ : فضل الثياب وماعون الطعام والشراب . ﴿ **ومؤمن** ﴾ : أى مصدق . ﴿ **وسولت** ﴾ : زينت وسهلت . ﴿ **والصبر الجميل** ﴾ : ما لا شكوى فيه إلى الخلق . ﴿ **على ما تصفون** ﴾ : أى من هذه المصيبة وعظيم الرزء .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذا المشهد :

يقول تعالى : لقد كان فى قصة يوسف وخبره مع أخوته آيات ، أى عبرة ومواعظ للسائلين عن ذلك ، المستخبرين عنه ، فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه ﴿ **إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا** ﴾ أى حلفوا فيما يظنون ، والله ليوسف وأخوه يعنون بنيامين وكان شقيقه لأمه ، ﴿ **أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة** ﴾ أى جماعة فكيف ، أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ﴿ **إن أبانا لفى ضلال مبين** ﴾ يعنون فى تقديمهما علينا ، ومحبته إياهما أكثر منا .

واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف ، وظاهرهذا السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنه أوحى إليهم بعد ذلك ، وفى هذا نظر ، ويحتاج مدعى ذلك إلى دليل ، ولم يذكروا سوى قوله تعالى ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط** ﴾(٢) .

وهذا فيه احتمال لأن بطون بنى إسرائيل يقال لهم الأسباط ، كما يقال للعرب قبائل ، وللعجم شعوب ، يذكر تعالى أنه أوحى إلى الأنبياء من أسباط بنى إسرائيل ، فذكرهم إجمالا لأنهم كثيرون ، ولكن كل سبط من نسل رجل من إخوة يوسف ، ولم يقم دليل على أعيان هؤلاء أنهم أوحى إليهم ، والله أعلم .

﴿ **اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم** ﴾ يقولون هذا الذى يزاحمكم فى محبة

---

(١) الآية ٧ من سورة القصص

(٢) الآية ١٣٦ من سورة البقرة .

أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم ، ليخلوا لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه أو تلقوه فى أرض من الأراضى تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿ **وتكونوا من بعده قوما صالحين** ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب .

﴿ **قال قائل منهم** ﴾ قال قتادة ، ومحمد بن إسحق : وكان أكبرهم واسمه روبيل . وقال السدى : الذى قال ذلك يهوذا ، وقال مجاهد : هو شمعون الصفا .

﴿ **لا تقتلوا يوسف** ﴾ أى لا تصلوا فى عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله لأن الله تعالى كانيريد منه أمرا لابد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر ، والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة روبيل فيه ، وإشارته عليهم بأن يلقوه فى غيابة الجب وهو أسفله .

قال قتاده : وهى بئر ببيت المقدس ﴿ **يلتقطه بعض السيارة** ﴾ أى المارة من المسافرين ، فتستريحوا منه بهذا ، ولا حاجة إلى قتله ﴿ **إن كنتم فاعلين** ﴾ أى إن كنتم عازمين على ما تقولون .

قال محمد بن إسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالد ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذى لا ذنب له ، وبالكبير الفانى ذى الحق والحرمة والفضل ، وخطره عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه ، مع مكانه من الله ، ممن أحبه طفلا صغيرا وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه ، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمرا عظيما . رواه ابن أبى حاتم من طريق سلمة بن الفضل عنه .

﴿ **قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون** ﴾ :

لما تواطأوا على أخذه وطرحه فى البئر، كما أشار به عليهم أخوهم الكبير روبيل ، جاءوا أباهم يعقوب عليه السلام ، فقالوا : مابالك ﴿ **لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون** ﴾ وهذه توطئة ودعوى ، وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له فى قلوبهم من الحسد لحب أبيه له ﴿ **أرسله معنا** ﴾ أى ابعثه معنا ﴿ **غدا نرتع ونلعب** ﴾ وقرأ بعضهم بالياء (يرتع ويلعب) قال ابن عباس : يسعى وينشط ، وكذا قال قتادة ، والضحاك ، والسدى ، وغيرهم ﴿ **وإنا له لحافظون** ﴾ يقولون ونحن نحفظه ، ونحوطه من أجلك .

﴿ **قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون** ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه فى جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعى فى الصحراء ﴿ **إنى ليحزننى أن تذهبوا به** ﴾ أى يشق على مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة ، والكمال فى الخلق والخلق ، صلوات الله وسلامه عليه .

وقوله ﴿ **وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون** ﴾ : يقول وأخشى أن تشتغلوا عنه برميكم ورعيكم ، فيأتيه ذئب فيأكله وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الجملة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه .

وقالوا مجيبين له عنها فى الساعة الراهنة : ﴿ **لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون** ﴾ .

يقولون لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة ، إنا إذاً لهالكون عاجزون .

﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ :

يقول تعالى : فلما ذهب به أخوته من عند أبيه بعد مراجعتهم له فى ذلك ﴿ **وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابت الجب** ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه ، إنهم اتفقوا كلهم على إلقائه فى أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه له إكراماً له ، وبسطا وشرحاً لصدره ، وإدخالا للسرور عليه ، فيقال إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له .

فذكر السدى وغيره : أنه لم يكن بين أكرامهم له ، وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن عين أبيه ، وتواروا عنه ، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه ، والفعل من ضرب ونحوه ، ثم جاءوا به إلى ذلك الجب الذى اتفقوا على رميه فيه ، فربطوه بحبل ودلوه فيه ، فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه ، وإذا تشبث بحافات البئر ضربوا على يديه ، ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط فى الماء فغمره ، فصعد إلى صخرة تكون فى وسطه يقال لها الراغوفة ، فقام فوقها .

وقوله : ﴿ **وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون** ﴾ : يقول تعالى ذاكرا لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر فى حال العسر ، أنه أوحى إلى يوسف فى ذلك الحال الضيق تطييبا لقلبه ، وتثبيتاً له ، إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجا ومخرجا حسنا ، وسينصرك الله عليهم ويعليك ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع .

وقوله : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ قال مجاهد وقتادة : ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ بإيماء الله إليه ، وقال ابن عباس ستنبئهم بصنيعهم هذا فى حقك ، وهم لا يعرفونك ، ولا يستشعرون بك .

قوله تعالى : ﴿ **وجاءوا أباهم عشاء يبكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين * وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون** ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن الذى اعتمده إخوة يوسف ، بعد ما ألقوه فى غيابت الجب ، إنهم رجعوا إلى أبيهم فى ظلمة الليل يبكون ، ويظهرون الأسف والجزع على يوسف ، ويتنغمون لأبيهم ، وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ **إنا ذهبنا نستبق** ﴾ أى نترامى ﴿ **وتركنا يوسف عند متاعنا** ﴾ أى ثيابنا وأمتعتنا

﴿ **فأكله الذئب** ﴾ وهو الذى كان قد جزع منه وحذر عليه .

وقوله ﴿ **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** ﴾ تلطف عظيم فى تقدير ما يجادلونه ، يقولون ونحن نعلم أنك لا تصدقنا والحالة هذه لو كنا عندك صادقين ، فكيف وأنت متهمنا فى ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب فأكله الذئب ، فأنت معذور فى تكذيبك لنا ، لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا فى أمرنا هذا .

﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ : أى مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التى يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهد والسدى وغير واحد ، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها ، موهمين أن هذا قميصه الذى أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبى الله يعقوب بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع فى نفسه من لبسهم عليه : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل** ﴾ أى فسأصبر صبرا جميلا على هذا الأمر الذى اتفقتم عليه ، حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ **والله المستعان على ما تصفون** ﴾ . أى على ما تذكرون من الكذب والمحال .

وقال الثورى : عن ابن عباس ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ قال : لو أكله السبع لخرق القميص ، وكذا قال الشعبى وقتادة ، وقال مجاهد : الصبر الجميل الذى لا جزع فيه .

وروى هشيم عن عبد الرحمن بن يحيى عن حبان بن أبى حبلة قال : سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿ **فصبر جميل** ﴾ فقال : (صبر لا شكوى فيه) .

وقال عبد الرزاق : قال الثورى عن بعض أصحابه : أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لا تحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكى نفسك .

يوسف مع السيّارة

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

المفردات : ﴿ **سيارة** ﴾ : هم الجمع المسافرون كالجوالة والكشافة . ﴿ **واردهم** ﴾ : هو الرائد الذى يبحث عن الماء . ﴿ **فأدلى دلوه** ﴾ : فأرسل دلوه – إناء يستقى به من البئر . ﴿ **وأسروه** ﴾ : أخفوه . ﴿ **شروه** ﴾ : باعوه بثمن قليل .

وجاءت هذا المكان جماعة مسافرون ، روى أنهم من العرب الإسماعيليين ، فأرسلوا رائدهم يبحث عن الماء ويأتيهم به فأرسل دلوه فى البئر فتعلق به يوسف حتى خرج ، وقال يا بشرى ، احضرى فهذا غلام

وسيم الطلعة ، صبوح الوجه ، فاستبشروا به وسُرّوا ، وأخفوه عن أعين الناس ، حتى لا يعلم به أحد ، لأجل أن يكون بضاعة لهم يتاجرون فيه ويبيعونه لأهل مصر ، والله سبحانه لا يغيب عنه شيء، عليم بما يفعل هؤلاء وهؤلاء ، وباعه السيارة بثمن قليل دراهم معدودة لم تصل إلى حد الوزن ، وكانوا فيه من الزاهدين الراغبين عنه ، الذين يبتغون الخلاص منه .

يوسف فى مصر

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ج
وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ج وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ج وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

المفردات : ﴿ **مثواه** ﴾ : مقامه عندنا مأخوذ من ثوى بالمكان أى أقام به . ﴿ **أشده** ﴾ : رشده وكماله .

وقال الذى اشتراه من مصر ، لم يذكر القرآن اسمه ولا صنعته ولا سكنه ، لأن القرآن ليس كتاب تاريخ أو قصص، يعنى بهذه الأشياء ، بل قصصه لمعنى أعلى وأسمى ، ولا يهتم بمثل هذا ، وقد ذكرت روايات فى اسمه ووظيفته كثيرة ، والظاهر أنه كان رئيس شرطة ﴿ وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز ﴾ .

قال : أكرمى مقام هذا الغلام . فلا يكن فى منزلة العبيد والأرقاء ، بل عامليه كفرد منا ، فإنى ألمح منه النبل والخلق ، وأرى أنه سيكون له شأن ، أكرميه رجاء أن ينفعنا فى أعمالنا الخاصة أو العامة أو نتخذه ولداً لنا تقرّ به أعيننا ، ونرثه ويرثنا .

يا سبحان الله !! أهكذا يكون يوسف الذى ألقى فى الجب !! وقد وقع فى قلب سيده هذا الموقع ، ولا غرابة فالله حارسه وهاديه ، وحافظه وراعيه ، ومثل ذلك التدبير والعناية بيوسف مكانه فى أرض مصر ، وكان هذا العطف من عزيزها فاتحة الخير ، وإن اعترض ذلك ، مكناه فى الأرض، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، وتعبير الرؤيا ، وهكذا إعداد الأنبياء .

﴿ **والله غالب على أمره** ﴾ ، ومنفذ ما أراده ، لا رادّ لقضائه . فكل ما وقع ليوسف من إلقائه فى الجب ، ومن استرقاقه وبيعه ، وتوصية سيده لامرأته بخصوصه ، وتعليمه الرؤيا ، وغير ذلك ، خطوات لإعداد يوسف للمحل الذى ينتظره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك .

﴿ **ولما بلغ أشده** ﴾ ، وكمل رشده ، واستوى عقله وبدنه ﴿ **آتيناه حكما** ﴾ إلهاميا فيما يعرض له من المشاكل والنوازل ، وسن الرشد هل هى ثلاثون أو أربعون ؟ .

مثل ذلك نجزى المحسنين العاملين ، خصوصا الأنبياء والمرسلين ، وقائدهم وخاتمهم محمد ﷺ .

يوسف مع امرأة العزيز وكيف كانت محنته ؟ ودفاعه وحكم زوجها

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا
بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾
وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ
بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ
مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ
قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن
كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ
ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

المفردات : ﴿ **راودته** ﴾ : طلبت منه أن يواقعها طلبا بلين ورفق كالمخادعة ، يقال : راود الرجل المرأة عن نفسها وراودته عن نفسه ، والمراودة أن تنازع غيرك فى الإرادة فتريد غير ما يريد وعليه قوله : ﴿ **سنراود عنه أباه** ﴾ أى نحتال عليه ، ونخدعه عن إرادته ، ليرسل أخاه معنوا ، والمراد فى الآية تحايلت لمواقعته إياها ، ولم تجد منه قبولا . ﴿ **غلّقت** ﴾ : أحكمت إغلاق الأبواب كلها . ﴿ **هيت لك** ﴾ : هلمّ أقبل وبادر لما أقوله لك . ﴿ **برهان** ﴾ المراد تذكرة الله سبحانه وتعالى ، وما بينه من تحريم الزنا والخيانة ومراقبة الله سبحانه فى كل عمله ، وهى مرتبة الإحسان فى العمل كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ﴿ **المخلصين** ﴾ الذين أخلصهم ربهم وصفاهم من الشوائب . ﴿ **من قُبُل** ﴾ من قدام . ﴿ **من دُبُر** ﴾ من خلف .

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التى كان يوسف فى بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه ، أى حاولته على نفسه ، ودعته إليها ، ذلك أنها أحبته حبا شديدا لجماله وحسنه

وبهائه ، فحملها ذلك على أن تجملت له ، وغلقت عليه الأبواب ، ودعته إلى نفسها ﴿ **وقالت هيت لك** ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ، و﴿ **قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ، أى إن بعلك ربى أحسن مثواى ، أى منزلى ، وأحسن إلى ، فلا أقابله بالفاحشة فى أهله ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ قال ذلك مجاهد والسدى ومحمد بن إسحاق وغيرهم .

إن الله تعالى قبل أن يحدثنا عن مشهد المراودة ، قدم لذلك بقوله : ﴿ **ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ .

وبهذا يكون يوسف قد أوتى الحكم والعلم ووصفه الله تعالى بالإحسان ، والإحسان كما قال النبى ﷺ : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] .

فكيف بعد هذا كله يقول عاقل إن يوسف قد مال إليها ، كما مالت إليه ، إن الآية تقول ﴿ **وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** ﴾ فهذه ثلاثة مواقف من جهتها : المراودة ، وهى الطلب برفق ، وإغلاق الأبواب بإحكام ، وقولها له : هيت لك أى أقبل ، أو هيئت لك أى تهيأت لك .

وقد قوبلت هذه المواقف الثلاثة بثلاثة مواقف من يوسف الكريم ، أولها : ﴿ **قال معاذ الله** ﴾ أى ألجأ إلى الله فهو الحصن الحصين ، والركن الركين ، والجناب الأعلى .

وكما قال القائل :

يارب حبك فى دمى وكيانى
نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى
أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

وكيف لا يكون ذلك كذلك والله تعالى يقول ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾[2] .

وكيف لايكون يوسف من أهل التقوى وهو الذى قال لإخوته ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

وكان الموقف الثانى : قوله : ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ أى كيف أخون سيدى وهو زوجك ،

(١) أخرجه البخارى فى التفسير (سورة : ٣١ : ٢) وفى الايمان (٣٧) . ومسلم فى الايمان (٥٧) . وأبو داود فيالسنة (١٦) . والترمذى فى الايمان (٤) . وابن ماجه فى المقدمة (٩) . والامام أحمد فى (١ : ٢٧، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩) وفى (٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦) وفى (٤ : ١٢٩ ، ١٦٤) .

(٢) الآية ٣ ، ٤ من سورة الطلاق .

وقد أكرمنى وأحسن مقامى ، وأوصاك بذلك ، وقال لك ﴿ **أكرمى مثواه** ﴾ ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، أأخونه فى أغلى شىء وهو العرض .

وكان الموقف الثالث : قوله ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ من باب إياك أعنى واسمعى ياجارة ، وفى التلميح ما يغنى عن التصريح ، وفى الإشارة ما يغنى عن العبارة ، فهذه ثلاثة بثلاثة وهذا منتهى الصراحة فى براءة يوسف الكريم .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ :

وفى هذه الآية زلت أقدام ، وتعثرت أقلام ، وانفلت خيال بعض الكاتبين ، ناسين أو متناسين أنهم يكتبون عن نبى كريم ، منحه الله العصمة ، وأحاطه بالعناية العليا ، والرعاية العظمى ، والعصمة هى حفظ الله تعالى خواطر الرسل وبواطنهم عن التلبس بمنهى عنه ، ولقد أردنا أن نبسط القول فى هذا المقام ، فوفقنا الله تعالى إلى هذا الكلام الجيد الذى كتبه الأستاذ (محمد مصطفى الشاطر) فى كتابه (القول السيد فى حكم ترجمة القرآن المجيد) :

قال : قاتل الله اليهود ، لقد ملأوا الدنيا افتراءات على الأنبياء عليهم السلام ، ونسبوا إليهم ما لا يجوز ولا يعقل ، وأشبعوا الجو بهذه المفتريات ، خصوصا بعد ظهور الإسلام كيدا منهم وحسداً ، وتمكنوا من إسناد بعض هذه المفتريات إلى كبار الصحابة ، مثل ابن عباس وأبى هريرة رضى الله عنهما ، افتراء عليهما ، وبهتانا ، ليتقبلهما العامة من المسلمين بالقبول التام . فلم يسلم الجو العلمى منها ولم تسلم كتب المفسرين منها ، إما لأنهم أخذوها عن بعض القصاص الذين يعتقدون فيهم الصلاح ، وإما لأنهم وجدوها فى بعض الكتب ، فظنوها صحيحة فى تفاسيرهم بحسن نية ، وأخذوا يتمحلون الإجابة عن بعضها بما لا يطمئن إليه قلب المؤمن .

ومن ذلك قصص سيدنا سليمان ، وسيدنا داود ، وسيدنا يوسف عليه السلام ، ولكن الذى يخلى عقله ويطهره من تلك الخزعبلات ، ثم يتوجه به إلى القرآن الكريم يتلوه بتدبر ، وحسن يقين ، يتبين له إن شاء الله تعالى وجه الصواب ناصعا .

ثم قال بشأن يوسف عليه السلام : نسب بعضهم إلى سيدنا يوسف عليه السلام أنه لما راودته امرأة العزيز عن نفسه ، مال إلى طلبها ، وكاد يفعل ، أو أنه أراد مخالطتها ، وقعد منها مقعد الرجل من المرأة ، إلا أنه انصرف عنها ، إما لأنه رأى معصما مكتوبا عليه النهى عن الزنا ، قد ظهر من بين الجدران منفردا عن الجسم ، أو لأنه رأى سقف البيت قد انفرج وظهر له وجه أبيه يعقوب ، عاضّا على إصبعه ، أو لأنه رأى صورته فى الجدار كذلك ، أو لأنه سمع نداء ينهاه عن الزنا ، فلم ينته فسمع نداء ثانيا فلم ينته ، فسمع نداء ثالثا كذلك إلى آخر تلك المفتريات التى شوهت بها محاسن التفاسير ، وليس لهذه الأقاويل — والحمد لله — فى كتب الأحاديث الصحيحة أصل ، ولا آية إشارة إليها .

ثم إن بعض المفسرين رأى أن هذه المفتريات غير معقولة ، ولا أصل لها ، فخفف منها ، واختار أن يكون لها معنى ﴿ ولقد همت به وهم بها ﴾ أنه مال إليها ، إلا أنه امتنع حينما رأى برهان ربه ، وأخذ يبين هذا البرهان بما يقرب من الخيالات ، ولكن تفسيره الهم بالميل المجرد يأباه الذوق العربى ، لأن الكلام يكون هكذا « مال إليها ومالت إليه » فيكون مثلهما سواء ، ويكون الحكم عليها فى هذا واحدا ، وذلك لا يجوز .

وفيه أيضا:إسناد ميله إلى الزنا ، وهذا لا يجوز فى حق الأنبياء عليهم السلام ، مهما أجابوا من أن الإنسان لا يؤاخذ على الميل ، فإن ذلك ليس شأن الأنبياء الذين هم القدوة العليا فى الأخلاق والأعمال والأقوال .

وأهل العلم يقولون فى قوله تعالى ﴿ وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ﴾[1] أن ذلك كان فيمن مضى قبلنا ، وقد نسخ ذلك بالنسبة لنا فقط ، بقوله ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾[2] .

ثم إن تفسير (همّ) بمعنى مال يضع الحكمة التى من أجلها اختيرت كلمة (همّ) دون ما يرادفها من مال أو قصد أو عزم ، وستعرف إن شاء الله تلك الحكمة ، ومن أجل ذلك فإن النفس المؤمنة لا تطمئن إلى هذه الأقاويل ، وإنما تطمئن إن شاء الله تعالى إلى ما يتلى .

إذا قرأت سورة يوسف بإمعان تبين لك أن الله سبحانه وتعالى وصفه أولا بالصفات الآتية :

(١) اجتباؤه واصطفاؤه .

(٢) تعليمه تأويل الأحاديث ، وذلك بقوله تعالى ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ .

(٣) إيماؤه إليه فى الجب ، حينما رماه إخوته ، ولجأ إلى الله تعالى قائلا بلسان حاله أو مقاله ، كما روى عنه : (ياشاهداً غير غائب ، ويا قريبا غير بعيد ، ويا غالبا غير مغلوب ، اجعل لى من أمرى فرجا) فآنسه الله بالوحى ، وأعلمه عاقبة أمره . قال تعالى ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ .

(٤) وإيتاؤه الحكم والعلم ، قال تعالى ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾ والحكم هنا النبوة ، أو سيرة الأنبياء ، وتعضيد الأول إيماؤه إليه فى الجب .

وقوله تعالى فى حق يحيى عليه السلام : ﴿ وآتيناه الحكم صبيـــاً ﴾[3] قال المفسرون :الحكم هنا النبوة ، وإلى هذا أميل :

(٥) الإحسان:وهو أفضل درجات العبادة ، وفى الحديث الإحسان (أن تعبد الله كأنك تراه) .

---

(١) الآية ٢٨٤ من سورة البقرة . (٢) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة . (٣) الآية ١٢ من سورة مريم .

أتظن أيها القارىء أن شخصا يؤتيه الله هذه الصفات ، يهم أو يميل إلى مخالطة امرأة أجنبية عنه ، كلا وألف كلا ، فإن الزنا أو مقدماته ممحقة للإحسان ، مجلبة للطرد والحرمان .

إن تلك النفس الطاهرة لأبعد وأنزه مما رماها به المفترون ، أو الغافلون .

ثم بعد أن ذكر الله لنا هذه الصفات لتكون قرينة قاطعة لمن يتلمس الحقائق على نزاهته ، كما كان قَدُّ قميصه من خلفه قرينة قاطعة على براءته ، قص علينا مقدار حكمته ، ومبلغ عفافه وعصمته ، ومقدار ما تحمله نظير ذلك من الخروج من نعيم القصر إلى ضيق السجن .

فقال تعالى ﴿ **وراودته التي هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك** ﴾ قبل التكلم فى تفسيرها أقول : إن للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما قال الغزالى وغيره أربع درجات مرتبة: الأولى-التعريف والتنبيه ، والثانية-النصح بالحسنى ، والثالثة - التخشين فى القول ، والرابعة - المنع بالقوة والقهر .

ولقد سار يوسف عليه السلام فى هذه الحادثة على تلك القاعدة تماما ، طلبت منه امرأة العزيز ما تطلبه المرأة من الرجل ، وغلقت الأبواب حتى يكونا بمأمن من اطلاع الغير ، ولتحمله على إجابتها ولو كرها ، والتعبير بالمراودة ، وغلق الأبواب ، يشعران بتكرار الطلب وتكرار الامتناع ، وقالت هيت لك ، أى هلم إلى ما أريد ، وتهيأت لك ، وتزينت لأجلك ، فأجب طلبى .

فقال : ﴿ **معاذ الله . إنه ربى أحسن مثواى . إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ .

تلك ثلاث جمل قد جمعت كل ما يستوجب الاعتصام ، والبعد عن هذا المنكر فعلا وإرادة وميلا ، بل كل واحدة منها كافية فى العصمة فما بالك كلها .

سيدة فى بيتها وفى قومها ، غنية بثروتها ، بديعة فى حسنها ، ذات قدرة وسلطان ، وأمر مطاع ، قد غلقت على شاب الأبواب ، وتهيأت له كما تتهيأ المرأة لزوجها أو أكثر ، ثم دعته إلى نفسها ، وألحت ، وفى مخالفتها الانتقام والكيد العظيم ، وفى طاعتها وفرة المال ، والتمتع بلذات الحياة كما يشاء ، كل هذه المرغبات والمحاولات لو أحاطت بغير ذلك الطاهر النقى الذى اصطفاه الله لزلزلته ، ولكنها أحاطت بمن آتاه الله الحكم والعلم ، ومن ولد فى بيت النبوة وترعرع فيه ، ومن بلغ درجة الإحسان ، فبماذا قابلها ؟

قابلها بتلك الجمل الحكيمة الخالدة التى ينبغى أن تتخذ أصولا وقواعد يبنى عليها علماء الأديان والأخلاق فروعا لا حصر لها . ألا وهى ﴿ **معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ أى ألتجىء إلى الله ، وأعتصم به ، من أن آتى هذا المنكر ، وأخون زوجك الذى ربانى ، وأحسن إقامتى ، إننى إن فعلت ذلك أكن ممن يقابلون الإحسان بالإساءة ، والتربية بالخيانة ، والنعمة بالكفران ، وهذا ظلم ، ووضع للشىء فى غير موضعه ، وعاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح .

فالرب هنا - الذى رباه وهو سيد البيت كما فسره فى الكشاف ، والنيسابورى ، وغيرهما ، والضمير فى (إنه) للشأن .

ثم إن لهذه الجمل القيمة دلالات تبعية ، لا يبعد أن تكون مرادة له فى قوله ﴿ **معاذ الله** ﴾ تنبيها لها إلى ذكر الله تعالى ، وإلى الخوف من غضبه بسبب الإقدام على هذا المنكر ، لعلها تتذكر وتخشع ، فترجع عن غيها ، قال تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾[1] أى تذكر الله أكبر فى النهى عنهما من الصلاة ، وهذه هى الدرجة الأولى من درجات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وأشار بقوله ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ إلى أنه لا يليق بها أن تخون زوجها الذى رباها بنعمه وخيراته وأحسن مقامها ، وغمرها بإحسانه ، وهذه هى الدرجة الثانية .

وأشار بقوله ﴿ **إنه لا يفلح الظالمون** ﴾ إلى أنها إن أقدمت على هذا المنكر كانت ظالمة لنفسها ولبعلها ، وإن عاقبة الظلم الخسران وعدم الفلاح ، لعلها تتعظ خصوصا أن واعظها هو فتاها ذلك الشاب ، وهذه هى الدرجة الثالثة .

بعد هذه النصائح الغالية والتوبيخ والتأنيب من طريق التعريض ، لم ترتدع عن غيها بل أعماها شيطان الحب ، وأصمها ، فهمت به ليأتيها رغما وكرها ، وهذا ما سنشرحه فى الآية الثانية .

قال تعالى ﴿ **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ :

أربع جمل ، والوقف تام عند قوله تعالى ﴿ **وهم بها** ﴾ وكذلك عند قوله ﴿ **برهان ربه** ﴾ وإنك لتشعر بجمال هذه الجمل ، إذا قرأتها كما بينت لك ، مع فهم المعنى الذى ستسمعه .

الهمّ . هنا هو الشروع فى تنفيذ ما توطنت النفس عليه من خير أو شر ، وما امتلأت به ، ولا بد أن يكون معه أمارة دالة على ذلك ، وسواء قلنا إن الهم هو العزم والقصد ، أو الشروع فى التنفيذ ، فلابد أن يكون معه أمارة دالة عليه ، وإذا تتبعت تعبيرات القرآن الكريم وجدت أن هذا الشرط لازم ، مثال ذلك قوله تعالى ﴿ وهموا بإخراج الرسول ﴾[2] أى شرعوا فى إخراجه ، وظهرت الأمارة الدالة على ذلك وهو التشاور ، والتكلم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم ﴾[3] أى شرعوا وظهرت الأمارة الدالة على ذلك ، وهو رفع السيف (فعلا) على رسول الله ﷺ على أحد الرأيين .

وقوله تعالى ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾[4] أى شرعت مع ظهور الأمارات ، وهو تكلم بعضهم ، وترددهم فى أول الأمر .

ويقال هم بالقيام إذا شرع فيه ، وبدرت فيه بوادر تدل عليه ، ويقال فلان مهموم إذا ملأه الحزن ، فظهرت على وجهه أماراته ، ومنه الهم مضن لأنه يؤثر على الجسم فيذبله ، ويقال أهمه الأمر إذا أقلقه ، أى ظهر عليه القلق والاضطراب ، واهتم فلان بالأمر إذا ظهرت منه أمارات تدل على اهتمامه .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٣ من سورة التوبة .

(٣) الآية ١١ من سورة المائدة .

(٤) الآية ١٢٢ من سورة آل عمران .

وحينئذ يكون معنى (همت به وهم بها) أى شرع كل منهما فى تنفيذ ما توطنت عليه نفسهما ، أو ما عزما عليه ، مع ظهور أمارت من كل منهما تدل على ذلك ، ثم إن عزم النفس تابع لما تنفعل به من خير أو شر ، أو عقيدة أو رغبة أو رهبة إلى غير ذلك ، فإذا انفعلت النفس بما لابسها وجد منها العزم الذى يلائم هذا الانفعال ، فشرعت فى تنفيذه وإيجاده ، هذا أمر لا يحتاج إلى توضيح .

فلننظر إذاً فى نفس كل منهما لنعرف نتيجة انفعالها .

أما نفس امرأة العزيز فملأى بحب المخالطة ، شغوفة به ، فهى منفعلة بذلك .

وأما نفس يوسف فملأى بالعفاف ، والطهارة والنفرة من هذا الأمر ، فهى منفعلة بذلك ، فحملها انفعالها وهياجها على شروعها فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات دالة على ذلك ، وحمله انفعاله على شروعه فى منعها بالقوة ، بما ظهر منه من أمارات دالة على ذلك ، وهذه هى الدرجة الرابعة للنهى عن المنكر .

لقد أجمل الله تعالى لنا ما هم به كل منهما ، وتركه لفطنة القارئ ، إلا أنه أشار إليه فى نفس الآية بقوله ﴿ **لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ لئلا تزل قدم مؤمن فى هذا المنزلق الخطير ، أى أنه هم بإساءتها ، وهمت هى بحمله على الفحشاء بما ظهر من كل منهما من أمارات ، والدليل على ظهور أمارة منه قولها بعد ذلك ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ فإن الإرادة أمر نفس لا تعلمه امرأة العزيز إلا إذا ظهر لها أمارة دالة على ذلك ، كرفع يده مثلا ، أو تهديدها بالسوء .

وحينئذ يكون معنى قوله تعالى ﴿ **ولقد همت به وهم بها** ﴾ أنها شرعت فى حمله على المخالطة بالقوة بما ظهر منها من أمارات ، وشرع هو فى تنفيذ منعها بما يسوءها بما بدرت منه من أمارات .

ولو كان همه كما يقول المفسرون الميل إلى المخالطة لما كان هناك فائدة من ذكر كلمة السوء فى قوله ﴿ **لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ ولكان كافيا أن يقال لنصرف عنه الفحشاء ، فكلمة السوء تدل على همه ، وكلمة الفحشاء تدل على همها .

ومما يؤيد ذلك أيضا أنها قالت لزوجها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا ﴾ ولم تقل مخالطة ، والسوء فى لغة العرب والقرآن غير الفحشاء .

ومما يؤيد ذلك أيضا شهادة امرأة العزيز حيث تقول : ﴿ لقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ فإنه ليس هناك كلمة أبلغ فى الدلالة على نهاية العصمة وشدتها بجميع أنواعها من هذه الكلمة البالغة ، فدل كل ذلك على أن تفسير الهم بما يقولونه غير مقبول .

ثم قال تعالى : ﴿ **لولا أن رأى برهان ربه** ﴾ :

الرب هنا سيد البيت أى مربيه ، وهو المشار إليه سابقا فى قوله: ﴿ **إنه ربى أحسن مثواى** ﴾ وقد استعمل الرب فى هذا المعنى كثيرا فى هذه السورة ، ومن ذلك قوله ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ﴾ الآية .

والبرهان العلامة والبيان – أى لولا أن رأى علامة ربه ، أى علامة حضوره ومجيئه ، وإنما قلنا علامة حضوره ، لأن الله أشار إلى ذلك بقوله ﴿ وألفيا سيدها لدى الباب ﴾ فكان ذلك قرينة قاطعة على أن المراد العلامة الدالة على حضوره ، وأننا لا نعرف هذه العلامة على وجه التحقيق ، وإنما الذى نعرفه أن لقدوم الأمراء إلى بيوتهم علامات تدل عليه ، وقد تكون تلك العلامة رفع راية مثلا ، أو وجود شخص يعدو أمامه كالسايس مثلا ، ويختلف ذلك باختلاف عادات الأمم ، واختلاف العصور ، وربما تظهر لنا الآثار تلك العلامة على التحقيق .

وجواب (لولا) محذوف أى لولا أن رأى العلامة الدالة على حضور سيدها ، لنفذ (فعلا) ما أراده ، أى لساءها فعلا . ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء** ﴾ أى الأمر كان كذلك ، أو قدرنا ما قدرناه كما قصصناه عليك ، لنصرف عنه السوء والفحشاء ، فقدرنا حضور صاحب البيت فى هذا الوقت لنصرف عنه السوء لو نفذ ما أراده (فعلا) فإن إساءة المرأة خصوصا امرأة العزيز ليست بالأمر الهين ، بل تقوم لها الأمة وتقعد ، ويذاق بسببها ألوان العذاب ، وكذلك قدرنا عصمته فعصمناه لنصرف عنه الفحشاء فإنه لا عصمة إلا بنا ومنا .

﴿ **إنه من عبادنا المخلصين** ﴾ أى فعلنا به هذا ، ونجيناه من السوء والفحشاء ، لأنه من عبادنا الذين أخلصناهم واصطفيناهم من الخلق ، أو أخلصوا لنا فى عبادتنا وأحسنوا .

ثم قال تعالى : ﴿ **واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾ .

لما رأى يوسف عليه السلام برهان ربه عدل عن تنفيذ ما أراده من السوء ، وأسرع نحو الباب ليتخلص من هذا الموقف الدقيق ، والنزاع العنيد ، فظنت امرأة العزيز أنه يريد الفرار منها ، فأسرعت وراءه لتمنعه وجذبته من قميصه ، ليعود إليها فقدته من خلفه ، وهنا ألفيا سيدها لدى الباب .

قد يقول قائل إذا كان هو قد رأى علامة حضور صاحب البيت فلم ترها امرأته ؟ قلنا : ليس بلازم ، خصوصا أنها فى حالة قد غلب فيها الحب على عقلها ومشاعرها ، فلم تلتفت إلا إليه .

الشكوى والفصل فيها

ثم قال تعالى ﴿ **قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم** ﴾ .

لما وجدت سيدها لدى الباب ، وكانت بحالة هياج وارتياب ، أرادت أن تؤثر عليه بما تنفعل له نفسه ، فقالت ما جزاء (إلى آخر الآية) .

أسرعت بالشكوى إليه لتكون أقرب إليه قبولاً ، وأملأ له أذنا وقلبا ، ولتصرف عن فكره الحالة

المريبة التى رآها عليها ، ولتنفعل نفسه بما تبديه من تأثير ، حتى لا يصدق ليوسف قولا إذا قال ، فقالت **﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم ﴾** .

وقد قرنت بين الشكوى منه والحكم عليه بالسجن ، أو العذاب الأليم ، لتظهر لسيدها شدة غضبها وتألمها مما حصل منه من إرادة السوء ، حتى لا يرتاب فى حالتها التى رآها عليها (وهذا من ضمن الكيد) .

فانظر إلى عبارتها هل تجد فيها ما يدل على إرادة الفحشاء ، أو الميل إليها ، أو المخالطة كما يقولون ، مع أنها لو قالت ما جزاء من أراد بأهلك فاحشة لكان أشرف لها ، وأقرب لقبول قولها ، وأنفى للريبة فى حالتها التى كانت عليها وقت مجىء سيدها .

وجد سيدنا يوسف عليه السلام نفسه أمام صاحب البيت مشكوا منه ، يراد به السجن أو العذاب الأليم . بدون ذنب جناه ، سوى العفة والأمانة ، فلم يجد مناصا من الدفاع عن نفسه لئلا يسجن أو يعذب العذاب الأليم ، أو يرمى بالقسوة ولولا ذلك لستر أمرها ، كما قال بعض المفسرين .

وهو فى دفاعه لم يتنصل من إرادة السوء ، بل ذكر السبب الذى كان من أجله أراد بها السوء **﴿ فقال هى راودتنى عن نفسى ﴾** وهذا إقرار ضمنى فى عرف التقاضى والتخاطب ، بأنه أراد بها السوء ، كما يقول القاضى للمتهم : هل ضربته ؟ فيقول إنه شتمنى . ومعناه أننى ضربته لأنه شتمنى ، فكذا هذا – أى أننى أردت بها السوء لأنها راودتنى عن نفسى ، وغلقت الأبواب وأرادت المخالطة بالقوة ، فأردت إساءتها لأمنعها ، فلما رأيتك انصرفت عنها .

وأما هى فأنكرت المراودة ، بدليل قولها أخيرا ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ فإنه يدل على أنها أنكرتها أولا ، وقع هذا القول فى نفس العزيز موقعا قلل من تأثير زوجته عليه ، فأخذ يفكر ويبحث من الصادق منهما .

حادثة حصلت فى بيته ، ولا شاهد فيها ، لأن الأبواب قد غلقت ، ولم يكن معهما أحد من الناس ، وهى تدعى أنه أراد بها سوءا بدون سبب ، فأشكلت الحادثة عليه ، والتبست ، ولكن الله أراد إظهار براءة يوسف بشهادة شاهد من أهلها ، قد جعل القرينة حكماً وشاهداً فقال : **﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين ﴾** .

فإن قد القميص من الخلف يدلّ على انصرافه عنها ، وأنها تجره إليها لهذا الغرض ، فيكون صادقا ، ولو كان الذى وقع منه إرادة السوء فقط لما كان لجره إليها من خلفه بعد انصرافه عنها معنى ، بل هو خلاف المعروف عادة ، لأن الضعيف كالمرأة لا يجر القوى الذى يريد إيذاءه إليه بعد انصرافه عنه ، فقده

من الخلف يدل على أنها هى الطالبة له للمخالطة ، وقد القميص من الأمام يدل على أنه هو الذى أقبل عليها يريد بها سوءاً ، فأمسكت بتلابيبه (كما هى عادة المرأة أو الضعيف إذا هجم عليه من يريد إيذاءه) فقدت قميصه من الأمام ، فتكون صادقة فى أنه أراد بها السوء بدون سبب .

﴿ **فلما رأى قميصه قد من دبر** ﴾ تبين له أنه صادق ، وأنها كاذبة ولذلك وبخها بقوله ﴿ **إنه من كيدكن** ﴾ أى ما حصل منك من ادعاء إرادة السوء بدون سبب وإظهار الحقيقة من ضمن كيدكن ﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ وأضاف الكيد إلى جميع النساء ، لأنه من عادتهن ، لأنهن يظهرن خلاف ما يضمرن ، ويخفين ما فى قلوبهن ليصلن إلى أغراضهن ، وربما كانت الإضافة إلى الجميع ليخفف من وقع التوبيخ عليها ، وهذا أظهر .

ثم قال ليوسف عليه السلام: ﴿ **يوسف أعرض عن هذا** ﴾ أى لا تذكره لأحد ، ولا تتأثر به ، ونصح زوجته بالتوبة والاستغفار من ذنبها وخطئها ، بقوله ﴿ **واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين** ﴾ .

وإلى هنا انتهت تلك الحادثة التى خلط فيها الناس خلطا ، وإنك إذا فهمتها على هذا النحو ، وقرأتها فى كتاب الله فإنك تشعر بجلال آيات الله وانسجامها ، وبديع نظامها ، وبعدها عن التأويل المؤدى للتنافر فى المعانى ، والاعتراض على الأنبياء عليهم السلام .

[بقية]

قد يقول قائل : ما المراد بالسوء فى آيتى ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ ، ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ هل المراد به المراودة أو الميل إليها كما يقول بعض المفسرين ؟

والجواب أن المراد بالسوء هو ما تقدم ، دون المراودة والميل إليها .

وإلا كانت النسوة كاذبات حينما قلن : ما علمنا عليه من سوء ، فإنهن علمن أن امرأةالعزيز راودته عن نفسه فاستعصم ، إلى آخر ما ذكر ، ولا يصح أن يكن كاذبات فى هذا الموضع الذى ظهرت فيه الحقائق ، ولو كن كذلك لما حكى الله قولهن بدون أن يرد عليهن ، فظهر أن السوء هو الإيذاء ونحوه لا المراودة ، ونحوهما .

إن امرأة العزيز لما شاع أمرها تكلم فى شأنها النساء : ﴿ **فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأً وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت** ﴾ أى ليوسف ﴿ **اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن** ﴾ من الدهشة والذهول بسبب جماله الفائق ﴿ **وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ .

وفى هذه الشهادة ما يشعر بالعفاف الملكى ، وكرم الأخلاق ، وأنه غض النظر عنهن .

﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين.قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ .

فلم يتهم بالسوء بعد هذه الحادثة الأخيرة ﴿ إنه هو السميع العليم . ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

لم يذكر الله لنا صراحة السبب الذى من أجله تمحلوه لإدخاله السجن ، ولكن الذى يؤخذ استنتاجا من القصة أن امرأة العزيز أخذت تكيد له لتنفيذ وعيدها بقولها ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾ .

فادعت أنه هو الذى أساء إلى هؤلاء النسوة ، فأدخلوه السجن من أجل ذلك ، رغم ظهور اختلاقها عليه وكذبها فيما ادعته سابقا ، ومما يدل على أنه سجن من أجل ذلك أنه لما أرسل إليه الملك رسوله ليحضره من السجن أبى أن يخرج منه حتى يتحقق للملك أنه حبس ظلما بدون ذنب جناه ، وأن ما ادّعوه عليه بخصوص هؤلاء النسوة غير صحيح .

قال تعالى ﴿ فلما جاءه الرسول قال ﴾ أى يوسف ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾ .

فأحضرهن الملك وسألهن ﴿ ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ أى ما شأنكن وقت أن راودتن يوسف هل حصل منه إساءة لكن ؟ ﴿ فقلن حاش لله ماعلمنا عليه من سوء ﴾ أى لم يحصل لنا منه سوء ، بل لم نعلم عليه سوءا .

فدل ذلك دلالة استنباطية على أن الحبس كان بسبب الادعاء عليه بأنه أساءهن بتقطيع أيديهن ، ولذلك جاء فى تفسير النيسابورى عندقوله تعالى ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾ أنها تسببت فى إدخاله السجن ا.هـ .

ولما ظهر لامرأة العزيز أن كيدها قد انكشف ، وبان للملك ، اعترفت بالحق ، وهو ما أنكرته أولا ، فقالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ذلك ﴾ أى هذا الاعتراف الذى أظهره أمامك ﴿ ليعلم ﴾ أى يوسف لأن الكلام مازال فى شأنه ﴿ أنى لم أخنه بالغيب ﴾ إذ أنى أظهر الآن صدقه وبراءته بعد أن خنته ، فادعيت عليه السوء ، وتسببت فى إدخاله السجن ، فأعترف الآن بذنبى ، وبحقيقة الأمر ، وحتى يصير الخفى علانية ، والخيانة غير خافية عليه .

والخيانة ضد الأمانة ، وفى الحديث (إنما يجلس المتجالسان بالأمانة) أى الصدق والإخلاص وعدم الغش .

ثم قالت : ﴿ وما أبرئ نفسى ﴾ فقد أذنبت وأسأت ، ثم اعتذرت عما كان منها ، فقالت ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ﴾ وقد أسأ ت بداعية منها ، ولكنى طامعة فى غفران الله ورحمته ، إذ نطقت بالحق ، واعترفت بالذنب ، والاعتراف يهدم الاقتراف ، ﴿ إن ربى غفور ﴾ لذنوب عباده ﴿ رحيم ﴾(بهم) نسأله الرحمة والغفران .

ولما ظهرت براءة يوسف عليه السلام من إقرار النسوة ، واعتراف امرأة العزيز ، قال ﴿ الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ﴾ فذهبوا إليه يحملون هذه البشرى بالبراءة والاستخلاص للملك ، واعتراف امرأة العزيز ، وشهادة النسوة ، فخرج معهم كما أراد ظاهرة براءته وأمانته وعفته للملأ جميعاً . فلما وصل إلى الملك قال له ، ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ، وما جزاء الأمانة إلا الفلاح ، وحسن السمعة والعاقبة.

فظهر أن هذه القصة ليست مسوقة لبيان خطأ الأنبياء الذين يقول الله فيهم لنبينا ﷺ ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ وإنما سيقت لما فيها من حكم اجتماعية ، وقواعد عمرانية وأخلاقية لتكون نبراسا لمستضىء به فى حياتنا .

وإنى أذكر بعض ما استنتجته منها ، بقدرما وصل إليه فهمى الكليل ، فأقول :

أولا :تنبيه الناس إلى العمل بالقرائن فيما يشكل من الأمور .

ثانيا : مقابلة الإحسان بالإساءة ظلم . ﴿ ولا يفلح الظالمون ﴾ .

ثالثا : خيانة المرأة لزوجها ظلم وكفر بالإحسان ، وعاقبته الخسران .

رابعاً : الأمين المخلص إذا اتقى الله نجاه ، وكافأه على أمانته وإخلاصه ، ولو أساء إليه من أخلص له .

خامساً : يبلغ الإنسان بالعلم والإحسان مقاما ساميا لدى الملوك والناس .

سادساً : اختيار السجن على فعل الكبيرة أو الخيانة ولو كان فيه التمتع بلذات الحياة كما يشاء ، من مال وغيره ، من صفات الأبطال .

سابعاً : مخالطة الرجال الأقوياء من الخدم وغيرهم لربات البيوت ، والخلوة بهن ، مدعاة للفساد والفجور ، إلا من عصم الله ، وفى الأحاديث كثيرة فى النهى عن ذلك .

ثامناً: التوقى من كيد النساء ومكرهن أقرب إلى الحزم ، وأبعد عن الظلم ، وأحسن عاقبة وعلى العاقل التثبت فى تصديقهم عند غضبهم .

تاسعاً : من المقاصد الشريفة لدى العقلاء أن يعملوا على نفى التهمة الباطلة عن أنفسهم ، وإظهار براءتهم ، خصوصا إذا كان ممن يقتدى بهم ، ولنا فى شريعتنا على ذلك أمثلة كثيرة ، وفقنا الله تعالى إلى اتباعها والعمل بها ، آمين .

حديث النسوة

* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ
وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ
لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ
عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ
رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن
مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا
لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

المفردات : ﴿ **فتاها** ﴾ : عبدها ورقيقها . ﴿ **والشغاف** ﴾ : الغلاف المحيط بالقلب ويقال شغفت فلانا إذا أصبت شغاف قلبه . كما يقال كبدته إذا أصبت كبده . ﴿ **والضلال** ﴾ : الحيدة عن طريق الرشد وسنن العقل . ﴿ **بمكرهن** ﴾ : أى بقولهن . وسمى ذلك مكرا لأنهن كن يردن إغضابها كى تعرض عليهن يوسف لتبدى عذرها فيفزن بمشاهدته . ﴿ **وأعتدت** ﴾ : أعدت وهيأت . ﴿ **والمتكأ** ﴾: ما يجلس عليه من كراسى وأرائك . ﴿ **أكبرنه** ﴾ : أعظمنه ودهشن من جماله الرائع . ﴿ **وقطعن أيديهن** ﴾ : أى جرحنها . ﴿ **حاش لله** ﴾ : أى تنزيها لله أن يكون هذا المخلوق العجيب من جنس البشر . ﴿ **استعصم** ﴾ : استمسك بعروة عصمته التى ورثها عمن نشأوا عليها . ﴿ **الصاغرين** ﴾ : أى الأذلة المقهورين . ﴿ **أصب إليهن** ﴾ : أمل إلى موافقتهن على أهوائهن . ﴿ **الجاهلين** ﴾ : أى السفهاء الذين يرتكبون القبائح . ﴿ **فاستجاب له** ﴾ : أى أجاب دعاءه . ﴿ **وبدا** ﴾ : ظهر . ﴿ **والآيات** ﴾ : هى الشواهد الدالة على براءته عليه السلام . ﴿ **والحين** ﴾ : وقت من الزمن غير محدود .

شاع الخبر بين نسوة فى المدينة ، فقلن بلسان الإنكار : إن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ، قد شغفها حباً ، وما كان لها أن تفعل ذلك وهى السيدة التى تعيش فى بيت الحكم ، وهو الفتى المملوك لها .

وقوله تعالى ﴿ **تُراود فتاها** ﴾ بصيغة المضارع أى أنها مازالت مستمرة فى المراودة ، وقوله ﴿ **قد شغفها حباً** ﴾ أى اخترق حبه شغاف قلبها ، بحيث تمكن فيه كل تمكن ﴿ **إنا لنراها فى ضلال مبين** ﴾ .

وقد يتسرب الخبر عن طريق الخدم وغيرهم من الذين يعملون فى القصور ، بحيث يشيع وينتشر بين جماعة من أصحاب البيوتات .

فلما سمعت امرأة العزيز بمكرهن ، أى بقولهن الماكر ، فإنهن ما قلن هذا القول إلا لتدعوهن امرأة العزيز ، وتعرض عليهن يوسف ، فيملأن عيونهن بجماله .

قال المفسرون : فمكرت بهن ، كما مكرن بها ، ودعتهن إلى الطعام فى دارها ، وهيأت لهن ما يتكئن عليه من كراسى وأرائك ، كما هو المعروف فى بيوت العظماء ، وكان ذلك فى حجرة المائدة ، وأُعطت كل واحدة منهن سكينا لتقطع بها ما تأكل من لحم وفاكهة .

﴿ **وقالت اخرج عليهن** ﴾ أى وأمرته بالخروج عليهن ، وفى هذا إيماء إلى أنه كان فى حجرة فى داخل حجرة المائدة التى كن فيها ، محجوبا عنهن ، وقد تعمدت إتماما للحيلة والمكر بهن أن يفاجئهن وهن مشغولات بما يقطعنه ويأكلنه ، علما منها لما تكون لهذه المفاجأة من الدهشة ، وقد تم لها ما أرادت كما يشير إلى ذلك قوله : ﴿ **فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن** ﴾ .

أى فخرج عليهن ، فلما رأينه أعظمنه ، ودهشن لذلك الجمال البارع ، وذهلن ، فقطعن أيديهن بدلا من تقطيع ما يأكلن ذهولا عما يعملن ، أى فجرحنها بما فى أيديهن من السكاكين ، لفرط دهشتهن ، وخروج حركات الجوارح عن منهاج الاختيار ، حتى لم يشعرن بما عملن ، ولا ألمن لما نالهن من أذى ، واستعمال القطع بمعنى الجرح كثير فى كلامهم ، فيقولون : كنت أقطع اللحم فقطعت يدى ، يريدون فأخطأتها فجرحت يدى ، حتى كدت أقطعها .

﴿ **وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾ :

أى وقلن هذا على نهج التعجب والتنزيه لله تعالى ، أن يكون هذا الشخص الذى لم يعهد مثاله فى جماله ، ولا فى عفته من النوع الإنسانى ، إن هو إلا ملك تمثل فى تلك الصورة البديعة التى تخلب الألباب ، وتدهش الأبصار .

روى عن زيد بن أسلم من مفسرى السلف : أعطتهن أترجًا وعسلا ، فكن يحززن بالسكين ، ويأكلنه بالعسل ، فلما قيل له:اخرج عليهن ، خرج فلما رأينه أعظمنه وتهيمن به ، حتى جعلن يحززن أيديهن بالسكين وفيها الأترجة ، ولا يعقلن ، ولا يحسبن إلا أنهن يحززن الأترج ، وقد ذهبت عقولهن مما رأين ، وقلن حاش لله ما هذا بشرا ، أى ما هكذا يكون البشر ، ما هذا إلا ملك كريم .

﴿ **قالت فذلكن الذى لمتننى فيه** ﴾ أى حينئذ قالت لهن : إذا كان الأمر ما رأيتن بأعينكن ، وما

أكبرتن فى أنفسكن ، وما فعلتن بأيديكن ، وما قلتن بألسنتكن ، فذلك هو الذى لمتننى فيه ، وأسرفتن فى لومى وتعنيفى ، وقلتن فى ما قلتن ، فما يوسف بالعبد العبرانى ، أو المملوك الكنعانى ، ولا بالخادم الصعلوك ، الذى شغف مولاته حبا وغراما ، وراودته عن نفسه ضلالا منها وهياما ، بل هو ملك تجلى فى صورة إنسان ، فماذا أنتن قائلات فى أمرى وهو المالك لسمعى وبصرى ، وإنى لأراه بشرا سويا إنسيا لا جنيا ، وجسدا لا ملكا روحانيا ، فأتصباه بكل ما أملك من كلام عذب ، فلا يصبو إلى ، ولا يظهر نحوى عطفا ، ولا يرفع إلىّ طرفا .

﴿ **ولقد راودته عن نفسه فاستعصم** ﴾ أى ولقد راودته عن نفسه فامتنع عما أردته منه واستمسك بعروة العصمة التى ورثها عمن نشأوا عليها ، ولا عجب فإن نظره إلى الله لم يدع فى قلبه البشرى مكانا خاليا لنظرات هذه العاشقة التى شغفها حباً .

﴿ **ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين** ﴾ .

أى ولئن لم يفعل ما آمره به مستقبلا ، كما لم يفعله ماضيا ، ليسجنن وليكونن من الأذلة المقهورين ، فإن زوجى لا يخالف لى رغبة ، ولا يعصينى فى أمر ، وسيعاقبه بما أريد ، ويلقيه فى غيابات السجون ، ويجعله كغيره من العبيد بعد إكرام مثواه ، وجعله كولده .

وفى ذلك إيماء إلى أنها ستشدد العقوبة عليه أكثر مما توعدت به أولا ، فهناك أنذرته بسجن قد يكون على أخف صورة وأقلها ، وعذاب بأهون أنواعه وألطفها ، كحبس فى حجرة الدار ، أو لطمة على خديه تزيل منها الاحمرار ، وهنا أنذرته بسجن مؤكد ، وذل وصغار ، تأباه الأنفس الكريمة كنفس يوسف عليه السلام ، فأشق الأعمال أهون على كرام الناس من الهوان والصغار .

وفى هذا التهديد من ثقتها بسلطانها على زوجها ، مع علمه بأمرها ، واستعظامه لكيدها ، ما كان من حقه أن يجعل يوسف يخاف من تنفيذ إرادتها ، ويثبت لديه عدم غيرته عليها ، كما هو الحال لدى كثير من العظماء المترفين العاجزين عن إحصان أزواجهن ، والمحرومين من نعمة الأولاد منهن .

وربما تكون مبالغتها فى تهديده بمحضر من هؤلاء النسوة لما فى قلبها منه من غل وجوى ، بظهور كذبها وصدقه ، وتصميمه على عصيان أمرها ، ولتظهر ليوسف أنها ليست فى أمرها على خيفة من أحد ، فتضيق عليه الحيل ، ولينصحنه فى موافقتها ، ويرشدنه إلى الخلاص من عذابها .

يالله ، إن هذا الموقف يهد الجبال الراسيات ، وتدبير لا قبل لأشد العزائم على احتماله ، فامرأة ماكرة ، هتكت سترها ، وكاشفت نسوة بلدها بما تسر وتعلن من أمرها ، ونسوة تواطأن معها على الكيد له ، كما كادت له من قبل بمراودته عن نفسه ، ولا سبيل إلى دفع هذه الضراء ، وأبعاد تلك اللأواء إلا بمعونة من ربه ، وحفظه من نزعات الشيطان ، وكلاءة الرحمن ، ومن ثم جرى على لسانه ما أكنه جنانه :

﴿ قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾

أى قال ربى أنت العليم بالسر والنجوى ، والقدير على كشف تلك البلوى ، إن السجن الذى هددت به ، والمكث فى بيئة المجرمين على شظف العيش ، ورقة الحال ، أحب إلى نفسى مما يدعو إليه أولئك النسوة من الاستمتاع بهن فى ترف القصور ، والاشتغال بحبهن عن حبك وبقربهن عن قربك .

وفى قوله ﴿ مما يدعوننى إليه ﴾ إيماء إلى أنهن خوفنه مخالفتها ، وزين له مطاوعتها ، فقلن له : أطع مولاتك وأنلها ما تهوى ، لتكفى شرها ، وتأمن عقوبتها .

﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن أصْبُ إليهن ﴾ أى وإن لم تبعد عنى شراك كيدهن ، وتثبتنى على ما أنا عليه من العصمة أمِلْ إلى موافقتهن على أهوائهن ، وأقع فى شباك صيدهن ، وأرتع فى حمأة غوايتهن .

وقد لجأ يوسف إلى ألطاف ربه ، وسلك سبيل المرسلين من قبله فى فزعهم إلى مولاهم ، لينيلهم الخيرات ، ويبعد عنهم الشرور والموبقات ، وإظهارهم أن لا طاقة لهم إلا بمعونته سبحانه ، مبالغة فى استدعاء لطفه ، وعظيم كرمه ومنه .

﴿ وأكن من الجاهلين ﴾ : أى من السفهاء الذين تستخفهم الأهواء والشهوات ، فيجنحون إلى ارتكاب الموبقات ، واجتراح السيئات ، فمن يعيش بين هؤلاء النسوة الماكرات المترفات ، لا مهرب له من الجهل إلا أن تعصمه بما هو فوق الأسباب ، والسنن العادية .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما صبا إليهن ، ولا أحب أن يعيش معهن ، بل سأل ربه أن يديم له ما عوده من كشف السوء عنه ، فى قوله ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ .

﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ﴾ : أى فأجاب له ربه دعاءه ، الذى تضمنه قوله : ﴿ وإلا تصرف عنى كيدهن ﴾ الخ ﴿ فصرف عنه كيدهن ﴾ وعصمه من الجهل والسفه ، باتباع أهوائهن .

﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ : أى إنه هو السميع لدعاء من تضرع إليه ، وأخلص الدعاء له ، العليم بصدق إيمانهم ، وبما يصلح أحوالهم .

وفى هذا إرشاد إلى أن ربه حرسه بعنايته فى جميع أطواره وشئونه ، ورباه أكمل تربية ، وما خلّاه ونفسه فى أهون أموره . ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ .

أى ثم ظهر للعزيز وامرأته ، ومن يهمه أمرهما ، كالشاهد الذى شهد عليها من أهلها من الرأى مالم يكن ظاهرا لهم من قبل ، بعد أن رأوا من الآيات ما اختبروه بأنفسهم ، وشهدوه بأعينهم ، مما يدل على أن يوسف لم يكن إنسانا كالذين عرفوا فى أخلاقه وعفته ، واحتقاره للشهوات واللذات التى يتمتع بها سكان القصور ، وفى إيمانه بأن ربه لن يتركه ، بل يكلؤه بعين عنايته ، ويحرسه بوافر رعايته ، وقد استبان لهم ذلك من وجوه :

(١) إن افتتان سيدته فى مراودته ، وجذبها خلسات نظره ، لم تؤثر فى ميل قلبه إليها ، بل ظل معرضا عنها ، متجاهلا لها ، حتى إذا ما صارحته بما تريد استعاذ بربه ورب آبائه ، وعيرها بالخيانة لزوجها .

(٢) إنها لما غضبت وهمت بالبطش به ، هم بمقاومتها والبطش بها ، ولم يمنعه إلا ما رأى فى دخيلة نفسه من برهان ربه الذى يدل على أن ربه صارف عنه السوء والفحشاء .

(٣) إنها حين اتهمته بالتعدى عليها شهد شاهد من أهلها أنها كاذبة فى اتهامها إياه ، وهو صادق فيما ادعاه من مراودتها إيـاه عن نفسه ، بدلالـة القمـيص على ذلك .

كل هذا أثبت أن بقاءه فى هذه الدار بين ربتها وصديقاتها ، مثار فتنة لا تدرك غايتها ، وأن الحكمة هو تنفيذ رأيها الأول بسجنه ، لإخفاء ذكره ، وكف ألسنة الناس عنها فى أمره ، وأقسموا ليسجننه حتى حين ، دون تقيد بزمن معين ، ليروا ماذا يكون فيه من تأثير السجن ، وحديث الناس عنه .

وفى تنفيذ هذا العزم دلالة على ما كان لهذه المرأة الماكرة من سلطان على زوجها ، تقوده كيف شاءت ، حتى فقد الغيرة عليها ، فهو يجرى وراء هواها ، ويستجلب رضاها ، حتى أنساه ذلك ما رأى من الآيات ، وعمل برأيها فى سجنه لإلحاق الهوان والصغار به ، حين أيست من طاعته ، وطمعت فى أن يذلله السجن لأمرها ، ويقف به عند مشيئتها .

شهود يوسف

شهد الله تعالى ببراءة يوسف وهو خير الشاهدين ، قال تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ ولم يقل كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء ، والفرق بين المعنيين بعيد ، إن قوله تعالى ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ يفيد أن يوسف كان ثابتا على بساط العفة ، ثباتا لا تزحزحه القواصف ، ولا تؤثر فيه العواصف ، فأبعدنا السوء والفحشاء عنه .

كذلك شهد ببراءته إبليس . فقد قال لرب العزة ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ● إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[١] والله تعالى قال عن يوسف ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ . فهو من الذين استثناهم إبليس من الغواية .

كذلك شهد ببراءته شاهد من أهلها ، وهو الذى قال ﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ .

كذلك شهد ببراءته امرأة العزيز نفسها عندما قالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ .

وقالت ﴿ الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ .

كذلك شهد ببراءته النسوة اللاتى قطعن أيديهن فقد قال لهن الملك ﴿ ما خطبكن إذ راودتن

(١) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة ص .

يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ . وكلمة سوء نكرة جاءت فى سياق النفى ، والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم ، أى ما علمنا عليه أى سوء .

وكأنى بيوسف عليه السلام ، وقد غلقت عليه امرأة العزيز الأبواب ، وأخذت تراوده عن نفسه ، فتقول : ما أجمل شعرك . قال : أول ما يتساقط منى بعد الموت . قالت : ما أجمل عينيك . قال : أول ما يسيل منى بعد الموت . قالت : ما أجمل جسمك . قال : أول ما يأكله الدود بعد الموت . قالت : هيت لك . قال : معاذ الله .

كانت تحلق به فى عالم الإغراء والغواية ، وكان يشدها شدا إلى الموت الذى يهزم اللذات ، فى بيت الوحشة ، وبيت الوحدة ، وبيت التراب ، وبيت الدود ، كأنى به يخاطب رب العزة فيقول ما قاله أحد الصالحين :

لما علمت بأن قلبى فارغٌ ممن سواك ملأتــه بهواك
وملأت كلى منك حتى لم أدع منى مكانا خاليا لسواك

لقد كان لها صنم تعبده ، فلما غلقت الأبواب قامت فألقت على الصنم غطاء ، قال لها يوسف : لم تغطين هذا الصنم ؟ قالت : أستحى أن يرانى وأنا أراودك عن نفسى . قال يوسف ، وقد أخذته الدهشة ، واستولى عليه العجب : تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر ، ولا تستحين من الله السميع البصير .

أبعد هذه العفة والخوف من الله ، والاستعاذة بالله ، تزل أقدام ، وتتعثر أقلام ، وينفلت خيال بعض الكاتبين من الذين يمضغون الهواء ، ويفتلون من الرمال حبالا ، ويجعلون من الحبة قبة ، ومن النملة فيلا ، إنهم أقزام يحاولون أن يطاولوا السماء ، أو أن يمدوا إلى الشمس يداً شلاء .

محنة السجن

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ
أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ
لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى
رَبِّىٓ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ
ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ
ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ
مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ
ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ
تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ
ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

المفردات : ﴿ **أعصر خمراً** ﴾ **المراد عنبا يكون خمراً .** ﴿ **بتأويله** ﴾ **: بتفسيره الذى يؤول إليه فى الخارج .** ﴿ **تستفتيان** ﴾ : الاستفتاء طلب الفتوى أى السؤال عن المشكل المجهول والفتوى جوابه وهذا اللفظ مأخوذ من الفتوى الدالة على القوة والثقة . ﴿ **بضع** ﴾ : هى من ثلاث إلى تسع ويغلب أن يطلق على السبع .

قوله تعالى ﴿ **ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً وقال الآخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

قال قتاده : كان أحدهما ساقى الملك ، والآخر خبازه .

وقال السدى : كان سبب حبس الملك إياهما أنه توهم أنهما تمالآ على سمه فى طعامه وشرابه .

وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر فى السجن بالجود والأمانة ، وصدق الحديث ، وحسن السمت ، وكثرة العبادة ، صلوات الله عليه وسلامه ، ومعرفة التعبير ، والإحسان إلى أهل السجن ، وعيادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم .

ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تآلفا به وأحباه حبا شديداً ، وقالا له : والله لقد أحببناك حبا زائداً .

وقال الضحاك فى قوله ﴿ **إنى أرانى أعصر خمرا** ﴾ يعنى عنبا ، قال : وأهل عمان يسمون العنب خمرا ، وقال الآخر وهو الخباز ﴿ **إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمنى ربى إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ۞ واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

أخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا فى منامهما ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال ﴿ **لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ .

قال مجاهد : يقول ﴿ **لا يأتيكما طعام ترزقانه** ﴾ فى يومكما ﴿ **إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما** ﴾ ثم قال : وهذا إنما هو من تعليم الله إياى ، لأنى اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثوابا ولا عقابا فى المعاد .

﴿ **واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾ الآية .

يقول هجرت طريق الكفر والشرك ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله يهدى قلبه ، ويعلمه مالم يكن يعلم ، ويجعله إماما يقتدى به فى الخير ، وداعيا إلى سبيل الرشاد .

﴿ **ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس** ﴾ هذا التوحيد وهو الإقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ **من فضل الله علينا** ﴾ أى أوحاه إلينا ، وأمرنا به ﴿ **وعلى الناس** ﴾ إذ جعلنا دعاة لهم إلى ذلك ، ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يشكرون** ﴾ : أى لا يعرفون نعمة الله عليهم ، بإرسال الرسل اليهم ، بل ﴿ بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار ﴾[1] .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة ابراهيم .

وقوله تعالى ﴿ **يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار * ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة ، والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع مادون سواه من الأوثان التى يعبدها قومهما ، فقال ﴿ **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** ﴾ أى الذى ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه .

ثم بين أن التى يعبدونها ويسمونها آلهة ، إنما هو جهل منهم وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ، ولهذا قال ﴿ **ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ أى حجة وبرهان .

ثم أخبرهما أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه

ثم قال تعالى ﴿ **ذلك الدين القيم** ﴾ أى الذى أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقر الذى أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذى يحبه ويرضاه ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ أى فلهذا كان أكثرهم مشركين ، ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[1] .

قوله تعالى ﴿ **يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر الذى فيه تستفتيان** ﴾ .

يقول لهما ﴿ **يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا** ﴾ وهو الذى رأى أنه يعصر خمرا ، ولكنه لم يعينه ، لئلا يحزنه ذاك ، ولهذا أبهمه فى قوله ﴿ **وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه** ﴾ وهو نفس الأمر الذى رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا ، ثم أعلمهما أن هذا قد فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ، لأن الرؤيا على رجل طائر مالم تعبر ، فإذا عبرت وقعت .

وقوله تعالى ﴿ **وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين** ﴾ .

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقى ناج ، قال له يوسف خفية عن الآخر والله أعلم-لئلا يشعره أنه المصلوب — قال له ﴿ **أذكرنى عند ربك** ﴾ يقول : اذكر قصتى عند ربك ، وهو الملك .

فنسى ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبى الله من السجن ، هذا هو الصواب أن الضمير فى قوله تعالى ﴿ **فأنساه الشيطان ذكر ربه** ﴾ عائد على الناجى ، كما قاله مجاهد وغير واحد .

(١) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .

وأما البضع فقال مجاهد وقتادة : هو ما بين الثلاث إلى التسع .

وهكذا أراد الله تعالى أن يمتحن يوسف بالسجن، بعدما نجاه من امرأة العزيز ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، ويبتلى المرء على قدر دينه .

ولا بد للمؤمن أن يكون صابرا عند البلاء ، راضيا بالقضاء ، شاكرا للنعماء ، فقد ورد فى الحديث : (من رضى بقضائى،وقنع بعطائى ، وشكر نعمائى ، وصبر على بلائى كتبته صديقا ، وبعثته يوم القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائى ، ولم يقنع بعطائى ، ولم يشكر نعمائى ولم يصبر على بلائى ، فليخرج من تحت سمائى وليتخذ له ربا سوائى) .

فاللهم إنا نشهدك ، ونشهد ملائكتك ، وحملة عرشك ، وجميع خلقك ، إننا قد رضينا بك رباً ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين .

رؤيـــا الملك

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

المفردات : ﴿ **السّمان** ﴾ : واحدها سمين وسمينة ، ﴿ **والعجاف** ﴾ : واحدها عجفاء أى هزيلة ضعيفة ، ﴿ **والسنابل** ﴾ : واحدها سنبلة وهى ما يكون فيها الحب ، ﴿ **واليابس من السبلَ** ﴾: ما آن حصاده ، ﴿ **وعبرت** ﴾الرؤيا وعبّرتها (بالتخفيف والتشديد) فسرتها ببيان المعنى الحقيقى المراد من المعنى المثالى كمن يعبُر النهر بالانتقال من ضفة إلى أخرى ، ﴿ **والأضغاث** ﴾ : واحدها ضغث وهو الحُزمة من النبات ، ﴿ **والأحلام** ﴾ واحده حُلم (بضمتين وبالتسكين

للتخفيف) : مايرى فى النوم ، وهو قد يكون واضح المعنى كالأفكار التى تكون فى اليقظة ، وقد يكون مهوَّشاً مضطرباً فهو يشبَّه بالتضاغيث كأنه مؤلف من حزم مختلفة من العيدان والحشائش التى لا تناسب فيها ، ﴿ **وادكر** ﴾ : تذكر (أصله اذتكر) ، ﴿ **والدأب** ﴾ : استمرار الشيء على حال واحدة يقولون هو دائب بفعل كذا إذا استمر فى فعله ، ﴿ **فذروه** ﴾ : أى اتركوه وادخروه ، ﴿ **والشداد** ﴾ : الصعاب التى تشتد على الناس ، ﴿ **وتحصنون** ﴾ أى تحرزون وتدخرون للبذر ، ﴿ **وأغاثه** ﴾ : أعانه ونجاه ، وغوث الرجل : قال : واغوثاه ، واستغاث ربه : استنصره وسأله الغوث ، ﴿ **ويعصرون** ﴾ : أى مامن شأنه أن يعصر كالزيت من الزيتون والشيرج من السمسم والأشربة من القصب والنخيل .

ذكر المؤرخون أن ملك مصر فى عهد يوسف كان من ملوك الغرب الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) وأنه قد رأى رؤيا عجز الكهنة والعلماء ورجال الدولة عن تأويلها ، وقالوا : أضغاث أحلام . وكان من هذا أن لجئوا إلى يوسف فى تأويل الرؤيا ، وبه تم اتصاله بالملك ، وتعيينه وزيراً له .

﴿ **وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع** ﴾ بقرات ﴿ **عجاف** ﴾ هزيلات وأرى ﴿ **سبع سنبلات خضر** ﴾ وأخرى سنبلات يابسة مهيأة للقطوف ، ﴿ **يا أيها الملأ** ﴾ من قومى ﴿ **أفتونى فى رؤياى** ﴾ هذه ﴿ **إن كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ وتنقلون الخيال والرموز إلى الواقع والحقائق .

﴿ **قالوا** ﴾ هى أحلام مختلطة ، وخيالات غير منتظمة وهذه ﴿ **أضغاث أحلام** ﴾ لا تأويل لها وتفسير وإنما هى رموز مضطربة تنشأ من ارتباك فى المعدة ، وكدرة فى النفس أحياناً ، ﴿ **وما نحن بتأويل** ﴾ أمثالها ﴿ **بعالمين** ﴾ .

وهكذا إعداد الله لبعض خلقه ، وترتيبه لهم ، جعل الكهنة وعلماء المصريين يعجزون عن تأويل الرؤيا ، فيبحثون عمن يؤول لهم ، فلا يجدون إلا يوسف .

وقال صاحبه القديم الذى كان فى السجن معه واختبره عن كثب ، وأدرك ما عليه نفسه ، وما عنده من علوم ومعارف فى تأويل الرؤيا ، وقد تذكره بعد طول الزمن : يا قوم لا تبحثوا ، فإنى ﴿ **أنبئكم** ﴾ بتأويل هذا الحلم ﴿ **فأرسلون** ﴾ إلى السجن فإن فيه فتى قد خبرته ووقفت منه على أسرار ، فأرسلوه ليوسف فقابله وقال له : ﴿ **يوسف أيها الصديق أفتنا فى** ﴾ رؤيا رآها الملك تتلخص فى ﴿ **سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** ﴾ أخبرنى فإنك بتأويل الرؤيا من العالمين .

قال يوسف مؤولا الرؤيا ، ومبيناً لهم ما يجب عمله لتلافى الخطر الذى تشير له الرؤية بالرمز ، مع اعتزازه برأيه وأن له صفة الآمر الناصح :

﴿ **تزرعون** ﴾ على معنى ازرعوا ﴿ **سبع سنين** ﴾ قمحاً وشعيراً دائبين مجدين بلا انقطاع وإذا فعلتم ذلك ﴿ **فما حصدتم** ﴾ فاتركوه فى سنبله ليكون الحب لكم والتبن لدوابكم .

وهذه طريقة عملية دقيقة لحفظ المحصول .

اصنعوا هذا فى المحصول كله ﴿ **إلا قليلا مما تأكلون** ﴾ فهذا هو تأويل البقرات السبع ، والسنابل السبع .

﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك سبع** ﴾ سنين فى جدبهن وانقطاع الخير فيهن ، يأكلن ما قدمت تلك السنون الأولى من المحصول المدّخر ، والمراد ما فى تلك السنين تأكل الكل ﴿ **إلا قليلا مما تحصنون** ﴾ وتدخرون للبذر ﴿ **ثم يأتى من بعد ذلك** ﴾ كله عام فيه يكون الرخاء على أتم ما يكون وأحبه ، ﴿ **عام فيه يغاث الناس** ﴾ بكل أنواع الإغاثة من مطر وحسن محصول ، ومنع للآفات وفى هذا العام ﴿ **يعصرون** ﴾ عصير القصب والفاكهة ، وعصير العنب والسمسم والزيتون ألخ .

وهذا الإخبار الأخير الخاص بهذا العام من قبيل الوحى والإلهام ، وليس جزءاً من تأويل الرؤيا . والله أعلم .

الإفراج عن يوسف عليه السلام

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

المفردات : ﴿ **بال النسوة** ﴾ : حالهن وأمرهن الذى يشغل البال ، ﴿ **خطبكن** ﴾ : أمركن العظيم وخطبكن الجسيم ، ﴿ **حصحص الحق** ﴾ : ظهر الحق .

﴿ **أستخلصه** ﴾ : المراد أجعله خالصاً لنفسى لا يشاركنى فيه أحد . ﴿ **مكين** ﴾ : ذو مكانة .

﴿ **يتبوأ** ﴾ : ينزل من مصر فى أى مكان أراده ، والمراد أنه صاحب الأمر .

يقول تعالى إخباراً عن الملك ، لما رجعوا إليه بتعبير رؤياه التى كان رآها بما أعجبه ، فعرف فضل يوسف عليه السلام ، وعلمه وحسن اطلاعه على رؤياه ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه .

فقال : ﴿ **ائتونى به** ﴾ أى أخرجوه من السجن وأحضروه ، ﴿ **فلما جاءه الرسول** ﴾ بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ، ونزاهة عرضه ، مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز . وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه بل كان ظلماً وعدواناً .

فقال : ﴿ ارجع إلى ربك ﴾ الآية .

وقد وردت السنة بمدحه على ذلك.والتنبيه على فضله وشرفه وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه .

فقد روى الإمام أحمد والصحيحان عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرنى كيف تحيي الموتى ﴾ الآية . ويرحم الله لوطاً لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبث فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى ﴾[1] .

وفى لفظ أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله ﴿ فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾ فقال رسول الله ﷺ (لو كنت أنا لأسرعت الإجابة وما ابتغيت العذر)[2] .

وقال عبد الرازق فى الحديث المرسل عن عكرمة قال : قال رسول الله ﷺ « لقد عجبت من يوسف وصبره وكرمه ، والله يغفر له حين سئل عن البقرات العجاف والسمان ، ولو كنت مكانه لبادرتهم الباب ولكنه أراد أن يكون له العذر » .

قوله تعالى : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ .

إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتى قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهن كلهن ، وهو يريد امرأة العزيز ، وزيره وهو العزيز قال الملك للنسوة اللاتى قطعن أيديهن : ﴿ ما خطبكن ﴾ أى شأنكن وخبركن ﴿ إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ يعنى يوم الضيافة .

﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أى قالت النسوة جواباً للملك حاش لله أن يكون يوسف متهماً والله ﴿ ما علمنا عليه من سوء ﴾ .

فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾: قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد نقول الآن تبين الحق ، وظهر وبرز .

﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أى فى قوله ﴿ هى راودتنى عن نفسى ﴾ ﴿ ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ﴾ :

تقول إنما اعترفت بهذا على نفسى ، ليعلم زوجى أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر ، ولا وقع المحذور الأكبر ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع ، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة ﴿ وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١) وفى التفسير (سورة ٢ : ٤٦) . ومسلم فى الإيمان (٢٣٨) وفى الفضائل (١٥٢) . وابن ماجه فى الفتن (٢٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٢٦) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ٣٤٦ ، ٣٨٩) .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثالث عشر

المكتب المصري الحديث

* وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

المفردات : ﴿ **أستخلصه** ﴾ : المراد أجعله خالصاً لنفسى لا يشاركنى فيه أحد . ﴿ **مكين** ﴾ : ذو مكانة ، ﴿ **يتبوأ** ﴾ : ينزل من مصر فى أى مكان أراده ، والمراد أنه صاحب الأمر .

﴿**وما أبرئُ نفسى** ﴾ تقول المرأة : ولست أبرئُ نفسى ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته لأن﴿ **النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى** ﴾ أى إلا من عصمه الله تعالى﴿ **إن ربى غفور رحيم** ﴾

قوله تعالى ﴿ **وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينامكين أمين * قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ :

يقول تعالى إخباراً عن الملك ، حين تحقق براءة يوسف عليه السلام ، ونزاهة عرضه مما نسب إليه ، قال : ﴿ **ائتونى به أستخلصه لنفسى** ﴾ أى أجعله من خاصتى وأهل مشورتى ﴿ **فلما كلمه** ﴾ **أى** خاطبه الملك وعرفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خُلُق وخَلْق وكمال قال له الملك ﴿ **إنك اليوم لدينا مكين أمين** ﴾ أى إنك عندنا قد بقيت ذا مكانة وأمانة .

فقال يوسف عليه السلام : ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة ، وذكر أنه ﴿ **حفيظ** ﴾ أى خازن أمين ، ﴿ **عليم** ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه .

وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما فيه من المصالح للناس ، وإنما سأله أن يجعله على خزائن الأرض وهى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها ، فيتصرف هو على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد ، فأجيب إلى ذلك رغبة فيه ، وتكرمة له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ .

يقول تعالى ﴿**وكذلك مكَّنَّا ليوسف فى الأرض**﴾ أى أرض مصر ، ﴿ **يتبوأ منها حيث يشاء** ﴾ قال السدى : يتصرف فيها كيف يشاء .

وقال ابن جرير : يتخذ منها منزلا حيث يشاء بعد الضيق والحبس والإسار .

﴿ **نُصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾ أى ما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته ، وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز ، فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد ﴿ **ولا نضيع أجر المحسنين * ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ .

يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام فى الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ فى الدنيا ، كقوله فى حق سليمان ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾[1] .

والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة فى بلاد مصر ، مكان الذى اشتراه من مصر زوج التى راودته ، وأسلم الملك على يدى يوسف عليه السلام ، قاله مجاهد .

وقال محمد بن إسحاق لما قال يوسف للملك : ﴿ **اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم** ﴾ قال الملك : قد فعلت ، فولاه فيما ذكروا عمل أطفير ، وعزل أطفير عما كان عليه .

يقول الله عز وجل ﴿ **وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين** ﴾

قال : فذكر لى . والله أعلم . أن أطفير هلك فى تلك الليالى وأن الملك الريان بن الوليد زوج يوسف امرأة أطفير راعيل ، وأنها حين دخلت عليه قال لها : أليس هذا خيراً مما كنت تريدين ؟ .

قال : فيزعمون أنها قالت : أيها الصديق لا تلمنى ، فإنى كنت امرأة كما ترى حسناء جميلة ناعمة فى ملك ودنيا ، وكان صاحبى لا يأتى النساء ، وكنت كما جعلك الله فى حسنك وهيئتك على ما رأيت . فيزعمون أنه وجدها عذراء ، فأصابها فولدت له رجلين .

وقال الفضيل بن عياض : وقفت امرأة العزيز على ظهر الطريق حتى مر يوسف ، فقالت : الحمد لله الذى جعل العبيد ملوكاً بطاعته ، والملوك عبيداً بمعصيته .

فسبحان صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ،

مع يوسف وإخوته

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾

(١) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة ص .

فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا
ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا
ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا
كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا۟
مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا
وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ
حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ
عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ
وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا
حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

المفردات : ﴿ **المعرفة والعرفان** ﴾ : معرفة الشئ بتفكر فى أثره وضده الإنكار . ﴿ **وجهّزهم** ﴾ : أى أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله . ﴿ **وجهاز السفر** ﴾ : أهبته وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) . ﴿ **أو فى الشىء** ﴾ : جعله وافياً تاماً . ﴿ **المنزلين** ﴾ : أى المضيفين للضيوف . ﴿ **نراوده** ﴾ : أى نخادع ونستميل برفق . ﴿ **لفاعلون** ﴾ : أى لقادرون على ذلك . ﴿ **لفتيانه** ﴾ : أى غلمانه الكيالين . ﴿ **بضاعتهم** ﴾ : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدماً . ﴿ **والبضاعة** ﴾ : المال الذى يستعمل للتجارة . ﴿ **والرِّحال** ﴾ : واحدها رحل : وهو ما يوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره . ﴿ **وانقلبوا** ﴾ أى رجعوا . ﴿ **والمتاع** ﴾ : ما ينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام . ﴿ **والبضاعة** ﴾ : ثمن ما كانوا أعطوه من الطعام . ﴿ **ونمير أهلنا** ﴾ أى نجلب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام يجلبه الإنسان

من بلد إلى بلد . ﴿ **كيل بعير** ﴾ : أى حمل جمل فكيل بمعنى مكيل . ﴿ **ويسير** ﴾ : أى قليل لا يكثر على سخائه كما جاء فى قوله : ﴿ وما تلبثوا بها إلا يسيراً ﴾[1] أو سهل لا عسر فيه ، كما فى قوله : ﴿ وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[2] . ﴿ **والمَوْثِق** ﴾ : العهد الموثق . ﴿ **إلا أن يحاط بكم** ﴾ : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا فإن من يحيط به العدو يهلك غالباً. ﴿ **وكيل** ﴾ : أى مطلع رقيب فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

كان يوسف على خزائن أرض مصر ، وهو الحفيظ للقوت ، العليم بأساليب الصرف والإكثار من الزرع ، وقد كان الزمن زمن جدب وقحط عم مصر وما جاورها من البلاد ، كبلاد كنعان (فلسطين) لكن يوسف قد أُرسِل لمصر لإنقاذها من الجدب ، بل وفر من أقواتها ما كان يباع لجيرانها .

ولما علم يعقوب وبنوه بخيرات مصر ، وكانوا فى أشد الحاجة إلى الطعام ، أرسل أبناءه العشرة ليبتاعوا من عزيز مصر القوت ، ويعطوه الثمن بضاعة كانت معهم ، وكان يوسف لا يعطى الفرد إلا حمل بعير فقط ، توفيراً للمؤن .

وجاء أخوة يوسف العشرة فدخلوا عليه ، وهو فى أبهة السلطان ، فعرفهم لما وصل خبر مقدمهم إليه ورآهم بعينه ، أما هم فلم يعرفوه لتغير حاله ، واستبعاد أن يكون الطريد الشريد الملقى فى البئر عزيز مصر الذى يقوم بتوزيع الأقْوات على الخلق .

ولما جهزهم بجهازهم ، أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الطعام ، وأعطاهم ما يحتاج إليه المسافر فى سفره ، وكانوا عشرة ، وطلبوا أكثر من حقهم ، طلبوا لأبويهم ولأخيهم الحادى عشر ، فإنه بقى فى خدمة أبويه الكبيرين ، أعطاهم حمل بعيرين بشرط أن يحضروا له أخاهم لأبيهم ليراه ...

ثم أخذ يحبب إليهم المجىء ثانية مع أخيهم بقوله : ألا ترون أنى أتم لكم الكيل الذى تكتالون ، وأريحكم فى سعره وصنفه ، وأنا خير المضيفين ، فقد أحسنت ضيافتكم وجهزتكم بزاد يكفيكم فى سفركم زيادة على تجارتكم .

ومن هنا يعلم أن اتهامه لهم بالتجسس بعيد ، وأخذ رهينة منهم أبعد .

يا بنى يعقوب : إن لم تحضروا لى أخاكم كما اتفقنا ، وعدتم تمتارون لأهلكم منعتكم من الكيل فى بلادى ، فضلا عن إيفائه وكماله ، ولا تقربوا بلادى ، فضلا عن الإحسان فى المعاملة والضيافة .

قالوا : أيها العزيز ﴿ **سنراود عنه أباه** ﴾ ونحتال بكل حيلة ، ونخادعه بكل خدعة ، حتى يسلم لنا بنيامين الذى يعتز به أبوه ، فهو خلف لأخيه المفقود ، ﴿ **وإنا لفاعلون** ﴾ ذلك إن شاء الله .

وقال يوسف لفتيانه الذين يتولون الكيل للتجار ﴿ **اجعلوا بضاعتهم** ﴾ التى جاءوا بها ثمناً للطعام - روى أنها كانت جلوداً وأداما -اجعلوها ﴿ **فى رحالهم** ﴾ لكى ﴿ **يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم** ﴾

(١) الآية ١٤ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية ٣٠ من سورة النساء .

فيكون ذلك أدعى لرجوعهم ثانية ، حيث يقفون على مدى إكرام العزيز لهم ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ حسبما أمرتهم بذلك ، طمعاً فى برنا ، وحسن معاملتنا .

﴿ **فلما رجعوا إلى أبيهم** ﴾ بعد هذه الرحلة ﴿ **قالوا** ﴾ بمجرد وصولهم ﴿ **يا أبانا** ﴾ إن عزيز مصر قد ﴿ **منع منا الكيل** ﴾ بعد هذه المرة ، إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين كما طلب ، فأرسله معنا ﴿ **نكتل** ﴾ من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا : ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، وهو العزيز الذى أكرم وفادتنا ، وإنا يا أبانا لنحفظ أخانا فى ذهابنا وإيابنا .

قال يعقوب الشيخ الحزين على يوسف ، الذى لا يزال يذكره حتى ابيضت عيناه من الحزن : هل آمنكم عليه إلا ائتماناً كائتمانى لكم على أخيه يوسف من قبل ؟

على معنى : كيف آمنكم على ولدى بنيامين ، وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم ، وإنكم ذكرتم مثل هذا الكلام بعينه فى يوسف ، وضمنتم لى حفظه ، وقلتم : ﴿ **إنا له لحافظون** ﴾ فلم يحصل الأمن والحفظ سابقاً ، فكيف يحصل الآن ؟

يا بَنِىّ:ما أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل !!

وظاهر الكلام يدل أنه أرسله معهم اعتماداً على حسن الظن بهم ، وأنه ما كان يرى علامات الحسد والحقد بينهم فى هذه اللحظة ، وتلبية لدعوة الحاجة إلى الطعام .

﴿ **فالله خير حافظا** ﴾ يحفظ لى ولدى ولا يجمع بين مصيبتين لى ﴿ **وهو أرحم الراحمين** ﴾ .

طلبوا من أبيهم هذا ساعة وصولهم ، وقبل فتح أمتعتهم .

﴿ **ولما فتحوا متاعهم** ﴾ وحطوا رحالهم ﴿ **وجدوا بضاعتهم** ﴾ التى أخذوها ثمناً لطعامهم وجدوها ﴿ **ردت إليهم** ﴾ ﴿ **قالوا** ﴾ تأييداً لطلبهم ﴿ **يا أبانا ما نبغى** ﴾ ؟

وماذا نطلب زيادة على ما وصفنا لكَ من إكرامه لوفادتنا ، وحرصه على راحتنا ؟

﴿ **هذه بضاعتنا ردت إلينا** ﴾ من حيث لا نشعر ، أليس هذا دليلا على منتهى الكرم ، وداعياً لأن نوفى له بما طلب ، ونحن إذا ذهبنا ثانية مع أخينا ﴿ **ونمير أهلنا** ﴾ ونحضر لهم الطعام بلا ثمن ﴿ **ونحفظ أخانا** ﴾ بنيامين بعنايتنا ورعايتنا فلا تخش عليه شيئاً ونزيد ﴿ **كيل بعير** ﴾ لأجله – إذ يوسف كان يعطى كل فرد حمل بعير فقط ، اقتصاداً وتوفيراً .

ونظهر أمامه بأنا صادقون فى دعوانا ، بأن لنا أخاً مع أبوينا يخدمهما ، وربما كان ذلك له تأثير عند العزيز .

وذلك أى البعير الزائد ﴿ **أمر يسير** ﴾ على مثل هذا الرجل الكريم الذى لو كان من نسل يعقوب ، لما أكرمنا هذا الإكرام .

قال يعقوب وقد تذكر حوادث الماضى ، وتمثلت له صورة يوسف : لن أرسل بنيامين معكم حتى تعطونى عهداً مؤكداً بإشهاد الله وقسمه ﴿ **لتأتننى به** ﴾ ولترجعنه لى ، فهو قرة عينى وسلوتى عن يوسف ، لتأتننى به على أى حال كنتم إلا فى حال يحيط بكم العدو ، أو الموت ، أو أى سبب يمنعكم عنى .

فلما أعطوه المواثيق ، قال يعقوب : ﴿ **الله على ما نقول** ﴾ جميعاً ﴿ **وكيل** ﴾ وهو نعم الرقيب الحفيظ ، وأفوض أمرى إلى الله ، إن الله بصير بالعباد .

وقال : يا أولادى ﴿ **لا تدخلوا** ﴾ مصر ﴿ **من باب واحد** ﴾ولكن ﴿ **وادخلوا من أبواب متفرقة** ﴾ حتى لا يحسدكم حاسد ، أو يكيد لكم كائد ، فيحل بكم مكروه .

ورد عن النبى ﷺ : (إن العين لتدخل الرجل القبر والجمل القدر) ، (وأعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة)[١] .

وقوله ﷺ ، وقد أخبر بوعكة لبعض أصحابه من أثر حسد ، فقال : (علام يقتل أحدكم أخاه ، ألا بركت ، إن العين حق ، توضأ له)[٢] .

فتوضأ الحاسد ، ومعنى بركت قلت : تبارك الله أحسن الخالقين، اللهم بارك فيه .

وهذا يفيد أن العين والحسد حق ، وأن علاجه الاستعاذة والرقى ، وعلى الحاسد أن يتوضأ ، وأن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين عندما يرى شيئاً (ومن شر حاسد إذا حسد)[٣] .

يا بنى : اعملوا بنصيحتى ، واعلموا أنى ﴿ **وما أغنى عنكم من الله شيئاً** ﴾ ولا أدفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئاً ، إذ لا يغنى حذر من قدر ، ولكن اسلكوا الأسباب العادية ، مع العلم أن قضاء الله نافذ لا محالة ﴿ **إن الحكم إلا لله** ﴾ وحده له الحكم والأمر﴿ **عليه** ﴾ وحده ﴿ **توكلت** ﴾ ﴿ **وعليه** ﴾ وحده ﴿ **فليتوكل المتوكلون** ﴾ لا على غيره .

﴿ **ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان** ﴾ دخولهم على هذا الشكل ﴿ **يغنى عنهم من** ﴾ أمر ﴿ **الله** ﴾ شيئاً ولكن كانت هناك﴿ **حاجة فى نفس يعقوب** ﴾تدور بخلده أراد أن يظهرها لأبنائه ﴿ **قضاها** ﴾ وأظهرها بوصيته لأولاده من حيث لا يفطنون لها .

﴿ **إنه لذو علم** ﴾ وبصر بالأمور لما علمه ربه بالوحى والإلهام ، وتأويل الرؤيا الصادقة ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ذلك .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء (١٠) . وأبو داود فى السنة (٢٠) . وابن ماجه فى الطب (٣٦) .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى العين (١) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤٤٧) .

(٣) الآية ٥ من سورة الفلق .

يوسف وبنيامين

وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا
ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقۡبَلُواْ عَلَيۡهِم مَّاذَا تَفۡقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ
ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا
لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ
جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ
قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ
فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ﴿٧٦﴾

المفردات : ﴿ **آوى إليه** ﴾ أى ضم إليه . ﴿ **الابتئاس** ﴾ : اجتلاب البؤس والشقاء . ﴿ **والسقاية** ﴾ : (بالكسر) وعاء يسقى به وبه ماء كان يكال للناس الطعام ويقدر بكيلة مصرية ١/ ١٢ من الأردب المصرى وهو الذى عبر عنه بصواع الملك . ﴿ **وأذن مؤذن** ﴾ : أى نادى مناد من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشيء الذى تركه الآذن . ﴿ **والعير** ﴾ : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أصحابها . ﴿ **زعيم** ﴾ : كفيل أجعله جزاء لمن يجىء به . ﴿ **الكيد** ﴾ : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه . و ﴿ **دين الملك** ﴾ شرعه الذى يدين الله تعالى به .

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والإحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه ، وما جرى له ، وعرفه أنه أخوه وقال له ﴿ **لا تبتئس** ﴾ أى لا تأسف على ما صنعوا بى وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً .

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون * قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴾ .

لما جهزهم ، وحمل لهم أبعرتهم طعاماً . أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية ، وهى إناء كان يشرب فيه ويكيل للناس من عزة الطعام إذ ذاك ، فوضعها فى متاع بنيامين من حيث لا يشعر أحدهم ، ثم نادى

مناد بينهم ﴿ **أيتها العير إنكم لسارقون** ﴾ فالتفتوا إلى المنادى وقالوا ﴿ **ماذا تفقدون * قالوا نفقد صواع الملك** ﴾ أى صاعه الذى يكيل به ، ﴿ **ولمن جاء به حمل بعير** ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿ **وأنا به زعيم** ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة .

قوله تعالى ﴿ **قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين** ﴾

أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا . وسيرتنا ، من حين مجيئنا فى امتيازنا الأول ، وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعد على حقوق الناس .

﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين** ﴾ أى قال فتيان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرقة ، وادعائكم البراءة والنزاهة .

﴿ **قالوا جزاؤه من وجد فى رحله** ﴾ أى جزاؤه أخذ من وجد فى رحله ، وظهر أنه هو السارق له ، وجعل عبداً لصاحبه .

وقوله ﴿ **فهو جزاؤه** ﴾ تقرير للحكم السابق ، وتأكيد له بإعادته ، كما تقول : حق الضيف أن يكرم ، فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ،ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة . ﴿ **كذلك نجزى الظالمين** ﴾ أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزى الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقاباً للسرقة وهذا تأكيد منهم بعد تأكيد لثقتهم ببراءة أنفسهم .

﴿ **فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه** ﴾ : أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشتمل عليها رحالهم ، إبْعاداً للشبهة وظن التهمة بطريقة الحيلة .

﴿ **ثم استخرجها من وعاء أخيه** ﴾ : أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه ، فأخرج السقاية منه .

﴿ **كذلك كدنا ليوسف** ﴾ : أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفى كدنا ليوسف ، وألهمناه إياه ، وأوحينا إليه أن يفعله .

ذلك أن الحكمة الإلٓهية اقتضت تربية إخوة يوسف ، وعقابهم بما فرطوا فى يوسف ، واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم . يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ، ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يذوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، ولن يكون هذا الحكم منهم إلا بوقوع شبهة السرقة على بنيامين ، من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته .

وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة ، إذا لم يخالف شرعاً ثابتاً .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله : ﴿ **ماكان ليأخذ أخاه فى دين الملك** ﴾ : أى وما كان له ، ولا مما تبيحه أمانته لملك مصر أن يخالف شرعه الذى فوض له الحكم به ، وهو لا يبيح استرقاق السارق ، فما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب ، التى تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة بحسب الظاهر ، لأنها تهمة باطلة ، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاماها إلا بوحى من الله ، بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته فقال : ﴿ **إلا أن يشاء الله** ﴾ أى أنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، لا أنه هو الذى اخترع هذه المكيدة .

﴿ **نرفع درجات من نشاء** ﴾ : أى نرفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ، ونريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شيء ، وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات . ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ : أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه ، وأرفع درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شيء علماً ، وهو فوق كل ذى علم .

وخلاصة ذلك : أن إخوة يوسف كانوا علماء ، إلا أن يوسف كان أعلم منهم .

ماذا قالوا

* قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ
قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا
كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا
مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ
كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى
يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾
ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا
لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ

كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ
﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ
اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ
إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾

المفردات : ﴿ **استيأسوا** ﴾ : يئسوا يأساً كثيراً . ﴿ **خلصوا** ﴾ : انفردوا عن الناس وتخلصوا منهم . ﴿ **نجياً** ﴾ : متناجين متشاورين . ﴿ **فرطتم** ﴾ : قصرتم . ﴿ **أبرح** ﴾ : أترك . ﴿ **سولت** ﴾ : زينت . ﴿ **يا أسفا** ﴾ : يا أسفى والأسف الحزن الشديد على ما فات . ﴿ **كظيم** ﴾ : مملوء غيظاً على أولاده ممسك له فى قلبه . ﴿ **حرضا** ﴾ الحرض المرض المشرف على الهلاك . ﴿ **بثى** ﴾ : البث فى الأصل إثارة الشيء وتفريعه ومنه بث الريح والمراد هنا إظهار ما انطوت عليه نفسه من الحزن . ﴿ **تحسسوا** ﴾ : تعرفوا أحوال يوسف بحواسكم . ﴿ **رَوْح الله** ﴾ : فرجه ورحمته .

قوله تعالى ﴿ **قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ : قالوا ذلك عندما رأوا صواع الملك يخرج من رحل بنيامين .

وفى هذا المقام روايات للمفسرين .

قال ابن عباس : سرق يوسف عليه السلام صنماً لجده — أبى أمه — من ذهب وفضة فكسره وألقاه فى الطريق ، فعيره بذلك إخوته ، وقد رواه عنه ابن مردويه مرفوعاً .

وقال محمد بن إسحق : عن عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد قال: كان أول ما دخل على يوسف من البلاء فيما بلغنى : أن عمته ابنة إسحق ، وكانت أكبر ولد إسحق ، وكانت عندها منطقة إسحق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من اختبأها عن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته ، وكان لها به وله ، فلم تحب أحداً حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام ، فأتاها فقال : يا أخته سلمى إلىّ يوسف ، فو الله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة . قالت : فو الله ما أنا بتاركته ، ثم قالت : فدعه عندى أياماً انظر إليه وأسكن عنه ، لعل ذلك يسلينى عنه أو كما قالت .

فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ، فقالت : والله إنه لى سلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب ، فأخبرته الخبر فقال : لها أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت .

قال : فهو الذى يقول إخوة يوسف حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه ﴿ **إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل** ﴾ .

وهذا القول يدل على أن حسدهم ليوسف ما زال قائماً حتى هذه اللحظة التى قالوا فيها ما قالوا .

أما القول الذى أسره يوسف فى نفسه ، ولم يبده لهم ، فقوله : ﴿ **أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون** ﴾ إذ ما ورد عن سرقته لا يدل على أنه سارق ، بل إنه برىء الساحة نظيف اليدين .

ولقد لجأوا بعد ذلك إلى إثارة العاطفة فى نفس يوسف ليرد إليهم بنيامين ﴿ **قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه** ﴾ ذلك لأن أباه يحبه ، وقد فقد أخاه من قبل ، فذلك يشق على نفس أبيه ﴿ **إنا نراك من المحسنين** ﴾ العادلين الرحماء .

فقال يوسف بمنطق الحق المبين ﴿ **معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده** ﴾ ولم يقل من سرق ، لأن بنيامين لم يسرق فى الحقيقة

﴿ **إنا إذاً لظالمون** ﴾ أى إذا أخذنا البرىء وتركنا من وجدنا متاعنا عنده .

وعندئذ فقدوا كل أمل فى استرجاع بنيامين .

﴿ **فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين** ﴾ :

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم بنيامين ، الذى قد التزموا لأبيهم برده إليه ، ولما عاهدوه على ذلك ، فلما امتنع عليهم ذلك ﴿ **خلصوا** ﴾ أى انفردوا عن الناس ﴿ **نجياً** ﴾ يتناجون فيما بينهم .

﴿ **قال كبيرهم** ﴾ وهو روبيل ، وقيل يهوذا ، وهو الذى أشار عليهم بإلقائه فى البئر عندما هموا بقتله ، قال لهم : ﴿ **ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله** ﴾ لتردونه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك مع ما تقدم لكم من إضاعة يوسف منه .

﴿ **فلن أبرح الأرض** ﴾ : أى لن أفارق هذه البلدة ﴿ **حتى يأذن لى أبى** ﴾ فى الرجوع إليه راضياً عنى ، ﴿ **أو يحكم الله لى** ﴾ : قبل أن يمكننى من أخذ أخى ﴿ **وهو خير الحاكمين** ﴾ .

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده ، ويتنصلوا إليه ويبرأوا مما وقع بقولهم . وقوله : ﴿ **وما كنا للغيب حافظين** ﴾ .

قال قتادة وعكرمة : ما علمنا أن ابنك سرق .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما علمنا فى الغيب أنه سرق له شيئاً . إنما سألنا ما جزاء السارق ؟

﴿ **واسأل القرية التى كنا فيها** ﴾ قيل المراد مصر . ﴿ **والعير التى أقبلنا فيها** ﴾ أى التى رافقناها

عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق ، وأخذوه بسرقته .

﴿ **قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم** ﴾ .

قال لهم كما قال لهم حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل** ﴾

قال محمد بن اسحاق : لما جاءوا يعقوب أخبروه بما جرى ، اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف قال : ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل** ﴾ .

وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول ، سحب حكم الأول عليه ، وصح له قوله ﴿ **بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل** ﴾ .

ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف ، وأخاه بنيامين ، وروبيل ، الذى أقام بديار مصر ، ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع اليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، ولهذا قال ﴿ **عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم** ﴾ أى العليم بحالى ﴿ **الحكيم** ﴾ فى أفعاله وقضائه وقدره.

﴿ **وتولى عنهم وقال يا أسفا على يوسف** ﴾ أى أعرض عن بنيه وقال فتذكروا حزن يوسف القديم الأول : ﴿ **يا أسفا على يوسف** ﴾ جدد له حزن الابنين ، الحزن الدفين .

﴿ **يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم** ﴾ : أى ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ، قال قتادة وغيره ، وقال الضحاك : فهو كظيم كئيب حزين .

قال سعيد بن جبير : اختص الله تعالى هذه الأمة المحمدية بالاسترجاع عند المصيبة ، وهو يعنى بذلك قوله تعالى ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[1] .

وعندما رأى أبناء يعقوب مانزل بأبيهم رقت له أفئدتهم ﴿ **قالوا تالله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين** ﴾ أى ما تزال تذكر يوسف وتحزن بفراقه حتى تشرف على الهلاك بسبب ما أنت فيه من الهم والغم والحزن والنصب والوصب ، أو تهلك فعلا .

قال لهم يعقوب بلسان اليقين ومنطق الحق المبين ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** ﴾ أى أشكو ماأنا فيه من الهم والحزن إلى الله وحده ، فهو الملجأ والمصير ، وهو قوة كل ضعيف ، وعز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وملجأ كل ملهوف ، كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر .

قوله تعالى : ﴿ **وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ : ذلك لأنه كان يعلم أن رؤيا يوسف التى رأى فيها أحد عشر كوكباً ، والشمس والقمر فى حالة سجود له ، لابد من تحقيقها .

(١) الآيتان ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة البقرة .

وقد ذكرت الرؤيا فى هذه السورة فى أربعة مواضع : رؤيا يوسف ، ورؤيا ساقى الملك ، ورؤيا خبازيه ، ورؤيا الملك وقد تحققت . وبقيت رؤيا يوسف ، وسوف تتحقق كما سنرى .

لكن الأنبياء لا يفقدون الأمل ، ولا ييأسون من رحمة الله مهما ادلهمت الخطوب ، واحتدمت الإحن ، فقد قال يعقوب لأبنائه ﴿ **يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ .

هو كقوله جل شأنه : ﴿ ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾[1] وكقوله تعالى ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[2] .

ياصاحب الهم إن الهم منفـرج ... أبشر بخير فـإن الفـارج الله
اليـأس يقطـع أحيانـا بصاحبـه ... لا تيأسـن فـإن الكافـى الله
الله يحدث بعـد العسـر ميسـرة ... لا تجزعـن فـإن الصانـع الله
إذا بليـت فثـق بالله وارض بـه ... إن الـذى يكشـف البلـوى هـو الله
والله مالـك غيـر الله مـن أحـد ... فحسبـك الله فـى كـلٍ لـك الله

تعرف إخوة يوسف عليه واعترافهم بالذنب وعفوه عنهم وما أمرهم به

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَـٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ
لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم
بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ
أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ
تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ
يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى
يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

﴿ **المفردات** ﴾ : ﴿ **مسنا** ﴾ : أصابنا . ﴿ **الضر** ﴾ : ألم الجوع . ﴿ **مزجاة** ﴾ : بضاعة ناقصة غير تامة لا تقبل إلا بدفع وعرض وعليه قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾[3] أى يسوق ويدفع . ﴿ **الخاطئين** ﴾ : الخاطئ من يتعمد الذنب والمخطئ من يخطئ القصد أى لا يعرف الصواب ثم يصير إلى غيره . ﴿ **لا تثريب** ﴾ : لا لوم ولا توبيخ .

(١) الآية ٥٦ من سورة الحجر . (٢) الآية ٥٣ من سورة الزمر . (٣) الآية ٤٣ من سورة النور .

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام أنه ندب بنيه على الذهاب فى الأرض ، يستعلمون أخبار يوسف وأخيه بنيامين ، والتحسس يكون فى الخير ، والتجسس يكون فى الشر ، ونهضهم وبشرهم ، وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله .

ثم قال تعالى ﴿ **فلما دخلوا عليه** ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف ﴿ **قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر** ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام .

﴿ **وجئنا ببضاعة مزجاة** ﴾ ومعنا ثمن الطعام الذى نختاره وهو قليل ، وأصل الإزجاء الدفع لضعف الشيء .

وقوله تعالى ﴿ **فأوف لنا الكيل** ﴾ أى أعطنا بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك . وقال ابن جريج : وتصدق علينا برد أخينا إلينا .

وقال سعيد بن جبير والسدى : ﴿ **وتصدق علينا** ﴾ يقولون : تصدق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتجوز فيها .

وسئل سفيان ابن عيينة : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبى ﷺ ؟ فقال : ألم تسمع قوله ﴿ **فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزى المتصدقين** ﴾ .

عن عثمان بن الأسود : سمعت مجاهداً ، وسئل : هل يكره أن يقول الرجل فى دعائه : اللهم تصدق على ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يبتغى الثواب .

قوله تعالى ﴿ **قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ٭ قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ٭ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾

قال المفسرون : إن يوسف عليه السلام لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ماهو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وأخوته ، وبدره البكاء ، فتعرف إليهم فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته وكان فيها شامة .

وقال ﴿ **هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون** ﴾ : يعنى كيف فرقوا بينه وبين أخيه. ﴿ **إذ أنتم جاهلون** ﴾ أى إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذى أرتكبتموه ، كما قال بعض السلف كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾[1] .

---

(١) الآية ١١٩ من سورة النحل .

والظاهر – والله أعلم – أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له فى ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه فى المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له فى ذلك . والله أعلم .

ولكن لما ضاق الحال ، واشتد الأمر ، فرج الله تعالى من ذلك الضيق ، كما قال تعالى ﴿فإن مع العسر يسرا﴾[1]

فعند ذلك قالوا ﴿ **أئنك لأنت يوسف** ﴾ : الاستفهام هنا يدل على الاستعظام ، أى أنهم تعجبوا من ذلك ، إنهم يترددون أكبر من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، فلهذا قالوا على سبيل الاستفهام ﴿ **أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى** ﴾ وقوله : ﴿ **قد منّ الله علينا** ﴾ أى بجمعه بيننا بعد الفرقة .

إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين . قالوا تالله لقد آثرك الله علينا ﴾ :

يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم فى الخلق والخلق ، والسعة والملك والتصرف ، والنبوة أيضاً ، على قول من لم يجعلهم أنبياء ، وأقروا له بأنهم أساءوا وأخطأوا فى حقه : ﴿ قال لا تثريب عليكم اليوم ﴾ :

يقول أى لا تأنيب عليكم ، ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم فى حقى بعد اليوم ، ثم زادهم الله لهم الدعاء بالمغفرة فقال ﴿ **يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ .

قال السدى : اعتذروا إلى يوسف فقال ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم** ﴾ يقول : لا أذكر لكم ذنبكم .

وقال ابن إسحق والثورى : ﴿ **لا تثريب عليكم** ﴾ أى لا تأنيب عليكم عندى فيما صنعتم .

﴿ **يغفر الله لكم** ﴾ : أى يستر الله عليكم فيما فعلتم ، وهو أرحم الراحمين . ﴿ **اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً وأتونى بأهلكم أجمعين** ﴾ :

يقول : أذهبوا بهذا القميص ﴿ **فألقوه على وجه أبى يأت بصيراً** ﴾ وكان قد عمى من كثرة البكاء .

﴿ **وأتونى بأهلكم أجمعين** ﴾ : أى بجميع بنى يعقوب .

﴿ يعقوب وقد جاءه البشير ﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ
لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا
خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الانشراح .

﴿ **المفردات** ﴾ ﴿ **فصلت** ﴾ : انفصلت عن البلد وجاوزت حدودها .
﴿ **ريح** ﴾ : رائحة يوسف أو قميصه . ﴿ **تفندون** ﴾ : تنسبونى إلى الفند وهو ضعف العقل وفساد الرأى . ﴿ **ضلالك** ﴾ : خطئك .

قوله تعالى : ﴿ **ولما فصلت العير** ﴾ أى خرجت من مصر ﴿ **قال أبوهم** ﴾ أى يعقوب عليه السلام لمن بقى عنده من بنيه ﴿ **إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تُفَنِّدون** ﴾ تنسبونى إلى الفند والكبر .

وقال ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء ، وقتادة ، وسعيد بن جبير فى قوله ﴿ **لولا أن تفندون** ﴾ أى تسفهون .

قوله تعالى : ﴿ **قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم** ﴾ أى فى خطئك القديم ، ويعنون به حبه ليوسف .

قال قتادة : أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلاه . قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبى الله ﷺ .

قوله تعالى : ﴿**فلما أن جاءه البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لا تعلمون** ﴾ :

المقصود بالبشير هنا أحد أبنائه وقد ألقى القميص على وجه أبيه ، فرد الله بصره عليه ، وهذا هو قميص الشفاء ، وقد سبقه قبل ذلك قميص الجفاء الذى قال عنه الله : ﴿ **وجاءوا على قميصه بدم كذب** ﴾ وقميص الإبراء الذى قال عنه الله تعالى : ﴿ **وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قُدّ من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون** ﴾ أى ألم أقل لكم إن الله سيجمعنى به ، ويرده إلّى ، وألم أقل لكم إنى لأجد ريح يوسف ، قالوا له ﴿ **ياأبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين** ﴾ . قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم ﴾

وتلك أخلاق الأنبياء ، فقد سبق أن قال لهم يوسف ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾ وها هو ذا يعقوب يقول لهم ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى** ﴾ .

ولقد مدح الله رسوله محمداً ﷺ بما منحه ، فقال ﴿وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١] وكان خلقه القرآن ، قالوا وقد تمثل ذلك فى قوله جل شأنه ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[٢]

قال الصادق المعصوم للأمين جبريل : أخبرنى عنها ياجبريل . قال : لا أدرى ، حتى أسأل رب

(١) الآية ٤ من سورة القلم .
(٢) الآية ١٩٩ من سورة الأعراف .

العزة . ثم هبط عليه فقال : (أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك)[١] .

إنما قال يعقوب : سوف أستغفر لكم ربى ليرجئكم إلى وقت السحر ، حيث يقول تعالى ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾[٢]

كان عمر رضى الله عنه يأتى المسجد فيسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتنى فأجبت ، وأمرتنى فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لى . قال فاستمع الصوت ، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود ، فسأل عبد الله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى** ﴾ وقد ورد الحديث أن ذلك كان ليلة الجمعة .

كما قال ابن جرير أيضاً عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ﴿ **سوف أستغفر لكم ربى** ﴾ يقول : (حتى تأتى ليلة الجمعة ، وهو قول أخى يعقوب لبنيه) .

﴿ تأويل رؤيا يوسف ﴾

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ .

المفردات : ﴿ **العرش** ﴾ : كرسى تدبير الملك . ﴿ **خروا له سُجَّداً** ﴾ : ساجدين سجود إجلال وتعظيم لا سجود عبادة . ﴿ **نزغ** ﴾ : نخس والمراد وسوس وأفسد ما بينى وبين إخوتى . ﴿ **البدو** ﴾ : البادية . ﴿ **التأويل** ﴾ : التعبير . ﴿ **الأحاديث** ﴾ : الرؤى . ﴿ **فاطر** ﴾ : خالق . ﴿ **وليِّى** ﴾ : أى تولى أمرى . ﴿ **توفنى مسلماً** ﴾ : أى أمتنى على دين الإسلام .

قال العلامة ابن جرير : إن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهم ، ثم وصلوا باب البلد ، قال ﴿ **ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين** ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ١٤٨ ، ١٥٨) .
(٢) الآية ١٨ من سورة الذاريات .

قوله تعالى : ﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ قال ابن عباس : يعنى السرير ، أى أجلسهما معه على سريره .

قال العلامة ابن كثير : فى قوله تعالى : ﴿ وخَرُّوا له سُجَّداً ﴾ أى سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلا ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل ﴾ أى التى كان قصها على أبيه من قبل ﴿ إنى رأيت أحد عشر كوكباً ﴾ الآية .

وقد كان هذا سائغاً فى شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام فحرم هذا فى هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى ، هذا مضمون قول قتادة وغيره .

وفى الحديث أن معاذا قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال : (ما هذا يا معاذ ؟) . فقال : إنى رأيتهم يسجدون لأساقفتهم وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله . فقال : (لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها)[1] .

وفى حديث آخر : أن سلمان لقى النبى ﷺ : فى بعض طرق المدينة ، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام ، فسجد للنبى ﷺ فقال : (لا تسجد لى يا سلمان واسجد للحى الذى لا يموت) .

والغرض أن هذا كان جائزاً فى شريعتهم ، ولهذا خروا له سجداً .

فعندها قال يوسف ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً ﴾ أى أن هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ، كما قال تعالى ﴿هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ﴾[2] أى أن يوم القيامة يأتيهم ما وعدوا به من خير وشر .

وقوله ﴿ قد جعلها ربى حقاً ﴾ أى صحيحة صدقاً يذكر نعم الله عليه .

﴿ وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ أى البادية . قال ابن جريج وغيره . كانوا أهل بادية وماشية . ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء ﴾

أى إذا أراد أمرا قيض له أسبابا . وقدره ويسره ﴿ إنه هو العليم ﴾ بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ فى أقواله وأفعاله وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريده .

قوله تعالى ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليِّى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾ :

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به ربه عز وجل لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه فى الدنيا أن يستمر بها

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٢٢٨) . (٢) الآية ٥٣ من سورة الأعراف .

عليه فى الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، وأن يلحق بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهذا الدعاء يحتمل أن يوسف عليه السلام قاله عند احتضاره ، كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول (اللهم فى الرفيق الأعلى)[1] ثلاثاً .

﴿ من دلائل النبوة ﴾

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾
وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ
﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ
بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

المفردات : ﴿ **أجمعوا أمرهم** ﴾ : اتفقوا على إلقائه فى الجب وعزموا عليه . ﴿ **وكأين** ﴾ : المراد بها كثير من الآيات . ﴿ **غاشية** ﴾ : عقوبة تغشاهم وتحيط بهم . ﴿ **بغتة** ﴾ : فجأة ، ﴿ **بصيرة** ﴾ : حجة واضحة ومعرفة تامة .

قوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون * وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين * وما تسئلهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾

يقول تعالى لمحمد ﷺ لما قص عليه نبأ إخوة يوسف ، وكيف رفعه الله عليهم ، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم ، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام ، هذا وأمثاله يا محمد من أخبار العهود السابقة ﴿ **نوحيه إليك** ﴾ ونعلمك يا محمد ، لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك .

﴿ **وما كنت لديهم** ﴾ حاضراً عندهم ولا شاهداً لهم ﴿ **إذ أجمعوا أمرهم** ﴾ أى على إلقائه فى

(١) أخرجه البخارى فى المرضى (١٩) وفى الدعوات (٢٨) . ومسلم فى السلام (٤٦) . والترمذى فى الدعوات (٧٦) . وابن ماجه فى الجنائز (٦٤) . والإمام مالك فى الجنائز(٤٦ ، ٤٧) . والإمام أحمد فى (٦ : ٤٥ ، ٤٨ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١٠٨) .

الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ به ، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك ، وإنزالا عليك كقوله ، ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم ﴾[1] الآية .

وقال تعالى ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾[2] الاية

وقال : ﴿ تلك من أبناء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾[4] الآية .

وقال تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون* إن يوحى إلىّ إلا أنما أنا نذير مبين ﴾[5].

يقول تعالى : إنه رسوله ، وإنه قد أطلعه على أنباء مما قد سبق ، مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم فى دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ولهذا قال ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾ .

وقال ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[6] كقوله ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات .

وقوله : ﴿ **وما تسألهم عليه من أجر** ﴾ أى ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أى من جعالة ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ، ونصحاً لخلقه .

﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ أى يتذكرون به ويهتدون ، وينجون به فى الدنيا والآخرة

وقوله تعالى ﴿ **وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون** ﴾

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

إذا سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له من خالقك ؟ لقال لك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد القهار .

سل الواحة الخضراء والماء جارياً ... وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الروض والندى ... سل الليل والإصباح والطير شادياً
وسل هذه الأنسام والأرض والسما ... وسل كل شىء تسمع الحمد سارياً

(١) الآية ٤٤ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٤٤ من سورة القصص .
(٣) الآية ٤٩ من سورة هود .
(٤) الآية ٤٥ من سورة القصص .
(٥) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة ص .
(٦) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ٨ من سورة الشعراء .

فلو جـنّ هذا الليل وامتد سرمَدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم سوى الله يجريه كما شاء ثانيـاً
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت أفى كونكم من يمسك الريح ناهياً

تباركت ربنا وتعاليت ، آمن بك المؤمن ولم ير ذاتك ، وجحدك الجاحد ووجوده فى ملكك دليل على وجودك .

إن الله تعالى يخبر فى قوله ﴿ **وكأين من آية فى السموات والأرض** ﴾ الخ الآية . عن غفلة أكثر الناس عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله فى السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت ، وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم فى الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات فى الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الله الواحد الأحد خالق أنواع المخلوقات ، المنفرد بالدوام والبقاء والعمدية للأسماء والصفات وغير ذلك .

وقوله تعالى ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .

قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات ؟ ومن خلق الأرض ؟ ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله وهم مشركون .

وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبى وقتادة والضحاك .

وفى الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم : (لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هولك ، تملكه وما ملك[١]) .

وفى صحيح مسلم أنهم إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله ﷺ (قد قد) أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا .

وقال تعالى ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره ، كما فى الصحيحين عن ابن مسعود قلت يارسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال ﴿ أن تجعل لله ندا وهو خلقك ﴾[٢] .

وقال الحسن البصرى فى قوله ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ قال : ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس وهو مشرك بعمله ذلك ، يعنى قوله تعالى : ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو

(١) أخرجه مسلم فى الحج (٢٢) .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة : ٢ : ٣) وفى (سورة : ٢٥ : ٢) وفى الأدب (٢٠) وفى الديات (١) وفى الحدود (١٩) . ومسلم فى الإيمان (١٤١ ، ١٤٢) . وأبو داود فى الطلاق (٥٠) . والتفسير (سورة ٢٥ : ١ ، ٢) . والنسائى فى التحريم (٤) .

خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾[١] .

وثم شرك آخر خفى لا يشعر به غالباً فاعله كما روى حماد بن سلمة عن عاصم بن أبى النمور عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى فى عضده سيراً فقطعه — أو نزعه — ثم قال : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾ .

وفى الحديث : (ومن حلف بغير الله فقد أشرك)[٢] رواه الترمذى وحسنة من رواية ابن عمر .

وفى الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الرقى والتمائم والتولة شرك)[٣] وفى لفظ لهما (الطيرة شرك وما منا إلا متوكل ولكن الله يذهب بالتوكل)[٤] .

وروى أحمد عن زينب امرأة ابن مسعود قالت : « كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه ، فقلت : وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندى عجوز ترقينى من الحمرة فأدخلتها تحت السرير ، قالت : فدخل فجلس إلى جانبى فرأى فى عنقى خيطاً فقال : ما هذا الخيط ؟ قالت : قلت خيط رُقَىَ لى فيه ، فأخذه فقطعه ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك ، سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) قال : قلت له لم تقول هذا وقد كانت عينى تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودى ير فيها فكان إذا رقاها سكنت ؟ فقال : إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها ، إنما كان يكفيك أن تقولى كما قال رسول الله ﷺ (أذهب البأس ، رب الناس ، اشف وأنت الشافى ، لا شفاء إلا شفاؤك ، شفاء لا يغادر سقماً »[٥] .

وفى حديث آخر رواه الإمام أحمد عن عيسى بن عبد الرحمن قال : « دخلت على عبد الله بن عكيم وهو مريض نعوده فقيل له : لو تعلقت شيئاً ؟ فقال أتعلق شيئاً وقد قال رسول الله ﷺ (من تعلق شيئاً وكل إليه) » .

وفى المسند للإمام أحمد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ (من علق تميمة فقد أشرك) وفى رواية (من تعلق تميمة فلا أتم الله له ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)[٦] .

(١) الآية ١٤٢ من سورة النساء .

(٢) أخرجه الترمذى فى النذور (٩) . والنسائى فى الإيمان (٤) . وابن ماجه فى الكفارات (٢) . والدارمى فى النذور (٦) . والإمام أحمد فى (١ : ٤٧) وفى (٢ : ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢) .

(٣) أخرجه أبو داود فى الطب (٢٩) . وابن ماجه فى الطب (٣٩) .

(٤) أخرجه أبو داود فى الطب (٢٤) . والترمذى فى السير (٤٦) . وابن ماجه فى الطب (٤٣) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٨٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٠) .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ٢٥٩) وفى (٦ : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ٢٠٨ ، ٢٦١) .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى (٤ : ١٥٤ ، ١٥٦) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه)[١] رواه مسلم .

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه ينادي مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) رواه الإمام أحمد .

وقال أحمد أيضاً عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ : قال : (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا : وما الشرك الأصغر يارسول الله ؟ قال (الرياء ، يقول الله تعالى يوم القيامة إذاجازى الناس بأعمالهم آذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ؟)[٢]

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ (من ردته الطيرة عن حاجته فقد لشرك) قالوا يارسول الله ما كفارة ذلك ؟ قال (أن يقول أحدهم اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك ولا إله غيرك)[٣] .

وقال الإمام أحمد عن أبي علي — رجل من بني كاهل — قال خطبنا أبو موسى الأشعري فقال : يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل . فقام عبد الله بن حرب وقيس بن المضارب فقالا : والله لتخرجن مما قلت أو لتأتين عمر مأذوناً لنا أو غير مأذون . قال : بل أخرج مما قلت . خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال (يا أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل) فقال له من شاء الله أن يقول : فكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يارسول الله ؟ قال : (قولوا اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه ونستغفرك لما لا نعلمه)[٤] وقد روى من وجه آخر وفيه أن السائل في ذلك هو الصديقَ كما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن معقل بن يسار قال : شهدت النبي ﷺ أو قال حدثني أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ أنه قال : (الشرك أخفى فيكم من دبيب النمل) فقال أبو بكر الصديق : وهل الشرك إلا من دعا مع الله إلهاً آخر ؟ فقال رسول الله ﷺ : (الشرك أخفى من دبيب النمل) ثم قال : (ألا أدلك على ما يذهب عنك صغيره ذلك وكبيره ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك مما لا أعلم) .

وقد رواه الحافظ أبو القاسم البغوي عن أبي بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ (الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا)

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وصححه والنسائي من حديث يعلى بن عطاء سمعت عمرو بن العاص سمعت أبا هريرة قال : قال أبو بكر الصديق : يارسول الله علمني شيئاً أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعي قال « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في (٥ : ٤٢٨ ، ٤٢٩) .
(٣) وأخرجه الإمام مالك في صفة النبي (٣٤) .
(٤) أخرجه الإمام في (٤ : ٤٠٣) .

وشركه)[١] وزاد الإمام أحمد (وأن أقترف على نفسى سوءا أو أجره إلى سلم) .

قوله تعالى : ﴿ **أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون** ﴾

هو كقوله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾[٣] .

أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمرهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

قوله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾ .

هذا خطاب كريم من رب كريم لنبى كريم ، قل يا محمد ، يا من أرسلت رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، قل لهم ﴿ **هذه سبيلى** ﴾ وسنتى ، وهذا منهجى ﴿ **أدعوا إلى الله** ﴾ وحده لا شريك له ﴿ **على بصيرة** ﴾ وبرهان ساطع وحجة قاطعة كذلك ﴿ من اتبعنى ﴾ يدعو على هذا المنهج وأمرت أن أسبح الله وأنزه ، فهو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، وسبحانه يحيى العظام وهى رميم ، ﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ﴾[٤] .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

سبحانه ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾[٥] .

من أغراض القصة

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات (٦٩) .
(٢) الآيات ٤٥ - ٤٧ من سورة النحل .
(٣) الآيات ٩٧ - ٩٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٣ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۗ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن
نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ
مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

المفردات : ﴿ **استيأس** ﴾ : يئس ، ﴿ **بأسنا** ﴾ : عقابنا وعذابنا ، ﴿ **عبرة** ﴾ : العبرة والاعتبار نوع واحد وفيها معنى العبور من جهة إلى جهة .

أنبياء الله رجال أوحى الله إليهم بشرعه ، وكل عمل فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، هو قول لاإله إلا الله ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[1].

والنبوة وحى ، والرسالة تبليغ هذا الوحى ، فلا نبوة بلا وحى ، ولا رسالة بلا نبوة ، لذا فإن النبى ﷺ ، لما ختم النبيين فقد ختم المرسلين ، لأن النبوة أعم من الرسالة ، وختم الأعم يقتضى ختم الأخص ، فمن ادعى نبوة بعد رسول الله فقد كفر كذلك من زعم أنه رسول بعد رسول الله .

قال المفسرون فى هذه الآية ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ الآية .

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء كما دل عليه السياق فى هذه الكلمة الكريمة ، أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع ، وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل ، وأم موسى ، ومريم بنت عمران أم عيسى ، نبيات ، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، وبقوله ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾[2] الآية

وبأن الملك جاء إلى مريم يبشرها بعيسى عليه السلام وبقوله تعالى ﴿ وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ﴾[3].

وهذا القدر حاصل لهن . ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك ، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه ، ويبقى الكلام معه فى أن هذا هل يكفى فى الانتظام فى سلك النبوة بمجرده أم لا ؟ الذى عليه أهل السنة والجماعة وهو الذى نقله الشيخ أبو الحسن الأشعرى عنهم أنه

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٧ من سورة القصص .
(٣) الآية ٤٢ من سورة آل عمران .

ليس فى النساء نبية وإنما فيهن صديقات كما قال تعالى مخبراً عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ﴾[١] .

فوصفها فى أشرف مقاماتها بالصديقية ، فلو كانت نبية لذكر ذلك فى مقام التشريف والإعظام فهى صديقة بنص القرآن .

وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا** ﴾ الآية : أى ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وهذا القول من ابن عباس يعتضد بقوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾[٢] الآية . وقوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **من أهل القرى** ﴾ المراد بالقرى المدن ، لا أنهم من أهل البوادى الذين هم من أجفى الناس طباعاً وأخلاقاً ، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعاً ، وألطف من أهل بواديهم ، وأهل الريف والسواد أقرب حالاً من الذين يسكنون فى البوادى ، ولهذا قال تعالى ﴿ **الأعراب أشد كفراً ونفاقاً** ﴾[٥] .

قال قتادة : ﴿ **من أهل القرى** ﴾ لأنهم أعلم وأحلم من أهل البوادى .

وقال الإمام أحمد عن شيخ من أصحاب رسول الله ﷺ قال الأعمش هو عمر عن النبى ﷺ أنه قال : (**المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذى يخالطهم ولا يصبر على أذاهم**)[٦] .

وقوله : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض** ﴾ يعنى هؤلاء المكذبين لك يا محمد فى الأرض ﴿ **فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ أى من الأمم المكذبة للرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها .

كقوله : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾[٧] الآية

فإذا استمعوا ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين ، وهذه كانت سنته فى خلقه .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ **ولدار الآخرة خير للذين اتقوا** ﴾ أى وكما نجينا المؤمنين فى الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة فى الدار الآخرة وهى خير لهم من الدنيا بكثير ، كقوله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ۞ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[٨] .

---

(١) الآية ٧٥ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ٨ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٥) الآية ٩٧ من سورة التوبة .
(٦) أخرجه ابن ماجه فى الفتن (٢٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ٤٣) وفى (٥ : ٣٦٥) .
(٧) الآية ٤٦ من سورة الحج .
(٨) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة غافر .

قوله تعالى ﴿ **حتى إذا استيئَس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فَنجِّىَ من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿ **حتى إذا استيئس الرسل** ﴾ الآية . (هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا استيئس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك)[١] .

وعن عائشة « أن النبى ﷺ قرأ ﴿ **وظنوا أنهم قد كُذِبوا** ﴾ (مخففة) » أخرجه ابن مردويه عن طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : يئس الرسل أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا .

﴿ **فنجى من نشاء** ﴾ أى فنجى الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم بحسب ما وضع الله من تأثير الأعمال فى طهارة النفوس وزكائها- هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾[٢] .

﴿ **ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** ﴾ : أى ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .

وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم ، ويقيموا عليهم الحجة ،وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المهتدون ، ويصر المعاندون ، فينجى الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ، ويهلك المكذبين ، ولا يخفى ما فى الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ، ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبى ﷺ .

وهذه سنه الله تعالى فى الأمم إذا كذبت رسلها ، قال جل شأنه : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد (٧٦) ووفى التفسير (سورة ٣ : ٤) وفى (سورة ١٢ : ٦) وفى بدء الوحى (٦) وفى الأنبياء (١٩) . ومسلم فى الجهاد (٧٤) .

(٢) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٣) الآية ٧٠ من سورة التوبة .

وهذا ختام يرتبط بالسورة ارتباطاً قوياً ، فإن قصة يوسف كما سماها الله تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾[1].

وقصص القرآن لا يساق عبثاً ، إنما لأغراض سامية وأهداف عليا ، فمن أغراضه العبرة والاعتبار ، فليس حديثاً يفترى ، كذلك هو تصديق لما سبق من الكتب المنزلة على الأنبياء ، وفيها تفصيل لكل شيء ، وفيها الهدى والرحمة للمتوسمين المعتبرين ، المؤمنين .

فالقصة فى القرآن مدرسة أساتذتها الأنبياء والمرسلون وهى منهج تربوى تربى على مائدته أهل التقى والفضل .

فطوبى للذين ينهلون من مناهل القرآن العذبة ، ويأخذون العبرة من قصته ومواعظه .

(١) الآية ٣ من سورة يوسف .

﴿ سورة الرعد ﴾

مقدمة:

السورة مكية وعدد آياتها ، ثلاث وأربعون .

قال صاحب البصائر : وعدد كلماتها ثمانمائة وخمس وستون ، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستة أحرف .

وتسمى سورة الرعد ، لقوله تعالى ﴿ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴾ .

ومقصود السورة : بيان حجة التوحيد فى تخليق السموات والأرض ، واستخراج الأنهار والأشجار والثمار ، وتهديد الكفار ووعيدهم ، وذكر تخليق الأولاد فى أرحام الأمهات ، على تباين الدرجات ، ومن النقصان والزيادات ، فى الأيام والساعات ، وإطلاع الحق تعالى على بواطن الأسرار ، وضمائر الأخيار ، والأشرار .

وذكر السحاب ، والرعد ، والبرق ، والصواعق ، والأمطار .

والرد على عبادة الأصنام .

وقصة نزول القرآن من السماء ، والوفاء بالعهد ، ونقض الميثاق ودخول الملائكة بالتسليم على أهل الجنان ، وأنس أهل الإيمان ، بذكر الرحمة ، وبيان تأثير القرآن ، فى الآثار والأعيان ، وكون عاقبة أهل الإيمان إلى الجنان ، ومقر مرجع الكفار إلى النيران ، وتقرير نبوة المصطفى بنزول الكتاب وبيان القرآن فى قوله : ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلا ﴾[(١)] إلى آخر السورة .

المتشابهات

قوله تعالى ﴿ كل يجرى لأجل مسمى ﴾ وفى لقمان ﴿ إلى أجل ﴾[(٢)] لا ثانى له ، لأنك تقول فى الزمان : جرى ليوم كذا ، وإلى يوم كذا ، والأكثر اللام كما فى هذه السورة ، وسورة الملائكة . وكذلك فى يس ﴿ تجرى لمستقر لها ﴾[(٣)] لأنه بمنزلة التاريخ ، تقول : كتبت لثلاث بقين من الشهر ، وآتيك لخمس تبقى من الشهر .

وأما فى لقمان فوافق ما قبلها وهو قوله تعالى ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴾[(٤)] والقياس : لله كما فى قوله تعالى : أسلمت وجهى لله .

لكنه حمل على المعنى أى يقصد بطاعته إلى الله كذلك : يجرى إلى أجل مسمى ، أى يجرى إلى وقته المسمى له .

---

(١) الآية ٤٣ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٢٩ من سورة لقمان .

(٣) الآية ٣٨ من سورة يس .

(٤) الآية ٢٢ من سورة لقمان .

وقوله تعالى ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ وبعدها ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ .

لأن بالتفكر فى الآيات يعقل ما جعلت الآيات دليلا له ، فهو الأول المؤدى إلى الثانى .

وقوله تعالى ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ . ههنا موضعان .

وزعموا أنه لا ثالث لهما ، ليس هذا بتكرار محض ، لأن المراد بالأول آية مما اقترحوا ، نحو ما فى قوله تعالى : ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ﴾[١] الآيات ، وبالثانى آية ما ، لأنهم لم يهتدوا إلى أن القرآن آية فوق كل آية ، وأنكروا سائر آياته ، ﷺ .

قوله تعالى ﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض** ﴾ وفى النحل ﴿ ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة ﴾[٢] .

وفى الحج ﴿ أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم ﴾[٣] .

لأن فى هذه السورة تقدم آية السجدة ذكر العلويات : من البرق والسحاب والصواعق ، ثم ذكر الملائكة وتسبيحهم وذكر آخرة الأصنام والكفار ، فبدأ فى آية السجدة بذكر من فى السموات لذلك ، وذكر الأرض تبعاً ولم يذكر من فيها ، استخفافاً بالكفار والأصنام .

وأما فى الحج فقد تقدم ذكر المؤمنين وسائر الأديان فقدم ذكر من فى السماوات تعظيماً لهم ولها وذكر من فى الأرض لأنهم هم الذين تقدم ذكرهم .

وأما فى النحل فقد تقدم ذكر ما خلق الله على العموم ، ولم يكن فيه ذكر الملائكة ولا الإنس تصريحاً ، فنصت الآية ما فى السموات وما فى الأرض فقال فى كل آية ما ناسبها .

قوله تعالى ﴿ **كذلك يضرب الله** ﴾ ليس بتكرار لأن التقدير : كذلك يضرب الله للحق والباطل الأمثال ، فلما اعترض بينهما (فأما) و(وأما) وطال الكلام أعاد فقال ﴿ **كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ .

قوله تعالى :

﴿ **لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به** ﴾ : **وفى المائدة** ﴿ **ليفتدوا به** ﴾[٤] **لأن (لو) وجوابها يتصلان بالماضى ، فقال فى هذه السورة** : ﴿ **لافتدوا به** ﴾ وجوابه فى المائدة ﴿ ما تقبل منهم ﴾ وهو بلفظ الماضى وقوله : ﴿ **ليفتدوا به** ﴾ علة وليس بجواب .

قوله تعالى ﴿ **ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ فى موضعين ، هذا ليس بتكرار ، لأن الأول متصل

(١) الآية ٩٠ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٤٩ من سورة النحل .
(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .
(٤) الآية ٣٦ من سورة المائدة .

بقوله ﴿يصلون﴾ ، وعطف عليه ﴿ويخشون﴾ ، والثانى متصل بقوله : ﴿ **يقطعون**﴾ وعطف عليه ﴿ يفسدون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك** ﴾ ومثله فى سورة المؤمن[١] ليس بتكرار .

قال ابن عباس : عيروا رسول الله ﷺ باشتغاله بالنكاح والتكثر منه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ . فكان المراد منه : لست ببدع من الرسل ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾ .

مناسبتها لما قبلها

إن الله سبحانه وتعالى أجمل ما فى السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية فى قوله : ﴿ وكأينَ من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾[٢] .

ثم فصلها هنا أتم تفصيل فى مواضع منها :

(١) أنه أشار فى سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله تعالى ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾[٣] ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر فى سالفتها .

(٢) أنه ذكر فى كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزى على الكافرين ، والنصر لرسله والمؤمنين ، وفى ذلك تسلية لرسوله ﷺ ، وتثبيت لقلبه .

(٣) جاء فى آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : ﴿ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[٤] وفى أول هذه وهو قوله تعالى ﴿ **تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ
ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ
تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ

(١) الآية ٧٨ من سورة المؤمن ، أو غافر .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة يوسف .
(٣) الآية ٣٩ من سورة يوسف .
(٤) الآية ١١١ من سورة يوسف .

فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿ **المر** ﴾ : تقرأ هكذا (ألف لام ميم را) وفيها ما فى أخواتها . ﴿ **عمد** ﴾ : جمع عماد أو عمود وقرئ عُمُد بالضم . ﴿ **مدّ الأرض** ﴾ : بسطها . ﴿ **رواسى** ﴾ : جمع راسية والمراد الجبال لأن الأرض ترسو بها أى تثبت . ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ : التغشية الباس الشيء والغشاء الغطاء . ﴿ **صنوان** ﴾ : جمع صنو وهى النخلات أو النخلتان يجمعهن أصل واحد ، وتتشعب منه رؤوس فتصير نخيلا ، وقيل الصنو المثل ، وعليه قوله ﷺ : (عم الرجل صنو أبيه)[1] والمراد نخيل متماثلات وغير متماثلات .

المر.اعلم أن كل صورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن ، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ، ولا مرية ، ولا ريب .

واعلم بأن هذه الحروف تشير إشارة قوية إلى إعجاز هذا الكتاب المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين ، وقد تحدى الله تعالى فصحاء العرب وأساطين البلاغة ،وأرباب البيان ، أن يأتوا بمثل هذا الكتاب المنزل بتلك الحروف ، فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، فتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، ولما أصيبوا بالإفلاس المخزى قالوا : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلّا أساطير الأولين ﴾[2] .

فقال لهم مولانا تبارك اسمه ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾[3]

ثم أخبرهم بعجزهم فقال ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[4] .

وجاء قوله جل شأنه بعد تلك الحروف تقطع ألسنة المعاندين فيقول ﴿ **تلك آيات الكتاب والذى أنزل من ربك الحق** ﴾ .

والحق هو الأمر الثابت الذى لا يختلف ولا يتخلف ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير

(١) أخرجه مسلم فى الزكاة (١١) . والترمذى فى المناقب (٢٨) .
(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٢٣ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٢٤ من سورة البقرة .

الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[١] ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يؤمنون** ﴾ : وهذا مما تسيل له النفس مرارة ، فالحق واضح ، والمنادى صائح ، والطريق لائح ، لكن القلوب التى جبلت وتمرست بالباطل ، لو جاءتهم كل آية فإن دأبها العناد والجدال بالباطل ، قال تعالى : ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾[٢] وقال جل شأنه : ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سُكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٣].

ومما يدعو إلى الأسى أن الأكثرية هكذا ، قال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[٤] وقال ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[٥] .

قوله تعالى ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾

إن الذى أنزل هذا الكتاب المعجز هو الله ، الذى رفع السموات بغير عمد ، فإعجازه فى آياته المتلوة ، فإعجازه فى آياته المشاهدة ، لا يقدر على ذلك غيره ، فالسموات أمامكم تشاهدونها ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾[٦] .

هل يقدر على ذلك غير الله ؟ إن الأثر يدل على المؤثر ، وإن النظام يدل على إله عليم مريد قدير ، منزه عن العبث ، متصف بالحكمة والمشيئة ، ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾[٧] .

من الذى خلق هذا ؟ الصدفة العمياء ؟ أم الطبيعة الصماء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[٨] .

قوله تعالى ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ :

الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ ، نؤمن بذلك إيماناً جازماً ، لا يحتمل شكاً ولا ريباً ، ونؤمن باستوائه تعالى على عرشه بلا تعطيل ، ولا تمثيل ، ولا كيف ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون ، لو كان كيف كان يكون ، فلا العرش يحمله ، ولا الكرسى يسنده ، بل العرش وحملته ، والكرسى وعظمته ، الكل محمول بعظمة إرادته ، وقهر مشيئته .

(١) الآية ٨٢ من سورة النساء .
(٢) الآية ٥٧ من سورة الكهف .
(٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٤) الآية ١٠٣ من سورة يوسف .
(٥) الآية ١١٦ من سورة الأنعام .
(٦) الآيات ١ – ٤ من سورة الملك .
(٧) الآية ١٠ من سورة لقمان .
(٨) الآية ١١ من سورة لقمان .

قوله تعالى ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾ :

فهما من خلق الله ، وكل منهما مسخر بعلمه وإرادته وقدرته ، لا يخرج عما أراده الله له ، قال تعالى ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[(١)] .

ولكى نعرف شيئاً من عظمة الخالق فى هذا الكون الفسيح الأرجاء ، نذكر هنا ما سجلته الحقائق عن هذا الكون .

قال صاحب كتاب : (العلم فى خدمة الدين) محمد عاطف البرقوقى . قال :

« ولكى نبين لحضراتكم اتساع الكون أقول : إن البعد بين الأرض والشمس يبلغ (٩٢,٨٧٠,٠٠٠) ميل وهى مسافة كبيرة كما ترون ، ولكن هذا البعد الكبير ليس إلا جزءاً صغيراً من أبعاد تفوقه كثيراً بين الأرض والنجوم البعيدة .

ولكى أصور لحضراتكم عظمة هذه الأبعاد ، ألجأ إلى طريقة أخرى هى طريقة سرعة الضوء .

كثيراً ما نلجأ إلى تصوير المسافات البعيدة بالسرعة فنقول مثلاً : إن المسافة بين القاهرة والاسكندرية تبلغ ثلاث ساعات ، بالقطار السريع ، وأن المسافة بين المنزل والمحطة تبلغ ساعة بالسيارة مثلا .

والسرعة التى سنتخذها فى وحدة تقدير أبعاد الفضاء ليست بالسيارة ولا القاطرة ولا الطيارة النفاثة والصواريخ ، بل هى سرعة الضوء ، وهى أكبر سرعة معروفة فى العالم .

وسرعة الضوء هى أيضاً سرعة اللاسلكى ، ولكى أوضح لحضراتكم عظم هذه السرعة ، أوجه النظر بمقارنتها بسرعة قطار سريع يقطع فى الساعة ٦٠ ميلا ، أى بسرعة ميل واحد فى الدقيقة ، أو جزء من ستين جزءاً من الميل فى الثانية .

أما الضوء فلا يقطع كسراً من الميل فى الثانية ، بل يقطع ١٨٦,٠٠٠ ميل فى الثانية ، أى ما يعادل ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية ، وهى سرعة عظيمة بلا شك .

وهناك حقيقة أخرى تبين عظمة هذه السرعة ، وهى أن المسافة بين الشمس والأرض وهى نحو ٩٢ مليون ميل كما ذكرنا ، وأشعة الشمس تصل إلى الأرض بسرعة الضوء العظيمة ، فتقطع المسافة بينها فى ٨ دقائق و $\frac{١}{٩}$ ثانية .

ولو حاول الإنسان أن يقطع هذه المسافة بطائرة نفاثة سرعتها ٦٠٠ ميل فى الساعة لاستغرق

(١) الآية ١٢ من سورة النحل .

قطعها : لا ٨ دقائق ولا ٨ ساعات ولا ٨ سنوات ، بل استغرق ذلك نحو ١٧ سنة و٦ أشهر ، ذلك بشرط أن تستمر سرعتها هذه دون توقف ليل نهار ، وأين هى الطائرة التى تسير سنوات دون توقف ، حتى للتزود بالوقود .

فما أعظم سرعة الضوء ، وما أبلغ تلك السرعة الضوئية الكونية التى تدل على قدرة الله عز وجل .

والشمس قريبة إلى الأرض بالنسبة إلى النجوم الأخرى ، فإن كانت أشعة الضوء تصل إلى الأرض من الشمس فى نحو ٨ دقائق ، فقد أثبت العلم أن هناك نجوماً تبعد عنا بملايين السنين .

وقد اتخذ العلماء السنة الضوئية وحدة تقدير المسافات الكونية ، تلك المسافات الكبيرة بين النجوم ، ولتتصوروا عظمة هذا الكون ، أقول : إن رحلة حول الأرض يقوم بها الإنسان تستغرق أياماً أو ساعات أو أشهراً ، ولكن اللاسلكى يقطعها فى أقل من ٧/١ ثانية ، وأقرب نجم إلينا بعد الشمس يصل ضوؤه فى ٤ سنوات و٤ أشهر ، وبعض النجوم البعيدة يصل إلينا ضوؤها فى (١٥,٠٠٠) سنة ، ويعتقد العلماء أن هناك نجوماً يصل إلينا ضوؤها فى ألف مليون سنة ضوئية .

وقد أثبت العلم أن النجوم وكل ما فى الوجود يسبح فى الفضاء كأسراب الحمام ، أو الطير التى تطير بسرعة فى الهواء ، ولكن النجوم تطير فى الفضاء بسرعة كونية هائلة وفيها مايدور من أقمار حول الأرض ، ومن أقمار وكواكب حول الشمس ، وهناك ملايين من المجاميع أو المجرات ، وفيها ما فيها ، وكلها تسبح فى الفضاء فى نظام وتنسيق من صنع الله ، وإبداع الخالق العظيم ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[1] .

والمتأمل فى هذا الكون العظيم كتأمل العلماء والحكماء ، لا يملك إلا أن يسجد لله خشوعاً وتبجيلا وتقديراً لعظمته وجلاله ، ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[2] ﴿ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ﴾[3] .

قوة جبارة

إذا نظرها إلى انتصارات العلم الحديث ، فكيف نجده بالنسبة إلى عظمة الكون ؟ وكيف نجد قوة العلم التى ضاعفت قوى الإنسان ملايين المرات ؟ وكيف نجدها بالقياس إلى تلك القوة الجبارة التى صنعت هذا الكون العظيم ؟

فى ناحية السرعة مثلا : يستطيع الإنسان أن يسير بسرعة خمسة أميال فى الساعة ، وبالعلوم والمخترعات ازدادت سرعته إلى مائة كيلو متر فى الساعة بالسيارة ، وإلى ألف كيلو متر بالطائرة النفاثة ، ووصل الى ١٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الساعة بالصواريخ التى تنطلق بالأقمار الصناعية ، فأين هذه السرعة التى وصل إليها الإنسان من سرعة الضوء ، أو السرعة الكونية التى تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ كيلو متر فى الثانية لا

(١) الآية ٤٠ من سورة يس . (٢) الآية ٢٨ من سورة فاطر . (٣) الآية ٨٥ من سورة الزخرف .

فى الساعة ، أى ١٠٨ ألف مليون كيلو متر فى الساعة ؟ إن هذه السرعة تكاد تكون خيالية وفوق تصور البشر ، ولا يمكن للعلم مهما سما تطوره أن يصل إلى جزء ضئيل منها ، فأين ١٠٠٠ كيلو متر فى الساعة من ١٠٨ ألف مليون كيلو متر فى الساعة ؟

وإلى أى مدى وصل العلم فى درجات الحرارة ؟

وكلنا يعلم أن العلم الحديث يعمل على الوصول إلى درجات حرارة مرتفعة فى الأغراض العلمية والصناعية ، وكان كشف الإنسان للنار ووسيلة إشعالها بداية عصر جديد ، ثم كان استخدامه للحطب ، ثم الفحم ، ثم البترول ، ثم الكهرباء ، ثم الذرة ، فإلى أى درجة فى الحرارة وصل ؟ وصل إلى ٦٠٠٠° مئوية قل عشرة آلاف من درجات الحرارة ، فأين هذه من درجة حرارة باطن الأرض التى تتحول المعادن من فعلها إلى غازات .

وأين هى من درجة حرارة الشمس التى تصل إلى آلاف الملايين من الدرجات ؟

وكذلك فى الإضاءة ، لقد استخدم الإنسان زيت البترول والكهرباء والفلورسنت ، فإلى أى قوة فى الإضاءة وصل ؟ إن أقوى مصباح وصل إلى ٦٠٠٠ شمعة ، ويدعى الإنسان أن فى استطاعته بإضاءاته أن يحول الليل إلى نهار فى جزء من الأرض ، فى بيته فى قصره فى ميدانه ، ولكن أى قوة جبارة أودعت الشمس إضاءتها التى تضىء العالم بأسره منذ ملايين السنوات ، وإلى ملايين من السنين مقبلة .

إن أقوى مصباح من صنع الإنسان يتضاءل أمام قوة إضاءة الشمس فى النهار والشمس مع هذا بعيدة عنا ملايين الأميال حقاً ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

غير المنظور

إن موجات اللاسلكى لا نراها تنتشر فى كل مكان ، ولكننا نستطيع إدراكها بأجهزة الراديو ، إن الأشعة السينية لا نراها ولكن نلمس آثارها بالتصوير وغير ذلك .

إن العلماء لم يروا الذرة إطلاقاً ، ولكنهم آمنوا بها واستخدموها فى القنبلة الذرية فى الاستفادة منها فى ميادين الصناعة والسلام .

إن الأشعة الكونية تملأ أركان الكون ، ولا تستطيع رؤيتها أو سماعها أى أننا آمنا بهذه جميعاً دون رؤيتها أو سماعها ، فهلا آمنا بالله الذى نلمس قدرته الجبارة ، وآثاره الخارقة ، وإبداعه الفريد ، وكونه الفسيح ، فهو الذى يحيى ويميت ، وإذا مرضت فهو يشفين ، وهو الذى ينصر المؤمنين ، ويخذل الكافرين ، ويحق الحق ، ويخذل الباطل ، أليست هذه جميعاً مشاهدات واقعية نلمسها بحواسنا ، تثبت وجود الخالق الذى لا إله إلا هو الحى الدائم) .ا .هـ .

تبارك ربنا حيث يقول : ﴿ **كل يجرى لأجل مسمى** ﴾ فما من شىء فى هذا الكون إلا وله أجله

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

الذى تنتهى إليه ، وسبحان من سخر كل شىء لحكمته وقدرته وإرادته ﴿ الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان ﴾[١] .

سبحانه ، يدبر الأمر ، ويفعل ما يريد ، يدبر أحكامه ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٢] .

يفصل الآيات كما فى قوله جل شأنه ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[٣] سواء كانت آياته متلوة ، أم فى الأنفس والآفاق ، فالكل ينطق بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن عن شكره ، ولا يغفل عن ذكره ، سموات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنا الجبين الساجد

كل هذا لتعلموا : أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ﴿ **لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾ فالذى قدر على إبداع هذا الكون قادر بالأولى أن يبعثكم أحياء : ﴿ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً ﴾[٤] .

فاعلموا أنكم بين يدى الله غداً موقوفون ، وعن أعمالكم محاسبون ، وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[٥]

قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ :

مد الأرض : أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ، لتثبت عليها الأقدام ، ويتقلب عليها الحيوان ، وينتفع الناس بخيراتها : زرعها وضرعها ، وبما فى باطنها من معادن جامدة وسائلة ، ويسيرون فى أكنافها يبتغون من رزق ربهم فيها .

ولا شك أن الأرض لِعظم سطحها هى فى رأى العين كذلك ، وهذا لا يمنع كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ، ولم يبق لديهم فيها ريب .

﴿ **وجعل فيها رواسى** ﴾ : أى وأرساها بجبال راسيات شامخات ، لا تنتقل ولا تتحرك ، حتى لا تميد وتضطرب .

﴿ **وأنهاراً** ﴾ : أى وجعل فيها أنهاراً جارية لمنافع الإنسان .

والحيوان ، فيسقى الإنسان ما جعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ، ويجعلها لنفسه طعاماً

(١) الآيات ١ - ٦ من سورة الرحمن .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٣) الآية ١٢ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٨ من سورة النبأ .
(٥) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .

وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته فى طعامه وشرابه وغذائه .

﴿ **ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين** ﴾ : أى وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ، ذكرا وأنثى . حين تكونها ، فقد أثبت العلم حديثاً أن الشجر والزرع لا يولدان الثمر والحب إلا من اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث فى شجرة واحدة ، كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو التذكير فى شجرة وعضو التأنيث فى شجرة أخرى كالنخل ، وماكان العضوان فيه فى شجرة واحدة إما أن يكونا معاً فى زهرة واحدة كالقطن ، وإما أن يكون كل منهما فى زهرة كالقرع مثلاً .

﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ : أى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلماً بعد أن كان مضيئاً ، فكأنه وضع عليه لباساً من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئاً ، وكل هذا لتتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار ، أو بالبحث على المعايش والأرزاق ، كما قال : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً ﴾[(1)] وقال ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾[(2)] .

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التى تشاهد رأى العين فى كل صباح ومساء ، وفى كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ، ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به ، وعقل يهتدى به إلى وجهة الصواب .

وينتقل من النظر فى الأسباب إلى مسبباتها فقال ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ : أى أن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التى خلق بها هذه الأشياء العظيمة ، لدلائل وحججاً لمن يتفكر فيها ويعتبر ، فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد ، وهو ذو الإرادة المطلقة ، والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلق ، ولا إعادة من فنى منهم ، ولا ابتداع ما شاع إبتداعه .

ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له ، ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغى أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر ، أو ملك أو جن أو غير أولئك ممن سُلب النفع والضر ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفيه ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ﴾[(3)] قوله تعالى ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

تقول الحقائق العلمية

من آيات الله فى عالم النبات :

النبات من آيات الله التى تسبح بحمده وقدرته ، وتشهد بأنه وسع كل شىء علما .

(١) الآية ٨٦ من سورة النمل . (٢) الآية ٢٣ من سورة الروم . (٣) الآية ٧٣ من سورة الحج .

فإذا تأملنا هذا الكائن الحى الذى يبدو ساكناً قابعاً فى مكانه ، وتناولناه بالدراسة والبحث ، نجد أنه يقوم بكافة العمليات التى تتطلبها الحياة من تغذية وهضم وإفراز وإكتناز وتناسل ودفاع وتضحية ومكافحة لبقاء الأصلح .

وسنقتصر فى هذا البحث على قليل من الظواهر العجيبة المعجزة ، التى أودعها الله فى عالم النبات ، وإشارات القرآن لها .

فالمعروف مثلا عن النبات الراق أن جذوره تمتص الماء المذاب فى المواد المعدنية الغذائية التى فى الأرض ، ثم تصعد محاليلها فى أوعية خاصة ، فيفيد منها النبات فى التغذية ، وبناء جسمه .

ويستفاد من البحوث العلمية أن النباتات وإن كانت متجاورة فى أرض واحدة ، وتسقى بماء واحد ، فإن بعضها يختلف فى الانتقال بهذه المحاليل الأرضية عن البعض الآخر ، ذلك بأن كل نوع من النبات يتحكم فى امتصاص أصناف خاصة يختارها من تلك المحاليل المفروض أن تمتصها الجذور ، وبذلك يشذ عن القانون المعروف (بقانون الانتشار الغشائى) فهى إنما تسمح بامتصاص محاليل تحتوى على الأملاح المعينة الصالحة لعملية (التحويل الغذائى) ، وتمتصها بقدر معلوم ، وتمتنع عن امتصاص محاليل أخرى ، ولو أنها قابلة للانتشار ، لأنها لا يستفاد منها ، أو أنها تلحق بالنبات أذى .

فالمعروف أن الحاصلات الزراعية النجيلية (كالقمح والشعير والذرة) تمتص من محاليل الجير والبوتاس والأزوت أقل من نصف ما تمتصه الحاصلات الجذرية (كالبطاطس واللفت والبنجر) ولكنها تتفوق عليها فى امتصاص السليس .

ومن هنا نشأ نظام الدورة الزراعية ، وتعاقب الحاصلات الذى يتبعه المزارعون الآن ، فلا يزرع فى البقعة الواحدة من الأرض محصولان متعاقبان ، يحتاج كل منهما إلى نفس العناصر الغذائية المستمدة من الأرض .

فالمشاهد أن الذرة التى تعقب البرسيم تكون أوفر محصولا من التى تعقب القمح ،ومن ثم عرفت أيضاً ضرورة التسميد ، فيضاف السماد الذى يحتوى عناصر معينة إلى الحاصلات المزروعة فى أرض فقيرة فى تلك العناصر ، أو استنفذها محصول سابق .

ويمكن مشاهدة قدرة الجذور على انتخاب المحاليل الغذائية الملائمة لها ، بأن تزرع بذرة من نبات الطماطم ، وأخرى بجوارها من نبات الداتورة ، وكلاهما ينتمى لعائلة واحدة (هى الباذنجانية) فتخرج الأولى ثمراً يؤكل مريئا ، وتنتج الأخرى نباتا يحتوى مادة سامة مخدرة .

كذلك الحال إذا زرعت بذرة البطيخ بجوار بذرة الحنظل (وكلاهما من العائلة القرعية) .

وتعزى قدرة الجذور على الانتخاب والتحكم فى امتصاص المحاليل الصالحة ، إلى قوة حيوية تتمتع بها خلايا خاصة من أنسجة الجذور ، ولا تخضع (لقانون الانتشار الغشائى) .

ولم يكتشف العلم للآن تفسيراً لهذه القوة الحيوية الإرادية المعروفة فى عالم النبات باصطلاح (الامتصاص الانتخابى فى جذور النباتات) مع وجودها فى قطع متجاورة من الأرض ، وتسقى بماء واحد ، ومازالت هذه الخاصة سراً وآية من آيات الله التى أودعها فى النبات ، عبرة وموعظة لقوم يعقلون ، كما أشار إليها القرآن فى قوله ﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾

وحبذا لو اتعظ الإنسان ، واقتدى بالنبات فأكل من الطعام ما يفيده ، وتجنب ما يضره ، كتعاطى المخدرات والخمر ، ولم يسرف فى الأكل كلما رأى الطعام سائغاً وفيراً ، فيملأ منه بطنه ، وتصيبه التخمة ، وعسر الهضم ، وغير ذلك من الأمراض .

الله قدر فهدى :

يتضح مما سبق من الكلام عن تحكم خلايا أنسجة خاصة فى الجذور ، واختيار المحاليل الغذائية ، أن الخلية فيها حياة ، ولها إرادة .

والخلية هى الوحدة التى يبنى منها جسم النبات ، وكذا الحيوان مثلها ، كمثل اللبنة تشاد بها المبانى الشامخة .

وتتكون الخلية (نباتية كانت أو حيوانية) من بعض العناصر التى يتركب منها الطين متحدة بالماء ، الذى جعل الله منه كل شىء حى ، بنسب ومعايير قدرها الخلاق العظيم ، ثم أودع فيها الحياة كما ورد فى الآية ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة ﴾[١] الآية .

ومن المعجز فى خلق هذه الخلية أن حجمها غاية فى الصغر ، فلا تراها العين المجردة دون الاستعانة بالمجهر (الميكروسكوب) الذى يكبر صورتها مئات بل ألوف المرات ، فتظهر فى شكل كتلة من مادة هلامية يحتويها فى الغالب جدار رقيق ، ويستقر فى هذه المادة الهلامية كتلة دقيقة داكنة تعرف (بالنواة) ويعزى إليها السيطرة والإشراف على أداء الوظائف الحيوية التى تقوم بها الخلية .

فالله تعالى خلق هذه الخلية وسواها ، وقدر تركيبها ، ثم بث فيها الروح وبعد ذلك هداها إلى القيام بأداء وظائفها حسبما تقتضيه ظروف معيشتها .

كما قال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى * الذى خلق فسوى * والذى قدر فهدى ﴾[٢] .

وحين سأل فرعون موسى وأخاه هارون عن ربهما قائلا ﴿ من ربكما يا موسى ﴾ أنزل الله على موسى أن يجيب ﴿ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾[٣] فكان جواباً سديداً أفحم الذى كفر ، وكان فيه هدى للناس وآيات لأولى الألباب .

(١) الآيتان ١٢ ، ١٣ من سورة المؤمنون . (٢) الآيات ١ — ٣ من سورة الأعلى . (٣) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة طه .

بل شاء الله أن يخلق بقدرته أنواعاً من الحيوان والنبات ، لا يتكون الواحد منها إلا من خلية واحدة وحسب ، ومع ذلك فهى تقوم بأعباء الحياة كافة ، بعد أن أعطاها خلقها ، ثم هداها لأداء عملها .

ومن أمثلة الحيوانات وحيدة الخلية ، الحيوان المنوى الذى سبق ذكره فيما تقدم ، وفى عالم النبات كذلك طوائف من النباتات وحيدة الخلية كالميكروبات ، وبعض أنواع الفطر والطحالب .

وفى النبات غير ما ذكر كثير من المثل العليا جديرة بالتفكير والتقدير والموعظة ، كالأمانة فى العمل ، والنظام الاشتراكى السليم ، والعمل لصالح المجتمع فى غير ما تواكل ولا تنصل من المسئولية ، ولا أنانية ولا إقطاع ، وكالدفاع والتضحية بل والاستشهاد فى سبيل الواجب .

وحسبنا إظهار الطرف من هذه الحقائق القيمة والمثل العليا أن نتمعن فيما تقوم به آلاف الملايين من الخلايا التى يبنى بها جسم الفرد من النبات ، فنرى أن لكل وظيفة من وظائف أعضاء ذلك النبات نسيجاً خاصاً ، يتألف من طائفة من الخلايا ذات الشكل ، وخواص معينة ، تتلاءم وأداء تلك الوظيفة المنوطة بها ، ولا تتوقف أية خلية عن عملها مدة حياة النبات ، بل تظل دائبة على أدائه دون ملل أو إحالة عملها على جارتها لتهرب من المسئولية ، او (ادعاء المرض طلباً للراحة وابتغاء الإجازة) .

وهى تكرس حياتها لأداء الواجب فى سبيل الصالح العام للنبات ، حتى لا يتعرض للسقم أو الموت .

وللخلايا ظاهرة عجيبة فى التطوع للدفاع عن النبات الذى يحتويها ، فإذا أصيب الساق بجرح مثلا تطوعت مجموعة من الخلايا الواقعة على حافة الجرح فتتكاثر بنشاط ، ثم ترسب مادة واقية على جدرانها (كالفلين) ، حتى تسد فجوة الجرح (كما يفعل الطبيب الجراح عندما يحشو جوف الجرح بالضمادة (الفتيل) ، وبذا يسلم النبات المجروح من التلوث والأذى .

ولبعض النباتات وسائل مختلفة للوقاية ، والدفاع المستديم عن جسمها : كوجود الأشواك مثلا التى تتكون أحياناً بتحور بعض الأوراق أو الفروع وغيرها ، وحيث يضحى النبات بالوظيفة الأصلية المخصصة لها هذه الأعضاء ، فتستحيل إلى أشواك فى سبيل السلامة والأمن العام .

ومن النباتات ما يفرز مواد لزجة على أوراقها ، أو أغصانها ، تعرقل سعى الحشرات التى تدب عليها ، ومنها ما يكون فى ثمارها أو عصارتها مواد سامة تصيب الحيوانات فترعوى ولا تعود إلى التطفل عليها .

كذلك ينبعث من الأوراق أو الأزهار فى بعض النباتات زيوت طيارة لها رائحة تنفر الحشرات ، أو تقتلها ، ومن أمثلة ذلك نبات (البيرفودم) الذى يدخل فى تحضير كثير من المبيدات الحشرية .

وتتجلى ظاهرة الاشتراكية والديمقراطية وإنكار الذات وعدم الإقطاع ، فى أن الخلية التى تبدأ فيها

عملية تحضير المواد الغذائية ، التى يكون فيها النبات ، لا تأخذ هذه الخلية من تلك المواد إلا ما هو مقرر لنصيبها ثم تسمح بمرور الباقى للخلية المجاورة فتحذو حذوها ، وما زاد من الغذاء بعد ذلك يرحل إلى مواضع الاكتناز ، فتخزنه الأنسجة المخصصة لذلك دون اختلاس أو اغتصاب ، حتى إذا جاء وقت الحاجة لهذا الغذاء قامت خلايا خاصة بإفراز مواد تحلله وتجعله سائغاً للمرور والتغذية ، فيوزع بمعدل يضمن التموين بالقسط لكافة أجزاء النبات .

أما التضحية فى النبات فتتضح فى ظاهرة تساقط أوراقه فى الشتاء ، حيث يقل أو يتوقف صعود العصارة فى الساق ، وكذا عند اشتداد حرارة الجو .

والمعروف فى علم النبات أن الورقة مصدر إمداد النبات بالغذاء العضوى من الجو ، كما تقوم أيضاً بعمليات التنفس والنتح والحكمة فى تساقط الأوراق تقليل النتح مراعاة للتقشف والاقتصاد فى كمية العصارة المحدودة شتاء ، وكذا عدم الإسراف فى تبخير الماء عند إرتفاع درجة الحرارة .

ففى كلا الحالين يضحى النبات ببعض أو كل أوراقه ، رغم الحاجة الماسة إلى الوظائف التى تؤديها ، وذلك حفظاً للمحاليل المائية التى فى جسم النبات ، وإذا حان وقت تساقط الأوراق أخذت الخلايا التى تحيط بعنق الورقة عند اتصالها بالفرع فى تكوين نطاق من الفلين ، يعزلها ويحول دون وصول العصارة إليها فتختنق تدريجياً ثم تذبل ، وتنفصل عن النبات ، وتسقط مضحية بنفسها فى سبيل توفير العصارة للنبات الذى كان يحملها .

ولا تتوقف تضحية الورقة عند هذا الحد بل بعد أن تموت شهيدة الواجب يدركها التعفن والانحلال ، ويتخلف عن رفاتها مادة عضوية سماوية تختلط بالمحاليل الغذائية التى فى التربة ، وتسهم فى تغذية النبات الذى سقطت شهيدة تحته وهكذا أفاد النبات من تلك الورقة فى حياتها وبعد موتها ، وفى ذلك أسمى مثل للتعاون والتضحية .

وبعد : أفلا يجدر بالإنسان وقد ميزه الله بالعقل ، وفضله على سائر مخلوقاته ، أن يتدبر هذه الآيات البالغة التى يراها فى النبات ، فيتعظ بها ، ويتخذ من هذا الكائن قدوة حسنة ، فيتعاون مع بنى جنسه ومواطنيه ، ويقاسمهم عيشة راضية واشتراكية سليمة ، تقوم على العدل والقسط فلا يسرف فى الطعام ، ويتغالى فى البذخ متغاضياً عن المحرومين من إخوانه فى الوطن ، بل عليه أن يستعد لما تتطلبه ظروف الحياة من اقتصاد وتقشف وتضحية فى سبيل المجتمع ، وعليه كذلك أن يحتاط للدفاع عن أهله ومواطنيه الذين يحيا معهم ، فينشئ على حدود الوطن العزيز خطوط للدفاع ، تحول دون غزو أعدائه مضحياً بنفسه وبكل ما يتطلبه ذلك من نفقات واقتصاد ، أسوة بما اتخذه النبات من تحوير أعضائه الغالية الضرورية ، وما استشهد منها فى هذا السبيل ، وما أعده من أشواك وعراقيل ، تمنع غزو الأعداء للوطن المقدس ، فما أجدر الناس بأن يتخذوا من هذه الآيات عبرة وموعظة ، ولا يمرون عليها وهم يغضبون أبصارهم ، كقوله تعالى ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾[1] .

(١) الآية ٧٣ من سورة الفرقان .

من المعجزات الكامنة فى البذور

إن من آيات الله البالغة فى النبات ما أودع من أسرار فى بذوره التى يناط بها أصلا وظيفة انتشار النبات واتساع مملكته ، وعدم انقراضه ، فهى تنتشر بوسائل مختلفة ، وجسمها مكيف بحيث يتلاءم وتلك الوسائل التى تحقق مهمتها ، فبعض بذوره خفيفة الوزن تذروها الرياح ، وأخرى ذات أجنحة يحملها الهواء وينقلها إلى موطن آخر .

ومن البذور ما يطفو على سطح الماء لأنها أقل كثافة منه ، وقد تزود بجيوب هوائية لسهولة الطفو وبعضها يتكون من ثمار تغرى الحيوان والطير بأكلها ، فتحملها فى بطونها وتنتقل بها إلى جهات مائية عن مصدرها ، ثم تهضم الثمار دون أن تتلف بذورها ، لأن لها أغطية من أنسجة خاصة غير قابلة للهضم ، فتمر فى القناة الهضمية حية سالمة وتخرج من الجسم مع الفضلات لتنبت فى أرض موطن جديد بعيد .

ومن الثمار ما يتفجر عند النضج فتقذف بالبذور فتتناثر بعيداً عن نبات الأم ، حتى لا تكتظ النباتات الجديدة وتتنازع الغذاء والبذور ، لا يزال يكتنفها سر لم يكتشفه العلم بوضوح للآن ، وهو قدرة احتفاظها بحيويتها .

فالمعروف فى علم النبات أن للبذرة فترة من الزمن (تعرف بفترة الراحة) تقضيها سالمة حية ، حتى تتاح لها الظروف فتنبت وتخرج نباتاً ، كالذى نشأت فيه ، وتختلف مدى هذه الفترة باختلاف نوع النبات ، فهى قصيرة فى بعضها (كبذور المانجو) وتطول فى البعض الآخر (كبذور نبات الهالوك) التى تمكث فى الأرض حية بضع سنين ، انتظاراً للنبات العائل الذى تتطفل عليه فيبدأ إنباتها .

وللبذور فى فترة الراحة قدرة عظيمة على تحمل التغيرات الخارجية ، فقد ثبت من التجارب أن بعض البذور الجافة تظل حيةً إذا ارتفعت الحرارة إلى درجة غليان الماء (١٠٠ درجة مئوية) فى حين أن جنينها عندما تنبت يموت إذا تعرض لدرجة ٦٠ مئوية .

وقد اختبرت درجة مقاومة البذور بإحاطتها بضعة أيام بالهواء السائل ، بحيث انخفضت درجة الحرارة إلى ١٩٤ تحت الصفر ، فلم تتأثر بذلك ، ونجح إنباتها مع أن نشاط الجنين فى الأحوال العادية يتوقف ويهلك إذا انخفضت درجة الحرارة حتى درجة الصفر المئوية .

ولا يمكن الاستدلال على حيوية البذور بمظهرها الخارجى ، بل ولا بالتشريح الداخلى ، فهى تبدو سالمة من العفن ، ونخر الحشرات ، وكل تلف معروف ، ومع ذلك تفشل عند الإنبات فى حين أم مثيلاتها تماماً ينجح إنباتها .

وتعليل ذلك أن الأولى فقدت حيويتها ، وظلت الأخرى حية ، ولا يعرف للآن تفسير واضح لهذه الظاهرة ، فالحياة أو الروح ما زالت من أمر ربنا الذى خلق الموت والحياة .

وهكذا نرى أن البذور التى نزرعها لا تنبت إلا بإذن الله ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم ما

تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾(١) .

فعسى الله أن يوفق عباده الصالحين ، ومن يحيطونه بشيء من علمه بقدر ما يشاء ، ليهتدوا لحل هذا السر العظيم .

وكما أشار القرآن الكريم إلى التأمل فى قدرة الله التى تجلت فى حيوية البذور ، نبهنا كذلك إلى التدبر والبحث فى المراحل التى تطرأ بعد أن أنزل الله من السماء ماء فنبتت به البذور بقدرته ، وأخرجت النبات الذى يحمل الأزهار ، فتتفق وتكون حباً وثماراً مختلفة ، بعضها متشابه والبعض غير متشابه ، وقد فكر العلماء ملياً ، واستلفت نظرهم هذا التشابه والاختلاف ، وانتهى بهم التفكير إلى دراسة فرع خاص من علم النبات ، وهو فرع (تقسيم النبات) أو (النبات الترتيبى) أو (التكسونوميا) .

فجعلوا مملكة النبات رتباً وفصائل وعائلات وأجناساً ، لسهولة التعرف على أفرادها ، ومعرفة درجة الصلة والقرابة بينها ، وقد يسر ذلك دراسة علم الوراثة فى النبات والتعمق فى نظرياتها ، حتى أمكن الحصول على خلف طيب من أبوين متشابهين ، هو خير من كل منهما .

وكان من نتيجة هذا الكشف أن أفادت الزراعة فائدة عظمى بإيجاد سلالات جديدة ، أوفر غلة ، وأعظم ربحاً .

فتأمل قوله تعالى ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾(٢) .

النار من الشجر الأخضر

فى عالم النبات معجزات كثيرة غير ما سبقت الإشارة إليه ، تحار العقول فى إدراكها ، وتعليل كيفية حدوثها ، لأننا فى الواقع لا نرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة التى تابعها النبات إلى أن وصل لهذه النتيجة .

فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة ، مسألة تكوين الخشب فى جسم النبات الأخضر ، ومن هذا الخشب توقد النار التى هى مصدر لطاقة لا غنى لنا عنها فى حياتنا اليومية .

وفى القرآن آيات تشير إلى ذلك ، وقد تذكر الناس بقدرة الخلاق العظيم ، لعلهم يهتدون كقوله تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾(٣) .

وعندما نتدبر معنى هذه الآية نجد أنها تشير إلى أصول البحث فى علوم مختلفة ، مثل الكيمياء والنبات والأحياء والطبيعة وغيرها .

---

(١) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة الواقعة . (٢) الآية ٩٩ من سورة الأنعام . (٣) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة الواقعة .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة ودراسة العلوم ، لكى يتيسر لهم تفسيره تفسيراً صحيحاً يفيدون منه ، ويتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية ، وصلتها بحياة الإنسان ، وما خلق الله فى السموات والأرض . وسنعالج فيما يلى تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع له هذا المقام ، ونتبين كيف تتمشى العلوم الحديثة مع آيات القرآن الحكيم .

فالله سبحانه وتعالى خلق خلايا النبات التى تنبنى منها أنسجته وأعضاؤه ، وسوّاها وقدّرها ، ثم هداها لبناء الخشب (الذى توقد منه النار) بتوجيه تهيمن عليه حيوية تلك الخلايا ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن فى هذه الظاهرة .

وفيما يلى شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكوين الخشب :

دأب الإنسان من القدم على أن يتخذ من الشجر وقوداً ، ثم تدرج إلى صناعة (الفحم النباتى) منه وإدخاره ليوقد عند الحاجة .

وما الفحم الحجرى الذى يستخرج الآن من المناجم الغائرة فى بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت فى الأرض ، وتوالت عليها أحقاب سحيقة من الزمن ، استغرقت آلاف آلاف السنين ، وطرأ عليها فى غصونها تغيرات مختلفة (فتكربنت) أى (تفحمت) وأصبحت ذلك الفحم المعروف ، والفحم يكاد يتكون كله من الكربون وهو عنصر يحترق باتحاده مع أكسجين الهواء ، ويدخل فى تركيب كل مادة عضوية .

فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات ، وبناه فى جسمه ، ومن عجب أن هذه الكتل من الخشب وما نتج عنها من الفحم ، إنما بناها النبات من غاز ثانى أكسيد الكربون الذى يوجد فى الهواء مختلطاً مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر .

وقد أوحى الله إلى النبات ، وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى (ويمثله) فى جسمه لبناء الخشب وغيره من المواد العضوية ، فى درجة الحرارة العادية دون عناء ملحوظ ، ولا أعراض ظاهرة ، فى حين أن فصل الكربون عن ثانى أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائى درجة حرارة مرتفعة ، وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض والله سبحانه وتعالى أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية (تمثيل الكربون) وفصله عن غاز ثانى أكسيد الكربون ، ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة (بالخضير) أو الكلوروفيل .

ولذا فإن الشجر الأخضر (والأخضر دون سواه) هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون ، وهو أصل الخشب الذى نوقد منه النار .

فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصة امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس (وهى الحمراء

والبرتقالية) وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثانى أكسيد الكربون ، ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية (تمثيل الكربون) باتحاد الكربون مع عنصرى الماء (وهما الأيدروجين والأكسجين) ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر .

على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد ، ولتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث لا يتسع له هذا المقام .

ومتى تم تكوين هذا المحلول السكرى ينتقل من خلية لأخرى ، حتى يصل إلى الأوعية الخاصة التى يتكون فيها الخشب ، فيختزن فيها ثم يتركز تدريجياً ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة (مثل اللجنين والسوبرين) فتستقر فى موضع التخزين ، وتصبح مادة صلبة هى الخشب المعروف .

ومن العجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ١/١٠٠٠ من المليمتر (ككثير من الخلايا التى سبق ذكرها فى مناسبات مختلفة) ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا وسخر لها الإمكانيات ، فقامت بعملها المعجز .

وبعد – فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل أن ينهض بتكوين الخشب كما كونه النبات ؟ كلا ، لأن هذه الإمكانيات ينقصها العامل الهام الفعال وهو الحيوية التى أودعها الخالق سبحانه وتعالى فى مادة الخلية ، وهداها لأداء هذه المهمة ، بعد أن خلقها وقدرها : فهو الذى قدر فهدى وهو الذى ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[١] .

وأنى للإنسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية ، وقد جعل الله لعقله أفقاً محدوداً ، ولم يؤته من العلم إلا قليلا ، فإذا طعن فى السن وبلغ من العمر أرذله نكسه الله فى الخلق ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً ، تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ﴾[٢] .

هذا الإنسان الذى يجأر اليوم بقهره الذرة وتحطيمها ، ويصنع منها قنابل ذرية وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالا ودماراً يهلك حرثهم ، ويفنى نسلهم ، قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثلا فقال ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾[٣] فأنزل الله فى القرآن على نبيه ﷺ

﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٤] .

ليبين لهذا الإنسان أن الذى خلق العظام من العدم لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى ، وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان مالم يعلم ، ويعظه ويظهر له قلة حيلته إلى جانب قدرته تعالى التى لا تحد ، فقال

(١) الآية ٥٠ من سورة طه .
(٢) الآية ٥ من سورة الحج .
(٣) الآية ٧٨ من سورة يس .
(٤) الآية ٧٩ من سورة يس .

إن الذى أنشا العظام أول مرة ثم يحييها هو ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾[١] .

ومن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة أن الخشب لا يتكون إلا من الشجر الأخضر بالتخصيص ، لاحتوائه على مادة (الكلوروفيل) كما أسلفنا ، وكما هو ثابت فى بحوث علم النبات .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامداً فى موضعه ، قد استطاع أن يصنعه من الهواء والماء والضوء ، وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق ، وتفوقت عليه تلك الخلية ونجحت فى تكوين الخشب ، وهى من أصغر مخلوقات الله حجماً .

كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[٢] .

فانظر كيف ضعف الإنسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة ، بل وعن استرداد ما تسلبه منه .

ألا فكم تكون ضآلة قدرة الإنسان الذى قهرته الخلية الضئيلة ، والذبابة الدنيئة إزاء خلق السموات والأرض ، وهى أكبر من خلق الناس كما قال تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٣] .

والقرآن حثنا على النظر إلى الكائنات المختلفة التى حولنا ، وفى أنحاء الكون ونبهنا إلى التمعن والتفكير فى كيف خلقها الله تعالى بهذا الكمال البديع ، الذى يسبح بقدرة خالقها العظيم ، فاستمع لقوله تعالى ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[٤] .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات الموجزة المعجزة ، وهى تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) والجغرافيا .

ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى الوارد فى بدء الآيات الكريمة لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت وتقريع للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ، ثم يغضون أبصارهم ، ويكتفون بنحو قولهم ﴿ سبحان الخلاق العظيم ﴾ دون أن يعملوا بأمر الله إذ كلفهم بالإنابة والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات .

تباركت ربنا وتعاليت ، سبحانك خلقت ، وحكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وبطنت

---

(١) الآية ٨٠ من سورة يس .
(٢) الآية ٧٣ من سورة الحج .
(٣) الآية ٥٧ من سورة غافر .
(٤) الآيات ١٧ ـ ٢٠ من سورة الغاشية .

فخبرت ، وملكت فقدرت ، خلقت الأرض منها قطع متجاورات ومتباينات بعضها رخو وبعضها صلب ، قطعة تنبت وقطعة لا تنبت ، وفى الأرض قطع متجاورات ترابها واحد وماؤها واحد ، وفيها زرع واحد ، ثم تتفاوت الثمرة ، بعضها حلو وبعضها مر ، بعضها يثمر وبعضها لا يثمر .

وفى الأرض جنات وبساتين من زروع ونخيل وأعناب وغيرها من الفواكه التى عرفت فى غير جزيرة العرب .

ومن عجائب النخل أن فيه صنواناً وغير صنوان ، والمعنى أن أشجار النخيل قد تكون الواحدة لها رأسان وأصل واحد ، وقد تكون غير ذلك كبقية الشجر ، وقيل المعنى أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة وغير متماثلة مع اتحاد التربة ، والزرع يسقى ذلك كله بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل .

أليس فى هذا دليل على بديع صنعه وعظيم قدرته ، فإن القطع المتجاورة وفيها الجنات متلاصقة ، بل والأشجار المتشابكة المتداخلة ، تسقى بماء واحد وبنظام واحد ، وبذرها واحد ، ثم نرى فى بعضها نضجاً وكمالا وحلاوة ، وفى البعض جفافاً ونقصاً ، وصغرا وحموضة بل وطعماً متغيراً تمام التغير عن زميلتها .

أليس هذا دليلا على وجود القادر المختار الواحد القهار ، وأن الدنيا لم تسر بطبعها من غير مدبر لها حكيم ، إن فى ذلك لآيات وحججاً ، ولكن لقوم يعقلون ويتدبرون بفكر حر وعقل سليم .

الحكم على منكرى البعث والنبوة

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو
مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

المفردات : ﴿ **العجب** ﴾ : تغير النفس حين رؤية ما يُستبعد فى مجرى العادة . ﴿ **الأغلال** ﴾ : واحد غُل وهو طوق من الحديد طرفاه . فى اليدين ويحيط بالعنق . ﴿ **المثلات** ﴾ : (بفتح فضم) واحدها مثلة (بفتح فضم) وهى العقوبة التى تترك فى المعاقب أثراً قبيحاً كصلم أذن أو جدع أنف أو سمل عين . ﴿ **الغفر** ﴾ : الستر بالامهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقلب عصا

موسى حية وناقة صالح . ﴿ **الإنذار** ﴾ : التخويف . ﴿ **الهادى** ﴾ : القائد الذى يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجتهدين .

يخبر الله تعالى عن حال المشركين المنكرين للبعث ، فيقول لرسوله ومصطفاه ، ولكل من يتأتى منه الخطاب ﴿ **وإن تعجب** ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد ، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ، ودلائله فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع ما يعترفون به من أنه أبتدأ خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم هم بعد هذا يكذبون خبرة فى أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً ، وقد أعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به .

فالعجب من قولهم ﴿ **أئذا كنا تراباً أإنا لفى خلق جديد** ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ، كما قال سبحانه : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾[(١)] .

ثم نعت المكذبين بهذا ، فقال ﴿ **أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم** ﴾ أى يسحبون بها فى النار ﴿ **وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ أى ما كثون فيها أبداً ، لا يحولون عنها ولا يزولون .

قوله تعالى ﴿ **ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة** ﴾ أى يستعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب والعقوبة ، كما جاء فى قوله تعالى عنهم : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ﴾[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾[(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلا * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً * يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسئل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعوا من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾[(٤)] .

وقال تعالى : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأحقاف :

(٢) الآيات ٦ ـ ٨ من سورة الحجر .

(٣) الآيات ٥٣ — ٥٥ من سورة العنكبوت .

(٤) ١ ـ ١٨ من سورة المعارج .

الحق ﴾[١] ، ﴿ وقالوا ربنا عجل لنا قطنا ﴾[٢] الآية أى عقابنا وحسابنا ، كما قال مخبراً عنهم : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٣].

فكانوا من شدة كفرهم وتكذيبهم وعنادهم يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله .

وقوله تعالى ﴿ **وقد خلت من قبلهم المَثُلات** ﴾ أى قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية ، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم .

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة ، كما قال ﴿ **ولو يؤاخذالله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة** ﴾ وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾ أى أنه تعالى ذو عفو وصفح ، وستر للناس ، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار ، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف .

كما قال تعالى : ﴿ فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾[٤] وقال : ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾[٥] . وقال : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[٦] . إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف .

وقال ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ **وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم** ﴾الآية قال رسول الله ﷺ : (لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش ، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد) .

وقوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾ .

يقول تعالى إخباراً عن المشركين : أنهم يقولون كفراً وعناداً لولا يأتينا بآية من ربه ، كما أرسل الأولون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح قمم الجبال ويجعل مكانا مروجاً وأنهاراً ، كما قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾[٧] .

وكما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾[٨] .

(١) الآية ١٨ من سورة الشورى .
(٢) الآية ١٦ من سورة ص .
(٣) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ١٤٧ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .
(٦) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .
(٧) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٨) الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء .

وقوله تعالى ﴿ **إنما أنت منذر** ﴾ أى إنما عليك أن تبلغ الرسالة التى أمرك بها ، ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾[١] .

وقوله : ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ قال ابن عباس : لكل قوم داع ، وقيل أنت يا محمد منذر وأنا هادى كل قوم ، وقيل ﴿ **لكل قوم هاد** ﴾ أى نبى وقيل قائد ، وقيل الهاد هو محمد ﷺ . وقال مالك ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل .

علم الله محيط بكل شىء

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

المفردات : ﴿ **الغيض** ﴾ : النقصان ، يقال غاض الماء وغيضته كما قال ﴿ وغيض الماء ﴾[٢] . ﴿ **بمقدار** ﴾ : أى بأجل لا يتجاوزه ولا ينقص عنه . ﴿ **والغائب** ﴾ : ما غاب عن الحس . ﴿ **والشاهد** ﴾ : الحاضر المشاهد . ﴿ **الكبير** ﴾ : العظيم الشأن . ﴿ **المتعال** ﴾ : المستعلى على كل شىء . ﴿ **أسر الشىء** ﴾ : أخفاه فى نفسه . ﴿ **والمستخفى** ﴾ : المبالغ فى الاختفاء . . ﴿ **والسارب** ﴾ : الظاهر من قولهم سرب إذا ذهب فى سربه . ﴿ **معقبات** ﴾ : أى الملائكة تعتقب فى حفظه وكلاءته واحدها معقبة ، من عقبة : أى جاء عقبه . ﴿ **من بين يديه** ﴾ : أى قدامه ، ومن خلفه أى من ورائه . ﴿ **من أمر الله** ﴾ : أى بأمره وإعانته . ﴿ **وال** ﴾ : أى ناصر .

اعلم بأن علم الله تعالى محيط بكل شىء ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٣] ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً

---

(١) الآية ٢٧٢ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٤٤ من سورة هود .

(٣) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾[١] . ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[٢] .

الله يـــدرى كل ما تضمـــــر يعلـــم ما تخفـــى وما تظهـــــر
وإن خـدعت النـاس لم تستطـــع خـداع مـن يطـوى ومـن يـنشر

سبحانه أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون ، لو كان كيف كان يكون ، ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾[٣] ، ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى** ﴾ : هذا إخبار من الله تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، كما قال تعالى ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾[٥] أى ما حملت من ذكر أو أنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقى أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة ﴾[٦] الآية .

وقال تعالى ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾[٧] : أى خلقكم طوراً بعد طور .

كما قال تعالى ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٨] .

وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وعمره وعمله وشقى أو سعيد) وفى الحديث الآخر (فيقول الملك أى رب أذكر أم أنثى ؟ أى رب أشقى أم سعيد فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ويكتب الملك)[٩] .

قوله تعالى : ﴿ **وما تغيض الأرحام وما تزداد** ﴾ . قال البخارى عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : لا يعلم ما فى الغد إلا الله ، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا

(١) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة طه .
(٤) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .
(٥) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٦) الآية ٣٢ من سورة النجم .
(٧) الآية ٦ من سورة الزمر .
(٨) الآيات ١٢ – ١٤ من سورة المؤمنون .
(٩) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٦) وفى الأنبياء (١) وفى القدر (١) . ومسلم فى القدر (١) . وأبو داود فى السنة (١٦) . والترمذى فى القدر(٤) . وابن ماجه فى المقدمة (١٠) .

الله ، ولا يعلم متى يأتى المطر أحد إلا الله ، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت ، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله)[١] .

وقال بعض المفسرين ﴿ **وما تغيض الأرحام وما تزداد** ﴾ أى وما تنقصه الأرحام وما تزداده من عدد فى الولد ، فقد يكون واحداً ، وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تاماً ، وقد يكون ناقص الخلق وهو المخدج ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريباً .

قوله تعالى ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار** ﴾ أى ولكل شىء ميقات معين لا يعدوه زيادة ولا نقصاً ﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[٢] .

وفى معنى الآية قوله تعالى : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[٣] وفى الحديث : (إن إحدى بنات النبى ﷺ بعثت إليه رسولا : أن ابناً لها فى الموت ؟ وأنها تحب أن تحضره ، فبعث إليها يقول : إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب ﴾[٤] .

تذكر جميلى مذ خلقتك نطفة ولا تنس تصويرى ولطفى فى الحشا
وسلم إلى الأمر واعلم بأننى أدبر أحكامى وأفعل ما أشا

تباركت يا أحسن الخالقين ، أنت القائل وقولك الحق ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾[٥] وأنت القائل ﴿ وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾[٦] سبحانك .

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ولا الشئون التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى

﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء * هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٧] .

انظر إلى المرء وقل من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه بقوة مفتكره
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة

(١) أخرجه البخارى فى الاستسقاء (٢٩) وفى التفسير (سورة ١٣ : ١) وفى التوحيد (٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٤ ، ٥٢ ، ٥٨) .
(٢) الآية ٦١ من سورة النحل .
(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٤) أخرجه البخارى فى الجنائز (٣٢) وفى الأيمان (٩) وفى القدر (٤) وفى التوحيد (٢ ، ٢٥) . ومسلم فى الجنائز (١٣) . والنسائى فى الجنائز (٢٢) .
(٥) الآيات ٢٠ – ٢٣ من سورة المرسلات .
(٦) الآية ٩٨ من سورة الأنعام .
(٧) الآية ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

ذو حكمـــة بالغـــة وقـــدرة مقتـــــدرة
تباركت يا أحسن الخالقين
تلك الخليقة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائـــع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

سبحانه آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله . ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقــــة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ **عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾

﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ : أى يعلم كل شىء مما يشاهده العباد ، ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شىء ، ﴿ **الكبير** ﴾ الذى هو أكبر من كل شىء ، ﴿ **المتعال** ﴾ أى على كل شىء ﴿ قد أحاط بكل شىء علماً ﴾[٢] ، وقهر كل شىء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً .

قوله تعالى : ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال** ﴾ :

سبحانك ربى يامن يسمع دبيب أرجل النملة السمراء ، فى الليلة الظلماء ، فوق الصخرة الصماء .
يا من يرى مد البعوض جناحه فى ظلمــة الليــل البهم الأليــل
ويرى نياط عروقهــا فى نحرهــا والمخ فى تلك العظــام النُحَّــل
ويرى ويسمع بل يرى ما دونها فى قاع بحر زاخــر متجنـــدل

﴿ **سواء منكم** ﴾ أيتها المخلوقات ﴿ **من أسر القول ومن جهر به** ﴾ فإنه يسمعه لا يخفى عليه شىء ، كقوله تعالى ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾[٣] وقال : ﴿ **ويعلم ما تخفون وما تعلنون** ﴾[٤] .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « سبحان الذى وسع سمعه الأصوات والله لقد جاءت المجادلة

(١) الآيات ٥ - ٧ من سورة الحج .
(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق .
(٣) الآية ٧ من سورة طه .
(٤) الآية ٢٥ من سورة النمل .

تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ وأنا فى جنب البيت ، وإنه ليخفى على بعض كلامها ، فأنزل الله سبحانه ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ .

وقوله ﴿ **ومن هو مستخف بالليل** ﴾ أى مختف فى قعر بيته فى ظلام الليل (وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه ، فإن كليهما فى علم الله على السواء كقوله تعالى ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ ، ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾

أى للعبد ملائكة يتعاقبون عليه ، حرس الليل وحرس النهار يحفظونه من الأسواء والحادثات ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر ملائكة بالليل ، ملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، وصاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه ، وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، هم حافظان وكاتبان .

كما جاء فى الصحيح : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون)(٣) .

وفى الحديث الآخر : (إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم) .

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير الطبرى عن كنانة العدوى قال : دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله .. أخبرنى عن العبد كم معه من ملك ؟ فقال : (ملك على يمينك على حسناتك ، وهو أمير على الذى على الشمال فإذا عملت حسنة كتبت عشراً ، وإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين : أكتبها ؟ قال : لا ، لعله يستغفر الله ويتوب فيستأذنه ثلاث مرات ، فإذا قال ثلاثاً قال : اكتبها أراحنا الله منه فبئس القرين ، ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا يقول الله : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وملكان من بين يديك ومن خلفك يقول الله تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه ﴾ — الآية — وملك قابض على ناحيتك فإذا تواضعت لله رفعك ، وإذا

(١) الآية ٥ من سورة هود . (٢) الآية ٦١ من سورة يونس .

(٣) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٦) وفى المواقيت (١٦) وفى التوحيد (٢٣ ، ٣٣) . ومسلم فى المساجد (٢١٠) . والنسائى فى الصلاة (٢١) . والإمام مالك فى السفر (٨٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٣٩٦ ، ٤٨٦) .

تجبرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ وملك قائم على فيك لا يدع أن تدخل الحية فى فيك وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمى ، وإبليس بالنهار وولده بالليل . وقال الإمام أحمد عن سالم بن أبى الجعد عن أبيه عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا وإياك يارسول الله ، قال (وإياى ولكن الله أعاننى عليه فأسلم) .

قوله تعالى : ﴿**يحفظونه من أمر الله**﴾ أى بأمر الله وقد جاء فى الحديث أنهم قالوا يارسول الله : أرأيت رقياً نسترق بها هل ترد من قدر الله شيئاً فقال ﴿ هى من قدر الله ﴾ .

قوله تعالى : ﴿**إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ روى ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن أشعث عن جهم عن إبراهيم قال : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال إن تصديق ذلك فى كتاب الله ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ .

وقد ورد هذا فى حديث مرفوع فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتابه صفة العرش حدثنا الحسن بن على حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمى حدثنا أبو حنيفة اليمانى الأنصارى عن عمير بن عبد الملك قال : خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة قال : « كنت إذا أمسكت عن رسول الله ﷺ ابتدأنى ، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى ، وإنه حدثنى عن ربه عز وجل قال : [قال الرب وعزتى وجلالى وارتفاعى فوق عرشى ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتى ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى مايحبون من رحمتى] .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾ :

هو كقوله جل شأنه ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾[(١)] .

فإن عدالة الله تعالى اقتضت أن يعاقب أهل الظلم والطغيان ، فإذا ماحقت كلمة العذاب عليهم فإنه لا مرد لما قضى الله . قال تعالى ﴿ وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾[(٢)] فإذا ما أراد الله بهم ذلك ، فلن يجدوا من دون الله من ولى ولا نصير .

من الآيات الكونية

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ

(١) الآية ٥٩ من سورة الكهف . (٢) الآية ٧٦ من سورة هود .

ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ
كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ
مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾

المفردات : ﴿ **البرق** ﴾ : مايرى من النور لامعاً خلال السحاب . ﴿ **والرعد** ﴾ : هو الصوت المسموع خلال السحاب . وسببهما على ما بين فى العلوم الطبيعية – أن البرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفتى الكهربائية ، حتى يصير ميل أحدهما للاقتراب من الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوى شديد فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذى نشأ من تصادم دقائق الهواء الذى تطرده كهربائية البرق أمامها ، ﴿ **والصواعق** ﴾ : واحدها صاعقة . وسببها أن السحب قد تمتلىء بكهربائية ، والأرض بكهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا قاربت السحب وجه الأرض تنقص الشرارة الكهربائية منها فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل ، ﴿ **والمجادلة** ﴾ من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، كأن المجادلين يفتل كل منهما الآخر عن رأيه . ﴿ **والمحال** ﴾ : المماحلة والمكايدة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، وتمحل إذا تكلف فى استعمال الحيلة ، فى ضلال أى ضياع وخسار ، ﴿ **والظلال** ﴾ : واحدها ظل وهو الخيال الذى يظهر للجرم ، ﴿ **والغدو** ﴾ : واحدها غداة وهى أول النهار . ﴿ **والآصال** ﴾ : واحدها أصيل : ما بين العصر والمغرب .

بعد أن خوف الله سبحانه عباده ، بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا يدفعه أحد أتبعه بذكر آيات ، تشبه النعم والإحسان حيناً ، وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر .

روى أن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخا لبيد وفدا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر ، فأبى عليهما ذلك فقال له عامر ، لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلا جرداً ، ورجالا مردا ، فقال له رسول الله ﷺ : يأبى الله عليك ذلك وابناء قيلة (الأنصار من الأوس والخزرج) ثم إنهما هما بالفتك برسول الله ﷺ ، فجعل أحدهما يخاطبه ، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة ، وانطلقا فى أحياء العرب يجمعان لحربه ، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غدة كغدة البكر فآوى إلى بيت سلولية وجعل يقول : « غدة كغدة البكروموت فى بيت سلولية . حتى مات » .

وأنزل الله فى مثل ذلك : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله ﴾ ﴿ **هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً** ﴾ : أى أنه سبحانه يسخر البرق فيخاف منه بعض عباده ، كالمسافر ومن فى جرينه التمر والزبيب للتجفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقى زرعه ،

وهكذا حال كل شيء فى الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه فى أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره بحسب مكانه أو زمانه .

﴿ **وينشىء السحاب الثقال** ﴾ : أى ويوجد السحب منشأة جديدة ممتلئة ماء ، فتكون ثقيلة قريبة من الأرض .

﴿ **ويسبح الرعد بحمده** ﴾ : أى إن فى صوت الرعد لدلالة على خضوعه وتنزيهه عن الشريك والعجز ، كما يدل صوت المسبح وتحميده على انقياده ، لقدرة ذلك الحكيم الخبير .

ونحو الآية قوله سبحانه ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[1] .

أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر : (كان رسول الله ﷺ إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك)[2] .

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة : « أن رسول الله ﷺ كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يعرف ذلك فى وجهه ثم يقول للرعد : سبحان من سبحت له وللريح : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذاباً) .

﴿ **والملائكة من خيفته** ﴾ : أى ويسبح الملائكة الكرام من هيبته وجلاله ، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

﴿ **ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء** ﴾ إصابته بها يهلكه . ﴿ **وهم يجادلون فى الله** ﴾ : أى يجادلون فى شأنه تعالى ، وفيما وصفه من الرسول الكريم من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية ، وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم ، يوم العرض والحساب .

وفى هذا تسلية لرسوله ﷺ فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم فى اقتراحهم الآيات الحسية ، كآيات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنكارهم كون الذى جاء به عليه السلام آية سلّاه بما ذكر ، كأنه قال له : إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة ، بل تخطوه إلى الألوهية ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد ، يجادلون فى الله باتخاذ الشركاء ، وإثبات الأولاد له ومع إحاطة علمه ، وشمول قدرته ، ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب ، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه ، يُقدمون على المكايدة والعناد ، فهوّن عليك ولا تذهب نفسك عليهم حسرات . ﴿ **وهو شديد المحال** ﴾ : أى وهو سبحانه لا يغالب فهو شديد البطش والكيد لأعدائه ، يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يترقبون . وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده ، لا يستطيعون حيلة لدفعه ، ولا قوة على رده لكنه يمهلهم لأجل معلوم بحسب ما تقتضيه الحكمة كما صح فى الحديث (إن ربك لا يهمل ولكنه يمهل) . .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات (٤٩) .

ومثل الآية قوله ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[١] وقوله : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[٢] .

قال ابن جرير فى تفسير ذلك : والله شديد فى عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى فى كفره.

﴿ **له دعوة الحق** ﴾ : أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغى أن يكون والمجاب حين وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره ، وفى هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله ﷺ بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم ، وقيل دعوة الحق كلمة التوحيد : أى لله من خلقه أن يوحدوه ويخلصوا له وإنه شرعها وأمر بها . ﴿ **والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه** ﴾

أى والاصنام الذين يدعوهم المشركون ويتضرعون إليهم ، ويتجاوزون الله لا يجيبونهم بشىء مما يريدونه من نفع أو ضر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه ، يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا شعور له ، ببسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لا تحير جواباً .

وخلاصة ذلك : إنه شبه آلهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم وهم لا يشعرون بشىء ، فضلا عن أن يجيبوا أحداً بماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه ، هلم أقبل إلى وهو لا يستطيع رداً ولا جواباً .

﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ : أى فى ضياع وخسار ، فإن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم .

ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال : ﴿ **ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً** ﴾ :

أى وينقاد لعظمته كل شىء فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقلين ، طوعاً فى الشدة والرخاء ، والكفار كرهاً فى حال الشدة ، كما جاء فى آيات كثيرة كقوله ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾[٣] وقوله ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[٤] وقوله ﴿ لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[٥] .

﴿ **وظلالهم بالغدو والآصال** ﴾ أى لا تسجد أيضاً ظلال من له ظل منهما بالغدوات والعشايا تبعاً لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس ، ثم يصرفه إليه تعالى بالمد والتقلص ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيراً فى استعمالاتهم .

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٢) الآيتان ٥٠ ، ٥١ من سورة النمل .
(٣) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٢٢ من سورة يونس .

عقيدة الوحدانية

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الْوَٰحِدُ الْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

سبحانك ربى أنت الواحد فى ذاتك ، لا قسيم لك ، الواحد فى صفاتك لا شريك لك أنت الواحد فى أفعالك ، لاشريك لك ، تنزهت عن الشريك ذاتك ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، أول بلا بداية ، وآخر بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، ليس بجسم ولا صورة ، ولا معدود ولا محدود ، ولا متبعض ولا متجزئ ، ولا متكيف ولا متلون ، ولا متناهى ، لا يسئل عنه بمتى كان لأنه خالق الزمان ولا بأين كان ، لأنه خالق المكان فسبحانه كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله ، علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون ، لو كان كيف كان يكون لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل ولا النهار ، وهو الواحد القهار .

﴿ **قل من رب السموات والأرض قل الله** ﴾ وهنا يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو ، لأنهم معترفون بأنه هو الذى خلق السموات والأرض وهو ربها ومدبرها ، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم ، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً ، أى لا تحصل لهم منفعة ، ولا تدفع عنهم مضرة . فهل يستوى من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه .

ولهذا قال ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم** ﴾ :

أى أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب، وتماثله فى الخلق ، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره ، أى ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ولا ندله ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة .

﴿**تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً** ﴾ وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة ،هم معترفون ، أنها مخلوقة

له عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم ، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً لك هو لك تملكه وما ملك وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾(١) .

فأنكر الله تعالى عليهم ذلك ، حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾(٢) . ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾(٣) ، وقال : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً • لقد أحصاهم وعدهم عداً • وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾(٤) .

فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع ، ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك ، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله فكذبوهم وخالفوهم ، فحقت عليهم كلمة العذاب لامحالة ﴿ ولا يظلم ربك أحدا ﴾(٥) .

مثل للحق والباطل

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾

المفردات : ﴿ **الأودية** ﴾ : واحدها وادٍ وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء والفرجة بين الجبلين وقد يراد به الماء الجارى فيه . ﴿ **بقدرها** ﴾ : أى بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت أمكنتها صغراً وكبراً(واحتمل)أى حمل . ﴿ **الزبد** ﴾ : ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالحبب وما يعلو القدر عند غليانها . ﴿ **والرابى** ﴾ : العالى المرتفع فوق الماء الطافى عليه . ﴿ **الجفاء** ﴾ : ما رمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

---

(١) الآية ٣ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٢٣ من سورة سبأ .
(٣) الآية ٢٦ من سورة النجم .
(٤) الآيات ٩٣ — ٩٥ من سورة مريم .
(٥) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

جل جلال الله إذ يقول : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[1] .

قال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلا من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى ، لأن الله تعالى يقول ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

وقد اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه ، والباطل فى اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : ﴿ **أنزل من السماء ماء** ﴾ أى مطراً ﴿ **فسالت أودية بقدرها** ﴾ أى أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير ، وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم ، بل يضيق عنها ﴿ **فاحتمل السيل زبداً رابياً** ﴾ .

أى فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زبد عال عليه ، هذا مثل وقوله ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع** ﴾ هذا هو المثل الثانى ، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ابتغاء حلية ، أى يجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ **كذلك يضرب الله الحق والباطل** ﴾ أى إذا اجتمعا لاثبات للباطل ، ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب والفضة ونحوها مما يسبك فى النار ، بل يذهب ويضمحل . .

ولهذا قال ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء** ﴾ أى لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع فيه شىء ، ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال ﴿ **وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها** ﴾ هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها ، فأما الشك فلا ينفع معه العمل ، وأما اليقين فينفع الله به أهله ، وهو قوله ﴿ **فأما الزبد** ﴾ وهو الشك ﴿ **فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾ وهو اليقين ، وكما نجعل الحلى فى النار فيؤخذ خالصه ، ويترك خبثه فى النار ، فكذلك يقبل الله اليقين ، ويترك الشك .

وقال العوفى عن ابن عباس :

﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابيا** ﴾ .

يقول احتمل السيل ما فى الوادى : ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار** ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد ، فللنحاس والحديد خبث ، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء ، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة ، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت ، فجعل ذاك مثل العمل الصالح

(١) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

يبقى لأهله ، والعمل السيء يضمحل عن أهله ، كما يذهب هذا الزبد ، وكذلك الهدى والحق جاء من عند الله ، فمن عمل بالحق كان له ، وبقى كما بقى ما ينفع الناس فى الأرض .

وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سبيكة ولا سيف ، حتى يدخل فى النار ، فتأكل خبثه ، ويخرج جيده ، فينتفع به ، فكذلك يضمحل الباطل ، فإذا كان يوم القيامة ، وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق وهكذا . .

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين : ناريا ومائيا ، وهما قوله ﴿ مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله ﴾[١] ثم قال ﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾[٢] .

وهكذا ضرب للكافرين فى سورة النور مثلين (أحدهما) قوله ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب ﴾[٣] والسراب إنما يكون فى شدة الحر .

ولهذا جاء فى الصحيحين فيقال لليهود يوم القيامة فما تريدون ؟ فيقولون أى ربنا عطشنا فاسقنا ، فيقال : ألا يردون . فيردون النار فإذا هى كسراب يحطم بعضها بعضاً . ثم قال تعالى فى المثل الآخر : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى ﴾[٤] .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به ﴾[٥] فهذا مثل مائى .

وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال (مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً فما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها قال فذلكم مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها ﴾[٦] .

قوله تعالى ﴿ **للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لوأن لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ .

---

(١) الآية ١٧ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٩ من سورة البقرة
(٣) الآية ٣٩ من سورة النور .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النور .
(٥) أخرجه البخارى فى الرقاق (٢٦) ووفى الاعتصام (٢) .
(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق (٢٦) .

هذا إخبار من الله تعالى عن مآل السعداء والأشقياء ، فقال ﴿ **للذين استجابوا لربهم** ﴾ أى أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم ﴿ **الحسنى** ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى مخبراً عن ذى القرنين انه قال ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ **والذين لم يستجيبوا له** ﴾أى لم يطيعوا الله .

وقوله ﴿ **والذين لم يستجيبوا له** ﴾ أى لم يطيعوا الله . ﴿ **لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً** ﴾ أى فى الدار الآخرة ، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ، ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل منهم لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا ﴿ **أولئك لهم سوء الحساب** ﴾ أى فى الدار الآخرة ، أى يناقشون على النقير والقطمير ، والجليل والحقير ، ومن نوقش الحساب عُذِب .

ولهذا قال ﴿ **ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ .

يخبر تعالى أنه لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿ **أنزل إليك** ﴾ يا محمد ﴿ **من ربك** ﴾ هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية ، ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً ، لايضاد شىء فيه شيئاً آخر .

فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ﴾[٢] أى صدقاً فى الأخبار ، وعدلا فى الطلب ، فلا يستوى من تحقق صدق ماجئت به يا محمد ، ومن هو أعمى ، لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ، ولا اتبعه كقوله تعالى : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[٣] .

وقال فى هذه الآية الكريمة ﴿ **أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى** ﴾ أى أفهذا كهذا ؟ لا استواء وقوله ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ أى إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة ، جعلنا الله منهم .

(١) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة الكهف .
(٢) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٠ من سورة الحشر .

صفات أولى الألباب

ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ
وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿ **يدرءون** ﴾ : أى يدفعون . ﴿ **والعدن** ﴾ : الأقامة يقال عدن بمكان كذا إذا استقر ومنه المعدِن لمستقر الجواهر . ﴿ **والدار** ﴾ : هى دار الآخرة .

هذه الكوكبة الدرية من الشمائل الرفيعة السنية التى وصف الله بها أولى الألباب ، وكأن هذا العقد الفريد من السجايا الحميدة جاءت جواباً على سؤال مقدر ، كأن سائلا قال : من هم أولوا الألباب والعقول الراجحة والأفئدة المستنيرة والمستبصرة ؟ فجاءت تلك الصفات فى تلك السلسلة الربانية تجيب عن هذا السؤال إجابة شافية كافية وافية تتألق نوراً ، وتفيض رحمة وجمالاً ، وتشع جلالا وبهاءاً ، وكمالا .

فإذا أردت أن تعرف من هم أولوا الألباب ، فاعلم أنهم هم الذين أخبر الله تعالى عنهم بقوله ﴿ **الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق** ﴾ فهم ليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان .

﴿ **والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ : من صلة الأرحام فالرحم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلنى وصله الله ومن قطعنى قطعه الله ، فمن أراد أن ينسأ له فى أثره ، ويبارك له فى رزقه فليصل رحمه ، فإن الله تعالى لما خلق السموات والأرض قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى . قال : فذاك لك ، اقرءوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم * أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[1] .

كذلك مما أمر الله بوصله الإحسان إلى الفقراء والمحاويج ، وبذل المعروف .

﴿ **ويخشون ربهم** ﴾ : أى فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله فى ذلك ، ويخافون سوء

(١) الآيات ٢٢ – ٢٤ من سورة محمد .

الحساب فى الدار الآخرة فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية .

﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ : أى عن المحارم والمآثم فقطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ، ابتغاء مرضاته ، وجزيل ثوابه .

﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ : بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها ، وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى .

﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ : أى على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين .

﴿ سراً وعلانية ﴾ : أى فى السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال ، آناء الليل ، وأطراف النهار .

﴿ ويدرءون بالحسنة السيئة ﴾ : أى يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالا وصفحاً وعفواً ، كقوله تعالى : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾(١) .

ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة ، بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله ﴿ جنات عدن ﴾ : والعدن الإقامة ، أى جنات إقامة يخلدون فيها .

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال : إن فى الجنة قصراً يقال له عدن ، حوله البروج والمروج ، فيه خمسة آلاف باب ، على كل باب خمسة آلاف حبرة ، لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد .

وقال الضحاك فى قوله ﴿ جنات عدن ﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء ، وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها . رواه ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ : أى يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى ، امتناناً من الله ، وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته ، كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء ﴾(٢) .

وقوله تعالى ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

أى وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام :

(١) الآيتان ٣٤ ــ ٣٥ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٢١ من سورة الطور .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت ولا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غداً رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : (هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟) قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : (أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون ، الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجة فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم . فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، وتُسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[1] . الطبرانى .

وعنه ﷺ أنه قال (أول ثلاثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين ، الذين تتقى بهم المكاره ، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره ، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها ، فيقول أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى وأوذوا فى سبيلى ، وجاهدوا فى سبيلى ؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون : ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ، ونقدس لك ، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟ فيقول الرب عز وجل : هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[2] .

وقال عبد الله بن المبارك عن بقية بن الوليد ، حدثنا أرطاة بن المنذر : سمعت رجلا من مشيخة الجند يقال له أبو الحجاج يقول : جلست إلى أبى أمامة فقال : « إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكة إذا دخل الجنة وعنده سماطان من خدم ، وعند طرف السماطين باب مبوب فيقبل الملك فيستأذن ، فيقول للذى يليه : ملك يستأذن . ويقول الذى يليه للذى يليه : ملك يستأذن . حتى يبلغ المؤمن فيقول : ائذنوا ، فيقول أقربهم للمؤمن : ائذنوا له ، ويقول الذى يليه للذى يليه : ائذنوا له حتى يبلغ أقصاهم الذى عند الباب فيفتح له ، فيدخل فيسلم ثم ينصرف » رواه ابن جرير .

وجاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول ، فيقول لهم : ﴿ **سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

---

(١) أخرجه الأمام أحمد فى (٢ : ١٦٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى (٢ : ١٧٧) .

المفسدون فى الأرض

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

وهذا الفريق من الأشقياء على نقيض الفريق الأول ، وهو فريق السعداء . فالأشقياء ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، بينما السعداء يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق . والأشقياء يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، بينما السعداء يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

والأشقياء مفسدون فى الأرض ، ووجوه الإفساد كثيرة ومتنوعة ، على رأسها الظلم ، والاعتداء على حرمات المسلمين ، وإيقاع الأذى بالعباد لذا جاء فى الحديث (ولو كافرا فعليه كفره) .

بينما فريق السعداء يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب .

ومن ثم فقد جاء الحكم عادلاً من الحكم العدل فقد حكم للأشقياء بقوله ﴿ **أولئك لهم اللعنة** ﴾ أى الطرد من رحمة الله ومغفرته ورضوانه ﴿ **ولهم سوء الدار** ﴾ فى الآخرة ، وهل هناك دارٌ أسوأ من جهنم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾[1] والعذاب بالمغفرة .

كما حكم سبحانه لفريق السعداء بهذا الحكم العادل ﴿ **أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ .

دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد ياغافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال

حكمة الله فى الرزق

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

(١) الآية ١٦ من سورة البقرة .

المفردات : ﴿ **يقدر** ﴾ : يضيق كقوله ﴿ ومن قدر عليه رزقه ﴾[١] أى ضيق والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته ، لا يفضل عنه شيء . ﴿ **متاع** ﴾ : أى متعة قليلة لادوام لها ولابقاء . ﴿ **أناب** ﴾ : رجع عن العناد ، وأقبل على الحق ﴿ **تطمئن** ﴾ : أى تسكن وتخشع . ﴿ **طوبى لهم** ﴾ : أى لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور . ﴿ **والمآب** ﴾ : المرجع والمنقلب .

اعلم يا ابن آدم أنه لا يملك الرزق والروح إلا الله ، ولو ركب ابن آدم الريح فراراً من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم ، ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون * وفى السماء رزقكم وما توعدون * فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[٢] .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ، أى يرزقه الكفاف ، والله اعلم بحكمته : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[٣] .

ومن أصدق من الله حديثاً ؟ لا أحد .

ومن أصدق من الله قيلا ؟ لا أحد .

قل أأنتم أعلم أم الله ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع من فى الأرض لا يكفيها

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير * تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[٤] .

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾[٥] .

أما الكفار فقد فرحوا بما أوتوا فى الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالا ، كما قال : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[٦] .

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة ، فقال ﴿ **وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ كما قال ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ﴾[٧] . وقال : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى ﴾[٨] .

---

(١) الآية ٧ من سورة الطلاق .
(٢) الآيات ٢٠ – ٢٣ من سورة الذاريات .
(٣) الآية ١٤ من سورة الملك .
(٤) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٢٧ من سورة الشورى .
(٦) الآيتان ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون .
(٧) الآية ٧٧ من سورة النساء .
(٨) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعلى .

وروى الإمام أحمد بسنده عن المستورد أخي بنى فهر ، قال : قال رسول الله ﷺ : (وما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم فلينظر بم ترجع ؟) وأشار بالسبابة)[١] رواه مسلم فى صحيحه .

وفى الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدى أسكَّ ميت . والأسك الصغير الأذن فقال (والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ .

يخبر الله تعالى عما قاله الكافرون الجاحدون للصادق المعصوم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **لولا أنزل عليه آية من ربه** ﴾ . (ولولا) هنا حرف تحضيض هنا بمعنى (هلا) والتحضيض : هو القلب الذى فيه حث وإزعاج ، وقد أرادوا بالآية هنا الآية الحسية ، كما جاء بيان ذلك فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيتٌ من زخرف أو ترق فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا ﴾[٣] .

وفى الحديث : (إن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً ، وأن يجرى لهم ينبوعاً ، وأن يزيح الجبال من حول مكة ، فيصير مكانها مروجاً وبساتين : إن شئت ما محمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ﴾[٤] .

ولهذا قال لرسوله : ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب** ﴾ أى هو المضل والهادى ، سواء بعث الرسل بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه .

كما قال : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾[٥] وقال : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٦] وقال : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنة (٥٥) . والبخارى فى الرقاق (٢) . والترمذى فى الزهد (١٥) . وابن ماجه فى الزهد (٣) . والإمام أحمد فى (٤ : ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد (٢) . وأبو داود فى الطهارة (٧٣) . والإمام أحمد فى (٣ : ٣٦٥) .

(٣) الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى (١ : ٢٤٢ ، ٣٤٥) .

(٥) الآية ١٠١ من سورة يونس .

(٦) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾[١] .

ولهذا قال : ﴿ **قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب** ﴾ : أى ويهدى إليه من أناب : إلى الله ، ورجع إليه ، واستعان به ، وتضرع لديه .

﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ : أى تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾ .

واعلم بأن الهداية والإضلال لحكمة إلّهية عليا والله سبحانه وتعالى حكيم منزه عن العبث ، منزه عن الظلم بهذا نطق القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ .

والله جل شأنه يقول فى أهل الهداية : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى ﴾[٢] .

ويقول فى أهل الشقاق والضلال : ﴿ وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[٦] .

ويقول سبحانه : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ماأمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾[٤] .

وقال جل شأنه ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾[٥] . وقال ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٦] .

وجاء تقرير تلك الحقيقة فى قوله : ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾[٧] .

وهؤلاء هم الذين أنابوا إلى الله ورجعوا ، قال تعالى ﴿ **ويهدى إليه من أناب** ﴾ ووصف أهل الإنابة بأنهم الذين آمنوا ، وتطمئن قلوبهم بذكر الله وليس الذكر كلمات تنبس بها الشفاه ، وتلوكها الألسنة ، إنما الذكر فى حقيقته إستحضار عظمة الله تعالى فى قلب العبد ، ونعته بنعوت الجمال والجلال والكمال .

والذكر على سبعة أنحاء: فذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ،

(١) الآية ١١١ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ٥ — ٧ من سورة الليل .
(٣) الآيتان ٨ — ١٠ من سورة الليل .
(٤) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٥ من سورة الصف .
(٦) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٧) الآية ٥٦ من سورة القصص .

وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

ولا بد أن يقترن الذكر بالتفكر ، فالذكر بلا تفكر بعد عن المراد ، والتفكر بلا ذكر جفاء ، والذكر والتفكر ولاء ووفاء .

قال تعالى ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياًينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾[١] .

قال أحد الصالحين لمستمعيه : إذا ذكر الصالحون نزلت الرحمة . قال أحدهم : فمابالنا إذا ذكر الله ؟ فأطرق الشيخ ملياً ثم قال : إذا ذكر الله نزلت الطمأنينة ، أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ .

وهنا مقامان : مقام الوجل إذا ذكروا جلاله ، ومقام الطمأنينة إذا ذكروا رحمته الواسعة .

قال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكــر الله وجلت قلوبهم ﴾[٢] . أى خوفاً ورهباً من عقابه .

قال جل شأنه : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله** ﴾ طمعاً فى رحمته وإحسانه .

قوله تعالى ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾ .

ورد فى تفسير ﴿ **طوبى** ﴾ أقوال نذكر منها : أنها فرح ، وقرة عين ، وأنها غبطة لهم ، وأنها خير لهم ، وأنها شجرة فى الجنة .

قال الإمام أبو الهيثم عن أبى سعيد الخدرى مرفوعاً (طوبى شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها) .

وقال الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أن رجلا قال يارسول الله : طوبى لمن رآك وآمن بك ، قال : (طوبى لمن رآنى وآمن بى ، وطوبى ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى)[٣] . قال له رجل : وما طوبى ؟ قال : (شجرة فى الجنة مسيرتها مائة عام ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها)[٤] .
وروى فى الصحيحين عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال :(إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها) .

(١) الآيات ١٩٠ – ١٩٥ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٢ من سورة الأنفال .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ٢٤٨ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى (٣ : ٧١) وفى (٤ : ١٨٣ ، ١٨٤) .

وفى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى ﴿ وظل ممدود ﴾[١] قال : (فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ، فاقرأوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ .

وقال أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال : (إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين — أو مائة سنة — هى شجرة الخلد)[٢] .

وعن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ ذكر سدرة المنتهى فقال : (يسير فى ظل الغصن منها الراكب مائة سنة —أو قال — يستظل فى الفنن منها مائة راكب ، فيها فراش الذهب كأن ثمرها القلال)[٣] رواه الترمذى .

وعن أبى سلام الأسود قال سمعت أبا أمامة الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ : (ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى ، فتفتح له أكمامها فيأخذ من أىّ ذلك شاء ، إن شاء أبيض ، وإن شاء أحمر ، وإن شاء أصفر ، وإن شاء أسود ، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن) .

وسمـا من يقول فى حديثه القدسى الجليل : [ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكى شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر][٤] الحديث .

فهل هناك مرجع ومآل أحسن من هذا المرجع ، إن رجوع العبد الطائع إلى ربه كرجوع الطفل التائه إلى أحضان أمه ﴿ يأأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ .

خاتم الأنبياء ليس بدعا من الرسل

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الواقعة .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الخلق (٨) وفى تفسير (سورة ٥٦ : ١) وفى الرقاق (٥١) . ومسلم فى الجنة (٦ – ٨) . والترمذى فى الجنة (١) وفى تفسير (سورة : ٥٦ : ١ ، ٢) . وابن ماجه فى الزهد (٣٩) . والدرامى فى الرقاق (١١٤) . والإمام أحمد فى (٢ : ٢٥٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٧) وفى (٣ : ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤) .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجنة فى الجنة (٩) .

(٤) أخرجه الترمذى فى القيامة (٤٨) .

يَاْيْـَٔسِ الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم
بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ
﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُ
بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ وَصُدُّواْ عَنِ
السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

المفردات : ﴿ **خلت** ﴾ : مضت ، ﴿ **مآب** ﴾ : مرجعي . ﴿ **قطعت** ﴾ : شققت ، ﴿ **ييأس** ﴾ : يعلم وهو لغة هوازن قارعة رزية تقرع القلوب . ﴿ **أمليت** ﴾ : أى أمهلت مدة طويلة فى أمن ودعة ، ﴿ **قائم** ﴾ : رقيب ومتولٍّ للأمور ، ﴿ **تنبئونه** ﴾ : تخبرونه . ﴿ **بظاهر من القول** ﴾ : أى بباطل منه لا حقيقة له فى الواقع . ﴿ **والسبيل** ﴾ : هو سبيل الحق وطريقه ، ﴿ **والواق** ﴾ : الحافظ .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب** ﴾ :

هذه شهادة من الملك الحق ، بأن محمدا نبى حق ﴿ **كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم** ﴾ ، ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] .

وجاء فى التوراة : (أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صنماً ، فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولكن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح بها أعينا عميا ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفا)[2] .

وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة ﴿ **لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك** ﴾ أى تبلغهم رسالة الله إليهم ، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، فإن تكذيبهم اشد من تكذيب غيرك من المرسلين .

---

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٨ : ٣) وفى البيوع (٥٠) . والدرامى فى المقدمة (٢) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٧٤) .

قال الله تعالى : ﴿ تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك ﴾[١] الآية ، وقال تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٢] .

أى كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ **وهم يكفرون بالرحمن** ﴾ : أى هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ، لايقرون به ، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أى يكتبوا باسم الله الرحمن الرحيم ، وقالوا : ماندرى ماالرحمن الرحيم ؟ .

قاله قتادة والحديث فى صحيح البخارى .

وقد قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[٣] .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن)[٤] .

﴿ **قل هو ربى لا إله إلا هو** ﴾ : أى هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به . معترف مقر له بالربوبية والألوهية . هو ربى لا إله إلا هو ﴿ **عليه توكلت** ﴾ أى فى جميع أمورى ﴿ **وإليه متاب** ﴾ : أى إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه ، (وعزتى وجلالى لو سلكوا كل طريق واستفتحوا على كل باب ما فتحت لهم حتى يأتوا خلفك يامحمد) .

صلّت عليك ملائك الرحمن ... وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزوداً ... بحمى الإله ورواية القرآن

قوله تعالى ﴿ **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ :

هذا إخبار عن عظمة القرآن وعلو منزلته : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾[٥] ، ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[٦] .

﴿ **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال** ﴾ أى ولو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن

(١) الآية ٦٣ من سورة النحل .
(٢) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .
(٤) أخرجه مسلم فى الأدب (٢) . والبخارى فى الأدب (١٠٥ ، ١٠٦) . وابن ماجه فى الأدب (٣٠) . والترمذى فى الأدب (٦٤) . والدرامى فى الاستئذان (٢٠) .
(٥) الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٦) الآية ٨٨ من سورة الأسراء .

أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى فى قبورها ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك ، لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له .

﴿ **بل لله الأمر جميعاً** ﴾ : أى مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ، ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن ومن يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهد الله فماله من مضل ﴿ **أفلم ييأس الذين آمنوا** ﴾ أى أفلم يعلموا ويتبينوا أنه لو يشاء الله هداية الناس جميعاً لهداهم ، ولكنه سبحانه وهب الناس عقلا ، وأرسل إليهم رسلا ، وأنزل عليهم كتباً ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[١] ، ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[٢] .

وليس هناك حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى العقول والنفوس من هذا القرآن ، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله .

وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)[٣] .

ومعناه أن معجزة كل نبى انقرضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

قال صلى الله عليه وسلم : (كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[٤] .)[٥] .

وقد جاء فى سبب نزول هذه الآية ، مارواه ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منحاب بن الحارث أنبأنا بشر بن عمارة حدثنا عمر بن حسان عن عطية العوفى قال قلت له : ﴿ **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال** ﴾ الآية قالوا لمحمد ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ :

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٩٩ من سورة يونس .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن (١) . ومسلم فى الإيمان (٢٣٩) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٤١ ، ٤٥١) .

(٤) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .

(٥) أخرجه الدرامى فى المقدمة (٤٢) .

أى بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا ، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ، كما قال تعالى ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾[١] وقال ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾[٢] .

قال قتادة عن الحسن ﴿ **أو تحل قريباً من دارهم** ﴾ أى القارعة .

﴿ **حتى يأتى وعد الله** ﴾ أى ما وعد به المؤمنين من النصر المبين . قال تعالى : ﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٣] .

وقد أنجز الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٤] ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[٥] .
﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾[٦] .

الله تعالى إذا وعد وفى ، إن الله لا يخلف الميعاد ، فاعتبروا ياأولى الأبصار ، وأقيموا للقرآن مكانته اللائقة به ، فوالله لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولو تمسكنا به لرفرفت راية الإسلام على كل بلد .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب** ﴾ :

هذه عادة أهل الظلم والفسق مع المرسلين ، يقفون منهم موقف الاستهزاء والسخرية ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾[٧]

قال تعالى : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[٨] .

﴿ **فأمليت للذين كفروا** ﴾ : أى أمهلتهم ثم أخذتهم أخذ عزيز مقتدر .

وفى الصحيحين : ﴿ إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴾[٩] ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[١٠] .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ٤٤ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٦ من سورة الروم .
(٤) الآية ٢١ من سورة المجادلة .
(٥) الآية ٤٠ من سورة الحج .
(٦) الآيات ١ – ٣ من سورة الفتح .
(٧) الآيات ٢٩ – ٣٢ من سورة المطففين .
(٨) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٩) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة : ١١ : ٥) . وأخرجه مسلم فى البر (٦٢) . والترمذى فى التفسير (سورة ١١ : ٢) . وابن ماجه فى الفتن (٢٢) .
(١٠) الآية ١٠٢ من سورة هود .

﴿ **فكيف كان عقاب** ﴾ : أى بلغ عقابى به مبلغاً تذهب النفس فيه كل مذهب ، إن الله تعالى لا يظلم الناس شيئاً فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لايعلم فى الأرض أم بظاهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ :

هذه الآية فيها إثبات العظمة الإلٰهية ، والله تعالى هو صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، هو الرقيب الأعلى ، والمهيمن الأعظم ، والقاهر فوق عباده ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ﴾(١) وقال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾(٢) .

ويقول تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾(٣) ، وقال : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار * له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾(٤) ، وقال ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾(٥) ، ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾(٦) .

أفمن هو كذلك كالأصنام التى يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها ، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها !

وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه ، وهو قوله ﴿ **وجعلوا لله شركاء** ﴾ أى عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ، ﴿ **قل سموهم** ﴾ : أى أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم . ولهذا قال : ﴿ **أم تنبئونه بما لايعلم فى الأرض** ﴾ : أى لا وجود له ، لأنه لو كان لها وجود فى الأرض لعلمها ، لأنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ **أم بظاهر من القول** ﴾ : أى بباطل من القول ، أى إنما عبدتم هذه الأصنام ببطلان منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتموها آلهة ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾(٧) .

(١) الآية ٦١ من سورة يونس .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٦ من سورة هود .
(٤) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الرعد .
(٥) الآية ٧ من سورة طه .
(٦) الآية ٤ من سورة الحديد .
(٧) الآية ٢٣ من سورة النجم .

قال مجاهد قولهم : أى ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ، كقوله تعالى ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ﴾(١) الآية .

﴿ **وصدوا عن السبيل** ﴾ من قرأها بفتح الصاد معناه أنه ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ، ولهذا قال : ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ كما قال : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾(٢) وقال : ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ومالهم من ناصرين ﴾(٣) .

هؤلاء وأشياعهم لهم عذاب فى الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشق ، قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾(٤) .

﴿ **ومالهم من الله من واق** ﴾ : أى ليس لهم من دون الله من يصيبهم عذابه ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال ﴾(٥) ، ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم من نكير ﴾(٦) .

حال الجنة وأحكام أخرى

* مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

المفردات : ﴿ **مثل الجنة** ﴾ : صفتها العجيبة التى تشبه المثل فى غرابتها . ﴿ **الأحزاب** ﴾ : جمع حزب ويطلق على الطائفة المتحزبة المجتمعة لشأن من الشئون . ﴿ **مآب** ﴾ : مرجع . ﴿ **واق** ﴾ :

(١) الآية ٢٥ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٤١ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٣٧ من سورة النحل .
(٤) الآيات ١٢٤ - ١٢٧ من سورة طه .
(٥) الآية ١١ من سورة الرعد .
(٦) الآية ٤٧ من سورة الشورى .

حافظ . ﴿ **أجل** ﴾ : الأجل المدة والوقت . ﴿ **كتاب** ﴾ : قيل هو الحكم المعين الذى يكتب على العباد حسب ما تقضيه الحكمة . ﴿ **أم الكتاب** ﴾ : علم الله .

هكذا ديدن القرآن إذا وصف النار وعذابها قضى على ذلك بذكر الجنة ونعيمها ﴿ واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً * وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً * قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً ﴾(١) إلى آخر الآيات من سورة الفرقان .

يريد الله تبارك وتعالى أن يمثل الغائب بما هو مشاهد معروف عندنا تقريباً للأفهام ، وتوجيهاً للأذهان ، وإلا فالجنة على حقيقتها شيء لا يدرك كنهه إلا بعد دخولها والتمتع بها إن شاء الله ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾(٢) فى أرجائها وجوانبها وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً ، ويوجهونها حيث أرادوا : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ﴾(٣) .

﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ : فيها الفواكه والمطاعم والمشارب بلا انقطاع ولا فناء ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾(٤) ، ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ﴾(٥) .

﴿ **تلك عقبى الذين اتقوا** ﴾ : وهذا جزاؤهم ﴿ **وعقبى الكافرين النار** ﴾ وجزاؤهم ونهايتهم النار التى وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ، وهذا معنى من وصف الجنة والنار ، وغير ذلك مما نزل به القرآن ، الناس فيه على صنفين مصدق ومكذب .

﴿ **والذين آتيناهم الكتاب** ﴾ من اليهود والنصارى ، وهم قائمون بمقتضاه ، ومؤمنون حقاً بما فيه ﴿ **يفرحون بما أنزل إليك** ﴾ من القرآن ، لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به .

﴿ **ومن الأحزاب من ينكر بعضه** ﴾ : نعم كان من أهل الكتاب عبد الله بن سلام ، وتميم الدارى من المؤمنين الكاملين ، وبعضهم كان يتحزب على النبى ويؤلب عليه ككعب بن الأشرف وغيره من زعمائهم ورؤسائهم ينكرون بعض القرآن وهو مالم يوافق ما حرفوه من كتبهم وشرائعهم المغيرة .

وكيف تختلفون بين مصدق ومكذب ؟ وهناك أساس واحد هو الذى يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادة ، وهو ما أمر الله به نبيه ، فقال ﴿ **قل** ﴾ يامحمد ﴿ **إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به** ﴾ شيئاً ﴿ **إليه** ﴾ وحده ﴿ **أدعوا** ﴾ ، ﴿ **وإليه** ﴾ وحده ﴿ **مآب** ﴾ ومرجعى .

---

(١) الآيات ١١-١٥ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٧١ من سورة الزخرف .
(٣) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٤) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة الواقعة .
(٥) الآية ١٤ من سورة الإنسان .

فهذا هو التوحيد الخالص الكامل ، وتلك الرسالة بإيجاز دعوة إلى الله فقط ، وطاعة وإخلاص وعبادة وآستعانة بالله وحده ، وأما المرجع والمآب والحساب والجزاء فإليه وحده أيضاً .

ومثل ذلك الإرسال للرسل قديماً أرسلناك يامحمد وأنزلنا عليك كتاباً هو القرآن ، وهو كتاب محكم الآيات ، فيه الحكم الحق ، والقول الفصل ، أنزلناه حكماً بلسان عربى مبين فكان مبيناً لمقاصده ، موضحاً لمراميه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(١) .

﴿ **ولئن اتبعت** ﴾ يامحمد ﴿ **أهواءهم** ﴾ وآراءهم ﴿ **من بعد ما جاءك من العلم** ﴾ من الله سبحانه وتعالى فليس لك من دون الله ولى ولا ناصر وهذا وعيد وتهديد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من الوقوف على أسرار الشرع ، والالمام بالسنة النبوية والمحجة المحمدية

روى أن اليهود عابت الرسول بكثرة النساء ، وقالوا : لو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء .. وقد لحوا فى طلب الآيات كما تقدم ، فرد الله عليهم ليس محمد بدعاً من الرسل ، ولقد أرسلنا قبله رسلاً ، وكانوا بشراً يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ويفعلون كل ما يفعله البشر ، ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى ﴾(٢) .

وصدق الله فهذا تسجيل فى القرآن لا يقبل شكاً ولا جدلا ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال :

(أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى)(٣) .

وأما الآيات المقترحة فتلك نعمة رددها القرآن ، ورد عليها كثيراً بما يفيد أن الرسول رسول فقط ، والآيات من عند الله ، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله وأمره ، وقد جاءكم القرآن وكفى به معجزة خالدة باقية ثابتة على جهة التحدى والإفحام .

والآيات لاتأتى اعتباطاً ، ولكنها لحكمة ، وفى زمن الله يعلمه ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ أى لكل مدة مضروبة ، ووقت معلوم ، كتاب مكتوب ، وكل شيء عنده بمقدار ، وقيل المعنى لكل كتاب أجل ، أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فليست هناك آية مقترحة بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب استعجلوه بنازل قبل أوانه ، فالآجال والأعمار والأرزاق والأحداث ، كل ذلك بقضاء الله وقدره ، له وقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(٤) .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة فصلت .

(٢) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

(٣) أخرجه البخارى فى النكاح (١) . ومسلم فى النكاح (٥) . والنسائى فى النكاح (٤) . والدرامى فى النكاح (٣) . والإمام أحمد فى (٢ : ١٥٨) وفى (٣ : ٢٤١) .

(٤) الآية ٤٩ من سورة يونس .

﴿ **يمحو الله ما يشاء** ﴾ من الأحداث الكونية والإنسانية ﴿ **ويثبت** ﴾ ما يشاء من هذا كله فى الخارج ﴿ **وعنده** ﴾ سبحانه ﴿ **أم الكتاب** ﴾ وهو اللوح المحفوظ ، أو علمه جل شأنه ثابت أزلا لا يتغير ولا يتبدل ، كل شيء على حسب علمه ووفق إرادته .

والمعنى يمحو ويثبت فى الخارج ما يشاء . وعلمه لا يتغير ولا يتبدل وهو موافق لما فى اللوح المحفوظ . ومظاهر المحو والإثبات نراها فى كل لحظة من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، ونور وظلام ، وحياة وموت ، وقوة وضعف ، وزرع وحصاد إلى آخر ما فى الأحداث الكونية ، هذا المحو والإثبات خاضع لعلمه القديم الذى لا يتغير ولا يتبدل ، وعلى هذا فالآية رد أيضاً على اقتراحهم الآيات حيث كان المحو والإثبات خاضعاً لمشيئة الله ولقانونه الذى وضعه ، وهو لكلِّ أجلٌ محدود لا يتقدم ولا يتأخر .

وعد من الله الواحد المتصرف

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾
أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ
وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ
كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا
قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

المفردات : ﴿ **الأطراف** ﴾ : الجوانب . ﴿ **المعقب** ﴾ : الذى يكرّ على الشيء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقّب ، لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء والطلب ، ﴿ **والمكر** ﴾ : إرادة المكروه فى خفية . ﴿ **وعقبى الدار** ﴾ : أى العاقبة الحميدة . ﴿ **والأم** ﴾أصل الشيء وما يجرى مجراه ، كأم الرأس للدماغ . وأم القرى لمكة .

قوله تعالى : ﴿ **وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك** ﴾ هذا وعد من الله تبارك وتعالى لرسوله الكريم ، ووعد الله واقع لا محالة ، فقد وعده أن يريه فى هؤلاء المعاندين بعض ما يصيبهم من الانتقام والجزاء ، هذا فى حياته ، فإن توفاه فإنهم لن يكونوا بمنأى من هذا العقاب ، فإن الوجود كله ملك الله والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، والله تعالى إذا وعد أنجز ، فإنما عليك البلاغ ، وتلك رسالة الأنبياء : بلاغ وإرشاد وتوجيه وتقويم ، وعلينا الحساب ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفسٌ شيئاً ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[1] ﴿ فذكر

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

إنما أنت مذكر * لست عليهم بمصيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب** ﴾ :

أولم ير هؤلاء المكذبون وينظرون ويشاهدوا آيات الله الواضحات ، وسننه الراسخات فى هذا الكوكب الأرضى ، فإنه تعالى يأتى الأرض من جوانبها فينقصها بانتشار الاسلام وتدمير الكفر ، قال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ۝ إنهم لهم المنصورون ۝ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[٢] .

وفى سورة الأنبياء يقول جل ذكره : ﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون ﴾[٣] ويقول : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[٤] وقال تعالى فى سورة النور ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[٥] .

وذلكم حكم الله ﴿ **والله يحكم لا معقب لحكمه** ﴾ ولا راد لقضائه ﴿ **وهو سريع الحساب** ﴾ ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ﴾[٦] .

والدنيا سرعان ما تمضى كسراب خادع ، أو حلم لاح لعينى ساهر ، وغداً حساب ولا عمل ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ **وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار** ﴾ :

هذا هو ديدن المكذبين الجاحدين : المكر والخداع . قال تعالى : ﴿ استكباراً فى الأرض ومكر السىء ولا يحيق المكر السىء إلا بأهله ﴾[٨] ، وقال جلَّ شأنه : ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾[٩] .

والمكر من العبد تدبير السوء فى خفاء ، وعاقبته عند الله تدمير وانتقام ، قال تعالى ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون ﴾[١٠] .

(١) الآيات ٢١ — ٢٦ من سورة الغاشية .
(٢) الآيات ١٧١ — ١٧٣ من سورة الصافات .
(٣) الآية ٤٤ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ٥٥ من سورة النور .
(٦) الآية ٨٤ من سورة مريم .
(٧) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .
(٨) الآية ٤٣ من سورة فاطر .
(٩) الآية ٢٦ من سورة النحل .
(١٠) الآية ٥٠ من سورة النمل .

﴿فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنّا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾[1].

وقال جل شأنه : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[2] ذلك لأن أحكامه جلَّ شأنه كلها عادلة ، لا يُظلم عنده أحد .

ولنا فى تاريخ الأمم السابقة عبرة ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ● وبالليل أفلا تعقلون ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[5] .

فلا يكن فى صدرك حرج ﴿ ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ﴾[6] فلله المكر جميعاً ، إذ إليه يرجع الأمر كله ، لايقع فى ملكه مالا يريده ، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، هو الذى يعلم ما تكسب كل نفس ، فهو القائم على كل نفس بما كسبت ، المهيمن على ماف الضمير ﴿ فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾[7] .

الله يدرى كل ما تضمرُ ... يعلم ما تخفى وما تظهرُ
وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشرُ

وإن غداً لناظره قريب ، سيعلمون من الكذّاب الأشر ﴿ فستبصر ويبصرون●بأيكم المفتون ﴾[8] .

وبعد أن يدخل أهل الحق الجنة ، ويدخل أهل الباطل النار ﴿ **سيعلم الكفار لمن عقبى الدار** ﴾ وعندئذ يُنادى : ياأهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت .

قوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾ :

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن فقال له عليه السلام : (هل تجدنى فى الإنجيل رسولا ؟) قال : لا. فأنزل الله تعالى : ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلا** ﴾ .

أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسالتك ، لست رسولا من عند الله ، أرسلك لتخرج

---

(١) الآية ٥١ من سورة النمل .
(٢) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .
(٣) الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات .
(٤) الآية ٧٠ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٦) الآية ١٢٧ من سورة النحل .
(٧) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٨) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة القلم .

الناس من الظلمات إلى النور ، وتدعوهم إلى عبادة إلّه واحد لا شريك له ، وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان ، وتصلح حال المجتمع البشرى ، وتمنع عنه الظلم والفساد .

﴿ **قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم** ﴾ أى حسبى أن يكون الله شاهداً برسالتى وصدق فيما أقول ، فهو الذى قال لى : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾[1] فقد أنزل علىَّ الكتاب والحكمة ، وقال فى محكم كتابه ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة ، يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾[2] .

وكذلك فإن الصادقين من أهل الكتاب : كعبد الله بن سلام وأمثاله من الذين آتاهم الله الكتاب فعرفوا مافيه . فإنهم أيضاً يشهدون بأننى نبى الله حقاً وصدقا بل إن عبد الله بن سلام كان يقسم ويقول : (والله إنى لأعرف أن محمداً رسول أكثر مما أعرف ابنى لأن محمداً نزل برسالته الأمين من السماء من قِبَل الحق تبارك وتعالى) .

فصلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله ، نشهد أنك بلَّغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، ومحوت الظلمة ، وجاهدت فى الله حق جهاده ، حتى أتاك اليقين ، فجزاك الله عنا خير ما جزى به نبياً عن أمته ، ورسولا عن قومه .

---

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٦٦ من سورة النساء .

سورة إبراهيم

مقدمة

وتسمى سورة (**إبراهيم**) لتضمنها قصة إسكانه ولده إسماعيل بواد غير ذى ذرع ، وشكره لله تعالى على ما أنعم عليه من الولدين : إسماعيل وإسحاق .

مقصود السورة :

بيان حقيقة الإيمان ، وبرهان النبوة ، وأن الله تعالى أرسل كل رسول بلغة قومه ، وذكر الامتنان على بنى إسرائيل بنجاتهم من فرعون ، وأن القيام بشكر النعم يوجب المزيد ، وكفرانها يوجب الزوال ، وذكر معاملة القرون الماضية مع الأنبياء والرسل الغابرين ، وأمر الأنبياء بالتوكل على الله عند تهديد الكفار إياهم ، وبيان مذلة الكفار فى العذاب والعقوبة ، وبطلان أعمالهم ، وكمال إذلالهم فى القيامة ، وبيان جزعهم من العقوبة ، وإلزام الحجة عليهم ، وإحلال إبليس اللائمة عليهم ، وبيان سلامة أهل الجنة وكرامتهم ، وتشبيه الإيمان (والتوحيد بالشجرة الطيبة وهى النخلة ، وتمثيل الكفر بالشجرة الخبيثة وهى الحنظة ، وتثبيت أهل الإيمان) على كلمة الصواب عند سؤال منكر ونكير ، والشكوى من الكفار بكفران النعمة ، وأمر المؤمنين بإقامة الصلوات والعبادات ، وذكر المنة على المؤمنين بالنعم السابغات ، ودعائه إبراهيم بتأمين الحرم المكى ، وتسليمه إسماعيل إلى كرم الحق تعالى ولطفه ، وشكره لله على إعطائه الولد .

هى مكية ، وعدد آياتها اثنتان وخمسون ، وكلماتها ثمانمائة وإحدى وثلاثون ، وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون .

والتهديد العظيم للظالمين بمذلتهم فى القيامة ، وذكر أن الكفار قرناء الشياطين فى العذاب :

والإشارة إلى أن القرآن أبلغ واعظ ، وذكرى للعقلاء فى قوله تعالى ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ إلى آخر السورة .

والسورة خالية عن المنسوخ فى قول ، وعند بعضهم ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ ، ﴿ إن الله لغفور حليم ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **فليتوكل المؤمنون** ﴾ وبعده : ﴿ **فليتوكل المتوكلون** ﴾ : لأن الإيمان سابق على التوكل .

قوله : ﴿ **مما كسبوا على شىء** ﴾ : والقياس على شىء مما كسبوا كما فى البقرة ، لأن على من صلة القدرة ، ولأن ﴿ **مما كسبوا** ﴾ صفة لشىء . وإنما قدم فى هذه السورة ﴿ لأن ﴾ الكسب هو المقصود بالذكر ، وأن المثل ضرب للعمل ، يدل عليه قوله : ﴿ أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا

يقدرون مما كسبوا على شىء ﴾[1] .

قوله : ﴿ **وأنزل من السماء ماء** ﴾ . وفى النمل ﴿ وأنزل لكم من السماء ﴾[2] بزيادة (لكم) لأن (لكم) فى هذه السورة مذكور فى آخر الآية ، فاكتفى بذكره ، ولم يكن فى النمل فى آخرها فذكر فى أولها ، وليس فى قوله : ﴿ ما كان لكم ﴾ يكفى من ذكره ، لأنه نفى لا يفيد معنى الأول .

قوله : ﴿ **فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ : قدم الأرض لأنها خلقت قبل السماء ؛ ولأن هذا الداعى فى الأرض .

وقدمت (الأرض) فى خمسة مواضع :

هنا : وفى آل عمران ، ويونس ، وطه والعنكبوت .

قوله : ﴿ **وليذكر أولوا الألباب** ﴾ : خص أولى الألباب ، لأن المراد فى الآية التذكر ، والتدبر والتفكر فى القرآن ، وإنما يتأتى ذلك منهم مثله فى البقرة : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾[3] يريد فهم معانى القرآن ، ثم ختم الآية بقوله ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾

ومثلها فى آل عمران : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات ﴾[4] : وذكر فيه المحكمات والمتشابهات ، وختمها بقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .

ولا رابع لها فى القران .

ومناسبة هذه السورة بما قبلها من وجوه :

١ – ذكر سبحانه فى السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكماً عربياً ، ولم يصرح سبحانه بحكمة ذلك ، وصرح بها هنا .

٢ – أنه سبحانه ذكر فى السورة السابقة قوله : ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾[5] .

٣ – ذكر سبحانه وتعالى هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله ، وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه .

وهنا ذكر سبحانه وتعالى أن الرسل قالوا : ﴿ **ما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله** ﴾ .

٤ – اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضاً .

٥ – ذكر سبحانه وتعالى هناك رفع السماء بغير عمد ، ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر ، وذكر هنا نحو ذلك .

٦ – ذكر سبحانه هناك مكر الكفار ، وذكر مثله هنا ، وذكر من وصفه مالم يذكر هناك .

---

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٦٠ من سورة النمل .
(٣) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٤) الآية ٧ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٣٨ من سورة الرعد .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَوَيۡلٌ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾

المفردات : ﴿ **الظلمات** ﴾ : الضلالات . ﴿ **والنور** ﴾ : الهدى . ﴿ **وإذن ربهم** ﴾ : تيسيره وتوفيقه . ﴿ **العزيز** ﴾ : الغالب . ﴿ **الحميد** ﴾ : المحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أزلاً ، وبحمد عباده له أبداً . ﴿ **ويل** ﴾ : هلاك . ﴿ **يستحبون** ﴾ : يختارون . ﴿ **سبيل الله** ﴾ : هو دينه الذى ارتضاه . ﴿ **يبغونها** ﴾ : يطلبونها . ﴿ **عوجاً** ﴾ : زيغاً واعوجاجاً . ﴿ **واللسان** ﴾ : اللغة .

افتتح الله تعالى هذه السورة الكريمة ببعض حروف الهجاء ، كما افتتح بعض السور . وهذه الحروف تشير إلى إعجاز هذا الكتاب الخالد ، فهى حروف عربية ، نزل بها الكتاب العربى ، وعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾(١) .

ثم ذكر سبحانه بعد ذلك الهدف الأسمى والحكمة العظمى من إنزال هذا الكتاب على سيد ولد آدم صلوات ربى وسلامه عليه ، فقال : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾ :

والظلمات هى طرق الضلال والزور والبهتان ، وما أكثرها ... أما النور فهو طريق الإيمان ، وبالإيمان يتحقق الخير كله ، لذا بُعث النبى (ﷺ) ليوحد العقائد لا ليفرق القواعد ، وجاء بشرع هو للشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، وللشعوب البدائية كالوالد الرحيم .

فاعجب معى لأمة يقول كتابها ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾(٢) ويقول عن نبيها : ﴿ قد

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء . (٢) الآية ٣٥ من سورة النور .

جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[١] ويقول عن قرآنها : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾[٢] .

فأمة ربها نور ، ونبيها نور ، وكتابها نور ؛ كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى غياهب الظلمات .

لقد بعث النبى العظيم بهذا الكتاب الكريم ليخرج الناس من غياهب الظلمات وفلول الدجى ، وحضيض الغبراء ، إلى نورالهدى وباذخ الغلياء ، ويسمو بهم من كثافة المادة إلى لطافة الروح ، ويُخرج من شاء الله من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده ، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعد الدنيا والآخرة ، ومن مدارج النمال فى مدابّها إلى مسابح الأفلاك فى أبراجها .

نعم ﴿ قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٣] .

إن إخراج الناس من الظلمات إلى النور هو الهداية ، والهداية نعمة لا تدانيها نعمة ، والله صاحب الأنعام والكرم ييسر طريق الهدى بإذنه وتوفيقه وعونه ، لذا قال جلَّ شأنه ﴿ **بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ .

فالعزيز هو الغالب الذى لا يُقهر ، والحميد هو المستحق للحمد والثناء الجميل فلا يُذم أبداً إن الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . وويل للكافرين من عذاب شديد ، الذين بيَّن الله تعالى صفاتهم فى قوله : ﴿ **الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة** ﴾ أى يؤثرونها ويفضلونها .

كما قال تعالى : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[٤] .

وكما قال جلَّ شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يُبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون ﴾[٥] .

وكما قال جلَّ شأنه : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ﴾[٦] .

ويل لهؤلاء الكافرين من عذاب شديد الألم ، يقول فيهم مولانا (إن الذين كفروا بآياتنا سوف

(١) الآية ١٥ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٨ من سورة التغابن .
(٣) الآيتان ٢٥٦ ، ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٤) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .
(٥) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
(٦) الآية ١٨ من سورة الإسراء .

نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾(١) .

فياله من خطب ما أهوله وياله من يوم ما أطوله ، ويا له من جبار ما أعدله ، إن هؤلاء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، كما أخبرنا عنهم خالق الأكوان : يصدون عن سبيل الله ، فأضافوا بذلك ضلالا إلى ضلال ، وجرماً إلى جرم . قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيداً . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً ، وكان ذلك على الله يسيراً ﴾(٢) .

وماذا يريد هؤلاء بالصد عن سبيل الله ؟ إنهم يبغونها عوجاً وهى سبيل مستقيمة لا اعوجاج فيها ولا التواء ، قال فيها النبى ﷺ : (لقد جئتكم بها بيضاء نقية) .

نعم إنها المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، إنه صراط الله المستقيم : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾(٣) .

إن هؤلاء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ، وصدوا غيرهم عن سبيل الله ، وأرادوها عوجاً ، حكم الله عليهم بقوله : ﴿ **أولئك فى ضلال بعيد** ﴾ وأى ضلال أشد نكراً من هذا الضلال ؟ .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لاريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم** ﴾ :

هذا تيسير من الله تعالى على عباده ولطف بهم ، ومن رحمته العظمى أن يرسل كل رسول بلغة قومه حتى يبين لهم ما أرسل به إليهم ، وقد كانت دعوات الأنبياء قبل رسول الله ﷺ خاصة بأقوامهم . روى الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر قال : قال رسول الله (ﷺ) : ﴿ لم يبعث الله عز وجلّ نبياً إلا بلغة قومه ﴾(٥) .

أما رسالة نبينا ﷺ فهى عامة دائمة إلى يوم القيامة ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾(٦) ، وقال تعالى : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾(٧) ، وقال جلّ شأنه : ﴿ تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ﴾(٨)، وقال عز من قائل ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٩) .

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء .
(٢) الآيات ١٦٧ - ١٦٩ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة آل عمران .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى (٥ : ١٥٨) .
(٦) الآية ٢٨ من سورة سبأ .
(٧) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٨) الآية الأولى من سورةالفرقان .
(٩) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .

جاء فى الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ :

هذا لحكمة بالغة فقد أرسل الله إلى عباده رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وأنزل كتباً يبين فيها أحكامه ، ويفصل مناهجه ، ووهب العباد عقولا يميزون بها بين الخبيث والطيب ، والحلال والحرام ، والهدى والضلال . ﴿ فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى وكذَّب بالحسنى . فسنيسره للعسرى ﴾[2] ، قال تعالى : ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾[3] .

وهو العزيز الذى لا يقهر ولا يغلب ، بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، الحكيم المنزه عن العبث ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته .

موسى عليه السلام وقومه

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ
نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ
وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨

المفردات : ﴿ **الآيات** ﴾ : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يده عليه السلام . ﴿ **والظلمات** ﴾ : الكفر والجهالات . ﴿ **والنور** ﴾ : الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به .

(١) أخرجه البخارى فى التيمم (١) وفى الصلاة (٥٦) وفى الجهاد (١٢٢) وفى التعبير (١١) وفى الأعتصام (١) . ومسلم فى المساجد (٣ ، ٥ – ٨) . والترمذى فى السير (٥) . والنسائى فى الغسل (٢٦) وفى الجهاد (١) . والدارمى فى السير (٢٩) . والإمام أحمد فى (١ : ٣٠١٢٩٨) وفى (٢ : ٢٢٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣١٤ ، ٣٩٦ ، ٤١٢ ، ٤٥٥ ، ٥٠١) .

(٢) الآيات ٥ – ١٠ من سورة الليل . (٣) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة البقرة .

﴿ **وذكرهم** ﴾ : أى عظهم . ﴿ **وأيام الله** ﴾ : وقائعه فى الأمم السابقة ، ويقال فلان عليم بأيام العرب : أى بحروبها وملاحمها كيوم ذى قار ، ويوم الفجار . ﴿ **والصبار** ﴾ : كثير الصبر . ﴿ **والشكور** ﴾ : كثير الشكر . ﴿ **يسومونكم** ﴾ : يكلفونكم(بلاء) أى ابتلاء واختبار . ﴿ **وتأذن** ﴾ : أى آذن وأعلم ، ﴿ **وحميد** ﴾ : مستوجب للحمد ذاته وإن لم يحمده أحد .

من حكمة الله تعالى أن أرسل إلى الأمم أنبياء ، يدعونهم إلى الله على بصيرة ، وكان ختامهم محمداً ﷺ ، الذى بعثه بقرآن كالشمس وضحاها ، وسنة كالقمر إذا تلاها ، فمن عمل بها عاش فى ضوء النهار إذا جلاها ، ومن أعرض عنها تخبط فى ظلمة الليل إذا يغشاها .

ومن هؤلاء المرسلين الذين أرسلهم الله موسى كليم الله . قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا ﴾ إلى قومه أى بنى إسرائيل ، والمراد بالآيات المعجزات التى قال الله فيها : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾[١] .

وقال الله له : ﴿ **أخرج قومك من الظلمات إلى النور** ﴾ .

أى من ظلمات الضلال والغواية إلى نور الحق والهداية .

﴿ **وذكرهم بأيام الله** ﴾ إما أن يكون المراد بالأيام نعم الله عليهم ، فقد أنجاهم من آل فرعون ، كما جاوز بهم البحر ، وظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وإما أن يكون المراد بأيام الله وقائعه فى الأمم السابقة ، مثل قوم نوح وعاد وثمود . ﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبَّار شكور** ﴾ أى كثير الصبر عند البلاء ، والشكر عند الرخاء . وهذه حال المؤمن .

قال قتادة : « نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطى شكر » .

وكذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن أمر المؤمن كله عجب لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له)[٢] .

قوله تعالى :﴿ **وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ :

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ، ونعمه عليهم ، إذ أنجاهم من آل فرعون وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ، ويتركون إناثهم ، فأنقذهم الله من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ، ولهذا قال ﴿ **وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** ﴾ أى نعمة عظيمة منه عليكم فى ذلك أنتم عاجزون عن القيام بشكرها ، وقيل وفيما كان يصنعه

(١) الآية ١٠١ من سورة الإسراء .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد (٦٤) . والإمام أحمد فى (٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣) وفى (٦ : ١٥) .

بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل (بلاء) أى اختبار عظيم ، ويحتمل أن يكون المراد هذا وهذا ، والله أعلم .

كقوله تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾(١) .

وقوله : ﴿ **وإذ تأذن ربكم** ﴾ :

أى آذنكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذا أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ، كقوله تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾(٢) .

وقوله ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ : أى لئن شكرتم نعمتى عليكم لأزيدنكم منها ﴿ **ولئن كفرتم** ﴾ : أى كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها ﴿ **إن عذابى لشديد** ﴾ . وذلك يسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها .

وقد جاء فى الحديث : ﴿ إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ﴾ .

وفى المسند أن رسول الله ﷺ (مر به سائل فأعطاه تمرة فتسخطها ولم يقبلها ، ثم مر به آخر فأعطاه إياها فقبلها ، وقال : تمرة من رسول الله ﷺ فأمر له أربعين درهماً) .

أو كما قال الإمام أحمد عن أنس قال : (أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها . أو وحش بها . قال : وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال : سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ ، فقال للجارية : اذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهماً التى عندها) . تفرد به الإمام أحمد .

قوله تعالى : ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد** ﴾ :

لا يضر الله تعالى كفر أهل الأرض جميعاً ، فإنه الغنى بذاته ، القوى العزيز الجبار ، آمن به المؤمن ولم ير ذاته ، وجحده الجاحد . ووجوده فى ملك الله دليل على وجود الله ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾(٣) ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾(٤) .

فهو الغنى عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره ، كقوله : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ﴾(٥) الآية ، وقوله ﴿ فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾(٦) .

---

(١) الآية ١٦٨ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ١٦٧ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١١٦ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٧ من سورة المائدة .
(٥) الآية ٧ من سورة الزمر .
(٦) الآية ٦ من سورة التغابن .

وفى صحيح مسلم عن أبى ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : (يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئاً ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك فى ملكى شيئاً ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك من ملكى شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر)[1] .

فسبحانه وتعالى ، الغنى الحميد .

خذوا العبرة ممن كانوا قبلكم

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)

المفردات : ﴿ **الريبة** ﴾ : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر . ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ : أى موجدها على نظام بديع . ﴿ **والسلطان** ﴾ : الحجة والبرهان .

الظاهر – والله أعلم – أن هذا كلام مستأنف ، وكثيراً ما يذكرنا الله تعالى بمثل هذه الأنباء عن قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات .

﴿ **جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ : أى بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات .

قوله تعالى : ﴿ **فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ : فيها أقوال للمفسرين :

---

(١) أخرجه مسلم فى البر (٥٥) والترمذى فى القيامة (٤٨) . وابن ماجه فى الزهد (٣٠) . والإمام أحمد فى (٥ : ١٥٤ ، ١٧٧) .

قيل معناه : أنهم أشاروا إلى أفواه الرسل يأمرونهم بالسكوت عنهم ، لما دعوهم إلى الله عز وجل .
وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم . وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل .

وقال مجاهد ومحمد بن كعب وقتادة : معناه أنهم كذبوهم ، وردوا عليهم قولهم بأفواههم .

وعن عبد الله فى قوله : ﴿ **فردوا أيديهم فى أفواههم** ﴾ قال : عضوا عليها غيظاً .

وقال العوفى عن ابن عباس لما سمعوا كلام الله عجبوا ، ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم ، وقالوا ﴿ **إنا كفرنا بما أرسلتم به** ﴾الآية . يقولون لا نصدقكم فيما جئتم به ، فإن عندنا فيه شكا قوياً .

قوله تعالى : ﴿ **قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون * ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ .

سبحانك ربى يا خالق الأكوان ، يا مبدع الإنسان ، يا من أنزلت القرآن لينطق بالحكمة وفصل الخطاب .

قالت الرسل لقومهم ﴿ **أفى الله شك فاطر السموات والأرض** ﴾ : سموات ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، وكون قام على الإتقان والترابط ، والنظام والعناية ، والقصد والإرادة .

الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثارِ
من شك فيه فنظرة فى خلقهِ تمحو أثيم الشك والإنكارِ

وهذا حوار بين الرسل وأقوامهم ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاءوهم به من عبادة الله وحده لاشريك له ، قالت الرسل : ﴿ **أفى الله شك** ﴾ :

وهذا يحتمل شيئين **أحدهما** : أفى وجوده شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار ، فتحتاج إلى النظر فى الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه : ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ الذى خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليهما ، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إلّه إلا هو ، خالق كل شىء ، وإلاهه ومليكه .

والمعنى **الثانى** فى قولهم : ﴿ **أفى الله شك** ﴾ : أى فى إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو

الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بوجوده ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم ، أو تقربهم من الله زلفى .

وقالت لهم رسلهم : ﴿ **يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ : أى فى الدار الآخرة ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أى فى الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾(١) .

فقالت لهم الأمم محاجين فى مقام الرسالة بعد تقدير تسليمهم المقام الأول ، وحاصل ماقالوه : ﴿ **إن أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ : أى كيف نتبعكم بمجرد قولكم ، ولما نر منكم معجزة ﴿ **فأتونا بسلطان مبين** ﴾ أى خارق نقترحه عليكم .

﴿ **قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم** ﴾ :

أى صحيح أنا بشر مثلكم فى البشرية ﴿ **ولكن الله يمن على من يشاء من عباده** ﴾ أى بالرسالة والنبوة ﴿ **وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان** ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ **إلا بإذن الله** ﴾ أى بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا فى ذلك .

﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ . أى فى جميع أمورهم .

ثم قالت الرسل : ﴿ **ومالنا أن لا نتوكل إلا على الله** ﴾ أى وما يمنعنا من التوكل عليه وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها ﴿ **ولنصبرن على ماآذيتمونا** ﴾ : أى من الكلام السيىء ، والأفعال السخيفة ﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾ .

وخاب كل جبار عنيد

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

المفردات : ﴿ **لتعودن** ﴾ : لتصيرن . ﴿ **الملة** ﴾ : الدين والشريعة . ﴿ **المقام** ﴾ : موقف الحساب . ﴿ **استفتحوا** ﴾ : أى طلبوا الفتح بالنصرة . على الأعداء . ﴿ **خاب** ﴾ : هلك . ﴿ **الجبار** ﴾ : العاتى المتكبر على طاعة الله . ﴿ **العنيد** ﴾ : المعاند للحق المخالف له . ﴿ **من ورائه** ﴾ :

(١) الآية ٣ من سورة هود .

أى من بعد ذلك ينتظره . ﴿ **والصديد** ﴾ : ما يسيل من جلود أهل النار . ﴿ **يسيغه** ﴾ : أى يستطيبه يقال ساغ الشراب : إذا جاز الحلق بسهولة . ﴿ **يأتيه الموت** ﴾ : أى تأتيه أسبابه وتحيط به من كل جهة . ﴿ **عذاب غليظ** ﴾ : أى شديد غير منقطع .

وهكذا انتقل الحوار بين الكافرين ورسلهم إلى مجال الوعيد والتهديد ، وظنوا أنهم قادرون على تنفيذ ما يهددون به ، ونسوا أوتناسوا أن للكون إلهاً بيده الأمر كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وأن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولاتطرف فيه طرفة عين ، ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذن الله ، ولله ملك السموات والأرض ، وما بينهما يخلق ما يشاء ، سبحانه خشعت الأصوات لعظمته ، وعنت الوجوه لقدرته ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ، وهو الذى يحيى العظام وهى رميم .

﴿ وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ﴾ .

هنا يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم ،والنفى من بين أظهرهم كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾[١] وكما قال قوم لوط : ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾[٢] .

وقال تعالى إخباراً عن مشركى قريش ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[٤] .

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره ، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصاراً وأعواناً وجنداً ، يقاتلون فى سبيل الله تعالى ، ولم يزل يرقيه تعالى من شىء إلى شىء حتى فتح له مكة التى أخرجته ، ومكن له فيها ، وأرغم أنوف أعدائهم منهم من سائر أهل الأرض ، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى أيسر زمان .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الأرض من بعدهم** ﴾ كما قال : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٦] ، وقال تعالى : ﴿ولقد كتبنا فى

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٥٦ من سورة النمل .
(٣) الآية ٧٦ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .
(٥) الآيات ١٧١ - ١٧٣ من سورة الصافات
(٦) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

الزبور من بعد الذكر ﴾[١] ، ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾ : أى وعيدى هذا لمن خاف مقامى بين يدى يوم القيامة ، وخشى من وعيدى ، وهو تخويفى وعذابى .

كما قال تعالى : ﴿ فأما من طغى ۝ وآثر الحياة الدنيا ۝ فإن الجحيم هى المأوى ۝ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ۝ فإن الجنة هى المأوى ﴾[٤] ، وقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾[٥] .

وقوله : ﴿ **واستفتحوا** ﴾ : أى استنصرت الرسل ربها على قومها ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٦] .

ويحتمل أن يكون هذا مراداً ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر واستفتح رسول الله ﷺ واستنصر وقال تعالى للمشركين : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم ﴾[٧] .

﴿ **وخاب كل جبار عنيد** ﴾ : أى متجبر فى نفسه ، عنيد معاند للحق ، كقوله تعالى : ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد ۝ مناع للخير معتدٍ مريب ۝ الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾[٨] .

وفى الحديث (أنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادى الخلائق فتقول : إنى وكلت بكل جبار عنيد . خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء فى الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر ﴾[٩] .

وقوله : ﴿ **من ورائه جهنم** ﴾ : وراء هنا بمعنى أمام ، كقوله تعالى ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾[١٠] وكان أمامهم ملك ، أى من وراء الجبار العنيد جهنم ، أى هى له بالمرصاد ، يسكنها مخلداً يوم المعاد ، ويعرض عليها غدواً وعشياً إلى يوم التناد .

---

(١) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف .
(٤) الآيات ٣٧ - ٤١ من سورة النازعات .
(٥) الآية ٤٦ من سورة الرحمن .
(٦) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٧) الآية ١٩ من سورة الأنفال .
(٨) الآيات ٢٤ - ٢٦ من سورة ق .
(٩) أخرجه الترمذى فى جهنم (١) . والإمام أحمد فى (٢ : ٣٣٦) وفى (٣ : ٤٠) وفى (٦ : ١١٠) .
(١٠) الآية ٧٩ من سورة الكهف .

﴿ **ويسقى من ماء صديد** ﴾ : أى فى النار ليس له من شراب إلا من حميم وغساق فهذا حار فى غاية الحرارة ، وهذا بارد فى غاية البرد والنتن ، كما قال : ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج ﴾[١] .

وقال مجاهد وعكرمة : الصديد من القيح والدم . قال قتادة : هو ما يسيل من لحمه وجلده .

﴿ **ويسقى من ماء صديد يتجرعه** ﴾ : قال النبى ﷺ يقرب إليه فينكره فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره .

يقول الله تعالى ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾[٢] .

ويقول : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ﴾[٣] . ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ : أى يألم له جميع بدنه وجوارحه وأعضائه .

وقال ابن جرير ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان** ﴾ : أى من أمامه وخلفه ، وفى رواية : وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ، ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده .

وقال الضحاك عن ابن عباس : ﴿**ويأتيه الموت من كل مكان**﴾ قال : أنواع العذاب الذى يعذبه الله بها يوم القيامة فى نار جهنم ، ليس فيها نوع إلا يأتيه الموت فيه لو كان يموت ، ولكن لا يموت ، لأن الله تعالى قال ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾[٤] .

ومعنى كلام ابن عباس : أنه مامن نوع من هذه الأنواع من العذاب إلا إذا ورد عليه اقتضى أن يموت منه . لو كان يموت ، ولكنه لا يموت ليخلد فى دوام العذاب والنكال ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت** ﴾ .

وقوله ﴿ **ومن ورائه عذاب غليظ** ﴾ : أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أى مؤلم صعب شديد ، أغلظ من الذى قبله وأدهى وأمرّ ، وهذا كما قال تعالى عن شجرة الزقوم ﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم * ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾[٥] .

فأخبر أنهم تارة يكونون فى أكل زقوم ، وتارة فى شرب حميم ، وتارة يردون إلى جحيم ، عياذاً بالله من ذلك ، وهكذا قال تعالى ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون • يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ إن شجرت الزقوم • طعام الأثيم • كالمهل يغلى فى البطون • كغلى الحميم • خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم • ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم • ذق إنك أنت العزيز الكريم • إن هذا

(١) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من ص .
(٢) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٣٦ من سورة فاطر .
(٥) الآيات ٦٤ — ٦٨ من سورة الصافات .
(٦) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الرحمن .

ما كنتم به تمترون ﴾[١] .

وقال : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم . لا بارد ولا كريم ﴾[٢] وقال تعالى ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب . جهنم يصلونها فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج ﴾[٣] . ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٤] .

أعمال الكافرين

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾

بعد أن ذكر سبحانه ما سيلاقيه الكافرون فى هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التى سلف وصفها ، بين هنا أن ما عملوه فى الدنيا من صالح الأعمال لا يجديهم فتيلا ولا قطميراً ، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح فى يوم عاصف ، فذهبت به فى كل ناحية ، فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئاً ، ثم بين أن ذلك اليوم آت لا ريب فيه ، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفنيهم ويأتى بخلق جديد ، وليس ذلك بعزيز ، ولا بممتنع عليه .

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ﴾ :

أى ما مثل أعمال الكافرين التى كانوا يعملونها فى الدنيا ، ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء ، إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهاب به فى يوم عاصف ، فنسفته ولم تبق له أثراً ، فهم يوم القيامة لا يجدون منها شيئاً ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه ، إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان .

والمراد من تلك الأعمال أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ، ونحو ذلك .

ثم أكد نفى فائدتها لهم إذ ذاك فقال : **﴿ لا يقدرون مما كسبوا على شىء ﴾ :**

أى لا يقدرون يوم القيامة على شىء من أعمالهم فى الدنيا ، فلا يرون لها أثراً من ثواب ، أو تخفيف عذاب ، كما لا تنتفع بالرماد إذا أرسل عليه الريح فى يوم عاصف .

(١) الآيات ٤٣ — ٥٠ من سورة الدخان .
(٢) الآيات ٤١ — ٤٤ من سورة الواقعة .
(٣) الآيات ٥٥ — ٥٨ من سورة ص .
(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾[١] ، وقال : ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾[٢] .

وورد فى الصحيح عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت : (يارسول الله إن ابن جدعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ، ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعة ؟ قال : لا ينفعه لأنه لم يقل : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين) .

﴿ **ذلك هو الضلال البعيد** ﴾ : أى ذلك السعى والعمل على غير أساس ولا أستقامة ، حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه ، هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

ثم ذكر دليل وحدانيته فقال : ﴿ **ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد.وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ :

أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة ، وعلى الوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقا عليه ، ومن قدر على خلقها على أتم نظام ، وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير ، فهو قادر على أن يفنيكم ويأتى بخلق جديد سواكم ، وما ذلك بممتنع ، ولا متعذر عليه .

تبرؤ إبليس من أتباعه

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ
عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ
صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ
وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي
فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا
أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

المفردات : ﴿ **وبرزوا** ﴾ أى صاروا بالبراز وهى الأرض المتسعة ، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك اليوم . ﴿ **والضعفاء** ﴾ : واحدهم ضعيف ويراد به ضعيف الرأى والفكر . ﴿ **والذين**

(١) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ١١٧ من سورة آل عمران .

استكبروا ﴾ : هم رؤساءهم الذين استنفروهم . ﴿ **والتبع** ﴾ : واحدهم تابع لخادم وخدم .
﴿ **مغنون** ﴾ : أى دافعون . ﴿ **محيص** ﴾ : أى منجى ومهرب . ﴿ **السلطان** ﴾ : التسلط .
﴿**بمصرخكم**﴾ : أى بمغيثكم . يقال : استصرخنى فأصرخته أى استغاث فأغثته .

بعد أن ذكر سبحانه مايلقاه الأشقياء فى ذلك اليوم من العذاب ، وذكر أن أعمالهم الطيبة التى كانت فى الدنيا أحبطت فلم تغن عنهم شيئاً ، ذكر هنا محاورة بين الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين ، وما يحدث فى ذلك الوقت من الخجل لهم ، ثم أردفها مناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، وبعد ذلك ذكر أحوال الأشقياء وبالغ فى بيانها ، وتفصيلها ، شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم ، والأجر الجزيل .

﴿ **وبرزوا لله جميعاً** ﴾ : أى برزت الخلائق كلها برها وفاجرها لله الواحد القهار . أى اجتمعت فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحداً .

﴿ **فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً** ﴾ : أى فقال الأتباع لقادتهم وسادتهم ، الذين استكبروا عن عبادة الله وحده ، وعن اتباع قول الرسل : إنا كنا تابعين لكم ، تأمروننا فنأتمر ، وتنهوننا فننتهى .

﴿ **فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء** ﴾ : أى فهل تدفعون عنا اليوم شيئاً من ذلك العذاب ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا .

وقد حكى الله رد أولئك السادة عليهم :

﴿ **قالوا لو هدانا الله لهديناكم** ﴾ : أى لو أرشدنا الله تعالى ، وأضاء لنا أنوار بصائرنا ، وأفاض علينا من توفيقه ومعونته ، لأرشدناكم ودعوناكم إلى سبل الهدى ، ووجهنا أنظاركم إلى طريق الخير والفلاح ، ولكنه لم يهدنا فضللنا السبيل ، فأضللناكم .

ولما كان هذا القول منهم إمارة الجزع قالوا :

﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص** ﴾ أى ليس لنا من مهرب ولا خلاص عما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا .

وخلاصة ذلك : سيان الجزع والصبر فلا نجاة لنا من عذاب الله .

وفى مثل الآية قوله : ﴿ **وإذ يتحاجّون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار • قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا • ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾[2] .

(١) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة غافر .
(٢) الآيتان ٦٧ ، ٦٨ من سورة الأحزاب .

ولما ذكر سبحانه المناظرة التى ستكون بين الأتباع والرؤساء أردفها المناظرة التى ستكون بين الشيطان وأتباعه حينئذ فقال :

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر ﴾ :

أى وقال إبليس مخاطباً أتباعه من الإنس بعد أن حكم الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين فراديس الجنات ، وأسكن الكافرين سحيق الدركات .

﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ : أى أن الله وعدكم على ألسنة رسله بالبعث ، وجزاء كل عامل على عمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ووعده حق ، وخبره صدق .

﴿ ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ : أى ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ، ولا حشر ولا حساب ، ولئن كانا فنعم الشفيع لكم الأصنام والأوثان ، فأخلفتكم موعدى ، إذ لم أقل إلا بهرجاً من القول وباطلا منه ، فاتبعتمونى وتركتم وعد ربكم ، وهو وليكم ومالك أمركم .

ونحو الآية قوله ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾[1] . (وما كان لى عليكم من سلطان) أى وما كان لى قوة وتسلط تجعلنى ألجئكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾ : أى ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال بوسوستى وتزيينى أسرعتم إلى إجابتى ، واتبعتم شهوات النفوس ، وأطعتم الهوى ، وخضتم فى مسالك الردى .

﴿ فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾ : لأنه ما كان منى إلا الدعاء ، وإلقاء الوسوسة ، ولوموا أنفسكم إذ استجبتم لى باختياركم الذى نشأ عن سوء استعدادكم ، بلا حق منى ولا برهان ، بل بتزيينى وتسويلى ، ولم تستجيبوا لربكم وقد دعاكم دعوة الحق المقرونة بالحجج والبينات .

﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾ : أى ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب فأزيل صراخكم ، وما أنتم بمغيثى مما أنا فيه من العذاب والنكال .

﴿ إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل ﴾ : أى أنى جحدت اليوم أن أكون شريكاً لله فيما أشركتمونى فيه من قبل هذا اليوم ، أى فى الدنيا ، وهذا كقوله ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾[2] .

ومعنى كفره بإشراكهم تبرؤه منه واستنكاره له ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾[3] .

﴿ إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ : أى قال إبليس ذلك قطعاً لأطماع الكفار من الإغاثة والنجاة من العذاب ، وإنما حكى الله ذلك عنه تنبيهاً للسامعين ، وحضاً لهم على النظر فى عاقبة أمرهم ،

(١) الآية ١٢٠ من سورة النساء . (٢) الآية ١٤ من سورة فاطر . (٣) الآية ٤ من سورة الممتحنة .

والاستعداد لذلك اليوم الذى يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيثوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم ، ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهبته .

ولما جمع سبحانه فريقى السعداء والأشقياء فى قوله ﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾[1] .

وبالغ فى وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة .

ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم فى ذلك اليوم ، فقال : ﴿ **وأُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ .

أى وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله ، فأقروا بوحدانيته تعالى ، ورسالة رسله وعملوا بطاعته فانتهوا إلى أمره ونهيه بساتين ، تجرى من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبداً ، لا يتحولون عنها ولا يزولون فيها .

﴿ **بإذن ربهم** ﴾ : أى بتوفيقه تعالى ، إذ وجه نفوسهم فى الدنيا تكسب الخيرات والميل إلى العمل بما يرضيه ويرضى رسوله ، وأنار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه ، فأعدوا له العدة فكان على الله بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كفاء ما جدُّوا فى رضاه ، ونصبوا فى طاعته خوفاً من هول ذلك اليوم العصيب .

﴿ **تحيتهم فيها سلام** ﴾ : أى تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم ، تعظيماً لشأنهم ، وعناية بأمرهم ، وجاء فى هذا المعنى قوله تعالى ، فى وصف دخولهم الجنة ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾[2] وقوله ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ﴾[3] . وقوله : ﴿ ويلقون فيها تحية وسلاماً ﴾ كما يحييهم ربهم جلت قدرته ، إظهاراً لرضاه عنهم ، وإجلالا وإكباراً لهم ، كما قال : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[4] .

مثل الكلمة الطيبة والخبيثة

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ
(٢٤) تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ
وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (٢٧)

(١) الآية ٢١ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٧٣ من سورة الزمر .
(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .
(٤) الآية ٥٨ من سورة يس .

المفردات : ﴿ **المثل** ﴾ : قول فى شيء يشبه بقول فى شيء آخر لما بينهما من المشابهة ويوضح الأولى بالثانية ، ليتم انكشاف حاله به . ﴿ **ثابت** ﴾ : أى ضارب بعروقه فى الأرض . ﴿ **فى السماء** ﴾ : أى جهة العلو . ﴿ **تؤتى أكلها** ﴾ : أى تعطى ثمرها . ﴿ **بإذن ربها** ﴾ : أى بإرادة خالقها . ﴿ **اجتثت** ﴾ : أى استؤصلت وأخذت جثتها . ﴿ **والقرار** ﴾ : الاستقرار . ﴿ **القول الثابت** ﴾ : أى الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم .

وينتقل بنا النظم الكريم بزحفه المقدس إلى ضرب الأمثال ، وقد قالوا « بالمثال يتضح المقال » .

فيضرب الله مثلا لقول (لا إلّه إلا الله) وهى الكلمة الطيبة ، كما أنها الكلمة العليا فى قوله تعالى ﴿ وكلمة الله هى العليا ﴾[1] كما أنها كلمة التقوى فى قوله تعالى ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾[2] .

ولقد ضرب الله تعالى مثلا لكلمة التوحيد بشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، وقد دلت الآثار على أن تلك الشجرة هى النخلة .

قال البخارى بسنده عن ابن عمر قال : « كنا عند رسول الله ﷺ فقال : (أخبرونى عن شجرة تشبه – أو – كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها » قال ابن عمر : فوقع فى نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم . فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ : هى (النخلة) فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة . قال ما منعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً . قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا »[3] .

إن كلمة التوحيد ثابتة فى قلب المؤمن كثبات تلك النخلة الضاربة بجذورها فى أعماق الأرض ، وقد أخبر بعض خبراء الزراعة أن جذور النخلة فى الأعماق يعدل طولها فوق الأرض ، وهذا يدل على مدى تمكنها فى الأعماق ، إنها مع ثباتها تراها قد امتدت فروعها فى جو السماء .

وبين النخلة والمسلم وجوه شبه كثيرة ، فالنخلة كلها خير : فى ثمارها وما فى الثمار من نوى وفى أوراقها وجريدها ولوفها وجذعها ، كذلك المسلم كله خير يفتح قلبه لعباد الله ويمشى فى قضاء حوائجهم ، ويعفو عن مسيئهم ، ويصبر على ظلمهم ، ويحلم عند إساءتهم ، بل إن شدة الجهالة لا تزيده إلا حلماً ، فهو مع الناس كالشجر ، يرمونه بالحجر فيرميهم بأحلى الثمر .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة التوبة . (٢) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٣) أخرجه البخارى فى العلم (٤ ، ٥ ، ١٥ ، ٥٠) وفى البيوع (٩٤) وفى الأطعمة (٤٢) وفى الأدب (٨٩) . وأخرجه مسلم فى المنافقين (٦١ ، ٦٢) . والترمذى فى الأدب (٧٩ ، ٨٩) وفى تفسير (سورة ١٤ : ١) والإمام أحمد فى (٢ : ١٢ ، ٣ ، ٦١ ، ١٢٣ ، ١٥٧) .

كذلك كلمة التوحيد كلها خير تفتح أبواب السماء ، فالله سبحانه وتعالى إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن قتادة ؛ قال : إن رجلا قال : (يارسول الله : ذهب أهل الدثور بالأجور فقال : « أرأيت لو عمد إلى متاع الدنيا فركب بعضه على بعض أكان يبلغ السماء ، أفلا أخبرك بعمل أصله فى الأرض وفرعه فى السماء » قال : ما هو يارسول الله ؟ قال : « تقول لا إلّه إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله عشر مرات فى دبر كل صلاة فذاك أصله فى الأرض وفرعه فى السماء »)

قوله تعالى : ﴿ **تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها** ﴾ أى تعطى ثمارها لينتفع بها الخلق ، فهى معطاءة دائماً ، وهذا هو سر التعبير بـ (تؤتى) ولم يقل « تثمر أكلها كل حين » كذلك المؤمن سخى جواد كريم ، له فى كل وقت أعمال صالحة طيبة .

إن هذه الشجرة قد أحاطها الله تعالى بالرعاية والعناية والصيانة ، فهى تؤتى أكلها بإذن ربها ، وهذا مثل طيب من أمثلة القرآن التى جاءت فى أعلى طبقات البلاغة ﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون** ﴾ .

والذكرى تنفع المؤمنين ، وطوبى ثم طوبى للذين يتذكرون إذا ضربت الأمثال : ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار** ﴾ :

هذا مثل ضربه الله تعالى لكلمة الكفر التى لا خير فيها ، كما لا خير فى أهلها ، إنها خبيثة مظلمة مرة المذاق كشجرة الحنظل ، كذلك أهل الكفر ، قلوبهم منكرة وهم مستكبرون ، إن تلك القلوب المظلمة ﴿ فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بَعْضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور ﴾(٣) .

إن هذه الشجرة الخبيثة لا قرار لها ولا استقرار . لقد استؤصلت من فوق الأرض ولا جذور لها فى الأعماق ، والكفر كذلك خواء وجُفاء ، إنه كالزبد الذى لا خير فيه ، وإنها كرءوس التماثيل يشخشخ فيها الهواء .

قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ :

دلت الآثار على أن هذه الآية عند سؤال القبر ، وكذلك الثواب والعقاب الذى يجرى على الناس ،

---

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر . (٢) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت . (٣) الآية ٤٠ من سورة النور .

والذى يرتبط بالأعمال ، فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾(١) .

فالذين ماتوا على التوحيد وثبتوا على كلمته يثبتهم الله عند السؤال ، أما الظالمون فإنهم أهل ضلال وإفك وبهتان ، فيضلهم الله جزاء بما كانوا يعملون ، ولله تعالى مشيئة وإرادة وعلم ، يفعل ما يشاء بحكمته ، ويحكم ما يريد بقدرته .

روى البخارى بسنده عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال : (المسلم إذا سئل فى القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)(٢) فذلك قوله ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد ، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وفى يده عود ينكت به فى الأرض فرفع رأسه فقال (استعيذوا بالله من عذاب القبر) مرتين أو ثلاثاً .

ثم قال : (إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة حتى يجلسوا منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها فإن أخذها لم يدعوها فى طرف يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله أكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربى الله . فيقولان ما دينك ؟ فيقول دينى الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة .

قال فيأتيه من روحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير (سورة ٤٤ : ١) .

طيب الريح فيقول أبشر بالذى كنت يسرك . هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له : من أنت فوجهك الوجه الذى يأتى بالخير فيقول أنا عملك الصالح فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال : وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء سود الوجوه معهم المسوح ، فجلسوا منه مد البصر ، ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال : فتفرق فى جسده فينتزعه كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح فيخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهذه ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ : (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً . ثم قرأ ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[1] فتعاد روحه فى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى فيقولان له ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول : أبشر بالذى يسوؤك هذا يومك الذى كنت توعد فيقول : ومن أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة)[2] .

قال سفيان الثورى عن أبيه عن خيثمة عن البراء فى قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ قال : عذاب القبر .

وقال المسعودى عن عبد الله بن مخارق عن أبيه عن عبد الله قال : (إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره فيقال له : ما ربك ؟ ما دينك ؟ من نبيك ؟ فيثبته الله فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ونبيى محمد ﷺ) ، وقرأ عبد الله ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

روى الإمام مسلم بسنده عن قتادة قال : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم فيأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما

(١) الآية ٣١ من سورة الحج .
(٢) أخرجه البخارى فى الأدب (١٢٠) . وأبو داود فى الجنائز (١٧) . والترمذى فى الجنائز (٨١) . وابن ماجه فى الجنائز (١٧ ، ٣٧) .

كنت تقول فى هذا الرجل ؟ قال فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله قال فيقال له انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة)[١] قال النبى ﷺ (فيراهما جميعاً) . قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً ويملأ عليه خضراً إلى يوم القيامة .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن جريج أخبرنى أبو الزبير أنه سأل جابر بن عبد الله عن فتانى القبر فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن هذه الأمة تبتلى فى قبورها فإذا أدخل المؤمن قبره وتولى عنه أصحابه جاءه ملك شديد الانتهار فيقول له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ـــ؟ فأما المؤمن فيقول إنه رسول الله ﷺ وعبده فيقول له الملك : أنظر إلى مقعدك الذى كان لك فى النار قد أنجاك الله منه وأبدلك بمقعدك الذى ترى من الجنة فيراهما كليهما ، فيقول المؤمن دعونى أبشر أهلى فيقول له اسكن ، وأما المنافق فيقعد إذا تولى عنه أهله فيقال له ما كنت تقول فى هذا الرجل ؟ فيقول لا أدرى أقول كما يقول الناس فيقال له لا دريت هذا مقعدك الذى كان لك فى الجنة قد أبدلت مكانه مقعدك من النار) قال جابر : فسمعت النبى ﷺ يقول : (يبعث كل عبد فى القبر على مامات ، المؤمن على إيمانه والمنافق على نفاقه)[٢] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (إن الميت تحضره الملائكة فإذا كان الرجل الصالح قالوا اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب اخرجى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان . قال فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها فيقال من هذا ؟ فيقال فلان . فيقولون مرحباً بالروح الطيبة كانت فى الجسد ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب غير غضبان – قال – فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهى بها إلى السماء التى بها الله عز وجل) .

(وإذا كان الرجل السوء قالوا أخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث أخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق وآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ثم يعرج بها إلى السماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال فلان ، فيقال لا مرحباً بالنفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث ارجعى ذميمة فإنه لا تفتح لك أبواب السماء فيرسل من السماء ثم يصير إلى القبر فيجلس الرجل الصالح) فيقال له مثل ماقيل فى الحديث الأول ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل له فى الحديث الأول .

وقال ابن حبان فى صحيحه بسنده عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (إن المؤمن إذا قبض أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون أخرجى إلى روح الله فتخرج كأطيب ريح مسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً يشمونه حتى يأتوا به باب السماء فيقولون ما هذه الريح الطيبة التى جاءت من قبل

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز (٦٧ ، ٨٦) . ومسلم فى فضائل الصحابة (٧٨) . والنسائى فى الجنائز (١٠٩ ، ١٠١) . والإمام أحمد فى (٣ : ٤ ، ٢٣٣) وفى (٤ : ٢٩٦) وفى (٢ : ١١٨) .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنة (٨٣) .

الأرض ، ولا يأتون سماء إلا قالوا مثل ذلك حتى يأتوا به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحاً به من أهل الغائب بغائبهم فيقولون ما فعل فلان فيقولون دعوه حتى يستريح فإنه كان فى غم فيقول قد مات أما أتاكم فيقولون ذهب به إلى أمة الهاوية ، وأما الكافر فيأتيه ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجى إلى غضب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة فيذهب به إلى باب الأرض)[1] .

وقال ابن جرير بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (والذى نفسى بيده إن الميت ليسمع خفق نعالكم حين تولوا عنه مدبرين فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن يساره وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يمينه فتقول الزكاة ما قبلى مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصوم ما قبلى مدخل فيؤتى من عند رجليه فيقول فعل الخيرات ما قبلى مدخل فيقال له اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك فيقول دعنى حتى أصلى فيقال له إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول وعم تسألونى ؟ فيقال أرأيت هذا الرجل الذى كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه ؟ فيقول أمحمد ؟ فيقال له نعم فيقول أشهد أنه رسول الله وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه فيقال له على ذلك حييت وعلى ذلك مت وعليه تبعث إن شاء الله ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له أنظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم تجعل نسمته فى النسم الطيب وهى طيب خضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب) وذلك قول الله ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

وروى البزار عن أبى هريرة قال : (إن المؤمن ينزل به الموت ويعاين ما يعاين فيود لو خرجت يعنى نفسه والله يحب لقاءه ، وإن المؤمن يصعد بروحه إلى السماء فتأتيه أرواح المؤمنين فتستخبره عن معارفهم من أهل الأرض فإذا قال : تركت فلاناً فى الأرض أعجبهم ذلك وإذا قال : إن فلاناً قد مات قالوا : ما جىء به إلينا ؟

إن المؤمن يجلس فى قبره فيسأل من ربك فيقول : ربى الله ويسأل من نبيك فيقول : محمد نبيى فيقال : ما دينك ؟ قال دينى الإسلام فيفتح له باب قبره فيقول : - أو يقال - انظر إلى مجلسك ثم يرى القبر فكأنما كانت رقدة وإذا كان عدو الله نزل به الموت وعاين ما عاين فإنه لا يحب روحه أبداً والله يبغض لقاءه ، فإذا جلس فى قبره أو أجلس فيقال له : من ربك ؟ فيقول : لا أدرى فيقال : لا دريت . فيفتح له باب إلى جهنم ثم يضرب ضربة تسمعها كل دابة إلا الثقلين ثم يقال له نم كما ينام النهوش) قلت لأبى هريرة : ما المنهوش ؟ قال الذى تنهشه الدواب والحيات (ثم يضيق عليه قبره) .

عن محمد بن المنكدر قال : (كانت أسماء - يعنى بنت الصديق رضى الله عنها - تحدث عن النبى ﷺ قالت : قال : (إذا دخل الإنسان قبره ، فان كان مؤمناً حف به عمله الصلاة والصيام ، قال :

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز (٩) . والإمام أحمد فى (٤ : ٢٨٨) .

فيناديه : اجلس فيجلس فيقول له : ماذا تقول فى هذا الرجل يعنى النبى ﷺ ؟ قال : من ؟ قال : محمد . قال : أشهد أنه رسول الله . قال وما يدريك أدركته ؟ قال : أشهد أنه رسول الله . قال : يقول على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث .

وإن كان فاجراً أو كافراً جاءه الملك ليس بينه وبينه شيء يرده فأجلسه فيقول له : ماذا تقول فى هذا الرجل ؟ قال : أى رجل ؟ قال : محمد ؟ قال يقول والله ما أدرى سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته ، قال له الملك . على ذلك عشت وعليه مت وعليه تبعث قال ويسلط عليه دابة فى قبره معها سوط ثمرته جمرة مثل عرف البعير تضربه ما شاء الله صماء لا تسمع صوته فترحمه) .

وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى هذه الآية قال : (إن المؤمن إذا حضره الموت شهدته الملائكة فسلموا عليه وبشروه بالجنة ، فإذا مات مشوا مع جنازته ، ثم صلوا عليه مع الناس ، فإذا دفن أجلس فى قبره فيقال له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقال له : من رسولك ؟ فيقول : محمد ﷺ . فيقال له ما شهادتك ؟ فيقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فيوسع له فى قبره مد بصره .

وأما الكافر فتنزل عليه الملائكة فيبسطون أيديهم — والبسط هو الضرب ﴿ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾[1] عند الموت فإذا أدخل قبره أقعد فقيل له : من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً وأنساه الله ذكر ذلك وإذا قيل من الرسول الذى بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع اليهم شيئاً) ﴿ **كذلك يضل الله الظالمين** ﴾ :

وقال ابن أبى حاتم عن أبى قتادة الأنصارى فى قوله تعالى : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

قال : إن المؤمن إذا مات أجلس فى قبره ، فيقال له : من ربك ؟ فيقول : الله فيقال له : من نبيك ؟ فيقول : محمد بن عبد الله . فيقال له ذلك مرات ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال : انظر إلى منزلك من النار لو زغت ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له : انظر إلى منزلك من الجنة إذا ثبت .

وإذا مات الكافر أجلس فى قبره فيقال له : من ربك ؟ من نبيك فيقول : لا أدرى ، كنت أسمع الناس يقولون . فيقال له : لا دريت ، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له : انظر إلى منزلك إذا ثبت ، ثم يفتح له باب إلى النار فيقال له انظر إلى منزلك إذا زغت) فذلك قوله تعالى ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾ .

وقال أبو عبد الله الحكيم الترمذى فى كتابه (نوادر الأصول) حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبى فديك عن عبد الرحمن بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال :

---

(١) الآية ٢٧ من سورة محمد .

خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى مسجد المدينة ، فقال : (رأيت البارحة عجباً ، رايت رجلا من أمتى جاءه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بره بوالديه فرد عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوءه فاستنقذه من ذلك .

ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين فجاءه ذكر الله فخلصه من بينهم .

ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتى يلهث عطشاً كلما ورد حوضاً منع منه فجاءه صيامه فسقاه وأرواه .

ورأيت رجلا من أمتى والنبيون قعود حلقاً حلقاً كلما دنا لحلقه طردوه فجاء اغتساله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى .

ورأيت رجلا من أمتى من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن شماله ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءته حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه النور .

ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين فلا يكلمونه فجاءته صلة الرحم فقالت يامعشر المؤمنين : كلموه فكلموه .

ورأيت رجلاً من أمتى يتقى وهج النار وشررها بيده عن وجهه فجاءته صدقته فصارت له صدقته ستراً على وجهه وظلا على رأسه .

ورأيت رجلا من أمتى قد أخذته الزبانية من كل مكان فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذاه من أيديهم ، وأدخلاه مع ملائكة الرحمة .

ورأيت رجلا من أمتى جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب ، فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل .

ورأيت رجلا من أمتى قد هوت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله فأخذ صحيفته فجعلها فى يمينه .

ورأيت رجلا من أمتى قد خف ميزانه فجاءته أفراطه فثقلوا ميزانه .

ورأيت رجلا من أمتى قائماً على شفير جهنم فجاءه وجله من الله فاستنقذه من ذلك ومضى .

ورأيت رجلا من أمتى هوى فى النار فجاءته دموعه التى بكى من خشية الله فى الدنيا فاستخرجته من النار .

ورأيت رجلا من أمتى قائماً على الصراط المستقيم يرعد كما ترتعد السعفه فجاء حسن ظنه بالله فسكن رعدته ومضى .

ورأيت رجلا من أمتى على الصراط يزحف أحياناً ويحبو أحياناً فجاءته صلاته على فأخذت بيده

فأقامته ومضى على الصراط .

ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى باب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة) .

وقال القرطبى بعد إيراده هذا الحديث من هذا الوجه : هذا حديث عظيم ، ذكر فيه أعمالاً خاصة تنجى من أهوال خاصة ، أورده هكذا فى كتابه (التذكرة) .

وروى الحافظ أبو يعلى الموصلى عن تميم الدارى عن النبى ﷺ قال : يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق إلى ولى فأتنى به فانى قد ضربته بالسراء والضراء ، فوجدته حيث أحب ، ائتنى به فلأريحنه . فينطلق إليه ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ، معهم أكفان وحنوط من الجنة ، ومعهم ضبائر الريحان ، أصل الريحانة واحد وفى رأسها عشرون لوناً ، لكل لون منها ريح سوى ريح صاحبه ، ومعهم الحرير الأبيض فيه المسك الأذفر فيجلس ملك الموت عند رأسه ، وتحف به الملائكة ، ويضع كل منهم يده على عضو من أعضائه ، ويبسط ذلك الحرير الأبيض والمسك الأذفر تحت ذقنه ، ويفتح له باب إلى الجنة ، فإن نفسه لتعلل عند ذلك بطرف الجنة ء تارة بأزواجها ، وتارة بكسوتها ، ومرة بثمارها ، كما يعلل الصبى أهله إذا بكى . قال : وإن أزواجه يبتهشن عند ذلك ابتهاشاً . قال وتبرز الروح .

قال البرسانى : يريد أن تخرج من العجل إلى ما تحب .

قال : ويقول ملك الموت اخرجى يا أيتها الروح الطيبة إلى سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب . قال : ولملك الموت أشد به لطفاً من الوالدة بولدها ، يعرف أن ذلك الروح حبيب لربه فهو يلتمس بلطفه تحبباً لديه ، رضاء للرب عنه ، فتسل روحه كما تسل الشعرة من العجين) .

قال : وقال الله عز وجل ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾(١) وقال : ﴿ فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم ﴾(٢) .

قال : روح من جهة الموت ، وريحان يتلقى به ، وجنة نعيم تقابله .

قال : فإذا قبض ملك الموت روحه قالت الروح للجسد : جزاك الله عنى خيراً ، فقد كنت سريعاً بى إلى طاعة الله ، بطيئاً بى عن معصية الله ، فقد نجيت وأنجيت . قال : ويقول الجسد للروح مثل ذلك .

قال : وتبكى عليه بقاع الأرض التى كان يطيع الله فيها ، وكل باب من السماء يصعد منه عمله وينزل منه رزقه . أربعين ليلة .

قال فإذا قبض ملك الموت روحه أقامت الخمسمائة من الملائكة عند جسده ، فلا يقلبه بنو آدم

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النحل .
(٢) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الواقعة .

لشق إلا قلبته الملائكة قبلهم وغسلته وكفنته بأكفان قبل أكفان بنى آدم ، وحنوط قبل حنوط بنى آدم ، ويقوم من باب بيته إلى قبره صفان من الملائكة يستقبلونه بالاستغفار ، فيصيح عند ذلك إبليس صيحة تتصدع منها عظام جسده ، قال : ويقول لجنوده الويل لكم ، كيف خلص هذا العبد منكم ؟ فيقولون : إن هذا كان عبداً معصوماً .

قال : فإذا صعد ملك الموت بروحه يستقبله جبريل فى سبعين ألفاً من الملائكة كل يأتيه ببشارة من ربه سوى بشارة صاحبه ، قال : فإذا انتهى ملك الموت بروحه إلى العرش خر الروح ساجداً . قال : يقول الله عز وجل لملك الموت : انطلق بروح عبدى فضعه فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب .

قال فإذا وضع فى قبره جاءته الصلاة فكانت عن يمينه ، وجاءه الصيام فكان عن يساره ، وجاءه القرآن فكان عند رأسه ، وجاءه مشيه إلى الصلاه فكان عند رجليه ، وجاءه الصبر فكان ناحية القبر . قال : فيبعث الله عز وجل عتقا من العذاب . قالوا : فيأتيه عن يمينه قال : فتقول الصلاة وراءك والله مازال دائباً عمره كله ، وإنما استراح الآن حين وضع فى قبره . قال : فيأتيه عن يساره فيقول الصيام مثل ذلك ، قال : ثم يأتيه من عند رأسه فيقول القرآن والذكر مثل ذلك ، قال : ثم يأتيه من عند رجليه فيقول مشيه إلى الصلاة مثل ذلك ، فلا يأتيه العذاب من ناحية يلتمس هل يجد إليه مصاغاً إلا وجد ولى الله قد أخذ جنته . قال : فينقمع العذاب عند ذلك فيخرج .

قال : ويقول الصبر لسائر الأعمال أما إنه لم يمنعنى أن أباشر أنا بنفسى إلا أنى نظرت ما عندكم ، فإن عجزتم كنت أنا صاحبه ، فأما إذا أجزأتم عنه فأنا له ذخر عند الصراط والميزان .

قال ويبعث الله ملكين : أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصياصى وأنفاسهما كاللهب ، يطآن فى أشعارهما بين منكب كل واحد مسيرة كذا وكذا ، وقد نزعت منهما الرأفة والرحمة يقال لهما منكر ونكير ، وفى يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم يقلوها . قال : فيقولان له : اجلس . قال : فيجلس فيستوى جالساً . قال : وتقع أكفانه فى حقويه . قال : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ قال : قالوا يارسول الله ومن يطيق الكلام عند ذلك ، وأنت تصف من الملكين ما تصف ؟ .

قال : فقال رسول الله ﷺ : ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾ .

قال : فيقول : ربى الله وحده لا شريك له ، ودينى الإسلام الذى دانت به الملائكة ، ونبيى محمد خاتم النبيين . قال : فيقولان له : صدقت . قال : فيدفعان القبر فيوسعان من بين يديه أربعين ذراعاً ، وعن يمينه أربعين ذراعاً ، وعن شماله أربعين ذراعاً ، ومن خلفه أربعين ذراعاً ، ومن عند رأسه أربعين ذراعاً ، ومن عند رجليه أربعين ذراعاً . قال : فيوسعان له مائتى ذراع .

قال البرسانى : فأحسبه وأربعين ذراعاً تحاط به .

قال : ثم يقولان له : أنظر فوقك ، فإذا باب مفتوح إلي الجنة قال : فيقولان له : ولى الله هذا منزلك إذا أطعت الله .

فقال رسول الله ﷺ (والذى نفس محمد بيده إنه يصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً) .

ثم يقال له : أنظر تحتك . قال : فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار ، قال : فيقولان : ولى الله نجوت . آخر ماعليك .

قال : فقال رسول الله ﷺ : (إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك فرحة لا ترتد أبداً) .

قال : قالت عائشة يفتح له سبعة وسبعون باباً إلى الجنة ، يأتيه ريحها وبردها حتى يبعثه الله عز وجل) .

وبالاسناد المتقدم إلى النبى ﷺ قال : ويقول الله تعالى لملك الموت : انطلق إلى عدوى فأتنى به فإنى قد بسطت له رزقى ، ويسرت له نعمتى ، فأبى إلا معصيتى ، فأتنى به لأنتقم منه . قال : فينطلق إليه ملك الموت فى أكره صورة رآها أحد من الناس قط ، له أثنتا عشرة عيناً ، ومعه سفود من النار كثير الشوك ،ومعه خمسمائة من الملائكة معهم نحاس وجمر من جمر جهنم . ومعهم سياط من نار لينها لين السياط ، وهى نار تتأجج .

قال : فيضربه به ملك الموت بذلك السفود خربة يغيب كل أصل شوكة من ذلك السفود فى أصل كل شعرة وعرق وظفر .

قال : ثم يلويه لياً شديداً . قال : فينزع روحه من أظفار قدميه . قال فيلقيها فى عقبيه قال : فيسكر عدو الله عن ذكر سكره ، فيرفه ملك الموت عنه . قال : وتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط . قال : فيشده ملك الموت شدة فينزع روحه من عقبيه ، فيلقيها فى ركبتيه ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه . قال : فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط . قال : ثم ينثره ملك الموت نثرة فينزع روحه من ركبتيه فيلقيها فى حقويه ، ثم يسكر عدو الله عند ذلك سكرة فيرفه ملك الموت عنه . قال : فتضرب الملائكة وجهه ودبره بتلك السياط . قال : كذلك إلى صدره ، ثم كذلك إلى حلقه .

قال : ثم تبسط الملائكة ذلك النحاس وجمر جهنم تحت ذقنه ، قال : ويقول ملك الموت أخرجى أيتها الروح اللعينة إلى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم . قال : فإذا قبض ملك الموت روحه قال الروح للجسد : جزاك الله عنى شراً فقد كنت سريعاً بى إلى معصية الله ، بطيئاً بى عن طاعة الله ، فقد هلكت وأهلكت . قال ويقول الجسد للروح مثل ذلك ، وتلعنه بقاع الأرض التى كان يعصى الله عليها .

وتنطلق جنود إبليس إليه فيبشرونه بأنهم قد أوردوا عبداً من ولد آدم النار .

قال : فإذا وضع فى قبره ضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، حتى تدخل اليمنى فى اليسرى ، واليسرى فى اليمنى .قال : ويبعث الله إليه أفاعى دهماً كأعناق الإبل ، يأخذن بأذنيه وإبهام قدميه ، فيقرضنه حتى يلتقين فى وسطه . قال ويبعث إليه ملكين أبصارهما كالبرق الخاطف ، وأصواتهما كالرعد القاصف ، وأنيابهما كالصياصى ، وأنفاسهما كاللهب ، يطآن فى أشعارهما بين منكبى كل واحد منهما مسيرة كذا وكذا ، قد نزعت منهما الرأفة والرحمة . يقال لهما منكر ونكير ، فى يد كل واحد منهما مطرقة لو اجتمع عليها ربيعة ومضر لم تعلوها . قال : فيقولان له : إجلس . فيستوى جالساً . وتقع أكفانه فى حقويه . قال : فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقولان له : لادريت ولا تكيت . فيضربانه ضربة يتطاير شررها فى قبره ، ثم يعودان . قال : فيقولان : انظر فوقك فينظر فإذا باب مفتوح من الجنة فيقولان : عدو الله هذا منزلك لو أطعت الله . قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً) . قال : ويقولان له : انظر تحتك ، فينظر تحته فإذا باب مفتوح إلى النار فيقولان : عدو الله هذا منزلك إذ عصيت الله قال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده إنه ليصل إلى قلبه عند ذلك حسرة لا ترتد أبداً) .

وقالت عائشة : ويفتح له سبعة وسبعون باباً إلى النار ، يأتيه حرها وسمومها حتى يبعثه الله إليها) .

جزاء الكافرين

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ (٣١)

المفردات : ﴿ **البوار** ﴾ : الهلاك يقال رجل بائر وقوم بور كما قال تعالى ﴿ وكنتم قوماً بوراً ﴾[1] . ﴿ **يصلونها** ﴾ : يقاسون حرها . ﴿ **والأنداد** ﴾ : واحدهم ندّ ، وهو المثل والشبيه . ﴿ **والمصير** ﴾ : المرجع . ﴿ **والبيع** ﴾ : الفدية . ﴿ **والخلال** ﴾ : المخالّة والصداقة .

بعد أن ضرب عز اسمه الأمثال بياناً لحالى الفريقين ، وذكر ما يلهمه من التوفيق فى الدارين للسعداء ، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال ، جزاء ما كسبت أيديهم من تَدْسِيَتِهم لأنفسهم باجتراحهم للشرور والآثام ، وبين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة .

ذكر هنا الأسباب التى أوصلتهم إلى سوء العاقبة محجّباً رسوله مما صنعوا من الأباطيل التى لا تكاد

(١) الآية ١٢ من سورة الفتح .

تصدر ممن له حظ من الفكر والنظر ، ولم تكن هذه الطامة حقيقى بهم ، بل كانت فتنة لهم شعواء عمتهم جميعاً ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾(١) .

ذاك أنهم بدلوا نعمة الله كفراً ، والشكر جحداً وإنكاراً ، وليت البليّة كانت واحدة بل أضافوا إليها أخرى فاتخذوا لله الأنداد والشركاء ، ثم ثلّثوا بإضلال غيرهم ، فكانوا دعاة الكفر ، وأعوان الفتنة . ومن ثم كانت عاقبتهم التى لا مرد لها العذاب الأليم فى جهنم وبئس المصير ؛ ثم بين لرسوله أن مثل هؤلاء لا تجدى فيهم العظة فذرهم يتمتعوا فى هذه الحياة حتى حين ، ثم لابد لهم من النصيب المحتوم .

وبعد أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعم الدنيا ، أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة فى التمتع بها ، والجد فى مجاهدة النفس والهوى ، ببذل النفس والمال فى كل ما يرفع شأنهم ، ويقربهم من ربهم ، وينيلهم الفوز فى يوم لا تنفع فيه ندية ولا صداقة ولا خلة : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾(٢) .

أخرج عطاء عن ابن عباس أن هؤلاء هم كفار مكة .

وأخرج الحاكم وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن على أنه قال فى هؤلاء المبدّلين : « هم الأفجران من قريش : بنو أمية وبنو المغيرة ، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فمتعوا حتى حين » .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ :

ولقد عدد سبحانه الأسباب التى أوقعت هؤلاء الأشقياء ومن شايعهم فى سوء المنقلب ، وحصرها فى ثلاثة :

(١) ﴿ **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً** ﴾ : أى ألم تعلم وتعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطاً لها وجحوداً لها ، كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرما آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء ، وجعلهم قوام بيته ، وشرفهم بإرسال رسوله محمد ﷺ من بينهم ، فكفروا بتلك النعمة فأصابهم الجدب والقحط سبع سنين دأباً ، وأسروا يوم بدر وصفدوا فى السلاسل والأغلال ، وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضنون بهم ، ويحتفظون بمواضعهم « ليوم كريهة وسداد ثغر » .

وقوله تعالى : ﴿ **وأحلوا قومهم دار البوار** ﴾ : أى وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذى لا هلاك بعده ، ثم بين هذه الدار فقال سبحانه :

﴿ **جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾ : أى هذه الدار هى جهنم دار العذاب التى يقاسون حر نارها ، وبئس المستقر هى لمن أراد الله به النكال والوبال .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال . (٢) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء .

(٢) ﴿ **وجعلوا لله أنداداً** ﴾ : أى واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس كمثله شىء – أنداداً وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به فى العبادة ، كما قالوا فى الحج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وماملك .

(٣) ﴿ **ليضلوا عن سبيله** ﴾ : أى لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم البعد والإعراض عن سبيله القويم ، ودينه الحنيف ، والوقوع فى حمأة الكفر والضلال .

ولما حكى الله عنهم هذه الهنات الثلاث ، تبديل النعمة ، واتخاذ الأنداد والأمثال ، وإضلال قومهم ، أمر نبيه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد : سيروا على ما أنتم عليه ، فإنه لا فائدة فى نصحكم وإرشادكم والعاقبة النار .

﴿ **قل تمتعوا** ﴾ : أى تمتعوا بما أنتم فيه سادرون مما سيؤدى بكم إلى مهاوى الهلاك من الكفران وعبادة الأوثان والأصنام فى إضلال الناس والصد عن سبيل الله .

ثم بين جزاءهم المحتوم فقال : ﴿ **فإن مصيركم إلى النار** ﴾ : أى إن مرجعكم وموئلكم إليها ، كما قال ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[١] وسمى الله تعالى ذلك تمتعاً ، لأنهم تلذذوا به ، وأحسوا بغبطة وسرور كما يتلذذون بالمشتهيات من النعم .

وهذا الأسلوب التهكمى يستعمل فى التخاطب كثيراً فترى الطبيب يأمر مريضة بالاحتماء من بعض ما يضره ويؤذيه ، ثم لا يرى منه إلا تمادياً فى الإعراض عن أوامره ، واتباعاً لشهواته ، فيقول له : كل ما تريد ، فإن مصيرك إلى الموت ، ومامراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول . وكما يقال لمن سعى من مخالفة السلطان : اصنع ما شئت ، فإن مصيرك إلى السيف .

وبعد أن هدد الكفار على انغماسهم فى اللذات ، أمر نبيه ﷺ أن يأمر خُص عباده بإقامة العبادات البدنية ، وأداء الفرائض المالية ، فقال سبحانه :

﴿ **قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم** ﴾ :

أى قل لهم : أقيموا الصلاة على وجهها ، وأدوها كما طلب ربكم ، فهى عماد الدين ، وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى المصباح للمؤمن ، يستضىء به للقرب من ربه ، وأدوا الزكاة شكراً على نعمه الجزيلة ، رأفة بعباده الفقراء ، سداً لخلتهم ، وإيجاداً للتضامن والتعاون بين الإخوة فى الدين : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾[٢] .

﴿ **سراً وعلانية** ﴾ : أى أنفقوا ذلك فى السر والعلن ، ولكل منهما حال تستحب فيها ، وقد تقدم القول فى تفصيل ذلك .

﴿ **من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة لقمان . (٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات .

أى من قبل أن يأتى اليوم الذى لا تنفع فيه فدية ، ولا تجدى فيه صداقة ، فلا يشفع خليل لخليل ، ولا يُصفح عن عقابه لمخالفته لصديقه ،بل هناك العدل والقسط كما قال : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ وقال : ﴿ أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾[2] .

الآيات الدالة على التوحيد

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

المفردات : ﴿ **السماء** ﴾ : السحاب ، وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء . ﴿ **والرزق** ﴾ : كل ما ينتفع به ، ﴿ **والتسخير** ﴾ : التيسير والإعداد . ﴿ **والفلك** ﴾ : السفن ، ﴿ **دائبين** ﴾ : أى دائمين فى الحركة لا يفتران ، يقال دأب فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : ﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾[3] . ﴿ **آتاكم** ﴾ : أى أعطاكم . ﴿ **لا تحصوها** ﴾ : لاتطيقوا حصرها ، والإحصاء : العد بالحصى ، وكان العرب يعتمدون فى العد كاعتمادنا فيه على الأصابع . ﴿ **ظلوم** ﴾ : أى لنفسه بإغفال شكر النعمة . ﴿ **كفار** ﴾ : شديد الكفران والجحود لها .

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين لنعمه ، حين بدلوا الشكر بالكفر ، واتخذوا لله أنداداً ، فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد ، ثم أمر بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة ، شكراً لربهم على ما أوتوا من النعم ، وحثا لهم على الجهاد فى سبيل كالهم ورقيهم . ببذل النفس والنفيس وهو المال ، لتكمل لهم السعادة فى الدارين ، شرع يذكر الأدلة المنصوبة فى الآفاق والأنفس التى توجب على عباده المثابرة على شكره ، ودوام الطاعة له ، ويذكر النعم الجسام التى يتقلبون فى أعطافها آناء الليل وأطراف النهار ، ليكون فى ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون ، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها ، كما فيه أشد التقريع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكر فى تلك النعم ، فكان هذا داعية كفرها وجحودها ، وغمطها وكفورها .

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض** ﴾ :

أى الله الذى خلق لكم السموات والأرض ، هما أكبر خلقاً منكم ، وفيهما من المنافع لكم

---

(١) الآية ١٥ من سورة الحديد . (٢) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة . (٣) الآية ٤٧ من سورة يوسف .

ما تعلمون ومالا تعلمون ، وتقدم تفصيل هذا فى مواضع متعددة من كتابه الكريم . ﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم** ﴾ :

أى وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجر والزرع ، فأثمرت لكم رزقاً تأكلون منه ، وتعيشون به ، والآية كقوله : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾[١] أى من ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع .

﴿ **وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره** ﴾ :

أى وذلل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها ، وجعلها طافية على وجه الماء ، تجرى عليه بأمره تعالى ، وسخر البحر لحملها ، ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم لجلب ما هناك إلى هنا ، ونقل ما هنا إلى هناك .

﴿ **وسخر لكم الأنهار** ﴾ :

تشق الأرض شقاً من قطر إلى قطر لانتفاعكم بها ، حيث تشربون منها ، وتتخذون جداول تسقون بها زروعكم وجناتكم ، وما أشبه ذلك .

﴿ **وسخر لكم الشمس والقمر دائبين** ﴾ :

أى دائمين فى الحركة ، لا يفتران إلى إنقضاء عمر الدنيا ، كما قال : ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[٢] ، وقال : ﴿ يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾[٣]

﴿ **وسخر لكم الليل والنهار** ﴾ :

يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم ، وما تحتاجون إليه فى أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه ، كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ﴾[٤] ، فالشمس والقمر يتعاقبان والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من ذاك فيطول ، ثم يأخذ من هذا فيقصر ، كما قال تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير ﴾[٥]

﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه** ﴾

أى هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم ، من كل الذى هو حقيق أن تسألوه ، سواء

---

(١) الآية ٥٣ من سورة طه .
(٢) الآية ٤٠ من سورة يس .
(٣) الآية ٥٤ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٧٣ من سورة القصص .
(٥) الآية ٢٩ من سورة لقمان .

أسألتموه أم لم تسألوه ، لأن هذه الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهى مُعدة لهم ، فلم يسأل الله أحد فى الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء ، بل خلقها وأعطاها للناس بالتدريج ، ولم يزل هناك عجائب ستظهر لمن بعدنا .

﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾ :

أى لا تطيقوا عد أنواعها ، فضلا عن القيام بشكرها .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ كان يقول : (اللهم لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا)[1] .

وأثر عن الشافعى أنه قال « الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها » .

وقال شاعرهم :

لو كل جارحة منى لها لفة ... تثنى عليك بما أوليت من نِعَمِ
لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به ... إليك أبلغ فى الإحسان والكرمِ

﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ .

أى إن الإنسان الذى بدل نعمة الله كفرا لشاكر غير من أنعم عليه ، فهو بذلك واضع للشكر فى غير موضعه ، ذاك أن الله هو الذى أنعم عليك بما أنعم ، واستحق إخلاص العبادة له ، فعبد هو غيره ، وجعل له أندادا ليضل عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وهو جحود لنعمة التى أنعم بها عليه ، لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه ، وتركه طاعة من أنعم عليه .

دعوات للخليل إبراهيم

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ
إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

(١) أخرجه البخارى فى الأطعمة (٥٤) . وأبو داود فى الأطعمة (٥٢) . وابن ماجه فى الأطعمة (١٦) .

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

المفردات : ﴿ **واجنبنى** ﴾ : أى أبعدنى ، وأصل التجنب أن يكون الرجل فى جانب غير ما عليه غيره ، ثم استعمل فى البعد مطلقا . ﴿ **وتهوى اليهم** ﴾ : أى تسرع شوقا وحبا : ﴿ **ويقوم الحساب** ﴾ : أى يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أى وجدتا .

فى هذا المشهد القرآنى الكريم ، يخبر تعالى عن أبى الأنبياء ابراهيم بأنه برىء من عبادة الأصنام ، فما كان يهودياً ولا نصرانياً ولا مشركا ولكن كان حنيفا مسلما : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[1] .

وقال عز من قائل ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾[2] .

وفى هذا المقام أيضا احتجاج على مشركى العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم الذى كانت عامرة بسببه أدلة تبرأ ممن عبد غير الله وأنه دعا لمكة بالأمن فقال : ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾ .

وقد استجاب الله لدعائه فقال تعالى ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[5]

وقال فى هذه القصة ﴿ **رب اجعل هذا البلد آمنا** ﴾ فعرفه لأنه دعا به بعد بنائها ولهذا قال : ﴿ الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ .

(١) الآيات ١٢٠ – ١٢٣ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٦١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٦٧ من سورة العنكبوت .
(٤) الآيتان ٩٦ ، ٦٧ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٥٧ من سورة القصص .

ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة فإنه دعا أيضا ، فقال ﴿ **رب اجعل هذا بلداً آمنا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام** ﴾ .

ينبغى لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته .

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم ، كقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[1] .

وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله تعالى ، لا تجويز وقوع ذلك .

وقال عبد الله بن وهب : عن عبد الله بن عمرو : إن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ **رب إنهن أضللن كثيرا من الناس** ﴾ الآية ، وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ثم قال : (اللهم أمتى اللهم أمتى اللهم أمتى ﴾ وبكى فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد ، وربك أعلم ، وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ فقال : اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك .

قوله تعالى ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾ .

وهذا يدل على أن هذا دعاء ثان بعد الدعاء الأول ، الذى دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيدا ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال ﴿ **عند بيتك المحرم** ﴾ .

وقوله ﴿ **ربنا ليقيموا الصلاة** ﴾ :

قال ابن جرير : هو متعلق بقوله ﴿ **المحرم** ﴾ أى إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿ **فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم** ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره : لو قال أفئدة الناس لأزدحم عليه فارس والروم واليهود والناس كلهم ، ولكن قال ﴿ **من الناس** ﴾ فاختص به المسلمون .

وقوله ﴿ **وارزقهم من الثمرات** ﴾ : أى ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذى زرع فاجعل لهم ثمارا يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يُجْبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ﴾[2]

(١) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

(٢) الآية ٥٧ من سورة القصص .

وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته ، أنه ليس فى البلد الحرام مكة شجرة مثمرة ، وهى تجبى إليها ثمرات ما حولها ، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام .

قوله تعالى ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء * الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء * رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء * ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾ :

قال ابن جرير يقول تعالى مخبرا عن إبراهيم خليله أنه قال ﴿ **ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن** ﴾ : أى أنت تعلم قصدى فى دعائى ، وما أردت بدعائى لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك ، والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها ، لا يخفى عليك منها شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم حمد ربَّه عز وجل على ما رزقه من الولد بعد الكبر ، فقال ﴿ **الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل وإسحاق إن ربى لسميع الدعاء** ﴾ : أى إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لى فيما سألته من الولد .

ثم قال ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة** ﴾ : أى محافظاً عليها مقيما لحدودها .

﴿ **ومن ذريتى** ﴾ : أى واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ **ربنا وتقبل دعاء** ﴾ أى فيما سألتك فيه كله .

﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى** ﴾ : وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه ، لما تبين له عداوته لله عز وجل .

﴿ **وللمؤمنين** ﴾ : أى كلهم ﴿ **يوم يقوم الحساب** ﴾ أى يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

وعيد الظالمين

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٤٢﴾
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ
يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ
وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ

مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ
ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ
وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى
ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ
مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ
أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

المفردات : ﴿ **تشخص** ﴾ : ترتفع . ﴿ **مهطعين** ﴾ : مسرعين إلى الداعى . ﴿ **مقنعى رءوسهم** ﴾ : أى رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شىء . ﴿ **لا يرتد** ﴾ : لا يرجع ، ﴿ **هواء** ﴾ : خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ، ويقال للجبان والأحمق قلبه هواء : أى لا قوة ولا رأى له كما قال حسان ابن ثابت يهجو أبا سفيان بن حرب :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوف نخب هواء

﴿ **من زوال** ﴾ : أى من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء . ﴿ **وضربنا لكم الأمثال** ﴾ : أى بينا لكم أنهم مثلكم فى الكفر واستحقاق العذاب . ﴿ **عزيز** ﴾ : أى غالب على أمره ينتقم من أعدائه لأوليائه . ﴿ **وبرزوا** ﴾ : أى خرجوا من قبورهم . ﴿ **مقرنين** ﴾ : أى مشدودين . ﴿ **فى الأصفاد** ﴾ : أى فى القيود واحدها صفد . ﴿ **سرابيلهم** ﴾ : واحدها سربال : وهو القميص . ﴿ **قطران** ﴾ : دهنٌ يتحلب من شجر الابهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت . ويقال له الحفناء ، وهو أسود اللون منتن الريح . ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾ : أى تعلوها وتحيط بها . ﴿ **بلاغ** ﴾ : كناية فى العظة والتذكير .

المناسبة

بعد أن ذكر عز اسمه أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفرا ، وجعلوا له الأنداد جهنم يصلونها وبئس المهاد ، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهول ، وإقامة فرائض الدين ذكر هنا تسلية لرسوله وتهديدا للظالمين من أهل مكة ، أى تأخيرهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية ليس إهمالا للعقوبة ، ولا لغفلة عن حالهم ، وإنما كان لحكمة اقتضت ذلك وهم مرصدون ليوم شديد الهول ، له من الأوصاف ما بُيِّنَ بعد ، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله ، وأنهم فى ذلك اليوم سيطلبون المرد إلى الدنيا

ليجيبوا دعوة الداعى ، وهيهات وهيهات .

صاح أرأيت أو سمعت براع رد فى الضرع ما جرى فى الحلاب

وقد كان لكم معتبر فى تلك المساكن التى تسكنونها ، فإنها كانت لقوم أمثالكم ، كفروا بأنعم الله ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ألا إن وعد الله لرسله لا يخلف ، وهو ناصرهم ، وخاذل أعدائه ، كما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا ﴾ وقال ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ﴾ ومحاسبهم فى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار ، وثرى حال المجرمين يجل عن الوصف .

وهذا الذى قصصته عليكم تبليغ وإنذار ، ليتذكر به ذو العقول الراجحة ، وليعلموا أن الله واحد لا شريك له .

قوله تعالى :

﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ :

هذا وعيد من الجبار جل جلاله لكل ظالم عنيد ، فالظلم مرتعه وخيم ، والظلم ظلمات يوم القيامة ، والظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر وكم أهلك الظلم من أمم .

بهذا نطق الكتاب الكريم :

﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[1] .

وقال جل شأنه :

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[3] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[4] .

وقال : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[5] .

وقد يظن الظالمون أن إمهال الله لهم إهمال ، وغفلوا عن قوله تعالى ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[6] .

كما تناسوا قوله ﷺ : (إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم

---

(١) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٥) الآية ٥٩ من سورة القصص .
(٦) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القلم .

يفلته ﴾ ، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[1] .

فلا تحسبن الله تعالى غافلا عما يعمل هؤلاء الجبابرة الطغاة ، واسألوا التاريخ عن هؤلاء الذين قال الله فى شأنهم . ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[2] .

ولابد للدنيا من انتهاء .

ولابد للآخرة من لقاء .

وإذا أمهل الله هؤلاء فإنما يؤخرهم ليوم ما أطوله ! إنه يوم يجعل الولدان شيبا فياله من خطب ما أهوله !

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[3] .

إن هذا اليوم تشخص فيه الأبصار ، أى ترى الأبصار مرفوعة ، وترى الظالمين مهطعين ، مقنعى رؤوسهم ، لا يرتد إليهم طرفهم ، وأفئدتهم هواء : ﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾[4] – أى مسرعين – ﴿ خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ .

﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾[5] .

وترى الظالمين مقنعى رؤوسهم – أى رافعيها – لا يرتد إليهم طرفهم – من شدة الهول ، لا تطرف عيونهم من هول ما يرون ، أما قلوبهم فإنها هواء كرؤوس التماثيل ، تشخشخ فيها الرياح ، ليس فى قلوبهم إيمان ولا تقوى .

فالظلم مرتعه وخيم :

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله تعالى ﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله**

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٢) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ٢ من سورة الحج .
(٤) الآية ٨ من سورة القمر .
(٥) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة المعارج .

مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾ .

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن قول الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب : ﴿ **ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل** ﴾ كقوله ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾[١] .

وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق واكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾[٢] .

وقال تعالى مخبرا عنهم فى حال محشرهم : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾[٣] ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٥] .

قال تعالى رداً عليهم فى قولهم هذا : ﴿ **أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال** ﴾ : أى أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا هذا بذلك .

قال مجاهد وغيره : ﴿ **مالكم من زوال** ﴾ أى مالكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة .

كقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾[٦] . ﴿ **وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال** ﴾ :

أى قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر : ﴿ حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾[٧] . ﴿ **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ :

روى العوفى عن ابن عباس كان يقول : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، وكذا قال الحسن البصرى ، ووجهه ابن جرير بأن هذا الذى فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ماضر ذلك شيئا

---

(١) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة المؤمنون .
(٢) الآيات ٩ – ١١ من سورة المنافقون .
(٣) الآية ١٢ من سورة السجدة .
(٤) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٦) الآية ٣٨ من سورة النحل .
(٧) الآية ٥ من سورة القمر .

من الجبال ولا غيرها ، وانما عاد وبال ذلك عليهم ، ويشبه هذا قول الله تعالى ﴿ ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾ :

يقول تعالى مقررا لوعده ومؤكدا ﴿ **فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله** ﴾ : أى من نصرتهم فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة ، لا يمتنع عليه شيء أراده ، ولا يغالب ، وذو انتقام ممن كفر به وجحده ، فويل يومئذ للمكذبين .

ولهذا قال ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات** ﴾ : أى وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهى هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة .

كما جاء فى الصحيحين من حديث أبى حازم عن سهل بن سعد قال قال رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصية النقى ليس فيها معلم لأحد)[٢] .

وقال الامام أحمد حدثنا محمد بن أبى عدى عن داود عن الشعبى عن مسروق عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات** ﴾ قالت : قلت : أين الناس يومئذ يا رسول الله ؟ قال : على الصراط[٣] رواه مسلم منفرداًبه دون البخارى والترمذى وابن ماجه من حديث داود بن أبى هند به ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه حدثنى الحسن بن على الحلوانى حدثنى ابو توبة الربيع بن نافع حدثنا معاوية بن سلام عن زيد يعنى أخاه أنه سمع أبا سلام حدثنى أبو أسماء الرحبى أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : (كنت قائما عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال : السلام عليك يا محمد ، فدفعته دفعة كاد يصرع منها .

فقال : لم تدفعنى ؟

فقلت : ألا تقول يا رسول الله ؟ فقال اليهودى : إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله . فقال رسول الله ﷺ إن اسمى محمد الذى سمانى به أهلى) .

فقال اليهودى : جئت أسألك .

فقال رسول الله ﷺ : أينفعك شيئاً إن حدثتك ؟

قال : أسمع بأذنى . فنكت رسول الله ﷺ بعود كان معه فقال : « سل » .

---

(١) الآية ٣٧ من سورة الإسراء . (٢) أخرجه البخارى فى الرقاق (٤٤) . ومسلم فى المنافقين (٢٨) .

(٣) أخرجه مسلم فى المنافقين (٢٩) . والترمذى فى تفسير (سورة ١٤ : ٦) . وابن ماجه فى الزهد (٣٣) . والدارمى فى الرقاق (٨٨) . والإمام أحمد فى (٦ : ٣٥ ، ١٠١ ، ١٣٤ ، ٢١٨) .

فقال اليهودى : أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ؟

فقال رسول الله ﷺ : إذ هم فى الظلمة دون الجسر ، قال : فمن أول الناس إجازة ؟

فقال : فقراء المجاهدين .

فقال:اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟

قال:زيادة كبد النون .

قال:فما غذاؤهم فى أثرها ؟

قال : ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها .

قال : فما شرابهم عليه ؟

قال : عين تسمى سلسبيلا .

قال : صدقت قال وجئت أسألك عن شىء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبى ، ورجل أو رجلان قال : أينفعك إن حدثتك ؟ »

قال:أسمع بأذنى .

قال : جئت أسألك عن الولد قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإن اجتمعا فعلا منى الرجل منىَّ المرأة أذكرا بإذن الله تعالى ، وإذا علا منى المرأة منى الرجل آنثا بإذن الله .

قال اليهودى : لقد صدقت . وإنك لنبى . ثم انصرف فقال رسول الله ﷺ :(لقد سألنى هذا عن الذى سألنى عنه ومالى علم بشىء منه ، حتى أتانى الله به)[1] .

قوله تعالى ﴿ **وبرزوا لله** ﴾ : أى خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ **الواحد القهار** ﴾أى الذى قهر كل شىء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

قوله تعالى : ﴿ **وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب** ﴾ :

وفى هذا اليوم العصيب ترى المجرمين الذين أفسدوا فى الأرض مقرنين ، أى جمع بعضهم إلى بعض فى القيود .

وقوله : ﴿ **سرابيلهم من قطران** ﴾ أى ثيابهم التى يلبسونها من قطران ، وهو الذى تطلى به الإبل .

﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾ أى تلفح وجوههم النار .

---

(١) أخرجه مسلم فى الحيض (٣٤) .

قال رسول الله ﷺ : (أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن ، الفخر بالأحساب ، والطعن فى الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة فى الميت والنائحة إن لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)[١] .

وقوله ﴿ **ليجزى الله كل نفس ما كسبت** ﴾ أى يوم القيامة ، ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ﴾[٢] الآية .

﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ : أى إذا حاسب عبده فهو سريع الإنجاز ، لأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

قوله تعالى : ﴿ **هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إلٓه واحد وليذكر أولوا الألباب** ﴾ :

أى هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن ، كما قال فى أول السورة ﴿ الر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ الآية .

﴿ **ولينذروا به** ﴾ أى ليتعظوا به .

﴿ **وليعلموا أنما هو إلٓه واحد** ﴾ :

أى يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إلٓه إلا هو .

﴿ **وليذكر أولوا الألباب** ﴾ : أى ذوو العقول .

---

(١) أخرجه مسلم فى الجمعة (٢٩) . والإمام أحمد فى (٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤) .

(٢) الآية ٣١ من سورة النجم .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الرابع عشر

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الحجر

مقدمة

قال صاحب البصائر : هذه السورة مكية إجماعاً . وعدد آياتها تسع وتسعون بلا خلاف . وكلماتها ستمائة وأربع وخمسون . وحروفها ألفان وسبعمائة وستون .

وتسمى **سورة الحجر** : لاشتمالها على قصتهم ، وقوله : ﴿ **ولقد كذَّب أصحاب الحجر المرسلين** ﴾ .

مقصود السورة إجمالا : بيان حقيقة القرآن ، وحفظ الحق وبرهان النبوة وحفظ الحق كتابه العزيز من التغير والتبديل .

وتزيين السماوات بمواكب الكواكب وحفظهما برجوم النجوم من استراق الشياطين السمع ، وتقديره تعالى الماء والسحاب من خزائن بره ولطفه ، وعلق تعالى بأحوال المتقدمين فى الطاعة والمتأخرين عنها .

وبيان الحكمة فى تخليق آدم ، وأمر الملائكة المقربين بسجوده وتعيير إبليس وملامته على تأبيه واستكباره وجحوده ، واستحقاقه اللعنة من الله بعصيانه وطغيانه ، وجراءته بالمناظرة لخالقه ومعبوده .

وبيان قسم الدركات (على أهل اللذات والضلالات) وذكر المستوجبى الجنة من المؤمنين ، وإخبار الله تعالى عباده بالرحمة والغفران ، وتهديدهم بالعذاب والعقاب .

والإشارة إلى ذكر أضياف الخليل عليه السلام ، والنهى عن القنوط من الرحمة ، وذكر آل لوط ، وسكرتهم فى طريق العماية والضلالة ، وتسلية النبى ﷺ عن جفاء الكفار ، وبذىء أقوالهم .

والمَنِّ عليه ﷺ بنزول السبع المثانى والقرآن العظيم ، والشكوى عن الطاعنين فى القرآن .

وذكر القسم بوقوع السؤال فى القيامة ؛ وأمر الرسول ﷺ بإظهار الدعوة ، والمن عليه بإهلاك أعداء دينه ، ووصيته بالعبادة إلى يوم الحق واليقين فى قوله : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **لو ما تأتينا** ﴾ وفى غيرها . (لولا) ، لأن (لولا) يأتى على وجهين : أحدهما امتناع الشىء لوجود غيره ، وهو الأكثر . والثانى بمعنى هلا وهو التخصيص . ويختص بالفعل . و (لو ما) بمعناه . وخُصّت هذه السورة بلوما ، موافقة لقوله : (رُبَما) فإنها أيضاً مما خُصّت به هذه السورة .

قوله : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً** ﴾ ، وفى البقرة : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة

إنى جاعل ﴾[1] ولا ثالث لهما ، لأن (جعل) إذا كان بمعنى (خلق) يُستعمل فى الشىء يتجدد ويتكرر ؛ كقوله : ﴿ خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾[2] ، لأنهما يتجددان زمانا بعد زمان . وكذلك الخليفة يدل لفظه على أن بعضهم يخلف بعضاً إلى يوم القيامة . وخُصّت هذه السورة بقوله : ﴿ **إنى خالق بشراً من صلصال** ﴾ إذ ليس فى لفظ البشر . ما يدل على التجدد والتكرار ، فجاء فى كل واحدة من السورتين ما اقتضاه ما بعدهما من الألفاظ .

قوله : ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ فى هذه السورة ، وفى صٓ ؛ لأنه لما بالغ فى السورتين فى الأمر بالسجود وهو قوله : ﴿ **فقعوا له ساجدين** ﴾ فى السورتين بالغ فى الأمتثال فيهما فقال : ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ ليقع الموافقة بين أُولاهما وأُخراها .

قوله هنا لإبليس : ﴿ **اللعنة** ﴾ وقال فى ص ﴿ **لعنتى** ﴾ لأن الكلام فى هذه السورة جرى على الجنس فى أول القصة فى قوله : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان** ﴾ ﴿ **والجان خلقناه** ﴾ ﴿ **فسجد الملائكة كلهم** ﴾ لذلك قال : (اللعنة) ، وفى ص تقدم ﴿ لما خلقت بيدى ﴾ فختم بقوله ﴿ لعنتى ﴾ .

قوله ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غِلٍّ** ﴾ وزاد فى هذه السورة ﴿ **إخواناً** ﴾ لأنها نزلت فى أصحاب رسول الله ﷺ ، وما سواها عام فى المؤمنين .

قوله فى قصة إبراهيم : ﴿ **فقالوا سلاماً قال إنا منكم وَجِلُون** ﴾ لأن هذه السورة متأخرة ،فاكتفى بما فى هود ؛ لأن التقدير : فقالوا : سلاماً ، قال : سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قال : إنا منكم وجلون . فحذف للدلالة عليه .

قوله : ﴿ **وأمطرنا عليهم** ﴾ وفى غيرها ﴿ وأمطرنا عليها ﴾ قال بعض المفسرين (عليهم) أى على أهلها ، وقال بعضهم : على من شذ من القرية منهم .

وقال تاج القراء : ليس فى القولين ما يوجب تخصيص هذه السورة بقوله : (عليهم) بل هو يعود إلى أول القصة . وهو ﴿ **إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ ثم قال : ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ قال : وهذه لطيفة فاحفظها .

قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ بالجمع وبعدها ﴿ **لآية للمؤمنين** ﴾ على التوحيد .

قال الإمام : الأولى إشارة إلى ما تقدم من قصة لوط (وضيف إبراهيم ، وتعرّض قوم لوط لهم) طمعاً فيهم ، وقلب قرية على من فيها ، وإمطار الحجارة عليها ، وعلى من غاب منهم . فختم بقوله : ﴿ **لآيات للمتوسمين** ﴾ أى لمن يتدبر السِّمة ، وهى ما وسم الله به قوم لوط وغيرهم .

قال : والثانية تعود إلى القرية : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ وهى واحدة ، فوحد الآية .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١ من سورة الأنعام .

وقيل : ما جاء فى القرآن من الآيات ، فلجمع الدلائل . وما جاء من الآية فلوحدانية المدلول عليه ، فلمّا ذكر عقبة المؤمنين ، وهم مقرون بوحدانية الله تعالى ، وحد الآية . وليس لها نظير إلا فى العنكبوت . وهو قوله تعالى ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ فوحد بعد ذكر الجمع لما ذكرت والله أعلم .

المناسبة

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .

(٢) إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .

(٣) إن فى كل منهما وصف السموات والأرض .

(٤) إن فى كل منهما قصصاً مفصلا عن إبراهيم عليه السلام .

(٥) إن فى كل منهما تسلية لرسوله ﷺ بذكر مالاقاه الرسل السالفون من أممهم وكانت العاقبة للمتقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ
﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا
وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٥﴾

المفردات : ﴿ **رُبما** ﴾ : بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها ، كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول . فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل . ﴿ **يلههم** ﴾ : أى يشغلهم من قولهم . لهيتُ عن الشىء ألْهى لَهْياً إذا أعرضت عنه ، ﴿ ماتسبق ﴾ : أى ما يتقدم زمان أجلها .

قوله تعالى : ﴿ **آلر** ﴾ هذه بعض حروف الهجاء التى يقصد منها الإشارة إلى إعجاز هذا الكتاب المنزّل على سيدنا محمد ﷺ المنقول إلينا بطريق التواتر ، المتعبد بتلاوته المتحدَّى بلفظه . وقد أشار الله تعالى إلى آيات هذا الكتاب ، والقرآن المبين إشارة تفيد تفخيمه وتعظيمه ، فهى آيات بينات ، وهو قرآن واضح بيِّن ﴿ وإنه لقرآن كريم * فى كتاب مكنون * لا يمسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين ﴾ [1] وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، وهو الكتاب الحكيم .

(١) الآيات ٧٧ – ٨٠ من سورة الواقعة .

وهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وهو تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، وهو تنزيل من الرحمن الرحيم ، وهو الكتاب المبين ، تلك آيات الكتاب وقرآن مبين .

قوله تعالى : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ رُوى فى تفسير هذه الآية أقوال مأثورة نلخصها فيما يلى :

نقل السدى فى تفسيره بسنده المشهور عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة : أن كفار قريش لما عرضوا على النار تمنوا أن لو كانوا مسلمين وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً ، وقيل:هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ ولوترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾(١) .

قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا مسلم حدثنا القاسم حدثنا ابن أبى فروة العبدى أن ابن عباس وأنس بن مالك كانا يتأولان هذه الآية ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ يتأولانها يوم يحبس الله أهل الخطايا من المسلمين مع المشركين فى النار ، قال : فيقول لهم المشركون ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون فى الدنيا ، قال : فيغضب الله لهم بفضل رحمته ، فيخرجهم فذلك حين يقول : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

قال الطبرانى بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن ناساً من أهل لا إله إلا الله يدخلون النار بذنوبهم فيقول لهم أهل اللات والعزى ما أغنى عنكم قولكم لا إله إلا الله وأنتم معنا فى النار ؟ فيغضب الله لهم فيخرجهم فيلقيهم فى نهر الحياة فيبرءون من حرقهم كما يبرأ القمر من خسوفه ويدخلون الجنة ويسمون فيها الجهنميين) فقال رجل : (يا أنس أنت سمعت رسول الله ﷺ ؟ فقال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)(٢) نعم أنا سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا .

قال الطبرانى بسنده عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأُخذنا بها فسمع الله ما قالوا فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأخرجوا . فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا : ياليتنا كنا مسلمين فنخرج كما خرجوا ــ قال ثم قرأ رسول الله ﷺ ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :
﴿ **الٓر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين * ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم (٣٨) . ومسلم فى الإيمان (١١٢) . وأبو داود فى العلم (٤) . والترمذى فى العلم (٦ ، ٨ ، ١٣) . وابن ماجه فى المقدمة (٤ ، ٢٣) . والدارمى فى المقدمة (٢٥ ، ٤٦ ، ٥٠) . والإمام أحمد فى (١ : ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٢٢٣) .

وقال الطبرانى أيضاً بسنده : عن صالح بن أبى شريف قال : سألت أبا سعيد الخدرى فقلت له : هل سمعت رسول الله ﷺ يقول : فى هذه الآية ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ ؟ قال : نعم سمعته يقول : (يخرج الله ناساً من المؤمنين من النار بعد ما تأخذ نقمته منهم) وقال (لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال لهم المشركون تزعمون أنكم أولياء الله فى هذه الدنيا فما بالكم معنا فى النار ، فإذا سمع الله ذلك منهم أذن فى الشفاعة لهم فيشفع لهم الملائكة والنبيون ويشفع المؤمنون حتى يخرجوا بإذن الله ، فإذا رأى المشركون ذلك قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج معهم) قال فذلك قول الله ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ فيسمون فى الجنة الجهنميين من أجل سواد فى وجوههم ، فيقولون : يارب أذهب عنا هذا الاسم فيأمرهم فيغتسلون فى نهر الجنة فيذهب ذلك الاسم عنهم .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن محمد بن على عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : (منهم من تأخذه النار إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه على قدر ذنوبهم وأعمالهم ، ومنهم من يمكث فيها شهراً ثم يخرج منها ، ومنهم من يمكث فيها سنة ثم يخرج منها ، وأطولهم فيها مكثاً بقدر الدنيا منذ يوم خلقت إلى أن تفنى ، فإذا أراد الله أن يخرجهم منها قالت اليهود والنصارى ومن فى النار من أهل الأديان والأوثان لمن فى النار من أهل التوحيد : آمنتم بالله وكتبه ورسله فنحن وأنتم اليوم فى النار سواء ، فيغضب الله لهم غضباً لم يغضبه لشىء فيما مضى فيخرجهم إلى عين فى الجنة) . وهو قوله : ﴿ **ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون** ﴾ :

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى عن عمرو بن شعيب مرفوعاً قال : (صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل)[١] .

وروى عن الحسن أنه قال : « ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل » .

وروى عن على أنه قال : « إنما أخشى عليكم اثنتين طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يَصُدُّ عن الحق » .

وفى الآية وعيد شديد للذين يتمرغون فى نعم الله ويأكلون من خيره ويعبدون غيره ، فذرهم ودعهم ﴿ **قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون** ﴾[٢] ﴿ **وفى ريبهم يترددون** ﴾[٣] ﴿ **يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾[٤] ﴿ **قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار** ﴾[٥] . ﴿ **لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾[٦]

إن هؤلاء الذين يأكلون ويتمتعون قد ألهتهم الآمال عن اقتراب الآجال ، فظنوا أنهم مخلدون ،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٣ : ١٥ ، ١١٩ ، ١٦٩ ، ٢٧٥) .
(٢) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٤٥ من سورة التوبة .
(٤) الآية ١٢ من سورة محمد .
(٥) الآية ٨ من سورة الزمر .
(٦) الآيتان ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة آل عمران

ونسوا أن الموت يأتيهم بغتة ، كما نسوا يوم الحساب ، فذرهم ولا تكثر عليهم التأسف ، فسوف يعلمون لمن عقبى الدار ، وغداً توفى النفوس ما كسبت ، فالناس غداً بين يدى الله موقوفون ، وعن أعمالهم محاسبون ، وعلى رب العزة سيُعرضون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

قوله تعالى : ﴿ **وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم** ﴾ :

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن القرى التى أهلكها بسبب ظلمها وعتوها ونفورها ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[1] .

ما أهلك الله قرية إلا ولها أجل معلوم ، فى كتاب مبين ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾[2] ﴿ وكل شىء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[3] .

وقد أكد الله تعالى معنى الآية فى قوله ﴿ **ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون** ﴾ فلكل أجله الذى سبق فى علم الله وعلم الله قد أحاط بكل شىء ، وما سبق فى العلم لا يختلف ولا يتخلف زماناً ولا مكاناً ، فسبحان من أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً . الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، سبحانه علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ، حقت كلمته أن يهلك من افترى وطغى وبغى ، وأصر وظلم واستكبر .

إذا ما الظلم حل بأرض قوم ... وعم الفسق وانتشر البلاءُ
فويل ثم ويل ثم ويل ... لأهل الأرض من رب السماءْ

افتراءات باطلة

وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ
نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِى شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم
مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤۡمِنُونَ
بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ
﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَـٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾

(١) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص . (٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام . (٣) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الرعد .

المفردات : ﴿ **الذكر** ﴾ : هو القرآن . ﴿ **لوماً** ﴾ : مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحض على فعل ما يقع بعدها . ﴿ **منظرين** ﴾ : أى مؤخرين . ﴿ **الشيع** ﴾ : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات أو فى المذاهب والآراء . ﴿ **نسلكه** ﴾ : أى ندخله يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها . ﴿ **يعرجون** ﴾ : يصعدون . ﴿ **سكرت** ﴾ : سددت ومنعت من الإبصار .

﴿ **مسحورون** ﴾ : أى سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات .

المناسبة : بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة ، شرع يذكر بعض مقالاتهم فى محمد ﷺ المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ما هم فيه من جحود وعناد بلغا مدى تنكر معه المشاهدات ، ويدعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله ﷺ تسلية له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعاً ، فهذا دأب كل ممجوج ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم فى الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية ، والنضر بن الحارث ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة ، من صناديد قريش .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا ياأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون * لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين * ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين * إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ :

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم ، فى قولهم ﴿ **يا أيها الذى نزل عليه الذكر** ﴾ :

أى الذى تدعى ذلك . ﴿ **إنك لمجنون** ﴾ : أى فى دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

﴿ **لوما** ﴾ أى هلا ﴿ **تأتينا بالملائكة** ﴾ أى يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون : ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾[1] .

﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾[2] .

وكذا قال فى هذه الآية ﴿ **وما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا منظرين** ﴾ :

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الزخرف .

(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الفرقان .

قال مجاهد فى قوله ﴿ **ما ننزل الملائكة إلا بالحق** ﴾ : أى بالرسالة والعذاب .

ثم قرر تعالى أنه هو الذى أنزل عليه الذكر ، وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل ، ومنهم من أعاد الضمير فى قوله تعالى ﴿ **له لحافظون** ﴾ على النبى ﷺ كقوله تعالى ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[1] والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين.وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون. كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ﴾ :

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من كفار قريش : أنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزأوا به .

ثم أخبر أنه سلك التكذيب فى قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى .

قال أنس والحسن البصرى : ﴿ **كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين** ﴾ : يعنى الشرك ، وقوله تعالى : ﴿ **قد خلت سنة الأولين** ﴾ أى قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى الله الأنبياء وأتباعهم فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ :

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ، ومكابرتهم للحق ، أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك ، بل قالوا ﴿ **إنما سكرت أبصارنا** ﴾ :

قال مجاهد وابن كثير والضحاك : سدت أبصارنا .

وقال قتادة عن ابن عباس : أخذت أبصارنا .

وقال العوفى عن ابن عباس : شبه علينا وإنما سحرنا .

وقال الكلبى : عميت أبصارنا .

وقال ابن زيد : سكرت أبصارنا:السكران الذى لا يعقل .

---

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

من آيات الله الكونية

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ
رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا
فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن
لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾

المفردات : ﴿ **البروج** ﴾ : واحدها برج وهى النجوم العظام ومنها البروج الاثنا عشر المعروفة فى علم الفلك . ﴿ **للناظرين** ﴾ : أى المفكرين المستدلين بذلك على قدرة مقدرها وحكمة مدبرها . ﴿ **وحفظناها** ﴾ : أى منعناها . ﴿ **والرجيم** ﴾ : أى المرجوم المرمى بالرجام : أى الحجارة والمراد بالرجيم هنا المرمى بالنجوم . ﴿ **واسترق** ﴾ : من السرقة وهى أخذ الشىء خفية . شبه من خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى . ﴿ **والسمع** ﴾ : المراد به ما تسمع. ﴿ **والشهاب** ﴾ : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب فى الجو وتبعت القوم تبعاً وتباعة . ﴿ **بالفتح** ﴾ : أى مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم . ﴿ **مددناها** ﴾ : أى بسطناها . ﴿ **الرواسى** ﴾ : واحدها راسية وهى الجبال الثوابت . ﴿ **موزون** ﴾ : أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة .

المناسبة

بعد أن ذكر شديد جحودهم ، وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئاً ، حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ، ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات . أعقب هذا ببيان أنهم كانوا فى غنى عن كل هذا ، فإن فى السماء وبروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة ، عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادكر ، فهلا نظروا إلى الكواكب وحسابها ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محددة ، وأوقات معلومة ؟ لا تغيير فيها ولا تبديل ، فبأمثال هذا يكون اليقين وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين ، ويشتد أزر سيد المرسلين ، وهلا رأوا الأرض كيف مدت ، وثبتت جبالها . وأنبتت نباتها بمقادير معلومة موزونة فى عناصرها وأوراقها وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معايش للإنسان والحيوان ، أفلا يعتبرون بكل هذا ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[1] .

(١) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الذاريات .

قوله تعالى ﴿ **ولقد جعلنا فى السماء بروجاً وزيناها للناظرين** ﴾ :

أى وقد خلقنا فى السماء نجوماً كباراً ثوابت ، وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة ، التى يحار الفكر فى دقائق صنعتها ، وقدرة مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾(١) .

﴿ **وحفظناها من كل شيطان رجيم** ﴾ :

أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾(٢) أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب كما تحفظ المنازل من متجسس يخشى منه الفساد .

﴿ **إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين** ﴾ : أى لكن من أراد اختطاف شىء مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى ، تبعه كوكب مشتعل ناراً ظاهراً للمبصرين ، فأحرقه ولم يصل إلى معرفة شىء مما يدبر فى ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله ﴿ لا يسَّمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴾(٣) .

وجاء بمعنى الآية قوله فى سورة الجن ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾(٤) .

وقوله فى سورة الملك ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾(٥) .

وبعد :

فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئاً مما لدى الملائكة الكرام فسلطت عليهم الشهب المشتعلة والنجوم المتقدة فأحرقتهم .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته ، أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، فقال ﴿ **والأرض مددناها** ﴾ :

أى وقد بسطنا الأرض ، وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق يمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل .

وهذا فيما يظهر على مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض . لأن الكرة العظيمة

(١) الآية ٦ من سورة الصافات .
(٢) الآية ٧ من سورة الصافات .
(٣) الآية ٨ من سورة الصافات .
(٤) الآيات ٨ ، ٩ من سورة الجن .
(٥) الآية ٥ من سورة الملك .

ترى كالسطح المستوى . ﴿ وألقينا فيها رواسى ﴾ : أى وجعلنا فيها جبالا ثوابت ، خوف أن تضطرب بسكانها ، كما قال فى آية أخرى ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾[1] .

قوله تعالى ﴿ وأنبتنا فيها من كل شىء موزونٍ ﴾ :

أى أن كل نبات قدوُزنت عناصره وقدرت تقديراً ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بواسطة أمتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ، ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق . والأزاهير ، والذى حدد هــذا الاختلاف تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور وثقوب كل نبات لا تسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر ، وتطرد ما سواه ، لأنه لا يلائمها إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لا تبتلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهاك عنصر البوتاس تره يدخل فى حب الذرة الذى نأكله بمقدار ٣٢٪ ، وفى القصب ٣ر٣٤٪ وفى البرسيم بمقدار ٦ر٣٤٪ ، وفى البطاطس بمقدار ٥ر٦١٪ ، وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكراً والبرسيم لأن يكون قوتاً للبهائم والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتاً للانسان .

قوله تعالى : ﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ﴾

أى أن أنواع معايشكم من غذاء وماء ولباس ودواء قد سخرناها لكم في الأرض ، فلا السمك في البحر غذيتموه ، ولا الطير في الجو ربيتموه ، ولا غيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .

﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب ، وفي هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم ، لا أنهم يرزقونهم ، وفي ذلك عظيم المنة وجزيل الفضل والعطاء وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا :

أنه سبحانه يسَّر لكم أسباب المكاسب وصنوف المعايش ، وسخر لكم الدواب التي تركبونها ، والأنعام التي تأكلونها ، والعبيد التي تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لا عليكم ، فلكم منها المنفعة ورزقها على الله تعالى .

(١) الآية ١٥ من سورة النحل .

الحكمة الإلهية والقدرة الباهرة

وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

المفردات : ﴿ **الخزائن** ﴾ : واحدها خزانة وهي المكان الذي تحفظ فيه نفائس الأموال . ﴿ **واللواقح** ﴾ : واحدها لاقح أي ذات لقاح وحمل . ﴿ **وأسقيناكموه** ﴾ : أي جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أو لبنا : سقيته . وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته. قالوا : أسقيته ، أو أسقيت أرضه أو ماشيته . ﴿ **والمستقدمين** ﴾ : من ماتوا . ﴿ **والمستأخرين** ﴾ : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المناسبة

بيَّن سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معايش في هذه الحياة ، وهنا أتبعه بذكر ما هو كالسبب في ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لا حصر له .

قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ .

هذا من دلائل عظمة الخالق جل جلاله ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شيء عليم ، وما من شيء في هذا الوجود إلا وخزائنه مملوكة لله ، فالنبات والماء والحيوانات والمال وكل شيء نراه أو لانراه مملوك للواحد الديان ، وينزل على عباده بقدر معلوم ومقدار معين ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾[(١)] ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾[(٢)] ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ﴾[(٣)].

(١) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٧ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٢٦ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾

قال الشيخ المراغي في تفسيرها :

أى أن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

١ – أن يرسلها حاملات للسحاب فتلقح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار فتغيرها من حال إلى حال ، فتعطيها حياة جديدة إذ تزدهر أزهارها وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذبلت وصوحت وأصبحت في مرأى العين كأنها ميتة . لا حياة فيها ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذاأقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت ﴾[1].

٢ – أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث ، لتخرج الثمر والفواكه للناس .

٣ – أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ما علق بها من الغبار لينفذ الغذاء إلى مسامها ، فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

﴿ **فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه** ﴾ أى فأنزلنا من السحاب مطراً فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفي ذلك استقامة أمور معايشكم ، وتدبير شئون حياتكم إلى حين ، كما قال : ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حى ﴾[2].

﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾ : أى ولستم بخازني الماء الذي أنزلناه فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء ، لأن ذلك بيدي وهو خاضع لسلطاني إن شئت حفظته على سطح الأرض ، وإن شئت غار في باطنها وتخلل طبقاتها فلا أبقي منه شيئاً ينفع الناس والحيوان ، ويسقي الزرع الذي عليه عماد حياتكم .

والخلاصة : نحن القادرون على إيجاده وخزنه في السحاب ، وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

وللعلم كلمة : جاء في كتاب القرآن والعلم للدكتور محمد جمال الدين الفندي ما نصه :

﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾

قـــال :

إذ تذكر هذه الآية من إعجاز أخاذ حقيقتين علميتين . **الأولى** : أن الرياح إنما تلقح السحب لتجود بالمطر ، **والثانية** : أن هذا المطر لا سبيل إلى خزنه على الدوام في مكان معين من غير أن يتسرب إلى البحر ليتم العملية الطبيعية التي نعرفها اليوم باسم (الدورة المائية) أو (دورة الجو المائية) التي تتم بين الجو وماء الأرض .

---

(1) الآية ٥٧ من سورة الأعراف .

(2) الآية ٣٠ من سورة الأنبياء .

وأن الرياح التي اكتشف العلم أنها من أهم العوامل الأساسية في تلقيح كثير من النباتات ، نجدها تلقح السحاب ليجود بالمطر كذلك ، أن تلقيح الرياح عملية تتضمن إمداده بأكداس من جسيمات صغيرة مجهرية (نوى – التكاثف) ، هي التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقط المطر النامية ، وأعجب العجب أن العلماء يحاولون في عصرنا هذا تلقيح السحب صناعياً بالطائرات ، أو بمولدات خاصة عن طريق مدها بنوى التكاثف هذه عندما يعجز الهواء ، أوتعجز الرياح عن أداء هذه المهمة طبيعياً .

ومن البديهي أن قد نزلت هذه الآية في زمن لم يكن الناس يعرفون فيه انطلاق مياه البحر على هيئة أبخرة تحملها الرياح ، حتى إذا ما برد الهواء في مناطق تكون السحب تكاثفت أبخرة المياه التي يحملها وتحولت إلى نقط من الماء لا تلبث باستمرار عمليات التكاثف التي تسقط على هيئة مطر يتجمع ماؤه في المجاري والأنهار التي تصب بدورها في المحيطات والبحار لتعيد الكرة من جديد . ولقد كان الرأى السائد أن ماء المطر إنما يأتي هكذا من السماء ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن الرياح هي التي تثير السحاب الذي يجود بالمطر حتى أثبت علم الأرصاد الجوية أخيراً في عصر النهضة العلمية أن الأصل في إثارة السحب ونزول المطر هو إرسال الرياح لتتجمع في مكان معين ، بل أن آخر تقسيم علمي أجري لأنواع السحب والأمطار عمل بحيث تطابق أوصافها طبيعية انسياب الرياح التي تثيرها . فهناك السحب الركامية التي تصاحب التيارات الهوائية الرأسية ، وهناك السحب الطبقية التي تصاحب انسياب طبقة من الهواء بأكملها في اتجاه صاعد . ومن الأولى تنزل الرخات ومن الثانية يهطل المطر .

والمحيطات هي الوسط الذي يستجيب إلى الرياح ودوراتها ، كما أنها تكون مصادر بخار الماء الرئيسية ، ولهذا نجد أن العلاقة بين الجو والتيارات المائية من أهم الدراسات ، فإن هذه العلاقة تحدد المواسم والبقاع التي تزداد فيها عمليات التبخير ، كما أن التبادل الحراري بين الجو والمحيطات وتياراتها المائية من أهم العوامل التي تؤثر على المناخ .

وبعد .. فإنه لا يسعنا إلا أن نلهج بالثناء لخالق القوى والقدر الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ، فانظر إلى السماء وارتفاعها والشمس وشعاعها والأرض واتساعها والبحار وأمواجها والجبال ورسوخها ، الكل يشهد بجلال الله ويقر بكماله ويهتف بشكره ولا يغفل عن ذكره ، ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ :

الإحياء والإماتة من خصائص الألوهية ، والروح والرزق لايملكهما إلا الله ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[2] ﴿ إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ﴾[3] ﴿ إن الله له ملك السموات

(١) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٤٠ من سورة مريم .
(٣) الآية ٤٣ من سورة ق .

والأرض يحيى ويميت ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[١] ، ﴿ سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾[٢].

إن من أسمائه الحسنى الباعث الوارث ، هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وسبحان من ينادى بعد فناء خلقه : لمن الملك اليوم ؟ فيجيب : لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

نبكي على الدنيـا وما من معشـر ... جمعتهم الدنيـا فلم يتفرقـوا
أين الأكاسـرة الجبـابرة الألـى ... جمعوا الكنوز فما بقينا ولا بقـوا
من ذا الذي ضـاق الفضـاء بجيشـه ... حتى ثـوى فحـواه لحد ضيـق
خرس إذا نودوا كأنْ لم يعلمـوا ... إن الكلام لهـم حلال مطـلق

قوله تعالى : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين** ﴾

هذا إخبار منه جلت قدرته لأنه قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ومما علمه تعالى الذين سبقونا إلى الدار الآخرة فهم مستقدمون ، والذين لم يموتوا بعد ، فعندما يأتي أجلهم يذهبون لا محالة .

لما رأيت موارد للموت ليس لها مصادر ، ورأيت قومي نحوها يمضي الأكابر والأصاغر ، ولا يرجع الماضي إلىّ ولا من الباقين غابر ، أيقنت أنى لا محالة حيث صار القوم صائر .

قوله تعالى : ﴿ **وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم** ﴾ .

لا مفر من لقاء الله ، فالعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ، ﴿ فإذا برق البصر * وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره ﴾[٣].

فكيف تطمئن يا ابن آدم إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء .

ولي في فنـاء الخـلق أكبر عـبرة ... لمـن كان في بحـر الحقيقـة راقي
شخـوص وأشـكال تمـر وتنقضـي ... فتفـنى جميعـاً والمهيمـن باقي

إن مردنا إلى الله ، والبعث حق ، والحشر حق ، والحساب حق ، والصراط حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، إن الذي سنحشر إليه حكيم منزه عن العبث ، عليم لا يخفى

(١) الآية ١١٦ من سورة التوبة .
(٢) الآيات ١ – ٣ من سورة الحديد .
(٣) الآيات ٧ – ١٥ من سورة القيامة .

عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يقول وقوله الحق : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون * ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾(١) ويقول : ﴿ إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾(٢).

قصة الإنسان والجن

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ
ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا
سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾
إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ
ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ
فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ
يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ
أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾
قَالَ هَـٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ
ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ
مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

المفردات : ﴿ **صلصال** ﴾ : أى طين يابس يصلصل ويصوّت إذا نُقر ، وهو غير مطبوخ فإذا طبخ فهو فخار . ﴿ **حمإ** ﴾ : أى طين تغير واسود من مجاورة الماء له ، واحدته حمأة . و﴿ **مسنون** ﴾ : أى مصور مفرغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التي تصب في القوالب . ﴿ **والجان** ﴾ : أى هذا الجنس ، كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن . و﴿ **نار السموم** ﴾ : هي النار الشديدة الحرارة التي تقتل وتنفذ في المسام . ﴿ **بشرا** ﴾ : أى إنساناً ، وسمي بذلك لظهور بشرته ، أي ظاهر جلده . ﴿ **سويته** ﴾ : أى أتممت خلقه وهيأته لنفخ الروح فيه . ﴿ **والنفخ** ﴾ : إجراء الريح من الفم أو غيره في تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها ، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها . ﴿ **رجيم** ﴾ : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة . ﴿ **اللعنة** ﴾ : الإبعاد على سبيل السخط . ﴿ **يوم الدين** ﴾ : أى يوم الجزاء . ﴿ **فأنظرني** ﴾ : أى أمهلني وأخرني ولا تمتني . ﴿ **يوم الوقت المعلوم** ﴾ : هو وقت النفخة الأولى حين

(١) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المؤمنون . (٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .

تموت الخلائق ، كما روي عن ابن عباس . ﴿ **الإغواء** ﴾ : الإضلال . ﴿ **هذا صراط عليّ** ﴾ : أى هذا صراط حق لابد أن أراعيه . ﴿ **مستقيم** ﴾ : أى لا انحراف فيه ، فلا يعدل عنه إلى غيره . ﴿ **والسلطان** ﴾ : التسلط والتصرف بالإغواء . ﴿ **سبعة أبواب** ﴾ : أى سبع طبقات . ﴿ **جزء مقسوم** ﴾ : أى فريق معين مفروز من غيره .

ورد في الصحيح : [خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم] (١) والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتدة .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون** ﴾.

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكبار . وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال : ﴿ **لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون** ﴾ كقوله : ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ **قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾.

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ولا يمانع بالخروج من الزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى ، وأنه رجيم أى مرجوم ، وأنه قد أتبعه لعنة لاتزال به لاحقة له متواترة عليه إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط على مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب : ﴿ **بما أغويتني** ﴾ قال بعضهم : أقسم بإغواء الله له ، ويحتمل أنه لسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ **لأزينن لهم** ﴾ أى لذرية آدم عليه السلام ﴿ **في الأرض** ﴾ أى أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ، وأأزهم إليها وأزعجهم إليها إزعاجاً ،

---

(١) رواه أبو داود بنحو هذا اللفظ في الأدب (٣) . والإمام أحمد في ٤ : ٢٢٦ .
(٢) الآية ١٢ من سورة الأعراف .

﴿ **ولأغوينهم أجمعين** ﴾ أى كما أغويتني وقدّرت عليّ ذلك ﴿ **إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ كقوله : ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾[١].

قال الله تعالى متوعداً ومتهدداً : ﴿ **هذا صراط على مستقيم** ﴾ : أى مرجعكم كلكم إليّ ، فأجازيكم بأعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، كقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾[٢] وقيل طريق الحق مرجعها إلى الله تعالى وإليه تنتهى .

وقوله تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ : أى الذين قدرت لهم الهداية فلا سبيل لك عليهم ولا وصول لك إليهم ﴿ **إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ إلا هنا استثناء منقطع بمعنى لكن . أى ولكن من اتبعك من الغاوين فأنت وشأنك بهم فقد استحبوا العمى على الهدى ، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿ ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[٣] ، ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[٤] ، ﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾[٥].

وما أجمل هذا النصح العظيم ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التى كنتم توعدون * اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾[٦].

وما أعظم هذا البيان الإلهي الكريم : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٧].

وما أكرم هذا التوجيه الرباني الرائع ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم ﴾[٨] .

إن أقصى درجات الضلال أن يزين الشيطان للإنسان سوء عمله فيراه حسناً ، قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾[٩] .

ومن هنا يقول تعالى : ﴿ إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[١٠] ، ويقول : ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون ﴾[١١].

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ١٤ من سورة الفجر .
(٣) الآيات ١٢٤ – ١٢٧ من سورة طه .
(٤) الآية ٣٦ من سورة الزخرف .
(٥) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة الزخرف
(٦) الآيات ٦٠ – ٦٤ من سورة يس .
(٧) الآية ٦ من سورة فاطر .
(٨) الآية ٢١ من سورة النور .
(٩) الآية ٢٤ كم سورة النمل .
(١٠) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(١١) الآية ١٢١ من سورة الأنعام .

وإن الشيطان هو ذئب ابن آدم ، مثله في ذلك كذئب الغنم غادر ماكر ، قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾(١).

وما أروع هذا التصوير القرآني : ﴿ وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله والله شديد العقاب ﴾(٢).

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إني أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾ (٣).

فاحذروا أيها العقلاء مكايد الشيطان ومصايده وشباكه وشراكه ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ (٤). ولا تقنطوا من رحمة الله ولا تيئسوا من روح الله .

لقد قال إبليس لله جل جلاله وعزتك وجلالك لأغوينهم ، مادامت أرواحهم في أبدانهم ، فقال له رب العزة : وعزتي وجلالي لأغفرن لهم ماداموا يستغفرونني .

سـبحانك ربي

أنت الـذي تهـب الكثـير ... وتجبر القلب الكسير وتغفـر الزلات

وتقـول هل من تائب مسـتغفر ... أو سـائل أقضي له الحاجـات

فبادروا بالأعمال الصالحة سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب فينظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .

قوله تعالى : ﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ :

هذا إخبار منه تعالى بمصير الغاوين ، وأن مصيرهم إلى جهنم ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾(٥).

وقال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٦).

---

(١) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ٤٨ من سورة الأنفال .
(٣) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الحشر .
(٤) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(٥) الآيتان ٦ – ١٢ من سورة الملك .
(٦) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

كما أخبر سبحانه إن لجهنم سبعة أبواب ، وإن لكل باب من هذه الأبواب نصيباً معلوماً من الأشقياء ، وذلك لأن جهنم كانت مرصاداً ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾(١).

إكـرام المتقـــين

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾

المفـــردات : ﴿ **المتقون** ﴾ : هم الذين اتقوا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، ﴿ **جنات** ﴾ : أى بساتين ، ﴿ **وعيون** ﴾ : أى أنهار جارية ، ﴿ **بسلام** ﴾ : أى بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، و﴿ **الغل** ﴾ : الحقد الكامن في القلب ، و﴿ **السرر** ﴾ : واحدها سرير وهو مجلس رفيع مهيأ للسرور ، و﴿ **النصب** ﴾ : الإعياء والتعب .

المناســـبة

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية ، وبين أنهم في نار جهنم يخلّدون فيها أبداً ، وأنهم يكونون في طبقات بعضها أسفل من بعض ، بمقدار ما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من المعاصى – أردفه ذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووفاق بعضهم مع بعض لا ضغن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبداً .

اعلم بأن التقوى هي السلاح الأقوى ، والتقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل ، فمن اتقى الله خافه ومن خاف الله عرفه ، ومن عرف الله أطاعه ومن أطاع الله ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ۝ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً ﴾(٢) .

قال تعالى : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾(٣) وقال : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب ﴾(٤).

---

(١) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٢) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء .
(٣) الآية ٢٦ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١٩٧ من سورة البقرة .

إذا المرء لم يلبس ثيـاباً من التقـى تقلب عرياناً ولو كـان كاسـيا
وخير لبـاس المـرء طاعـة ربـه ولا خـير فيمـن كان لله عاصيا

ولقد أعد الله لعباده المتقين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾(١) ، ﴿ إن المتقين في جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾(٢) ، ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم * فاكهين بما أتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾(٣)، ﴿ متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرىء بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ (٧) .

﴿ إن المتقين في مقام أمين * في جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾(٥)

﴿ إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾(٦) ﴿ إن للمتقين مفازاً * حدائق وأعناباً * وكواعب أترابا * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا * جزاء من ربك عطاء حسابا ﴾(٧).

قوله تعالى : ﴿ **ادخلوها بسلام آمنين** ﴾ أى من كل خوف وفزع ، ولا تخشوا من إخراج ولا انقطاع ولا فناء ﴿ **بسلام** ﴾ أى سالمين من الآفات ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾(٨) فهل بعد السلامة والأمن من شيء يقال ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾(٩).

إن الله تعالى قدم نعمة الأمن على نعمة الرزق الرغد قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ﴾(١٠)

ما قيمة الحياة إذا خلت من الأمن إنها إذا كانت كذلك صارت فزعاً وقلقاً واضطراباً وجحيماً وغصة وعذاباً ولن يكون هناك أمن بلا إيمان .

(١) الآيات ٤١ — ٤٤ من سورة المرسلات . (٥) الآيات ٥١ — ٥٦ من سورة الدخان . (٩) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ١٥ — ١٩ من سورة الذاريات . (٦) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر . (١٠) الآية ١٢٢ من سورة النحل .
(٣) الآيات ١٧ — ١٩ من سورة الطور . (٧) الآيات ٣١ — ٣٦ من سورة النبأ .
(٤) الآيات ٢٠ — ٢٨ من سورة الطور . (٨) الآية ٤٤ من سورة الأحزاب .

إذا الإيمان ضاع فلا أمان ... ولا دنيا لمن لم يحي دينا
ومن رضى الحياة بغير دين ... فقد جعل الفناء لها قرينا

قوله تعالى : ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين** ﴾

روى القاسم عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ثم قرأ ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم من غل** ﴾.

وعن أبي أمامة قال : لا يدخل الجنة مؤمن حتى ينزع الله ما في صدره من غل حتى ينزع منه مثل السبع الضاري .

وهذا موافق لما في الصحيح من رواية قتادة حدثنا أبو المتوكل الناجي أن أبا سعيد الخدري حدثهم أن رسول الله ﷺ قال : (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة)[(١)].

﴿ **إخواناً على سرر متقابلين** ﴾ : أي ينظر بعضهم إلى بعض ليسوا متدابرين ، إنما إخوة في الله ، ومستقر في رحمة الله . ﴿ **لا يمسهم فيها نصب** ﴾ يعني المشقة والأذى ، كما جاء في الصحيحين : (إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب)[(٢)] . وقوله : ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾ كما جاء في الحديث : (يقال ياأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً)[(٣)] . وقال تعالى : ﴿ **خالدين فيها لا يبغون عنها حولا** ﴾[(٤)].

وعد ووعيد وقصص

* نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ

---

(١) أخرجه البخارى فى المظالم (١) ومسلم فى الإيمان (٣٠٢) .

(٢) أخرجه البخارى في النكاح : ١٠٨ ، وفي العمرة : ١١ ، وفي مناقب الأنصار : ٢٠ ، وفي الأدب : ٢٣ ، وفي التوحيد : ٣٢ ، ٣٥ . ومسلم في فضائل الصحابة : ٧١ – ٧٤ . وابن ماجه في النكاح : ٥٦ . وللإمام أحمد في : ٢ : ٢٣١ . وفي ٦ : ٥٨ ، ٢٠٢ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة : ٢٢ . والترمذي في التفسير (سورة ٣٩ : ٩) . والدارمي في الرقاق : ١٠٣ . والإمام أحمد في : ٢ : ٣١٩ ، وفي ٣ : ٣٨ ، ٩٥ .

(٤) الآية ١٠٨ من سورة الكهف .

تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ
رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ
ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ
جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾
وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟
أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى
سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا
لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟
عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ
مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

المفـــردات : ﴿ **نبىء** ﴾ : تقول أنبأت القوم إنباء ونبَّأتهم تنبئة : إذا أخبرتهم ، والأفصح في الضيف : ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ، ﴿ **والوجل** ﴾ : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، ﴿ **عليم** ﴾ : أى ذي علم كثير ، ﴿ **بالحق** ﴾ : أى بالأمر المحقق الذي لاشك في وقوعه ، ﴿ **وقنط من كذا** ﴾ : أى يئس من حصوله ، ﴿ **والضالون** ﴾ : الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، ﴿ **وخطبكم** ﴾ : أى أمركم وشأنكم الذي لأجله أرسلتم ، ﴿ **قدرنا** ﴾ : أى قضينا وكتبنا ، يقال قضى الله عليه كذا وقدره عليه ، أى جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ، وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، ﴿ **والغابرين** ﴾ : أى الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضرع ، ﴿ **منكرون** ﴾ : أى لا أعرفكم ولا أعرف من أى الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم علىّ ؟ ﴿ **ويمترون** ﴾ : أى يشكون ويكذبون به ، ﴿ **فأسر**

بأهلك ﴾ : أى اذهب بهم ليلاً ، ﴿ **والقطع من الليل** ﴾ : الطائفة منه ، ﴿ **اتبع أدبارهم** ﴾ : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطلع على أحوالهم ، ﴿ **وقضينا** ﴾ : أى أوحينا ، ﴿ **ودابر** ﴾ : آخر ، ﴿ **ومقطوع** ﴾ : أى مهلك مستأصل ، ﴿ **مصبحين** ﴾ : أى في وقت الصباح ، ﴿ **والمدينة** ﴾ : هي سذوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط ، ﴿ **والاستبشار** ﴾ : إظهار السرور ، ﴿ **والفضيحة** ﴾ : إظهار ما يوجب العار ، ﴿ **والخزى** ﴾ : الذل والهوان ، ﴿ **والعَمْر والعُمْر** ﴾ : (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لاغير ، ﴿ **سكرتهم** ﴾ : غوايتهم ، ﴿ **يعمهون** ﴾ : أى يتحيرون ، ﴿ **والصيحة** ﴾ : الصاعقة ، وكل سقى وأهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ﴿ **ومشرقين** ﴾ : أى داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس ، ﴿ **والسجيل** ﴾ : الطين المتحجر ، ﴿ **للمتوسمين** ﴾ : أى المتفرسين الذين ينبثون في نظرهم ليعرفوا سمة الشيء وعلامته ، يقال توسمت في فلان خيراً : أى ظهرت منه علاماته ، ﴿ **لبسبيل مقيم** ﴾ : أى لبطريق واضح مُعلم ليس بخفي ولازائل ، ﴿ **أصحاب الأيكة** ﴾ : قوم شعيب عليه السلام ، ﴿ **والأيكة** ﴾ : الغيضة ، وهي الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا في مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، ﴿ **لبإمام مبين** ﴾ : أى لبطريق واضح وأصل الإمام مايؤتم به سمي به الطريق لأنه يؤتم ويتبع ، ﴿ **وأصحاب الحجر** ﴾ : هم ثمود ، ﴿ **والحجر** ﴾ : واد بين المدينة والشام وكانوا يسكنون ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجراً ومنه حجر الكعبة ، ﴿ **وآياتنا** ﴾ : هي الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها ، وكثرة لبنها وكثرة شربها ، والإمام مايؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التي تُسلك .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعد به أهل الغواية في يوم القيامة من دخول جهنم ، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين بحسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنسوا به أنفسهم من اتخاذ الأنداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم أعقبه بذكر ما أعد لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التي لانصب بعدها ولا تعب ، وجلوس بعضهم مع بعض يتجاذبون أطراف الحديث وهم في سرور وحبور على سرر متقابلين أردف ذلك بخلاصة لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن عذابه مؤلم لمن أصروا على المعاصي ولم يتوبوا منها .

ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بغلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات ، وفظيع الجنايات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى صاروا كأمس الدابر ، وأصبحوا أثرا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكاييل والموازين ، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحاً وكانوا ذوى حول وطول وغنى ومال ، وقوة وبطش ، فأعرضوا عن آيات

ربهم حينما جاءتهم على يدى رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئاً حين جاء أمره .

قوله تعالى : ﴿ **نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم** ﴾ :

ذكر في سبب نزولها مارواه موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت قال : مرّ رسول الله ﷺ على ناس من أصحابه يضحكون فقال : (اذكروا الجنة واذكروا النار) فنزلت الآية . (رواه ابن أبى حاتم وهو مرسل) .

وقال سعيد عن قتادة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : (لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لبخع نفسه) .

وهكذا حال المؤمن دائرة بين الخوف والرجاء ، وبين نور الوعد ونيران الوعيد ، حتى يقوم الوزن بالقسط ، وتقف النفس على حقيقة الاعتدال فالخوف دائماً يذكرها بما بعد الموت من حساب وأهوال . والرجاءيفتح لها أبواب رحمة الله التي وسعت كل شيء . وميزان الإسلام عادل مستقيم لا تهويل ولا تهوين ولا إفراط ولا تفريط .. لا غلو ولا انحلال ولا تنطع ولا تحلل . قال جلَّ شأنه : ﴿ وإن ربَّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإنَّ ربك لشديد العقاب ﴾[1] وقال : ﴿ إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ **وأن عذابى هو العذاب الأليم** ﴾ :

هذا جانب الوعيد بعد الوعد وجانب الخوف بعد الرجاء حتى لا يغتر العبد بكرم ربه فيقال له : ﴿ يأيها الإنسان ما غرَّك بربك الكريم ﴾[3] .

وحتى لا يتمنى على الله الأماني فيقال له : « ليس الإيمان بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وإن قوماً غرتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله وكذبوا . لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل » .

قوله تعالى : ﴿ **ونبئهم عن ضيف إبراهيم * إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون * قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم * قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون * قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين * قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾ .

فى هذا المشهد القرآنى الكريم يأمر الله الرسول ﷺ أن ينبىء أمته ويخبرهم عن ضيف إبراهيم عندما دخلوا عليه وألقوا السلام ، فردَّ عليهم كما جاء ذلك فى سورة هود .

قال تعالى : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام ﴾[4].

وهنا قال تعالى : ﴿ **إنا منكم وجلون** ﴾ أى خائفون . وقد جاء تفسير ذلك في سورة هود .

---

(١) الآية ٦ من سورة الرعد .
(٢) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٦ من سورة الانفطار .
(٤) الآية ٦٩ من سورة هود .

قال جلَّ شأنه : ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ﴾[٦] وهنا يقول تعالى : ﴿ **قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم** ﴾ وكان ذلك الغلام إسحاق ، كما جاء بيان ذلك في سورة هود . قال تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون** ﴾ .

أى . أيولد لى غلام وقد بلغت من الكبر عتيا ، فجاء الرد . قالوا : ﴿ **بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين** ﴾ والمراد بالحق : الأمر الثابت المتحقق الوقوع الذي لا مراء فيه ﴿ **فلا تكن من القانطين** ﴾ أى اليائسين .

﴿ **قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾ وحاشا أن يقنط المؤمن من رحمة الله . وقد جاء في سورة هود ، قوله تعالى : ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت ياويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت * إنه حميد مجيد ﴾[٢].

قوله تعالى : ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين * إلا امرأته قدَّرنا إنها لمن الغابرين** ﴾

لما سمع إبراهيم البشرى من ضيفه المكرمين وكانوا من ملائكة الرحمن وذهب عنه الروع ، سألهم : ما خطبكم ؟ وما شأنكم ؟ وهل كان مجيئكم خاصاً بتلك البشرى ؟ أخبروه بأنهم قد أرسلوا إلى قوم مجرمين ، وهم قوم لوط . وأن الله تعالى سيهلكهم وسينجي آل لوط إلا امرأته فإنها باقية في العذاب . قال تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية * إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾[٣]

قوله تعالى : ﴿ **فلما جاء آل لوط المرسلون * قال إنكم قوم منكرون * قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون * وأتيناك بالحق وإنا لصادقون** ﴾ .

وهكذا ينتقل الحديث بنا إلى لوط وقومه : لقد ذهبت الملائكة إلى لوط فأنكرهم إذ لم يسبق له بهم عهد ، ولم يرهم من قبل بهيئتهم تلك قال : إنكم قوم منكرون ، قالوا : بل جئناك بما كانوا فيه يمترون أى يشكون ويترددون . وسواء أكان هذا الذي يمترون فيه هو الحق الذي بعثت به الرسل أم العذاب النازل بهم عما قليل .

﴿ **وأتيناك بالحق وإنا لصادقون** ﴾ : والملائكة لاتتنزل إلا بالحق . قال تعالى : ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾[٤] . وقولهم ﴿ **وإنا لصادقون** ﴾ أى فيما وعدناك به من نجاتك ونجاة أهلك .

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الحجر .
(٢) الآيات ٧١ — ٧٢ من سورة هود .
(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة العنكبوت .
(٤) الآية ٨ من سورة الحجر .

قوله تعالى : ﴿ **فأسر بأهلك بقطع من الليل واتّبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون * وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين** ﴾ :

هذا أمر من الله تعالى لنبيه لوط أن يسير بأهله بجزء من الليل ، وأن يسير وراءهم حتى يرعى شئونهم ، وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ في الغزو ، كما نهاهم عن أن يلتفت منهم أحد إذا سمعوا صيحة العذاب قد حلّت بالقوم ، كما أمرهم أن يمضوا في سيرهم حيث يؤمرون ، وقضى إليه ذلك الأمر وأنهاه إلى علمه أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وأن عذاب الاستئصال لن يبقى منهم ولن يذر كما قال تعالى : ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون * قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون * واتقوا الله ولا تخزون* قالوا أو لم ننهك عن العالمين * قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ :

لما علم قوم لوط بأن عنده ضيفاً جاءوا يستبشرون فرحين ، فقد رأوا فيهم جمال الخلق ووضاءة الوجوه . وأراد لوط أن يحمي الضيف من عبث هؤلاء المجرمين فقال لهم : ﴿ **إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون** ﴾ فإن إكرام الضيف واجب ، وليس من إكرامه أن يُساء إليه ، فالكرم من شيم الرجال ، والإساءة من خصال اللئام . قال تعالى : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر ﴾[2] .

قال لهم لوط : ﴿ **اتقوا الله ولا تخزون** ﴾ أى ﴿ ولا تخزون في ضيفى أليس منكم رجل رشيد ﴾[3] وهنا يقول لهم : ﴿ **اتقوا الله** ﴾ ليثير في أنفسهم كوامن النخوة والمروءة وشهامة الرجال ، لكنهم كانوا لئاماً لا يرقبون إلاًّ ولا ذمة ولا يُراعون ضيفاً ولا جاراً : ﴿ **قالوا أولم ننهك عن العالمين** ﴾ ، ﴿ **قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين * لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ .

يخبر تعالى بأن قوم لوط أجابوه قائلين ﴿ **أولم ننهك عن العالمين** ﴾ أى أوما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة ، وهذا كله وهم غافلون عما يراد بهم وما قد أحاط بهم من البلاء وماذا يصبحهم من العذاب المستقر ولهذا قال تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه وفي هذا تشريف عظيم ومقام رفيع وجاه عريض .

عن ابن عباس أنه قال : (ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره) .

قال تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ يقول : وحياتك وعمرك وبقائك فى الدنيا ﴿ **إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ رواه ابن جرير .

(١) الآيات ٨١ – ٨٢ من سورة هود . (٢) الآية ٣٧ من سورة القمر . (٣) الآية ٧٨ من سورة هود .

وقال قتادة : ﴿ في سكرتهم ﴾ أى في ضلالتهم ، ﴿ يعمهون ﴾ أى يلعبون وقيل يترددون .

قوله تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين * فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل * إن في ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن في ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة** ﴾ : وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ثم قلبها وجعل عاليها سافلها وإرسال حجارة السجيل عليهم وهو الطين المتحجر .

قوله : ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ : أى إن آثار هذه النقم الظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ، كما قال مجاهد في قوله ﴿ **للمتوسمين** ﴾ قال المتفرسين . وعن ابن عباس والضحاك : للناظرين .

وقال قتادة : للمعتبرين . وقال مالك عن بعض أهل المدينة : ﴿ **للمتوسمين** ﴾ للمتأملين .

عن أبي سعيد مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[1] ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ **إن في ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ رواه الترمذي .

وعن أنس بن مالك قال : قال النبي ﷺ : (إن لله عباداً يعرفون الناس بالتوسم) .

قوله تعالى : ﴿ **وإنها لبسبيل مقيم** ﴾ أى وإن قرية سذوم التي أصابها ماأصابها من القلب الصوري والمعنوى والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع مسالكه مستمرة إلى اليوم كقوله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون * وإن يونس لمن المرسلين ﴾[2].

وقال مجاهد والضحاك : ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ قال معلم . وقال قتادة : بطريق واضح ، وقال قتادة أيضاً : بصقع من الأرض واحد . وقال السدي : بكتاب مبين معنى كقوله : ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾[3].

قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ : أى إن ما وقع بقوم لوط من العذاب حيث جعلنا عاليها سافلها لآية بيّنة وعبرة واضحة لكل مؤمن مصدق بما أنزل الله على رسوله ، كما أن في إنجائنا لوطاً ومن آمن به آية بينة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين * فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين** ﴾ : المقصود بأصحاب الأيكة هم قوم شعيب عليه السلام . قال تعالى : ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب ألا تتقون * إني لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾[4].

وكان ظلمهم بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان ، فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريباً من قوم لوط بعدهم في الزمان ومسامتين لهم في المكان .

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ١٥ : ٦ .
(٢) الآيات ١٣٧ – ١٣٩ من سورة الصافات .
(٣) الآية ١٢ من سورة يس .
(٤) الآيات ١٧٦ – ١٨٠ من سورة الشعراء .

ولهذا قال تعالى : ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ : أى طريق مبين قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وغيره : طريق ظاهر . ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذارته إياهم ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ : أصحاب الحجر هم ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم عليه السلام من كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، لأن الأنبياء جميعا عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٢] .

ولذلك فقد أفرد الله تعالى الأنبياء في لفظ رسول فى قوله جل شأنه : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة.فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾[٣]ومن كلامه ﷺ « أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله »[٤] .

جاء في سورة الشعراء : ﴿ كذبت ثمود المرسلين.إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾[٥].

قال تعالى في سورة الحجر : ﴿ **وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين** ﴾ : وهذه الآيات معجزات خارقةٌ للعادة تدل على صدق من ظهرت على يديه من الأنبياء ، مع عجز جميع الخلق عن الإتيان بمثلها ، وقد كانت معجزة صالح الناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾[٦].

وقال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٧]. وذكر تعالى أنهم : ﴿وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ أى من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطراً وعبثاً كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك ، فقنع رأسه وأسرع دابته ، وقال لأصحابه : (لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم)[٨].

وقوله : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مصبحين** ﴾ : أى وقت الصباح من اليوم الرابع . ﴿ **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ : أى ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في الحياة فما دفعت عنهم تلك الأموال ولا نفعهم لما جاء أمر ربك .

---

(١) الآية ٨٩ من سورة هود .
(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحاقة .
(٤) الحديث أخرجه الإمام مالك في القرآن : ٣٢ . وفي الحج : ٢٤٦ .
(٥) الآيات ١٤١ – ١٤٥ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ٦٥ من سورة هود .
(٧) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٨) أخرجه ابن ماجه في الإقامة : ١٧٦ . وفي الزهد : ١٩ .

عقائد وتوجيهات

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ
ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ
ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾
ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **بالحق** ﴾ : بالحكمة والمصلحة . ﴿ **الصفح الجميل** ﴾ : ترك التثريب واللوم . ﴿ **المثانى** ﴾ : واحدها مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة . ﴿ **ومد عينيه إلى مال فلان** ﴾ : اشتهاه وتمناه . ﴿ **الأزواج** ﴾ : واحدها زوج وهو الصنف . ﴿ **وخفض الجناح** ﴾ : يراد به التواضع وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحه له والجناحان من الإنسان : جانباه . ﴿ **والنذير** ﴾ : المخوف بعقاب الله من لم يؤمن به . ﴿ **وعضين** ﴾ : أى أجزاء واحدها عضة من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساماً . ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ : أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً يضيق صدرك : أىْ ينقبض من الحسرة والحزن . ﴿ **والساجدين** ﴾ : أى المصلين . ﴿ **اليقين** ﴾ : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لاشك فيه .

المناسبة

بعد أن ذكر في القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسلها وعذابها بشتى أنواع العذاب كفاء ما دنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك وأنواع المعاصي التي تقوض دعائم الإخلاص لبارىء النسم وتهد أركان نظم المجتمع ، بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطفيف الكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التي تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الأذواق السليمة ، أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ماقضت به الحكمة والمصلحة من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعة واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان فكان من العدل تطهير الأرض منهم دفعاً لشرورهم وإصلاحاً لمن يأتي بعدهم .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ : أى بالحكمة والعدل . ما خلقناهما عبثاً ولا ظلماً ولا باطلاً .

قال تعالى : ﴿ ولله مافي السموات وما في الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[١] وقال : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾[٢] ، وقال جل شأنه : ﴿ وماخلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾[٣] وقال عظمت حكمته : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ : الساعة من أسماء القيامة ، قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٥].

وقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[٧].

ثم يأمر الله تعالى حبيبه ومصطفاه بالصفح الجميل الذي لا شكوى فيه ، كما أمره بالصبر الجميل في قوله جل شأنه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة*فاصبر صبراً جميلاً ﴾[٨]
كما أمره بالهجر الجميل فى قوله : ﴿ واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾[٩] .

وهكذا دعوة الإسلام صفح جميل وصبر جميل وهجر جميل ، وقد صدق الله إذ يقول لمبعوث العناية الإلهية وشمس الهداية الربانية ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١٠].

قوله تعالى : ﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ : أى الذي لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً فهو مبدع الكائنات وموجد الخلائق فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان . إن الذي خلق السموات والأرض بالحق قادر على إحياء الموتى عند قيام الساعة .

---

(١) الآية ٣١ من سورة النجم .
(٢) الآية ٢٧ من سورة ص .
(٣) الآيات ١٦ – ١٨ من سورة الأنبياء .
(٤) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون .
(٥) الآية ١٨٧ من سورة الأعراف .
(٦) الآية الأولى من سورة الحج .
(٧) الآيات ٤٢ – ٤٦ من سورة النازعات .
(٨) الآيات ١ – ٤ من سورة المعارج .
(٩) الآية ١٠ من سورة المزمل .
(١٠) الآية ٤ من سورة القلم .

قال تعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾(١).

قال تعالى : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ :

بعد أن أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ أن يصبر على أذى قومه وأن يصفح عنهم الصفح الجميل ، أردف ذلك ذكر ما أولاه من النعم وما أغدق عليه من الإحسان ليسهل عليه الصفح ويكون فيه سلوة على احتمال الأذى فذكر أنه آتاه السبع المثاني (الفاتحة) والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم في دنياهم وآخرتهم .

وبعد أن ذكر له مظاهر نعمه عليه نهاه عن الرغبة في الدنيا ومد العينين إليها يتمنى مافيها من متاع ونهاه عن الحسرة على الكفار إن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين وبإنذار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه بالبيان الكافي والإعزار الشافي وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين (اليهود والنصارى) الذين جعلوا القرآن آفاقاً فآمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك ويبين لهم أن ربهم سيسألهم عن جريرة أعمالهم ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ولا يبال بما سيكون منهم .

فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم ، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر فليسبح ربه وليحمده وليكثر له الطاعة .

فالعبد إذا حزنه أمر فزع إلى طاعة ربه ، وقد تكفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

المراد بالسبع المثاني سورة الفاتحة ، وهي سبع آيات وروى ذلك عن علي وعمر وابن مسعود وابن عباس . قال ابن عباس والبسملة هي الآية السابعة ، وقد خصكم الله بها وبه قال إبراهيم النخعي والحسن البصري وقتادة ومجاهد .

وقال قتادة : ذكر لنا أنهن فاتحة الكتاب ، وأنهن يثنين في كل ركعة مكتوبة أو تطوع .

روى البخاري بسنده عن أبي سعيد بن المعلى قال مر بي النبي ﷺ وأنا أصلي فدعاني فلم آته حتى صليت فأتيته فقال : (ما منعك أن تأتيني) فقلت : كنت أصلي فقال : (ألم يقل الله : ﴿ **يا أيها الذين**

(١) الآيات ٧٧ - ٨٣ من سورة يس .

(٢) الآية ٤ من سورة ق .

آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ : ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد) .

فذهب النبى ﷺ ليخرج فذكرت فقال : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أوتيته [١] .

وقد عطف القرآن العظيم على السبع المثانى من باب عطف العام على الخاص كما فى قوله تعالى ﴿ وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم** ﴾ : أى استعن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن هنا ذهب ابن عيينه إلى تفسير الحديث الصحيح (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[٢] إلى أنه يستغنى به عما عداه

قال ابن عباس ﴿ **لا تمدن عينيك** ﴾ قال نهى الرجل أن يتمنى مالصاحبه وقال مجاهد ﴿ **إلى ما متعنا به أزواجاً منهم** ﴾ هم الأغنياء .

وقوله ﴿ **ولاتحزن عليهم** ﴾ : أى لا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنما عليك البلاغ إن أنت إلا نذير ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ : أى ألن جانبك لمن اتبعك من المؤمنين ﴿ فبما رحمة من الله لِنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ﴾[٣] .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[٤] .

﴿ **وقل إنى أنا النذير المبين** ﴾ : يأمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول للناس ﴿ **إنى أنا النذير المبين** ﴾ : البين النذارة نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم فى تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام .

وقوله : ﴿ **كما أنزلنا على المقتسمين * الذين جعلوا القرآن عضين** ﴾ .

أى ولقد آتيناك سبعاً من المثانى كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والانجيل وهم الذين اقتسموا القرآن وجزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما وكفروا ببعضه وهو ما خالفهما .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ﷺ ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾ : أى فلنسألن الكفار جميعاً سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وبتوحيدى

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١ : ١ ، في تفسير سورة ١٥ : ٣ . وفي فضائل القرآن : ٩ . والترمذي في ثواب القرآن : ١ . والنسائي في الافتتاح : ٢٦ . والإمام مالك في النداء : ٣٧ . والإمام أحمد في ٤ : ٢١١ ، وفي ٥ : ١١٤ .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد : ٤٤ . وأبو داود في الوتر : ٢٠ . والدارمي في الصلاة : ١٧١ ، وفي فضائل القرآن : ٣٤ . والإمام أحمد في ١ : ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٩ .

(٣) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٤) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

والبراءة من الأنداد والأوثان روى أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى تفسير الآية يسأل الله العباد كلهم عن خَلتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون وعماذا أجابوا المرسلين .

وعن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ (يا معاذ إن المرء يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه . وعن فتات الطينة بأصبعه فلا ألفينَّك يوم القيامة وأحد غيرك أسعد بما آتاك الله منك) .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال : ﴿ **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ : أى فاجهر بإبلاغ ما أمرت به من الشرائع وواجه به المشركين ولا تلتفت إلى ما يقولون ولا تبال بهم ولا تخفهم فإن الله كافيك وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصراع شديداً عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكالئه منهم فلا يخشى بأسهم فقال : ﴿ **إنا كفيناك المستهزئين** ﴾ : أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله ﷺ حين يرونه أو يمر بهم أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم .

وقد اختلف فى عدتهم فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدى بن قيس ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن عبد المطلب . وقد ماتوا جميعاً بأهون الأسباب فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقاً فى عقبه فمات .

ومات العاص بشوكة فى إخمص قدمه وأصاب عدى بن قيس مرض فى أنفه فمات وأصيب الأسود ابن عبد يغوث بداء وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات . وعمى الأسود بن عبد المطلب . وقوم يقولون هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال : ﴿ **الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر** ﴾ : أى هم الذين اتخذوا إلهاً آخر مع الله يعبدونه وفى وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله ﷺ وتهوين للخطب عليه إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة بل تعدوه إلى الاشراك بربهم المدبر لأمورهم والمحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال : ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ : عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم يوم تجزى كل نفس بما علمت يوم ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[1] .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تسليه أخرى له فقال : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون** ﴾ : من كلمات الشرك والاستهزاء كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الانسان ما يؤلمه ويحزنه أن يرى فى نفسه انقباضاً وضيقاً فى الصدر وأسى وحسرة على ما حل به .

---

(١) الآية ٢ من سورة الحج .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده فقال : ﴿ **فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ : أى إذا نزل بك الضيق ووجمت نفسك فافزع إلى ربك ونزهه عما يقولون ، حَامداً له على توفيقك للحق وهدايتك إلى سبيل الرشاد وصل آناء الليل وأطراف النهار فإن فى مناجاة ربك ما يقربك إلى حضرة القدس ويسمو بنفسك إلى الملأ الأعلى كما ورد فى الحديث : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[1] .

ودم على ما أنت عليه طالباً المزيد من فضله حتى يأتيك الموت فهناك الجزاء بلا عمل وهنا العمل ولا جزاء .

وقصارى ذلك : أنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده فى نفسه من الغم بفعل الطاعات والاكثار من العبادات وقد كان ﷺ إذا حزنه أمر أو اشتد عليه خطب فزع إلى الصلاة .

روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : قال تعالى :«يا ابن آدم لا تعجز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره »[2] .

وقد حكى الله عن أهل النار انهم يقولون ﴿ لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين ﴾[3] .

وفى هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء مادام ثابت العقل .

روى البخارى عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : (صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب)[4] .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة : ٢١٥ . والنسائي في المواقيت : ٣٥ ، وفي التطبيق : ٧٨ . والترمذي في الدعوات : ١١٨ . والإمام أحمد في ٢ : ٤٢١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٥ : ٢٨٦ ، ٢٨٧ . وفي ٦ : ٤٤٠ ، ٤٥١ .

(٣) الآيات ٤٣ – ٤٧ من سورة المدثر .

(٤) أخرجه البخاري في التقصير : ١٩ .

ســـورة النحـــل

مقدمـــة

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مكية ، إلا قوله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا ﴾ إلى آخر السورة .

عدد آياتها مائة وثمانية وعشرون .

وكلماتها ألفان وثمانمائة وأربعون .

وحروفها سبعة آلاف وسبعمائة وسبعة أحرف .

وسميت سورة النحل لما فيها من عجائب ذكر النحل .

معظم ماأشتملت عليه السورة :

تخويف العباد بمجيء القيامة ، وإقامة حجة الوحدانية ، وذكر ما فى الأنعام من المنافع والنعم ، وما فى المراكب من التجمل والزينة ، وذكر النبات والشجر وتسخير الشمس والقمر ، وتثبيت الأرض والجبال والحَجَر ، وهداية الكواكب فى السفر والحضر ، والنعم الزائدة عن العد والإحصاء .

والإنكار على أهل الإنكار ، وجزاء مكر المُكّار ، ولعنة الملائكة على الاشرار ، عند الاحتضار ، وسلامهم فى ذلك الوقت على الأبرار والأخيار .

وبيان أحوال الأنبياء والمرسلين مع الأمم الماضين ، وذكر الهجرة والمهاجرين ، وذكر التوحيد ، وتعريف المنعِم ، ونعمة السابغات ، ومذمة المشتركين بوأد البنات ، وبيان الأسماء والصفات .

والمنّة على الخلائق بإنزال الرحمات ، وعدها من الإنعام فى باب الأنعام والحيوانات ، وبيان فوائد النحل ، وذكر مااشتمل عليه من عجيب الحالات ، وتفضيل الخلق فى باب الأرزاق والأقوات ، وبيان حال المؤمن والكافر ، وتسخير الطيور فى الجو صافّات ، والمِنّة بالمساكن والصحارى والبرِيّات ، وشكاية المتكبرين .

وذكر ما أُعِدّ لهم من العقوبات ، والأمر بالعدل والإحسان ، والنهى عن نقض العهد والخيانات ، وأن الحياة الطيبة فى ضمن الطاعات ، وتعلم الاستعاذة بالله فى حال تلاوة الآيات المحكمات ورد سلطان الشيطان عن المؤمنين والمؤمنات ، وتبديل الآيات بالآيات ، لمصالح المسلمين والمسلمات ، والرخصة بالتكلم بكلمة الكفر عند الإكراه والضرورات ، وبيان التحريم والتحليل فى بعض الحالات .

وذكر إبراهيم الخليل ومامُنح من الدرجات ، وذكر السَّبْت والدعاء إلى سبيل الله بالحكمة والعظات الحسنات ، والأمر بالتسوية فى المكافآت بالعقوبات ، والأمر بالصبر على البليّات ، ووعد المتقين والمحسنين بأعظم المثوبات ، بقوله : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ .

المتشابهات

فيها فى موضعين ﴿ **إن فى ذلك لآيات** ﴾ : بالجمع . وفى خمسة مواضع ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ : على الوحدة . أما الجمع فلموافقة قوله : ﴿ **مسخَّرات** ﴾ : فى الآيتين لتقع المطابقة فى اللفظ والمعنى . وأمّا التوحيد فلتوحيد المدلول عليه .

من الخمس قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون** ﴾ : وليس له نظير . وخص بالذِّكر لاتصاله بقوله : ﴿ **وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه** ﴾ : فإن اختلاف ألوان الشىء وتغير أحواله يدل على صانع حكيم لا يشبهها ولا تشبهه ، فمن تأمل فيها اذَّكَّر .

ومن الخمس :﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يتفكَّرون** ﴾ : فى موضعين ، وليس لهما نظير : وخُصّتا بالفكر ، لأن الأولى متصلة بقوله : ﴿ **ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات** ﴾ : وأكثرها للأكل ، وبه قوام البدن فيستدعى تفكيراً وتأملاً ، ليعرف به المنعم عليه فيشكره .

والثانية متصلة بذكر النحل ، وفيها أُعجوبة : من انقيادها لأميرها ، واتخّاذها البيوت على أشكال يعجز عنها الحاذق مِنّا ، ثم تَتَبُّعها الزهر والطلى من الأشجار ، ثم خروج ذلك من بطونها لعابا ، فاقتضى ذلك فكرا بليغا ، فختم فى الآيتين بالتفكير .

قوله : ﴿ **وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله** ﴾ : وفى الملائكة (فاطر) ﴿ وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا ﴾[1] .

فى هذه السورة جاء على القياس ، فإن ﴿ الفُلك ﴾ المفعول الأول لترى ، و﴿ مواخر ﴾ المفعول الثانى ، و﴿ فيه ﴾ ظرف ، وحقُّه التأخُّر . والواو فى ﴿ ولتبتغوا ﴾ للعطف على لام العلة فى قوله : ﴿ لتأكلوا منه ﴾ .

وأما فى الملائكة فقدّم ﴿ فيه ﴾ موافقة لما قبله ، وهو قوله : ﴿ لتأكلوا منه لحماً طريّا ﴾ فقدم الجار والمجرور ، على الفعل والفاعل ولم يزد الواو على ﴿ **لتبتغوا** ﴾ : لأن اللام فى (لتبتغوا) هنا لام العلة ، وليس يعطف على شىء قبله .

ثم إن قوله : ﴿ وترى الفلك مواخر فيه ﴾ و﴿ وفيه مواخر ﴾ اعتراض فى السورتين يجرى مجرى المثل ، ولهذا وَحّد الخطاب . وهو قوله : ﴿ وترى ﴾ وقبله وبعده جمع ، وهو قوله : ﴿ لتأكلوا ﴾ و﴿ تستخرجوا ﴾ و﴿ لتبتغوا ﴾ .

وفى الملائكة ﴿ تأكلون ﴾ و﴿ تستخرجون ﴾ ﴿ لتبتغوا ﴾ ومثله فى القرآن كثير ، منه ﴿ كمثل غيث أعجب الكفَّار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ﴾[2] .

---

(١) الآية ١٢ من سورة فاطر .

(٢) الآية ٢٠ من سورة الحديد .

وكذلك ﴿ تراهم ركّعا سجّداً ﴾[١] ، ﴿ وترى الملائكة حافّين من حول العرش ﴾[٢] وأمثاله . أى لو حضرت أيها المخاطب لرأيته فى هذه الصفة ، كما تقول : أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل .

قوله : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾ : وبعده : ﴿ **وقيل للذين اتّقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً** ﴾ : إنما رفع الأول ، لانهم أنكروا إنزال القرآن ، فعدلوا عن الجواب ، فقالوا : أساطير الأولين . والثانى من كلام المتقين ، وهم مقِرّون بالوحى والإنزال ، فقالوا : خيراً ، أى أنزل خيراً ، فيكون الجواب مطابقاً ، و﴿ **خيرا** ﴾ : نصْب بأنزل . وإن شئت جعلت ﴿ **خيرا** ﴾ : مفعول القول . أى : قالوا خيرا ولم يقولوا شرا كما قالت الكفّار . وإن شئت جعلت ﴿ **خيرا** ﴾ : صفة مصدر محذوف . أى قالوا قولا خيرا .

قوله : ﴿ **فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ : ليس فى القرآن نظيره للعطف بالفاء على التعقيب فى قوله : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم** ﴾ : واللام للتأكيد تجرى مجرى القسم موافقة لقوله : ﴿ **ولنعم دار المتقين** ﴾ : وليس له نظير ، وبينهما : ﴿ **ولدار الآخرة خير** ﴾ .

قوله : ﴿ **فأصابهم سيئات ما عملوا** ﴾ : هنا وفى الجاثية وفى غيرهما ﴿ **ما كسبوا** ﴾ : لأن العمل أعم من الكسب ، ولهذا قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[٣] .

وخُصّت هذه السورة ﴿ بالعمل ﴾ لموافقة ما قبله : ﴿ **ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ : ولموافقة ما بعده وهو قوله : ﴿ **وتوفى كل نفس ما عملت** ﴾ : ومثله : ﴿ ووفّيت كل نفس ما عملت ﴾ فى الزمر . وليس لها نظير .

قوله : ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ : ومثله فى الروم وفى العنكبوت : ﴿ وليتمتعوا فسوف يعلمون ﴾[٤] باللام والياء . أما التاء فى السورتين فبإضمار القول أى قل لهم : تمتعوا ، كما فى قوله : ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾[٥] وكذلك : ﴿ قل تمتّع بكفرك ﴾[٦] .

وخصصت هذه السورة بالخطاب لقوله : ﴿ **إذا فريق منكم** ﴾ : وألحق ما فى الروم به . وأمّا ﴿ ما ﴾ : فى العنكبوت فعلى القياس ، عطف على اللام قبله وهى للغائب .

قوله : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة** ﴾ : وفى الملائكة (فاطر) : ﴿ بما كسبوا ما ترك على ظهرها ﴾[٧] الهاء فى هذه السورة كناية عن الأرض ولم يتقدم ذكرها . والعرب تجوّز ذلك فى كلمات منها الأرض ، تقول : فلان أفضل مَنْ عليها ، ومنها السماء ، تقول : فلان أكرم مَن تحتها ، ومنها الغداة (تقول) : إنها اليوم لباردة . ومنها الأصابع تقول : والذى شقّهن خمسا من واحدة ، يعنى الأصابع من اليد .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الفتح .
(٢) الآية ٧٥ من سورة الزمر .
(٣) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .
(٤) الآية ٦٦ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٣٠ من سورة إبراهيم .
(٦) الآية ٨ من سورة الزمر .
(٧) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

وإنما جوّزوا ذلك لحصولها بين يَدَىْ متكلم وسامع . ولما كان كناية عن غير مذكور لم يُزد معه الظهر لئلا يلتبس بالدَّابة ، لأن الظهر أكثر مايستعمل فى الدابة ، قال (ص) : « إن المنبت لاأرضا قطع ولاظهرا أبقى » .

وأما فى الملائكة فقد تقدّم ذكر الأرض فى قوله : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض ﴾[1] وبعدها : ﴿ ولا فى الأرض ﴾ فكان كناية عن مذكور سابق ، فذكر الظهر حيث لايلتبس .

قال الخطيب : إنما قال فى النحل : ﴿ بظلمهم ﴾ ولم يقل ﴿ على ظهرها ﴾ احترازا عن الجمع بين الظاءين ، لأنها تثقل فى الكلام وليست لأمة من الأمم سوى العرب . قال : ولم يجىء فى هذه السورة إلا فى سبعة أحرف ، نحو الظلم والنظر والظلّ ، وظلّ وجهه والظُّفِر والعظم والوعظ ، فلم يجمع بينهما فى جملتين معقودتين عَقْد كلام واحد ، وهو لوْ وجوابه .

قوله : ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ : وفى العنكبوت : ﴿ من بعد موتها ﴾ .

وكذلك حذف (من) من قوله : ﴿ لكى لايعلم بعد علم شيئاً ﴾ وفى الحج ﴿ من بعد علم شيئا ﴾ فحذف (مِنْ) فى قوله : ﴿ بعد موتها ﴾ موافقة لقوله : ﴿ بعد علم شيئاً ﴾ وحذف (مِن) فى قوله : ﴿ بعد علم شيئاً ﴾ لأنه أجمل الكلام فى هذه السورة ، فقال : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ﴾ وفصّله فى الحج فقال : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ إلى قوله : ﴿ ومنكم من يُتوفّى ﴾ فاقتضى الإجمال الحذف والتفصيل الإثبات فجاء فى كل سورة ما اقتضاه الحال .

قوله : ﴿ نسقيكم مما فى بطونه ﴾ : وفى المؤمنين ﴿ فى بطونها ﴾ لأن فى هذه السورة يعود إلى البعض وهو الإناث لأن اللبن لايكون للكل . فصار تقدير الآية : وإن لكم فى بعض الأنعام ، بخلاف ما فى المؤمنين ، فإنه لما عطف ما يعود على الكل ولا يقتصر على البعض .

وهو قوله : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها ﴾ : لم يحتمل أن يكون المراد البعض ، فأنث حملا على الأنعام وما قيل : إن (الأنعام)ههنا بمعنى النعم لأن الألف واللام يُلحق الآحاد بالجمع والجمع بالآحاد حسنٌ ، إلا أن الكلام وقع فى التخصيص .

قوله : ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ : وفى العنكبوت ﴿ يكفرون ﴾ بغير ﴿ هم ﴾ لأن فى هذه السورة اتّصل (الخطاب) ﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ﴾ : ثم عاد إلى الغيبة فقال : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ : فلابد من تقييده بهم لئلا يلتبس الغيبة بالخطاب والتاء بالباء . وما فى العنكبوت اتصل بآيات استمرت على الغيبة فلم يحتج إلى تقييده بالضمير .

قوله : ﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها

(١) الآية ٤٤ من سورة فاطر .

لغفور رحيم ﴾ : كرر إنّ ، وكذلك فى الآية الأخرى ﴿ ثم إن ربك ﴾ لأن الكلام لمّا طال بصلته أعاد إن واسمها وثمّ ، وذكر الخبر . ومثله ﴿ أيعدكم أنكم إذا مِتُّم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾[1] اعاد (أنَّ) لما طال الكلام .

قوله : ﴿ **ولاتك فى ضَيْق مما** ﴾ : وفى النمل : ﴿ ولا تكن ﴾ بإثبات النون . هذه الكلمة كثر دَوْرها فى الكلام فحذف النون فيها تخفيفا من غير قياس بل تشبهًّا بحروف العلة .

ويأتى ذلك فى القرآن فى بضعة عشر موضعاً تسعة منها بالتاء ، وثمانية بالياء ، وموضعان بالنون ، وموضع بالهمزة .

وخصّت هذه السورة بالحذف دون النمل موافقة لما قبلها وهو قوله : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ والثانى أن هذه الآية نزلت تسلية للنبى (ص) حين قتل حمزة ومَثّلَ به فقال عليه السلام : لأفعلنَّ بهم ولأصنعنّ ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون** ﴾ : فبالغ فى الحذف ليكون ذلك مبالغة فى التسلى . وجاء فى النمل على القياس ، ولأن الحزن هنا دون الحزن هناك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

المفـــردات : ﴿ **أن أنذروا** ﴾ : الإنذار التحذير مما يخاف منه ، ﴿ **دفء** ﴾ : الشيء الذى يدفئك ، ﴿ **جمال** ﴾ : المراد هنا جمال الصورة وتركيب الخلقة ، ﴿ **تريحون** ﴾ : الرواح رجوعها بالعشى من المرعى. ﴿ **تسرحون** ﴾ : السراح ذهابها بالغداة إلى المرعى ، ﴿ **أثقالكم** ﴾ : أحمالكم .

(١) الآية ٣٥ من سورة المؤمنون .

﴿ **بشق الأنفس** ﴾ : بمشقتها وغاية جهدها ، ﴿ **جائر** ﴾ : أى مائل إلى الحق وزائغ . ﴿ **الأنعام** ﴾ : الإبل والبقر والغنم وهى الثمانية المذكورة فى سورة الأنعام .

إذا أيقن العبد بربه وعرف حقه من الوحدانية الخالصة استقرت نفسه وثبتت تجاه التيارات وعواصفها بكل بروقها ورعودها ورياحها ورمالها ، ومن ثم فإن القرآن الكريم يفتح مدارسه المباركة ليوجه إلى القلوب أضواء الوحدانية ودلائل القدرة حتى يبنى النفوس بناء سليماً ويشيدها على تقوى من الله ورضوان ولسوف نعرض الآن لهذه المدارس فى سورة النحل لنرى كيف قامت الأدلة القاطعة والحجج الساطعة على وحدانية الله وقدرته .

ففى سورة النحل نطقت الأدلة بوحدانية الله وقدرته فى شتى المجالات الكونيةَ والآفاقيةَ والأنفسيةَ ، شوامخ راسيات ورواسى ثابتات ، لا تحركها العواصف ولا تؤثر فيها الرياح القواصف ، اسمع إلى القرآن الكريم وهو يبدأ هذه السورة بهذا الإنذار الذى يدعو كل عبد للاستعداد إلى لقاء الله ، فلقاء الله حق واقع ولتوكيد وقوعه : عبر عنه بلفظ الماضى كأنه قد وقع لأن الله لا يخلف وعده : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ :

ثم يذكر بعد هذه الآية طريق الوحى الذى تتنزل به الملائكة ، وأنه كالروح يحيى الموات وينزل غضاً ندياً يتقاطر نوراً ورحمة ، ليعلم البشرية جمعاء أنه لا معبود بحق إلا الله .

فيقول سبحانه : ﴿ **ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون** ﴾ :

ولقد صدقت يا سيدى يا رسول الله حين أعلنت قولك : « **أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى : لا إله إلا الله** »[1] .

وبعد ذلك تأخذ السورة الكريمة طريقها فى ذكر حشد من الأدلة المتنوعة والناطقة بالوحدانية والقدرة .

فيقول سبحانه : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون** ﴾ : ففى هذه الآية المباركة يذكر أن العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه : مخلوق بالحق ، لا لهوا ، ولا باطلا ، ولا عبثاً ، ولا لعباً ، وإنما بالحق قامت السموات والأرض .

﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[2] .

وتعالى الله وجل جناب الحق أن يكون شريك يناقشه الحساب ، فهو الواحد العادل الحكيم المزيد .

وبعد ذكر العالمين : العلوى والسفلى ، ينتقل إلى خلق الانسان فيقول سبحانه : ﴿ **خلق الانسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ :

(١) أخرجه الإمام مالك في القرآن : ٣٢ . وفي الحج : ٢٤٦ .

(٢) الآية ١٧ من سورة المؤمنون .

فالانسان سر الله فى أرضه ، ومعجزته التى حارت الأفكار فيها ، ولذا يقول أحد الحكماء عن الانسان .

دواؤك فيك وما تبصر ودأؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضجر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الاكبر !

﴿ فلينظر الانسان مم خلق خلق من ماء دافق﴾ [٣] . فماذا كان من الانسان بعد ذلك ؟ .

قف يا أخى وقفة تدبر وإعمال فكر فى هذا النص المبين : ﴿ **فإذا هو خصيم مبين** ﴾ : يقول علماء اللغة : إن « إذا » حرف يفيد المفاجأة ، فهو بذلك يدل على أن خروج الانسان عن واجبه نحو الله ! يعتبر أمراً غير مألوف ، فما كان ينبغى من الذى خلق من نطفة مهينة أن يفاجىء بالخصومة المبينة .. والخصومة لمن ؟ لخالقه ورازقه ومنشئه !

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته انظر خلاك ، فإن النتن تثريب
لو فكر الناس ماذا فى بطونهم ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غدا أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

يقول تقى الدين الحسن البصرى : عجبت لابن آدم ! يتكبر على الارض ، وهى التى تناديه بلسان حالها : يا ابن آدم :لا تتكبر على ظهرى لأننى غداً سأضمك فى بطنى ! كيف يتكبر ابن آدم وهو الذى أوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو ما بين ذاك يحمل فى بطنه العذرة ؟ تؤذيه بقه وتنتنه عرقه ، وتميته شرقه؟ كيف تعلن الخصومة على الله يا ابن آدم وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين : مرة وأنت ماء مهين من أبيك ، وأخرى وأنت طفل من رحم أمك ؟ عليك أن تذكر هذا ، ولا تنسين أنك حفنة من التراب فى البداية والنهاية .. ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ .

ولقد قلت لنفسى ، وأنا بين المقابر ..
هل رأيت الأمن والراحة إلا فى المقابر ؟
فأشارت .. فإذا للدود عبث فى المحاجر
ثم قالت : أيها السائل .. إنى لست أدرى
انظرى : كيف تساوى الكل فى هذا المكان
وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان
والتقى العاشق والقالى .. فما يفترقان
أبهذا ينتهى الأمر .. ؟ فقالت : لست أدرى !

(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الطارق .

أيها القبر : تكلم ، وأخبرينى يا رمام
هل طوى أحلامك الموت ، وهل مات الغرام !
من هو الميت : من عام ، ومن مليون عام ؟
أتمنى أننى أدرى .. ولكن لست أدرى !

عالم الحيوان

وتنتقل بنا الأدلة من عالم الإنسان إلى عالم الحيوان المسخر له بإذن الله ، فيقول جل شأنه : **﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾** :

هذه أنواع من المخلوقات : اشتملت على فوائد عديدة ، لها جليل الأثر فى حياة الانسان ، حتى أن القرآن الكريم لكثرة ما فيها من فوائد - أشار إلى بعضها : ففيها دفء فى أصوافها وأوبارها وأشعارها ، وفيها اللحوم التى تؤكل ، وفيها الركوب على ظهورها وحمل الأثقال التى لا طاقة لنا بحملها ، وفيها الفوائد المعنوية وهو ذلك الجمال فى رواحها وسروحها ، وفيها الزينة إذا وقعت العين على رؤيتها ، واستمعت الأذن إلى أصواتها من رغاء وثغاء .. وغير ذلك .

ولما كانت فوائدها لا تحصى ولا تستقصى ، فقد أجملها القرآن فى القرآن **﴿ منافع ﴾** : فلك بعد ذلك أن تقول فى هذه العبارة ما شئت من ذكر تلك الفوائد ، مما يطول شرحه ، ويكثر ذكره سبحانك ربى :

عجز اللسان عن الثناء فإنه تتصاغر الأفكار دون مداه
من كان يعرف أنك الحق الذى بَهَر العقول ، فحسبه وكفاه

قوله تعالى : **﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ﴾** :

أى[1] وهى أيضاً تحمل أمتعتكم وأحمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بكلفة ومشقة وجهد شديد ونحو الآية قوله : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[2] .

(١) أى : بمعنى نعم

(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة المؤمنون .

وقوله : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ [١] .

﴿ **إن ربكم لرءوف رحيم** ﴾ : ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة ، ويسر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أن خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم كما قال ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ [٢] .

﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة** ﴾ : أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضاً لتركبوها ، وجعلها لكم زينة تتزينون بها - إلى مالكم فيها من منافع أخرى .

﴿ **ويخلق مالا تعلمون** ﴾ : غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كالقُطُر البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى أخرى ومن قطر إلى قطر - والمطاود الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ، ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة .

وبعد أن فصل سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوى لمن أراده فقال :

﴿ **وعلى الله قصد السبيل** ﴾ : أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصِّل من سلكه إلى الحق ، بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

ونحو الآية قوله : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [٣] ، وقوله : ﴿ هذا صراط علىّ مستقيم ﴾ [٤] .

﴿ **ومنها جائر** ﴾ : أى ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة ، معوج زائغ عن الحق ، فالسبيل القاصد هو الإسلام ، والجائر منها هو غيره من الأديان الأخرى ، سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا : أن ثمة طرقاً تُسلك للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق ، وهى الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها ، وهى طريق الاسلام له والإخبات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ [٥] .

فما عداها فهو جائر ، وعلى الله بيان ذلك ، ليهتدى إليه الناس ويبتعدوا عن سواه .

ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيئته فقال : ﴿ **ولو شاء لهداكم أجمعين** ﴾ : أى ولو شاء سبحانه لجعلكم كالنمل والنحل فى حياتكم الاجتماعية ، أو جعلكم كالملائكة مفطورين على العبادة

(١) الآيتان ٧٩ ، ٨٠ من سورة غافر .
(٢) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة يس .
(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٤١ من سورة الحجر .
(٥) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة الروم

وتقوى الله ، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية ، ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعون إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوهها ثم ترجحون منها ماتميل إليه نفوسكم ، وما ترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : ﴿ وهديناه النجدين ﴾(1) طريقى الخير والشر - إما شاكراً وإما كافوراً .

عالم النبات

هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع فى ذكر نعمته عليهم فى إنزال المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه ومتاع لهم ولأنعامهم فقال : و﴿ **لكم منه شراب** ﴾ : أى جعله عذباً زلالا يسوغ لكم شرابه ولم يجعله ملحاً أجاجا ﴿ **ومنه شجر فيه تسيمون** ﴾ : أى وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم .

وقوله : ﴿ **ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات** ﴾ : أى يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ولهذا قال : ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ : أى دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى : ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ .

عالم الفلك وغيره

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

(١) الآية ١٠ من سورة البلد .

المفــــردات : ﴿ **ذرأ** ﴾ : خلق . ﴿ **ألوانه** ﴾ : أى أصنافه . ﴿ **مواخر** ﴾ واحدها ماخرة : أى جارية من مخر الماء الأرض أى شقها . ﴿ **والميد** ﴾ : الحركة والاضطراب يميناً وشمالا ، ﴿ **وعلامات** ﴾ : أى معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب .

المنـــاسبـــة

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزه عن الشريك والولد ، وأنه لا إله إلا هو وأمر بتقواه وإخلاص العبادة له ـــ ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم – ونبه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف فى صرف المشركين عما هم عليه من الشرك .

وكلما بصَّرهم بطائفة مما يرون ويشاهدون بَكتهم على ما يقولون ويفعلون وبين لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلث بذكر أحوال الحيوان ، ثم ربّع بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم بذكر أحوال العناصر الأربعة .

وهكذا تنتقل بنا الأدلة إلى عالم الفلك فيقول جل شأنه ﴿ **وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر * والنجوم مسخرات بأمره * إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ :

وفى لفظ ﴿ التسخير ﴾ ما يدل على منتهى التذليل والتطويع ، ودون ما مخالفة أو انحراف أو عصيان لأمر الله .

وفى قوله تعالى : ﴿ **والنجوم مسخرات بأمره** ﴾ : إشارة عجيبة ، فإنها جملة إسمية مكونة من مبتدأ وخبر ، وإن مجيئها بهذه الصيغة لدليل على عظم عالم النجوم وما يحتويه من ثبات واستقرار فى النظام والإبداع .

فماذا يقول علماء الفلك فى هذه العوالم الفخمة ؟ ماذا يقولون فى هذا الوجود الذى نعيش فيه ؟ أى حكمة تنطق بها كلماته وأى حقيقة تشير إليها آياته ؟

إن كلمات الوجود وآياته إنما تؤكد الحقيقة الكبرى ، ولم يصل العلم بعد إلى معرفة عدد وحدات هذا الوجود ، بل كل ما وصل إليه العلماء هو التأكد بأنه مهما تقدمت العلوم ، ومهما استحدثت وسائل البحث وأجهزة الكشف فإن العلم يصل إلى ذلك على سبيل القطع . فعدد النجوم والكواكب أمر يستحيل على العلماء أن يصل إلى حقيقته ، لأن ذلك فوق الإدارك وأكثر مما يتخيله العقل .

ففى كل مرة يصل العلم عن طريق أجهزة أكثر ... رأشد حساسية وأبعد رصداً إلى عدد يفوق سابقه زيادة لم تكن متوقعة . ومازال العلم يواصل أبحاثه فى استحداث وسائل جديدة للرصد ويحدثنا عن عدد النجوم حُجة الفلك العالمى السير (جيمس جينز) فى كتابه (الكون الغامض) فيقول : (ربما كان

مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله) .

ويقول كذلك فى كتابه (النجوم ومسالكها) : « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعاف أو خمسة أمثاله » .

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عدد مساو تقريباً لعدد نجوم السماء ، وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم فلابد لنا من سبعمائة سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة الف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لا ستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة .

أما الأرض التى نعيش عليها ، فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة . فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم – وهى شموس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الانسان بأجهزته – فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟

إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية التى تتكون من ٣٦٥ يوماً ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة . وفى الدقيقة ٦٠ ثانية – لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ الف ميل .

وقد وجد أن السُدُم التى ترصد أضواؤها على الأرض تنطوى معهاجقيقة هى أنها تبتعد عن الأرض بسرعات تتناسب مع أبعاد المسافات التى بينها وبين الأرض ، وأن آخر ما رصد من السدُم : وجد أنه يبتعد عن الأرض بسرعة هائلة تبلغ ١٥ ألف ميل فى الثانية ، فمتى بدأ فى حركته ؟ متى يقف ؟ وإلى متى ينتهى ؟ وإن أقرب سديم إلى الأرض يصل إلينا ضوؤه بعد ٨٥ ألف سنة ضوئية ، فعلى أى بعد يقع ؟ وأين أصبح الآن ؟

وتعتبر هذه الأرقام : الوحدات فى بداية الكون .. فقد أظهرت بحوث العلماء أن هناك من السدم ما لم تستطع المجاهر القوية الكبيرة أن تتبين إشعاعها وأمر هذا الوجود ليس عجيباً فى عدد النجوم والكواكب والمسافات التى بينها فقط ، وإنما العجب والحيرة الذى ظل العلماء فى عجب وحيرة منه هو

أمر إشراق النجوم . إذ كيف يمكن أن تظل هذه النجوم ملايين السنين مشرقة ولا ينتهى إشراقها ؟ هل يرجع ذلك إلى الحرارة الشديدة الموجودة داخل النجوم ، والتى يرجح العلماء أنها تصل عشرات الملايين من الدرجات الحرارية التى نعرفها ؟ ولكن كيف لا تخمد ، حتى لو فرضنا أنها تفقد من حرارتها كل يوم درجة واحدة ، بل كل شهر حتى لو فقدت كل سنة كاملة درجة واحدة ، لكان يكفى ملايين السنين – التى مرت منذ القدم – أن تصبح النجوم باردة ، ولكن ظلت حرارتها كما كانت : ملايين الدرجات ، الأمر الذى بسببه حاول العلماء وضع نظريات تفسر ذلك .

فقيل إن السبب هو وجود عناصر مشعة فى النجوم ، ولكن لم يدم هذا الرأى كثيراً ثم استبدلت هذه النظرية بالانفجار الذرى ، ثم بالانفجار الايدروجينى فى تبرير حرارة الشمس وعدم تغيرها ، ومازال العلماء فى أبحاثهم بسبيل إيجاد سبب أو آخر لإشراق النجوم .

ثم إننا نوجه هذا السؤال إلى علماء الطبيعة ، وهو كيف لا تفنى كتلة النجم ؟ إذ المعروف أن كل مادة ملتهبة تفقد من كتلتها بسبب الحرارة .

سبحانك ربى ! يا من قلت : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾[1] .

يا من يحار الفهم فى قدرتك وتطلب النفس حمى طاعتك
تخفى عن الناس سنا طلعتك وكل ما فى الكون من صنعتك

يا مبدع الكائنات أيا من كل فعلك حكمة بالغة أيا من قلت ، وقولك الحق : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار * وكل فى فلك يسبحون ﴾[2] .

ويا من قلت : ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه * إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ :

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم إلى ما احتوته الأرض من نبات ومعادن وكنوز لا يعلم كنهها إلا من يقول : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾[4] .

ولقد جاء الأسلوب فى هذه الآية الكريمة بلفظ (ما) الذى يدل على العموم والشمول ، للإشارة إلى ما فى الأرض من المعادن وأنواع النبات والذهب الأسود السائل ، وكل هذا ملك لله تبارك وتعالى .

سبحانك ربى :

يا من تفرد بالبهاء وبالسنا فى عزه ، وله البقاء السرمد

(١) الآية ٩٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات ٣٧ – ٤٠ من سورة يس .
(٣) الآية ١٢ من سورة فصلت .
(٤) الآية ٦ من سورة طه .

يا من له وجب الكمال لذاته | فأنت ترفع من تشاء وتسعد
ما فى الوجود سواك رب يعبد | كلا ، ولا مولى سواك فيُقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها | ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الفرد الذى | كل القلوب له تقر وتشهد

سبحانك يا من قلت ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾[١] .

ويا من قلت : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقا * فأنبتنا فيها حبا * وعنبا وقضباً * وزيتونا ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبا * متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[٢] .

لقد صدقت يا سيدى يا رسول الله وأنت الصادق الأمين عندما تحث البشرية أن تضرب فى مناكب الأرض تطلب الرزق فقلت (التمسوا الرزق فى خبايا الأرض) .

ولئن كان علماء الاقتصاد قد أفاضوا الكلام عن الإنتاج والاستهلاك : فإن القرآن الكريم أشار إليهما فى آية كريمة حيث قال : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾[٣] .

فمصدر الإنتاج قوله جل شأنه ﴿ الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً ﴾ ، ومبدأ الاستهلاك تشير إليه الآية فى هذه العبارة ﴿ فمنه يأكلون ﴾ .

تأمل فى نبات الأرض وانظر | إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات | بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات | بأن الله ليس له شريك

ثم ينتقل بنا النظم الكريم بعد ذلك إلى عالم البحار .. ذلك الخلق العظيم الذى جاء فى وصفه قول القائل « هو خلق عظيم ! الداخل فيه مفقود ، والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، إذا هاج هز القلوب وأفزع النفوس » .

ويبين القرآن الكريم حال الناس فى البحر فيقول سبحانه : ﴿ حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾[٤]

هذا الخلق العظيم مسخر ومذلل ومنقاد ومُذعن لخالقه الذى سخره ــ يقول جل شأنه : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ . سبحانك ربى :

---

(١) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة طه .
(٢) الآيات ٢٤ — ٣٢ من سورة عبس
(٣) الآية ٣٣ من سورة يس .
(٤) الآية ٢٢ من سورة يونس .

لما علمت بأن قلبى فارغ ممن سواك ملاتــــه بهواك
وملأت كلى منك حتى لم أدع منى مكانا خاليـا لسواك

فتأمل معنى هذه العظمة الإلهية التى دبرت الأمور بإحكام ، ونظمت الكون بإتقان ، كيف استطاع الحيوان ، أن يعيش فى الماء وكيف تغذى على النباتات ، وماذا يقول العلم فى شرح العناية الإلهية فى عالم البحار ؟

إن من الحقائق العلمية التى أوضحتها التجارب العلمية أن جميع المواد إذا ما تجمدت زادت كثافتها ، فيما عدا الماء فإن المادة الوحيدة التى تناقض هذه الحقيقة ، إذ تقل كثافتها عن التجميد .. لذلك فإن أى كمية من الماء تتجمد فى البحار عندما يشتد البرد فإنها تطفو على السطح ، مخالفة بذلك القوانين العلمية التى تحكم المواد الأخرى ، وقد لا يتصور الإنسان لأول وهلة إذا كان شأن الماء كالمواد الأخرى – كيف يكون الأمر ؟ فعندما يغوص الجليد فى البحار فإنه لا سبيل إلى إذابته ، كما تنخفض درجة حرارة المياه المحيطة به فتتجمد بالتالى ، فكيف تعيش الأسماك وتحيا النباتات التى فى البحار ؟ لذلك فإن الجليد عندما يطفو على الماء تتوافر له فرص الذوبان ، كما أنه يُكون طبقة عازلة تحفظ درجة حرارة الماء الذى تحته فلا تصل البرودة الشديدة إلى الأسماك .

وهكذا تختلف القوانين العلمية ، وتتناقض الحقائق المرئية ، وليس من هدف إلا قيام الحياة وتدبير أمورها وتيسير سبلها .

أليس فى ذلك الرد – أبلغ الرد – على من يقول بميكانيكية الحياة ؟

فواعجبا : كيف يعصى الاله بل كيـف يجحـده الجاحـد ؟
وفى كل شىء له آيــــة تدل على أنـــه الواحـــد

ماذا يقول المكابرون فى هذه الآية الناطقة بالتدبير الشامل والنظام المحكم ؟ من الذى دبـر وأنشأ ؟ ومن الذى خلق وأوجد ؟ مع الله القائل ﴿ خلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾[1] والقائل ﴿ وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[2] والقائل ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾[3] .

هل تستطيع الطبيعة الصماء ، وهل تقدر الصدفة العمياء أن توجد وأن تدبر ، وأن تحكم الخلق أو تنظم ؟ ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ يا من قلت وقولك الحق ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾[4] .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾[5] .

ويا من قلت : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾[6] .

(١) الآية ٢ من سورة الفرقان .
(٢) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٤) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الكهف .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ٢ من سورة القمر .

إن الوجود كله صفحة متقنة الإبداع ، تقر وتشهد بالحق أن لها خالقا مبدعا حكيما مريدا : ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[1] .

وبعد أن أخبر القرآن الكريم عن عالم البحار ، انتقل بنا بعد ذلك إلى عالم الجبال ، وما فى الأرض من أنهار وسبل وعلامات للاهتداء فى متاهات الرحاب الواسعة ، قال جل شأنه ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون** ﴾ : إنها عمارة الكون تنطق بالقول السديد ، والبرهان الرشيد .

سبحان من أحيا قلوب عباده — بلوائح من فيض نور هداه
فالعارفون مشاهدون لفضله — مستأنسون بذكرهم إياه

من الذى أودع هذه العلامات للإرشاد فى الصحارى الشاسعة والوهاد المترامية ؟ إنه الله جل فى علاه فقد جعل منها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك حتى إذا ضل الطريق كانت عونا له ، وهدته إلى السبيل السوى فى البر والبحر .

﴿ **وبالنجم هم يهتدون** ﴾ : بالليل فى البرارى أو فى البحار وفى الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل فى معرفة الأوقات والطرق والقبلة ويحسن أن نتعلم من علم الفلك مايفيد تلك المعرفة .

قال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : لتكون زينة للسماء ومعالم للطرق ، رجوما للشياطين ، فمن قال غير ذلك فقد تكلف مالا علم له به .

لا إله إلا الله

أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا
وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ
مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

المفـــردات : ﴿ **المراد بمن يخلق** ﴾ : الله سبحانه وتعالى . ﴿ **ومن لايخلق** ﴾ : الملائكة وعيسى والأصنام ، ﴿ **وما يشعرون** ﴾ : أى لا يعلمون ، ﴿ **وأيّان** ﴾ : كمتى تدلان على الزمن ، ﴿ **لاجرم** ﴾ : أى حقاً .

(١) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الأنعام .

المناسبـــة

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام وكان فى ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجوه الإحسان . قفى على ذلك بتبكيت الكفار وإبطال شركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينهما ثم أردف ذلك بيان أن لهذا الخالق نعماً لا تحصى على عباده وأنهم مهما بالغوا فى الشكر واجتهدوا فى العبادة فليسوا ببالغين شيئاً مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرط من كفرانهم ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهى علم السر والنجوى والخلق وهذه الأصنام ليس لها شىء من ذلك فهى مخلوقة لا خالقة ولا شعور لها بحشر ولا نشر .

ومن هذا كله يعلم أن الإله واحد لا شريك له . ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الاشراك وهى تحجر القلوب وإنكار التوحيد فهى لا ترهب فى الثواب ولا ترهب العقاب وتستكبر عن عبادة الواحد الديان . لا جرم بقيت مصرّة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

بعد سَوْق الأدلة ووضوحها ونظمها فى هذا المسلك الرائع والاتقان البديع يسوق القرآن هذا السؤال لكل عاقل بصير وليس المقصود بالسؤال استفهاماً . فإن الاستفهام محال فى حق الله إذ هو طلب الفهم وهو يفيد الجهل بالشىء المستفهم عنه وجل جناب الحق أن يغرب عنه شىء فى الوجود كله .

إنما المقصود بالاستفهام هنا فى قوله تعالى : ﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون** ﴾ : هو الإنكار الذى يفيد النفى : أى ليس من يخلق كمن لا يخلق فهذا لمجرد التذكرة وعلى كل عاقل أن يفهم ذلك ويتدبره فإن ذلك من الأمور البديهية ومن الشئون الواضحة الجلية كالشمس فى ضحاها وهى تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية .

جلت حكمتك يا حكيم أنت الخالق المبدع المصور لا شريك لك فى ملكك .

يا حبيب القلوب هب لى رضاك وارحم اليوم مذنبا قد أتاك
يا إلهى وخالقى ومرادى قد أبى القلب أن يحب سواك

أخى القارىء الكريم :

هكذا طفت بعقلك وفكرك ووجدانك وقلبك فى هذه الرياض الباسمة : رياض الكتاب العزيز .

انتقلت من عالم السموات والأرض إلى عالم الإنسان ومن عالم الإنسان إلى عالم الحيوان ثم إلى عالم النبات ثم إلى عالم الفلك ومنه إلى ما فى الأرض من مكنون الخزائن ثم إلى عالم البحار ومنها إلى عالم الجبال والأنهار ووسائل الإرشاد فى المتاهات .

نعم الله على خلقه

ولما طال تعداد النعم وذكر هذه المخلوقات قال القرآن الكريم بعد ذلك ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾ : إن الذى أوجد هذه الكائنات العظمى لابد أن يكون متصفاً بالعلم الشامل الكامل ولذا جاء بعد هذه الآية قوله جل شأنه ﴿ **والله يعلم ماتسرون وما تعلنون** ﴾ : ولقد بلغ من جهل الكافرين أن قال بعضهم لبعض . من أراد أن يتكلم فى شأن محمد ﷺ فليكن ذلك سراً حتى لا يسمع إله محمد مانقول فيخبره به فماذا كان الموقف .

لقد هبط سفير الأنبياء جبريل عليه السلام بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

الله يدرى كل ما تضمر ... ويعلم ما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

وحيث قد ثبت أن الله هو الخالق وحده العالم بكل شيء فإن غير الله لا يخلق لأنه لا يملك الإيجاد من العدم . ومن هنا فقد عقب الكتاب الكريم على ذلك بقوله : ﴿ **والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون** ﴾ :

الكون وقدرة الله

الكون قسمان : كون زمانى وكون مكانى .

فالكون الزمانى : هو الدنيا والآخرة .

والكون المكانى : هو السموات والأرض .

وإذا كان الله تعالى قد تحدى العالم أن يأتى بسورة من مثل القرآن الكريم فقد تحداهم بالكون المكانى أن يخلقوا ذباباً حيث يقول سبحانه ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[2] .

العلم الحديث ووحدانية الله تعالى :

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها ... فى قاع بحر زاخر متجندل

لقد كنت أعجب وأنا أقرأ تلك الأبيات للإمام الزمخشرى وهو يناجى ربه فيقول : سبحان الله ماهى تلك البعوضة التى لها عروق ونحر ومخ وعظام إلى أن قرأت هذا البحث العلمى الذى يقوم به البروفوسير (أردين ليا) الأستاذ بجامعة جورجيا الأمريكية. فاسمع إليه يقول الخبر بالحرف الواحد .

---
(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الملك . (٢) الآية ٧٣ من سورة الحج .

يقوم الدكتور (أروين ليا) من جامعة جورجيا بتجارب جراحية على مخ البعوض تحت الميكروسكوب مستخدماً أدوات جراحية دقيقة مثل التى يستعملها صانعو المجوهرات وذلك لمساعدة العلماء فى السيطرة على أخطاء هذه الحشرات ولا تستغرق الجراحة التى يقوم بها الدكتور (ليا) أكثر من ٥ دقائق وبمجرد انتهاء أثر البنج يستطيع المرضى من البعوض : الطيران .

ويقوم الدكتور (ليا) أستاذ علم الحشرات وطبائعها بدراسة نظام الهيرمونات والتكاثر لدى إناث البعوض الذى ينتشر فى المستنقعات وبمعرفة الطريقة التى تعمل بها الغدد الصماء فى البعوض يمكن أن تكون عاملا هاماً فى مساعدة العلماء الذين يؤمنون بأن منع تكاثر الحشرات هو أفضل السبل للسيطرة عليها وأثناء العملية .

يقوم الدكتور (ليا) بإزالة الخلايا التى تعرف باسم خلايا إفرازات الأعصاب من مخ البعوضةوكذلك بعض الغدد من الرقبة .

وقد وجد الدكتور (ليا) أن البعوضة لايمكنها بعد ذلك وضع البيضة فإذا كان هذا شأن البعوضة التى ضرب القرآن بها مثلا فقال : ﴿ إن الله لايستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾[1] .

فما بالك بهذه الخلية وما فيها من أسرار حارت فيها عقول الباحثين ووقفت حيالها (واجمة) عبقريات العباقرة والمفكرين .

وهكذا أخذت الأدلة تتجلى فى تؤدة وثبات كأنها الجبال الشم والرواسى الشامخات إلى أن وصلت إلى حقيقة الحقائق وسر الأسرار ألا وهى قضية التوحيد فقال سبحانه بعد ذلك : ﴿ **إلهكم إله واحد** ﴾ : فهذه القضية مركز الدائرة الذى تسبح حوله الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة إنها قضية لا إله إلا الله . فمن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى لا إله إلا الله أنهى بها عمرى لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى لا إله إلا الله أدخل بها قبرى لا إله إلا الله ألقى بها ربى :

الكل فى بحر حبه اشتاقوا ... وقد تفانوا فى سر معناه
وصححوا العقد مخلصين له ... بقولهم : لا إله إلا هو
يا معشر الذاكرين كلكم ... قولوا معى : لا إله إلا هو
وراقبوا من يعمكم كرماً ... بفضله : لا إله إلا هو
فالكون قد فاح بشره عبقا ... بذكره : لا إله إلا هو
والعرش تسبيحه له أبدا ... سبحان من لا إله إلا هو
وكل ما فى السماء من فلك ... تسليمه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الجبال من عظم ... تسبيحه : لا إله إلا هو

(١) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

وكل ما فى الرياض من شجر تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى البحار من خلق تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الوجود من بشر تسبيحه : لا إله إلا هو
وكل ما فى الزمان من عجب أعجبه : لا إله إلا هو
وكل شىء تراه من حسن أحسنه : لا إله إلا هو
وكل شىء يلوح من صور فزينته لا إله إلا هو
وكل أهل العلوم قد علموا بأنه لا إله إلا هو
وكل أهل العقول قد فهموا بأنه لا إله إلا هو
والإنس والجن كلهم شهدوا بأنه لا إله إلا هو
والرعد والبرق إذ يسبحه بقوله لا إله إلا هو
وكل من ضل عن طريق هدى دليله لا إله إلا هو
وكل من يشتكى أذى سقم شفاؤه لا إله إلا هو
ومن أتاه بالذل مفتقرا غناؤه لا إله إلا هو
ومن أتى بائساً ومفكراً فجبره لا إله إلا هو
يا غارقا فى بحار غفلته انهض وقل لا إله إلا هو
يا قوم لا تغفلوا عن ذكره بلا إله إلا هو
كيف تنام العيون عن ملك سبحانه لا إله إلا هو
هو الإله العظيم قدرته سبحانه لا إله إلا هو
يا فوز من مات وهو معتقد يشهد أن لا إله إلا هو
سبحانه ما أعم رحمته بمذنب تاب من خطاياه

قوله تعالى : ﴿ **إلهكم إله واحد** ﴾ : ثم أقرأ تعقيب الكتاب العزيز عليها حيث يقول جل شأنه ﴿ **فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لاجرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون إنه لايحب المستكبرين** ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية الكريمة : يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك كما أخبر عنهم تعجبهم من ذلك : ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾[1] .

(١) الآية ٥ من سورة ص .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾ : [١] .

وقوله : ﴿ **وهم مستكبرون** ﴾ : أى عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده كما قال ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[٢] .

ولهذا قال هنا : ﴿ **لاجرم** ﴾ : أى حقاً ﴿ **أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون** ﴾ : أى وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ **إنه لايحب المستكبرين** ﴾ .

وبنظرة فاحصة يتبين لنا أن الأدلة على وحدانية الله واضحة لاغموض فيها جلية لاغبار عليها وأن الذين يقفون منها موقف الإنكار أو التشكك إنما ذلك راجع لمرض فى قلوبهم فقلوبهم منكرة جاحدة مظلمة عابسة :

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة ... ألا يرى نورها من ليس ذا بصر ؟

وقد قيل :

ومـاضر الـورود ومـاعليها ... إذا المزكوم لم يطعم شذاها

وقد قيل أيضاً :

مايضر البحر أمسى زاخراً ... إن رمى فيه غلام بحجر

فاللهم أزل عن القلوب حجب الغفلة وبصرها بأمر دينها ودنياها .

وإن من أمراض هذه القلوب المنكرة أنها تجحد حقائق الأشياء دون أن تبحث وتفكر وتمحص وتتدبر قال سبحانه ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾ : بكل هذه السهولة وبمنتهى التبجح : تنكر الحقائق .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ومن يك ذا فم مُرّ مريض ... يجد مراً به الماء الـزلالا

من مواقف الكافرين

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ
كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾
قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ
وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ
ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى

(١) الآية ٤٥ من سورة الزمر . (٢) الآية ٦٠ من سورة غافر .

ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ
مِن سُوٓءٍۭ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا
فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

المفـــردات : ﴿ **الأساطير** ﴾ : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح وهى الترهات والأباطيل ، ﴿ **والأوزار** ﴾ : الآثام واحدها وزر ، ﴿ **ساء مايزرون** ﴾ : أى بئس شيئاً يعملونه ، ﴿ **المكر** ﴾ : صرف غيرك عما يريده بحيلة ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد** ﴾ : أى أهلكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، ﴿ **والقواعد** ﴾ : الدعائم والعمد واحدها قاعدة ، ﴿ **خر** ﴾ : سقط ، ﴿ **يخزيهم** ﴾ : يذلهم ويهينهم ، ﴿ **وتشاقون** ﴾ : أى تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شق وجانب غير شق الآخر ، ﴿ **والذين أوتوا العلم** ﴾ : هم الأنبياء ، ﴿ **والسلم** ﴾ : الاستسلام ، ﴿ **والخضوع** ﴾ : بلى بمعنى نعم ، ﴿ **والمثوى** ﴾ : مكان الثواء والإقامة .

المناسبـــة

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها وبين أنهم ليسوا ببدع فى هذه المقالة فقد سبقتهم أمم قبلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فأهلكهم فى الدنيا وسيجزيهم يوم القيامة بما فعلوا ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ويقولون ماكنا نعمل من سوء ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هى .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ : أى وإذا قيل لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة من المشركين أى شيء أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئاً إنما الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين . ونحو الآية قوله : حكاية عنهم ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾[1] .

وكانوا يفترون على الرسول ﷺ أقوالا مختلفة فتارة يقولون إنه ساحر، وأخرى إنه شاعر أو كاهن وثالثة إنه مجنون . ثم قر قرارهم على مااختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومى كما حكى عنه الكتاب الكريم ﴿ إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾[2] .

(١) الآية ٥ من سورة الفرقان . (٢) الآيات ١٨ – ٢٤ من سورة المدثر .

أى يُنقل ويُحكى فتفرقوا معتقدين صحة قوله وصدق رأيه قبحهم الله وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحجيج ويقولون هذه المقالة . ثم بين عاقبة أمرهم فقال : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾ : أى وإنما قدرنا عليهم أن يقولوا ذلك لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين يتبعونهم ويوافقونهم ، أى يصير عليهم خطؤ ضلالهم فى أنفسهم وخطيئة إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتدائهم بهم كما جاء فى الحديث (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لاينقص ذلك من آثامهم شيئاً ﴾[1] .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[2] .

والمراد من قوله ﴿ **كاملة** ﴾ : أنه لا ينقص فيها شيء ولا يكفر بنحو نكبة تصيبهم فى الدنيا ولا طاعة مقبولة تكفِّر بعض تلك الأوزار كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله ﴿ **بغير علم** ﴾ : بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضُلّال وأنهم على الباطل وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لا يروج على ذى لب وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء وزيادة تعيير وذم لهم إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم .

وقصارى القول أن هؤلاء قد نسوا أنفسهم واختاروا لها الكيد لرسول الله ﷺ وللمسلمين فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والآصار كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضاً والله تعالى لم يظلمهم فيما جازاهم به بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم فاستحقوا هذا الجزاء ثم هددهم وتوعدهم فقال : ﴿ **ألا ساء مايزرون** ﴾ : أى بئس شيئاً يرتكبونه من الاثم والذنب مايفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذى أصابهم من العذاب ماأصابهم بتكذيبهم لرسلهم فقال : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لايشعرون** ﴾ .

أى إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالأساطين فضعضعت أساطينه وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه – فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوة والتحصين فى البنيان صار سبب الهلاك كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالاً عليهم ونحو الآية قولهم فى المثل : من حفر لأخيه جُباً وقع فيه منكباً .

---

(١) أخرجه مسلم في العلم : ١٦ ، وفي الذكر : ١ . وأبو داود في السنة : ٦ . والترمذي في العلم : ١٥ ، وفي ثواب القرآن : ١٤ . وابن ماجه في المقدمة : ١٤ . والدارمي في فضائل القرآن : ١ .

(٢) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .

وخلاصة ذلك :

أن الله أحبط أعمالهم وجعلها وبالاً عليهم ونقمة لهم وبعد أن بين سبحانه ماحل بأصحاب المكر فى الدنيا من العذاب والهلاك بين حالهم فى الآخرة فقال : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائىَ الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾ : أى ثم إن ربك يوم القيامة يخزيهم بعذاب أليم ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية . أين الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى وهلا تحضرونهم اليوم ليدفعوا عنكم مايحل بكم من العذاب فقد كنتم تعبدونهم فى الدنيا وتتولّونهم والولّى ينصر وليّه .

والمراد من المشاقة منهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حَقا حين بينوا لهم ذلك والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيت والاحتقار لشأنهم إذ كانوا يقولون : إن صح ماتدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا والخلاصة – أنه لا شركاء ولا أماكن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين فى شأنهم يوم القيامة : ﴿ **قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين** ﴾ : أى قال الذين أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا إلى دينهم فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسله ومرادهم بهذه المقالة الشماتة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالمو أنفسهم فقال : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾ : أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم ومعرّضوها للعذاب المخلد بكفرهم وأى ظلم للنفس أشد من الكفر .

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال : ﴿ **فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء** ﴾ : أى فاستسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب قائلين : ماكنا نشرك بربنا أحداً وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ والله ربنا ماكنا مشركين ﴾[1] .

ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال : ﴿ **بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ : أى بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام والله عليم بذلك فلا فائدة لكم فى الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .

ثم بين مايترتب على قبيح أفعالهم فقال : ﴿ فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

أى فادخلوا طبقات جهنم وذوقوا ألواناً من العذاب بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم واجتراحكم عظيم الموبقات والمعاصى خالدين فيها أبدا وبئس المقيل والمقام دار الذل والهوان لمن كان متكبرا عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التى أنزلت عليهم وما أفظعها من دار وصفها ربنا بقوله ﴿ **لا يقضى**

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنعام .

عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ : تلك عاقبة هؤلاء فى الدنيا والآخرة .

أما فى الآخرة : فكما قال مولانا : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء مايزرون** ﴾ .

وأما عاقبتهم فى الدنيا فإنها كعاقبة الذين من قبلهم : تدمير وخسف قال سبحانه ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ .

هذه عاقبة التكذيب والخيانة والكفر والجحود ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوايصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون ﴾(١) .

وموقف هؤلاء المنكرين فى الآخرة أيضاً : خزى وتأنيب قال جل شأنه : ﴿ **ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم** ﴾ : عندئذ لا يستطيعون جواباً ولا تفسيرا .

فمن الذين يقولون كلمة الحق الفاصلة : إنهم أهل العلم قال جل شأنه ﴿ **قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين * الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم فألقوا السلم ماكنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون** ﴾ .

وبعد كل هذا فإلى أين ينتهى المطاف وأين المستقر ! قال سبحانه : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾ .

جـــزاء المتقيـــن

۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

المناسبــة

بعد أن بيّن سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين ينكرون وحيه ويقولون إن محمداً قد لفق أساطير الأولين وترهاتهم ونقلها للناس ، وادعى أنها من رب الأرض والسموات وذكر ما سينالهم من

(١) الآيات ١١٢ — ١١٤ من سورة النحل .

النكال والوبال إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصى أردف ذلك وصف المؤمنين الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، وذكر ماأعده لهم من الخير والسعادة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما أحسنوا من العمل وأتوا به من جميل الصنع .

وبعد هذا المشهد من مشاهد القيامة ، وبعد أن تقرأه بخشية وخشوع : قارن بين أصحاب القلوب المنكرة وبين أهل التقوى .. فأصحاب القلوب المنكرة إذا قيل لهم : ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا : أساطير الأولين ، وأصحاب التقوى : موقفهم على النقيض من ذلك .

قال تبارك اسمه وتعالى جده : ﴿ **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا** ﴾ .

شتان ثم شتان ، وهيهات ثم هيهات بين القولين : بين « أساطير الأولين » وبين كلمة ﴿ **خيرا** ﴾ كما أنه شتان بين العاقبتين .

فعاقبة المتكبرين : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ : هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا : ﴿ **فأتى الله بنيانهم من القواعد * فخر عليهم السقف من فوقهم * وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾ .

وأما عاقبة المتقين فى الدنيا والآخرة ، فكما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنه ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار لهم فيها مايشاءون كذلك يجزى الله المتقين** ﴾ .

ومن المواقف الطيبة التى يقف عندها العقل عاجبا فى هذه السورة أن الله سبحانه شاء – بمنه وفضله – أن يعطى الجزاء للمؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وقد جاء ذكر ذلك فى هذه السورة فى أربعة مواضع : هذا الموضع السابق أولها .

والموضع الثانى : قوله جل شأنه : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

والموضع الثالث : قوله جل جلاله : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون ﴾ .

والموضع الرابع : قوله تعالى فى حق الخليل إبراهيم :﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

سبحانك اللهم ! أنت ولىُّ المتقين ، وناصر المؤمنين .

ثم قارن بعد ذلك يا أخى بين حالتى الوفاة التى يصفها الكتاب العزيز : فيقول فى حق المنكرين : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم * فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء** ﴾ .

ويقول فى حق المتقين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾ .

روى ابن أبى حاتم عن السُّدى قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمداً رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده ردوه عنه ، فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل الرجل وافدا لقومه ينظر مايقوله محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم : أنا فلان بن فلان فيعرّفه نسبه ويقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لا خير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين** ﴾ : فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بئس الوافد لقومى ، إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن أُلقى هذا الرجل وانظر ما يقول ، وآتى قومى ببيان أمره فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيرا .

فهؤلاء هم الذين يقول الله تعالى فى شأنهم : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين** ﴾ : قال الراغب : الطيب من الناس من تعرّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله .

وقوله تعالى ﴿ **طيبين** ﴾ : كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعانى ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أُمِروا به ، وإجتنابهم كل ما نهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبراءتهم من ذميم الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها .

ومن هذه حالة لا يألم بالموت كما قال : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدّعون * نزلا من غفور رحيم ﴾[1] .

أخرج ابن جرير والبيهقى عن محمد بن كعب القُرظى قال : (إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولىّ الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة) .

ماذا ينتظر المعاندون ؟

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

---

(١) الآيات ٣٠ – ٣٢ من سورة فصلت .

المفـــردات : ﴿ **ينظرون** ﴾ : ينتظرون . ﴿ **وأمر ربك** ﴾ : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، ﴿ **وحاق بهم** ﴾ : أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

المناسبـــــة

بعد أن ذكر طعن المشركين فى القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه قول شاعر ، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالثواب لمن صدق به – قفّى على ذلك ببيان أن الكفار لا يزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم الملائكة قابضة أرواحهم ، أو يأتيهم عذاب الاستئصال ، فلا يُبْقى منهم أحدا ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء ما فعلوا ، وما ظلمهم الله ولكن هم قد ظلموا أنفسهم : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[(١)] :

ماذا ينتظر هؤلاء المعاندون المكابرون فى الحق ، الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسل الله به الرسل ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾[(٢)] .

إنهم المجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[(٣)] .

﴿ إن الذين حقَّت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[(٤)] .

إنهم فى غيهم سادرون وفى ريبهم يترددون وفى خوضهم يلعبون إلى أن تأتيهم ملائكة الموت ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾ .

وهل ينتظرون إلا أن يأتيهم أمر ربك (أى عذابه) .

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون * فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ .

﴿ **كذلك فعل الذين من قبلهم** ﴾ : أى ليس هؤلاء بدعا ، بل لقد سبقتهم أمم طغت وبغت وكذبت ﴿ **وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[(٥)] .

---

(١) الآية ١١ من سورة الرعد . (٢) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر . (٣) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر . (٤) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس . (٥) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يقترن الجزاء بالعمل فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر: ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[١].

قال تعالى: ﴿ **فأصابهم سيئات ما عملوا** ﴾: وهكذا يكون الجزاء مبنيا على العمل.

قال تعالى: ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون** ﴾.

وقال جلّ شأنه: ﴿ ولله ما فى السماوات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾[٢].

وقال جلّ شأنه: ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ماندرى ماالساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يُخرجون منها ولا هم يُستعتبون ﴾[٣].

لقد أحاط بهؤلاء العذاب جزاء مااستهزءوا بآيات الله ورسله ﴿ ولئن سألتهم ليقولنّ إنما نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسله كنتم تستهزئون ﴾[٤].

حجـــة داحضـــة

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

المفـــردات: ﴿ **الطاغوت** ﴾: كل معبود دون الله، من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال ويقع على الواحد كقوله: ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾[٥]

(١) الآيتان ٧، ٨ من سورة الزلزلة.
(٢) الآية ٣١ من سورة النجم.
(٣) الآيات ٣٠ – ٣٥ من سورة الجاثية.
(٤) الآية ٦٥ من سورة التوبة.
(٥) الآية ٦٠ من سورة النساء.

وعلى الجمع كقوله : ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾[١] .

﴿ **حقت** ﴾ : وجبت وثبتت بالقضاء السابق فى الأزل لإصراره على الكفر والعناد .

المناسبـــــة

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لا يزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد ، أو أتاهم عذاب الاستئصال ، كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسل الله – قفَّى على ذلك ببيان أنهم طعنوا فى إرسال الأنبياء جملة وقالوا إنا مجبورون على أعمالنا ، فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن نؤمن به ولا نشرك به شيئاً ونحل ما أحله ولا نحرم شيئاً مما حرمنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله له الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من عند الله .

وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هادياً يأمر بعبادته ، وينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب لدعوته ، ومنهم من أضله الله على علم ، فحقت عليهم كلمة ربك ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب فى الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أُخذوا بذنوبهم ، ثم ذكر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لا ينفعك شيئا ، فإن الله لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لا يجد أحدا يدفع عنه بأس الله ونقمته .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين** ﴾ .

هذا احتجاج باطل اسند فيه المعاندون كل مافعلوه من شرك إلى المشيئة العليا كما أسندوا كل ما شرعوه لأنفسهم عندما أحلوا الحرام وحرموا الحلال إلى المشيئة ، وكأنهم يقولون ما كان هناك داع إلى إرسال الرسل فلو شاء الله لنا ألا نعبد من دونه من شىء لما عبدنا ولا حرمنا من دونه من شىء أولا يعلم هؤلاء أن مشيئة الله تعالى قد بنيت على علم وحكمة ، وأنه تعالى قد تنزه عن الجهل والعبث فهو العليم الحكيم المريد القدير ، اقتضت مشيئته أن يرسل رسلاً وينزل كتباً ويهب العباد عقلا وهؤلاء الرسل بعثوا مبشرين ومنذرين لألّا يكون للناس حجة بعد الرسل قال تعالى ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٢] .

قال جل شأنه : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾[٣] .

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة . (٢) الآية ١٥ من سورة الإسراء . (٣) الآية ٥٦ من سورة الكهف .

وقال سبحانه ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾[١] .

و قال تبارك اسمه ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾[٢] .

ليس لأحد حجة على الله بعد إرسال الرسل وليس لأحد حجة على الله تعالى بعد إنزال الكتب ، وليس لأحد على الله تعالى حجة . بعد أن وهبنا العقول ، وبعد أن رفع القلم عن ثلاثة : الخطأ والنسيان وما استكرهنا عليه ، وعن النائم حتى يستيقظ ، والصبى حتى يحتلم ، والمجنون حتى يفيق ، وبعد أن فتح باب التوبة حتى يغرغر العبد أو تطلع الشمس من مغربها ، عندئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، لذا ترى آيات القرآن ناطقة بمنطق العدالة الإلهية قال تعالى ﴿ وما يضل به إلا الفاسقين ﴾ ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ ﴿ والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ .

﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٣] ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[٤] .

فالذين عبدوا من دون الله شيئاً والذين حرموا وأحلوا ما لم ينزل الله به سلطانا قد استحبوا العمى على الهدى ، لذا كان الرد من العلى العظيم ، كذلك فعل الذين من قبلهم أى من الأمم التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾[٥] .

فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[٦] ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو عليم بالمهتدين ﴾ ﴿ ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين ﴾[٧] ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[٨] .

قوله تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ .

كل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو : قول لا إله إلا الله ، قال تعالى ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[٩] وقال جل شأنه ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[١٠] .

(١) الآية ١٣٤ من سورة طه .
(٢) الآيات ٦ — ٩ من سورة الملك .
(٣) الآية ١٧ من سورة فصلت .
(٤) الآيات ٥ — ١٠ من سورة الليل .
(٥) الآية ٣٥ من سورة النحل .
(٦) الآية ٣ من سورة الإنسان .
(٧) الآيات ٨ — ١٠ من سورة البلد .
(٨) الآيات ٧ — ١٠ من سورة الشمس .
(٩) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .
(١٠) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
يا حي يا قيوم أنت المرتجى وإلى علاك علا الجبين الساجد

لقد أمرت الرسل أممها بتوحيد الله واجتناب كل طاغوت والطاغوت كل ماعبد من دون الله سواء كان جنيا أو شيطانا أو بشراً طغى وبغى وجاوز حدود العبودية قال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[1] .

وقال عز من قائل ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت ﴾[2] .

وقال جل جلاله ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾[3] .

قال تعالى : ﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى ﴾[4] .

نعم إن الطريق واضح والحق لائح والمنادى صائح فمنهم من هدى الله فاتبع صراطه المستقيم ومنهم من زل وغوى واتبع ما أسخط الله فهوى فحقت عليه الضلالة قل لهؤلاء الضالين ﴿ **سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ .

﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[5] .

إن هؤلاء الضالين الذين حقت عليهم كلمة الضلالة ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل ﴾[6] فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون .

﴿ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[7] .

﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[8] .

﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾[9] .

---

(١) الآية ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٧٦ من سورة النساء .
(٣) الآية ٦٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٧ من سورة الزمر .
(٥) الآية ٧٠ من سورة التوبة .
(٦) الآية ٣٧ من سورة النحل .
(٧) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٨) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٩) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .

والهوى هو منازع النفس إلى مسالك الشر ، ومن اتبع الهوى فقد هوى .

هؤلاء الضالون مالهم من ناصرين ينصرونهم من دون الله ، ﴿ ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾[1] .

إنكارهم البعث

وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٤٠)

المفـــردات : ﴿ **الجهد** ﴾ : بفتح الجيم ، ﴿ **المشقة** ﴾ : وبضمها الطاقة ، ﴿ **وجهد أيمانهم** ﴾ : أى غاية اجتهادهم فيها ، ﴿ **وبلى** ﴾ : كلمة جواب كنعم لكنها لاتقع إلا بعد النفى فتثبت مابعده ، ﴿ **وعداً عليه حقاً** ﴾ : أى وعد ذلك وعدا عليه حقاً ، أى ثابتا متحققاً لا شك فيه .

المناسبـــة

بعد أن ذكر عز اسمه حجتهم وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعاً لأنا مجبورون فيما نفعل ، وأنه لو شاءِ الله أن نهتدى لكان دون حاجة إلى ارسال الأنبياء ، ورده عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هى فى تبليغ ماأمر به وترك مانهى عنه ، ولا يلزمون أحداً بإيمان ولا كفر ، أردف هذا بشبهة أخرى لهم إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياءِ لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولكن العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة ذاك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب فرد الله عليهم ماقالوا بأن هذا ممكن وقد وعد عليه وعدا حقا وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب والعاصى من المطيع وأيضاً فإيجاده تعالى للأشياء لا يتوقف على سبق مادة ولا آلة بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير عن إبى العالية قال : (كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به والذى أرجوه بعد الموت أنه لكذا وكذا فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تبعث من بعد الموت وأقسم جهد يمينه لا يبعث الله من يموت فأنزل الله ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ .

وأخرج أيضاً عن ابى هريرة قال : (قال الله : سبنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبنى ، وكذبنى ولم يكن ينبغى له أن يكذبنى ،فأما تكذيبه إياى فقال ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من

(١) الآية ١٨ من سورة غافر .

يموت ﴾ . وقلت ﴿ بلى وعدا عليه حقا ﴾ وأما سبه إياى فقال ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقلت ﴿ هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾) .

قوله تعالى ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت** ﴾ .

أى أنهم اجتهدوا فى الحلف ، وأغلظوا فى الإيمان أنه لا يقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله من جراء أن الميت يفنى ويعدم ، والبعث إعادة له ، وإعادة المعدوم مستحيلة .

وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم وكذبهم بقوله : ﴿ **بلى وعدًا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

أى بلى سيبعثه الله بعد مماته ، وقد وعد بذلك وعداً حقاً لابد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشئون الله وصفات كماله من علم وقدره وحكمة ونحوها لا يعلمون أن وعد الله لابد من نفاذه ، وأنه باعثهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قبل هذا جرءوا على مخالفة الرسل ، ووقعوا فى الكفر والمعاصى .

ثم ذكر سبحانه وتعالى الحكمة فى المعاد وقيام الأجساد يوم التناد فقال : ﴿ **ليبين هم الذى يختلفون فيه** ﴾ : أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل ، وخالفتهم فيه أممهم ، فيمتاز الخبيث من الطيب ، والمطيع من العاصى ، والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك مما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

﴿ **وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** ﴾ .

أى وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين فى قولهم : ﴿ **لايبعث الله من يموت** ﴾ وسيدعون إلى نار جهنم دعا وتقول لهم الزبانية : ﴿ **هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون * اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ماكنتم تعملون** ﴾ .

ثم اخبر سبحانه عن كامل قدرته وأنه لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء فقال : ﴿ **إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ : أى إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصب فى إحيائه ولا بعثه لأنا إذا أردنا ذلك فإنما نقول له كن فيكون لامعاناة فيه ولا كلفة علينا .

ونحو الآية قوله ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾[1] .

وقوله : ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[2] .

وقوله : ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾[3] .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .
(٢) الآية ٥٠ من سورة القمر .
(٣) الآية ٢٨ من سورة لقمان .

وخلاصة هذا أنه تعالى مثل حصول المقدورات وفق مشيئته ، وسرعة حدوثها حين إرادته ، بسرعة حصول المأمور حين أمر الآمر وقوله ، دون هوادة ولا تراخ .

فضل الهجرة فى سبيل الله

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

المناسبة

بعد أن حكى الله تعالى أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة ، وتمادوا فى الغى والضلالة ، (ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقوم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء ، حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان) - ذكر هنا حكم تلك الهجرة وبين ماهؤلاء المهاجرين من حسنات فى الدنيا ، وأجر فى الآخرة ، من جرّاء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله .

وفى هذا ترغيب لغيرهم فى الهجرة ، واحتمال كل أذى فى سبيل الله احتساباً للأجر .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية قال : (هؤلاء أصحاب محمد ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ثم بوأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين) .

قال هشيم عن العوام عمن حدثه : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول خذ بارك الله لك فيه ، هذا ماوعدك الله فى الدنيا ، وما ادخر لك فى الآخرة أفضل . ثم قرأ هذه الآية ﴿ **لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ .

ثم وصفهم تعالى فقال : ﴿ **الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ .

أى صبروا على الأذى من قومهم متوكلين على الله الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة .

تهديد الكافرين

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ

لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ
فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ
وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ
وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

المفــــردات : ﴿ **البينات** ﴾ : المعجزات الدالة على صدق الرسول ، ﴿ **الزبر** ﴾ : واحدها زبور وهى كتب الشرائع والتكاليف التى يبلغها الرسل إلى العباد ، ﴿ **الذكر** ﴾ : القرآن ، ﴿ **لتبين للناس** ﴾ : أى لتوضح لهم ما خفى عليهم من أسرار التشريع ، ﴿ **والمكر** ﴾ : السعى بالفساد خفيه ، ﴿ **والسيئات** ﴾ : أى الاعمال التى تسوءهم عاقبتها ، ﴿ **يخسف بهم الأرض** ﴾ : أى يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، ﴿ **فى تقلبهم** ﴾ : أى فى أسفارهم وسيرهم فى البلاد البعيدة للسعى فى أرزاقهم كما قال ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ﴾[1] .

﴿ **بمعجزين** ﴾ : أى بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار ، ﴿ **التخوف** ﴾ : التنقص من قولهم تخوفت الشيء وتخيفته إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتى عليها الفناء جميعاً ، ﴿ **ويتفيأ** ﴾ : من الفيء يقال فاء الظل يفيء فيئاً إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، ﴿ **والظلال** ﴾ : واحدها ظل وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس .

قال رؤبة : « كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فىء وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل » .

﴿ واليمين والشمائل ﴾ جانبا الشيء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها والسجود : الانقياد والخضوع من قولهم سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل .

﴿ **داخرون** ﴾ : أى صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء أو أبى .

﴿ **يخافون ربهم** ﴾ : أى يخافون عقابه .

﴿ **من فوقهم** ﴾ : أى بالقهر والغلبة كما قال : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾[2] .

المناسبـــة

بعد أن ذكر جلت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لا حاجة بهم إلى الأنبياء ، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها ، وهم لا يصدقون بها ، وليس من المعقول أن يكون أردف

(١) الآية ١٩٦ من سورة آل عمران . (٢) الآية ١٢٧ من سورة الأعراف .

ذلك بشبهة أخرى لهم : إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشراً ، فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر ، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكاً .

ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسله من البشر ، وإن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب الذين آمنوا عن ذلك .

ثم هددهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون ، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغته كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى أسفارهم ومعايشهم ، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى .

ثم أعقب هذا بما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير .

عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾[1] .

وقال : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون** ﴾ .

يعنى أهل الكتب الماضية أبشراً كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرته ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً .

قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ﴾[2] .

ليسوا من أهل السماء كما قلتم ، وكذا يكون الغرض جاءت به هذه الآية الكريمة أن الذين أُرسلوا قبل رسول الله ﷺ كانوا بشرا فما الذى يمنع أن يكون محمد بشرا رسولا .

قال تعالى : ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[3] .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾[5]

وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾[6] .

وقال : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾[7] .

وقال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ﴾[8] .

---

(١) الآية ٢ من سورة يونس .
(٢) الآية ١٠٩ من سورة يوسف .
(٣) الآية ٩٣ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٩٤ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٦) الآية ٨ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٨) الآية ١١٠ من سورة الكهف .

ثم أرشد الله تعالى من شك فى كون الرسل كانوا بشراً إلى سؤال أصحاب الكتب المتقدمة عن الأنبياء الذين سلفوا ؟ هل كان أنبياؤهم بشراً أو ملائكة ، ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ **بالبينات** ﴾ : أى بالحجج والدلائل ﴿ **والزبر** ﴾ : وهى الكتب قاله ابن عباس ومجاهد والضحاك .

والزبر جمع زبور تقول العرب زبرت الكتاب إذا كتبته .

وقال تعالى : ﴿ وكل شيء فعلوه فى الزبر ﴾[1] .

وقال : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[2] .

ثم قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر** ﴾ : يعنى القرآن ﴿ **لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ : أى من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه ، واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل ﴿ **ولعلهم يتفكرون** ﴾ : أى ينظرون لأنفسهم فيهتدون فيفوزون بالنجاة فى الدارين .

وهكذا تقوم السنة المطهرة بتفصيل ما أجمل فى الكتاب العزيز وتوضيح ما أبهم وتخصيص العام منه وتقييد المطلق وتوكيد بعض آياته ولا استغناء عن السنة إذ هى المذكرة التفسيرية للكتاب الكريم .

قال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ﴾[3] .

وقال : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[4] .

وقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾[5] .

وقال ﷺ : (ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه) : يقصد سنته الشريفة : فالوحى قسمان وحى متلو وهو القرآن ، ووحى غير متلو وهو السنة .

قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرآناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾[6] .

والبيان هنا السنة .

ففى الآية إشارة إلى أن الله تعالى قد حفظ السنة حفظها بالسند وقيض لها رجالاً أحاطوها بالبحث الدءوب وحرصوا على نقلها بصدق وأمانة ودونوها فى الكتب وعلى رأسها الصحيحان البخارى ومسلم فمن الذى علمنا أن الظهر أربع ركعات مثلا . ومن الذى علمنا أن المرأة لا تنكح على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا ابنة أختها ، ومن أين علمنا أن الشرع قد حرم كل ذى ناب من السباع ، وكل ذى مخلب من الطير ؟

---

(١) الآية ٥٢ من سورة القمر .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
(٣) الآية ٧ من سورة الحشر .
(٤) الآية ٨٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ٣١ من سورة آل عمران .
(٦) الآيات ١٦ – ١٩ من سورة القيامة .

إن الذى جاء بهذا البيان إنما هو سنة رسول الله ﷺ

قوله تعالى : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم** ﴾ .

لا ينزل بلاء بغير ذنب ، ولا يرفع بغير توبة ، وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يقرن الجزاء بالعمل .

فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شراً فشر . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[1] ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[3] .

وقال جل شأنه : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[4] .

وفى قوله جل شأنه ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات** ﴾ : إخبار منه جل شأنه عن حلمه وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ويدعون إليها ويمكرون بالناس فى دعائهم إياهم وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أى من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم قوله تعالى ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾[5] .

وقوله : ﴿ **أو يأخذهم فى تقلبهم** ﴾ : أى فى اسفارهم واشتغالهم بمعايشهم .

وقال قتادة ﴿ **فى تقلبهم** ﴾ : فى الليل والنهار كقوله ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون * أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾[6] .

وقوله : ﴿ **فما هم بمعجزين** ﴾ : أى لا يعجزون الله على أى حال كانوا عليه .

قوله تعالى : ﴿ **أو يأخذهم على تخوف** ﴾ : أى يخيفهم أولاً ثم يعذبهم بعد ذلك بأن يهلك طائفة فتخاف التى تليها حتى يأتى عليهم جميعاً ، ويكون هذا أشد عليهم إيلاماً ووحشية .

قوله تعالى : ﴿ **فإن ربكم لرءوف رحيم** ﴾ : أى حيث لم يحاكمكم بالعقوبة كما ثبت فى

---

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .
(٢) الآية ٧ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الملك .
(٦) الآيات ٩٧ - ١٠٠ من سورة الأعراف .

الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم »[١] .

ومنهما « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »[٢] ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون * ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ .

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، يحيى العظام وهى رميم ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، سجد له كل من فى السموات والأرض من دابة ، والملائكة وكل ما يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل بكرة وعشيا ، وهم داخرون خاضعون لعظمته ، مقهورون بإرادته ، فهو مالك كل شيء ومليكه ، بيده مقاليد السموات والأرض .

قال تعالى : ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ **والملائكة وهم لا يستكبرون** ﴾ : أى تسجد لله غير مستكبرين عن عبادته . ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾ : أى يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله .

﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ : أى لا يعصون الله ما أمرهم كما قال تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٦] .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب : ٧١ ، وفي التوحيد : ٣ . ومسلم في المنافقين : ٤٩ ، ٥٠ . والإمام أحمد في ٤ : ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم في البر : ٦٢ . وابن ماجه في الفتن : ٢٢ .

(٣) الآية ٤٨ من سورة الحج .

(٤) الآية ١٥ من سورة الرعد .

(٥) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٦) الآيتان ٢٩ - ٣١ من سورة الأنبياء .

الرد على عقائد المشركين وأعمالهم

۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ
ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا
يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ
سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ
كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ (٦٠) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ
إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ
لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ
مُفْرَطُونَ (٦٢)

المفردات : ﴿ **الدين** ﴾ : الطاعة والإخلاص ، ﴿ **واصبا** ﴾ : دائما ، ﴿ **واجباً** ﴾ : خالصاً ، ﴿ **تجأرون** ﴾ : تصيحون بالدعاء يقال جأر يجأر جؤارا والجؤار مثل الخوار وهو صوت البقر ، ﴿ **مسوداً** ﴾ : المراد متغيراً والسواد كناية عن غمه بالبنت ، ﴿ **كظيم** ﴾ : ممتلىء غماً وحزنا أو هو المغموم الذى يطبق فاه فلا يتكلم من شدة الألم مأخوذ من الكظامة وهو شدُّ فم القربة ، ﴿ **يتوارى** ﴾ : يختفى ويغيب ، ﴿ **هون** ﴾ : هوان وبلاء ، ﴿ **يدسه فى التراب** ﴾ : يواريه فى التراب ويرده إليه ، ﴿ **مثل السوء** ﴾ : المثل المراد به الصفة الغريبة غرابة المثل ، ﴿ **مفرطون** ﴾ : متروكون فيها أو مقدمون إليها .

المناسبة

لما بين سبحانه فى الآيات السالفة أن كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملك منقاد له وخاضع لسلطانه اتبع ذلك بالنهى عن الشرك به وبين أن كل ما سواه فهو ملكه .

وأنه مصدر النعم كلها . وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه الضر فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ثم يعلم الكفار بعدئذ ما يحل بهم من النكال والوبال جزاء لهم على سوء أعمالهم وقبيح أفعالهم . وبعد أن بين سبحانه سُخف أقوال الشرك أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التى تمجها الأذواق السليمة .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الله لاتتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون** ﴾ .

إخبار منه جل جلاله عن قوله لعباده لا تتخذوا إلهين اثنين وهذا نهى صريح عن الشرك قال ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[١] .

والشرك ذنب لا يغفره الله لمن مات عليه قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[٢] .

وفى آية أخرى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾[٣] .

وقال فى حديثه القدسى الجليل : [أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرك فيه غيرى تركته وشريكه][٤] .

وقال سبحانه لحبيبه ومصطفاه ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٤] .

وقال : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد** ﴾ .

إنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه للدلالة على أن المنهى عنه هى الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما وصف الإله بالوحدة فى قوله ﴿ **إنما هو إله واحد** ﴾ : للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية وأنها من لوازم الألوهية .

أما الألوهية فغير منكرة ولا متنازع فيها .

﴿ **فإياى فارهبون** ﴾ : تقديم الضمير هنا يفيد التخصيص أى لا تخافوا سواى فأنا الرافع الخافض المعز المذل المحيى المميت القابض الباسط الضار النافع وغيره لا يملك من الأمر شيئاً : ﴿ قل من رب

(١) أخرجه البخاري في الوصايا : ٢٣ . وفي الطب : ٤٨ . ومسلم في الإيمان : ١٤٤ . وأبو داود في الوصايا .
(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٣) الآية ١١٦ من سورة النساء .
(٤) الآية ١١٠ من سورة الكهف .
(٥) الآية ١٨ من سورة آل عمران .

السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾[1] .

إن هذا الإله له ما فى السموات والأرض ﴿ وله الدين واصبا ﴾ : أى دائماً وخالصاً وواجباً . ﴿ أفغير الله تتقون ﴾ ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[2] .

(يا ابن آدم لا تخف ذا سلطان مادام سلطانى باقيا وسلطانى دائم لا يزول أبدا . يا ابن آدم كن واثقاً من رزق مضمون لك ما دامت خزائنى مملوءة وخزائنى مملوءة لا تنفذ أبدا . يا ابن آدم لا ترى عيب غيرك مدام فيك عيب والمرء لا يخلو من عيب أبداً يا ابن آدم لا تدع محاربة الشيطان ما دامت روحك فى بدنك فإنه لا يدع محاربتك أبدا. يا ابن آدم لا تأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة وفى الجنة أصاب آدم ما أصاب فلا تأمن مكرى أبدا. يا ابن آدم ما أحبنى من أحب المال وما أحبنى من أحب الدنيا فإنه لا يسع قلب واحد حبى وحبها أبدا. يا ابن آدم ما خافنى من خاف الخلق وما توكل علىّ من خاف فوات الرزق وعزتى وجلالى ما توكل على عبد إلا ادخلته الجنة واكفيته كل مهمة ومن اعتصم بغيرى اسخت الأرض من تحته وقطعت الاسباب من فوقه ولا أبالى كيف أهلكته) .

قوله تعالى : ﴿ ومابكم من نعمة فمن الله ﴾ : هذا إقرار لا يقبل الجدل أو النقاش فنعم الله على عباده لا تعد ولا تحصى ونحن نقر بذلك ونؤمن به فالله فما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر ، قال تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال ربى أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وإن أعمل صالحاً ترضاه ﴾[3] .

وقال جل شأنه فى حق سليمان عليه السلام : ﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدىّ ﴾[4] .

وسورة النحل تسمى سورة النعم ، ففيها من ألوان النعم مراتب لا تحصى ، ومراق لا تستقصى ، فمن عاش فى أسرارها واستضاء بضيائها سلك مدارج الأنوار ووقف على دقائق الأخبار لذا لما طال تعداد النعم قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[5] .

ثم ذكر أنواعا من النعم ، ولما طال تعدادها قال تعالى : ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون ﴾[6] .

(١) الآيات ٨٦ – ٨٩ من سورة المؤمنون .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٣) الآية ١٥ من سورة الأحقاف .
(٤) الآية ١٩ من سورة النمل .
(٥) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .
(٦) الآية ٨١ من سورة النحل .

وهكذا فالشكر على العباد واجب ، ومهما شكر الإنسان ربه فلن يحصى فضله .

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

قوله تعالى : ﴿ **ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون** ﴾ : لأنكم تعلمون أنه لا يقدر على إزالته إلا هو فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه وتسألون وتلحون فى الرغبة إليه مستغيثين به .

كقوله تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾(١) .

وقال ههنا : ﴿ **ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ .

واللام هنا لام الصيرورة والعاقبة . كما فى قوله تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾(٢) .

أى كان المصير والعاقبة العداوة والحزن وكان المصير هنا الكفر بما آتاهم الله .

قال تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٣) .

وهذه حال فريق من الناس عرفوا الله فى الشدة ونسوه فى الرخاء ، قال الله فى حق هؤلاء : ﴿ **فتمتعوا فسوف تعلمون** ﴾ : وهذا تهديد ووعيد إذ لا يحيق المكر السيء إلا بأهله .

قوله تعالى : ﴿ **ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون * ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون * وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون * للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

هذا إخبار عن بعض قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا : ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾(٤) .

أى جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله وفضلوها على جانبه ، فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن

---

(١) الآية ٦٧ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٨ من سورة القصص .
(٣) الآيات ٢٢ - ٢٤ من سورة يونس .
(٤) الآية ١٣٦ من سورة الأنعام .

ذلك الذى افتروه وائتفكوه وليعاقبنهم عليه وليجازينهم أوفر الجزاء فى نار جهنم فقال : ﴿ تالله لتسألن عما كنتم تفترون ﴾[1] .

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه ، فأخطئوا خطأً كبيراً فى كل مقام من هذه المقامات الثلاث ، فنسبوا إليه تعالى أن له ولدا ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، كما قال : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى * تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾[2] .

وقوله ههنا ﴿ **ويجعلون لله البنات سبحانه** ﴾ : أى عن قولهم وإفكهم ﴿ ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون ﴾[3] .

وقوله : ﴿ **ولهم ما يشتهون** ﴾ : أى يختارون لانفسهم الذكور ويأنفون لأنفسهم من البنات التى نسبوها إلى الله تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا .

فإنه ﴿ **إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً** ﴾ : أى كئيبا من الهم . ﴿ **وهو كظيم** ﴾ : ساكت من شدة ما هو منه من الحزن ﴿ **يتوارى من القوم** ﴾ : أى يكره أن يراه الناس ﴿ **من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب** ﴾ : أى إن أبقاها مهانة لا يورثها ولا يعتن بها ويفضل أولاده الذكور عليه ﴿ **أم يدسه فى التراب** ﴾ : أى يئدها ، وهو أن يدفنها فيه حية كما كانوا يصنعون فى الجاهلية .

أفمن يكرهونه هذه الكراهية ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله .

﴿ **ألا ساء ما يحكمون** ﴾ : أى بئس ما قالوا وبئس ما قسموا وبئس ما نسبوه إليه كقوله تعالى ﴿ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾[4] .

وقوله هنا : ﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السَّوْءِ** ﴾ : أى النقص إنما ينسب اليهم .

﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ : أى الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[5] .

أحمدك ربى على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك ، لو عاقبت الناس على ما هم عليه من الظلم ما تركت على وجه الارض ما يدب ، إذاً لأهلكتهم إهلاكا ، ولكن اقتضت حكمتك أن

(١) الآية ٥٦ من سورة النحل .
(٢) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة النجم .
(٣) الآيات ١٥١ – ١٥٣ من سورة الصافات .
(٤) الآية ١٧ من سورة الزخرف .
(٥) الآية ٦١ من سورة النحل .

تؤخرهم إلى أجل أجلته ، فكل شيء عندك بمقدار ، وأنت عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، فإذا جاء هذا الأجل فإنهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

فوعدك الحق ، وقولك الحق ، فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم .

أنت البصير بعبادك العليم بأسرارهم ، الخبير بأخبارهم . سبحانك من قائل ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾[1] .

فيا عباد الله : اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، فدولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة ، وعلى الباغى تدور الدوائر: يانائم الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد تأتيه أسحارا

قوله تعالى : ﴿ **ويجعلون لله مايكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون** ﴾ : من قبائح هؤلاء وافتراءاتهم على الله أنهم جعلوا له ونسبوا إليه مايكرهون من الإناث ، وكذلك جعلوا له شركاء من عبيده وهم لا يرضون لأنفسهم أن تشاركهم عبيدهم فيما يملكون ، قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ماملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين ﴾[2] .

وقع هذه الافتراءات وتلك الضلالات تصف السنتهم الكذب أن لهم الحسنى أى لهم النجاه والفوز فى الدنيا والآخرة .

﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ﴾[3] .

﴿ ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾[4] .

قال تعالى : ﴿ **لاجرم أن لهم النار** ﴾ : أى حقاً أن جزاء هؤلاء النار وهذا حكم عدل ﴿ **وأنهم مفرطون** ﴾ : أى مهملون فيها مضيعون .

فاللهم عاملنا بما أنت أهله ولا تعاملنا بما نحن أهله فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة .

---

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٢) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الروم.

(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة هود .

(٤) الآية ٥٠ من سورة فصلت .

نعم الله لا تحصى

تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ
مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ
تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ
إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ
لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

المفـــردات : ﴿ **الأنعام** ﴾ : الإبل والبقر بنوعيه والضأن والمعز ، ﴿ **لعبرة** ﴾ : العبرة تمثيل الشيء بالشيء ليعرف حقيقته بطريق المشاكلة ، ﴿ **فرث** ﴾ : الفرث ماينزل إلى كرش الحيوان فأما الخارج منه فلا يسمى فرثا، ﴿ **رزقا حسنا** ﴾ : جميع ما يأكلون من هاتين الشجرتين ، ﴿ **وأوحى** ﴾ : الوحي قد يستعمل بمعنى الإلهام وهو مايخلق فى القلب ابتداء من غير سبب كالغرائز والطبائع فى الحيوانات ، ﴿ **مما يعرشون** ﴾ : من الذى يعرشه ابن آدم ويعمله بيده كالخلايا من الطين والغاب والخلايا الحديثة من الخشب والزجاج .

المناسبــــة

لما حكى سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم ، بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهاراً لفضله ورحمته ، ولو أخذهم بما كسبت أيديهم ماترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فبظلمه ، وأما غيره فبشؤمه ، كما قال سبحانه ﴿ واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[1] .

لكنه سبحانه يحلم ويستر وينذر إلى أجل مسمى ثم سلى رسوله ﷺ على ما كان يناله من أذى

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال .

عشيرته بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فلك بهم أسوة فلا يحزنك تكذيبهم ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة .

وبعد أن وعد المؤمنين بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأوعد الكافرين بنار تلظى جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الاشراك بربهم ، ونسبة البنات ، إليه وافترائهم عليه ما لم ينزل به سلطانا ، عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قبل أنه قطب الرحى فى الدين الإسلامى وكل دين سماوى ويليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها ، وثنّى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثلّث باتخاذ الخمر والخل والدِّبْس من الأعناب والنخيل ، وربّع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس .

وقد بين أثناء ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فج .

قوله تعالى : ﴿ **تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم** ﴾ .

هذا قسم من الله تعالى، والتاء هنا لاتدخل إلا على لفظ الجلالة ، والله تعالى هو المقسم بذاته ، والمقسم عليه ﴿ **لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك** ﴾ .

ولله تعالى أن يقسم بما شاء ومَن شاء من خلقه ، فهو خالق الإنسان ومبتدع الألوان ومكور الليل على النهار والنهار على الليل ، يقسم أحياناً بالأجرام الفوقية كالشمس والقمر ، ويقسم بالنجم إذا هوى ، كما يقسم بالأرض والليل والتين والزيتون وطور سنين ، أما غير الله من المكلفين فلا يجوز لهم أن يقسموا إلا بالله سبحانه ، وعليهم أن يكونوا صادقين فى أيمانهم ، وألا يجعلوا الله عرضة لأيمانهم فيقسمون إذا اضطروا .

وفى هذه الآية الكريمة ما يفيد تسلية الرسول عما وقع من قومه له : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾(١) .

وقال جل شأنه ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾(٢) .

يا محمد لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك أنبياء ومرسلين مبشرين ومنذرين ، وكذبوا وأوذوا فلا تبتئس بما يفعل هؤلاء ﴿ ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ﴾(٣) ، ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾(٤) ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن

---

(١) الآية ٤٣ من سورة فصلت .
(٢) الآيات ٥٢ — ٥٥ من سورة الذاريات .
(٣) الآية ١٢٧ من سورة النحل .
(٤) الآية ٨ من سورة فاطر .

استطعت أن تبتغى نفقاً فى الارض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾[١] .

واعلم أن هؤلاء الضالين المكذبين من الأمم قد زين لهم الشيطان أعمالهم ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾[٢] هذه قمة الضلال أن يرى الانسان حسنا ماليس بالحسن ، قال تعالى : ﴿ وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾[٣] .

فالشيطان وليهم اليوم وساء ولياً ﴿ ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾[٤] ، ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٥] .

﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ : أى مؤلم ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ : لو أن هؤلاء الغافلين أزالوا الغشاوة عن عيونهم ، والأكنة عن قلوبهم ، والوقر من أذانهم ، لا نتفعوا بهذا الكتاب ، ولعلموا أنه الفصل ليس بالهزل ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم ، فيه تفصيل كل شىء ، فهو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا يشبع منه العلماء ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٧] .

لقد كانت الجن أحسن حالا من كثير منا ، إنهم عندما سمعوا القرآن فقالوا ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[٨] ، ﴿ فمالهم لا يؤمنون * وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾[٩] .

والقرآن تنزيل من الرحمن الرحيم ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيراً ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم **كافرون** * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾[١٠] .

---

(١) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٨ من سورة فاطر .
(٣) الآية ٢٤ من سورة النمل .
(٤) الآية ٣٨ من سورة النساء
(٥) الآية ٢٥ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٥٦ من سورة النساء .
(٧) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .
(٨) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الجن .
(٩) لآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الانشقاق .
(١٠) لآيات ٣ - ٨ من سورة فصلت .

يا أمة القرآن : اقرأوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، قفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، إن من قرأ القرآن بلسانه ، وبين اللسان والقلب حجاب ، أو سمعه بأذنيه وبين السمع والفؤاد سور له باب ، فهو كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه .

ورضى الله عن قوم نظر الله إليهم فى جوف الليل وأصلابهم منحنية على أجزاء القرآن ، إذا مر أحدهم **بآية فيها ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، فإذا مر بآية تنذر** من عذاب النار زفر زفرة كأن جهنم بين أذنيه ، كانوا شبابا مكتهلين فى شبابهم غضيضة عن الشر أعينهم ، قصيرة عن الباطل أرجلهم .

إن فى القرآن بياناً لكل مااختلف فيه ، وتفصيلاً لكل ماأجمل ، وتوضيحاً لكل ماأبهم ، فيه هدى للقلوب ورحمة للنفوس لقوم يؤمنون ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ .

إن القرآن نزل على القلوب فشفاها من العلل والأمراض ، كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى ، وكما ينزل الغيث على الأرض الموات فيحولها إلى جنات باسمات فينبت فيها بإذن ربها من كل زوج بهيج : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

ومن ثم فقد جاء قوله تعالى : **﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾** : بعد ذكر الكتاب ففى القرآن إحياء للقلوب ، وفى الماء إحياء للأرض الموات .

﴿ لقوم يسمعون ﴾ : سماع استجابة ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ﴾ ﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون ﴾[(١)] .

وقال جل شأنه حكاية عن أهل النار : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا فى أصحاب السعير ﴾[(٢)] .

فالقرآن فيه حياة والماء فيه حياة ولكن ﴿ لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[(٣)] .

قال تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعمياناً ﴾[(٤)] .

وبعد أن بين الكتاب العزيز المقارنة بين المنكرين والمتقين ، نواصل النظرات فى « سورةالنحل» لنسجل الأدلة الباهرة والبراهين الباصرة على وحدانية الله تعالى ، حيث ينتقل بنا النظم الكريم إلى مصانع الألبان الالهية قال تعالى : **﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾** .

والمراد بالأنعام هنا ، الابل ، والبقر ، والغنم .

وقوله : **﴿ من بين فرث ودم لبنا خالصا ﴾** : أى يتخلص اللبن : بياضه وطعمه ، وحلاوته ، من بين فرث ودم فى باطن الحيوان ، فيسرى كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدته ، فيصرف منه دم

(١) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٠ من سورة الملك .
(٣) الآية ٣٧ من سورة ق .
(٤) الآية ٧٣ من سورة الفرقان .

يجرى فى العروق ، ولبن يجرى فى الضروع ، وبول فى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه : لا فى لونه ، ولا طعمه ، ولا ريحه .

فمن الذى ميز بين هذه الأشياء الأربعة : الدم ، واللبن ، والبول ، والروث وجعل لكل منها سلكاً خاصا : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟

كلا ! ! إنها مصانع الألبان ، من طراز « كن فيكون » : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[١] .

وقوله : ﴿ **لبنا خالصا سائغا للشاربين** ﴾ : أى لا يغص به أحد ، مع اشتماله على عناصر غذائية ، ولذا كان رسول الله ﷺ إذا أكل طعاماً فيقول : (اللهم بارك فيما رزقتنا ، وزدنا خيراً منه)[٢] أما إذا شرب اللبن فكان يقول : (اللهم بارك لنا فيما رزقتنا ، وزدنا منه)[٣] .

من أجل ذلك كانت الهدية التى قدمها الأمين جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء والمعراج : هى اللبن وبعد ماشرب قال له الأمين عليه السلام : لقد اخترت الفطرة : أى الصفاء الذى لا تشوبه كدرة .

قوله تعالى : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقاً حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ .

وتلك نعمة أخرى من نعم الله على عباده أن سخر لهم ما فى الأرض جميعاً ، من هذه الخيرات ثمرات النخيل والأعناب حيث يتخذون منها المواد السكرية ، ويصنعون من تلك الثمرات أنواعاً من الحلوى فيها رزق حسن وشفاء ودواء وغذاء ، إن فى ذلك لآية وعبرة لقوم يعقلون ويتدبرون ، من الذى أجرى هذا السكر السائل فى ثمرات تلك النخيل الباسقات وكروم الأعناب على مختلف أشكالها وألوانها ، الكائنات متعددة وخالقها واحد لأن ما بالطبيعة لا يختلف ولا يتخلف ﴿ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[٤] ، ﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[٥] .

فاسألوا علماء النبات من خالق تلك الثمار ؟ **الصدفة العمياء أم الطبيعة الصماء ! ! كلا بل هو الله** العزيز الحكيم .

وينتقل بنا النظم الكريم من مصانع الألبان والحلوى إلى « مصانع العسل » الذى يخرج من بطون النحل ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما**

---

(١) الآيتان ١٥٨ ، ١٥٩ من سورة يس .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات ٧٨ . والإمام مالك فى صفة النبى : ٣٤ . والامام أحمد فى ١ : ١٥٣ ، ٤ : ٦٣ ، ٥ : ٣٦٧ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأشربة ٢٠ . والامام أحمد فى ٤ : ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٤) الآية ٦٤ من سورة الواقعة . (٥) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .

يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ : وفى هاتين الآيتين الكريمتين مباحث

المبحث الأول
كلام المفسرين عنهما

قال علماء التفسير فى هاتين الآيتين كلاما له وزنه وقيمته العلمية ، قالوا : المراد بالوحى هنا : الالهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ، ومن الشجر ومما يعرشون . ثم إن هذه البيوت محكمة فى غاية الإتقان ، حيث بنيت على نظام المسدسات ، وهى أشكال هندسية بديعة ، بحيث لا يكون فى بنائها خلل .

ثم أذن لها تعالى إذنا قدرياً تسخيريا أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها ، أى سهلة عليها ، حيث شاءت ، من هذا الجو العظيم ، والبرارى الشاسعة ، والأودية ، والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه يمنه ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل . فتبنى الشمع من أجنحتها ، وتخرج العسل من بطونها ، وتبيض الفراخ من أدبارها ، ثم تصبح إلى مراعيها .

وقوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ : ما بين أبيض وأصفر وأحمر ، وغير ذلك من الألوان الحسنة ، على اختلاف مراعيها ومأكلها منها .

وقوله : ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾ : أى فى العسل شفاء للناس : أى من داءات يتعرضون لها .

قال بعض من تكلم عن الطب النبوى : لو قال فيه الشفاء للناس : لكان دواء لكل داء ، ولكنه قال : فيه شفاء للناس ، أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، لأنه حار ، والشيء يداوى بضده .

وقد ثبت فى الصحيح أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال : (إن أخى استطلق بطنه ، فقال « اسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا ، قال : « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا فما زاده إلا استطلاقاً ، قال « اذهب فاسقه عسلا » فذهب فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال : يا رسول الله ما زاده إلا استطلاقاً ، فقال رسول الله ﷺ « صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا ! » فذهب فسقاه عسلا ، فبرىء)[1] .

قال بعض العلماء فى الطب تعليقاً على هذا الحديث الشريف : كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا – وهو حار – تحللت ، فأسرعت فى الاندفاع ، فزاده إسهالا ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره ، وهو مصلحة لأخيه ، ثم سقاه ، فازداد التحلل والدفع ، ثم سقاه ، فكذلك . فلما اندفعت

(١) أخرجه البخارى فى الطب : ٢٤ . ومسلم فى السلام : ٩١ . والترمذى فى الطب : ٣١ . والامام أحمد فى ٣ : ١٩ .

الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الأسقام والآلام ، ببركة إشارته ﷺ .

وقد روى البخارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : (كان يعجبه الحلواء والعسل)[١] . وفى هذا إشارة إلى ما فى العسل من القيمة الغذائية الكاملة ، كما ورد عنه ﷺ فيما رواه الامام ابن ماجة فى سننه عن عبد الله بن سعود رضى الله عنه قال : « عليكم بالشفاءين العسل والقرآن »[٢] .

وآية الشفاء فى العسل قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ : وآيات الشفاء بالقرآن . قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[٤] وقوله جل شأنه : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾[٥] .

وروى ابن ماجة أيضاً أن النبى ﷺ قال : (من لعق العسل ثلاث غدوات فى كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء)[٦] .

ثم يقول المفسرون فى ختام هذه الآية ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ : أى أن فى إلهام الله لهذه الدواب الضعيفة الخلقة ، إلى السلوك فى هذه الشواهق من الجبال ، والباثقات من الاشجار ، والاجتناء من سائر الثمار ، ثم جمعها للشمع والعسل – وهو من أطيب الاشياء – لآية لقوم يتفكرون فى عظمة خالقها ومقدرها ومسخرها وميسرها ، فيستدلون بذلك على أنه الفاعل القادر ، الحكيم العليم ، الكريم الرحيم .

المبحث الثانى
ذكر الحقائق العلمية فى كيفية بناء النحل لبيوته

إن مملكة النحل عجيبة الصنع ، محكمة الاتقان ، ولقد أراد الله سبحانه وتعالى توجيه نظر العباد إلى بيوت النحل – التى تعتبر أحسن مثل لهندسة المبانى وتعاون أفراد النحل .. فيقول عز من قائل فى سورة النحل : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ : وقد أثبت التاريخ أن النحل اتخذ بيوته من الجبال أولا ، ثم فى الأشجار ثانيا ، ثم فى الأعراش والخلايا بعد ذلك .

---

(١) خرجه البخارى فى الطلاق : ٨ ، وفى الأطعمة : ٣٢ ، وفى الاشربة : ١٠ ، ١٥ ، وفى الطب : ٤ ، وفى الحيل : ١٢ . واخرجه مسلم فى الرضاع : ٨٨ ، وفى الطلاق : ٢٣ . والترمذى فى الاطعمة : ٢٩ . وابوداود فى الاشربة : ١١ . وابن ماجة فى الاطعمة : ٣٤ . والامام أحمد فى ٦ : ٥٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ .

(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس .

(٤) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

(٦) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ .

ويقول العالم (موريس مترلنك) فى كتابه (حياة النحلة) : إنه سواء أذهب النحل إلى حيث شاء أم وضعه النحال فى مكان جديد ، فإن العدد الأكبر منه يؤلف من نفسه - وهو متلاحق متماسك - ستاراً مثلثا كثيفاً أشبه بمخروط مقلوب رأسه ، ويظل مدة من الزمن تتراوح بين ١٨ ، ٢٤ ساعة على هذا الحال ، تظهر بعدها طبقات بيضاء شفافة تحت معدة كل نحلة ، وتكون جماهير غيرها قد تولت كنس الارض وإزالة القش وكافة المواد الغريبة ثم مسحها وسد الشقوق .

وفجأة نرى نحلة من المخروط المقلوب وقد انفصلت عن البقية وصعدت إلى أعلى موضع من البيت تنزع بفمها إحدى طبقات الشمع المتدلية من بطنها وبأرجلها تدحوها وتنشرها وتلصقها بأعلى نقطة فى البيت ، وبهذا تضع حجر الزاوية فى مدينة النحل ، ثم تغادر المكان حيث تحل غيرها مكانها لتضيف إلى حجر الزاوية قطعاً من الشمع ، ومتى بلغت سمك هذه القطع الشمعية حد الكفاية ، خرجت نحلة من الجماعة تختلف عنها شكلا وتدل هيئتها على أنها مهندس قدير ، وهى لاتنتج شمعاً فتأخذ فى الطيران والوقوف ، ثم الطيران والوقوف ، فتحدد فى ذلك مواقع الغرف التى يقوم ببنائها العمال .

وينشىء النحل أربعة أنواع من الغرف : هى الغرفة الملكية ، وغرف الذكور ومخازن الطعام ، والغرف الصغيرة التى هى مهد للعمال والمخازن العادية - وهى تشغل أربعة أخماس الخلية - وغرف الانتقال للوصول بين الغرف وبعضها ، وكل غرفة عبارة عن أنبوبة مسدسة الأضلاع على قاعدة هرمية .

ويقول الدكتور (ريد) إنه لايوجد سوى ثلاثة أشكال ممكنة للغرف تجعلها كلها متساوية ومتشاكله ، دون أن تكون هناك مسافات بينها لافائدة منها ، وهذه الأشكال هى : المثلث المتساوى الأضلاع ، والمربع ، والمسدس المنتظم . والمسدس أصلحها ، وهو مايعمله النحل . وقد عين « ماك لورين » الزاوية التى تلتقى عندها السطوح للحصول على أعظم اقتصاد ، فوجد أنها هى نفس الزاوية التى يلتقى عندها فعلا سطح أرض غرفة النحل .

ويقول « مترلنك » ونحن إذ نتأمل أسرار الخلية ، لا يسعنا إلا أن نطل ، على ذكر آية من آياتها هى الحجرة المسدسة ، التى تكاد تبلغ درجة الكمال المطلق ، فلا تستطيع أن تزيد عليه كل عبقريات البشر مجتمعة آية تحسينات : (ولو أن أحداً من عالم آخر هبط إلى الأرض وسأل عن أكمل ماأبدعه منطق الحياة لما وسعنا إلا أن نعرض عليه مشط الشمع المتواضع) ! ! !

خبرنى بربك فى أى الجامعات تخرجت هذه المخلوقات العجيبة ؟ وفى أى أقسام المعمار تخرج عباقرة المهندسين فى النحل ؟ وعلى أى الأساتذة درسوا علم التفاضل والتكامل ، ليخرجوا لنا أعظم إنتاج بأقل تكاليف لازمة ؟ ومن الذى ألهمهم الغزيرة أن يشيدوا تلك البيوت العجيبة : أهى الطبيعة الصماء ، أم الصدفة العمياء ؟ والله ماهذا ولا ذاك ، وإنما هو الله العزيز الحكيم ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون** ﴾ : ويقولون :

أيـن الله ، أيـن عجائبــه ؟ وذا الكون يسفر ناطق وهو كاتبه !
يشكون ، والايمـان مـلء قلوبهم ويبدون ما كل العقول تكذبه !
عجائب ربـى فى الأنام كثيرة ولكن جهل المرء - لاشك - غالبه !

إن بيوت النحل إنما هى مصانع من طراز « كن فيكون » أبدعتها يد القدرة ، لتكون آية لقوم يتفكرون .

المبحث الثالث
ما يقرره الطب الحديث فى الشفاء بـعسل النحل

يقول عز من قائل : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ :

اعلم يا أخا الإسلام أن هذا المشهد القرآنى الذى نحن بصدده - من أول قوله تعالى : ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة** ﴾ : إلى قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه** ﴾ : وقد اشتمل على ثلاثة أنواع من الأغذية :

أولها : غذاء حيوانى ، وهو اللبن .

ثانيها : غذاء نباتى ، وهو المتمثل فى قوله تعالى : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ .

وليس المراد « بالسَّكر » هنا المادة المحرمة ، كما ذهب البعض إلى ذلك ، لأن هناك فرقا بين السُّكر (بضم السين وسكون الكاف) وبين « السَّكر » فى الآية الكريمة ولكن النظرة الثاقبة تفيد أنها آية امتنان وتفضل من الله ، لادخل لها بالسُّكر الذى يذهب بالعقول ، وبدليل أن الله جل شأنه عطف عليها بقوله ﴿ **ورزقا حسنا** ﴾ : وبدليل أن ختام الآية جاء بـ : ﴿ **إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ .

فكيف يكون فى السُّكر آية للعقلاء ؟

وبدليل أن الآية توسطت آيتين اشتملتا على أعظم النعم ، هما : اللبن ، والعسل ، فلو لم تشتمل على نعمة مماثلة لهما فى الغذاء الحلال : ماتوسطت هذا العقد الفريد .

وأخيراً : فهناك فرق بعيد بين السكر والسَّكر ، فلا داعى لأن نقول إن الآية قد نسخت وأن المراد « بالسَّكر » هو « السُّكْر » إذ أن الفرق بينهما بعيد ، حيث إن المراد بالسكر (بفتح السين والكاف) هو المادة السكرية العظيمة فى ثمرات النخيل والأعناب .

ثالثها : أنواع من الأغذية ، غذاء حشرى ، وهو عسل النحل ، فماذا يقول الطب فى هذا الأخير ؟

إن عسل النحل فوق كونه غذاء ، فإنه أيضاً فيه شفاء .

وفى قوله تعالى : ﴿ **مختلف ألوانه** ﴾ : فإن هناك عسلا أصفر ، وآخر أحمر ، وثالثا غامقاً ، كعسل مدغشقر .

ثم إن العسل يحتوى على :

١ – نوعين من السكر الجلوكوز والليفيلوز .

٢ – أصماغ طبيعية وأصماغ النشا .

٣ – فيتامينات أ ، ب والفيتامين ج موجود ، ومركز بكمية كبيرة .

٤ – بعض المعادن : كالكالسيوم ، والبوتاسيوم ثم حامض النحل .

٥ – بيض النحل ، الذى يكاد لا يرى من صغر حجمه .

عسل النحل وفوائده

١ – المواد السكرية :

العسل كغذاء : أهم ما فى العسل : نوعا السكر المذكوران ، وهذان النوعان لا يحتاجان لهضم ، كسكر القصب ، بل يمران من القناة الهضمية إلى الدم بدون تغير وهذه ميزة كبرى لعسل النحل .

والسكر من ضروريات الحركة : كضربات القلب ، والتنفس ، والحركة العادية ، ويمكن للإنسان أن يقوى بطريقة أسرع لو غذى بهما : سواء بالفم ؛ أو حقناً فى الوريد .. ففى الحميات – مثلا – يصبح غذاء المريض سهل الامتصاص إذا حّلى شراب الليمون بالعسل ، أو اللبن بالعسل ، لأن الجهاز الهضمى يتلبك أثناء الحميات ، فلا داعى لاشغاله بتحليل سكر القصب إلى جلوكوز أو ليفيلوز .

وفى حالات المرض بالبول السكرى ، فإن تحلية السوائل بالعسل أقل ضرراً من تحليتها بسكر القصب أو النشويات ، وذلك لأن الليفولوز لا ينقلب إلى سكر بول .

العسل كملين :

يعطى للأطفال « العسل » كملّين ويدخل فى وصفات الملينات . كالسنا (سلمكه) ، فيمزج مسحوق « السنا » مع العسل فيزيد قوة تليينها ويعمل العسل حقنة شرجية بمقدار فنجان قهوة كبير على كوب ماء دافىء فيأتى يلين أكثر ، وأقل ضرراً ، وهو أحسن من الجلسرين فى هذه الوصفة .

العسل كدواء للأمعاء :

إذا كانت الأمعاء تخمر النشويات وسكر القصب ينتج من التخمير ثانى أكسيد الكربون – أى

غازات بدون رائحة – ويحدث انتفاخاً بالبطن ، فإن العسل أقل ضرراً فى هذه الحالة من سكر القصب ، لأن سرعة امتصاصه تعيق تخميره .

٢ – الأصماغ

الأصماغ والعسل يلينان البلغم – ويسهلان خروجه ، فيفيدان فى امراض الجهاز التنفسى العادية .

٣ – الفيتامين ج

موجود بكثرة فى العسل ، وهو أهم فيتامين يحتاج له الجسم ، فيساعده على الحركة ، ومقاومة الأمراض ، ويقوى أسنانه وعظامه اللينة ، ويظهر لذلك سببان لاستعمال العسل فى الحميات ، وهى : إيجاد غذاء لا يحتاج لهضم وفيتامين « ج » لمقاومة المرضى أما الفيتامينات (أ) (ب) فإنها نافعة ، إلا أن كميتها ضئيلة .

٤ ، ٥ – المعادن وبيض النحل

موجود بكمية صغيرة تزيد فى التغذية ، كذا حامض النحل كمقوٍ للعضلات أما بيض النحل ففيه مواد زلالية نافعة ومغذية .

إن العسل مفيد فى كل زمان :

١ – فى تغذية الأطفال والمرضى.

٢ – فى علاج تخمرات الأمعاء من تناول النشويات .

٣ – فى تحلية سوائل مرضى البول السكرى .

٤ – كملّين للأطفال .

٥ – ومسهل بحقنة شرجية .

٦ – ثم مفيد فى حالات السعال مع بلغم بالجهاز التنفسى .

حقائق علميـــة

ولكى نزيد هذا الأمر وضوحاً ، ونفصله تفصيلاً يليق بإعجاز القرآن الذى يثبت نبوة محمد ﷺ : ننقل هذه الحقائق العلمية عن فريق من الأطباء الباحثين الذين قالوا فى قوله تعالى : ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ :

لم يعرف قدر هذه الآية العلمية الطبية – التى تعتبر دليلا ما بعده دليل على معجزة القرآن العلمى – إلا فى السنين الأخيرة من القرن الحالى فإن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب فهو يعطى بالفم . وبالحقن الشرجية ، وتحت الجلد ، وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ، ومغذيا ، وضد التسمم الناشىء عن مواد خارجية ، مثل الزرنيخ ، والزئبق والكلوروفورم ، وكذلك ضد التسمم الناشىء عن أمراض فى أعضاء الجسم مثل التسمم البولى والناتج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء وفى الحميات والحصبة ، والتهاب الرئوى ، والسحائى وفى حالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة عن التهاب الكلى الحاد ، وفى احتقان المخ والأورام المخية .

إذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين – حتى فى حالة التسمم الناشىء من مرض البول السكرى – علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره صدفة ، ولكنه تنزيل من حكيم حميد .

وتفيد الأخبار الطبية أن الباحثة الأمريكية « جوليا تشرش » قد توصلت – بعد تجارب متعددة – إلى أنه توجد مادة مجهولة فى عسل النحل وشمعه ، لها القدرة على شفاء تصلب المفاصل ووجدت أن العسل المستخرج من القرص مباشرة – دون أن يسخن أو يتعرض لأى معاملة صناعية – يقضى على تصلب الرسغين الذى يصيب بنى الانسان .

هذا ، وقد اتجهت الأبحاث العلمية التى تجرى على النحل وعسله إلى دراسة سم النحل : إذ تقوم حاليا بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذى يفرزه عن طريق آلة اللسع – لاستعماله فى معالجة بعض الأمراض المستعصية ، وفى أمريكا وانجلترا حاليا « مناحل » لا غرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية ، وعرق النساء والرمد الحبيبى .

ومازال العلم يحمل إلينا كل يوم فائدة طبية ، إلى جانب الفوائد التى ذكرناها فيما يخرج من بطون النحل .

وقد ذكرت الصحف اللندنية أنه توجد بلندن امرأة نمساوية تدعى مسز « أوين » تداوى المرضى الذين يئس الأطباء من شفائهم ، بِقَرْص النحل ، وقد أثار خبر هذه السيدة اهتماماً كبيراً فى أوساط لندن ، لا سيما وأن نتائج معالجتها قد أدت إلى الشفاء .

ومن الأخبار العلمية التى نشرت فى صحف ٦ مارس ١٩٥٦ أن أحد كبار الجراحين فى مستشفى « نورفولك » الإنجليزى : استخدم عسل النحل لتغطية آثار الجروح الناتجة عن العمليات الجراحية التى يجريها ، وذلك بعد أن ثبت له أنه يساعد على سرعة التئام هذه الجروح وإزالة آثارها ، فلا تترك تشويهات بعد العملية ، كما تبين له من التجارب التى أجراها أن طبيعة العسل وما يحويه من مواد تساعد على نمو الأنسجة البشرية من جديد ، فتلتئم الجروح بطريقة مستوية ، ويقوم الطبيب المذكور برش العسل على موضع الجرح بصورة سائلة أو على هيئة حبيبات .

وقد أعلن البروفوسور « كلود هيليو » من علماء فرنسا أن هناك نوعاً من النحل يسمى « النحل الملكى » له قدرة على إفناء جميع أنواع الجراثيم ، وأنه سيحقق للإنسانية فوائد عظيمة . ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾[١] .

إلهنا ما أعظمك

خبرنى بربك يا أخا الإسلام فى أى الجامعات تخرج محمد بن عبد الله ؟ وعلى الأساتذة تلقى العلوم ؟ من الذى علم محمداً منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ماأذهل العقول وحير الأفكار ؟ إنه الله الذى قال له : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾[٢] .

فبينما العلماء المحدثون يجرون أبحاثهم ، وتتوارد الأنباء عن جهودهم – نرى ونقرأ القرآن الكريم منذ الآماد البعيدة يقول فى إيجاز المعجز ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس** ﴾ : ويقول خاتم الأنبياء صلوات ربى وسلامه عليه : (عليكم بالشفاءين : العسل والقرآن)[٣] .

هل دخل محمد ﷺ المعامل التحليلية واستعمل الأجهزة الدقيقة ؟ هل ذهب إلى أستاذ فى الطب ووظائف الأعضاء وتلقى على يديه العلوم الكونية ؟ إن العالم يشهد أن رسول الله ﷺ لم يذهب إلى جامعة من جامعات العالم ، ولم يتتلمذ على أستاذ من الأساتذة وإنما أوحى الله إليه بكتاب حكيم : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾[٤] . وقال له : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم ﴾[٥] .

المبحث الرابع
الرد على أعداء الإسلام فى آية النحل

يحاول المستشرقين ومن على شاكلتهم من المبشرين والمستغربين أن يثيروا الغبار على كل قضية من قضايا الإسلام بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير وهم فى الحقيقة أقزام يمضغون الهواء ويحاولون أن يفتلوا من الرمال حبالا وأن يطاولوا السماء ويمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

العقاد والرد على المبشرين :

فى كتاب (ما يقال عن الإسلام) للكاتب الكبير المرحوم الأستاذ العقاد وقفت على مقال فى هذا

(١) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١١٣ من سورة النساء .
(٣) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٧ .
(٤) الآية ٤٢ من سورة فصلت .
(٥) الآيات ١ – ٥ من سورة العلق .

الصدد رأيت أن أسجله على هذه الصفحات لما يحويه من فوائد جليلة .

يقول الأستاذ العقاد رحمه الله : إن العقل السليم لا يتقبل الحكم على الشىء بالغباوة والقداسة لعلة واحدة فى وقت واحد فإن تَقَبل العقل ذلك فلابد من سبب يوقعه فى هذه الاضطراب بإختياره وأكثر ما يكون ذلك السبب مرضا من أمراض الجنون أو هوى دفيناً يحمله على المغالطة ويعجزه عن مقاومتها أو خداعاً مقصوداً يعرفه العاقل بينه وبين نفسه ويصطنعه مع غيره لغشه والاحتيال عليه .

ولسنا نخطىء القول فى أن جماعات المبشرين المتخصصين لنقد القرآن وعقائد الإسلام آفة من هذه الآفات فليس فيمن عرفناه منهم واحد يسلم من التخبط فى التفكير كما يتخبط المصابون بالعلل العقلية أو يملكه التعصب الذميم فيقوده إلى المغالطة ويسول له أن يحجب الحقيقة عن عينيه بيديه أو يعمل عمل المحترف الذى يحتال لصناعته بما وسعه من وسائل الترويج والتضليل ولا يعفيه أن يعرض بضاعة ويهيىء لها أسباب النفاق فى السوق وربما اكتفى من النفاق بإقناع صاحب البضاعة بصدق الخدمة فى العرض والترويج وبعد هذه المقدمة : عرض الأستاذ العقاد قضية من القضايا الباطلة التى أثارها المبشر (صمويل زويمر) فى كتابه (بلاد العرب مهد الإسلام) فى فصل عن (العلوم والفنون العربية) .

قال (صمويل زويمر) فى هذا الفصل إن الشهد لم يزل معدوداً كالترياق فى بلاد العرب استناداً إلى القرآن والحديث وقد كانت الإشارة الوحيدة إلى الطب فى وحى محمد (ﷺ) هذه الكلمة (الغبية) التى يقول فيها عن النحل إنه ﴿ **يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ .

وقد كان هذا هو العلاج الوحيد الذى وصفه الله فى كتابه .

ثم يرد الأستاذ العقاد على هذه الفرية التى افتراها ذلك المبشر فيقول : إن الرجل المعتمد ظاهر فى قوله هذا العلامة (الغبى) إن القرآن حصر الطب كله فى دواء واحد هو (الشهد) فإن المعنى الذى تفيده الآية بغير لبس ولا محاولة .

إن الشهد (شفاء) ولم تقل إنه كل الشفاء ولا إنه شفاء من جميع الأمراض فإن وصف (الشهد) بهذه الصفة لا يزيد على أنه دواء من الأدوية . كما يوصف أى عقار من العقاقير فى الصيدليات ،

ومثل هذا الادعاء (التبشيرى) لا يعتسف اعتسافا بهذه الصورة إلا للافتراء المتعمد طمساً للحقيقة مع سوء النية .

أما حجم العلاقة (بالغباوة) على وصف الشهد بالشفاء فليس له معنى غير الغباوة المطبقة فى القائل إن كان مصدقاً لما قال .. لم لا يكون الشهد دواء من الأدوية وهو خلاصة أعشاب وأزهار .

إن علاج الأمراض بالأعشاب والأزهار قديم جداً فى كل أمة وهو قِوام للعلاج إلى اليوم فى أكثر الأدوية التى يصفها الأطباء المصريون لضروب شتى من الأمراض وتستحضرها معامل الكيمياء فى بلاد الحضارة .

وهذا قبل شيوع الكلام عن (الفيتامينات) وتقرير العلاج بها للأمراض الباطنية وأمراض الأعصاب وعلل الضعف والإعياء على اختلافها فلماذا يمتنع عن العقل كل الامتناع أن يصف دواء (الشهد) بوصف غير الغباوة لماذا يرفض العقل أن تكون خلاصة الزهر ومستودع الفيتامينات والحيوانات دواء ينتفع به الضعيف أو المريض .

إن (الغباوة)هى عجز العقل عن فهم هذه الحقيقة أو عجزه عن فتح الباب لقصورها على كل احتمال .

وإلى هنا قد تكون (الغباوة) مفهومة إذا هى تشابهت فى سوء الفهم ولم تتخصص للشهد دون غيره ولكنها (غباوة) تنزل إلى مادون مستوى الفهم إذا كان صاحبها يرفض (الشهد) علاجاً ثم يتقبل تطهير الأمراض الجلدية بدماء العصافير ويتقبل أن تكون رائحة الشواء سروراً للإله .

ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلا : بعد وفاة (زويمر) ببضع سنوات ظهر باللغة الإنجليزية كتاب عن الطب الطبيعى يقول مؤلفه عن (الشهد) ماكان (زويمر) يدعيه على القرآن الكريم .

ويعقد المؤلف لخصائص (الشهد) الطبية فصلا مستقلا يوشك أن يجعله (صيدلية) وافية تغنى عن عشرات من العقاقير وليس المؤلف واحداً من أولئك المتطببين الجهلاء بل هو الدكتور (جارفس) الطبيب المتخرج فى مدارس الطب الحديث وصاحب المباحث العلمية العديدة وهو لا يعلل فائدة (الشهد) فى العلاج (بالبركة) ولا بالتأثير النفسانى المستمد من العادة ولا بالتغذية الصالحة التى تعمل عمل الدواء وإن لم يحسبها الأطباء من الأدوية العلاجية ولكنه يعلله بأسباب علمية يعتمدهاالأطباء والصيدليون فى تحضير الأدوية وتقسيمها على حسب الجراثيم التى تحدث الأمراض أو تضاعف أضرارها ويقول فى تمهيدات فصل مطول كتبه عن (الشهد) خاصة .

إنه لايتكلم عن نظرية معروضة للامتحان بل يقرر التجربة المحققة التى أثبتت أن (البكتريا) لا تعيش فى (الشهد) لاحتوائه على مادة (البوتاس) وهى تحرم (البكتريا) تلك الرطوبة التى هى مادة

قال : إن الدكتور (ساكيت) أستاذ البكتريابكلية الزراعة فى (فورت كولنز) وضع أنواعاً من جراثيم الأمراض فى قوارير مملوءة بالعسل الصرف فماتت جراثيم (التيفود) بعد ثمان وأربعين ساعة ، وماتت جراثيم (النزلات الصدرية) فى اليوم الرابع ، وماتت الجراثيم الدوسنتاريا بعد عشر ساعات ، وماتت جراثيم أخرى بعد خمس ساعات .

ثم استطرد المؤلف إلى بيان المواد الغذائية الموفورة فى (الشهد) فذكر منها الأغذية المعدنية وعد أكثر من عشرة معادن غذائية تدخل فى تركيبه .

ونقل تقرير الأستاذ (شويت) العالم الكيماوى الذى يقول فيه : إن الأغذية المعدنية تختلف

باختلاف ألوان (الشهد) : فالنحاس والحديد والمنجنيز أوفر فى (الشهد) الضارب إلى السواد والحديد ضرورى لاتصاله بالمعادن الملونة للدم أو للهيموجلوبين .

ويلى ذلك كلام عن المعادن الغذائية وعلاقتها بألوان هذا الشراب كما جاء فى القرآن الكريم وهو يشير إلى اختلاف ألوانه وما احتوته عن أسباب الشفاء ثم أجمل الطبيب مزايا المادة السكرية فى (الشهد) فعدد منها :

١ – إنها لا تهيج جدران القنوات الهضمية .

٢ – إنها سريعة التمثيل فى البيئة .

٣ – إنها تتحول سريعاً إلى طاقة بدنية .

٤ – إنها مناسبة للمشتغلين بالألعاب الرياضية لتعويض الطاقة .

٥ – إنها بين أنواع السكريات أوفقها للكليتين .

٦ – إنها مهدئة ملطفة .

٧ – إنها مساعدة طبيعية لعملية الهضم فضلا عن سهولة الحصول عليها .

ومضى الطبيب فى بيان خصائص (الشهد) النافعة للعلاج وغذاء الكبار والصغار ولم يذكر فى سائر الفصول دواء (طبياً) آخر له مثل هذه الخصائص أو لخصائصه مثل هذا الثبوت بالتجارب الواقعة وتجارب المعامل .

تصفحت هذا الكتاب عن الطب الطبيعى فذكر كلمة (زويمر) عن الآية القرآنية ووجدتها مثالاً أصلح من كل مثال لإبراز (عقلية المبشر) بما طوته من عيوب الزيغ والتعصب والمغالطة مع عيوب الغباوة والعمى فى كثير من الأحيان ولاح لى أن نصيب (زويمر) من هذه العدة المعكوسة على قدر مكانته فى ميدان التبشير إلا أنها عدة لا ترشحه لرد المسلمين عما اعتقدوه بل لعله لا يتطلب لرسالته عدة أو فى منها لو أنه أراد تثبيت المسلمين على عقائد الاسلام (انتهى كلامه) .

ولا يسعنا بعد الكلام عن هذه المشاهد القرآنية الكريمة إلا أن نجمع هذه الآيات التى سبق الكلام عنها الآن لتكون صورة متكاملة أمام القارىء قال جل شأنه ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين * ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون * وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ .

صدقت يا إله العالمين

لقد أفضنا فى الحديث عن هذه الآيات لما اشتملت عليه من أدلة قطعية تخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد وتقطع الطريق على كل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين .

فليسأل الإنسان نفسه : أهناك نظام يقوم بلا منظم أو تدبير ينشأ عن غير عناية ؟ وهل تستطيع الطبعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد نظاماً أو تشيد كوناً متكاملاً منسقاً كل ما فيه ينطق بالحكمة وينفى العبث . سبحانك ربى أنت خالق كل شىء وأنت على كل شىء قدير .

يا من لا تُدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ولا يؤثر فيه الليل والنهار وهو الواحد القهار .

من آيات الله البينات ونعمه

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى
رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم
مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ
أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

المفــــردات : ﴿ **أرزل العمر** ﴾ : أردؤه وأخسه ، ﴿ **والحفدة** ﴾ : أولاد الأولاد على ما روى عن الحسن والأزهرى وواحدهم حافد ، ﴿ **ككتبة وكاتب** ﴾ : من الحفد وهو الخفة فى الخدمة والعمل يقال منه حفد يحفدوحفودا وحفد إذا أسرع كما جاء فى القنوت (وإليك نسعى ونحفد) ﴿ **والطيبات** ﴾ : اللذائذ والمراد بالباطل عبادة الأصنام .

المناسبــــة

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان وما فيها من نعمة للإنسان كالأنعام التى يأخذ من ضرعها اللبن والنحل التى يشتار منها العسل ، ويؤخذ منها الشمع للإضاءة ، أردف ذلك ببيان أحوال الناس فذكر مراتب أعمارهم ، وأن منهم من يموت وهو صغير ومنهم من يعمر حتى يصل إلى أرذل العمر ويصير نسّاءً لا يحفظ شيئاً ، وفى ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته ثم ثنى بذكر أعمال أخرى لهم وهى تفضيل بعضهم على بعض فى الرزق .

فقد يُرى أكيس الناس وأكثرهم عقلاً وفهماً يفنى عمره فى طلب القليل من الدنيا وقل أن يتيسر له بينمايُرى أقل الناس علما وفهما تتفتح له أبواب السماء ويأتيه الرزق من كل صوب وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال:﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا﴾.

وقال الشافعى :

ومن الدليل على القضاء كونه ... بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم ثلّث بذكر نعمة ثالثة عليهم إذ جعل لهم أزواجاً من جنسهم وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة ورزقهم المطعومات الطيبة من النبات كالثمار والحبوب والأشربة أو من الحيوان على اختلاف أنواعها .

قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير** ﴾ :

فهذا النص الكريم ينبه ويرشد بعد آيات النعم إلى أنه لابد من المصير المحتوم للقاء الله رب العالمين ، لذلك فإننا نرى الكتاب العزيز فى مواضع عديدة يؤكد هذا المعنى .

اسمع هذا المشهد القرآنى الذى يقول الله عز وجل فيه ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾[1] .

وبعد هذا نبه إلى المصير المحتوم الذى لابد من أن نلاقيه جميعاً فقال عز شأنه : ﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ما سعى** ﴾[2] .

ثم انتقل معى إلى مشهد قرآنى آخر يزيد المعنى توكيداً حيث يقول الله جل شأنه : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا * ثم شققنا الأرض شقا* فأنبتنا فيها حبا* وعنبا وقضبا* وزيتوناً ونخلا * وحدائق غلبا * وفاكهة وأبّا متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾[3] .

ثم ينبه بعد ذلك إلى ما سنلاقيه جميعاً فيقول جل شأنه : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة* يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾[4] .

وهذا أيها القارىء الكريم يتجلى أمامك أن الدنيا مهما أقبلت فهى مولية وأن الحياة مهما طالت فإنها منتهية فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير** ﴾ .

فالله تعالى يخبر فى هذه الآية الكريمة عن تصرفه فى عباده ، وأنه هو الذى أنشأهم من العدم ، ثم

(١) الآيات ٢٧ – ٣٣ من سورة النازعات .
(٢) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة النازعات .
(٣) الآيات ٢٤ – ٣٢ من سورة عبس .
(٤) الآيات ٣٣ – ٣٧ من سورة عبس .

بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يعيش حتى يدركه الهرم وهو الضعف فى الخلق ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[١] .

وقد روى عن الإمام على كرم الله وجهه : إن أرذل العمر خمس وسبعون سنة.وفى هذه السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم .

ولهذا قال : ﴿ **لكى لا يعلم بعد علم شيئاً** ﴾ : أى بعد ما كان عالماً أصبح لا يدرى شيئاً .

روى البخارى فى تفسير هذه الآية الكريمة عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو فيقول : « أعوذ بك من البخل والكسل والهرم وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات »[٢] .

بعد ما قامت الأدلة الكونية تؤكد وحدانية الخالق ، جاءت الآية السابقة : ﴿ **والله خلقكم ثم يتوفاكم** ﴾ : لتبين أن المصير فى النهاية إلى الله الخالق العظيم .

ثم عاد النظم الكريم يحدثنا عن القضية الأصلية الأساسية التى تدور حولها الأدلة ، وهى قضية التوحيد ، فجاء القرآن بدليل يخاطب العقل خطابا منطقياً سديداً يخاطب الذين زعموا أن لله شركاء تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً فقال جل شأنه : ﴿ **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فضلوا برادّى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ .

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذه الآية عن جهل الضالين المضلين المشركين المارقين ، ويبين لهم بشاعة كفرهم فيما زعموه له من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له كما كانوا يقولون فى تلبيتهم فى حجهم: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . فقال تعالى منكراً عليهم أنتم لا ترضون أن تتساووا مع عبيدكم فيما رزقناكم . وكلمة (الرزق) هنا كلمة شاملة عامة تشمل كل ما يجود الله به على الانسان وما يهبه إياه من مطعم ومشرب وزوجة ومال ومسكن ، فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له فى الألوهية والتعظيم .

كما قال فى الآية الأخرى التى تطابق هذا المعنى فى إيضاح قضية الوحدانية توضيحاً لا لبس فيه ولا غموض وهذه الآية فى سورة (الروم) حيث يقول جل شأنه : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾[٣] .

(١) الآية ٥٤ من سورة الروم .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٥ ، ٣٧ ، ٤٠ – ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٧ . ومسلم فى الذكر : ٥١ ، ٥٢ ، ٧٣ . وابو داود فى الوتر : ٣٢ . والترمذى فى الدعوات : ٧٠ ، ١٠٩ ، ١١٣ . والنسائى فى الاستعاذة : ٣ ، ٥ – ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٥ ، ٤٥ . والامام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ٥٤ ، ٥٤ ، فى ٣ : ١١٣ ، ١٥٩ ، ٢٣٥ ، وفى ٤ : ٣٧١ .

(٣) الآية ٢٨ من سورة الروم

وقد بلغ من روعة القرآن وعلو طبقته أن آية (الروم) هذه جاءت عقب عقد فريد انتظم عديداً من الأدلة على الوحدانية ، مثله فى ذلك كمثل آية النحل التى نحن بصدد الحديث عنها .

لقد سبق آية (الروم) السالفة الذكر قوله تعالى : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين * ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون * ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون *ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من فى السموات والأرض كل له قانتون * وهو الذى يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[1] .

ثم بعد بيان هذه الأدلة المضيئة بنور الوحدانية ، تأتى الآية الكريمة لتخاطب كل من له عقل وإدراك ، فتقول : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء فى ما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ .

إذا كنت أيها العبد المخلوق لا ترضى لعبد تملكه يمينك أن يتساوى معك فى رزقك ، فكيف ترضى ذلك للخالق البارىء المصور ؟ وكيف تدعى زوراً وبهتاناً أن معه من عباده من يساويه فى الألوهية والعظمة ؟

سبحانك ربى يا من تقول فى الحديث الجليل : [الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فيهما أدخلته نارى][2] .

نعم يارب العزة ﴿ **فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء** ﴾

يقول ابن عباس رضى الله عنه فى هذه الآية الكريمة : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم فى أموالهم فكيف يشركون عبيدى معى فى سلطانى ؟ فذلك قوله تعالى : ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ .

ويقول ابن عباس ايضاً : فكيف ترضون لى ما لا ترضونه لأنفسكم ؟

وقوله تعالى : ﴿ **أفبنعمة الله يجحدون** ﴾ : أى أنهم جحدوا نعمة الله فأشركوا معه غيره ، وكان الأجدر بهم أن يشكروا هذه النعمة بعقيدة التوحيد .

ويواصل النظم الكريم سيره المبارك فيذكر لنا نعمة هى من جليل النعم التى امتنَّ الله بها على عباده ، فيقول جل شأنه : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين**

(١) الآيات ١٩ – ٢٧ من سورة الروم .

(٢) أخرجه ابوداود فى اللباس : ٢٥ . ومسلم فى البر : ١٣٦ . وابن ماجه فى الزهد : ١٦ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢ . وفى ٦ : ١٩ .

وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ :

أى منطق وأى عقل سليم يمعن النظر فى هذه الآية ثم لا يلقى باللوم الشديد على كل من يؤمن بالباطل ، ويكفر بنعمة الله ؟

فالله جل شأنه يخبر فى هذه الآية الكريمة أن من نعمه على عباده أن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وأشكالهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته تعالى أنه خلق من بنى آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر جَلّ جلاله أنه جعل من الأزواج : البنين والحفدة وهم أولاد البنين .

قاله ابن عباس وعكرمة والحسن والضحاك وابن زيد .

قال شعبة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ **وبنين وحفدة** ﴾ : وهم الولد وولد الولد .

وفى قوله تعالى ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ : إيجاز بليغ ، وكلمة جامعة ، فالطيبات : كل ما تطيب به النفس من النعم فهذه الكلمة الكريمة شاملة للمواهب الإلهية التى ينعم بها الانسان وواجبه شكر المنعم عليها .

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم
وحافظ عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم

يا ابن آدم :

يا من بدنياه اشتغل ... وغره طول الأمل
الموت يأتى بغتة ... والقبر صندوق العمل

وبعد هذه النعم كلها يأتى الاستفهام الإنكارى ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ .

من أدلة التوحيد

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾
فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ
يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ
لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

المفـــردات : رزق السماء : المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التى تخرج منها .

﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾ : أى لاتجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً ﴾[1] .

﴿ **وضرب المثل للشيء** ﴾ : ذكر الشبيه له ليوضح حاله المبهمة ويزيل ماعرض من الشك فى أمره .

﴿ **والبكم** ﴾ : الخرس وهو إما ناشيء من صمم خلقى وإما لسبب عارض ولا علة فى أذنيه فهو يسمع ولكن لسانه معتقل لا ينطق الكلام فكل من ولد غير سميع فهو أبكم لأن الكلام بعد السماع ولا سماع له وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعياً فإن بعض البُكم لا يكونون صُمًّا .

﴿ **والكل** ﴾ : الغليظ الثقيل من قوله كلت السكين إذا غلظت شفرتها فلم تقطع . وكَلَّ عن الأمر : ثقل عليه فلم يستطيع عمله يوجهه : أى يرسله فى وجه معين من الطريق يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه .

﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أى طريق عادل غير جائر .

المناسبـــة

بعد أن بيّن عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافى فيما سلف ، أردف ذلك الرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها :

أولهما : العبد المملوك الذى لايقدر على شيء والحر الكريم الغنى الكثير الإنفاق سراً وجهراً . ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان فى نظر العقل سواء مع تساويهما فى الخلق والصورة البشرية .

وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغى أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على النفع والضر .

والثانى : مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لايقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده وثانيهما حُوِّل قلب ناطق كامل القدرة أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما فى البشرية ؟

وإذا فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين فى الألوهية والعبادة ؟

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد بن أبى العاص : كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة ، وكان المولى ينهاه عن الصدقة والمعروف .

قوله تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ولا يستطيعون** ﴾ :

---

(١) الآية ٢٢ من سورة البقرة .

وهذا منتهى السفه والطيش والحمق أن يعبدوا مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً ، ويتركوا عبادة من بيده الملك وإليه يرجع الأمر كله ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير * يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون** ﴾ : هو كقوله تعالى : ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾(٢) .

فقد ثبت أن الله واحد أحد ، فلا يليق بعاقل أن يضرب له الأمثال ، ويجعل له الأشباه والأنداد ، لأن ماسوى الله تعالى إنما هو مخلوق له ، فكيف يكون المخلوق شبيهاً بالخالق ؟ !

والضلال كله أن يحب الناس خمساً وينسون خمساً : يحبون المخلوق وينسون الخالق ، ويحبون المال وينسون الحساب ، ويحبون القصور وينسون القبور ، ويحبون الدنيا وينسون الآخرة ، ويحبون الذنوب وينسون التوبة .

ابن آدم :

أنت الذى ولدتك أمك باكياً والناس حولك يضحكون سروراً
فاعمد إلى عمل تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً

﴿ **إن الله يعلمُ وأنتم لاتعلمون** ﴾ :

ولما كانت قضية الألوهية من أعظم القضايا بل هى أعظمها جميعاً فإن القرآن الكريم أورد حشداً كبيراً من الأدلة وأراد أن يزيدها إيضاحاً وتقريراً فضرب مثلين ، إذ بالمثال يتضح المقال قال جل شأنه :

﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لايقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستوون الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون * وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأتِ بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ .

ومعنى المثل الأول : أنه تعالى ضرب مثلاً لكل مايعبد من دون الله فى أى زمان أو مكان ، والله تعالى هو الواحد الخالق البارىء ، فاطر السموات والأرض واهب الوجود ، والمنعم بكل شيء موجود : ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لمالكه وهو لا يقدر على شيء أبداً فلا ينفع نفسه ولا غيره ، وحراً رزقناه منا رزقاً حسناً وأعطيناه مالاً وفيراً فهو ينفق من المال سراً وجهراً فى جهات الخير والبر : هل يستوى هذا وذاك ؟ أبداً ، ومن ذا الذى يسوى بين غير الله من المخلوقات وبين الله القدير جل جلاله وتبارکت

(١) الآيات ١٣ - ١٧ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٢٢ من سورة البقرة

أسماؤه ، صاحب النعم وله ملك السماوات والأرض ، يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

الحمد لله والثناء الجميل والشكر الجزيل لله الواحد القهار المنعم بجلائل النعم والمتفضل بدقائقها لامانع لما أعطى ولا معطى لما منع هو المستحق وحده الحمد والثناء لا إله إلا هو .

﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ : أى لا يعلمون الحق فيتبعونه ويعرفون المنعم عليهم بالنعم الجليلة فيخصونه وحده بالتقديس والتنزيه .

ومعنى المثل الثانى : ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً ثانياً لنفسه ولما يفيض على عباده من النعم الدينية والدنيوية وللمعبودات التى لم تسبق لها الحياة وهى لا تضر ولا تنفع فقال :

﴿ **وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم** ﴾ : أى عىٌّ مفحم مقطوع اللسان أخرس لا يقدر على شيء أبداً ، لعدم فهمه وعدم قدرته على النطق ، ﴿ **كَلٌّ على مولاه** ﴾ : أى يقوم بحاجته ولا يؤدى عمله لنفسه فهو ثقل على قرابته هذا الأبكم الذى لا يقدر على تحصيل شيء أبداً ، وهو كلّ على مولاه أينما يوجهه إلى أى جهة أخرى لا يأتى بخير قط لأنه لا يفهم ولا يعقل ما يقال له .

هل يستوى هذا الذى وصفناه بهذه الأوصاف والذى يأمر بالعدل ويسير بالعدل ويحكم بالعدل ويأمر بالعدل وينطق ويفهم ويتصرف على أتم وجه وأكمله ، وهو على صراط مستقيم ، ودين قويم ، وسيرة صالحة ، لا إفراط فيها ولا تفريط .

والنتيجة : نستطيع أن نستنتج من هذين المثالين السابقين أن غير الله لا يمكن بحال من الأحوال أن يتساوى مع الله ، فالله واجب الوجود لذاته ، وغير الله حادث بعد العدم ، والله واجب له كل كمال يليق بذاته ، وغير الله لا يخلو من نقص ، والله تعالى واجب له القدم فاستحال عليه الحدوث ، ووواجب له البقاء فاستحال عليه الفناء ، ووواجب له القيام بالنفس فاستحال فى حقه الاحتياج إلى غيره ،ووجبت له المخالفة للحوادث فاستحال فى حقه المماثلة لغيره ، ووواجب له الوحدانية فاستحال فى حقه الشرك والتعدد ، ووجبت له القدرة فاستحال عليه العجز ، ووجبت له الإرادة فاستحال فى حقه القهر والجبر ، ووجب له العلم فاستحال فى حقه الجهل ، ووجبت له الحياة فاستحال فى حقه الموت ، ووجب له السمع والبصر فاستحال فى حقه الصمم والعمى ، ووجب له الكلام النفسى فاستحال فى حقه البكم .

وغاية الأمر أن كمالات الله لا تتناهى . لا يحصرها عد ولا يحيط بها حد ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾[1] .

---

(١) سورة الإخلاص .

مع القدرة الباهرة والعلم المحيط

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَٰرَ وَالْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

المفـــردات: ﴿ **الساعة** ﴾ : الوقت الذى تقوم فيه القيامة . سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان فى ساعة ما فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ﴿ **لمح البصر** ﴾ : رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، ﴿ **والأفئدة** ﴾ : واحدها فؤاد : وهى القلوب التى هيأها الله للفهم وإصلاح البدن ، ﴿ **والجو** ﴾ : الهواء بين الأرض والسماء .

المناسبـــة

بعد أن بيّن الله من الأدلة القاطعة ما يدل دلالة جازمة على أنه الواحد ، أردف ذلك بما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له وما يدل على كمال قدرته ، فذكر أن قيام الساعة فى السرعة كلمح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده ، وأنه الفاعل المختار ، فذكر منها خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ثم الطير المسخر بين السماء والأرض وكيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه إلا هو بكامل قدرته .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم من أدلة التوحيد إلى أدلة القدرة الباهرة والعلم المحيط ، فيقول جل شأنه : ﴿ **ولله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير** ﴾ :

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا النص الكريم عن كمال علمه وعظيم قدرته على الأشياء ، فهو تعالى يعلم غيب السماوات والأرض ، وإنه مختص بعلم الغيب ، لا شريك له ، فلا إطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلع الله تعالى من يشاء على ما يشاء .

قال جل شأنه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول ﴾[(١)] .

أما عن القدرة : فأمره تعالى بالكاف والنون : ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له : كن فيكون ﴾[(٢)] ، ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[(٣)] . أى فيكون ما يريده سبحانه كطرف العين .

(١) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الجن .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٣) الآية ٥٠ من سورة القمر .

وهكذا قال هنا : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير** ﴾ .

وكما قال : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ .

عالم الأجنة من أكبر الأدلة على صدق القرآن الكريم ، وقدرة الله الذى أنزل القرآن ، وعلى صدق سيدنا محمد ﷺ الذى بعث بالقرآن ، فإن الأطوار التى يمر الانسان بها فى الرحم عديدة ومختلفة ، يقول سبحانه : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[2] ..

فيم خُلقنا ؟

خُلقنا فى أرحام يخبر عنها مولانا فيقول : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[3] .

فما هو الرحم ؟

يقول عنه علماء الحياة ووظائف الأعضاء : إنه كيس عضلى كمثرى الشكل يقع خلف المثانة أمام المستقيم ، ثم يذكرون أبعاده فيقولون : إن طوله يبلغ حوالى سبعة من السنتيمترات ، وعرضه يبلغ حوالى خمسة من السنتميترات ، وسمكه يبلغ حوالى اثنين من السنتيمترات .

والقرآن الكريم يسمى هذا الرحم قراراً مكيناً : حيث يقول جل شأنه : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه فى قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون ﴾[4] .

هل خلقنا وصورنا فى أضواء أو أشعة ؟ كلا بل إن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾[5] . **فلينظر الإنسان مم خلق ؟**

مم خُلقنا : من كائن منوى مفرطح الرأس طويل الذنب ، لا يزيد طوله عن أربعة وخمسين على ألف من المليمتر ، وتبلغ سرعته فى الطريق إلى الرحم : نصف مليمتر فى الثانية الواحدة ، اتصل هذا الكائن المنوى ببويضة الأم عندما شاء الله أن يخلق الانسان .

فكيف كان حالنا فى عالم الأرحام ؟

كنا نتغذى بغذاء الأم ونتنفس بتنفسها ، وقد أمدنا الله بالأوكسجين اللازم ، وجعل درجة

(١) الآية ٢٨ من سورة لقمان .
(٢) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة المؤمنون .
(٣) الآية ٦ من سورة آل عمران .
(٤) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة المرسلات .
(٥) الآية ٦ من سورة الزمر .

الحرارة فى الرحم ثابتة لا تتغير صيفاً أو شتاءاً ، وكان وزن الانسان عندما بلغ سبعة أشهر وهو فى الأرحام - خمسة أرطال وعندما بلغ تسعة أشهر : كان وزنه سبعة أرطال أو ثمانية ، فكيف اجتاز الطريق من الرحم إلى عالم الدنيا ، وهو طريق ضيق دقيق ؟

ذلك أنه لما أراد الله للإنسان الخروج : أمر الرحم أن تتقلص عضلاته ، حيث أصبح الانسان ضيفاً ثقيلاً عليه ، فتقلصت العضلات فعبر الانسان هذا المضيق الدقيق .

والقرآن يجمع تلك الحقائق فى آيات معجزة فيقول : ﴿ من أى شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره ﴾[١] .

فكيف كان حالنا عند الخروج من بطون أمهاتنا ؟

يقول عز وجل ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ :

وبنظرة فاحصة فى قوله تعالى : ﴿ **لاتعلمون شيئاً** ﴾ : يفيد نفى العلم بالكلية .

إذ يقول علماء اللغة : إن النكرة فى سياق النفى : تفيد العموم ، ثم بعد ذلك زوّدنا الله بالعلم والمعرفة ليكون ذلك دليل إنعامه وتفضله ، ولنقابل هذا بالشكر ، والشكر لله : أن تسخر نعم الله فى طاعته وأن لا تستعملها فى معصيته .

قال موسى عليه السلام لربه : (يارب : كيف أشكرك ! قال له ياموسى : تذكرنى ولا تنسانى : إنك إن ذكرتنى : شكرتنى وإن نسيتنى كفرتنى)[٢] .

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٣] .

وقد مر أحد الناس برجل من الصالحين ابتلاه الله بفقد بصره ، وعجز فى يديه ، وهو يردد بلسانه قائلاً (الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به كثيراً من خلقه) فقال له الرجل : فمن أى شيء عافاك قال له : (وهب لى قلباً ذاكراً ولسانا شاكراً) .

ثم أنشد يقول :

وحمدت الله ربى إذ هدانى ... إلى الإسلام والدين الحنيف
فيذكره لسانى كل وقت ... ويعرفه فؤادى باللطيف

قوله تعالى : ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ :

يقول المفسرون فى هذه الآية الكريمة : ينبه الله سبحانه وتعالى عباده للنظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض ، كيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء مايمسكه فيه إلا الله بقدرته تعالى ، وجعل فيها

(١) الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة عبس .
(٢) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٢٣ .
(٣) الآية ١٥٢ من سورة البقرة .

قوى تفعل ذلك ، وسخر لها الهواء يحملها ويسيرها ، كما قال تعالى فى سورة الملك ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير ﴾[١] .

واعلم ياأخى : أن عالم الطير فيه من حقائق الأسرار ودقائق الأخبار ماينبيء عن عظمة الخالق الكبير ، فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار ، كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته فى هذه الدنيا التى يعيش فيها ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون : أن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع ، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية ، بدلا من الفم والشفتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ .

وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها ، فالطيور الجارحة - كالبوم والحدأة ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف ، وذلك لتمزيق اللحوم .

بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض ، فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة - مثلاً - طويل طولا ملحوظاً ، ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد ، إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب ، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان ، والتى غالباً ماتكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء أى طير من النظرة العابرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب ، فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام ، ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى : من الذى هيأ لعالم الطير هذا النظام ، وأرشده إلى أن يسلك سُبل الحياة ، كما قال سيد المرسلين ﷺ : (لو توكلتم على الله حق توكله : لرزقكم كما يرزق الطير . تغدو خماصاً وتروح بطاناً)[٢] .

هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والإتقان الحكيم : ﴿ قال فمن ربكما ياموسى • قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى • قال فما بال القرون الأولى • قال

---

(١) الآية ١٩ من سورة الملك .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٣٣ . وابن ماجه فى الزهد : ١٤ . والامام أحمد فى ١ : ٣٠ ، ٥٢ .

علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى . الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾[1] .

من النعم الإلهية .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ
ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ
جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ
ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ
ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

المفـــردات : ﴿ **سكناً** ﴾ : أى مسكنا ، ﴿ **والظعن** ﴾ : بالسكون والفتح السير فى البادية لنجعه أو طلب ماء أو مرتع . ﴿ **الأصواف** ﴾ : للضأن ، ﴿ **والأوبار** ﴾ : للابل ، ﴿ **والأشعار** ﴾ : للمعز ، ﴿ **والأثاث** ﴾ : متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ولا واحد له من لفظه ، ﴿ **والمتاع** ﴾ : ما يتمتع وينتفع به فى المتجر والمعاش ، ﴿ **إلى حين** ﴾ : أى إلى انقضاء آجالكم ، ﴿ **والظلال** ﴾ : ما يستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، ﴿ **والأكنان** ﴾ : واحدها كِن وهو الغار ونحوه فى الجبل ، ﴿ **والسرابيل** ﴾ : واحدها سربال : وهو القميص من القطن والكتان والصوف وغيرها وسرابيل الحرب الجواشن والدروع ، ﴿ **والبأس** ﴾ : الشدة ، ويراد به هنا الحرب .

المناسبة

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيده ، قفّى على ذلك بذكر ما أنعم به على عباده ، فجعل لهم بيوتاً يأوون إليها وتكون سكنا لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها فى أسفارهم ، ويجعلونها خياماً فى السفر والحضر ، وجعل لهم فى الجبال الحصون والمعاقل ، وجعل لهم الثياب التى تقيهم الحر ، والدروع والجواشن من الحديد لتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

وقصارى هذا أنه امْتنَّ على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : ﴿ **وجعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ : ثم بما يخص المسافرين منهم مِمَّن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله : ﴿ **وجعل لكم من جلود**

---

(١) الآيات ٤٩ – ٥٤ من سورة طه .

الأنعام بيوتاً ﴾ : ثم بمن لاقدرة لهم على ذلك ولايأويهم إلا الظلال بقوله : ﴿ **جعل لكم مما خلق ظلالاً** ﴾ : ثم بما لابد منه لكل أحد بقوله : ﴿ **وجعل لكم سرابيل** ﴾ : ثم بما لاغنى عنه فى الحروب بقوله : ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ .

وتسير بنا الآيات فى زحفها المبارك ، حيث تذكر لنا نعماً من نوع آخر ، غير الذى قدمته على مائدة الكرم الألهى ، فيقول سبحانه : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم** .. ﴾ :

يخبر مولانا تبارك وتعالى فى هذا المشهد الرائع عن تمام نعمه على عباده ، بما جعل لهم من البيوت ، التى هى سكن لهم ، يأوون إليها ويستترون بها ، وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً يستخفون حملها فى أسفارهم ، ليضربوها لهم فى إقامتهم ، فى السفر والحضر، ولهذا قال : ﴿ **تستخفونها يوم ظعنكم** ﴾ : أى فى أسفاركم ﴿ **ويوم إقامتكم** ﴾ :

﴿ **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين** ﴾ : ومن ﴿ **أصوافها** ﴾ : أى من الغنم ، ﴿ **وأوبارها** ﴾ : أى الابل ، ﴿ **وأشعارها** ﴾ : أى المعز ، والضمير عائد على الأنعام .

﴿ **أثاثا** ﴾ : أى تتخذون منه أثاثا ، بمعنى كل ماينتفع به من أثاث البيت ، وهو أعم من المال والثياب ، إذ أنه قد يكون مصدراً للربح فى التجارة ، وتصنع منه البُسط والسجاد .

وقوله تعالى : ﴿ **ومتاعا إلى حين** ﴾ : أى إلى أجل مسمى ، ووقت معلوم .

وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم مما خلق ظلالا** ﴾ : أى مما خلق من الأنعام والبيوت والجبال والأشجار ظلالاً ، تستظلون بها من وهج الشمس وزمهرير البرد .

﴿ **وجعل لكم من الجبال أكنانا** ﴾ : ومغارات تأوون إليها من العدو ، أو خوف الشمس ، أو زحمة الناس ﴿ **وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر** ﴾ : من القطن والكتان والصوف وغيرها ﴿ **وسرابيل تقيكم بأسكم** ﴾ : كالدروع من الحديد المصفح ، وغير ذلك مما يستعمل فى الحرب .

وقوله تعالى : ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ : أى هكذا جعل لكم ماتستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون لكم عونا على طاعته وعبادته .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه السورة التى نحن بصدد الحديث عنها – وهى سورة النحل – تسمى أيضاً سورة « النعم » وذلك لما اشتملت عليه من الآلاء العظيمة والنعم الكريمة .

قوله تعالى : ﴿ **فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين** ﴾ : هو كقوله جل شأنه ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾[١] ، وقوله تعالى : ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾[٢] ، ﴿ لست عليهم بمصيطر ﴾[٣] ، ﴿ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[٤] .

(١) الآية ٩٩ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٢٠ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٢٢ من سورة الغاشية .
(٤) الآية ٤٥ من سورة ق .

قوله تعالى : ﴿ **يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾ : كقوله جل شأنه : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾[1] .

فاللهم ارزقنا شكر نعمتك ، فإن شكرها واجب ، وتوفيقك لنا لشكر نعمتك نعمة ، يجب أن نشكرها .

لمحـــة قرآنيـــة

إنما أردنا بتلك اللمحة أن نوضح نقطتين هامتين يلاحظهما القارىء لكتاب الله العزيز بعين البصيرة .

فهذه السورة الكريمة اشتملت على مشاهد عديدة من النعم العظمى ، وقد لاحظنا أنها كلما ذكرت جملة من النعم : عقبت عليها بتعقيب يظهر طبائع الإنسان ، الذى لا يقابل هذه النعم بما يليق من شكر الإله الواحد ، وذلك كما جاء فى سورة الرحمن ، عقبت كل نعمة بـ ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

وفى سورة « النحل » جاء عقب المشهد الأول من النعم قوله تعالى : ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها** ﴾ :

ثم نطق القرآن الكريم بقوة وصراحة فقال : ﴿ **فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة** ﴾ ، ثم بعد ذلك عرضت السورة مشهداً آخر من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ **والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون** ﴾ : إلى قوله ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾ .

ثم عقب على هذا المشهد من النعم بما يظهر طبائع الناس من إعراضهم عن الشكر ، فقال سبحانه : ﴿ **أفالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون** ﴾ ؟

ثم استعرضت السورة مشهدا ثالثا من النعم ، وذلك من أول قوله تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً** ﴾ : إلى قوله : ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ .

ثم عقب على هذا المشهد الكريم بما يظهر طبائع الناس من انصرافهم عن شكر المنعم ، فقال سبحانه ﴿ **يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾ :

وقد ذكروا أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فسأله ، فقرأ عليه رسول الله ﷺ ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكناً** ﴾ : فقال الأعرابى : نعم . قال : ﴿ **وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا** ﴾ : الآية ، قال الأعرابى : نعم . ثم قرأ عليه : وكل ذلك يقول الأعرابى : نعم . حتى بلغ : ﴿ **كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون** ﴾ : فولّى الأعرابى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يعرفون نعمت الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾ :

---

(١) الآية ٣٤ من سورة إبراهيم .

تلك ملاحظة أولى :

وقد أظهرت لنا موقف الإنسان من نعم ربه ، وكان ينبغى عليه أن يكون مُقِراً بالفضل، عارفاً بما يكافىء جزيل النعم .

وقد اختتمت هذه السورة بموقفين كريمين ، لنبيين عظيمين ، وقفا موقف الشكر والصبر : نبى الله إبراهيم ، نبى الله محمد ، عليهما الصلاة والسلام .

يقول القرآن فى حق إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾[٢] .

ويقول فى حق خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون** ﴾[١] .

فما أجمل الشكر عند الرخاء ، والصبر عند الضراء .

وكما قال سيد المرسلين محمد ﷺ (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله لهو خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[٣] .

أما الملاحظة الثانية :

فقد سبق أن قررنا أن القرآن الكريم – فى مواضع كثيرة – بعد مايذكر نعم الله فى الدنيا على عباده ، ينبه عقولهم ، ويشد أفئدتهم إلى مابعد الدنيا من البعث والجزاء ، وقد سقنا الشواهد الدالة على ذلك وهذا مشهد آخر من تلك المشاهد .

فالله يقول – بعد ماذكر النعم الجزيلة والآلاء الجليلة – أخذ بأيدينا ليوقفنا فى عرصات القيامة وساحات الحساب ، فقال سبحانه ﴿ **ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون * وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون * وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك ، فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون * الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون** ﴾ .

---

(١) الآيات ١٢٠ – ١٢٢ من سورة النحل . (٢) الآية ١٢٧ من سورة النحل .
(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والامام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ . وفى ٦ : ١٥ .

من مشاهد القيامة

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا
رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ
أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا۟
إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا
كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ
شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ
لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

المفـــردات : ﴿ **الأمة** ﴾ : الجيل من الناس ، ﴿ **وشهيد كل أمة** ﴾ : نبيها ، ﴿ **ثم لا يؤذن للذين كفروا** ﴾ : أى إنهم يستأذنون فلا يؤذن لهم ، ويقال استعتبه وأعتبه : إذا رضى عنه ، قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال وسناكرة الموجدة ، وعاتبه معاتبة وعتابا وأعتبه : سره بعد ماساءه ، ﴿ **ينظرون** ﴾ : أى يمهلون ويؤخرون ، ﴿ **والشركاء** ﴾ : الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة ، ﴿ **وندعو** ﴾ : نعبد ، ﴿ **والسلم** ﴾ : الاستسلام والانقياد ، ﴿ **وضل** ﴾ : ضاع وبطل والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، ﴿ **وتبيانا** ﴾ : أى بيانا لأمور الدين إما نصا فيها أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر .

المناسبـــة

وهكذا – وجدنا أنفسنا قد انتقلنا من بطون الأمهات ، وقمنا بتمثيل أدوارنا على مسرح الحياة ، وتمتعنا بنعم الله .. ثم انتقلنا بعد ذلك إلى هذا المشهد القرآنى الذى يأخذ بالألباب ، ويجعل القارىء يستولى عليه العجب حيث يجد هذه الصورة الرهيبة فى عرصات القيامة : الظالمون يرون العذاب ، فلا يخفف عنهم ، والمشركون يرون الشركاء ، فيلزمونهم الحجة ، والذين كفروا وصدوا عن سبيل الله يضاعف لهم العذاب .

وكل نبى يشهد على أمته بأنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، والكافرون قد انقطعت أعذارهم ،

وبطلت حججهم ، فلا يؤذن لهم ، كما قال تعالى : ﴿ هذا يوم لاينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ : أى لا يطلب منهم العتبى – أى الرضا .

إذ أنه لا فائدة من العتاب ، مع العزم على السخط وعدم الرضا * وهم لا يكلفون أن يرضوا ربهم ، فقد فات زمنه فى الدنيا ، وذهبت السكرة ، وحلت الفكرة ، وانفض السوق ، فربح فيه الرابحون وخسر فيه الخاسرون .

فإذا كانت الدنيا دار عمل ولا حساب ، فالآخرة دار حساب ولا عمل ، ويومئذ لا ينفع التمنى ، فلا يقبل من أحدهم أن يقول : ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ﴾[٢] ، ﴿ يا ليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ما حسابيه * ياليتها كانت القاضية ﴾[٣] ، ﴿ ياليتنى كنت ترابا ﴾[٤] ، ﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾[٥] ، ﴿ ياليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾[٦] .

عندئذ يقول لهم : ﴿ أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير .فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٧] .

فبادر ياأخى بالرجوع إلى الملك الديان قبل فوات الأوان ، حيث لا ينفع الندم .

عجوز تمنت أن تكون صبية ... وقد نحل الجنبان واحد ودب الظهر

فسارت إلى العطار تبغى شبابها ... وهل يصلح العطار ماأفسد الدهر ؟

قوله تعالى : ﴿ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون ﴾ :

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم فى الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى .

﴿ **ثم لا يؤذن للذين كفروا** ﴾ : أى فى الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله : ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[٨] ، فلهذا قال سبحانه : ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ :

أى لا يفتر عنهم ساعة ولا هم يؤخرون عن تنفيذ حكم الله فيهم ، ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾[٩] ، ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾[١٠]

---

(١) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .
(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الفرقان .
(٣) الآيات ٢٥ – ٢٧ من سورة الحاقة .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النبأ .
(٥) الآية ٢٤ من سورة الفجر .
(٦) الآية ٢٧ من سورة الانعام .
(٧) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٨) الآيتان ٣٥ ، ٣٦ من سورة المرسلات .
(٩) الآية ٥٣ من سورة الكهف .
(١٠) الآية ٤٥ من سورة الشورى .

فاتق دعوة المظلوم ، ولو من كافر ، فالظلم ظلمات يوم القيامة – ومن كفر فعليه كفره .

لا تظلمن إذا كنت مقتدرا فالظلم ترجع عقباه إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك ، وعينُ الله لم تنم !

المحكمة الإلهية العليا :

قوله تعالى : ﴿ **وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك * فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون * وألقوا إلى الله يومئذ السلم وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ :

هذه وقفة فى محكمة الجنايات الإلهية العليا للحكم فى أكبر جناية ترتكب ، ألا وهى : الشرك ، الذى نص عليه قانون الله تعالى قائلا : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به * ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء * ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾[(١)] .

وقد دارت المناقشة بين المشركين والآلهة فى هذه الجلسة العاصفة على النحو التالى :

قال المشركون : ربنا هؤلاء الذين كنا ندعو من دونك .

فرد الشركاء قائلين : إنكم لكاذبون !

وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾[(٢)] .

ومصداق قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[(٣)] .

وقد قال القرآن الكريم على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام : ﴿ وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾[(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾[(٥)] .

فماذا يقول المشركون بعد مالزمتهم الحجة ، وحق عليهم القول إنهم كما قال الله : ﴿ **وألقوا إلى الله يومئذ السلم** ﴾ :

أى ذلّوا واستسلموا يومئذ ، فلا أحد إلا سامع مطيع ، كما قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ، لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾[(٦)] أى ما أسمعهم وما أبصرهم ! ! وهو أسلوب من التعجب .

---

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء

(٢) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة **الأحقاف** .

(٣) الآيتان ٨١ ، ٨٢ من سورة مريم .

(٤) الآية ٢٥ من سورة العنكبوت .

(٥) الآية ٦٤ من سورة القصص .

(٦) الآية ٣٨ من سورة مريم .

وكما قال تعالى : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾[1] أى خضعت ، وذلت واستكانت ، وأنابت ، واستسلمت :﴿ وقد خاب من حمل ظلما ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ : أى ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه ، افتراء على الله فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

وبعد أن تمت المحاكمة : أصدرت محكمة العدل الإلهية الكبرى حكمها المبرم الذى لا يقبل استئنافا ولا نقضا ، فقال سبحانه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾[2] أى عذابا على كفرهم ، وعذاباً على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى : ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾[3] أى ينهون الناس عن اتباعه ، ويبتعدون هم عنه أيضاً ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ .

وهذا دليل على تفاوت الكفار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى درجاتهم – فإن الجنة درجات ، والنار دركات : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾[4].

وقوله تعالى : ﴿ **ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾ .

اختتم الله تبارك وتعالى هذا المشهد المهيب بتلك الآية الكريمة ، هذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة « النساء » فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد * وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[5] فقال له رسول الله ﷺ : (حسبُك * فقال ابن مسعود : فالتفتُّ إليه ، فإذا عيناه تذرفان الدمع)[6].

هذا خطاب إلى صاحب اللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورود .. إلى رسول الله ﷺ ، الذى سيشهد على هؤلاء جميعاً ، فهو خاتم الأنبياء ، والرسل ، الصادق الأمين وكتابه هو المهيمن على جميع الكتب ، الذى جعله الله هدى ورحمة للعالمين : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم * ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾[7] ، ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس * ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[8].

فكيف كان القرآن تبيانا لكل شىء ؟

يجيب على هذا السؤال صاحب « الكشاف » رحمه الله فيقول :

---

(١) الآية ١١١ من سورة طه . (٣) الآية ٢٦ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٨٨ من سورة النحل . (٤) الآية ٣٨ من سورة الأعراف . (٥) الآية ٤١ من سورة النساء .
(٦) أخرجه البخارى فى فضائل الصحابة : ٢٥ ، وفى الجهاد : ٧ . وفى تفسير سورة ٤ : ٩ . والترمذى فى الجنائز : ١٤ .
(٧) الآية ٩ من سورة الإسراء . (٨) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

فإن قلت : كيف كان القرآن تبيانا لكل شيء ؟ قلت : المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين حيث كان نصا على بعضها ، وإحالة على السنة ، حيث أمر الله فيه باتباع رسوله ﷺ وطاعته ، ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[1] ، ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾[2] .

وحثا على الإجماع فى قوله : ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين * نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾[3] .

وقد رضى رسول الله ﷺ لأمته اتباع صحابته واقتفاء آثارهم فى قوله ﷺ : (أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) .

وقد اجتهدوا وقاسوا ووطئوا طرق القياس والاجتهاد ، فكانت السنة ، والاجماع والقياس والاجتهاد مستندة إلى تبيان الكتاب فمن ثم : كان القرآن تبيانا لكل شيء .

صدقت يا ذا الجلال والإكرام . يامن قلت : ﴿ مافرطنا فى الكتاب من شيء ﴾[4] وقلت : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾[5] ، وقلت : ﴿ ماآتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا ﴾ .

وصدق رسولك الكريم ، إذ يقول : « ولقد جئتكم بها بيضاء نقية ، ولو كان أخى موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى » وإذ يقول : ﴿ أوتيت القرآن ومثله معه ﴾[6] .

فما من نظام مستقيم وعادل فى هذه الدنيا إلا نظام الإسلام : ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾[7] ، ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾[8] .

* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)

---

(١) الآية ٨٠ من سورة النساء .
(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة النجم .
(٣) الآية ١١٥ من سورة النساء .
(٤) الاية ٨٠ من سورة النساء .
(٥) الآية ٧ من سورة الحشر .
(٦) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ١٢٩ ، ٤ : ١٣١ .
(٧) الآية ٤٢ من سورة فصلت .
(٨) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

المفـــردات ﴿ **العدل** ﴾ : لغة : المساواة فى كل شيء بلا زيادة ولا نقصان فيه ، والمراد به هنا المكافأة فى الخير والشر ، ﴿ **والاحسان** ﴾ : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعفو عنه ، ﴿ **وإيتاء ذى القربى** ﴾ : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر ، ﴿ **والفحشاء** ﴾ : ماقبُح من القول والفعل ، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، ﴿ **والمنكر** ﴾ : ماتنكره العقول من دواعى القوة الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتطاول على الناس ، ﴿ **والبغى** ﴾ : الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم بالظلم والعدوان ، ﴿ **والوعظ** ﴾ : التنبيه إلى الخير بالنصح والارشاد ، ﴿ **والعهد** ﴾ : كل مايلتزمه الانسان بإختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ﴿ **ونقض اليمين** ﴾ : الحنث فيها وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، ﴿ **وتوكيدها** ﴾ : توثيقها والتشديد فيها ، ﴿ **كفيلا** ﴾ : أى شاهدا ورقيباً ، ﴿ **والغزل** ﴾ : ماغزل من صوف ونحوه ، ﴿ **والقوة** ﴾ : الابرام والاحكام ، ﴿ **والأنكاث** ﴾ : واحدها نكِثْ وهو مانكِث فتله وينقض بعد غزله ، ﴿ **والدخل** ﴾ : المكر والخديعة وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دخل ، ويراد به أن يظهر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض ، ﴿ **أربى** ﴾ : أى أكثر وأوفر عدداً .

بعد مابينت الآية السابقة شهادة الرسول ﷺ ، عقبت بأن الله تعالى نزل عليه الكتاب الكريم ليكون تبيانا وتوضيحا وسراجا منيرا ، يضيء مسالك الحياة ، وليكون هاديا ، ورحمة ، وبشرى للمسلمين ، انتقل النظم الكريم بعد ذلك يبين لنا القواعد الأكيدة الوطيدة والأركان التى لاتهتز ولا تختل مابقيت الدنيا ، ويوم يقوم الحساب ، فقال سبحانه : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ :

هذا النص الكريم الخالد ورد فيه الأمر بثلاثة أشياء ، والنهى عن ثلاثة أشياء .

يقول ابن مسعود رضى الله عنه : إن أجمع آية فى القرآن فى سورة « النحل » هى قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ : الآية .

وقد ذكروا أن الحكيم العربى ﴿ **أكثم بن صيفى** ﴾ : أرسل وفدا من أتباعه إلى رسول الله ﷺ يسألونه ، فالتفوا به ، فقالوا : نحن رسل أكثم بن صيفى ، وهو يسألك : من أنت ؟ وما أنت ؟ فقال النبى ﷺ (أما من أنا ؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا فأنا عبد الله ورسوله) ، قال : ثم تلا عليهم هذه الآية : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ : الآية ، قالوا : ردد علينا هذا القول . فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتوا أكثم فقالوا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه ، فوجدناه زاكى النسب ، شريفاً ، وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : « إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رؤوسا ، ولا تكونوا فيه أذناباً » .

العدل ونتائجه ، والظلم وعواقبه

لقد أمر مولانا تبارك وتعالى بالعدل أولاً ، والإحسان ثانيا ، ثم بإيتاء ذى القربى .

والعدل هو القاعدة الأصلية فى بناء الأمم : إذ هو وضع الشىء فى موضعه ، وإقامة الميزان بالقسط ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

ولما كان العدل هو الذى يقيم الأمم ويقوِّمها : فإن الظلم يدمِّرها ويهلكها وقد تضافرت آيات الكتاب العزيز على ذلك .. قال جل جلاله : ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ﴾[1] ، وقال : ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[2] ، وقال : ﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾[3] وقال سبحانه : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾[4] وقال : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾[5] .

وهكذا تقوم الأمم بالعدل ، وتدمر بالظلم .

الإحسان

أما الاحسان : فهو زيادة عن العدل ، أى إذا كان العدل أساساً فى الإحسان تفضل وكرم ، ولذا : فإن الله تعالى يقول فى شأن العدل : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾[6] .

ويقول فى شأن الإحسان : ﴿ وإذا ما غضبوا هم يغفرون ﴾[7]

ويقول فى شأن العدل : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾[8] .

وفى شأنه الإحسان : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾[9] .

ويقول فى شأن العدل : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[10]

وفى شأن الإحسان ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾[11].

وقد قال جل شأنه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا * اعدلوا هو أقرب للتقوى * واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾[12].

فبالعدل قامت السماوات والأرض وبالعدل تقوم الحياة الهادئة المطمئنة .. إذ هو ميزان الحياة

(١) الآية ١٣ من سورة يونس .
(٢) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٣) الآية ٥٩ من سورة الكهف .
(٤) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٦) الآية ٣٩ من سورة الشورى .
(٧) الآية ٣٧ من سورة الشورى .
(٨) الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(٩) الآية ٤٠ من سورة الشورى .
(١٠) الآية ٤١ من سورة الشورى .
(١١) الآية ٤٣ من سورة الشورى .
(١٢) الآية ٨ من سورة المائدة .

الصحيحة به تطمئن النفوس وتنشرح الصدور ، ويأمن الأفراد على حقوقهم والحكام على أنفسهم وأن أى مجتمع يزول من بين أفراده العدل وتقوض أركانه لهو جدير بالمهانة وحقيق بالزلة إذ يقول المعصوم ﷺ فيما يرويه معاوية رضى الله عنه : (لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى) .

فالعاقل من حفظ نفسه من الجور وعدل مع ربه وخالقه ورازقه فعمل ما أمر الله به ، وترك ما نهى الله عنه ، وراقبه فى السر والعلن وكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

وعندما أتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بتاج كسرى وسواريه قال : إن الذى أدى هذا لأمين فقال له على ابن إبى طالب كرم الله وجهه : (عففت فعفوا ولو رتعت لرتعوا) .

وهذه صورة مشرقة من حياة الفاروق رضى الله عنه ، فقد رآه رجل من الفرس ينام فى ظل شجرة وهو مستغرق فى نوم عميق ، دون أن يكون حوله من يحرسه ، ذلك لأنه أقام العدل فوقف الفارس يعجب : أهذا أمير المؤمنين ؟ ثم قال : « حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر »

وهذا المشهد يصوره شاعر النيل فيقول :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمراً ... بين الرعية عطلا وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الروح مشتملا ... ببردة كاد طول العهد يبليها
رآه مستغرقا فى نومه ، فرأى ... فيه الجلالة فى أسمى معانيها
وحسبه بملوك الفرس أن لها ... سوراً من الجند والأحراس يحميها
فقال قولة حق ، أصبحت مثلا ... وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهمو ... فنمت نوم قرير العين هانيها
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها ... بفضل ربك حصناً من أعاديها

ولذلك كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يقول : « لو عثرت بغلة بالعراق لسألنى الله عنها لم لا تصلح لها الطريق يا عمر » ؟ !

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (يوم من إمام عادل : أفضل من عبادة ستين سنة وحدٌّ يقام فى الأرض بحقه : أزكىَ من مطر أربعين صباحاً)[1] .

وروى عنه ﷺ أنه قال : (أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأدناهم منى مجلسا إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منى مجلسا إمام جائر)[2] .

إذا كانت هذه هى مكانة العدل : فإن الاحسان فيه زيادة عن العدل ، وفضل ورحمة وكرم .

---

(١) أخرجه النسائى فى السارق : ٧ . وابن ماجة فى الحدود : ٣ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٦٢ ، ٤٠٢ .
(٢) أخرجه الترمذى فى الأحكام : ٤ .

وقد يأتي الإحسان بمعنى آخر كما بين ذلك الصادق الأمين محمد ﷺ في قوله : (الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] .

فهذا معنى يرتفع بالنفس من غياهب الظلمات ، وفلول الدجى وحضيض الغبراء ، إلى قمة شماء باذخ العلياء : إذ اشتمل هذا المعنى على درجتين : درجة المشاهدة : (أن تعبد الله كأنك تراه) ودرجة المراقبة (فإن لم تكن تراه : فإنه يراك) .

وبهذا يعمل الضمير الحي عمله .. فقد رأى أبو هريرة رضى الله عنه رجلا يغش اللبن بالماء فقال له : ياهذا : « ماذا تقول إذا قيل لك يوم القيامة خلص اللبن من الماء » ؟

نعم : إن الضمير هو السلطة التي ترفع النفس إلى مراقبة ربها وخالقها والاستشعار بهيمنة سلطانه .

وهل ننسى موقف هذه الفتاة التي كانت أمها تغش اللبن ونهاها أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه عن هذا الفعل ولكنها عادت وغشت اللبن فقالت لها ابنتها : « **ياأماه ألم ينهك أمير المؤمنين عن هذا ؟ فقالت لها :وهل يرانا أمير المؤمنين ؟قالت لها :إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فإن الله رب العالمين يرانا !** » وكان عمر في هذه الأثناء يمر يتفقد الرعية فرآها تغش اللبن فقال لها : « ياعجوز ألم أنهك عن غش اللبن ؟ » قالت : والله ما غششته ياأمير المؤمنين وإذا بصوت (الضمير) ينبعث من داخل هذا الكوخ : صوت ابنتها يقول لها : « ياأماه أتغشين المسلمين وتحنثين في اليمين وتكذبين على أمير المؤمنين ؟ » وأخذت هذه الكلمات طريقها إلى قلب عمر رضى الله عنه ، ولها رنين قوى أنقى من رنين الذهب ، فهل يقف عمر منها موقفاً سلبياً ؟ كلا ! لقد زوجها لابنه (عاصم) فأنجبت منه فتاة اسمها (ليلى) ، هذه الفتاة تزوجت عبد العزيز بن مروان فأنجبت منه خامس الخلفاء عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد . العادل . الرحيم ذلك يوم مات قال رعاة الغنم في شواهق الجبال : « اليوم مات عمر » قيل وما أدراكم بموته : قالوا : « لأن الذئب قد عدا على الغنم وما عهدناه كذلك في حياة عمر » ولما تحقق الناس من الخبر وجدوه قد مات فعلا .

وقد سئل عمر بن عبد العزيز في حياته عن هذه الظاهرة العجيبة وهى أن الذئب أصبح يرعى الغنم كأنه كلبها وحارسها فقال لهم : « أخلصت ما بيني وبين ربي فأخلص الله ما بين الذئب والغنم » .

هكذا صارت بنت بائعة اللبن : في بيت الإمارة ، وهكذا صارت جدة لأمير المؤمنين .

وهكذا يقوم الإيمان ببناء النفوس ويشيد صروحها .

صدقت يا سيدى يا رسول الله : **(الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)** .

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفي الايمان : ٣٧ . ومسلم في الايمان : ٥٧ . وابوداود في السنة ١٦ . والترمذي في الايمان : ٤ . وابن ماجة في المقدمة : ٩ . والامام أحمد في ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، وفي ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفي ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .

صلـــة الرحـــم

قوله تعالى : ﴿ وإيتاء ذى القربى ﴾ :

أيها القارىء الكريم بإقامة العدل تحيا النفوس ، وبالإحسان يرتفع شأنها ، وبإيتاء ذى القربى يعم الإخاء والرحمة ، فليس هناك مكانة تعدل صلة الرحم وأول الأرحام فى (كشف) الصلة : الوالدان ، يليهما الأقرب فالأقرب ، ولمكانة الأرحام العظيمة عند الله فقد عُطِفَت على لفظ الجلالة فى قوله تعالى : ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(١) .

وقد سأل عبد الله بن مسعود رضى الله تعالى عنه سيدنا رسول الله ﷺ فقال : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : (الصلاة على وقتها) قلت : ثم أى ؟ قال : (بر الوالدين) قلت : ثم أى ؟ قال : (الجهاد فى سبيل الله)(٢) .

وقد بين الحديث الشريف الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ مكانة الوالدين على أولادهما حيث يقول : « لايجزى ولد والداً إلا أن يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه » (٣) .

وهذه توجيهات نبوية ، وإرشادات إسلامية ، تحث على صلة الرحم لما فيها من الفضائل والمزايا .

يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » (٤) .

تأمل معى أيها القارىء الكريم مكانة الرحم عند الله تبارك وتعالى فى هذا الحديث الشريف الذى يقول فيه رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال : نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قال فذاك لك)(٥) ثم قال ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾(٦) .

وفى رواية للبخارى : فقال الله تعالى : ﴿ من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته ﴾ .

فعليك بصلة أرحامك ، وحاذر من قطيعتها فإن الله تعالى جل جلاله يقول فى الحديث القدسى

---

(١) الآية الأولى من سورة النساء .
(٢) أخرجه البخارى فى الادب : ١ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٢ .
(٣) أخرجه مسلم فى العتق : ٢٥ . وأبوداود فى الادب : ١٢٠ . والترمذى فى البرة٨ . وابن ماجة فى الأدب : ١ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٣٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٦ ، ٤٤٥ .
(٤) أخرجه البخارى فى الادب : ٣١ ، ٨٥ ، وفى الرقاق : ٢٣ . ومسلم فى اللقطة : ١٤ ، وفى الايمان : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧ . وابوداود فى الاطعمة : ٥ ، والترمذى فى البر : ٤٣ ، وفى القيامة : ٥٠ . وابن ماجة فى الادب : ٥ . والدرامى فى الأطعمة : ١١ . والامام مالك فى صفة النبى : ٢٢ . والامام أحمد فى : ٢ : ١٧٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٤٣٣ ، ٤٦٣ ، وفى ٣ : ٧٦ ، وفى ٤ : ٣١ ، وفى ٥ : ٤١٢ ، وفى ٦ : ٦٩ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ .
(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٤٧ ، وفى الادب : ١٣ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى البر : ١٦ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ .
(٦) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة محمد .

(أنا الله وأنا الرحمن وقد اشتققت للرحم اسماً من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته)[١] .

وإذا كانت الآية الكريمة قد أمرت بصلة ذوى القربى وإيتائهم حقهم فلأنهم أولى الناس بالمعروف قال عليه الصلاة والسلام : (الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة)[٢] .

وليس معنى هذا أن ذوى القربى هم المخصصون بالصلة بل هم أولى الناس بالصلة لأن هناك رحماً عامة : هم كل من يقول :لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهؤلاء لهم حقوق على كل مسلم ومسلمة كأن يعوده إذا مرض ، ويشيعه إذا مات ، ويسلم عليه إذا مر به ، وينصحه إذا استنصحه ، ويجيبه إذا دعاه ، ويفرح له إن كان فى خير ، ويحزن من أجله إن كان فى شر .

وهناك صلة إنسانية أوسع دائرة تربط الإنسان مع غيره من الناس رباطاً يقوم على العدل والإنصاف دون ظلم أو اعتداء : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾[٣] .

إن قوله تعالى ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى** ﴾ :

لقول يفيض جلالاً وكمالاً ويشع ضياء وبهاء .

لقد اشتملت تلك الآية الكريمة على أوامر ثلاثة ونواه ثلاثة :

أما الأوامر الثلاثة فهى :

العدل – والإحسان – وإيتاء ذى القربى .

وأما النواهى الثلاثة فهى :

الفحشاء – والمنكر – والبغى .

فالبغى والعدل نقيضان لا يجتمعان .

والإحسان والمنكر : ضدان لا يلتقيان .

إيتاء ذى القربى والفحشاء : أمران متقابلان لا يلتقيان .

فالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى : فضائل .

والفحشاء والمنكر والبغى : رذائل .

وفى لفظ ﴿ **الفحشاء** ﴾ : مايشعر بما فحش وعظم من الذنوب بحيث تجاوز كل لياقة ولذلك نرى القرآن الكريم يعبر عن بعض الذنوب بلفظ ﴿ **الفحشاء** ﴾ : فيقول فى نكاح زوجة الأب : ﴿ ولا

(١) أخرجه الترمذى فى البر : ١٦ . والامام أحمد فى ٦ : ٦٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزكاة : ٢٦ . والنسائى فى الزكاة : ٢٢ ، ٨٢ . وابن ماجة فى الزكاة : ٢٨ . والدرامى فى الزكاة : ٣٨ . والامام أحمد فى ٤ : ١٧ ، ١٨ ، ٢١٤ .

(٣) الآية ٨ من سورة الممتحنة .

تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً ﴾[١] .

ويقول فى شأن الزنا ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾[٢] .

ويقول فى شأن الشذوذ الجنسى : ﴿ ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾[٣] .

كل هذه الكبائر من الذنوب فحشت وزاد خطرها ، من أجل ذلك ورد النهى عنها فى كل صورها قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[٤] وقال جل شأنه : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[٥] .

﴿ **أما المنكر** ﴾ : فهو ما تنكره الأذواق السليمة ولا يقرّه العرف الصحيح .

ذلك لأن المنكر ضد المعروف وقد ورد فى آيات كثيرة كما فى قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[٦] .

وفى وصية لقمان لابنه : ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ﴾[٧] .

وفى قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[٨] .

وبنظرة فاحصة فى الكلمتين : تستطيع أن تدرك الفرق الشاسع بينهما : ف « المعروف » فى ظهوره ووضوحه : كالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

والمنكر فى قبحه وسوء فعله ونفور النفوس السليمة منه : كظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج الانسان يده لم يكد يراها :

فأكل مال اليتيم : منكر ، والسحر : منكر ، وقذف المحصنات الغافلات : منكر ، وقتل النفس التى حرم الله قتلها : منكر ، والتولى والفرار من الجهاد : منكر .

والغيبة والنميمة وقطع الطريق كل هذه منكرات ، نهى الله عنها وشدد الوعيد لمقترفيها .

﴿ **أما البغى** ﴾ : فهو تجاوز الحد وترك العدل والإنصاف مما يترتب عليه الظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

وكلمة الظلم من أبشع الكلمات وأقساها وقعاً على النفس حتى كان اصطدام النفوس بها

(١) الآية ٢٢ من سورة النساء .
(٢) الآية ٣٢ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٤ من سورة النمل .
(٤) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ٣٣ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٦٧ من سورة التوبة .
(٧) الآية ١٧ من سورة لقمان .
(٨) الآية ١٠٤ من سورة آل عمران .

كاصطدام مطارق الحديد بأوانى الفخار .

ويكفى للدلالة على ذلك أن تقرأ قول الله تبارك وتعالى فى حق الظالمين ﴿ وما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾(١) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فما للظالمين من نصير ﴾(٣) .

استمع معى إلى هذا الحديث القدسى الجامع الذى رواه أبو ذر الغفارى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ عن رب العزة جل جلاله إذ يقول : [يا عبادى : إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا .

يا عبادى : كلكم ضال إلا من هدية فاستهدونى أهدكم .

يا عبادى : كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم .

يا عبادى : كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم .

يا عبادى : إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم .

يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضُرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى .

يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم : مازاد ذلك فى ملكى شيئاً .

يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر .

يا عبادى : إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه] (٤) .

قال سعيد : كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبته . رواه مسلم .

لقد سقنا هذا الحديث بطوله لما اشتمل عليه من عظائم الأمور ويكفى أن تقف عند قوله جل شأنه : [حرمت الظلم على نفسى] .

سبحان صاحب العدل المطلق والعظمة الإلهية .

ولقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه عن بشاعة الظلم يوم القيامة فقال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم : حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » (٥) رواه مسلم .

(١) الآية ١٨ من سورة غافر .
(٢) الآية ٣٨ من سورة مريم .
(٣) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٤) أخرجه مسلم فى البر : ٥٥ . والامام أحمد فى ٥ : ١٦٠ .
(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ . والامام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

تأمل معى هذه العدالة المطلقة فى رد الحقوق إلى أصحابها يوم يقوم الناس لرب العالمين .

جاء فى الحديث الشريف : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[١] رواه مسلم .

ولحرمة الحقوق وشدة صيانة الإسلام لها : وقف الرسول ﷺ فى حجة الوداع يؤكد هذا المعنى فيقول : (إن الله حرم عليكم دماءكم وأموالكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم قال : اللهم اشهد (ثلاثاً) ويلكم - أو ويحكم - انظروا : لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[٢] .

ثم انظر - بعد ذلك - إلى من يغتصب حق أخيه المسلم بغير حق فيغير حدود الأرض - مثلا - ما شأنه ؟ وما حاله يوم القيامة ؟

يقول الحديث الشريف : (من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين)[٣] .

إذا غرتك قوتك يا ابن آدم فلم استحكمت فيك شهوتك ؟

وإذا غرك غناك : فارزق عباد الله يوماً !

وإياك والظلم . يا أخى المسلم . فإن رسول الله ﷺ يقول : (إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[٤] ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٥] .

وهذه وصية رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن قال : (إنك تأتى قوماً من أهل الكتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله : فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله قد افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[٦] .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٢ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٧٢ ، ٤١١ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٣ ، وفى الحج : ١٣٢ ، وفى المغازى : ٧٧ ، وفى الأدب : ٩٥ ، وفى الحدود : ٩ ، وفى الفتن : ٨ . ومسلم فى الايمان : ١١٨ - ١٢٠ . وابوداود فى السنة : ١٥ . والترمذى فى الفتن : ٢٧ . والنسائى فى التحريم : ٢٩ . وابن ماجة فى الفتن : ٥ . والدارمى فى المناسك : ٧٦ . والامام أحمد فى ١ : ٢٣٠ ، ٢٠٢ ، وفى ٢ : ٨٥ ، ٨٧ ، ١٠٤ ، وفى : ٤ ، ٧٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، وفى ٥ : ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٦٨ ، ٧٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٣ ، وفى بدء الخلق : ٢ . ومسلم فى المساقاة : ١٤٢ . والدرامى فى البيوع : ٦٤ . والامام أحمد فى : ١ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، وفى ٤ : ١٧٣ ، وفى ٦ : ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم فى البر : ٦٢ . وابن ماجة فى الفتن : ٢٢ .

(٥) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٦) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ . ومسلم فى الايمان : ٢٩ . وابوداود فى الزكاة : ٥ . والترمذى فى الزكاة : ٦ . والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ . وابن ماجة فى الزكاة : ١ . والدارمى فى الزكاة : والامام مالك فى دعوة المظلوم : ١ . والامام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٢ : ٣٤٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

هـذا بيـان للنـاس

أخي القارىء الكريم :

وهكذا طفت بك طوافاً مباركاً حول هذه الآية الجامعة التي ورد الأمر فيها بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وجاء النهى فيها عن الفحشاء والمنكر والبغى وكان ختامها قوله تبارك وتعالى : ﴿ **يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ .

فالوعظ من الله : إرشاد وتوجيه وحدود ومعالم لا يتعداها إلا من ظلم نفسه وسفه قدره ونسى ربه ولفظ (لعل) من الله تعالى لا يفيد الترجى إنما يفيد التعليل والغاية فهو بمعنى (لتتذكروا) إذ أن الترجى هو توقع حصول الأمر المحبوب . وتوقع حصول الشيء يفيد الجهل به والجهل على الله محال : ﴿ إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾[1] .

الوفاء بالعهود فى الإسلام
والمحافظة على الإيمان

قال الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾ :

هاتان الآيتان الكريمتان ورد ذكرهما بعد الآية الجامعة لأصول الاسلام ومبادئه ، وذلك دليل على مكانة العهود فى الإسلام ، فقد أكد الله هذا الجانب بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[2] ، وقوله : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴾[3] ، وهنا يقول ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾ .

والعهد : عبارة عن العقد المؤكد باليمين والله جل جلاله يريد أن يعطى العهد مكانة تليق بالوفاء به فيقول : ﴿ **وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً** ﴾ .

فمن استشعر عظمة الله وهيمنة سلطانه فإنه لن يجترىء على نقض عهوده ولذلك جاء ختام الآية : ﴿ **إن الله يعلم ما تفعلون** ﴾ .

إذاً : فما دام الله هو الكفيل العالم بالفعل : سره وعلنه أوله وآخره صغيره وكبيره فكفى به كفيلا وكفى به عليماً .

ثم تأتى الآية الثانية فتشبه ناقض العهد بعد توكيده : بامرأة خرقاء ذات حماقة وسفاهة غزلت غزلاً محكماً متقناً ثم نقضته نقضاً فذهب غزلها أدراج الرياح وضاع جهدها هباء منثوراً .

كذلك نقض العهود بعد توكيدها : يضعف الأمة ويؤدى بمكانة الفرد مهما كانت الدوافع إلى

(١) الآية ٢٩ من سورة الإنسان . (٢) الآية الأولى من سورة المائدة . (٣) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .

النقض ولذلك سمى الله هذا الفعل خيانة ودخلاً وخديعة فقال : ﴿ **تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم** ﴾ .

وذلك من أجل أن تكون أمة أكثر عدداً من الأخرى ، فليس المدار على كثرة العدد أو العُدة ، إنما المدار على الثبات والحزم والرجولة والشهامة .

قال سبحانه جل من قائل : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه ﴾[(١)] ، وقال تبارك اسمه : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾[(٢)] .

وإذا كان القرآن الكريم قد شبه ناقضى العهود بالمرأة الخرقاء السفيهة ، فإن السنة الشريفة أنزلت (الغادر) يوم القيامة مكانة سحيقة من الذل الهوان ، قال صلوات الله وسلامه عليه : (إن الغادر ينصب له لواء يوم القيامة فيقال : هذه غدرة فلان وإن من أعظم الغدر بعد الشرك بالله ـــ أن يبايع رجلٌ رجلاً على بيعة الله ورسوله ثم ينكث بيعته فلا يخلعن أحد منكم يداً ولا يسرفن أحد منكم فى هذا الأمر فيكون فصل بينى وبينه)[(٣)] .

وكفى بنقض العهد بشاعة : أنه يجعل صاحبه من أهل النفاق وكفى بالنفاق إثماً أنه داء عضال ووبال فتاك بكرامة الأمم والأفراد ، قال ﷺ : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان)[(٤)] .

وقال أيضاً فى رواية للإمام مسلم (وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم) .

وفى حديث آخر (أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر)[(٥)] متفق عليه .

واستمع يا أخى إلى هذه الصورة المشرقة المشرفة من الوفاء بالعهد والتى تمثلت على يدى الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله ﷺ .

فعن جابر رضى الله عنه قال : قال لى النبى ﷺ : (لو قد جاء مال البحرين أعطيتك هكذا وهكذا وهكذا فلم يجىء مال البحرين حتى قبض النبى ﷺ فلما جاء مال البحرين أمر أبو بكر رضى الله عنه عليه فنادى:من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو

---

(١) الآية ٢٣ من سورة الأحزاب . (٢) الآية ٢٤ من سورة الأحزاب .

(٣) أخرجه البخارى فى الجزية : ٢٢ . ومسلم فى الجهاد : ٨ ، ١٠ – ١٧ . وابوداود فى الجهاد : ١٥٠ . والترمذى فى السير : ٢٨ ، وفى الفتن : ٢٦ . وابن ماجة فى الجهاد : ٤٢ . والدارمى فى البيوع : ١١ . والامام أحمد فى ١ : ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٤١ ، وفى ٢ : ١٦ ، ٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى الايمان : ٢٤ ، وفى الشهادات : ٢٨ ، وفى الادب : ٦٩ . ومسلم فى الايمان : ١٠٧ ، ١٠٩ ، والترمذى فى الايمان : ١٤ . والنسائى فى الايمان : ٢٠ .

(٥) أخرجه مسلم فى الايمان : ١٠٦ . والبخارى فى الايمان : ٢٤ ، وفى الجزية : ١٧ . وابوداود فى السنة : ١٥ .

دين فليأتنا فأتيته وقلت له : إن النبى ﷺ قال لى كذا وكذا فحثى لى حثية فعددتها فإذا هى خمسمائة فقال لى : خذ مثليها)[١] متفق عليه .

إن الله تعالى أمرنا فى هذا المشهد القرآنى الكريم بالوفاء بالعهد ونهانا عن نقض الايمان بعد توكيدها والأوامر والنواهى ابتلاء وإختبار ولذا ختم الله هذه الآية الكريمة بقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾ .

وتعقيباً على الوفاء بالعهود والمحافظة على الإيمان نقول :

١- النهى عن الحلف بغير الله :

لا يجوز لمسلم أن يحلف بغير الله تعالى ، فقد قال صلوات الله وسلامه عليه : (إن الله تعالى ينهاكم إن تحلفوا بآبائكم فمن كان حالفاً : فليحلف بالله أو ليصمت)[٢] . وفى رواية فى الصحيح (فمن كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله أو ليسكت) .

كذلك من باب الخطأ الشائع أن يحلف الانسان بالأمانة فقد روى أبو داود رضى الله عنه بإسناد صحيح أن النبى ﷺ قال : (من حلف بالأمانة فليس منا)[٣] .

ومن الآفات الشائعة أيضاً بين الناس : أن يبرأ أحدهم من الإسلام إن فعل كذا وكذا .

فما موقف هذا من الله ومن الإسلام ؟

لقد روى أبو داود أن النبى ﷺ قال : (من حلف فقال إنى برىء من الاسلام : فإن كان كاذباً فهو كما قال ، وإن كان صادقاً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً)[٤] .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه سمع رجلاً يقول : لا والكعبة.فقال ابن عمر : لا تحلف بغير الله فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)[٥] رواه الترمذى .

٢ - الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً :

من الكبائر التى نهى الله ورسوله عنها : الحلف بالله كاذباً فقد أخبر الصادق الأمين ﷺ فقال : (اليمين الفاجرة تذر الديار بلاقع)[٦] .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (من حلف على مال امرىء مسلم بغير حقه

---

(١) أخرجه البخارى فى الكفالة : ٣ ، وفى الخمس : ١٥ . وأحمد فى ٣ : ٣١٠ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٧ . والترمذى فى النذور : ٨ .

(٣) أخرجه ابوداود فى الايمان : ٥ . والامام أحمد فى ٥ : ٣٥٢ .

(٤) أخرجه النسائى فى الايمان : ٨ . وابن ماجة فى الكفارات : ٣ . والامام أحمد فى ٥ : ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٥) أخرجه الترمذى فى النذور : ٩ . والنسائى فى الايمان : ٤ . وابن ماجة فى الكفارات : ٢ . والدرامى فى النذور : ٦ . والامام أحمد فى ١ : ٤٧ ، وفى ٢ : ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ .

(٦) أخرجه الامام أحمد فى ٥ : ٧٩ .

لقى الله وهو عليه غضبان) قال : ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقة من كتاب الله عز وجل : ﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ﴾[1] . متفق عليه .

ثم تعال معى أخا الاسلام . تمعن النظر فى هذا الحديث النبوى الشريف الذى يبين فيه الرسول المصطفى ﷺ مدى الخطورة المترتبة على الحلف بالله كذبا فى سبيل أن ينال عرضاً دنيوياً فانياً لا قيمة له .

قال صلوات الله وسلامه عليه : (من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة فقال له رجل : وإن كان شيئاً يسيراً يارسول الله ؟ وإن كان قضيباً من أراك)[2] رواه مسلم .

وقد سمى الإسلام اليمين الكاذبة : باليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها فى النار ولذلك نظمها فى سلك الكبائر من الذنوب ، قال صلوات الله وسلامه عليه (الكبائر : الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس)[3] رواه البخارى .

وفى رواية للبخارى أيضاً : أن أعرابياً جاء إلى النبى ﷺ فقال يارسول الله : ماالكبائر ؟ قال (الإشراك بالله قال : ثم ماذا ؟ قال : اليمين الغموس قلت : وما اليمين الغموس . قال : الذى يقتطع مال امرىء مسلم) .

يعنى يمين هو فيها كاذب .

٣ – رحمة الله بعباده :

من باب رحمة الله التى وسعت كل شيء أنه لم يجعل اليمين مانعاً من فعل الخير ، فإذا حلفت يميناً إلا تفعل كذا ثم ظهر أن الخير فى فعله فلا تجعل يمين الله عائقاً ومانعاً من فعل ما حلفت عليه ، بل افعل الذى هو خير وكفر عن يمينك .

وكفارة اليمين : هى كما بينها الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد : فصيام ثلاثة

(١) أخرجه البخارى فى الخصومات : ٤ ، وفى الشهادات : ١٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، وفى تفسير سورة ٣ : ٣ . وفى الايمان : ١١ ، ١٧ ، ومسلم فى الايمان : ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ . وابوداود فى الايمان : ١ . والترمذى فى البيوع : ٤٢ . وابن ماجة فى الاحكام : ٨ . والامام أحمد فى ١ : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٤١٦ ، ٤٢٦ ، ٤٤٢ ، ٤٦٠ ، وفى ٢ : ١١٨ ، وفى ٤ : ١٩٢ ، ٣١٧ ، وفى ٥ : ٢٥ ، ٢١١ ، ٢١٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ . ومسلم فى الايمان : ٢١٨ . والترمذى فى تفسير سورة ٣ : ٢١ . والنسائى فى القضاة : ٣٠ . والدارمى فى البيوع : ٦٢ . والامام مالك فى الاقضية : ١١ . والامام أحمد فى ١ : ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٤١٦ . وفى ٥ : ٢٦٠ ، وفى ٦ : ٢١٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ٦ ، وفى الايمان : ١٦ ، وفى الديات : ٢ ، وفى الاستتابة : ١ . والترمذى فى تفسير سورة ٤ : ٤ ، ٦ . والنسائى فى التحريم : ٣ . والدارمى فى الديات : ٩ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٠١ ، ٢١٤ ، وفى ٣ : ٤٩٥ .

أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴾[١] .

وجاء فى الحديث الشريف أن رسول الله ﷺ قال (إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك)[٢] . متفق عليه .

وقال أيضاً صلوات الله وسلامه عليه : (من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير)[٣] . رواه مسلم .

هذه أمور ثلاثة عقّبنا بها على آية (الأيمان والعهود) وذلك نظراً لعموم البلوى وإنتشار وقوعها .

وكان أول هذه الأمور : النهى عن الحلف بغير الله .

وكان ثانيها : الوعيد الشديد لمن حلف بالله كاذباً .

وكان ثالثها : التكفير عن اليمين إذا كان الخير فى غيرها .

مشيئة وحكمة وتوجيه

﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ﴾ :

اعلم يأخى أن مشيئة الله تعالى مبنية على علم وحكمة ، وأن من مشيئته تعالى أنه أعطى عباده الاختيار والكسب والعقل والتمييز ، ووهبهم القوى التى تمكنهم من سلوك الطريقين : طريق الخير وطريق الشر ، فليس لإنسان مجترىء على المخالفة لأوامر الله أن يُلقى باللائمة على مشيئة الله .

قال سبحانه فى حق الإنسان : ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[٤] ، وفسر السبيل بقوله : ﴿ وهديناه النجدين ﴾[٥] بعدها قال : ﴿ ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين ﴾[٦] ، وفسر ﴿ النجدين ﴾ بقوله : ﴿ ونفس وما سواها * فالهمها فجورها وتقواها ﴾[٧] .

وأرشد إلى الخير وحذر من الشر فقال : ﴿ قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[٨] .

وزاد هذه القضية وضوحاً وإظهاراً وقال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[٩] .

---

(١) الآية ٨٩ من سورة المائدة .

(٢) أخرجه البخارى فى الايمان : ١ ، ٨٣ . ومسلم فى الايمان : ١٩ . وابوداود فى الايمان : ١٢ ، ١٤ . والترمذى فى النذور : ٥ . والنسائى فى الايمان : ١٥ ، ١٦ . وابن ماجة فى الكفارات : ٧ . والدارمى فى النذور : ٩ . والامام أحمد فى : ١٣٧ ، وفى ٥ : ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٤٢٨ .

(٤) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الانسان .

(٥) الآية ١٠ من سورة البلد .

(٦) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة البلد .

(٧) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الشمس .

(٨) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .

(٩) الآية ١٧ من سورة فصلت .

ثم نادى بعد ذلك فى عزة وكبرياء تليق بذاته العلية فقال : ﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[(١)] .

ثم بيّن مدى رحمته بعباده فقال : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[(٢)] .

وقد سئل الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه فقيل له : مابال الله يريد ثم يعاقب ؟ فقال الإمام كلمة تكتب بمداد من الذهب ، قال : (الله أراد بنا وأراد منا فأخفى ماأراد بنا وأظهر ماأراد منا فاحتجنا بما أراد بنا وتركنا ماأراد منا) .

تلك كلمة حق فاصلة نوجهها إلى (المفلسين) الذين أقدموا على المخالفات الشرعية تاركين أوامر الله وطرحوها وراءهم ظهرياً ، ويشربون ويلعبون وعلى الأعراض يعتدون ، فى الحياة يعبثون ويعبثون ، ثم بعد ذلك يلقون باللائمة على صفحة الغيب ، فإذا كلمت أحدهم فى ذلك فلا تسمع منه إلا جدالا فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن مشيئة الله صالحة لأن تجعل الناس كلهم أمة واحدة والاضلال والهداية ، إنما يكونان على حسب استعداد العبد وسلوكه ، قال سبحانه : ﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾[(٣)] .

ولذا يقال لهذا (النادم) يوم القيامة : ﴿ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾[(٤)] .

فيا أخى : قل لمن عصى ربه وقال إنه أراد بى هكذا قل له : أطلعت على الغيب ، أم اتخذت عند الرحمن عهداً .

قل له : ألم يرسل ربك إليك رسولاً يبين لك الحلال والحرام ؟

قل له : الم ينزل إليك كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وفيه تبيان لكل شىء ؟

قل له : ألم يهبك الله عقلاً تميز به الخبيث من الطيب ؟

ثم قل له بعد ذلك ألم يرفع القلم عن ثلاث : عن المجنون حتى يفيق ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن النائم حتى يستيقظ .

قل له : ألم يتجاوز ربك بفضله وكرمه عن الخطأ والنسيان وما استكره الإنسان عليه ؟

قل له : ألم يفتح ربك الكريم باب التوبة ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ويبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار .

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٧ من سورة الزمر .
(٣) الآيات ٥ — ١٠ من سورة الليل .
(٤) الآية ٥٩ من سورة الزمر .

قل له : ألم تسمع إلى قول إبليس اللعين لربه عز وجل وعزتك وجلالك (لأغوينهم) مادامت أرواحهم فى أبدانهم . فقال رب العزة وعزتى وجلالى ، لأغفرن لهم ماداموا يستغفروننى ؟

إذاً : فقوله تعالى : ﴿ **ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء** ﴾ ، لا يفيد إجبار العبد على سلوك طريق الضلال ، وذلك كما بينا فى الآيات السابقة . إنما المشيئة هنا مبنية على علم الله ، والعلم صفة انكشاف لا صفة إلزام وجبر .

إن الله تعالى فرض فرائض فأدوها ، ونهى عن أشياء فلا تقربوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم فلا تسألوا عنها .

ترغيب وترهيب

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ
صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

المفـــردات : ﴿ **زلة القدم بعد ثبوتها** ﴾ : مثل يقال لمن وقع فى محنة بعد نعمة وبلاء بعد عافية .

﴿ **والحياة الطيبة** ﴾ : هى القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا لما فى ذلك من الكد والعناء .

وتعود الآيات فتؤكد الوفاء بالعهد ، وتنهى عن اتخاذ الأيمان خديعة ومراوغة ، إذ أنه سيترتب على ذلك زلة الأقدام بعد ثبوتها هذا فى الدنيا : أما فى الآخرة فعذاب أليم وخزى عظيم .

ثم ينهى عن أن يشترى الانسان بعهد الله وأيمانه ثمناً قليلاً ، فيخالف بذلك ربه ، لأن ما فى هذه الدنيا كلها لا يساوى عند الله جناح بعوضة إذا قيس بما عند الله ﴿ **إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ .

ألا أن كل شىء هالك إلا ما عند الله ، وما عنده لا يناله إلا الصابرون على طاعته، المقيمون لشعائر دينه ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

ثم يقول تبارك وتعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ :

ما أعظم العدالة الإلهية ، وما أجمل قدرها ، وما أفضل الكرم الربانى ، وما أرفع شأنه :

يامن يجيب العبد قبل سؤاله ... ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ... ستر القبيح وجاد بالإحسان
أصبحت ضيف الله فى دار الرضا ... وعلى الكريم كرامة الضيفان
تعفو الملوك عن النزيل بساحهم ... كيف النزول بساحة الرحمن
وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى ... تعفو وتصفح للعُبَيْد الجانى
يامن إذا وقف المسىء ببابه ... ستر القبيح وجاد بالإحسان

وعدٌ من الله ، والله لايخلف وعده ، لمن عمل صالحاً لافرق فى ذلك بين الذكر والأنثى .

والعمل الصالح : هو كل ماجاء موافقاً لأوامر الله ورسوله ، ولقد وعد الله هؤلاء بوعدين :

أحدهما : فى الدنيا ، **والآخر** : يوم القيامة .

أما فى الدنيا : فحياة طيبة فيها سكينة وقناعة ، ورضا من الله وعن الله رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وأما فى الآخرة : فجزاء بأحسن ماكانوا يعملون .

والإيمان شرط أساسى ، فلا يقبل من الأعمال إلا ماكان مبنياً على الإيمان ، قال سبحانه : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن** ﴾ :

وتظهر ثمرة الإيمان فى الرضا بالقضاء ، والشكر على الرخاء ، والصبر عند البلاء ، ولا يجوز لعبد مؤمن أن يجزع لما قضى الله . وكان داود عليه السلام يقول : (اللهم إنى أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : اسألك لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وبدناً على البلاء صابراً وزوجة تعيننى على دينى ودنياى : وأعوذ بك من ولد يكون على سيداً ومن مال يكون وبالاً علىّ ويتمتع به غيرى ومن جار سوء إن رأى منى خيراً أنكره وإن رأى سوءاً نشره ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب) .

فبادر ياأخى بالعمل الصالح لتنال الوعدين الكريمين فى الدنيا والآخرة ، وسارع بالتوبة والرجوع إلى الله ، وما أجمل الصلح مع الله ، ألا وإن الصلح مع الله طريق النجاة .

إرشادات وبيان

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ
مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ

أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى
وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ
إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ
الْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

المفـــردات : ﴿ **سلطان** ﴾ : تسلط وقوة ، ﴿ **بدّلنا آية** ﴾ : رفعنا آية وجعلنا موضعها غيرها ، ﴿ **روح القدسُ** ﴾ : أى جبريل ، ﴿ **يلحدون** ﴾ : يميلون إليه ويشيرون ، ﴿ **أعجمى** ﴾ : العجمة فى لسان العرب الإخفاء وضد البيان ورجل أعجم وامرأة عجماء أى لا يفصح .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ :

أى إذا أردت قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ الآية ، أى إذا أردتم الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، والأمر فى قوله تعالى ﴿ **فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ : للندب وحكى الإجماع على ذلك أبو جعفر بن جرير وغيره من الأئمة .

والحكمة من الابتداء بالاستعاذة عند ابتداء القراءة لئلا يلبس على القارىء قراءته ، ويخلط عليه ، ويمنعه من التدبر والتفكر .

قوله تعالى : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ :

قال بعض المفسرين معناه لاحجة له عليهم .

وقال الثورى : ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم فى ذنب لايتوبون منه . وقال آخرون : كقوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[1] .

﴿ **إنما سلطانه على الذين يتولونه** ﴾ :

قال مجاهد : يطيعونه .

وقال آخرون : اتخذوه وليا من دون الله .

﴿ **والذين هم به مشركون** ﴾ :

أى أشركوه فى عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أى صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى .

(١) الآية ٤٠ من سورة الحجر .

وقال آخرون : معناه أنه شركهم فى الأموال والأولاد .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا بدلنا أية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون * قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ :

قال قتادة هو كقوله تعالى : ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها** ﴾(٢) الآية .

وقال العلامة ابن كثير : فى هذه الآية يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لايتصور منهم الايمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ (**إنما أنت مفتر**) أى كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وأجابهم الله تعالى : ﴿ **قل نزله روح القدس** ﴾ : أى جبريل ﴿ **من ربك بالحق** ﴾ : أى بالصدق والعدل .

﴿ **ليثبت الذين آمنوا** ﴾ : فيصدقون بما أنزل أولاً وثانياً ، وتخبت له قلوبهم ﴿ **وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ : أى وجعله هادياً ، وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ :

وهذا مما افتراه الكافرون على صاحب الرسالة العصماء ﷺ ، وما كان أكثر مايفترون ، فقد كانوا يقولون إن الذى يتلوه علينا محمد من القرآن إنما كان يعلمه بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمى كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشىء ، وذاك كان أعجمى اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشىء اليسير بقدر ما يرد الجواب .

فلهذا قال تعالى رادا عليهم افتراءهم ذلك : ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ : أى القرآن ، أى فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمى ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل .

قال محمد بن اسحق بن يسار فى السيرة : كان رسول الله ﷺ فيما بلغنى كثيراً ما يجلس عند المروة إلى سبيعة ، غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لبعض بنى الحضرمى ، فأنزل الله : ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين لايؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم * إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون** ﴾ :

(١) الآية ١٠٦ من سورة البقرة .

هذا حكم عادل من الحكم العدل ، وجزاء حق على الذين لايؤمنون بآيات الله ويكذبونها ويجحدونها ، كيف يهديهم الله وقد كفروا بآياته .

وقال الله فيهم : ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً ﴾[(١)] .

إنهم أظلم الخلق الذين قال الله فيهم : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا * ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ﴾[(٢)] .

انتم الذين أعرضوا عن ذكر الله ،فحق فيهم قوله جل شأنه ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾[(٣)] .

إن الله تعالى لايهدى هؤلاء فى الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجع يوم يقوم الناس لرب العالمين : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا * السماء منفطر به كان وعده مفعولا * إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾[(٤)] .

قوله تعالى : ﴿ **إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون** ﴾

هذا دفاع من الله جل وعز عن الصادق الأمين محمد ، فما كذب على الله قط ، وما افترى عليه مالم يقله .

لقد جاء فى الحديث القدسى الجليل قوله تعالى : [صدق عبدى فيما بلغ عنى] .

وكيف يكذب ورب العالمين يقول : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[(٥)] .

وكيف يكذب وقد زكى الله تعالى عقله : فاقسم : ﴿ والنجم إذا هوى ماضل صاحبكم وما غوى ﴾[(٦)] .

وزكى لسانه ، فقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[(٧)] .

وزكى شرعه ، فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾[(٨)] .

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الكهف .
(٢) الآيتان ٥٦ ، ٥٧ من سورة الكهف .
(٣) الآيات ١٢٤ – ١٢٧ من سورة طه .
(٤) الآيات ١٧ – ١٩ من سورة المزمل .
(٥) الآيات ٤١ – ٤٧ من سورة الحاقة .
(٦) الآيات ١ – ٢ من سورة النجم .
(٧) الآية ٣ من سورة النجم .
(٨) الآية ٤ من سورة النجم .

وزكى جليسه فقال: ﴿علمه شديد القوى﴾[1] وزكى فؤاده ، فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد مارأى ﴾[2] .

وزكى بصره ، فقال : ﴿ مازاغ البصر وما طغى ﴾[3] .

وزكى أمته ، فقال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾[4] .

وزكى أهل بيته ، فقال : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[5] .

وزكى رسالته ، فقال : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[6] .

وزكاه كله ، فقال تعالى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[7] .

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ﴾[8] .

فكيف يكذب محمد على الله وهو أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً ، وإيماناً وإيقاناً ، معروفا بالصدق فى قومه ، لا يشك فى ذلك أحد منهم ، بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالأمين محمد ، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التى سألها من صفة رسول الله ﷺ كان فيما قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله .

إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ
بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ
وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ * يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا
وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾

(١) الآية ٥ من سورة النجم .
(٢) الآية ١١ من سورة النجم .
(٣) الآية ١٧ من سورة النجم .
(٤) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٣٣ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية ٤ من سورة القلم .
(٨) الآية ١١١ من سورة يوسف .

المفـــردات : ﴿ **شرح بالكفر صدرا** ﴾ : فتحه ووسعه والمراد أطمأن صدره له ، ﴿ **غضب** ﴾أشد من اللعن الذى هو الطرد من رحمة الله ، ﴿ **استحبوا** ﴾ : اختاروا وأحبوا ، ﴿ **فتنوا** ﴾ : أختبروا بالعذاب .

سبـــب النـــزول

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله ﷺ ، وتقوّلوا عليه الأقاويل ، فوصفوه بأنه مفتر ، وأن الكتاب الذى جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم على ذلك أعظم تهديد ، قفّى على ذلك ببيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالايمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل (أن المشركين أخذوا عمّار بن ياسر فلم يتركوه حتى سب النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال له : ماوراءك ؟ قال : شر ماتركت ، نلت منك وذكرت آلهتهم بخَير ، قال : كيف تجد قلبك ؟ قال ! مطمئن بالإيمان ، قال : إن عادوا فعد فنزلت ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ :)

وروى (أن قريشاً أكرهوا عمارا وأبويه ياسراً وسمية على الارتداد فأبوا ، فربطوا سمية بين بعيرين ، ووجئت بحربة فى موضع عفتها ، وقالوا : إنما أسلمت من أجل الرجال فقتلوها ، وقتلوا ياسراً ، وهما أول قتيلين فى الاسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ماأكرهوه عليه ، فقيل : يارسول الله إن عماراً كفر ، فقال رسول الله ﷺ : كلا إن عماراً ملىء بايمان من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمارا رسول الله ﷺ وهو يبكى فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه وقال : مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت) .

قوله تعالى : ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ : هذا استثناء من قوله ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه** ﴾ : لأن هذا الفريق من الناس كفر بلسانه ، والإيمان مطمئن فى قلبه ، حتى يوافق لسانه مايقول به المشركون ، ولكن القلب عامر بالإيمان ، والتصديق لا يتغير ولا يتبدل الإيمان صانع العجائب والمعجزات ، إذا باشرت بشاشته شفاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكناً ، فلو أنه صعد إلى السماء لكان قمراً منيرا ، ولو امتزج بماء البحر لجعله عذبا فراتاً سلسبيلا ، ولو هبط إلى الأرض لكساها سندساً وحريراً .

أما الذين تمكن الكفر من قلوبهم وشرحوا به صدراً فقد حكم الله تعالى عليهم بقوله : ﴿ **فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

ثم بين حيثيات هذا الحكم بقوله : ﴿ **ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله**

لا يهدى القوم الكافرين ﴾ ، وبقوله : ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾** :

لقد أغلقوا كل نافذة إلى المعرفة ، وآثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ،فحق فيهم قوله جل شأنه : ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[١] .

وحق فيه قوله جل شأنه : ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ﴾[٣] .

نعم إن الله لا يهدى القوم الكافرين ، لأنه حكيم لا يعرف العبث فكيف تجتمع الهداية والكفر فى قلب واحد ، إن هؤلاء القوم قد طبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وعلى سمعهم فلا يسمعون بها ، وعلى أبصارهم فلا يبصرون بها ، ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٤] .

قال تعالى فى حق هؤلاء : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾[٥] ، ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[٦] .

﴿ **لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون** ﴾ :

وهل هناك أشد خسراناً ممن خسر نفسه ، حقاً ذلك هو الخسران المبين ، قال تعالى : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ماعملت وهم لا يظلمون** ﴾ :

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه ، وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الكفر على لسانه وقلبه ملىء بالإيمان —

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .
(٢) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
(٣) الآية ١٨ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٤ من سورة فصلت .
(٦) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٧) الآيات ١٠٣ — ١٠٥ من سورة المؤمنون .

أردف بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم ، فوافقوا المشركين على الفتنة فى الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ، ثم فرّوا وتركوا بلادهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله وطلب غفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول توبتهم ، ودخولهم فى زمرة الصالحين ، وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب .

أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه – وكان أخا أبى جهل من الرضاعة – وأبا جندل بن سهل وسَلَمة بن هشام وعبد الله بن سلمه الثقفى ، فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا ليسلموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا فنزلت فيه الآية : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ .

أى أن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا مساكنهم من أهل الشرك ، وانتقلوا عنهم إلى ديار الاسلام ، من بعد أن فتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرانيهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف ، وبألسنتهم بالبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله ، وصبروا على جهادهم ـــ إن ربك من بعد أفعالهم هذه لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللايمان معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها** ﴾ :

أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم تأتى كل نفس تخاصم عن نفسها ، وتحاجّ عنها ، وتسعى فى خلاصها ، بما أسلفت فى الدنيا من عمل ولا يهمها شأن غيرها من ولد ووالد وقريب . ﴿ **وتُوفّى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾ :

أى وتعطى كل نفس جزاء ما عملت فى الدنيا من طاعة أو معصية فيجزى المحسن بما قدم من إحسان ، والمسيء بما أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسيء فكل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كما قال سبحانه : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[1] .

وجاء فى بعض الآثار : (أن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسى نفسى حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك) .

(١) الآية ٣٧ من سورة عبس .

جزاء كفر النعمة والأمر بشكرها

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ
فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾
وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟
مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾
إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ
وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ
وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾
مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ
وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ
ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

المفردات : ﴿ **فأذاقها** ﴾ : شبه إدراكهم الضرر بتذوقهم طعم المر ، ﴿ **يقولون** ﴾ : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ، لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال وعينه منبعاً للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما ، محيط بتحقيقتهما يصفهما الناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ﴾[١] .

إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هى حقيقته ومنبعه وعليه قول ابى العلاء المعّرى :

سرى برق المعّرة بعد وهن فبات برامة يصف الكلالا

أى أن سُرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .

لتفتروا : أى لتكون العاقبة ذلك .

والجهالة هنا : الطيش وعدم التدبر فى العواقب .

(١) الآية ١١٦ من سورة النحل .

المناسبــــة

بعد أن هدد سبحانه الكافرين بالعذاب الشديد فى الآخرة – أردف ذلك الوعيد بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾ :

هنا مثل أريد به أهل مكة (من القواعد المقررة فى الأصل أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) فإنها تشمل كل مجتمع ينتشر فيه الظلم والكفر والجحود ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون * وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون * أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾[(١)] .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾[(٢)] .

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيـل النعـم
وداوم عليهـا بشكـر الإلـه فـإن الإلـه سريـع النقـم

لقد كانت تلك القرية آمنة مطمئنة مستقرة ، يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرماآمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[(٣)] .

وهكذا قال هنا : ﴿ **يأتيها رزقها رغداً** ﴾ : أى هنيئا سهلا ، ﴿ **من كل مكان فكفرت بأنعم الله** ﴾ : أى جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم كما قال تعالى : ﴿ الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾[(٤)] .

ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما ، فقال : ﴿ **فأذاقها الله لباس الجوع والخوف** ﴾ : أى ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان .

(١) الآيات ٥٨ – ٦١ من سورة القصص .
(٢) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .
(٣) الآية ٥٧ من سورة القصص .
(٤) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة إبراهيم .

وذلك أنهم أستعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه ، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف ، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم ، فأكلوا العلهز – وهو وبر البعير – يخلط بدمه إذا نحروه .

وقوله : ﴿ **والخوف** ﴾ : وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم فى دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذى بعثه الله فيهم منهم ، وامتن به عليهم فى قوله :﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا * رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾[2] .

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم ، فخافوا بعد الأمن ، وجاعوا بعد الرغد ، فبدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ، ورزقهم بعد العيلة . وجعلهم أمراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم ، وهذا الذى قلناه من أن هذا المثل ضرب لأهل مكة قاله العوفى عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ **فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم * ولاتقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾ .

يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأمرين فى هذه الآية أن يأكلوا من رزقه الحلال الطيب ، وأن يشكروا نعمته .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[3] .

ويرحم الله زماناً كانت المرأة المسلمة تقول لزوجها ناصحة له عندما يخرج من بيته سعياً وراء لقمة العيش : يا فلان اتق الله فينا ، ولا تأكل حراماً ، فإننا نستطيع أن نصبر على الجوع فى الدنيا ، ولا نستطيع أن نصبر على عذاب الله يوم القيامة .

فإذا عاد إلى بيته سألته سؤالين :

كم نزل اليوم من القرآن ؟ وكم حفظت من حديث رسول الله ﷺ ؟

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الطلاق .

(٣) الآية ١٧٢ من سورة البقرة .

نعم أن الحرام لايدوم ، وإذا دام لاينفع ، وإن الظلم لايدوم ، وإذا دام دمّر ، وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾(١) .

فيا أيها المخاطبون بهذا الخطاب اتبعوا أوامر الله إن كنتم إياه تعبدون ، فلا معبود سواه ، ولا رب غيره ، فالمصير إليه ، والمآب إليه ، والمرجع إليه .

ثم يذكر الله تعالى بعد ذلك أنواعا من المحرمات فيقول : ﴿ **إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم** ﴾ :

الميتة : مالم يذك زكاة شرعية والمراد بالدم المسفوح كما جاء بيان ذلك فى قوله تعالى : ﴿ قل لاأجد فيما أوحي إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به ﴾(٢) .

والمراد بما أهل لغير الله به أى ذبح على غير اسم الله ، ومع هذا فمن اضطر إليه ، أى احتاج من غير بغى ولا عدوان ﴿ **فإن الله غفور رحيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب * إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون** ﴾ :

عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا .

وقد صدق فكل من أفتى بخلاف ما فى كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم .

ولله در القائل :

كبهيمـــة عميــاء قــاد زمامهــا ... أعمــى علــى عــوج الطريــق الحائــر

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال : (عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت) .

وهذه الآية التى بين ايدينا كقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾(٣) .

إن مدار الحل والحرمة على ماشرعه الله تعالى وبلغه رسوله ، ومن ثم فقد ألقى القرآن الكريم باللائمة على الذين حرموا وأحلوا من غير سلطان أتاهم فشرعوا من الدين مالم يأذن به الله فحرموا البحيرة

(١) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٤٥ من سورة الأنعام
(٣) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس .

والسائبة والوصيلة والحام : ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون * وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون * وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾(١) .

وقد أوعد الله تعالى الذين حرموا وأحلوا من غير إذن من الله وتشريع من لدنه بسوء العاقبة فقال : ﴿ **لتفتروا على الله الكذب** ﴾ : فاللام هنا للعاقبة والصيرورة :

﴿ **إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون** ﴾ : مهما تزينت لهم الدنيا ، وضحت لهم الأيام ، فالمتاع فيها قليل .

قال جل شأنه : ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(٢) .

وهنا يقول جل شأنه : ﴿ **إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون * متاع قليل ولهم عذاب اليم** ﴾ :

أى مؤلم موجع ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾(٣) ؛ ﴿ إن شجرت الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم ﴾(٤) .

وقد حرص السلف الصالح كل الحرص على التحرى فى الفتوى ، وقد كانوا يعلمون أنهم يوقعون عن الله تعالى ، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يقول لمن يستفتيه : (لا تجعلوا ظهورنا جسورا إلى جهنم) .

قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ماقصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ :

لما ذكر تعالى أنه إنما حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما رخص فيه عند الضرورة ــ وفى ذلك توسعة لهذه الأمة التى يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى ــ ذكر سبحانه وتعالى ماكان حرمه على اليهود فى شريعتهم قبل أن ينسخها، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج ، فقال :

---

(١) الآيات ١٣٦ - ١٣٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان ٧٧ ، ٧٨ من سورة النساء .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الكهف .
(٤) الآيات ٤٣ - ٤٦ من سورة الدخان .

﴿ **وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل** ﴾ : أى فى سورة الأنعام فى قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾[1] .

ولهذا قال ههنا ﴿ **وما ظلمناهم** ﴾ : أى فيما ضيقنا عليهم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ : أى فاستحقوا ذلك كقوله : ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾[2] .

ثم أخبر تعالى تكرما وإمتنانا فى حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم إليه تاب عليه ، فقال : ﴿ **ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة** ﴾ :

قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل .

﴿ **ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا** ﴾ : أى أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصى ، واقبلوا على فعل الطاعات ﴿ **إن ربك من بعدها** ﴾ : أى تلك الفعلة والزلة ﴿ **لغفور رحيم** ﴾ .

الخليـــل والحبيـــب

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ
وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ
ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾
إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ
مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ
وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

المفـــردات : ﴿ **الأمة** ﴾ : الجماعة الكثيرة ، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات مالو تفرق لكفى أمة ؛ ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهارون الرشيد مادحاً وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد ، ﴿ **والقانت** ﴾ : المطيع لله القائم بأمره ، ﴿ **والحنيف** ﴾ : المائل عن

(١) الآية ١٤٦ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ١٦٠ من سورة النساء .

الدين الباطل إلى الدين الحق ، ﴿ **واجتباه** ﴾ : اختاره واصطفاه ، ﴿ **والحسنة** ﴾ : هى محبة أهل الأديان جميعا له إجابة لدعوته لربه (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين)[1] ، ﴿ **وجعل السبت لليهود** ﴾ : فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد ، ﴿ **والحكمة** ﴾ : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ، ﴿ **والموعظة الحسنة** ﴾ : الدلائل الظنية المقنعة للعامة ، ﴿ **والجدل** ﴾ : الحوار والمناظرة لاقناع المعاند ، ﴿ **والعقاب** ﴾ : فى أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم استعمل فى مطلق العقاب ، ﴿ **والضيق** ﴾ : (بفتح الضاد وكسرها) الغم وانقباض الصدر .

المناسبـــة

بعد أن زيف سبحانه مذاهب المشركين فى إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفى طعنهم فى نبوة الأنبياء والرسل بنحو قوله : لو أرسل الله رسلا لأرسل ملائكة ، وفى تحليلهم أشياء حرمها الله وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالغ فى هذه المعتقدات ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين ، الذى كان المشركون يفتخرون به ويقرون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملا لهم على الاقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك .

ثم يأمر نبيه محمد ﷺ باتباعه ، ثم يجعل الأسس التى ينبنى عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم يأمره باللين فى العقاب . إن أراده ، أو بترك العقاب وهو أفضل للصابرين ، ثم يأمره بجعل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونهيه عن الحزن على كفر قومه ، وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يمكرون به ، فالله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾ :

مدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات من صفات الكمال :

١ — أنه وحده كان أمة ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده عليه الصلاة والسلام من الخير ماكان عند أمة ، فهو رئيس الموحدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر فى النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ، ليطمئن قلبه بالاسلام .

٢ — إنه كان قانتا ، أى مطيعا لله قائماً بأمره .

٣ — إنه كان حنيفاً أى مائلاً عن الباطل متبعاً للحق لا يفارقه ولا يحيد عنه .

٤ — إنه ماكان من المشركين فى أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحدين فى الصغر والكبر ، فهو الذى

(١) الآية ٨٤ من سورة الشعراء .

قال للملك فى عصره ﴿ربى الذى يحى ويميت﴾[١] وهو الذى أبطل عبادة الأصنام والكواكب، بقوله: ﴿ لاأحب الآفلين﴾[٢] وكسر الأصنام حتى ألقوه لأجلها فى النار، فكانت عليه برداً وسلاماً.

وعلى الجملة فقد كان غارقاً فى بحار التوحيد، مستغرقاً فى حب الإله المعبود، وفى ذلك رد على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا عزير ابن الله، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ماهم عليه.

ونحو الآية قوله ﴿ ماكان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾[٣].

٥ — إنه كان شاكراً لأنعم الله عليه كما قال: ﴿ وإبراهيم الذى وفّى ﴾[٤] أى قام بجميع ماأمره الله تعالى به، وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكره فى المثل السابق.

٦ — إنه اجتباه ربه واختاره للنبوة، كما قال ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾[٥].

٧ — إنه هداه إلى صراط مستقيم، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه.

٨ — إن الله حببه إلى جميع الخلق، فجميع أهل الأديان مسلميهم ونصاراهم ويهودهم يعترفون به، وكفار قريش لافخر لهم إلا به، وقد أجاب الله دعاءه فى قوله ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾[٦].

٩ — إنه فى الآخرة فى زمرة الصالحين، وهو معهم فى الدرجات العلى من الجنة، إجابة لدعوته قال: ﴿ رب هب لى حكماً وألحقنى بالصالحين ﴾[٧].

وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التى بلغت الغاية فى علوّ المرتبة، أخبر أنه أمر نبيه محمداً ﷺ باتباعه فقال: ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾:

أى ثم أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك: اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد. التى يعبدها قومك، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل، فأنت متبع له وسائر على طريقه، وقومك ليسوا كذلك، لأنهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم.

ونحو الآية قوله فى سورة الأنعام: ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيما ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[٨].

---

(١) الآية ٢٥٨ من سورة البقرة.
(٢) الآية ٧٦ من سورة الأنعام.
(٣) الآية ٦٧ من سورة آل عمران
(٤) الآية ٣٧ من سورة النجم.
(٥) الآية ٥١ من سورة الأنبياء.
(٦) الآية ٨٤ من سورة الشعراء.
(٧) الآية ٨٣ من سورة الشعراء.
(٨) الآية ١٦١ من سورة الأنعام.

والخلاصـــة : أنه عليه الصلاة والسلام يأمر بإتباع ملة إبراهيم ، ينفى الشرك وإثبات التوحيد ، وإن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلى ليظاهر الدليل النقلى الدليل العقلى .

وقوله : ﴿ **وما كان من المشركين** ﴾ : تكرير لزيادة التوكيد ، وتقرير لنزاهته عليه الصلاة والسلام عما هم عليه من عقيدة وعمل .

ثم نعى على اليهود مااختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال : ﴿ **إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ :

أى إنما جعل وبال يوم السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الحتم عليهم أن يتفقوا فيه على كلمة واحدة ، بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه ، كما أن وبال التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لا محالة .

وإن ربك ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه إنذار للمشركين ، وتهديد لهم بما فى مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال ، كما ذكر مثل القرية فيما سلف إلا أن فيه حثا على إجابة الدعوة التى تضمنها سابق الكلام ، وأمروا بها فى لاحقه .

ثم فصل سبحانه ماأمر باتباع إبراهيم فيه فقال : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾ :

أى ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التى شرعها لخلقه بوحى الله الذى يوحيه إليك ، وبالعبر والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم ، وذكرهم بها فى تنزيله ، كالذى عدده فى هذه السورة .

وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها ، بأن تصفح عما نالوا من عرضك من أذى ، وترفق بهم بحسن الخطاب ، كما قال فى آية أخرى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾[1] الآية .

وقال آمراً موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾[2] .

ثم توعد سبحانه ووعد فقال : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ :

(١) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .
(٢) الآية ٤٤ من سورة طه .

أى إن ربك أيها الرسول هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين فى السبت وغيره ، وأعلم بمن كان منهم سالكاً قصد السبيل ومحجة الحق . وهو مجازيهم جميعاً حين ورودهم إليه بحسب ما يستحقون .

وخلاصة ذلك – سلك فى الدعوة والمناظرة الطريق المثلى ، وهى الدعوة بالتى هى أحسن وليس عليك غيرها .

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره ، إذ هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال لسوء اختياره ، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء لما ينطوى بين جنبيه من الخير ، فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة ، وهو كاف فى هداية المهتدين ، وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر الله رسوله بالدعوة وبين طريقها ، وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم ، والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعى إما بقتله أو بضربه أو بشتمه ، كما أن الداعى يدعوه طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر سبحانه المحقين برعاية العدل والإنصاف فى العقاب وترك الزيادة فيه فقال : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين** ﴾ : أى وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم فى العقاب إحدى طريقين :

١ – أن تعاقبوه بمثل الذى نالكم به ظالمكم من العقوبة .

٢ – أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب وتصفحوا عنه ، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكلوا أمركم إليه والله يتولى عقوبته ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .

والخلاصة : أنكم إن رغبتم فى القصاص فاقنعوا بالمثل ، ولا تزيدوا عليه ، فإن الزيادة ظلم والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ؛ وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بنصر المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن ندب إليه غيره تعريضاً ، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور لزيادة علمه بشئونه تعالى فقال : ﴿ **واصبر وما صبرك إلا بالله** ﴾ :

أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى فى الله ، ومن إعراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ومشيئته المبنية على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .

وفى هذا تسليه للنبى ﷺ ، وتهوين لمشاق الصبر عليه ، وتشريف له بما لا مزيد عليه .

﴿ **ولا تحزن عليهم** ﴾ : أى ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذبونك ، وينكرون ما جئتهم به .

﴿ **ولاتك فى ضيق مما يمكرون** ﴾ : أى ولا يضيق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر إحتيالاً وخديعة ، لمن أراد الايمان بك وصدًّا عن سبيل الله .

وقصارى ذلك : أنه نهى نبيه ﷺ أن يضيق صدره مما يلقى من أذى المشركين على تبليغهم . وحى الله وتنزيله ، كما قال : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به ﴾[1] ، وقال : ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾[2] .

فالله كافيك أذاهم ، وناصرك عليهم ، ومؤيدك ومظهرك عليهم ، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك فإن الله يبعده عنك ويحبط ما صنعوا وهم لا يشعرون .

﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾ : أى أن الله مع الذين اتقوا محارمه خوفاً من عقابه ، والذين يحسنون رعاية فرائضه والقيام بحقوقه ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفى ترك ما نهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهارون : ﴿ لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾[3] .

وقول النبى ﷺ للصديق وهما فى الغار فيما حكى الله عنه ﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾[4] .

وقصارى ذلك : أن الله تعالى ولى الذين تبتلوا إليه ، وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لفوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائضه ، وأوامر حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكماله ، وقد فسر النبى ﷺ الاحسان فقال : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[5] .

---

(١) الآية ٢ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٢ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٦ من سورة طه .

(٤) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الايمان : ٣٧ . وأخرجه مسلم فى الايمان : ٥٧ . وابوداود فى السنة : ١٦ . والترمذى فى الايمان : ٤ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ . والامام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الخامس عشر

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

ســورة الإســراء

مقدمــة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وآياتها مائة وخمس عشرة آية عند الكوفيين ، وكلماتها ألف وخمسمائة وثلاث وستون ، وحروفها ستة آلاف وأربعمائة وستون .

مقصــود الســورة

تنزيه الحق تعالى ، ومعراج النبى ﷺ ، والإسراء إلى المسجد الأقصى ، وشكر نوح عليه السلام ، وفساد حال بنى إسرائيل .

ومكافأة الإحسان والإساءة ، وتقويم القرآن الخلائق ، وتخليق الليل والنهار .

وبيان الحكمة فى سير الشمس والقمر ودورهما ، وملازمة البخت المرء ، وقراءة الكتب فى القيامة .

وبيان الحكمة فى إرسال الرسل ، والشكوى من القرون الماضية .

وذكر طلب الدنيا والآخرة ، وتفضيل بعض الخلق على بعض ، وجعل بر الوالدين والتوحيد فى قرن واحد ، والإحسان إلى الأقارب .

والأمر بترك الإسراف ، وذم البخل ، والنهى عن قتل الأولاد ، وعن الزِّنا ، وقتل النفس ظلماً ، وأكل مال اليتيم ، وعن التكبر ، وكراهية جميع ذلك .

والسؤال عن المقول والمسموع ، والرد على المشركين ، وتسبيح الموجودات .

وتعيير الكفار بطعنهم فى القرآن ، ودعوة الحق الخلق وإجابتهم له تعالى .

وتفضيل بعض الأنبياء عن بعض ، وتقرب المقربين إلى حضرة الجلال ، وإهلاك القرى قبيل القيامة ، وفتنة الناس برؤيا النبى ﷺ ، وإباء إبليس من السجدة لآدم ، وتسليط الله إياه على الخلق.

وتعديد النعم على العباد ، وإكرام بنى آدم ، وبيان أن كل أحد يدعى فى القيامة بكتابه ودينه وإمامه ، وقصد المشركين إلى ضلال الرسول ﷺ وإذلاله .

والأمر بإقامة الصلوات الخمس فى أوقاتها . وأمر الرسول ﷺ بقيام الليل ، ووعد بالمقام المحمود ، وتخصيصه بمدخل صدق ومخرج صدق ، ونزول القرآن بالشفاء والرحمة .

والشكاية من إعراض العبيد ، وبيان أن كل أحد يصدر منه مايليق به .

والإشارة إلى جواب مسألة الروح ، وعجز الخلق عن الإتيان بمثل القرآن ، وإقتراحات المشركين على رسول الله ﷺ ، وتفصيل حالهم فى عقوبات الآخرة .

وبيان معجزات موسى ومناظرة فرعون إياه ، وبيان الحكمة فى تفرقة القرآن ، وآداب نزوله ، وآداب الدعاء ، وقراءة القرآن .

وتنزيه الحق تعالى عن الشريك والولد ، فى ﴿ الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ﴾ إلى قوله ﴿ وكبره تكبيرا ﴾ .

المتشابهـات :

قوله : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ .

وخصت سورة الكهف ﴿ أجراً حسناً ﴾ لأن الأجر فى السورتين الجنة والكبير والحسن من أوصافها ، لكن خصت هذه السورة بالكبير بفواصل الآى قبلها وبعدها ، وهى : ﴿ حصيراً ﴾ و ﴿ أليماً ﴾ و ﴿ عجولاً ﴾ ، وكلها وقع قبل آخرها مدة .

وكذلك فى سورة الكهف جاء على مايقتضيه الآيات قبلها وبعدها ، وهى ﴿ عوجاً ﴾ وكذا ﴿ أبداً ﴾ وكلها ماقبل آخرها متحرك .

وأما رفع ﴿ يبشر ﴾ فى سبحانه ، ونصبها فى الكهف ، فليس من المتشابه .

قوله : ﴿ لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً ﴾ وقوله : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ .

وقوله : ﴿ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ .

فيها بعض التشابه ، ويشبه التكرار وليس بتكرار ، لأن الأولى فى الدنيا ، والثالثة فى العقبى ، والخطاب فيهما للنبى ﷺ ، والمراد به غيره كما فى قوله : ﴿ إما يبلغن عندك الأكبر ﴾ .

وقيل:القول مضمر أى قل لكل واحد منهم : لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً فى الدنيا ، وتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً فى الأخرى .

وأما الثانية فخطاب للنبى ﷺ وهو المراد به ، وذلك أن امرأة بعثت صبياً لها إليه مرة بعد أخرى ، سألته قميصاً ولم يكن عليه ولا له ﷺ قميص غيره ، فنزعه ودفعه إليه ، فدخل وقت الصلاة ، فلم يخرج حياء ، فدخل عليه أصحابه فرأوه على تلك الصفة فلاموه على ذلك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ فتقعد ملوماً ﴾ يلومك الناس ﴿ محسوراً ﴾ مكشوفاً ، هذا هو الأظهر من تفسيره والله أعلم .

قوله : ولقد صرفنا فى هذا القرآن ﴿ ليذكروا ﴾ وفى آخر السورة : ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن ﴾ وقال فى الكهف : ﴿ ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس ﴾ .

إنما لم يذكر فى أوّل سبحان ﴿ للناس ﴾ لتقدم ذكرهم فى السورة ، وذكرهم فى ﴿ الكهف ﴾ إذ لم يجر ذكرهم ، وذكر الناس فى آخر سبحان ، وإن جرى ذكرهم لأن ذكر الانس والجن جرى معاً فذكر ﴿ للناس ﴾ كراهة الالتباس وقدمه على [فى هذا القرآن] كما قدمه فى قوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ﴾ ثم قال : ﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن ﴾ .

وأما فى الكهف فقدم ﴿ فى هذا القرآن ﴾ لأن ذكره أجل الغرض ، وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، فأوحى الله إليه فى القرآن ، وكأن تقديمه فى هذا الموضوع أجدر ، والعناية بذكره أحرى وأخلق .

قوله : ﴿ وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ .

ثم أعادها فى آخر السورة بعينها من غير زيادة ولا نقصان ، لأن هذا ليس بتكرار ، فإن الأول من كلامهم فى الدنيا حين جادلوا الرسول وأنكروا البعث ، والثانى من كلام الله حين جازاهم على كفرهم وقولهم ذلك وإنكارهم البعث ، فقال ﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أءذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ .

قوله : ﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا ﴾ .

وفى الكهف ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ .

اقتصر هنا على الاشارة لتقدم ذكر جهنم ، ولم يقتصر عليها (فى الكهف) وإن تقدم ذكر جهنم ، بل جمع بين الاشارة والعبارة لما اقترن بقوله : ﴿ جنات ﴾ فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ ثم قال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس ﴾ ، ليكون الوعد والوعيد كلاهما ظاهرين .

قوله ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ وفى سبأ ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ لأنه يعود إلى الرب وقد تقدم ذكره فى الآية الأولى وهو يقول ﴿ وربك أعلم ﴾ وفى سبأ لو ذكر بالكناية لكان يعود إلى الله كما صرح فعاد إليه وبينه وبين ذكره سبحانه صريحاً أربع عشرة آية فلما طال الفصل صرح قوله : ﴿ أرأيتك هذا الذى ﴾ وفى غيرها ﴿ أرأيت ﴾ لأن ترادف الخطاب يدل على أن المخاطب به أمر عظيم ، وهكذا هو فى السورة لأنه لعنه الله ضمن احتناك ذرية آدم عن آخرهم إلا قليلاً .

ومثل هذا ﴿ أرأيتكم ﴾ فى الأنعام فى موضعين .

وقوله ﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى** ﴾ : وفى الكهف زيادة : ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ لأن ما فى السورة معناه : ﴿ ما منعهم ﴾ عن الإيمان بمحمد إلا قولهم : أبعث الله بشراً رسولاً ، هلا

بعث ملكاً ، وجهلوا أن التجانس يورث التوانس ، والتغاير يورث التنافر ، وما فى الكهف معناه : مامنعهم عن الإيمان والاستغفار إلا اتباع سنة الأولين .

قال الزَّجاج : إلا طلب سنة الأولين وهو قولهم ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ فزاد : ويستغفروا ربهم لاتصاله بقوله : ﴿ سنة الأولين ﴾ وهم قوم نوح وصالح وشعيب ، كلهم أمروا بالاستغفار فنوح بقوله : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾[١] .

وهود يقول : ﴿ ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴾[٢] .

وصالح يقول : ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾[٣] .

وشعيب يقول : ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود ﴾[٤] .

فلما خوفهم سنة الأولين أجرى المخاطبين مجراهم .

قوله ﴿قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ﴾ وكذا جاء فى الرعد ، وفى العنكبوت ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيداً ﴾ كما فى الفتح ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ ، ﴿ وكفى بالله نصيراً ﴾ ، ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ .

فجاء فى الرعد ، وفى سبحان على الأصل ، وفى العنكبوت آخر ﴿ شهيداً ﴾ لما وصفه بقوله تعالى ﴿ يعلم ما فى السموات والأرض ﴾ فطال .

قوله : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادر ﴾ ، وفى الأحقاف ﴿ بقادر ﴾ وفى يس ﴿ بقادر ﴾ لأن ما فى هذه السورة خبر أن ، وما فى يس خبر ليس ، فدخل الباء الخبر وكان القياس ألا يدخل فى حم ، لكنه شابه (ليس) بترادف النفى وهو قوله ﴿ أولم يروا ﴾ ، [ولم يعى] .

وفى هذه السورة نفى واحد ، وأكثر أحكام المتشابه ثبت من وجهين قياساً على باب مالا ينصرف وغيره .

قوله ﴿ إنى لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قابل موسى كل كلمة من فرعون بكلمة من نفسه فقال ﴿ وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾

---

(١) الآية ١٠ من سورة نوح
(٢) الآية ٥٢ من سورة هود
(٣) الآية ٦١ من سورة هود
(٤) الآية ٩٠ من سورة هود

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

أخرج أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم عن عائشة (أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزمر)[1] .

وأخرج البخارى وابن مردويه عن ابن مسعود أنه قال فى هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء :﴿هم من العِتاق الأول وهن من تِلادى﴾[2] .

وجه مناسبتها لسورة النحل

١ – أنه سبحانه ذكر فى سورة النحل اختلاف اليهود فى السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التى شرعها لهم فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : (إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل) .

٢ – أنه لما أمر نبيه ﷺ بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكرهم فى السورة السالفة ، ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

٣ – أنه ذكر فى السورة السالفة نعما كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضا نعما خاصة وعامة .

٤ – ذكر هنا أن النحل﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾، وهنا ذكر﴿وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ .

٥ – أنه فى تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

المفردات : ﴿ **سبحان الذى أسرى** ﴾ : أى تنزيها له من كل مالا يليق بجلاله وكماله ، ﴿ **والإسراء كالسرى** ﴾ : السير بالليل خاصة ، ﴿ **والمسجد الحرام** ﴾ : مسجد مكة ، ﴿ **والمسجد الأقصى** ﴾ : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

---

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٥٨ ، وفى ٥ : ١١٤ ، ١٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ ، ١ ، وسورة ٢١ ، ١ . وفى فضائل القرآن : ٦ .

أكثر العلماء أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لا مناماً ، ولهم على ذلك أدلة :

١ – أن التسبيح والتعجب فى قوله : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده** ﴾ : إنما يكون فى الأمور العظام ، ولو كان ذلك مناماً لم يكن فيه كبير شأن ، ولم يكن مستعظماً .

٢ – أنه لو كان مناماً ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ولما قالت أم هانىء : لا تحدث الناس فيكذبوك . ولما فُضل أبو بكر بالتصديق ، وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ (لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها (لم أعرفها حق المعرفة) فكَرّبت كربا ما كُربت مثله قط فرفعه الله لى انظر إليه فما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به) الحديث .

٣ – إن قوله ﴿ **بعبده** ﴾ : يدل على مجموع الروح والجسد .

٤ – إن ابن عباس قال فى قوله ﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به ، ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا فى المشاهدة الحسية . ألا ترى إلى قول الراعى يصف صائداً :

وكبّر للرؤيا وهشّ فؤاده   وبشّر قلبا كان جماً بلابله

٥ – إن الحركة بهذه السرعة ممكنة فى نفسها ، فقد جاء فى القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة فى الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى فى صفة سير سليمان عليه السلام ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾[1] وجاء فيه أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر ، كما قال تعالى : ﴿ قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾[2] وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبده محمد ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله ﷺ ، أن الله حمله على البراق حتى آتاه به ، وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل ، فأراه ما أراه من الآيات . ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن فى ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن منكراً عندهم ، ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرائى منهم فى المنام ما على مسيرة سنة ، فكيف ما هو مسيرة شهر أو أقل .

(١) الآية ١٢ من سورة سبأ .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل .

وبعد فإن الله إنما أخبر فى كتابه أنه أسرى بعده ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزاً لاحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره ، إلى أن الأدلة الواضحة والأخبار المتتابعة عن رسول الله ﷺ أن الله أسرى به على دابة يقال لها البراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجساد ا هـ .

وكذلك كان المعراج إلى السموات العلى بجسده وروحه يقظة لا مناماً ، لدليلين :

١ – آية الاسراء ، إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلاً بهما .

٢ – الحديث المروى فى الكتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الاقلام .

وفى الإسراء والمعراج موعظة وذكرى .

يقول الشيخ المراغى رحمه الله تعالى :

إنا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين ، لنستخلص منهما أموراً هى الغاية فى العظة والاعتبار :

١ – إن هاتين الرحلتين : الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ، ليمحص الله المؤمنين ، ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقاً بصحبة رسوله الأعظم إلى دار الهجرة ، والانضواء تحت لوائه ، وجديراً بما يحتمله من أعباء عظام ، وتكاليف شاقة ، من حروب دينية ، وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء ، وإنشاء دولة تبتلع المعمور فى ذلك الحين شرقاً وغرباً .

٢ – إن الله أطلع رسوله على ما فى هذا الكون أرضيه وسماويه من العظمة والجلال ليكون ذلك درساً علمياً لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر ، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة أو يجلس إلى معلم . أو يسبح فى أرجاء المعمورة ، أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء . فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى ، وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التى لا تصل أذهاننا إلى إدراك فهمها ، إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنّى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[1] .

٣ – إن ما يجد كل يوم من ضروب المخترعات والتوسل بها إلى طى المسافات بوسائل الطيارات ، وقطع المحيطات فى قليل الساعات من قارة إلى قارة ، ومن قطر إلى قطر ، ليجعلنا نعتقد أن ما جاء فى وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التى ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

٤ – إن روحانية الأنبياء تتغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيل إلينا من العوائق العملية من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى لتخلخل الهواء ، وإستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة فى عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاماً لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها ، وإبداء الرأى فيها ، وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجدر بنا ألا نطيل البحث فيها ، ولا التعمق فى استقصاء آثارها .

٥ – إن ما جاء فى الحديث من أن الرسول ﷺ صلى إماماً بالأنبياء ، ليرشد إلى أن محمداً ﷺ جاء بشريعة ختمت الشرائع السالفة كلها ، وأئمتها ومن أوتوها ألقوا الزعامة إليه ، وصاروا مؤتمين به .

٦ – إن فى هذا مغزى جديدا بطويل التأمل والتفكير ، وهو أن جميع الأنبياء كانوا فى وفاق ووئام فى الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذى أرسلهم ، أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم ، وأن يجعلوا أمرهم بينهم سلماً لا حرباً ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة والقانون الذى جاءت به هو الشريعة التى يقضى بها بين الناس كما هو المتبع فى القوانين الوضعية ، فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير ، وهو يُلغى جميع ما سبقه .

شـــرح وتفصيـــل

لمعجزتى الإسراء والمعراج شرح وتفصيل فى السنة المطهرة .

قال العلامة ابن كثير فى قوله : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾ :

قال رحمه الله : يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ **الذى أسرى بعبده** ﴾ : يعنى محمداً ﷺ ﴿ **ليلا** ﴾ : أى فى جنح الليل ﴿ **من المسجد الحرام** ﴾ : وهو مسجد مكة ﴿ **إلى المسجد الأقصا** ﴾ : وهو بيت المقدس الذى بإيلياء ، معدن الأنبياء من لدن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ولهذا جمعوا له هناك كلهم فأمّهم فى محلتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ **الذى باركنا حوله** ﴾ : أى فى الزروع والثمار ﴿ **لنريه** ﴾ : أى محمداً ﴿ **من آياتنا** ﴾ : أى العظام ، كما قال تعالى : ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾[1] .

وسنذكر من ذلك ما وردت به السنة من الأحاديث عنه ﷺ .

وقوله تعالى ﴿ **إنه هو السميع البصير** ﴾ : أى السميع لأقوال عباده ، مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم ، فيعطى كلا منهم ما يستحقه فى الدنيا والآخرة .

(١) الآية ١٨ من سورة النجم .

ذكـر الأحاديـث الواردة فـى الإســراء

قال الإمام أبو عبد الله البخارى : حدثنى عبد العزيز بن عبد الله حدثنا سليمان هو ابن بلال عن شريك بن عبد الله قال : سمعت أنس بن مالك يقول ليلة أسرى برسول الله ﷺ من مسجد الكعبة (إنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه وهو نائم فى المسجد الحرام فقال أولهم أيهم هو ؟ فقال أوسطهم هو خيرهم فقال آخرهم خذوا خيرهم ، فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يرى قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم . فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم فتولاه منهم جبريل فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته حتى فرغ من صدره وجوفه فغسله من ماء زمزم بيده حتى أنقى جوفه ثم أتى بطست من ذهب فيه نور من ذهب محشو إيماناً وحكمة فحشا به صدره ولغاد يده – يعنى عروق حلقه – ثم أطبقه .

ثم عرج به إلى السماء الدنيا فضرب باباً من أبوابها فناداه أهل السماء من هذا ؟ فقال جبريل قال : ومن معك ؟ قال معى : محمد . قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم قالوا : فمرحباً به وأهلاً يستبشر به أهل السماء ، لايعلم أهل السماء بما يريد الله به فى الأرض ، حتى يعلمهم .

فوجد فى السماء الدنيا آدم فقال له جبريل : هذا أبوك آدم . فسلم عليه ، وردّ عليه آدم ، فقال : مرحباً وأهلا بابنى نعم الابن أنت ، فإذا هو فى السماء الدنيا بنهرين يطردان فقال : ما هذان النهران يا جبريل ؟ قال : هذان النيل والفرات ، عنصرهما ثم مضى به فى السماء فإذا هو بنهر آخر عليه قصر من لؤلؤ وزبرجد ، فضرب بيده فإذا هو مسك أزفر ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى خبأ لك ربك

ثم عرج به إلى السماء الثانية فقالت الملائكة له مثل ما قالت له الملائكة فى الأولى : من هذا ؟ قال : جبريل . قالوا : ومن معك ؟ قال محمد ﷺ قالوا : وقد بعث إليه ؟ قال : نعم . قالوا : مرحباً به وأهلاً

ثم عرج به إلى السماء الثالثة فقالوا له مثل ما قالت الأولى والثانية .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السادسة فقالوا له مثل ذلك .

ثم عرج به إلى السماء السابعة فقالوا له مثل ذلك .

كل سماء فيها أنبياء قد سماهم فوعيت منهم إدريس فى الثانية ، وهارون فى الرابعة ، وآخر فى الخامسة لم أحفظ اسمه وإبراهيم فى السادسة ، وموسى فى السابعة . بتفضيل كلام الله تعالى .

فقال موسى : رب لم أظن أن ترفع على أحداً .

ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل ، حتى جاء سدرة المنتهى ، ودنا الجبار رب العزة فتدلى ، حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الله إليه فيما يوحى خمسين صلاة على أمتك كل يوم وليلة .

ثم هبط به حتى بلغ موسى فاحتبسه موسى ، فقال : يا محمد ماذا عهد إليك ربك ؟ قال : عهد إلى خمسين صلاة كل يوم وليلة . قال : إن أمتك لا تستطيع ذلك فارجع فليخفف عنك ربك وعنهم ، فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك ، فأشار إليه جبريل : أن نعم إن شئت . فعلا به إلى الجبار تعالى وتقدس فقال وهو فى مكانه : يارب خفف عنا فإن أمتى لا تستطيع هذا . فوضع عنه عشر صلوات ثم رجع إلى موسى فاحتبسه فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات ، ثم احتبسه موسى عند الخمس فقال : يا محمد والله لقد راودت بنى إسرائيل قومى على أدنى من هذا فضعفوا فتركوه ، فأمتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبداناً وأبصاراً وأسماعاً ، فارجع فليخفف عنك ربك ، كل ذلك يلتفت النبى ﷺ إلى جبريل ليشير عليه ولا يكره ذلك جبريل .

فرفعه عند الخامسة فقال : يارب إن أمتى ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا فقال الجبار تبارك تعالى : يا محمد . قال : لبيك وسعديك . قال : إنه لا يبدل القول لدى ، كما فرضت عليك فى أم الكتاب فكل حسنة بعشر أمثالها ، فهى خمسون فى أم الكتاب وهى خمس عليك .

فرجع إلى موسى فقال : كيف فعلت ؟ فقال : خفف عنا أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها ، قال موسى : قد والله راودت بنى إسرائيل على أدنى من ذلك فتركوه فارجع إلى ربك فليخفف عنك أيضا . قال رسول الله ﷺ : يا موسى قد والله استحييت من ربى عز وجل مما أختلف إليه . قال : فاهبط باسم الله . قال : واستيقظ وهو فى المسجد الحرام[١] .

وهكذا ساقه البخارى فى كتاب التوحيد ورواه فى صفة النبى ﷺ .

قالت عائشة وابن مسعود وأبو هريرة فى حملهم قوله تعالى : ﴿ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾[٢] الخ الآيات حمل هذه الآيات على جبريل أصح .

قال أبو ذر : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : (نور أنّى أراه) وفى رواية : (رأيت نوراً)[٣] أخرجه مسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (أتيت بالبراق وهو دابة

---

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ ، وفى الأنبياء : ٥ ، وفى التوحيد : ٣٧ . ومسلم فى الإيمان : ٢٥٩ ، ٢٦٣ . وابن ماجة فى الإقامة : ١٩٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٤٩ ، وفى ٥ : ١٤٤ .

(٢) الآيات ٨ — ١٠ من سورة النجم .

(٣) أخرجه مسلم فى الايمان ٢٩١ . والترمذى فى تفسير سورة ٥٣ : ٧ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٥٧ ، ١٧١ ، ١٧٥ .

أبيض فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه فركبته فسار بى حتى أتيت بيت المقدس فربطت الدابة بالحلقة التى يربط فيها الأنبياء ثم دخلت فصليت فيه ركعتين .

ثم خرجت فأتانى جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل : أصبت الفطرة قال ثم عرج بى إلى السماء الدنيا فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا يابنى الخاله يحيى وعيسى فرحبا بى ودعوا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل فقيل له من أنت ؟ قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد أرسل إليه ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام وإذا هو قد أعطى الشطر الحسن فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد أرسل إليه ؟ قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس فرحب بى ودعا لى بخير ثم يقول الله تعالى ﴿ ورفعناه مكاناً علياً ﴾[1] .

ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت ، قال جبريل فقيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل قد أرسل إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل فقيل من أنت قال جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد فقيل وقد بعث إليه قال قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإبراهيم عليه السلام وإذا هو مستند إلى البيت المعمور وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه .

ثم ذهب بى إلى سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تغيرت فما أحد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها قال فأوحى الله إلى ما أوحى وقد فرض على فى كل يوم وليلة خمسين صلاة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى قال ما فرض ربك على أمتك قلت خمسين صلاة فى كل يوم وليلة قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك . وإنى قد بلوت بنى إسرائيل وخبرتهم قال فرجعت إلى ربى فقلت أى رب خفف عن أمتى فحط عنى خمساً فنزلت حتى انتهيت إلى

---

(1) الآية ٥٧ من سورة مريم .

موسى فقال ما فعلت فقلت قد حط عنى خمساً ، فقال إن أمتك لا تطيق ذلك فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قال فلم أزل أرجع بين ربى وبين موسى ويحط عنى خمساً خمساً حتى قال : يا محمد هن خمس صلوات فى كل يوم وليلة بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة ومن هَمَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة فإن عملها كتبت عشراً ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب فإن عملها كتبت سيئة واحدة فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته ، فقال ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا تطيق ذلك فقال رسول الله ﷺ لقد رجعت إلى ربى حتى استحييت .

قال البيهقى وفى هذا السياق دليل على أن المعراج كان ليلة أسرى به عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس ، وهذا الذى قاله هو الحق الذى لا شك فيه ولا مرية .

مشاهد ليلة الإسراء والمعراج

روى الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لما عرج بى إلى ربى عز وجل مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون فى أعراضهم)(١) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (مررت ليلة أسرى بى على موسى عليه السلام قائماً يصلى فى قبره)(٢) .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (لما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ بالبراق فكأنها حركت ذنبها فقال لها جبريل : مه يابراق ، فوالله ماركبك مثله . وسار رسول الله ﷺ فإذا هو بعجوز على جانب الطريق فقال : (ماهذه ياجبريل ؟) قال : سر يامحمد قال : فسار ماشاء الله أن يسير ، فإذا شىء يدعوه متنحيا عن الطريق فقال : هلم يامحمد ، فقال له جبريل : سر يامحمد . فسار ماشاء الله أن يسير . قال : فلقيه خلق من خلق الله فقالوا : السلام عليك ياأول السلام عليك ياآخر السلام عليك ياحاشر . فقال له جبريل : أردد السلام يامحمد . فرد السلام ، ثم لقيه الثانية فقال له مثال مقالته الأولى ، ثم الثالثة كذلك حتى انتهى إلى بيت المقدس ، فعرض عليه الخمر والماء واللبن ، فتناول رسول الله ﷺ اللبن فقال له جبريل : أحببت الفطرة ، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك ، ولو شربت الخمر لغويت ولغوت أمتك ، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة .

ثم قال له جبريل : أما العجوز التى رأيت على جانب الطريق فلم يبق من الدنيا إلا كما بقى من عمر تلك العجوز .

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٣٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٢٤ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٢٠ .

وأما الذى أراد أن تميل إليه فذاك عدو الله إبليس ، أراد أن تميل إليه .

وأما الذين سلموا عليك فإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام . وهكذا رواه الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة .

وفى حديث لابن أبى حاتم عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : يا جبريل (مالى لم آت أهل سماء إلا رحبوا بى وضحكوا إلى غيرَ رجل واحد فسلمت عليه فرد على السلام ، ورحب بى ولم يضحك لى) قال : يا محمد ذاك مالك خازن جهنم ، لم يضحك منذ خلق ، ولو ضحك إلى أحد لضحك إليك .

قال : ثم ركب منصرفاً فبينا هو فى بعض الطريق مر بعير لقريش تحمل طعاماً منها جمل عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء ، فلما حاذى بالعير نفرت منه واستدارت ، وصرع ذلك البعير وانكسر ، ثم إنه مضى فأصبح فأخبر عما كان ، فلما سمع المشركون قوله أتوا أبا بكر فقالوا : يا أبا بكر هل لك فى صاحبك ؟ يخبر أنه أتى فى ليلته هذه مسيرة شهر ورجع فى ليلته . فقال أبو بكر رضى الله عنه : إن كان قاله فقد صدق ، وإنا لنصدقه فيما هو أبعد من هذا ، لنصدقه على خبر السماء . فقال المشركون لرسول الله ﷺ : ما علامة ما تقول ؟ قال : (مررت بعير لقريش وهى فى مكان كذا وكذا فنفرت الإبل منا واستدارت وفيها بعير عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء فصرع فانكسر) فلما قدمت العير سألوهم فأخبروهم الخبر على مثل ما حدثهم رسول الله ﷺ ، ومن ذلك سمى أبو بكر الصديق .

وسألوه وقالوا : هل كان فيمن حضر معك موسى وعيسى ؟ قال : (نعم) قالوا : فصفهم لنا . قال : (نعم أما موسى فرجل آدم كأنه من رجال أزدعمان ، وأما عيسى فرجل ربعة سبط تعلوه حمرة كأنما يتحادر من شعره الجمان)(١) .

وروى البخارى بسنده عن أنس بن مالك قال كان أبو ذر يحدث رسول الله ﷺ قال : (خرج عن سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيمانا فأفرغه فى صدرى ، ثم أُطبقه ، ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء الدنيا ، فلما جئت إلى السماء قال جبريل لخازن السماء : افتح قال : من هذا ؟ قال : جبريل . قال : هل معك أحد ؟ قال : نعم معى محمد ﷺ . فقال : أرسل إليه ؟ قال : نعم . فلما فتح علونا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى ، فقال مرحباً : بالنبى الصالح والابن الصالح . قال : قلت لجبريل : من هذا ؟ قال : هذا آدم ،وهذه الأسودة عن يمينه وعن شماله نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التى عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر عن شماله بكى)(٢) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ . ١٩٧ ، ٢٥٤ ، ٢٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ ، وفى الأنبياء : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٢٦٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٤٣ .

وروى الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتابه دلائل النبوة عن أبى سعيد الخدرى.فقال : قال رسول الله ﷺ : فاستفتح جبريل باب السماء قيل : من هذا ، قال : جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال : محمد . قيل : أو قد بعث إليه ؟ قال : نعم ، فإذا بآدم كهيئته يوم خلقه الله عز وجل على صورته ، فإذا هو تعرض عليه أرواح ذريته من المؤمنين فيقول : روح طيبة ونفس طيبة اجعلوها فى عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار فيقول : روح خبيثة ونفس خبيثة اجعلوها فى سجين .

فمضيت هنيئة فإذا أنا بأخونة عليها لحم مشرح ، ليس يقربها أحد ، وإذا أنا بأخونة أخرى عليها لحم قد أروح وأنتن عندها أناس يأكلون منها . قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك يأتون الحرام ويتركون الحلال .

قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، قال : فتفتح أفواههم فيلقمون من ذلك الجمر ، ثم يخرج من أسافلهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله عز وجل فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا .

قال : ثم مضيت هنيهة ، فإذا أنا بنساء تعلقن بثديهن فسمعتهن يضججن إلى الله عزَّ وجلَّ . قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟ قال: هؤلاء الزناة من أمتك .

قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام بطونهم أمثال البيوت كلما نهض أحدهم خرَّ فيقول : اللهم لا تقم الساعة . قال : وهم على سابلة آل فرعون ، قال : فتجيء السابلة فتطؤهم . قال : فسمعتهم يضجون إلى الله . قال : قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء من أمتك ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس﴾ .

قال : ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم فيلقمونه ، فيقال له : كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون .

ومن المشاهد التى رواها الصادق المعصوم : ما جاء فى قوله ﷺ :

(ثم إنى رفعت إلى الجنة فاستقبلتنى جارية ، فقلت : لمن أنت يا جارية ؟ قالت : لزيد بن حارثة ، وإذا بأنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ،وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وإذا رمانها كالدلاء عظما ، وإذا أنا بطيرها كأنها بختكم هذه . فقال عندها ﷺ : إن الله تعالى قد أعد لعباده الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال : ثم عرضت على النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته ، ولو طرحت فيها الحجارة والحديد لأكلتها ، ثم أغلقت دونى[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٢ : ١ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى الإيمان : ٣١٢ ، وفى احة : ٢ ٥ والترمذى فى تفسير سورة ٣٢ : ٢ ، وسورة ٥٦ : ١ . وابن ماجة فى الزهد : ٣٩ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٣٤ .

ومن المشاهد التى رآها الصادق المعصوم ما جاء فى رواية الإمام أحمد عن ابن عباس قال : (ليلة أسرى برسول الله ﷺ دخل الجنة فسمع فى جانبها وخشا ، فقال : يا جبريل ما هذا ؟ قال : هذا بلال المؤذن . فقال : النبى ﷺ حين جاء إلى الناس : (قد أفلح بلال رأيت له كذا وكذا) قال : فلقيه موسى عليه السلام فرحب به ، وقال : مرحباً بالنبى الأمى . قال : وهو رجل آدم طويل سبط شعره مع أذنيه أو فوقهما فقال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا موسى .

قال : فمضى فلقيه شيخ جليل متهيب فرحب به وسلم عليه وكلهم يسلم عليه . قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك إبراهيم .

قال : ونظر فى النار فإذا قوم يأكلون الجيف . قال : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلا أحمر أزرق جدا ، قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة[1] .

ومن المشاهد التى رآها رسول الله ﷺ ما رواه الإمام البيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ (لما أسرى بى مرت بى رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة ؟ قال : ماشطة بنت فرعون وأولادها سقط المشط من يدها . فقالت : باسم الله ، فقالت بنت فرعون : أبى ؟ قالت : ربى وربك ورب أبيك ، قالت : أولك رب غير أبى ؟ قالت : نعم : ربى ورب أبيك الله . قال : فدعاها فقال : ألك رب غيرى ؟ قالت نعم ربى وربك الله عز وجل . قال : فأمر ببقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها أن تلقى فيها . قالت : إن لى إليك حاجة . قال : ماهى ؟ قال : تجمع عظامى وعظام ولدى فى موضع . قال : ذاك لك لما لك علينا من الحق . قال : فأمر بهم فألقوا واحداً واحداً حتى بلغ رضيعاً فيهم . فقال : يا أمة قعى ولا تقاعسى فإنك على الحق . قال : وتكلم أربعة فى المهد وهم صغار هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج وعيسى بن مريم عليه السلام .

قال الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : (لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا أمر الساعة . قال: فردوا أمرهم إلى إبراهيم عليه السلام . فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى موسى . فقال : لا علم لى بها ، فردوا أمرهم إلى عيسى فقال : أما وجبتها فلا يعلم بها أحد إلا الله عز وجل ، وفيما عهد إلى ربى أن الدجال خارج قال : ومعى قضيبان فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص . قال : فيهلكه الله إذا رآنى حتى إن الحجر والشجر يقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله . قال فيهلكهم الله ، ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطئون بلادهم فلا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه . قال : ثم يرجع الناس إلى فيشكونهم فأدعو الله عليهم فيهلكهم ويميتهم حتى تجوى الأرض من نتن ريحهم أى تنتن .

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ١٧ ، وفى تفسير سورة ٩١ : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٧ ، ٢٦٣ .

قال فينزل الله المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر . ففيما عهد إلىَّ ربى أن ذلك إذا كان كذلك أن الساعة كالحامل المتم لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلا أو نهارا(١) .

ومن المشاهد ما رواه الإمام أبو جعفر بن جرير عن أبى هريرة فى قول الله عزَّ وجلَّ ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾ : الآية . قال : جاء جبريل إلى النبى ﷺ ومعه ميكائيل فقال جبريل لميكائيل ائتنى بطست من ماء زمزم كيما أطهر قلبه وأشرح له صدره ، قال فشق عنه بطنه فغسله ثلاث مرات واختلف إليه ميكائيل بثلاث طساس من ماء زمزم فشرح صدره فنزع ما كان فيه من غل وملأه علما وحلما وإيمانا ويقينا وإسلاما وختم بين كتفيه بخاتم النبوة ثم أتاه بفرس فحمله عليه كل خطوة منه منتهى بصره أو أقصى بصره . قال : فسار وسار معه جبريل عليهما السلام .

قال : فأتى على قوم يزرعون فى يوم ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان فقال النبى ﷺ : « يا جبريل ما هذا ؟ » قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت ولا يفتر عنهم من ذلك شىء فقال : « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح الإبل والغنم . ويأكلون الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها قال : « فما هؤلاء يا جبريل » . قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله تعالى شيئا وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ولحم نىء فى قدر خبيث ، فجعلوا يأكلون من اللحم النىء الخبيث ويدعون النضيج الطيب فقال : « ما هؤلاء يا جبريل ؟ » فقال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيبة فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت معه حتى تصبح .

قال : ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شىء إلا خرقته قال : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونها . ثم تلا ﴿ ولا تقعدون بكل صراط توعدون وتصدون ﴾(٢) الآية .

قال : ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها فقال : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها وهو يريد أن يحمل عليها .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى الفتن : ٣٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٧٥ .
(٢) الآية ٨٦ من سورة الأعراف .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء فقال « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع فقال : « ما هذا يا جبريل ؟ » فقال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد ريحا طيبة باردة وريح مسك ، وسمع صوتا فقال : « يا جبريل ما هذه الريح الطيبة الباردة وما هذا المسك وما هذا الصوت ؟ » قال : هذا صوت الجنة تقول يارب ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت غرفى واستبرق وحريرى وسندسى وعبقرى ولؤلؤى ومرجانى وفضتى وذهبى وأكوابى وصحافى وأباريقى وأكوسى وعسلى ومائى ولبنى وخمرى . فأتنى بما وعدتنى . فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، ومن آمن بى وبرسلى وعمل صالحا ولم يشرك بى شيئا ، ولم يتخذ من دونى أندادا ، ومن خشينى فهو آمن ، ومن سألنى أعطيته ، ومن أقرضنى جزيته ومن توكل على كفيته ، إنى أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ، وقد أفلح المؤمنون وتبارك الله أحسن الخالقين . قالت : قد رضيت .

قال : ثم أتى على واد فسمع صوتا منكرا ووجد ريحا خبيثة فقال : « ما هذه الريح يا جبريل وما هذا الصوت ؟ » فقال : هذا صوت جهنم تقول يا رب : ائتنى بما وعدتنى فقد كثرت سلاسلى وأغلالى وسعيرى وحميمى وضريعى وغساقى وعذابى وقد بعد قعرى واشتد حرى ، فائتنى بما وعدتنى ، قال : لك كل مشرك ومشركة ، وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة . وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب . قالت قد رضيت .

قال : ثم سار حتى أتى بيت المقدس فنزل فربط فرسه إلى الصخرة ثم دخل فصلى مع الملائكة فلما قضيت الصلاة قالوا يا جبريل من هذا معك ؟ قال : محمد ﷺ قالوا : أوقد أرسل إليه قال نعم قالوا حياه الله من أخ ومن خليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ، ونعم المجيء جاء .

قال : ثم لقى أرواح الأنبياء فأثنوا على ربهم فقال إبراهيم عليه السلام : الحمد لله الذى اتخذنى خليلا وأعطانى ملكا عظيما وجعلنى أمة قانتا يؤتم بى وأنقذنى من النار وجعلها على بردا وسلاما .

ثم إن موسى عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى كلمنى تكليما وجعل هلاك آل فرعون ونجاة بنى إسرائيل على يدى وجعل من أمتى قوما يهدون بالحق وبه يعدلون .

ثم إن داود عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى جعل لى ملكاً عظيماً وعلمنى الزبور وألان لى الحديد وسخر لى الجبال يسبحن والطير وأعطانى الحكمة وفصل الخطاب .

ثم إن سليمان عليه السلام أثنى على ربه فقال : الحمد لله الذى سخر لى الرياح وسخر لى الشياطين يعملون لى ما شئت من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . وعلمنى منطق الطير ،

وآتانى من كل شيء فضلا وسخر لى جنود الشياطين والإنس والطير وفضلنى على كثير من عباده المؤمنين ، وآتانى ملكا عظيما لا ينبغى لأحد من بعدى وجعل ملكى ملكا طيبا ليس فيه حساب .

ثم إن عيسى عليه السلام أثنى على ربه عز وجل فقال الحمد لله الذى جعلنى كلمته وجعل مثلى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، وعلمنى الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وجعلنى أخلق من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وجعلنى أبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله ورفعنى وطهرنى وأعاذنى وأمى من الشيطان الرجيم ، فلم يكن للشيطان علينا سبيل .

قال : ثم إن محمدا ﷺ أثنى على ربه عز وجل فقال : (كلكم أثنى على ربه وإنى مثن على ربى فقال : الحمد لله الذى أرسلنى رحمة للعالمين وكافة للناس بشيراً ونذيراً وأنزل علىّ الفرقان فيه بيان لكل شيء وجعل أمتى خير أمة أخرجت للناس وجعل أمتى أمة وسطا وجعل أمتى هم الأولون وهم الآخرون وشرح لى صدرى ووضع عنى وزرى ورفع لى ذكرى وجعلنى فاتحا وخاتما ، فقال إبراهيم عليه السلام : بهذا فضلكم محمد ﷺ

قال أبو جعفر الرازى خاتم بالنبوة فاتح بالشفاعة يوم القيامة ... الحديث .

وجاء فى هذا الحديث أيضاً : (ثم انتهى إلى السدرة فقيل له هذه السدرة ينتهى إليها كل أحد خلا من أمتك على سنتك . فإذا هى شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ، وهى شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين عاما لا يقطعها ، والورقة منها تغطى الأمة كلها ، قال : فغشيها نور الخلاق عز وجل ، وغشيتها الملائكة أمثال الغربان حين يقعن على الشجرة ، من حب الرب تبارك وتعالى ، قالوا : فكلمه الله عند ذلك فقال له : سل ، فقال : إنك اتخذت إبراهيم خليلا ، وأعطيته ملكا عظيما ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكا وسخرت له الجن والإنس والشياطين وسخرت له الرياح وأعطيت له ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرىء الأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذنك وأعذته وأمه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل ، فقال له الرب عز وجل : وقد اتخذتك خليلا - وهو مكتوب فى التوراة حبيب الرحمن - وأرسلتك إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً . وشرحت لك صدرك ، ووضعت عنك وزرك . ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت معى وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس ، وجعلت أمتك أمة وسطا ، وجعلت أمتك هم الأولين والآخرين وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدى ورسولى ، وجعلت من أمتك أقواما قلوبهم أناجيلهم ، وجعلتك أول النبيين خلقا وآخرهم بعثا ، وأولهم يقضى له ، وأعطيتك سبعا من المثانى لم يعطها نبى قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك الكوثر وأعطيتك ثمانية أسهم : الإسلام ، والهجرة ، والجهاد ، والصلاة ، والصدقة ، وصوم رمضان ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن

المنكر ، وجعلتك فاتحا خاتما فقال النبى ﷺ : (فضلنى ربى بست : أعطانى فواتح الكلام وخواتيمه وجوامع الحديث ،وأرسلنى إلى الناس كافة بشيراً . ونذيراً ، وقذف فى قلوب أعدائى الرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى وجعلت لى الأرض كلها طهوراً ومسجداً)[1] .

وبعد : فقد ذكرنا شرحا وتفصيلا فى معجزتى الإسراء والمعراج كما جاء فى كتب التفسير والسنة ، وخلاصة القول أن الإسراء والمعراج معجزتان خارقتان للعادة ، أجراهما الله على يدى حبيبه ومصطفاه ﷺ ، وهما فى الحقيقة مدرسة نبوية انتظمت دروسا عديدة ومفيدة للحياة ، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

وقال موسى بن عقبة عن الزهرى : كان الإسراء قبل الهجرة بسنة ، وكذا قال عروة وقال السدى : بستة عشر شهرا .

والحق أنه عليه السلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله فصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها فصعد فيه إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم فى السادسة ، وإبراهيم الخليل فى السابعة ، ثم جاوز منزلتيهما ﷺ وعليهما وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام — أى أقلام القدر ، بما هو كائن .

ورأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة .

ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفا أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، وإبراهيم الخليل بانى الكعبة الأرضية مسندا ظهره إليه لأنه الكعبة السماوية ، يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هناك الصلوات خمسين ، ثم خفضها إلى خمس رحمة منه ولطفا بعباده ، وفى هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها .

ولقد عاد رسول الله ﷺ إلى مكة بغلس .

وأما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل أو اللبن والخمر ، أو اللبن والماء أو الجميع فقد ورد أنه فى بيت المقدس وجاء أنه فى السماء . ويحتمل أن يكون ههنا وههنا لأنه كالضيافة للقادم والله أعلم .

فائدة جليلة حسنة :

روى الحافظ إبراهيم الأصفهانى فى كتاب دلائل النبوة من طريق محمد بن عمر الواقدى حدثنى مالك بن أبى الرجال عن عمر بن عبد الله عن محمد بن كعب القرظى .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٩٦ .

قال : بعث رسول الله ﷺ دحية بن خليفة إلى قيصر فذكر وروده عليه وقدومه إليه ، وفى السياق دلالة عظيمة على وفور عقل هرقل ، ثم استدعى من بالشام من التجار فجيء بأبى سفيان بن صخر بن حرب وأصحابه ، فسألهم عن تلك المسائل المشهورة التى رواها البخارى ومسلم كما سيأتى بيانه ، وجعل أبو سفيان يجهد أن يحقر أمره ويصغره عنده .

قال فى هذا السياق عن أبى سفيان : والله ما منعنى من أن أقول عليه قولا أسقطه من عينه إلا أنى أكره أن أكذب عنده كذبة يأخذها على ولا يصدقنى فى شيء ، قال حتى ذكرت قوله ليلة أسرى به قال : فقلت أيها الملك ألا أخبرك خبرا تعرف أنه قد كذب ؟ قال : وما هو ، قال : قلت إنه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم فى ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيلياء ورجع إلينا تلك الليلة قبل الصباح .

قال : وبَطْريق إيلياء عند رأس قيصر ، فقال بَطْريق إيلياء : قد علمت تلك الليلة . قال : فنظر إليه قيصر وقال : وما علمك بهذا ؟ قال : إنى كنت لا أنام ليلة حتى أغلق أبواب المسجد ، فلما كان تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبنى فاستعنت عليه بعمالى ومن يحضرنى كلهم معالجة ، فغلبنا فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاول به جبلا ، فدعوت إليه النجاجرة فنظروا إليه فقالوا : إن هذا الباب سقط عليه النجاف والبنيان ولا نستطيع أن نحركه حتى نصبح ، فننظر من أين أتى . قال : فرجعت وتركت البابين مفتوحين فلما أصبحت غدوت عليهما فإذا الحجر الذى فى زاوية المسجد مثقوب ، وإذا فيه أثر مربط الدابة ، قال : فقلت لأصحابى ما حبس هذا الباب الليلة إلا على نبى . وقد صلى الليلة فى مسجدنا وذكر تمام الحديث .

فائدة أخرى :

قال الحافظ أبو الخطاب عمر بن دحية فى كتابه : (التنوير فى مولد السراج المنير) وقد ذكر حديث الإسراء من طريق أنس وتكلم عليه فأجاد وأفاد ثم قال :

وقد تواترت الروايات فى حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب ، وعلى وابن مسعود ، وأبى ذر ، ومالك ابن صعصعة ، وأبى هريرة ، وأبى سعيد ، وابن عباس ، وشداد بن أوس ، وأبى بن كعب ، وعبد الرحمن ابن قرط ، وأبى حبة ، وأبى ليلى ، الأنصاريين وعبد الله بن عمرو ، وجابر ، وحذيفة ، وبريدة ، وأبى أيوب ، وأبى أمامة ، وسمرة بن جندب ، وأبى الحمراء ، وصهيب الرومى ، وأم هانىء ، وعائشة ، وأسماء بنتى أبى بكر الصديق رضى الله عنهم أجمعين .

فيهم من ساقه بطوله ، ومنهم من اختصره على ما وقع فى المسانيد ، وإن لم تكن رواية بعضهم على شرط الصحة ، فحديث الإسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ۞ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] .

(١) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الصف .

موسى والتوراة وبنو إسرائيل

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ
لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ
عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ
ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ
لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا
دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا
وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

المفـــردات : ﴿ **الكتاب** ﴾ : هو التوراة ، ﴿ **وكيلاً** ﴾ : أى كفيلا تكلون إليه أموركم ، ﴿ **شكورا** ﴾ : أى كثير الشكر ، ﴿ **وقضينا** ﴾ : أى أعلمنا بالوحى ، ﴿ **لتعلن** ﴾ : أى لتتكبرن عن طاعة الله ، ﴿ **والوعد** ﴾ : أى الموعود به وهو العقاب ، ﴿ **والبؤس والبأس والبأساء** ﴾ : الشدة والمكروه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله فى الفقر والحرب ، والبأس والبأساء فى النكاية بالعدو ، ﴿ **جاسوا خلال الديار** ﴾ : توسطوها وترددوا بينها ، ﴿ **والكرّة** ﴾ : الدّولة والغلبة ، وأصل الكر العطف والرجوع ، ﴿ **النفيــر** ﴾ : والنافر من ينفـر الرجل من عشيرته وأهل بيته ، ﴿ **والتتبير** ﴾ : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى من سعيد بن جبير وكل شىء كسرته وفتنته فقد تبرته ، ﴿ **ما علوْا** ﴾ : أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، ﴿ **والحصير** ﴾ : السجن كما قال ابن عباس .

المناسبــــة

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس ، أردف ذلك ذكر ما أكرم به موسى قبله من إعطائه التوراة ، وجعلها هدى لبنى اسرائيل ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، ثم قفى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا فى الأرض ، فسلط الله عليهم البابليين أثخنوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه المحنة ، وأعاد لهم الدولة ، وأمدهم بالأموال والبنين ، وجعلهم أكثر عددا مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أزال دولتهم

مرة أخرى ، فأعمل فيهم السيف ، وسلب ونهب ، وجاس خلال ديارهم ، فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعوه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب فى الآخرة بنار جهنم ، وبئس السجن هى لمن عصى الله ، وخالف أوامر دينه .

قوله تعالى : ﴿ **وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا * ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً** ﴾ :

هذان نبيان من أولى العزم ، بعد أن ذكر الله تعالى إسراء خاتمهم محمد ﷺ ، كثلاثة من أولى العزم الذين ورد ذكرهم فى قوله تعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾[1]

وفى قوله جل شأنه : ﴿ شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾[2] .

والكتاب المنزل على موسى هو التوراة التى ورد فيها ذكر محمد ﷺ ، فقد قال الله تعالى له : ((يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * وحرزاً للأميين * انت عبدى ورسولى * سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ * ولا سخاب فى الأسواق * ولا يدفع بالسيئة السيئة * ولكن يعفو ويغفر * ولن يقبضه الله إليه حتى يقيم به الملة العوجاء * بأن يقولوا لا إله إلا الله * فيفتح بها أعينا عميا * وآذانا صماً * وقلوبا غلفاً))[3] .

وقد قال الله تعالى عن التوراة : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾[4] الآية .

ولقد جاء القرآن بعد ذلك مصدقا لما تقدمه من الكتب السابقة ومهيمنا عليها ، وقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ما وسعه إلا اتباعى .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

صلت عليك ملائك الرحمن وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزودا بحمى الإله وراية القرآن

إن الله تعالى جعل التوراة هدى ونورا لبنى اسرائيل ، ونهاهم عن اتخاذ أولياء من دونه ، وقال لهم :

---

(١) الآية ٧ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البخارى فى البيوع : ٥٠ ، وفى تفسير سورة : ٤٨ : ٣ . والدارمى فى المقدمة : ٢ ، وفى فضائل القرآن : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٤ .

(٤) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

يا ذرية من حملنا مع نوح كونوا مثل جدكم الأكبر ، فقد كان عبداً شكوراً ، ﴿ يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾[١] .

لكن بنى اسرائيل قوم مرنوا على العناد ، فهم شعب صلب الرقبة ، فقد تركوا تعاليم الله فلم يمتثلوا أمره ، ولم يجتنبوا نهيه ، وكان الكثير منهم هكذا قال تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون ﴾[٢] .

قوله تعالى : **﴿ وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيراً ﴾** :

أى وأوحينا إلى بنى اسرائيل فيما أنزلناه فى التوراة على موسى ، فأعلمهم به : لتعصن الله ولتخالفن أمره مرتين : أولاهما تغيير التوراة ، وقتل أشعيا عليه السلام ، وحبس إرميا حين أنذرهم سخط الله ، والثانية قتل زكريا ويحيى ، وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ، ولتستكبرن عن طاعة الله ، ولتبغن على الناس ، ولتظلمنهم ظلما شديدا ، تفرطون فيه وتبلغون أقصى الغاية .

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ﴾ :

أى فإذا حان حلول العقاب الموعود ، أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بجنايتكم عبادا لنا أولى بطش شديد فى الحروب ، هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا فى البلاد ، وترددوا بين الدور والمساكن ، للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم ، وأحرقوا التوراة ، وخربوا بيت المقدس ، وسبوا منكم عددا كثيرا ، وكان ذلك وعدا نافذا لا مرد له .

﴿ ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ﴾ :

أى ثم رجعت لكم الدولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا ، حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلو ، فغزوتم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ، ورجع الملك إليكم ، وكثرت أموالكم بعد أن نهبت وأولادكم بعد أن سبيت ، وصرتم أكثر عددا ، وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإخبات إليه ومن ثم قال :

﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها ﴾ :

أى وإن أحسنتم فأطعتم الله ولزمتم أمره وتركتم نهيه أحسنتم لأنفسكم ، لأنكم تنفعونها بذلك فى دنياها وآخرتها ، أما فى الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ، ويرد كيده فى نحره ، وينمى

(١) الآيات ٤٠ — ٤٣ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٦٩ من سورة الأعراف .

لكم أموالكم ، ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأما فى الآخرة فإن الله يثيبكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم ، ورضوان من الله أكبر .

وإن عصيتم ربكم وفعلتم ما نهاكم عنه فإلى أنفسكم تسيئون ، لأنكم تسخطونه ، فيسلط عليكم فى الدنيا أعداءكم ، ويمكّن منكم من يبغى بكم السوء ، ويلحق بكم فى الآخرة العذاب المهين .

﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ﴾ :

أى فإذا جاء وقت حلول العقاب على المرة الآخرة من مرّتى إفسادكم فى الأرض ، بعثنا أعداءكم ، ليجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية فى وجوهكم ، فإن الأعراض النفسية تظهر فى الوجوه ، فالفرح يظهر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغبرة والقترة ، إذ الوجه شرفة النفس ، وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلين لكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلكوا ما أدخرتموه وخزنتموه تتبيرا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا .

قال البيضاوى : سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى ، فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيرودس أو فردوس .

والذى أثبته اليهود فى تواريخهم أن الذى أغار عليهم أولاً وخرّب بيت المقدس هو بُختنُصَّر وكان ذلك فى زمن إرميا عليه السلام ، وقد أنذرهم مجيئه صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فحبسوه فى بئر وجرحوه ، وأن الذى أغار عليهم ثانيا هو أسبيانوس قيصر الروم ، وكان بين الإغارتين نحوا من خمسمائة سنة .

وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لا يتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ :

بعد البعث الثانى ، إن تبتم وازدجرتم عن المعاصى ، وقد حقق الله لهم وعده ، فكثر عددهم وأعزهم بعد الذلة ، وجعل منهم الملوك والأنبياء .

﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ :

أى وإن عدتم لمعصيتى وخلاف أمرى وقتل رسلى — عدنا عليكم بالقتل والسباء وإحلال الذل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بعقابه ، فقد كذّبوا النبى ﷺ وهموا بقتله ، فسلطه الله عليهم ، فقتل قُريظة ، وأجلى بنى النضير ، وضرب الجزية على الباقين ، منهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا ﴾ :

قال الحسن : الحصير هو الذى يبسط ويفرش ، والعرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، أى أنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا كما قال ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾(١) وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجنا محيطا بهم حابساً لهم ، لا رجاء لهم فى الخلاص منه .

وخلاصة ذلك - إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطا بهم من عذاب جهنم ، فلا يتخلصون منه أبداً .

الطــريق هاهــنا

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾

المناســبة

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمداً ﷺ بالإسراء ، وأكرم موسى بالتوراة ، وجعلها هدى لبنى إسرائيل ، ثم بين أنهم لم يعملوا بها فحلَّ بهم عذاب الدنيا والآخرة ، قفى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم ، وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ، ويبشر الصالحين بالأجر والثواب العظيم وينذر الكافرين بالعذاب الأليم .

ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق عجولا ، قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك ، والدمار واللعنة ، كما يدعو لنفسه بالخير .

القرآن هو كتاب الله الكريم الذى ورد وصفه فى قوله جل شأنه ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(٢).

ويهدى هذا الكتاب للطريق المثلى ، فهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تمله الأتقياء ، ولا تبلى جدته ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من علم علمه سبق ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

(١) الآية ٤١ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفىء القنديل

فيه الوعد والوعيد ، والخوف والرجاء ، والصبر والشكر ، ومكارم الأخلاق ومنهاج السلوك ، وأصول العقائد وشعائر العبادات وقواعد النظام ومبادىء الأحكام .

يبشر المؤمنين بالأجر العظيم ، فهو روح يحيى الله به الموات ، ونور يبدد به غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[١]

جمع بين نور الوعد ونيران الوعيد ، وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأوعد الذين لا يؤمنون بالآخرة بأن لهم عذابا أليماً ، أى موجعا ومؤلما ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم * يصهر به ما فى بطونهم والجلود * ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً** ﴾ :

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه فى بعض الأحيان على نفسه أو ولده أو ماله بالشر ، أى بالموت أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه كما قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ﴾[٣] الآية

وقد قال ﷺ : (لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها ﴾

وقد ذكر سلمان الفارسى وابن عباس ههنا قصة آدم عليه السلام حين همّ بالنهوض قائما قبل أن تصل الروح إلى رجليه ، وذلك أنه جاءته النفخة من قبل رأسه فلما وصلت إلى دماغه عطس ، فقال : الحمد لله . فقال الله : يرحمك ربك يا آدم . فلما وصلت إلى عينيه فتحهما ، فلما سرت إلى أعضائه وجسده جعل ينظر إليه ويعجبه ، فهمَّ بالنهوض قبل أن تصل إلى رجليه ، فلم يستطع وقال : يا رب عجل قبل الليل .

---

(١) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

(٢) الآيات ١٩ - ٢٢ من سورة الحج .

(٣) الآية ١١ من سورة يونس .

من آيات الله الكونية

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم - قفى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التى فى الآفاق ، وهى برهان نير لا ريب فيه ، وطريق بين لا يضل من ينتحيه .

ما أكثر الآيات الدالة على وحدانية الله ، وما أعظم البراهين الساطعة القاطعة التى تضيح بكل عاقل وتنطق بلسان الحال والمقال ، قائلة مصرحة بأجلى بيان : تأمل فى الوجود بعين فكر ، واعلم بأن العالم من ارضه إلى سمائه ، ومن عرشه إلى فرشه ، يناديك أنا مخلوق الواحد الديان ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾(١) .

ومن الآيات التى نلمسها ونعايشها ونحيا فيها الليل والنهار ، فهما آيتان على قدرة الله وعظمته : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾(٢)

فالليل آية جعلها الله ممحوة الضوء ليسكن العباد ويستريحون ،والنهار آية جعلها الله مبصرة ليتقلب الناس فيها سعيا وراء الكسب : ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾(٣)

ولا شك أن هذا كله من رحمة الله بعباده :

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا

جل جلال الله إذ يقول : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾(٤)

فتأمل كيف استعمل السمع فى آية الليل والبصر فى آية النهار ، لا يقوى على ذلك الا خالق القدرة

(١) الآية ٥٣ من سورة فصلت .
(٢) الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ٦٧ من سورة يونس .
(٤) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة القصص .

والقدر : ﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[١].

فالنهار وما فيه من حركة سعيا وراء الأرزاق كل ذلك من فضله تعالى على عباده .

ولقد اختلف الليل والنهار ظلمة وضياءً لمعرفة عدد السنين والحساب التى بها تتحقق الاسباب فى كسب المعيشة .

قال تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ۝ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وكل شىء فصلناه تفصيلا** ﴾ :

أى من شئون الدنيا والآخرة والمعاش والمعاد ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء .

من مشاهد القيامة ومواعظ القرآن

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾
ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ
وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ
رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ
فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ
خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ
جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ
عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ
وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

المفـــردات : ﴿ **طائره** ﴾ : أى عمله سمى به لأنه طار إليه من عش الغيب وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا : طائر الله لاطائرك ، أى قدر الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائرك الذى تتشاءم به وتتيمن به إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه زجرا فإن مر بهم من اليسار إلى اليمين

(١) الآية ٧٣ من سورة القصص .

(٢) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة يونس .

تيمنوا به وسموه سانحا ، وإن مر من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا ، ﴿ **كتابا** ﴾ : هو صحيفة عمله ، ﴿ **منشورا** ﴾ : أى غير مطوى ، ﴿ **حسيبا** ﴾ : أى حاسبا أى عادا له يعد عليه اعماله ، ﴿ **والوزر** ﴾ : الاثم والذنب يقال منه وزر يزر فهو وازر وهى وازرة أى نفس وازرة ، ﴿ **والمترفون** ﴾ : هم المنعمون من الملوك والعظماء ، ﴿ **أمرنا مترفيها** ﴾ : أى أمرناهم بالطاعة ، ﴿ **ففسقوا** ﴾ : أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، ﴿ **فحق عليها القول** ﴾ : أى وجب لها العذاب ، ﴿ **والتدمير** ﴾ **الإهلاك مع طمس الأثر** ﴿ **والقرن** ﴾ : القوم يجمعهم زمان واحد ، وقد حدد بأربعين سنة ، وبثمانين ، وبمائة ، ﴿ **والعاجلة** ﴾ : المراد الدنيا ، ﴿ **يصلاها** ﴾ : أى يقاسى حرها ﴿ **مدحورا** ﴾ : أى مطروقا مبعدا من رحمة الله ، ﴿ **محظورا** ﴾ : أى ممنوعا عمن يريده .

المناسبــــة

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذى يحوى النافع والضار من الأعمال مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه ، قفى على ذلك بذكر حال كتاب المرء وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن حسنها وقبحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ووبال ذلك راجع عليه .

ثم أكد عنايته بعباده وأنه لا يعاقب أحداً منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون رسالات ربهم ، رحمة بهم ورأفة ، واعقب ذلك بأن عذابه انما يكون بكسب المرء واختياره ، وإن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب الاستئصال ، كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح : كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم ، وبما يستحقون .

ثم قسم العباد قسمين قسم يحب الحياة الدنيا ويعمل لها ، وعاقبته دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، وأولئك سعيهم مشكور ، مقبول عند ربهم ، ولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار .

وهؤلاء وهؤلاء يمدهم ربهم بعطائه ، إذ ليس عطاؤه بممنوع عن أحد ، ولكن قد فضل بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى .

قوله تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا** ۞ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ :

هذا إخبار منه تعالى بأن كل إنسان سيلزم بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، قال تعالى :

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[٢] .

يقول تعالى بعد ذكر الزمان وذكر ما يقع فيه من أعمال بنى آدم : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ :

وطائره هو ما طار عنه من عمله ، كما قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما من خير وشر ، ويلزم به ، ويجازى عليه ، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾[٤]

وقال : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾[٥] .

وقال : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[٦] .

وقال : ﴿ من يعمل سوءا يجز به ﴾[٧] .

والمقصود أن عمل ابن آدم محفوظ عليه قليله وكثيره ، ويكتب عليه ليلا ونهاراً ، صباحاً ومساءً .

قوله تعالى : ﴿ **ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا** ﴾ :

أى نجمع له عمله كله فى كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيدا ، أو بشماله إن كان شقيا ، منشوراً مفتوحاً يقرؤه هو وغيره ، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره ﴾[٨]

ولهذا قال تعالى : ﴿ **اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ :

أى إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت . لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمى .

وقوله : ﴿ **ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ : إنما ذكر العنق لأنه عضو من الأعضاء لا نظير له فى الجسد ، ومن ألزم بشىء فيه فلا محيد له عنه .

قال قتادة عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ أنه قال : (لا عدوى ولا طيرة وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه) . رواه ابن جرير .

روى الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر رضى الله عنه يحدث عن النبى ﷺ قال : (ليس من عمل يوم إلا وهو يختم عليه فإذا مرض المؤمن قالت الملائكة : يا ربنا عبدك فلان قد حبسته فيقول الرب

---

(١) الآية ٢٥ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٣) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .
(٤) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة ق .
(٥) الآيات ١٠ – ١٢ من سورة الانفطار
(٦) الآية ١٦ من سورة الطور .
(٧) الآية ١٢٣ من سورة النساء .
(٨) الآيات ١٣ – ١٥ من سورة القيامة .

جل جلاله : اختموا له على مثل عمله حتى يبرأ أو يموت)[١] اسناده جيد .

وقال معمر عن قتادة : ﴿ **ألزمناه طائره فى عنقه** ﴾ . قال : عمله ، ﴿ **ونخرج له يوم القيامة** ﴾ قال : نخرج ذلك العمل : ﴿ **كتابا يلقاه منشورا** ﴾

قال معمر : وتلا الحسن البصرى : ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾[٢] يا ابن آدم بسطت لك صحيفتك ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك ، فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا اقرأ كتابك ، فقد عدل ، والله من جعلك حسيب نفسك .

هذا من أحسن كلام الحسن رحمه الله .

قوله تعالى : ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ :

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق واقتفى أثر النبوة فإنما يحصل عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ، ﴿ **ومن ضل** ﴾ : أى عن الحق وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجنى على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه .

ثم قال : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ : أى لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجنى جان إلا على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ﴾[٣]

ولا منافاة بين هذا وبين قوله : ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾[٤] وقوله : ﴿ ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ﴾[٥] ، فإن الدعاة عليهم إثم ضلالتهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب ما أضلوا من أضلوا من غير أن ينقص من أوزار أولئك ، ولا يحمل عنهم شىء ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده .

وكذا قوله تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾ : إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ﴾[٦] .

وكذا قوله : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾[٧] .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى الطب : ٥ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٤٦ ، وفى ٦ : ١٣٨ .
(٢) الآية ١٧ من سورة ق .
(٣) الآية ١٨ من سورة فاطر .
(٤) الآية ١٣ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٢٥ من سورة النحل .
(٦) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الملك .
(٧) الآية ٧١ من سورة الزمر .

وقال تعالى : ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[١] .

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى لا يدخل أحداً النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثه الرسل فقال : ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا** ﴾ :

أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أى قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصى ، ودنست به أنفسها من الآثام لم نعاجلها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة ، فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقا ، لاجتراحهم السيئات ، وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميراً ، ولم نبق منها ديارا ولا نافخ نار .

وخص المترفين بالذكر ، لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعاً لهم وأن العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله .

وقد يكون المراد من الأمر أن الله يفيض عليهم نعمه التى تبطرهم ، وتجعلهم يقعون فى المعاصى ، فكأنه تعالى يأمرهم بها إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .

وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد (بأمرنا) أكثرنا ، واستدل بما أخرجه أحمد والطبرانى من قوله ﷺ : (خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة)[٢] . أى مهرة كثر نسلها ، وطريق مصطفة من النخل مأبورة (كثر فيها اللقاح) لتثمر الثمر الجنى .

ثم ذكر أن كثيراً من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾ :

أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله ، وكانوا على مثل ما أنتم عليه من الشرور والآثام ، ولستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ما حل بهم ، وينزل بكم سخطه مثل ما نزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبى رسول الله ﷺ من مشركى قريش وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله — ما لا يخفى .

﴿ **وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا** ﴾ :

أى وحسبك أيها الرسول بالله خبيرا بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شىء من أفعال مشركى قومك ، ولا أفعال غيرهم ، بل هو عليم بجميع أعمالهم ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

(١) الآية ٣٧ من سورة فاطر .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٦٨ .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا** ﴾

أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى ، وإياها يبتغى ، لا يوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على ما يعمل ، يعجل الله له فى الدنيا ما يشاء من بسط الرزق وسعة العيش ، ثم يصليه حين مقدمه عليه فى الآخرة جهنم مذموماً على قلة شكره ، وسوء صنيعه فيما سلف ، مبعداً من رحمته مطروداً من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

(١) الدوام والخلود وإلى ذلك الإشارة بقوله : ﴿ **ثم جعلنا له جهنم يصلاها** ﴾ : أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(٢) الإهانة والاحتقار وإلى ذلك أشار بقوله ﴿ **مذموماً** ﴾ .

(٣) البعد والطرد من رحمة الله دائما فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص وإلى هذا أشار بقوله : ﴿ **مدحوراً** ﴾ : وفى قوله : ﴿ **لمن نريد** ﴾ : إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لا يحصل لكل من يريدها ، فكثير من الكفار الضّلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يبقون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا وربما فاتتهم أيضا .

(٢) ﴿ **ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً** ﴾ :

أى من أراد الآخرة ولها عمل وإياها طلب ، فأطاع الله وطلب ما يرضيه وهو مصدق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها ، شكر الله له جزيل سعيه ، وآتاه حسن المثوبة كفاء ما قدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أموراً ثلاثة :

(١) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾[1] وجاء فى الحديث : (إنما الأعمال بالنيات)[2] ، إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبته لا تحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه ، والإخبات والخشوع له .

(٢) أن يعمل العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لا من الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(١) الآية ٣٩ من سورة النجم .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحى : ١ ، وفى العتق : ٦ ، وفى مناقب الأنصار : ٤٥ ، وفى الطلاق : فى الترجمة ، وفى الايمان : ٢٣ ، وفى الإكراه : (فى ترجمة الكتاب) ، وفى الحيل : ١ . ومسلم فى الإمارة : ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق : ١١ . والنسائى فى الطهارة : ٥٩ ، وفى الطلاق : ٢٤ ، وفى الايمان : ١٩ . وابن ماجة فى الزهد : ٢٦ .

(٣) أن يكون ذلك وهو مؤمن فإن أعمال البر لا توجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدنيوى لا يحظر على كل من الفريقين فقال : ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً** ﴾ :

أى إن كلا من الفريقين مريد العاجلة ومريد الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن يمده ربه بعطائه ، ويوسع عليه الرزق ، ويكثر الأولاد وغيرهما من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالممنوع من أحد من خلقه مؤمنا كان أو كافراً ، فكلهم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة ، وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضح ما مر من الإمداد ، وعدم محظورية العطاء على أحد ، فقال : ﴿ **انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ :

أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا ، كيف فضلنا بعضهم على بعض ، فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن ، وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر . [١]

ولهذا حِكم وأسباب بيّنها سبحانه بقوله : ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ﴾[٢] وقوله : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾[٣] .

﴿ **وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾ :

أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة . وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدركات السفلى فى جهنم مصفداً بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وحبور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم .

ففى الصحيحين (إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء)[٤] .

وفيهما : (إن الله تعالى أعد لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[٥] .

---

(١) هذا الجزء من المعنى غير صحيح فالله تعالى لم يقبض رزقه ولم يمنعه عن أحد كافر أو مؤمنا قال تعالى : (كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) كما سبق فى السورة الأولى أن يقال : (فبسطت رزق على بعضهم وقدرته على آخرين . قال تعالى : فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) سورة الفجر .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٦١ .

(٥) أخرجه الدرامى فى الرقاق : ٩٨ ، ١٠٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سُهيل بن عمرو القرشى (وكان أحد الأشراف فى الجاهلية) وأبو سفيان بن حرب ، ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب وبلال وأهل بدر - وكان يحبهم - فقال أبو سفيان : ما رأيت كاليوم قط ، إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يلتفت إلينا . فقال سُهيل : وكان أعقلهم : (أيها القوم إنى والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم إنهم دُعُوا ودُعينا (يعنى إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر فكيف التفاوت ،فـى الآخرة ،ولئن حسدتموهم على باب عمر لمَا أعد الله لهم فى الجنة أكبر) .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة وهى أكبر وأفضل ؟

إرشـــادات وتوجيــــهات

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ
وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا
تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ
ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا
صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا إِخْوَٰنَ الشَّيَٰطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ
كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾
وَلَا تَقْتُلُوٓا أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا
بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ
مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ
إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ

خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ
أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ
ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

المفــــردات : ﴿ **فتقعد** ﴾ : أى فتصير ، ﴿ **مذموماً** ﴾ : أى ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ، ﴿ **مخذولا** ﴾ : أى من الله لأنك أشركت معه مالا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، ﴿ **وقضى** ﴾ : أى حكم وأمر ، ﴿ **وأف** ﴾ : اسم صوت ينبىء عن التضجر والتألم ويقولون لا تقل لفلان أف أى لا تتعرض له بنوع من الأذى والمكروه ، ﴿ **والنهر** ﴾ : الزجر بغلظة ، ﴿ **كريماً** ﴾ : أى جميلا لا شراسة فيه ، قال الراغب : كل شيء يشرف فى جنسه يقال إنه كريم ، ﴿ **واخفض لهما جناح** ﴾ : يراد به التواضع والتذلل ، ﴿ **من الرحمة** ﴾ : أى من فرط رحمتك عليهما ، ﴿ **والأواب** ﴾ : الذى دينه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه حين الشدة ، ﴿ **والتبذير** ﴾ : إنفاق المال فى غير موضعه ، ﴿ **وإخوان الشياطين** ﴾ : أى قرناؤهم ، ﴿ **والابتغاء** ﴾ : الطلب . والرحمة . الرزق ، ﴿ **والميسور** ﴾ : السهل اللين ، ﴿ **والمغلولة** ﴾ : المقيدة بالغل وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق ، ﴿ **وتبسطها** ﴾ : أى تتوسع فى الإنفاق ، ﴿ **والمحسور** ﴾ : المنقطع عن السير إعياء وكلالا ، ﴿ **ويقدر** ﴾ : أى يقتر ، ﴿ **والإملاق** ﴾ : الفقر ، ﴿ **والخطأ** ﴾ : كالإثم لفظا ومعنى ، ﴿ **والفاحشة** ﴾ : الفعلة الظاهرة القبح ، ﴿ **والسلطان** ﴾ : التسلط والإستيلاء ، ﴿ **فلا يسرف** ﴾ : أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه ، ﴿ **التى هى أحسن** ﴾ : أى الطريق التى هى أحسن ، ﴿ **والعهد** ﴾ : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده ، ﴿ **والقسطاس** ﴾ : (بكسر القاف وضمها) الميزان ، ﴿ **والمستقيم** ﴾ : العدل ، ﴿ **والتأويل** ﴾ : ما يؤل إليه الشيء وهو عاقبته ولا تقف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، ﴿ **والمرح** ﴾ : الفخر والكبر ، ﴿ **لن تخرق الأرض** ﴾ : أى لن تجعل فيها طرقاً بدوسك وشدة وطأتك ، ﴿ **والحكمة** ﴾ : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، ﴿ **والمدحور** ﴾ : المبعد من رحمة الله .

المناسـبة وإجمـال المعنـى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الناس فريقان ، فريق يريد بعمله الدنيا فقط وعاقبتهم العذاب والوبال ، وفريق يريد بعمله طاعة الله وهم أهل مرضاته والمستحقون لثوابه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة ، وأن يكونوا مؤمنين لا جرم ، فصل الله فى هذه الآية حقيقة الإيمان ، والأعمال التى إذا عملها المؤمن كان ساعياً للآخرة ، وصار من الذين سعد طائرهم ، وحسن حظهم .

ثم أعقب ذلك بذكر ما هو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ،

وبعدئذ اتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين لأنهما السبب الظاهر فى وجوده ، وبالأمر بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن فى إصلاحهما إصلاح المجتمع ، والمسلمون كلهم إخوة ، وهم يد على من سواهم .

ثم قفى على ذلك بالنهى عن التبذير لما فى القصد من إصلاح حال المرء ، وعدم ارتباكه فى معيشته وصلاحه إصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد ، ففى صلاحهم صلاحها .

ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين ، ويرشد إلى حسنه العقل .

وبعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر ، وبين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم ، فلا وجه للخوف من ذلك .

ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا لما فيه من اختلاط الأنساب ، وفقدان النسل أو قتله ، ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعا عن العرض .

ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتيم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد ، وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثبيته ، ثم بإيفاء الكيل والميزان لما فى حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين لإصلاح شئون الفرد والمجتمع .

ثم بالنهى عن تتبع مالا علم لك به من قول أو فعل ، فلا تتبع ما كان يعمله الآباء اقتداء بهم كعبادة الأصنام ، ولا تشهد على شىء لم تره ، ولا تكذب . فتقول فى شىء لم تسمعه إنك قد سمعته ولا فى شىء لم تره إنك قد رأيته .

ثم بالنهى عن مشية الخُيلاء والمرح ، لما فيهما من الصلف الذى لا يرضاه الله . ولا الناس .

ثم ختم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهى هى من وحى الله وتبليغه ، لا من عند نفسه ، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين ، وعليها تبتى العلاقات بين الأفراد والأمم ، على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب ، وفقدان الثقة فى معاملاتهم .

قوله تعالى : ﴿ **لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا** ﴾ :

هذا نهى صريح عن الشرك بالله تعالى ، وما أقبحه من ذنب جسيم ، قال جل شأنه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾[١] .

وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾[٢] .

(١) الآية ٤٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ١١٦ من سورة النساء .

وقال : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[(١)]

إن من أشرك بالله صار مستحقاً للذم والخذلان ، فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك بلسان الحال والمقال ، أنا مخلوق للواحد الديان .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد
يامن له عنت الوجوه بأسرها ... رهباً وكل الكائنات توحد
مافى الوجود سواك رب يعبد ... كلاَّ ولا مولى هناك فيقصد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

فإذا سألت فسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا * الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾[(٢)] .

روى الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : (من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ومن انزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلا وإما غنى عاجلاً)[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً * واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ :

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر ، قال مجاهد : ﴿ **وقضى** ﴾ : يعنى وصى ، وكذا . قرأ أبى بن كعب وابن مسعود والضحاك بن مزاحم (ووصى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه) ولهذا قرن بعبادته بر الوالدين ، فقال : ﴿ **وبالوالدين إحسانا** ﴾ :

أى وأمر بالوالدين إحسانا ، كقوله فى الآية الأخرى : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾[(٤)] .

وقوله : ﴿ **إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف** ﴾ : أى لا تُسمعهما قولا سيئا . حتى ولا التأفيف الذى هو أدنى مراتب القول السيء .

﴿ **ولا تنهرهما** ﴾ : أى ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح ، كما قال عطاء بن أبى رباح فى قوله : ﴿ **ولا تنهرهما** ﴾ : أى لا تنفض يدك عليهما .

---

(١) الآية ٣١ من سورة الحج . (٢) الآيتان ٥٨ ــ ٥٩ من سورة الفرقان
(٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى الزهد : ١٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٤٠٧ ، ٤٤٢ .
(٤) الآية ١٤ من سورة لقمان .

ولما نهاه عن القول القبيح والفعل القبيح أمره بالقول الحسن والفعل الحسن ، فقال : ﴿ **وقل لهما قولاً كريماً** ﴾ : أى لينا طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم .

﴿ **واخفض لهما جناح الذل من الرحمة** ﴾ : أى تواضع لهما بفعلك ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾ : أى فى كبرهما ، وعند وفاتهما .

قال ابن عباس ، ثم أنزل الله : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾[١]. الآية

وقد جاء فى بر الوالدين أحاديث كثيرة .

منها الحديث المروى من طرق عن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ صعد المنبر ثم قال : (أمين . أمين . أمين) قيل : يا رسول الله علام أمنت ؟ قال : (أتانى جبريل فقال : يا محمد رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليك ، قل : آمين . فقلت آمين . ثم قال : رغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان ثم خرج فلم يغفر له ، قل : آمين . فقلت : آمين . ثم قال : رغم أنف رجل أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة ، قل : آمين . فقلت آمين)[٢] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن مالك بن الحارث عن رجل منهم أنه سمع النبى ﷺ يقول : (من ضم يتيما من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يستغنى عنه وجبت له الجنة ألبتة ، ومن أعتق أمرءا مسلماً كان فكاكه من النار يجزى بكل عضو منه عضواً منه)[٣] .

وعن رسول الله ﷺ : (من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار ، فإن كل عظم من عظامه محررة بعظم من عظامه ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله عز وجل ، ومن ضم يتيما من أبوين مسلمين إلى طعامه وشرابه حتى يغنيه الله وجبت له الجنة)[٤] .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى مالك القشيرى قال : قال النبى ﷺ : (من أدرك والديه أو أحدهما ثم دخل النار من بعد ذلك فأبعده الله وأسحقه)[٥] .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (رغم أنف . ثم رغم أنف ثم رغم أنف . رجل أدرك أحد أبويه أو كلاهما عنده الكبر ولم يدخل الجنة)[٦] .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل على ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له ، ورغم

---

(١) الآية ١١٣ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٩ ، ١٠ . والترمذى فى الدعوات : ١٠٠ .

(٣) أخرجه ابو داود فى الأدب : ١٢٢ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٤ ، وفى ٥ : ٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى العتق : ١ ، وفى الكفارات : ٦ . ومسلم فى العتق : ٢٢ — ٢٥ . وأبو داود فى العتاق : ١٤ . والترمذى فى النذر : ١٤ ، ٢٠ . والنسائى فى الجهاد : ٢٦ . وابن ماجة فى العتق : ٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٤ ، وفى ٥ : ٢٩ .

(٦) أخرجه مسلم فى البر : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٤٦ .

أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة)(١) .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أبى أسيل وهو مالك بن ربيعة الساعدى قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله هل بقى على من بر أبوى شيء بعد موتهما أبرهما به قال : (نعم خصال أربع : الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لا رحم لكم إلا من قبلهما فهو الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما)(٢) .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن معاوية بن جاهمة السلمى أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال : (فهل لك من أم ؟) قال : نعم . قال : (فالزمها فإن الجنة عند رجليها)(٣) ثم الثانية ثم الثالثة فى مقاعد شتى كمثل هذا القول .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن المقدام بن معد يكرب عن النبى ﷺ قال : (إن الله يوصيكم بآبائكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بأمهاتكم إن الله يوصيكم بالأقرب فالأقرب)(٤) .

وعنه رضى الله عنه بإسناده عن أشعث بن سليم عن أبيه عن رجل من بنى يربوع قال أتيت النبى ﷺ فسمعته وهو يكلم الناس يقول (يد المعطى العليا أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك)(٥) .

روى الحافظ أبو بكر بسنده عن سليمان بن بريدة عن أبيه أن رجلا كان فى الطواف حاملا أمه يطوف بها فسأل النبى ﷺ هل أديت حقها قال (لا ولا بزفرة واحدة) .

قوله تعالى : ﴿ **ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ :

إذ هو سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فهو المطلع على خفايا نفوسكم ، وما فيها من خير وشر ، وبر وعقوق ، وصلة وقطيعة ، وهذا وعد لمن أضمر البر بالوالدين وقال لهما قولا كريما ، وخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، كما أنه وعيد لمن أضمر السوء لهما وعقّهما ونهرهما وتكبر عليهما وعصى أوامرهما .

قوله تعالى : ﴿ **إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا** ﴾ :

للمفسرين أقوال فى الأوابين :

قال قتادة : للمطيعين أهل الصلاة .

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٠٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الأدب : ٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣٩٨ .

(٣) أخرجه النسائى فى الجهاد : ٦ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٩٢ .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى الأدب : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٣١ ، ١٣٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٢ . والنسائى فى الزكاة : ٥١ . وابن ماجة فى الأدب : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٦ ، وفى ٤ : ٦٥ ، وفى ٥ : ٣٧٧ .

وعن ابن عباس : المسبحين ، وفى رواية عنه :المطيعين المحسنين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون بين العشاءين .

وقال بعضهم : هم الذين يصلون الضحى .

وعن سعيد بن المسيب قال : الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ويصيبون الذنب ثم يتوبون .

وقال مجاهد عن عبيد بن عمير فى الآية هو الذى إذا ذكر ذنوبه فى الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد فى ذلك .

وقال عبيد بن عمير : كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول اللهم اغفر لى ما أصبت فى مجلسى هذا .

وقال ابن جرير : والأولى فى ذلك قول من قال هو التائب من الذنب الرجّاع من المعصية إلى الطاعة ، مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه .

وهذا الذى قاله هو الصواب ، لأن الأواب مشتق من الأوب وهو الرجوع ، يقال آب فلان إذا رجع ، قال تعالى ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾[1] وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال : ﴿ آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا** ﴾ :

بعد أن بين سبحانه وتعالى حقوق الوالدين ، أمر بصلة الرحم فقال : ﴿ **وآت ذا القربى حقه** ﴾ : وقد جاء ترتيبها فى الحديث : (أمك وأباك ثم أدناك أدناك) وفى رواية : (ثم الأقرب فالأقرب) . وفى الحديث : (من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أجله فليصل رحمه)[3] .

إن الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله

جاء فى الحديث الصحيح :

(إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى ، قال : فذاك لك)[4] . اقرءوا إن

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الغاشية .

(٢) أخرجه البخارى فى العمرة : ١٢ ، وفى الدعوات : ٥٣ . ومسلم فى الحج : ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ . وأبو داود فى الجهاد : ٢ ، ٨٢ ، ١٥٨ . والترمذى فى الحج : ١٠٢ . والدرامى فى الاستئذان : ٥٠ . والإمام مالك فى الحج : ٢٤٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٦ . وفى ٢ : ٥ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٥٠ ، وفى ٣ : ١٨٧ ، ١٨٩ ، وفى ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى البيوع : ١٣ ، وفى الأدب : ١٢ . ومسلم فى البر : ٢٠ ، ٢١ . وأبو داود فى الزكاة : ٤٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٤٧ ، وفى الأدب : ١٣ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى البر : ١٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ .

شئتم : ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ۞ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ۞ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾[١] .

كذلك أمر الله تعالى بإيتاء المسكين حقه ، والمسكين هو الذى أسكنته الحاجة فأضحى لا يملك شيئا ، فإذا كان من ذوى القربى كانت الصدقة عليه بأجرين .

قال ﷺ : (الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذى الرحم ثنتان : صلة وصدقة)[٢] .

فطوبى لمن عاشر أهل العلم والحكمة وخالط أهل الذل والمسكنة . طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس . طوبى لمن أمسك الفضل من قوله وأنفق الفضل من ماله . طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة . ورحم الله امرءاً قال خيرا فغنم أو سكت فسلم .

ومن وصايا الرسول ﷺ لأبى ذر : « أحب المساكين وجالسهم »

وجلَّ جلال الحق إذ يقول فى وصف الأبرار : ﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ۞ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا ﴾[٣] .

كما أوصى تعالى بابن السبيل وهو الغريب الذى انقطعت به السبل حتى كأن السبيل أمه وأبوه ، فالإحسان إليه واجب .

ثم نهى سبحانه عن التبذير فقال : ﴿ **ولا تبذر تبذيرا** ﴾ :

قال ابن مسعود : التبذير الانفاق فى غير حق ، وكذا قال ابن عباس .

وقال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله فى الحق لم يكن مبذرا ولو أنفق مدا فى غير حق كان مبذرا .

وقال قتادة : التبذير : النفقة فى معصية الله تعالى وفى غير الحق والفساد .

أى معنى الآية : لا تفرق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال فى معصيته تفريقا بإعطائه من لا يستحقه ، ونحو الآية قوله : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[٤] .

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف المسجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه إلى أبى قُبَيْس (جبل بمكة) وقال لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين .

وأنفق بعضهم نفقة فى خير وأكثر فقيل له : لا خير فى السرف ، فقال : لا سرف فى الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله ﷺ بسعد وهو يتوضأ ، فقال : ما هذا السرف يا سعد ؟ قال : أو فى الوضوء سرف ؟ (قال : نعم وإن كنت على نهر جار)[٣] .

(١) الآيات ٢٢ — ٢٤ من سورة محمد .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٢٢١ . وابن ماجة فى الطهارة : ٤٨ .
(٣) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الإنسان .
(٤) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرنى كيف أنفق ، وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله ﷺ : (تخرج الزكاة من مالك إن كان ، فإنها طُهْرة تطهرِّك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين) ... فقال : يا رسول الله أقلل لى ، قال (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا) فقال : حسبى يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئتُ منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله ﷺ : (نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئت منها ولك أجرها وإثمها على من بدَّلها)[1] .

وعن على كرم الله وجهه قال : ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير ، وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :

﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ :

تقول العرب لكل من لازم سُنَّة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أى إن المفرّقين أموالهم فى معاصى الله المنفقيها فى غير طاعته قرناء الشياطين فى الدنيا والآخرة كما قال : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ﴾[2] وقال : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾[3] أى قرناءهم من الشياطين .

﴿ وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ :

أى وكان الشيطان لنعمة ربه التى أنعم بها عليه جحوداً لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته ، وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه ، المبذرون أموالهم فى معاصى الله ، لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران .

قال الكرخى : وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا ، فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله ، لأنه موافق للشيطان فى الصفة والفعل . ا هـ .

وفى ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبذر لما صرف نعم الله عليه فى غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم . وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها فى التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ﴾ :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ ، ١٣٦ .   (٢) الآية ٣٦ من سورة الزخرف .   (٣) الآية ٢٢ من سورة الصافات .

أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمساكين وابن السبيل وأنت تستحى أن تردّ عليهم ، انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيك ، ورزق يفيض عليك ، فقل لهم قولا لينا جميلا ، وعِدْهم وعدا تطيب به قلوبهم .

قال الحسن : أُمر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شىء ، فإن يأتنا نعرف حقكم . وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ما ليس عندهم كيف يقولون وبم يردون ؟

قوله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ :

هذه هى الطريقة المثلى فى الإنفاق . فالإسلام دين الاعتدال فى كل شىء ، لا تهويل ولا تهوين ولا إفراط ولا تفريط ، لا شح ولا تبذير ، لا إسراف ولا تقتير ، لا بخل ولا ترف .

ففى قوله جلَّ شأنه ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾ : كناية لطيفة عن البخل .

وفى قوله : ﴿ **ولا تبسطها كل البسط** ﴾ : كناية عن الإسراف .

ثم رتَّب على كل منهم ما يناسبه من عواقب . فرتَّب على البخل فتقعد ملوما ، ورتَّب على الإسراف محسورا ، فالملوم هو الذى يستحق اللوم والذم .

والمحسور هو العاجز الذى ضيَّع ماله فنزل به الكلل والعى من باب قوله تعالى : ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾[١] .

والاعتدال فى قوله تعالى يصف عباد الرحمن : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾[٢] .

جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما . فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره . وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع)[٣] .

وفى الصحيحين من طريق هشام بن عروة عن زوجته فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء بنت أبى بكر قالت : قال رسول الله ﷺ : (أنفقى هكذا وهكذا وهكذا ولا توعى فيوعى الله عليك ، ولا توكى فيوكى الله عليك) . وفى لفظ : (ولا تحصى فيحصى الله عليك)[٤] .

---

(١) الآية ٤ من سورة الملك . (٢) الآية ٦٧ من سورة الفرقان .

(٣) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٨ ، وفى الجهاد : ٨٩ . ومسلم فى الزكاة : ٧٤ ، ٧٥ . وللنسائى فى الزكاة : ٦١ . وللإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٥ ، ٣٨٩ ، ٥٢٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٢ ، وفى الهبة : ١٥ . ومسلم فى الزكاة : ٨٨ ، ٨٩ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٣٩ ، ١٦٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الله قال لى : أَنْفِق أُنفِق عليك)[١] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان من السماء يقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفا ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكا تلفا)[٢] .

وروى مسلم بسنده عن أبى هريرة مرفوعا : (ما نقص مال من صدقة وما زاد الله عبدا أنفق إلا عزا ومن تواضع لله رفعه الله)[٣] .

وفى حديث أبى كثير عن عبد الله بن عمر مرفوعا : (إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا)[٤] .

وروى البيهقى من طريق سعدان بن نصر عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما يخرج رجل صدقة حتى يفك لحيى سبعين شيطاناً) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد)[٥] .

وقوله : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ : إخبار أنه تعالى هو الرزاق القابض الباسط المتصرف فى خلقه بما يشاء فيغنى من يشاء ويفقر من يشاء لما له فى ذلك من الحكمة ولهذا قال : ﴿ **إنه كان بعباده خبيرا بصيرا** ﴾ : أى خبيرا بصيرا بمن يستحق الغنى ويستحق الفقر .

كما جاء فى الحديث : (إن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى لمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه) .

وقد يكون الغنى فى حق بعض الناس استدراجا والفقر عقوبة عياذا بالله من هذا وهذا .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإيَّاكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا** ﴾ :

أى ولا تئدوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لا أنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم . وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات ، لعجزهن عن الكسب ، وقدرة البنين

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ ، ٢ ، وفى النفقات : ١ ، وفى التوحيد : ٣٥ . ومسلم فى الزكاة : ٣٦ ، ٣٧ . وابن ماجة فى الكفارات : ١٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٢ ، ٣١٤ ، ٣٦٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٢٧ . ومسلم فى الزكاة : ٥٧ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٦ ، ٣٤٧ ، وفى ٥ : ١٩٧ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١٧ .

(٤) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٤٤٧ .

عليه ، بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفرّ الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهن لغير الأكفاء ، وفى ذلك عار أيما عار عليهم .

والخلاصة – أن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال : ﴿ **إن قتلهم كان خطئا كبيرا** ﴾ : أى أن قتلهم كان إثما فظيعا لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود .

وفى الصحيحين عن عبد الله بن سعود قال : « قلت : يا رسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو الذى خلقك . قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى بحليلة جارك »[1] .

والخلاصة – إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغيرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم ، والأول انتهاك لحرمة الله ، والثانى ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .

ولما فى قتل الأولاد حظ من البخل ، وفى الزنا داع من دواعى الإسراف أتبعه فقال سبحانه : ﴿ **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً** ﴾ :

أى أنه كان فعلة ظاهره القبح مشتملة على مفاسد كثيرة أهمها :

(١) اختلاط الأنساب واشتباهها ، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية منه هو أو من غيره ، لا يقوم بتربيته ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .

(٢) فتح باب الهرج والمرج والإضطراب بين الناس دفاعا عن العرض ، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا ، حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل (فتش عن المرأة)

(٣) إن المرأة إذا عُرفت بالزنا واشتهرت به استقذرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها ، ولا يتم السكن الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[2] .

(٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهامه من مطعوم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له ، قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد منقطعة له دون غيره من الناس

وإجمال ذلك – أن الزنا فاحشة وأى فاحشة ، لما فيه من اختلاط الأنساب والتقاتل والتناحر دفاعا

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٣ ، وسورة ٢٥ : ٢ ، وفى الأدب : ٢٠ ، وفى الديات : ١ ، وفى الحدود : ٢٠ ، وفى التوحيد : ٤٠ . ومسلم فى الإيمان : ١٤١ ، ١٤٢ . وأبو داود فى الطلاق : ٥٠ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ : ١ ، ٢ . والنسائى فى التحريم : ٤ . والإمام أحمد فى : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، وفى ٦ : ٨ .

(٢) الآية ٢١ من سورة الروم .

عن العرض ، وإنه سبيل سيء من قبل أنه يسوى بين الإنسان والحيوان ، فى عدم اختصاص الذكران بالإناث .

وبعد أن نهى سبحانه عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقا فقال سبحانه :

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا ﴾ :

﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ : أى ولا تقتلوا النفس التى حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق ، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمداً ، كما جاء فى الحديث الذى رواه الشيخان عن ابن سعود : « لا يحل دم امرىء يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[1] .

والسبب فى هذا التحريم وجوه :

(١) إنه إفساد حرمته لقوله ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض ﴾ .

(٢) إنه ضرر ، والأصل فى المضارَّة الحرمة لقوله : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[2] وقوله ﷺ (لا ضرر ولا ضرار)[3] .

(٣) إنه إذا أبيح القتل زال هذا النوع من الوجود ففتك القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب فى المجتمع ، فلا يستقيم للناس حال ولا ينتظم لهم معاش .

﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل ﴾ :

أى ومن قتل مظلوما بغير حق يوجب قَتله فقد جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطا واستيلاء على القاتل ، بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه ، وإما الدية لقوله تعالى : ﴿ كتب عليكم القصاص فى القتلى ﴾[4] الآية .

ولقوله ﷺ يوم الفتح : (من قتل قتيلاً فأهله بين خيرتين ، إن أحبوا قتلوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية)[5] .

﴿ فلا يسرف فى القتل ﴾ :

أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية إذ كانوا يقتلون القاتل ويقتلون معه غيره إذا كان رجلا شريفا وأحيانا لا يرضون بقتل القاتل بل يقتلون بدله

(١) أخرجه البخارى فى الديات : ٦ . ومسلم فى القسامة : ٢٥ ، ٢٦ . وأبو داود فى الحدود : ١ . والترمذى فى الحدود : ١٥ . وابن ماجة فى الحدود : ١ . والدرامى فى الحدود : ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٢ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٦٥ .

(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣١٣ .

(٤) الآية ١٧٨ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه أبو داود فى الديات : ٤ . والإمام أحمد فى ٦ : ٣٨٥ .

رجلا شريفا ، وفى الآية إيماء إلى أن الأولى للولى ألا يقدم على استيفاء القتل وأن يكتفى بالدية أو يعفو .

﴿ **إنه كان منصورا** ﴾ :

أى أن الله نصر الولى بأن أوجب له القصاص أو الدية وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ما وراءه ولا يطمع فى الزيادة على ذلك . وقد يكون المعنى بتكفير خطاياه ، وإيجاب النار لقاتله ، هذه الآية أول ما نزل من القرآن فى شأن القتل ، لأنها مكية .

وبعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى سبحانه عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهى عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكمال عجزه ، ولذلك قال :

﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده** ﴾ :

أى لا تتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطريق التى هى أحسن الطرق ، وهى طريق حفظه وتثميره بما يزيد به ، حتى تستحكم قوة عقله وشبابه ، وإذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فكانوا لا يخالطون اليتامى فى طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾[١] . فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوها إسرافا وبداراً أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾[٢] .

وبعد أن نهى عن الزنا والقتل واكل مال اليتيم ، أتبعها بثلاثة أوامر فقال سبحانه : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا * وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾ :

(١) ﴿ **وأوفوا بالعهد** ﴾ : أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وما عاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع والإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ما أمر به الله ونهى عنه فهو من العهد ، ويدخل فى ذلك ما بين العبد وربه وما بين العباد بعضهم وبعض .

والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانونى المُرضى .

﴿ **إن العهد كان مسئولا** ﴾ : أى إن الله سائل ناقض العهد عن نقضه إياه ، فيقال للناكث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك ؟ وهلا وفَيْت به ، كما يقال لوائد الموءودة : بأى ذنب قتلت ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين ؟ ﴾[٣] والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .

---

(١) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٦ من سورة النساء .

(٣) الآية ١١٩ من سورة المائدة .

(٢) ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ : أى وأتموا الكيل للناس ولا تخسروهم إذا كلتم لهم حقوقهم قبلكم ، فإن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تفوا بالكيل .

(٣) ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ : أى وزنوا بالميزان العدل دون شيء من الجور أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ الشارع فى المنع من التطفيف والنقصان ، سعيا فى إبقاء الأموال لأربابها ثم بين عاقبة هذه الأمور وحسن مثالها فقال :

﴿ ذلك خير ﴾ : أى إيفاؤكم بالعهد ، وإيفاؤكم من تكيلون له ، ووزنكم بالعدل لمن توفون له ، خير لكم فى الدنيا من نكثكم وبخسكم فى الكيل والوزن ، لأن ذلك مما يرغب الناس فى معاملتكم ، وحب الثناء عليكم .

﴿ وأحسن تأويلا ﴾ : أى وأجمل عاقبة ، لما يترتب على ذلك من الثواب فى الآخرة والخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة أقبلت عليهم الدنيا ، وحصل لهم الثروة والغنى ، وكان ذلك سبب سعادتهم فيها .

وبعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال : **﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا * ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾** :

(١) ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾ : أى ولا تتبع أيها المرء ما لا علم لك به من قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون فيه أقوالا كثيرة .

(أ) قال ابن عباس : لا تشهد إلا بما رأت عيناك ، وسمعته أذناك ووعاه قلبك . (ب) قال قتادة : لا تقل سمعتُ ولم تسمع ولا رأيت ولم تر ، ولا علمت ولم تعلم . (جـ) وقيل المراد النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال سبحانه : ﴿ اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ﴾[١]

وفى الحديث (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)[٢] .

وفى سنن أبى داود (بئس مطية الرجل زعموا) .

إلا ما قام الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة .

كما رخص النبى ﷺ فى ذلك لمعاذ حين بعثه قاضيا فى اليمن إذ قال له (بم تقضى ؟ قال بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله ﷺ ، قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيى)[٣].

(١) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٨ . ومسلم فى البر : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٥٦ . والإمام مالك فى حسن الخلق : ١٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٥ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الأقضية : ١١ . والترمذى فى الأحكام : ٣ . والنسائى فى القضاة : ١١ . وابن ماجة فى المناسك : ٣٨ . والدارمى فى المقدمة : ٣٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٧ ، وفى ٥ : ٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ .

(د) وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا لأسلافهم واتباعاً للهوى كما قال : ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ :

أى أن الله سائل هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال سبحانه : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾[2] .

وفى الخبر عن شطل بن حُميد قال : « أتيت النبى ﷺ فقلت يا نبى الله علمنى تعويذا أتعوذ به ، فأخذ بيدى ثم قال : قل أعوذ بك من شر سمعى ، وشر بصرى ، وشر قلبى ، وشر منيى »[3] (يريد الزنا)

(٢) ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ : أى ولا تمش متبخترا متمايلاً كمشى الجبارين ، فتحتك الأرض التى لا تقدر على خرقها بدوسك وشدة وطئك لها ، وفوقك الجبال التى لا تقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت أضعف منهما والضعيف المحصور لا يليق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا ... فكم تحتها قوم هم منك أرفع
وإن كنت فى عز وحرز ومنعة ... فكم مات من قوم هم منك أمنع

وما أجمل ما قاله الحسن البصرى رضى الله عنه : عجب لك يا ابن آدم تتكبر على الله وأنت فى أولك نطفة مزرة وفى أخرك جيفة قذرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل فى بطنك العذرة ، تنتنك عرقه ، وتؤذيك بقة وتقتلك شرْقه

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر
على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه
إلى طبقات الجو وهو وضيع

كيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين ، مرة من صلب أبيك ومرة من رحم أمك

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته ... انظر خلاك فإن النتن تثريب
لو فكر الناس فيما فى بطونهم ... لم يدع الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... أقصر فإنك مأكول ومشروب

---

(١) الآية ٢٣ من سورة النجم . (٢) الآية ٢٤ من سورة النور .

(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٧٤ . والنسائى فى الاستعاذة : ٤ ، ١٠ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٢٩ .

وخلاصة ذلك – تواضع ولا تتكبر ، فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المقتدر .

ولا يخفى ما فى الآية من التقريع والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك ثم علل هذا النهى بقوله :

﴿ **إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾ : أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تتكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك . فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجمادين ؟ وكيف يليق بك الكبر ؟

﴿ **كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها** ﴾ : أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهى وهى الخمس والعشرون السالفة كان سيئة وهو ما نهى عنه منه ، من الجعل مع الله إلها آخر وعبادة غيره ، والتأفف والتبذير ، وغل اليد ، وقتل الأولاد خشية الإملاق – مكروه عند ربك أى مبغوض عنده وإن كان مرادا له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال ﷺ : (ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن)[1] .

وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهية مع أن أكثرها من الكبائر – إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر ، وترك تلك النواهى فقال : ﴿ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴾[2] أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الحميدة ، ونهيناك عنه من الرذائل مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسراره ، ومن الحكم فى تشريعه .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا ﴿ **لا تجعل مع الله إلها آخر** ﴾ : الآية .

﴿ **ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً** ﴾ :

كرر هذا مع ما سلف ، للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة ، وهو مبدأ الأمر ومنتهاه ، وقد رتب عليه أولا آثار الشرك فى الدنيا فقال : ﴿ **فتقعد مذموماً مخذولا** ﴾ :

ورتب عليه هنا نتيجة فى العقبى فقال : ﴿ **فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا** ﴾ : أى ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك ، ومبعدا من رحمة الله تعالى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأدب : ١٠١ .

(٢) الآية ٣٩ من سورة الإسراء .

التوحيد الخالص

أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما ﴿٤٠﴾ ولقد صرفنا في هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا ﴿٤١﴾ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا ﴿٤٢﴾ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا ﴿٤٣﴾ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴿٤٤﴾

المفــــردات : ﴿ **الإصفاء بالشيء** ﴾: جعله خالصا له ﴿ **وصرَّفنا** ﴾ : أى بينا ، ﴿ **ليذكروا** ﴾ : أى يتدبروا ويتعظوا ، ﴿ **والنفور** ﴾ : البعد من الشيء ، ﴿ **وابتغاء الشيء** ﴾ : طلبه ، ﴿ **والسبيل** ﴾ : الطريق ، ﴿ **والفقه** ﴾ : الفهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهل من أثبتوا له شريكا واتخذوا له ندا ونظيرا ، قفى على ذلك بالتنديد والتقريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من قِحَتِهم أن جعلوا البنين لأنفسهم مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، وأعطوا الله البنات ، مع علمهم بأنه الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لا غاية له .

ثم أتبعه ببيان أنه قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه .

ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قربة إلى الله وسبيلاً إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقربكم إليه وكل ما فى السموات والأرض يسبح بحمده ، بدلالة أحواله على توحيده ، وتقديسه وكمال قدرته ،ولكنكم لجهلكم وغفلتكم لا تدركون دلالة تلك الدلائل .

قوله تعالى : ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيماً** ﴾ :

من مساوىء أهل الجاهلية – وما أكثرها – أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، ومن مساوئهم أنهم عبدوهم من دون الله ، ومن مساوئهم أنهم جعلوهم بنات الله ، قال سبحانه مدحضا شبهاتهم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ﴾[1] .

---

(١) الآية ١٩ من سورة الزخرف .

﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ﴾[١].

وقال جل جلاله : ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾[٢].

ثم يفند زعمهم هذ ويسفهه فيقول : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[٣] .

وقال جل شأنه : ﴿ وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين * أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسودا وهو كظيم * أو من ينشؤا فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ﴾[٤] .

وقال تقدست صفاته : ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صدقين ﴾[٥] .

وقال تنزهت عن الشريك ذاته : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً ﴾[٦] .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[٧] .

وقال سبحانه ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾[٨] .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين ﴾[٩] .

وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئا إداً * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾[١٠].

وقال تبارك اسمه : ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا** ﴾ :

هل خصص الله تعالى البنين لكم واتخذ من الملائكة إناثا ، وانتم لا تحبون الإناث ، فكيف ترضون

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٥٧ من سورة النحل .
(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة النحل .
(٤) الآيات ١٥ ١٨ من سورة الزخرف .
(٥) الآيات ١٤٩ – ١٥٦ من سورة الصافات .
(٦) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الكهف .
(٧) الآية ٤ من سورة الزمر .
(٨) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأنبياء .
(٩) الآيات ٢٦ – ٢٩ من سورة الأنبياء .
(١٠) الايات ٨٨ – ٩٥ من سورة مريم

لله ما تكرهونه لأنفسكم ؟ أهذا منطق العقل السديد والرأى الرشيد ، إنكم لتقولون قولاً عظيماً .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا** ﴾ :

يقول تعالى : أى نوعنا فيه بين وعد ووعيد وخوف ورجاء وعقيدة وشريعة وخلق ومثل ، ليذكروا ويعتبروا ، وما يزيد الظالمين إلا نفورا ، وما يزيد الكافرين إلا كفرا وخسارا .

﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[(١)] .

وقال تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ﴾[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا * سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا** ﴾ :

وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل الرشيد بالمنطق السديد ، فيقول لهؤلاء المشركين : لو كان مع الله آلهة أخرى تُعبد كما تقولون وتدعون ، فإن هؤلاء الآلهة المزعومين سيطلبون التقرب إليه تعالى ليعبدوه ، فإذا ثبت ذلك فلماذا لا تعبدونه وحده ، ولماذا الشركاء والشفعاء .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴾[(٣)] .

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[(٤)] .

وقال ﷺ (**أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله**)[(٥)] .

وما أجل قوله جل شأنه : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾[(٦)] .

فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته بالبر معروف وبالإحسان موصوف واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة . أول بلا بداية وآخر بلا نهاية سبحانه وتعالى عما يصفون .

﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً** ﴾ :

---

(١) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٢) الآية ١١٣ من سورة طه .
(٣) الآيات ٢٢ – ٢٤ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٥) أخرجه الإمام مالك فى القرآن : ٣٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ .
(٦) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .

قال أبو القاسم الطبرانى عن عبد الرحمن بن قرط : أن رسول الله ليلة أسرى به إلى المسجد الأقصى كان بين المقام وزمزم ، جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره فطار به حتى بلغ السموات السبع فلما رجع قال : (سمعت تسبيحاً فى السموات العلى مع تسبيح كثير سبحت السموات العلى ، من ذى المهابة مشفقات لذى العلو بما علا ، سبحان الأعلى سبحانه وتعالى).

نعم لو سألت الكون عن عرشه إلى فرشه ومن سحابه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال أنى مخلوق للواحد القهار ، سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره ، ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾[1] .

أنظر إلى السماء وارتفاعها والشمس وشعاعها والبحار وأمواجها والأرض واتساعها والجبال ورسوخها وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن ذكره ولا يغفل عن شكره .

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قطب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

قوله تعالى : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده** ﴾ : أى وما من شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله .

﴿ **ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ : أى لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس لأنها بخلاف لغاتكم وهذا عام فى الحيوانات والجمادات والنباتات .

وهذا أشهر القولين كما ثبت فى الصحيح أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال « كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل »[2] .

وفى حديث أبى ذر (أن النبى ﷺ أخذ فى يده حصيات فسمع لهن تسبيحا كطنين النحل) . وكذا فى يد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم وهو حديث مشهور فى المسانيد .

وقال الإمام أحمد عن ابن أنس عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم (اركبوها سالمة ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرا لله منه)[3] .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الروم .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٥ . والبخارى فى المناقب : ٢٥ . والإمام أحمد فى ١ : ٤٦٠ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الاستئذان : ٣٩ . وأبو داود فى الجهاد : ٤٤ . والإمام أحمد فى ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، وفى ٤ ، ١٨١ .

وفى سنن النسائى عن عبد الله بن عمرو قال : « نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع وقال : نقيقها تسبيح »(١) .

وقال قتادة عن عبد الله بن أبى عن عبد الله بن عمرو أن كلمة الرجل إذا قال لا إله إلا الله فهى كلمة الإخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملاً حتى يقولها .

وإذا قال الحمد لله فهى كلمة الشكر التى لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها .

وإذا قال الله أكبر فهى صلاة الخلائق التى لم يدع الله أحداً من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح .

وإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدى واستسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو قال رسول الله ﷺ (إن نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا ابنيه فقال إنى قاص عليكما الوصية آمركم باثنتين وآنهاكما عن اثنتين ، أنهاكما عن الشرك بالله والكبر ، وآمركما بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض وما فيهما لو وضعت فى كفة الميزان ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح ، ولو أن السموات والأرض كانتا حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتهما أو لفصمتهما ، وآمركم بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شىء وبها يرزق كل شىء)(٢) .

﴿ **إنه كان حليما غفورا** ﴾ : أى أنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة بل يؤجله وينظره فإن استمر على كفره وعناده أخذ عزيز مقتدر كما جاء فى الصحيحين : (إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)(٣) ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٤) .

وقال : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ﴾(٥) الآيتين .

ومن أقلع عما هو فيه من كفر أو عصيان ورجع إلى الله وتاب إليه تاب الله عليه كما قال سبحانه : ﴿ من يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾(٦) وقال ههنا : ﴿ **إنه كان حليما غفورا** ﴾ ، كما قال فى آخر فاطر ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً ﴾(٧) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٥٣ . وابن ماجة فى الصيد : ١٠ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ ، ١٧٠ ، ٢٢٥ .
(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ . ومسلم فى البر : ٦٢ . والترمذى فى التفسير سورة ١١ : ٢ .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود
(٥) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٦) الآية ١٢٣ من سورة النساء .
(٧) الآية ٤١ من سورة فاطر .

حال المشركين عند سماع القرآن

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ الظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

المفـــردات : ﴿ **الحجاب والحجب** ﴾ : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحاجب ، ﴿ **والمستور** ﴾ : أى الساتر كما جاء عكسه من قوله نحو : ﴿ ماء دافق ﴾[1] أى مدفوق ، ﴿ **أن يفقهون** ﴾ : أى لئلا يفقهوه ويفهموه ، ﴿ **والأكنة** ﴾ : الأغطية واحدها كنان ، ﴿ **والوقر** ﴾ : الصمم والثقل فى الآذان ، المانع من السماع ، ﴿ **والنفور** ﴾ : الانزعاج ، ﴿ **مسحورا** ﴾ : أى مخبول العقل ، فهو كقولهم (إن هو إلا رجل به جنة)[2] ، ﴿ **فضلوا** ﴾ : أى جاروا عن قصد السبيل .

المناسبــة وإجمـال المعنـــى

كان الكلام قبل هذا المقام – كمقام الألوهية – وجدالهم بالتى هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم ، وإقامة الحجة عليهم ، وإيضاح السبيل لهم – والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبى ﷺ وقولهم فيها تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون وحينا إنه شاعر .

روى ابن عباس أن ابا سفيان والنضر بن الحارث وأبا جهل وغيرهم ، كانوا يجالسون النبى ﷺ ويستمعون حديثه ، فقال النضر يوما ما أدرى ما يقول محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشىء ، وقال أبو سفيان : إنى لأرى بعض ما يقول حقاً ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب هو كاهن ، وقال و حويطب بني عبد العُزّى : هو شاعر فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا** ﴾ :

---

(١) الآية ٦ من سورة الطارق .

(٢) الآية ٢٥ من سورة المؤمنون .

المراد بالحجاب المستور هو الحجاب الساتر ، لأن هؤلاء الناس لما عطلوا قلوبهم وآذانهم وأبصارهم عن سماع الحق ، وأغلقوا كل منافذ المعرفة ، جازاهم الله بمثل أعمالهم قال سبحانه : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[١] .

وقال تعالى ﴿ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾[٢] .

وقال عز من قائل : ﴿ أولئك الذين طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون * لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٤] .

وقال تعالى مسجلاً عليهم أقوالهم : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ أى نسمع سماع متدبر مستبصر ﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾[٥] .

إن هؤلاء إذا سمعوا القرآن يقرؤه صاحب الرسالة العصماء كان بينهم وبينه حجاب حاجز .

أما القلوب فعليها أكنة تمنع من الفقه والفهم ، أما الآذان ففيها وقر فإذا ما سمعوا توحيد الله ولوا على أدبارهم نفورا قال تعالى : ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون * قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون ﴾[٦]

قال تعالى : ﴿ **وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا** ﴾ :

أى انصرفوا ناكصين على اعقابهم ﴿ كأنهم حمر مستنفرة * فرت من قسورة ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ **نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا** ﴾ :

إن علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور هو الذى يعلم ما يستمعون به القرآن ، ويعلم حالهم حين استماعهم له ، فهم إذ يستمعون يتناجون فيما بينهم ويسرون الحديث قائلين إن تتبعون إلا رجلا مسحورا سحرته الجن ، والعجيب أن هذه التهمة الباطلة رمى بها الأنبياء من أقوامهم ، قال تعالى : ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون * أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[٨]

(١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٧ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٥) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الملك .
(٦) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الزمر .
(٧) الآيتان ٥٠ ، ٥١ من سورة المدثر .
(٨) الآيات ٥٢ — ٥٥ من سورة الذاريات .

فانظر كيف ضربوا الأمثال والأشباه لرسول الله بالسحر ، فضلوا عن سواء السبيل ، فلا يستطيعون أن يسلكوا طريق الحق ، وهم فى قرارة أنفسهم يعلمون أنه ﷺ ما كان مسحوراً ، ولا ساحراً ، ولا مجنوناً ، ولا كاهناً ، ولا كذاباً ، ولا شاعراً ، لكنه الكبر وبطر الحق وغمط الناس .

قال محمد بن إسحق فى السيرة حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى أنه حدث (أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى بالليل فى بيته فأخذ كل واحد منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا حتى إذا جمعتهم الطريق تلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا وجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ماقالوا أول مرة ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب فى بيته فقال أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد قال يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الأخنس وأنا والذى حلفت به .

قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال ياأبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا منا نبى يأتيه الوحى من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه قال : فقام عنه الأخنس وتركه) .

الرد على منكرى البعث

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

المفـردات : ﴿ **الرفات** ﴾ : ما تكسر وبلى من كل شىء يكبر فى صدوركم : أى يستبعد قبوله للحياة فطركم : أى ذرأكم وأوجدكم ، ﴿ **فسينغضون إليك رءوسهم** ﴾ : أى سيحركونها

استهزاء يقال نغض رأسه ينغض نغضاً إذا تحرك وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب من الشىء ، ﴿ **فتستجيبون** ﴾ : أى تجيبون الداعى .

المناسبة وإجمال المعنى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات والنبوات والبعث والجزاء والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، وفندها بما لا مجال للرد عليه ولا لدحضه وتكذيبه .

ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ويرد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يدعى وألزم نفسه تصديق ما يقال .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾ :

أى وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أئذا كنا عظاماً فى قبورنا لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا ورفاتاً متكسرة مدقوقة ، أئنا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها وقد بلينا فتكسرت عظامنا وتقطعت أُوصالنا ، خلقا جديداً كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ أئذا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾[1].

وقوله : ﴿ وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[2] .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقاً جديدا على أى حال كانوا عظاماً ورفاتاً أو حجارة أو حديداً أو خلقا مما يكبر فى صدورهم فقال :

﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم** ﴾ :

أى قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يستبعد عندكم قبوله للحياة كالسموات والأرض والجبال ، فإن الله لا يعجزه إحياؤكم لتساوى الأجسام فى قبولها الأعراض المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاماً بالية ، وقد كانت قبل حية ، والشىء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد ؟

---

(١) الآيات ١٠ — ١٢ من سورة النازعات .

(٢) الآيتان ٨٧ ، ٧٩ من سورة يس .

والخلاصــة :

إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء وهذا كما يقول القائل للرجل : اتطمع فىّ وأنا فلان . فيقول : كن ابن من شئت كن ابن الخليفة فسأطلب منك حقى .

وجملة المعنى إن فى هذا مبالغة أيما مبالغة فى قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء كما يقال : لو كنت عين الحياة فالله يميتك ولو كنت عين الغنى فالله يفقرك .

وبعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهى على هذه الحال حجارة أو حديدا من أى معيد كما حكى عنهم سبحانه بقوله : ﴿ **فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة** ﴾ :

أى فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقاً للحق وإزاحة للاستبعاد وإرشاداً إلى طريق الاستدلال :

الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم الذى ذرأكم أول مرة على غير مثال يحتذى ولا منهاج معين ينتحى ، وكنتم ترابا لم يشم رائحة الحياة ، أليس الذى يقدر على ذلك يقدر على أن يفيض الحياة على العظام البالية ويعيدها إلى ما كانت عليه أولاً ؟

بلى إنه سبحانه على كل شىء قدير .

ثم بين جلت قدرته ما يفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال : ﴿ **فسينغضون إليك رءوسهم** ﴾ :

قال أبو الهيثم : يقال لمن أُخبر بشىء فحرك رأسه إنكاراً له : قد أنغض أى إنك إذا قلت لهم ذلك يحركون رءوسهم استهزاء وتكذيباً ثم يسألون :

﴿ **ويقولون متى هو** ﴾ : أى متى هذا البعث وفى أى وقت وحال يعيدنا خلقاً جديداً كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفى معنى الآية قوله : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾[1]

وقوله : ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾[2] . ﴿ **قل عسى أن يكون قريباً** ﴾ :

أى فاحذروا ذلك فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ما هو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ، ولم يخبر به أحداً من خلقه لا ملكا مقربا ولا نبياً مرسلا ، يكون الخبر قد جاء بقرب حدوثه كما قال الرسول : ﴿ بعثت أنا والساعة كهاتين ﴾[3] وأشار بالسبابة والوسطى .

﴿ **يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده** ﴾ :

أى ذلك يوم يدعوكم فتستجيبون له من قبوركم بقدرته ودعائه إياكم ، ولله الحمد فى كل حال ،

(١) الآية ٤٨ من سورة يس .

(٢) الآية ١٨ من سورة الشورى .

(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٣٩ ، وفى تفسير سورة ٧٩ : ١ . ومسلم فى الجمعة : ٤٣ ، وفى الفتن : ١٣٢ – ١٣٥ . وابن ماجة فى المقدمة : ٧ . والدارمى فى الرقاق : ٤٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٠٩ ، وفى ٥ : ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ .

وهذا كما يقول القائل فعلت هذا بحمد الله ولله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعاً : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت أو فى القبر ولا فى الحشر وكأنى بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

قال تعالى ﴿ **وتظنون إن لبثتم إلا قليلا** ﴾ :

ونحو الآية قوله : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾(١) ، وقوله : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾(٣) .

قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث فكأنك بالدنيا ولم تكن وبالآخرة ولم تزل .

وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾

المفـــردات : ﴿ **ينزغ** ﴾ : يفسد ويهيج الشر ، ﴿ **الوكيل** ﴾ : هو المفوض إليه الأمر ، ﴿ **الزبور** ﴾ : اسم الكتاب الذى أنزل على داود عليه السلام .

المناسبـــة

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك فقال : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذى العرش سبيلا وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء فقال : ﴿ **قل الذى فطركم أول مرة** ﴾ :

أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا مخالفيهم ويجادلوهم باللين ولا يغلظوا لهم فى القول ولا يشتموهم ولا يسبوهم فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس وتميل بها إلى الاقتناع كما يعلم ذلك الذين تولوا النصح والإرشاد من الوعاظ والساسة والزعماء فى كل أمة .

(١) الآية ٤٦ من سورة النازعات .

(٢) الآية ٥٥ من سورة الروم .

(٣) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم إن شاء عذبكم وإن شاء رحمكم ولا يصرح بأنهم من أهل النار فإن ذلك مما يهيج الشر مع أن الخاتمة مجهولة لا يعلمها إلا الله سبحانه ثم بين لرسوله أن لا يقسر الناس على الإسلام فما عليه إلا البلاغ والإنذار والله هو العليم بمن فى السموات والأرض ، فيختار لنبوته من يشاء ممن يراه أهلا لذلك ، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء فى مراتب الفضل والكمال ، وأفضلهم محمد ﷺ وأمته .

قوله تعالى : ﴿ **وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن** ﴾ :

أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للإقناع مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[1] . وقوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾[2] .

روى أن الآية نزلت فى عمر بن الخطاب ذلك أن رجلاً شتمه فسبه عمر وهم بقتله فكادت تثور فتنة فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله : ﴿ **إن الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ :

أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعال ويقع الشر والمخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله ﷺ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديده ، فإن الشيطان ينزغ فى يده فربما أصابه بها .

روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (ولا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده فيقع فى حفرة من النار)[3] .

وروى أيضا عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى رفلة (جماعة) من الناس فسمعته يقول (والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله التقوى ها هنا ووضع يده على صدره)[4] .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله : ﴿ **إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا** ﴾ :

أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان (ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم) وقال : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين)[5] .

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣١٧ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ . والبخارى فى الإكراه : ٧ . ومسلم فى البر : ٣٢ . والترمذى فى البر : ١٨ .

(٥) الآية ١٦ من سورة الحشر .

ثم فسر سبحانه التى هى أحسن بما علمهم النَّصفة بقوله : ﴿ **ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم** ﴾ :

أى ربكم أيها القوم هو العليم بكم إن يشأ يرحمكم بتوفيقكم للإيمان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم بأن يخذلكم عن الإيمان فتموتوا على شرككم ، وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغى للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيّروهم بذلك فإن العاقبة مجهولة ولا يعلم الغيب إلا الله إلى أن ذلك مما يجر إلى توليد الضغينة فى النفوس بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون من دونه أسوة له فقال : ﴿ **وما أرسلناك عليهم وكيلا** ﴾ :

أى وما أرسلناك أيها الرسول حفيظا ورقيباً تقسر الناس على ما يرضى الله وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً ، فدارهم ولا تغلظ عليهم ومر أصحابك بذلك فإن ذلك هو الذى يؤثر فى القلوب ويستهوى الأفئدة .

ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال : ﴿ **وربك أعلم بمن فى السموات والأرض** ﴾ : وبأحوالهم الظاهرة والباطنة فيختار منهم لنبوته والفقه فى دينه من يراه أهلاً لذلك ويفضل بعضهم على بعض لإحاطة علمه وواسع قدرته ، ونحو الآية قوله : ﴿ ألا يعلم من خلق ﴾[1] .

وفى هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبى طالب نبيا وأن يكون أولئك الجوعى العراة كصهيب وبلال وخباب وغيرهم صحابة دون الأكابر والصناديد من قريش .

وفى ذكر من فى السموات رد لمقالهم حين قالوا ﴿ لولا نزل علينا الملائكة ﴾ .

وفى ذكر من فى الأرض رد لمقالهم حين قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾[2] .

﴿ **ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض** ﴾ :

بما لهم من الفضائل النفسية والمزايا القدسية وإنزال الكتب السماوية ، فخصصنا كلا منهم بفضيلة وميزة ففضلنا إبراهيم باتخاذه خليلا ، وموسى بالكليم ، ومحمداً بالقرآن الذى أعجز البشر ، والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ﴾[3] .

---

(١) الآية ١٤ من سورة الملك .

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ٢٥٣ من سورة البقرة .

ولا خلاف فى أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا فى سورة الشورى فى قوله : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾(١)

أفضل من بقيتهم ولا خلاف فى أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾ :

أى إن تفضيل داود لم يكن بالملك بل كان بما آتاه الله من الكتاب وأفرده بالذكر لأنه كتب فى الزبور إن محمداً خاتم الأنبياء وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون وهم محمد ﷺ وأمته .

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَـٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

المفـــردات : ﴿ **الزعم** ﴾ : (بتثليث الزاى) القول المشكوك فى صدقه وقد يستعمل بمعنى الكذب . حتى قال ابن عباس : كل موضع فى كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب ، ﴿ **لا يملكون** ﴾ : أى لا يستطيعون ، ﴿ **كشف الضر** ﴾ : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ، ﴿ **يدعون** ﴾ : أى ينادون ، ﴿ **الوسيلة** ﴾ : القرب بالطاعة والعبادة ، ﴿ **محذورا** ﴾ : أى يحذره ويحترس منه كل أحد ، ﴿ **فى الكتاب** ﴾ : أى فى اللوح المحفوظ ، ﴿ **الآيات** ﴾ : ما اقترحته قريش من جعل الصفا ذهبا ، ﴿ **ومبصرة** ﴾ : أى ذات بصيرة لمن يتأملها ويتفكر فيها ، ﴿ **فظلموا بها** ﴾ : أى فكفروا بها وجحدوا ، ﴿ **أحاط بالناس** ﴾ : أى أحاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا ، ﴿ **والرؤيا** ﴾ : هى ما عاينه ﷺ ليلة أسرى به من العجائب ، ﴿ **والشجرة** ﴾ : هى شجرة الزقوم ، ﴿ **والطغيان** ﴾ : تجاوز الحد فى الفجور والضلال .

---

(١) الآية ١٣ من سورة الشورى .

المناسبـــــة

هذه الآيات عود على بدء فى تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيرا ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ويخافون عذابه ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، فادعونى وحدى ، لأنى أنا المالك لنفعكم وضركم دونهم .

ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبى واغتنام الأموال ، وأخذ الجزية .

ثم أردف ذلك ببيان أنه ما منعه من إرسال الآيات التى طلب مثلها الأولون كقولهم : (لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً)[١] .

إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال ، كما أصاب من قبلهم ، أو لم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة .

ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه وأنه سينصره ويؤيده .

ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحانا لإيمانهم كما كان ذكر شجرة الزقوم فى قوله : ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾[٢] .

ثم تلا هذا بذكر تماديهم فى العناد وأنه كلما خوفهم وأنذرهم ، ازدادوا تماديا وطغيانا ، فلو أنزل عليهم الآيات التى اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

قوله تعالى : **﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً ﴾** :

أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين يعبدون من دون الله من خلقه ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه ، حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوها ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ، إنهم لا يقدرون على دفع شىء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم .

روى أنه لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ انزل الله هذه الآية .

قوله تعالى : **﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾** :

أى هؤلاء الذين يدعوهم المشركون أربابا وينادونهم لكشف الضر عنهم ، يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة .

---

(١) الآية ٩٠ من سورة الإسراء .

(٢) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الدخان .

أخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (سلوا الله لى الوسيلة قالوا وما الوسيلة ؟ قال القرب من الله ثم قرأ هذه الآية)(١) .

﴿ **أيهم أقرب** ﴾ :

أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوه يبتغى إليه الوسيلة والقرب منه .

وإذا كان العجز عن كشف الضر عنكم والافتقار إلى ربكم شأن أعلاهم وأدناهم فكيف تعبدونهم ؟

﴿ **ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ :

أى ويرجون بفعلهم للطاعة رحمته ويخافون بمخالفة أمره عذابه .

ثم ذكر العلة فى خوفهم من العذاب فقال : ﴿ **إن عذاب ربك كان محذورا** ﴾ : أى إن عذابه حقيق بأن يحذره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهما .

ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال : ﴿ **وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديداً** ﴾ :

أى وما من قرية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم ، كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٢) .

وقال : ﴿ فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾(٣) وقال : ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾(٤) .

﴿ **كان ذلك فى الكتاب مسطورا** ﴾ :

أى كان ذلك مثبتاً فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ .

عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فقال ما أكتب قال اكتب المقدر وما هو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى .

وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم إنه كان قبلك أنبياء منهم من سُخّرت له الريح ، ومنهم من كان يحيى الموتى ، فإن سرك أن نؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾ :

(١) أخرجه الترمذى فى المناقب : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٥ .

(٢) الآية ١١٨ من سورة النحل .

(٣) الآية ٥ من سورة الطلاق .

(٤) الآية ٨ من سورة الطلاق

أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقوا مصرين على كفرهم لا ستحقوا عذاب الاستئصال ، كما هو سنتنا فى الأمم السالفة ، لكن هذا العذاب على هذه الأمة لا يكون ، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم فلم يجبهم إلى ما طلبوا ، ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

والخلاصـــة :

إنه ما منعنا من إرسال الآية التى سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها فإن أرسلنا الآيات وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله فى عباده .

روى احمد عن ابن عباس قال : « سأل أهل مكة النبى ﷺ ان يجعل لهم الصفا ذهبا وأن ينحى الجبال عنهم فيزرعوا فقيل له إن شئت أن نستأنى بهم وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم قال بل نستأنى بهم »[1] وأنزل الله ﴿ **وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون** ﴾ :

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : « قال الناس لرسول الله ﷺ : لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال رسول الله ﷺ إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم فإن عصيتم هلكتم فقالوا لا نريدها » .

ثم بين أن الآيات التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد أوتوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾[2] .

أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فآتيناها ما سألت وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها فكفروا بها ومنعوها شربها وقتلوهافأبادهم الله وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ :

أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون فيراجعوا .

ذكر المؤرخون ان الكوفة رُجفت (زلزلت) فى عهد ابن مسعود فقال : أيها الناس إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه .

وروى إن المدينة زلزلت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله لئن عادت لأفعلن ولأفعلن .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٥٨ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .

وفى الحديث الصحيح (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره) ثم قال : يا أمة محمد والله ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً)[١] .

ثم قال سبحانه محرضا رسوله على إبلاغ رسالته ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس .

﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ :

أى واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده ، وهم فى قبضته وتحت قهره وغلبة ، فلا يقدرون على أمر إلا بقضائه وقدره ، وقد عصمك من أعدائك فلا يقدرون على إيصال الأذى إليك كما قال : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾[٢] .

والخلاصـــة : إن الله ناصرك ومؤيدك حتى تبلغ رسالته وتظهر دينه .

قال الحسن : حال بينهم وبين أن يقتلوه ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[٣] .

﴿ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس ﴾ :

أى وما جعلنا الرؤيا التى أريتها ليلة الإسراء إلا امتحانا واختباراً للناس ، فأنكرها قوم وكذبوا بها ، وكفر كثير ممن كان قد آمن به ، وازداد المخلصون إيمانا .

روى البخارى فى التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء .

وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة والعرب تقول رأيته بعينى رؤية ورؤيا . **﴿ والشجرة الملعونة فى القرآن ﴾ :**

أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا : ﴿ إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم ﴾[٤] اختلفوا فقوم ازدادوا إيماناً ، وقوم ازدادوا كفرا كأبى جهل إذ قال : إن ابن أبى كبشة (يعني النبى ﷺ) توعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون ان النار تحرق الشجر . قال عبد الله بن الزبعرى : أن محمداً يخوفنا بالزقوم ، وما الزقوم إلا التمر والزبد ، فتزقموا منه وجعل يأكل من هذا بهذا .

---

(١) أخرجه البخارى فى اللباس : ٢ ، وفى الكسوف : ١ ، ٢ ، ٤ – ٦ . ومسلم فى الكسوف : ١ – ٣ ، ٦ ، ١٠ . وأبو داود فى الاستقصاء : ٣ ، ٤ ، ١١ . والنسائى فى الكسوف : ١ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . وابن ماجة فى المقدمة : ٢٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٩٨ . وفى ٢ : ١٠٩ ، ١١٨ .

(٢) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .

(٤) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الدخان .

وقد فات هؤلاء أن فى الدنيا أشياء كثيرة لا تحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى لا تؤثر فيه النار ، بل هو يزداد إذا لامسها نظافة ، ومن ثم يلبسه رجال المطافىء فى الدول المتمدينة .

وكم فى الأرض من عجائب ، وكم فى العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة ناراً وما خلص من النار إلا قشرتها التى نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو $\frac{8}{9}$ منه اكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أيدروجين ، فأرضنا نار ، وماؤنا نار ، وأشجارنا مليئة بالنار ، وهذا العالم الذى نسكنه تتخلله النار .

والخلاصـــة :

إن هؤلاء المشركين فُتنوا بالرؤيا وفتنوا بالشجرة ، وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها للعن الكفار الذين يأكلونها توسعا فى الاستعمال ، وهو كثير فى كلام العرب .

﴿ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا ﴾ :

أى ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة فما يزيدهم التخويف إلا تماديا فى الطغيان والضلال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التى اقترحوها لم يزدادوا بها إلا تمردا وعنادا واستكبارا فى الأرض ، وفعل بهم ما فعل بأمثالهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطاقة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته ﷺ على ما عسى أن يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة ، لمخالفتها للحكمة من الحزن لطعن الكفار ، إذ ربما يقولون لو كنت رسولا حقاً لأتيت بمثل هذه المعجزات التى أتى بها من قبلك الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾
قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ
مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ
وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

المفـــردات : ﴿ **أرأيتك** ﴾ : أى أخبرنى هذا الذى كرمت على : أى هذا الذى كرمته على . قاله احتقاراً واستغفاراً لشأنه ، ﴿ **لأحتنكن** ﴾ : من قولهم حنك الدابة واحتنكها : إذا جعل فى

حنكها الأسفل حبلا يقودها به كأنه يملكها كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، ﴿ **اذهب** ﴾ : أى أمض لشأنك فقد خليتك وما سولت لك نفسك ، ﴿ **موفوراً** ﴾ : أى مكملاً لا يدخر منه شيء من قولهم وفر لصاحبك غرضه فرة : أى أكمله له قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

ويقال أفزه الخوف واستنفزه : أى ازعجه واستخفه ، ﴿ **بصوتك** ﴾ : أى بدعائك إلى معصية الله ، ﴿ **واجلب عليهم** ﴾ : أى صح عليهم من الجلبة وهى الصياح ويقال أجلب على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول (والخيل هنا الفرسان) كما جاء فى قوله ﷺ فى بعض غزواته لأصحابه : (يا خيل الله أركبى)[1] ، ﴿ **والرّجل** ﴾ : واحده راجل كركب وراكب ، ﴿ **والغرور** ﴾ : تزيين الباطل بما يظن انه حق ، ﴿ **والوكيل** ﴾ : الحافظ والرقيب .

المناسبة

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول ﷺ كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدوه حين حدثهم بالإسراء وشجرة الزقوم ، وأنهم نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسداً على ما آتاه الله من النبوة ، وكبراً عن أن ينقادوا إلى الحق .

بينّ أن هذا ليس ببدع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل مالاقيت ، الا ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس ، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج من الإيمان ، والدخول فى الكفر ، والحسد بلية قديمة ، ومحنة عظيمة للخلق .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طيناً** ﴾

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور : البقرة . الأعراف . الحجر . الإسراء . الكهف . طه . صَ .

وفى هذا المقام يخبر ربنا تبارك وتعالى نبيه ومصطفاه فيقول : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾

أى اذكر وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، فقد منعه الحسد والكبر أن يمتثل أمر الله فتكبر على آدم .

قال تعالى : ﴿ إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾(١) وقال : ﴿ إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ﴾(٢) . وقال ﴿ إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ﴾(٣).

ماذا قال إبليس لربه : ﴿ **قال أأسجد لمن خلقت طينا** ﴾ .

وكان فى هذا الموقف يجعل من العناصر مقاييس يقيس بها القيم والمثل ، ونسى أن العناصر لاقيمة لها فى هذا المقام . فالإنسان حيث يثبت لاحيث ينبت ، وحيث يوجد ، لا حيث يولد .

الناس من جهة التصوير أكفاء   أبوهـم آدم والأم حـواء
فإن يكن لهم فى أصلهم شرف   يتفاخرون به فالطين والمـاء

إن الميزان العدل والقسطاط المستقيم الذى وزن به الحكم العدل هو التقوى فلم يقل تعالى إن أكرمكم عند الله أقواكم ولا أغناكم ، إنما قال : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾(٤) فالتقوى هى السلاح الأقوى :

ثم قال إبليس بعد ذلك لرب العزة : ﴿ **قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ :

كلمة قالها على سبيل التعجب : أى أخبرنى أهذا الذى كرمته علىَّ وأنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ، لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتوين ذريته بالضلال والإغواء ، و ﴿ لأ قعدنَّ لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين ﴾(٥).

لكنه استثنى القليل من ذرية آدم . قال تعالى : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾(٦) . فماذا قال له مولانا ؟

﴿ **قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا** ﴾ :

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قال فالحق والحق أقول * لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾(٧) .

وهنا يقول له ربنا ﴿ **اذهب** ﴾ : أى امض لشأنك فالحق واضح ، والطريق لائح والمنادى صائح ﴿ **فمن تبعك منهم** ﴾ بمخالفة أمرى وسلك طريق الغواية فلأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . وهى جزاؤكم لإغوائك لهم ، واتباعهم لك جزاءاً موفورا .

(١) الآية ٣٤ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٣١ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٥٠ من سورة الكهف .
(٤) الآية ١٣ من سورة الحجرات .
(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الأعراف .
(٦) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة ص .
(٧) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة ص .

لقد حذَّر الله أبناء آدم من هذا الذئب فهو أشد علينا من ذئب الغنم ، قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم أ لاتعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾(٢).

وقال تبارك اسمه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً . إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾(٣).

قال له رب العزة : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورَجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾ .

قال ابن عباس فى قوله ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾ قال : كل داع دعا إلى معصية الله عزَّ وجلَّ .

وقال مجاهد : باللهو والغناء أى استخفهم بذلك .

وقال قتادة – اختاره ابن جرير – فى قوله تعالى ﴿ **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ : يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل كما أن الركب جمع راكب وصحب جمع صاحب ، ومعناه : تسلط عليهم بكل ماتقدر عليه وهذا أمر قدرى كقوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا ﴾(٤) أى تزعجهم إلى المعاصى إزعاجا ، وتسوقهم إليها سوقا .

وقال ابن عباس ومجاهد فى قوله : ﴿ **وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ قال : كل راكب وماش فى معصية الله .

وقال قتادة : إن له خيلا ورجالا من الجن والإنس وهم الذين يطيعونه تقول العرب : أجلب فلان على فلان إذا صاح عليه .

وقوله تعالى : ﴿ **وشاركهم فى الأموال والأولاد** ﴾ :

قال ابن عباس ومجاهد : هو ما أمرهم به من انفاق الأموال فى معاصى الله تعالى .

وقال عطاء : هو الربا .

وقال الحسن : هو جمعها من خبيث وإنفاقها فى حرام .

---

(١) الآيتان : ٦٠ ، ٦٣ من سورة يس

(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقره

(٣) الآية ٦ من سورة فاطر

(٤) الآية ٨٣ من سورة مريم

وقال العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما : أما مشاركته إياهم فى أموالهم فهو ماحرموه من أنعامهم يعنى من البحائر والسوائب ونحوها .

وقال ابن جرير : والأولى أن يقال إن الآية تعم ذلك كله .

وقوله : ﴿ **والأولاد** ﴾ قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد والضحاك : يعنى أولاد الزنا .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفها بغير علم .

وقال قتادة عن الحسن البصرى : قد والله شاركهم فى الأموال والأولاد مجسوا وهودوا ونصروا وصبغوا غير صبغة الإسلام وجزءوا من أموالهم جزءا للشيطان .

وقال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال كل مولود ولدته أنثى عصى الله فيه بتسميعه بما يكرهه الله ، أو بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله ، أو وأده ، أو غير ذلك من الأمور التى يعصى الله بفعله به . أو فيه ، فقد دخل فى مشاركة إبليس فيه من ولد ، ذلك الولد له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله ﴿ **وشاركهم فى الأموال والأولاد** ﴾ فكل ماعصى الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة .

فقد ثبت فى صحيح مسلم عن عياض بن حماد أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل : [إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم](1).

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتى أهله قال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدا »(2).

وقوله تعالى : ﴿ **وعدهم** ﴾ من يستخفهم ويغرهم من المواعيد الباطلة ، كوعدهم بأن لا جنة ولا نار ، أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ماثبت من قوله ﷺ : « يا فاطمة بنت محمد سلينى من مالى ماشئت لا أغنى عنك من الله شيئا »(3)

أو بالتسويف فى التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .

وخلاصة ذلك : إنه يغويهم بأن لاضرر من فعل هذه المعاصى ، فإنه لا جنة ولا نار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، وإنها سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها فتفويتها غبن وخسران ، وينفرهم من

---

(١) أخرجه مسلم فى الجنة : ٦٣ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٦٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ١١ ، وفى الوضوء : ٨ وفى النكاح : ٦٦ ، وفى الدعوات : ٥٥ . ومسلم فى الطلاق : ٦ . وأبو داود فى النكاح : ٤٥ . والترمذى فى النكاح : ٦ . وابن ماجه فى النكاح : ٢٧ . والدرامى فى النكاح : ٢٩ . والإمام أحمد فى : فى ١ : ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٤٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٦ .

(٣) أخرجه الدرامى فى الرقاق : ٢٣ .

الطاعة بأن لا فائدة فيها ، إذ لارجعة بعد هذه الحياة ، فهى عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خدعة .

قوله تعالى : ﴿ **وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾ : لأنه لايغنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فمواعيده خدعة يزينها لهم ويُلبسها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ﴾[(١)].

ثم نفى الله تعالى سلطان الشيطان عن عباده المخلصين فقال : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا** ﴾

وذلك كقوله جلّ شأنه : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم . إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾[(٢)].

فسبحانك اللهم شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا ، قطرة من فيض وجودك تملأ الأرض رِيًّا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا .

يارب حبك فى دمى وكيانى — نور أغر يذوب فى وجدانى
أنا لا أضام وفى رحابك عصمتى — أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى

قوله تعالى : ﴿ **وكفى بربك وكيلا** ﴾ :

فنعم المولى ونعم النصير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وكفى بربك هاديا ونصيرا ، وكفى به شهيدا ، وحسيبا ، وكفيلا .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لينضى شياطينه كما ينضى أحدكم بعيره فى السفر »[(٣)] ينضى أى يأخذ بناصيته ويقهره .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .
(٢) الآيات ٩٩ ، ١٠٠ من سورة النحل .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٨٠ .

نــداء الفطرة

﴿رَبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾
وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا
تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ
فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ
وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا
تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

المفردات : ﴿ **يزجى** ﴾ : أى يسوق حينا بعد حين ، والمراد أنه يجريه ﴿ **وفضله** ﴾ : هو رزقه . والمراد ﴿ **بالضر** ﴾ : خوف الغرق بتقاذف الأمواج ، ﴿ **وضل** ﴾ : غاب عن ذكركم ، ﴿ **والخسف** ﴾ : والخسوف : دخول الشئ فى الشيء ؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس ، وعين من الماء خاسفة : أى غائرة الماء وخسفت الشمس : أى احتجبت ، وكأنها غارت فى السحاب ﴿ **والحاصب** ﴾ : الريح التى ترمى بالحصباء والحجارة ﴿ **والقاصف** ﴾ : الريح تقصف الشجر وتكسره . ﴿ **والتبيع** ﴾ : النصير والمعين . ﴿ **وحملته على فرس** ﴾ : أى أعطيته إياها ليركبها .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى موقف إبليس من آدم وكيف حسده وتكبّر عليه وأبى السجود له ، وبيّن ما يكيد به للبشر بصوته وخيله ورجله ومشاركته إياهم فى الأموال والأولاد ، ووعده لهم بالأمانى والخداع . بيّن سبحانه أن من رحمته التى وسعت كل شيء أنه نفى سلطانه عن عباده المؤمنين .

وبيّن أن من صور رحمته بهم أيضا ، أنه هو الذى يسوق لهم الفلك فى البحر ليبتغوا من فضله ، فتسير حياتهم برا وبحرا سيرا لهم فيه مايقوم بمعاشهم .

قال تعالى : ﴿ **ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما** ﴾ :

وهذا كما قال جلّ شأنه : ﴿ وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[1] .

والبحر خلق عظيم الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود ، وقد بيّن الله تعالى حَال قوم إذا مسّهم الضر فى البحر نسوا كل معبود سوى الله ، فلما كشف الله عنهم الضر

(١) الآية ١٢ من سورة فاطر .

أعرضوا عن الله وتولوا عن وحدانيته . قال عزَّ من قائل : ﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر ضلَّ من تدعون إلا إيَّاه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا** ﴾ :

لما ذهب عكرمة بن أبى جهل فارا من رسول الله ﷺ حين فتح مكة ، فذهب هاربا فركب فى البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لايغنى عنكم إلا أن تدعو الله وحده ، فقال عكرمة فى نفسه : والله إن كان لاينفع فى البحر غيره فإنه لاينفع فى البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرجتنى منه لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رؤوفا رحيما ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضى الله عنه وأرضاه .

وقوله تعالى : ﴿ **فلما نجاكم إلى البر أعرضتم** ﴾ : أى نسيتم ما عرفتم من توحيده فى البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لاشريك له . ﴿ **وكان الإنسان كفورا** ﴾ أى سجيته هذا ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[(١)].

وكما قال تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[(٢)].

قوله تعالى : ﴿ **أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لاتجدوا لكم وكيلا** ﴾ :

يا من أعرضتم عن توحيد الله وكفرتم به بعد أن نجاكم إلى البر هل أمنتم من فى السماء أن يخسف بكم جانب البر ، أو أن يرسل عليكم حاصبا من حجارة ، ثم إنكم لن تجدوا وكيلا غيره تكلون إليه أمركم .

قال تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل مايشاء ﴾[(٣)].

ثم هل أمنتم بعد نجاتكم من الغرق أن يعيدكم الله فى البحر مرة أخرى ، ويرسل عليكم ريحا عاصفا فيغرقكم بما كفرتم ، إنه إن فعل بكم ذلك لن تجدوا لكم ناصرا من دون الله ، ولن تجدوا لكم تبيعا .

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس .

(٢) الآية ٦٥ من سورة العنكبوت .

(٣) الآية ١٨ من سورة الحج .

قال جل شأنه : ﴿ **أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾ :

إن عليكم كما عرفتم الله فى الشدة فدعوتموه وحده أن تعرفوه فى الرخاء فتثبتوا على توحيده ، فهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وهو الذى أسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها . إن الإنسان لظلوم كفّار ﴾(١).

ومن مظاهر نعمه سبحانه عليكم يابنى آدم أنه كرَّمكم وحملكم فى البر والبحر ورزقكم من الطيبات ، وفضَّلكم على كثير من خلقه ، فشكر المنعم واجب .

قال تعالى : ﴿ **ولقد كرَّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ :

ياخالق الكون فى عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون
يامن لطفت بحالى قبل تكوينى لاتجعل النار يوم الحشر تكوينى

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾(٢).

إن من مظاهر تكريم الله تعالى لابن آدم أنه خلقه على أحسن الهيئات وأكملها كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾(٣).

فهو يمشى قائما منتصبا على رجليه ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات يمشى على أربع ويأكل بفمه وجعل له سمعا وبصرا وفؤادا يفقه بذلك كله وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ومضارها فى الأمور الدينية والدنيوية ، وحملناهم فى البر أى على الدواب من الأنعام والخيل والبغال وفى البحر أيضا على السفن الكبار والصغار ، ورزقناهم من الطيبات أى من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يضعونه لأنفسهم ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحى ، وفضلناهم على كثير مما خلقنا تفضيلا ، أى من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات .

وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة ، قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم قال : (قالت الملائكة يا ربنا إنك أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ولم تعطنا ذلك فأعطنا الآخرة . فقال الله تعالى : وعزتى وجلالى : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له كن فكان) .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة ابراهيم .
(٢) الآية ١٩ من سورة النمل .
(٣) الآية ٤ من سورة التين .

وقد روى ابن عساكر بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ قال : (إن الملائكة قالوا : ربنا خلقتنا وخلقت بنى آدم ، وجعلتهم يأكلون الطعام ، ويشربون الشراب ، ويلبسون الثياب ، ويتزوجون النساء ، ويركبون الدواب ، ينامون ويستريحون ، ولم تجعل لنا من ذلك شيئا ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال الله عزّ وجلّ : لا أجعل من خلقته بيدى ونفخت فيه من روحى كمن قلت له كن فكان) .

وقال الطبرانى بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : (ماشىء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم) قيل يا رسول الله ولا الملائكة . قال : (ولا الملائكة . الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر) .

من مشاهد القيامة وتوجيهات إلـٰهية

يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِى هَـٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

المفردات : ﴿ **إمامهم** ﴾ : أى كتابهم فهو كقوله : ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام

مبين ﴾[1]. ﴿ **الفتيل** ﴾ : الخيط المستطيل فى شق النواة وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير التافه ومثله النقير والقطمير . ﴿ **أعمى** ﴾ : أى اعمى البصيرة عن حجة الله والركون إلى الشىء : الميل إلى ركن منه ﴿ **ضعف الحياة** ﴾ : أى عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا . ﴿ **وضعف الممات** ﴾ : أى عذابا مضاعفا فى الممات فى القبر وبعد البعث . ﴿ **ونضيرا** ﴾ : أى معينا يدفع عنك العذاب . ﴿ **لايلبثون** ﴾ : أى لايبقون ﴿ **خلافك** ﴾ : أى بعدك ﴿ **سنة من قد أرسلنا** ﴾ : أى سننا بك سنه الرسل قبلك ﴿ **تحويلا** ﴾ : أى تغييرا . ﴿ **دلوك الشمس** ﴾ : زوالها عن دائرة نصف النهار ﴿ **الغسق** ﴾ : شدة الظلمة . ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ : أى صلاة الصبح أو القرآن الذى يتلى فجراً . ﴿ **كان مشهودا** ﴾ : أى تشهد شواهد القدرة وروائع الحكمة وبهجة العالم العلوى والسفلى ؛ فمن ظلام حالك ازالة ضوء ساطع ونور باهر ومن نوم وخمود إلى يقظة وحركة وسعى إلى الأرزاق .

سبحان الواحد الخلاق وهل هناك منظر أجمل فى نظر الرائى من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام الدامى يدفعه بقوة ليضىء العالم بجماله ويقظة النوام وحركتهم على ظهر البسيطة ، وقد كانوا فى سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيبوبة للحواس . ﴿ **التهجد** ﴾ : الاستيقاظ من النوم للصلاة ﴿ **نافلة** ﴾ : أى صلاة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك . ﴿ **المقام المحمود** ﴾ : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه ﷺ . ﴿ **السلطان** ﴾ : الحجة البينة . ﴿ **والنصير** ﴾ : الناصر والمعين . ﴿ **زهق** ﴾ : أى زال واضمحل . ﴿ **نأى بجانبه** ﴾ : أى لوى عطفه عن الطاعة وولاها ظهره . ﴿ **وشاكلته** ﴾ : أى مذهب وطريقه التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال . ﴿ **ويئوسا** ﴾ : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله . ﴿ **وأهدى سبيلا** ﴾ : أى أسد طريقا وأقوم منهجا .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر الله تعالى أحوال بنى آدم فى الدنيا ، وذكر أنه أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضلهم عليهم تفضيلا ، فصل فى هذه الآيات تفاوت أحوالهم فى الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه مايجرى مجرى تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال ، والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس ،

ثم قفّى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بان الأمم التى تلجىء رسلها إلى الخروج من أرضها ، لابد أن يصيبها الوبال والنكال ،

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى كيد الكفار واستفزازهم لرسول الله ﷺ ، ليخرجوه من أرضه ، وسلاه بما سلاه به أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ولا يبالى بسعيهم ولا يلتفت إليهم ، فإنه سبحانه يدفع مكرهم وشرهم ، ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود .

---

(١) الآية ١٢ من سورة يس .

ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوا .

قوله تعالى :

﴿ يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا * ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾ :

قال مجاهد وقتاده : أى بنبيهم

وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط ﴾[(١)].

وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث ، لأن إمامهم النبى ﷺ .

وقال ابن زيد : بكتابهم الذى أنزل على نبيهم من التشريع ، واختاره ابن جرير .

عن ابن عباس فى قوله ﴿ **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم** ﴾ :

أى بكتاب أعمالهم . وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى : ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾[(٢)]

وقال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾[(٣)]

ويحتمل إن المراد بإمامهم أى كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾[(٤)].

وفى الصحيحين (لتتبع كل أمة ما كانت تعبد من كان يعبد الطواغيت الطواغيت)[(٥)] . الحديث .

وقال تعالى : ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ماكنتم تعملون ﴾[(٦)].

وهذا لاينافى أن يجاء بالنبى إذا حكم الله بين أمته ، فإنه لابد أن يكون شاهدا على أمته بأعمالها ، كقوله تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ﴾[(٧)].

---

(١) الآية ٤٧ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٢ من سورة يس .

(٣) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

(٤) الآية ٤١ من سورة القصص .

(٥) الآية أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، وفى الرقاق : ٥٢ . ومسلم فى الإيمان : ٢٩٩ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٥٣٤ .

(٦) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الجاثية .

(٧) الآية ٧٠ من سورة الزمر .

وقوله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[(١)].

ولكن المراد ههنا بالإمام هو كتاب الأعمال ولهذا قال تعالى : ﴿ **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم** ﴾ .

أى من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح يقرؤه ويحب قراءته ، كقوله : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه * فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾[(٢)].

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يظلمون فتيلا** ﴾ الفتيل هو الخيط المستطيل فى شق النواة .

روى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قول الله تعالى : ﴿ **يوم ندعوا كل أناس بإمامهم** ﴾ قال : (يدعى أحدهم فيعطى كتابه بيمينه ويمد له فى جسمه ويبيض وجهه ، ويجعل على رأسه تاج من لؤلؤة يتلألأ ، فينطلق إلى أصحابه فيرونه من بعيد فيقولون : اللهم أتنا بهذا ، وبارك لنا فى هذا . فيأتيهم فيقول لهم : أبشروا فإن لكل رجل منكم مثل هذا . وأما الكافر فيسودّ وجهه ، ويمد له فى جسمه ، ويراه أصحابه فيقولون : نعوذ بالله من هذا ، أو من شر هذا ، اللهم لاتأتنا به . فيأتيهم فيقولون : اللهم أخزه . فيقول : أبعدكم الله فإن لكل رجل منكم مثل هذا) .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن كان فى هذه أعمى** ﴾ : قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد : ﴿ **ومن كان فى هذه** ﴾ أى فى الحياة الدنيا ﴿ **أعمى** ﴾ أى عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿ **فهو فى الآخرة أعمى** ﴾ أى كذلك يكون .

﴿ **وأضل سبيلا** ﴾ : أى وأضل منه كما كان فى الدنيا عياذاً بالله من ذلك .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لاتجد لك علينا نصيرا * وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لايلبثون خلافك إلا قليلا * سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولاتجد لسنتنا تحويلا** ﴾ .

يخبر تعالى عن تأييده لرسوله صلوات الله عليه وسلامه ، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولى أمره ونصره ، وأنه لايكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه وناصره ومؤيده ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه فى مشارق الأرض ومغاربها .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لايلبثون خلافك إلا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا** ﴾ :

(١) الآية ٤١ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٩ ــ ٢٥ من سورة الحاقة .

نزلت فى كفار قريش هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم ، فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيرا ، وكذلك وقع فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعد ما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصفا حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم وأظفره بهم فقتل أشرافهم وسبى ذراريهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **سنة من قد أرسلنا** ﴾.

أى وهكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا ، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم ، يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله تعالى عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم فى الدنيا مالا قبل لأحد به. ولهذا قال تعالى : ﴿ وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً * ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ .

عن جابر بن عبد الله قال : (دعوت رسول الله ﷺ ومن شاء من أصحابه فطعموا عندى ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبى ﷺ فقال : أخرج يا أبا بكر فهذا حين دلكت الشمس ﴾[2].

فعلى هذا تكون هذه الآية دخل فيها أوقات الصلوات الخمس .

فمن قوله : ﴿ **لدلوك الشمس إلى غسق الليل** ﴾ وهو ظلامه ، أخذ منه الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

وقوله : ﴿ **وقرآن الفجر** ﴾ يعنى صلاة الفجر ، وقد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ تواترا من أفعاله وأقواله بتفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم ، مما تلقوه خلفاً عن سلف ، وقرنا بعد قرن .

﴿ **إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾ : قال الأعمش عن إبراهيم ، عن ابن مسعود وعن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهما : عن النبى ﷺ فى هذه الآية ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ قال : تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال (فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر)[3].

يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الأنفال .

(٢) الآية أخرجه الدرامى فى المقدمة : ٠٧ وابن ماجه فى الإقامة : ٠١٤٨ والإمام أحمد فى ٣ : ٣٩٨ ، وفى ٤ : ٣٤٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأذان : ٣١ ، وفى الصلاة : ٨٧ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ٠١٠ والترمذى فى الصلاة : ٠٤٧ والدرامى فى الصلاة : ٠٥٦ والإمام أحمد فى ١ : ٣٧٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ ، وفى ٢ : ١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٥٢ ، ٢٦٦ ، ٥٠١ ، ٥٢٠ .

قال الإمام أحمد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فى قوله ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** ﴾ قال : (تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار)[١] رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وفى لفظ فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (**يتعاقبون فيكم** ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر ، فيعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وقال عبد الله بن سعود يجتمع الحرسان فى صلاة الفجر فيصعد هؤلاء ويقيم هؤلاء)[٢].

قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك** ﴾ : هذا أمر بقيام الليل بعد أن أمره تعالى بأداء المكتوبة .

وقد روى الإمام مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه سئل أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال (صلاة الليل)[٣] ولهذا أمر تعالى رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل فإن التهجد ماكان بعد نوم .

وقوله تعالى : ﴿ **نافلة لك** ﴾ : قيل أنه مخصوص بوجوب – وحده ، فجعلوا قيام الليل واجبا فى حقه دون الأمة ، رواه العوفى عن ابن عباس وهو أحد قولى العلماء ، واحد قولى الشافعى رحمه الله .

وقيل إنما جعل قيام الليل فى حقه نافلة على الخصوص ، لأنه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وغيره من أمته إنما يكفر عنه صلواته النوافل الذنوب التى عليه .

قال الفقهاء فى قيام الليل

١ – فضله :

أمر الله به نبيه ﷺ ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ :

١ ــ وهذا الأمر وإن كان خاصا برسول الله ﷺ إلا أنه عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاقتداء به ﷺ .

٢ ــ يبين ان المحافظين على قيامه هم المحسنون المستحقون لخيره ورحمته ، فقال : ﴿ إن المتقين فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ٥، وابن ماجه فى الصلاة : ٢ ، وفى الجنائز : ٦٥، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٧٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى المواقيت : ١٦ ، وفى بدء الخلق : ٦ ، وفى التوحيد : ٢٣ ، ٣٣، ومسلم فى المساجد : ٢١٠، والنسائى فى الصلاة : ٢١، والإمام مالك فى السفر :٨٢، والإمام أحمد فى :٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٤٨٦ .

(٣) أخرجه مسلم فى الصيام : ٢٠٣، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٢٩ .

جنات وعيون * آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين * كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[١] .

٣ ــ ومدحهم وأثنى عليهم ونظمهم فى جملة عبادة الأبرار فقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما﴾[٢] .

٤ ــ وشهد لهم بالإيمان بآياته فقال ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[٣] .

٥ ــ ونفى التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم فقال : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[٤] .

هذا بعض ماجاء فى كتاب الله ، أما ماجاء فى سنة رسول الله ﷺ فهاك بعضه :

١ ــ قال عبد الله بن سلام ! أول ماقدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت ممن جاءه ، فلما تأملت وجهه استبنته ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال : فكان أول ماسمعت من كلامه أن قال : (يأأيها الناس أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلو الجنة بسلام)[٥] . رواه الحاكم وأبو ماجه والترمذى وقال حسن صحيح .

٢ ــ وقال سلمان الفارسى ! قال رسول الله ﷺ (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ، ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد)[٦] .

٣ ــ وقال سهل بن سعد ! جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : (يامحمد عش ماشئت فإنك ميت ، وأعمل ماشئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، وأعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس) .

٤ ــ وعن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : (ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل

---

(١) الآيات ١٥-١٨ من سورة الذاريات .

(٢) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة الفرقان .

(٣) الآيات ١٥-١٧ من سورة السجدة .

(٤) الآية ٩ من سورة الزمر .

(٥) أخرجه الترمذى فى الأطعمة : ٤٥ ، وفى القيامة : ٥٦ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ ، وفى الأدب : ١١ . والإمام أحمد فى ١ : ١٦٥ ، ١٦٧ .

(٦) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٠١ .

ويكفيه ، فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ، والذى له إمرأة حسنة وفراش لين حسن فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد ، والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا : فقام من السحر فى ضراء وسراء) .

٢ – آدابه :

يسن لمن أراد قيام الليل ما يأتى :

١ – أن ينوى عند نومه قيام الليل . فعن أبى الدرداء أن النبى ﷺ قال : (من أتى فراشه وهو ينوى أن يقوم فيصلى من الليل فغلبته عينه حتى يصبح كتب له مانوى ، وكان نومه صدقة عليه من ربه)(١). رواه النسائى وابن ماجه بسند صحيح .

٢ – أن يمسح النوم عن وجهه عند الاستيقاظ ، ويتسوك ، وينظر إلى السماء ، ثم يدعو بما جاء عن رسول الله ﷺ فيقول : (لا إله إلا أنت سبحانك ، أستغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولاتزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا . وإليه النشور(٢). ثم يقرأ الآيات العشر من أواخر سورة آل عمران : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾(٣) إلى آخر السورة . ثم يقول : اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، والساعة حق . اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فأغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت الله لا إله إلا أنت)(٤).

٣ – ثم يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين ثم يصلى بعدهما ماشاء فعن عائشة قالت : (كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يصلى افتتح صلاته بركعتين خفيفتين)(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود فى لتطوع : ٢٠ . والنسائى فى الليل : ٦١ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ١٣ ، وفى الدعوات : ٧ ، ١٥ . ومسلم فى الذكر : ٥٩ . وابن ماجه فى الدعاء : ١٦ والدارمى فى الاستئذان : ٥٣ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٩٤ ، ٣٠٢ ، وفى ٥ : ١٥٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٧ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ .

(٣) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران .

(٤) أخرجه البخارى فى التهجد : ١ . ومسلم فى المسافرين : ١٩٩ ، ٢٠١ . وأبو داود فى الصلاة : ١١٩ . والنسائى فى التطبيق : ١٣ ، ١٤ ، ٧–٦٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٠ ، ١٨٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٩٥ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ .

(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٩٧ ، ٢٠٠ . والإمام أحمد فى ٦ : ٣٠ .

عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين)[١] رواهما مسلم .

٤ – أن يوقظ أهله ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (رحم الله أمرا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح فى وجهها ، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء)[٢].

وعنه أيضا أن رسول الله ﷺ قال (إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا أو صلى ركعتين جميعا كتب فى الذاكرين والذاكرات)[٣] رواهما أبو دواد وغيره باسناد صحيح .

وعن أم سلمة أن النبى ﷺ استيقظ ليلة فقال : (سبحان الله ، ماذا أنزل الليلة من الفتنة ، ماذا أنزل من الخزائن من يوقظ صواحب الحجرات ، يارب كاسية فى الدنيا عارية يوم القيامة رواه البخارى . عن على أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة فقال : ألا تصلبان ؟ قال : فقلت : يارسول الله أنفسنا بيد الله . فإن شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ثم سمعته وهو يضرب فخذه وهو يقول : (وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً)[٤] . متفق عليه .

٥ – أن يترك الصلاة ويرقد إذا غلبه النعاس حتى يذهب عنه النوم فعن عائشة أن النبى ﷺ قال : (إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضجع)[٥]رواه مسلم .

وقال أنس : (دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل ممدود بين ساريتين فقال : ماهذا ؟ قالوا : لزينب تصلى ، إذا كسلت أو فترت أمسكت به ؟ فقال : حُلّوه ، ليصل أحدكم نشاطه فإذا كسل أو فتر فليرقد)[٦] متفق عليه .

٦ – أن لايشق على نفسه بل يقوم من الليل بقدر ماتتسع له طاقته ويواظب عليه ولايتركه إلا لضرورة . فعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : (خذوا من الأعمال ما تطيقون ، فوالله لايمل الله حتى تملوا)[٧]. رواه البخارى ومسلم .

---

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٩٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٩٩ .

(٢) أخرجه أبو داود فى التطوع : ١٨ ، وفى الوتر : ١٣ . والنسائى فى قيام الليل : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٠ ، ٤٣٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى ليلة القدر : ٥ . ومسلم فى الاعتكاف : ٧ . وأبو داود فى التطوع : ١٨ ، وفى الوتر : ١٣ . والنسائى فى قيام الليل : ٥ ، ١٧ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٥ . والإمام مالك فى صلاة الليل : ٥ . والإمام أحمد فى ١ : ١٣٢ ، وفى ٢ : ٢٥٠ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٢٩٧ .

(٥) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٢٣ . وأبو داود فى التطوع : ١٨ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٨٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٨ .

(٦) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٨ . وابن ماجة فى الإقامة : ١٨٤ .

(٧) أخرجه البخارى فى الرقاق : ١٨ . ومسلم فى المسافرين : ٢١٥ ، ٢٢٠ . والترمذى فى القبلة : ١٣ . وابن ماجه فى زهد : ٢٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣١ ، ٣٥٠ ، ٤٩٦ ، وفى ٦ : ٤٠ ، ٦١ ، ٨٤ .

ورويا عنها أن رسول الله ﷺ : سئل أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال : (أدومه وإن قل)[٨].

وروى مسلم عنها قالت : (كان عمل رسول الله ﷺ ديمة . وكان إذا عمل عملاً أثبته)[٢].

وعن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (يا عبد الله لاتكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل)[٣]. متفق عليه

ورويا عن ابن مسعود قال : (ذكر عند النبى ﷺ رجل نام حتى أصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه — أو قال فى أذنه)[٢].

ورويا عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه أن النبى ﷺ قال لأبيه : (نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل . قال سالم ، فكان عبد الله بعد ذلك لاينام من الليل إلا قليلاً) .

٣ – وقتـــه :

صلاة الليل تجوز فى أول الليل ووسطه وآخره مادامت الصلاة بعد صلاة العشاء . قال أنس رضى الله عنه فى وصف صلاة رسول الله ﷺ : (ما كنا نشاء أن نراه من الليل مصليا إلا رأيناه ، وماكنا نشاء أن نراه نائما إلا رأيناه ، وكان يصوم من الشهر حتى نقول لايفطر منه شيئا ويفطر حتى نقول لا يصوم منه شيئا)[٣]. رواه أحمد والبخارى والنسائى .

قال الحافظ : لم يكن لتهجده ﷺ وقت معين بل بحسب مايتيسر له القيام .

٤ – أفضــل أوقاتهــا :

ولكن الأفضل تأخيرها إلى الثلث الأخير !

١ – فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ينزل ربنا عز وجل كل ليلة إلى سماء الدنيا

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٢ ، وفى الصوم : ٥٢ . ومسلم فى المسافرين : ١٣٩ ، ٢٢١ ، والنسائى فى قيام الليل : ١٧ والإمام أحمد فى ٦ : ٥١ ، ٥٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصوم : ٦٤ ، وفى الرقاق : ١٨ . ومسلم فى المسافرين : ٢١٧ . وأبو داود فى التطوع : ٢٧ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٠٩ ، وفى ٦ : ٤٣ ، ٥٥ ، ١٧٤ ، ١٨٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٧٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٧٠ .

(٤) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٣ . ومسلم فى المسافرين : ٢٠٥ . والنسائى فى قيام الليل : ٥ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٤ والإمام أحمد فى ١ : ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، وفى ٢ : ٢٦٠ ، ٤٢٧ .

(٥) أخرجه البخارى فى التهجد : ١١ .

حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، من يستغفرنى فأغفرله)[١] رواه الجماعة .

٢ – وعن عمرو بن عبسة قال : سمعت النبى ﷺ يقول : (أقرب مايكون العبد من الرب فى جوف الليل الأخير فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن) رواه الحاكم قال : على شرط مسلم ، والترمذى وقال : حسن صحيح .

٣ – وقال أبو مسلم لأبى ذر : أى قيام الليل أفضل ؟ قال سألت رسول الله ﷺ كما سألتنى فقال : (جوف الليل الغابر ، وقليل فاعله)[٢]. رواه أحمد بإسناد جيد .

٤ – وعن عبد الله بن عمرو أن النبى ﷺ قال : (أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما)[٣] رواه الجماعة إلا الترمذى .

٥ – عدد ركعاته :

ليس لصلاة الليل عدد مخصوص ، ولاحد معين ، فهى تتحقق ولو بركعة الوتر بعد صلاة العشاء .

١ – فعن سَمُرة بن جندب رضى الله عنه قال : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نصلى من الليل ماقل أو كثر ونجعل آخر ذلك وتراً) . رواه الطبرانى والبزار .

٢ – وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه إلى النبى ﷺ قال : (صلاة فى مسجدى تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة ، والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفى ألف صلاة ، وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل) . رواه أبو الشيخ وابن حبان فى كتابه « الثواب » وسكت عنه الخنذرى فى « الترغيب والترهيب » .

٣ – وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لابد من صلاة بليل ولو حلب شاة ، وماكان بعد صلاة العشاء فهو من الليل) . رواه الطبرانى ورواته ثقات إلا محمد ابن اسحق .

---

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٤ ، وفى الدعوات : ١٤ . ومسلم فى المسافرين : ١٦٨ ، ١٦٩ . وأبو داود فى التطوع : ٢١ . والترمذى فى المواقيت : ٢١ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٨٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٤١٩ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الايمان : ٨ ، وفى الدعوات : ٧٨ ، ١١٨ . والنسائى فى المواقيت : ٣٥ ، ٤ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٤٨ ، ١٨٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى الصوم : ٥٦ ، وفى الأنبياء : ٣٧ . ومسلم فى الصيام : ١٨١ ، ١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٠١ وأبو داود فى الصوم : ٥٣ . والنسائى فى الصيام : ٧٥ ، ٧٦ . وابن ماجه فى الصيام : ٣١ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٥٨ .

٤ – وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (ذكرت قيام الليل فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال : (نصفه) ثلثه ، ربعه فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة) .

٥ – وروى عنه أيضا قال : (أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ورغب فيها حتى قال : « عليكم بصلاة الليل ولو ركعة » . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

والأفضل المواظبة على إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاث عشرة ركعة ، وهو مخير بين أن يصلها وبين أن يقطعها .

قالت عائشة رضى الله عنها : (ماكان رسول الله ﷺ يزيد فى رمضان ولا غيره عن إحدى عشرة ركعة ، يصلى أربعا ، فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى أربعا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلى ثلاثاً ، فقلت : يارسول الله أتنام قبل أن توتر ؟ فقال : (ياعائشة إن عينى تنامان ولاينام قلبى)[١]. رواه البخارى ومسلم .

ورويا أيضا عن القاسم بن محمد قال : سمعت عائشة رضى الله عنها تقول كانت صلاة رسول الله ﷺ عشر ركعات ويوتر بسجدة)[٢].

٦ – قضـاء قيـام الليـل :

روى مسلم عن عائشة : (أن النبى ﷺ كان إذا فاتته الصلاة من الليل من وجع أو غيره صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة)[٣].

وروى الجماعة إلا البخارى عن عمر أن النبى ﷺ قال : (من نام عن حزبه أو عن شىء منه فقرأه مابين صلاة الفجر وصلاة الظهر كأنما قرأه من الليل)[٤].

وقوله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ : أى يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه محمد ﷺ للشفاعة يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة ذلك اليوم.

وعن حذيفة قال : يجمع الناس فى صعيد واحد يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لاتكلم نفس إلا بإذنه ، ينادى : يامحمد فيقول : (لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ،

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ١٦ ، وفى المناقب : ٢٤ . ومسلم فى المسافرين : ١٢٥ . وأبو داود فى الطهارة : ٧٩ ، وفى التطوع :
(٢) ٢٦ . والترمذى فى الفتن : ٦٣ . والنسائى فى الليل : ٣٦ والإمام مالك فى الليل : ٩ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ٢٧٨ ، وفى
(٣) ٢ : ٢٥١ ، ٤٣٨ ، وفى ٥ : ٤٠ ، ٥٠ ، وفى ٦ : ٣٦ ، ٧٣ ، ١٠٤ .
(٤) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٢٨ . وأبو داود فى التطوع : ٢٦ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٦٥ .

والشر ليس إليك والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك ، ومنك وإليك ، تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت) فهذا المقام المحمود الذى ذكره الله تعالى .

قال ابن عباس هذا المقام المحمود مقام الشفاعة .

وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وقاله الحسن البصرى .

وقال قتادة : هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة ، وأول شافع ، وكان أهل العلم يرون أنه المقام المحمود الذى قال الله تعالى : ﴿ **عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾ .

قلت : لرسول الله ﷺ تشريفات يوم القيامة لا يشركه فيها أحد ، وتشريفات لايساويه فيها أحد ، فهو أول من تنشق عنه الأرض ويبعث راكبا إلى المحشر ، وله اللواء الذى آدم فمن دونه تحت لوائه ، وله الحوض الذى ليس فى الموقف أكثر وارداً منه ، وله الشفاعة العظمى عند الله ليأتى لفصل القضاء بين الخلائق ، وذلك بعد ما تسأل الناس آدم ثم نوحا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى ، فكل يقول : لست لها حتى يأتوا إلى محمد ﷺ فيقول (أنا لها أنا لها) ، كما سنذكر ذلك مفصلا فى هذا الموضع إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك أنه يشفع فى أقـوام قد أمر بهم إلى النار فيردون عنها ، وهو أول الأنبياء يقضى بين أمته وأولهم إجازة على الصراط بأمته ، وهو أول شفيع فى الجنة كما ثبت فى صحيح مسلم .

وفى حـديث الصور : (أن المؤمنين كلهم لايدخلون الجنة إلا بشفاعته وهو أول داخل إليها وأمته قبل الأمم كلهم ، ويشفع فى رفع درجات أقوام لاتبلغها أعمالهم وهو صاحب الوسيلة التى هى أعلى منزلة فى الجنة لاتليق إلا له ، وإذا أذن الله تعالى فى الشفاعة للعصاة شفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيشفع هو فى خلائق لايعلم عدتهم إلا الله تعالى ، ولا يشفع أحد مثله ولا يساويه فى ذلك .

قال البخارى حدثنا اسماعيل بن أبان حدثنا أبو الأحوص عن آدم بن على سمعت ابن عمر يقول : (إن الناس يصيرون يوم القيامة جثاء كل أمة تتبع نبيها يقولون : يافلان اشفع يافلان اشفع ، حتى تنتهى الشفاعة إلى محمد ﷺ فذلك يوم يبعثه الله مقاماً محموداً)(١)

وعن عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ : (إن الشمس لتدنو حتى يبلغ العرق نصف الأذن ، فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم فيقول : لست بصاحب ذلك ، ثم بموسى فيقول كذلك ، ثم بمحمد ﷺ فيشفع بين الخلق فيمشى حتى يأخذ بحلقة باب الجنة فيومئذ يبعثه الله مقاماً محموداً)(٢).

وقال البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : (من قال حين يسمع النداء اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ : ١١ .

(٢) أخرجه الدارمى فى الرقاق : ٨٠ . والإمام فى ١ : ٣٩٨ ، وفى ٣ : ٤٥٦ .

وعدته . حلت به شفاعتي يوم القيامة)[١] انفرد به دون مسلم .

وقال الإمام أحمد عن أبى بن كعب عن أبيه عن النبى ﷺ قال : (إذا كان يوم القيامة كنت إمام الأنبياء وخطيبهم وصاحب شفاعتهم غير فخر)[٢]. قال الترمذى حسن صحيح .

وقال الامام أحمد عن أنس عن النبى ﷺ قال : (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيلهمون ذلك فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فأراحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا . فيقول لهم آدم : لست هناكم . ويذكر ذنبه الذى أصاب ، فيستحى ربه عز وجل من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا نوحا فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، فيأتون نوحا فيقول : لست هناكم ، ويذكر خطيئة سؤاله ربه ماليس له به علم فيستحى ربه من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن فيأتونه فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا موسى ، عبداً كلمه الله وأعطاه التوارة . فيأتون موسى فيقول لست : هناكم ، ويذكر لهم النفس التى قتل بغير نفس فيستحى ربه من ذلك ، ويقول : ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ، فيأتون عيسى فيقول : لست هناكم ، ولكن ائتوا محمداً غفر الله له ماتقدم من ذنوبه وما تأخر . فيأتونى – قال الحسن هذا الحرى – فأقوم فأمشى بين سماطين من المؤمنين – قال أنس حتى أستأذن على ربى فإذا رأيت ربى وقعت له – أو خررت – ساجداً لربى ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى – قال – ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، واشفع تشفع ، وسل تعطه ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود إليه الثانية فإذا رأيت ربى وقعت له – أو خررت – ساجدا لربى فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال : ارفع محمد ، قل تسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الثالثة فإذا رأيت ربى وقعت – أو خررت – ساجداً لربى فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال : ارفع محمد ، قل نسمع ، وسل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمينه ، ثم أشفع فيحد لى حداً فأدخلهم الجنة ، ثم أعود الرابعة ، فأقول يارب : مابقى إلا من حبسه القرآن)[٣].

وحدثنا أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : (فيخرج من النار من قال لا إله إلا الله ، وكان فى قلبه من الخير ما يزن شعيرة، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ، ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن ذرة)[٤].

(١) أخرجه البخارى فى الأذان : ٨ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ١١ . والترمذى فى الصلاة : ٤٣ . والنسائى فى الأذان : ٣٨ . وابن ماجه فى الأذان : ٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الزهد : ٣٧ . والترمذى فى المناقب : ١ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٣٧ ، ١٣٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ١ ، وفى التوحيد : ١٩ ، ٢٤ ، وفى الرقاق : ٥١ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٧ .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٣ ، وفى المناقب : ٢٨ ، وفى التوحيد : ١٩ . والترمذى فى جهنم : ٩ ، ١٠ . وابن ماجه فى المقدمة : ٩ ، وفى الزهد : ٣٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٤١٦ ، ٤٥٨ ، وفى ٣ : ١١٦ ، ١٧٣ ، ٢٤٨ ، ٢٧٦ .

وقال الإمام أحمد عن أنس قال حدثني نبي الله ﷺ قال : (إني لقائم انتظر أمتي تعبر الصراط ، إذ جاءني عيسى عليه السلام فقال : هذه الأنبياء قد جاءتك يامحمد يسألون – أو قال يجتمعون إليك – ويدعون الله أن يفرق بين جميع الأمم إلى حيث يشاء الله بغم ماهم فيه ، فالخلق ملجمون بالعرق ، فأما المؤمن فهو عليه كالزكمة ، وأما الكافر فيغشاه الموت ، فقال : انتظر حتى أرجع إليك ، فذهب نبي الله ﷺ فقام تحت العرش ، فلقي مالم يلق ملك مصطفى ، ولا نبي مرسل ، فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن أذهب إلى محمد وقل له : أرفع رأسك ، سل تعطه ، واشفع تشفع ، فشفعت في أمتي أن أخرج من كل تسعة وتسعين إنساناً واحداً ،فمازلت أتردد إلى ربي عز وجل فلا أقوم منه مقاما إلا شفعت ، حتى أعطاني الله عز وجل من ذلك أن قال : أدخل من أمتك من خلق الله عز وجل من شهد أن لا إله إلا الله يوما واحداً مخلصا ومات على ذلك)[1].

وقال الإمام أحمد عن كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال (يبعث الناس يوم القيامة فأكون أنا وأمتي على تل ، ويكسوني ربي عز وجل حلة خضراء ، ثم يؤذن لي فأقول ماشاء الله أن أقول ، فذلك المقام المحمود)[2].

وقال أيضا عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : (أنا أول من يؤذن له بالسجود يوم القيامة وأنا أول من يؤذن له أن يرفع رأسه فأنظر إلى ما بين يدي فأعرف أمتي من بين الأمم ، ومن خلفي مثل ذلك ، وعن يميني مثل ذلك ، وعن شمالي مثل ذلك) فقال رجل : يارسول الله كيف تعرف أمتك من بين الأمم فيما بين نوح إلى أمتك ؟ قال : قال : (هم غر محجلون من أثر الوضوء ليس أحد كذلك غيرهم ، وأعرفهم أنهم يؤتون كتبهم بأيمانهم ، وأعرفهم تسعى من بين أيديهم ذريتهم)[3].

صلى الله عليك يا علم الهدى ماهبت النسائم وما ناحت على الأيك والحمائم :

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا
فلا أحد في الرسل يشفع إلا هو
فسيجد تحت العرش لله سجدة
ويسأله فصل القضاء فيعطاه

ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول في أمير الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليه .

يا من له عز الشفاعة وحده   وهو المنزه ماله شفعاء

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٣٠٧ ، ٣٧٣ ، ٥١٨ ، وفي ٣ : ١٧٨ ، وفي ٤ : ٤٤ ، وفي ٥ : ٢٣٦ . والترمذي في الدعوات : ١٢٦ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في ٢ : ٣٠٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في ١ : ٢٨٢ ، ٢٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، وفي ٢ : ٣٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٢ ، ٤٠٠ ، ٤٠٨ ، ٥٢٣ ، وفي ٣ : ٤٣١ ، وفي ٤ : ٢٠٧ ، وفي ٥ : ١٩٩ ، ٢٦٢ .

عرش القيامة أنت تحت لوائه والحوض أنت حياله السقاء
لى فى مديحك يا رسول عرائس تُيمن فيك وشاقهن جلاء
هن الحسان فإن قبلت تكرما فمهورهن شفاعة حسناء

قوله تعالى : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا * وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ :

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : كان النبى ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ وقال الترمذى حسن صحيح .

وقال الحسن البصرى فى تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه أو يطردوه أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة ، أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذى قال الله عز وجل : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق** ﴾ الآية

وقال قتادة : ﴿ **وقل رب أدخلنى مدخل صدق** ﴾ يعنى المدينة ﴿ **وأُخرجنى مخرج صدق** ﴾ يعنى مكة .

وكذا قال عبد الرحمن بن زيد أسلم وهذا القول هو أشهر الأقوال .

وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ **أدخلنى مُدخل صدق** ﴾ يعنى الموت ﴿ **وأخرجنى مخرج صدق** ﴾ يعنى الحياة بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ **واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا** ﴾ :

قال قتادة : إن نبى الله ﷺ علم أن لاطاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان ، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله ، ولحدود الله ، ولفرائض الله ، ولإقامة دين الله ، فإن السلطان رحمه من الله جعله بين أظهر عباده ، ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض فأكل شديدهم ضعيفهم .

وقال مجاهد : ﴿ **سلطانا نصيرا** ﴾ حجة بينة .

واختار ابن جرير قول قتادة وهو الأرجح ، لأنه لابد مع الحق من قهر لمن عاداه وناوأه ولهذا يقول تعالى :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾(١) .

(١) الآية ٢٥ من سورة الحديد .

وفى الحديث : (إن الله ليزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن) أى يمنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام مالا يمتنع كثير من الناس بالقرآن ، وما فيه من الوعيد الأكيد والتهديد الشديد .

قوله تعالى : ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾ :

هذا وعيد وتهديد لكفار قريش .

روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال (دخل النبى ﷺ مكة وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود من يده فيقول :

﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾

﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾[1].

وعن جابر رضى الله عنه قال :

(دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما تعبد من دون الله ، فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت على وجوهها ، وقال :

﴿ **جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾

إن من الحقائق الثابتة أن صوت الباطل لن يرتفع إلا إذا غفل أهل الحق ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل وسيظل الباطل يعربد فى عرصات الأرض حتى يتصدى له الحق بقوته فيدمغه فإذا هو زاهق .

والباطل زهوق بطبعه ، لكن إذا غفل أهل الحق عن حقهم خلا الجو للباطل فباض وأفرخ باض الالحاد وافرخ الزندقة ، فكيف يسكت أهل الحق عن حقهم بينما أهل الباطل يستمسكون بباطلهم .

فما بال المعروف أصبح منكرا ، وكيف أضحى المنكر معروفا ، وكيف صار الذئب راعيا ، وكيف بات الخصم العنيد قاضيا .

اللهم ارنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وارنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه .

قوله تعالى :

﴿ **وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** ﴾ :

هو كقوله تعالى عن القرآن :

﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾[2]

(١) الآية ٤٩ من سورة سبأ .
(٢) الآية ٤٤ من سورة فصلت .

وقال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا * فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾(١).

قال قتادة : إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه ﴿ ولايزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ أى لاينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

قوله تعالى :

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشركان يئوسا * قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ .

هذا اختيار منه تبارك اسمه عن فريق من الناس ، فهو سبحانه إذا أخبر فهو العليم بذات الصدور : ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(٢).

هذا النوع من الناس إذا أنعم الله عليه بنعمة نسى شكر المنعم ، وأعرض عن ذكر ربه ، ونأى بجانبه بعيدا عن طاعة الله ، فإذا ما ابتلاه الله بنقمة يئس من رحمة الله ، وأعرض عن دعاء ربه ، فهذا الفريق والعياذ بالله فى شر فى كل أحواله ، فهو فى السراء معرض ، وفى الضراء يئوس ، ولا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ، ولا يقنط من رحمة الله إلا الضالون .

فاللهم أغننا بالفقر إليك ، ولاتفقرنا بالاستغناء عنك ، فشعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ، ولو انغمست فى نعيم الدنيا ، وقطرة من فيض جودك تملأ الأرض ريا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا :

مامسنى قدر بكره أو رضا
إلا اهتديت به إليك طريقا
أمضى القضاء على الرضا منى به
إنى عرفتك فى البلاء رفيقا

قوله تعالى :

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ :

قال ابن عباس : على ناحيته .

وقال مجاهد : على حدته وطبيعته .

وقال قتادة : على نيته .
وقال ابن زيد : دينه .

(١) الآيتان ١٢٤ ، ١٢٥ من سورة التوبة .
(٢) الآية ١٤ من سورة الملك .

وهذه الآية تهديد للمشركين ووعيد لهم كقوله تعالى : ﴿ وقل للذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه ومار بك بغافل عما تعملون ﴾[1].

ربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ، وسيجزى كلا بعمله ولايظلم ربك أحدا .

الروح والقرآن ومقترحات المعاندين

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن
شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ
فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ
ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾
أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ
بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ
رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟
أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن
يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم
بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾
* أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ

(١) الآيتان ، ١٢١ ، ١٢٣ من سورة هود .

أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

المفردات : فى المراد من الروح فى هذه الآية ثلاثة آراء :

١ - ﴿ **القرآن** ﴾ : وهو المناسب لما تقدمه من قوله : ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة ﴾[1] ولما بعده من قوله : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾[2] ولأنه سمى به فى مواضع متعددة من القرآن كقوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾[3] وقوله ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره ﴾[4] ولأن به تحصيل حياة الأرواح والعقول إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

٢ - ﴿ **جبريل عليه السلام** ﴾ : وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمى جبريل فى مواضع عدة من القرآن كقوله : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾[5] وقوله : ﴿ فأرسلنا إليها روحنا ﴾[6] ويؤيد هذا أنه قال فى هذه الآية ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ وقال جبريل ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾[7] فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحى .

٣ - الروح الذى يحيا به بدن الإنسان - وهذا قول الجمهور - ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته .

ويؤيد هذا ماروى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (مرّ رسول الله ﷺ بنفر من اليهود فقال بعضهم : سلوه عن الروح . وقال بعضهم : لا تسألوه يُسمعكم ما تكرهون . فقاموا إليه ، وقالوا : يا أبا القاسم حدثنا عن الروح . فقام ساعة ينظر فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ . الآية (ذكره المراغى فى تفسيره) .

﴿ **وكيلا** ﴾ : أى ملتزماً استرداده بعد الذهاب به كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه . ﴿ **ظهيرا** ﴾ : أى معينا فى تحقيق مايتوخونه من الإتيان بمثله . ﴿ **وصرفنا** ﴾ : كررنا ورددنا . ﴿ **والكفور** ﴾ : الجحود . ﴿ **الينبوع** ﴾ : العين التى لاينضب ماؤها . ﴿ **جنة** ﴾ : أى بستان تستر أشجاره ماتحتها من الأرض . ﴿ **كسفا** ﴾ : واحدها كسفة : كقطع وقطعة لفظا ومعنى . ﴿ **وقبيلا** ﴾ :

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٨٦ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(٤) الآية ٢ من سورة النحل .
(٥) الآية ١٩٣ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ١٧ من سورة مريم .
(٧) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

أى مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر والمراد رؤيتهم عيانا . ﴿ **والزخرف** ﴾ : هنا الذهب . وأصله الزينة وأجملها ماكان بالذهب . ﴿ **ترقى** ﴾ : أى تصعد . ﴿ **مطمئنين** ﴾ : **أى ساكنين مقيمين فيها** . ﴿ **وخبت** ﴾ :أى سكن لهبها . ﴿ **والسعير** ﴾ : اللهب . ﴿ **وكفورا** ﴾ : أى جحوداً للحق . ﴿ **خشية الانفاق** ﴾ : أى خوف الفقر . ﴿ **والقتور** ﴾ : الشديد البخل .

قوله تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وماأوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ :

روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أنه قال : (كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث فى المدينة وهو متوكأ على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح : وقال بعضهم : لا تسألوه . قال : فسألوه عن الروح فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فمازال متوكئا على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه . فقال ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم لا تسألوه)[1].

قال العلامة ابن كثير :

وهذا السياق يقتضى بادى الرأى أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأله اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة كلها مكية .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو أنه نزل عليه الوحى بأنه يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، وهى هذه الآية ﴿ **ويسألونك عن الروح** ﴾ .

ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام أحمد . حدثنا قتيبة حدثنا يحيى بن زكريا عن داود عن عكرمة عن ابن عباس قال : (قالت قريش لليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل . فقالوا : سلوه عن الروح . فسألوه ، فنزلت ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ قالوا أوتينا علماً كثيراً ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيراً كثيراً ، قال : وأنزل الله ﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **قل الروح من أمر ربى** ﴾ : أى من شأنه ، ومما استأثر بعلمه دونكم ، ولهذا قال ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ : أى وما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، فإنه لايحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء تبارك وتعالى .

---

(١) أخرجه البخارى فى الاعتصام : ٨٢٣ ، وفى العلم : ٤٧ ، وفى التفسير سورة ١٧ : ١٣ . ومسلم فى المنافقين : ٣٢ . والترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٥ ، ٣٨٩ ، ٤١٠ ، ٤٤٤ .

(٢) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

والمعنى أن علمك فى علم الله قليل ، وهذا الذى تسألون عنه من أمر الروح مما أستأثر به تعالى ، ولم يطلعكم عليه ، كما أنه لم يطلعكم إلا على القليل من علمه تعالى .

جاء فى قصة موسى والعبد الصالح : (أن الخضر نظر إلى عصفور وقع على حافة السفينة فنقر فى البحر نقرة ، أى شرب منه بمنقاره ، فقال : يا موسى ماعلمى وعلمك وعلم الخلائق فى علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور من هذا البحر)[1] أو كما قال .

فسبحان من أحاط بكل شىء علماً وأحصى كل شىء عددا ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولاحبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[2].

وسبحان من علم ما كان وعلم مايكون وعلم ماسيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾[3]

فسبحان من خلق الكائنات وقدر أرزاقها وحدد آجالها .

﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[4].

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾[5].

قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا * إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً * قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا * ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ :

بعد أن أمتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء للناس ، وأنه ثبته عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضا ، لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تعنتا عن شىء لم يأذن الله بالعلم به لعباده .

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٢٧ ، وفى العلم : ٤٤ ، وفى تفسير سورة ١٨ : ٢ ، ٤ . ومسلم فى الفضائل : ١٧٠ والترمذى فى تفسير سورة ١٨ : ١ .

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٧ من سورة لقمان .

(٤) الآية ٦ من سورة هود .

(٥) الآية ١٠٩ من سورة الكهف .

امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذره من فتنة الضالين ، وإرجاف المرجفين وهو المعصوم من الفتنة فإنه لوشاء لأذهب ما بقلبه منه ، ولكن رحمة بالناس تركه فى الصدور .

وفى هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد بينهم وبين هدى الذين بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعاً لأهوائهم ، واستبقاء لودهم وحفظا لزعامتهم على الناس .

ثم ذكر أن القرآن وحى يوحى ، فلا يستطيع الجن والإنس ان يأتوا بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض معينا ، وقد اشتمل على الحكم والأحكام والآداب التى يحتاج إليها البشر فى معاشهم ومعادهم ، وكثير من الناس جحدوا فضله عتوا وكبراً .

قوله تعالى : ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لاتجد لك به علينا وكيلا ﴾ :

لما ذكر سبحانه أنه ماأتاهم من العلم إلا قليلا بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال : **﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ﴾** :

أى والله لئن شئنا لتمحون القرآن من الصدور والمصاحف ، ولا نترك له أثراً ، وتصيرن كما كنت لاتدرى ما الكتاب ولا الايمان .

﴿ ثم لاتجد لك به علينا وكيلا ﴾ : أى ثم لاتجد ناصراً ينصرك فيحول بيننا وبين مانريد بك ، ولا قيّما لك يمنعنا من فعل ذلك بك .

﴿ إلا رحمة من ربك ﴾ : أى ولكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا إمتنان من الله ببقاء القرآن ، قال الرازى : إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليهم . ثانيهما : إبقاء حفظه .

﴿ إن فضله كان عليك كبيرا ﴾ :

إذ ارسلك للناس مبشرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب وأبقاه فى حفظك ، وتصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم وصيرك سيد ولد آدم ، وختم بك النبيين ، وأعطاك المقام المحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال سبحانه : **﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾** :

أى قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على ان يأتوا بمثل ما أنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفا وأحكاماً ونحو ذلك ، لا يأتون بمثله ، ومنهم العرب الفصحاء ، وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ، فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لانظير له ولا مثيل .

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال :

﴿ ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ :

أى ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة ، وكررنا الآيات والعبر والترغيب والترهيب والأوامر والنواهى ، وأقاصيص الأولين والجنة والنار ، ليدبروا آياته ويتعظوا بها .

﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفروا ﴾ :

أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار والثبات على الكفر ، والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة ، وقطعت ألسنتهم وأفحموا ، ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات ، وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها سبحانه بقوله :

قوله تعالى :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتى بالله والملائكة قبيلاً * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا . قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا * ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا * ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً * أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لاريب فيه فأبى الظالمون إلا كفورا * قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ :

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ، وألزمهم الحجة وغلبوا على أمرهم ، أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ، ويتعثرون فى أذيال الحيرة ، فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها آمنوا به وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس : (أن أشراف مكة أرسلوا إلى النبى ﷺ وهم جلوس عند الكعبة ، فأتاهم فقالوا : يا محمد إن أرض مكة ضيقة ، فسيِّر جبالها لننتفع بأرضها ، وفجّر لنا فيها نهراً وعيونا نزرع منها . فقال : لا أقدر عليه . فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجير . فقال : لا أقدر عليه . فقيل : أو يكون لك بيت من زخرف (ذهب) فيغنيك عنا . فقال : لا أقدر

عليه . فقيل له : أما تستطيع الخير ، فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب . فقال عبد الله بن أميه المخزومى ، وأمه عمة رسول الله ﷺ : لا والذى يحلف به لا أومن بك حتى تشد سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لا أدرى أنؤمن بك أم لا) .

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنما وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله بشراً رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تكون رسلهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله ﷺ على ما يلاقى من قومه ، بأن الهداية والإيمان بيد الله ، لا قدرة له على شيء من ذلك ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وسيلقون جزاءهم نار جهنم بما كسبت أيديهم ، دنسوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصى وإنكار البعث والحساب ، وهم يعلمون . أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى .

ثم بين أنه لو أجابهم إلى ماطلبوا من إجراء الأنهار والعيون ، وتكثير الأموال واتساع المعيشة ، لما كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد فالانسان بطبعه شحيح كزّ بخيل .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً** ﴾ :

أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، وأبى سفيان والنضر بن الحارث ، قول المبهوت المحجوج المتحير : لن نصدقك حتى تستنبط لنا عيناً من أرضنا تدفق بالماء أو تفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله ، وأجابهم إلى ما يطلبون ، ولكن الله علم أنهم لايهتدون . كما قال : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[1]

وقال : ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ماكانوا ليؤمنوا ﴾[2].

٢ - ﴿ **أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا** ﴾ : أى أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيرا

٣ - ﴿ **أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا** ﴾ :

وخلاصة ذلك - أو تسقط السماء علينا متقطعة قطعا قطعاً ، ونحو الآية قوله : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ﴾[3] .

---

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٢) الآية ١١١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .

وكذلك سأل قوم شعيب مثله فقالوا: ﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾[١] .

٤ - ﴿ **أو تأتى بالله والملائكة قبيلا** ﴾ : أى أو تأتى بالله والملائكة ، تقابلهم معاينة ومواجهة . قاله مجاهد وعطاء ونحو الآية قولهم : ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾[٢].

٥ - ﴿ **أو يكون لك بيت من زخرف** ﴾ : أى أو يكون لك بيت من ذهب روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

٦ - ﴿ **أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه** ﴾ : أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ، ونحن ننظر إليك ولن نصدقك من أجل رقيك وحده .

بل لابد أن تنزل علينا كتابا نقرؤه ، بلغتنا على نهج كلامنا ، وفيه تصديقك ﴿ **قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا** ﴾ :

أى قل لهم متعجبا من مقترحاتهم ، ومنزها ربك من أن يقترح عليه أحد ، أو يشاركه فى القدرة : ما أنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسل أن يأتوا إلا بما يظهره الله على أيديهم بحسب ما تقتضيه المصلحة من غير تفويض إليهم فيه ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك : سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى : وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال :

﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا** ﴾ :

أى وما منع مشركى قريش وهم من حكبت أباطيلهم من الإيمان بك حين مجىء الوحى المقرون بالمعجزات التى تستدعى الايمان بنبوتك ، وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ، إنكاراً منهم أن يكون الرسول من جنس البشر واعتقاداً منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة ، ونحو الآية قوله : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾[٣].

(١) الآية ١٨٧ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٢١ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ٢ من سورة يونس .

وقوله : ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ﴾[١].

وقال فرعون وملؤه : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ﴾[٢]

ولذلك قالت الأمم لرسلهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴾[٣].

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذاكرا وجه الحق ، منبها إلى المصلحة ، بقوله : ﴿ **قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** ﴾ :

أى لو وجد فى الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقيمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتتلقى الشرائع منهم ، لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد ، وتعليم الناس ما يجب عليهم تعلمه ، ولكن طبيعة الملك لايصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم ، لبعد مابين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواص البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوساً زكية ، وأيدهم بأرواح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية ، بها يستطيعون أن يتلقوا من الملائكة ، وناحية بشرية بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة وجليل تلك النعمة بقوله : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ﴾[٤].

وقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾[٥].

وقوله : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾[٦].

وإجمال القول فى ذلك أنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يجعلوا بشرا حتى يستطيعوا أداء الرسالة ، كما قال تعالى جده : ﴿ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[٧].

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء فى صورة دحْية الكلبى مراراً عدة ، فقد صح أن أعرابيا جاء وليس عليه وعثاء السفر ، فسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم ، فقال عليه السلام : (هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم)[٨].

---

(١) الآية ٦ من سورة التغابن .

(٢) الآية ٤٧ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية ١٠ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ١٢٨ من سورة التوبة .

(٦) الآية ١٥١ من سورة البقرة .

(٧) الآية ٩ من سورة الأنعام .

(٨) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٧ ، وفى تفسير سورة : ٣١ : ٢ . ومسلم فى الإيمان : ١ ، ٥ . والترمذى فى الإيمان : ٤ . وأبو داود فى السنة : ١٦ . والنسائى فى المواقيت : ٦ ، وفى الإيمان : ٥ . وابن ماجه فى المقدمة : ٩ . والإمام أحمد فى ١ : ١٥ ،

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

﴿ قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ﴾ :

أى قل لهم : إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الإنتقام ، كما قال سبحانه ﴿ ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين ﴾(١).

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

﴿ إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾

أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن ، وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أنه ما دعاهم إلى إنكار نبوته ﷺ إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسلية له ﷺ على مايلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيذائه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لا معقب لحكمة ، ولا سلطان لأحد من خلقه فى شيء ، فقال : **﴿ ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ﴾ :**

أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ماجئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق المصيب سبيل الرشد ، ومن يضلله لسوء اختياره وقدسيته نفسه ، وركوبه رأسه فى الغواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصاراً ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق ، ويمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم ، **﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكماً وصماً ﴾ :**

أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور عمياً وبكماً وصماً ، كما كانوا فى الدنيا لايستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ومصامون عن استماعه ، فهم فى الآخرة لا يبصرون ما تقر به أعينهم ، ولايسمعون ما يلذ لمسامعهم ، ولا ينطقون بما يقبل منهم ، كما قال : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ﴾(٢).

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه انه قال : (قيل : يارسول الله كيف يمشى الناس على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم)(٣).

=٢٧ ، ٢٨ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ، وفى ٢ : ٤٢٦ وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ .

(١) الآيات ٤٤-٤٦ من سورة الحاقة .

(٢) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢٤ : ١ . ومسلم فى المنافقين : ٥٤ . والترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٤ ، ٣٦٣ .

وروى الترمذى : (إن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر : مشاة وركبانا وعلى وجوههم)[١]

وإنا نرى فى الدنيا من الحيوان ماهو طائر ، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف كالحيات ، وهو امّ الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة فى الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف ، بحيث يبقى الوجه فى الأرض ، وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

الخلاصــة : إنهم يبعثون فى أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع ، مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ﴾[٢].

﴿ مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ﴾ :

أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم كلما سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ، ولم يبق ماتتعلق به وتحرقه زدناها لهبا وتوقدا ، بأن نعيدهم إلى ماكانوا عليه فتستعر وتتوقد .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عبّاس رضى الله عنهما إنه قال : (إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شىء صارت حجرا تتوهج ، فذلك خبوها ، فإذا بدلوا خلقا جديدا عادوتهم) . اهـ .

وكان هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكرارها مرة بعد أخرى ليروها عيانا ، حيث أنكروها برهانا . ثم بيّن علة تعذيبهم لعلة يرجع منهم من قضى بسعادته ، فقال : **﴿ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاقاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾** :

أى ذلك العذاب الذى جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصم هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم أبعد ماصرنا إلى ماصرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق فى أرجاء الأرض نعاد مرة أخرة ، استنكاراً منهم وتعجباً من أنه يحصل ذلك .

ثم استدل على البعث فقال :

﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم ﴾ :

أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداعاً على غير مثال سابق ، وإقامهما

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٤ ، ٣٦٢ .
(٢) الآية ٤٨ من سورة القمر .

بقدرته ، قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فنائهم ، وكيف لايقدر على إعادتهم ، والاعادة أهون من الابتداء ؟ .

وبعد أن أثبت أن البعث أمر يمكن الوجود فى نفسه أردف ذلك أن لحصوله وقتا معلوما عنده فقال :

﴿ وجعل لهم أجلاً لاريب فيه ﴾ : أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ، ومدة مقدرة لابد من انقضائها لا يعلمها إلا هو ، كما قال ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾

خلاصة ذلك :

إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم ، وقد جعل لميقات إعادتهم أجلا ، وهو يوم القيامة الذى لاشك فيه ، فلا وجه لانكاره .

﴿ **فأبى الظالمون إلا كفورا** ﴾ :

أى وبعد إقامة الحجة عليهم أبوا إلا تماديا فى ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المحجة .

ثم بين السبب فى عدم إجابتهم إلى ماطلبوا من الجنات والعيون ، بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحهم فقال :

﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾ :

المراد من الإنفاق هنا الفقر ، كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة ، وإليه ذهب الراغب فقال : أنفق فلان إذا افتقر .

وقال أبو عبيده : أنفق وأملق وأعدم وأحرم ، بمعنى أى قل لهم أيها الرسول لو أنكم تملكون التصرف فى خزائن الله لأمسكتم خشية الفقر ، أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لاتفرغ ولاتنفد أبداً .

وقصارى ذلك – أنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لا نهاية لها ، لبقيتم على الشح والبخل ، وفى هذا إيماء إلى أن الله لايجيبكم إلى ماطلبتم من نبيه ﷺ ، من بساتين وعيون تنبع لا بخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة ان يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رقى للانسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسع الرزق على قوم ويضيقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ومن ثم لم ينزل على ما اقترحتموه .

﴿ **وكان الإنسان قتورا** ﴾ :

أى كان الإنسان بخيلا منوعا بطبعه ، كما قال : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذاً لايؤتون الناس نقيراً ﴾[1].

أى لو أن لهم نصيباً من ملك الله لما أعطوا أحدا شيئاً ولا مقدار نقير .

(١) الآية ٥٣ من سورة النساء .

وقد روى البخارى ومسلم : (يد الله ملأى لايغيضها نفقة سماء (أخذ) الليل والنهار أرأيتم ما أنفق من خلق السموات والأرض فانه لم يغض مافى يمينه) .

وإجمال المعنى : إن الله لم يجب محمدا إلى ماطلبتم لا هوانا لنبيه ولا لأنه ليس بنبى ولا بخلا منه (حاشاه) بل لحكمة منه ، فربما كانت وفرة العطاء إذا نزلت على غير وجهها مصايب على الناس ، فأما أنتم فمنعكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وأورثتموها لم تفهموا إلا الإمساك ، ومن ثم لايسلمكم مفاتيح خزائنه ، لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولاتنفعوا خلقه .

موسى وبنو اسرائيل وفرعون

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾

المفردات : ﴿ **مسحورا** ﴾ : أى مخبول . ﴿ **بصائر** ﴾ : حججا وبينات واحدها بصيرة . ﴿ **أى مبصرة** ﴾ : بينة . ﴿ **مثبورا** ﴾ : أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد . قال الزجاج : يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة ، كما قال تعالى : ﴿ دعوْا هنالك ثبورا * لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعو ثبورا كثيرا ﴾[1]. ﴿ **أن يستفزهم** ﴾ : أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها . ﴿ **واللفيف** ﴾ : الجمع العظيم من أخلاط شتى ، من شريف ودنىء ، ومطيع وعاص ، وقوى وضعيف ، وكل شىء خلطته بغيره فقد لففته .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئاً – ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل مااقترحتم وأعظم منه ، ولم تجد فرعون وقومه شيئا ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات ، كفاكم الآيات العلمية التى أنزلها

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الفرقان .

على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج أهلككم كما أهلك فرعون بالغرق ، وفى ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وما جوزى به فرعون وقومه .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات** ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن معجزات كليم الله موسى .

وقد ذكر سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

١ – أنه أزال العقدة من لسانه ، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحاً .

٢ – انقلاب العصا حية .

٣ – تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها .

٤ – اليد البيضاء .

٥–٦–٧–٨–٩– الطوفان ، الجراد ، القمل ، الضفادع ، الدم .

١٠ – شق البحر .

١١ – انفلاق الحجر فى قوله ﴿ أن اضرب بعصاك الحجر ﴾[١]

١٢ – إظلال الجبل فى قوله ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة ﴾[٢]

١٣ – إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

١٤–١٥– الجدب ونقص الثمرات فى قوله ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾[٣]

١٦ – الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا فى المراد من هذه التسع .

أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس : أنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل : المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقى والطبرانى والنسائى وابن ماجه (أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى النبى فنسأله ، فأتياه ﷺ فسألاه عن قول الله تعالى :

---

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٧١ من سورة الأعراف .

(٣) الآية ١٣٠ من سورة الأعراف .

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات ﴾ فقال عليه الصلاة والسلام : لاتشركوا بالله شيئا ، ولاتزنوا ، ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا الحق ، ولاتسرقوا ، ولاتسحروا ، ولاتأكلوا الربا ، ولاتمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تقذفوا محصنة ، وأنتم يايهود عليكم خاصة ألا تعدوا فى السبت ، فقبلا يده ورجله وقالا نشهد أنك نبى ، قال : فما يمنعكما أن تسلما ؟ قالا : أن داود دعا ألا يزال من ذريته نبى ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود)[1].

﴿ فاسأل بنى إسرائيل ﴾ ثم خاطب نبيه سبحانه وتعالى فقال : فاسأل بنى اسرائيل الذين كانوا فى عصرك وآمنوا بك ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنيتك ويقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم فى كتابهم .

﴿ إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا ﴾ : أى فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أى جاء آباءهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إنى لأظنك ياموسى مخلط العقل ، ومن ثم ادعيت ما ادعيت ، مما لا يقول مثله كامل العقل ، حصيف الرأى .

﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ :

أى قال موسى لفرعون : لقد علمت يا فرعون ما أنزل الله هذه الآيات التسع التى أريتكها إلا حجة لى على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهده لى على صدق وصحة قولى أنى رسول الله ، بعثنى بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذى يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهى بصائر لمن استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها من جاء بها فهو محق وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لايقدر عليها إلا رب السموات الأرض .

﴿ وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾ : أى وإنى لأظنك يافرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾ :

أى فأراد فرعون أن يخرج موسى وبنى اسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يُبقى منهم أحداً ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه فى البحر ومن معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفظع إخراج .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الاستئذان : ٣٣ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ :

أى ونجينا موسى وبنى إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وعدتم بها .

﴿فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ :

أى فإذا جاءت الساعة الأخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

مـع القرآن العظيـم

وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ
عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ
رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟
ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ
سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ
مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾

المفردات : ﴿ **الحق** ﴾ : هو الثابت الذى لايزال ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء وإثبات البعث والقيامة . ﴿ **وفرقناه** ﴾ : أى أنزلناه مفرقاً منجما . ﴿ **والمكث** ﴾ : (بالضم والفتح) : التؤدة والتأنى . ﴿ **والخرور** ﴾ : السقوط بسرعة . ﴿ **والأذقان** ﴾ : واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين . ﴿ **ادعوا الله أو ادعوا الرحمن** ﴾ : أى سموه بهذين الاسمين . ﴿ **خفت** ﴾ : الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت . ﴿ **وتخافت القوم** ﴾ : القوم تسارُّوا فيما بينهم .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دال على صدق الرسول بقوله : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ :

حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز ، بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لاحاجة إلى شيء سواه ، وبأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجحدوا بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد ﷺ بتلك المعجزات التى اقترحتموها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عـذاب الاستئصال ، ولم يكن ذلك من الحكمة التى أرادها لعلمه أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا .

عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدرة وبيان أنه هو الثابت الذى لا يزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرّقا ليسهل حفظه وتعرف دقائق أسراره ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا ، فإن من قبلكم من أهل الكتاب إذا تلى عليهم خروا سجدا وبكيا ، ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتم الله أو ناديتم الرحمن فالامران سواء ثم قفىّ على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والخفوت ، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : ﴿ **الحمد الله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس : (قال صلى رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فى دعائه : يا ألله يا رحمن فقال المشركون انظروا إلى هذا الصابىء ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّا ماتدعوا فله الاسماء الحسنى** ﴾ .

وعن الفحال أنه قال : (قال أهل الكتاب لرسول الله ﷺ إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوارة هذا الاسم فنزلت) .

﴿ **وبالحق أنزلناه** ﴾ : أى أنزلنا عليك القرآن متضمناً للحق ، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ، ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوحدانية وحاجة الناس إلى الرسل ، لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

﴿ **وبالحق نزل** ﴾ : أى ونزل إليك محفوظا محروسا لم يُشب بغيره. فلم يُزد فيه ولم ينقص ، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملأ الأعلى جبريل عليه السلام .

وبعد أن مدح الكتاب مدح من أنزل عليه فقال : ﴿ **وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾ :

أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فانتهى إلى أمرنا ، ومنذرا لمن عصانا فخالف ذلك .

﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مُكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ :

أى وآتيناك قرآنا فرقناه ، أى نزلناه مفرَّقا منجما ، وقد بدىء بإنزاله ليلة القدر فى رمضان ، ثم أنزل نجوما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع .

وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض ، أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأن ليسهل عليهم حفظه ، ويكون ذلك أعون على تفهم معناه .

أخرج البيهقى فى الشعب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : (تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات . فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمساً خمساً) .

وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى .

والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

وفائدة قوله : ﴿ **ونزلناه تنزيلا** ﴾ بعد قوله ﴿ **فرقناه** ﴾ بيان أن ذلك التنزيل لمقتضى ، وهو التنزيل بحسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه ﷺ بقوله : ﴿ **قل آمنوا به أو لا تؤمنوا** ﴾ :

أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا ، ولو كان بعضهم ظهيرا ، أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا ترككم للإيمان به ينقص ذلك .

ثم علل عدم المبالاة بهم ، واحتقار شأنهم ، بقوله : ﴿ **إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا** ﴾ :

أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبيا – يخرون لله سجداً شكرا له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون فى سجودهم ، تنزه ربنا عن خلف الوعد ، إنه كان وعده آتيا لا محالة .

والخلاصة – إنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسول ﷺ ، وازدراء لشأنهم .

﴿ **ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا** ﴾ :

أى ويخرون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم مافيه من العبر والمواعظ خشوعا وخضوعا لأمر ، وطاعته . .

وقد جاء فى مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة .

فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (عينان لاتمسهما النار ، عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى)[1].

(١) أخرجه الترمذى فى فضائل الجهاد : ١٢ .

وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لايلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرع . ولايجتمع على عبد غبار فى سبيل الله ودخان جهنم)[١].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التيمى أنه قال : إن من أوتى من العلم مالم يُبكه لخليق أن قد أوتى من العلم مالا ينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال ﴿ **ويخرون للأذقان يبكون** ﴾ .

قال الفقهاء فى سجود التلاوة

من قرأ آية سجدة ، أو سمعها ، يستحب له أن يكبر ويسجد سجدة ثم يكبر للرفع من السجود ، وهذا يسمى سجود التلاوة ، ولا تشهد فيه ولا تسليم .

فعن نافع عن ابن عمر قال : (كان رسول الله ﷺ يقرأ علينا القرآن فإذا مر بالسجدة كبر وسجد وسجدنا)[٢] رواه أبو داود والبيهقى والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

وقال أبو داود : يعجبه لأنه كبر .

وقال عبد الله بن مسعود : (إذا قرأت سجدة فكبر واسجد ، وإذا رفعت رأسك فكبر) .

١ - فضـــله :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار)[٣] رواه أحمد ومسلم وابن ماجه .

٢ - حكمـــه :

ذهب جمهور العلماء إلى أن سجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع . لما رواه البخارى عن عمر أنه (قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النمل حتى جاء السجدة فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال : يا أيها الناس إنا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه) . وفى لفظ : (إن الله لم يفرض علينا السجود إلا أن نشاء)[٤]

(١) أخرجه الترمذى فى فضائل الجهاد : ٨ ، وفى الزهد : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٥٠٥ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الصلاة : ١٧٥ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٣٣ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٤٣ .

(٤) أخرجه البخارى فى السجود : ١٠ .

وروى الجماعة إلا ابن ماجة عن زيد بن ثابت قال : (قرأت على النبى ﷺ ﴿ **والنجم** ﴾ فلم يسجد فيها)[(١)] رواه الدارقطنى وقال : (فلم يسجد منا أحد) .

ويرجح الحافظ فى الفتح أن الترك كان لبيان الجواز ، وبه جزم الشافعى . ويؤيده ما رواه البزار والدارقطنى عن أبى هريرة أنه قال : أن النبى ﷺ سجد فى سورة ﴿ **النجم** ﴾ وسجدنا معه قال الحافظ فى الفتح ورجاله ثقات .

وعن ابن مسعود (أن النبى ﷺ قرأ ﴿ والنجم ﴾ فسجد فيها وسجد من كان معه ، غير أن شيخاً من قريش أخذ كفا من حصى أو تراب فرفعه إلى جبهته ، وقال يكفينى هذا . قال عبد الله : فلقد رأيته بعد قتل كافراً)[(٢)] رواه البخارى ومسلم .

٣ - مواضع السجود :

مواضع السجود فى القرآن خمسة عشر موضعاً ، فعن عمرو بن العاص (أن رسول الله ﷺ أقرأه خمسة عشر سجدة فى القرآن ، منها ثلاث فى المفصل وفى الحج سجدتان)[(٣)]. رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم والدارقطنى وحسنه المنذرى والنووى ، وهى :

١ - ﴿ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾ (٢٠٦ - الأعراف) .

٢ - ﴿ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ . (١٥ - الرعد) .

٣ - ﴿ ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابةٍ والملائكة وهم لايستكبرون ﴾ . (٢٩ - النحل) .

٤ - ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ﴾ . (١٧ - الاسراء)

٥ - ﴿ إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا ﴾ . (٥٨ - مريم)

---

(١) أخرجه البخارى فى السجود : ٦ . ومسلم فى المساجد : ١٠٦ . والترمذى فى الجمعة : ٥٢ . والنسائى فى الافتتاح : ٥٠ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٤ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٨٣ ، ١٨٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى السجود : ١ ، ٤ ، ٥ ، وفى مناقب الأنصار : ٢٩ ، وفى تفسير سورة ٥٣ : ٤ . والترمذى فى الجمعة : ٥١ . والنسائى فى الافتتاح : ٤٩ ، ٥١ . والإمام مالك فى القرآن : ١٥ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، ٤٠١ ، ٤٣٧ ، وفى ٢ : ٤٠٣ ، ٤٤٣ ، وفى ٣ : ٤٢٠ ، وفى ٤ : ٢٠٥ ، ٢١٦ ، وفى ٥ : ٣٣٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ٧١ .

٦ - ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل مايشاء ﴾ (١٨ - الحج) .

٧ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ . (٧٧ - الحج) .

٨ - ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ . (٦٠ - الفرقان) .

٩ - ﴿ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ . (٢٥ - النمل)

١٠ - ﴿ إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون ﴾ . (١٥ - السجدة)

١١ - ﴿ وظن داود أنما فتناه * فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب ﴾ . (٢٤ - ص) .

١٢ - ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ . (٣٧ - فصلت) .

١٣ - ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ . (٦٢ - النجم)

١٤ - ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ﴾ . (٢١ - الانشقاق)

١٥ - ﴿ واسجد واقترب ﴾ . (١٩ - العلق) .

٤ - ما يشترط له :

اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة ، من طهارة واستقبال قبلة وستر عورة .

وقال الشوكانى ليس فى أحاديث سجود التلاوة ما يدل على اعتبار أن يكون الساجد متوضئا ، وقد كان يسجد معه ﷺ من حضر تلاوته ولم ينقل أنه أمر أحدا منهم بالوضوء ، ويبعد أن يكونوا جميعا متوضئين ، وأيضا قد كان يسجد معه المشركون ، وهم أنجاس لايصح وضوؤهم

وقد روى البخارى عن ابن عمر (أنه كان يسجد على غير وضوء)[1].

وكذلك روى عنه ابن أبى شيبة

(١) أخرجه البخارى فى السجود : ٥ .

وأما ما رواه البيهقى عنه بإسناد - قال فى الفتح : إنه صحيح - أنه قال : (لايسجد الرجل إلا وهو طاهر) فيجمع بينهما بما قاله الحافظ من حمله على الطهارة الكبرى أو على الاختيار ، والأول على الضرورة .

وهكذا ليس فى الأحاديث مايدل على اعتبار طهارة الثياب والمكان ، وأما ستر العورة والاستقبال مع الامكان فقيل : إنه معتبر اتفاقا : قال فى الفتح : لم يوافق ابن عمر أحد على جواز السجود بلا وضوء إلا الشعبى . أخرجه ابن أبى شيبة عنه بسند صحيح

وأخرج أيضا عن أبى عبد الرحمن السلمى (أنه كان يقرأ السجدة ثم يسجد وهو على غير وضوء إلى غير القبلة وهو يمشى يومىء إيماء ومن الموافقين) لابن عمر من أهل البيت أبو طالب والمنصور بالله .

٥ - الدعـــاء فيــه :

من سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، ولم يصح عن رسول الله ﷺ فى ذلك إلا حديث عائشة قالت : (كان رسول الله ﷺ يقول فى سجود القرآن : سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين)[1] رواه الخمسة إلا ابن ماجه .

ورواه الحاكم وصححه الترمذى وابن السكن ، وقال فى آخره (ثلاثا) على أنه ينبغى أن يقول فى سجوده : سبحان ربى الأعلى ، إذا سجد سجود التلاوة فى الصلاة .

٦ - السجود فى الصــلاة :

يجوز للإمام والمنفرد أن يقرأ أية السجدة فى الصلاة الجهرية والسرية ويسجد متى قرأها .

روى البخارى ومسلم عن أبى رافع قال : (صليت مع أبى هريرة صلاة العتمة - أو قال صلاة العشاء - فقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت : يا أبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال : سجدت فيها خلف أبى القاسم ﷺ ، فلا أزال أسجدها حتى ألقاه)[2].

وروى الحاكم وصححه على شرط الشيخين عن ابن عمر : (أن النبى ﷺ سجد فى الركعة الأولى من صلاة الظهر فرأى أصحابه أنه قرأ ﴿ آلم تنزيل ﴾ السجدة .

قال النووى : لايكره قراءة السجدة عندنا للإمام كما لايكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها .

وقال مالك : يكره مطلقا .

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٠١ . وأبو داود فى السجود : ٧ . والترمذى فى الجمعة : ٥٥ ، وفى الدعوات : ٣٢ ، ٣٣ . والنسائى فى التطبيق : ٧٠ ، ٦٧ ، ٦٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٩٥ ، ١٠٣ ، وفى ٦ : ٣٠ ، ٢١٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى السجود : ١٠ . ومسلم فى المساجد : ١٠٣ ، ١١١ .

وقال أبو حنيفة : يكره فى السرية دون الجهرية .

قال صاحب البحر : وعلى مذهبنا يستحب تأخير السجود حتى يسلم لئلا يهوش على المأمومين .

٧ – تداخل السجدات :

تتداخل السجدات ويسجد سجدة واحدة إذا قرأ القارىء آية السجدة وكررها ، أو سمعها أكثر من مرة فى المسجد الواحد ، بشرط أن يؤخر السجود عن التلاوة الأخيرة ، فإن سجد عقب التلاوة الأولى فقيل : تكفيه ، وقيل : يسجد مرة أخرى لتجدد السبب .

٨ – قضـاؤه :

يرى الجمهور أنه يستحب السجود عقب قراءة آية السجدة أو سماعها ، فإن آخر السجود لم يسقط مالم يطل الفصل فإن طال فإنه يفوت ولايقضى .

قوله تعالى : ﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ .

أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين أنكروا اسم الرحمن : سموا الله أيها القوم ، أو سموا الرحمن ، فبأى اسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقديس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض وهذان الاسمان منهما .

روى مكحول : (أن رجلاً من المشركين سمع النبى ﷺ وهو يقول فى سجوده : يارحمن يارحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين فأنزل الله الآية) .

ثم أمر رسوله ﷺ بالتوسط فى القراءة ، فلا يجهر بصوته ولا يخافت به قال سبحانه : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ :

أى ولا تجهر بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقا بين الجهر والمخافتة .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال (نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ مُختفٍ بمكة (يصلى خفية) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به)[١].

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفت فى قراءته ويقول : (أناجى ربى وقد علم حاجتى) وعمر كان يجهر بها ويقول : (أطرد الشيطان ، وأوقظ الوسنان) فلما نزلت الآية أمر رسول الله ﷺ أبا بكر أن يرفع صوته قليلا ، وعمر أن يخفض قليلا .

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ١٧ : ١٦ ، ١٧ .

ولما أمر سبحانه رسوله ألا يناديه إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل** ﴾ :

أى وقل لله ذى الجلال والكمال لك الحمد والشكر على ما أنعمت على عبادك من واسع النعم .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

١ – إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه تنزه ربنا عن ذلك – ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وهى هنا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

٢ – إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لو كان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا ذا حاجة إلى معونة ، ولم يكن له ولى من الذل أى لم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته .

والخلاصـــة : إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذل له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده وأصبحت أبوابه مفتحة لكل قاصد ، فلتعترف أيها العبد من مناهله ، ولتعلم أنه لايحابيك لاجل أهلك ولانسلك ولادينك ، ولو كنت ابن نبى من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

﴿ **وكبره تكبيرا** ﴾ :

أى وعظم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .

وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

١ – بتكبيره فى ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود .

٢ – بتكبيره فى صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزه عن صفات النقص .

٣ – بتكبيره فى أفعاله ، فتعتقد أنه لا يجرى شىء فى ملكه إلا وفق حكمته وإراداته .

٤ – بتكبيره فى أحكامه ، بأن تعتقد أنه ملك مطاع ، له الأمر والنهى ، والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أحكامه ، يعز من يشاء ويذل من يشاء .

٥ – تكبيره فى أسمائه ، فلا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد فى مسنده عن معاذ الجهنى (أن رسول الله ﷺ كان يقول : آية العز ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾[1].

وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله فى السراء والضراء)[2].

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن ابى أمية قال : (كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح : ﴿ **الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾ سبع مرات .

مجمل ماحوته السورة من الأغراض

١ – الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .

٢ – تاريخ بنى اسرائيل فى حالى الإرتقاء والانحطاط .

٣ – حكم وعظات للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دولها كما ذهبت دولة بنى اسرائيل .

٤ – بيان أن كل مافى السموات والأرض مسبح لله .

٥ – الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .

٦ – الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .

٧ – الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد ﷺ

٨ – قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك .

٩ – تعداد بعض نعم الله على عباده .

١٠ – طلب المشركين من الرسول ﷺ أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم والحافهم فى ذلك .

١١ – أمر النبى ﷺ بإقامة الصلاة بالتهجد فى الليل .

١٢ – بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .

١٣ – قصة موسى مع فرعون .

١٤ – الحكمة فى إنزال القرآن منجماً .

١٥ – تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٣٩ .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ١٢ .

سورة الكهف

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها مائة وعشر عند الكوفيين ، وكلماتها ألف وخمسمائة وتسع وسبعون وحروفها ستة آلاف وثلاثمائة وست .

وسميت سورة الكهف لاشتمالها على قصة أصحاب الكهف بتفصيلها .

مقصود السورة مجملا

١ – بيان نزول القرآن على سنن السداد .

٢ – تسلية النبى ﷺ فى تأخر الكفار عن الإيمان .

٣ – بيان عجائب حديث الكهف .

٤ – أمر النبى ﷺ بالصبر على الفقراء .

٥ – تهديد الكفار بالعذاب والبلاء ووعد المؤمنين بحسن الثواب .

٦ – تمثيل حال المؤمن والكافر بحال الأخوين الاسرائيليين .

٧ – تمثيل الدنيا بماء السماء ونبات الأرض .

٨ – بيان أن الباقى من الدنيا مافيه طاعة الله فقط .

٩ – ذكر أحوال القيامة وقراءة الكتب وعرض الخلق على الحق .

١٠– إباء إبليس من السجود .

١١– ذل الكافرين ساعة دخولهم النار .

١٢– جدال أهل الباطل مع المحقين الأبرار .

١٣– التخويف بإهلاك الأمم الماضية وإذلالهم .

١٤– حديث موسى ويوشع وخضر وعجائب أحوالهم .

١٥– قصة ذى القرنين وإتيانه إلى المشرقين والمغربين .

١٦– بنيانه لسد يأجوج ومأجوج وما يتفق لهم آخر الزمان من الخروج وذكر رحمة أهل القيامة .

١٧– ضياع عمل الكفر .

١٨– ثمرات مساعى المؤمنين الأبرار .

١٩– بيان أن كلمات القرآن بحور علم : لانهاية لها ولاغاية لأمدها .

٢٠– الأمر بالاخلاص فى العمل الصالح أبدا .

فى قوله : ﴿ **فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾

المتشـــابهات

قوله تعالى : ﴿ **سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم** ﴾ بغير واو ﴿ **ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم** ﴾ بزيادة واو .

وفى هذه الواو أقوال :

أحدهما : أن الأول والثانى وصفان لما قبلهما ، أى هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وكذلك الثانى أى هم خمسة سادسهم كلبهم ، والثالث عطف على ماقبله ، أى هم سبعة ثم عطف عليهم ﴿ **وثامنهم كلبهم** ﴾

وقيل : كل واحد من الثلاثة جملة وقعت بعدها جملة فيها عائد يعود منها إليها .

فأنت فى إلحاق واو العطف وحذفها بالخيار .

وليس فى هذين القولين ما يوجب تخصيص الثالث بالواو .

وقال بعض النحويين : السبعة نهاية العدد ، ولهذا كثير ذكرها فى القرآن والأخبار ، والثمانية تجرى مجرى استئناف كلام ، واستدلوا بقوله سبحانه : ﴿ التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[1].

وبقوله تعالى :

﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾[2].

وبقوله تعالى :

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾[3].

إذْ إن أبواب الجنة ثمانية .

(١) الآية ١١٢ من سورة التوبة . (٢) الآية ٥ من سورة التحريم . (٣) الآية ٧٣ من سورة الزمر .

وقيل : إن الله تعالى حكى القولين الأولين ولم يرتضهما ، وحكى القول الثالث فارتضاه . وهو قوله تعالى : ﴿ **ويقولون سبعة** ﴾ ثم استأنف فقال : ﴿ **وثامنهم كلبهم** ﴾

ولهذا قال عقيب الأول والثانى ﴿ **رجْماً بالغيْب** ﴾ ولم يقل فى الثالث .

فإن قيل : وقد قال فى الثالث ﴿ **قل ربى أعلم بعدتهم** ﴾ فالجواب تقديره : قل ربى أعلم بعدتهم ، وقد أخبركم أنهم سبعة وثامنهم كلبهم بدليل قوله تعالى : ﴿ **مايعلمهم إلا قليل** ﴾ .

ولهذا قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل فعد أسماءهم .

وقال بعضهم : الواو فى قوله تعالى : ﴿ **ويقولون سبعة** ﴾ يعود إلى الله تعالى ، فذكر بلفظ الجمع كقوله إنا وأمثاله ، هذا على سبيل الاختصار .

قوله تعالى : ﴿ **ولئن رددت إلى ربى** ﴾ وفى حم : ﴿ ولئن رجعت إلى ربى ﴾[1] لأن الرد عن شيء يتضمن كراهة المردود ، ولما كان مافى الكهف تقديره : ولئن رددت عن جنتى التى أظن أنها لاتبيد أبدا إلى ربى ، كان لفظ الرد الذى يتضمن الكراهة أولى ، وليس فى حم مايدل على كراهة ، فذكر بلفظ الرجع ليأتى لكل مكان مايليق به .

قوله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها** ﴾ وفى السجدة ﴿ **ثم أعرض عنها** ﴾[2] :

لأن الفاء للتعقيب ، وثم للتراخى ، وما فى هذه السورة فى الاحياء من الكفار ، أى ذكروا فأعرضوا عقيب ما ذكروا ، ونسوا ذنوبهم ، و[هم] بعد متوقع منهم أن يؤمنوا . ومافى السجدة فى الأموات من الكفار بدليل قوله : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ﴾[3]

أى ذكروا مرة بعد أخرى ، وزمانا بعد زمان ، ﴿ **بآيات ربهم** ﴾ ثم أعرضوا عنها بالموت ، فلم يؤمنوا ، وانقطع رجاء إيمانهم .

قوله تعالى :

﴿ **نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر** ﴾ : والآية الثالثة : ﴿ **واتخذ سبيله** ﴾ لأن الفاء للتعقيب والعطف ، فكان اتخاذ الحوت السبيل عقيب النسيان فذكر بالفاء [و] فى الآية الأخرى لما حيل بينهما بقوله : ﴿ **وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ زال معنى التعقيب وبقى العطف المجرد وحرفه الواو .

قوله تعالى :

﴿ **لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ وبعد ﴿ **لقد جئت شيئاً نكرا** ﴾ لأن الأمر : العجب ، والعجب

(١) الآية ٥٠ من سورة فصلت . (٢) الآية ٢٢ من سورة السجدة . (٣) الآية ١٢ من سورة السجدة .

يستعمل فى الخير والشر بخلاف النكر ، لأن النكر ما ينكره العقل فهو شر ، وخرق السفينة لم يكن معه غرق ، فكان أسهل من قتل الغلام وإهلاكه فصار لكل واحد معنى يخصه .

قوله تعالى : ﴿ **ألم أقل إنك** ﴾ وبعده ﴿ **ألم أقل لك إنك** ﴾ لأن الانكار فى الثانية أكثر وقيل : أكد التقرير الثانى بقوله (لك) كما يقول لمن توبخه : لك أقول ، وإياك أعنى ، وقيل بين فى الثانى المقول له ، لما لم يبين فى الأول .

قوله تعالى فى الأول ﴿ **فأردت** ﴾ ، وفى الثانى ﴿ **فأردنا** ﴾ وفى الثالث ﴿ **فأراد ربك** ﴾ .

لأن الأول فى الظاهر إفساد ، فأسنده إلى نفسه ، والثالث إنعام محض فاسنده إلى الله عز وجل ، وقيل : لأن القتل كان منه أما إرهاق الروح فكان من الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ **ما لم تستطع** ﴾ جاء فى الأول على الأصل وفى الثانى : ﴿ **تسطع** ﴾ على التخفيف ، لأنه الفرع .

قوله تعالى :

﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا** ﴾ :

اختار التخفيف فى الأول لأن مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول فاختير فيه الحذف ، والثانى مفعوله اسم واحد وهو قوله (**نقبا**) وقرأ حمزة بالتشديد وأدغم التاء فى الطاء .

فضـــل الســـورة

صح فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من حفظ عشر آيات من أول الكهف عصم من الدجال)[1].

مناسبتـــها لمـــا قبلـــها

١ – إن سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترنتان فى سائر الكلام فى نحو « فسبح بحمد ربك » ونحو سبحان الله وبحمده .

٢ – تشابه ختام السالفة وافتتاح هذه ، فإن كل منهما حمد .

٣ – إنه ذكر فى السابقة قوله : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ والخطاب فيها لليهود ، وذكر هنا قصة موسى نبىِّ إسرائيل مع الخضر عليهما السلام وهى تدل على كثرة معلومات الله التى لاتحصى ، فكانت كالدليل على ماتقدم .

---

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٥٧ . وأبو داود فى الملاحم : ١٤ . والترمذى فى ثواب القرآن : ٦ . والإمام أحمد فى ٥ : ١٣ ، ١٩٦ ، وفى ٦ : ٤٤٦ ، ٤٤٩ .

٤ - إنه جاء فى السورة السابقة : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا ﴾ ثم فصل ذلك هنا بقوله : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكّاءَ وكان وعد ربى حقا ﴾ إلى قوله : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا
مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ
أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً
تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ
يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

المفردات : ﴿ **العوج** ﴾ : (بالكسر والفتح) : الانحراف والميل عن الاستقامة ، فلا خلل فى لفظه ولا فى معناه . ﴿ **قيما** ﴾ : أى معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ، ولاتفريط فيه بإهمال ماتمس الحاجة إليه ﴿ **والبأس** ﴾ : العذاب الشديد فى الآخرة . ﴿ **من لدنه** ﴾ : أى من عنده . ﴿ **كبرت** ﴾ : (بضم الباء) ﴿ **كلمة** ﴾ : أى ما أعظمها مقالة قيلت ، وهذا أسلوب فى الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث من قول أو فعل . ﴿ **باخع** ﴾ : أى قاتل ، قالها بن عباس . ﴿ **على آثارهم** ﴾ : أى من بعدهم أى من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه . ﴿ **والحديث** ﴾ : هو القرآن . ﴿ **والأسف** ﴾ : المبالغة فى الحزن والغضب . ﴿ **وصعيدا** ﴾ : أى ترابا . ﴿ **وجرزا** ﴾ : أى لانبات فيه .

هذه صورة جليلة قدرها عظيم عند الله .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبى إسحاق قال سمعت البراء يقول : (قرأ رجل الكهف وفى الدار دابة فجعلت تنفر فنظر فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : اقرأ فلان فإنها السكينة تنزل عند القرآن أو تنزلت للقرآن)[1] أخرجاه فى الصحيحين من حديث شعبة به وهذا الرجل الذى كان يتلوها هو أسيد بن الحضير .

(١) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ، وفى فضائل القرآن : ١١ . ومسلم فى المسافرين : ٢٤٠ ، ٢٤١ . والترمذى فى ثواب القرآن : ٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٨ .

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قدمه إلى رأسه ومن قرأها كلها كانت له نورا مابين السماء والأرض)[٢].

وروى الحافظ أبو بكر بسنده عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ (من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين) .

وروى الإمام سعيد بن منصور بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق) .

وفى المختارة للحافظ الضياء المقدس بسنده عن على بن الحسين عن أبيه عن على مرفوعا : (من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة ، وإن خرج الدجال عصم منه) .

سـبب نزولهـا :

ذكر محمد بن اسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة فقال : حدثنى شيخ من أهل مصر ، قدم علينا منذ بضع وأربعين سنة ، عن عكرمة عن ابن عباس قال : (بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبى معيط ، إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ماليس عندنا من علم الأنبياء .. فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول الله ﷺ ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله وقالا : إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

قال : فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فترون فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ماكان من أمرهم فإنهم قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه ، وسلوه عن الروح ماهو ؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدالكم .

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا يامعشر قريش قد جئناكم بفصل مابينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور وأخبروهم بها فجاءوا رسول الله ﷺ فقالوا يامحمد أخبرنا فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غدا عما سألتم عنه » ولم يستثن

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٣٩ .

فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله له فى ذلك وحيا ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشيء عما سألناه عنه وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكث الوحى عنه وشق عليه مايتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ماسألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف وقول الله عز وجل ﴿ ويسئلونك عن الروح قل الروح ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما** ﴾ :

اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت قيّم السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحقيق بالحمد والثناء الجميل ، نحمدك على هذه النعمة الجليلة بإنزال الكتاب الكريم على نبيك الكريم ، وعبدك الصادق الأمين ، محمد ﷺ ، ﴿ وإنه لكتاب عزيز * لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(١)

لقد أنزلت عليه كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وقلت فى شأن هذا الكتاب ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ﴾(٢).

وقلت : ﴿ نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه ﴾(٣).

وقلت : ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾(٤).

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾(٥)

وقلت : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾(٦).

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾(٧).

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون ﴾(٨) .

وقلت : ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾(٩).

(١) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٢ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٣ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٢ من سورة الاعراف .
(٥) الآية ١ من سورة يونس .
(٦) الآية ١ من سورة هود .
(٧) الآية ١ من سورة يوسف .
(٨) الآية ١ من سورة الرعد .
(٩) الآية ١ من سورة إبراهيم .

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ﴾[١] .

وقلت : ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين * هدى وبشرى للمؤمنين ﴾[٢] .

وقلت : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٣] .

وقلت : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين ﴾[٤] .

وقلت : ﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾[٥] .

وأقسمت به وقلت : ﴿ يس * والقرآن الحكيم ﴾[٦] .

وقلت : ﴿ ص * والقرآن ذى الذكر ﴾[٧] .

وقلت : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾[٨] .

وقلت : ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾[٩] .

وقلت : ﴿ حم * تنزيل الكتاب من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون ﴾[١٠] .

وقلت : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾[١١] .

وقلت : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم * والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾[١٢] .

وقلت : ﴿ الرحمن * عَلَّم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان ﴾[١٣] .

وقلت : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون * وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾[١٤] .

وقلت : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين ﴾[١٥] .

وقلت : وقولك الحق : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾[١٦] .

وقلت لرسولك : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون ﴾[١٧] .

أنزلته كتاباً مستقيما لا عوج فيه ولا زيغ ولا انحراف ، انتظم أصول العقائد ، وشعائر العبادات ،

(١) الآية ١ من سورة الحجر .
(٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة النمل .
(٣) الآية ١ من سورة الفرقان .
(٤) الآية ٢ ، ٣ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٢ من سورة السجدة .
(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة يس .
(٧) الآيتان ١ ، ٢ من سورة ص .
(٨) الآية ١ من سورة الزمر .
(٩) الآيتان ١ ، ٢ من سورة غافر .
(١٠) الايات ١-٤ من سورة فصلت .
(١١) الآية ٣ من سورة الشورى .
(١٢) الآيتان ١ ، ٢ من سورة محمد .
(١٣) الآيات ١-٤ من سورة الرحمن .
(١٤) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة الزخرف .
(١٥) الآية ٣ من سورة الدخان .
(١٦) الآية الأولى من سورة القدر .
(١٧) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .

وشرائع المعاملات ، ومناهج السلوك ، وقواعد النظام ، ومبادىء الأخلاق ، أنزلته قيما فأحييت به أجيالاً من العدم ، وفتحت به قلوبا غلفا ، وأعيناً عميا ، وآذانا صمًّا .

الله اكبر ان ديـن محمـد وكتابـه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

قوله تعالى : ﴿ **لينذر بأساً شديداً من لدنه** ﴾ :

هذا وعيد وتهديد بالعذاب الشديد من عند الله الذى لايعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ، لكل من أدبر واستكبر وتولى وأعرض .

قوله تعالى : ﴿ **ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبدا** ﴾ :

هذا وعد من رب العزة للمؤمنين الصادقين الذين قدموا الأعمال الصالحة ، يبشرهم ربهم أن لهم أجراً حسنا ، وهذا الأجر هو الجنة ، ونعيمها ومساكنها الطيبة ، والتى فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وأنهم ماكثون دائمون فى هذا النعيم ، كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين * لايمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾(١)

قوله تعالى : ﴿ **وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ماهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ :

هؤلاء هم مشركو العرب ، فإنهم جعلوا الملائكة المكرمين بنات الله قال سبحانه :

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئاً إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فردا ﴾(٢).

وقال سبحانه :

﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون * أفلا تذكرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾(٣).

---

(١) الآيات ٤٥-٤٨ من سورة الحجر .
(٢) الآيات ٨٨-٩٥ من سورة مريم .
(٣) الآيات ١٤٩-١٥٧ من سورة الصافات .

إن هؤلاء الجاهلين ماهم به من علم ولا لآبائهم ، إنما قالوا ماقالوا تقليدا لأهل الضلال الذين سبقوهم ، فمن عرف الله علم إنه تعالى متصف بصفات الجلال والكمال والجمال ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾(١).

﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد * ولم يولد * ولم يكن له كفوا أحد ﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾ :

أى ما أعظمها من حكمة ، وما أكبرها من جناية تناهت فى القبح عندما يدعون أن لله ولدا وهذه الكلمة لا تتجاوز الأفواه ، إذ الحقائق تكذبها ، والحجج تدحضها ، والبراهين تمحوها ، فإنهم ما يقولون إلا كذبا لا أساس له من الصحة ، ولا نصيب له من الواقع .

قوله تعالى : ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ :

هذا تصبير من الله تعالى لرسوله على أذى قومه ، فقد دفعه حرصه عليهم أن يحزن ، قال له مولانا : لا تهلك نفسك على هؤلاء بعدما كذبوا هذا القرآن ، ولا تحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾(٣).

قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا * وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ :

قال قتادة عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء)(٤).

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى : ﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ :

أى وإنى لمصيرها بعد الزينة إلى الخراب والدمار ، فنجعل كل شيء عليها هالكاً صعيدا جرزا ، لاينبت ولا ينتفع به .

قال ابن عباس ﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا** ﴾ يقول : يهلك كل شيء عليها ويبيد .

(١) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٢) سورة الإخلاص .

(٣) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ١٧ ، ١١ . والترمذى فى الفتن : ٢٦ . وفى الزهد : ٤١ . والنسائى فى الزكاة : ٥٠ ، ٨٠ وابن ماجه فى الفتن : ١٩ . والدارمى فى الرقاق : ٣٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ٧ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ . وفى ٦ : ٦٨ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ .

قال قتادة : الصعيد الأرض التى ليس فيها شجر ولا نبات .

قال ابن زيد : الصعيد الأرض التى ليس فيها شىء ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾[١].

وقال محمد بن أسحق : ﴿ **وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزاً** ﴾ يعنى الأرض وإن ما عليها لفان وبائد ، وإن المرجع لإلى الله ، فلا تأس ولا يحزنك ماتسمع وترى .

أصحـــاب الكهـــف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى
ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ
ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾
نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ
إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت
تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ
ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾
وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ
بِٱلْوَصِيدِ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ
بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا۟
رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟

---

(١) الآية ٢٧ من سورة السجدة .

عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا
عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾
سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ
سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً
ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾
إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا
رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟
لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ
أَحَدًا ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ **أم** ﴾ : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر . وهو بمعنى بل وهمزة الاستفهام أى بل أحسبت والخطاب فى الظاهر للنبى عليه الصلاة والسلام . والمراد غيره . ﴿ **والكهف** ﴾ : النقب المتسع فى الجبل فإن لم يكن متسعاً فهو غار . ﴿ **والرقيم** ﴾ : لوح حجرى رقمت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية التى يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء . ﴿ **أوى إلى المكان** ﴾ : اتخذه مأوى ومكانا له . ﴿ **والفتية** ﴾ : واحدهم فتى وهو الشاب الحدث وقد كانوا من ابناء اشراف الروم وعظمائهم . ﴿ **وهيء** ﴾ : أى يسر . ﴿ **والرشد** ﴾ : (بفتحتين وضم فسكون) الهداية إلى الطريق الموصل للمطلوب . ﴿ **فضربنا على آذانهم** ﴾ : أى ضربنا عليها حجاباً يمنع السماع كما يقال بنى على امرأته يريدون بنى عليها قبة والمراد أنمناهم نومة لاتنبههم الأصوات الموقظة . ﴿ **عددا** ﴾ : أى ذوات عدد والمراد التكثير لان القليل لايحتاج إلى العد غالبا ﴿ **بعثناهم** ﴾ : أى ايقظناهم وأثرناهم من نومهم . ﴿ **والحزبين** ﴾ : هما الحزب القائل لبثنا يوماً أو بعض يوم والحزب القائل ربكم اعلم بما لبثتم . ﴿ **وأحصى** ﴾ : أى اضبط لأوقات لبثهم . ﴿ **والأمد** ﴾ : مدة لها حد وغاية . ﴿ **النبأ** ﴾ : الخبر العظيم وبالحق : أى بالصدق ﴿ **الربط** ﴾ : الشد وربطت الدابة : شددتها بالرباط . ﴿ **والمربط** ﴾ : الحبل وربط الله على قلبه أى قوى عزيمته . ﴿ **قاموا** ﴾ : أى وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس . ﴿ **إلهاً** ﴾ : أى معبوداً آخر . ﴿ **اتخذوا من دونه آلهة** ﴾ : أى نحتوا أصناماً وعبدوها . ﴿ **والسلطان** ﴾ : الحجة . ﴿ **والبيّن** ﴾ : الظاهر . ﴿ **والاعتزال والتعزل** ﴾ : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب . ﴿ **فأووا إلى الكهف** ﴾ : أى التجئوا إليه وينشر لكم : أى يبسط لكم . ﴿ **المرفق** ﴾ :

مايرتفق وينتفع به . ﴿ **وتزاور** ﴾ : تتنحى . ﴿ **وذات اليمين** ﴾ : أى جهة يمين الكهف . ﴿ **وتقرضهم** ﴾ : أى تعدل عنهم قال الكسائى : يقال : قرضت المكان : إذا عدلت عنه ولم تقر به . ﴿ **فجوة** ﴾ : أى متسع . ﴿ **والإيقاظ** ﴾ : واحدهم يقظ (بضم القاف وكسرها . ﴿ **والرقود** ﴾ : واحدهم راقد . أى نائم . ﴿ **وباسط ذراعيه** ﴾ : أى مادهما . ﴿ **والوصيد** ﴾ : فناء الكهف . ﴿ **والرعب** ﴾ : الخوف يملأ الصدر . ﴿ **بعثناهم** ﴾ : أى أيقظناهم . ﴿ **لبثتم** ﴾ : أى أقمتم . ﴿ **والورق** ﴾ : الفضة مضروبة كانت أو غير مضروبة . ﴿ **وأزكى** ﴾ : أجود وأطيب . ﴿ **وليتلطف** ﴾ : أى يتكلف اللطف فى المعاملة كى لاتقع خصومة تجر إلى معرفته . ﴿ **ولا يشعرن** ﴾ : أى لايفعلن : أى لايفعلن ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم . ﴿ **إن يظهروا عليكم** ﴾ : أى إن يطلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم وأصل العثور السقوط للوجه يقال عثر عثورا وعثارا إذا سقط لوجهه ويقال فى المثل (من سلك الجدد أمن العثار) . ثم أستعمل فى الاطلاع على أمر من غير طلب له . ﴿ **والساعة** ﴾ : يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعاً للحساب والجزاء . ﴿ **والتنازع** ﴾ : التخاصم . ﴿ **والذين غلبوا على أمرهم** ﴾ : هم رؤساء البلد لأنهم هم الذين لهم الرأى فى مثل هذا . ﴿ **المسجد** ﴾ : معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور . ﴿ **والرجم** ﴾ : القول بالظن ويقال لكل مايخرص : رجم فيه وحديث مرجوم ومرجَّم . ﴿ **والغيب** ﴾ : وأغاب عن الإنسان فالمراد ان يرمى الانسان ماغاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا : أى يتكلم من غير تدبر . والمراد هنا القول بالظن والتخمين . ﴿ **المراء** ﴾ : المحاجة فيما فيه مرية وتردد . والمراء الظاهر : مالا تعمق فيه بالا يكذبهم فى تعيين العدد بل يقول هذا التعيين لا دليل عليه فيجب عدم الجزم به . ﴿ **ولا تستفت** ﴾ : أى لاتطلب الفتيا منهم .

قصة أهل الكهف

روى أن النصارى عظمت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم ، حتى عبدوا الأصنام ، وأكرهوا الناس على عبادتها ، وأصدر (الملك دقيانوس) الأوامر المشددة فى ذلك ومعاقبة من يخالفه ، وأراد أن يلزم فتية من أشراف قومه عبادتها ، وتوعدهم بالقتل فأبوا إلا الثبات على دينهم ، فنزع ثيابهم وحليهم ، ولكنه رحم شبابهم فأمهلهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، وهكذا ذهب الملك إلى مدن أخرى ليحث أهلها على عبادتها وإلا قتلوا .

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم (أقسوس أو طرسوس) فى جبل يدعى (نيخايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم (قيانوس وهم بقتلهم هربوا وماتوا طائعين ، وقد كانوا سبعة ، فلما فروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلبُ فجلسوا هناك يعبدون الله ، وكان من بينهم امرؤ يدعى (تمليخا) يبتاع لهم طعامهم وشرابهم ، ويبلغهم أخبار دقيانوس الذى لا يزال مجداً فى طلبهم ، إذا عاد من مطافه ووصل إلى مدينتهم بحث عن هؤلاء العباد والنساك ليذبحهم ، أو يسجدوا للأصنام .

فسمع بذلك تمليخاً بينما كان يشترى لهم الطعام خفية فأخبرهم فبكوا ، ثم ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتذكرهم دقيانوس فهدد آباءهم إن لم يحضروهم فدلوه عليهم ، وقالوا انهم فى الكهف فتوجه إليهم فهدّه عليهم ليموتوا هناك وينتهى الأمر على ذلك .

وقد كان فى حاشية الملك رجلان يكتمان إيمانهما وهما بيدروس وروناس ، فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا فى لوحين من حجر ، وجعلاها فى تابوت من نحاس ، وجعلا التابوت فى البنيان ليكون ذلك عظة وذكرى لمن سيجىء من بعد .

ثم مضت قرون يتلو بعضها بعضا ، ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر وبعدئذ ملك البلاد صالح يسمى بيدروس ، دام ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم الناس فى شأن البعث والقيامة فرقتين : فرقة مؤمنة به وأخرى كافرة ، فحزن الملك لذلك حزنا شديدا وضرع إلى الله أن يرى الناس آية يرشدهم بها إلى أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى (أولياس) أن يهدم باب الكهف ، ويبنى به حظيرة لغنمه ، فلما هدمه استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين ، وقاموا يصلون .

ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياما ؟ قال بعضهم : لبثنا يوماً أو بعض يوم . وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بورقكم (الورق الفضة) هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما وليحضر لنا جانبا منه ، فذهب تمليخا كما اعتاد من قبل ليشترى لهم الطعام وهو متلطف فى السؤال ، مختف حذر من دقيانوس .

وبينما هو ماش سمع اسم المسيح ينادى به فى كل مكان ، فحدث نفسه وقال : عجباً لم لم يذبح دقيانوس هؤلاء المؤمنين ؟ وبقى حائراً دهشاً وقال : ربما أكون فى حلم ، ولعل هذه ليست مدينتنا فسأل رجلا : ما اسم هذه المدينة قال (أفسوس) وفى آخر مطافه تقدم إلى رجل فأعطاه ورقا ليشترى به طعامه ، فدهش الرجل من نوع هذا النقد الذى لم يره من قبل ، وأخذ يقلبه ، ويعطيه إلى جيرته وهم يعجبون منه ، ويقولون له : أهذا من كنز عثرت عليه ، فإن هذه الدراخم من عهد دقيانوس ، وقد مضت عليه حقبة طويلة .

ثم أخذوه وقادوه إلى حاكمى المدينة فظن فى بادىء الأمر أنهم ساقوه إلى دقيانوس ، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه زال عنه الكرب ، وجفت مدامعه ، ثم سأله حاكما المدينة وهما أريوس وطنطيوس : أين الكنز الذى وجدت يافتى ؟

وبعد حوار بينه وبينهما ذكر لهما خبر الفتية ودقيانوس ، وأن حديثهما كان أمس ، وإن كان لديكما ريب من أمرى فها هو ذا الكهف ، فاذهبا معى لتريا صدق ما أقول ، فسارا معه حتى وصلا إلى باب الكهف وتقدمهما تمليخا ، فأخبرهما بالحديث كله ، فداخلهما العجب حين علما أنهم ناموا تسعا وثلاثمائة سنة ، وأنهم أوقظوا ليكونوا آية للناس .

ثم دخل أريوس فرأى تابوتاً من نحاس مختوماً بخاتم ، وبداخله لوحان مكتوب عليهما قصة هؤلاء الفتية ، وكيف هربوا من دقيانوس حرصاً على عقيدتهم ودينهم ، فسد عليهم بالحجارة .

ولما رأى أريوس ومن معه هذا القصص خروا لله سجدا ، وأرسلوا بريدا إلى ملكهم أن عجل واحضر لترى آية الله فى أمر فتية بعثوا بعد أن ناموا ثلاثمائة سنة .

ثم سار الملك ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينته ، حتى أتوا مدينة أفسوس ، وكان يوماً مشهوداً ، وحين رأى الفتية خر ساجدا لله ، ثم أعتنقهم وبكى وهم لايزالون يسبحون ، ثم قال الفتية له : أيها الملك نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وقبضت أرواحهم .

فأمر الملك أن يجعل كل منهم فى تابوت من ذهب ، وحين جن الليل ونام رآهم فى منامه يقولون له : اتركنا كما كنا فى الكهف ننام على التراب حتى يوم البعث ، فأمر الملك إن يوضعوا فى تابوت من ساج ، وألا يدخل عليهم أحد بعد ذلك ، وأن يبنى على باب الكهف مسجد يصلى فيه الناس ، وجعل لهم ذلك اليوم عيدا عظيماً .

ذلك هو القصص الذى جعله النصارى دليلا على البعث .

أما القرآن الكريم فإنه يقول إن آياتى على البعث وإعادة الأرواح بعد الموت ليست مقصورة على هذا القصص وحده ، فآياتى عليه لاتُعد ولا تحصى ، فاقرءوا صحائف هذا الوجود ،ولا تقصروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم واجعلوا انظاركم تتجه إلى ماحواه الكون لا إلى ماكتب فى القصص والحكايات ، وإن كانت فيها الدلائل والآيات .

قوله تعالى : ﴿ **أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا** ﴾ :

أى لاتحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم المذكورة فى الكتب السالفة حين استمروا أحياء أمدا طويلا عجيبه بالاضافة إلى ماجعلناه على ظهر الأرض من الزينة ، فليست هى بالعجب وحدها من بين آياتنا ، بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعجب من قصة أصحاب الكهف ، فإذا وقف علماء الأديان الأخرى لدى أمثالها دهشين حائرين ، فأنا أدعوك وأمتك إلى ماهو أعظم منها ، وهو النظر فى الكون وعجائبه من خلق السموات والأرض وأختلاف الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر والكواكب إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله ، وانه يفعل مايشاء ، لا معقب لحكمه .

أما القصص وغرائبها فلا تكفى للوصول إلى أبواب الخير والسعادة التى يطمع إليها الإنسان ، ويجعلها مثله العليا ليفوز بخيرى الدنيا والآخرة ، فابحث عما نقش فى صحائف الأكوان ، لافى صحائف الكهوف والغيران .

قال الزجاج :

أعلم الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم ﴿ **إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيّء لنا من أمرنا رشدا** ﴾ :

أى اذكر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف هربا بدينهم من أن يفتنهم عباد الأصنام والأوثان ، وقالوا إذ ذاك : ربنا يسر لنا بما نبتغى من رضاك وطاعتك رشدا من أمرنا ، وسدادا إلى العمل الذى نحب ، وارزقنا المغفرة ، والأمن من الأعداء .

﴿ **فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا** ﴾ :

أى فضربنا على آذانهم حجاباً يمنعهم السماع ، وأنمناهم نوماً لاينبههم فيه مختلف الأصوات فى الكهف سنين كثيرة معدودة .

﴿ **ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا** ﴾ :

أى ثم أيقظناهم من رقدتهم لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وخلاصـــة ذلك :

إنا بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبر حالهم لنرى أيهم أحصى لما لبثوا أمدا ، فيظهر لهم عجزهم ، ويفوّضوا ذلك إلى العليم الخبير ، ويتعرفوا ماصنع الله بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ، ويستبصروا به فى أمر البعث ، ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم وآية بينة لكفارهم .

﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾ :

أى نحن ننبئك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف نبأ حقاً لامحل للريبة فيه ، وفى هذا إيماء إلى أن نبأهم كان معروفا لدى العرب على وجه ليس بالصدق ، ويدل على ذلك قول أمية بن الصلت :

وليس بها إلا الرقيـم مجـاورا
وصيدهمـو والقـوم فى الكهـف هُجَّـدُ

ثم فصل ذلك بقوله :

﴿ **إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى** ﴾ :

أى إنهم شباب آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، بالتثبيت على الايمان ، والتوفيق للعمل الصالح ، والانقطاع إلى الله ، والزهد فى الدنيا .

وقد جرت السعادة أن الفتيان أقبل للحق وأهدى سبيلا من الشيوخ الذين قد انغمسوا فى الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ورسوله ﷺ شبانا ، وبقى الشيوخ على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾[(١)]

وقوله ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾[(٢)]

وقوله : ﴿ ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾[(٣)]

فى أى زمن كان قصص أهل الكهف ؟

رجح ابن كثير أن قصص أهل الكهف كان قبل مجىء النصرانية لابعدها ، كما رواه كثير من المفسرين متبعين ما أثر عن العرب ، والدليل على ذلك ان أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم ، ويعنون بها

فقد روى عن ابن عباس : أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله ﷺ .

فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الروح ، وفى هذا أعظم الأدلة على أن ذلك كان محفوظا عند أهل الكتاب ، وأنه مقدم على النصرانية .

قوله تعالى :

﴿ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض ﴾ :

أى وألهمناهم قوة العزيمة ، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان ، حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش ، والرغبة عنه ، وقالوا حين قاموا بين يدى الجبار دقيانوس إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام . ربنا رب السموات والأرض ، ورب كل مخلوق .

ثم أردفوا تلك المقالة البراءة من إله غيره فقالوا : **﴿ لن ندعوا من دونه إلها ﴾** :

أى لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلهاً لا على طريقة الاستقلال ، ولا على سبيل الاشتراك ، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق ، وبالجملة الثانية إلى توحيد الربوبية والعبادة ، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى ، ولا يقرون بتوحيد الثانية .

(١) الآية ١٧ من سورة محمد .
(٢) الآية ١٢٤ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٤ من سورة الفتح .

بدليل قوله : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾[١]

وقوله سبحانه حكاية عنهم : ﴿ إنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٢]

وكانوا يقولون فى تلبيتهم فى الحج : لبيك لاشريك لك : إلا شريكا هولك تملكه ومامك

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم : ﴿ **لقد قلنا إذاً شططا** ﴾ :

أى إنا إذا دعونا غير الله لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

وفى هذا إيماء إلى أنهم دعوا لعباده الأصنام وليموا على تركها .

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال : ﴿ **هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين** ﴾ :

أى أن قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سناً ، وأكثر تجربة قد أشركوا مع الله غيره ، فهلا أتوا بحجة بينة على صدق مايقولون ، كما أتينا على صدق ماندعى بالأدلة الظاهرة ، وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا وفيما افتروا .

ومن ثم قال : ﴿ **فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾ :

أى لا أظلم ممن أفترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك تعالى عن ذلك علوا كبيرا ﴿ **وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا** ﴾ :

أى وإذ فارقتموهم وخالفتموهم فى عبادتهم غير الله ، ففارقوهم بأبدانكم والجئوا إلى الكهف ، وأخلصوا لله العبادة فى مكان تتمكنون منها بلا رقيب ولا حسيب ، وإنكم إن فعلتم ذلك فالله تعالى يبسط لكم الخير من رحمته فى الدارين ، ويسهل لكم من أمر الفرار بدينكم والتوجه إليه فى عبادتكم ماترتفقون وتنتفعون به .

وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه ، لتوكلهم عليه وكمال إيمانهم به .

أخرج الطبرانى وابن المنذر عن ابن عباس قال : مابعث الله نبياً إلا وهو شاب وقرأ : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ﴾[٣].

﴿ **وإذ قال موسى لفتاه** ﴾ ، ﴿ **إنهم فتية** ﴾ .

ثم بين سبحانه حالهم بعد أن أووا إلى الكهف فقال : ﴿ **وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه** ﴾ :

---

(١) الآية ٢٥ من سورة لقمان . (٢) الآية ٣ من سورة الزمر . (٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء .

أى إنك أيها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين ، ورأيتها حين الغروب تتركهم وتعدل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم فى وسطه ومتسعه فيصيبهم نسيم الهواء وبرده .

وخلاصـة ذلك :

إنهم طوال نهارهم لاتصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها ، إذ كان باب الكهف فى مقابلة بنات نعش ، فهو إلى الجهة الشمالية ، والشمس لاتسامت ذلك أبداً ، لأنها لاتصل إلى أبعد من خط السرطان ، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة ، كما يعلم ذلك من علم الفلك .

وإيضاح ذلك أنه لو كان باب الكهف فى ناحية الشرق لما دخل إليه شىء منها حين الغروب ، ولو كان باب الكهف فى ناحية الجنوب لما دخل شىء حين الطلوع ولا الغروب ، وما تزاور الفىء لايمينا ولاشمالا ، ولو كان جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ، ولاتزال فيه إلى الغروب .

مكان الكهـف

وللمفسرين فى تعيين مكان الكهف أقوال : فقيل هو قريب من إيلياء « بيت المقدس » ببلاد الشام .

وقال ابن اسحاق : عند « نينوى » ببلاد الموصل وقيل ببلاد الروم ولم يقم إلى الآن الدليل على شىء من ذلك ولو كان لنا فى معرفة ذلك فائدة دينية لأرشدنا الله إليه كما قال ﷺ : (ما تركت شيئاً يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا وقد أعلمتكم به) .

﴿ ذلك من آيات الله ﴾ :

أى إن هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم ، وبملكهم مع حداثتهم وإيواءهم إلى كهف تلك صفته ، بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة وتقرضهم غاربة ، وإخبارك بقصصهم كل ذلك من آيات الله الكثيرة فى الكون الدالة على كمال قدرته ، وعلى أن التوحيد هو الدين الحق ، وعلى أن الله يكرم أهله .

ثم بين أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه فقال : **﴿ من يهد الله فهو المهتد ﴾ :**

أى من يوفقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق كأصحاب الكهف فهو المهتدى الذى أصاب سبيل الحق ، وفاز بالحظ الأوفر فى الدارين .

وفى هذا إيماء إلى أن أصحاب الكهف أصابوا الصواب ، ووفقوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة

عليهم ، وتهيئة المرفق . ﴿ **ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ : أى ومن يضلـه الله لسوء استعداده وصرف اختياره إلى غير سبل الهدى والرشاد ، فلن تجد له ابداً خليلا ولا حليفاً يرشده لإصابة سبل الهداية ، وتخلصه من الضلال ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله يوفق من يشاء من عباده ويخذل من يشاء .

وفى هذا تسلية لرسوله وإرشاد له إلى انه لاينبغى له أن يحزن على إدبار قومه عنه ، وتكذيبهم إياه ، فإن الله لوشاء لهداهم وآمنوا .

﴿ **وتحسبهم أيقاظا وهم رقود** ﴾ :

أى ولو رأيتهم لظننتهم فى حال يقظة لانفتاح أعينهم وهم نيام ، كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ، ولما للنوم من الحال الخاصة به التى يستبينها الناظر بادىء ذى بداء كاسترخاء المفاصل والأعضاء ولاسيما العينان والوجه .

﴿ **ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال** ﴾ :

ونقلب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ، كى ينال روح النسيم جميع أبدانهم ، ولا يتأثر مايلى الأرض منها بطول المكث .

﴿ **وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد** ﴾ :

أى وكلبهم ملق يديه على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين بفناء الكهف ، كما روى عن ابن عباس ، وقيل المراد بالوصيد الباب .

﴿ **لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً** ﴾ :

أى لو شاهدتهم فى رقدتهم التى رقدوها فى الكهف لأدبرت عنهم هارباً فاراً منهم .

﴿ **ولملئت منهم رعبا** ﴾ :

أى ولملئت نفسك حين اطلاعك عليهم خوفا وفزعا ، لأن الله قد ألبسهم هيبة ووقارا ، كى لايصل إليهم واصل ، ولاتلمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه فى الحين الذى أراد ان يجعلهم فيه عبرة لمن شاء من خلقه ، وآية لمن أراد الاحتجاج عليهم من عباده ، وليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لاريب فيها .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك بعثناهم** ﴾ :

أى كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الكهف وحفظنا أجسامهم من البلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفن على مر الأيام بقدرتنا بعثناهم من رقدتهم ، وأيقظناهم من نومهم ، لنعرفهم عظيم سلطاننا ، وعجيب فعلنا فى خلقنا ، وليزدادوا بصيرة فى أمرهم الذى هم عليه من براءتهم من عبادة الآلهة ،

وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، إذا تبينوا طول الزمان عليهم وهم بهيئتهم حين رقدوا .

﴿ **ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم** ﴾ :

أى ولتكون عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضا ، فيقول قائل منهم لأصحابه : كم لبثتم ؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

﴿ **قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم** ﴾ :

أى فأجابه الآخرون ، فقالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم ، ظنا منهم إن ذلك كذلك كان .

وإيضاح هذا أنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم ، فهم لايدرون مقدار ذلك اللبث أيوم هو أو بعض يوم ؟ لأن لوثة النوم وظواهره لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم ، فلم ينظروا إلى الأمارات التى تدل على ذلك المقدار الذى يظن انه قد كان .

وأكثر المفسرين على أن دخولهم فى الكهف كان أول النهار واستيقاظهم كان آخر النهار .

﴿ **قالوا ربكم أعلم بما لبثتم** ﴾ :

أى وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم ، أى أنتم لاتعلمون فترة لبثكم ، بل الله هو الذى يعلمها ، وهذا من الأدب البارع فى الرد على الأولين بأحسن أسلوب ، وأجمل تعبير .

وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا : ﴿ **فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة** ﴾ :

أى فابعثوا بدراهمكم هذه إلى المدينة وهى طرسوس ، كما جزم بذلك فخر الدين الرازى .

وفى قولهم ﴿ **هذه** ﴾ إشارة إلى أن القائل كان قد احضرها ليناولها بعض أصحابه .

وإلى أن التأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله ، لاينافى التوكل على الله كما جاء فى الحديث : (اعقلها وتوكل)[1].

قوله تعالى : ﴿ **فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه** ﴾ :

أى فليبصر أى الأطعمة أجود وألذ فليأتكم بمقدار منه . ﴿ **وليتلطف ولايشعرن بكم أحدا** ﴾ :

أى وليترفق فى دخول المدينة ، وفى شرائه ، وفى إيابه منها ، ولا يخبرن بمكانكم أحدا من أهلها .

ثم ذكروا تعليل الأمر والنهى السالفين بقولهم : ﴿ **إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم** ﴾ :

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٦٠ .

أى أن الكفار إن علموا بمكانكم ولم تفعلوا مايريدون منكم ، بل ثبتم على إيمانكم إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة .

وكان ذلك هو المتبع فى الأزمنة الغابرة ، فيمن يعلن خلاف ماعليه الجماهير فى الأمور الدينية والسياسية التى لها شأن فى الدلوة .

وإما أن يعيدوكم إلى ملة آبائكم التى هم مستمسكون بها .

﴿ **ولن تفلحوا إذاً أبدا** ﴾ :

أى وإن دخلتم فى ملتهم ولو بالاكراه والقسر ، لن تفوزوا بخير لافى دنياكم ولافى آخرتكم ، إذ ربما استدرجكم الشيطان إلى أن تستحسنوا ما ستعتنقونه من ذلك الدين الجديد ، وتستمرئوه فتستمروا عليه ، فيكون قد كتب عليكم الشقاء عند ربكم ، والخذلان الذى لاخذلان بعده .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لاريب فيها** ﴾ :

أى وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم حين رقدوا ليتساءلوا بينهم ، فيزدادوا بصيرة بعظيم سلطانه تعالى ، ومعرفة حسن دفاع الله عن أوليائه ، أعثرنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا فى شك من قدرة الله على إحياء الموتى ، وفى مرية من انشاء أجسام خلقة كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى ، ليعلموا أن وعد الله حق ، ويؤمنوا أن الساعة آتية لاريب فيها ، إذ لاحجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ، ولكن وقوع ذلك الأمر العظيم وعلمهم به مما يخفف من غلوائهم ، ويكبح جماح إنكارهم ، ويردهم إلى رشدهم .

ذلك أن حال هؤلاء الفتية فى تلك الحقبة الطويلة وقد حبست عن التصرف نفوسهم ، وعُطلت مشاعرهم وحواسهم ، وحفظت من التحلل والتفتت أبدانهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئاً عهدته فى مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف فى شئونها ، وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم ، وحبست نفوسهم من واد واحد فى الغرابة ولاينكر ذلك إلا جاهل أو معاند .

ووقوع الأول يزيل الارتياب فى إمكان وقوع الثانى ، ولايبقى بعد ذلك شك فى أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من فى القبور ، فيرد عليهم أرواحهم ويجازيهم جزاء وفاقا ، بحسب أعمالهم إن خيراً فخير ،وإن شرا فشر ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

قوله تعالى : ﴿ **إذ يتنازعون بينهم أمرهم** ﴾ :

أى وكذلك أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضا فى أمر البعث ، فمن مقر به وجاحد له ، وقائل تبعث الأرواح دون الأجساد ، ففرح الملك وفرحوا بآية «لله على البعث - وزال

مابينهم من الخلاف فى أمر القيامة ، وحمدوا الله إذ رأوا ما رأوا مما يثبتها ، ويزيل كل ريب فيها .

ثم حكى آراء القوم فى شأنهم بعد اطلاعهم عليهم فقال :

﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ :

أى أنهم انقسموا فى شأنهم فريقين ، فريق يقول : نسد عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم ، وفريق يقول : نبنى عليهم مسجداً يصلى فيه الناس ، وقد غلب هذا الفريق الفريق الأول فى الرأى .

وقوله : ﴿ **ربهم أعلم بهم** ﴾ : جملة معترضة من كلامه تعالى ، ردا للخائضين فى أمرهم ممن اعثروا عليهم ، أو ممن كان فى عهده ﷺ من أهل الكتاب فى بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهى عنه أشد النهى ، حتى ذكر ابن حجر فى كتابه الزواجر أنه من الكبائر .

روى أحمد وأبو داود عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال : (لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)[١] وزاد مسلم (ألا وأن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد فإنى أنهاكم عن ذلك)[٢].

وعن رسول الله ﷺ قال : (لعن الله تعالى اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)[٣].

وعن رسول الله ﷺ قال : (إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ومن يتخذ القبور مساجد)[٤].

قوله تعالى : **﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾** .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٧٨ . والترمذى فى الصلاة : ١٢١ . والنسائى فى الجنائز : ١٠٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الصلاة : ٢١٣ ، ١٢١ . وأبو داود فى الوتر : ١ . والنسائى فى الجنائز : ١٠٤ ، ١٠٦ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٨٦ . والدارمى فى الصلاة : ١٢٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٦ ، ١٢٣ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٦١ ، ٩٦ . ومسلم فى المساجد : ١٩–٢٣ . والنسائى فى المساجد : ١٣ . والإمام مالك فى السفر : ٨٥ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٠٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى الصلاة : ٤٨ ، وفى الجنائز : ٦١ ، ٩٦ .

أى سيقول بعض الخائضين من أهل الكتاب ذلك ، فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله ﷺ فى عدد أهل الكهف ، فقالت الملكانية (أصحاب الملك) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وروى هذا عن ابن عباس ، وهو الحق بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال فى الأخير بخلافه ، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس .

﴿ قل ربى أعلم بعدتهم ﴾ :

فى هذا ارشاد لنا إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم الى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، فإن أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا توقفنا ولم نجزم بشىء .

﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ :

أى ما يعلم عددهم إلا قليل من الناس .

روى قتادة عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل كانوا سبعة سوى الكلب ، ولم يرد فى الصحيح عن النبى ﷺ شىء فى ذلك .

وفى هذا دلالة على أن المهم ليس هو معرفة العدد ، بل المهم الاعتبار بذلك القصص ، وبما يكون نافعا لعقولنا وتطهير أخلاقنا ورقينا فى حياتنا الدنيوية والأخروية .

وبعد أن ذكر سبحانه هذا القصص ، نهى رسول الله ﷺ عن شيئين : المراء فى أمرهم ، والاستفتاء فى شأنهم فقال : **﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾** :

أى فلا تجادل فى شأن الفتية إلا جدلا سهلا لينا ، وقص عليهم ما جاء فى الكتاب الكريم دون تكذيب لهم فى تعيين العدد ولا تجهيل لهم فى الحديث ، إذ لا يترتب على ذلك كبير فائدة ، لأن المقصد من القصة هو العظة والاعتبار ، ومعرفة أن البعث حاصل لا محالة وهذا لا يتوقف على عدد معين ، إلى أن ذلك مما يخل بمكارم الأخلاق التى بعث لاتمامها ، ونحو الآية قوله : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾[1] .

﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ :

أى ولا تستفت النصارى فى شأنهم فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم ، رجماً بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع ، ولا نص صريح ، وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ، فهو الحاكم المقدم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السالفة .

وفى الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

(١) الآية ٤٦ من سورة العنكبوت .

قوله تعالى : ﴿ **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً * إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً** ﴾ : .

المناسبة وإجمال المعنى

جاءت هاتان الآيتان إرشاداً وتأديباً من الله لرسوله ﷺ ، يعلمه بأنه إذا أراد أن يخبر عن شىء سيفعله فى مستأنف الأيام ، أن يقْرن قوله بمشيئة علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما سيكون .

وجاءتا معترضتين أثناء القصة لما تضمنتاه من تعليم عباده تفويض الأمور كلها إليه ، وبيان أنه لا يحدث فى ملكه إلا ما يشاء .

روى « أنهما نزلتا حين سألت قريش رسول الله ﷺ عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال عليه الصلاة والسلام : غدا أخبركم ، ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله) فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما ، فشق عليه وكذبته قريش .

﴿ **ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله** ﴾ :

أى ولا تقولن أيها الرسول لشىء إنى سأفعل ذلك غداً إلا أن تقول : إن شاء الله ، ذاك أنه ربما مات المرء قبل مجىء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذباً فى ذلك الوعد ونفر الناس منه .

﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ :

أى واذكر مشيئة ربك إذا فرط منك نسيان ثم تذكرت ذلك ، وهذا أمر بالتدارك حين التذكر ، سواء أطال الفصل أم قصر .

﴿ **وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشداً** ﴾ :

أى وقل عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب إرشاداً للناس ، وأظهر حجة من نبأ أهل الكهف .

وقد حقق الله له ذلك ، فآتاه من الآيات ما هو أعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء مع أممهم على توالى العصور ومر الأيام .

وخلاصة ذلك . اطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيراً ومنفعة فى ضمن ما ألقى إليك من الأوامر والنواهى ، وقد استجاب الله دعاءه ، فهداه فيما أنزل عليه إلى ما هو خير منفعة ، وأجدى فائدة للمسلمين فى دنياهم وآخرتهم ، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

ثم بين سبحانه ما أجمل فى قوله : ﴿ **فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً** ﴾ ، فقال

سبحانه: ﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً * قل الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض أبصر به وأسمع ، مالهم من دونه من ولى ولا يشرك فى حكمه أحداً** ﴾ :

﴿ **ولبثوا فى كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا** ﴾ :

أى ولبثوا فى الكهف حين ضربنا على آذانهم ثلاث مائة سنة على حساب أهل الكتاب الذين علموا قومك السؤال عن شأنهم ، وتسعاً زائدة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك .

ولا شك أن فى هذا البيان معجزة لرسوله النبى الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ولم يدرس الحساب ولا الهندسة ولا الفلك ، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية . وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوما على السنة القمرية .

ولا شك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير بما أوحاه إليه ، وهداه لأقرب من هذا رشداً ، وهو الذى جعله يلفت الأنظار الى علم ما على الأرض زينة لها كضوء الشمس والقمر على وجهها ، وما نتج عن ذلك الضوء من بهجة الأرض وزينتها ، فلولا اختلاف الفصول لم يكن للأرض زينة ، ولا اختلاف للفصول إلا بتقلب أحوال الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى ، فما من حيوان ولانبات إلا أسن حياته ضوء الشمس الذى أرسله الله إلى الأرض ، كما أرسل محمداً ﷺ ليهدينا إلى نور العلم ويقول لنا : إن النظر فيما على الأرض من زينة أقرب رشداً من قصص الأولين ، وحكايات الغابرين .

فكم فى العوالم المحيطة بكم من خوارق ، فإياكم أن تذروها ابتغاء ما يقع على أيدى أنبيائكم وأوليائكم ، فإنى قد أرسلت الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكى وما فى خلقى من عجائب ، وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلقى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[1] .

ثم أكد أن المدة المضروب على آذانهم فيها هى هذه المدة فقال : ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ :

أى قل الله أعلم منكم بهم ، وقد أخبر بمدة لبثهم ، فهو الحق الذى لا يحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضاً كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا بيان من الغيب الذى أخبر به الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ :

أى قل الله أعلم منكم بهم ، وقد أخبر بمدة لبثهم ، فهو الحق الذى لا يحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضاً كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا البيان من الغيب الذى أخبر الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله ﴿ **قل الله أعلم بما لبثوا** ﴾ تذييلا لسابقه ، ليكون محاكياً قوله فى حكاية عددهم ﴿ **قل ربى أعلم بعدتهم** ﴾ .

ثم أشار إلى اختصاصه بعلم مالبثوا دون غيره فقال : ﴿ **له غيب السموات والأرض** ﴾ :

---

(١) الآية ٥٧ من سورة غافر .

أى ولله ما غاب فيهما ، وما خفى من أحوال أهلهما ، لا يعزب عنه شىء منه ، فسلِّموا له علم ما لبثت الفتية فى الكهف ، وإذا علم الخفى فيهما فهو بعلم غيره أدرى .

ومن ذلك العلم الغائب على كثير من العقول حساب السنة الشمسية والقمرية فقد غيبه الله عن بعض الناس ، ولم يطلع عليه إلا العارفين بحساب الأفلاك ومن ثم يعجبون من أمر نبيهم ، ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها .

﴿ أبصر به وأسمع ﴾ :

هذا أسلوب فى اللغة يدل على التعجب والمبالغة فى الأمر الذى تتحدث بشأنه ، أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود ، وأسمعه بكل مسموع ، فهو لا يخفى عليه شىء من ذلك ، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يتعجب منه .

وفد ورد مثل هذا فى الحديث (ما أحلمك عمن عصاك ، وأقربك ممن دعاك ، وأعطفك على من سألك) .

﴿ مالهم من دونه من ولى ﴾ :

أى ما لخلقه دون ربهم الذى خلقهم — ولى يلى تدبير أمورهم وتصريفهم فيما هم فيه مصرَّفون .

﴿ ولا يشرك فى حكمه أحدا ﴾ :

أى إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ، تعالى الله وتقدست أسماؤه سبحانه بيده الأمر كله وإليه ترجع الأمور ، وإذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، لا تدركه الأبصار ولا تحويه الأقطار ، ولا يؤثر فيه الليل والنهار ، وهو الواحد القهار ، فكيف يتصور عاقل أن له شريكاً فى ذاته ، أو شبيهاً فى صفاته ، أو قسيماً فى أفعاله : ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .[1]

---

(١) الآية ٤٠ من سورة يوسف .

توجيهات إلٓهية

وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ
نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ
تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ
أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى
ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ
أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى
ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

المفردات : ﴿ **لا مبدل** ﴾ : أى لا مغير ، لكلماته أى لأحكامها ، فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه . ﴿ **ملتحداً** ﴾ : أى ملجأ تعدل إليه إذا ألَمْت بك ملمة ﴿**واصبر نفسك**﴾ أى احبسها وثبتها . ﴿ **بالغداة والعشى** ﴾ : أى فى طرفى النهار ، وخصهما بالذكر ، لأنهما محل الغفلة ، وفيهما يشتغل الناس بأمور دنياهم . ﴿ **ولا تعد عيناك عنهم** ﴾ : أى لا تصرف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا ؛ والمراد لا تحتقرهم وتصرف النظر عنهم إلى غيرهم لرثاثة منظرهم ، ﴿ **تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ : أى تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، ﴿ **أغفلنا قلبه** ﴾ : أى جعلناه غافلا ، ﴿ **فرطا** ﴾ : أى تفريطا وتضييعا لما يجب عليه أن يتبعه من أمر الدين . ﴿ **وأعتدنا** ﴾ : أى أعددنا وهيأنا ، ﴿ **والسرادق** ﴾ : الفسطاط أى الخيمة . شبه به ما يحيط بهم من لهب النار المنتشر منها فى سائر الجهات ، ﴿ **المهل** ﴾ : دردىء الزيت أو ما أذيب من المعادن كالرصاص والنحاس ، ﴿ **يشوى الوجوه** ﴾ : أى ينضجها إذا قدِّمْ ليشرب ، لشدة حره ، ﴿ **ومرتفقا** ﴾ : أى متكأ ، يقال مات فلان مرتفقاً أى متكئا على مرفق يده ، ﴿ **وجنات عدن** ﴾ : أى جنات إقامة واستقرار يقال عَدَنَ بالمكان إذا أقام فيه واستقر ، ومنه المعدْنِ لاستقرار الجواهر فيه ، ﴿ **والأساور** ﴾ : واحدها سوار ، ﴿ **والسندس** ﴾ : رقيق الديباج واحده سندسه . ﴿ **والإستبرق** ﴾ : ما غلظ منه . ﴿ **الأرائك** ﴾ : واحدها أريكه سرير عليه حَجَله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ، ودل اشتمال القرآن عليه على أنه وحى من علام الغيوب ، أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه وتلاوته ، وألا يكترث بقول القائلين له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، ثم ذكر ما يلحق الكافرين من النكال والوبال يوم القيامة ، وما ينال المتقين من النعيم المقيم كفاء ما عملوا من صالح الأعمال .

قوله تعالى : ﴿ **واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا** ﴾ :

قال مجاهد : أى ملجأ .

وقال ابن جرير :إن أنت يامحمد لم تتل ماأوحى إليك من كتاب ربك فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى : ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ :[١] ، وقال : ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[٢] الآيه ، أى سائلك عما فرض عليك من إبلاغ الرسالة .

وفى الآية الكريمة : ﴿ **واتل ما أوحى إليك** ﴾ : أمرٌ بتلاوة الوحى المتلو وهو القرآن العظيم الذى لا تغيير لأحكامه ، فالله تعالى إذا أراد قضى المراد وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب : ﴿ أفغير الله أبتغى حكما وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا ﴾[٣] .

فمن اعتصم به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، ومن استمسك به أدخله الله الجنة وكفاه كل مهمة ، ومن اعتصم بغيره أساخ الله الأرض من تحته ، وقطع الأسباب من فوقه ، ولا يبالى كيف أهلكه ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾[٤] .

فهو القوى المتين صاحب الركن الركين ، والجناب المتين ، عليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وإليه المصير . فاللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء همنا ، وذهاب حزننا .

قوله تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾ :

قال مسلم فى صحيحه عن سعد بن أبى وقاص قال : « كنا مع النبى ﷺ ستة نفر . فقال المشركون للنبى ﷺ : اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا . قال : كنا أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال

---

(١) الآية ٦٧ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٨٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ١١٤ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النور .

ورجلان نسيت أسميهما ، فوقع فى نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع ، فحدث نفسه فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ (١) .

وفى فضل الغداة والعشى روى الإمام أبو داود الطيالسى بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لأن أجالس قوما يذكرون الله من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى مما طلعت عليه الشمس ولأن أذكر الله من صلاة العصر الى غروب الشمس أحب إلى من أن أعتق ثمانية من ولد إسماعيل دية كل واحد منهم اثنا عشر ألفا) (٢) . فحسبنا دياتهم ونحن فى مجلس أنس فبلغت ستة وتسعين ألفا وههنا من يقول أربعة من ولد إسماعيل والله ما قال إلا ثمانية دية كل واحد منهم أثنا عشر ألفاً .

وقال الحافظ أبو بكر البزار عن الأغر أبى مسلم وهو الكوفى « إن رسول الله ﷺ مر برجل يقرأ سورة الكهف فلما رأى النبى ﷺ سكت فقال النبى ﷺ : هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » (٣) .

قال الامام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله لايريدون بذلك إلا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم قد بدلت سيئاتكم حسنات)(٤) .

وقال الطبرانى : عن عبد الرحمن بن سهل بن حنيف قال : « نزلت على رسول الله ﷺ وهو فى بعض أبياته ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى** ﴾ : الآية فخرج يلتمسهم فوجد قوما يذكرون الله تعالى منهم ثائر الرأس ، وجاف الجلد ، وذو الثوب الواحد ، فلما رآهم جلس معهم وقال : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرنى أن أصبر نفسى معهم) .

هذا هو الإسلام وذاك نبيه الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، إنه محرر العبيد الذى جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، أراد صناديد قريش أن يجعلوها عنصرية ، واستنكفوا أن يجالسوا فقراء المسلمين ، لكن الإسلام لا يزن الناس بمعيار الذهب والفضة فلا رنين ولا بريق ، إنما تقوى وعلم صالح ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(٥) .

كان طاغية الفاشية موسولينى يقول : إيطاليا فوق الجميع ، وكان هتلر طاغية النازية يقول : ألمانيا فوق الجميع ، وفرحوا بما أوتوا من العلم ، ونادى تشرشل : إنجلترا فوق الجميع ، لكن الإسلام حطم

(١) الآية ٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه أبو داود فى العلم : ١٣ . والدرامى فى الرقاق : ٦٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٧٤ ، وفى ٥ : ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) أخرجه أبو داود فى العلم : ١٣ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٤٢ .

(٥) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

تلك الأصنام ، وأزال تلك الأوثان ، وأخرج الناس من عبادة الانسان إلى عبادة الواحد الديان ، ومن ظلم الطواغيت إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة .

الناسُ من جهة التصوير أكفاء أبوهم آدم والأم حواءُ
فإن يكن لهم فى أصلهم شرفٌ يتفاخرون به فالطين والماء

إن المادية لما طغت على المعنويات أصبحت الموازين مختلة ، والقيم منكوسة ، والمثل منحوسة .

إن الغنى وإن تكلم بالخطأ قالوا أُصبت وصدقوا ما قال
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت ياهذا وقلت ضلال
إن الدراهم فى المجالس كلها تكسو الرجال مهابة وجلال
فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتال

تباركت ربنا وتعاليت ، يا من أوصيت نبيك بهؤلاء الضعفاء :

﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ :

قال ابن عباس : ولا تجاوزهم إلى غيرهم يعنى تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ، هذا هو المعيار الحق والميزان العدل ، فالإنسان حيث يثبت لا حيث ينبت وحيث يوجد لا حيث يولد ، لقد ضلت الإنسانية ضلالا بعيداً عندما غفلوا عن آيات الله وصاروا يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون .

يمشى الفقير وكل شىء ضده والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب إذا رأت رجل الفتى حنت إليه وحركت أذنابها
وإذا رأت يوما فقيراً ماشيا نبحت عليه وكشرت أنيابها

سبحانك ربى حكمت فعدلت ، وقلت وقولك الحق : ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾ : أى شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ، ﴿ **وكان أمره فرطاً** ﴾ : أى أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعاً له ، ولا محبا لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه ، كما قال سبحانه ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾[1] .

ليست السعادة فى الانتشاء باحتساء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد ، إنما

(١) الآية ١٣١ من سورة طه .

السعادة فى طاعة الله ورسوله ، وفى الرضا بما قضى ربك ، وارض بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس ، السعادة فى تزكية النفس ، وإشراق العقل ، وصفاء الذهن عن كل مايشغله ويكدره بماديات الدنيا .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقىّ هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

يقول ريتشارد نيكسون : إن الولايات المتحدة لاتعانى أزمة مادية ، إنما تعانى أزمة روحانية ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع لكننا فقراء فى الروح ، نصل فى قرب عظيم الى القمر ، ونسقط فى خلاف حاد على الأرض .

قوله تعالى : ﴿ **وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا** ﴾ :

هذا إخبار كريم من رب كريم إلى نبى كريم ، فما أعظم الخطاب إذا كان من الله ، وما أجله إذا كان موجهاً إلى رسول الله ﷺ ، أى قل يامحمد للناس هذا الذى جئتكم به من ربكم هو الحق الذى لا مرية فيه ولاشك .

﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ : هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال ﴿ **إنا أعتدنا** ﴾ : أى أرصدنا ﴿ **للظالمين** ﴾ : وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ **ناراً أحاط بهم سرادقها** ﴾ : أى سورها ، فقد كفروا بالحق ، والله هو الحق ، قال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾[١] ، وله دعوة الحق والقرآن حق ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ﴾[٢] ، ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾[٣] .

فاللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق .

اللهم لك خاصمت ، وبك حاكمت ، وإليك أنبت ، وعليك توكلت ، فاغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وماأسررت وما أعلنت ، أنت إلهى ولا إله إلا أنت .

﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٤] .

---

(١) الآية ٦ من سورة الحج .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٣٢ من سورة يونس .
(٤) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة النور .

ولكل عاقل أن يقف كثيراً أمام قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[١]

فيا له من يوم ما أطوله ، ويا له من جبار ما أعدله ، ويا له من خطب ما أهوله ، ﴿ يوم يُدَعُّون إلى نار جهنم دعًّا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[٢] .

روى الإمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ : (لسرادق النار أربعة جدر ، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة)[٣] . أخرجه الترمذى فى صفة النار .

وقال ابن عباس : ﴿ **أحاط بهم سرادقها** ﴾ : حائط من نار .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه** ﴾ : الآية :

قال ابن عباس : المهل : الماء الغليظ ، مثل دردى الزيت .

وقال عكرمة هو الشىء الذى انتهى حره .

وقال الضحاك : ماء جهنم أسود وهى سوداء وأهلها سود .

﴿ **يشوى الوجوه** ﴾ : من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ، ﴿ كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعوا من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾[٤] .

وقال عبد الله بن المبارك : عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله (ويسقى من ماء صديد* يتجرعه)[٥] قال : ويقرب اليد فيتكرهه فإذا قرب منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فإذا شرب قطَّع أمعاءه ، ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾[٦] .

وقال سعيد بن جبير : إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم ، فيأكلون منها ، فاختلبت جلود وجوههم ، فلو أن مارًّا مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ، ثم يصيبهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل ، وهو الذى انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة ﴿ **بئس الشراب** ﴾ : أى بئس هذا الشراب .

وقال تعالى : ﴿ تسقى من عين آنية ﴾[٧] أى حارة ، كما قال تعالى : ﴿ وبين حميم آن ﴾ :[٨] أى حار .

(١) الآية ٢٨١ من سورة البقرة .
(٢) الآيات ١٣ – ١٦ من سورة الطور .
(٣) أخرجه الترمذى فى (جهنم) : ٤. والإمام أحمد فى ٣ : ٢٩ .
(٤) الآيات ١٥ ١٨ من سورة المعارج .
(٥) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سور إبراهيم .
(٦) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٧) الآية ٥ من سورة الغاشية .
(٨) الآية ٤٤ من سورة الرحمن .

﴿ **وساءت مرتفقا** ﴾ : أى وساءت النار منزلا ومقيلا ومجتمعا وموضعا للارتفاق ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾ [١] .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا** ﴾ :

هذا هو نور الوعد بعد نيران الوعيد ، فبعد أن ذكر سبحانه وتعالى حال الأشقياء ثنّى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين فيما جاءوا به ، وعملوا ما أمرهم به من الأعمال الصالحة ، فلهم جنات عدن والعدن الإقامة .

﴿ **تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾ :

أى من تحت غرفهم ومنازلهم .

﴿ **يحلون** ﴾ :

أى من الحلية . ﴿ **فيها من أساور من ذهب** ﴾ :

وقال فى آية أخرى : ﴿ ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴾[٢] ، وفصله ههنا ، فقال : ﴿ **ويلبسون ثيابا خضراً من سندس وإستبرق** ﴾ :

فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها ، وأما الاستبرق فغليظ الديباج وفيه بريق .

وقوله : ﴿ **متكئين فيها على الأرائك** ﴾ : :

الاتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع فى الجلوس ، وهو أشبه بالمراد ههنا . والأرائك جمع أريكة وهو السرير تحت الحجلة .

وقوله : ﴿ **نعم الثواب وحسنت مرتفقا** ﴾ :

أى نعمت الجنة ثوابا على أعمالهم وحسنت مرتفقا ، أى حسنت منزلا ومقيلا ومقاما ، كما قال فى النار : ﴿ **بئس الشراب وساءت مرتفقا** ﴾ : وهكذا قابل بينهما فى سورة الفرقان فى قوله : ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾[٣] .

ثم ذكر صفات المؤمنين فقال : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾[٤] .

---

(١) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الحج .
(٣) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .
(٤) الآيتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الفرقان .

سبحانك ربى ، شعاع من رضاك يطفىء غضب سلوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو أنغمست فى نعيم الدنيا ، قطرة من فيض جودك تملأ الأرض رِيًا ، ونظرة بعين رضاك تجعل الكافر وليا ، استحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف أسألك وأنك أنت ، ان كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

حاسبت نفسى لم أجدنى صالحـاً ... إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى على فلم أجد ... فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعالى كلها ... وحى إذاً من وقفة الديّان
يأيها الاخوان إنى راحل ... مهما يطل عمرى فإنى فان
يارب إن لم ترض إلا ذا تقى ... من للمسيىء المذنب الحيران

الغنى غنى النفس

* وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا
بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾
وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ
جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً
وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ
بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ
أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ
مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ
فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ
أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾
هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

المفردات : ﴿ **الجنة** ﴾ البستان ، سميت بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر وكل مادة (جـ ن ن) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن الليل : أى أظلم إلى

نحو ذلك . ﴿ **أعناب** ﴾ : أى كروم منوعة . ﴿ **وحففناهما بنخل** ﴾ : أى جعلنا النخل محيطا بهما مطبقا بحفافيهما أى جانبيهما ، يقال حفَّه القوم : أى طافوا به ، ومنه قوله : ﴿ **حافين من حول العرش** ﴾[١] . وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، ﴿ **أكلها** ﴾ : أى ثمرها ، ﴿ **ولم تظلم** ﴾ : أى لم تنقص ، ﴿ **والنهر** ﴾ : لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ﴿ **ثمر** ﴾ : أى أنواع من المال يقال ثمر فلان ماله وأثمره : إذا نماه قال الحارث بن كلدة :

ولقــد رأيت معــاشراً قد أثمروا مالا وولــــداً

﴿ **والصاحب** ﴾ : المصاحب لك . ﴿ **يحاوره** ﴾ : أى يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان . ﴿ **أن تبيد** ﴾ : أى تفنى وتهلك ، ﴿ **قائمة** ﴾ : أى كائنة متحققة ، ﴿ **ومنقلبا** ﴾ : أى مرجعاً وعاقبة ، ﴿ **سواك** ﴾ : أى عدلك وكملك إنسانا . ﴿ **لكنا هو الله** ﴾ : أصل التركيب فى الجملة لكن أنا : هو الله ربى (دخله نقل وحذف) ﴿ **لولا** ﴾ : حرف يفيد الحث على الشيء والتوبيخ على تركه ، ﴿ **ماشاء** ﴾ : أى ماشاء الله كائن ، ﴿ **حسبانا من السماء** ﴾ : أى مطرا عظيما يقلع زرعها وأشجارها ، ﴿ **الصعيد** ﴾ : وجه الأرض . ﴿ **زلقا** ﴾ : أى تعيد بحيث تزلق عليها الرجل والمراد أنها تصير ترابا أملس لا تثبت فيه قدم . ﴿ **والغور** ﴾ : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلبا : أى عملا وحركة لرده ، ﴿ **وأحيط بثمره** ﴾ : أى أهلكت أمواله يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ، ثم استعمل فى كل إهلاك ، ﴿ **يقلب كفيه** ﴾ : هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى يديه على الأخرى متأسفا متلهفا ، ﴿ **خاوية** ﴾ : أى ساقطة ، يقال خوت الدار وخوت وخويت خيا وخويا : تهدمت وخلت من أهلها ، ﴿ **والعروش** ﴾ : واحدها عرش وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم ، ﴿ **منتصراً** ﴾ : أى ممتنعاً بقوة عن انتقام الله ، عقبا : أى عاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه نبيه بصبر نفسه مع فقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين ، الذين طلبوا منه ﷺ طرد هؤلاء الصعاليك ، وأن يعين لهم مجلسا وللسادة مجلسا آخر ، حتى لا يقال إن السادة ومواليهم يجتمعون فى صعيد واحد ، ويتحدثون وإياهم حديث الند للند ، وفى ذلك امتهان لكبريائهم ، وخفض من عزتهم — قفى على ذلك بمثل يستبين منه أن المال لا ينبغى أن يكون موضع فخار ، لأنه ظل زائل ، وأنه كثيراً ما يصير الفقير غنيا ، والغني فقيراً ، وإنما الذى يجب أن يكون أساس التفاخر ، وعمدة التفاضل ، هو طاعة الله وعبادته ، والعمل على ما يرضيه فى دار الكرامة حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

---

(١) الآية ٧٥ من سورة الزمر .

قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً** ﴾ :

أى واضرب أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى ، مثلا هو مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم العنب ، وأحطناهما بنخل ، وجعلنا وسط هذين البستانين زرعاً .

وخلاصة ذلك : إن أرضه جمعت القوت والفواكه وهى متواصلة متشابكة ، فلها منظر ورُواء حسن ووضع أنيق ، يخلب اللب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر .

وقد ضرب الله المثل ليبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين من قبل أن الكفار مع تقلبهم فى النعيم قد عصوا ربهم ، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساء قد أطاعوه .

﴿ **كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً** ﴾ :

أى كلتا الجنتين أخرجت ثمرها ولم تنقص منه شيئاً فى سائر الأعوام ، على خلاف مايعهد فى الكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواماً ، وتقل أعواماً أخرى .

﴿ **وفجرنا خلالهما نهراً** ﴾ : :

أى وشققنا وسط الجنتين نهراً كبيراً ، متفرع منه عدة جداول ، ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤهما ، وتكثر غلتهما .

﴿ **وكان له ثمر** ﴾ :

أى وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى غيرهما من ذهب وفضة ثمرها بما أدخره من غلات الجنتين ، ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك : إنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتها وناطقها ثاغيها وراغيها ، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه وخدمه ولا يستعصى عليه شىء من مسرات الدنيا ومباهجها ولذاتها ونعيمها ، وبعد أن تم له الأمر وقعد على سنام العز والكبرياء ، داخله الزهو والخيلاء .

﴿ **فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً** ﴾ :

أى فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره وراجعه الحديث ، مذكراً له بالايمان بالله والبعث والقيامة : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جنانى وزروعى المختلفة ، وأعز عشيرة ورهطاً تقوم بالذب عنى ، ودفع خصومتلا ، وتنفر معى عند الحاجة إلى ذلك .

ثم زاد فخراً على صاحبه المسلم وأراه عيانا مايتمتع به من المناظر البهيجة فى تلك الجنان التى لا

تفنى ، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله : ﴿ **ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة** ﴾ :

أى ودخل هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب وأشجار ونخيل ، ومعه صاحبه هاتين الجنتين ، وطاف به فيهما مفاخراً ، وقال حين عاين مافيهما من أشجار وثمار وزروع وأنهار مطردة : ماأظن أن تفنى هذه الجنة أبداً . ولا تخرب كما قال ﴿ وهو شاك فى المعاد إلى الله والبعث والنشور ﴾ ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون ، وقد كان فى كل ذلك ظالماً لنفسه ، إذ وضع الشىء فى غير موضعه ، فقد كان أليق به من أن يكون شاكراً لتلك النعم ، متواضعاً لربه ، لا أن يكون كافراً به ، منكراً لما جاء به الوحى ، وأقرته جميع الشرائع .

وخلاصة ذلك : إنه لحقه الخسار من وجهين :

(١) ظنه أن تلك الجنة لا تهلك ولاتبيد مدى الحياة .

(٢) ظنه أن يوم القيامة لن يكون .

ثم تمنى أمنية أخرى كان فى شك منها فقال :

﴿ **ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً** ﴾ :

أى ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكونن لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى ، والذى جرأه على هذا الطمع ، وعلى تلك اليمين الفاجرة ، اعتقاده أن الله إنما حباه بما حباه به فى الدنيا لما له من كرامة لديه ، ولما فيه من مزايا استحق بها أن ينال مانال .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر : ﴿ ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى ﴾[1]

وخلاصة ذلك : إنه لم يعطنى الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة ما هو أفضل منها ، قال ذلك طمعاً ويُمناً على الله ، وادعاء للكرامة عنده .

ثم ذكر سبحانه جواب المؤمن له فقال :

﴿ **قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ؟** ﴾ :

أى قال له صاحبه المؤمن واعظاً وزاجراً عما هو فيه من الكفر : أكفرت بالذى خلقك من التراب ؟ إذ غذاء والديك من النبات والحيوان وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء ، وما يتحول بعضه الى نطفة يكون منها خلقك بشراً سوياً ، على أتم حال وأحكمه ، بحسب ما تقتضيه الحكمة ، فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

(١) الآية ٥٠ من سورة فصلت .

والخلاصة : كيف تجحدون ربكم ودلالة خلقكم على وجوده ظاهرة جلية يعلمها كل أحد من نفسه ، فما من أحد إلا يعلم أنه كان معدوماً ، ثم وجد وليس وجوده من نفسه ولا مستنداً إلى شيء من المخلوقات ، لأنها مثله . وقد أشار إلى ذلك بقوله :

﴿ لكنا هو الله ربى ﴾ :

أى لكن أنا لاأقول بمقالتك بل أعترف بالوحدانية والربوبية ، وأقول هو الله ربى .

﴿ ولا أشرك بربى أحداً ﴾ :

فهو المعبود وحده لاشريك له .

وفى هذا تعريض بأن صاحبه لما عجز الله عن البعث فقد جعله مساوياً لخلقه فى هذا العجز ، وإذا أثبتت المساواة فقد أثبت الشريك .

ثم زاد فى عظة صاحبه فقال له :

﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله ﴾ :

أى وهلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ، ونظرت إليها ، حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد مالم يعط غيرك ، وقلت : الأمر ماشاء الله ، والكائن ماقدره الله ليكون ذلك منك اعترافاً بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لاقوة إلا بالله إقراراً بأن ماقويت به على عمارتها وتدبير أمرها فإنما هو بمعونة الله وتأييده .

وبعد أن نصح الكافر بالايمان وأبان له عظم قدرة الله وكبير سلطانه ، أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ، ورد على قوله : أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً فقال :

﴿ إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ﴾ :

أى إن ترنى أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ، ويجعل مابى بك ويرزقنى الغنى ويرزقنى لإيمانى جنة خيراً من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ، ويخرب جنتك بأن يرسل عليها مطراً من السماء يقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وخلاصة ذلك : إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر ، إما بآفة سماوية ، أو بآفة أرضية ، وهو غور مائها ، وكلتاهما تتلف الشجر والزرع والكرم .

ثم أخبر سبحانه بأنه قد حقق ما قدره هذا المؤمن فقال :

﴿ وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ﴾ :

أى وأحاطت الجوائح بثمار جنته التى كان يقول فيها : وما أظن أن تبيد هذه أبداً ، فأصبح يقلب كفيه ندماً وأسفاً على ضياع نفقته التى أنفقها فى عمارتها حين رآها ساقطة على عروشها ، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحداً .

والخلاصة :

أنه لما أنفق عمره فى تحصيل الدنيا ، وأعرض عن الدين ، ثم ضاعت منه الدنيا حرم الدين والدنيا معاً ، ومن ثم عظمت حسرته وقال : ﴿ **ليتنى لم أشرك بربى أحداً** ﴾ :

﴿ **ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً** ﴾ :

أى ولم تكن له عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه ويقدرون على دفع الجوائح عنه ، أو رد المهلك له من دون الله ، فإن الله هو الذى يقدر وحده على نصره ، وماكان منتصراً بقوته عن انتقام الله منه باهلاك جنته .

وخلاصته : إنه لايقدر على نصره إلا الله ، ولا ينصره غيره من عشيرة وولد وخدم وحشم وأعوان ، كما لا يقدر أن ينتصر لنفسه .

ثم أكد الجملة السالفة وقرر المراد منها بقوله : ﴿ **هنالك الولاية لله الحق** ﴾ : أى فى مثل هذه الشدائد والمحن النصرة لله وحده ، لا يقدر عليها غيره .

﴿ **هو خير ثواباً وخير عقباً** ﴾ :

أى هو خير جزاء وخير عاقبة لأوليائه ، فينتقم لهم منهم ، ويفوض أمرهم إليهم .

وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التى أبطرتهم ، وكانت سبب شقائهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ، ضرب مثلا لدار الدنيا عامة فى سرعة فنائها وعدم دوام نعيمها فقال سبحانه :

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

المفردات : ﴿ **المثل** ﴾ : الصفة . ﴿ **وهشيماً** ﴾ : أى يابساً متفتتا . ﴿ **تذروه** ﴾ : أى تنثره وتفرقه ﴿ **مقتدراً** ﴾ : أى كامل القدرة ﴿ **الباقيات الصالحات** ﴾ : هى الأعمال الصالحة كلها . ﴿ **ثواباً** ﴾ : أى جزاء .

المناسبة وإجمالى المعنى

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : (استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وما هى يارسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

وأخرج الطبرانى والنسائى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعاً : (خذوا جُنتكم . قيل : يارسول الله من أى عدو قد حضر ؟ قال : بل جنتكم من النار ، قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر فإنهن يأتين يوم القيامة مقدمات معقبات ومجنبات وهن الباقيات الصالحات) .

قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح** ﴾ :

فشُبهت الدنيا فى نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات أخضرّ والتف وأزهر ، ثم صار هشيماً متفتتاً تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ، ومن ثم لا يغتر أهلها بها ، ولا يفخر ذو الأموال الكثيرة بأمواله ، ولا يستكبر بها على غيره فإنما هى ظل زائل وفى الحديث : (الدنيا كسوق قام ثم انفض) .

﴿ **وكان الله على كل شيء مقتدراً** ﴾ :

أى وكان الله ذو الكمال والجلال قادراً على كل شيء إنشاء وإفناء وإعادة . فهو يوجد الأشياء ثم ينميها ثم يفنيها ، وما حال الدنيا إلا هذه الحال فهى تظهر أولا ناضرة زاهرة ، ثم تتزايد قليلا قليلا ، ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء ، فلا ينبغى للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به ، أو يصعر خده استكباراً .

ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسنات الدنيا إثر بيان حالها بما مر من المثل فقال : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) :

أى إن الأموال والبنين التى يفخر بها عيينة والأقرع وأضرابهم هى من زينة هذه الحياة ، وليسا من زاد الآخرة ، وقد علمت أن الدنيا سريعة الفناء فلا ينبغى التفاخر بها .

وقدم المال على البنين مع كونهم أعز منه لدى جميع الناس ، من قبل أن الزينة به أتم ، ولأنه يمد الآباء والأبناء فى كل حين ، ولأنه مناط بقاء النفس والأولاد ، وبذا يبقى النوع الانسانى ، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ، ولأنه زينة بدونهم دون العكس ، فإن من له بنون ولامال له فهو فى بؤس وشقاء .

روى عن على كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

ثم بين ما ينبغى التفاخر به فقال :

﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا ﴾ :

أى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للإنسان وهى أفعال الطاعات كالصلاة والصدقات والجهاد فى سبيل الله ، ومساعدة البائسين ، وذوى الحاجات ، خير عند ربك من المال والبنين جزاءً وخير أملا ، إذ ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَـٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾
وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا
يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

المفردات : ﴿ **بارزة** ﴾ : أى ظاهرة إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا من الجبال والأشجار . ﴿ **وحشرناهم** ﴾ : أى سقناهم الى الموقف من كل أوب . ﴿ **فلم نغادر** ﴾ : أى لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه ومنه الغدر وهو ترك الوفاء . ﴿ **وعرضوا** ﴾ : أى أحضروا لفصل القضاء . ﴿ **صفاً** ﴾ : أى مصطفين . ﴿ **موعداً** ﴾ : أى وقتا ننجز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه . ﴿ **ووضع الكتاب** ﴾ : أى جعل كتاب كل عامل فى يد صاحبه حين الحساب . ﴿ **مشفقين** ﴾ : أى خائفين . ﴿ **والويل** ﴾ : الهلاك . ﴿ **وياويلتنا** ﴾ : أى ياهلاك أقبل . فهذا أوانك . ﴿ **أحصاها** ﴾ : أى عدها . ﴿ **حاضراً** ﴾ : أى مسطوراً فى كتاب كل منهم . ﴿ **ولا يظلم ربك** ﴾ : أى لا يتجاوز ما حدّه من الثواب والعقاب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه أن الدنيا ظل زائل ، وأنه لا ينبغى أن يغتر أحد بزخرفها ونعيمها ، بل يجب أن يكون موضع التفاخر العمل الصالح الذى فيه رضا الله وانتظار مثوبته ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، أردف ذلك ذكر أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من أخطار وأهوال ، وأنه لا ينجى منها إلا اتباع ما أمر به الدين ، وترك مانهى عنه ، مما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين ، لا الأموال التى يفتخر بها المشركون على المؤمنين .

ذكر سبحانه من أحوال يوم القيامة أموراً :

١ — **﴿ ويوم نسير الجبال ﴾ :**

أى واذكر أيها الرسول يوم نقلع الجبال من أماكنها ،ونسيرها فى الجو كالسحاب ، ونجعلها هباء

منثوراً كما قال : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً * فيذرها قاعاً صفصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾[١] .

أى تذهب الجبال وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض سطحاً مستوياً لا عوج فيه ولا وادى ولا جبل ، وقال : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾[٢] ، وقال : ﴿ وبست الجبال بساً * فكانت هباء منبثاً ﴾ [٣] .

٢ - ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ :

أى وترى أيها الرائى جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ، ولا شىء من الجبال ، ولا شىء من الأشجار ، فليس عليها ما يسترها ، فيكون جميع الخلق ضاحين لربهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ لاترى فيها عوجاً ولا أمتا ﴾ [٤] .

٣ - ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ :

أى وجمعنا الأولين والآخرين للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحداً لا صغيراً ولا كبيراً ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾[٥] .

وقال : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود** ﴾ :

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر الناس حفاة عراة غرلا فقلت : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك ﴾[٦]

وكما ذكر سبحانه حشر الخلق بين كيفية عرضهم على ربهم فقال :

٤ - ﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ :

أى يعرض الخلق كلهم على الله صفاً واحداً كما قال : ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾ :[٧]

ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة فرادى حفاة عراة لا شىء معكم من المال والولد .

---

(١) الآيات ١٠٥ - ١٠٧ من سورة طه .

(٢) الآية ٨٨ من سورة النمل .

(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الواقعة .

(٤) الآية ١٠٧ من سورة طه

(٥) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الواقعة .

(٦) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ ، ٤٨ ، وفى تفسير سورة ٥ : ١٤ ، وفى الرقاق : ٤٥ . ومسلم فى الجنة : ٥٦ ، ٥٩ . والترمذى فى القيامة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٨٠ : ٢ . والنسائى فى الجنائز : ١١٨ ، ١١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٣ . والدرامى فى الرقاق : ٨٠ ، ٨٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨ ، وفى ٦ : ٥٣ ، ٩٠ .

(٧) الآية ٢٢ من سورة والفجر .

ونحو الآية قوله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ﴾[١] .

وفى هذا زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث ، الذين يفخرون فى الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار .

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ قال : (إن الله تعالى ينادى يوم القيامة : ياعبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ، ويسروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبون ، ياملائكتى أقيموا عبادى صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب) .

وفى الحديث الصحيح : (يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفاً يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ..)[٢] والحديث له بقية .

﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ :

أى ماكان ظنكم أن هذا واقع بكم ولا هو كائن . وكنتم مع الافتخار على المؤمنين بالأموال تنكرونه فالآن قد استبان لكم أنه حق ، وأنه لا مال ولا ولد بين أيديكم .

٥ - ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ :

أى ووضع كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير فى يد صاحب اليمين والشمال ، فترى المجرمين جميعاً نادمين على مافيه من قبائح أعمالهم وسيء أفعالهم وأقوالهم ، وظهور ذلك لأهل الموقف خائفين من عقاب الحق ، والفضيحة عند الخلق .

﴿ ويقولون يا ويلتنا ماهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ :

أى ويقولون حين وقوفهم على مافى تضاعيفه : ياحسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، ماهذا الكتاب لا يترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدها ، فهو محيط بجميع ماكسبته يد الإنسان .

---

(١) الآية ٩٤ من سورة الأنعام .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣ ، ٩ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٧ . والترمذى فى القيامة : ٢٠ ، ٤٨ . والدرامى فى الرقاق : ٨٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٤ ، وفى ٢ : ٣٦٨ ، ٤٣٥ ، وفى ٣ : ١٦ ، وفى ٤ : ٤٠٧ .

ونحو الآية قوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ماتفعلون ﴾[١] وقوله : ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملوون ﴾[٢] .

مثل النفس إلا مثل الزجاجة التى يضعها المصور فى صندوق آلة التصوير ، فكل صورة تقع عليها تحطها وتحفظها من ضار ونافع ، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ، ورأينا صورة كما هى من حسن وسيء وفضيلة ورذيلة ، فتقفل فى عقولنا فعلها دون كلام ولا كتابة ، وكل أمرىء يراها يقرؤها ، والناس فيها سواء .

ثم أكمل ما سلف بقوله : ﴿ **ووجدوا ماعملوا حاضراً** ﴾ :

مثبتاً فى كتابهم خيراً كان أو شراً ، كما قال : ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضراً ﴾[٣] ، وقال : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[٤] .

﴿ **ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ :

من خلقه بل يعفو ويصفح ويغفر ويرحم ، ويعذب من يشاء بحكمته وعدله ، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع ، وتعذيب العاصى بمقدار جرمه من غير زيادة ، وأنه قد يغفر له ماسوى الكفر ، ومن ثم لا يعذب أحداً بما لم يعمله ، ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ، ولا يزيد فى عقابه الملائم لعمله الذى نهى عنه ولم يرتضه .

ونحو الآية قوله : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[٥] . وقوله : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٦] .

إن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل مرسوم فى قوالب حافظة له ، فليس يمكن رفعه ولا دفعه ، ولا يكون الجزاء عليه ظلماً كما لا تعد التخمة بعد الأكل الكثير ظلماً ، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ * مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ

(١) الآيات ١٠ — ١٢ من سورة الانفطار .
(٢) الآية ٢٩ من سورة الجاثية .
(٣) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ١٣ من سورة القيامة .
(٥) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٦) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء .

يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾
وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

المفردات : ﴿ **فسق** ﴾ : خرج يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره . ﴿ **أفتتخذونه** ﴾ : الهمزة فى مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يضل مثل ذلك . ﴿ **والذرية** ﴾ : الأولاد وبذلك قال جمع من العلماء منهم الضحاك والأعمشى والشعبى ومثل المراد بهم الأتباع من الشياطين والعدو يطلق على الواحد والكثير كما قال : ﴿ فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾[1] . ﴿ **والعضد** ﴾ : أصله مابين المرفق إلى الكتف ويستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا . ﴿ **فدعوهم** ﴾ : أى فاستغاثوا بهم . ﴿ **فلم يستجيبوا لهم** ﴾ : أى لم يغيثوهم . ﴿ **والموبق** ﴾ : مكان الوبوق أى الهلاك وهو النار يقال وبق وبوقاً كوثب وثوباً : إذا هلك ﴿ **مواقعوها** ﴾ : أى داخلوها وواقعون فيها . ﴿ **ومصرفا** ﴾ : أى مكانا ينصرفون إليه .

المناسبــة

بعد أن ذكر سبحانه رده على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم وأعوانهم ، وقالوا : كيف نجلس مع هؤلاء ، ونحن من أنساب شريفة ، وهم من أنساب وضيعة ، ونحن أغنياء وهم فقراء .

قضى على ذلك بذكر عصيان ابليس لأمره تعالى بالسجود لآدم ، لأن الذى حداه الى ذلك هو كبره وافتخاره عليه بأصله ونسبه ، إذ قال :﴿خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾[2] .

فأنا أشرف منه أصلا نسباً فكيف أسجد له ؟ .

وقد تكرر ذكر هذه القصة فى مواضع من الكتاب الكريم ، وهى فى كل موضع سيقت لفائدة غير ما جاءت له فى المواضيع الأخرى ، على اختلاف أساليبها وعباراتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس** ﴾ :

واذكر أيها الرسول لقومك وقت قولنا للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام ، إعترافاً بفضله ، واعتذاراً عما قالوه فى شأنه ، من نحو قولهم : ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾[3] .

فسجدوا كلهم أجمعون امتثالا إلا إبليس أبى وأستكبر ..

---

(١) الآية ٧٧ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٧٦ من سورة ص .

(٣) الآية ٣٠ من سورة البقرة .

ثم بين السبب فى عصيانه ومخالفته للأمر فقال : ﴿ **كان من الجن** ﴾ :

أى إن الذى منعه من السجود أنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألوف من الملائكة مغموراً بينهم ، متصفاً بصفاتهم ، بدليل أنه قال : ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾[(١)] .

ولأنه تعالى أثبت له فى هذه الآية ذرية ونسلا ، والملائكة لا ينسلون ، ولأن الملائكة لا يستكبرون ، وهو قد استكبر .

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كان معهم ، ولأن وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم دليل على أنه يتصور منهم العصيان ، ولولا ذلك مامدحوا به لكن طاعتهم طبع وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ، ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولأنه تعالى ذكر من هاروت وماروت ماذكر ، وهما ملكان على أنه لا دليل على أن هناك فروق جوهرية بين الملائكة والجن ، بها يمتاز أحدهما عن الآخر ، بل هى فروق فى الصفات فحسب ، والجميع من عالم الغيب لا نعلم حقيقتهم ، ولانضيف اليها شيئاً إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ :

أى فصار فاسقاً كافراً بسبب أمر الله للملائكة المعدود هو فى عدادهم ، إذ لولا الأمر ما تحقق إباء ، وفى الآية إيماء إلى أن فسقه قد نتج عن كونه من الجن إذ أن من شأنهم التمرد والعصيان لكدورة مادتهم ، وخباثة ذاتهم .

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله ما استبان ، فقال : ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ﴾ .

أى وبعد العلم بما صار منه من القبائح لا ينبغى لكم أن تتخذوه وأولاده وأعوانه أولياء لكم من دونى ، تطيعونهم بدل طاعتى ، وهم لكم أعداء .

﴿ **بئس للظالمين بدلا** ﴾ :

أى بئس البدل للكافرين بالله أتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه ، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم ، المتفضل عليهم بمالايحصى من الفواضل ، ثم بين السبب فى عدم إستحقاق إبليس وذريته هذه الولاية فى أنفسهم ، فقد فبعد بيان خباثة أصلهم فقال :

﴿ **ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم** ﴾ :

أى ما حضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فكيف تطيعونهم وتعبدون الأصنام من دونى وهم عبيد أمثالكم ، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ؟

(١) الآية ٧٦ من سورة ص .

﴿ وما كنت متخذ المضلين عضداً ﴾ :

أى وماكنت متخذاً من لا يهدون إلى الحق أعواناً وأنصاراً ، لأنهم يضلون فمتبعهم يجور عن قصد السبيل ، ولا يصل إلى هدى ، فكيف اتبعوهم وعبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم .

ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً فقال :

﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ :

أى واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للكافرين على سبيل التأنيب والزجر : نادوا للشفاعة لكم من زعمتم فى الدنيا أنهم شركائى . لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بهم كل ماعبد من دون الله فدعوهم ليستغيثوا بهم ، ويشفعوا لهم فلم يغيثوهم .

﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ :

أى وجعلنا بين المشركين وماكان يدعون من دون الله شركاء فى الدنيا موضعاً للهلاك وهو النار ، حسما لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوة للشفاعة .

﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾ :

أى وعاين المشركون النار يومئذ فعلموا أنهم داخلوها ، ولم يجدوا بداً من الوقوع فيها ، لأن الله قد حتم عليهم ذلك فلا معدل لهم عنها ، ولا مكان لهم ينصرفون إليه ويزايلونها ، وقد أحاطت بهم من كل جانب .

مواقف ودروس

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا
مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً
أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ

ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾

المفردات : ﴿ **صرّفنا** ﴾ : أى ردّدنا وكررنا ، ﴿ **والمثل** ﴾ : الصفة الغريبة ، ﴿ **والجدل** ﴾ : المنازعة بالقول ويراد به هنا المماراة والخصومة بالباطل ، ﴿ **وسنة الأولين** ﴾ : الإهلاك بعذاب الاستئصال ، ﴿ **والقبل** ﴾ :(بضمتين) الأنواع والألوان واحدها قبيل ، ﴿ **ليدحضوا به الحق** ﴾ : أى ليبطلوه ويزيلوه من قولهم دحَضتْ رِجْله أى زلقت ودحضت حجته بطلت ، ﴿ **وما أنذروا** ﴾ : أى ما خوفوه من أنواع العقاب ، ﴿ **ونسى ماقدمت يداه** ﴾ أى لم يتدبر عواقبه ، ﴿ **أكنة** ﴾ : أى أغطيةٌ واحدها كنان ، ﴿ **أن يفقهوه** ﴾ : أى أن يفهموه . ﴿ **وقرا** ﴾ : أى ثقلا فى السمع . ﴿ **الموعد** ﴾ : يوم القيامة ، ﴿ **موئلا** ﴾ : أى ملجأ ؛ يقال وأل فلان الى كذا وألاووءولا : إذا لجأ إليه . ﴿ **القرى** ﴾ : أى قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم .

ومناسبة هذه الآيات لما قبلها أنه تعالى بعد أن ذكر سبحانه شبهات المبطلين ، ورد عليه بأدلة لا تدحض ، وبرهانات لا تُرد . قفى على ذلك ببيان أن فى القرآن من الأمثال ما فيه مَقْنع لمن تذكر وتدبر ، وألقى السمع وهو شهيد ، لكنها القلوب قد تحجرت ، والأفئدة قد قست ، فلا تنفع فيها الذكرى ، ولا تستجيب لوعظ الواعظ ، ونصيحة المذكر ، ولو آخذهم ربهم بما كسبوا لأرسل عليهم العذاب معجلا ، ولم يُبْق منهم على ظهر الأرض أحداً ، ولكنه الغفور ذو الرحمة ، فجعل لهلاكهم موعداً ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويرعوون من غيهم .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد صرَّفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا** ﴾ :

أخرج الشيخان وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على كرم الله وجهه : « إن النبى ﷺ طرقه وفاطمة ليلا فقال : (ألا تصليان ؟) فقلت : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إلىّ شيئاً ، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه ويقول : (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) »[1] .

وفى الآية إخبار عما فى القرآن الكريم من الأمثلة التى وضحها الله تعالى وبينها : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[2] ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [3] .

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ٥ ، وفى الاعتصام : ١٨ ، وفى التوحيد : ٣١ . ومسلم فى المسافرين : ٢٠٦ .
(٢) الآية ٣٥ من سورة النور .
(٣) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾(١) . ﴿ إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ﴾(٢) .

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾(٣) .

وكان على الإنسان وهو الذى شرَّفه الله بالعقل أن يستعمل تلك الجوهرة الربَّانية فى التدبر والتفكر والتذكر ، لكنه وظف العقل فى غير سبيل الرشد ، فكان أكثر المخلوقات جدلا ، يجادل فى الحق من بعد ما تبين ، كما يجادل فى الأدلة الساطعة والحجج القاطعة . فتراه يقول : ﴿ أجعل الآلهة إلها واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾(٤) .

وكما يجادل فى الوحدانية تراه يمارى فى النبوة : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾(٥) .

﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾(٦) .

﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾(٧) ..

إلى غير ذلك مما جادلوا فيه .

قوله تعالى : ﴿ **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا** ﴾ :

إن تعجب فاعجب معى لقوم جاءهم الهدى فلم يؤمنوا ولم يستغفروا ربهم فيغفر لهم .

قال نوح لربه : ﴿ رب إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائى إلا فرارا * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم إنى دعوتهم جهاراً * ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾(٨) .

أتدرى ما منعهم عن اتباع الهدى والرشد ، إنك لتأخذنك الدهشة ويستولى عليك العجب عندما

(١) الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٢) الآية ٢٦ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ٢٤ ، ٢٦ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٥ من سورة ص .
(٥) الآية ٢ من سورة يونس .
(٦) الآيتان ٣٣ ، ٣٤ من سورة المؤمنون .
(٧) الآية ٧ من سورة الفرقان .
(٨) الآيات ٥ – ١٢ من سورة نوح .

تقف على حقائق الأسباب ، لقد منعهم الكبر والعناد والجحود ، وكأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلمة ، اسمع إلى ما طلبوه بعد بيان الحق والهدى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(١) .

لقد طلبوا عذاب الاستئصال الذى استعمله الله مع الأمم السابقة . كما طلبوا أن يأتيهم العذاب قبلا كما جاء فى قولهم : ﴿ ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾(٢) .

ولو كانوا عقلاء ، وأزالوا الغشاوة عن عيونهم ، لقالوا : إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ولذا جاء قوله تعالى رداً عليهم : ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وماأنذروا هزواً ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى رسالة الأنبياء إلى أقوامهم ، كما يبين موقف الكافرين منهم ، فالأنبياء بعثوا بالخير والسعادة وجنات النعيم لأهل الحق والتوحيد والطاعة والأعمال الصالحة . كما بُعثوا منذرين بين يدى عذاب شديد لأهل الباطل والجحود والعناد والإنكار ... قال الله تعالى : ﴿ ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٣) .

وقال فى حق خاتمهم : ﴿ وماأرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾(٤) .

وقال : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴾(٥) .

أما أهل الباطل فإنهم يجادلون فى الحق وهو واضح . قال تعالى : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا ﴾(٦) . وقال جلَّ شأنه : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾(٧) .

إنهم واهمون عندما يظنون أنهم بباطلهم يستطيعون أن يزيلوا الحق ويدحضوه ويمحوه . إن الشمس هى الشمس لا يستطيع أحد أن يطفئ نورها بفمه . ﴿ يريدون ليطفئوا نورالله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾(٨) .

لقد جهل هؤلاء أو أغفلوا حقيقة الرسالات ، فأخذوا يقترحون على الأنبياء الآيات : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ٢٩ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية ٤٨ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١٠٥ من سورة الإسراء .
(٥) الايتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب .
(٦) الآية ٤ من سورة غافر .
(٧) الآية ٣ من سورة الحج .
(٨) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الصف .

تفجيرًا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفًا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولاً ﴾(١) .

ومع ذلك لقد اتخذوا آيات الله وحججه وبراهينه والدلائل القاطعة على وحدانيته ؛ اتخذوها هزواً ولعباً : ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾(٢) ، ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا . إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(٣) . فليتهم قالوا : فاهدنا إليه .

قوله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن ذُكِّر بآيات ربه فأعرض عنها ، ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً** ﴾ :

الاستفهام هنا إنكارى يفيد النفى ، أى لا أحد أشد ظلما من هذا الذى جاءته البينات والهدى وذُكر بآيات ربه فلم يتذكر إنما أعرض عنها ونأى بجانبه واستكبر . ونسى ما قدمت يداه من الخطأ والكفر والجحود .

ثم بين الله العلة الكامنة فى حال هؤلاء فقال : ﴿ **إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه** ﴾ : أى أغطية وحجباً مانعة من الفقه والفهم ، كما جعلنا فى آذانهم وقرا وثقلا . قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾(٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون لاجرمَ أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾(٥) .

وهذا هو الجزاء العادل ، قال تعالى : ﴿ جزاء وفاقا * إنهم كانوا لا يرجون حسابا * وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾(٦) .

ولابد أن تكون نتيجة ذلك بعد أن سدت منافذ المعرفة لديهم .

﴿ **وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذاً أبداً** ﴾ :

قال تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾(٧) ، وقال جلّ شأنه ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٨) .

---

(١) الآيات ٩٠ – ٩٣ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٥ من سورة الفرقان .
(٣) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة الأنفال .
(٤) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة البقرة .
(٥) الآيتان ١٠٨ ، ١٠٩ من سورة النحل .
(٦) الآيات ٢٦ – ٢٨من سورة النبأ .
(٧) الآية١٧ من سورة فصلت .
(٨) الآية ٥ من سورة الصف .

ومع هذه الجرائم التى ارتكبوها ، فإن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء فلوعاملهم بعدله ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

قال تعالى : ﴿ **وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا** ﴾ :

أى وربك أيها المخاطب الغفّار لذنوب عباده إذا هم تابوا وأنابوا . قال تعالى : ﴿ وإنى لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[1] وهو ذو الرحمة الواسعة : ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾[2] .

ومن مظاهر رحمته أنه يعاملهم بفضله فلو عاملهم بعدله لعجَّل لهم العذاب ، أى عذاب الاستئصال . قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[3] .

وقال جلَّ شأنه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾[4] .

وقال تعالى : ﴿ **بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا** ﴾ :

أى ملجأ يلجأون إليه فرارا منه : ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لاوزر * إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[5] .

ولقد أقام الله تعالى الأدلة القاطعة على ماسبق فقال : ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً** ﴾ :

المقصود بالقرى هنا القرى الظالمة ، كعاد وثمود وأصحاب مدين وقوم لوط .

قال تعالى : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[6] .

فالظلم مرتعه وخيم وهو ظلمات يوم القيامة ، وهو لا يدوم وإذا دام دمَّر . قال تعالى : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[7]

---

(١) الآية ٨٢ من سورة طه .
(٢) الآية ٧ من سورة غافر .
(٣) الآية ٦١ من سورة النحل .
(٤) الآية ٤٥ من سورة فاطر .
(٥) الآيات من ١٠ – ١٢ من سورة القيامة .
(٦) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٧) الآية ٥٩ من سورة القصص .

قصة موسى والعبد الصالح

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ
ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ
فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾
قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ
رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ
مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ
خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا
تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا
قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا
فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ
إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن
لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا
فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ
هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ
لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا
﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾
فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ
يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ

أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

المفـردات : ﴿ **لا أبرح** ﴾ : أى لا أزال سائرا ، ﴿ **والحقب** ﴾ : (بضمتين وبضم فسكون) الدهر ، وقيل ثمانون سنة ، وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما ، أى مكان اجتماعهما ﴿ **سرباً** ﴾ : أى مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالقنطرة ، ﴿ **والغداء** ﴾ : الطعام الذى يؤكل أول النهار والمراد به هنا الحوت ، ﴿ **نصبا** ﴾ : أى تعبا وإعياء ، ﴿ **أوينا** ﴾ : أى التجأنا نبغى : نطلب ، ﴿ **ارتدا** ﴾ : رجع ، ﴿ **على آثارهما** ﴾ : أى على طريقهما الذى جاءا منه . ﴿ **قصصا** ﴾ : أى اتباعاً من قولهم قص أثره إذا اتبعه ، ﴿ **الرشد** ﴾ : (بضم فسكون وبفتحتين) إصابة الخير ، ﴿ **والإحاطة بالشىء** ﴾ : معرفته تامة ، ﴿ **والخبر** ﴾ : المعرفة ، ﴿ **وذكراً** ﴾ : أى بيانا ﴿ **إمرا** ﴾ : أمراً عجباً ، ﴿ **ولا ترهقنى** ﴾ : أى لا تحملنى ، ﴿ **والعسر** ﴾ : ضد اليسر وهو المشقة . ﴿ **زكية** ﴾ : طاهرة من الذنوب ، بغير نفس أى بغير حق قصاص لك عليها ، ﴿ **والنكر** ﴾ : المنكر الذى تنكره العقول وتنفر منه النفوس . ﴿ **فلا تصاحبنى** ﴾ : أى فلا تجعلنى صاحباً لك ﴿ **بلغت من لدنى عذراً** ﴾ : أى وجدت عذراً من قبلى ، ﴿ **استطعما أهلها** ﴾ : أى طلبا منهم أن يطعموهما ، ﴿ **أن يضيفوهما** ﴾ : أى ينزلوهما أضيافاً : يقال ضافه إذا كان له ضيفاً ، وأضافه وضيفه : أنزله لديه ضيفا ، وأصل ضاف : مال ، من قولهم ضاف السهم عن الهدف : أى مال . ﴿ **جدارا :** ﴾ أى حائطاً ، أن ينقض : أى يسقط بسرعة ، وقد كثر فى كلامهم إسناد ما يكون من أفعال العقلاء إلى غيرهم . ﴿ **أقامه** ﴾ : أى مسحه بيده فقام كما روى عن ابن عباس ، ﴿ **والتأويل** ﴾ : من آل الأمر إلى كذا : أى صار إليه : فإذا قيل ماتأويله : أى ما مصيره . ﴿ **المساكين** ﴾ : واحدهم مسكين ، وهو الضعيف العاجز عن الكسب لأمر فى نفسه أو فى بدنه ، ﴿ **يعملون فى البحر** ﴾ : أى يؤاجرون ويكتسبون ، ﴿ **أعيبها** ﴾ : أن أجعلها ذات عيب بنزع مانزعته منها ، ﴿ **وراءهم** ﴾ : أى أمامهم وهو لفظ يستعمل فى الشىء وضده . ﴿ **خشينا** ﴾ : أى خفنا ، ﴿ **أن يرهقهما** ﴾ : أى يحملهما ، ﴿ **طغيانا** ﴾ : أى مجاوزة للحدود الإلهية ، ﴿ **زكاة** ﴾ : أى طهارة من الذنوب ، ﴿ **رحما** ﴾ : أى رحمة كالكثُر والكثرة ، ﴿ **عن أمرى** ﴾ : أى عن رأيى وإجتهادى ، ﴿ **مالم تسطع** ﴾ : أى تستطع ماضيه اسطاع ، الذى أصله استطاع .

مقـدمـة

١ – مـن موسـى ؟

موسى الذى ذكر فى هذه الآية هو موسى بن عمران ، نبى بنى إسرائيل ، صاحب المعجزات الظاهرة ، والشريعة الباهرة ، والدليل على ذلك :

أنه ماذكر الله موسى فى كتابه إلا أراد صاحب التوراة ، فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف اليه ، ولو كان شخصاً آخر سمى بهذا الاسم لوجب تعريفه بما يوجب الامتياز ويزيل الشبهة .

٢ - مـن فتـاه ؟

فتى موسى - هو يوشع بن نون بن أفراثيم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه ، والعرب تسمى الخادم فتى ، وفى الحديث الصحيح : (ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ، ولا يقل عبدى وأمتى ﴾[1] ، وهذا من محاسن الآداب الشرعية .

٣ - مـن الخضـر ؟

(بفتح الخاء وكسرها وكسر الضاد وسكونها) لقب لصاحب موسى ، واسمه بَلْيا (بفتح الباء وسكون اللام) ابن ملكان والأكثرون على أنه كان نبيا ولهم على ذلك أدلة :

(أ) قوله تعالى : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا** ﴾ : والرحمة : النبوة بدليل قوله : ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ :[2]

(ب) قوله تعالى : ﴿ **وعلمناه من لدنا علما** ﴾ : وهذا يقتضى انه علمه بلا واسطة معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

(جـ) أنه قال له موسى : ﴿ **هل أتبعك على أن تعلّمن** ﴾ : والنبى لا يتعلم من غير النبى .

(د) أنه قال : ﴿ **ومافعلته عن أمرى** ﴾ : أى بل قد فعلته بوحى من الله وهذا دليل النبوة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار ، وامتنعوا عن حضور مجلس النبى ﷺ ، لئلا يشتركوا مع أولئك الصعاليك فى مجلس واحد ، قضى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر ، ليبين بها أن موسى مع كونه نبياً صادقاً ، أرسله الله إلى بنى إسرائيل بشيراً ونذيراً ، وهو كليم الله - أقر أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه مالم يعلمه ، وفى ذلك دليل على أن التواضع خير من التكبر .

روى البخارى ما خلاصته : (أن موسى عليه السلام قام فى بنى إسرائيل خطيباً فسئل : أى الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب عليه ربه ، إذ لم يرد العلم إليه تعالى ، فأوحى إليه : إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتاً فى مكتل ، فحيثما فقد الحوت فهو ثمَّة ، ففعل ذلك ، وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط فى البحر - فاتخذ سبيله فى البحر

---

(١) أخرجه البخارى فى العتق : ١٧ . ومسلم فى الألفاظ :١٣ ، ١٥ . وأبو داود فى الآداب : ٧٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٦ ، ٤٢٣ ، ٤٦٣ ، ٤٨٤ ؟ ٤٩١ ، ٥٠٨ .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

سرباً – وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى ، فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، وانطلقا بقية يومهما وليلتهما . فلما كان الغد طلب موسى الغذاء ووجد النَّصَب ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمر الله به ، فقال فتاه : إنى نسيت الحوت ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ، فارتدا على آثارهما قصصا ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب أبيض ، وكان من أمرهما ما سترى من مسألة السفينة والغلام والجدار[1]) .

وبعد أن ذكر الأمور الثلاثة التى رآها موسى حين صاحب الخضر ، وذكر ما كان من إعتراض موسى عليه مرة بعد أخرى ، وقد كان أعلمه من قبل أنه لا يستطيع معه صبراً ، وكان من جراء ذلك أنه فارقه ولم يستطع صحبته – أردف ذلك بتفسير ما أُشكل عليه أمره ، مما ينكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنة فإن الأنبياء صلوات الله عليهم يحكمون بناء على الظواهر كما قال النبى ﷺ :(نحن نحكم بالظواهر ، والله يتولى السرائر)[2] .

وأحكام هذا العالم مبينة على الأسباب الحقيقية الواقعة فى نفس الأمر وهذا ما آتاه الله الخضر من قوة عقلية قدر بها أن يشرف على بواطن الأمور ويطلع على حقائق الأشياء ، فكانت مرتبة موسى فى معرفة الشرائع والأحكام بناء على الظواهر ، ومرتبة هذا العالم الوقوف على بواطن الأمور وحقائق الأشياء والاطلاع على أسرارها الكامنة .

وخلاصة المسائل الثلاث : أنه حين يتعارض ضرران يجب تحمل الأدنى لدفع الأعلى ، فلو لم يعب تلك السفينة بالتخريق لغصبها الملك وفاتت منافعها بتاتا ، ولو لم يقتل ذلك الغلام لكان بقاؤه مفسدة لوالديه فى دينهم ودنياهم . ولأن المشقة الحاصلة بإقامة الجدار أقل ضرراً من سقوطه – إذ بالسقوط كان بضيع مال أولئك الأيتام .

ومجمل الأمر فى ذلك ــ إن الله أطلع الخضر على بواطن الأمور وحقائقها فى أنفسها ، وهذا لايمكن تعلمه إلا بتصفية الباطن وتجريد النفس وتطهير القلب عن العلائق الحسية ومن ثم قال فى صفة علمه . ﴿ وعلمناه من لدنا علما ﴾ .

وموسى عليه السلام لما كملت مرتبته فى علم الشريعة بعثه الله إلى هذا العالم ، ليعلمه أن كمال المعرفة فى أن ينتقل الإنسان من علوم الشريعة المبنية على الظواهر إلى علوم الباطن المبنية على الإشراف على معرفة حقائق الأشياء على ماهى عليها فى الواقع .

قوله تعالى : **﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا * فلما بلغا**

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٤ ، وفى الأنبياء : ٢٧ ، وفى تفسير سورة ١٨ : ٢ ، ٣ ، ومسلم فى الفضائل : ١٧٠ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٨ : ١ . والامام أحمد فى ٥ : ١١٨ ، ١١٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى : ٧٩ . ومسلم فى التوبة : ٥٣ . والنسائى فى المساجد : ٣٨ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٥٧ ، وفى ٦ : ٣٨٨ .

مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً ﴾ .

يذكر الله تعالى نبيه ومصطفاه بما حدث لموسى عليه السلام عندما قال لفتاه ﴿ **لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ : وسبب ذلك قول موسى لفتاه وهو يوشع بن نون أنه ذكر له عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم مالم يحط به موسى فأحبَّ الرحيل إليه ، وقال لفتاه ﴿ **لا أبرح** ﴾ أى لا أزال سائراً ﴿ **حتى أبلغ مجمع البحرين** ﴾ أى مكان اجتماعهما .

﴿ أو أمضى حقباً ﴾ : أى ولو أنى أسير حقبا من الزمان .

قال ابن جرير رحمه الله ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب أن الحقب ثمانون سنة كما روى عن عبد الله بن عمرو .

وقال مجاهد : سبعون خريفاً .

وعن ابن عباس قال : دهراً .

﴿ **فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما** ﴾ : وذلك أنه قد أمر بحمل حوت وقيل له متى فقدت الحوت فإن العبد الصالح هناك فسارا حتى بلغا مجمع البحرين فناما هنالك ، وكان الحوت فى مكتل مع يوشع عليه السلام وقفز الحوت من المكتل إلى البحر فاستيقظ يوشع بن نون وسقط الحوت فى البحر وجعل يسير فى الماء ، ولهذا قال تعالى ﴿ **فاتخذ سبيله فى البحر سرباً** ﴾ : أى مثل السرب فى الأرض .

﴿ **فلما جاوزا** ﴾ : أى المكان الذى نسيا الحوت فيه قال موسى ﴿ **قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾ : أى تعباً .

﴿ **قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وماأنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ : ولهذا قال : ﴿ **واتخذ سبيله** ﴾ أى طريقه ، ﴿ **فى البحر عجبا * قال ذلك ماكنا نبغ** ﴾ أى هذا الذى نطلب .

﴿ **فارتدا** ﴾ :أى رجعا ، ﴿ **على آثارهما** ﴾ : أى طريقهما ﴿ **قصصا** ﴾ : أى يقصان آثار مشيهما ، ويقفوان أثرهما .

﴿ **فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً** ﴾ :

وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

قال البخارى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنا عمرو بن دينار أخبرنى سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : « إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبى بن كعب رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم ؟ قال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه إن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب وكيف لى به ؟ قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر فاتخذ سبيله فى البحر سربا وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما .

حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿ **آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً** ﴾ : ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه : ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً** ﴾ .

٧ قال : فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا ، فقال : ﴿ **ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾ . قال : فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب ، فسلم عليه موسى ، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام . فقال : أنا موسى . فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم . قال : أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً .

﴿ **قال إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ : يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، فقال موسى : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً** ﴾ قال له الخضر : ﴿ **فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ .

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم ، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول ، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قد حملونا بغير نول ، فعمدت إلى سفينتهم لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئاً إمراً ﴿ **قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾

﴿ **قال : لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من امرى عسراً** ﴾ . قال : وقال رسول الله ﷺ : فكانت الأولى من موسى نسياناً .

٨ قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة ، فنقر فى البحر نقرة أو نقرتين ، فقال له الخضر ماعلمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ رأسه فاقتلعه بيده فقتله ، فقال له

موسى : ﴿ **أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى .

﴿ **قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض** ﴾ : أى مائلا ، فقال الخضر بيده ﴿ **فأقامه** ﴾ فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً** ﴾ . فقال رسول الله ﷺ (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما)[1] .

قوله تعالى ﴿ **قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معى صبراً * وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا * قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً * قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ :

يخبر تعالى عن قول موسى عليه السلام للعبد الصالح الخضر الذى خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى ، كما أنه أعطى موسى من العلم مالم يعطه الخضر :

﴿ **قال له موسى هل أتبعك** ﴾ : سؤال تلطف لا على وجه الالتزام والإجبار ، وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم .

وقوله ﴿ **أتبعك** ﴾ : أى أصحبك وأرافقك : ﴿ **على أن تعلمن مما علمت رشداً** ﴾ : أى مما علمك الله شيئاً أسترشد به فى أمرى ، من علم نافع وعمل صالح ، فعندما ﴿ **قال** ﴾ : : الخضر لموسى ﴿ **إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ : أى إنك لا تقدر على مصاحبتى لما ترى منى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله ما علمكه الله وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله ، فكل منا مكلف بأمور من الله دون صاحبة ، وأنت لاتقدر على صحبتى ﴿ **وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا** ﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر علّى ماأنت معذور فيه ، ولكن مااطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التى اطلعت أنا عليها دونك .

﴿ **قال** ﴾ :أى موسى : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابراً** ﴾ . أى على ماأرى من أمورك . ﴿ **ولا أعصى لك أمراً** ﴾ : أى ولا أخالفك فى شىء .

فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام : ﴿ **قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء** ﴾ : أى إبتداء ﴿ **حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ : أى حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى .

قال ابن جرير عن ابن عباس قال : سأل موسى عليه السلام وبه عز وجل فقال : أى رب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : (الذى يذكرنى ولا ينسانى) . قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : (الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى) قال : أى رب فأى عبادك أعلم ؟ قال : (الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه بها إلى هدى أو ترده عن ردى) قال : أى رب هل فى أرضك أحد أعلم

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة : ١٨ : ٢ ، ٤ . والترمذى فى تفسير سورة ١٨ : ١ .

منى ؟ قال : (نعم) قال : فمن هو ؟ قال : (الخضر) قال : وأين أطلبه ؟ قال : (على الساحل عند الصخرة التى ينفلت عندها الحوت) قال : فخرج موسى يطلبه حتى كان ماذكر الله ، وانتهى موسى إليه عند الصخرة ، فسلم كل واحد منهما على صاحبه ، فقال له موسى : إنى أحب أصحبك . قال : إنك لن تطيق صحبتى . قال : بلى قال : فإن صحبتنى ﴿ **فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾

قال فسار به فى البحر حتى انتهى إلى مجمع البحرين ، وليس فى الأرض ماهو أكثر ماء منه ، قال : ويعث الله الخطاف فجعل يستقى منه بمنقاره ، فقال لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأ من هذا المال ؟ قال : ماأقل مارزأ . قال : ياموسى فإن علمى وعلمك فى علم الله كقدر ما استقى هذا الخطاف من هذا المال .

وكان موسى قد حدث نفسه أنه ليس أحد أعلم منه ، أو تكلم به ، فمن ثم أمر أن يأتى الخضر ، وذكر تمام الحديث فى خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإصلاح الجدار ، وتفسيره له ذلك .

قوله تعالى :

﴿ **فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً** ﴾ :

هذا إخبار من الله تعالى عن انطلاقهما أى موسى وصاحبه وهو الخضر ، وأنهما توافقا وأصطحبا واشترط عليه أن لا يسأله عن شىء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه .

فركبا فى السفينة . وقد تقدم فى الحديث كيف ركبا فى السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول يعنى بغير أجرة تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة فى البحر ، ولججت أى دخلت اللجة ، قام الخضر فخرقها واستخرج لوحا من ألواحها ثم رقعها ، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكرا عليه : ﴿ **أخرقتها لتغرق أهلها** ﴾ وهذه اللام لام العاقبة لا لام التعليل . ﴿ **لقد جئت شيئاً إمراً** ﴾ قال قتادة : عجبا ، فعندهما قال له الخضر مذكرا بما تقدم من الشرط ﴿ **ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ يعنى هذا الصنيع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر على فيها ، لأنك لم تحط بها خبرا ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت .

﴿ **قال** ﴾ أى موسى ﴿ **لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً** ﴾ : أى لا تضيق علىَّ ولا تشدد علىَّ ، ولهذا تقدم فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال (كانت الأولى من موسى نسيانا) .

قوله تعالى :

﴿ **فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً * قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً** ﴾ :

روى ابن جرير بإسناده عن ابن عباس عن ابن عباس عن أبى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه ، فقال ذات يوم : (رحمة الله علينا وعلى موسى لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب[1] ، ولكنه قال : ﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً** ﴾ .

وهكذا قتل الخضر الغلام ، وقال له موسى ﴿ **أقتلت نفساً زكية بغير نفس** ﴾ والمراد بكونها زكية أن صاحبها لم يبلغ الحلم ، ولم يجر عليه القلم ﴿ **لقد جئت شيئاً نكراً** ﴾ :ينكره ذوو الألباب .

فكان رد الخضر عليه هذه المرة مشتملا على توكيد أشد : ﴿ **قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ .

وقد خلا الرد الأول بعد خرقه السفينة من قوله لك ، لأنها كانت المرة الأولى لذا قال له موسى ﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً** ﴾ .

وهكذا كان أدب التلميذ مع الأستاذ ، فللأستاذ حقه فى أن يوجه التلميذ ، وعلى المتعلم أن يقيم للأستاذ وزنه ، جاء فى الأثر : ((تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة وتواضعوا لمن تعلمون منه))[2] .

قوله تعالى : ﴿ **فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجرًا * قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرًا** ﴾ :

وأتيا أهل قرية لا يعنينا ما اسمها ، لأن القرآن كما علمنا يهتم بالجواهر والحقائق ، ويهدف إلى الحكمة البالغة ، والقيم الأخلاقية ، والمثل العليا ، ولو كان فى تعيينها خير لذكره الله ، ولكن أهل هذه القرية كانوا لئاما فأبوا أن يضيفوا هذين النبيين الجليلين ، فاعجب معى لقرية أبت أن تحسن ضيافة اثنين ، إن البخل داء وبيل ومرض اجتماعى خطير ، لكن العبد الصالح نظر إلى جدار يريد أن ينقض على الأرض ، فأسرع إليه فأقامه وعدَّله ، مما جعل كليم الله موسى يقول له ﴿ **لو شئت لاتخذت عليه أجراً** ﴾ إذ مثل هؤلاء الناس الذين بخلوا بما آتاهم الله من فضله ، ليسوا أهلا لمعروف يسدى إليهم ، لقد رفضوا الضيافة فلا أقل من أن نأخذ الأجر على العمل .

فقال الخضر لموسى ﴿ **هذا فراق بينى وبينك** ﴾ : وهذا وفاء بالشرط الذى اشترطه موسى عندما قال له ﴿ **إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى** ﴾ : ثم قال له الخضر ﴿ **سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً** ﴾ :

(١) أخرجه مسلم فى الفضائل : ١٧٢ . وأبو داود فى الحروف : ١

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٣٤ .

ثم أخذ يفصل ما أجمل . فقال : ﴿ **أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً** ﴾ :

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنه ، فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها ، لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ **يأخذ كل سفينة** ﴾ صالحة أى جيدة ﴿ **غصباً** ﴾ فأردت أن أعيبها لأرده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين ، الذين لم يكن لهم شىء ينتفعون به غيرها ، وقد قيل إنهم أيتام .

قوله تعالى : ﴿ **وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً . فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما** ﴾ :

قال قتادة فى شأن هذا الغلام : قد فرح به أبواه حين ولد ، وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقى لكان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب .

إن حال المؤمن دائماً خيرءلأنه ينظر دائماً بعين البصيرة نظرة ثاقبة صائبة ، فيرى أمامه ، قوله جل شأنه : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ [١] وقوله تعالى : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[٢] .

وقوله تبارك اسمه ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[٣]

إن المؤمن تدور حاله بين الصبر والشكر ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك إلا للمؤمن .

قال جل شأنه ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ [٤] .

يا إلهى ما مسنى قدر بكره أو رضا
إلا اهتديت به إليك طريقاً

أمضى القضاء على الرضا منى به
إنى عرفتك فى البلاء رفيقاً

شعاع من رضاك يطفىء غضبة ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج
أبشر بخير فإن الفارج الله

(١) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٢) الآية ٥١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .
(٤) الآية ١٩ من سورة النساء .

اليـــأس يقطـــع أحيـانـــاً بـصـاحـبـه
لا تيـــأسن فـــإن الكـــاف الله
إذا بلـــــيت فثـــق بالله وارض به
إن الـــذى يكشف البلـــوى هو الله
الله يحدث بعـــد الـــعسر ميسرة
لا تجزعـــن فإن الصانـــع الله
والله مـــالك غير الله مـــن أحـــد
فـــحسبك الله فى كل لك الله

صح فى الحديث : (لايقضى الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له)[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فأردنا أن يبد لهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما** ﴾ : قال ابن جريج ، وقال قتادة : أبر بوالديه .

قوله تعالى : ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ومافعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً** ﴾ :

ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين فى المدينة ، وكان تحته كنز لهما . قال عكرمة وقتادة : كان تحته مال مدفون لهما ، وهو ظاهر السياق من الآية .

عن أبى ذر رفعة قال : « إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه : عجبت لمن أيقن بالقدر ثم نصب ، وعجبت لمن ذكر النار ثم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت ثم غفل ، لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

وهذا الذى ذكره هؤلاء الأئمة ، وورد به الحديث المتقدم ، وإن صح لا ينافى قول عكرمة : إنه كان مالا ، لأنهم ذكروا أنه كان لوحاً من ذهب ، وفيه مال جزيل أكثر مازادوا أنه كان مودعاً فيه علم ، وهو حكم ومواعظ ، والله أعلم .

وفى قوله تعالى : ﴿ **وكان أبوهما صالحاً** ﴾ : دليل على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم فى الدنيا والآخرة ، بشفاعته فيهم ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة ، لتقر عينه بهم .

وعن ابن عباس : حفظا بصلاح أبيهما .

وقوله : ﴿ **فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما** ﴾ :

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١١٧ ، ١٨٤ .

ههنا أسند الإرادة إلى الله تعالى ، لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه إلا الله ، وقال فى الغلام : ﴿ **فأردنا أن يبد لهما ربهما خيراً منه زكاة** ﴾ : وقال فى السفينة ﴿ **فأردت أن أعيبها** ﴾ ، فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى** ﴾ :

أى هذا الذى فعلته فى هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدى الغلام ، وولدى الرجل الصالح ، ومافعلته عن أمرى ، أى لكنى أمرت به ووقفت عليه ، وفيه دلالة لمن قال بنبوة الخضر .

قوله تعالى : ﴿ **ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً** ﴾ :

ثبت فى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (إنما سمى الخضر لأنه جلس على فروة فإذا هى تهتز من خضراء) .

والمراد بالفروة ههنا الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات .

فائـــدة

كما أنه فسره له وبينه ووضحه ، وأزال المشكل ، قال : ﴿ **تسطع** ﴾ : وقبل ذلك كان الإشكال قوياً ثقيلا فقال : ﴿ **سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً** ﴾ : فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف ، كما قال : ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾ : وهو الصعود إلى أعلاه ، ﴿ **وما استطاعوا له نقبا** ﴾ : وهو أشق من ذلك ، فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى، والله أعلم .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء السادس عشر

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة ذى القرنين

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ
وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ
فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ
حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾
وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ
وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا
قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ
فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ
ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟
أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ
دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾

المفردات : ﴿ **ذكراً** ﴾ : أى نبأ مذكوراً وهو القرآن . ﴿ **ومكنه** ﴾ : ومكن له كنصحه . ﴿ **ونصح له** ﴾ : أى مهد له الأسباب وجعله قادراً على التصرف فى الأرض من حيث التدبير والرأى . ﴿ **سببا** ﴾ : أى طريقاً يوصله إليه من علم أو قدرة أو آلة . ﴿ **حمئة** ﴾ : أى ذات حمأة وهى الطين الأسود . ﴿ **حسناً** ﴾ : أى أمراً ذا حسن . ﴿ **نكراً** ﴾ : أى منكراً فظيعاً . ﴿ **الحسنى** ﴾ : أى المثوبة

الحسنى . ﴿ يسراً ﴾ : أى سهلاً ميسراً غير شاق . ﴿ ستراً ﴾ : أى بناء وكانوا إذا طلعت الشمس تغوروا فى المياه وإذا غربت خرجوا ﴿ خبراً ﴾ : أى علماً يتعلق بظواهره وخفاياه . ﴿ السدين ﴾ : أى الجبلين ، ﴿ يفقهون ﴾ : يفهمون . ﴿ خرجا ﴾ : أى جُعلا من أموالنا على سبيل التبرع والخراج : ما لزمك أداؤه . ﴿ بقوة ﴾ : أى بما يتقوى به على المقصود من الآلات والناس . ﴿ ردماً ﴾ : أى حاجزاً حصيناً . ﴿ والردم ﴾ : أكبر من السد وأوثق . يقال ثوب مردَّم : أى فيه رقاع فوق رقاع . ﴿ وزبر ﴾ : واحدها زبرة (بضم فسكون) كغرفة : وهى القطعة العظيمة . ﴿ الصدفين ﴾ : واحدها صدف وهو جانب الجبل . ﴿ قطراً ﴾ : أى نحاساً مذاباً وقيل رصاصاً مذاباً . ﴿ أن يظهروه ﴾ : أى أن يعلوه ويرقوا فوقه لارتفاعه وملاسته . ﴿ رحمة ﴾ : أى أثر رحمة . ﴿ دكاء ﴾ : أى مثل دكاء وهى الناقة لا سنام لها والمراد بها الأرض المستوية . ﴿ حقاً ﴾ : أى ثابتاً واقعاً لا محالة . ﴿ يموج ﴾ : أى يضطرب اضطراب البحر . ﴿ والصور ﴾ : قرن ينفخ فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

هذه القصة رابعة ثلاث من القصص التى ذكرت فى هذه السورة ، وقد قدمنا أن كفار مكة بعثوا إلى أهل الكتاب يطلبون إليهم ما يمتحنون به النبى ﷺ ، فقالوا : سلوه عن رجل طواف فى الأرض ؟ وعن فتية لا يُدرَى ما صنعوا ؟ وعن الروح ؟ فنزلت سورة الكهف .

ذو القرنين

يرى كثير من العلماء والمؤرخين أنه هو إسكندر بن فيلبس الرومى ، تلميذ أرسطاطاليس الفيسلوف المسمى بالمعلم الأول ، الذى انتشرت فلسفته فى الأمة الإسلامية ، وكان من أهل مقدونيا ، وحارب الفرس ، واستولى على ملك دارا ، وتزوج ابنته ، ثم سافر إلى الهند ، وحارب هناك ، ثم حكم مصر وبنى الاسكندرية .

ويرى أبو الريحان البيرونى المنجم فى كتابه « الآثار الباقية عن القرون الخالية » :

أنه من حمير ، واسمه أبو بكر بن إفريقش ، وقد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط فمر بتونس ومراكش وغيرهما ، وبنى مدينة إفريقية فسميت القارة كلها باسمه .

والدليل على أنه حميرى أن الأذواء إنما يعرفون فى بلاد حمير دون بلاد اليونان ، وهو من الدولة الحميرية التى حكمت من سنة ١١٥ ق. م إلى ٥٥٢ ب م من الطبقة الثانية ، وملوكها يسمون التبابعة ، واحدهم تبع (بضم التاء وتشديد الباء) .

يأجوج ومأجوج

﴿ يأجوج ﴾ : هم التتر . ﴿ ومأجوج ﴾ : هم المغول . .

وأصلهما من أب واحد يسمى « ترك » وكانوا يسكنون الجزء الشمالى من آسيا ، وتمتد بلادهم من التبت والصين إلى المحيط المتجمد الشمالى ، وتنتهى غرباً بما يلى بلاد التركستان .

وقد ذكر مؤرخو العرب والإفرنج أن هذه الأمم كانت تغير فى أزمنة مختلفة على الأمم المجاورة لها ، فكثيراً ما أفسدوا فى الأرض ، ودمروا كثيراً من الأمم ، فمنهم الأمم المتوحشة التى انحدرت من الهضبات المرتفعة من آسيا الوسطى ، وذهبت إلى أوروبا فى العهد القديم ، كأمة التحيت والسمريان والهون ، وكثيراً ما أغاروا على بلاد الصين وآسيا الغربية التى كانت مقر الأنبياء .

ثم لم يزالوا فى حدود بلادهم لا يتجاوزونها بعد زمن النبوة إلى أن ظهر فيهم الداهية الرحالة « تموجين » الذى لقب نفسه « جنكيز خان ـ ملك العالم » بلغة المغول .

فخرج فى أوائل القرن السابع من الهجرة من الهضبات المرتفعة ، والجبال الشاهقة التى فى آسيا الوسطى ، فأخضع الصين الشمالية أولا ، ثم ذهب إلى البلاد الإسلامية فأخضع السلطان قطب الدين ابن أرميلان من الملوك السلجوقية ملك خوارزم ، وفعل بهذه الدولة من الفظائع ما لم يسمع بمثله فى التاريخ .

ولما مات جنكيز خان قام مقامه ابنه « أقطاى » وأغار ابن أخيه « باتو » على بلاد الروس سنة ٧٢٣ هـ ، ودمر بولنيا وبلاد المجر ، وأحرق وخرب .

وبعد أن مات أقطاى قام مقامه « جالوك » فحارب الروم ، وألزم ملكها دفع الجزية .

ثم مات « جالوك » فقام مقامه ابن أخيه « منجو » فكلف أخويه « كيلاى » و « هولاكو » أن يستمرا فى طريق الفتح ، فأخضع كيلاى بلاد الصين ، وزحف هولاكو على الممالك الإسلامية ومقر الخلافة العباسية ، وكان الخليفة إذ ذاك المستعصم بالله ، فأخذ بغداد عنوة فى أواسط القرن السابع من الهجرة ، وأسلمت للسلب والنهب سبعة أيام ، سالت فيها الدماء أنهاراً ، وطرحوا كتب العلم فى دجلة ، وجعلوها جسراً يمرون عليه بخيولهم ، وبذلك انتهت الخلافة العباسية ببغداد .

ولما استولت ذرية جنكيز خان على آسيا وأوروبا الشرقية ، اقتسموا بينهم ما فتحوه ، وأنشأوا أربع ممالك ، فاختصت أسرة كيلاى بالصين والمغول ، وملك جافاقاى أخو أقطاى تركستان ، وملكت ذرية باطرخان البلاد التى على شواطىء نهر فلجا ، وصارت الروسيا تدفع لها الجزية زمناً طويلاً ، وأخذ هولاكو بلاد الفرس وبغداد حتى بلاد الشام ، وقد لخصنا ذلك من دائرة المعارف ، وابن خلدون ، ورسائل إخوان الصفا .

سـد ذى القرنين

كانت البلاد التى شرقى البحر الأسود يسكنها قوم من الصقالبة « السلاف » وكان هناك سد منيع بالقرب من مدينة « باب الأبواب » أو « دربت » بجبل قوقاف ، وقد كشفوه فى القرن الحاضر ، وهو غير السد الشهير الذى بناه ذو القرنين ، فإن هذا وراء جيحون فى عمالة « بلخ » واسمه « باب الحديد » بمقربة من مدينة « ترمذ » وقد اجتازه تيمور لنك بجيشه .

وبذلك تعلم أن السد موجود فعلا ، وأن هذا معجزة للقرآن الكريم حقاً ، وهى إحدى المعجزات التى أيدها التاريخ ، وعلم تقويم البلدان .

وقد قال النبى ﷺ : (ويل للعرب من شر قد اقترب)[١] .

وقد صدق رسول الله ، فأزال هؤلاء المغول دولة العرب ، وانتهت بقتل المستعصم آخر ملوكها ، وبقى خليفة رسمى فى مصر ، وزال ملكهم بتاتا فى حدود الألف ، وتفرق ملك الاسلام شذر مذر ، ولم تحفظه إلا الدولة العثمانية بعد العرب ، وقد كوّن أولئك التتار أغلب المسلمين فى الهند والصين وأغلب آسيا ، فهم كما ورثوا بلادهم ورثوا دينهم .

﴿ **ويسألونك عن ذى القرنين** ﴾ : أى تسألك قريش بتلقين اليهود سؤال اختبار وامتحان .

﴿ **قل سأتلوا عليكم منه ذكراً** ﴾ : أى قل لهؤلاء المتعنتين : سأقص عليكم قصصاً وافياً جامعاً لما تريدون ، أعلمنيه ربى وأخبرنى به .

ثم فصل ذلك فقال : ﴿ **إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً** ﴾ :

أى مكنا له أمره من التصرف فيها كيف يشاء ، بحيث يصل إلى جميع مسالكها ، ويظهر على سائر ملوكها ، وآتيناه من كل شىء أراده من مهام ملكه وبسطة سلطانه طريقاً يوصله إليه ، فآتيناه العلم والقدرة والآلات التى توصله إلى ذلك .

﴿ **فأتبع سببا حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة** ﴾ :

أى فأراد بلوغ المغرب فاتبع طريقاً يوصله إليه ، حتى إذا بلغ منتهى الأرض من جهة المغرب بحيث لا يمكن تجاوزه ، ووقف على حافة المحيط الأطلنطى « المحيط الأطلسى » وجد الشمس تغرب فى عين حمئة ، وطين أسود .

وخلاصة ذلك :

أنه بلغ بلاداً لا بلاد بعدها . تغرب عليها الشمس ، إذ لم يكن عمران إلاَّ ما عرفوه عند بحر الظلمات ، فهو قد سار إلى بلاد تونس ثم مراكش ، ووصل إلى البحر ، فوجد الشمس كأنها تغيب فيه ، وهو أزرق اللون ، كأنه طين وماء .

﴿ **ووجد عندها قوماً** ﴾ : أى ووجد عند تلك العين قوماً كفاراً ، فخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، وأن يدعوهم إلى الإيمان ، وهذا تفصيل قوله :

﴿ **قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً** ﴾ :

أى قلنا له بطريق الإلهام : إما أن تقتلهم إن هم لم يقروا بوحدانيتى ، ويذعنوا لك فيما تدعوهم

---

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٧ ، وفى المناقب : ٢٥ ، وفى الفتن : ٤ ، ٢٨ . ومسلم فى الفتن : ١ . وأبو داود فى الفتن ١ . والترمذى فى الفتن : ٢٣ . وابن ماجة فى الفتن : ٩ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٤٤١ ، ٥٣٦ ، ٥٤١ ، وفى ٦ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

إليه من طاعتى ، وإما أن تأمر بتعليمهم طريق الهدى والرشاد ، وتبصيرهم بالشرائع والأحكام .

﴿ قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ :

أى قال ذو القرنين لبعض خاصته وبطانته : أما من ظلم نفسه فأصر على الشرك بربه ، فسنعذبه بالقتل ، ثم يرجع إلى ربه فى الآخرة فيعذبه عذاباً منكراً فى نار جهنم .

﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ :

أى وأما من صدق بالله ووحدانيته ، وعمل عملاً صالحاً فى الدارين ، فله المثوبة الحسنى جزاء وفاقا على تلك الخلال الجميلة التى عملها فى دنياه ، وسنعلمه فى الدنيا ما يتيسر لنا تعليمه مما يقربه إلى ربه ، ويلين له قلبه ولا يشق عليه فعله مشقة كبيرة كالصلاة والزكاة والجهاد ونحوها .

﴿ ثم أتبع سببا * حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ :

أى ثم قفل راجعاً من مغرب الشمس ، وسلك طريقاً موصلا إلى مشرقها ، حتى إذا بلغ الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من المعمور وجدها تطلع على قوم ليس لهم بناء يكنّهم ، ولا أشجار تظلهم وتسترهم عن حر الشمس ، فليس لهم سقوف ولا جبال تمنع من وقوع أشعة الشمس عليهم ، لأن أرضهم لا تحمل بنيانا ، بل لهم سروب يغيبون فيها حين طلوع الشمس ، ويظهرون حين غروبها ، فهم حين طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش ، وحين غروبها يشتغلون بتحصيل مهماتهم وأحوالهم على الضد من أحوال الناس .

وخلاصة ذلك :

إنه بلغ غاية المعمور من الأرض جهة المشرق ، ووجد قوماً لا لباس لهم ولا بناء ، فهم عراة فى العراء ، أو فى سراديب فى الأرض .

﴿ كذلك ﴾ : أى إن أمر ذى القرنين كما وصفنا من قبل من بلوغه طرفى المشرق والمغرب ، ومن فعله الأفاعيل التى ذكرت ، فهو قد بلغ الغاية فى رفعة الشأن ، وبسطة الملك ، مما لم يتح لكثير غيره .

﴿ وقد أحطنا بما لديه خُبْرا ﴾ : أى ونحن مطلعون على جميع أحواله وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا شىء منها ، وإن تفرقت أممهم وتقطعت بهم الأرض ، كما قال : **﴿ لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴾**(١) .

وخلاصة ذلك : أنه كما وصف ، وفوق ما وصف ، بما لا يحيط بعلمه إلا اللطيف الخبير .

---

(١) الآية ٥ من سورة آل عمران .

﴿ ثم أتبع سببا ﴾ : أى ثم سلك طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب ، آخذاً من مطلع الشمس إلى الشمال .

﴿ حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ :

أى حتى إذا وصل بين الجبلين ، وجد من دونهما أمة من الناس لا يكادون يفهمون كلام أتباعه ، ولا كلام غيرهم ، لبعد لغتهم عن لغات غيرهم ، مع قلة فطنتهم ، إذ لو كان لهم فطنة لفهموا ما يراد من القول بالقرائن وفحوى الحال .

﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ﴾ :

أى قال مترجموهم : إن يأجوج ومأجوج يفسدون أرضنا بالقتل والتخريب ، وأخذ الأقوات ، وسائر ضروب الإفساد .

﴿ فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ﴾ :

أى فهل تحب أن نجعل لك جعلا من أموالنا ، فتجعل بيننا وبينهم حاجزاً يمنعهم من الوصول إلينا ؟

وخلاصة ذلك : أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالا يعطونه إياه ، حتى يجعل بينهم وبينهم سداً .

﴿ قال ما مكنى فيه ربى خير ﴾ : أى قال ذو القرنين : إن ما مكننى فيه ربى من بسطة الملك والسلطان ووفرة المال ، خير مما تبذلونه لى من الخراج ، فلا حاجة بى إليه ، وهذا نحو ما قاله سليمان عليه السلام : ﴿ أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم ﴾[1] .

والدول القوية يجب أن تحافظ على الدول الضعيفة ، ولا تأخذ منها مالا ، ما دامت قادرة على إغاثتها .

وخلاصة ذلك: ما أنا فيه خير مما تبذلونه .

﴿ فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ :

أى ولكن ساعدونى بفعلة ، وصنّاع يحسنون العمل والبناء ، أجعل بينكم وبين يأجوج ومأجوج سداً منيعاً وحاجزاً حصيناً ، أمنع مما تريدون .

ثم بين تلك القوة التى طلبها فقال :

﴿ آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطراً ﴾ :

(١) الآية ٣٦ من سورة النمل .

أى جيئونى بقطع الحديد ، فلما جاءوه بها أخذ يبنى شيئاً فشيئاً ، حتى إذا جعل ما بين جانبى الجبلين من البنيان مساوياً لهما فى العلو ، قال للعَمَلة : انفخوا بالكيران فى زبر الحديد التى وضعت بين الصدفين ، ففعلوا وما زالوا كذلك حتى صارت كالنار اشتعالا وتوهجاً ، فصب النحاس المذاب على الحديد المحمى ، فالتصق بعضه ببعض ، وسد الفجوات التى بين الحديد ، وصار جبلاً صلداً .

﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ :

أى إن يأجوج ومأجوج ما قدروا أن يصعدوا من فوق السد ، لارتفاعه وملاسته ، ولا استطاعوا نقبه لصلابته وثخانته .

﴿ قال هذا رحمة من ربى ﴾ :

أى قال ذو القرنين لأهل تلك الديار : هذا السد نعمة من الله ورحمة بعباده ، إذ صار حاجزاً بينكم وبين يأجوج ومأجوج ، يمنعهم من أن يعيثوا فى الأرض فساداً .

﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء ﴾ :

أى فإذا دنا وقت خروجهم من وراء السد جعله ربى بقدرته وسلطانه أرضاً مستوية ، فسلط عليهم منهم أو من غيرهم من يهدمه ويسوى به الأرض .

قوله تعالى : **﴿ وكان وعد ربى حقاً ﴾ :**

أى وكان كل ما وعد به سبحانه حقاً ثابتاً لا ريب فى تحققه ، وقد جاء وعده تعالى بخروج جنكيز خان وسلائله ، فعاثوا فى الأرض فساداً من الشرق والغرب ، وفعلوا الأفاعيل بالدولة الإسلامية ، وأزالوا معالم الخلافة من بغداد .

وقد ذكر المؤرخون أن سبب خروج جنكيز خان أن سلطان خوارزم السلجوقى قتل رسله . وتجاره المرسلين من بلاده ، وسلب أموالهم ، وأغار على أطراف بلاده ، فاغتاظ وكتب إلى السلطان كتاباً قال فيه : كيف تجرأتم على أصحابى ورجالى وأخذتم تجارتى ومالى ؟ . أتحركون الفتنة النائمة وتنبهون الشرور الكامنة ؟ أو ما جاءكم عن نبيكم (وعليكم أن تمنعوا من السفاهة غنيكم وعن ظلم الضعيف غويكم أو مابلغكم مرشدوكم (اتركوا الترك ما تركوكم)[1]) .

وكيف تؤذون الجار وتسيئون الجوار ، ونبيكم قد أوصى به إلا أن الفتنة نائمة فلا توقظوها ، وهذه وصاياى إليكم فعوها واحفظوها ، وتلافوا التلف قبل أن ينهض داعى الانتقام ، وينفتح عليكم سد يأجوج ومأجوج وسينصر الله المظلوم وينسلون عليكم يأجوج ومأجوج من كل حدب .

روى البخارى عن أم حبيبة بنت أبى سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول : (لا إله إلاّ الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا

(١) أخرجه أبو داود فى الملاحم : ٨ .

وحلق بإصبعه الإبهام والتى تليها . قالتها زينب فقلت يا رسول الله : أنهلك وفينا الصالحون . فقال : نعم إذا كثر الخبث)[١] .

﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ﴾ .

أى ويوم يدك السد يخرج هؤلاء من ورائه يموجون فى الناس ، ويفسدون عليهم زروعهم ، ويتلفون أموالهم ، وهذا بمعنى قوله فى سورة الأنبياء : **﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾**[٢] أى وهم من كل مرتفع من الأرض يسرعون فى النزول من الآكام والمرتفعات ، وتلك حال تنطبق على قوم جنكيز خان ، فقد كان خروجهم من هضبات آسيا الوسطى .

﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾ :

أى فإذا دنا ميقات الساعة نفخ فى الصور ، وجمعنا الناس جمعاً ، وأحضرناهم للحساب ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين * . لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾[٣] .

مواقف ومشاهد

وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى
وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ
إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ
سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

المفردات : **﴿ عرضنا ﴾** : أى أظهرنا وأبرزنا . **﴿ غطاء ﴾** : أى غشاوة محيطة بها . **﴿ عن ذكرى ﴾** : أى عن الآيات الموصلة إلى ذكرى بتوحيدى وتمجيدى . **﴿ أولياء ﴾** : أى معبودات يقونهم بأسى . **﴿ أعتدنا ﴾** : هيأنا . **﴿ نزلا ﴾** : أى طعاما يتمتعون به حين ورودهم إلى ربهم . **﴿ ولقائه ﴾** : أى حين البعث والحشر وما يتبع ذلك . **﴿ الهزؤ ﴾** : السخرية والاحتقار .

---

(١) أخرجه البخارى فى الفتن : ٤ ، ٢٨ . ومسلم فى الفتن : ١ ، ٢ والترمذى فى الفتن ٢١ ، ٢٣ . وابن ماجه فى الفتن : ٩ . والامام مالك فى الكلام : ٢٢ . الامام أحمد فى ٦ : ٤٢٨ ، ٤٢٩ .

(٢) الآية ٩٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الواقعة .

قوله تعالى : ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً * الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ :

أى أظهرناها واضحة أمام المجرمين لا يستطيعون إنكارها ، قال تعالى : ﴿ يوم يُدَعون إلى نار جهنم دعًا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾(١) .

وقال جلَّ سشأنه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نُرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾(٢) .

جاء فى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك) .

وجلَّ جناب الحق إذ يقول : ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقابا * لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلا حميماً وغساقاً * جزاء وفاقا * إنهم كانوا لا يرجون حسابا * وكذبوا بآياتنا كذاباً * وكل شىء أحصيناه كتابا * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾(٣) .

إن هؤلاء الطاغين حجبت أعينهم عن رؤية الحق ، فكانت فى غطاء مانعا لهم من ذكر الله ومعرفته ، وكانوا لا يستطيعون سمعاً ، ولا يعقلون عن أمر الله أمراً ولا نهياً ، كما قال جلَّ شأنه : ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾(٤) .

كما قال جل شأنه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٥) .

وكما قال جل شأنه : ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾(٦) .

وهذا جزاء عادل لكل من قال الله فيهم : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾(٧) .

قوله تعالى : ﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادى من دونى أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا ﴾ :

---

(١) الآيتان ١٣ - ١٦ من سورة الطور .
(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنعام .
(٣) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبأ .
(٤) الآية ١٠ من سورة الملك .
(٥) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٦) الآية ٥ من سورة فصلت .
(٧) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزخرف .

أغفل هؤلاء فظنوا أن يتخذوا عبادى كالملائكة ، والمسيح ، وعزير ، أولياء ومعبودات لهم من دونى ليكونوا لهم أعوانا وأنصارا ، إنهم بذلك قد تنكبوا الطريق . وحادوا عن الصراط السوى .

لقد نسوا أو تناسوا أنا أعتدنا لهم جهنم ، مكاناً ينزلون به يأكلون ويتمتعون فى هذا النزل من جحيم وزقوم وغسلين وغسّاق وحميم وضريع ، قال تعالى : ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم ﴾[(١)] فلو كانوا يعقلون عن الله أحكامه لآمنوا به وحده ، وما اتخذوهم أولياء .

قوله تعالى : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ .

أى قل هل نخبركم بالأخسرين أعمالا ؟

ثم أجاب القرآن الكريم عن هذا السؤال إجابة شافية وافية كافية ، تشمل كل من عبد الله على غير الطريق التى جاء بها رسوله .

قال تعالى : **﴿ الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾** :

هؤلاء لا نصيب لهم فى الآخرة كما قال جلَّ شأنه : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾[(٢)] :

إذ لكى يقبل الله العمل لابد أن يكون صوابا خالصا ، فهؤلاء الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه لم يكونوا على صواب ، ولم يكونوا مخلصين ، فحقَّ فيهم قوله جلَّ شأنه : ﴿ وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصلى ناراً حامية * تسقى من عين آنية ﴾[(٣)] .

إن هؤلاء الذين ضلَّ سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، هم الذين حكم الله عليهم بقوله : **﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم ﴾** :

والآيات هنا هى الدلائل والبراهين الدالة على وحدانيته وكماله ، سواء أكانت كونية أو تنزيلية ، ولما كان أمرهم كذلك كان جزاؤهم يوم القيامة ، كما قال تعالى : **﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾** . إذ ليس لديهم من الأعمال ما يثقل موازينهم ، فهم الأخسرون أعمالا الذين خفت موازينهم ، كما قال جل شأنه : ﴿ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾[(٤)] .

قال البخارى بسنده عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة - وقال - اقرءوا إن شئتم **﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾**)[(٥)] .

---

(١) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الفرقان .
(٣) الآيات ٢ - ٥ من سورة الغاشية .
(٤) الآيتان ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة المؤمنون .
(٥) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٨ : ٦ . ومسلم فى المنافقين : ١٨ .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالرجل الأكول الشروب العظيم فيوزن بحبة فلا يزنها) :

قال : وقرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا ﴾ .

روى البزار بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فأقبل رجل من قريش يخطر فى حلة له فلما قام على النبى ﷺ قال : (يا بريدة هذا ممن لا يقيم له يوم القيامة وزنا) .

ثم بين الله تعالى جزاء هؤلاء فقال : ﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ :

فقد بيَّن سبحانه وجه العدالة فى جزاء هؤلاء ، فقال ﴿ بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا ﴾ فالكفر بالله يحبط الأعمال ، فما بالك إذا أضافوا إلى كفرهم الاستهزاء بآيات الله ورسله ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾[1] .

قال جلَّ شأنه : ﴿ ألم تكن آياتى تُتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون ﴾[2] .

وقال جل شأنه : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾[3] .

جــزاء المؤمنين

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾

المفردات : ﴿ الفردوس ﴾ : البستان . ﴿ حولا ﴾ : أى تحولا . ﴿ والمداد ﴾ : ما يمد به الشىء ، واختُصَّ بما تمد به الدواة من الحبر . ﴿ كلمات ربى ﴾ : معلوماته غير المتناهية . ﴿ والرجاء ﴾ : طمع حصول ما فيه من مسرة مستقبلة ﴿ ولقاء ربه ﴾ : هو البعث وما يتبعه .

(١) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة التوبة .

(٢) الآيات ١٠٥ ـ ١١٠ من سورة المؤمنون .

(٣) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة المطففون .

بعد أن بين الله تعالى جزاء الكافرين قفَّى بجزاء المؤمنين ، وهكذا يقرن الوعد بالوعيد ليتم الترغيب والترهيب والخوف والرجاء فى صورته الكاملة فإذا كان جزاء الكافرين جهنم ، فإن الذين آمنوا ، وضموا إلى الإيمان الأعمال الصالحة أعد الله لهم جنات الفردوس نزلاً وضيافة ، وما أدراك ما الفردوس ؟! .

روى سعيد بن جبير عن قتادة عن الحسن عن سمرة عن النبى ﷺ : (الفردوس ربوة الجنة أوسطها وأحسنها) .

وجاء فى الصحيحين : (إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة)(١) . وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس . فإنها أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقها عرش الرحمن تبارك وتعالى)(٢) .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
فاعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴾ :

وتلك نعمة أخرى يمن الله بها على عباده المؤمنين نعمة الخلود فى الجنة ، ففى الخلود استقرار وأمن وطمأنينة وسكينة وأمان ، قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون * ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ إخوانا على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾(٤) .

فكيف يبغون تحولاً عن هذا المقام الأمين ، وهم فيه آمنون ، لا صخب ولا نصب ولا غل ولا حسد ولا شحناء ولا بغضاء : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍّ تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله * لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾(٥) .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الزهد : ٣٩ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، وفى ٥ : ٢٤١ ، ٣٢١ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٢ . والترمذى فى الجنة : ٤ ، وفى تفسير سورة ٥٧ ، ٦٩ : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٠٧ ، وفى ٢ : ١٩٧ .

(٣) الآيات ٤٥ - ٤٨ من سورة الحجر . (٤) الآيات ٥١ - ٥٧ من سورة الدخان . (٥) الآية ٤٣ من سورة الأعراف .

قوله تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ :

لو تحولت أشجار الأرض إلى أقلام يُكتب بها ، وتحول البحر إلى مداد ، ويمده من بعد ذلك سبعة أبحر لنفد البحر والأبحر التى تمده ، وما نفدت كلمات الله التكوينية . ومعلوماته التى سبقت فى علمه الأزلى ، لأن تلك الأقلام والبحار متناهية ، وعلم الله لا يتناهى .

فما السموات والأرض بالنسبة للكرسى إلا حلقة فى فلاة . وما الكرسى بالنسبة للعرش إلا حلقة فى فلاة ، وما العرش بالنسبة لما فى علم الله إلا حلقة فى فلاة : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم * ما خلقكم ولابعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير * ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير * ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾[1] .

وجلَّ جناب الحق إذ يقول : ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[2] .

وإذ يقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلاَّ قليلاً ﴾[3] .

ذكر الشيخ المراغى فى تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ :

أثبت العلم الحديث ما يتبين منه أن فى كل عالم من العوالم الأرضية والسماوية مالا يحصى من النعم على عباده ، وعليك أن تلقى سمعك إلى آخر الآراء التى اهتدى إليها العلماء فى العصر الحاضر : قال الأستاذ جينس الإنكليزى المدرس لعلوم الرياضيات التطبيقية فى جامعة « بنسلفانيا » بأمريكا فى ٧ من مارس ١٩٢٨ وهى أحدث الآراء فى منشأ الكائنات وعدم التناهى فى الزمان والمكان . ما خلاصته :

١ ـ إن عمر الأرض نحو ألفى مليون سنة .

٢ ـ إن الإنسان لم يعش على الأرض منذ ثلثمائة ألف سنة فحسب .

٣ ـ إن الشمس ستظل بعد ألف ألف مليون سنة كما هى الآن تقريباً ، وتدور الأرض حولها كما هى الآن .

٤ ـ الإنسان فى المستقبل يكون أحكم من الانسان الحاضر بثلاثة ملايين مرة على الأقل ، فسينظم معيشته وفق حال الكرة الأرضية إذ ذاك .

---

(١) الآيات ٢٧ ـ ٣٠ من سورة لقمان .

(٢) الآيتان ٤٩ ـ ٥٠ من سورة القمر .

(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .

٥ ـ مما تقدم نعلم أن الإنسان حديث العهد بالولادة على الأرض ، فهو طفل فى علومه ومعارفه ، وكل هم هذا الطفل كان موجها إلى غذائه ومسكنه ، وهو يجهل العوالم الأخرى ، ولكنه الآن عرف أن هناك عوالم أخرى لا نهاية لها ، وأن معرفته بها تافهة جد التفاهة ، وربما عاش بعد الآن ألفى مليون سنة على الأرض ، وبعبارة أخرى إنه يعيش مدة تعادل عمر الأرض فى الماضى .

٦ ـ الأجرام التى حولنا لها نهاية ، أما الفضاء الذى بعدها فلا نهاية له ، فالشمس والكواكب والمجرات لها نهاية ، ولكن وراءها فضاء لا نهاية له .

٧ ـ الأجرام العلوية التى نراها والتى لا نراها كروية الشكل كقطرة الماء وكرة الأرض والشمس .

٨ ـ الإشارات اللاسلكية التى تنبعث من جهاز لاسلكى كبير تدور حول الكرة الأرضية فى أقل من سبع ثانية ، وتعود إلى النقطة التى بدأت منها ، وهكذا نحن لو اخترقنا هذه العوالم رجعنا إلى مبدأ سفرنا .

٩ ـ إننا لو صنعنا منظاراً قوياً (تلسكوبا) لنرى الأجرام السماوية ، لرأينا النجوم بهيئتها التى كانت عليها حينما أرسلت إلينا النور قبل ملايين السنين .

١٠ ـ إن الإنسان اليوم طفل فى العلوم ، وربما علم فى المستقبل مالا يتخيله الآن .

١١ ـ إن سرعة النور فى الثانية الواحدة ١٨٦ ألف ميل ، ومثله فى ذلك الكهرباء اللاسلكية ، لأنهما شىء واحد فى جوهرهما ، ويرجح أن النور يسير حول الفضاء الكروى مائة ألف مليون نسمة ، أى إن النور يدور فى هذا العالم المملوء بالأجرام العلوية الذى مجموعه كرة واحدة مدة مائة ألف مليون سنة مع العلم بأنه يدور حول الأرض فى سبع ثانية فما أبعد النسبة بين سبع ثانية وبين مائة ألف مليون سنة . إلا أن الأرقام لا تقدر أن تحصى المسافة المحصورة بين أى نقطتين كانتا على محيط الفضاء الكروى .

١٢ ـ الشمس أكبر من الأرض حجما بمليون وثلثمائة ألف مرة ، وما هى إلا حبة رمل على شاطىء هذا الفضاء الكروى ، وهى واحدة من أسرة من أسر الكائنات التى فى الفضاء الكروى التى قدرها العلامة (سيرز) بثلاثين ألف مليون مجموعة وشمسنا وتوابعها حبة رمل فى مجموعة واحدة من هذه الثلاثين ألف مليون مجموعة .

١٣ ـ إن هناك سُدُما لولبية فى خارج المجرة ، وهى مجموعة من النجوم التى تم نشوءها أو لا تزال فى طور التكوين ، وفى بعضها من المادة ما يكفى لخلق ألف مليون شمس كشمسنا .

١٤ ـ يقول (هويل) إن مِرْقب (تلسكوب) مونت ويلسون بأمريكا يريك نحو مليونين من تلك السدم ، وإذا تمكن الإنسان من صنع مرقب أكبر من هذا فإنه يرى بلا شك ملايين كثيرة أخرى منها ، وفيها من المادة ما يكفى لخلق ملايين الشموس والأجرام الفلكية ، ويقول : إذا أردت أن تعرف عدد النجوم التى تسبح فى الفضاء على وجه التقريب ، فضع رقم ٢ وعلى يمينه ٢٤ صفراً ، وهذا العدد يغطى الجزائر البريطانية إلى عمق مئات من الأمتار .

١٥ ـ أضعف النجوم المعروفة هى نجم (وولف) ونوره جزء من عشرين جزءا من نور الشمس ،

ونور النجم (دورادوس) يساوى ثلثمائة ألف ضعف بالنسبة للنور المنبثق من الشمس . وأصغر النجوم هو نجم (فان مانن) وحجمه كحجم الأرض وأكبر النجوم الجوزاى ، وهى أكبر من الشمس خمسة وعشرين مليون مرة ونسبة نورها إلى نور الشمس كنسبة نور المصابيح الكهربائية إلى نور حشرة (الحباحب) .

١٦ - إن الشمس تخرج أشعة تعادل قوتها خمسين حصاناً من كل بوصة مربعة ، وبعض النجوم التى هى أعظم من الشمس تشع نورا من البوصة المربعة يساوى قوة ثلاثين ألف حصان لكل بوصة مربعة .

١٧ - إن الشمس تفقد كل يوم من المادة بسبب خروج الأشعة منها ما يساوى ٢٥٠ مليون طن فى الدقيقة ، ففى اليوم تفقد ٣٦٠ ألف مليون طن .

١٨ - يظن أن عمر الشمس الآن عشرة آلاف مليون سنة ، ويمكن أن تعيش ملايين السنين دون أن تنطفىء .

١٩ - عمر الأجرام الفلكية يختلف من خمسة آلاف مليون سنة إلى عشرة آلاف مليون سنة أ. هـ .

فهذه هى الكلمات الإلهية التى أدهشت الألباب ، وضاعت الأعمار فى البحث عن علم شىء منها ، ولا يزال الناس فى عماية من أمرها ، ولم يصلوا إلا إلى معرفة القليل كما قال تعالى : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١) .

قوله تعالى : **﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليَّ أنَّما إلٰهكم إلٰه واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾** :

روى الطبرانى بسنده عن عمرو بن قيس الكوفى أنه سمع معاوية بن أبى سفيان أنه قال : هذه آخر آية أنزلت فى سورة الكهف .

يقول الله تعالى لرسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه (قل) لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم (إنما أنا بشر مثلكم) فمن زعم أنى كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإنى لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضى عما سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذى القرنين مما هو مطابق فى نفس الأمر لولا ما أطلعنى عليه وإنما أخبركم **﴿ أنما إلٰهكم ﴾** الذى أدعوكم إلى عبادته **﴿ إله واحد ﴾** لا شريك له .

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أى ثوابه وجزاءه الصالح **﴿ فليعمل عملا صالحاً ﴾** ما كان موافقا لشرع الله **﴿ ولايشرك بعبادة ربه أحداً ﴾** وهو الذى يراد به وجه الله وحده لا شريك له .

وهذان ركنا العمل المتقبل ، لابد أن يكون خالصاً لله ، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ .

---

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .

وقد روى ابن أبى حاتم من حديث معمر عن عبد الكريم الجزرى عن طاوس قال : قال رجل « يا رسول الله إنى أقف المواقف أريد وجه الله وأحب أن يرى موطنى فلم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئا حتى نزلت هذه الآية ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ » .

روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : (من سمّع سمّع الله به ، ومن يرائى يرائى الله به)[١] .

أى من عمل عملاً مراءاة للناس ، وليشتهر به شهّره الله به يوم القيامة .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله تبارك وتعالى يقول : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشِرْكَه »[٢] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن أبيه عن جده قال : (كنا نتناوب رسول الله ﷺ فنبيت عنده تكون له الحاجة أو يطرقه أمر من الليل فيبعثنا ، فكثر المحبوسون وأهل النوب ، فكنا نتحدث فخرج علينا رسول الله ﷺ فقال : (ما هذه النجوى ؟) قال : فقلنا : تبنا إلى الله أى نبى الله ، إنما كنا فى ذكر المسيح وفرقنا منه . فقال : ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم من المسيح عندى ؟ قال : قلنا بلى . قال : « الشرك الخفى أن يقوم الرجل ليصلى لمكان الرجل)[٣] .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا عبد الحميد يعنى ابن بهرام قال : قال شهرُ بن حوشب : قال ابن غنم لما دخلنا مسجد الجابية أنا وأبو الدرداء لقينا عبادة ابن الصامت فأخذ يمينى بشماله ، وشمال أبى الدرداء بيمينه ، فخرج يمشى بيننا ونحن نتناجى والله أعلم بما نتناجى به ، فقال عبادة ابن الصامت : إن طال بكما عمر أحدكما أو كليكما لتوشكان أن تريا الرجل من ثبج المسلمين يعنى من وسط قراء القرآن على لسان محمد ﷺ فأعاده وأبداه ، وأحل حلاله وحرم حرامه ، ونزله عند منازله لا يجوز فيكم إلا كما يجوز رأس الحمار الميت .

قال : فبينما نحن كذلك إذ طلع شداد بن أوس رضى الله عنه ، وعوف بن مالك فجلسا إلينا ، فقال شداد : إن أخوف ما أخاف عليكم أيها الناس لما سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من الشهوة الخفية والشرك)[٤] فقال عبادة بن الصامت وأبو الدرداء : اللهم غفرا ، ألم يكن رسول الله ﷺ قد حدثنا أن الشيطان قد يئس أن يعبد فى جزيرة العرب . أما الشهوة الخفية فقد عرفناها ، هى شهوات الدنيا من نسائها وشهواتها ، فما هذا الشرك الذى تخوفنا به يا شداد ؟؟ فقال شداد : أرأيتكم لو رأيتم رجلا يصلى لرجل أو يصوم لرجل أو يتصدق أترون أنه قد أشرك ؟ قالوا : نعم والله ، إن من صلى أو صام أو تصدق له لقد أشرك . فقال شداد : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من صلى يرائى فقد أشرك ، ومن

---

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٣٦ ، وفى الأحكام : ٩ . ومسلم فى الزهد : ٤٧ ، ٤٨ . والترمذى فى النكاح : ١١ . وفى الزهد : ٤٨ . وابن ماجة فى الزهد : ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٠ ، وفى ٥ : ٤٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ . والإمام فى الزهد : ٢١ .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى الزهد : ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣٠ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٢٦ .

صام يرائى فقد أشرك ، ومن تصدق يرائى فقد أشرك)[١] . قال عوف بن مالك عند ذلك : أفلا يعمد الله إلى ما ابتغى به وجهه من ذلك العمل كله فيقبل ما خلص له ، ويدع ما أشرك به ، فقال شداد عند ذلك : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بى من أشرك بى شيئاً فإن عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به ، أنا عنه غنى)[٢] .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن عبادة بن نسى عن شداد بن أوس رضى الله عنه أنه بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال شىء سمعته من رسول الله ﷺ فأبكانى سمعت رسول الله ﷺ يقول (أتخوف على أمتى الشرك والشهوة الخفية) .

قلت : يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك قال : (نعم أما إنهم لا يعبدون شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً ، ولكن يراءون بأعمالهم والشهوة الخفية أن يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوة من شهواته فيترك صومه)[٣] .

ورواه ابن ماجة من حديث الحسن بن ذكران .

وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يقول الله يوم القيامة أنا خير شريك من أشرك بى أحدا فهو له كله) .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ يرويه عن الله عز وجل أنه قال (أنا خير الشركاء فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى فأنا برىء منه وهو للذى أشرك)[٤] .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر) قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال : (الرياء يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى ، وكان من الصحابة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

(إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك) أخرجه الترمذى وابن ماجة .

وروى الإمام أحمد بإسناده عن أبى بكرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من سمَّع سمع الله به ومن راءى راءى الله به) .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله ﷺ قال : (من يرائى يرائى الله به ومن يسمع يسمع الله به) .

---

(١) اخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٢٦ .
(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .
(٣) اخرجه الأيمام احمد فى : ١٢٤ .
(٤) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تعرض أعمال بنى آدم بين يدى الله عز وجل يوم القيامة فى صحف مختمة فيقول الله : ألقوا هذا : واقبلوا هذا ، فتقول الملائكة : يا رب والله ما رأينا منه إلا خيرا . فيقول : إن عمله كان لغير وجهى ولا أقبل اليوم من العمل إلا ما أريد به وجهى) .

وروى الحافظ أبو يعلى بإسناده عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أحسن الصلاة حيث يراه الناس وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل) .

وروى الحافظ أبو بكر البزار بإسناده عن عمر بن الخطاب قال قال رسول الله ﷺ : (من قرأ فى ليلة : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه** ﴾ الآية . كان له من النور ما بين عدن إلى مكة حشو ذلك النور الملائكة) .

سورة مريم

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

هذه السورة مكية إجماعياً ، وعدد آياتها تسع وتسعون ، وكلماتها ألف ومائة واثنتان وتسعون ، وحروفها ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنان .

ولهذه السورة إسمان : سورة كهيعص لافتتاحها بها ، وسورة مريم لاشتمالها على قصتها مفصلة .

مقصود السورة

معظم المراد منها على سبيل الإجمال ، وعد الله العباد بالكناية والهداية ، وإجابة دعاء زكريا والمنة عليه بولد : يحيى ، وإعطائه علم الكتاب ، وذكر عجائب ولادة عيسى وأمه ، والخبر عن أحوال القيامة .

ونصيحة إبراهيم لآزر ، ومناظرة آزر له .

والإشارة إلى قربة موسى ، وذكر صدق وعد إسماعيل ، وبيان رفعة درجة إدريس ، والشكوى من الولد الخلف ، وحكاية أهل الجنة ، وذل الكفار فى القيامة ، ومرور الخلق على عقبة الصراط ، وابتلاء بعضهم بالعذاب .

والرد على الكفار فى افتخارهم بالمال ، وذل الأصنام . وعبادها فى القيامة .

وبيان حال أهل الجنة والنار وصعوبة قول الكفار فى جرأتهم على إثبات الولد والشريك للواحد القهار ، والمنة على الرسول بتيسير القرآن على لسانه ، وتهديد الكفار بعقوبة القرون الماضية ، فى قوله : **﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾** .

المتشابهات

قوله تعالى :

﴿ ولم يكن جباراً عصيا ﴾ .

وبعده :

﴿ ولم يجعلنى جباراً شقياً ﴾ .

لأن الأول فى حق يحيى ، وجاء فى الحديث : (ما من أحد من بنى آدم إلا أذنب أو هم بذنب إلا يحيى بن زكريا ، عليهما السلام) ، فنفى عنه العصيان .

والثانى فى حق عيسى عليه السلام ، فنفى عنه الشقاوة ، وأثبت له السعادة ، والأنبياء معصومون من الذنوب .

قوله تعالى : ﴿ **وسلام عليه يوم ولد** ﴾ فى قصة يحيى ﴿ **والسلام علىّ** ﴾ فى قصة عيسى ، فنكر فى الأول ، وعرف فى الثانى ، لأن الأول من الله تعالى والقليل منه كثير ، كقول القائل : قليل منك يكفينى ولكن قليلك لا يقال له قليل ولهذا قرأ الحسن ﴿ **اهدنا صراطاً مستقيما** ﴾ أى نحن راضون منك بالقليل .

والثانى من عيسى ، والألف واللام لاستغراق الجنس ، وقيل إنما أدخل الألف واللام ، لأن النكرة إذا تكررت تعرفت .

وقيل : نكرة الجنس ومعرفته سواء ، تقول : لا أشرب ماء ، ولا أشرب الماء ، فهما سواء .

قوله : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا** ﴾ وفى حم ﴿ **للذين ظلموا** ﴾ لأن الكفر أبلغ من الظلم .

وقصة عيسى فى هذه السورة مشروحة ، وفيها ذكر نسبتهم إياه إلى الله تعالى حين قال : ﴿ **ما كان لله أن يتّخذ مِن ولدٍ** ﴾ فذكر بلفظ الكفر ، وقصته فى الزخرف مجملة ، فوصفهم بلفظ دونه وهو الظلم .

قوله تعالى : ﴿ **وعمل صالحاً** ﴾ وفى الفرقان ﴿ **وعمل عملاً صالحاً** ﴾ ، لأن ما فى هذه السورة أوجز فى ذكر المعاصى ، فأوجز فى التوبة ، وأطال (هناك فأطال) ، والله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ (٢) إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّى
وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن
وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ
رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا (٩) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ
ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ
إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١) يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢)
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَٰمٌ

عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

مناسبتها لمـا قبلها

ومناسبتها لسورة الكهف أنها اشتملت على نحو ما اشتملت عليه من أعاجيب القصص ، كقصة ولادة يحيى ، وقصة ولادة عيسى عليهما السلام .

المفردات : ﴿ **زكريا** ﴾ : (يمد ويقصر) من ولد سليمان بن داود عليهم السلام وكان نجارا . ﴿ **نادى ربه** ﴾ : أى دعاه . ﴿ **خفيا** ﴾ : أى مستوراً عن الناس لم يسمعه أحد منهم . ﴿ **وهن العظم** ﴾ : ضعف ورق من الكبر .. إذ قد بلغ خمساً وسبعين سنة أو ثمانين . ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾ : أى صار الشيب كالنار والشعر كأنه الحطب ولقوتها وشدتها أحرقت الرأس نفسه . ﴿ **شقياً** ﴾ : يقال شقى بكذا : أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده منه والمراد أنه خائب غير مستجاب الدعوة .

﴿ **الموالى** ﴾ : هم عصبة الرجل . ﴿ **من ورائى** ﴾ : أى من بعدى ويقال رجل عاقر وامرأة عاقر إذا كانا عقيمين . ﴿ **ولياً** ﴾ : أى ولداً من صلْبى . ﴿ **ويعقوب** ﴾ : هو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم وكان زكريا متزوجا أخت مريم بنت عمران . ﴿ **رضيا** ﴾ : أى مرضيا عندك قولا وفعلا . ﴿ **سميا** ﴾ : أى شريكاً له فى الاسم فلم يسم أحد بهذا الاسم قبله . ﴿ **أنى** ﴾ : أى كيف . ﴿ **عتيا** ﴾ : من عتا يعتو : أى يبست مفاصله وعضامه . ﴿ **شيئاً** ﴾ : أى موجوداً . ﴿ **آية** ﴾ : علامة . ﴿ **سوياً** ﴾ : أى سوى الخلق سليم الجوارح ليس به بكم ولا خرس . ﴿ **المحراب** ﴾ : المصلى . ﴿ **أوحى** ﴾ : أى أومأ وأشار . ﴿ **سبحوا** ﴾ : أى صلوا . ﴿ **بكرةً وعشيا** ﴾ : صلاة الفجر والعصر . ﴿ **الكتاب** ﴾ : هو التوراة . ﴿ **والقوة** ﴾ : الجد والاجتهاد . ﴿ **والحكم والحكمة** ﴾ : الفقه فى الدين . ﴿ **وحنانا** ﴾ : أى عطفاً على الناس . ﴿ **وزكاة** ﴾ : أى طهارة من الذنوب والآثام . ﴿ **تقياً** ﴾ : أى مطيعاً لأمر ربه منتهياً عما نهى عنه . ﴿ **وبراً بوالديه** ﴾ : أى كثير البر والإحسان إليهما . ﴿ **جباراً** ﴾ : أى متعالياً عن قبول الحق والإذعان له . ﴿ **عصياً** ﴾ : أى مخالفاً أمر مولاه . ﴿ **سلام** ﴾ : أى أمان من الله عليه .

روى محمد بن إسحق فى السيرة من حديث أم سلمة ، وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود فى قصة الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة : أن جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قرأ صدر هذه السورة على النجاشى وأصحابه .

قوله تعالى : ﴿ **كهيعص** ﴾ : حروف هجائية تشير إلى إعجاز هذا القرآن العظيم الذى نزل بها : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾[1] .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

قوله تعالى : ﴿ **ذكر رحمت ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفياً** ﴾ : أى مما نقصه عليك فى هذا الكتاب يا محمد ، ذكر رحمة ربك عبده ونبيه زكريا ، حين نادى ربه ودعاه نداء ودعاء خفياً .

وإنما أخفى دعاءه لأنه أدل على الإخلاص وأبعد من الرياء ، وأقرب إلى الخلاص من لائمة الناس على طلب الولد ، وقت الكبر والشيخوخة ، فماذا قال زكريا فى دعائه ؟

﴿ **قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً * وإنى خفتُ الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً** ﴾ .

أى ضعفت وخارت القوى ﴿ **واشتعل الرأس شيباً** ﴾ أى اضطرم المشيب فى السواد ، والمراد من هذا الإخبار عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة .

﴿ **ولم أكن بدعائك رب شقياً** ﴾ لأنك لم ترد دعوتى كما عهدتك سميعاً مجيباً قريباً تجيب المضطر إذا دعاك ، وتكشف السوء عمن ناداك .

قوله تعالى : ﴿ **وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً** ﴾ .

أى خشيت العصبات من بعدى أن يغيروا ويبدلوا فى ميراث النبوة ، فأسألك ولداً صالحاً يرثنى ويرث من آل يعقوب ويقوم على ميراث النبوة قياماً صحيحاً مستقيماً ﴿ **واجعله رب رضياً** ﴾ أى مرضياً عندك وعند خلقك ، تقياً نقياً ، لا جباراً ولا عصياً ولا شقياً .

قوله تعالى : ﴿ **يا زكريا إنَّا نبشِّرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً** ﴾ .

أى فاستجاب الله له وأجاب دعاءه ، فبشرته الملائكة بغلام اسمه يحيى ، وذلك كقوله جل شأنه فى سورة آل عمران ﴿ هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمةٍ من الله وسيداً وحصوراً ونبياً من الصالحين ﴾(١) .

وقوله : ﴿ **لم نجعل له من قبل سمياً** ﴾ : أى لم نسم أحداً قبله بهذا الاسم .

﴿ **قال ربى أنَّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً** ﴾ .

أى على أى وضع ، وعلى أية حال سيولد لى ، هل سأعود شاباً وتعود امرأتى كذلك ، أم ستهب لنا الغلام ونحن على ما نحن عليه من كون امرأتى عاقراً ، ومن كونى قد طعنت فى السن ، ووهن العظم منى واشتعل الرأس شيباً ، إذاً فلم يكن هذا الاستفهام استفهام استبعاد شىء عن قدرة الله ، بل كان استفهاماً عن الحال التى سيكون عليها عندما يرزق الغلام ، لذا جاء الرد ﴿ **قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** ﴾ .

أى الشأن والأمر كما أراد الله فإن الله لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وإن الذى

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة آل عمران .

أوجدك من العدم قادر أن يهبك الغلام ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير ﴾(١)

وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً .

﴿ قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألَّا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً * فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً ﴾ :

أي اجعل لي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني ، لتستقر نفسي ويطمئن قلبي بما وعدتني ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾(٢) .

﴿ قال آيتك ﴾ : أي علامتك **﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليالٍ سوياً ﴾** أي أن تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال ، وأنت صحيح سوى من غير مرض ولا علة .

قال بعض المفسرين : اعتقل لسانه من غير مرض ولا علة .

وقال زيد بن أسلم : كان يقرأ ويسبح ، ولا يستطيع أن يكلم قومه إلا إشارة .

كما قال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ قال رب اجعل لي آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاثة أيام إلَّا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار ﴾(٣) .

﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ : أي الذي جاءته البشرى فيه ، فأشار إلى قومه إشارة موحية بالأمر لهم أن يسبحوا بكرة وعشيا ، طرفي النهار : أوله وآخره .

وقد كان أخبرهم بما بشر به قبل وجود الآية ، فلما تعذر عليه الكلام ، أشار إليهم بحصول ما بشر به من ذلك الأمر العجيب ، في مجرى العادة ، فسروا به .

قوله تعالى : **﴿ يا يحيى خُذ الكتاب بقوةٍ وآتيناه الحكم صبياً * وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً * وبَراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً * وسلام عليه يوم ولِدَ ويومَ يموتُ ويومَ يُبْعث حياً ﴾** :

أي فلما ولد له هذا الغلام ، وبلغ مبلغ العقلاء ، قلنا له : يا يحيى خُذ الكتاب بقوة ، أي التوراة بقوة وعزيمة وجد وحرص واجتهاد ، **﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾** : أي الفهم والعلم والجد والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث .

قال عبد الله بن المبارك قال معمر قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب فقال : ما للعب خلقنا . قال : فلهذا أنزل الله **﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾** .

وقوله تعالى : **﴿ وحنانا من لدنا ﴾** أي رحمة من عندنا ، وزكاة أي طهراً ونقاء وكان تقياً يخاف ربه ويخشاه .

---

(١) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الشورى .
(٢) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٤١ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً ﴾ : وهذا أثر من آثار رحمة الله به ، فقد كان براً وفياً رحيماً مطيعاً لوالديه ، كما وهبه الله من الزكاة والطهر والصفاء والنقاء والتقوى ولم يكن جباراً ولا غليظاً ولا فظاً ، ولم يكن عصياً متمرداً على حدود الله ، وسلامٌ عليه من الله يوم ولد ، وأمان وسكينة عليه يوم يموت ، ورحمة ونجاة له يوم يبعث حياً ، وكذلك نجزى المحسنين .

قصـــة مريم

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ
حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ
إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ
لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ
ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

المفردات : ﴿ **انتبذت** ﴾ : أى اعتزلت وتنحت . ﴿ **مكاناً شرقياً** ﴾ : أى شرقى بيت المقدس . ﴿ **حجاباً** ﴾ : أى ساتراً توارت به منهم . ﴿ **روحنا** ﴾ : هو جبريل عليه السلام . ﴿ **سوياً** ﴾ : أى سوى الخلق كامل البنية . ﴿ **أعوذ** ﴾ : أى أعتصم وألتجىء . ﴿ **تقياً** ﴾ : أى مطيعاً . ﴿ **لأهب لك** ﴾ : أى لأكون سبباً فى هبته . ﴿ **غلاماً** ﴾ : أى ولداً ذكراً . ﴿ **زكياً** ﴾ : أى طاهراً من الأدناس والأرجاس . ﴿ **أنى** ﴾ : أى كيف يكون ذلك . ﴿ **آية** ﴾ : أى علامة على قدرة خالقكم . ﴿ **مقضياً** ﴾ : أى محتوماً قد تعلق به قضاؤنا الأزلى .

بعد أن ذكر زكريا عليه السلام ، وأنه أوجد منه فى حال كبره وعقم زوجه ولداً زكياً مباركاً ، أردف ذلك بذكر قصص مريم ، وأنه أنجب منها ولداً من غير أب ، وبين القصصين مناسبة ظاهرة ، ومن ثم ذكرهما مقترنين فى سورة آل عمران ، وهنا ، وفى الأنبياء .

وبدأ بقصة يحيى لأن خلق الولد من شخصين فانيين أقرب إلى مناهج العادات ، من خلق الولد بلا أب ، ثم ثَنَّى بقصة عيسى لأنها أغرب من تلك .

ومن حسن طرق التعليم والتفهيم والتدرج بالانتقال من الأقرب منالاً إلى أصعب منه ، وهكذا صُعُدا .

﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ .

أى واتل أيها الرسول فى كتاب الله الذى أنزله إليك بالحق ، قصص مريم ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها ، وانفردت عنهم إلى مكان شرقى بيت المقدس لتتخلى للعبادة .

وعن ابن عباس أنه قال : إنى لأعلم خلق الله لأى شىء اتخذ النصارى المشرق قبلة لقوله تعالى : ﴿ إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام قبلة ؟ .

﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ :

أى فاتخذت من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس ، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليكلمها بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب ، إذ ربما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسىً وغماً ، وإنما مَثل لها بهذا المثال ، لتأنس بكلامه ، وتتلقى منه ما يلقى إليها من كلماته ، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لنفرت ، ولم تستطع محاورته .

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال :

﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾ :

أى فلما رأته فزعت منه وقالت : إنى أستجير بالرحمن منك أن تنال منى ما حَرَّمَ الله عليك ، إن كنت ذا تقوى له . تتقى محارمه ، وتجتنب معاصيه ، فمن يتق الله يجتنب ذلك .

إنه لما تبدى لها فى صورة البشر وهى فى مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب خافته وظنت أنه يريدها على نفسها ، فقالت : إنى أعوذ بالله منك إن كنت تخافه . وقد فعلت المشروع فى الدفع وهو أن يكون بالهوينى والأسهل فالأسهل .

وخلاصة ذلك : أن الاستعاذة لا تؤثر إلا فى التقى ، لأن الله تعالى يُخشى فى حال دون حال ، فهو كقوله : ﴿ وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾[1] أى أن الإيمان يوجب ذلك .

فلما علم جبريل خوفها :

﴿ قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾ : أى فقال الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها ، لست ممن تظنين ، لا يقع منى ما تتوهمين من الشر ، ولكنى رسول ربك بعثنى إليك ، لأهب لك غلاماً طاهراً مبرأ من العيوب ، وقد أضاف الهبة إلى نفسه من قبل أنها جرت على يده بأن نفخ فى جيبها بأمر الله .

ولما عجبت مريم مما سمعت :

﴿ قالت أنَّى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغياً ﴾ :

(١) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة

أى قالت لجبريل : من أى وجه يكون لى غلام ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور منى الفجور ؟

﴿ قال كذلك قال ربك هو علىَّ هين ﴾ : أى قال الملك مجيباً لها عما سألت : إن الله قد قال : إنه سيوجد منك غلام وإن لم تكونى ذات بعل ولا تقترفين فاحشة فإنه تعالى على ما يشاء قدير ، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده ، ولا يحتاج فى إنشائه إلى المواد والآلات .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾(١) .

﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ : أى وفعلنا ذلك لنجعل خلقه برهاناً على قدرتنا ، فلقد خلقنا أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلقنا عيسى من أنثى فحسب ، وخلقنا بقية الذرية من ذكر وأنثى ، وإلى الأولين أشاد القائل :

رُبّ مولود وليس له أب   وذى ولد لم يلده أبوان

﴿ ورحمة منا ﴾ : أى ورحمة من الله لعباده ، إذ بعثه نبيا يدعو إلى عبادته وتوحيده ﴿ وكان أمراً مقضياً ﴾ أى قد قضاه الله فى سابق علمه ، ومضى به حكمه ، فلا يغير ولا يبدَّل : ﴿ ما يبدَّل القول لدى وما أنا بظلَّامٍ للعبيد ﴾(٢) .

*فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

المفردات : ﴿ فانتبذت ﴾ : أى فاعتزلت ، ﴿ قصياً ﴾ : أى بعيداً عن أهلها وراء الجبل ، ﴿ فأجاءها المخاض ﴾ : أى فاجأها واضطرها ، ﴿ والمخاض ﴾ : الطلق حين تحرك الولد للخروج من البطن . ﴿ والنسى ﴾ : (بفتح النون وكسرها) الشىء الحقير الذى من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل . ﴿ والمنسى ﴾ : مالا يخطر بالبال لتفاهته ، ﴿ والسرى ﴾ : السيد الشريف ، ﴿ والهز ﴾ : تحريك الشىء بعنف أو بدونه . ﴿ تساقط ﴾ : أى تسقط . ﴿ رطباً ﴾ : أى بسراً ناضجاً . ﴿ جنيا ﴾ : أى صالحاً للاجتناء . ﴿ فقولى ﴾ : أى أشيرى إليهم . ﴿ صوماً ﴾ : أى صمتاً .

(١) الآية ٤٧ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٢٩ من سورة ق .

﴿ فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً ﴾ : أى فلما قال لها جبريل ما قال استسلمت لقضاء الله ، فنفخ جبريل فى درعها ، فدخلت النفخة فى جوفها فحملته ، قاله ابن عباس .

وقال غيره : نفخ فى كمها والقرآن قد أثبت النفخ فقال : ﴿ فنفخنا فيها من روحنا ﴾(١) .

ولم يعين موضع النفخ ، فلا نجزم بشيء من ذلك إلا بالدليل القاطع . وحينئذ اعتزلت بالذى حملت وهو عيسى عليه السلام فكان قصياً عن الناس .

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل ، فنقول أنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره ، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنها حينئذ إذ لا تتعلق به كبير فائدة .

إنما اتخذت المكان البعيد حياء من قومها ، وهى من سلائل بيت النبوة ، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة ، فرأت أن لا تراهم وأن لا يروها .

﴿ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ :

أى فألجأها وجع الولادة وألم الطلق أن تستند إلى جذع النخلة للتشبث به ، لسهولة الولادة ، وتمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الوقت الذى لقيت فيه ما لقيت حياء من الناس ، وخوفا من لائمتهم ، أو كانت شيئا لا يعتد به ولا يخطر ببال أحد من الناس .

﴿ فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعلَ ربُك تحتكِ سرياً ﴾ :

أى فناداها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصرى ، وسعيد بن جبير .

وقد أنطقه الله حين وضعته تطييبا لقلبها وإزالة للوحشة عنها ، حتى تشاهد بادىء ذى بدء علو شأن ذلك المولود ، الذى بشرها به جبريل عليه السلام ، ألا تحزنى قد جعل ربك المحسن إليك تحتك غلاماً رفيع الشأن ، سامى القدر ، ذا سخاء فى مروءة .

﴿ وهزِّى إليكِ بِجذع النَّخلة تُساقط عليكِ رُطباً جنياً ﴾ :

أى أميلى إليك جذع النخلة واجذبيه بتحريكه ، يُسقط عليك رطباً جنياً تأكلين منه ما تشائين .

وتلك آية أخرى لها ، إذ روى أنها كانت نخلة يابسة لا رأس لها ولا ثمر ، وكان الوقت شتاء ، فأنزل الله لها رزقاً فجعل للنخلة رأساً وخوصاً ، وجعل لها ثمراً رطباً ، وهذه رواية يعوزها الدليل .

وفى هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر أن يثمر النخلة اليابسة فى الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية ، وإلى أن السعى فى الرزق مطلوب ولا ينافى التوكل .

﴿ فكلى واشربى وقرّى عينا ﴾ :

أى فكلى من تلك الرطبة وأشربى من عصيرها ، وطيبى نفسا ، وأبعدى عنك الأحزان ، فإن الله

(١) الآية ٩١ من سورة الأنبياء .

قدير أن ينزه ساحتك ، ويبعد عنك تخرصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنين التى جعلها الله الطريق للولادة فى البشر ، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك ، حتى يثبتوا لك القداسة والطهر .

﴿ فإما ترين من البشرِ أحداً فقولى إنِّى نذَرتُ للرحمنِ صوماً فلن أكلم اليومَ إنسيا ﴾ :

أى فإن رأيت أحداً من بنى آدم يسألك عن أمرك وأمر ولدك وكيف ولدته ، فأشيرى إليهم إنى أوجبت على نفسى لله صمتاً ألا أكلم اليوم أحداً ، فإن كلامى يقبل الرد والجدل ، ولكن يتكلم عنى ذلك المولود الذى لا يقبل كلامه الدفع والرد ، وإنى أنزه نفسى عن مجادلة السفهاء ، ولا أكلم إلا الملائكة أو أناجى الخالق .

وليس الصمت عن الكلام من شريعة الإسلام ، فقد روى أن أبا بكر دخل على امرأة قد نذرت ألا تتكلم فقال : إن الإسلام قد هدم هذا ، فتكلمى .

وروى ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنه جاءه رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر ثم جلسا فقال القوم : ما لصاحبك لم يسلم ؟ قال : إنه نذر صوماً لا يكلم اليوم إنسيا . فقال له ابن مسعود : بئس ما قلت ، إنما كانت تلك المرأة ، قالت ذلك ليكون عذراً لها إذا سئلت ، وكانوا ينكرون أن يكون ولد من غير زوج إلا زنا ، فتكلم وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر فإنه خير لك .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ
أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ
صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ
وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾
وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

المفردات : ﴿ **فريا** ﴾ : أى عظيما خارقاً للعادة وهى الولادة بلا أب . ﴿ **وهارون** ﴾ : هو أخو موسى عليه السلام وقيل هو رجل صالح من بنى إسرائيل والأخت على هذا بمعنى المشابهة وشبهوها به تهكما أو لما رأوا من قبل من صلاحها . ﴿ **والمهد** ﴾ : الموضع يهيأ للصبى ويوطأ له والجمع مهود . ﴿ **الكتاب** ﴾ : الإنجيل . ﴿ **مباركاً** ﴾ : نافعاً للناس أو ثابتاً فى دين الله . ﴿ **الجبار** ﴾ : المتعظم الذى لا يرى لأحد عليه حقاً . ﴿ **والشقى** ﴾ : العاصى لربه .

﴿ فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا ﴾ :

أى إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها ، ولا تكلم أحداً من البشر ، وأنها ستكفى أمرها ، ويقام

بحجتها سلمت أمرها إلى الله ، واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها وأتت به قومها تحمله ، فما رأوها كذلك أعظموا ما رأوا واستنكروا ، وقالوا : يا مريم لقد جئت أمراً عظيماً منكراً ، ثم زادوا تأكيداً فى توبيخها وتعييرها فقالوا : ﴿ **يا أخت هارون ما كان أبوكِ امرأ سوء وما كانت أمكِ بغياً** ﴾ :

أى يا من أنت من نسل هارون أخى موسى ، كما يقال للتميمى يا أخا تميم ، وللمصرى يا أخا مصر ، أو يا من أنت شبيهة بذلك الرجل المسمى بهذا الاسم الذى كنت تقاسين به فى العبادة والزهد ، ما كان أبوك بالفاجر ، وما كانت أمك بالبغىّ ، فمن أين لك هذا الولد ؟

أخرج أحمد ومسلم والترمذى والنسائى عن المغيرة بن شعبة قال : « بعثنى رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا : أرأيت ما تقرءون ﴿ **يا أخت هارون** ﴾ : وموسى قبل عيسى بكذا وكذا . قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم » .

وهذا التفسير النبوى يغنى عن سائر ما روى عن السلف فى ذلك . ﴿ **فأشارت إليه** ﴾ أى فأشارت إلى عيسى أن كلموه ، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق ، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام ، أو اقتصرت على ذلك للمبالغة فى إظهار الآية العظيمة ، وأن هذا المولود يفهم الإشارة ويقدر على العبارة .

﴿ **قالوا كيفَ نُكلم من كان فى المهدِ صبياً** ﴾ : أى قالوا لها متهكمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتهزأ : كيف نكلم من هو صبى فى المهد ولم يعهد فى مثله وهو لم يدرج بعد من حجر أمه أن يكلم أحداً ؟ .

روى أن عيسى لما سمع كلامهم أقبل عليهم ، وترك الرضاع ، وأشار بيمينه ، ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه بجملة صفات :

١ - ﴿ **قال أنا عبد الله** ﴾ : أى إنى عبد الله الذى له صفات الكمال لا أعبد غيره ، وفى هذا إيماء إلى أن من كان لا يتخذ إلها من دونه ولا يستعبده شيطان ولا هوى .

٢ - ﴿ **آتانى الكتاب** ﴾ : أى سينزل على الإنجيل .

٣ - ﴿ **وجعلنى نبياً** ﴾ : أى وسيجعلنى نبيا ، وفى هذا براءة لأمه ، لأن الله لا يصطفى لنبوته أولاد سفاح .

٤ - ﴿ **وجعلنى مباركاً أينما كنتُ** ﴾ : أى سيجعلنى نفاعاً للناس هادياً لهم إلى سبيل الرشاد ، فى أى مكان كنت ، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلاً ، وهى لم تحصل بعد من قبل أنها لما كانت واقعة حتى نزلت منزلة ما قد حصل .

٥ - ﴿ وأوصانى بالصَّلاة والزكاة ما دمتُ حياً ﴾ : أى وأمرنى بالصلاة إذ فى إقامتها وإدامتها على الوجه الذى سنه الدين تطهير للنفوس من الأرجاس ، ومنع لها عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأمرنى بالزكاة بإعطاء جزء من المال للبائس والمحتاج ، لما فى ذلك من تطهر المال ما دمت حيا فى الدنيا .

٦ - ﴿ وبراً بوالدتى ﴾ : أى وجعلنى براً بوالدتى مطيعاً لها محسنا ، وفى هذا رمز إلى نفى الريبة عنها ، إذ لو لم تكن كذلك لما أمر الرسول المعصوم بتعظيمها .

٧ - ﴿ ولم يجعلنى جباراً شقياً ﴾ : أى ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته بعقوق والدتى وعدم البر بها .

٨ - ﴿ والسَّلام علىَّ يومَ وِلدتُ ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴾ : أى والأمنة من الله على فلا يقدر أحد على ضرى فى هذه المواطن الثلاثة ، التى هى أشق ما تكون على العباد .

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم فى المهد ، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التى لو وجدت لتوافرت الدواعى على نقلها تواتراً ، لأنه من المناقب السامية والفضائل التى لها الميزة العظمى بين الناس ، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لفضائله ، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من أحواله ، علمنا أنه لم يوجد .

وأيضاً فاليهود أظهروا عداوته حين ادعى النبوة ، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد ، ولكان تخيلهم فى قتله أعظم ، ومن حيث لم يحصل شىء من هذا علمنا أنه لم يتكلم .

والمسلمون يقولون : كفى إثباتاً لذلك نص القرآن القاطع إلى أن العقل يرشد إليه ، إذ لولا كلامه الذى دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها وربما كان الحاضرون حين كلامه عددا قليلا ، ومن ثم لم يشتهر بينهم وربما لم يحضر اليهود كلامه ولم يسمعوا به .

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ
سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ
هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ
يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ
ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

المفردات : ﴿ **قول الحق** ﴾ : أى قول الصدق الذى لا شبهة فيه . ﴿ **يمترون** ﴾ : أى يشكون ويتنازعون . ﴿ **ما كان لله أن يتَّخِذَ مِن ولدٍ** ﴾ : أى ما ينبغى ولا يصح أن يجعل له ولدا . ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ : أى طريق لا يضل سالكه . ﴿ **الأحزاب** ﴾ : فرق النصارى الثلاث . ﴿ **مشهد** ﴾ : أى شهود وحضور . ﴿ **يوم عظيم** ﴾ : هو يوم القيامة . ﴿ **اليوم** ﴾ : أى فى الدنيا . ﴿ **يوم الحسرة** ﴾ : هو يوم القيامة حين يندم الناس على ما فرّطوا فى جنب الله . ﴿ **قضى الأمر** ﴾ : أى فرغ من الحساب .

﴿ ذلِك عيسى ابن مريم قول الحق الَّذى فيهِ يمترون ﴾ :

أى ذلك الذى فصلت نبوته ، وذكرت مناقبه وأوصافه ، هو عيسى ابن مريم تقول ذلك قول الصدق الذى لا ريب فيه ، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر ، وحاشاه ، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله ، ولا كما تزعم طائفة أخرى أنه هو الله ، ويخلعون عليه من صفات الألوهية ما هو منه براء .

ثم أكد ما دل عليه سابق الكلام من كونه ابنا لمريم لا لغيرها بقوله : ﴿ **ما كانَ لله أن يتَّخِذ مِن ولدٍ** ﴾ :

أى لا يليق بحكمة الله وكمال ألوهيته أن يتخذ الولد ، لأنه لو أراده لخلقه بقوله : ﴿ **كُنْ** ﴾ : فلا حمل ولا ولادة ، ولأن الولد إنما يرغب فيه ليكون حافظاً لأبيه يعوله وهو حى ، وذكراً له بعد الموت ، والله تعالى لا يحتاج إلى شىء من ذلك .

والعالم كله خاضع له لا حاجة له إلى ولد ينفعه ، وهو حى أبداً .

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال : ﴿ **سُبحانه** ﴾ : أى تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره .

ثم ذكر علة هذا التنزيه وبيان الوجه فيه فقال :

﴿ إذَا قضى أمراً فإنَّما يقول لَهُ كُنْ فَيكون ﴾ :

أى إذا أراد شيئاً فإنَّما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[١] .

ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد ، لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج .

﴿ **وإن الله ربِّى ورَبُّكمْ فاعبُدوه** ﴾ : أى ومما أمر به عيسى وهو فى مهده أن أخبرهم بقوله : إن الله ربى وربكم ، وأمرهم بعبادته .

(١) الآية ٥٩ من سورة آل عمران .

﴿ هَذَا صِراط مستقيم ﴾ : أى هذا الذى أوصيتكم أن الله أمرنى به هو الطريق المستقيم ، فمن سلكه نجا ، ومن اتبعه اهتدى ، لأنه هو الدين الذى أمر به الأنبياء . من خالفه ضل وغوى ، وسلك سبيل الردى .

ثم أشار إلى أنه مع وضوح الأمر فى شأن عيسى ، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، اختلفوا فيه كما قال :

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ .

أى فاختلف قوم عيسى فى شأنه فرقا ثلاثا :

فقالت اليعقوبية : (نسبة إلى عالم منهم يسمى يعقوب) هو الله هبط إلى الأرض ، ثم صعد إلى السماء ، وقالت النسطورية (نسبة إلى عالم يسمى نسطور) هو ابن الله أظهره ما شاء ثم رفعه إليه ، وقالت المكانية (نسبة إلى الملك قسطنطين وكان فيلسوفا عالماً) إنه عبد الله كسائر خلقه ، وهذا الرأى هو الذى نصره الملك ونصره غيره من شيعته ، ثم توعد من كذب على الله وافترى ، وزعم أن له ولدا فقال :

﴿ فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ﴾ : أى فعذاب شديد للكافرين من شهود ذلك اليوم ، وهو يوم القيامة لشدة بأسه وعذابه ، فالأيدى والأرجل والألسن تشهد على أصحابها وقد أجل الله عقابهم إلى هذا اليوم حلما منه وثقة بقدرته عليهم ، فهو لا يعجل عقوبة من عصاه كما جاء فى الصحيحين : (أن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[١] .

ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] .

وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال :

(لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله أنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم)[٣] .

ثم عجب ربنا من قوة سمع الكفار ، وحدّة أبصارهم يوم القيامة ، وقد كانوا على الضد من هذا فى الدنيا . فقال :

﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ﴾ .

أى لئن كان هؤلاء الكفار الذين جعلوا لله أنداداً ، وزعموا أن له ولدا ، عمياً فى الدنيا عن إبصار

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ ، ومسلم فى البر : ٦٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ١١ : ٢ .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ٧١ ، وفى التوحيد : ٣ ، ومسلم فى المنافقين : ٤٩ ، ٥٠ ، والإمام أحمد فى : ٤ : ٣٩٥ ، ٤٠١ ، ٤٠٥ .

الحق ، والنظر إلى حجج الله التى أودعها فى الكون . دالة على وحدانيته ، وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، صماً عن سماع آى كتبه ، وما دعتهم إليه الرسل مما ينفعهم فى دينهم ودنياهم ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

فما أسمعهم يوم قدومهم على ربهم فى الآخرة ، وما أبصرهم حينئذ حيث لا يجدى السماع والإبصار شيئاً ، ويعضون على أناملهم حسرة وأسفاً ، ويتمنون على الله الأمانى . فيودون الرجوع إلى الدنيا ، ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات هيهات فقد فات الأوان .

ثم أمر سبحانه نبيه أن ينذر قومه والمشركين جميعا ، فقال : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾ .

أى وأنذر الناس جميعاً يوم يتحسر الظالمون على ما فرطوا فى جنب الله ، حين فرغ من الحساب وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، ونودى كل من الفريقين لا خروج من هنا بعد اليوم ، ولا موت بعد اليوم .

روى الشيخان والترمذى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بالموت بهيئة كبش أملح (يخالط بياضه سواد) فينادى منادٍ يا أهل الجنة ، فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : نعم ، هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، ثم ينادى منادٍ : يا أهل النار فيشرئبون وينظرون ، فيقول : هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم : هذا الموت ، وكلهم قد رأوه ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقول : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ، ثم قرأ ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **إذ قضى الأمر** ﴾ أى إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها ، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها بذبح الموت .

وذبحه تصوير ، لأن كلًا من الفريقين يفهم فهما لا لبس فيه أنه لا موت بعد ذلك .

وقوله : ﴿ **وهم فى غفلة** ﴾ : أى عن ذلك اليوم وعن حسراته وأهواله .

وقوله : ﴿ **وهم لا يؤمنون** ﴾ : أى وهم لا يصدقون بالقيامة والبعث ، ومجازاة الله لهم على سيء أعمالهم ، بما أخبر أنه مجازيهم به ، ثم سلى رسوله وتوعد المشركين . فقال :

﴿ **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** ﴾ .

أى لا يحزنك أيها الرسول تكذيب المشركين لك فيما أتيتهم به من الحق . فإن إلينا مرجعهم ومصيرهم ومصير الخلق أجمعين ، ونحن وارثوا الأرض ومن عليها من الناس بعد فنائهم ، ثم نجازى

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٩ : ١ ، ومسلم فى الجنة : ٤ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٢ ، والدارمى فى الرقاق : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٧٧ ، ٤٢٣ ، ٥١٣ ، وفى ٣ : ٩ .

كل نفس بما عملت حينئذ ، فنجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب .

قصة إبراهيم مع أبيه

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ
مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ
أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ
عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا
لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

المفردات

﴿ **واذكر فى الكتاب** ﴾ : أى اتل فى هذه السورة .

﴿ **صدّيقا** ﴾ : أى مبالغاً فى الصدق لم يكذب قط .

﴿ **صراطا سويا** ﴾ : أى طريقا مستقيما موصلاً إلى نيل السعادة .

﴿ **وليا** ﴾ : أى قرينا تليه ويليك فى العذاب .

﴿ **أراغب أنت عن آلهتى** ﴾ : أى أكاره لها .

﴿ **لأرجمنك** ﴾ : أى لأشتمنك باللسان أو لأرجمنك بالحجارة .

﴿ مليا ﴾ : أى دهرا طويلا .
﴿ حفيا ﴾ : أى مبالغا فى برى وإكرامى يقال : حفى به إذا اعتنى بإكرامه .
﴿ شقيا ﴾ : أى خائب المسعى .
﴿ لسان صدق ﴾ : أى ثناء حسنا .

قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ :

أى اذكر لهم يا محمد شأن إبراهيم ، وهو النبى الذى رزقه الله إسماعيل وإسحاق ، وهو الذى يدّعى العرب أنه جدهم ، اذكر لهم أنه كان صديقا عظيم الصدق ، وكان نبياً أوحى الله إليه بشريعة التوحيد ، وعقيدة التنزيه والإخلاص ، فهل يليق بالأحفاد أن يخالفوا دين جدهم الأكبر .

اذكر لهم شأن هذا النبى مع أبيه إذ قال لأبيه : **﴿ يا أبت لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ﴾** :

وهذا شأن كل معبود من دون الله ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن ولِيِّىَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾[2] .

﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * واغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[3] .

ثم تأمل معى هذا الأدب الرفيع ، وخلق النبوة فى مخاطبة إبراهيم لأبيه ، فلم يشأ أن يصفه بالجهل ، إنما خاطبه بعبارة أرق من النسيم ، وأنضر من صفحة الروض الوسيم . فقال له :

---

(١) الآية ١٤ من سورة فاطر .
(٢) الآيات ١٩٥ ـ ١٩٧ من سورة الأعراف .
(٣) الآيات ٦٩ ـ ٨٩ من سورة الشعراء .

﴿ يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ﴾ .

أي إن كنت أصغر منك سناً ، فإن الله تعالى علمني ما لم تعلمه أنت ، فلا يكن في صدرك حرج من اتِّباعي ، فإن في اتِّباعي هداية لك إلى الصراط السوي المستقيم ، الذي في إتباعه خير الدنيا والآخرة ، وإن في إتباع الهدى فلاح الدارين ، وسعادة الكونين ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ .

فهو مخالف لله عدو للمؤمنين : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ وجل جلال الله إذ يقول :

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن أعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾(١) .

ثم تأمل حرص إبراهيم على سلامة أبيه وهو يخاطبه بلسان الرحمة والرأفة : ﴿ يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾ :

إنه يخاف عليه من مس العذاب ، فما أبَرَّك يا إبراهيم بأبيك ، وما أعظم قلبك الرحيم ، إنه إن مسك عذاب من الرحمن ، وأنت موال للشيطان ، فلن تجد من يدفع عنك العذاب في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

﴿ ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التي تئويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلاَّ إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعوا من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾(٢)

قال تعالى : ﴿ فإذا جاءت الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾(٣) .

فماذا كان جواب أبيه له :

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم * لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا ﴾ .

أي إن كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعيبها ، فإنك إن لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك ، وهو قوله ﴿ لأرجمنك ﴾ قاله ابن عباس والسدي وابن جريج والضحاك وغيرهم .

وقوله : ﴿ واهجرني مليا ﴾ : قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير يعني دهرا ، وقال الحسن البصري : زمانا طويلا ، وقال السدي ﴿ واهجرني مليا ﴾ قال : أبداً .

---

(١) الآيات ٦٠ - ٦٢ من سورة يس .

(٢) الآيات ١٠ - ١٨ من سورة المعارج .

(٣) الآيات ٣٣ - ٣٧ من سورة عبس .

وقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس : ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ قال : سويا سالما قبل أن تصيبك منى عقوبة .

وعندها قال إبراهيم لأبيه : ﴿ **سلام عليك** ﴾ كما قال تعالى فى صفة المؤمنين ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾[٢] .

ومعنى قول إبراهيم لأبيه : ﴿ **سلام عليك** ﴾ : يعنى أما أنا فلا ينالك منى مكروه ولا أذى ، وذلك لحرمة الأبوة ﴿ **سأستغفر لك ربى** ﴾ ولكن سأسأل الله لك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ قال ابن عباس وغيره : لطيفا أى فى أن هدانى لعبادته ، والإخلاص له ، وقال قتادة ومجاهد وغيرهما : ﴿ **إنه كان بى حفيا** ﴾ قال : عوده الإجابة .

وقال السدى : الحفى الذى يهتم بأمره .

وقد استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه مدة طويلة ، وبعد أن هاجر إلى الشام وبنى المسجد الحرام ، وبعد أن ولد له إسماعيل وإسحاق عليهما السلام فى قوله : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾[٣] .

وقد استغفر المسلمون لقراباتهم وأهليهم من المشركين فى ابتداء الإسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل فى ذلك ، حتى أنزل الله تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء** ﴾[٤] :

يعنى إلا فى هذا القول فلا تتأسوا به .

ثم بين تعالى أن إبراهيم أقلع عن ذلك ورجع عنه فقال تعالى : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى** ﴾ :

أى اجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التى تعبدونها من دون الله : ﴿ **وأدعو ربى** ﴾ أى وأعبد ربى وحده لا شريك له .

﴿ **عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً** ﴾ : وعسى هذه موجبة لا محالة ، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

---

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ٤١ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٤ من سورة الممتحنة .
(٥) الآيات ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

قوله تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً * ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾ :

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه فى الله ، أبدله الله من هو خير منهم ، ووهب له إسحاق ويعقوب ، يعنى أنه وابن إسحاق كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ ويعقوب نافلة ﴾(١) وقال : ﴿ ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾(٢) .

ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب ، وهو نص القرآن فى سورة البقرة : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ﴾(٣) .

ولهذا إنما ذكر ههنا إسحاق ويعقوب ، أى جعلنا له نسلا وعقبا أنبياء ، أقر الله بهم عينه فى حياته ، ولهذا قال : ﴿ **وكلاً جعلنا نبيا** ﴾ .

فلو لم يكن يعقوب عليه السلام قد نبىء فى حياة إبراهيم لما اقتصر عليه ، ولذكر ولده يوسف ، فإنه نبى أيضاً ، كما قال رسول الله ﷺ فى الحديث المتفق على صحته حين سئل عن خير الناس فقال : (يوسف نبى الله ابن يعقوب نبى الله ابن إسحاق نبى الله ابن إبراهيم خليل الله)(٤) .

وفى اللفظ الآخر : (أن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق ابن إبراهيم)(٥) .

وقوله : ﴿ **ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾ :

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى الثناء الحسن ، وكذا قال السدى ومالك بن أنس ، وقال ابن جرير : إنما قال ﴿ **عليا** ﴾ لأن جميع الملل والأديان يثنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ذكر موسى وهارون

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ۚ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

(١) الآية ٧٢ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٧١ من سورة هود .

(٣) الآية ١٣٣ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٨ ، والبخارى فى الأنبياء : ٩ ، ١٤ ، ١٩ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، وأبو داود فى الأدب : ١٦ ، والترمذى فى القيامة : ١٠ ، وابن ماجة فى الزهد : ٣٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٠ ، وفى ٥ : ٣٠٩ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ١٩ ، وفى المناقب : ١٣ ، وفى تفسير سورة ١٢ : ١ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٢ : ١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٦ ، ٣٣٢ ، ٤١٦ .

المفردات :

﴿ مخلصاً ﴾ : أى مختارا مصطفى .

﴿ وقربناه ﴾ : أى تقريب تشريف وتكريم .

﴿ والطور ﴾ : هو الجبل الذى بين مصر ومدين .

﴿ ونجياً ﴾ : أى مناجيا مكلما لله بلا واسطة .

﴿ واذكر فى الكتاب موسى ﴾ أى واتل أيها الرسول على قومك ما اتصف به موسى عليه السلام من صفات الجلال والكمال التى سأقصها عليك ، ليستبين لك علو قدره وعظيم شأنه وتلك هى :

١ - ﴿ إنه كان مخلَصا ﴾ : أى أن الله أخلصه واصطفاه وأبعد عنه الرجس وطهره من الذنوب والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾[1] .

٢ - ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ : أى أن الله أرسله إلى الخلق داعيا ومبشراً ونذيراً ، والرسول هو من أرسله الله إلى الناس ومعه كتاب فيه شريعته التى أرسله بها كموسى عليه السلام ، والنبى هو الذى ينبىء عن الله ويخبر قومه عنه ، وليس معه كتاب كيوشع عليه السلام .

٣ - ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن ﴾ : أى وكلمناه من الجانب الأيمن للطور أى الذى عن يمين موسى حين أقبل من مدين متوجها إلى مصر ، وأنبأناه بأنه رسولنا ، ثم واعدناه إليه بعد إغراق آل فرعون ، ورحمنا بنى إسرائيل بإنزال الكتاب عليهم .

٤ - ﴿ وقربناه نجيا ﴾ : أى وقربناه تقريب تشريف وإجلال حين مناجاته لنا ؛ وقد مثل حاله عليه السلام بحال من قربه الملك لمناجاته ، واصطفاه لمصاحبته ، ورفع الوسائط بينه وبينه .

وقصارى ذلك . . إنه تجاوز العالم المادى ، وانغمس فى العالم الروحى ، فقرب من ربه وارتقت نفسه حتى بلغت أقصى مناها ، واستعدت للإطلاع على عالم الملكوت ، ورؤية ما غاب عن عالم المادة .

٥ - ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ : أى ووهبنا له من رحمتنا معاضدة أخيه ومؤازرته ، وإجابة لدعوته عليه السلام بقوله : ﴿ واجعل لى وزيراً من أهلى * هارون أخى ﴾[2] وحققنا ما طلبه له ، وجعلناه نبيا : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾[3] .

قال بعض السلف : ما شفع أحد فى أحد فى الدنيا أعظم من شفاعة موسى فى هارون أن يكون نبيا ، قال ابن عباس : كان هارون أكبر من موسى بأربع سنين .

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

(٢) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة طه .

(٣) الآية ٣٦ من سورة طه .

قصص إسماعيل عليه السلام

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾

قدم الكلام فى موسى على الكلام فى إسماعيل ليكون الحديث عن يعقوب وبنيه فى نسق واحد دون فاصل بينهما ، وإسماعيل هو إسماعيل بن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقد أثنى عليه ربه بما هو أهله ووصفه بصفات هى مفخرة البشر ومنتهى السمو والفضل فى هذه الدنيا .

﴿ واذكر فى الكتاب إسماعيل ﴾ :

أى اتل أيها الرسول على قومك صفات أبيهم إسماعيل علهم يهتدون بهديه ، ويحتذون حذوه ، ويتخلقون بمثل ما له من مناقب وفضائل منها :

١ - ﴿ إنه كان صادق الوعد ﴾ : فما وعد عدة إلا وفى بها ، حتى وعد أباه بالصبر على الذبح فقال ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق فى ذلك ووفى بما قال ، وامتثل حتى جاءه الفداء .

وصدق الوعد من الصفات التى حث عليها الدين ، وشدد فيها أيما تشديد ، فقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾[1] وقال رسول الله ﷺ : (آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان) .

وقد فقدت هذه الصفة من كثير من المسلمين ، فلا تجد عالما ولا جاهلا إلا وهو بمنأى عنها ولا سيما التجار والصناع والعمال .

٢ - ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ :

أى وكان رسولاً إلى جرُهُم الذين حلوا بمكة معه ومع أمه ، وكان مرسلاً من الله بتبليغ شريعة إبراهيم ، منبأ بها قومه وأنذرهم وخوفهم ومن هذا يعلم أن الرسول لا يجب أن ينزل عليه كتاب مستقل .

٣ - ﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾ :

أى أنه بعد أن كمل نفسه اشتغل بتكميل أمته وأقرب الناس إليه ، على نحو ما قاله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[2] وقال : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾[3] وقال : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾[4] .

---

(١) الآية ٢ من سورة الصف .
(٢) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ١٣٢ من سورة طه .
(٤) الآية ٦ من سورة التحريم .

٤ ـ ﴿ وكان عند ربه مرضيا ﴾ : عمله ، محمودا فيما كلفه به ، غير مقصر فى طاعته فاقتد أيها الرسول به ، لأنه من أجل آبائك .

قصص إدريس عليه السلام

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

﴿ واذكر فى الكتاب إدريس ﴾ : بالثناء عليه ، والنسابون يقولون : إنه جد أبى نوح عليه السلام ، ويقولون : إنه أول من خط بالقلم وخاط الثياب ولبس المخيط ، وكانوا قبله يلبسون الجلود ، وأول من نظر فى النجوم وتعلم الحساب . وجعل الله ذلك من معجزاته .

وإن تقادم العهد ، وطول الزمن ، وعدم وجود السند الصحيح الذى يعول عليه فى الرواية يجعلنا فى شك من كل هذا ، فعلينا أن نكتفى بما جاء به الكتاب الكريم فى شأنه ، وقد وصفه الله بجملة صفات كلها مفاخر ومناقب إعظام وإجلال :

١ ـ ﴿ إنه كان صدِّيقا ﴾ تقدم القول فى هذا .

٢ ـ ﴿ نبيا ﴾ تقدم القول فى هذا .

٣ ـ ﴿ ورفعناه مكانا عليا ﴾ : أى أعلينا قدره ورفعنا ذكره فى الملأ .

ونحو هذا قوله لنبيه محمد ﷺ : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾[1] .

ويرى بعض الباحثين فى الآثار المصرية أن إدريس تعريب لكلمة (أوزريس ـ أموريس) وهو الذى ألف له المصريون القدماء رواية خلدت فى بطون تواريخهم ومنها أنه حصل بينه وبين أخيه تحاسد وشقاق أدى إلى قتله وتقطيعه إربا إربا ، فجمعت امرأته تلك القطع وحفظتها وحنطتها . واتخذوه إلها بعد أن كان مصلحا عظيما .

وهذا القصص الخرافى جعل المصريين يعنون بتحنيط الموتى ، وقد أفاد هذا العمل صناعة التحنيط ورقاها حتى صارت مضرب الأمثال فى الخافقين .

وقد كان الملك والدين فى عهد تلك الدولة أمرا واحدا ، فالملك يجمع بين شئون الدين والدنيا ، فمن عصى الملك فقد عصى الله .

ويعتقدون أن أوزيس صعد إلى السماء وصار إلى العالم العلويِ وله عرش عظيم فى السماء ، ويتمتع بأعظم الخيرات . وكل من حفظ جسمه ووزنت أعماله بعد الموت وحكم القضاة وهم إثنان وأربعون قاضيا بأن حسناته غلبت سيئاته يلحق بأوزريس وهذا النبى الذى جعلوه إلها بعد ذلك هو الذى علمهم العلوم والمعارف وينسبون الفضل فى ذلك إليه .

---

(١) الآية ٤ من سورة الشرح .

وقد ارتقت الأمة المصرية فى العلوم والمعارف إلى حد لم تصل إليه أمة أخرى لا فى القديم ولا فى الحديث ، وخدمت النوع البشرى خدمة جليلة ، فارتفاع إدريس إلى السماء راجع إلى رقى تعاليمه وانتفاع أمته بها ، فالنبى بأمته ، ومن ثم تجد آثار أمته بادية للعيان ، بعد أن كانت خافية عن الأنظار .

وبعد أن ذكر الله أولئك المرسلين أخذ يعدد مناقبهم ويذكر صفاتهم فقال :

أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

المفردات :

﴿ **إسرائيل** ﴾ : يعقوب عليه السلام .

﴿ **اجتباه** ﴾ : اصطفاه واختاره .

﴿ **والسجد** ﴾ : واحدهم ساجد .

﴿ **البكىّ** ﴾ : واحدهم باكٍ ويقال بكى يبكى بكاء .

﴿ **وبكيا** ﴾ : قال الخليل : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن أى لا صوت معه .

يقول تعالى هؤلاء النبيون وليس المراد المذكورين فى هذه السورة فقط ، بل جنس الأنبياء عليهم السلام ، استطرد من ذكر الأشخاص إلى الجنس ﴿ **الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم** ﴾ الآية .

قال السدى وابن جرير رحمه الله : فالذى عنى به من ذرية آدم إدريس ، والذى عنى به من ذرية من حملنا مع نوح إبراهيم ، والذى عنى به من ذرية إبراهيم إسحق ويعقوب وإسماعيل ، والذى عنى به من ذرية إسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم .

قال ابن جرير : ولذلك فرق أنسابهم ، وإن كان يجمع جميعهم آدم ، لأن فيهم من ليس من ولد من كان مع نوح فى السفينة وهو إدريس ، فإنه جد نوح .

ومما يؤيد أن المراد بهذه الآية جنس الأنبياء أنها كقوله تعالى فى سورة الأنعام :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له

إسحاق ويعقوب كلًّا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين * وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلًّا فضلنا على العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾[١] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾[٢] .

وفى صحيح البخارى عن مجاهد أنه سأل ابن عباس : أفى صٓ سجدة ؟ فقال : نعم ثم تلا هذه الآية : ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾ فنبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم قال وهو منهم) يعنى داود[٣] .

وقال الله تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا** ﴾ :

أى إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعا واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكى جمع باك فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ههنا اقتداء بهم واتباعا لمنوالهم .

قال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى معمر قال : قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه سورة مريم فسجد وقال : هذا السجود فأين البكى يريد البكاء .

موقف الخلف ومن تاب

قوله تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴿٦١﴾ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا ۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴿٦٢﴾ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴿٦٣﴾

---

(١) الآيات ٨٣-٨٧ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٧٨ من سورة غافر .

(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣٩ ، وفى تفسير سورة ٦ : ٥ ، وسورة ٣٨ : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٦٠ .

المفردات :

﴿ **الخَلْف** ﴾ : (بسكون اللام) عقب السوء ، ويقال لعقب الخير والصدق خلَف (بفتح اللام) .

﴿ **أضاعوا الصلاة** ﴾ : أى تركوها بتاتا .

﴿ **اتبعوا الشهوات** ﴾ : أى انهمكوا فى المعاصى والللذات .

﴿ **غيًّا** ﴾ : أى ضلالاً ، والمراد يلقون جزاءه فى نار جهنم .

﴿ **جنات عدن** ﴾ : أى جنات إقامة ، وهذا وصف لها بالدوام .

﴿ **بالغيب** ﴾ : أى وهى غائبة عنهم .

﴿ **وعده** ﴾ : أى ما وعد به من الجنات .

﴿ **مأتيا** ﴾ : أى يأتيه من وعد به لا محالة .

﴿ **لغوا** ﴾ : أى فضولا من الكلام لا طائل تحته .

﴿ **سلاما** ﴾ : أى سلاما من الله أو من الملائكة .

المعنى الإجمالى والمناسبة

بعد أن ذكر سبحانه حُزب السعداء وهم الأنبياء ومن تبعهم بإحسان ، ممن قاموا بحدود الدين فاتبعوا أوامره ، وأدوا فرائضه وتركوا نواهيه ـ أردف هذا ذكر من خلفهم ممن أضاعوا واجباته ، وأقبلوا على شهوات الدنيا ولذاتها ، وأعقب هذا بذكر ما ينالهم من النكال والوبال فى الآخرة إلا من تاب وأناب ، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولا ينقصه شيئا من جزاء أعماله .

قال مجاهد : نزلت هذه الآية فى قوم من هذه الأمة يتراكبون فى الطرق كما تراكب الأنعام لا يستحيون من الناس ، ولا يخافون من الله فى السماء .

وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم فى جماعة آخرين عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية قال : (يكون خلف بعد ستين سنة أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ، ومنافق ، وفاجر)[1] .

وأخرج أحمد والحاكم وصححه عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : (سيهلك من أمتى أهل الكتاب وأهل اللبن . قلت : يا رسول الله ما أهل الكتاب ؟ قال : قوم يتعلمون الكتاب يجادلون به الذين آمنوا . قلت : وما أهل اللبن ؟ قال : قوم يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات)[2] .

قوله تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾ :

لما ذكر سبحانه حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ، ومن أتبعهم من القائمين بحدود الله

---

(١) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة : ٢١٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٤١٧ ، وفى ٣ : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٥٥ .

وأوامره المؤدين فرائض الله ، التاركين لزواجره ، ذكر أنه ﴿ خلف من بعدهم خلف ﴾ أى قرون أُخر .

﴿ أضاعوا الصلاة ﴾ : وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع ، لأنها عماد الدين وقوامه ، وخير أعمال العباد ، وأقبلوا على الشهوات وملاذها ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، فهؤلاء سيلقون غيًّا ، أى خسارا يوم القيامة .

وقد اختلفوا فى المراد بإضاعة الصلاة ههنا ، فقال قائلون : المراد بإضاعتها تركها بالكلية ، قال محمد بن كعب القرظى ، والسدى ، واختاره ابن جرير ، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد ، وقول عن الشافعى إلى تكفير تارك الصلاة للحديث : (بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة)[1] ، والحديث الآخر (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[2] .

وقال الأوزاعى فى قوله : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ﴾ :

قال : إنما أضاعوا المواقيت ، ولو كان تركا كان كفرا .

وقال ابن مسعود عندما قيل له إن الله يكثر ذكر الصلاة فى القرآن ﴿ الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾[3] و﴿ على صلاتهم دائمون ﴾[4] و﴿ على صلاتهم يحافظون ﴾[5] ، فقال ابن مسعود : على مواقيتها .

قالوا : ما كنا نرى ذلك إلا على الترك . قال : ذلك الكفر .

قال مسروق : لا يحافظ أحد على الصلوات الخمس فيكتب من الغافلين ، وفى إفراطهن الهلكة ، وإفراطهن إضاعتهن عن وقتهن .

وقال الأوزاعى : إن عمر بن عبد العزيز قرأ ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾ .

ثم قال : لم تكن إضاعتهم تركها ، ولكن أضاعوا الوقت .

وقال كعب الأحبار : والله إنى لأجد صفة المنافقين فى كتاب الله عز وجل شرًّا بين للقهوات ، تَرّاكين للصلوات ، لعّابين بالكعبات ، رقادين عن العتمات ، مفرطين فى الغدوات ، تَرّاكين للجماعات ، قال : ثم تلا هذه الآية : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًّا ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٣٤ ، وأبو داود فى السنة : ١٥ ، والترمذى فى الإيمان : ٩ ، وابن ماجة فى الإقامة : ١٧ ، والدارمى فى الصلاة : ٢٩ .

(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة : ٨ . والترمذى فى الإيمان : ٩ ، وابن ماجة فى الإقامة : ٧٧ ، ٧٨ ، وفى الفتن : ٢٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٦ ، ٣٥٥ .

(٣) الآية ٥ من سورة الماعون .

(٤) الآية ٢٣ من سورة المعارج .

(٥) الآية ٣٤ من سورة المعارج .

وقال الحسن البصرى : عطلوا المساجد ولزموا الضيعات .

وقال أبو الأشهب العطاردى : أوحى الله إلى دواد عليه السلام : (يا دواد حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بالشهوات الدنيا ، عقولها عنى محجوبة ، وإن أهون ما أصنع بالعبد من عبيدى إذا آثر شهوة من شهواته ، أن أحرمه طاعتى) .

وقوله تعالى : ﴿ **فسوف يلقون غيًّا** ﴾ : عن ابن عباس خسرانا .

وقال قتادة : شرا .

وقال سفيان الثورى وشعبة ومحمد بن إسحق عن عبد الله بن مسعود قال : ﴿ **فسوف يلقون غيا** ﴾ قال : واد فى جهنم من قيح ودم .

وقال ابن جرير عن عجلان الباهلى قال : قال رسول الله ﷺ : (**لو أن صخرة زنة عشر أواق قذف بها من شفير جهنم ما بلغت قعرها خمسين خريفا ثم تنتهى إلى غى وآثام . قال : قلت : ما غى وآثام ؟ قال : قال : بئران فى أسفل جهنم يسيل فيهما صديد أهل النار ، وهما اللذان ذكرهما الله فى كتابه ﴿ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون ﴾ وقوله فى الفرقان : ﴿ ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ﴾**[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ : أى إلا من رجع عن ترك الصلوات واتباع الشهوات ، فإن الله يقبل توبته ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ **فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئا** ﴾ .

وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها .

وفى الحديث الآخر : (التائب من الذنب كمن لا ذنب له)[2] .

ولهذا لا ينقص هؤلاء التائبون من أعمالهم التى عملوها شيئا ، ولا قوبلوا بما عملوه قبلها ، فينقص لهم مما عملوه بعدها ، لأن ذلك ذهب هدرا ، وترك نسيا ، وذهب مجانا من كرم الكريم وحلم الحليم ، وهذا الاستثناء ههنا كقوله فى سورة الفرقان : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ ـ إلى قوله : ﴿ وكان الله غفوراً رحيما ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا * لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا * تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا** ﴾ :

يقول تعالى : الجنات التى يدخلها التائبون من ذنوبهم هى جنات عدن أى إقامة ، التى وعد الرحمن عباده بظهر الغيب ، أى هى من الغيب الذين يؤمنون به وما رأوه ، وذلك لشدة إيقانهم وقوة إيمانهم .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة الفرقان .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى الزهد : ٣٠ .

(٣) الآيات ٦٨ ـ ٧٠ من سورة الفرقان .

وقوله : ﴿ إنه كان وعده مأتيا ﴾ : تأكيداً لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ، ولا يبدله ، كقوله ﴿ كان وعده مفعولا ﴾[١] : أى كائنا لا محالة ، وقوله ههنا : ﴿ مأتيا ﴾ أى العباد صائرون إليه وسيأتونه .

ومنهم من قال : ﴿ مأتيا ﴾ بمعنى آتيا ، لأن كل ما أتاك فقد أتيته .

وقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ﴾ : أى هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه ، لا معنى له كما قد يوجد فى الدنيا .

وقوله : ﴿ إلا سلاما ﴾ : استثناء منقطع كقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما . إلا قيلا سلاما سلاما ﴾[٢] .

وقوله : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ : أى فى مثل وقت البكرات ، ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلا ونهارا ، ولكنهم فى أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار ، كما قال الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يتمخطون فيها ولا يتغوطون آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجاهرهم الألوه ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة وعشياً)[٣] . أخرجاه فى الصحيحين .

وقال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (الشهداء على بارق نهر بباب الجنة فى قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا)[٤] .

وعن ابن عباس : ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ ، قال : مقادير الليل والنهار .

قوله تعالى : ﴿ تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ :

أى هذه الجنة التى وصفنا بهذه الصفات العظيمة هى التى نورثها عبادنا المتقين ، وهم المطيعون لله عز وجل فى السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ ، والعافون عن الناس ، وكما قال تعالى فى أول سورة المؤمنين : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[٥] .

---

(١) الآية ١٨ من سورة المزمل .

(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٣) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٨ . ومسلم فى الجنة : ١٧ ، والترمذى فى الجنة : ٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٦ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٦٦ .

(٥) الآيات ١ - ١١ من سورة المؤمنون .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التى قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

الأمر كله لله

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

المفردات :

﴿ **التنزل** ﴾ : النزول وقتا غب وقت .
﴿ **ما بين أيدينا** ﴾ : أى أمامنا من الزمان المستقبل .
﴿ **وما خلفنا** ﴾ : أى من الزمان الماضى ، وما بين ذلك هو الزمان الحاضر .
﴿ **نسيا** ﴾ : أى تاركا لك .
﴿ **اصطبر عليها** ﴾ : أى أثبت لشدائد العبادة وما فيها من المشاق .
﴿ **سميا** ﴾ : مثلاً ونظيرا .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص الأنبياء عليهم السلام تثبيتا له ﷺ ، وأعقبه بذكر ما أحدثه الخَلْف بعدهم ، وذكر جزاء الفريقين ، أعقب ذلك بقصص تأخر نزول جبريل على النبى ﷺ ؛ إذ زعم المشركون أن الله ودَّعه وقلاه ، وقد رد عليهم زعمهم وأبان لهم أن الأمر على غير ما زعموا .

روى : (أن جبريل عليه السلام احتبس عنه ﷺ أياماً حين سئل عن قصة أصحاب الكهف وذى القرنين والروح ، ولم يدر عليه الصلاة والسلام كيف يجيب ؟ فحزن واشتد عليه ذلك ، وقال المشركون : إن ربه ودعه وقلاه ، فلما نزل قال له عليه السلام : يا جبريل احتبست عنى حتى ساء

ظنى ، واشتقت إليك ، فقال : إنى إليك لأشوق ، ولكنى عبد مأمور إذا بعثت نزلت ، وإذا حبست احتبست ، وأنزل الله هذه الآية)[١] .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : (ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت هذه الآية إلى آخرها)[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾ :

قال مجاهد : لبث جبرائيل عن محمد ﷺ إثنتى عشرة ليلة ، ويقولون أقل ، فلما جاءه قال : (يا جبرائيل لقد رثت علىَّ حتى ظن المشركون كل ظن) فنزلت : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ﴾ : قيل المراد ما بين أيدينا أمر الدنيا ، وما خلفنا أمر الآخرة .

﴿ وما بين ذلك ﴾ : ما بين النفختين ، هذا قول أبى العالية وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة .

وقيل : ﴿ ما بين أيدينا ﴾ : ما يستقبل من أمر الآخرة .

﴿ وما خلفنا ﴾ : أى ما مضى من الدنيا .

﴿ وما بين ذلك ﴾ : أى ما بين الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ : معناه ما نسيك ربك ، وهو كقوله تعالى : ﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودّعك ربك وما قلى ﴾[٣] .

وقال ابن أبى حاتم ، عن أبى الدرداء يرفعه قال : (ما أحل الله فى كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فإن الله لم يكن لينسى شيئا) . ثم تلا هذه الآية : ﴿ وما كان ربك نسيا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ :

أى خالق ذلك ومدبره ، والحاكم فيه ، والمتصرف الذى لا معقب لحكمه .

﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ﴾ .

عن ابن عباس : هل تعلم للرب مثلا أو شبيها ، وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وابن جريج وغيرهم .

وقال عكرمة عن ابن عباس : ليس أحد يسمى الرحمن غيره تبارك وتعالى ، وتقدس اسمه .

---

(١) أخرجه البخارى فى التهجد : ٤ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٥٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٩ : ٢ ، وفى التوحيد : ٢٨ ، وفى بدء الخلق : ٦ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٣٥٧ .

(٣) الآيات ١ - ٣ من سورة الضحى .

البعث حق

قال تعالى :

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن
قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾
ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ
بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ
هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟
مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾
وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۚ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا
﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ
وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ
بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا
﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾
وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

المفـردات :

﴿ **يذكر** ﴾ : أى يتذكر ويتفكر .
﴿ **لنحشرنهم** ﴾ : أى لنجمعهم .
﴿ **جثيا** ﴾ : واحدهم جاثٍ وهو البارك على ركبتيه .
﴿ **شيعة** ﴾ : أى جماعة تعاونت على الباطل وتشايعت عليه .
﴿ **عتيا** ﴾ : أى تكبرا ومجاوزة للحد .
﴿ **صليا** ﴾ : أى دخولا فيها من صلى بالنار إذا قاسى حرها .
﴿ **واردها** ﴾ : أى مار عليها .
﴿ **حتما** ﴾ : أى واجبا .
﴿ **مقضيا** ﴾ : أى قضى بوقوعه البتة .
﴿ **بينات** ﴾ : أى ظاهرات الإعجاز .
﴿ **مقاما** ﴾ : أى مكانا ومنزلا .
﴿ **نديًا** ﴾ : أى مجلسا ومجتمعا ، ومثله النادى ؛ وقيل هو المجلس الذى يجتمع فيه لحادثة أو مشورة ، ومنه دار الندوة التى كان المشركون يتشاورون فيها فى أمورهم .
﴿ **والقـرن** ﴾ : أهل كل عصر .
﴿ **والأثاث** ﴾ : متاع البيت من الفرش والثياب وغيرها ولا واحد له .
﴿ **والرئى** ﴾ : والمنظر والمراد به النضارة والحسن .
﴿ **فليمدد** ﴾ : أى فليمهله بطول العمر والتمكن من سائر التصرفات .
﴿ **جندا** ﴾ : أى أنصارا .
﴿ **والباقيات الصالحات** ﴾ : أى الطاعات التى تبقى آثارها .
﴿ **مردًّا** ﴾ : أى مرجعا وعاقبة .
﴿ **أطلع الغيب** ﴾ : من قولهم أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه : أى أظهر له علم الغيب .
﴿ **عهدا** ﴾ : أى عملاً صالحاً .
﴿ **كــلا** ﴾ : كلمة زجر وتنبيه إلى الخطأ .
﴿ **سنكتب ما يقول** ﴾ : أى سنظهر له إنا كتبنا .
﴿ **ونمد له من العذاب** ﴾ : أى سنطيل له العذاب الذى يستحقه .
﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ : أى نسلب ذلك منه بموته ونأخذه أخذ الوارث ما يرثه ، والمراد بما يقول مدلوله ومصداقه ، وهو ما أوتيه فى الدنيا من المال والولد .
﴿ **فردا** ﴾ : أى لا يصحبه مال ولا ولد .
﴿ **العـز** ﴾ : المنعة والقوة .
﴿ **سيكفرون** ﴾ : أى سيجحدون .

﴿ ضدّا ﴾ : أى أعداء وأعوانا عليهم .

﴿ والأز ﴾ : والهز والاستفزاز : شدة الإزعاج ؛ والمراد الإغراء على المعاصى والتهييج لها بالتويلات ، وتحبيب الشهوات .

﴿ فلا تعجل عليهم ﴾ : أى فلا تطلب الاستعجال بهلاكهم .

﴿ الوفد والوفود والأوفاد ﴾ : واحدهم وافد ، وهم القوم يقدمون على الملوك يستنجزون الحوائج ، والمراد يقدمون مكرمين مبجلين ركبانا إلى الرحمن ؛ أى إلى دار كرامته وهى الجنة .

﴿ وردا ﴾ : أى مشاة مهانين باستخفاف واحتقار كأنهم نَعَم تساق إلى الماء ، والمراد بالعهد شهادة أن لا إله إلا الله ، والتبرى من الحول والقوة ، وعدم رجاء أحد إلا الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بالعبادة والمصابرة عليها على ما فيها من مشاق وشدائد ، أبان فائدة ذلك ، وهى أنها تنجيهم يوم الحشر يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم ، وهو يوم لا ريب فيه ولا وجه لإنكاره ، فإن إعادة الإنسان أهون من بدئه ، ثم ذكر ما يلقاه الكافرون يومئذ من الذل والهوان ، ثم أردف ذلك ببيان أن جميع الخلائق ترد على النار ، ولا ينجو منها إلا من اتقى ربه ، وأخلص فى عمله .

روى الكلبى أنها نزلت فى أبىّ بن خلف أخذ عظما بالياً فجعل يفتُّه بيده ويذْريه فى الريح ، ويقول : زعم فلان أنا نبعث بعد أن نموت ونكون مثل هذا ؟ إن هذا لن يكون أبداً .

وبعد أن أقام سبحانه الحجة على مشركى قريش المنكرين للبعث بعد الفناء ، والعودة إلى حياة أخرى . اتبعه بذكر شبهة أخرى قالوها وعارضوا بها حجة الله التى يشهد بصحتها كل منصف ، ويعتقدها من له أدنى مُسكة من عقل .

تلك أنهم قالوا : لو كنتم على الحق وكنا على الباطل لكان حالكم فى الدنيا أحسن وأطيب من حالنا ، من قبل أن الحكيم لا يجدر به أن يوقع المخلصين من أوليائه فى الذل والمهانة ، وأعداءه فى العز والراحة لكنا نجد الأمر العكس من هذا ، فإنا نحن الذين يمتعون برفاهية العيش والرخاء والنعيم ، وأنتم فى ضنك وفقر وخوف وذل ، فهذا دليل على أنا على الحق وأنتم على الباطل .

وقد رد الله عليهم مقالتهم بأن الكافرين قبلكم وكانوا أحسن منكم حالاً وأكثر مالاً ، قد أبادهم الله وأهلكهم بعذاب الاستئصال ، فدل هذا على أن نعيم الدنيا لا يرشد إلى محبة الله لمن أوتوه ، ولا إلى أنهم مصطفون له من بين خلقه .

روى أن قائل هذه العبارة النضر بن الحرث ومن على شاكلته من قريش للمؤمنين من أصحاب النبى ﷺ ، وكانوا فى خشونة من العيش ، وفى رثاثة من الثياب ، وهم كانوا يرجّلون شعورهم ، ويلبسون فاخر الثياب .

ثم أمر الله رسوله ﷺ أن يجيب هؤلاء المفتخرين بحظوظهم الدنيوية ببيان مثال الفريقين يوم القيامة ، وأن ما كان للمشركين فى الدنيا من المال وسعة الرزق فإنما ذلك استدراج وإمهال من الله لهم ، ثم يلقون النكال والوبال فى جهنم وبئس القرار .

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى الدلائل على صحة البعث ، ثم أورد شبه المنكرين له ، وأجاب عنها بما فيه مقنع لكل ذى لب ، قضى على ذلك بذكر مقالتهم التى قالوها استهزاء وطعنا فى القول بالحشر والبعث .

أخرج البخارى ومسلم والترمذى وابن حبان عن خباب بن الأرت قال : (كنت رجلا قَيْنًا (حداداً) وكان لى على العاص بن وائل دَين فأتيته أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث ، قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثمَّ مال وولد فأعطيك ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أفرأيت ﴾ الآية)[1] .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا * أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا * فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا . ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن الإنسان الذى عجب من إعادته بعد الموت ، فأنكر المعاد ، وقال ساخراً : ﴿ أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[2] .

وذلك بعدما أقام الأدلة الناطقة بقدرته الشاهدة بإرادته ، الدالة على وحدانيته ، قال تعالى : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[3] .

وبعد هذا كله يقف الإنسان الجحود الكنود موقف الإنكار كما ذكر سبحانه فى قوله : ﴿ أو لم ير

(١) أخرجه البخارى فى البيوع : ٢٩ ، وفى الإجارة : ١٥ ، وفى الخصومات : ١٠ ، وفى تفسير سورة ١٩ : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ومسلم فى المنافقين : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١١٠ ، ١١١ .

(٢) الآية ٥ من سورة الرعد .

(٣) الآيات ٢ ـ ٤ من سورة الرعد .

الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون * أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[١] .

فهذه خمسة أدلة تثبت أن البعث حق كما فى قوله جل شأنه : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[٢] .

هذه الآية أنتجت خمس نتائج بينها العلى الحكيم فى قوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[٣] .

إن الذى بدأ الخلق قادر على إعادته ، قال تعالى : ﴿ أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾[٤] .

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٥] .

وفى الصحيح : يقول الله تعالى : (كذبنى ابن آدم ولم يكن له أن يكذبنى ، وآذانى ابن آدم ولم يكن له أن يؤذينى ، أما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىّ من آخره ، وأما أذاه إياى فقوله : إن لى ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **فوربك لنحشرنهم والشياطين** ﴾ : أقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة ، أنه لابد أن يحشرهم جميعا وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا** ﴾ قال العوفى عن ابن عباس : يعنى قعوداً كقوله : ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾[٧] .

---

(١) الآيات ٧٧-٨٣ من سورة يس .

(٢) الآية ٥ من سورة الحج .

(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الحج .

(٤) الآية ٦٧ من سورة مريم .

(٥) الآية ٢٧ من سورة الروم .

(٦) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٨ ، وفى تفسير سورة ١١٢ : ١ ، ٢ ، والنسائى فى الجنائز : ١١٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٧ ، ٣٥٠ .

(٧) الآية ٢٨ من سورة الجاثية .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ يعنى من كل أمة ، ﴿ أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ .

قال الثورى عن ابن مسعود قال : يحبس الأول على الآخر حتى إذا تكاملت العدة أتاهم جميعا ، ثم بدأ بالأكابر فالأكابر جرما ، وهو قوله : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ .

وقال قتادة : ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتيا ﴾ قال : ثم لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم فى الشر .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا ﴾ ثم ههنا لعطف الخبر على الخبر ، والمراد أنه تعالى أعلم بمن يستحق من العباد أن يصلى بنار جهنم ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب ، كما قال تعالى فى الآية المتقدمة : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا * ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ :

قال الإمام أحمد عن أبى سمية قال : أختلفنا فى الورود . فقال بعضنا : لا يدخلها مؤمن ، وقال بعضهم : يدخلونها جميعاً ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ، فلقيت جابر بن عبد الله فقلت له إنا أختلفنا فى الورود . فقال : يردونها جميعا ، وقال سليمان بن مرة : يدخلونها ، وأهوى بأصبعيه إلى أذنيه وقال صُمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم حتى إن للنار حنجيجاً من بردهم ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا)[2] .

وقال عبد الرزاق عن ابن عيينه قال : كان عبد الله بن رواحة واضعا رأسه فى حجر امرأته فبكى فبكت امرأته ، قال : ما يبكيك ؟ قالت : رأيتك تبكى فبكيت . قال : إنى ذكرت قول الله عز وجل ﴿ وإن منكم إلا واردها ﴾ فلا أدرى أأنجو منها أم لا .

وقال ابن جرير عن أبى إسحق كان أبو ميسرة إذا أوى إلى فراشه قال : يا ليت أمى لم تلدنى ، ثم يبكى فقيل له : ما يبكيك يا أبا ميسرة ؟ فقال : أخبرنا أنا واردوها ولم نخبر أنا صادرون عنها .

وقال عبد الله بن المبارك عن الحسن البصرى قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك أنك وارد النار ؟

---

(١) الآيتان ٣٨ - ٣٩ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه الترمذى فى جهنم : ١٠ ، وابن ماجة فى الفتن : ٣٣ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٩ ، وفى ٤ : ٢٤ .

قال : نعم . قال : فهل أتاك أنك صادر عنها ؟ قال : لا . قال : ففيم الضحك ؟! قال : فما رئى ضاحكا حتى لحق بالله .

وروى الترمذى عن ابن مسعود (مرفوعا) قال : (**يرد الناس جميعاً الصراط وورودهم قيامهم حول النار ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم ، فمنهم من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر مثل الريح ، ومنهم من يمر مثل الطير ، ومنهم من يمر كأجود الخيل ، ومنهم من يمر كأجود الإبل ، ومنهم من يمر كعدو الرجل ، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضع إبهامى قدميه يمر فيتكفأ به الصراط دحض مذلة عليه حسك كحسك القتاد حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس**)[1] . الحديث . وفى رواية والملائكة تقول : (**اللهم سلم سلم**) .

يا بارىء الكون فى عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

فياله من يوم ما أطوله ، ومن جبار ما أعدله ، ومن خطب ما أهوله : ﴿ **يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾[2] .

فيا ابن آدم : جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير ، صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

يا أيها العقلاء :

نموت وأيامنا تذهب ونلعب والموت لا يلعب
عجبت لذى لعب قد لهى عجبت ومالى لا أعجب
أيلهو ويلعب من نفسه تموت ومنزله يخرب
أرى الليل يطلبنا والنهار ولم أدر أيهما أطلب
أحاط الجديدان جمعا بنا وليس لنا منهما مهرب
وكلٌ له مدة تنقض وكلٌ له أثر يكتب

وروى الإمام أحمد بسنده عن جابر عن أم بشر عن حفصة قالت قال رسول الله ﷺ : (إنى لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله أحد شهد بدرا والحديبية)[3] قالت : فقلت : أليس الله يقول : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ قالت : فسمعته يقول : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٠٢ ، ٣١٦ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١١ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٤٥ ، ٣٨٣ ، وفى ٦ : ١١٠ ، وابن ماجة فى الزهد : ٣٣ .

(٢) الآية ٢ من سورة الحج .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٥ .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم)[١] .

فقال ابن جرير بسنده : عن أبى هريرة قال خرج رسول الله ﷺ يعود رجلا من أصحابه وعك وأنا معه ثم قال : (إن الله تعالى يقول هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظه من النار فى الآخرة) .

وعن مجاهد قال : الحمى حظ كل مؤمن من النار ، ثم قرأ ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ .

وقال الإمام أحمد بسنده عن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ﷺ قال : من قرأ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً فى الجنة) فقال عمر : إذن نستكثر يا رسول الله . فقال رسول الله ﷺ : (الله أكثر وأطيب)[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : (من قرأ ألف آية فى سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا إن شاء الله ، ومن حرس من وراء المسلمين فى سبيل الله متطوعا لا بأجر سلطان لم ير النار بعينيه إلا تحلة القسم) قال الله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها** ﴾ وإن الذكر فى سبيل الله يضاعف فوق النفقة بسبعمائة ضعف)[٣] .

وروى أبو داود بسنده عن سهل عن أبيه عن رسول الله ﷺ : (إن الصلاة علىّ والصيام والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف)[٤] .

وقال النبى ﷺ : (الزالّون والزالات يومئذ كثير وقد أحاط بالجسد يومئذ سماطان من الملائكة دعاؤهم يا الله سلم سلم)[٥] .

قوله تعالى : ﴿ كان على ربك حتما مقضيا ﴾ .

قال ابن مسعود أى قسماً واجباً .

وقال مجاهد : حتما : أى قضاء .

قوله تعالى : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾ :

أى إذا مر الخلائق كلهم على النار ، وسقط فيها من سقط من الكفار والعصاة ذوو المعاصى .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٢٦ ، وفى الإيمان : ٩ ، ومسلم فى البر : ١٥ ، والترمذى فى الجنائز : ٦٤ ، والنسائى فى الجنائز : ٢٥ ، وابن ماجة فى الجنائز : ٥٧ ، والإمام مالك فى الجنائز : ٣٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٦ ، ٤٧٣ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١١٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٦ ، وفى الإيمان : ٩ . ومسلم فى البر : ١٥٠ ، والترمذى فى الجنائز : ٦٤ ، والنسائى فى الجنائز : ٢٥ ، وابن ماجه فى الجنائز : ٥٧ ، والإمام مالك فى الجنائز : ٣٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٠ ، ٢٧٦ .

(٤) أخرجه أبو داود فى الجهاد : ١٣ ، والنسائى فى الجهاد : ٤٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٤٣٨ .

(٥) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، وفى الرقاق : ٥٢ ، وفى الأذان : ١٢٩ ، ومسلم فى الإيمان : ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٢٩ ، والترمذى فى القيامة : ٩ ، وفى الجنة : ٢٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٧٥ ، ٢٩٣ ، ٣٦٩ ، ٥٣٤ ، وفى ٣ : ١٦ ، ١٧ ، ٢٦ ، وفى ٦ : ١١٠ .

بحسبهم ، نجى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم ، فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر أعمالهم التى كانت فى الدنيا ، ثم يشفعون فى أصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون ، فيخرجون خلقا كثيرا ، قد أكلتهم النار إلا دارات وجوههم ، وهى مواضع السجود ، وإخراجهم إياهم من النار بحسب ما فى قلوبهم من الإيمان ، فيخرجون أولاً من كان فى قلبه مثقال دينار من إيمان ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه ، حتى يخرجوا من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، ولم يعمل خيرا قط ، ولا يبقى فى النار إلا من وجب عليه الخلود ، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا * وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا ﴾ .

هذا إخبار من الله تعالى عن بعض مواقف الكفار عندما تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة بينة الحجة واضحة البرهان ، أنهم يصدون ويعرضون عن ذلك ، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خير مقاما وأحسن نديا ﴾ أى أحسن منازل ، وأرفع دورا ، وأحسن نديا ، وهو مجتمع الرجال للحديث ، أى ناديهم أعمر وأكثر واردا وطارقا ، يعنون فكيف نكون ونحن بهذه المثابة على باطل ، وأولئك الذين هم مختفون مستترون فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم ونحوها من الدور على الحق .

كما قال تعالى مخبرا عنهم ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ﴾[١] ، وقال قوم نوح : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَن الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾[٣] .

ولهذا قال تعالى راداً عليهم شبهتهم : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن ﴾ : أى وكم من أمة وقرن من المكذبين قد أهلكناهم بكفرهم : ﴿ هم أحسن أثاثا ورءيا ﴾ : أى كانوا أحسن من هؤلاء أموالاً وأمتعة ومناظر وأشكالاً .

وعن ابن عباس : ﴿ خير مقاما وأحسن نديا ﴾ قال : المقام المنزل ، والندى المجلس ، والأثاث المتاع ، والرئى المنظر والنعمة والبهجة التى كانوا فيها .

وهو كما قال الله لقوم فرعون حين أهلكهم : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾[٤] .

فالمقام المسكن والنعيم ، والندى المجلس الذى كانوا يجتمعون فيه ، وقال تعالى فيما قص على رسوله من أمر قوم لوط : ﴿ وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾[٥] .

(١) الآية ١١ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ١١١ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ٥٣ من سورة الأنعام .
(٤) الآيات ٢٥ - ٢٨ من سورة الدخان .
(٥) الآية ٢٩ من سورة العنكبوت .

قوله تعالى : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا ﴾ :

يقول تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين أنهم على الحق وأنكم على الباطل : ﴿ من كان فى الضلالة ﴾ أى منا ومنكم ﴿ فليمدد له الرحمن مدا ﴾ أى فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه وينقضى أجله ﴿ إما العذاب ﴾ يصيبه ﴿ وإما الساعة ﴾ بغتة تأتيه ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من هو شرٌّ مكانا وأضعف جندا ﴾ فى مقابلة ما احتجوا به من خيرية المقام وحسن الندى .

قال مجاهد : ﴿ فليمدد له الرحمن مدا ﴾ فليدعه الله فى طغيانه ، هكذا قرر ذلك أبو جعفر ابن جرير رحمه الله .

وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هدى فيما هم فيه . كما ذكر تعالى مباهلة اليهود فى قوله ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾(١) .

أى أدعوا بالموت على المبطل منا أو منكم إن كنتم تدعون أنكم على الحق ، فإنه لا يضركم الدعاء ، فنكلوا عن ذلك .

وكما ذكر سبحانه وتعالى المباهلة مع النصارى فى سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو فى دعواهم ، أن عيسى ولد الله ، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى ، وأنه مخلوق كآدم ، قال تعالى بعد ذلك : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين ﴾(٢) فنكلوا أيضا عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا ﴾ :

هو كقوله جل شأنه : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾(٣) .

وكقوله جل شأنه : ﴿ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ﴾(٤) .

وكقوله تبارك اسمه ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(٥) .

---

(١) الآية ٦ من سورة الجمعة .
(٢) الآية ٦١ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١٧ من سورة محمد .
(٤) الآية ١٢٤ من سورة التوبة .
(٥) الآية ٢ من سورة الأنفال .

قوله تعالى : ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا ﴾ :

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى عقيل أنه سمع الحارث مولى عثمان بن عفان ؛ يقول : (جلس عثمان يوما وجلسنا معه فجاءه المؤذن فدعا بماء فى إناء أظنه سيكون فيه مد فتوضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وضوئى هذا ثم قال : (من توضأ وضوئى هذا ثم قام فصلى صلاة الظهر غفر له ما كان بينها وبين صلاة الصبح ، ثم صلى العصر غفر له ما بينها وبين الظهر ، ثم صلى المغرب غفر له ما بينها وبين صلاة العشاء ، وهن الحسنات يذهبن السيئات)[1] . قالوا : هذه الحسنات فما الباقيات الصالحات يا عثمان ؟ قال : هى لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

قوله تعالى : ﴿ خير عند ربك ثوابا ﴾ :

أى جزاء ، فنعم الثواب ثوابهم ، وحسنت مرتقا ﴿ وخيرٌ مردا ﴾ أى مرجعا ومنقلبا ﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾[2]

فيامن إليه المآب والرجعى ، اجعل خير أعمالنا خواتيمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، ولا تجعل الدنيا كل همنا ولا مبلغ علمنا ، وبلغنا مما يرضيك آمالنا .

قوله تعالى : **﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالاً وولدا * أطَّلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ﴾ .**

قال الامام أحمد بسنده عن خباب بن الأرت قال : (كنت رجلا قينا وكان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه منه فقال لا والله لا أقاضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا ، والله ، لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم حتى تموت ثم تبعث . قال : فإنى إذا مت ثم بعثت جئتنى ولى ثم مال وولد ، فأعطيك فأنزل الله﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه ما يقول ويأتينا فردا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿**أطلع الغيب**﴾ : هذا استفهام إستنكارى على صاحب تلك المقولة ، أى أعلِمَ ما له فى الآخرة حتى تأتى وخلف على ذلك .

﴿ **أم اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ : أى أَلَهُ عند الله عهد سيؤتيه ذلك ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ **كلا سنكتب ما يقول . .** ﴾ : كلا هنا حرف ردع وزجر لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ، ﴿ **سنكتب ما يقول** ﴾ أى من طلبه ذلك وحكمه لنفسه بما يتمناه ، وكفره بالله العظيم ، ﴿ **ونمد له من العذاب مدا** ﴾ أى فى الدار الآخرة ، على قوله ذلك وكفره بالله فى الدنيا .

﴿ **ونرثه ما يقول** ﴾ : أى من مال وولد نسلبه منه عكس ما قال إنه يؤتى فى الدار الآخرة مالاً

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٢) الآية ٤٣ من سورة غافر .

وولداً زيادة على الذى له فى الدنيا ، وفى الآخرة يسلب من الذى كان له فى الدنيا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ويأتينا فردا ﴾ أى من المال والولد .

﴿ ونرثه ما يقول ﴾ : أى نرثه . قاله ابن عباس .

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾(١) .

وإذ يقول : ﴿ وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾(٢) .

وإذ يقول : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾(٣) .

وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾(٤) .

يا أخا الإسلام :

أتيت القبور فناديتها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المذل بسلطانه ... وأين المزكى إذا ما افتخر
تساووا جميعاً فما مخبر ... وماتوا جميعا ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فياسائلى عن أناس مضوا ... أما لك فيما مضى معتبر

فسبحان من وجب الوجود لذاته وكتب الفناء على غيره .

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة ... لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى ... فتفنى جميعا والمهيمن باق

قوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا * ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا** ﴾ :

وهذا إخبار من البارى تبارك وتعالى عن هؤلاء الذين ضلوا السبيل ، فاتخذوا من دون الله آلهة زاعمين أنها ستكون لهم عزا ، ونسوا أو تناسوا أن العزة لله جميعا ، فمن استعز بغير الله ذل ، ومن اعتمد على الله لا صل ولا زل .

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت ... فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

(١) الآية ٤٠ من سورة مريم .
(٢) الآية ٢٣ من سورة الحجر .
(٣) الآيات ٤١ـ٤٤ من سورة ق .
(٤) الآية ٨٨ من سورة القصص .

وسبحان القائل : ﴿ ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾(١) .

ومن ثم جاء قوله تعالى ﴿ **كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** ﴾ أى بخلاف ما رجوا منهم .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ :

أى تغويهم إغواء ، وتحرضهم على محمد وأصحابه تحريضا ، وتزعجهم إزعاجا إلى معاصى الله ، وتغريهم إغراء وتستعجلهم استعجالا .

وهو كقوله تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين * ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴾ :

وهذا تثبيت من الله تعالى لرسوله الكريم ، فإن الله تعالى يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٢) .

قال جل شأنه : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا * لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾ :

يخبر تعالى عن أوليائه المتقين الذين خافوه فى الدار الدنيا ، واتبعوا رسله وصدقوهم فيما أخبروهم ، وأطاعوهم فيما أمروهم به وانتهوا عما عنه زجروهم ، أنه يحشرهم يوم القيامة وفدا إليه ، والوفد القادمون ركبانا ، ومنه الوفد ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود إليه إلى دار كرامته ورضوانه .

أما المجرمون المكذبون للرسل ، المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفا إلى النار ﴿ **وردا** ﴾ عطاشا ، وههنا يقال : ﴿ **أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا** ﴾ .

وقال عبد الله بن الإمام أحمد فى مسند أبيه بسنده ، عن عبد الرحمن بن إسحاق ، حدثنا النعمان

(١) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .

(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .

(٣) الآية ٤٥ من سورة فاطر .

(٤) الآية ٦١ من سورة النحل .

ابن سعيد ، قال : كنا جلوسا عند على رضى الله عنه فقرأ هذه الآية ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا** ﴾ قال : (لا والله ما على أرجلهم يحشرون ، ولا يحشر الوفد على أرجلهم ، ولكن بنوق لم ير الخلائق مثلها عليها رحائل من ذهب ، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة) .

قوله تعالى : ﴿ **لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ :

أى ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض ، كما قال تعالى مخبرا عنهم : ﴿ فمالنا من شافعين * ولا صديق حميم ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا** ﴾ هو استثناء منقطع بمعنى لكن ، أى لكن من اتخذ عند الرحمن عهدا ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بحقها .

من قبائح الكافرين

قال تعالى :

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى
لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾
لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ
قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ
رِكْزًۢا ﴿٩٨﴾

المفردات :

﴿ **جئتم** ﴾ : أى فعلتم .

﴿ **والإدّ** ﴾ : (بالكسر والفتح) المنكر العظيم .

﴿ **والتفطر** ﴾ : التشقق .

﴿ **وتخر** ﴾ : تسقط وتنهدم .

---

(١) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة الشعراء .

﴿ دعـوا ﴾ : أى نسبوا .

﴿ عبدا ﴾ : أى منقادا خاضعا كما يفعل العبيد .

﴿ أحصاهم ﴾ : عدهم وأحاط بهم .

﴿ وعدهم عدّا ﴾ : أى عد أشخاصهم .

﴿ فـردا ﴾ : أى منفردا لا شيء معه من الأنصار والأتباع .

﴿ الود ﴾ : المودة والمحبة .

﴿ بلسانك ﴾ : أى بلغتك .

﴿ واللُّدّ ﴾ : واحدهم ألد وهو الشديد الخصومة .

﴿ وركزاً ﴾ : أى صوتا خفيا .

المناسبة وإجمـال المعنى

بعد أن رد على عبدة الأوثان ، وأثبت لهم بقاطع الأدلة أنهم فى ضلالة يعمهون ، وأنهم عن الحق معرضون ، أردف ذلك الرد على من نسب له الولد كاليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، والمشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا .

وبعد أن فصّل سبحانه أحوال الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وبالغ فى الرد عليهم ، ختم السورة بذكر أحوال المؤمنين ، وبين أنه سبحانه سيغرس محبتهم فى قلوب عباده .

وبعد أن استقص فى السورة دلائل التوحيد والنبوة والحشر ، ورد فيها على فرق المبطلين ، بين أنه يسر ذلك بلسان نبيه ﷺ ، ليبشر به المتقين ، وينذر به قوما لدا من المشركين ، ذوى الجدل والمماراة .

لما قرر سبحانه وتعالى فى هذه السورة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب ، شرع فى مقام الإنكار على من زعم أن له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيراً .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا * لقد جئتم شيئاً إدًّا ﴾ أى وقال الكافرون بالله : إن للرحمن ولدا ﴿ لقد جئتم شيئاً إدًّا ﴾ لقد جئتم أيها القائلون بمقالكم هذا شيئا منكرا عظيما ، يدل على الجرأة على الله ، وكمال القحة عليه سبحانه ، وإنه ليغضبه أشد الغضب ، ويسخطه أعظم السخط .

﴿ تكاد السموات يتفطرن منه ﴾ : أى أن السموات ، تكاد تتشقق منه لشدة هوله ، وعظم شأنه ، وكما لا ينفع مع الشرك إحسان المشرك ، نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين .

﴿ وتنشق الأرض ﴾ : أى تخسف بهم .

﴿ وتخر الجبال هدا ﴾ : أى تسقط هدا ، فتنطبق عليهم .

روى عن ابن عباس قال : إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين ، وكادت تزول منه ، لعظمة الله وكماله .

وفى ذلك تنبيه إلى غضب الله تعالى على قائل هذه الكلمة ، وأنه لولا حلمه سبحانه لهلك .

ثم بين علة ذلك : ﴿ **أن دعوا للرحمن ولدا** ﴾ : أى من أجل أنهم نسبوا إلى الله اتخاذ الولد .

ثم نفى ذلك عن نفسه بقوله : ﴿ **وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا** ﴾ : أى وما يليق به اتخاذ الولد ، لأن ذلك يقتضى التجانس بينهما ، وأن يكون كل منهما حادثا ، ولأن الولد إنما يكون للسرور به ، والاستعانة به حين الحاجة ، وللذكر الجميل ، إلى نحو أولئك من المقاصد التى يتنزه عنها ربنا جل وعلا .

ثم زاد الإنكار توكيدا ، فقال : ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا** ﴾ :

أى ما من أحد من الملائكة والإنس والجن إلا وهو مملوك له سبحانه ، ينقاد لحكمه ، ويلتجىء إليه حين الحاجة ويخضع له خضوع العبد لسيده .

﴿ **لقد أحصاهم** ﴾ : أى لقد حصرهم وأحاط بهم ، فهم تحت قهره وأمره وتدبيره ، يعلم ما خفى من أحوالهم وما ظهر ، لا يفوته شىء منها .

﴿ **وعدهم عدا** ﴾ : أى وعد أشخاصهم وأنفاسهم وأفعالهم وأقوالهم ، فكل شىء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة .

﴿ **وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾ : أى وكل امرىء منهم يأتيه يوم القيامة وحيدا منفردا عن الأهل والأنصار ، منقطعا إليه تعالى ، محتاجا إلى معونته ورحمته .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا** ﴾ :

أى أن الذين آمنوا بالله وصدقوا برسله ، وبما جاءوهم به من عنده ، وعملوا به ، فأحلوا حلاله وحرموا حرامه ، سيجعل لهم الله محبة فى قلوب عباده المؤمنين .

أخرج مسلم والبخارى والترمذى عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا أحب الله تعالى عبداً يقول لجبريل : إنى قد أحببت فلانا فأحبه ، فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى الأرض)[1] ، فذلك قول الله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً** ﴾ .

وأخرج ابن مردويه والديلمى عن البراء قال : قال رسول الله ﷺ لعلى كرم الله وجهه : (قل اللهم اجعل لى عندك عهدا ، واجعل لى فى صدور المؤمنين ودا) فأنزل الله سبحانه الآية .

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ٦ ، وفى الأدب : ٤١ ، وفى التوحيد : ٣٣ ، ومسلم فى البر : ١٥٧ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٩ : ٧ ، والإمام مالك فى الشعر : ١٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٧ ، ٣٤١ ، ٤١٣ ، ٤٨٠ ، ٥٠٩ ، ٥١٤ ، وفى ٥ : ٢٠٩ ، ٢٦٣ .

وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه ، حتى يرزقه مودتهم ورحمتهم .

وخلاصة ذلك ـ سيجعل الله للمؤمنين الذين يعلمون الصالحات مودة فى القلوب ، يزرعها لهم من غير تودد منهم ، ولا تعرض للأسباب التى يكتسب بها الناس مودات القلوب ، من قرابة أو صداقة أو اصطناع معروف .

ثم ذكر الحكمة فى إنزال القرآن بلغة العرب :

﴿ **فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا** ﴾ :

أى فإنما سهّلنا نزول القرآن بلغتك العربية لتقرأه على الناس ، وتبشر به من اتقى عقاب الله ، فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ، بأن له الجنة .

﴿ **وتنذر به قوما لدا** ﴾ : أى وتنذر به من عصاه من قريش ، وهم أهل اللدد والجدل بالهوى ، ممن لا يقبل حقا ، ولا يحيد عن باطل .

وقصارى ذلك ـ بلّغ هذا المنزّل وبشّر به ، وأنذر ، فإنما أنزلناه بلسانك العربى المبين ، ليسهل على الناس فهمه .

ثم ختم السورة بتلك العظة البالغة فقال سبحانه : ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا** ﴾ :

أى وقد أهلكنا الكثير من الأمم قبل هؤلاء المعاندين ، حين سلكوا فى خلافى مسلك هؤلاء ، وركبوا معاص ، فهل تحس منهم أحدا فتراه وتعاينه ، أو تسمع له صوتا ؟ لا ، إنهم بادوا وخلت منهم الديار ، وأقفرت المنازل ، وصاروا إلى دار لا ينفع فيها إلا صالح العمل ، وإن قومك لصائرون إلى مثل ما صاروا إليه ، إن لم يعاجلوا التوبة قبل الهلاك .

وفى هذا وعد لرسول الله ﷺ بالنصر والغلبة على هؤلاء المشركين ، ووعيد لأولئك الكافرين الجاحدين ، وحث له على التبشير والإنذار .

وقصارى ذلك ـ إنا أهلكناهم ، فلم نبق منهم أحدا تراه ، ولا تسمع له صوتا خفيا ولا ظاهرا .

سورة طه

مقدمة

السورة مكية إجماعاً ، وعدد آياتها خمس وثلاثون بعد المائة ، وكلماتها ألف وثلاثمائة وإحدى وأربعون ، وحروفها خمسة آلاف ومائتان واثنان وأربعون حرفاً .

مقصود السورة

تيسير الأمر على الرسول ﷺ ، وذكر الاستواء ، وعلم الله تعالى بالقريب والبعيد ، وذكر حضور موسى عليه السلام بالوادى المقدس ، وإظهار عجائب عصاه واليد البيضاء ، وسؤال شرح الصدر ، وتيسير الأمر ، وإلقاء التابوت فى البحر ، وإثبات محبة موسى فى القلوب ، وإصطفاء الله تعالى موسى ، واختصاصه بالرسالة إلى فرعون ، وما جرى بينهما من المكالمة والموعد يوم الزينة ، وحيل سحرته بالحبال والعصى (وإيمان السحرة) وتعذيب فرعون بهم .

والمنة على بنى إسرائيل بنجاتهم من الغرق ، وتعجيل موسى ، والمجىء إلى الطور ، ومكر السامرى فى صنعة العجل ، وإضلال القوم ، وتغيير موسى على هارون بسبب ضلالتهم .

وحديث القيامة ، وحال الكفار فى عقوبتهم ، ونسف الجبال ، وإنقياد المتكبرين فى ربقة طاعة الله الحى القيوم .

وآداب قراءة القرآن ، وسؤال زيادة العلم والبيان .

وتعيير آدم بسبب النسيان ، وتنبيهه على الوسوسة ومكر الشيطان .

وبيان عقوبة نسيان القرآن .

ونهى النبى عن النظر إلى أحوال الكفار . وأهل الطغيان ، والالتفات إلى ما خوِّلوا من الأموال والولدان وإلزام الحجة على المنكرين بإرسال الرسل بالبرهان ، وتنبيهه الكفار على انتظار أمر الله فى قوله ﴿ **قل كل متربص** ﴾ إلى آخر السورة .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **وهل أتاك حديث موسى * إذ رءا ناراً فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى** ﴾ .

وفى النمل : ﴿ إذ قال موسى لأهله إنى آنست ناراً سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾[1] .

---

(١) الآية ٧ من سورة النمل .

وفى القصص : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً قال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾[1] .

هذه الآيات تشتمل على ذكر رؤية موسى النار ، وأمره أهله بالمكث ، وإخباره إياهم أنه آنس ناراً ، وإطماعهم أن يأتيهم بنار يصطلون بها ، أو خبر يهتدون به إلى الطريق التى ضلوا عنها ، لكنه نقص فى النمل ذكر رؤية النار وأمره بالمكث اكتفاء بما تقدم .

وزاد فى القصص قضاء موسى الأجل المضروب ، وسيره بأهله إلى مصر ، لأن الشىء قد يجمل ثم يفصّل ، وقد يفصل ثم يجمل ، وفى طه فصّل ، وأجمل فى النمل ، ثم فصّل فى القصص وبالغ فيه .

وقوله فى طه ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ : أى من يخبرنى بالطريق فيهدينى إليها ، وإنما أخر ذكر الخبر فيها (وقدمه فيهما) مراعاة لفواصل الآى فى السور جميعاً ، وكرر (لعلى) فى القصص لفظاً وفيهما معنى ، لأن (أو) فى قوله ﴿ أو أجد على النار هدى ﴾ نائب عن (لعلى) ، و ﴿ سآتيكم ﴾ يتضمن معنى (لعلى) .

وفى القصص ﴿ أو جذوة من النار ﴾ وفى النمل ﴿ بشهاب قبس ﴾ وفى طه ﴿ بقبس ﴾ ، لأن الجذوة من النار (خشبة) فى رأسها قبس له شهاب ، فهى فى السور الثلاث عبارة عن معنى واحد .

قوله تعالى ﴿ فلما أتاها ﴾ هنا ، وفى النمل : ﴿ فلما جاءها ﴾ وفى القصص ﴿ أتاها ﴾ لأن أتى وجاء بمعنى واحد ، لكن لكثرة دور الإتيان هنا نحو ﴿ فأتياه ﴾ ﴿ فلنأتينك ﴾ ﴿ ثم أتى ﴾ ﴿ ثم ائتوا ﴾ ، ﴿ حيث أتى ﴾ .

وجاء ﴿ أتاها ﴾ ولفظ ﴿ جاء ﴾ فى النمل أكثر ، نحو : ﴿ فلما جاءهم ﴾ ﴿ وجئتك من سبأ ﴾ ، ﴿ فلما جاء سليمان ﴾ ، وألحق القصص بطه لقرب ما بينهما .

قوله : ﴿ فرجعناك إلى أمك ﴾ ، وفى القصص ﴿ فرددناه ﴾ ، لأن الرجع إلى الشىء والرد إليه بمعنى ، والرد عن الشىء يقتضى كراهة المردود ، وكان لفظ الرجع ألطف فخص طه به ، وخص القصص بقوله ﴿ فرددناه ﴾ تصديقا لقوله ﴿ إنا رادوه إليك ﴾ .

قوله : ﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾ وفى الزخرف : ﴿ وجعل ﴾ لأن لفظ السلوك مع السبيل أكثر استعمالاً ، فخص به طه ، وخُصّ الزخرف بجعل ، إزدواجا للكلام ، وموافقة لما قبلها وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ إلى فرعون ﴾ ، وفى الشعراء ﴿ أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا ﴾ ، وفى القصص ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون ﴾ ، لأن طه هى السابقة ، وفرعون هو الأصل والمبعوث إليه ، وقومه تبع له ، وهم كالمذكورين معه .

وفى الشعراء ﴿ قوم فرعون ﴾ : أى قوم فرعون وفرعون ، فاكتفى بذكره فى الإضافة عن ذكره مفردا ، ومثله : ﴿ أغرقنا آل فرعون ﴾ أى آل فرعون وفرعون .

(١) الآية ٢٩ من سورة القصص .

وفى القصص : ﴿ إلى فرعون وملإه ﴾ فجمع بين الاثنين ، فصار كذكر الجملة بعد التفصيل .

قوله : ﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ : صرح بالعقدة هنا ، لأنها السابقة ، وفى الشعراء ﴿ ولا ينطلق لسانى ﴾ فكنى عن العقدة بما يقرب من الصريح ، وفى القصص ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً ﴾ فكنى عن العقدة كناية مبهمة ، لأن الأول يدل على ذلك .

قوله تعالى فى الشعراء ﴿ ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ وليس له فى طه ذكر ، لأن قوله : ﴿ ويسر لى أمرى ﴾ مشتمل على ذلك وغيره ، لأن الله عز وجل إذا يسر له أمره لم يخف القتل .

قوله تعالى : ﴿ واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى ﴾ صرح بالوزير لأنه الأول فى الذكر ، وكنى عنه فى الشعراء حيث قال : ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ ، أى ليأتينى فيكون لى وزيرا ، وفى القصص : ﴿ أرسله معى ردءًا ﴾ : أى أجعله لى وزيرا ، فكنى عنه بقوله : ﴿ ردءًا ﴾ لبيان الأول .

قوله تعالى : ﴿ فقولا إنا رسولا ربك ﴾ وبعده ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ ، لأن الرسول مصدر مُسمّى به . فحيث وحّده حمل على المصدر ، وحيث ثنّى حمل على الاسم ، ويجوز أن يقال : حيث وحّد حُمل على الرسالة ، لأنهما أرسلا لشىء واحد ، وحيث ثنى حمل على الشخصين .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴾ بالفاء من غير (من) وفى السجدة بالواو وبعده (من) ، لأن الفاء للتعقيب والاتصال بالأول ، فطال الكلام فحسن حذف (من) ، والواو يدل على الاستئناف ، وإتيان (من) غير مستقل .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

١ - إنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدد من الأنبياء والمرسلين ، بعضها بطريق البسط والإطناب ، كقصص زكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام ، وبعضها بين البسط والإيجاز ، كقصص إبراهيم عليه السلام ، وبعضها موجز مجمل ، كقصة موسى عليه السلام ، ثم أشار إلى بقية النبيين بالإجمال ، ذكر هنا قصة موسى التى أجملت فيما سلف ، واستوعبها غاية الاستيعاب ، ثم فصل قصة آدم عليه السلام ، ولم يذكر فى سورة مريم إلا اسمه فحسب .

٢ - إنه روى عن ابن عباس أن هذه السورة نزلت بعد سالفتها .

٣ - إن أول هذه السورة متصل بآخر السورة السابقة . ومناسب له فى المعنى ، إذ ذكر فى آخر تلك أنه إنما يسر القرآن بلسانه العربى المبين ليكون تبشيرا للمتقين ، وإنذارا للمعاندين ، وفى أوائل هذه ما يؤكد هذا المعنى .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ
ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

المفردات :

﴿ **لتشقى** ﴾ : أى لتتعب وتنصب .

﴿ **تذكرة** ﴾ : أى تذكيرا وعظة .

﴿ **يخشى** ﴾ : أى يخاف الله .

﴿ **العُلى** ﴾ : واحدها العليا مؤنثه الأعلى كالكبرى مؤنثه الأكبر .

﴿ **والعرش** ﴾ : فى اللغة سرير الملك ويراد به فى لسان الشرع مركز تدبير العالم .

﴿ **والثرى** ﴾ : التراب الندى والمراد هنا مطلق التراب .

﴿ **وأخفى** ﴾ : أى من السر وهو ما أخطرته ببالك دون أن تتفوّه به بحال .

﴿ **والأسماء** ﴾ : أى الصفات (صفات الله تعالى) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء قل سموهم ﴾[١] أى صفوهم .

﴿ **والحسنى** ﴾ : مؤنث الأحسن .

قوله تعالى : ﴿ **طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ : قد يكون المقصود بطه بعض حروف الهجاء التى تحدى الله بها العرب ، وجعلها إشارة إلى إعجاز هذا القرآن العظيم ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾[٢] .

ويرى البعض أنها بمعنى يا رجل .

﴿ **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ : بل إنه رحمة وهداية وسكينة وطمأنينة : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[٣] .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة الرعد .

(٢) الآيات ١٩٢ - ١٩٥ من سورة الشعراء .

(٣) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .

﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ : أى تذكيرا للغافلين إذا ما غفلوا ، فهو تنبيه وإرشاد وتوجيه لمن يخشى الله ويرجو رحمته ويخاف عذابه ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾[١] ..

قوله تعالى : ﴿ تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى ﴾ :

هذا القرآن معجزة الله فى كلماته ، كما أن الكون من سماوات وأراضين معجزات الله تعالى فى خلقه ، وقد تحدى الله جلت قدرته أرباب الفصاحة وأساطين البلاغة أن يأتوا بسورة من مثل القرآن الكريم فعجزوا ، قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[٢] .

وتحدى العالم أن يخلقوا ذباباً فى هذا الكون : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثلٌ فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾[٣] .

فكما أن كلمات الله معجزة ، فكذلك آياته المنظورة فى الكون معجزة ، فالآيات متلوة كانت أو منظورة إنما هى ﴿ نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ﴾[٤] .

إن الذى أنزل عليك هذا الكتاب يا محمد هو الذى خلق السموات والأرض . يعلم سركم ونجواكم ويعلم ما تكسبون .

﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ :

قال الإمام مالك رضى الله عنه : (الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ، والإيمان به واجب ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى كان ولا مكان ، وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم تتغير عما كان) .

وهذا هو قول السلف الصالح تفويض وتسليم بلا تعطيل ولا تأويل ، الله جل فى علاه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ﴾ :

فالله جل جلاله هو مالك الكون كله ، والمتصرف فيه بحكمته وعلمه وإرادته وقدرته ، فالسموات ملكه ، والأرض كذلك وما بينهما ، وله ما تحت الثرى مما اختلف ألوانه ، وتنوعت أشكاله ، له ملك

---

(١) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الإسراء .
(٢) الآيتان ٧٣ ، ٧٤ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٧٣ من سورة الحج .
(٤) الآية ٣٥ من سورة النور .
(٥) الآية ٦ من سورة الفرقان .
(٦) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .

السموات والأرض ، فالقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، ملك فقدر ، وبطن فخبر ، وعلا فقهر ، واحد بلا عدد ، ودائم بلا أمد ، وقائم بلا عمد .

قوله تعالى : ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ :

هذا الإله القادر علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[١] .

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٢] .

إن علم الله الشامل يعلم ما هو أخفى من السر ، وهو الذى عبر عنه القرآن بذات الصدور ، ما يخطر ببال الإنسان دون أن يتحدث به ، هذا الإله الذى وجب له كل كمال يليق بذاته ، واحد لا شريك له ، ولا قسيم له ، ولا شبيه له .

﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ :

وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[٤] .

فهو صاحب الصفات الكاملة ، وهو المنزه عن أى نقص ، تقدست أسماؤه ، وتنزهت صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية .

---

(١) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٨٠ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ١١٠ من سورة الإسراء .

حديث موسى

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ
ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ
فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ
أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ
أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

المفردات :

﴿ **الحديث** ﴾ : كل كلام يبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو فى منامه .
﴿ **والمكث** ﴾ : الإقامة .
﴿ **آنست** ﴾ : أى أبصرت .
﴿ **آتيكم** ﴾ : أجيئكم .
﴿ **بقبس** ﴾ : أى بشعلة مقتبسة على رأس عود ونحوه .
﴿ **هدى** ﴾ : أى هاديا يدلنى على الطريق .
﴿ **طوى** ﴾ : (بالضم) : منونا : اسم لذلك الوادى .
﴿ **اخترتك** ﴾ : أى اصطفيتك .
﴿ **لذكرى** ﴾ : أى لتكون ذاكرا لى .
﴿ **أكاد أخفيها** ﴾ : أى أبالغ فى إخفائها ولا أظهرها بأن أقول إنها آتية .
﴿ **هواه** ﴾ : أى ما تهواه نفسه .
﴿ **فتردى** ﴾ : أى فتهلك .

بعد أن عظّم سبحانه كتابه ، والرسول الذى أنزل عليه بما كلّفه به من التبليغ بالإنذار والتبشير ، أتبع ذلك بما يقوى قلبه من قصص الأنبياء ، وما فعلته أممهم معهم ، وكيف كانت العاقبة لهم والنصر حليفهم ، ففى هذا سلوى له وتأس بهم ، فيما قاموا به من الذود عن الحق مهما أصابهم من العنت

والأذى ، من جراء الدعوة إليه ، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله : ﴿ وكلاًّ نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾[١] .

وبدأ بقصص موسى لأن محنته كانت أشد ، فقد تحمل من المكاره ما تنوء به راسيات الجبال ، وقابل ذلك بعزم لا يفتر ، وبقوة تفل الحديد .

﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً ﴾ أى وهل بلغك كيف كان ابتداء الوحى إلى موسى ، وتكليم الله إياه .

ومن سنن العربية أنه إذا أريد تثبيت الخبر ، وتقرير الجواب فى نفس المخاطب ، أن يلقى إليه بطريق الاستفهام ، فيقول المرء لصاحبه : هل بلغك كذا وكذا ، فيتطلع السامع إلى معرفة الخبر ، ويصغى إليه أتم الإصغاء .

روى أن موسى عليه السلام استأذن شعيباً فى الرجوع إلى والدته ، فأذن له بعد أن قضى الأجل الذى كان بينه وبين صهره فى رعاية الغنم ، فخرج وسار قاصداً مصر بعد أن طالت غيبته عنها ، فقد زادت على عشر سنين ومعه زوجه ، فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية ذات ثلج وبرد وسحاب وضباب وظلام ، ونزل منزلا بين شعاب وجبال ، وجعل يقدح بزند كان معه ليورى ناراً ، فلم تود المقدحة شيئاً ، وبينما هو يزاول ذلك ويعالجه ، إذ رأى نارا من بعد عن يسار الطريق .

﴿ فقال لأهله امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ :

أى فقال لامرأته وولدها وخادمها مبشرا لهم : أقيموا مكانكم إنى أبصرت نارا ، وسأذهب إليها لعلنى أجيئكم منها بشعلة مقتبسة على رأس عود أو نحوه ، أو أجد هاديا يدلنى على الطريق ، وجاء فى سورة القصص : ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾[٢] .

وقصارى ذلك - إنه قال لأهله أقيموا مكانكم ، وإنى قد رأيت نارا فإما أن آتيكم منها بقبس تشعلون منه نارا تصطلون بها ، وإما أن أجد دليلاً يرشدنى إلى الطريق المسلوك ، وكان قد ضل عنه . .

﴿ فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك ﴾ :

أى فلما خرج موسى نحوها وجد نارا بيضاء تتقد كأصو إما يكون فى شعرة خضراء ، فلا ضوء النار يغير خضرتها ، ولا خضرة الشجرة تغير ضوء النار ، وهناك نودى يا موسى قال : من المتكلم ؟ قال : إنى أنا ربك ، ثم أمره أن يخلع نعليه احتراما للبقعة المقدسة فقال :

﴿ فاخلع نعليك ﴾ : إذ أن الحفوة أقرب إلى التواضع ، وحسن الأدب ، ومن ثم طاف السلف الصالح بالكعبة حافين .

ثم بين سبب الأمر بذلك بقوله :

﴿ إنك بالواد المقدس طوى ﴾ : أى لأنك بالوادى المطَّهر المسمى بطوى ، فاخلعها ليحصل للقدمين بركته .

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .

(٣) الآية ٢٩ من سورة القصص .

﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ :

أى وأنا اصطفيتك من قومك بالنبوة والرسالة ، فعليك أن تسمع لما أوحيه إليك .

ونحو الآية قوله : ﴿ إنِّى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى ﴾[(1)] .

وقصارى ذلك ـ لقد جاءك أمر عظيم فتأهب له ، واجعل كل خاطرك مصروفا إليه ، وقد قالوا : إن من أدب الاستماع سكون الجوارح والأعضاء ، وغض البصر ، والإصغاء بالسمع وحضور القلب ، والعزم على العمل .

وقد بين سبحانه أهم ما يوحى إليه بقوله :

﴿ إننى أنا الله لا إله إلا أنا ﴾ :

أى إن أول الواجب على المكلف أن يعلم أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

﴿ فاعبدنى ﴾ : أى وإذ كنت أنا الإله حقا ولا معبود سواى ، فخصنى بالعبادة والتذلل والانقياد فى جميع ما كلفتك به .

﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾ :

أى وأدّ الصلاة على الوجه الذى أمرتك به ، مقوّمة الأركان ، مستوفاة الشرائط لتذكرنى فيها ، وتدعونى دعاء خالصاً لا يشوبه إشراك ولا توجيه إلى سواى .

وخصت الصلاة بالذكر من بين سائر العبادات لما لها من الفضل على سواها ، إذ فيها المعبود وشغل القلب واللسان بذلك ، ومن ثم تنهى عن الفحشاء والمنكر .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها فإن الله قال : ﴿ أقم الصلاة لذكرى ﴾)[(2)] .

ثم بين السبب فى وجوب العبادة وإقامة الصلاة فقال :

﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها ﴾ :

أى إن الساعة آتية لا محالة ، وإنى أكاد أخفيها من نفسى ، فكيف يعلمها غيرى من الخلق .

وقد جاء هذا على سنن العرب فى تخاطبهم ، يقول أحدهم إذا بالغ فى كتمان السر : كتمت سرى من نفسى ، يريد أنه أخفاه غاية الإخفاء .

وفائدة إخفائها التهويل والتخويف ، فإنهم إن لم يعلموا متى تقوم الساعة يكونون منها على حذر ، ولمثل تلك الفائدة أخفى الله وقت الموت ، لأن المرء إذا علم وقت موته وإنقضاء أجله اشتغل

---

(١) الآية ١٤٤ من سورة الأعراف .

(٢) أخرجه البخارى فى المواقيت : ٣٧ ، ومسلم فى المساجد : ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، وأبو داود فى الصلاة : ١١ ، والترمذى فى الصلاة : ١٦ ، ١٧ ، والنسائى فى المواقيت ٥٢ ـ ٥٤ ، وابن ماجه فى الصلاة : ١٠ ، والدرامى فى الصلاة : ٢٦ ، والإمام مالك فى الصلاة : ٢٥ ، وفى السفر : ٧٧ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٠٠ ، ٢٤٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، وفى ٥ : ٢٢ .

بالمعاصى إلى أن يقرب ذلك الحين فيتوب ، ويصلح عمله ، وقد وعد الله بقبول توبته ، وهذا يكون كالإغراء على المعصية ، لكنه إن لم يعلم حين منيته كان منها على حذر ، ولا يزال على قدم الخوف والوجل فيترك المعاصى ويتوب منها فى كل حين ، خوف معاجلة الموت .

قوله تعالى : ﴿ **لتجزى كل نفس بما تسعى** ﴾ : أى إن الساعة آتية لا محالة ، ليجزى كل عامل بعمله ، كما قال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[1] . وقال : ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[2] .

ثم خاطب سبحانه موسى محذراً له فقال :

﴿ **فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾ :

أى فلا يردنك يا موسى عن التأهب للساعة من لا يقر بقيامها ، ولا يصدق بالبعث ، ولا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا ، بل يركب رأسه ، ويخالف أمر ربه ونهيه ، فإنك إن فعلت ذلك وقعت فى هاوية الخذلان والعصيان ، وهذا الخطاب من وادى قولهم (إياك أعنى واسمعى يا جارة) ، فالمراد بمثل هذا الخطاب جميع المكلفين ، كما تقدم غير مرة .

وخلاصة ذلك : لا تتبعوا سبل من كذب بالساعة وأقبل على لذاته فى دنياه ، وعصى أمر ربه واتبع هواه ، فإن من سلك سبيلهم خاب وخسر كما قال : ﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾[3] .

معجزات موسى عليه السلام

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

المفردات :

﴿ **أتوكأ عليها** ﴾ : اعتمد عليها فى المشى والوقوف على رأس القطيع .

﴿ **وأهش بها** ﴾ : أى أخبط بها ورق الشجر .

﴿ **مآرب** ﴾ : أى منافع واحدها مأربة (مثلثلة الراء) .

﴿ **والحية** ﴾ : تطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى من هذا النوع .

---

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٢) الآية ١٦ من سورة الطور .

(٣) الآية ١١ من سورة الليل .

﴿ والثعبان ﴾ : العظيم من الحيات .

﴿ والجان ﴾ : الصغير منها .

﴿ سيرتها الأولى ﴾ : أى حالها الأولى وهى كونها عصا ، يقال لكل من كان على أمر فتركه وتحول عنه ثم راجعه : عاد فلان سيرته الأولى .

بعد أن ذكر سبحانه مناجاته لموسى حين رأى النار التى فى الشجرة ، واختياره نبيا ، وإيحاءه إليه أن لا إله إلا هو ، وأمره بإقامة الصلاة لما فيها من ذكره وتخصيصه بالعبادة دون سواه ، ثم إخباره بأن الساعة آتية لا محالة ، ليجزى المحسن بإحسانه ، والمسىء بما دَسّى به نفسه جزاء وفاقا ، قفى على ذلك بذكر البرهانات التى آتاها موسى دلالة على نبوته ، وتصديقاً له على رسالته .

فبدأ بذكر العصا التى انقلبت حية تسعى حين ألقاها من يده ، وكان قد سأله عنها استجماعاً لقلبه ، وتهدئة لروعه فى هذا المقام الرهيب ، وإعلاماً بما سيكون لها بعد من عظيم الشأن ، وجليل المنافع والمزايا ، التى لم تكن تدور بخلده عليه السلام .

قوله تعالى : ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ :

سأله سبحانه عما فى يده - وهو العليم به - ليبين له أنه سيجعل لتلك الخشبة التى ليس لها خطر كبير ، ولا منفعة عظيمة ، جليل المزايا والفوائد التى لم تكن تخطر له على بال ، كانقلابها حية تسعى ، وضرب البحر بها حتى ينفلق ، وضرب الحجر حتى يتفجر منه الماء ، ولينبهه بهذا الطريق إلى كمال قدرته ، وبالغ عظمته ، إذ أظهر لأحقر الأشياء هذه المنافع العظيمة ، على سنن الناس فى تخاطبهم ، إذا أراد أحدهم أن يظهر من الشىء الحقير شيئا شريفا أن يأخذه ، ويعرضه على النظارة ، ويقول لهم : ما هذا ؟ فيقولون : هو كذا ، فيفيض فى شرح ماله من فائق المزايا ، وجليل المنافع ، التى لم تكن تدور بخلدهم ، ولم تخطر ببالهم .

فأجابه موسى معددا ما لها من فوائد ومزايا بحسب ما وصلت إليه معرفة البشر :

﴿ قال هى عصاى ﴾ : وبهذا تم الجواب ، ولكن موسى ذكر ما لها من فوائد إذ أحب مكالمة ربه ، فجعل ذلك كالوسيلة لهذا الغرض ، فبين لها فائدتين على سبيل التفصيل ، وواحدة على سبيل الإجمال فقال :

١ - ﴿ أتوكأ عليها ﴾ : أى اعتمد عليها إذا مشيت ، أو تعبت ، أو وقفت على رأس القطيع من الغنم .

٢ - ﴿ وأهش بها على غنمى ﴾ : أى أخبط ورق الشجر بها ليسقط على غنمى فتأكله .

٣ - ﴿ ولى فيها مآرب أخرى ﴾ : أى ولى فيها مصالح ومنافع أخرى غير ذلك ، كحمل الزاد ، والسقى ، وطرد السباع عن الغنم ، وإذا شئت ألقيتها على عاتقى فعلقت بها قوسى ، وكنانتى ، ومخلاتى ، وثوبى ، وإذا وردت ماء قصر عنه رشائى وصلته بها .

وقد أجمل عليه السلام فى المآرب رجاء أن يسأله ربه عنها ، فيسمع كلامه مرة أخرى ويطول الحديث بهذا .

وبعد أن ذكر هذه الجوابات أمره بإلقائها ، لتتبين لها فوائد لم يعرفها من قبل .

﴿ **قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى** ﴾ : أى قال له ربه : ألقها يا موسى لترى من شأنها ما ترى ، فألقاها فإذا هى ثعبان عظيم ، ينتقل من مكان إلى آخر مسرعا ، وجاء تشبيهها بالجان وهو الصغير من الحيات فى قوله ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ﴾[1] لما ظهر لها من سرعة الحركة والقوة ، لا لصغرها ، ثم أمره بأخذها وهى على تلك الحال دون خوف ولا ذعر .

﴿ **قال خذها ولا تخف** ﴾ : أى قال له ربه : خذها بيمينك ولا تخف منها ، وهذا الخوف مما تقتضيه الطبيعة البشرية حين مشاهدة الأمر الجلل الذى لا يعرف له نظير ، ولا يدرك له سبب ، ولا ينقص ذلك من جلالة قدره عليه السلام .

ثم علل النهى عن الخوف بقوله :

﴿ **سنعيدها سيرتها الأولى** ﴾ : أى سنرجعها إلى الحال التى كانت عليها من قبل ، وهى العصوية ، فأقدم على ذلك برباطة جأش دون تردد ولا ذعر .

وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا
ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ
أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾
هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

المفردات :

﴿ **الضم** ﴾ : الجمع وأصل الجناح للطائر ثم أطلق على اليد والعضد والجيب هو المراد هنا .

﴿ **والسوء** ﴾ : القبح فى كل شىء ويراد به هنا البرص والطباع تنفر منه .

﴿ **وآية أخرى** ﴾ : أى معجزة ثانية غير العصا .

﴿ **طغى** ﴾ : أى تجاوز الحد فى عتوّه وتجبره .

﴿ **اشرح لى صدرى** ﴾ : أى وسعه لتحمُّل أعباء الرسالة .

---

(١) الآية ١٠ من سورة النمل .

﴿ يسر لى أمرى ﴾ : أى سهّل لى ما أمرتنى من تبليغ الرسالة .

﴿ واحلل عقدة من لسانى ﴾ : أى أزل ذلك التعقد والحبسة التى فى لسانى لئلا يستخف بى الناس وينفروا منى ولا يستمعوا لكلامى .

﴿ يفقهوا قولى ﴾ : أى يفهموه .

﴿ وزيرا ﴾ : أى مُعينا .

﴿ والأزر ﴾ : القوة . يقال آزره أى قوّاه وأعانه .

﴿ وأشركه فى أمرى ﴾ : أى اجعله شريكا لى فى النبوة والرسالة .

﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ : أى عالمًا بأحوالنا لا نريد بالطاعة إلا رضاك .

قوله تعالى : ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى ﴾ :

أى من آيات الله المعجزة الخارقة للعادة والتى يعجز جميع الخلق على الإتيان بمثلها ، فبعد معجزة العصا تأتى معجزة اليد ، كان موسى يدْخل يده فى جيبه كما جاء فى كثير من الآيات ، قال تعالى : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾[2] ، أى بيضاء ليس بها داء البرص .

لنريك من آياتنا الكبرى ، وكل آيات الله كبرى ، فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ؛ إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، سبحانه يقول فى حديثه القدسى الجليل : [عبدى أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ما أريد فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلمنى فيما أريد اتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ما أريد] .

سبحانك ربى :

لا الأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ولا الشئون التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى أحاط بى علمه من قبل تصويرى

قوله تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ :

أى تجاوز حدود العبودية ، ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[3] ثم طغى وتجبر وأدبر واستكبر فقال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾[4] .

اذهب إلى هذا الطاغوت الذى خرجت فارا منه وهاربا ، فادعه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ،

---

(١) الآية ١٢ من سورة النمل .
(٢) الآية ٣٢ من سورة القصص .
(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .
(٤) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة القصص .

ومره فليحسن إلى بنى إسرائيل ولا يعذبهم ، فإنه قد طغى وبغى وآثر الحياة الدنيا ، ونسى الرب الأعلى .

وقال وهب بن منبه : قال الله لموسى : (انطلق برسالتى فإنك بسمعى وعينى ، وإن معك يدى وبصرى ، وإنى قد ألبستك جنة من سلطانى لتستكمل بها القوة فى أمرى ، فأنت جند عظيم من جندى ، بعثتك إلى خلق ضعيف من خلقى ، بطر نعمتى ، وأمن مكرى ، وغرته الدنيا عنى ، حتى جحد حقى ، وأنكر ربوبيتى ، وزعم أنه لا يعرفنى ، فإنى أقسم بعزتى لولا القدر الذى وضعت بينى وبين خلقى لبطشت به بطشة جبار ، يغضب لغضبه السموات والأرض والجبال والبحار ، فإن أمرت السماء حصبته ، وإن أمرت الأرض إبتلعته ، وإن أمرت الجبال دمرته ، وإن أمرت البحار أغرقته ، ولكن هان علىَّ وسقط من عينى ، ووسعه حلمى ، واستغنيت بما عندى وحقى ، إنى أنا الغنى لا غنى غيرى .

فبلغه رسالتى ، وإدعه إلى عبادتى وتوحيدى وإخلاصى ، وذكره أيامى ، وحذره نقمتى وبأسى ، وأخبره أنه لا يقوم شىء بغضبى ، وقل له فيما بين ذلك قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، وأخبره أنى إلى العفو والمغفرة أسرع منى إلى الغضب والعقوبة ، ولا يرد عنك ما ألبسته من لباس الدنيا ، فإن ناصيته بيدى ، ليس ينطق ولا يطرف ولا يتنفس إلا بإذنى ، وقل له : أجب ربك ، فإنه واسع المغفرة ، وقد أمهلك أربعمائة سنة فى كلها أنت مبارزه بالمحاربة تسبه وتتمثل به ، وتصد عباده عن سبيله ، وهو يمطر عليك السماء ، وينبت لك الأرض ، لم تسقم ولم تهرم ولم تفتقر ولم تغلب ، ولو شاء الله أن يعجل لك العقوبة لفعل ، ولكنه ذو أناة وحلم عظيم ، وجاهده بنفسك وأخيك ، وأنتما تحتسبان بجهاده ، فإنى لو شئت أن آتيه بجنود لا قبل له بها لفعلت .

ولكن ليعلم هذا العبد الضعيف الذى قد أعجبته نفسه وجموعه ، أن الفئة القليلة ولا قليل منى تغلب الفئة الكثيرة بإذنى ، ولا تعجبنكما زينته ، ولا ما متع به ولا تمدا إلى ذلك أعينكما ، فإنها زهرة الحياة الدنيا ، وزينة المترفين ، ولو شئت أن أزينكما من الدنيا بزينة ليعلم فرعون حين ينظر إليها أن مقدرته تعجز عن مثل ما أوتيتما فعلت ، ولكنى أرغب بكما عن ذلك ، وأزويه عنكما ، وكذلك أفعل بأوليائى .

وقديما ما جرت عادتى فى ذلك ، فإنى لأذودهم عن نعيمها وزخارفها كما يذود الراعى الشفيق أبله عن مبارك الغرة ، وما ذاك لهوانهم علىّ ولكن ليستكملوا نصيبهم فى دار كرامتى ، سالما موفرا ، لم تكلمه الدنيا .

وأعلم أنه لا يتزين لى العباد بزينة هى أبلغ فيما عندى من الزهد فى الدنيا ، فإنها زينة المتقين ، عليهم منها لباس يعرفون به من السكينة والخشوع ، وسيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، أولئك أوليائى حقا حقا ، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك ، وذلل قلبك ولسانك .

وأعلم أنه من أهان لى وليا أو أخافه فقد بارزنى بالمحاربة ، وبادأنى ، وعرض لى نفسه ودعانى إليها ، وأنا أسرع شىء إلى نصرة أوليائى .

أفيظن الذى يحاربنى أن يقوم لى ، أم يظن الذى يعادينى أن يعجزنى ، أم يظن الذى يبارزنى أن يسبقنى أو يفوتنى ، وكيف وأنا الثائر لهم فى الدنيا والآخرة ، لا أكل نصرتهم إلى غيرى) . رواه ابن أبى حاتم . .

قوله تعالى : ﴿ **قال رب اشرح لى صدرى * ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى* اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا** ﴾ .

لما أمر الله تعالى نبيه موسى بالذهاب إلى فرعون ، وكما قال له فى سورة الشعراء : ﴿ أن ائت القوم الظالمين * قوم فرعون ألا يتقون ﴾(١) .

سأل موسى ربه تلك الدعوات الطيبة ، فقد علم أنه ذاهب إلى جبار عنيد ، لا تلين له قناة ، لأنه غليظ الكبد ، لو وزعت قسوة قلبه على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم ، فهو رجل حديد الفؤاد ، حديد اللسان .

سأل موسى ربه أن يفسح له فى صدره ، حتى يصبر على جهالة هذا الجهول : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾(٢) .

والحلم على مثل هذا أمر مرغوب فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾(٣) .

إن الخطب جسيم ، وإن الهول عظيم ، من أجل ذلك قال موسى لربه ﴿ **ويسر لى أمرى** ﴾ ، فلا سهل إلا ما جعله الله سهلا ، وهو سبحانه الذى يجعل الصعب سهلاً .

كما سأل موسى ربه حل عقدة من لسانه ، وكان فى لسانه حُبْسة تمنعه من كثير من الكلام .

وفى آية أخرى ، قال : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردءًا يصدقنى ﴾(٤) وهنا يقول : ﴿ **واجعل لى وزيراً من أهلى * هارون أخى** ﴾ أى معينا .

ومن ثم قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾(٥) .

ومن ثم قال ﴿ **اشدد به أزرى** ﴾ : أى أحكم به قوتى ، واجعله شريكى فى أمر الرسالة ، حتى

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٤ من سورة القصص .

(٣) الآيات ١٧ـ١٩ من سورة النازعات .

(٤) الآية ٣٤ من سورة القصص .

(٥) الآيات ٥١ـ٥٣ من سورة مريم .

نتعاون على أدائها على الوجه الذى يؤدى إلى أحسن الغايات ، ويوصل إلى الغرض على أجمل السبل .

ثم حكى عنه سبحانه ما لأجله دعا بهذا الدعاء فقال :

﴿ كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا ﴾ :

أى لكى ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفضال التى من بينها ما يدعيه فرعون الطاغية ، وفئته الباغية من الألوهية له ، ونذكرك وحدك ابتغاء مرضاتك ، دون أن نشرك معك غيرك أثناء أداء الرسالة ، ودعوة المردة الطغاة إلى الحق .

ولا شك أن التعاون فى الدعوة أنجع فى الوصول إلى القصد من الإنفراد ، فكل من النبيين يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يصدر عنه مثله فى حالة الإنفراد .

﴿ إنك كنت بنا بصيرا ﴾ : أى عليما بأحوالنا وأن ما طلبناه مما يفيدنا فى تحقيق ما كلفتنا به من إقامة مراسم الرسالة على أتم الوجوه وأكملها ، فإن هارون نعم العون على أداء ما أمرت به من نشر معالم الدين ، وكبح جماح المضلين ، وإرشادهم إلى حق اليقين .

تذكير وتكليف

قال تعالى :

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ
مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ
لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِىٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ
ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ (٤٠) وَٱصْطَنَعْتُكَ
لِنَفْسِى (٤١) ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى (٤٢) ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ
(٤٣) فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ
أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ

فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ
ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ
ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ
مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ
﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا
نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

المفردات :

﴿ السؤل ﴾ : بمعنى المسئول : أى المطلوب .

﴿ مننّا ﴾ : أى أنعمنا مرة أخرى : أى فى وقت آخر غير هذا الوقت .

﴿ أوحينا ﴾ : أى ألهمنا كما جاء فى قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾[1] وقوله : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ﴾[2] .

﴿ اقذفيه ﴾ : أى ألقيه واطرحيه .

﴿ واليم ﴾ : البحر والمراد به هنا نهر النيل .

﴿ والساحل ﴾ : الشاطىء .

﴿ ولتصنع على عينى ﴾ : أى ولتُربى وتغذى بمرأى منى وأنا مراعيك ومراقبك كما يرعى الرجل الشىء بعينيه دلالة على عنايته به .

﴿ يكفله ﴾ : أى يضمه إلى نفسه .

﴿ تقر عينها ﴾ : أى تسر .

﴿ والغم ﴾ : الكدر الناشىء من خوف شىء أو فوات مقصود .

﴿ والفتون ﴾ : الابتلاء والاختبار بالوقوع فى المحن ثم تخليصه منها .

﴿ لبثت ﴾ : أى أقمت .

﴿ مدين ﴾ : بلد الشام .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل .

(٢) الآية ١١١ من سورة المائدة .

﴿ الآيات ﴾ : هى المعجزات ، والمراد بها العصا واليد البيضاء ، فإن فرعون حين قال له : فائت بآية ، ألقى العصا ونزع اليد وقال فذانك برهانان من ربك .

﴿ ولا تنيا ﴾ : أى لا تفترا ولا تقصرا .

﴿ فى ذكرى ﴾ : أى فى تبليغ رسالتى ، فالذكر يطلق على كل العبادات ، وتبليغ الرسالة من أعظمها .

﴿ طغى ﴾ : أى تجاوز الحد .

﴿ قولا لينا ﴾ : أى لا عنف فيه ولا غلظة .

﴿ يتذكر ﴾ : أى يتأمل فيذعن للحق ويؤمن .

﴿ يخشى ﴾ : أى يخاف من بطش الله وعذابه .

﴿ يفرط ﴾ : أى يعجل بالعقوبة ، من قولهم فرس فارط إذا كان سباقا للخيل .

﴿ يطغى ﴾ : أى يزداد طغيانا .

﴿ أسمع وأرى ﴾ : أى أسمع وأرى ما يجرى بينكما من قول أو فعل .

﴿ فأتياه ﴾ : أى فقابلاه وجها لوجه .

﴿ فأرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ : أى فأطلقهم من الأسر .

﴿ ولا تعذبهم ﴾ : ولا تبقيهم على ما هم عليه من العذاب والتسخير فى شاق الأعمال .

﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ : أى والسلامة من العذاب فى الدارين لمن صدق بآيات الله الهادية إلى الحق .

﴿ تولى ﴾ : أى أعرض .

﴿ أعطى كل شىء خلْقه ﴾ : أى أعطى كل نوع صورته وشكله الذى يشاكل ما نيط به من الخواص والمنافع .

﴿ ثم هدى ﴾ : أى ثم عرفه كيف ينتفع بما أعطى له .

﴿ البـال ﴾ : الفكر .

﴿ فى كتاب ﴾ : أى دفتر مقيد فيه ، والمراد بذلك كمال علمه الذى لا يضيع منه شىء .

﴿ ضل الشىء ﴾ : أخطأه ولم يهتد إليه .

﴿ ونسيه ﴾ : ذهب عنه ولم يخطر بباله .

﴿ والمهد ﴾ : ما يمهد للصبى ويفرش له أى جعل الأرض كالمهد .

﴿ وسلك ﴾ : أى سهل .

﴿ والسبل ﴾ : واحدها سبيل : أى طريق .

﴿ أزواجا ﴾ : أى أصنافا .

﴿ شتى ﴾ : واحدها شتيت كمريض ومرضى : أى مختلفة النفع والطعم واللون والشكل .

﴿ لآيات ﴾ : أى لدلالات .

﴿ والنُّهى ﴾ : واحدها نهية وهى العقل سمى بها لأنه ينهى صاحبه عن ارتكاب القبائح .

قوله تعالى : ﴿ قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ :

بعد ما سأل موسى ربه أن يشرح صدره وييسر أمره ، ويفك حبسة لسانه ليفقهوا قوله ، وأن يجعل له وزيرا من أهله ، استجاب الله له وقال ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ : أى أعطيت ما سألت :

يا من يجيب دعى المضطر فى الظلم ويكشف الضر والبلوى مع السقم
استحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت
إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية

ثم ذكر الله تعالى موسى بنعمه السالفة عليه ، فقال له : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى ﴾ .

ثم فسر هذا الوحى والإلهام بقوله : ﴿ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾ .

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾(١) .

وفى قوله تعالى ﴿ فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ﴾ : ما يفيد مدى جبروت فرعون ، فقد جعل الله منه عدوين ، فانظر إلى هذا الجبار العنيد ، ثم تأمل عداوته لله وعداوته لموسى ، ثم أعجب معى كيف يرسل موسى إلى عدوه فى التابوت ، وكيف يرسو التابوت فى الساحل ، قال تعالى : ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾(٢) .

ولكن ماذا تفعل الدنيا مجتمعة بجانب عناية الله وإرادته وعلمه وقدرته :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ثم فالمخاوف كلهن أمانُ

وماذا يصنع فرعون بجنوده وخيله ورجله وجواسيسه بجانب قدرة من لا يغفل ولا ينام ، تأمل معى قوله تعالى : ﴿ وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾ :

أى تربى على عنايتى ورعايتى ، إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة ، فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها ، إنها عناية الله سبقت إلى قصر فرعون : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾(٣) .

---

(١) الآية ٧ من سورة القصص .
(٢) الآية ٨ من سورة القصص .
(٣) الآية ٩ من سورة القصص .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج ... أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه ... لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة ... لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بُليت فثق بالله وارض به ... إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد ... فحسبك الله فى كل لك الله

ثم يذكر الله موسى بما كان من أخته ، فيقول : ﴿ **إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله** ﴾ :

وذلك لما حرم الله عليه المراضع تحريم منع لا تحريم شرع ، فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وفى سورة القصص يقول جل شأنه : ﴿ فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[١] .

ثم يذكره بذلك الذى قتله موسى : ﴿ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له ﴾[٢] ، فيقول : ﴿ **وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا** ﴾ :

والغم هنا ما حدث له من الحزن والهم عندما أصر آل فرعون على قتله ، ففر منهم هاربا حتى ورد ماء مدين ، وقال له الرجل الصالح : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ : قال الإمام أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى رحمه الله فى كتاب التفسير من سننه قوله : ﴿ **وفتناك فتونا** ﴾ (حديث الفتون) :

فاخرج بسنده عن سعيد بن جبير قال : سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام ﴿ **وفتناك فتوناً** ﴾ فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال : استأنف النهار يا ابن جبير ، فإن لها حديثاً طويلاً ، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون ، فقال : (تذاكر فرعون وجلساؤه ما كان الله وعد إبراهيم عليه السلام أن يجعل فى ذريته أنبياء وملوكاً ، فقال بعضهم : إن بنى إسرائيل ينتظرون ذلك لا يشكون فيه ، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ، فلما هلك ، قالوا : ليس هكذا كان وعد إبراهيم . فقال فرعون : كيف ترون ؟ فائتمروا وأجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشفار يطوفون فى بنى إسرائيل فلا يجدون مولوداً ذكراً إلا ذبحوه ، ففعلوا ذلك .

فلما رأوا الكبار من بنى إسرائيل يموتون بآجالهم ، والصغار يذبحون ، قالوا : ليوشكن أن تفنوا بنى إسرائيل ، فتصيروا إلى أن تباشروا من الأعمال والخدمة التى يكفونكم ، فاقتلوا عاما كل مولود

---

(١) الآيتان ١٢، ١٣ من سورة القصص
(٢) الآية ١٦ من سورة القصص .
(٣) الآية ٢٥ من سورة القصص .

ذكراً ، واتركوا بناتهم ، ودعوا عاما فلا تقتلوا منهم أحداً ، فيشب الصغار مكان من يموت من الكبار ، فإنهم لن يكثروا بمن يستحيون منهم ، فتخافوا مكاثرتهم . وإياكم ، ولم يفنوا بمن تقتلون وتحتاجون إليهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك .

فحملت أم موسى بهارون فى العام الذى لا يذبح فيه الغلمان ، فولدته علانية آمنة ، فلما كان من قابل حملت بموسى عليه السلام ، فوقع فى قلبها الهم والحزن ، وذلك من الفتون يا ابن جبير ما دخل عليه وهو فى بطن أمه مما يراد به .

فأوحى الله إليها أن لا تخافى ولا تحزنى : إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فأمرها إذا ولدت أن تجعله فى تابوت ثم تلقيه فى اليم ، فلما ولدت فعلت ذلك .

فلما توارى عنها ابنها أتاها الشيطان فقالت فى نفسها : ما فعلت بابنى ، لو ذبح عندى فواريته وكفنته كان أحب إلىّ من أن ألقيه إلى دواب البحر وحيتانه ؟ فانتهى الماء به حتى أوفى به عند فرضة مستقى جوارى امرأة فرعون ، فلما رأينه أخذنه ، فأردن أن يفتحن التابوت ، فقال بعضهن : إن فى هذا مالاً وإنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه ، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا ، حتى دفعنه إليها ، فلما فتحته رأت فيه غلاما ، فألقى الله عليها منه محبة لم يلق منها على أحد قط ، وأصبح فؤاد أم موسى فارغا من ذكر كل شىء إلا من ذكر موسى ، فلما سمع الذبّاحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت لهم : أقروه فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل حتى آتى فرعون ، فاستوهبه منه فإن وهبه لى كنتم قد أحسنتم وأجملتم ، وإن أمر بذبحه لم ألمكم ، فأتت فرعون ، فقالت : قرة عين لى ولك . فقال فرعون : يكون لك ، فأما لى فلا حاجة لى فيه ، فقال رسول الله ﷺ : (والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه الله كما هداها ولكن حرمه ذلك) .

فأرسلت إلى من حولها إلى كل امرأة لها أن تختار له ظئراً ، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها ، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت ، فأحزنها ذلك ، فأمرت به فأخرج إلى السوق ومجمع الناس ترجو أن تجد له ظئراً تأخذه منها فلم يقبل .

وأصبحت أم موسى والهاً فقالت لأخته : قصى أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكراً ؟ أحىّ ابنى أم قد أكلته الدواب ؟ ونسيت ما كان الله وعدها فيه ، فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، والجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد وهو إلى جنبه . وهو لا يشعر به ، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات : أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ، فأخذوها ، فقالوا : ما يدريك ما نُصْحهم له هل تعرفينه ؟ حتى شكوا فى ذلك وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فقالت : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى صهر الملك ، ورجاء منفعة الملك ، فتركوها فانطلقت ، فانطلقت إلى أمها فأخبرتها الخبر . فجاءت أمه فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصه حتى امتلأ جنباه ريا . وانطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرونها أن قد وجدنا لابنك ظئرا . فأرسلت إليها

فأتت بها وبه ، فلما رأت ما يصنع بهاقالت : امكثى ترضعى ابنى هذا فإنى لم أحب شيئا حبه قط ، قالت أم موسى : لا أستطيع أن أدع بيتى وولدى فيضيع ، فإن طابت نفسك أن تعطينيه فأذهب به إلى بيتى فيكون معى لا آلوه خيرا ، فإنى غير تاركة بيتى وولدى .

وذكرت أم موسى ما كان الله وعدها فيه ، فتجاسرت على امرأة فرعون وأيقنت أن الله منجز وعده . فرجعت به إلى بيتها من يومها . وأنبته الله نباتا حسناً وحفظه لما قضى فيه . فلم يزل بنو إسرائيل وهم فى ناحية القرية ممتنعين من السخرة والظلم ما كان فيهم .

فلما ترعرع قالت امرأة فرعون لأم موسى : أزيرينى ابنى ، فدعتها يوماً تزيرها إياه فيه ، وقالت امرأة فرعون لخزانها وظؤرها وقهارمتها : لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية وكرامة لأرى ذلك ، وأنا باعثة أمينا يحصى ما يصنع كل إنسان منكم ، فلم تزل الهدايا والكرامة والنحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون ، فلما دخل عليها بجلته وأكرمته ، وفرحت به ونحلت أمه لحسن أثرها عليه .

ثم قالت لآتين به فرعون فلينحلنَّه وليكرمنَّه ، فلما دخلت به عليه جعله فى حجره ، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض ، فقال الغواة من أعداء الله لفرعون : ألا ترى ما وعد الله إبراهيم نبيه أنه زعم أن يرثك ويعلوك ويصرعك ؟ فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه ، وذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به .

وأريد به فتوناً فجاءت امرأة فرعون فقالت : ما بدا لك فى هذا الغلام الذى وهبته لى ؟ فقال : ألا ترينه يزعم أنه يصرعنى ويعلونى ؟ فقالت : اجعل بينى وبينك أمراً يعرف الحق به ، ائت بجمرتين ولؤلؤتين فقدمهن إليه ، فإن بطش باللؤلؤتين واجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل ، وإن تناول الجمرتين ولم يرد اللؤلؤتين علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل ، فقرب إليه الجمرتين واللؤلؤتين فتناول الجمرتين فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده ، فقالت المرأة : ألا ترى ؟ فصرفه الله عنه بعد ما كان قد همّ به ؛ وكان الله بالغاً فيه أمره .

فلما بلغ أشده ، وكان من الرجال ، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم ولا سخرة . حتى امتنعوا كل الامتناع .

فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان ، أحدهما فرعونى ، والآخر إسرائيلى ، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فغضب موسى غضباً شديداً لأنه تناوله وهو يعلم منزلته من بنى إسرائيل وحفظه لهم ، لا يعلم الناس إلا إنما ذلك من الرضاع إلا أم موسى إلا أن يكون الله أطلع موسى من ذلك على ما لم يطلع عليه غيره ، فوكز موسى الفرعونى فقتله ، وليس يراهما أحد إلا الله عز وجل والإسرائيلى ، فقال موسى حين قتل الرجل : هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، ثم قال : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾[١] .

(١) الآية ١٦ من سورة القصص .

فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب الأخبار ، فأتى فرعون فقيل له : إن بنى إسرائيل قتلوا رجلاً من آل فرعون . فخذ لنا بحقنا ، ولا ترخص لهم . فقال : ابغونى قاتله ومن يشهد عليه ، فإن الملك وإن كان صفوة مع قومه لا يستقيم له أن يقيد بغير بينة ولا ثبت ، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم ، فبينما هم يطوفون لا يجدون ثبتاً إذا بموسى من الغد ، قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلاً من آل فرعون آخر فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى ، فصادف موسى فندم على ما كان منه ، وكره الذى رأى ، فغضب الإسرائيلى وهو يريد أن يبطش بالفرعونى ، فقال للإسرائيلى لما فعل بالأمس واليوم : إنك لغوى مبين ، فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعدما قال له ما قال فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى ، فخاف أن يكون بعدما قال له إنك لغوى مبين أن يكون إياه أراد ، ولم يكن أراده . إنما أراد الفرعونى ، فخاف الإسرائيلى وقال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، وإنما قاله مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله ، فتتاركا .

وانطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول : يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس ، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى ، فأخذ رسل فرعون فى الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى ، وهم لا يخافون أن يفوتهم ، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره ، وذلك من الفتون يا ابن جبير .

فخرج موسى متوجهاً نحو مدين ، ولم يلق بلاء قبل ذلك ، وليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز وجل ، فإنه قال : ﴿ عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾[1] يعنى بذلك حابستين غنمهما ، فقال لهما : ما خطبكما معتزلتين لا تسقيان مع الناس ؟ قالتا : ليس لنا قوة نزاحم القوم ، وإنما نسقى من فضول صياخهم ، فسقى لهما فجعل يغترف من الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء فانصرفتا بغنمهما إلى أبيهما .

وانصرف موسى عليه السلام فاستظل بشجرة وقال : ﴿ رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾[2] .

واستنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا ، فقال : إن لكما اليوم لشأنا ، فأخبرتاه بما صنع موسى ، فأمر إحداهما أن تدعوه ، فأتت موسى فدعته ، فلما كلمه قال : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ليس لفرعون ولا لقومه علينا سلطان ، ولسنا فى مملكته .

فقالت إحداهما : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾[3] فاحتملته الغيرة على أن قال لها : ما يدريك ما قوته وما أمانته ؟ فقالت : أما قوته فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا ، لم أر رجلاً قط أقوى فى ذلك السقى منه ، وأما الأمانة فإنه نظر إلىّ حين أقبلت إليه وشخصت له ،

---

(١) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة القصص .

(٢) الآية ٢٤ من سورة القصص .

(٣) الآية ٢٦ من سورة القصص .

فلما علم إنى امرأة صوّب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك ، ثم قال لى : امشى خلفى ، وانعتى لى الطريق ، فلم يفعل هذا إلا وهو أمين ، فسرِّى عن أبيها وصدقها وظن به الذى قالت .

فقال له هل لك : ﴿ أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾[1] .

ففعل فكانت على نبى الله موسى ثمان سنين واجبة ، وكانت سنتان عدة منه ، فقضى الله عنه عدته فأتمها عشراً .

قال سعيد وهو ابن جبير : فلقينى رجل من أهل النصرانية من علمائهم ، قال : هل تدرى أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا ، وأنا يومئذ لا أدرى ، فلقيت ابن عباس فذكرت له ذلك ، فقال : أما علمت أن ثمانيا كانت على نبى الله واجبة ، لم يكن نبى الله لينقص منها شيئا ، ويعلم أن الله قاضيا عن موسى عدته التى كان وعده ، فإنه قضى عشر سنين ، فلقيت النصرانى فأخبرته ذلك ، فقال : الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك ، قلت : أجل وأولى .

فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار والعصا ويده ما قص عليك فى القرآن ، فشكا إلى الله تعالى ما يحذر من آل فرعون فى القتيل ، وعقدة لسانه ، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام ، وسأل ربه أن يعينه بأخيه هارون يكون له ردءًا ويتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه ، فآتاه الله سؤله ، وحل عقدة من لسانه ، وأوصى الله إلى هارون وأمره أن يلقاه فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون عليه السلام .

فانطلقا جميعاً إلى فرعون فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما ، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد ، فقالا : ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ قال : فمن ربكما ؟ فأخبراه بالذى قصَّ الله عليك فى القرآن ، قال : فما تريدان ؟ وذكّره القتيل فاعتذر بما قد سمعت ، قال : أريد أن تؤمن بالله ، وترسل معنا بنى إسرائيل ، فأبى عليه وقال : ائت بآية إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هى حية تسعى عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون ، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها ، فاقتحم عن سريره ، واستغاث بموسى أن يكفها عنه ، ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء ، يعنى من غير برص ، ثم ردها فعادت إلى لونها الأول .

فاستشار الملأ حوله فيما رأى ، فقالوا له هذان لساحران ﴿ يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ يعنى ملكهم الذى هم فيه ، والعيش ، وأبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب ، وقالوا له : أجمع لهما السحرة . فإنهم بأرضك كثير حتى تغلب بسحرك سحرهما .

فأرسل إلى المدائن ، فحشر له كل ساحر متعالم ، فلما أتوا فرعون قالوا : بما يعمل هذا الساحر ؟ قال : يعمل بالحيات ، قالوا : فلا والله ما أحد فى الأرض يعمل بالسحر بالحيات والحبال

(١) الآية ٢٧ من سورة القصص .

والعصى الذى نعمل ، فما أجرنا إن نحن غلبنا ؟ قال لهم : أنتم أقاربى وخاصتى ، وأنا صانع إليكم كل شىء أحببتم ، فتواعدوا يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى .

قال سعيد بن جبير فحدثنى ابن عباس : أن يوم الزينة اليوم الذى أظهر الله فيه موسى على فرعون والسحرة هو يوم عاشوراء .

فلما اجتمعوا فى صعيد واحد قال الناس بعضهم لبعض : انطلقوا فلنحضر هذا الأمر ﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾(١) : يعنون موسى وهارون استهزاء بهما ، فـ ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾(٢) .

فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه خيفة ، فأوحى الله إليه : أن ألق عصاك . فلما ألقاها صارت ثعباناً عظيمة فاغرة فاها . فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزاً إلى الثعبان تدخل فيه ، حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته .

فلما عرف السحرة ذلك قالوا : لو كان هذا سحراً لم يبلغ من سحرنا كل هذا ، ولكن هذا أمر من الله عز وجل آمنا بالله ، وبما جاء به موسى من عند الله ، ونتوب إلى الله مما كنا عليه ، فكسر الله ظهر فرعون فى ذلك الموطن وأشياعه ، وظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون : ﴿ فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾(٣) .

وامرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعو الله بالنصر لموسى على فرعون وأشياعه ، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون وأشياعه ، وإنما كان حزنها وهمها لموسى ، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة كلما جاء آية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا مضت أخلف موعده وقال : هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا ؟

فأرسل الله على قومه الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، كل ذلك يشكو إلى موسى ، ويطلب إليه أن يكفها عنه ، ويواثقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل ، فإذا كف ذلك أخلف موعده ، ونكث عهده .

حتى أمر الله موسى بالخروج بقومه فخرج بهم ليلاً ، فلما أصبح فرعون ورأى أنهم قد مضوا أرسل فى المدائن حاشرين ، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة ، وأوحى الله إلى البحر إذا ضربك عبدى موسى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة ، حتى يجوز موسى ومن معه ، ثم التق على من بقى بعد من فرعون وأشياعه ، فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصا وانتهى إلى البحر ، وله قصيف مخافة أن يضربه موسى بعصاه ، وهو غافل فيصير عاصيا لله .

---

(١) الآية ٤٠ من سورة الشعراء .

(٢) الآيتان ٦٥ ، ٦٦ من سورة طه .

(٣) الآية ١١٩ من سورة الأعراف .

فلما تراءى الجمعان وتقاربا قال أصحاب موسى : إنا لمدركون ، افعل ما أمرك به ربك ، فإنه لم يكذب ولم تكذب . قال : وعدنى ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجاوزه ، ثم ذكر بعد ذلك العصى فضرب البحر بعصاه حين دنا أوائل جند فرعون من أواخر جند موسى ، فانفرق البحر كما أمره ربه وكما وعد موسى ، فلما أن جاوزموسى وأصحابه كلهم البحر ، ودخل فرعون وأصحابه التقى عليهم البحر كما أمر ، فلما جاوز موسى البحر قال أصحابه إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق ، ولا نؤمن بهلاكه ، فدعا ربه فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه .

ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم : ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ❊ إن هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون ﴾[1] .

قد رأيتم من العبر وسمعتم ما يكفيكم ومضى .

فأنزلهم موسى منزلاً ، وقال : اطيعوا هارون فإنى قد استخلفته عليكم فإنى ذاهب إلى ربى ، وأجلهم ثلاثين يوماً أن يرجع إليهم فيها ، فلما أتى ربه وأراد أن يكلمه ثلاثين يوما وقد صامهن ليلهن ونهارهن وكره أن يكلم ربه وريح فيه ريح فـم الصائم ، فتناول موسى من نبات الأرض شيئا فمضغه ، فقال له ربه حين أتاه : لم فطرت ؟ وهو أعلم بالذى كان ، قال : يا رب إنى كرهت أن أكلمك إلا وفمى طيب الريح ، قال : أوعلمت يا موسى أن ريح فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، ارجع فصم عشرا ثم ائتنى ، ففعل موسى عليه السلام ما أمر به .

فلما رأى قوم موسى أنه لم يرجع إليهم فى الأجل ساءهم ذلك ، وكان هارون قد خطبهم ، وقال : أنكم قد خرجتم من مصر ولقوم فرعون عندكم عوارى وودائع ، ولكم فيهم مثل ذلك ، فإنى أرى أنكم تحتسبون مالكم عندهم ، ولا أحل لكم وديعة استودعتموها ولا عارية . ولسنا برادّين إليهم شيئا من ذلك ولا ممسكيه لأنفسنا ، فحفر حفيرا وأمر كل قوم عندهم من ذلك من متاع أو حلية أن يقذفوه فى ذلك الحفير ، ثم أوقد عليه النار فأحرقته ، فقال : لا يكون لنا ولا لهم .

وكان السامرى من قوم يعبدون البقر صيران لبنى إسرائيل ، ولم يكن من بنى إسرائيل ، فاحتمل مع موسى وبنى إسرائيل حين احتملوا ، فقضى له أن رأى أثراً فقبض منه قبضة ، فمر بهارون فقال له هارون عليه السلام : يا سامرى ألا تلقى ما فى يدك ؟ وهو قابض عليه لا يراه أحد طول ذلك ، فقال : هذه قبضة من أثر الرسول الذى جاوز بكم البحر ولا ألقيها لشيء إلا أن تدعو الله إذا ألقيتها أن يجعلها ما أريد ، فألقاها ودعا له هارون ، فقال : أريد أن يكون عجلاً ، فاجتمع ما كان فى الحفيرة من متاع أوحلية أو نحاس أوحديد فصار عجلاً أجوف ليس فيه روح ولا خوار .

قال ابن عباس : لا والله ما كان له صوت قط ، إنما كانت الريح تدخل فى دبره وتخرج من فيه ، وكان ذلك الصوت من ذلك ، فتفرق بنو إسرائيل فرقاً ، فقالت فرقة : يا سامرى ما هذا وأنت أعلم به ؟ قال : هذا ربكم ، ولكن موسى أضل الطريق . فقالت فرقة : لا نكذب بهذا حتى يرجع إلينا موسى ،

---

(١) الآيتان ١٣٨ ، ١٣٩ من سورة الأعراف .

فإن كان ربنا لم نكن ضيعناه وعجزنا فيه حين رأينا ، وإن لم يكن ربنا فإنا نتبع قول موسى .

وقالت فرقة : هذا من عمل الشيطان ، وليس بربنا ولا نؤمن به ولا نصدق ، وأشرب فرقة فى قلوبهم الصدق بما قال السامرى فى العجل ، وأعلنوا التكذيب به .

فقال لهم هارون : ﴿ يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ﴾ قالوا : فما بال موسى وعدنا ثلاثين يوما ثم أخلفنا ، هذه ثلاثون يوما قد مضت ، وقال بسفهاؤهم أخطأ ربه فهو يطلبه يتبعه .

فلما كلم الله موسى وقال له ما قال ، أخبره بما لقى من بعده : ﴿ رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا ﴾[1] فقال لهم : ما سمعتم فى القرآن ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه ، وألقى الألواح من الغضب ، ثم إنه عذر أخاه بعذره ، واستغفر له .

وانصرف إلى السامرى فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟

قال : ﴿ قبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ وفطنت لها وعميت عليكم : ﴿ فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ﴾ .

ولو كان إلها لم يخلص إلى منه ، فاستيقن بنو إسرائيل بالفتنة ، واغتبط الذين كان رأيهم فيه مثل رأى هارون ، فقالوا لجماعتهم : يا موسى سل لنا ربك أن يفتح لنا باب توبة نصنعها فيكفر عنا عملنا ، فاختار موسى قومه سبعين رجلاً لذلك لا يألو الخير خيار بنى إسرائيل ، ومن لم يشرك فى العجل ، فانطلق بهم يسأل لهم التوبة ، فرجفت بهم الأرض فاستحيا نبى الله من قومه ومن وفده حين فعل بهم ما فعل ؛ فقال : ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾[2] .

وفيهم من كان الله أطلع منه على ما أشرب قلبه من حب العجل وإيمانه به ، فلذلك رجفت بهم الأرض . فقال : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾[3] .

فقال : يارب سألتك التوبة لقومى ، فقال : إن رحمتى كتبتها لقوم غير قومى . هلا أخرتنى فى أمة ذلك الرجل المرحومة ؟ فقال له : إن توبتهم أن يقتل كل رجل منهم من لقى من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن ، وتاب أولئك الذين كان خفى على موسى وهارون ، وأطلع على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا ، وغفر الله للقاتل والمقتول .

---

(١) الآية ١٥٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٥٥ من سورة الأعراف .

(٣) الآيتان ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة الأعراف .

ثم سار بهم موسى عليه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعد ما سكت عنه الغضب ، فأمرهم بالذى أمرهم به أن يبلغهم من الوظائف ، فثقل عليهم وأبوا أن يقرّوا بها ، ففتق الله عليهم الجبل كأنه ظلة ، ودنا منهم حتى خافوا أن يقع عليهم ، فأخذوا الكتاب بأيمانهم وهم مصغون ينظرون إلى الجبل والكتاب بأيديهم ، وهم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم .

ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون ، خلقهم خلق منكر ، وذكروا من ثمارهم أمراً عجيبا من عظمها ، فقالوا : يا موسى إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم ، ولا ندخلها ما داموا فيها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال : رجلان من الذين يخافون ـ قيل ليزيد هكذا قرأت قال نعم من الجبارين ـ آمنا بموسى وخرجا إليه ، قالوا : نحن أعلم بقومنا ، إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم ، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم ، فادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون .

ويقول أناس : إنهم من قوم موسى ، فقال الذين يخافون بنو إسرائيل : ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾[(١)] .

فأغضبوا موسى ، فدعا عليهم وسماهم فاسقين ، ولم يدع عليهم قبل ذلك ، لما رأى من المعصية وإساءتهم ، حتى كان يومئذٍ ، فاستجاب الله له وسماهم كما سماهم موسى فاسقين ، وحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار ، وظلل عليهم الغمام فى التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وجعل لهم ثيابا لا تبلى ولا تتسخ ، وجعل بين ظهرانيهم حجراً مربعا .

وأمر موسى فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ، فى كل ناحية ثلاثة أعين ، وأعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها فلا يرتحلون من مكان إلا وجدوا ذلك الحجر بينهم بالمكان الذى كان فيه بالأمس [(٢)] رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى ﷺ ، وصدق ذلك عندى (أن معاوية سمع ابن عباس يحدث هذا الحديث ، فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل . فقال : كيف يفشى عليه ولم يكن علم به ولا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك ؟ فغضب ابن عباس ، فأخذ بيد معاوية وانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى ، فقال له يا أبا اسحاق : هل تذكر يوم حدثنا رسول الله ﷺ عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون ؟ الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى ؟ قال : إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع من الإسرائيلى الذى شهد على ذلك وحضره) . وهكذا رواه النسائى فى السنن الكبرى .

قوله تعالى : ﴿ فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى* واصطنعتك لنفسى ﴾ .

هذا الخطاب من الله تعالى لكليمه موسى ، يذكره فيه بالسنين التى قضاها بين أهل مدين

---

(١) الآية ٢٤ من سورة المائدة .

(٢) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٦٩ .

بعدما سقى الغنم لابنتى الشيخ الصالح ، وقالت إحداهما : ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ﴾[١] . فقال له أبوهما : ﴿ إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين * قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على * والله على ما نقول وكيل ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ :

أى على موعد قدرته ووقت أقته ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً * قال لأهله : امكثوا إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون * فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ واصطنعتك لنفسى ﴾ : أى اصطفيتك لرسالتى كما فى قوله تعالى : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ﴾ : أى لا تبطئا فى تبليغ ذكرى إلى فرعون .

والآيات هى المعجزات التى أجراها الله على يدى موسى .

﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى ﴾ : وتجاوز حدود العبودية فقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[٥] وقال : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[٦] .

﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾ : جاء فى تفسير القول اللين أنه فى هذه الآية عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك ، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين ، كما قال يزيد الرقاش عند قوله : ﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ :

يا من يتحبب إلى من يعاديه   فكيف بمن يتولاه ويناديه ؟

وقال وهب بن منبه : (قولا له إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة) وعن عكرمة فى قوله ﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ قال : (لا إله إلا الله) .

وقال عمرو بن عبيد عن الحسن البصرى : ﴿ فقولا له قولا لينا ﴾ : أعذرا إليه قولا له : إن لك ربا ولك معادا وإن بين يديك جنة وناراً .

والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ، وليكون أوقع فى النفوس ، وأبلغ وأنجع ، كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[٧] .

(١) الآية ٢٦ من سورة القصص .
(٢) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة القصص .
(٣) الآيتان ٢٩ ، ٣٠ من سورة القصص .
(٤) الآية ١١٤ من سورة الأعراف .
(٥) الآية ٢٤ من سورة النازعات .
(٦) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٧) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

وقوله تعالى : ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ : أى لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة ، أو يخشى : أى يوجد طاعة من خشيته ربه كما قال تعالى ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ فالتذكير الرجوع عن المحذور ، والخشية تحصيل الطاعة .

وقال الحسن البصرى : ﴿ **لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ يقول : لا تقل أنت يا موسى وأخوك هارون أهلكه قبل أن أعذر إليه .

وفى هذا المقام يقول زيد بن عمرو بن نفيل شعرا رواه ابن اسحاق عن أمية بن أبى الصلت :

وأنت الذى من فضل ورحمة بعثت إلى موسى رسولا مناديا
فقلت له فاذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذى كان باغيا
فقولا له هل أنت سويت هذه بلا وتد حتى استقلت كما هيا
وقولا له آأنت رفعت هذه بلا عمد ارفق إذن بك بانيا
وقولا له آأنت سويت وسطها منيرا إذا ما جنه الليل هاديا
وقولا له من يخرج الشمس بكرة فيصبح ما مست من الأرض ضاحيا
وقولا له من ينبت الحب فى الثرى فيصبح منه البقل يتز رابيا
ويخرج منه حبه فى رءوسه ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

لما قرأ قتادة رضى الله عنه قوله تعالى : ﴿ **فقولا له قولا لينا * لعله يتذكر أو يخشى** ﴾ : قال : سبحانك ربى إذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال : أنا ربكم الأعلى فكيف حلمك بعبد قال : سبحان ربى الأعلى . وإذا كان هذا حلمك بفرعون الذى قال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[1] فكيف حلمك بعبد قال : (لا إله إلا الله) .

قوله تعالى : ﴿ **قالا ربَّنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى * فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى * إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذَّبَ وتولى** ﴾ :

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عما قاله موسى وهارون ، فقد أخبرا أنهما يخافان أن يفرط عليهما فرعون ، أى يعجل عليهما بالعقوبة ، ويبادرهما بالنكال قبل أن يبلغا رسالة ربِّهما ، أو أن يطغى فيتجاوز حدود العبودية ويسىء الأدب مع الذات الإلهية ، فكانت الإجابة ﴿ **لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ :

أسمع ما يقال وأرى ما يحدث . فسبحان من أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[2] .

---

(١) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٢) الآية ٧ من سورة المجادلة .

سبحانك ربى الوجود ملكك ، والقضاء حكمتك ، وكل الكائنات طوع إرادتك . علوت فقهرت ، وبطنت فخبرت ، وملكت فقدرت ، لا يشغلك سائل ، ولا ينقصك نائل .

إن من كان الله معه لا يخيب سعيه ، ولا تزل قدميه ، ولا يضل سؤله . وماذا فقد من وجد الله ؟ وماذا وجد من تخلى عنه السلطان الأعلى ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾[1] ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم** ﴾ :

وذلك كما جاء فى قوله جلَّ شأنه : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **قد جئناك بآية من ربك** ﴾ : هو كقوله جلَّ شأنه : ﴿ وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل * قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ **والسلام على من اتبَّع الهدى** ﴾ : ذلك لأن السلام طمأنينة وأمان ، وأهل الهدى هم أهل الأمان والطمأنينة ، فإن اتبعت الهدى فأنت منهم تفوز بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

قال الزجَّاج : أى من اتبع الهدى سلم من سخط الله وعذابه ، وليس بتحية ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتداء لقاء ولا خطاب ا هـ .

ويمثل هذا كتب رسول الله ﷺ إلى هِرَقل ملك الروم قال : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين)[5] .

وفى هذا ترغيب فى التصديق على أتم وجوهه ، وتنفير من مخالفته ، وصد عنها على أقصى غاية كما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿ **إنا قد أوحىَ إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ : هذا مقتضى العدالة الإلهية ، وهذا هو القول السديد الذى يخاطب العقل الرشيد بالمنطق العادل : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[6] .

---

(١) الآية ١٨ من سورة الحج .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النور .

(٣) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة القصص .

(٤) الآيات ١٠٤-١٠٨ من سورة الأعراف

(٥) أخرجه البخارى فى بدء الوحى : ٦ وفى الجهاد : ١٠٢ ، وفى تفسير سورة ٣ : ٤ ومسلم فى الجهاد : ٧٤ . وابن ماجة فى المقدمة : ١٠ والإمام أحمد فى ١ : ٢٦٣ ، وفى ٤ : ٢٥٧ ، ٣٧٨ .

(٦) الآية : ٤٤ من سورة يونس .

﴿ فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى ﴾(١) .

قال جلَّ شأنه : ﴿ فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى ﴾(٢) .

وأخذ فرعون يتساءل : ﴿ **قال فمن ربكما يا موسى * قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ :

وإنما سأل فرعون هذا السؤال لأنه كان يقول : ما علمت لكم من إله غيرى ، وكان يقول : أنا ربكم الأعلى ، فسألهما هذا السؤال فأجابا : ﴿ **ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ أى ربنا الذى أعطى كل شىء ما يليق به مما قدر له من الخواص والمزايا ، فأعطى العين الوضع الذى يطابق ما يراد بها من الإبصار ، والأذن الشكل الذى يوافق الاستماع ، وهكذا الأنف واليد والرجل وجميع أعضاء الجسم . ثم أرشده كيف ينتفع بما أعطاه ويرتفق به ، وكيف يصل بذلك إلى بقائه وكماله إما اختيارا كما فى الحيوان وإما طبعا كما فى النبات والجماد .

وخلاصة هذا : ربنا الذى خلق كل شىء على الوجه الذى يليق بما قُدِّر له من المنافع والخواص ، وأرشده كيف ينتفع بما خلق له ، وجعل ذلك دليلا على وجوده ، وعظيم جوده ، وكأنه يقول له : إن ذلك الخالق والهادى هو الله .

وقال بعض المفسرين : أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، كقوله تعالى ﴿ الذى قدر فهدى ﴾(٣) أى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه أى كتب الأعمال والآجال ، والأرزاق ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ولا يقدر أحد على الخروج منه . يقول ربنا الذى خلق الخلق وقدر القدر وجبل الخليقة على ما أراد .

ثم سأل فرعون : ﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ﴾ :

أى فما حال القرون الماضية كعاد وثمود الذين لم يعبدوا الله بل عبدوا غيره ؟

فأجاب موسى : ﴿ **قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾ :

أى أن ذلك من علوم الغيب لا يعلمها إلا الله ، فهو الذى ضبط أعمالهم وأحصاها فى كتاب لا يشذ عنه شىء ، ولا يفوته شىء ، لا كبير ولا صغير ، ولا ينسى شيئا ، وسيجزيهم بما علموا جزاء وفاقا .

وقصارى ذلك ـ إن علمه تعالى محيط بكل شىء ، وأنه لا ينسى شيئا ، تبارك وتعالى ، فعلمه ليس كعلم المخلوقين الذى يعتريه النقص من وجهين : عدم الإحاطة بالأشياء ، ونسيانها بعد علمها .

وإنما سأل فرعون هذا السؤال لخوفه أن يزيد موسى فى إظهار تلك الحجة ، فيستبين للناس

---

(١) الايات ٣١ ـ ٣٥ من سورة القيامة . (٢) الآيات ٥ ـ ١٠ من سورة الليل . (٣) الآية ٣ من سورة الأعلى .

صدقه ، فأراد صرفه عن ذلك ، وشغله بالقصص والحكايات التى لا تعلق لها بشئون رسالته ، لكن موسى كان أحرص من أن يهتم بمثل هذا ، ومن ثم أوجز فى رده ووكل أمر ذلك إلى ربه وإجمال سؤاله ـ إنه إذا كان الأمر كما ذكرت ففصِّل لنا حال الماضيين من سعادة وشقاء ، فرد عليه السلام عليه بأن علم ذلك إلى الله .

ثم عاد إلى تتميم كلامه الأول بإبراز الدلائل على الوحدانية فقال : ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا** ﴾ أى ربى الذى لا يضل ولا ينسى هو الذى جعل لكم الأرض كالمهاد ، تتمهدّونها وتستقرون عليها ، فتقومون وتنامون وتسافرون على ظهرها .

﴿ **وسلك لكم فيها سبلا** ﴾ : أى وجعل لكم فيها طرقا بين الجبال والأودية تمشون فى مناكبها وتسلكون من قطر إلى قطر ، لتقضوا مآربكم ، وتنتفعوا بمرافقها .

ونحو الآية قوله : ﴿ وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾[(١)] .

﴿ **وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى** ﴾ : أى وأنزل من السماء مطرا فأخرج به مختلف أنواع النبات من زروع وثمار حامضة وحلوة ؛ وهى أيضاً مختلفة النفع واللون والرائحة والشكل بعضها يصلح للإنسان ، وبعضها يصلح للحيوان ؛ وفى هذا بيان لنعمه على خلقه بما يحدث لهم من الغيث الذى يولد تلك المنافع .

﴿ **كلوا وارعوا أنعامكم** ﴾ : أى فأخرجنا أصناف النبات قائلين لكم كلوا وادعوا أنعامكم فشىء منها أعد لطعامكم وفاكهتكم ، وشىء أعد لأنعامكم قوتا لها أخضر ويابسا .

﴿ **إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ : أى فيما وصفت لكم من قدرة ربكم وعظيم سلطانه ـ لأدلة على وحدانيته وأنه لا إله غيره إذا كنتم من ذوى العقول الراجحة والأفكار الثاقبة .

ولما ذكر سبحانه منافع الأرض والسماء بين أنها غير مقصودة لذاتها ، بل هى وسائل إلى منافع الآخرة فقال سبحانه :

﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾ :

أى من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من أديم الأرض ، وفيها نعيدكم أى وإليها تصيرون إذا متم وبليتم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى : ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً ﴾[(٢)] وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ [(٣)] .

أخرج أحمد والحاكم عن أبى أمامة قال : (لما وضِعت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ فى القبر قال رسول الله ﷺ : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى ، بسم الله وفى سبيل الله ، وعلى ملة رسول الله)[(٤)] .

---

(١) الآية ٣١ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية ٥٢ من سورة الاسراء .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأعراف

(٤) أخرجه الامام احمد فى ٢ : ٢٧ ، ٤٠ ، وفى ٥ : ٢٥٤

يوم الزينة

قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ
ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ
مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ
يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟
كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ ۚ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ
﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ
تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۚ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۚ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى
عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۚ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ
وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى
فَطَرَنَا ۚ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۚ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ
لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ
لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ

ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن
تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا
لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ
فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

المفردات :

﴿ أبى ﴾ : امتنع .
﴿ موعد ﴾ : أى ميعادا معينا .
﴿ سُوى ﴾ : مستويا لا جبال فيه ولا وهاد بحيث يستر النظارة .
﴿ يوم الزينة ﴾ : يوم عيد كان لهم .
﴿ يحشر الناس ﴾ : أى يجمعون .
﴿ والضحى ﴾ : وقت ارتفاع النهار .
﴿ فتولى فرعون ﴾ : أى انصرف عن المجلس .
﴿ كيده ﴾ : أى ما يكيد به من السحرة وأدواتهم .
﴿ أتى ﴾ : أى أتى الموعد ومعه ما جمعه من الأعوان والسحرة .
﴿ ويلكم ﴾ : أى هلاك لكم .
﴿ والإفتراء ﴾ : الاختلاق والكذب .
﴿ فيسحتكم بعذاب ﴾ : أى يستأصلكم ويهلككم بعذاب شديد .
﴿ فتنازعوا ﴾ : أى فتفاوضوا وتشاوروا .
﴿ وأسروا النجوى ﴾ : أى بالغوا فى إخفاء كلامهم .
﴿ بطريقتكم المثلى ﴾ : أى بمذهبكم الذى أنتم عليه وهو أفضل المذاهب وأمثلها .
﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ : أى اجعلوا كيدكم مجمعا عليه .
﴿ صفا ﴾ : أى مصطفين لأنه أهيب للصدور .
﴿ أفلح ﴾ : أى فاز بالمطلوب .
﴿ استعلى ﴾ : أى غلب .
﴿ إيجاس الخوف ﴾ : الإحساس بشىء منه .
﴿ ما فى يمينك ﴾ : هى العصا وأبهمها تفخيما لشأنها .
﴿ وتلقف ﴾ : تبتلع بقوة وسرعة .

﴿ **صنعوا** ﴾ : أى دوَّروا وافتعلوا .
﴿ **كيد ساحر** ﴾ : أى كيد سحرىّ لا حقيقة له ولا ثبات .
﴿ **حيث أتى** ﴾ : أى أينما كان .
﴿ **كبيركم** ﴾ : أى زعيمكم ومعلمكم . قال الكسائى : الصبى بالحجاز إذا جاء من عند مُعلمه قال جئت من عند كبيرى .
﴿ **من خلاف** ﴾ : أى من حال مختلفة ، فتقطع الأيدى اليمنى والأرجل اليسرى .
﴿ **أشد عذاباً** ﴾ : أى أروم .
﴿ **نؤثرك** ﴾ : أى نفضّلك ونختارك .
﴿ **فطرنا** ﴾ : أى ابتدعنا وأوجدنا من العدم .
﴿ **فاقض** ﴾ : أى فأحكم .
﴿ **جنات عدن** ﴾ : أى جنات أعدت للإقامة .
﴿ **من تحتها** ﴾ : أى من تحت غرفها .
﴿ **تزكى** ﴾ : أى تطهر من أدناس الكفر وأرجاس المعاصى .
﴿ **السرى والإسراء** ﴾ : السير ليلاً .
﴿ **اضرب لهم** ﴾ : أى أجعل لهم .
﴿ **يبسا** ﴾ : أى طريقا يابسا لا ماء فيه .
﴿ **والدرك** (بالفتح والسكون) ﴾ : الإدراك واللحوق .
﴿ **تخشى** ﴾ : أى تخاف غرقا .
﴿ **واتبع وتَبع** ﴾ : بمعنى .
﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ : أى فعمرهم وعلاهم من البحر ما علاهم من الأمر الهائل الذى لا يعلم كنهه إلا الله .
﴿ **وأضل فرعون قومه** ﴾ : أى سلك بهم مسلكا أدّاهم إلى الخسران فى دينهم ودنياهم ، إذا غرقوا فأدخلوا ناراً .
﴿ **وما هدى** ﴾ : أى وما أرشدهم إلى طريق يصل بهم إلى طريق السعادة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه سؤال فرعون عن رب موسى ، قفى على ذلك ببيان أنه بصَّره بالآيات الدالة على توحيد الله كقوله : ﴿ **ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ وقوله : ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا** ﴾ والدالة على نبوته كإلقاء العصا وصيرورتها ثعبانا ، ونزع يده من تحت جناحه فتخرج بيضاء من غير سوء ، فعلم كل هذا وكذب به كفراً وعناداً كما قال تعالى : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا** ﴾[١] .

(١) الآية ١٤ من سورة النمل .

وبعد أن ذكر سبحانه أن موسى وفرعون اتفقا على موعد يجتمعان فيه ، وهو يوم الزينة يوم عيد لهم ، أردف ذلك ذكر ما دبره فرعون بعد إنصرافه عن المجلس من أمر السحرة وآلات السحر ، وأتى بجميع ذلك .

ثم ذكر أن موسى أوعدهم وحذرهم من عذاب لا قبل لهم به ، إن أقدموا على ما هم عازمون عليه ، ثم بين أن السحرة حين سمعوا كلام موسى تنازعوا أمرهم وتشاوروا ماذا يفعلون ، وبالغوا فى إخفاء ما يريدون ، وقالوا ما موسى وهارون إلا ساحران يريدان أن يغلباكم ويخرجاكم من دياركم ، ويرجوان أن تتركوا دينكم ، وهو أمثل الأديان وأفضلها ، لتعتنقوا دينهما ، فحذار أن تفعلوا ذلك ، ولا يتخلفن منكم أحد ، وائتوا صفا واحدا وقد فاز بالمطلوب من غلب .

وبعد أن ذكر سبحانه الموعد وهو يوم الزينة ، وذكر أنهم قالوا ائتوا صفا ، ذكر أنهم بعد أن أتوا خيروه أن يبدأ بإلقاء ما معه أو أن يبدءواهم ، فاختار الثانية ، وحين بدءوا فألقوا حبالهم وعصيهم خاف موسى عاقبة أمره ، فأوحى إليه ربه : ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك** ﴾ . فسيكون لك الفوز والظفر عليهم .

وقد تحقق ما وعد الله به ، وكتب له النصر وآمن به السحرة ، فلجأ فرعون إلى العناد والاستكبار ، وتوعد السحرة بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسيصلبهم فى جذوع النخل ، فقابلوا تهديده بالإزدراء والسخرية ، وقالوا : إنما أنت مسلط علينا فى هذه الحياة الدنيا ، وعذابك لا يعدوها ، وما عند الله من العذاب لا يضارعه عذاب ، وما عنده من الثواب لا يُقدر قدره ، ففى جناته التى تجرى من تحتها الأنهار ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وبعد ذلك أردف سبحانه ذكر ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الغرق فى البحر حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور ، وطوى فى البَيْن ، ذكر ما جرى على فرعون وقومه بعد أن غُلبت السحرة ، من الآيات المفصلة التى حدثت على يد موسى فى مدى عشرين سنة ، بحسب ما فصل فى سورة الأعراف ، وكان فرعون كلما جاءته آية عذاب وعد أن يرسل بنى إسرائيل حين ينكشف عنه العذاب ، فإذا هو انكشف نكص على عقبيه ونكث فى عهده ، حتى أمر الله موسى بالهجرة والخروج ليلاً من مصر .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى** ﴾ :

أى ولقد أطلعناه على الآيات فرآها رأى العين كما قال رب العالمين : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾[١] وذلك بعد قوله جل شأنه : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا ﴾[٢] .

(١) الآية ١٠٢ من سورة الاسراء .

(٢) الآية ١٠١ من سورة الاسراء .

فماذا كان موقفه ؟ كذّب بالآيات ، وأبى الإذعان للحق ، وهنا مكمن الداء وعلة العلل ، فالتكذيب بآيات الله هو الطامة الكبرى ، وبطر الحق هو المصيبة العظمى ، وهل أهلك الله الأمم إلا بعد تكذيبها وإبائها قبول الحق .

قال تعالى فى حق ثمود : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾[١] .

وسورة الشعراء حافلة بهذا المعنى اقرأ قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾[٢] واقرأ ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾[٣] واقرأ ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾[٤] واقرأ ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾[٥] واقرأ ﴿ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ﴾[٦] .

لقد كان فرعون يعلم أن هذه الآيات ليست من صنع البشر إنما هى من صنع خالق القوى والقدر قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[٧] .

لقد لج فرعون فى عتوه ونفوره كما هى عادة أهل الباطل ودينهم قال : ﴿ **أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى** ﴾ فسمّى المعجزات سحراً ، مع أنها حقائق ، أما السحر فتخيلات وأوهام ؛ تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ، قال تعالى : ﴿ **يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ .

وما كان موسى يسعى أبداً إلى إخراج فرعون من أرضه ، إنما أراد أن يخرجه من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد ، لقد قال له ذات يوم : يا فرعون آمن بالله ولك ملك مصر فى الدنيا ولك الجنة فى الآخرة ، وأوشك فرعون أن يقتنع . لكنه أمهل موسى حتى يستشير هامان ، وبئس المستشار هو ، فقال له هامان : أضحك عليك موسى أبعد ما كنت إلها معبوداً تصير عبداً عابداً ﴿ فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[٨] .

وقال فرعون : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾[٩] .

فماذا قال لموسى ؟ قال : ﴿ **فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سُوى** ﴾ :

---

(١) الآية ١١ ـ ١٥ من سورة الشمس .
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ١٢٣ من سورة الشعراء .
(٤) الآية ١٤١ من سورة الشعراء .
(٥) الآية ١٦٠ من سورة الشعراء .
(٦) الآية ١٧٦ من سورة الشعراء .
(٧) الآية ١٤ من سورة النمل .
(٨) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .
(٩) الآيتان ٣٨ ـ ٤٠ من سورة القصص .

اختار تحديد الزمان والمكان ، واشترط أن يكون المكان مستويا لا يحجبه بناء ولا جبل ، بل على أرض مبسوطة لا يمنع الرؤية فيها مانع ، حتى يرى الناس جميعا .

قال موسى : ﴿ **موعدكم يوم الزينة** ﴾ : وهو يوم عيد لهم .

﴿ **وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ : أي والشمس فى شبابها بحيث يكثر اجتماع الناس ، حتى يكون هذا اليوم يوما مشهودا .

قوله تعالى : ﴿ **فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى * قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى** ﴾ :

هذا إخبار من الله تعالى بأن فرعون لما تواعد هو وموسى عليه السلام إلى وقت ومكان معلومين ، تولى : أي شرع فى جمع السحرة من مدائن مملكته ، كل من ينسب إلى السحر فى ذلك الزمان ، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقا جدا ، كما قال تعالى : ﴿ وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ﴾(١) .

ثم أتى ، أي اجتمع الناس لميقات يوم معلوم ، وهو يوم الزينة ، وجلس فرعون على سرير مملكته ، واصطف له أكابر دولته ، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة ، وأقبل موسى عليه الصلاة والسلام متوكئا على عصاه ، ومعه أخوه هارون . ووقفت السحرة بين يدى فرعون صفوفا ، وهو يحرضهم ويرغبهم فى إجادة عملهم فى ذلك اليوم ، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم ، يقولون : ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ﴾(٢) .

فقال لهم موسى محذراً ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذباً** ﴾ : أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها ، وإنها مخلوقة ، وليست مخلوقة ، فتكونون قد كذبتم على الله .

﴿ **فيسحتكم بعذاب** ﴾ : أي يهلككم بعقوبة هلاكا لا بقية له .

﴿ **وقد خاب من افترى * فتنازعوا أمرهم بينهم** ﴾ .

قيل معناه : أنهم تشاجروا فيما بينهم ، فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر ، إنما هذا كلام نبى ، وقائل يقول : بل هو ساحر .

قوله تعالى : ﴿ **وأسروا النجوى** ﴾ أي بالغوا فى حديث يدور بينهم سراً .

فماذا قالوا ؟ ﴿ **قالوا إن هذان لساحران** ﴾ : أي خبيران بضروب السحر ، ﴿ **يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما** ﴾ وذلك إذا انتصرا ، وكانت لهما الغلبة ، واتبعهما الناس فإنهما عندئذ سيذهبان بطريقتكم المثلى ، ومذهبكم الأفضل ، كما قال فرعون : ﴿ إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾(٣) بعد أن قال : ﴿ ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ﴾ .

---

(١) الآية ٧٩ من سورة يونس .
(٢) الآيات ١١٣ ، ١١٤ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ٢٦ من سورة غافر .

﴿ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ :

أى اجتمعوا كلكم صفا واحدا ، وألقوا ما فى أيديكم مرة واحدة لتبهروا الأبصار ، وتغلبوا هذا وأخاه .

﴿ وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ :

أى منا ومنه ، أما نحن فقد وعدنا فرعون العطاء الجزيل ، وأما موسى فينال الرياسة العظيمة .

قوله تعالى :

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى * قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى * فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾ :

يقول تعالى مخبرا عن السحرة حين توافقوا هم وموسى عليه السلام ، أنهم قالوا لموسى : **﴿ إما أن تلقى ﴾** أى أنت أولاً **﴿ وإما أن نكون أول من ألقى * قال بل ألقوا ﴾** : أى أنتم أولاً ، لنرى ماذا تصنعون من السحر ، وليظهر للناس جلية أمرهم .

﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ : وفى الآية الأخرى أنهم لما ألقوا **﴿ قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾**(١) ، وقال تعالى : **﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾**(٢) .

وقال ههنا : **﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾** :

وذلك أنهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب وتميد ، بحيث يخيل للناظر أنها تتحرك باختيارها ، وإنما كانت حيلة ، وكانوا جما غفيرا ، وجمعا كثيرا ، فألقى كل منهم عصا وحبلا ، حتى صار الوادى ملآن حيات يركب بعضهم بعضا .

وقوله : **﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾** : أى خاف على الناس أن يفتنوا بسحرهم ، ويغتروا بهم قبل أن يلقى ما فى يمينه .

فأوحى الله تعالى إليه فى الساعة الراهنة أن **﴿ ألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾** يعنى عصاك ، فإذا هى تلقف ما صنعوا ، وذلك أنها صارت ثعبانا عظيما هائلا ذا قوائم وعنق ورأس وأضراس ، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصى حتى لم تبق منها شيئا إلا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون إلى ذلك عيانا جهرة نهارا ضحوة ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق ، وبطل السحر .

ولهذا قال تعالى : **﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾** .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ١١٦ من سورة الأعراف .

قال ﷺ : (إذا أخذتم - يعنى الساحر - فاقتلوه - ثم قرأ ﴿**ولا يفلح الساحر حيث أتى**﴾ . قال : لا يؤمن حيث وجد)(١) .

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾(٢) .

فماذا قال السحرة بعد ذلك ؟

إنهم لما عاينوا ذلك وشاهدوه ولهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه ، علموا علم اليقين أن هذا الذى فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وأنه حق لا مرية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذى يقول للشىء كن فيكون ، فعند ذلك وقعوا سجدا لله ، وقالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون .

وسبحان من قال ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون * فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين * وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾(٣) .

وسبحان مقلب القلوب ، لقد أقسموا فى الصباح بعزة فرعون وقالوا : إنا لنحن الغالبون ، وفى المساء قالوا لفرعون : ﴿ **لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات** ﴾ .

وأقسموا بالله قائلين : ﴿ **والذى فطرنا * فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا** ﴾ .

كانوا وقت الضحى سحرة كفرة ، فأمسوا عند غروب الشمس شهداء بررة .

﴿ **فألقى السحرة سجداً قالوا آمنا برب هارون وموسى** ﴾ .

فماذا قال فرعون ؟

لقد جُن جنونه ، وثارت ثورته ، واشتاط غضبا ، وقال : ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى * قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** ﴾ :

لقد هدد وأوعد ، وأرغى وأزبد ، وأبرق وأرعد ﴿ إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ثم أدبر واستكبر ﴾(٤) .

لقد عبس وبسر . واستعمل كل آلات التنكيل ، منكراً عليهم إيمانهم بالله الواحد الحق : ﴿ **آمنتم له قبل أن آذن لكم** ﴾ : كأن الإيمان حكرا عليه ، ومن لم يستأذنه فهو خارج عن حدود الطاعة ، فله الويل والثبور ، وعظائم الأمور ، ونسى أن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ١٩٠ ، ١٩١ . وأبو داود فى الامارة : ٣١ .
(٢) الآيات ٨١ ، ٨٢ من سورة يونس .
(٣) الآيات ١١٧ - ١٢٢ من سورة الأعراف .
(٤) الآيات ١٨ - ٢٠ من سورة المدثر .

يكاد يجعل المستحيل ممكنا ، والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا .

لقد هددهم بقطع الأيدى والأرجل من خلاف ، فليفعل ما يشاء .

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ .

ولن نختارك على ما ظهر أمامنا من آيات الحق ، وأقسموا بالله الذى فطرهم وخلقهم ، وقالوا له بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين **﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ .**

وفى التعبير بالاسم الموصول ، أى فاقض بالذى أنت قاضيه ما يفيد العموم ، إن شئت فاقطع الأيدى والأرجل ، وإن شئت فاقطع الرقاب ، وإن شئت فافعل ما تشاء .

﴿ إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾ .

وفى التعبير باسم الإشارة (هذه) ما يفيد أن الدنيا عرض زائل ، فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر ﴾ : فنحن براء من سحرك وباطلك وزيفك ، لقد قال لهم : **﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾** فقالوا له : **﴿ والله خير وأبقى ﴾ .**

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت .

قوله تعالى :

﴿ إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى * ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى * جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ :

هكذا مصير كل من انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء ، إن كان مجرما فإن له جهنم لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة طيبة : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[1] ، ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾[2] .

قال تعالى : **﴿ ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ .**

فالجنة درجات ، والنار دركات ، والمنافقون فى الدرك الأسفل من النار ، والمؤمنون ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[1] .

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء . (٢) الآية ٥٧ من سورة النساء . (٣) الآيات ٢ - ١١ من سورة المؤمنون .

﴿ **جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها** ﴾ : حيث لا موت ، فقد انتهت الدنيا ، وبدأت الآخرة فإذا ما دخل أهل الجنة الجنة ، ودخل أهل النار النار ، نادى مناد بين الجنة والنار : يا أهل الجنة خلود بلا موت ، ويا أهل النار خلود بلا موت .

إن أهل الجنة استحقوا هذا النعيم ؛ لأنهم تطهروا من الرجس والدنس فخلصت نفوسهم بالأعمال الصالحة ، وزكت بذكر الله ، وتلاوة القرآن ، ﴿ **وذلك جزاء من تزكى** ﴾ .

غـداً تـوفى النفـوس مـا كسبت ويـحـصـد الـزارعـون مـا زرعـوا
إن أحـسـنـوا أحسنـوا لأنـفـسـهـم وإن أسـاءوا فـبئس مـا صـنـعـوا

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركا ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى** ﴾ :

يقول تعالى مخبرا أنه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون أن يرسل معه بنى إسرائيل ، أن يسرى بهم فى الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون ، وقد بسط الله هذا المقام فى غير هذه السورة الكريمة .

وذلك أن موسى لما خرج ببنى إسرائيل ، أصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب . فغضب فرعون غضبا شديدا ، وأرسل فى المدائن حاشرين أى من يجمعون له الجند من بلدانه ، يقول : ﴿ إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون ﴾(١) .

ثم لما جمع جنده واستوثق له جيشه ، ساق فى طلبهم فأتبعوهم مشرقين ، أى عند طلوع الشمس .

﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾ : أى نظر كل من الفريقين إلى الآخر : ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلاّ إن معى ربى سيهدين** ﴾(٢) .

ووقف موسى ببنى إسرائيل البحر أمامهم ، وفرعون وراءهم .

فعند ذلك أوحى الله إليه أن اضرب لهم طريقا يبسا ، فضرب البحر بعصاه ، وقال : انفلق علىّ بإذن الله ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، أى الجبل العظيم ، فأرسل الله الريح على أرض البحر ، فلفحته حتى صار يابسا كوجه الأرض .

فلهذا قال : ﴿ **فاضرب لهم طريقا فى البحر يبساً لا تخاف دركا** ﴾ .

أى من فرعون ﴿ **ولا تخشى** ﴾ أى لا تخشى من البحر أن يغرق قومك .

ثم قال تعالى : ﴿ **فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ ، أى من البحر ما غشيهم . كما قال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى ﴾(٣) . ففى التعبير بالاسم

(١) الآيات ٥٤ ، ٥٥ من سورة الشعراء . (٢) الآيات ٦١ ، ٦٢ منو سورة الشعراء . (٣) الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة النجم .

الموصول فى قوله تعالى ﴿ **فغشيهم من اليم ما غشيهم** ﴾ ما يفيد التضخيم والتهويل ، أى أن الذى غشيهم حدث عنه ولا حرج ، فقد كان الخطب جسيما والعذاب أليما ، جزاء ما قدمت أيديهم .

وهذا حكم الله العادل أن الدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، فالديان لا يموت ، أعمل ما شئت كما تدين تدان ، وهكذا حكم الله : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[1] ، ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون ﴾[2] .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والحرام لا يدوم ، وإذا دام لا ينفع .

وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم فى اليم فأضلهم وما هداهم إلى سبيل الرشاد ، كذلك ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود * وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾[3] .

وتلك عاقبة الظالمين ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدق المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلصين ﴾[4] .

حديث عن بنى إسرائيل

قال تعالى :

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ
ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى
وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ
ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ * وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُو۟لَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ
إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ
إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ
أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٢) الآية ٤٢ من سورة ابراهيم .
(٣) الآيتان ٩٨ ، ٩٩ من سورة هود .
(٤) الآيات ٣٥ - ٤٠ من سورة الصافات .

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ
أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ
عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾
أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ
فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا
لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ
ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

المفــردات :

﴿ **الأيمن** ﴾ : أى الذى عن يمين من ينطلق من مصر إلى الشام .
﴿ **المنّ** ﴾ : نوع من الحلوى .
﴿ **السلوى** ﴾ : طائر شبيه بالسُّمانى .
﴿ **ولا تطغوا فيه** ﴾ : أى فلا تأخذوه من غير حاجة إليه .
﴿ **فيحل عليكم غضبى** ﴾ : أى ينزل بكم .
﴿ **هــوى** ﴾ : سقط وهلك .
﴿ **غفَّـار** ﴾ : كثير المغفرة والستر للذنوب .
﴿ **اهتـدى** ﴾ : أى لزم الهداية واستقام .
﴿ **يقال جاء على أثره** (بفتحتين وبكسر فسكون) ﴾ : إذا جاء لاحقا به بلا تأخير .
﴿ **فتنا قومك** ﴾ : أى اختبرناهم .
﴿ **وأضلهم** ﴾ : أى أوقعهم فى الضلال والخسران .

﴿ السامرى ﴾ : من شعب إسرائيل من بطن يقال له السامرة واسمه موسى .
﴿ والأسف ﴾ : الحزين .
﴿ والوعد الحسن ﴾ : إعطاء التوارة التى فيها هدى ونور .
﴿ والعهد ﴾ : زمان الإنجاز .
﴿ موعدى ﴾ : أى وعدكم إياى بالثبات على الإيمان وقيامكم بأداء ما أمرتم به من التكاليف .
﴿ بملكنا ﴾ : أى بقدرتنا واختيارنا .
﴿ والأوزار ﴾ : الأثقال والأحمال ؛ والمراد بالقوم هنا القبط .
﴿ فقذفناها ﴾ : أى طرحناها فى النار .
﴿ جسدا ﴾ : أى جثة لا روح فيها .
﴿ والخوار ﴾ : صوت العجل .
﴿ فنسى ﴾ : أى فغفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .
﴿ أن لا يرجع إليهم قولاً ﴾ : أى لا يردّ عليهم جوابا .
﴿ ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا ﴾ : أى لا يقدر أن يدفع عنهم ضراً أو يجلب لهم نفعاً .
﴿ فتنتم به ﴾ : أى وقعتم فى الفتنة والضلال .
﴿ فاتبعونى ﴾ : أى فى الثبات على الحق .
﴿ لن نبرح ﴾ : أى لا نزال .
﴿ عاكفين ﴾ : أى مقيمين .
﴿ بلحيتى ولا برأسى ﴾ : أى بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى .
﴿ خشيت ﴾ : أى خفت .
﴿ ولم ترقب قولى ﴾ : أى ولم تراع .
﴿ فما خطبك ﴾ : أى ما شأنك ، وما الأمر العظيم الذى صدر منك .
﴿ بصُرت بما لم يبصُروا به ﴾ : أى علمت ما لم يعلمه القوم ، وفطنت لما لم يفطنوا له ؛ يقال بصر الشىء إذا علمه ، وأبصره : إذا نظر إليه .
﴿ الرسول ﴾ : موسى .
﴿ فنبذتها ﴾ : أى طرحتها .
﴿ سولت لى نفسى ﴾ : أى زينت وجنت .
﴿ لا مساس ﴾ : أى لا مخالطة فلا يخالطه أحد ولا يخالط أحداً ، فعاش وحيداً طريداً .
﴿ لن تخلفه ﴾ : أى سيأتيك به الله حتما .
﴿ ظلت ﴾ : (أصله ظللت دخله حذف) : أى أقمت .
﴿ لنحرقنه ﴾ : أى لنبردنّه بالمبرد .
﴿ لننسفنه ﴾ : أى لنذرينه .
﴿ فى اليم ﴾ : أى فى البحر .

﴿ وسع كل شيء علماً ﴾ : (أى وسع علمه) كل شىء وأحاط به .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد ما ذكر سبحانه ما آل إليه أمر فرعون وقومه من الغرق فى البحر ، حين تبعوا موسى للحاق به لما خرج من مصر ذاهبا إلى الطور ، عدّد بعدئذ نعمه الدينية والدنيوية على بنى إسرائيل ، فذكر أنه أنجاهم من عدوهم وقد كان ينزل بهم ضروبا من الظلم : من قتل وإذلال ، وتعب فى الأعمال ، وأنه أنزل عليهم كتابا فيه بيان دينهم ، وتفصيل شريعتهم ، وأنه أنزل لهم المن والسلوى ، وأنه أمرهم بأكل الطيبات من الرزق ، وزجرهم عن العصيان ، وأن من عصى ثم تاب كانت توبته مقبولة عند ربه .

وأعقب هذا بما جرى بينه سبحانه وبين موسى من الكلام حين موافاته الميقات ، بحسب المواعدة التى ذكرت آنفا وبما حدث من فتنة السامرى لبنى إسرائيل ، ورجوع موسى إليهم غضبان آسفا ، ثم معاقبته لهم على ما صنعوا ، ثم ذكر الحيلة التى فعلها السامرى حين أخرج لهم من حليهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى ، فرد الله عليهم ووبخهم بأن هذا العجل لا يجيبهم إذا سألوه ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا فى دينهم ولا دنياهم .

وبعد أن أبان سبحانه أن عبادتهم للعجل مخالفة لقضية العقل ، لأنه لا يستجيب لهم دعاء ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعا ، أكد هذا وزاد عليهم فى التشنيع ببيان أنهم قد عصوا الرسول الذى نبههم إلى خطأ ما فعلوا .

ثم حكى معاتبة موسى لهارون على سكوته على بنى إسرائيل ، وهو يراهم يعبدون العجل ، ثم ذكر أنه اعتذر له ، ولكنه لم يقبل معذرته ، ثم قص علينا ما قاله السامرى ، وما أنّبه به موسى ، وما عاقبه الله به فى الدنيا والآخرة ، وما صنعه موسى بالعجل من نسفه وإلقائه فى البحر .

ثم بين لهم أن الإله الحق هو الذى يحيط علمه بما فى السموات والأرض لا ذاك الجماد الذى لا يضر ولا ينفع ، ولا يرد جوابا ، ولا يسمع خطابا .

قوله تعالى :

﴿ يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحلّ عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى * وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾ .

يذكر تعالى نعمه على بنى إسرائيل ومننه الجسام حيث أنجاهم من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم وهم ينظرون إليه وإلى جنده قد غرقوا فى صبيحة واحدة ، لم ينج منهم أحد ، كما قال : ﴿ وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾[1] .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة البقرة .

﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ : فكلمناك تكليما وأعطيناك التوراة وفيها تفصيل كل شيء .

﴿ ونزلنا عليكم المن والسلوى ﴾ : فكان ينزل عليكم المن وأنتم فى التيه ، مثل الثلج بياضا مع حلاوة شديدة من الفجر إلى طلوع الشمس ، وتبعث إليكم ريح الجنوب بطير السمانى فيأخذ كل منكم ما يكفيه .

﴿ كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ : أى وقلنا لكم ، كلوا من تلك اللذائذ التى أنعمنا بها عليكم .

﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ﴾ : أى ولا تطغوا فى رزقى بالإخلال بشكره ، وتعدى حدودى فيه بالسرف والبطر والاستعانة به على المعاصى ، ومنع الحقوق الواجبة فيه فينزل عليكم غضبى ، وتجب عليكم عقوبتى .

﴿ ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾ : أى ومن ينزل به غضبى فقد شَقىَ وهلك .

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ : أى وإنى لذو مغفرة عظيمة لمن يتوب من شركه ، ويقلع من ذنبه ، ويُخلِص لى فى العمل ، ويؤدى فرائضى ويجتنب المعاصى ، ويستقيم حتى الموت .

وقوله تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى ﴾ : المراد بالقوم هنا النقباء السبعون ، وإعجاله عنهم تقدمه عليهم ، أى أىّ شىء عجّل بك عن قومك ، وجعلك تتقدمهم ؟ .

والمراد الإنكار عليه فى تقدمه عليهم ، لأن ذلك يقتضى إغفال أمرهم وعدم العناية بهم ، مع أنه مأمور باستصحابهم وإحضارهم معه ، وإنكار للعجلة فى ذاتها وأيضاً ، ولا سيما من أولى العزم الذين يجدر بهم مزيد الحزم .

﴿ قال هم أولاء على أثرى ﴾ : أى قال موسى مجيبا ربه : هم أولاء بالقرب منى آتون على أثرى ، وما تقدمتهم إلا بخطا يسيرة لا يعتدّ بها ، وليس بينى وبينهم إلا مسافة قريبة ، يتقدم بها بعض المرفقة على بعض .

﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾ : أى وعجلت إليك رب لتزداد عنى رضا بالمسارعة إلى امتثال أمرك والوفاء بعهدك .

وخلاصة معذرته - إنى اجتهدت أن أتقدم قومى بخطا يسيرة ، ظنا منى أن مثل ذلك لا ينكر ، فأخطأت فى اجتهادى ، وقد حملنى على ذلك طلب الزيادة فى مرضاتك ، وكأنه عليه السلام يقول : إنما أغفلت هذا الأمر مبادرة إلى رضاك ومسارعة إلى الميعاد ، والموعود بما يسرّ يود لو ركب أجنحة الطير ليحظى بما يبتغى ويريد .

﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك ﴾ : أى قال : إنا قد اختبرنا قومك الذين خلفتهم مع هارون من بعد فراقك . قال ابن الأنبارى : صّيرناهم مفتونين أشقياء بعبادة العجل من بعد انطلاقك من

بينهم ، وهم الذين خلفهم مع هارون . وهذه الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى بعشرين يوما .

﴿ **وأضلهم السامرى** ﴾ : أى دعاهم إلى الضلال بإتخاذ العجل والدعاء إلى عبادته وكان من قوم يعبدون البقر ، فدخل فى دين بنى إسرائيل فى الظاهر وفى قلبه حنين لعبادة البقر ، فأطاعه بعض وامتنع آخرون .

﴿ **فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا** ﴾ : أى فانصرف إلى قومه بنى إسرائيل بعد انقضاء الليالى الأربعين ـ مغتاظا من قومه ، حزينا لما أحدثوا من بعده من الكفر بالله .

روى أنه لما رجع موسى سمع الصياح والضجيج وكانوا يرقصون حول العجل ، فقال للسبعين الذين كانوا معه : هذا صوت الفتنة .

قال القرطبى : سئل الإمام أبو بكر الطرشوشى عن جماعة يجتمعون ، ويكثرون من ذكر الله وذكر رسوله ﷺ ، ثم إنهم يضربون بالقضيب على شىء من الطبل . ويقوم بعضهم يرقص . ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه ، فهل الحضور معهم جائز أم لا ؟

فأجاب : يرحمك الله ، فذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة ، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرى . لما أتخذ لهم عجلا جسداً له خوار . فقاموا يرقصون حوله ويتواجدون ، فهو دين الكفار وعُبّاد العجل ؛ وأما الطبل فأول من أتخذه الزنادقة . ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله ، وإنما كان مجلس النبى مع أصحابه ، كأنما على رءوسهم الطير من الوقار ، فينبغى للسلطان أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم ، وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين .

﴿ **قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا** ﴾ : لا سبيل لكم إلى إنكاره ، فقد وعدكم بإنزال الكتاب الهادى إلى الشرائع والأحكام ، ووعدكم الثواب العظيم فى الآخرة بقوله : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[1] ، ووعدكم أنكم ستملكون أرض الجبارين وديارهم .

﴿ **أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى** ﴾ : أى أفطال عليكم الزمان ، فنسيتم وعدكم إياى بالثبات على دينى إلى أن أرجع من الميقات ؟ أم تعمدتم فعل ما يكون سببا لحلول غضب ربكم عليكم بعبادتكم للعجل وكفركم به ؟

وخلاصة ذلك ـ أفطال عليكم العهد فنسيتم أم تعمدتم المعصية فأخلفتم ؟

﴿ **قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا** ﴾ : أى قالوا ما أخلفنا عهدك بالثبات على دينك إلا لأنا لم نملك أمرنا ، فلو خُلّينا وأنفسنا ولم يسوّل لنا السامرى ما سوّله ، لما أخلفنا .

وفى هذا إيماء إلى أنهم أقروا على أنفسهم بالخطأ وأنهم لم يطيقوا حمل أنفسهم على الصواب ،

---

(١) الآية ٨٢ من سورة طه .

ومن ثم وقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة وقصارى كلامهم : إن السامرى سول لنا ما سول ، وغلب على عقولنا فخالفنا عهدك .

قوله تعالى : ﴿ **ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها** ﴾ : أى ولكن غلبنا موسى السامرى إذ حمّلنا أحمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر بعلة أن لنا عيدا غدا ، وقال : إنما حُبس موسى عنكم بشؤم حرمتها ثم أمرنا أن نحفر حفرة ونملأها ناراً وأن نقذف الحلى فيها فقذفناه .

وسميت أوزارا : أى آثاما ، لأنه لا يحل لهم أخذها ، ولا تحل لهم الغنائم فى شريعتهم .

﴿ **فكذلك ألقى السامرى** ﴾ : أى فكما قذفنا نحن تلك الأثقال ، ألقى السامرى ما كان معه منها .

﴿ **فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار** ﴾ : أى فأخرج لهم من تلك الأثقال التى قذفوها جسد عجل من ذهب لا روح فيه ، وله خوار كخواره إذ هو قد صنعه بدقة وجعل فيها أنابيب يظهر فيها الصوت بمرور الريح بعد أن جعله فى اتجاهه .

﴿ **فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى** ﴾ : أى فقال السامرى ومن افتتن به أول ما رآه : هذا هو إلهكم وإله موسى فاعبدوه ، وقد غفل عنه موسى وذهب يطلبه فى الطور .

فرد عليهم سبحانه ، مقبحًا أفعالهم مسفها أحلامهم فقال :

﴿ **أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً** ﴾ : أى أفلا يعتبرون ويتفكرون فى أن هذا العجل لا يرجع إليهم كلاما ، ولا يرد عليهم جوابا ، وأنه لا يقدر أن يدفع عنهم ضراً ، ولا يجلب لهم نفعاً ؟ .

وقصارى ما يقول ـ إنه عاجز عن الخطاب ، وعن النفع والضر ، فكيف تتخذونه إلها ؟

﴿ **ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به** ﴾ : أى ولقد قال هارون لعبدة العجل من بنى إسرائيل ناصحا لهم من قبل رجوع موسى إليهم : يا قوم إنما أختبر الله إيمانكم ومحافظتكم على دينكم بهذا العجل الذى أحدث فيه الخوار ، ليعلم به الصحيح الإيمان منكم من المريض الشاك فى دينه .

﴿ **وإن ربكم الرحمن** ﴾ : أى وإن خالقكم وخالق كل شىء هو الذى عمت رحمته جميع المخلوقات ، فآتاهم ما فيه كمالهم الجسمى والروحى وما به سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

وفى ذكر الربوبية والرحمة استمالة لهم إلى الحق إثر زجرهم عن الباطل ، وتذكير لهم بإنجائهم من فرعون وعذابه ، وتنبيه لهم إلى أنهم متى تابوا قبلت توبتهم .

﴿ **فاتبعونى وأطيعوا أمرى** ﴾ : أى فاتبعونى فيما آمركم به من عبادتى وترك عبادة العجل ، وأطيعونى فى اتباع ما يبلغكم رسولى .

ثم بين أنهم لم يسمعوا نصحه ، ولم يطيعوا أمره .

﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ : أى قال عبدة العجل من قوم موسى لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع موسى إلينا ، لنرى ماذا يقول ، وماذا يرى فى ذلك ؟ وما مقصدهم من ذلك إلا التعلل والتسويف وعدم إجابة طلب هارون .

ثم ذكر فقال موسى لهارون بعد أن فرغ من خطاب قومه وبيان خطأ فعلهم : ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن ﴾ :

أى قال موسى لهارون : أىّ شىء منعك حين رأيت ضلالهم أن تلحقنى إلى جبل الطور بمن آمن معك من بنى إسرائيل ؟

وقد كان موسى يرى أن مفارقة هارون لهم ، وخروجه من بينهم بعد تلك النصائح القولية يكون أزجر لهم من الاقتصار على النصائح وحدها ، لما فى ذلك من الدلالة على شديد الغضب والإنكار عليهم ، فإن مفارقة الرئيس المحبوب لديهم من أجل أمر مبغوض لديهم بما تشق على النفوس ، وتقتضى ترك ذلك الأمر الذى يكرهه .

﴿ أفعصيت أمرى ﴾ : فيما تقدمت إليك من قولى : ﴿ اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾[1] .

فلما أقام بينهم ولم يبالغ فى الإنكار عليهم نسبة إلى عصيانه ومخالفته أمره ، فترفق هارون فى خطاب موسى استعطافا له ، وترقيقا لقلبه . إذ أضافه إلى الأم مع كونه أخاه لأبيه وأمه .

﴿ قال يا ابن أُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾ : أى فامتلأ موسى غضبا مما رأى وألقى ما فى يده من الألواح الإلهية ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه فقال : يا بن أمى لا تأخذ بشعر لحيتى ولا بشعر رأسى .

وقد روى أن موسى أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله ، وكان عليه السلام حديداً غضوباً لله تعالى ، وقد شاهد ما شاهد ، وغلب على ظنه تقصير هارون عليه السلام ففعل ما فعل .

قال صاحب الكشاف : كان موسى عليه السلام رجلا حديداً مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شىء ، شديد الغضب لله ولدينه ، فلم يتمالك حين رأى قومه يعبدون العجل بعد ما رأوا من الآيات العظام ، أن ألقى ألواح التوارة لما غلب ذهنه من الدهشة العظيمة ، غضباً لله واستنكافا وحمّية ، وعنّف بأخيه وخليفته على قومه ، فأقبل عليه إقبال العدو المكاشف قابضاً على شعر رأسه (وكان أقرع) وعلى شعر وجهه يجره إليه .

ثم بين علة هذا النهى بأنى لست عاصيا أمرك ولا مقصرا فى المصلحة ، بل :

﴿ إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى ﴾ : أى إنى خشيت لو قاتلت

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة الأعراف .

بعضهم ببعض لتفرقوا ، فتريثت حتى تكون أنت المتدارك ذلك بنفسك ، المتلافيه برأيك ، وخشيت عتابك على إطراح ما وصينى به ، ولم يكن بد من مراقبة ذلك والعمل على موجبه . وخلاصة ذلك - إنى رأيت من صواب الرأى أن أحفظ العامة وأدار بهم على وجه لا يختل به نظامهم ، ولا يكون سببا للومك حتى ترجع فتتدارك الأمر بحسب ما ترى ولا سيما أن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى .

وبعد أن انتهى من سماع اعتذار قومه وإسنادهم الفساد إلى السامرى ، ومن سماع اعتذار هارون - وجه الكلام إلى السامرى :

﴿ قال فما خطبك يا سامرى ﴾ : أى قال موسى للسامرى : ما شأنك وما الذى دهاك حتى فعلت ذلك الأمر الجلل ؟ وقد خاطبه بهذا ليُظهر للناس بطلان كيده باعترافه ، ويفعل به وبما أخرجه ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الأمم .

﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ : أى قال السامرى : إنى عرفت ما لم يعرفه القوم ولم تعرفه أنت ، وعرفت أن ما أنتم عليه ليس بالحق .

﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ﴾ : أى وقد كنت قبضت قبضة من أثرك أيها الرسول ، أى شيئا من سنتك ودينك فطرحته ، كما يقال فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره إذا كان يتمثل رسمه ، ويتبع طريقته .

وأجرى الكلام على طريق الغيبة وهو يخاطبه على نهج قول الرجل لرئيسه وهو مواجه له : ما يقول الأمير فى كذا وبماذا يأمر الأمير ؟ قال أبو مسلم الأصفهانى ، وأيده الرازى وقال أنه أقرب إلى التحقيق .

قال المراغى فى تفسيره وخلاصته ذلك : إن موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والتعنيف والسؤال عن الأمر الذى دعاه إلى إضلال القوم - رد عليه بأنه كان استن بسنته ، واقتفى أثره وتبع دينه ، ثم استبان له أن ذلك هو الضلال بعينه ، وأنه ليس من الحق فى شىء ، فطرحه وراءه ظهريا وسار على النهج الذى رأى .

وفى التعبير بكلمة « الرسول » على هذا نوع من التهكم والسخرية ، لأنه جاحد مكذب له ، فهو على نحو ما حكى الله عن بعض الجاحدين بقوله : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾[1] .

وهم لا يؤمنون بالإنزال عليه .

﴿ وكذلك سولت لى نفسى ﴾ : أى كما زينت لى نفسى أولاً إتباع سنتك وإقتفاء أثرك ، زينت لى أيضا ترك ذلك بمحض الهوى لا لشىء آخر ، من برهان عقلى أو نقلى أو إلهام إلهى .

وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآية ما نصه : ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ : أى رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ : أى من أثر فرسه هذا هو المشهور عند كثير من المفسرين أو أكثرهم .

---

(١) الآية ٦ من سورة الحجر .

وقال مجاهد : ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ : قال : من تحت حافر فرس جبريل ، قال : والقبضة ملء الكف ، والقبضة بأطراف الأصابع ، وقال : نبذ السامرى أى ألقى ما كان فى يده على حلية بنى إسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار . حفيف الريح فيه . فهو خواره .

ولما سمع موسى من السامرى ما سمع . بين له ما سينزل به من الجزاء فى الدنيا والآخرة وذكر له حال الحق ، أما عزاؤه هو فى الدنيا فما حكاه سبحانه عنه .

﴿ قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴾ : أى قال له : اذهب فأنت طريد من بين الناس ، فلا يخالطك أحد ولا تخالط أحدا ، حتى لو سئلت عن حالك لم تقل إلا أنه لامساس : أى لا يماسّنى أحد ، ولا أماسّ أحداً .

قال مقاتل : إن موسى عليه السلام أمره هو وأهله بالخروج من محلة بنى إسرائيل ، فخرج طريداً فى البرارى .

وروى أنه لما قال له موسى ذلك هرب ، فجعل يهيم فى البريّة مع السباع والوحش ، ولا يجد أحداً من الناس يمسه حتى صار كمن يقول لا مساس ، لبعده عن الناس وبعد الناس عنه .

وقصارى ذلك : إنه خاف وهرب وجعل يهيم فى الصحارى والقفار حتى صار لبعده عن الناس كأنه قائل ذلك .

وأما جزاؤه فى الآخرة فقد ذكره بقوله تعالى : ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ : أى وإن لك موعدا فى الآخرة لن يخلفه الله ، بل سينجزه لك البتة ، بعد أن يعاقبك فى الدنيا وهو آت لا محيص منه .

وأما حال إلهه فقد بينه بقوله تعالى : :

﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ﴾ : أى وانظر إلى هذا المعبود بزعمك الذى عكفت على عبادته ، لنبردنّه بالمبرد ثم لنذرينه فى البحر إذا صار سُحالة كذرات الهباء .

ولقد برّ موسى فى قسمه وفعل ما أوعده به كما يدل على ذلك قوله : ﴿ وانظر إلى إلهك ﴾ ولم يصرح بهذا تنبيها إلى وضوحه واستمالة الخُلْف فى وعيده المؤكد باليمين .

وفى فعله ذلك به عقوبة للسامرى ، وإظهار لغباوة المفتونين به لمن له أدنى نظر .

وبعد أن فرغ من إبطال الباطل شرع فى تحقيق الدين الحق فقال :

﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً ﴾ :

يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا إلاهكم ، إنما إلهاكم الله الذى لا إله إلا هو ، أى لا يستحق ذلك على العباد إلا هو ، ولا تنبغى العبادة إلا له ، فإن كل شىء فقير إليه ، عبد له .

وقوله : ﴿ وسع كل شىء علماً ﴾ : يقول لهم موسى عليه السلام : إن إلهكم هذا متصف بصفات الكمال ، منزه عن صفات النقص ، فمن صفاته العلم المحيط بكل شىء ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ﴾[١] ، ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[٢] .

وهكذا بدأ الحديث مع موسى بكلمة التوحيد ﴿ فلما أتاها نودى يا موسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ﴾[٣] .

وأنهى الحديث فى هذه السورة عن موسى بكلمة التوحيد : ﴿ **إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً** ﴾ ، لأنه أرسل إلى جبار عنيد ﴿ حشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[٤] ، ﴿ وقال يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[٥] .

فأراد ربك أن يظهر الجلال والعظمة : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٦] .

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول : (أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله)[٧] .

وهذه كلمة التوحيد : عليها نحيا ، وعليها نموت ، وفى سبيلها نجاهد ، وعليها نلقى الله .

لا إله إلا الله أخلو بها وحدى   لا إله إلا الله يغفر به ذنبى
لا إله إلا الله ألقى بها ربى   لا إله إلا الله أفنى بها عمرى
لا إله إلا الله أدخل بها قبرى

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله من أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : (لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحدٌ أوّلَ منك لما رأيت من

---

(١) الآية ٧ من سورة غافر .
(٢) الآية ٧ من سورة المجادلة .
(٣) الآيات ١١ ـ ١٤ من سورة طه .
(٤) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة النازعات .
(٥) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٦) الآيات ٢٢ ـ ٢٤ من سورة الحشر .
(٧) أخرجه الإمام مالك فى القرآن : ٤٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ .

حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه)[١] . رواه البخارى .

أى نطق بالشهادتين معتقدا صحتهما ، متبعا أوامر الله تعالى ، مجتنبا نواهيه ، عاملاً بشرعه مستقيماً .

وعن عُبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل - زاد حُبادَةُ - من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء)[٢] . رواه البخارى واللفظ له ومسلم .

وفى رواية لمسلم والترمذى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، حَرَّم الله عليه النار)[٣] . (أى أبعد عنه العقاب) .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ ، ومعاذ رديفُهُ على الرَّحل قال : (يا معاذ بن جبل ؟ قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً . قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرَّمه الله على النار . قال يا رسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال : إذاً يتكلوا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثماً)[٤] . رواه البخارى ومسلم .

« تأثماً : أى تحرجا من الإثم ، وخوفاً منه أن يلحقه إن كتمه » .

وروى عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال : لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

« معنى تحجره أى تمنعه وتبعده عن إرتكاب المعاصى وغشيان الفجور » .

وعن رفاعة الجهنى رضى الله عنه قال : (أقبلنا مع رسول الله ﷺ ، حتى إذا كنا بالكديد ، أو بقديد نحمد الله ، وقال خيراً وقال أشهدُ عند الله لا يموت عبدٌ يشهد أن لا إله إلا الله وإنى رسول الله صدقا من قلبه ، ثم يُسَدِّدُ إلا سلك فى الجنة)[٥] . رواه أحمد بإسناد لا بأس به ، وهو قطعة من حديث « والكديد : التراب الناعم ، ومعنى يسدد أى يتحرى السداد ، ويقصد العمل بالكتاب والسنة » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما قال عبدٌ : لا إله إلا الله قط

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٣ ، وفى الرقاق : ٥١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى التهجد : ١ ، وفى التوحيد : ٨ ، ٢٤ ، ٢٥ ، وفى الأنبياء : ٤٧ ، ومسلم فى الإيمان : ٤٦ ، وفى المسافرين : ٩٩ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٤٧ ، والترمذى فى الإيمان : ١٧ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٤٤ ، وفى ٦ : ٨٥ ، ٤٢٦ .

(٤) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٥٣ ، والبخارى فى العلم : ٤٩ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٦ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٤ .

مخلصا : إلا فتحت له أبوابُ السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر)[١] . رواه الترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : (قال موسى ﷺ : يارب علمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به ؟ قال قل : لا إله إلا الله . قال : يارب كل عبادك يقول هذا ؟ قال قل : لا إله إلا الله . قال : إنما أريد شيئاً تخصنى به ؟ قال يا موسى : لو أن السموات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله)[٢] . رواه النسائى والحاكم .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أفضلُ الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله)[٣] . رواه ابن ماجه وابن حبان والنسائى .

وعن يَعلَى بن شداد قال : حدثنى أبى شداد بن أوس رضى الله عنه ، وعبادة بن الصامتُ حاضرٌ يُصدِّقُه قال : (كنا عند النبى ﷺ فقال : هل فيكم غريب ، يعنى أهل الكتاب ؟ قلنا : لا يا رسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : أرفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله ، فرفعنا أيدينا ساعة ، ثم قال : الحمد لله ، اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة ، وأمرتنى بها ، ووعدتنى عليها الجنة ، وأنت لا تخلف الميعاد . ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم)[٤] . رواه أحمد بإسناد حسن .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جَدِّدُوا إيمانكم . قيل يا رسول الله : وكيف نُجدِّدُ إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله)[٥] . رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد حسن .

وعن عبد الله رضى الله عنه : من جاء بالحسنة ؟ قال : من جاء بلا إله إلا الله ، ومن جاء بالسيئة ؟ قال : من جاء بالشرك . رواه الحاكم موقوفاً .

وعن عمرو رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه فيموت على ذلك إلا حُرِّم على النار : لا إله إلا الله) . رواه الحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يُحال بينكم وبينها) . رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوى .

وروى عن معاذ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله)[٦] . رواه أحمد والبزار .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من عبد قال : لا إله إلا الله فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٢٦ .

(٢) أخرجه النسائى فى السهو : ٥٨ ، وفى قيام الليل : ٩ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٤٠٢ ، ٤١١ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى : ٢ : ٣٥٩ .

(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٤٢ .

ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما فى الصحيفة من السيئات ، حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات) رواه أبو يعلى . « ومعنى طمست : محت ، حتى تسكن : تدبج وتنقش الثواب بكثرة ذكر الله تعالى » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ، وكأنى انظر إلى أهل لا إله إلا الله ، وهم ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) . وفى رواية : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ، ولا عند القبر) . رواه الطبرانى والبيهقى .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بوصية نوح ابنه ؟ قالوا بلى . قال : أوصى نوح ابنه فقال لابنه : يا بُنى إنى أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : أوصيك بقول لا إله إلا الله ، فإنها لو وضعت فى كفة ، ووضعت السموات والأرض فى كفة لرجحت بهن ولو كانت حلقة لقصمتهن حتى تخلص إلى الله) فذكر الحديث . رواه البزاز .

ورواه الحاكم عن عبد الله وقال صحيح الإسناد ولفظه قال : (وآمركُمَا بلا إله إلا الله فإن السموات والأرض ، وما فيهما لو وضعت فى كفة ، ووضعت لا إله إلا الله فى الكفة الأخرى كانت أرجح منهما ، ولو أن السموات والأرض ، وما فيهما كانت حلقة فوضعت لا إله إلا الله عليهما لقصمتها ، وآمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شىء وبها يرزق كل شىء) .

وروى الترمذى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلُص إليه) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مدَّ البصر ، ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ، أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول : أفلك عذر ؟ فقال : لا يارب ، فيقول الله تعالى : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فتخرج بطاقة فيها ، أشهد إنْ لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . فيقول : أحضر وزنك ، فيقول : يارب ما هذه البطاقةُ مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم ، فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء)[1] . رواه الترمذى وابن حبان والحاكم .

(١) أخرجه الترمذى فى الإيمان : ١٧ .

عظات بالغات

قال تعالى :

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ
عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۚ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ
يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا
عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾
وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ
فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۚ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ
فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾
يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۚ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا
وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ
لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۚ
وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

المفـــردات :

﴿ ذكراً ﴾ : أى قرآناً .

﴿ والوزر ﴾ : الحمل الثقيل ، والمراد به العقوبة التى تثقل على حاملها .

﴿ والصور ﴾ : قرن ونحوه ينفخ فيه حين يدعى الناس إلى المحشر .

﴿ زُرقا ﴾ : أى زرق الأبدان سود الوجوه ، لما هم فيه من الشدائد والأهوال .

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ : أى يخفضون أصواتهم ويخفونها ، لشدة ما يرون من الهول .
﴿ إلا عشرا ﴾ : أى عشرة أيام .
﴿ أمثلهم طريقة ﴾ : أى أعدلهم رأيا ، وأرجحهم عقلاً .
﴿ ينسفها ﴾ : أى يجعلها ذرات صغيرة ثم يصيرها هباء منثورا .
﴿ يذرها ﴾ : أى يتركها .
﴿ القـاع ﴾ : الأرض التى لا بناء فيها ولا نبات قاله ابن الأعرابى .
﴿ والصفصف ﴾ : الأرض الملساء .
﴿ والعوج ﴾ : الانخفاض .
﴿ والأمت ﴾ : النتوء اليسير ، يقال مد حبله حتى ما فيه أمت ، والداعى هو داعى الله إلى المحشر لا عوج له ، أى لا عوج لدعائه فلا يميل إلى ناس دون ناس ، بل ليسمع الجميع ، خشعت ذلك .
﴿ والهمس ﴾ : الصوت الخفى .
﴿ وعنت ﴾ : خضعت وانقادت ومن ذلك العانى وهو الأسير .
﴿ والقيوم ﴾ : القائم بتدبير أمور عباده ومجازاة كل نفس بما كسبت .
﴿ خاب ﴾ : أى خسر ، والظلم الأول الشرك .
﴿ والظلم الثانى ﴾ : منع الثواب عن المستحق .
﴿ والهضم ﴾ : النقص .
﴿ صرفنا ﴾ : كررنا وفصلنا .
﴿ ذكرا ﴾ : أى عظة وعبرة .
﴿ فتعالى الله ﴾ : أى تنزه وتقدس .
﴿ الحق ﴾ : أى الثابت فى ذاته وصفاته .
﴿ يقضى إليك وحيه ﴾ : أى يتم جبريل تبليغه لك .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن شرح قصص موسى عليه السلام مع فرعون أولاً ، ثم مع السامرى ثانياً ، على نمط بديع ، وأسلوب قويم ، بيّن لنبيه ﷺ أن مثل هذا القصص عن الأمم الماضية ، والقرون الغابرة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة ، نلقيه إليك تسلية لقلبك ، وإذهابا لحزنك ، إذ به تعرف ما حدث للرسل من قبلك من شدائد وأهوال ، وتذكيرا للمستبصرين فى دينهم ، وتأكيدا للحجة على من عاند وكابر من غيرهم .

ثم حكى سبحانه حال يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأهوال التى تجعل المجرمين يتخافتون فى حديثهم ، وينسون مقدار لبثهم فى الدنيا ، ويحشرون زرق الوجوه والأبدان إلى نحو أولئك مما سلف .

قفى على ذلك بذكر سؤال من لم يؤمن بالحشر . عن الجبال وأحوالها فى ذلك اليوم ثم الإجابة عنه وضم إلى الجواب أمورا أخر تشرح شؤون هذا اليوم وأهواله ، فبيّن أن الأرض فى ذلك اليوم تكون مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ، وأن الناس يسرعون إلى إجابة الداعى ، ولا يسمع لهم إلا همس ، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين إلا إذا أذن لهم الرحمن ورضى للمشفوع له قولاً .

ثم ذكر أن الله هو العليم بما أصابوا من خير أو شر ، وهم لا يحيطون به علما ، وفى ذلك اليوم تذل الوجوه وتخضع للواحد الديان ، وقد خسر حينئذ من ظلم نفسه ، فأشرك مع الله غيره ، وعبد معه سواه ، وعصى أوامره ونواهيه .

أما المتقون فإنهم لا يُظلمون ، فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من صفاتهم . أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة فنزلت الآية ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ . . الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة للحق وتثبيت له .

وبعد ذلك ذكر سبحانه أنه كما أنزل الآيات المشتملة على الوعيد ، المنبئة بما سيحدث من أحوال القيامة وأهوالها ، أنزل القرآن كله كذلك على نمط واحد قرآنا عربياً ليفهمه العرب ، ويقفوا على ما فيه من النظم البديع ، والأسلوب العجيب الخارج عن طوق البشر .

ثم بين عزّ اسمه نفع هذا القرآن لعباده ، وأنه سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزه عن صفات النقص ، وأنه يصون رسوله عن السهو والنسيان فى أمر الوحى .

روى أن النبى ﷺ كان يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام ، فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل إياه ، مخافة النسيان ، فنُهى عن ذلك وقيل له : لا تعجل به إلى أن يستتم وحيه ، فيكون أخبرك إياه عن تثبيت وسكون ، وادع ربك أن يزيدك فهما وعلماً .

قوله تعالى : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ﴾ : أى كما قصصنا عليك من نبإ موسى وقومه ، وما كان من شأنه مع فرعون ، فإننا نقص عليك من أنباء السابقين ، وما كان قد حدث من الأمم مع المرسلين .

﴿ وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾ : أى أنزلنا من عندنا ذكرا عليك ، وهو القرآن العظيم ، ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[1] .

فيا أيها النبى المصطفى ، والرسول المجتبى : لا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[2] .

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .
(٢) الآيات ١٢١ ـ ١٢٣ من سورة هود .

إن هذا الذكر الذى أنزلناه عليك ما تمسكت به أمة إلا كان السعد رائدها ، والنصر حليفها ، وألبسها الله لباس العز والشرف ، وما تركته أمة إلا كان الذل حليفها ، والخسران المبين رائدها ، وألبسها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

﴿ من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا ﴾ : أى حملا ثقيلا من العذاب **﴿ خالدين فيه ﴾** أى ماكثين فيه **﴿ وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾** .

وهى كلمة ذم ، أى بئس الحمل ما حملوه .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ .

قال ﷺ : (كفى بقوم ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم . إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم)[١] . ثم تلا قوله تعالى :

﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[٢] .

فكيف نعرض عنه ، والجن لما استمعوا إليه قالوا : ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا * يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ﴾[٣] .

وقد صدق ربنا إذ يقول :

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾[٤] .

وقال سبحانه :

﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾[٥] .

فيا أمة القرآن : أقيموا دولة الإسلام فى بيوتكم بالقرآن ، تقم على أرضكم بالقرآن .

قال ﷺ : (خيركم من تعلم القرآن وعلّمه)[٦] رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وغيرهم .

---

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٤٢ .
(٢) الآية ٥١ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الجن .
(٤) الآية ٩ من سورة الإسراء .
(٥) الآية ٢٩ من سورة ص .
(٦) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٢١ ، وأبو داود فى الوتر : ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٥ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ ، والدرامى فى فضائل القرآن : ٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ١٥٣ .

أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظ القرآن ، وفهم معناه وتفسير آياته ، ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ﴿ آلم ﴾ حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف)(١) . رواه الترمذى .

معناه أن الله تعالى يعطى ثوابا للقارىء بكل حرف من حروف كلماته حسنة ، وفيه فضل قراءة القرآن ، وكثرة حسناته ، وزيادة أجره .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم ، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)(٢) . رواه ابن ماجه وأبو داود وغيرهما .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

(من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة)(٣) . رواه أحمد .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يقول الرب تبارك وتعالى :

(من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه)(٤) . رواه الترمذى .

قال الإمام البوصيرى رضى الله عنه :

دعنى ووصفى آيات له ظهرت ... ظهور نار القرى ليلا على علم
فالدر يزداد حسنا وهو منتظم ... وليس ينقص قدرا غير منتظم
فما تطاول آمال المديح إلى ... ما فيه من كرم الأخلاق والشيم
آيات حق من الرحمن محدثة ... قديمة صفة الموصوف بالقدم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة ... من النبيين إذ جاءت ولم تدم
محكمات فما تبقين من شبه ... لذى شقاق وما تبغين من حكم
ما حوربت قط إلا عاد من حرب ... أعدى الأعادى إليها ملقى السلم
ردت بلاغتها دعوى معارضها ... رد الغيور يد الجانى عن الحرم

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٤ .
(٢) أخرجه أبو داود فى الوتر : ١٤ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٧ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٤١ .
(٤) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٦ .

لها معان كموج البحر فى مدد   وفوق جوهره فى الحسن والقيم
فما تعد ولا تحصى عجائبها   ولا تسام على الإكثار بالسأم
قرت بها عين قاريها فقلت له   لقد ظفرت بحبل الله فاعتصم
كأنها الحوض تبيض الوجوه به   من العصاة وقد جاءوه كالحمم

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : (مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ، ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب ، وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ، ليس لها ريح ، وطعمها مر)[١] .

وفى رواية : (مثل الفاجر) بدل المنافق . رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران)[٢] .

رواه البخارى ، ومسلم ، واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أوصنى ؟ قال : (عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله) . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : (عليك بتلاوة القرآن ، فإنه نور لك فى الأرض ، وذخر لك فى السماء) . رواه ابن حبان فى صحيحه فى حديث طويل .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (القرآن شافع مشفع ، ومَاحِلٌ مُصَدّق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار) . رواه ابن حبان فى صحيحه .

ومعنى (ماحل) أى ساع ، وقيل : خصم مجادل .

وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من قرأ القرآن وعمل به أُلْبِس والداه تاجا يوم القيامة ، ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا)[٣] . رواه أبو داود والحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (يجىءُ صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن : يارب حلِّه ، فيلبَسُ تاج الكرامة ، ثم يقول : يارب زده . فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول :

(١) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ١٧ ، ٣٦ ، وفى الأطعمة : ٣٠ ، وفى التوحيد : ٥٧ ، ومسلم فى المسافرين ٢٤٣ ، وأبو داود فى الأدب : ١٦ ، والترمذى فى الأدب : ٧٩ ، والنسائى فى الإيمان : ٣٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦٠ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٨ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٧ ، ٤١٤ ، ٤١٨ .

(٢) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٤٤ ، وابن ماجه فى الأدب : ٥٢ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٩٨ ، ١٧٠ ، ٢٦٦ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الوتر : ١٤ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٤٤٠ .

يارب ارض عنه ، فيرضى عنه . فيقال له : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة)(١) . رواه الترمذى وحسنه وابن خزيمة والحاكم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله هذا الكتاب فقام به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل أعطاه الله مالا فتصدق به آناء الليل وآناء النهار)(٢) رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لا يهولهم الفزع الأكبر ، ولا ينالهم الحساب ، هم على كثيب من مسك حتى يفرغ من حساب الخلائق : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله وأمّ به قوما وهم به راضون ، وداع يدعو إلى الصلوات ابتغاء وجه الله ، وعبد أحسن فيما بينه وبين ربه وفيما بينه وبين مواليه) . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد ، فاستقرأهم ، فاستقرأ كل رجل منهم ، يعنى ما معه من القرآن ، فأتى على رجل من أحدثهم سنا فقال : ما معك يا فلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة . فقال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال : اذهب فأنت أميرهم . فقال رجل من أشرافهم : والله ما منعنى أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها .

فقال رسول الله ﷺ : تعلموا القرآن واقرءوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ، ومن تعلمه فيرقد وهو فى جوفه فمثله كمثل جراب أوكىء على مسك)(٣) . رواه الترمذى . ومعنى « أوكىء » أى عُقد وشُد .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه ، لا ينبغى لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد ، ولا يجهل مع من جهل ، وفى جوفه كلام الله) رواه الحاكم . وقال : صحيح الإسناد .

ومعنى « يجد » أى يغضب ويشتم ويذم .

وعنه رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (الصيام والقرآن يشفعان للعبد ، يقول الصيام : رب إنى منعته الطعام والشراب بالنهار فشفعنى فيه . ويقول القرآن : رب منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان)(٤) . رواه أحمد ، وابن أبى الدنيا .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنكم لا ترجعون إلى الله بشىء أفضل مما خرج منه - يعنى القرآن) . رواه الحاكم ، وصححه .

---

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٨ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى العلم : ١٥ ، وفى الزكاة : ٥ ، وفى الأحكام : ٣ ، وفى التمنى : ٥ ، وفى الاعتصام : ١٣ ، وفى التوحيد : ٤٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩ ، ٣٦ .

(٣) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ١٧٤ .

وعن عبد الله - يعنى ابن مسعود - رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات ، أما إنى لا أقول (آلم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف) . رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله أهلين من الناس قالوا : من هم يا رسول الله ؟ قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)[1] رواه النسائى وابن ماجه والحاكم .

وروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ القرآن فاستظهره فأحل حلاله وحرم حرامه أدخله الله به الجنة ، وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار)[2] . رواه ابن ماجة والترمذى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين) . رواه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من حافظ على هؤلاء الصلوات المكتوبات لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ فى ليلة مائة آية كتب من القانتين) . رواه ابن خزيمه .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه رأى رؤيا أنه يكتب (صٓ) فلما بلغ إلى سجدتها . قال : رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا . قال : فقصصتها على النبى ﷺ فلم يزل يسجد بها)[3] . رواه أحمد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله إنى رأيت فى هذه الليلة فيما يرى النائم : كأنى أصلى خلف شجرة ، فرأيت كأنى قرأت سجدة ، فرأيت الشجرة كأنها تسجد لسجودى ، فسمعتها وهى ساجدة ، وهى تقول : اللهم أكتب لى بها عندك أجرا ، وأجعلها لى عندك ذخرا ، وضع عنى بها وزرا ، وأقبلها منى كما تقبلت من عبدك داود . قال ابن عباس : فرأيت رسول الله ﷺ قرأ السجدة فسمعته وهو ساجد يقول : مثل ما قال الرجل عن كلام الشجرة)[4] . رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : (أن النبى ﷺ كتبت عنده سورة النجم فلما بلغ السجدة سجد وسجدنا معه ، وسجدت الدواة والقلم) . رواه البزار بإسناد جيد .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ١٦ ، والدارمى فى فضائل القران : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٤٢ .

(٢) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٣ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٧٨ ، ٨٤ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٥٥ ، وفى الدعوات : ٣٣ .

التحذير من نسيان القرآن

احذر يا أخى أن تنسى القرآن بعد حفظه ، فقد قال ﷺ :

(عرضت على أجور أمتى حتى القذاةُ يخرجها الرجل من المسجد ، وعرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها)[١] . رواه أبو داود ، والترمذى .

وقال ﷺ : (إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب)[٢] . رواه الترمذى والحاكم .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (إن أصغر البيوت بيت ليس فيه شىء من كتاب الله) . رواه الحاكم .

دعاء يُدعى به لحفظ القرآن

عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : (بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه على ابن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال : بأبى أنت تفلّت هذا القرآن من صدرى ، فما أجدنى أقدر عليه . فقال له رسول الله ﷺ : يا أبا الحسن أفلا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، وينفع بهن من علمته ، ويثبت ما تعلمت فى صدرك ؟ قال : أجل يا رسول الله فعلمنى . قال : إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم فى ثلث الليل الآخر فإنها ساعة مشهودة ، والدعاء فيها مستجاب ، فقد قال أخى يعقوب لبنيه : ﴿ سوف أستغفر لكم ربى ﴾ يقول : حتى تأتى ليلة الجمعة ، فإن لم تستطع فقم فى وسطها ، فإن لم تستطع فقم فى أولها ، فصل أربع ركعات تقرأ فى الركعة الأولى : بفاتحة الكتاب ، وسورة يس ، وفى الركعة الثانية : بفاتحة الكتاب وحم « الدخان » ، وفى الركعة الثالثة بفاتحة الكتاب وآلم تنزيل السجدة ، وفى الركعة الرابعة : بفاتحة الكتاب و « تبارك » المفصل ، فإذا فرغت من التشهد فأحمد الله . وأحسن الثناء على الله ، وصل علىّ وأحسن وعلى سائر النبيين ، واستغفر للمؤمنين والمؤمنات ولإخوانك الذين سبقوك بالإيمان ، ثم قل فى آخر ذلك :

اللهم أرحمنى بترك المعاصى أبدًا ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، اللهم بديع السماوات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام ، أسألك يا ألله يا رحمن بجلالك ، ونور وجهك ، أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، وارزقنى أن أتلوه ، على النحو الذى يرضيك ، اللهم بديع السماوات والأرض ، ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام ، أسألك يا ألله يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تنور بكتابك بصرى ، وأن تطلق به لسانى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تستعمل به بدنى ، فإنه لا يعيننى على الحق

---

(١) أخرجه أبو داود فى الصلاة : ١٦ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٩ .

(٢) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ١٨ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٣ .

غيرك ، ولا يؤتينيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . يا أبا الحسن : تفعل ثلاث جمع ، أوخمسا ، أو سبعا ، تجاب بإذن الله والذى بعثنى بالحق ما اخطأ مؤمنا قط) .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما : (فوالله ما لبث على إلا خمسا أو سبعا حتى جاء رسول الله ﷺ فى مثل ذلك المجلس ، فقال يا رسول الله : إنى كنت فيما خلا لا آخذ إلا أربع آيات ونحوهن ، فإذا قرأتهن على نفسى تفلتن ، وأنا أتعلم اليوم أربعين آية ونحوها فإذا قرأتهن على نفسى فكأنما كتاب الله بين عينى ، ولقد كنت أسمع الحديث فإذا رددته تفلت ، وأنا اليوم أسمع الأحاديث فإذا تحدثت بها لم أحرم منها حرفا . فقال رسول الله ﷺ عند ذلك : مؤمن ورب الكعبة يا أبا الحسن)[١] . رواه الترمذى .

وقد رغّب الرسول ﷺ فى تعاهد القرآن وتحسين الصوت به ، فقال : (إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت) .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (تعاهدوا القرآن ، فوالذى نفسُ محمد بيده لهوأشد تفلتا من الإبل فى عقلها) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ما أذن الله لشىء كما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به)[١] .

رواه البخارى ومسلم .

وعن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (زينوا القرآن بأصواتكم)[٢] رواه أبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه .

وقال ﷺ : (إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعتموه يقرأ حسبتموه يخشى الله)[٣] . رواه ابن ماجه .

فقه الباب

أولا : الذى يداوم على قراءة القرآن يذلل الله له لسانه ، ويسهل عليه قراءته ، فإذا هجره ثقلت عليه القراءة ، وشقت عليه .

ثانيا : شبه ﷺ درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذى يخشى منه الشراد ، فما زال التعاهد موجودًا فالحفظ موجود ، كما أن البعير ما دام مشدودًا بالعقال فهو محفوظ ، وخص الإبل بالذكر لأنها أشد الحيوان الإنسى نفورا .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١١٤ .

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، والنسائى فى الافتتاح : ٨٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٥٢ ، وأبو داود فى الوتر : ٢٠ ، والنسائى فى الافتتاح : ٨٣ ، وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٣٤ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٧٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٣٤ .

ثالثا : الاجتهاد فى ترتيل القرآن ، وإتقان قراءته ، وإظهار حروفه .

رابعا : إغداق الله تعالى القارىء بحسناته ورضوانه .

خامسا : أن يخشى القارىء الله ، ويخاف عذابه ، ويعمل به ، ويتحلى بمكارم الأخلاق .

قوله تعالى :

﴿ يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾ :

ثبت فى الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : (قرن ينفخ فيه) .

وقد جاء فى حديث الصور من رواية أبى هريرة (أنه قرن عظيم ، الدائرة منه بقدر السماوات والأرض ، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام) .

وجاء فى الحديث : (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له . فقالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال : قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا)[1] .

وقوله : **﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ﴾** : قيل معناه : زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال .

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ : قال ابن عباس : يتسارّون بينهم ، أى يقول بعضهم لبعض **﴿ إن لبثتم إلا عشرا ﴾** أى فى الدار الدنيا ، لقد كان لبثكم فيها قليلا عشرة أيام ، أو نحوها .

قال الله تعالى : **﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾** : أى فى حال تناجيهم بينهم .

﴿ إذ يقول أمثلهم طريقة ﴾ : أى العاقل الكامل فيهم .

﴿ إن لبثتم إلا يوما ﴾ : أى لقصر مدة الدنيا فى أنفسهم يوم المعاد ، لأن الدنيا كلها وإن تكررت أوقاتها ، وتعاقبت لياليها وأيامها وساعاتها ، كأنها يوم واحد ، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة .

وكان غرضهم فى ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ إلى قوله : ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾[3] الآية .

وقال تعالى : ﴿ كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾[4] .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٩ : ٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٢٦ ، وفى ٣ : ٧ ، وفى ٤ : ٣٧٤ .

(٢) الآية ٥٦ من سورة الروم . (٣) الآية ٣٧ من سورة فاطر . (٤) الآيات ١١٢ - ١١٤ من سورة المؤمنون .

أى إنما كان لبثكم فيها قليلا ، لو كنتم تعلمون لأثرتم الباقى على الفانى ، ولكنكم تصرفتم فأسأتم التصرف ، قدمتم الحاضر الفانى على الدائم الباقى .

قال تعالى :

﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا * فيذرها قاعا صفصفا * لا ترى فيها عوجا ولا أمتا * يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ﴾ :

أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : قالت قريش : يا محمد كيف يفعل ربك بهذه الجبال يوم القيامة ، فنزلت الآية **﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾** . . . الخ .

ولا شك أن سؤالهم هذا سؤال تهكم واستهزاء وطعن فى الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة للحق وتثبيت له . . وهكذا جاء الجواب عن حال الجبال يوم القيامة إنها تدك دكا .

قال تعالى : ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾(١) .

وقال : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾(٢) .

وقال : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾(٣) .

وقال : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرَّ السحاب ﴾(٤) .

فسبحان من يقول للشىء كن فيكون .

فإذا كان ما ذكره الله تعالى هو حال الجبال الشم ، والرواسى الشامخات ، فعلى كل من تسرب الغرور إلى نفسه من البشر فظلم العباد ، وقهر خلق الله ، عليه أن يعلم إذا غرته قوته ، أن ينظر إلى قوة العزيز الجبار من فوق .

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾(٥) .

ثم ما حال الجبال بعد أن تُنسف ؟ يتركها الله تعالى قاعا صفصفا ، أى أرضا مستوية جرداء ، لا نبات فيها ولا ماء ، لا ترى فيه عوجا ولا أمتا ، أى فيدع أماكنها من الأرض بعد نسفها ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ولا ارتفاع ولا انخفاض .

وخلاصة هذا : لا ترى فى الأرض يومئذ واديا ولا رابية ، ولا مكانا مرتفعا ، ولا منخفضا .

ويوم تقع هذه الأهوال التى قال الله تعالى فيها : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٦) .

---

(١) الآية ١٤ من سورة الحاقة .
(٢) الآية ١٤ من سورة المزمل .
(٣) الآية ٣ من سورة التكوير .
(٤) الآية ٨٨ من سورة النمل .
(٥) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .
(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .

وقال فيها سبحانه : ﴿ **إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجًا * وبست الجبال بسًا * فكانت هباء منبثا** ﴾[1] .

يوم يكون ذلك كذلك ﴿ **يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾ أى داعى الله إلى المحشر .

قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين * وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج * إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً . ذلك حشر علينا يسير ﴾[3] .

وقال عزَّ من قائل : ﴿ يوم يدعو الداع إلى شىء نكر * خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾[4] .

قال محمد ابن كعب القرظى : يحشر الله الناس يوم القيامة فى ظلمة ، ويطوى السماء ، وتتناثر النجوم ، وتذهب الشمس والقمر ، وينادى مناد فيتبع الناس الصوت يؤمونه ، فذلك قوله : ﴿ **يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾ أى يوم يرى الناس هذه الأهوال يتبعون صوت داعى الله الذى يجمعهم إلى موقف الحساب والجزاء ، ولا يكون لهم ميل عنه ولا إنحراف ، ولكنهم سراعا إليه يقبلون ، إذا أمروا بشىء قالوا : لبَّيك ، ونحن بين يديك ، والأمر منك وإليك ، كما قال : ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقال : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾[5] .

وقال قتادة ﴿ **لا عوج له** ﴾ لا يميلون عنه .

قوله تعالى : ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا** ﴾ .

أى وعلمت الخلائق أن لا مالك لهم سواه ، ولا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس الذى لا يكاد يفهم إلا بتحريك الشفتين لضعفه ، وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ، ويضعف صوته ، ويختلط قوله ، ويطول غمه ، (قاله أبو مسلم) .

قال تعالى : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه . فمنهم شقى وسعيد ﴾[6] .

قوله تعالى : ﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما * وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما * ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** ﴾ :

---

(١) الآيات ١ - ٦ من سورة الواقعة .
(٢) الآيات ٣٨ - ٤٠ من سورة مريم .
(٣) الآيات ٤١ - ٤٤ من سورة ق .
(٤) الآيات ٦ - ٨ من سورة القمر .
(٥) الآية ٣٨ من سورة مريم .
(٦) الآية ١٠٥ من سورة هود .

أى يوم القيامة لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ، ورضى له قولا صدر منه .

ومعنى الآية قوله تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[١] وقوله جلَّ شأنه : ﴿ وكم من ملك فى السماوات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٣] وقوله : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقوله : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾[٤] .

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال : (آتى تحت العرش وأخر لله ساجدا ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن فيدعنى ما شاء أن يدعنى ثم يقول : يا محمد أرفع رأسك وقل يسمع واشفع تشفع - قال - فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود)[٥] . فذكر أربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

وفى الحديث أيضا : (يقول تعالى أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال حبة من إيمان أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقول أخرجوا من النار من كان فى قلبه نصف مثقال من إيمان أخرجوا من النار من كان فى قلبه ما يزن ذرة من كان فى قلبه أدنى أدنى مثقال من إيمان)[٦] .

والخلاصة : إن الشفاعة لا تكون نافعة للمشفوع له إلا بشرطين :

١ - إذن الله للشافع بالشفاعة .

٢ - رضا الله عن قول صدر من المشفوع له ، ليأذن بشفاعة الشافع له .

وقصارى ذلك : إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يُرضى .

قوله تعالى : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما** ﴾ : أى يعلم ما بين أيدى عباده من شئون الدنيا ، وما خلفهم من أمور الآخرة ، وهم لا يعلمون جملة ذلك ولا تفصيله .

ولما ذكر خشوع الأصوات أتبعه خضوع ذويها فقال سبحانه عز وجل :

﴿ **وعنت الوجوه للحى القيوم** ﴾ : أى واستسلمت الخلائق لجبارها الحى الذى لا يموت ، القائم على خلقه بتدبير شؤونهم ، وتصريف أمورهم .

---

(١) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٢٦ من سورة النجم .

(٣) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء .

(٤) الآية ٣٨ من سورة النبأ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣ ، وفى تفسير سورة ٢ : ١ ، وتفسير سورة ١٧ : ٥ ، ومسلم فى الإيمان : ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، والترمذى فى الوتر : ١٩ ، والنسائى فى التطبيق : ١٥ ، ١٦ ، وابن ماجه فى الزهد : ٣٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٥ .

(٦) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، ٣٦ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٩٨٥ ، ٣٠٢ ، والترمذى فى البر : ٦١ ، والنسائى فى الإيمان : ١٨ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٩٦ ، ٤١٦ ، وفى ٢ : ١٦٦ ، وفى ٣ : ٩٤ ، وفى ٥ : ٤٣ .

وخص الوجوه بالذكر ، لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة ، ولأن آثار الذل والغبطة والسرور تظهر عليها .

﴿ **وقد خاب من حمل ظلما** ﴾ : أى وقد حُرم الثواب من وافى الموقف وهو مشرك بالله ، كافر بأنبيائه ، أو تارك لأمره ، منغمس فى معاصيه .

وبعد أن ذكر سبحانه أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين حينئذ فقال :

﴿ **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** ﴾ : أى ومن يعمل صالح الأعمال على قدر طاقته ، وهو مؤمن بربه ورسله ، وما أنزله عليهم من كتبه فلا يخاف من الله ظلما بأن يحمل عليه سيئات غيره وأوزاره ، ولا يخاف أن يهضمه حسناته فينقصه ثوابها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[١] .

وخلاصة ذلك ـ إنه لا يؤاخذ العبد بذنب لم يعمله ، ولا تبطل له حسنة قد عملها .

وقوله تعالى :

﴿ **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا * فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما** ﴾ .

﴿ **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا** ﴾ : أى وكما أنزلنا ما ذكر من الوعد والوعيد وأحوال يوم القيامة وأهوالها ، أنزلنا القرآن كله بأسلوب عربى مبين ، ليتفهمه العرب الذين نزل عليهم ، ويتفقهوا بدراسته ، ويسعدوا بالعمل بما حواه مما فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم .

﴿ **وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا** ﴾ : أى وخوفناهم فيه بضروب من الوعيد ، كى يجتنبوا الشرك والوقوع فى المعاصى والآثام ، أو يحدث لهم عظة تدعوهم إلى فعل الطاعات .

وبعد أن عظم الله سبحانه كتابه أردفه بتعظيم نفسه سبحانه فقال جل فى علاه :

﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ : أى تقدس الله المتصرف بالأمر والنهى ، الحقيق بأن يُرجى وعْده ، ويُخشى وعيده ، وهو الثابت الذى لا يزول ولا يتغير من ألا يكون إنزال القرآن على من أنزل عليهم مؤديا إلى الغاية التى أنزلها لأجلها وهى تركهم للمعاصى وفعلهم للطاعات .

ولا يخفى ما فى هذا من طلب الإقبال على دراسة القرآن وبيان أن قوارعه وزواجره سياسات إلهية ، فيها صلاح الدارين ، لا يحيد عنها إلا من خذله الله ، وأن ما تضمنه من الوعد والوعيد حق كله ، لا يحوم الباطل حول حماه ، وأن الحق من أقبل عليه بشرا شره ، والمبطل من أعرض عن تدبر زواجره .

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة الأنعام .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه** ﴾ : أى ولا تعجل بقراءته فى نفسك من قبل أن يُتِمَّ جبريل تبليغه لك ، وقد كان ﷺ إذا ألقى عليه جبريل القرآن يتبعه حين يتلفظ بكل حرف وكل كلمة خوفا أن يصدر عليه الصلاة والسلام ولم يحفظه ، فنهى عن ذلك ، إذ ربما يشغله التلفظ بالكلمة عن سماع ما بعدها : وفى هذا أنزل قوله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به * إنا علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه ﴾(١) .

وخلاصة ذلك : أنصت حين نزول الوحى بالقرآن عليك ، حتى إذا فرغ الملك من قراءته ، اقرأه بعده .

﴿ **وقل رب زدنى علماً** ﴾ : أى سل الله زيادة فى العلم دون استعجال بتلاوة الوحى ، فإن ما أوحى إليك لا يبقى محالة .

روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول : (اللهم انفعنى بما علمتنى ، وعلمنى ما ينفعنى ، وزدنى علما ، والحمد لله على كل حال ، وأعوذ بالله من حال أهل النار)(٢) .

وكان ابن سعود إذا قرأ هذه الآية قال : اللهم زدنى إيمانا وفقهاً ، ويقيناً وعلماً .

قصة آدم وتوجيهات ربانية

قال تعالى :

وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ
فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ
ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا
فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾
ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا

---

(١) الآيات ١٦ ، ١٧ من سورة القيامة .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأدب : ٩٩ ، وابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ .

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ
مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا
﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ
أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾
وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۚ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ
تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ
فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۚ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۚ نَّحْنُ
نَرْزُقُكَ ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ
مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ
إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۚ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

المفـردات :

﴿ **العهـد** ﴾ : الوصية يقال عهد إليه الملك بكذا وتقدم إليه بكذا : إذا أمره وأوصاه به .

﴿ **من قبل** ﴾ : أى من قبل وجود هؤلاء المخالفين .

﴿ **فنسى** ﴾ : أى فترك .

﴿ **لم نجد له عزماً** ﴾ : العزم على الشىء تصميم الرأى والثبات عليه .

﴿ **أبى** ﴾ : امتنع .

﴿ **فتشقى** ﴾ :أى تتعب بمتاعب الدنيا وهى لا تكاد تحصى .

﴿ تظمأ ﴾ : تعطش .
﴿ لا تضحى ﴾ : أى لا تصيبك الشمس بحرها اللافح .
﴿ شجرة الخلد ﴾ : أى الشجرة التى إذا أكل منها الإنسان خَلَد ولم يمت .
﴿ لا يبلى ﴾ : أى لا يفنى .
﴿ طفقا يخصفان ﴾ : أى شرعا يلزقان ورق التين على سوءاتهما لسترها .
﴿ غوى ﴾ : أى ضل عن الرشد حيث اغترَّ بقول عدوه .
﴿ اجتباه ﴾ : اصطفاه وقربه إليه .
﴿ وهدى ﴾ : أى إلى الثبات على التوبة .
﴿ عن ذكرى ﴾ : أى عن الهداية بكتبى السماوية ..
﴿ والضنك ﴾ : الضيق الشديد .
﴿ أعمى ﴾ : أى عن النظر فى الحجج والبراهين الإلهية .
﴿ عن آياتنا ﴾ : أى عن أدلتنا .
﴿ فنسيتها ﴾ : أى فتركتها .
﴿ وتنسى ﴾ : أى تترك .
﴿ أسرف ﴾ : أى انهمك فى الشهوات واسترسل فيها .
﴿ أفلم يهد لهم ﴾ : أى أفلم يبين لهم العِبَر .
﴿ لأولى النهى ﴾ : أى لذوى العقول الراجحة .
﴿ لزاماً ﴾ : أى لازما لهم لا يتأخر عنهم .
﴿ فسبح بحمد ربك ﴾ : أى اشتغل بتنزيه الله وتعظيمه .
﴿ آناء الليل ﴾ : ساعاته واحدها إنى وإنْو (بكسر الهمزة وسكون النون) .
﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ : أى لا تطيل النظر رغبة واستحساناً .
﴿ متعنا ﴾ : أى جعلناهم يتلذذون بما يدركون من المناظر الحسنة ويسمعون من الأصوات المطربة ، ويشُمُّون من الروائح الطيبة .
﴿ أزواجاً ﴾ : أى أشكالاً وأشباها .
﴿ زهرة الحياة الدنيا ﴾ : أى زينتها وبهجتها .
﴿ لنفتنهم ﴾ : أى لنبتليهم ونختبرهم .
﴿ ورزق ربك ﴾ : أى ما ادَّخره لك .
﴿ واصطبر عليها ﴾ : أى دم عليها .
﴿ لولا ﴾ : أى هلا ؛ وهى كلمة تفيد الحث على حدوث ما بعدها .
﴿ آية ﴾ : أى معجزة تدل على صدقه .
﴿ البينة ﴾ : القرآن .

﴿ والصحف الأولى ﴾ : التوارة والإنجيل وسائر الكتب السماوية .
﴿ نذل ﴾ : أى نهان .
﴿ ونخزى ﴾ : أى نفتضح .
﴿ متربص ﴾ : أى منتظر .
﴿ الصراط ﴾ : الطريق .
﴿ والسوى ﴾ : أى المستقيم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أنه صَّدق الوعيد فى القرآن وكرره ، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكر ، قضى على هذا ببيان أنهم لم يلتفتوا إلى ذلك ونسوه ، كما لم يلتفت أبوهم آدم إلى الوعيد ونسى العهد ، فمخالفتهم قديمة ، وعرقهم فيها راسخ .

ثم فصل عهده لآدم وبين كيف نسيه وفقد العزم .

ثم ذكر عصيان إبليس للسجود لآدم وتحذيره من الخروج من الجنة ، إذا هو اتبع نصائحه ، وهو بعد كل هذا قد أطاع وساوسه وقبل إرشاده ، فأكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها ، فأخرج من الجنة مع إعلامه بأن الشيطان عدوٌّ له ولذريته .

ثم بين أن من جاءه الهدى من ربه واتبعه عاش فى الدنيا قرير العين هادىء البال ، ومن أعرض عن ذلك عاش فى الدنيا عيشة ضنكا ، إذ هو لشدة حرصه عليها يخاف انتقاصها ، ومن ثمَّ يغلب عليه الشح والبخل ، ويفعل كل منكر فى سبيل جمع المال من أى وجه كان ، ولا يبالى أمن الحلال كان أم من حرام ؟ ولذلك تراهم يقولون : « الغاية تبرر الوسيلة » .

أما المؤمن جمع حطام الدنيا فإنه فى سرور وراحة قلَّ ماله أو كثر ، والكافر فى الآخرة أعمى عن الحجة التى تنقذه من ذلك الخزى الدائم والعذاب المقيم ، وسبب ذلك هو إعراضه فى الدنيا عن الآيات البينات التى تهديه إلى سبيل الرشاد ، ومن ثم يسير فى جهالته إلى يوم القيامة ، وهذا مما يوجب له أشد الآلام الروحية من حين مماته إلى حين الحشر ، وهكذا يجازى الله المسرفين المكذبين بآياته فى الدنيا والآخرة جزاء وفاقاً لما اجترحوا من السيئات ، وارتكبوا من الذنوب والآثام .

كما قال سبحانه : ﴿ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واقٍ ﴾[1] .

ثم أتبع ذلك بما يكون عبرة للمشركين لو تفكروا فيه ، وهو ما نزل بالمكذبين بالرسل ممن قبلهم من الأمم الذين يمرون بديارهم بكرة وعشيا كقوم عاد وثمود ، وكيف أصبحت ديارهم خراباً بلقعا ليس فيها ديَّار ولا نافخ نار .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة الرعد .

ثم بين أنه لولا سبق الكلمة بتأخير عذابهم إلى أجل مسمى لحاق بهم مثل ما حاق بمن قبلهم .

ثم أمر رسوله بالصبر على ما يسمونه به من نحو قولهم : إنه ساحر ، وإنه شاعر ، وإنه مجنون ، وعدم المبالاة بمقالتهم ، وعليه أن يكثر من التسبيح وعبادة ربه آناء الليل وأطراف النهار . ولا يلتفت إلى شيء مما مُتعٍّ به الكفار من زهرة الدنيا التى أوتيت لهم لتكون ابتلاء واختبارا ، وما عند الله خير منها وأبقى ، ثم طلب إليه أن يأمر أهله بالصلاة ، ويصطبر عليها ، وهو لا يكلفه رزقا لنفسه ولا لغيره ، فالله يرزقه من واسع فضله ، وعظيم عطائه ، والعاقبة لمن اتقى : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[١] .

وبعد أن أمر سبحانه رسوله بالصبر على أقاويلهم التى أرادوا بها تكذيبه وكيده له وشديد أذاه ، حكى بعض تلك الأقاويل الباطلة ، ومنها إدعاؤهم أن القرآن ليس بحجة ولا معجزة تدل على نبوة محمد ﷺ ، ثم أبان لهم أنهم يوم القيامة سيعترفون بأنه آية بينة ، فلو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ، ومن ثم لم نهلكهم قبله حتى تنقطع معذرتهم ، كما حكى الله عنهم من قوله : ﴿ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ﴾[٢] .

ثم ختم السورة بضرب من الوعيد وكأنه قال : قل لهم كل منا ومنكم منتظر لما يئول إليه أمرنا وأمركم ، وحينئذ يتميز المحق من المبطل بما يظهر على الأول من أنواع الكرامة والتعظيم ، وعلى الثانى من ضروب الخزى والإهانة ، ويظهر من منّا سار على الطريق السوى ، ومن المهتدى ؟

قوله تعالى : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى * فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى * وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى * فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى * فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ .

أى اذكر يا محمد وقت أن قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، ولقد أخذنا العهد على آدم فنسى .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : إنما سمى الإنسان لأنه عُهد إليه فنسى .

وقال مجاهد والحسن : نسى أى ترك .

وقد أمر الله تعالى الملائكة أن تسجد لآدم تشريفاً له وتنويها بشأنه ، فامتثلت الملائكة أمر الله تعالى ، لكن إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين .

وقد ذكر الله تعالى قصة آدم فى سورة البقرة ، وفي الأعراف ، وفى الحجر والإسراء والكهف .

ولقد بينا عداوة إبليس لآدم وزوجه ، ﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ .

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٩ من سورة الملك .

وذلك لأنك إذا خرجت من الجنة أنت وزوجك فسوف تعانى وتتعب سعياً وراء لقمة العيش ، فأنت الرجل المسئول عن النفقة على أهلك ، ولذلك جاء الخطاب بالتثنية فى قوله تعالى : ﴿ **فلا يخرجنكما** ﴾ وجاء بالإفراد فى قوله ﴿ **فتشقى** ﴾ .

ذلك لأن الرجل بحكم الفطرة التى جعل الله الناس عليها هو الذى يكد ويكدح ، ويلاقى من النصب والوصب ما يلاقى ، وأنت يا آدم فى تلك الجنة فى رغد وراحة .

﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾ : ذلك لأن العُرى يكسب الجسم برودة ، مما يدعو إلى شدة الجوع .

﴿ **وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ : ذلك لأن حرارة الشمس تدعو إلى شدة الظمأ بإفراز ما فى الجسم من عرق . فناسب ذلك أن يجمع بين الجوع والعُرى ، وبين الظمأ والحر .

﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾ : وذلك لما يعلمه إبليس فى الإنسان من حب الخلود والملكية ، فكل إنسان يحب الحياة مهما كان هواؤ ها سموماً ، وطعامها ذقّوماً ، وماؤ ها أسناً ، لكن الناس يختلفون فى ذلك الحب ، فأشد الناس حباً للحياة هم اليهود ، الذين تحداهم الله تعالى بقوله : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾[2] .

وما زال إبليس بهما حتى قاسمهما إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور ، قال تعالى : ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ .

فقد فطر الله الإنسان على ستر عورته . من أجل ذلك أخذ يضعان ورقة على ورقة من ورق الأشجار فى الجنة حياء من كشف العورة .

﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾ : أى خالف ما عاهد الله به إليه بألا يقرب تلك الشجرة . فوقع فى الغواية التى وسوس بها إليه عدو الله إبليس ، وإنما سميت معصية لأنها من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين ، وما وقع آدم فيها إلا عندما نسى ، ومن ثم فقد قرن الله تعالى العهد بالتذكر فى قوله : ﴿ وبعهد الله أوفوا ذالكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾[3] .

ولقد تلقى آدم بعد ذلك كلمات من ربه فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم ، والكلمات جاءت فى قوله تعالى : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾[4] .

---

(١) الايتان ٦ ، ٧ من سورة الجمعة .

(٢) الآية ٩٦ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .

(٤) الآية ٢٣ من سورة الأعراف .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (حاج موسى آدم فقال له أنت الذى أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم ؟ قال آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه أتلومنى على أمر كتبه الله علىّ قبل أن يخلقنى أو قدره الله علىّ قبل أن يخلقنى - قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى)(١) .

وهذا الحديث له طرق فى الصحيحين وغيرهما من المسانيد .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن يزيد بن هرمز قال : سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : (احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى ، قال موسى : أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وأسكنك فى جنته ، ثم أهبطت الناس إلى الأرض بخطيئتك . قال آدم : أنت موسى الذى اصطفاك الله برسالته وكلامه ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شىء ، وقربك نجيا ، فبكم وجدت الله كتبت التوارة قبل أن أخلق ؟ قال موسى : بأربعين عاما . قال آدم : فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى ؟ قال : نعم . قال : أفتلومنى على أن عملت عملا كتب الله علىّ أن أعمله قبل أن يخلقنى بأربعين سنة - قال رسول الله ﷺ : فحج آدم موسى)(٢) .

قوله تعالى : ﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ :

وهكذا يقبل الله التوبة عن عباده ، فإن رحمته سبقت غضبه : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين * ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين * وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾(٣) .

إن آدم هو النموذج الكبير لأبنائه ؛ لم يكن دخوله الجنة عبثا إنما ليبعث الله فى نفسه الشوق إليها فيشتاق أبناؤه إليها ، وما كان أكله من الشجرة عبثا ، لأنه خالف وسوف يتوب ، فيتوب الله عليه ، وكذلك أبناؤه سيخالفون فيتوبون فيتوب الله عليهم .

وهكذا اقتضت حكمة الله العليا ومشيئته العظمى أن يدخل آدم الجنة ويأكل من الشجرة ويتوب إلى الله فيتوب الله عليه : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾(٤) . ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾(٥) ، ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢٠ : ٣ ، والترمذى فى القدر : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٨٧ ، ٣١٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٣١ ، وفى التوحيد : ٣٧ ، ومسلم فى القدر : ١٣ ، ١٥ ، وأبوداود فى السنة : ١٦ ، ١٧ ، والترمذى فى القدر : ٢ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٤٨ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٩٨ .

(٣) الآيات ٥٣ - ٦١ من سورة الزمر . (٤) الآية ٤٩ من سورة الحجر . (٥) الآية ٢٦ من سورة النساء .

يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾(١) .

وقال عز من قائل : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً ﴾(٢) .

وقال تبارك اسمه : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾(٣) .

وقال عظمت حكمته : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾(٤) .

وقال تقدس اسمه : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾(٥) .

وقال وسعت رحمته : ﴿ ومن يعمل سوءًا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾(٦) .

يارب :

يا من يجيب دعا المضطر فى الظلم ويكشف الضر والبلوى مع السقم
إن كان أهل التقى فازوا بما عملوا فمن يجود على العاصين بالكرم

يا من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن ناداه . ارحمنا فإنك بنا راحم . ولا تعذبنا فأنت علينا قادر ، وألطف بنا فيما جرت به المقادير ، إنك على كل شئ قدير .

أصبحت ضيف الله فى دار الرضا وعلى الكريم كرامة الضيفان
تعفو الملوك عن النزيل بساحهم كيف النزول بساحة الرحمن
يا من إذا وقف المسىء ببابه ستر القبيح وجاد بالإحسان
وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى تعفو وتصفح للعبيد الجانى
حاسبت نفسى لم أجد لى صالحاً إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى علىّ فلم أجد فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعالى كلها ويلى إذاً من وقفة الديّان
يا أيها الأخوان إنى زائل مهما يطل من عمرى فإنى فان
يا رب إن لم ترض إلا ذا تقى من للمسىء المذنب الحيران
نوح الحمام على الغصون شجانى ورأى العزول صبابتى فبكانى
إن الحمام ينوح من ألم النوى وأنا أنوح مخافة الديان

(١) الآيتان ٢٧ ، ٢٨ من سورة النساء .
(٢) الآية ٣١ من سورة النساء .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٥) الآية ٦٤ من سورة النساء .
(٦) الآية ١١٠ من سورة النساء .

يا واحداً فى ملكه ما له ثانى | يا من إذا قلت يا مولاى لبانى
أنسى فتذكرنى فى كل نائبة | فكيف أنساك يا من لست تنسانى
أنا إن بكيت فلن ألام على البكى | فلطالما استغرقت فى العصيان
يارب عبدك من عذابك مشفق | بك مستجير من لظى النيران
فأرحم تضرعه إليك وضعفه | وامنن عليه اليوم بالغفران

قوله تعالى : ﴿ **قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ .

وهكذا أمر الله آدم وحواء أن يهبطا من الجنة إلى الأرض ، وبين الطريق القويم إلى الجنة ونعيمها . فحذر آدم وذريته من عداوة إبليس لهم ، قال : ﴿ **بعضكم لبعض عدو** ﴾ ، كما قال سبحانه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[١] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[٢] .

وقال جل شأنه : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾[٣] .

نعم هذا صراط مستقيم ، فالطريق لائح ، والمنادى صائح ، والحق واضح .

﴿ **فإما يأتينكم منى هدى** ﴾ وذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإرشاد العقل . ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٤] .

﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ أى لا يضل فى الدنيا ولا يشقى فى الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[٦] .

---

(١) الآية ٦ من سورة فاطر .
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأعراف .
(٣) الآيتان ٦٠ ، ٦١ من سورة يس .
(٤) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .
(٥) الآية ٣٠ من سورة النحل .
(٦) الآية ٤١ من سورة النحل .

وقال عز من قائل : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(١) .

وقال عز من قائل : ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾(٢) .

فالله تعالى يعطى الجزاء فى الدنيا والآخرة : ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾ أى فى الدنيا فإذا أراد الله بقوم قحط نادى مناد من قبل الله : يا أمعاء اتسعى ، يا بركة ارتفعى ، يا عين لا تشبعى .

﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ : مع أهل الضلال ، كما قال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾(٣) .

وقال عز من قائل : ﴿ لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين ، وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾(٤) .

وقال عز من قائل : ﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾(٥) .

﴿ **قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ : أى لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها إليك تناسيتها ، وأعرضت عنها ، وأغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك .

فهو وإن كان بصيرا فى الدنيا بعينيه ، إلا أنه كان أعمى بقلبه ، قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾(٦) .

﴿ ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ﴾(٧) . أى عمى القلب فى الدنيا ، فبعث صاحبه أعمى يوم القيامة ، وذلك لأن ابن عباس رضى الله عنهما لما كف بصره قال :

إن أذهب الله من عينى نورهما ... ففى فؤادى وعقلى منهما نور
عقلى ذكى وقلبى ما حوى دخلا ... وفى فمى صارم كالسيف شهور

ولذا قيل إن الله يعوض عن نور البصر ذكاء القلب :

يعيرنى الأعداء والعيب فيهم ... وليس بعيب أن يقال ضرير
إذا أبصر المرءُ المروءة والوفى ... فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجراً وزخراً وعصمة ... وإنى إلى تلك الثلاث فقير

قوله تعالى : ﴿ **كذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى** ﴾ :

---

(١) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٢) الآية ١٢٢ من سورة النحل .
(٣) الآية ٩٧ من سورة الإسراء .
(٤) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة مريم .
(٥) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ٤٦ من سورة الحج .
(٧) الآية ٧٢ من سورة الإسراء .

يقول تعالى : وهكذا نجازى المسرفين المكذبين بآيات الله فى الدنيا والآخرة : ﴿ لهم عذاب فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾[(١)] .

ولهذا قال : ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ : أى أشد ألماً من عذاب الدنيا ، وأدوم عليهم فهم مخلدون ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين : (إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة)[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أفلم يهد ﴾ : لهؤلاء المكذبين بما جئتهم يا محمد ﴿ كم أهلكنا ﴾ من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم ، فبادوا فليس لهم باقية ، ولا عين ولا أثر ، كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التى خلفوهم فيما يمشون فيها . ﴿ إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ : أى العقول الصحيحة والألباب المستقيمة ، كما قال تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[(٣)] .

وقال تعالى فى سورة السجدة : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾[(٤)] .

ثم قال جل شأنه : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى ﴾ : أى ولولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذى ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة .

ولهذا قال لنبيه مسلياً له : ﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أى من تكذيبهم لك ، ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعنى صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعنى صلاة العصر .

كما جاء فى الصحيحين عن جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤ يته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا)[(٥)] ، ثم قرأ هذه الآية .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عمارة بن رؤ يبة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها)[(٦)] . رواه مسلم من حديث عبد الملك بن عمير به .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة الرعد .

(٢) أخرجه مسلم فى اللعان : ٤ ، وأبو داود فى الطلاق : ٢٧ ، والترمذى فى تفسير سورة : ٢٤ : ٢ ، وفى الطلاق : ٢٢ ، والدارمى فى النكاح : ٣٩ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣١ ، وفى ٢ : ١٩ .

(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج .

(٤) الآية ٢٦ من سورة السجدة .

(٥) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٢٤ ، وفى المواقيت : ١٦ ، ٢٦ ، وفى تفسير سورة ٥٠ : ٢ ، وأبو داود فى السنة : ١٩ ، والترمذى فى الجنة : ١٦ ، ١٧ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٣ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ .

(٦) أخرجه مسلم فى الصلاة : ١٣ ، ٢١ ، وفى المساجد : ٢١٣ ، ٢١٤ ، وأبو داود فى الصلاة : ٩ ، والإمام أحمد فى ٤ : ١٣٦ ، ٢٦١ .

وفى المسند والسنن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه وإن أعلاهم منزلة لمن ينظر إلى الله تعالى فى اليوم مرتين)(١) .

وقوله : ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أى من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء .

﴿ وأطراف النهار ﴾ : فى مقابلة آناء الليل ، ﴿ لعلك ترضى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٢) .

وفى الصحيح : (يقول الله تعالى : يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك . فيقول : إنى أعطيكم أفضل من ذلك . فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً)(٣) . وفى الحديث الآخر : (يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ويثقل موازيننا ويزحزحنا من النار ويدخلنا الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه ، وهى الزيادة)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى * وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ :

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم ، فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لنختبرهم بذلك ، وقليل من عبادى الشكور .

وقال مجاهد : أزواجاً منهم ـ يعنى الأغنياء ـ فقد أتاك خيرا مما آتاهم .

كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك ﴾(٥) الآية .

وكذلك ما أدخره الله تعالى لرسوله ﷺ فى الآخرة أمر عظيم ، لا يحد ، ولا يوصف ، كما قال تعالى : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٦) .

ولهذا قال سبحانه : ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

وفى الصحيح أن عمر بن الخطاب لما دخل على رسول الله ﷺ فى تلك المشربة التى كان قد

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٨٣ .
(٢) الآية ٥ من سورة الضحى .
(٣) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٥١ ، وفى التوحيد : ٣٨ ، ومسلم فى الجنة : ٩ ، والترمذى فى الجنة : ١٨ .
(٤) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ١٣ .
(٥) الآيتان ٨٧ ، ٨٨ من سورة الحجر .
(٦) الآية ٥ من سورة الضحى .

اعتزل فيها نساءه حين آلى منهن ، فرآه متوسدا مضطجعا على رمال حصير وليس فى البيت إلا صبرة من قرظ واهية معلقة ، فابتدرت عينا عمر بالبكاء . فقال له رسول الله ﷺ : (ما يبكيك يا عمر ؟) فقال : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت صفوة الله من خلقه ؟ فقال : (أو فى شك أنت يا ابن الخطاب ، أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا)[١] .

فكان ﷺ أزهد الناس فى الدنيا مع القدرة عليها ، إذا حصلت له ينفقها هكذا وهكذا فى عباد الله ، ولم يدخر لنفسه شيئا لغد .

قال ابن أبى حاتم : أنبأنا يونس أخبرنى ابن وهب أخبرنى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال :

(إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح الله لكم من زهرة الدنيا) . قالوا : وما زهرة الدنيا يا رسول الله ؟ قال : (بركات الأرض) .

وقال قتادة والسدى : زهرة الحياة الدنيا : يعنى زينة الحياة الدنيا .

وقال قتادة : ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ : لنبتليهم .

وقوله : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ : أى استنقذهم من عذاب الله بإقام الصلاة ، واصبر أنت على فعلها ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾[٢] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أحمد بن صالح ، حدثنا ابن وهب ، أخبرنى هشام ابن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه : أن عمر بن الخطاب كان يبيت عنده أنا ويرفأ ، وكان له ساعة من الليل يصلى فيها ، فربما لم يقم فنقول : لا يقوم الليلة كما كان يقوم ، وكان إذا استيقظ أقام ، يعنى أهله - وقال : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ .

وقوله : ﴿ لا نسألك رزقا نحن نرزقك ﴾ : يعنى إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب .

كما قال تعالى : ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . إلى قوله : ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٤] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لا نسألك رزقا نحن نرزقك ﴾ .

وقال الثورى : لا نسألك رزقا ، أى لا نكلفك الطلب .

---

(١) أرجه البخارى فى المظالم : ٢٥ ، وفى الجنائز : ٢٥ ، ومسلم فى الرضاع : ١٠١ ، وفى الطلاق : ٣٦ ، والترمذى فى سورة : ٦٦ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٤ ، وفى ٢ : ٢٩٨ .

(٢) الآية ٦ من سورة التحريم .

(٣) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

(٤) الآيات ٥٦ - ٥٨ من سورة الذاريات .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا حفص بن غياث ، عن هشام ، عن أبيه ، أنه كان إذا دخل على أهل الدنيا فرأى من دنياهم طرفا رجع إلى أهله فدخل الدار فقرأ : ﴿ **ولا تمدن عينيك** ﴾ إلى قوله : ﴿ **نحن نرزقك** ﴾ .

ثم يقول : (الصلاة ، الصلاة ، رحمكم الله) .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبدُ الله بن أبى زياد القطرانى ، حدثنا سيار ، حدثنا جعفر عن ثابت ، قال : (كان النبى ﷺ إذا أصابه خصاصة نادى أهله : يا أهلاه ، صلوا ، صلوا) .

قال ثابت : وكانت الأنبياء إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة .

وقد روى الترمذى وابن ماجه من حديث عمران بن زائدة ، عن أبيه ، عن أبى خالد الوالبى ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (يقول الله تعالى : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى املأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإن لم تفعل ملأت صدرك شغلا ولم أسد فقرك)[١] .

وروى ابن ماجه من حديث الضحاك ، عن الأسود ، عن ابن مسعود : سمعت نبيكم ﷺ يقول : (من جعل الهموم هما واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ، ومن تشبثت به الهموم فى أحوال الدنيا لم يبال الله فى أى أوديته هلك)[٢] .

وروى أيضا من حديث شعبة عن عمر بن سليمان عن عبد الرحمن بن أبان ، عن أبيه ، عن زيد ابن ثابت ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته جمع له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وأتته الدنيا وهى راغمة)[٣] .

وقوله : ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ : أى وحسن العاقبة فى الدنيا والآخرة - وهى الجنة - لمن اتقى الله .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (رأيت الليلة كأنا فى دار عقبة بن رافع ، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا فى الدنيا والرفعة ، وأن ديننا قد طاب)[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى * ولو أنّا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى * قلْ كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى** ﴾ .

من أقاويلهم الباطلة ، وافتراءاتهم على الله ورسوله : أنهم قالوا : هلا يأتينا محمد بآية كآيات الأنبياء السابقين كناقة صالح ، وعصا موسى ، حتى نصدقه فى دعواه .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الزهد : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ ، وفى الزهد : ٢ .

(٣) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الزهد : ٢ .

(٤) أخرجه مسلم فى الرؤيا : ١٨ ، وأبو داود فى الأدب : ٨٨ .

فجاء الرد الحاسم القاطع الجازم منه سبحانه وتعالى : ﴿ **أو لم تأتهم بينة ما فى الصحف الأولى** ﴾ وهو القرآن الكريم .

قال تعالى فى سورة العنكبوت :

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾(١) .

إن القرآن هو المعجزة الخالدة الدائمة الباقية ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وفيه البينة الواضحة ، والحجة الساطعة ، والبراهين القاطعة على صدق الرسالات السابقة ، فكيف تجحدون تلك البينة ، يا من تجادلون بالباطل لتدحضوا به الحق .

قوله تعالى : ﴿ **ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى** ﴾ .

وخلاصة ما فى هذه الآية :

إنا لو أهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم الكتاب العظيم ، لقالوا : ربنا هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل أن يهلكنا ، حتى نؤمن به ونتبعه ، لكنا لم نهلكهم قبله ، فانقطعت معذرتهم .

قال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾(٣) .

وقال عظمت حكمته : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير ﴾(٤) .

---

(١) الآيات ٥٠ـ٥٢ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٣) الآية ١٥ من سورة الإسراء .

(٤) الآيات ٦ـ١١ من سورة الملك .

والاعتراف كما يقولون سيد الأدلة ، والإقرار حجة مقصورة على المقر .

قوله تعالى :

﴿ قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى ﴾ :

خطاب كريم من رب كريم لرسول كريم : قل لهؤلاء المعاندين الجاحدين ﴿ اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون ﴾[1] . فستعلمون غدا من الكذاب الأشر ، وستعلمون من أصحاب الصراط المستقيم ومن اهتدى إلى طريق النجاة والفوز والسعادة والصلاح ﴿ ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[2] .

---

(١) الآيتان ١٢١ ، ١٢٢ من سورة هود .

(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء السابع عشر

المكتب المصري الحديث

سورة الأنبياء

قال صاحب البصائر :

الصورة مكية بالاتفاق .

وآياتها مائة واثنتا عشرة .

وكلماتها ألف ومائة وثمانية وستون .

وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وسبعون .

وسميت سورة الأنبياء لاشتمالها على قصصهم ، على إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، وسليمان ، وداود ، وأيوب ، وإسماعيل ، وصالح ، ويونس ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى .

مقصود السورة

ما اشتملت عليه مجملا من التنبيه على الحساب فى القيامة ، وقرب زمانها ، ووصف الكفار بالغفلة ، وإثبات النبوة ، واستيلاء أهل الحق على أهل الضلالة ، وحجة الوحدانية ، والإخبار عن الملائكة وطاعتهم ، وتخليق الله السموات والأرض بكمال قدرته ، وسير الكواكب ، ودور الفلك ، والإخبار عن موت الخلائق وفنائهم وكلاء الله تعالى وحفظه العبد من الآفات ، وذكر ميزان العدل فى القيامة .

وذكر إبراهيم بالرشد والهداية ، وإنكاره على الأصنام وعبادها ، وسلامة إبراهيم من نار نمرود وإيقادها .

ونجاة لوط من قومه أولى العدوان .

ونجاة نوح ومتابعته من الطوفان .

وحكم داود ، وفهم سليمان ، وذكر تسخير الشيطان .

وتضرع أيوب .

ودعاء يونس .

وسؤال زكريا .

وصلاح مريم .

وهلاك قرى أفرطوا فى الطغيان ، وفتح سد يأجوج ومأجوج فى آخر الزمان ، وذل الكفار والأوثان فى دخول النيران ، وعز أهل الطاعة والإيمان من الأزل إلى الأبد فى جميع الأزمان على علالى الجنان ، وطى السموات فى ساعة القيامة .

وذكر الأمم الماضية ، والمنزلة من الكتب فى سالف الأزمان ، وإرسال المصطفى ﷺ بالرأفة والرحمة والإحسان ، وتبليغ الرسالة على حكم السوية من غير نقصان ورجحان ، وطلب حكم الله تعالى على وفق الحق والحكمة فى قوله: ﴿ رب احكم بالحق وربنا الرحمن ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ وفى الشعراء ﴿ من ذكر من الرحمن محدث ﴾

خصت هذه السورة بقوله: ﴿ من ربهم ﴾ بالإضافة ، لأن (الرحمن) لم يأت مضافا ، ولموافقة ما بعده ، وهو قوله : ﴿ قل ربى يعلم ﴾ .

وخصت الشعراء بقوله: ﴿ من الرحمن ﴾ ليكون كل سورة مخصوصة بوصف من أوصافه . وليس فى أوصاف الله تعالى اسم أشبه باسم الله من الرحمن ، لأنهما اسمان ممنوعان أن يسمى بهما غير الله - عزَّ وجلَّ- ولموافقة ما بعده ، وهو قوله: ﴿ العزيز الرحيم ﴾ ، لأن الرحمن والرحيم من مصدر واحد .

قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً ﴾ وبعده ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ :

﴿ قبلك ﴾ و ﴿ من قبلك ﴾ كلاهما لاستيعاب الزمن المتقدم ، إلا أن لفظ(من) إذا دخل دلَّ على الحصر بين الحدَّين ، وضبطه بذكر الطرفين . ولم يأت (وما أرسلنا قبلك) إلا هذه .

وخصَّت بالحذف لأن قبلها ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية ﴾ فبناه عليه لأنه هو ، وآخر فى الفرقان ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ﴾ وزاد فى الثانى ﴿ من قبلك من رسول ﴾ على الأصل للحصر .

قوله تعالى : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ ، وفى العنكبوت : ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾ .

لأن ثمَّ للتراخى ، والرجوع هو الرجوع إلى الجنة أو النار ، وذلك فى القيامة ، فخُصَّت سورة العنكبوت به . وخُصَّت هذه السورة بالواو ، لمَّا حيل بين الكلامين بقوله: ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ﴾ وإنما ذُكِرا لتقدم ذكرهما ، فقام مقام التراخى ، وناب الواو منابه ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ وفى الفرقان : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ لأنه ليس فى الآية التى تقدمتها ذكر الكفَّار ، فصرَّح باسمهم ، وفى الفرقان قد سبق ذكر الكفار ، فخُصَّ الإظهار بهذه السورة ، والكناية بتلك .

قوله تعالى : ﴿ ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا ﴾ وفى الشعراء : ﴿ قالوا بل وجدنا ﴾ لأن قوله : ﴿ وجدنا آباءنا ﴾ جواب لقوله : ﴿ ما هذه التماثيل ﴾ وفى الشعراء أجابوا عن قوله : ﴿ ما تعبدون ﴾ بقولهم : ﴿ قالوا نعبد أصناما ﴾ .

ثم قال لهم : ﴿ هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون ﴾ فأتى بصورة الاستفهام ومعناه النفى ﴿ قالوا بل وجدنا ﴾ أى:قالوا لا بل وجدنا عليه آباءنا ، لأن السؤال فى الآية يقتضى فى جوابهم أن ينفوا ما نفاه السائل فأضربوا عنه إضراب من ينفى الأول ، ويثبت الثانى ، فقالوا : ﴿ بل وجدنا ﴾ فخصت السورة به .

قوله تعالى : ﴿ وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ وفى الصافات ﴿ الأسفلين ﴾ لأن فى هذه السورة كادهم إبراهيم لقوله : ﴿ لأكيدن أصنامكم ﴾ وهم كادوا إبراهيم لقوله : ﴿ وأرادوا به كيداً ﴾ فجرت بينهم مكايدة ، فغلبهم إبراهيم ، لأنه كسر أصنامهم ، ولم يغلبوه ، لأنهم لم يبلغوا من إحراق مرادهم ، فكانوا هم الأخسرين .

وفى الصافات ﴿ قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ ، فأجّجوا ناراً عظيمة ، وبنوا بنيانا عاليا ، ورفعوه إليه ، ورموه منه إلى أسفل ، فرفعه الله ، وجعلهم فى الدنيا سافلين ، وردَّهم فى العقبى أسفل سافلين . فخُصت والصافات بالأسفلين .

قوله تعالى : ﴿ فنجيناه ﴾ بالفاء سبق فى يونس . ومثله فى الشعراء ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزا فى الغابرين ﴾[1] .

قوله : ﴿ وأيوب إذ نادى ربّه ﴾ ختم القصة بقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ . وقال فى صّ ﴿ رحمة منا ﴾ لأنه بالغ فى التضرع بقوله:﴿ وأنت أرحم الراحمين ﴾ . فبالغ سبحانه فى الإجابة ، وقال:﴿ رحمة من عندنا ﴾ لأن ﴿ عند ﴾ حيث جاء دلَّ على أن الله-سبحانه تولى ذلك من غير واسطة ، وفى صّ لما بدأ القصة بقوله:﴿ واذكر عبدنا ﴾ ختم بقوله:﴿ منًا ﴾ ليكون آخر الآية ملتئما بالأول .

قوله تعالى : ﴿ فاعبدون وتقطعوا ﴾ وفى المؤمنين ﴿ فاتقون فتقطعوا ﴾ لأن الخطاب فى هذه السورة للكفار ، فأمرهم بالعبادة التى هى التوحيد ، ثم قال : ﴿ وتَقطعوا ﴾ بالواو ، لأن التقطع قد كان منهم قبل هذا القول لهم ، ومن جعله خطابا للمؤمنين ، فمعناه : دُوموا على الطاعة . وفى المؤمنين الخطاب للنبى ﷺ وللمؤمنين بدليل قوله قبله:﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ والأنبياء والمؤمنون مأمورون بالتقوى . ثم قال : ﴿ فتقطعوا أمرهم ﴾ أى:ظهر منهم التقطُّع بعد هذا القول والمراد أمتهم .

قوله تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها ﴾ وفى التحريم ﴿ فيه ﴾ لأن المقصود هنا ذكرها وما آل إليه أمرها ، حتى ظهر فيها ابنها ، وصارت هى وابنها آية . وذلك لا يكون إلا بالنفخ فى جملتها ، وبحملها ، والاستمرار على ذلك إلى يوم ولادتها ، فلهذا خُصّت بالتأنيث ، وما فى التحريم مقصور على ذكر إحصانها ، وتصديقها بكلمات ربها ، وكان النفخ أصاب فرجها ، وهو مذكّر ، والمراد به فرج الحَبْبِ أو غيره ، فخُصّت بالتذكير .

(١) الآيتان ١٧٠ ، ١٧١ من سورة الشعراء .

وقد ورد فى فضل هذه السورة ما رواه البخارى عن عبد الله قال : (بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العتاق الأول وهن من تلادى) .

وعن عامر بن ربيعة : أنه نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه وكلم فيه رسول الله ﷺ فجاءه الرجل فقال : إنى استقطعت رسول الله واديا ما فى ديار العرب واد أفضل وقد أردت أن أقطع إليك قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لى فى قطعتك نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا يريد هذه السورة .

مناسبتها لما قبلها

إن السورة السالفة ختمت بأن الناس قد شغلتهم زهرة الدنيا التى جعلها الله لهم فتنة ، وأن الله نهى رسوله أن يتطلع إليها ، وأمره بالصلاة والصبر عليها ، وأن العاقبة للمتقين ، وبدأت هذه السورة بمثل ما ختمت به السالفة ، فذكر فيها أن الناس غافلون عن الساعة والحساب ، وأنهم إذا سمعوا القرآن استمعوه وهم لاعبون وقلوبهم لاهية عنه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم
مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ
فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

المفردات

﴿ اقترب ﴾ : وقرب بمعنى والمراد من اقتراب الحساب اقتراب زمانه : وهو مجىء الساعة .

﴿ والناس ﴾ : هم المكلفون .

﴿ معرضون ﴾ : أى: عن التأهب لهذا اليوم .

﴿ من ذكر ﴾ : أى: قرآن .

﴿ محدَث ﴾ : أى: جديد إنزاله .

﴿ يلعبون ﴾ : أى: يسخرون ويستهزئون .
﴿ لاهية قلوبهم ﴾ : أى: غافلة قلوبهم عن ذكر الله .
﴿ النجوى ﴾ : التناجى والمراد أنهم أخفوا تناجيهم ولم يتناجوا بمرأى من غيرهم .
﴿ أضغاث أحلام ﴾ : أى: تخاليط أحلام رآها فى النوم .
﴿ افتراه ﴾ : اختلقه من تلقاء نفسه .
﴿ بل ﴾ : كلمة تذكر للانتقال من غرض إلى آخر ولا تذكر فى القرآن إلا على هذا الوجه ، كما قال ابن مالك : وسبقه إليه صاحب الوسيط ، ووافقه ابن الحاجب ، وهو الحق .

قوله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾(١) وكقوله جل شأنه: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾(٢) .

وما من شك فى أن كل آت قريب كما قال تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيدا * ونراه قريباً ﴾(٣) وكما قال جل شأنه : ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾(٤) .

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيدُ
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيدُ
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيدُ

قوله تعالى : ﴿ وهم فى غفلة معرضون ﴾ :

قال النسائى بسنده عن أبى سعيد عن النبى ﷺ (فى غفلة معرضون) قال : (فى الدنيا) .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن هانىء أبى نواس الشاعر أنه قال : أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية حيث يقول :

الناس فى غفلاتهم ... ورحى المنية تطحن

فقيل له من أين أخذ هذا ؟ قال من قول الله تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾ .

ويرحم الله من قال :

نموت وأيامنا تذهب ... ونلعب والموتُ لا يلعبُ
عَجبت لذى لعب قد لهى ... عجبت ومالى لا أعجبُ
أيلهو ويلعبُ من نفسه ... يموتُ ومنزلُه يخربُ
أرى الليل يطلبنا والنهار ... وما أدرى أيهما أطلبُ
أحاط الجديدان جمعاً بنا ... وليس لنا منهما مهربُ
وكلٌّ له مدةٌ تنقضى ... وكلٌّ له أثرٌ يكتبُ

(١) الآية الأولى من سورة النحل .
(٢) الآية الأولى من سورة القمر .
(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة المعارج .
(٤) الآية ٤٠ من سورة النبأ .

قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ﴾ .

وهذه صورة من صور إعراضهم وغفلتهم عن ذكر الله : ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم ﴾ جديد إنزاله إلا استمعوه فى لهو وفى لعب ، فذرهم فى خوضهم يلعبون ، وفى طغيانهم يعمهون ، وفى ريبهم يترددون .

﴿ إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ﴾[1] : وصدق الله إذ يقول : ﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾[2] .

قال ابن عباس : مالكم تسألون أهل الكتاب عما بأيديهم وقد حرفوه وبدلوه وزادوا فيه ونقصوا منه ، وكتابكم أحدث الكتب بالله ، تقرءونه محصناً لم يُشب .

قوله تعالى : ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ أى:غافلة عن ذكر الله-تعالى-وتدبير آياته ، قال جل شأنه : ﴿ حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أى:قائلين فيما بينهم خفية : ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ ، يستبعدون كونه نبيا ، لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحى دونهم ، ولهذا قال : ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ أى:أفتتبعونه فتكونون كمن يأتى السحر وهو يعلم أنه سحر .

قال تعالى مجيبا لهم عما افتروه ، واختلقوه من الكذب : ﴿ قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ﴾ أى:الذى يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية وهو الذى أنزل هذا القرآن المشتمل على أخبار الأولين والآخرين ، الذى لا يستطيع أحد أن يأتى بمثله ، إلا الذى يعلم السر فى السموات والأرض .

وقوله : ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أى:السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفى هذا تهديد لهم ووعيد .

قوله تعالى : ﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ :

وهذه صورة من صور افتراءاتهم على الكتاب العزيز ، قالوا إنه أضغاث أحلام ، أى:أخلاط من الأحلام التى يراها فى المنام لا حقيقة لها ، وقالوا : بل إن هذا القرآن مفترى ومختلق ، كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾[4].

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة يونس .
(٢) الآية ٢٦ من سورة فصلت .
(٣) الآيات ١ ـ ٥ من سورة فصلت .
(٤) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة الفرقان .

وكما قال جل شأنه : ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ﴾[١] وقال جل شأنه: ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾[٢] .

وقالوا عن رسول الله ﷺ إنه شاعر ، فرد عليهم الله تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون * ومالا تبصرون * إنه لقول رسول كريم * وماهو بقول شاعر قليلاً ماتؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ماتذكرون * تنزيل من رب العالمين * ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنا لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم * ﴾[٣] .

وازدادوا طغيانا على طغيانهم فقالوا : ﴿ **فليأتنا بآية كما أرسل الأولون** ﴾ أى: كناقة صالح ، وعصا موسى .

فرد الله عليهم مولانا تبارك اسمه بقوله : ﴿ **ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها** ﴾ أى: أن القرى التى أهلكناها لما عتت عن أمر ربها ورسله ، قد جاءتهم أنبياؤهم بالآيات والمعجزات . فكذبوا واستكبروا .

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا ﴾[٥] .

وقال جل شأنه : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٦] . أفهم يؤمنون .

﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾[٧] .

لقد رأوا القمر وقد انشق ، فماذا قالوا ؟ يقول جل شأنه : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ۝ وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾[٨] .

إنهم وقفوا موقف العناد ، شأنهم كشأن الأمم السابقة .

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر

---

(١) الآية ٨ من سورة الأحقاف .
(٢) الآيات ١٥ ـ ١٧ من سورة يونس .
(٣) الآيات ٣٨ ـ ٥٢ من سورة الحاقة .
(٤) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٥) الآية ٥٩ من سورة الإسراء .
(٦) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٧) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة القمر .
(٨) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .

الأنهار خلالها تفجيراً * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾(١) .

﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً * ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾(٢) .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾(٣) .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن على بن رباح اللخمى قال : حدثنى من شهد عبادة بن الصامت يقول : (كنا فى المسجد ومعنا أبو بكر الصديق -رضى الله عنه- يقرأ بعض القرآن ، فجاء عبد الله بن أبى ابن سلول ومعه نمرقه وزبية ، فوضع واتكأ ، وكان صبيحاً فصيحا جدلاً ، فقال : يا أبا بكر قل لمحمد : يأتينا بآية كما جاء الأولون ؟ جاء موسى بالألواح ، وجاء داود بالزبور ، وجاء صالح بالناقة ، وجاء عيسى بالإنجيل والمائدة . فبكى أبو بكر الصديق -رضى الله عنه-.

فخرج رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر : قوموا بنا إلى رسول الله ﷺ نستغيث به من هذا المنافق . فقال رسول الله ﷺ : (إنه لا يقام لى إنما يقام لله -عز وجل-) . فقلنا : يا رسول الله إنا لقينا من هذا المنافق . فقال : (إن جبريل قال لى اخرج فأخبر بنعم الله التى أنعم بها عليك ، وفضيلته التى فضلت بها ، فبشرنى أنى بعثت إلى الأحمر والأسود ، وأمرنى أن أنذر الجن ، وآتانى كتابه ، وأنا أمى ، وغفر ذنبى ما تقدم وما تأخر ، وذكر اسمى فى الأذان ، وأمدنى بالملائكة ، وآتانى النصر ، وجعل الرعب أمامى ، وآتانى الكوثر ، وجعل حوضى من أعظم الحياض يوم القيامة ، ووعدنى المقام المحمود ، والناس مهطعون مقنعون رءوسهم ، وجعلنى فى أول زمرة تخرج من الناس ، وأدخل فى شفاعتى سبعين ألفا من أمتى بغير حساب ، وآتانى السلطان والملك ، وجعلنى فى أعلى غرفة فى الجنة فى جنات النعيم ، فليس فوقى إلا الملائكة الذين يحملون العرش ، وأحل لى ولأمتى الغنائم ولم تحل لأحد كان قبلنا) .

---

(١) الآيات ٩٠-٩٣ من سورة الإسراء .
(٢) الآيات ٩٤-٩٧ من سورة الإسراء .
(٣) الآيتان ١٠١ ، ١٠٢ من سورة الإسراء .

الرسل والأمم

قال تعالى :

وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾
وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ
فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾
فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ
حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن
نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا
هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ
هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ
وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ
مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾
* وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ
شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا
سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ
مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ
بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا
أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ
مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ
اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ
يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ
آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا
هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا
أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ
الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا
وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾

تفسير المفردات

أهل الذكر : هم أهل الكتاب الذين آمنوا .
الجسد : كالجسم إلا أنه لا يقال لغير الإنسان .
خالدين : أى: باقين .
الوعد : هو نصرهم وإهلاك أعدائهم .
المسرفين : أى: الكافرين .
ذكركم : أى: عظتكم .
تعقلون : أى: تتدبرون ما فى تضاعيفه من العبر والمواعظ .
كم : لفظ يفيد تكثير وقوع ما بعدها .
القصم : هو الكسر بتفريق الأجزاء وإذهاب التئامها .
والإحساس : الإدراك بالحساسة أى: أدركوا بحاسة البصر عذابنا الشديد .
والبأس : الشدة .
والركض : الفرار والهرب ، يقال ركض الرجل الفرس برجليه إذا كده بساقيه ثم كثر حتى قيل ركض الفرس إذا عدا ، ومنه ﴿ اركض برجلك ﴾[1] .
والإتراف : إبطار النعمة يقال أترف فلان أى: وسع عليه فى معاشه وقلّ فيه همه .
يا ويلنا : أى: يا هلاكنا .
دعواهم : أى: دعوتهم التى يرددونها .
حصيدا : أى: كالزرع المحصود بالمناجل .
خامدين : أى :كالنار التى خمدت وانطفأت .
اللعب : الفعل لا يقصد به مقصد صحيح .
واللهو : الفعل يعمل ترويحا عن النفس ، ومن ثم تسمى المرأة والولد لهواً يُستَرَوحُ بكل منهما ويقال لامرأة الرجل وولده ريحانتاه .
من لدنا : أى: من عندنا .
القذف : الرمى البعيد .
وأصل الدمغ : كسر الشىء الرِّخو ، ويراد به هنا القهر والإهلاك .
زاهق : أى: زائل ذاهب .
الويل : الهلاك .
من عنده : هم الملائكة .
لا يستكبرون : أى: لا يتعظمون .
يستحسرون : أى: يكيلون ويتعبون يقال حسر البعير إذا أعيا وكَل ، ومثل استحسر وتحسر .

(١) الآية ٤٢ من سورة ص .

لا يفترون : أى: لا يضعفون ولا يتراخون .

ينشرون : من أنشره . أى: أحياه .

لفسدتا : أى: لخرجنا عن نظامهما وخربتا .

فسبحان الله : أى: تنزيها له عما وصفوه به .

هذا ذكر من معى : أى: هذا الوحى المتضمن للتوحيد عظة أمتى .

وذكر من قبلى : أى: موعظتهم وإرشادهم .

لا يسبقونه بالقول : أى: لا يتكلمون حتى يأمرهم .

مكرمون : أى: مقربون من عنده .

من خشيته : أى: بسبب خوف عذابه .

مشفقون : أى: حذرون .

الرتق : الضم والالتحام خلقه كان أو صنعه .

والفتق : الفصل بين الشيئين الملتصقين .

الرواسى : الثوابت واحدها راسية .

وتميد : تتحرك وتضطرب .

والفجاج : واحدها فج ، وهو شقة يكتنفها جبلان .

والسبل : واحدها سبيل : وهو الطريق الواسع .

والفلك : كل شىء دائر ، وجمعه أفلاك .

الخلد : الخلود والبقاء .

الذوق : هنا الإدراك ، والمراد من الموت مقدماته من الآلام العظيمة ، والمدرك لذلك هى النفس المفارقة التى تدرك مفارقتها للبدن .

ونبلوكم : أى: نختبركم والمراد نعاملكم معاملة من يختبركم .

بالخير والشر : أى: المحبوب والمكروه .

فتنة : أى: ابتلاء .

إن يتخذونك إلا هزوا : أى: ما يتخذونك إلا مهزوءا به مسخورا منه .

العجلة والعجلة : طلب الشىء قبل أوانه ، والمراد بالإنسان : هذا النوع وقد جُعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق من العجل مبالغة كما يقال للرجل الذكى هو نار تشتعل ، ويقال لمن يكثر منه الكرم : فلان خلق من الكرم .

قال المبرد : خلق الإنسان من عجل : أى إن من شأنه العجلة كقوله : ﴿ خلقكم من ضعف ﴾[1] أى: خلقكم ضعفاء .

والآيات : هى آيات النقم التى هددهم بوقوعها .

وإراءتهم إياها : أصابتهم بها . والمراد بالوعد قيام الساعة .

(١) الآية ٥٤ من سورة الروم .

لا يكفون : أى: لا يمنعون .
بغتة : أى: فجأة .
تبهتهم : أى: تدهشهم ، وتحيرهم .
ينظرون : أى: يمهلون ويؤخرون .
حاق : حل ونزل .
يكلؤكم : يحرسكم ويحفظكم قاله ابن عباس .
من الرحمن : أى: من بأسه وعقابه الذى تستحقونه .
من دوننا : أى: من غيرنا .
يصحبون : أى: يجارون من عذابنا ؛ تقول العرب أنا لك جار وصاحب من فلان ، أى: ومجير منه واختاره الطبرى .
نفحة : أى: قسط ونصيب ضئيل .
حبة الخردل : مثل فى الصغر .
حاسبين : أى: عادِّين مُحصين .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه فيما سلف من إنكار الكافرين لأن يكون الرسول بشرا بقولهم: ﴿ **هل هذا إلا بشر مثلكم** ﴾ أجاب عن هذه الشبهة بأن هذه سنة الله فى الرسل قبل محمد ﷺ ، فهو ليس ببدع بينهم ، وإن كنتم فى ريب من ذلك ، فاسألوا أهل الكتاب من قبلكم .

ثم ذكر أن الرسل كسائر البشر فى سنن الطبيعة البشرية ، يأكلون الطعام ، ولا يخلدون فى الأرض ، بل يموتون كما يموت سائر الناس ، وقد صدقهم الله وعده ، فينجّيهم ومن آمن بهم ، ويهلك المكذبين لهم ، وأعقب ذلك بأن فى القرآن عظة لهم لوكانوا يعقلون ما فى تضاعيفه من مواعظ وزواجر ، ووعد ووعيد .

وبعد أن ذكر أنه سبحانه أهلك المسرفين فى كفرهم بالله ، بيّن هنا طريق إهلاكهم ، وكثرة ما حدث من ذلك فى كثير من الأمم ، ثم بيّن أنه أنشأ بعد الهالكين قوما آخرين ، وأنهم حينما أحسّوا بأس الله فروا هاربين ، فقيل لهم على ضرب من التهكم والسخرية: فلترجعوا إلى ما كنتم فيه من الترف والنعيم ، وإلى تلك المساكن المشيدة ، والفرش المنجّدة ، فلعلكم تسألون عما جرى عليكم ، ونزل بأموالكم ومنازلكم ، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة ، ثم بعد أن يئسوا من الخلاص وأيقنوا بالعذاب قالوا : هلاكا لنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا ، مستوجبين العذاب بما قدمنا ، وما زالوا يكررون هذه الكلمة ويرددونها ، حتى صاروا كالنبات المحصود ، والنار الخامدة .

وبعد أن ذكر مطاعنهم فى نبوة محمد ﷺ بتلك المقالات التى سلف ذكرها ، قفىّ على ذلك بذكر فساد تلك المطاعن ، وبيان أن من أنكر نبوته فقد جعل تلك المعجزات التى ظهرت على يديه من

باب العبث واللعب ، تنزه ربنا عن ذلك ، فإنه ما خلق السماء والأرض وما بينهما إلا لعبادته ومعرفته ، ومجازاة من قام بهما بالثواب والنعيم ، ومن لم يقم بذلك بالعقاب الأليم ، ولن يتم علم هذا إلا بإنزال الكتب ، وإرسال الرسل-صلوات الله عليهم ـ فمنكر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لهوا ولعبا ، تعالى خالقهما علوًا كبيراً .

وبعد أن أبان سبحانه فى سابق الآيات أن كثيرا من الأمم المكذبة لرسلها قد أبيدت ، وأنشىء بعدها أقوام آخرون ، وأنهم حين أحسوا بالبأس ارعووا وندموا حيث لا ينفع الندم ، ثم أردف ذلك بذكر أن من فى السموات والأرض عبيده ، وأن الملائكة لا يتكبرون عن عبادته ، ولا يكلّون ولا يملون منها ، ذكر هنا أنه كان يجب عليهم أن يبادروا إلى التوحيد ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل فعلوا ضده ، فكانوا جديرين بالتوبيخ والتعنيف .

ثم أقام البرهان على وحدانيته ، وأنه لو كان فى السموات والأرض إلهان لهلك من فيهما ، تنزه ربنا عما يقول هؤلاء المشركون ، وقد كذب من اتخذ آلهة لا دليل عليها ، وأن جميع الأديان جاءت بإخلاص التوحيد ، كما كذب من جعل لله ولدا فقال : الملائكة بنات الله ، والملائكة خلق الله ، مطيعون لربهم ، لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خوفه حذرون ، ومن يقل منهم إنه إله فلا جزاء له إلا جهنم وهى جزاء كل ظالم .

وبعد أن حكى سبحانه مقالات أولئك المشركين ، ومقالات أولئك الذين قالوا اتخذ الله ولدا من الملائكة ، وطالبهم بالدليل على صدق ما يدَّعون ، وبين لهم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك لا من طريق العقل كما هو واضح ، ولا من طريق النقل ، إذ كل الرسل السابقين كان أس دعوتهم أن لا إله إلا أنا فاعبدون ، قفى على ذلك بتوبيخهم على عدم تدبرهم الآيات المنصوبة فى الكون الدالة على التوحيد ، ولفت أنظارهم إلى أنه لا ينبغى عبادة الأصنام والأوثان ، فإن الإله القادر على مثل هذه المخلوقات لا يعبد سواه من حجر أو شجر لا يضر ولا ينفع .

وبعد أن بين سبحانه الأدلة على وجود الخالق الواحد القادر ، بما يرون من الآيات الكونية ، أردف ذلك ببيان أن هذه الدنيا ما خلقت للخلود والدوام ، ولا خلق من فيها للبقاء ، بل خلقت للابتلاء والامتحان ولتكون وسيلة إلى الآخرة التى هى دار الخلود ، فلا تشمتوا إذا مات محمد ﷺ فما هذا سبيله وحده ، بل هذا سنة الله فى الخلق أجمعين .

ثم ذكر سبحانه أنهم نعوْا على نبيه ﷺ ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء ، ورد عليهم بأنهم قد كفروا بالرحمن المنعم على عباده ، الخالق لهم ، المحيى المميت ، ولا شىء أقبح من هذا وأخلق بالذم منه .

أخرج ابن أبى حاتم عن السدى : (أنه ﷺ مرَّ على أبى سفيان وأبى جهل وهما يتحادثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال : هذا نبى بنى عبد مناف ، فغضب أبو سفيان وقال : أتنكر أن يكون لعبد مناف نبى ؟ فسمعهما النبى ﷺ فرجع إلى أبى جهل فوقع به وخوّفه ، وقال : ما أراك منتهيا حتى

يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة ، وقال لأبى سفيان : أما إنك لم تقل ما قلت إلا حميَّة ، فنزلت الآية:﴿ **وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون** ﴾[1].

وبعد أن بين جلت قدرته أنه كلما آتى المشركين آية كفروا بها ، وكلما توعدهم بالعذاب كذبوا به ، وقالوا تهكماً وإنكاراً : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قفى على ذلك بنهيهم عن العجلة ، وبيان أن ما أوعدوا به آت لا محالة ، ثم أرشد إلى أن العجلة من طبيعة الإنسان التى جُبل عليها ، ثم ذكّرهم بجهلهم بما يستعجلون ، فإنهم لو عرفوا كنه ما طلبوا ما دار بخلدهم ذلك المطلب .

وفى هذا تسلية لرسوله ﷺ ، كما سلاه بأن الاستهزاء به وبما أتى به ليس بدعاً من المشركين ، فكثير من الرسل قبله أوذوا واستهزىء بهم ، وكان النصر آخر الأمر حليفهم وحاق الهلاك بالمكذبين ، فانتظر لهؤلاء يوما يحل بهم فيه مثل ما حلَّ بمن قبلهم ، وقل لهم : انتظروا إنا منتظرون .

روى أن الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، وهو القائل:﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾[2] .

وبعد أن أبان سبحانه أن الكافرين فى الآخرة لا يستطيعون أن يمنعوا عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ، وأنه سيكون لهم من الأهوال ما لم يكن يخطر لهم ببال ، أعقبه ببيان أنه لولا أن الله قدر لهم السلامة فى الدنيا ، وحرسهم إلى حين ، لما بقوا سالمين ، وأنه مع إنعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة ـ هم معرضون عن الدلائل الدالة على أنه لا حافظ لهم سواه ، وأنه قد كان ينبغى لهم أن يتركوا عبادة الأصنام التى لاحظ لها فى شىء من ذلك ، فهى لا تستطيع أن تحفظ أنفسها من الآفات ، فضلا عن منع بأس الله إن حل بهم .

ثم أردف ذلك ببيان أن الذى حملهم على الإعراض عن ذلك هو طول الأمد ، حتى نسوا العهد ، وجهلوا مواقع النعمة ، وقد كان لهم فى نقص الأرض من أطرافها ، وفتح المسلمين لها عبرة أيُّما عبرة ، فهاهم يرون محمدا ﷺ وأتباعه يفتحون البلاد والقرى حول مكة ، ويدخلونها تحت راية الإسلام ، ويقتلون الرؤساء والعشائر من المشركين ، فمن حقهم أن يفكروا فى هذا مليّا ، ويرعووا عن غيهم ، ويعلموا آثار قدرتنا . وأن جندنا هم الغالبون .

ثم قفى على ذلك ببيان أن وظيفة الرسل هى الإنذار والتبليغ ، وليس عليهم الإلزام والقبول ، فإذا كانت القلوب متحجرة ، والآذان صماء ، فماذا تجدى العظمة ، وماذا ينفع النصح . ولئن أصابهم القليل من عذاب الله لتنادوا بالويل والثبور ، واعترفوا على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين .

ثم قفى على ذلك ببيان أن الدار الآخرة لا ظلم فيها ولا محاباة ، فالمرء يحاسب فيها على الجليل والحقير ، فهناك تنصب موازين العدل ، ويجازى كل امرىء بما قدم من خير أو شر ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[3] .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنبياء . (٢) الآية ٣٢ من سورة الأنفال . (٣) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

قوله تعالى :

﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون * وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين * ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين ﴾ .

هو كقوله تعالى فى سورة يوسف : ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾ .

وفيه رد على الذين استنكروا أن يكون الرسول من البشر : ﴿ وقالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾(١) ، وقالوا : ﴿ أبشرٌ يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد ﴾(٢) .

قال تبارك وتعالى : ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ﴾(٣) .

فالرسول إنسان من بنى آدم ، أوحى الله تعالى إليه بشرع وأمره بتبليغه ، وقد كمل الله-تعالى- الرسل بصفات الكمال البشرية ، فهم أهل الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة ، وقد حفظ الله-تعالى- ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بأمر منهى عنه ، وتلك هى العصمة ﴿ أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ﴾(٤) .

فهم صفوة خلق الله من عباده : ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أى:أهل المعرفة والحق من الذين أوتوا الكتاب من قبل ، فإنهم عندئذ سيخبرونكم بأن الله قد أرسل إلى أقوامهم رسلاً من البشر ، لا من الملائكة ، وذلك من تمام النعمة على الخلق ، إذ بعث الله فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم والأخذ عنهم : ﴿ لقد مَنّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(٦) .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ﴾ :

هو كقوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ﴾(٧) .

وهذا رد على الذين قالوا:﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾(٨) إنهم يأكلون الطعام كبقية البشر ، ويتزوجون ويتناسلون ، ويمشون بين الناس ، ويبيعون ويشترون ، وينامون ويستيقظون ، حتى تكون أحوالهم ملامسة لأحوال البشر ، وعلى ذكر من طباعهم .

أما الملائكة فإنهم بخلاف ذلك ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ﴾(٩) .

(١) الآية ٩٤ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٦ من سورة التغابن .
(٣) الآية ٩ من سورة الأحقاف .
(٤) الآية ٩٠ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٦) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران .
(٧) من الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٨) من الآية ٧ من سورة الفرقان .
(٩) من الآية ٣٨ من سورة الرعد .

ولما كانوا جسداً يأكلون ويشربون ، وينامون ، فإنهم غير خالدين فى هذه الدنيا ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين** ﴾ :

هو كقوله تعالى : ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ﴾[١] .

وكقوله تعالى : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾[٢] .

وقوله جل شأنه : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٣] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **أهلكنا المسرفين** ﴾ أى: المكذبين بوعدنا ووعيدنا ومعادنا ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون * وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين * فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون * قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين * فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾ :

هذا قسم منه سبحانه وتعالى على إنزال هذا الكتاب العزيز ، الذى فيه ذكرهم ، والمقصود به هاهنا شرفهم ، كما قال ابن عباس قال : شرفكم .

وقال مجاهد : حديثكم .

وقال الحسن : دينكم .

فمن رغب عن هذا الكتاب فقد سفه نفسه ، وأضاع كرامته وعزته ، فوالله الذى لا إله غيره لو أكرمنا كتاب الله ما أهاننا أحد ، ولرفرفت راية الإسلام على كل بلد .

الله أكبر إن دين محمد   وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تنكروا الكتب السوالف عنده   طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

(١) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ١٠٣ من سورة يونس .
(٣) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٤) الآية ٢١ من سورة المجادلة .
(٥) الآية ٥٨ من سورة هود .
(٦) الآيات ٦٦ - ٦٨ من سورة هود .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ : الفاء هنا عاطفة على محذوف تقديره : أجننتكم فلا تعقلون . وتلك حال كل من رأى النور فأنكره ، ورأى الظلمات فسار فيها : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرمادٍ اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ﴾(١) .

إن القرآن يلقى باللائمة على هؤلاء الذين رغبوا عما جاء به نبيهم إليهم ، عما جاء به غيره إلى غيرهم ، فقال سبحانه : ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾(٢) .

لا شرف لنا إلا بالقرآن ، ولا عزة لنا إلا فى التمسك به ، ولا كرامة لنا إلا بالعمل بما فيه ، وهل صارت الأمة غثاء كغثاء السيل ، وتداعت عليها الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها إلا لمّا طرحت كتاب ربها ظهريا ، وجاءت بقوانين من الشرق والغرب ، وطرحت ثياب الإسلام ، وجاءت بثوب ضم سبعين رقعة ، مشكلة الألوان مختلفات .

يا أمة الإسلام :

ألم يبعث لأمتكم نبى ... يوحدكم على نهج الوئام
ومصحفكم وقبلتكم جميعا ... منار للمحبة والسلام
وفوق الكل رحمن رحيم ... إله واحد رب الأنام

عودوا إلى كتاب ربكم .

١ ـ فقد روى عثمان بن عفان-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)(٣) ، رواه البخارى .

أى أفضلكم الذى جاهد نفسه فى حفظه ، وفهم معناه وتفسير آياته ، ثم يعلمه ويوضح مجمله ، ويدعو الناس إلى العمل به .

٢ ـ وعن عبد الله بن مسعود-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول (آلم) حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف)(٤) . رواه الترمذى .

ومعناه أن الله-تعالى-يعطى ثوابا للقارىء بكل حرف من حروف كلماته حسنة ، وفيه فضل قراءة القرآن وكثرة حسناته وزيادة أجره .

٣ ـ وعن أبى هريرة-رضى الله عنه-أن رسول الله ﷺ قال : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)(٥) . رواه مسلم .

(١) الآية ١٨ من سورة إبراهيم . (٢) الآية ٥٠ من سورة المائدة .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٢١ . وأبو داود فى الوتر : ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، والترمذى فى ثواب القرآن : ١٥ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ١٥٣ .

(٤) أخرجه الدارمى فى فضائل القرآن : ١ .

(٥) أخرجه أبو داود فى الوتر : ١٤ ، والترمذى فى القرآن : ١٠ ، وابن ماجه فى المدنية : ١٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٢ ، ٤٠٧ ، ٤٤٧ ، وفى ٣ : ٣٣ ، ٢٩ ، ٩٢ ، ٩٤ .

فقد أثنى عليهم سبحانه فى الملأ الأعلى تنويها بعلو درجتهم ، وزيادة ثوابهم وإخلاصهم لعبادة ربهم ، وذكره جل وعلا ، وفيه المكروب يقرأ القرآن ليفرج الله كربه ، والمعسور ليزيل عسره لأن ذلك أدعى للإجابة وأقرب لنزول رحمة الله .

٤ - وعن أبى هريرة-رضى الله عنه-أن رسول الله ﷺ قال : (من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة)(١) . رواه أحمد عن عُبادة بن ميسرة .

٥ - وعن عائشة-رضى الله عنها-قالت : قال رسول الله ﷺ : (الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتتعتع فيه ، وهوعليه شاق له أجران)(٢) .

قال النووى : السفرة جمع سافر . والسافر : الرسول ، والسفرة : الرسل ، لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله ، وقيل: السفرة : الكتبة البررة المطيعون من البر وهو الطاعة .

والماهر : الحاذق الكامل الحفظ الذى لا يتوقف ولا يشق عليه القراءة بجودة حفظه وإتقانه .

قال القاضى : يحتمل أن يكون معنى كونه من الملائكة أن له فى الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السفرة لاتصافه بصفتهم من حمل كتاب الله-تعالى .

قال : ويحتمل أنه يراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مسلكهم ، وأما الذى يتتعتع فيه فهو الذى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه فله أجران : أجر بالقراءة ، وأجر بتعتعته فى تلاوته ومشقته .

قوله تعالى : ﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين ﴾ :

كم هنا تفيد التكثير فهى كم الخبرية ، وقصمنا تفيد الاستئصال بشدة ، والأخذ الذى لا يبقى ولا يذر ، والمقصود بالقرية المجتمع . قال تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾(٣) .

فالظلم لايدوم ، وإن دام دمر ، والظلم ظلمات يوم القيامة ومرتعه وخيم . ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾(٤) ، ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير ﴾(٥) ، ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾(٦) .

وهل يهلك الأمم إلا الذنوب التى حظر الإسلام من إتيانها .

عن أبى هريرة-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : (اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يارسول الله

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٤١ .
(٢) أخرجه مسلم فى المسافرين : ٢٤٤ ، وابن ماجه فى الأدب : ٥٢ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٩٨ ، ١٧٠ ، ٢٦٦ .
(٣) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ من سورة القصص .
(٤) الآية ٤٥ من سورة الحج .
(٥) الآية ٤٨ من سورة الحج .
(٦) الآية ١١٧ من سورة هود .

وما هُنَّ ؟ قال : الشرك بالله،والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾[١] . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

والسبع الموبقات : أى:المهلكات التى تهلك أصحابها .

والشرك : هو أن تجعل لله مثيلاً وتأثيرا فى شفائك ، أو فى إعطاء رزقك ، أو قضاء حاجتك وهكذا ، بل الأفعال كلها لله ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾[٢] .

والسحر : صرف الشىء عن وجهه ، واستعمال طلاسم ، وتسخير الشياطين لأعمال دنيئة ، قال تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾[٣] .

والتولى يوم الزحف : أى:الهجوم على أعداء الدين .

وقذف المحصنات : أى:سب العفيفات الطاهرات الملازمة خدرهن الصالحات .

وعن أبى هريرة-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : (أربع : حق على الله أن لا يدخلهم الجنة ، ولا يذيقهم نعيمها : مدمن الخمر ، وآكل الربا ، وآكل مال اليتيم بغير حق ، والعاق لوالديه)[٤] . رواه الحاكم .

وعقوق الوالدين : أى:عصيانهما ومخالفة أوامرهما وعدم برهما ، وترك الإحسان إليهما ، لأنه خالف أمر الله تعالى الذى أمر : ﴿ وبالوالدين إحسانا ﴾[٥] .

وعن ابن مسعود-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : (بين يدى الساعة يظهر الربا ، والزنا ، والخمر) . رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح .

وروى عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (والذى نفسى بيده ليبيتن أناس من أمتى على أشر وبطر ولعب ولهو ، فيصبحوا قردة وخنازير : باستحلالهم المحارم واتخاذهم القينات وشربهم الخمر ، وبأكلهم الربا ، ولبسهم الحرير) . رواه عبد الله ابن الإمام أحمد فى زوائده .

إن رسول الله ﷺ شبه أولئك بالقردة والخنازير ، وصاروا مجردين عن كل عقل يمنعهم عن الفاحشة ، ويبعدهم عن المعصية ، ويرشدهم إلى الآداب السامية آداب الدين الإسلامى .

يا عجبا يسترسلون فى الشهوات ،ويرخون العنان لملذاتهم ، فيبيحون ما حرّم الله تبجحا وقلة أدب وسفاهة رأى ، ودناءة وحقارة ، والنتيجة تكون عاقبتهم وخيمة : ينتحرون ، ويفتقرون ويجنون ،

(١) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٢٣ ، وفى الحدود ، وفى الطب : ٤٨ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود فى الوصايا .
(٢) الآية ٣٠ من سورة الإنسان .
(٣) الآية ٤ من سورة الفلق .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٣٢٩ .
(٥) الآية ٨٣ من سورة البقرة .

ويطردون من أعمالهم ، ويفصلون من وظائفهم لماذا ؟ لأنهم اتبعوا أهواءهم وضلوا عن سواء السبيل ، ولم يعملوا بكتاب الله وسنة نبيه .

فحذار أيها الآباء ؛ وعلموا أبناءكم تعاليم الإسلام ، واجعلوا نصب أعينكم مصائب الخروج عن الدين ، واجتنبوا محارم الله ، وغذوا أبناءكم ببيان القرآن والسنة ، واهجروا المتبرجات العاصيات المائلات المميلات ، واتركوا الخمر والربا .

ومن علامة غضب الله أن يلبس الرجل الحرير ، قال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾(١) .

فأنت ترى حلم الله-جل وعلا-على أمة محمد ﷺ ، مهما أسرفوا فى المعاصى ، يسامحهم فى الدنيا ، ويؤجل عقابهم للآخرة ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ .

وقوله ﷺ :(فيصبحوا قردة وخنازير) : أى:أن أعمالهم المنكرة تستوجب مسخ صورهم ، ولكن سبق وعد الله بالتأجيل فلا يؤخذ هم بذنوبهم فى حياتهم ، كما آخذ الأمم السابقة ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوها فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً * إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾(٢) .

ومعنى نطمس : أى:نمحو تخطيط صورها ، ونجعلها على هيئة أدبارها يعنى الأقفاء ، أو ننكسها إلى ورائها فى الدنيا أو فى الآخرة ، وقيل : من قبل أن نغير وجوها فنسلب وجاهتها وإقبالها ، ونكسوها الصغار والإدبار . قاله البيضاوى .

وهذا هو الشاهد فى معنى (فيصبحوا قردة وخنازير) أى أن العصاة المجرمين المرتكبى الآثام يصبحون فى ذل وصغار ، وحقارة ، ودناءة ، تعلوهم المسكنة ، ويسلب الله منهم كل عز ورفعة وجاه .

وروى عن أبى أمامة-رضى الله عنه-عن النبى ﷺ قال : (يبيت قوم من هذه الأمة على طُعم ، وشرب ولهو ولعب ، فيصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير ، وليُصيبنهم خسف وقذف حتى يصبح الناس فيتولون خسف الليلة ببنى فلان ، وخسف الليلة بدار فلان ، ولترسلن عليهم حجارة من السماء كما أرسلت على قوم لوط على قبائل فيها وعلى دور، ولترسلن عليهم الريح العقيم التى أهلكت عاداً على قبائل فيها وعلى دور بشربهم الخمر ، ولبسهم الحرير ، واتخاذهم القينات وأكلهم الربا ، وقطيعة الرحم . .)(٣) . الحديث رواه أحمد مختصراً واللفظ له .

والله إن ذنوبهم كثرت ، وزادت فسوقها ، فاستحقوا إرسال الريح المهلكة الشديدة التى تضر زرعهم ، وتهلك ماشيتهم ، وتهدم دورهم ، كما قال تعالى:﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾(٤) أى: كالرماد . وهو البلى والتفتت .

(١) الآية ٤٥ من سورة فاطر
(٢) الآيتان ٤٧ ، ٤٨ من سورة النساء .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٣٢٩ .
(٤) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة الذاريات .

﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون * فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾(١) .

لقد استحق المسلمون عقاب الله بهذا العذاب . بسبب شرب الخمر ، وتمتعهم بالرفاهية والترف ، والإسراف بلبس الحرير ، واستحلال صحبة المغنيات الفاجرات بلا نكاح شرعى ، فيحصل اختلاط مزر مشين قبيح ، وفعل الربا ، وترك مودة الأقارب وهجرهم ، وعدم الإحسان إليهم .

فاتقوا الله عباد الله ، واعملوا صالحا ، واهجروا المعاصى ، وأكثروا من تشييد الصالحات ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، فإن الله -تعالى- أرسل محمدا ﷺ بالتعاليم الصحيحة الجالبة كل سعادة ، والمانعة من كل عذاب ، ولكن هذه المعاصى تسبب انتقام الله -جل وعلا- عاجلاً ، كما قال عز وجل : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾(٢) .

انظر إلى حال المسلمين الآن : ملأوا أصقاع المعمورة ، وكثر عددهم ، ولكن تفرقت قلوبهم ، لماذا ؟ لأن العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ قليل ، والمعاصى فاشية ، والمنكرات قائمة ، والبدع منتشرة ، والفواحش مرتكبة ، والله تعالى يقول : ﴿ قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون * قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون * وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ : أى:بعد إهلاك أهلها كما فى قوله-جل شأنه-: ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾(٤) .

﴿ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون * لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون ﴾ : أى: تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة ، كما وعدهم نبيهم .

﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ : أى: يفرون هاربين .

﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم ﴾ : هذا تهكم بهم نزراً ، أى:قيل لهم نزراً لا تركضوا هاربين من نزول العذاب ، وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة .

قال قتادة : استهزاء بهم .

﴿ لعلكم تسئلون ﴾ : أى: عما كنتم فيه من أداء شكر النعم .

(١) الآيات ٤٣ ـ ٤٦ من سورة الذاريات .
(٢) الآية ٦٥ من سورة الأنعام .
(٣) الآيات ٤٦ ـ ٤٨ من سورة الأنعام .
(٤) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة يونس .

قوله تعالى : ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ : اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك .

﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ : أي:ما زالت تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم وأصواتهم خموداً .

إن الله-تعالى-حرّم الظلم على عباده ، كما أنه وهو الحكم العدل المقسط حرمه على نفسه .

عن أبي ذر-رضي الله عنه-عن النبي ﷺ : فيما يرويه عن ربه-عز وجل-أنه قال : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم ، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضُرّي فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كلّ واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص الخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إيّاها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[1] . رواه مسلم .

إنه لا حجة لمحتج عند الله ، فقد قطعت المعاذير ، وبرح الخفاء ، فالطريق لائح ، والحق واضح ، والمناد صائح .

قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي عبد الله النعمان بن بشير رضي الله عنهما-قال:سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى إلا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[2] .

فاحذر الظلم يا أخي ، فإن الله-تعالى-قد أقام للعباد حقوقاً ، من تجاوزها فقد ظلم نفسه .

فعن جابر-رضي الله عنه-أن رسول الله ﷺ قال : (اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح ، فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم)[3] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في البر : ٥٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان : ٣٩ ، وفي البيوع : ٢ ، ومسلم في المساقاة : ١٠٧ ، وأبو داود في البيوع : ٣ ، والترمذي في البيوع : ١ ، والنسائي في البيوع : ٢ ، وفي الأشربة : ٥٠ ، وابن ماجه في الفتن : ١٤ ، والدارمي في البيوع : ١ ، والإمام أحمد في ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ .

(٣) أخرجه مسلم في البر : ٥٦ ، ٥٧ ، والدارمي في السير : ٧٢ ، والإمام أحمد في ٢ : ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٩١ ، وفي ٣ : ٣٢٣ .

والظلم : الجور ووضع الشيء في غير موضعه الشرعي ، وهو مستحيل في حق الله-تعالى-، وكيف يجاوز سبحانه حدا وليس فوقه من يطيعه أو يرسم له عملا ، إن تجاوزه ظلم ، وكيف يتصرف في غير ملك ، والعالم كله ملكه وسلطانه . قاله النووي .

فلا تظالموا : أي :لا يظلم بعضكم بعضاً .

ومعنى اجتنبوا الظلم : قال ابن الجوزي : الظلم يشتمل على معصيتين : أخذ مال الغير بغير حق ، ومبارزة الرب بالمخالفة والمعصية فيه أشد من غيرها ، لأنه لايقع غالباً إلا بالضعيف الذى لايقدر على الانتصار ، وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب ، لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر ، فإذا سعى المتقون بنورهم الذى حصل لهم بسبب التقوى ، اكتنفت ظلمات الظلم الظالم ، حيث لايغنى عن ظلمه شيئاً .

وعن ابن عمر-رضى الله عنهما-قال : قال رسول الله ﷺ : (الظلمُ ظلماتٌ يوم القيامة) . رواه البخاري ومسلم .

وروى عن الهرماس بن زياد-رضى الله عنه-قال : رأيت رسول الله ﷺ يخطب على ناقته ، فقال : (إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة ، وإياكم والظلم ، فإنه ظلمات يوم القيامة . وإياكم والشح ، فإنما أهلك من كان قبلكم الشح حتى سفكوا دماءهم ، وقطعوا أرحامهم) . رواه الطبراني في الكبير والأوسط .

واعلم بأن الظلم يمنع الخير على الظالمين . فقد روى عن ابن مسعود-رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : (لا تظلموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستسقوا فلا تُسقوا ، وتستنصروا فلا تُنصروا) . رواه الطبراني .

كذلك يمنع الظلم الشفاعة يوم القيامة ، فروى عن أبي أمامة-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : (صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلوم غشوم ، وكل غالٍ مارق) . رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات .

وتأمل معى سمات المسلم ، وموجبات الأخوة ، فروى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقول : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ويقول : والذى نفسى بيده ما توادّ اثنان فيُفرَّقُ بينهما إلا بذنب يُحدثه أحدهُما)[1] رواه أحمد بإسناد حسن .

وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون ﴾[2] .

فعن أبي موسى-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله يُملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته)[3] ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[4] . رواه البخاري ومسلم .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في ٣ : ٩٥ ، وابن ماجه في الإقامة : ٦١ .
(٢) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة ١١ : ٣ ، ومسلم في البر : ٥ ، والترمذي في تفسير سورة ١١ : ٢ ، وابن ماجه في الفتن : ٢٢ .
(٤) الآية ١٠٢ من سورة هود .

ومن أخطار الظلم أنه يضيع الحسنات يوم القيامة ، فروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام فى أرض العرب ، لكنه سيرضى معكم بدون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات يوم القيامة ، اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجىء بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقول يارب ظلمنى عبدك مظلمة فيقول : امحوا من حسناته ، وما يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة من الذنوب وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرّق القومُ ليحتطبوا فلم يلبثوا أن حطبوا ، فأعظموا النار ، وطبخوا ما أرادوا وكذلك الذنوب)(١) . رواه أحمد والطبرانى بإسناد حسن .

فبادر يا أخى برد المظالم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمداً بعيدا ويحذركم الله نفسه ﴾(٢) .

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾(٣) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شىء فليتحلّله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)(٤) رواه البخارى .

وعن أبى هريرة أيضاً رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون ما المفلس ؟) قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : (إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار)(٥) . رواه مسلم والترمذى .

وعن ابن عثمان عن سلمان الفارسى ، وسعد بن مالك ، وحذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن مسعود حتى عد ستة أو سبعة من أصحاب النبى ﷺ قالوا : (إن الرجل لترفع له يوم القيامة صحيفته حتى يرى أنه ناج ، فما تزال مظالم بنى آدم تتبعه حتى ما يبقى له حسنة ويحمل عليه من سيئاتهم) . رواه البيهقى بإسناد جيد .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذا إلى اليمن . فقال : (اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)(٦) رواه البخارى ومسلم .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٦٨ ، وفى ٤ : ١٢٦ ، والترمذى فى الفتن : ٢ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧٦ .
(٢) الآية ٣٠ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١١١ من سورة النحل .
(٤) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٠ ، وفى الهبة : ٢١ ، وفى الرقاق : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٥٠٦ .
(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٦٠ ، والترمذى فى القيامة : ٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٤ ، ٣٧٢ .
(٦) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٨٠ ، وفى الزكاة : ٦٣ ، وفى المظالم : ٩ ، ومسلم فى الإيمان : ٢٩ ، وأبو داود فى الزكاة : ٥ ، والترمذى فى الزكاة : ٦ ، والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ ، وابن ماجه فى الزكاة : ١ ، والدارمى فى الزكاة : ١ ، والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام (السحاب) ويفتح لها أبواب السماء ويقول الربّ : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين)(١) . رواه أحمد والترمذى وحسنه .

وروى عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يقول الله : (اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيرى) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : (كانت أمثالاً كلها ، أيها الملك المُسَلَّطُ المبتلى المغرور إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض . ولكن بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها ، وإن كانت من كافر) الحديث رواه الحاكم مطولاً .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : (تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره)(٢) . رواه البخارى .

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حمى مؤمنا من منافق ـ أراه قال ـ بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم)(٣) الحديث . رواه أبو داود .

الأدلة من كتاب الله على تحريم الظلم

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ❁ مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء ﴾(٤) .

أى : أبصارهم لا تقر فى أماكنها من هول ما ترى .

(مهطعين) مسرعين إلى الداعى ، رافعى رءوسهم لا يطرفون ، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك الأجفان .

(هواء) غلاء وهو الذى لم تشغله الأجرام أى : لا قوة فى قلوبهم ولا جراءة .

وعن ابن جريج هواء : أى : صفر من الخير خالية عنه .

وقال مجاهد : مهطعين : أى : مديمى النظر ، ويقال مسرعين لا يرتد إليهم طرفهم .

وأفئدتهم هواء : يعنى جوفا لا عقول لهم ، جوفا جمع أجوف . وقيل : نزعت أفئدتهم من أجوافهم .

وقال تعالى : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب

---

(١) أخرجه الترمذى فى الجنة : ٢ ، وفى الدعوات : ١٢٨ . وابن ماجه فى الصيام : ٤٨ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٥٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى المظالم : ٤ ، وفى الإكراه : ٧ . ومسلم فى البر : ٦٢ . والترمذى فى الفتن : ٦٨ . والدارمى فى الرقاق : ٤٠ . والإمام أحمد فى ٣ : ٩٩ ، ٢٠١ ، ٣٢٤ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٤١ . وأبو داود فى الأدب : ٣٦ .

(٤) الآيتان ٤٢ ، ٤٣ من سورة إبراهيم .

نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال * فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾[١] .

قال العينى : الخطاب لرسول الله ﷺ أمره بإنذار الناس وتخويفهم .

(أجل قريب) أى ردنا إلى الدنيا ، وأمهلنا نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك ، واتباع رسلك .

وقال تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾[٢] .

(الأشهاد) : الرسل أو الملائكة أو أمة محمد ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً * إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديراً ﴾[٣] .

أى لا جهر من ظلم بالدعاء على الظالم والتظلم منه .

روى أن رجلاً أضاف قوماً فلم يطعموه ، فاشتكاهم فعوتب عليه ، فنزلت .

(سميعا) : لكلام المظلوم ، (عليما) بالظالم ، (خيراً) طاعة وبرا .

سبحانه يكثر العفو عن العصاة مع كمال قدرته على الانتقام ، فأنتم أولى بذلك .

هو حث للمظلوم على العفو بعد ما رخص له فى الانتصار ، حملاً على مكارم الأخلاق ، قاله البيضاوى .

وقال العينى قال عبد الكريم بن مالك الجزرى فى هذه الآية : هو الرجل يشتمك فتشتمه ، ولكن إن افترى عليك فلا تفتر عليه لقوله تعالى : ﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾[٤] .

روى أبو داود من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما ما لم يعتدِ المظلوم)[٥] . أورده البخارى .

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ﴾[٦].

قال العينى : البغى : الظلم : أى الذين إذا أصابهم بغى المشركين فى الذين انتصر عليهم بالسيف أو إذا بغى عليهم باغ كرهوا أن يستذلوا لئلا يجترىء عليهم الفساق فإذا قدروا عفوا .

---

(١) الآيات من ٤٤ - ٤٧ من سورة إبراهيم .
(٢) الآية ١٨ من سورة هود .
(٣) الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء .
(٤) الآية ٤١ من سورة الشورى .
(٥) أخرجه مسلم فى البر : ٩ أبو داود فى الأدب : ٣٩ . والترمذى فى البر : ٥١ والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٤٨٨ ، ٥١٧ . وفى ٤ : ١٦٢ ، ٢٦٦ .
(٦) الآية ٩ من سورة الشورى .

وقال تعالى : ﴿ وجزاؤ سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين * ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل * إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم * ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل * وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم * وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل * استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾(٢).

قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين * لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين * بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون * وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ : أى: وما خلقنا هذا السقف المرفوع ، وهذا المهاد الموضوع ، وما بينهما من أصناف المخلوقات البديعة ، للهو واللعب ، بل خلقناهما لفوائد دينية ، وحكم ربانية ، كأن تكون دليلاً على معرفة الخالق لها ، ووسيلة للعظة والاعتبار إلى ما فيها من منافع أخرى لا حصر لها .

وخلاصة ذلك أن إيجاد العالم كله ، ولا سيما النوع الإنسانى ، واستخلافه فى الأرض ، مبنى على بديع الحكم ، مستتبع لغايات جليلة لا تخفى على ذوى الألباب ، وقد علم بعضها من أمعنوا النظر فى الكون وعجائبه ، وأوتوا حظا من صادق المعرفة ، فعرفوا بعض أسراره ، وانتفعوا ببعض ما أودع فى باطن الأرض ، وما على ظاهر سطحها ، مما كان سببا فى رقى الإنسان .

ولا يزال العلم يولد لنا كل يوم عجيبا ، ويظهر لنا من كنوزها غريبا ، قال تعالى : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾(٣).

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾(٤).

ثم أكد نفى اللعب بقوله : ﴿ **لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين** ﴾ .

أى: لو أردنا أن نتخذ لهوا كما يتخذ العباد لاتخذناه من عندنا ، من العوالم المجردة من المادة . كالملائكة ، لكنا لا نتنزل لملابسة ما هو من شأنكم المادى كالزوج والولد ، إذ لا يجمل بنا لأنه خارج عن سنن حكمتنا ، وقوانين نظامنا ، ورفعة قدرنا ، فنحن لا نلهو بالصور الجسمية ، ولا بالنفوس الروحية .

---

(١) الآيات من ٤٠-٤٢ من سورة الشورى .
(٢) الآيات من ٤٤-٤٧ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٢٧ من سورة ص .

وخلاصة هذا إنا خلقناكم لحكمة وصورناكم لغاية ، وجعلنا لكم السمع والإبصار لمنافع قدرناها لكم ، لاللهونا ولعبنا ، ومن ثم لا نترككم سدى ، بل نحاسبكم ونؤاخذكم ، والجدِ مطلبنا ، واللهو واللعب من شأن العبيد المخلوقين ، لا من شأن رب العالمين .

ونحو الآية قوله : ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾ : .

أى إن من شأننا أن نرمى الحق الذى من جملته الجد ، على الباطل الذى منه اللعب ، فيكسر دماغه ، بحيث يشقق غشاؤه ، فيؤدى ذلك إلى زهوق روحه فيهلك ، وقد شبه الباطل بإنسان كُسر دماغه فهلك ، وإذا كان هذا شأننا فكيف نترككم بلا إنظار ، كأنما خلقناكم لنلهو بكم .

وقوله تعالى : ﴿ **ولكم الويل مما تصفون** ﴾ : أى ولكم العذاب الشديد من وصفكم ربكم بغير صفته ، وقيلكم إنه اتخذ ولدا وزوجة ، وافترائكم ذلكم عليه .

ولما حكى كلام الطاعنين فى النبوات ، وأجاب عنها ، وبين أن غرضهم من تلك المطاعن إنما هو التمرد والعناد ، بين فى هذه الآية أنه غنى عن طاعتهم ، لأنه هو المالك لجميع المخلوقات ، والملائكة على جلالة قدرهم مطيعون له خائفون منه ، فأجدر بالبشر على ضعفهم أن يطيعوه ، وما أخلقهم أن يعبدوه ، فقال سبحانه : ﴿ **وله من فى السموات والأرض** ﴾ :

أى وله تعالى جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصريفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة ، دون أن يكون لأحد فى ذلك سلطان ، لا استقلالا ولا استتباعا .

قوله تعالى : ﴿ **ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون** ﴾ :

أى والملائكة الذين شرفت منزلتهم عند ربهم لا يستعظمون عن عبادته ، ولا يكلون ولا يتعبون ، وتخصيص الملائكة بالذكر للدلالة على رفعة شأنهم ، كما خصص جبريل من بين الملائكة فى قوله سبحانه : ﴿ تنز ل الملائكة والروح ﴾[(٢)] .

ثم بين سبحانه كيف يعبدون ربهم ، فقال سبحانه : ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾ :

فهم دائبون فى العمل ليلاً ونهاراً ، مطيعون قصداً وعملاً ، قادرون عليه ، كما قال فى الآية الأخرى ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾[(٣)] .

وخلاصة ذلك المبالغة فى تنزيه الله وتسبيحه ، وهذا لا يمنع تخلل فترات لا يفعلون فيها ذلك ، كما يقال : خلاف لا يفتر عن ثنائك وشكر آلائك .

قوله تعالى : ﴿ **أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ۞ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان**

(١) الآية ٤ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٤ من سورة القدر .
(٣) الآية ٦ من سورة التحريم .

الله رب العرش عما يصفون * لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون * وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ :

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾ : ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة ، فقال **﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾** أى:أهم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض ، أى:لا يقدرون على شىء من ذلك ، فكيف جعلوها لله نداً ، ووصف الآلهة بكونها من الأرض . للإشارة إلى أنها من الأصنام التى تعبد فيها ، وللإيماء إلى ضعة شأنها ، وحقارة أمرها .

ثم أقام الدليل الفعلى على التوحيد ، ونفى أن يكون هناك إله غير الله فقال سبحانه : **﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾** :

أى:لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لخربتا ، وهلك من فيهما ، ذاك أنه لو كان فيهما إلهان فإما أن يختلفا أو يتفقا فى التصرف فى الكون ، والأول ظاهر البطلان ، لأنه إما أن ينفذ مرادهما معا فيريد أحدهما الإيجاد والثانى لا يريده ، فيثبت الوجود والعدم لشىء اختلفا فيه ، وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الثانى ، فيكون هذا مغلول اليد عاجزا ، والإله لا يكون كذلك ، والثانى باطل أيضاً ، لأنهما إذا أوجداه معاً وجب توارد الخلق من خالقين على مخلوق واحد .

ولما أثبت سبحانه بالدليل أن المدبر للسموات والأرض لا يكون إلا واحداً ، وأن ذلك الواحد لا يكون إلا الله قال جل فى علاه : **﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾** .

أى:فتنزيها لله رب العرش المحيط بهذا الكون ، ومركز تدبير العالم ، عما يقول هؤلاء المشركون من أن له ولداً أو شريكا .

ثم أكد هذا التنزيه بقوله : **﴿ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴾** :

أى:هو الحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد ؛ لعظمته وجلاله وعلمه وحكمته ، وعدله ولطفه ، وهو سائل خلقه عما يعملون ، كما قال **﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون ﴾**[١] ، وقال سبحانه : **﴿ وهو يجير ولا يجار عليه ﴾**[٢] .

ثم أعاد الإنكار مرة أخرى استفظاعاً لشأنهم ، واستعظاما لكفرهم ، وإظهاراً لجهلهم فقال سبحانه : **﴿ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴾** :

أى :أبعد هذه الأدلة التى ظهرت تقولون إن لله شركاء ؟

ثم أمرهم بإقامة الدليل على صحة ما يدعون فقال سبحانه : **﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾** :

أى:بعد أن ثبت أنه لا إله غيره ، فهاتوا برهانكم على صحة اتخاذ الآلهة من الأصنام والأوثان ، ولا سبيل إلى ذلك ، لا بالدليل العقلى ، لأنه مر بطلانه ، ولا بالدليل النقلى ، لأن الكتب السماوية جميعاً متفقة على هذا .

---

(١) الآيتان ٩٢ ، ٩٣ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٨٨ من سورة المؤمنون .

وإلى ذلك أشار بقوله : ﴿ **هذا ذكر من معى وذكر من قبلى** ﴾ :

أى:هذا هو الكتاب المنزل على من معى،وهذه هى الكتب المنزلة على من تقدمنى من الأنبياء كالتوراة والإنجيل والزبور ، وصحف إبراهيم وموسى ، انظروا فيها هل تجدون إلا الأمر بالتوحيد والنهى عن الإشراك ؟

قال الزجاج : قيل لهم : هاتوا برهانكم بأن رسولا من الرسل أنبأ أمته بأن لهم إلها غير الله ، فهل فى ذكر من معى وذكر من قبلى إلا توحيد الله ؟

ولما كانوا لا يجدون لهم شبهة فضلا عن حجة ، ذمهم على جهلهم بمواضع الحق ، فقال سبحانه : ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون الحق** ﴾ أى:لا يميزون بين الحق والباطل ، فلا تؤثر منهم الحجة والبرهان ، ولا يقتنعون به .

ثم ذكر أن هذا كان سبباً فى إعراضهم وتجافيهم عن سماع الحق ، فقال : ﴿ **فهم معرضون** ﴾ :

أى:منهم لأجل هذا الجهل المستولى على أكثرهم أعرضوا عن قبول الحق وعن النظر الموصل إليه ، فلا يتأملون حجة ولا يتدبرون برهاناً ، ولا يتفكرون فى دليل .

ثم أكد ما تقدم من أدلة التوحيد فقال سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ :

أى:وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم إلا أوحينا إليه أن لا معبود فى السموات والأرض بحق إلا أنا ، فأخلصوا لى العبادة ، وأفردوا لى الألوهية .

وخلاصة ذلك : إن الرسل جميعاً أرسلوا بالإخلاص والتوحيد ، لا يقبل منهم سواه ، كما قال سبحانه : ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** ﴾ :

وبعد أن بين سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزه عن الشريك والند ، أردف ذلك ببراءته من اتخاذ الولد ، ويقول ذلك راداً على من زعم أن له تعالى وتقدس ولداً من الملائكة : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً** ﴾ :

أى:وقال فريق من هؤلاء المشركين ، وهم بطون من خُزاعة وجُهينة وبنى سلمة : الملائكة بنات الله ، فرد عليهم بقوله : ﴿ **سبحانه** ﴾ أى:تنزيها له عن ذلك ، لأن الولد لابد أن يكون شبيهاً بالوالد ، فلو كان له ولد لا شبهة ولا مجانسة بين النعمة والمُنعِم ، والخالق والمخلوق .

ثم أكد إبطال ما سلف بقوله : ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ أى:ليس الملائكة كما قالوا بل هم عباد

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل .

مخلوقون له تعالى ، فهم ملكه لكنهم مقربون عنده فى منازل عالية ، ومقامات سامية .

ثم بين سبحانه كمال طاعتهم ، وانقيادهم لأمره ، وتأدبهم معه تعالى ، فقال : ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ :

أى: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله .

ثم علل هذه الطاعة ، بعلمهم بأن ربهم محيط بهم ، لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، فقال : ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ :

أى: يعلم ما عملوا ، وما هم عاملون ، لا تخفى عليه خافية مما قدموا وأخروا ، فلا يزالون يراقبونه فى جميع شئونهم .

﴿ **ولا يشفعون إلا لمن ارتضى** ﴾ : أى: وهم لا يشفعون إلا لمن رضى عنه ، فلا تطمعوا فى شفاعتهم لكم بغير رضاه تعالى .

قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة يشفعون فى الدار الآخرة .

قال قتادة أى لأهل التوحيد .

﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾ : أى وهم من خوف الله ، والإشفاق من عقابه ، حذرون أن يعصوه ، ويخالفوا أمره ونهيه .

﴿ **ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم** ﴾ :

أى: ومن يدعى منهم أنه إله مع الله فجزاؤه جهنم على ما ادعى كسائر المجرمين ، ولا يغنى عنه ما سبق من أوصافه ومرضىّ أفعاله .

﴿ **كذلك نجزى الظالمين** ﴾ : أى: وهكذا نجزى كل من ظلم نفسه ، فكفر بالله وعبد غيره .

وخلاصة ذلك : أنه سبحانه وصف الملائكة بخمس صفات تدل على العبودية وتنافى الولادة :

١ - المبالغة فى الطاعة ، فإنهم لا يقولون قولا ، ولا يفعلون فعلا ، إلا بإذنه .

٢ - أنه سبحانه يعلم أسرارهم وهم لا يعلمون أسراره ، فهو المستحق للعبادة لا هم كما قال عيسى عليه السلام ﴿ تعلمُ ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك ﴾[1] .

٣ - إنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الشفاعة له ، ومن يكون إلها أو ولداً للإله لا يكون كذلك .

٤ - إنهم فى نهاية الإشفاق والوجل من الله .

٥ - إن حالهم كحال سائر المكلفين فى الوعد والوعيد فكيف يكونون آلهة .

قوله تعالى :

﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى**

(١) الآية ١١٦ من سورة المائده .

أفلا يؤمنون * وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون * وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ .

اعلم أنه سبحانه ذكر أدلة ستة تثبت وجود الخالق الواحد القادر ، لو تدبرها المنصفون ، وعقلها الجاحدون ، لم يجدوا مجالاً للإنكار ، ولا سبيلا إلى الجحد .

١ - ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما** ﴾ : أى:ألم يعلم الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا مرتوقتين : أى ملتحمتين متصلتين ففصلناهما وأزلنا اتحادهما .

وهكذا يقول علماء الفلك حديثا ، إذ يثبتون أن الشمس كانت كرة نارية دائرة حول نفسها ملايين السنين ، وفى أثناء سيرها السريع انفصلت منها أرضنا والأرضون الأخرى وهى السيارات من خط الاستواء الشمسى ، فتباعدت عنها ، وما زالت أرضنا دائرة حول نفسها وحول الشمس على نظام خاص بحكم الجاذبية .

قال الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الملكى المصرى : ان النظرية الحديثة فى كيفية مولد الأرض وأخواتها الكواكب السيارة من الشمس ، هى افتراض اقتراب نجم كبير من الشمس فيما مضى من الزمن اقترابا كافيا ، فجذب من سطحها كتلة لم تلبث أن انفصلت من الشمس على شكل سهم مدبب الطرفين سميك فى الوسط ثم تكثفت هذه الكتلة فى الفضاء البارد إلى كتلة منفصلة ، وبقيت هذه الكتل التى تمثل الأرض وأخواتها الكواكب السيارة تدور بفعل الجاذبية للشمس فى مداراتها حولها بلا انقطاع ، وانطفأ نورها لأن كتلتها كانت أصغر من أن تحتفظ بصفتها الأصلية قبل الانفصال وهو إشعاع الضوء .

فالكواكب السيارة ، ومنها الأرض لا نراها بضوء يشع منها ، بل بضوء الشمس منعكسا على سطوحها كما نرى القمر وكما نرى وجوهنا بضوء الشمس أو المصباح منعكسا عليها .

والكواكب السيارة تسعة ، وهى بترتيب قربها من الشمس : عُطارد ، والزُّهرة ، الأرض ، المريخ ، المشترى ، زُحل ، أورانوس ، نبتون ، بلوتوه .

ويدخل ضمن هذه الأسرة مجموعة كبيرة العدد من أجسام صغيرة ، تقع بين مدارى المريخ والمشترى ، وتدور حول الشمس كسرب من الطير ، ومن بينها المذنبات أيضاً ، والشهب التى نرى الكثير منها كل ليلة يهوى نحو الأرض ويحترق باحتكاكه بالغلاف الجوى الذى حولها .

أما بقية الأجرام السماوية التى نراها ليلا تزين سطح القبة السماوية فهى النجوم ، والنجوم شموس موادها المركبة منها هى المواد المركبة منها شمسنا ، فسبحان الخلاق العظيم ا هـ .

وبعد أزمنة طويلة لا يعلم مداها ، بردت القشرة الأرضية ، وصارت صالحة لإنبات بعض أنواع النبات ، ثم لسكنى الحيوان ، ثم لسكنى الإنسان .

ولا شك أن هذه النظرية لم يكن يعرفها العرب ، ولا الأمم المعاشرة لهم ، ولم تعرف إلا منذ القرن السابع عشر الميلادى ، ومُحصت بعض التمحيص فى عصرنا الحاضر ، تدل أكبر دلالة على صدق النبى

محمد ﷺ ، وأن القرآن وحى أرسله إليه ربه هداية للبشر ورحمة للعالمين .

وخلاصة ذلك : أن العقل البشرى مستعد لدرس عجائب هذا الكون ، ومعرفة سير هذه الكواكب ودورانها بنظام الجاذبية حول الشمس ، على سنن لا يتغير ولا يتبدل ، وقد دل البحث على أنها كلها مجموعة واحدة انفصل بعضها من بعض بأسباب خاصة ، فندها العليم الخبير .

وقد أرشد إلى بيان هذا خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله ، ولم يكن قومه ، ولا الأمم المعاصرون لهم يفكرون فيه ، مما يدل على أن ذلك وحى أوحى إليه من لدن عليم خبير .

وقد كان هذا وحده كافيا فى الإسراع إلى تصديقه ، والإيمان برسالته ، لولا الجحد والإنكار وعمى القلوب ﴿ إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[1] .

٢ - ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ : أى: وخلقنا من الماء كل حيوان ، كما قال سبحانه فى آية أخرى: ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾[2] وكذا يحيا به كل نبات وينمو .

وقال قتادة : خلقنا كل نام من الماء فيدخل الحيوان والنبات .

﴿ أفلا يؤمنون ﴾ بأن يتدبروا هذه الأدلة ، فيعلموا بها الخالق الذى لا يشبه غيره ، ويتركوا طريق الشرك .

٣ - ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ﴾ : أى: وجعلنا فيها جبالاً ثوابت ، لئلا تميد وتضطرب بهم .

وقد أثبت العلم حديثا أن الأرض كانت ناراً ملتهبة ، ثم بردت قشرتها ، وصارت صوَّانية صُلبة ، وقدَّروا زمن ذلك بنحو ثلثمائة مليون سنة .

ومما يدل على صدق هذه النظرية ما نراه من حُمم النيران التى تخرجها البراكين فى جهات كثيرة من الأرض ، كما حدث سنة ١٩٠٩ لبركان فيزوف بإيطاليا ، وقد طغى على مدينة مسِّنيا ، وابتلعها فى باطنه ، ولم يبق منها شيئاً .

فهذه البراكين أشبه بأفواه تتنفس بها الأرض ، لتخرج من باطنها نيراناً ومواد ذائبة ، مما يرشد إلى أنها كلها فى أحقاب طويلة كانت كذلك . ولولا هذه القشرة الصُلبة لتفجرت ينابيع النيران من سائر الجهات .

وهذه القشرة الصّوانية البعيدة الغور المغلفة للكرة النارية هى الحافظة لكرة النار التى تحتها ، وهى التى نبتت منها الجبال التى نراها فوق أرضنا ، وقد جعلت لحفظ الأرض من أن تميد ، وما هى إلا كأسنان لها ، طالت وامتدت فوق طبقات الأرض ، فلو زالت هذه الجبال لبقى ما تحتها مفتوحاً ، وإذ ذاك ربما تثور البراكين فى جهات كثيرة من الأرض وتضطرب اضطرابا شديداً وتزلزل زلزالاً كثيراً .

وهذه هى المعجزة الثالثة فى الآية التى ترشد إلى أن القرآن وحى يوحى ، فما محمد ولا قومه ولا الأمم المعاصرون لهم يعلمون شيئا من هذه الآيات الكونية ، التى أيد صحتها تقدم العلوم ، ففهم ظاهر الأرض

(١) الآية من ٤٦ من سورة الحج .
(٢) الآية ٤٥ من سورة النور .

وباطنها ، وفى هذا مصداق لما أثر عن على رضى الله عنه : (القرآن جديد لا تبلى جدته) .

٤ ـ ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾ أى وجعلنا فى الأرض طرقاً بين جبالها ، يسلكها الناس من قطر إلى قطر ، ومن إقليم إلى آخر ، ليهتدوا بذلك إلى مصالحهم ومهام أمورهم المعيشية .

٥ ـ ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ : أى:أنه تعالى نظّم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام ، فقد حفظت الشموس والكواكب فى مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض ، ولا يختبط بعضها فى بعض ، بل جعلت فى أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية ، فالشمس والقمر والكواكب الأخرى متجاذبات حافظات لمداراتها لا تخرج عنها وإلا اختل نظام هذا العالم ، وبهذا الحفظ ونظام الدوران كان الليل والنهار الحادثين من جرى الأرض حول الشمس .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾[1] .

﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ أى:والمشركون معرضون عن التفكر فى تلك الآيات الدالة على وحدانيتنا ، وعظيم قدرتنا ، وإحاطة علمنا .

٦ ـ ﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ :

أى:والله خلق لكم الليل والنهار نعمة منه عليكم ، وحجة على عظيم سلطانه ، فهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم ، وأمور دنياكم وآخرتكم ، وخلق الأرض والشمس والقمر تجرى فى أفلاكها كما يجرى السمك فى الماء .

وهذا هو الرأى الحديث ، وأن هذه كلها تجرى فى عالم الأثير المالىء لهذا الفضاء ، فالشمس تجرى ، والأرض تجرى ، والقمر يجرى ، وبينها هذه المخلوقات الحية ، فما مثل هذه العوالم إلا كآلة الطباعة ، والمخلوقات كلماتها وسطورها ، أوكدار صناعة تخرج كل يوم مصنوعات جديدة بعد فناء القديمة وزوالها ، فسبحان الله الواحد الأحد ، صاحب العز والملكوت .

قوله تعالى :

﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون * كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون * وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ : أى:وما كتب لأحد من قبلك البقاء فى الدنيا حتى نبقيك فيها ، بل قُدرّ لك أن تموت كما مات رسلنا من قبلك .

﴿ أفإن مت فهم الخالدون ﴾ : أى:أفهؤلاء المشركون بربهم هم الخالدون بعدك ؟ لا ، ما ذلك كذلك ، بل هم ميتون ـ عشت أومت .

ثم أكد ما سلف ، وبين أن أحداً لا يبقى فى هذه الدنيا ، فقال سبحانه : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ .

---

(١) الآية ٦٥ من سورة الحج .

أى:كل نفس منفوسة من خلقه ذائقة مرارة الموت ، ومتجرعة كأسه ، وشدة مفارقة الروح للبدن ، وقد جاء فى الحديث : « إن للموت لسكرات »(١) .

فلا يفرحن أحد لموت أحد ، ولا يُظهرن التشفى منه ، كما لا ينبغى أن تبدو عليه علامات الجزع والحسرة لموت أحد .

﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ : أى:ونختبركم أيها الناس بالمضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد ، وبنعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور ، والتمكين من حصول ما تريدون ، لنرى أتصبرون فى المحن ، وتشكرون فى المنح ؟ فيزداد ثوابكم عند ربكم إذا قمتم بأداء ذلك ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فالمنحة أعظم البلاءين ، ومن ثم قال عمر رضى الله عنه : (بُلينا بالضراء فصبرنا ، وبُلينا بالسراء فلم نصبر) ، وقال على كرم الله وجهه : (من وُسِّع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مُكِرَ به فهو مخدوع عن عقله) .

﴿ وإلينا ترجعون ﴾ : فنجازيكم وفق ما يظهر من أعمالكم .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والوعيد بالثواب والعقاب .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا ﴾ :

أى:وإذا رآك المشركون لم يكن لهم عمل إلا أن يجعلوك موضع السخرية والهزؤ ، وقد كان من حقهم أن يفكروا مليا فيما يشاهدون من أخلاقك وآدابك ، وفيما ينزل عليك من الوحى الذى فيه عظة وذكرى لقوم يعقلون ، لعل بصائرهم تستنير ، وطباعهم ترقَ ، وقلوبهم ترعوى عن غيها ، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾(٢) .

﴿ أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ : أى:ويقولون استنكاراً وتعجبا : أهذا الذى يسب آلهتكم ويسفه أحلامكم ؟ وكيف يعجبون من ذلك وهم كافرون بالله الذى خلقهم وأنعم عليهم ، وبيده نفعهم وضرهم وإليه مرجعهم ؟

قال الزجاج : فلان يذكر الناس،أى:يغتابهم ويذكرهم بالعيوب ، وفلان يذكر الله،أى:يصفه بالتعظيم ويثنى عليه .

وخلاصة ذلك : كيف يعجبون من نبذ آلهتهم بالسوء ، وهم قد كفروا بربهم الذى برأهم وصورهم فأحسن صورهم ، وإليه مرجعهم ، فيحاسبهم على النَّقير والقطمير .

قوله تعالى :

﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٦٤ . والترمذى فى الجنائز : ٧ . والامام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١ .

(٢) الآية ٩٥ من سورة الحجر .

ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون * ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ :

قوله تعالى : **﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾** : أى:إنه تعالى فطر هذا النوع على العجلة ، وجعلها من سجيته وجبلته ، فليس بعجيب من المشركين أن يستعجلوا عذاب الله ، ونزول نقمته بهم ، وقد كان من الحق عليهم أن يتلبثوا قليلاً ، فإن الله سينزل بهم من سخطه مثل ما أنزل بالمكذبين قبلهم ، ويُحل بهم من العذاب ما لا قبل لهم بدفعه .

وهذا ما أشار إليه بقوله : **﴿ سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾** : أى: إن نقمى ستصيبكم لا محالة ، فلا تتعجلوا عذابى ، واصبروا حتى يأتى وعد الله ، إن الله لا يخلف الميعاد .

وقد نُهى الإنسان عن العجلة مع أنها ركُبت فى طبيعته ، من قِبَل أنه أوتى المقدرة التى يستطيع بها تركها ، وكف النفس عنها .

ثم حكى عنهم ما يستعجلون فقال سبحانه : **﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾** :

أى:ويقولون للنبى ﷺ ولمن معه من المؤمنين الذين يتلون الآيات المنبئة بقرب الساعة ، ونزول العذاب بمن كفر بها استهزاء : متى هذا العذاب الذى تعدوننا به إن كنتم صادقين فى وعدكم ؟

وهذا منهم استبطاء للموعود به ، يراد به إنكار وقوعه وأنه لن يكون البتة .

ثم بين شديد جهلهم بما يستعجلون ، وعظيم حماقتهم لهذا الطلب ، فقال : **﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون ﴾** :

أى:لو يعلم هؤلاء الكفار المستعجلون ماذا أعدَّ لهم ربهم من البلاء حين تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، فلا يستطيعون ردها عن تلك الوجوه ، ولا يدفعونها بأنفسهم عن الظهور ، ولا يجدون ناصراً ينصرهم ، وينقذهم من ذلك العذاب ، لما أقاموا على كفرهم بربهم ، ولسارعوا إلى التوبة منه ، ولما استعجلوا لأنفسهم هذا النكال والوبال .

وإنما خص الوجوه والظهور ، لأن مس العذاب لهما أعظم موقعا .

ولما بين شدة العذاب فى ذلك اليوم بين أن وقته لا يكون معلوماً لهم فقال : **﴿ بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ﴾** :

أى:بل تأتيهم الساعة وهم لأمرها غير مستعدين ، فتدعهم حائرين لا يستطيعون حيلة فى ردها ، ولا منصرفاً عما يأتيهم منها ، ولا هم يمهلون لتوبة ، ولا لتقديم معذرة ، فقد فات ما فات ، وأحاط بهم ما كانوا به يستهزئون .

وإنما لم يُعلم الله عباده وقتها ، لما فى ذلك من فائدة ، فإن المرء يكون مع جهله بها أشد حذرا ، وأقرب إلى التلافى وانتهاز الفرصة .

ثم سلّى رسوله على استهزائهم به فقال :

﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ :

أى: ولقد استهزىء برسل من رسلنا الذين أرسلناهم قبلك إلى أممهم ، فنزل بالذين استهزءوا بهم العذاب والبلاء الذى كانت الرسل تخوفهم نزوله ، ولن يعدوا أن يكون أمر هؤلاء الكفار كأمر أسلافهم من الأمم المكذبة لرسلها ، فينزل بهم من عذاب الله وسخطه باستهزائهم ، مثل ما نزل بمن قبلهم ، فانظر لهم عاقبة وخيمة كعاقبة أولئك ، وسيكون لك النصر عليهم .

ونحو الآية : ﴿ ولقد كُذِّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[1] .

قوله تعالى :

﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون * أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون * بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون * قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون * ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين * ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ :

قوله تعالى : **﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾** : أى: سل أيها الرسول أولئك المستهزئين سؤال إنكار وتوبيخ ، من يستطيع أن يحفظكم من الرحمن إذا أراد أن يُنزل بكم بأسه وعذابه الذى تستحقونه ؟

والخلاصة : من يحفظكم بالليل إذا نمتم ، وبالنهار إذا تصرفتم فى أمور معايشكم ، من عذاب الرحمن إن نزل بكم ، ومن بأسه إذا حل بساحتكم ؟

وفى ذكر ﴿ الرحمن ﴾ إيماء وتنبيه إلى أنه لا حفظ لهم إلا برحمته ، وإلى أن بأسه أليم شديد ، وإلى أنه قد عذبهم من غلبت رحمته قسوته ، جزاء وفاقا بما دسّوا به أنفسهم من فاسد الطوايا ، وسيىء الأعمال .

ثم ذكر أنهم قد غفلوا عن الكالىء الحافظ فقال: **﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾** :

أى: أن هؤلاء القوم قد ألهتهم النعم عن المنعم ، فلا يذكرون الله حتى يخافوا بأسه ، أو يعدّوا ما كانوا فيه من الأمن والدعة ، كلاءة وحفظا لهم حتى يسألوا عن الكالىء الحافظ .

وخلاصة ذلك : أنهم على وجود الدلائل العقلية والنقلية الدالة على أنه تعالى هو الكالىء الحافظ ، معرضون عنها لا يتأملون فيها .

وفى ذكر (الرب) إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه ، وأنهم فى ملكوته وتدبيره ، وجميل رعايته

---

(١) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

وتربيته ، وهم على ذلك معرضون ، فهم فى الغاية القصوى من الضلال ، وفى النهاية من الجهل والغباء .

ثم انتقل من وصفهم بالإعراض إلى توبيخهم باعتمادهم على آلهة لا تضر ولا تنفع فقال سبحانه : **﴿ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾** :

أى:بل ألهؤلاء المستعجلى عذابنا آلهة تمنعهم منا إن نحن أنزلناه بهم ، وتدفع عنهم بأسنا إن حل بساحتهم ؟ فإن آلهتهم لا تمنعهم بأس الله إذا أراد .

ثم وصف تلك الآلهة التى اتخذوها بالضعف فقال سبحانه : **﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴾** :

أى:وكيف تستطيع آلهتهم أن تمنعهم منا وهم لا يستطيعون نصر أنفسهم ، ولا دفع ما ينزل بهم من البلاء ، ولا هم يصبحون منا بنصر ، فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم ؟

ومجمل القول : إنهم فى غاية العجز فكيف يتُوهم فيهم ما يتوهمون من القدرة والسلطان ، ويدينون لهم بالخضوع والعبادة .

ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع سوء ما أتوا به من الأعمال ، فقال : **﴿ بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ﴾** :

أى:أن الذى غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال ، أنهم مُتعوا فى الحياة الدنيا ، ونعموا بها ، وطال عليهم العمر ، حتى اعتقدوا أنهم على شىء ، فهم طالت أعمارهم وهم فى الغفلة فنسوا عهدنا ، وجهلوا مواقع نعمتنا ، فاغتروا بذلك ولم يعرفوا مواضع الشكر .

ثم بين لهم سبحانه سوء مغبتهم فقال جل فى علاه : **﴿ أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾** :

أى: أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون للعذاب آثار قدرتنا فى إتيان الأرض من جوانبها ، ففتحناها للمؤمنين ، وزدناها فى ملكهم ، واقتطعناها من أيدى المشركين ؟ فقد تم لهم فتح البلاد التى حول مكة ، وقتل رؤسائها ، وإزالة دولة الشرك وأهله منها ، ألا يفكرون فى هذا فيكون لهم فيه مزدجر ، لو كانوا يعقلون ؟ ثم وبّخهم وأنّبهم على غفلتهم عن الحق بعد وضوحه .

فقال : **﴿ أفهم الغالبون ﴾** : أى أفهم الغالبون أم نحن ؟ أى أفبعد ظهور ما ذكر ورؤيتهم إياه يتوهمون غلبتهم ؟

وبعد أن بين هول ما يستعجلون ، وحالهم السيئة حين نزوله بهم ، ثم نعى عليهم جهلهم وإعراضهم عن ذكر ربهم الذى يكلؤهم من طوارق الليل ، وحوادث النهار ، أمر رسوله أن يقول لهم : إن ما أخبركم به جاء به الوحى الصادق » .

فقال تعالى : **﴿ قل إنما أنذركم بالوحى ﴾** : أى: إنى إنما أنذركم ما تستعجلونه من الساعة وشديد أهوالها ، بالوحى الصادق الناطق بحصوله ، وفظاعة أهواله ، وقد أمرنى ربى بذلك ، وهأنذا قد

قمت بما أمرنى به ، فإن لم تجيبوا داعى الله وتقبلوا ما دعوتكم إليه فعليكم النكال والوبال ، لا علىّ .

ثم أردف هذا أن الإنذار مع مثل هؤلاء لا يجدى فتيلا ، فما حالهم إلا حال الصم الذين لا يسمعون دعوة الداعى ، فقال سبحانه : ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ :

أى: فما مثلهم إذا لم ينتفعوا بما سمعوا من الإنذار على كثرته وتتابعه إلا مثل الصم الذين لا يسمعون شيئا ، إذ ليس الغرض من الإنذار السماع فحسب ، بل العمل بما يُسمع بالإقدام على فعل الواجب والتحرز من المحرم ، ومعرفة الحق ، فإذا لم يحصل شىء من هذا فلا جدوى فى السمع ، وكأن لم يكن .

ثم بين سرعة تأثرهم من العذاب حين مجيئه ، إثر بيان عدم تأثرهم به حين مجىء خبره ، فقال تعالى : ﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن ياويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ :

أى: ولئن أصاب هؤلاء المستعجلين للعذاب أدنى قسط من عقاب ربك بكفرهم به ، وتكذيبهم رسوله ، ليقولن إنا كنا ظالمين لأنفسنا بعبادتنا الآلهة والأنداد ، وتركنا عبادة الذى برأنا وأنعم علينا ، وجحدنا لما يجب علينا من الشكر له بالإخلاص فى عبادته .

ثم بين سبحانه وتعالى الأحداث التى ستقع حين يأتى ما أنذروا به ، فقال جل فى علاه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ :

أى: ونضع الموازين العدل ليوم القيامة ، وهو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه ، فلا يظلم عباده مثقال ذرة ، فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه ، أى ذهبت حسناته بسيئاته ، ومن أحاطت سيئاته بحسناته خفت موازينه ، أى ذهبت سيئاته بحسناته .

﴿ فلا تظلم نفس شيئا ﴾ : أى: فلا تظلم أى نفس شيئا من الظلم ، فلا يُنقص ثوابها الذى تستحقه ، ولا يزاد عذابها الذى كان لها على قدر ما دسّت به نفسها من سيىء الأعمال .

﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ﴾ : أى وإن كان العمل الذى فعلته النفس صغيرا مقدار حبة الخردل جازينا عليه جزاءً وفاقا ، سيئا كان أو حسناً .

﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ : أى: وحسب من شهدوا ذلك الموقف بنا حاسبين لأعمالهم ، محصين لها ، لأنه لا أحد أعلم بأعمالهم وما سلف منهم فى الدنيا من صالح أو سيىء منا .

ولا يخفى ما فى الآية من التحذير ، وشديد الوعيد للكافرين ، على ما فرطوا فى جنب الله ، فإن المحاسب إذا كان عليما بكل شىء ، ولا يعجز عن شىء ، كان جديراً بالعاقل أن يكون فى حذر وخوف منه .

قصص الأنبيـاء

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم
بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾
۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ
ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ
رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ
أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى
يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟
ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ۚ فَسْـَٔلُوهُمْ إِن
كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ
شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟
حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا
فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۚ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾
وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ

ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي
كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُۥ مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذۡ نَادَىٰ مِن قَبۡلُ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُۥدَ
وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِۖ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾
فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ
وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾
وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾
وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ * وَأَيُّوبَ
إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن
ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ
وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ
إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ
نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾
فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ
وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا
وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾

المفـردات : ﴿ **الفرقان** ﴾ : هى التوراة وهى الضياء والموعظة ، وكانت فرقانا لأنها تفرق بين الحق والباطل ، وكانت ضياء لأنها تنير طريق الهدى للمتقين ، وكانت موعظة لما فيها من عبرة للسالكين سبل النجاة .

﴿ **يخشون ربهم** ﴾ : أى: يخشون عذابه .

﴿ **مشفقون** ﴾ : أى: خائفون .

﴿ **مبارك** ﴾ : أى: كثير الخير ، غزير النفع .

﴿ **الرشد** ﴾ : هو الاهتداء إلى وجوه الصلاح فى الدين والدنيا ، والاسترشاد بالنواميس الإلهية .

﴿ **التماثيل** ﴾ : واحدها تمثال وهو الصورة المصنوعة على شبه مخلوق من صنع الله كطير أو شجر أو إنسان ، والمراد بها هنا الأصنام ، سماها بذلك تحقيراً لشأنها .

﴿ **والعكوف على الشيء** ﴾ : ملازمته والإقبال عليه .

﴿ **بالحق** ﴾ : أى: بالشيء الثابت فى الواقع .

﴿ **اللاعبين** ﴾ : أى: الهازلين .

﴿ **فطرهن** ﴾ : أى: أنشأهن .

﴿ **من الشاهدين** ﴾ : أى: المتحققين صحته المثبتة بالبرهان .

﴿ **والكيد** ﴾ : الاحتيال فى إيجاد ما يضر مع إظهار خلافه والمراد المبالغة فى إلحاق الأذى بها .

﴿ **جذاذاً** ﴾ : أى: قطعاً من الخبز وهو القطع .

﴿ **يذكرهم** ﴾ : أى: يعيبهم ويسبُّهم .

﴿ **على أعين الناس** ﴾ : أى: على رءوس الأشهاد فى الملأ .

﴿ **يشهدون** ﴾ : أى: بفعله أو قوله .

﴿ **فرجعوا إلى أنفسهم** ﴾ : أى: ففكروا وتدبروا .

﴿ **الظالمون** ﴾ : أى: الظالمون لأنفسكم بغفلتكم عن آلهتكم ، وعدم حفظكم إياها .

ويقال نكسته : أى: قلبته فجعلت أعلاه أسفله ، والمراد أنهم بعد أن أقروا أنهم ظالمون انقلبوا من تلك الحال إلى المكابرة والجدل بالباطل .

﴿ **أفّ** ﴾ : كلمة تدل على أن قائلها متضجر متألم من أمر .

﴿ **والكيد** ﴾ : المكر والخديعة .

﴿ **لوط** ﴾ : هو ابن أخى إبراهيم ، قاله ابن عباس .

﴿ **والأرض** ﴾ : هى أرض الشام .

﴿ **نافلة** ﴾ : أى: عطية ومنحة .

﴿ **حُكماً** ﴾ : أى: نبوة .

﴿ **القرية** ﴾ : هى سدوم التى بعث إليها لوطا .

﴿ **الخبائث** ﴾ : الأعمال الخبيثة التى يستقذرها أرباب الفطر السليمة .

﴿ الكرب ﴾ : الغم الشديد والمراد به هنا العذاب النازل بقومه ، وهو الغرق بعد أن لقى منهم الأذى .

﴿ قوم سَوْء ﴾ : أى منهمكين فى شرورهم وآثامهم .

﴿ الحرث ﴾ : هنا الزرع .

﴿ والنفش ﴾ : رعى الماشية فى الليل بلا راع .

﴿ وشاهدين ﴾ : أى: حاضرين .

﴿ واللَّبوس ﴾ : الدروع .

﴿ والبأس ﴾ : الحرب .

﴿ والريح العاصف ﴾ : الشديدة الهبوب .

﴿ إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ : هى أرض الشام .

﴿ الغوص ﴾ : النزول إلى قاع البحار لإخراج شىء منها

﴿ ودون ذلك ﴾ : أى: غير ذلك كبناء المدن والقصور ، واختراع الصناعات الغريبة .

﴿ أيوب ﴾ : هو أيوب بن أموص ، اصطفاه الله ، وبسط له الدنيا ، وكثر أهله وماله ، ثم ابتلاه بموت أولاده بسقوط البيت ، وبذهاب أمواله ، وبالمرض فى بدنه ثمانى عشرة ، وسنه إذ ذاك سبعون سنة ، ثم آتاه الله من الأولاد ضعف ما كان ، وأزال عنه ما به من مرض .

﴿ والضرر ﴾ : شائع فى كل ضرر والضُر (بالضم) : خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما .

﴿ والذكرى ﴾ : التذكرة .

﴿ النون ﴾ : الحوت وجمعه نينان .

﴿ وذا النون ﴾ : أى: صاحب الحوت ، وهو يونس بن متى .

﴿ مغاضباً ﴾ : أى: غضبان من قومه لتماديهم فى العناد والطغيان .

﴿ نقدر عليه ﴾ : أى: نضيق عليه فى أمره بحبس ونحوه .

﴿ والظلمات ﴾ : هى ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

﴿ الإحصان ﴾ : المنع مطلقا .

﴿ والفرج ﴾ : فى الأصل : الشق بين الشيئين كالفرجة : ثم أطلق على السوءة وكثر ، حتى صار كالصريح فى ذلك .

﴿ والروح ﴾ : هو المعنى المعروف .

﴿ ونفخ الروح ﴾ : هو الإحياء .

﴿ آية ﴾ : أى: برهانا ودليلاً على قدرة الله .

﴿ الأمة ﴾ : القوم المجتمعون على أمر ثم شاع استعمالها فى الدين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهم : إنما أنذركم بالوحى ، أردفه ببيان أن هذه سنة الله فى أنبيائه ، فكلهم قد آتاهم الوحى ، وبلغهم من الشرائع والأحكام ما فيه هداية للبشر ، وسعادة لهم فى دنياهم وآخرتهم .

ثم قص الله تعالى بعد ذلك ما كان من الناس مع أنبيائهم ، فذكر طرفا من شأن موسى وهارون ، ثم أردف ذلك بقصة الخليل إبراهيم مع قومه ، وكيف دبروا وتآمروا ، وأرادوا أن يحرقوه ، فنجاه الله ، وقال : يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم .

كما ذكر شأن قوم لوط مع نبيهم ، وكيف أن الله تعالى قد نجاه منهم .

كما ذكر طرفا من قصة نوح ، وموقفاً من داوود وسليمان فى إحدى القضايا ، وكيف أنعم عليهما بالحكم والعلم ، وكيف سخر الريح لسليمان تجرى بأمره إلى الأرض المباركة .

ثم ذكر بعد ذلك طرفاً من قصة أيوب ، وكيف استجاب الله له فكشف ما به من ضر .

ثم أثنى على إسماعيل وإدريس وذا الكفل ، ثم ذكر طرفاً من قصة يونس وزكريا ومريم .

ثم ختم هذا المشهد بتلك النتيجة الحاسمة التى لا خلاف فيها ، وهى أن دين الأنبياء واحد ، فكلهم موحدون بالله ، عملوا فى معسكر التوحيد ، وتحت راية لا إله إلا الله ، إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون .

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكراً للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ :

كثيراً ما يقرن القرآن الكريم بين النبيين الكريمين : محمد وموسى عليهما الصلاة والسلام ، وكتابيهما : القرآن والتوراة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ .

ثم قال بعد ذلك : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ .

قال المفسرون فى معنى الفرقان : الكتاب ، وهذا رأى مجاهد .

وقال أبو صالح : والتوراة .

وقال قتادة : التوراة حلالها وحرامها ، وما فرق الله به بين الحق والباطل .

وقال ابن زيد : يعنى النصر ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾(١) .

والمقصود به يوم بدر .

(١) الآية ٤١ من سورة الأنفال .

قال العلامة ابن كثير : (وجامع القول فى ذلك أن الكتب السماوية مشتملة على التفرقة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والغى والرشاد ، والحلال والحرام ،وما يحصل نوراً فى القلوب ، وهداية وخوفاً وإنابة وخشية) .

ولهذا قال : (الفرقان) ، (وضياء) ، (وذكرا للمتقين) أى تذكيرا لهم وعظة .

ثم وصفهم ، فقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ كقوله : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾(١) ، وقوله : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ ، كقوله جل شأنه : ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾(٣) ، وإنما هم مشفقون منها لما لها من أهوال عظام ، وأخطار جسام : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٤) .

فاعجب معى لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ؟ ولمن يؤمن بالنار كيف يضحك ؟ ولمن يؤمن بالحساب غدا ، ثم هو لا يعمل ؟ ولمن يؤمن بالرزق ثم هو ينصَب ؟ ولمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف اطمأن قلبه إليها ؟ .

واعجب معى لغافل ، وليس بمغفول عنه ، ولضاحك ملء فيه لا يدرى آلله راض عنه أم ساخط عليه ؟ وللوقوف بين يدى الله لا يدرى أينطلق بصاحبه إلى الجنة أم إلى النار ؟ ولمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه .

واحزن معى لفراق الأحبة ، محمد وصحبه ، ولهول المطلع عند سكرات الموت :

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن منشيها
قصورها ذهبٌ والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾ :

إشارة تعظيم إلى الكتاب العزيز .

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٥) .

وقال جل شأنه : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾(٦) .

إنه الشرف والعز والقوة والأمن والأمان : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾(٧) .

---

(١) الآية ٣٣ من سورة ق .
(٢) الآية ١٢ من سورة الملك .
(٣) الآية ١٨ من سورة الشورى .
(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٥) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٦) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .
(٧) الآية ٩ من سورة الإسراء .

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[١] .

﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السماوات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٢] .

إنه الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) [٣] .

ما كان يليق بالعقلاء أن ينكروا ما جاء به خاتم الأنبياء ، ما كان لهم لو كانوا يملكون مسكة من عقل أن يقولوا : ﴿ إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا * وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا * قد أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض إنه كان غفورا رحيماً ﴾[٤] .

قوله تعالى : **﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين * إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون * قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين * قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين * قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين * قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾** :

وتمضى بنا الآيات البينات فى زحفها المقدس ، فبعد أن أضاءت لنا الطريق لذكر موسى وهارون ، قفت بالحديث عن إبراهيم الخليل ، الذى مدحه الله تعالى بما منحه ، فأعطاه الرشد ، وألهمه الحكمة منذ الصغر ، والحق جل جلاله يؤتى الحكمة من يشاء ، ويمنحها أهلها ، لأنه حكيم ، منزه عن العبث ، لذا قال سبحانه : ﴿ وكنا به عالمين ﴾ .

وعلم الله مقترن بالحكمة : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾[٥] .

ثم يذكر الله تعالى صورة من صور الرشد الذى آتاه إبراهيم ، فيقول : **﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ﴾** .

إنه بذلك ينكر على قومه عبادتهم للأصنام ، فالاستفهام هنا استفهام توبيخ وتقريع وإنكار ، واسم الإشارة هنا دال على التحقير : ﴿ أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون ﴾[٦] .

قال جل شأنه : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء .
(٢) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٢١ من سورة الحشر .
(٤) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة الفرقان .
(٥) الآية ١٦ من سورة الأنبياء .
(٦) الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة الصافات .

كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين * الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾[١] .

ويأتى رد هؤلاء المقلدين فى الضلال : ﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ .

كأن الله لم يخلق لهم عقولا ، ولم يرسل إليهم رسولاً ، ولم يبين لهم طريق الرشد من الغى .

إنهم قالوا : ﴿ وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾[٢] .

وقالوا : ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾[٣] .

فاعجب معى كيف أغلقوا كل طريق إلى المعرفة ، وسدوا كل نافذة إلى النور .

إنهم كما قال سبحانه : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[٤] .

لقد جاء رد إبراهيم حاسما ، وحكمه عليهم قاطعا : ﴿ قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين ﴾ .

وأى ضلال هذا ؟ وأى غواية تلك يعبدون ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئاً ؟ .

﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ :

وهكذا يرمى أهل الضلال أصحاب الهدى باللعب والاستهزاء واللهو ، وإذا بالحق يسطع ، والهدى يصيح ، فالحق واضح ، والمنادى صائح ، والحق أبلج ، والباطل لجلج .

﴿ قال بل ربكم رب السماوات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين ﴾ :

نعم ، إن لهذا الكون خالقا قادرا ، بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه تمحو أثيم الشك والإنكار

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والأرض واتساعها ، والشمس وشعاعها ، والنجوم ومسارها ، والرياح وسريانها ، والجبال ورسوخها ، والبحار وأمواجها ، وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ،

---

(١) الآيات ٦٩ - ٨٢ من سورة الشعراء .
(٢) الآية ٢٢ من سورة الزخرف .
(٣) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الزخرف .
(٤) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .

الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكره ، ولا يغفل عن شكره .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا

سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره . ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾[1] .

وينتقل الموقف من إقامة البراهين إلى العمل والتنفيذ .

قوله تعالى : **﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين * فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون * قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين * قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم * قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون * قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾** :

ثم أقسم الخليل قسما أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم ، أى ليحرض على أذاهم وتكسيرهم ، بعد أن يولوا مدبرين ، أى إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه .

قال السدى : لما اقترب وقت ذلك العيد ، قال أبوه : يا بنى لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض ، وقال : **﴿ إنى سقيم ﴾** فجعلوا يمرون عليه وهو صريع ، فيقولون : مه . فيقول : إنى سقيم ، فلما جاز عامتهم ، وبقى ضعفاؤهم ، قال : **﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾** فسمعه أولئك .

وقال ابن إسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : (لما خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم ، مروا عليه ، فقالوا : يا إبراهيم ألا تخرج معنا ؟ قال : إنى سقيم ، وقد كان بالأمس قال : **﴿ تالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾** فسمعه ناس منهم .

وقوله : **﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾** : أى حطاما ، كسرها كلها إلا كبيرا لهم ، يعنى إلا الصنم الكبير عندهم ، كما قال : **﴿** فراغ عليهم ضربا باليمين **﴾**[2] .

وقوله : **﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾** :

ذكروا أنه وضع القدوم فى يد كبيرهم ، لعلهم يعتقدون أنه هو الذى غار لنفسه ، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها .

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ :

أى حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الإهانة والإذلال الدال على عدم إلهيتها ، وعلى سخافة عقول عابديها : **﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ﴾** .

أى فى صنيعه هذا .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الروم .
(٢) الآية ٩٣ من سورة الصافات .

﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾ : أى قال من سمعه يحلف إنه ليكيدنهم : سمعنا فتى ، أى: شابا يذكرهم ، يقال له إبراهيم .

وقوله : ﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ : أى: على رؤوس الأشهاد ، على الملأ الأكبر ، بحضرة الناس كلهم .

وكان هذا الذى أرادوه هو المقصود الأعلى لخليل الرحمن ، حتى يشهد الناس ضلالهم وبهتانهم ، ويعلموا أن الحق هو ما دعا إليه الخليل ، كما قال موسى لفرعون : ﴿ موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾(١) .

ذلك ليكون للحق موقفه المشهود ، على مرأى ومسمع .

وبدأت المحاكمة : ﴿ قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم * قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ .

وقد أراد إبراهيم بهذه الإجابة أن يبادرهم بالعلم ، بأن هؤلاء لا ينطقون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا ينفعون ولا يضرون .

﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ :

جاء فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : اثنتين فى ذات الله ، وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله: ﴿ إنى سقيم ﴾ - قال : وبينما هو يسير فى أرض جبار من الجبابرة ، ومعه سارة ، إذ نزل منزلاً فأتى الجبار رجل ، فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : أختى . قال : فاذهب فأرسل بها إلىّ ، فانطلق إلى سارة . فقال : إن هذا الجبار قد سألنى عنك ، فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذبينى عنده ، فإنك أختى فى كتاب الله ، وأنه ليس فى الأرض مسلم غيرى وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ، ثم قام يصلى ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها ، فتناولها ، فأخذ أخذا شديدا . فقال : إدعى الله لى ولا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، فأهوى إليها فتناولها فأخذ بمثلها أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولين . فقال : إدعى الله فلا أضرك . فدعت له ، فأرسل ، ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأتنى بإنسان ، ولكنك أتيتنى بشيطان ، أخرجها ، وأعطها هاجر ، فأخرجت وأعطيت هاجر ، فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال : مهيم . قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر ، وأخدمنى هاجر)(٢) .

قال محمد بن سيرين : فكان أبو هريرة إذا حدث بهذا الحديث قال : تلك أمكم يا بنى ماء السماء .

قوله تعالى : ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون * ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون * قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم * أفٍّ لكم

(١) الآية ٥٩ من سورة طه .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٠٤ .

ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ .

﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ : أى:فرجعوا على أنفسهم بالملامة ، إذ علموا أن ما لا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على إلحاق الضر بمن ألحق به الأذى ، يستحيل أن يقدر على دفع مضرة عن غيره ، أوجلب منفعة له ، وإذا فكيف يستحق أن يكون معبودا ؟

ثم بين ملامتهم لأنفسهم بقوله : ﴿ فقالوا إنكم أنتم الظالمون ﴾ : أى:فقال بعضهم لبعض : إنكم أنتم الظالمون بعبادة ما لاينطق ، وما هذا منكم إلا غرورا وجهل بما ينبغى أن تكون عليه حال المعبود .

ثم أبان أنهم أركسوا بعدئذ ، ورجعوا عن فكرة سليمة لا غبار عليها بوصفهم أنفسهم بالظلم ، إلى فكرة خاطئة ، وهى الحكم بصحة عبادتها مع اعترافهم ، بأن حالهم دون حال الحيوان ، فلا ينبغى لعاقل أن يعبدها .

فقال : ﴿ ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ .

أى:لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا إنما اتخذناهم آلهة ، مع علمنا بأنهم لا ينطقون ولا يتكلمون ، فكيف تأمرنا بسؤالهم ، وإنما قال (ينطقون) ولم يقل يسمعون أو يعقلون ، مع أن السؤال موقوف على السمع والعقل أيضاً ، من قبل أن نتيجة السؤال الجواب ، وأن عدم نطقهم أبلغ فى تبكيتهم .

﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم ﴾ :

أى:قال إبراهيم مبكتا لهم : أفتعبدون غير الله معبودات لا تنفعكم شيئا ، فتعلقوا رجاءكم بها ، ولا تضركم شيئا فتخافوها .

﴿ أفٍّ لكم ولما تعبدون من دون الله ﴾ : أى:تبًّا لكم وقبحا لمعبوداتكم التى اتخذتموها من دون الله .

﴿ أفلا تعقلون ﴾ : أى:أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذى لا يروج إلا على جاهل فاجر ، وأنتم الشيوخ الذين بلوا الزمان حلوه ومره ، وحنكتهم تجارب الأيام ، فمن حقكم أن تعاودوا الرأى ، وتقلبوه ظهرا لبطن ، لعلكم ترشدون بعد الضلال ، وتهتدون بعد الغى ، والعمى .

قوله تعالى : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾ :

أصدرت محكمة الأرض حكمها على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، فأصدرت محكمة السماء حكمها لإبراهيم بالإفراج فوراً .

وهكذا قال الله للنار ﴿ كونى برداً وسلاماً ﴾ فلو قال لها : كونى برداً على إبراهيم ، لتجمد من شدة البرودة ، ولو قال : كونى سلاما على إبراهيم ، لتأذى من شدة حرارتها ولكنه تعالى جعلها برداً وسلاماً ، ليجمع له بين البرودة والسلامة من كل أذى ، فتنزع منها الحرارة والإحراق ، وأبقاها على

الإضاءة والإشراق ، فمن الذى بيده الأمر كله إلا الله .

تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، وكن شديد الثقة فيمن بيده ملكوت السموات والأرض .

قال العلامة ابن كثير : لما دحضت حجتهم وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل ، عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا : ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فجمعوا حطبا كثيراً جداً .

قال السدى : حتى إن كانت المرأة تمرض فتنذر إن عوفيت أن تحمل حطبا لحريق إبراهيم ، ثم جعلوه فى جوبة من الأرض ، وأضرموها ناراً ، فكان لها شرر عظيم ، ولهب مرتفع ، لم توقد نار قط مثلها .

وجعلوا إبراهيم عليه السلام فى كفة المنجنيق ، بإشارة رجل من أعراب من فارس الأكراد .

قال شعيب الجبائى : اسمه هيزن ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

فلما ألقوه قال : (حسبى الله ونعم الوكيل) كما رواه البخارى عن ابن عباس أنه قال : (حسبى الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد عليهما السلام حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

وروى الحافظ أبو يعلى ، حدثنا أبو هشام ، حدثنا إسحق بن سليمان عن أبى جعفر ، عن عاصم ، عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (لما ألقى إبراهيم عليه السلام فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك) .

ويروى أنه لما جعلوا يوثقونه قال : (لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك) .

وقال شعيب الجبائى : كان عمره إذ ذاك ست عشرة ، فالله أعلم .

وذكر بعض السلف أنه عرض له جبريل وهو فى الهواء ، فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا ، وأما من الله فبلى .

وقال سعيد بن جبير : ويروى عن ابن عباس أيضاً قال : لما ألقى إبراهيم فى النار جعل خازن المطر يقول : متى أؤمر بالمطر فأرسله ؟ قال : فكان أمر الله أسرع من أمره ، قال الله : ﴿ يا نار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم ﴾ قال : لم يبق نار فى الأرض إلا طفئت .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أحد يومئذ بنار ، ولم تحرق النار من إبراهيم سوى وثاقه .

وقال على بن أبى حاتم بسنده عن المنهال بن عمر ، قال : أخبرت أن إبراهيم ألقى فى النار ، قال : فكان فيها إما خمسين ، وإما أربعين . قال : ما كنت أياما ولیالى فقط أطيب عيشا إذ كنت فيها ، وددت أن عيشى وحياتى كلها مثل عيشى إذ كنت فيها .

وقوله : ﴿ **وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ : أى:المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبى الله كيدا ، فكادهم الله ونجاه من النار ، فغلبوا هنالك .

وقال عطية العوفى : لما ألقى إبراهيم فى النار جاء ملكهم لينظر إليه ، فطارت شرارة فوقعت على إبهامه فأحرقته ، مثل الصوفة .

قوله تعالى : ﴿ **ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين * ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين * وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين * ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين * وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين** ﴾ .

﴿ **ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾ :

قال قتادة : كان بأرض فى العراق ، فأنجاه الله إلى الشام .

وقوله : ﴿ **ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ :

قال عطاء ومجاهد : عطية .

وقال ابن عباس : النافلة ولد الولد ، يعنى أن يعقوب ولد إسحاق كما قال سبحانه : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾[1] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : سأل واحدا فقال : ﴿ رب هب لى من الصالحين ﴾ فأعطاه الله إسحاق ، وزاده يعقوب نافلة .

﴿ **وكلاً جعلنا صالحين** ﴾ : أى الجميع أهل خير وصلاح .

﴿ **وجعلناهم أئمة** ﴾ : أى:يقتدى بهم .

﴿ **يهدون بأمرنا** ﴾ : أى:يدعون إلى الله بإذنه ، ولهذا قال : ﴿ **وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة** ﴾ من باب عطف الخاص على العام .

﴿ **وكانوا لنا عابدين** ﴾ : أى: فاعلين لما يأمرون الناس به .

ثم عطف بذكر لوط ، وهو لوط ابن هارون بن آزر ، كان قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه ، وهاجر معه ، كما قال تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾ .

فآتاه الله حكما وعلما ، وأوحى إليه وجعله نبيا ، وبعثه إلى سدوم وأعمالها ، فخالفوه وكذبوه ، فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم فى غير موضع من كتابه العزيز .

قال تعالى فى سورة هود : ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الرّوع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب * يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود * ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب * وجاءه قومه يهرعون

(١) الآية ٧١ من سورة هود .

إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هُن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد * قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد * قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد * قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب * فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ولوطا إذا قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرنى على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين * ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين * إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون * ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم * ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾ :

هو كقوله تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قُدِر * وحملناه على ذات ألواح ودُسُر * تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كُفِر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابى ونذر ﴾[٣] .

وكقوله تعالى : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * فاتقوا الله وأطيعون * قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون * قال وما علمى بما كانوا يعملون * إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون * وما أنا بطارد المؤمنين * إن أنا إلا نذير مبين * قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين * قال رب إن قومى كذبون * فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين * فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون * ثم أغرقنا بعد الباقين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[٤] .

---

(١) الآيات ٧٤ - ٨٣ من سورة هود .
(٢) الآيات ٢٦ - ٣٥ من سورة العنكبوت .
(٣) الآيات ٩ - ١٦ من سورة القمر .
(٤) الآيات ١٠٥ - ١٢٢ من سورة الشعراء .

قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين * ففهمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين * وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون * ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين * ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نَفَشَتْ فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾ :

النفش : هو الرعى ليلاً ، أما الهمل فهو الرعى بالنهار .

والقضية ، قال ابن مسعود فى قوله : **﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ :**

قال : كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته ، قال : فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم ، فقال سليمان : غير هذا يا نبى الله . قال : وما ذاك ؟ قال : تدفع الكرم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان ، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه ، ودفعت الغنم إلى صاحبها ، فذلك قوله : ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ وقوله : ﴿ ففهّمناها سليمان وكلاً آتينا حكما وعلما ﴾ :

قال ابن أبى حاتم بسنده : أن إياس بن معاوية لما استقصى ، أتاه الحسن ، فبكى ، فقال : مايبكيك ؟ قال : يا أبا سعيد ، بلغنى أن القضاة رجل اجتهد فأخطأ فهو فى النار ، ورجل مال به الهوى فهو فى النار ، ورجل اجتهد فأصاب فهو فى الجنة . فقال الحسن البصرى : إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام والأنبياء حكما يرد قول هؤلاء الناس عن قولهم ، قال الله تعالى : **﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ﴾** فأثنى الله على سليمان ولم يذم داود ، ثم قال - يعنى الحسن - : إن الله اتخذ على الحكام ثلاثاً : لايشتروا به ثمناً قليلاً ، ولا يتبعوا فيه الهوى ، ولا يخشوا فيه أحداً ، ثم تلا : **﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾**[١] ، وقال : **﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾**[٢] ، وقال : **﴿ ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ﴾**[٣] .

قال ابن كثير : أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيدون من الله عز وجل ، وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف ، وأما من سواهم فقد ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص أنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)[٤] .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة ص .

(٢) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٣) الآية ٤٤ من سورة المائدة .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الأحكام : ٣ . والبخارى فى الاعتصام : ٣ . والنسائى فى القضاء : ٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٨٧ ، وفى

وفى السنن : (القضاة ثلاثة : قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار ، رجل علم الحق وقضى به فهو فى الجنة ، ورجل بين الناس على جهل فهو فى النار ، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو فى النار)[١] .

وقريب من هذه القصة المذكورة فى القرآن ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (بينما امرأتان معهما ابنان لهما إذ جاء الذئب فأخذ أحد الابنين ، فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ، فخرجتا فدعاهما سليمان ، فقال : هاتوا السكين أشقه ؛ فقالت الصغرى : يرحمك الله هو ابنها لا تشقه ، فقضى به للصغرى)[٢] .

﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير ﴾ :

وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور ، وكان إذا ترنم به تقف الطير فى الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويبا ، ولهذا لما مر النبى ﷺ على أبى موسى الأشعرى وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جداً ، فوقف واستمع لقراءته ، وقال : (لقد أوتى هذا مزمارا من مزامير آل داود) . قال : يا رسول الله لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً)[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وكنا فاعلين ﴾ : أى: وكنا فاعلين لأمثاله ، فليس ذلك ببدع منا ، وإن كنتم أنتم تعجبون منه ، فإن المستغرقين فى التسبيح والتقديس يحصل لهم من الأنس بالله ما يجعل العالم كله فى نظرهم مسبحا ، وكأن العوالم كلها تنطق لهم به بلسان أفصح من لسان المقال ، ولا يدرك هذا أحد إلا بوجدانه .

ونحو الآية : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ : يعنى صنعة الدروع .

قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقا ، كما قال تعالى : ﴿ وألنّا له الحديد * أن اعمل سابغات وقدّر فى السرد ﴾[٥] أى: لا توسع الحلقة فتفلق المسمارة ، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعنى فى القتال .

﴿ فهل أنتم شاكرون ﴾ : أى: أنعم الله عليكم ، لما ألهم به عبده داود ، فعلمه ذلك من أجلكم .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأقضية : ٢ . وابن ماجه فى الأحكام : ٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٠ . ومسلم فى الأقضية : ٢٠ . والنسائى فى القضاة : ١٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى فضائل القرآن : ٣١ . ومسلم فى المسافرين : ٢٣٥ ، ٢٣٦ . والترمذى فى المناقب : ٥٥ . والنسائى فى الافتتاح : ٨٣ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧٦ . والدارمى فى الصلاة : ١٧١ ، وفى فضائل القرآن : ٣٤ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦٩ .

(٤) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

(٥) الآية ١٠ ، ١١ من سورة سبأ .

وقوله : ﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ : أى:وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ، ﴿ تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها ﴾ يعنى أرض الشام .

﴿ وكنا بكل شىء عالمين ﴾ : ذلك أنه كان له بساط من خشب يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ثم تحمله وترفعه وتسير به ، وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض ، فينزل وتوضع آلاته وحشمه ، كما قال سبحانه : ﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾(٢) .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن سعيد بن جبير قال : (كان يوضع لسليمان ستمائة ألف كرسى ، فيجلس مما يليه مؤمنو الإنس ، ثم يجلس من ورائهم مؤمنو الجن ، ثم يأمر الطير فتظلهم ، ثم يأمر الريح فتحملهم ﷺ ، كل هذا وهو مطأطىء رأسه ، ما يلتفت يميناً ولا شمالاً ، تعظيماً لله عز وجل وشكراً ، لما يعلم من صغر ما هو فيه فى ملك الله عز وجل ، حتى تضعه الريح حيث شاء أن تضعه) .

﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ : أى:فى الماء يستخرجون اللآلىء والجواهر ، وغير ذلك .

﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ : أى:غير ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ : أى:يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل فى قبضته وتحت قهره ، لا يتجاسر أحد منهم على الدنو إليه والقرب منه ، بل هو يحكم فيهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ وآخرين مقرنين فى الأصفاد ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾ .

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء فى ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شىء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية ، فابتلى فى ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ثم ابتلى فى جسده ، فى سائر بدنه ، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه يذكر بهما الله عز وجل ، حتى عافه الجليس ، وأفرد فى ناحية من البلد ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته ، كانت تقوم بأمره ، وقد قال ﷺ : (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل)(٤) .

وفى الحديث الآخر : (يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه)(٥) .

(١) الآية ٣٦ من سورة ص . (٢) الآية ١٢ من سورة سبأ .
(٣) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة ص .
(٤) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ . والبخارى فى المرضى : ٣ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والدارمى فى الرقاق : ٦٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٩٨٥ ، وفى ٦ : ٣٦٩ .
(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والدارمى فى الرقاق ٦٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨٥ .

وقد كان نبى الله أيوب عليه السلام غاية فى الصبر ، وبه يضرب المثل فى ذلك .

وقال يزيد بن ميسرة : لما ابتلى الله أيوب عليه السلام بذهاب الأهل والمال والولد ، ولم يبق شيء له أحسن الذكر ، ثم قال : أحمدك رب الأرباب الذى أحسنت إلىّ ، أعطيتنى المال والولد ، فلم يبق من قلبى شعبة إلا قد دخله ذلك ، فأخذت ذلك كله منى ، وفرغت قلبى ، فليس يحول بينى وبينك شيء ، لويعلم عدوى إبليس بالذى صنعت حسدنى . قال : فلقى إبليس من ذلك منكرا .

قال : وقال أيوب عليه السلام : يارب إنك أعطيتنى المال والولد فلم يقم على بابى أحد يشكونى لظلم ظلمته ، وأنت تعلم ذلك وإنه كان يوطأ لى الفراش فأتركها ، وأقول لنفسى : يا نفس إنك لم تخلقى لوطء الفراش ، ما تركت ذلك إلا ابتغاء وجهك .

وقد روى أنه مكث فى البلاء مدة طويلة .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن الزهرى ، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (إن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه ، كانا من أخص إخوانه له ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ، ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين . فقال له صاحبه : وما ذاك ؟ قال : منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له . فقال أيوب عليه السلام : ما أدرى ما تقول ، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى ، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا فى حق .

قال : وكان يخرج فى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه ، فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه أن ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾[1] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (لما عافى الله أيوب أمطر عليه جراداً من ذهب ، فجعل يأخذ منه بيده ويجعله فى ثوبه ، قال : فقيل له : يا أيوب أما تشبع ؟ قال : يا رب ومن يشبع من رحمتك) .

وقوله تعالى : ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ :

قال ابن عباس : ردوا عليه بأعيانهم .

وقال بعض المفسرين : أى:وأعطيناه فى الدنيا مثل أهله عددا ، مع زيادة مثل آخر ، فولد له من الأولاد ضعف ما كان .

قوله : ﴿ رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾

أى:فعلنا به ذلك رحمة من الله به ، وذكرى للعابدين ، أى:وجعلناه فى ذلك قدوة ، لئلا يظن أهل البلاد إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به فى الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة فى ذلك .

(١) الآية ٤٢ من سورة ص .

قوله تعالى : ﴿ وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين * وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين ﴾ :

فانظر إلى هذا الفضل العميم الذى أسبغه الله على هذه الكوكبة النورانية من الأنبياء ، وكيف أثنى عليهم بأنهم من الصابرين .

ثم جاء الفضل متمثلا فى الصلاح والتقوى ، حيث يقول تعالى : ﴿ إنهم من الصالحين ﴾ .

فما أجمل الصبر ، وما أعظم الصلاح ، وما أحل الجزاء إذا كان إدخالاً فى رحمة الله .

كان أحد الصالحين يقول : عجبت لمن أبتلى بأربع كيف ينسى أربعاً : عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ وقد قال الله جل شأنه : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾[1] .

وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ﴾ .

وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ ، وقد قال تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ .

وعجبت لمن ابتلى بالمكر كيف ينسى قوله تعالى : ﴿ وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ﴾[2] ، وقد قال تعالى : ﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾[3] .

وبشر الصابرين .

ما أعظم جزاء الصابرين ، وما أجل قدره ، إنهم الذين قال الله فيهم : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[4] ، وقال فيهم : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين * ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون * ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[5] .

وعن أبى مالك الحارث بن عاصم الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماوات

(١) الآيتان ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٤٤ من سورة غافر .
(٣) الآية ٤٥ من سورة غافر .
(٤) الآية ١٠ من سورة الزمر .
(٥) الآيات ١٥٣ ـ ١٥٧ من سورة البقرة .

والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو ، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ﴾[١] رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : أن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده ، فقال لهم حين أنفق كل شىء بيده : (ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحدٌ عطاء خيراً وأوسع من الصبر)[٢] . متفق عليه .

وعن أبى يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[٣] . رواه مسلم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : (لما ثَقُلَ النبى ﷺ جعل يتغشاه الكرب ، فقالت فاطمة رضى الله عنها : واكرب أبتاه . فقال : (ليس على أبيك كرب بعد اليوم) . فلما مات قالت : يا أبتاه أجاب رباً دعاه ، يا أبتاه جنة الفردوس مأواه ، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه ، فلما دفن قالت فاطمة رضى الله عنها : أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب)[٤] . رواه البخارى .

وعن أسامة بن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وحِبِهِ ، وابن حبه ، رضى الله عنهما ، قال : أرسلت بنت النبى ﷺ إن ابنى قد احتضر فاشهدنا ، فأرسل يقرىء السلام ويقول : (إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها ، فقام ومعه سعد بن عُباده ، ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورجال ، رضى الله عنهم ، فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبى فأقعده فى حجره ، ونفسه تقعقع ، ففاضت عيناه ، فقال سعد : يا رسول الله ما هذا ؟ فقال : (هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده) وفى رواية : (فى قلوب من شاء من عباده وإنما يرحم الله من عباده الرحماء)[٥] . متفق عليه .

وعن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كان ملك فيمن قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلىّ غلاما أعلمه السحر ؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه ، وكان فى طريقه إذا سلك راهب ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ،

(١) أخرجه مسلم فى الطهارة : ١ . والترمذى فى الدعوات : ٨٦ . والدارمى فى الوضوء : ٢ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٦٠ ، وفى ٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٦٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٠ ، وفى الزكاة : ١٨ ، ٥٠ ، ومسلم فى الزكاة : ١٢٤ . وأبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٧٦ . والنسائى فى الزكاة : ٨٥ ، ٨٩ . والدارمى فى الزكاة : ١٨ . والإمام مالك فى الصدقة : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣ ، ٩ ، ١٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٩٣ ، ٤٠٣ ، ٤٣٤ ، وفى ٤ : ١٣٨ .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى المغازى : ٨٣ . وابن ماجه فى الجنائز : ٦٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٤١ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٢ ، وفى الإيمان : ٩ ، وفى المرضى : ٩ ، وفى التوحيد : ٢٥ . ومسلم فى الجنائز : ٩ ، ١١ . وأبو داود فى الجنائز : ٢٤ ، وفى الأدب ؛ ٥٨ ، والنسائى فى الجنائز : ٢٢ . وابن ماجه فى الجنائز : ٥٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو على ذلك ، إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأتى الراهب فأخبره ، فقال له الراهب : أى بُنَىَّ أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على ، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء .

فسمع جليس للملك كان قد عَمِىَ ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى . فقال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله تعالى ، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك ، فآمن بالله تعالى ، فشفاه الله تعالى ، فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس ، فقال له الملك : من رد عليك بصرك ؟ قال : ربى . قال : ولك رب غيرى ؟! قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فجىء بالغلام . فقال له الملك : أى بنى ، قد بلغ من سحرك ما تبرىء الأكمه والأبرص ، وتفعل وتفعل . فقال : إنى لا أشفى أحداً إنما يشفى الله تعالى ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الراهب .

فجىء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شِقَّاه .

ثم جىء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به ، حتى وقع شقاه .

ثم جىء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه ، فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه ، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت ، فرجف بهم الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك : ما فعل بأصحابك فقال : كفانيهم الله تعالى .

فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به ، فاحملوه فى قُرقُور وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه ، فذهبوا به فقال : اللهم أكفنيهم بما شئت ، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك ، فقال له الملك : ما فعل بأصحابك ؟ فقال كفانيهم الله تعالى .

فقال للملك : إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به . قال : وما هو؟ قال : تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلُبُنى على جذع ، ثم خذ سهما من كنانتى ، ثم ضع السهم فى كبد القوس ، ثم قل : بسم الله رب الغلام ، ثم ارمنى ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى .

فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع ، ثم أخذ سهما من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه ، فوقع السهم فى صُدغه ، فوضع يده فى

صدغه فمات . فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فأتى الملك ، فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك ، قد آمن الناس .

فأمر بالأخدود بأفواه السكك ، فَخُدَّت وأضرم فيها النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها ، أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبرى فإنك على الحق)(١) . رواه مسلم .

(**ذروة الجبل**) : أعلاه ، و (**القُرقُور**) بضم القافين : نوع من السفن ، **والصعيد** هنا : الأرض البارزة ، (**الأخدود**) : الشقوق فى الأرض ، (**أضرم**) : أوقد ، (**انكفأت**) : انقلبت ، (**تقاعست**) : توقفت وجَبُنت .

وعن أنس رضى الله عنه قال : مر النبى ﷺ بامرأة تبكى عند قبر ، فقال : « اتقى الله واصبرى » . فقالت : إليك عنى ، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتى ! ولم تَعرِفْه ، فقيل لها : إنه النبى ﷺ فأتت النبى ﷺ فلم تجدْ عنده بوَّابين ، فقالت : لم أعرفك . فقال : (إنما الصبرُ عند المصيبة الأولى)(٢) . متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله تعالى : [ما لعبدى المؤمن عندى جزاءٌ إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة](٣) . رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها سألت رسول الله ﷺ عن الطاعون فأخبرها أنه « كان عذابا يبعثه الله تعالى على من يشاء ، فجعله الله تعالى رحمة للمؤمنين ، فليس من عبد يقع فى الطاعون فيمكث فى بلده صابراً محتسباً ، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثلُ أجر الشهيد »(٤) . رواه البخارى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة)(٥) . يريد عينيه . رواه البخارى .

وعن عطاء بن أبى رباح قال : قال لى ابن عباس رضى الله عنهما : (ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟ فقلت : بلى . قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت : إنى أصرع ، وإنى أتكشَّف فادع الله تعالى لى . قال : (إن شئت صبرت ولك الجنة ، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يُعافيك) فقالت : أصبر ، فقالت : إنى أتكشف ، فادع الله أن لا أتكشَّف فدعا لها)(٦) . متفق عليه .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال كأنى أَنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى أن نبيا من

(١) أخرجه مسلم فى الزهد : ٧٣ .
(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٢ ، ٤٣ ، وفى الأحكام : ١١ . ومسلم فى الجنائز : ١٤ ، ١٥ . وأبو داود فى الجنائز : ٢٣ . والترمذى فى الجنائز : ١٣ . والنسائى فى الجنائز : ٢٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٣٠ ، ١٤٣ ، ٢١٧ .
(٣) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٢٣ . والبخارى فى الرقاق : ٦. والإمام أحمد فى ٢ : ٤١٧ .
(٤) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٥٤ ، وفى الطب : ٣١ . والإمام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ١٥٤ ، ٢٥٢ .
(٥) أخرجه البخارى فى المرضى : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٤٤ .
(٦) أخرجه البخارى فى المرضى : ٦ . ومسلم فى البر : ٥٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٤٧ .

الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم ، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ، يقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون »[١] . متفق عليه .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه »[٢] متفق عليه . (والوصب : المرض) .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك فقلت : يا رسول الله إنك توعك وعكاً شديداً قال : « أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم » . قلت : ذلك أن لك أجرين ؟ قال : « أجل ذلك كذلك ، ما من مسلم يصيبه أذى ، شوكة فما فوقها إلا كفرّ الله بها سيئاته ، وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها »[٣] . متفق عليه . و « الوعك » مغثُ الحمى وقيل الحُمَّى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يُصبْ منه »[٤] . رواه البخارى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يتمنَّين أحدكم الموت لضر أصابه ، فإن كان لابد فاعلاً فليقل : اللهم أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى »[٥] . متفق عليه .

وعن خبَّاب بن الأرت رضى الله عنه : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعلُ نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[٦] . رواه البخارى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً فى القسمة ، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل ، وأعطى عيينةَ بن حفص مثل ذلك ، وأعطى ناساً من أشراف العرب وآثرهم يومئذ فى القسمة . فقال رجل : والله إن هذه قسمة ما عدل فيها ، وما أريد فيها وجه

(١) أخرجه البخارى فى الأنبياء ٥٤ ، وفى المرتدين : ٥ . ومسلم فى الجهاد : ١٠٤ . وابن ماجة فى الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٤٢٧ ، ٤٣٢ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى المرضى : ٣ ، ١٣ ، ١٦ . ومسلم فى البر : ٤٥ ، والدارمى فى الرقاق : ٥٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨١ ، ٤٤١ ، ٤٥٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى المرضى : ٣ ، ١٦ . ومسلم فى البر : ٤٥ . وابن ماجه فى الأدب : ٥٦ . والدارمى فى الرقاق : ٥٧ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨١ ، ٤٤١ ، ٤٥٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى المرضى : ١ . والإمام مالك فى العين : ٧ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٧ .

(٥) أخرجه البخارى فى المرضى : ١٩ ، وفى الدعوات : ٢٩ . ومسلم فى الذكر : ١٠ . وأبو داود فى الجنائز : ٩ . والترمذى فى الجنائز : ٣ ، وفى الزهد : ٣١ ، ٣٧ . والنسائى فى السهو : ٦٢ ، وفى الجنائز : ١ . وابن ماجه فى الزهد : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٧١ ، ١٩٥ ، ٢٠٨ ، ٢٤٧ ، ٢٨١ ، وفى ٤ : ٢٦٤ .

(٦) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٢٩ ، وفى المناقب : ٢٥ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٥٧ ، وفى ٦ : ٣٩٥ .

الله ، فقلت : والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته ، فأخبرته بما قال : فتغير وجهه حتى كان كالصِّرف . ثم قال : (فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟) ثم قال : (يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر) فقلت :(لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثا)(١) متفق عليه . و« الصِّرف » : صبغ أحمر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده خيراً عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد الله بعبده الشرَّ أمسكَ عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة »(٢) .

وقال النبى ﷺ : « إن عِظمَ الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضى ، ومن سَخطَ فله السُّخط »(٣) . رواه الترمذى .

وعن أنس رضى الله عنه قال : « كان ابنٌ لأبى طلحة رضى الله عنه يشتكى ، فخرج أبو طلحة ، فقُبض الصبى ، فلما رجع أبو طلحة قال : ما فعل ابنى ؟ قالت أم سُلَيْم وهى أم الصبى : هو أسكن ما كان ، فقرَّبَت إليه العشاء فتعشَّى ، ثم أصاب منها ، فلما فرغ قالت : واروا الصبى ، فلما أصبح أبو طلحة ، أتى رسول الله ﷺ فقال : « أعرَّستم الليلة ؟ » قال : نعم ، قال : « اللهم بارك لهما » . فولدت غلاماً ، فقال لأبى طلحة : احمله حتى تأتى به النبى ﷺ وبعث معه بتمرات ، فقال : « أمعه شىء ؟ » قال : نعم ، تمرات ، فأخذها النبى ﷺ فمضغها ، ثم أخذها من فيه فجعلها فِى فِى الصبى ، ثم حكه وسماه عبد الله)(٤) . متفق عليه .

وفى رواية للبخارى : قال ابن عيينه : فقال رجل من الأنصار : فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرؤوا القرآن ، يعنى من أولاد عبد الله المولود .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »(٥) . متفق عليه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله ، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة »(٦) . رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : « إنها ستكون بعدى أثرة وأمور تنكرونها ! قالوا : يا رسول الله فما تأمرنا ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم ، وتسألون الله الذى لكم »(٧) متفق عليه . و« الأثرة » : الانفراد بالشىء عمَّن له فيه حقٌ .

(١) أخرجه البخارى فى الخمس : ٨٩ وفى الأنبياء : ٢٧ ، وفى المغازى : ٥٦ ، وفى الأدب : ٥٣ ، ٧١ ، وفى الاستئذان : ٤٧ . ومسلم فى الزكاة : ١٤٠ ، ١٤١ . والترمذى فى المناقب : ٦٣ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٣٩٦ ، ٤١١ ، ٤٣٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ . وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ٤٢٧ - ٤٢٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٤٥ ، وفى العقيقة : ١ ، وفى الأدب : ١٠٩ . ومسلم فى الأدب : ٢٣ - ٢٨ . والترمذى فى المناقب : ٤٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٩ ، وفى ٦ : ٩٣ ، ٣٤٧ .

(٥) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٠٢ . ومسلم فى البر : ١٠٦ - ١٠٨ . والإمام مالك فى حسن الخلق : ١٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٢ ، وفى ٢ : ٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٥١٧ .

(٦) أخرجه مسلم فى المنافقين : ٥٨ . والترمذى فى الزهد : ٥٧ ، وفى الأدب : ٧٩ . وابن ماجة فى الفتن : ٣٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٣٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٤٥٠ ، ٥٢٣ .

(٧) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٨ . ومسلم فى الإمارة : ٤٥ ، ٤٨ .

وعن أسيد بن الحضير رضى الله عنه أن رجلاً من الأنصار قال : يا رسول الله ألا تستعملنى كما استعملت فلاناً . فقال : « إنكم ستلقون بعدى أثرة ، فاصبروا حتى تلقونى على الحوض »[1]. متفق عليه .

وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو ، انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قال النبى ﷺ : « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم »[2]. متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ :

قال العلامة ابن كثير : هذه القصة مذكورة ههنا ، وفى سورة الصافات ، وفى سورة نٓ .

وذلك أن يونس بن متى عليه السلام ، بعثه الله إلى أهل قرية نينوى ، وهى قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله تعالى فأبوا عليه وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا من ذلك ، وعلموا أن النبى لا يكذب ، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ورغت الإبل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب قال تعالى : ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾[3].

وأما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم فى سفينة فلججت بهم ، وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه ، فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، فأبوا ، ثم أعادوها فوقعت عليه أيضاً ، قال الله تعالى : ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾[4] أى وقعت عليه القرعة ، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم ألقى نفسه فى البحر ، وقد أرسل الله سبحانه من البحر الأخضر - فيما قاله ابن مسعود - حوتا يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين ألقى نفسه من السفينة ، فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً ، فإن يونس ليس لك رزقاً ، وإنما بطنك تكون له سجناً .

وقوله تعالى : ﴿ وذا النون ﴾ : يعنى الحوت ، صحت الإضافة إليه بهذه النسبة .

(١) أخرجه البخارى فى الفتن : ١ ، ٢ ، وفى الجنائز : ٧٢ ، وفى الخمس : ١٩ ، وفى المناقب : ٢٥ ، وفى مناقب الأنصار : ٨ ، وفى المغازى : ٥٦ ، وفى الرقاق ٧٠ ، ٥٣ ، وفى التعبير : ٣٠ ، وفى التوحيد : ٢٤ . ومسلم فى الزكاة : ١٣٢ ، وفى الإمارة : ٤٥ ، وفى الفضائل : ٢٧ ، ٢٨ . والترمذى فى القيامة : ٩ ، وفى الفتن : ٢٥ ، والنسائى فى القضاة : ٤ . والدارمى فى المقدمة : ١٤ . وللإمام أحمد فى ٣ : ٥٧ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ٢٢٤ ، ٣٤٥ ، وفى ٤ : ٤٢ ، ٢٩٢ ، وفى ٥ : ١٨٢ ، ١٩٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١١٢ ، ١٥٦ . ومسلم فى الجهاد : ٢٠ ، وأبو داود فى الجهاد : ٨٩ ، . والإمام فى ٤ : ٣٥٤ .

(٣) الآية ٩٨ من سورة يونس .

(٤) الآية ١٤١ من سورة الصافات .

وقوله : ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ : قال الضحاك : لقومه ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ : أى:نضيق عليه فى بطن الحوت .

﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ .

قال ابن مسعود : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر ، وظلمة الليل .

قال محمد بن إسحق بسنده:عن أم سلمة أنها سمعت أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحماً ، ولا تكسر له عظماً ، فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حساًّ ، فقال فى نفسه : ما هذا ؟ . فأوحى الله إليه وهى فى بطن الحوت : إن هذا تسبيح دواب البحر . قال : وسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا : ياربنا إنا نسمع صوتا ضعيفا بأرض غريبة . قال : ذلك عبدى يونس عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر ، قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه كل يوم وليلة عمل صالح . قال : نعم . قال : فشفعوا له عند ذلك ، فأمر الحوت فقذفه فى الساحل » ، كما قال تعالى : ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم ﴾[1] رواه ابن جرير ، ورواه البزار فى سنده عن طريق محمد بن إسحق عن عبد الله بن رافع عن أبى هريرة .

وروى ابن أبى حاتم بسنده أن يزيد الرقاشى قال : سمعت أنس بن مالك ـ ولا أعلم إلا أن أنساً يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ ـ « أن يونس النبى عليه السلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت ، قال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش ، فقالت الملائكة : يا رب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة . فقال : أما تعرفون ذاك ؟ قالوا : لا يارب ومن هو ؟ قال : عبدى يونس . قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مجابة . قالوا : يارب أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه من البلاء . قال : بلى ، فأمر الحوت فطرحه فى العراء » .

وقوله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ : أى:أخرجناه من بطن الحوت ، وتلك الظلمات .

﴿ وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ أى:إذا كانوا فى الشدائد ، ودعونا منيبين إلينا ، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء فى حال البلاء . فقد جاء الترغيب فى الدعاء به عن سيد المرسلين ﷺ .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : (مررت بعثمان بن عفان رضى الله عنه فسلمت عليه ، فملأ عينيه منى ثم لم يرد علىَّ السلام ، فأتيت عمر بن الخطاب . فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث فى الإسلام شىء مرتين . قال : لا ، وما ذاك ؟ قلت : لا إلا أنى مررت بعثمان آنفا فى المسجد ، فسلمت عليه فملأ عينيه منى ، ثم لم يرد علىَّ السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فدعاه ، فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام ؟ قال : ما فعلت . قال

(١) الآية ١٤٥ من سورة الصافات .

سعد : قلت : بلى حتى حلفت وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر ، فقال : بلى وأستغفر الله ، وأتوب إليه إنك مررت بى آنفا ، وأنا أحدث نفسى بكلمة . سمعتها من رسول الله ﷺ ، لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة . قال سعد : فأنا أنبئك بها ، أن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة ، ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعته ، فلما أشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض ، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فقال : « من هذا ، أبو إسحاق ؟ » قال : قلت : نعم يا رسولالله . قال : (فمه) قلت : لا والله ، إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ، ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك . قال : (نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له)[1] . رواه الترمذى والنسائى .

وأخرج ابن جرير بسنده عن سعيد بن المسيب قال سمعت سعد بن أبى وقاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اسم الله الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى ، دعوة يونس بن متى » قال : قلت : يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : (هى ليونس بن متى خاصة ، ولجماعة المسلمين عامة ، إذا دعوا بها ، ألم تسمع قول الله عز وجل : ﴿ فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به » .

قوله تعالى : ﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ :

قال العلامة ابن كثير :

يخبر تعالى عن عبده زكريا ، حين طلب أن يهبه الله ولدا يكون من بعده نبيا ، وقد تقدمت القصة مبسوطة فى أول سورة مريم ، وفى سورة آل عمران أيضاً ، وههنا أخصر منها .

﴿ إذ نادى ربه ﴾ : أى خفية عن قومه ، ﴿ رب لا تذرنى فرداً ﴾ أى:لا ولد لى ، ولا وارث يقوم بعدى فى الناس ، ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ : دعاء وثناء مناسب للمسألة .

قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ :

أى امرأته ، قال ابن عباس : كانت عاقرا لا تلد ، فولدت .

وقوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ :

أى كانوا يسارعون فى عمل القربات ، وفعل الطاعات .

﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ : قال الثورى : رغباً فيما عندنا ، ورهباً مما عندنا .

﴿ وكانوا لنا خاشعين ﴾ : قال ابن عباس : مصدقين بما أنزل الله .

وقال مجاهد : مؤمنين حقاً .

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٨١ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٠ .

وقال أبو العالية : خائفين .

وقال أبو سنان : الخشوع هو الخوف الملازم للقلب لا يفارقه أبداً .

وقال الحسن وقتادة : خاشعين ، أى متذللين لله عز وجل وكل هذه الأقوال متقاربة .

وأخرج ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله القرشى عن عبد الله بن حكيم قال : خطبنا أبو بكر رضى الله عنه ثم قال : (أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله عز وجل ، وتثنوا عليه بما هو له أهل ، وتخلطوا الرغبة بالرهبة ، وتجمعوا الإلحاف بالمسئلة ، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ :

هكذا يذكر تعالى قصة مريم ، وابنها عيسى عليهما السلام ، مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر أولاً قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها إيجاد ولد من شيخ كبير ، قد طعن فى السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد فى حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم وهى أعجب ، فإنها إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر ، هكذا وقع فى سورة آل عمران ، وسورة مريم ، وههنا ذكر قصة زكريا . ثم أتبعها بقصة مريم بقوله :

﴿ والتى أحصنت فرجها ﴾ : يعنى مريم عليها السلام ، كما قال تعالى فى سورة التحريم : ﴿ ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾[(١)] .

وقوله : ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ : أى دلالة على أن الله على كل شىء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾[(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ : أى : إن الدين عند الله هو الانقياد له وحده ، لا يقبل غيره ، وعليه اتفق جميع الأنبياء والشرائع .

قال ابن عباس فى قوله : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ : يقول دينكم دين واحد .

وقال الحسن البصرى : فى هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون ، ثم قال : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ : أى : سنتكم سنة واحدة ، فقوله : إن هذه ، إن واسمها ، وأمتكم خبر إن ، أى هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم .

﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ : كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ۞ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾[(٣)]

وقال رسول الله ﷺ : (نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد)[(٤)] .

(١) الآية ١٢ من سورة التحريم . (٢) الآية ٢٥٩ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة المؤمنون .

(٤) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٨ . ومسلم فى الفضائل : ١٤٣ ، ١٤٤ . وأبو داود فى السنة : ١٣ .

يعنى أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ، كما قال تعالى : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾(١) .

الجـزاء العـادل

قال تعالى :

وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا
كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾
حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا
هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ
وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا
وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ
أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾
لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ
نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ
﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾
إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ
أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾
وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ
ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

(١) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

المفـردات ﴿ **تقطعوا أمرهم بينهم** ﴾ : أى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا .

﴿ **حـرام** ﴾ : أى: ممتنع .

﴿ **وقرية** ﴾ : أى: أهلها .

﴿ **أهلكناها** ﴾ : أى: قدرنا هلاكها .

﴿ **يأجوج ومأجوج** ﴾ : تقدم الكلام فيهما وفى بيان أصلها .

﴿ **وحدب** ﴾ : أى: مرتفع من الأرض .

﴿ **ينسلون** ﴾ : أى: يسرعون .

﴿ **واقترب** ﴾ : أى: قرب .

﴿ **الوعد الحق** ﴾ : هو يوم القيامة .

﴿ **شاخصة** ﴾ : أى: مرتفعة أجفانها لا تكاد تطرف من شدة الهول .

﴿ **الويل** ﴾ : الهلاك .

﴿ **الحصب** ﴾ : ما يُرمى بِه فى النار لاشتعالها .

والزفير : صوت نفس المغموم يخرج من أقصى الجوف .

والحسنى : أى: الكلمة الحسنى التى تتضمن البشارة بثوابهم حين الجزاء على أعمالهم .

والحسيس : الصوت الذى يحس من حركتها .

والسجل : هو الصحيفة .

الزبور : الكتب التى أنزلت على الأنبياء .

والذكر : اللوح المحفوظ .

البلاغ : الكفاية .

والعابد : من عمل بما يعلم من أحكام الشريعة وآدابها .

مسلمون : أى: منقادون خاضعون .

تولوا : أى: أعرضوا .

آذنتكم : أى: أعلمتكم وكثر استعماله فى الإنذار كما فى قوله : ﴿ فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾[1] .

ما توعدون : من غلبة المسلمين عليكم .

فتنة : أى: اختبار .

واحكم : أى: اقض .

وبالحق : أى: العدل ، والمراد بذلك تعجيل العذاب لهم .

ما تصفون : أى: ما تقولون وتفترون من الكذب كقولكم : ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾[2] ، وقولكم : إن للرحمن ولدا ، سبحان الله عما يصفون .

---

(١) الآية ٢٧٩ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٥ من سورة الأنبياء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص جمع من الأنبياء : كنوح وإبراهيم وإدريس وموسى وعيسى ، وبيّن مما أوتوا من الشرائع والأحكام على وجه الإجمال ، وأن الدين عند الله واحد ، فعليكم أيها المسلمون أن تحافظوا على وحدة دينكم ، وألا تجعلوه عضين ، وكأنه يقول لهم : عليكم ألا تركنوا إلى خوارق العادات كما رأيتم فى قصص موسى ، ولا تدعوا نظم الدولة بل سوسوها كما كان يفعل داود وسليمان ، ولا تذروا الصبر فى جميع الأعمال كما رأيتم فى قصص أيوب ومن بعده .

وبعد أن ذكر ذلك سبحانه ، نعى على المسلمين ما سيحدث منهم فى مستأنف الزمان حين يتفرقون شيعا ، يذيقون بعضهم بأس بعض ، ويجعلون الدين قطعاً فيما بينهم ، كما تتوزع الجماعة الشىء يقتسمونه ، فيصير لهذا نصيب ، ولذاك آخر .

وهذا إخبار بالغيب لما سيحصل فى هذه الأمة الإسلامية ، وقد حدث فعلا وافترقت الأمة سياسياً واجتماعيا بوساطة بعض رؤساء الدين ، فأعرض الله عن هؤلاء المختلفين وقطعهم بين الأمم ، كما قطعوا أمرهم بينهم واقتسموه .

ثم بين سبحانه أنه يثيب عباده على صالح الأعمال إذا كانت القلوب عامرة بالإيمان به وبكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإن كل عمل جلّ أو قلّ فهو مكتوب محفوظ لديه ، لا يغيب عنه مثقال ذرة ، وأن جميع الخلق إليه راجعون ، فيثيب كل إنسان بما عمل من خير أو شر ، وأن الساعة قد اقترب ميقاتها ، ثم أخبر أن المشركين يدعون إذ ذاك على أنفسهم بالويل والثبور ، ويقولون يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، وكنا ظالمين لأنفسنا ، ولا ينفع الندم إذ ذاك .

ثم بين سبحانه ما يئول إليه أمرهم بعد الحساب ، وأنهم يكونون هم ومعبوداتهم من الأصنام والأوثان حطبا للنار حين يردونها ، وأنهم من شدة العذاب فيها يكون لهم أنين وزفير ، حتى لا يسمع بعضهم أصوات بعض ، لفظاعة ما هم فيه من العذاب .

أما من كتبت له السعادة والنجاة من النار ، فأولئك يكونون مبعدين عنها ، لا يسمعون صوت لهيبها ، ولا يخافون من أهوالها وآلامها ، بل يكونون فى نعيم دائم ، وتستقبلهم الملائكة مهنئين لهم قائلين : هذا يومكم الذى كنتم توعدون فى الدنيا .

ثم أعقب ذلك بذكر حال السماء حينئذ ، وأنها تطوى طيا ، وكأنها لم تكن ، كما يطوى الكاتب الطومار الذى يكتب فيه ، ويحوّل ذلك العالم المشاهد إلى عالم آخر ، فيخلق الله أرضا جديدة ، وكواكب جديدة ، ويعيد الناس للحساب ، وهو القادر على ذلك ، فكما قدر على خلقه أول مرة يعيده فى حالة أخرى كما قال : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه أن الدنيا ليست كالآخرة ، فلا يرثها إلا من كان قادرا على إصلاحها ، والانتفاع بخيراتها ، والاستفادة مما على ظاهرها وباطنها ، فمن كان أحصف رأيا ، وأحكم فكرا ملكها وتسلط عليها ، وجنى ثمارها واهتدى إلى ما أودع فيها من الخير .

(١) الآية ٤٨ من سورة إبراهيم .

ثم بين أن ما أوحى إلى الرسول من الشرائع وضروب الهداية كاف جدَّ الكفاية لمن يعتبر بسنن الله فى الكون ، فيستفيد منها ما ينفعه فى دينه ودنياه . وبين سبحانه أن الرسول رحمة للعالمين ، وهداية للناس أجمعين ، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد ، ومن نأى عنه ضل وسار فى طريق الغواية والعناد .

لما ذكر سبحانه وتعالى أن عقيدة الأنبياء واحدة ، وأن ملتهم لا تختلف فكلهم عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله ، أخبر سبحانه بعد ذلك أن الأمم قد اختلفت على أنبيائها ، وتفرقوا شيعاً ، فمن مصدق بالرسالات إلى مكذب وجاحد عنيد .

قال سبحانه : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ : كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون * فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾(١) .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون ﴾ : فالكل إلى الله مرجعهم كما قال سبحانه : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾(٢) .

ثم بين الجزاء العادل الذى لا يختلف ولا يتخلف ، فقال سبحانه : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون ﴾(٣) .

وهنا يقول سبحانه فى بيان هذا الجزاء الأوفى: ﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون ﴾ .

فالله جلت قدرته لا يضيع عمل عامل ، ولا يظلم أحداً : ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾(٤) .

غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ﴾ :

قال ابن عباس : وجب يعنى قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، وفى رواية عنه أيضاً : أنهم لا يرجعون ، أى: لا يتوبون .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ﴾ :

يستمر هذا الحكم الذى حكم الله به على تلك القرى الظالمة إلى أن يفتح السد ، أى حتى يقترب الحساب والبعث بفتح سد يأجوج ومأجوج ، الذى قال الله فيه : ﴿ فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء وكان وعد ربى حقا ﴾(٥) .

---

(١) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة المؤمنون
(٢) الآية ١٥٩ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الكهف .
(٥) الآية ٩٨ من سورة الكهف .

وإذا الناس يسرعون من كل مكان تلبية لأمر الله تعالى ، كما قال سبحانه : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾(١) .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴾ .

إن الوعد الحق والبعث والجزاء ، وإنه حق ثابت . كما سمى الله هذا اليوم : بالواقعة ، والحاقة ، والطامة ، والصاخة ، والقارعة ، وكان وعد ربى حقاً ، فكل كلام الله صدق : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾(٢) وسماه الله باليقين : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾(٣) .

فما حال الظالمين ، وما موقف الكافرين ، إن أبصارهم من هذا اليوم شاخصة أجفانها مرتفعة ، لا تكاد تطرف من هول الساعة ، فياله من يوم ما أطوله ، ويا له من جبار ما أعدله ، وياله من خطب ما أهوله .

﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(٤) .

إنهم يقولون بلسان الندم والحسرة عندما يرون الحقائق شاخصة أمامهم : ﴿ ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا ﴾ :

أى: يا هلاكنا أحضر فهذا أوان مجيئك ، لقد كنا فى غفلة من أمر ربنا ووعده ، وذلك لما أنكروه وجحدوه من وعد الله ووعيده ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين * بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين * ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا ياحسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء مايزرون ﴾(٥)

ثم أقروا على أنفسهم بعد ذلك ، فقالوا : ﴿ بل كنا ظالمين ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون ﴾ .

وكما قال جل شأنه : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التى كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾(٦) .

قوله تعالى : ﴿ إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون * لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون * إن الذين سبقت لهم منا الحسنى

(١) الآية ٩٩ من سورة الكهف .
(٢) الآية الأولى من سورة النحل .
(٣) الآية ٩٩ من سورة الحجر .
(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الحج .
(٥) الآيات ٢٧ ، ٣١ من سورة الأنعام .
(٦) الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الطور .

أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون * لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ .

أخرج أبو بكر بن مردويه بسنده عن ابن عباس ، قال : جاء عبد الله بن الزبعرى إلى النبى ﷺ فقال : تزعم أن الله أنزل عليك هذه الآية : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ فقال ابن الزبعرى : قد عبدت الشمس والقمر والملائكة وعزير وعيسى ابن مريم ، كل هؤلاء فى النار مع آلهتنا ؟ فنزلت : ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يَصدون * وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾[1] ، ثم نزلت : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ .

وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن أن هؤلاء الكافرين ومعبوداتهم فى النار ، ليكون لهم فى ذلك عبرة وتصديق ، لما ذكره الله تعالى فى قوله : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾[2] .

إنهم وما يعبدون من دون الله وقود لجهنم وحطب لها : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون ﴾[3] .

فكل هؤلاء واردون لها هم وآلهتهم ، ولو كان هؤلاء المبعدون آلهة ما دخلوها ، ولدفعوا العذاب عنهم ، لكن هؤلاء وآلهتهم ليس لهم من الأمر شىء ، ومن ثم ﴿ فكل فيها خالدون ﴾ .

﴿ لهم فيها زفير ﴾ أى قال تعالى : ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ والزفير إخراج النفس ، والشهيق إدخاله ، فهم يتنفسون فى النار ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ : أى وهم فى النار لا يسمع بعضهم زفير بعض ، لعظم الهول وفظاعة العذاب .

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء الذين عبدوهم ، استثنى الصالحين كالملائكة وعيسى وعزير ومريم ، فقال سبحانه : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ أى سبقت لهم رحمتنا ووعدنا بالجنة ، أولئك عن النار مبعدون ، لا يسمعون صوت العذاب ، فهم ﴿ فى جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة ﴾[4]

﴿ وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ أى نفخة البعث ، كما قال تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾[5] ، وكما قال تبارك اسمه : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ﴾[6] .

(١) الآيتان ٥٧ ، ٥٨ من سورة الزخرف .
(٢) الآية ٥٥ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ٦ من سورة التحريم .
(٤) الآيات ١٠ - ١٦ من سورة الغاشية .
(٥) الآية ٨٩ من سورة النمل .
(٦) الآية ٨٧ من سورة النمل .

قوله تعالى : ﴿ وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾ :

كما قال جل شأنه : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾(١) .

فما أعظم تلك البشرى ، وما أجل وقعها على ذوى النفوس المطمئنة : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون * نزلا من غفور رحيم ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ .

إن هؤلاء لا يلحقهم الفزع حين تطوى السماء وتزال ، وتأتى سماء أخرى جديدة ، وكواكب أخرى .

﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ : هو كقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾(٣) ، وقوله جل شأنه : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾(٤) .

﴿ وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ : أى : هذا وعد على ذاته أخذه على نفسه ، والله لا يخلف الميعاد ، ووعد الله لايختلف ولا يتخلف ، لأنه القادر ، لذا قال سبحانه : ﴿ إنا كنا فاعلين ﴾ .

فسبحان من لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا .

تزود من حياتك للمعاد ... وقم لله واجمع خير زاد
ولاتركنن إلى الدنيا كثيرا ... فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

قوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ :

قال الأعمش : سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ﴾ . فقال : الزبور : التوارة ، والإنجيل ، والقرآن .

وقال مجاهد : الزبور الكتب .

وقال سعيد بن جبير : الذكر الذى فى السماء .

وقال مجاهد : الذكر أم الكتاب عند الله .

والخلاصة أن الله تعالى كتب فى أم الكتاب كما كتب فى الكتب السماوية من بعد ذلك أن الأرض ميراث للصالحين من عباده ، فهم المستخلفون فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ إن الأرض

(١) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .
(٢) الآيات ٣٠ - ٤٢ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٢٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآية ٤٨ من سورة الكهف .

لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لايشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[٢] .

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ : إن فى هذا الذى جاء فى هذه السورة الكريمة من الأحكام والوعد والوعيد والقصص ، لبلاغاً لقوم عابدين ، يستطيعون به أن يعرفوا طريق الوصول إلى الله ، وأن يعلموا أن الدنيا مزرعة الآخرة ، فهى دار سفر،والآخرة دار مقر ، فليأخذوا من سفرهم إلى مقرهم .

ثم يذكر مولانا بعد ذلك حقيقة الرسالة المحمدية ، فيقول سبحانه : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ : فهو الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير ، رحم الله به العالمين ، حيث أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، وفى هذه الآية دليل على عموم رسالته ﷺ ، فالعالم هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾[٤] ، ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ قل إنما يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون * فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون * إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون * وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين * قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ :

الاستفهام فى قوله تعالى : ﴿ فهل أنتم مسلمون ﴾ : يفيد الأمر ، أى:فأسلموا لهذا الإله الواحد ، كما فى قوله تعالى: ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾[٦] أى: انتهوا .

﴿ فإن تولوا ﴾ عما جئتهم به من الدين الخالص ، والعقيدة الصافية : ﴿ فقل آذنتكم على سواء ﴾ : أى:أعلمتكم أنى حرب لكم ، كما أنكم حرب لى ، برىء منكم كما أنتم براء منى ، كقوله: ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾[٧]، وقال تعالى : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ﴾[٨]، أى:ليكن علمك بنبذ العهود على السواء ، وهكذا ههنا . ﴿ فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء ﴾ :

---

(١) الآية ١٢٨ من سورة الأعراف .
(٢) الآية ٥٥ من سورة النور .
(٣) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج .
(٤) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف .
(٥) الآية الأولى من سورة الفرقان .
(٦) الآية ٩١ من سورة المائدة .
(٧) الآية ٤١ من سورة يونس .
(٨) الآية ٥٨ من سورة الأنفال .

والمراد بآذنتكم أى: أعلمتكم : ﴿ وإن أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ : إذ علم ذلك عند ربى .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد ﴾ ﴿ قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾(١) .

إن الذى يعلم ذلك هو الذى يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون .

﴿ وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ : أى: وما أدرى سبب تأخير جزائكم ، ولعل ذلك زيادة فى افتتانكم وامتحانكم ، لينظر كيف تعملون ، وإنه ليؤخركم إلى حين ، كى تتمتعوا بلذات الدنيا مع إعراضكم عن الإيمان ، فيكون فى ذلك زيادة عذابكم ، لأن المعرض عن الإيمان مع توالى الآيات وتتابع البينات والنذر ، يكون عقابه أشد .

﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ : أى: قال الرسول : رب افصل بينى وبين من كذبنى من مشركى قومى ، وكفر بك ، وعبد غيرك ، بإحلال عذابك ، ونقمتك به بالعدل الذى يقتضى تعجيل العذاب به وتشديده عليه .

قال قتادة : كان الأنبياء يقولون : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾(٢) ، فأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك .

﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أى: والله المستعان على ما تصفون ، من الشرك والكفر ، والكذب والأباطيل ، كقولكم إن الله اتخذ ولداً ، وقولكم فى رسول الله ﴿ بل افتراه بل هو شاعر ﴾(٣) .

وقد كثر استعمال الوصف فى الكتاب الكريم بمعنى الكذب ، كقوله: ﴿ ولكم الويل مما تصفون ﴾(٤) ، وقوله : ﴿ سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم ﴾(٥) .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٨٩ من سورة الأعراف .
(٣) الآية ٥ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ١٨ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية ١٣٩ من سورة الأنعام .

سورة الحج

مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق ، سوى ست آيات منها ، فهى مدنية : ﴿ هذان خصمان ﴾ إلى قوله : ﴿ صراط الحميد ﴾ .

وعدد آياتها : ثمان وسبعون فى عد الكوفيين ، وسبع للمدنيين ، وخمس للبصريين ، وأربع للشاميين .

وكلماتها : ألفان ومائتان وإحدى وتسعون كلمة .

وحروفها : خمسة آلاف وخمسة وسبعون .

وسميت سورة الحج ، لاشتمالها على مناسك الحج ، وتعظيم الشعائر ، وتأذين إبراهيم للناس بالحج .

مقصود السورة إجمالاً

الوصية بالتقوى ، والطاعة ، وبيان هول الساعة ، وزلزلة القيامة ، والحجة على إتيان الحشر والنشر ، وجدال أهل الباطل مع أهل الحق ، والشكاية من أهل النفاق بعد الثبات ، وعيب الأوثان وعبادتها ، وذكر نصرة الرسول ﷺ وإقامة البرهان والحجة ، وخصومة المؤمن والكافر فى دين التوحيد .

وتأذين إبراهيم على الناس بالحج ، وتعظيم الحرمات والشعائر ، وتفضيل القربان فى الموسم ، والمنة على العباد بدفع فساد أهل الفساد ، وحديث البئر المعطلة ، وأنواع الحجة على إثبات القيامة ، وعجز الأصنام وعبادها ، واختيار الرسل من الملائكة والإنس ، وأمر المؤمنين بأنواع العبادة والإحسان ، والمنة عليهم باسم المسلمين ، والاعتصام بحفظ الله وحياطته ، فى قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بالله هو مولكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ يوم ترونها ﴾ وبعده : ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ : محمول على : أيها المخاطب كما فى قوله : ﴿ وترى الفلك ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ ، كما فى سورة لقمان ، لأن هنا ما فى هذه السورة وافق ما قبلها من الآيات وهى : نذير ، القبور ، وكذلك فى لقمان وافق ما قبلها وما بعدها وهى الحيد والسعير والأمور .

قوله : ﴿ من بعد علم ﴾ بزيادة (من) لقوله : ﴿ من تراب ثم من نطفة ﴾ ، وقد جاءت آية

(١) الآية ١٤ من سورة النحل .

النحل بغير من فى قوله تعالى : ﴿ والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئاً ﴾[١] لخلوها مما جاء فى هذه السورة .

قوله تعالى : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ وفى آل عمران وغيرها ﴿ أيديكم ﴾ لأن هذه الآية نزلت فى النضر بن الحارث ، وقيل فى أبى جهل ، وحده ، وفى غيرها نزلت فى الجماعة الذين تقدم ذكرهم .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى ﴾ قدم الصابئين لتقدم زمانهم .

قوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ وفى السجدة : ﴿ منها أعيدوا فيها ﴾ لأن المراد بالغم الكرب ، والأخذ بالنفس حتى لا يجد صاحبه متنفساً ، وما قبله من الآيات يقتضى ذلك ، وقوله ﴿ قطعت لهم ثياب من نار ﴾ إلى قوله : ﴿ من حديد ﴾ .

فمن كان فى ثياب من نار فوق رأسه جهنم يذوب من حره أحشاء بطنه ، حتى يذوب ظاهر جلده ، وعليه موكلون يضربونه بمقامع من حديد ، كيف يجد سرورا ومتنفسا من تلك الكرب التى عليه ، وليس فى السجدة من هذا ذكر ، وإنما قبلها : ﴿ فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وذوقوا ﴾ وفى السجدة ﴿ وقيل لهم ذوقوا ﴾ القول هاهنا مضمر ، وخص بالإضمار لطول الكلام بوصف العذاب ، وخصت سورة السجدة بالإظهار ، موافقة للقول قبله فى مواضع منها ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ ﴿ وقالوا أئذا ضللنا ﴾ ، و ﴿ حق القول ﴾ وليس فى الحج من شىء .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ مكررة الآية ٢٣ وموجب التكرار قوله : ﴿ هذان خصمان ﴾ . لأنه لما ذكر أحد الخصمين وهو ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ لم يكن بد من ذكر الخصم الآخر ، فقال سبحانه : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا جنات تجرى من تحتها الأنهار . . . ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين ﴾ وفى سورة البقرة : ﴿ والعاكفين ﴾ لأن ذكر العاكف ههنا سبق فى قوله ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ .

ومعنى : ﴿ والقائمين والركع السجود ﴾ المصلون . وقيل : ﴿ القائمين ﴾ بمعنى المقيمين ، وهم العاكفون ، لكن لمّا تقدم ذكرهم عبر عنهم بعبارة أخرى .

قوله تعالى ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ﴾ كرر ؛ لأن الأول متصل بكلام إبراهيم وهو إعتراض ، ثم أعاده مع قوله ﴿ والبدن جعلناها لكم ﴾ .

(١) الآية ٧٠ من سورة النحل .
(٢) الآية ٢٠ من سورة السجدة .

قوله تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ وبعده : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها ﴾ خص الأول بذكر الإهلاك ؛ لاتصاله بقوله : ﴿ فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم ﴾ أى:أهلكتهم ، والثانى بالإملاء ؛ لأن قوله : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ دلّ على أنه لم يأتهم فى الوقت ، فحسن ذكر الإملاء .

قوله تعالى : ﴿ وإن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ هنا ، وفى لقمان ﴿ من دونه الباطل ﴾ لأن هنا وقع عشر آيات كل آية مؤكدة مرة أو مرتين ، ولهذا أيضا زيد فى هذه السورة اللام فى قوله : ﴿ وإن الله لهو الغنى الحميد ﴾ وفى لقمان : ﴿ إن الله هو الغنى الحميد ﴾ ، إذا لم يكن سورة لقمان بهذه الصفة .

وإن شئت قلت : لمّا تقدم فى هذه السورة ذكر الله سبحانه وتعالى ، وذكر الشيطان ، أكدهما ؛ فإنه خبر وقع بين خبرين ، ولم يتقدم فى لقمان ذكر الشيطان ، فأكد ذكر الله ، وأهمل ذكر الشيطان ، وهذه دقيقة .

مناسبتها لما قبلها

ومناسبتها للسورة قبلها من وجوه :

١ - إن آخر السورة قبلها كان فى أمر القيامة كقوله : ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ﴾ ، وقوله : ﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ ، وأول هذه السورة الاستدلال على البعث بالبراهين العقلية .

٢ - إنه قد أقيمت فى السورة السالفة الحجج الطبيعية على الوحدانية ،وفى هذه جعل العلم الطبيعى من براهين البعث .

٣ - فى السورة السالفة وما قبلها قصص الأنبياء وبراهينهم لقومهم ، وفى هذه السورة خطاب من الله للأمم الحاضرة ، وهو خطاب يسترعى السمع ويوجب علينا ولو إجمالاً أن نعرف صنع الله فى أرضه وسمائه ، وتدبيره خلق الأجنة والنبات والحيوان .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ
مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم
بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾

المفـردات

التقوى : التباعد عن كل ما يكسب الإثم من فعل أو ترك .

والزلزلة : الحركة الشديدة بحيث تزيل الأشياء من أماكنها .

والذهول : الدهش الناشىء عن الهمّ والغم الكثير .

والمرضعة : الأنثى حال الإرضاع ، والمرضع ما من شأنها أن ترضع ، ولو لم ترضع حال وصفها به .

بدأ الله تعالى السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن الكريم وهى سورة النساء بقوله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾(١) .

وفى هذا إشارة إلى المبدأ ، كما بدأ السورة الرابعة من النصف الثانى من القرآن الكريم بقوله : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ .

وفى هذا إشارة إلى المعاد ، لذا ناسب أن يأتى الخطاب إلى الناس جميعاً ، إذ جميعهم يشتركون فى المبدأ والمعاد (كلكم لآدم وآدم من تراب)(٢) ، ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ﴾(٣) ، كما أن الجميع سيبعثون ﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾(٤) ، ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾(٥) .

وإذا كان ذلك كذلك فكلهم مأمورون بتقوى الله ، وهل التقوى إلا التخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

وفى هذه السورة ، إنذار شديد بزلزلة الساعة ، وقد اختلف المفسرون فى زلزلة الساعة ، هل هى بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة ؟ أو ذلك عبارة عن زلزلة قبل قيام الناس من أجداثهم ؟ كما قال تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها ﴾(٦) ، وقال تعالى: ﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة ﴾(٧) ، وقال تعالى : ﴿ إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بساً ﴾(٨)

فقال قائلون : هذه الزلزلة كائنة فى آخر عمر الدنيا ، وأول أحوال الساعة .

---

(١) الآية الأولى من سورة النساء .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٤٩ : ٥ ، وفى المناقب : ٧٣ . وأبو داود فى الأدب : ١١١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٥٢٤ .

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٤) الآية ٩٥ من سورة الكهف .

(٥) الآية ٤٧ من سورة الكهف .

(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الزلزلة .

(٧) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحاقة .

(٨) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الواقعة .

وقال ابن جرير عن علقمة فى قوله: ﴿ إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾ قال : قبل الساعة .

وقد أورد الإمام أبو جعفر بن جرير مستند من قال ذلك فى حديث الصور عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض والصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر) قال أبو هريرة : يا رسول الله وما الصور ؟ قال:(قرن) قال : فكيف هو؟ قال : (قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات : الأولى نفخة الفزع ، والثانية نفخة الصعق ، والثالثة نفخة القيام لرب العالمين ، يأمر الله إسرافيل بالنفخة الأولى فيقول : انفخ نفخة الفزع ، فيفزع أهل السموات وأهل الأرض إلا من شاء ، ويأمره فيمدها ويطولها ولا يفتر وهى التى يقول الله تعالى ﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾[١] فتسير الجبال فتكون ترابا وترج الأرض بأهلها رجا ، وهى التى يقول الله تعالى:﴿ يوم ترجف الراجفة * تتبعها الرادفة * قلوب يومئذ واجفة ﴾[٢] فتكون الأرض كالسفينة الموبقة فى البحر ، تضربها الأمواج تكفؤها بأهلها ، وكالقنديل المعلق بالعرش ترجحه الأرواح ، فيمتد الناس على ظهرها ، فتذهل المراضع ، وتضع الحوامل ، ويشيب الولدان ، وتطير الشياطين هاربة حتى تأتى الأقطار فتلقاها الملائكة فتضرب وجوهها فترجع ، ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضاً ، وهى التى يقول الله تعالى:﴿ يوم التناد * يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[٣] .

فبينما هم على ذلك إذ انصدعت الأرض من قطر إلى قطر ،ورأوا أمرا عظيماً ، فأخذهم لذلك من الكرب ما الله أعلم به . ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ، ثم خسف شمسها وقمرها وانتثرت نجومها ، ثم كشطت عنهم . قال رسول الله ﷺ : (والأموات لا يعلمون بشىء من ذلك) قال أبو هريرة : فمن استثنى الله حين يقول : ﴿ ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ﴾[٤] قال : (أولئك الشهداء ، وإنما يصل الفزع إلى الأحياء ، أولئك أحياء عند ربهم يرزقون ، ووقاهم الله شر ذلك اليوم ، وآمنهم ، وهو عذاب يبعثه الله على شرار خلقه ، وهو الذى يقول : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

وقال آخرون : بل ذلك هول وفزع وزلزال وبلبال كائن يوم القيامة فى العرصات بعد القيام من القبور ، واختار ذلك ابن جرير ، واحتجوا بأحاديث :

روى الإمام أحمد بسنده عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال وهو فى بعض أسفاره ، وقد تقارب من أصحاب السير ، رفع بهاتين الآيتين صوته : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس

(١) الدارمى فى الرقاق : ٧٩ . والترمذى فى تفسير سورة ٣٩ : ٨ ، ٦٨ ، وفى القيامة : ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٢٦ ، ١٩٢ .
(٢) الآيات ٦ ـ ٨ من سورة النازعات .
(٣) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة غافر .
(٤) الآية ٨٧ من سورة النمل .

سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ . فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطى ، وعرفوا أنه عنده قول يقوله فلما دنوا حوله قال ﷺ : (أتدرون أى يوم ذاك ؟ ذاك يوم ينادى آدم عليه السلام فيناديه ربه عز وجل ، فيقول : يا آدم ابعث بعثك إلى النار . فيقول : يارب ، وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار ، وواحد فى الجنة) . قال : فأبلس أصحابه حتى ما أوضحوا أيضا حكمه ، فلما رأى ذلك قال : (أبشروا واعملوا فوالذى نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شىء قط إلا كثرتا : يأجوج ومأجوج ، ومن هلك من بنى آدم وبنى إبليس) قال : فسرى عنهم ثم قال : (اعملوا وابشروا ، فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس إلا كالشامة فى جنب البعير ، أو الرقمة فى ذراع الدابة)[١] .

وقال البخارى عند تفسير هذه الآية : عن أبى سعيد قال : قال النبى ﷺ : (يقول الله تعالى يوم القيامة : يا آدم . فيقول : لبيك ربنا وسعديك . فينادى بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار . قال : يارب وما بعث النار ؟ قال : من كل ألف ـ أراه قال ـ تسعمائة وتسعة وتسعون ، فحينئذ تضع الحامل حملها ، ويشيب الوليد **﴿ وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾** فشق ذلك على الناس ، حتى تغيرت وجوههم . قال : قال النبى ﷺ : (من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون ، ومنكم واحد ، وأنتم فى الناس كالشعرة السوداء فى جنب الثور الأبيض ، أو كالشعرة البيضاء فى جنب الثور الأسود ، إنى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة . فكبرنا ثم قال : ثلث أهل الجنة ، فكبرنا ، ثم قال : شطر أهل الجنة . فكبرنا)[٢] .

وقال الإمام أحمد عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (إنكم تحشرون ، إلى الله يوم القيامة حفاة عراة غرلاً) . قالت عائشة : يا رسول الله الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض . قال : (يا عائشة . إن الأمر أشد من أن يهمهم ذاك)[٣] .

وقال الإمام أحمد عن السيدة عائشة أيضاً قالت : قلت يا رسول الله هل يذكر الحبيب حبيبه يوم القيامة ؟ قال : (يا عائشة أما عند ثلاث فلا ، أما عند الميزان حتى يثقل أو يخف فلا ، وأما عند تطاير الكتب إما يعطى بيمينه وإما يعطى بشماله فلا ، وحين يخرج عنق من النار فيطوى عليهم ويتغيظ عليهم ، ويقول ذلك العنق : وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة ، وكلت بثلاثة : وكلت بمن ادعى مع الله إلـها آخر ، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب ، ووكلت بكل جبار عنيد ـ قال : فينطوى عليهم ويرميهم فى غمرات جهنم ، ولجهنم جسر أرق من الشعر ، وأحدّ من السيف ، عليه كلاليب وحسك

(١) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، وفى ٤ : ٤٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٧ ، وفى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، وفى الرقاق : ٤٥ ، ٤٦ ، وفى التوحيد : ٣٢ . ومسلم فى الإيمان ٣٧٩ ، وفى الفتن : ١١٦ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ١ ، ٢ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٨ ، وفى ٢ : ١٦٦ ، وفى ٣ : ٣٢ ، ٣٣ ، وفى ٤ : ٤٣٢ ، ٤٣٥ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٨ ، ٤٨ ، وفى تفسير سورة ٥ : ١٤ ، وفى الرقاق : ٤٥ . ومسلم الجنة : ٥٦ ، ٥٩ . والترمذى فى القيامة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٨٠ : ٢ . والنسائى فى الجنائز : ١١٨ ، ١١٩ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٣ . والدارمى فى الرقاق : ٨٠ ، ٨١ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٥٣ ، ٣٩٨ ، وفى ٦ : ٥٣ ، ٩٠ .

يأخذان من شاء الله ، والناس عليه كالبرق ، وكالطرف ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : يارب سلم ، سلم . فناج مسلم ، ومخدوش مسلم ، ومكور فى النار على وجهه)[١] .

ومهما يكن من أمر فإن الزلزلة واقعة لا محالة ، هذا وعد الله ، وكان وعد الله مفعولا .

﴿ يوم ترونها ﴾ : هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسراً له : ﴿ تذهل كل مرضعة عما أرضعت ﴾ : أى:فتشغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتى هى أشفق الناس عليه ، تدهش عنه فى حال إرضاعها له ، ولهذا قال : ﴿ كل مرضعة ﴾ ولم يقل مرضع .

وقال : ﴿ عما أرضعت ﴾ : أى عن رضيعها فطامه .

وقوله تعالى : ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ : أى:قبل تمامه لشدة الهول .

﴿ وترى الناس سكارى ﴾ : أى:من شدة الأمر الذى قد صاروا فيه ، قد دهشت عقولهم ، وغابت أذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ، ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

فريق من الناس

قال تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

المناسبة وإجمال المعنى

أخرج ابن أبى حاتم : أن هذه الآيات نزلت فى النضر بن الحارث ، وكان جدلا يقول : الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا يقدر الله على إحياء من بلى وصار تراباً .

بعد أن أخبر سبحانه فيما سلف بأهوال يوم القيامة وشدتها ، ودعا الناس إلى تقوى الله ، وبين أنه مع هذا التحذير الشديد فإن كثيراً من الناس ينكرون هذا البعث ، ويجادلون فى أمور الغيب بغير علم .

هذا فريق ضال من الناس يجادل فى ذات الله بأحكامه ، فمن قائل اتخذ الرحمن ولدا ، ومن قائل إن الملائكة بنات الله ، ومن منكر للبعث ، إلى غير ذلك من المذاهب الضالة والمشارب الآسنة ، وأصحاب العقول الطائشة المستهترة ، إنهم يجادلون بغير سلطان أتاهم ، لا علم ، ولا هدى ، إنما جهل وحيرة وضلال ، فحبذا لو كان الجدل بالتى هى أحسن ، ولا حبذا إذا كان بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وقد قدّر على هذا المجال الذى سلك طريق الشيطان أن يضله بالوسواس ، ويكون المصير مشئوما ، حيث يهديه إلى عذاب السعير ، فالشيطان مريد غات لا يرحم . ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾[٢] .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ١١٠ .

(٢) الآية ٦ من سورة فاطر .

البعـث حـق

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ
ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ
نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ
لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ
وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ (٧)

المفـردات

الريب : الشك .
وأصل النطفة : الماء العذب ويراد بها هنا ماء الرجل .
والعلقة : القطعة الجامدة من الدم .
والمضغة : القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ .
والأجل المسمى : هو حين الوضع .
والطفل : يكون للواحد والجمع .
والأشد : القوة .
وأرذل العمر : أدنؤه وأردؤه .
هامدة : أى: ميتة يابسة من قولهم همدت الأرض إذا يبست ودرست ، وهمد الثوب : بلى .
واهتزت : أى: اهتز نباتها وتحرك .
وربت : ازدادت وانتفخت لما يتداخلها من الماء والنبات .
زوج : أى: حنيف .
بهيج : أى: حسن سارّ للناظرين .
والحق : هو الثابت الذى يحق ثبوته .

المناسبة وإجمال المعنى

لما حكى سبحانه عن المشركين الجدل بغير علم فى البعث والحشر ، وذمهم على ذلك ، قضّى على هذا بإثباته عن وجهين :

١ ـ الاستدلال بخلق الحيوان وهو ما أشار إليه فى الآية الأخرى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[1] وقوله : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة ﴾[2] .

٢ ـ الاستدلال بحال خلق النبات فى قوله: ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ .. الآية .

هذه آية أنتجت خمس نتائج :

الأولى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ .

والثانية : ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ .

والثالثة : ﴿ وأنه على كل شىء قدير ﴾ .

والرابعة : ﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ .

والخامسة : ﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ .

وفيها رد قوى ، وبرهان قاطع ، وحجة ساطعة ، على الذين ينكرون المعاد ، وفيهم يقول تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون * أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾[3] .

ففى هذا المشهد من سورة يس خمسة أدلة على أن البعث حق :

أولها : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾ : أى:أن الذى قدر على الإيجاد من العدم قادر على الإعادة .

وثانيها : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ : أى:أن الذى قدر على جمع الأضداد فجعل من الشجر الأخضر ناراً ، قادر على أن يجمع بين برودة الموت وحرارة الحياة .

ثالثها : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ : أى:أن الذى قدر على خلق الكون الأكبر قادر على خلق الأدنى ، ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون * وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا

(١) الآية ٧٩ من سورة يس .

(٢) الآية ٥١ من سورة الإسراء .

(٣) الآيات ٧٧ ـ ٨٣ من سورة يس .

الصالحات ولا المسىء قليلاً ما تتذكرون * إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[١] .

رابع الأدلة : ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ أى:أن الذى سيعيدنا بعد الموت لا يعجزه شىء ، فأمره بالكاف والنون ، ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[٢] ، ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[٣] ، ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾[٤] ، ﴿ فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة ﴾[٥] .

خامس الأدلة : ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾ . فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، هو الغنى الذى لا يفتقد إلى أحد ، القوى الذى لا يحتاج إلى معين ، على فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ﴾ :

أى:إن وقع الشك فى نفوسكم من البعث ، فإنا خلقنا أباكم آدم من تراب ، كما خلقناكم أنتم من عناصر هذا التراب ، مثل الكربون ، والدهن ، والماغنسيوم والفسفور والحديد والجير والكبريت والماء ، ثم تحول هذا التراب كما قال تعالى ﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾[٦] .

وإنما بدأ الخلق هنا بالتراب ، لأننا سنصير ترابا فى القبور ، فالذى قدر على أن يخلق من التراب إنساناً قادر بالأولى أن يعيد هذا الإنسان من التراب، ﴿ وهو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٧] .

﴿ ثم من نطفة ﴾ : وهو ما يصب فى الأرحام من ماء الرجال .

﴿ ثم من علقة ﴾ : وهى تلك القطعة من الدم المتجمد .

﴿ ثم من مضغة ﴾ : وهو مقدار ما يمضغ من اللحم ، وهو قطعة اللحم .

﴿ ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ :

وهذه المضغة قد تكون مخلقة مسواة سالمة من العيوب والنقصان ، تمت فيها أحوال الخلق ورسومه ، وقد تكون غير مخلقة أى غير مستوية ، فيها نقص ، ولم يتم فيها رسوم الخلقة ، فسبحان من يصور خلقه .

﴿ لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾ :

وقال مجاهد : هو السقط مخلوق وغير مخلوق ، فإذا مضى عليها أربعون يوماً وهى مضغة ، أرسل الله تعالى ملكاً إليها فنفخ فيها الروح ، وسواها كما يشاء الله عز وجل من حسن وقبح وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقى أو سعيد .

(١) الآيات ٥٧ ـ ٥٩ من سورة غافر .
(٢) الآية ٤٠ من سورة النحل .
(٣) الآية ٥٠ من سورة القمر .
(٤) الآية ٧٧ من سورة النحل .
(٥) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة النازعات .
(٦) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة السجدة .
(٧) الآية ٢٧ من سورة الروم .

كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله الملك فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه ، وعمله ، وأجله ، وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح »(1) .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير بسندهما عن عبد الله قال: (النطفة إذا استقرت فى الرحم جاءها ملك بكفه ، فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة ؟ فإن قيل: غير مخلقة لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دماً ، وإن قيل: مخلقة قال : أى رب ذكر أو أنثى ، شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله . فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله . فيقال له : اذهب إلى الكتاب ، فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة .

قال : فتخلق فتعيش من أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك) .

ثم تلا عامر الشعبى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ﴾ .

فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع ، فكانت نسمة وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة .

وقوله تعالى : ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ : أى: ضعيفاً فى بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئاً ، ويلطف به ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال : ﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ : أى يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب ، وحسن المنظر .

﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ : أى: فى حال شبابه وقواه .

﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ : وهو الشيخوخة والهرم ، وضعف القوة والعقل والفهم ، وتناقص الأحوال من الخرف وضعف الفكر ، ولهذا قال : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾(2) .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ : هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى ، كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى المقحلة التى لا ينبت فيها شىء .

وقال السدى : ميتة .

---

(1) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ١ ، وفى بدء الخلق : ٦ ، وفى القدر : ١ ، وفى التوحيد : ٢٨ . ومسلم فى القدر : ١ . وأبو داود فى السنة : ١٦ . والترمذى فى القدر : ٤ . وابن ماجه فى المقدمة : ١٦ .

(2) الآية ٥٤ من سورة الروم .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ : أى:فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أى تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ، وربت أى:ارتفعت لما سكن فيها الثرى ، ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات ، فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ : أى:حسن المنظر طيب الريح .

وقوله:﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ : أى الخالق المدبر الفعال لما يشاء ، ﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ : أى كما أحيا الأرض الميتة ، وأنبت منها هذه الأنواع .

﴿ إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير) ، ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[1] .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ : أى:كائنة لا شك فيها ولا مرية .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ : أى:يعيدهم بعد ما صاروا فى قبورهم رمما ، ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم * قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾[2] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن لقيط بن عامر أنه قال : يا رسول الله أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله : « أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليا به » ؟ . قلنا : بلى ، قال : « فالله أعظم » قال : قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : (أما مررت بوادى أهلك ممولاً ؟) قال : بلى . قال : « ثم مررت به يهتز خضرا » ؟ قال : بلى . قال : « فكذلك يحيى الله الموتى ، وذلك آيته فى خلقه »[3] .

فريق آخر من أهل الضلال

قوله تعالى :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ

(١) الآية ٨٢ من سورة يس .
(٢) الآيات ٧٨ ـ ٨٠ من سورة يس .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١١ ، ١٢ .

﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن
ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾

المفردات : ﴿ الهدى ﴾ : الاستدلال والنظر الصحيح الموصل للمعرفة .

﴿ الكتاب المنير ﴾ : الوحى المظهر للحق .

﴿ ثانى عطفه ﴾ : أى: لاويا جانبه متكبرا مختالا .

﴿ الخزى ﴾ : الهوان والذل .

﴿ عذاب الحريق ﴾ : أى: عذاب النار التى تحرق داخليها .

﴿ على حرف ﴾ : أى: على طرف .

﴿ خير ﴾ : أى: سعة فى المال وكثرة فى الولد .

﴿ فتنة ﴾ : أى بلاء ومحنة فى نفسه أو أهله أو ماله.

﴿ على وجهه ﴾ : أى: على جبهته ويراد بذلك أنه ارتد ورجع إلى الكفر .

﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ : أى: ضيعهما ، إذ فاته فيهما ما يسره ، يدعو الأولى يراد بها يعبد ويدعو الثانية يراد بها يقول .

﴿ والمولى ﴾ : الناصر .

﴿ والعشير ﴾ : الصاحب والمعاشر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فى الآية قبلها حال الضلال المقلدين الذين يتبعون أهل الكفر والمعاصى ، أردف ذلك بذكر حال الدعاة إلى الضلال من رءوس الكفر والمبتدعين .

ثم أعقب ذلك بذكر قوم مضطربى الإيمان مذبذبين فى دينهم ، لا ثبات لهم فى عقيدتهم ، ولا استقرار لهم فى آرائهم ، إن أصابوا خيرا فرحوا به وركنوا إليه ، وإن نالهم بلاء وشدة فى أنفسهم أو أهليهم أو أموالهم ارتدوا كفاراً ، فلحقتهم الخسارة والدمار فى دينهم ودنياهم ، وذلك هو الخسران الذى لا خسران بعده ، وهم فى ذلك الحين يعبدون الأصنام والأوثان ، لتكشف عنهم ضرهم ، وتدفع عنهم ما نزل بهم من البلاء ، وقد ضلوا فى ذلك ضلالاً بعيداً ، وأنهم يوم القيامة ليجأرون ويصرخون ويقولون :

﴿ لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ .

روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النبى ﷺ مهاجرين من باديتهم ، فكان أحدهم إذا صح جسمه ، ونتجت فرسه مهراً حسناً ، أو ولدت امرأته غلاماً ، أو كثر ماله وماشيته ، رضى به ، واطمأن إليه ، وإن أصابه وجع ، أو ولدت امرأته جارية ، أو أجهضت رماكه .

(خيله) أو ذهب ماله ، أو تأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان ، وقال له : ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين ، فينقلب عنه .

ويعود بنا النظم الكريم إلى الفريق المجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، فيقول سبحانه : ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ .

فما دام قد فقد العلم فى الجدال ، فإنه يجادل بجهل ، وقد أدب الله تعالى عباده المؤمنين عندما يجادلهم الجاهلون ، فقال سبحانه : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾[1] .

وهذا الفريق يجادل بغير هدى ، إذاً فهو على ضلال ، قال تعالى : ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتى وما أنذروا هزوا ﴾[2] .

وهذا الفريق يجادل بغير كتاب منير ، إذاً فهو يسبح فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور .

إذاً فهذا الفريق على جهل وضلال وظلمة ، ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال * له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾[3] .

ثم يضيف القرآن الكريم إلى صفات هذا الفريق صفة أخرى ، فيقول سبحانه : ﴿ **ثانى عِطْفِهِ ليضل عن سبيل الله** ﴾ : أى:لاوى جنبه كبراً وعناداً واستكباراً فى الأرض ، ومكر السىء ، والكبر يعتمد على ركنين : بطر الحق ، وغمط الناس .

وهذا الفريق قد استوفى هذه المواصفات ، إنه يجادل بجهل وضلال ، وفى ظلمة ، ويتكبر على الحق فلا يغفله ، ويحتقر الناس فيزدريهم .

ثم يبين لنا الكتاب الكريم ، هدف هذا الفريق وغايته فيقول : ﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ ذلك لأنهما قصدا بالمجادلة عدم الوصول إلى الحق،إنما قصدا بها الإضلال ، فهو ضال مضل ، ثم يأتى الجزاء العادل ، فيقول سبحانه : ﴿ **له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** ﴾ .

ثم يأتى تعليل هذا الجزاء فى قوله سبحانه : ﴿ **ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ .

نعم إن الخزى لا يقتصر على دار الدنيا ، أو على دار الآخرة ، بل إنه كما قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[4] .

إن الله تعالى هو الحكم العدل المقسط ، لا يظلم أحداً ، لذا فإنه حرم الظلم على نفسه ، وحرمه على عباده ، ونهاهم عنه .

---

(١) الآية ٦٣ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥٦ من سورة الكهف .
(٣) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة الرعد .
(٤) الآيات ١٢٤ - ١٢٦ من سورة طه .

ومعنى : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ :

أى:ليس بذى ظلم ، فاللفظ وإن جاء بصيغة المبالغة إلا أنه يقصد به نفى نسبة الظلم إلى الله تعالى : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾[١] ، ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٢] ، ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٣]

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ :

هذه حال فريق من الناس لم يعرفوا الله معرفةَ المتمكن الواثق ، ولم يعبدوه عبادة المؤمن الصادق ، إنما عبدوه على جانب يسير حسب التجربة ، فإن أصابهم خير من صحة ورزق وولد استمروا فى تلك العبادة الهامشية ، فإذا ابتلاهم الله بشدة من ضياع مال وفقد ولد انقلبوا على وجوههم ، وارتدوا على أعقابهم خائبين خاسرين ، وليس بعد هذا الخسران من خسران ، إنه الخسران المبين ، وليست هذه الصفات من الإسلام فى شىء ، ومن ثم فإن الناس من حيث صلتهم بالله أربعة أقسام :

هذا قسم منهم : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ : هؤلاء عبدوا الله فى الرخاء ، ونسوه فى الشدة .

والقسم الثانى : نسوا الله فى الرخاء والشدة ، فهم فى الرخاء معرضون ، وفى الشدة يائسون ، قال تعالى : ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً ﴾[٤] .

والقسم الثالث : قسم عرفوا الله فى الرخاء والشدة قال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾[٥] .

والقسم الرابع : قوم اتجهوا إلى الله فى الشدة ، فلما كشف عنهم ما نزل بهم نسوا الله وأعرضوا عنه ، قال تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾[٦] .

إن الذين عبدوا الله على حرف يقول الله فيهم : ﴿ يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد * يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ .

إن الذين يدعون من دون الله ويعبدونهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، فمن دعا أو عبد غير الله فقد وقع فى ضلال بعيد ، لأنه يدعو الذى ضره أقرب من نفعه ، لأن عبادته له ضرر كبير ، يودى به إلى الخلود فى النار .

(١) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٢) الآية ٤٤ من سورة يونس .
(٣) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٤) الآية ٨٣ من سورة الإسراء .
(٥) الآيتان ١٣٣ ، ١٣٤ من سورة آل عمران .
(٦) الآية ١٢ من سورة يونس .

﴿ لبئس المولى ﴾ : أسلوب ذم لمن اعتقدوه ناصراً له . ﴿ ولبئس العشير ﴾ : أى الصاحب الملازم لعبادة هؤلاء .

إن الله تعالى يقول فى حديثه الجليل : [أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى تركته وشريكه][1] .

إن المؤمنين الصادقين عرفوا الله فى كل أحوالهم ، إنهم فى الرخاء شاكرون ، وفى البلاء صابرون .

عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ـ أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أوعليك ، كل الناس يغدو : فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها »[2] . رواه مسلم .

معنى الحديث

الطهور : بالضم على الأفصح والمراد به الفعل والتطهير والنظافة والنقاء من الأوساخ والأقذار ، والبراءة من العيوب الباطنة . .

الميزان : يملأ ثوابها .

سبحان الله : بغرض الجسمية لو مثل ثواب قائل الحمد لله وشاكر ربه لرجحت كفة ميزانه وزاد وزنها ، ففيه الترغيب بكثرة الثناء على الله ، والإقبال عليه بأداء أوامره وشكره ، رجاء ثقل الميزان بكسب الحسنات .

تملأ : يملأ ثواب كل منهما لو حسم لقدر حجمه كما بين . السماء والأرض .

قال المناوى : وسبب عظم فضلها ما اشتملتا عليه من التنزيه لله تعالى ، بقوله : سبحان الله ، والتفويض والافتقار بقوله : الحمد لله .

فعليك ياأخى بكثرة تسبيح الله وتحميده وتمجيده . وذكره ، رجاء نيل أجر الله .

الصلاة نور : قال العلقمى : لأنها تمنع عن المعاصى ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، وتهدى إلى الصواب ، كما أن النور يستضاء به . وقيل : يكون أجر الصلاة نوراً لصاحبها يوم القيامة ، وقيل : لأنها سبب لإشراق أنوار المعارف ، وانشراح القلب ، ومكاشفات الحقائق ، لفراغ القلب فيها ، وإقباله على الله ، وقيل:يكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة : وفى الدنيا أيضا : على وجهه بالبهاء ، بخلاف ما لم يصلّ .

الصدقة برهان : قال العلقمى : أى:حجة على إيمان فاعلها ، فإن المنافق يمتنع منها لكونه

(١) أخرجه مسلم فى الزهد : ٤٦ .

(٢) أخرجه الدارمى فى الوضوء : ٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٢ ـ ٣٤٤ . والنسائى فى الزكاة : ١ . مسلم فى الطهارة : ١ . والترمذى فى الجمعة : ٨٠ ، وفى الدعوات : ٨٥ . وابن ماجه فى الطهارة : ٥ .

لا يعتقدها . زاد النووى قال صاحب التحرير : معناه يفزع إليها كما يفزع إلى البراهين ، كأن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين فى جواب هذا السؤال ، فيقول : تصدقت به . وقال : ويجوز أن يوسم المتصدق بسيمة يعرف بها ، فتكون برهاناً له على حاله ، ولا يسأل عن مصرف ماله .

الصبر ضياء : قال العلقمى : قال النووى : معناه الصبر المحبوب فى الشرع وهو الصبر على طاعة الله ، والصبر عن معصيته ، والصبر أيضاً على النائبات ، وأنواع المكاره فى الدنيا ، والمراد أن الصبر المحبوب لا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب .

فمعتقها : فمبعدها من النار .

موبقها : أى:مهلكها .

قال العلقمى : معناه أن كل إنسان يسعى بنفسه ، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها : أى:يهلكها ، كأنه قيل:ما حال الناس بعد ذلك ؟ فأجيب كل الناس . .

بين النبى ﷺ فى هذا الحديث فوائد سبعة ، هن عماد الحياة ، ومنبع السعادة ، ومعين الخير ، وبحار المكارم ، وجالبة كل المحامد :

(أ) النظافة والطهارة .

(ب) الثناء على الله تعالى وشكره على جميع ما أنعم وتفضل .

(جـ) تسبيحه وعبادته وذكره ، حتى لا يغفل القلب عن ربه .

(د) إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة على أحسن وجه . وأكمله ، فمن صلى تلألأ وجهه نوراً ، وأشرق قلبه سروراً ، وامتلأ إيماناً وحبوراً ، والتصدق بطاقة الإجازة من العذاب ، والإنفاق لله شهادة صدق لصالح الأعمال ، والزكاة عنوان استقامة وطهارة ، وسبيل الهداية فى الحياة الدنيا ، وبرهان ناطق لسلوك فاعلها مناهج الأبرار الأخيار .

(هـ) حبس النفس على المكاره اتقاء السخط ، والباعث على ذلك التجمل والتكمل المنبعث من أشعة الإيمان الساطعة فى القلب ، كما قال الحفنى : الصبر على المصائب مع عدم الضجر ، أو الصبر على الأوامر والمنهيات سبب فى حصول الضياء فى القلب ، أى النور الشديد الكامل .

(و) وجود القرآن بين أظهرنا ، نسمع آياته ليل نهار ، شاهد عدل علينا ، ويكون شفيعاً لمن عمل به ، وتمسك بحبله ، واهتدى بقبسه ، وانتفع بآياته ، واسترشد بأحكامه ، ويكون خصماً ألد للفاسقين والعاصين والطغاة الفاجرين . يقرأ القارىء فيتحدثون فى مجالسه ، ويتكلمون ويشربون التبغ ، وتتشتت أفكارهم ، وشابهوا الكفار فى قول الله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن

والغَوْا فيه لعلكم تغلبون ﴾(١) ، ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذين كانوا يعملون ﴾(٢) ، ﴿ ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾(٣) ، ﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾(٤) .

﴿ والغوا فيه ﴾ : وعارضوه بالخرافات ، أو ارفعوا أصواتكم بها لتشوشوا على القارىء .

﴿ دار الخلد ﴾ : دار إقامتهم .

﴿ يجحدون ﴾ ينكرون الحق أو يلغون .

﴿ أضلانا ﴾ : هما إبليس وقابيل ، فإنهما سنا الكفر والقتل .

﴿ نجعلهما ﴾ : قدمتهما انتقاماً منهما ، أو نجعلهما فى الدرك الأسفل مكاناً أو ذلاً أ ، هـ .

ثم بين ﷺ أننا فى الدنيا صنفان :

١ ـ صنف تقى نقى صالح طاهر ، عامل بالكتاب والسنة ، وهذا هو الفائز الناجح السعيد ، الذى ضرب بسهم صائب ، وبرز فى ميدان الفلاح بالسبق إلى رضوان الله ونعيمه ، فخلص نفسه من ربقة العذاب ، وأسر الشهوات ، فنجاه .

٢ ـ صنف خائب خاسر ، يسعى لحتفه بظلفه ، ويسترسل فى الدنايا والمعاصى ، فيقع فى الهاوية ، وينحط إلى الجحيم ، ويسود وجهه ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾(٥) .

لماذا ؟ لأن القرآن والسنة أشرقتا بالأنوار ، فلم يهتد بهديهما ، ولم يعمل صالحاً فى حياته ، وغمس فى الترف والرفاهية ، وخلت صحيفته من كل مكرمة أو محمدة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

* وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر »(٦) رواه البخارى ومسلم .

رواه الحاكم من حديث أبى هريرة مختصراً : « ما رزق الله عبداً خيراً له ولا أوسع من الصبر » . وقال : صحيح على شرطها .

* وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أربع لا يصبنى إلا بعجب : الصبر ، وهو أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله ، وقلة الشرع » . رواه الطبرانى والحاكم كلاهما من رواية العوام ابن جويرية ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد ، وتقدم فى الصمت .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٢٧ من سورة فصلت .
(٣) الآية ٢٨ من سورة فصلت .
(٤) الآية ٢٩ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٦ من سورة المجادلة .
(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٠ ، وفى الزكاة : ٥٠ . ومسلم فى الزكاة : ١٢٤ . وأبوداود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٧٧ . والنسائى فى الزكاة : ٨٥ . والدارمى فى الزكاة : ١٨ . والإمام مالك فى الصدقة : ٧ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٢ ، ٤٧ ، ٩٣ .

المعـــنى

أربعة أشياء تصادف المؤمن : حقبة يندهش لها الإنسان لعروضها على حالة شاقة .

وفى الغريب : العجب والتعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشىء ، ولهذا قال بعض الحكماء : العجب مالا يعرف الإنسان سببه ، ولهذا قيل : لا يصح على الله التعجب ، إذ هو علام الغيوب ، لا تخفى عليه خافية ، يقال : عجبت عجباً ، ويقال للشىء الذى يتعجب منه عجب ، ولما لم يعهد مثله عجيب قال تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا ﴾[(١)] تبينها أنهم قد عهدوا مثل ذلك قبله : وها هى الأربعة :

(أ) تحمل الآلام .

(ب) اللين وكرم الأخلاق .

(جـ) تسبيح الله وطاعته .

(د) القناعة والرضا بالقليل .

* عن علقمة قال : قال عبد الله : (الصبر نصف الإيمان ، واليقين الإيمان كله) ، رواه الطبرانى فى الكبير ورواته رواة الصحيح ، وهو موقوف ، وقد رفعه بعضهم .

واليقين : من صفة العلم فوق المعرفة والدراية ، يقال علم اليقين ، ولا يقال معرفة اليقين ، وهو سكون الفهم مع ثبات الحكم ، قال تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾[(٢)] . فالإيمان نهاية الثقة بالله تعالى .

* وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »[(٣)] ، رواه مسلم .

المعنى

عجباً : أعجب عجباً .

سراء : أشياء مفرحة .

ضراء : أشياء مؤلمة كارهة .

النبى ﷺ يبشر المؤمن بما يصيبه ، ويخبره أن كل شىء أحاطه كسب منه ثواباً : فإن أمده الله

(١) الآية ٢ من سورة يونس .

(٢) الآية ٢٠ من سورة الذاريات .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ ، ١٦ .

بنعم فحمده نال أجراً ، وإن أصابته سيئة فصبر نال ثوابها فهو فى الحالتين مكرم مثاب ومؤجر .

* وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : « إن الله عز وجل قال : يا عيسى إنى باعث من بعدك أمة إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم ، فقال : يا رب كيف يكون هذا : قال : أعطيهم من حلمى وعلمى » .
رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

* وروى عن شجيرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر ثم سكت فقالوا : يا رسول الله ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون » .
رواه الطبرانى .

المعـــانى

احتسبوا : سلموها لله تعالى طلباً لوجه الله تعالى وثوابه فالاحتساب من الحسب كالاعتداد من العد .

صبروا : تحملوا الآلام .

لا حلم ولا علم : ليس عندهم خلقاً الحلم والعلم .

أعطيهم من حلمى وعلمى : أهب لهم خلق الحلم بطول البال والأناة فلا يستفزهم غضب ، وأرزقهم التثبت فى الأمور والترتيب .

يبشر النبى ﷺ على لسان سيدنا عيسى عليه السلام بإكرام أمته ، وتفضله عليهم بالسداد فى الأمر والصواب فى العمل ، والحكمة والتوفيق .

* وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما ابتلى الله عبداً ببلاء وهى على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وظهوراً ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله عز وجل أو يدعو غير الله فى كشفه » .
رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض والكفارات

المعـــانى

كفارة : ماحياً لذنوبه .

البلاء بغير الله عز وجل : مدة عدم إسناد هذا لغير الله وحده بمعنى أنه يثاب ، ما دام يعتقد أن هذا المرض ، أو المحن من الله تعالى ، وهو الذى يكشف الكروب وحده ، فإذا حاد وضجر ويئس وأسند ما أصابه إلى غير الله ، وشكا لغير الله ، فلا ثواب له البتة ، نسأل الله السلامة .

أو يدعو غير الله فى كشفه : يعتقد أن الطبيب يشفيه أو غيره يزيل همومه ، والنبى ﷺ يقول : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله »(١) .

يعلمك رسول الله ﷺ أن تصبر إذا أصابك مكروه ، رجاء ثواب الله سبحانه ، وأن تتحمل الآلام فى سبيل رضاه سبحانه ، والرضا بقضائه ، وألا تلجأ إلى مخلوق فى كشف هذا الضر ، فالله وحده مفرج الكروب ، مزيل الهموم ، كما قال محمد بن بشير :

كم من فتى قصرت فى الرزق خطوته ... ألفيته بسهام الرزق قد فلجا
إن الأمور إذا انسدت مسالكها ... فالعبد يفتق منها كل ما ارتتجا
لا تيأسن وإن طالت مطالبه ... إذا استعنت بعبد أن ترى يلجا
أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ... ومدمنى القرع للأبواب أن يلجا
قدر لرجلك قبل الخطو موضعها ... فمن علا زلقاً عن غرة زلجاً
ولا يغرنك صفو أنت شاربه ... فربما كان بالتكدير ممتزجا

وعدٌ ووعيد

إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ
ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ
يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ
وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ
تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ
وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن
مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٥٩ .

وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا
وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾
وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾

المفردات : ﴿ **بسبب** ﴾ : أى بحبل .

﴿ **ليقطع** ﴾ : أى ليختنق .

﴿ **فلينظر** ﴾ : أى فليقدر فى نفسه النظر .

﴿ **كيده** ﴾ : أى فعله .

﴿ **ما يغيظ** ﴾ : أى غيظه .

﴿ **الذين هادوا** ﴾ : هم اليهود .

﴿ **والصابئين** ﴾ : قوم يعبدون الملائكة ويصلون إلى القبلة ويقرءون الزبور .

وفى كتاب الملل والنحل للشهرستانى : إن الصابئة كانوا على عهد إبراهيم عليه السلام ، ويقال لمقابليهم الحنفاء ، وعمدة مذهبهم تعظيم النجوم وثوابتها وسياراتها ، والمجوس (على ما قاله قتادة) : قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران .

﴿ **والذين أشركوا** ﴾ : هم عباد الأوثان .

فالملل ستة : خمسة للشيطان ، وواحدة للرحمن .

﴿ **يفصل** ﴾ : أى يقضى بإظهار المحق من المبطل .

﴿ **شهيد** ﴾ : أى عالم بكل الأشياء ومراقب لها .

﴿ **ألم تر** ﴾ : أى ألم تعلم .

﴿ **والسجود** ﴾ : لغة التطامن والتذلل ثم أطلق على التذلل لله وعبادته : وهو حزبان : سجود بالاختيار ، وهو خاص بالإنسان ، وبه يستحق الثواب ، وسجود بالتسخير والانقياد لإرادته سبحانه ، وهو دال على الذلة ، والافتقار إلى عظمته ، جلت قدرته .

﴿ **من فى السموات** ﴾ : هم الملائكة .

﴿ **ومن فى الأرض** ﴾ : هم الإنس والجن .

﴿ **وحق** ﴾ : أى ثبت وتقرر .

﴿ خصمان ﴾ : واحدها خصم وهو من له رأى غير رأيك فى موضوع ما وكل منهما يحاج صاحبه فيه .

﴿ قطعت لهم ﴾ : أى:قدرت .

﴿ والحميم ﴾ : الماء الذى بلغت حرارته أقصى الغاية .

﴿ يصهر به ﴾ : أى:يذاب .

﴿ ومقامع ﴾ : واحدها مقمعة وهى السوط .

﴿ والغم ﴾ : الحزن الشديد .

﴿ والطيب من القول ﴾ : ما يقع فى محاورة أهل الجنة بعضهم بعضاً .

﴿ وصراط الحميد ﴾ : أى:الطريق المحمود فى آداب المعاشرة والاجتماع .

قوله تعالى : ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ﴾ :

هذا مقتضى منطق العدالة الإلهية ، فالذين آمنوا هم الذين صدقوا بقلوبهم ، وعملوا بكل ما جاء به نبيهم ،وأعلنوا كلمة التوحيد بألسنتهم ، ففضل الله وعدله وإحسانه وميزانه وتكرمه وسعة رحمته ، اقتضى كل هذا أن يجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، فيدخلهم دار كرامته وجناته بفضله ، وسلامة صدورهم ، وسخاوة نفوسهم ، إنها الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، أى من تحت قصورها وأشجارها ، وتغريد أطيارها ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾[١] .

﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ : لا يغلبه أحد ، ولا يقهره سلطان ، فهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، يثيب المحسنين ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا :

غداً توفى النفوس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

قوله تعالى : ﴿ من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ .

هذا وعد من الله تعالى بنصرة نبيه ودينه ، مهما تكالبت عليه الأعداء ، فإن قافلة الإسلام ستسير مهما كانت الذئاب تعوى ، ولن يضر السحاب نبح الكلاب .

ما يضر البحر أمسى ذاخراً ... إن رمى فيه غلام بحجر

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[٢] .

(١) الآيات ١١ - ١٣ من سورة الإنسان . (٢) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الصف .

إن الاسلام للعالم كالضياء والماء والهواء ، لا تستقيم الحياة بدونها ، إنما تصير رفات سحيقة ، وصعيدا جرزا ، وصحراء جرداء أو قاحلة ، ذاك منطق الأشياء .

ومن رضى الحياة بغير دين فقد جعل الفناء لها قرينا

فمن كان يظن أن الله تعالى لن ينصر محمداً ، فليأت بحبل ، وليمدد به إلى جهة السماء ، ثم يعلق نفسه به ، ثم ليقطع هذا الحبل ، إنه سيهوى إلى الأرض مهما اتخذ من الحبل ، ودبر من الكيد ، وذلك بمنطق قانون الجاذبية ، فهل استطاع كيده ، وهل تمكنت حيله ، من ذهاب الغيظ الذى ملأ قلبه على محمد ودينه ؟

إنه كناطح صخرة ليوهنها ، فلم يستطع أن يفعل شيئا ، إنما عاد بتحطيم رأسه .

فقل لأعداء الاسلام : على رسلكم ، إن الإسلام شامخ ، أشد من شموخ الجبال الراسيات ، بازغ كالشمس فى ضحاها ، راسخ كالأعلام ، فوفروا على أنفسكم حربه ، فإنه لن يزول ، وما كان الله ليضيع دينه ، ولا أمانته ، ولا ما بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم .

فكم زالت رياض من رباها وكم بادت نخيل فى البوادى
ولكن نخلة الإسلام تنمو على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الإسلام باق بقاء الشمس والسبع الشداد

قوله تعالى : ﴿ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد ﴾ .

وكما سبق تفصيل الأدلة ، وقيام البراهين على البعث ، وما تبعه من أحكام ، أنزلت القرآن آيات بينات ، ودلائل باهرات ، ومن أراد الله له الهداية فهو السعيد المهتدى ﴿ ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾(١) .

﴿ إن الذين آمنوا والذى هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾ :

الكفر كله ملة واحدة ، مهما تعددت أشكاله ، واختلفت مشاربه ، وتنوعت مذاهبه ، فقد يبدو فى صورة عبادة الملائكة ، أو فى اعتناق اليهودية ، أو عبادة المسيح ، أو عزير ، أو عبادة النار ، أو الأصنام .

طريق الإيمان واحد ، وطرق الكفر متعددة ، وقد يكون الكفر كفر نفاق ، أو جحود ، ككفر الشيوعية ، أو كبر ككفر فرعون ، إلى غير ذلك من طرق الضلال ، لذلك فإن الله أفرد النور ، وجمع الظلمات ، فى قوله : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾(٢) .

الحق واحد لايتعدد والباطل مذاهب شتى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله

(١) الآية ١٧ من سورة الكهف . (٢) الآية الأولى من سورة الأنعام .

فقل أفلا تتقون * فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾(١) .

إن الذى يفصل بين أهل الحق والباطل يوم القيامة هو الله ، ﴿ وما من غائبة فى السموات والأرض إلا فى كتاب مبين * إن هذا القرآن يقضى على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون * وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين * إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم * فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾(٢) .

إن الله تعالى علم من العباد ما كان وما يكون وما سيكون ومالا يكون ، لو كان كيف كان يكون ، هو الحكم العدل المقسط ، يفصل فى الأمور بحكمه ، ويقضى بين العباد بعلمه ، إن الله على كل شىء شهيد ، حاضر لا يغيب .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾ :

السجود خضوع وإذعان وانقياد للخالق ، وقد يكون طوعا واختيار ، سجود الإنس والجن والملائكة ، وقد يكون خضوعاً : تسخيريا كالشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر ، فانظر إلى السماء وارتفاعها ، وإلى الأفلاك ومدارها ، وإلى الجبال ورسوخها ، وإلى البحار وأمواجها ، وإلى الأرض واتساعها ، وإلى كل ظاهر وكامن ومتحرك وساكن ، الكل يشهد بجلاله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكره ، ولا يغفل عن شكره .

ولما كانت هذه المخلوقات ساجدة سجود انقياد وتسخير ، لم يتخلف منها شىء عن السجود لله ، أما الإنسان فقد سجد كثير من نوعه ، ولم يسجد كله لذا قال تعالى : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ إن من سجد لغير الله فقد ذلَّ ، ومن سجد لله ما ذل ولا مل ولا اختل ولا ضل .

قال تعالى : ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ : ذلك لأن العزة كلها فى طاعة الله .

﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾(٣) .

﴿ إن الله يفعل ما يشاء ﴾ : فهو المريد ، ذو الحكمة البالغة ، والعلم المحيط بالأشياء .

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

﴿ هذان خصمان اختصموا فى ربهم ﴾ :

هذا تفصيل للجزاء الذى سيناله كل فريق ، إن بين الحق والباطل خصومة وصراعاً ، فأهل الإيمان فى جانب ، وبقية هذه الفرق فى جانب : اليهود والصابئون والنصارى والمجوس والذين أشركوا وغير ذلك من ملل الضلال فى جانب ، وخصومة كلا الفريقين فى الله ، فالمؤمنون عبدوه وحده ، ووحدوه فى الألوهية والربوبية ، وغير المؤمنين انحرفوا عن الطريق السوى ، والصراط المستقيم ، ولكل جزاؤه .

(١) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس .
(٢) الآيات ٧٦ ـ ٧٩ من سورة النمل .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النور .

وقد بين الله تعالى جزاء أهل الضلال فى قوله : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ :

هذا هو النوع الأول من العذاب الحسى ، فتصور كيف يصنع من النار ما يستر أجسامهم من الثياب ، أى عذاب هذا ، بل وأى إهانة تلك ، لقد كانوا فى الدنيا يستمتعون بالحرير والذهب ، فصاروا فى العذاب يلبسون ثيابا من نار ، سرابيلهم من قطران .

ثم يأتى النوع الثانى من العذاب الحسى : ﴿ يصب من فوق رءوسهم الحميم ﴾ : الماء الذى بلغ درجة من الغليان لا تسامى .

ثم يأتى النوع الثالث : ﴿ يصهر به ما فى بطونهم والجلود ﴾ :

إن هذا الماء يذيب أمعاءهم وجلودهم:﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾[(١)] .

أخرج عبد بن حميد ، والترمذى فى جماعة ، عن أبى هريرة أنه تلا هذه الآية فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الحميم ينصب على رءوسهم فينفذ من الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما فى جوفه حتى يبلغ قدميه ، وهو القهر ، ثم يعاد كما كان »[(٢)] .

ثم يأتى النوع الرابع من العذاب الحسى ، فيقول تعالى : ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ .

يضربون بها ، وما من شك فى أن تلك المقامع فيها الإهانة كلها . والإيلام الذى بلغ مداه ، فما أبعد هذا الشقاء وما أشده :

ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، فاللهم قنا عذابك ، يوم يبعث عبادك .

عن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله ﴿ كالمهل ﴾ قال : « كعكر الزيت ، فإذا قرب إلى وجهه سقطت فروة وجهه منه »[(٣)] رواه أحمد .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ ويسقى من ماء صديد يتجرعه ﴾ :

قال : (يقرب إلى فيه فيكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره ، قال الله عز وجل : ﴿ وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾[(٤)] ويقول : ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب ﴾[(٥)(٦)] رواه أحمد والترمذى .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لو أن دلواً من غساق يهراق فى الدنيا لأنتن أهل الدنيا »[(٧)] . رواه الترمذى .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الكهف. (٤) الآية ١٥ من سورة محمد. (٥) الآية ٢٩ من سورة الكهف.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٤ . (٦) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .

(٣) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة : ٧٠ ، وفى جهنم : ٤ .

(٧) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٢٨ ، ٨٣ .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : مدمن الخمر ، وقاطع الرحم ، ومصدق بالسحر . ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة ، قيل : وما نهر الغوطة ؟ قال : نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهم »(١). رواه أحمد .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾(٢) فقال رسول الله ﷺ : (لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟)(٣) رواه الترمذى .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يلقى على أهل النار الجوع ، فيعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب ، فيستغيثون بالشراب ، فيدفع إليهم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون : ﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاؤ الكافرين إلا فى ضلال ﴾(٤) قال : فيقولون : ادعو مالكا ، فيقولون : ﴿ يا مالك ليقض علينا ربك ﴾(٥) قال : فيجيبهم : ﴿ إنكم ماكثون ﴾ .

قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام . قال : فيقولون : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون : ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾(٦) قال : فيجيبهم : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾(٧) قال : فعند ذلك يئسوا منه كل خير ، وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل (٨) . رواه الترمذى والبيهقى .

ثم يأتى العذاب النفسى بعد العذاب الحسى ، وكلاهما مر ، قال سبحانه : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ :

لذا قيل إن أشد آية على أهل النار قوله تعالى : ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾(٩) .

إن الغم هو الحزن الشديد الذى يمزق نياط القلوب ، تنخلع له الأفئدة ، وتنفطر من هوله الأكباد .

﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾(١٠) قالوا : إنه لا يرد عليهم إلا بعد ألف سنة ، فيقول لهم : إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٣٩٩ .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .
(٣) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٤ . وابن ماجه فى الزهد : ٣٨ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٠١ ، ٣٣٨ .
(٤) الآية ٥٠ من سورة غافر .
(٥) الآية ٧٧ من سورة الزخرف .
(٦) الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة المؤمنون .
(٧) الآية ١٠٨ من سورة المؤمنون .
(٨) أخرجه الترمذى فى جهنم : ٥ .
(٩) الآية ٣٠ من سورة النبأ .
(١٠) الآية ٧٧ من سورة الزخرف .

ثم يعقب هذا العذاب النفسى نوعاً آخر من العذاب الحسى قال تعالى : ﴿ **وذوقوا عذاب الحريق** ﴾ : وأشد عذاب للأجسام هو الحريق .

﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾(١) .

وبعد نار الوعيد يشرق نور الوعد ، فيقول سبحانه : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ .

أى:إن الله يدخل من آمن به وبرسله وعمل صالح الأعمال التى تزكى نفوسهم ، وتقربهم إلى ربهم ، جنات تجرى من تحت قصورها وأشجارها الوارقة الظلال : الأنهار الواسعة ، يتمتعون بها كما شاءوا .

﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً** ﴾ : أى:يلبسون فى أيديهم حلية من ذهب ، وفى رءوسهم تيجانا من لؤلؤ .

﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ :

أى:ويلبسون الحرير الذى حرم عليهم لبسه فى الدنيا ، وكان فيها عنوان العزة والكرامة ، فأوتوه فى الآخرة ، إجلالا وتعظيما لهم .

﴿ **وهدوا إلى الطيب من القول** ﴾ :

أى:وأرشدوا إلى القول الطيب ، وهو قولهم حين دخول الجنة : ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾(٢) .

﴿ **وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾ :

وأى:وأرشدوا إلى الطريق الحميد ، الذى يجعل أقوالهم وأفعالهم مرضية عند ربهم ، محمودة لدى معاشريهم وإخوانهم ، لما فيها مما يجمل فى المعاشرة والاجتماع .

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام . والله لايجدها عاق ولاقاطع رحم » . رواه الطبرانى .

وعن على رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ : عن هذه الآية:﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾(٣) إلى آخرها قال : قلت:يا رسول الله ما الوفد إلا ركبٌ ؟ قال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض ، لها أجنحة ، عليها رحال الذهب ، شرك نعالهم نور يتلألأ ، كل خطوة منها مثل مد البصر ، وينتهون إلى باب الجنة ، فإذا حلقة من ياقوتة حمراء

---

(١) الآية ٥٦ من سورة النساء .

(٢) الآية ٧٤ من سورة الزمر .

(٣) الآية ٨٥ من سورة مريم .

على صفائح الذهب ، وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان ، فإذا شربوا من أحدهما جرت فى وجوههم بنضرة النعيم ، وإذا توضئوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبدا ، فيضربون الحلقة بالصفيحة ، فلو سمعت طنين الحلقة بأعلى فيبلغ كل حوراء ، أن زوجها قد أقبل فتستخفها العجلة ، فتبعث قيمها ، فيفتح له الباب ، فلولا أن الله عز وجل عرفه نفسه لخر له ساجدا مما يرى من النور والبهاء ، فيقول : أنا قيمك الذى وكلت بأمرك ، فيتبعه فيقفوا أثره ، فيأتى زوجته فتستخفها العجلة ، فتخرج من الخيمة فتعانقه ، وتقول : أنت حبى وأنا حبك ، وأنا الراضية فلا أسخط أبدا ، وأنا الناعمة فلا أبأس أبداً ، وأنا الخالدة فلا أظعن أبداً . فيدخل بيتاً من أساسه إلى سقفه مائة ألف ذراع ، مبنى على جندل اللؤلؤ والياقوت ، طرائق حمر ، وطرائق خضر ، وطرائق صفر ، ما منها طريقة تشاكل صاحبتها .

فيأتى الأريكة فإذا عليها سرير ، على السرير سبعون فراشا ، على كل فراش سبعون زوجة ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ ساقيها من باطن الحلل ، يقضى جماعهن فى مقدار ليلة ، تجرى من تحتهم أنهار مطردة ، أنهار من ماء غير آسن صاف ليس فيه كدر ، وأنهار من عسل مصفى لم يخرج من بطون النحل ، وأنهار من خمر لذة للشاربين لم تعصره الرجال بأقدامها ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، لم يخرج من بطون الماشية ، فإذا اشتهوا الطعام جاءتهم طير بيض فترفع أجنحتها فيأكلون من جنوبها ، من أى الألوان شاءوا ، ثم تطير فتذهب ، وفيها ثمار متدلية إذا اشتهوها انبعث الغض إليهم فيأكلون من أى الثمار شاءوا ، إن شاء قائما ، وإن شاء متكئاً : وذلك قوله : ﴿ وجنا الجنتين دان ﴾[1] (وبين أيديهم خدم كاللؤلؤ) . رواه ابن أبى الدنيا .

وعن خالد بن عمير قال : خطبنا عتبة بن غزوان رضى الله عنه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : (أما بعد:فإن الدنيا قد آذنت بصرم ، وولت حذاء ، ولم يبق منها إلاّ صُبابة كصبابة الإناء ، يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها ، فانتقلوا بخير ما يحضرنكم ، ولقد ذكر لنا أن مابين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام)[2] رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر ، وهجر ومكة »[3] . رواه البخارى .

---

(١) الآية ٥٤ من سورة الرحمن .

(٢) أخرجه مسلم فى الزهد : ١٤ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٧٤ ، وفى ٥ : ٦١ .

(٣) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢٧ ، وفى الزهد : ١٤ . والترمذى فى القيامة : ١٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٣٦ ، وفى ٣ : ٢٩ ، وفى ٤ : ١٧٤ ، وفى ٥ : ٣ .

المسجد الحرام والحج

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً
ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۢ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٥﴾ وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ
مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾
وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾
لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ
ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ
وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ
وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾
حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ
تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾
لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا
لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ
ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي
ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ
فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ
كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن
يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٧﴾

المفردات : ﴿ المراد بالمسجد الحرام ﴾ : مكة ، وعبر به عنها لأنه المقصود المهم فيها .

﴿ العاكف ﴾ : المقيم .

﴿ والباد ﴾ : الطارىء القادم عليها .

﴿ والإلحاد ﴾ : العدول عن الاستقامة .

﴿ بظلم ﴾ : أى بغير حق .

﴿ يقال بوأه منزلا ﴾ : أى أنزله فيه وأصل البيت مأوى الإنسان بالليل ثم أطلق على كل مأوى متخذ من حجر أو مدر أو صوف أو وبر والمراد به هنا الكعبة .

وقد بنيت عدة مرات فى أوقات مختلفة .

﴿ وأذن ﴾ : أى نادى بالحج : أى بالدعوة إليه .

﴿ رجالاً ﴾ : أى مشاة .

﴿ الضامر ﴾ : البعير الهزيل الذى أتعبته كثرة الأسفار ، ويطلق على الذكر والأنثى .

﴿ الفج ﴾ : الطريق .

﴿ والعميق ﴾ : البعيد .

﴿ ويذكروا اسم الله ﴾ : أى يحمدوه ويشكروه .

﴿ والأيام المعلومات ﴾ : هى أيام النحر وهى ثلاثة أيام .

يوم العيد ، ويومان بعده .

﴿ بهيمة الأنعام ﴾ : المراد بها الإبل والبقر والضأن .

﴿ والبائس ﴾ : الذى أصابه البؤس والشدة .

﴿ وليقضوا ﴾ : أى ليزيلوا .

والتفث : الوسخ ، ويراد به هنا قص الشعور وتقليم الأظافر .

نذورهم : ما ينذر من أعمال البر فى الحج .

﴿ العتيق ﴾ : القديم لأنه أول بيت وضع للناس .

﴿ ذلك ﴾ : أى الأمر هكذا ويقع للفصل بين كلامين أو بين وجهى كلام واحد كقوله : ﴿ هذا وإن للطاغين لشر مآب ﴾[1] .

حرمات : التكاليف الدينية ، من مناسك الحج وغيرها .

وتعظيمها : العلم بوجوبها والعمل على موجب ذلك .

والزور : الكذب .

---

(١) الآية ٥٥ من سورة ص .

حنفاء : واحدهم حنيف ، وهو المائل عن كل دين زائغ إلى الدين الحق .

خرَّ : سقط .

تخطفه : الخطف : الاختلاس بسرعة .

تهوى : أي : تسقط .

سحيق : أي : بعيد .

والشعائر : واحدها شعيرة : وهي العلامة ، والمراد بها البدن الهدايا .

وتعظيمها : أن تختار حسانا سمانا ، غالية الأثمان .

والأجل المسمى : هو أن تنحر وتذبح .

ومحلها : مكان نحرها .

والمراد بالبيت العتيق : ما يليه ويقرب منه وهو الحرم .

المنسك : (بكسر السين وفتحها) والنسك في الأصل : العبادة مطلقا وشاع استعماله في أعمال الحج .

والمراد به هنا الذبح ، وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .

أسلموا : أي : انقادوا له .

المخبتين : أي المتواضعين الخاشعين ، من أخبت الرجل إذا سار في الخبت ، وهو المطمئن من الأرض .

وجلت : أي خافت .

البُدن : واحدها بدنة وهي الناقة ، أو البقرة التي تنحر بمكة ، وتطلق على الذكر والأنثى .

وشعائر الله : أعلام دينه التي شرعها لعباده .

صوافَّ : أي : قائمات قد صفت أيديهن وأرجلهن ، واحدها صافة .

وجبت جنوبها : أي سقطت جنوبها على الأرض ، ويراد بذلك زهقت أرواحها ، وفقدت الحركة .

القانع : أي : الراضي بما عنده ، وبما يعطى من غير مسألة .

والمعتر : أي : المتعرض للسؤال .

المحسنين : أي : المخلصين في كل ما يأتون وما يذرون في أمور دينهم .

المعنى

قوله تعالى : **﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾** .

عن ابن عباس فى قوله: ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ :

قال : ينزل أهل مكة وغيرهم فى المسجد الحرام .

وقال مجاهد : ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ أهل مكة وغيرهم فيه سواء فى المنازل .

يخبر سبحانه وتعالى فى هذه الآية عن الذين كفروا وجحدوا وحدانية الله ، وأضافوا إلى هذا الكفر صد الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام ، الذى جعله الله تعالى سواء العاكف فيه والباد ، أى:النائى ، فكلاهما سواء فى هذا المسجد الآمن .

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴾[2] .

فأين خبر إن ؟ إنه متصيد من الكلام تقديره : إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ، لهم عذاب أليم .

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً ﴾[3] .

﴿ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً * إلاَّ طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[4] .

ثم تأمل معى فى قوله تعالى : ﴿ كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ . كيف عبر عن الكفر بصيغة الماضى ، وعن الصد بصيغة المضارع ، تجد فى ذلك دلالة عميقة عن ثبات الكفر ، واستمرار الصد ، وهم يدعون أنهم أهل البيت وأولياؤه .

قال تعالى : ﴿ وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلاَّ المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون * وما كان صلاتهم عند البيت إلاَّ مُكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾[5] .

إن الله تعالى قد حفظ هذا البيت ، وأحاطه بالرعاية والعناية .

﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم ﴾ : أى:ومن تمل نفسه إلى إحداث ظلم فيه ، نذقه من عذاب أليم .

وما حادثة أصحاب الفيل عنك ببعيد ، عندما تحركت جيوش أبرهه ، وظنوا أن الطريق إلى البيت الحرام ممهد ، ونسوا أن للكون إلهاً ، وأن هذا البيت قد أضيف إليه إضافة تشريف وتكريم ومهابة

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١٦٧ من سورة النساء .
(٤) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة النساء .
(٥) الآيات ٣٣ - ٣٦ من سورة الأنفال .

وتعظيم ، وعندما سولت لهم أنفسهم أن يهدموه صدرت الأوامر من القيادة العليا إلى سرب من سلاح الطيران الإلهى يحمل بين أصابعه القنابل الجارفة الحارقة ، وتحرك السرب من قاعدة ما ، وخف يحمل القنابل إلى مكان المعركة ، بعدما حبس الله الفيل عن دخول مكة .

فكان نتيجة المعارك كما جاء فى ذلك البيان الحربى القرآنى :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم فى تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول ﴾ .

فيا أمة الإسلام ، ويا أتباع محمد خير الأنام : حافظوا على دعائم الإسلام : المصحف ، والمسجد الحرام ، وصلاة الجمع ، وعرفات ، ورمضان .

قوله تعالى :

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لاتشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود * وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ .

جاء فى الصحيحين عن أبى ذر قال قلت : يا رسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال : (المسجد الحرام) . قلت : ثم أى ؟ قال : (بيت المقدس) . قلت : كم بينهما ؟ قال : (أربعون سنة)[١] . وقد قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾[٢] .

وبوأنا لإبراهيم أى هيأنا له هذا المكان وأرشدناه إليه .

ومعنى : ﴿ لا تشرك بى شيئاً ﴾ أى ابن هذا البيت لرفع راية التوحيد ، والتوحيد إفراد المعبود بالعبودية مع إعتقاد وحدته ذاتاً وصفات وأفعالاً .

﴿ وطهر بيتى للطائفين ﴾ : قال قتادة : أى من الشرك .

﴿ للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ : أى اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها .

﴿ والقائمين ﴾ : أى فى الصلاة ولهذا قال : ﴿ والركع السجود ﴾ ، فقرن الطواف بالصلاة ، لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده ، والصلاة إليه فى غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة ، وفى الحرب ، والنافلة فى السفر .

فاللهم زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة ، وزد من شرفه أو اعتمره تشريفاً وتعظيماً وتكريماً وفضلاً .

---

(١) أخرجه مسلم فى المساجد ، والنسائى فى القسامة : ١٥ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٣ .

(٢) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران .

إن الله تعالى ينزل على حجاج بيته كل يوم عشرين ومائة رحمة ، ستين للطائفين ، وأربعين للمصلين ، وعشرين للناظرين .

قوله تعالى ﴿ وأذن فى الناس بالحج ﴾ : أى:ناد فى الناس بالحج داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذى أمرناك ببنائه ، فذكر أنه قال : يارب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ . فقام على مقامه ، وقيل على الحجر . وقيل على الصفا ، وقيل : على أبى قبيس ، وقال : يأيها الناس إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه . فيقال : إن الجبال تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع من فى الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شىء سمعه من حجر ومدر وشجر ، ومن كتب الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك .

هذا مضمون ما ورد عن ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، وغير واحد من السلف . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ :

﴿ يأتوك رجالاً ﴾ : أى مشاة . ﴿ وعلى كل ضامر ﴾ : أى راكبين .

وقد حج رسول الله ﷺ راكباً مع قدرته على المشى ، مما يدل على أن الركوب أفضل ، فالله تعالى يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾[1] قال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ يأتين من كل فج عميق ﴾ :

هذه الآية استجابة لدعوة إبراهيم حين دعا : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[3] .

والفج والفجاج : هى الطريق ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾[4] .

والفج العميق هو البعيد .

فتأمل معى حين قال الله لإبراهيم أذن فى الناس بالحج ، قال إبراهيم : وما يبلغ صوتى يا رب العزة . قال له : يا إبراهيم : عليك الأذان وعلينا الإبلاغ ، فصعد إبراهيم جبل أبى قبيس ، ونادى : أيها الناس إن ربكم بنى بيتاً فحجوه ، فلبت الأرواح : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

---

(١) الآية ١٧٨ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٣) الآية ٣٧ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٣١ من سورة الأنبياء .

فما هو الحج ؟

قال الفقهاء :

قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾(١) .

تعـــريفه :

هو قصد مكة لأداء عبادة الطواف والسعى والوقوف بعرفة وسائر مناسك الحج ، استجابة لأمر الله ، وابتغاء مرضاته ، وهو أحد أركان الإسلام الخمسة ، وفرض من الفرائض التى علمت من الدين بالضرورة .

فلو أنكر وجوبه منكر كفر وارتد عن الإسلام ، والمختار لدى جمهور العلماء أن إيجابه ، كان سنة ست بعد الهجرة ، لأنه نزل فيها قوله تعالى : ﴿ وأتموا الحج والعمرة لله ﴾(٢) .

وهذا مبنى على أن الإتمام يراد به ابتداء الفرض .

ويؤيد هذا قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعى (وأقيموا) رواه الطبرانى بسند صحيح .

ورجح ابن القيم أن افتراض الحج كان سنة تسع أو عشر .

فضـــله :

رغب الشارع فى أداء فريضة الحج ، وإليك بعض ما ورد فى ذلك :

* عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ أى العمل أفضل ؟ قال : (إيمان بالله ورسوله) . قيل : ثم ماذا ؟ قال : (الجهاد فى سبيل الله) . قيل : ثم ماذا ؟ قال : (حج مبرور)(٣) رواه البخارى ومسلم .

رواه ابن حبان فى صحيحه ولفظه : قال : رسول الله ﷺ : (أفضل الأعمال عند الله تعالى : إيمان لا شك فيه ، وغزو لا غلول فيه ، وحج مبرور) .

قال أبو هريرة : حجة مبرورة تكفر خطايا سنة .

(المبرور) : قيل: هو الذى لا يقع فيه معصية ، وقد جاء من حديث جابر مرفوعا :

(إن بر الحج : إطعام الطعام وطيب الكلام وعند بعضهم : إطعام الطعام وإفشاء السلام)(٤) .

---

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة آل عمران

(٢) الآية ١٩٦ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٨ ، وفى الحج : ٤ ، ٣٤ ، ١٠٢ ، وفى الجهاد : ١ ، وفى التوحيد : ٤٧ ، ومسلم فى الإيمان : ١٣٥ ، وفى الحج : ٢٠٤ ، ٤٣٧ ، والترمذى فى فضائل الجهاد : ٢٢ ، وفى الحج : ٨٨ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، ٥ ، ٦ ، وفى الجهاد : ١٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٣ ، والإمام مالك فى الحج : ٦٥ ، والدارمى فى الجهاد : ٤ . والإمام أحمد فى : ١ : ٢٤١ ، ٤٢٧ ، وفى ٢ : ٢٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٤ ، وفى ٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٤٤٧ ، وفى ٤ : ٢٠٤ ، وفى ٥ : ٤٥١ ، وفى ٦ : ٣٧٢ .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٦ ، والترمذى فى تفسير سورة ٣٨ : ٢ ، ٤ ، والدارمى فى الأطعمة : ٣٩ والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٣٨٥ ، وفى ٥ : ٢٤٣ ، ٣٧٨ .

* وعنه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه)[١] . رواه البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، وابن ماجه ، والترمذى إلا أنه قال : (غفر له ما تقدم من ذنبه) .

(الرفث) : بفتح الراء والفاء جميعاً : روى عن ابن عباس أنه قال :

الرفث : ما روجع به النساء .

وقال الأزهرى : **الرفث** : كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة .

قال الحافظ : الرفث : يطلق ويراد به الجماع ، ويطلق ويراد به الفحش ، ويطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة فيما يتعلق بالجماع ، وقد نقل فى معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء . والله تعالى أعلم .

* وعنه رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[٢] . رواه مالك والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه والأصبهانى وزاد : (وما سبح الحاج من تسبيحة ولا هلل من تهليلة ولا كبر من تكبيرة إلا بشر بها تبشيرة) .

* وعن ابن شماسة رضى الله عنه قال : (حضرنا عمرو بن العاص وهو فى سياقة الموت فبكى طويلا. وقال : فلما جعل الله الإسلام فى قلبى ، أتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله : أبسط يمينك لأبايعك ، فبسط يده ، فقبضت يدى . فقال : مالك يا عمرو؟ قال : أردت أن أشترط . قال : تشترط ماذا ؟ قال : أن يغفر لى . قال : أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله)[٣] .

رواه ابن خزيمة فى صحيحه هكذا مختصراً ، ورواه مسلم وغيره أطول منه .

* وعن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : (جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : إنى جبان ، وإنى ضعيف . فقال : هلم إلى جهاد لا شوكة فيه : الحج) .

رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورواته ثقات وأخرجه عبد الرزاق أيضا .

* وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (قلت يا رسول الله : نرى الجهاد أفضل الأعمال ، أفلا نجاهد ؟ فقال : لكن أفضل الجهاد حج مبرور)[٤] . رواه البخارى .

---

(١) أخرجه البخارى فى الحج : ٢٤ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٨ ، والترمذى فى الحج : ٢ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، وابن ماجه فى المناسك : ٣ ، والدارمى فى المناسك : ٧ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٩ ، ٢٤٨ ، ٤١٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى العمرة : ١ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٧ ، والترمذى فى الحج : ٢ ، ٨٨ ، والنسائى فى الحج : ٣ ، ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى المناسك : ٣ ، والدارمى فى المناسك : ٧ ، والإمام مالك فى الحج : ٦٥ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٧ ، وفى ٢ : ٢٤٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، وفى ٣ : ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٤٤٧ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٩٢ .

(٤) أخرجه البخارى فى الحج : ٤ ، وفى الصيد : ٢٦ ، وفى الجهاد : ١ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٧١ ، ٧٩ .

وابن خزيمة في صحيحه ولفظه قالت : (قلت : يا رسول الله هل على النساء من جهاد ؟ قال : عليهن جهاد لا قتال فيه : الحج والعمرة) .

* وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (جهاد الكبير والضعيف والمرأة : الحج والعمرة)[1] . رواه النسائى بإسناد حسن .

* وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ فى سؤال جبرائيل عليه السلام إياه عن الإسلام ؟ فقال : (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن تقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتحج وتعتمر ، وتغتسل من الجنابة ، وأن تتم الوضوء ، وتصوم رمضان . قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ قال : نعم . قال : صدقت)[2] رواه ابن خزيمة فى صحيحه وهو فى الصحيحين وغيرهما بغير هذا السياق .

* وروى ابن عمر رضى الله عنهما قال : (كنت جالسا مع النبى ﷺ فى مسجد منى ، فأتاه رجل من الأنصار ، ورجل من ثقيف فسلما ، ثم قالا : يا رسول الله جئنا نسألك . فقال : إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألانى عنه فعلت ، وإن شئتما أن أمسك وتسألانى فعلت ؟ فقالا : أخبرنا يا رسول الله فقال : الثقفى للأنصارى : سل . فقال : أخبرنى يا رسول الله فقال ، جئتنى تسألنى عن مخرجك من بيتك تؤم البيت الحرام ، ومالك فيه ، وعن ركعتيك بعد الطواف ومالك فيهما ، وعن طوافك بين الصفا والمروة ومالك فيه ، وعن وقوفك عشية عرفات ومالك فيه ، وعن رميك الجمار ومالك فيه ، وعن نحرك ومالك فيه من الإفاضة . فقال : والذى بعثك بالحق لعن هذا جئت أسألك . قال : فإنك خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام ، لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بنى إسماعيل عليه السلام ، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفات فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا ، فيباهى بكم الملائكة . يقول : عبادى جاءونى شعثاً من كل فج عميق ، يرجون جنتى ، فلو كانت ذنوبكم كعدد الرمل ، أو كقطر المطر ، أو كزبد البحر لغفرتها ، أفيضوا عبادى مغفوراً لكم ، ولمن شفعتم له . وأما رميك الجمار فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبير من الموبقات ، وأما نحرك فمدخور لك عند ربك . وأما حلاقك رأسك فلك بكل شعرة حلقتها حسنة ، ويمحى عنك بها خطيئة . وأما طوافك بالبيت بعد ذلك فإنك تطوف ولا ذنب لك يأتى ملك حتى يضع يديه بين كتفيك فيقول اعمل فيما تستقبل فقد غفر لك ما مضى) .

رواه الطبرانى فى الكبير ، والبزار واللفظ له .

* وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الحج جهاد كل ضعيف)[3] . رواه ابن ماجه عن أبى جعفر .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٨ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢١ ، وفى ٦ : ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٤ ، ٣٧ ، وفى الشهادات : ٢٦ ، وفى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، ومسلم فى الإيمان : ٥ ، ٧ ، ٨ ، وأبو داود فى السنة : ١٦ ، والترمذى فى الإيمان : ٤ ، والنسائى فى الإيمان : ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى المقدمة : ٩ ، ١٠ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٥٢ ، ١٦٢ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ٤٢٦ ، وفى ٤ : ١٢٩ ، ١٦٤ ، ٣٨٥ ، ٤٤٦ ، وفى ٥ : ٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٨ ، والنسائى فى الحج : ٤ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢١ ، وفى ٦ : ٢٩٤ ، ٣٠٣ ، ٣١٤ .

* وعن عمرو بن عتبة رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : (أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) . قال : فأى الإسلام أفضل ؟ قال : (الإيمان) . قال : وما الإيمان ؟ قال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت) . قال : فأى الإيمان أفضل ؟ قال : (الهجرة) . قال : وما الهجرة ؟ قال : (أن تهجر السوء) قال : فأى الهجرة أفضل ؟ قال : (الجهاد) قال : وما الجهاد ؟ قال : (أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم). قال : فأى الجهاد أفضل ؟ قال : (من عقر جواده وأهريق دمه) . قال رسول الله ﷺ : (ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل بمثلهما : حجة مبرورة ، أوعمرة مبرورة)[1] . رواه أحمد بإسناد صحيح ورواته محتج بهم فى الصحيح والطبرانى وغيره ورواه البيهقى عن أبى قلابة عن رجل من أهل الشام عن أبيه .

* وعن ماعز رضى الله عنه عن النبى ﷺ : أنه سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال : (إيمان بالله وحده ، ثم الجهاد ، ثم حجة برة ، تفضل سائر الأعمال كما بين مطلع الشمس إلى مغربها)[2] . رواه أحمد والطبرانى ورواه أحمد إلى ماعز رواة الصحيح .

(قال الفقهاء)

الحج يجب مرة واحدة :

أجمع العلماء على أن الحج لا يتكرر ، وأنه لا يجب فى العمر إلا مرة واحدة ، إلا أن ينذره ، فيجب الوفاء بالنذر ، وما زاد فهو تطوع .

* فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : (يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا) فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً ثم قال ﷺ : (لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم) ثم قال : (ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه)[3] . رواه البخارى ومسلم .

* وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (يا أيها الناس كتب عليكم الحج) فقام الأقرع بن حابس فقال : أفى كل عام يا رسول الله ؟ فقال : (لو قلتها لوجبت ، ولوجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا ، الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع)[4] .

رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وصححه .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٨٧ ، وفى ٣ : ١١٤ ، ٤١٢ ، وفى ٤ : ٣٤٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٤٢ .

(٣) أخرجه البخارى فى الاعتصام : ٢ ، ومسلم فى الحج : ٤١١ ، وفى الفضائل : ١٣١ ، والترمذى فى العلم : ١٧ ، والنسائى فى الحج : ١ ، وابن ماجه فى المقدمة : ١ .

(٤) أخرجه أبو داود فى المناسك : ١ ، والدارمى فى المناسك : ٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٥ ، ٢٩١ ، ٣٥٢ ، ٣٧١ .

وجوبه على الفور أو التراخى

ذهب الشافعى والثورى والأوزاعى ومحمد بن الحسن : إلى أن الحج واجب على التراخى ، فيؤدى فى أى وقت من العمر ، ولا يأثم من وجب عليه بتأخيره متى أداه قبل الوفاة ، لأن رسول الله ﷺ أخر الحج إلى سنة عشرة ، وكان معه أزواجه ، وكثير من أصحابه ، مع أن إيجابه كان سنة ست ، فلو كان واجباً على الفور لما أخره ﷺ .

قال الشافعى : فاستدللنا على أن الحج فرضه مرة فى العمر ، أوله البلوغ ، وآخره أن يأتى به قبل موته .

وذهب أبو حنيفة ومالك وأحمد وبعض أصحاب الشافعى وأبو يوسف إلى أن الحج واجب على الفور لحديث ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قال : (من أراد الحج فليعجل ، فإنه قد يمرض المريض ، وتضل الراحلة ، وتكون الحاجة)[1] .

رواه أحمد والبيهقى والطحاوى وابن ماجه .

وعنه أنه ﷺ قال : (تعجلوا الحج ـ يعنى الفريضة ـ فإن أحدكم لا يدرى ما يعرض له)[2] رواه أحمد والبيهقى وقال : (ما يعرض له من مرض أو حاجة) .

وحمل الأولون هذه الأحاديث على الندب ، وأنه يستحب تعجيله والمبادرة به ، متى استطاع المكلف أداءه .

شروط وجوب الحج

اتفق الفقهاء : على أنه يشترط لوجوب الحج ، الشروط الآتية :

١ ـ الإسلام .

٢ ـ البلوغ .

٣ ـ العقل .

٤ ـ الاستطاعة .

فمن لم تتحقق فيه هذه الشروط فلا يجب عليه الحج ، وذلك أن الإسلام والبلوغ والعقل شرط التكليف فى أية عبادة من العبادات .

وفى الحديث : أن النبى ﷺ قال : (رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل)[3] .

وأما الاستطاعة فلقول الله تعالى : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[4] .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٥٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣١٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحدود : ٢٢ ، وفى الطلاق : ١١ ، وأبو داود فى الحدود : ١٧ ، والترمذى فى الحدود : ١ ، وابن ماجه فى الطلاق : ١٥ ، والدارمى فى الحدود : ١ ، والإمام أحمد فى ٦ : ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٤ .

(٤) الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

بم تتحقق الاستطاعة

تتحقق الاستطاعة التى هى شرط من شروط الوجوب بما يأتى :

١ ـ أن يكون المكلف صحيح البدن ، فإن عجز عن الحج لشيخوخة أو زمانة أو مرض لا يرجى شفاؤه ، لزمه إحجاج غيره عنه إن كان له مال .

٢ ـ أن يكون مالكاً للزاد والراحلة .

والمعتبر فى الزاد : أن يملك ما يكفيه مما يصح به بدنه ، ويكفى من يعوله كفاية فاضلة عن حوائجه الأصلية ، من ملبس ومسكن ومركب وآلة حرفة ، حتى يؤدى الفريضة ويعود . والمعتبر فى الراحلة أن تمكنه من الذهاب والإياب ، سواء أكان ذلك عن طريق البر أو البحر أو الجو ، وهذا بالنسبة لمن لا يمكنه المشى لبُعده عن مكة .

فأما القريب الذى يمكنه المشى فلا يعتبر وجود الراحلة فى حقه ، لأنها مسافة قريبة يمكنه المشى إليها .

وقد جاء فى بعض روايات الحديث : أن رسول الله ﷺ فسر السبيل بالزاد والراحلة .

* فعن أنس رضى الله عنه قال : قيل : يا رسول الله ما السبيل ؟ قال : (الزاد والراحلة) . رواه الدارقطنى وصححه .

قال الحافظ : والراجح إرساله ؛ وأخرجه الترمذى من حديث ابن عمر أيضا .

* وعن على رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (من ملك زاداً أو راحلة ، تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً)[1] . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[2] رواه الترمذى .

والأحاديث وإن كانت بها ضعف إلا أن أكثر العلماء يشترط لإيجاب الحج : الزاد والرحلة لمن نأت داره ، فمن لم يجد زاداً ولا راحلة فلا حج عليه .

قال ابن تيمية : فهذه الأحاديث ـ مسندة من طرق حسان ومرسلة وموقوفة ، تدل على أن مناط الوجوب الزاد والراحلة ، مع علم النبى ﷺ أن كثيراً من الناس يقدرون على المشى .

وأيضاً فإن الله قال فى الحج : ﴿ من استطاع إليه سبيلاً ﴾ إما أن يعنى القدرة المعتبرة فى جميع العبادات ، وهو مطلق المُكنة ـ أو قيداً زائداً على ذلك فإن كان المعتبر الأول لم يحتج إلى التقييد ، كما لم يحتج إليه فى آية الصوم والصلاة ، فعلم أن المعتبر قدر زائد على ذلك ، وليس هو إلا المال ، وأيضاً فإن الحج عبادة مفتقرة إلى مسافة فافتقر وجوبها إلى ملك الزاد والراحلة كالجهاد .

وفى المهذب : وإن وجد ما يشترى به الزاد والراحلة وهو محتاج إليه لدين عليه لم يلزمه حالاً كان الدين أو مؤجلاً .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الحج : ٣ .

(٢) الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

لأن الدين الحال على الفور ، والحج على التراخى ، فقدم عليه والمؤجل يحل عليه ، فإذا صرف ما معه فى الحج لم يجد ما يقضى به الدين .

قال : وإن احتاج إليه لمسكن لابد من مثله ، أو خادم يحتاج إلى خدمته لم يلزمه ، وإن احتاج إلى النكاح ـ وهو يخاف العنت ـ قدم النكاح ، لأن الحاجة إلى ذلك على الفور .

وإن احتاج إليه فى بضاعة يتجر فيها ليحصل منها ما يحتاج إليه للنفقة ، فقد قال أبو العباس ابن سريج : لا يلزمه الحج لأنه محتاج إليه ، فهو كالمسكن والخادم .

وفى المغنى : إن كان دين على ملىء باذل له يكفيه للحج لزمه ، لأنه قادر ، وإن كان على معسر أو تعذر استيفاؤه عليه لم يلزمه .

وعند الشافعية : أنه إذا بذل رجل لآخر راحلة من غير عوض لم يلزمه قبولها ، لأن عليه فى قبول ذلك منة ، وفى تحمل المنة مشقة ، إلا إذا بذل له ولده ما يتمكن به من الحج لزمه ، لأنه أمكنه الحج من غير منة تلزمه .

وقالت الحنابلة : لايلزمه الحج ببذل غيره ولا يصير مستطيعاً بذلك ، سواء كان الباذل قريباً أو أجنبياً .

وسواء بذل له الركوب والزاد ، أو بذل له مالا .

حج الصبى والعبد

لا يجب عليهما الحج ، لكنهما إذا حجا صح منهما ولا يجزئهما عن حجة الإسلام .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : قال النبى ﷺ : (أيما صبى حج ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج مرة أخرى ، أيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حجة أخرى) . رواه الطبرانى بسند صحيح .

وقال السائب بن يزيد : (حج أبى مع رسول الله ﷺ فى حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين)[1] رواه أحمد والبخارى والترمذى .

وقال : قد أجمع أهل العلم : على أن الصبى إذا حج قبل أن يدرك فعليه الحج إذا أدرك ، وكذلك المملوك إذا حج فى رقه ثم أعتق فعليه الحج إذا وجد إلى ذلك سبيلاً .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن امرأة رفعت إلى رسول الله ﷺ صبياً فقالت ألهذا حج ؟ قال : (نعم ولك أجر) .

* وعن جابر رضى الله عنه قال : (حججنا مع رسول الله ﷺ ومعنا النساء والصبيان فلبينا عن الصبيان ورمينا عنهم)[2] رواه أحمد وابن ماجه .

ثم إن كان الصبى مميزا أحرم بنفسه وأدى مناسك الحج ، وإلا أحرم عنه وليه . ولبى عنه وطاف

---

(١) أخرجه البخارى فى الصيد : ٢٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٦٨ .

به وسعى ووقف بعرفة ورمى عنه . ولو بلغ قبل الوقوف بعرفة أو فيها : أجزأ عن حجة الإسلام كذلك العبد إذا أعتق .

وقال مالك ، وابن المنذر : لا يجزئهما ، لأن الإحرام انعقد تطوعاً فلا ينقلب فرضاً .

حج المرأة

يجب على المرأة الحج كما يجب على الرجل بسواء إذا استوفت شرائط الوجوب التى تقدم ذكرها ، ويزاد عليها بالنسبة للمرأة أن يصحبها زوج أو محرم .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يخلون رجل بإمرأة إلا ومعها ذو محرم ، ولا تسافر المرأة إلا مع ذى محرم) فقام رجل فقال : يا رسول الله : إن امرأتى خرجت حاجّة وإنى اكتتبت فى غزوة كذا وكذا فقال : (انطلق فحج مع امرأتك)[١] . رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم .

وعن يحيى بن عبادة قال : كتبت امرأة من أهل الرى إلى إبراهيم النخعى : إنى لم أحج حجة الإسلام وأنا موسرة ليس لى ذو محرم فكتب إليها : إنك ممن لم يجعل الله له سبيلاً .

وإلى اشتراط هذا الشرط وجعله من حملة الاستطاعة ، ذهب أبو حنيفة وأصحابه والنخعى والحسن والثورى وأحمد وإسحق .

قال الحافظ : والمشهور عند الشافعية اشتراط الزوج أو المحرم أو النسوة الثقات ، وفى قول : تكفى امرأة واحدة ثقة ، وفى قول ـ نقله الكرابيسى وصححه فى المهذب ـ تسافر وحدها إذا كان الطريق آمناً .

وهذا كله فى الواجب من حج أو عمرة .

وفى سبل السلام : وقال جماعة من الأئمة : يجوز للعجوز السفر من غير محرم .

وقد استدل المجيزون لسفر المرأة من غير محرم ولا زوج إذا وجدت رفقة مأمونة ، أو كان الطريق آمنا ، بما رواه البخارى عن عدى بن حاتم قال : (بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة ، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل ، فقال : يا عدى هل رأيت الحيرة ؟ قال : قلت:لم أرهما وقد أنبئت عنهما . قال : فإن طالت بك حياة لترين الظعينة (أى الهودج فيه امرأة أم لا) ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله)[٢] .

واستدلوا أيضاً : بأن نساء النبى ﷺ حججن بعد أن أذن لهن عمر فى آخر حجة حجها ، وبعث معهن عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف .

---

(١) أخرجه مسلم فى الحج : ٤٢٤ ، والبخارى فى النكاح : ١١١ ، ١١٢ ، والترمذى فى الرضاع : ١٦ ، وفى الفتن : ٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٢٢ ، وفى ٣ : ٣٣٩ ، ٤٤٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٥٧ ، ٣٧٨ .

وكان عثمان ينادى : ألا لايدنو أحد منهن ولا ينظر إليهن وهن فى الهوادج على الإبل .

إذا خالفت المرأة وحجت دون أن يكون معها زوج أومحرم صح حجها .

وفى سبل السلام : (قال ابن تيمية : إنه يصح الحج من المرأة بغير محرم ومن غير المستطيع) .

وحاصله : أن من لم يجب عليه الحج لعدم الاستطاعة مثل المريض والفقير والمعضوب والمرأة بغير محرم وغير ذلك ، إذا تكلفوا شهود المشاهد أجزأهم الحج .

ثم منهم من هو محسن فى ذلك ، كالذى يحج ماشياً ، ومنهم من هو مسىء فى ذلك كالذى يحج بالمسألة ، والمرأة تحج بغير محرم ، وإنما أجزأهم لأن الأهلية تامة ، والمعصية إن وقعت فى الطريق لا فى نفس المقصود .

وفى المغنى : لو تجشم غير المستطيع مشقة وسار بغير زاد وراحلة فحج ، كان حجه صحيحاً مجزئاً .

استئذان المرأة زوجها

يستحب للمرأة أن تستأذن زوجها فى الخروج إلى الحج الفرض ، فإن أذن لها خرجت ، وإن لم يأذن لها خرجت بغير إذنه ، لأنه ليس للرجل منع امرأته من حج الفريضة ، لأنها عبادة وجبت عليها ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولها أن تعجل به لتبرىء ذمتها كما لها أن تصلى أول الوقت ، وليس له منعها ويلحق به الحج المنذور ، لأنه واجب عليها كحجة الإسلام .

وأما حجة التطوع فله منعها منه .

لما رواه الدارقطنى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ - فى امرأة كان لها زوج ولها مال فلا يأذن لها فى الحج - قال - : (ليس لها أن تنطلق إلا بإذن زوجها) .

من مات وعليه حج

من مات وعليه حجة الإسلام أو حجة كان قد نذرها ، وجب على وليه أن يجهز من يحج عنه من ماله ، كما أن عليه قضاء ديونه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ولم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال : (نعم ، حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء)[1] . رواه البخارى .

وفى الحديث دليل على وجوب الحج عن الميت سواء أوصى أو لم يوص ، لأن الدين يجب قضاؤه مطلقاً ، وكذا سائر الحقوق المالية من كفارة أو زكاة أو نذر .

وإلى هذا ذهب ابن عباس ، وزيد بن ثابت ، وأبو هريرة ، والشافعى ، ويجب إخراج الأجرة من رأس المال عندهم .

(١) أخرجه البخارى فى الصوم : ٤٢ ، وفى الزكاة : ١٨ ، ومسلم فى الصيام : ١٤٥ ، ١٥٥ .

وظاهر أنه يقدم على دين الآدمى ، إذا كانت التركة لا تتسع للحج والدين لقوله ﷺ:(فالله أحق بالوفاء)[١] .

وقال مالك : إنما يحج عنه إذا أوصى .

أما إذا لم يوص فلا يحج عنه لأن الحج عبادة غلب فيه جانب البدنية فلا يقبل النيابة . وإذا أوصى حج من الثلث .

الحج عن الغير

من استطاع السبيل إلى الحج ثم عجز عنه بمرض أو شيخوخة لزمه إحجاج غيره عنه ، لأنه أيسر من الحج بنفسه لعجزه ، فصار كالميت فينوب عنه غيره .

ولحديث الفضل بن عباس : أن امرأة من خثعم قالت : يا رسول الله إن فريضة الله على عباده فى الحج أدركت أبى شيخاً كبيراً ، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة أفأحج عنه ؟ قال (نعم) وذلك فى حجة الوداع : رواه الجماعة وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقال الترمذى أيضاً : وقد صح عن النبى ﷺ فى هذا الباب غير حديث ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم ، يرون أن يحج عن الميت .

وقال مالك : إذا أوصى أن يحج عنه حج عنه .

وقد رخص بعضهم أن يحج عن الحى إذا كان كبيراً وبحال لا يقدر أن يحج ، وهو قول ابن المبارك والشافعى .

وفى الحديث دليل على أن المرأة يجوز لها أن تحج عن الرجل والمرأة ، والرجل يجوز له أن يحج عن الرجل والمرأة ، ولم يأت نص يخالف ذلك .

إذا عوفى المعضوب

إذا عوفى المريض بعد أن حج عنه نائبه ، فإنه يسقط الفرض عنه ولا يلزمه الإعادة ، لئلا تفضى إلى إيجاب حجتين ، وهذا مذهب أحمد .

وقال الجمهور : لا يجزئه ، لأنه تبين أنه لم يكن ميئوساً منه وأن العبرة بالانتهاء .

ورجح ابن حزم الرأى الأول ، فقال : إذا أمر النبى ﷺ بالحج عمن لا يستطيع الحج راكباً ولا ماشياً ، وأخبر أن دين الله يقضى عنه فقد تأدى الدين بلا شك ، وأجزأ عنه .

وبلا شك أن ما سقط وتأدى فلا يجوز أن يعود فرضه بذلك ، إلا بنص ولا يعنى ههنا أصلاً بعودته .

ولو كان ذلك عائداً بين عليه الصلاة والسلام ذلك ، إذ قد يقوى الشيخ فيطيق الركوب .

(١) أخرجه البخارى فى الصيد : ٢٢ ، وفى الإيمان : ٣٠ ، وفى الاعتصام : ١٢ .

فإذا لم يخبر النبى ﷺ بذلك ، فلا يجوز عودة الفرض عليه بعد صحة تأديته .

شرط الحج عن الغير

يشترط فيمن يحج عن غيره أن يكون قد سبق له الحج عن نفسه .

لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول : لبيك عن شبرمة ، فقال : أحججت عن نفسك ؟ قال : لا : قال (فحجَّ عن نفسك ثم حج عن شبرمة) .

رواه أبو داود وابن ماجه .

وهذا قول أكثر أهل العلم : أنه لا يصح أن يحج عن غيره من لم يحج عن نفسه مطلقاً ، مستطيعاً كان أو لا .

لأن ترك الاستفصال والتفريق فى حكاية الأموال دالٌ على العموم .

من حج لنذر وعليه حجة الإسلام

أفتى ابن عباس وعكرمة : بأن من حج لوفاء نذر عليه ولم يكن حج حجة الإسلام أنه يجزىء عنهما .

وأفتى ابن عمر وعطاء : بأنه يبدأ بفريضة الحج ، ثم يفى بنذره .

قوله تعالى : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق** ﴾ .

الحج مؤتمر إسلامى كبير له من الأهداف ما لا يحصى ، ومن الغايات ما لا يستقصى ، وقد كان عمر رضى الله عنه يجعل من الحج موسماً يناقش فيه عمال الأقاليم ويحاسبهم ، أيام كانت الخلافة الراشدة تجمع شتات الأمة وتوحدها صفاً وهدفا .

وقد جاءت كلمة المنافع فى قوله تعالى : ﴿ **ليشهدوا منافع لهم** ﴾ جاءت بصيغة التذكير الذى يفيد التكثير والتعظيم وتلك المنافع تشتمل منافع الآخرة والدنيا .

قال ابن عباس : منافع الدنيا والآخرة : أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات ، ومن منافع الدنيا ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾[1] . فلا بأس للحاج أن يتاجر ويؤاجر ويتكسب وهو يؤدى أعمال الحج والعمرة .

قال ابن عباس : (إن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون : بـ(منى) ، و(عرفة) وسوق (ذى المجاز) ومواسم الحج ، فخافوا البيع وهم حرم فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فى موسم الحج) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

(١) الآية ١٩٨ من سورة البقرة .

وعن ابن عباس أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ قال : (كانوا لا يتجرون بـ « منى » فأمروا أن يتجروا إذا أفاضوا من « عرفات »)(١) . رواه أبو داود :

وعن أبى أمامة الغنيمي : أنه قال لابن عمر : إنى رجل أكرى فى هذا الوجه ، وإن أناساً يقولون لى : إنه ليس لك حج . فقال ابن عمر : أليس تحرم وتلبى وتطوف بالبيت وتفيض من عرفات وترمى الجمار ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فإن لك حجاً ، جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن مثل ما سألتنى فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية : ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية وقال : لك حج)(٢) رواه أبو داود ، وسعيد بن منصور .

وقال الحافظ المنذرى : أبو أمامة لا يعرف اسمه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رجلاً سأله فقال : أؤجّر نفسى من هؤلاء القوم فأنسك معهم المناسك ألىَ أجر ؟ قال ابن عباس : (نعم أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) . رواه البيهقى والدارقطنى .

قوله تعالى: ﴿ ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ .

قال شعبة عن ابن عباس رضى الله عنهما : الأيام المعلومات أيام العشر .

وقال البخارى عن محمد بن عرعرة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (ما العمل فى أيام أفضل منها فى هذه) قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : (ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء)(٣) رواه الإمام أحمد .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد)(٤) .

وقال البخارى : (وكان ابن عمر وأبو هريرة يخرجان إلى السوق فى أيام العشر فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما) .

وقد روى أحمد عن جابر مرفوعا أن (هذا هو العشر الذى أقسم الله به)(٥) فى قوله : ﴿ والفجر * وليال عشر ﴾(٦) .

وقال بعض السلف إنه المراد بقوله: ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ .

وفى سنن أبى داود : (أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر) .

وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة . الذى ثبت فيه صحيح مسلم عن أبى قتادة قال سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة فقال : (احتسب على الله أن يكفر السنة الماضية والآتية ، ويشتمل على يوم النحر الذى هو يوم الحج الأكبر) .

---

(١) أخرجه أبو داود فى المناسك : ٦ .
(٢) أخرجه أبو داود فى المناسك : ٦٠ .
(٣) أخرجه البخارى فى العيدين : ١١ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٢٤ ، ٣٣٨ ، وفى ٢ : ٧٥ ، ١٣٢ .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٧ .
(٦) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الفجر .

وعن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (أفضل أيام الدنيا العشر) : يعنى عشر ذى الحجة . قيل : ولا مثلهن فى سبيل الله ؟ قال : (ولا مثلهن فى سبيل الله إلا رجل عُفِّرَ وجهه بالتراب) رواه البزار بإسناد حسن .

وأبو يعلى بإسناد صحيح ولفظه قال : (ما من أيام أفضل عند الله من أيام عشر ذى الحجة) قال فقال رجل : يا رسول الله ! هن أفضل أم عدتهن جهاداً فى سبيل الله ؟ قال : (هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله إلا عفير يعفر وجهه فى التراب) . الحديث ورواه ابن حبان فى صحيحه .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد له فيها من عشر ذى الحجة يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر)[1] رواه الترمذى وابن ماجه والبيهقى .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من أيام أفضل عند الله ولا العمل فيهن أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام يعنى من العشر فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير وذكر الله وإن صيام يوم منها يُعدلُ بصيام سنة والعمل فيهن يضاعف بسبعمائة ضعف) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : كان يقال فى أيام العشر بكل يوم ألف يوم ، ويوم عرفة عشرة آلاف يوم . قال يعنى : فى الفضل . رواه البيهقى والأصبهانى .

وعن الأوزاعى رضى الله عنه قال : بلغنى أن العمل فى اليوم من أيام العشر كقدر غزوة فى سبيل الله يصام نهارها ، ويحرس ليلها ، إلا أن يختص امرؤ بشهادة . قال الأوزاعى :

(قول ثان) : فى الأيام المعلومات :

قال الحكم عن مقسم عن ابن عباس : الأيام المعلومات يوم النحر وثلاثة أيام بعده ، ويروى هذا عن ابن عمر ، كان يقول : الأيام المعلومات المعدودات هن جميعهن أربعة أيام ، فالأيام المعلومات يوم النحر ، ويومان بعده ، والأيام المعدودات ثلاثة أيام بعد يوم النحر ، وهذا إسناد صحيح إليه .

وقاله السدى : وهو مذهب الإمام مالك بن أنس ، ويعضد هذا القول والذى قبله قوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ يعنى به ذكر الله عند ذبحها .

(قول رابع) إنها يوم عرفة ويوم النحر . ويوم آخر بعده ، وهو مذهب أبى حنيفة .

وقال ابن وهب عن ابن زيد بن أسلم عن أبيه أنه قال : المعلومات يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ ما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين ﴾[2] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصيام : ٣٩ .
(٢) الآية ١٤٤ من سورة الأنعام .

كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾[1] .

والمقصود بقوله تعالى : ﴿ **فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾ :

الأكثرون على أن الأمر هنا للاستحباب لا على الوجوب ، كما ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هدية أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها ، وحسا من مرقها .

قال عبد الله بن وهب قال:لى مالك أحب أن يأكل من أضحيته ، لأن الله يقول ﴿ **فكلوا منها** ﴾ .

وقال سفيان الثورى عن منصور عن إبراهيم ﴿ **فكلوا منها** ﴾ قال : كان المشركون لا يأكلون من ذبحائهم فرخص للمسلمين فمن شاء أكل ومن لم يشأ لم يأكل .

والمقصود بالبائس الفقير كما قال عكرمة : هو المضطر الذى يظهر عليه البؤس ، وهو الفقير المتعفف .

وقال مجاهد : هو الذى لا يبسط يده .

وقال قتادة : هو الزمن .

وقال مقاتل بن حيان : هو الغرير .

قال الفقهاء فى الهدى

* **الهـدى :**

هو ما يُهدى من النعم إلى الحرم تقرباً إلى الله عز وجل ، قال الله تعالى : ﴿ **والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون * لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾ .

وقال رضى الله عنه : اهدوا ، فإن الله يحب الهدى . وأهدى رسول الله ﷺ مائة من الإبل ، وكان هديه تطوعاً .

* **الأفضل فيه :**

أجمع العلماء : على أن الهدى لا يكون إلا من النعم ، واتفقوا : على أن الأفضل الإبل ، ثم البقر ، ثم الغنم ، على هذا الترتيب .

لأن الإبل أنفع للفقراء لعظمها ، والبقر أنفع من الشاة كذلك .

واختلفوا فى الأفضل للشخص الواحد :

هل يهدى سبع بدنة ، أوسُبع بقرة ، أويهدى شاة ؟

والظاهر أن الاعتبار بما هوأنفع للفقراء .

(١) الآية ٦ من سورة الزمر .

*** أقل ما يجزىء فى الهدى :**

للمرء أن يهدى للحرم ما يشاء من النعم .

وقد أهدى رسول الله ﷺ مائة من الإبل ، وكان هديه هدى تطوع .

وأقل ما يجزىء عن الواحدة شاة أو سُبع بدنة أو سُبع بقرة ، فإن البقرة أو البدنة تجزىء عن سبعة .

قال جابر رضى الله عنه : (حججنا مع رسول الله ﷺ فنحرنا البعير عن سبعة ، والبقرة عن سبعة)(١) . رواه أحمد ومسلم .

ولا يشترط فى الشركاء أن يكونوا جميعاً ممن يريدون القربة إلى الله تعالى .

بل لو أراد بعضهم التقرب ، وأراد البعض اللحم جاز ، خلافاً للأحناف الذين يشترطون التقرب إلى الله من جميع الشركاء .

*** متى تجب البدنة ؟**

ولا تجب البدنة إلا إذا طاف للزيارة جنباً أو حائضاً أو نفساء ، أو جامع بعد الوقوف بعرفة وقبل الحلق ، أو نذر بدنة أو جزوراً . ومن لم يجد بدنة فعليه أن يشترى سبع شياه .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما : (أن النبى ﷺ أتاه رجل فقال : إن على بدنة وأنا موسر بها ولا أجدها فأشتريها . فأمره ﷺ أن يبتاع سبع شياه فيذبحهن)(٢) . رواه أحمد وابن ماجه بسند صحيح .

*** أقسـامـه :**

ينقسم الهدى إلى مستحب ، وواجب .

فالهدى المستحب : للحاج المفرد والمعتمر المفرد ، والهدى الواجب : أقسامه كالآتى :

١ ، ٢ - واجب على القارن ، والمتمتع .

٣ - واجب على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار والإحرام من الميقات ، والجمع بين الليل والنهار فى الوقوف بعرفة ، والمبيت بالمزدلفة أو منى ، أو ترك طواف الوداع .

٤ - واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام غير الوطء كالتطيب والحلق .

٥ - واجب بالجناية على الحرم كالتعرض لصيده أو قطع شجرة ، وكل ذلك مبين فى موضعه كما تقدم .

---

(١) أخرجه مسلم فى الحج : ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، والترمذى فى الأضاحى : ٨ ، ٩ ، والنسائى فى الضحايا : ١٦ ، والدارمى فى الأضاحى : ٥ ، والإمام مالك فى الضحايا : ٩ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٥٣ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣١١ ، ٣١٢ .

شروط الهــدى

يشترط فى الهدى الشروط الآتية :

١ ـ أن يكون ثنياً إذا كان من غير الضأن .

أما الضأن فإنه يجزىء منه الجذع فما فوقه ، وهو ماله ستة أشهر ، وكان سمينا . والثنى من الإبل : ما له خمس سنين ، ومن البقر : ما له سنتان ، ومن المعز ما له سنة تامة . فهذه يجزىء منها الثنىُّ فما فوقه .

٢ ـ أن يكون سليماً : فلا تجزىء فيه العوراء ولا العرجاء ولا الجرباء ولا العجفاء .

وعن الحسن : أنهم قالوا : إذا اشترى الرجل البدنة أو الأضحية وهى وافية فأصابها عور أو عرج أو عجف قبل يوم النحر فليذبحها وقد أجزأته . رواه سعيد بن منصور .

استحباب اختيار الهــدى

روى مالك عن هشام بن عروة عن أبيه أنه كان يقول لبنيه : يا بنى لا يُهدِ أحدكم لله تعالى من البدن شيئاً يستحى أن يهديه لكريمه فإن الله أكرم الكرماء وأحق من اختير له .

وروى سعيد بن منصور : أن ابن عمر رضى الله عنهما سار فيما بين مكة على ناقة بختية فقال : بخ بخ ، فأعجبته فنزل عنها فأشعرها وأهداها .

إشعار الهدى وتقليده

الإشعار : هو أن يشق أحد جنبى سنام البدنة أو البقرة إن كان لها سنام ، حتى يسيل دمها ، ويجعل ذلك علامة لكونها هدياً فلا يتعرض لها .

والتقليد : هو أن يجعل فى عنق الهدى قطعة جلد ونحوها ، ليعرف بها أنه هدى .

وقد أهدى رسول الله ﷺ مرة غنماً وقلدها ، وقد بعث بها مع أبى بكر رضى الله عنه عندما حج سنة تسع وثبت عنه : أنه ﷺ قلد الهدى وأشهره وأحرم بالعمرة وقت الحديبية .

وقد استحب الإشعار عامة العلماء ما عدا أبا حنيفة .

الحكمة فى الإشعار والتقليد

والحكمة فيهما تعظيم شعائر الله وإظهارها وإعلام الناس بأنها قرابين تساق إلى بيته ، تذبح له ، ويتقرب بها إليه .

وقت الذبح

اختلف العلماء فى وقت ذبح الهدى .

فعند الشافعى : أن وقت ذبحه يوم النحر وأيام التشريق لقوله ﷺ : (وكل أيام التشريق ذبح)[١] . رواه أحمد .

فإن فات وقته ذبح الهدى الواجب قضاء .

وعند مالك وأحمد وقت ذبح الهدى - سواء أكان واجباً ، أم تطوعاً - أيام النحر .

وهذا رأى الأحناف بالنسبة لهدى التمتع والقرآن ، وأما دم النذر والكفارات والتطوع فيذبح فى أى وقت ، وحكى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن والنخعى وقتها من يوم النحر إلى آخر ذى الحجة .

مكان الذبح

الهدى سواء أكان واجباً أم تطوعاً - لا يذبح إلا فى الحرم ، وللمهدى أن يذبح فى أى موضع منه .

فعن جابر رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (كل منىً منحر ، وكل المزدلفة موقف ، وكل فجاج مكة طريق ومنحرٍ)[٢] . رواه أبو داود وابن ماجه .

والأولى بالنسبة للحاج أن يذبح بمنى ، وبالنسبة للمعتمر أن يذبح عند المروة ، لأنها موضع تحلل كل منهما .

فعن مالك أنه بلغه : أن رسول الله ﷺ قال - بمنى - :هذا المنحر وكل منى منحر وفى العمرة : هذا المنحر - يعنى المروة - وكل فجاج مكة وطرقها منحر .

* **استحباب نحر الإبل وذبح غيرها :**

يستحب أن تنحر الإبل وهى قائمة معقولة اليد اليسرى ، وذلك للأحاديث الآتية :

● لما رواه مسلم عن زياد بن جبير : أن ابن عمر رضى الله عنهما أتى على رجل وهو ينحر بدنته باركة فقال : (ابعثها قياماً مقيدة سنة نبيكم ﷺ)[٣] .

● وعن جابر رضى الله عنه : (أن النبى ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدنة معقولة اليسرى قائمة على ما بقى منها)[٤] . رواه أبو داود .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ **فاذكروا اسم الله عليها صواف** ﴾ أى: قياما على ثلاث . رواه الحاكم . أما البقر والغنم فيستحب ذبحها مضطجعة .

فإن ذبح ما ينحر ونحر ما يذبح ، قيل : يكره وقيل : لا يكره .

ويستحب أن يذبحها بنفسه إن كان يحسن الذبح وإلا فينذب له أن يشهده .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٨٢ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الصوم : ٥ ، وفى المناسك : ٢٤ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧٣ ، والدارمى فى المناسك : ٥٠ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١١٨ ، وأبو داود فى المناسك : ٢٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣ .

(٤) أخرجه أبو داود فى المناسك : ٢٠ .

*** ألا يعطى الجزار الأجرة من الهدى :**

لا يجوز أن يعطى الجزار الأجرة من الهدى ، ولا بأس بالتصدق عليه منه لقول على رضى الله عنه : (أمرنى رسول الله ﷺ أن أقوم على بدنة وأقسم جلودها وجلادها وأمرنى ألا أعطى الجزار منها شيئاً وقال : نحن نعطيه من عندنا)[١] . رواه الجماعة .

وفى الحديث ما يدل على أنه يجوز أن ينيب عنه من يقوم بذبح هديه ، وتقسيم لحمه وجلده وجلاله .

وأنه لا يجوز أن يعطى الجزار منه شيئاً على معنى الأجرة ، ولكن يعطى أجرة عمله بدليل قوله : (**نعطيه** من عندنا) .

وروى عن الحسن أنه قال : لا بأس أن يعطى الجزار الجلد .

*** الأكل من لحوم الهدى :**

أمر الله بالأكل من لحوم الهدى ، فقال : ﴿ **فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ﴾ .

وهذا الأمر يتناول ـ بظاهره ـ هدى الواجب ـ وهدى التطوع .

وقد اختلف فقهاء الأمصار فى ذلك .

فذهب أبو حنيفة وأحمد : إلى جواز الأكل من هدى المتعة وهدى القرآن وهدى المتطوع ، ولا يأكل مما سواها .

وقال مالك : يأكل من الهدى الذى ساقه لفساد حجه ، ولفوات الحج ، ومن هدى المستمتع ومن الهدى كله إلا فدية الأذى وجزاء الصيد وما نذره للمساكين ، وهدى التطوع إذا عطب قبل محله .

وعند الشافعى : لا يجوز الأكل من الهدى الواجب مثل الدم الواجب فى جزاء الصيد وإفساد الحج ، وهدى التمتع والقرآن ، وكذلك ما كان نذراً أوجبه على نفسه .

أما ما كان تطوعاً فله أن يأكل منه ويهدى ويتصدق .

*** مقدار ما يأكله من الهدى :**

للمهدى أن يأكل من هديه الذى يباح له الأكل منه أى مقدار يشاء أن يأكله بلا تحديد .

وله كذلك أن يهدى أو يتصدق بما يراه .

وقيل : يأكل النصف ويتصدق بالنصف .

وقيل : يقسمه ثلاثاً فيأكل الثلث ويهدى الثلث ويتصدق الثلث .

قوله تعالى : ﴿ **ثم ليقضوا تفثهم** ﴾ : أى ليزيلوا ما علق بهم من العرق والتراب وغير ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم فى الحج : ٣٤٨ ، وأبو داود فى اللقطة ، والدارمى فى المناسك : ٨٩ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٦٠ .

وعن ابن عباس المقصود به وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر، ونحو ذلك.

قوله تعالى: ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ وفيها أقوال لأئمة التفسير:

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: يعنى نحر ما نذر من أمر البدن.

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ نذر الحج والهدى، وما نذر الإنسان من شىء يكون فى الحج.

وقال إبراهيم بن ميسرة عن مجاهد: ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال: الذبائح.

وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ كل نذر إلى أجل.

وقال عكرمة: ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ قال: حجهم.

وكذا روى الإمام أحمد عن بن أبى يعمر: حدثنا سفيان فى قوله: ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾. قال: نذور الحج فكل من دخل الحج فعليه من العمل فيه الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة وعرفة والمزدلفة ورمى الجمار على ما أمروا به.

قوله تعالى: ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾.

المراد به القديم لأنه أول بيت وضع للناس.

والمراد بالطواف هنا الطواف الواجب يوم النحر فبعد رمى الجمار وذبح الهدى والحلق يطوف بالبيت سبع مرات، وهو المسمى طواف الزيارة، أو الإفاضة، أو الركن.

وقال ابن أبى حاتم عن أبى حمزة قال: قال لى ابن عباس أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله تعالى: ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت العتيق: قلت: وهكذا صنع رسول الله ﷺ، فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمى الجمرة فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه، وحلق رأسه، ثم أفاض بالبيت.

قوله تعالى: ﴿ **ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾:

قال ابن جريج: قال مجاهد فى قوله: ﴿ ذلك ومن يعظم حرمات الله ﴾ قال: الحرمة مكة والحج والعمرة، وما نهى الله عنه من معاصيه كلها.

والمقصود باسم الإشارة فى قوله تعالى (ذلك) أى: ذلك الذى أمرتكم به من مناسك الحج، وأثيبكم عليه، وأعطيكم الأجر الجزيل، ومن هذه الأشياء التى يثيب الله عليها تعظيم حرماته.

وقد تكرم الله تعالى على عباده فأحل لنا الأنعام، لتكون طعاماً طيباً ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ﴾: فإن الله تعالى ما جعل من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام.

وقوله تعالى: ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ إلا ما بين الله حرمته فى قوله : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب ﴾(١) .

فيامعشر المسلمين : التزموا أحكام الله فإنه تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها : ﴿ يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين * إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(٢) .

فاللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، ونفس لا تشبع ، ودعاء لا يسمع . ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم ﴾(٣) .

يا معشر المسلمين : هذا هو شرعكم الحنيف ، وإسلامكم العظيم ، وقرآنكم المجيد ، ما أمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر ، وما نهى عن شيء وقال العقل ليته ما نهى ، هو للشعوب البدائية كالوالد الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ، إنه الدين الذى يأمر بالحلال الطيب : ﴿ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ .

﴿ من الأوثان ﴾ : بيان للرجس ، أى:الذى هو الأوثان ، وقرن الشرك بالله بقول الزور كقوله : ﴿ قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾(٥) .

ومنه شهادة الزور ، وهى من أكبر الكبائر ، ذلك لأنها تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وبسببها تضيع الحقوق .

صح فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) قلنا : بلى يا رسول الله

---

(١) الآية ٣ من سورة المائدة .
(٢) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ١١٤-١١٧ من سورة النحل .
الآية ٣٣ من سورة الأعراف .

قال : (الإشراك بالله وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور) فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[١] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن أيمن بن خريم قال : (قام رسول الله ﷺ خطيبا فقال :(يا أيها الناس عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله)[٢] . ثلاثاً . ثم قرأ ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ حنفاء لله ﴾ : أى:مائلين عن الشرك ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، ثم أكد هذا المعنى لأنه أساس الإسلام فقال : ﴿ غير مشركين به ﴾ .

ثم ضرب للمشرك مثلاً غاية فى الإيضاح ، فقال : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ .

فتصور معى إنساناً سقط من أعلى ، وبحكم الجاذبية أخذ يهوى ثم يهوى بعد ما خطفته الطير ، وأخذت تقطعه ، ثم تهوى به الريح والعواصف فى مكان بعيد ، وهوة سحيقة ، إنه الضياع كله ، والتمزق بأدق معانيه : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ﴾[٣] .

وقد ضرب الله تعالى للمشركين مثلاً آخر فى سورة الأنعام ، وهو قوله : ﴿ قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾[٤] .

قوله تعالى :

﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب * لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ .

ذلك أى الذى سبقت الإشارة إليه من الأمر باجتناب الرجس من الأوثان ، وقول الزور ، والتزام التوحيد حق لا مراء فيه .

﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ .

والمراد بالشعائر البدن والهدايا ، وتعظيمها بمعنى تسمينها وتحسينها .

عن ابن عباس : تعظيمها واستحسانها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الأقضية : ١٥ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٣٢ ، والإمام أحمد ٤ : ١٧٨ ، ٢٣٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، وفى ٥ : ٣٦ ، ٣٨ .

(٢) أخرجه أبو داود فى الأقضية : ١٥ ، والترمذى فى الشهادات : ٣ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٣٢ ، والإمام أحمد فى ٤ : ١٧٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ .

(٣) الآية ١٨ من سورة إبراهيم .

(٤) الآية ٧١ من سورة الأنعام .

وقال أبو أمامة عن سهل : (كنا نسمن الأضحية بالمدينة ، وكان المسلمون يسمنون)[١] . رواه البخارى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (دم عفراء أحب إلى الله من دم سوداوين)[٢] . رواه أحمد .

وقالوا : العفراء : هى البيضاء بياضاً ليس بناصع ، فالبيضاء أفضل من غيرها ، وغيرها يجزىء أيضاً .

ثبت فى صحيح البخارى عن أنس (أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين أملحين أقرنين)[٣] .

وعن أبى سعيد (أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن كحيل يأكل فى سواد ، وينظر فى سواد ، ويمشى فى سواد)[٤] رواه أهل السنن والترمذى - أى: فيه نكتة سوداء فى هذه الأماكن .

ومن تعظيم الشعائر ألا تكون بها عيوب ، فإنها هدية يقصد بها التقرب إلى الله تعالى .

فعن البراء قال : قال رسول الله ﷺ : (أربع لا يجوز فى الأضاحى : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ضلعها ، والكسيرة التى لا تنقى)[٥] . رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى .

وروى الضحاك عن ابن عباس قال : البدن من شعائر الله .

وقال محمد بن أبى موسى : الوقوف ومزدلفة والجمار والرمى والحلق والبدن من شعائر الله .

وقال ابن عمر : أعظم الشعائر البيت .

فمن عظم تلك الشعائر ، وعرف لها قدرها ، كان ذلك التعظيم دليلاً على تقوى القلوب ، وسلامة المقصد ، واتباع سبيل المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ﴾ :

المراد بالمنافع هنا الأصواف والأوبار والأشعار والألبان واللحوم .

قوله : ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ : أى: نهايتها إلى الكعبة ، شرفها الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ولكل أمة جعلنا منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأضاحى : ٧ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٤١٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١١٧ ، ١١٩ وأبو داود فى الأضاحى : ٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى الأضاحى : ١٩ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٣ ، والترمذى فى الأضاحى : ٤ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٧٨ .

(٥) أخرجه النسائى فى الضحايا : ٥-٧ ، وابن ماجه فى الأضاحى : ٨ ، والدارمى فى الأضاحى : ٣ ، والإمام مالك فى الضحايا : ١ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ .

المنسك (بكسر السين وفتحها) . والنسك فى الأصل : العبادة وشاع استعماله فى أعمال الحج ، والمراد به هنا الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى .

قوله تعالى : ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ :

كما ثبت فى الصحيحين عن أنس قال : (أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ، ووضع رجله على صفاحهما)[١] .

وروى الإمام أحمد بسنده عن زيد بن أرقم قلت : أو قالوا : يا رسول الله ما هذه الأضاحى ؟ قال : (سنة أبيكم إبراهيم) . قالوا : مالنا منها ؟ قال (بكل شعرة حسنة) قال : فالصوف ؟ قال (بكل شعرة من الصوف حسنة)[٢] . وأخرجه الإمام أبوعبد الله محمد بن يزيد .

قوله تعالى : ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ :

أى إن اختلفت الشرائع ونسخ بعضها بعضاً . فإن عقيدة الأنبياء واحدة : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٣] ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾[٤] ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾[٥] ، ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[٦] .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : لا إله إلا الله ، قال صلوات الله وسلامه عليه : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله)[٧] .

يا من عنت له الوجوه بأسرها ... رهباً وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب تقر له وتشهد

﴿ فله أسلموا ﴾ :

الإسلام هو الانقياد والإذعان لله تعالى ، فله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر ، الوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ﴿ وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾[٨] .

---

(١) أخرجه مسلم فى الأضاحى : ١٧ ، ١٨ ، والبخارى فى الأضاحى : ٩ ، ١٣ ، ١٤ ، والترمذى فى الأضاحى : ٢ ، والنسائى فى الأضاحى : ١٤ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، وابن ماجه فى الأضاحى : ١ ، ١٣ ، والدارمى فى الأضاحى : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١١٥ ، ١٧٠ ، ١٨٣ ، ١٨٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٥٠ ، ٢٦٥ . (٤) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء . (٥) الآية ٥٢ من سورة المؤمنون . (٦) الآية ٤٥ من سورة الزخرف .

(٧) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٨ ، ٣٣ ، ومسلم فى الإيمان : ١ ، ٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، وأبو داود فى الصلاة : ٣٥ ، ١٧٨ ، والترمذى فى الصلاة : ١٨٥ ، والنسائى فى الأذان : ٣ ، ٥ ، وابن ماجه فى المقدمة : ٩ ، ١٠ ، والدارمى فى المقدمة : ٢ ، والإمام مالك فى السفر : ٨٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٨ ، ٣٧ ، ٤٧ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٩١ ، ٩٢ .

(٨) الآية ٨٣ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ وبشر المخبتين ﴾ أى الخاشعين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم خوفاً ورهباً .

والذكر على سبعة أنحاء : ذكر العينين البكاء ، وذكر الأذنين الإصغاء ، وذكر اللسان الثناء ، وذكر اليدين العطاء ، وذكر البدن الوفاء ، وذكر الروح الخوف والرجاء ، وذكر القلب التسليم والرضاء .

﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ : فالصبر دليل الرضا بما قضى الله .

وعن مصعب بن سعد عن أبيه رضى الله عنه قال : قلت: يا رسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ قال : (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة)[1] . رواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا والترمذى .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك ، عليه قطيفة ، فوضع يده فوق القطيفة فقال : ما أشد حماك يا رسول الله ؟ قال : (إنا كذلك يشدد علينا البلاء ، ويضاعف لنا الأجر) ثم قال : يا رسول الله من أشد الناس بلاء ؟ قال : (الأنبياء) . قال : ثم من ؟ قال : (العلماء) قال : ثم من ؟ قال : (الصالحون ، كان أحدهم يبتلى بالعمل حتى يقتله ، ويبتلى أحدهم بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يلبسها ، ولأحدهم كان أشد فرحا بالبلاء من أحدكم بالعطاء)[2] رواه ابن ماجه وابن أبى الدنيا .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يود أهل العافية يوم القيامة حين يعطى أهل البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قرضت بالمقاريض)[3] . رواه الترمذى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (يؤتى بالشهيد يوم القيامة فيوقف للحساب ، ثم يؤتى بالمتصدق فينصب للحساب ، ثم يؤتى بأهل البلاد فلا ينصب ميزان ولا ينصب لهم ديوان ، فيصب عليهم الأجر صباً ، حتى إن أهل العافية ليتمنون فى الموقف أن أجسادهم قرضت بالمقاريض من حسن ثواب الله) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا أحب الله عبداً أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً ، وثجه ثجاً ، فإذا دعا العبد قال : يا رباه ، قال الله : لبيك يا عبدى لا تسألنى شيئاً إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك ، وإما أن أدخره لك) . رواه ابن أبى الدنيا .

يا أخا الإسلام :

تصبر ففى اللأواء قد يحمد الصبر ... ولولا صروف الدهر لم يعرف الحر
وإن الذى أبلى هو العون فانتدب ... جميل الرضا يبقى لك الذكر والأجر
وثق بالذى أعطى ولاتك جازعاً ... فليس بحزم منك أن يردعك الضر
فلا نعم تبقى ولا نقم .. ولا ... يدوم كلا الحالين عسر ولا يسر
تقلب هذا الأمر ليس بدائم ... لديه من الأيام حلو ولامر

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٧ ، وابن ماجه فى الفتن : ٢٣ ، والدارمى فى الرقاق : ٦٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ١٧٢ ، ١٧٤ .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ٢٣ .
(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٥٩ .

إنى رأيت الصبر خير معول في النائبات لمن أراد معولا
ورأيت أسباب القناعة أكدت بعرى الفتى فجعلتها لى معقلا
فإذا بنى لى منزل جاوزته وجعلت منه غيره لى منزلا
وإذا تلا شىء على تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

* * *

بنى الله للأخيار بيتا سماؤه هموم وأحزان وحيطانه الضر
وأدخلهم فيه وأغلق بابه وقال لهم مفتاح بابكم الصبر

ومما وصف الله به المخبتين : إقامة الصلاة : فقال : ﴿ والمقيمى الصلاة ﴾ ثم قرن إقامة الصلاة بالإنفاق فقال : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

وقد اقترنت الصلاة بالزكاة فى صور عديدة فى القرآن الكريم : جاء الاقتران فى صيغة الماضى ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ﴾(١) .

وجاءت بصورة المضارع ، كما فى قوله جل جلاله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾(٢) .

وجاءت فى صيغة الأمر كما فى قوله تعالى ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾(٣) .

وجاء الإقتران بصيغة المصدر ، كما قال تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾(٤) .

كما جاء بصيغة الصفة كما فى قوله جل شأنه : ﴿ والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾(٥) .

وإقامتها أداؤ ها كاملة مستوفاة للأركان والشروط والسنن ، وليست الإقامة مجرد الأداء ، لأن إقامة الشىء معناه أداؤه على وجه خاص باعتدال واستقامة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾(٦) .

فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان ، وطهارة أردان ، وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل ، يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناداة الرازق ، وأفضل ما يلوذ به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع ، وتأمل آثارها فى

---

(١) الآية ١٨ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٢٠ من سورة المزمل .
(٤) الآية ٣٧ من سورة النور .
(٥) الآية ١٦٢ من سورة النساء .
(٦) الآية ٧٧ من سورة الكهف .

المجتمع ، وكيف ساوت الصلية بالسمع ، مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة ، سواء فى عتبة الله .

لو علمت الأمة ما للصلاة من غايات وأهداف ما أهملت فى أدائها ، ولحافظت عليها ، قال نبى الله ﷺ : (صلاة الرجل فى الجماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين درجة ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم خرج إلى الصلاة لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة ، وحط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى صلاة : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة) وفى رواية : (اللهم تب عليه ما لم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه)(١) .

رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : (إذا تطهر الرجل ثم أتى المسجد يرعى الصلاة ، كتب كاتباه ـ أو كاتبه ـ بكل خطوة يخطوها إلى المسجد عشر حسنات ، والقاعد يرعى الصلاة كالقانت ، ويكتب من المصلين . حتى من حين يخرج من بيته حتى يرجع إليه)(٢) . رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الكبير والأوسط .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من راح إلى مسجد الجماعة فخطوة تمحو سيئة ، وخطوة تكتب له حسنة ذاهباً وراجعاً)(٣) . رواه أحمد بإسناد حسن .

وعن النبى ﷺ قال : (بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت)(٤) رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ قالوا : لا يبقى من درنه شىء قال : كذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)(٥) . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

(الدرن) بفتح الدال المهملة والراء جميعاً : هو الوسخ .

المعـــنى

نهراً : مجرى الماء الفائض .

من درنه : منه قوله ﷺ : (الصلوات الخمس تذهب الخطايا كما يذهب الماء الدرن)(٦) .

(١) أخرجه البخارى فى الصلاة : ٨٧ ، وفى البيوع : ٤٩ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٩ ، وفى ٤ : ١٥٧ ، وفى ٥ : ١٧٧ .
(٣) أخرجه الإمام أحمد فى : ١ : ٣٨٢ ، ٤١٥ ، وفى ٢ : ٩٥ ، ١٧٢ ، ٢٠٩ ، ٢٦٢ ، ٢٨٣ ، وفى ٣ : ٤٠٢ ، ٤٣٤ ، وفى ٤ : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٥٤ .
(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١ ، ٢ ، وفى تفسير سورة ٢ : ٣٠ ، ومسلم فى الإيمان : ١٩ ـ ٢٢ ، والترمذى فى الإيمان : ٣ ، والنسائى فى الإيمان : ١٣ .
(٥) أخرجه البخارى فى المواقيت : ٦ ، والترمذى فى الأدب : ٩٠ ، والنسائى فى الصلاة : ٧ ، والإمام مالك فى السفر : ٩١ .
(٦) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٩٣ .

يمحو : يزيل : فأنت ترى المحافظة على أداء الصلوات تكفر الذنوب الصغيرة ، وتحتم على اجتناب الكبيرة ومتى حافظ العبد على الصلوات تاب الله عليه وسامحه وعفا عنه .

أيها المسلمون : إن نبيكم خير الخلق ﷺ ضرب مثلاً أعلى فى التربية ، ويعطى درساً شيقاً بوسائل محسوسة ، ليبين فائدة الصلاة ، وقد سبق علماء التربية الألمان والانجليز فى إعطاء الدرس الحسن الشيق الجذاب ، بالغ النهاية فى السمو والإيضاح ، موضوعه : (بجوار منزلكم نهر حافظتم على الاستحمام فيه خمس مرات ، هل توجد وساخة على أجسامكم ؟) فهموا السؤال وأحسنوا الإجابة (قالوا : لا) هكذا أداء الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ينقى صحائفكم ، ويطهر أعمالكم ، ويرضى عنكم ربكم .

كما جعل تعالى (النهر) مثلاً لما يدر من فيضه وفضله فى الجنة على الناس ، قال عز شأنه: ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] من سورة القمر .

وقال تعالى : ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾[2] .

﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾[3] .

وأرى النبى ﷺ يحث على النظافة ، ويدعو إلى الاستحمام والطهارة ، ويذكر المسلمين أن المحافظة على الصلاة فى الدنيا توصل إلى نعيم الجنة وأنهارها .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (الصلوات الخمس والجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر)[4] . رواه مسلم والترمذى .

المعـــنى

كفارة : مزيلة الصغائر التى ترتكب من وقت الصبح مثلاً إلى الظهر وهكذا أو من يوم الجمعة إلى يوم الجمعة الآخر .

تغش : تفعل : من غشى الشىء : لابسه .

الكبائر : كالإشراك ، وقتل النفس ، والزنا ، والسرقة ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، والربا ، والباطل ، وضياع الحق ، وأخذ أموال الناس ظلماً .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (الصلوات الخمس : كفارة لما بينها : ثم قال رسول الله ﷺ : أرأيت لو أن رجلاً كان يعتمل وكان بين منزله وبين معتمله خمسة أنهار ، فإذا أتى معتمله عمل فيه ما شاء الله فأصابه الوسخ أو العرق ، فكلما مر بنهر اغتسل ، ما كان ذلك يبقى من درنه ، فكذلك الصلاة كلما عمل خطيئة فدعا واستغفر غفر له ما كان قبلها) . رواه البزار والطبرانى فى الأوسط والكبير .

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .
(٢) الآية ١٧ من سورة نوح .
(٣) الآية ٢٥ من سورة البقرة .
(٤) أخرجه مسلم فى الطهارة : ١٤ ، والترمذى فى المواقيت : ٤٦ ، وابن ماجه فى الإقامة : ٧٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٨٤ .

المعـــنى

يعتمل : يلى عملا ، أو يعمل .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (تحترقون تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم حتى تستيقظوا) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن لله ملكاً ينادى عند كل صلاة : يا بنى آدم قوموا إلى نيرانكم التى أوقدتموها فأطفئوها) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (يبعث منادٍ عند حضرة كل صلاة فيقول يا بنى آدم : قوموا فأطفئوا ما أوقدتم على أنفسكم فيقومون فيتطهرون ويصلون الظهر فيغفر لهم ما بينهما فإذا حضرت العصر فمثل ذلك فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك فإذا حضرت العتمة فمثل ذلك فينامون فمدلج فى خير ومدلج فى شر) . رواه الطبرانى فى الكبير .

المعـــنى

يتطهرون : يتوضأون .

العتمة : المراد العشاء والفجر .

أدلج : سار من أول الليل والمعنى بعد صلاة العشاء ينام الإنسان أو يسير فى طريق الخير ، ويسهر فى السمر البرىء ، والأنس الذى يرضى الله جل وعلا ، أو يقضى باقى ليله فى طاعة وعبادة .

والصنف الثانى : يتم ليله فى لهو ومحرمات وسهر ، يغضب الله جل وعلا ، وينسى واجب زوجه ، ويعربد ويسكر ، ويذهب إلى الملاهى والمواخير ومحال الفجور ، والدعارة ، أو يقطع الطريق ، ويسلب أموال الناس أو يسرق ، وهكذا من أفعال الشر ، ويريد النبى ﷺ أن يرشد المسلمين إلى أن الصلوات الخمس أزالت ما اقترفوه ، ويوصيهم أن ينتهى ليلهم كما يحب الله ورسوله ، ولا يتخلل زمنه ما يكثر من السيئات ويحبط الحسنات .

﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً ﴾[1] .

﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ﴾[2] .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأحزاب .

(٢) الآية ١٣ من سورة النساء .

﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين ﴾[1] .

ما أسعد من ينتهى ليله فى طاعة ، ينام ليستريح ، أو يؤنس أهله ويسرى عنهم متاعب الحياة ، ويمتعهم برؤيته وحديثه العذب ، ويكرم ضيوفه . ويؤدى واجب زوجه حتى لا تنظر إلى غيره . ويتفقد مصالحه ، ويرعى طعام ماشيته ، هل أدى الخدم ما يلزم لها من سقى أو علف أو نظافة ؟

ويقتدى برسول الله ﷺ بما رواه البخارى أنه عليه الصلاة والسلام (كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها)[2] . وأعنى بالحديث الذى يجلب غضب الرب ويذهب فى لهو ولغو أو مجالس الفسوق .

وعن طارق بن شهاب أنه بات عند سلمان الفارسى رضى الله عنه لينظر ما اجتهاده قال : (فقام يصلى من آخر الليل ، فكأنه لم ير الذى كان يظن ، فذكر ذلك له فقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة) . رواه الطبرانى فى الكبير موقوفاً .

ومما وصف الله به المخبتين قوله تعالى : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ :

أى: ينفقون بعض ما رزقناهم ، وهذا فضل وعدل ، فلو أن الله تعالى أمر عباده أن ينفقوا كل ما رزقهم ما فعلوا ، قال تعالى : ﴿ ولا يسألكم أموالكم * إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ﴾[3] أى : كلها .

لذلك شاءت حكمته ألا يكلف الناس ما لا يطيقون : فقال : ﴿ ومما رزقناهم ﴾ فمن هنا تفيد التبعيض ، أى: ينفقون بعض ما رزقناهم : كربع العشر فى زكاة النقدين وعروض التجارة ، والخمس فى زكاة الركاز ، والعشر أو نصفه فى زكاة الزرع والثمار ، ومع ذلك فإن هناك من الناس من يملكوا ويملكون ثم ينجلون ويبخلون ، إذا دعاهم داعى الله أمسكوا ، فإذا ما دعاهم داعى الشيطان أسرفوا وندروا وأنفقوا ببذخ وبغير حساب : ﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾[4] .

ألا فليعلم العقلاء أن الرزق ليس مقصوراً على المال ، إنما هو أوسع أفقاً ، وأرحب مجالاً ، فالصحة رزق وزكاتها أن تغيث الملهوف ، وتعين الضعيف ، والعلم رزق وزكاته ألا تبخل به على أحد ، فهو كالشمس والماء والهواء ، والذكاء رزق وزكاته أن تسخره فيما ينفع بعيداً عن الشر ، ووقت الفراغ رزق وزكاته ألا تضيعه فى لهو ولعب .

---

(١) الآية ١٤ من سورة النساء .

(٢) أخرجه البخارى فى المواقيت ١٣ ، ٢٣ ، ٣٩ ، وفى الأذان : ١٠٤ ، ومسلم فى المساجد : ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، والترمذى فى الصلاة : ١١ ، والنسائى فى المواقيت : ٢ ، ١٦ ، ٢٠ ، وابن ماجه فى الصلاة : ١٢ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٤٢٠ ، ٤٢٣ - ٤٢٥ .

(٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة محمد .

(٤) الآية ٣٨ من سورة محمد .

قال ﷺ : (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ)[١] .

إن الله تعالى لما أمر بالإنفاق ، كان ذلك لحكمة سبقت وعلم كشف كل الكائنات ، فلن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ، والقادر عندما ينفق لا يمن لأنه يؤدى حق الفقير إليه .

قال تعالى : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم ﴾[٢] .

ولو علم البخلاء ماذا ينتظرهم من عذاب ما بخلوا : قال جل شأنه : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم.يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾[٣] .

فانظر كيف يعذبون بأموالهم التى كنزوها ، فتكوى بها الجباه التى أعرضت عن الفقراء كبرا ، كما تكوى بها الجنوب التى تمرغت فى الحرير وبلهنية العيش ، وتكوى بها الظهور التى طالما نامت . وأعرضت عن ذكر الله ، لذلك فإن الصالحين أدركوا هذه المعانى ، فكان السخاء والكرم والعطاء والبذل من أهم صفاتهم .

ها هو ذا محمد بن كعب القرظى رضى الله عنه ، كان يملك من المال الكثير والكثير ، ولما نام على فراش الموت سأله بعض عواده : ماذا تركت لأولادك من المال ؟ فقال بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين : إدخرت مالى لنفسى عند ربى ، وادخرت ربى لأولادى .

نعم : ﴿ فالله خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾[٤] .

إن ابن آدم عندما يموت يصاب بمصيبتين لم يصب بمثلهما قبل الأولى : أنه يترك ماله كله ، والثانية : أنه يسأل عنه كله : (لا تزول قدما عبد من بين يدى الله عز وجل حتى يسأل عن أربع : شبابك فيما أبليته ، وعمرك فيما أفنيته ، ومالك من أين اكتسبته ، وفيم أنفقته وعلمك ماذا صنعت فيه)[٥] .

وعن أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما قالا : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (والذى نفسى بيده ثلاث مرات ، ثم أكبَّ فأكب كل رجل منا يبكى ، لا يدرى على ماذا حلف ؟ ثم رفع رأسه وفى وجهه البشرى ، فكانت أحب إلينا من حمر النعم ، قال : ما من عبد يصلى الصلوات الخمس

---

(١) أخرجه البخارى فى الرقاق : ١ ، والترمذى فى الزهد : ١ ، وابن ماجه فى الزهد : ١٥ ، والدارمى فى الرقاق : ٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٥٨ ، ٢٤٤ .

(٢) الآيتان ٢٤ ، ٢٥ من سورة المعارج .

(٣) الآيتان ٣٤، ٣٥ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٦٤ من سورة يوسف .

(٥) أخرجه الترمذى فى القيامة : ١ .

ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة . وقيل له : ادخل بسلام)[١] . رواه النسائى .

المعـــنى

أكبّ : استمر، من أكب على عمله : أى لزمه .

حمر النعم : بيضاء النعم ويراد المال الوفير والإبل الكثير والمسرات والترف .

الكبائر السبع :

فسرها ﷺ فى حديث البخارى (اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)[٢] . رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

فالسعادة ونيل النعيم وكسب الخير فى أربعة : فى صلاة وزكاة وصوم واستقامة ، والأجرة تبشرك ملائكة الرحمة بالأمان من عذاب الله . والتنعم بفضل الله ، وجنى ثمار جنة الله .

قيل له ادخل بسلام : تأمره ملائكة الرحمة لا تخف عقابا . وادخل آمنا سالماً من كل الأهوال ، لماذا ؟ لأن صحائفه نقية من المعاصى وأدران الذنوب ، ونهته صلاته عن كل فاحشة ، وأثمرت زكاته بطهارة نفسه من البخل ، فتحلى بالسخاء ، وللإمام الشافعى رضى الله عنه :

يغطى بالرحمة كل عيب وكم عيب يغطيه السخاء

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : إنى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرنى كيف أصنع ؟ وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله ﷺ : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين والجار والسائل)[٣] . رواه أحمد .

ذو مال : صاحب ثروة .

حاضرة : مورد خير ينزل عليه الناس ليستقوا أو ليستفيدوا ، وفى النهاية فى حديث عمر بن سلمة الجرمى (كنا بحاضر يمر بنا الناس)[٤] .

الحاضر : القوم النزول على ماء يقيمون به ولا يرحلون عنه ويقال للمناهل : المحاضر للاجتماع والحضور عليها .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (خمس من جاء بهن مع إيمان دخل

---

(١) أخرجه النسائى فى الزكاة : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٢٣ ، وفى الحدود ، وفى الطب : ٤٨ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود فى الوصايا .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٣٦ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ١٣٣ .

الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلاً ، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : (كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقلت : يا رسول الله : أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى من النار؟ قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت)(١) . رواه أحمد .

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (الزكاة قنطرة الإسلام) .

المعنى : أن المسلم يمر يوم القيامة على جسر ممدود على متن جهنم ، والمزكى يعبرها ، وغير المزكى حينما يصل إليها لا يمكنه العبور ، فيسقط فى نار جهنم .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والزكاة ، ولا يتولى الله عبداً فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة)(٢) . رواه أحمد .

المعـــنى

يقسم النبى ﷺ مؤكدا ليبشر المسلمين : أن المصلى والمزكى والصائم له ثواب وأجر ، وسهم فى الإسلام : أى نصيب من فضل الله ونعيمه ، ويكون الله تعالى ناصره وتحت رعاية مولاه فى الدنيا ، فكذلك سبحانه يرعاه بالرحمة فى الآخرة .

ويتولى : أى يكفل وفى أسماء الله تعالى الولى : أى الناصر ، وقيل : المتولى لأمور العالم القائم بها . ومن أسمائه عز وجل الوالى : أى مالك الأشياء جميعها المتصرف فيها ، وفيه الحث على هذه الفرائض تؤدى كاملة ليحوز صاحبها رضا الله فى حياته وبعد موته .

فيوليه : فتكون عليه سلطة تامة لغيره يوم القيامة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : لمن حوله من أمته : (أكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ، قلت : ما هى يا رسول الله ؟ قال : الصلاة ، والزكاة ، والأمانة ، والفرج ، والبطن ، واللسان) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

واكفلوا : أى اضمنوا ومنه (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)(٣) .

والكفيل : الضمين .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٧٣ ، وفى ٥ : ٢٣١ ، ٣٧٣ ، ٤١٧ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ١٤٥ ، ١٦٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى الطلاق : ٢٥ ، وفى الأدب : ٢٤ ، ومسلم فى الزهد : ٤٢ ، وأبو داود فى الأدب : ١٢٣ ، والترمذى فى البر : ١٤ ، والإمام مالك فى الشعر : ٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٥ ، وفى ٥ : ٣٣٣ .

وعن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهم ، والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهى عن المنكر سهم ، والجهاد فى سبيل الله سهم ، وقد خاب من لا سهم له) . رواه البزار مرفوعاً .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رجل يا رسول الله : أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (من أدى زكاة ماله فقد ذهب عنه شره) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

المعـــنى

فقد ذهب عنه شره : أى:حفظ من السرقة فى الدنيا وبورك فيه ، واستعمل فى الخير ، وأنفق فى الطاعة ، ولم يعذب صاحبه به فى قبره فلا يمثل له بشجاع أقرع يلدغه ويعذبه ، كما قال ﷺ لغير المزكى (مثل له يوم القيامة بشجاع أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزميته) يعنى شدقيه - ثم يقول : (أنا مالك . أنا كنزك)[1] ثم تلا ﷺ : ﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون ﴾[2] . رواه البخارى .

وعنه عليه الصلاة والسلام : (ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعله الله شجاعاً فى عنقه يوم القيامة)[3] . ﴿ ولله ميراث السموات والأرض ﴾[4] .

وله فيهما ما يتوارث ، فما لهؤلاء يبخلون عليه بماله ، ولا ينفقون فى سبيله ، أو أنه يرث منهم ما يمسكونه ولا ينفقونه فى سبيله بهلاكهم ، وتبقى عليهم الحسرة والعقوبة .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (حصّنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع) . رواه أبو داود فى المراسيل .

وروى عن علقمة رضى الله عنه أنهم أتوا رسول الله ﷺ قال : فقال لنا النبى ﷺ : (إن تمام إسلامكم أن تؤدوا زكاة أموالكم) . رواه البزار .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (كل مال وإن كان تحت سبع أرضين تؤدى زكاته فليس بكنز وكل مال لا تؤدى زكاته وإن كان ظاهراً فهو كنز) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

المعـــنى

كل ذى مال : أى:الغنى الذى أعطاه الله ثروة طائلة ، ومالا وفيراً ، فزكى وعمل بالشرع ، واستعمل ماله فى حقوق الله . وما يرضيه ، فيخزن كما يشاء ، وفى أسفل الأرض ، وقد أحل الله له ذلك ، وأما إذا بخل ولم يخرج زكاته ووضعه فى المصارف أو فى الخزانة الحديدية ، الظاهرة لنا ، فهو مقصر فى إخراج حقوق الله ، ويطلق على ماله كنز لم تؤد زكاته ، وإذا مات عذبه الله به ، وسلط

---

(١) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٣ ، وفى تفسير سورة ٣ : ١٤ ، وفى الحيل : ٣ ، والنسائى فى الزكاة : ٦ ، ٢٠ ، وابن ماجه فى الزكاة : ٢ ، والإمام مالك فى الزكاة : ٢٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣٧٧ ، وفى ٢ : ٩٨ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ٣١٦ ، ٣٥٥ ، ٤٨٩ .

(٢) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٣) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٣ : ٢١ ، والنسائى فى الزكاة : ٢ .

(٤) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

عليه أفعى تنهشه بصورة ماله المكنوز ، وعد من ناقصى الإسلام ، وصدق عليه قوله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾(١) .

أيها المسلمون :

أنعم الله علينا بالمال لننتفع به وننفق منه فى سبيل الخير والمال وديعة فى يد الأغنياء ، لينظر الله إليهم أيحسنون ؟ أيتصدقون على الفقراء والمساكين ؟ أيزيلون ألم جوعهم ، وضر أمراضهم ، وظلمة جهالتهم فيرجون ثوابه سبحانه ، وينشئون المستشفيات والملاجىء ومعاهد العلم ، لتعليم أبناء الأمة الفقراء ، وإيواء العجزة الضعفاء ومعالجة المرضى ، حتى لا تضطرهم الحاجة إلى السرقة أو المؤامرة على قتل الأغنياء ، أو الإقدام على ارتكاب الجرائم لدفع غيلة الفقر المدقع ، وأن الله تعالى أوعد البخلاء بالعذاب الأليم ، وأعلن كرههم فيكرههم الله والناس ، ويبغضهم ربى ، ويأمر سبحانه بإيقاد النار على أموالهم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، جزاء بخلهم ، ومنعهم الإحسان والمعروف .

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغنى عنه ويذمم

وعن سمرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وحجوا أو اعتمروا ، واستقيموا يستقم بكم) . رواه الطبرانى فى الثلاثة .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من أقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، وحج البيت ، وصام رمضان ، وقرى الضيف ، دخل الجنة) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وروى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من كان يؤمن بالله ورسوله فليؤد زكاة ماله ، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليقل حقاً أو ليسكت ، ومن كان يؤمن بالله ورسوله فليكرم ضيفه) . رواه الطبرانى فى الكبير .

المعنى

يقل حقاً : أى: ينطق بالصواب ويرشد إلى الحق ويقول قولا يوافق آداب الشرع .

ليصمت : أى: ليحذر أن ينطق فيما يغضب ربه فباللسان يدخل الجنة أو النار ويمدح أو يذم ويكرم أو يهان :

الصمت زين والسكوت سلامة   فإذا نطقت فلا تكن مكثاراً
ما إن ندمت على سكوتى مرة   ولقد ندمت على الكلام مراراً

* * *

وانطق بحيث العى مستقبح   واصمت بحيث الخير فى سكتتك

(١) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة التوبة .

وعن أبى أيوب رضى الله عنه أن رجلاً قال للنبى ﷺ : (أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ؟ قال : تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصل الرحم)[١] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : (تعبد الله لا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة المكتوبة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان . قال : والذى نفسى بيده لا أزيد على هذا ولا أنقص منه . فلما ولى قال النبى ﷺ : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)[٢] . رواه البخارى ومسلم .

وعن عمرو بن مرة الجهنى رضى الله عنه قال : جاء رجل من قضاعة إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى شهدت أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الصلوات الخمس ، وصمت رمضان وقمته ، وآتيت الزكاة . فقال رسول الله ﷺ : (من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء) . رواه البزار بإسناد حسن .

وعن عبد الله بن معاوية الغاضري رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان : من عبد الله وحده ، وعلم أن لا إله إلا الله ، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، رافدة عليه كل عام ، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة ولا الشرط اللئيمة ، ولكن من وسط أموالكم . فإن الله لم يسئلكم خيره ولم يأمركم بشره)[٣] . رواه أبو داود .

المعنى

قوله رافدة عليه : من الرفد وهو الإعانة ، ومعناه أن يعطى الزكاة ونفسه تعينه على أدائها بطيبها ، وعدم حديثها له بالمنع .

والشرط : بفتح الشين المعجمة والراء هى الرذيلة من المال كالحسنة والعجفاء ونحوهما .

والدرنة : هى الجرباء .

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم)[٤] . رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إذا أديت الزكاة فقد قضيت ما عليك ومن جمع مالاً حراماً ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصراره عليه) . رواه ابن خزيمة .

وعن زر بن حبيش : (أن ابن مسعود رضى الله عنه كان عنده غلام يقرأ فى المصحف وعنده

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٧ ، وفى الزكاة : ١ ، وفى تفسير سورة ٣١ : ٢ ، وفى الأدب : ١٠ ، ومسلم فى الإيمان : ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، والنسائى فى الإيمان : ٦ ، وفى الصلاة : ١٠ ، وابن ماجه فى الفتن : ١٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٠٧ ، ٣٤٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١ ، ومسلم فى الإيمان : ١٥ ، وفى فضائل الصحابة : ١٥٠ ، وابن ماجه فى الرؤيا : ١٠ .

(٣) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤٢ ، وفى مواقيت الصلاة ، ٣ ، وفى الزكاة : ٢ ، وفى الشروط : ١ ، ومسلم فى الإيمان : ٩٧ ، ٩٨ ، والنسائى فى البيعة : ٦ ، ١٧ ، والدارمى فى البيوع : ٩ .

أصحابه ، فجاء رجل يقال له حضرمة فقال : يا أبا عبد الرحمن : أى درجات الإسلام أفضل ؟ قال : الصلاة . قال : ثم أى ؟ قال : الزكاة) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن عبيد بن عمير الليثى رضى الله عنه عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع : (إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلاة الخمس التى كتبهن الله عليه ، ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه ، ويؤتى الزكاة . محتسباً بها طيبة نفسه ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله : وكم الكبائر ؟ قال : تسع أعظمهن : الإشراك بالله ، وقتل المؤمن بغير حق ، والفرار من الزحف ، وقذف المحصنة ، والسحر ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا ، وعقوق الوالدين المسلمين ، واستحلال البيت العتيق الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً ، لا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ، ويقيم الصلاة ، ويؤتى الزكاة ، إلا رافق محمداً ﷺ فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب) . رواه الطبرانى فى الكبير .

أدلة الإنفاق من القرآن الكريم

هذه أقوال الفقهاء تنير لك سبيل إخراج الزكاة ، وتضىء لك كيفية الإنفاق الشرعى ، لتعلم أن الله تعالى يحب من عبده أن يجود بماله فى طرق الخير ، ويقيم مشروعات البر ، وصروح الإحسان ، وإقراء القرآن ، يا أخى تجد الأمر بالصلاة ، فإذا أعزت هذه الطاعة لله أنتجت الزكاة ، وحب الإنفاق فى طاعة الله ، قال تعالى : يبشر المنفق بالخير المضاعف ، والفلات المباركة ، والزيادة المرجوة :

١ - ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ۞ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[1] .

مثل نفقة المحسنين كمثل باذر حبة يخرج منها ساق ، يتشعب لكل منه سبع شعب ، لكل منها سنبلة ، فيها مائة حبة ، وتلك المضاعفة بفضل الله على حسب حال المنفق فى إخلاصه وتعبه ، ومن أجل ذلك تتفاوت الأعمال فى مقادير الثواب .

﴿ والله واسع ﴾ : لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿ عليم ﴾ فيه المنفق وقدر إنفاقه .

ثم أنزل الله تعالى الآية الثانية تطميناً لسيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومن اقتدى به فقد جهز جيش العسرة بألف بعير بأقتابها وأحلامها ، (وسيدنا عبد الرحمن بن عوف) فإنه أتى النبى ﷺ بأربعة آلاف درهم صدقة .

والمن : أن يعتد بإحسانه على من أحسن إليه ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب ما أنعم عليه .

بخ بخ أيها المسلم : اتق الله وأكثر من الإنفاق تربح .

---

(١) الآيتان ٢٦١ ، ٢٦٢ من سورة البقرة .

٢ - ﴿ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾(١) .

فالله تعالى ينادى المؤمنين ويأمرهم بالإنفاق فيما وجب علينا إنفاقه من مال وزروع وثمار وماشية ، من قبل أن يأتى يوم لا يقدر الإنسان فيه على تدارك ما فاته ، وما فرط فى أدائه ، ولا خلاص من عذابه إذ لا بيع فيه ، فتحصلون أيها المؤمنون ما تنفقونه أو تفتدون به من العذاب ، ولا خلة حتى يعينكم عليه أخلاؤكم ، أو يسامحونكم به ، ولا شفاعة إلا لمن أذن له الرحمن ورضى له قولاً ، حتى تتكلوا على شفاعة تنفع وتشفع لكم .

﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ : قال البيضاوى : يريد التاركون للزكاة هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم ، أو وضعوا المال فى غير موضعه ، وصرفوه على غير وجهه ، فوضع الكافرون موضعة تغليظاً لهم ، وتهديداً ، كقوله: ﴿ ومن كفر ﴾ مكان ومن لم يحج ، وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار ، لقوله تعالى : ﴿ وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة ﴾(٢) .

وإن الله جل جلاله أخبر عن المتقين الذين عملوا فى الحياة فأفلحوا وفازوا بالسعادة ، وجعل من خلالهم إخراج زكاة أموالهم ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون * الذين هم فى صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾(٣) .

أى: فاز أولئك الذين اتصفوا بهذه الخلال الحميدة :

أولاً : الخائفون من الله سبحانه وتعالى ، المتذللون له ، الملزمون أبصارهم مساجدهم ، روى أنه ﷺ : كان يصلى رافعاً بصره إلى السماء ، فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده ، وأنه رأى رجلاً يعبث بلحيته فقال : (لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه)(٤) .

ثانياً : المعرضون عما لا يعنيهم من قول أو فعل ، لما بهم من الجد ما شغلهم عنه .

ثالثاً : البالغون الغاية فى القيام على الطاعات البدنية والمالية ، والتجنب على المحرمات ، وسائر ما توجب المروءة اجتنابه ، والزكاة تقع على المعنى ، وعلى العين .

رابعاً : عدم بذل الفرج إلا على الأزواج والسريات .

والجامعون لهذه الصفات أحقاء بالفردوس ، وهى أعلى مكان فى الجنة ، نعيمها دائم .

---

(١) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة فصلت .

(٣) الآيات ١ - ١١ من سورة المؤمنون .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٤٥ .

قوله تعالى : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ﴾ .

البدن : واحدها بدنة ، قال البعض : إنها تطلق على الإبل ذكوراً وإناثاً ، وقال آخرون : إنها تشمل الإبل والبقر .

وقد صح فى الحديث عن جابر بن عبد الله قال : (أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الأخصاص : البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة)(١) .

وقد جعلها الله من الشعائر ، أى:من علامات تعظيم الله تعالى ، لما فيها من إطعام الطعام . قوله تعالى : ﴿ لكم فيها خير ﴾ :

أى:ثواب عظيم ، لما روى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض فطيبوا بها نفساً ﴾(٢) . رواه ابن ماجه والترمذى .

وقال سفيان الثورى : كان أبو حازم يستدين ويسوق البدن ، فقيل له : تستدين وتسوق البدن ؟ فقال : إنى سمعت الله يقول : ﴿ لكم فيها خير ﴾ .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : (ما أنفقت الورق فى شىء أفضل من غيره فى يوم عيد) . رواه الدارقطنى فى سننه .

وقد يكون المقصود بالخير أيضاً الأجر والمنافع ، لما يستفاد من ظهورها بالركوب ، ومن ضلوعها باللبن ، ومن جلودها وأوبارها وأشعارها .

قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ :

صواف، أى:قائمات ، قد صف أيديهن وأرجلهن واحدها صافة .

ويذكر اسم الله عند ذبحها أو نحرها امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين ﴾(٣) .

عن جابر بن عبد الله قال : (صلينا مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى . فلما انصرف أتى بكبش فذبحه ، فقال : باسم الله والله أكبر اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى)(٤) رواه أحمد .

وقال محمد بن إسحق : عن ابن عباس عن جابر قال : (ضحى رسول الله ﷺ بكبشين فى يوم عيد . فقال حين وجههما : ﴿ وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾

(١) أخرجه مسلم فى الحج : ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٦ ، والترمذى فى الحج : ٦٦ ، وفى الأضاحى : ٣ ، ٥ ، والإمام مالك فى الضحايا : ٩ ، والإمام أحمد فى ١ : ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٢٥ ، ١٥٢ ، ٢٧٥ ، وفى ٤ : ٤٠٩ ، وفى ٥ : ٤٠٥ ، ٤٠٦ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الأضاحى : ١ ، وابن ماجه فى الأضاحى : ٣ .

(٣) الآية ١١٨ من سورة الأنعام .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٨ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٨ ، والترمذى فى الأضاحى : ١٠ ، ٢٠ .

﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ اللهم منك ولك عن محمد وأمته . ثم سمى الله وكبر وذبح)[١] .

وعن على بن الحسين عن أبى رافع أن رسول الله ﷺ : (كان إذا ضحى اشترى كبشين سمينين أقرنين أملحين ، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم فى مصلاه فذبحه بنفسه بالمدية ، ثم يقول : اللهم هذا عن أمتى جميعها ، من شهد لك بالتوحيد ، وشهد لى بالبلاغ . ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ، ثم يقول : هذا عن محمد وآل محمد . فيطعمهما جميعاً للمساكين ، ويأكل هو وأهله منهما)[٢] . رواه أحمد وابن ماجه .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ : قال : قياماً على ثلاث قوائم ، معقولة يدها اليسرى ، يقول : باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله اللهم منك ولك)[٣] .

وقد نحر رسول الله ﷺ فى حجة الوادع ثلاثاً وستين بدنة ، وأعطى بقية المائة علياً ، فنحرها .

قوله تعالى : ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ :

أى:سقطت على الأرض بعد نحرها وموتها ، فقد ورد فى الحديث : (لا تعجلوا النفوس حتى تزهق) .

روى مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله كتب الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحد أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته)[٤] .

ولا يجوز شرعاً قطع شىء من البهيمة قبل ذبحها أو نحرها ، فإن حدث ذلك فالجزء الذى قطع منها ميتة لا تؤكل .

قال رسول الله ﷺ : (ما قطع من البهيمة وهى حية فهو ميتة)[٥] . رواه أحمد .

قوله تعالى : ﴿ فكلوا منها وأطعموا القانع والمعترّ ﴾ :

الأمر هنا للاستحباب ، كما قال مالك ، أما بعض الشافعية فقالوا بالوجوب .

المراد بالقانع : الراضى بما عنده ، وبما يعطى من غير مسألة .

---

(١) أخرجه مسلم فى الأضاحى : ١٧ ، ١٨ ، والبخارى فى التوحيد : ١٣ ، وفى الأضاحى : ٩ ، ١٤ ، وأبو داود فى الأضاحى : ٣ ، والترمذى فى الأضاحى : ٢ ، والنسائى فى الضحايا : ١٤ ، ٢٨ - ٣١ . وابن ماجه فى الأضاحى : ١ ، والدارمى فى الأضاحى : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٩٩ ، ١١٥ ، ١٨٣ ، ١٨٩ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الأضاحى : ١ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢ ، وفى ٦ : ٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢٥ ، ٣٩١ .

(٣) أخرجه أبو داود فى المناسك : ٢٠ .

(٤) أخرجه مسلم فى الصيد : ٥٧ ، وأبو داود فى الأضاحى : ١١ ، والترمذى فى الديات : ١٤ ، والنسائى فى الضحايا : ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، وابن ماجه فى الذبائح : ٣ ، والدارمى فى الأضاحى : ١٠ ، والإمام أحمد فى ٤ : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) أخرجه أبو داود فى الأضاحى : ٢٣ ، وابن ماجه فى الصيد : ٨ ، والدارمى فى الصيد : ٩ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢١٨ .

قال لبيد :

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع

والمراد بالمعتر : أى: المتعرض للسؤال .

والخلاصة : أنه إذا سقطت وزهقت أرواحها ولم يبق لها حركة ، فكلوا منها وأطعموا القانع والمستغنى بما يعطونه وهو فى بيته بلا مسألة ، والمعتر الذى يتعرض لكم ويأتى إليكم لتطعموه من لحمها ، فكلوا وأطعموا .

وقوله :﴿ **كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون** ﴾ :

أى: ذللناها لكم وجعلناها منقادة لكم ، خاضعة إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم حليتم ، وإن شئتم ذبحتم ، كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾[1] .

وقال فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين** ﴾ .

أى: لن ينال رضا الله اللحوم المتصدق بها ، ولا الدماء المهراقة بالنحر ، ولكن ترفع إليه الأعمال الصالحة ، والإخلاص فيها ، بإرادة وجهه تعالى فحسب .

والخلاصة : لن يرضى المضحون ربهم إلا إذا أحسنوا النية ، وأخلصوا له فى أعمالهم ، فإذا لم يراعوا ذلك لم تغن عنهم التضحية والتقرب بها شيئاً ، وإن كثر ذلك فقد جاء فى الصحيح :

(إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)[2] .

ثم كرر سبحانه التنبيه على عظم تسخيرها ، لافتاً أنظارهم إلى ما أوجب عليهم ، بقوله :

﴿ **كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم** ﴾ : أى: هكذا سخرها لكم لتشكروه على هدايته إياكم لمعالم دينه ، ومناسك حجه . فتقولوا : الله أكبر على ما هدانا ، ولله الحمد على ما أولانا .

ثم وعد من امتثل بقوله :

﴿ **وبشر المحسنين** ﴾ : أى: وبشر أيها الرسول الذين أطاعوا الله فأحسنوا فى طاعتهم إياه فى الدنيا ، بجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ثلاث مسائل

لما كانت السورة التى بين أيدينا هى سورة الحج ، ولما كانت الآيات السابقة قد تحدثت عن

(١) الآيات ٧١ ـ ٧٣ من سورة يس .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٣٣ ، وابن ماجه فى الزهد : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٨٥ ، ٥٣٩ .

البيت الحرام والحج ومناسكه ، ولما كان ذلك كذلك رأينا من باب تمام الفائدة أن نتحدث **أولا** : عما جاء فى السنة عن فضل المناسك ، **وثانياً** : حجة الوداع ، **وثالثاً** : كيف تؤدى الحج ؟ .

*** المسألة الأولى : فضل المناسك :**

الوقوف بعرفة والمزدلفة وفضل يوم عرفة

عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من أيام عند الله أفضل من عشر ذى الحجة) . قال : فقال رجل : يا رسول الله : هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله ؟ قال : (هن أفضل من عدتهن جهاداً فى سبيل الله ، وما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بأهل الأرض أهل السماء ، فيقول : انظروا إلى عبادى جاءونى شعثاً غبراً ضاحين ، جاءوا من كل فج عميق ، يرجون رحمتى ، ولم يروا عذابى ، فلم ير يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة) . رواه أبو يعلى والبزار وابن حبان فى صحيحه واللفظ له .

والبيهقى ولفظه : قال رسول الله ﷺ : (إذا كان يوم عرفة فإن الله تبارك وتعالى يباهى بهم الملائكة فيقول : انظروا إلى عبادى أتونى شعثاً غبراً ضاحين من كل فج عميق ، أشهدكم أنى قد غفرت لهم . فتقول الملائكة : إن فيهم فلاناً مرهقاً وفلاناً . قال : يقول الله عز وجل : قد غفرت لهم . قال رسول الله ﷺ : ما من يوم أكثر عتيقاً من النار من يوم عرفة) .

ولفظ بن خزيمة نحوه ، لم يختلفا إلا فى حرف أو حرفين .

المرهق : هو الذى يغشى المحارم ويرتكب المفاسد .

قوله ضاحين : هو بالضاد المعجمة والحاء المهملة ، أى بارزين للشمس غير مستترين منها . يقال : لكل من برز للشمس من غير شىء يظله ويكنه : إنه لضاح .

وعن طلحة بن عبيد الله بن كريز رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (ما رؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى فيه من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ، إلا ما رأى يوم بدر . فإنه رأى جبرائيل عليه السلام يزع الملائكة)[1] . رواه مالك والبيهقى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم عرفة : (أيها الناس إن الله عز وجل تطول عليكم فى هذا اليوم فغفر لكم إلا التبعات ، فيما بينكم ، ووهب مسيئكم لمحسنكم ، وأعطى لمحسنكم ما سأل ، فادفعوا باسم الله ، فلما كان بجمع قال : إن الله عز وجل : قد غفر لصالحيكم وشفع صالحيكم فى طالحيكم تنزل الرحمة فتعمهم ، ثم تفرق المغفرة فى الأرض فتقع على كل تائب ممن حفظ لسانه ويده ، وإبليس وجنوده على جبال عرفات ينظرون ما يصنع الله بهم ، فإذا نزلت الرحمة دعا إبليس وجنوده بالويل والثبور) . رواه الطبرانى فى الكبير .

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى الحج : ٢٤٥ .

وعن ابن عباس بن مرداس رضى الله عنه : (أن رسول الله ﷺ دعا لأمته عشية عرفة فأجيب أنى قد غفرت لهم ما خلا المظالم فإنى آخذ للمظلوم منه .

قال : أى رب إن شئت أعطيت المظلوم الجنة ، وغفرت للظالم ، فلم يجب عشية عرفة . فلما أصبح بالمزدلفة أعاد فأجيب إلى ما سأل . قال : فضحك رسول الله ﷺ - أو قال تبسم - فقال له أبو بكر وعمر رضى الله عنهما : بأبى أنت وأمى إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها فما الذى أضحكك ؟ أضحك الله سنك . قال : إن عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائى وغفر لأمتى أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ، ويدعو بالويل والثبور (أى النار والهلاك) فأضحكنى ما رأيت من جزعه)[1] . رواه ابن ماجه .

وروى ابن المبارك عن سفيان الثورى عن الزبير بن عدى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : (وقف النبى ﷺ بعرفات وقد كادت الشمس أن تؤوب فقال : يا بلال أنصت لى الناس . فقام بلال فقال : أنصتوا لرسول الله ﷺ فأنصت الناس فقال : معشر الناس أتانى جبرائيل عليه السلام آنفا فأقرأنى من ربى السلام ، وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات ، وأهل المعشر ، وضمن عنهم التبعات ، فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله : هذا لنا خاصة ؟ قال : هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كثر خير الله وطاب)[2] .

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (إن الله يباهى بأهل علاقات أهل السماء ، فيقول لهم : انظروا إلى عبادى جاءونى شعثاً غبراً[3]) رواه أحمد .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن النبى ﷺ كان يقول : (إن الله عز وجل يباهى ملائكته عشية عرفات بأهل عرفة فيقول : انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً) . رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والصغير .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيداً من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو يتجلى . ثم يباهى بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء ؟)[4] . رواه مسلم والنسائى .

وعن عبد العزيز بن قيس العبدى قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : كان فلان ردف رسول الله ﷺ يوم عرفة ، فجعل الفتى يلاحظ النساء وينظر إليهن ، فقال له رسول الله ﷺ : (ابن أخى إن هذا يوم من ملك فيه سمعه وبصره ولسانه غفر له) . رواه أحمد .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لو يعلم أهل الجمع بمن حلوا لاستبشروا بالفضل بعد المغفرة) . رواه الطبرانى .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٢١١ ، وفى ٤ : ١٥ . (٢) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٦١ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٢٢٤ ، ٣٠٥ .

(٤) أخرجه النسائى فى آداب القضاء : ٣٧ ، وفى الحج : ١٩٤ ، ومسلم فى الحج : ٤٣٦ ، وابن ماجه فى المساجد : ١٩ ، وفى المناسك : ٥٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٨ ، ٢٢٤ ، ٣٠٥ ، وفى ٤ : ٩٢ .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : (جاء رجل من الأنصار إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله . كلمات أسأل عنهن . فقال ﷺ : اجلس . وجاء رجل من ثقيف فقال : يارسول الله كلمات أسأل عنهن . فقال ﷺ : سبقك الأنصارى . فقال الأنصارى : إنه رجل غريب وإن للغريب حقا ، فابدأ به ، فأقبل على الثقفى فقال : إن شئت أنبأتك عما كنت تسألنى عنه ، وإن شئت تسألنى وأخبرك . فقال : يا رسول الله : بل أجبنى عما كنت أسألك ؟ قال : جئت تسألنى الركوع والسجود والصلاة والصوم . فقال : والذى بعثك بالحق ما اخطأت مما كان فى نفسى شيئاً قال : فإذا ركعت فضع راحتيك على ركبتيك ، ثم فرج أصابعك ، ثم اسكن حتى يأخذ كل عضو مأخذه ، وإذا سجدت فمكن جبهتك ولا تنقر نقراً ، وصل أول النهار وآخره . فقال : يا نبى الله : فإن أنا صليت بينهما ؟ قال : فأنت إذاً مصل ، وصم من كل شهر ثلاث عشرة ، وأربع عشرة ، وخمس عشرة ، فقام الثقفى ، ثم أقبل على الأنصارى فقال : إن شئت أخبرتك عما جئت تسألنى ، وإن شئت تسألنى وأخبرك فقال : لا يا نبى الله أخبرنى بما جئت أسألك قال : جئت تسألنى عن الحاج ماله حين يخرج من بيته ، وماله حين يقوم بعرفات ، وماله حين يرمى الجمار ، وماله حين يحلق رأسه ، وماله حين يقضى آخر طواف بالبيت . فقال : يا نبى الله والذى بعثك بالحق ما أخطأت مما كان فى نفسى شيئاً قال : فإن له حين يخرج من بيته أن راحلته لا تخطو خطوة إلا كتب الله له بها حسنة ، أو حط عنه بها خطيئة ، فإذا وقف بعرفات فإن الله عز وجل ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : انظروا إلى عبادى شعثاً غبراً ، اشهدوا أنى قد غفرت لهم ذنوبهم ، وإن كانت عدد قطر السماء ، ورمل عالج ، وإذا رمى الجمار لا يدرى أحد ماله حتى يتوفاه الله يوم القيامة ، وإذا قضى آخر طواف بالبيت خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه) . رواه البزار والطبرانى .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مسلم يقف عشية عرفة بالموقف فيستقبل القبلة بوجهه ثم يقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير مائة مرة ثم يقرأ : قل هو الله أحد مائة مرة ثم يقول : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد وعلينا معهم مائة مرة إلا قال الله تعالى : يا ملائكتى : ما جزاء عبدي هذا سبحنى وهللنى وكبرنى وعظمنى وعرفنى وأثنى على وصلى على نبيّ أشهدوا ملائكتى أنى قد غفرت له وشفعته فى نفسه ولو سألنى عبدى هذا لشفعته فى أهل الموقف) . رواه البيهقى .

وعن أبى سليمان الدارانى قال : سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن الوقوف بالجبل ولم يكن فى الحرم قال : لأن الكعبة بيت الله ، والحرم باب الله ، فلما قصدوه وافدين أوقفهم بالباب يتضرعون ، قيل : يا أمير المؤمنين فالوقوف بالمشعر الحرام ؟ قال : لأنه لما أذن لهم بالدخول إليه وقفهم بالحجاب الثانى وهو المزدلفة ، فلما أن طال تضرعوا أذن لهم بتقريب قربانهم بمنى ، فلما أن قضوا تفثهم وقربوا قربانهم فتطهروا بها من الذنوب التى كانت عليهم أذن لهم بالزيارة إليه على الطهارة . قيل : يا أمير المؤمنين : فمن أين حرم الصيام أيام التشريق ؟ قال : لأن القوم زوار الله وهم فى ضيافته ولا يجوز للضيف أن يصوم دون إذن من أضافه ، قيل : يا أمير المؤمنين فتعلق الرجل بأستار

الكعبة ، لأى معنى هو؟ قال : هو مثل الرجل بينه وبين صاحبه جناية فيتعلق بثوبه ويتنصل إليه وينخدع له ليهب له جنايته) . رواه البيهقى .

فضل رمى الجمار

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً سأل النبى ﷺ عن رمى الجمار مالنا فيه ؟ فسمعته يقول : (تجد ذلك عند ربك أحوج ما تكون إليه) . رواه الطبرانى .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه إلى النبى ﷺ قال : (لما أتى إبراهيم خليل الله صلوات الله عليه وسلامه المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض ، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ فى الأرض . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الشيطان ترجمون ، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون) . رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

وعنه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا رميت الجمار كان لك نوراً يوم القيامة) . رواه البزار .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هذه الجمار التى ترمى كل سنة ، فنحسب أنها تنقص ؟ قال : (ما تقبل منها رفع ولولا ذلك رأيتموها مثل الجبال) . رواه الطبرانى .

فانظر حكمة الله تعالى : فى مناسك الحج ، وكل فعله جل شأنه لحكمة ، ففى الحج حجر يرمى ، وآخر يُقبل ، حجر يرجم ، وآخر يلثم ، الحجر الذى يرجم فيه رمز وإشارة إلى أن هذا الدين يطارد الشر فى كل مكان ، فقد عرض الشيطان لإبراهيم فى هذا المكان فلابد من تذكرة للعباد ، ويذكرون بها أن الشر لابد أن يرجم ، أما الحجر الذى يُقبل فهو الحجر الأسود ، الذى نقبله كما قبله رسول الله ﷺ .

وفيه إشارة إلى أنك قد دخلت بيت ملك الملوك . فلابد أن تقيد اسمك فى سجل التشريفات الإلهية ، فتضع شفتيك على هذا الحجر دون إحداث صوت ، فأنت فى بيت أكرم الأكرمين ، تريد أن تشهده حتى تسجل لك تلك الشهادة فى الديوان الإلهى ، وعلى من وسوس له الشيطان أن يذكر ما قاله له الفاروق عمر عندما أراد أن يقبل هذا الحجر قال : (إنى أعلم إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا إنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك)[1] .

ولقد قبله رسول الله صلوات ربى وسلامه عليه وبكى ، فقال له الفاروق ما يبكيك يا رسول الله . فقال له الحبيب : (هنا تسكب العبرات يا عمر)[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الحج : ٥٠ ، ومسلم فى الحج : ٢٤٨ ، ٢٥١ ، والنسائى فى المناسك : ١٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٢٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ١٧ ، ٢٦ ، ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى المناسك : ٢٧ .

وما ذلك إلا لأن الصادق المعصوم رجعت به الذكريات عبر القرون الخاليات . فتذكر إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ، فليس الحج كما يزعم مرضى القلوب ، أحجار يطاف بها أو ترجم أو تلثم ، إنما الحج دروس فى العقيدة ، قضية أصول التوحيد ، ألسنا نكبر ونهلل ، ألسنا ندعو إذا طفنا وإذا سعينا ، وإذا وقفنا إذا رمينا .

إن رجلا ـ أى ابن عباس يذكر الله قائلا : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . فقال له : يا ابن عباس أتذكر ولا تدعو؟ وهذا اليوم يوم عرفة . قال له ابن عباس :

أوما سمعت قول الله فى الحديث : (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين)[١] .

يا هؤلاء :ليس فى الحج شىء من الوثنية ، لأن الإسلام هو الذى حطم الوثنية فى جميع الجبهات ، إنما فى الحج : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ، إنما الحج لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير) .

إنما الحج : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد .

كلمات جرت على لسان جبريل ، والخليل ، والذبيح إسماعيل ، فأى شىء من الوثنية فى تلك المناسك كما يدعى الماديون الملحدون .

الحج : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[٢] ، ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾[٣] .

فضل الحلق

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : (اللهم اغفر للمحلقين) . قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : (اللهم اغفر للمحلقين) . قالوا : يا رسول الله وللمقصرين ؟ قال : (وللمقصرين)[٤] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أم الحصين رضى الله عنها (أنها سمعت النبى ﷺ فى حجة الوداع دعا للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة واحدة)[٥] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه الترمذى فى ثواب القرآن : ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن : ٦ .

(٢) الآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٣) الآية ١٢٨ من سورة البقرة .

(٤) أخرجه البخارى فى الحج : ١٢٧ ، ومسلم فى الحج : ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، وأبو داود فى المناسك : ٨٧ ، والترمذى فى الحج : ٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧١ ، والدارمى فى المناسك : ٦٤ ، والإمام مالك فى الحج : ١٨٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢١٦ ، ٣٥٣ ، وفى ٢ : ١٦ ، ٣٤ ، ٧٩ ، ١١٩ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٥١ ، وفى ٣ : ٢٠ ، ٨٩ ، وفى ٤ : ٧٠ ، ١٦٥ .

(٥) أخرجه مسلم فى الحج : ٣١٦-٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ .

وعن مالك بن ربيعة رضى الله عنه : أنه سمع رسول الله ﷺ وهو يقول : (اللهم اغفر للمحلقين ، اللهم اغفر للمحلقين . قال : يقول رجل من القوم : وللمقصرين ؟ فقال رسول الله ﷺ : فى الثالثة أو الرابعة وللمقصرين) ثم قال : (وأنا يومئذ محلوق الرأس فما يسرنى بحلق رأسى حمر النعم)[1] . رواه أحمد والطبرانى .

أيهما أفضل

دعاؤه ﷺ للمحلقين ثلاث مرات ، وللمقصرين مرة واحدة ، تصريح بتفضيل الحلق .

وقد أجمع العلماء على أن الحلق أفضل من التقصير ، وعلى أن التقصير يجزى .

قال النووى : ووجه فضيلة الحلق على التقصير أنه أبلغ فى العبادة ، وأدل على صدق النية فى التذلل لله تعالى ، ولأن المقصر مبق على نفسه الشعر الذى هو زينة ، والحاج مأمور بترك الزينة ، بل هو أشعث أغبر ، والله أعلم .

واتفق العلماء على أن الأفضل فى الحلق والتقصير أن يكون بعد رمى جمرة العقبة ، وبعد ذبح الهدى إن كان معه ، وأقل ما يجزئ من الحلق والتقصير عند الشافعى ثلاث شعرات .

وعند أبى حنيفة ربع الرأس ، وعند أبى يوسف نصف الرأس .
وعند مالك وأحمد : أكثر الرأس ، وعند مالك رواية : كل الرأس .

وأجمعوا أن الأفضل حلق جميعه أو تقصير جميعه ، ويستحب أن لا ينقص فى التقصير عن قدر الأنملة من أطراف الشعر ، فإن قصر دونها جاز لحصول اسم التقصير ، والمشروع فى حق النساء التقصير ، ويكره لهن الحلق فلو حلقن حصل النسك ، ويقوم مقام الحلق والتقصير النتف والإحراق والقص ، وغير ذلك من أنواع إزالة الشعر .

قال الفقهاء

ثبت الحلق والتقصير بالكتاب ، والسنة ، والإجماع .
قال الله تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ﴾[2] .

وروى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : (رحم الله المحلقين قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : رحم الله المحلقين . قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال : والمقصرين)[3] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٨ ، ٥٤ ، ٣٦٣ ، وفى ٢ : ٢١٦ ، وفى ٤ : ١٧٧ ، وفى ٥ : ٦٩ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٣٣٣ .

(٢) الآية ٢٧ من سورة الفتح .

(٣) أخرجه البخارى فى الحج : ١٢٧ ، ومسلم فى الحج : ٣١٦ - ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، وأبو داود فى المناسك : ٧٨ ، والترمذى فى الحج : ٤٧ ، وابن ماجه فى المناسك : ٧١ ، والدارمى فى المناسك : ٦٤ .

ورويا عنه : أن النبى ﷺ حلق ، وحلق طائفة من أصحابه ، وقصر بعضهم .
والمقصود بالحلق إزالة شعر الرأس بالموسى ونحوه ، أو بالنتف .
ولو اقتصر على ثلاث شعرات جاز .

والمراد بالتقصير أن يأخذ من شعر الرأس قدر الأنملة ، وقد اختلف جمهور الفقهاء فى حكمه .
فذهب أكثرهم : إلى أنه واجب ، يجبر تركه بدم .
وذهب الشافعية : إلى أنه ركن من أركان الحج .

وقتـه :

وقته للحاج بعد رمى جمرة العقبة يوم النحر ، فإذا كان معه هدى حلق بعد الذبح .
ففى حديث معمر بن عبد الله : (إن رسول الله ﷺ لما نحر هديه بمنى قال : أمرنى أن أحلقه)[1] . رواه أحمد .

ووقته فى العمرة بعد أن يفرغ من السعى بين الصفا والمروة ، ولمن معه هدى بعد ذبحه .

ويجب أن يكون فى الحرم ، وفى أيام النحر ، عند أبى حنيفة ومالك ورواية عن أحمد .

وعند الشافعى ومحمد بن الحسن والمشهور من مذهب أحمد : يجب أن يكون الحلق أو التقصير بالحرم دون أيام النحر ، فإن أخر الحلق عن أيام النحر جاز ، ولا شىء عليه .

ما يستحب فيه :

يستحب فى الحلق أن يبدأ بالشق الأيمن ثم الأيسر ، ويستقبل القبلة ويكبر ويصلى بعد الفراغ منه .

قال وكيع : قال لى أبو حنيفة : أخطأت فى خمسة أبواب ، من المناسك فعلمنيها حجام .

وذلك أنى حين أردت أن أحلق رأسى وقفت على حجّام ، فقلت له : بكم تحلق رأسى ؟ فقال : أعراقى أنت ؟ قلت : نعم . قال : النسك لا يشارط عليه . اجلس ، فجلست منحرفا عن القبلة فقال لى : حرّك وجهك إلى القبلة ، وأردت أن أحلق رأسى من الجانب الأيسر فقال : أدر الشق الأيمن من رأسك ، فأدرته وجعل يحلق وأنا ساكت ، فقال لى : كبر فجعلت أكبر حتى قمت لأذهب . فقال لى أين تريد ؟ فقلت رحلى . قال : صل ركعتين ثم امض ، فقلت : ما ينبغى أن يكون ما رأيت من عقل هذا الحجام . فقلت له : من أين لك ما أمرتنى به قال : رأيت عطاء بن أبى رباح يفعل هذا . ذكره المحب الطبرى .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٧٦ ، ١٥٧ ، وفى ٤ : ٣٢٧ .

المسألة الثانية :

حجة رسول الله ﷺ

وتسمى حجة الوداع وحجة البلاغ وحجة الإسلام .

روى مسلم قال : حدثنا أبو بكر بن شيبة وإسحق بن إبراهيم جميعا وعن حاتم قال أبو بكر : حدثنا حاتم بن إسماعيل المدنى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال :

(دخلنا على جابر بن عبد الله رضى الله عنه فسأل عن القوم حتى انتهى إلىَّ ؟فقلت : أنا محمد ابن على بن حسين ، فأهوى بيده إلى رأسى ، فنزع زرى الأعلى ، ثم نزع زرى الأسفل ، ثم وضع كفه بين ثديىَّ ، وأنا يومئذ غلام شاب . فقال : مرحباً بك يا ابن أخى ، سل عما شئت ؟ فسألته - وهو أعمى - وحضر وقت الصلاة ، فقام فى نساجه ملحقها بها كلما وضعها على منكبه رجع طرفاها إليه من صغرها ورداؤه إلى جنبه على المشجب (الشماعة) .

(فصلى بنا فقلت : أخبرنى عن حجة رسول الله ﷺ فقال : بيده : فعقد تسعاً ، فقال : إن رسول الله ﷺ مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس فى العاشرة : أن رسول الله ﷺ حاج ، فقدم المدينة بشر كثير ، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ، ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فولدت « أسماء » بنت عميس محمد بن أبى بكر ، فأرسلت إلى رسول الله : كيف أصنع ؟ قال : اغتسلى واستشفرى بثوب وأحرمى .

فصلى رسول الله ﷺ فى المسجد ، ثم ركب (القصواء) حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شىء عملنا به ، فأهلَّ بالتوحيد « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك والملك لا شريك لك » .

وأهلّ الناس بهذا الذى يهلون به ، فلم يرد رسول الله ﷺ عليهم شيئاً منه ، ولزم رسول الله ﷺ تلبيته .

قال جابر رضى الله عنه : لسنا ننوى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة ، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ، ومشى أربعاً . ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[1] .

فجعل المقام بينه وبين البيت .

وكان يقرأ فى الركعتين ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾[2] أبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا

---

(١) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٥٨ من سورة البقرة .

فرق عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل فوحد الله وكبره ، وقال : لا إله إلا الله لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

(ثم دعا بين ذلك ، قال مثل هذا ثلاث مرات ، ثم نزل إلى المروة حتى إذا كان آخر طوافه على المروة كما فعل على الصفا .

(حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال : (لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهدى ، وجعلتها عمرة ، فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل وليجعلها عمرة .

فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال : يا رسول الله ألعامنا هذا أم الأبد ؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه واحدة فى الأخرى وقال : (دخلت العمرة فى الحج مرتين . لا بل لأبد آبد) .

وقدم على من اليمن ببدن النبى ﷺ فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حل ، ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت ، فأنكر ذلك عليها ، فقالت : إن أبي أمرنى بهذا .

(قال : فكان علىٌّ يقول بالعراق : فذهبت إلى رسول الله ﷺ فيما ذكرت عنه ، فأخبرته أنى أنكرت ذلك عليها فقال : صدقت صدقت .

(ماذا قلت حين فرضت الحج ؟

(قال : قلت: (اللهم إنى أهل بما أهل به رسولك) .

(قال : فإن معى الهدى فلا تحل .

(قال : فكان جماعة الهدى الذى قدم به علىّ من اليمن والذى أتى به النبى ﷺ ، مائة .

قال : فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبى ﷺ ومن كان معه هدى .

فلما كان يوم التروية توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج ، وركب رسول الله ﷺ فصلى بهم الظهر . والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة ، فسار رسول الله ﷺ ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام ، كما كانت قريش تصنع فى الجاهلية .

فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى بطن الوادى فخطب الناس وقال :

(إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم مالن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فقال :

بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ينكتها إلى الناس اللهم اشهد ، اللهم أشهد ، ثلاث مرات .

ثم أذن ، ثم أقام ، فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ، ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة .

فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه .

ورفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى : أيها الناس ، السكينة السكينة كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً .

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعاه وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً .

فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيما فلما دفع رسول الله ﷺ مرت به ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن فوضع رسول الله ﷺ يده على وجه الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر فحول رسول الله يده من الشق الآخر على وجه الفضل . يصرف وجهه من الشق الآخر حتى أتى بطن محشر .

فحرك قليلاً « ثم سلك الطريق الوسطى » التى تخرج على الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة عند الشجرة فرماها بسبع حصيات وكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف رمى من بطن الوادى .

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده ثم أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه فى هديه ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت فى قدر فطبخت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها .

ثم ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر .

فأتى بنى عبد المطلب يسقون على زمزم ، فقال : انزعوا بنى عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم . فناولوه دلواً فشرب منه)[1] .

قال العلماء : واعلم أن هذا حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد ونفائس من مهمات القواعد .

قال القاضى عياض : قد تكلم الناس على ما فيه من الفقه ، وأكثروا ، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءا كبيراً ، أخرج فيه من الفقه مائة ونيفاً وخمسين نوعاً ، قال : ولو تقص لزيد على هذا العدد قريب منه قالوا : وفيه دلالة على أن غسل الإحرام سنة للنفساء والحائض ، ولغيرهما بالأولى ، وعلى استثفار الحائض والنفساء وعلى صحة إحرامهما ، وأن يكون الإحرام عقب صلاة فرض أو نفل ، وأن يرفع المحرك صوته بالتلبية ، ويستحب الاقتصار على تلبية النبى ﷺ ، فإذا زاد فلا بأس فقد زاد عمر : لبيك ذا النعماء والفضل الحسن ، لبيك مرهوباً منك ومرغوباً إليك .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٢٤٨ .

وأنه ينبغي للسحاج القدوم أولاً إلى مكة ليطوف طواف القدوم وأن يستلم - الحجر الأسود - قبل طوافه ، ويرمل فى الثلاثة الأشواط الأولى ، والرمل إسراع المشى مع تقارب الخطا وهو الخبب ، وهذا الرمل يفعله ما عدا الركنين اليمانيين .

ثم يمشى أربعاً على عادته وأنه يأتى بعد تمام طوافه مقام إبراهيم ويتلو : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾(١) . ثم يجعل المقام بينه وبين البيت الأصلى ويصلى ركعتين .

ويقرأ فيهما فى الأولى - بعد الفاتحة - سورة ﴿ الكافرون ﴾ ، وفى الثانية بعد الفاتحة - سورة ﴿ الإخلاص ﴾ ودل الحديث أنه يشرع له الاستلام عند الخروج من المسجد ، كما فعله عند الدخول .

واتفق العلماء : على أن السعى سنة ، وأنه يسعى بعد الطواف ويبدأ من الصفا ويرقى إلى أعلاه ويقف مستقبل القبلة ، ويذكر الله تعالى بهذا الذكر ، ويدعو ثلاث مرات ويرمل فى بطن الوادى ، وهو الذى يقال له « بين الميلين » وهو - أى الرمل - مشروع فى كل مرة من سبعة الأشواط لا فى الثلاثة الأول ، كما فى طواف القدوم بالبيت ، وأنه يرقى أيضا على المروة كما رقى على الصفا ويذكر ويدعو .
وبتمام ذلك تتم عمرته .

فإن حلق أو قصر صار حلالاً ، وهكذا فعل الصحابة الذين أمرهم ﷺ بفسخ الحج إلى العمرة .

وأما من كان قارناً فإنه لا يحلق ولا يقصر ويبقى على إحرامه ، ثم فى يوم التروية - وهو الثامن من ذى الحجة - يحرم من أراد الحج ممن حل من عمرته ، ويذهب هو ومن كان قارناً إلى منى ، والسنة أن يصلى بمنى الصلوات الخمس وأن يبيت بها هذه الليلة - وهى ليلة التاسع من ذى الحجة .

ومن السنة كذلك أن لا يخرج يوم عرفة من منى إلا بعد طلوع الشمس ولا يدخل « عرفات » إلا بعد زوال الشمس .

وبعد صلاة الظهر والعصر جمعاً بـ (عرفات) فإنه ﷺ نزل بنمرة وليست من عرفات .

ولم يدخل - ﷺ - الموقف - إلا بعد الصلاتين .

ومن السنة أن لا يصلى بينهما شيئاً وأن يخطب الإمام الناس قبل الصلاة وهذه إحدى الخطب المسنونة فى الحج .

والثانية - أى:من الخطب المسنونة - يوم السابع من ذى الحجة يخطب عند الكعبة بعد صلاة الظهر .

والثالثة - أى:من الخطب المسنونة - يوم النحر .
والرابعة - يوم النفر الأول .
وفى الحديث سنن وآداب منها :
أن يجعل الذهاب إلى الموقف عند فراغه من الصلاتين .
وأن يقف - فى عرفات - راكباً أفضل .

---
(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

وأن يقف عند الصخرات عند موقف النبى ﷺ أو قريباً منه . وأن يقف مستقبل القبلة . وأن يبقى فى الموقف حتى تغرب الشمس .

ويكون فى وقوفه داعياً الله عز وجل ، رافعاً يديه إلى صدره ، وأن يدفع بعد تحقق غروب الشمس بالسكينة ، ويأمر الناس بها إن كان مطاعاً .

فإذا أتى المزدلفة نزل بها وصلى المغرب والعشاء جمعاً بأذان واحد وإقامتين ، دون أن يتطوع بينهما شيئاً من الصلوات : وهذا الجمع متفق عليه بين العلماء ، وإنما اختلفوا فى سببه .

فقيل : إنه نسك وقيل : لأنهم مسافرون ـ أى: السفر هو العلة لمشروعية الجمع .

ومن السنن : المبيت بمزدلفة ، وهو مجمع على أنه نسك ، وإنما اختلفوا فى كونه ـ أى المبيت ـ واجباً أو سنة .

ومن السنة أن يصلى الصبح فى المزدلفة ثم يدفع منها بعد ذلك فيأتى المشعر الحرام فيقف به ويدعو .

والوقوف عنده من المناسك .

ثم يدفع منه عند إسفار الفجر إسفاراً بليغاً : فيأتى بطن محسر فيسرع السير فيه لأنه محل غضب الله على أصحاب الفيل فلا ينبغى الأناة فيه ولا البقاء .

فإذا أتى الجمرة ـ وهى جمرة العقبة ـ نزل ببطن الوادى ورماها بسبع حصيات كل حصاة كحبة الباقلاء ـ أى الفول ـ يكبر مع كل حصاة .

ثم ينصرف بعد ذلك إلى النحر فينحر ـ إن كان عنده هدى ـ ثم يحلق بعد نحره .

ثم يرجع إلى مكة فيطوف طواف الإفاضة ـ وهو الذى يقال له طواف الزيارة .

ومن بعده يحل له كل ما حرم عليه بالإحرام حتى وطء النساء .

وأما إذا رمى جمرة العقبة ولم يطف هذا الطواف فإنه يحل له كل شىء ما عدا النساء .

هذا هو هدى رسول الله ﷺ فى حجته والآتى به مقتد به ـ ﷺ ـ وممتثل لقوله : (خذوا عنى مناسككم)(١) . وحجه صحيح .

المسألة الثالثة :

كيفية أداء الحــج

إذا قارب الحاج الميقات استحب له أن يأخذ من شاربه ، ويقص شعره وأظافره ، ويغتسل ، أو يتوضأ ، ويتطيب ، ويلبس لباس الإحرام .

فإذا بلغ الميقات صلى ركعتين وأحرم ـ أى: نوى الحج ، إن كان مفرداً أو العمرة إن كان متمتعاً أو هما معاً إن كان قارناً .

(١) أخرجه النسائى فى المناسك : ٢٢٠ . والإمام أحمد فى ٣ : ٣١٨ ، ٣٦٦ .

وهذا الإحرام ركن ، لا يصح النسك بدونه .

أما تعيين نوع النسك من إفراد أو تمتع أو قران فليس فرضاً . ولو أطلق النية ولم يعين نوعاً خاصاً صح إحرامه .

وله أن يفعل أحد الأنواع الثلاثة .

وبمجرد الإحرام تشرع له التلبية بصوت مرتفع كلما علا شرفاً أو هبط وادياً أو لقى ركبا ، أو أحدا ، وفى الأسحار ، وفى كل دبر كل صلاة .

وعلى المحرم أن يتجنب الجماع ودواعيه ومخاصمة الرفاق وغيرهم والجدل فيما لا فائدة فيه وأن لا يتزوج ولا يزوج غيره ويتجنب أيضاً لبس المخيط والمحيط والحذاء الذى يستر ما فوق الكعبين ولا يستر رأسه ولا يمس طيباً ولا يحلق شعراً .

ولا يقص ظفراً ولا يتعرض لصيد البر مطلقاً ولا لشجر الحرم وحشيشه فإذا دخل مكة المكرمة استحب له أن يدخلها من أعلاها بعد أن يغتسل من بئر ذى طوى بالزاهر إن تيسر له .

ثم يتجه إلى الكعبة فيدخلها (من باب السلام) ذاكراً أدعية دخول المسجد وواعياً آداب الدخول وملتزماً الخشوع والتواضع والتلبية . فإذا وقع بصره على الكعبة رفع يديه وسأل الله من فضله وذكر الدعاء المستحب فى ذلك .

ويقصد رأساً إلى الحجر الأسود فيقبله بغير صوت أو يستلمه بيده ويقبلها .

فإن لم يستطع ذلك أشار له .

ثم يقف بحذائه ملتزماً الذكر المسنون والأدعية المأثورة ثم يشرع فى الطواف .

ويستحب له أن يضطبع ويرمل فى الأشواط الثلاثة الأول ويمشى على هينته فى الأشواط الأربعة الباقية .

ويسن له استلام الركن اليمانى وتقبيل الحجر الأسود فى كل شوط . فإذا فرغ من طوافه توجه إلى مقام إبراهيم تالياً قول الله تعالى : ﴿ واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ﴾ ويصلى ركعتين يقرأ فى الأولى: ﴿ قل هو أحد ﴾ وفى الثانية: ﴿ قل ياأيها الكافرون ﴾ ثم يخرج إلى الصفا تاليا قول الله تعالى: ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ﴾[1] . الآية .

ويصعد عليه ، ويتجه إلى الكعبة ، فيدعو بالدعاء المأثور ، ثم ينزل فيمشى فى السعى ذاكراً داعياً بما شاء .

فإذا بلغ (ما بين الميلين) هرول ثم يعود ماشياً على رسله حتى يبلغ المروة فيصعد السلم ويتجه إلى الكعبة داعياً ، ذاكراً وهذا هو الشوط الأول .

وعليه أن يفعل ذلك حتى يستكمل سبعة أشواط .

---

(١) الآية ١٥٨ من سورة البقرة .

وهذا السعى واجب على الأرجح وعلى تاركه ـ كله أو بعضه ـ دم فإذا كان المحرم متمتعاً حلق رأسه أو قصر .

وبهذا تتم عمرته ويحل له ما كان محظوراً من محرمات الإحرام حتى النساء .

أما القارن والمفرد فيبقيان على إحرامهما .

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة يحرم المستمتع من منزله ويخرج ـ هو وغيره ممن بقى على إحرامه ـ إلى منى فيبيت بها .

فإذا طلعت الشمس ذهب إلى عرفات ، ونزل عند مسجد (نمرة) واغتسل وصلى الظهر والعصر جمع تقديم مع الإمام يقصر فيهما الصلاة .

هذا إذا تيسر له أن يصلى مع الإمام : وإلا صلى جمعاً وقصراً ، حسب استطاعته .

ولا يبدأ الوقوف بعرفة إلا بعد الزوال فيقف بعرفة عند الصخرات أو قريباً منها .

فإن هذا موضع وقوف النبى ﷺ ، والوقوف بـ (عرفة) هو ركن الحج الأعظم ولا يسن ، ولا ينبغى صعود جبل الرحمة .

ويستقبل القبلة ويأخذ فى الدعاء والذكر والابتهال حتى يدخل الليل فإذا دخل الليل أفاض إلى (المزدلفة) فيصلى بها المغرب والعشاء جمع تأخير . ويبيت بها .

فإذا طلع القمر وقف بالمشعر الحرام وذكر الله كثيرا حتى يسفر الصبح فينصرف بعد أن يستحضر الجمرات ويعود إلى (منى) .

والوقوف بالمشعر الحرام واجب يلزم بتركه دم .

وبعد طلوع الشمس يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ثم يذبح هديه ـ إن أمكنه ـ ويحلق شعره أو يقصره وبالحلق يحل له كل ما كان محرماً عليه ماعدا النساء .

ثم يعود إلى مكة ، فيطوف بها طواف الإفاضة ـ وهو طواف الركن ـ فيطوف ـ كما طاف ـ طواف القدوم .

ويسمى هذا الطواف أيضاً طواف الزيارة وإن كان متمتعاً سعى بعد الطواف .

وإن كان مفرداً أو قارناً ، وكان قد سعى عند القدوم فلا يلزمه سعى آخر ، وبعد هذا الطواف يحل له كل شىء حتى النساء .

ثم يعود إلى « منى » فيبيت بها .

والمبيت بها واجب ، يلزم بتركه دم .

وإذا زالت الشمس من اليوم الحادى عشر من ذى الحجة رمى الجمرات الثلاث ، مبتدئاً بالجمرة التى تلى (منى) ثم يرمى الجمرة الوسطى ، ويقف بعد الرمى داعياً ذاكراً ، ثم يرمى جمرة العقبة

ولا يقف عندها ، وينبغى أن يرمى كل جمرة بسبع حصيات قبل الغروب ، ويفعل فى اليوم الثانى عشر مثل ذلك .

ثم هو مخير بين أن ينزل إلى مكة قبل غروب اليوم الثانى عشر ، وبين أن يبيت ويرمى فى اليوم الثالث عشر .

ورمى الجمار واجب يجبر تركه بالدم .

فإذا عاد إلى مكة وأراد العودة إلى بلاده طاف طواف الوداع وهذا الطواف واجب .

وعلى تاركه أن يعود إلى مكة ليطوف طواف الوداع إن أمكنه الرجوع ولم يكن قد تجاوز الميقات وإلا ذبح شاة .

ويؤخذ من كل ما تقدم أن أعمال الحج والعمرة هى الإحرام من الميقات والطواف والسعى والحلق وبهذا تنتهى أعمال العمرة .

ويزيد عليها الحج الوقوف بعرفة ورمى الجمار وطواف الإفاضة والمبيت (بمنى) والذبح والحلق والتقصير .

ويستحب للمودع أن يدعو بالمأثور عن ابن عباس رضى الله عنهما : هو :

(اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك حملتنى على ما سخرت لى من خلقك وسيرتنى فى بلادك حتى بلغتنى ـ بنعمتك ـ إلى بيتك وأعنتنى على أداء نسكى فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا وإلا فمن الآن فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك دارى ، فهذا أوان انصرافى إن أذنت لى غير مستبدل بك ولا ببيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك . اللهم فأصحبنى العافية فى بدنى والصحة فى جسمى والعصمة فى دينى وأحسن منقلبى وارزقنى طاعتك ما أبقيتنى واجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة إنك على كل شىء قدير) .

قال الشافعى : أحب : إذا ودع البيت ـ أن يقف فى الملتزم ، وهو ما بين الركن والباب ، ثم ذكر الحديث .

عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

(السفر قطعة من العذاب يمنع أحدكم طعامه وشرابه ، فإذا قضى أحدكم نهمته (الشهوة) فليعجل إلى أهله)[١] . رواه البخارى ومسلم .

وعن عائشة : أن رسول الله ﷺ قال : (إذا قضى أحدكم حجه فليتعجل إلى أهله فإنه أعظم لأجره) . رواه الدارقطنى .

وروى مسلم عن العلاء بن الحضرمى : أن رسول الله ﷺ قال : (يقيم المهاجر بعد قضاء نسكه ثلاثاً)[٢] .

---

(١) أخرجه البخارى فى العمرة : ١٩ ، وفى الجهاد : ١٣٦ ، وفى الأطعمة : ٣٠ ، ومسلم فى الإمارة : ١٧٩ ، والدارمى فى الاستئذان : ٤٠ ، والإمام مالك فى الاستئذان : ٣٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٦ ، ٤٤٥ ، ٤٩٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى الحج : ٤٤٣ .

أحكام الله عادلة

* إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ
بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ
أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ
وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ
﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ
عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ
وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ﴿٤٣﴾ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمۡلَيۡتُ
لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ
فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئۡرٖ مُّعَطَّلَةٖ وَقَصۡرٖ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ
قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ
ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ
كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ ثُمَّ أَخَذۡتُهَا وَإِلَيَّ
ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٨﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥١﴾

المفردات : **أذن** : أى رخص .

الصوامع : واحدها صومعة وهى معبد الرهبان فى الصحراء ـ الدير .

والبيع : واحدها بيعة وهى معبد النصارى .

والصلوات : واحدها صلاة معرب صلوتا بالعبرية معبد اليهود .

ومساجد : واحدها مسجد وهو معبد المسلمين .

أمليت : أى: أمهلت .

أخذتهم : أى: أهلكتهم .

فكيف : استفهام يراد به التعجب .

والنكير والإنكار على الشىء : أن تفعل فعلا به يزجر المنكر عليه على ما فعل .

خاوية : ساقطة .

عروشها : أى: سقوفها .

معطلة : أى: عطلت من منافعها .

مشيد : أى: مبنى بالشيد وهو الجص (الجير) .

الإنذار : التخويف .

وأصل السعى : الإسراع فى المشى ثم استعمل فى الإصلاح والإفساد ، يقال سعى فى أمر فلان : إذا أصلحه أو أفسده بسعيه فيه معاجزين : أى: مسابقين المؤمنين ومعارضين لهم فكلما طلبوا إظهار الحق طلب هؤلاء إبطاله وأصله من قولهم : عاجزه فأعجزه ، إذا سابقه فسبقه .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور** ﴾ :

هذا وعد من الله تعالى لعباده المؤمنين بالدفاع عنهم ، ومنع الأشرار والظالمين عن أذاهم ، ووعد الله حق ، وصدق ، لا يختلف ولا يتخلف ، قال سبحانه : ﴿ أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾[١] ، ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾[٢] .

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٣] ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٤] .

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدراً ﴾[٥] .

إن الذين عرفوا ربهم فآمنوا به ، وصدقوا رسله ، يعلمون علم اليقين أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، فإذا كان وعدهم بالدفاع عنهم فذلك حق ثابت ، فما بالك إذا أكد هذا الوعد بأداة التوكيد « إن » .

---

(١) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة الزمر .
(٢) الآية ٣٨ من سورة الزمر .
(٣) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٤) الآية ٢١ من سورة المجادلة .
(٥) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .

ثم يقتضى وعده أن يكون الدفاع عنهم عاقبته النصر ، ذلك أنه لا يحب كل خوان كفور ، أى شديد الخيانة والكفر لا عهد له ولا وعد ولا ميثاق ولا وفاء عنده فهو فى خيانته جاحد كل نعمة ، وكل الكائنات تؤكد أن شكر النعم واجب ، ولكنها النفوس إذا عشش فيها الشيطان فباض فيها الزندقة ، وأفرخ فيها الإلحاد .

قوله تعالى : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ .

عن ابن عباس قال : لما أخرج النبى ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن ، قال ابن عباس : فأنزل الله عز وجل : ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ . قال أبو بكر رضى الله عنه : فعرفت أنه سيكون قتال .

وهذه أول آية فى الجهاد ، فإن رسول الله ﷺ دعا إلى الله بالحجة القاطعة ، والبرهان الساطع ، وأنزل الله تعالى عليه ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر ﴾(١) .

وأنزل عليه : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(٢) .

وأنزل عليه : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(٣) .

وأنزل عليه : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾(٤) .

فقوبل بالأذى من أهل مكة ، وذهب إلى الطائف لعله يجد بينهم من يستجيب لدعوته ، ولكنه رمى بالحجارة من سفهائهم وصبيانهم ، حتى دميت قدماه الشريفتان ، وأرسل إلى ربه برقية عاطرة يقول فيها :

(اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن ينزل بى غضبك ، أو يحل علىّ سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) .

وعلى جناح السرعة كان جبريل يجوب الآفاق ، ويطوى بأجنحته السبع الطباق ، يستأذن رسول الله أن يطبق عليهم الأخشبين ، فماذا كان رده ﷺ ؟

إنه رد جعل سفير الأنبياء ، وكبير أمناء وحى السماء يعجب العجب كله ، إن الخطر محتوم ، والخطوات مدلهمة ، وقد بلغ السيل الذبى وجاوز الحزام الطبيعى ، حتى يظن من رأى هذا

(١) الآيات ١ - ٦ من سورة المدثر .
(٢) الآية ٢١٤ من سورة الشعراء .
(٣) الآية ٩٤ من سورة الحجر .
(٤) الآية ١٢٥ من سورة النحل .

الموقف أنه لم يبق فى قوس الصبر منزع ، وإذا بالرد الكريم من النبى الكريم ينزل على النفوس كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى ، ينزل برداً وسلاماً ، لقد قال الصادق المعصوم : (يا جبريل إنى لأرجو أن يخرج الله من ظهورهم من يقول لا إله إلا الله . اللهم اهدى قومى فإنهم لا يعلمون) . فلم يسع الأمين جبريل إلا أن يقول له : (صدق من سماك الرءوف الرحيم) . سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

نور أضاء فبدد الظلماء والكون أصبح باسما وضاءً
يا نور أحمد فى صلاتك روعة الله شرف نوره وأضاء
سعدت لطلعتك السموات العلى والأرض صارت جنة خضراء
أنت الذى قاد الجيوش محـ ـطماً عهد الضلال وأدب السفهاء
وسموك بالبشر الذى تعـ ـلموا سنتى الشريعة فارتقوا سعداء

واشتد الأذى على رسول الله بعد عودته من الطائف ، واستقر رأيهم فى دار الندوة على قتله ، وأذن الله له بالهجرة إلى المدينة : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[1] .

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾[2] .

﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾[3] .

وخرج الرسول من مكة والحنين يملأ قلبه إليها ، وقال يخاطب مكة : (والله إنك لأحب أرض الله إلى الله ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت) فأنزل الله عليه :

﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ﴾[4] .

وهاجر الرسول إلى المدينة واستقر بها ، فماذا حدث ؟ ومتى شرع القتال ؟

وقبل أن يجيب على هذا السؤال اللواء محمود شيت خطاب ، يبين معنى القتال فيقول : هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة ، وتوطيد أركان السلام ، مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة فى القتال .

فمتى شرع القتال فى الإسلام ؟

لم يؤذن للمسلمين فى القتال قبل الهجرة ، رغم ما ذاقوا من المر ، وكابدوا من فنون الأسى والضر ، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة ، ويثبتوا عقيدة ، ويقولوا فى حرارة وصدق ربنا الله .

فلما اشتد عداء قريش ، وصمموا على القضاء على الدعوة ، وأجمعوا أمرهم على قتل النبى ﷺ ، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ٤٠ من سورة التوبة .
(٣) الآية ١٣ من سورة محمد .
(٤) الآية ٨٥ من سورة القصص .

فهل وقف البغى ، وخفت حدة العدوان ؟ كلا ظلت قريش تحارب المسلمين ، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم ، حتى أذن الله للمسلمين فى القتال ، فنزلت فيه أول آية : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾ .

لقد خرج الرسول ﷺ غازيا فى صفر على رأس اثنى عشر شهراً من مقدمه إلى المدينة ، وبذلك بدأ القتال (فعلا) فى الإسلام .

أهداف القتال فى الإسلام

*** حماية نشر الدعوة :**

ليس من أهداف الحرب فى الإسلام (نشر) الدعوة بل (حماية حرية) نشرها ، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه ، والله تعالى يقول : ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾[1] .

ولو كان الفضل فى انتشار الإسلام لسيوف أهله ورماحهم ، لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته ، حين ضعف أهله ، وغلبوا على أمرهم .

ولكن هدف الحرب فى الإسلام هو حماية العقيدة ، وتأمين حرية انتشارها بين الناس ، وصد الاعتداء الخارجى على بلاد المسلمين . ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[2] .

إن الحرب فى الإسلام حرب دفاعية ، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد ، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال ، ويعتبرون الحرب كفاح وشرف ، لا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو اجراء يتنافى مع الشرف ، فهم مقيدون باحترام العهد ، والترفع عن الخيانة ، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى ، والعناية بهم ، وعدم التعرض بسوء لغير المقاتلين والنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين .

*** توطيد أركان السلام :**

تكون الأمة بغير جيش عرضة للضياع ، إذ يطمع فيها أعداؤ ها ، ولا يهابون قوتها ، فإذا كان لها جيش قوى احترم العدو إرادتها ، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها ، فيسود عند ذاك السلام : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون * وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره

---

(١) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .

وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم * يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾(١) .

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾(٢) .

إن الإسلام كما نزل عليه تسميته دين أمن وسلام ، يقوم على أساس الود والتسامح ، لا يجيز الحرب إلا فى حالات محددة ، بحيث تعتبر فيما عداها جريمة .

أنواع القتال فى الإسلام

* **قتال المسلمين للمسلمين :**

هذا النوع من القتال هو شأن من الشئون الداخلية للمسلمين ، فقد فرض القرآن حالة بغى وخروج على النظام العام ، تقع بين طوائف المسلمين بعضها مع بعض ، أو بين الرعية وراعيها ، فوضع لها تشريعاً من شأنه أن يحفظ على الأمة وحدتها ، وعلى الهيئة الحاكمة سلطانها وهيبتها ، ويقى المجموع شر البغى والتعادى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾(٣) .

هذه الآية تفرض حالة اختلاف يقع بين طائفتين من المؤمنين ، ولا يستطاع حله بالوسائل السلمية ، فتلجأ كل منهما إلى القوة ، فتوجب هذه الآية على الأمة ممثلة فى حكوماتها أن تنظر فيما بين الطائفتين من أسباب الشقاق ، وتحاول الإصلاح بينهما ، فإن وصلت إلى ذلك عن طريق المفاوضات ، وأخذ كل ذى حق حقه ، ورد البغى ، واستقر الأمن ، فقد كفى الله المؤمنين شر القتال .

وإن بغت إحداهما على الأخرى ، واستمرت على العدوان ، وأبت أن تخضع للحق ، وتنزل على حكم المؤمنين ، كانت بذلك باغية خارجة على سلطان القانون ، متمردة على التشريع الإلهى والنظام ، فيجب على جماعة المسلمين قتالها ، حتى تخضع وترجع إلى الحق .

إن القصد من هذا التشريع هو المحافظة على وحدة الأمة ، وعدم إفساح المجال لتفريقها ، لذلك فهذه الحرب طريق (للسلم) وقضاء على البغى والعدوان .

* **قتال المسلمين لغير المسلمين :**

شرع قتال المسلمين لغير المسلمين لرد العدوان ، وحماية الدعوة ، وحرية انتشار الدين ، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار ، وإذلال الضعفاء ، وتوخى به أن يكون طريقا إلى السلام والاطمئنان ، وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف .

---

(١) الآيات ٦٠ - ٦٤ من سورة الأنفال .

(٢) الآية ٢٠٨ من سورة البقرة .

(٣) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الحجرات .

وليست الجزية عوضا مالياً عن دم أو عقيدة ، وإنما هى لحماية المغلوبين فى أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء . .

يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التى تمت بين المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية فى العقائد والأموال ، وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف : (إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة . . فإن منعناكم فلنا جزية وإلا فلا نمنعكم) .

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص ، وأبو عبيدة على أهل دمشق ، وبقية القواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية ، حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك ، وكان مما قال القواد المسلمون لأهل تلك المدن : (إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم فهذه هى أموالكم نردها إليكم) .

لقد كان فرض الجزية فى الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع فى أموال المغلوبين ، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب ، وكانت على ثلاثة أقسام :

أعلاها : وهو (٤٨) درهماً فى السنة على الأغنياء (حوالى دينارين ونصف دينار عراقى أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشاً مصرياً) .

وأوسطها : وهو (٢٤) درهماً فى السنة على المتوسطين من تجار وزراع .

وأدناها : وهو (١٢) درهماً فى السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً .

وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله ، وهو بنسبة اثنين ونصف فى المائة ، القدر الشرعى لفريضة الزكاة .

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبى والمرأة والراهب ، والمنقطع للعبادة ، والأعمى والمقعد ، وذوى العاهات ، أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها ، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة فى تصحيلها ، وقد جاء فى عهد خالد لصاحب مقل الناطف : (إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذى يد : القوى على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله) .

ليس ذلك فحسب بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة فى الجيش ، والذى يقبل التطوع من الجيش الإسلامى عند الجزية ، وهذا معناه أن الجزية تشابه البدل النقدى للخدمة العسكرية فى عصرنا الحاضر .

كما ضمن الإسلام إعالة البائسين والمحتاجين من الذميين ، جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة : (وأيما شخص ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات ، أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته ، وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله) .

إن فرض الجزية لا يحمل معنى الامتهان والإذلال .

ومعنى (صاغرون) فى آية الجزية : ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[١] هو الخضوع ، إذ من معانى الصغار فى اللغة الخضوع ، ومنه أطلق (الصغير) على الطفل ، لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه ، والمراد بالخضوع حينئذ الخضوع لسلطان الدولة ، بحيث يكون فى دفع الجزية معنى الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة ، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم ، واحترام عقائدهم ، ولا توجد آية فى القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال فى الإسلام لحمل الناس على اعتناقه .

وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾[٢] .

واقرأ الآية الكريمة وهى من أواخر القرآن نزولاً فهى تحدد أيضاً علاقة المسلمين بغيرهم:﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو فى الآخرة من الخاسرين﴾[٣] .

من ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هى : بر وقسط وتعاون ومصاهرة .

*** تنظيم القتال فى الإسلام :**

تقوية المعنويات : يعمل الإسلام على تقوية معنويات المقاتلين فى سبيل الله ، فيعدهم بمضاعفة أجر العاملين ، وثواب المجاهدين ، لأنهم يقاتلون فى سبيل إنقاذ الضعفاء ، والبر بالإنسان ، ومقاومة الجبروت والطغيان ، ولدحض عوامل الشر والإفساد .

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً * وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً * الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً﴾[٤] .

بمثل هذا الأسلوب القوى حارب الإسلام عوامل الضعف ، ونزعات الخوف ، وغرس فى نفوس الأمة خلق الشجاعة والتضحية ، والاستهانة بزخرف الحياة فى سبيل الحق ونصرته:﴿ إنما المؤمنون

---

(١) الآية ٢٩ من سورة التوبة .

(٢) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة الممتحنة .

(٣) الآية ٥ من سورة المائدة .

(٤) الآيات ٧٤ـ٧٦ من سورة النساء .

الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، أولئك هم الصادقون ﴾[١].

لقد توخى الإسلام تقوية الروح المعنوية وقد كانت المعنويات العالية ولا تزال من أهم مزايا الجيوش ذات القيمة العسكرية.

إعداد القوة المادية : حث الإسلام على الاهتمام بناحيتين : القوة والرباط.

فأما القوة فتناول العدد والعدة وهذا يتسع لكل ما عرف ويعرف من حشد الرجال، وإعداد آلات الحرب، ووسائل القتال، ومواد التموين، وكافة القضايا الإدارية الأخرى.

وأما الرباط فيتسع لكل ما عرف أيضاً من تحقيق الحدود والثغور، والأماكن الواهنة تجاه العدو، وتهيئة القوة الكامنة فيها لحمايتها، يهدف الإسلام بالحث على إعداد هاتين الناحيتين إلى تأمين السلم والاستقرار، وذلك لإرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باستغلال ناحية من نواحى الضعف والتخاذل ﴿ ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ﴾[٢].

كما يحث الإسلام على إنشاء المعامل الحربية لصنع الأسلحة، ويذكر بالحديد بصورة خاصة للاستفادة منه للأغراض العسكرية : ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[٣].

إن الجهاد فى الإسلام إنما يتوخى الاستعداد الدائم للمنافحة عن الحق وحمايته.

* التنظيم العملى للقتال :

الإعفاء من الجندية : أسباب الإعفاء من الجندية فى الإسلام محصورة فى الضعف، ويشمل الضعف المرض، والعجز، والشيخوخة، وعدم القدرة على الإنفاق : ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾[٤].

لم يجعل الإسلام من أسباب الإعفاء من الجندية حمل الشهادات العلمية، ولا الانتساب إلى الجامعات، ولا حفظ القرآن الكريم، ولا دفع البدل النقدى، ولا البنوة لحاكم كبير، مما عهدناه فى عصور الانحلال، بل كان العمل فى عصر النبى ﷺ، والعصور التالية له على عكس ذلك، وما كان التفكير فى جمع القرآن الكريم إلا خوفاً من أن يذهب بذهاب القراء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالة فى حرب اليمامة، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً فى أن يستحر القتل فيهم.

* **إعلان الحرب** : حذر القرآن الكريم من انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرة غدراً : ﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ﴾[٥].

---

(١) الآية ١٥ من سورة الحجرات.
(٢) الآية ١٠٢ من سورة النساء.
(٣) الآية ٢٥ من سورة الحديد.
(٤) الآية ٩١ من سورة التوبة.
(٥) الآية ٥٨ من سورة الأنفال.

إن المسلمين لا يخونون أحداً ، ولا يغدرون بأحد ، ويعلنون الحرب صراحة على أعدائهم ، ثم يشرعون بعد هذا الإعلان فى القتال .

* **الدعوة إلى الجهاد** : حذر الإسلام من التباطؤ فى تلبية داعى الجهاد ، والتثاقل عنه:﴿ يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير ﴾[1] .

* **عقاب المتخلفين** : عاقب الإسلام المتخلفين عن الجهاد عقاباً نفسياً ، إذ يهجر المتخلف أهله حتى زوجه ، كما يهجره المسلمون جميعاً ويقاطعونه ، وينظر إليه المجتمع نظرة احتقار وازدراء : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾[2] .

فقد تاب الله عليهم بعد كل هذا العقاب ليتوبوا . ولا يعودوا إلى التخلف مرة أخرى . إن عقاب المتخلف يقتصر عليه فقط . ولا يشتمل أهله وعشيرته ، ولا سكان قريته .

* **تطهير الجيش** : يأمر الإسلام بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ومن الذين يختلفون عن أفراده بالعقيدة . حتى يكون الجيش كله مؤمناً بعقيدة واحدة . يعمل لتحقيقها . ويبذل كل ما يملكه فى سبيلها .

* **أساليب القتال** : ينظم الإسلام مواضعه الدفاعية ويوزع وحداته على تلك المواضع : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾[3] .

ويبتكر القتال بأسلوب الصف الذى لم تكن العرب تعرفه حينذاك ، بل كانت تقاتل بأسلوب الكر والفر:﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾[4]

إن أسلوب الصف يتفق مع أساليب القتال فى العصر الحاضر ، فهويؤمن العمق والاحتياط ، ليستطيع القائد معالجة المواقف التى ليست فى الحسبان .

* **الضبط** : يحث الإسلام على السمع والطاعة للقيادة العامة والثبات فى المواقف وتجنب أسباب الفشل والاعتصام بالله وباليقين : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[5] .

* **الكتمان** : حذر الإسلام من إذاعة الأسرار العسكرية ، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين ،

---

(١) الآيتان ٣٨ ، ٣٩ من سورة التوبة .
(٢) الآية ١١٨ من سورة التوبة .
(٣) الآية ١٢١ من سورة آل عمران .
(٤) الآية ٣ من سورة الصف .
(٥) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأنفال .

وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة ، كما طلب من المسلمين أن يثبتوا مما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها: ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ﴾(١) .

﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾(٢) .

* **الهدنة والصلح** : أمر الإسلام بتلبية دعوة السلم ، ووقف الحرب إذا جنح إليها الأعداء ، وظهرت منهم علامات الصدق والوفاء : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾(٣) .

* **الأسرى** : خير الإسلام القائد بين أن يمن عليهم ويطلقهم من غير فدية أو مقابل ، أو يأخذ منهم الفدية من مال ورجال ، وذلك حسب ما يرى من المصلحة : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء ﴾(٤) .

لقد حرم الإسلام قتل الأسير ، ومن أسلم امتنع قتله ، ومن أسلم قبل أسره ولو لخوف فهو كالمسلم الأصلى يحرم دمه أيضاً .

* **المحافظة على العهود** : حث الإسلام بصورة خاصة على المحافظة على العهود . وأوجب الوفاء بها ، وحرم الخيانة فيها ، والعمل على نقضها ، وأرشد إلى أن القصد منها إحلال الأمن والسلم محل الاضطراب والحرب ، وحذر أن تكون وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق والوقيعة بالضعفاء ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ :

أى: هو القدير على أن ينصرهم بدون قتال ، أو كفاح مسلح ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم * يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾(٦) .

وهكذا فالقتال جهاد وابتلاء: ﴿ ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾(٧) .

وكما قال جل شأنه : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ﴾(٨) .

---

(١) الآية ٦٠ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية ٨٣ من سورة النساء .
(٣) الآيتان ٦١ ، ٦٢ من سورة الأنفال .
(٤) الآية ٤ من سورة محمد .
(٥) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .
(٦) الآيات ٤ ـ ٧ من سورة محمد .
(٧) الآية ١٤١ من سورة آل عمران .
(٨) الآية ١٤٠ من سورة آل عمران .

وما أدراك ما الشهادة ؟ ثم ما أدراك ما الشهداء ؟ حسبك أن تقرأ قوله تعالى: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين * الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ﴾(١) .

قوله تعالى : **﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾** .

والمراد بهم رسول الله ﷺ وأصحابه ، فقد أخرجوا من ديارهم بمكة مهاجرين إلى المدينة ، بغير حق ، لأن الذين أخرجوهم لا يعرفون للحق ديوانا ، ولا ينصبون له ميزانا ، لأنهم مردوا على الباطل ، ومرنوا على الكفر ، وما كان لسيدنا محمد وأصحابه من ذنب اقترفوه ، إنما كل ذنبهم فى نظر هؤلاء الجاحدين المبطلين أنهم أعلنوها فى سمع الزمان مدوية : ﴿ ربنا الله ﴾ .

وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾(٢) : أى ما أخرجوكم إلا لإيمانكم بالله ربكم .

وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾(٣) .

فهل نالوا من قلوبهم فغيروا ما بها من عقائد ، لا والله ، لقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

إن الإيمان إذا تمكنت بشاشته من شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكنا ، والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، ومن ثم لما كان المسلمون يرتجزون فى بناء الخندق ويقولون :

(اللهم لولا أنت ما اهتدينا ، ولا تصدقنا ولا صلينا ، فأنزلن سكينة علينا ، وثبت الأقدام إن لاقينا ، إن الألى بغوا علينا ، إذا أرادوا فتنة أبينا)(٤) .

إن الإحن لا تزيد المؤمنين إلا ثباتا ورسوخا وبزوغا وشموخا .

إنهم كلما اشتدت بهم الشدائد صهرتهم فى بوتقة الصمود ، وتذكروا قول الله تعالى : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ومازادهم إلا إيمانا وتسليما * من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾(٥) .

---

(١) الآيات ١٦٩ ـ ١٧٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١ من سورة الممتحنة .

(٣) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة البروج .

(٤) أخرجه البخارى فى الجهاد : ٣٤ ، وفى القدر : ١٦ ، وفى التمنى : ٧ ، وفى الأدب : ٩٠ ، وفى المغازى : ٢٩ ، ٣٨ ، ومسلم فى الجهاد : ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، والدارمى فى السير : ١٨ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣١ ، وفى ٤ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ .

(٥) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الأحزاب .

إن الجماعة المسلمة ترسل هذه الصيحة كأنها البركان فى سمع الزمان ، سنطب المريض بدوائنا ، وسنؤمن الخائب فى رحابنا ، وسنتلوا على الدنيا كتاب جهادنا ، صُمَّت أذن الدنيا إن لم تسمع لنا :

يا خيل الله اركبى ، هبى ريح الجنة هبى .

ولست أبالى حين أقتل مسلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى

قوله تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ :

اقتضت سنة الله فى كونه أن يظل الحق فى صراع مع الباطل ، من يوم هبط آدم إلى الأرض ، كما اقتضت سنته العادلة أنه جلت قدرته يدفع بعض الناس ببعض ، فليعلم أهل الحق أنهم مطالبون بدفع الباطل ، وتدمير قوى الشر ، لولا ذلك لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ، ولولا أن أتباع كل نبى قاوموا أهل الباطل والشرك لهدمت بيوت العبادة فى كل زمان ، صوامع الرهبان ، وبيع النصارى ، وصلوات اليهود ، ومساجد المسلمين التى يذكر فيها اسم الله كثيراً .

ويجب علينا أن نعلم أن دين الله واحد وهو الإسلام ، أما تلك التسمية من رهبان ونصارى ويهود ، فإنها ديانات من وضع البشر .

أما الإسلام فهو دين كل نبى ، وأتباعه الذين عزروه ونصروه ، قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب * فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾(١) .

أما من اتبع دينا ، وابتغ ملة غير الإسلام ، فهو كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٢) .

وكما قال جل شأنه: ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا من ذلك سبيلاً * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير ﴾(٤) .

وقال سبحانه : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾(٥) .

---

(١) الآيتان ١٩ ، ٢٠ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .
(٣) الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٦ من سورة البينة .

ألا فلتعلم الأمة المسلمة : أن قوى الشر قد تكالبت وتشبثت بباطلها ، وعربدت فى عرصات الدنيا ، ولن يرتفع صوت الباطل إلا إذا أغفل أهل الحق ، ولن يستأسد الحمل إلا إذا استنوق الجمل .

فعلى أهل الحق أن يدفعوا أهل الباطل ، فلولا ذلك لفسدت الأرض ، تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا .

يقول الكاتب الإسلامى الكبير فتحى يكن :

إن الإسلام يخوض اليوم معركة مصير ، ومن حقه على أبنائه والسائرين فى دربه أن يذودوا عنه ، وينافحوا دونه بكل ما يملكون من إمكانيات فكرية ومادية ومعنوية ، ومعركة المصير هذه ينبغى أن تستنفر أهل الإيمان فى كل مكان ، لسد الثغرات ، وحماية الجبهات التى يمكن أن يتسلل منها إلى الإسلام خصومه وأعداؤه .

ومسؤولية العاملين فى الحقل الإسلامى فى هذه الفترة مسؤولية ضخمة ودقيقة ، وبقدر البذل يكون الجزاء ، وعلى قدر الجهد يأتى العطاء .

الإسلام بين المبدأ والتطبيق

ليس من قبيل المبالغة القول بأن التحديات (الفكرية والسياسية والغوغائية) التى يتعرض لها الإسلام فى العصر الحديث ، تفوق ضخامة وشراسة كل التحديات التى واجهتها الحركات الأخرى مجتمعة ، ولو تعرض لمثل ما تعرض له الإسلام نظام آخر من الأنظمة الوضعية ، لعفى أثره وانطوى ذكره ، ولم يعد له فى واقع الحياة أدنى وجود .

ولكنه الإسلام المنهج الإلهى الخالد الذى كان يستعصى بخصائص البقاء على معاول الهدم ، ويخرج من كل صراع قويا منتصراً مؤكداً على الزمن أبديته ، التى جعلها الله إحدى صفاته المميزة حين قرر : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

اتُهم الإسلام بالرجعية ، واعتبر متهموه الدعوة إليه عودا بالبشرية إلى الوراء ، وتخلفاً عن ركب الحضارة والمدنية آلاف السنين .

جاء فى الموسوعة السوفياتية الكبيرة ، وفى الصفحة (٦١٥ - ٦١٩) من الجزء الثانى عشر : (إن الإسلام لعب على الدوام كغيره من الأديان الأخرى دورا رجعيا ، وكان دائما أداة فى أيدى الطبقات الرجعية المستغلة لإرهاق الطبقات العاملة ، وأداة للاستعمار الأجنبى الرامى إلى استعباد شعوب الشرق ، إن السُّنة والقرآن كليهما يبرران النظام الطبقى والاستغلال . . . الخ) .

ثم جاء من يعتبر الإسلام تجربة من التجارب التى مرت بالحياة العربية ليس إلا ، وأنه قد استنفذ أغراضه ، وليس لديه مقومات البقاء والنماء والعطاء .

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .

فقد جاء فى الصفحة (٥١) من كتاب (فى سبيل البعث) لميشيل عفلق ، قوله : (فهذه الأمة التى أفصحت عن نفسها وعن شعورها بالحياة إفصاحا متعددا متنوعا فى تشريع حمورابى ، وشعر الجاهلية ، ودين محمد ، وثقافة المأمون ، فيها شعور واحد . . . الخ) .

واتهم الإسلام بأنه نظرية (تجريدية) وفلسفة (مثالية) غير قابلة للتطبيق .

وهكذا ذهب أعداء الإسلام فى اتهاماتهم مذاهب شتى : ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾[1] .

عوامل نشوء هذه الشبهات :

لقد تسبب وساعد على نشوء مثل هذه الشبهات ، وقيام أمثال هذه الحملات المسعورة من التضليل والتشكيك فى وجه الإسلام عوامل كثيرة منها :

١ ـ غيبة الوجود (الحركى) للإسلام عن قيادة الأمة فترة طويلة من الزمن ، مما أدى إلى تطاول خصومه فى نجوة من وجود حكومة إسلامية تدافع دونه ، وترد عنه شائعات الحاقدين .

٢ ـ إصابة الأمة (فكريا ونفسيا) بلوثات مادية جانحة من تأثير الحضارة الغربية الغازية .

٣ ـ تسلل الفكر اليسارى (الماركسى) إلى المجتمع الإسلامى ، يسوق أمامه فيضا من التصورات والآراء والطعون ، بكل فكرة (دينية) على الإطلاق نتيجة لردة الفعل التى أحدثتها انحرافات الكنيسة الأوربية عن إطار المسيحية الروحى .

٤ ـ جهل المسلمين بحقيقة دينهم ، وخصائص إسلامهم ، وآفاق شريعتهم ، مما جعلهم لقمة سائغة للاتجاهات والمذاهب المادية التى غزت العالم الإسلامى فى مطلع القرن العشرين .

هذه الأسباب وغيرها عملت (على الزمن) على عزل الإسلام عن الصراع الحياتى الذى تخوضه الأمة ، وألبسته ثوبا كهنوتيا ليس منه ، وبالتالى أدت إلى نشوء أجيال من المسلمين لم تطلع على الإسلام إلا من زوايا مظلمة ، زادتها منه نفرة وانفلاتا ، حتى أصبح الإسلام بأفكاره وأخلاقه ومبادئه فى واد ، وأصبح المسلمون (المنتسبون إليه) فى واد آخر ، لا يمت إليه بصلة من الصلات على الإطلاق .

ولو أدرك المسلمون أن الإسلام :

صيحة الحرية فى وجه العبودية .

وصيحة المساواة فى وجه الطبقية .

وصيحة العدالة الاجتماعية فى وجه الإقطاع والرأسمالية .

لو أدرك المسلمون أن دينهم هذه خصائصه ومبادئه لما وجدت الاتجاهات الاشتراكية والشعوبية منفذا إلى بلاد الإسلام ، ولما أصبحت المجتمعات الإسلامية سوقا (عامة) لعرض المبادىء المستوردة ، والشعارات الكاذبة المزيفة .

---

(١) الآية ٨ من سورة الصف .

وليسمع شباب الإسلام والمثقفون منهم بوجه أخص ما يقوله (**اللورد استانلى**) ، وكان نصرانيا فأسلم ، وكان يتحدث عن الأسباب والعوامل التى حدت به إلى اعتناق الإسلام .

قال استانلى : (أو أغمط الفضل وأهله ، أو أجحد الله وعلمه ، أنا مسلم رأيت أثر الإسلام وقدرته فى نفسى حق قدره ، وهو عندى عزيز ، لأنى رأيت الفرق بينه وبين الأديان المنسوخة ، ولأنى رضيت به بعد بحث واجتهاد ، فلا أقبل به بديلا . أنا مسلم أهزأ بكل ما يحيط بى من مظاهر المدنية ، فصيحتها الحق من كتاب الله وقرآنه ، وباطلها المذاع لا يلبث أن تبرهن الأيام على بطلانه) .

خصائص المنهج الإسلامى :

إن الإسلام يمتاز بخصائص ذاتية هى فواصل جذرية ، وفوارق أصيلة بينه وبين الاتجاهات والمذاهب الحديثة .

الحاكمية لله

فالحاكمية فى المنهج الإسلامى لله ، لا لفرد ، ولا لحزب ، ولا لشعب .

فلا ديكتاتورية لفرد ، ولا تسلط لحزب ، ولا حاكمية لشعب فى تشريع الإسلام .

والحقيقة أن معظم المظالم الاجتماعية والاقتصادية ومظاهر الاستبداد السياسى منشؤها خضوع الحاكمية لتشريع زمنى وضعى ، ولسلطة بشرية .

فالنظام الديمقراطى يجعل الحاكمية للشعب ، ويجعله مصدر السلطات ، منه وإليه يعود كل أمر ، وبذلك يكرس التميع (الفردى) والانتفاخ (الشخصى) مما لا يتحقق معه هيبة فى الحكم ، أو أمن وسلام فى المجتمع .

إن شعور الفرد فى ظل النظام الديمقراطى بأنه مصدر القوانين والتشاريع ، ينمى فيه بواعث الاستهتار بالقوانين والتشاريع ، ويعطيه من أسباب السطوة ما يجعله قادراً بنفوذه الشخصى والمادى ، على تسخير السلطة لمصالحه ورغباته .

وبالتالى يمنحه حق التلاعب بالقوانين ، ووضعها بما يتلاءم مع أهوائه وأغراضه .

يقول (مارتن دوج) فى كتابه : (اعرف مذهبك) صفحة (١٨) فى معرض حديثه عن الديمقراطية : (وفكرة الديمقراطية تتلخص فى أن يحكم الناس أنفسهم ، دون أن يكونوا رعايا ، ذلك أن الناس لهم المقام الأول والصدارة ، ثم تليهم فى المرتبة الثانية السلطة الحاكمة ، وفى ظل النظام الديمقراطى يحكم المجتمع نفسه من أجل نفسه) .

أما النظام الشيوعى فإنه يكرس حاكمية (الحزب الواحد) للأمة بأسرها ، وبذلك يعطى الحزب نفسه حق سن القوانين ، واستصدار التشاريع ، بما يكفل له البقاء والسيطرة فى الحكم ، وهو بذلك نظام سياسى يقبض بمقتضاه (الحزب) على زمام السلطة فى بلد يخضع أفراده عموما لما يفرض عليهم ، وعلى شؤون حياتهم من إجراءات .

فالحزب الشيوعى فى (روسيا) مثلا هو الحزب السياسى الوحيد والحاكم ، ومع ذلك فإنه لا يمثل الشعب الروسى أصدق تمثيل ، إذ يبلغ عدد أعضائه (ستة) ملايين فقط من أصل (١٨٠) مليونا وهى كما نرى نسبة ضئيلة جدا .

وبهذا لا يمكن أن تكون حاكمية (الحزب الواحد) فى أى نظام من أنظمة الحكم مصدر استقرار وعدالة ومساواة ، طالما أن الذين فى أيديهم السلطة يخضعون كل شىء لمصالحهم الشخصية والحزبية .

وبين هذين الاتجاهين المتطرفين يقوم (المنهج الإسلامى) فوق قواعد تشريعية ، يخضع لها الحاكم والمحكوم على حد سواء ، وينصاع لها الكبير والصغير دونما تمايز أو تخصيص .

فالحاكمية فى النظام الإسلامى ليست لشعب ، كما هو الشأن فى النظام (الديمقراطى) ، كما أنها ليست الحزب كما هو الحال فى النظام (الشيوعى) وسائر الأنظمة (الاشتراكية) .

وهى كذلك ليست لفرد ، كما هو الأمر فى النظم (الديكتاتورية) .

وإنما هى (لله) خالق الكون ومالكه ، وهذا ما يقرره الدستور الإسلامى فى كثير من آياته : ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾(١) .

﴿ وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ﴾(٢) .

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾(٣) .

والإسلام يحقق هذه الحاكمية الربانية عن طريق (قانون إلهى) يتضمن الأحكام التى جاء بها القرآن الكريم ، وفسرتها وفصلتها سنة رسول الله ﷺ .

فالإسلام منهج متفرد فى خصائصه ، لم تضع أحكامه ونظمه وتشريعاته أهواء حاكم ، أو مصلحة حزب ، وإنما وضعتها عدالة سماء ، فلا تمييز ولا محاباة ولا أنانية ، ولا تحكم ولا حزبية ولا سطوة ، وإنما الجميع أمام شرع الله سواء عدالة ، لا تعرف ظلما ولا عنتا ولا تفاضلا .

ومساواة تطبق على الجميع من غير محسوبيات أو استثناءات .

وهاكم بعض الشواهد من دستور الله الخالد : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾(٤) .

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾(٥) .

﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ﴾(٦) .

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ١٠ من سورة الشورى .
(٣) الآية ١٠٥ من سورة النساء .
(٤) الآية ٨ من سورة المائدة .
(٥) الآية ٤٩ من سورة المائدة .
(٦) الآية ٤٨ من سورة المائدة .

وروى أن امرأة من بنى مخزوم سرقت ، فقالت قريش : من يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟ أى ليضع عنها الحد ، فلم يجدوا إلا (أسامة بن زيد) حب رسول الله ﷺ ، يقوى على ذلك ، فلما كلم أسامة رسول الله بذلك . قال رسول الله غاضباً : (أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة ؟) ثم قام وخطب الناس قائلا : (أيها الناس : إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها)(١)

ومن وصايا عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد بن أبى وقاص : (إن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء)(٢) .

وفى وصية للخليفة من بعده يقول : (اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم ، وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله) .

الشمول لا الجزئية

من خصائص المنهج الإسلامى شموله وكليته ، فالإسلام ليس تصورا (عقيديا) فحسب ، ولا دينا (عباديا روحيا) وكفى ، ولا نظاما اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا مجردا .

ولكنه منهج حياة ، يجمع إلى رقة (التوجيه) دقة (التشريع) ، وإلى جلال (العقيدة) جمال (العبادة) وإلى إمامة (المحراب) ، قيادة (الحرب) .

إن المنهج الإسلامى لم يكن ردة فعل لسوء أوضاع اقتصادية ، ليكون نظاما اقتصاديا ، شأن الماركسية وسائر المذاهب الاشتراكية ، كما أنه ليس مدرسة روحانية شأن المسيحية .

إن الإسلام منهج متكامل الجوانب ، شامل النظرة ، فيه تنظيم علاقة الفرد بنفسه ، وعلاقته بأسرته ، وعلاقته بمجتمعه ، وعلاقة مجتمعه به ، وفيه بيان للأصول والقواعد التى تقوم عليها النظم والقوانين التى تحكم سير المجتمع والناس ، وفق نظرة الإسلام للكون ، والإنسان ، والحياة .

يقول (جيبون) : (القرآن مسلم بأنه الدستور الأساسى ليس لأصول العقيدة فحسب ، بل وللأحكام الجنائية والمدنية ، وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الإنسانى ، وترتيب شؤونه ، وبعبارة أخرى هو القانون العام للعالم الإسلامى ، فهو قانون شامل للقوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية) .

الفطرية لا التطرف أو المثالية

ومن خصائص المنهج الإسلامى : أنه دين الفطرة ، اعترف للإنسان بحاجاته الروحية

---

(١) أخرجه البخاري فى فضائل أصحاب النبى : ١٨ ، وفى الأنبياء : ٥٤ ، وفى الحدود : ١٢ ، ومسلم فى الحدود : ٨ ، ٩ ، وأبو داود فى الحدود : ٤ ، والترمذى فى الحدود : ٦ ، والنسائى فى السارق : ٥ ، ٦ ، وابن ماجه فى الحدود : ٦ ، والدارمى فى الحدود : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٨٦ ، ٣٩٥ ، وفى ٥ : ٤٠٩ ، وفى ٦ : ٣٢٩ .

(٢) أخرجه الدارمى فى المقدمة : ٣٦ .

والعضوية ، وقيّمه تقييما إنسانيا مراعيا فى ذلك نوازعه الفطرية كلها ، محققا التناسق والتوافق بينها جميعا .

فالإسلام لم ينظر إلى الإنسان نظرة (مادية مجردة) لا تتعدى هيكله الجسدى ، ومتطلباته الغريزية ، شأن الشيوعية وسائر المذاهب المادية ، فى الوقت الذى لم يحرمه حقوقه البدنية ، وحاجاته البشرية .

فلم يكن الإسلام (أبيتوريا) فى إطلاقه للغرائز والشهوات من غير تنظيم ولا تكييف ، كما لم يكن (رواقيا) فى فرض المثالية الخيالية ، وإعدام المتطلبات الغريزية فى الإنسان ، وفطرية الإسلام جسدت فى مبادئه (النظرة الواقعية) .

وأفردته بخصائص التوفيق والتنسيق بين المادة والروح ، وهذا ما ينطق به مدلول الآية الكريمة ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾[1] .

ويقول الشهيد (سيد قطب) فى تفسير هذه الآية : إنها العقيدة التى تعترف بالإنسان إنسانا لا حيوانا ولا ملكا ولا شيطانا ، تعترف به كما هو بكل ما فيه من ضعف ، وكل ما فيه من قوة ، وتأخذه وحدة مؤلفة من جسد ذى نوازع ، وعقل ذى تقدير ، وروح ذى أشواق ، وتفرض عليه من التكاليف ما يطيق ، وتراعى فى التنسيق بين التكليف والطاقة بلا مشقة ولا إعنات .

الاطمئنان العقيدى لا القلق الوجودى

ومن خصائص المنهج الإسلامى أنه عرّف الإنسان على نفسه ، وسر خلقه ، وسبب وجوده ، فحل بذلك عقدة من أخطر العقد فى الحياة البشرية .

لم يترك الإسلام الإنسان فى الكون وحيداً بلا عماد ، حائرا من غير هدى ، يجابه مصيره بمفرده ، ويحدد طريقه وحده ، ويحكم نفسه بنفسه .

لقد أجاب الإسلام على كل الأسئلة التى طرحها (الوجوديون) قديما وحديثا ، والتى أرادوا من ورائها التفلت من كل القيود والحدود ، ليعيشوا أحراراً كما يزعمون ، وهم فى الحقيقة (عبيد) ، وأكثر من عبيد .

فالإسلام لم يعتبر (الوجود) بلا غاية ، كما يزعم (سارتر) ولم يعتبره وجودا (سخيفا) فى عالم لامعقول ، ولم يعتبر أن الإنسان موجود فيه لا أكثر ولا أقل ، لا يعرف من أين أتى ؟ ولا إلى أين هو ذاهب ؟ .

كذلك لم يعتبر الإنسان مسيرا بدون إرادة ، تسوقه الطبيعة كالحيوان .

بل إن الإسلام جعل للإنسان عقلا يفكر به ويستفتيه ، وإرادة يتحرك بها كيفما شاء ، وأنى شاء .

وجعل لخلقه سببا ، ولوجوده هدفا ، وللحياة الإنسانية غاية ، خلق الإنسان ليبلوه فيما آتاه ،

---

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .

ويختبره فيما أعطاه ، أيكفر أم يشكر : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾(١) .

وطالبه بتسخير نفسه وأعضائه ، ودفع غرائزه وميوله فى طريق الخير ، ضمانا لعمارة الأرض ، وتحقيقاً لرسالة الاستخلاف : ﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾(٢) وقوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾(٣) .

فالإنسان فى الإسلام صاحب رسالة ، يعمل على أدائها ، وله غاية يسعى للوصول إليها ، إنه يدرك أن حياته رحلة ينبغى أن يقطعها وفق الخط الإلهى الذى يضمن له السعادة فى الدنيا ، والنعيم الأبدى فى الآخرة .

﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ :

هذا وعد أكيد لا يختلف ولا يتخلف ، بل إنك لتعجب وأنت تسمع أن الله يقسم ويؤكد الفعل (ينصرن) .

يقول النحاة والصرفيون : إن الفعل فى مثل هذه المواقع واجب التوكيد ، وذلك لاستيفائه الشروط ، فقد وقع جوابا للقسم متصلا مستقبلا موجبا غير منفى ، ونصر الله لعباده المؤمنين يشمل الدنيا والآخرة : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾(٦) .

فالمؤمنون هم أهل النصر ، لأنهم هم الذين ينصرون الله بجهادهم فى سبيل إعلاء كلمته ، إنهم رفعوا راية الجهاد فى جميع الميادين ، جهاد الكلمة بالدعوة إلى الله: ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾(٧) .

وجهاد القدوة فإنهم ملتزمون لأمر الله ، مجتنبون نواهيه : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾(٨) .

إنهم العاملون المكافحون الثابتون ، إنهم المجاهدون لأنفسهم : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾(٩) .

---

(١) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الإنسان .
(٢) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ من سورة الملك .
(٣) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون .
(٤) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٥) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٦) الآية ٤٧ من سورة الروم .
(٧) الآية ٣٣ من سورة فصلت .
(٨) الآية ٨٨ من سورة هود .
(٩) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

إنهم المجاهدون بالسيف للقضاء على السيف ، إنهم المجاهدون بسيف التوحيد والعدل لتحطيم سيف الشرك والظلم :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا بقتل نفس ولا جاءوا بسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
فالخير إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وإن تلقه بالشر ينحسم

صدقت ربنا وتباركت وتعاليت ، أنت القائل : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[1] .

من هؤلاء المستحقون لنصر الله :

إنهم الذين قال الله فيهم :

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ .

هذا هو عقد الصلح مع الله شروطه : إقام الصلاة ، إيتاء الزكاة ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، والتصديق عليه : ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ .

إن الله تبارك وتعالى ختم الآية السابقة بقوله : ﴿ إن الله لقوى عزيز ﴾ .

فهو القوى الذى لا يغلب ، والعزيز الذى لا يقهر ولا يذل ، فمن غيره ينصرنا ، إن نصره لا خذلان فيه ، وإن خذلانه لا نصر بعده .

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[2] .

وآية التمكين ختمت بقوله تعالى : ﴿ ولله عاقبة الأمور ﴾ .

فخبرنى بربك إلى من تصير الأمور ، قال تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[3] .

فإذا كانت القوة لله ، والعزة لله ، وصيرورة الأمور إلى الله ، وعاقبتها إلى الله إذا كان ذلك كذلك وهو كذلك ، فلماذا الخوف والحرص على الدنيا .

﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شىء قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى

(١) الآية ١٩٠ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .
(٣) الآيتان ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾[٢] .

هؤلاء أقوام سبعة من الأنبياء : قوم نوح وقد أخذهم الله بالطوفان ، وقوم هود وهم عاد وقد أهلكهم الله عندما قالوا له ﴿ سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٣] وكذلك ثمود قوم صالح ، عندما قالوا له : ﴿ إنما أنت من المسحّرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٤] .

كذلك قوم إبراهيم عندما قالوا:﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾[٥] .

لقد حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقاً ، فأصدرت محكمة السماء حكمها لإبراهيم بالإفراج فوراً : ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم * وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ﴾[٦] .

وفى سورة الصافات : ﴿ فأردوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾[٧] .

كذلك قوم لوط عندما أتوا الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين : ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر * ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾[٨] .

وقد بين الله نوع هذا العذاب فقال : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود * مسوَّمة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[٩] .

كذلك أصحاب مدين الذين كانوا ينقصون المكيال والميزان ، فلم يمتثلوا أمر الله ، ولم يجتنبوا نهيه ، فأهلكهم الله بعد ما قالوا لنبى الله شعيب ﴿ إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربى أعلم بما تعملون * فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[١٠] .

كذلك كذب موسى : ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان

---

(١) الآيات ٣٨ ـ ٤٠ من سورة التوبة .
(٢) الآيات ٤٢ ـ ٤٤ من سورة الحج .
(٣) الآيات ١٣٦ ـ ١٤٠ من سورة الشعراء .
(٤) الآيات ١٥٣ ـ ١٥٩ من سورة الشعراء .
(٥) الآية ٦٨ من سورة الأنبياء .
(٦) الآيات ٦٨ ـ ٧٠ من سورة الأنبياء .
(٧) الآية ٩٨ من سورة الصافات .
(٨) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ من سورة القمر .
(٩) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ من سورة هود .
(١٠) الآيات ١٨٥ ـ ١٩١ من سورة الشعراء .

على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ فأمليت للكافرين ثم أخذتهم ﴾ :

الإملاء هو الإمهال ، والأخذ هو الإهلاك ، إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾(٢) .

وقد صدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٣) .

ما أهون هؤلاء على الله : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ فكيف كان نكير ﴾ :

الفاء تفريعية على ما سبق ، وكيف اسم استفهام يراد به التعجب ، وهو خبر كان ، ونكير اسمها مرفوع بضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة ، والتقدير كان نكيرى عليهم ، وإنكارى لما أتوه ، كان عجيبا وشديدا ، وفى هذه الآيات التى قصت علينا تكذيب الأمم للأنبياء تصبير وتثبيت للصادق المعصوم ﷺ : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾(٥) .

وقال سبحانه : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين * وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون * وانتظروا إنا منتظرون * ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾(٦) .

وقال جل شأنه : ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾(٧) .

---

(١) الآيات ٣٨ - ٤٢ من سورة القصص .
(٢) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٣) الآية ٤٠ من سورة العنكبوت .
(٤) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة العنكبوت .
(٥) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنعام .
(٦) الآيات ١٢٠ - ١٢٣ من سورة هود .
(٧) الآية ٤٣ من سورة فصلت .

قوله تعالى :﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ .

هذا إخبار منه تعالى عن قرى كثيرة أهلكها لظلم أهلها ، فقد عبدوا غير الله وأشركوا به ، ولم يفردوه بالعبادة ، فجاءهم بأس الله فصارت تلك القرى خاوية على عروشها ، أي: سقطت حيطانها على سقوفها ، فكم من بئر عطلت بعد هلاك وارديها وصادريها ، وكم قصر كان مشيداً بالصخر وطيد البنيان خرّ على أهله : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون * وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون * أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

أقعد هؤلاء الجاحدون الظالمون فلم يسيروا فى الأرض ، ألم يمشوا فى مناكبها ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، فلم ينظروا إلى من كان قبلهم من الأمم الظالمة كعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين ، وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ﴾(٢) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾(٣) وكما فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون ﴾(٤) .

ألم يعقل هؤلاء ما حدث لمن كان قبلهم ؟ ألم يسمع هؤلاء بآذانهم ما جرى للطغاة والجبابرة الظالمين ﴿ ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴾(٥) .

﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا ﴾(٦) .

ألم يعقل هؤلاء ؟ ألم يسمعوا ألم يبصروا ؟ إن لهم عيوناً وحدقات ولكنها عميت عن رؤية الحق ، فجحدته وأنكرت ضوء الشمس وهى ساطعة ، تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، لكن العمى عمى القلوب ، لذا قال سبحانه : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

وغير خاف أن القلوب فى الصدور لكن ربك جلت حكمته لما نفى عنهم عمى الأبصار التى من

(١) الآيات ٥٨ - ٦١ من سورة القصص .
(٢) الآية ١١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٢٦ من سورة السجدة .
(٤) الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨ من سورة الصافات .
(٥) الآيتان ١٣ ، ١٤ من سورة يونس .
(٦) الآية ٥٩ من سورة الكهف .

شأنها أن تبصر ، أثبت أن العمى عمى القلوب ، وأكد ذلك بأنها فى الصدور كما فى قوله جل شأنه ﴿ يقولون بأفواههم ﴾(١) وقوله : ﴿ فلمسوه بأيديهم ﴾(٢) .

نعم ليس العمى عمى الأبصار ، إنما العمى عمى القلب ، قال ابن عباس رضى الله عنه لما كف بصره :

إن أذهب الله من عينىَّ نورهما ففى فؤادى وعقلى منهما نور
عقلى ذكى وقلبى ما حوى دخلاً وفى فمى صارم كالسيف مشهور

وقال آخر :

يعيرنى الأعداء والعيب فيهم وليس بعيب أن يقال ضرير
إذا أبصر المرء المروءة والوفا فإن عمى العينين ليس يضير
رأيت العمى أجراً وذخراً وعصمة وإنى إلى تلك الثلاث فقير

إن هؤلاء الظالمين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٣) .

فهؤلاء قد عطلت مداركهم وحواسهم ، فالقلوب لا تفقه لما بها من عمى ، والعيون لا تبصر بصر إدراك وتدبر ، والآذان لا تسمع سماع تعقل وتفكر : ﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ :

إنهم يطلبون تعجيل العذاب طلب استهزاء بوعد الله ، لذلك أكد الله وعده ، فقال : ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ .

ومن هذا الاستهزاء قوله : ﴿ متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾(٥) قال تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾(٦) .

---

(١) الآية ١٦٧ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٧ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف .
(٤) الآيتان ٦ - ١١ من سورة الملك .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الملك .
(٦) الآية ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .

لقد بلغ من جرأتهم وتكذيبهم أنهم قالوا : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[١] .

فقال لهم مولانا تبارك اسمه: ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾[٢] وقال : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المعارج * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلاً * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً * يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه * كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى ﴾[٣] .

لقد اقتضت سنة الله تعالى أن يحدد للعذاب يوماً معلوماً ، وأجلاً محدوداً .

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى ﴾[٤] .

فلا تستعجلوا أيها المكذبون : إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ، وإنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع ، وليس سنن الله على حسب ما تريدون ، فإن يوماً عنده كألف سنة مما تعدون ، إن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وخلق الإنسان عجولاً .

كما قال تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾[٥] .

وقال جل شأنه : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾[٦] .

وسبحان القائل : ﴿ خلق الإنسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾[٧] .

إن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، اقرءوا إن شئتم : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾[٨] .

ثم أكد الله لهم صدق وعده ، وأن العذاب واقع لا محالة بالمكذبين ، فقال : **﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلىّ المصير ﴾** :

أى كم من قرية أمهلتها ثم أهلكتها وهى ظالمة والمصير إلىّ ، والمرجع إلىّ: ﴿ إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم ﴾[٩] .

فأعجب معى كيف كان الظلم مدمراً للأمم: ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[١٠] .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ٣٤ من سورة الأنفال .
(٣) الآيات ١ ـ ١٨ من سورة المعارج .
(٤) الآية ١٢٩ من سورة طه .
(٥) الآية ١١ من سورة الإسراء .
(٦) الآية ١١ من سورة يونس .
(٧) الآية ٣٧ من سورة الأنبياء .
(٨) الآيات ١٠٢ ـ ١٠٤ من سورة هود .
(٩) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .
(١٠) الآية ١١٧ من سورة هود .

قال تعالى : ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ﴾ .

فالظلم لا يدوم ، وإذا دام دمر ، والظلم عاقبته وخيمة ، فقد يكون ظلماً فى العقيدة كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[١] .

يحدثنا الإمام أبو العباس أحمد بن على بن حجر المكى الهيثمى : يحدثنا فى كتابه الزواجر عن الشرك فيقول :

وقدمت الكلام عن تلك الكبيرة ، لأنها ومرتكبها أذل العصاة وأحقر .

قال بعض الأئمة : كبائر القلوب أعظم من كبائر الجوارح ، لأنها كلها توجب الفسق والظلم ، وتزيد كبائر القلوب ، بأنها تأكل الحسنات ، وتوالى شدائد العقوبات .

ثم يسوق نصوصاً يتحدث عن الشرك الأكبر فيقول : قال الله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٢] . وقال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ﴾[٤] .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[٥] .

وفى الحديث الصحيح : (اجتنبوا السبع الموبقات)[٦] .

وذكر منها الإشراك بالله ، وروى أحمد والبخارى والترمذى والنسائى : (الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس) الحديث . وأحمد والشيخان والترمذى والنسائى : (الكبائر الإشراك بالله ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور) .

وكونه أكبرهن إنما هو فيما لم يرد فيه ما يدل على أنه أكبر منها كالشرك ، والقتل ، والزنا .

وأبو داود والنسائى : (الكبائر تسع وأعظمهن إشراك بالله) الحديث . والطبرانى : (اجتنبوا الكبائر السبع : الشرك بالله)[٧] الحديث .

---

(١) الآية ١٣ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٤٨ من سورة النساء .
(٣) الآية ١٣ من سورة لقمان .
(٤) الآية ٧٢ من سورة المائدة .
(٥) أخرجه البخارى فى الشهادات : ١٠ ، وفى الأدب : ٦ ، وفى الاستئذان : ٣٥ . ومسلم فى الإيمان : ١٤٣ ، ١٤٤ ، والترمذى فى الشهادات : ٣ ، وفى البر : ٤ ، وفى تفسير سورة ٤ : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ١٣١ ، وفى ٥ : ٣٦ ، ٣٨ .
(٦) أخرجه البخارى فى الوصايا : ٢٣ ، وفى الحدود ، وفى الطب : ٤٨ ، ومسلم فى الإيمان : ١٤٤ ، وأبو داود فى الوصايا .
(٧) أخرجه النسائى فى الزكاة : ١ ، وفى التحريم : ٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٤١٣ .

وأحمد والترمذى وابن حبان والحاكم : (إن من أكبر الكبائر الشرك بالله وعقوق الوالدين واليمين الغموس ، ما حلف حالف بالله يمين حبر فأدخل فيها جناح بعوضة إلا جعلت نكتةفى قلبه إلى يوم القيامة)[١] .

والطبرانى والحاكم والبيهقى : (ألا إن أولياء الله المصلون ، ومن يقيم الصلوات الخمس التى كتبهن الله على عباده ، ويصوم رمضان ، ويحتسب صومه ، يرى أنه عليه حق ، ويؤتى زكاة ماله طيبة بها لنفسه أيحتسبها ، ويجتنب الكبائر التى نهى الله عنها ؟ قيل : يا رسول الله كم الكبائر ؟ قال : هى تسع أعظمهن الإشراك بالله وقتل المؤمن بغير حق والفرار من الزحف وقذف المحصنة والسحر وأكل مال اليتيم وأكل الربا وعقوق الوالدين المسلمين واستحلال البيت الحرام قبلتكم أحياء وأمواتاً ولا يموت رجل لم يعمل هؤلاء الكبائر ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا رافق محمد ﷺ فى بحبوحة جنة أبوابها مصاريع الذهب) .

وقال ﷺ : (اذهب يا ابن الخطاب) وفى رواية (قم يا عمر فناد فى الناس : إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون)[٢] . رواه أحمد ومسلم والترمذى . وقال حديث حسن صحيح .

وقال ﷺ : (يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد : إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن) . وقال ﷺ : (يا بلال قم فأذن : لا يدخل الجنة إلا مؤمن . .)[٣] رواه البخارى .

وقال ﷺ : (لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة)[٤] . رواه أحمد ومسلم .

وأبو داود وابن ماجه : (إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة . .)[٥] رواه أحمد والشيخان .

(من بدل دينه فاقتلوه)[٦] رواه أحمد والبخارى . والأربعة (من ارتد عن دينه فاقتلوه)[٧] .

والطبرانى (أسلم وإن كنت كارهاً) . والبخارى وأبو يعلى والضياء : (آمركم بثلاث ، وأنهاكم

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب : ٦ ، وفى الإيمان : ١٦ ، وفى الديات : ٢ ، وفى الاستتابة : ١ ، والترمذى فى تفسير سورة ٤ : ٦ ، ٧ ، والنسائى فى التحريم : ٣ ، وفى القسامة : ٤٨ ، والدارمى فى الديات : ٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٠١ ، ٢١٤ ، وفى ٣ : ٤٩٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٨٢ ، والدارمى فى السير : ٤٧ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣ ، ٤٧ .

(٣) أخرجه البخارى فى القدر : ٥ ، ومسلم فى الصيام : ١٤٣ ، والترمذى فى تفسير سورة ٩ : ٦ ، ٧ ، والنسائى فى الإيمان : ٧ ، والدارمى فى الصوم : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٩٩ ، وفى ٣ : ٣٤٩ ، ٤١٥ ، وفى ٤ : ٣٣٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٨٢ ، وفى الرقاق : ٤٥ ، ومسلم فى الإيمان : ١٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، والترمذى فى الجنة : ٣ ، وابن ماجه فى الصيام : ٣٥ ، وفى الزهد : ٣٤ ، والدارمى فى السير : ٦٢ ، والإمام أحمد فى ١ : ٣ ، وفى ٣ : ٤١٥ ، وفى ٥ : ٤٣٨ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٤٩ ، وفى الاعتصام : ٢٨ ، وفى الاستتابة : ٢ ، وأبو داود فى الحدود : ١ ، والترمذى فى الحدود : ٢٥ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ ، وابن ماجه فى الحدود : ٢ ، والإمام أحمد ١ : ٢ ، ٧ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٣٢٣ ، وفى ٥ : ٢٣١ .

(٦) أخرجه ابن ماجه فى الحدود : ١ ، والترمذى فى الفتن : ١ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ ، والإمام أحمد فى ١ : ٦٣ .

(٧) أخرجه الترمذى فى الفتن : ١ ، وابن ماجه فى الحدود : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٦٣ ، والنسائى فى التحريم : ١٤ .

عن ثلاث : أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وتطيعوا لمن ولاه الله أمركم . وأنهاكم عن ثلاث : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال)[١] .

ورواه أبو نعيم : (أيما رجل ارتد عن الإسلام فادعه إليه ، فإن تاب فاقبل منه وإن لم يتب فاضرب عنقه ، وأيما امرأة ارتدت عن الإسلام فادعها فإن تابت فاقبل منها وأن أبت فأصبها) . رواه الطبرانى .

وظاهره أن المرأة المرتدة لا تقتل ، والأصح عندنا خلافه ، لعموم الخبر الصحيح (من بدل دينه فاقتلوه) .

وروى البيهقى :(من بدل دينه أو رجع عن دينه فاقتلوه ، ولا تعذبوا عباد الله بعذاب الله) يعنى النار .

والطبرانى : (من بدل دينه فاقتلوه ولا يقبل الله توبة عبد كفر بعد إسلامه) ، أى ما دام مصراً على كفره .

وابن حبان : (من رجع عن دينه فاقتلوه ، ولا تعذبوا بعذاب الله أحدا) ، يعنى النار .

والشافعى والبيهقى : (من غير دينه فاضربوا عنقه) .

والطبرانى : (من خالف دينه دين المسلمين فاضربوا عنقه ، وإذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فلا سبيل إليه إلا أن يأتى شيئاً فيقام عليه حده) .

ومن الظلم الذى جاء بمعنى الشرك ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[٢] .

فقد فسر الظلم هنا بالشرك الذى جاء فى قوله جل شأنه:﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[٣] .

الظلم الاجتماعى

ومن الظلم الذى يهلك الله به الأمم : الظلم الاجتماعى ، كظلم الراعى للرعية ، وظلم الأقوياء للضعفاء ، والأغنياء للفقراء .

جاء فى جور الإمام أو الأمير أو القاضى وغشه لرعيته واحتجابه عن قضاء حوائجهم المهمة المضطرين إليها بنفسه أو نائبه :

روى البزار بإسناد جيد عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من قتل نبياً ، أو قتله نبى ، وإمام ضلالة) .

وفى رواية للطبرانى : (وإمام جائر) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٥٣ ، ومسلم فى الأقضية : ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، والإمام مالك فى الكلام : ٢٠ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٧ ، ٣٦٠ .

(٢) الآية ٨٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ١٣ من سورة لقمان .

وروى النسائى وابن حبان فى صحيحه : (أربعة يبغضهم الله : البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والشيخ الزانى ، والإمام الجائر)[١] .

وروى مسلم بنحوه إلا أنه قال : (وملك كذاب ، وعائل مستكبر)[٢] .

وروى الطبرانى فى الأوسط :(ثلاثة لا يقبل الله منهم شهادة أن لا إله إلا الله ـ فذكر منهم الإمام الجائر) .

وروى ابن ماجه والبزار واللفظ له : (السلطان ظل الله تعالى فى الأرض ، يأوى إليه كل مظلوم عباده ، فإن عدل كان له الأجر ، وكان على الرعية الشكر ، وإن جار أوحاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر ، وإذا جارت الولاة قحطت السماء، وإذا منعت الزكاة هلكت المواشى ، وإذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة ، وإذا أخضرت الذمة أديل الكفار ـ أو كلمة نحوها)[٣] .

وروى البيهقى واللفظ له والحاكم بنحوه وقال صحيح على شرط مسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : (كنا عند رسول الله ﷺ فقال : كيف أنتم إذا وقع فيكم خمس ، وأعوذ بالله أن تكون فيكم ، أو تدركوهم ؟ ما ظهرت الفاحشة فى قوم قط يعمل بها فيهم علانية إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، وما بخس قوم المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان ، ولا حكم أمراؤهم بغير ما أنزل الله ﷺ إلا جعل الله بأسهم بينهم) .

وروى أحمد بإسناد جيد واللفظ له ، وأبو يعلى ، والطبرانى عن بكير بن وهب ، قال : (قال لى أنس : أحدثك حديثا ما أحدثه كل أحد : إن رسول الله ﷺ قام على باب البيت ونحن فيه ، فقال : الأئمة من قريش ، إن لى عليكم حقاً وإن لهم عليكم حقاً مثل ذلك ، ما إن استرحموا رحموا ، وإن عاهدوا أوفوا ، وإن حكموا عدلوا ، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)[٤] .

وروى الطبرانى عن معاوية رضى الله عنه وعن ابن مسعود قالا : قال رسول الله ﷺ : (لا يقدس الله أمة لا يقضى فيها بالحق ويأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع) .

وروى الأصبهانى : (يا أبا هريرة عدل ساعة خير من عبادة ستين سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها . ويا أبا هريرة : جور ساعة فى حكم أشد وأعظم عند الله عزوجل من معاصى ستين سنة) .

وفى رواية للطبرانى بإسناد حسن بلفظ : (يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، وحد يقام فى الأرض بحقه أزكى فيها من مطر أربعين صباحاً) .

وفى روايه : (أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأدناهم منه مجلساً : إمام عادل ، وأبغض الناس إلى الله تعالى وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر) .

(١) أخرجه النسائى فى الزكاة : ٧٧ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١٧٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٧٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٨٠ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الإقامة : ١٩١ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٢٩ ، ١٨٣ ، وفى ٤ : ٤٢١ .

وروى الطبرانى : (أفضل الناس عند الله منزلة يوم القيامة : إمام عادل رفيق ، وشر عباد الله عند الله منزلة يوم القيامة إمام جائر خرق) .

وروى الترمذى : (إن الله مع القاضى ما لم يجر فإذا جار تخلى عنه ولزمه الشيطان)[١] .

وفى رواية الحاكم : (فإذا جار تبرأ الله منه) .

وروى ابن ماجه واللفظ له : (يؤتى بالقاضى يوم القيامة فيوقف للحساب على شفير جهنم ، فإن أمر به دفع فهوى فيها سبعين خريفاً)[٢] .

وروى ابن أبى الدنيا وغيره عن أبى هريرة : أن بشر بن عاصم حدث عمر رضى الله عنهم أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لا يلى أحد من أمر الناس شيئاً إلا وقفه الله تعالى على جسر جهنم ، فيزلزل به الجسر زلزلة ، فناج أو غير ناج ، فلا يبقى منه عظم إلا فارق صاحبه ، فإن هو لم ينج ذهب به فى جب مظلم كالقبر فى جهنم يبلغ قعره سبعين خريفاً ، وإن عمر سأل سلمان وأبا ذر : هل سمعتما ذلك من رسول الله ﷺ ؟ قالا : نعم) .

وروى الطبرانى : (من ولى أمة من أمتى قلت أو كثرت فلم يعدل فيهم كبه الله تعالى على وجهه فى النار) .

وروى الطبرانى بسند حسن وأبو يعلى والحاكم وصححه : (إن فى جهنم وادياً ، وفى الوادى بئر يقال له هبهب ، حقاً على الله أن يسكنه كل جبار عنيد) .

وروى أحمد بسند جيد ورجاله رجال الصحيح : (ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه إلا العدل)[٣] .

وفى رواية صحيحة له أيضاً : (ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً لا يفكه من ذلك الغل إلا العدل) .

وفى رواية أخرى صحيحة : (ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً حتى يفكه العدل أو يوثقه الجور)[٤] .

وفى رواية للطبرانى : (وإن كان مسيئاً زيد غلا إلى غله) .

وروى الطبرانى بسند صحيح : (ما من رجل ولى عشرة إلا أتى به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه ، حتى يقضى بينه وبينهم) .

وروى ابن حبان : (ما من والى ثلاثة إلا لقى الله مغلولة يمينه ، فكه عدله ، أو غله جوره) .

وروى عن ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما : (عرض علىّ أول ثلاثة يدخلون النار : أمير مسلط ، وذو ثروة من مال لا يؤدى حق الله فيه ، وفقير فخور) .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الأحكام : ٤ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٢ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٤٣٠ ، وفى ٢ : ١٩٧ ، والترمذى فى الزهد : ٤٦ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ١٢ : ٤٣١ ، وفى ٥ : ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٤٣١ ، وفى ٥ : ٢٨٥ ، ٣٢٨ .

وروى البزار والطبرانى بسند رواته ثقات إلا واحدا اختلف فى توثيقه ، واحتج به الترمذى ، وأخرج له ابن خزيمة فى صحيحه : (إنى أخاف على أمتى من أعمال ثلاث ، قالوا : وما هى يا رسول الله ؟ قال : زلة عالم ، وحكم جائر ، وهوى متبع) .

وروى مسلم : (اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به)[1] .

وروى أبو عوانة فى صحيحه وقال فيه : (ومن ولى منهم شيئاً فشق عليهم فعليه سهلة الله ، قالوا : يا رسول الله وما سهلة الله ؟ قال : لعنة الله) .

وروى الطبرانى : (وما من أمتى أحد ولى من أمر الناس شيئا لم يحفظهم لما يحفظ به نفسه إلا لم يجد رائحة الجنة) .

وروى الشيخان : (ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش رعيته إلا حرم الله تعالى عليه الجنة) وفى رواية لهما : (فلم يحطها بنصحه لم يرح رائحة الجنة)[2] .

وروى مسلم : (ما من أمير يلى أمور المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح لهم إلا لم يدخل معهم الجنة)[3] .

ورواه الطبرانى وزاد : (كنصحه وجهده لنفسه) .

وروى الطبرانى بسند رواته ثقات إلا واحداً اختلف فيه :

(من ولى من أمر المسلمين شيئا فغشهم فهو فى النار) .

وروى الطبرانى بإسناد حسن : (ما من إمام ولا وال بات ليلة سوداء لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة) .

وفى رواية له : (ما من إمام يبيت غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة وعرفها يوجد يوم القيامة من مسيرة سبعين عاماً) .

وروى الطبرانى بسند رجاله رجال الصحيح إلا واحدا اخْتلف فيه : (من ولى شيئا من أمر المسلمين لم ينظر الله فى حاجته حتى ينظر فى حوائجهم) .

وروى أبو داود عن عمرو بن مرة الجهنى أنه قال لمعاوية رضى الله عنهما : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من ولاه الله شيئا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله دون حاجته وخلته وفقره يوم القيامة فجعل معاوية رجلاً على حوائج المسلمين)[4] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٦٢ ، ٩٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى الجزية : ٥ ، وفى الديات : ٣٠ ، وفى الأحكام : ٨ ، وأبو داود فى الترجل : ٢٠ ، والترمذى فى الطلاق : ١١ ، وفى الديات : ١١ ، والنسائى فى الزينة : ١٥ ، وابن ماجه فى الصدور : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٧٣ ، وفى ٢ : ١٧١ ، ١٨٦ ، ١٩٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى الإمارة : ٢٢ .

(٤) أخرجه أبو داود فى الإمارة : ١٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٣٩ .

وروى الحاكم بنحو ذلك وصححه ، والترمذى بلفظ : (ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله تعالى أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته)(١) .

وروى أحمد بسند جيد : (من ولى من أمر المسلمين شيئاً فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة احتجب الله عنه يوم القيامة)(٢) .

وروى عن أبى الشماخ الأزدى عن ابن عم له من أصحاب النبى ﷺ أنه أتى معاوية فدخل عليه فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من ولى من أمر الناس شيئاً ثم أغلق بابه دون المسكين والمظلوم وذى الحاجة أغلق الله تبارك وتعالى أبواب رحمته دون حاجته وفقره أفقر ما يكون لها) .

وروى الطبرانى بسند رواته ثقات إلا شيخه خيرون قال الحافظ المنذرى : لم أقف فيه على جرح ولا تعديل ، عن أبى جحيفة : أن معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه ضرب على الناس بعثاً فخرجوا فرجع أبو الدحداح فقال له معاوية : ألم تكن خرجت ؟ قال بلى ، ولكن سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً أحببت أن أضعه عندك مخافة أن لا تلقانى ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يأيها الناس من ولى عليكم عملاً فحجب بابه عن ذى حاجة أو قال دون حاجة لمسلمين حجبه الله أن يلج باب الجنة ومن كانت همته الدنيا حرم الله عليه جوارى فإنى بعثت بخراب الدنيا ولم أبعث بعمارتها) .

* **ومن أنواع الظلم :**

وجاء فى ظلم السلاطين والأمراء والقضاة وغيرهم مسلماً أو ذمياً بنحو أكل مال ، أو ضرب ، أو شتم ، أو غير ذلك ، وخذلان المظلوم مع القدرة على نصرته ، والدخول على الظلمة مع الرضا بظلمتهم ، وإعانتهم على الظلم ، والسعاية إليهم بباطل :

قال تعالى : ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾(٥) .

والركون إلى الشىء السكون والميل إليه بالمحبة ، ومن ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما فى الآية : (لا تميلوا إليهم كل الميل فى المحبة ولين الكلام والمودة) .

وقال السدى وابن زيد : لا تداهنوهم .

وقال عكرمة : لا تطيعوهم وتودوهم .

وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الأحكام : ٦ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٢٣١ .
(٢) أخرجه أبو داود فى الإمارة : ١٣ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٣٩ .
(٣) الآية ٤٢ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٢٢٧ من سورة الشعراء .
(٥) الآية ١١٣ من سورة هود .

والظاهر أن ذلك كله مراد من الآية .

وقال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾[١] ، أى: أشباههم وأتباعهم .

أخرج الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (الظلم ظلمات يوم القيامة)[٢] .

وروى مسلم وغيره : (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)[٣] .

وروى مسلم وغيره عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه عز وجل أنه قال : (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا)[٤] . الحديث .

وروى ابن حبان فى صحيحه والحاكم : (إياكم والظلم فإن الظلم هو الظلمات يوم القيامة وإياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفاحش المتفحش وإياكم والشح فإن الشح دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .

وروى الطبرانى فى الكبير والأوسط وله شواهد كثيرة : (إياكم والخيانة فإنها بئست البطانة وإياكم والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح حتى سفكوا دماءهم وقطعوا أرحامهم) .

وروى الطبرانى : (لا تظالموا فتدعوا فلا يستجاب لكم ، وتستقوا فلا تسقوا ، وتستنصروا فلا تنصروا) .

وروى الطبرانى بسند رجاله ثقات : (صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى : إمام ظلوم غشوم ، وكل غالٍ مارق) .

وروى أحمد بسند حسن أنه ﷺ كان يقول : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، ويقول : والذى نفسى بيده ما تواد اثنان فيفرق بينهما إلا بذنب يحدثه أحدهما)[٥] .

وروى الشيخان غيرهما : (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته[٦] ، ثم قرأ : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٧] .

وروى أبو يعلى واللفظ له بسند فيه مختلف فى توثيقه ، وقد أخرج له ابنا خزيمة وحبان فى صحيحهما أحاديث عامتها مستقيمة ، وأحمد والطبرانى بسند حسن نحوه باختصار : (الشيطان قد يئس

---

(١) الآية ٢٢ من سورة الصافات .
(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ ، ٥٧ ، والدارمى فى السير : ٧٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٢ ، ١٠٦ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٤٣١ ، وفى ٣ : ٣٢٣ .
(٣) أخرجه مسلم فى البر : ٥٦ ، ٥٧ .
(٤) أخرجه مسلم فى البر : ٥٥ ، والإمام أحمد فى ٥ : ١٦٠ .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ .
(٦) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ١١ : ٥ ، ومسلم فى البر : ٦٢ ، وابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .
(٧) الآية ١٠٢ من سورة هود .

أن تعبد الأصنام فى أرض العرب ، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقرات : وهى الموبقات يوم القيامة ، اتقوا الظلم ما استطعتم ، فإن العبد يجىء يوم القيامة بالحسنات يرى أنها ستنجيه فما زال عبد يقوم يقول : يارب ظلمنى عبدك مظلمة ، فيقول : امحوا من حسناته ، فما يزال كذلك حتى ما يبقى به حسنة من الذنوب - أى من أجلها - وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب ، فتفرق القوم ليحتطبوا ، فلم يلبثوا أن احتطبوا ، فأعظموا النار وطبخوا ما أرادوا ، وكذلك الذنوب) .

وروى البخارى : (من كانت له عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شىء فليتحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)[١] .

وروى مسلم وغيره : (أتدرون من المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار)[٢] .

وروى الشيخان وغيرهما أنه ﷺ قال لمعاذ لما بعثه إلى اليمن : (اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب)[٣] .

وروى أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابنا خزيمة وحبان فى صحيحهما : (ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين)[٤] .

وروى البزار : (ثلاثة حق على الله أن لا يرد لهم دعوة : الصائم حتى يفطر ، والمظلوم حتى ينتصر ، والمسافر حتى يرجع) .

وروى الترمذى وحسنه : (ثلاث دعوات لا شك فى إجابتهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد على الولد)[٥] .

وروى الحاكم وقال : رواته متفق على الاحتجاج بهم إلا عاصم بن كليب ، فاحتج به مسلم وحده : (اتقوا دعوة المظلوم ، فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة) .

وروى الطبرانى بسند صحيح : (ثلاث تستجاب دعوتهم : الوالد ، والمسافر ، والمظلوم) .

---

(١) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٠ ، وفى الرقاق : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٣٥ ، ٥٠٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٦٠ ، والترمذى فى القيامة : ٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٣ ، ٣٣٤ ، ٣٧٢ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجنة : ٢ ، وابن ماجه فى الصيام : ٤٨ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٠٥ ، ٤٤٥ .

(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ ، وفى الجهاد : ١٨ ، وفى المظالم : ٩ ، وفى المغازى : ٦٠ ، ومسلم فى الإيمان : ٢٩ ، وأبو داود فى الزكاة : ٥ ، والترمذى فى الزكاة : ٦ ، وفى البر : ٦٨ ، والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ ، وابن ماجه فى الزكاة : ١ ، والدارمى فى الزكاة : ١ ، والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٣٣ ، وفى ٢ : ٣٤٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

(٥) أخرجه الترمذى فى البر : ٧ ، وفى الدعوات : ٤٧ ، وأبو داود فى الوتر : ٢٩ ، وابن ماجه فى الدعاء : ١١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٨ ، ٣٤٧ ، ٤٣٤ ، ٤٨٧ ، ٥١٧ ، ٥٢٣ .

وروى أحمد بسند حسن : (دعوة المظلوم مستجابة ، وإن كان فاجرا ففجوره على نفسه)[١] .

وروى الطبرانى بسند له شواهد كثيرة : (دعوتان ليس بينهما وبين الله حجاب : دعوة المظلوم ، ودعوة المرء لأخيه بظهر الغيب) .

وروى الطبرانى بسند لا بأس به فى المتابعات (اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام ، يقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين) .

وروى أحمد بسند رجاله محتج بهم إلا واحدا ، قال المنذرى : لم أقف فيه على جرح ولا تعديل : (دعوة المظلوم ولو كان كافرا ليس دونها حجاب)[٢] .

وروى الطبرانى فى الصغير والأوسط : (يقول الله : اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصرا غيرى) .

وروى مسلم : (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، التقوى ههنا ، ويشير إلى صدره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه وعرضه وماله)[٣] .

وروى ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم وصححه ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال : (قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم عليه السلام ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملك المسلط المبتلى المغرور ، لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكنى بعثتك لترد عنى دعوة المظلوم ، فإنى لا أردها وإن كانت من كافر ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر فيها فى صنع الله ، وساعة يخلو فيها لخاصته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون طاغياً إلا لثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم ، وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه ، مقبلاً على شأنه ، حافظاً للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . قلت : يا رسول الله فما كانت صحف موسى عليه السلام ؟ قال : كانت عبراً كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف هو ، أو ثم يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالنار ثم هو يضحك ، وعجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب ، عجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها ، ثم اطمأن إليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم لا يعمل . قلت : يا رسول الله أوصنى . قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله أوصنى . قال : أوصيك بتقوى الله فإنها رأس الأمر كله . قلت : يا رسول الله زدنى : قال : عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله تعالى ، فإنه نور لك فى الأرض ، وذكر لك فى السماء . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : إياك

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٨٠ ، وابن ماجه فى الدعاء : ١١ ، والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٥٨ ، ٣٦٧ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٨٢ ، ٨٣ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٦٨ ، ٢٧٧ ، ٣١١ ، ٣٦٠ ، وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ٦٦ ، ٦٩ ، وفى ٥ : ٢٤ ، ٢٥ ، ٧١ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ .

وكثرة الضحك ، فإنه يميت القلب ، ويذهب بنور الوجه . قلت : يا رسول الله زدني . قال : عليك بالجهاد ، فإنه رهبانية أمتى قلت : يا رسول الله زدنى . قال : أحب المساكين وجالسهم . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : انظر إلى من هو تحتك ولا تنظر إلى من هو فوقك ، فإنه أجدر أن لا تزدرى نعمة الله عليك . قلت : يا رسول الله زدنى ، قال : قل الحق وإن كان مراً . قلت : يا رسول الله زدنى . قال : ليردك عن الناس ما تعلمته عن نفسك ، ولا تجد عليهم فيما تأتى ، وكفى بك عيباً أن تعرف من الناس ما تجهله من نفسك ، وتجد عليهم فيما تأتى ، ثم ضرب بيده على صدره وقال : يا أبا ذر لا عقل كالتدبير، ولا ورع كالكف ، ولا حب كحسن الخلق) .

وروى أبو داود : (ما من مسلم يخذل أمرأ مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه عرضه ، إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء مسلم ينصر أمرأ مسلماً فى موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمته ، إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته)[١] .

وروى أبو الشيخ وابن حبان : (أمر بعبد من عباد الله تعالى يضرب فى قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأل الله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة ، فامتلأ قبره عليه ناراً ، فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلدتمونى ؟ قالوا : إنك صليت صلاة بغير طهور ، ومررت على مظلوم فلم تنصره) .

وروى أبو الشيخ أيضا ، قال الله عز وجل : [وعزتى وجلالى لأنتقمن من الظالم فى عاجله وآجله ولأنتقمن ممن رأى مظلوماً فقدر أن ينصره ولم يفعل] .

وروى البخارى : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فقال رجل : يا رسول الله أنصره إذا كان مظلوماً ، أفرأيت إن كان ظالماً كيف أنصره ؟ قال : تحجزه أو تمنعه عن الظلم فإن ذلك نصره)[٢] .

وروى مسلم : (ولينصرن الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصرة ، فإن كان مظلوماً فلينصره)[٣] .

وروى أبو داود : (من حمى مؤمناً من منافق ، أراه قال : بعث الله ملكاً يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم)[٤] .

وروى أحمد بإسنادين أحدهما صحيح : (من بدا جفا ، ومن تبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد عبد من السلطان قرباً إلا ازداد من الله بعداً)[٥] .

---

(١) أخرجه أبوداود فى الأدب : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٤ : ٣٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى المظالم : ٤ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٩٩ ، ٢٠١ .

(٣) أخرجه مسلم فى اللباس : ٢ .

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٤٤١ ، وأبوداود فى الأدب : ٣٦ .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٧١ ، ٤٤٠ ، وفى ٤ : ٢٩٧ .

وروى أبو داود والترمذى وحسنه ، والنسائى : (من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن)[١] .

وروى أحمد واللفظ له ، والبزار ، ورواتهما محتج بهما فى الصحيح ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لكعب بن عجرة : (أعاذك الله من إمارة السفهاء . قال : وما إمارة السفهاء ؟ قال : أمراء يكونون بعدى لا يهتدون بهديى ، ولا يستنون بسنتى ، فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ، ولست منهم ، ولا يردون على حوضى ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فأولئك منى وأنا منهم ، وسيردون على حوضى ، يا كعب بن عجرة : الصيام جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، والصدقة قربان ـ أو قال برهان ـ يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، أو بائع نفسه فموبقها)[٢] .

وروى ابن حبان فى صحيحه : (ستكون أمراء ، من دخل عليهم فأعانهم على ظلمهم وصدقهم بكذبهم فليس منى ولست منه ، ولن يرد علىّ الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعينهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض) .

وروى الترمذى ، والنسائى من حديث كعب بن عجرة : (أعيذك يا كعب بن عجرة من أمراء يكونون من بعدى ، فمن غشى أبوابهم فمصدقهم فى كذبهم ، وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ، ولا يرد على الحوض ، ومن غشى أبوابهم أو لم يغش فلم يصدقهم فى كذبهم ، ولم يعينهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه ، وسيرد على الحوض)[٣] .

وفى رواية له أيضاً عن كعب بن عجرة قال : (خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن تسعة خمسة وأربعة . أحد العددية من العرب ، والآخر من العجم . فقال : اسمعوا . هل سمعتم أنه سيكون بعدى أمراء ؟ فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منى ولست منه ، وليس بوارد على الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدقهم بكذبهم فهو منى وأنا منه ، وهو وارد على الحوض) .

وروى النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن فى المسجد بعد صلاة العشاء ، فرفع بصره إلى السماء ، ثم خفض حتى ظننا أنه حدث فى السماء أمر ، فقال : ألا إنه ستكون بعدى أمراء يظلمون ويكذبون فمن صدقهم بكذبهم ، ومالأهم على ظلمهم ، فليس منى ولا أنا منه ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يمالئهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه)[٤] .

وروى الطبرانى وابن حبان فى صحيحه ـ واللفظ له ـ عن عبد الله بن عمر عن أبيه رضى الله عنه

---

(١) أخرجه والترمذى فى الفتن : ٦٩ .

(٢) أخرجه مسلم فى الطهارة : ١ ، والترمذى فى الدعوات : ٨٥ ، وابن ماجه فى الطهارة : ٥ ، والإمام أحمد فى ٣ : ٣٢١ ، ٣٩٩ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٤٩ ، والنسائى فى البيعة : ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٥ ، وفى ٥ : ٣٨٤ .

(٤) أخرجه الترمذى فى الجمعة : ٧٩ ، وفى الفتن : ٧٢ ، والنسائى فى البيعة : ٣٥ ، ٣٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٩٥ ، وفى ٣ : ٢٤ ، ٩٢ ، ٣٢١ ، ٣٩٩ ، وفى ٤ : ٢٤٣ ، ٢٦٧ .

قال : (كنا قعوداً على باب النبى ﷺ ، خرج علينا ، فقال : اسمعوا . قلنا : قد سمعنا . قال : اسمعوا . قلنا : قد سمعنا . قال : إنه سيكون بعدى أمراء فلا تصدقوهم بكذبهم ، ولا تعينوهم على ظلمهم ، فإنه من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم لم يرد على الحوض) .

وروى أحمد : (يكون أمراء تغشاهم غواش ـ أو حواش ـ من الناس ، يكذبون ويظلمون . فمن دخل عليهم فصدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس منى ولست منه ، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم ، فهو منى وأنا منه) .

وروى أبو يعلى وابن حبان فى صحيحه : (فمن صدقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فأنا منه برىء ، وهو منى برىء) .

وروى ابن ماجه بسند رواته ثقات : (إن ناساً من أمتى سيتفقهون فى الدين ، يقرءون القرآن ، يقولون : نأتى الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا ، ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك ، كذلك لا يجتنى من قربهم إلا)[1] . قال ابن الصباح : كأنه يعنى الخطايا .

روى الطبرانى بسند رواته ثقات ، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ : (أن رسول الله ﷺ دعا لأهله ، فذكر عليا وفاطمة وغيرهما ، فقلت : يا رسول الله أنا من أهل البيت ؟ قال : نعم ، ما لم تقم على باب سدة ـ أى سلطان أو نحوه ـ أو تأتى أميراً تسأله) .

وروى ابن ماجه فى صحيحهما : (أن علقمة بن وقاص مرّ برجل له شرف من أهل المدينة ، فقال له : إن لك حرمة حقاً ، وإنى رأيتك تدخل على هؤلاء الأمراء فتكلم عندهم ، وإنى سمعت بلال ابن الحارث صاحب رسول الله ﷺ يقول : قال رسول الله ﷺ : إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، فيكتب الله بها سخطه إلى يوم القيامة ، انظر ويحك ماذا تقول وما تكلم به ؟ فرب كلام قد منعنيه ما سمعت من بلال بن الحارث)[٢] .

وروى الترمذى والحاكم المرفوع منه وصححاه ، ورواه الأصبهانى إلا أنه قال : عن بلال ابن الحارث أنه قال لبنيه : (إذا حضرتم عند ذى سلطان فأحسنوا المحضر ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : فذكره) .

وابن الأثير فى نهايته : الساعى مثلث : أى مهلك بسعايته نفسه ، والمسعى به وإليه .

أنواع أخرى من الظلم

وهناك أحاديث وآثار أخرى فيها الوعيد الشديد للظالمين ، كحديث : (إن رجالاً يتخوضون فى

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة : ٢٣ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ ، والترمذى فى الزهد : ١٢ ، وابن ماجه فى الفتن : ١٢ ، والإمام مالك فى الكلام : ٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٤ ، وفى ٣ : ٤٦٩ .

مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة)[١] . وحديث : (من ظلم شبراً من أرض طوقه الله من سبع أرضين يوم القيامة)[٢] .

وفى بعض الكتب يقول الله تعالى : (اشتد غضبى على من ظلم من لا يجد له ناصراً غيرى)[٣] .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقول آخر :

إذا ما المظلوم استوطأ الأرض مركبا ... ولج غلوا فى قبح اكتسابه
فكله إلى حدف الزمان فإنه ... سيبدى له ما لم يكن فى حسابه

وقال بعض السلف : لا تظلمن الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه إن الحبارى لتموت هولا فى وكرها من ظلم الظالم .

وقيل مكتوب فى التوراة : (ينادى مناد من وراء الجسر ـ يعنى الصراط ـ يا معشر الجبابرة الطغاة ، ويا معشر المترفين الأشقياء : إن الله يحلف بعزته أن لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظلم ظالم) .

وروى عن جابر رضى الله عنه قال : (لما رجعت مهاجرة الحبشة إلى رسول الله ﷺ قال : (ألا تجدونى بأعجب ما رأيتم فى أرض الحبشة ؟ فقال فتية ، وكان منهم : بلى يا رسول الله ، بينما نحن يوماً جلوس إذ مرت بنا عجوز من عجائزهم ، تحمل على رأسها قلة من ماء ، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت المرأة على ركبتيها ، وانكسرت القلة ، فلما قامت التفتت إليه ثم قالت : سوف تعلم يا غدار إذا وضع الله الكرسى ، فجمع الأولين والآخرين ، وتكلمت الأيدى والأرجل بما كانوا يكسبون ، سوف تعلم ما أمرى وأمرك عنده غدا ، قال : فقال : رسول الله ﷺ : أكيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ من شديدهم لضعيفهم ؟) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الخمس : ٧ ، والإمام أحمد فى ٦ : ٣٦٤ ، ٣٨٧ ، ٤١٠ .

(٢) أخرجه البخارى فى المظالم : ١٣ ، وفى بدء الخلق : ٢ ، ومسلم فى المساقاة : ١٣٩ ، ١٤٢ ، والترمذى فى الديات ٢١٠ ، والإمام أحمد فى ١ : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، وفى ٢ : ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، ٤٣٢ ، وفى ٤ : ١٤ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ، وفى ٥ : ٣٤١ ، ٣٤٤ ، وفى ٦ : ٦٤ ، ٧٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى : ٢٤ ، ومسلم فى الجهاد : ١٠٦ ، والإمام مالك فى السفر : ٨٥ ، والإمام أحمد فى ١ : ٢٨٨ ، وفى ٢ : ٣١٧ ، ٤٩٢ .

عـود على بدء

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٤٩ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٥٠ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝٥١ ﴾

هذا خطاب من خالق الخلق إلى حبيبه ومصطفاه الذى أرسله للناس بشيرا ونذيراً ، ففي البشارة وعد ، وفى النذارة وعيد : ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾[١] .

وكما قال ﷺ : (مثلى ومثل ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قوماً فقال لهم : لقد رأيت الجيش بعينى وأنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم)[٢] .

﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ :

أى فالذين آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ، لهم مغفرة لما سلف من سيئاتهم وثواب عند ربهم على ما قدموا من حسناتهم ، ولهم رزق كريم فى الجنة ، يفوق وصف الواصفين ، ومقال المادحين ، كما قال تعالى : ﴿ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾[٣] . وفى الحديث : (فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)[٤] .

﴿ والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم ﴾ :

أى:والذين اجتهدوا فى رد دعوة الدين والتكذيب بها ، وثبطوا الناس عن متابعة النبى ﷺ ، ظناً منهم أنهم يعجزوننا ، وأنهم لا يبعثون ، فأولئك هم المقيمون فى النار ، المصاحبون لها ، لا يخرجون منها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾[٥] .

---

(١) الآية ٤٦ من سورة سبأ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٦ ، وفى الاعتصام : ٢ ، ومسلم فى الفضائل : ١٦ .

(٣) الآية ٧١ من سورة الزخرف .

(٤) أخرجه البخارى فى التوحيد : ٣٥ ، وفى بدء الخلق : ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٢ : ١ ، ومسلم فى الإيمان : ٣١٢ ، وفى الجنة : ٢ ـ ٥ ، والترمذى فى الجنة : ١٥ ، وفى تفسير سورة ٣٢ : ٢ ، ٥٦ : ١ ، وابن ماجه فى الزهد : ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق : ٩٨ ، ١٠٥ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣١٣ ، ٣٧٠ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، وفى ٥ : ٣٣٤ .

(٥) الآية ٨٨ من سورة النحل .

قلوب وقلوب

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ
مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً
لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ
يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾
وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ
بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

المفردات

الرسول : من جاء بشرع جديد ، والنبى يشمل هذا ويشمل من جاء لتقرير شرع سابق،كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام .

فينسخ : أى: يزيل ويبطل .

يحكم : أى: يجعلها محكمة مثبتة لا تقبل الرد بحال .

فتنة : أى: ابتلاء واختباراً .

مرض : أى: شك ونفاق .

القاسية قلوبهم : هم الكفار المجاهرون بالكفر .

شقاق بعيد : أى: عداوة شديدة .

فتخبت : أى: تذل وتخضع .

مرية : أى: شك .

بغتة : أى: فجأة .

الساعة : الموت .

يوم عقيم : أى: منفرد عن سائر الأيام لا مثيل له فى شدته ، والمراد به الحرب الضروس .

الملك : أى: التصرف والسلطان .

يحكم بينهم : أى يقضى بين فريقى الكافرين والمؤمنين .

مهين : أى: مذل جزاء استكبارهم عن الحق .

المناسبة

بعد ما ذكر الله تعالى فى آياته السابقة أحوال الأمم التى كذبت الأنبياء ، وأسباب هلاكها ، أراد جلت قدرته أن يسلى حبيبه ومصطفاه ، ويزيد فؤاده تثبيتا ، فقال له :

لست بدعا من الأنبياء ، فلا تذهب نفسك على المعاندين حسرات ، وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، ثم فصل الله تعالى أحوال قلوب العباد فى الآيات التى ستأتى بعد .

يخاطب الله تعالى حبيبه ومصطفاه فيقول :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ﴾ :

وفى هذه الآية الكريمة إخبار من الله جل شأنه عن الأنبياء والرسل السابقين .

وقبل أن نوضح معناها نقعّد تلك القواعد الأساسية بما تيسر من التقدير ، وتقدر من التيسير فنقول : إن الله تعالى حفظ القرآن ، وتعهد بذلك الحفظ ، قال سبحانه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[1] .

كما أنه من المعتقد أن الأنبياء معصومون ، لا يستطيع أن يتسرب الشيطان إلى نفوسهم ، أو أن يلج عليهم قلوبهم .

قال تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾[2] .

كما يجب الاعتقاد بأن الوحى معصوم وبعيد كل البعد عن أفعال الشياطين ، قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون ﴾[3] .

وذلك بعد قوله جل شأنه : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾[4] .

---

(١) الآية ٩ من سورة الحجر .

(٢) الآيات ٤٤ـ٤٧ من سورة الحاقة .

(٣) الآيات ٢١٠ ـ ٢١٢ من سورة الشعراء .

(٤) الآيات ١٩٢ ـ ١٩٥ من سورة الشعراء .

وقال تبارك اسمه : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾(١) .

قال القاضي عياض ، في كتاب الشفاء : (لقد أجمعت الأمة على أن النبي ﷺ فيما يبلغه عن ربه معصوم فيه من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه ، لا قصدا ، ولا عمدا ، ولا سهوا ، ولا غلطا) .

ومن ثم ، فالنبي معصوم ، والوحي معصوم ، والقرآن معصوم ، وهذه الآية: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي . . .** ﴾ تقص علينا حال الأنبياء السابقين ، فأي داع يدعو إلى أن نحمل الآية أكثر مما أخبرت عنه ، ومهما يكن من أمر ، فسواء فسرنا التمني بمعنى القراءة ، أو فسرناه بالمعنى الحقيقي له ، وهو من الأمنية ، فإن الشياطين لا تستطيع أن تقتحم حصون الوحي ، فإنها منيعة ومشيدة لا يستطيع أحد من شياطين الإنس أو الجن أن يدخل منها شيئاً ، إنما الشياطين تلقى الوساوس والأوهام في محل أمنية الأنبياء .

وهذا المحل هو قلوب أقوامهم وأتباعهم وأممهم ، فلا دخل للشيطان مع الوحي البتة ، سواء قرأ النبي ما أنزل إليه من ربه ، أو تمنى إيمان قومه ، فلا مجال للشيطان في القراءة ، أو ما يتمناه النبي ، إنما الشيطان يلقى وساوسه في قلوب العباد ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ، ثم يحكم الله آياته ، أي يزيل من قلوب المؤمنين الوساوس والأوهام ، ويبقيها على الإضاءة والإشراق بآياته البينات ، فلا داعي أبداً أن تزل أقدام في تفسير هذه الآية ، أو تتعثر أقلام ، أو ينفلت فيها خيال الكاتبين .

إن الوحي محاط بالعناية الإلهية ، والرعاية الربانية ، وما ذكره بعضهم عن الغرانيق أي الأصنام فهو محض كذب واختلاق ، وإنها لفرية ، ما فيها مرية .

إن الله تعالى يقول عن الشيطان : ﴿ إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾(٢) .

ويقول : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾(٣) .

فإذا كان الشيطان لا سلطان له على المؤمنين ، فكيف بربك يكون له سلطان على وحي رب العالمين ، فيدخل فيه ما ليس منه .

وكيف يكون له سلطان على الأنبياء وهم الصفوة المختارة من عباد الله .

سبحانك هذا بهتان عظيم ، نبرىء منه الأنبياء ، والوحي المعصوم الكريم .

ثم بين الله تعالى الحكمة من إلقاء الشيطان الوساوس في قلوب العباد ، فقال :

﴿ **ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض** ﴾ .

أي: من شبهة أو نفاق كذلك ، والقاسية قلوبهم التي لا تعرف الرحمة إليها سبيلا .

---

(١) الآيات ٢٦ - ٢٨ من سورة الجن .
(٢) الآية ٧٦ من سورة النساء .
(٣) الآيتان ٩٩ ، ١٠٠ من سورة النحل .

قال تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾(١).

سبحانك ربى ..

يا عليما بخفايا النفوس ، يا خبيرا بذات الصدور :

الله يدرى كل ما تضمر يعلم وما تخفى وما تظهر
وإن خدعت الناس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

فهذه قلوب فيها مرض ، وتلك قلوب فيها قسوة .

وسبحان من يعلم السرائر : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ﴾ :

أى:وإن هذين الصنفين من الضلال لفى عداوة لأمر الله ، وبعد عن الرشاد والسداد ، بما لا مطمع لهما معه فى النجاة والفوز برضا الله . والظلم مرتعه وخيم وعاقبته شر وبيل .

وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (خمسة غضب الله عليهم ، إن شاء أمضى غضبه عليهم فى الدنيا ، وإلا ثوى بهم فى الآخرة إلى النار : أمير قوم يأخذ حقه من رعيته ، ولا ينصفهم من نفسه ، ولا يدفع الظلم عنهم ، وزعيم قوم يطيعونه ، ولا يسوى بين القوى والضعيف ، ويتكلم بالهوى ، ورجل لا يأمر أهله وولده بطاعة الله ، ولا يعلمهم أمر دينهم ، ورجل استأجر أجيرا فاستعمله ولم يوفه أجره ، ورجل ظلم امرأة فى صداقها) .

سبحانك من قائل عليم حكيم : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾(٢) .

عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه أنه قال : (إن الله تعالى لما خلق الخلق ، واستووا على أقدامهم ، رفعوا رءوسهم إلى الله ، وقالوا : يارب مع من أنت ؟

قال : مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه) .

وعن وهب بن منبه رضى الله عنه : (بنى جبار من الجبابرة قصرا وشيده ، فجاءت عجوز فقيرة فبنت إلى جانبه شيئا تأوى إليه ، فركب الجبار يوما ، وطاف حول القصر ، فرأى بناءها ، فقال : لمن هذا ؟ فقيل : لامرأة فقيرة تأوى إليه ، فأمر بهدمه . فهدم ، فجاءت العجوز فرأته مهدوما ، فقالت : من هدمه ؟ فقيل لها : الملك رآه فهدمه . فرفعت العجوز رأسها إلى السماء ، وقالت : يا رب أنا لم أكن حاضرة فأنت أين كنت ؟ قال : فأمر الله عز وجل جبريل أن يقلب القصر على من فيه فقلبه) .

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة .

(٢) الآية ١٨ من سورة غافر .

وقيل : لما حبس بعض البرامكة ولده قال : (يا أبت بعد العز صرنا فى القيد والحبس . فقال : يا بنى دعوة المظلوم سرت بليل غفلنا عنها ، ولم يغفل الله عز وجل عنها) .

وكان يزيد بن حكيم يقول : (ما هبت أحدا قط هيبتى رجلاً ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله ، يقول لى : حسبى الله ، الله بينى وبينك) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه قال : (يجىء الظالم يوم القيامة حتى إذا كان على جسر جهنم فلقيه المظلوم ، وعرف ما ظلمه فما يبرح الذين ظلموا بالذين ظلموا حتى ينزعوا ما بأيديهم من الحسنات ، فإن لم يجدوا لهم حسنات حملوا عليهم من سيئاتهم مثل ما ظلموا ، حتى يردوا الدرك الأسفل من النار) .

وعن عبد الله بن أنيس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (يحشر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلاً بهما . فيناديهم مناد بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب : أنا الملك الديان ، لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة حتى اللطمة فما فوقها ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ قلنا : يا رسول الله كيف وإنما نأتى حفاة عراة غرلا بهما ؟ قال : بالحسنات والسيئات جزاء وفاقاً ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾[1] .

وعنه ﷺ أنه قال : (من ضرب سوطاً ظلماً اقتص منه يوم القيامة) .

ومما ذكر (أن كسرى اتخذ مؤدباً لولده يعلمه ويؤدبه ، فلما بلغ الولد الغاية فى الفضل والأدب ، استحضره المؤدب يوماً وضربه ضرباً وجيعاً من غير جرم ولا سبب ، فحقد الولد على المعلم إلى أن كبر ومات أبوه فتولى الملك بعده ، فاستحضر المعلم وقال له : ما حملك على أن ضربتنى فى يوم كذا ضربا وجيعاً من غير جرم ولا سبب ؟ فقال له المعلم : اعلم أيها الملك أنك لما بلغت الغاية فى الفضل والأدب ، علمت أنك تنال الملك بعد أبيك ، فأردت أن أذيقك طعم الضرب وألم الظلم ، حتى لا تظلم أحداً بعد . فقال له : جزاك الله خيراً ثم أمر له بجائزة وصرفه) .

فاتق الظلم يا أخى ، وأعلم أن البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان .

واحذر من المظلوم سهماً صائباً واعلم بأن دعاءه لا يحجب
وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

جاء : (إن الله تعالى أوحى إلى داود صلى الله على نبينا وعليه : يا داود كن لليتيم كالأب الرحيم ، وكن للأرملة كالزوج الشفيق ، واعلم أنك كما تزرع كذا تحصد) .

أى: كما تفعل يفعل معك ، إذ لابد أن تموت ويبقى لك ولد يتيم ، وامرأة أرملة .

---
(١) الآية ٤٩ من سورة الكهف .

قوله تعالى : ﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ .

هذا عطف على قوله تعالى : **﴿ ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ﴾ .**

أى:ولكى يعلم الذين أوتوا العلم وهم أهل العلم بالله تعالى الذين شهدوا لله بالوحدانية : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾(٢) .

ليعلم هؤلاء أن الله تعالى أنزل إليك الحق ، وأن نسخ وساوس الشيطان وإحكام الآيات فى قلوب المؤمنين حق ثابت لا مراء فيه ، إنهم وهم يعلمون ذلك يصدقون به تصديقاً جازماً لا مرية فيه .

﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أى:تخشع وتذل لعظمة الله وكبريائه .

ثم بين سبحانه مصير هؤلاء ومآلهم فقال : **﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾** لقد آمنوا وأصبحوا من أهل الهداية إلى صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ قال تعالى : ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ .

أما حال الكافرين فإنهم لا يزالون فى شك مما أنزل إليك من ربك ، فإن قلوبهم مليئة بالريب والشك والظن السيء ، وسيظلون على هذا حتى يفاجئهم الموت وهو القيامة الصغرى ، فإن من مات فقد قامت قيامته ، والموت يأتى بغتة ، ويأتيهم على حين غفلة ، أو يأتيهم الله بعذاب يوم عقيم ، مثل يوم بدر الذى استأصل الله فيه شأفتهم ، وقتل صناديدهم ، وكانوا إذا قاتلوا فقتلوا يسمون يوم هزيمتهم يوماً عظيماً ، أى انفرد بعذابه وشدته ، أو سمى عقيماً لأنه لا خير فيه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾(٤) أى:التى لا تحمل خيراً من مطر .

ولقد هزموا يوم بدر هزيمة منكرة:﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر * سيهزم الجمع ويولون الدبر * بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ .

---

(١) الآية ١٨ من سورةآل عمران .
(٢) الآية ٦ من سورة سبأ .
(٣) الآية ١٧ من سورة محمد .
(٤) الآية ٤١ من سورة الذاريات .
(٥) الآيات ٤٤ـ ٤٦ من سورة القمر .

إن هؤلاء الذين امتلأت قلوبهم غياً وشكاً ، إن لم يأتيهم عذاب الله فى الدنيا فسوف يأتيهم فى يوم الملك فيه لله يحكم بينهم ﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب * فادعوآ الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب * وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لايقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾(١)

الملك والتدبير والتصرف للملكِ الحكم العدل المقسط ، وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، حيث الرضوان الأكبر ، والنعيم المقيم ، لقد أعد الله لهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ :

جزاء كفرهم وتكذيبهم ، ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدق المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾(٢) .

وسبحان الحكم العدل الذى يقول وقوله الحق:﴿ إن جهنم كانت مرصاداً * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقاباً * لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً * إلا حميماً وغساقاً * جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذابا * وكل شيء أحصيناه كتاباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقاً حسناً وإن الله لهو خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم ﴾ .

هذا وعد من الله لعباده المهاجرين الصادقين:﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ .

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾(٤) .

وقال تعالى فى حقهم : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(٥).

(١) الآيات ١٣ - ٢٠ من سورة غافر .
(٢) الآيات ٣٥ - ٣٩ من سورة الصافات .
(٣) الآيات ٢١ - ٣٠ من سورة النبأ .
(٤) الآية ٨ من سورة الحشر .
(٥) الآيتان ٤١ ، ٤٢ من سورة النحل .

هؤلاء الصابرون الصادقون الذين هاجروا فى الله من بعد ما فتنوا ، من قتل منهم أو مات ، فإن الله وعدهم بالرزق الحسن ، وهل هناك من رزق حسن أفضل من الجنة ونعيمها ، وإن الله لهو خير الرازقين .

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذى فوق التراب تراب

﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴾ : نعم وهل هناك من مدخل يرضونه أعظم مما قال الله فيه:﴿ إن المتقين فى جنات ونهر * فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] .

وسبحان العليم الحليم الذى أحاط علمه بكل شىء ، وعم حلمه كل شىء ﴿ إن المتقين فى مقام أمين * فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين * كذلك وزوجناهم بحور عين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين * لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم * فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾[2] .

رضاك خير من الدنيا وما فيها يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك يا سؤلى ويا أملى خير إلىّ من الدنيا وما فيها

قوله تعالى : ﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور ﴾ .

أى:ذلك الرزق الحسن ، والمدخل الكريم ، لمن قتلوا فى سبيل الله أو ماتوا ، ولهم أيضاً النصر فى الدنيا على أعدائهم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ﴾ :

أى:وإن من جازى من المؤمنين بمثل ما عوقب به ظلماً من المشركين فقاتلهم كما قاتلوه ، ثم بغى عليه إلى الهجرة ، ومفارقة الوطن ، لينصرنه الله الذى لا يغالب ، ولينتقمن له من أعدائه ، ولينكلن بهم ، ويمكننه منهم ، ويجعل كلمته العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .

والخلاصة : إنه تعالى كما يدخلهم مدخلاً كريماً ، يعدهم بالنصر على أعدائهم إذا هم قاتلوهم وبغوا عليهم وأخرجوهم من ديارهم .

﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ :

أى:وإن الله الذى أحاطت قدرته بكل شىء ليعفو عن المؤمنين ، فيغفر لهم ما أمعنوا فيه من الانتقام ، وما أعرضوا عنه مما ندبه من العفو ، بمثل قوله:﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم

(١) الآيتان ٥٤ ، ٥٥ من سورة القمر .
(٢) الآيات ٥١ ـ ٥٧ من سورة الدخان .

الأمور ﴾(١) ، وقوله: ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾(٢) وقوله : ﴿ وأن تعفو أقرب للتقوى ﴾(٣) .

وهم بفعلهم هذا تركوا ما كان أجدر بهم ، وأحرى بمثلهم .

والخلاصة : كأنه سبحانه قال : عفوت عن هذه الإساءة وغفرتها لهم ، لأنى أذنت بها .

من دلائل التوحيد والقدرة الإلهية

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا
فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ
تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا
مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾
وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى
ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) الآية ٤٣ من سورة الشورى .

(٢) الآية ٤٠ من سورة الشورى .

(٣) الآية ٢٣٧ من سورة البقرة .

لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ
ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى
ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا
ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا
لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

المفردات :

يولج الليل فى النهار : يدخل الليل فى النهار بزيادة وقته على حساب النهار .
مخضرّة : ذات خضرة .
سخرلكم ما فى الأرض : ذلل لكم ما فى الأرض تنتفعون به وتذللونه .
المنسك : الشريعة والمنهاج .
ناسكوه : أى: عاملون به والهدى : الطريق الموصل إلى الحق .
مستقيم : أى: سوى لا عوجٍ فيه .
سلطاناً : أى: حجة وبرهاناً .
نصير : أى: ناصر ومعين .
يسطون : أى: يبطشون بهم من فرط الغيظ .
ضرب : أى: جعل .
والمَثل والمِثل : الشبه .
لا يستنقذوه : أى: لا يقدروا على استنقاذه .
ما قدروا الله : أى: ما عظموه .
عزيز : أى: غالب على جميع الأشياء .
يصطفى : أى: يختار .

فى الله : أى:فى سبيله والجهاد كما قال الراغب : هو استفراغ الوسع فى مجاهدة العدو وهو ثلاثة أضرب :

(أ) مجاهدة العدو الظاهر كالكفار .

(ب) مجاهدة الشيطان .

(جـ) مجاهدة النفس والهوى . وهذه أعظمها .

فقد أخرج البيهقى وغيره عن جابر قال : (قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة فقال : قدمتم خير مقدم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل وما الجهاد الأكبر ؟ قال : مجاهدة العبد هواه) .

والمراد بالجهاد هنا ما يشمل الأنواع الثلاثة ، كما يؤيده ما روى عن الحسن أنه قرأ الآية وقال : (إن الرجل ليجاهد فى الله تعالى وما ضرب بسيف) .

اجتباكم : أى: اختاركم .

حرج : أى: ضيق بتكليفكم ما يشق عليكم .

واعتصموا بالله : أى: استعينوا به وتوكلوا عليه .

مولاكم : أى: ناصركم .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أن الملك له وحده يتصرف فيه بمشيئته وحكمته وعدله وعلمه وقدرته وإرادته ، وأنه سبحانه سيجزىء المسىء بإساءته ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأنه سينصر من بغى عليه من المعتدين الذين أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم **﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه لينصرنه الله ﴾** .

أقام الأدلة بعد ذلك على كمال قدرته ووحدانيته: **﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾** أى:ذلك المذكور حق لامرية فيه ، بسبب أن الله بيده مقاليد السموات والأرض ، والآيات كلها شاهدة بذلك .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

لقد تحدى الله الجبابرة المعاندين المكابرين الجاحدين بآيتين من آياته : وهما الليل والنهار .

﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾[1] .

هل يستطيع أحد على وجه الأرض أن يأتى بنهار أو ليل ؟

كما تحداهم بالموت: ﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[2] هل يستطيع

(١) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة القصص .
(٢) الآية ١٦٨ من سورة آل عمران .

الجبابرة المفترون والظلمة الجاحدون أن يدفعوا الموت عن أنفسهم إذا حل بساحتهم .

سبحانك ربى ، الوجود ملكك ، والقضاء حكمتك ، وكل الكائنات طوع إرادتك ، عزت حكمتك ، وجلت قدرتك ، ووسعت رحمتك ، يا من علمت وقدرت وعفوت وحلمت ، أحمدك على حكمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[١] .

أنت الذى يقرع الليل فى النهار ، أى:تدخل جزءاً منه فى النهار ، كما تدخل جزءاً من النهار فى الليل ، لا يستطيع ذلك غيرك ، فيطول كل منهما أو يقصر ، كما نرى ذلك فى اختلاف الفصول من صيف وشتاء .

أنت القادر الذى لا يعجزك شىء فى السموات ولا فى الأرض ، كل الكائنات تسير وفق إرادتك وعلمك وقدرتك:﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون * وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[٢].

سبحانك يا من تقول للشىء كن فيكون ، تنزه عن الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، سميع بأقوال عباده ليلاً ونهاراً ، بصيرٌ بأحوالهم:﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[٣] . أنعمت على عبادك لأنك رب العالمين ، ولأنك الرحمن الرحيم .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذه الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل والأصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما ... وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاص هذا الماء فى القاع هل لكم ... سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت وأعصرت ... أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ .

ذلك المذكور من آيات الوحدانية والقدرة ، حق لا مراء فيه ، بسبب أن الخالق هو الله الحق المريد العليم الحكيم القادر ، وأن ما سواه باطل وزائل لا قرار له ، وأن هذا الإله هو العلى على كل شىء ، رفيع الدرجات ذو العرش الكبير ، أى:العظيم الذى تنزه عن الشريك والولد والزوجة ، كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه .

(١) الآية ٧٣ من سورة القصص. (٢) الآيات ٣٦ - ٤٠ من سورة يس. (٣) الآية ١٩ من سورة غافر.

والشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ﴾ :

وتلك آية أخرى بعد آية ولوج الليل فى النهار وولوج النهار فى الليل ، إن تلك الآية هى إنزال الماء من السماء ، وإنبات النبات فى الأرض ، فتصبح مخضرة يكسوها بساط سندسى رائع الجمال ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾[١] .

ألم تبصر أيها الإنسان هذه الآية التى لا يقوى عليها إلا الله وحده : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾[٢] .

تأمل فى نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ :

أى عليم بدقائق الأشياء وحقائقها: ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[٣] ، ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾[٤] ، ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٥] .

إن الذى أنبت النبات ، وأنزل الماء من السماء بقدر معلوم ، فأنبت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، إن هذا الإله القدير له ما فى السموات وما فى الأرض مِلكاً ومُلكاً فهو الملك المالك ﴿ وإن الله لهو الغنى الحميد ﴾[٦] .

غنى عمن سواه ، مفتقر إليه جميع من عاداه .

---

(١) الآية ٩٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة الواقعة .
(٣) الآية ٣ من سورة سبأ .
(٤) الآية ١٦ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ٦٤ من سورة الحج .

﴿ يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾

إنه المحمود لذاته ، المستحق الثناء والمجد ، لأنه أهل لكل ذلك .

قوله تعالى : **﴿ ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾** :

وهكذا تتوالى نعم الله على عباده ، حتى يعلموا أن غير الله لا يملك لهم نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ألم تر أن الله سخر لكم كل ما فى الأرض من يابس وماء وهواء ، وضياء ونبات وحيوان وجماد ، قال تعالى : ﴿ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه * إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾[٢]

وما من يوم ينشق فجره إلا ويرشد الله العلماء إلى اكتشاف الآيات الكونية من كهرباء وجاذبية ومغناطيسية ، وما يسمى بالتكنولوجيا ، إلى غير ذلك مما قال الله فيه : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٣] .

هذا ونرى الآيات الكونية تصافح الآيات التنزيلية وتعانق كل منهما الأخرى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[٤] .

إن نور الآيات الكونية ، ونور الآيات التنزيلية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، وما بكم من نعمة فمن الله .

ومن نعمه تعالى على عباده أنه سخر لهم الفلك تجرى فى البحر بأمره ، وسبحان القائل: ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون * أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون * إلٰهكم إله واحد فالذين

---

(١) الآية ١٣ من سورة الجاثية .

(٢) الآية ٢٠ من سورة لقمان .

(٣) الآية ١٨ من سورة النحل .

(٤) الآية ٥٣ من سورة فصلت .

لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين ﴾[١] .

ومن لطف الله تعالى بعباده أن يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، فعالم السماء بما فيه من كواكب ونجوم وغير ذلك من المذنبات والنيازك ، الله تعالى يمسكه بقدرته ، ويصرف هذا العالم بحكمته ، حتى لا يصطدم نجم بنجم فيدمر هذا الكوكب الأرضى ، وقد أحاط الله بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، وسيظل هذا العالم متماسكاً يجرى بنظام ودقة إلى أن يأذن الله تعالى بقيام الساعة ، وعندئذ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، قال تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت * وإذا الكواكب انتثرت * وإذا البحار فجرت * وإذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾[٢] .

وقال جل شأنه : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة * وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهى يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٣] .

إن ما فى السماء من نجوم وكواكب ، لم يصل العلم بكل أجهزته الحديثة إلى اكتشاف جزء كبير منه ، بل كل ما كتشفه جزء قليل ، قدره العلماء بمائة ألف مليون مجموعة شمسية ، تشتمل كل مجموعة على مائة ألف مليون شمس ، أقلها شمسنا هذه التى تضىء لنا ، سبحانك ربى .

يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى كل القلوب تقر له وتشهد

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ :

فقد سخر لهم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأجرى لهم الفلك فى البحر بأمره ، وأمسك السماء حتى لا تقع على الأرض إلا بإذنه ، فعل كل هذا برأفته ورحمته بعباده ، دون ما احتياج إليهم: ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون * ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٤].

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾ :

ومن نعمه تعالى على عباده نعمة الإحياء ، وذلك كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾[٥].

وكقوله جل شأنه : ﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[٦] .

(١) الآيات ١٤ - ٢٣ من سورة النحل .
(٢) الآيات ١ - ٥ من سورة الإنفطار .
(٣) الآيات ١٣ - ١٨ من سورة الحاقة .
(٤) الآيات ٥٦ - ٥٨ من سورة الذاريات .
(٥) الآية ٢٨ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٢٦ من سورة الجاثية .

وسبحان القائل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون * يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون * ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون * ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(١) .

إن نعمة الإحياء من أجلّ النعم ، إن الله تعالى أحيانا فأثبت لنا أنه على كل شىء قدير ، ويميتنا ويثبت لنا أنه الجبار ذو القوة المتين ، ثم يحيينا للحساب فيثبت لنا أنه أعدل العادلين ، وأحكم الحاكمين ، وأسرع الحاسبين .

﴿ إن الإنسان لكفورٌ ﴾ :

كثير الجحود : ﴿ يأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك * فى أى صورة ما شاء ركبك * كلا بل تكذبون بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون ﴾(٢) .

فواعجباً كيف تعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ :

قوله تعالى : ﴿ لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه ﴾ :

أى:إنا أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية ، شريعة خاصة يعملون بها ، يسيرون على نهجها ، لا يتخطونها إلى غيرها ، فالأمة التى كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى منسكها ما فى التوراة ، والأمة التى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد ﷺ منسكها ما فى الإنجيل ، وأمة محمد ﷺ وهم من وجد حين مبعثه إلى يوم القيامة منسكهم ما فى القرآن ، لأن لكل زمان ما يليق به من الشرائع التى تناسب من فيه فى تلك الحقبة .

﴿ فلا ينازعنك فى الأمر ﴾ :

أى:فلا ينبغى لهم أن ينازعوك فى أمر هذا الدين ، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك ، وعدم منازعتهم إياك فى أمر هذه الشريعة ، زعما منهم أن شريعتهم هى ما عين لآبائهم من التوارة والإنجيل ، فذلك خطأ منهم ، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخه بالقرآن .

والخلاصة : أثبت أيها الرسول على دينك ثباتاً لا يطمعون أن يخرجوك منه ليزيلوك عنه ، والمراد

(١) الآيات ١٧ - ٢١ من سورة الروم .
(٢) الآيات ٦-١٢ من سورة الإنفطار .

بذلك تهييج حميته عليه السلام ، وإلهاب غضبه لله ولدينه ، ومثل هذا كثير فى كتاب الله ، وكأنه قد قيل له : تأس بالأنبياء قبلك فى مباركة القوم الظالمين ، والإمساك عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم .

قوله تعالى : ﴿ وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم ﴾ :

أى وادع هؤلاء المنازعين إلى توحيد الله وعبادته ، إنك لعلى طريق يهدى إلى الحق ، وشريعة توصل إلى السعادة .

ونحو الآية قوله : ﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ﴾[1] .

﴿ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴾ :

أى وإن جادلك هؤلاء المشركون فى نسكك بعد أن ظهر الحق ، ولزمتهم الحجة ، فقل لهم على سبيل التهديد والوعيد : الله عليم بما تعملون وبما أعمل ، ومجاز كلا بما هو له أهل .

ونحو الآية قوله : ﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾[2] .

وقوله : ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم ﴾[3] .

وبعد أن أمر رسوله ﷺ بالإعراض عنهم ، وكان ذلك شديد الوقع على النفس ، سلّاه بأن الله سيجازيهم لا محالة يوم القيامة على ما يقولون ويفعلون ، فقال :

﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾ :

أى الله يقضى بين المؤمنين منكم والكافرين يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه من أمر الدين ، فيبين المحق من المبطل .

ونحو الآية قوله : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾[4] الآية .

وقصارى ما سلف ـ ادع إلى شريعتك ولا تخص بالدعاء أمة دون أمة ، فكلهم أمتك ، وإنك لعلى طريق واضحة الدلالة ، تصل بمن اتبعها إلى سبيل السعادة ، فإن عدلوا عن النظر فى الأدلة إلى المراء والتمسك بالعبادات ، وبما وجدوا عليه الآباء والأجداد ، فدعهم فى غيهم يعمهون فقد أنذرت وما عليك إلا البلاغ ، وقل لهم مهدداً منذراً : الله يحكم بيننا وبينكم يوم القيامة ، ويتبين المحق منا من المبطل ، ويجازى كلا بما يستحق .

قوله تعالى : ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السماء والأرض ﴾ :

---

(١) الآية ٨٧ من سورة القصص .

(٢) الآية ٤١ من سورة يونس .

(٣) الآية ٨ من سورة الأحقاف .

(٤) الآية ١٥ من سورة الشورى .

أى: قد علمت أيها الرسول أن علم الله محيط بما فى السموات وما فى الأرض ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وهو حاكم بين خلقه يوم القيامة على علم منه بما عملوه فى الدنيا ، فمجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

ثم أكد علمه بقوله :

﴿ إن ذلك فى كتاب ﴾ :

أى: إن علمه بذلك فى اللوح المحفوظ ، الذى كتب فيه ربنا قبل أن يخلق ما هو كائن إلى يوم القيامة ، ويرى أبو مسلم الأصفهانى أن المراد بالكتاب فى مثل هذا الحفظ والضبط الشديد ، بحيث لا يغيب عنه مثقال ذرة .

ثم زاده تأكيدا بقوله :

﴿ إن ذلك على الله يسيرٌ ﴾ :

أى: إن علمه تعالى بما فى السماء والأرض وكتبه فى اللوح المحفوظ ، والفصل بين عباده يوم القيامة ، يسير عليه إذ لا يخفى عليه شىء ، ولا يتعسر عليه مقدور .

ثم حكى سبحانه بعض أباطيل المشركين وأحوالهم الدالة على سخافة عقولهم فقال :

﴿ **ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير** ﴾ :

فاعجب معى لقوم عطلوا عقولهم ، وسدوا منافذ المعرفة ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون ﴾[1] .

لقد عبدوا من دون الله ما لم ينزل الله به برهاناً ولا حجة ، تجيز لهم تلك العبادة ، وليس لهم شىء من العلم ، يبيح لهم عبادة غير الله ، فلا دليل يبيح لهم ذلك لا من العقل ولا من النقل ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[2] .

إنه التقليد الأعمى إنه سفه العقول ، إنها الحماقة التى أعيت من يداويها ، عبدوا من دون الله ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئاً وليس لهم بذلك برهان من وحى أو عقل .

﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾[3] .

﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون * ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾[4] .

---

(١) الآية ٥ من سورة فصلت .

(٢) الآيات ٢٢ ـ ٢٥ من سورة الزخرف .

(٣) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيتان ٧٤ و ٧٥ من سورة القصص .

أبعد ظهور الأدلة ووضوح البراهين فى الآيات الكونية والآفاقية والأنفسية ، يعبدون غير الله ﴿ ذلك أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وأن الله سميع بصير ﴾[١] .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير * ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير * له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد * ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ .

أو لم يكفهم كل هذه البراهين الساطعة والحجج القاطعة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون .

وقوله تعالى : **﴿ وما للظالمين من نصير ﴾** :

أى لا معين يدفع عنهم العذاب ، فالعذاب ليس له دافع من الله : ﴿ ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[٢] ، ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾[٣] .

واسمع إلى قوله تعالى :

﴿ وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم * وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾[٤] .

فاحذر الظلم فإنه ندم يوم القيامة ، وعاقبته وخيمة ، وهو ظلمات فى ساحة العرض على الله تعالى .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : (يؤخذ بيد العبد أو الأمة يوم القيامة فينادى به على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان من كان له عليه حق فليأت إلى حقه قال : فتفرح المرأة أن يكون لها حق على ابنها أو أخيها أو زوجها ثم قرأ: ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ قال فيغفر الله من حقه ما شاء ولا يغفر من حقوق الناس شيئاً فينصب العبد للناس ثم يقول الله عز وجل لأصحاب الحقوق : ائتوا إلى حقوقكم ؟ قال : فيقول العبد يا رب فنيت الدنيا فمن أين أوتيهم حقوقهم ؟ فيقول الله لملائكته : خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذى حق حقه بقدر طلبته فإن كان عبداً ولياً لله وفضل له مثقال ذرة ضاعفها الله تعالى له حتى يدخله الجنة بها وإن كان عبداً شقياً ولم يفضل له شىء فتقول الملائكة ربنا فنيت حسناته وبقى طالبون فيقول الله عز وجل : خذوا من سيئاتهم فأضيفوا إلى سيئاته ثم صكوا به صكا إلى النار) .

---

(١) الآية ٦١ من سورة الحج .

(٢) آية ٩٧ من سورة الإسراء .

(٣) الآيات ٢٧ ـ ٢٩ من سورة الفرقان .

(٤) الآيتان ٤٥، ٤٦ من سورة الشورى .

وجاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : (من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرم عليه الجنة . قيل : يا رسول الله وإن كان يسيراً ؟ قال : وإن كان قضيباً من أراك)[١] .

وروى (إنه لا أكره إلى العبد يوم القيامة من أن يرى من يعرفه خشية أن يطالبه بمظلمة ظلمه بها فى الدنيا) .

كما قال ﷺ : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء)[٢] .

وجاء أنه ﷺ قال : (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طرح فى النار) .

قوله تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ .

من قبائح هؤلاء المشركين الذين جاءوا ظلماً وزوراً ، وافتروا بهتاناً وإثماً مبيناً من قبائحهم وسوء أخلاقهم ، أنهم إذا تتلى عليهم آيات الله وفيها الدلائل والبينات والحجج القاطعات الباهرات ، على وحدانيته وإفراده بالعبودية ، واعتقاد وحدته ذاتا وصفاتا وأفعالاً ، إذا سمعوا تلك الآيات تعرف المنكر فى وجوههم ، فإن علامات المنكر والإنكار الشديد تبدو انفعالاتها واضحة على وجوههم ، إذ الوجه شرفة النفس .

قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾[٣] وقال : ﴿ تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ﴾[٤] .

ثم يزدادون سوءاً ، فيخرج الإنكار إلى حيز الاعتداء على الذين يتلون عليهم آيات الله ، إنهم يكادون أن يبطشوا بهم ، ويفتكوا بهم ، لما فى قلوبهم من غيظ وحقد وحنق على الإسلام ، ونبى الإسلام ، وكتاب الإسلام ، قال لهم مولانا جل شأنه : قل أيها التالى لكتاب الله قل لهؤلاء : أفأنبئكم بشر مما أنتم فيه من إنكار ، وتخويف للمؤمنين فى زعمكم ، والاعتداء عليهم : إن النار شر من ذلك الوعيد والتهديد الذى توعدون به عباد الله المؤمنين ، لقد وعدها الله إياكم ، ووعد الله حق ، فإذا دخلتموها فبئس المصير مصيركم : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً ﴾[٥] .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ٢١٨ ، والنسائى فى القضاة : ٣٠ ، وابن ماجه فى الأحكام : ٨ ، والدارمى فى البيوع : ٦٢ ، والإمام مالك فى الأقضية : ١١ ، والإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى البر : ٦١ ، والترمذى فى القيامة : ٢ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣٥ ، ٣٠١ ، ٣٧٢ ، ٤١١ .

(٣) الآية ٤١ من سورة الرحمن .

(٤) الآية ١٩ من سورة الأحزاب .

(٥) الآية ٥٦ من سورة النساء .

﴿ وبئس المصير ﴾ جهنم كما قال تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾[1] .

قوله تعالى : **﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾** :

هذا بيان قرآنى حاسم وجازم خاطب الله فيه العباد بلفظ ﴿ يأيها الناس ﴾ والنداء من الله له ما له من شأن خطير ، وهل هناك أخطر من التوحيد ، ثم هل هناك أعجب من الشرك ، لقد جعلوا لله مثلاً من شركائهم وآلهتهم ، والله سبحانه يقول : ﴿ فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[2] .

وكما تحداهم الله تعالى أن يأتوا بسورة من مثل القرآن فعجزوا ، تحدى آلهتهم كذلك أياً كان نوعها أو شكلها بشراً كانوا أم حديداً ، أم حجارة ، تحدى كل هؤلاء أن يخلقوا حشرة واهية ، وهانة ضعيفة ، وهى الذبابة ، بل لو اجتمعوا على أن يخلقوا تلك الحشرة ما استطاعوا ، بل إن هناك ما هو أشد من ذلك تحدياً ، لو أن الذباب سلبت تلك المعبودات شيئاً مما تضعونه عليها مثل الطيب أو المادة السكرية أو غير ذلك فإن آلهتكم لا تستطيع أن تستنفذ من الذباب تلك المادة ، أبعد هذا الضعف ضعف يذكر للآلهة الزائفة .

لم تستطع أن تخلق ذباباً ، وعجزت أن تستنقذ من الذباب ما سلبه منها .

﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ : المقصود بالطالب الآلهة ، وبالمطلوب الذباب ، والمطلوب أقوى من الطالب ، فصارت الآلهة أضعف من الذباب .

كان لأبى ذر الغفارى أيام الجاهلية صنم يعبده ، فجاءه ذات يوم ليقدم له مراسيم الطاعة فوجد برأسه بللاً ، ووجد ثعلباً قريباً منه فعلم أن الثعلب قد بال على الصنم ، فقال أبو ذر متعجباً :

رب يبول الثعلبان برأسه ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب
فلو كان رباً كان ينفع نفسه ... فلا خير فى رب نأته المطالب
برئت من الأصنام فى الأرض كلها ... وآمنت بالله الذى هو غالب

سبحانك ربى :

يا خالق الكون فى عز وتمكين ... وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى ... لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

إن هؤلاء الذين عبدوا من دون الله آلهة أخرى ما قدروا الله حق قدره ، إن الله لقوى عزيز ، أى ما عظموا الله حق تعظيمه ، وما عرفوا له ما يجب فى حقه من كمال وعظمة وجلال .

﴿ إن الله لقوى عزيز ﴾ : قوى لا يغلب عزيز لا يقهر ، فهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة

---

(١) الآية ٦٦ من سورة الفرقان .

(٢) الآية ٧٤ من سورة النحل .

الدائمة: ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴾ .

أى: الله يختار من الملائكة رسلاً يتوسطون بينه وبين الأنبياء بالوحى ، ويصطفى من الناس رسلاً يدعون عباده إلى ما يرضيه ، ويبلغونهم ما نزله عليهم من وحيه إرشاداً لهم ، وتشريعاً للأحكام التى فيها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم .

﴿ إن الله سميع بصير ﴾ : أى: إنه تعالى سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، فيعلم من يستحق أن يختار منهم لهذه الرسالة .

قوله : **﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾** : أى: يعلم ما كان بيد أيدى ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم ، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم .

وخلاصة ذلك ـ يعلم مستقبل أحوالهم وماضيها .

﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ : أى: وإليه ترجع الأمور يوم القيامة ، فلا أمر ولا نهى لأحد سواه ، وهو يجازى كلا بما عمل ، إن خيراً ، وإن شراً .

قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون * وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ .

خطاب من رب العزة إلى الذين آمنوا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، وهم أسرع الناس استجابة لخطاب الله ، يأمرهم فيه سبحانه بالمحافظة على الركوع ، ففيه الخضوع للواحد القهار ، كما يأمرهم فيه بالسجود وفيه الإقرار لله بالعظمة ، فلا خضوع إلا له ، ولا خشوع إلا له ، لذا نقول فى الركوع (سبحان ربى العظيم) امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾[٢] ونقول فى السجود: (سبحان ربى الأعلى) ، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾[٣] . نعم هو العظيم فلا عظيم غيره ، وهو الأعلى فلا أعلى سواه .

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به ... وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين

(١) الآيات ٩٣ ـ ٩٥ من سورة مريم .
(٢) الآية ٩٦ من سورة الواقعة .
(٣) الآية الأولى من سورة الأعلى .

واسترزق الله بما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

قوله تعالى : ﴿ واعبدوا ربكم ﴾ : عبادة من يعتقد أن الله هو المعبود وحده لا شريك له ، ومن يعتقد أن لقاء الله حق ، وأن الجنة حق ، والنار حق ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين * الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾(١) .

كان عمر رضى الله عنه يقول : لو نادى منادٍ يوم القيامة كل الناس يدخل الجنة إلا واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الواحد .

اجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ .

وما أكثر أبواب الخير من محافظة على العقيدة والعبادة من صلاة وصيام وزكاة وحج ، وصلة وبر وسماحة وكرم وإيثار وحلم وعلم ينتفع به ، وكلمة طيبة : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾(٢) .

فهذا هو الخطاب الكريم أوله إيمان ، وختامه فلاح وسعادة ونجاح .

ثم يأمرهم تعالى بعد ذلك بالجهاد فيقول : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

والجهاد هنا بذل الطاقة ، واستفراغ الوسع ، سواء أكان جهاداً بالكلمة ، أم كان جهاداً بالسيف فى سبيل الله ، لقتال أعدائه المشركين الجاحدين الصادين عن سبيل الله ، أم كان جهاداً للشيطان لسد منافذ شره ، أم كان جهاداً للنفس بتربيتها على الصبر والطاعة ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾(٣) .

فالله هو الذى اجتباكم واختاركم يا أمة محمد ، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله وفضل نبيكم على جميع الخلق .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلاً

ومن فضل الله عليكم يا أمة محمد أنه ما جعل عليكم فى الدين من حرج ، وقد استجاب لكم عندما سمعتم وأطعتم .

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من

(١) الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة الأحزاب .
(٣) الآية ٦٩ من سورة العنكبوت .

رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾[١] .

لقد استجاب الله لكم ، فوضع عنكم الأغلال والإصر الذى كان على الأمم من قبلكم ، ورفع عنكم الضيق والحرج ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[٢] .

فمن لم يستطع أن يصلى قائماً فليصل قاعداً أو على جنبه أو مستلقياً ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾[٣] .

وجعل الصلاة اثنين اثنين فى السفر ، وأباح الفطر للمريض والحامل والمرضع فى رمضان ، ومن كان على سفر ، ومن لم يملك نصاب الزكاة فلا زكاة عليه ، ومن ملك النصاب فالمقدار الذى يخرج من المال يسير ، ربع العشر فى النقدين ، والعشر أو نصفه فى الزروع والثمار ، والخمس فى الركاز ، والحج لا يجب إلا على من استطاع إليه سبيلاً ، كما رفع عنكم الخطأ والنسيان وما استكرهتم عليه ، ورفع القلم عن ثلاث : الصبى حتى يحتلم ، والنائم حتى يستيقظ ، والمجنون حتى يفيق .

ففتح باب التوبة أمام المذنبين ، وخير الخطائين التوابون ، فألزموا ملة أبيكم ابراهيم ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[٤] وملة إبراهيم توحيد خالص ، فقد قال لقومه . ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾[٥] .

ومن تشريف الله لكم يا أمة محمد هذه النعمة الجليلة ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا فضل عظيم .

﴿ لتكونوا شهداء على الناس ﴾ يوم القيامة لأن الأنبياء قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿ ويكون الرسول شهيداً عليكم ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾[٦] .

قال تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾[٧] .

وقال سبحانه : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾[٨] .

(١) الآيتان ٢٨٥ ، ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٢) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .
(٣) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ١٢٠ - ١٢٣ من سورة النحل .
(٥) الآية ٧٩ من سورة الأنعام .
(٦) الآية ١٤٣ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٤١ من سورة النساء .
(٨) الآية ٨٩ من سورة النحل .

فأقيموا الصلاة أيتها الأمة بأركانها وشروطها وسننها ، وآتوا الزكاة خالصة بها نفوسكم لا رياء فيها ولا سمعة ، واستمسكوا بحبل الله المتين ، واعتصموا بالله هو مولاكم وناصركم .

﴿ **فنعم المولى** ﴾ ونعم النصير المولى هو الله ، الذى يتولى شئوننا ، وعليه فليتوكل المتوكلون .

﴿ **ونعم النصير** ﴾ لأن النصر منه سبحانه هو الذى يلى أمرنا وينعم علينا بنصره ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثامن عشر

(سورة المؤمنون)

المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــر
مجمـع البحـوث الاسـلامية
الادارة العـامة
للبحـوث والتـأليف والترجمـة

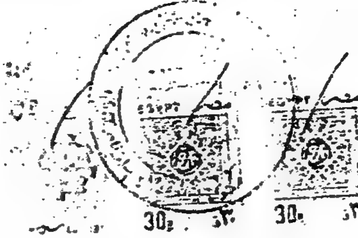

السيد / الأستاذ / مدير المكتبة المصرية الحديثة (أحمد زكي)

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ــ وبعد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : فيض رحمة ... العقيدة
الجزء الثامن عشر تأليف : الشيخ / عبد الحميد كشك

نفيد بأن الكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ولا مانع من طبعه على نفقتكم الخاصة .

مع التأكيد على ضرورة العناية التامة بكتابة الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة .

والله الموفق ،،،

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

مدير عام
ادارة البحوث والتأليف والترجمة

تحريرا في ٢٥ / ٢ / ١٤١٠ هـ
الموافق ٢٥ / ١٠ / ٨٩

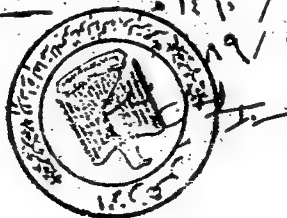

« سورة المؤمنون »

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا ، وعدد آياتها مائة وثمانى عشرة عند الكوفيين ، وتسع عشرة عند الباقين ، وكلماتها ألف ومائتان وأربعون ، وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وواحد .

مقصود السورة

ومعظم ما اشتملت عليه : الفتوى بفلاح المؤمنين ، والدلالة على أخلاق أهل الإسلام ، وذكر العجائب فى تخليق الأولاد فى الأرحام ، والإشارة إلى الموت والبعث ، ومنة الحق على الخلق بإنبات الأشجار ، وإظهار الأنهار ، وذكر المراكب ، والإشارة إلى هلاك قوم نوح ، ومذمة الكفار وأهل الإنكار ، وذكر عيسى ومريم وإيوائهما إلى ربوة ذات قرار ، وإمهال الكفار فى المعاصى والمخالفات ، وبيان حال المؤمنين فى العبادات والطاعات ، وبيان حجة التوحيد ، وبرهان النبوات ، وذل الكفار بعد الممات ، وعجزهم فى جهنم حال العقوبات ، ومكافأتهم فى العقبى ، على حسب المعاملات فى الدنيا فى جميع الحالات ، وتهديد أهل اللهو واللغو والغفلات ، وأمر الرسول بدعاء الأمة وسؤال المغفرة لهم ، والرحمات فى قوله : ﴿ رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

المتشابهات

وقوله: ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ : ﴿ فواكه ﴾ بالجمع ﴿ ومنها ﴾ بالواو ، وفى الزخرف ﴿ فاكهة ﴾ على التوحيد ، ﴿ منها تأكلون ﴾ بغير واو ، راعى فى السورتين لفظ الجنة ، وكانت فى هذه ﴿ جنات ﴾ بالجمع ، فقال : ﴿ فواكه ﴾ بالجمع ، وفى الزخرف : ﴿ وتلك الجنة ﴾ بلفظ التوحيد ، وإن كانت هذه جنة الخلد لكن راعى اللفظ ، فقال: ﴿ فيها فاكهة ﴾ وقال فى هذه السورة: ﴿ ومنها تأكلون ﴾ بزيادة الواو ، لأن تقدير الآية : منها تدخرون ، ومنها تأكلون ، ومنها تبيعون ، وليست كذلك فاكهة الجنة ، فإنها للأكل فقط ، فلذلك قال : ﴿ منها تأكلون ﴾ .

ووافق هذه السورة ما بعدها أيضا ، وهو قوله : ﴿ ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ﴾ فهذا للقرآن معجزة وبرهان .

قوله : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ وبعده ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا ﴾ فقدم ﴿ من قومه ﴾ فى الآية الأخرى ، وأخر فى الأولى لأن صلة ﴿ الذين ﴾ فى الأولى اقتصرت على الفعل وضمير الفاعل ، ثم ذكر بعده الجار والمجرور ، ثم ذكر المفعول وهو المقول ، وليس كذلك فى الأخرى ، فإن صلة الموصول طالت بذكر الفاعل والمفعول والعطف عليه مرة بعد أخرى ، فقدم الجار والمجرور ، لأن تأخيره يلتبس وتوسيطه ركيك ، فخص بالتقدم .

قوله : ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ وفى حم فصلت : ﴿ لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ذكر الله ، وليس فيه ذكر الرب ، وفى السجدة تقدم ذكر ﴿ رب العالمين ﴾ سابقا على ذكر لفظ الله ، فصرح فى هذه السورة بذكر الله ، وهناك بذكر الرب ، لإضافته إلى العالمين ، وهم من جملتهم ، فقالوا إما اعتقادا ، وإما استهزاء : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فأضافوا الرب إليهم .

قوله : ﴿ واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ﴾ وفى سبأ : ﴿ إنى بما تعملون بصير ﴾ كلاهما من وصف الله سبحانه ، وخص كل سورة بما وافق فواصل الآى .

قوله : ﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ بالألف واللام ، وبعده : ﴿ لقوم لا يؤمنون ﴾ لأن الأول لقوم صالح ، نعرفهم بدليل قوله : ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ والثانى نكرة وقبله : ﴿ قرونا آخرين ﴾ وكانوا منكرين ، ولم يكن معهم قرينة عرفوا بها ، فخصوا بالنكرة .

قوله : ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ﴾ وفى النمل : ﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ لأن ما فى (هذه) السورة على القياس ، فإن الضمير المرفوع المتصل لا يجوز العطف عليه حتى يؤكد بالضمير المنفصل ، فأكد ﴿ وعدنا نحن ﴾ ثم عطف عليه ﴿ آباؤنا ﴾ ثم ذكر المفعول وهو ﴿ هذا ﴾ وقدم فى النمل المفعول موافقة لقوله : ﴿ ترابا ﴾ لأن القياس فيه أيضا : كنا نحن وآباؤنا ترابا فقدم ﴿ ترابا ﴾ ليسد مسد نحن ، وكانا متوافقين .

قوله : ﴿ سيقولون لله ﴾ وبعده : ﴿ سيقولون لله ﴾ وبعده : ﴿ سيقولون لله ﴾ الأول جواب ، لقوله : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ جواب مطابق لفظا ومعنى ، لأنه قال فى السؤال : ﴿ قل لمن ﴾ فقال فى الجواب : ﴿ لله ﴾ وأما الثانى والثالث فالمطابق فيهما فى المعنى ، لأن القائل إذا قال لك : من مالك هذا الغلام ؟ فلك أن تقول : زيد ، فيكون مطابقا لفظا ومعنى ، ولك أن تقول لزيد فيكون مطابقا للمعنى ، ولهذا قرأ أبو عمرو : والثانى والثالث : ﴿ الله ﴾ ﴿ الله ﴾ مراعاة للمطابقة .

قوله : ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم ﴾ وقبله ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول فى الدنيا عند نزول العذاب وهو الجدب عند بعضهم ، ويوم بدر عند البعض ، والثانى فى القيامة وهم فى الجحيم ، بدليل قوله : ﴿ ربنا أخرجنا منها ﴾ .

وقد جاء فى فضلها ماروى عن عائشة رضى الله عنها أن بعض الصحابة قالوا لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ؟ قالت : ﴿ كان خلقه القرآن ﴾ (١) ثم قرأت : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى انتهت إلى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ هكذا كان خلق رسول الله ﷺ .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

(١) أنه تعالى ختم السورة السابقة بخطاب المؤمنين ، وأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وفعل الخيرات لعلهم يفلحون ، وحقق فلاحهم فى بدء هذه السورة .

(٢) أنه تكلم فى كل من السورتين فى النشأة الأولى ، وجعل ذلك دليلا على البعث والنشور .

(٣) وأن فى كل من السورتين قصصا للأنبياء الماضين وأممهم ، ذكرت عبرة للحاضرين والآتين .

(٤) أنه نصب فى كل منهما أدلة على وجود الخالق ووحدانيته .

---

(١) أخرجه مسلم فى المسافرين : ١٣٩ ـ وأبو داود فى التطوع : ٢٦ . والترمذى فى البر : ٦٩ . والنسائى فى قيام الليل : ٢ . وابن ماجه فى الأحكام : ١٤ . والدارمى فى الصلاة : ١٦٥ . والإمام أحمد فى ٦ : ٥٤ ، ٩١ ، ١١١ ، ١٦٣ ، ١٨٨ ، ٢١٦ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا
مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

تفسير المفردات

الفلاح : الظفر بالمراد .
وأفلح : دخل فى الفلاح . **كأبشر** : دخل فى البشارة .
والمؤمن : هو المصدق بما جاء عن ربه على لسان نبيه من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء .
والخاشع : هو الخاضع المتذلل مع خوف وسكون للجوارح .
واللغو : هجر القول وقبيحه .
والزكاة : تزكية النفس وطهارتها بفعل العبادة المالية .
والفرج : سوءة الرجل والمرأة .
وحفظه : التعفف عن الحرام .
وابتغى : طلب .
وراء ذلك : أى غير ذلك .
والعادون : أى المتناهون فى العدوان ومجاوزة الحدود الشرعية .
والأمانات : واحدها أمانة، وهى ما ائتمن المرء عليه من قبل الله كالتكاليف الشرعية، أو من قبل الناس كالأموال المودعة لديه، والنذور والعقود ونحوها .
والعهد : ما عقده الإنسان على نفسه مما يقربه إلى ربه وما أمر به الله كما قال : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا** ﴾ (١) .
والرعى : الحفظ .

---

(١) الآية ١٨٣ من سورة آل عمران .

والراعى : القائم على الشىء لحفظه وإصلاحه .
يحافظون : أى يواظبون عليها .
الفردوس : أعلى الجنة .

التفسير

روى الإمام أحمد-رضى الله عنه-بسنده عن عبدالرحمن بن عبدالقارى قال:سمعت عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يسمع عند وجهه كدوى النحل ، فلبثنا ساعة ، فاستقبل القبلة ، ورفع يديه ، وقال : (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وأرضنا[١] . ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة) ثم قرأ: ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر .

وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وأبى العالية وغيرهم :(لما خلق الله جنة عدن وغرسها بيده نظر إليها ، وقال لها : تكلمى . فقالت:﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قال كعب الأحبار : لما أعد لهم من الكرامة فيها، وقال أبو العالية : فأنزل الله ذلك فى كتابه) .

وقال البزار :(حائط الجنة لبنة ذهب ولبنة فضة،وملاطها المسك فقال لها،تكلمى،فقالت:﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فقالت الملائكة : طوبى لك منزل الملوك) .

وعن أنس-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ : (خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء ، ولبنة من ياقوتة حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ملاطها المسك ، وحصاؤها اللؤلؤ ، وحشيشها الزعفران ، ثم قال لها : انطقى . قالت:﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فقال الله : وعزتى وجلالى لا يجاورنى فيك بخيل . ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[٢] .

بدأ الله هذه السورة الكريمة بحرف يفيد التحقيق وهو (قد) وذلك من باب التوكيد لوعد الله لهؤلاء بالفلاح .

قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ :

هذا حكم الله للمؤمنين بالفلاح ، والله إذا حكم صدق ولا معقب لحكمه ، وهذا قضاء الله للمؤمنين بالسعادة والفوز ، والله إذا قضى فلا راد لقضائه ، يقول الحق ولا يقول غير الحق لأنه الحق ، وفى هذه الآية الكريمة التى تفيض نورا ورحمة ما يدل على ثبوت الفلاح للمؤمنين ثبوتا قطعيا مؤكدا ، بحرف (قد) .

فمن هؤلاء الذين استحقوا هذا الشرف ، ونالوا تلك الرتبة ، وفازوا بهذه الدرجة العظمى ، وتمتعوا بحكم الله الصادق ؟

إنهم المؤمنون ، أى:المتصفون بالإيمان ، والإيمان كلمة مدلولها الصدق اليقينى ، ومحله القلب ، كما قال تعالى : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾[٣] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٤ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٣ : ١ .
(٢) الآية ٩ من سورة الحشر .
(٣) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .

وقال تعالى : ﴿ **إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾[٢] .

فما مدلول هذه الكلمة ؟ وما مدلول صفات أصحابها ؟ بين الرسول ﷺ مدلول الإيمان فى حديث شريف قال فيه : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره)[٣] .

فإذا ما نحن قرأنا كتاب الله وجدناه قد حدد للمؤمنين صفات ، وبين لهم مبادىء التزموها ، وساروا على نهجها ، فاستحقوا هذه الصفة صفة المؤمنين ، فمن هذه المبادىء موقفهم من ضرب الأمثال فى القرآن ، قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم** ﴾[٤] .

وعلى الطرف الآخر موقف الكافرين .

قال تعالى : ﴿ **وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا** ﴾[٥] .

موقف المؤمنين الثبات على مبدأ الحق ، وهو موقف تزول الجبال ولا يزول ، الحق من الله ، لأن الله لا يقول إلا الحق .

ويقول الله فى شأنهم أيضا :

﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾[٦] .

وهذا ما أكده حديث رسول الله الذى سبق ذكره .

وهذا أيضا توكيد لما سبق فى أول سورة البقرة ، فى قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾[٧] .

والمؤمنون لا يعرفون الوهن ولا الحزن ، إنهم فوق الأحداث ، لا تلين قناتهم ، إذا عربد الباطل فى عرضات الدنيا .

لقد قال الله فى شأنهم : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾[٨] .

---

(١) الآية ١٠٦ من سورة النحل .

(٢) الآية ٧ من سورة الحجرات .

(٣) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١ ، ٧ . وأبو داود فى السنة : ١٦ . والترمذى فى القدر : ١٠ ، وفى الإيمان : ٤ . والنسائى فى الإيمان : ٥ ، ٦ . وابن ماجة فى المقدمة : ٩ ، ١٠ . والإمام أحمد فى ١ : ٢٧ ، ٢٨ ، ٥٢ ، ٩٧ ، ١٣٣ ، ٣١٩ ، وفى ٢ : ١٠٧ ، ١٨١ .

(٤) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٥) الآية ٢٦ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

(٧) الآيات ٣ ـ ٥ من سورة البقرة .

(٨) الآيات ١٣٩ ـ ١٤١ من سورة آل عمران .

والمؤمنون إذا نزلوا ميدان القتال قاتلوا فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، قال جل شأنه : ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله** ﴾(١) .

ثم بين على الطرف الآخر الفريق المضاد فقال : ﴿ **والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت** ﴾ .

والمؤمنون - كما وصفهم الله - أوفياء بالعقود . والعهود ، لا يعرفون نقضها أو مخالفتها .

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾(٢) .

ولا يعرفون ولاية إلا لله ورسوله والمؤمنين .

قال تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾(٣) .

والمؤمنون كما وصفهم الله فى قوله : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾(٤) .

والمؤمنون ثابتون عند التقاء الصفوف ، ذاكرون لله ، قال الله تعالى يخاطبهم: ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾(٥) .

وهم الذين تواصوا فيما بينهم على المحبة والنصرة ، قال الله فى شأنهم : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾(٦) .

وهم الذين عقد الله معهم ذلك العقد الخالد فقد اشترى الأنفس والأموال وأعطاهم الجنة ، ووصفهم بصفات الحسن والكمال والفضيلة ، والتنزه عن الدنيا .

قال سبحانه : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾(٧) .

وهم الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾(٨) .

وقال فى شأنهم : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾(٩) .

وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم**

---

(١) الآية ٧٦ من سورة النساء .
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .
(٣) الآية ٥٥ من سورة المائدة .
(٤) الآيات ٢ - ٤ من سورة الأنفال .
(٥) الآية ٤٥ من سورة الأنفال .
(٦) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٧) الآيتان ١١١ ، ١١٢ من سورة التوبة .
(٨) الآية ١٠ من سورة الحجرات .
(٩) الآية ١٥ من سورة الحجرات .

بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾(١) .

والمؤمنون هم الذين وقفوا موقف الالتزام عند قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) .

ووقفوا موقف الالتزام عند قوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ﴾(٣) .

وعند قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ﴾ (٤) .

وعند قوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ (٥) .

والمؤمنون هم الذين اتبعوا الإرشاد فى قوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٦) .

وهم الذين استثناهم الله فى قوله : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (٧) .

إن هؤلاء المؤمنين عرفوا الحق حقا فاتبعوه ، ورأوا الباطل باطلا فاجتنبوه ، التزموا الأوامر ، واجتنبوا النواهى ، وقفوا عند حدود الله موقف السمع والطاعة ، كانوا كما قال الله : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا . يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ﴾(٨) .

وكانوا كما قال الله : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ (٩) .

هذه صورة قرآنية صادقة للمؤمنين الذين استحقوا أن يحكم الله لهم بالفلاح ، فى قوله : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ فلاح فى الدنيا والآخرة ، كما وعد الله تعالى فى قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾(١٠) .

استحقوا أن يقول الله فى شأنهم : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾

---

(١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(٢) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة الحشر .
(٣) الآية ١ من سورة الممتحنة .
(٤) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة الصف .
(٥) الآية ٩ من سورة المنافقون .
(٦) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة الصف .
(٧) سورة العصر .
(٨) الآيتان ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة النساء .
(٩) الآية ٥١ من سورة النور .
(١٠) الآية ٥٥ من سورة النور .

وكانوا أهلا لرحمة الله عندما قال فى حقهم : ﴿ أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ (١) .

وكانوا أهلا لنصر الله : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (٢) .

﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (٣) .

وكانوا جديرين بالحياة الطيبة : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٤) .

وكانوا أهلا لطمأنينة القلب:﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ (٥) .

وكانوا أهلا لأن يشكر الله سعيهم:﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ (٦) .

وكانوا أهلا لهذا الجزاء الربانى:﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾ (٧) .

ونالوا نعمة السكينة فى القلوب : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ﴾ (٨) .

وفازوا بهذا الفضل العظيم الذى بينه الله فى قوله : ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (٩) .

واستحقوا أن يكونوا أصحاب الميمنة كما قال تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة . أولئك أصحاب الميمنة ﴾ (١٠) .

وتشرفوا بأن يكونوا حزب الله كما قال جل شأنه : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ (١١) .

واستثناهم الله من الذين انحدروا فى الأوحال حيث قال جل شأنه : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ (١٢).

فهنيئا لكم ما أصبحتم فيه ، يامن طهرت قلوبكم من الحقد ، وألسنتكم من الزلل ، وأيديكم من الخطيئة ، وأعينكم من الرذيلة ، وسمعكم من النقائص .

هنيئا لكم يامن حكم الله لكم بالفلاح ، وإنها لدرجة لا يستحقها إلا أنتم يا أصحاب القلوب الطيبة ، يامن قال الله فى شأنكم : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى

---

(١) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٢) الآية ٥١ من سورة غافر .
(٣) الآية ٧ من سورة محمد .
(٤) الآية ٩٧ من سورة النحل .
(٥) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الرعد .
(٦) الآية ١٩ من سورة الإسراء .
(٧) الآية ٧٢ من سورة التوبة .
(٨) الآية ٤ من سورة الفتح .
(٩) الآية ٤ من سورة الأنفال .
(١٠) الآيتان ١٧ ، ١٨ من سورة البلد .
(١١) الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(١٢) الآيات ٤ - ٦ من سورة الزيتون .

هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خيّر ولنعم دار المتقين ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ .

الخشوع فى الصلاة:حضور القلب وسكون الجوارح ، **قيل** لحاتم الأصم رضى الله عنه : (كيف أنت إذا دخلت الصلاة ؟ فقال : إذا دخلت الصلاة جعلت الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن يمينى ، والنار عن شمالى ، والصراط تحت قدمى ، معتقدا أن الله مطلع علىَّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردها علىَّ) .

حسبك أن تعلم أن الصلاة هى الفريضة الوحيدة التى فرضت على النبى وأمته فى السماء وهذا مما يدل على أنها صلة واتصال وثيق بين العبد وربه،وعلى علو مكانتها ورفعة درجتها،وها نحن أولا نلقى بعض الأضواء على تلك الفريضة حتى يكون المسلم على بصيرة من أحكامها:والله ولى التوفيق .

تعريفها :

الصلاة عبادة تتضمن أقوالا وأفعالا مخصوصة ، مفتتحة بتكبير الله تعالى ، مختتمة بالتسليم .

منزلتها فى الإسلام :

وللصلاة فى الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة أية عبادة أخرى ، فهى عماد الدين الذى لا يقوم إلا به ، قال رسول الله ﷺ : (رأس الأمر الاسلام،وعموده الصلاة،وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله)[٢] .

وهى أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات،تولى إيجابها بمخاطبة رسوله ليلة المعراج من غير واسطة .

قال **أنس** : (فرضت الصلاة على النبى ﷺ ليلة أسرى به خمسين ثم نقصت حتى جعلت خمسا ثم نودى يامحمد : إنه لا يبدل القول لدى وإن لك بهذه الخمس خمسين)[٣] . رواه أحمد والنسائى والترمذى وصححه .

وهى أول ما يحاسب عليه العبد . نقل عبدالله بن قرط قال : قال رسول الله ﷺ : (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله) . رواه الطبرانى .

وهى آخر وصية وصى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقة الدنيا جعل يقول ـ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ـ : (الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم) .

وهى آخر ما يفقده من الدين فإن ضاعت ضاع الدين كله . قال رسول الله ﷺ : (لتنقض عرى الإسلام عروة عروة فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتى تليها ، فأولهن نقضا الحكم وآخرهن

---

(١) الآية ٣٠ من سورة النحل .
(٢) أخرجه ابن ماجة فى الفتن : ١٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٣) أخرجه البخارى فى الصلاة : ١ . والترمذى فى الصلاة : ٤٥ . والنسائى فى الصلاة : ١ .

الصلاة) . رواه ابن حبان من حديث أبي أمامة .

والمتتبع لآيات القرآن يرى أن الله سبحانه يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** ﴾ (١) . (قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى) (٢) . ﴿ **وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ (٣) .

وتارة يقرنها بالزكاة : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** ﴾ (٤) . ومرة بالصبر : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ (٥) . وطورا بالنسك : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ (٦) . ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾ (٧) .

وأحيانا يفتتح بها أعمال البر ، ويختتمها بها كما فى سورة : سأل « المعارج » وفى أول سورة المؤمنون : ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ .

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة أن أمر بالمحافظة عليها فى الحضر والسفر ، والأمن والخوف فقال تعالى : ﴿ **حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين . فإن خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون** ﴾ (٨) .

وقال مبينا كيفيتها فى السفر والحرب والأمن : ﴿ **وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا . وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا . فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا** ﴾ (٩) .

وقد شدد النكير على من يفرط فيها ، وهدد الذين يضيعونها ، فقال جل شأنه : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا** ﴾ (١٠) .

وقال : ﴿ **فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون** ﴾ (١١) .

ولأن الصلاة من الأمور الكبرى التى تحتاج إلى هداية خاصة ، سأل إبراهيم ـ عليه السلام ـ ربه أن يجعله هو وذريته مقيما لها فقال : ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء** ﴾ (١٢) .

حكم ترك الصلاة :

ترك الصلاة جحودا بها وإنكارا لها كفر وخروج عن ملة الإسلام بإجماع المسلمين ، أما من تركها

---

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى .
(٣) الآية ١٤ من سورة طه .
(٤) الآية ٤٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٤٥ من سورة البقرة .
(٦) الآية ٢ من سورة الكوثر .
(٧) الآيتان ١٦٢ ، ١٦٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآيتان ٢٣٨ ، ٢٣٩ من سورة البقرة .
(٩) الآيات ١٠١ ـ ١٠٣ من سورة النساء .
(١٠) الآية ٥٩ من سورة مريم .
(١١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة الماعون .
(١٢) الآية ٤٠ من سورة إبراهيم .

مع إيمانه بها واعتقاده فرضيتها ولكن تركها تكاسلا أو تشاغلا عنها بما لا يعد فى الشرع عذرا ، فقد صرحت الأحاديث بكفره ، ووجوب قتله .

أما الأحاديث المصرحة بكفره فهى :

١ - عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : (بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة)[١] . رواه أحمد ومسلم ، وأبو داود ،والترمذى،وابن ماجه .

٢ - وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : (العهد الذى بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)[٢] . رواه أحمد وأصحاب السنن .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه ذكر الصلاة يوما فقال : (من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبى بن خلف)[٣] . رواه أحمد والطبرانى .

وكون تارك المحافظة على الصلاة مع أئمة الكفر فى الآخرة . يقتضى كفره ، قال ابن القيم : تارك المحافظة على الصلاة إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته ، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون ، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون ، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان ، ومن شغله عنها تجارته فهو مع أبى بن خلف .

وعن عبد الله بن شقيق العقيلى قال : (كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئا من الأعمال تركه كفر غير الصلاة) . رواه الترمذى .

وقال محمد بن نصر المحروزى : سمعت إسحاق يقول : (صح عن النبى ﷺ : أن تارك الصلاة كافر) وكذلك كان رأى أهل العلم من لدن محمد ﷺ أن تارك الصلاة عمدا من غير عذر حتى يذهب وقتها كافر .

وقال ابن حزم:وقد جاء عن عمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وأبى هريرة وغيرهم من الصحابة : أن من ترك صلاة فرض واحدة متعمدا حتى يخرج وقتها فهو كافر مرتد ، ولا نعلم لهؤلاء الصحابة مخالفا . ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب .

ثم قال : قد ذهب جماعة من الصحابة ومن بعدهم إلى تكفير من ترك الصلاة . متعمدا تركها حتى يخرج جميع وقتها ، منهم عمر بن الخطاب ، وعبد الله بن مسعود ، وعبدالله بن عباس ، ومعاذ بن جبل ، وجابر بن عبد الله ، وأبو الدرداء رضى الله عنهم ، ومن غير الصحابة أحمد بن حنبل ، وإسحق بن راهويه ، وعبد الله بن المبارك ، والنخعى ، والحكم بن عتيبة ، وأبو أيوب السختيانى ، وأبو داود الطيالسى ، وأبو بكر بن أبى شيبة ، وزهير بن حرب وغيرهم رحمهم الله تعالى .

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان : ١٣٤ . وأبو داود فى السنة : ١٥ . والترمذى فى الإيمان :٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ١٧ . والدارمى فى الصلاة : ٢٩ .

(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة :٨ . والترمذى فى الإيمان : ٩ . وابن ماجه فى الإقامة : ٧٧ ، ٧٨ ، وفى الفتن : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٤٦ ، ٣٥٥ .

(٣) أخرجه الدارمى فى الرقاق : ١٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٢٩ .

والأحاديث المصرحة بوجوب قتله فهى :

عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : (عرى الإسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الإسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله، والصلاة المكتوبة، وصوم رمضان) . رواه أبو يعلى بإسناد حسن . وفى رواية أخرى : (من ترك منهن واحدة بالله كافر ولا يقبل منه صرف ولا عدل ـ أى: لا يقبل منه فرض ولا نفل ـ وقد حل دمه وماله) ..

وعن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الاسلام وحسابهم على الله عز وجل) [١] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أم سلمة : أن رسول الله ﷺ قال : (إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون ، فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضى وتابع . قالوا يارسول الله : ألا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما صلوا) [٢] . رواه مسلم .

جعل المانع من مقاتلة أمراء الجور الصلاة .

وعن أبى سعيد قال : بعث على ـ وهو اليمنى ـ إلى النبى ﷺ بذهيبة قسمها بين أربعة، فقال رجل: يارسول الله اتق الله . فقال : (ويلك أولست أحق أهل الأرض أن يتقى الله ؟) ثم ولى الرجل فقال خالد بن الوليد : يارسول الله ألا أضرب عنقه ؟ فقال: لا لعله أن يكون يصلى فقال خالد : وكم من رجل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه . فقال النبى ﷺ : (إنى لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس . ولا أشق بطونهم) [٣] . مختصر من حديث للبخارى ومسلم وفى هذا الحديث أيضا جعل الصلاة هى المانعة من القتل، ومفهوم هذا أن عدم الصلاة يوجب القتل .

فعليك أيها الأخ المسلم أن تحافظ على الصلاة فى أوقاتها ، فإن أول ما تحاسب عليه يوم القيامة الصلاة ، وعليك أن تستحضر عظمة الله فى قلبك ، وأن تصلى صلاة مودع ، فالصلاة عماد الدين ، وأساس الإسلام ، وقد مدح الله تعالى من أداها بشروطها وأركانها وسننها فقال : ﴿ **قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٧ ، وفى الزكاة : ١ ، وفى الصلاة : ٢٨ ، وفى الاستتابة : ٣ ، وفى الاعتصام : ٢ ، ٢٨ . ومسلم فى الإيمان : ٣٢ . وأبو داود فى الزكاة : ١ ، وفى الجهاد : ٩٥ . والترمذى فى الإيمان : ١ ، ٢ ، وفى تفسير سورة ٨٨ . والنسائى فى الزكاة : ٣ ، وفى الإيمان : ١٥ ، وفى الجهاد : ١ ، وفى التحريم : ١ .

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة : ٦٢ ـ ٦٤ . وأبو داود فى السنة : ٢٧ . والترمذى فى الفتن : ٧٨ . والنسائى فى الإيمان : ١٧ . والإمام أحمد فى ٦ : ٢٩٥ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٢١ .

(٣) أخرجه البخارى فى المغازى : ٦١ . ومسلم فى الزكاة : ١٤٤ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤ .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ .

وقد فسر اللغو بتفسيرات منها : أنه الباطل ، وهو يشمل الشرك والمعاصي ومالا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ (١) . فى صفة عباد الرحمن ، كما قال جل شأنه : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ (٢) . وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾(٣) .

قال قتادة : أتاهم والله من أمر الله ما وقفهم عن ذلك .

بمكارم الأخلاق كن متحليا ... واصدق وجد نافس الأبطالا
والله فاعبد واستقم وتصدقن ... وادع الشكور فلا يرد سؤالا
قل ماتشاء ففضل ربى واسع ... والله وهاب قضى وأنالا
قد نلت ثانية بفضل حديثه ... أعطيت ما أهوى وأصلح بالا

فقد أدبنا الإسلام بأدب الصمت حتى لا يقع اللسان فى اللغو ، فهاك ما جاء على لسان نبى البر وإمام الهدى ، أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء محمد ﷺ وما ذكره العلماء فى التأدب بالصمت والبعد عن اللغو :

● عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قلت:يارسول الله أى المسلمين أفضل ؟ قال : (من سلم المسلمون من لسانه ويده)(٤) . رواه البخارى ومسلم والنسائى .

● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) (٥) . رواه البخارى ومسلم .

● وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله : أى الأعمال أفضل ؟ قال : (الصلاة على ميقاتها) قلت : ثم ماذا يارسول الله ؟ قال :(أن يسلم الناس من لسانك) . رواه الطبرانى بإسناد صحيح وصدره فى الصحيحين .

● وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله علمنى عملا يدخلنى الجنة ؟ فقال : (إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة : أعتق النسمة ، وفك الرقبة ، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع واسق الظمآن وأمر بالمعروف وانه عن المنكر،فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا عن خير) (٦) . مختصر رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى .

(١) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .
(٤) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤ ، ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٦٤ ، ٦٥ . وأبو داود فى الجهاد : ٢ . والترمذى فى القيامة : ٥٢ . والنسائى فى الإيمان : ٨ ، ٩ ، ١١ . والدارمى فى الرقاق : ٤ ، ٨ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٣٧٩ ، وفى ٣ : ١٥٤ .
(٥) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤ ، وفى الرقاق :٢٦ . وأبو داود فى الوتر : ٢ ، ١٢ . والنسائى فى الإيمان : ٩ . وابن ماجه فى الفتن : ٢ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٢ ، ١٩٢ ، ٢٠٥ .
(٦) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٢٩٩ .

المعنى :

قصرت الخطبة : أى إن كنت أفصحت عن غرضك باختصار وبلاغة تعبير وحسن بيان .

أعرضت المسألة : لقد أجدت فى إظهار طلبك وأحسنت بيانا .

أعتق النسمة : النسمة : الروح ، أى : أعتق ذا روح وكل دابة فيها روح فهى نسمة .

وإنما يريد الناس : ومنه حديث على (والذى فلق الحبة وبرأ النسمة) أى : خلق ذات الروح .

فك الرقبة : أطلقها من الأسر وأزال أغلال حبسها ومدها بالحرية ونعمة الحياة الرغدة ، قال تعالى :

﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ﴾ .

أى : فلم يعمل فى حياته ما يساعده على اجتياز منطقة الأهوال بإزالة أسر النفس الذليلة ، وقد قال عمر : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) .

وأمر بالمعروف : انصح وأرشد إلى سبل الخير ، وامنع الناس عن ارتكاب المعاصى ، ما استطعت إلى ذلك سبيلا .

إلا عن خير : احذر النطق إلا فى البر وفعل الخير والثناء والشكر .

● وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله : ما النجاة ؟ قال : (أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك)(١) . رواه أبو داود والترمذى وابن أبى الدنيا فى العزلة .

● وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (طوبى لمن ملك لسانه ، ووسعه بيته ، وبكى على خطيئته) . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير .

● وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ويشهد أنى رسول الله : فليسعه بيته ، وليبك على خطيئته ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا ليغنم ، وليسكت عن شر فيسلم) رواه الطبرانى .

● وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من يضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)(٢) . رواه البخارى والترمذى .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من وقاه الله شر ما بين لحييه وشر ما بين رجليه دخل الجنة)(٣) . رواه الترمذى .

● وعن أبى جحيفة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أى الأعمال أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : فسكتوا فلم يجبه أحد ، قال : هو حفظ اللسان) . رواه أبو الشيخ وابن حبان والبيهقى .

● وروى عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من دفع غضبه دفع الله عنه عذابه ومن حفظ لسانه ستر الله عورته) رواه الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى ولفظه قال : (من خزن لسانه ستر الله عورته ، ومن كف غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره) . ورواه البيهقى

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والامام أحمد فى ٤ : ١٤٨ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، وفى ٥ : ٢٥٩ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام مالك فى الكلام : ١١ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٦٢ .

مرفوعا وموقوفا على أنس، ولعله الصواب .

● وروى الطبرانى فى الصغير والأوسط عنه أيضا عن النبى ﷺ قال : (لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه) .

● وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (والذى لا إله غيره ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان) . رواه الطبرانى موقوفا بإسناد صحيح .

● وعن عطاء بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : (من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة ، فقال رجل : يارسول الله ألا تخبرنا ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، فأعاد رسول الله ﷺ مقالته ، فقال الرجل : ألا تخبرنا يارسول الله ؟ ثم قال رسول الله ﷺ مثل ذلك أيضا ، ثم ذهب الرجل يقول مثل مقالته ، فأسكته رجل إلى جنبه ، قال رسول الله ﷺ : من وقاه الله شر اثنين ولج الجنة : ما بين لحييه وما بين رجليه) [١] . رواه مالك مرسلا . ولج : أى دخل الجنة .

● وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله : (من حفظ ما بين فقميه وفرجه دخل الجنة) [٢] . رواه أحمد والطبرانى وأبو يعلى واللفظ له ورواته ثقات .

● وفى رواية للطبرانى : قال لى رسول الله ﷺ : (ألا أحدثك بثنتين من فعلهما دخل الجنة ؟ قلنا : بلى يارسول الله . قال : يحفظ الرجل ما بين فقميه وما بين رجليه) والمراد بما بين فقميه : هو اللسان وبما بين رجليه : هو الفرج .

● وعن أبى رافع رضى الله عنه أن النبى ﷺ : قال : (من حفظ ما بين فقميه وفخذيه دخل الجنة) . رواه الطبرانى .

● وعن ركب المصرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله) . رواه الطبرانى .

● وعن سفيان بن عبد الله الثقفى رضى الله عنه قال : قلت : يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ؟ قال : (قل ربى الله ثم استقم) [٣] قال : قلت : يارسول الله ما أخوف ما تخاف على ؟ (فأخذ بلسان نفسه ثم قال : هذا) . رواه الترمذى .

● وعنه رضى الله عنه قال : (قلت : يارسول الله أى شيء أتقى ؟ فأشار بيده إلى لسانه) . رواه أبو الشيخ بن حبان .

● وعن الحارث بن هشام رضى الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : (أخبرنى بأمر أعتصم به ؟ فقال رسول الله ﷺ : أملك هذا وأشار إلى لسانه) . رواه الطبرانى .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل الجنة رجل لا يأمن جاره بوائقه) [٤] . رواه أحمد وابن أبى الدنيا .

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى الكلام : ١١ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ٣٩٨ .
(٣) أخرجه مسلم فى الايمان : ٦٢ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤١٣ ، وفى ٤ : ٣٨٥ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٩٨ .

● وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : (كنت مع النبى ﷺ فى سفرة ، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير ، فقلت : يارسول الله أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ويباعدنى عن النار . قال : لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه : تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت . ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين ، ثم تلا قوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾(١) حتى بلغ : ﴿ يعملون ﴾ ثم قال : ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : رأس الأمر : الاسلام وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد ، ثم قال : ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ قلت : بلى يارسول الله قال : كف عليك هذا ـ وأشار إلى لسانه ـ قلت : يا نبى الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس فى النار على وجوههم ـ أو قال : على مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم)(٢) . رواه أحمد والترمذى والنسائى وابن ماجة .

﴿ المعنـــى ﴾

ليسير : أى: لسهل .

من يسره الله عليه : وفقه وألهمه الصواب والحكمة .

الصوم جنة : وقاية يتحصن بها من المعاصى ويتذرع بها من ارتكاب الذنوب .

تطفىء الخطيئة : تزيل شعلتها وتخفف حدتها .

تتجافى : تترك .

رأس الأمر : أوله .

وعموده : قوامه وعماده ودعامته .

ذورة سنامه : أعلاه وأرقى جزء فيه .

ثكلتك أمك : فقدتك وصارت ثكلى إذ فقدت وحيدها .

يكب الناس : يقلب ويرمى .

حصائد ألستهم : أى:ما يقتطعونه من الكلام الذى لا خير فيه:مفردها حصيدة:تشبيها بما يحصد من الزرع ،وتشبيها للسان وما يقتطعه من القول بحد المنجل الذى يحصد به . يريد ﷺ :

أ ـ توحيد الله جل وعلا فى العبادة والطاعة .

ب ـ أداء الصلوات فى أوقاتها .

ج ـ الإنفاق فى الخير وأداء الحقوق المالية والجسمية (: صدقة تطهرهم .) .

د ـ صيام رمضان .

هـ ـ تلك أركان الإسلام الخمسة المشهورة،ثم بين ﷺ فائدة الصوم : الهداية إلى الصراط المستقيم

---

(١) الآية ١٦ من سورة السجدة .

(٢) أخرجه البخارى فى الإيمان : ١٩ . ومسلم فى الإيمان : ٢٣٧ . وأبو داود فى السنة : والترمذى فى الديات : ٨ . والنسائى فى الإيمان : ٧ . وابن ماجة فى الفتن : ٦ ، ١٢ . والدارمى فى السير : ٧٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٦ ، ١٨٢ .

والتباعد عن العصيان والتحصن من الذنوب،كما أن الصدقة تمحو أدران الخطايا وتنظف الصحائف وتجعلها نقية طاهرة بيضاء ناصعة،ومن أسلم فاز وأفلح **وأدرك** الخير كله ودعامة البر الصلاة،وأشرف الأعمال الصالحة الدفاع عن دين الله ونصره والذب عنه ، وثمرة ما تقدم طيب القول وحلو الحديث .

● روى الطبرانى مختصرا قال : قلت : (يارسول الله أكل ما نتكلم به يكتب علينا ؟ قال : ثكلتك أمك وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم ، إنك لن تزال سالما ماسكت ، فإذا تكلمت كتب لك أو عليك) .

● وروى أحمد وغيره عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن عبدالرحمن بن غنم أن معاذا سأل رسول الله ﷺ فقال : (يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ فقال : الصلاة بعد الصلاة المفروضة؟. قال لا : ونعما هى . قال : الصوم بعد صيام رمضان؟. قال : لا ونعما هو قال : فالصدقة بعد الصدقة المفروضة قال : لا ونعما هى . قال :يارسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ، ثم وضع إصبعه عليه ، فاسترجع معاذ فقال : يارسول الله أنؤاخذ بما نقول كله ويكتب علينا ؟ قال : فضرب رسول الله ﷺمنكب معاذ مرارا فقال له : ثكلتك أمك يا معاذ بن جبل وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم)[1] .

● وعن أسود بن أحدم رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله أوصنى:قال : (تملك يدك . قلت : فماذا أملك إذا لم أملك يدى ؟ قال : تملك لسانك . قلت : فماذا أملك إذا لم أملك لسانى ؟ قال : لا تبسط يدك إلا إلى خير ، ولا تقل بلسانك إلا معروفا) رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله ﷺ فذكر الحديث بطوله إلى أن قال : (قلت يارسول الله أوصنى ، قال : أوصيك بتقوى الله فإنها زين لأمرك كله . قلت : يارسول الله زدنى . قال : عليك بتلاوة القرآن وذكر الله عز وجل ، فإنه ذكر لك فى السماء ونور لك فى الأرض . قلت : يارسول الله زدنى ، قال : عليك بطول الصمت فإنه مطردة للشيطان وعون لك على أمر دينك . قلت : زدنى . قال : وإياك وكثرة الضحك فإنه يميت القلب ويذهب بنور الوجه . قلت : زدنى ، قال : قل الحق وإن كان مرا . قلت : زدنى،قال : لا تخف فى الله لومة لائم . قلت : زدنى ، قال : ليحجزك عن الناس ما تعلم من نفسك) . رواه أحمد والطبرانى .

● وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، فضلا على شأنه ، حافظا للسانه ، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه . الحديث .

﴿ المعنى ﴾

الصمت : السكوت والرزانة والتؤدة فى النطق .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٧ . وابن ماجة فى الفتن : ٦ ، ١٢ . والدارمى فى السير : ٧٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٧٦ ، ١٨٢ .

يميت القلب : يبعده عن الاتعاظ فلا يتأثر ويجعله جامدا قاسيا لا يعمل صالحا ، ولا يرتدع عن منكر ولا ينزجر عن قبيح .

قل الحق : الموافق للصواب والعدل .

لومة لائم : عتب عاتب أو عقاب جبار خاسر .

ليحجزك عن الناس : ليمنعك عن غيبة الناس وأذاهم الذى تعلمه من تقصيرك وعدم تكميلك وأنك فى حاجة إلى تكميل وطاعة وصحة . يشير ﷺ إلى :

أ ـ خشية الله فى جميع الأعمال .

ب ـ قراءة القرآن وذكر الله عز وجل .

ج ـ اعتقال اللسان وحبسه إلا فى القول الحميد .

د ـ تجنب الهزء والسخرية والازدراء .

هـ ـ قول الحق وحبه ونصره .

و ـ العمل لوجه الله وحده وعدم الخوف إلا منه جل وعلا .

ز ـ الإقبال على تجميل النفس بالاستزادة فى الطاعات وعدم العيب والتحلى بمكارم الأخلاق ، وترك الغيبة والنميمة ، وفى النهاية:احتجز الرجل بالإزار : إذا شده على وسطه ، فاستعاره للاعتصام والالتجاء والتمسك بالشيء والتعلق به ، ومنه حديث (والنبى آخذ بحجزة الله) أى:بسبب منه .

زيادة القول تحكى النقص فى العمل ومنطق المرء قد يهديه **للزلل**
إن اللسان صغير جرمه له جرم عظيم كما قيل فى المثل

● وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : (يارسول الله أوصنى . قال : عليك بتقوى الله فإنها جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فى سبيل الله فإنها رهبانية المسلمين ، وعليك بذكر الله وتلاوة كتابه فإنه نور لك فى الأرض وذكر لك فى السماء،واخزن لسانك إلا من خير فإنك بذلك تغلب الشيطان) . رواه الطبرانى فى الصغير .

﴿ المعنــى ﴾

تقوى الله : فى تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم وذلك بترك المحظور ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روى : (الحلال بين والحرام بين ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه)[1] قال الله تعالى : **﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**[2] ، **﴿ إن الله مع الذين اتقوا**

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٣٩ . ومسلم فى المساقاة : ١٠٧ ، ١٠٨ . وأبو داود فى البيوع : ٣ . والترمذى فى البيوع : ١ . والنسائى فى البيوع : ٢ . وابن ماجة فى الفتن : ١٤ . والدارمى فى البيوع : ١ . والإمام أحمد فى ٤ : ٢٦٧ ، ٢٦٩ ـ ٢٧١ ، ٢٧٥ .

(٢) الآية ٣٥ من سورة الأعراف .

والذين هم محسنون ﴾(١) ، ﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا ﴾(٢) ، ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾(٣) .

يقال : اتقى فلان بكذا : إذا جعله وقاية لنفسه .

رهبانية المسلمين : غلو فى تحمل العبد من فرط الرهبة، والرهب : مخافة مع تحفظ، والمعنى الدفاع عن دين الله ونصره وجهاد الأعداء زيادة قربان من الله تعالى للمسلمين ويدل على شدة خوفهم منه جل وعلا .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : لقى رسول الله ﷺ أبا ذر فقال : (يا أبا ذر : ألا أدلك على خصلتين هما خفيفتان على الظهر وأثقل فى الميزان من غيرهما ؟ قال : بلى يارسول الله . قال : عليك بحسن الخلق وطول الصمت ، فوالذى نفسى بيده ما عمل الخلائق بمثلهما) . رواه ابن أبى الدنيا .

قال النبى ﷺ : (يا أبا الدرداء : ألا أنبئك بأمرين خفيف مؤنتهما عظيم أجرهما ، لم تلق الله عز وجل بمثلهما ؟ طول الصمت . وحسن الخلق) رواه ابن أبى الدنيا .

قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن ؟ الصمت وحسن الخلق) .

﴿ المعنى ﴾

خفيفتان : العمل بهما خفيف ولكن يجلبان حسنات جمة هما :

(أ) التحلى بالمكارم .

(ب) التمسك بالسكوت :

وما الحسن فى وجه الفتى شرف له اذا لم يكن فى فعله والخلائق

تفكره علم ومنطقه حكم وباطنه دين وظاهره ظرف
أمات رياح اللؤم وهى عواصف ومغنى العلا يؤدى ورسم الندى يعفو

كالبدر من حيث التفت رأيته يهدى إلى عينيك نورا ثاقبا
كالبحر يقذف للقريب جواهرا جوادا ويبعث للعبيد سحائبا
كالشمس فى كبد السماء وضوؤها يغشى البلاد مشارقا ومغاربا

الأديب المهذب الأصيد العذي الزاكى الجعد السرى الهمام
حسبك الله ما تضل عن الحق ولا تهتدى إليك أثام

● وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه رفعه قال : (إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تفكر

(١) الآية ١٢٨ من سورة النحل .
(٢) الآية ٧٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران .

اللسان ، فتقول : اتق الله فينا فإنما نحن بك فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا)[١] ، رواه الترمذى وابن أبى الدنيا وغيرهما .

● وعن أبى وائل عن عبد الله رضى الله عنهما أنه ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال : يالسان قل خيرا تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم ، ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أكثر خطأ ابن آدم فى لسانه) . رواه الطبرانى .

● وعن أسلم :(أن عمر دخل يوما على أبى بكر الصديق رضى الله عنهما وهو يجنب لسانه،فقال عمر : مه غفر الله لك ، فقال له أبو بكر : إن هذا أوردنى شر الموارد)[٢] . رواه مالك وابن أبى الدنيا .

● وعن أنس رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (أربع لا يصبن إلا بعجب : الصمت وهو أول العبادة ، والتواضع ، وذكر الله عز وجل ، وقلة الشىء) . رواه الحاكم .

بعجب ، أى :لا توجد وتجتمع فى إنسان إلا على وجه عجيب ، أى: قل أن تجتمع فيه .

الصمت : السكوت عما لا يغنى ، أى :مالا ثواب فيه إلا بقدر الحاجة .

أول العبادة : أساسها ومبناها .

التواضع : لين الجانب لخلق الله لا لأمر دنيوى .

ذكر الله : لزوم الدوام عليه .

قلة الشىء : الذى ينفق منه على نفسه فإنه لا يجامع السكوت والتواضع ولزوم الذكر بل الغالب على المثل الشكوى وإظهار الضجر وشغل الفكرة الصارف عن الفكر .

وقال الحفنى : أى من عجب ووجه العجب أن قلة الشىء الآتى يقتضى كثرة اللجاج فكيف يجامع الصمت . . يرشدك ﷺ إلى صفات أربع عنوان الأدب ، ومعين المكارم ، ومجلب المحامد والمحاسن :

أ ـ إطالة السكوت والرزانة والأناة والحلم والتؤدة والإتقان وعدم كثرة الكلام .

ب ـ لين الجانب وخفض الجناح والبشاشة وطلاقة الوجه ونزع رداء الكبر والعجب .

ج ـ طاعة الله وعبادته وتمجيده وتسبيحه وتكبيره .

د ـ الرضا والقناعة : (ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس)[٣] .

● وروى أيضا عن وهيب قال : قال عيسى بن مريم صلوات الله عليه :(وأربع لا يجتمعن فى أحد من الناس إلا بعجب) . الحديث أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وأبو الشيخ وغيرهما .

● وروى عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (سمعته يقول : خمس لهن أحسن من الدهم الموقفة : لا تكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ، ولا آمن عليك الوزر ، ولا تكلم فيما لا يعنيك حتى تجد له موضعا فإنه رب متكلم فى أمر يعنيه قد وضعه فى غير موضعه ، فعيب ، ولا تمار حليما ولا سفيها ، فإن الحليم يغلبك ، وإن السفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا تغيب عنك بما تحب أن يذكرك به وأعفه مما تحب أن يعفيك منه ، واعمل عمل رجل يرى أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالإجرام) . رواه ابن أبى الدنيا .

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦١ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٦ .

(٢) أخرجه الإمام مالك فى الكلام : ١٢ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣١٠ .

﴿ المعنـــى ﴾

الدهم : العدد الكثير من النوق الواقفة بذخا وترفا ونعيما .

لا يعنيك : لا يهمك أمره فإنه زيادة ولغو وفضول وتطفل .

فيما يعنيك : ولا تكلم فيما يعنيك كذا ، والمعنى إذا تحادثت فى مهام أمورك فأصب المرمى وابحث عن الإجادة واختر الموقع الذى ينجحك .

ولا تمار : ولا تجادل ولا تخاصم . يقال :ماريته جادلته .

ولا تمـار سفيهـا فى محـاورة ولا حليما لكى تنجو من **الزلل**
ولا يغـرنك من تبـدو بشاشتـه إليك مكرا فإن السم فى العسل

ويشير-صلى الله عليه وسلم-إلى نصائح خمس أجدى من النعم والجياد المرسلة والعز المقيم :

- الاجتهاد فى الكلام فيما فيه فائدة خشية ضياع الوقت واكتساب الذنوب .
- انتهاز فرصة النجاح للكلام .
- ترك محاربة العاقل اللبيب الفطن الأريب،والأحمق المغفل القبيح .
- ذكر الصديق الغائب بكل ثناء طيب .
- الجرى فى مضمار المحسنين المجيدين المتقين الذين يخشون الله تبارك وتعالى .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (من صمت نجا) (١) . رواه الترمذى .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب) (٢) . رواه البخارى ومسلم .

● وروى عن النبى ﷺ قال : (إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات فى الجنة ، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقى لها بالا يهوى بها فى جهنم) (٣) . رواه مالك والبخارى واللفظ له .

والنسائى والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ولفظه :

(إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوى بها سبعين خريفا فى النار) (٤) .

ورواه البيهقى . ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : (إن العبد ليقول الكلمة لا يقولها إلا ليضحك بها المجلس يهوى بها أبعد ما بين السماء والأرض،وإن الرجل ليزل عن لسانه أشد مما يزل عن قدميه) .

● وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الرجل ليتحدث بالحديث ما يريد به سوءا إلا ليضحك به القوم يهوى به أبعد من السماء) . رواه أبو الشيخ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى القيامة : ٥٠ . والدارمى فى الرقاق : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٥٩ ، ١٧٧ .

(٢) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٩ .

(٣) البخارى فى الرقاق : ٢٣ . والترمذى فى الزهد : ١٢ . وابن ماجة فى الفتن : ١٢ . والإمام مالك فى الكلام : ٥ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٤ ، وفى ٣ : ٤٦٩ .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٣ . ومسلم فى الزهد : ٥٠ . والترمذى فى الزهد : ١٠ . وابن ماجة فى الفتن : ١٢ . والإمام مالك فى الكلام : ٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٣١ ، ٣٣٤ ، ٤٠٢ ، ٥٣٣ .

● وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها القوم فيسقط بها أبعد من السماء،ألا هل عسى رجل منكم يتكلم بالكلمة يضحك بها أصحابه فيسخط الله بها عليه لا يرضى عنه حتى يدخله النار) . رواه أبو الشيخ .

● وعن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه) [١] . رواه مالك والترمذى .

● وعن أمة بنت الحكم الغفارية رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الرجل ليدنو من الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا قيد رمح فيتكلم بالكلمة فيتباعد منها أبعد من صنعاء) . رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسى) [٢] . رواه الترمذى والبيهقى .

● وعن مالك رضى الله عنه بلغه أن عيسى بن مريم-عليه السلام-كان يقول : (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، فإن القلب القاسى بعيد عن الله ولكن لا تعلمون ، ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عبيد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية) [٣] . ذكره فى الموطأ .

● وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ قالت:قال رسول الله ﷺ : (كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله) . رواه الترمذى وابن ماجه وابن أبى الدنيا .

● وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال) [٤] . رواه البخارى واللفظ له،ومسلم وأبو داود .

● وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أكثر الناس ذنوبا أكثرهم كلاما فيما لا يعنيه) . رواه أبو الشيخ فى الثواب .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) [٥] . رواه الترمذى .

● وعن أنس رضى الله عنه قال : توفى رجل،فقال رجل آخر ورسول الله ﷺ يسمع : (أبشر بالجنة ، فقال رسول الله ﷺ :(أولا تدرى ، فلعله تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه) [٦] . رواه

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ١٦ . والإمام مالك فى الكلام : ٥ . والإمام أحمد فى ٣ : ٤٦٩ .

(٢) أخرجه الترمذى فى الزهد : ٦٢ .

(٣) أخرجه الامام مالك فى الكلام : ٨ .

(٤) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٢٢ . ومسلم فى الأقضية : ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ١٤ . والدارمى فى الرقاق : ٣٨ . والإمام مالك فى الكلام : ٢٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٧ ، ٣٦٧ ، وفى ٤ : ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ .

(٥) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١١ وابن ماجة فى الفتن : ١٢ والإمام مالك فى حسن الخلق : ٣ والإمام أحمد فى ١ : ٢٠١ .

(٦) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١١ .

الترمذى .

● وروى ابن أبى الدنيا وأبو يعلى عن أنس أيضا رضى الله عنه قال : (استشهد رجل منا يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه ، وقالت : هنيئا لك يا بنى الجنة . فقال النبى ﷺ : ما يدريك ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضره) .

● وروى أبو يعلى أيضا والبيهقى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قتل رجل على عهد رسول الله ﷺ ، شهيدا فبكت عليه باكية فقالت : وا شهيداه،قال : فقال النبى ﷺ : ما يدريك أنه شهيد ؟ لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه أو يبخل بما لا ينقصه) .

● وعن أبى سلمة بن عبدالرحمن أن امرأة كانت عند عائشة ومعها نسوة فقالت امرأة منهن : (والله لأدخلن الجنة ، فقد أسلمت وما سرقت وما زنيت ، فأتيت فى المنام فقيل لها : أنت المتألية لتدخلن الجنة ؟ كيف وأنت تبخلين بما لا يغنيك ؟ وتتكلمين فيما لا يعنيك؟! فلما أصبحت المرأة دخلت على عائشة فأخبرتها بما رأت . وقالت : اجمعى النسوة اللاتى كن عندك حين قلت ما قلت ، فأرسلت إليهن عائشة رضى الله عنها فجئن . فحدثتهنّ المرأة بما رأت فى المنام) . رواه البيهقى .

« فضائل الصمت كما بينها ﷺ فى أحاديثه »

أولا : يعد الصامت من أفاضل المسلمين .

ثانيا : يدخل الجنة من لم يؤذ مسلما بقول ولا فعل .

ثالثا : يكسب محبة الله ويدفع غضبه ويسبب الستر ويبعد الفضيحة .

رابعا : يوصل إلى حقيقة الإيمان .

خامسا : يعد الصامت من أصحاب العزيمة القوية والإرادة الصارمة والهمة السامية .

سادسا : الصامت فى ظل الله وينضر وجهه وتشرق طلعته،والثرثار يكب على وجهه فى النار .

سابعا : الصامت العامل بسنة خير الخلق ﷺ . بعيد منه الشيطان قريب من رضا الرحمن .

ثامنا : يسلم الساكت من الأخطاء ويفر من الذنوب بصمته ولا يرد مواطن السوء بكلامه .

تاسعا : يكسو الصامت المهابة والرزانة والوقار (يصبن بعجب) .

عاشرا : ينجو الساكت من كل معصية ولا يهوى من سقطاته .

الحادى عشر : يبعد الساكت من اللغو والرفث والفسوق (أكثر الناس ذنوبا) .

الثانى عشر : يضيع الكلام الكثير الحسنات ودرجة الجهاد تمحوها لفظة من سخط الله تعالى « الشهداء »

قال ابن المقرى :

زيادة القول تحكى النقص فى العمل ومنطق المرء قد يهديه للزلل
فكم ندمت على ما كنت فهت به وما ندمت على مالم تكن تقل
وأضيق الأمر أمر لم تجد معه فتى يعينك أو يهديك للسبل
عقل الفتى ليس يغنى عن مشاورة كعفة الخود لا تغنى عن الرجل

إن المشاور إما صائب غرضا أو مخطىء غير منسوب إلى الخطل
لا تحتقر الرأى يأتيك الحقير به فالنحل وهو ذباب طيب العسل

﴿ بيان آفات اللسان كما فى إحياء علوم الدين ﴾

أولا : الكلام فيما لا يعنيك .

ثانيا : فضول الكلام ، أى:الزيادة على قدر الحاجة قال تعالى : ﴿ **لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس** ﴾ (١) .

ثالثا : الخوض فى الباطل ، أى:الكلام فى المعاصى كحكاية أحوال النساء . ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياء وتجبر الملوك ومراسمهم المكروهة وأحوالهم المذمومة .

قال ﷺ : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة .....) .

رابعا : المراء والجدل . قال مالك بن أنس رحمه الله : المراء يقسى القلوب ، ويورث الضغائن ، والمراء طعن فى كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير وإظهار فرية الكياسة .

والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها .

خامسا : الخصومة: أى، لجاج فى الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود وذلك تارة يكون ابتداء أو اعتراضا ، والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق .

سادسا : التقعر فى الكلام بالتشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيبات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدعين للخطابة « الثرثارون المتفيهقون » .

سابعا : الفحش والسب وبذاءة اللسان ومصدره الخبث واللؤم .

ثامنا : اللعن إما لحيوان أو إنسان أو جماد .

تاسعا : الغناء والشعر ، أى:الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه وقد يكون ذلك فى الفعل والقول وقد يكون بالاشارة والإيماء .

الثانى عشر : إفشاء السر .

الثالث عشر : الوعد الكاذب،فان اللسان سباق إلى الوعد،ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفا وذلك من أمارات النفاق،قال الله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾(٢) .

الرابع عشر : الكذب فى القول واليمين وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب .

ولأبى العتاهية :

اسلك بنى مناهج السادات وتخلقن بأشرف العادات
لا تلهينك عن معارك لذة تفنى وتورث دائم الحسرات
إن السعيد غدا زهيد قانع عبد الإله بأخلص النيات

---

(١) الآية ١١٤ من سورة النساء .

(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .

أقم الصلاة لوقتها بشروطها فمن الضلال تفاوت الميقات
وإذا اتسعت برزق ربك فاجعلن منه الأجل لأوجه الصدقات
فى الأقربين وفى الأباعد تارة إن الزكاة قرينة الصلوات
وارع الجوار لأهله متورعا بقضاء ما طلبوا من الحاجات
واخفض جناحك إن منحت إمارة وارغب بنفسك عن ردى اللذات

وللعميد الطغرائى :

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل
حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت بشدة اليأس من رقة الغزل
حلو الكلام كأن رجع حديثه در يساقطه إليك لسانه

وقال ابن السكيت :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرة القول تذهب رأسه وعثرته بالرجل تبرى على مهل

ولزهير بن أبى سلمى :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه فى التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ولم يبق إلا صورة اللحم والدم

لا تراني راتعا فى مجلس لحوم الناس كالسبع الضرم
ولبعض الصفح والإعراض عن ذى الجنا أبقى وإن كان ظلم

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عنى رسالة فمبلغك الواشي أغش وأكذب
ولست بمستبق أخا لا تلمه على شعث أى الرجال المهذب

﴿ الآيات الدالة على فضائل الصمت الناهية عن اللغو ﴾

● قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ (١) .

(١) الآيات ١ ـ ٣ من سورة المؤمنون .

واللغو:كل ما لا فائدة فيه لا للجسم ولا للنفس ولا للروح ولا للعقل ، فالمؤمن لا يشغل وقته إلا بما يفيده فى حياته العاجلة ، أو حياته القابلة .

● وقال تعالى : ﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ (١) .

● وقال تعالى : ﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين ﴾ (٢) .

فلا نجاة من خطر اللسان إلا بالصمت بحفظه من جميع الآفات ، ألا ترى المؤمن قاتلا وقته بالجلوس على المقاهى يلعب النرد والشطرنج ، أو يخوض فى أعراض الناس ، أو يتحدث فى شئونهم بمالا يجدى نفعا ، أو يتدخل فيما لا يعنيه من شئون السياسة ، وليس من أربابها ولا من المنوط بهم درسها ، والدفاع عنها ، بل تراه هادئا ثابتا صامتا ساكتا لا يتكلم إلا فى مفيد ، ولا يتحرك إلا فى نافع ، ولا يفكر إلا فى منتج . يجد فى تحصيل رزقه وأهله وولده ليكف يده عن المسألة ، ويصون وجهه عن بذل مائه ، ويجلب العزة والكرامة والنبالة .

قال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.وفى الغريب : اللغو من الكلام : مالا يعتد به ، وهو الذى يورد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور .

قال أبو عبيدة : لغو ولغا نحو عيب وعاب وأنشدهم عن اللغا ورفث التكلم يقال:لغيت تلغى نحو لقيت تلقى وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ﴾ (٣) ، ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ﴾(٤) .

● قال تعالى : ﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعا عليما . إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديرا ﴾(٥) .

● قال تعالى : ﴿ واتقوا الله واسمعوا والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ (٦) .

● قال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾(٧) .

● قال تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ﴾ (٨) .

وقد قال الله تعالى لحبيبه ﷺ : ﴿ ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ﴾ (٩) أى:اترك أولئك الكفرة الذين ينكرون ﴿ إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟ ﴾(١٠).

وقال تعالى : ﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾(١١) .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٥٥ من سورة القصص .
(٣) الآية ٣٥ من سورة النبأ .
(٤) الآية ٢٥ من سورة الواقعة .
(٥) الآيتان ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء
(٦) الآية ١٠٨ من سورة المائدة .
(٧) الآية ٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآية ٦٨ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(١٠) الآية ٩١ من سورة الأنعام .
(١١) الآية ١٠٨ من سورة الأنعام .

ينهى الله تعالى عن سب الآلهة التى يعبدها الكفار خشية أن يتطاولوا على عظمة الله وجلاله .

قال البيضاوى : وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى معصية راجحة وجب تركها،وكذلك العاقل يصمت أو يهجر الكلام القبيح فلا يجلس فى مجالس العصاة الفساق .

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتى هى أحسن

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم للزكاة فاعلون** ﴾ . هذه تزكية لأموالهم بعد تطهير قلوبهم بالإيمان ، وتزكية أرواحهم بالصلاة ، وتطهير ألسنتهم عن اللغو ، أثبت لهم القرآن الكريم هنا تزكية أموالهم بإخراج حق السائل والمحروم .

قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم** ﴾ (١) .

ولابد لنا أن نسلط بعض الأضواء الكاشفة على تلك الفريضة المحكمة حتى نقطع المعاذير عن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ونسوا أنهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ، ونبدأ بتعريفها :

فما هى الزكاة ؟ :

تعريفها : الزكاة اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات ، فإنها مأخوذة من الزكاة وهى النماء والطهارة والبركة ، قال الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ .

وهى أحد أركان الإسلام الخمسة ، وقرنت بالصلاة فى اثنتين وثمانين آية ، وقد فرضها الله تعالى بكتابه ، وسنة رسوله ﷺ ، وإجماع أمته .

● روى الجماعة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ لما بعث معاذ بن جبل رضى الله عنه إلى اليمن قال : (**إنك تأتى قوما أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله عز وجل افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فعلمهم أن الله تعالى افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**) (٢) .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٦٣ ، وفى المظالم : ٩ . ومسلم فى الإيمان ٢٩ . وأبو داود فى الزكاة : ٥ . والنسائى فى الزكاة : ١ ، ٤٦ . والترمذى فى البر : ٦٨ . وابن ماجه فى الزكاة : ١ . والإمام مالك فى دعوة المظلوم : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٢٣ ، وفى ٣ : ١٥٣ .

● وروى الطبرانى فى الأوسط والصغير عن على كرم الله وجهه أن النبى ﷺ قال : (إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ، ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم ، ألا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ويعذبهم عذابا أليما) .

قال الطبرانى : تفرد به ثابت بن محمد الزاهد .

قال الحافظ : وثابت : ثقة صدوق روى عنه البخارى وغيره وبقية رواته لا بأس بهم .

وكانت فريضة الزكاة بمكة فى أول الإسلام مطلقة لم يحدد فيها المال الذى تجب فيه ولا مقدار ما ينفق منه ، وإنما ترك ذلك لشعور المسلمين وكرمهم .

وفى السنة الثانية من الهجرة ـ على المشهور ـ فرض مقدارها من كل نوع من أنواع المال ، وبينت بيانا مفصلا .

الترغيب فى أدائها :

● قال الله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾ أى:خذ ـ أيها الرسول ـ من أموال المؤمنين صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهى التطوع ﴿ **تطهرهم وتزكيهم** ﴾ أى: تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء والبائسين ، وما يتصل بذلك من الرذائل ، وتزكى أنفسهم بها.أى:تنميها وترفعها بالخيرات والبركات الخلقية والعلمية ، وحتى تكون بها أهلا للسعادة الدنيوية والأخروية .

● وقال الله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما أتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ (١) .

جعل الله أخص صفات الأبرار الإحسان ، وأن مظهر إحسانهم يتجلى فى القيام من الليل ، والاستغفار فى السحر ، تعبدا لله ، وتقربا إليه كما يتجلى فى إعطاء الفقير حقه رحمة به وحنوا عليه .

● وقال الله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله** ﴾ (٢) .

أى:إن الجماعة التى يباركها الله ويشملها برحمته هى الجماعة التى تؤمن بالله ويتولى بعضها بعضا بالنصر والحب ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتصل ما بينها وبين الله بالصلاة ، وتقوى صلاتها ببعضها بإيتاء الزكاة .

● وقال الله تعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ (٣) .

جعل الله إيتاء الزكاة غاية من غايات التمكين فى الأرض :

---

(١) الآيات ١٥ ـ ١٩ من سورة الذاريات .
(٢) الآية ٧١ من سورة التوبة .
(٣) الآية ٤١ من سورة الحج .

● روى الترمذى عن أبى كبشة الأنمارى : أن النبى ﷺ قال : (ثلاثة أقسم عليهم وأحدثكم حديثا فاحفظوه : « ما نقص مال من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله بها عزا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر (١) .

● وروى أحمد والترمذى وصححه عن أبى هريرة :

أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عز وجل يقبل الصدقات ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه أو فصيله ، حتى إن اللقمة لتصير مثل جبل أحد) (٢) . قال وكيع : وتصديق ذلك فى كتاب الله قوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾ (٣) . ، ﴿ يمحق الله الربا ويربى الصدقات ﴾ (٤) .

وروى أحمد ـ بسند صحيح ـ عن أنس رضى الله عنه قال : أتى رجل من تميم رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنى ذو مال كثير ، وذو أهل ومال وحاضرة ، فأخبرنى كيف أصنع وكيف أنفق ؟ فقال رسول الله ﷺ : (تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق المسكين . والجار والسائل) (٥) .

وروى أيضا عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاث أحلف عليهن : لا يجعل الله من له سهم فى الإسلام كمن لا سهم له ، وأسهم الإسلام ثلاثة : الصلاة والصوم والزكاة ، ولا يتولى الله عبدا فى الدنيا فيوليه غيره يوم القيامة ، ولا يحب رجل قوما إلا جعله الله معهم ، والرابعة لو حلفت عليها رجوت ألا آثم : لا يستر الله عبدا فى الدنيا إلا ستره يوم القيامة) (٦) .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أرأيت إن أدى الرجل زكاة ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره) .

وروى البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم) (٧) .

الترهيب من منعها :

قال الله تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

---

(١) أخرجه الترمذى فى الزهد : ١٧ . والإمام أحمد فى ١ : ١٩٣ ، وفى ٢ : ٤٣٦ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٨ . ومسلم فى الزكاة : ٦٣ ، ٦٤ . والترمذى فى الزكاة : ٢٨ . والنسائى فى الزكاة :٤٨ . وابن ماجة فى الزكاة : ٢٨ . والدارمى فى الزكاة : ٣٤ . والإمام مالك فى الصدقة : ١ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٣١ ، ٣٨٢ ، ٥٤١ ، وفى ٦ : ٢٥١ .

(٣) الآية ١٠٤ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٢٧٦ من سورة البقرة .

(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ١٣٦ .

(٦) أخرجه مسلم فى البر : ٧١ . والإمام أحمد فى ٦ : ١٤٥ ، ١٦٠ .

(٧) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٤٢ . ومسلم فى الايمان : ٩٧ ، ٩٨ . والنسائى فى البيعة : ٦ ، ١٧ . والدارمى فى البيوع

قال تعالى : ﴿**ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾(١).

وروى أحمد والشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (مامن صاحب كنز لا يؤدى زكاته إلا أحمى عليه فى نار جهنم ، فيجعل صفائح فتكوى بها جنباه وجبهته ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، ومامن صاحب إبل لايؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ماكانت ، تستن عليه،كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ثم يرى سبيله إما إلى جنة وإما إلى ، نار ، ومامن صاحب غنم لا يؤدى زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر كأوفر ما كانت فتطؤه بأظلافها ، وتنطحه بقرونها ، ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ، كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها ، حتى يحكم الله بين عباده فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون ، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار . قالوا : فالخيل يارسول الله ؟ قال : الخيل فى نواصيها-أو قال : الخيل معقود فى نواصيها-الخير إلى يوم القيامة ، الخيل ثلاثة : هى لرجل أجر ، ولرجل ستر ، ولرجل وزر ، فأما التى هى له أجر فالرجل سيتخذها فى سبيل الله ويعدها له فلا تغيب شيئا فى بطونها إلا كتب الله له بها أجرا ، ولو سقاها من نهر كان له بكل قطرة تغيبها فى بطونها أجر ، حتى ذكر الأجر فى أبوالها وأرواثها ، ولو استنت شرفا أو شرفين كتب له بكل خطوة يخطوها أجر ، وأما التى هى له ستر : فالرجل يتخذها تكرما وتجملا ، ولاينسى حق ظهورها وبطونها فى عسرها ويسرها ، وأما التى هى عليه وزر فالذى يتخذها أشرا وبطرا وبذخا ورياء الناس ، فذلك الذى عليه الوزر.قالوا : فالحمر يارسول الله ؟ قال : ماأنزل الله على فيها شيئا إلا هذه الآية الجامعة الفاذة :

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾(٢)(٣) .

● وروى الشيخان عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه- يعنى شدقيه- ثم يقول : أنا كنزك ، أنا مالك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿**ولايحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله**﴾ (٤)(٥) .

وروى ابن ماجه والبزار والبيهقى-واللفظ له - عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

(يا معشر المهاجرين ، خصال خمس - إن ابتليتم بهن ونزلن بكم أعوذ بالله أن تدركوهن: لم

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة الزلزلة .

(٣) خرجه مسلم فى الزكاة : ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ . وأبو داود فى الزكاة : ٣٢ . والنسائى فى الزكاة : ٢ ، ٩ . والدارمى فى الزكاة : ٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٢٦٢ ، ٣٨٣ ، ٤٩٠ ، وفى ٣ : ٣٢١ .

(٤) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران .

(٥) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٣ . ومسلم فى الزكاة : ٢٧ ، ٢٨ . والنسائى فى الزكاة : ٢ ، ٦ ، ٢٠ . وابن ماجة فى الزكاة : ٢ . والإمام مالك فى الزكاة : ٢٢ . والدارمى فى الزكاة : ٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٩٨ ، ٢٧٩ ، ٣١٦ ، وفى ٣ : ٣٢١ .

تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة . وجور السلطان ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط عليهم عدو من غيرهم فيأخذ بعض مافى أيديهم ، ومالم تحكم أئمتهم بكتاب الله إلا جعل بأسهم بينهم)(١) .

وروى الشيخان عن الأحنف بن قيس قال : (جلست إلى ملأ من قريش فجاء رجل خشن الشعر والثياب والهيئة حتى قام عليهم فسلم ثم قال : بشر الكانزين برضف يحمى عليه فى نار جهنم ثم يوضع على حلمة ثدى أحدهم حتى يخرج من نخض كتفه،ويوضع على نخض كتفه حتى يخرج من حلمة ثديه فيتزلزل)(٢)

ثم ولى فجلس إلى سارية ، وتبعته وجلست إليه وأنا لا أدرى من هو . فقلت:(لاأرى القوم إلا قد كرهوا الذى قلت ، قال : إنهم لا يعقلون شيئا : قال لى خليلى . قلت : من خليلك ؟ قال : النبى ﷺ أتبصر أحدا ؟ قال : فنظرت إلى الشمس ما بقى من النهار وأنا أرى أن رسول الله ﷺ يرسلنى فى حاجة له ، قلت : نعم . قال : ما أحب أن لى مثل أحد ذهبا أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير،وإن هؤلاء لا يعقلون إنما يجمعون الدنيا . لا والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين حتى ألقى الله عز وجل)(٢) .

﴿ المعانى ﴾

بطح : أى بسط ومد

القرقر : المستوى الواسع من الأرض .

كأوفر : أى كأعظم ما كانت .

تستن : أى تجرى .

مضى : أى مر .

الظلف للغنم : كالحافر للفرس .

عقصاء : أى ملتوية القرنين .

جلحاء : أى التى لا قرن لها .

المرج : أى المرعى .

الشرف : أى العالى من الأرض .

الأشر : أى البطر .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الفتن : ٢٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٤ . ومسلم فى الزكاة : ٣٤ .

البطر : شدة المرح .
وبذخا : تكبرا .
الجامعة : أى المتناولة لكل خير وبر .
الفاذة : أى القليلة النظير .
مثل : صور .
الشجاع : الذكر من الحيات .
الأقرع : الذى ذهب شعره من كثرة السم .
زبيبتان : أى نكتتان سوداوان فوق عينيه .

الفاحشة : أى الزنا .
الأوجاع : أى الأمراض .
السنين : أى الفقر .
القطر : أى المطر .
بأسهم : أى حربهم .
رجل خشن الشعر : هو أبو ذر رضى الله عنه .
الرضف : أى الحجارة المحماة .
نغض : أى أعلى الكتف .

*** حكم مانعها :**

الزكاة من الفرائض التى أجمعت عليها الأمة ، واشتهرت شهرة جعلتها من ضروريات الدين ، بحيث لو أنكر وجوبها أحد خرج عن الإسلام ، وقتل كفرا إلا إذا كان حديث عهد بالإسلام ، فإنه يعذر لجهله بأحكامه .

أما من امتنع عن أدائها ـ مع اعتقاده وجوبها ـ فإنه يأثم بامتناعه دون أن يخرجه ذلك عن الإسلام ، وعلى الحاكم أن يأخذها منه قهرا أو يعزره ، ولا يأخذ من ماله أزيد منها إلا عند أحمد والشافعى فى القديم فإنه يأخذها منه ونصف ماله ، عقوبة له لما رواه أحمد والنسائى وأبو داود والحاكم والبيهقى عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (فى كل إبل سائمة . فى كل أربعين ابنة لبون لايفرق إبل عن حسابها من أعطاها مؤتجرا فله أجرها ، ومن منعها فإنا آخذوها وشطر ماله عزمة من عزمات ربنا تبارك وتعالى ، لا يحل لآل محمد منها شىء)[1] .

وسئل أحمد عن إسناده فقال : صالح الإسناد . وقال الحاكم فى بهز : حديثه صحيح .

ولو امتنع قوم عن آدائها مع اعتقادهم وجوبها وكانت لهم قوة ومنعة ، فإنهم يقاتلون عليها حتى يعطوها ، لما رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : (أمرت أن أقاتل

---

(١) أخرجه أبو داود فى الزكاة : ١ . والبخارى فى الاعتصام : ٢ . ومسلم فى الايمان : ٣٢ . والترمذى فى الإيمان : ١ . والنسائى فى الزكاة ٢ : ٣ . والإمام مالك فى الزكاة : ٣٠ .

الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) .

ولما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : (لما توفى رسول الله ﷺ ، وكان أبو بكر وكفر من كفر من العرب ، فقال عمر : كيف نقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله تعالى . فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها . فقال عمر : فو الله ماهو إلا أن قد شرح الله صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق)[1] .

ولفظ مسلم وأبى داود والترمذى : (لو منعونى عقالا) بدل (عناقا) .

المعانى

عقوبة له : ويلحق به من أخفى ماله ومنع الزكاة ثم انكشف أمره للحاكم .

مؤتجرا : أى طالبا الأجر .

عزمة : أى حقا من الحقوق الواجبة .

روى البيهقى أن الشافعى قال : هذا الحديث، لا يثبته أهل العلم بالحديث ولو ثبت قلنا به .

نقاتل الناس : المراد بهم بنو يربوع وكانوا جمعوا الزكاة وأرادوا أن يبعثوا بها إلى أبى بكر فمنعهم مالك بن نويرة من ذلك وفرقها فيهم فهؤلاء الذين عرض الخلاف فى أمرهم ووقعت الشبهة لعمر فى شأنهم مما اقتضى مناظرته لأبى بكر واحتجاجه على قتالهم بالحديث وكان قتاله لهم فى أول خلافته سنة إحدى عشرة من الهجرة .

عناقا : أى أنثى المعز التى لم تبلغ سنة .

*** على من تجب :**

تجب الزكاة على المسلم الحر المالك للنصاب من أى نوع من أنواع المال الذى تجب فيه الزكاة .

ويشترط فى النصاب :

١ ـ أن يكون فاضلا عن الحاجات الضرورية التى لا غنى للمرء عنها : كالمطعم والملبس والمسكن والمركب وآلات الحرفة .

٢ ـ وأن يحول عليه الحول الهجرى ويعتبر ابتداؤه من يوم ملك النصاب ولابد من كماله فى الحول كله . فلو نقص أثناء الحول ثم كمل اعتبر ابتداء الحول من يوم كماله .

قال النووى : مذهبنا ومذهب مالك وأحمد والجمهور : أنه يشترط فى المال الذى تجب الزكاة فى عينه ويعتبر فيه الحول كالذهب والفضة والماشية : وجود النصاب فى جميع الحول فإن نقص النصاب فى

---

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة ٢ : ٣ ، وفى ٢٥ : ٢ . ومسلم فى الإيمان : ١٤١ ، ١٤٢ . وأبو داود فى الطلاق : ٥٠ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ : ١ ، ٢ . والنسائى فى التحريم : ٤ . والإمام أحمد فى ١ : ٣٨٠ ، ٤٣١ ، وفى ٦ : ٨ .

لحظة من الحول انقطع الحول . فإن كمل بعد ذلك استؤنف الحول منه حين يكمل النصاب .

وقال أبو حنيفة : المعتبر وجود النصاب فى أول الحول وآخره ، ولا يضر نقصه بينهما ، حتى لو كان معه مائتا درهم فتلفت كلها فى أثناء الحول إلا درهما ، أو أربعون شاة فتلفت فى أثناء الحول إلا شاة ثم ملك فى آخر الحول تمام المائتين أو تمام الأربعين وجبت زكاة الجميع .

وهذا الشرط لا يتناول زكاة الزروع والثمار فإنها تجب يوم الحصاد . قال الله تعالى : ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ (١) .

وقال العبدرى : (أموال الزكاة ضربان أحدهما ما هو نماء فى نفسه كالحبوب والثمار ، فهذا تجب الزكاة فيه لوجوده ، والثانى ما يرصد للنماء كالدراهم والدنانير وعروض التجارة والماشية ، فهذا يعتبر فيه الحول ولا زكاة فى نصابه حتى يحول عليه الحول ، وبه قال الفقهاء كافة . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ .

بعدما زكى الله تعالى قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالصلاة ، وألسنتهم عن اللغو ، وأموالهم بإخراج الزكاة ، زكى أعراضهم بالحفاظ عليها إلا فى حدود ما أمر الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾ .

أى والذين يحفظون فروجهم فى كافة الأحوال إلا فى حال تزوجهم أو تسريهم (قربانُ الأمة بالملك) فإنهم حينئذ يكونون غير ملومين ، والمراد بهذا الوصف مدحهم بنهاية العفة ، والإعراض عن الشهوات .

﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾ .

أى:فمن طلب غير أربع من الحرائر وما شاء من الإماء فأولئك هم المتناهون فى العدوان ، والمتعدون لحدود الله .

نعم إن المؤمنين هم الذين حفظوا فروجهم من الحرام فلم يقعوا فيما نهاهم الله عنه من زنا ولواط واستمناء باليد لا يقربون سوى أزواجهم التى أحلها الله لهم ، أو ما ملكت أيمانهم من السرارى التى أخذت فى الحروب ، لا التى شاعت فى القرون السابقة ، وكانت تباع فى الأسواق ، فالشرع لم يحلل الرق إلا فى صورة واحدة هى فى حروب الإسلام مع الكفار ، فتقسم النساء على المحاربين إكراما لهم ، مع أن الدين حض فى كل مناسبة على تحرير الرقاب ، ولم يكن الرق واجبا حتميا بل جعله فى يد الإمام يفعله متى شاء ، وعلى ذلك فلنا أن نحرمه الآن لما يترتب عليه .

ومن تعاطى ما أحله الله فلا لوم عليه ولا حرج ﴿ **فمن ابتغى وراء ذلك** ﴾ أى:غير الأزواج والإماء ، فأولئك هم المعتدون المتجاوزون ، وعلى ذلك حرم نكاح المتعة ، **والاستمناء** باليد .

والإجماع من كل العلماء ماعدا أحمد بن حنبل على تحريمه لظاهر الآية ، ولحديث أنس بن مالك : (سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم . ولا يجمعهم مع العالمين ، ويدخلهم النار فى أول الداخلين : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن الخمر ، والضارب والديه حتى يستغيثا ،

---

(١) الآية ١٤١ من سورة الأنعام .

والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره)

* الرق .. وملك اليمين *

اعلم أن الإسلام محرر العبيد ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾ (١) .

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعدله ، فما أشد حاجة البشرية إليه !

والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير !

والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء :

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الإسلام ، فجعلوا من مسألة (الرق) ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام ، والنيل منه ، بعدما أعجزتهم الحيل فلم يجدوا فى الإسلام مغمزا لطاعن ، أو طعنة لغامز ، لو تدبر هؤلاء مسألة (الرق) لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الاسلام :

يقول الكاتب الكبير المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله فى كتابه : (ما يقال عن الإسلام) :

مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية ، يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك .

ويتفق الماديون والمبشرون لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء ، **أولاهما** : نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية ، وحقوق الإنسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال منهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الإسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء .

أما **الوجهة الأخرى** التى يتفق عليها الماديون والمبشرون : فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الإسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفا من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ، قياسا على نجاح الإسلام بين الافريقيين فى الأزمنة القريبة مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظم الجهود التى يبذلها المبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية ، فالماديون والمبشرون يجتهدون غاية الجهد لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ، ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم فى الموطن ، ومصالح المعيشة ، فيتوسلون إلى تشويه سمعة الاسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة (النخاسة) وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا (النخاسة) قديما وحديثا ، وهم ـ أى:دعاة المادة والتبشير ـ أول من يعلم من تاريخ (النخاسة) أنها كانت صناعة شركات أوربية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها

(١) الاية ١٦٤ من سورة ال عمران

للإسلام ، وليست بالدعاية التى يحارب بها الإسلام ، فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام ، بسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟

هكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المغرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير ، وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الإسلام ، إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة .

ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الإسلام هو الذى أنشأ الرق ؟

إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر : أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى ، يغشاه موج ، من فوقه موج ، من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الاسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه ، كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع ، دون أن يغرق المركب،أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم ، دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه (فى الدين والأخلاق والقومية) ما نصه :

محمد محرر البشرية :

عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت حملته الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله .

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الاسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون من أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟

وإن تعجب لشىء فاعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام ، وهم قوم يشهد تاريخهم ، بأنهم هم الذين أنشأوا الرق أبيضه وأسوده ، وأنهم هم الذين أفشوه ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الإختلاس والاغتصاب ، وأنهم جاوزوا فيه الحدود ، ولم يكفهم استرقاق الأفراد فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام :

لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب : فى اليونان وفى الرومان وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه فكان جزاء القاتل أن يكون عبدا لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكا لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقا لرب المال ، ومصداقه فى قصة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين** ﴾[1] .

(١) الآيتان ٧٤ ، ٧٥ من سورة يوسف .

وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر ، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ﷺ ، خاتم النبيين ، وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد صلوات الله وسلامه عليه حين جاء بالإسلام ؟ إنه أعلنها ثورة غاضبة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر وثورته على الربا وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل موصدة المخارج ، كان الرق وباء يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام ﷺ لانقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ؟ إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لنطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم بردا وسلاما ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها . وسأفسر لك ذلك :

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحا واقعيا فى ظلال الإسلام فيقول :

فأما النطاق الذى ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء ، حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين ، ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار ، وأمنهم منه بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف والسلب ولا البيع والشراء ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ولا القتل . . لم يعد شىء من ذلك كله ـ منذ ظهر الإسلام ـ يصلح مبررا لاستعباد الإنسان .

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل إنه حال بين الأحرار والاماء إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الاسلام ـ قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل ـ أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء .

غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام ـ وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة إلى إنشاء رق جديد ـ قد ترك ـ إلى جانب هذه الأبواب ـ منفذا صغيرا لم يغلقه ، ذلك : هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين ـ فى هذه الحال ـ أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارا ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية .

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم لم نجد فيه أثرا لقتل الأسير ، ولا استرقاقه ، وإنما

نجد له فيه مصيرا واحدا كريما وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ [١] .

كما أن سنة الرسول الرحيم ﷺ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير إلا فى حالة شاذة نادرة ، كان الأسير فيها معروفا بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم : عقوبة (مجرمى الحرب) .

بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظراته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة .

ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة . . فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجا له فى زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوبا فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الإسلامى ولا فى نصوصه ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوما إلى استرقاق الأسير : فإنما يكون منه نزولا على حكم الضرورة اتقاء لخطره ، وكسرا لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى وإنما يتخذه إجراء مؤقتا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو : التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ، قال تعالى : ﴿ **فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة** ﴾ [٢] .

وقال عليه الصلاة والسلام :

(من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضوا من أعضائه من النار) [٣] .

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة . . إذ جعل فيها سهما مكررا فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح (قانون الكفارات) وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا : كالحنث فى اليمين والفطر فى رمضان والقتل الخطأ وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع (كفارة الإساءة) التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه : وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ : (من لطم مملوكه أو ضربه : فكفارته أن يعتقه) [٤] .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة . أما الجرح أو تشويه الجسم : فإن حكمه ـ عند أكثر الأئمة ـ أن

---

(١) الآية ٤ من سورة محمد (٢) الآيات ١١ ـ ١٣ من سورة البلد .

(٣) أخرجه البخارى فى الكفارات : ٦ . ومسلم فى العتق : وأبو داود فى العتاق : ١٣ . والترمذى فى النذور ١٤٠ . والإمام أحمد فى ٢ : ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ وفى ٣ : ٤٩١ ، وفى ٤ : ١١٣ ، ٣٢١ ، ٣٨٦ ، ٤٠٤ .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٤٥ . ومسلم فى الايمان : ٢٩ ، ٣٠

يصير العبد حرا بمجرد إصابته فينزع من ملك السيد قهرا عنه . وكذلك إذا كلفه سيده أعمالا فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم ، لقد رأينا أبوابا فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبوابا أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين : ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، إنهم هنالك ـ ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق : فهل صنع الإسلام شيئا لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟

نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية فأعد لهم فيها وسائل للترفيه ، تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات . . ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم . . هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين : (إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم : فأعينوهم)[١] .

صدقت يا نبى الرحمة ـ صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ ـ منع لإنشائه وابتدائه .

٢ ـ عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ ـ عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معى :

أما والله لعبد فى ظل الإسلام   خير من كثير من الأحرار فى كل نظام

وهكذا ينتهى هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف ، وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات ، وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم ، كما هو فى كل شئونه :

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متئدا وداووا طفرة   وأخف من بعض الدواء : الداء

أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية وإحاطتها بالكرامة . يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء ؟

إن الإسلام يعد الناس جميعا متساوين فى الإنسانية لأنهم جميعا صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد . . (إن أباكم واحد وإن ربكم واحد) .

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[٢] .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٢٢ ، وفى العتق : ١٥ . ومسلم فى الإيمان : ٤٠ .

(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

وهذه المساواة العامة للإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى والظلام الإنسانى . . فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط ، والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع ، وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق ـ فى قليل أو كثير ـ من طبيعة الخلق والولادة والمأكل والمشرب والحياة وأسباب المعرفة والإدراك .

المساواة فى الإسلام

لست أدرى : أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟ التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية ، وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية التى لا يمكن أبدا أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه . والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنسانا ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة والمصير المشترك ، كما تأبى سنن الخالق تبارك وتعالى أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبو إليه من استعباد الناس والتعالى عليهم .

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب !

وكل ما فوق التراب تراب !

فمن أين تأتى التفرقة ؟ والمبدأ معروف ، والمصير مشترك ؟

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راقى
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعا والمهيمن باقى

الاسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، والنبى الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يعلن فى خطبته الجامعة : (أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد لا فضل لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم) (١) .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (٢) .

أخا الاسلام :

لا تركنن إلى القصور الفاخرة واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يارب إن العيش عيش الآخرة

* *

إن المساواة تدعو إليها الفطرة العامة ويقضى بها المصير المشترك ويتطلبها عدل السلوك سلام الإنسانية . . . قامت فى الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعا إلى عبادة الرب الواحد ، رب

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٤١١ .
(٢) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

العالمين ، وهذه المساواة فى الإنسانية : تستلزم المساواة فى الحقوق .. فالناس جميعا أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقير وشريف ووضيع ..

فالحق أساس هذا الدين والعدل سياجه والناس ـ مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم ـ أمام عدله وحقه : سواء !

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعز به وكن عفيفا وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أجل ! صدقت يارب العزة يامن قلت : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾ (١) .

العدالة فى الاسلام

والعدل فى الإسلام عدل مطلق يستوى فيه الأصدقاء ، والأعداء ، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله جل شأنه : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾ (٢) .

وأنت ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يغضب أشد الغضب ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة .. انها غضبة مضرية ..

وإذا غضبت فإنما هى غضبة للحق لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى (أسامة بن زيد) الحب ابن الحب يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل ـ كانت قد سرقت ـ ويقول له غاضبا معنفا : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟) ثم يخطب فى الناس قائلا : (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت : لقطعت يدها) (٣) .

وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عملاق الإسلام ، وفاروق هذه الأمة ، يعلن فى سمع الزمن هذا المبدأ الخالد بعدما تولى خلافة المسلمين بعد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فيقول :

(أيها الناس : الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه).

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .
(٢) الآية ٨ من سورة المائدة .
(٣) أخرجه البخارى فى فضائل أصحاب النبى : ١٨ ، وفى الحدود : ١٢ . ومسلم فى الحدود : ٨ ، ٩ . وأبو داود فى الحدود : ٤ . والترمذى فى الحدود : ٦ . والنسائى فى السارق : ٥ ، ٦ . وابن ماجة فى الحدود : ٦ . والدارمى فى الحدود : ٥ . والامام أحمد فى ٣ : ٣٨٦ ، ٣٩٥ ، وفى ٥ : ٤٠٩ ، وفى ٦ : ٣٢٩ .

ويقول فى رسالة له لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنه فى أمر القضاء : (آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك) .

وها هو ذا (ضرار الصدائى) يصف أمير المؤمنين عليا كرم الله وجهه وما اتصف به من العدالة والإنصاف للرعية فيقول : (كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه،ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا : لا نكاد نكلمه لهيبته،ولا نبتدئه لعظمته،يعظم أهل الدين ويحب المساكين . . لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله . . . كان ـ والله ـ غزير العبرة ، طويل الفكرة يقلب كفه ويخاطب نفسه) .

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامى المشرف الذى وقفه الفاروق من « عمرو بن العاص » حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية وقد قال له كلمته الخالدة : ياعمرو : (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟) .

أبعد هذا التكريم للبشرية يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التى تقول:إن الرق فى الإسلام يعتبر تهمة توجه ضده وهو لم يقرأ عن الإسلام شيئا بل إنه يهرف بما لا يعرف .

وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾[1] .

هذا الإسلام هو الذى كانت عدالته مضرب الأمثال فى معاملة البشر مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم .

ومن جليل ما يذكر فى هذا المجال ما جرى بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب وقد تحاكم الأول أمام عمر وكان الخصم يهوديا وكان عمر ـ كعادته ـ ينادى عليه قائلا : ياأبا الحسن فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ظهر الغضب على،وجه على فظن عمر أن عليا يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة وعلى هو من تعلم : حسبا ونسبا وإيمانا وصدقا . . قال عمر لعلى : أكرهت أن يكون خصمك يهوديا ؟ فقال على رضى الله عنه : إنما غضبت لأنك لم تسو بينى وبين خصمى اليهودى إذ ناديته باسمه وناديتنى بكنيتى ! !

أرأيت أن المساواة فى الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عليا يقف فى ساحة القضاء مع خصم يهودى يأبى عليه دينه أن يترك لفظا تشم منه رائحة التعظيم له فيغضب ، ويعد هذا تمييزا فى موطن القضاء . . وما كان النداء من عمر إلا نداء قد اعتاده ولكن لم يستطبه منه فى هذا الموطن : (موطن القضاء ورد الحقوق) ! ! !

* *

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الإسلام ونزاهته ونظافته وطهارته وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا ؟ !

إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد وسولت له نفسه الأمارة بالسوء أن يحكم بها عباد الله .

---

(١) الأيتان ٨ ، ٩ من سورة الحج .

شتان ثم شتان بين عدل الخالق جل شأنه وبين ظلم المخلوق ! !

وحسبك ياأخى أن تعلم أن الاسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾[1] .

ثم تأمل بعد ذلك الهدى الإلهى والعدل الربانى .. تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك فى العالم الحر : من تفريق بين الأسود والأبيض وتجعل للبيض حقوقا لا ينالها مواطنوهم السود .

وما أمر هذه التفرقة فى أمريكا وجنوب أفريقيا وغيرهما من دول العالم بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان ! !

* *

محمد : الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ولا يمارى فى مضمونها إلا كل معتد أثيم ﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها** ﴾[2] .

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الإسلام وجماله .. فأولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف وطلبوا وجه الحق .

أولى بهم ان يقولوا:إن محمدا هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين موجهين وقادة .

لقد كان مولده الشريف إيذانا بأنه محرر العبيد فقد كانت أول رضعة وأول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه أبى لهب ، تسمى (ثويبة) وكان من حسن الطالع وبشير اليمن : أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أبا لهب بمولد السيد الجليل محمد ﷺ : فرح بهذا الخبر فرحا عظيما ، وكانت مكافأته لها : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة .. وكان مولده الشريف إيذانا وإعلاما بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى إنها السيدة الجليلة (بركة الحبشية) المكناة بـ (أم أيمن) .

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله ﷺ وقال لها سيدنا محمد ﷺ بعد موت أمه : (أنت أمى بعد أمى) وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة ـ رضى الله عنها ـ فى الإسلام .. إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبى ﷺ من النساء ، وأقامت (أم أيمن) بمكة تحتمل أذى المشركين إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه . ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع . حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ، ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش .

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

(٢) الآية ٨ من سورة الجاثية .

أما جهادها فى الإسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى فى القتال .

ومما حضرته من الغزوات غزوة أحد ، وخيبر ، وكانتا من أهم غزوات النبى ﷺ .

هذا بالإضافة إلى أنها كانت من أكثر النساء المهاجرات حظا فى الشهداء من رجالهن . . فقد تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن الذى مات شهيدا (يوم خيبر) وبعد موت (عبيد) : تزوجت بزيد بن حارثة ، وأنجبت منه أسامة بن زيد ، وقد مات « زيد » شهيدا فى (مؤتة) فصبرت على فقد زوجها (زيد) وابنها (أيمن) وكان (أسامة) غلاما فعكفت على رعايته والعناية به حتى جعلت منه رجلا يقود جيشا : فيه من الأبطال مثل أبى بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبى ﷺ ولم يكن (أسامة) قد جاوز العشرين سنة .

ولما مات النبى ﷺ كانت (أم أيمن) تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكاؤها عليه ، وقد قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن كما كان رسول الله ﷺ يزورها ، فلما دخلا عليها بكت فقالا لها : ما يبكيك فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكى لأن وحى السماء قد انقطع ، فهيجتهما على البكاء ، فجعلت تبكى ويبكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التى تبكى انقطاع الوحى ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء ، فهى لا ترى إلا السعادة الروحية التى تصل بيننا وبين الملأ الأعلى ، وتفيض على أهل الأرض فتسمو بهم إلى مواطنها .

وقد ماتت (أم أيمن) بعد عشرين يوما من خلافة عثمان رضى الله عنه ، سنة ٦٤٣ م .

**

أرأيت إلى هذا الجلال وتلك العظمة فى هذه السيدة التى كانت مملوكة للرسول ﷺ ، فامتدت يداه الكريمتان فأهداها نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التى تكلم الخليفة أبا بكر ووزير عدله عمر كلمة تجعلهما يبكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحى بعد رسول الله ﷺ ؟ !

إن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن محمدا ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة .

زيد بن حارثة

حب رسول الله ﷺ الذى قال فى شأنه : (أنت مولاى ومنى وأحب القوم إلى)[1] .

نشأته وشأنه ومكانته فى الإسلام :-

خرجت أمه (سعدى بنت ثعلبة) معه تزور قومها (بنى معن) فأغارت خيل لبنى القيس بن جسر ، فمروا على أبيات (بنى معن) فاحتملوا زيدا ـ وقد كان يومئذ غلاما يافعا ـ ولم يعرف أبوه بعد شيئا عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل فحج قوم من (كلب) وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكى (حارثة بن شرحبيل) ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا (زيدا) فعرفهم وعرفوه ، وأقبل عليهم وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به (سوق عكاظ) فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن

(١) أخرجه البخارى فى الصلح : ٦ ، وفى فضائل أصحاب النبى : ٥١٧ والإمام أحمد فى ١ : ١٠٨ ، ١١٥ ، وفى ٥ : ٢٠٤ .

خويلد ، لعمته خديجة بنت خويلد ، بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش : محمد ﷺ وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه .

فخرج (حارثة) وأخوه (كعب) بفدائه ، وقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فدخلا عليه وقالا : يابن عبد الله ! يابن عبد المطلب ! يابن هاشم ! يابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئنا فى ابننا فامنن علينا وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سندفع لك الفداء .

فقال لهم الرسول ﷺ : (ادعوه فخيروه فإن أختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى) .

فدعاه النبى ﷺ وقال له : (هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هما ؟ قال زيد : هذا أبى وهذا عمى . فقال رسول الله ﷺ : فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما) .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا : ويحك يازيد ! أتختار العبودية على الحرية ، وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ ! قال زيد : نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ما أنا بالذى أختار عليه أحدا أبدا .

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر وقال : (يامن حضر:اشهدوا أن زيدا ابنى ، أرثه ويرثنى) .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت نفساهما وانصرفا.

ونزلت الرسالة على محمد-صلوات الله وسلامه عليه ـ فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء ، ولم يفارق النبى-صلوات الله وسلامه عليه-لحظة فأحبه النبى حبا شديدا وأذن النبى ﷺ فى الهجرة لأصحابه ، هاجر زيد ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة ، ولما هاجر الرسول الأعظم إلى (يثرب) وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد : أخوين فى الله ، ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأحدا ، واستخلفه الرسول ﷺ على المدينة حين خرج إلى (المريسيع) وشهد (الخندق) و (الحديبية) و (حنينا) .

وخرج (زيد) أميرا فى سبع سرايا أولها (القردة) فاعترض لعير قريش فأصابها . وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر (زيد) (فرات بن حيان العجلى) وقدم بالعير على النبى ﷺ ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها : (ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة فى جيش قط إلا أمّره عليهم ، ولو بقى بعده : لاستخلف) .

وأراد رسول الله ﷺ أن يغزو الروم فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا : (عليكم زيد بن حارثة) فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة) .

وتحرك الجيش الإسلامى بقيادة لواء الإسلام (زيد بن حارثة) .

أليس فى هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله ﷺ هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة؟

هذا (زيد) يقود جيشا فيه (جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ﷺ الشريف الكريم ، وفيه (خالد بن الوليد) وخالد هو سيف الله المسلول .

ومن بعد زيد : قاد ابنه (أسامة) الحملة بعد وفاة رسول الله ﷺ ، قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق ، وعمر الخليفة ، فاروق هذه الأمة .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية وزكى النفوس وطهر القلوب ! !

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الـدين والـدنيـا لنا جمعتهـا لـك شـرعـة قـدسيـة غـراء
والمسلمـون جميعهم جسـد إذا عضو شكا سهرت له الأعضاء

سار المسلمون وعلى رأسهم زيد حتى وصلوا إلى (مؤتة) وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا .

ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ ! وتناولته السيوف بالطعن وهو يقاتل دون راية رسول الله ﷺ .. وأخيرا .. استشهد الأمير .

أيتها النفس الكبيرة !

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة النبوة ، حيث قال : (زيد ابنى) ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى ﷺ يقول : (استغفروا لزيد : لقد دخل الجنة وهو يسعى) .

ثم أتى أهله فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبى ﷺ حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله ما هذا ؟ فقال له الرسول ﷺ : (ياسعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .

* *

يرحمك الله يازيد بن حارثة ! يامن أثنى عليك رسول الله خيرا ، ويامن أنعم عليك الله بالإسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق .. يامن ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة فلقيته شهيدا ، وعشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر !

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(١) . .

بلال بن رباح

مؤذن رسول الله (وكفى بالأذان شرفا)

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمة التوحيد عالية يشنف بها الآذان ، ويملأ بها القلوب عزة

(١) الآيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سورة آل عمران .

وكرامة ؟

كان (بلال) عبدا مملوكا لأمية بن خلف ، ولاقى من الأذى فى سبيل عقيدته ما لا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ، ولا تؤثر فيه الرياح القواصف ، كان كلما اشتد عليه الأذى ، وتضاعفت أمامه الكروب . . ازداد إيمانا على إيمانه .

بلغ من قسوة أمية بن خلف أنه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة ، حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ، ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه .

ولا عجب فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان ، حديد الوجه ، حديد القلب . . لو وزعت قسوة قلبه على الناس ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم .

كلما اشتد الأذى ببلال : كان يردد هذا النشيد الخالد : (أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد) .

أجل يابلال ! إن الله واحد فى ذاته لا شريك له،واحد فى صفاته لا نظير له . . إنه رب السماء والضعفاء والجبال والشجر . . إنه رب عزيز قادر له الجبين قد سجد !

ويردد (بلال) هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر ويشتاط عدو الله غضبا فيقول له العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله . عذب ما شئت فإنك إنما تعذب جسدى ، أما روحى فلن تنال منها شيئا ؟ !

لله درك يابلال : لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجا ، وقد تقدم الصديق رضى الله عنه فاشتراك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله ﷺ .

عرفت بالصوت الندى فى الأذان ، حتى قال عنك رسول الله ﷺ : (إنك أندى صوتا) . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق البيت الحرام يوم الفتح الأعظم ، حيث اشرأبت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم يجد محمد غير هذا المؤذن ؟

فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم وعزم : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** ﴾(١) .

سرعة بديهته رضى الله عنه :

لا ننسى ذكاءك وسرعة بديهتك وحضور حجتك ، عندما سألك سائل فقال لك يابلال : ابن من أنت ؟ فقلت له على الفور : أنا ابن الذى أسجد الله له الملائكة !

صدقت يابلال فرسول الله ﷺ يؤيدك كل التأييد إذ يقول : (كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى)(٢) .

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى ، لقد غضب من أبى ذر الغفارى الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك فى لحظة غضب : يابن السوداء،فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك : امتلأ غضبا وقال

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) أخرجه الترمذى فى تفسير سورة ٤٩ : ٥٠ ، وفى المناقب : ٧٣. وأبو داود فى الأدب : ١١١. والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٥٢٤ .

فى حدة وشدة : (ياأباذر : أعيرته بأمه ؟ إنك امرؤ فيك جاهلية)[١] .

وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ وكأنها سهام بتارة ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يابلال : طأ على خدى بقدميك) .

إنه الأدب والخلق الذى تربى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه . .

إذا أخطأوا ، أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا بانحراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان ، فذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم !

دعابة لطيفة : ـ

لقد كان رسول الله ﷺ إذا رأى هؤلاء النفر الذين أنعم الله عليهم بنعمة الإسلام والعتق : يبش لهم ويبتسم .

سأل رسول الله ﷺ بلالا ذات يوم ـ وكان يوم الأضحى ـ بم ضحيت يابلال ؟ فقال:يارسول الله : لم أجد إلا (ديكا) فضحيت به فقال له الرسول ﷺ فى دعابة لطيفة:(مؤذن ضحى بمؤذن) . وكان المصطفى ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقا .

فرحمك الله يابلال ، يامن رفعت إلى مكانة فى الإسلام عالية مرموقة ، ونلت من الله فضلا عظيما ، وأجرا كريما .

سلمان الفارسى

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، ونخل مخزون فكره ، وقدح زناد رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق .

نشأ بين قوم فى بلاد الفرس يعبدون النار من دون الله ، وكان أبوه قد جعله قائما على شأن النار يغذيها بالوقود ، إذا ما أوشكت أن تضعف . . . !

ودارت فى نفسه وعقله أفكار وتساؤلات . . هل يليق بالإله أن يكون محتاجا إلى عباده ؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود ؟ لابد أن تنطفىء هذه النار . .

وأخيرا . . . ولى هاربا وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة . . . ونزل على أحد الرهبان فدله الراهب على أن الحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء ، وولى (سلمان) وجهه شطر المدينة فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين بيثرب ادعى أنه قد اشتراه فصار (سلمان) عبدا مملوكا لذلك اليهودى ، يقوم على خدمته ورعاية شئونه .

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة : أسرع سلمان ليختبر منه الصفات التى أرشده إليها الراهب الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى ﷺ لا يقبل الصدقة . ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ، وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقوه ، فصار حرا ، وكل منهم يريد أن ينسبه إليه فقال الرسول ﷺ لهم : (سلمان منا آل البيت) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الإيمان : ٢٢ ، وفى الأدب : ٤٤ . ومسلم فى الإيمان : ٣٨ ، ٤٠ . وأبو داود فى الأدب : ١٢٤ . والترمذى فى تفسير سورة ٢٢ : ٠١ الإمام أحمد فى ٥ : ١٦١ .

وكان (لسلمان) موقفه التاريخى المجيد يوم (الخندق) .. عندما ادلهمت الخطوب واشتدت المحن، وحوصرت المدينة استشار الرسول أصحابه فأشار عليه سلمان بحفر الخندق، وصادف هذا الرأى قبولا مطلقا فى نفوس المسلمين، فحفر الخندق وكان فى حفره خير ويمن.

إننا لا ننسى (لسلمان) هذا الموقف الإسلامى الجليل، ولا ننسى له شدة تمسكه، وعمق تغلغله فى مفاهيم الإسلام .. قال له سائل: ياسلمان: من أبوك؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين: (أنا ابن الإسلام) ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين (عمر) بكى وقال ثلاث مرات: وأنا ابن الإسلام.

أجل ياسلمان!

لعمرك ما الإنسان إلا ابن دينه فلا تترك التقوى إتكالا على النسب

فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد حط بالشرك النسيب أبا لهب

كان (سلمان) رجلا مجدا فى حياته لا يعرف الكسل .. كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه .. كان يأتى بـ (خوص) النخيل فيصنع منه المكاتل ويبيعها، ويقسم الربح أقساما ثلاثة: قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه، وقسم يعمل فيه فى التجارة!

وقد صدق فيه قول رسول الله ﷺ: (إن الله يرضى لرضا سلمان، ويغضب لغضبه، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها).

رحمك الله ياسلمان، وجزاك عن الإسلام خيرا، يامن قال عنك الرسول ﷺ: (سلمان منا آل البيت):

هنيئا لك، ثم هنيئا لك بهذا الشرف الذى رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليه ..

وخلاصة القول: -

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الإسلام سادة وقادة

لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله ﷺ عن هؤلاء المستضعفين، وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف: إن أردتنا ان نؤمن بك فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك، والله يشهد إنهم لكاذبون، وأن قلوبهم قد ران عليها صدأ الجبروت والعناد.

فماذا كان جواب الإسلام على افترائهم؟

لقد مروا برسول الله ﷺ ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه لهؤلاء المستضعفين وخفض لهم جناحه لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله: **﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾**[1].

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الكهف.

وقال أيضا : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء ومامن حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾[١] .

بل لقد كرمهم القرآن تكريما دونه كل تكريم حيث قال تعالى : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾[٢] .

وكان السيد الجليل رسول الله ﷺ إذا لقيهم يقول : (مرحبا بمن أوصانى ربى بهم خيرا) .

ذلكم هو الإسلام العظيم

إن الإسلام هو الحق الذى لا يقبل المساومة ولا أنصاف الحلول ولا أرباعها ، ويأبى الترقيع ، ولقد صدع الإسلام فى عهد النبوة كل محاولة لمساومة أصحابه واستدراجهم لقبول بعض الحلول ، أو التنازل عن بعض الحق .

فهذه قريش تقترح على محمد أن يعبد آلهتها شهرا لتعبد إلهه شهرا آخر ، فينزل القرآن الكريم بالموقف الحاسم من أمثال هذه المساومات ، فيقول : ﴿ قل ياأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾[٣] .

وجاء عتبة بن ربيعة يوما إلى رسول الله ﷺ يعرض عليه العروض السخية ، يعرض عليه المال والملك والسلطان ، على أن يترك الأمر الذى جاء به ، ويتخلى عن الإسلام ، لكن محمدا ﷺ التفت إليه مستعليا بإيمانه ، معتزا بإسلامه ، قائلا : (ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم) .

وقد يكون من نافلة الكلام أن نقول إن البشرية لم تعرف فى مدار التاريخ منهجا (واقعى) الخصائص كالاسلام ، فهوا المنهج (الوحيد) الذى غير مجرى الحياة الإنسانية ، وأحدث فى المجتمع البشرى انقلابا جذريا شاملا ، قوض كل الأفكار ، وكل الأخلاق ، وكل المعتقدات الجاهلية .

فالمنهج الإسلامى تجاوز نطاق النظريات (التجريدية) وتجسدت مبادئه واقعا حيا عاشه الناس ، وحفظه التاريخ ، ونطقت به الشواهد والأحداث .

وكان مبدأ (لا إله إلا الله) دفعة العقيدة فى قلوب الناس ، ومحرك الثورة الأصيل فى نفوسهم ورمز انخلاعهم من ضلالات الجاهلية وأوضارها وانصهارهم فى بوتقة الدين الجديد ، وكان الجذوة المتقدة التى حررت الإنسان من عبودية الأصنام ، وكرمته من اتخاذ الناس أربابا من دون الله ، وألزمته إفراده سبحانه بالربوبية والألوهية ، والخضوع والحاكمية ، فلم تكن (لا إله إلا الله) شعارا تتحرك به الألسن من غير وعى ، أو تردده الشفاه بدون إدراك .

---

(١) الآية ٥٢ من سورة الانعام .
(٢) الآية ٥٤ من سورة الأنعام .
(٣) سورة الكافرون .

وإنما كان هتافا ربانيا عميقا يحدو القلوب إلى السماء ويشدها نحو العلاء ، فتمتلىء بقوة الله قوة ، وتحس فى وصاله طمأنينة ، وتغدو بجواره عزيزة كريمة .

بهذا الامتلاء العقيدى والعبق الإيمانى ، كان العربى بعد الإسلام يقف أمام طواغيت فارس والروم ، يدعوهم إلى الإسلام بأعتزاز ، ويبين تعاليمه بجرأة ، ثم يحذرهم عاقبة جحودهم وكفرانهم ، ويخيرهم بين الجزية والحرب ، ذكرت كتب التاريخ أنه قبيل معركة (القادسية) طلب رستم قائد الفرس من المسلمين أن يرسلوا إليه وفودا ورسلا منهم ليباحثهم ويباحثوه ، ويفاوضهم ويفاوضوه .

فندب المسلمون فيمن ندبوا (المغيرة بن شعبة) ليكون سفيرهم إلى رستم ، فلما وصل إليهم وهم على زيهم وبسطتهم (أدنى) من مجلس رستم جاء وجلس معه على سريره ، فغضب وأمر بإنزاله عن السرير ، فالتفت المغيرة إليهم قائلا : (إننى لم أر أسفه منكم ، إننا معشر المسلمين لا يستعبد بعضنا بعضا ، فظننتكم كذلك ، وكان أحسن بكم ان تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض ، مع أنى لم آتكم وإنما دعوتمونى ، فقد علمت أنكم مغلوبون ، ولن يقوم لكم ملك على هذه السيرة ،

وتكلم رستم فعظم من شأن فارس ، ثم قال : (كانت عيشتكم سيئة ، وكنتم تقصدوننا فى الجدب ، فنردكم بشىء من التمر والشعير ، ولم يحملكم على ما صنعتم إلا ما بكم من جهد ، فنحن نعطى لأميركم كسوة وبغلا وألف درهم ، وكل رجل منكم حمل تمر ، وتنصرفون ، فلست أشتهى قتلكم) .

فلم يكن من المغيرة إلا أن التفت إليه قائلا:(أما الذى وصفتنا به من سوء الحال والضيق ، فنعرفه ولا ننكره ، والدنيا دول ، والشدة بعدها رخاء ، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلا على ما أوتيتم ، وقد أسلمكم الله بضعف الشكر إلى تغير الحال ، وإن الله بعث فينا رسولا يدعونا إلى كذا ، فإن أبيتم فأمر أهون من ذلك فهو الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة) .

والعبادات فى الإسلام ليست طقوسا جامدة ، أو مراسيم ميتة ، لا هدف لها ولا غاية ، بل إن الإسلام أرادها (مدرسة) للتربية (ومصنعا) للأخلاق والمثل ، أرادها معراجا تسمو به النفوس وتحلق ، ومصفاة تصفو بها الأرواح وتزكو ، فالإسلام يحرص من عباداته على نتائجها وآثارها ، ويحاسب على مدى التفاعل بها فضلا عن فرضية أدائها .

فالمدلول التطبيقى ، والهدف العملى لمبدأ (الصلاة) أن تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر ، وأنه لا قيمة للصلاة عند الله ما لم تؤد هذا الغرض ، فقال تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾(١) .

وقال الرسول ﷺ : (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعدا) ,

وقال : (كم من قائم حظه من صلاته التعب والنصب) .

وقال : (ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها) .

والمدلول التطبيقى والهدف العملى لمبدأ (الصوم) ترويض النفس وسائر الأعضاء على الطاعة ،

(١) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت

وأنه لا ثواب لمن صام بطنه وأفطر فرجه ، أو صامت معدته عن الطعام وأفطرت جوارحه على البغى والفحش والفجور ، وهذا ما يؤكده الإسلام فى أحاديث كثيرة للرسول ﷺ ، يقول فيها : (**إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائما فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم ، إنى صائم**)(١) .

ويقول : (**كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش**) .

ويقول : (**من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه**) . وجاء فى الخبر : (**إن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا ان تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذنانه فى الإفطار ، فأرسل إليهما قدحا وقال : قل لهما قيئا فيه ما أكلتما ، فقاءت إحداهما نصفه دما عبيطا ولحما غريضا ، وقاءت الأخرى مثل ذلك حتى ملأتاه ، فعجب الناس من ذلك فقال الرسول ﷺ : هاتان صامتا عما أحل الله لهما ، وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما ، فعدت إحداهما إلى الاخرى فجعلتا تغتابان الناس ، فهذا مما أكلتا من لحومهم**)(٢) .

وهكذا تستهدف فلسفة العبادة فى الإسلام تحقيق الأثر الفعلى ، وحصول التحول الكيفى فى حياة الناس .

كذلك القول فى القواعد الأساسية التى يقوم عليها التشريع الإسلامى ، فإنها تمتاز بقابليتها الأصلية ، واستعدادها الفطرى للتطبيق .

فالتشريع الإسلامى ليس كسائر التشاريع المسطرة فى بطون الكتب البعيدة عن صميم حياة الناس ، بل إن نزعته التطبيقية وخصائصه التنفيذية تجعله منهجا ثوريا وحركيا وانقلابيا ، فيه كل امكانات الثورة ، وكل متطلبات الحركة ، وكل حاجات الانقلاب .

فمن الشواهد التطبيقية لمبدأ (المساواة) فى الإسلام أن رسول الله ﷺ قلد أسامة بن زيد إمرة الجيش الإسلامى ، وهو ابن عبد رقيق ، وفى الجيش كبار الصحابة ، وأن بلالا الحبشى بلغ فى الاسلام مقاما عظيما وشأوا كبيرا ، جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا ذكره يقول : « أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا » .

وإنه لما خرج المسلمون لفتح مصر رغب المقوقس فى المفاوضة فأرسل إليهم وفدا ليعلم ما يريدون ثم طلب منه أن يبعثوا إليه وفدا منهم ، فشكل عمرو بن العاص (قائد الجيش آنذاك) وفدا قوامه عشرة من المسلمين ، برئاسة (عبادة بن الصامت) وكان شديد السواد طويلا .

ولما دخل الوفد على المقوقس تقدمهم عبادة ، فأبى أن يكلمه رجل أسود ، وقال لمن معه : نحوا عنى هذا الأسود ، وقد مواغيره يكلمنى : فقال الوفد جميعا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع إلى قوله ورأيه ، وقد امره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله .

---

(١) أخرجه البخارى فى الصوم : ٢ ومسلم فى الصيام : ١٦١ ، ١٦٢ . وأبو داود فى الصوم : ٢٥ . والترمذى فى الصوم : ٥٤ . والنسائى فى الصيام : ٤٢ ، ٤٣ . وابن ماجه فى الصيام : ١ . والدارمى فى الصوم : ٢٧ ، ٥٠ والإمام أحمد فى ١ : ١٩٥ ، وفى ٢ : ٢٧٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٤٣١ .

فقال لهم المقوقس : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وإنما ينبغى أن يكون دونكم ؟

قالوا : كلا إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا ، وأفضلنا سابقة ، وعقلا ورأيا ، وليس ينكر السواد فينا .

ومن الشواهد **التطبيقية** لمبدأ (العدالة) أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يفرض لجميع المسلمين عطاء من بيت المال ، ويقول : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب ، ولكن على منازلنا فى كتاب الله تعالى ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى غنمه .

وإذا كان الرسول ﷺ قد أعلن مبدأ العدالة فى كلام جامع قال فيه :(لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى)[1] .

فقد أصبح القول عملا ، والمبدأ واقعا فى حياة المسلمين ، وعلائقهم ومعايشهم ، وتحقق فيهم قول الله تعالى:﴿ **يأأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا** ﴾[2] .

بهذه النماذج التطبيقية كانت تتجسد مبادىء الإسلام التشريعية فى حياة المسلمين ، لم تكن شعارات للاستهلاك والمتاجرة ، كما أنها لم تكن نظريات ومثاليات مجردة عاجزة عن التطبيق ، عارية عن التصديق .

كذلك فإن قيام المجتمع الاسلامى فى عهد النبوة ، واستمراره زمنا ليس بالقصير ، دليل حاسم على قابلية الاسلام للتطبيق .

يقول (توماس كارليل) : ما كاد الإسلام يظهر حتى احترقت فيه وثنيات العرب ، وجدليات النصرانية ، وكل ما لم يكن بحق فإنه حطب جاف أكلته نار الإسلام ، فذهب والنار لم تذهب ، ولقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور ، وأحيا به منها أمة خاملة ، وأرضا هامدة ، لا يسمع لها صوت ولا تحس فيها حركة منذ بدء العالم،فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ، ورسالة من قبله ، فإذا الخمول شهرة ، والغموض قد استحال نباهة ، والضعة رفعة ، والضعف قوة ، والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء ، وعم ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال بالجنوب ، والمشرق بالمغرب ، وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى صار لدولة العرب رجل فى الهند ، ورجل فى الأندلس ، وأشرقت دولة الإسلام حقبا عديدة ، ودهورا مديدة ، بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة .

ولو تخطينا الإسلام إلى سواه من الاتجاهات والمبادىء الفكرية والسياسية (الوضعية) لرأينا أنها لا

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٧ ، وفى الفتن : ٢٠ .
(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

تزال تخبط فى مجالات التطبيق خبط عشواء ، فلا تكاد تستوى حتى تتعثر ، ولا توشك أن تتقدم حتى تتقهقر ، ويكفى أنها لم تقدم حتى الآن بين يدى الواقع ما يؤكد قابليتها التطبيقية ، بل إن الفشل عنوان تجاربها ، ومحاولاتها الكثيرة المستمرة .

ويلاحظ المتتبع للتطورات الفكرية والسياسية فى العالم آثار التخبط التى يعانيها الاتجاه الماركسى فى مجالات التطبيق .. وبخاصة فى أرض التجربة الأولى فى (روسيا) .

ففى أيلول عام ١٩٦١ نشرت جريدة (البرافدا) الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب الشيوعى فى الاتحاد السوڤياتى ، مشروع برنامج جديد للحزب يؤكد للمرة الثالثة خروج الحزب عن مبادئه الأساسية ..

فقد تضمن المشروع فكرة إلغاء النهج الثورى الذى تعتمده الشيوعية فى هدم الكيان الرأسمالى ، والذى نصت عليه الفقرة الواردة فى الصفحة ٢٥ من كتاب (المادية الدياليكتيكية) بما يلى : (وبالتالى فالانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية وتحرير الطبقة العاملة من النير الرأسمالى يمكن تحقيقها لا بتغييرات بطيئة ، ولا بإصلاحات ، بل بتغيير كيفى للنظام الرأسمالى أى بالثورة) .

وهذا ما جعل بكين وموسكو ـ فى السنوات الأخيرة ـ مسرحا لانشقاق كبير ، وخطير على مستقبل الاتجاه الماركسى نفسه !!

وفضلا عن جنوح المنهج الجديد الذى ـ نشرته الجريدة المذكورة ـ عن فلك النظام الأساسى للحزب الشيوعى .

فقد أكد المنهج من خلال تعهده بتحقيق المجتمع الشيوعى خلال العشرين سنة المقبلة ، فشل النظام الشيوعى خلال الأربعين سنة الماضية فى خلق الأساس الأيدلوجى والمادى للمجتمع الشيوعى ، وهذا يعنى بدون شك أن الشيوعية كفكرة فقدت القدرة على ما (تسميه بالحتمية التاريخية فى الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية) .

ويعود منشأ هذا العجز إلى أن النظرية الشيوعية لا ترتكز على أصول وقواعد عامة شاملة مرنة ، مما عرضها إلى كثير من التعديل والتبديل فى نظرياتها المنهجية والفكرية .

فمبدأ محو الملكية الفردية عدل عنه إلى حل وسط .. وهو الاحتفاظ للدولة بالصناعات الثقيلة ، والتجارة الخارجية ، والمصارف ، والمشاريع العامة ، كذلك عدل عن مبدأ توزيع السلع الاستهلاكية ، فبدل أن كانت القاعدة (من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته) أصبحت كما نص عليها الدستور السوڤياتى المعدل عام ١٩٣٦ (من كل حسب قدرته ولكل حسب ما يؤديه من عمل . ومن لا عمل له ليس له الحق فى أن يأكل)

ثم جاء المشروع الجديد الصادر عام ١٩٦١ يشير إلى أن الاتحاد السوڤياتى سيطبق خلال العشر السنوات الواقعة مابين (١٩٧١ ـ ١٩٨٠) مبدأ التوزيع حسب الحاجة ...

وبذلك يتراجع الشيوعيون مرة أخرى عن تعديل عام ١٩٣٦م .

ومن شواهد الفشل التطبيقى لمبدأ المساواة فى المجتمع الشيوعى .. يقول (كرين برنتون) فى كتابه (الثورة الشيوعية عناصرها ـ تحليلها ـ نتائجها صفحة ٣٣٥) : يعيش الروس الآن ـ كما يعرف

حتى المناصرون للشيوعية فى مجتمع يتفاوت فيه توزيع السلع الاستهلاكية ودخل الفرد تفاوتا كبيرا ، فالسياسى الروسى ذو المكانة ، أو مدير المصنع أو الكاتب أو راقصة الباليه يتمتع هؤلاء بثروة مادية تجعل من المجتمع الروسى مجتمعا يفتقر فى أساسه إلى المساواة الاقتصادية ، بقدر ما يفتقر إليها أى مجتمع رأسمالى . .

وثمة شواهد كثيرة على إخفاق (الشيوعية) فى مجالات التطبيق يضيق المجال لتعدادها . .

وقد خدع كثير من شبابنا بمظاهر المدنية الغربية . . وظنوا أن نظافة القوم فى مظاهرهم دليل على نظافة أرواحهم وضمائرهم ، وأن سبقهم فى ميادين الكشوف والاختراع يكفى لجعلهم مثلا عليا فى كل شىء .

ولكن ما كانت المبادىء لتوزن فى ميزان الحق بوفرة إنتاجها الآلى ، بل لما حققته فى المجتمع من قيم أخلاقية وإنسانية .

والحضارة الغربية بهذا المقياس مفلسة غاية الإفلاس . .

وإننا لا نجد من معانى الشعارات التى ينادى بها الغربيون إلا مظاهر التضليل والخداع .

يقول الأستاذ (جودا) أستاذ الفلسفة الانجليزية فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) : إن المدنية الحديثة ليس فيها توازن بين القوة والأخلاق .

فالأخلاق متأخرة جدا عن العلم ، ومنذ النهضة ظل العلم فى ارتقاء والأخلاق فى انحطاط حتى بعدت المسافة بينهما ، وبينما يتراءى الجيل الجديد للناظر فتعجبه خوارقه الصناعية ، وتسخير المادة والقوى الطبيعية لمصالحه وأغراضه ، إذ هو يمتاز فى أخلاقه . . فى شرهه وطمعه . . فى طيشه ونزقه ، وفى قسوته وظلمه عن غيره . . وبينما هو قد ملك جميع وسائل الحياة . . (إلى أن يقول):إذ هو لا يدرى كيف يعيش !!

وفى نطاق المساواة فشل الغرب فشلا ذريعا فى تطبيق مبدأ المساواة العنصرية والتطبيقية بين الناس ، فالتمييز العنصرى لا يزال مشكلة المشاكل فى أميركا . واحتقار البيض للملونين فى البلد الذى يدعى الحرية ، كرسته القوانين الرسمية نفسها ، فالرجل الأسود محروم من التعليم فى مدارس البيض ، وهو محروم من تأدية العبادة فى معابد البيض . . بل هو ممنوع فى بعض الولايات من السير فى شوارع البيض ؟ ومما روته الصحافة الغربية عن قصص التمييز العنصرى مؤخرا القصة التالية (لقد أفرج عن القس الزنجى الأميركى (وليمس كنج) من العاشرة صباح الأحد حتى التاسعة من صباح الأثنين ، لحضور الصلاة العامة ثم أعيد بعدها إلى السجن ليقضى مدة العقوبة المحكوم بها ، لأنه أكل فى مطاعم البيض ؟)

وفى اتحاد جنوب أفريقيا أجرت (بريطانيا) استفتاء مزيفا لتقرير بقاء الاتحاد عضوا فى الكومنولث البريطانى ، أو إعلان الجمهورية فيه ، وقد أعطى هذا الحق لجميع الأوربيين المقيمين فى الاتحاد وعددهم مليون ونصف مليون شخص ، بينما حرم منه سكان البلاد الوطنيون الأصليون وعددهم تسعة ملايين ونصف مليون ؟

وأجدنى فى غنى عن تقديم شواهد على فشل الغرب وكذبه فى دعوى السلام والحرية . . فالعالم العربى والإسلامى عانى وما يزال يعانى الكثير من ويلات الاستعمار وخداعه ووحشيته .

وهاهى ذى أميركا اليوم ترتكب باسم الحرية والسلام فى فيتنام وغيرها أبشع المجازر .. لتقدم بين يدى العالم من جديد دليلا على إفلاسها الإنسانى والأخلاقى والعقائدى .

كذلك القول فيما قامت به بريطانيا من تقتيل وتدمير فى جنوب الجزيرة العربية باسم الحرية والسلام ..

ويعلق الأستاذ (جودا) على ذلك فى كتابه (سخافات المدنية الحديثة) فيقول : (انظر إلى الطيارة التى تحلق فى السماء .. يخيل إليك أن صانعيها فى علمهم ولباقتهم فوق البشر .. ولكن انظر إلى المقاصد السيئة التى استخدمت لها الطيارة وغيرها من المخترعات .. إنما هى قذف القنابل وتمزيق جثث الإنسان وخنق الأحياء بالغازات السامة ، وإحراق الأجساد .. وهذا من مقاصد الحمق أو مقاصد الشياطين) .

الإسلام ضرورة

إذا كانت هذه أبسط مظاهر الفشل التى تواجهها الاتجاهات الفكرية والمعسكرات السياسية فى العالم أجمع .

وإذا كان المنهج الإسلامى ـ التجربة الوحيدة ـ فى حياة الإنسانية التى برهنت عن أصالتها وعمقها .. والتى حققت النجاح وبلغت الكمال ، فقد بات على الأمة أن تلتمس بواعث نهضتها ، وعوامل قوتها ، وطريق وحدتها وحريتها تحت راية الإسلام المجيدة ، وفى ظل قيادته الكريمة الرشيدة .

قوله تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾

من صفات المؤمنين الذين استحقوا أن يكونوا ورثة الفردوس ، الحفاظ على الأمانات والعهود ، ومن الأمانات الحفاظ على سلامة العقيدة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾(١)

كذلك من الأمانات الحفاظ على النفس ﴿ **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق** ﴾(٢) وكذلك الحفاظ على العقل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾(٣) .

كذلك الحفاظ على العرض ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا** ﴾(٤) كذلك الحفاظ على المال ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾(٥)

والأمانات هنا بمعناها الواسع تفيد معنى الرعاية لحقوق الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتموا الشهادة** ﴾(٦)

وقال سبحانه ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا** ﴾(٧)

وقال جل شأنه : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾(٨)

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة آل عمران
(٢) الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٩٠ من سورة المائدة .
(٤) الآية ٣٢ من سورة الاسراء .
(٥) الآية ٢٩ من سورة النساء .
(٦) الآية ٢٨٣ من سورة البقرة .
(٧) الآية ٥٨ من سورة النساء .
(٨) الآية ٢٧ من سورة الأنفال .

وهنا يقول تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾

وذلك بعد أن زكى قلوبهم بالإيمان ، ونفوسهم بالصلاة ، وألسنتهم عن اللغو ، وأموالهم بالزكاة . وأعراضهم بالعفة ، بعد ذلك زكى معاملاتهم برعاية الأمانة والعهود .

وفى سورة الأحزاب يقول عز من قائل : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾(١)

وكما حافظوا على الأمانات حافظوا على العهود والعقود والميثاق ، كل هذه مسئوليات يسأل الانسان عن الوفاء بها ، قال تعالى ﴿ يأأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾(٢) وقال عز من قائل: ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾(٣)

وقال تبارك اسمه: ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ﴾(٤)

ومن الرعاية للأمانات والعهود أداء الدين ، وهذا أمر قد خانه كثير من الناس ، فأصبح الغالب على أحوالهم المماطلة فى أداء الديون ، وأكل أموال الناس بالباطل ، والادلاء بها إلى الحكام ، ولو علم هؤلاء ما جاء على لسان الصادق المعصوم-صلوات ربى وسلامه عليه-فى هذا الشأن لو علموا ذلك لأدوا الأمانات إلى أهلها ، ولوقفوا عند المحافظة على حسن المعاملات .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أعوذ بالله من الكفر والدين . فقال رجل : يا رسول الله ، أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم)(٥) رواه النسائى والحاكم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (الدين راية الله فى الأرض ، فإذا أراد الله أن يذل عبدا وضعه فى عنقه) . رواه الحاكم .

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها . قالوا : وماذاك يا رسول الله ؟ قال : الدين)(٦) . رواه أحمد

وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من فارق روحه جسده ، وهو برىء من ثلاث دخل الجنة : الغلول والدين والكبر)(٧) .

وعن أبى أمامة رضى الله عنه مرفوعا : (من تداين بدين وفى نفسه وفاؤه ثم مات تجاوز الله عنه وأرضى غريمه بما شاء،ومن تداين وليس فى نفسه وفاؤه ثم مات اقتضى الله عز وجل لغريمه يوم القيامة) . رواه الحاكم .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه،ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله)(٨) . رواه البخارى .

(١) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب .
(٢) الآية الأولى من سورة المائدة .
(٣) الآية ٢١ من سورة النساء .
(٤) الآيتان ٩١ ، ٩٢ من سورة النحل .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٣ : ٣٨ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٤٦ ، ١٥٤ .
(٧) أخرجه الترمذى فى السير : ٢١ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢ . والدارمى فى البيوع : ٥٢ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ .
(٨) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ، وفى الاستقراض : ٢ . وابن ماجه فى الصدقات : ١١ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ،

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (من حمل من أمتى دينا ثم جهد فى قضائه ثم مات قبل أن يقضيه فأنا وليه)(١) رواه أحمد .

وعنها رضى الله عنها أنها كانت تداين ، فقيل لها : مالك وللدين ولك عنه مندوحة ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون فأنا ألتمس ذلك العون)(٢) .

وعن عمران بن حصين رضى الله عنهما قال : كانت ميمونة تدان فتكثر فقال لها أهلها فى ذلك ولاموها ووجدوا عليها ، فقالت : لا أترك الدين ، وقد سمعت خليلى وصفيى ﷺ يقول : (ما من أحد يدان دينا يعلم الله أنه يريد قضاءه إلا أداه الله عنه فى الدنيا)(٣) . رواه النسائى .

وعن صهيب الخير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أيما رجل يدين دينا وهو مجمع ألا يوفيه إياه لقى الله سارقا)(٤) رواه ابن ماجه

● ورواه الطبرانى فى الكبير ، ولفظه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما رجل تزوج امرأة ينوى ألا يعطيها من صداقها شيئا مات يوم يموت وهو زان،وأيما رجل اشترى من رجل بيعا ينوى ألا يعطيه من ثمنه شيئا مات يوم يموت وهو خائن/والخائن فى النار) .

وعن القاسم مولى معاوية رضى الله عنه أنه بلغه أن رسول الله ﷺ قال : (من تدين بدين وهو يريد أن يقضيه حريص على أن يؤديه فمات ولم يقض دينه ، فإن الله قادر على أن يرضى غريمه بما شاء من عنده ويغفر للمتوفى ، ومن تدين بدين وهو يريد ألا يقضيه فمات على ذلك ولم يقض دينه فإنه يقال له : أظننت أنا لن نوفى فلانا حقه منك؟فيؤخذ من حسناته فيجعل زيادة فى حسنات رب الدين ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات رب الدين فجعلت فى سيئات المطلوب) . رواه البيهقى .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته،ليس ثم دينار ولا درهم)(٥) .

رواه ابن ماجه .

ولفظه:قال رسول الله ﷺ : (الدين دينان فمن مات وهو ينوى قضاءه فأنا وليه ومن مات وهو لا ينوى قضاءه فذاك الذى يؤخذ من حسناته،ليس يومئذ دينار ولا درهم) .

المعنى

رب الدين : صاحب الأمانة المودعة .

قضى من حسناته : أى أخذ من ثوابه المدخر له سدادا لدينه الذى كان عليه فى حياته .

ليس ثم دينار : أى ليس يوم القيامة مال يدفع وإنما هناك أخذ الأجر تنفيذا وقضاء قال تعالى:﴿ وأما من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٧٤ ، ١٥٤ .
(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ٦ : ٧٢ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ .
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١١ .
(٤) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١١.
(٥) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٢ .

آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾[١] وقال تعالى: **﴿ وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ﴾**[٢].

وعن محمد بن عبد الله بن جحش رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته ، فقال : (سبحان الله سبحان الله ما أنزل من التشديد) . قال : فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى نزل ؟ قال : (فى الدين، والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى دينه)[٣] . رواه النسائى .

المعنى

الغد : اليوم الثانى

يقضى دينه : يؤدى. والمعنى أن المجاهد مهما أصاب وجاهد فلا يدخل الجنة حتى يسدد دينه ، وفيه الترهيب من الدين وأن عقابه صارم ويدخل النار ولو كان المدين صالحا مجاهدا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ (ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيدا: قال، فائتنى بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلا ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبا فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر فقال : اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا فرضى بك، وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى بالألف دينار ، فقال : والله مازلت جاهدا فى مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : هلا كنت بعثت إلى بشىء . قال أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا)[٤]. رواه البخارى .

المعنى

يسلفه : يقرضه .

كفى بالله شهيدا : الله مطلع علينا ورقيب وتكفى شهادته وحده سبحانه وتعالى .

(١) الآية ٨٨ من سورة الكهف .
(٢) الآية ٥٧ من سورة آل عمران .
(٣) أخرجه النسائى فى الجهاد : ٣٢ .
(٤) أخرجه البخارى فى الشروط : ١٦ ، وفى الزكاة : ٦٥ ، وفى الاستقراض : ١٧ ، وفى الكفالة : ١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٤٨ .

فائتنى بالكفيل : الضامن
صدقت : وفى رواية أبى سلمة فقال: سبحان الله نعم .
مسمى : موعد محدد
زجج . أى: سوى موضع النقر وأصلحه وهو من تزجيج الحواجب : وهو حذف زوائد الشعر، ويحتمل أن يكون مأخوذا من الزج وهو النصل كأن يكون النقر فى طرق الخشبة فشد عليه زجا ليمسكه ويحفظ ما فيه وقال، عياض : معناه سمرها بمسامير كالزج أو حشا شقوق لصاقها بشىء ورقعه بالزج وقيل : معناه أصلح موضع النقر .
جهدت : اجتهدت
ولجت فيه : دخلت فيه .

رجل اقترض مبلغا من آخر إلى زمن معلوم ولما آن أوان السداد ذهب إلى البحر فلم يجد مركبا ، فأتى بخشبة وضع المبلغ فيها ورماها فى البحر ثقة بالله تعالى ، وهو نعم الشهيد الكفيل ، والدائن ينتظر مدينه على الميناء ، فرأى خشبة فأخذها للدفء فوجد فى وسطها الأمانة والرسالة .

هذه حادثة يرويها لنا سيدنا رسول الله ﷺ عن صالحين برين مؤمنين معتمدين على الله جل وعلا ، أشرق نور الإيمان بالله تعالى فى قلوبهما ، وسطعت تعاليم نبيهما فى ذلك الوقت ، فهل فينا الآن هذا الإيمان ، وحب الخير والتوكل على الله ، وقضاء الحاجات ابتغاء ثواب الله ، والوفاء والصدق ورد الودائع ، وقد قال الله تعالى فينا: ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[١]

اكتسبت الأمة الشرف العظيم والتفوق الباهر والخيرية من رسولها الصادق الأمين محمد ﷺ الذى حكى لنا فعل رجلين من بنى إسرائيل ، رجاء أن نعمل مثلهما ، ونتقى الله ونثق به وندعوه رغبا ورهبا ونخشاه .

قال تعالى: ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** ﴾[٢]

وفى البخارى فى باب الكفالة فى القرض والديون بالأبدان وغيرها فروى هذا الحديث .

وفى الفتح عن عبد الله بن عمرو بن العاص يرفعه : (أن رجلا ذهب إلى النجاشى فقال له أسلفنى ألف دينار إلى أجل ، فقال : من الحميل بك ، قال : الله ، فأعطاه الألف فضرب بها الرجل ، أى: سافر بها فى تجارة فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه فحبسته الريح فعمل تابوتا)[٣] فذكر الحديث .

فالذى أقرض هو النجاشى فيجوز أن تكون نسبته إلى بنى إسرائيل بطريق الاتباع لهم ، نشرها : قطعها بالمنشار فانتثرت الدنانير منها والصحيفة فقرئت وعرف ما فيها . وفى الفتح: فى الحديث جواز الأجل فى القرض . ووجوب الوفاء به ، وقيل: لا يجب بل هو من باب المعروف . وفيه التحدث عما كان فى بنى إسرائيل وغيرهم من العجائب للاتعاظ والائتساء، وفيه جواز التجارة فى البحر وجواز ركوبه، وفيه بداءة الكاتب بنفسه، وفيه طلب الشهود فى الدين وطلب الكفيل .

---

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٥٨ من سورة النساء .
(٣) اخرجه أبو داود فى البيوع : ٠٢ وابن ماجه فى الصدقات : ٩ .

وفيه فضل التوكل على الله تعالى وأن من صح توكله تكفل الله بنصره وعونه .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من تزوج امرأة على صداق وهو ينوى ألا يؤديه إليها فهو زان ومن ادان دينا وهو ينوى ألا يؤديه إلى صاحبه أحسبه قال : فهو سارق) . رواه البزار .

وعن ميمون الكروى عن أبيه رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (أيما رجل تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر ليس فى نفسه أن يؤدى إليها حقها خدعها فمات ولم يؤد إليها حقها لقى الله يوم القيامة وهو زان، وأيما رجل استدان دينا لا يريد أن يؤدى إلى صاحبه حقه خدعه حتى أخذ ماله فمات ولم يؤد إليه دينه لقى الله وهو سارق) . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

المعنى

صداق : مهر .

زان : مرتكب الفاحشة .

سارق : خائن مجرم يأكل أموال الناس بالباطل .

خدعها : خانها وغشها .

وعن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (يدعو الله بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يديه ، فيقال: يا ابن آدم فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول: يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم ألبس ولم أضيع ولكن أتى على إما حرق وإما سرق وإما مضيعة، فيقول الله : صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته)(١) . رواه أحمد .

بفضل رحمته : لأنه أخذ الدين لحاجة وفى نيته الأداء إذا استطاع .

وروى عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الدين يقتضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات ، إلا من تدين فى ثلاث خلال : الرجل تضعف قوته فى سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد بما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه الغربة فينكح خشية على دينه فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة)(٢) . رواه ابن ماجه هكذا والبزار .

ولفظه : (ثلاث من تدين فيهن ثم مات ولم يقض فإن الله يقضى عنه : رجل يكون فى سبيل الله فيخلق ثوبه فيخاف أن تبدو عورته ـ أو كلمة نحوها ـ فيموت ولم يقض دينه ، ورجل مات عنده رجل مسلم فلم يجد ما يكفنه به ولا ما يواريه فمات ولم يقض دينه ، ورجل خاف على نفسه العَنَت فتعفف بنكاح امرأة فمات ولم يقض فإن الله يقضى عنه يوم القيامة) .

المعنى

المعنى: ثلاثة يرد الله عنهم غائلة الدين ، ويبعد عنهم عقاب المماطلة :

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ١٩٨ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١ .

أ ـ المستدين للجهاد فى سبيل نصر دين الله ، وتكبيت أعداء الإسلام ، والذب عن حياض آدابه .
ب ـ المدين لتكفين الفقير ودفنه .
جـ ـ الأعزب الذى يستدين ليتزوج .

يخلق ثوبه : يبلى

تبدو عورته : تظهر سوءته فاستدان ليتجمل وليخفى ما يجب ستره والعورة للرجل من السرة إلى الركبة ،والمرأة جميع جسمها ،فإن الله يرضى الدائن ويغدق عليه بنعيمه فيرضى عن مدينه .

وعن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله مع الدائن حتى يقضى دينه ما لم يكن فيما يكرهه الله . قال : وكان عبد الله بن جعفر يقول لخازنه : اذهب فخذلى بدين ، فإنى أكره أن أبيت ليلة إلا والله معى بعد أن سمعته من رسول الله ﷺ)(١) . رواه ابن ماجه .

المعنى:

إن الله مع الدائن : الذى يعطى المحتاج ويفرج كربة المتضايق المهموم المحزون مدة إعطائه فى حلال يرضى الله جل وعلا ،يقال دنت الرجل : أخذت منه دينا وادنته جعلته دائنا وذلك بأن تعطيه دينا . قال أبو عبيدة : دنته أقرضته ،ورجل مدين ومديون ،ودنته : استقرضت منه . قال الشاعر :

ندين ويقضى الله عنا وقد نرى مصارع قوم لا يدينون صنيعا .

قال تعالى:﴿ **إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾(٢) و﴿ **من بعد وصية يوصى بها أو دين** ﴾(٣) .

فخذلى بدين : صحابى جليل يريد أن يكون له فضل على الناس بالقرض رجاء أن الله يشمله برحمته ورضوانه ورعايته قال تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم** ﴾(٤)

وقال أيضا : ﴿ **وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾(٥) .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ولكنها الحسنات والسيئات ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ،ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه حبس فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج مما قال) . رواه الحاكم وصححه .

المعنى :-

حالت شفاعته : منعت عقابا فى الانتقام وتنفيذ أوامر الله .

فقد ضاد الله . أى:كان لله عدوا وضدا وأعلن الحرب على الله تعالى لأنه ساعد المجرمين وضيع حقوق

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ١٠. والدارمى فى البيوع : ٥٥
(٢) الآية ٢٨٢ من سورة البقرة .
(٣) الآية ١١ من سورة النساء .
(٤) الآية ١٧ من سورة التغابن .
(٥) الآية ٢٩ من سورة الحديد .

الله فى وساطته، قال تعالى :

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[١] .

أى: الذين يحادون الله هم : العصاة والفساق ووسطاء السوء وشفعاء الأشرار لذهاب معالم الحق ، وتفشى الباطل وضياع مظاهر العدل ، وإخفاء الأنوار المضيئة فى البر والخير ، فجند الله أنصار الحق .

من حاد الله : أى خالفه وعاداه، أى: من الممتنع أن تجد قوما مؤمنين يوالون المشركين، والمراد أنه لا ينبغى أن يكون ذلك، وحقه أن يمتنع ولا يوجد بحال، مبالغة فى الزجر عن موالاة أعداء الله والاحتراز والاحتراز عن مخالطتهم ومعاشرتهم . .

وقال تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين ﴾[٢] .

فليس ثم : يوم القيامة ﴿ يوم يؤخذ بالنواصى والأقدام ﴾

خاصم : جادل وفجر وشق عصا الطاعة .

سخط الله : غضبه

ينزع : يرجع. والمعنى أن الذى يميل إلى النفاق والباطل وعصيان الله يستمر غضب الله ينصب عليه حتى يتوب إلى الله ويعترف بالحق وينصره ويدافع عنه .

ردغة : جاء تفسيرها أنها عصارة أهل النار، والردغة : طين ووحل كثير .

المخرج : يصدق ويبعد عن الذم ويجتنب الغيبة والنميمة ويهجر الزور ويترك الباطل .

وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فقام: رجل فقال أنا يا رسول الله، فقال : من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأولبين . قال : إنى لم أنوه بكم إلا خيرا إن صاحبكم مأسور بدينه فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشئ)[٣] . رواه أبو داود .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التى نهى الله عنها : أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء)[٤] . رواه أبو داود

---

(١) الآيات ٢٠ - ٢٢ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ١٤ من سورة النساء .

(٣) أخرجه أبو داود فى البيوع : ٩ . والنسائى فى البيوع : ٩٨ . والإمام أحمد فى ٥ : ٢٠ .

(٤) أخرجه أبو داود فى البيوع : ٩.

وعن شفى بن ماتع الأصبحى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (أربعة يؤذون أهل النار على مابهم من الأذى : يسعون ما بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور يقول بعض أهل النار لبعض : ما بال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى . قال : فرجل معلق عليه تابوت من جمر ورجل يجر أمعاءه ورجل يسيل فوه قيحا ودما ورجل يأكل لحمه فيقال لصاحب التابوت : ما بال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد مات وفى عنقه أموال الناس لا يجد لها قضاء أو وفاء) . الحديث رواه ابن أبى الدنيا .

المعنى

مأسور : فى سجن من جهنم وفى يديه سلاسل النار وأغلالها فيشعر بالذلة والعقاب .

الوحدة : العزلة والعذاب والحرمان من نعيم الجنة وفيه الترهيب من الدين وعدم الوفاء بالسداد وعدم حسن الأداء .

لايدع له قضاء : لا يترك شيئا يقوم بأدائه والمعنى يبعثر جميع أمواله ويوزعها فرارا من أداء دينه .

يؤذون : يقدمون لهم الآلام زيادة على الذى لحقهم .

الحميم : الماء الشديد الحرارة قال تعالى: ﴿ وسقوا ماء حميما ﴾[١] ﴿ يصب من فوق رءوسهم الحميم ﴾[٢] .

الجحيم : النار : أى: يمشون بين عذابين . ماء مغلى ونار الله الموقدة .

والثبور : العذاب والهلاك .

ما بال : ما حال أو شأن .

تابوت : صندوق من نار .

يجر أمعاءه : تخرج معدته .

يسيل فوه : يخرج فمه مادة قذرة .

أموال الناس : المذموم البعيد من رحمة الله من تداين دينا لم يترك له سدادا .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه)[٣] . رواه أحمد والترمذى .

وعن جابر رضى الله عنه قال : (توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه فخطا خطوة ثم قال : أعليه دين ؟ قلنا : ديناران فانصرف فتحملها أبو قتادة فأتيناه ، فقال أبو قتادة : الديناران على فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم وبرىء منهما الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت إنما مات أمس . قال : فعاد إليه من الغد ؟ فقال : قد قضيتهما ، فقال رسول الله ﷺ : الآن بردت جلدته)[٤] . رواه أحمد بإسناد حسن .

---

(١) الآية ١٥ من سورة محمد .
(٢) الآية ١٩ من سورة الحج .
(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٧٦ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢, والإمام أحمد فى ٢ : ٤٤٠ ، ٤٧٥
(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣٠ .

وروى عن على رضى الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنازة لم يسأل عن شىء من عمل الرجل ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دين كف عن الصلاة عليه،وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل رسول الله ﷺ هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران . فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : صلوا على صاحبكم.فقال على رضى الله عنه : هما على يا رسول الله برىء منهما فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلى بن أبى طالب : جزاك الله خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك؛إنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة . فقال بعضهم : هذا لعلى خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة .) . رواه الدارقطنى ورواه أيضا عن طريق عبيد الله الوصافى عن عطية عن أبى سعيد .

المعنى :

معلقة : مرهونة محبوسة بعيدة عن نعيم الله مهما عملت صالحا حتى يؤدى ما عليها بردت جلدته . أى: بعد دفع الدينارين لصاحبهما زال عنه العذاب وتنعم .

كف : امتنع

فعدل عنه : بعد الصلاة

هما على : أنا أدفعهما وفاء لدينه .

برىء منهما : خلصت ذمته منهما وطهرت .

فك رهانك : أطلقت من أسر العذاب .

مرتهن : محبوس فى النار

للمسلمين عامة : الثواب يشمل كل من فك عسر مسلم وأزال عنه حقوق دينه وأتمه ووفاه قال تعالى : **﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾**(١) وقال تعالى: **﴿ وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾**(٢) .

أى:فعلة الحسنى ﴿ من أمرنا ﴾ مما نأمر به ﴿ يسرا ﴾ سهلا ميسرا غير شاق .

وروى عن أنس رضى الله عنه (أن النبى ﷺ أتى بجنازة ليصلى عليها قال : هل عليه دين ؟ قالوا : نعم فقال النبى ﷺ : إن جبريل نهانى أن أصلى على من عليه دين ، فقال : إن صاحب الدين مرتهن فى قبره حتى يقضى عنه دينه) . رواه أبو يعلى والطبرانى .

ولفظه قال :

كنا عند النبى ﷺ : فأتى رجل يصلى عليه ، فقال : هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : نعم . قال : فما ينفعكم أن أصلى على رجل روحه مرتهن فى قبره لا تصعد روحه إلى السماء؟فلو ضمن رجل دينه فصليت عليه فإن صلاتى تنفعه) .

قال الحافظ : قد صلى النبى ﷺ،إنه كان لا يصلى على المدين ثم نسخ ذلك .

فروى مسلم وغيره من حديث أبى هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل الميت عليه

---

(١) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الكهف .

الدين فيسأل هل ترك لدينه قضاء فإن حدث أنه ترك وفاء صلى عليه وإلا قال : (صلوا على صاحبكم) فلما فتح الله عليه الفتوح قال : (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى وعليه دين فعلىَّ قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته)[1] .

المعنى

جبريل نهانى : فى أول الرسالة امتنع ﷺ من الصلاة ترهيبا للذى يأخذ ولا يفى ، وستجد بعد ذلك أن هذا النهى زال .

مرتهن : محبوس لا يذهب إلى نعيم الجنة حتى يؤدى عنه دينه .

لاتصعد روحه : لاتسمو إلى أعلى فتشعر بنعيمها ومرافقة الأبرار الصالحين .

ضمن : تعهد بالوفاء عنه، ترغيب منه ﷺ فى زيادة أجر المحسنين الذين يؤدون حقوق الله عن أصحابهم .

فقه الأحاديث

وقد استعاذ ﷺ من الدين لتبعد أمته عنه لأضراره :

أولا : الدين يعادل فى العقاب الكفر فى الذلة والإهانة وغلبة الدائن وسلطته على المدين . (أتعدل الكفر بالدين) .

ثانيا : الدين راية الضعف والمسكنة ترفرف على المدين لضعته .

ثالثا : عدم الدين يجلب السعادة وتنسم الحرية والشعور بالكرامة والمروءة (أقلل من الدين) .

رابعا : عدم الاستدانة بشارة الاستقامة وعنوان الهداية وطريق الجنة .

خامسا : ترك الدين فى الرخاء أحسن خشية أن يستدين فلا يجد ما يؤدى به وبذا يدخل جهنم بسبب دينه وتؤخذ حسناته للدائن وتطرح عليه سيئاته أيضا انتقاما منه وترضية لصاحب الدين .

سادسا : كثرة الاستدانة تجلب الفقر وتنزع البركة من المال وتنذر بالخراب والخسران (أتلفه الله) .

سابعا : جواز الاستدانة عند الحاجة فقط على شريطة نية الوفاء وحسن الأداء (التمس ذلك العون) .

ثامنا : قضاء حاجات الناس وفك كروبهم محمدة ومجلبة للخير ورضوان الله (كانت ميمونة تدان فتكثر) .

تاسعا : من أخذ مال الناس بنية عدم الوفاء كالغصب والنهب (لقى الله سارقا) (وهو خائن) .

عاشرا : الزوج إذا لم يدفع المهر لزوجته فهو آثم وعيشته معها محرمة وهو عاص ربه (زان) .

الحادى عشر : لو مات المجاهد الذى أبلى بلاء حسنا فى نصر دين الله (وعليه دين ما دخل الجنة) .

الثانى عشر : توطيد العزيمة على حسن الأداء سعادة ومحبة من الله وأدعى لرحمته وزيادة البركة فى ماله (كفى بالله وكيلا) .

الثالث عشر : المستدين لحاجة يؤدى الله عنه دينه ويكرمه (صدق عبدى أنا أحق من قضى عنك) .

---

(١) أخرجه مسلم فى الفرائض : ١٤، وأبو داود فى الوصايا : ١٧. والنسائى فى الجنائز . وابن ماجه فى الصدقات : ١٣ . والإمام أحمد فى ٢ : ٧٠

الرابع عشر : الدائن الذى يزيل كرب الناس مشمول بعز الله ورحمته (الله مع الدائن) فاحذر ياأخى من الدين ما استطعت واقتصد فى إنفاقك وتوسط ولا تسرف .

تحذير

وقد حذر رسول الله ﷺ من مطل الغنى كما رغب فى إرضاء صاحب الدين ..

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع) [1] رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى . [أتبع، أى: أحيل] .

وعن عمرو بن الشريد عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال:(لى الواجد يحل عرضه وماله) رواه ابن حبان فى صحيحه .

(لى الواجد) بفتح اللام وتشديد الياء : أى مطل الواجد الذى هو قادر على وفاء دينه يحل عرضه ، أى: يبيح أن يذكر بسوء المعاملة، وعقوبته حبسه .

وعن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يحب الله الغنى الظلوم ولا الشيخ الجهول ولا الفقير المختال . وفى رواية : إن الله يبغض الغنى الظلوم والشيخ الجهول والعائل المختال) رواه البزار والطبرانى فى الأوسط من رواية الحارث الأعور عن على والحارث وثق ولا بأس به فى المتابعات .

المعنى

مطل : تأخير الحق وتسويف دفعه للدائن .

الغنى : أى القادر على وفاء الدين لربه بعد استحقاقه .

ظلم : محرم عليه، وخرج بالغنى العاجز عن الوفاء ، قال الشرقاوى:ولفظ المطل يشعر بتقدم الطلب فيؤخذ منه أن الغنى لو أخر الدفع مع عدم طلب صاحب الحق له لم يكن ظلما . حكى أصحابنا وجهين أن مطل الغنى غريمه من إضافة المصدر للفاعل.وقيل من إضافته للمفعول والمعنى أنه يجب وفاء الدين وإن كان مستحقه غنيا ولا يكون غناه سببا لتأخيره عنه وإذا كان كذلك فى حق الغنى فهو فى حق الفقير أولى .

فليتبع : فليحتل ندبا لا وجوبا خلافا للحنابلة . أى:إذا أحيل بالدين الذى له على موسر فليرض ، وقوله:ظلم يشعر بكونه كبيرة والجمهور على أن فاعله يفسق لكن هل يثبت فسقه بمرة واحدة أم لا ؟ قال النووى : مقتضى مذهبنا التكرار . والراجح عند المتأخرين من الشافعية الأول فلا يكون كبيرة إلا بالتكرار ثلاث مرات فأكثر ويدخل فى المماطل كل من لزمه حق كالزوج لزوجته والحاكم لرعيته .

---

(١) أخرجه البخارى فى الحوالات : ١ ، ٢ ، وفى الاستقراض : ١٢ . ومسلم فى المساقاة : ٣٣. وأبو داود فى البيوع : ١٠. والترمذى فى البيوع : ٦٨. والنسائى فى البيوع : ١٠٥ ، ١٠١. وابن ماجه فى الصدقات : ٨. والإمام مالك فى البيوع : ٨٤. والدارمى فى البيوع : ٤٨. والإمام احمد فى ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٣١٥ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٤٦٣ - ٤٦٥ .

الغنى : صاحب الخيرات الجمة الذى يأكل حقوق الناس،وكبير السن الفاسق الذى يرتكب المعاصى .

وعن أبى ذر رضى الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال : (ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله) فذكر الحديث إلى أن قال : (والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزانى والفقير المختال والغنى الظلوم) [١] رواه أبو داود .

وروى عن خولة بنت قيس امرأة حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنهما قالت : قال رسول الله ﷺ: (ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض ونون الماء،ومن انصرف غريمه وهو ساخط كتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر ظلم) رواه الطبرانى فى الكبير .

المعنى

المختال : الذى يعجب بنفسه .

العائل : الفقير المتصف بالغطرسة .

الشيخ الزانى : الذى يفعل الفاحشة مع أن قوة الشباب زالت منه ويلزمه الوقار والأدب .

ما قدس : ما رضى عنها وما طهرها،والمعنى أن الله تعالى يذل ويهين كل طائفة لا تساعد الفقير على أخذ الحق من الجبار المستكبر،وفيه الحث على نصر الحق وإغاثة الضعيف رجاء دوام عز الله ونصره لمحبى الحق والعدل .

متعتع : غير ناقص متعب .

غريمه : دائنه .

صلت : دعت له بالاستغفار وزيادة النعم .

نون الماء : حوت البحر .

ساخط : غضبان .

كتب : تقيد فى صفحاته سيئات تتكرر مدى الأيام حتى يؤدى ما عليه لأنه ظلمه بتسويفه ونقصه .

وعنها رضى الله عنها قالت : (كان على رسول الله ﷺ وسق من تمر لرجل من بنى ساعدة فأتاه يقتضيه فأمر رسول الله ﷺ رجلا من الأنصار أن يقضيه فقضاه تمرا دون تمره ، فأبى أن يقبله فقال : أترد على رسول الله ﷺ ؟ قال : نعم ومن أحق بالعدل من رسول الله ﷺ ؟ فاكتحلت عينا رسول الله ﷺ بدموعه ثم قال : صدق ومن أحق بالعدل منى ، لاقدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها حقه من شديدها ولايتعتعه ، ثم قال : ياخولة عديه واقضيه فإنه ما من غريم يخرج من عند غريمه راضيا إلا صلت

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجهاد : ١٥٧ .

عليه دواب الأرض ونون البحار وليس من عبد يلوى غريمه وهو يجد إلا كتب الله عليه فى كل يوم وليلة إثما) رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا قدست أمة لا يعطى الضعيف فيها حقه غير متعتع) . رواه أبو يعلى ، ورواته رواة الصحيح .

ورواه ابن ماجه بقصته ولفظه قال : (جاء أعرابى إلى النبى ﷺ يتقاضاه دينا كان عليه فاشتد عليه حتى قال : أخرج عليك إلا قضيتنى، فانتهره أصحابه فقالوا : ويحك تدرى من تكلم ؟ فقال : إنى أطلب حقى ، فقال النبى ﷺ : هلا مع صاحب الحق كنتم، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس ، فقال لها : إن كان عندك تمر فأقرضينا حتى يأتينا تمر فنقضيك ؟ فقالت: نعم بأبى أنت وأمى يارسول الله فأقرضته فقضى الأعرابى وأطعمه، فقال : أوفيت أوفى الله لك، فقال : أولئك خيار الناس ، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متعتع) [1] . رواه البزار من حديث عائشة مختصرا . والطبرانى من حديث ابن مسعود بإسناد جيد .

المعنى

ويحك : كلمة رحمة واستعطاف

تدرى : أتعلم من تحادث .

هلا : هلا للتحريض . أى ، أود أن تكونوا مع صاحب الحق تساعدونه .

فأقرضينا : أعطينا شيئا سلفة : والقرض : تمليك شىء على أن يرد مثله .

فقضى : أدى ما عليه ﷺ للأعرابى وأكرمه وقدم له الغداء وأحسن ضيافته .

أوفيت : أتممت الأداء وزدت زادك الله كمالا ورقيا ثم مدح ﷺ المحسنين .

ماذا يريد رسول الله ﷺ

أولا : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادرا على الدفع .

ثانيا : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأدى دينه (فليتبع) .

ثالثا : حسن معاملة الدائن ليتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته (لى الواجد) .

رابعا : كل من قدر على أداء ما اقترض ولم يف حشر مع الظالمين وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين وحل عليه غضب الله وكراهته (الغنى الظلوم) .

خامسا : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ويوقعها فى الذنوب المهلكة ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها (ما قدس الله أمة) أى : طهرها من الخطايا .

سادسا : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع (صلت عليه دواب الأرض) أى : كل ما دب وفيه الحياة .

سابعا : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه وسجلت عليه الآثام بكرور الأزمان (يلوى غريمه) ثم ضرب ﷺ المثل الأعلى لوفائه وحلمه وحسن أدائه . (ياخولة غديه واقضيه) ثم وسع خلقه ذلك الأعرابى الجاف الفظ الغليظ الذى اشتد عليه حتى قال : (أخرج عليك إلا قضيتنى) أى : أعلن

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٧١.

عليك الحرب وأشق عصا طاعتك إن لم تؤد حقى . مسكين أيها الأعرابى !!
شىء قليل اقترضه منك سيدنا رسول الله ﷺ ، وجئت وليس عنده شىء مطلقا ، لكن أبى كرمه ﷺ إلا أن يكرم وفادته ، ويغدق عليه بإحسانه ، ويرد ما أخذه مضاعفا ، ثم دعا له ﷺ الأعرابى: (أوفيت أوفى الله لك) هكذا تكون مكارم الأخلاق:حسن الأداء مع البشاشة واللطف والجود .

وهنا درس مفيد ، وعظة بالغة ، لعلنا نعمل بها ونتخلق بأخلاق سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ ، يريد أصحابه أن يردوا جهل ذلك الأعرابى ويفهموه درجة السيد الأعلى المصطفى ﷺ ، فحضهم ﷺ على نصر الضعيف ، ومجاراة الحق ، والأخذ بيد الضعيف (هلا مع صاحب الحق كنتم) .

أرأيتم أبدع من هذا ؟

يحض أصحابه ﷺ أن يكونوا فى صف صاحب الحق مهما سمت درجة المدين ، وقويت شوكته ، وعز سلطانه ، والأبدع من هذا أن خير الخلق زاهد راغب عن حطام الدنيا ، مستغرق فى طاعة الله ، فقرض من الاعرابى ، ثم قرض من خولة ما يؤدى به حق الأعرابى ، حتى أفرحه وأكسبه رضله ، ولم يخرج من عند رسول الله ﷺ إلا وهو مبتسم جذل فرح ترفرف عليه راية الوفاء وحسن الأداء ، وطيب القضاء ، ثم قال ﷺ:(أولئك خيار الناس) أى:الذين يدافعون عن الحق وينضمون إلى أصحاب الحق ، ويساعدون على تنفيذه ، وكذا د فع الحق بسهولة . من صفات الأبرار الصالحين ، أفاضل الخلق وأطايبهم وأحسنهم .

فعليك ـ أخى ـ بحسن المعاملة ، ودفع ما عليك من الديون بالتى هى أحسن ، والتخلق بأخلاق نبيك ورسولك ، فتفى بوعدك ، وتنجز ما عاهدت عليه ، وتتقى الله وتخشاه ، وتحسن كما أحسن الله إليك ، قال تعالى : ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾ (١)

الآيات الدالة على إحسان الله إلى المتقين المؤتمنين الذين يرعون حقوق الناس بالحق ويؤدونه

قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ (٢) .

يعنى البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام ، ويؤخذ منها العمل بكتابه وتنفيذ أوامره ، واجتناب مناهيه ومنه رد الأمانة .

﴿ بعد توكيدها ﴾ بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿ كفيلا ﴾ أى:شهيدا شاهدا بتلك البيعة ، فإن الكفيل مراع لحال المكفول به رقيب عليه ، وقد اطلعت أيها المسلم على حديث رجل من بنى إسرائيل ، ورأيت حفظ الله لماله الذى رماه فى البحر فى خشبة .

(١) الآية ٢٠ من سورة الشورى .
(٢) الآية ٩١ من سورة النحل .

وقال تعالى ﴿ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ (١) .

وقال تعالى: ﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ (٢) .

قال تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ﴾ (٣) .

قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ (٤) .

قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (٥) .

﴿ زكاها ﴾ :أنماها بالعلم والعمل ﴿ دساها ﴾: نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق والخيانة .

وقال تعالى : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة ﴾ (٦) .

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم ﴾ (٧) .

من سورة الأنفال :

أى :مبدلا إياها بالنقمة لخيانتهم ومعاصيهم يزيل الخير ويحفهم بالضر سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون ﴾ (٨)

وقال تعالى : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ (٩) .

خاتمة الصفات

قوله تعالى : ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ :

كما افتتح الله تعالى صفات المؤمنين بقوله: ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ اختتمها بالمحافظة على تلك الصلوات فهم فيها خاشعون ، وعليها محافظون .

خاشعون فى أدائها ، لا تنصرف قلوبهم إلى شواغل الدنيا ، محافظون على أوقاتها وأركانها وشروطها وسننها .

قوله تعالى: ﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ :

أى:أولئك المؤمنون الذين تحلوا بتلك الخلال السامية جديرون بأن يتبوءوا أرفع مراتب الجنات ، كفاء ما زينوا به أنفسهم من الأخلاق الفاضلة والآداب العالية ، ويبقون خالدين فيها أبدا . لا يخرجون منها ولا يموتون .

وقصارى ما سلف ـ أن فلاح المؤمن موقوف على اتصافه بتلك الصفات السامية العالية القدر ، العظيمة الأثر ، فى حياته الروحية وكمالاته النفسية .

---

(١) الآية ٩٢ من سورة النحل .
(٢) الآية ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الآية ٣٤ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ١٢ من سورة الروم .
(٥) الآيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٦) الآيات ١٣١ ـ ١٣٣ من سورة الأنعام
(٧) الآية ٥٣ من سورة الأنفال .
(٨) الآية ٣ من سورة الأنعام .
(٩) الآية ٣٨ من سورة الحج .

وروى عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحى يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل ، فأنزل عليه يوما ، فمكث ساعة ثم سرى عنه فاستقبل القبلة فقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا . ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة)[١] . ثم قرأ : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾ حتى ختم العشر .

المبدأ والمعاد

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

تفسير المفردات

السلالة : ماسل من الشيء واستخرج منه، وتارة تكون مقصودة كخلاصات الأشياء كالزبد من اللبن ، وتارة تكون غير مقصودة كقلامة الظفر ، وكناسة البيت .

قرار : أى مستقر .

مكين : أى متمكن .

العلقة : الدم الجامد .

المضغة : قطعة اللحم قدر ما يمضغ .

تبارك الله : أى تعالى وتقدس .

التفسير

عن أنس رضى الله عنه : (قال عمر : وافقت ربى فى أربع ، قلت: يارسول الله لو صلينا خلف المقام فأنزل الله ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾[٢] وقلت : يارسول الله لو اتخذت على نسائك حجابا فإنه يدخل عليك البر والفاجر فأنزل الله ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾[٣] . وقلت لأزواج النبى ﷺ : لتنتهن أو ليبدلنه الله أزواجا خيرا منكن فنزلت ﴿ **عسى ربه إن طلقكن** ﴾[٤] . الآية . ونزلت ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة** ﴾ إلى قوله: ﴿ **ثم أنشأناه خلقا آخر** ﴾ فقلت : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ فقال رسول الله ﷺ : هكذا أنزلت ياعمر) أخرجه الطيالسى .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ٣٤ ، وفى ٤ : ٢٦٨ ، ٢٧١ . والدارمى فى المقدمة : ٢ .

(٢) الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٤) الآية ٥ من سورة التحريم .

أيها الإنسان: أصلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين هذا وذاك تحمل فى جوفك العذرة ، تنتنك عرقة ، وتؤذيك بقة ، وتقتلك شرقة ، فكيف تتكبر على الله وأنت الذى نزلت من مجرى البول مرتين .

سبحانك ربى يا من قلت: ﴿ كلا إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ (١) ويا من قلت : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون ﴾ (٢) .

﴿ ياأيها الإنسان ما غرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ (٣) .

دواؤك فيك وما تبصر وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ :

أى: ولقد خلقنا أصل هذا النوع وأول أفراده وهو آدم عليه السلام من صفوة طين لا كدر فيه .

ويرى جماعة من المفسرين : أن المراد بالإنسان هنا ولد آدم وهم يقولون : إن النطف تتوالد من الدم الحادث من الأغذية ، وهى إما حيوانية وإما نباتية ، والحيوانية تنتهى إلى نباتية ، والنبات يتوالد من صفو الأرض والماء ، فالإنسان على الحقيقة متوالد من سلالة من طين ، ثم تواردت على تلك السلائل أطوار الخلقة إلى أن صارت نطفا .

قوله تعالى : ﴿ ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ .

ولابد من تسليط الأضواء العلمية الكاشفة على هذا القرار المكين الذى سماه خالقه قرارا، أى: مستقرا . ووصفه بأنه مكين ، ذلك لأن عادة الجسم قد جرت على أمر معهود وهو طرد الأجسام الغريبة ، فلماذا لم يطرد الرحم النطفة التى حبت فيه من ماء الرجال ، وهى غريبة ، ذلك لأن الله هيأ المكان ليكون قرارا ، وليكون مكينا .

فماذا يقول العلم ؟ وماذا يقول العلماء المتخصصون فى الأجنة ؟

إن العلم له حديث شجون فى هذا المجال الذى إن دل على شىء فإنما يدل على الوحدانية الخالصة ، والعلم المحيط ، والإرادة النافذة ، والقدرة الفائقة ، لمن يقول للشىء كن فيكون ، ولمن يقول: ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (٤) .

القرار المكين :

﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون ﴾ .

(١) الآية ٣٩ من سورة المعارج .
(٢) الآيات ٢٠ - ٢٣ من سورة المرسلات .
(٣) الآيات ٦ - ٨ من سورة الانفطار .
(٤) الآية ٦ من سورة آل عمران .

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾ :

لقد سمى الله تعالى الرحم القرار المكين . . الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج ، حتى تصير جنينا ، ثم حميلا ، ثم تخرج طفلا كامل الخلقة سوى التكوين .

ولذا فلابد أن يكون الرحم محروسا ومهيأ لأن يكون القرار المكين ، كما أنه الفراش الوثير لتلك النطفة فالعلقة . .

وأول شىء نلاحظه هو أن الرحم موضوع فى الحوض الحقيقى لهيكل المرأة الذى يحمى الرحم من كل عدوان خارجى ، ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم ، ومع ذلك تسمح له بالحركة والنمو ، حتى أن حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة فى نهاية الحمل . . إذ أن حجم رحم الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من مليليتر ونصف ، بينما يتسع حجم الرحم ذاته فى نهاية الحمل لسبعة آلاف مليليتر . . ومع ذلك يبقى الرحم فى مكانه والأربطة ممسكة به . . كما نلاحظ عضلات الحوض . . والعجان (يعرف الأطباء العجان باسمه اللاتينى الاغريقى PERINEUH) وهى تحفظ الرحم فى مكانه كما تحفظ الأعضاء الأخرى الهامة الموجودة فى الحوض ، كالمثانة والمستقيم والقناة الشرجية ، ولولا ذلك الضغط المستمر من عضلات العجان لسقطت أعضاء الحوض مثل الرحم والمثانة والقناة الشرجية ، ولبرزت إلى الخارج ، وذلك ما نشاهده فعلا عند تمزق عضلات العجان فى حالات الولادة المتعسرة ، أو فى الأمراض التى تصيب عضلات العجان مما يؤدى إلى سقوط هذه الأعضاء .

وبعد ذلك نرى النسيج الخلوى الضام الذى يحيط بعنق الرحم ، وبالجزء العلوى من المهبل ، ويربط أجزاءه بالمثانة من الأمام ، وبالمستقيم من الخلف ، يساند مساندة فعالة فى جعل الرحم قرارا مكينا لنمو النطفة الإنسانية فى أدوارها المختلفة ، كما أننا نلاحظ توازنا عجيبا بين الضغط الموجود فى تجويف البطن وتجويف الحوض ، بحيث يمسك بالأعضاء فى أماكنها .

وأعضاء الحوض تساند بعضها بعضا . . واتصال الرحم بالعنق واتصال عنق الرحم بالمهبل مما يساعد مساعدة فعالة فى ثبات الرحم فى مكانه . . ثم إن الرحم بذاته مكون من ثلاث طبقات . خارجية من البريتون وداخلية تكون غشاء الرحم .

وبينهما الطبقة العضلية الثخينة والمكونة ذاتها من ثلاث طبقات من العضلات ولهذه العضلات اهمية خاصة فى منع النزيف من الرحم ، وخاصة بعد الولادة إذ لولا انقباضها الشديد لتفجرت الأوعية المتفتحة أنهارا من الدم حتى تودى بحياة الأم ، ولكن الله هيأ هذه العضلات العاصرة لتقفل هذه الفوهات المتدفقة بالدماء عقب الولادة مباشرة .

كما أن الرحم يستقر كذلك نتيجة إفراز هرمون الحمل البروجسترون . . إذ أن هذا الهرمون يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومتئدة عكس هرمون الأنوثة الأوستروجين الذى يجعل انقباضات الرحم نزقة هاشة باشة للمنى . . كما وصفها الفخر الرازى بقوله : (إن الرحم إذا كان قد انقطع عنه الطمث قريبا وكان خاليا من الفضول المانعة له عن فعله اشتد شوقه إلى المنى حتى أن الإنسان يحس فى وقت الجماع وكأن الرحم يجذب إحليله إلى داخله كما تجذب المحجمة الدم) .

ولا يمكن أن يحصل ذلك اثناء الحمل مثلا . . لأن هرمون البروجسترون (هرمون الحمل)

يمنع الرحم من مثل ذلك الطيش . . ويأمره بالسكينة والوقار فإن بداخله درة مكنونة لو فعل بها ذلك لقذفها إلى الخارج .

بعد أن أجملنا العوامل التى تحفظ الرحم فى مكانه ، وتجعله القرار المكين سنبدأ بشىء من التفصيل ودون أن ندخل فى تفصيلات علم التشريح فذلك متروك لطلبة الطب والأطباء .

١ - الحوض : (BONY PELVIS) :

يتكون الحوض من مجموعة من العظام متصلة ببعضها البعض اتصالا دقيقا محكما فتكون مثل الصندوق الخشبى ولكن له فتحتان رئيسيتان : من أعلى حيث يتصل بتجويف البطن ومن أسفل حيث يغطى بعضلات العجان وبه نهاية القناة الهضمية ونهاية الجهاز البولى والتناسلى . . وتسمى عظمتا الحوض على جانبيه بالحرقفة والورك والعظم الخلفى يدعى العجز والعصعص . . أما العظم الأمامى فيسمى العانة .

ويتصل الحوض بالعمود الفقرى حيث يتصل عظم العجز بالفقرات القطنية كما تتصل الحرقفة من كلا الجانبين بعظمتى الفخذ ويحفظ الحوض فى الأنثى أجهزتها التناسلية الهامة : الرحم والمبيض وقناتى الرحم والمهبل . . كما يحفظ لكلا الرجل والمرأة المثانة ومتعلقاتها والمستقيم ومتعلقاته والأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب .

ولا شك أن وظيفة حوض المرأة تختلف إلى حد ما عن وظيفة حوض الرجل فبالإضافة إلى حفظ الأعضاء التى ذكرناها فإن على حوض المرأة أن يكون مستعدا لنمو الرحم نموا هائلا .

كما أن عليه أن يتقبل إخراج الجنين ومتعلقاته مثل المشيمة والأغشية إلى العالم الخارجى أثناء الولادة .

ولذا لابد أن يختلف حوض المرأة فى تركيبه عن حوض الرجل .

ويقول علماء الأجنة : (يمتاز حوض السيدة عن حوض الرجل بالنسبة لقيامه بوظيفة هامة إضافية تتطلب منه بغض الضروريات اللازمة التى لا يحتاج إليها حوض الرجل . . فنمو الجنين فى الحوض وطرق تغذيته وحفظه ثم مروره بتجويف الحوض . . ومن مخرجه وقت الولادة بالنسبة للأم وللطفل . . وتنحصر كل هذه التغييرات فى أن يكون تجويف حوض السيدة أوسع وأقصر . . وأن تكون عظامه أرق وأقل خشونة وأبسط تضاريسَ) .

(وإن تكن رقة العظام ونعومتها وبساطة تضاريسها وصغر شوكاتها وقلة غور حفرها ظاهرة جلية فى أكثر عظام الهيكل فى السيدة غير أنها تتجلى بأوضح شكل فى عظام الحوض للأنثى التى بلا نزاع تشارك صفات عظام الهيكل الأخرى بقسط وافر من صفاتها المميزة للأنوثة زيادة على تكيفها النوعى الخاص بما يناسب ما يتطلب منها من القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل) .

وهكذا يحفظ الحوض العظمى الرحم بداخله بحيث لا يصله شىء من الكدمات والهزات التى تتعرض لها المرأة . . بل لو أصيبت المرأة فى حادث أو سقطت من شاهق وكسرت عظامها فإننا نجد الرحم فى أغلب الأحوال سليما لم يمسسه سوء ، بل لو أن شخصا اعتدى على امرأة ومزق أحشاءها بالسكين فإنه لن يستطيع أن يصل إلى الرحم إلا إذا كانت المرأة حاملا فى الشهر الرابع فما بعده . . وأما

قبل ذلك فيكاد يكون من المستحيل الوصول إلى الرحم بأى أذى .

والحوض على متانته له مفاصل اربعة ، يمكن من خلالها أن يتحرك قليلا حتى يزداد اتساعه وخاصة عند الحمل والولادة ، بينما حوض الرجل لا يكاد يتزحزح وكل مفصل من هذه المفاصل محروس بمجموعة من الأربطة والصفاقات المتينة المحكمة .

وقد احتار القدماء من الأطباء حيرة شديدة فى كيفية خروج الطفل من هذا المكان الضيق فظن بعضهم أن العظام لابد أن تنفلق ولو للحظات حتى يمر الجنين .

وقد أوضح العلم الحديث أن هرمون الحمل البروجسترون يقوم ضمن وظائفه العديدة بتيسير حركة مفاصل الحوض حتى يتسع ، ويؤثر على الأربطة المتينة المحكمة فيه ، ويقول لها أرخى من قبضتيك قليلا ، فتسمع له ، وتطيع وترخى من قبضتها الحديدية فيزداد الحوض اتساعا ، حتى يتسنى للرحم أن يكبر ويتضاعف حجمه آلاف المرات . فإذا قرب موعد الولادة انضم رسول آخر من الغدة النخامية يسمى هرمون الارتخاء (RELAXIN) فيقول للحوض : اتسع ، فيتسع وعند ذاك يمر الطفل فى ذلك الطريق الضيق الذى احتار فيه القدماء كيف تسنى له أن يمر دون أن ينحشر انحشارا مميتا .

فانظر إلى رحمة الله وهى ترعاك فى كل طور من أطوار حياتك ، منذ كنت نطفة مغلقة ، فعظاما فلحما يكسو العظام لحما ، فخلق من بعد خلق .

والمشيمة تمدك بالغذاء والدماء وتدفع عنك الأذى ، فإن حان موعد خروجك إلى الدنيا هيأ لك الأسباب وأرخى لك العظام وجعلها طيعة لينة .

وأمر الرحم بالإنقباض فانقبض انقباضات متتالية ومتقطعة حتى لا تزداد عن حدها فتؤدى الى الضغط عليك ضغطا يؤدى إلى وفاتك ، وهيأ الطريق لخروجك فى ذلك الحيز الضيق الذى لا يمكن أن نخرج منه لولا رحمته ، ثم تخرج لتجد غذاءك جاهزا فى ثدى أمك مع المضادات للأمراض والميكروبات تسقيك إياه من ثديها ، مع ذلك اللبن الذى يخرج من بين فرث ودم .

ثم يرعاك طفلا ويافعا .. فإذا بلغت أشدك استكبرت وعتوت وساقتك الأوهام والخيالات إلى نكران تلك النعم التى تهطل عليك فى كل لحظة وآن .. وأنت عنها غافل سادر .

فما أحراك بالسجود شكرا لله على عظيم منته وآلائه ، وأحراك أن تطيع فلا تعصى أبدا ، ولكنها النفس الأمارة بالسوء ، ولكنه الشيطان عدو الإنسان يوسوس فى آناء الليل وأطراف النهار .. ولابد من أوبة .. ولابد من توبة .. قبل فوات الأوان .. فإن الله يفتح ذراعيه بالليل ليتوب مسىء النهار ويفتح ذراعية بالنهار ليتوب مسىء الليل .

ولنعد الى القرار المكين حيث رأينا العظام وهى تحرس الرحم حراسة ما بعدها حراسة .. وسنرى الآن كيف تساهم عضلات الحوض والعجان بالمحافظة على الرحم وجعله قرارا مكينا .

٢ ـ عضلات الحوض والعجان : PELVIC AND PERINEAL MUSCLES)

تساهم عضلات الحوض والعجان مساهمة فعالة فى حفظ أعضاء الحوض وأهمها الرحم ومتعلقاته والمثانة ومتعلقاتها ونهاية القناة الهضمية والأوعية الدموية والأعصاب وهناك كثرة من العضلات المتصلة بالحوض .. إلا أن أهم العضلات المسئولة عن حفظ الرحم الشرج والمثانة هى :

١ - العضلة الرافعة للشرج LEVATOR ANI **MUSCLE**
٢ - العضلة العصعصية COCCYGIUS MUSCLE

وهما يكونان الحجاب الحاجز للحوض بمساعدة الصفاقات .. وهما تحفظان أعضاء الحوض فى أماكنها المحدودة والمرسومة ضد العوامل المختلفة الطارئة والدائبة .

والعضلة الرافعة للشرج هى أهم العضلتين ، وتلتف أليافها الأمامية حول المهبل فى المرأة ، وحول البروستاتا فى الرجل .. وتحفظهما فى مكانهما المقرر لهما .

أما أليافها الوسطى والخلفية فتلتف حول القناة الشرجية ونهاية المستقيم وتحفظ بذلك المستقيم والشرج .

ونتيجة لتوترها الدائم تمنع المستقيم والمهبل والرحم والمثانة من أن تسقط كما يقع فى بعض الحالات المرضية .. مثل تمزق العضلة الرافعة للشرج أثناء الولادة المتعسِّرة ، أو نتيجة لإصابة أعصاب تلك العضلة بأحد الأمراض التى تصيب الأعصاب والعضلات ، فتؤدى إلى ارتخائها مما يسبب سقوط المهبل أو سقوط الشرج إلى خارج الجسم .

وللعضلة الرافعة للشرج دور هام فى الولادة .. إذ أن أليافها الخلفية تساهم فى إطالة الدور الأول للولادة حتى يتسنى لعنق الرحم أن يتمدد .. أما فى المرحلة الثانية وهى إخراج الجنين وقذفه إلى الخارج فتساهم كل من العضلات الرافعة للشرج والعضلات العصعصية فى زيادة الضغط فى تجويف الحوض والرحم بانقباضها المتتالى مما يساعد مساعدة فعالة فى إخراج الجنين وقذفه للخارج .
كما أن هذه العضلات تساهم أيضا فى الدور الأخير من الولادة وهو إخراج المشيمة وطردها من الرحم بعد إخراج الوليد .

٤ - صفات الحوض :
يشتمل الحوض على نسيج ليفى غشائى يحيط بأعضاء الحوض وبعضلاته وأوعيته وتربط هذه الصفاقات أعضاء الحوض بعضها ببعض وتعرف بالأربطة الحقيقية ويتخللها نسيج عضلى غير إرادى وتعرف الصفاقات التى تغطى الرحم والمثانة والمستقيم والقناة الشرجية بالصفاقات الحشوية لأنها تغطى الأحشاء ، أما تلك التى تغطى العضلات فتعرف بالصفاقات الجدارية لأنها تغطى جدران الحوض .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى وإلى علاك الجنين الساجد

سبحانك يامن قلت وقولك الحق: **﴿ إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء. هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾** (١) .

---

(١) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ (١٤)

كل هذه الأطوار تحدث فى عالم الأرحام ، ولابد من معرفة علمية كاملة بهذا القرار الذى نشأنا فيه ، ولابد لنا أن نتحدث عن أربطة الرحم ، حتى نقف مسبحين بحمد ربنا ، مقرين له بالجلال والكمال ، والعظمة المطلقة .

٤ ـ أربطة الرحم : ـ

إن وضع الرحم فى وسط الحوض الحقيقى بحيث لا تتعدى قمة الرحم الحرف العلوى لعظم العانة ، ولا يتعدى أسفل الرحم (عنق الرحم) الشوكتين الوركيتين فى أسفل الحوض :.

إن وضع الرحم هكذا يجعله محروسا تماما بعظام الحوض من كل جهة ، ويمسكه فى مكانه كما تقدم ذكره من صفاقات وعضلات بالإضافة إلى أربطة الرحم . .

وللرحم جملة أربطة يتعاون بعضها مع بعض فى جهاتها المختلفة ، لحفظ الرحم فى موضعه الطبيعى ، ولكنها فى نفس الوقت تسمح له بالحركة الحقيقية ، كما تسمح له بالنمو الهائل فى فترة الحمل ، بحيث يتضاعف حجم الرحم آلاف المرات فى نهاية الحمل عما كان عليه قبيل الحمل ، وبحيث يملأ الرحم تجويف البطن حتى يصل إلى عظمة القفص حتى ليجعل التنفس عسيرا على الأم ، وخاصة عند الاستلقاء على ظهرها .

ولكأنما الرحم جسر معلق تربطه مجموعة محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة المحكمة . . بل إنه أعظم من ذلك بكثير . . إذ لا يمكن للجسر المعلق أن ينمو أو يغير وضعه وهو متصل بمكانه لا يبرحه .

وتقسم أربطة الرحم الكثيرة إلى مجموعتين : ـ

المجموعة الأولى : ـ

وتدعى بالأربطة الرحمية الكاذبة : وتسمى كاذبة لأنها مكونة من انعطاف البريتون ، وليست بها صفاقات ولا عضلات تمييزا لها عن الأربطة الحقيقية المكونة من الصفاقات والعضلات ، ولكن تسميتها كاذبة لا ينفى عنها أنها تقوم بمهمة عظيمة فى حفظ الرحم فى مكانه ، وأهم هذه الأربطة هى :

أ ـ **الرباط الرحمى العريق** : ويغطى معظم الرحم من الأمام والجنبين ، وجزءا كبيرا من السطح الخلفى للرحم ، ويحتوى على أوعية الرحم الدموية والمبيض وأعصابه وأوعيته الدموية كما يمر به :

ب : **الرباط المبيضى الرحمى** : الذى يربط بين المبيض والرحم ويثبت كلا منهما إلى الآخر .

جـ : **الرباط الرحمى المثانى** : ويثبت الرحم من أمام إلى المثانة .

د ـ **الرباط الرحمى المستقيمى** : ويثبت الرحم من خلف إلى المستقيم .

المجموعة الثانية :

أما الأربطة الحقيقية التى بها الصفاقات وشىء من العضلات ، فتمسك بالرحم من كل جهة ، وتثبته

فى مكانه وتجعله القرار المكين .

وأهم هذه الأربطة هى : ـ

أ ـ **الرباط الرحمى المبروم** : ويتصل بقرن الرحم من كل جانب ثم يتجه مبتعدا عن الرحم ، حتى يتصل بجبل الزهرة الذى يقع على عظم العانة ، ويثبت الرحم من الجهة الأمامية .

ب ـ **الرباط الرحمى العجزى** : ويربط ما بين الرحم وعظم العجز وبذلك يثبت الرحم من الجهة الخلفية .

جـ ـ **الرباط الحامل للمبيض والرباط المبيضى** : وهذه الأربطة تثبت الرحم من جانبيه الأيمن والأيسر .

كما أن هناك مجموعة من هذه الأربطة تساهم فى تثبيت الرحم مثل الرباط العانى الرحمى المثانى الذى يربط ما بين الرحم وما بين المثانة وعظم العانة من الأمام ، . . . ويساهم مساهمة فعالة فى تثبيت الرحم من الجهة الأمامية . . كما يساهم الرباط الوحشى لعنق الرحم فى تثبيت الرحم من جانبيه الأيمن والأيسر .

٥ ـ مساندة الأعضاء الأخرى فى تجويف الحوض : ـ

إن امتلاء الحوض بالأعضاء مثل المثانة ومتعلقاتها ، ونهاية القناة الهضمية (المستقيم والقناة الشرجية) والأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب ، كلها تساهم فى حفظ الرحم فى مكانه .

٦ ـ توازن الضغط الموجود بتجويف البطن وتجويف الحوض : ـ

يتولد ضغط فى تجويف البطن نتيجة تقلصات عضلات الحجاب الحاجز ، وعضلات جدار البطن . . ويدفع ذلك أعضاء الحوض ومنها الرحم إلى أسفل . . ويقابل ذلك الضغط من أعلى ضغط من أسفل نتيجة تقلص عضلات العجان مثل العضلات الرافعة للشرج ، فتدفع بالرحم إلى أعلى ، ونتيجة لتوازن هذا الضغط يبقى الرحم فى مكانه .

٧ ـ عنق المهبل :

يتصل الرحم بواسطة عنق المهبل ونتيجة لهذا الاتصال يبقى الرحم فى مكانه .

٨ ـ هرمون الحمل : البروجسترون :

يؤثر هذا الهرمون على تقلصات عضلات الرحم ، فيجعلها متئدة وقورة بدلا من تلك الحركات النزقة التى يسببها هرمون الأنوثة الأوستروجين ، . . . ولا شك أن لهرمون الحمل البروجسترون تأثيرا هاما فى استقرار الرحم فى فترة الحمل ، حتى لا يقذف الرحم بالجنين ، وخاصة فى أشهر الحمل الأولى ، ومن الجدير بالذكر أن هذا الهرمون يستعمل فى كثير من حالات الإجهاض المنذر ، أو حالات الإجهاض المتكرر للوقاية من حصول الإجهاض .

وهكذا تتضافر هذه العوامل العديدة فى جعل الرحم القرار المكين وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون** ﴾[1] .

---

(١) الآيات ٢٠ ـ ٢٣ من سورة المرسلات .

ويقول : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

أهمية الرحم :

إن الرحم هو القرار المكين الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج ، وتعلق فيه حتى تصير علقة فمضغة فعظاما . . فلحما يكسو العظام . . ثم ينشئه الله خلقا آخر حتى يخرجه الله طفلا كامل الخلقة سوى التكوين .

وللرحم أهمية لاتدانيها أهمية أخرى غير المخ حيث ينتهى إليه الفكر والروية،والقلب حيث تنبعث منه الدورة الدموية .

ومما يدل على تلك الأهمية فى الإسلام أنه قد ورد ذكر الرحم فى مواقع متعددة : والآيات الكريمة تتحدث عن الرحم بمعنيين :

المعنى الأول :

العضو التناسلى للمرأة وهو المهد والفراش والمحضن للنطفة الإنسانية يحوطها ويغذيها ويرعاها حتى تبلغ أوج نموها وكماله ، فيخرجها الله بشرا سويا . وبهذا المعنى نزلت الآيات الكريمة التالية : -

- ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾(١) .
- ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ﴾(٢) .
- ﴿ ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ﴾(٣) .
- ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾(٤) .
- ﴿ ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن ﴾(٥) .

المعنى الثانى :

هو صلة القربى الناتجة عن الرحم وما يحمله ، وهو الوشائج والصلات الناتجة عن التزاوج ، فالآباء والأبناء والأخوال والأعمام ومجموعة الأقارب التى تتصل بهم - وإن بعدوا - يطلق عليهم لفظ الرحم .

وقد ورد ذكره بهذا المعنى فى قوله تعالى :

- ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ﴾(٦) .
- ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾(٧) .
- ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾(٨) .
- ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما ﴾(٩) .

---

(١) الآية ٦ من سورة آل عمران .
(٢) الآية ٨ من سورة الرعد .
(٣) الآية ٥ من سورة الحج .
(٤) الآية ٣٤ من سورة لقمان .
(٥) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .
(٦) الآية الأولى من سورة النساء .
(٧) الآية ٧٥ من سورة الأنفال .
(٨) الآية ٢٢ من سورة محمد .
(٩) الآية ٨١ من سورة الكهف .

ومن الأحاديث النبوية التى تحدثت عن الرحم بمعنى الصلة :

● عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلنى وصله الله : ومن قطعنى قطعه الله)[١] أخرجه مسلم

● عن عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : قال الله عز وجل : (أنا الرحمن وأنا خلقت الرحم واشتققت لها من اسمى ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته)[٢]. (أى : قطعته وأهلكته) . البخارى فى الأدب المفرد .

● عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (الرحم شجنة من الله . من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله)[٣] . البخارى فى صحيحه ، والشجنة : عروق الشجر المتشابكة . . والمعنى أن الرحم أثر من آثار رحمته مشتبكة بها والقاطع لها مقطوع من رحمته تعالى .

● عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ من القطيعة قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك . قالت : بلى ؟ قال : فذاك لك . ثم قال رسول الله ﷺ : اقرأوا إن شئتم : « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)[٤] أخرجه البخارى ومسلم .

● عن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ قال : (لا يدخل الجنة قاطع رحم)[٥] . أخرجه البخارى ومسلم .

● (من سره أن يبسط له فى رزقه وينسأ فى أثره فليصل رحمه)[٦] أى : يكثر رزقه ويطول عمره من وصل رحمه . أخرجه البخارى ومسلم .

● (إن الرحمة لا تنزل على قوم فيهم قاطع رحم)[٧] . الأدب المفرد للبخارى .

● (ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من قطيعة الرحم والبغى)[٨] . البخارى فى الأدب المفرد .

● (ليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها)[٩] . صحيح البخارى

---

(١) أخرجه مسلم فى البر : ١٧ . والإمام أحمد فى ٢ : ١٦٣ ، ١٩٠ ، ١٩٣ ، ٢٠٩ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى ١ : ١٩١ ، ١٩٤ .

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٣ . والترمذى فى البر : ١٦ . والإمام أحمد فى ١ : ١٩ ، ٣٢١ ، وفى ٢ : ٢٩٥ ، ٣٨٣ ، ٤٠٦ ، ٤٥٥ ، ٤٩٨ .

(٤) أخرجه البخارى فى التفسير سورة : ٤٧ فى الترجمة ، وفى التوحيد : ٣٥ . مسلم فى البر : ١٦ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٣٠ ، ٣٨٣ .

(٥) أخرجه مسلم فى البر : ١٨ ، ١٩ ، والإمام أحمد فى ٢ : ٤٨٤ ، وفى ٣ : ١٤ ، ٨٣ ، وفى ٤ : ٣٩٩ .

(٦) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٢ ، وفى البيوع : ١٣ . ومسلم فى البر : ٢٠ ، ٢١ . والإمام أحمد فى ٣ : ١٥٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٦ ، وفى ٥ : ٢٧٩ .

(٧) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد . ؟

(٨) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد . ؟

(٩) أخرجه البخارى فى الأدب : ١٥ . والترمذى فى البر : ١٠ .

● مما سبق يتبين أهمية الرحم القصوى فى الإسلام ، وكيف اشتق المولى-تبارك وتعالى-اسمها من اسمه ، وكيف جعلها معلقة بعرش الرحمن ، وكيف وصلها-سبحانه وتعالى-بنفسه ، ووصل من وصلها ، وقطع من قطعها .

لا شك أنه تشريف لم يحظ به كثير من أعضاء جسم الإنسان . . (على أهمية تلك الأجزاء مثل القلب والدماغ والكبد) وذلك راجع إلى أن الرحم منبت للبذرة الإنسانية . . فيها تنمو وتترعرع . . يغذوها بدمه ويحفظها من كل سوء حتى إذا آن موعد خروجها إلى الدنيا انقبض الرحم انقباضات متتالية حتى يخرجها إلى الدنيا سليمة معافاة . دون أن يمسها بأذى مع أن مثل تلك الانقباضات الشديدة يمكن أن تودى بحياة الجنين،ولكن الله يجعل له سبيلا ليخرج،ويجعل تلك الانقباضات متقطعة ولا تؤثر على حياة الجنين لأنها تتجه إلى أسفل لتوسيع عنق الرحم بدلا من الضغط المباشر على الجنين .

والرحم موضوع فى وسط حوض المرأة يكون محميا ومصونا من كل أذى . . ولا يقابله فى الرجل سوى أثر مندثر فى شكوة البروستاتا .

والرحم عضو عضلى أجوف وجدار ثمين ومتين وهو كمثرى الشكل ، ويبلغ طوله ٣ بوصات ، وعرضه بوصتان ، وسمكه بوصة واحدة فى الأنثى البالغة .

فإذا حملت المرأة فإن الرحم ينمو ويكبر حتى يملأ البطن من القفص إلى العانة ، أما حجم تجويف الرحم فى الأنثى البالغة فلا يزيد على،مليلترين أما فى نهاية الحمل فإن حجم الرحم يتسع لسبعة آلاف ملليتر ، أى ان حجمه يتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة . .

ووزن الرحم فى غير أوقات الحمل لا يزيد على خمسين جراما ، فإذا كان فى نهاية الحمل فإن وزن الرحم ذاته يبلغ ألف جرام أو تزيد ، أما محتوياته فتزن خمسة آلاف جرام . . . أى:أن وزنه بمحتوياته يزيد أكثر من مائة مرة .

والرحم هو العضو الوحيد فى جسم الانسان الذى له هذه القابلية للتغير السريع من حال إلى حال ، وهو بذلك أسرع نمو يعرفه جسم الإنسان حتى أخطر السرطانات لا تنمو بمثل سرعة نمو الرحم ، وما يحمله فى طياته ومع ذلك فشتان ما بين النمو السرطانى الخبيث ، ونمو الرحم الحميد العاقبة ، المأمون الغائلة . . فذاك يؤدى إلى الموت والهلاك،وهذا يؤدى إلى النماء والبقاء . . .

مم يتركب الرحم ؟

يتكون الرحم من جسم وعنق وكلاهما مكون من طبقات ثلاث :

* **أولها من الخارج** : طبقة البريتون التى تغطى جسم الرحم وشيئا من عنقه من الخلف .

* **وثانيها الطبقة العضلية** : وهى عضلات سميكة غير ارادية وتشمل فى ذاتها ثلاث طبقات من الألياف وهى :

أ ـ **الطبقة السطحية** : وأكثر أليافها طولية .

ب ـ **الطبقة المتوسطة** : **وأليافها مختلفة الاتجاهات وبعضها على شكل 8** (ثمانية بالانجليزى) .

جـ ـ **الطبقة الداخلية** : ومعظم أليافها دائرية وتتركز حول عنق الرحم لتكون عاصرة للعنق .

وللعضلات وظائف عديدة أهمها حماية غشاء الرحم الذى تنغرز فيه البويضة الملقحة لتصبح جنينا كما أن وظيفة العضلات قفل الأوعية الدموية العديدة عند الطمث وعقب الولادة .. ولولا ذلك لنزفت الوالدة حتى تموت .

* **وثالث طبقات الرحم** : هى الطبقة المخاطية .. وهى الغشاء المبطن للرحم .. وغشاء الرحم هو الفراش الوثير للنطفة الأمشاج التى تعلق به .. وعن طريقه تتغذى وتنمو .. وهذا الغشاء مكون من طبقات تتخللها الأوعية الدموية الكثيرة .. والغدد الرحمية العديدة .. وتقع هذه الطبقة بالذات تحت تأثير الهرمونات ولها دورة شهرية كاملة تبدأ من سن البلوغ وتنتهى فى سن اليأس .

قناة الرحم :

وتوجد للرحم قناتان على كل جانب واحدة ... وتنتهى القناة بانتفاخ يعرف باسم النبوق الذى يحيط بالمبيض بمجموعة من الأهداب ... فإذا أفرز المبيض البويضة تلقفتها أهداب البوق وحملتها حملا رفيقا ، ودفعتها مجموعة من الشعيرات الدقيقة المبطنة لغشائه حتى تصل إلى الثلث الأخير فيه .. وهناك تبقى البويضة حتى تأتيها الحيوانات المنوية فى رحلتها الطويلة المحفوفة بالمخاطر ، فإذا ما نجح حيوان منوى فى تلقيح البويضة ...

وأصبحت البويضة ملقحة « النطفة الأمشاج » أى المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة .. عندئذ تبدأ هذه البويضة المخصبة فى الانقسام حتى تصير مثل الكرة .. وتسير فى قناة الرحم تدفعها شعيرات دقيقة فى غشاء قناة الرحم حتى تصل إلى الرحم فى ستة أيام فإذا ما وصلت إلى الرحم فقد أدت قناة الرحم واجبها وأسلمت أمانتها إلى الرحم .. وهناك يستقبل الرحم البويضة الملقحة بعد أن مهد لها الفرش والبطائن وتنغرز فيه وتعلق بجداره وتحاط بالدم الغليظ من كل جهة ، وبما أن العلقة لا تكاد تبين .. ولا يظهر منها إلا هذا الدم الغليظ فقد أجمع المفسرون القدامى على أن العلقة هى دم غليظ وأصابوا من جهة وأخطأوا من أخرى .. فهى محاطة بالدم الغليظ ولكنها ليست هى ذاتها الدم الغليظ .

وتدعى قناة الرحم أيضا القناة المبيضية ، كما تدعى قناة فالوب ، نسبة إلى الطبيب الذى وصفها أول مرة .

* **المهبل :** -

هو شق ضيق يصل ما بين فتحة الفرج من أسفل وعنق الرحم من أعلى ، وجداره الأمامى اقصر من جداره الخلفى ، إذ طول الجدار الأمامى سبعة سنتيمترات ، بينما طول الجدار الخلفى تسعة سنتيمترات .

وبما أن جدار المهبل مكون من عضلات انتصابية ، فإن الجدارين يكونان ملتصقين إلا عند الجماع أو الولادة .. ويظل عنق الرحم فى أعلى المهبل ويحاذى المهبل من أمام قناة مجرى البول وأسفل المثانة .. أما من خلف فيوجد المستقيم والقناة الشرجية ومن الملاحظ أن قناة مجرى البول فى الأنثى مستقلة عن الجهاز التناسلى ، فهى منفصلة عنه ولها فتحة (صماخ) فى أعلى الفرج من أمام لا تكاد تبين ، لفرط صغرها ، أما فى الذكر فإن قناة مجرى البول تمر فى الإحليل (القضيب) حتى تنتهى إلى الفتحة (الصماخ) على حشفة القضيب .

* المبيضان : ـ

ويوجد مبيض على كل جانب فى الحوض الحقيقى للمرأة . وهما يقابلان الخصيتين (الأنثيين) عند الرجل .

هناك مبيضان على كل جانب واحد ويقع فى الحفرة المبيضية من الحوض ، وهو مصنع البويضات أو النطف المؤنثة . وهو يقابل الخصية لدى الرجل ، وشكله مثل اللوزة ، وطوله نحو ثلاثة سنتيمترات ، وعرضه نصف طوله ، وسمكه نصف عرضه . .

ويمسك بالمبيض فى مكانه مجموعة من الأربطة مثل الرباط المبيضى الرحمى الذى يربط ما بين المبيض وزاوية الرحم العليا ، ومنها الرباط الحامل للمبيض وهو متصل بالرباط العريض للرحم ومنها مساريقا المبيض (المساريقا هى ما يدعى بالانجليزية MESNTRY وهى عبارة عن طبقتين من البريتون تغطيان سطح المبيض إلا من جانب واحد فقط ، جيث تدخل منه الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب/ وللأمعاء كذلك مساريقا خاصة بها) .

وبواسطته تدخل الأوعية الدموية واللمفاوية والأعصاب من وإلى المبيض .

ويغذى كل مبيض شريان من الأورطى البطنى ، ويخرجه أسفل الشريان الكلوى مباشرة فى أعلى المنطقة القطنية ، أى من بين الصلب والترائب ، كما أن الأوردة الخارجة من المبيض تذهب إلى نفس المنطقة ، الوريد الأيمن إلى الوريد الأجوف السفلى ، أما الوريد الأيسر فيصب فى الوريد الكلوى الأيسر ، وأعصاب المبيض كذلك تأتى من الضفيرة الكلوية والضفيرة التى حول الأورطى البطنى ، كما أن المبيض يبعث بإشاراته وأخباره إلى الجهاز العصبى عبر العصب الظهرى العاشر .

من كل هذا يتضح بكل جلاء أن منشأ المبيض وتغذيته وترويته إنما تأتى من بين الصلب والترائب ، تماما كما هو الحال بالنسبة للخصية . . . وسنشرح ذلك عند تعرضنا لتفسير قوله تعالى ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾(١) .

ويتكون المبيض من محفظة متينة تحيط به من كل جانب ، ما عدا فرجته التى تدخل وتخرج منها الأعصاب والأوعية الدموية واللمفاوية المغذية للمبيض ، وبداخل هذه المحفظة نسيج ليفى غنى بأوعيته الدموية يعرف بسداة المبيض . . أما لحمته فمكونة من أجسام كروية مختلفة الأحجام ، متفاوته فى درجة نموها . . وتعرف هذه الأجسام الكروية الشكل بالحويصلات المبيضية . . أو حويصلات (جراف) نسبة إلى الطبيب الذى اكتشفها . .

وتحتوى كل حويصلة على بويضة واحدة . . ويبلغ تعدادها فى الجنين أربعمائة ألف أو تزيد ، ولكن الآلاف منها تضمر وتموت فى فترة النمو ، حتى إذا بلغت المرأة المحيض لم يبق منها إلا بضعة آلاف فقط . . ينمو منها حويصلة واحدة كل شهر طوال حياة المرأة التناسلية فتخرج بويضة مرة فى الشهر . . فلا تزيد مجموع البويضات التى يفرزها المبيض فى حياة المرأة على أربعمائة بويضة . . وقد تقل عن ذلك . . !

---

(١) الآيات ٥ ـ ٧ من سورة الطارق .

أعلمت أين خلقنا ؟ ثم مم خلقنا ؟ ثم كيف تحولت سلالة الطين أو الماء المهين إلى نطفة فى قرار مكين ، وكيف تطورت النطفة إلى علقة ، والعلقة إلى مضغة ، والمضغة إلى عظام ؟ وكيف لم يكن بين مرحلة العظام واللحم إلا مسافة قريبة من الزمان ؟

لذا جاء العطف بالفاء فى قوله تعالى ﴿ فكسونا العظام لحما ﴾

وكيف بعد ذلك تحولنا إلى خلق آخر ، لقد قامت الخلايا بتكوين الأنسجة ، وقامت الأنسجة بعد ذلك بتكوين الأعضاء ، وقامت الأعضاء بتكوين الأجهزة . أليس هذا خلقا آخر نفخ الله فيه الروح؟ ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[1] .

أما آن لك أن تهتف معى قائلا : ﴿ فتبارك الله رب العالمين ﴾

عظمت بركته وجلت قدرته ، أما آن لك أن تهتف بلسان الحال والمقال قائلا : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ والخلق هنا بمعنى التقدير والتسوية ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى ﴾[2]

قوله -تعالى-:﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ :

هذا هو المصير المحتوم الذى لا مفر منه ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون . كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[3] .

إن الإنسان لا شك خالع ثوب الحياة الدنيا إلى حياة باقية خالدة . .

فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء !

وما الجيل فى زمان إلا لبنة فى بناء !

وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء !

فسبحان من أوجب الوجود لذاته وكتب الفناء على جميع خلقه !

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفا من الأعوام مالك أمره
متلذذا فيها بكل نفيسة متنعما فيها بنعمة عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

* * *

فسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، فكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا الله ذو العزة والجبروت : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾[4] . . ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[5] .

تأمل هذه الأيات وأعمل فيها الفكر ، تجدها كلها قضايا كلية موجبة صدرت بكلمة (كل) فلا استثناء لأحد . . . ولم تسبقها أداة نفى ، لتعلم أن هذه الدنيا لها أجل معلوم وموعد لا يتخلف .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة الإسراء .
(٢) الآيات ١ - ٣ من سورة الأعلى .
(٣) الآيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء .
(٥) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

وسبحان من يقول :

﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[١] .

الإنسان آية من آيات الله تعالى

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾[٢]

قال أحد العارفين بالله وهو يناجي ربه : (سبحانك ربى ! آمن بك المؤمن ولم ير ذاتك ، وجحدك الجاحد ووجوده فى ملكك دليل وجودك وعظمة ذاتك) .

قيل للإمام على رضى الله عنه : (متى كان الله ؟ فقال : ومتى لم يكن ؟ قيل له : فما الدليل على وجوده ؟ فقال : ومتى غاب ؟ سبحانه ! هو الأول فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده والظاهر فلا شيء فوقه ، والباطن فلا شيء دونه . . . سبحانه ! علا : فقهر ، وبطن : فخبر، وملك : فقهر !) .

حقيقة الانسان

فى إحدى أمسيات شهر شعبان من عام أربعة وتسعين وثلاثمائة وألف من الهجرة ، كنت أطالع كتابا تحت عنوان . . (الطاقة الإنسانية) للأستاذ أحمد حسين ، فراعنى هذا الفصل الذى تحدث فيه عن نشأة الإنسان ، وعن الأسرار الإلهية البالغة التى احتوى عليها خلقه ، فأردت أن تشاركنى ـ أخى القارىء ـ فى هذا الجلال الذى يأخذ بذوى الألباب الباصرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة إلى محراب الخشوع للخالق العظيم جل جلاله . .

فمن نحن :

إليك ما قاله العلم الحديث فى الإجابة عن هذا السؤال :

نشأة الإنسان : ـ

ينشأ الإنسان منذ كان إنسانا كأى حيوان آخر : من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذى يوجد به حوالى (٣٠٠,٠٠٠) بويضة ، تصل منها أربعمائة إلى مرحلة النضج ، وتتناهى هذه البويضة فى الصغر إلى حد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها على أوقية !!

اما الحيوان اللازم لإخصاب البويضة فإن حجمه لا يزيد على (١/٨٥٠٠) من البويضة ، وقد قرب لنا عالم بيولوجى أمريكى (وهو هـ . مولر) نسبة حجم الحيوان المنوى إلى البويضة ، ونسبة الاثنين إلى الأحجام المألوفة على الوجه التالى : ـ

لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ عددها (وقت كتابة العالم لكتابه) بليونا ومائتى ألف بويضة ، لما شغلت أكثر من (٥/٨) من الجالون .

أما نفس العدد من الحيوانات المنوية فحجمها لا يزيد على نصف قرص من الأسبرين ! !

والمعروف أن البليون : ألف مليون .

---

(١) الأيتان ١٦ ، ١٧ من سورة غافر .

(٢) الآية ٤ من سورة التين .

التلقيح : -

ويمضى العلم فى كشف هذه الأسرار فيقول :

وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى لتقابل الحيوان المنوى المنتظر لإخصابها فى وقت الحيض ، حيث ينفجر الكيس المشتمل على البويضة ، ثم تبرز البويضة فى غشاء بوق فالوب ، فتنقلها الأهداب المتحركة للغشاء (السيليا) إلى داخل الرحم .

فى هذه المرحلة تكون نواة البويضة قد تعرضت لتغير هام . . اذ تكون قد قذفت بنصف مادتها ، او بعبارة أخرى كل كروموزوم ، وعندئذ يخترق الحيوان المنوى (الذى يكون بدوره قد فقد نصف كروموزوماته) اسطح البويضة ، ويتحد القسم الباقى من كروموزوماته بما بقى من كروموزومات ، مكونين بذلك مخلوقا جديدا مؤلفاً من خلية واحدة ، طفحت فوق مخاط المهبل ، وليست هذه الخلية الجديدة سوى نقطة من الهلام ، كأى خلية أخرى ومع ذلك : فإنها تختلف كل الاختلاف عن أبويها .

إن فيها صفات الأم وفيها صفات الأب ، بل فيها كل الأمراض الوراثية للزوجين وأسلافهما ، ومع ذلك فهى شيء مستقل الشخصية كل الاستقلال عن الأبوين .

هذه الخلية الميكروسكوبية الأولى : هى الإنسان الخلية . . إنها كتاب الكون بكل ما خط فى هذا الكتاب من أقسام وأبواب وفصول وصفحات وسطور وكلمات وحروف .

وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى تكون بشرا سويا ، ليتحقق لنا مصداق ذلك .

إذ أن من الخلية الأولى تبدأ رحلة الإنسان .

رحلة الإنسان فى الخلايا :

إن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين متلاصقتين ، تنقسمان بدورهما إلى أربع ، فثمان ، فست عشرة ، فاثنتين وثلاثين . .

وعند هذا القدر من الانقسام ، ينتهى الدور الأول من أطوار الجنين ، الذى يؤلف من نفسه فى هذه المرحلة كرة مجوفة مملوءة بالماء من داخلها ، ومغمورة بالماء من الخارج ، فهو الحياة على صورة النقطة العائمة فى الماء .

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها طورا بعد طور ، ومرحلة إثر أخرى ، فإذا الجنين تارة وقد أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبها بالدودة (العلقة) وتارة أقرب منها إلى السمكة .

والذى يهمنا أن نشير إليه أن الجنين فى ختام الشهر الثانى يكون حجمه قد تضاعف ملايين من المرات ، لقد أصبح طول حجمه يناهز البويضة ، وقد بدأ خلق الأعضاء وسائر الأجهزة ، وأصبح أقرب ما يكون فى التكوين الى الضفدعة .

وفى الشهر الثالث : وإذ نكون قد وصلنا الآن إلى الشهر الثالث ، فقد أصبح وزن الجنين أكثر من أوقية ، وطوله أكثر من ثلاث بوصات ، وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة ، حتى الأعضاء التناسلية والأذرع والأرجل والأظافر قد تكاملت .

وفى الشهر الرابع :

وفى الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التى تتزايد بعد ذلك فى اطراد .

وفى الشهر السادس حتى الخروج :
فإذا كان الشهر السادس : فقد أصبح طول الجنين ٣٠ سنتيمترا ، ووزنه ثلثى كيلو جرام ، وبعد (٢٥٢) يوميا ، اى:فى أوأخر التاسع : يكمل نمو الجنين ، ويصبح مهيأ للخروج من الجنة التى كان يعيش فيها ، حيث يأتيه رزقه رغدا فى كل وقت وآن ، بدون جهد أو آلام . .
ويقذفه الرحم خارج الجسم ! !
إنه لم يعد بعد الآن جنينا . . إنه طفل الانسان .

ولما كان الطفل يخرج لأول مرة من المائع الذى كان يعيش فيه ، يتغير المحيط من حوله ، ويصطدم بالهواء الجوى لأول مرة ، وهو ينفذ إلى رئتيه ، فيصرخ الطفل من الألم صرخة الحياة ، وإعلانا عن بدء مرحلة جديدة من معارك الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار .
مولد الجنين : وعندما يولد الجنين : فإن وزنه فى العادة $\frac{3}{4}$ ٢ أو ٣ كيلو جرامات وطوله حوالى ٤٨ سنتيمترا .
وقد حان الآن أن أُذكرك أن هذا الحجم الضخم : قد بدأ من هذه البويضة التى كانت (٢٠,٠٠٠,٠٠٠/١ من الأوقية . . أى أنها تضاعفت ألوف الملايين من المرات ، ولكى تعرف مدى هذه النسبة التى كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر نقول :
لو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى : لأنتج حجما أضخم من المجموعة الشمسية ، أى:جسما قطره ملايين الأميال ، ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين لزاد على المجرات حجما ، ولزحم الكونَ الذى نعرفه ، ولكن الحياة لا تمضى فى النمو على هذه الوتيرة ، فهى لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها إلى حد وصورة معينين .
أشكال الخلايا المختلفة :
انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون (٢٦) مليون خلية ، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى ، وتتشكل تبعا لذلك تشكلا خاصا يمكنها من أداء دورها الخاص .
كيف أن هذه الخلية الأولى التى لا يستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى ، أو الخلية الأولى لأى حيوان ، تبدأ عند مرحلة معينة فى سلم النمو ، فيتحول شكلها بحيث تصبح مثمنة او نجمية أو خيطية أو مستديرة ، أو على شكل البسكويت ، أو المكعبات أو العصى أو العناكب ، أو على شكل القوس او متفرعة كالشجرة .
فكيف تفرز هذه الخلايا اسمنتا لتربط ، أو سائلا ليتجول فيه بحرية أو تغير مادتها لتصبح غضروفية ، أو جيرية لتكون عظاما ، أو تمعن فى الصلابة لتكون ميناء الأسنان ، ويتحول بعضها إلى زجاج شفاف ، والبعض يصبح معتما كالحجر ، بعضها لا لون له ، ونوع أحمر وآخر أسود ، خلايا تغص بالتفاعلات الكيميائيةالناثرة ، كما لو كانت مصانع وخلايا خامدة ، كما لو كانت ميتة . . خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكى ، وخلايا تقوم بدور الدعائم التى تدعم أى بنيان ، البعض يصبح نظاما لاعطاء الإشارات الكهربائية ، والبعض جهاز للإسعاف والنجدة ، وما من خلية من ملايين الملايين هذه إلاَّ وتعد نفسها بالحجم المطلوب فى الوقت المحدد ، والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة

المقررة فى العضو الذى لن يستعمل إلا بعد فترة معينة ، وفى ظروف معينة :
إنها تعمل فى الظلام لإنتاج الإبصار الذى يعمل فى النور .
إنها تعمل - فى صمت - جهاز السمع الذى يتأثر بالأمواج الصوتية .
إنها خلايا عمياء لا تعرف فوقا ولا تحتا .
ومع ذلك : فإن خلية الأعصاب تعرف طريقها نحو خلية اللمس فى نهاية الأصبع لتتصل بها ! !
إن كل شىء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوى على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على ما يقول (شرنجتون) .

بقاء الجسم عند (كاريل) :

أما (كاريل) فيقرب لنا صورة ما يحدث فى بناء الجسم ، بأن يطلب منا أن نتخيل (طوبة) واحدة تسرع فى بناء منزل بمفردها ، فتكون من نفسها قوالب أخرى من الطين بالألوف والملايين ، وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعمارى ، أو مجىء البنائين والفعلة ، ولكنها ترص نفسها بنفسها صانعة البلاط ، ومكونة الجدران ، ومتحولة إلى أبواب ونوافذ وزجاج لهذه النوافذ ، والواح للسقف ، وفحم للتدفئة ، وبناء المطبخ والحمام .

وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك ، إنه يوجد بواسطة خلايا عالمة سلفا بالبناء الذى يجب أن تنسقه فى المستقبل ، فتصنع من المواد الموجودة فى بلازما الدم : مواد البناء ، بل وتصنع العمال انفسهم .

واستطرد حديث العلم حتى وصل بنا إلى تكوين العين ، فما هو ذلك الجهاز الدقيق الذى يبصر به الإنسان الكائنات المرئية ؟ !

اسمع - ياأخى - إلى هذا العجب العجيب ، واسجد لله فى محراب الشكر والعرفان والخضوع والولاء . . . هو الذى احسن كل شىء خلقه . . إنه صنع الله وإتقانه :

تكوين العين :

يقول العلماء الكونيون : من مخ الجنين ينشأ برعم صغير ، هو الذى يتكون منه الجزء الاكبر من العين ، ومن الجلد الذى يغطى هذا البرعم ، ينشأ القسم الثانى . . . . هكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة !

وكرة العين ليست فى طبيعتها إلا آلة تصوير صغيرة (إذا جاز لنا أن نعكس التشبيه) ، وصغر آلة تصوير العين ، هو آية كمالها ودقتها،والدقة التشريحية هنا ضرورية لإمكان أداء وظيفة الإبصار بأكثر من ضرورتها فى أى عضو آخر .

إن العين تكون فى الظلام ، ومع ذلك فكل شىء فيها معد لاستقبال النور ، ويوم أن تتعرض للنور ، فإن أشعته سوف تخترق عدسة أعدت لذلك فى المكان الذى يجب أن تكون فيه ، وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب ، وهو الإبصار ، فهى (أى:العدسة) محدبة من الوجهين ، وهى معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء فى البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة شبكية العين فى المؤخرة .

تدرج عدسة العين :

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين من خلايا الجلد ، ولكن بعد أن تحورت لتكون زجاجا شفافا ، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن تركز الضوء عبر بؤرتها . . هذا الضوء الذى لن تتعرض له العين إلا بعد بضعة أشهر !

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط (القزحية) كما هو الشأن فى أى آلة تصوير أو ميكرسكوب ، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لاتمام عملية الإبصار . فحيث يقل الضوء : يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر ، إما إذا زاد الضوء واشتد فإن حزمة صغيرة منه تكفى لأداء الغرض . ومن هنا تضيق الحدقة .

وفى آلة التصوير أو المجهر ، يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب أو العامل على الآلة ؟ أما فى العين البشرية ، فإن ذلك يتم بطريقة آلية بحتة كأثر مباشر لشدة ضوء الشىء المراد رؤيته .

ولأمر ما : شاء الله أن يجعل هذه القزحية الغينية ذات ألوان مختلفة تتدرج من الأسود إلى الأزرق . . فالعسلى ، تبعا للون قزحية الأبوين ، وكلاهما ملىء بسائل شفاف لا يعدو أن يكون ماء ، ولكنه محفوظ فى درجة ضغط معينة ، ليحفظ على كرة العين شكلها الذى يجب أن تكون فيه .

وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التى تحولت بدورها إلى زجاج شفاف ، لتكون نافذة للعين ، وهى ما نطلق عليها اسم القرنية ، وهذه القرنية خالية تماما من الأوعية الدموية ، حتى لا يلقى الدم ظله داخل العين ، فتحجب بعض عناصر الصورة .

ويغطى هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحى ، بطبقة من الدموع المائية التى تتميز بقوة كيمائية خاصة لقتل أى جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها .

وإذا كان من خصائص جلد الانسان أن ينطوى على مظاهر الإحساس الأربعة ، (من حرارة ، وبرودة ، وضغط ، وألم) ، فإن هذه القطعة من الجلد الشفاف التى تكون نافذة العين ، ليس فيها إلا وجه واحد من وجوه الإحساس . . . ذلك هو الإحساس بالألم ، فلمسها يحدث الألم ، لأنها يجب ألا تلمس بحال من الاحوال .

ويتجمع الجلد فوق النافذة وتحتها مؤلفا أجفانا متحركة ، وهى جافة من الخارج كأى جلد عادى ، ولكنها رطبة من الداخل ، لكى يكون باستطاعتها دائما أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة ، أو أى جسم غريب قد يقع عليها ، وذلك بإمرار طبقة من الدموع المائية فوقها .

صنع الله الذى أتقن كل شىء :

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبناء الرئيسى للعين الذى يقع فى مؤخرتها ونعنى به شبكية العين ، هذه اللوحة الحساسة للضوء ، والتى يسجل على صفحتها ملايين الملايين من الصور مدى الحياة كلها بدون حاجة إلى تغيير اللوح كل صباح أو مساء . بل بدون تغيير على الإطلاق ، فقد يبدأ الطفل عملية البصر ، إلى أن يكون شيخا هرما قادرا على الإبصار .

ومع ذلك : فهذه اللوحة الحساسة لا تنفك تقوم بعملها ليلا ونهارا بغير انقطاع ، فتتلقى مختلف

الصور من كل لون وطراز ، وتبرق بها إلى المخ ، وتنظم هذه الآلة التصوير بطريقة آلية أبعاد بؤرتها تبعا للصورة التى يهمها التقاطها ، فتارة تكون العدسات أقوى أو أضعف ـ حسب الحاجة ـ فضلا عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية فى اتجاه المنظور ، فإن أجهزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائما على أحسن نقطة للرؤية فى الشبكية .

سبحان المبدع :

وأخيرا فإن آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدما على حفظ ذاتها . . . فلو هددها اى خطر ، ففى أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها ، لتحمى نافذة العين الشفافة ! ! وفى نفس الوقت الذى تكون فيه كرة العين آخذة فى التكوين ، فإن أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة بإعداد كأس العين الذى ستستقر فيه ، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصل كرة العين من الأصل الذى تكونت منه لتستقر فى كأسها البصرى الجديد .

وفى غضون بضعة أسابيع ينشأ فى قاع هذا الكأس البصرى : حبل مؤلف من ملايين الألياف العصبية ، التى تربط بين المخ والخلايا العصبية فى العين .

وينتشر على شبكية العين (٣٧) مليون عنصر مستقل ، تعمل كلها لجعل عملية الإبصار ممكنة ، وتظل هذه العناصر والأعصاب التى تنقل المؤثرات المختلفة إلى المخ تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يتجاوز المليون إلا بقليل ، وما من عصب فى هذا المليون إلا ويعرف مكانه إلى مجمع الأعصاب المناسب ، وهى هذه المخطات التى توصل كل منها إلى محطة أبعد منها .

والمخ فى حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة فى محطات التبادل والخطوط الفرعية الذاهبة إلى هنا وهناك ؟ !

وليست العين فى نهاية الأمر ـ سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية بتأليف باقى أجزاء الجسم الأخرى ، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت هى التى تعمل متعاونة باتفاق مشترك على تنفيذ الخطة الموضوعة ، حتى إذا تم تكوين العين : فإن هذه الخلايا التى ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص : **تقف فجأة عند حد ما أنجزته ، فلا تزيد عليه ، وتقع فى سبات نسبى ، فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير .**

وقد يتصور القارىء ذلك الذى وصفناه ضربا من الخيال الفج ، أو القصص البارع ، ومع ذلك فإن هذا الذى قلناه هو حق لامرية فيه .. إنه الواقع العجيب الذى يحدث إبان تكوين أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة . . .

فسبحان ربى العظيم ! !

القلب ووظيفته

يحدثنا القرآن الكريم ، عن القلب على أنه مركز الوعى والإدراك والفهم العميق ، من ذلك قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾[1].

---

(١) الآية ٣٧ من سورة ق .

وقوله جل شأنه : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ [١]

وهناك حديث مادى للعلم يشرح لنا فيه (القلب) على أنه مضخة ماصة كابسة ، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هذه المضخة حتى يتملكنا العجب مما يتملكنا ، لو نصفه بمستودع الإلهام والحكمة والعواطف . . . إجلالا وإكبارا وتعظيما لله ، الذى أحسن كل شيء خلقه ، إنه صنع الله الذى خلق كل شيء فقدره تقديرا .

فقد ثبت بالتشريح ووصف الدور الذى يؤديه القلب للإبقاء على الحياة ما يفوق كل تصور وإدراك . .

إن القلب يمثل الحركة الدائمة ، ما بقى الإنسان حيا . . فهو الذى يدق ، يدق فى النوم مثل ما فى اليقظة ، وفى المرض مثل ما فى الصحة وهذه (الدقة) تعنى أن القلب ـ ذلك الجهاز العجيب ـ يقوم بوظيفته الكبرى للإبقاء على حياة الإنسان ، فيضخ الدم فى الشرايين ويستجلبه من الأوردة .

فلو عاش الإنسان ستين عاما أو تسعين ـ أو أكثر من ذلك أو أقل ـ فإن قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة ، بل ولا لبضع ثوان . . ومعنى ذلك فإن القلب إذا كان يضخ فى المتوسط سبعين ضخة ، (أو دقة) فى الدقيقة فإن ما يضخه (أو يدقه) فى العام (٣٧) مليون دقة فلو أن رجلا عاش إلى السبعين من عمره ، فإن ذلك يعنى ان قلبه قد دق ـ أو بالأحرى قد ضخ الدم (٢٥٩٠) مليون مرة فى اتصال عجيب عبر هذا الزمان الطويل !

فإذا علمت أن أية آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع إلا بضعة أيام على الأكثر ـ ولابد دائما من تعهدها بالصيانة والإصلاح والرعاية ، استطعت أن تدرك أى إعجاز آلى يعنيه قلب الإنسان ! !

والقلب يضخ فى الضخة الواحدة ستين سنتيمترا مكعبا من الدم ، أى يملأ فنجان شاى فى كل دقيقة ، ومعنى ذلك أنه يضخ (٣٠٠ لتر من الدم فى الساعة ، أى نحو (٨) آلاف لتر فى اليوم ، وهو ما يساوى (٨) أمتار مكعبة (أو ما يساوى ١٥ طنا من الدم فى اليوم الواحد) لا يستهلك منها لنفسه إلا شيئا يسيرا جدا . . ومع ذلك فإن هذا القلب لا يزيد وزنه على نصف رطل فى المتوسط ولا يزيد عرضه على (٣ ½) بوصة وطوله خمس بوصات ، وسمكه بوصتان ونصف !

فأى سر إلهى عظيم اشتملت عليه هذه الكتلة التى تقوم بهذه الأعمال الحادة ، والتى تعجز آلات فى حجم الجبال أن تقوم بها ؟ ! !

إنه صنع الله الذى اتقن كل شيء ! !

الجهاز العصبى

وينتقل بنا حديث العلم إلى الجهاز العصبى . . ذلك الذى تحار فيه عقول المفكرين ، وتقف واجمة حياله عبقريات البارعين . . فسبحانك اللهم !

يامن يحار الفهم فى قدرتك ... وتطلب النفس حمى طاعتك
تخفى عن الناس سنا صنعتك ... وكل ما فى الكون من صنعتك !

---

(١) الآية ٤٦ من سورة الحج .

ماذا يقول العلم عن هذا الجهاز الدقيق المعجز ؟

يقول العلم : ـ

إذا كان القلب والدورة الدموية يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل ، فإن الجهاز العصبى هو الوسيط الكهربى الذى يدعم هذه الوحدة ويصونها ، بما لا يقل فى الأهمية عن دورة الدورة الدموية ..

فالإنسان يناضل فى سبيل بقائه عن طريق عقله ومخه وأعصابه بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه .

والجهاز العصبى يتألف من جهازين يكمل كل منهما الآخر :

احدهما : واع بموجه تتمثل فيه الإرادة الإنسانية ، وأهم أجزائه المخ .

الثانى : لا شعورى آلى ذاتى الحركة يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم . وهو ما يسمى « الجهاز السمبتاوى » ! !

الجهاز المركزى

يتكون الجهاز الرئيسى ـ أو المركزى ـ من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ويطلق على هذه الثلاثة اسم : الدماغ الذى يحتل الجمجمة ، ويبلغ وزنه فى الإنسان حوالى ثلاثة أرطال ، ثم النخاع الشوكى أو العمود الفقرى .

المخ

يقع المخ فى أعلى الدماغ ومقدمه ، ويشبه فى شكله نصف الكرة . . وينقسم المخ إلى قسمين : أيمن وأيسر ، بكل منها أربع قطع ، أو فصوص،واحد مقدمى ،وآخر جانبى من الخارج ، وثالث : جانبى من الداخل ورابع مؤخرى .

وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هشة تتألف من طبقتين :

١ ـ إحداها : عليا سمراء اللون ، عمقها نحو ٤ ملليمترات ، وتسمى اللحاء ، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر التى يبلغ عمق إحداها بوصة .

٢ ـ الطبقة الثانية : داخلية بيضاء ، وتكثر بها الألياف العصبية التى توصل خلايا اللحاء بعضها ببعض ، وتحتوى المادة المخية ـ على ما يقال ـ على أكثر من (١٢,٠٠٠) مليون خلية وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبى ، ولكل ليف عدة فروع .

وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من المرات بواسطة هذه الألياف .

وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة ، تعمل بدقة متناهية ، كما لو كانت خلية واحدة ، برغم تعقدها الذى لا يمكن تصوره .

والمخ هو المسيطر على المراكز الفعلية ، والمسئول عن الأعمال العقلية العليا ، ومصدر الأعمال الارادية . . . فهو الذى يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد ، ومن أعضاء الحس .

وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية على اتصال دائم بالعالم الخارجى ، والمخ هو الذى يرسل الاشارات الحركية إلى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة وتسمى الألياف العصبية التى تحمل الرسائل من الحواس الى المخ : أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة . أما الألياف التى تنقل الرسائل منه الى

العضلات ، فتسمى ، أعصاب الحركة ، او الأعصاب المرجعة ، وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضها ببعض وتسمى (الروابط) .

وتقدر سرعة التيار الذى يحمل الرسائل من المخ وإليه - عن طريق الأعصاب - بنحو ثلاثين مترا فى الثانية الواحدة .

وإذا قورن المخ البشرى بالمخ الالكترونى ، فإنه يوازى مخا يحتوى على الأقل ١٥,٠٠٠ مليون أنبوبة الكترونية .

وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور (جوهانس شالريه) عالم الأبحاث البيولوجية فى معهد كاليفورنيا التكنولوجى ، الذى يؤكد ان المخ البشرى يحتوى على ١٥,٠٠٠ الف مليون خلية عصبية كل خلية منها تعمل بقوة واحد على ألف مليون من (الوات) وعندما يؤدى المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة ، فإنه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين ، وواحد على (٢٠٠) ألف من الفولت ، بذبذبة تتراوح بين (٨) إلى (١٤) سيكل فى الثانية ! !

مراكز الإحساس والحركة بالمخ

واللحاء ، أو قشرة المخ وسطحه ، هو مركز الاعمال الفكرية ، كما أسلفنا ، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين إلى تحديد مناطق خاصة فى اللحاء يتحقق بها الادراك لمختلف الحواس ، وتنبعث منها الحركة إلى سائر أنحاء الجسم .

أقسام مراكز المخ : وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه إلى ثلاث :

١ - حسية ٢ - حركية ٣ - مشتركة

فأما الحسية : فتشمل مراكز السمع ، والبصر ، والذوق والشم والحس .

وأما الحركية : فهى التى تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للأعضاء : كاليد والرجل ، والوجه ، والعنق ، واللسان .

ويدخل فى هذه : مراكز للشعور بحركة الجسم .

وأما المراكز المشتركة : فهى التى تحتفظ بآثار المراكز السابقة ، وتنتفع بها فى الفكر والتخيل والتذكر

ويقع مركز البصر فى مؤخر اللحاء من أسفل . وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع ، ويقع فوق الأذن تقريبا .

وبين مركزى البصر والسمع : مركز الكلمات المرئية ، والكلمات المسموعة : كل بجانب المركز الذى يلائمه .

ومركز الأفكار السامية فى أعلى المقدم إلى الأمام ويقع خلفه مركز الكتابة ، فمركز الكلام .

وفى الجهات الباقية من أعلى اللحاء وأوسطه : تقع مراكز الحركة والإحساس العضلى ، والشعور بحركات الجسم ، على هذا الترتيب : من الأمام إلى الخلف .

ويقع مركز حركات الرأس إلى الأمام . وخلفه مركز حركات الرجل واليد والوجه : على الترتيب من أعلى إلى أسفل .

وتحت مركزى حركات الرأس والوجه : يقع مركز حركات اللسان والشفتين .

وهذه المراكز تقع فى كل من جانبى المخ .

ولكن مراكز الجانب الأيسر هى مراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم وبالعكس .

وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التى دلت على أن أى خلل يحصل لأحد هذه المراكز : يستتبعه ـ على الفور ـ حدوث شلل فى العضو المتصل به . وضربة شديدة على مركز الكلام مثلا ، تسبب تعقدا دمويا قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد .

ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب ما يريد ، إذا لم تكن مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى .

المخيخ

يقع المخيخ : تحت المخ . وفوق النخاع المستطيل وخلفه . وفى أسفل مؤخرة الجمجمة ، ويتكون ـ مثل المخ ـ من طبقتين .

طبقة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا ، وبها قليل من التلافيف .

وطبقة داخلية بيضاء اللون ، وتكثر بها الألياف العصبية .

وينقسم (المخيخ) إلى ثلاثة فصوص . واحد فى كل جانب والثالث فى الوسط ، وهو أصغر من الأولين ويسمى بالدودة .

ومهمة المخيخ أن يقوم بمساعدة المخ : بضبط العضلات وتنظيم حركاتها لكى تحفظ توازن الجسم . فإذا حصل خلل فى المخيخ : اضطربت حركات الشخص وسكناته ، وراح يتمايل تمايل الثمل ويؤدى المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة .. ولا يتدخل المخ فى شئونه إلا عند الحركات الإرادية الشعورية : كتعلم المشى للطفل .

النخاع المستطيل

ثم يأتى النخاع المستطيل ، وهو فى الحقيقة امتداد للنخاع الشوكى بحيث يمكن اعتباره جزءا منه .

ويملأ الجزء الواقع أمام المخيخ وتحته فى أسفل الجمجمة وتحت المخ .

ويتكون ـ على عكس المخ والمخيخ ـ من مادة بيضاء اللون بداخله .. أما الألياف : فتكثر فى طبقته الخارجية .

ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية كالدورة الدموية ، وعملية التنفس ، والهضم ، ويساعد النخاع المستطيل : (العصب السمبتاوى) فى القيام بوظيفته .

النخاع الشوكى

يملأ القناة الشوكية التى فى العمود الفقرى ، ويتألف من مادة تسمى (النخاع الشوكى) ومن الممكن اعتباره أغلظ عصب فى الجسم ويبلغ طوله نصف متر .

ويتكون ـ مثل النخاع المستطيل ـ من مادة بيضاء سطحية ، وأخرى سمراء داخلية ، فخلاياه العصبية فى الداخل وأليافه فى الخارج ، إلا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم فى الثلث الأسفل .

وتخرج من كل من جانبى النخاع الشوكى : أعصاب تذهب إلى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات ، ووظيفة النخاع الشوكى : هى القيام بالأعمال المنعكسة ، مما ستتحدث عنه فى الفصل التالى إن شاء الله .

الأعصاب

وتكون الأعصاب : الجهاز الدائرى للجسم ، والعصب : مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة .

وتنقسم الأعصاب إلى ثلاثة أقسام ، وهى :

١ ـ **أعصاب حس** : أو أعصاب مرسلة : وهى التى تحمل الآثار من الحواس وباقى الجسم إلى المراكز العصبية العليا أو السفلى .

٢ ـ **أعصاب الحركة** : أو أعصاب مرجعة : وهى تنقل الرسائل من المراكز العصبية إلى العضلات ، فتقوم هذه بعملها حسب إشارة المراكز العصبية .

٣ ـ **أعصاب مشتركة** : أو وصلية : وهى التى توصل المراكز العصبية بعضها ببعض ، أو تقوم مقام أعصاب الحس والحركة ، وقد تكون الرسالة التى عملها : رسالة من مركز إحساس وقد تكون من مركز حركة .

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية ، أى:الدماغ والنخاع الشوكى . ولذلك : فهى تنقسم إلى قسمين : قسم دماغى ، وقسم شوكى،أما الأعصاب الدماغية : فيخرج بعضها من المخ ، والبعض الآخر من النخاع المستطيل ، ثم تذهب إلى الحواس والعضلات وأما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكى خلال ثقوب على جانبيه واقعة بين الفقرات .

وهذه الأعصاب تذهب إلى الجلد والحواس والعضلات : ففروع الحس تذهب إلى الجلد والحواس ، وفروع الحركة تذهب إلى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب .

الجهاز العصبى ، الآلى أو السمبتاوى

وإلى جوار الجهاز العصبى الرئيسى أو المركزى ، يقوم الجهاز العصبى الآلى ، وهو الذى يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كل فى معاملاته مع العالم الخارجى .

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبى العمود الفقرى ، وكل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب ، بحيث تكون هذه العقد والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبى العمود الفقرى ، ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقرى ، ويكونان حبلا واحدا أو سلسلة واحدة ، وتتصل الأعصاب الشوكية بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكى بقليل ، وترسل هذه

العقد خيوطها وأليافها إلى الأعضاء الباطنية : كالقلب والرئتين والكبد والكليتين .

ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض : اسم (بارا سمبتاوية) .

أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى (السمبتاوية)

ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب فى وقت واحد .

(فالباراسمبتاوية) تبطىء القلب ، فى حين أن السمبتاوية تزيد من سرعته ، والأولى تمدد حدقة العين ، بينما تسبب الأخيرة تقلصها،وهكذا : وتبعا لسيطرة أحد هذين الجهازين والآخر ، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة .

ودورة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه الأعضاء .

فالأعصاب (السمبتاوية) تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه ، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الإصابة بأمراض معينة .

سيطرة الجهاز العصبى على الجسم

بهذين الجهازين العصبيين : (المركزى ، والسمبتاوى) تتحقق للانسان ـ بإذن الله تعالى وإرادته ـ سيطرته الكاملة على جسده .

تبارك الله أحسن الخالقين

هذا هو الإنسان ، الذى إن دل خلقه على شيء ، فإنما يدل على وجود الله ووحدانيته وعلمه وإرادته وقدرته !

تباركت ربنا وتعاليت ! !

يامن قلت وقولك الحق :

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾
ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا
ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾

ثم ماذا . . . ؟

﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴾

وماذا بعد الموت ، برزخ وبعث **﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾** .

ومن هنا : فسوف يدور حديثنا حول مرحلة الانتقال من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة . . من عالم الفناء إلى دار البقاء . .

ونعني بمرحلة الانتقال : مرحلة ما بعد الوفاة إلى أن تقوم الساعة ، وهو ما يسميه علماء العقيدة : بعالم (البرزخ) الذى صرحت به الآية الكريمة : ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾[١] .

ونبدأ الكلام بما يسن فعله للمحتضر ، وهو الذى أوشك أن يسلم الروح إلى خالقها ، ليضع قدمه على عتبة الآخرة .

فما هى هذه السنن ؟

ها نحن أولاء نبينها على الوجه التالى : -

يسن عند الاحتضار مراعاة السنن الآتية :

أولها : تلقين المحتضر : لا إله إلا الله . لما رواه مسلم وأبو داود والترمذى عن أبى سعيد الخدرى -رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : (لقنوا موتاكم لا إله إلا الله)[٢] .

والمقصود (بموتاكم) هنا : المحتضرون ، الذين هم فى سياق الموت من المسلمين .

وروى أبو داود وصححه الحاكم عن معاذ بن جبل -رضى الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ : (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة)[٣] .

والتلقين : إنما يكون فى حالة ما إذا كان لا ينطق بلفظ الشهادة ، فإن كان ينطق بها ، فلا معنى لتلقينه ، والتلقين : إنما يكون لحاضر العقل القادر على الكلام ، فإن شارد اللب لا يمكن تلقينه ، والعاجز عن الكلام يردد الشهادة فى نفسه .

قال العلماء : وينبغى ألا يلح عليه فى ذلك .

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾[٤] واجعلنا من الذين تقول فيهم : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لا تبديل لكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٥] .

ولو علم المسلمون ما لكلمة التوحيد من مثوبة عند الله ما غفلوا عنها ولأضاءوا قلوبهم بنورها واستناروا بضوئها .

وحسبنا أن نقول: إنها الكلمة الطيبة التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء. تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾[٦] .

إنها كلمة الله التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾[٧] .

إنها كلمة التقوى ، التى جاءت فى قوله تعالى : ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة المؤمنون .
(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز : وأبو داود فى الجنائز : ١٦ . والترمذى فى الجنائز : ٧. والنسائى فى الجنائز : ٤. وابن ماجه فى الجنائز : ٣. والإمام أحمد فى ٣ : ٣.
(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : وأبو داود فى الجنائز : ١٦. والإمام أحمد فى ٥ : ٢٢٣ ، ٢٤٧ .
(٤) الآية ٨ من سورة آل عمران .
(٥) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس
(٦) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة إبراهيم .
(٧) الآية ٤٠ من سورة التوبة .

وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾(١) .

إنها اللواء الذى عمل الأنبياء جميعا لرفعه . . قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(٢) .

إنها الراية التى عاش فى ظلها الأنبياء والمرسلون : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾(٣) .

إنها الكلمة التى أضاءت سيناء وما حولها : ﴿ وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدىً . فلما أتاها نودى ياموسى . إنى أنا ربك فاخلع نعليك ، إنك بالوادى المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله ، لا إله إلا أنا ، فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾(٤) .

وقد ورد فضل لا إله إلا الله : فى كلام النبى ﷺ فعن أبى هريرة-رضى الله-عنه قال : قلت: يارسول الله (من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ:لقد ظننت ياأبا هريرة ألا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال:لا إله إلا الله خالصا من قلبه أو نفسه)(٥) . رواه البخارى .

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله،وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة حق والنار حق . أدخله الله الجنة على ما كان من عمل) زاد عبادة:(من أبواب الجنة الثمانية شاء)(٦) رواه البخارى .

وفى رواية لمسلم عنه أيضا : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله : حرم الله عليه النار)(٧) .

وعن أنس-رضى الله عنه-أن النبى-صلى الله عليه وسلم-ومعاذ ردفه على الرحل ، قال : (يامعاذ ابن جبل . قال:لبيك يارسول الله وسعديك (ثلاثا) قال : ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار .

قال يارسول الله أفلا اخبر بها الناس فيستبشروا ؟ قال : إذن يتكلوا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما)(٨) . رواه البخارى ومسلم ومعنى (تأثما) أى:تحرجا من الإثم وخوفا منه أن يلحقه إن كتمه .

---

(١) الآية ٢٦ من سورة الفتح .

(٢) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٣) الآية ٢ من سورة النحل .

(٤) الآيات ٩- ١٥ من سورة طه .

(٥) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٣ ، وفى الرقاق : ٥١ . والإمام أحمد فى ٢ : ٣٧٣ .

(٦) أخرجه البخارى فى الأنبياء : ٤٧ ، وفى تفسير سورة ١٧ : ٥ . ومسلم فى الإيمان : ٤٦ ، ٣٢٧ . والترمذى فى القيامة : ١٠. والدارمى فى المقدمة : ٨. والإمام أحمد فى ١ : ٢٠٣ ، ٤٦١ ، وفى ٥ : ٢٩٢ ، ٣١٤ .

(٧) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٦ ، وفى الاستتابة : ٩. ومسلم فى الإيمان : ٤٧ . والترمذى فى الإيمان : ١٧. والإمام أحمد فى ٤ : ٤٤ ، وفى ٦ : ٨٥ ، ٤٢٦.

(٨) أخرجه البخارى فى العلم : ٤٩ ، وفى الجمعة : ١٨ . ومسلم فى الإيمان : ٥٣. والترمذى فى الصلاة : ٢٠٠ . وابن ماجه فى الزهد : ١٩. والدارمى فى الجهاد : ٨ .

وروى عن زيد بن أرقم ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال : لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة . قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله) . رواه الطبرانى

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (ما قال عبد لا إله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر)(١) . رواه الترمذى .

وعن ابى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : (قال موسى ﷺ : يارب علمنى شيئا أذكرك به وأدعوك به . قال : قل لا إله إلا الله ـ قال : يارب كل عبادك يقول هذا ، قال : قل لا إله إلا الله ـ قال : إنما أريد شيئا تخصنى به . قال : ياموسى لو أن السماوات السبع والأرضين السبع فى كفة ولا إله إلا الله فى كفة مالت بهم لا إله إلا الله)(٢) . رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله)(٣) . رواه ابن ماجه والنسائى .

وعن يعلى بن شداد قال : حدثنى أبى شداد بن أوس ـ رضى الله عنه ـ وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال : (كنا عند النبى ﷺ فقال : هل فيكم غريب ؟ (يعنى أهل الكتاب) قلنا : لا يارسول الله ، فأمر بغلق الباب وقال : ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله : فرفعنا أيدينا ساعة ثم قال : الحمد لله اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ووعدتنى عليها الجنة وأنت لا تخلف الميعاد . ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم)(٤) رواه أحمد

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (جددوا إيمانكم : قيل : يارسول الله وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لا إله إلا الله)(٥) . رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد ، حسن .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (أكثروا من شهادة أن لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها) رواه أبو يعلى بإسناد جيد قوى .

وروى عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله)(٦) رواه أحمد والبزار .

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا منشرهم : وكأنى أنظر إلى أهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون ، الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن)

وفى رواية : (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت ولا عند القبر) . رواه الطبرانى .

وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بوصية نوح لابنه ؟

قالوا : بلى . قال : أوصى نوح ابنه فقال لابنه : يابنى إنى أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين :

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٢٥ .
(٢) أخرجه النسائى فى الصلاة : ٠١
(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥ .
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى ٤ : ١٢٤ .
(٥) أخرجه الإمام أحمد فى ٢ : ٣٥٩ .
(٦) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٤٢ .

أوصيك بقول لا إله إلا الله فإنها لو وضعت فى كفة ووضعت السماوات والأرض فى كفة : لرجحت بهن ولو كانت حلقة لقسمتهن حتى تخلص إلى الله) رواه البزار .

وروى الترمذى عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (التسبيح نصف الميزان والحمد لله تملأه ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجاب حتى تخلص إليه)[1] .

وعن أبى أيوب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل)[2] . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى .

وعن يعقوب بن عاصم رضى الله عنه عن رجلين من أصحاب النبى ﷺ أنهما سمعا النبى ﷺ يقول : (ما قال عبد قط لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير مخلصا بها روحه مصدقا بها قلبه ناطقا بها لسانه إلا فتق الله عز وجل له السماء فتقا حتى ينظر إلى قائلها من الأرض، وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله) رواه النسائى .

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (خير الدعاء : دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير)[3] . رواه الترمذى

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو الحى الذى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير لا يريد بها إلا وجه الله أدخله الله بها جنات النعيم) . رواه الطبرانى

لا إله إلا الله

كلمة التوحيد ، لها أثر كريم فى تفريج الكروب :

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال لا إله إلا الله قبل كل شىء ، ولا إله إلا الله يبقى ربنا ويفنى كل شىء : عوفى من الهم والحزن) . رواه الطبرانى .

هذا الحشد المقدس من الأحاديث النبوية الشريفة : يتألق ضياؤه ، مستمدا من كلمة التوحيد ، ويضىء سناه مشرقا من كلمة لا إله إلا الله .

نسأل الله تعالى أن يذكرنا بها عندما يحين الأجل ويجعلها آخر كلمة نختتم بها صحيفة الدنيا .

الخطوة الثانية التى يستحب فعلها عند الاحتضار :-

توجيهه إلى القبلة

يستحب توجيه المحتضر إلى القبلة مضطجعا على شقه الأيمن :

---

(١) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ٨٦ . والإمام أحمد فى ٥ : ٣٦٣ ، ٣٦٥ ، ٣٧٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٦٥ . ومسلم فى الذكر : ٢٩ . وابن ماجه فى الأدب : ٥٤ ، وفى الرهون : ١٦ . والإمام أحمد فى ٤ : ١٣ ، ٢٣٦ ، ٣٨٧ ، وفى ٥ : ٤٢٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الأدب : ٥٥ ، وفى الدعاء : ٥ . والترمذى فى الدعوات : ١٨٤ ، ١١٢ . والإمام مالك فى القرآن : ٢٣٢ ، وفى الحج : ٢٤٦ ، والإمام أحمد فى ٢ : ١٢٧ ، ٥١٥ .

لما رواه البيهقى والحاكم وصححه ، عن أبي قتادة : أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة سأل عن البراء بن معرور ، فقالوا : توفى وأوصى بثلث ماله لك .

وأن يوجه للقبلة إذا ما احتضر ، فقال النبى ﷺ : أصحاب الفطرة ، وقد رددت ثلث ما له على ولده ، ثم ذهب فصلى عليه وقال : اللهم أغفر له وأرحمه وأدخله جنتك وقد فعلت) قال الحاكم : ولا أعلم فى توجيه المحتضر إلى القبلة غيره .

وروى أحمد : (أن فاطمة بنت النبى ﷺ عند موتها استقبلت القبلة ثم توسدت يمينها) .

وهذه الصفة : التى أمر الرسول ﷺ النائم أن ينام عليها والتى يكون عليها الميت فى قبره .

وفى رواية عن الشافعى : (أن المحتضر يستلقى على قفاه ، وقدماه إلى القبلة وترفع رأسه قليلا ليصير وجهه إليها) . والأول الذى ذهب إليه الجمهور : أولى .

الثالثة : قراءة سورة يس

يستحب قراءة سورة يسٓ عند المحتضر :-

وذلك لما رواه أحمد وأبو داود والنسائى والحاكم وابن حبان وصححاه عن معقل بن يسار ، أن رسول الله ﷺ قال : (يسٓ قلب القرآن ، لا يقرأها رجل يريد الله والدار الآخرة ألا غفر له ، واقرأوها على موتاكم)(١) .

قال ابن حبان : (أراد به من حضرته المنية لا أنها تقرأ على الميت) .

ويؤيد هذا المعنى : ما رواه أحمد فى مسنده عن صفوان قال : (كانت المشيخة يقولون : إذا قرئت يسٓ عند الموت خفف عنه بها) قال أبو الدرداء . وأبو ذر : قال رسول الله ﷺ : (ما من ميت يموت فتقرأ عنده يسٓ إلا هون الله عليه) .

الرابعة : تغميض عينيه

يستحب تغميض عينى المحتضر :-

لما رواه مسلم أن النبى ﷺ دخل على أبى مسلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال : (إن الروح إذا قبض : تبعه البصر)(٢) .

الخامسة : تغطيته

يستحب تغطية الميت :

صيانة له عن الانكشاف وسترا لصورته المتغيرة عن الأعين ، فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ : (أن النبى ﷺ حين توفى : سجى ببرد جده)(٣) . رواه البخارى ومسلم .

ثم : يجوز تقبيل الميت إجماعا ، فقد قبل رسول الله ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت ، وأكب أبو بكر على رسول الله ﷺ بعد موته فقبله بين عينيه وقال : يانبياه ، ياصفياه ! !

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى ٥ : ٢٦ .

(٢) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٧ . وابن ماجه فى الجنائز : ٦ .

(٣) أخرجه البخارى فى اللباس : ١٨ ، وفى الجنائز : ٣ . وأبو داود فى الجنائز : ٣ . والنسائى فى الجنائز : ٢ ، ٣٩ .

المبادرة بتجهيزه متى تحقق موته

من حق الميت على الأحياء : أن يسرعوا بتجهيزه :

وذلك لما رواه أبو داود أن طلحة بن البراء فى مرضه أتاه النبى ﷺ يعوده فقال : (إنى لا أرى طلحة إلا وقد حدث فيه الموت فأذنونى به وعجلوا ، فإنه لا ينبغى لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرانى أهله)[1] .

ولا ينتظر به قدوم أحد . . خوف تغيره ، فقد قال الرسول ﷺ : (ياعلى : ثلاث لا تؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت، والأيم إذا وجدت كفؤا)[2] .

تجهيز الميت : ـ

والآن : ـ

نبين الأحكام الشرعية التى تتعلق بتجهيز الميت : وتجهيزه عبارة عن غسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه . وهذه الأمور الأربعة : واجبة على الحى نحو الميت .

وسوف نتناول الحديث عنها تفصيلا .

غسل الميت : ـ

يرى جمهور الفقهاء أن غسل الميت فرض كفاية أى:إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، لأن رسول الله ﷺ أمر به وحافظ على ذلك المسلمون .

وهذا بالنسبة لموتى المسلمين فقط .

الشهداء : ـ

وهو الذى قتل بأيدى الكفار ، وهو يجاهد لإعلاء كلمة لا إله إلا الله ، وهذا الشهيد : لا يغسل ، ويكفن فى ثيابه الصالحة لتكفينه ويدفن فى دمائه ، ولا يغسل منها شىء .

روى أحمد أن رسول الله ﷺ أمر بدفن شهداء أحد فى دمائهم ولم يغسلوا ولم يصل عليهم .

قال الشافعى ـ رضى الله عنه ـ : لعل ترك الغسل والصلاة : لأن يلقوا الله بكلومهم (أى بجراحهم) .

وذلك لما جاء أن ريح دمهم : كريح المسك ، واستغنوا بإكرام الله لهم عن الصلاة عليهم ، مع التخفيف على من بقى من المسلمين ، لما يكون فيمن قاتل من جراحات وخوف عودة العدو ، رجاء طلبهم وهمهم بأهلهم وهم أهلهم بهم .

وقيل : إن الحكمة من ترك الصلاة عليهم : أن الصلاة إنما تكون على الميت أما الشهيد : فهو حى .

ومصداق ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾[3] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٣٤.

(٢) أخرجه الترمذى فى الصلاة : ١٣ ، وفى الجنائز : ٧٣ . وابن ماجه فى الجنائز : ١٧ ، ١٨. والامام أحمد فى ١ : ١٠٥.

(٣) الآية ١٦٩ من سورة آل عمران .

وقيل : إن الصلاة على الميت شفاعة له،والشهداء قد نالوا هذه الكرامة باستشهادهم لأنهم يشفعون لغيرهم .

شهداء يغسلون ويصلى عليهم :

هناك أنواع من الشهداء يغسلون ويصلى عليهم . وقد بينهم لنا الحديث الشريف . . فقد روى جابر بن عتيك أن النبى ﷺ قال : (الشهادة سبع سوى القتل فى سبيل الله : المطعون : شهيد والغريق : شهيد ، وصاحب ذات الجنب : شهيد ، والمبطون : شهيد ، وصاحب الحرق : شهيد ، والذى يموت تحت الهدم : شهيد ، والمرأة تموت بجمع : شهيدة)[(١)].

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (ما تعدون الشهيد فيكم ؟ قالوا يارسول الله : من قتل فى سبيل الله فهو الشهيد:قال.إن شهداء أمتى إذن لقليل:قالوا.فمن هم يارسول الله ؟ قال : من قتل فى سبيل الله : فهو شهيد،ومن مات فى سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات فى الطاعون : هو شهيد،ومن مات فى البطن : فهو شهيد، والغريق : شهيد)[(٢)].

وهذا نموذج آخر من الشهداء الذين يغسلون ويكفنون ويصلى عليهم : عن سعيد بن زيد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (من قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون دمه : فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه : فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله : فهو شهيد)[(٣)] . رواه أحمد والترمذى وصححه .

* * *

أما وقد علمنا : من الذين يغسلون والذين لا يغسلون . . فما هى صفة الغسل ؟

صفة الغسل

الواجب فى غسل الميت أن يعمم بدنه بالماء مرة واحدة ولو كان جنبا أو حائضا .

والمستحب فى ذلك أن يوضع الميت فوق مكان مرتفع ويجرد من ثيابه ويوضع عليه ساتر يستر عورته ما لم يكن صبيا . ولا يحضر عند غسله إلا من تدعو الحاجة إلى حضوره .

اما غاسل الميت فينبغى أن يكون ثقة ، أمينا ، صالحا ، لينشر ما يراه من الخير ويستر ما يراه من الشر .

فقد قال رسول الله ﷺ : (ليغسل موتاكم المأمونون)[(٤)] رواه ابن ماجه .

كيفية الغسل

يبدأ الغاسل أولا بعصر بطن الميت عصرا خفيفا ، لإخراج ما عسى أن يكون بها من الفضلات ، ويزيَل ما على بدنه من نجاسة ، على أن يلف على يده خرقة يمسح بها عورته (فإن لمس العورة حرام ، للحى والميت ، على حد سواء) . ثم يوضئه وضوء الصلاة بعد ذلك ، لقول رسول الله ﷺ:(إبدأ

---

(١) أخرجه البخارى فى الجهاد : ٣٠, وأبو داود فى الجنائز : ١١. والنسائى فى الجنائز : ١٤. والإمام أحمد فى ٥ : ٤٤٦.

(٢) أخرجه مسلم فى الإمارة : ١٦٥. وأبو داود فى الجنائز : ١١. والنسائى فى الجنائز : ١٤. وابن ماجه فى الجهاد : ١٧. والإمام أحمد فى ٢ : ٣٢٥ ، ٤٤١ ، وفى ٥ : ٤٤٦.

(٣) أخرجه الترمذى فى الديات : ٢١. وأبو داود فى السنة : ٢٩.

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٨٠

بميامنها)[١] ومواضع الوضوء منها ، ثم يغسله بعد ذلك ثلاثا بالماء والصابون أو الماء الخالص ، مبتدئا باليمين فإن رأى الزيادة على الثلاث ـ بعدم حصول الإنقاء بها أو لشىء آخر ـ غسله خمسا أو سبعا ففى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (اغسلها وترا : ثلاثا أو خمسا أو سبعا أو أكثر من ذلك إن رأين [٢] .

فإذا كان الميت ، أنثى : ندب نقض شعرها وغسله وأعيد تضفيره وأرسل خلفها .

ففى حديث أم عطية : (أنهن جعلن رأس ابنة النبى ﷺ ثلاثة قرون ، قلت : نفضنه وجعلنه ثلاثة قرون ؟ قالت : نعم)[٣] .

فإذا فرغ من غسل الميت : جفف بدنه بثوب نظيف ، لئلا تبتل اكفانه ووضع عليه الطيب . . قال رسول الله ﷺ : (إذا أجمرتم الميت فأوتروا) . رواه البيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه .

وقال أبو وائل : كان عند على رضى الله عنه مسك فأوصى أن يحنط به وقال : هو فضل حنوط رسول الله ﷺ .

ويكره تقليم أظفار الميت ، أو أخذ شىء من شعر شاربه أو إبطه أو عانته ، وإذا خرج من بطنه شىء من النجاسات ، وجب تطهيره من هذه النجاسات .

وحكمة وضع الكافور والروائح الطيبة عند الغسل : لأنه وقت تحضر فيه الملائكة .

والغسل للميت : إذا كان الماء موجودا فإذا عدم الماء : فإنه ييمم كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فإن لم تجدوا ماء فتيمموا ﴾ ولقول رسول الله ﷺ : (جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا)[٤] . وكذلك ييمم الميت : إذا كان الجسم ، بحيث لو غسل : لتهرى .

الكفن -

بعد ما فرغنا من الكلام عن غسل الميت فإن تكفينه بما يستره ـ ولو كان ثوبا واحدا ـ فرض كفاية .

ويستحب فى الكفن أن يكون حسنا ، نظيفا ، ساترا للبدن . .

لما رواه ابن ماجه والترمذى وحسنه عن أبى قتادة أن النبى ﷺ قال : (إذا ولى أحدكم أخاه فليحسن كفنه)[٥] .

وأن يكون الكفن أبيض ، لما رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن ابن عباس أن النبى

---

(١) أخرجه البخارى فى الوضوء : ٣١. ومسلم فى الجنائز : ٤٢ ، ٤٣. وابو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥. والنسائى فى الجنائز : ٣١. وابن ماجه فى الجنائز : ٨. والامام أحمد فى ٦ : ٤٠٨.

(٢) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٨ ، ٩ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ . ومسلم فى الجنائز : ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١. وأبو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥. والنسائى فى الجنائز : ٢٨ ، ٣٢ـ ٣٥ ، ٣٦. وابن ماجه فى الجنائز : ٨. والامام مالك فى الجنائز : ٢. والامام أحمد فى ٥ : ٨٤ ، ٨٥ ، وفى ٦ : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٣ ، ١٤ ، ١٦. ومسلم فى الجنائز : ٣٨. وأبو داود فى الجنائز : ٢٩. والترمذى فى الجنائز : ١٥ . والنسائى فى الجنائز : ٣٠ ، ٣٥ . والامام أحمد فى ٦ : ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٢٢.

(٥) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٤٩. والترمذى فى الجنائز : ١٩. والنسائى فى الجنائز : ٣٧. وابن ماجه فى الجنائز : ١٢. وأبو داود فى الجنائز : ٣٠. والامام أحمد فى ٣ : ٢٩٥ ، ٣٢٩ ، ٣٧٢.

-صلى الله عليه وسلم-قال : (البسوا من ثيابكم البيض ، فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم)(١) .

وأن يجمر ويبخر ويطيب . . لما رواه أحمد والحاكم وصححه عن جابر : أن النبى ﷺ قال : (إذا أجمرتم الميت فأجمروه ثلاثا)(٢) .

وأوصى أبو سعيد وابن عمر وابن عباس-رضى الله عنهم-أن تجمر أكفانهم بالعود .

وأن يكون الكفن ثلاث لفائف للرجل وخمس لفائف للمرأة . ! لما رواه الجماعة عن عائشة رضى الله عنها-قالت : (كفن رسول الله ﷺ فى ثلاثة أثواب بيض سحَوْلية جدد ، ليس فيها قميص ولا عمامة)(٣) . وقال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم :

وقال سفيان الثورى : يكفن الرجل فى ثلاثة أثواب : إن شئت فى قميص ولفافتين وإن شئت فى ثلاث لفائف . ويجزىء ثوب واحد إن لم يوجد ثوبان .

والثوبان يجزئان ، والثلاثة - لمن وجد - أحب إليهم ، وهو قول الشافعى وأحمد واسحق ، وقالوا : تكفين المرأة فى خمسة أثواب .

وعن أم عطية : (أن النبى ﷺ ناولها إزارا ودرعا وخمارا وثوبين)(٤) .

وقال ابن المنذر : أكثر من نحفظ عنه من أهل العلم : يرى أن تكفن المرأة فى خمسة أثواب .

تكفين المحرم : -

إذا مات المحرم : غسل كما يغسل غيره ممن ليس محرما وكفن فى ثياب إحرامه ولا تغطى رأسه ولا يطيب لبقاء حكم الاحرام . .

لما رواه الجماعة عن ابن عباس قال : (بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة اذ وقع عن راحلته فمقصته فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال : (اغسلوه بماء وسدر وكفنوه فى ثوبيه ، ولا تحنطوه ولا تخمروا رأسه ، فإن الله تعالى يبعثه يوم القيامة ملبيا)(٥) .

المغالاة فى الكفن : -

تكره المغالاة فى الكفن لقول رسول الله ﷺ (لا تغالوا فى الكفن ، فإنه يسلب سلبا سريعا)(٦) رواه ابو داود وفى إسناده ابو مالك .

وعن حذيفة قال : لا تغالوا فى الكفن . اشتروا لى ثوبين نقيين،وقال أبو بكر-رضى الله-عنه : اغسلوا ثوبى هذا وزيدوا عليه ثوبين فكفنونى فيها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى الطب : وفى اللباس : ١٣. والترمذى فى الجنائز : ٨ ، وفى الأدب : ٤٦. والنسائى فى الجنائز : ٣٨ ، وفى الزينة : ٩٧. وابن ماجه فى الجنائز : ١٢. والامام أحمد فى ١ : ٢٤٧ ، ٢٧٤ ، وفى ٥ : ١٠ ، ١٢ ، ٢١ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣١ .

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٩ ، ٢٥ ، ٩٤. ومسلم فى الجنائز : ٤٥. والنسائى فى الجنائز : ٣٩. وابن ماجه فى الجنائز : ١١. والامام مالك فى الجنائز : ٥ ، ٦ ، ٧. والامام أحمد فى ٦ : ٤٠ ، ٩٣ ، ١١٨ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٢٣١ .

(٤) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥، ومسلم فى الاشربة : ٧٤٢

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ١٩ - ٢١. ومسلم فى الحج : ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ . وأبو داود فى الجنائز : ٨٠ والترمذى فى الحج : ١٠٣ والنسائى فى الحج : ٤٧ ، ٩٧- ٩٩ ، ١٠١ . وابن ماجه فى المناسك : ٨٩. والدارمى فى المناسك : ٣٥. والامام أحمد فى ١ : ٢١٥ ، ٢٢١ ، ٢٨٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٤٦ .

(٦) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٣١.

قالت عائشة رضى الله عنها : إن هذا خلق ، قال : إن الحى أولى بالجديد من الميت إنما هو للمهلة .

ويحرم على الرجال أن يكفنوا فى الحرير . ويكره للنساء ذلك قال أحمد : لا يعجبنى أن تكفن المرأة فى شىء من الحرير .

وكره ذلك : الحسن وابن المبارك وإسحاق .

قال ابن المنذر : ولا أحفظ من غيرهم خلافه .

صلاة الجنازة

الواجب الثالث بعد الغسل والتكفين : هو الصلاة على الميت .

وقد اتفق أئمة الفقه على أن الصلاة على الميت فرض كفاية ، لأمر رسول الله ﷺ بها ولمحافظة المسلمين عليها .

فضلها : -

روى الجماعة عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (من تبع جنازة وصلى عليها فله قيراط ، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان أصغرهما مثل أحد أو أحدهما مثل أحد)(١) .

وروى مسلم عن خباب رضى الله عنه قال : ياعبد الله بن عمر ، ألا تسمع ما يقول أبو هريرة ؟ إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (من خرج مع جنازة من بيتها وصلى عليها ثم رجع : كان له مثل أحد)(٢) .

فأرسل ابن عمر رضى الله عنهما خبابا إلى عائشة يسألها عن قول أبى هريرة ثم يرجع إليه فيخبره ما قالت ؟ فقال : قالت عائشة : صدق أبو هريرة . فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لقد فرطنا فى قراريط كثيرة .

شروطها : -

يشترط فيها الشروط التى تفرض فى سائر الصلوات المكتوبة : من الطهارة الحقيقية ، والطهارة من الحدث الأكبر ، والأصغر ، واستقبال القبلة وستر العورة .

وروى مالك عن نافع أن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما كان يقول : لا يصلى الرجل على الجنازة إلا وهو طاهر .

وتختلف عن سائر الصلوات المفروضة فى أنه لا يشترط فيها الوقت بل تؤدى فى جميع الأوقات متى حضرت ولو فى أوقات النهى عند الأحناف والشافعية .

وكره أحمد وابن المبارك وإسحاق : الصلاة على الجنازة فى وقت الطلوع والاستواء والغروب إلا إن خيف عليها التغيير .

أركانها : -

ولصلاة الجنازة أركان لابد منها . . إذا فقد منها ركن وقعت غير صحيحة وهى كما يلى :

النية :

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٥٧. ومسلم فى الجنائز : ٥٥. والنسائى فى الجنائز : ٥٤. والامام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٨٣ .

(٢) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٧٩. والبخارى فى الايمان : ٣٥.

يقول الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[١] .
وقول رسول الله ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى)[٢] .

القيام :

للقادر عليه وهو ركن عند جمهور العلماء . . فلا تصح الصلاة على الميت لمن صلى عليه راكبا أو قاعدا من غير عذر .

قال فى المغنى : ولا يجوز ان يصلى على الجنائز وهو راكب ، لانه يفوت القيام الواجب . . وهذا قول أبى حنيفة والشافعى وأبى ثور ولا أعلم فيه خلافا .

ويستحب ان يقبض بيمينه على شماله أثناء القيام كما يفعل فى الصلاة وقيل : لا . والأول أولى .

التكبيرات الأربع :

لما رواه البخارى ومسلم عن جابر أن النبى ﷺ (صلى على النجاشى فكبر أربعا)[٣] قال الترمذى : والعمل على هذا عند اكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم يرون التكبير على الجنازة أربع تكبيرات وهو قول سفيان ومالك وابن المبارك والشافعى وأحمد واسحق .

أما رفع اليدين عند التكبير :

فالسنة عدم رفعهما فى صلاة الجنازة ، إلا فى أول تكبيرة فقط : لأنه لم يأت عن النبى ﷺ أنه رفع فى شىء من تكبيرة الجنازة إلا فى أول تكبيرة فقط .

قال الشوكانى : والحاصل انه لم يثبت فى غير التكبيرة الأولى شىء يصلح للاحتجاج به عن النبى ﷺ وأفعال الصحابة وأقوالهم : لا حجة فيها ، فينبغى أن يقتصر على الرفع عند تكبيرة الاحرام ، لانه لم يشرع فى غيرها إلا عند الانتقال من ركن إلى ركن كما فى سائر الصلوات ولا انتقال فى صلاة الجنازة .

قراءة الفاتحة سرا :-

بعد تكبيرة الاحرام ، الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ بعد التكبيرة الثانية .

لما رواه الشافعى فى مسنده عن ابى امامة بن سهل : أنه أخبره رجل من أصحاب النبى ﷺ : (أن السنة فى الصلاة على الجنازة أن يكبر الامام ، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرا فى نفسه ثم يصلى على النبى ﷺ ويخلص الدعاء فى الجنازة فى التكبيرات ولا يقرأ فى شىء منهن ، ثم يسلم سرا فى نفسه) .

قال فى الفتح : وإسناده صحيح : وروى البخارى عن طلحة بن عبد الله قال : صليت مع ابن عباس على جنازة ، فقرأ بفاتحة الكتاب ، فقال : إنها من السنة ورواه الترمذى وقال : والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من الصحابة وغيرهم يختارون ان يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق .

---

(١) الآية ٥ من سورة البينة .
(٢) أخرجه البخارى فى بدء الوحى : ١ ، وفى النكاح : ٥. ومسلم فى الايمان : ٢٣. ومسلم فى الامارة : ١٥٥. وأبو داود فى الطلاق : ١١. والترمذى فى فضائل الجهاد : ١٦. والنسائى فى الطهارة : ٥٩. وابن ماجه فى الزهد : ٢٦. والامام احمد فى ١ : ٢٥ ، ٤٣.
(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٥٥ ، ٣٦٣ ، ٣٦٩ ، ٤٠٠

وقال بعضهم : لا يقرأ فى الصلاة على الجنازة إنما هو الثناء على الله تعالى والصلاة على نبيه ﷺ والدعاء للميت ، وهو قول الثورى وغيره من أهل الكوفة .

ومن حجج القائلين بفرضية القراءة : أن الرسول ﷺ سماها صلاة .. بقوله (صلوا على صاحبكم)(١) وقال : (لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن)(٢) .

وتؤدى الصلاة والسلام على رسول الله بأية صيغة ، ولو قال : اللهم صل على محمد لكفى . واتباع المأثور : أفضل ، مثل :

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد ويؤتى بها بعد التكبيرة الثانية كما هو الظاهر وإن لم يرد ما يدل على تعيين موضعها .

الدعاء - بعد التكبيرة الثالثة : -

وهو ركن ، باتفاق الفقهاء ، لقول رسول الله ﷺ : (إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء)(٣) . رواه أبو داود والبيهقى وابن حبان وصححه . وهو يتحقق بأى دعاء مهما قل . والمستحب فيه أن يدعو بأية دعوة من الدعوات المأثورة الآتية :

قال أبو هريرة : دعا رسول الله ﷺ فى الصلاة على الجنازة فقال : (اللهم أنت ربها وأنت خلقتها وأنت رزقتها وأنت هديتها للاسلام وأنت قبضت روحها وأنت أعلم بسرها وعلانيتها جئنا شفعاء له فاغفر له ذنبه)(٤) .

وعن واثلة بن الأسقع قال : صلى بنا النبى ﷺ على رجل من المسلمين فسمعته يقول : (اللهم إن فلان ابن فلان فى ذمتك وحبل جوارك فقه من فتنة القبر وعذاب النار وأنت أهل الوفاء والحق . اللهم فاغفر له وارحمه فإنك أنت الغفور الرحيم)(٥) . رواهما أحمد وأبو داود .

وعن عوف بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ وقد صلى على جنازة - يقول : (اللهم اغفر له وارحمه واعف عنه وعافه وأكرم منزله ووسع مدخله واغسله بماء وثلج وبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره واهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجه وقه فتنة القبر وعذاب النار)(٦) .

● وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فقال : (اللهم اغفر لحينا وميتنا وصغيرنا وكبيرنا وذكرنا وأنثانا وشاهدنا وغائبنا . اللهم من أحييته منا فأحيه على الاسلام ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان . اللهم لا تحرمنا أجره ولا تضلنا بعده)(٧) . رواه أحمد وأصحاب السنن .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٢٩٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٩ ، ٤٥٣ ، وفى ٣ : ٢٩٦ .
(٢) أخرجه الترمذى فى المواقيت : ١١٥.. والامام أحمد فى ٥ : ٣١٦ ، ٣٢٢ .
(٣) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٥٦.
(٤) أخرجه الامام أحمد فى ٢: ٢٥٦ ، ٣٤٥ ، ٣٦٣ ، ٤٥٩.
(٥) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٢٣ . وأبو داود فى الجنائز : ٥٦. والامام أحمد فى ٣ : ٤٩١.
(٦) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٨٥ ، ٨٦. والنسائى فى الجنائز : ٧٧. وابن ماجه فى الجنائز : ٢٣ . والامام أحمد فى ٦ : ٢٣ ، ٢٨ .
(٧) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٥٦ . والترمذى فى الجنائز : ٣٨. وابن ماجه فى الجنائز : ٢٣. والامام أحمد فى ٢ : ٣٦٨ ، وفى ٤ : ١٧٠ ، وفى ٥ : ٢٩٩ ، ٣٠٨ .

فإذا كان المصلى عليه طفلا : استحب أن يقول المصلى : (اللهم اجعله لنا سلفا وفرطا وذخرا)[1] . رواه البخارى والبيهقى من كلام الحسن .

قال النووى : وإن كان صبيا أو صبية : اقتصر على ما فى حديثه : (اللهم اغفر لحينا وميتنا . . . الخ) وضم إليه : اللهم اجعله فرطا لأبويه وسلفا وذخرا وعظة واعتبارا وشفيعا وثقل به موازينهما وأفرغ الصبر على قلوبهما ولا تفتنهما بعده ولا تحرمهما أجره)

واستحب العلماء : الدعاء ايضا بعد التكبيرة الرابعة : لما رواه أحمد عن عبد الله بن أبى أوفى أنه ماتت له ابنة فكبر عليها أربعا ثم قام بعد الرابعة قدر ما بين التكبيرتين يدعو ثم قال : كان رسول الله ﷺ يصنع فى الجنازة هكذا .

وقال الشافعى : يقول بعدها : اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده .

وقال ابن أبى هريرة : كان المتقدمون يقولون بعد الرابعة : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الأخرة حسنة وقنا عذاب النار) .

السلام : -

والسلام : ركن من أركان صلاة الجنازة وذلك لأن تحليل الصلاة : التسليم وصلاة الجنازة ضمن الصلوات. وقال ابن مسعود : التسليم على الجنازة : مثل التسليم فى الصلاة . .

وأقله السلام عليكم أو سلام عليكم .

كيف نصلى على الجنازة

وعلى الجملة فهذا بيان بترتيب الخطوات التى تؤدى بمقتضاها صلاة الجنازة :

بعد استيفاء شروط صحة الصلاة من طهارة وستر للعورة واستقبال للقبلة : يقف المصلى ناويا الصلاة على من حضر من الموتى رافعا يديه مع تكبيرة الاحرام ثم يضع يده اليمنى على اليسرى ويشرع فى قراءة الفاتحة ثم يكبر ثم يصلى على النبى ﷺ ثم يكبر ثم يدعو للميت ثم يكبر ثم يدعو ، ثم يسلم .

موقف الامام : -

من السنة أن يقف الامام عند رأس الرجل ويقف عند وسط المرأة لحديث أنس : (أنه صلى على جنازة رجل ، فقام عند رأسه فلما رفعت أتى بجنازة امرأة فصلى عليها فقام وسطها فسئل عن ذلك ، وقيل له أهكذا كان رسول الله ﷺ يقوم من الرجل حيث قمت ومن المرأة حيث قمت ؟ قال : نعم)[2] رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه : قال الطحاوى : وهذا أحب إلينا فقد قوته الآثار التى رويناها عن النبى ﷺ .

* * *

ثم إذا اجتمع أكثر من ميت وكانوا ذكورا أو إناثا : صفوا واحدا بعد واحد بين الامام والقبلة ليكونوا جميعا بين يدى الامام ووضع الأفضل مما يلى الامام وصلى عليهم جميعا صلاة واحدة .

وإن كانوا رجالا ونساء : جاز أن يصلى على الرجال وحدهم والنساء وحدهم وجاز أن يصلى عليهم جميعا وصفت الرجال أمام الامام وجعلت النساء مما يلى القبلة .

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٥٣.

وعن نافع عن ابن عمر-رضى الله عنهما- أنه صلى على تسع جنائز (رجال ونساء) فجعل الرجال مما يلى الامام وجعل النساء مما يلى القبلة ، وصفهم صفا واحدا (ووضعت جنازة أم كلثوم بنت على (امرأة عمر) وابن لها يقال له زيد والامام يومئذ سعيد بن العاص وفى الناس يومئذ ابن عباس وابو هريرة وأبو سعيد وأبو قتادة فوضع الغلام مما يلى الامام فقال رجل : فأنكرت ذلك ، فنظرت إلى ابن عباس وأبى هريرة وأبى سعيد وأبى قتادة ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : هى السنة)[١] . رواه النسائى والبيهقى . قال الحافظ : وإسناده صحيح .

وفى الحديث أن الصبى إذا صلى عليه مع امرأة كان الصبى مما يلى الامام والمرأة مما يلى القبلة .

وإن كان فيه رجال ونساء وصبيان : كان الصبيان مما يلى الرجال .

صفوف الصلاة على الجنازة

يستحب أن يصف المصلون على الجنازة ثلاثة صفوف وأن تكون مستوية لما رواه مالك بن هبيرة: قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من مؤمن يموت فيصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون أن يكونوا ثلاثة صفوف إلا غفر له)[٢] .

فكان مالك بن هبيرة يتحرى إذا قل أهل الجنازة ان يجعلهم ثلاثة صفوف رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه والحاكم وصححه .

وقال أحمد : أحب إذا كان فيهم قلة : أن يجعلهم ثلاثة صفوف قالوا : فإن كان وراءه أربعة كيف يجعلهم ؟ قال : يجعلهم صفين فى كل صف رجلين وكره أن يكونوا ثلاثة ، فيكون فى صف : رجل واحد .

فضل صلاة الجمع الكثير

يستحب صلاة الجمع الكثير على الجنازة كلما أمكن ذلك ، ففى صلاتهم على الميت : شفاعة له . . . بهذا صرحت الأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ : عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (ما من ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له : إلا شفعوا فيه) رواه مسلم والنسائى والترمذى ، وعنده : (مائة فما فوقها)[٣] .

وعن كريب : أن ابن عباس-رضى الله عنهما-مات له ابن بقديد (او بفان) فقال : ياكريب : انظر ما اجتمع له من الناس ؟ قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا فأخبرته ، فقال : تقول هم أربعون ؟ قال : قلت : نعم . قال : أخرجوه فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفعهم الله فيه)[٤] . رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه .

---

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٧٤.
(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٤ : ٧٩.
(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٦١. والترمذى فى الجنائز : ٠٤٠ والنسائى فى الجنائز : ٧٨. والامام أحمد فى ٤ : ٧٩ ، وفى ٦ : ٣٢ ، ٠٤٠ .
(٤) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٤١.

وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : (ما من رجل يصلى عليه مائة إلا غفر الله له) . رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن الحكم بن فروخ قال : (صلى بنا ابو المليح على جنازة فظننا أنه قد كبر فأقبل علينا بوجهه ، فقال : أقيموا صفوفكم ولتحسن شفاعتكم) .

قال أبو المليح : حدثنى عبد الله عن إحدى أمهات المؤمنين ـ وهى ميمونة زوج النبى ﷺ ـ قالت : أخبرنى النبى ﷺ ، قال : (ما من ميت يصلى عليه أمة من الناس إلا شفعوا فيه ، فسألت أبا المليح عن الأمة ؟ قال : أربعون)[١] رواه النسائى .

وعن مالك بن هبيرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من مسلم يموت فيصلى عليه ثلاثة صفوف من المسلمين إلا أوجب)[٢]

وكان مالك إذا استقبل أهل الجنازة : جزأهم ثلاثة صفوف . . . لهذا الحديث . . رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجه ، والترمذى وقال : حديث حسن .

* * *

لا قضاء على من فاته بعض التكبير مع الامام فى صلاة الجنازة وهذا هو الرأى المعتمد :

روى عن عائشة أنها قالت : يارسول الله إنى أصلى على الجنازة ، ويخفى على بعض التكبيرة . قال : (ما سمعت : فكبرى . وما فاتك : فلا قضاء عليك)[٣] .

وقال ابن عمر والحسن : لا يقضى ما فات من تكبيرة الجنازة ويسلم مع الامام . وقال أحمد : إذا لم يقض : لم يبال .

واتفقت كلمة العلماء على أن المسلم : يصلى عليه : ذكرا كان أو أنثى صغيرا كان أو كبيرا .

الصلاة على السقط

إذا ولد مولود ولم يمض على حمله أربعة أشهر فإنه لا يغسل ولا يصلى عليه ويلف فى خرقة ويدفن من غير خلاف بين جمهور الفقهاء ، فإذا ولد لأربعة أشهر فصاعدا فإنه يغسل ويصلى عليه لقوله ﷺ : (والسقط يصلى عليه)[٤] . وذلك لأنه إذا بلغ أربعة أشهر فى الرحم : يصير نسمة نفخ فيها الروح) فيصلى عليه .

ولا يصلى على كافر

لا تجوز الصلاة على الكافر وذلك لما صرحت به آيات الكتاب الكريم قال تعالى : **﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾**[٥] ولقوله جل شأنه : **﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم**

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٩ .
(٢) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٤٠ والامام أحمد فى ٤ : ٧٩ .
(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ١٧٧ .
(٤) أخرجه أبو داود فى الجنائز : ٤٥ . والامام أحمد فى ٤ : ٢٤٩ .
(٥) الآية ٨٤ من سورة التوبة .

أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه)[١] .

الصلاة على الميت بعد دفنه : ـ

تجوز الصلاة على الميت بعد الدفن في أى وقت ، ولو كان قد صلى عليه قبل دفنه ! لما رواه يزيد ابن ثابت قال : خرجنا مع النبى ﷺ ، فلما وردنا « البقيع » : إذا هو بقبر جديد ، فسأل عنه ، فقيل : فلانة ، فعرفها فقال : ألا آذنتمونى بها ؟ قالوا : يارسول الله كنت قائلا صائما فكرهنا أن نؤذيك ، فقال : (لا تفعلوا . . لا يموتن فيكم ميت ما كنت بين أظهركم إلا آذنتمونى به فإن صلاتى عليه رحمة ثم أتى القبر فصفنا خلفه ، وكبر عليه أربعا)[٢] . رواه أحمد والنسائى والبيهقى والحاكم وابن حبان وصححاه .

قال الترمذى : والعمل على هذا عند اكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ وغيرهم ، وهو قول الشافعى وأحمد وإسحق رضى الله عنهم .

وفى الحديث : أن الرسول ﷺ صلى على صاحبة القبر بعد ما صلى عليها أصحابه قبل الدفن ، لانهم ما كانوا ليدفنوها قبل الصلاة عليها .

قال الفقهاء : ـ

وفى صلاة أصحاب الرسول ﷺ معه على القبر : ما يدل على أن ذلك ليس خاصا به صلوات الله وسلامه عليه .

قال ابن القيم : ردت هذه السنن المحكمة : بالمتشابهة ، من قوله : (لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها) وهذا حديث صحيح .

والذى قاله : هو الذى صلى على القبر فهذا قوله ، وهذا فعله .

ولا يناقض احدهما الآخر . . . فإن الصلاة المنهى عنها إلى القبر غير الصلاة التى على القبر . . . فهذه صلاة الجنازة على الميت ، التى لا تختص بمكان . . . بل إن فعلها فى غير المسجد أفضل من فعلها فيه فالصلاة عليه على قبره : من جنس الصلاة عليه على (نعشه) فإنه المقصود بالصلاة فى الموضعين ولا فرق بين كونه على (النعش) وعلى الأرض وبين كونه فى بطنها . . . بخلاف سائر الصلوات ، فإنها لم تشرع فى القبور ولا إليها لأنها ذريعة إلى اتخاذها مساجد .

الصلاة على الغائب : ـ

تجوز الصلاة على من غاب من أموات المسلمين كما هى جائزة على من حضر من أمواتهم .

وكيفيتها : أن يستقبل المصلى القبلة ، وينوى الصلاة عليه ، ويكبر ، ويفعل مثل ما يفعل فى صلاة الجنازة .

---

(١) الأيتان ١١٣ ، ١١٤ من سورة التوبة .

(٢) أخرجه البخارى فى الصلاة : ٧٢ ، وفى الجنائز : ٥ ، ٥٥ ، ٦٦ . ومسلم فى الجنائز : ٧١ . وأبو داود فى الجنائز : ٣٤ ، ٥٧ . والنسائى فى الجنائز : ٤٣ ، ٧٦ . وابن ماجه فى الجنائز : ٣١ ، ٣٢ . والامام مالك فى الجنائز : ١٥ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٥٣ ، ٣٨٨ ، وفى ٣ : ٤٤٤ ، وفى ٤ : ٣٨٨ ، وفى ٥ : ٤٠٦ .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ (أن النبى ﷺ نعى الناس « النجاشى » فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف أصحابه وكبر أربع تكبيرات)

قال ابن حزم : ويصلى على الميت الغائب بإمام وجماعة .

صلاة النساء على الجنازة

يجوز للمرأة أن تصلى على الجنازة ، مثل الرجل : سواء صلت منفردة ، أو صلت مع الجماعة . فقد انتظر عمر أم عبدالله حتى صلت على (عتبة) وأمرت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن يؤتى بسعد بن أبى وقاص لتصلى عليه .

السير بالجنازة

هناك أمور يحسن بيانها تتعلق بحمل الجنازة والسير بها . نثبتها فيما يلى : -

وصى الشارع الحكيم بتشييع الجنازة وحملها ، ومن السنة أن يحملها من جميع جوانبها ، حتى ينال ثواب جهاتها المختلفة : -

روى ابن ماجه والبيهقى وأبو داود والطيالسى عن ابن مسعود قال : (من اتبع جنازة فليحمل بجوانب السرير كلها ، فإنه من السنة . ثم إن شاء فليتطوع وإن شاء فليدع)(١) .

والمراد بسرير الميت : نعشه .

وقد رغب النبى ﷺ فى إتيان هذا البر العظيم حيث قال : (عودوا المريض وامشوا مع الجنازة : تذكركم الآخرة)(٢) . رواه أحمد ، ورجاله ثقات .

ويستحب الاسراع بها . . وذلك لما رواه الجماعة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (أسرعوا بالجنازة ، فإن تك صالحة : فخير تقدمونها إليه ، وإن تك سوى ذلك : فشر تضعونه عن رقابكم)(٣) .

وروى البخارى فى التاريخ (أن النبى ﷺ أسرع حتى تقطعت نعالنا يوم مات سعد بن معاذ) .

والمقصود بالاسراع بها : عدم البطء الذى قد يدعو إلى التبختر .

وبناء عليه : فينبغى أن يعرف ألا يؤدى الاسراع إلى فسادها أو المشقة على مشيعيها .

المشى مع الجنازة :

اختار جمهور العلماء : المشى أمامها ، وقالوا : إنه الأفضل . . لأن الرسول ﷺ وأبا بكر وعمر كانوا يمشون أمامها ، رواه أحمد وأصحاب السنن .

ويرى بعض الفقهاء أن المشى خلفها أفضل . . لأن ذلك هو المفهوم من أمر رسول الله ﷺ باتباع الجنازة والمتبع : هو الذى يمشى خلفه .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٥.

(٢) أخرجه البخارى فى الجهاد : ١٧١ ، وفى الأطعمة : ١ ، وفى النكاح : ٧١ ، وفى المرضى : ٤. والامام أحمد فى ٣ : ٢٣ ، ٣١ ، ٤٨.

(٣) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٥١. ومسلم فى الجنائز : ٥٠ ، ٥١ وأبو داود فى الجنائز : ٤٦. والنسائى فى الجنائز : ٤٤. وابن ماجه فى الجنائز : ١٥. والامام مالك فى الجنائز : ٥٨. والامام أحمد فى ٢ : ٢٤٠ ، ٢٨٠ ، ٤٨٨.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن الكل جائز ﴿ ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ﴾[١] .

أشياء تكره عند الجنازة :

هناك أشياء تكره رأينا أن ننبه إليها ، لكراهة فعلها عند الجنازة ولخفائها على كثير من الناس ولانتشار فعلها .

رفع الصوت : سواء كان ذلك بذكر أو قراءة أو كان بغيرهما . وذلك لما رواه ابن المنذر عن قيس ابن عباد أنه قال : (كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون رفع الصوت عند ثلاث : عند الجنائز ، وعند الذكر وعند القتال) .

ومن البدع : أن يقول قائل خلف الجنازة : استغفروا للميت . بهذا قال سعيد بن المسيب ، وسعيد بن جبير والحسن والنخعي ، وأحمد وإسحق والأوزاعي .

يقول الامام النووي ـ رضي الله عنه ـ : واعلم أن الصواب ما كان عليه السلف من السكوت حال السير مع الجنازة فلا يرفع صوت بقراءة ولا ذكر ولا غيرهما لأنه أسكن لخاطره وأجمع لفكره فيما يتعلق بالجنازة . . وهو المطلوب فى هذا الحال . فهذا هو الحق ولا تغتر بكثرة من يخالفه .

* * *

مما سبق يتبين أن رفع الصوت عند الجنازة أمر كرهه الشارع وعلينا أن نلتزم بما أتانا به الشرع ، ومن أراد أن يذكر الله : فليذكره تعالى فى نفسه ، تضرعا وخيفة ، وحتى لا يفوته الهدى النبوى الشريف .

كذلك من الأشياء المكروهة عند الجنازة ونهى الشرع عنها ، تلك العادة الجاهلية . . فقد كانوا يتبعون الجنازة بالنار ، أى يحملون مشاعل النار معها .

قال الامام البيهقى ـ رضى الله عنه ـ : جاء فى وصية عائشة وعبادة بن الصامت وأبى هريرة وأبى سعيد الخدرى ، وأسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهم ـ (أن لا تتبعونى بنار) .

وروى ابن ماجه أن أبا موسى الأشعرى حين حضره الموت قال (لا تتبعونى بمجمر)[٢] [وهو ما يوضع فيه الجمر] . . قالوا : ياأبا موسى ، أوسمعت فيه شيئا ؟ قال نعم . . . من رسول الله ﷺ أما إذا كان دفن الميت ليلا : فلا بأس باصطحاب ما يضيء الطريق إلى المقبرة .

ولقد ورد هذا عن رسول الله ﷺ ، فيما رواه الامام الترمذى عن ابن عباس (أن النبى ﷺ دخل قبرا ليلا فأسرج له سراج)[٣] .

كذلك يكره لمن اتبع الجنازة أن يقعد قبل أن توضع الجنازة على الارض فإن فعل : أمر بالقيام حتى توضع الجنازة .

وكذلك يكره اتباع النساء للجنازة وهذا عمل قد عمت به البلوى فى البلاد : قرى كانت أو مدنا . . والشرع يكرهه والناس فى غفلة .

---

(١) الآية ١٤٨ من سورة البقرة .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ١٨ .

(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٦٢ .

قالت الصحابية الجليلة أم عطية رضى الله عنها : نهينا أن نتبع الجنائز ولم يعزم علينا ، أى: لم يوجب علينا .

دفن الميت

بعد الفراغ من الحديث عن تغسيل الميت وتكفينه والصلاة عليه وتشييعه : نبين هنا حكم دفن الميت وما يتعلق بذلك :

أجمعت كلمة الفقهاء على أن دفن الميت ومواراة جسده إلى التراب : فرض كفاية . . . إذا قام به البعض : سقط عن الباقين .

وذلك لما صرحت به آيات القرآن . . قال تعالى : ﴿ **ثم أماته فأقبره** ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا** ﴾[٢] أى جامعة للأموات والأحياء ؟ فالأموات فى بطنها والأحياء على ظهرها .

وما قصة ابنى آدم عن بالنا ببعيدة . . قال تعالى : ﴿ **فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى ؟ فأصبح من النادمين** ﴾[٣] .

توضيح

يظن الكثير من الناس أن دفن الميت ليلا قد يؤذيه ، فيظل طول حياته خائفا ! !

وهذا افتراء على شرع الله ولا يقول بهذه المسألة إلا كل من غفل عن قوله جل شأنه ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ، ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم** ﴾[٤] .

ولو علم هؤلاء أن الميت قد انتقل من دار الفناء إلى دار البقاء وعالم البرزخ ، وأن هذا العالم لا يخضع لقوانين هذه الدنيا . . لو علموا هذا :

ما اجترأوا على أن يشرعوا فى دين الله ما ليس منه .

ويرى جمهور علماء المسلمين أن الدفن بالليل . كالدفن بالنهار سواء بسواء فقد دفن رسول الله ﷺ الرجل الذى كان يرفع صوته بالذكر : ليلا .

ودفن على فاطمة رضى الله عنها : ليلا .

وكذلك دفن أبو بكر وعثمان وعائشة وابن مسعود . رضى الله عنهم أجمعين .

الحكمة من الدفن : -

والحكمة من دفن الميت : أن يوارى الميت فى حفرة تحجب رائحته ، وتمنع السباع والطيور عنه .

ومن هنا : ينبغى تعميق القبر . والدفن فيه : إكرام لابن آدم الذى أوصى الله تعالى به إذ يقول : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم** ﴾[٥] .

---

(١) الآية ٢١ من سورة عبس .
(٢) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة المرسلات .
(٣) الآية ٣١ من سورة المائدة .
(٤) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .
(٥) الآية ٧٠ من سورة الاسراء .

ما يستحب للميت : ـ

يستحب توجيه الميت فى قبره إلى القبلة والدعاء له وحل أربطة الكفن .

والسنة التى جرى عليها العلم : ان يجعل الميت فى قبره على جنبه الأيمن ووجهه تجاه القبلة .

ويقول واضعه : (بسم الله وعلى ملة رسول الله ﷺ) ثم يحل أربطة الكفن .

كذلك يستحب الدعاء للميت بعد الفراغ من دفنه ، وسؤال التثبيت له ، لأنه يسأل فى هذه الحالة :

فعن عثمان رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت : وقف عليه وقال : (استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يسأل)[١] . رواه ابو داود .

ما نهى عنه الشرع

نهى الشارع الحكيم عن الذبح عند القبر لما فى ذلك من المباهاة والرياء والفخر :

فقد روى ابو داود عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : (لا عقر فى الاسلام)[٢] .

قال عبد الرزاق : كانوا يعقرون عند القبر بقرة أو شاة .

قال الخطابى : كان أهل الجاهلية يعقرون الابل على قبر الرجل الكريم ويقولون : نجازيه على فعله لانه كان يعقرها فى حياته فيطعمها الأضياف ، فنحن نعقرها عند قبره لتأكلها السباع والطير ، فيكون مطعما بعد مماته ، كما كان مطعما فى حياته .

كذلك نهى الشارع عن الجلوس على القبر ، والاستناد إليه ، والمشى عليه وذلك لما رواه عمرو بن حزم قال : رآنى رسول الله ﷺ متكئا على قبر فقال : (لا تؤذ صاحب هذا القبر) . رواه احمد .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من ان يجلس على قبر)[٣] . رواه احمد ومسلم .

دفن أكثر من واحد فى قبر

إذا تعذر إفراد كل ميت بقبر لكثرة الموتى وقلة الدافنين او ضعفهم ، فإنه فى هذه الحالة يجوز دفن اكثر من واحد فى قبر واحد : لما رواه أحمد والترمذى وصححه : أن الانصار جاءوا إلى النبى ﷺ يوم أحد . فقالوا : يارسول الله : أصابنا جرح وجهد فكيف تأمرنا ؟ فقال : (احفروا ؟ واوسعوا ؟ واعمقوا واجعلوا الرجلين والثلاثة فى القبر قالوا : فأيهم نقدم ؟ قال : أكثرهم قرآنا)[٤] .

التأدب مع أموات المسلمين

لا يجوز سب أموات المسلمين ، أو ذكر مساوئهم ، وذلك لأنهم فى دار من الأليق والأفضل أن يذكروا فيها بالرحمة .

---

(١) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٦٩.

(٢) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٠٧٠ والامام أحمد فى ٣: ١٩٧.

(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٩٦. وأبو داود فى الجنائز : ٧٣. والنسائى فى الجنائز : ٩٧ ، ٠١٠٥ وابن ماجه فى الجنائز ٤٥.

(٤) أخرجه الترمذى فى الجهاد : ٣٤. والنسائى فى الجنائز : ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١. وابن ماجه فى الجنائز : ٤١. والامام أحمد فى ٤ : ١٩ ، ٢٠ ، وفى ٢ : ٣٢٤ ، ٤٧٢ ، ٥٣٢ .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال : (لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا)[١] .

أما المسلمون المعلنون بفسق أو بدعة أو عمل فاسد ، فإنه يباح ذكر مساوئهم . إذا كان فيه مصلحة تدعو إليه ، كالتحذير من حالهم والتنفير من قولهم ، وترك الاقتداء بهم .

أما إذا لم يكن فيه مصلحة : فلا يجوز .

وقد روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرا فقال النبى ﷺ : « وجبت » ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا فقال : « وجبت » فقال عمر رضى الله عنه ما وجبت ؟ قال : (هذا اثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا اثنيتم عليه شرا فوجبت له ، أنتم شهداء الله فى الأرض)[٢] .

نقل الميت

يحرم عند الشافعية : نقل الميت من بلد إلى بلد إلا أن يكون بقرب مكة أو المدينة . أو بيت المقدس ، فإنه يجوز النقل إلى إحدى هذه البلاد ، لشرفها وفضلها .

ولو أوصى بنقله إلى غير هذه الأماكن الفاضلة : لا تنفذ وصيته ، لما فى ذلك من تأخير دفنه ، وتعرضه للتغير .

ويحرم كذلك نقله من القبر إلا لغرض صحيح : كأن دفن من غير غسل أو إلى غير القبلة ، أو لحق القبر سيل أو نداوة .

قال فى المنهاج : ونبشه بعد دفنه للنقل وغيره : حرام إلا لضرورة كأن دفن بلا غسل أو فى أرض أو ثوب مغصوبين أو مع مال أو دفن لغير القبلة .

وعند المالكية : يجوز نقله من مكان إلى مكان آخر قبل الدفن وبعده لمصلحة : كأن يخاف عليه أن يغرقه البحر ، أو يأكله السبع ، أو لزيارة أهله له ، أو لدفنه بينهم ، أو رجاء بركته للمكان المنقول إليه . ونحو ذلك .

فالنقل حينئذ جائز ما لم تنتهك حرمة الميت بانفجاره أو تغيره أو كسر عظمه .

ويستحب دفن الشهيد حيث قتل .

وذلك لما روى عن النبى ﷺ قال : (ادفنوا القتلى فى مصارعهم)[٣] .

وروى ابن ماجه (ان رسول الله ﷺ أمر بقتلى أحد ان يردوا إلى مصارعهم)[٤]

---

(١) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٩٧ . ومسلم فى فضائل الصحابة : ٢٢١ . وأبو داود فى السنة : ٠١٠ والترمذى فى البر : ٥١ . والنسائى فى الجنائز : ٥٢ . وابن ماجه فى المقدمة : ١١ . والامام أحمد فى ١ : ٣٠٠ ، وفى ٣ : ١١ ، ٥٤ ، وفى ٥ : ٢٥ .

(٢) أخرجه البخارى فى الشهادات : ٦ ، وفى الجنائز : ٥٨ . وأبو داود فى الجنائز : ٧٢ . والترمذى فى الجنائز : ٦٣ والنسائى فى الجنائز : ٥٠ والامام أحمد فى ٢ : ٢٦١ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٩٨ ، ٢٥٨ ، وفى ٣ : ١٨٦ ، ١٩٧ ، ٢١١ ، ٢٤٥ ، ٢٨١ .

(٣) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٨٣ .

(٤) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٨٣ . وابن ماجه فى الجنائز : ٢٨ . والامام أحمد فى ٣ : ٣٠٨ ، ٣٩٨ .

قضاء الدين

الاسلام : دين الوفاء والحياء ، وإن لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام : الحياء .

ومن القضايا الخطيرة فى الاسلام : قضية المال ، فكل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه .

ومن ثم جاءت الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى باب الدين تحث حثا أكيدا على أدائه ، وعدم المماطلة فى ذلك الأداء

بل إن رسول الله ﷺ كان يستعيذ بالله من الدين ويقول : (اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين ، وقهر الرجال)[١] .

بل تزيد دقة الاسلام فى التحذير من المماطلة فى الديون إلى درجة أن الرسول ﷺ كان يستعيذ بالله من الكفر والدين :

روى ابو سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ انه كان يقول (أعوذ بالله من الكفر والدين فقال رجل : يارسول الله أتعدل الكفر بالدين ؟ قال : نعم)[٢]. رواه النسائى .

الدين : مذلة : ـ

عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (الدين راية الله فى الأرض فإذا أراد الله ان يذل عبدا أوضعه فى عنقه) . رواه الحاكم .

وقد وصى رسول الله ﷺ أحد أصحابه هذه الوصية فقال له : (أقل من الذنوب . يهن عليك الموت ، وأقل من الدين : تعش حرا) . رواه البيهقى .

وصية حكيم لابنه :

وقال أحد الحكماء لابنه وهو يعظه : يابنى لقد ذقت الطيبات كلها فلم أجد أطيب من العافية ، وتجرعت المرارة كلها فلم أجد أمر من الحاجة إلى الناس ، وحملت الصخر والحديد فلم أجد اثقل من الدين .

وقد عد رسول الله ﷺ الدين نوعا من أنواع الخوف بعد الأمن .

عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها قالوا وما ذاك يارسول الله قال : الدين)[٣]. رواه أحمد .

البراءة من ثلاثة : ـ

عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من فارق روحه جسده وهوبرىء من ثلاثة

---

(١) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ـ ٤٢ ، ٤ ، ٥٧. ومسلم فى الذكر : ٤٩ ـ ٥١ ، ٧٣. وابن ماجه فى الدعاء : ٠٣ وابو داود فى الوتر : ٣٢. والترمذى فى الدعوات : ١١٣. والنسائى فى الاستعاذة : ٤ ، ٥ ـ ٨ ، ١٢ ، ١٣ ، ٢٥ ٢٧ ، ٣٨ ـ ٤٠ . والامام أحمد فى ١ : ٢٢ ، ١٨٦ ، وفى ٣ : ١١٣ ، ١٢٢ ، ٢٢٠ ، ٢٦٤ ، وفى ٦ : ٣٧١ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٨.

(٣) اخرجه الامام احمد فى ٤ : ١٤٦ ، ١٥٤ .

دخل الجنة : الغلول والدين والكبر)[١] .

الغلول : أى السرقة من الغنم ـ والكبر : احتقار الناس ورفض الحق

الدين والنية :

لنية الأداء عند الله : إذن بتيسير ولنية الاتلاف : إذن بتعسير .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من أخذ أموال الناس يريد اداءها : أدى الله عنه ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها : أتلفه الله)[٢] . رواه البخارى .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تداين فقيل لها مالك وللدين ؟ ولك عنه مندوحة ؟ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد كانت له نية فى أداء دينه إلا كان له من الله عون فأنا التمس ذلك العون)[٣] .

وعن صهيب الخير رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أيما رجل تدين دينا وهو مجمع الا يوفيه اياه : لقى الله سارقا)[٤] . رواه ابن ماجه والبيهقى .

خطورة الدين :

عن محمد بن عبدالله بن جحش رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ قاعدا حيث توضع الجنائز فرفع رأسه قبل السماء ثم خفض بصره فوضع يده على جبهته فقال : (سبحان الله سبحان الله ما أنزل من التشديد قال : فعرفنا وسكتنا حتى إذا كان الغد سألنا رسول الله ﷺ فقلنا : ما التشديد الذى نزل ؟ قال: فى الدين ، والذى نفسى بيده لو قتل رجل فى سبيل الله ثم عاش ثم قتل ثم عاش ثم قتل وعليه دين مادخل الجنة حتى يقضى دينه)[٥] . رواه النسائى .

الصدق والأمانة : فى الوفاء

هذا حديث نسوقه بطوله لما فيه من عظات بالغات ، وعبر طيبات ، أحرى بكل عاقل ان يتصف بها ؛

عن أبى هريرة رضى الله عنه (أن رسول الله ﷺ ذكر رجلا من بنى اسرائيل سأل بعض بنى اسرائيل ان يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم . فقال : كفى بالله شهيدا قال : فائتنى بالكفيل . قال : كفى بالله كفيلا . قال : صدقت فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يركبه ويقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركبا ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها الف دينار وصحيفة منه إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ، فقال :

---

(١) أخرجه الترمذى فى السير : ٢١ . وابن ماجه فى الصدقات : ١٢ والدارمى فى البيوع : ٥٢ . والامام أحمد فى ٥ : ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ، وفى الاستقراض : ٢ . وابن ماجه فى الصدقات : ١١ . والامام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٤١٧ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٦ : ٧٢ ، ٩٩ ، ١٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١ .

أخرجه النسائى فى البيوع : ٩٨ .

اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلانا ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له فلم أقدر ، وإنى استودعكها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبا قد جاء بماله ، فإذا الخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه وأتى بالألف دينار ، فقال : والله مازلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركبا قبل الذى جئت فيه . قال : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثته فى الخشبة فانصرف بالألف الدينار راشدا)[1] . رواه البخارى .

سمو الإسلام

نظرة الاسلام دائما رفيعة وعالية ، فهو فى باب الدين لا يجد غضاضة من أن يستدين المسلم فى هذه الأمور الثلاثة : عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إن الدين يقضى من صاحبه يوم القيامة إذا مات إلا من يدين فى ثلاث خلال :

الرجل تضعف قوته فى سبيل الله فيستدين يتقوى به على عدو الله وعدوه ، ورجل يموت عنده مسلم لا يجد ما يكفنه ويواريه إلا بدين ، ورجل خاف على نفسه العزبة فينكح خشية على دينه ، فإن الله يقضى عن هؤلاء يوم القيامة)[2] رواه ابن ماجه .

دين الميت

لعلك أيها القارىء الكريم قد أدركت بما لا يدع مجالا للشك ما يترتب على الدين من مسئولية ومؤاخذة وإليك الآن ما يتعلق بدين الميت ، فاستمع إلى صوت النبوة فى سكينة ووقار ، تعلم الخبر اليقين ، واسأل الله النجاة من خزى الدنيا ، وعذاب الآخرة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال : (نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه)[3]. أى ان امرها موقوف لا يحكم لها بنجاة ولا بهلاك أو محبوسة عن الجنة . وهذا فيمن مات وترك مالاً يقضى منه دينه .

أما من مات ولا مال له عازما على القضاء فقد ثبت ان الله تعالى يقضى عنه ، ومثله من مات وله مال وكان محبا للقضاء ولم يقض من ماله ورثته :

فعند البخارى من حديث ابى هريرة : ان النبى ﷺ قال : (فمن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله)[4].

---

(١) أخرجه البخارى فى الكفالة : ١. والامام أحمد فى ٢ : ٣٤٩ .
(٢) أخرجه ابن ماجه فى الصدقات : ٢١.
(٣) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٧٦. وابن ماجه فى الصدقات : ٩٢. والامام أحمد فى ٢ : ٤٤٠ ، ٤٧٥ .
(٤) أخرجه البخارى فى الزكاة : ١٨ ،وفى الاستقراض من : ٢. وابن ماجه فى الصدقات : ١١. والامام أحمد فى ٢ : ٣٦١ ، ٤١٧ .

وروى أحمد وأبو نعيم والبزار والطبرانى عن النبى ﷺ قال : (يدعى بصاحب الدين يوم القيامة حتى يوقف بين يدى الله عز وجل فيقول : ياابن آدم : فيم أخذت هذا الدين وفيم ضيعت حقوق الناس ؟ فيقول : يارب إنك تعلم أنى أخذته فلم آكل ولم أشرب ولم أضيع ولكن اتى علىَّ إما حرق و إما سرق واما ضيعة فيقول الله : صدق عبدى وأنا احق من قضى عنك فيدعو الله بشىء فيضعه فى كفة ميزانه فترجح حسناته على سيئاته فيدخل الجنة بفضل رحمته)(١)

وقد كان النبى ﷺ يمتنع عن الصلاة على المديون فلما فتح الله عليه البلاد وكثرت الأموال (صلى على من مات مديونا وقضى عنه)

وقال فى حديث البخارى : (أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن مات وعليه دين ولم يترك وفاء فعلينا قضاؤه ومن ترك مالا فلورثته)(٢) .

وفى هذا ما يدل على ان من مات مدينا : استحق أن يقضى عنه من بيت مال المسلمين ويؤخذ من سهم الغارمين أحد مصارف الزكاة ، وأن حقه لا يسقط بالموت .

بل كان رسول الله ﷺ عندما تأتيه الجنازة يسأل ويقول (أعلى صاحبكم دين) ؟

عن جابر رضى الله عنه قال : (توفى رجل فغسلناه وكفناه وحنطناه ، ثم أتينا به رسول الله ﷺ ليصلى عليه ، فقلنا : تصلى عليه ، فخطا خطوة ثم قال : أعليه دين ؟ قلنا : ديناران فانصرف ، فتحملهما أبو قتادة فأتيناه فقال أبو قتادة : الديناران علىَّ . فقال رسول الله ﷺ : قد أوفى الله حق الغريم ، وبرىء منهما الميت ؟ قال : نعم فصلى عليه ، ثم قال بعد ذلك بيومين : ما فعل الديناران ؟ قلت : إنما مات أمس قال : فعاد إليه من الغد فقال : قد قضيتها فقال رسول الله ﷺ الآن بردت جلدته)(٣) . رواه أحمد

وروى عن على رضى الله عنه قال : (كان رسول الله ﷺ إذا أتى بالجنازة لم يسأل عن شىء من عمل الرجل ويسأل عن دينه : فإن قيل عليه دين : كف عن الصلاة عليه وان قيل ليس عليه دين : صلى عليه ، فأتى بجنازة فلما قام ليكبر سأل رسول الله ﷺ : (هل على صاحبكم دين ؟ قالوا : ديناران فعدل عنه رسول الله ﷺ وقال : صلوا على صاحبكم فقال على رضى الله عنه : هما علىّ يارسول الله برىء منهما ، فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه ثم قال لعلى بن ابى طالب : جزاك الله خيرا فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك انه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا وهو مرتهن بدينه ومن فك رهان ميت : فك الله رهانه يوم القيامة فقال بعضهم : هذا لعلى خاصة أم للمسلمين عامة ؟ قال : بل للمسلمين عامة) رواه الدارقطنى .

وروى عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ أتى بجنازة ليصلى عليها قال : (هل عليه دين ؟ قالوا : نعم فقال النبى ﷺ : إن جبريل نهانى أن أصلى على من عليه دين فقال : إن صاحب الدين مرتهن فى قبره حتى يقضى عنه دينه) . رواه ابو يعلى والطبرانى .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ١ : ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٢) أخرجه البخارى فى الكفالة : ١٥ . ومسلم فى الجمعة : ٤٣ ، وفى الفرائض : ١٥ ، ١٦ . وأبو داود فى الامارة : ١٥ . والترمذى فى الجنائز : ٦٩ . والنسائى فى الجنائز : ٦٧ . وابن ماجه فى المقدمه : ٧ . والدارمى فى البيوع : ٥٤ . والامام أحمد فى ٣ : ٢١٥ ، ٢٩٦ ، ٣١١ ، وفى ٤ : ١٣٣ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى ٣ : ٣٣٠ .

الرسول يسأل :

عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فلم يجبه أحد ، ثم قال : ههنا أحد من بنى فلان ؟ فقام رجل فقال : أنا يارسول الله . فقال : من منعك أن تجيبنى فى المرتين الأوليين ؟ قال : إنى لم أنوه بكم إلا خيرا إن صاحبكم مأسور بدينه ، فلقد رأيته أدى عنه حتى ما أحد يطلبه بشىء)[1] رواه ابو داود

بعض ما ورد عن الدين :

وقد وردت أحاديث أخرى فى دين الميت نورد بعضها فيما يلى :

عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله فى أمره ، ومن مات وعليه دين فليس ثم دينار ولا درهم ولكنها الحسنات والسيئات ، ومن خاصم فى باطل وهو يعلم : لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مؤمن ما ليس فيه : حبس فى ردغة الخبال حتى يأتى بالمخرج مما قال) . رواه الحاكم .

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : انه قال : (صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى الله الوحدة) . رواه الطبرانى فى الاوسط .

وعن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن أعظم الذنوب عند الله أن يلقاه بها عبد بعد الكبائر التى نهى الله عنها أن يموت رجل وعليه دين لا يدع له قضاء)[2] رواه ابو داود والبيهقى .

التحذير من مطل الغنى :

رأينا ـ من باب تتمة الفائدة ـ أن نبين ما يتعلق بالمماطلة فى دفع الدين ، خصوصا إذا كان المدين غنيا .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (مطل الغنى ظلم)[3] .

ويبين الرسول ﷺ أن مطل الغنى (أى مماطلته فى أداء الديون) ظلم وأن الله تعالى لا يحب ثلاثة .

فعن على رضى الله عنه قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« لايحب الله الغنى الظلوم ولا الشيخ الجهول ولا الفقير المختال »

بل وإن الرسول ﷺ يشدد النكير فى مماطلة الدفع فيقول : (ما قدس الله أمة لا يأخذ ضعيفها الحق من قويها غير متعتع) ثم قال : من انصرف غريمه وهو عنه راض ، صلت عليه دواب الأرض

---

(١) أخرجه ابو داود فى البيوع : ٩. والنسائى فى البيوع : ٩٨. وابن ماجه فى الصدقات : ٢٠ والامام أحمد فى ٤ : ١٣٦ ، وفى ٥ : ٧ ، ١٠ ، ١١ ، ١٣ ، ٢٠.

(٢) أخرجه أبو داود فى الوصايا : ١٧.

(٣) أخرجه البخارى فى الاستقراض : ١٢. ومسلم فى المساقاة : ٣٤. وأبو داود فى البيوع : ١٠ والترمذى فى البيوع : ١٠. وابن ماجه فى الصدقات : ٨. والدارمى فى البيوع : ٤٨. والامام أحمد فى ٢ : ٧١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٣٧٠ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

و« نون » الماء ، ومن انصرف غريمه وهو ساخط : كتب عليه فى كل يوم وليلة وجمعة وشهر : ظلم) . رواه الطبرانى فى الكبير .

فائدة : ـ

كلمات يقولهن المديون والمهموم والمكروب والمأسور : ما من أحد فى هذه الدنيا إلا وتعتريه الهموم وتتناوشه الكروب فتلك طبيعة الأيام !

جبلت على كدر ، وأنت تريدها صفوا من الأحزان والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة نار ! !

إذا كان ذلك كذلك ، فما هو الملجأ ؟

الملجأ أن نردد هذه الأذكار التى جاءتنا من الصادق المعصوم ، فإن فى ترديدها عبادة ، وفى ذكرها التجاء إلى الله يقول فى محكم كتابه : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾[(1)] .

جاء عبد مكاتب إلى الامام على رضى الله عنه ، فلما جاء ذلك العبد إلى الامام على قال له : إنى عجزت عن مكاتبتى فأعنِّ فقال ألا أعلمك كلمات علمنيهن رسول الله ﷺ ، لو كان عليك مثل جبل جبير دينا . أداه الله عنك ؟ قل «اللهم اكفنى بحلالك من حرامك ، وأغننى بفضلك عمن سواك)[(2)] . رواه الترمذى .

الرسول ﷺ وأبو أمامة : ـ

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار ، يقال له : (أبو أمامة) جالسا فيه ، فقال : ياأبا أمامة :(مالى أراك جالسا فى المسجد فى غير وقت صلاة ؟ قال : هموم لزمتنى وديون يارسول الله ، قال : (أفلا أعلمك كلاما إذا قلته أذهب الله عز وجل همك وقضى عنك دينك ؟ فقال : بلى يارسول الله ، قال : قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل ، وأعوذ بك من البخل والجبن وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ، قال : فقلت ذلك فأذهب الله عز وجل همى وقضى عنى دينى)[(3)] . رواه أبو داود .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ لمعاذ : (ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأداه الله عنك ؟ قل يامعاذ : اللهم مالك الملك : تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطيهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء : ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك) . رواه الطبرانى فى الصغير بإسناد جيد .

ما يستفاد من أحاديث الدَّيْن : ـ

نبين هنا ما يريده رسول الله ﷺ من المدين والدائن ونتائج اتباع نصائحه ﷺ :

---

(١) الآية ٩٢ من سورة النمل .
(٢) أخرجه الترمذى فى الدعاء : ١١٠ .
(٣) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٣٥ ، ٤٠ . وأبو داود فى الوتر : ٣٢ . والترمذى فى الدعوات : ٧٠ . والنسائى فى الاستعاذة : ٧ ، ٨ . والامام أحمد فى ٣ : ١٢٢ ، ١٥٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ .

أولا : عدم المماطلة وترك التسويف إذا كان قادرا على الدفع .

ثانيا : قبول الحوالة إذا رأى الدائن حفظ حقه وأداء دينه .

ثالثا : حسن معاملة الدائن بتجنب المدين سب عرضه وشتمه وغيبته .

رابعا : كل من قدر على أداء ما افترض ولم يف : حشر مع الظالمين ، وعوقب معاقبة المجرمين المسيئين . وحل عليه غضب الله وكراهته .

خامسا : المدين المماطل يجلب لأمته الدمار والوباء والخسران ويوقعها فى الذنوب المهلكة ويبعدها من تطهير الله ورحمته ورأفته بها .

سادسا : أداء الدين بسهولة يجلب رضا الله وإحسانه ويسبب الدعوات الصالحة من العالم أجمع .

سابعا : المقصر فى الأداء الذى هجر دائنه وأغضبه : سجلت عليه الآثام بمرور الأزمان .

دعاء مبارك : ـ

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فى قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك . أو استأثرت به فى علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور بصرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى ـ إلا أذهب الله عز وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحا ، قالوا : يارسول الله : ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات : قال : أجل ، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن)[1] . رواه أحمد والبزار وأبو يعلى فى صحيحه .

وعن أبى بكرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (كلمات المكروب : اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله) رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه وزاد فى آخره : (لا إله إلا أنت) .

***

الاستغفار : ـ

من الاذكار التى تفرج الكروب وتزيل الهم والغم،الاستغفار : أى قولك : أستغفر الله .

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل ضيق مخرجا . ومن كل هم فرجا ورزقه من حيث لا يحتسب)[2] رواه ابو داود واللفظ له والنسائى وابن ماجه ، والحاكم ، والبيهقى .

لا حول ولا قوة إلا بالله : من الأذكار التى يفرج الله بها الهم والكرب والغم : قول : لا حول ولا قوة إلا بالله .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : (من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله :

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى ١ : ٣٩١ ، ٤٥٢ .

(٢) أخرجه ابو داود فى الوتر : ٢٦ . والامام أحمد فى ١ : ٢٤٨ .

كان دواء من تسعة وتسعين داء أيسرها : الهم) . رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم ، وكلاهما من رواية بشربن رافع . أبى الأسباط ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

وصيته ﷺ لأسماء بنت عميس :-

عن أسماء بنت عميس رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك كلمات تقولينهن عند الكرب - أو فى الكرب - : الله ، الله ربى لا أشرك به شيئا)(١) . رواه ابو داود والنسائى وابن ماجه . وكان دعاؤه ﷺ عند الكرب : (لا إله إلا الله الحليم العظيم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم)(٢) . رواه البخارى . ومسلم والترمذى .

فضل دعوة « ذى النون »

عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (دعوة ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله له)(٣) . رواه الترمذى واللفظ له ، والنسائى والحاكم وقال صحيح الاسناد .

وزاد الحاكم فى رواية له : فقال رجل يارسول الله : (هل كانت ليونس خاصة أم للمؤمنين عامة ؟ فقال رسول الله ﷺ : ألا تسمع إلى قول الله عز وجل : ﴿ **ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾(٤) .

دعاء موسى الكليم :-

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ألا أعلمك الكلمات التى تكلم بها موسى عليه السلام حتى جاوز البحر ببنى اسرائيل ؟ قلنا : بلى يارسول الله قال قولوا : اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى وأنت المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم) قال عبدالله فما تركتهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ) . رواه الطبرانى فى الصغير

فتح أبواب السماء لقبول الدعاء :-

عن أبى أمامة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : (إذا نادى المنادى فتحت له أبواب السماء واستجيب الدعاء . فمن نزل به كرب أو شدة فليتحين المنادى ، فإذا كبَّر كبرَّ وإذا تشهد تشهد ، وإذا قال : حيّ على الصلاة قال : حيّ على الصلاة ، وإذا قال : حى على الفلاح قال : حى على الفلاح ، ثم يقول : اللهم رب هذه الدعوة التامة الصادقة المستجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة التقوى أحينا عليها وأمتنا عليها وابعثنا عليها واجعلنا من خيار أهلها ، أحياء وأمواتا ، ثم يسأل الله حاجته) . رواه الحاكم من رواية عفير ين معدان .

---

(١) أخرجه ابو داود فى الوتر : ٢٦ .
(٢) أخرجه البخارى فى الدعوات : ٢٧ . ومسلم فى الدعوات : ٨٣ . والترمذى فى الدعاء : ٣٩ . وابن ماجه فى الدعاء : ١٧ . والامام أحمد فى ١ : ٢٢٨ ، ٢٥٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥٦ .
(٣) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١٨ .
(٤) الآية ٨٨ من سورة الأنبياء .

فائدة نبوية كريمة : ـ

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما كربنى أمر إلا تمثل جبريل فقال : يامحمد ، قل : توكلت على الحىّ الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذل وكبره تكبيرا) . رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد .

دعاء الأسير : ـ

وروى الأصبهانى عن إبراهيم يعنى ابن الأشعث ـ قال : سمعت الفضيل يقول : إن رجلا على عهد رسول الله ﷺ أسره العدو فأراد أبوه ان يفد يه ، فأبوا عليه إلا بشىء كثير لم يطقه ، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ : فقال : اكتب إليه فليكثر من قول : (توكلت على الحى الذى لا يموت ، والحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىٌّ من الذل وكبره تكبيرا . قال : فكتب بها الرجل إلى ابنه ، فجعل يقولها ، فغفل العدو عنه ، فاستاق أربعين بعيرا فقدم بها إلى أبيه) .

***

فضل رعاية حقوق العباد : ـ

بعد هذا الطواف المبارك حول أقوال الرسول ﷺ التى دلت على الوفاء وأداء الدين . . فسوف نسوق هذه الآيات الكريمة ، من كتاب الله تعالى . . والتى تخبرنا عن حب الله للمتقين وإحسانه إلى المؤمنين الذين لا تضيع بينهم الحقوق .

قال الله تبارك وتعالى فى سورة النحل : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون . ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون** ﴾(١) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة النحل أيضا ﴿ **ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا إنما عند الله هو خير لكم ، إن كنتم تعلمون** ﴾(٢) .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الاسراء ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا** ﴾(٣) .

وقال تعالى فى سورة الروم : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون** ﴾(٤) .

وقال تعالى فى سورة الشمس : ﴿ **قد أفلح من زكاها . . وقد خاب من دساها**)(٥) .

وقال تعالى فى سورة الانعام : ﴿ **ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون . ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون . وربك الغنى ذو الرحمة** ﴾(٦) .

وقال تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما**

---

(١) الأيتان ٩١ ، ٩٢من سورة النحل .
(٢) الآية ٩٥ من سورة النحل .
(٣) الآية ٣٤ من سورة الاسراء .
(٤) الآية ١٢ من سورة الروم .
(٥) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الشمس .
(٦) الآيات ١٣١ ـ ١٣٣ من سورة الأنعام .

بأنفسهم ، وأن الله سميع عليم)[١] .

وقال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾[٢] .

وقال سبحانه وتعالى فى سورة الحج : ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾[٣] .

عود إلى بدء

استحباب الدعاء والاسترجاع عند الموت : -

بعد الفراغ من الكلام عن أحكام الديون عامة ، وعن ديون الميت خاصة ، نواصل مسيرتنا عما يتعلق بما بعد الموت ، وما يستحب أن يقوله المصاب بعد وقوع الموت .

يروى أحمد ومسلم عن أم سلمة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ما من عبد تصيبه مضيبة فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم آجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها ، إلا آجره الله تعالى فى مصيبته وأخلف له خيرا منها)[٤] قالت : (فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ ، فأخلف الله لى خيرا منه رسول الله ﷺ) .

وفى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : (إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته : قبضتم ولد عبدى فيقولون : نعم . فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون : نعم . فيقول : فماذا قال عبدى ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد)[٥] .

● وفى البخارى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : (يقول الله تعالى : ما لعبدى المؤمن عندى جزاء - إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه - إلا الجنة)[٦] .

وعن ابن عباس رضى الله عنه ، فى قول الله تعالى : ﴿ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[٧] . قال : أخبر الله عز وجل : (أن المؤمن إذا سلم الأمر لله ورجع واسترجع عند المصيبة كتب له ثلاث خصال من الخير : الصلاة من الله والرحمة وتحقيق سبيل الهدى) .

استحباب الإعلام بموته : -

استحب الفقهاء اعلام أهل البيت وقرابته واصدقائه واهل الصلاح بموته ليكون لهم أجر المشاركة فى تجهيزه .

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الانفال .
(٢) الآية ٣ من سورة الأنعام .
(٣) الآية ٣٨ من سورة الحج .
(٤) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٤. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٥. والامام أحمد فى ٦ : ٣٠٩ ، ٣٢١ .
(٥) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٣٦. والامام أحمد فى ٤ : ٤١٥ .
(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٦. والامام مالك فى الجنائز : ٣٩. والامام أحمد فى ٢ : ٤١٧ ، وفى ٣ : ٤٤٣ ، وفى ٤ : ٢٣٧ ، وفى ٥ : ٢٥٣ .
(٧) الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ من سورة البقرة .

وذلك لما رواه الجماعة عن أبي هريرة رضى الله عنه ان النبى ﷺ (نعى للناس النجاشى فى اليوم الذى مات فيه وخرج بهم إلى المصلى فصف أصحابه وكبر عليه أربعا)[١].

● وروى احمد والبخارى عن أنس رضى الله عنه : (أن النبى ﷺ نعى زيدا وجعفرا وابن رواحة قبل أن يأتيه خبرهم)[٢].

وقال البيهقى : وبلغنى عن مالك بن أنس أنه قال : لا أحب الصياح لموت الرجل على أبواب المساجد ولو وقف على حلق المساجد فأعلم الناس بموته لم يكن به بأس .

تحريم النياحة على الميت :-

النياحة على الميت : هى رفع الصوت بالبكاء عليه .. فقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة مصرحة بتحريمها :

● عن رسول الله ﷺ أنه قال : (النائحة إذا لم تتب قبل موتها : تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب)[٣] .

وعن ام عطية قالت : (أخذ علينا رسول الله ﷺ الا ننوح)[٤] . رواه البخارى ومسلم .

● وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : (أنا برىء ممن منعه رسول الله ﷺ .. ان رسول الله ﷺ برىء من الصالقة والحالقة والشاقة)[٥] .

[الصالقة : هى التى ترفع صوتها بالندب والنياحة ، والحالقة ، هى التى تحلق رأسها عند المصيبة ، والشاقة هى التى تشق ثوبها]

● وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : (أغمى على عبدالله بن رواحة فجعلت أخته تبكى : واجبلاه واكذا ، واكذا (تعدد عليه) فقال حين أفاق : ما قلت شيئا إلا قيل لى : أنت كذلك ؟)[٦] . رواه البخارى وزاد فى رواية . (فلما مات : لم تبك عليه) .

ومن هنا كان واجبا على المسلم قبل موته أن يوصى ويبرأ من كل ما يخالف سنة رسول الله ﷺ ، حتى لا يقع تحت طائلة المسئولية . فإن كان يرضيه النياحة ولا ينهى من ينوح قبل موته راضيا بذلك : وقع فى المسئولية بعد الموت .

عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (إن الميت ليعذب ببكاء الحى : إذا قلت : واعضداه ، وا تعساه ، واناصراه ، واكاسياه . جند الميت فقيل له : أناصرها أنت ؟ أكاسيها أنت ؟) . رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

---

(١) أخرجه النسائى فى الجنائز : ٢٧ ، ٧٢ . والبخارى فى الجنائز : ٤ ، ٥. ومسلم فى الجنائز : ٦٣. وأبو داود فى الجنائز : ٥٨.

(٢) أخرجه البخارى فى المناقب : ٢٥ ، وفى فضائل أصحاب النبى : ٢٥ ، وفى المغازى : ٤٤.

(٣) أخرجه مسلم فى الجنائز : ٢٩. وابن ماجه فى الجنائز : ٥١. والامام احمد فى ٥ : ٣٤٢- ٣٤٤ .

(٤) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٤٦. ومسلم فى الجنائز : ٣١. والنسائى فى الجنائز : ١٥. والامام أحمد فى ٣ : ١٩٧ ، وفى ٥ : ٨٤ ، ٨٥.

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٨. ومسلم فى الايمان : ١٦٨ .

(٦) أخرجه البخارى فى المغازى : ٤٤.

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (اثنتان فى الناس هما بهم كفر : الطعن فى النسب والنياحة على الميت)[1] . رواه مسلم .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة من الكفر بالله : شق الجيب ، والنياحة ، والطعن فى النسب) . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الاسناد .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (لا تصلى الملائكة على نائحة ولا حرنة)[2] . رواه أحمد وإسناده حسن .

● وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن هذه النوائح يجمعن يوم القيامة صفين فى جهنم : صف عن يمينهم وصف عن يسارهم فينبحن على أهل النار كما تنبح الكلاب) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

● وروى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : (لعن رسول الله ﷺ النائحة والمستمعة)[3] رواه أبو داود وليس فى اسناده من ترك .

● وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : (لما مات أبو سلمة قلت : غريب وفى أرض غربة لأبكينه بكاء يتحدث عنه .. فكنت وقد تهيأت للبكاء عليه ، إذ أقبلت امرأة تريد أن تساعدنى فاستقبلها رسول الله ﷺ فقال : أتريدين أن تدخلى الشيطان بيتا اخرجه الله منه ؟ فكففت عن البكاء ، فلم أبك)[4] . رواه مسلم .

● وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)[5] . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

● وعن أسيد بن أبي أسيد التابعى عن امرأة من المبايعات قالت : (كان فيما أخذ علينا رسول الله ﷺ فى المعروف الذى أخذ علينا : الا نخمش وجها ولا ندعو ويلا ولا نشق جيبا ولا ننشد شعرا)[6] . رواه ابو داود .

وعن أبي امامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ : (لعن الخامشة وجهها والشاقة جيبها والداعية بالويل والثبور)[7] . رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

الإحداد على الميت

وهذا الاحداد متعلق بالنساء .. ومعناه : ترك ما تتزين به المرأة من الحلى والكحل والحرير والطيب والخضاب .

---

(١) أخرجه البخارى فى مناقب الأنصار : ٢٧ . ومسلم فى الايمان : ١٢١ ، وفى الجنائز : ٢٩ . والترمذى فى الجنائز : ٢٣ . والامام أحمد فى ٢ : ٢٩١ ، ٣٣٧ ، ٥٣١ ، وفى ٥ : ٣٤٢ ، ٣٤٣ .

(٢) أخرجه الامام أحمد فى ٢ : ٣٦٢ .

(٣) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٢٥ . والامام أحمد فى ٣ : ٦٥ .

(٤) أخرجه مسلم فى الجنائز : ١٠ .

(٥) أخرجه البخارى فى الجنائز : ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ . ومسلم فى الايمان : ١٦٥ . والترمذى فى الجنائز : ٢٣ ، ٢٥ . والنسائى فى الجنائز : ١٧ ، ١٩ ، ٢١ . وابن ماجه فى الجنائز : ٥٢ . والامام أحمد فى : ٣٨٦ ، ٤٣٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٥ .

(٦) أخرجه ابو داود فى الجنائز : ٢٥ .

(٧) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٥٢ ، وفى المناسك : ٥٦ ، والامام أحمد فى ٤ : ١٥ .

وأقصى مدة للاحداد على غير الزوج : ثلاثة أيام ، بشرط أن يأذن لها زوجها بذلك فإن لم يأذن لها : كان ذلك غير جائز .

● روى الجماعة (إلا الترمذى) عن أم عطية أن النبى ﷺ قال : « لا تحد امرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوج : فإنها تحد عليه أربعة أشهر وعشرا ، ولا تلبس ثوبا مصبوغا إلا ثوب عصب (برودیمانية) . ولا تكتحل ولا تمس طيبا ولا تختضب ولا تمتشط إلا إذا طهرت تمس نبزقا من قسط أو ظفار »[1] (نوعان من العود الذى يتطيب به) .

والنبزق : القطعة .

أى أنه يجوز وضع الطيب عند الغسل من الحيض .

وهكذا يتبين أن مدة الاحداد على وفاة الزوج أربعة أشهر وعشرة أيام أى مدة عدة الوفاة ، وإنما كان الأمر كذلك بالنسبة للزوج فقط غرفانا له ومراعاة لحقه .

صنع الطعام لأهل الميت :ـ

استحب الشارع : صنع الطعام لأهل الميت لأنه من باب البر والتقرب إلى الأهل والجيران .

لما مات جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : (اصنعوا لآل جعفر طعاما فإنه قد أتاهم أمر يشغلهم)[2] رواه ابو داود وابن ماجه والترمذى وقال : حسن صحيح .

قال الشافعى : واحب لقرابة الميت أن يعملوا لأهل الميت فى يومهم وليلتهم طعاما يشبعهم فإنه سنة وفعل أهل الخير .

واستحب العلماء الالحاح عليهم ليأكلوا ، لئلا يضعفوا بتركه : استحياء أو لفرط جزع .

واتفق الأئمة على كراهة صنع اهل الميت طعاما للناس يجتمعون عليه لما فى ذلك من زيادة المصيبة عليهم وشغلا لهم لشغلهم وتشبها بصنيع أهل الجاهلية : لحديث جرير ، قال : (كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت وصنيعة الطعام بعد دفنه : من النياحة)[3] . وذهب بعض العلماء إلى التحريم .

قال ابن قدامة . . فإن دعت الحاجة إلى ذلك : جاز ، فإنه ربما جاءهم من يحضر بيتهم من القرى والأماكن البعيدة ويبيت عندهم ، ولا يمكنهم إلا أن يضيفوه .

سكرة الموت :ـ

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾[4] .

قال رسول الله ﷺ وهو يعالج سكرات الموت :

(سبحان الله ! إن للموت لسكرات)[5] .

هذه كلمة نسوقها لترقيق القلوب إذا قست ، وتذكرة للعيون إذا جمدت . .(فإن الذكرى تنفع المؤمنين) .

---

(١) أخرجه النسائى فى الطلاق : ٦٤ ، ٦٥. وابو داود فى الطلاق : ٤٦. والامام احمد فى ٦ : ٣٠٢.
(٢) أخرجه الترمذى فى الجنائز : ٢١. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٩.
(٣) أخرجه الامام احمد فى ٢ : ٢٠٤.
(٤) الآية ١٩ من سورة ق .
(٥) أخرجه ابن ماجه فى الجنائز : ٦٤. والترمذى فى الجنائز : ٧. والامام أحمد فى ٦ : ٦٤ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١.

● وروى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : (خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولم يلحد بعد ، فجلس رسول الله ﷺ ، وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير ، وبيده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه وقال : استعيذوا بالله من فتنة القبر ومن عذابه (مرتين أو ثلاثا) ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا : نزلت إليه ملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه ويقول : أيتها النفس المطمئنة الزاكية أخرجى إلى مغفرة الله ورضوانه ، قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من الشفاة فيأخذونها ولا يدعونها فى يده طرفة عين فيجعلونها فى ذلك الكفن والحنوط فيخرج منها أطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأحسن أسمائه) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها ، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى : اكتبوا كتابه فى يمينى وأعيدوه إلى الأرض : منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى . . فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله ، فيقولان له : ما دينك فيقول :دينى الاسلام فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ أهو رسول الله ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ فيقولان له : وما علمك به ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقته . . قال فينادى مناد من السماء : صدق عبدى ، فافرشوا له من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، فيأتيه من ريحها وطيبها وروحها ورائحتها ويفسح له فى قبره مد البصر ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له : أبشر ، للذى يسرك . . هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح فيقول : رب اقم الساعة ـ شوقا إلى ما يرى من النعيم)[1] .

وفى هذا المعنى يقول أحد الحكماء :

نحن فى عيشة الوصال الهنية نختلى الراح فى الكئوس الهنية
قد هجرنا دار إلفناء وسرنا لدار . . . حياتها أبدية
آنستنا هياكل النور لما فارقتنا الهياكل البشرية
وسمعنا الخطاب : طيبوا فلا حزن عليكم ولا تخافوا منية
قد حظيتم برؤيتى وخطابى وسكنتم دار الجنان العلية

بقية الحديث :

قال : (وأما العبد الكافر إذا كان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة نزلت إليه ملائكة سود الوجوه ومعهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت فيجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة : اخرجى إلى سخط الله وغضبه فتتفرق الأعضاء كلها فينزعها كما تنزع الفسود من الصوف المبلول : فتنقطع الأعضاء كلها فيأخذونها فيجعلونها فى تلك المسوح ويخرج منها رائحة منتنة كأنتن رائحة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما

(١) أخرجه ابو داود فى السنة : ٢٤ . والترمذى فى الدعوات : ١٣٢ . والامام احمد فى ٤ : ٢٨٧ ، وفى ٦ : ٨١ ، ٣٦٢ .

هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هو فلان ابن فلان (بأقبح اسمائه) حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون ، فلا يفتح له . . ثم قرأ رسول الله ﷺ :"لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط"ويقول الله تعالى : (اكتبوا كتابه فى سجين ثم تطرح روحه طرحا . . ثم قرأ رسول الله ﷺ : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

فتعاد روحه فى جسده ثم يأتيه ملكان فيجلسانه ، ويقولان له من ربك فيقول : هاه ! هاه لا أدرى : فيقولان له : ما دينك : فيقول هاه ! هاه ! لا أدرى فيقولان له : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ، فيقول هاه ! هاه ! لا أدرى فينادى مناد من السماء : كذب عبدى فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحو له بابا الى النار . . . فيدخل عليه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح فيقول له : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد . . فيقول : من أنت . فيقول : أنا عملك الخبيث السىء فى دار الدنيا .
فيقول : رب لا تقم الساعة) .

مناجاة

أيا من كلما نودى أجابا ومن بجلاله ينشى السحابا
وكلم فى الدجى موسى بلطف كلاما ثم ألهمه الخطابا
ويامن رد يوسف بعد بُعدٍ وكان أبوه ينتحب انتحابا
ويامن خص أحمد واصطفاه وأعطاه الرسالة والكتابا
وقربه وسماه حبيبا وأعتق من شفاعته الرقابا
لك الفضل المبين على عطاء مننت به وضاعفت الثوابا

روضة روحانية

كثيرا ما تنغمس النفس فى ماديات الحياة فتشعر بظلمة قاتمة دكناء وتحتاج عندئذ إلى ما يبدد عنها غياهب ظلماتها . . وليس هناك ما يبدد غياهب هذه الظلمات إلا ذكر الله . . قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[1] .

قال أحد الحكماء فى مناجاة الندم والتوبة : ـ

واحسرتى : واشقوتى من يوم نشر كتابيه !
واطول حزنى : إن أكن أوتيته بشماليه !
وإذا سئلت عن الخطايا ماذا يكون جوابيه !

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

واحرّ قلبى : أن يكون مع القلوب القاسيه !
كلا . ولأقدمت لى عملا ليوم حسابيه !
بل إننى : لشقاوتى وقساوتى وعذابيه !
بارزت بالزلات فى أيام دهر خاليه !
من ليس يخفى عنه من قبح المعاصى خافيه !
أستغفر الله العظيم وتبت من أفعاليه !
فعسى الاله يجود لى بالعفو ثم العافيه.

عظة وعبرة :-

فعليك ياأخى بالاخلاص لله وإياك والرياء فإنه يضيع الثواب ويحبط العمل :

روى عدى بن حاتم رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال : (يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة ، حتى إذا دنوا منها ، واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها : نودوا : أن اصرفوهم عنها ، فلا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون : ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا : كان أهون علينا .

قال : ذلك أردت بكم .. كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالمعاصى ، وإذا لقيتم الناس : لقيتموهم مخبتين ، تراءون الناس ، بخلاف ما تعطونى من قلوبكم .. هبتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى ... فاليوم أذيقكم أليم عذابى مع ما حرمتكم من ثواب الآخرة) .

فاللهم ارزقنا الاخلاص فى القول والعمل وأدخلنا برحمتك فى عبادك الصالحين وقنا خزى الدنيا وعذاب الاخرة .

رباه ! !

أيامن جل عن كيف ، وأين وعن ند وعن ولد ووالد
ملكت الكائنات بحسن صنع ولانت من مخافتك الجلامد
أذنت لها تكون فاستكانت وأنت على جميع الخلق شاهد
وكنت بحيث لاكون وعون وحاشا أن تحيط بك المعاهد
وأنت بحيث أنت وليس أين ولا كيف تمثله الشواهد
أحطت بجملة الأشياء علما وأنت لكل ما فيها مراصد
ويامن ماله فى الملك ثان ولا مثل وليس له معاضد
فقد عودتنا الاحسان لطفا وصعب عندنا قطع العوايد

اعلم - ياأخا الاسلام - أن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

فياأخى :

(جدد السفينة : فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد : فإن السفر طويل ، وأخلص العمل : فإن الناقد بصير وخفف الحمل : فإن العقبة كئود)

إن النفس لأمارة بالسوء

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه : ينفطم
فراعها وهى فى الأعمال سائمة فإن هى استحلت المرعى فلا تهم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة من حيث لم يدر أن السم فى الدسم

يرحم الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقد طلب معاوية بن أبى سفيان من ضرار الصدائى أن يصفه له ، فقال : ياضرار صف لى عليا ، قال : أعفنى ياأمير المؤمنين ، قال معاوية : لتصفنه . قال ضرار : أما إذا لابد من وصفه ، فكان والله : بعيد المدى ، شديد القوى . . . يقول فصلا ، ويحكم عدلا . . يتفجر العلم من جوانبه . وتنطق الحكمة من نواحيه . . يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل ووحشته . . كان ـ والله ـ غزير العبرة طويل الفكرة . . يقلب كفه ، ويخاطب نفسه . . يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن . . كان فينا : كأحدنا . . يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ونحن ـ مع تقربته ايانا وقربه منا ـ لا نكاد نكلمه لهيبته ولا نبتدئه : لعظمته . . . يعظم اهل الدين ، ويحب المساكين . . لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . . وأشهد : لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه متمثلا فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء اليتيم ، يقول : يادنيا : غرى غيرى . . أبى تعرضت ؟ أم إلى تشوقت ؟ هيهات هيهات ! لقد باينتك ثلاثا لا رجعة فيها فعمرك قصير وخطرك حقير . . . آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق !

فبكى معاوية رحمه الله وقال : يرحم الله أبا الحسن : لقد كان ذلك . . فكيف حزنك عليه ياضرار ؟ قال : حزن من ذبح واحدها فى حجرها ؟ !

يارب ! : ـ

حاسبت نفسى لم أجد لى صالحا إلا رجائى رحمة الرحمن
ووزنت أعمالى علىَّ فلم أجد فى الأمر إلا خفة الميزان
وظلمت نفسى فى فعال كلها ويحى ـ إذن ـ من وقفة الديان
يـأيها الاخوان ! إنى راحل مهما يطل عمرى فإنى فان
يارب : إن لم ترض إلا ذا تقى من للمسىء المذنب الحيران ؟؟

أخا الاسلام :

الدنيا إلى شتات وكل حىٍّ إلى ممات !

وكم من جبال قد علت شرفاتها رجال فزالوا . . والجبال جبال

سبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

وقال الجنيد ـ رحمه الله ـ دخلت على السرى السقطى عند الموت ، وكان أحرق قلبه الخوف فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ؟ والذى أصابنى من طبيبي ؟ . فأخذت المروح لأروح عليه « فقال : كيف يجد ريح المروحة من قلبه يحترق ؟ ثم أنشد قائلا :

القلب محترق ، والدمع مستبق والقلب مجتمع والعبد مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى و الشوق والقلق !

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، الذى كان يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غدًا : ان تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر : ﴿ يومئذ تعرضون ، لا تخفى منكم خافية ﴾[1] .

خطرات

قال منصور بن عمار رحمه الله : خرجت ذات ليلة مظلمة ، فسمعت من يناجى الله تعالى ويقول :

إلهى ! وعزتك وجلالك : ما أردت بمعصيتى مخالفتك ! ولقد عصيتك ـ إذ عصيتك ـ وما أنا بمكانك جاهل ، ولكن خطيئتى عرضت علىّ ، وسولت لى نفسى أعاننى عليها شقائى ، فغرنى سترك المرخى علىَّ ، فعصيتك بجهلى وخالفتك لشقوتى ، فمنَ يستنقذنى من عذابك وبحبل من أعتصم ، إن قطع حبلك عنى ؟

وأحسرتاه ! إذا قيل للمخفين : جوزوا وللمثقلين : حطوا . . أترانى : مع المخفين أجوز ؟ ام مع المثقلين أحط ؟ ويلى ! كلما كبر سنى : كثرت ذنوبى . . ويلى : كم أتوب ؟ وكم أدعو ؟ أما آن لى أن أستحى من علام الغيوب ؟ ! ما اعتذارى ، وأمر ربى عصيت ؟

ما اعتذارى ، وأمر ربى عصيت حين تبدى صحائفى مـا أتيت
ما اعتذارى إذا وقفت ذليلا قـد نهانى وما أرانى انتهيت
يـاغنيا عـن العـباد جميعا وعليما بكـل مـا قـد سعيت
لـيس لى حجـة ولا لى عـذر فاعف عن زلتى وما قد جنيت

ثم قال :

يـارب أنـت أمـرتنى ونهيتنـى وأريتنى طـرق الضلالـة والهدى
وعلمت انى لا أفـر مـن الـذى قدرت لى . . إن كان خيرا أو ردى
وسلكت بى ما شئت للشىء الذى فى الخلق ما أخفيته عنهم سـدى
فاقبـل بفضلك توبتى لك مخلصا وارحم فإنى قد بسطت لك اليـدا
واصفح عـن العبـد الذى ياسيدى قد جـاء معترفا وعاش موحـدا

(١) الآية ١٨ من سورة الحاقة .

إذا علمت هذا يا أخى : فصمْ عن الدنيا وافطر على الموت واعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ؟ حقيقة لا مفر منها . وهكذا يتطرق بنا الحديث هل يجوز اعداد الكفن والقبر قبل الموت .

والجواب على ذلك : نعم

فقد جاء فى الحديث (أن امرأة أهدت بُردة إلى النبى ﷺ وطلبها أحد أصحابه فأعطاه إياها فقال له الصحابة : ما أحسنت . . لقد لبسها النبى ﷺ . . وهو فى حاجة إليها فقال الصحابى والله ما سألته لألبسها إنما سألته لتكون كفنى قال سهل رضى الله عنه ـ : فكانت كفنه) .

ويستفاد من هذا الحديث : جواز تحصيل ما لابد منه للميت ـ من كفن ونحوه ـ وفى حال حياته ويلتحق به : حفر القبر .

وقد حفر جماعة من الصالحين قبورهم قبل الموت .

قال الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : لا بأس أن يشترى الرجل موضع قبره ويوصى أن يدفن فيه .

وروى عن عثمان وعائشة وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهم : أنهم فعلوا ذلك .

فائدة

يستحب للمؤمن أن يسأل الله أن يقبض روحه فى أحد الحرمين الشريفين : لما رواه البخارى عن حفصة رضى الله عنها ، أن عمر رضى الله عنه قال : (اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك واجعل موتى فى بلد رسولك .

فقلت : أنَّى هذا ؟ فقال : يأتينى به الله إن شاء الله)[1] . وروى الطبرانى عن جابر أن النبى ﷺ قال : (من مات فى أحد الحرمين : بعث آمنا يوم القيامة) .

أجر من مات له ولد

اعلم أن الصبر على فقد الأولاد ـ ذكورا كانوا أم إناثا ـ له عند الله من الأجر ما يقول فيه ربنا تبارك وتعالى : ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[2] ،

روى البخارى عن أنس عن النبى ﷺ قال : (ما من الناس من مسلم يتوفى له ثلاثة لم يبلغوا الحنث إلا أدخله الله الجنة ، بفضل رحمته إياهم)[3] .

وروى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النساء قلن للنبى ﷺ : اجعل لنا يوما . فوعظهن . وقال : (أيما امرأة مات لها ثلاثة من الولد : كانوا لها حجابا من النار ، قالت

---

(١) اخرجه الامام مالك فى الجهاد : ٣٤.

(٢) الآية ١٠ من سورة الزمر .

(٣) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٦ ، وفى الجنائز : ٦ ، ٩١. ومسلم فى البر : ١٥٣ . والترمذى فى الجنائز : ٦٤. وابن ماجه فى الجنائز : ٥٧. والنسائى فى الجنائز : ٢٥. والامام أحمد فى ١ : ٣٧٥ ، ٤٢٩ ، ٤٥١ ، وفى ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ ، وفى ٥: ١٥١ ، ١٥٣ :

امرأة : واثنان؟ قال : واثنان ؟)[١].

أعمارنا قصيرة : -

يامن بدنياه اشتغل وغرّه طول الأمل
الموت يأتى بغتة والقبر صندوق العمل

ما أقصر الاعمار !

كما أخبر بذلك الصادق المعصوم ﷺ : فقد روى الترمذى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين ، وأقلهم : من يجوز ذلك)[٢].

فياأخى : اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك وحياتك قبل موتك .

الدنيا سجن المؤمن

ما أجمل لقاء الله على الايمان والتقوى ! ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٣]. ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون)[٤].

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا : تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلا من غفور رحيم ﴾[٥].

وروى البخارى ومسلم عن أبى قتادة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ مرّ عليه بجنازة ، قال : (مستريح أو مستراح منه ! فقالوا : يارسول الله : ما المستريح وما المستراح منه ؟ فقال : العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)[٦].

خاتمة

من المناسب أن نختم بحثنا هذا بأحاديث عن رسول الله ﷺ تملأ النفس طمأنينة وسكينة ومعرفة بالله عندما يحل القضاء ، وينزل البلاء بالعبد :

---

(١) أخرجه البخارى فى العلم : ٣٦ ، وفى الاعتصام : ٩. ومسلم فى البر : ١٥٢. والترمذى فى البر : ١٣. والامام أحمد فى ٣ ٣٤ ، ٧٢.

(٢) أخرجه الترمذى فى الدعوات : ١. وابن ماجه فى الزهد : ٢٧.

(٣) الآيات ٦٢ - ٦٤ من سورة يونس .

(٤) الآيات ١٠١ - ١٠٣ من سورة الأنبياء .

(٥) الآيات ٣٠ - ٣٢ من سورة فصلت .

(٦) أخرجه البخارى فى الرقاق : ٤٢. ومسلم فى الجنائز : ٦١. والنسائى فى الجنائز : ٤٨ ، ٤٩. والامام مالك فى الجنائز : ٥٥. والامام أحمد فى ٥ : ٢٩٦ ، ٣٠٢ - ٣٠٤ .

عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (الطهور شطر الايمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ـ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والقرآن حجة لك أو عليك . . كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها ، أو موبقها)[١] . رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد خيرا وأوسع من الصبر)[٢] . رواه البخارى ومسلم فى حديث تقدم .

● وعن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أربع لا يصبن إلا بعجب : الصبر وهو أول العبادة والتواضع وذكر الله وقلة الشىء) . رواه الطبرانى والحاكم .

وعن علقمة قال : قال عبدالله : (الصبر : نصف الايمان ، واليقين : الايمان كله) رواه الطبرانى فى الكبير .

وعن صهيب الرومى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (عجبا لأمر المؤمن : إن أمره له كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . . إن اصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)[٣] . رواه مسلم .

● وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : سمعت أبا القاسم ﷺ يقول : (إن الله عز وجل قال ياعيسى : إنى باعث من بعدك أمة : إن أصابهم ما يحبون حمدوا الله وإن أصابهم ما يكرهون احتسبوا وصبروا ولا حلم ولا علم فقال : يارب كيف يكون هذا ؟ قال : أعطيهم من حلمى وعلمى) . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

وروى عن سخبرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من أعطى فشكر وابتلى فصبر وظلم فاستغفر وظلم فغفر ثم سكت ، فقالوا يارسول الله : ماله ؟ قال : أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) . رواه الطبرانى .

صلوات الله وسلامه عليك ياسيدى يارسول الله وعلى آلك وأصحابك أجمعين !

وهكذا عشنا فى رحاب قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ .

من دلائل القدرة

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ

(١) أخرجه الدارمى فى الوضوء : ٢ ، والامام أحمد فى ٥ : ٣٤٢ ـ ٣٤٤ . ومسلم فى الطهارة : ١ .

(٢) أخرجه البخارى فى الزكاة : ٥٠ ، وفى الرقاق : ٢٠ . ومسلم فى الزكاة : ١٢٤ . وأبو داود فى الزكاة : ٢٨ . والترمذى فى البر : ٧٧ . والدارمى فى الزكاة : ١٨ . والامام مالك فى الصدقة : ٧ . والامام أحمد فى ٣ : ١٢ ، ٩٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى الزهد : ٦٤ . والامام أحمد فى ٤ : ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، وفى ٦ : ١٥ ، ١٦ .

جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

تفسير المفردات

الطرائق : السموات واحدها طريقة، أي: مطروق بعضها فوق بعض ، من قولهم: طارق بين ثوبين : إذا لبس ثوبا فوق ثوب ، قال الخليل والزجاج : وهذا كقوله: ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ﴾[1] وقوله : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾[2] .

الخلق : أى المخلوقات التى منها السموات السبع ، غافلين : أى مهملين ﴿ يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ .

السماء : هنا السحاب

بقدر : أى بتقدير خاص وهو مقدار كفايتهم ، فأسكناه فى الأرض أى: جعلناه ثابتا قارا فيها .

الذهاب : الازالة إما بإخراجه من المائية أو بتغويره فى الأرض بحيث لا يمكن استخراجه .

والشجرة : هى الزيتون وطور سيناء : هو جبل الطور الذى ناجى فيه موسى ربه ويسمى طور سينين أيضا .

والصبغ : ما يصبغ فيه الخبز أى يغمس فيه للائتدام قال فى المغرب : يقال صبغ الثوب بصبغ حسن ، وصباغ حسن ، ومنه الصبغ والصباغ من الإدام لأن الخبز يغمس فيه ويلون به كالخل والزيت .

التفسير

بعد ذكر الله تعالى مبدأ الانسان ومعاده فى قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من

(١) الآية ١٥ من سورة نوح .
(٢) الآية ١٢ من سورة الطلاق .

طين . إلى قوله . . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ أقام الأدلة الباهرة والحجج القاطعة والبراهين الساطعة على قدرته التى ظهرت آثارها ظهور الشمس فى ضحاها فمن تلك الأدلة قوله جل جلاله ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق ﴾ والمراد بها السموات العلا وسميت طرائق لانها متطارقة اى متطابقة يطابق بعضها بعضا أو سميت كذلك لانها طرق الملائكة تغدو فيها وتروح قال تعالى عن تلك السموات :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾(١) .

وقال جل شأنه : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾(٢)

وقال تبارك اسمه ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾(٣)

وقال سبحانه : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٤) .

وقال جل شأنه : ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ﴾(٥) .

إن الذى خلق السموات العلا وهذه حقيقة لا مراء فيها قادر بالأولى أن يعيد الأجسام بعد الموت ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ أى ما كنا مهملين شأنا من شئون المخلوقات فإن الله سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾(٧) .

سبحانه علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾(٨) .

إن العناية الألهية قد احاطت بدقائق الاشياء وحقائقها . ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾(٩) .

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه

---

(١) الايات ١ ـ ٥ من سورة الملك .
(٢) الآية ٤٧ من سورة الذاريات
(٣) الآية ٣٨ من سورة ق .
(٤) الآية ٥٧ من سورة غافر .
(٥) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة نوح .
(٦) الآية ٤٤ من سورة فاطر .
(٧) الآية ٥٩ من سوة الانعام .
(٨) الآيتان ١ ، ٢ من سورة سبأ .
(٩) الاية ٦ من سورة هود .

الطير سبحـه والـوحش مجـده والمـوج كبـره والحـوت نـاجـاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمدا فى خـلاياه
والناس يعصونـه جهـرا فيسترهم والعبـد ينسى وربى ليس ينساه

ثم يسوق القرآن الكريم دليلا آخر على القدرة الفائقة والعظمة المطلقة وذلك فى إنزال الماء من السماء ، أى السحاب وإسكانه الأرض فيقول سبحانه : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾

فالماء نعمة كبرى من نعم الله تعالى ﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون** ﴾[1]

ثم هل تأملت معنى قوله تعالى ﴿ **بقدر** ﴾ إنها كلمة تعطيك معنى النظام الدقيق الذى قام عليه الكون كما تعطيك معنى العناية والصيانة وحسن التدبير واتقان الصنع قال تعالى : ﴿ **وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾[2] .

فهذا الماء الذى ينزل من السماء قد أعد بعناية فائقة فلا هو بالقليل المخل والذى لا يفى بالغرض ولا هو بالكثير المتلف والطوفان المغرق فسبحان من قال وخلق كل شىء فقدره تقديرا وجل شأنه إذ يقول ﴿ **إنّا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾[3]

ثم تتجلى نعمة الله على عباده فى قوله ﴿ **وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾ فالله تعالى لا يقهره أحد على فعل شىء ولولا رحمته بنا وتجاوزه عن سيئاتنا لذهب بهذا الماء الذى أسكنه جوف الأرض وذلك بإمساك السماء عن المطر أو بذهابه غائرا فى الأرض فلا تجد له أثرا فى بئر أو عين ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** ﴾[4] .

فلو أن هذى الريح ثارت وأعصرت أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا
ولو غاض هـذا الماء فى القاع هل لكم سـوى الله يجريه كما شاءراويا

يقول العلم فى حقائقه الثابتة عن الظواهر الجوية :-

إن الظواهر الجوية لقيت تنويها كثيرا فى القرآن الكريم ولم يكن بد من أن يكون ما ورد فيها من الآيات مجملا ، إذ التفصيل غير ممكن ولو أمكن لمافقه العقل حين نزل القرآن منه شيئا بل لقام حائلا دون قبول العقل إذ ذاك رسالة القرآن . والعقل لا يزال فى حيرة من حقيقة كثير من تلك الظواهر ، فقد وجد الانسان أن الجو من أعوص المشاكل وان دراسته من أصعب الأمور وصعوبتها ليست راجعة فقط إلى تعقد مسائله ولكن إلى ضرورة توحيد جهود الأمم فى القيام بتلك الدراسة لانها تتعلق بظواهر عامة تشمل الأرض بأسرها لا إقليما خاصا منها كالرياح ونشوئها وتصريفها والسحاب ونشوئه وتسخيره .

---

(١) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الواقعة .
(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر .
(٣) الآية ٤٩ من سورة القمر .
(٤) الآية ٣٠ من سورة الملك .

فإن الرياح التى تهب على بلد أو السحب التى تصب ماءها فيه ليست مناشئها فى ذلك البلد ولكن فى خارجه من الأقطار القريبة أو البعيدة وإذا كان الانسان قد عرف بصورة عامة العوامل التى تتسبب عنها الرياح فإن تحليل أى ريح معينة إلى عواملها الخاصة من الناحية الكيفية بل من الناحية الكمية ، من أصعب الأمور ، وهذا التحليل حين يمكن لا يتحقق إلا بواسطة معلومات شتى يحصل عليها الانسان بأرصاد شتى فى أقطار شتى والارصاد الجوية إذا أمكنت بانتظام قريبا من سطح الأرض فالقيام بها بإنتظام بعيدا عن سطح الأرض فى المناطق العليا من الجو لا يصبح فى مقدور الانسان وإن كان الانسان الآن فى طريقه إلى التمكن منها .

والتفسير الذى وصل إليه الانسان ليس تفسيرا مفصلا للآيات الكونية الواردة فى الرياح والسحاب وغيرهما فهو تفسير مجمل تفسير يحوى إشارات إلى أمهات الحقائق الجوية التى كشف عنها العلم الحديث .

ولنمهد لذلك بشرح مختصر لكيفية تكون السحاب والمطر والبرد والرعد والصواعق :

السحاب

هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب القريب من الأرض ولابد لتكون السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما فى الهواء العلوى : الأول أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار ، والثانى أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكلما كانت الرطوبة فى الهواء أكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر ، فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الاساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجو فى تلك المناطق وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدريج كلما زاد الارتفاع ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد لأنه يتمدد أثناء صعوده ويزداد تمدده كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معاً حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد وكونت سحباً عظيمة قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل فى تمددها ، هذا هو السحاب الركام ويكثر فى العواصف الرعدية ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الاولى وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين ان تحملاها فى درجة الحرارة الناتجة أى كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين دافئة وباردة ، ريح واحدة فوق المشبعة ، وقد كان الريحان من قبل غير مشبعتين .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال وهذه تفعل فعلها بطريقين : طريق تبريد الرياح الأفقية التى تصطدم بأعاليها ، لأن أعالى الجبال الشامخة شديدة البرودة فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع وعندئذ يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال . هذا طريق والطريق الثانى طريق تحويل مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها . فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ويتكاثف سحابها مطرا على أعالى تلك الجبال .

المطر

لكن تكون السحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الامكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا . وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء . إن القطيرات السحابية خاضعة طبقا للجاذبية فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيه . والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء . إن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية .

وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهربائية الجوية وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

سبحانك اللهم أنت الواحد خلقت فقدرت وقسمت الأرزاق بين العباد فعدلت وأقسمت وقولك الحق فقلت: ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[1] .

وقلت : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حباً وعنباً . وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا . متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[2] .

وقلت : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً لنحيى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسىّ كثيرا ﴾[3] . فتبارك الله أحسن الخالقين .

---

(١) الأيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة الذاريات .
(٢) الآيات ٢٤ - ٣٢ من سورة عبس .
(٣) الآية ٤٨ ، ٤٩ من سورة الفرقان .

قوله تعالى ﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾

وهكذا تتجلى قدرة الخالق العظيم فى عالم النبات فمن الماء وغيره من العناصر أنشأ الله تعالى لنا ﴿ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ .(١) سبحانك من خالق عظيم قلت وقولك الحق ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾(٢) .

وسبحانك من خالق عظيم واحد فى ذاتك لا قسيم لك واحد فى صفاتك لا شبيه لك واحد فى أفعالك لا شريك لك كل الوجود على الوجود شاهد . . قلت وقولك الحق ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾(٣) .

أنزلت من السماء ماء بقدر فأنشأت لنا به ﴿ جنات ألفافا ﴾ وحدائق غلبا وفاكهة وأبا وزينت الأرض بالنخيل والأعناب لنأكل منها ونتخذ منها رزقا حسنا ونتبادل المنافع فى بيعها وشرائها لتسير مواكب الحياة والكل يعيش فى رزقك ، وينعم بخيرك ، فأنت صاحب الانعام كله ، يا مبدع الكائنات ، ورافع السموات ، ومدبر الشأن وخالق الانسان ومعلمه البيان ، سبحانك أنت الواحد الديان .

استمع معى أيها العاقل الى كلمة العلم فى عالم النبات .

تقول الحقائق العلمية : إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يأخذ الأكسجين وثانى أكسيد الكربون ، وأحيانا الأزوت ، ومن الأرض يأخذ الماء وبعض الأملاح خصوصا الأزوتات ، ولخلايا النبات كلها دخل طبعا فى كل هذا ، لكن محور هذا التغذى وهو تمثيل ثانى أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا فى الأجزاء الخضراء من النبات سواء كانت الخضرة فى الساق أو الفروع أو الأوراق . لكن ما يحدث فى غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث فى الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال إن حياة النبات وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثانى أكسيد الكربون فى الأوراق الخضراء .

إن النبات يبدأ حياته فى الغالب بذرة أو نواة توضع فى الأرض ، وتسقى بالماء فتنبت ، أى تنفلق ويخرج منها جذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملا ورقتين صغيرتين خضراوين . هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بدور الانبات . لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأكسجين أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٤١
(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩
(٣) سورة النمل الآية ٦٠

والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء . . وعلى الجذير والوريقتين تغذى النبات بعد ذلك ، فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ ـ تمتص الأكسجين من الهواء لاحراق الغذاء داخل خلايا النبات حرقا بطيئا وتطرد أكثر فضلات التغذى من ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء . هذه العملية عملية تنفسية ، وتجرى ليلا ونهارا وهى وإن كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها فى الورق أفعل وأكثر .

٢ ـ تمتص ثانى أكسيد الكربون من الهواء فيتغير داخلها تغيرا كيماويا باتحاده مع الماء بواسطة الخضر اتحادا ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما فى العصارة النباتية على الخلايا لتمثيلها مع ما يكون فى العصارة من أملاح وينشأ عنها من ناحية أخرى أكسجين بقدر ما كان فى ثانى أكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم إن النبات فى التمثيل الخضرى يحلل ثانى أكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرد الأكسجين ، والواقع أنه لا يحلله ابتداء ولكن يركبه مع الماء تركيبا تنتج عنه مواد عضوية وأكسجين بقدر ما كان فى ثانى أكسيد الكربون . وهذا هو التمثيل الخضرى .

فمن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعد دور الانبات إنما يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير فالجذير يمتص الماء والأملاح . والوريقات تمتص الاكسجين وثانى أكسيد الكربون وتهضم ذلك كله ، أى تحوله إلى مواد معقدة نسبيا إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمو الجذير إلى جذر والسويق إلى ساق والوريقات إلى أوراق كثيرة ثم إذا جاء دور الاثمار إلى أزهار وحب وثمار .

ولكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لابد لاتمامه من طاقة فمن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان ولكن الله سبحانه وتعالى يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس يقع الضوء على المادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثانى أكسيد الكربون والماء .

أى أنها تحول ما تمتصه إلى طاقة كيماوية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه . لذلك كان التمثيل الخضرى لا يجرى الا نهارا فى حين أن التنفس يجرى نهارا وليلا ، وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيرا فى الشمس منه فى الظل ، لأنه متوقف أيضا على مقدار ثانى أكسيد الكربون فى الهواء وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية وثانى أكسيد الكربون والماء من ناحية أخرى . أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه ، لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعل أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل ، أما أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر .

وأما ثانى أكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول ، فقريبا من وجه الأرض مثلا تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ : ١٣ فى ١٠,٠٠٠ ، وفى يوليو مثلا تبلغ نسبته من ٢,٧

إلى ٢,٩ ، وفى الشتاء من ٣ الى ٣,٦ فى كل ١٠,٠٠٠ وتزداد النسبة طبعا حيث يكثر الاحتراق أو التعفن أو التخمر ، لكن الرياح وانتشار الغازات كفيلان بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الهواء هى بالحجم نحو من ٣,٣ إلى ٣,٥ فى كل ١٠,٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة لكنها تقابل فى مجموع الهواء الجوى مقدارا هائلا من ثانى أكسيد الكربون قدروه بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوى على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز فى الهواء . على أن هذا المقدار الهائل لا يكفى حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاما . إن سرعة التمثيل الخضرى تختلف طبعا باختلاف النباتات واختلاف الظروف . لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر فى الظروف المعدة ينتج بالتمثيل الخضرى من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة فى الساعة . فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر فى أشجار الأرض وزروعها وساعات عملها فى فصول نشاطها فى العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التى يخلفها بالتمثيل الخضرى فى درجة الحرارة العادية كل عام .

صحيح أن هذه المواد تدخل فى عناصرها الأكسجين والأيدروجين وما إليهما بجانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدروه بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ : ٨٠ بليون كيلو جرام من ثانى أكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثانى أكسيد الكربون فى الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات فى نحو ثلث قرن ووقفت بوقوفها كل حياة .

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضروريا للحياة . وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت .

إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار فى الأرض ، يكفى أن يستنفد عنصر واحد منها فى جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلا بعد جيل فى النبات والحيوان لتتجدد بموت جيل المادة التى يخلق الله منها الجيل الذى بعده . فالأكسجين يستمده الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثانى أكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى بفعل التمثيل الخضرى والكربون يستمده النبات من ثانى أكسيده من الجو . ويتغذى الحيوان بالنبات ثم يموت النبات فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثانى أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثانى أكسيد الكربون فيما يتحول إليه ويصعد ثانى أكسيد الكربون فى الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضرى وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض وأحيانا من أزوت الجو فيحوله إلى جزء منه ويتغذى الحيوان بالنبات وتتحلل فضلاتها وأجسامها فى الأرض بعد الموت وتتحول إلى رماد أو تراب أو أزوت يصعد فى الجو ، وفى الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى وهكذا دواليك . طبعا هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحى فيها بفتور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر كلما استنفد معه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء فى حلقة أخرى . وقد وازن الله سبحانه بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى ليبدو كل عنصر أنه ثابت المقدار وهذا هو سر

خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الانسان فلم ينتبه إليها ولم يفقه ما فقهه منها إلا بعد أن أوتى حظا من العلم فى هذا العصر الحديث .

أما بعد : فاسألوا العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقولوا له من خليقك؟إنه سيجبيكم بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

انظر لتلك الشجرة	ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة	وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا	الذى يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى	أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة	وقدرة مقتدرة

قوله تعالى ﴿ **وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين** ﴾

أى وأنشأنا لكم شجرة الزيتون التى تنبت فى هذا الجبل بتلك البقعة المباركة وتثمر زيتونا تصنع منه الزيوت التى يدهن بها وتتخذ إداما للآكلين .

قوله تعالى ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾

﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة** ﴾ أى إن فى خلق الأنعام لعبرة فضلا عن كونها نعمة ، ووجه العبرة فيها أن الدم المتوالد من الأغذية يتحول فى الغدد التى فى الضرع إلى شراب طيب لذيذ الطعم صالح للتغذية وهذا من أظهر الدلائل على قدرة الخالق لها .

ثم فصل منافعها وذكر منها أربعا فقال :

- ﴿ **نسقيكم مما فى بطونها** ﴾ فتنتفعون بألبانها على ضروب شتى فتتخذون منها القشدة والسمن والجبن ونحوها .
- ﴿ **ولكم فيها منافع كثيرة** ﴾ فتأخذون أصوافها وأشعارها وأوبارها وتتخذونها ملابس وفرشا للدفء وبيوتا فى الصحارى ونحوها مما يجرى هذا المجرى .
- ﴿ **ومنها تأكلون** ﴾ أى وتأكلون منها بعد ذبحها فكما انتفعتم بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح بالأكل .

﴿ **وعليها وعلى الفلك تحملون** ﴾ أى وتركبون ظهورها وتحملونها الأحمال الثقيلة إلى البلاد النائية كما قال فى آية أخرى ﴿ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴾[1] وقال (**أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ـ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون** ﴾[2] .

---

(١)سورة النحل الآية (٧)

(٢) سورة يس الآيات (٧١ ـ ٧٢ ـ ٧٣)

الأنبياء والأمم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟
بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا
وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ
عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ
وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ
أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾
ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ
وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا
تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ
تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا
نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ
﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَـٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا
ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً
رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَـٰرُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟
وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾
فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾
وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ
أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

الملأ : أشراف القوم ، يتفضل : أى يدعى الفضل والسيادة ، جنة : أى جنون

فتربصوا : أى انتظروا

بأعيننا : أى بحفظنا ورعايتنا

وفار : نبع

التنور : وجه الأرض

استويت : أى علوت

لآيات : أى عبر

لمبتلين : أى لمختبرين ممتحنين لهم : أى لمعاملتهم معاملة من يختبر .

القرن : الأمة ، المراد بهم عاد قوم هود لقوله تعالى فى سورة الأعراف :

﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾(١) أترفناهم : أى وسعنا عليهم وجعلناهم فى ترف ونعيم .

لخاسرون : أى لمغبونون فى أرائكم ، إذ أنكم أذللتم أنفسكم لعبادة من هو دونكم .

هيهات : أى بعد

ما توعدون : هو البعث والحساب .

بمؤمنين : أى بمصدقين .

عما قليل : أى بعد زمان قليل

ليصبحن : أى ليصيرن

الصيحة : العذاب الشديد كما قال :

صاح الزمان بآل برمك صيحة خروا لشدتها على الأذقان

والغثاء : ما يحمله السيل من الورق والعيدان البالية التى لا ينتفع بها

بعدا : هلاكا .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩

تترى : من المواترة : هى التتابع بين الأشياء مع فترة ومهلة بينها قاله الأصمعى.أحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما تتحدث به تعجبا منه وتلهيا به وقد جمعت العرب الفاظا على أفاعيل كأباطيل وأقاطيع وقال الزمخشرى : الأحاديث اسم جمع للحديث ومنه أحاديث رسول ﷺ ولكن الجمهور على انه جمع .

الآيات : هى الآيات التسع التى سبقت فى سورة الأعراف .

السلطان : الحجة

عالين : أى متكبرين

عابدون : أى خدم منقادون قال أبو عبيدة : العرب تسمى كل من دان للملك عابدا

وقال المبرد : العابد : المطيع الخاضع ، الكتاب : التوراة : الآية الحجة والبرهان .

وآويناهما : أى جعلنا مأواهما ومنزلهما .

الربوة : وهى ما ارتفع من الأرض دون الجبل .

ذات قرار : أى ذات استقرار للناس لما فيها من الزرع والثمار

معين : أى ماء جار

الطيبات : ما يستطاب ويستلذ من المآكل والفواكه .

أمتكم : أى ملتكم وشريعتكم .

المناسبة واجمالى المعنى

بعد أن عدد سبحانه ما أنعم به على عباده فى نشأتهم الأولى وفى خلق الماء لهم لينتفعوا به وفى خلق الحيوان كذلك ـ ذكر هنا أن كثيرا من الأمم قد أهملوا التدبر والاعتبار فى هذا فكفروا بهذه النعم ، وجهلوا قدر المنعم بها وعبدوا غيره وكذبوا رسله الذين أرسلوا إليهم ، فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، وأهلكهم بعذاب من عنده ، فأصبحوا كأمس الدابر والمثل السائر وفى هذا تخويف لقريش ، وإنذار لهم على ما يفعلون ، وأنه سيحل بهم ماداموا على تكذيب رسولهم والكفر به مثل ما حل بمن قبلهم .

وبعد أن قص سبحانه علينا قصص بعض الأنبياء السالفين ـ عقب هذا ببيان أنه أوصاهم جميعا بأن يأكلوا من الحلال ويعملوا صالح الأعمال كفاء ما أنعم به عليهم من النعم العظيمة والمزايا الجليلة التى لا يقدر قدرها ثم حذرهم وانذرهم بأنه عليم بكل أعمالهم ، ظاهرها وباطنها لا تخفى عليه من أمورهم خافية ثم أرشدهم إلى أن الدين الحق واحد لا تعدد فيه ولكن الأمم قد فرقت دينها شيعا وكل أمة فرحة مسرورة بما تدين به كما هى حال قريش ، ثم خاطب رسوله بأن يتركهم وما يعتقدون إلى حين ثم ذكر أنهم فى عماية حين ظنوا أن ما أوتوه من النعم هو حظوة من ربهم ـ كلا ، فهم لا يشعرون بحقيقة أمرهم وعاقبة حالهم ، ولو عقلوا لعلموا أنهم فى سكرتهم يعمهون ●

التفسير

قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ **أى ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه منذرا لهم عذاب الله وشديد بأسه وانتقامه على إشراكهم به وتكذيب رسوله ،**

فقال لهم متعطفا عليهم مستميلا لهم لقبول الحق : **يا قوم اعبدوا الله وحده وأطيعوه ولا تشركوا معه ربا سواه فإنه لا رب لكم غيره ، ولا معبود سواه .**

﴿ **أفلا تتقون ؟** ﴾ أى أفلا تخشون عقابه فتحذروا أن تعبدوا معه سواه ،

﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم**) أى فقال أشراف قومه ورؤساؤهم من العريقين فى الكفر ومن ذوى الكلمة المسموعة والرأى المطاع . . ما نوح إلا رجل منكم ليس له ميزة عليكم فى فضل ولا خلق فيكون أهلا للنبوة وتلقى الوحى من ربه ، وما هو إلا رجل يريد أن يسودكم ويكون له الصولة والسلطان عليكم وقد ادعى الرسالة ليصل إلى ما تصبو إليه نفسه وليس له من حقيقتها شيء .

وبعد أن بينوا أن لا مقتضى لاختصاصه بالنبوة ذكروا الموانع التى تحول بينه وبينها فذكروا أمورا ثلاثة :

١ ـ ﴿ **ولو شاء الله لأنزل ملائكة** ﴾ أى ولو شاء الله ألا نعبد سواه لأرسل بالدعاء إلى ما يدعوكم إليه نوح ملائكة تؤدى إليكم رسالته .

٢ ـ ﴿ **ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين** ﴾ أى ما سمعنا فى القرون الغابرة عهود الآباء والأجداد بمثل هذا الذى يدعو إليه نوح من أنه لا إله إلا إله واحد لا رب غيره ولا معبود سواه .

وفى هذا إيماء إلى أنهم قوم لا رأى لهم وإنما يعولون على التقليد وقول الآباء والأجداد فلما لم يجدوا عن آبائهم شيئا مثل هذا أنكروا نبوته وفيه اشارة أيضا إلى أنهم قد بلغوا الغاية فى العناد والتكذيب والانهماك فى الغى والضلال .

٣ ـ ﴿ **إن هو إلا رجل به جنة** ﴾ أى وما نوح إلا رجل به خبل فى عقله ، فمزاعمه لا تصدر إلا من رجل لا يزن قوله ، ولا يدعم رأيه بحجة ناصعة ، فلا يلتفت إذن إلى ما يدعى ولا ينبغى أن نضيع الوقت فى محاجته ودحض مزاعمه من صدق دعوته .

وبعد أن ذكروا موانع نبوته ذكروا الطريقة المثلى فى إبطال دعوته فقالوا : ﴿ **فتربصوا به حتى حين** ﴾ أى فتلبثوا وانتظروا ، لعله يضيق مما هو فيه فيعود سيرته الأولى ويرجع من تلقاء نفسه إلى دينكم ودين آبائكم وأجدادكم .

وهذا من مكابراتهم لفرط عنادهم اذ هم يعلمون انه أرجح الناس عقلا ، واوزنهم قولا .

ولم يرد سبحانه على هذه الشبهة لسخافتها ووضوح فسادها ، إذ كل عاقل يعلم أن الرسول يتميز من غيره بالمعجزات التى تأتى على يديه سواء أكان ملكا أم بشرا .

وارادته التفضل عليهم إن كانت لأجل أن يستبين فضله حتى ينقادوا له لا ضير فى ذلك بل هو واجب وإن أرادوا أنه يبغى التجبر عليهم فالأنبياء منزهون عن ذلك ، وقولهم :

﴿ **ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين** ﴾ اعتناق للتقليد وهو لا يصلح حجة تدفع بها حجج المعارضين الواضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار ، وقولهم :

﴿ **به جنة** ﴾ كذب صراح لأنهم يعلمون ذكاءه وعظيم فطنته وماأوتيه من أصالة الرأى وثاقب الفكر .

ولما استبان لنوح إصرارهم على ضلالهم وتماديهم فى غيهم ويأسه من إيمانهم ﴿ **وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن** ﴾ طلب إلى ربه أن ينصره عليهم :

﴿ **قال رب انصرنى بما كذبون** ﴾ أى قال انصرنى بإنجاز ما أوعدتهم به من عذاب لقولى: ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ .

ونحو الآية قوله ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر** ﴾(١) وقوله : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾(٢) .

وقد أجاب الله دعاءه فقال :

﴿ **فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾ أى فقلنا حين استنصرنا على كفرة قومه : اصنع السفينة بحفظنا ورعايتنا لك ، من التعدى عليك ، ، وتعليمنا إياك كيفية صنعها .

﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم** ﴾ .

أى فإذا جاء قضاؤنا من قومك بعذابهم وهلاكهم ، ونبع الماء من وجه الأرض فأدخل فيها من كل طائفة من الحيوان فردين مزدوجين كناقة وجمل وحصان ورمكة وأدخل **ولدك** ، ونساءهم إلا من سبق عليه القول منا بأنه هالك فيمن يهلك فلا تحمله معك وهو كنعان وأمه .

﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾ أى ولا تسألنى أن أنجى الذين كفروا بالله من الغرق . فإن كلمتى قد حقت عليهم أجمعين .

ثم أمره بحمده والثناء عليه إذا هو استوى على الفلك فقال :

﴿ **فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين** ﴾ أى فإذا اطمأننت فى السفينة أنت ومن معك ممن حملته من أهلك فقل الحمد لله الذى نجانا من هؤلاء المشركين الظلمة.

وفى هذا إيماء إلى أنه لا ينبغى المسرة بمصيبة أحد ولو عدوا إلا إذا اشتملت على دفع ضرره أو تطهير الأرض من دنس شركه واضلاله .

قال ابن عباس : كان فى السفينة ثمانون إنسانا: نوح وامرأته غير التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث ، وثلاث نسوة لهم واثنان وسبعون إنسانا وكل الخلائق من نسل من كان فى السفينة .

ثم أمر نوح أن يدعو ربه حين خروجه من السفينة .

﴿ **وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين** ﴾ أى وقل إذا سلمت وخرجت من السفينة : رب أنزلنى من الأرض منزلا مباركا وأنت خير من أنزل عباده المنازل .

قال قتادة : علمكم الله أن تقولوا حين ركوب السفينة ﴿ **باسم الله مجريها ومرساها** ﴾ **وحين** ركوب الدابة : ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين** ﴾(٤)

---

(١) سورة القمر الآية (١٠)

(٢) سورة نوح الآية (٢٦)

(٣) قال الحافظ ابن كثير : عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا منهم نساؤهم ، وعن كعب الأحبار ، كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : إنما كانوا عشرة ، وقيل : إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة سام وحام ويافث وكنائنه الأربع نساء هؤلاء الثلاثة وامرأة يام ، وقيل : بل امرأة نوح كانت معهم فى السفينة ، وهذا فيه نظر ، بل الظاهر أنها هلكت ، لأنها كانت على دين قومها ، فأصابها ما أصابهم ، كما أصاب امرأة لوط ما أصاب قومها . والله أعلم وأحكم (تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٥ ط الشعب)

والكنائن : جمع كنة ـ بفتح الكاف وتشديد النون ـ وهى امرأة الابن أو الأخ .

(٤) الزخرف : ١٣

وحين النزول ﴿ وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴾

﴿ إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾ أى:إن فيما فعلنا بقوم نوح من إهلاكهم إذ كذبوا رسولنا وجحدوا وحدانيتنا وعبدوا الآلهة والأصنام ـ لعبرا لقومك من مشركى قريش ، وحججا لنا عليهم يستدلون بها على سنننا فى أمثالهم فينزجرون عن كفرهم .

ويرتدون عن تكذيبهم حذر أن يصيبهم مثل الذى أصاب من قبلهم من العذاب وقد كنا مختبريهم بالتذكير بهذه الآيات لننظر ماذا يفعلون قبل أن ننزل بهم عقوبتنا .

ونحو الآية قوله ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾(١) .

عبرة وعظة

إن قصة نوح عليه السلام فيها من العبر ما لا يحصى ومن العظات ما لا يستقصى فهو الصبور الذى لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وقال لربه : ﴿ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾(٢)

وهو الذى ما ترك سبيلا إلى الدعوة إلا سلكها اقرأ معى قوله تعالى ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا.ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ﴾(٣) لقد سلك بهم طريق الترغيب فقال ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا.يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾(٤) كما سلك بهم طريق الترهيب فقال : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقارا.وقد خلقكم أطوارا ﴾(٥) ثم سلك بهم طريق الاقناع والحجة ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا.وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا ، والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا ، والله جعل لكم الأرض بساطا ، لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾(٦) كل هذا بذله نوح ولما لم يجد فيهم أرضا تنبت التوحيد قال نوح ﴿ رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظّٰلمين إلا ضلالا ﴾(٧) فانظر إلى هؤلاء الذين أنكروا البراهين الساطعة وجحدوا الحجج القاطعة وعبدوا من دون الله أصناما لا يخلقون وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

فماذا تتوقع بعد هذا الجهاد المتصل والكفاح المستمر إلا أن يدعو نوح بعد هذا الصبر على هؤلاء المعاندين المكابرين ويعلل دعوته بعلة مقبولة ﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾(٨).

(١) سورة القمر الآية (١٥)
(٢) سورة نوح الآيات (٥ ، ٦ ، ٧)
(٣) سورة نوح الآية (٩)
(٤) سورة نوح الآيات (١٠ ، ١١ ، ١٢)
(٥) سورة نوح الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٦) سورة نوح الآيات : ١٥ ـ ٢٠
(٧) سورة نوح الآيات : ٢١ ـ ٢٤
(٨) سورة نوح الآية (٢٧)

لقد كان نوح من الأنبياء الذين لقبوا بأولى العزم وهم خمسة :

نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد عليهم جميعا صلوات الله وتسليماته .

﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[1] .

وهذا هو الدرس المشترك فى قصص الأنبياء الصبر مع الله ، والصبر بالله ، والصبر فى الله والصبر لله ، ولن يكون هناك صبر عن الله لأن الصبر عن الله جفاء .

قال الأمام الغزالى فى فضيلة الصبر كما جاء فى كتابه

(إحياء علوم الدين) :

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا** ﴾[3] وقال - تعالى - ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا** ﴾[5] وقال تعالى ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾[6] - فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله - تعالى - : فى الحديث القدسى « **الصوم لى وأنا أجزى به** » **فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم** فقال تعالى : ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾[7] وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى - ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾[8] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[9] فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات فى مقام الصبر يطول .

وأما الأخبار فقد قال ﷺ (الصبر نصف الايمان)[10] .

وقال ﷺ (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال بما فاته من قيام الليل

(١) سورة الأحقاف الآية (٣٥)

(٢) سورة السجدة الآية (٢٤)

(٣) سورة الاعراف الآية (١٣٧)

(٤) سورة النحل الآية (٩٦)

(٥) سورة القصص الآية (٥٤)

(٦) سورة الزمر الآية (١٠)

(٧) سورة الانفال الآية (٤٦)

(٨) سورة آل عمران الآية (١٢٥)

(٩) سورة البقرة الآية (١٥٧)

(١٠) الحديث فى شعب الايمان للبيهقى الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الايمان والخطيب عن ابن مسعود رضى الله عنه بلفظ : الصبر نصف الايمان واليقين الايمان كله .

- وقال البيهقى : تفرد به يعقوب بن حميد عن محمد بن خالد المخزومى ، والمحفوظ عن ابن مسعود من قوله غير مرفوع ا هـ قال المناوى : ويعقوب ، قال الذهبى : ضعفه أبو حاتم وغير واحد ا هـ قلت : الحديث رواه أبو نعيم من طريق آخر عن النبى ﷺ وقال : تفرد به المخزومى عن سفيان بهذا الاسناد ، ورواه الثورى عن أبى اسحاق عن جرير النهدى عن رجل من بنى سليم عن النبى ﷺ مثله ا هـ

(راجع حليه الأولياء ٥/ ٣٤ ، فيض القرير ٤/ ٢٣٣ رقم ٥١٣٠ ، الاحياء بتخريج العراقى ٤/ ٦٠

وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافينى كل امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ولكنى أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بعدى فينكر بعضكم بعضا وينكركم أهل السماء عند ذلك، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه)[١].

ثم قرأ قوله تعالى ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[٢].

● وروى جابر أنه سئل ﷺ عن الايمان فقال (الصبر والسماحة)[٣].

وقال أيضا (الصبر كنز من كنوز الجنة)[٤] وسئل مرة (ما الايمان فقال الصبر)[٥] وهذا يشبه قوله ﷺ (الحج عرفة)[٦] معناه معظم الحج عرفة

وقال أيضا ﷺ (أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس)[٧] وقيل مما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام (تخلق بأخلاقى وإن من أخلاقى أنى أنا الصبور) وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله ﷺ على الانصار فقال :

(أمؤمنون أنتم ، فسكتوا فقال عمر نعم يا رسول الله قال وما علامة إيمانكم قالوا نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء ، فقال ﷺ مؤمنون ورب الكعبة)[٨].

● وقال ﷺ (فى الصبر على ما تكره خير كثير)[٩].

● وقال المسيح عليه السلام : (إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون)

● وقال رسول الله ﷺ : (لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين)[١٠]. والأخبار فى هذا لا تحصى.

وأما الآثار : فقد وجد فى رسالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى: عليك

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج الاحياء ٤ / ٦٠ : لم أجده هكذا مطولا ، وقال فى ١ / ٧٢ الاحياء (كتاب العلم) : وروى ابن عبد البر من حديث معاذ : ما أنزل الله شيئا أقل من اليقين ولا قسم شيئا بين الناس أقل من الحكم .

(٢) سورة النحل الآية (٩٦) .

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى مكارم الأخلاق وابن حبان فى الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن المنكدر ضعيف ، قاله العراقى (الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦٠)

(٤) الحديث قال عنه العراقى فى تخريج الاحياء : غريب لم أجده ا هـ ونقله عنه العجلونى فى كشف الخفاء (الاحياء بتخريج العراقى ٤/٦٠ ، كشف الخفاء ٢/ ٢٧ رقم ١٥٨٩)

(٥) قال الحافظ العراقى : رواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشى عن انس مرفوعا : الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد. ويزيد ضعيف الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦٠

(٦) الحديث رواه الترمذى فى تفسير سورة البقرة ، وأبو داود فى المناسك/ ٦٨ ، وابن ماجه فى المناسك ٥٧ ، والدارمى فى المناسك/ ٥٤ .

(٧) قال الحافظ العراقى : هذا الحديث لا أصل له مرفوعا ، وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا ، رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب محاسبة النفس (الاحياء بتخريج العراقى ٤/٦١)

(٨) قال العراقى : الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (الاحياء بتخريج العراقى ٤ / ٦١)

(٩) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ١/ ٣٠٧ـ٣٠٨ فى حديث طويل عن ابن عباس رضى الله عنهما : واعلم ان فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا . .

(١٠) الحديث رواه الطبرانى من حديث عائشة ، وفيه صبيح بن دينار ضعفه العقيلى

بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر .

الصبر فى المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى .

وأعلم أن الصبر ملاك الايمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال على كرم الله وجهه : (بنى الايمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل) .

وقال أيضا الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له . وكان عمر رضى الله عنه يقول : (نعم العدلان ونعمت العلاوة للصابرين) يعنى بالعدلين الصلاة والرحمة ، وبالعلاوة الهدى وما يحمل فوق العدلين على البعيد واشار به إلى قوله تعالى : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾(١) - وكان حبيب بن أبى حبيب إذا قرأ هذه الآية ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾(٢) بكى وقال :واعجباه أعطى وأثنى أى هو المعطى للصبر وهو المثنى .

● وقال أبو الدرداء:ذروة الايمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل وأما من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه اذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصيل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

بيان حقيقة الصبر ومعناه

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين ، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور :

معارف ، وأحوال ، وأعمال . فالمعارف : هى الأصول وهى تورث الأحوال ، والأحوال تثمر الأعمال ، فالمعارف : كالأشجار ، والأحوال : كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى ، واسم الايمان تارة يختص بالمعارف ، وتارة يطلق على الكل كما ذكرناه فى اختلاف اسم الايمان والاسلام فى كتاب قواعد العقائد ، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبحالة قائمة ، فالصبر على التحقيق عبارة عنها ، والعمل كالثمرة يصدر عنها ، ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب ، بين الملائكة والانس والبهائم ، فإن الصبر خاصية الانس ولا يتصور ذلك فى البهائم والملائكة ، أما فى البهائم فلنقصانها . وأما فى الملائكة فلكمالها ، وبيانه : أن البهائم سلطت عليها الشهوات ، وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة ، وليس فيها قوة تصادم الشهوة ، وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة فى مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما الملائكة عليهم السلام : فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يعرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف .

وأما الانسان : فإنه خلق فى ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة ، لم يخلف فيه إلا شهوة الغذاء الذى هو محتاج إليه ، ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ، ثم شهوة النكاح على الترتيب ، وليس له قوة

---

(١) سورة البقرة رقم (١٥٧)

(٢) سورة ص رقم (٤٤)

الصبر البتة ، اذ الصبر عبارة عن ثبات جند فى مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما ، وليس فى الصبا الاجند الهوى كما فى البهائم ، ولكن الله تعالى بفضله وسعة جوده اكرم بنى آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميز بمعونة الملكين عن البهائم واختص بصفتين : احداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذى إليه الهداية والتعريف .

أما البهيمة فلا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها فى الحال فقط فلذلك لا تطلب الا اللذيذ

وأما الدواء النافع مع كونه مضرا فى الحال ، فلا تطلبه ولا تعرفه فصار الانسان بنور الهداية ، يعرف ان اتباع الشهوات له مغبات مكروهة فى العاقبة ، ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر ، فكم من مضر يعرفه الانسان كالمرض النازل به مثلا ، ولكن لا قدرة له على دفعه ، فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها فى نحر الشهوات ، فيجاهدها بتلك القوة ، حتى يقطع عداوتها عن نفسه ، فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بجنود لم تروها ، وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة ، فتارة يضعف هذا الجند ، وتارة يقوى ذلك بحسب امداد الله تعالى عبده بالتأييد ، كما أن نور الهداية أيضا يختلف فى الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التى بها فارق الانسان البهائم فى قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى ، وليفهم ان القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى ، والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من ملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لاعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر فى دفعها التحق باتباع الشياطين ، فإذن : ترك الافعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمى الصبر ، وهو ثبات باعث الدين الذى هو فى مقابلة باعث الشهوة ، وثبات باعث الدين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادتها لاسباب السعادات فى الدنيا والآخرة ، فإذا قوى يقينه اعنى المعرفة التى تسمى ايمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين ، واذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الا بقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة المعرفة والايمان تقبح مغبة الشهوات وسوء عاقبتها وهذان الملكان هما المتكفلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى ، وتسخيره اياهما ، وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكلان بكل شخص من الادميين ، وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادى أعلى من رتبة الملك المقوى ، لم يخف عليك أن جانب اليمين هو الذى أشرف الجانبين من جنبتى الدست ، ينبغى أن يكون مسلما له ، فهو إذن صاحب اليمين ، والآخر صاحب الشمال ، وللعبد طوران فى الغفلة والفكر وفى الاسترسال والمجاهدة ، فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسىء إليه فيكتب اعراضه سيئة ، وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية ، فهو به محسن فيكتب اقباله له حسنة ، وكذا بالاسترسال هو معوض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء إليه ، فيثبت عليه سيئة ، وبالمجاهدة مستمد من جنوده ، فثبت له به حسنة ، وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بإثباتهما ، فلذلك سميا كراما كاتبين ،

أما الكرام : فلانتفاع العبد بكرمها ، ولأن الملائكة كلهم كرام بررة ، وأما الكاتبون فلاثباتهم الحسنات والسيئات ، وانما يكتبان فى صحائف مطوية فى سر القلب ، ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه فى هذا العالم ، فإنهما وكتبتهما وخطهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب ، والملكوت ، لا من عالم الشهادة ، وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار فى هذا العالم ، ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين ، مرة فى القيامة الصغرى ، ومرة فى القيامة الكبرى ، واعنى بالقيامة الصغرى حالة الموت اذ قال ﷺ : (من مات فقد قامت قيامته) وفى هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال ﴿ **ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة** ﴾[1] وفيها يقال ﴿ **كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾[2] أما فى القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده ، بل ربما يحاسب على ملأ من الخلق ، وفيها يساق المتقون إلى الجنة زمرا ، والمجرمون إلى النار زمرا ، لا آحادا ، والهول الأول هو هول القيامة الصغرى ، ولجميع أهوال القيامة الكبرى نظير فى القيامة الصغرى ، مثل زلزلة الأرض مثلا فإن أرضك الخاصة بك تزلزل فى الموت ، فإنك تعلم أن الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق ان يقال قد زلزلت أرضهم ، وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها ، بل لو زلزل مسكن الانسان وحده فقد حصلت الزلزلة فى حقه ، لأنه إنما يتضرر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فحصته من الزلزلة قد توافرت من غير نقصان .

واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب ، وحظك الخاص من التراب بدنك فقط ، فأما بدن غيرك فليس بحظك ، والأرض التى أنت جالس عليها بالاضافة إلى بدنك ظرف ومكان ،

وإنما تخاف من تزلزله ان يتزلزل بدنك بسببه ، وإلا : فالهواء أبدا متزلزل ، وأنت لا تخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك ، فحظك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك فقط ، فهى أرضك وترابك الخاص بك ، وعظامك جبال أرضك ، ورأسك سماء أرضك ، وقلبك شمس أرضك ، وسمعك وبصرك وسائر خواصك نجوم سمائك ، ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك ، وشعورك نبات أرضك ، وأطرافك أشجار أرضك ، وهكذا إلى جميع أجزائك ، فإذا انهدم بالموت أركان بدنك ، فقد زلزلت الأرض زلزالها ، فإذا انفصلت العظام من اللحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فإذا رمت العظام فقد نسفت الجبال نسفا ، فإذا أظلم قلبك عند الموت ، فقد كورت الشمس تكويرا ، فاذا بطل سمعك وبصرك وسائر حواسك ، فقد انكدرت النجوم انكدارا ،فإذا انشق دماغك ، فقد انشقت السماء انشقاقا ، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينك ، فقد فجرت البحار تفجيرا ، فإذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وهما مطيتاك فقد عطلت العشار تعطيلا ، فإذا فارقت الروح الجسد فقد حملت الأرض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ، ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ، ولكن أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ، ولا يفوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخصك ، بل ما يخص غيرك ، فإن بقاء الكواكب فى حق غيرك ماذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسك التى بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب ، والأعمى يستوى عنده الليل والنهار ، وكسوف الشمس وانجلاؤها ، لأنها قد كسفت فى حقه دفعة واحدة وهو حصته منها ، فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ، ومن انشق رأسه فقد انشقت

(١) سورة الانعام الآية (٩٤)
(٢) سورة الاسراء الآية (١٤)

سماؤه إذا السماء عبارة عما يلى جهة الرأس ، فمن لا رأس له لا سماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره ، فهذه هى القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل ، والهول بعد مؤخر ، وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى ، وارتفع الخصوص ، وبطلت السموات والأرض ، ونسفت الجبال ، وغمت الأهوال ، واعلم ان هذه الصغرى وإن حاولنا فى وصفها فانا لم نذكر عشر عشير أوصافها ، وهى بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة الى الولادة الكبرى فإن للانسان ولادتين : إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام ، فهو فى الرحم فى قرار مكين إلى قدر معلوم . وله فى سلوكه إلى الكمال منازل واطوار ، من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها ، إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم ، فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذى يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا ، كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل وأوسع ، وأعظم ، ففى الآخرة بالأولى ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى ، بل إعداد النشآت ليست محصورة فى اثنتين ، وإليه الاشارة بقوله تعالى ﴿ **وننشئكم فيما لا تعلمون** ﴾[1] فالمقر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة ، ومؤمن بالملك والملكوت ، والمقر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، وذلك هو الجهل والضلال ، والاقتداء بالأعور الدجال فما أعظم غفلتك يا مسكين ، وكلنا ذلك المسكين ، وبين يديك هذه الأهوال ، فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى ، أو ما سمعت قول سيد الأنبياء (وكفى بالموت واعظا)

أو ما سمعت بكربه عليه السلام عند الموت حتى قال ﷺ (اللهم هون على محمد سكرات الموت) أو ما تستحى من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴿ **فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾[2] ويأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولا منه فلا يعتبرون ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون** ﴾[3] فيظنون أنهم فى الدنيا خالدون ﴿ **أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾[4] أم يحسبون ان الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون ، كلا ﴿ **إن كل لما جميع لدينا محضرون** ﴾[5] ولكن ﴿ **ما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾[6] وذلك لقوله ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾[7]

ولنرجع إلى الغرض ، فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هى أعلى من علوم المعاملة ، فنقول : قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى ، وهذه المقاومة من خاصة الأدميين ، لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ، ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين ، إذ قد ذكرنا أن الحسنة فى الاقبال على الاستفادة منها ، والسيئة فى الاعراض عنها ، وما للصبيان والمجانين سبيل إلى

---

(١) سورة الواقعة الآية (٦١)
(٢) سورة يس الآية (٥٠)
(٣) سورة يس الآية (٣٠)
(٤) سورة يس الآية (٣١)
(٥) سورة يس الآية (٣٢)
(٦) سورة الانعام الآية (٤)
(٧) سورة يس الآيتان : ٩ ، ١٠

الاستفادة ، فلا يتصور منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلا الاقبال والاعراض من القادرين على الاقبال والاعراض . ولعمرى : انه قد تظهر مبادىء اشراق نور الهداية عند سن التمييز ، وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ ، كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ، ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة ، بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ، ولا يعاقب على تركها فى الآخرة ، ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر فى الآخرة بل على القيم العدل والولى البر الشفيق ان كان من الأبرار ، وكان على سمت الكرام الكاتبين البررة الأخيار ، ان يكتب على الصبى سيئته وحسنته على صحيفة قلبه ، فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتعريف ثم يعذبه عليه بالضرب ، فكل ولى هذا سمته فى حق الصبى فقد ورث أخلاق الملائكة ، واستعملها فى حق الصبى فينال بها درجة القرب من رب العالمين ، كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين ، وإليه الاشارة بقوله ﷺ : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)[1] وأشار إلى أصبعيه الكريمتين ﷺ .

بيان كون الصبر نصف الايمان

اعلم أن الايمان تارة يختص فى إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين ، وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها ، وتارة يطلق عليهما جميعا ، وللمعارف أبواب ، وللأعمال أبواب ، ولاشتمال لفظ الايمان على جميعها كان الايمان نيفا وسبعين بابا ولكن الصبر نصف الايمان باعتبارين ، وعلى مقتضى اطلاقين : أحدهما ان يطلق على التصديقات والأعمال

جميعا فيكون للايمان ركنان : أحدهما : اليقين ، والآخر الصبر ، والمراد باليقين : المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين ، والمراد بالصبر : العمل بمقتضى اليقين ، إذ اليقين يعرفه ان المعصية ضارة ، والطاعة نافعة ولا يمكن ترك المعصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر ، وهو استعمال باعث الدين فى قهر باعث الهوى ، والكسل . فيكون الصبر نصف الايمان بهذا الاعتبار ، ولهذا جمع رسول الله ﷺ بينهما فقال: (من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر) الحديث إلى آخره .

الاعتبار الثانى : أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، أو يضره فيهما ، وله بالاضافة إلى ما يضره حال الصبر ، وبالاضافة إلى ما ينفعه حال الشكر ، فيكون الشكر أحد شطرى الايمان بهذا الاعتبار كما أن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول .

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد والبخارى وأبى داود والترمذى
الحديث رواه البخارى عن سهل بن سعد بلفظ : أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ، وقال بأصبعيه : السبابة والوسطى . فتح البارى ١٣/ ٤٣
ورواه أبو داود عنه بلفظ : كهاتين فى الجنة وقرن بين اصبعيه (أصابعه) الوسطى ، والتى تلى الابهام . (عون المعبود ١٤/ ٦٠)
ورواه الترمذى عنه بلفظ : وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى . (تحفة الأحوذى ٦/ ٤٥/ ٤٦)
(راجع فتح البارى ١٣/ ٤٣ ، عون المعبود ١٤/ ٦٠ ، تحفة الأحوذى ٦/٤٥-٤٦)
ورواه الطبرانى عن أم سعيد بنت عمرو بن مرة الجمحية بلفظ : من كفل يتيما له أو لغيره من الناس كنت أنا وهو فى الجنة كهاتين - قال الهيثمى : ورجاله ثقات - (مجمع الزوائد ٨/ ١٦٣)

وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه (الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر)[١] وقد يرفع أيضا إلى رسول الله ﷺ ، ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين ، وكان باعث الهوى قسمين : باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب ، فالشهوة تطلب اللذيذ و الغضب للهرب من المؤلم ، وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط ، وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، قال ﷺ بهذا الاعتبار (الصوم نصف الصبر)[٢] لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم عن دواعى الشهوة ودواعى الغضب جميعا ، فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان ، فهكذا ينبغى ان تفهم تقديرات الشرع بحدود الأعمال والأحوال ونسقها إلى الايمان ، والاصل فيه ان تعرف كثرة أبواب الايمان ، فإن اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة .

بيان الاسامى التى تتجدد للصبر بالاضافة إلى ما عنه الصبر :

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدنى كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها ، وهو : إما بالفعل كتعاطى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها ، وإما بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة ، وذلك : قد يكون محمودا إذا وافق الشرع ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة ، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر ، فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع ، وهو اطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت ، وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها ، وإن كان فى احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر ، وإن كان فى حرب ومقاتلة سمى شجاعة ، ويضاده الجبن ، وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلما ، ويضاده التذمر ، وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ، ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر ، وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر ، وسمى صاحبه كتوما ، وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، ويضاده الحرص ، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، ويضاده الشره ، فأكثر أخلاق الايمان داخل فى الصبر ، ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الايمان قال (هو الصبر) لأنه أكثر أعماله وأعزها كما قال (الحج عرفة) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبرا فقال تعالى : ﴿ **والصابرين فى البأساء** ﴾[٣] أى المصيبة ﴿ **والضراء** ﴾ أى الفقر

---

(١) الحديث رواه البيهقى فى شعب الايمان ، والديلمى فى مسند الفردس عن أنس مرفوعا بلفظ : الايمان نصف فى الصبر ونصف فى الشكر .
(جمع الجوامع ١ /٣٩٧)
(٢) الحديث رواه ابن ماجة فى أبواب الصيام رقم ٤٤ عن أبى هريرة بلفظ : الصيام نصف الصبر
قال المنادى : رمز السيوطى لحسنه وكأنه لم ير قول ابن العربى فى السراج : حديث ضعيف جدا ا هـ
ورواه البيهقى فى شعب الايمان عنه بزيادة : وعلى كل شئ زكاة ، وزكاة الجسد الصيام ـ قال المناوى : وفيه محمد بن يعقوب ، قال الذهبى فى الضعفاء : له مناكير ، وموسى بن عبيد ضعفوه ، وقال أحمد : لا تحل الرواية عنه)
(فيض القدير ٤ / ٢٥١ رقم ٥٢٠٠ ، ٥٢٠١)
(٣) سورة البقرة الآية (١٧٧)

﴿ وحين البأس ﴾ أى المحاربة - ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾[١] فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ المعانى من الأسامى يظن أن هذه الأحوال مختلفة فى ذواتها وحقائقها من حيث أن الأسامى مختلفة ، والذى يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله يلحظ المعانى أو لا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامى فإنها وضعت دالة على المعانى فالمعانى هى الأصول والألفاظ هى التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع ، لابد وأن يزل ، وإلى الفريقين الاشارة بقوله تعالى ﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط مستقيم ﴾[٢] فإن الكفار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانعكاسات نسأل الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

عاد قوم هود

قوله تعالى ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين. فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ؟ ﴾

يخبر سبحانه وتعالى أنه أوجد من بعد مهلك قوم نوح أهل قرن آخرين أى أمة أخرى ، والقرن : هو المدة من الزمان التى قد تصل إلى مائة عام ويراد بها هنا أهله الذين وجدوا فيه ، والمقصود بذلك الأمة ، والمراد هنا بأهل القرن الآخرين هم عاد قوم هود عليه السلام والذين كانوا يسكنون الأحقاف بين عمان وحضر موت ، قال الله تعالى فى سورة الأعراف فى شأنهم ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون . قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾[٣] .

وقال تعالى فى سورة هود : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا إن ربى على كل شىء حفيظ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾[٤] .

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧)
(٢) سورة الملك الآية (٢٢)
(٣) سورة الأعراف الآيات : ٦٦ - ٧٢
(٤) سورة هود الآيات : ٥٠ - ٦٠

وقال تعالى فى سورة الشعراء :

﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين . فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم . ﴾(١) .

وقال تعالى فى سورة فصلت :

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الأخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾(٢)

وقال تعالى فى سورة الاحقاف :-

﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون . فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين . ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ﴾(٣) .

لقد أرسل الله إلى هؤلاء الجبابرة رسولا منهم : هو نبى الله هود فقال لهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ أى : أطغيتم فلا تتقون ولا تخافون ﴿ اتقوا الله الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾ فماذا كان رد الملأ وهم أشرافهم وكبراؤهم اسمع معى إلى قوله جل شأنه :-
﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ـ

هذا منطق أهل الباطل فى كل زمان ومكان يريدون دائما أن يحقروا أهل الحق ويستهزئوا بهم فأى مطعن لغامز وأى مغمز لطاعن ، فى أن يكون النبى بشرا !! لقد قالوا لنوح من قبل ﴿ ما هذا إلا بشر

(١) سورة الشعراء الآيات (١٢٣ إلى ١٤٠)
(٢) سورة فصلت الآيتان (١٥ ، ١٦)
(٣) سورة الأحقاف الآيات (٢١ إلى ٢٦)

مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ وهنا يقولون عن هود :
﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾

وقالوا عن رسول الله ﷺ : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾[١] وما أرادوا بذلك إلا أسلوب التحقير والتوبيخ ولقد قالوا للأنبياء مثل ذلك اقرأ معى ما قاله القرآن الكريم عن فرعون : ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾[٢] .

واقرأ معى ما جاء فى سورة إبراهيم :
﴿ قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[٣]

لقد شاءت حكمة الله تعالى أن يبعث الأنبياء من البشر حتى يكون بينهم وبين طباع البشر ملاءمة ومواءمة وبذلك يستطيعون أن يعيشوا مشاكلهم وقضاياهم ولو كانوا ملائكة لاختلفت الطباع كل الاختلاف إذ الملائكة أجسام نورانية تتشكل بالأشكال الحسنة لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ولا ينامون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[٤]

التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة ، فكيف يتكيفون مع البشر وكيف يعيشون مشاكلهم .

أما الأنبياء فقد أكلوا وشربوا وناموا وتزوجوا ، وكان لهم ذرية قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾[٥]

إن الملأ المستكبرين الذين كفروا بالله ربا ، وأنكروا اليوم الآخر ، والبعث بعد ما أترفوا ، وتمتعوا بلذائذ الحياة ، طعنوا فى الأنبياء بأنهم بشر يأكلون ويشربون ، ثم بنوا على هذه المقدمة الباطلة نتيجة باطلة بنيت على الزور والبهتان فقالوا : ﴿ ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴾ .

---

(١) سورة الفرقان الآيتان (٧ ، ٨)
(٢) سورة الزخرف الآيات (٥١ إلى ٥٣)
(٣) سورة ابراهيم الآيات (١٠ ، ١٢)
(٤) سورة الأنبياء (٢٠)
(٥) سورة الرعد الآية (٣٨)

المقدمة باطلة : فما بنى عليها باطل ، إذ كون النبى بشرا ، لا يعد طعنا فى رسالته ، ولو سمعت معى ما جاء فى سورة الاسراء بهذا الصدد ، وما تحدوا به إمام الأنبياء والمرسلين لأخذتكم الدهشة واستولى عليكم العجب قال تعالى فى سورة الاسراء :-

﴿ قلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى !! هل كنت

إلا بشرا رسولا . وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا . قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا . قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾[١] .

إن الملأ من قوم هود أرادوا أن يؤكدوا تكذيبهم بلقاء الآخرة فقالوا **﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون)**

والاستفهام هنا للتوبيخ والتقريع ، وكأنهم قالوا إن وعد الأنبياء بالبعث بعد الموت وتحلل الأجسام وتحويلها إلى تراب وعد كاذب .

تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

ثم أكدوا هذا التكذيب بقولهم (هيهات .. هيهات لما توعدون)

هيهات : أسم فعل ماض بمعنى بعد ، ولقد أكدوه توكيدا لفظيا بتكراره حتى يزدادوا إنكارا وجحودا بالبعث ، أى بعد هذا الوعد وأصبح فى مجال المستحيل ولقد قال أهل مكة ومن لف لفهم هذا الكلام .

قال تعالى **﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾**[٢] .

وقال عز من قائل :

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٣]

وقال تبارك اسمه **﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا . أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من**

(١) سورة الاسراء الايات (من ٨٨ إلى ٩٦)
(٢) سورة النحل الآية (٣٨)
(٣) سورة يس الايات (من ٧٧ إلى ٧٩)

قبل ولم يك شيئا ﴾[1] وقال عظمت قدرته :

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[2]

لقد أكد الملأ لأقوامهم مرة بعد مرة إنكار البعث فماذا قالوا : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾ .

أى ما حياة إلا هذه الحياة الدنيا ، تموت الأحياء منا فلا تحيا ، ويحدث آخرون منا ويولدون ، وما نحن بمبعوثين بعد الموت إنما مثلنا مثل الزرع يحصد هذا وينبت ذاك .

والخلاصة ـ أنه يموت منا من هو موجود وينشأ آخرون بعدهم . وبعد أن كان أمرهم معه مقصورا على الاستبعاد فحسب ، جاهدوا بتكذيبه فيما يدعى فقالوا :

﴿ إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين)

أى ما هود إلا رجل يختلق الكذب على الله فتارة يقول : ما لكم من إله غير الله خالق السموات والأرض وأخرى يقول :ـ إنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون ، وما نحن بمصدقيه فيما يدعى ويزعم من التوحيد والبعث .

ولما يئس هود من إيمانهم بعد ذكر هذه المقالة (وما نحن له بمؤمنين) فزع إلى ربه .

﴿ قال رب انصرنى بما كذبون ﴾

أى قال بعد أن يئس من إيمانهم وقد سلك فى دعوتهم كل مسلك متضرعا إلى ربه : رب انصرنى عليهم وانتقم لى منهم بتكذيبهم إياى فيما دعوتهم إليه من الحق وإصرارهم على الباطل .

فأجابه ربه إلى ما سأل .

﴿ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ أى قال تعالى مجيبا دعاءه : ليصيرن مكذبوك بعد زمن قليل نادمين على ما فعلوا ، وستحل بهم نقمتنا ، ولا ينفعهم الندم حينئذ . ثم أخبر أنه أنجز وعيده منهم فقال :

﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء ﴾ أى فسلطنا عليهم نقمتنا فأخذهم العذاب الذى لا قبل لهم به ، وقد كانوا لمثله مستحقين ، بسبب كفرهم وتكذيبهم برسوله فجعلناهم كغثاء السيل ، لا غناء فيهم ، ولا فائدة ترجى منهم .

﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ أى فأبعد الله القوم الكافرين بهلاكهم ، إذ كفروا بربهم وعصوا رسوله وظلموا أنفسهم .

وفى هذا من الذلة والمهانة لهم والاستخفاف بأمرهم ما لا يخفى ، وأن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم من العقاب فى الدنيا وفيه عظيم العبرة لمن بعدهم ممن هم عرضة لمثله .

ولقد قال الله فى شأن قوم نوح ﴿ وقيل بعدا للقوم الظالمين ﴾ وقال فى قوم هود: ﴿ ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾ وهنا يقول تعالى: ﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ :

---

(١) سورة مريم (٦٦ ، ٦٧)

(٢) سورة التغابن (٧)

ولى فى فناء الخلق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقة راق
شخوص وأشكال تمر وتنقضى فتفنى جميعا والمهيمن باق

فاسألوا التاريخ عن الجبابرة والأكاسرة والقياصرة والأباطرة ، اسألوا التاريخ عمن عمر ومجد وبنى وشيد ؟! تلك بيوتهم خاوية ، سكنتها الذئاب العاوية .

نبكى على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الجبابرة الأكاسرة الألى جمعوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من ذا الذى ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى فحواه لحد ضيق
خرس إذا نودوا كأن لم يعلموا أن الكلام لهم حلال مطلق

يأيها الناس إذا حكمتم فاحكموا بالعدل ، وإذا غرتك قوتك أيها الجبار فانظر إلى قوة العزيز الجبار من فوقك واحذروا الظلم فإنه لا يدوم وإذا دام دمر .

● جاء فى الحديث :

● (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شىء فليتحلل منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ثم طرح فى النار)[1] .

● وروى عبد الله بن أبى الدنيا بسنده إلى أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : (أول من يختصم يوم القيامة الرجل وامرأته والله ما يتكلم لسانها ولكن يداها ورجلاها يشهدان عليها بما كانت تعنت لزوجها فى الدنيا ، ويشهد على الرجل يداه ورجلاه بما كان يولى زوجته من خير أو شر ، ثم يدعى بالرجل وخدمه مثل ذلك فما يؤخذ منهم دوانيق ولا قراريط ولكن حسنات الظالم ترفع إلى

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى المعجم الكبير ، وابن مردويه

ورواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه لكنه بلفظ : من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه (فتح البارى ١٨٧/١٤ كتاب الرقاق ، باب القصاص يوم القيامة)

ورواه الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه بلفظ : رحم الله عبدا كانت لأخيه عنده مظلمة فى عرض أو مال ، فجاءه فاستحله قبل أن يؤخذ ، وليس ثم دينار ولا درهم ، فان كانت له حسنات أخذ من حسناته ، وان لم تكن له حسنات حملوا عليه من سيئاتهم وقال الترمذى حسن صحيح (**تحفة الأحوذى** ٧/ ١٠٣) أبواب صفة القيامة ، باب ما جاء فى شأن الحساب والقصاص)

ورواه الامام أحمد عن أبى هريرة أيضا بلفظ : من كانت عنده مظلمة من أخيه من عرضه أو ماله فليحلله اليوم قبل ان يؤخذ حين لا يكون دينار ولا درهم ، وان كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له أخذ من سيئات صاحبه فجعلت عليه (المسند ٢ /٥٠٦)

من هنا تعلم أن الرواية المذكورة فى التفسير مخالفة للروايات الواردة فى ذلك فالواجب استبدالها **برواية البخارى** المذكورة عاليه ، أو ذكر الروايات الثلاث .

المظلوم ، وسيئات المظلوم تحمل على الظالم ، ثم يؤتى بالجبارين **بمقامع** من حديد فيقال سوقوهم إلى النار ﴾[١] .

● وكان **شريح** القاضى يقول : سيعلم الظالمون حق من انتقصوا ، إن الظالم لينتظر العقاب ، والمظلوم ينتظر النصر والثواب

● وروى إذا أراد الله بعبد خيرا سلط عليه من ظلمه ،

دخل طاووس اليمانى على هشام بن عبد الملك فقال له : اتق يوم الأذان ، قال هشام : وما يوم الأذان ؟ قال : قوله تعالى ﴿ **فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين** ﴾ فصعق هشام : فقال طاووس : هذا ذل الصفة فكيف المعاينة ؟

● وقال سعيد بن المسيب : لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم الصالحة .

● وقال مكحول الدمشقى : ينادى مناد يوم القيامة : أين الظلمة وأعوانهم ؟ فما يبقى أحد حبر لهم دواة أو برى لهم قلما فما فوق ذلك إلا حضر معهم فيجمعون فى تالوب من نار فيلقون فى جهنم .

وجاء خياط إلى سفيان الثورى رحمه الله تعالى فقال : إنى أخيط ثياب السلطان أفترانى من أعوان الظلمة ؟ فقال له سفيان : بل أنت من الظلمة أنفسهم ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الابرة والخيوط .

● وروى عن النبى ﷺ أنه قال : (أول من يدخل النار يوم القيامة السواطون الذين يكون معهم الأسواط يضربون بها الناس بين يدى الظلمة)

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : الجلاودة ، أى أعوان الظلمة ، والشرط أى بضم **المعجمة** وفتح الراء : ولاة الشرطة وهم أعوان الولاة والظلمة الواحد منهم شرطى : بضم ففتح ـ كلاب النار يوم القيامة .

● وروى : إن الله تعالى أوحى إلى موسى ﷺ على نبينا وعليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أفضل الصلاة والسلام : ﴿ **أن مر ظلمة بنى إسرائيل أن يقلوا من ذكرى فإنى أذكر من ذكرنى وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم** ﴾[٢] .

وفى رواية : (فإنى أذكر من ذكرنى منهم باللعنة)

---

(١) الحديث أورده الحافظ **المناوى** فى الجامع الازهر ١ / ١٨ عن أبى أيوب بلفظ : أول من تختصم يوم القيامة الرجل وامرأته ، **والله مايتكلم لسانها ، ولكن يداها ورجلاها فيشهد ان عليها بما كانت تعيب لزوجها ويشهد يداه ورجلاه بما كان يوليها ثم يدعى** الرجل وخدمه بمثل ذلك ، ثم يدعى أهل الأسواق وما يوجد ثم لا دوانيق ولا قراريط ، ولكن حسنات هذا تدفع[١] إلى هذا الذى ظلم وسيئات هذا الذى ظلمه تدفع عليه ثم يؤتى بالجبارين فى مقامع من حديد فيقال : ما وردهم إلى النار فو الله ما أدرى يدخلونها أو كما قال الله وان منكم إلا واردها الآية .

ـ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الله بن عبد العزيز الليثى ضعيف وثق وسعيد بن منصور ، وكان **مالك** يرضاه وبقية رجاله رجال الصحيح اهـ وقال السيوطى فى الجامع الكبير ١/٣٤٠ : رواه الطبرانى فى الكبير وابن **مردويه** إلا أنه قال : فيقال اوردهم إلى النار

(٢) الحديث أورده الحافظ المناوى فى (الاتحافات السنية ص ٣١٩ رقم ٢٣٠) بلفظ : أوحى الله إلى داود أن قل للظلمة لا يذكرون ، فإنى أذكر من يذكرنى ، وإن ذكرى إياهم أن ألعنهم .

وقال : رواه الحاكم فى تاريخه والديلمى وابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما . ا هـ

وجاء عن النبى ﷺ أنه قال : (لا يقضى أحدكم فى موقف يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه)(١) .

وجاء عن النبى ﷺ قال : (أمر بعبد من عباد الله يضرب فى قبره مائة جلدة ، فلم يزل يسأله ويدعو حتى صارت جلدة واحدة فامتلأ قبره عليه نارا فلما ارتفع عنه وأفاق قال : علام جلدتمونى ؟ قيل : إنك صليت بغير طهور ومررت على مظلوم فلم تنصره فهذا حال من لم ينصر المظلوم مع قدرته على نصره فكيف حال الظالم ؟) .

قال بعضهم : رأيت فى المنام رجلا ممن كان يخدم الظلمة والمكاسين بعد موته ، وهو فى حالة قبيحة ، فقلت له : ما حالك ؟ فقال شر حال ، فقلت له : إلى أين صرت ؟ فقال إلى عذاب الله ، قلت : فما الظلمة عن ربهم ؟ قال شر حال أما سمعت قول الله عز وجل ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾(٢)

وقال بعضهم :

رأيت رجلا مقطوع اليد من الكتف ، وهو ينادى من رآنى فلا يظلمن أحدا ، فتقدمت إليه وقلت له : يا أخى ما قصتك ؟ فقال يا أخى قصتى عجيبة ، وذلك أنى كنت من أعوان الظلمة ، فرأيت يوما صيادا قد اصطاد سمكة كبيرة فأعجبتنى ، فجئت إليه فقلت : أعطنى هذه السمكة ، فقال لا أعطيكها ، أنا آخذ ثمنها قوتا لعيالى ، فضربته وأخذتها منه قهرا ، ومضيت بها قال فبينما أنا ماش بها حاملها ، إذ عضت على إبهامى عضة قوية ، فلما جئت بها إلى بيتى وألقيتها من يدى ، ضربت على إبهامى وآلمتنى ألما شديدا حتى لم أنم من شدة الوجع وورمت يدى ، فلما أصبحت أتيت الطبيب وشكوت إليه الألم ، فقال : هذه بدو أكلة ، اقطعها وإلا تلفت يدك كلها ، فقطعت إبهامى ، ثم ضربت يدى فلم أطق النوم ولا القرار من شدة الألم ، فقيل لى اقطع كفك فقطعتها ، وانتشر الألم إلى الساعد وآلمنى شديدا ، ولم أطق النوم ولا القرار ، وجعلت استغيث من شدة الألم .

فقيل لى : اقطعها من المرفق فقطعتها ، فانتشر الألم إلى العضد وضربت على عضدى أشد من الألم فقيل لى اقطع يدك من كتفك ، وإلا سرى إلى جسدك كله فقطعتها ، فقال لى بعض الناس : ما سبب ألمك فذكرت له قصة السمكة ، فقال لى : كنت رجعت من أول ما أصابك الألم إلى صاحب السمكة ، فاستحللت منه واسترضيته ولا قطعت يدك ، فاذهب الآن إليه واطلب رضاه قبل أن يصل الألم إلى بدنك ، قال : فلم أزل أطلبه فى البلد حتى وجدته ، فوقعت على رجليه أقبلهما وأبكى وقلت : يا سيدى سألتك بالله إلا ما عفوت عنى ، فقال لى : ومن أنت ؟ فقلت أنا الذى أخذت منك السمكة غصبا ، وذكرت له ما جرى وأريته يدى فبكى حين رآها ثم قال : ياأخى قد حاللتك منها لما قد رأيت بك من هذا البلاء ،فقلت له : بالله يا سيدى هل كنت دعوت على لما أخذتها منك ؟ قال نعم . قلت :

---

(١) الحديث اورده المنذرى فى الترغيب والترهيب ٣ / ٣٠٤ عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ : لا يقفن أحدكم موقفا يقتل فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على كل من حضر حين لم يدفعوا عنه ولا يقفن أحدكم موقفا يضرب فيه رجل ظلما فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه .
وقال : رواه الطبرانى والبيهقى باسناد حسن ا هـ

(٢) سورة الشعراء (٢٢٧)

اللهم هذا تقوى على بقوته على ضعفى وأخذ منى ما رزقتنى ظلما فأرنى فيه قدرتك ، فقلت له : يا سيدى قد أراك الله قدرته فى وأنا تائب إلى الله عز وجل عما كنت عليه من خدمة الظلمة ولا عدت أقف لهم على باب ولا أكون من أعوانهم ما دمت حيا إن شاء الله تعالى .

قصص صالح ولوط وشعيب وغيرهم

﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون . ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ .

وفى هذه الآيات الكريمة يخبر تعالى عن سنته الكونية فى الأمم ، فيقول ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ﴾ . أى من بعد عاد قوم هود . أنشأنا وأوجدنا أهل قرون آخرين كثيرين ، فلما كذبوا أهلكناهم ، وتلك عاقبة الظالمين ، وإذا جاء أجلهم وحان عقابهم لا يسبقون هذا الأجل الذى حدده الله لهم ولا يستأخرون عنه ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾(١) قال تعالى : ﴿ ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ﴾ وقال سبحانه ﴿ ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون ﴾ وقال سبحانه : ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ● عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾(٢) ثم أخبر تبارك اسمه انه أرسل رسله تترى أى متتابعين فبلغت الرسل رسالات ربها وصدقت بكلماته وكتبه ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(٣)

لقد أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ، فكذبوا وأوذوا كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فكان الجزاء العادل ، فأتبعنا بعضهم بعضا أى أخذناهم بالعذاب أمة بعد الأخرى ، وجعلناهم أحاديث للناس وأعاجيب يتحدثون بها ويتلهون من شأنها ﴿ فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ وهلاكا لهم وعلى الأمم التى تقرأ هذا الكتاب المجيد أن تأخذ من أحداث التاريخ عبرة فإن القصص فى القرآن مدرسة عظمى لم ينزله الله لنتسلى به أو نتغنى بقراءته إنما أنزله ليكون لنا تذكره ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾(٤) ﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾(٥) . فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد.وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ﴾

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾(٦) .

(١) سورة نوح (٤)
(٢) سورة الرعد (٨-٩)
(٣) سورة النحل (٣٦)
(٤) يوسف (١١١)
(٥) الأعراف (١٠١ / ١٠٢)
(٦) سورة هود (١٠٠ - ١٠٤)

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾(١) .

قصة موسى وهارون عليهما السلام

﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين . فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون . فكذبوهما فكانوا من المهلكين . ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾

قوله تعالى ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين ﴾ . أى ثم أرسلنا بعد الرسل الذين تقدم ذكرهم من قبل - موسى وأخاه هارون إلى فرعون وأشراف قومه من القبط بالآيات والحجج الدامغة والبراهين القاطعة فاستكبروا عن اتباعهما والانقياد لما أمروا به ودعوا إليه ، من الايمان وترك تعذيب بنى إسرائيل كما جاء فى سورة النازعات : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾(٢) وقد كان من دأبهم العتو والبغى على الناس وظلمهم كبرا وعلوا فى الأرض .

ثم ذكر ما استتبعه هذا العتو والجبروت .

﴿ فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون ؟ ﴾ أى فقال فرعون وملؤه كيف ندين لموسى وأخيه ، وبنو إسرائيل قومهما خدمنا وعبيدنا يخضعون لنا ويتلقون أوامرنا ؟

وما قصدوا بهذا إلا الزراية بهما والحط من قدرهما وبيان أن مثلهما غير جدير بمنصب الرسالة وقد قاسوا الشرف الدينى والامامة فى تبليغ الوحى عن الله بالرياسة الدنيوية المبنية على نيل الجاه والمال .

وهم فى هذا أشبه بقريش إذ قالوا : ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ وقد فاتهم أن مدار النبوة والاصطفاء للرسالة إنما هو السبق فى الفضائل النفسية والصفات السنية التى يتفضل الله بها على من يشاء من عباده ، فالأنبياء لصفاء نفوسهم ، يتصلون بالعالم العلوى وعالم المادة . فيتلقون الوحى من الملأ الأعلى ويبلغونه إلى البشر ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل والانقطاع إلى حضرة الحق .

وإن تعجب من شىء فاعجب لهؤلاء وأمثالهم ممن لم يرض النبوة للبشر كيف سوغت لهم أنفسهم ادعاء الألوهية للحجر ﴿ فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾ .

ثم ذكر عاقبة أعمالهم وما آل إليه أمرهم فقال :

﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين) أى فأصر فرعون وملؤه على تكذيب موسى وهارون فأهلكهم الله بالغرق فى بحر القلزم (البحر الأحمر) كما أهلك من قبلهم من الأمم بتكذيبهم لرسلهم .

ثم ذكر ما أولاه موسى بعد هلاكهم من التشريف والتكريم فقال :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾ أى ولقد أنزلنا على موسى التوارة وفيها الأحكام من الأوامر والنواهى بعد أن أهلكنا فرعون وملأه وأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، رجاء أن يهتدى بها قومه إلى الحق ويعملوا بما فيها من الشرائع .

(١) سورة الأعراف (٩٦)
(٢) سورة النازعات (١٧ ، ١٨ ، ١٩)

المسيح وأمه

﴿ وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾

ابن مريم هو المسيح ، وإنما كان آية ، لأنه خلق بلا أب ، وإنما كانت أمه آية لأنها حملت به دون أن يمسها بشر ، وإنما عبر عنهما بأنهما آية ، ولم يقل وجعلنا ابن مريم وأمه آيتين لاشتراكهما فى تلك الآية فكلاهما آية واحدة دالة على قدرة الله تعالى وعظمته ، كما جاء فى قوله جل شأنه : ﴿ والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾(١) ولقد أجرى الله على يدى عيسى من المعجزات الكثير والكثير قال جل شأنه :-

﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ﴾(٢) إلى غير ذلك من الخوارق .

قوله تعالى ﴿ وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين ﴾ .

أى وجعلناهما ينزلان بمرتفع من الأرض ذى ثمار وماء جار كثير .

قال قتادة : الربوة : بيت المقدس وقال مقاتل والضحاك : هى غوطة دمشق إذ هى ذات الثمار والماء .

● قوله تعالى ﴿ ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾

قال الحسن البصرى فى قوله ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات ﴾ قال أما والله ما أمركم بأصفركم ولا أحمركم ولا حلوكم ولا حامضكم ولكن قال انتهوا إلى الحلال منه .

وقال سعيد بن جبير والضحاك : كلوا من الطيبات : يعنى الحلال وقال عمرو بن شرحبيل كان عيسى بن مريم يأكل من غزل أمه

وفى الصحيح (وما من نبى إلا رعى الغنم) قالوا وأنت يا رسول الله ؟ قال (نعم وأنا كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)(٣) .

وفى الصحيح (إن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده)(٤) .

وفى الصحيحين (إن أحب الصيام إلى الله صيام داود وأحب القيام إلى الله قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى)(٥) .

---

(١) سورة الأنبياء (٩١)

(٢) سورة المائدة (١١١)

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاجارة رقم/٢ ، وفى كتاب الأطعمة رقم /٥ ، وفى كتاب الأنبياء رقم/٢٩ ، ومسلم فى كتاب الايمان رقم ٣٠٢ ، وفى كتاب الأشربة رقم ١٦٥ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الاستئذان رقم / ١٨ ، وأحمد فى مسنده ٣ / ٣٢٦

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب البيوع رقم ١٥٠

(٥) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ٢ / ٣١٤ ، ١٦٠ ، ٦٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ، البخارى فى كتاب التهجير رقم ٧ ، وفى كتاب الأنبياء رقم ٣٧ ، ٣٨ ، ومسلم فى كتاب الصيام ١٨٩ ، ١٩٠ ، وأبو داود فى كتاب الصوم رقم ٦٦ والنسائى فى كتاب الصيام رقم ١٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ وابن ماجه فى ابواب الصوم رقم ٣١ ، والدارمى فى سننه فى كتاب الصوم رقم ٤٢

وعن أم عبد الله بنت شداد بن أوس قالت بعثت إلى النبى ﷺ بقدح لبن عند فطره وهو صائم ، وذلك فى أول النهار وشدة الحر ، فرد إليها رسولها أنى كانت لك الشاة ؟ فقالت اشتريتها من مالى فشرب منه ، فلما كان الغد أتته أم عبد الله بنت شداد بن أوس ، فقالت يا رسول الله بعثت إليك بلبنى مرثية لك من طول النهار وشدة الحر فرددت إلى الرسول فيه فقال لها « بذلك أمرت الرسل الا تأكل إلا طيبا ولا تعمل إلا صالحا)[(١)]

وجاء فى صحيح مسلم وجامع الترمذى ومسند الأمام أحمد عن عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال :﴿ **يأيها الرسل كلوامن الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾ .

وقال ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم** ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر اشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام يمد يديه إلى السماء يارب يارب فأنى يستجاب لذلك ﴾ [(٢)] .

فهذه الآية الكريمة اشتملت على أمرين كريمين أولهما كلوا من الطيبات وثانيهما واعملوا صالحا ويرحم الله زمانا كانت الزوجة تقول لزوجها صباحا حين يخرج مستقبلا يومه يا فلان اتق الله فينا ولا تأكل حراما فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نصبر على عذاب النار يوم القيامة .

إن الحرام لا يدوم وإذا دام لا ينفع .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب كما أن الذى يمضى بعيد

قوله تعالى ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾

الأمة هنا بمعنى الملة فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد وتحت لواء واحد هو قول (**لا إله إلا الله**) قال تعالى : يخاطب حبيبه ومصطفاه :-

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[(٣)] وقال صلوات ربى وسلامه عليه ﴿ **أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله** ﴾[(٤)]

---

(١) الحديث اخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه .
(الدر المنثور ٥/ ١٠ تفسير ابن كثير ٥ / ٤٧١ ط : الشعب)
الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك

(٢) الحديث رواه مسلم فى الزكاة رقم / ٦٥ ، والترمذى فى تفسير سورة البقرة ، والدارمى فى كتاب الرقاق رقم ٩ ، واحمد فى مسنده ٢ /٣٢٨

(٣) سورة الانبياء (٢٥)

(٤) الحديث رواه مالك فى كتاب القرآن رقم ٣٢ وفى كتاب الحج رقم ٢٤٦ ، والترمذى فى الدعوات رقم ١٢٢ عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عن طلحة بن عبيد الله بن كريم ، باب فى دعاء يوم عرفه بلفظ : خير الدعاء دعاء يوم عرفه وخير ما قلت انا والنبيون من قبلى لا إله إلا الله وحده لا شريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير - وقال حسن غريب (تحفه الاحوذى ١ / ٤٥ رقم ٣٦٥٥)

اللهم لك الحمد ان جعلتنا مسلمين وكلمة التوحيد عليها نحيا وعليها نموت وفى سبيلها نجاهد وعليها نلقى الله .

وعيد وتهديد

فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

تفسير المفردات

فتقطعوا : أى قطعوا ومزقوا
أمرهم : أى أمر دينهم
زبرا : أى قطعا واحدها زبور .
فذرهم : أى فدعهم واتركهم فى غمرتهم أصل الغمرة الماء الذى يغمر القامة ويسترها والمراد بها الجهالة
حتى حين : أى إلى أن يموتوا فيستحقوا العذاب
نمدهم : نعطيهم مددا لهم .

التفسير

يحدثنا المولى الكريم فى هذه الآيات عن الأمم التى تمزقت وتفرقت بعد انبيائها وهم يعلمون أن دين الله واحد هو الاسلام ﴿ **ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾

إن هؤلاء الذين تقطعوا وتمزقوا تفرقوا أحزابا وكلها تقوم على الضلال وتشرذموا **وكل فريق بما لديهم فرحون** بجهالتهم وضلالهم ، كل هؤلاء ﴿ **لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون** ﴾ الله تعالى يهدد هؤلاء ويوعدهم فيقول لرسوله ﴿ **فذرهم فى غمرتهم حتى حين** ﴾ أى دعهم فى ضلالتهم وجهلهم وغيهم فذرهم فى خوضهم يلعبون ، وفى **طغيانهم** يلعبون ، وفى ريبهم يترددون ، حتى حين أى إلى أن يأتى الله بأمره ﴿ **حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا** ﴾[1] . أيحسب هؤلاء أنما نمدهم به من المال والبنين **أنما** فعلنا ذلك اكراما لهم لا ، انهم مغرورون ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[2] . فليست كثرة المال والولد دليلا على الاكرام ، وليس الابتلاء بضيق الرزق دليلا على الاهانة .

بل إن المقياس العادل هو تقوى الله .

﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[3] .

ثم اقرأ معى قوله جل شأنه ﴿ **فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلا** ﴾[4]

---

(١) سورة مريم (٧٥)
(٢) سورة الأعراف (١٨٢ ، ١٨٣)
(٣) سورة الحجرات (١٣)
(٤) سورة الفجر (١٥ ، ١٦ ، ١٧)

ثم اقرأ معنى قوله جل شأنه: ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾(١) ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾ قال تعالى ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ﴾(٢)

وقال عز من قائل: ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾(٣)

المسارعون فى الخيرات

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾

تفسير المفردات

الخشية : الخوف من العقاب والاشفاق نهاية الخوف والمراد لازمه ، وهو دوام الطاعة .

والآيات : هى الآيات الكونية فى الأنفس والآفاق والآيات المنزلة .

وجلة : أى خائفة .

سابقون : أى ظافرون بنيلها .

التفسير

قال الحسن البصرى : وان المؤمن جمع احسانا وشفقة وإن المنافق جمع إساءة وأمنا .

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم انسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان

﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾ أى يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى إخبارا عن مريم عليها السلام ﴿ وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾(٤) أى أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه وما شرعه الله فهو إن كان أمرا فمما يحبه ويرضاه ، وإن كان نهيا فهو مما يكرهه ويأباه وإن كان خيرا فهو حق كما قال الله ﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾ أى لا يعبدون معه غيره بل يوحدونه ويعلمون أنه لا إله إلا الله أحدا صمدا لم يتخذ صاحبة ولا ولدا وأنه لا نظير له ولا كفء له .

﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾

(١) سورة الحجر (٣)
(٢) سورة آل عمران (١٧٨)
(٣) سورة التوبة (٥٥)
(٤) سورة التحريم (١٢)

أى يعطون العطاء وهم خائفون وجلون الا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى القيام بشروط الاعطاء وهذا من باب الاشفاق والاحتياط .

● كما قال الامام احمد عن عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذى يسرق ويزنى ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال **(لا يابنت أبى بكر يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل)**(١) .

وقال الامام أحمد عن أبى خلف مولى بنى جحح أنه دخل مع عبيد بن عمر على عائشة رضى الله عنها فقالت مرحبا بأبى عاصم ما يمنعك أن تزورنا أوتلم بنا ، فقال أخشى أن أملك فقالت : ما كنت لتفعل ، قال جئت لأسألك عن آية من كتاب الله عز وجل كيف كان رسول الله ﷺ يقرؤها ؟ قالت أية آية ؟ قال ﴿ **الذين يؤتون ما آتوا** ﴾ ﴿ **والذين يؤتون ما أتوا** ﴾

فقالت أيهما أحب إليك ؟ فقلت والذى نفسى بيده لأحدهما أحب إلى من الدنيا جميعا أو الدنيا وما فيها قالت وما هى ، فقلت ﴿ **الذين يأتون ما أتوا** ﴾ فقالت أشهد أن رسول الله ﷺ كذلك كان يقرؤها وكذلك أنزلت ولكن الهجاء حرف(٢) . والمعنى على القراءة الأولى وهى قراءة الجمهور السبعة وغيرهم أظهر لانه قال ﴿ **أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون** ﴾

فجعلهم من السابقين ولو كان المعنى على القراءة الأخرى لأوشك الا يكون من السابقين بل من المقتصرين أو المقصرين .

قطع المعاذير

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ
فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم
بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ
يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ
مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ
فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٢ / ١٥٩ ، ٢٠٥ ، وابن ماجه فى ابواب الزهد رقم / ٢٠
(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٦ / ٩٥

﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ
لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾
وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا
ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ
قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ
هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ
لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ
قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾
مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾

تفسير المفردات

الوسع : ما يتسع على الانسان فعله ولا يضيق عليه
الكتاب : هو صحائف الأعمال
بالحق : أى بالصدق
الغمرة : الغفلة والجهالة
من دون ذلك : أى غير ذلك
المترف : المتوسع فى النعمة
جأر الرجل : صاح ورفع صوته
لا تنصرون : أى لا يجيركم أحد ولا ينصركم .

تنكصون : أي: تعرضون عن سماعها وأصل النكوص : الرجوع على الأعقاب (العقب مؤخر الرجل) ورجوع الشخص على عقبه : رجوعه فى طريقه الأولى كما يقال رجع عوده على بدئه .

سامرا : أي: تسمرون بذكر القرآن والطعن فيه والهجر (بالضم) الهذيان.

الجنة : الجنون .

الذكر : القرآن الذى هو فخرهم.

عن ذكرهم : عن فخرهم.

خرجا : أى جعلا وأجرا .

صراط مستقيم : أى طريق لا عوج فيه

لناكبون : أى عادلون عن طريق الرشاد ، يقال نكب عن الطريق : إذا زاغ عنه .

لج فى الأمر : تمادى فيه .

يعمهون : أى يتحيرون ويترددون فى الضلال .

استكانوا : خضعوا وذلوا .

ما يتضرعون : أى يجدون التضرع والخضوع ، مبلسون : أي: متحيرون آيسون من كل خير .

ذرأكم فى الأرض : أى خلقكم وبثكم فيها

اختلاف الليل والنهار : تعاقبهما ، من قولهم : فلان يختلف إلى فلان : أي: يتردد عليه بالمجىء والذهاب .

الأساطير : الأكاذيب واحدها أسطورة كأحدوثة وأعجوبة .

تتقون : أى تحذرون عقابه .

الملكوت : الملك والتدبير .

يجير : أي: يغيث ، من قولهم: أجرت فلانا من فلان إذا أنقذته منه ولا يجار عليه : أي: لا يعين أحد منه أحدا .

تسحرون : أى تخدعون وتصرفون عن الرشد .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون . بل قلوبهم فى غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون . حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون . لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون . قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون . مستكبرين به سامرا تهجرون** ﴾

هذا منطق العدالة الالهية المقرون بالحكم والرحمة ﴿ **ولانكلف نفسا إلا وسعها** ﴾ لقد اقتضت عدالة الله وهو الحكم العدل ألا يكلف عباده إلا بما يطيقون ويستطيعون ، ثم اقتضت تلك العدالة أن يسجل الأعمال فى صحائفها حتى يرى العبد ما قدمت يداه فى يوم ﴿ **تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾(١) فياله

---
(١) سورة الحج (٢)

من يوم ما أطوله ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾(١) .

واقرأ قوله جل شأنه: ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون. وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون . هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾(٢) . تباركت ربنا وتعاليت ، حكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وملكت فقدرت ، وبطنت فخبرت وجل جلالك إذ تقول ﴿ ولا نكلف نفسا إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون » سبحانك أنت القائل ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾(٣)» وأنت القائل : ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(٤) .

لقد حرمت الظلم على نفسك ، وحرمته على خلقك ونهيتهم عنه وأوعدت الظالمين فى قولك ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾(٥) .

أما هؤلاء الذين صمت آذانهم عن سماع الحق ، وعميت بصائرهم عن إدراكه فالله يقول فيهم ﴿ بل قلوبهم فى غمرة من هذا ﴾ أى فى جهالة وضلالة عن منطق الحق المبين ﴿ ولهم أعمال من دون ذلك ﴾ أى أعمال سيئة غير ما تقدم وهؤلاء فاعلون لتلك الأعمال السيئة وسوف يحاسبهم الله على سوء اختيارهم ويقال لهم ﴿ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾(٦) .

غـدا توفى النفـوس مـا كسبت ويحصـد الزارعـون مـا زرعـوا
إن أحسنـوا أحسنـوا لأنفسهم وإن اساءوا فبئس مـا صنعـوا

قوله تعالى ﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون ﴾ يعنى حتى إذا جاء مترفيهم وهم المنعمون فى الدنيا عذاب الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أى يصرخون ويستغيثون كما قال تعالى ﴿وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾ (٧)

وقال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾(٨) وقوله ﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أى لا يجيركم أحد مما حل بكم سواء جأرتم أو سكتم لا محيد ولا مناص ولاوزر لزم الأمر ووجب العذاب .

فالله إذا حكم لا معقب لحكمه وإذا قضى فلا راد لقضائه وهو سريع الحساب ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ﴾(٩) فجددوا السفينة فإن البحر عميق ، وأكثروا من الزاد فإن السفر طويل ، وأخلصوا العمل فإن الناقد بصير وخففوا الحمل فإن العقبة كئود ولا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ألفاً من الأعوام مالك أمره

(١) سورة آل عمران (٣٠)
(٢) سورة الجاثية (٢٧ / ٢٩)
(٣) سورة النساء (٤٠)
(٤) سورة يونس (٤٤)
(٥) سورة إبراهيم (٤٢)
(٦) سورة آل عمران (١٨٢)
(٧) سورة المزمل (١١ / ١٣)
(٨) سورة ص (٣)
(٩) سورة الشورى (٤٧)

متنعما فيها بكل نفيسة متلذذا فيها بأنعم عصره
لا يعتريه الهمُّ فيها مرة كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى بمبيت أول ليلة فى قبره

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال ﴿ قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أى:إذا دعيتم أبيتم وإن طلبتم امتنعتم ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ﴾(١)

﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾(٢) .

وقال سبحانه وتعالى :

﴿ وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا ﴾(٣) .

إن النكوص على الأعقاب بعد ما تبين الهدى ردة عن الحق وانتكاسة عن سبيل الرشاد .

﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم. أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم.ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم ﴾ .

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى.قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا.قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى . وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾

وقوله ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ فى تفسيره قولان

أحدهما : أن مستكبرين حال منهم حين نكوصهم عن الحق وإبائهم إياه استكبارا عليه واحتقارا له ولأهله ، فعلى هذا الضمير فى (به) فيه ثلاثة أقوال

احدها :ـ أنه الحرم أى مكة ذموا لأنهم كانوا يسمرون فيه بالهجر من الكلام

الثانى :ـ أنه ضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام : إنه سحر إنه شعر إنه كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة .

الثالث : أنه محمد ﷺ ، كانوا يذكرونه فى سمرهم بالأقوال الفاسدة ويضربون له الأمثال الباطلة ، من أنه شاعر أو كاهن أوساحر أو كذاب أو مجنون ، فكل ذلك باطل بل هو عبد الله ورسوله الذى أظهره الله عليهم وأخرجهم من الحرم صاغرين أذلاء .

وقيل : المراد بقوله ﴿ مستكبرين به ﴾ أى بالبيت يفتخرون به ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا به كما قال النسائى فى تفسير من سننه أخبرنا أحمد عن عبد الأعلى : أنه سمع سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس أنه قال إنما كره السمر حين نزلت هذه الآية ﴿ مستكبرين به سامرا تهجرون ﴾ فقال مستكبرين بالبيت يقولون عن أهله سامرا قال كانوا يتكبرون ويسمرون فيه ولا يعمرونه ويهجرونه .

---

(١) سورة غافر (١٢)
(٢) سورة الزمر (٤٥)
(٣) سورة الاسراء (٤٦)

قوله تعالى :

﴿ أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين . أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون . ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون . أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين . وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون . ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾ .

التفسير

قال قتادة فى قوله تعالى: **﴿ أفلم يدبروا القول ﴾** إذن والله يجدون فى القرآن زاجرا عن معصية الله لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك ، لو أنهم تدبروا القرآن وحركوا به القلوب ووقفوا عند عجائبه لحلت الهداية قلوبهم **﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ﴾**[١] وقال سبحانه **﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها . ﴾**[٢]

لقد بلغ من تدبر الصالحين للقرآن أنهم كانوا إذا قرأوا قوله تعالى: **﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾**[٣] . عندما يقرأون هذه الآية كانوا يظلون الليل يبكون يقول أحدهم لست أدرى من أى الفريقين أنا ؟ لذا : سميت تلك الآية « **بكاءة المؤمنين** » لقد كان الطعام يؤتى به لرسول الله فيأمرهم برفعه لمدة ثلاثة أيام وذلك بعد ما نزل عليه قوله تعالى فى حق أهل النار **﴿ إن لدينا أنكالا وجحيما . وطعاما ذا غصة وعذابا أليما ﴾**[٤] كلما تذكر طعامهم عزفت نفسه عن الطعام إن هذا الكتاب من قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن علم علمه سبق ، ومن دعى إليه هدى إلى صراط مستقيم **﴿ وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾**[٥] .

قوله تعالى **﴿ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴾** أى أم اعتقدوا أن مجىء الرسل أمر لم تسبق به السنن فاستبعدوا وقوعه لكنهم قد عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تترى وتظهر على أيديهم المعجزات ، فهلا كان ذلك داعيا لهم إلى التصديق بهذا الرسول الذى جاء بذلك الكتاب الذى لا ريب فيه .

قوله تعالى **﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾** أى بل أكان محمد دخيلا عليهم وغريبا عنهم ألم يعرفوه ويعاشروه لقد عرفوه بالصادق الأمين وكان ذلك لقبه بينهم فكيف ينكرونه بعد أن دعاهم إلى توحيدالله **﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به . فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون**

---

(١) سورة الاسراء (٩)
(٢) سورة محمد (٢٤)
(٣) سورة الجاثية (٢١)
(٤) سورة المزمل (١٢ ، ١٣)
(٥) سورة فصلت (٤١ ، ٤٢)

فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴾[1] .

إن الله تعالى قال عن رسوله ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾[2] فذكره هنا بوصف الصاحب لهم لأنه عاش بينهم قبل الرسالة أربعين عاما فكيف لا يعرفونه وهو صاحبهم إن هذا لهو الضلال المبين والبهتان العظيم والاثم الجسيم .

قال جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه للنجاشي ملك الحبشة : أيها الملك إن الله بعث فينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وهكذا قال المغيرة بن شعبة لنائب كسرى حين بارزهم .

وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبى ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته وكانوا بعد كفارا لم يسلموا ومع هذا لم يمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك .

قوله تعالى ﴿ **أم يقولون به جنة** ﴾ أى بل أيقولون به جنون وهم يعلمون أنه أعقل العقلاء وأفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾[3] وكيف يكون به جنة وهو أذكى الأذكياء ، أليس هو الذى فض النزاع يوم اختلفت القبائل على وضع الحجر الاسود . ولولا أنهم حكموه لخطبت السيوف على منابر الرقاب وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب . أيكون مثل هذا به جنة . سبحانك هذا بهتان عظيم .

﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا** ﴾[4]

﴿ **ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون** ﴾[5]

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

يا سيد العقلاء يا خير الورى يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن نورا هاديا وطلعت فى الأكوان بدرا نيرا
والله ما خلق الاله ولا يرى بشرا يرى كمحمد بين الورى .

قوله ﴿ **بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون** ﴾ فالتوحيد حق والأنبياء حق ، والبعث حق والملائكة حق ، والكتب حق ، وكل ما جاء به محمد ﷺ هو الحق المبين .

ولكنهم يكرهون ذلك الحق ، لما ران على قلوبهم من ظلمات الغفلة ودياجير الباطل وغياهب الانكار .

قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له (أسلم) فقال الرجل إنك لتدعونى إلى أمر أنا له كاره . فقال نبى الله ﷺ **(وإن كنت كارها)**[6] وذكر لنا أنه لقي رجلا فقال له (أسلم) فتصعده ذلك وكبر عليه . فقال له نبى الله ﷺ (أرأيت لو كنت فى طريق وعر وعث فلقيت رجلا تعرف وجهه

(١) سورة يونس (١٦ ، ١٧)
(٢) سورة النجم : ٢
(٣) سورة الطور (٢٩)
(٤) سورة الكهف (٥)
(٥) سورة القلم (من الآية ١ إلى الآية ٦)
(٦) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٣ / ١٠٩ ، ١٠١ عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لرجل : أسلم ، قال : أجدنى كارها ، قال أسلم وإن كنت كارها .

وتعرف نسبه فدعاك إلى طريق واسع سهل أكنت تتبعه ؟) قال نعم قال (فوالذى نفس محمد بيده إنك لفى أوعر من ذلك الطريق لو قد كنت عليه وإنى لأدعوك لأسهل من ذلك لو دعيت إليه)[١] .

وذكر لنا أن نبى الله ﷺ لقى رجلا فقال له (أسلم) فتصعده ذلك فقال له نبى الله ﷺ (أرأيت لو كان لك فتيان أحدهما إذا حدثك صدقك ، إذا ائتمنته أدى إليك ، أهو أحب اليك ، أم فتاك الذى إذا حدثك كذبك ، وإذا ائتمنته خانك ؟) قال بل فتاى الذى إذا حدثنى صدقنى وإذا ائتمنته أدى إلى فقال نبى الله ﷺ (كذاكم أنتم عند ربكم) .[٢]

وقوله تعالى ﴿ **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن** ﴾

قال مجاهد وأبو صالح والسدى : الحق هو الله عز وجل ، والمراد لو أجابهم الله إلى ما فى أنفسهم من الهوى وشرع الأمور على وفق ذلك لفسدت السموات والأرض ، ومن **فيهن** أى لفساد أهوائهم واختلافها كما أخبر عنهم فى قولهم ﴿ **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾[٣] ثم قال ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾[٥] وقال : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا** ﴾[٦] . ففى هذا كله يتبين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم وأنه تعالى هو الكامل فى جميع صفاته وأقواله وأفعاله وشرعه وقدره وتدبيره لخلقه ، تعالى وتقدس ، فلا إله غيره ولا رب سواه ، ولهذا قال ﴿ **بل أتيناهم بذكرهم** ﴾ أى القرآن ﴿ **فهم عن ذكرهم معرضون** ﴾ وقوله ﴿ **أم تسألهم خرجا** ﴾ قال الحسن أجرا وقال قتادة جعلا ﴿ **فخراج ربك**) أى أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى بل أنت فى ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه .

كما قال ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله** ﴾[٧] وقال ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾[٨] وقال ﴿ **قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى** ﴾[٩] وقال ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا** ﴾[١٠].

قوله تعالى : ﴿ وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم . وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾ .

---

(١) الحديث رواه أحمد والضياء المقدسى

(٢) الحديث اورده السيوطى فى جامعه الكبير ١ / ٩٧ : بلفظ أرأيت لو كان لك عبدان أحدهما يخونك ويكذبك ، والآخر يصدقك ولا يخونك أيهما أحب إليك فكذا كم أنتم عند ربكم ـ وعزاه لأحمد والحكيم الترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الايمان عن والد أبى الأحوص .

والحديث عن أحمد فى المسند ٤ / ١٣٧ فى حديث طويل . . أرأيت لو كان عبدان أحدهما يطيعك ولا يخونك والآخر يخونك ويكذبك ، قال قلت : (بل الذى لا يخوننى ولا يكذبنى ويصدقنى الحديث أحب إلى ، قال كذا كم أنتم عند ربكم عز وجل .

(٣) الزخرف (٣١)

(٤) الزخرف (٣٢)

(٥) الاسراء (١٠٠)

(٦) النساء (٥٣)

(٧) سورة سبأ (٤٧)

(٨) سورة ص (٨٦)

(٩) سورة الشورى (٣٣)

(١٠) سورة يس (٢٠ ، ٢١)

قال الامام أحمد : عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ أتاه فيما يرى النائم ملكان فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه فقال الذى عند رجليه للذى عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال : إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة فلم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ولا ما يرجعون به فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل فى حلة حبرة ، فقال: أرأيتم إن وردت بكم رياضا معشبة ، وحياضا رواء أتتبعونى ؟ فقالوا نعم ، قال فانطلق بهم فأوردهم رياضا معشبة وحياضا رواء فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم ألم ألقكم على تلك الحال فجعلت لى إن وردت بكم رياضا معشبة وحياضا رواء أن تتبعونى ؟ فقالوا بلى ، قال فإن بين أيديكم رياضا أعشب من هذه وحياضا هى أروى من هذه فاتبعونى قال : فقالت طائفة صدق والله لنتبعه وقالت طائفة قد رضينا بهذا نقيم عليه .(١)

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى عن عكرمة عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إننى ممسك بحجزكم هلم عن النار هلم عن النار ، وتغلبوننى تتقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ، فأوشك أن أرسل حجزكم ، وأنا فرطكم على الحوض فتردون على معا وأشتاتا أعرف بسيماكم وأسمائكم كما يعرف الرجل الغريب من الابل فى إبله فيذهب بكم ذات اليمين وذات الشمال ، فأناشد فيكم رب العالمين أى رب قومى أى رب أمتى ، فيقال يا محمد إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك إنهم كانوا يمشون بعدك القهقرى على اعقابهم ، فلأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك من الله شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل بعيرا له رغاء ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ، ولأعرفن أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل فرسا لها حمحمة فينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت ولأعرف أحدكم يأتى يوم القيامة يحمل سقاء من أدم ينادى يا محمد يا محمد فأقول لا أملك لك شيئا قد بلغت)

قوله تعالى ﴿ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴾

يقال نكب عن الطريق إذا زاغ عنها وذلك لأنهم لما عدلوا عن اتباع الحق زاغوا **﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾**(٢) .

قال جل شأنه **﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾**(٣) .

وقال جل شأنه **﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾**(٤)

وقال سبحانه **﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار ﴾**(٥) وقال عز وجل **﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾**(٦) .

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١ / ٦٦٧
(٢) سورة الصف (٥)
(٣) سورة فصلت (١٧)
(٤) سورة البقرة (١٦)
(٥) سورة البقرة (١٧٥)
(٦) سورة البقرة (٨٦)

لقد أنكروا البعث وما بعده (وقالوا إن هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) هؤلاء وأمثالهم من أصحاب المذاهب المادية يقول الله فيهم ﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾[١] قوله تعالى ﴿ ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون ﴾ ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾[٢] .

وقوله جل جلاله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾[٣] .

لقد علم الله فيهم هذا فإنه سبحانه أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٤] وقال سبحانه ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[٥] هؤلاء وضرباؤهم لو أن الله تعالى رحمهم وكشف عنهم ما نزل بهم من ضير من فقر وقحط وبلاء ومرض لتمادوا فى طغيانهم وعتوهم يعمهون ويتحيرون فذرهم فى غمرتهم حتى حين وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

ومن هنا نعلم أن الله تعالى لا يعجل كعجلة أحدنا بل إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾[٦] قال سبحانه ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٧] ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون ﴾[٨] ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٩] .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم ومايتضرعون . حتى إذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون . وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أءذا متنا وكنا ترابا وعظاما أءنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

التفسير

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس أنه قال جاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أنشدك الله والرحم فقد أكلنا العلهز ـ يعنى الوبر والدم ـ فأنزل الله ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا ﴾ .

---

(١) سورة الكهف (١٠٠ ، ١٠١)
(٢) سورة الانفال (٢٢ ، ٢٣)
(٣) سورة الانعام (٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩)
(٤) سورة يونس (٩٦ ، ٩٧)
(٥) سورة الحجر (١٤ ، ١٥)
(٦) سورة إبراهيم (٤٧)
(٧) سورة هود (١٠٢)
(٨) سورة المائدة (١٠٠)
(٩) سورة البقرة (٢٨١)

● وكذا رواه النسائى عن محمد بن عقيل وأصله فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على قريش حين استعصوا فقال (اللهم أعنى عليهم بسبع كسبع يوسف) .

ومعنى ﴿ فما استكانوا ﴾ أى ما صغوا ، ومعنى وما يتضرعون : أى وما يدعون الله قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون. فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾(١)

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقربُ

وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين عن عمر بن كيسان حدثنى وهب بن عمر بن كيسان قال : حبس وهب بن منبه فقال له رجل من الأبناء ألا أنشدك بيتا من شعر يا أبا عبد الله ، فقال وهب نحن فى طرف من عذاب الله والله يقول ﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴾ قال وصام وهب ثلاثا متواصلة فقيل له ما هذا الصوم يا أبا عبد الله ؟ قال أحدث لنا فأحدثنا : يعنى أحدث لنا الحبس فأحدثت زيادة عبادة .

قوله تعالى ﴿ حتى إذا فتحناعليهم بابا ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون ﴾ أى إن هؤلاء القوم والذين غرتهم الحياة الدنيا ورضوا بها واطمأنوا إليها لو أن الله تعالى أخذهم بغتة وفتح عليهم بابا ذا عذاب شديد . فإنهم حينئذ سيبلسون وييئسون حيث لا مفر ولا مرد ، إذ العذاب إذا جاء لا يؤخر ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين ﴾(٢) فيا أمة الاسلام بادروا بالأعمال الصالحة سبعا هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر . أو الساعة والساعة أدهى وأمر .

قال تعالى ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم . هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾(٣) وقال عز من قائل ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون ﴾(٤) .

ثم عدد الله تعالى عليهم نعمه فقال ﴿ وهو الذى أنشألكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾(٥) .

فهذه نعم لا تحصى وتلك آيات وآلاء لا تستقصى ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(٦) .

---

(١) سورة الأنعام (٤٢/٤٣/٤٤/٤٥)
(٢) سورة الروم (١٢ / ١٣)
(٣) سورة الزخرف (٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧)
(٤) سورة الروم (٥٥)
(٥) سورة المؤمنون (٧٨)
(٦) سورة النحل (٧٨)

﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[١] .

وكان الواجب أن تشكروا صاحب النعم فشكر المنعم واجب ولكن قليلا ما تشكرون ثم بين الله تعالى قدرته على خلقهم وتكثيرهم ونشرهم فى قارات الأرض فقال ﴿ وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون ﴾ والليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر ﴿ إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم ﴾[٢]

تزود من حياتك للمعاد وقم لله واجمع خير زاد
ولا تركن إلى الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

قوله تعالى ﴿ بل قالوا مثل ما قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ .

هذا إنكار صريح منهم لبعث الأجسام بعد الموت ﴿ إن هؤلاء ليقولون إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾[٣]

قال تعالى ردا عليهم ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون . إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم . إن شجرة الزقوم طعام الأثيم . كالمهل يغلى فى البطون . كغلى الحميم . خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم .

ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون . إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم . فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقب إنهم مرتقبون ﴾[٤] .

وقوله ﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾

أى قالوا : لقد وعدنا هذا الوعد الذى تعدنا به ووعد آباؤنا من قبل مثل هذا على أيدى قوم زعموا أنهم رسل الله ، ثم لم يجد ذلك مع طول العهد .

ثم زادوا فى تأكيد الانكار فقالوا :

﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أى ما هذا الذى تعدنا به من البعث بعد الممات إلا أكاذيب قد تلقفناها منهم دون أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا نصيب من الصحة .

ونحو الآية قوله جل شأنه ﴿ ويقول الانسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ، أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾[٥]

وقوله ﴿ أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيممبين .وضرب لنا مثلا ونسى خلقه

---

(١) سورة الروم (٤٠ .)
(٢) سورة الغاشية (٢٥/ ٢٦)
(٣) سورة الدخان (٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦)
(٤) سورة الدخان (٣٨ الى٥٩ .)
(٥) سورة مريم (٦٦/ ٦٧)

قال من يحيى العظام وهى رميم. قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[١]
وقوله ﴿ قلوب يومئذ واجفة. أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة . أئذاكنا عظاما نخرة . قالوا تلك إذا كرة خاسرة . فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾[٢].

ثم يقيم المولى الكريم الأدلة والبراهين على وحدانيته وقدرته وعلمه وإرادته فيتوجه إليهم بهذه الأسئلة فيقول لحبيبه ومصطفاه : .

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون . قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون ﴾ .

التفسير

فى هذه الآيات الكريمة الناطقة بالحق المبين الدالة على صدق اليقين يقرر سبحانه وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذى لا إله إلا هو ولا تنبغى العبادة إلا له وحده ، لا شريك له ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ ، أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه فى الالهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئا ولا يملكون شيئا ، ولا يستبدون بشىء بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٣] فقال ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ﴾ أى من مالكها الذى خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات . ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ ﴿ سيقولون لله ﴾

أى فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له . فإذا كان ذلك ﴿ قل أفلا تذكرون ؟ ﴾ أنه لا تنبغى العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره .

﴿ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ﴾ أى من هو خالق العالم العلوى بما فيه من الكواكب النيرات والملائكة الخاضعين له فى سائر الأقطار منها والجهات ، ومن هو رب العرش العظيم يعنى الذى هو سقف المخلوقات كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود عن رسول الله ﷺ انه قال : « شأن الله أعظم من ذلك إن عرشه على سماواته هكذا » وأشار بيده مثل القبة وفى الحديث الآخر « ما السموات السبع والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن الكرسى بما فيه بالنسبة إلى العرش كتلك الحلقة فى تلك الفلاة »[٤] .

ولهذا قال بعض السلف : إن مسافة ما بين قطرى العرش من جانب إلى جانب مسيرة خمسين

---

(١) سورة يس (٧٧ / ٧٨ / ٧٩)
(٢) سورة النازعات (٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤)
(٣) سورة الزمر (٣)
(٤) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب السنة رقم ١٨

ألف سنة . وارتفاعها عن الأرض السابعة مسيرة خمسين ألف سنة .

وقال الضحاك عن ابن عباس : إنما سمى عرشا لارتفاعه ، وقال الأعمش عن كعب الأحبار : إن السموات والأرض فى العرش كالقنديل المعلق بين السماء والأرض ، وقال مجاهد : ما السموات والأرض فى العرش إلا كحلقة فى أرض فلاة ، وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : العرش لا يقدر قدره أحد : وفى رواية إلا الله عز وجل ، وقال بعض السلف : العرش من ياقوتة حمراء ولهذا قال هنا . ﴿ **ورب العرش العظيم** ﴾ أى الكبير وقال فى آخر السورة ﴿ **رب العرش الكريم** ﴾ أى الحسن البهى فقد جمع العرش بين العظمة فى الاتساع والعلو والحسن الباهر ولهذا قال من قال إنه ياقوتة حمراء .

ـ وقال ابن مسعود : إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار ، نور العرش نور وجهه وقوله ﴿ **سيقولون لله قل أفلا تتقون** ﴾ أى إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه وتحذرون عذابه ، فى عبادتكم معه غيره واشراككم به قال أبو بكر عبد الله محمد بن أبى الدنيا القرشى فى كتاب التفكير والاعتبار : حدثنا اسحق بسنده عن ابن عمر قال : كان رسول الله ﷺ كثيرا ما يحدثنا عن امرأة كانت فى الجاهلية على رأس جبل معها ابن لها يرعى غنما فقال لها ابنها **يا أمه من خلقك** ؟قالت الله قال فمن خلق أبى ؟ قالت الله قال فمن خلقنى ؟ قالت:الله قال:فمن خلق السموات ؟ قالت الله قال فمن خلق الأرض ؟ قالت الله قال فمن خلق الجبل ؟ قالت:الله قال:فمن خلق هذه الغنم ؟ قالت الله قال فانى اسمع لله شأنا ثم ألقى نفسه من الجبل فتقطع .

﴿ **قل من بيده ملكوت كل شىء** ﴾ أى بيده الملك . ﴿ **ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها** ﴾ **أى متصرف فيها وكان رسول الله ﷺ يقول** ﴿ **لا والذى نفسى بيده** ﴾ وكان إذا اجتهد فى اليمين قال : **لا ومقلب القلوب فهو سبحانه الخالق المالك المتصرف** .

﴿ **وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون** ﴾ .

كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحدا لا يخفر فى جواره ، وليس لمن دونه أن يجير عليه . ولهذا قال الله ﴿ **وهو يجير ولا يجار عليه** ﴾ . أى هو السيد العظيم الذى لا أعظم منه الذى له الخلق والأمر ولا معقب لحكمه الذى لا يمانع ولا يخالف وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن :

وقال الله ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ أى لا يسأل عما يفعل لعظمته وكبريائه وغلبته وقهره وعزته وحكمته وعدله فالخلق كلهم يسألون عن أعمالهم كما قال تعالى ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين.عما كانوا يعملون** ﴾[٢] .

وقوله ﴿ **سيقولون لله**) أى سيعترفون أن السيد العظيم الذى يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ **قل فأنى تسحرون** ﴾ أى فكيف تذهب عقولكم فى عبادتكم معه غيره مع اعترافكم وعلمكم بذلك ثم قال تعالى ﴿ **بل أتيناهم بالحق** ﴾ وهو الاعلام بأنه لا إله إلا الله وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك .

﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ أى فى عبادتهم مع الله غيره ولا دليل لهم على ذلك كما قال فى آخر السورة ﴿ **ومن**

(١) سورة الانبياء (٢٣)

(٢) سورة الحجر ٩٢- ٩٣ .

يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾[١] فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ماهم فيه من الافك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعا لآبائهم واسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم :

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾[٢]

قوله تعالى **﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾**

التفسير

سبحانك ربى أنت الواحد فى ذاتك ، لا قسيم لك ، الواحد فى صفاتك لا شريك لك الواحد فى خصالك لا شريك لك ، تنزه عن الشريك ذاتك ، وتفردت عن مشابهة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف وبالاحسان موصوف ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة .

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد. لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾[٣] . تنزهت عن الولد والوالد . **﴿ ما اتخذ الله من ولد ﴾**

وتنزهت عن الشريك والصاحبة **﴿ وما كان معه من إله ﴾** إذ لو تعددت الآلهة لفسدت السموات والأرض .

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾[٤] .

﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا. سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا . تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾[٥] . لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق ولنازل بعضهم بعضا ، ليعلو بعضهم على بعض ويغلبه ، أما وقد قام الكون على نسق رتيب ونظام بديع فدل ذلك على أن له إلها واحدا . **﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير. قد جاءكم بصائر من ربكم ﴾**[٦] إنه الواحد عالم الغيب والشهادة أحاط علمه بما حضر وما غاب وهو يعلم الظاهر والباطن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور فتعالى وتنزه عما يشركون من ولد وصاحبة وشريك .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٧] .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد .
يا حى قيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجنين الساجد .

---

(١) سورة المؤمنون (١١٧)
(٢) سورة الزخرف (٢٢)
(٣) سورة الاخلاص (١/ ٢/ ٣/ ٤)
(٤) سورة الانبياء (٢٢)
(٥) سورة الاسراء (٤٢/ ٤٣/ ٤٤)
(٦) سورة الانعام (١٠١/ ١٠٢/ ١٠٣/ ١٠٤)
(٧) سورة الحشر (٢٢/ ٢٣/ ٢٤)

توجيه وإرشاد

قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ
مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ
أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

التفسير

هذا ارشاد من الله تعالى وتوجيه لنبيه ومصطفاه يأمره فيه أن يدعو الله تعالى ، أن أراه عذاب هؤلاء ، يدعو الله قائلا ﴿ **رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين** ﴾

فما أجمل هذه الدعوة حين نزول العذاب على كل جبار عنيد جاء فى الحديث الذى رواه الامام أحمد والترمذى وصححه « واذا أردت بقوم فتنة فتوفنى إليك غير مفتون »

قوله تعالى ﴿ **وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون** ﴾ .

هذا إخبار مؤكد عن قوله الحق وله الملك ، يقول فيه للصادق المصدوق إنا لقادرون على ان نريك ما نعدهم من العذاب ﴿ **وماكان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا** ﴾ سبحانه كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له عز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فاليه منقلبه .

ثم قال تعالى مرشدا له إلى الترياق النافع فى مخالطة الناس وهو الاحسان إلى من يسىء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون** ﴾

وهذا هو الدواء الناجح والجواب النافع لشياطين الانس ان تقابل سيئتهم بالحسنة .

أما شياطين الجن فقد بين الله الدواء والعلاج والشفاء من وساوسهم فقال ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين. وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ .

وقد جاء هذا الدواء فى سورة الأعراف مرة بشأن شياطين الانس فى قوله تعالى ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[1] هذه الآية لما نزلت على رسول الله ﷺ ، سأل الأمين جبريل عنها قال جبريل لا ادرى حتى اسأل رب العزة ثم قال لاستاذ الانسانية الأكبر يا رسول الله ربك يقول لك معناها **ان تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك** اما شياطين الجن فإن الله وصف علاجهم فى هذه السورة فى قوله ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ان الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[2]

---

(١) سورة الاعراف (١٩٩)

(٢) سورة الاعراف (٢٠٠ ـ ٢٠١) .

كما جاء ذلك الدواء فى سورة فصلت ففى شياطين الانس يقول تعالى مبينا العلاج ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ أى فى الدنيا ﴿ وما يلقاها الا ذو حظ عظيم ﴾ أى فى الأخرة .

يخاطبنى السفيه بكل قبح وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وازيد حلما كعود زاده الإحراق طيبا

ثم يبين الله تعالى لنا علاج شياطين الجن فيقول :

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾

وهنا فى سورة المؤمنون يقول ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴾ وكان رسول الله ﷺ - يقول: « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه » (١)

والهمزات : الوساوس المغرية بمخالفة ما أمرنا به

﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أى فى شىء من أمرى ولهذا أمر بذكر الله فى ابتداء الأمور وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور .

ولهذا روى ابو داود ان رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم انى اعوذ بك من الهرم واعوذ بك من الهدم ومن الغرق واعوذ بك أن يتخبطنى الشيطان عند الموت » (٢) .

قال الامام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا محمد بن اسحق عن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات يقولهن عند النوم من الفزع « باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » قال فكان عبد الله بن عمرو يعلمها من بلغ من ولده أن يقولها عند نومه ومن كان منهم صغيرا لا يعقل أن يحفظها كتبها له فعلقها فى عنقه (٣) .

حالهم عند الموت وبعض مشاهد القيامة

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، ١٢٠ ، والترمذى فى أبواب الاقامة رقم ٦٥ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٢ ، وفى أبواب الصلاة رقم ٣٣ ، وأحمد فى مسنده ١/٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٣/٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٨٥ ، ٦/ ١٥٦

(٢) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الوتر رقم ٣٢ ، والنسائى فى سننه فى كتاب الاستعاذه رقم ٦١ ، وأحمد فى مسنده ٢/ ٣٥٦ ، ٣/ ٤١٧ .

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده وأبو داود والترمذى وقال حسن غريب (المسند ٢ / ١٨١ ، عون المعبود ١ / ٣٨٦ رقم ٣٨٧٥ كتاب الطب ، باب كيف الرقى ، تحفة الأحوذى ٩/ ٥٠٧ أبواب الدعوات رقم ٣٥٩٠) .

بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴿١٠١﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴿١٠٢﴾ ومن
خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴿١٠٣﴾ تلفح وجوههم النار
وهم فيها كالحون ﴿١٠٤﴾ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴿١٠٥﴾ قالوا ربنا غلبت
علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴿١٠٦﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴿١٠٧﴾ قال
اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴿١٠٨﴾ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا
وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴿١٠٩﴾ فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم
تضحكون ﴿١١٠﴾ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴿١١١﴾ قال كم لبثتم في
الأرض عدد سنين ﴿١١٢﴾ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ﴿١١٣﴾ قال إن
لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴿١١٤﴾ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا
لا ترجعون ﴿١١٥﴾ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴿١١٦﴾ ومن
يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح
الكافرون ﴿١١٧﴾ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴿١١٨﴾

معانى المفردات

برزخ : أى حاجز بينهم وبين الرجعة .

ولا يتساءلون : أى لا يسأل بعضهم بعضا .

موازينه : إما المراد بها الموزون من الأعمال وإما المراد الميزان .

المفلحون : أى الفائزون .

خسروا أنفسهم : أى غبنوها .

تلفح : أى تحرق .

كالحون : أى عابسون متقلصو الشفاه

الشقوة والشقاوة : سوء العاقبة وهى ضد السعادة

اخسئوا : أى اسكتوا سكوت ذلة وهوان

سخريا : أى هزوا .

ذكرى : أى خوف عقابى .

اللبث : الاقامة .

العادين : الحفظة العادين لأعمال العباد وأعمارهم

والعبث : ما خلا من الفائدة

الحق : أى الثابت الذى لا يبيد ولا يزول ملكه

والعرش : هو مركز تدبير العالم ووصفه بالكريم لشرفه وكل ما شرف فى جنسه يوصف بالكرم كما فى قوله : ﴿ وزرع ومقام كريم ﴾ وقوله : ﴿ وقل لهما قولا كريما ﴾

يدعو : يعبد

حسابه : أى جزاؤه

التفسير

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلى أعمل صالحا فيما تركت ﴾ .

هذه حال الكافرين والمفرطين فى جنب الله عند الاحتضار يتمنون العودة إلى الدنيا ولكن هيهات لا وسيلة ولا حيلة قال الله تبارك وتعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين.ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾(١) .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾(٢) .

ونحوه قوله تعالى ﴿ أن تقول نفس ياحسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين.أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾(٣)

ونحوه قوله تعالى :

﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾(٤) .

وقوله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين.بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون.وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾(٥)

يا ابن آدم :

---

(١) سورة المنافقون ١٠ ـ ١١

(٢) سورة الاعراف (٥٣)

(٣) سورة الزمر (٥٦/ ٥٧ /٥٨/ ٥٩)

(٤) سورة السجدة (١٢)

(٥) سورة الانعام (٢٧/ ٢٨/ ٢٩)

تزود من التقوى فانك لا تدرى إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأضحى ضاحكا وقد نسجت اكفانه وهو لا يدرى
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم وقد ادخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت ارواحهم ليلة القدر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

فاعجب معى لغافل وليس بمغفول عنه ، واعجب معى لمؤمل فى الدنيا والموت يطلبه ، واعجب معى لضاحك ملء فيه لا يدرى الله راض عنه ام ساخط عليه .

وأعجب معى لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، ولمن يؤمن بالنار كيف يضحك ، ولمن يؤمن بالحساب كيف يغفل ، ولمن يؤمن بالرزق كيف ينصب ، ولمن رأى الدنيا وتقلبها باهله ثم اطمأن قلبه إليها .

واحزن معى لفراق الاحبة محمد وصحبه ، ولهول المطلع عند سكرات الموت ، وللوقوف بين يدى الله لا يدرى الواقف اينطلق به إلى الجنة أم إلى النار

فاحذر التسويف فإن الموت يأتى بغتة واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل واعلموا انكم غدا بين يدى الله موقوفون عن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[1] .

ان الذين يتمنون الرجعة إلى الدنيا عند مجيء الموت يقول الله لهم ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾

وكلا هنا حرف ردع وزجر أى لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه .

وقوله تعالى ﴿ **إنها كلمة هو قائلها** ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم : أى لابد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ويحتمل ان يكون ذلك علة لقوله كلا أى لأنها كلمة أى سؤاله الرجوع ليعمل صالحا هو كلام منه وقوله لا عمل معه ولو رد لما عمل صالحا ولكان يكذب فى مقالته هذه كما قال تعالى ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾[2]

قال قتادة : والله ما تمنى ان يرجع إلى أهل ولا إلى عشيرة ولا بان تجمع الدنيا ويقضى الشهوات ولكن تمنى ان يرجع فيعمل بطاعة الله عز وجل فرحم الله امرأ عمل فيما يتمناه الكافر إذا رأى العذاب إلى النار .

وقال محمد بن كعب القرظى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون.لعلى أعمل صالحا فيما تركت) قال فيقول الجبار ﴿ **كلا إنها كلمة هو قائلها** ﴾

وقال عمر بن عبد الله مولى غفرة : اذا قال الكافر ﴿ **رب أرجعون . لعلى أعمل صالحا** ﴾ يقول الله تعالى : كلا كذبت .

وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت** ﴾ قال كان العلاء بن زياد يقول :

---
(١) سورة الشعراء (٢٢٧)
(٢) سورة الانعام (٢٨)

(لينزلن أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه فأقاله فليعمل بطاعة الله تعالى)وقال قتادة : والله ما تمنى إلا ان يرجع فيعمل بطاعة الله فانظروا امنية الكافر المفرط فاعملوا بها ولا قوة إلا بالله .

وعن أبي هريرة قال : إذا وضع (يعنى الكافر) فى قبره فيرى مقعده من النار قال : فيقول رب ارجعون اتوب وأعمل صالحا قال : فيقال قد عمرت ما كنت معمرا قال فيضيق عليه قبره ويلتئم فهو كالمتهوش ينام ويفزع تهوى إليه هوام الأرض وحياتها وعقاربها .

وعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : ويل لأهل المعاصى من أهل القبور تدخل عليهم فى قبورهم حيات سود أودهم حية عند رأسه وحية عند رجليه يقرضانه حتى يلتقيا فى وسطه فذلك العذاب فى البرزخ الذى قال الله تعالى ﴿ ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴾

وقال أبو صالح وغيره فى قوله تعالى ﴿ ومن ورائهم ﴾ يعنى أمامهم وقال مجاهد : البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة وقال محمد بن كعب : البرزخ ما بين الدنيا والآخرة ليسوا مع أهل الدنيا يأكلون ويشربون ولا مع أهل الآخرة يجازون بأعمالهم ﴿ ومن ورائهم برزخ ﴾ تهديد لهؤلاء المحتضرين من الظلمة بعذاب البرزخ كما قال تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ﴾

وقال تعالى ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾

وقوله تعالى ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أى يستمر به العذاب إلى يوم البعث . قوله تعالى ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون :)

يخبر تعالى انه إذا نفخ فى الصور نفخة النشور وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾

أى لا تنفع الانسان يومئذ ولا يرثى والد لولده ولا يلوى عليه قال تعالى ﴿ ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم ﴾ أى لا يسأل القريب قريبه وهو يبصره ولو كان عليه من الاوزار ما قد اثقل ظهره وهو كان أعز الناس عليه فى الدنيا ما التفت إليه ولا حمل عنه وزن جناح بعوضة قال تعالى ﴿ يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه. وصاحبته وبنيه ﴾(١)

وقال ابن مسعود : اذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين ثم نادى مناد : الا من كان له مظلمة فليجىء فليأخذ حقه قال فيفرح المرء ان يكون له الحق على والده أو ولده أو وزوجته وان كان صغيرا ومصداق ذلك فى كتاب الله قال الله تعالى ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾

روى الامام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ انه قال : (فاطمة بضعة منى يغيظنى ما يغظيها وينشطنى ما ينشطها وان الانساب تنقطع يوم القيامة إلا نسبى وسببى وصهرى)(٢) .

وهذا الحديث له أصل فى الصحيحين عن المسور بن مخرمة أن رسول الله ﷺ قال (فاطمة بضعة منى يريبنى ما يريبها ويؤذينى ما آذاها)(٣) .

---

(١) سورة عبس (٣٤ / ٣٥ /٣٦)

(٢) راجع المسند للامام أحمد ٤ /٣٢٣ ، ٣٣٢

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب النكاح رقم ١٠٩ ، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة رقم ٩٣ ، ٩٤ ، وأبو داود فى سننه فى كتاب النكاح رقم /١٢ ، والترمذى فى أبواب المناقب رقم ٦ ، وابن ماجه فى سننه فى أبواب النكاح رقم ٥٦ ، وأحمد فى مسنده ٤ / ٣٢٨ .

وقال الامام أحمد عن أبي سعيد الخدرى عن أبيه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول على هذا المنبر (ما بال رجال يقولون إن رحم رسول الله ﷺ لا تنفع قومه ؟ بلي والله إن رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة وإنى أيها الناس فرط لكم إذا جئتم. قال رجل يا رسول الله أنا فلان بن فلان فأقول لهم : أما النسب فقد عرفت ولكنكم أحدثتم بعدى وارتددتم القهقرى ﴾[1] .

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ من طريق أبي القاسم البغوى عن محمد بن عياد بن جعفر سمعت ابن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ (كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وصهرى ﴾

وروى فيها من طريق عمار بن سيف عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن عمرو مرفوعا (سألت ربي عز وجل ألا أتزوج إلى أحد من أمتى ولا يتزوج إلى أحد منهم إلا كان معى فى الجنة فأعطانى ذلك ﴾

قوله تعالى ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾

أى من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة قاله ابن عباس ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ أى الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة .

وقال ابن عباس : أولئك الذين فازوا بما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا ﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أى ثقلت سيئاته ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أى خابوا وهلكوا وباءوا بالصفقة الخاسرة .

روى البزار بسنده عن انس بن مالك قال : ان لله ملكا موكلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فإن ثقل ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، وان خف ميزانه نادى ملك بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا[2] .

ولهذا قال تعالى ﴿ فى جهنم خالدون ﴾ أى ماكثون فيها دائمون مقيمون فلا يظعنون .

قوله تعالى ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾[3] .

وقال تعالى ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾[4] .

ـ عن أبي هريرة عن النبى ﷺ قال : (إن جهنم لما سيق لها أهلها يلقاهم لهبها ثم تلفحهم لفحة فلم يبق لهم لحم إلا سقط على العرقوب)[5]

ـ وعن أبي الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : فى قوله تعالى ﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ قال تلفحهم لفحة فتسيل لحومهم على أعقابهم[6] .

وقوله تعالى ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ عن ابن عباس يعنى عابسون وعن عبد الله بن مسعود ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال ألم تر إلى الرأس المشيط الذى قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه وقال الامام أحمد عن أبى

(١) راجع المسند للامام أحمد ٣ /١٨ ، ٣٩
(٢) قال الحافظ ابن كثير ٥ / ٤٩٠ : ط الشعب رواه البزار ، وأسناده ضعيف ، فإن داود بن المحبر متروك .
(٣) سورة إبراهيم (٥٠)
(٤) سورة الانبياء (٣٩)
(٥) الحديث رواه ابن أبي حاتم « تفسير ابن كثير ٥/٤٩٠ ط الشعب
(٦) رواه ابن مردويه « تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٠

سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ قال تشويه النار فتقلص شفته العليا تضرب حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته [١]

قوله تعالى ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون. قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التى أوبقتهم فى ذلك ، فقال تعالى: ﴿ ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ أى قد أرسلت إليكم الرسل ، وأنزلت إليكم الكتب وازلت شبهكم ولم يبق لكم حجة كما قال تعالى : ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[٢] وقال ﴿ وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٣] وقال تعالى ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ إلى قوله ﴿ فسحقا لأصحاب السعير ﴾[٤]

ولهذا قالوا ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾ أى قد قامت علينا الحجة ولكن كنا اشقى من ان ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها ثم قالوا ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾

أى اردنا إلى الدنيا فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة كما قال ﴿ فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ إلى قوله ـ ﴿ فالحكم لله العلى الكبير ﴾[٥]

أى لا سبيل إلى الخروج لانكم كنتم تشركون بالله اذا وحده المؤمنون قال تعالى ﴿ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال هذا قول الرحمن حين انقطع كلامهم معه :

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : (إن أهل جهنم يدعون مالكا فلا يجيبهم أربعين عاما ثم يرد عليهم إنكم ماكثون قال هانت دعوتهم والله على مالك ورب مالك ثم يدعون ربهم فيقولون ﴿ ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ قال فيسكت عنهم قدر الدنيا مرتين ثم يرد عليهم ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ قال فوالله ما نبس لقوم بعدها بكلمة واحدة وما هو إلا الزفير والشهيق فى نار جهنم قال تشبهت أصواتهم بأصوات الحمير أولها زفير وآخرها شهيق .[٦]

وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود (إذا أراد الله تعالى الا يخرج منهم أحدا يعنى من جهنم غير وجوههم وألوانهم فيجىء الرجل من المؤمنين فيشفع فيقول يارب فيقول الله من عرف أحدا

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ٣ / ٨٨ ، والترمذى فى أبواب جهنم رقم ٥ ، وفى أبواب التفسير تفسير سورة المؤمنون ، وقال هذا حديث حسن صحيح غريب

(٢) سورة النساء (١٦٥)

(٣) سورة الاسراء (١٥)

(٤) سورة الملك ، الآيات : ٨ ـ ١١

(٥) سورة غافر (١١ ، ١٢)

(٦) تفسير ابن كثير ٥ / ٤٩٢ ط الشعب

نعم يارب العزة ﴿ قالوا إن لبثتم إلا قليلا ﴾ أى ما لبثتم إلا زمنا قليلا ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾[١]

لو كانوا يعلمون ان الدنيا ستطوى كما يطوى البرق ومعصرات الغمام لجعلوها مزرعة للآخرة كما فعل أولياء الله وأحباؤه

إن لله عبادا فطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحى سكنا
جعلوها لجة واتخذوا ... صالح الأعمال فيها سفنا

فاغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك

﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾[٢] .

قوله تعالى ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) أى أغرتكم الدنيا فظننتم أنما خلقناكم للهو واللعب بلا هدف ولا غاية ولا حكمة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون.ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾[٣] .

﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل . إن ربك هو الخلاق العليم ﴾[٤] .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهمالاعبين.لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين . بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾[٥]

أيحسب الانسان أن يترك سدى هملا لا . لابد من الرجوع إلى الله فتعالى الله وتنزه عما يقولون علوا كبيرا فهو الملك المتصرف فى ملكه بمشيئته وحكمته لا يظلم أحدا لأنه الحق ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ ﴿ لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾

فيا أيها الغافلون عن ذكر الله اعلموا ان الدنيا إذا حلت أوحلت وإذا كست أو كست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وإذا أوجفت جفت ، وكم من قبور تبنى وما تبنى ، وكم من مريض عدنا وما عدنا وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات

قوله تعالى ﴿ ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون . وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

---

(١) سورة النازعات (٤٦)
(٢) سورة المزمل (٢٠)
(٣) سورة الذاريات (٥٦/ ٥٧/ ٥٨)
(٤) سورة الحجر (٨٥ / ٨٦)
(٥) سورة الأنبياء (١٦ / ١٧ / ١٨)

يقول تعالى متوعدا من أشرك به غيره وعبد معه سواه ، ومخبرا أن من أشرك بالله لا برهان له أى لا دليل له على قوله فقال تعالى : ﴿ **ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به** ﴾ وهذه جملة معترضة وجواب الشرط فى قوله ﴿ **فإنما حسابه عند ربه** ﴾ أى الله يحاسبه على ذلك ، ثم أخبر ﴿ **إنه لا يفلح الكافرون** ﴾ أى لديه يوم القيامة لافلاح لهم ولا نجاة . قال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ قال لرجل « **ماتعبد** » ؟ قال أعبد الله وكذا وكذا حتى عد أصناما فقال رسول الله ﷺ (**فأيهم إذا أصابك ضر فدعوته كشفه عنك**) قال : الله عز وجل . قال « **فأيهم إذا كانت لك حاجة فدعوته أعطاكها ؟** » قال الله عز وجل قال : « **فما يحملك على أن تعبد هؤلاء معه أم حسبت أن تغلب عليه** » قال : أردت شكره بعبادة هؤلاء معه . فقال رسول الله ﷺ « **تعلمون ولا يعلمون** » فقال الرجل بعد ما أسلم لقيت رجلا خصمنى .

وقوله تعالى ﴿ **وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ هذا إرشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا أطلق معناه محو الذنب وستره عن الناس والرحمة معناها أن يسدده ويوفقه فى الأقوال والأفعال .

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة النور

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق . عدد آياتها أربع وستون فى العراقى والشامى واثنتان فى الحجازى . كلماتها ألف وثلثمائة وست عشرة . وحروفها خمسة آلاف وستمائة وثمانون . وسميت سورة النور ، لكثرة ذكر النور فيها ﴿الله نور . . مثل نوره . . نور على نور يهدى الله لنوره . . ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾ .

مقصود السورة ومعظم ما اشتملت عليه

١ ـ بيان فرائض مختلفة .

٢ ـ آداب حد الزانى والزانية

٣ ـ النهى عن قذف المحصنات .

٤ ـ حكم القذف

٥ ـ اللعان .

٦ ـ قصة إفك الصديقة .

٧ ـ شكاية المنافقين .

٨ ـ خوضهم فيه .

٩ ـ حكاية حال المخلصين فى حفظ اللسان .

١٠ ـ بيان عظمة عقوبة البهتان .

١١ ـ ذم إشاعة الفاحشة .

١٢ ـ النهى عن متابعة الشيطان .

١٣ ـ المنة بتزكية الأحوال على أهل الايمان .

١٤ ـ الشفاعة لمسطح إلى الصديق .

١٥ ـ فى ابتداء الفضل والاحسان .
١٦ ـ مدح عائشة بأنها حصان رزان .
١٧ ـ بيان أن الطيبات للطيبين .
١٨ ـ لعن الخائضين فى حديث الافك .
١٩ ـ النهى عن دخول البيوت بغير إذن وإيذان .
٢٠ ـ الأمر بحفظ الفروج .
٢١ ـ غض الأبصار .
٢٢ ـ الأمر بالتوبة لجميع أهل الايمان .
٢٣ ـ بيان النكاح وشرائطه .
٢٤ ـ كراهة الاكراه على الزنا .
٢٥ ـ تشبيه المعرفة بالسراج والقنديل .
٢٦ ـ شجرة الزيتون .
٢٧ ـ تمثيل أعمال الكفار وأحوالهم .
٢٨ ـ ذكر الطيور وتسبيحهم وأورادهم .
٢٩ ـ إظهار عجائب صنع الله فى إرسال المطر .
٣٠ ـ تفصيل أصناف الحيوان .
٣١ ـ الانقياد لأمر الله تعالى بالتواضع والاذعان .
٣٢ ـ خلافة الصديق وصلاته الاخوان .
٣٣ ـ بيان استئذان الصبيان والعبدان ورفع الحرج عن العميان والزمنى والعرجان .
٣٤ ـ الأمر بحرمة سيد الانس والجان وتهديد المنافقين وتحذيرهم من العصيان .
٣٥ ـ ختم السورة بأن لله الملك والملكوت بقوله ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض ﴾ إلى قوله :عليم .

المتشابهات

قوله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾
محذوف الجواب ، تقديره : لفضحكم . وهو متصل ببيان حكم الزانين وحكم القاذف وحكم اللعان ـ وجواب لولا محذوفا أحسن منه ملفوظا به . وهو المكان الذى يكون الانسان فيه أفصح ما يكون (إذا سكت) .

وقوله بعده : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ﴾

فحذف الجواب أيضا . وتقديره : لعجل لكم العذاب . وهو متصل بقصتها رضى الله عنها ، وعن أبيها . وقيل دل عليه قوله ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم ﴾ .

وقيل دل عليه قوله : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ﴾ .

وفى خلال هذه الآيات ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون ﴾ ﴿ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴾ ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ﴾ وليس هو الدال على امتناع لشىء لوجود غيره ، بل هو للتحضيض ، قال الشاعر :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بنى حنطرى لولا الكمى المقنعا

قوله : (ولقد أنزلنا إليكم آيات) ، وبعده ﴿ لقد أنزلنا آيات ﴾ . لأن الاتصال الأول بما قبله أشد : فإن قوله ﴿ موعظة ﴾ محمول ومعروف إلى قوله : ﴿ وليستعفف) وإلى قوله . ﴿ فكاتبوهم ﴾ ، (ولا تكرهوا ﴾ فاقتضى الواو ، ليعلم أنه عطف على الأول ، واقتضى بيانه بقوله : ﴿ إليكم ﴾ ليعلم أن المخاطبين بالآيات الثانية هم المخاطبون بالآية الأولى . وأما الثانية فاستئناف كلام ، فخص بالحذف .

قوله ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم ﴾ إنما زاد ﴿ منكم ﴾ لأنهم المهاجرون وقيل : عام ، و (من) للتبيين .

قوله : ﴿ وإذا بلغ الأطفال ﴾ ختم الآية بقوله : ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾

وقبلها وبعدها ﴿ لكم الآيات ﴾ لأن الذى قبلها والذى بعدها يشتمل على علامات يمكن الوقوف عليها . وهى فى الأولى ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ، وفى الأخرى ﴿ من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ﴾ الآية فعد فيها آيات كلها معلومة ، فختم الآيتين بقوله ﴿ لكم الآيات ﴾ . ومثله ﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين. ويبين الله لكم الآيات ﴾ .

يعنى حد الزانين وحد القاذفين ، فختم بالآيات . وأما بلوغ الأطفال فلم يذكر له علامات يمكن الوقوف عليها بل تفرد سبحانه بعلم ذلك ، فخصها بالاضافة إلى نفسه ، وختم كل آية بما اقتضاه أولها .

مناسبتها لما قبلها

إنه قال فى السورة السالفة ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ وذكر هنا أحكام من لم يحفظ فرجه من الزانية والزانى وما يتصل بذلك من شأن القذف وقصة الافك والأمر بغض البصر الذى هو داعية الزنا ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ، والنهى عن اكراه الفتيات على الزنا .

إنه تعالى لما قال فيما سلف إنه لم يخلق الخلق عبثا بل للامر والنهى ذكر هنا جملة من الأوامر والنواهى .

روى عن مجاهد أنه قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ علموا رجالكم سورة المائدة وعلموا نساءكم سورة النور ﴾[١] وعن حارث بن مضرب رضى الله عنه قال : (كتب إلينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾

تفسير المفردات

أنزلناها : أى اعطيناها الرسول كما يقول العبد إذا كلم سيده : رفعت إليه حاجتى .

الفرض : التقدير كما قال : ﴿ فنصف ما فرضتم ﴾[٢] وقال ﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾[٣] والمراد هنا تقدير ما فيها من الحدود والأحكام على أتم وجه .

بينات : أى واضحات الدلالة على ما فيها من الأحكام ولعل هنا يراد بها الإعداد والتهيئة ، وتذكرون : تتذكرون وتتعظون .

الزانى والزانية إما أن يكونا محصنين أى متزوجين ، أو غير محصنين : أى غير متزوجين .

قوله تعالى ﴿ سورة أنزلناها ﴾ فى ذلك النص تنبيه بشأن هذه السورة وما اشتملت عليه من الحدود والأحكام والنظم الاجتماعية فى الاسلام .

قوله تعالى ﴿ وفرضناها ﴾

قال مجاهد وقتادة : أى بينا الحلال والحرام والأمر والنهى والحدود . وقال البخارى : ومن قرأ فرضناها يقول فرضناها عليكم وعلى من بعدكم .

﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أى مفسرات واضحات ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

قوله تعالى ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ .

(١) الحديث رواه البيهقى فى شعب الايمان

(٢) سورة البقرة (٢٣٧)

(٣) سورة القصص (٨٥)

هذه الآية الكريمة فيها حكم الله فى حد من حدوده وهو الجلد مائة جلدة للزانية والزانى . ولابد قبل الحديث عن تفصيل هذا الحد من كلمة نسلط فيها الأضواء الكاشفة على الحدود فى الاسلام حتى يكون القارىء على بينة من حجة الله البالغة وحكمته السامية من تشريع الحدود .

تعريف الحدود

قال الفقهاء :

تعريفها : الحدود جمع حد والحد فى الأصل : الشىء الحاجز بين الشيئين .

ويقال : ما ميز الشىء عن غيره .

ومنه : حدود الدار وحدود الأرض .

وهو فى اللغة بمعنى المنع . وسميت عقوبات المعاصى حدودا ، لأنها فى الغالب تمنع العاصى من العود إلى تلك المعصية التى حد لأجلها . ويطلق الحد على نفس المعصية . ومنه :

﴿ وتلك حدود الله فلا تقربوها ﴾ .

والحد فى الشرع عقوبة مقررة لأجل حق الله فيخرج التعزير لعدم تقديره إذ أن تقديره مفوض لرأى الحاكم ويخرج القصاص لأنه حق الآدمى .

جرائم الحدود :ـ وقد قرر الكتاب والسنة عقوبات محددة لجرائم معينة تسمى جرائم الحدود . وهذه الجرائم هى :

(الزنا ، والقذف ، والسرقة ، والسكر ، والمحاربة ، والردة ، والبغى) .

فعلى من ارتكب جريمة من هذه الجرائم عقوبة محددة قررها الشارع .

فعقوبة جريمة الزنا ، الجلد للبكر ، والرجم للثيب .

يقول الله سبحانه :

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾ (١)

والرسول ﷺ يقول :ـ

(خذوا عنى .. خذوا عنى .. قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)

وعقوبة جريمة القذف ثمانون جلدة . يقول الله سبحانه :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون ﴾ وعقوبة جريمة السرقة ، قطع اليد . يقول الله تعالى :

---

(١) سورة النساء (١٥)

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾[١] .

وعقوبة جريمة الفساد فى الأرض : القتل أو الصلب أو النفى أو تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف ، يقول سبحانه :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾[٢] .

وعقوبة جريمة السكر ثمانون جلدة أو أربعون .

وعقوبة الردة القتل لقول رسول الله ﷺ (من بدل دينه فاقتلوه)

وعقوبة جريمة البغى : القتل . لقول الله سبحانه :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[٣] .

ويقول الرسول - ﷺ - : (إنه ستكون بعدى هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر المسلمين - وهم جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان)[٤] .

عدالة هذه العقوبات :

وهذه العقوبات - بجانب كونها محققة للمصالح العامة وحافظة للأمن العام - فهى عقوبات عادلة غاية العدل .

إذ أن الزنا جريمة من أفحش الجرائم وأبشعها وعدوان على الخلق والشرف والكرامة . ومقوض لنظام الأسر والبيوت . ومروج للكثير من الشرور والمفاسد التى تقضى على مقومات الأفراد والجماعات وتذهب بكيان الأمة ومع ذلك فقد احتاط الاسلام فى إثبات هذه الجريمة ، فاشترط شروطا يكاد يكون من المستحيل توافرها .

فعقوبة الزنا عقوبة قصد بها الزجر والردع والارهاب أكثر مما قصد بها التنفيذ والفعل ، وقذف المحصنين والمحصنات من الجرائم التى تحل روابط الأسرة وتفرق بين الرجل وزوجه وتهدم أركان البيت . والبيت هو الخلية الأولى فى بنية المجتمع ، فبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد .

بتقرير جلد مقترف هذه الجريمة ثمانين جلدة بعد عجزه من الاتيان بأربعة شهداء يؤيدونه فيما

(١) سورة المائدة (٢٨)
(٢) سورة المائدة (٣٣)
(٣) سورة الحجرات (٩)
(٤) الحديث رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى

يقذف به ، غاية فى الحكمة وفى رعاية المصلحة . كيلا تخدش كرامة إنسان أو يجرح فى سمعته .

والسرقة ما هى إلا اعتداء على أموال الناس وعبث بها . والأموال أحب الأشياء إلى النفوس . فتقرير عقوبة القطع لمرتكب هذه الجريمة حتى يكف ويكف غيره عن اقتراف جريمة السرقة فيأمن كل فرد على ماله . ويطمئن على أحب الأشياء لديه وأعزها على نفسه مما يعد من مفاخر هذه الشريعة . وقد ظهر أثر الأخذ بهذا التشريع فى البلاد التى تطبقه واضحا فى استتباب الأمن وحماية الأموال وصيانتها من أيدى العابثين والخارجين على الشريعة والقانون .

وقد اضطر الاتحاد السوفيتى أخيرا إلى تشديد عقوبة السرقة بعد أن تبين له أن عقوبة السجن لم تخفف من كثرة ارتكاب هذه الجريمة ، فقرر اعدام السارق رميا بالرصاص وهى أقصى عقوبة ممكنة .

والمحاربون الساعون فى الأرض بالفساد المضرمون لنيران الفتن المزعجون للأمن المثيرون للاضرابات ، العاملون على قلب النظم القائمة ، لا أقل من أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض .

والخمر تفقد الشارب عقله ورشده وإذا فقد الانسان رشده وعقله ارتكب كل حماقة وفحش فإذا جلد كان جلده مانعا له من المعاودة من جانب ورادعا لغيره من اقتراف مثل جريرته من جانب آخر .

وجوب اقامة الحدود :

اقامة الحدود فيها دفع للناس ، لأنها تمنع الجرائم ، وتردع العصاة ، وتكف من تحدثه نفسه بانتهاك الحرمات وتحقق الأمن لكل فرد على نفسه وعرضه وماله ، وسمعته ، وحريته وكرامته وقد روى النسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ان النبى ﷺ قال :

(حد يعمل به فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا)[1] وكل عمل من شأنه أن يعطل إقامة الحدود فهو تعطيل لأحكام الله ومحاربة له لأن ذلك من شأنه إقرار المنكر وإشاعة الشر .

وروى أحمد وأبو داود والحاكم وصححه : أن النبى ﷺ قال : (من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فهو مضاد الله فى أمره)[2] وقد يحدث أن يغفل المرء عن الجناية التى يرتكبها الجانى وينظر إلى

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢/٣٦٢ ، ٤٠٢ ، والنسائى فى سننه فى كتاب السارق رقم ٧ ، وابن ماجة فى سننه فى كتاب الحدود رقم ٣

(٢) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢/ ٧٠ ، ٨٢ ، وأبو داود فى كتاب الأقضية رقم ١٤ .

العقوبة الواقعة عليه فيرق قلبه له ويعطف عليه ، فيقرر القرآن أن ذلك مما يتنافى مع الايمان لأن الايمان يقتضى الطهر والتنزه عن الجرائم والسمو بالفرد والجماعة إلى الأدب العالى والخلق المتين . يقول الله سبحانه : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾

إن الرحمة بالمجتمع أهم بكثير من الرحمة بالفرد .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

* الشفاعة فى الحدود : ـ

يحرم أن يشفع أحد أو يعمل على أن يعطل حدا من حدود الله ، لأن فى ذلك تفويتا لمصلحة محققة ، وإغراء بارتكاب الجنايات ورضا بإفلات المجرم من تبعات جرمه .

وهذا بعد أن يصل الأمر إلى الحاكم ؛ لأن الشفاعة حينئذ تصرف الحاكم عن وظيفته الأولى ، وتفتح الباب لتعطيل الحدود .

أما قبل الوصول إلى الحاكم فلا بأس من التستر على الجانى والشفاعة عنده .

أخرج أبو داود والنسائى والحاكم وصححه من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « تعافوا الحدود فيما بينكم فما بلغنى من حد فقد وجب »[(١)] .

وأخرج أحمد وأهل السنن وصححه الحاكم من حديث صفوان بن أمية أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال له لما أراد أن يقطع الذى سرق رداءه فشفع فيه .

« هلا كان قبل أن تأتينى به ؟ ! »[(٢)] .

وعن عائشة قالت :

كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده ، فأمر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقطع يدها ، فأتى أهلها أسامة بن زيد فكلموه ، فكلم النبى ـ صلى الله عليه وسلم فيها ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

« يأسامة لا أراك تشفع فى حد من حدود الله عز وجل »

ثم قام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطيبا . فقال :

« إنما هلك من كان قبلكم بأنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه . . والذى نفسى بيده ؛ لو كانت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها . »[(٣)]

فقطع يد المخزومية

---

(١) انظر سنن أبى داود تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، طبع دار إحياء التراث العربى ، فى (كتاب الحدود) باب : العفو عن الحدود مالم تبلغ السلطان ج ٢ ص ١٣٣ رقم ٤٣٧٦ ، وسنن النسائى (كتاب القسامة) باب : قطع السارق ج ٢ ص ٦٣ ، والحاكم فى المستدرك (كتاب الحدود) ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل (مسند صفوان بن أمية العجمى) ج ٣ ص ٤٠١ ، وسنن النسائى ج ٨ ص ٦٨ .

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحدود) باب : قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة فى الحدود ج ١١ ص ١٨٦ ، وسنن النسائى (كتاب قطع السارق) باب : مايكون حرزا وما لايكون ج ٨ ص ٧١ ، وسنن ابن ماجه (كتاب الحدود) باب : الشفاعة فى الحدود ج ٢ ص ٨٥١ رقم ٢٥٤٧

رواه أحمد ومسلم والنسائى .

سقوط الحدود بالشبهات :

الحد : عقوبة من العقوبات التى توقع ضررا فى جسد الجانى وسمعته ، ولا يحل استباحة حرمة أحد ، أو إيلامه إلا بالحق ، ولا يثبت هذا الحق إلا بالدليل الذى لايتطرق إليه الشك ، فإذا تطرق إليه الشك كان ذلك مانعا من اليقين الذى تنبنى عليه الأحكام .

ومن أجل هذا كانت التهم والشكوك لا عبرة لها ولا اعتداد بها ؛ لأنها مظنة الخطأ .

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« ادفعوا الحدود ما وجدتم لها مدفعا »[١] .

رواه ابن ماجه .

وعن عائشة قالت :

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

« ادرأوا الحدود عن المسلمين ماستطعتم ؛ فإن كان له مخرج فخلوا سبيله ؛ فإن الإمام لأن يخطىء فى العفو خير له من أن يخطىء فى العقوبة »[٢]

رواه الترمذى ، وذكر أنه قد روى موقوفا وأن الوقف أصح ، قال : وقد روى عن غير واحد من الصحابة - رضى الله عنهم - أنهم قالوا مثل ذلك .

الشبهات وأقسامها :

تحدث الأحناف والشافعية عن الشبهات ولكل منهما رأى نجمله فيما يأتى :

رأى الشافعية :

يرى الشافعية أن الشبهة تنقسم أقساما ثلاثة .

١ - شبهة فى المحل

أى : محل الفعل ، مثل : وطء الزوج الزوجة الحائض أو الصائمة ، أو إتيان الزوجة فى دبرها فالشبهة هنا قائمة فى محل الفعل المحرم .

إذ أن المحل مملوك للزوج ، ومن حقه أن يباشر الزوجة - وإذا لم يكن له أن يباشرها وهى حائض أو صائمة أو أن يأتيها فى الدبر - إلا أن ملك الزوج للمحل وحقه عليه يورث شبهة .. وقيام هذه الشبهة يقتضى درء الحد ، سواء اعتقد الفاعل بحل الفعل أو بحرمته ؛ لأن أساس الشبهة ليس الاعتقاد والظن ؛ وإنما أساسها محل الفعل وتسلط الفاعل شرعا عليه .

٢ - شبهة فى الفاعل

كمن يطأ امرأة زفت إليه على أنها زوجته ثم يتبين له أنها ليست زوجته ، وأساس الشبهة ظن الفاعل واعتقاده ، بحيث يأتى الفعل وهو يعتقد أنه لايأتى محرما ، فقيام هذا الظن عند الفاعل يورث

---

(١) الحديث أورده ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : الشد على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات ج ٢ ص ٨٥٠ رقم ٢٥٤٥ إلا أنه قال : « ماوجدتم له » بدل : « ماوجدتم لها » . فى الزوائد : فى إسناده إبراهيم بن الفضل المخزومى ؛ ضعفه أحمد وابن معين والبخارى ، وغيرهم .

(٢) ذكر الترمذى هذا الحديث فى (كتاب الحدود) باب : ماجاء فى درء الحدود رقم ١٤٢٤ ج ٤ ص ٣٣

شبهة يترتب عليها درء الحد .

أما إذا أتى الفاعل الفعل وهو عالم بأنه محرم فلا شبهة .

٣ ـ شبهة فى الجهة :

ويقصد من هذا الاشتباه فى حل الفعل وحرمته ، وأساس هذه الشبهة الاختلاف بين الفقهاء على الفعل ، فكل ما أختلفوا على حله أو جوازه كان الاختلاف فيه شبهة يدرأ بها الحد ، فمثلا يجيز أبو حنيفة الزواج بلا ولى ، ويجيزه مالك بلا شهود ، ولا يجيز جمهور الفقهاء هذا الزواج ، ونتيجة هذا الزواج أنه لاحد على الوطء فى هذا الزواج المختلف فى صحته ؛ لأن الخلاف يقوم شبهة تدرأ الحد ، ولو كان الفاعل يعتقد بحرمة الفعل لأن هذا الاعتقاد فى ذاته ليس له أثر مادام الفقهاء مختلفين على الحل والحرمة .

رأى الأحناف :

أما الأحناف فإنهم يرون أن الشبهة تنقسم قسمين :

١ ـ شبهة فى الفعل .

وهى شبهة فى حق من اشتبه عليه الفعل دون من لم يشتبه عليه ، وتثبت هذه الشبهة فى حق من اشتبه عليه الحل والحرمة ـ ولم يكن ثمة دليل سمعى يفيد الحل ؛ بل ظن غير الدليل دليلا ، كمن يطأ زوجته المطلقة ثلاثا أو بائنا على مال فى عدتها ، وتعليل ذلك أن النكاح إذا كان قد زال فى حق الحل أصلا لوجود المعطل لحل المحلية وهو الطلاق فإن النكاح قد بقى فى حق الفراش ، والحرمة على الأزواج فقط ، ومثل هذا الوطء حرام ، فهو زنا يوجب الحد ، إلا إذا ادعى الواطىء الاشتباه وظن الحل ؛ لأنه بنى ظنه على نوع دليل ، وهو بقاء النكاح فى حق الفراش وحرمة الأزواج ؛ أنه بقى فى حق الحل أيضا ، وهذا وإن لم يصلح دليلا على الحقيقة لكنه لما ظنه دليلا اعتبر فى حقه درءا لما يندرىء بالشبهات ، ويشترط ـ لقيام الشبهة فى الفعل ـ ألا يكون هناك دليل على التحريم أصلا ، وأن يعتقد الجانى الحل ، فإذا كان هناك دليل على التحريم أو لم يكن الاعتقاد بالحل ثابتا ، فلا شبهة أصلا ، وإذا ثبت أن الجانى كان يعلم بحرمة الفعل وجب عليه الحد .

٢ ـ الشبهة فى المحل : ـ

ويسمونها الشبهة الحكمية أو شبهة الملك : وتقوم هذه الشبهة على الاشتباه فى حكم الشرع بحل المحل ، فيشترط فى هذه الشبهة أن تكون ناشئة عن حكم من أحكام الشريعة ـ وهى تتحقق بقيام دليل شرعى ينفى الحرمة ، ولا عبرة لظن الفاعل ، فيستوى أن يعتقد الفاعل الحل ، أو يعلم الحرمة ؛ لأن الشبهة ثابتة بقيام الدليل الشرعى لا بالعلم وعدمه .

من يقيم الحدود ؟ : ـ

اتفق الفقهاء على أن الحاكم أو من ينيبه عنه هو الذى يقيم الحدود ، وأنه ليس للأفراد أن يتولوا هذا العمل من تلقاء أنفسهم .

روى الطحاوى عن مسلم بن يسار أنه كان رجل من الصحابة يقول :

« الزكاة ، والحدود ، والفىء ، والجمعة إلى السلطان » .

قال الطماوى : لانعلم له مخالفا من الصحابة

وروى البيهقى عن خارجة بن زيد ، عن أبيه ، وأخرجه أيضا عن أبى الزناد عن أبيه عن الفقهاء الذين ينتهى إلى أقوالهم من أهل المدينة أنهم كانوا يقولون : ـ

« لاينبغى لأحد يقيم شيئا من الحدود دون السلطان »

الا أن للرجل أن يقيم حد الزنا على عبده أو أمته » .

وذهب جماعة من السلف منهم الشافعى إلى أن السيد يقيم الحد على مملوكه ، واستدلوا بما روى عن أمير المؤمنين على ـ رضى الله عنه ـ أن خادمة للنبى ﷺ أحدثت فأمرنى النبى ﷺ أن أقيم عليها الحد ، فأتيتها فوجدتها لم تجف من دمها فأتيته فأخبرته ، فقال :

(إذا جفت من دمها فأقم عليها الحد ، أقيموا الحدود على ماملكت أيمانكم)[1]

رواه أحمد وأبو داود ومسلم ، والبيهقى ، والحاكم ، وقال أبو حنيفة :

يرفعه المولى للسلطان .. ولايقيمه هو بنفسه .

مشروعية التستر فى الحدود : ـ

قد يكون ستر العصاة علاجا ناجحا للذين تورطوا فى الجرائم واقترفوا المآثم ، وقد ينهضون بعد ارتكابها فيتوبون توبة نصوحا ، ويستأنفون حياة نظيفة .

لهذا شرع الاسلام التستر على المتورطين فى الآثام ، وعدم التعجيل بكشف أمرهم .

عن سعيد بن المسيب قال : « بلغنى أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أسلم يقال له : هزال ، وقد جاء يشكو رجلا بالزنا وذلك قبل أن ينزل قوله ـ تعالى ـ :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾[2] :

(يا هزال لو سترته بردائك كان خيرا لك)

قال يحيى بن سعيد : فحدثت بهذا الحديث فى مجلس فيه يزيد بن نعيم بن هزال الأسلمى ، فقال يزيد : ـ

(هزال جدي .. هذا الحديث حق)

وروى ابن ماجه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال :

(من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ومن كشف عورة أخيه كشف الله عورته حتى

---

(١) هذا الحديث أورده أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : فى إقامة الحد على المريض ج ٤ ص ١٦١ رقم ٤٤٧٣ ، وانظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحدود) باب : حد الزنا ج ١١ ص ٢١٤

(٢) من الآية رقم ٤ من سورة النور ، والحديث رواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : الستر على أهل الحدود ج ٤ ص ١٣٤ رقم ٤٣٧٧ إلا أنه قال : « ثبوتك » مكان « بردائك » وللحديث رواية أخرى عند ابن سعد بلفظ : « ياهزال بئس ماصنعت بيتيمك !! لو سترت عليه بطرف ردائك لكان خيرا لك » وانظر تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (كتاب الحدود) ج ٣ ص ٣٩

يفضحه فى بيته) (١)

وإذا كان الستر مندوبا ، ينبغى أن تكون الشهادة به خلاف الأولى التى مرجعها إلى كراهة التنزيه ؛ لأنها فى رتبة الندب فى جانب الفعل ، وكراهة التنزيه فى جانب الترك وهذا يجب أن يكون بالنسبة إلى من لم يعتد الزنا ولم يتهتك به .

أما إذا وصل الحال إلى إشاعته والتهتك به ؛ فيجب كون الشهادة به أولى من تركها لأن مطلوب الشارع إخلاء الأرض من المعاصى والفواحش ، وذلك يتحقق بالتوبة من الفاعلين وبالزجر لهم ، فإذا ظهر حال الشره فى الزنا وعدم المبالاة به وإشاعته ، فإخلاء الأرض المطلوب حينئذ التوبة ، احتمال يقابله ظهور عدمها ، فمن اتصف بذلك فيجب تحقيق السبب الآخر للإخلاء . وهو الحدود ، بخلاف من زنى مرة أو مرارا ، مستترا متخوفا متندما عليه ، فإنه محل استحباب ستر الشاهد .

* ستر المسلم نفسه : ـ

بل على المسلم أن يستر نفسه ولا يفضحها بالحديث عما يصدر عنه من إثم أو إقرار أمام الحاكم لينفذ فيه العقوبة .

روى الإمام مالك فى الموطأ عن زيد بن أسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

(يأيها الناس : قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله . . من أصاب شيئا من هذه القاذورة فليستتر بستر الله ؛ فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله)(٢)

الحدود كفارة للآثام :

يرى أكثر العلماء أن الحدود إذا أقيمت كانت مكفرة لما اقترف من آثام ، وأنه لايعذب فى الآخرة ؛ لما رواه البخارى ومسلم عن عبادة بن الصامت قال : كنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى مجلس فقال :

(تبايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب شيئا من ذلك فعوقب به فهو كفارة له ، ومن أصاب شيئا من ذلك فستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه)(٣) .

وإقامة الحد وإن كانت مكفرة للآثام فإنها مع ذلك زاجرة عن اقترافها ، فهى جوابر وزواجر معا .

حد الزنا :

وبعدما تقدم من الحديث عن الحدود وما يتعلق بها من أحكام نتحدث الآن عن حد الزنا وذلك فى رحاب تفسيرنا لقوله ـ تعالى : ـ

﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : الستر على المؤمن ودفع الحدود بالشبهات ج ٢ ص ٨٥٠ رقم ٢٥٤٦ وقال فى الزوائد : فى إسناده محمد بن عثمان بن صفوان الجمحى ،قال فيه أبو حاتم : منكر الحديث ، ضعيف الحديث . وقال الدارقطنى : ليس بقوى . وذكره ابن حبان فى الثقات . وباقى رجال الإسناد ثقات .

(٢) انظرتنوير الحوالك شرح موطأ الإمام مالك (كتاب الحدود) باب : ماجاء فى من اعترف على نفسه بالزنا ج ٣ ص ٤٣

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، جمع محمد فؤاد عبد الباقى (كتاب الحدود) باب : الحدود كفارات لأهلها ج ٢ ص ٤٢٦ رقم ١١١٤

بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾.

جاء الاسلام العظيم بشريعة هى للشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم، وللشعوب البدائية كالوالد الرحيم، وقد فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم حرمات فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها، وقد سئل أعرابى: لم آمنت بمحمد؟ فقال بلسان الفطرة: ومنطق الصدق المبين:

(لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل ليته ماأمر، ولم ينه عن شىء وقال العقل ليته مانهى) نعم إن الاسلام يخاطب العقل الرشيد بالمنطق السديد « يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ».

(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما ● يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا)(١).

لما حرم الله ـ تعالى ـ الخبائث أحل الطيبات، ولما حرم الربا أباح البيع وأحله، كما أحل الشركة والمرابحة والقرض والمضاربة، ولما حرم الزنا فإنه رغب فى الزواج ودعا إليه، فلم يبق عذر لمعتذر فالحق واضح والطريق لائح والمنادى صائح

﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾(٢)

﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾(٣)

﴿ يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾(٤) ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾(٥)

﴿ مَنِ اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾(٦) ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾(٧).

* طريق الله المستقيم *

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(٨)

● عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

(يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)(٩) رواه البخارى ومسلم.

(المعنى)

ياطائفة الشبان أصحاب القوة والفتوة، وأصل الحركة والنشاط, قال النووى: والشاب عند

---

(١) الأيات: ٢٦، ٢٧، ٢٨ من سورة النساء
(٢) من الآية ١٦٥ من سورة النساء
(٣) من الآية ١٠ من سورة الفتح
(٤) من الآية ٢٣ من سورة يونس
(٥) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(٦) الآيـة ١٥ من سورة الإسراء
(٧) من الآية ٤٦ من سورة فصلت
(٨) الآية ٢١ من سورة الروم.

(٩) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، جمع محمد فؤاد عبد الباقى ج ١ ص ٣٢٥ (كتاب النكاح) حديث رقم ٨٨٤

أصحابنا هو من بلغ ولم يجاوز ثلاثين سنة، اهـ
وإنما خص الشباب لأن الغالب وجود قوة الداعى فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ .
الباءة : الجماع واستعمل لعقد النكاح ، قال الجوهرى : الباءة مثل الباعة ، ومنه سمى النكاح باءة. وبابها الرجل لأن الرجل يتبوأ من أهله ، أى يستمكن منها كما يتبوأ من داره .
أغض للبصر : أحفظ للنظر أن يرى محارم .
أحصن للفرج : أمنع من الزنا .
فإنه له وجاء : قاطع للشهوة ، وأصله : رض الخصيتين . قال النووى : معناه من استطاع منكم الجماع لقدرته على مؤونته ـ وهى مؤن النكاح ـ فليتزوج ، ومن لم يستطع الجماع لعجزه عن مؤنته فعليه بالصوم ليقطع شهوته ويقطع شر منيه كما يقطعه الوجاء ، وعلى هذا القول وقع الخطاب مع الشباب ، سميت باسم مايلازمها ، وتقديره : من استطاع منكم مؤن النكاح فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم . قالوا : والعاجز عن الجماع لايحتاج إلى الصوم لدفع الشهوة فوجب .
● وروى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :
(من أراد أن يلقى الله طاهرا مطهرا فليتزوج الحرائر)[١] . رواه ابن ماجه .

عن أبى أيوب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :
(أربع من سنن المرسلين : الحناء والتعطر والسواك والنكاح)[٢]
● وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :
(الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة) رواه مسلم .[٣]
● وعنه ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :
(الدنيا متاع ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة : مسكين مسكين رجل لاامرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لازوج لها) رواه رزين
● وعن أبى أسامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ ـ أنه كان يقول :
(مااستفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيرا له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله) رواه ابن ماجه .[٤]
● وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال :
(أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وبدنا على البلاء صابرا

---

(١) الحديث أورده ابن ماجه فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : تزويج الحرائر والولود ج ١ ص ٥٩٨ رقم ١٨٦٢ قال فى الزوائد : إسناده ضعيف لضعف كثير بن سليم و (سلام) هو ابن سليمان بن سوار . قال ابن عدى : عنده مناكير . وقال العقيلى : فى حديثه مناكير .
(٢) الحديث فى سنن الترمذى فى (كتاب النكاح) باب : ماجاء فى فضل التزويج والحث عليه ج ٣ ص ٣٨٢ رقم ١٠٨٠ وقال : وفى الباب عن عثمان وثوبان وابن مسعود وعبد الله بن عمرو وأبى نجيح وجابر وعكاف .
قال أبو عيسى : حديث أبى أيوب حديث حسن غريب .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى فى (كتاب الرضاع) باب : استحباب نكاح البكر ج ١٠ ص ٥٦
(٤) الحديث أورده ابن ماجه فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : أفضل النساء ج ١ ص ٥٩٦ رقم ١٨٥٧

وزوجة لاتبغيه حوبا فى نفسها وماله) رواه الطبرانى .

● وعن ثوبان - رضى الله عنه - قال : لما نزلت :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ﴾

قال : كنا مع رسول الله - ﷺ - فى بعض أسفاره ، فقال بعض أصحابه :

أنزلت فى الذهب والفضة لو علمنا أى المال خير فنتخذه ، فقال : (أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه) رواه ابن ماجه (١)

● وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه عن جده - رضى الله عنهما - قال :

قال رسول الله ﷺ :

(من سعادة ابن آدم ثلاثة . ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة : من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح . ومن شقاوة ابن آدم : المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء)(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح ، والطبرانى والبزار والحاكم وصححه إلا أنه قال : والمسكن الضيق . وابن حبان فى صحيحه إلا إنه قال :

أربع من السعادة : المرأة الصالحة ، والمسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهنىء . وأربع من الشقاء : الجار السوء ، والمرأة السوء ، والمركب السوء ، والمسكن الضيق .

● وعن محمد بن سعد - يعنى ابن أبى وقاص - عن أبيه أيضا - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (ثلاثة من السعادة : المرأة الصالحة تراها تعجبك وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق . وثلاث من الشقاء : المرأة تراها فتسوءك وتحمل لسانها عليك وإن غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفا ، فإن ضربتها أتعبتك وإن تركتها لم تلحقك بأصحابك ، والدار تكون ضيقة قليلة المرافق) رواه الحاكم .(٣)

المعنى

تعجبك : تفرح بها

نفسها : تحفظ عرضها ومال زوجها .

وطيئة : ذلول سريعة السير

---

(١) ورد هذا الحديث فى سنن ابن ماجه فى (كتاب النكاح) باب : أفضل النساء ج ١ ص ٥٩٦ رقم ١٨٥٦ ولكن لفظه : « فقال : ليتخذ أحدكم قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على أمر الآخرة »
قال فى الزوائد : عبد الله بن عمرو بن مرة ضعفه النسائى ، ووثقه الحاكم وابن حبان .
وقال ابن معين : لابأس به ، فقال ؛ روى الترمذى فى التفسير المرفوع منه دون قول عمرو وقال : حسن

(٢) ورد الحديث فى مسند الإمام أحمد (مسند سعد بن ابى وقاص) ج ١ ص ١٦٨ . وانظر كشف الأستار عن زوائد البزار (كتاب النكاح) باب : فى المرأة الصالحة ج ٢ ص ١٥٦ رقم ١٤١٢ .
وأورده الحاكم فى المستدرك (كتاب قسم الفىء) ج ٢ ص ١٤٤ من رواية سعد بن مالك .
وقد ورد فى الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى (كتاب النكاح) باب : ذكر الأخبار التى هى من سعادة المرء فى الدنيا ج ٦ ص ١٣٥ رقم ٤٠٢١ من رواية سعد بن أبى وقاص ، بلفظ : « أربع من السعادة .. الخ »

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب النكاح) باب : ثلاث من السعادة إلى آخره ج ٢ ص ١٦٢ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد من خالد بن عبد الله الواسطى إلى رسول الله ﷺ وآله وسلم ، تفرد به محمد بن بكير عن خالد ، إن كان حفظه فإنه صحيح على شرط الشيخين . وقال الذهبى : قلت : محمد ، قال أبو حاتم . صدوق يغلط . وقال يعقوب بن شيبة : ثقة .

● وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه ، فليتق الله فى الشطر الباقى) رواه الطبرانى فى الأوسط ، والحاكم(١)

وفى رواية البيهقى قال رسول الله ﷺ : (إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين ، فليتق الله فى النصف الباقى)(٢)

● وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة حق على الله عونهم : المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف) رواه الترمذى(٣)

● وعن أبى نجيح ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من كان موسرا لأن ينكح ثم لم ينكح فليس منى) رواه الطبرانى(٤).

● وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ ؟

قد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر . قال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبدا ، وقال آخر ، أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبدا ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم : فقال : (أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى أخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر وأصلى وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى ، فليس منى) رواه البخارى(٥)

المعنى :ـ

الرهط : من ثلاثة إلى عشرة ، ومن رواية عبد الرزاق أن الثلاثة هم على بن أبى طالب وعبد الله ابن عمرو بن العاص وعثمان بن عفان .

تقالوها : عدوها قليلة .

أصلى الليل : أتهجد

أصوم الدهر : أى بالنهار سوى أيام العيد وأيام التشريق ، ظن أولئك ـ رضى الله عنهم ـ أن

---

(١) ورد فى مجمع الزوائد عن أنس هذا الحديث بلفظ : أن النبى ـ ﷺ ـ قال :
(من تزوج فقد أستكمل نصف الإيمان فليتق الله فى النصف الباقى) قال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط بإسنادين ، وفيهما يزيد الرقاشى وجابر الجعفى ، وكلاهما ضعيف .
ورواه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب النكاح) ج ٢ ص ١٦١ وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(٢) ورد فى شعب الإيمان للبيهقى فى (الترغيب فى النكاح) ص ٢٣١ مخطوطة بمكتبة الأزهر واللفظ : « من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه)

(٣) الحديث فى الجامع الصحيح للترمذى فى (كتاب الجهاد) باب : ماجاء فى المجاهد والناكح والمكاتب وعون الله لهم ج ٤ ص ١٨٤ رقم ١٦٥٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .
ورواه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب النكاح) ج ٧ ص ٧٨

(٤) انظر فى مجمع الزوائد فى (كتاب النكاح) باب الحث على النكاح ج ٤ ص ٢٥١ ، وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، وإسناده مرسل حسن ـ كما قال ابن معين ـ وانظر سنن البيهقى ج ٧ ص ٧٨ .

(٥) هذا الحديث رواه الشيخان ، وقد ورد فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب النكاح) باب : الترغيب فى النكاح ج ٢ ص ٣٢٥ رقم ٨٨٥
وقال محمد فؤاد عبد الباقى : أخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، باب الترغيب فى النكاح .

العبادة اجتهاد وتفان وكثرة عمل مع مشقة ، فأفهمهم الحكيم المربى ، والقائد الماهر أن العبادة إخلاص لله وحده مع أخذ راحة الجسم وملذته فى الحلال والتمتع بالطيبات فى حدود الشرع .

وأتقاكم له : يعنى أكثر خشية وأشد تقوى ، وفى العينى : وفيه رد لما بنوا عليه أمرهم من أن المغفور له لايحتاج إلى مزيد من العبادة ، بخلاف غيره ، فأعلمهم أنه ـ مع كونه لايشدد فى العبادة غاية الشدة ـ أخشى لله وأتقى من الذين يشددون .

● وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ :
(تنكح المرأة على إحدى خصال : لجمالها ومالها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يمينك) رواه أحمد(١) .

المعنى : ـ

فليس منى : أى ليس متصلا بى قريبا منى . وفيه أن النكاح من سنن النبى ﷺ . وزعم المهلب أنه من الاسلام وأنه لارهبانية فيه وأنه من تركه راغبا عن سنة النبى ﷺ . فهو مذموم مبتدع ، ومن تركه من أجل أنه أرفق له ، وأعون على العبادة فلا ملامة عليه ، وعند أكثر العلماء أنه مندوب .

وقال الشافعى : النكاح معاملة فلا فضل لها على العبادة .

وقال أبو حنيفة : يجوز النكاح مع الإعسار ، ولا ينتظر به حالة الثروة .

قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾(٢)

وفى العينى : النكاح لم يفضل على التخلى للعبادة بصورته ، وإنما تميز عنه بمعناه فى تحصين النفس وبقاء الولد الصالح ، وتحقيق المنة فى النسب والصهر ، فقضاء الشهوة فى النكاح ليس مقصودا لذاته ، وإنما أكد النكاح بالأمر قولا وأكده بخلق الشهوة خلقه حتى يكون ذلك أدعى للوفاء بمصالحه والتيسير بمقاصده .

وقال ابن حجر فى الفتح والمراد من ترك طريقتى وأخذ بطريقة غيرى فليس منى ، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله ـ تعالى ـ وقد عابهم بأنهم ماوفوه بما التزموه ، وطريقة النبى ﷺ . الحنيفية السمحة فيفطر ليتقوى على الصوم ، وينام ليتقوى على القيام ، ويتزوج لكسر الشهوة فيه . فمعنى ليس منى : أى على طريقتى ، ولا يلزم أن يخرج عن الملة ، وإن كان إعراضا وتنطعا يفضى إلى اعتقاد أرجحية عمله فمعنى ليس منى : ليس على ملتى ؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر ، وفى الحديث دلالة على فضل النكاح والترغيب فيه ، وفيه تتبع أحوال الأكابر للتأسى بأفعالهم ؛ وأنه إذا تعذرت معرفته من الرجال جاز استكشافه من النساء ، وأن من عزم على عمل بر واحتاج إلى إظهاره حيث يأمن الرياء لم يكن ذلك ممنوعا ، وفيه تقديم الحمد والثناء على الله عند إلقاء

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى سعيد الخدرى) ج ٣ ص ٨٠ ولكن لفظه :
(تنكح المرأة على إحدى خصال ثلاثة : تنكح المرأة على مالها ، وتنكح المرأة على جمالها ، وتنكح المرأة على دينها ، فخذ ذات الدين والخلق تربت يمينك)

(٢) من الأية ٣٢ من سورة النور

مسائل العلم وبيان الأحكام للمكلفين وإزالة الشبهة عن المجتهدين ، وأن المباحات قد تنقلب بالقصد إلى الكراهة والاستحباب ، وقال الطبرى : فيه الرد على من منع استعمالها الحلال من الأطعمة والملابس ، وآثر غليظ الثياب وخشن المآكل .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾(١)

والحق أن ملازمة استعمال الطيبات تفضى إلى الترفه والبطر ولا يأمن من الوقوع فى الشبهات ، كما أن الأخذ بالتشديد فى العبادة يفضى إلى الملل القاطع لأصلها وملازمة الاقتصار على الفرائض مثلا ، وترك التنفل يفضى إلى إيثار البطالة وعدم النشاط إلى العبادة ، وخير الأمور الوسط (إني لأخشاكم لله) إشارة إلى أن العلم بالله ومعرفة مايجب من حقه أعظم قدرا من مجرد العبادة البدنية .

● وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :

(تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه(٢)

(تربت يداك) : كلمة معناها الحث والتحريض ، وقيل : هى هنا دعاء عليه بالفقر . وقيل : بكثرة المال ، واللفظ مشترك بينهما قابل لكل منهما ، والآخر هنا أظهر ، ومعناه : اظفر بذات الدين ولا تلتفت إلى المال ، أكثر الله مالك ، وروى الأول عن الزهرى ، وأن النبى ﷺ إنما قال له ذلك لأنه رأى الفقر خيرا له من الغنى ، والله أعلم بمراد نبيه ﷺ .

المعنى : ـ لأربع : لأربع خصال

لمالها : لوجود مال عندها فيستفيد الزوج منه .

قال فى العينى : لأنها إذا كانت صاحبة مال لا يلتزم زوجها بما لايطيق ولا تكلفه فى الإنفاق وغيره .

وقال المهلب : هذا دال على أن للزوج الاستمتاع بمالها فإنه يقصد لذلك ، فإن طابت به نفسا فهو له حلال وإن منعته فإنما له من ذلك بقدر مابذل من الصداق .

لحسبها : هو إخبار عن عادة الناس فى ذلك ، والحسب : مايعده الناس من مفاخر الآباء ، ويقال : الحسب فى الأصل : الشرف بالآباء وبالأقارب ، ويقال : الفعال الحسنة .

جمالها : لأن الجمال مطلوب فى كل شيء ولاسيما فى المرأة التى تكون قرينته وضجيعته .

لدينها : لاستقامتها وتعلقها بعمل الشرع ، ولأن بالدين يحصل خير الدنيا والآخرة ، واللائق بأرباب الديانات وذوى المروءات أن يكون الدين مطمح نظرهم فى كل شيء ولاسيما فيما يدوم أمره ولذلك اختاره الرسول ﷺ بآكد وجه وأبلغه فأمره بالظفر الذى هو غاية البغية .

وقال الكرمانى : فاظفر : جزاء شرط محذوف ، أى : إذا تحققت تفضيلها فاظفر أيها المسترشد بها .

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأعراف

(٢) أنظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الرضاع) باب استحباب نكاح ذات الدين ص ٣٤٣ رقم ٩٢٨ ، وفى سنن أبى داود فى (كتاب النكاح) باب : التحريض على النكاح ج ٢ ص ٢١٩ رقم ٢٠٤٧ إلا أنه قال : (تنكح النساء) ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : كراهية تزويج الزناة ج ٦ ص ٦٨ . والحديث فى سنن ابن ماجه فى (كتاب النكاح) باب : تزويج ذات الدين ج ١ ص ٥٩٧ رقم ١٨٥٨ .

وقال القرطبى : هذه الخصال ترغب فى النكاح ، وظاهره إباحة النكاح لقصد كل من ذلك ، لكن قصد الدين أولى ، ولايظن أن هذه الأربع تؤخذ منها الكفاءة .

وقال المهلب : الأكفاء فى الدين هم المتشاكلون ، وإن كان فى النسب تفاضل بين الناس ، وقد نسخ الله ماكانت تحكم به العرب فى الجاهلية من شرف الأنساب بشرف الصلاح فى الدين . فقال ـ تعالى ـ : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾

وقال مالك : الأكفاء فى الدين دون غيره ، والمسلمون أكفاء بعضهم لبعض ، فيجوز أن يتزوج العربى والمولى القرشية ، وعزم عمر ـ رضى الله عنه ـ أن يزوج ابنته من سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ قال ﷺ :

(يابنى بياضة : أنكحوا أبا هند) فقالوا : يارسول الله أنزوج بناتنا من موالينا ؟ فنزلت : ﴿ ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ـ الآية ﴾

رواه أبو داود[1]

وقال أبو حنيفة : قريش كلهم أكفاء بعضهم لبعض ، ولايكون أحد من العرب كفؤا لقرشى ولا أحد من الموالى كفؤا للعرب ، ولا يكون كفؤا من لايجد المهر والنفقة ، وفى التلويح احتج له بما رواه نافع عن مولاه مرفوعا : (قريش بعضها لبعض أكفاء إلا حائك أو حجام)

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ له (ياعلى ثلاث لاتؤخرها : الصلاة إذا أتت ، والجنازة إذا حضرت ، والأيم إذا وجدت كفؤا)[2] رواه العسكرى فى الأمثال ، والحاكم ، والبيهقى والترمذى .

● وروى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ : (من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلا ومن تزوجها لمالها لم يزدها الله إلا فقرا ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ، ومن تزوج امرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه) رواه الطبرانى فى الأوسط[3] .

المعنى : ـ يبين ﷺ للمسلمين أن يتحروا الزوجة التقية النقية الطاهرة ذات الدين ، فطالب الزوجة لعزها أذله الله وأحوجه إليها ، وكذا طالب المال افتقر لمالها واحتاج إليه ، وذهب بهاؤه وقلت هيبته ، وكذا طالب الحسب أهين وضعف واحتقر ، إنما الأفضل لطالب العيش الرغد والحياة الزوجية السعيدة أن يطلب زوجة تزيده حصانة وورعا ، وتبعده عن المحارم والميل إلى الدنايا والتبرج ، وتعينه على بر أقاربه وصلة أهله ومودة رحمه ليضع الله البركة ويزيد فى النعم ويكثر نسلها ويمد بإحسانه وإنعامه .

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب النكاح) باب : فى الأكفاء ج ٢ ص ٢٣٣ رقم ٢١٠٢

(٢) انظر المستدرك للحاكم (كتاب النكاح) باب : تزوجوا الولود الودود ج ٢ ص ١٦٢ وقال : هذا حديث غريب صحيح ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .
والترمذى فى (أبواب الصلاة) باب : ماجاء فى الوقت الأول من الفضل ج ١ ص ٣٢٠ رقم ١٧١ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حسن . وقال الشيخ شاكر فى تعليقه على الحديث : وهذا حديث صحيح ورواته ثقات .

(٣) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب النكاح) باب : نية الزواج ج ٤ ص ٢٥٤ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفيه عبد السلام بن عبد القدوس بن حبيب ، وهو ضعيف .

● وعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لاتزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل) رواه ابن ماجه[1]

المعنى : يرديهن : يوقعهن موقع الهلكة .

تطغيهن : تزيدهن تجبرا وتكبرا وطغيانا وفسوقا .

خرماء : مقتطعة الأطراف ، من خرمت الشيء خرما : ثقبته ، وخرمته : قطعته فانخرم ، وفى النهاية : رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب الناس على ناقة خرماء ، أصل الخرم : الثقب والشق ، والأخرم : المثقوب الأذن ، والذى قطعت وترة أنفه أو طرفه شيئا لايبلغ الجدع ، وقد انخرم ثقبه : أى انشق ، فإذا لم ينشق ، فهو أخرم والأنثى خرماء .

● وعن معقل بن يسار ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يارسول الله : إنى أحببت امرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لاتلد أفأتزوجها؟ فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة ـ فقال له : (تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم) رواه أبو داود والنسائى .[2]

* الآيات القرآنية فى الترغيب فى النكاح *

قال الله ـ تعالى ـ :

﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾[3]

وقال ـ تعالى ـ :

﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾[4] وهذا منع من العضل ، ونهى عنه .

ـ وقال ـ تعالى ـ فى وصف الرسل ومدحهم :

﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية ﴾[5] فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل .

وقال ـ تعالى ـ :

﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾[6] . سبحانه مدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء ، ويقال : إن الله ـ تعالى ـ لم يذكر فى كتابه من الأنبياء إلا المتأهلين فقالوا : إن يحيى ﷺ قد تزوج ولم يجامع ، قيل : إنما فعل ذلك لينال الفضل ، وإقامة السنة ،

---

(١) انظر سنن ابن ماجه (كتاب النكاح) باب تزويج ذات الدين ج ١ ص ٥٩٧ رقم ١٨٥٩ قال فى الزوائد : فى إسناده الإفريقى ، وهو عبد الله بن زياد بن أنعم : ضعيف ، والحديث رواه ابن حبان فى صحيحه بإسناد آخر .

(٢) انظر سنن أبى داود (كتاب النكاح) باب النهى عن تزويج من لم يلد من النساء ج ٢ ص ٢٢٠ رقم ٢٠٥٠ ، ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : كراهية تزويج العقيم ج ٦ ص ٦٥ ، ٦٦

(٣) من الآية ٣٣ من سورة النور

(٤) من الآية ٢٣٢ من سورة البقرة

(٥) من الآية ٣٨ من سورة الرعد

(٦) الآية ٧٤ من سورة الفرقان

وقيل : لغض البصر ، وأما عيسى ـ عليه السلام ـ فإنه سينكح إذا نزل الأرض ويولد له .

*** فوائد النكاح وآفاته الناجمة من الانحراف عن جادة الصواب ***

أولا : الولد لأنه المقصود بهذا العقد الشرعى والتمتع وفى التوسل إلى الولد قربة ، فلا يحب الصالح أن يلقى الله عزبا ، وفى تلبية الأمر بالزواج كما قال الغزالى :

أ ـ موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .

ب ـ محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .

ج ـ طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .

د ـ طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

ثانيا : التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة ، وغض البصر ، وحفظ الفرج .

ثالثا : ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور .

قال ـ تعالى ـ :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(١)

رابعا : تفريغ القلب عن تدبير المنزل والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأوانى ، وتهيئة أسباب المعيشة ، ولولا شهوة الوقاع لتعذر على الإنسان العيش فى منزله وحده .

وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا فإنها تفرغك للآخرة ، وإنما تفريغها بتدبير المنزل ، وبقضاء الشهوة جميعا .

وقال محمد بن كعب القرظى : فى معنى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ﴾(٢)

قال : المرأة الصالحة .

خامسا : مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربية لأولاده . قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ (يوم من وال عادل أفضل عند الله من سبعين سنة) رواه الطبرانى والبيهقى(٣) .

قال بشر : فضل علىَّ أحمد بن حنبل بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره .

وقال ﷺ (ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته) .

---

(١) الآية ٢١ من سورة الروم

(٢) من الآية ٢٠١ من سورة البقرة

(٣) الحديث أورده الطبرانى فى المعجم الكبير ج ١١ ص ٣٣٧ رقم ١١٩٣٢ ولفظه : « يوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة ، . وحد يقام فى الأرض بحقه أذكى فيها من مطر أربعين عاما »

وقال محققه : ورواه فى الأوسط ٢١٧ مجمع البحرين ، قال فى المجمع ج ٥ ص ١٩٧ وفيه (أى إسناد الكبير أسعد أبو غيلان الشيبانى) ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات .

* احذروا أيها الأزواج *

١ ـ العجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب والإطعام من الحرام وربما يتبع المتزوج هوى زوجته ويبيع آخرته بدنياه .

٢ ـ القصور عن القيام بحقهن والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، وفى هذا خطر لأنه راع ومسئول عن رعيته ، قال ﷺ :

(كفى المرء إثما أن يضيع من يعول) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والطبرانى والحاكم والبيهقى(١)

وقال تعالى ـ : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾(٢) أمرنا أن نقيهم كما نقى أنفسنا

٣ ـ أن يكون الأهل والولد شاغلا له عن الله ـ تعالى ـ وجاذبا إلى طلب الدنيا وحسن تدبير المعيشة للأولاد بكثرة جمع المال وادخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ماشغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشئوم على صاحبه ، فينقل من التنعم المباح إلى الإغراق فى ملاعبة النساء ومؤانستهن والإمعان فى التمتع بهن .

قال ابراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ : (من تعود أفخاذ النساء لم يجىء منه شىء)

وكان رسول الله ﷺ لعلو درجته لايمنعه هذا العالم عن حضور القلب مع الله ـ تعالى ـ فكان ينزل عليه الوحى وهو فى فراش امرأته .

من حديث أنس : يا أم سلمة لاتؤذينى فى عائشة .

* النهى عن قرب الزنا *

١ ـ نهى القرآن الكريم عن قرب الزنا فقال : ﴿ ولا تقربوا الزنى ﴾(٣) ولما نهى عن قربه يكون قد نهى عنه من باب أولى ، وفى تحريم القرب تحذير من دواعى الزنا .

وكما وضع الطريقة المثلى لتصريف الغريزة منع من أى تصرف فى غير الطريق المشروع ؛ وحظر إثارة الغريزة بأية وسيلة من الوسائل حتى لاتنحرف عن المنهج المرسوم .

فنهى عن الاختلاط والرقص والصورة المثيرة والغناء الفاحش والنظر المريب ، وكل مامن شأنه أن يثير الغريزة أو يدعو إلى الفحش حتى لاتتسرب عوامل الضعف فى البيت والانحلال فى الأسرة .

٢ ـ واعتبر الزنا جريمة قانونية تستحق أقصى العقوبة لأنه وخيم العاقبة ومفض إلى الكثير من الشرور والجرائم ، فالعلاقات الخليعة والاتصال الجنسى غير المشروع مما يهدد المجتمع بالفناء والانقراض ، فضلا عن كونه من الرذائل المحقرة .

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾(٤)

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الزكاة) باب : فى صلة الرحم ج ٢ ص ١٣٢ رقم ١٦٩٢ عن ابن عمرو . وفى صحيح مسلم فى (كتاب الزكاة) باب فضل النفقة على العيال والمملوك وإثم من ضيعهم ج ٢ ص ٦٩٢ بلفظ : (كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته) وانظر مسند الإمام أحمد (مسند ابن عمرو) ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ وأنظر المستدرك للحاكم (كتاب الزكاة) ج ١ ص ٤١٥ وأورده البيهقى فى (كتاب النفقات) من السنن الكبرى : باب فضل النفقة على الزوجة ج ٧ ص ٤٦٧ .

(٢) من الآية ٦ من سورة التحريم

(٣) من الآية ٣٢ من سورة الإسراء

(٤) الآية ٣٢ من سورة الإسراء

٣ - لأنه سبب مباشر فى انتشار الأمراض الخطيرة التى تفتك بالأبدان ، وتنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء ، وأبناء الأبناء ، كالزهرى والسيلان ، والقرحة .

٤ - وهو أحد أسباب جريمة القتل ؛ إذ أن الغيرة طبيعية فى الإنسان ، وقلما يرضى الرجل الكريم أو المرأة العفيفة بالانحراف الجنسى ، بل إن الرجل لايجد وسيلة يغسل بها العار الذى يلحقه ويلحق أهله إلا الدم .

٥ - والزنا يفسد نظام البيت ويهز كيان الأسرة ويقطع العلاقة الزوجية ويعرض الأولاد لسوء التربية مما يتسبب عنه : التشرد والانحراف والجريمة .

٦ - وفى الزنا ضياع النسب وتمليك الأموال لغير أربابها عند التوارث .

٧ - وفيه تغرير بالزوج ؛ إذ أن الزنا قد ينتج عنه الحمل فيقوم الرجل بتربية غير ابنه .

٨ - إن الزنا علاقة مؤقتة لاتبعة وراءها ، فهو عملية حيوانية بحتة ينأى عنها الإنسان الشريف .

وجملة القول أنه قد ثبت علميا ثبوتا لامجال للشك فيه عظم ضرر الزنا ، وأنه من أكبر الأسباب الموجبة للفساد وانحطاط الآداب ومورث لأقتل الأدواء ، ومروج للعزوبة واتخاذ الخليلات ، ومن ثم كان أكبر باعث على الترف والسرف والعهر والفجور .

لهذا كله وغيره جعل الاسلام عقوبة الزنا أقسى عقوبة .

وإذا كانت هذه العقوبة تبدو قاسية فإن آثار الجريمة المترتبة عليها أشد ضررا على المجتمع .

والإسلام يوازن بين الضرر الواقع على المذنب والضرر الواقع على المجتمع ، ويقضى بارتكاب أخف الضررين ، وهذه هى العدالة .

ولاشك أن ضرر عقوبة الزانى لاتوزن بالضرر الواقع على المجتمع من إفشاء الزنا ورواج المنكر وإشاعة الفحش والفجور .

إن عقوبة الزنا إذا كان يضار بها المجرم نفسه فإن فى تنفيذها حفظ النفوس ، وصيانة الأعراض ، وحماية الأسر التى هى اللبنات الأولى فى بناء المجتمع ، وبصلاحها يصلح وبفسادها يفسد .

إن الأمم بأخلاقها الفاضلة وبآدابها العالية ونظافتها من الرجس والتلوث وطهارتها من التدنى والتسفل .

على أن الإسلام - من جانب آخر - كما أباح الزواج أباح التعدد حتى يكون فى الحلال مندوحة عن الحرام ولكن لايبقى عذر لمقترف هذه الجريمة .

وقد احتاط فى تنفيذ هذه العقوبة بقدر ماأخاف الزناة وأرهبهم : -

١ - فمن الاحتياط أنه درأ الحدود بالشبهات ، فلا يقام حد إلا بعد التيقن من وقوع الجريمة .

٢ - وأنه لابد فى إثبات هذه الجريمة من أربعة شهود عدول من الرجال فلا تقبل فيها شهادة النساء ولا شهادة الفسقة .

٣ - وأن يكون الشهود جميعا رأوا عملية الزنا نفسها كالميل فى المكحلة والرشاء فى البئروهذا مما يصعب ثبوته .

٤ - ولو فرض أن ثلاثة منهم شهدوا بهذه الشهادة وشهد الرابع بخلاف شهادتهم أو رجع أحدهم عن شهادته أقيم عليهم حد القذف .

فهذا الاحتياط الذى وضعه الإسلام فى إثبات هذه الجريمة . مما يدفع ثبوتها قطعا .
فهذه العقوبة هى إلى الإرهاب والتخويف أقرب منها إلى التحقيق والتنفيذ ، وقد يقول القائل :
إذا كان الحد مما يندر إقامته لتعذر ثبوت الأدلة . فلماذا إذن شرعه الإسلام ؟ !!
الجواب كما قلنا :
أن الإسلام إذا لاحظ قسوة الجريمة وضراوتها فإنه يعمل لها ألف حساب وحساب قبل أن تقترف .

فهذا نوع من الزجر بالنسبة لهذه الجريمة التى تجد من الحوافز والبواعث مايدفع إليها ولاسيما وأن الغريزة الجنسية من أعنف الغرائز إن لم تكن أعنفها على الإطلاق ، ومن المناسب أن يواجه عنف الغريزة عنف العقوبة فإن ذلك من عوامل الحد من ثورتها .

من أجل ماتقدم فقد أقام الإسلام أسوارا منيعة حول هذه المنطقة المحرمة لايستطيع أن يتسلقها إلا شيطان مارد من ذئاب البشر .

ومن هنا فقد نهى عن مقدمات الزنا ودواعيه :

عفوا تعف نساؤكم فى المحرم وتجنبوا مالا يليق بمسلم
من يزن فى بيت بألفى درهم فى بيته يزنى بغير الدرهم
من يزن يزن به ولو بجداره إن كنت ياهذا لبيبا فافهم
إن الزنا دين فإن أقرضته كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
ياهاتكاستر الرجال وقاطعا سبل المودة عشت غير مكرم
لو كنت حرا من سلالة طاهر ماكنت هتاكا لحرمة مسلم

البر لايبلى ، والذنب لاينسى ، والديان لايموت ، اعمل ماشئت كما تدين تدان .

* التحذير من النظرة وأخواتها *

● عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ يعنى عن ربه عز وجل : (النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها من مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه) رواه الطبرانى(١)

● وروى عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (مامن مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه) رواه أحمد والطبرانى (٢) إلا أنه قال : (ينظر إلى امرأة أول رمقة) والبيهقى قال : (إنما أراد إن صلح) ـ والله أعلم ـ أن يقع بصره عليها من غير .

(١) هذا الحديث أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد فى (كتاب الأدب) باب : غض البصر ج ٨ ص ٦٣ قال الهيثمى : رواه الطبرانى ، وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطى : وهو ضعيف .
(٢) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب الأدب) باب : غض البصر ج ٨ ص ٦٣ وقال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى إلا أنه قال : (ينظر إلى امرأة أول وقعة) وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو متروك .
وانظر مسند الإمام أحمد (مسند أبى أمامة) ج ٥ ص ٢٦٤

قصد فيصرف بصره عنها تورعا .

● وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (كل عين باكية يوم القيامة إلا عين غضت عن محارم الله ، وعين سهرت فى سبيل الله ، وعين خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله) رواه الأصبهانى(١) .

● وعن معاوية بن حيدة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ثلاثة لاترى أعينهم النار : عين حرست فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله) رواه الطبرانى(٢)

● وعن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : (اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة : اصدقوا إذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا الأمانة إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم) رواه أحمد(٣) .

المعنى

اصدقوا : قولوا الصدق وتحروا الحق الموافق للواقع والخبر الصحيح .

أوفوا : أتموا الميعاد وحافظوا عليه .

أدوا الأمانة : راعوا الودائع .

احفظوا فروجكم : لاتفعلوا الفاحشة

غضوا : لاتنظروا إلى الأجنبيات .

كفوا : امنعوا أيديكم من الأذى والسرقة والتعدى .

● وعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال له : (ياعلى إن لك كنزا فى الجنة ، **وإنك ذو قرنيها** ، فلا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الآخرة)(٤) رواه ابن أبى شيبة وأحمد والحكيم الترمذى والحاكم وأبو نعيم فى المعرفة عن على - رضى الله عنه .

المعنى : - الآخرة : إرسال النظرة الثانية واستمرار العين تتطلع .

قوله ﷺ لعلى : **وإنك ذو قرنيها** : أى ذو قرنى هذه الأمة وذاك لأنه كان له شجتان فى قرنى رأسه إحداهما من ابن ملجم - لعنه الله - والأخرى من عمرو بن ود ، وقيل معناه : إنك ذو قرنى الجنة ؛ أى : ذو طرفيها ومليكها الممكن فيها الذى يسلك جميع نواحيها .

---

(١) ذكره الأصبهانى فى الحلية فى ترجمة (صفوان بن سليم) ج ٣ ص ١٦٣ ثم قال : غريب من حديث صفوان ، وأبو سلمة تفرد به عمر بن صهبان .

(٢) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى فى (مرويات بهز عن حكيم عن أبيه عن جده) ج ١٩ ص ٤١٦ رقم ١٠٠٣ إلا أنه قال : (غضت عن محارم الله) بدل (كفت عن محارم الله)

(٣) وقال محققه : قال فى المجمع ٥/ ٢٨٨ : وفيه أبو حبيب العنقزى ويقال : القنوى ، ولم أعرفه ، وبقية رجاله ثقات . أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبادة بن الصامت) ج ٥ ص ٣٢٣

(٤) انظر نوادر الأصول للحكيم الترمذى (الأصل الحادى والأربعين والمائتين فى فضيلة غض البصر) ص ٣٠٧ . وأنظر مجمع الزوائد (كتاب الأدب) باب : غض البصر ج ٨ ص ٦٣ وقال الهيثمى : رواه أحمد ، وفيه ابن إسحاق ، وهو مدلس ، وبقية رجاله ثقات .
وأخرجه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب معرفة الصحابة) ج ٣ ص ١٢٣ ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص .

● وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :
(العينان تزنيان ، والرجلان تزنيان ، والفرج يزنى) رواه أحمد[(١)]
● وعن جرير - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظر الفجاءة فقال : (اصرف بصرك) رواه مسلم ،[(٢)] والطيالسى وأحمد وأبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح ، والنسائى .
● وعن عبد الله - يعنى ابن مسعود رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (الاثم حواز القلوب ، ومامن نظرة إلا وشيطان فيها مطمع) رواه البيهقى .[(٣)]

حواز القلوب - بفتح الحاء المهملة وتشديد الواو - : وهو مايحوزها ويغلب عليها حتى ترتكب مالايحسن .

وقيل : بتخفيف الواو وتشديد الزاى : جمع حازة ، وهى الأمور التى تحز فى القلوب وتحك وتؤثر ، وتتخالج فى القلوب ، أن تكون معاصى ، وهذا أشهر .

● وروى عن أبى أمامه - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :
(لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم أو ليكفن الله وجوهكم) رواه الطبرانى[(٤)]

المعنى : لتمنعن عيونكم أن تنظر إلى محرم ولتبتعدن عن الفاحشة وإلا يغير الله معالمكم ويطمس على قلوبكم ويمسخكم - أيها الفسقة ، العصاة الفجرة - قال تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[(٥)]

يغضوا : يمنعوا مايكون نحو محرم (إن الله خبير) لايخفى عليه إجالة أبصارهم ، واستعمال سائر حواسهم ، وتحريك جوارحهم ، ومايقصدون بها ، فليكونوا على حذر منه فى كل حركة وسكون .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه) ج ١ ص ٤١٢

(٢) روى الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الأداب) باب نظر الفجأة ج ٣ ص ١٦٩٩ رقم ٢١٥٩/٤٥ حديث جرير ولكن بلفظ : قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظر الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى . وانظر مسند أحمد (ومن حديث جرير بن عبد الله البجلى) ج ٤ ص٣٦١ وانظر مسند أبى داود الطيالسى (أحاديث جرير بن عبد الله البجلى) ج ٣ ص ٩٣ رقم ٦٧٢ ولفظ حديثه هنا : (عن جرير بن عبد الله البجلى قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظرة الفجأة ، فقال : « غض بصرك » وأورده أبو داود فى سننه فى (كتاب النكاح) باب : مايؤمر به من غض البصر ج ٢ ص ٢٤٦ رقم ٢١٤٨ ولفظه : « اصرف بصرك » . واخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الأدب) باب : ماجاء فى نظرة المفاجأة ج ٥ ص ١٠١ رقم ٢٧٧٦ من رواية جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظرة الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى . وأنظر سنن البيهقى ج ٧ ص ٩٠ (كتاب النكاح) - باب ماجاء فى نظر الفجاءة .

(٣) الحديث فى الترغيب والترهيب فى (كتاب النكاح) باب : غض البصر ج ٣ ص ٦٢ وقال المنذرى : رواه البيهقى وغيره ، ورواته لاأعلم فيهم مجروحا ، لكن قيل : صوابه الوقوف .

(٤) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ص ٢٤٦ رقم ٧٨٤٠ إلا أنه قال : (أو لتكفن وجوهكم)
قال المحقق : قال فى المجمع ٦٣/٨ : وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو متروك : قلت : وعبيد الله بن زحر مثله .

(٥) الأيتان ٣٠ ، ٣١ من سورة النور .

(يغضضن) فلاينظرن إلى مالايحل لهن النظر إليه من الرجال . (ويحفظن فروجهن) بالتستر أو التحفظ عن الزنا ، وتقديم الغض لأن النظر بريد الزنا .
(ولايبدين زينتهن) كالحلى والثياب والأصباغ فضلا عن مواضعها لمن لايحل أن تبدى له (إلا ماظهر منها) عند مزاولة الأشياء كالثياب والخاتم فإن فى سترها حجرا ، وقيل : المراد بالزينة : مواضعها ، على حذف المواضع أو مايعم المحاسن الخلقية والتزيينية ، والمستثنى هو الوجه والكفان ؛ لأنها ليست بعورة ، والأظهر أن هذا فى الصلاة لا فى النظر فإن كل بدن الحرة عورة لايحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شىء منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة . (وليضربن بخمرهن) سترا لأعناقهن (إلا لبعولتهن) فإنهم المقصودون بالزينة ، ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن حتى الفرج بكره . ا هـ : البيضاوى .

- وعن أبى سعيد - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :
(مامن صباح إلا وملكان يناديان : ويل للرجال من النساء وويل للنساء من الرجال) رواه ابن ماجه(١) .

● وروى عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد إذ دخلت امرأة من مزينة ترفل فى زينة لها فى المسجد فقال النبى : (ياأيها الناس انهوا نساءكم عن لبس الزينة والتبختر فى المسجد ، فإن بنى اسرائيل لم يلعنوا حتى لبس نساؤهم الزينة وتبختروا فى المساجد) رواه ابن ماجه(٢)

والتبختر : المشى خيلاء

● وعن عقبة بن عامر - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ .. قال :
(إياكم والدخول على النساء فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو؟ قال : الحمو الموت) رواه البخاري ومسلم والترمذى(٣)
المعنى : قد يكون الهلاك مع أقارب الزوجة لتيسر وجودهم مع المرأة ، والقرابة تدعو إلى الاختلاط مع الطمأنينة ، ويؤتى الحذر من مكمنه : والحمو : أقارب زوج المرأة كأبيه وعمه وأخيه وابن اخيه وابن عمه ونحوهم .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه فى (كتاب الفتن) باب : فتنة النساء ج ٢ ص ١٣٢٥ رقم ٣٩٩٩
قال فى الزوائد : فى إسناده خارجة بن مصعب ، وهو ضعيف .
(٢) الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الفتن) باب فتنة النساء ج ٢ ص ١٣٢٦ رقم ٤٠٠١
قال فى الزوائد : فى إسناده داود بن مدرك ، قال فيه الذهبى فى كتاب الطبقات : نكرة لايعرف .. وموسى بن عبيدة ، ضعيف .
(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب السلام) باب تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها ص ٥٦٢ رقم ١٤٠٣
وفى الترمذى فى (كتاب الأدب) باب ماجاء فى النهى عن الدخول على النساء إلا بإذن الأزواج ج ٥ ص ١٥٢ ورد حديث مولى لعمرو بن العاص فى الاستئذان من على - رضى الله عنه - فى الدخول على أسماء بنت عميس ، وقال عمرو بن العاص : إن رسول الله - ﷺ نهانا أن ندخل على النساء بغير إذن أزواجهن .
قال الترمذى : وفى الباب عن عقبة بن عامر ، وعبد الله بن عمرو ، وجابر .
وانظر سنن البيهقى (كتاب النكاح) باب : لايخلو رجل بامرأة أجنبية ج ٧ ص ٩٠

ومعنى : (الحمو الموت) : أى : الخوف منه أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه ، وقد يكون المراد أيضا بالحمو : أقارب الزوج (غير آبائه وأبنائه لأنهم محارم لزوجته تجوز لهم الخلوة بها) مثل الأخ وابن الأخ والعم وأبنائه ونحوهم .

● وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال :

(لايخلو أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم) رواه البخارى ومسلم .(١)

ذو محرم : من لايحل له نكاحها من الأقارب كالأب والابن والأخ والعم ومن يجرى مجراهم .

● وعن معقل بن يسار - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لأن يطعن فى رأس أحدكم بمخيط من حديد خير له من أن يمس امرأة لاتحل له) رواه الطبرانى(٢)

(والله لأن يطعن رأس أحدكم بسلاح حاد أهون عقابا وأيسر عذابا من لمس امرأة أجنبية)

المخيط - بكسر الميم وفتح الياء - هو مايخاط به كالإبرة والمسلة ونحوهما

- وروى عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - قال :

(إياك والخلوة بالنساء والذى نفسى بيده ماخلا رجل بامرأة إلا ودخل الشيطان بينهما ، ولأن يزحم رجل خنزيرا متلطخا بطين أو حمأة خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لاتحل له) رواه الطبرانى(٣)

المعنى : منكب الشخص : مجتمع رأس العضد والكتف ، لأنه يعتمد عليه ، من نكب عن الطريق : عدل ومال ، ونكب على القوم نكابة - بالكسر - فهو منكب مثل مجلس وهو عون العريف .

يطلب النبى - ﷺ - من المسلمين أن يتجنبوا الخلوة بالسيدات خشية إفساد الشيطان وإضلاله ، ورجاء العصمة والابتعاد عن الغواية والوقوع فى المكاره ، ثم يقسم - ﷺ - بالقاهر القادر الذى بيده تصاريف الأمور أن خلوة الرجل بالمرأة تجعل للشيطان ميدانا واسعا يمرح فيه بالتحدث بالوقوع فى المعاصى ، ومقاربة الخنزير أسلم عاقبة من الجلوس بجوار المرأة والاحتكاك بها ، لقد صدق رسول الله - ﷺ - فإن الحوادث الآن تنبىء بالقتل والانتحار من جراء مزاحمة الأجنبيات والاختلاط بهن بلا نكاح شرعى ، نسأل الله السلامة ، قال - تعالى - : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾(٤)

وقال - تعالى - : ﴿ **ولاتقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾(٥)

(ولا تقف) : ولا تتبع مالم يتعلق به علمك تقليدا أو رجما بالغيب ، قال البيضاوى : أى كل هذه

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الحج) باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره ص ٣١٠ رقم ٨٥٠ ولفظه : (لايخلو رجل بإمرأة ، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم) فقام رجل فقال : يارسول الله : اكتتبت فى غزوة كذا وكذا ، وخرجت امرأتى حاجة ، قال : (اذهب فحج مع امرأتك)

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٢٦ فى (كتاب النكاح) باب النهى عن الخلوة بغير محرم وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (كتاب النكاح) باب النهى عن الخلوة بغير محرم ج ٤ ص ٣٢٦ ثم قال : رواه الطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى ، وهو ضعيف جدا وفيه توثيق .

(٤) الآية ٥٢ من سورة النور

(٥) الآية ٣٦ من سورة الإسراء

الأعضاء فأجراها مجرى العقلاء لما كانت مسئولة عن أحوالها شاهدة على صاحبها ، وفيه دليل على أن العبد مؤاخذ بعزمه على المعصية . أ هـ .

وقال - تعالى - : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾[1]

(نختم) : نمنعها عن الكلام (يكسبون) بظهور آثار المعاصى عليها ودلالتها على أفعالها وإنطاق الله إياها .

والآن ننتقل إلى الحديث عن جريمة الزنا كما جاء فى أقوال الفقهاء :

الزنا الموجب للحد

إن كل اتصال جنسى قائم على أساس غير شرعى يعتبر زنا تترتب عليه العقوبة المقررة من حيث إنه جريمة من الجرائم التى حددت عقوباتها .

ويتحقق الزنا الموجب للحد بتغييب الحشفة - أو قدرها من مقطوعها - فى فرج محرم مشتهى بالطبع من غير شبهة نكاح ، ولو لم يكن معه إنزال .

فإذا كان الاستمتاع بالمرأة الأجنبية فيما دون الفرج فإن ذلك لايوجب الحد المقرر لعقوبة الزنا وإن اقتضى التعزير .

فعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال :

إنى عالجت امرأة من أقصى المدينة فأصبت منها ، دون أن أمسها ، فأنا هذا ، فأقم على ماشئت .

فقال عمر :

سترك الله لو سترت على نفسك . فلم يرد عليه النبى ﷺ شيئا ، فانطلق الرجل ، فأتبعه النبى - ﷺ - رجلا فدعاه فتلا عليه :

(وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)

فقال له رجل من القوم : يارسول الله أله خاصة أم للناس عامة ؟ فقال : (للناس عامة) رواه مسلم وأبو داود والترمذى .[2]

أقسام الزناة :

الزانى إما أن يكون بكرا أو محصنا ، ولكل منهما حكم يخصه .

حد البكر :

اتفق الفقهاء على أن البكر الحر إذا زنى فإنه يجلد مائة جلدة سواء فى ذلك الرجال والنساء ،

---

(١) الآية ٦٥ من سورة يس

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب التوبة) باب : إن الحسنات يذهبن السيئات ج ٤ ص ٢١١٦ رقم ٢٧٦٣/٤٢
والآية هى رقم ١١٤ من سورة هود
وأنظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب فى الرجل يصيب من المرأة دون الجماع فيتوب قبل أن يأخذه الإمام ج ٤ ص ١٦٠ رقم ٤٤٦٨
وفى جامع الترمذى فى (أبواب تفسير القرآن) باب : ومن سورة هود ج ٤ ص ٣٥٢ رقم ٥١١٣
قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

لقول الله - سبحانه - فى سورة النور : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾[١]

الجمع بين الجلد والتغريب :

والفقهاء وإن اتفقوا على وجوب الجلد فإنهم قد اختلفوا فى إضافة التغريب إليه :

(١) قال الشافعى وأحمد : يجمع إلى الجلد التغريب مدة عام لما رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وزيد بن خالد أن رجلا من الأعراب أتى رسول الله - ﷺ - فقال : يارسول الله أنشدك الله إلا قضيت لى بكتاب الله ، وقال الخصم الآخر - وهو أفقه منه - : نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لى ، فقال رسول الله - ﷺ - : (قل) قال : إن ابنى كان عسيفا (أجيرا) على هذا فزنى بأمرأته وإنى أخبرت أن على ابنى الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ؛ فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله - ﷺ - :

(والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله ، الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام)

واغد ياأنيس (رجل من أسلم) إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها .

قال : فغدا عليها فاعترفت ، فأمر بها رسول الله - ﷺ - فرجمت .[٢]

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قضى فيمن زنى ولم يحصن بنفى عام وإقامة الحد عليه .[٣]

وأخرج مسلم عن عبادة بن الصامت أن الرسول - ﷺ - قال :

(خذوا عنى خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا :

البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم)[٤] .

واختلف العلماء فى تنزيل هذا الكلام ووجه ترتيبه على الآية ، وهل هو ناسخ للآية أو مبين لها ؟

فذهب بعضهم إلى النسخ ، وهذا قول من يرى نسخ الكتاب بالسنة وقال آخرون : بل هو مبين للحكم الموعود بيانه فى الآية ، فكأنه قال : عقوبتهن الحبس إلى أن يجعل الله لهن سبيلا فوقع الأمر بحبسهن إلى غاية .

فلما انتهت مدة الحبس وحان وقت مجىء السبيل قال رسول الله - ﷺ - : (خذوا عنى خذوا عنى) إلى آخره . . تفسيرا للسبيل وبيانه .

ولم يكن ذلك ابتداء حكم منه ، وإنما هو بيان أمر كان ذكر السبيل منطويا عليه فأبان المبهم منه

(١) الاية ٢ من سورة النور

(٢) الحديث فى صحيح البخارى طبع الشعب فى (كتاب الشهادات) باب ماجاء فى الإصلاح بين الناس ج ٣ ص ٢٤١ : إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود .

وانظر صحيح مسلم تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقى (كتاب الحدود) باب : من اعترف على نفسه بالزنا ج ٣ ص ١٣٢٥ رقم ٢٥ / ١٦٩٧ - ١٦٩٨ .

(٣) أنظر صحيح البخارى طبع الشعب (كتاب الشهادات) باب : شهادة القاذف والسارق والزانى . . الخ ج ٣ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٤) الحديث فى صحيح مسلم فى (كتاب الحدود) باب حد الزنا ج ٣ ص ١٣١٦ رقم ١٢ / ١٦٩٠ .

وفصل المجمل من لفظه ، فكان نسخ الكتاب بالكتاب لا بالسنة وهذا أصوب القولين - والله أعلم .

وقد أخذ بالتغريب الخلفاء الراشدون ولم ينكره أحد ، فالصديق - رضى الله عنه - غرب إلى فدك ، والفاروق عمر - رضى الله عنه - إلى الشام ، وعثمان - رضى الله عنه - إلى مصر ، وعلى - رضى الله عنه - إلى البصرة .

والشافعية يرون أنه لاترتيب بين الجلد والتغريب فيقدم ماشاء منهما ، واشترط فى التغريب أن يكون إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ؛ لأن المقصود به الإيحاش عن أهله ووطنه ، وما دون مسافة القصر فى حكم الحضر ، فإن رأى الحاكم تغريبه إلى أكثر من ذلك فعل .

وإذا غربت المرأة فإنها لاتغرب إلا بمحرم أو زوج ، فلو لم يخرج إلا بأجرة لزمت وتكون من مالها .

(٢) وقال مالك والأوزاعى : يجب تغريب البكر الحر الزانى دون المرأة البكر الحرة الزانية فإنها لاتغرب ؛ لأن المرأة عورة

(٣) وقال أبو حنيفة : لايضم إلى الجلد التغريب إلا أن يرى الحاكم ذلك مصلحة فيغربهما على قدر مايرى .

حد المحصن :

وأما المحصن الثيب فقد اتفق الفقهاء على وجوب رجمه إذا زنى حتى يموت - رجلا كان أو امرأة - واستدلوا بما يأتى :

(١) عن أبى هريرة قال : أتى رجل لرسول الله - ﷺ - وهو فى المسجد ، فناداه فقال : يارسول الله : إنى زنيت ، فأعرض عنه ، ردد عليه أربع مرات ، فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى - ﷺ - فقال : (أبك جنون ؟) قال : لا , قال : (فهل أحصنت ؟) قال : نعم , فقال النبى - ﷺ - : (اذهبوا به فارجموه)

قال ابن شهاب : فأخبرنى من سمع جابر بن عبد الله قال : كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرة فرجمناه . متفق عليه[١] .

وهو دليل على أن الإحصان يثبت بالإقرار مرة ، وأن الجواب بنعم إقرار

(٢) وعن ابن عباس قال : خطب عمر فقال :

(إن الله - تعالى - بعث محمدا - ﷺ - بالحق .

وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا ، وإنى خشيت إن طال زمان أن يقول قائل : مانجد الرجم فى كتاب الله - تعالى - فيضلون بترك فريضة أنزلها الله - تعالى - فالرجم حق على من زنى من الرجال والنساء إذا كان محصنا ، إذا قامت البينة أو كان حمل أو اعتراف .

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الحدود) باب : من اعترف على نفسه بالزنا ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ رقم ١١٠٢

وايم الله لولا أن يقول الناس : (زاد عمر فى كتاب الله - تعالى - لكتبتها)
رواه الشيخان وأبو داود والنسائى[1] .

وفى نيل الأوطار :

أما الرجم فهو مجمع عليه ، وحكى فى البحر عن الخوارج أنه غير واجب ، وكذلك حكاه عنهم أيضا ابن العربى . وحكاه أيضا عن بعض المعتزلة كالنظام وأصحابه ولا مستند لهم ، إلا أنه لم يذكر فى القرآن ، وهذا باطل .

● إنه قد ثبت بالسنة المتواترة المجمع عليها وهو أيضا ثابت بنص القرآن لحديث عمر عند الجماعة أنه قال :

كان مما أنزل على رسول الله - ﷺ - آية الرجم فقرأناها ووعيناها ، ورجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده .

ونسخ التلاوة لايستلزم نسخ الحكم كما أخرج أبو داود من حديث ابن عباس .

وقد أخرج أحمد والطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة بن سهل عن خالته العجماء أن فيما أنزل الله من القرآن :

(الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة بما قضيا من اللذة)[2]

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى بن كعب بلفظ :

(كانت سورة الأحزاب توازى سورة البقرة وكان فيها آية (الشيخ والشيخة) الخ الحديث[3] .

شروط الإحصان :

يشترط فى المحصن الشروط الآتية :

(١) التكليف : أى أن يكون الواطىء عاقلا بالغا ، فلو كان مجنونا أو صغيرا فإنه لايحد ولكن يعزر .

(٢) الحرية : فلو كان عبدا أو أمة فلا رجم عليهما لقول الله سبحانه - فى حد الإماء :

﴿ **فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾[4] والرجم لايتجزأ .

(٣)الوطء فى نكاح صحيح : أى أن يكون الواطىء قد سبق له أن تزوج زواجا صحيحا ووطىء فيه ولو لم ينزل ، ولو كان فى حيض أو إحرام يكفى ، فإن كان الوطء فى نكاح فاسد فإنه لايحصل به الإحصان ، ولا يلزم بقاء الزواج لبقاء صيغة الإحصان ، فلو تزوج مرة زواجا صحيحا ودخل بزوجته ثم انتهت العلاقة الزوجية ثم زنى وهو غير متزوج فإنه يرجم ، وكذلك المرأة إذا تزوجت ثم طلقت

---

(١) ورد هذا الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الحدود) باب : رجم الثيب فى الزنا ص ٤٢٢ رقم ١١٠١

وانظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب : فى الرجم ج ٤ ص ١٤٤ ، ١٤٥ رقم ٤٤١٨

وأخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الحدود) باب : ماجاء فى تحقيق الرجم ج ٤ ص ٣٨ ، ٣٩ رقم ١٤٣٢

وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وروى من غير وجه عن عمر - رضى الله عنه .

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب الحدود) باب : نزول الحدود وماكان قبل ذلك ج ٦ ص ٢٦٥ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) ترتيب ابن بلبان الفارسى فى (كتاب الحدود) باب ذكر الأمر بالرجم للمحصنين إذا زنيا .. الخ ج ٦ ص ٣٠٢ حديث رقم ٤٤١٢

(٤) من الآية ٢٥ من سورة النساء

فزنت بعد طلاقها فإنها تعتبر محصنة فترجم .

المسلم والكافر سواء :

وكما يجب الحد على المسلم إذا ثبت منه الزنا فإنه يجب على الذمى والمرتد ، لأن الذمى قد التزم الأحكام التى تجرى على المسلمين ، وقد ثبت أن النبى - ﷺ - رجم يهوديين زنيا وكانا محصنين .

وأما المرتد فإن جريان أحكام الإسلام تشمله ، ولا يخرجه الارتداد عن تنفيذها عليه .

عن ابن عمر : (أن اليهود أتوا النبى - ﷺ - برجل وامرأة منهم قد زنيا .

فقال : ماتجدون فى كتابكم .

فقالوا : تسخم وجوههما ويخزيان .

قال : كذبتم إن فيها الرجم (فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين)

وجاءوا بقارىء لهم فقرأ حتى إذا أنتهى إلى موضع منها وضع يده عليه ، فقيل له : ارفع يدك ، فرفع يده فإذا هى تلوح . فقال - أو قالوا - : يامحمد ، (إن فيها الرجم ، ولكننا كنا نتكاتمه بيننا ، فأمر بهما رسول الله - ﷺ - فرجما . قال : فلقد رأيته يجنأ عليها يقيها الحجارة بنفسه)[1]

رواه البخارى ومسلم ، وفى رواية أحمد : (بقار لهم أعور يقال له ابن صوريا)

وعن جابر بن عبد الله قال : رجم النبى - ﷺ - رجلا من أسلم ورجلا من اليهود . رواه أحمد ومسلم[2]

● وعن البراء بن عازب قال :

(مر على النبى - ﷺ - يهودى محمم مجلود فدعاهم . فقال :

أهكذا تجدون حد الزنا فى كتابكم ؟ .. قالوا : نعم .. فدعا رجلا من علمائهم فقال : أنشدك بالله الذى أنزل التوراة على موسى ، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم ؟

قال : لا .. ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك بحد الرجم ، ولكن كثر فى أشرافنا ، وكنا إذا أخذنا الشريف تركناه ، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد .

فقلنا : تعالوا فلنجتمع على شىء نقيمه على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد ، مكان الرجم .

فقال النبى ﷺ :

(اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه) فأمر به فرجم ، فأنزل الله - عز وجل - :

(يأيها الرسول لايحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم) إلى قوله .

(إن أوتيتم هذا فخذوه)[3]

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما أتفق عليه الشيخان (كتاب الحدود) باب : رجم اليهود أهل الذمة فى الزنا ص ٤٢٤ رقم ١١٠٤

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الحدود) باب : رجم اليهود أهل الذمة فى الزنا ج ٣ ص ١٣٢٨ رقم ٢٨م/١٧٠١ وتمام الحديث : (رجم النبى - ﷺ - رجلا من أسلم ، ورجلا من اليهود وامرأته) وفى رواية : (وامرأة)

(٣) من الآية ٤١ من سورة المائدة .

يقولون : (ائتوا محمدا ؛ فإن أمركم بالتحميم والجلد فخذوه ، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا)
فأنزل الله - تبارك وتعالى - :
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾
﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾
قال : هى فى الكفارة كلها
رواه أحمد ومسلم وأبو داود[1] .

رأى الفقهاء : حكى صاحب البحر الإجماع على أنه يجلد الحربى

وأما الرجم فذهب الشافعى وأبو يوسف والقاسمية إلى أنه يرجم المحصن من الكفار إذا كان بالغا ، عاقلا ، حرا ، وكان أصاب نكاحا فى اعتقاده .

وذهب أبو حنيفة ومحمد وزيد بن على والناصر والإمام يحيى : إلى أنه يجلد ولا يرجم ؛ لأن الإسلام شرط فى الإحصان عندهم . ورجم رسول الله - ﷺ - لليهوديين إنما كان بحكم التوراة التى يدين بها اليهود .

وقال الإمام يحيى : والذمى كالحربى فى الخلاف .

وقال مالك : لاحد عليه .

وأما الحربى المستأمن فذهبت العترة والشافعى وأبو يوسف إلى أنه يحد ، وذهب مالك وأبو حنيفة ومحمد : إلى أنه لايحد .

وقد بالغ ابن عبد البر فنقل الاتفاق على أن شرط الإحصان الموجب للرجم هو الإسلام .

وتعقب بأن الشافعى وأحمد لايشترطان ذلك .

ومن جملة من قال بأن الاسلام شرط : ربيعة - شيخ مالك - وبعض الشافعية .

الجمع بين الجلد والرجم : -

ذهب ابن حزم وإسحق بن راهويه ومن التابعين الحسن البصرى :

إلى أن المحصن يجلد مائة جلدة ، ثم يرجم حتى يموت فيجمع له بين الجلد والرجم . واستدلوا بما رواه عبادة بن الصامت أن رسول الله - ﷺ - قال : (خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا :

البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم) رواه مسلم وأبو داود ، والترمذى[2]

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحدود) باب : حد الزنا ج ١١ ص ٢١٠
والحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : فى رجم اليهوديين ج ٤ ص ١٥٤ رقم ٤٤٤٨
وانظر مسند الإمام أحمد (مسند البراء بن عازب) ج ٤ ص ٢٨٦

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحدود) باب : حد الزنا ج ١١ ص ١٨٨ ، ١٩٠ وأخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : فى الرجم ج ٤ ص ١٤٤ رقم ٤٤١٥
والحديث فى الجامع الصحيح للترمذى فى (كتاب الحدود) باب : ماجاء فى الرجم على الثيب ج ٤ ص ٤١ رقم ١٤٣٤
قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وعن علي - كرم الله وجهه - أنه جلد شراحة يوم الخميس ورجمها يوم الجمعة .
فقال : أجلدها بكتاب الله ، وأرجمها بقول رسول الله - ﷺ .
وقال أبو حنيفة ومالك والشافعي : لايجتمع الجلد والرجم عليهما ، وإنما الواجب الرجم خاصة .
وعن أحمد . روايتان .
إحداهما : يجمع بينهما . وهي أظهر الروايتين واختارها الخرقي :
والأخرى : لايجمع بينهما ؛ لمذاهب الجمهور - واختارها ابن حامد .
واستدلوا بأن النبي - ﷺ - رجم ماعزا والغامدية واليهوديين ، ولم يجلد واحدا منهما .
وقال لأنيس الأسلمي : (فإن اعترفت فارجمها) ولم يأمر بالجلد وهذا آخر الأمرين .
لأن أبا هريرة قد رواه - وهو متأخر في الإسلام - فيكون ناسخا لما سبق من الحدين - الجلد والرجم - ثم رجم الشيخان أبو بكر وعمر في خلافتهما ولم يجمعا بين الجلد والرجم .
ويرى الشيخ الدهلوي عدم التعارض ، وأنه لاناسخ ولا منسوخ وإنما الأمر يفوض إلى الحاكم قال :
الظاهر عندي أنه يجوز للإمام (الحاكم) أن يجمع بين الجلد والرجم ، ويستحب له أن يقتصر على الرجم لاقتصار النبي - ﷺ - عليه .
والحكمة في ذلك أن الرجم عقوبة تأتي على النفس ، فأصل الزجر المطلوب حاصل به ، والجلد زيادة عقوبة مرخص في تركها فهذا هو وجه الاقتصار على الرجم عندي .
شروط الحد : - يشترط في إقامة حد الزنا مايلي :
١ - العقل
٢ - البلوغ
٣ - الاختيار
٤ - العلم بالتحريم
فلا حد على صغير ولا على مجنون ولا مكره : لما روته عائشة - رضي الله عنها - أن النبي - ﷺ - قال : (رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم وعن المجنون حتى يعقل)[1]

---

(١) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الطلاق) باب : طلاق المعتوه والصغير والنائم ج ١ ص ٦٥٨ رقم ٢٠٤١ وزاد : قال أبو بكر في حديثه : « وعن المبتلى حتى يبرأ »
وانظر سنن أبي داود (كتاب الحدود) باب : في المجنون يسرق أو يصيب حدا ج ٤ ص ٥٥٨ رقم ٤٣٩٨ وفي الباب عن ابن عباس ، وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما -
وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (مسند عائشة رضي الله عنها) ج ٦ ص ١٠٠ بلفظه ، وقال : وقد قال حماد : (وعن المعتوه حتى يعقل)
وأورد الترمذي حديث علي ج ٢ ص ٤٣٨ رقم ١٤٤٦ في (أبواب الحدود) باب ماجاء فيمن لا يجب عليه الحد ، ثم قال : وفي الباب عن عائشة
وانظر المستدرك للحاكم (كتاب البيوع) ج ٢ ص ٥٩ وقال الحاكم : حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في التلخيص .

رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم ، وقال : صحيح على شرط الشيخين وحسنه الترمذى ،

وأما العلم بالتحريم فلأن الحد يتبع اقتراف الحرام وهو غير مقترف له ، وراجع النبى - ﷺ - ماعزا ، فقال له : هل تدرى ما الزنا ؟

وروى أن جارية سوداء رفعت إلى عمر - رضى الله عنه - وقيل : إنها زنت ، فخفقها بالدرة خفقات وقال :

(أى : لكاع .. زنيت ؟ .. فقالت : من غوش بدرهمين

فقال عمر : ماترون ؟ .. وعنده على وعثمان وعبد الرحمن بن عوف .

فقال على - رضى الله عنه - : أرى أن ترجمها .

وقال عبد الرحمن : أرى مثل مارأى أخوك ..

فقال عثمان : أراها تستسهل بالذى صنعت ، لاترى به بأسا ، وإنما حد الله على من علم أمر الله - عز وجل - فقال : صدقت .

بم يثبت الحد :

يثبت الحد بأحد أمرين .

الإقرار ، أو الشهود .

ثبوته بالإقرار :-

أما الإقرار فهو كما يقولون « سيد الأدلة » وقد أخذ الرسول - ﷺ - باعتراف ماعز والغامدية ولم يختلف فى ذلك أحد من الأئمة ، وإن كانوا قد اختلفوا فى عدد مرات الإقرار الذى يلزم به الحد .

فقال مالك والشافعى ، وداود ، والطبرى ، وأبو ثور : يكفى فى لزوم الحد اعترافه به مرة واحدة ، لما رواه أبو هريرة وزيد بن خالد أن رسول الله - ﷺ - قال :

(اغد يا أنيس على امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها)

فاعترفت ؛ فرجمها ، ولم يذكر عددا .

وعند الأحناف : أنه لابد من أقارير أربعة مرة بعد مرة فى مجالس متفرقة .

ومذهب أحمد وإسحاق مثل الأحناف ، إلا أنهم لايشترطون المجالس المتفرقة ، والمذهب الأول هو الأرجح .

الرجوع عن الإقرار يسقط الحد :-

ذهبت الشافعية ، والحنفية ، وأحمد إلى أن الرجوع عن الإقرار يسقط الحد لما رواه أبو هريرة عند أحمد والترمذى .

(أن ماعزا لما وجد مس الحجارة يشتد فرحتى مر برجل معه لحى جمل (عظم الحنك) فضربه به وضربه الناس حتى مات . فذكروا ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : (هلا تركتموه !!)[1]

قال الترمذى : إنه حديث حسن .

وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة .. انتهى

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب الحدود) باب ماجاء فى درء الحد عن المعترف إذا رجع ج ٢ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ رقم ١٤٥٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن

وأخرج أبو داود والنسائى من حديث جابر نحوه ، وزاد : (إنه لما وجد مس الحجارة صرخ : ياقوم ردونى إلى رسول الله - ﷺ - فإن قومى قتلونى وغرونى من نفسى وأخبرونى أن رسول الله غير قاتلى .

فلم ننزع عنه حتى قتلناه ، فلما رجعنا إلى رسول الله - ﷺ - وأخبرناه قال : (فهلا تركتموه وجئتمونى به !! ؟)(١) .

من أقر بزنا امرأة فجحدت : -

إذا أقر الرجل بزنا امرأة معينة فجحدت فإنه يقام عليه الحد وحده ، ولا تحد هى لما رواه أحمد وأبو داود عن سهل بن سعد : أن رجلا جاء إلى النبى - ﷺ - فقال : إنه قد زنى بامرأة سماها ، فأرسل النبى - ﷺ - إلى المرأة فدعاها فسألها فأنكرت ، فحده وتركها)(٢)

وهذا الحد هو حد الزنا الذى أقربه ، لاحد قذف المرأة كما ذهب إليه مالك والشافعى .

وقال الأوزاعى وأبو حنيفة : يحد للقذف فقط لأن إنكارها شبهة واعترض على هذا الرأى بأن إنكارها لايبطل إقراره .

وذهبت الهادوية ومحمد ويروى عن الشافعى أنه يحد للزنا والقذف ؛ لما رواه أبو داود والنسائى عن ابن عباس :

أن رجلا من بكر بن ليث أتى النبى - ﷺ - فأقر أنه زنى بامرأة أربع مرات ، فجلده مائة - وكان بكرا - ثم سأله البينة على المرأة فقالت : كذب يارسول الله ؛ فجلده حد الفرية ثمانين (٣)

ثبوته بالشهود : - الاتهام بالزنا سيء الأثر فى سقوط الرجل والمرأة ، وضياع كرامتهما وإلحاق العار بهما وبأسرتهما وذريتهما ، ولهذا شدد الإسلام فى إثبات هذه الجريمة حتى يسد السبيل على الذين يتهمون الأبرياء - جزافا أو لأدنى حزازة - بعار الدهر وفضيحة الأبد ، فاشترط فى الشهادة على الزنا الشروط الآتية :

أولا : - أن يكون الشهود أربعة - بخلاف الشهادة على سائر الحقوق - قال الله تعالى - :

﴿ واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ﴾

ولقوله : -

﴿ والذين يرمون المحصنات ؛ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ﴾

فإن كانوا أقل من أربعة لم تقبل .

وهل يحدون إذا شهدوا : -

---

(١) وقد أورد أبو داود حديث جابر بن عبد الله - رضى الله عنه - فى (كتاب الحدود) باب : رجم ماعز بن مالك ج ٤ ص ٥٧٦ رقم ٤٤٢٠ ثم قال جابر لسائله : ليستثبت رسول الله - ﷺ - منه ، فأما لترك حد فلا .
قال السائل : فعرفت وجه الحديث .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد (حديث أبى مالك سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه) ج ٥ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ والحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحدود) باب : رجم ماعز بن مالك ج ٤ ص ٥٨٦ رقم ٤٤٣٧

(٣) انظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب : إذا أقر الرجل بالزنا ولم تقر المرأة ج ٤ ص ٦١١ رقم ٤٤٦٧
قال المحقق : ونسبه المنذرى للنسائى ، وقال - أى : النسائى - : هذا حديث منكر

قال الأحناف ، ومالك ، والراجح من مذهب الشافعى وأحمد : نعم .. لأن عمر حد الثلاثة الذين شهدوا على المغيرة . وهم : أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد .

وقيل : لايحدون حد القذف ؛ لأن قصدهم أداء الشهادة لاقذف المشهود عليه . وهو المرجوح عند الشافعية والحنفية ومذهب الظاهرية .

باللفظ الصريح لايكنى . قال : نعم .. قال : كما يغيب المرود فى المكحلة والرشا فى البئر؟ . قال : نعم .. »

وإنما أبيح النظر فى هذه الحالة للحاجة إلى الشهادة ، كما أبيح للطبيب والقابلة ونحوهما .

ثانيا : التصريح : وأن يكون التصريح بالإيلاج لا بالكناية

ثالثا : اتحاد المجلس : ويرى جمهور الفقهاء أن من شرط هذه الشهادة اتحاد المجلس بألا يختلف فى الزمان ولا فى المكان ، فإن جاءوا متفرقين لاتقبل شهادتهم .

ويرى الشافعية والظاهرية ، والزيدية عدم اشتراط هذا الشرط ، فإن شهدوا مجتمعين أو متفرقين فى مجلس واحد أو فى مجالس متفرقة ؛ فإن شهادتهم تقبل ؛ لأن الله ـ تعالى ـ ذكر الشهود ولم يذكر المجلس ، ولأن كل شهادة مقبولة تقبل إن اتفقت ، ولو تفرقت فى مجالس ، كسائر الشهادات .

رابعا : الذكورة : ويشترط فى شهود الز نى أن يكونوا جميعا من الرجال ، ولا تقبل شهادة النساء فى هذا الباب .

ويرى ابن حزم أنه يجوز أن يقبل فى الزنا شهادة امرأتين مسلمتين عدلين مكان كل رجل . فيكون الشهود ثلاثة رجال وامرأتين ـ أو رجلين وأربع نسوة ـ أو رجلا واحدا وست نسوة ـ أو ثمانى نسوة لارجال معهن .

: ـ عدم التقادم : لقول عمر ـ رضى الله عنه ـ : أيما قوم شهدوا على حد لم يشهدوا عند حضوره فإنما شهدوا عن ضغن ولا شهادة لهم .

فإذا شهد الشهود على حادث الزنا بعد أن تقادم فإن شهادتهم لاتقبل عند الأحناف ، ويحتجون لهذا بأن الشاهد إذا شهد الحادث فخير بين أداء الشهادة حسبة ، وبين التستر على الجانى ، فإذا سكت عن الحادث حتى قدم عليه العهد دل ذلك على اختيار جهة الستر ، فإذا شهد بعد ذلك فهو دليل على أن الضغينة هى التى حملته على الشهادة . ومثل هذا لاتقبل شهادته للتهمة والضغينة ، كما قال عمر ، ولم ينقل أن أحدا أنكر عليه هذا القول ، فيكون إجماعا .

وهذا مالم يكن هناك عذر يمنع الشاهد من تأخير الشهادة ، فإن كان هناك عذر ظاهر فى تأخير الشهادة كبعد المسافة عن محل التقاضى ، وكمرض الشاهد ونحو ذلك من الموانع فإن الشهادة تقبل حينئذ ولاتبطل بالتقادم .

والأحناف الذين قالوا بهذا الشرط لم يقدروا له أمدا ؛ بل فوضوا الأمر للقاضى يقدره تبعا لظروف كل حالة لتعذر التوقيت ، نظرا لاختلاف الأعذار .

وبعض الأحناف قدر التقادم بشهر ، وبعضهم قدره بستة أشهر .

أما جمهور الفقهاء من المالكية والشافعية والظاهرية .. والشيعة والزيدية . فإن التقادم عندهم

لايمنع من قبول الشهادة مهما كانت متأخرة .

وللحنابلة رأيان : رأى مثل أبى حنيفة ، ورأى مثل الجمهور .

هل يثبت الحد بالحبل ؛

ذهب الجمهور إلى أن مجرد الحبل لايثبت به الحد ، بل لابد من الاعتراف أو البينة . واستدلوا على هذا بالأحاديث الواردة فى درء الحدود بالشبهات .

وعن على أنه قال لامرأة حبلى :

(أستكرهت ؟؟؟ قالت : لا .. قال : فلعل رجلا أتاك فى نومك ..)

قالوا : وروى الأثبات عن عمر أنه قبل قول امرأة ادعت أنها ثقيلة النوم وأن رجلا طرقها ولم تدر من هو بعد .

وأما مالك وأصحابه فقالوا :

إذا حملت المرأة ولم يعلم لها زوج ولم يعلم أنها أكرهت فإنها تحد ، •

قالوا : فإن ادعت الإكراه فلابد من الإتيان بأمارة تدل على استكراهها مثل أن تكون بكرا فتأتى وهى تدمى ، أو تفضح نفسها بأثر الاستكراه .

وكذلك إذا ادعت الزوجية فإن دعواها لاتقبل إلا أن تقيم على ذلك البينة .

واستدلوا لمذهبهم بقول عمر :ـ

الرجم واجب على كل من زنى من الرجال والنساء إذا كان محصنا ، إذا كانت بينة أو الحمل أو الاعتراف .

وقال على : (يأأيها الناس إن الزنا زنيان : زنا سر وزنا علانية ، فزنا السر أن يشهد الشهود . فيكون الشهود أول من يرى .

وزنا العلانية أن يظهر الحبل ، والاعتراف) .

قالوا : هذا قول الصحابة ولم يظهر لهم مخالف فى عصرهم فيكون إجماعا .

سقوط الحد بظهور مايقطع بالبراءة :ـ

إذا ظهر بالمرأة أو بالرجل مايقطع بأنه لم يقع من أحد منهما زنا ؛ كأن تكون المرأة عذراء لم تفض بكارتها ، أورتقاء مسدودة الفرج . أو يكون الرجل مجبوبا أو عنينا سقط الحد .

وقد بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عليا لقتل رجل كان يدخل على إحدى النساء ، فذهب فوجده يغتسل فى ماء فأخذ بيده فأخرجه من الماء ليقتله فرآه مجبوبا فتركه ورجع إلى النبى ـ ﷺ ـ وأخبره بذلك .

الولد يأتى لستة أشهر :ـ

إذا تزوجت المرأة وجاءت بولد لستة أشهر منذ تزوجت فلا حد عليها .

قال مالك : بلغنى أن عثمان بن عفان أتى بامرأة قد ولدت فى ستة أشهر فأمر بها أن ترجم ، فقال له على بن أبى طالب : ليس ذلك عليها ، إن الله تبارك وتعالى يقول فى كتابه :

﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾

وقال :

﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾

فالحمل يكون بستة أشهر ، فلا رجم عليها ، فبعث عثمان فى أثرها فوجدها قد رجمت .

وقت إقامة الحد :

قال فى بداية المجتهد : -

وأما الوقت فإن الجمهور على أنه لايقام فى الحر الشديد ولا فى البرد ، ولايقام على المريض .

وقال قوم : يقام - وبه قال أحمد وإسحق - واحتجا بحديثى عمر أنه أقام الحد على قدامة وهو مريض . قال : وسبب الخلاف معارضة الظواهر للمفهوم من الحد ، وهو أنه حيث لايغلب على ظن المقيم له فوات نفس المحدود .

فمن نظر إلى الأمر بإقامة الحدود مطلقا من غير استثناء قال : يحد المريض ، ومن نظر إلى المفهوم من الحد قال : لايحد المريض حتى يبرأ ، وكذلك الأمر فى شدة الحر والبرد .

وقال الشوكانى : وقد حكى فى البحر الإجماع على أنه يمهل البكر حتى تزول شدة الحر والبرد ، والمرض المرجو برؤه ، فإن كان ميئوسا ؟ فقال الهادى وأصحاب الشافعى :

إنه يضرب بعثكول إن احتمله .

وقال الناصر والمؤيد بالله : لايحد فى مرضه وإن كان ميئوسا ، والظاهر الأول ، لحديث أبى أمامة ابن سهل بن حنيف الآتى .

وأما المرجو إذا كان مريضا أو نحوه فذهبت العترة . والشافعية والحنفية ومالك إلى أنه لايمهل لمرض ولا لغيره ؛ إذ القصد إتلافه .

وقال المروزى :

يؤخر لشدة الحر أو البرد أو المرض ؛ سواء ثبت بإقراره أو بالبينة .

وقال الإسفراييني : يؤخر للمرض فقط ، وفى الحر والبرد أوجه : يرجم فى الحال أو حيث يثبت بالبينة لا الإقرار، أو العكس .

والحبلى لاترجم حتى تضع وترضع ولدها إن لم يوجد من يرضعه .

وعن على قال : (إن أمة لرسول الله - ﷺ - زنت ، فأمرنى أن أجلدها فإذا هى حديثة عهد بنفاس فخشيت أن أجلدها أن أقتلها ، فذكرت ذلك للنبى - ﷺ - فقال : أحسنت . . اتركها حتى تماثل) .

رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وصححه[1]

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند على بن أبى طالب ، رضى الله عنه) ج ١ ص ١٥٦ فقد أورده ضمن خطبة لعلى - كرم الله وجهه .

وأخرج الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الجدود) باب : تأخير الحد عن النفساء ج ٣ ص ١٣٣٠ رقم ١٧٠٥/٣٤

وأورده أبو داود فى (كتاب الحدود) باب : إقامة الحد على المريض ج ٤ ص ٦١٧ رقم ٤٤٧٣ مع اختلاف فى اللفظ .

ورواه الترمذى عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على فى (أبواب الحدود) باب : ماجاء فى إقامة الحد على الإماء ج ٢ ص ٤٤٨ رقم ١٤٦٨

قال الترمذى : هذا حديث صحيح .

الحفر للمرجوم : ـ اختلفت الأحاديث الواردة فى الحفر للمرجوم فبعضها مصرح فيه بالحفر له ، وبعضها لم يصرح به .

قال الإمام أحمد : أكثر الأحاديث على أنه لاحفر ، ولاختلاف ماورد من أحاديث ، اختلف الفقهاء .

فقال مالك وأبو حنيفة : لايحفر للمرجوم .

وقال أبو ثور : يحفر له .

وروى عن على أنه حين أمر برجم شراحة الهمدانية أخرجها فحفر لها حفرة فأدخلت فيها وأحدق الناس بها يرمونها .

وأما الشافعى فخير فى ذلك ، وروى عنه أنه يحفر للمرأة خاصة .

وذهبت العترة إلى أنه يستحب الحفر إلى سرة الرجل وثدى المرأة ويستحب جمع ثيابها عليها وشدها بحيث لاتنكشف عورتها فى تقلبها . وتكرار اضطرابها إذا لم يحفر لها .

واتفق العلماء على أنه لاترجم إلا قاعدة ، وأما الرجل فجمهورهم على أنه يرجم قائما .

وقال مالك : قاعدا ، وقال غيره : يخير الإمام بينهما .

حضور الإمام والشهود الرجم :

قال فى نيل الأوطار :

حكى صاحب البحر عن العترة والشافعى أنه لايلزم الإمام حضور الرجم وهو الحق ، لعدم دليل يدل على الوجوب ، ولما تقدم من حديث ماعز أنه ـ ﷺ ـ أمر برجم ماعز ولم يخرج معهم ، والزنى منه ثبت بإقراره وكذلك لم يحضر فى رجم الغامدية كما يزعم البعض .

قال فى التلخيص : لم يقع فى طرق الحديثين أنه حضر بل فى بعض الطرق مايدل على أنه لم يحضر ، وقد جزم بذلك الشافعى فقال :

«وأما الغامدية ففى سنن أبى داود وغيره ، مايدل على ذلك ، وإذا تقرر هذا تبين عدم الوجوب على الشهود ولا على الإمام ، وأما الاستحباب فقد حكى ابن دقيق العيد أن الفقهاء استحبوا أن يبدأ الإمام بالرجم إذا ثبت الزنى بالإقرار وتبدأ الشهود به إذا ثبت بالبينة .»

شهود طائفة من المؤمنين الحد : ـ

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾(١) .

استدل العلماء بهذه الآية على أنه يستحب أن يشهد إقامة الحد طائفة من المؤمنين واختلفوا فى عدد هذه الطائفة ، فقيل : أربعة ، وقيل : ثلاثة ، وقيل : اثنان . وقيل : سبعة فأكثر .

الضرب فى حد الجلد : ـ

ذهب أبو حنيفة والشافعى إلى أنه يضرب سائر الأعضاء ماعدا الفرج والوجه وماعدا الرأس

---

(١) الآية رقم ٢ من سورة النور

كذلك عند أبى حنيفة . وقال مالك : يجرد الرجل فى ضرب الحدود كلها،وكذلك عند الشافعى ، وأبى حنيفة ماعدا القذف .

ويضرب قاعدا لا قائما .

قال النووى : قال أصحابنا : وإذا ضربه بالسوط يكون سوطا معتدلا فى الحجم ، بين القضيب والعصا . فإن ضربه بجريدة فلتكن خفيفة بين اليابسة والرطبة ، ويضربه ضربا بين ضربيه ، فلايرفع يده فوق رأسه ، ولا يكتفى بالوضع ، بل يرفع ذراعه رفعا معتدلا .

إمهال البكر : ـ تمهل البكر حتى تزول شدة الحر والبرد ، وكذلك المرجو الشفاء . فإن كان ميئوسا من شفائه فقال أصحاب الشافعى :

إنه يضرب بعثكول إن احتمله (العذق من أعذاق النخل)

روى أبو داود وغيره عن رجل من الأنضار : أنه اشتكى رجل منهم حتى أضنى (شدة الإجهاد من المرض) فعاد جلده على عظم .

فدخلت عليه جارية لبعضهم ؟ فهش لها فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال قومه يعودونه أخبرهم بذلك ، وقال : استفتوا لى رسول الله ﷺ فإنى قد وقعت على جارية دخلت على ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ وقالوا : مارأينا بأحد من الناس من الضر مثل الذى هو به ، لو حملناه إليك لتفسخت عظامه ، ماهو إلا الجلد على عظم .

فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه به ضربة واحدة .(١) .

هل للمجلود دية إذا مات ؟ : ـ

إذا مات المجلود فلا دية له .

قال النووى فى شرح مسلم :

(أجمع العلماء على أن من وجب عليه الحد فجلده الإمام أو جلاده الحد الشرعى فمات فلا دية فيه ولا كفارة ، لا على الإمام « الحاكم » ولا على جلاده ، ولا فى بيت المال).

قوله تعالى

﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

ثمة فرق كبير بين الزواج ، والعملية التناسلية :

فإن الزواج هو نواة المجتمع وأصل وجوده ، وهو القانون الطبيعى الذى يسير العالم على نظامه ، والسنة الكونية التى تجعل للحياة قيمة وتقديرا وأنه هو الحنان الحقيقى والحب الصحيح ، وهو التعاون فى الحياة والاشتراك فى بناء الأسرة وعمار العالم .

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الحدود) باب : اقامة الحد على المريض ج ٤ ص ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ رقم ٤٤٧٢ .

غاية الإسلام من تحريم نكاح الزنى : ـ

والإسلام لم يرد للمسلم أن يلقى بين أنياب الزانية ولا للمسلمة أن تقع فى يد الزانى ، وتحت تأثير روحه الدنيئة ، وأن تشاركه تلك النفس السقيمة ، وأن تعاشر ذلك الجسم الملوث بشتى الجراثيم ، المملوء بمختلف العلل والأمراض .

والإسلام ـ فى كل أحكامه وأوامره وفى كل محرماته ونواهيه ـ لايريد غير إسعاد البشر والسمو بالعالم إلى المستوى الأعلى الذى يريد الله أن يبلغه الجنس البشرى .

الزناة ينبوع لأخطر الأمراض : ـ

وكيف يسعد الزناة فى دنياهم وهم ينبوع لأخطر الأمراض وأشدها فتكا بهم وأكثرها تغلغلا فى جميع أعضائهم ؟ !!

ولعل الزهرى والسيلان من الأمراض التناسلية التى تجعل ـ وحدها ـ الزناة شرا مستطيرا يجب اقتلاعه من العالم وخلعه من الأرض .

وكيف تسعد إنسانية فيها مثل هؤلاء الزناة . ينقلون أمراضهم النفسية إلى نسلهم ، وينقلون مع هذه الأمراض النفسية أمراض الزهرى الوراثى ؟

بل كيف تسعد عائلة تلد أطفالا مشوهى الخلق والخلق بسبب الالتهابات التى تصيب الأعضاء التناسلية أو العلل التى تطرأ عليها .

وجه الشبه بين الزناة والمشركين : ـ

والمسلم المتأدب بأدب القرآن الكريم ، المتبع لسنة أفضل الخلق سيدنا محمد رسول الله ﷺ لا يمكن أن يعيش مع زانية لاتفكر تفكيره ولا يستطيع أن يعاشر امرأة لاتحيا حياته المستقيمة ، ولايستطيع الارتباط برابطة الزواج مع كائنة لاتشعر شعوره ، وهو يعلم أن الله ـ تعالى ـ قال عن الزواج :

﴿ خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾(١)

فأين المودة التى تحصل بين المسلم والزانية ؟ . . وأين نفس الزانية من تلك النفس التى تسكن إليها نفس المؤمن الصحيح الإيمان ؟

وإن المسلم الذى لايستطيع نكاح الزانية ـ كما بينا لفساد نفسها وشذوذ عاطفتها ـ لايمكن كذلك أن يعيش مع مشركة لاتعتقد اعتقاده ولاتؤمن إيمانه ، ولا ترى فى الحياة مايراه .

لاتحرم مايحرمه عليه دينه من الفسق والفجور .

ولا تعترف بالمبادىء الإنسانية السامية التى ينص عليها الإسلام .

لها عقيدتها الضالة واعتقاداتها الباطلة .

لها التفكير البعيد عن تفكيره ، والعقل الذى لايمت إلى عقله بصلة ، ولذلك قال الله تعالى ـ :

﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولاتنكحوا المشركين

---

(١) من الآية ٢١ من سورة الروم

حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ، أولئك يدعون إلى النار ، والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ﴾[1]

التوبة تجب ماقبلها

فإن تاب كل من الزانى والزانية توبة نصوحا بالاستغفار والندم والإقلاع عن الذنب واستأنف كل منهما حياة نظيفة مبرأة من الإثم ومطهرة من الدنس فإن الله يقبل توبتهما ويدخلهما برحمته فى عباده الصالحين .

﴿ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولايزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾[2]

سأل رجل ابن عباس فقال : إنى كنت ألم بامرأة ؛ آتى منها ماحرم الله على ، فرزق الله - عز وجل - من ذلك توبة فأردت أن أتزوجها .

فقال أناس :

إن الزانى لاينكح إلا زانية أو مشركة

فقال ابن عباس :

ليس هذا فى هذا ، انكحها فما كان من إثم فعلىَّ .

رواه ابن أبى حاتم .

وسئل ابن عمر عن رجل فجر بامرأة .. أيتزوجها ؟

قال : إن تابا وأصلحا .

وأجاب بمثل هذا جابر بن عبد الله ، وروى ابن جرير أن رجلا من أهل اليمن أصابت أخته فاحشة فأمرت الشفرة على أوداجها ، فأدركت ، فداووها حتى برأت .

ثم إن عمها انتقل بأهله حتى قدم المدينة فقرأت القرآن ونسكت حتى كانت من أنسك نسائهم .

فخطبت إلى عمها وكان يكره أن يدلسها ويكره أن يغش على ابنة أخيه .

فأتى عمر فذكر ذلك له . فقال عمر :

لو أنشبت عليها لعاقبتك ، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه .

وفى رواية أن عمر قال : أتخبر بشأنها ؟ .. تعمد إلى ماستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ، بل أنكحها بنكاح العفيفة المسلمة .

وقال عمر : لقد هممت الا أدع أحدا أصاب فاحشة فى الإسلام أن يتزوج محصنة .

فقال له أبى بن كعب : ياأمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

ويرى أحمد أن توبة المرأة تعرف بأن تراود عن نفسها ، فإن أجابت ، فتوبتها غير صحيحة ، وإن امتنعت فتوبتها صحيحة .

---

(١) الآية ٢٢١ من سورة البقرة .
(٢) الآيات : ٦٨ - ٧٠ من سورة الفرقان .

وقد تابع فى ذلك ماروى عن ابن عمر .

ولكن أصحابه قالوا :

لاينبغى لمسلم أن يدعو امرأة إلى الزنى ويطلبه منها ؛ لأن طلبه ذلك منها إنما يكون فى خلوة ، ولا تحل الخلوة بأجنبية ولو كان فى تعليمها القرآن ، فكيف يحل فى مراودتها على الزنى ؟

ثم لايأمن إن أجابته إلى ذلك أن تعود إلى المعصية فلا يحل التعرض لمثل هذا ؛ لأن التوبة من سائر الذنوب وفى حق سائر الناس وبالنسبة إلى سائر الحكام على غير هذا الوجه ؛ فكذلك يكون هذا .

وإلى هذا ذهب الإمام أحمد ، وابن حزم ، ورجحه ابن تيمية وابن القيم إلا أن الإمام أحمد ضم إلى التوبة شرطا آخر ، وهو انقضاء العدة فمتى تزوجها قبل التوبة أو انقضاء عدتها ، كان الزواج فاسدا ويفرق بينهما .

وهل عدتها ثلاث حيض أو حيضة ؟ .. روايتان عنه .

ومذهب الحنفية والشافعية والمالكية ؛ أنه يجوز للزانى أن يتزوج الزانية ، والزانية يجوز لها أن تتزوج الزانى .

فالزنى لايمنع عندهم صحة العقد .

قال ابن رشد : (وسبب اختلافهم فى مفهوم قوله ـ تعالى ـ :

﴿ والزانية لاينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين ﴾

هل خرج مخرج الذم أو مخرج التحريم ؟

وهل الإشارة فى قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ إلى الزنى أو النكاح ؟

وإنما صار الجمهور لحمل الآية على الذم لا على التحريم لما جاء فى الحديث : أن رجلا قال للنبى ﷺ فى زوجته :

إنها لاترديد لامس

فقال له النبى ـ ﷺ ـ :

(طلقها) فقال له : إنى أحبها : فقال له : (أمسكها)[1]

قال أحمد :

هذا الحديث منكر ، وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات . وأورد أبو عبيد على هذا الحديث أنه خلاف الكتاب والسنة المشهورة ؛ لأن الله إنما أذن فى نكاح المحصنات خاصة ، ثم أنزل فى المقذوفات آية اللعان ، وسن رسول الله التفريق بينهما فلا يجتمعان أبدا .

فكيف يأمر بالإقامة على عاهر لاتمتنع ممن أرادها ؟ ! والحديث مرسل ، وقال ابن القيم : عورض بهذا الحديث لتشابه الأحاديث المحكمة الصريحة فى المنع من تزويج البغايا .

---

(١) الحديث فى الموضوعات لابن الجوزى فى « كتاب النكاح » باب ثبوت الرجل مع المرأة الفاجرة ـ الجزء الثانى ص ٢٧٢ . قال : وقد رواه عبيد بن عمير وحسان ابن عطية كلاهما عن رسول الله ﷺ مرسلا ، وقد حمله أبو بكر الخلال على الفجور ، ولايجوز هذا ، وإنما يحمل على تفريطها فى المال لوصح الحديث ،
قال احمد بن حنبل : هذا الحديث لايثبت عن رسول الله ﷺ ليس له أصل

ثم إن المجوزين اختلفوا فى زواجها فى عدتها :

فمنعه « مالك » احتراما لماء الزوج وصيانة لاختلاط النسب الصريح لولد الزنى، وذهب أبو حنيفة والشافعى إلى أنه يجوز العقد عليها من غير انقضاء عدة ، ثم إن الشافعى يجوز العقد وإن كانت حاملا لأنه لاحرمة لهذا الحمل .

وقال أبو يوسف ورواية عن أبى حنيفة :

لايجوز العقد عليها حتى تضع الحمل لئلا يكون الزوج قد سقى ماءه زرع غيره ،

ونهى رسول الله ﷺ (أن توطأ المسبية الحامل حتى تضع)

مع أن حملها مملوك له .

فالحامل من الزنى أولى ألا توطأ حتى تضع ؛ لأن ماء الزانى وإن لم يكن له حرمة ؛ فماء الزوج محترم ، فكيف يسوغ له أن يخلطه بماء الفجور ؟

ولأن النبى ﷺ هم بلعن الذى يريد أن يطأ أمته الحامل من غيره وكانت مسبية مع انقطاع الولد عن أبيه وكونه مملوكا له .

وقال أبو حنيفة فى الرواية الأخرى : يصح العقد عليها ولكن لاتوطأ حتى تضع .

أضرار الزنى

قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : لأنه ماأمر بشىء وقال العقل : ليته ماأمر ، ومانهى عن شىء وقال العقل : ليته مانهى ، ومن ثم فإن الإسلام لما نهى عن هذا المرض الخطير وهو الزنى عقب على ذلك بقوله ـ تعالى ـ :

﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ ومن هذا المنطلق فإننا قد رأينا تتمة للفائدة أن نسجل هذا البحث القيم الذى جاء فى كتاب (القرآن والطب) للدكتور : محمد وصفى. طبعة ١٩٦٠

بدأ المؤلف بحثه بقوله ـ جل شأنه ـ : ﴿ ولاتقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾(١) .

وسنتكلم عن أضرار الزنى من الناحية الطبية لترى ماتجره هذه الفاحشة على مرتكبيها من المصائب التى لايزال العالم يرزح تحت عبئها والتى تنخر عظام الإنسانية كما ينخر السوس فى مادة الخشب .

الزهرى

ومن هذه المصائب الزهرى ، وحين أتكلم عن الزهرى إنما أتكلم عن ثالث مرض فى العالم منوط به إزهاق النفوس وتضييع الأرواح ، وأول مرض لايريح المصاب بالموت حتى يتركه بحال يفتت الأكباد ، ويذيب الأفئدة ، ممثلا به شر تمثيل .

هذا الداء ينتشر فى العالم انتشار فاحشة الزنى، وتجد الإصابة به فى لندن وحدها حوالى ١٠ ٪ أى : أن عدد المصابين يبلغ الستمائة ألف شخص ، وفى برلين ١٢ ٪ وفى عاصمة فرنسا ١٥ ٪ ولقد وجد أنه فى جوتنبرج التى يبلغ عدد سكانها ١٣٨١٣٠ نفسا يبلغ عدد المصابين ٤٧٠٠٠ شخص ، وقال العلامة بنكش : إنه فى ألمانيا بأجمعها تجد فى كل خمسة رجال رجلين مصابين بهذا الداء ، وفى الولايات

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الإسراء

المتحدة الأمريكية ٣٠٠٠ شخص يقضى عليهم هذا الداء سنويا .

أما فى مصر فلقد وجد أنه فى سنة ١٩١٣ تردد على الأربع عشرة عيادة سرية ٢٥٠ ألف زان مريض بالزهرى ، والمعروف أن عدد المصابين فى القطر المصرى لايقل عددهم عن المليونين ، ولايغيب عن البال أن المصابين الذين لاتبلغ إصابتهم إلى الجهات المختصة لايعلم عددهم غير الله تعالى .

هذا المرض يعدى بمجرد اللمس عن طريق الزنى ، أو بمجرد تقبيل المصاب لغيره أو ملامسته ، وتسببه جرثومة خاصة تسمى (الإسبيروشيف باليدا) وتستطيع أن تلمس حقيقة هذا المرض إذا علمت أنه لايترك جزءا من أجزاء الجسم حتى يترك فيه آثاره ، ولايدع فيه جهازا حتى يعطل عمله ويفسد وظيفته ، وسوف ترى حين نتكلم عن الزهرى الوراثى أن الإصابة تنتقل إلى نسل المصابين .

وستعلم كيف يحمل الزناة إلى ذريتهم أخبث الهدايا وأشنع الأمراض .

إن ظهور القرحة التآكلية أو التقرحية فى موضع الإصابة ماهو إلا الإنذار الخطير بغزو الجراثيم لجميع أجزاء الجسم عن طريق الأوعية الدموية والليمفاوية جميعا ، ومن ثم يحمر الجلد ويأخذ الاحمرار شكل دوائر وردية لاتلبث أن تأخذ شكلا خاصا يتحول إلى مايسمى بالزهريات الحبيبية بجميع أشكالها وأنواعها ، أو تتحول إلى حويصلات زهرية ، فزهريات مللية ، والزهريات الحبيبية لاتلبث أن تتقيح سريعا حتى تكون الربيا الزهرية .

ويظهر كل ذلك مع تضخم لايلبث أن يعم غدد الجسم الليمفاوية التى تتقيح سريعا إذا ماوصلتها الجراثيم العنقودية والسبحية .

وتصيب جلود المرضى بالزهرى مظاهر مشوهة لهذا الداء العضال تعم جميع سطح الجسم : كالطفح الزهرى الحبيبى والثعبانى والنكسى والعقدى وكالصلع والبهق الزهريين ، وذلك بجانب إصابة الأظافر وجعلها مشوهة هشة سهلة الكسر مثقوبة القاعدة ، وكذلك الأنسجة المحيطة بها لاتنجو من الالتهاب الدامى الزهرى ، بل هنالك القروح العميقة ، والأورام الصمغية التى تتغلغل فى الجلد حتى تكشف عن العظام وأربطة العضلات ، وتنتشر فى السطح الوحشى للساقين وخلف الفخذين والاليتين وخلف الساعدين والمرفقين والسطح الوحشى للركبتين والسطح الخارجى للكتف وخلف اليدين وفى السطح الأعلى للقدمين وفى فروة الرأس ، فتتلف العضلات وتتفتت العظام وتتساقط شظاياها وتتآكل أجزاؤها ويصاب سمحاقها ونسيجها الداخلى ، وتغزو الجراثيم مفاصلها فتصيبها بالورم والاستسقاء ويلتهب غشاؤها الزلالى .

والعين يصيبها الزهرى ويهلكها بجراثيمه ، ولقد وجد فى لندن عاصمة بلاد الإنجليز أن نسبة العمى الزهرى تبلغ ٣,٥ ٪ من مجموع الإصابات بهذا الداء ، وأما عن الاصابة فى الأذن فيكفى أن تعرف أن ٢٥ ٪ من المصابين تفقد آذانهم وظائفها ويصابون بالصمم .

والزهرى يصيب أجزاء الفم إصابات بالغة ، فترى اللسان وقد ظهرت فيه القروح الزهرية واللطخ المخاطية حتى ينتهى الأمر بتضخمه وانكماشه وضمور نسيجه وتشققه وانتشار القروح الزهرية والأورام الصمغية فيه .

ولوزة الحلق تتعرض للورم الصمغى ، وكذلك البلعوم تظهر فيها التقرحات الزهرية التى قد

تعوق التنفس والبلع على وجه خاص لالتحام البلعوم بالحنك الرخو ويلتهب سمحاق الأخير ، ويصاب بالقروح الزهرية وينتهى الأمر بحدوث فجوة متسعة فى حنك المريض .

وتمتد الإصابة من الفم إلى المرىء فيتعرض للإصابة بالقروح والانسداد والشلل ، ومنه إلى المعدة فتتقرح وتنتشر فيها الصموخ الزهرية ، وتتعرض للنزف الدموى والانسداد فى إحدى فتحتيها وتصل الإصابة من المعدة إلى جميع أجزاء الأمعاء الدقيقة والغليظة والمستقيم وفتحة الشرج ، مما يعرض المريض لأشد الأخطار وأسوأ النتائج .

والجهازان البولى والتناسلى يتعرضان للتلف والدمار فيعطل عمل الكليتين بإصابتهما بالقروح والأورام الصمغية ، وكذلك المثانة وجميع أجزاء الخصيتين والمبيضين وسائر أجزاء الجهازين .

ويغزو الزهرى الجهاز التنفسى كذلك ، فتصاب الشعب الهوائية بالتقرحات المزمنة والأورام الصمغية ، التى تمتد إلى الرئتين فتعطل عملهما ؛ ويتسبب عن ذلك الموت ، وتصيب جراثيم الزهرى الدورة الليمفاوية وتعطل عملها بما ينجم من التهاب قنواتها وانتفاخها وتضخم الغدد التى قد تتقيح عند وصول الجراثيم إليها ، بل إن إصابة الجهاز الدورى لما يورد الزناة شر موارد الهلاك والدمار ؛ إذ تلتهب أهم شرايين الجسم وأوردته ، ويتصلب نسيجها ، وتتليف أجزاؤها التى قد تصاب كذلك بالأورام الصمغية ، وإنك لتجد معظم ذوى الأمراض القلبية المزمنة ، وموتى الفجاءة ضحية هذا الداء العضال .

وتصيب الجراثيم كذلك الغدد اللاقنوية بتلك الأورام الصمغية ، وهذه الغدد كالبروستاتا والمبايض والغدة النخامية والغدد التى فوق الكليتين ، والغدة الدرقية وغيرها . ويطول بنا شرح الضرر الناجم عن إصابة هذه الغدد لمالها من بعيد الأثر فى جسم الإنسان وكبير سيطرتها عليه وخطورة شأنها فى تقويم وظائفه وحفظ كيانه .

أما مايفعله الزهرى فى الجهاز العصبى ويحدثه فى سائر أجزائه ويسببه فى جميع خلاياه من تعطيل وظائفها بضمور نسيجها أو تلفه وتحلله ؛ كما يحصل فى مرض الشلل العام للمجانين فهو مما لايستطيع القيام بمثله داء كهذا فى شدة بطشه بضحاياه ، وبعيد تغلغله فى أدق زوايا وجودهم ، وعظيم أثره فى القضاء عليهم .

وحسبك أن تعلم أن الزهرى يفتك بمخ الزانى فتكا ذريعا ، فتلتهب سحاياه خاصة (الأم الحنون) وتصاب كذلك أوعيته الدموية التى تضيق حتى ينتهى الأمر بإفسادها ، ومنع الغذاء عن الأجزاء التى تغذيها بالدماء ، وحينئذ تحدث الأعراض التى ستأتى الإشارة إليها ، بل هنالك الأنزفة المخية الناشئة عن انفجار الأوعية الدموية .

والأورام الصمغية لاتترك المخ حتى تبليه وتعطل عمله ، وهو أهم مركز فى جميع أجزاء البدن على الإطلاق ، وإصابة المخ فى أبسط أشكالها تحدث الصداع الدائم ، والقىء والنوبات العصبية التى قد تتكرر مرات فى اليوم الواحد ، وشلل العضلات المحركة للعين ، والتهاب عصب الإبصار ، ويصاب الجسم بعضه أو كله كذلك بالشلل الذى يوصل الزانى إلى القبر بعد أن يذيقه أشد الآلام .

وقد تحدث الإصابة فى لسان المصاب ويصاب بالبكم ، بل هناك بجانب ماتقدم أعراض أخرى

تعتبر أبسطها جميعا رغم عظم خطرها ، كالذهول والهذيان ، وفقد الذاكرة التى تنتهى بالجنون .

وتختلف أعراض زهرى المخ باختلاف مواضع امتداد الإصابة ، فإذا أصيب عصب الشم مثلا فقدت هذه الحاسة ، وإذا أصيب عصب البصر كان فقده وذهابه وهكذا .

ويفاجىء الشلل النصفى الزهرى المصابين به على حين غرة منهم ، وهذا الشلل النصفى قد يحدث مثله فى النصف الآخر فيعم الجسم ويحل الموت .

وتلتهب سحايا النخاع فيتصلب العمود الفقرى ، وتصحب ذلك تغيرات خاصة فى وظائف أعصاب الحركة والتغذية والإحساس ، بجانب مايتعرض له المريض من الشلل العام .

وأما إذا التهب النخاع الشوكى ، فتشل الأطراف السفلى ، وتفقد إحساسها ويحدث الموت حينئذ لأسباب شتى كخراجات الظهر والتهابات الكليتين وغيرها .

وهنا لك مرض غاية فى الخطورة لاأملك إلا أن أشير إليه ويسببه الزهرى (وهو الشلل العام للمجانين) وأهم أعراضه : بلاهة المصابين به ، وتظهر متجسمة فى أعمالهم ، وتفكيرهم وتكون مصحوبة عادة بهذيان العظمة ، أو الهذيان الاضطهادى ، ويصاب المريض كذلك بالرعشة فى يديه وفى لسانه ، وتزداد حساسية انعكاس الركبتين وتختلف فتحتا حدقتى العين ويضطرب انتظامهما .

والزهرى يسبب مرضا آخر يسمى (الخراع) ويحدث آلاما روماتزمية حادة واعراضا أخرى تشبه المغص الكلوى والآلام العصبية بين الأضلاع . والتهاب العصب الوركى .

ويحدث المرض أزمات شديدة أهمها : الأزمة المعدية التى تمثل أعراض التهاب الزائدة الدودية ، وتقرح المعدة وانسداد الأمعاء .

ويصاب المريض بالأزمة الحنجرية التى تعوق التنفس وقد تشل بعض عضلات الحنجرة فيتعذر التنفس الذى قد يسبب الموت .

ويفقد المصاب بهذا الداء الحساسية التى تصل من عضلات الجسم فأربطته ومفاصله إلى المخ فتختلج حركة المريض ، ويفقد شيئا كبيرا من توازنه .

ومن أعراض هذا المرض زوال إحساس المريض من بقع جلدية خاصة فى الجسم كزوال الإحساس فى الجزء الجلدى المحيط بالضلع الثانى ، وكذلك زوال إحساس الأنف والجبهة .. إلخ

وهكذا ترى الزهرى لايترك موضعا فى الجسم إلا ويغزوه ويعطل عمله ، لذلك اعتبر ممثلا خطرا لمعظم أمراض العالم ، وإن الأعراض التى تحدثها جراثيمه مشابهة إلى حد بعيد أمراض الجسم جميعا ، فهنالك إحداثه لما يشبه خراجات الكبد لإصابتها بأورامه الصمغية وتقيحها وتعرض نسيجها للتشمع والكباد الزهرى بالبريتون والطحال وسائر محتويات الجسم وبقية أعضائه ، مما لانستطيع فى هذه المعالجة حصره وإتمام بيانه ، وذلك بجانب شتى الحميات التى يبلى بها مرضاه حتى يتركهم غير قادرين على الحركة ، فيعانون منها مايشبه إلى حد بعيد أعراض حمى الملاريا والحمى التيفودية ، وكأنى بالزانى المريض بهذا المرض الذى بينا بعض أعراضه وأشرنا إلى مقدار تغلغله فى جسمه ﴿ **من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولايكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وماهو بميت ومن ورائه**

عذاب غليظ ﴾(١)

* الزهرى الوراثى *

ولعل أقبح الهدايا التى يقدمها الزانى إلى ذريته التعسة ويبليهم بها هى الزهرى الوراثى ، وإن خطره على النسل ليهدد العالم بشر مما تهدده به الحروب الذرية ، وينذره بأشد مما تنذره به البراكين الملتهبة ، والزلازل المهلكة ، والنكبات العظمى التى لاتبقى ولا تذر ، وإنك لتجد ٤٠ ٪ من وفيات الأطفال فى السنة الأولى من سنى حياتهم راجعة إلى الزهرى الوراثى . وتجد ٦٠ ٪ من حالات الإجهاض المتكرر فى العائلات المصابة بهذا الداء راجعة إليه .

وتجد فى كل مائة طفل مولود بزهرى وراثى تسعين يموتون ، وتجد ٢٠ ٪ من الحوامل على وجه العموم مصابات به ، وتجد ثلاثة عشر لقيطا مصابين بالزهرى الوراثى فى كل مائة لقيط ، بل نستطيع أن نقول إن ٩٩ ٪ من أولاد المصابين تموت ـ إما أجنة أو بعد الولادة ـ وذلك مما يبين لنا إلى أى مدى بلغ هدم الزنى للأسر ، وفتكه بالذرية والنسل .

والزهرى : إما أن يلحق الجنين قبل تمام نموه فيلفظه الرحم فى أى طور من أطوار نموه فيه ، وتشاهد حينئذ فى المشيمة تغير حالها وكبر حجمها وسماك أغشيتها وصلابتها ، وترى التهاب الحبل السرى واحمراره وضخامته ، وتجد اختناق الكبد أو إستمالتها والتصاقها بالبريتون ، وترى تضاعف حجم الطحال بنسبة كبيرة ، بجانب تقرح المعدة والأمعاء وسائر أجزاء الجسم الأخرى .

هذا إذا لم يلفظ الجنين فى الأسبوع الأول أو فى العشرة الأيام الأولى مشوها ممسوخا ممزقا شر ممزق ، بصورة بشعة ومنظر قبيح .

أما إذا ولد الجنين فإنه لايرى بالحالة العادية التى يكون عليها الأصحاء ، بل تراه صغير الجسم مشوه الخلق فقير الدم ، ذاهب اللون ، هزيل الجسم مجعد الجلد ، معرضا للموت السريع بعد العذاب الأليم .

ولو خرج الطفل وعليه أمارات الصحة ، فليس معنى ذلك سلامته من العلة الفتاكة ، بل لاتمر به أسابيع قليلة حتى يلحقه الضعف والهزال ، ويتعطل نموه ويصبح معرضا لشتى الإصابات ، كارتباكات الجهاز الهضمى والتنفسى ، وتشقق الجلد وجدع الأنف ، ثم يستمر فى النحافة والذبول شيئا فشيئا .

وتتضخم كبده ويكبر طحاله ويتغير خلقه تغيرا واضحا ، وتلتهب غدده الليمفاوية وتصاب عظام جمجمته وأصابعه وذراعيه وساقيه وتلتهب مفاصله وتلين عظامه ، وتستسقى رأسه ويضيق تنفسه ، ويصاب جهازه العصبى ويتعرض للتشنجات العصبية ، والصرع ، والشلل النخاعى ، والشلل النصفى وإصابة الحواس والضمور العضلى وانعدام الفعل المنعكس والالتهاب السحاقى ، وإصابة أجزاء العينين وأعضائها والشلل العام للمجانين ، ويظهر التشوه فى الأسنان ، وتلتهب الأذن الوسطى وتتقيح ، وتصاب أجزاء الدورة الدموية وذلك بجانب الإصابات الجلدية التى تشبه مايحدث فى الزهرى

(١) الأيتان ١٦ ، ١٧ من سورة أبراهيم

المكتسب ويتلف البنكرياس ، وتظهر الأورام الصمغية فى الغدد الصماء ، إلى غير ذلك مما يضيق عن ذكره المقام .

وتلحق عوارض الزهرى الوراثى الذرية فى أى سن من أسنانها ، وكثيرا ماكان هذا الداء سببا فى إصابة النسل بالبله والعته والعبط والجنون ، وهو مايعد أبسط المسائل فى إصابة النسل ، ويعتبر أكثرها حدوثا .

السيلان

والسيلان من الأمراض الفتاكة التى تسببها كذلك هذه الفاحشة ، ويسبب الداء جرثومة خاصة تسمى بالجونوككس ، ولكى تعرف مقدار انتشار هذا المرض فى الهيئة الأجتماعية ومبلغ تغلغله فى أفرادها يكفيك أن أذكر مثلا من ذلك من إحصائيات لندن أن ٦٠ ٪ من عدد أفرادها البالغين مصابون بهذا الداء ويتراوح عدد المصابين فى باريس من ٧٥ ٪ إلى ٩٠٪ وفى برلين من ٦٠ ٪ إلى ٧٠٪ وفى نيويورك تجد فى كل مائة شخص ثمانين مصابين بالسيلان ، هذا فى أرقى البلاد حضارة وأرسخها قدما فى علم الطب ، وأكبرها ادعاء للمدنية والرقى .

وليس مرض السيلان بالعلة الهينة السهلة ، التى لاتستدعى الانتباه بل هو من أكبر المعضلات الأجتماعية الخطيرة ، التى حار فى علاجها الأطباء والساسة المشرعون ، فهو مرض فتاك ، ويترك المصاب به فى حالة من الألم والمرض مما يعطل حركته ويشل تفكيره ويجعله فى المجتمع عضوا أشل لافائدة فيه ولانفع منه ، وذلك فوق ماتبتلى به النساء فيجعلهن مستودعا خطرا للعدوى وأداة لتشويه النسل ، والقضاء على الذرية .

إصابة المرأة

ولقد ثبت أن كل امرأة اتصلت برجل مصاب بهذا الداء لابد أن تصاب هى الأخرى لاستعدادها لقبول العدوى ، ولقابلية جهازها التناسلى لاستقبال جراثيمه المرضية ، فتفتك به وتعطل وظيفته ، إذا لم تفقدها تماما .

ويصاب مجرى بول المرأة بهذه الجراثيم فيلتهب ويحمر وتتضخم حافتاه ، ويظهر القيح السيلانى الكريه الرائحة من فتحته وكثيرا مايزمن المرض فى هذا المكان حين تختفى جراثيمه فى بقع استمالة نسيجية فى غشائه ويحدث تليف فى غدد (ليتر) فتضيق فتحة مجرى البول

وقد يمتد التليف إلى المجرى نفسه كذلك ، وتصيب جراثيم المرض قناتى (سكين) اللتين تظهر فتحتاهما على جانبى مجرى البول وكثيرا ماتكون إصابة هذه القناة سببا فى انتكاس المرض وإزمانه .

والعدوى تمتد من قناة المجرى البولى إلى المثانة فتتعطل وظيفة الجهاز البولى وتشعر المريضة بألم كبير فوق عانتها وميل إلى التبول الكثير مع الألم فى كل مرة ونزول نقط دموية إثر تلك الإصابة .

ويعدى السيلان غدد (بارثولين) وتقع كل غدة خلف النصف الخلفى للشفر الأعظم ولها قناة طويلة ملتوية على نفسها تفتح على السطح الداخلى للشفر الأصغر فتلتهب وتتضخم وتتقيح ، وقد تنسد قناتها ويتكون خراج لايلبث أن يكون ناسورا ، ويزمن المرض وتصبح الغدة سببا لمضاعفات سيلانية

أخرى كالتهاب المهبل السيلانى مثلا ، وعندما يلتهب المهبل يظهر القيح فيزيل الطبقة العليا لغشائه ويترك تقرحات مغطاة الإفرازات الالتهابية أو يصاب بالالتهاب الحبيبى أو الالتهاب الغشائى .

والرحم وهو موطن الجنين وقراره المكين يصاب كذلك بالسيلان ويلتهب عنقه إذ يتسرب الجونوكوك إلى غشائه الداخلى ، ويخترقه ويختبىء فى الغدد والقنوات التى توجد فى الطبقة تحت الغشائية والعضلية فيه ، حيث يزمن المرض وتكثر الإفرازات الالتهابية ، وتشتد الآلام فى الظهر وفى العمود الفقرى وترتبك دورة المحيض مع الألم المبرح أثناءه ، وترى العنق الرحمى وقد تضخم واشتد التهابه ، واحتقنت أنسجته ، وسالت إفرازاته ، وتسلخت خلاياه ، وانسدت غدد بابوثيان فيه .

ويلتهب الغشاء المتبطن بجسم الرحم تبعا لذلك أو بعد وصول الجراثيم إلى البوقين والمبيضين ، فتزداد الآلام فى أعلى العانة ، وفى الظهر ، ويظهر الصديد الدموى وتتضاعف الآلام المبرحة إثر نزول الطمث ، ويسيل النزيف الدموى بشكل سىء الإنذار ، وتلتهب عضلات الرحم ، وفى الحامل تصاب عينا الطفل عند الولادة بالسيلان الصديدى ، فيذهب بصره وتتلف عيناه .

وعند إصابة الرحم تختل حركة أعصابه **الموضعية** ، فتتقلص عضلاته تقلصا عكسيا ، بسبب نقل جراثيم المرض إلى فوهة البوق الرحمية التى قد تصاب كذلك بانتقال الجونوكوك مباشرة بواسطة الدورة الليمفاوية فى الجسم فتشعر المريضة بالقشعريرة وترتفع درجة حرارتها وتشتد بها الحمى وتظهر الآلام فى أسفل البطن حول الجزء المصاب ، حيث تظهر الأورام عند البوقين اللذين كثيرا ماتسد فتحتاهما البطنيتان ، فتلتصقان ببعضهما وبالأنسجة المجاورة ، ويكثر الرشح والتجمع الخلوى ، ويتضخم البوق وينسد مجراه وقد يترك فى مكان الانسداد أكياسا دموية أو مائية أو قيحية .

والمبيضان يصابان إثر إصابة البوقين وينتهى بهما الحال إلى فقد وظيفتهما وتلفهما ، وعند ذلك يحصل العقم .

وقلما يحصل الحمل عندما يكون المرض حادا ، وذلك لإهلاك الإفرازات الصديدية . وإعاقتها للحيوانات المنوية ، ويتعين عدم حصوله مطلقا عند إصابة المبيضين أو عنق الرحم إصابة لاتمكن الحيوانات المنوية من الدخول فى الرحم ، ولو حصل الحمل فى المرة الأولى عند اتصال الرجل المصاب بالمرأة وظهرت الأمراض الحادة بعد الإخصاب ، فلا تصل الجراثيم إلى الجزء الأعلى من الجهاز التناسلى ، ولكنه عند النفاس يجد الجونوكوك مرتعا خصبا فينمو ويتكاثر تكاثرا غريبا ويأخذ فى غزو جميع الجهاز التناسلى حتى يقضى عليه ، وعندئذ لايتأتى للمرأة الحمل البتة ، ولاتنال فى حياتها غير ذلك المولود الذى نالته فى ذلك اليوم المشئوم وهذه الحالة يسميها بعضهم (عقم الطفل الواحد) لعدم تمكن المرأة من الحصول على غيره بسبب الإصابة بهذا الداء العضال .

وبجانب ذلك فقد وجد أن أكثر من ٧٠ ٪ من هذه الحالات تصاب فيها عينا الطفل عند الولادة بمروره على العنق المصاب أو الأكياس المهبلية الموبوءة ، فتصاب القرنية ويذهب غشاؤها ويكثر رشحها وترى خراجات كثيرة على شكل نقط كثيفة فى سطحها ، وكثيرا مايظهر فيها رشح ينتهى بقرحة تودى بها ، إلى آخر ماتصاب به سائر أجزاء العينين .

ولا تقتصر إصابة المرأة على الجهاز التناسلى فحسب ، بل كثيرا ماتغزو الجراثيم الجزء الحوضى من

الغشاء البريتونى وتنتشر الإصابة فيه ، بل قد يلتهب الغشاء البريتونى جميعه ، وإنه يكاد يكون من المعضلات علاج المرأة المصابة بالسيلان ، أو الجزم بخلاصها من هذا المرض الذى يتغلغل هذا التغلغل الغريب فى جميع جهازها التناسلى ويكمن فى تعاريجه ، ويختفى بين طيات أجزائه وخذ مثلا من ذلك انفجار الأكياس الصديدية المبعثرة على المبيض أو فى الأجزاء المجاورة له .

ويجب ألا يغيب عن البال أن المصابة بالسيلان كثيرا مايظن أنها تخلصت من وبائه وهى فى الحقيقة حاملة لجراثيمه ، تصيب من يتصل بها ، ولو تزوجت تعدى زوجها وذلك لظهور المرض عليها ثانيا ، وبرجوع النشاط إلى الجراثيم الكامنة التى قد كان يعوق ظهورها أى سبب من الأسباب كاختبائها فى إحدى الغدد كما قدمنا ، وتسترها تحت غشاء استمالة نسيجية . . إلخ

وإنى أستطيع أن أقول : إن إصابة المرأة بالسيلان وبال عليها وعلى أولادها وعلى زوجها وعلى الهيئة الاجتماعية بأسرها ، والمصيبة العظمى أنه ليس من المستطاع أن يحكم أحد فينا على مصابة السيلان أنها شفيت منه ، وحسبك كذلك أن تعلم أن الطب لم يتوصل إلى الآن إلى العثور على علاج نوعى لهذا المرض .

* إصابة الرجل *

ويصيب السيلان الرجل إصابات بالغة ؛ إذ تلتهب عنده كذلك فتحة البول ويشتد احمرارها ، وتصاب حوافيها بالورم ، فتنقلب على نفسها وقد تتآكل أطرافها ، ثم يمتد الورم فى عضو التناسل فيعوق التبول ويشعر المصاب بالآلام المبرحة أثناءه ، وتفتك الجراثيم بالغشاء الداخلى للمجرى البولى ويشتد تكاثر الصديد ، ثم ينتهى الأمر بضيق المجرى وتعذر البول أو امتناعه مطلقا ، وذلك لتكون ألياف خاصة نتيجة الالتهابات فى الطبقة تحت الغشائية للمجرى .

وكثيرا ماتصحب الدماء السيلان المدمى ، وتنسد القنوات المحاذية للمجرى البولى ، ويشعر المصاب بألم شديد ككى النار عند خروج البول وقد يمتد الألم إلى الشرج والعجان والفخذين .

والالتهاب الناشىء عن هذا المرض يسبب انتصابا مؤلما يتكرر كثيرا وقد يؤدى هذا إلى انفجار الأوعية الدموية المحتقنة فى العضو المذكور .

وتسبب جراثيم السيلان التهاب غدد (ليتر) وهى التى توجد على جانبى المجرى على سطحه الأعلى ، وتفرز إفرازا خاصا عند الانتصاب ، والجونوكوك حين يصل إلى هذه الغدد يستولى عليها استيلاء كليا حتى يصعب التغلب عليه بطرق العلاج العادية . وكذلك الحال عند عدوى جيوب رجانى بهذه الجراثيم ، وهذه الجيوب توجد على جوانب المجرى وفى سطحه الأعلى وحين إصابتها تنسد فتحاتها ويتكون فيها كيس يضم هذه الجراثيم ويحميها من تأثير العقاقير التى تستعمل للعلاج .

وتلتهب كذلك قنوات كوبر التى تظهر فتحاتها على السطح السفلى للمجرى فى الجزء الأسفل من البصيلة فيشعر المريض بثقل فى العجان تصحبه آلام لاتطاق ، وذلك بجانب تعرض هذه القنوات للانسداد وتلف باقى أجزائها .

وتصاب البروستاتا كذلك بالسيلان إصابة شديدة فتلتهب ويزداد حجمها وتتكون الإفرازات الالتهابية فى جيوبها فتنسد وتكون خراجا لاسبيل إلى التخلص منه إلا بعملية جراحية ، ويكفيك أن

تعلم أنه فى حالة إزمان المرض لايرجى الشفاء ، وكثيرا مايستمر علاج هذه الحالة سنوات عديدة قبل الحصول على نتيجة طفيفة وذلك إذا لم تحصل المضاعفات السيلانية الأخرى .

وإصابة البروستاتا خطر كبير على الزانى عامة وعلى جهازه التناسلى خاصة ؛ إذ تفقد البروستاتا وظائفها التى لايستطيع الجهاز القيام بعمله دونها ، وذلك أنها تساعد الخصية على إخراج إفرازاتها الداخلية وأن عصيرها ذاته له شأن كبير فى تغذية الجسم وهى تفرز بجانب ذلك سائلا خاصا يدخل فى تركيب السائل المنوى ، وفى الوقت عينه يبطن هذا السائل الغشاء المخاطى لمجرى البول بمادة لزجة تسهل خروج المنى منه .. إلخ .

وكثيرا مايصيب السيلان (البربخ) حتى يتلفه ويحدث قيلة مائية حادة ، وينتشر فيه الورم فيمتد الألم فى الجهاز التناسلى وتتضاعف الآلام ويصاب الزانى بعد ذلك بالعقم ، وذلك بجانب انتقال العدوى إلى الزوجة والبغايا والأقرباء والمصاحبين بطريقة الملامسة واللمس وغيره من عوامل الانتقال .

ولعل إصابة الحويصلات المنوية من أشد الإصابات خطرا ، وتجديد عدوى المومسات إذ تختبىء فيهن الجراثيم وتبقى بعد ذلك مستعلاة لعدوى الزوج ، وكثيرا ماتتقيح الحويصلة المنوية حتى لايرجى لها علاج ويلزم الحال شق القناة الناقلة للمنى أو شق الحويصلة عينها أو استئصالها والتخلص منها ، برغم مايترتب على ذلك من شتى الأخطار .

وكثيرا مايسبب السيلان التهاب القلفة فتضيق فتحتها حتى لايتيسر شدها إلى أعلى الحشفة لزيادة ورمها ولايخفى مايعانيه الزانى فى هذه الحالة من عسر التبول ومايشعر به من الألم الشديد ، وتختنق القلفة كذلك فتطبق على الحشفة من أعلى حتى يتعذر إرجاعها إلى موضعها الطبيعى .

وليست الإصابة بالسيلان مقصورة على الجهاز التناسلى فحسب ، بل إن الإصابة تمتد إلى المثانة من الذكر والأنثى على السواء وخاصة عند العنق فيشعر المريض بثقل شديد عند التبول مع قلةماينزل من البول مع كثرة الميل إليه ، حتى أن المريض لايتبول إلا نقطا قليلة يشعر أثناءها بآلام شديدة فى المجرى وفوق المثانة وفى العجان وحول الصفن .

وكثيرا ماتصل الجراثيم السيلانية إلى الدورة الدموية أو الدورة الليمفاوية فتصيب حوض الكلية أو حوض الكليتين جميعا مع أغشيتها المحاطة بالحوض بل قد تصاب كذلك الكليتان بالالتهابات السيلانية فترتفع درجة حرارة الزانى وتعتريه القشعريرة ، ويعانى الآلام الظهرية الشديدة ، وكثيرا ماتمتد الإصابة إلى الحوض والكليتين فتصيبهما جميعا ، وحسبك انسداد الحالبين واحتباس البول والتسمم اليوريمى والموت بعد الألم المبرح .

والطامة الكبرى هى عند وصول الجراثيم إلى مفاصل الجسم فتتعطل حركتها ويصعب تحريك أجزائها ويمتد فيها الورم وينتشر الالتهاب حتى تصاب بالتصلب والتشوه الذى يبقى فيها مدى الحياة ، وناهيك بالآلام المبرحة التى تفوق الآلام الروماتيزمية شدة وفظاعة ، والروماتزم السيلانى يصيب المفاصل جميعا وخاصة مفاصل القدم والركبة والرسغ وأصابع اليدين والقدمين حيث تتكون السوائل الالتهابية ، بل قد تصاب المفاصل بهذا المرض دون حدوث أى أثر ظاهر فى الأجزاء المصابة مع وجود الجراثيم وتغلغلها فى جميع نواحيها .

ويسبب السيلان طفحا جلديا خاصا بالمريض يشبه إلى حد بعيد الأثر الذى تحدثه الحمى القرمزية ، بل قد تتعرض الأعصاب كذلك لجراثيم هذا الداء فيختل نظامها ، وتصيب المجموعة العصبية أعراض الالتهابات السحائية وغيرها .

ولعل من مصائب السيلان العديدة إصابته للغشاء المبطن للقلب أو إتلافه للتامور ، بل كثيرا مايصاب عضل القلب نفسه بالسيلان وكذلك صماماته خاصة اليسرى منها ، بل قد تمتد الإصابة إلى الأورطة أو غيرها مما يؤدى إلى تعرض الزانى للموت .

كل ماقدمت ماهو إلا صورة مصغرة لما يحدثه السيلان فى أجسام الزناة ويعمله من العبث بأرواحهم الدنيئة التى تنزلت إلى الوقوع فى هذه البؤرة الخبيثة وتلوثت بأوحال الفسق والفساد .

القرحة الرخوية

والزنى فوق مايسبب من الزهرى والزهرى الوراثى والسيلان يعرض الأشرار كذلك للإصابة بالقرحة الرخوة التى تسببها جراثيم خاصة تسمى (باسلات دكرى) ويكثر ظهورها فى جسم القضيب أو فى الصفن أو العانة أو عند فتحة القلفة أو عند تلاقى الحشفة بجسم القضيب أو فى الثنية تحت الحشفة .

وفى الإناث يكثر وجودها فى الشفرين والشوكة والبطين والفخذين وقرب فتحة الشرج .

والقرحة سريعة العدوى ، ويوجد منها نوعان : هما القرحة الرخوة المرتفعة ، والقرحة الرخوة الثعبانية ، وتختلف هذه القرحة عن قرحة الزهرى بكونها قابلة للتعدد فى نفس المريض بمجرد العدوى الذاتية أو الامتداد ، وحسبك أنها كثيرا ماتسبب الاختناق أو الانكماش كما يحصل فى السيلان .

وهذا بجانب تعرض المصاب للغنغرينا والخراجات والأنزفة الدموية وتقيح الغدد الليمفاوية وقنواتها وإتلافها التام للعضو المصاب بها إلى غير ذلك من مختلف الإصابات .

القرحة الأكالة

والقرحة الأكالة من الأمراض الخطرة التى يحدثها الزنى كذلك ، وتمتاز هذه القرحة كما يدل اسمها بشدة تأثيرها وإتلافها المستمر للأنسجة التى حولها مع عدم خضوعها للعلاج ، وحسبك عملها على تآكل أعضاء التناسل وإحداثها للأنزفة الدموية والغنغرينا وتسمم الدم ، وتهتك الأنسجة المختلفة كالعضل والعظم إلى غير ذلك من سائر الأجزاء .

أمراض أخرى

وهنالك أمراض أخرى لايستهان بها يصاب بها الزناة ولانرى بأسا من الإشارة إليها هنا : كجرب التناسل مثلا ، وكسنط التناسل الذى يكثر فى فتحة مجرى البول وفى فتحة القلفة وأسفل القضيب وحول فتحة المهبل وفى فتحة مجرى البول عند الأنثى .

وكهربس التناسل الذى يحدث حكة شديدة والتهابا مؤلما ، قد يؤدى إلى التقيح والتقرح فى الأعضاء التناسلية ، وكالورم الجلدى الرخو المعدى الذى يصيب جلد الخصية والقضيب والشفرين ، والذى قد يمتد فيأخذ مكانا كبيرا ، وترى الحبيبات المتقرحة مستعدة للإصابات الثانوية الأخرى ، وإن قمل العانة من الأمراض المنتشرة كذلك بين الزناة انتشارا كبيرا وقد يمتد هذا القمل من العانة إلى الإبطين وشعر الصدر ، والزنى هو العامل الأساسى فى نقل هذا المرض القذر بين الزناة الملوثين .

ولعل فيما قدمت مثلا لبعض ماعناه ـ تعالى ـ فى قوله عن الزنى :

﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .»

حد القذف

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

* تفسير المفردات *

المراد بالمحصنات هنا : العفيفات الحرائر البالغات العاقلات المسلمات .

التفسير

قال الفقهاء فى حد القذف : ـ

تعريفه : ـ

أصل القذف : الرمى بالحجارة وغيرها . ومنه قول الله ـ تعالى ـ لأم موسى ـ عليه السلام ـ :

﴿ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم ﴾(٢)

والقذف بالزنى مأخوذ من هذا المعنى ، والمقصود به هنا المعنى الشرعى وهو الرمى بالزنى .

حرمته : ـ

يستهدف الإسلام حماية أغراض الناس والمحافظة على سمعتهم وصيانة كرامتهم وهو لهذا يقطع ألسنة السوء ويسد الباب على الذين يلتمسون للبرآء العيب ؛ فيمنع ضعاف النفوس من أن يجرحوا مشاعر الناس ويلغوا فى أعراضهم ، ويحظر أشد الحظر إشاعة الفاحشة فى الذين آمنوا حتى تتطهر الحياة من سريان هذا الشر فيها .

فهو يحرم القذف تحريما قاطعا ويجعله كبيرة من كبائر الإثم والفواحش ، ويوجب على القاذف ثمانين جلدة ـ رجلا كان أو امرأة ـ ويمنع من قبول شهادته ويحكم عليه بالفسق واللعن والطرد من

(٢) من الآية ٣٩ من سورة طه

رحمة الله ، واستحقاق العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، اللهم إلا إذا أثبت صحة قوله بالأدلة التى لايتطرق إليها الشك ، وهى شهادة أربعة شهداء بأن المقذوف تورط فى الفاحشة ، يقول الله ـ سبحانه ـ :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

ويقول : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون . يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾(١)

ويقول :

﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ﴾(٢)

وروى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال :

(اجتنبوا السبع الموبقات . . قالوا : وماهن يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)(٣) وكان هذا التحريم الذى نزلت به الآيات بسبب حادث الإفك الذى وقع لأم المؤمنين السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

(لما نزل عذرى قال النبى ﷺ على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن ، فلما نزل عن المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم ، وهم : حسان ومسطح وحمنة . رواه أبو داود(٤) .

*** مايشترط فى القذف : ـ**

للقذف شروط لابد من توافرها حتى يصبح جريمة تستحق عقوبة الجلد ، وهذه الشروط منها مايجب توافره فى القاذف ، ومنها مايجب توافره فى المقذوف ، ومنها مايجب توافره فى الشيء المقذوف به .

شروط القاذف : ـ

الشروط التى يجب توافرها فى القاذف هى :

١ ـ العقل

٢ ـ البلوغ

٣ ـ الاختيار

---

(١) الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ من سورة النور

(٢) من الآية رقم ١٩ من سورة النور

(٣) الحديث رواه البخارى فى « كتاب الوصايا » باب قول الله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما . . الخ » ج ٤ ص ١٢

وأخرجه مسلم فى « كتاب الإيمان » باب بيان الكبائر وأكبرها ج ١ ص ٩٢ رقم ١٤٥ ـ ٨٩

(٤) الحديث رواه أبو داود فى « كتاب الحدود » باب فى حد القذف ج ٤ ص ٦١٨ رقم ٤٤٧٤

وانظر الترمذى فى تفسير سورة النور رقم ٣١٨٠ وقال الترمذى (هذا حديث حسن غريب)

وانظر ابن ماجه فى الحدود حديث ٢٥٦٧ باب حد القذف

لأن ذلك أصل التكليف ولاتكليف بدون هذه الأشياء ، فإذا قذف المجنون أو الصبى أو المكره فلا حد على واحد منهم ؛ لقول رسول الله ﷺ :

(رفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق)(١)

ويقول :

(رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وماستكرهوا عليه)(٢)

فإذا كان الصبى مراهقا بحيث يؤذى قذفه فإنه يعزر تعزيرا مناسبا .

*شروط المقذوف : -

وشروط المقذوف هى :

١ - العقل : -

لأن الحد إنما شرع للزجر عن الأذية بالضرر الواقع على المقذوف ولا مضرة على من فقد العقل فلا يحد قاذفه .

٢ - البلوغ :

وكذلك يشترط فى المقذوف البلوغ فلا يحد قاذف الصغير والصغيرة ، فإذا رمى حبيسة يمكن وطؤها قبل البلوغ بالزنى ؛ فقد قال جمهور العلماء : إن هذا ليس بقذف ؛ لأنه ليس بزنى، إذ لاحد عليها . ويعزر القاذف .

وقال مالك : إن ذلك قذف يحد فاعله .

وقال ابن العربى :

(والمسألة محتملة مشكلة ، لكن مالكا غلب عرض المقذوف ، وغيره راعى حماية ظهر القاذف ، وحماية عرض المقذوف أولى ؛ لأن القاذف كشف ستره بطرف لسانه فلزم الحد)

وقال ابن المنذر :

وقال أحمد فى الجارية بنت تسع : يجلد قاذفها ، وكذلك الصبى إذا بلغ ضرب قاذفه

وقال إسحق :

إذا قذف غلام يطأ مثله فعليه الحد ، والجارية إذا جاوزت تسعة مثل ذلك .

وقال ابن المنذر :

لايحد من قذف من لم يبلغ ؛ لأن ذلك كذب . ويعزر على الأذى .

٣ - الإسلام :

والإسلام شرط فى المقذوف ، فلو كان المقذوف من غير المسلمين لم يقم الحد على قاذفه عند جمهور

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث ص ٣٢

(٢) الحديث أورده صاحب كشف الخفاء ج ١ ص ٥٢٢ رقم ١٣٩٣ . قال فى اللآلىء لايوجد بهذا اللفظ ، وأقرب ماوجد ما رواه ابن عدى فى الكامل عن أبى بكرة بلفظ رفع الله عن هذه الأمة ثلاثا : الخطأ ، والنسيان ، والأمر يكرهون عليه ، . وأخرجه ابن ماجه عن ابن عباس يرفعه قال إن الله وضع عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وماستكرهوا عليه . وأخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

العلماء ، وإذا كان العكس فقذف النصرانى أو اليهودى المسلم الحر فعليه ماعلى المسلم : ثمانون جلدة .

٤ ـ الحرية : ـ

فلا يحد الحر بقذفه العبد ؛ سواء أكان العبد ملكا للقاذف أم لغيره ؛ لأن مرتبته تختلف عن مرتبة الحر ، وإن كانْ قذف الحر للعبد محرما لما رواه البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : (من قذف مملوكا بالزنى أقيم عليه الحد يوم القيامة ، إلا أن يكون كما قال)[1]

قال العلماء :

وإنما كان ذلك فى الآخرة لارتفاع الملك ، واستواء الشريف والوضيع والحر والعبد ، ولم يكن لأحد فضل إلا بالتقوى ، ولما كان ذلك تكافأ الناس فى الحدود والحرمة واقتص من كل واحد لصاحبه ، إلا أن يعفو المظلوم عن الظالم .

وإنما لم يتكافأوا فى الدنيا لئلا تدخل الداخلة على المالكين فى مكافأتهم لهم فلا تصبح لهم حرمة ولا فضل فى منزلة ، وتبطل فائدة التسخير .

ومن قذف من يحسبه عبدا فإذا هو حر فعليه الحد ، وهو اختيار ابن المنذر ، وقال الحسن البصرى : لاحد عليه .

وأما ابن حزم فإنه رأى غير مارآه جمهور الفقهاء ، فرأى أن قاذف العبد يقام عليه الحد ، وأنه لافرق بين الحر والعبد فى هذه الناحية .

قال :

(وأما قولهم : لاحرمة للعبد ولا للأمة فكلام سخيف ، والمؤمن له حرمة عظيمة) .

ورب عبد جلف خير من خليفة قرشى عند الله ـ تعالى ـ ورأى ابن حزم هذا رأى وجيه وحق ، لو لم يصطدم بالنص المتقدم .

٥ ـ العفة : وهى العفة عن الفاحشة التى رمى بها ، سواء أكان عفيفا عن غيرها أم لا ، حتى أن من زنى فى أول بلوغه ثم تاب وحسنت حالته وامتد عمره فقذفه قاذف ؛ فإنه لاحد عليه .

وإن كان هذا القذف يستوجب التعزير لأنه أشاع مايجب ستره وإخفاؤه .

* مايجب توافره فى المقذوف به : ـ

أما مايجب توافره فى المقذوف به فهو التصريح بالزنى أو التعريض الظاهر ، ويستوى فى ذلك القول والكتابة .

ومثال التصريح أن يقول موجه الخطاب إلى غيره : (يازانى)

أو يقول عبارة تجرى مجرى هذا التصريح ، كنفى نسبه عنه ، ومثال التعريض كأن يقول فى مقام التنازع : (لست بزان ولا أمى بزانية)

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الحدود) باب : قذف العبيد ج ٨ ص ٢١٨
وأخرجه مسلم فى كتاب الأيمان باب التغليظ على من قذف مملوكه بالزنى ج ٣ ص ١٢٨٢ رقم ٣٧ / ١٦٦٠ .

وقد اختلف العلماء فى التعريض ، فقال مالك :

إن التعريض الظاهر ملحق بالتصريح ؛ لأن الكناية قد تقوم - بعرف العادة والاستعمال - مقام النص الصريح وإن كان اللفظ فيها مستعملا فى غير موضعه ، وقد أخذ عمر - رضى الله عنه - بهذا الرأى .

روى مالك عن عمرة بنت عبد الرحمن :

(أن رجلين استبا فى زمان عمر بن الخطاب ، فقال أحدهما للآخر :

(والله ماأبى بزان ولا أمى بزانية)

فاستشار عمر فى ذلك .

فقال قائل : مدح أباه وأمه

وقال آخرون : قد كان لأبيه وأمه مدح غير هذا .

نرى أن تجلده الحد ، فجلده عمر الحد ثمانين .

وذهب ابن مسعود وأبو حنيفة والشافعى والثورى ، وابن أبى ليلى وابن حزم والشيعة ورواية عن أحمد : إلى أنه لاحد فى التعريض ، لأن التعريض يتضمن الاختمال والاحتمال شبهة . والحدود تدرأ بالشبهات .

إلا أن أبا حنيفة والشافعى يريان تعزير من يفعل ذلك .

قال صاحب الروضة الندية كاشفا وجه الصواب فى هذا :

التحقيق أن المراد من رمى المحصنات المذكور فى كتاب الله - عز وجل - هو أن يأتى القاذف بلفظ يدل - لغة أو شرعا أو عرفا - على الرمى بالزنى ويظهر من قرائن الأحوال أن المتكلم لم يرد إلا ذلك ، ولم يأت بتأويل مقبول يصح حمل الكلام عليه ، فهذا يوجب حد القذف بلا شك ولا شبهة .

وكذلك لو جاء بلفظ لايحتمل الزنى أو يحتمله احتمالا مرجوحا ، وأقر أنه أراد الرمى بالزنى فإنه يجب عليه الحد .

وأما إذا عرض بلفظ محتمل ولم تدل قرينة حال ولا مقال على أنه قصد الرمى بالزنى فلا شىء عليه لأنه لايسوغ إيلامه بمجرد الاحتمال .

* بم يثبت حد القذف ؟ : -

الحد يثبت بأحد أمرين : -

١ - إقرار القاذف نفسه .

٢ - أو بشهادة رجلين عدلين .

* عقوبة القاذف الدنيوية : -

يجب على القاذف - إذا لم يقم البينة على صحة ماقال - عقوبة مادية ، وهى ثمانون جلدة ، وعقوبة أدبية ، وهى رد شهادته وعدم قبولها أبدا ، والحكم بفسقه لأنه يصبح غير عدل عند الله وعند الناس .

وهاتان العقوبتان هما المقررتان فى قول الله - سبحانه وتعالى - :

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

وهذا متفق عليه بين العلماء إذا لم يتب القاذف .

بقى هنا مسألتان اختلف فيهما العلماء :

* المسألة الأولى : -

هل عقوبة العبد مثل عقوبة الحر ؟ أو لا ؟

* المسألة الثانية : - إذا تاب القاذف ؛ هل يرد له اعتباره وتقبل شهادته أو لا ؟

أما المسألة الأولى

فهى أنه إذا قذف العبد الحر المحصن وجب عليه الحد ، ولكن هل حده مثل حد الحر أو على النصف منه ؟ !

لم يثبت حكم ذلك فى السنة ، ولهذا اختلفت أنظار الفقهاء فذهب أكثر أهل العلم إلى أن العبد إذا ثبتت عليه جريمة القذف فعقوبته أربعون جلدة ؛ لأنه حد ينصف بالرق مثل حد الزنى ، يقول الله - سبحانه وتعالى - :

﴿ فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾(1)

قال مالك : (قال أبو الزناد : سألت عبد الله بن عامر بن ربيعة عن ذلك . فقال : أدركت عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان والخلفاء وهلم جرا ، فما رأيت أحدا جلد عبدا فى فرية أكثر من أربعين)

وروى عن ابن مسعود والزهرى وعمر بن عبد العزيز وقبيصة بن ذؤيب والأوزاعى وابن حزم ، أنه يجلد ثمانين جلدة ؛ لأنه حد وجب حقا للآدميين ، إذ أن الجناية وقعت على عرض المقذوف ، والجناية لاتختلف بالرق والحرية .

قال ابن المنذر : (والذى عليه الأمصار القول الأول ، وبه أقول)

وقال فى المثنوى : (وعليه أهل العلم) .

وقد ناقش صاحب الروضة الندية الرأى الأول ، وقال مرجحا الرأى الثانى : الآية الكريمة عامة يدخل تحتها الحر والعبد ، والغضاضة بقذف العبد للحر أشد منها بقذف الحر للحر ، وليس فى حد القذف مايدل على تنصيفه للعبد لا من الكتاب ولا من السنة .

ومعظم ماوقع التعويل عليه هو قوله - تعالى - فى حد الزنى .

﴿ فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ﴾

ولايخفى أن ذلك فى حد آخر غير حد القذف . فإلحاق أحد الحدين بالآخر فيه إشكال ، لاسيما مع اختلاف العلة وكون أحدهما حقا لله محضا والآخر مشوبا بحق آدمى .

(1) من الآية ٢٥ من سورة النساء

* أما المسألة الثانية :

فقد اتفق الفقهاء على أن القاذف لاتقبل شهادته مادام لم يتب ؛ لأنه ارتكب مايستوجب الفسق ، والفسق يذهب بالعدالة ، والعدالة شرط فى قبول الشهادة ، وأنه لم يتب من فسقه هذا ، والجلد وإن كان مكفرا للإثم الذى ارتكبه ومخلصا له من عذاب الآخرة ، إلا أنه لايزيل عنه وصف الفسق الموجب لرد الشهادة .

ولكن إذا تاب وحسنت توبته فهل يرد له اعتباره وتقبل شهادته أم لا ؟

اختلف الفقهاء فى ذلك إلى رأيين :

الرأى الأول :

يرى قبول شهادة المحدود فى قذف إذا تاب توبة نصوحا ، وهذا هو رأى مالك والشافعى وأحمد والليث وعطاء وسفيان بن عيينة والشعبى والقاسم وسالم والزهرى ، وقال عمر لبعض من حدهم فى قذف :

إن تبت قبلت شهادتك !

أما الرأى الثانى :

فإنه يرى عدم قبولها ، وممن ذهب إلى هذا : الأحناف والأوزاعى والثورى والحسن وسعيد بن المسيب وشريح وإبراهيم النخعى وسعيد بن جبير .

وأصل هذا الخلاف هو الاختلاف فى تفسير قول الله ـ تعالى ـ :

﴿ ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون . إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ﴾

فهل الاستثناء فى الآية راجع إلى الأمرين معا ـ أى : عدم قبول الشهادة والحكم بالفسق ـ أو راجع إلى الأمر الأخير وهو الحكم بالفسق ؟

فمن قال إن الاستثناء راجع إلى الأمرين معا قال بجواز قبول الشهادة بعد التوبة .

ومن قال إنه راجع إلى الحكم بالفسق ، قال بعدم قبولها مهما كانت توبته .

*** كيفية التوبة : ـ**

قال عمر ـ رضى الله عنه ـ :

(توبة القاذف لاتكون إلا بأن يكذب نفسه فى ذلك القذف الذى لا حد فيه)

وقال للذين شهدوا على المغيرة : ـ

من أكذب نفسه أجزت شهادته فيما يستقبل ومن لم يفعل لم أجز شهادته . فأكذب الشبل بن معبد ، ونافع بن الحارث بن كلدة أنفسهما وتابا . وأبى أبو بكرة أن يفعل ، فكان لاتقبل شهادته .

وهذا مذهب الشعبى ، ومحكى عن أهل المدينة ، وقالت طائفة من العلماء :

توبته أن يصلح ويحسن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب ، وحسبه الندم على قذفه والاستغفار منه وترك العود إليه ، وهذا مذهب مالك وابن جرير .

هل يحد بقذف فرعه ؟

قال أبو ثور وابن المنذر :

(إذا قذف القاذف ابنه فإنه يحد لظاهر القرآن الكريم ؛ فإنه لم يفرق بين قاذف وقاذف)

وقالت الحنفية والشافعية : لايحد ؛ لأنه يشترط فى القاذف الا يكون أصلا كالأب والأم ؛ لأنه إذا لم يقتل الأصل به فعدم حده بقذفه أولى ، وإن قالوا بتعزيره ؛ لأن القذف أذى .

تكرار القذف لشخص واحد :

إذا قذف القاذف شخصا واحدا أكثر من مرة ؛ فعليه حد واحد إذا لم يكن قد حد لواحد منها ؛ فإن كان قد حد لواحد منها ثم عاد إلى القذف حد مرة ثانية ، فإن عاد حد مرة ثالثة ، وهكذا يحد لكل قذف .

* قذف الجماعة* : ـ

إذا قذف القاذف جماعة ورماهم بالزنى، فقد اختلفت أنظار الفقهاء فى حكمه إلى ثلاثة مذاهب : ـ

١ ـ المذهب الأول : مذهب القائلين بأنه يحد حدا واحدا . وهم أبو حنيفة ، ومالك ، وأحمد ، والثورى .

٢ ـ والمذهب الثانى : مذهب القائلين بأن عليه لكل واحد حدا ، وهم الشافعى والليث .

٣ ـ والمذهب الثالث : مذهب الذين فرقوا بين أن يجمعهم فى كلمة واحدة . مثل أن يقول لهم : يازناة ، أو يقول لكل واحد : يازانى ؛ ففى الصورة الأولى يحد حدا واحدا ، وفى الثانية عليه حد لكل واحد منهم .

قال ابن رشد : ـ

فعمدة من لم يوجب على قاذف الجماعة إلا حدا واحدا حديث أنس وغيره :

أن هلال بن أمية قذف امرأته بشريك بن سحماء ؛ فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فلاعن بينهما ولم يحد شريكا وذلك إجماع من أهل العلم فيمن قذف زوجته برجل .

وعمدة من رأى أن الحد لكل واحد منهم أنه حق للآدميين ، وأنه لو عفا بعضهم ولم يعف الكل لم يسقط الحد .

وأما من فرق بين من قذفهم فى كلمة واحدة أو كلمات ، أو فى مجلس واحد أو فى مجالس فلأنه رأى أنه واجب أن يتعدد الحد بتعدد القذف ؛ لأنه إذا اجتمع تعدد المقذوف وتعدد القذف ، كان أوجب أن يتعدد الحد .

هل الحد حق من حقوق الله أو من حقوق الآدميين ؟

ذهب أبو حنيفة إلى أن الحد حق من حقوق الله ، ويترتب على كونه حقا من حقوق الله ، أنه إذا بلغ الحاكم وجب عليه إقامته ، وإن لم يطلب ذلك المقذوف ، ولا يسقط بعفوه ، ونفعت القاذف التوبة فيما بينه وبين الله ـ تعالى ـ ويتنصف فيه الحد بالرق مثل الزنى.

وذهب الشافعى إلى أنه حق من حقوق الآدميين ، ويترتب عليه أن الإمام لايقيمه إلا بمطالبة المقذوف ويسقط بعفوه ، ويورث عنه ويسقط بعفو وارثه ، ولا تنفع القاذف التوبة حتى يحلله

المقذوف .

سقوط الحد :ـ

ويسقط حد القذف بمجيء القاذف بأربعة شهداء ؛ لأن الشهداء ينفون عنه صفة القذف الموجبة للحد ، ويثبتون صدور الزنى بشهادتهم .

فيقام حد الزنى على المقذوف ؛ لأنه زان . وكذلك إذا أقر المقذوف بالزنى واعترف بما رماه به القاذف .

وإذا قذفت المرأة زوجها فإنه يقام عليها الحد ؛ إذا توافرت شروطه بخلاف ما إذا قذفها هو ولم يقم عليها البينة ؛ فإنه لايقام عليه الحد ، وإنما يتلاعنان .

* اللعان *

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

* تفسير المفردات *

يرمون أزواجهم : أى يقذفونهن بالريبة وتهمة الزنى

ولعنة الله : الطرد من رحمته

ويدرأ : أى يدفع . والعذاب : الحد ، وغضب الله : سخطه والبعد عن فضله وإحسانه .

* المناسبة وإجمالى المعنى *

بعد أن بين ـ سبحانه ـ حكم قاذف الأجنبيات بالزنى وذكر أنه لايعفى القاذف من العقوبة إلا إذا أتى بأربعة شهداء ، ذكر هنا ماهو فى حكم الاستثناء من ذلك وهو قذف الزوجات ، فإن الزوج القاذف يعفى من الحد إذا شهد الشهادات المبينة فى الآية ، لأن فى تكليف الزوج إحضار الشهود إعناتا له وإحراجا ، ولما يلحقه من الغيرة على أهله ، ثم كظم الغيظ إذ لايجد مخلصا من ضيقه .

روى عن ابن عباس أنه قال : لما نزل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ والذين يرمون المحصنات . . ﴾ قال عاصم بن عدى الأنصارى : إن دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فإن جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك ، فقد قضى الرجل حاجته وخرج ، وإن قتله قتل به ، وإن قال : وجدت فلانا مع تلك المرأة ضرب ، وإن سكت سكت على غيظ ، اللهم افتح .

وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر ، وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس ، فأتى عويمر عاصما فقال : لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتى خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله - ﷺ فقال : يارسول الله ماأسرع ماابتليت بهذا فى أهل بيتى ! فقال رسول الله ﷺ : وماذاك ؟ قال : أخبرنى عويمر ابن عمى أنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة ، وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم ، فدعا رسول الله ﷺ بهم جميعا ، وقال : ياعويمر اتق الله فى زوجتك وابن عمك ولا تقذفها فقال : يارسول الله أقسم بالله إنى رأيت شريكا على بطنها ، وإنى ماقربتها منذ أربعة أشهر ، وإنها حبلى من غيرى ، فقال لها النبى ﷺ : اتقى الله ولا تخبرى إلا بما صنعت ، فقالت : يارسول الله : إن عويمرا رجل غيور ، وإنه رأى شريكا يطيل النظر إلى ويتحدث فحملته الغيرة على ماقال ، فأنزل الله هذه الآية ، فأمر رسول الله - ﷺ - فنودى (الصلاة جامعة) فصلى العصر ثم قال:عويمر قم وقل : أشهد بالله إن خولة لزانية وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : أشهد بالله أنى رأيت شريكا على بطنها وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : أشهد بالله إنها حبلى من غيرى وإنى من الصادقين ، ثم قال :

قال : قل : أشهد بالله إنها زانية وإنى ماقربتها منذ أربعة شهور وإنى لمن الصادقين ، ثم قال : قل : لعنة الله على عويمر (يعنى نفسه) إن كان من الكاذبين فيما قال ، ثم قال : اقعد .

وقال لخولة : قومى فقامت وقالت : أشهد بالله ما أنا بزانية وإن عويمرا زوجى لمن الكاذبين ، وقالت فى الثانية : أشهد بالله مارأى شريكا على بطنى وإنه لمن الكاذبين . وقالت فى الثالثة : إنى حبلى منه ، وقالت فى الرابعة : أشهد بالله إنه مارآنى على فاحشة قط وإنه لمن الكاذبين ، وقالت فى الخامسة : غضب الله على خولة إن كان عويمر من الصادقين فى قوله . ففرق رسول الله بينهما .

وفى رواية عن ابن عباس : (أنها حين كانت تؤدى الشهادة الخامسة قالوا إنها الموجبة التى توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت : والله لاأفضح قومى ، فشهدت فى الخامسة كما تقدم . فقضى رسول الله ﷺ بالتفريق بينهما وألا يدعى ولدها لأب وأن لامسكن لها عليه ولا مؤنة من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولاوفاة » فصار هذا سنة المتلاعنين وسمى عملهما (اللعان والملاعنة)

وفى رواية : (أن رسول الله ﷺ قال : أبصروها فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الاليتين فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وحرة (سحلية) فلا أراه إلا كاذبا ، فجاءت به على النعت المكروه)(١)

* قال الفقهاء عن اللعان *

*** تعريفه : -**

اللعان : مأخوذ من اللعن ؛ لأن الملاعن يقول فى الخامسة :

(أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين)

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى « كتاب الشهادات » باب : إذا ادعى أو قذف فله أن يلتمس البينة .. الخ ج ٣ ص ٢٣٣

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب : اللعان ج ١ ص ٦٦٨ رقم ٢٠٦٧

وقيل : هو الابعاد

وسمى المتلاعنان بذلك ، لما يعقب اللعان من الإثم والإبعاد ، ولأن أحدهما كاذب ، فيكون ملعونا . وقيل : لأن كل واحد منهما يبعد عن صاحبه بتأبيد التحريم .

وحقيقته : أن يحلف الرجل ـ إذا رمى امرأته بالزنى أربع مرات إنه لمن الصادقين والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وأن تحلف المرأة عند تكذيبه أربع مرات ، إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن عليها غضب الله إن كان من الصادقين .

مشروعيته : ـ

إذا رمى الرجل امرأته بالزنى ولم تقر هى بذلك ولم يرجع عن رميه فقد شرع الله لهما اللعان .

روى البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ :

(أن هلال بن أمية قذف امرأته عند رسول الله ﷺ بشريك بن سحماء . فقال النبى ﷺ : (البينة أو حد فى ظهرك) فقال : يارسول الله ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول الله ﷺ يقول :

(البينة وإلا حد فى ظهرك)[1]

فقال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن الله مايبرىء ظهرى من الحد فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ وأنزل عليه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾ .

فانصرف النبى ﷺ إليها ، فجاء هلال فشهد والنبى ـ ﷺ ـ يقول :

(إن الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب ؟)

فشهدت . فلما كانت عند الخامسة وقفوها ، وقالوا : إنها الموجبة . قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : فتلكأت ونكبت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم ، فمضت . فقال النبى ﷺ :

(أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين ، فهو لشريك بن سحماء)

فجاءت به كذلك . فقال النبى ﷺ :

(لولا مامضى من كتاب الله كان لى ولها شأن)

قال صاحب بداية المجتهد :

وأما من طريق المعنى : فلما كان الفراش موجبا لحقوق النسب ، كان للناس ضرورة إلى طريق ينفونه به إذا تحققوا فساده . وتلك الطريق هى اللعان . فاللعان حكم ثابت بالكتاب والسنة والقياس والإجماع .

إذ لاخلاف فى ذلك عامة .

(١) وحديث قصة الملاعنة أورده أصحاب السنن بألفاظ مختلفة ، ورواية قصة عويمر مروية عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ

متى يكون اللعان . . ؟

ويكون اللعان فى صورتين :

الصورة الأولى : أن يرمى الرجل امرأته بالزنى ولم يكن له أربعة شهود يشهدون عليها بما رماها به .

الصورة الثانية : أن ينفى حملها منه .

وإنما يجوز فى الصورة الأولى إذا تحقق من زناها كأن رآها تزنى أو أقرت هى ، ووقع فى نفسه صدقها .

والأولى فى هذه الحال أن يطلقها ولا يلاعنها .

فإذا لم يتحقق من زناها ؛ فإنه لايجوز له أن يرميها به .

ويكون نفى الحمل فى حالة ما إذا ادعى أنه لم يطأها أصلا من حين العقد عليها ، أو ادعى أنها أتت به لأقل من ستة أشهر بعد الوطء أو لأكثر من سنة من وقت الوطء .

* **الحاكم هو الذى يقضى باللعان :** -

ولابد من حضور الحاكم عند اللعان وينبغى له أن يذكر المرأة ويعظها ، بمثل ماجاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وصححه ابن حبان والحاكم :

(أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم ، فليست من الله فى شىء ولن يدخلها الله الجنة ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه ، احتجب الله منه وفضحه على رءوس الأولين والآخرين)[1]

اشتراط العقل والبلوغ : -

وكما يشترط فى اللعان الحاكم ، يشترط العقل والبلوغ فى كل من المتلاعنين وهذا أمر مجمع عليه .

اللعان بعد إقامة الشهود : -

وإذا أقام الزوج الشهود على الزنى فهل له أن يلاعن ؟

قال أبو حنيفة وداود : لايلاعن ؛ لأن اللعان إنما جعل عوضا عن الشهود لقوله - تعالى - :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ﴾

وقال مالك والشافعى : له أن يلاعن ؛ لأن الشهود لاتأثير لهم فى دفع الفراش .

هل اللعان يمين أم شهادة ؟ :

يرى الإمام مالك والشافعى وجمهور العلماء أن اللعان يمين وإن كان يسمى شهادة ؛ فإن أحدا لايشهد لنفسه ، لقول رسول الله ﷺ فى بعض روايات حديث ابن عباس :

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى « كتاب الطلاق » باب : التغليظ فى الإنتفاء ج ٢ ص ٦٩٥ عن أبى هريرة حديث رقم ٢٢٦٣

وانظر سنن النسائى « كتاب الطلاق » باب : التغليظ فى الانتفاء من الولد ج ٦ ص ١٧٩

وأخرجه ابن ماجه فى « كتاب الفرائض » باب : من أنكر ولده ج ٢ ص ٩١٦ رقم ٢٧٤٣

قال : فى الزوائد : هذا إسناد ضعيف فيه يحيى بن حرب ، وهو مجهول : قاله الذهبى فى الكاشف .

وأخرجه ابن حبان فى صحيحه « الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان » فى باب « ذكر نفى دخول الجنة عن المرأة الداخلة على قوم بولد ليس منهم » ج ٦ ص ١٦٣ رقم ٤٠٩٦

وأخرجه الحاكم فى « كتاب الطلاق » باب : مسألة اللعان وحكاية هلال بن أمية ج ٢ ص ٢٠٣

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(لولا الأيمان لكان لى ولها شأن) .

وذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه شهادة واستدلوا بقول الله ـ تعالى ـ : ﴿ فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله ﴾ وبحديث ابن عباس المتقدم وفيه : (فجاء هلال فشهد ، ثم قامت فشهدت)

والذين رأوا أنه يمين ، قالوا : إنه يصح اللعان بين كل زوجين حرين كانا أو عبدين أو أحدهما ، أو عدلين أو فاسقين أو أحدهما .

والذين ذهبوا إلى أنه شهادة قالوا : لايصح إلا بين زوجين يكونان من أهل الشهادة وذلك بأن يكونا حرين مسلمين .

وأما العبدان أو المحدودان فى القذف ، فلا يجوز لعانهما ، وكذلك إن كان أحدهما من أهل الشهادة والآخر ليس من أهلها .

قال ابن القيم :

والصحيح أن لعانهم يجمع الوصفين : اليمين والشهادة ، فهو شهادة مؤكدة بالقسم والتكرار ، ويمين مغلظة بلفظ الشهادة والتكرار لاقتضاء الحال تأكيد الأمر ، ولهذا اعتبر فيه من التأكيد عشرة أنواع .

أحدها : ذكر لفظ الشهادة .

الثانى : ذكر القسم بأحد أسماء الرب ـ سبحانه ـ وأجمعها لمعانى أسمائه الحسنى وهو اسم الله جل ذكره .

الثالث : تأكيد الجواب بما يؤكد به المقسم عليه من (أن واللام) وإتيانه باسم الفاعل الذى هو صادق وكاذب ، دون الفعل الذى هو صدق وكذب .

الرابع : تكرار ذلك أربع مرات .

الخامس : دعاؤه على نفسه فى الخامسة بلعنة الله إن كان من الكاذبين

السادس : إخباره عند الخامسة أنها الموجبة لعذاب الله وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

السابع : جعل لعانه مقتضيا لحصول العذاب عليها ، وهو إما الحد أو الحبس ، وجعل لعانها دارئا للعذاب عنها .

الثامن : أن هذا اللعان يوجب العذاب على أحدهما إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

التاسع : التفريق بين المتلاعنين وخراب بيتهما وكسرهما بالفراق .

العاشر : تأبيد تلك الفرقة ودوام التحريم بينهما . فلما كان شأن هذا اللعان هذا الشأن جعل يمينا مقرونا بالشهادة وشهادة مقرونة باليمين ، وجعل الملتعن ـ لقبول قوله ـ كالشاهد ، فإن نكلت المرأة مضت شهادته وحدت وأفادت شهادته ويمينه شيئين : سقوط الحد عنه ووجوبه عليها ، وإن التعنت المرأة وعارضت لعانه بلعان آخر منها ، أفاد لعانه بسقوط الحد عنه دون وجوبه عليها فكان شهادة ويمينا بالنسبة إليه دونها .

لأنه إن كان يمينا محضة فهى لاتحد بمجرد حلفه ، وإن كان شهادة فلا تحد بمجرد شهادته عليها

وحده ، فإذا انضم إلى ذلك نكولها قوى جانب الشهادة واليمين فى حقه بتأكده ونكولها ، فكان دليلا ظاهرا على صدقه فأسقط الحد عنه وأوجبه عليها ، وهذا أحسن مايكون من الحكم .

﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾[1]

وقد ظهر بهذا أنه يمين فيها معنى الشهادة ، وشهادة فيها معنى اليمين .

لعان الأعمى والأخرس :ـ

لم يختلف أحد فى جواز لعان الأعمى ، واختلفوا فى الأخرس ، فقال مالك والشافعى : يلاعن الأخرس إذا فهم عنه .

وقال أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ : لايلاعن ، لأنه ليس من أهل الشهادة .

من يبدأ بالملاعنة :ـ

اتفق العلماء على أن السنة فى اللعان تقديم الرجل فيشهد قبل المرأة .

واختلفوا فى وجوب هذا التقديم .

فقال الشافعى وغيره : هو واجب ، فإذا لاعنت المرأة قبله فإن لعانها لايعتد به .

وحجتهم أن اللعان يشرع لدفع الحد عن الرجل ، فلو بدىء بالمرأة لكان دفعا لأمر لم يثبت .

وذهب أبو حنيفة ومالك : إلى أنه لو وقع الابتداء بالمرأة صح واعتد به .

وحجتهم أن الله ـ سبحانه ـ عطف فى القرآن بالواو ، والواو لاتقتضى الترتيب بل هى لمطلق الجمع .

النكول عن اللعان

النكول : الامتناع :ـ

والنكول عن اللعان إما أن يكون من الزوج أو من الزوجة ، فإن نكل الزوج فعليه حد القذف ، لقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ﴾

فإذا لم يشهد فهو مثل الأجنبى فى القذف ، ولما تقدم من قول الرسول ﷺ : (البينة أو حد فى ظهرك)

وهذا مذهب الأئمة الثلاثة .

وقال أبو حنيفة : لاحد عليه ويحبس حتى يلاعن أو يكذب نفسه ، فإن كذب نفسه وجب عليه حد القذف .

فإذا نكلت الزوجة أقيم عليها حد الزنى عند مالك والشافعى .

وقال أبو حنيفة : لاتحد وحبست حتى تلاعن أو تقر بالزنى، وإن صدقته أقيم عليها الحد .

وأستدل أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ بقول الرسول ﷺ : (لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى

(١) من الآية ٥٠ من سورة المائدة

ثلاث : زنا بعد إحصان ، أو كفر بعد إيمان ، أو قتل نفس بغير نفس)[١]

ولأن سفك الدماء بالنكول حكم ترده الأصول ، فإنه إذا كان كثير من الفقهاء لايوجبون غرم المال بالنكول فكان بالأحرى ألا يجب بذلك سفك الدماء .

قال ابن رشد : (وبالجملة : فقاعدة الدماء مبناها فى الشرع على أنها لاتراق إلا بالبينة العادلة أو بالاعتراف ، ومن الواجب ألا تخصص هذه القاعدة بالاسم المشترك) .

فأبو حنيفة فى هذه المسألة أدلى بالصواب - إن شاء الله - وقد اعترف أبو المعالى فى كتابه (البرهان) بقوة أبى حنيفة فى هذه المسألة وهو شافعى .

*** التفريق بين المتلاعنين : -**

إذا تلاعن الزوجان وقعت الفرقة بينهما على سبيل التأبيد ولا يرتفع التحريم بينهما بحال :

فعن ابن عباس أن النبى ﷺ قال :

(المتلاعنان إذا تفرقا لايجتمعان أبدا)

وعن على وابن مسعود قالا : (مضت السنة ألا يجتمع المتلاعنان)[٢]

رواه الدارقطنى .

ولأنه قد وقع بينهما من التباغض والتقاطع ماأوجب القطيعة بينهما بصفة دائمة ، لأن أساس الحياة الزوجية : السكينة ، والمودة ، والرحمة ، وهؤلاء قد نقضوا هذا الأساس ، فكانت عقوبتهما الفرقة المؤبدة .

واختلف الفقهاء فيما إذا كذب الرجل نفسه ، فقال الجمهور : إنهما لايجتمعان أبدا ، وقال أبو حنيفة : إذا كذب نفسه جلد الحد ، وجاز له أن يعقد عليها من جديد ، واستدل أبو حنيفة بأنه إذا كذب نفسه فقد بطل حكم اللعان ، فكما يلحق به الولد ، كذلك ترد الزوجة عليه ، وذلك أن السبب الموجب للتحريم إنما هو الجهل بتعيين صدق أحدهما . مع القطع بأن أحدهما كاذب ، وإذا انكشف ارتفع التحريم .

متى تقع الفرقة ؟

تقع الفرقة إذا فرغ المتلاعنان من اللعان ، وهذا عند مالك ، وقال الشافعى : تقع بعد أن يكمل الزوج لعانه ، وقال أبو حنيفة وأحمد والثورى : لاتقع إلا بحكم الحاكم .

هل الفرقة طلاق أو فسخ ؟ : -

---

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة عن عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وعائشة انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٠٢ باب : مايباح به دم المسلم ، من كتاب القسامة برقم ١٦٧٦
وانظر مجمع الزوائد (كتاب الحدود) باب : لايحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث ج ٦ ص ٢٥٣
وفى سنن ابن ماجه فى (كتاب الحدود) باب : لايحل دم امرىء مسلم إلا فى ثلاث ج ٢ ص ٨٤٧ رقم ٢٥٣٣ ، ٢٥٣٤
وأخرجه أبو داود - واللفظ له - فى (كتاب الديات) باب : الإمام يأمر بالعفو فى الدم ج ٤ ص ١٧٠ رقم ٤٥٠٢ من رواية أبى أمامة بن سهل
وأنظر نفس المصدر (كتاب الحدود) باب : الحكم فيمن ارتد ج ٤ ص ١٢٧ رقم ٤٣٥٢ ، ٤٣٥٣
وأنظر صحيح البخارى (كتاب الديات) ج ٩ ص ٦ باب : قول الله تعالى : « أن النفس بالنفس » .

(٢) روى الهيثمى فى مجمع الزوائد فى (كتاب الطلاق) باب اللعان ج ٥ ص ١٣ قال : وعن ابن مسعود قال:لايجتمع المتلاعنان أبدا . قال الهيثمى :رواه الطبرانى وإسناده منقطع ورجاله رجال الصحيح .

يرى جمهور العلماء أن الفرقة الحاصلة باللعان فسخ .

ويرى أبو حنيفة أنها طلاق بائن ، لأن سببها من جانب الرجل ، ولا يتصور أن تكون من جانب المرأة ؛ وكل فرقة كانت كذلك تكون طلاقا لا فسخا ، فالفرقة هنا مثل فرقة العنين إذا كانت بحكم الحاكم .

وأما الذين ذهبوا إلى الرأى الأول فدليلهم تأبيد التحريم فأشبه ذات المحرم ، وهؤلاء يرون أن الفسخ باللعان يمنع المرأة من استحقاقها النفقة فى مدة العدة وكذلك السكنى ؛ لأن النفقة والسكنى إنما يستحقان فى عدة الطلاق لا فى عدة الفسخ ، ويؤيد هذا مارواه ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قصة الملاعنة (أن النبى ﷺ قضى ألا قوت لها ولا سكنى من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ولا متوفى عنها) رواه أحمد وأبو داود[١] .

* إلحاق الولد بأمه : -

إذا نفى الرجل ابنه وتم اللعان بنفيه له انتفى نسبه من أبيه ، وسقطت نفقته عنه ، وانتفى التوارث بينهما ، ولحق بأمه ، فهى ترثه وهو يرثها ؛ لما رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : (قضى رسول الله ﷺ فى ولد المتلاعنين أنه يرث أمه وترثه أمه ، ومن رماها به جلد ثمانين)[٢] أخرجه أحمد ويؤيد هذا الحديث الأدلة الدالة على أن الولد للفراش ، ولافراش هنا ؛ لنفى الزوج إياه .

وأما من رماها به اعتبر قاذفا ، وجلد ثمانين جلدة ؛

لأن الملاعنة داخلة فى المحصنات ولم يثبت عليها مايخالف ذلك ، فيجب على من رماها بابنها حد القذف ، ومن قذف ولدها يجب حده كمن قذف أمه سواء بسواء .

وهذا بالنسبة للأحكام التى تلزمه .

أما بالنسبة للأحكام التى شرعها الله للكافة فإنه يعامل كأنه ابنه من باب الاحتياط فلا يعطيه زكاة ماله ، ولو قتله لاقصاص عليه ، وتثبت الحرمة بينه وبين أولاده ، ولاتجوز شهادة كل منهما للآخر ، ولايعد مجهول النسب ، فلايصح أن يدعيه غيره ، وإذا كذب نفسه ثبت نسب الولد منه ، ويزول كل أثر للعان بالنسبة للولد .

« حديث الإفك »

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ

(١) انظر قصة المتلاعنين فى كتب السنة

(٢) أورد الهيثمى فى مجمع الزوائد فى « كتاب الفرائض » باب ميراث ابن الملاعنة قال : عن ابن مسعود قال ميراث ابن الملاعنة كله لأمه . رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح إلا أن قتادة لم يدرك ابن مسعود . وعن على وابن مسعود قالا:عصبة ابن الملاعنة عصبة أمه . رواه الطبرانى وفيه من لم يسم ج ٤ ص ٢٣٠ .

ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ
شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ
بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾
وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾
يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ
فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ
أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ
أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۚ أَلَا
تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ
ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ
وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۚ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ
وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

تفسير المفردات

الإفك : أبلغ الكذب والافتراء .

العصبة : الجماعة ، وكثر إطلاقها على العشرة فما فوقها إلى الأربعين وقد عدت عائشة منها المنافق عبد الله بن أبى بن سلول وقد تولى كبره وحمنة بنت جحش أخت أم المؤمنين زينب - رضى الله عنها - وزوج طلحة بن عبيد الله ، ومسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت .

كبره (بكسر الكاف وضمها وسكون الباء) أى : معظمه ؛ فقد كان يجمعه ويذيعه ويشيعه .

لولا : كلمة بمعنى (هلا) تفيد الحث على فعل مابعدها .

مبين : أى ظاهر مكشوف .

أفضتم : أى خضتم فى حديث الإفك .

تلقونه : أى تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض ، يقال : تلقى القول ، وتلقنه ، وتلقفه ، ومنه ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات ﴾[1]

سبحانك : تعجب ممن تفوه به .

بهتان : أى كذب يبهت سامعه ويحيره لفظاعته .

يعظكم : أى ينصحكم .

تشيع : أى تنتشر

الفاحشة : الخصلة المفرطة فى القبح وهى الزنى .

خطوات : واحدها خطوة (بالضم) مابين القدمين من المسافة ، ويراد بها نزغات الشيطان ووساوسه .

المنكر : ماتنكره النفوس فتنفر منه .

زكا : أى طهر من دنس الذنوب .

ولايأتل : أى لايحلف

الفضل : الزيادة فى الدين .

السعة : الغنى

المحصنات : العفيفات

الغافلات : أى من الفواحش وهن النقيات القلوب اللاتى لايفكرن فى فعلها

لعنوا : أى طردوا من رحمة الله فى الآخرة وعذبوا فى الدنيا بالحد .

دينهم : أى جزاءهم ومنه « كما تدين تدان »

الحق : أى الثابت الذى يحق لهم لامحالة

أن الله : أى وعده ووعيده

الحق : أى العدل الذى لاجور فيه .

---

(١) من الآية ٣٧ من سورة البقرة .

« المناسبة وإجمال المعنى »

بعد أن ذكر سبحانه حكم من قذف الأجنبيات ، وحكم من قذف الزوجات ، ذكر براءة عائشة أم المؤمنين مما رماها به أهل الإفك والبهتان من المنافقين ، صيانة لعرض رسول الله ﷺ ومجمل القصص ما رواه البخارى وغيره عن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت :

« كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها ، فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج سهمى (نصيبى) فخرجت معه بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فسرنا حتى إذا قفلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ، ثم نودى بالرحيل فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى رحلى فلمست صدرى فإذا عقدى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه ، وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج ، وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعد أن استمر الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلى وظننت أنهم سيفقدوننى ، ويعودون فى طلبى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش فلما رآنى عرفنى ، فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما تكلمت بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته فوطىء على يديها فقمت إليها فركبتها ، وانطلق يقود بالراحلة حتى أتينا الجيش بعد أن نزلوا فى نحر الظهيرة وافتقدنى الناس حين نزلوا ، وماج القوم فى ذكرى فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاضوا فى حديثى فهلك من هلك ، وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبى فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شهرا والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى إنما يدخل فيسلم ثم يقول : كيف تيكم ؟ فذلك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت مع أم مسطح قبل (المناصع) وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا . وأمرنا أمر العرب الأول فى التنزه فى البرية ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، فانطلقت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت : تعس مسطح ، فقلت : أتسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ فقالت : أى هنتاه أو لم تسمعى ما قال ؟ قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى فلما رجعت إلى منزلى ودخل على رسول الله ﷺ ثم قال كيف تيكم ؟ قلت أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ قال : نعم ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أستثبت الخبر من قبلهما ، فجئت أبوى فقلت لأمى : أى أماه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت : أى بنية هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها : قالت : قلت سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ويبلغ رسول الله ﷺ قالت : نعم ، قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا اكتحل بنوم ! ثم أصبحت فدخل على أبو بكر وأنا أبكى فقال لأمى : ما يبكيها ؟ قالت : لم تكن علمت ما قيل لها فأكب يبكى فبكى ساعة ثم قال : اسكتى يا بنية . فبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم بكيت ليلى المقبل لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . حتى ظن أبواى أن البكاء سيفلق كبدى ، ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ،

وأسامة بن زيد حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله قالت : فأما أسامة فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله وبالذى فى نفسه من الود فقال : يارسول الله هم أهلك ولا نعلم إلا خيرا ، وأما على فقال : لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير و إن تسأل الجارية (يعنى بريرة) تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال : هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟ قالت : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا أغمصه عليها أكبر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الدواجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ يومه فاستعذر من عبد الله بن أبى فقال وهو على المنبر يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى إلا معى ، فقام سعد بن معاذ الأنصارى - رضى الله عنه فقال : أنا أعذرك يارسول الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية فقال أى : سعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من أهلك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا ثم أتانى رسول الله ﷺ وأنا فى بيت أبوى فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى استأذنت على امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى قالت : فبينا نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ ثم جلس عندى ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل وقد لبث شهرا لا يوحى إليه فى شأنى بشيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ثم قال : أما بعد ياعائشة فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه ، فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه دمعة قلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال ، قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ قالت : فقلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : إنى والله قد عرفت أن قد سمعتم بهذا حتى استقر فى أنفسكم ، حتى كدتم أن تصدقوا به ، فإن قلت لكم إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقونى بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، وإنى والله لا أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : (فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون) ثم توليت فاضطجعت على فراشى وأنا والله أعلم أنى بريئة وأن الله سيبرئنى ببراءتى ، ولكنى والله ماكنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكنى كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى المنام رؤيا يبرئنى الله بها ، قالت : والله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من البيت أحد حتى أنزل الله على نبيه فأخذه ماكان يأخذه من البرحاء عند الوحى حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى اليوم الشاتى من ثقل القول الذى ينزل عليه ، قالت : فلما سرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال : أبشرى ياعائشة ، إن الله قد برأك ، فقالت لى أمى : قومى إليه ، فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله هو الذى أنزل براءتى ،

فأنزل الله : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ﴾ العشر الآيات كلها فلما أنزل الله هذا فى براءتى قال أبو بكر - وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره : والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة فأنزل الله : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة - الى قوله - غفور رحيم ﴾ سورة النور الآية (٢٢) .

فقال أبو بكر : إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه وقال : لا أنزعها منه أبدا قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمرى وما سمعت فقالت : يارسول الله أحمى سمعى وبصرى ، والله ما رأيت إلا خيرا ، قالت عائشة وهى التى كانت تساميني فعصمها الله بالورع ، وطفقت أختها حمنة تحارب لها فهلكت فيمن هلك (١) .

وكان مسروق اذا حدث عن عائشة يقول : حدثتنى الصديقة بنت الصديق حبيبة رسول الله ﷺ المبرأة من السماء .

وبعد ان ذكر قصص أم المؤمنين عائشة ، وبين عقاب من اتهمها بالإفك وشديد عذابه يوم القيامة ، وأسهب فى هذا أعقب ذلك ببيان حكم عام وهو : أن كل من اتهم محصنة مؤمنة غافلة ، بالخنا والفجور فهو مطرود من رحمة الله ، بعيد عن دار نعمه ، معذب فى جهنم إلا إذا تاب وأحسن التوبة وعمل صالحا . .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ أى : الكذب والبهت والافتراء (عصبة) أى : جماعة منكم (لا تحسبوه شرا لكم) أى : ياآل أبى بكر (بل هو خير لكم) أى : فى الدنيا والآخرة ، لسان صدق فى الدنيا ، ورفعة منازل فى الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله - تعالى - لعائشة أم المؤمنين - رضى الله عنها - حيث أنزل الله براءتها فى القرآن العظيم ﴿ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس - رضى الله عنه وعنها - وهى فى سياق الموت قال لها : أبشرى فإنك زوجة رسول الله ﷺ وكان يحبك ولم يتزوج بكرا غيرك ونزلت براءتك من السماء .

وقال ابن جرير فى تفسيره : تفاخرت عائشة وزينب - رضى الله عنهما - فقالت زينب : أنا التى أنزل تزويجى من السماء ، وقالت عائشة : أنا التى نزل عذرى فى كتاب الله حين حملنى صفوان بن المعطل على الراحلة ، فقالت لها زينب : ياعائشة ، ما قلت حين ركبتها ؟ قالت : قلت حسبى الله ونعم الوكيل قالت : قلت كلمة المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ﴾

أى : نصيب من العذاب والخزى العظيم فى الدنيا والآخرة .

---

(١) البخارى ، كتاب الشهادات ، باب « تعديل النساء بعضهم بعضا »: ٢٢٧/٣ - ٢٣١ وتفسير سورة يوسف ، ٩٥/٦ - ٩٦ ، وتفسير سورة النور : ١٢٧/٦ - ١٣٢ وكتاب الايمان ، باب « اليمين فيما لا يملك وفى المعصية وفى الغضب : ١٧٢/٨ وكتاب التوحيد : ١٧٦/٩ ، ١٧٧ ، ومسلم كتاب التوبة ، باب « فى حديث الإفك وقبول توبة القاذف »: ١١٢/٨ - ١١٨ (انظر ابن كثير المجلد السادس ط/ الشعب) . .

﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾.

يأأيها العاقل :

إذا شئت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا فصنها وقل ياعين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتى هى أحسن

ما أجمل قول الله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾ سورة الأعراف الآيتان : ١٩٩ ـ ٢٠٠

وما أعظم قوله جل شأنه : ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ۞ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ سورة فصلت الآيتان : ٣٤ / ٣٥

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾. سورة فصلت الآية ٣٦

قال الحكيم :

يخاطبنى السفيه بكل قبح وأأبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة وأزيد حلما كعود زاده الاحراق طيبا

وقال آخر :

وإذا أتتك مسبتى من ناقص فهى الشهادة لى بأنى كامل

وقال آخر :

احفظ لسانك أيها الانسان لا يلدغنك إنه ثعبان

فاللهم أدبنا بأدب القرآن الذى قلت فيه :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾ سورة الفرقان آية : ٦٣

وقلت فيه :

﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ سورة الفرقان آية : ٧٢.

وقلت فيه :

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى

الجاهلين ﴾ سورة القصص آية: ٥٥.

وقوله تعالى: ﴿ والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ المقصود بالذى تولى كبره أى: الذى ابتدأ الكلام فيه، وعمل على أن يشيع وينتشر، وهو عبد الله بن أبى بن سلول كبير المنافقين.

﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾.

قوله تعالى: ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾.

ماذا يجب على المؤمن من أدب يلتزم به عندما يسمع هذه الأكاذيب وتلك الأباطيل وهاتيك الترهات؟ فى هذا المقام يعلمنا القرآن الأدب الرفيع فيقول: ﴿ لولا إذ سمعتموه ﴾ أى هلا إذ سمعتم هذا الكلام ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين. كان عمر - رضى الله عنه - صلبا فى الحق لما سأله النبى ﷺ عن عائشة قال الفاروق الذى فرق الله به بين الحق والباطل: يارسول الله، من الذى زوجكها، قال رسول الله ﷺ: الله ياعمر، قال عمر بلسان اليقين ومنطق الحق المبين: أترى أن الله - تعالى - دلس عليك فى زواجها [1].

هذا موقف المؤمن الحازم الحاسم الجازم.

إن الإفك الذى يتردد على مرضى القلوب إنما هو رجس من عمل الشيطان، وإفراز سىء لقلوب أهل الفسق والنفاق هلا جاءوا على ما قالوا بأربعة شهداء لا والله. ﴿فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾.

وما قالوه إنما هو محض افتراء، وقد شهد الله - تعالى - عليهم بالكذب وعائشة - رضى الله عنها - بريئة من ذلك براءة الذئب من دم ابن يعقوب.

إنها الصديقة بنت الصديق أطهر من السحابة فى سمائها وأنصع من ماء الغمام:

ما يضر البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر

ان الناس جميعا لو تحولوا الى كناسين ليثيروا التراب على السماء فلسوف يثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا.

قال البخارى: وقال أبو أسامة، عن هشام بن عروة قال: أخبرنى أبى، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: لما ذكر من شأنى الذى ذكر، وما علمت به، قام رسول الله ﷺ فى خطيبا فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: أما بعد، أشيروا على فى اناس أبنوا اهلى وايم الله ما علمت على أهلى إلا خيرا وما علمت على أهلى من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى، فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال: يارسول الله أئذن لنا أن نضرب أعناقهم فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل فقال: كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت ان تضرب اعناقهم حتى كاد أن يكون بين

---

(١) انظر المرجع السابق.

الأوس والخزرج شرفى المسجد وما علمت ، فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح فعثرت فقالت : تعس مسطح فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ فسكتت ثم عثرت الثانية فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها أى أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت تعس مسطح فانتهرتها فقالت والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أى شأنى ؟ قالت فبقرت لى الحديث ، فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم ، والله فرجعت الى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيرا ووعكت وقلت لرسول الله ﷺ : أرسلنى إلى بيت أبى فأرسل معى الغلام فدخلت الدار فوجدت أم رومان فى السفل وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت أم رومان : ماجاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها وذكرت لها الحديث وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذى بلغ منى ، فقالت : يابنية خففى عليك الشأن ، فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها وقيل فيها ، فقلت : وقد علم به أبى ؟ قالت : نعم . قلت : ورسول الله ﷺ قالت : نعم ورسول الله ﷺ فاستعبرت وبكيت فسمع أبو بكر صوتى وهو فوق البيت يقرأ فنزل فقال لأمى : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذى ذكر من شأنها ففاضت عيناه ـ رضى الله عنه ـ فقال : أقسمت عليك يابنية إلا رجعت إلى بيتك فرجعت ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتى فسأل عن خادمتى ، فقالت : يارسول الله ، لا والله ما علمت عليها عيبا إلا كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدقى رسول الله ﷺ حتى أسقطوا لها به فقالت : سبحان الله ، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر وبلغ الأمر ذلك الرجل الذى قيل له ، فقال : سبحان الله والله ما كشفت كنف أنثى قط . قالت عائشة ـ رضى الله عنها : فقتل شهيدا فى سبيل الله ، قالت : وأصبح أبواى عندى فلم يزالا حتى دخل على رسول الله ﷺ وقد صلى العصر ثم دخل وقد اكتنفنى أبواى عن يمينى وعن شمالى فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ياعائشة إن كنت قارفت سوءا أو ظلمت فتوبى الى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده » قالت . وقد جاءت امرأة من الأنصار فهى جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيئا فوعظ رسول الله ﷺ فالتفت إلى أبى فقلت له : أجب رسول الله ﷺ قال : فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمى فقلت أجيبى رسول الله ﷺ قالت : ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله ثم قلت : أما بعد فوالله إن قلت لكم إنى لم أفعل والله ـ عز وجل ـ يشهد انى لصادقة ماذاك بنافعى عندكم لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم ، وإن قلت لكم إنى قد فعلت والله يعلم أنى لم أفعل لتقولن قد باءت به على نفسها ، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلا ـ والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه ـ إلا أبا يوسف حين قال : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ سورة يوسف من الآية : ١٨ وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته فسكتنا فرفع عنه وإنى لأتبين السرور فى وجهه وهو يمسح جبينه ويقول : « أبشرى ياعائشة ، فقد أنزل الله براءتك » قالت : وكنت أشد ما كنت غضبا : فقال لى أبواى : قومى إليه فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرا وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك » الحديث (١) .

(١) انظر المرجع السابق .

قوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ .

ولولا فضل الله عليكم أيها الخائضون فى شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه ﴾ من قضية الإفك . ﴿ عذاب عظيم﴾ وهذا فيمن

عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح ، وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى بن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين فى هذه الآية لأنه ليس عندهم من الايمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه ، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقا مشروطا بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه ، ثم قال تعالى : ﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ .

قال مجاهد وسعيد بن جبير أى يرويه بعضكم عن بعض يقول : هذا سمعته من فلان ، وقال فلان : كذا وذكر بعضهم كذا ، ولذا أدب الله ـ تعالى ـ الجماعة المسلمة عندما تثور الشائعات وتكثر الأقاويل أدبهم بقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ سورة الحجرات آية : ٦

قوله تعالى : ﴿ وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ﴾ .

أى تهرفون بما لا تعرفون وتلوك ألسنتكم هذا الكلام وتنبس شفاهكم به وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

وسبحان الله إذ يقول : ﴿ ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ سورة الإسراء الآية : ٣٦ .

فمن الخطأ أن يقول الانسان مالا يعلم ، وأن يعلم قبل أن يتعلم ولا يخاف أن يأثم وإذا أثم لا يندم .

إن الرجل يتكلم الكلمة من غضب الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار سبعين خريفا .

وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم . ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . سورة الأحزاب الآيتان : ٧٠ ـ ٧١ .

إن الكلمة مسئولية وأمانة فرحم الله امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم .

وجدت سكوتى متجرا فلزمته اذا لم يفد ربحا فلست بخاسر

قال حكيم :

إن كان الكلام من فضة فالسكوت مَن ذهب .

ما إن ندمت على سكوتى مرة ولقد ندمت على الكلام مرارا

فلا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، وإن القلب القاسى بعيد عن الله ـ عز وجل ـ ولكن لا تعلمون .

ولا تنظروا فى ذنوب الناس كأنكم أرباب ، وانظروا فى ذنوبكم كأنكم عباد ، فإنما الناس مبتلى ومعافى فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية .

قوله تعالى : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ .

قال ﷺ : (ان الله - تعالى - تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها مالم تقل أو تعمل) أخرجاه فى الصحيحين [1] .

وهذا أدب آخر بعد الأدب الأول الذى قال الله تعالى فيه : ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾ .

وفى هذا الأدب الثانى يقول تعالى : ﴿ لولا إذ سمعتموه) أى : هلا وهى حرف تحضيض يفيد الحث والازعاج ، أى : هلا قلتم وقت سماعكم هذا الكلام البذىء هلا قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، وهلا نزهتم ألسنتكم وأفواهكم من هذا الدنس وقلتم : سبحانك هذا بهتان عظيم . عندما ترمى أم المؤمنين بهذا الخبث ولكنه درس من دروس الحياة حتى يتبين الخبيث من الطيب ، والحسن من السىء ، والدنىء من الرفيع .

﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين ﴾ .

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ سورة النور الآيتان : ٥١، ٥٢ .

﴿ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون * ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون * إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون * يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون * واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ سورة الأنفال الآيات : ٢٠ - ٢٥ . وسبحانك ربى من قائل :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ سورة الانفال الآية : ٢٧

وجل جلاله إذ يقول : ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا * والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا ﴾ سورة الأحزاب الآيتان : ٥٧ - ٥٨ .

وسبحانك من قائل : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ سورة الأحزاب الآية : ٦٩ . . وجل جلال الله إذ يقول مرشدا ومعلما : ﴿ ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ سورة النور الآية : ١٨

(١) البخارى : كتاب الايمان ، باب « إذا جئت ناسيا » : ١٦٨/٨ ، ومسلم ، كتاب الايمان باب « تجاوز الله عن حديث النفس والخاطر» : ٨١/١ .

ان فى حادثة الافك دروسا لا تحصى وعبرا لا تستقصى .

جزى الله الشدائد كل خير عرفت بها عدوى من صديقى

وقال حكيم :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيك شمله ليجمعك

فسبحانك من عليم علمت ماكان ، وعلمت ما يكون ، وعلمت ما سيكون ، وعلمت ما لا يكون لو كان كيف كان يكون .

وسبحانك من حكيم تنزهت عن العبث فقولك الحق ، وحكمك العدل ، ولا راد لقضائك ، ولا معقب لحكمك وأنت سريع الحساب .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

قال الامام أحمد بسنده ، عن محمد بن عباد المخزومى ، عن ثوبان ، عن النبى ﷺ قال : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فإن من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه فى بيته » (١) .

إن فى هذه الآية الكريمة وعيدا شديدا وتهديدا مريعا لكل من يحب أن تنتشر الفاحشة وقالة السوء فى المجتمع الإسلامى وعيد بالعذاب الأليم فى الدنيا وذلك بإقامة الحد وما يتبع ذلك من خزى عظيم ، ووعيد بالعذاب الأليم فى الآخرة وما أدراك ما عذاب الآخرة يوم تبيض وجوه وتسود وجوه . يوم يقال فيه للمظلوم تقدم ويقال فيه للظالم لا تتكلم هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

وأعجب معى كيف كان هذا الوعيد لمن يحب أن يشيع الفاحشة فما بالك بالذى يشيعها ويعمل على نشرها ، أو الذى يتولى كبرها ويزرع بذور التشكيك والظن السىء فى الجماعة المسلمة .

إن الاسلام أدبنا بأن نرد هذه الشائعات على أعقابها . ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين ﴾ ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ .

هذا هو مجتمع النظافة فى أرحب مبانيها وأوسع معانيها وأسمى مراميها ، فاحذر أيها المسلم العاقل أن يكبك لسانك على وجهك فى النار ، « واتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة ، تمحها وخالق الناس بخلق حسن » .

● عن أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته فى حجة الوداع : « إن دماءكم

(١) مسند الامام أحمد : ٥/٢٧٩ .

وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت » . رواه البخارى ومسلم .(١) .

المعنى : حجة الوداع : آخر حجة حجها ﷺ .

بلغت : اللهم قد أديت الرسالة وحفظت الأمانة وقلت ما أحببت .

* * *

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » رواه مسلم والترمذى .(٢) .

المعنى : دمه : إهراق دمه وإراقته والتعرض لأذاه .

عرضه : إباحة عرضه وتعرضه لأى إهانة أو قبيحة أو ارتكاب فاحشة .

ماله : غصب ما يملك أو نهبه أو سرقته أو تعرضه للتلف .

● وعن البراء بن عازب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « الربا اثنان وسبعون بابا ، أدناها مثل إتيان الرجل أمه وإن أربى الربا استطالة الرجل فى عرض أخيه » رواه الطبرانى فى الأوسط .(٣)

المعنى : أدناها : أقلها جرما عقاب ناكح أمه ووقوع الزنا بها .

أربى الربا : أكثر الذنوب انتقاما وعذابا : التحدث بما يكره الانسان وغيبته وتعداد عيوبه .

* * *

● وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فذكر أمر الربا وعظم شأنه ، وقال : « إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله فى الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم » . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الغيبة .(٤) .

● وعن ابن عباس رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : « إن الربا نيف وسبعون بابا أهونهن بابا من الربا مثل من أتى أمه فى الاسلام ، ودرهم من الربا أشد من خمس وثلاثين زنية . وأشد الربا وأربى الربا وأخبث الربا انتهاك عرض المسلم وانتهاك حرمته » . رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى .(٥) .

المعنى :

نيف : من واحد إلى ثلاث ، والبضع من أربع إلى تسع ، ولا يقال نيف إلا بعد عقد نحو عشرة ونيف ، ومائة ونيف ، وألف ونيف .

(١) صحيح مسلم : كتاب الحج « باب حجة النبى ﷺ ج٢ ص٨٨٩ ط/ الشعب .

(٢) صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب تحريم ظلم المسلم » الخ ج٤ ص١٩٨٦ رقم ٣٢ .
سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم ج٣ ص٢١٨ رقم ١٩٩٢ .
وانظر الترغيب والترهيب باب الترهيب من الغيبة ج٣ ص٧٢٨ ط/ الشعب .

(٣) مجمع الزوائد ج٤ ص١١٧ باب ما جاء فى الربا .
وانظر الترغيب والترهيب ج٣ ص١٢ عن البراء بن عازب ط/ الشعب .

(٤) انظر الترغيب والترهيب باب الترهيب من الربا ج٣ ص١١ رقم ١٥ عن أنس بن مالك ط/ الشعب .

(٥) انظر الترغيب والترهيب .. باب الترهيب من الغيبة ج٣ ص٧٥٩ ط/ الشعب .

أهونهن : أيسرهن فى العذاب .

عرض المسلم : التحدث فى موضع ذمه والاستطالة بالسوء والقدح ، وفى النهاية وفى حديث ابن عباس « إن قوما قتلوا فأكثروا وزنوا وانتهكوا » .

أى بالغوا فى خرق محارم الشرع وإتيانها ، وفى حديث أبى هريرة « تنتهك ذمة الله وذمة رسوله » يريد نقض العهد والغدر بالمعاهد .

انتهاك حرمته : أى انتهاك ما حفظ الله من رعاية جانبه واحترامه ، وفى النهاية كل مسلم عن مسلم محرم ، ويقال مسلم محرم وهو الذى لم يحل من نفسه شيئا يوقع به يريد أن المسلم معتصم بالإسلام ممتنع بحرمته ممن أراده أو أراد ماله ، ففيه الترغيب فى حفظ سيرة المسلم وعدم ذكره بسوء .

* * *

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أربى الربا استطالة المرء فى عرض أخيه » . رواه البزار بإسنادين . (١) .

● وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « تدرون أربى الربا عند الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : فإن أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم ثم قرأ رسول الله ﷺ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) . رواه أبو يعلى (٢)

● وعن سعيد بن زيد ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : « إن من أربى الربا الاستطالة فى عرض المسلم بغير حق » . رواه أبو داود (٣) .

المعنى :

بغير حق : أما ذكره لولى أمره ليردعه من معصية يريد أن يفعلها أو يخبر الحاكم عن عقد العزيمة على مؤامرة أو سرقة أو ارتكاب عمل فيخبر من يمنع هذا أو يصده أو يهديه أو يرشده فكأنه ذكر هذا للنصيحة وللحذر . قال تعالى : ﴿ خذوا حذركم ﴾ سورة النساء من الآية : ٧١ .

وقال ﷺ : : « الدين النصيحة » فلا مانع أن يعلم الإنسان شيئا مخيفا فيذهب لمن يتدارك هذا قبل وقوعه ويخبره على سبيل النجدة والغوث والزجر والهداية ، لا على سبيل التشهير والذم .

* * *

● وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت للنبى ﷺ « حسبك من صفية كذا وكذا ، قال بعض الرواة : تعنى قصيرة فقال : لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته قالت : وحكيت له إنسانا فقال : ماأحب أن حكيت لى إنسانا . وإن لى كذا وكذا . » رواه أبو داود والترمذى والبيهقى (٤)

---

(١) انظر مجمع الزوائد ج٤ ص١١٧ باب ما جاء فى الربا ، وانظر الترغيب والترهيب ج٣ ص١٢ عن البراء بن عازب . وانظر الترغيب والترهيب أبواب الترهيب من الغيبة ج٣ ص٧٦٠ ط/ الشعب .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٠ ط/ الشعب .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦١ ط/ الشعب .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦١ ط/ الشعب .

المعنى :

حسبك : كافيك منها كذا .

لمزجته : أى خلطته وكدرته ، لأنها على سبيل الذم فارتكبت بذكرها ذنبا والله تعالى حرم الغيبة .

وكذا : وإن لى كذا وكذا .

* * *

● وعن عائشة - أيضا رضى الله عنها - أنه اعتل بعير لصفية بنت حيى وعند زينب فضل ظهر ، فقال النبى ﷺ لزينب : « أعطيها بعيرا ، فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية ، فغضب رسول الله ﷺ فهجرها ذا الحجة ، والمحرم وبعض صفر » رواه أبو داود . (١) .

المعنى :

اعتل : مرض وسقم .

فهجرها : تركها ﷺ أكثر من شهرين على هذه اللفظة ؛ تأديبا لها وزجرا وردعا ، وتعليما لأمته أن تتجنب ألفاظ السب وتترك الهجاء وتحذر الذم .

* * *

● وروى عنها - رضى الله عنها - قالت : قلت لامرأة مرة وأنا عند النبى ﷺ : إن هذه لطويلة الذيل فقال : « الفظى ، فلفظت بضعة من لحم » . رواه ابن أبى الدنيا . (٢) .

* * *

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : كنا عند النبى ﷺ فقام رجل فقالوا : يارسول الله ، ما أعجز فلانا ! أو قالوا : ما أضعف فلانا ، فقال النبى ﷺ « اغتبتم صاحبكم وأكلتم لحمه » . (٣) . رواه أبو يعلى والطبرانى .

المعنى :

ما أضعف : أى عجزه أو ضعفه ما أكثره ، فأخبرهم ﷺ أنهم اغتابوه وذكروا ما يكره فكأنهم طعموا قطعة من لحمه .

* * *

● وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أنهم ذكروا عند رسول الله ﷺ رجلا فقالوا : لا يأكل حتى يطعم ، ولا يرحل حتى يرحل له ، فقال النبى ﷺ : اغتبتموه ، فقالوا : يارسول الله ! إنما حدثنا بما فيه . قال : « حسبك إذا ذكرت أخاك بما فيه » . رواه الأصبهانى (٤) . بإسناد حسن .

المعنى :

يطعم : معناه أنه ضعيف إلى درجة احتياجه إلى مساعد يطعمه وخادم يوكله وساق يسقيه ولا يسافر إلا إذا حمله آخر أو ركب على دابة .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦١ ط/ الشعب .
(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٢ ط/ الشعب .
(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٢ ط/ الشعب .
(٤) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٢ - ٧٦٣ ط/ الشعب .

حسبك : كافيك بتعداد أوصاف ثابتة فيه : ولكن يكره ذكرها ويجب سترها ففيه الترهيب عن ذكر أخيك بما يكره مطلقا .

* * *

● وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : كنا عند النبى ﷺ فقام رجل فوقع فيه رجل من بعده ، فقال النبى ﷺ تحلل ، فقال : وممّ أتحلل ؟ ما أكلت لحما ، قال : إنك أكلت لحم أخيك[1] .

المعنى :

وقع فيه : ذكر عيوبه .

تحلل : أى افعل الحلال واطلب التوبة من هذه الغيبة .

وممّ أتحلل : ومن أى شىء أطلب الحل وأترك الحرام .

* * *

● وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : أمر النبى ﷺ الناس بصوم يوم ، وقال : لا يفطرن أحد منكم حتى آذن له ، فصام الناس حتى إذا أمسوا ، فجعل الرجل يجىء ، فيقول : يارسول الله ، إنى ظللت صائما فائذن لى فأفطر فيأذن له ، الرجل والرجل حتى جاء رجل فقال : يارسول الله فتاتان من أهلك ظلتا صائمتين ، وإنهما يستحيان أن يأتياك فأذن لهما فليفطرا فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، ثم عاوده فأعرض عنه ، فقال : إنهما لم يصوما وكيف صام من ظل هذا اليوم يأكل لحوم الناس ، اذهب فمرهما إن كانتا صائمتين فليستقيئا ، فرجع إليهما فأخبرهما فاستقاءتا ، فقاءت كل واحدة علقة من دم ، فرجع الى النبى ﷺ فأخبره ، فقال : والذى نفسى بيده لو بقيتا فى بطونهما لأكلتهما النار » . [2] . رواه أبو داود الطيالسى .

المعنى :

فأعرض عنه : تركه ولم يجبه .

عاوده : طلب مرة ثانية .

لم يصوما : لم يقبل الله صومهما لأنهما اغتابتا بذكر ما يكره .

فليستقيئا : فليخرجا ما فى معدتهما ، ينهى ﷺ عن الغيبة خشية استحلال أكل لحم المغتاب فيجر الى عذاب النار . وبئس القرار .

* * *

● وعن شفى بن ماتع الأصبحى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى يسعون ما بين الحميم والجحيم يدعون بالويل والثبور يقول بعض أهل النار لبعض : مابال هؤلاء قد آذونا على ما بنا من الأذى . قال : فرجل مغلق عليه تابوت من جمر ، ورجل يجر أمعاءه ، ورجل يسيل فوه قيحا ودما ، ورجل يأكل لحمه ، فيقال لصاحب التابوت : مابال الأبعد قد

---

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٣ ط/ الشعب .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٣ ـ ٧٦٤ ـ ٧٦٥ ط/ الشعب .

آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد قد مات وفى عنقه أموال الناس ، ثم يقال للذى يجر أمعاءه : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان لا يبالى أين أصاب البول منه ثم يقال للذى يسيل فوه قيحا ودما : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان ينظر إلى كلمة فيستلذها كما يستلذ الرفث ، ثم يقال للذى يأكل لحمه : مابال الأبعد قد آذانا على مابنا من الأذى ؟ فيقول : إن الأبعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشى بالنميمة . رواه ابن ابى الدنيا (١) .

المعنى :

الجحيم : النار .

الويل : الهلاك والدمار .

جمر : مغلق عليه تابوت من جمر .

يجر أمعاءه : حوايا معدته .

التابوت : الصندوق .

أصاب البول منه : معناه لا يتحرز من النجاسة ولا يحفظ ثيابه عن التبول ولا يتطهر ولا ينظف جسمه منها .

الرفث : الفحش وقبح القول والجماع والخنا والسوء . يخبرنا ﷺ عن أربعة يعذبون بأنواع العذاب وينادون بالدمار والهلاك لشدة آلامهم :

أ - فى صندوق متقدة ناره يصلى نارا حامية ذات لهب ، لأنه ضيع حقوق الناس فى حياته ، وأكل أموالهم ظلما وعدوانا .

ب - تخرج أحشاؤه فضيحة وقذارة ويمر على الناس يستقذرون منه فى الأخرة ، لأنه كان لا يحترز من بوله فى دنياه .

ج - يخرج من فيه السوائل القذرة من صديد وقيح ودم ، لأن كلامه ردىء وخشن بطال قبيح .

د - يأكل لحم جسمه على مرأى من الناس لأنه اغتاب الناس فى دنياه ونهش أعراضهم وذمهم بما يكرهون .

* * *

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ (من أكل لحم أخيه فى الدنيا قرب إليه يوم القيامة فيقال له كله ميتا كما أكلته حيا ، فيأكله ويكلح ويضج) . رواه أبو يعلى (٢) .

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه مر على بغل ميت فقال لبعض أصحابه لأن يأكل الرجل من هذا حتى يملأ بطنه خير له من أن يأكل لحم رجل مسلم . رواه أبو الشيخ (٣) .

● وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء الأسلمى إلى رسول الله ﷺ فشهد على نفسه بالزنى أربع

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٥ - ٧٦٦ ط/ الشعب .
(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٦ - ٧٦٧ ط/ الشعب .
(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٧ ط/ الشعب .

شهادات يقول : أتيت امرأة حراما وفى كل ذلك يعرض عنه رسول الله ﷺ فذكر الحديث الى أن قال : فما تريد بهذا القول ؟ قال : أريد أن تطهرنى ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يرجم ، فرجم ، فسمع رسول الله ﷺ رجلين من الأنصار يقول أحدهما لصاحبه : أنظر إلى هذا الذى ستر الله عليه فلم يدع نفسه حتى رَجْم الكلب قال : فسكت رسول الله ﷺ ، ثم سار ساعة فمر بجيفة حمار شائل برجله ، فقال : أين فلان وفلان ؟ فقالوا : نحن ذا يارسول الله ، فقال لهما كلا من جيفة هذا الحمار ، فقالا يارسول الله : غفر الله لك ، من يأكل من هذا ؟ فقال رسول الله ما نلتما من عرض هذا الرجل آنفا أشد من أكل هذه الجيفة ، فوالذى نفسى بيده إنه الآن فى أنهار الجنة ينغمس فيها »(١) . رواه ابن حبان فى صحيحه .

المعنى :

تطهرنى : تنقذنى من الذنب بالحد وإقامة العقاب فى الدنيا لأسلم من عذاب الله فى الآخرة .

لم يدع نفسه : لم يترك نفسه حتى أقيم عليه الحد .

برجله : شائل برجله .

فلان وفلان : فى أى مكان اللذان اغتابا ذلك الرجل النقى الطاهر ؟

آنفا : سابقا .

* * *

● وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ليلة أسرى بنبى الله ﷺ ونظر فى النار ، فإذا قوم يأكلون الجيف . قال : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ورأى رجلا أحمر أزرق جدا ، فقال : من هذا ياجبريل ؟ قال : هذا عاقر الناقة ، رواه أحمد (٢) .

المعنى :

الجيفة : جثة الميت إذا أنتن ، يقال جافت الميتة وجيفت واجتافت .

لحوم الناس : تغتابون .

أزرق جدا : أزرق جلدا : أى لونه شديد الزرقة .

عاقر : ناحرها وذابحها ، يشير ﷺ الى عذاب من نحر ناقة سيدنا صالح - عليه السلام - الذى طلب من قبيلة ثمود بالشام عبادة الله وحده واستغفاره والتوبة إليه ، قال تعالى : ﴿ **وياقوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود** ﴾ . سورة هود الآيات : ٦٤ - ٦٨ .

● وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ لما عرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم (٣) ، رواه أبو داود .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٨ ط/ الشعب .
(٢) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٨ - ٧٦٩ ط/ الشعب .
(٣) انظر الترغيب والترهيب « أبواب الترهيب من الغيبة » ج٣ ص٧٦٩ ط/ الشعب .

المعنى :

يخمشون : يخدشون ويقطعون .

لحوم الناس : كانوا يغتابون الناس فجعل الله ـ تعالى ـ عقابهم من جنس عملهم بالتسلط على نهش أجسامهم وتقطع أطرافها كما كانوا ينهشون أعراض الناس ويذمون البرآء .

* * *

● وعن راشد بن سعد المقرانى قال : قال رسول الله ﷺ لما عرج بى مررت برجال تقرض جلودهم بمقاريض من نار ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : الذين يتزينون للزينة . قال : ثم مررت بجب منتن الريح فسمعت فيه أصواتا شديدة ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : نساءُكُنَّ يتزين للزينة ويفعلن مالا يحل لهن ، ثم مررت على نساء ورجال معلقين بثديهن ، فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ فقال : هؤلاء اللمازون والهمازون ، وذلك قول الله عز وجل ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ (١) . سورة الهمزة آية : ١

المعنى :

تقرض : تقطع .

للزينة : كجلسة بكسر الجيم : الذين يقيمون الشراك للوقوع فى الفاحشة القبيحة ويمثلون فعلتها .

بجب : بئر ووعاء قذر كريه الرائحة شديدها .

يتزين للزينة : اللاتى يظهرن التبرج ويتعطرن ويتحلين لصيد الرجال فى شرك الغواية بتبيين هيئة القدوم على الرذيلة .

* * *

● وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ: كنا مع النبى ﷺ فارتفعت ريح منتنة ، فقال رسول الله ﷺ أتدرون ما هذه الريح ؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين (٢) . رواه أحمد وابن ابى الدنيا .

المعنى : منتنة : رائحة قذرة .

أتدرون : أتعلمون .

يغتابون المؤمنين : يذكرونهم بسوء .

● وعن جابر بن عبد الله ، وأبى سعيد الخدرى -رضى الله عنهما- قالا قال رسول الله ﷺ : الغيبة أشد من الزنا . قيل : وكيف ؟ قال : الرجل يزنى ثم يتوب فيتوب الله عليه ، وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه . (٣) . رواه ابن أبى الدنيا .

المعنى:

لايغفر له : لاتمحى سيئاته .

حتى يغفر له صاحبه : حتى يعفو له .

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٦٩ ـ ٧٧٠ ط/ الشعب .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٠ ط/ الشعب .
(٣) المرجع السابق ح٣ ص٧٧٠ ط/ الشعب .

● وعن أبي بكر - رضى الله عنه - قال : بينا أنا أماشي رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدى ورجل على يساره فإذا نحن بقبرين أمامنا ، فقال رسول الله ﷺ : إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير وبلى فأيكم يأتينى بجريدة فاستبقنا فسبقته فأتيته بجريدة فكسرها نصفين ، فألقى على ذا القبر قطعة وعلى ذا القبر قطعة ، قال : إنه يهون عليهما ما كانتا رطبتين ، وما يعذبان إلا فى الغيبة والبول .» (١) . رواه احمد .

المعنى :

كبير : نقل الأبى عن المازرى : أى شاق تركه ، لأن المنهى عنه منه : ما يشق تركه كالمستلذات ومنه ما ينفر الطبع كالمسمومات ومنه مالا يشق تركه كهذا . قال عياض : وقيل المعنى فى كبير عندكم ، وهو عند الله كبير أى أن هذا العمل كان يعدانه صغيرا لا يأبهان به فى حياتهما معتقدين أن الله يسمح ويصفح ويعفو ولكن الله - تعالى - جعل من شروط صحة الصلاة الطهارة والنقاء من النجاسة .

بلى : أى نعم إنه كبير يعاقب الله عليه وقد عاقبهما سبحانه فى القبر بعد موتهما .

رطبتين : لما لم تيبسا : أى مدة وجود خضرتهما ، قال الأبى . وأخذت منه تلاوة القرآن على القبر لأنه إذا رجى التخفيف لتسبيح الشجر فالقرآن أولى ، وأوصى بريدة السلمى أن يجعل على قبره جريدتان فلعله أوصى تيمنا بهذا الحديث وفعله ﷺ ولتسمية الله تعالى لها شجرة طيبة وتشبيهها بالمؤمن . قال والأظهر أنه من سر الغيب الذى أطلعه الله عليه . (شنقيطى فى زاد المسلم) .

وهذا الحديث يشدد النكر ويعلن الحرب على كل من يتساهل فى تمام الاستبراء ووجه كونه كبيرة تساهله فى النقاء والتطهير ، قال تعالى ﴿ وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ﴾ سورة المدثر الآيات : ٤ - ٧ .

أى : تباعد من النجاسات ما أمكن الاحتراز منه ، فإن التطهر واجب فى الصلوات محبوب فى غيرها ، والرجز القبائح والمعاصى والشرك بالله ، ولا تعط مستكثرا واصبر على مشاق التكاليف .

● وعن يعلى بن سيابه - رضى الله عنه - انه عهد النبى ﷺ وأتى على قبر يعذب صاحبه ، فقال : إن هذا كان يأكل لحوم الناس ثم دعا بجريدة رطبة ، فوضعها على قبره ، وقال : لعله أن يخفف عنه مادامت هذه رطبة . رواه أحمد والطبرانى (٢)

● وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : أتى رسول الله ﷺ بقيع الغرقد فوقف على قبرين ثريين فقال : أدفنتم فلانا وفلانة ، أو قال : فلانا وفلانا ؟

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٠ - ٧٧١ ط الشعب .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧١ ط/ الشعب .

قالوا : نعم يارسول الله قال : قد أقعد فلان الآن ، فضرب ، ثم قال : والذى نفسى بيده لقد ضرب ضربة ما بقى منه عضو إلا انقطع ، ولقد تطاير قبره نارا ، ولقد صرخ صرخة سمعها الخلائق إلا الثقلين : الانس والجن ،ولولا تمريج قلوبكم وتزيدكم فى الحديث لسمعتم ما أسمع ، ثم قالوا : يارسول الله وما ذنبهما ؟ قال : أما فلان ، فإنه كان لا يستبرىء من البول وأما فلان أو فلانة فإنه كان يأكل لحوم الناس »(١) . رواه ابن جرير الطبرى .

المعنى :

ثريين : غنيين يقال ثرى القوم يثرون وأثروا : إذا أكثروا وكثرت أموالهم .

فضرب : المعنى يرمى بمطرقة من نار .

تطاير : تناثر منه شرر ولهب .

صرخ : ارتفع صوته .

تمريج قلوبكم : أى فساد وخلط وفيه كيف أنتم إذا مرج الدين : أى فسد وقلقت أسبابه ، ومرجت عهودهم ؛ أى اختلطت .

ما أسمع : لقد أعطى الله تعالى للنبى ﷺ قوة السمع خاصة به ليدرك مالم يدركه الانس والجن فسمع صوت عذابهما ونوعه .

لا يستبرىء : لا يتطهر وفى المصباح استبرأ من البول ، الأصل استبرأ ذكره من بقية بوله بالنتر والتحريك حتى يعلم أنه لم يبق فيه شيء ، واستبرأت من البول : تنزهت عنه .

لحوم الناس : قد جعل الله من يتعاطى الغيبة ويذكر إنسانا بما يكره ولو كان فيه سواء أكان فى بدنه كالقصر والحول والسواد أم فى نسبه كابن حجام وابن مزين وابن كذا مثلا ، أم فى خلقه كالشره والطمع أم فى دينه كالتهاون بالصلاة أو يشير بالرأس استهزاء أو بأى عضو تحقيرا كمن يأكل لحم أخيه الميت ولا شك أن أكل لحم الانسان أمر تعافه النفوس السليمة وتأباه الطباع الكريمة فضلا عن كونه ميتا وكونه لحم أخ ولذا قال تعالى ﴿ فكرهتموه ﴾ من سورة الحجرات : أى فكرهتم أكل لحم الأخ الميت ، وإذا كان ذلك كذلك فوجب عليكم أن تكرهوا الغيبة المشابهة له .

* * *

◉ وعن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الغيبة والنميمة يحتان الايمان كما يعضد الراعى الشجرة »(٢) . رواه الأصبهانى .

المعنى :

يحتان : أى ذكر الإنسان بما يكره والسعى بالفساد يزيلان الإيمان فيتساقط أوراق شجره المورقة ، يقال حت الرجل الورق وغيره .

حتا : أزاله من باب قتل .

يعضد : يقطع البستانى ، يقال عضد الشجرة أعضد عضدا من باب ضرب .

* * *

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٢ ـ ٧٧٣ ط/ الشعب .
(٢) أنظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٣ ط/ الشعب .

● وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال : المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح في النار . (١) . رواه مسلم والترمذى وغيرهما .

المعنى :

لا درهم : لا نقود .

ولا متاع : لا ضيعة ولا أثاث .

المفلس : الفقير المجرد من ملك شيء الذى يكثر العبادة في حياته ولكن أرخى العنان للسانه فأرغى وأزبد وكال التهم وردح وذم واغتاب وشتم فأحصى الله سيئاته حتى جاء يوم الحساب فاقتص منه وأخذت حسناته كلها جزاء سبه ، قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ . سورة ق الآيات : ١٦ ـ ١٨ .

فنيت حسناته : انتهت .

قبل أن يقضى : قبل أن يؤدى ما عليه من عقاب السب والغيبة فيتحمل أوزار من اغتابهم ويرمى في النار من جراء لسانه .

وامش الهوينى مظهرا عفة وابغ رضا الأعين عن هيئتك
وانطق بحيث العى مستقبح واصمت بحيث الخير فى سكتتك
ولج على رزقك من بابه واقصد له ما عشت فى بكرتك
ووف كلا حقه ولتكن تكسر عند الفخر من حدتك
ولتجعل العقل محكما وخذ كلا بما يظهر فى نقدتك
ولا تضيع زمنا ممكنا تذكاره يذكى لظى حسرتك
والشر مهما استطعت لا تأته فإنه حور على مهجتك

● وعن أبي أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : إن الرجل ليؤتى كتابه منشورا فيقول : يارب فأين حسنات كذا وكذا عملتها ليست فى صحيفتى ؟ فيقول : محيت باغتيابك الناس . (٢) . رواه الأصبهانى .

المعنى :

منشورا : ظاهرة صفحاته متقدمة أمامه يراها .

حسنات : غير مقيدة .

باغتيابك الناس : زالت بكثرة ذكرك الناس بسوء .

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٣ ط/ الشعب .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٤ ط/ الشعب .

● وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : أتدرون ما الغيبة ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : ذكرك أخاك بما يكره ، قيل : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته (١) ، رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

المعنى : بهته : ادعيت عليه ظلما ، وفى المصباح قذفته بالباطل وافتريت عليه بالكذب ، والاثم والبهتان ، ومن الغريب ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ سورة الممتحنة من الآية : ١٢

قيل بل ذلك لكل فعل شنيع يتعاطينه باليد والرجل من تناول ما يجوز والمشى إلى ما يقبح (فبهت الذى كفر) أى دهش وتحير ، وقد بهته ، قال عز وجل : ﴿ هذا بهتان عظيم ﴾ : أى كذب بهت سامعه لفظاعته .

* * *

● وعن أبي الدرداء - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : من ذكر امرأ بشىء ليس فيه ليعيبه به حبسه الله فى نار جهنم حتى يأتى بنفاد ما قال فيه . (٢) . رواه الطبرانى بإسناد جيد .

المعنى :

ليعيبه : لينقصه .

بنفاد ما قال فيه : يستمر عذابه حتى يحقق قوله الذى صدر منه كذبا وزورا .

* * *

● وفى رواية له : أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها برىء يشينه بها فى الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه يوم القيامة فى النار حتى يأتى بنفاد ما قال .

المعنى :

أشاع : أظهر وأباح القول .

برىء : بعيد عن وصفها .

يشينه بها : يذمه ويعيبه وينقصه .

يذيبه : يصهره حتى يتحقق قوله ، ولن يحصل ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يأأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾ سورة النور الآيات : ١٩ - ٢١ .

● وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قال فى مؤمن ماليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال : حتى يخرج مما قال (٣) . رواه أبو داود والطبرانى .

(١) انظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٤ ط/ الشعب .
(٢) انظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٤ ط/ الشعب .
(٣) انظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٥ ط/ الشعب .

المعنى :

ردغة الخبال : عقاب الذى يتكلم فى أعراض الناس أن يسقى عصارة النار الآتية من انصهار أجسام الفجار ، وفى النهاية والخبال فى الأصل الفساد ، ويكون من الأفعال والابدان والعقول ، وبين يدى الساعة الخبل : أى الفتن المفسدة .

* * *

● وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : خمس ليس لهن كفارة : الشرك بالله ، وقتل النفس بغير الحق ، وبهت المؤمن ، والفرار من الزحف ، ويمين صابرة يقتطع بها مالا بغير حق .[1] رواه أحمد .

المعنى :

كفارة : أى لا يمكن للإنسان أن يخفف عقابها بدفع شىء من ماله أو تحليلها أو فرار من عقابها الأليم .

الشرك بالله : أن يجعل الإنسان لله تعالى الواحد القهار شريكا فى أفعاله أو صفاته أو فى ذاته .

بغير حق : إزهاق نفس بريئة لم تفعل جناية تستحق الإعدام .

بهت مؤمن : تكذيب الموحد بالله ـ تعالى ـ والمصدق بوجوده المتحلى بحلل الايمان والمقيم دعائم الاسلام والافتراء عليه بالأقوال الملفقة المطلية بطلاء الهزء والسخرية والنفاق والازدراء .

الفرار من الزحف : الهروب من صفوف المجاهدين فى سبيل الله ـ تعالى ـ والجبن عند ملاقاة الأعداء والتنصل من الدفاع والالتجاء الى الاختفاء وقت الهجوم والكفاح .

ويمين صابرة : القسم بالله تعالى أو بصفاته باطلا لضياع حق وفى النهاية « من حلف على يمين صبر » : أى لزم بها وحبس عليها ، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم وقيل لها مصبورة وان كان صاحبها فى الحقيقة هو المصبور لأنه إنما صبر من أجلها : أى حبس فوصفت بالصبر وأضيفت إليه مجازا . قال تعالى : ﴿ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ﴾ . سورة البقرة الآية : ٢٢٤ .

● وعن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : من ذب عن عرض أخيه بالغيبة كان حقا على الله أن يعتقه من النار .[2] رواه أحمد

المعنى :

ذب : دفع كلام السوء عن أخيه المسلم أبعده الله من جهنم ، ففيه الحث على عدم سماع الغيبة والدفاع عن الغائب بالكلام الحسن الطيب ليكافئه الله بنعيم الجنة فى الآخرة ويقيه عذاب النار ، قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ سورة الحج من الآية : ٤٠ .

● وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة .[3] رواه الترمذى .

---

(١) انظر المرجع السابق ج٣ ص٧٧٥ ـ ٧٧٦ ط/ الشعب .

(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٦ ط/ الشعب .

(٣) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٦ ـ ٧٧٧ ط/ الشعب .

المعنى :

رد : نهر القائل وردعه وزجره وأسكته عن باطله .

عن وجهه : صد ومنع ووقاه عذاب جهنم جزاء دفاعه عن أخيه ابتغاء وجه الله الكريم .

● وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : من حمى مؤمنا من منافق أراه قال : بعث الله ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم ، ومن رمى مسلما يريد به شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال .. (١) . رواه أبو داود وابن أبي الدنيا .

المعنى :

حمى : حفظه وسلم سيرته من لسان البذىء .

بعث الله : أرسل .

شينه : عيبه ونقصه وفضيحته .

* * *

● وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : من حمى عرض أخيه فى الدنيا بعث الله ـ عز وجل ـ ملكا يوم القيامة يحميه من النار . (٢) . رواه ابن أبي الدنيا .

● وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : من اغتيب عنده أخوه المسلم فلم ينصره وهو يستطيع نصره أدركه إثمه فى الدنيا والآخرة ، (٣) . رواه أبو الشيخ .

المعنى :

أدركه إثمه : أصابته ذنوب الغيبة ، وحوسب على سماعه وعدم إزالة هذا الباطل .

نصره : الدفاع عنه ما استطاع أو عدم المكث فى مجلس الغيبة ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين * وما على الذين يتقون من حسابهم من شىء ولكن ذكرى لعلهم يتقون * وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ سورة الأنعام الآيات : ٦٨ ـ ٧٠

أمر سبحانه وتعالى ألا نجالس الذين يطعنون فى القرآن بالتكذيب والاستهزاء وكذا مجالس الغيبة تترك كى لا يلزم المتقين قبائح أعمال الفساق المغتابين . ﴿ ولكن ذكرى ﴾ أى يذكرونهم بالمنع عن الخوض رجاء اجتناب ذلك حياء أو كراهة .

---

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٧ ط/ الشعب .

(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٧ ط/ الشعب .

(٣) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٨ ط/ الشعب .

قال تعالى : ﴿ أبسلوا بما كسبوا ﴾ أى سلموا إلى العذاب بسبب أعمالهم القبيحة وعقائدهم الزائغة ، وقد أخبر ﷺ أن يشرب المغتاب ردغة الخبال وعبر عنها الله جل جلاله بقوله : ﴿ لهم شراب من حميم ﴾ .

● وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : من نصر أخاه المسلم بالغيب نصره الله فى الدنيا والآخرة . [1] رواه ابن أبى الدنيا .

● وعن جابر بن أبى طلحة الأنصارى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (مامن امرىء مسلم يخذل امرأ مسلما فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته وما من امرىء مسلم ينصر مسلما فى موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله فى موطن يحب فيه نصرته)[2] .. رواه أبو داود .

نتائج ما تجره الغيبة على صاحبها
كما قال صلى الله عليه وسلم

أولا : يرتكب حراما .
ثانيا : فعل أكثر عقابا من الربا .
ثالثا : استطعم لحم أخيه وأساغه .
رابعا : لم ينفع صومه .
خامسا : كأنه أكل ما هو أنتن من الجيفة .
سادسا : يعذب فى النار بأكل النتنة القذر : ذى الرائحة الكريهة .
سابعا : لا يغفر الله له حتى يعفو عنه المغتاب .
ثامنا : ينال عقاب الله فى قبره .
تاسعا : تذهب أنوار إيمانه ويذهب إسلامه .
عاشرا : يقابل الله بلا حسنة ومحمل بالخطايا (المفلس) .
الحادى عشر : يستمر عذابه فى النار حتى يغير .
الثانى عشر : يذوب جسمه حتى يحقق غيبته .
الثالث عشر : يشرب شراب عرق أهل جهنم .
الرابع عشر : لا يجد لفعله فدية : أى كفارة .
الخامس عشر : حبس على قنطرة جهنم مدة طويلة .
السادس عشر : لا ينصره الله ولا يساعده دنيا وأخرى .

وفى الغريب : الغيبة أن يذكر الانسان غيره بما فيه من عيب من غير احتياج إلى ذكره ، قال تعالى :

(١) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٨ ط/ الشعب .
(٢) المرجع السابق ج٣ ص٧٧٨ ط/ الشعب .

﴿ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ سورة الحجرات من الآية : ١٢

وقال قتادة : ذكر لنا أن عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث من الغيبة وثلث من النميمة وثلث من البول .

وقال مالك بن دينار : مر عيسى - عليه السلام - ومعه الحواريون بجيفة كلب ، فقال الحواريون : ما أنتن ريح هذا الكلب ! فقال - عليه الصلاة والسلام - ما أشد بياض أسنانه كأنه ﷺ نبههم عن غيبة الكلب ونبههم على مدحه . وقال عمر رضى الله عنه : عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء وإياكم وذكر الناس ، فإنه داء ، نسأل الله حسن التوفيق والطاعة .

معنى الغيبة وحدودها عند الامام الغزالى رحمه الله

اعلم أن حد الغيبة أن تذكر أخاك بما يكره لو بلغه سواء ذكرته بنقص فى بدنه أو نسبه أو فى خلقه أو فى فعله أو فى قوله أو دينه أو فى دنياه حتى فى ثوبه وداره ودابته . أما البدن فكذلك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة وجميع ما يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان .

وأما النسب فبأن تقول : أبوه نبطى أو هندى أو فاسق أو خسيس أو إسكافى أو زبال أو شيء مما يكرهه كيفما كان .

وأما الخلق فبأن تقول : هو سيء الخلق بخيل متكبر مراء شديد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه .

وأما فى أفعاله المتعلقة بالدين فكقولك : هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظالم أو متهاون بالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لا يحترز من النجاسات أو ليس بارا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمتها أو لا يحرس صومه عن الرفث والغيبة والتعرض لأعراض الناس .

وأما فعله المتعلق بالدنيا فكقولك : إنه قليل الأدب متهاون بالناس أو لا يرى لأحد على نفسه حقا أو يرى لنفسه الحق على الناس أو أنه كثير الكلام كثير الأكل نؤوم ينام فى غير وقت النوم ويجلس فى غير موضعه . وأما فى ثوبه فكقولك : إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لا غيبة فى الدين ، لأنه ذم ماذمه الله - تعالى فذكره بالمعاصى وذمه بها يجوز بدليل ما روى أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة ، وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها فقال : هى فى النار : رواه ابن حبان .

ذكر الغير ثلاثة : الغيبة والبهتان والإفك ، وكل فى كتاب الله عز وجل - فالغيبة : أن تقول ما فيه .

والبهتان : أن تقول ماليس فيه .

والإفك : أن تقول ما بلغك . وقال فى بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول والاشارة والايماء والغمز واللمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل فى الغيبة وهو حرام .

وفى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة :

١ ـ أن يشفى الغيظ .

٢ ـ موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام .

٣ ـ أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطول لسانه عليه أويقبح حاله عند محتشم أو يشهد عليه بشهادة .

٤ ـ أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذى فعله .

٥ ـ إرادة التصنع والمباهاة .

٦ ـ الحسد فيريد زوال نعمة من هو أحسن منه .

٧ ـ اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .

٨ ـ السخرية والاستهزاء استحقارا له .

* الأعذار المرخصة فى الغيبة *

أولا : التظلم فللمظلوم أن يتظلم الى السلطان وينسب القاضى الى الظلم إذا تعدى فى حكمه وجانب الصواب .

ثانيا : الاستعانة على تغيير المنكر ورد المعاصى الى منهج الصلاح .

ثالثا : الاستفتاء كما يقول للمفتى : ظلمنى فلان وقد روى عن هند بنت عتبه أنها قالت للنبى ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح فقال ﷺ : خذى ما يكفيك .

رابعا : تحذير المسلم من الشر كالنصح إلى من يذهب إلى مبتدع أو فاسق .

خامسا : أن يكون الانسان معروفا بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش فلا إثم على من يقول .

سادسا : أن يكون مجاهرا بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس بحيث لا يستنكف أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به وذكر الغزالى فى بيان كفارة الغيبة : اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه وتعالى ـ ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته .

* * *

قوله تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم ۞ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴾ .

هذا من فضل الله ـ تعالى ـ على عباده أن اقتضى فضله ورأفته ورحمته أن يتوب على من تاب وأن يقيم الحد على من وقع فى هذا الإثم ولولا ذلك لكان هناك أمر آخر ولكنه ـ سبحانه ـ قد عاملنا بفضله وفضله واسع كما عاملنا برحمته ورحمته وسعت كل شيء .

فسبحانه قطرة من فيض جوده تملأ الأرض ريا .

ونظرة بعين رضاه تجعل الكافر وليا .

أنت الذى تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات ، وتقول : هل من تائب مستغفر أو سائل أقضى له الحاجات .

وسبحانك ربى أنت القائل : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ﴾ . سورة النساء الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ .

ثم خاطبهم المولى الكريم ناهيا إياهم عن اتباع خطوات الشيطان وطرقه ، محذرا من الوقوع فى شباكه وشراكه ، ومبينا أن عاقبة ذلك وبال وخسران مبين .

قال سبحانه : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ .

قال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : **خطوات الشيطان** : عمله وقال عكرمة : نزغاته .

وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان .

وقال أبو مجلز : النذور فى المعاصى من خطوات الشيطان .

وقال مسروق : سأل رجل ابن مسعود فقال : إنى حرمت أن آكل طعاما وسماه فقال : هذا من نزغات الشيطان كفر عن يمينك وكل .

وقال الشعبى فى رجل نذر ذبح ولده هذا من نزغات الشيطان وأفتاه أن يذبح كبشا .

ثم بين الله تعالى مصير اتباع تلك الخطوات فقال : ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾ .

وهل بعد الفحشاء والمنكر من ذنب جسيم ، وخطر يؤدى بصاحبه إلى سوء العاقبة ، سبحانك من قائل : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم ﴾ . وجل جلاله إذ يقول : ﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون * قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ وسبحانك من قائل :

﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ .

وسبحانك من قائل : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

ومن ثم فان من يتبع خطوات الشيطان فانه أى الشيطان يأمر أتباعه بالفحشاء والمنكر كما أن أتباعه يأمرون بالفحشاء والمنكر ، ثم يبين الله ـ تعالى ـ لنا عظيم فضله علينا وجليل رحمته بنا فيقول : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء ﴾ .

والتزكية تطهير للنفس ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ أى بالتوبة والطاعة ، ومن فضله تعالى انه يزكى

النفوس الطيبة ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾ . فهو الذى يزكى من يشاء بمقتضى علمه تعالى وحكمته ﴿ والله سميع عليم ﴾ . سميع بالأقوال يسمع دبيب أرجل النملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . ﴿ عليم ﴾ أحاط علمه بكل ما كان ، وما يكون ، وما لا يكون .

يامن يرى مد البعوض جناحه فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها فى قاع بحر زاخر متجندل

فسبحانك ربى من قائل : ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾(١)

ويرحم الله صاحب البردة إذ يقول :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

ويرحم الله أمير الشعراء إذ يقول :

يانفس دنياك تخفى كل مبكية وإن بدا لك منها حسن مبتسم
صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوم النفس بالأخلاق تستقم
والنفس من خيرها فى خير عافية والنفس من شرها فى مرتع وخم

ويرحم الله الحسن البصرى فقد روى ابن ابى الدنيا أنه ـ رضى الله عنه ـ كتب إلى عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه : فقال :

« أما بعد : فإن الدنيا دار ظعن ليست بدار إقامة ،إنما أنزل اليها آدم ـ عليه السلام ـ عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، لها فى كل حين قتيل ، تذل من أعزها وتفقر من جمعها ، هى كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فكن فيها كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا مخافة ما يكره طويلا ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرارة الخداعة الخيالة التى قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها وختلت بآمالها ، وتشوفت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ونسى المعاد ، فشغل بها لبه حتى زلت عنها قدمه ، فعظمت عليها ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت ، وألمه ، وحسرات الفوت . وعاشق لم ينل منها بغيته ، فعاش بغصته ، وذهب بكمده ، ولم يدرك منها ما طلب ، ولم تسترح نفسه من التعب ، فخرج بغير زاد ، وقدم على غير مهاد ، فكن اسر ما تكون فيها ، احذر ما تكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها الى سرور أشخصته إلى مكروه وصل الرخاء منها

(١) من الآية : ٣٢ من سورة النجم

بالبلاء ، وجعل البقاء فيها الى فناء ، سرورها مشوب بالحزن ، أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ ، وعنها زاجر ؟ فمالها عند الله قدر ولا وزن ، ولا نظر إليها منذ خلقها ، ولقد عرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها لا ينقصها عند الله جناح بعوضة فأبى أن يقبلها ، كره أن يحب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، فزواها عن الصالحين اختيارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا ، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أكرم بها ، ونسى ما صنع الله - عز وجل - برسوله حين شد الحجر على بطنه » .

وقال الحسن أيضا : « إن قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخشب فأهينوها فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها » .

قال العلامة ابن القيم فى كتابه إغاثة اللهفان : « وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم فى طلبها ، ولما كانت هى أكبرهم من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يرجو لقاء ربه ، كان عذابه بها بحسب حرصه عليها ، وشدة اجتهاده فى طلبها ، وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها ، فتأمل حال عاشق فان فى حب معشوقه ، وكلما رام قربا من معشوقه نأى عنه ولا يفى له ، ويهجره ويصل عدوه ، فهو مع معشوقه فى أنكد عيش ، يختار الموت دونه ، فمعشوقه قليل الوفاء ، كثير الجفاء ، كثير الشركاء ، سريع الاستحالة ، عظيم الخيانة ، كثير التلون ، لا يأمن عاشقه ليس معه على نفسه ولا على ماله ، مع أنه لا صبر له عنه ، ولا يجد عنه سبيلا الى سلوة تريحه ، ولا وصال يدوم له ، فلو لم يكن بهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفر به ، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها ، وصار معذبا بنفس ما كان ملتذا به على قدر لذته به التى شغلته عن سعيه فى طلب زاده ومصالح معاده ؟

أنت القتيل بكل من أحببته . . فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى فإذا كان يوم المعاد ، ولى الحكم العدل - سبحانه - كل محب ما كان يحبه فى الدنيا فكان معه : إما منعما وإما معذبا ولهذا « يمثل لصاحب المال ماله شجاعا أقرع يأخذ بلهزمتيه (يعنى شدقيه) يقول : (أنا مالك أنا كنزك ويصفح له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره) رواه البخارى .

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله - تعالى - جمع الله بينهما فى النار وعذب كل منهما بصاحبه .

قال تعالى : ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ وأخبر سبحانه أن الذين توادوا فى الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة ويلعن بعضهم بعضا ومأواهم النار وما لهم من ناصرين .

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق : « أليس عدلا منى أن اولى كل رجل منكم ما كان يتولى فى دار الدنيا » وقال ﷺ : « المرء مع من أحب » رواه احمد والبخارى ومسلم وقال الله تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾

ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا * لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وماكانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لا تناصرون ﴾ .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أزواجهم : أشباههم ونظراؤهم .

وقال تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ فقرن كل شكل الى شكله وجعل معه قرينا وزوجا : البر مع البر والفاجر مع الفاجر .

والمقصود : أن من أحب شيئا سوى الله ـ عز وجل ـ فالضرر حاصل له بمحبوبه ، ان وجد : وان فقد فإنه ان فقده عذب بفواته وتألم على قدر تعلق قلبه به ، وإن وجده كان ما يحصل له من الألم قبل حصوله ، ومن النكد فى حال حصوله ، ومن الحسرة عليه بعد فوته : أضعاف أضعاف ما فى حصوله له من اللذة .

فما فى الأرض أشقى من محب وإن وجد الهوى حلو المذاق
تـراه بـاكيـا فى كـل حـال مخـافـة فـرقـة أو لاشتيـاق
فيبكى إن نـأوا شـوقـا اليهم ويبكى ان دنوا حذر الفراق
فتسخن عينـه عنـد التـلاقى وتسخن عينـه عنـد الفـراق

ولهذا قال النبى ﷺ ـ فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه فذكره : جميع أنواع طاعته فكل من كان فى طاعته فهو ذاكر له وإن لم يتحرك لسنانه بالذكر ، وكل من والاه الله فقد أحبه وقربه ، فاللعنة لا تنال ذلك بوجه وهى نائلة كل ما عداه .

قوله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ .

هذه الآية نزلت فى الصديق ـ رضى الله عنه ـ حين حلف ألا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال كما تقدم فى الحديث فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة وطابت النفوس المؤمنة واستقرت وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك وأقيم الحد على من أقيم عليه ـ شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثه ـ فإنه كان ابن خالة الصديق وكان مسكينا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وكان من المهاجرين فى سبيل الله وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها ، وضرب الحد عليها وكان الصديق ـ رضى الله عنه ـ معروفا ـ بالمعروف له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ . الآية . فإن الجزاء من جنس العمل فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك وكما تصفح يصفح عنك ، فعند ذلك قال الصديق : بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا ياربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة وقال : والله لا أنزعها منه أبدا فى مقابلة ما كان قال : والله لا أنفعه بنافعة أبدا . فلهذا كان الصديق هو الصديق رضى الله عنه وعن نبيه .

ومعنى (ولا يأتل) أى ولا يحلف وهكذا من حلف يمينا ورأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه

وليتبع التى هى خير .

﴿ أولوا الفضل والسعة ﴾ أى أهل الطول والصدقة والاحسان والجدة .

إذا كان يوم القيامة قال الله أين أهل الفضل فيقومون وهم قليل فيقال لهم : ادخلوا الجنة بغير حساب ، فيقول لهم أهل الموقف : « ماذا كنتم تعملون فى الدنيا » فيقولون : كنا إذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسيء إلينا حلمنا ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

وقد صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾ .

إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل الله ـ من كان أجره على الله فليقم فلا يقوم إلا من عفا وأصلح اقرأوا إن شئتم : ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ .

قال تعالى : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم * يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ .

روى ابن جرير ، عن أحمد بن عبدة الضبى ، عن أبى عوانة ، عن عمر بن أبى سلمة ، عن أبيه ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغنى بعد ذلك ، قالت فبينا رسول الله ـ ﷺ جالس عندى إذ أوحى إليه قالت : وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندى ثم استوى جالسا يمسح على وجهه وقال « ياعائشة أبشرى » قالت فقلت : بحمد الله لا بحمدك فقرأ : ﴿ إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ﴾ حتى بلغ ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .(١)

وإذا كان هذا الحديث يفيد أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ هى سبب النزول لهذه الآية إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالحكم فى هذه الآية عام فى كل محصنة فمن رمى المحصنات العفيفات الغافلات المؤمنات فإن الحكم يشمله فهو ملعون فى الدنيا والآخرة وله عذاب عظيم . إذ ان قذف المحصنات الغافلات المؤمنات من السبع الموبقات : الاشراك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

روى الحافظ أبو القاسم الطبرانى بسنده عن حذيفة عن النبى ﷺ ـ قال : « قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة » (٢)

قوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ .

هذا حديث عن أهوال الساعة وما يجرى على بعض العباد من شهادة أعضائهم قال تعالى : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم

---

(١) انظر ابن كثير ج٦ ص٣٢ ط/ الشعب .

(٢) انظر ابن كثير ج٦ ص٣٣ ط/ الشعب .

وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾ .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : إنهم يعنى المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثا .

وروى ابن أبى حاتم وابن جرير بسندهما عن أبى سعيد عن النبى - ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم فيقال له : هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا ، فيقال : أهلك وعشيرتك ، فيقول : كذبوا ، فيقال : احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار » .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أنس بن مالك قال كنا عند النبى - ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم قال : « من مجادلة العبد ربه يقول : يارب ، ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول : لا أجيز على شاهدا إلا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا وبالكرام عليك شهودا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل » .

قال قتادة : ابن آدم : والله إن عليك لشهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم واتق الله فى سرك وعلانيتك فإنه لا يخفى عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ . قال ابن عباس المقصود يوفيهم حسابهم ، قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

وقال جل شأنه :

﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع * يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور * والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾ .

وكان الفاروق - رضى الله عنه - يقول : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإن مما يهون عليكم الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزينوا للعرض الأكبر (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) وجل جلاله إذ يقول : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم

لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم ، إن الله سريع الحساب ﴾ .

وما أعظم قوله ـ جل شأنه :

﴿ ليجزى الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب * هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾ .

إلهى إستحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لاأسألك وأنت أنت . إن كانت ذنوبى لها حد وغاية فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

يامن له علم الغيوب ووصفه ستر العيوب
وكل ذاك سماح أخفيت ذنب العبد عن كل الورى
كرما فليس عليه ثم جناح منك التفضل والتكرم والرضا
أنت الإله المنعم الفتاح

قوله : ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ .

أى : هو المنزه عن كل باطل المتصف بصفات الكمال والجلال والجمال ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ . ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة أقوال للمفسرين نذكر أشهرها فيما يلى :

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول . والطيبات من القول للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من القول ـ قال ـ ونزلت فى عائشة وأهل الافك .

وهكذا روى عن مجاهد بسنده عن الضحاك واختاره ابن جرير ووجهه بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس ، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس فما نسبه أهل النفاق الى عائشة من كلام هم أولى به وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾[1]

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء ، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء ، وهذا أيضا يرجع إلى ماقاله أولئك باللازم أى ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة لأنه أطيب من كل طيب من البشر ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعا ولا قدرا

(١) انظر اثر ابن عباس فى تفسير الطبرى : ١٨/٨٤ ، ٨٥ وتوجيه ابن جرير فى ١٨/٨٦ .

ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ . أى هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان . ﴿ لهم مغفرة ﴾ أى بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ ورزق كريم ﴾ أى عند الله فى جنات النعيم ، وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ فى الجنة .

قال ابن أبى حاتم بإسناده إلى يحيى بن الجزار قال : جاء أسيد بن جابر إلى عبد الله فقال : لقد سمعت الوليد بن عقبة تكلم اليوم بكلام أعجبنى فقال عبد الله إن الرجل المؤمن يكون فى قلبه الكلمة الطيبة تتجلجل فى صدره ما يستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل عنده يقلها فيضمها إليه ، وإن الرجل الفاجر يكون فى قلبه الكلمة الخبيثة تتجلجل فى صدره ما تستقر حتى يلفظها فيسمعها الرجل الذى عنده يقلها فيضمهاُ إليها ثم قرأ عبد الله ﴿ الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ﴾ .

ويشبه هذا ما رواه الامام أحمد فى المسند مرفوعا : « مثل هذا الذى يسمع الحكمة ثم لا يحدث إلا بشر ما سمع كمثل رجل جاء إلى صاحب غنم فقال : اجزر لى شاة فقال : اذهب فخذ بأذن أيها شئت فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم »(١) . وفى الحديث الآخر « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها أخذها »(٢)

آداب الاستئذان

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

تفسير المفردات

حتى تستأنسوا : أى حتى تستأذنوا ، إذ بالاستئذان يحصل أنس أهل البيت ، وبدونه يستوحشون ويشق عليهم الدخول .

تذكرون : أى تتعظون .

أزكى : أى أطهر .

---

(١) مسند الامام احمد عن أبى هريرة : ٣٥٣/٢ ، ٤٠٥ ، ٥٠٨ .
سنن ابن ماجه كتاب الزهد باب « الحكمة » ج٣ /١٣٩٦ ، ١٣٩٧ رقم ٥١٧٢

(٢) تحفة الاحوذى أبواب العلم باب « فى فضل الفقه على العبادة » ج٧ /٤٥٨ ، ٤٥٩ الحديث رقم ٢٨٢٧ . وقال الترمذى : « هذا حديث غريب » .
وانظر سنن ابن ماجه كتاب الزهد ، باب « الحكمة » ج٢ /١٣٩٥ الحديث رقم ٤١٦٩ .

جناح : أى حرج .
متاع : أى حق تمتع ومنفعة كإيواء الأمتعة والرحال والشراء والبيع كحوانيت التجارة والفنادق ونحوها .

المناسبة وإجمال المعنى

جاء فى سبب نزول هذه الآيات . ما رواه عدى بن ثابت عن رجل من الأنصار : « أن امرأة قالت : يارسول الله ، إنى أكون فى بيتى على الحال التى لا أحب أن يرانى عليها أحد لا والد ولا ولد ، فيأتينى آت فيدخل على فكيف أصنع ؟ فنزلت الآيات .

بعد أن ذكر سبحانه حكم قذف المحصنات الأجنبيات وحكم قذف الزوجات ثم أتبع ذلك بقصص أهل الإفك وبسط ذلك غاية البسط . وكان مما يسهل السبيل إلى التهمة فى كل هذا وجود الخلوة بين رجل وامرأة أعقب ذلك بحكم دخول المرء بيت غيره وبين أنه لايدخله إلا بعد الاستئذان والسلام حتى لا يوجد بحال تورث التهمة التى أمرنا بالابتعاد عنها جهد الطاقة إلا أن الانسان قد يكون فى بيته ومكان خلوته على حال لا يود أن يراه غيره عليها .

* التفسير *

هذا أدب إسلامى رفيع بين الله فيه للمؤمنين ألا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأنسوا أى يستأذنوا وبعدالإذن تسليم على أهل هذا البيت وينبغى أن يكون الاستئذان ثلاث مرات فإن أذن له وإلا انصرف .

كما ثبت فى الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثا فلم يؤذن له انصرف ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له فطلبوه فوجدوه قد ذهب فلما جاء بعد ذلك قال ما أرجعك ؟ قال : إنى استأذنت ثلاثا ، فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت النبى - ﷺ - يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فلينصرف » فقال عمر لتأتينى على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربا ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا فقام أبو سعيد الخدرى فأخبر عمر بذلك فقال : ألهانى عنه الصفق بالأسواق[1] . .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس وغيره : أن النبى - ﷺ - استأذن على سعد بن عبادة فقال : « السلام عليك ورحمة الله » فقال سعد : وعليك السلام ورحمة الله ولم يسمع النبى - ﷺ - حتى سلم ثلاثا ورد عليه سعد ثلاثا ولم يسمعه فرجع النبى - ﷺ - فأتبعه سعد فقال : يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ما سلمت تسليمة إلا وهى بأذنى ولقد رددت عليك ولم أسمعك وأردت أن أستكثر من سلامك ومن البركة ثم أدخله البيت فقرب إليه زبيبا فأكل نبى الله فلما فرغ قال : « أكل طعامكم الأبرار . وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون »[2] .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الاستئذان باب « التسليم والاستئذان ثلاثا ج٨ ص٦٨ وصحيح مسلم كتاب الآداب باب « الاستئذان ج٦ ص١٧٧ - ١٨٠ .

(٢) مسند الامام أحمد ج٣ ص ١٣٨ ط دار الفكر العربى .

وقد روى أبو داود بسنده عن سعد بن عبادة قال : زارنا رسول الله ﷺ في منزلنا فقال : السلام عليكم ورحمة الله فرد سعد ردا خفيا قال : قيس ، فقلت : ألا تأذن لرسول الله - ﷺ : فقال دعه يكثر علينا من السلام فقال رسول الله ﷺ : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد سعد ردا خفيا ثم قال رسول الله ﷺ السلام عليكم ورحمة الله ثم رجع رسول الله ﷺ واتبعه سعد فقال : يارسول الله ، إنى كنت أسمع تسليمك وأرد عليك ردا خفيا لتكثر علينا من السلام ، قال فانصرف معه رسول الله - ﷺ - وأمر له سعد بغسل فاغتسل ثم ناوله خميصة مصبوغة بزعفران أو ورس فاشتمل بها ثم رفع رسول الله - ﷺ - يديه وهو يقول : « اللهم اجعل صلاتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة » قال ثم أصاب رسول الله ﷺ من الطعام فلما أراد الانصراف قرب إليه سعد حمارا قد وطىء عليه بقطيفة فركب رسول الله - ﷺ - فقال سعد : ياقيس ، اصحب رسول الله ﷺ قال قيس : فقال رسول الله - ﷺ - « اركب » فأبيت فقال : « إما أن تركب وإما أن تنصرف قال : فانصرفت [١] . وقد روى هذا من وجوه أخر فهو حديث جيد قوى .

ثم ليعلم أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره لما رواه أبو داود :

حدثنا مؤمل بن الفضل الحرانى فى آخرين قالوا : حدثنا بقية ، حدثنا محمد بن عبد الرحمن عن عبد الله بن بشر قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ويقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » [٢] .

وروى أبو داود أيضا ، عن هزيل قال جاء رجل قال عثمان : سعد فوقف على باب النبى ﷺ يستأذن فقام على الباب قال عثمان مستقبل الباب فقال له النبى ﷺ « هكذا عنك - أو هكذا - فإنما الاستئذان من النظر » [٣]

وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه ما كان عليك من جناح » [٤] .

وأخرج الجماعة من حديث شعبة ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر قال أتيت النبى - ﷺ - فى دين كان على أبى فدققت الباب فقال « من ذا ؟» فقلت أنا قال : « أنا أنا » كأنه كرهه [٥] وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها وإلا فكل أحد يعبر عن نفسه بأنا فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان الذى هو الاستئناس المأمور به .

---

(١) سنن أبى داود كتاب الأدب باب « كم مرة يسلم الرجل فى الاستئذان » الحديث رقم ٥١٨٥ ج٤ ص٣٤٧ .
(٢) المرجع السابق : ج٤/ ٣٤٨ الحديث رقم ٥١٨٦ .
(٣) المرجع السابق كتاب الأدب باب فى الاستئذان ج٤ ص٣٤٤ الحديث رقم ٥١٧٤
(٤) صحيح البخارى كتاب الديات باب من اطلع فى بيت قوم ففقأوا عينه فلا دية ج٩ /١٣ .
وصحيح مسلم كتاب الآداب « باب تحريم النظر فى بيت غيره » ج٦ ص١٨١ .
(٥) صحيح البخارى كتاب الاستئذان باب « اذا قال : من ذا ؟ قال : أنا : ج٨ /٦٨
وصحيح مسلم كتاب الآداب باب « كراهة قول المستأذن « أنا » إذا قيل من هذا ج٦/ ١٨٠ ، وسنن أبى داود كتاب الأدب باب الرجل يستأذن بالدق » ج٤ /٣٤٨ الحديث رقم ٥١٨٧ .
ومسند الامام احمد : ج٣ /٣٦٣ .

وروى أبو داود : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا أبو الأحوص ، عن منصور ، عن ربعى قال : أتى رجل من بنى عامر استأذن على رسول الله ﷺ وهو فى بيته فقال أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه لا أخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان فقال له : قل السلام عليكم أأدخل ؟» فسمعه الرجل فقال السلام عليكم أأدخل فأذن له النبى ﷺ فدخل »(١) .

وقال الترمذى : حدثنا الفضل بن الصباح ، حدثنا سعيد بن زكريا ، عن عتبة بن عبد الرحمن ، عن محمد بن زاذان ، عن محمد بن المنكدر ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ؛ « السلام قبل الكلام »(٢) .

وقال هيثم : قال مغيرة : قال مجاهد : جاء ابن عمر من حاجة وقد آذاه الرمضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش فقال : السلام عليكم أأدخل ؟ قالت : ادخل بسلام ، فأعاد فأعادت وهو يراوح بين قدميه قال : قولى ادخل ، قالت : ادخل فدخل (٣) .

ولابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو نعيم الأحول ، حدثنى خالد بن إياس ، حدثتنى جدتى أم إياس قالت : كنت فى أربع نسوة نستأذن على عائشة فقلن ندخل ؟ فقالت : لا ، قلن لصاحبتكن تستأذن ، فقالت : السلام عليكم أندخل ؟ قالت : ادخلوا ثم قالت : (ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) (٤) .

وقال هشيم أخبرنا أشعث بن سوار : عن كردوس ، عن ابن مسعود قال : عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم .

وقال ابن جريج : سمعت عطاء بن أبى رباح يخبر عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : ثلاث آيات جحدهن الناس . قال الله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾(٥) قال ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتا قال : والأدب كله قد جحده الناس قال : قلت أستأذن على أخواتى أيتام فى حجرى معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم فرددت عليه ليرخص لى فأبى فقال : تحب أن تراها عريانة ؟ قلت : لا ، قال : فاستأذن قال : فراجعته ـ أيضا ـ فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قال : قلت نعم قال : فاستأذن .

وقال ابن جريج : أخبرنى ابن طاوس ، عن أبيه قال : مامن امرأة أكره إلى أن أرى عورتها من ذات محرم قال : وكان يشدد فى ذلك ، وقال ابن جريج عن الزهرى : سمعت هذيل بن شرحبيل الأودى الأعمى انه سمع ابن مسعود يقول : عليكم بالإذن على أمهاتكم .

وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ، قال : لا وهذا محمول على عدم الوجوب وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به لاحتمال ان تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها .

---

(١) سنن أبى داود كتاب الأدب باب « كيفية الاستئذان : ج٤ /٣٤٥ الحديث رقم ٥١٧٧
(٢) تحفة الأحوذى أبواب الاستئذان باب « السلام قبل الكلام » ج٧ /٤٧٨ ٤٧٩ الحديث رقم ٢٨٤٢ .
(٣) تفسير الطبرى : ج١٨ ص٨٧
(٤) تفسير الطبرى : ح١٨ ص٨٧ ، ٨٨ .
(٥) سورة الحجرات من الآية : ١٣

وقال أبو جعفر بن جرير ، عن عمرو بن مرة ، عن يحيى بن الجزار ، عن ابن أخى زينب ـ امرأة عبد الله بن مسعود ـ عن زينب ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان عبد الله اذا جاء من حاجة انتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان الواسطى ، حدثنا عبد الله بن نمير ، حدثنا الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبى هبيرة قال : كان عبد الله إذا دخل الدار استأنس تكلم ورفع صوته .

وجاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه نهى أن يطرق الرجل أهله طروقا ـ وفى رواية ـ ليلا يتخونهم . (١)

وفى الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهارا فأناخ بظاهرها وقال : « انتظروا حتى ندخل عشاء ـ يعنى آخر النهار ـ حتى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة » .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا أبو بكر بن شيبة ، حدثنا عبد الرحمن بن سليمان ، عن واصل بن السائب ، حدثنى أبو ثورة ابن أخى أبى أيوب ، عن أبى أيوب قال : قلت يارسول الله ، هذا السلام فما الاستئناس ؟ قال : « يتكلم الرجل بتسبيحة أو تكبيرة أو تحميدة ويتنحنح فيؤذن أهل البيت » (٢) .

وقال قتادة فى قوله : (حتى تستأنسوا) هو الاستئذان ثلاثا فمن لم يؤذن له منهم فليرجع أما الأولى فليسمع الحى ، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم : وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا ردوا ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم فإن للناس حاجات وهم أشغال والله أولى بالعذر .

وقال مقاتل بن حيان فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه لا يسلم عليه ويقول : حييت صباحا وحييت مساء وكان ذلك تحية القوم بينهم ، وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم ويقول : قد دخلت ونحو ذلك ، فيشق ذلك على الرجل ولعله يكون مع أهله فغير الله ذلك كله فى ستر وعفة وجعله نقيا نزها من الدنس والقذر والدرن فقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها** ﴾ (٣) .

وهذا الذى قاله مقاتل حسن ولهذا قال تعالى : ﴿ **ذلكم خير لكم** ﴾ يعنى الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين للمستأذن ولأهل البيت ﴿ **لعلكم تذكرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم** ﴾ .

أى فإن لم تجدوا فيها أحدا ممن يملك الاذن ، بأن كان فيها عبد أو صبى فلا تدخلوها حتى يأذن لكم من يملكه وهو رب الدار .

(١) صحيح البخارى أبواب العمرة باب « لا يطرق أهله إذا بلغ المدينة » ج٣ ص٩
وصحيح مسلم كتاب الامارة باب « كراهة الطروق ـ وهو الدخول ليلا ـ لمن ورد من سفر » ج٦ ص٥٥ .
وتحفة الأحوذى ابواب الاستئذان باب « فى كراهية طروق الرجل أهله ليلا » ج٧ / ٤٩٣
الحديث رقم ٣٨٥٥ وقال الترمذى « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الطبرانى : ج٥ ص٣٨

(٣) الدر المنثور عن أبى حاتم : ج٥ /٤٠

وقد استثنى من ذلك ما إذا دعت الضرورة إلى الدخول فورا كإطفاء حريق أو منع حدوث جناية أو نحو ذلك .

﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أى وإن قال لكم أهل البيت الذى تستأذنون فيه ارجعوا فارجعوا ، فإن الرجوع أطهر لكم فى دينكم ودنياكم

لأن رب الدار قد يستوحش ويتأذى بوقوف غيره على بابه بعد منع الاستئذان ولما فى ذلك من الدناءة والتسكع على بيوت الناس وربما ظن بأهل البيت سوءا من وقوف الأجانب على أبوابهم .

﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ . أى والله عليم بكل مقاصدكم ونواياكم من دخول البيوت ومجازيكم على ذلك .

ولما بين حكم البيوت المسكونة بين حكم البيوت غير المسكونة فقال تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ﴾ .

أى ليس عليكم أيها المؤمنون إثم ولا حرج أن تدخلوا بيوتا غير معدة لسكنى قوم معينين بل معدة ليتمتع بها من يحتاج إليها كائنا من كان كالفنادق والحوانيت ونحوها مما فيه حق التمتع لكم كالمبيت فيها وإيواء الأمتعة والبيع والشراء ونحو ذلك ، لأن السبب الذى لأجله منع دخول البيت وهو الاطلاع على عورات الناس والوقوف على أسرارهم - غير موجود فيها .

روى أن أبا بكر قال : « يارسول الله ، إن الله قد أنزل عليك آية فى الاستئذان وإنا لنختلف فى تجارتنا فننزل هذه الخانات ، أفلا ندخلها إلا بإذن فنزلت الآية » .

﴿ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ أى والله عليم بما تظهرون بألسنتكم من الاستئذان إذا استأذنتم على أهل البيوت المسكونة ، وما تضمرون من حب الاطلاع على عورات الناس أو من قصد ريبة أو فساد .

أحكام تتعلق بالنظر وإبداء الزينة

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُولِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ

بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

تفسير المفردات

غض بصره : خفض منه .
الخمر : واحدها خمار ، وهو ما تغطى به المرأة رأسها .
الجيوب : واحدها جيب وهو فتحة أعلى القميص يبدو منها بعض الجسد .
البعولة : الأزواج واحدهم بعل .
الإربة : الحاجة إلى النساء .
الطفل : يطلق على الواحد والجمع .
لم يظهروا : أى لم يعلموا عورات النساء لصغرهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نهى سبحانه عن دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والسلام على أهلها منعا للقيل والقال والاطلاع على عورات الناس وأسرارهم ـ أمر رسوله أن يرشد المؤمنين إلى غض البصر عن المحارم لمثل السبب المتقدم ، إذ ربما كان ذلك ذريعة إلى وقوع المفاسد وانتهاك الحرمات التى نهى عنها الدين .

« مبحث قيم »

وقبل ان نشرع فى تفسير هاتين الآيتين الكريمتين نذكر فى هذا المقام هذا المبحث القيم للعلامة ابن القيم لما فيه من الفوائد العظيمة والإصلاح الاجتماعى الكبير قال رحمه الله ـ تعالى :

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الانساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه وفى ذلك خراب العالم كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه بها فى كتابه ورسوله ﷺ فى سنته .

وقال الامام احمد : ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم من الزنى وقد أكد سبحانه حرمته بقوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ . فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار فى العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجوب ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح .

وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ . فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه فى العقول حتى عند كثير من الحيوانات .

كما ذكر البخارى فى صحيحه : عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت فى الجاهلية قردا زنى بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا ، ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا فإنه سبيل هلكة وبوار واحتقار فى الدنيا وسبيل عذاب فى الآخرة ، وخزى ونكال .

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال : (إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا) .

وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه فقال : **﴿ قد أفلح المؤمنون ۝ الذين هم فى صلاتهم خاشعون ۝ ﴾** إلى قوله : **﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾** .

وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وأنه من الملومين ، ومن العادين ففاته الفلاح ، واستحق منهم العدوان ، ووقع فى اللوم فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ، ولنظير هذا أنه ذم الإنسان وأنه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير ، بل إذا مسه الخير منع وبخل ، وإذا مسه الشر جزع ، إلا من استثناه .

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ . وأمر الله تعالى نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم ، مطلع عليهم . **﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾** .

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج ، فإن الحوادث مبدؤها من النظر ، كما أن معظم النار مبدؤها من مستصغر الشرر ثم تكون نظرة ثم تكون خطرة ثم خطوة ثم خطيئة ولهذا قيل من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات فينبغى للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة ، ويلازم الرباط على ثغورها ، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ، ويتبر ماعلوا تتبيرا ثم يقول العلامة ابن القيم :

وأكثر ما تدخل المعاصى على العبد من هذه الأبواب الأربعة فذكر فى كل واحد منها فصلا يليق به .

فاما اللحظات فهى رائد الشهوة ورسولها ، وحفظها أصل حفظ الفرج فمن أطلق نظره أورده موارد الهلاك .

وقد قال النبى ﷺ : ياعلى لا تتبع النظرة النظرة فإنما لك الأولى وليست لك الثانية .

وفى المسند عنه ﷺ ـ النظرة سهم مسموم من سهام إبليس فمن غض بصره عن محاسن امرأة أو أمرد الله أورث الله فى قلبه حلاوة العبادة إلى يوم القيامة هذا معنى الحديث .

وقال : غضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم .

وقال : إياكم والجلوس على الطرقات قالوا يارسول الله مجالسنا مالنا بد منها .

قال : فإن كنتم لابد فاعلين فأعطوا الطريق حقه .

قالوا : وما حقه ؟

قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام . والنظر أصل عامة الحوادث التى تصيب الإنسان فإن النظرة تولد خطرة ثم تولد الخطرة فكرة ثم تولد الفكرة شهوة ثم تولد الشهوة إرادة ثم تقوى فتصير عزيمة حازمة فيقع الفعل ولابد مالم يمنع منه مانع .

وفى هذا قيل. الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على آلم ما بعده .

ولهذا قال الشاعر :

كل الحوادث مبدأها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة بلغت فى قلب صاحبها كمبلغ السهم بين القوس والوتر
والعبـد مادام ذا طـرف يقلبه فى أعين العين موقوف على الخطر
يسر مقلتـه مـا ضر مهجتـه لا مرحبًا بسـرور عاد بـالضرر

ومن آفاته أنه يورث الحسرات والزفرات والحرقات فيرى العبد ماليس قادرا عليه ولا صابرا عنه ، وهذا من أعظم العذاب أن ترى مالا صبر لك عنه ولا عن بعضه ولا قدرة لك عليه .

ومن العجب أن لحظة الناظر سهم لا يصل إلى المنظور إليه حتى يتبوأ مكانا من قلب الناظر .

يـا راميا بسهـام اللحظ مجتهدا انت القتيل بما ترمى فلا تصب
باعث الطرف يرتاد الشفاء له احبس رسولك لا يأتيك بالعطب

وأعجب من ذلك ان النظرة تجرح القلب فيتبعها جرح على جرح ثم لا يمنعه ألم الجراحة من تكرارها .

مـازلت تتبع نـظرة فى اثـر كـل مليحـة ومليـح
وتظن ذاك دواء جرحك وهو فى التحقيق تجـريح على تجـريـح
فذبحت طرفك باللحاظ وبالبكا فـالقلب منك ذبيـح أى ذبيـح

وقد قيل : إن حبس اللحظات أيسر من دوام الحسرات .

وأما الخطرات فشأنها أصعب فإنها مبدأ الخير والشر ومنها تتولد الارادات والهمم والعزائم ، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه ، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب ، ومن استهان بالخطرات قادته قهرا الى الهلكات ولا تزال الخطرات تتردد على القلب حتى تصير منى باطلة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب وأخس الناس همة وأوضعهم نفسا من رضى من الحقائق بالأمانى الكاذبة واستجلبها لنفسه وتحلى بها وهى لعمر الله رؤوس أموال المفلسين ومتاجر الباطلين ، وهى قوة النفس الفارغة التى قد قنعت من الوصل بزورة الخيال ، ومن الحقائق بكواذب الآمال كما قال الشاعر :

أمانى من سعد رواء على الظما سقتنا بها سعدى على ظمأ بردا
منى إن تكن حقا تكن أحسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا

وهى أضر شيء على الإنسان وتتولد من العجز والكسل وتولد التفريط والإضاعة والحسرة والندامة والمتمنى لما فاته مباشرة الحقيقة يحسبه تحت صورتها فى قلبه وعانقها وضمها إليه فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره ، وذلك لا يجدى عليه شيئا ، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن يصور فى وهمه صورة الطعام والشراب وهو يأكل ويشرب والسكون به إلى ذلك واستجلابه يدل على خساسة النفس ووضاعتها ، وإنما شرف النفس وزكاتها وطهارتها وعلوها بأن تنفى عنها كل خطرة لا حقيقة لها ، ولا ترضى أن يخطرها بباله ، ويأنف لنفسه منها ، ثم الخطرات بعد أقسام تدور على أربعة أصول : خطرات يستجلب بها العبد منافع دنياه ، وخطرات يستدفع بها مضار دنياه ، وخطرات يستجلب بها مصالح آخرته ، وخطرات يستدفع بها مضار آخرته ، فليحصر العبد خطراته وأفكاره وهمومه فى هذه الأقسام الأربعة فإذا انحصرت له فيها ما أمكن اجتماعه منها لم يتركه لغيره وإذا تزاحمت عليه الخطرات كتزاحم متعلقاتها قدم الأهم فالأهم الذى يخشى فوته وأخر الذى ليس بأهم ولا يخاف فوته ، بقى قسمان آخران : أحدهما مهم لا يفوت ، والثانى غير مهم ولكنه يفوت ، ففى كل منهما يدعو إلى تقديمه فهنا يقع التردد والحيرة فيه فإن قدم الأهم خشى فوات ما دونه ، وان قدم ما دونه فإنه الاشتغال به عن المهم وذلك بأن يعرض له أمران لا يمكن الجمع بينهما ، ولا يحصل احدهما إلا بتفويت الآخر ، فهو موضع استعمال العقل والفقه والمعرفة ، ومن هنا ارتفع من ارتفع ، وأنجح من أنجح ، وخاب من خاب ، فأكثر من ترى ممن يعظم عقله ومعرفته يؤثر غير المهم الذى لا يفوت على المهم الذى يفوت ولا تجد أحدا يسلم من ذلك ، ولكن مستقل ومستكثر والتحكيم فى هذا الباب للقاعدة الكبرى التى يكون عليها مدار الشرع والقدر ، وإليها يرجع الخلق والأمر وهى إيثار أكبر المصلحتين وأعلاهما . وإن فاتت المصلحة التى هى دونها ، والدخول فى أدنى المفسدتين لدفع ما هو أكبر منها فتفوت مصلحة لتحصيل ماهو أكبر منهـا ، ويرتكب مفسدة لدفع ما هو أعظم منها ، فخطرات العاقل وفكره لا تتجاوز ذلك وبذلك جاءت الشرائع ومصالح الدنيا والآخرة لا تقوم إلا على ذلك ، وأعلى الفكر وأجلها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة فما كان لله فهو أنواع :

(**الأول**) الفكرة فى آياته المنزلة وتعقلها وفهمها وفهم مراده منها ولذلك أنزلها الله تعالى لا لمجرد تلاوتها بل التلاوة وسيلة قال بعض السلف : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا .

(**الثانى**) الفكرة فى آياته المشهودة والاعتبار بها والاستدلال بها على أسمائه وصفاته وحكمته وإحسانه وبره وجوده .

وقد حث الله ـ سبحانه ـ عباده على التفكر فى آياته وتدبرها وتعقلها وذم الغافل عن ذلك .

(**الثالث**) الفكرة فى آلائه وإحسانه وإنعامه على خلقه بأصناف النعم وسعة مغفرته ورحمته وحلمه .

وهذه الأنواع الثلاثة تستخرج من القلب معرفة الله ومحبته وخوفه ورجاءه ودوام الفكرة فى ذلك مع الذكر يصبغ القلب فى المعرفة والمحبة صبغة تامة .

(**الرابع**) الفكرة فى عيوب النفس وآفاتها وفى عيوب العمل وهذه الفكرة عظيمة النفع . وهذا باب لكل خير . وتأثيرها فى كسر النفس الأمارة بالسوء ، ومتى كسرت عاشت النفس المطمئنة وانتعشت

وصار الحكم لها ضحى القلب ودارت كلمته فى مملكته وبث أمراءه وجنوده فى مصالحه .

(الخامس) الفكرة فى واجب الوقت ووظيفته وجمع الهم كله عليه فالعارف ابن وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها ، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدا .

قال الشافعى ـ رضى الله عنه ـ صحبت الصوفية : فلم أستفد منهم سوى حرفين أحدهما قولهم : الوقت سيف فإن لم تقطعه قطعك . وذكر الكلمة الأخرى ونفسك إن أشغلتها بالحق وإلا اشغلتك بالباطل ، فوقت الإنسان هو عمره فى الحقيقة وهو مادة حياته الأبدية فى النعيم المقيم ومادة المعيشة الضنك فى العذاب الأليم ، وهو يمر أسرع من مر السحاب فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره ، وغير ذلك ليس محسوبا من حياته وإن عاش فيه عيش البهائم ، فاذا قطع وقته فى الغفلة والشهوة والأمانى الباطلة وكان خير ما قطعه بالنوم والبطالة فموت هذا خير له من حياته وإذا كان العبد وهو فى الصلاة ليس له من صلاته إلا ما عقل فيها فليس له من عمره إلا ما كان فيه بالله وله .

وما عدا هذه الأقسام من الخطرات والفكر فإما وساوس شيطانية ، وإما أمانى باطلة وخدع كاذبة بمنزلة خواطر المصابين فى عقولهم من السكارى والمحشوشين والموسوسين ولسان حال هؤلاء يقول عند انكشاف الحقائق .

إن كان منزلتى فى الحب عندكم ما قد لقيت فقد ضيعت أيامى
أمنيـة ظفـرت نفسى بهـا زمنـا واليوم أحسبها أضغاث أحلامى

واعلم ان ورود الخاطر لا يضر وانما يضر استدعاؤه ومحادثته فالخاطر كالمار على الطريق فإن لم تستدعه وتتركه مر وانصرف عنك وإن استدعيته تحرك بحديثه وخدعه وغروره وهو أخف شىء على النفس الفارغة الباطلة ، وأثقل شىء على القلب والنفس الشريفة السماوية المطمئنة ، وقد ركب الله ـ سبحانه ـ فى الإنسان نفسين : نفسا أمّارة ونفسا مطمئنة ، وهما متعاديتان فكل ما خف على هذه ثقل على هذه وكل ما التذت به هذه تألمت به الأخرى ، فليس على النفس الأمارة أشق من العمل لله وإيثار رضاه على هواها . وليس لها أنفع منه ، وكذا ليس على النفس المطمئنة أشق من العمل لغير الله وإجابة داعى الهوى وليس عليها شىء أضر منه ، والملك مع هذه عن يمين القلب ، والشيطان مع تلك عن ميسرة القلب ، والحروب مستمرة لا تضع أوزارها إلا ان تستوفى أجلها من الدنيا ، والباطل كله يتحيز مع الشيطان . والأمارة ، والحق كله يتحيز مع الملك والمطمئنة ، والحرب دول وسجال ، والنصر مع الصبر ، ومن صبر وصابر ورابط واتقى الله فله العافية فى الدنيا والآخرة ، وقد حكم الله تعالى حكما لا يبدل أبدا أن العاقبة للتقوى ، والعاقبة للمتقين ، فالقلب لوح فارغ ، والخواطر نقوش تنقش فيه فكيف يليق بالعقل أن يكون نقوش لوحه ما بين كذب وغرور ، وخدع واماني باطلة ، وسراب لا حقيقة له ، فأى حكمة وعلم وهدى ينتقش مع هذه النقوش ، وإذا أراد ان ينقش ذلك فى لوح قلبه كان بمنزلة كتابة العلم النافع فى محل مشغول بكتابة مالا منفعة فيه ، فإن لم يفرغ القلب من الخواطر الردية لم يستقر فيه الخواطر النافعة فإنها لا تستقر إلا فى محل فارغ كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ولهذا كثير من أرباب السلوك بنوا سلوكهم على حفظ الخواطر والا يمكنوا خاطرا يدخل قلوبهم حتى تصير القلوب فارغة قابلة للكشف وظهور حقائق العلويات فيها ، وهؤلاء حفظوا شيئا وغابت عنهم أشياء ، فإنهم أخلوا القلوب من أن يطرقها خاطر فبقيت فارغة لا شىء فيها فصادفها الشيطان خالية فبذر فيها الباطل فى قوالب وهمهم أنها أعلى الأشياء وأشرفها .

وعوضهم بها عن الخواطر التى هى مادة العلم والهدى ، وإذا خلا القلب عن هذه الخواطر جاء الشيطان فوجد المحل خاليا فشغله بما يناسب حال صاحبه حيث لم يستطع أن يشغله بالخواطر السفلية فكيف بالعلوية فشغله بإرادة التجريد والفراغ من الإرادة التى لا صلاح للعبد ولا فلاح إلا بأن تكون هى المستولية على قلبه وهى إرادة مراد الله الدينى الأمرى الذى يحبه ويرضاه. وشغل القلب واهتمامه بمعرفته على التفصيل به والقيام به وتنفيذه فى الخلق والتطرق إلى ذلك والتوصل اليه بالدخول فى الخلق لتنفيذه فيرطلهم الشيطان عن ذلك بأن دعاهم إلى تركه وتعطيله من باب الزهد فى خواطر الدنيا وأسبابها وأوهمهم أن كما لهم فى ذلك التجريد والفراغ وهيهات هيهات إنما الكمال فى إجلاء القلب والسر من الخواطر والإرادات والفكر فى تحصيل مراد الرب تعالى من العبد ومن الناس والفكر فى طرق ذلك التوصيل إليه فأكمل الناس أكثرهم خواطر وفكرا وإرادات لذلك كما أن أنقص الناس أكثرهم خواطر وفكرا وإرادات لحظوظه وهواه أين كانت والله المستعان وهذا عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كانت تتزاحم عليه الخواطر فى مرضاة الرب تعالى فربما استعملها فى صلاته فكان يجهز جيشه وهو فى صلاته فيكون قد جمع بين الصلاة والجهاد وهذا من باب تداخل العبادات فى العبادة الواحدة وهو من باب عزيز شريف لا يدخل منه إلا صادق حاذق الطلب متضلع من العلم عالى الهمة بحيث يدخل فى عبادة يظفر فيها بعبادات شتى وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وأما اللفظات فحفظها بألا يخرج لفظة ضائعة بل لا يتكلم إلا فيما يرجو فيه الربح والزيادة فى دينه فإذا أراد أن يتكلم بالكلمة نظر هل فيها ربح أو فائدة أم لا ، فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها ، وإن كان فيها ربح نظر هل تفوته بها كلمة هى أربح منها فلا يضيعها بهذه .

وإذا أردت أن تستدل على ما فى القلوب فاستدل عليه بحركة اللسان فإنه يطلعك على ما فى القلب شاء صاحبه أم أبى قال يحيى بن معاذ : القلب كالقدور تغلى بما فيها وألسنتها مغارفها فانظر الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك به مما فى قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه أى كما تطعم بلسانك طعم ما فى القدور من الطعام فتدرك العلم بحقيقته ، كذلك تطعم ما فى قلب الرجل من لسانه فتذوق ما فى قلبه من لسانه كما تذوق ما فى القدر بلسانك وفى حديث أنس المرفوع : « لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه » وسئل النبى ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : الفم والفرج (١) .

(١) الترغيب والترهيب « الترغيب فى حسن الخلق وفضله » الخ : ج٣ ص٦٤٣ - ٦٤٤ .

وقد سأل معاذ النبى ﷺ عن العمل الذى يدخله الجنة ويباعده من النار فأخبره - ﷺ - برأسه وعموده وذروة سنامه ثم قال : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله قال : بلى يارسول الله ، فأخذ بلسان نفسه ، ثم قال : كف عليك هذا فقال وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به فقال : ثكلتك أمك يامعاذ وهل يكب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » قال الترمذى : حديث حسن صحيح (١)

ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر ومن النظر المحرم وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه حتى يرى الرجل يشار اليه بالدين والزهد والعبادة وهو يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم ولسانه يفرى فى أعراض الأحياء والأموات ولا يبالى ما يقول ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث جندب بن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ : قال رجل : والله لا يغفر الله لفلان فقال الله - عز وجل - من ذا الذى يتألى على إنى لا أغفر لفلان قد غفرت له وأحبطت عملك فهذا العابد الذى قد عبد الله ما شاء أن يعبده أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله » وفى حديث أبى هريرة نحو ذلك ثم قال أبو هريرة تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة عن النبى - ﷺ « إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفعه الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوى بها فى نار جهنم » (٢) . وعند مسلم إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق ، والمغرب » (٣) .

وعند الترمذى عن النبى - ﷺ - من حديث بلال بن الحارث المزنى « إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه » فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث (٤) .

وفى جامع الترمذى . . أيضا - من حديث أنس قال : « توفى رجل من الصحابة فقال رجل : أبشر بالجنة ، فقال رسول الله - ﷺ : أو لا تدرى لعله تكلم فيما لا يعنيه أو بخل بما لا ينقصه » (٥) .

(١) الترغيب والترهيب كتاب الترغيب فى الصمت باب « وهل يكب الناس على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » ج٣ ص٧٨٦ - ٧٨٧ .

(٢) صحيح البخارى كتاب الرقاق باب « ما جاء فى الرقاق » الخ ج٣ ص١٢٥ .

(٣) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب التكلم بالكلمة يهوى بها فى النار ج٤ ص٢٢٩٠ حديث رقم ٥٠ .

(٤) الترغيب والترهيب كتاب الترغيب فى الصمت إلا عن خير باب « ان الرجل ليتكلم بالكلمة يهوى بها سبعين خريفا ج٣ ص٧٩٧ حديث رقم ٤٥
وسنن الترمذى ابواب الزهد باب ما جاء فى قلة الكلام ج٣ ص٣٨٣ رقم ٢٤٢١ وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(٥) سنن الترمذى « أبواب الزهد » باب ٨ ج٣ ص٣٨٢ الحديث رقم ٢٤١٨ .

وفى لفظ أن غلاما استشهد يوم أحد فوجد على بطنه صخرة مربوطة من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت : هنيئا لك يابنى الجنة ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع مالا يضر »

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة يرفعه « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » وفى لفظ لمسلم « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإذا شهد أمرا فليتكلم بخير أو ليسكت » (١) .

وذكر الترمذى بإسناد صحيح عنه ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه » (٢)

وعن سفيان بن عبد الله الثقفى قال : قلت : يارسول الله ، قل لى فى الاسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » قال : قلت : يارسول الله ، ما أخوف ما تخاف على فأخذ بلسان نفسه ثم قال هذا » حديث صحيح (٣) .

وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر أو ذكر الله ـ عز وجل » (٤) .

وعن النبى ﷺ : « إذا أصبح العبد فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان تقول اتق الله فإنما نحن بك فإذا استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا » (٥) .

وقد كان بعض السلف يحاسب أحدهم نفسه فى قوله يوم حار ويوم بارد ، ولقد رئى بعض الأكابر من أهل العلم فى النوم بعد موته فسئل عن حاله فقال : أنا موقوف على كلمة قلتها قلت : ما أحوج الناس إلى غيث فقيل وما يدريك أنا أعلم بمصلحة عبادى .

وقال بعض الصحابة لخادمه يوما : هات لى السفرة فعبث بها ثم قال استغفر الله ما أتكلم بكلمة إلا وأنا أخطمها وأزمها إلا هذه الكلمة خرجت منى بغير خطام ولا زمام أو كما قال والسير حركات الجوارح حركة اللسان وهى أضرها على العبد واختلف السلف والخلف هل يكتب جميع ما يلفظ به أو الخير والشر فقط على قولين أظهرهما الأول ، وقال بعض السلف : كل كلام ابن آدم عليه لا له إلا ما كان من ذكر الله وما والاه .

وكان الصديق ـ رضى الله عنه ـ يمسك بلسانه ويقول هذا أوردنى الموارد ، والكلام أسيرك فإذا خرج من فيك صرت أسيره ، والله عند لسان كل قائل وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وفى اللسان آفتان عظيمتان ان خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى : آفة الكلام ، وآفة السكوت ، وقد يكون كل منهما أعظم إثما من الأخرى فى وقتها فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاص لله مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله ، وأكثر الخلق منحرف فى

(١) صحيح مسلم كتاب الايمان باب « الحث على اكرام الجار والضيف ولزوم الصمت » ج١ ص٦٨ الحديث رقم ٧٤ .

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الزهد » باب « ما جاء من تكلم بالكلمة .. الخ » ج٣ ص٣٨٢ رقم ٢٤١٩ قال الترمذى هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه .

(٣) انظر صحيح مسلم بتحقيق عبد الباقى كتاب الايمان باب جامع أوصاف الاسلام ج١ ص٦٥ حديث رقم ٦٢/٣٨ إلا أنه قال : آمنت بالله فاستقم .

(٤) انظر الترغيب والترهيب كتاب الترغيب فى الصمت باب « كثرة الكلام .. الخ » ج٣ ص٧٩٨ ، ٧٩٩ حديث رقم ٤٩ .

(٥) سنن الترمذى أبواب الزهد باب ما جاء فى حفظ اللسان ج٤ ص٣١ الحديث رقم ٢٥١٨ .

كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين ، وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه فى الآخرة ، فلا يرى أحدهم أنه يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة فضلا أن تضره فى آخرته ، وان العبد ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها ، ويأتى بسيئات امثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله - عز وجل - وما اتصل به .

وأما الخطوات فحفظها بالا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى فإن لم يكن فى خطاه مزيد ثواب فالقعود عنها خير له ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو اليه قربة يتقرب بها وينويها لله فيقع خطاه قربة وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات ولما كانت العثرة عثرتين : عثرة الرجل ، وعثرة اللسان ، جاءت إحداهما قرينة الأخرى فى قوله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ (١) فوصفهم بالاستقامة فى لفظاتهم وخطواتهم كما جمع بين اللحظات والخطرات فى قوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ (٢) .

وفى الصحيحين عن النبى - ﷺ - : « لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » (٣) .

وهذا الحديث فى اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التى فى الفرقان ونظير حديث ابن مسعود : بدأ رسول الله - ﷺ - بالأكثر وقوعا ، ثم بالذى يليه ، فالزنى أكثر وقوعا من قتل النفس ، وقتل النفس أكثر وقوعا من الردة نعوذ بالله منها ، وأيضا فإنه انتقال من الأكبر إلى ما هو أكبر منه مفسدة ، ومفسدة الزنى مناقضة لصلاح العالم فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها ونكست رءوسهم بين الناس ، وإن حملت من الزنى فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل ، وإن حملته الزوج أدخلت على أهلها وأهله جنينا ليس منهم فورثهم وليس منهم ، ورآهم وخلا بهم ، وانتسب اليهم وليس منهم الى غير ذلك من مفاسد زناها ، وأما زنى الرجل فإنه يوجد اختلاط الأنساب أيضا وإفساد المرأة المصونة وتعريضها للتلف والفساد ، ففى هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين . وإن عمرت القبور فى البرزخ والنار فى الآخرة فكم فى الزنى من استحلال محرمات وفوات حقوق ووقوع مظالم ومن خاصيته أنه يوجب الفقر ويقصر العمر ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس ، ومن خاصيته - أيضا - أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته ، ويجلب الهم والحزن والخوف ، ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان ، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته ، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها ، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٣ .
(٢) سورة غافر الآية : ١٩ .
(٣) صحيح مسلم كتاب القسامة باب « ما يباح به دم المسلم ج٣ ص١٣٠٢ ، ١٣٠٣ . الحديث رقم ١٦٧٦ .
وسنن أبى داود كتاب الحدود باب الحكم فيمن ارتد ج٤ ص٥٢٢ رقم الحديث ٤٣٥٢ .

وقال سعيد بن عبادة ـ رضى الله عنه : لو رأيت رجلا مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : تعجبون من غيرة سعد والله لأنا أغير منه ، والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » متفق عليه .

وفى الصحيحين عن النبى ﷺ : « إن الله يغار وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى العبد ما حرم عليه » (١) .

وفى الصحيحين عنه ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله ، من أجل ذلك أثنى على نفسه » (٢) .

وفى الصحيحين فى خطبته ﷺ فى صلاة الكسوف أنه قال : « يا أمة محمد ، والله انه لا أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، يا أمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ثم رفع يديه فقال : اللهم هل بلغت » (٣) .

وفى ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله وظهور الزنى من أمارات خراب العالم وهو من أشراط الساعة كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك انه قال : « لأحدثكم حديثا لا يحدثكموه أحد بعدى سمعته من النبي ـ ﷺ ـ يقول : من أشراط الساعة أن يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا ، ويقل الرجال ، وتكثر النساء ، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد » .

وقد جرت سنة الله ـ سبحانه ـ فى خلقه أنه عند ظهور الزنى يغضب الله ـ سبحانه وتعالى ـ ويشتد غضبه فلابد أن يؤثر غضبه فى الأرض عقوبة قال عبد الله بن مسعود : ما ظهر الربا والزنا فى قرية إلا أذن الله بإهلاكها .

ورأى بعض أحبار بنى اسرائيل ابنا له يغامز امرأة فقال : مهلا يابنى فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته وقيل له هكذا غضبك لى لا يكون فى جنسك خير أبدا .

وخص سبحانه حد الزنى من بين سائر الحدود بثلاث خصائص : أحدها القتل فيه بأشنع القتلات وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة الثانى : انه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة فى دينه بحيث تمنعهم من اقامة الحد عليهم فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة فهو أرحم بكم منكم بهم ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره وهذا وإن كان عاما فى سائر الحدود ولكن ذكر فى حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره فإن الناس لا يجدون فى قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزانى ما يجدون على السارق والقاذف وشارب الخمر فقلوبهم ترحم الزانى أكثر مما ترحم غيره من

(١) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب « غيرة الله ـ تعالى ـ وتحريم الفواحش » ج٤ ص٢١١٤ حديث رقم ٣٦ .
(٢) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب « غيرة الله ـ تعالى ـ وتحريم الفواحش ج٤ ص٢١١٤ . حديث رقم ٣٤ .
(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف ج٢ ص٦١٨ حديث رقم ٩٠١ .

أرباب الجرائم والوقائع والواقع شاهد بذلك فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد الله - عز وجل - وسبب هذه الرحمة أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل وفى النفوس أقوى الدواعى إليه والمشارك فيه كثير ، وأكثر أسبابه العشق والقلوب مجبولة على رحمة العاشق وكثير من الناس يغد مساعدته طاعة وقربة وإن كانت الصوزة المعشوقة محرمة عليها ولا يستنكر هذا الأمر فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام ولقد حكى لنا من ذلك شىء كثير أكثره عن ناقصى العقول والأديان كالخدم والنساء وأيضا فان هذا ذنب غالبا ما يقع مع التراضى من الجانبين فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه وفيها شهوة غالبة له فتصور ذلك لنفسها فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد وهذا كله من ضعف الإيمان ، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله ورحمة يرحم بها المحدود فيكون موافقا لربه سبحانه فى أمره ورحمته .

الثالث : أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين فلا يكون فى خلوة حيث لا يراهما أحد وذلك أبلغ فى مصلحة الحد وحكمة الزجر ، وحد الزانى المحصن مشتق من عقوبة الله - تعالى - لقوم لوط بالقذف بالحجارة وذلك لاشتراك الزنى واللواط فى الفحش ، وفى كل منهما فساد يناقض حكمة الله فى خلقه وأمره فإن فى اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتى فإنه يفسد فسادا لا يرجى له بعده صلاح أبدا ، ويذهب خيره كله وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه ، فلا يستحى بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه ، وتعمل فى قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم فى البدن ، وقد اختلف الناس هل يدخل الجنة مفعول به على قولين ، سمعت شيخ الإسلام - رحمه الله - يحكيهما ، والذين قالوا لا يدخل الجنة احتجوا بأمور : منها أن النبى - ﷺ - قال : لا يدخل الجنة ولد زنى ، فإذا كان هذا حال ولد الزنى مع أنه لا ذنب له فى ذلك ولكنه مظنة كل شر وخبث وهو جدير الا يجىء منه خير أبدا لأنه مخلوق من نطفة خبيثة ، وإذا كان الجسد الذى تربى على الحرام النار أولى به فكيف بالجسد المخلوق من النطفة الحرام ، قالوا : والمفعول به شر من ولد الزنى ، وأخزى ، وأخبث ، وأوسخ ، وهو جدير الا يوفق لخير وأن يحال بينه وبينه ، وكلما عمل خيرا قيض الله له ما يفسده عقوبة له ، وقل أن ترى من كان كذلك فى صغره إلا وهو فى كبره شر مما كان ، ولا يوفق لعمل صالح ، ولا لعلم نافع ، ولا توبة نصوح ، والتحقيق فى هذه المسألة أن يقال : ان تاب المبتلى بهذا البلاء وأناب ورزق توبة نصوحا وعملا صالحا وكان فى كبره خيرا منه فى صغره ، وبدل سيئاته بحسنات ، وغسل عار ذلك عنه بأنواع الطاعات والقربات ، وغض بصره ، وحفظ فرجه عن المحرمات ، وصدق الله فى معاملته فهذا مغفور له ، وهو من أهل الجنة فإن الله يغفر الذنوب جميعا ، وإذا كانت التوبة تمحو كل ذنب حتى الشرك بالله وقتل أنبيائه وأوليائه والسحر والكفر وغير ذلك فلا تقصر عن محو هذا الذنب وقد استقرت حكمة الله به عدلا وفضلا إن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، وقد ضمن الله سبحانه - لمن تاب من الشرك وقتل النفس والزنى أنه يبدل سيئاته حسنات وهذا حكم عام لكل تائب من ذنب وقد قال تعالى :

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

فلا يخرج من هذا العموم ذنب واحد ولكن هذا فى حق التائبين خاصة ، وأما مفعول به كان فى كبره شرا مما كان فى صغره لم يوفق لتوبة نصوح ولا بعمل صالح ولا استدرك ما فات ولا أحيا ما مات ولا بدل السيئات بالحسنات فهذا بعيد أن يوفق عند الممات لخاتمة يدخل بها الجنة عقوبة له على عمله ، فإن الله - سبحانه وتعالى - يعاقب على السيئة بسيئة أخرى ، وتتضاعف عقوبة السيئات بعضها ببعض ، كما يثيب على الحسنة بحسنة أخرى ، فتضاعف الحسنات ، وإذا نظرت إلى حال كثير من المحتضرين وجدتهم يحال بينهم وبين حسن الخاتمة عقوبة لهم على اعمالهم السيئة .

قال الحافظ أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأشبيلي - رحمه الله :

واعلم أن لسوء الخاتمة - أعاذنا الله منها - أسبابا ، ولها طرق وأبواب ، أعظمها الانكباب على الدنيا وطلبها والحرص عليها ، والإعراض عن الأخرى والإقدام والجرأة على معاصى الله - عز وجل - وربما غلب على الإنسان ضرب من الخطيئة ونوع من المعصية وجانب من الإعراض ونصيب من الجرأة والإقدام ، فملك قلبه وسبى عقله ، وأطفأ نوره ، وأرسل عليه حجبه ، فلم تنفع فيه تذكرة ، ولا نجعت فيه موعظة ، فربما جاء الموت على ذلك فسمع النداء من مكان بعيد ، فلم يتبين له المراد ، ولا علم ما أراد ، وإن كرر عليه الداعى وأعاد ما قال . ويروى أن بعض رجال الناصر نزل به الموت فجعل ابنه يقول له قل : لا إله إلا الله ، فقال الناصر : مولاى ، فأعاد عليه القول فقال : مثل ذلك ، ثم أصابته غشية فلما أفاق قال : الناصر مولاى ، وكان هذا دأبه كلما قيل له قل لا آله إلا الله قال الناصر مولاى ، ثم قال لابنه يافلان الناصر إنما يعرفك بسيفك والقتل القتل ثم مات على ذلك .

قال عبد الحق - رحمه الله : وقيل لآخر ممن أعرفه قل لا إله إلا الله ، فجعل يقول الدار الفلانية - أصلحوا فيها كذا ، والبستان الفلانى افعلوا فيه كذا ، قال : وفيما أذن لى أبو طاهر السلمى أن أحدث به عنه : أن رجلا نزل به الموت فقيل له : قل لا آله إلا الله ، فجعل يقول بالفارسية [ده يازده] تفسيره : عشرة باحدى عشر ، وقيل لآخر قل لا إله إلا الله فجعل يقول أين الطريق إلى حمام منجاب قال : وهذا الكلام له قصة وذلك أن رجلا كان واقفا بإزاء داره وكان بابها يشبه باب هذا الحمام ، فمرت به جارية لها منظر فقالت : أين الطريق إلى حمام منجاب ، فقال : هذا حمام منجاب ، فدخلت الدار ودخل وراءها فلما رأت نفسها فى داره ، وعلمت أنه قد خدعها أظهرت له البشر والفرح باجتماعها معه ، وقالت خدعة منها له ، وتحيلا لتتخلص مما أوقعها فيه ، وخوفا من فعل الفاحشة ، يصلح أن يكون معنا ما يطيب به عيشنا ، وتقربه عيوننا ، فقال لها : الساعة آتيك بكل ما تريدين وتشتهين ، وخرج وتركها فى الدار ولم يغلقها فأخذ ما يصلح ورجع فوجدها قد خرجت وذهبت ولم تخنه فى شىء ، فهام الرجل وأكثر الذكر لها وجعل يمشى فى الطرق والأزقة ويقول :

يارب قائلة يوما وقد تعبت أين الطريق الى حمام منجاب

فبينا يقول ذلك وإذا بجارية أجابته من طاق قرنان

- هل لا جعلت سريعا إذ ظفرت بها حرزا على الدار أو قفلا على الباب .

فازداد هيمانه واشتد هيجانه ولم يزل كذلك حتى كان هذا البيت آخر كلامه من الدنيا .

قال : ويروى أن رجلا عشق شخصا فاشتد كلفه به وتمكن حبه من قلبه حتى وقع ألم به ولزم الفراش بسببه وتمنع ذلك الشخص عليه واشتد نفاره عنه فلم تزل الوسائط يمشون بينهما حتى وعده ان يعوده فأخبر بذلك البائس ففرح واشتد سروره وانجلى غمه وجعل ينتظر للميعاد الذى ضربه له فبينما هو كذلك إذ جاءه الساعى بينهما فقال : انه وصل معى إلى بعض الطريق ورجع فرغبت إليه وكلمته فقال : إنه ذكرنى وبرح بى ولا أدخل مداخل الريب ولا أعرض نفسى لمواقع التهم فعاودته فأبى وانصرف. فلما سمع البائس ذلك أسقط فى يده وعاد إلى أشد مما كان به وبدت عليه علائم الموت فجعل يقول فى تلك الحال .

اسلم ياراحة العليل ويا شفاء المدنف النحيل
رضاك أشهى الى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

فقلت له : يافلان ، اتق الله .

قال : قد كان ، فقمت عنه فما جاوزت باب داره حتى سمعت صيحة الموت فعياذا بالله من سوء العاقبة وشؤم الخاتمة .

ولقد بكى سفيان الثورى ليلة إلى الصباح فلما أصبح قيل له : أكل ذلك خوفا من الذنوب ؟ فأخذ تبنة من الأرض وقال : الذنوب أهون من هذه وإنما أبكى خوفا من الخاتمة ، وهذا من أعظم الفقه أن يخاف الرجل أن تخدعه ذنوبه عند الموت فتحول بينه وبين الخاتمة الحسنى .

وقد ذكر الإمام أحمد عن أبى الدرداء أنه لما احتضر جعل يغمى عليه ثم يفيق ويقرأ ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾ . فمن هذا خاف السلف من الذنوب أن تكون حجابا بينهم وبين الخاتمة الحسنى قال :

واعلم أن سوء الخاتمة ـ أعاذنا الله تعالى منها ـ لا تكون لمن استقام ظاهره وصلح باطنه ، ما سمع بهذا ، ولا علم به ، ولله الحمد ، وإنما تكون لمن له فساد فى العقيدة أو إصرار على الكبيرة وإقدام على العظائم فربما غلب ذلك عليه ، حتى نزل به الموت قبل التوبة ، فيأخذه قبل إصلاح الطوية ويصطلم قبل الإنابة فيظفر به الشيطان عند تلك الصدمة ويختطفه عند تلك الدهشة والعياذ بالله .

قال : ويروى أنه كان بمصر رجل يلزم المسجد للأذان والصلاة فيه ، وعليه بهاء الطاعة ونور العبادة ، فرقى يوما المنارة على عادته للأذان وكان تحت المنارة دار لنصرانى فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها فترك الأذان ونزل إليها ودخل الدار عليها ، فقالت له : ما شأنك وما تريد ؟

قال : أريدك ؟ قالت : لماذا ؟

قال : قد سلبت لبى وأخذت بمجامع قلبى

قالت : لا أجيبك إلى ريبة أبدا .

قال : أتزوجك .

قالت : أنت مسلم وأنا نصرانية وأبى لا يزوجنى منك .
قال : أتنصر .
قالت : ان فعلت افعل فتنصر الرجل ليتزوجها . وأقام معهم فى الدار فلما كان أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان فى الدار فسقط منه فمات فلم يظفر بها وفاته دينه .

ولما كانت مفسدة اللواط من أعظم المفاسد كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات ؛ وقد اختلف الناس هل هو أغلظ عقوبة من الزنى ، أو الزنا أغلظ عقوبة منه ، أو عقوبتهما سواء ، على ثلاثة أقوال :

فذهب أبو بكر الصديق ، وعلى بن أبى طالب ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن العباس ، وخالد بن زيد ، وعبد الله بن معمر ، والزهرى ، وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، ومالك ، واسحق بن راهويه ، والامام أحمد ، فى أصح الروايتين عنه ، والشافعى فى أحد قوليه ، إلى أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزنى ، وعقوبته القتل على كل حال محصنا كان أو غير محصن .

وذهب عطاء بن أبى رباح ، والحسن البصرى ، وسعيد بن المسيب ، وابراهيم النخعى ، وقتادة والأوزاعى ، والشافعى فى ظاهر مذهبه ، والإمام أحمد فى الرواية الثانية عنه ، وأبو يوسف ، ومحمد إلى أن عقوبته وعقوبة الزانى سواء .

وذهب الحاكم ، والإمام أبو حنيفة ، إلى أن عقوبته دون عقوبة الزانى وهى التعزير ، وقالوا : لأنه معصية من المعاصى لم يقدر الله ولا رسوله - ﷺ - فيه حدا مقدرا فكان فيه التعزير كأكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، قالوا : ولأنه وطء فى محل لا تشتهيه الطبائع بل ركبها الله - تعالى - على النفرة منه حتى الحيوان البهيم فلم يكن فيه حد كوطء الحمار وغيره ، قالوا : ولأنه لا يسمى زانيا لغة ولا شرعا ولا عرفا ، فلا يدخل فى النصوص من الدلالة على حد الزانين ، قالوا : ولأنا رأينا قواعد الشريعة أن المعصية إذا كان الوازع عنها طبيعيا اكتفى بذلك الوازع عن الحد ، واذا كان فى الطبائع تقاضيها جعل فيها الحد بحسب اقتضاء الطبائع لها ولهذا جعل الحد فى الزنى ، والسرقة ، وشرب المسكر ، دون أكل الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، قالوا وطرد هذا أنه لا حد فى وطء البهيمة ولا الميتة وقد جبل الله - تعالى - الطبائع على النفرة من وطء الرجل الرجل أشد نفرة ، كما جبلها على النفرة من استدعاء الرجل من يطؤه بخلاف الزنى فإن الداعى فيه من الجانبين قالوا : ولأن أحد النوعين إذا استمتع بشكله لم يجب عليه الحد ، كما لو تساحقت المرأتان واستمتعت كل واحدة منهما بالأخرى قال أصحاب القول الأول وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعا للصحابة ليس فى المعاصى مفسدة أعظم من مفسدة اللواط وهى تلى مفسدة الكفر ، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل كما سنبينه - إن شاء الله تعالى .

قالوا ولم يبتل الله - تعالى - بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدا من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم ، وجمع عليهم أنواعا من العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ، ورجمهم بالحجارة من السماء ، وطمس أعينهم ، وجعل عذابهم مستمرا ، فنكل نكالا لم ينكله بأمة

سواهم وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض تميد من جوانبها اذا عملت عليها ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتعج الأرض إلى ربها - تبارك وتعالى - وتكاد الجبال تزول عن أماكنها ، وقتل المفعول بـه خير له من وطئه ، فإنه إذا وطأه الرجل قتله قتلا لا ترجى الحياة معه ، بخلاف قتله فإنه مظلوم شهيد ، وربما ينتفع به فى آخرته .

قالوا : والدليل على هذا ان الله - سبحانه وتعالى - جعل حد القاتل الى خيرة الولى إن شاء قتل وإن شاء عفا وحتم قتل اللوطى حدا كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التى لا معارض لها ، بل عليها عمل أصحابه وخلفائه الراشدين - رضى الله عنهم أجمعين .

وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد فى بعض نواحى العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة فكتب إلى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - فاستشار أبو بكر الصحابة - رضى الله عنهم - فكان على بن أبى طالب أشدهم قولا فيه فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة وقد علمتم ما فعل الله بها أرى أن يحرق بالنار .

فكتب أبو بكر إلى خالد فحرقه .

وقال عبدالله بن العباس : أن ينظر أعلى ما فى القرية فيرمى اللوطى منها منكسا ، ثم يتبع بالحجارة وأخذ ابن عباس هذا الحد عقوبة الله للوطية قوم لوط .

وابن عباس هو الذى روى عن النبى ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره .

واحتج الإمام أحمد بهذا الحديث وإسناده على شرط البخارى قالوا : وثبت عنه - ﷺ - أنه قال :

« لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط » ولم تجىء عنه لعنة الزانى ثلاث مرات فى حديث واحد ، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر فلم يتجاوز بهم فى اللعن مرة واحدة وكرر لعن اللوطية فأكده ثلاث مرات وأطبق أصحاب رسول الله على قتله لم يختلف منهم فيه رجلان ، وإنما اختلفت أقوالهم فى صفة قتله : فظن بعض الناس ان ذلك اختلاف منهم فى قتله . فيحكاها مسألة نزاع بين الصحابة وهى بينهم مسألة نزاع قالوا : ومن تأمل قول - سبحانه : ﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ .

وقوله فى اللواط :

﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ . تبين له تفاوت ما بينهما فإنه سبحانه نكر الفاحشة فى الزنا أى : هو فاحشة من الفواحش وعرفها فى اللواط وذلك يفيد أنه جامع لمعانى اسم الفاحشة ، كما تقول : زيد الرجل ونعم الرجل زيد .

أى : تأتون الخصلة التى استقر فحشها عند كل أحد فهى لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلى غيرها .

وهذا نظير قول فرعون لموسى :

﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت ﴾ أى الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل واحد .
ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم .
فقال : ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ . ثم زاد فى التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب وتنبو عنه الأسماع وتنفر منه أشد النفور وهو إتيان الرجل رجلا مثله بنكحه كما ينكح الأنثى .
فقال : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ ثم نبه على استغنائهم عن ذلك وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة لا الحاجة التى لأجلها مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر وحصول علاقة المصاهرة التى هى أخت النسب وقيام الرجال على النساء وحصول المودة والرحمة وحصول النسل الذى هو حفظ هذا النوع الذى هو أشرف المخلوقات وتحصين المرأة وخروج أحب الخلق إلى الله من جماع النساء ، كالأنبياء والأولياء والمؤمنين ومكاثرة النبى - ﷺ - الأنبياء بأمته إلى غير ذلك من مصالح النكاح .
والمفسدة التى فى اللواط تقاوم ذلك كله وتربو عليه بما لا يمكن حصره وفساده ولا يعلم تفصيله إلا الله - عز وجل - ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التى فطر الله عليها الرجال ، وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله فى الذكور ، وهى شهوة النساء دون الذكور ، فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة ، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، ولهذا قلب الله - سبحانه - عليهم ديارهم ، فجعل عاليها سافلها وكذلك قلبوهم ونكسوا فى العذاب على رؤوسهم ، ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالاسراف وهو مجاوزة الحد فقال : ﴿ بل أنتم قوم مسرفون ﴾ فتأمل هل جاء مثل ذلك أو قريبا منه فى الزنا وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث ﴾ ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين فى غاية القبح فقال : ﴿ إنهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ وسماهم مفسدين فى قول نبيهم : ﴿ قال رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ . وسماهم ظالمين فى قول الملائكة لابراهيم عليه السلام . ﴿ إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ﴾ فتأمل من عوقب بمثل هذه العقوبات ومن ذمه الله بمثل هذه المذمات .
ولما جادل فيهم خليله ابراهيم الملائكة وقد أخبروه بإهلاكهم فقيل له : ﴿ ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود ﴾ .
وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله حيث جاءوا نبيهم لوطا لما سمعوا بأنه قد طرقه ضيوف هم من أحسن البشر صورا فأقبل اللوطية اليهم يهرعون فلما رآهم قال لهم ﴿ ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴾ يزوجهم بهن خوفا على نفسه وعلى أضيافه من العار الشديد فقال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ﴾ .
فردوا عليه ولكن رد جبار عنيد :
﴿ لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ﴾ .
فنفث نبى الله نفثة مصدور وخرجت من قلب مكروب .
فقال : ﴿ .. لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ﴾ .
فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال وأعلموه أنهم ممن ليس يوصل إليهم ولا إليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم وهون عليك فقالوا : ﴿ .. يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وبشروه بما

جاءوا به من الوعد له ولقومه من الوعيد المصيب .

فقالوا : ﴿ فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ .

فوالله ما كان بين اهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر .

وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير فبرز المرسوم الذى لا يرد من عند الرب الجليل على يدى عبده ورسوله جبريل بأن يقلبها عليهم كما أخبر به فى محكم التنزيل فقال عز من قائل :

﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ﴾ فجعلهم آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالا وسلفا لمن شاركهم فى أعمالهم من المجرمين وجعل ديارهم بطريق السالكين ﴿ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين * وإنها لبسبيل مقيم * إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ .

أخذهم على غرة وهم نائمون وهم فى سكرتهم يعمهون فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون .

ذهبت اللذات وأعقبت الحسرات وانقضت الشهوات واورثت الشقوات

تمتعوا قليلا وعذبوا طويلا

رتعوا مرتعا وخيما فأعقبتهم عذابا أليما

أسكرتهم خمرة تلك الشهوات فما استفاقوا منها الا فى ديار المعذبين وأرقدتهم تلك الغفلة فما استيقظوا منها إلا وهم فى منازل الهالكين . فندموا والله أشد الندامة حين لا ينفع الندم وبكوا على ما أسلفوه بدل الدموع بالدم .

فلو رأيت الأعلى والأسفل من هذه الطائفة والنار تخرج من منافذ وجوههم وأبدانهم وهم بين أطباق الجحيم . وهم يشربون بدل لذيذ الشراب كؤوس الحميم ويقال لهم وهم على وجوههم يسبحون ذوقوا ما كنتم تكسبون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون .

ولقد قرب الله سبحانه وتعالى مسافة العذاب بين هذه الأمة وبين اخوانهم فى العمل .

فقال مخوفا لهم باعظم الوعيد وماهى من الظالمين ببعيد .

وفى الأجوبة عما احتج به لمن جعل عقوبة هذه الفاحشة دون عقوبة الزنا أما قولهم : إنها معصية لم يجعل الله فيها حدا معينا فجوابه من وجوه :

أحدها : أن المبلغ عن الله جعل حد صاحبها القتل حتما وما شرعه رسوله ﷺ فإنما شرعه عن الله فإن أردتم أن حدها غير معلوم بالشرع فهو باطل ، وإن أردتم أنه غير ثابت بنص الكتاب لم يلزم من ذلك انتفاء حكمه لثبوته بالسنة .

الثانى : أن هذا ينتقض عليكم بالرجم فإنه إنما ثبت بالسنة ، فإن قلتم : بل ثبت بقرآن نسخ لفظه وبقى حكمه قلنا : فينتقض عليكم بحد شارب الخمر .

الثالث : أن نفى دليل معين لا يلزم نفى مطلق الدليل ولا نفى المدلول فكيف وقد قدمنا أن الدليل الذى نفيتموه غير مشتق وأما قولكم إنه وطء لاتشتهيه الطباع بل ركب الله الطباع على النفرة منه فهو كوطء الميتة والبهيمة فجوابه من وجوه :

أحدها : أنه قياس فاسد الاعتبار مردود بسنة رسول الله - ﷺ - وإجماع الصحابة كما تقدم بيانه .

الثانى : أن قياس وطء الأمرد الجميل الذى تربو فتنته على كل فتنة على وطء أتان أو امرأة ميتة من أفسد القياس وهل يعدل ذلك أحد قط بأتان أو بقرة أو ميتة أو يسبى ذلك عقل عاشق أو أسر قلبه أو استولى على فكره ونفسه فليس فى القياس أفسد من هذا .

الثالث : أن هذا منتقض بوطء الأم والبنت والأخت فإن النفرة الطبيعية عنه كاملة مع أن الحد فيه من أغلظ الحدود فى أحد القولين وهو القتل بكل حال محصنا كان أو غير محصن وهذه إحدى الروايتين عن الإمام أحمد وهو قول إسحاق ابن راهويه وجماعة من أهل الحديث وقد روى أبو داود من حديث البراء بن عازب قال : « لقيت عمى ومعه الراية فقلت له : إلى أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله - ﷺ - إلى رجل نكح امرأة أبيه من بعده أن أضرب عنقه وآخذ ماله » (١) . قال الترمذى : هذا حديث حسن قال الجوز جانى : عم البراء اسمه الحارث بن عمرو فى سنن أبى داود وابن ماجه من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من وقع على ذات محرم فاقتلوه »(٢) ورفع الى الحجاج رجلا اغتصب أخته على نفسها فقال : احبسوه واسألوا من هاهنا من أصحاب رسول الله - ﷺ - فسألوا عبد الله بن مطرق فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من تخطى حرم المؤمنين فخطوا وسطه بالسيف » وفيه دليل على القتل بالتوسيط وهذا دليل مستقل فى المسألة وهو أن من لا يباح وطؤه بحال حد واطئه القتل دليله من وقع على أمه وابنته وكذلك يقال فى وطء ذوات المحارم من وطء من لا يباح وطؤه بحال كان حده القتل كاللوطى والتحقيق أن يستدل على المسألتين بالنص والقياس يشهد لصحة كل منهما وقد اتفق المسلمون على أن من زنا بذات محرم فعليه الحد وانما اختلفوا فى صفة الحد هل هو القتل بكل حال أو حده حد الزنى على قولين فذهب الشافعى ومالك وأحمد فى إحدى روايتيه إلى أن حده حد الزانى وذهب أحمد وإسحق وجماعة من أهل الحديث الى أن حده القتل بكل حال وكذلك اتفقوا كلهم على أنه لو أصابها باسم النكاح عالما بالتحريم أنه يحد الا أبا حنيفة وحده فانه رأى ذلك شبهة مسقطة للحد والمنازعون يقولون : إذا أصابها باسم النكاح فقد زاد الجريمة غلظا وشدة فإنه ارتكب محظورين عظيمين محظور العقد ومحظور الوطء فكيف تخفف عنه العقوبة بضم محظور العقد الى محظور الزنا وأما وطء الميتة ففيه قولان للفقهاء وهما فى مذهب احمد وغيره أحدهما انه يجب به الحد وهو قول الأوزاعى فإن فعله أعظم جرما وأكثر ذنبا لأنه انضم الى هتك فاحشة حرمة الميتة .

(١) سنن ابى داود كتاب الحدود باب فى «الرجل يزنى بحريمه» ج٤ ص٦٠٢ - ٦٠٤ حديث رقم ٤٤٥٧ وأخرجه الترمذى فى كتاب الاحكام باب فيمن تزوج امرأة ابيه ج٢ ص٤٠٧ - ٤٠٨ رقم ١٣٧٣ وقال الترمذى حديث البراء حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الحدود) جـ ٢ صـ ٨٥٦ رقم ٢٥٦٤ .

أقوال الفقهاء فى وطء البهيمة

للفقهاء فى هذا الفعل ثلاثة أقوال أحدها أنه يؤدب ولا حد عليه وهذا قول مالك وأبى حنيفة والشافعى فى أحد قوليه وهو قول إسحق والقول الثانى أن حكمه حكم الزانى يجلد إن كان بكرا ويرجم إن كان محصنا وهذا قول الحسن والقول الثالث أن حكمه حكم اللوطى نص عليه أحمد ويخرج على الروايتين فى حده هل هو القتل حتما أو هو كالزانى والذين قالوا حده القتل احتجوا بما رواه أبو داود من حديث ابن عباس عن النبى - ﷺ - من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه قالوا ولانه وطء لا يباح بحال فكان فيه القتل حدا للوطء ومن لم يروا عليه الحد قالوا لم يصح فيه الحديث ولو صح لقلنا به ولم يحل لنا مخالفته قال اسماعيل بن سعيد الشاليخى : سألت أحمد عن الذى يأتى البهيمة فوقف عندها ولم يثبت حديث عمرو بن أبى عمرو فى ذلك ولا ريب أن الزاجر الطبعى عن إتيان البهيمة أقوى من الزاجر الطبعى عن التلوط وليس الأمران فى طباع الناس سواء فإلحاق أحدهما بالآخر من أفسد القياس .

وأما قياسكم وطء الرجل لمثله على سحاق المرأتين فمن أفسد القياس إذ لا إيلاج هناك وإنما نظير مباشرة الرجل الرجل من غير إيلاج على أنه قد جاء بعض الأحاديث المرفوعة (إذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان)[(١)] ولكن لا يجب الحد بذلك لعدم الإيلاج وإن أطلق عليهما اسم الزنا العام كزنا العين واليد والرجل والفم وإذا ثبت هذا فأجمع المسلمون على أن حكم التلوط مع المملوك كحكمه مع غيره ومن ظن أن تلوط الإنسان مع مملوكه جائز واحتج على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين** ﴾[(٢)] وقاس ذلك على أمته المملوكة فهو كافر يستتاب كما يستتاب المرتد فإن تاب وإلا قتل وضرب عنقه وتلوط الإنسان بمملوكه كتلوطه بمملوك غيره فى الإثم والحكم .

* * *

فوائد غض البصر

فإن قيل : مع هذا كله فهل من دواء لهذا الداء العضال ورقية لهذا السحر القتال وما الاحتيال لدفع هذا الخبال وهل من طريق قاصد إلى التوفيق وهل يمكن السكران بخمرة الهوى أن يفيق وهل يملك العاشق قلبه والعشق قد وصل الى سويدائه وهل للطبيب بعد ذلك حيلة فى برئه من سويداه فإن لامه لائم اتقد تعلقه لذكره لمحبوبه وإن عذله عاذل أغراه عذله وساربه فى طريق مطلوبة ينادى عليه شاهد حاله بلسان مقاله :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس بى ... متأخر عنه ولا متقدم
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا ... مامن يهون عليك ممن يكرم
أشبهت أعدائى فعدت أحبهم ... إذ كان حظى منك حظى منهم
أجد الملامة فى هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمنى اللوم

---

(١) أبو داود ج٤ ص٦٠٩ رقم ٤٤٦٤
البيهقى فى السنن الكبرى - كتاب الحدود - باب حد اللوطى ٨/٢٣٣ .

(٢) سورة المؤمنون آية ٦

ولعل هذا هو المقصود بالسؤال الأول الذى وقع عليه الاستفتاء والداء الذى طلب له الدواء قيل نعم الجواب من أصله وما أنزل الله سبحانه من داء إلا وأنزل له دواء علمه من علمه وجهله من جهله والكلام فى دواء هذا الداء من طريقين :

أحدهما حسم مادته قبل حصولها والثانى قلعها بعد نزولها وكلاهما يسير على من يسره الله عليه ومتعذر على من لم يعنه الله فإن أزمة الأمور بيديه وأما الطريق المانع من حصول هذا الداء فأمران : أحدهما غض البصر كما تقدم فإن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ومن أطلق لحظاته دامت حسراته وفى غض البصر عدة منافع .

أحدها : أنه امتثال لأمر الله الذى هو غاية سعادة العبد فى معاشه ومعاده وليس للعبد فى دنياه وآخرته أنفع من امتثال أوامر ربه ـ تبارك وتعالى ـ وما سعد من سعد فى الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامره وما شقى فى الدنيا والآخرة إلا بتضييع أوامره .

الثانى : أنه يمنع من وصول أثر السهم المسموم الذى لعل فيه هلاكه الى قلبه .

الثالث : أنه يورث القلب أنسا بالله وجمعه على الله فإن اطلاق البصر يفرق القلب ويشتته ويبعده من الله وليس على العبد شىء أضر من إطلاق البصر فإنه يوقع الوحشة بين العبد وبين ربه .

الرابع : أنه يقوى القلب ويفرحه كما أن اطلاق البصر يضعفه ويحزنه .

الخامس : أنه يكسب القلب نورا كما أن اطلاقه يكسبه ظلمة ـ ولهذا ذكر سبحانه آية النور عقيب الأمر بغض البصر فقال : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم** ﴾[١] ثم قال إثر ذلك ﴿ **الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾[٢] أى مثل نوره فى قلب عبده المؤمن الذى امتثل أوامره واجتنب نواهيه واذا استنار القلب أقبلت وفود الخيرات إليه من كل جانب كما أنه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان فما شئت من بدعة وضلالة واتباع هوى واجتناب هدى وإعراض عن أسباب السعادة واشتغال بأسباب الشقاوة فإن ذلك إنما يكشفه له النور الذى فى القلب فاذا فقد ذلك النور بقى صاحبه كالأعمى الذى يجوس فى حنادس الظلام .

السادس : أنه يورث الفراسة الصادقة التى يميز بها بين المحق والمبطل والصادق والكاذب وكان شاه ابن شجاع الكرمانى يقول من عمر ظاهره باتباع السنة وباطنه بدوام المراقبة وغض بصره عن المحارم وكف نفسه عن الشهوات واعتاد أكل الحلال لم تخط له فراسة وكان شجاعا هذا لا تخطئ له فراسة والله سبحانه يجزى العبد على عمله بما هو من جنس عمله ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه فإذا غض بصره عن محارم الله عوضه الله بأن يطلق نور بصيرته عوضا عن حبسه بصره لله ويفتح له باب العلم والإيمان والمعرفة والفراسة الصادقة المصيبة التى انما تنال ببصيرة القلب وضد هذا ما وصف الله به اللوطية من العمه الذى هو ضد البصيرة فقال تعالى : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾[٣] **فوصفهم بالسكرة التى هى فساد العقل والعمه الذى هو فساد البصر فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمه البصيرة يسكر القلب كما قال القائل :**

---

(١) سورة النور آية ٣٠
(٢) سورة النور آية ٣٥
(٣) سورة الحجر آية ٧٢

سكران سكر هوى وسكر مدامة ومتى إفاقة من بـه سكـران

وقال الآخر :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعـظم مما بـالمجانين

العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون فى الحين

السابع : انه يورث القلب ثباتا وشجاعة وقوة ويجمع الله له بين سلطان البصيرة والحجة، وسلطان القدرة والقوة كما فى الأثر الذى يخالف هواه يفر الشيطان من ظله وضد هذا تجده فى المتبع هواه من ذل النفس ووضاعتها ومهانتها وخستها وحقارتها وما جعل الله سبحانه فيمن عصاه كما قال الحسن إنهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البرازين فإن المعصية لا تفارق رقابهم أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقد جعل الله سبحانه العز قرين طاعته والذل قرين معصيته فقال تعالى : ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾(٢) والايمان قول وعمل ظاهر وباطن وقال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾(٣) أى من كان يريد العزة فيطلبها بطاعة الله وذكره من الكلم الطيب والعمل الصالح وفى دعاء القنوت إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه وله من العز بحسب طاعته ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه وله من الذل بحسب معصيته .

الثامن : أنه يسد على الشيطان مدخله من القلب فإنه يدخل مع النظرة وينفذ معها إلى القلب أسرع من نفوذ الهوى فى المكان الخالى فيمثل له صورة المنظور إليه ويزينها ويجعلها صنما يعكف عليه القلب ثم يعده ويمنيه ويوقد على القلب نار الشهوة ويلقى عليه حطب المعاصى التى لم يكن يتوصل إليها بدون تلك الصورة فيصير القلب فى اللهب فمن ذلك اللهب تلك الأنفاس التى يجد فيها وهج النار وتلك الزفرات والحرقات فإن القلب قد أحاطت به النيران بكل جانب فهو فى وسطها كالشاة فى وسط التنور ولهذا كانت عقوبة أصحاب الشهوات بالصور المحرمة أن جعل لهم فى البرزخ تنور من نار وأودعت أرواحهم فيه إلى حشر أجسادهم كما أراها الله نبيه ﷺ فى المنام فى الحديث المتفق على صحته .

التاسع : أنه يفرغ القلب للفكرة فى مصالحه والاشتغال بها وإطلاق البصر يشتت عليه ذلك ويحول عليه بينه وبينها فتنفرط عليه أموره ويقع فى اتباع هواه وفى الغفلة عن ذكر ربه قال تعالى ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾(٤) . واطلاق النظر يوجب هذه الأمور الثلاثة بحسبه .

العاشر : أن بين العين والقلب منفذا أو طريقا يوجب اشتغال أحدهما عن الآخر وان يصلح بصلاحه ويفسد بفساده فإذا فسد القلب فسد النظر وإذا فسد النظر فسد القلب وكذلك فى جانب الصلاح فإذا ضربت العين وفسدت ضرب القلب وفسد وصار كالمزبلة التى هى محل النجاسات والقاذورات والأوساخ فلا يصلح لسكنى معرفة الله ومحبته والإنابة إليه والأنس به والسرور بقربه فيه وإنما يسكن فيه أضداد ذلك فهذه إشارة إلى بعض فوائد غض البصر تطلعك على ماوراءها .

(١) سورة المنافقون آية ٨
(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩
(٣) سورة فاطر آية ١٠
(٤) سورة الكهف آية ٢٨

والثانى : اشتغال القلب بما يبعده عن ذلك ويحول بينه وبين الوقوع فيه وهو إما خوف مقلق أو حب مزعج فمتى خلا القلب من خوف ما فواته أضر عليه من حصول هذا المحبوب أو خوف ما حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب أو محبته ما هو أنفع له وخير له من هذا المحبوب لم يجد بدا من عشق الصور ، وشرح هذا أن النفس لا تترك محبوبا الا لمحبوب أعلى منه أو خشية مكروه حصوله أضر عليه من فوات هذا المحبوب وهذا يحتاج صاحبه الى أمرين إن فقدا أو واحد منهما لم ينتفع بنفسه . أحدهما بصيرة صحيحة يفرق بها بين درجات المحبوب والمكروه فيؤثر أعلى المحبوبين على أدناهما ويحتمل أدنى المكروهين ليتخلص من أعلاهما وهذا خاصة العقل ولا يعد عاقلا من كان بضد ذلك بل قد تكون البهائم أحسن حالا منه الثانى قوة عزم وصبر يتمكن بهما من هذا الفعل والترك فكثير ما يعرف الرجل قدر التفاوت ولكن يأبى له ضعف نفسه وهمته وعزيمته على إيثار الانفع من خسته وحرصه ووضاعة نفسه وخسة همته ومثل هذا لا ينتفع بنفسه ولا ينتفع به غيره وقد منع الله سبحانه إمامة الدين الا من أهل الصبر واليقين فقال تعالى وبقوله يهتدى المهتدون ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[1] وهذا هو الذى ينتفع بعلمه وينتفع به غيره من الناس وضد ذلك لا ينتفع بعلمه ولا ينتفع به غيره من الناس من ينتفع بعلمه فى نفسه ولا ينتفع به غيره فالأول يمشى فى نوره ويمشى الناس فى نوره والثانى قد طفى نوره فهو يمشى فى الظلمات ومن تبعه والثالث يمشى فى نوره وحده .

إذا عرفت هذه المقدمة فلا يمكن ان يجتمع فى القلب حب المحبوب الأعلى وعشق الصور أبدا بل هما ضدان لا يجتمعان بل لابد أن يخرج أحدهما صاحبه فمن كانت قوة حبه كلها للمحبوب الأعلى الذى محبة ما سواه باطلة وعذاب على صاحبها صرفه ذلك عن محبة ما سواه وان أحبه لم يحبه إلا لأجله أو لكونه وسيلة له إلى محبته أو قاطعا له عما يضاد محبته وينقصها والمحبة الصادقة تقتضى توحيد المحبوب وان لا يشرك بينه وبين غيره فى محبته واذا كان المحبوب من الخلق يأنف ويغار ان يشرك فى محبته غيره ويمقته لذلك ويبعده ولا يحظيه بقربه ويعده كاذبا فى دعوى محبته مع أنه ليس أهلا لصرف قوة المحبة اليه فكيف بالحبيب الأعلى الذى لا تنبغى المحبة إلا له وحده وكل محبة لغيره فهى عذاب على صاحبها ووبال ولهذا لا يغفر سبحانه أن يشرك به فى هذه المحبة ويغفر مادون ذلك لمن يشاء فمحبته الصور تفوت محبة ما هو أنفع للعبد منها بل يفوت محبة ما ليس له صلاح ولا نعيم ولا حياة نافعة إلا بمحبته وحده فليختر إحدى المحبتين فإنهما لا يجتمعان فى القلب ولا يرتفعان منه بل من أعرض عن محبة الله وذكره والشوق إلى لقائه ابتلاه بمحبة غيره فيعذب بها فى الدنيا وفى البرزخ وفى الآخرة إما يعذبه بمحبة الصلبان أو لمحبة النيران أو لمحبته المردان أو لمحبته النسوان أو لمحبته الأثمان أو بمحبة العشراء والخلان أو بمحبة ما هو دون ذلك مما هو فى غاية الحقارة والهوان فالإنسان عبد محبوبه كائنا ما كان كما قيل :

أنت القتيل بكل من أحببته ... فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه قال تعالى :

(١) سورة السجدة آية ٢٤

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ (١) .

وخاصية التعبد الحب مع الخضوع والذل للمحبوب فمن أحب شيئا وخضع له فقد تعبد قلبه له بل التعبد آخر مراتب الحب ويقال له التتيم أيضا فإن أول مراتبه العلاقة .

وسميت علاقة لتعلق الحب بالمحبوب قال الشاعر :

وعلقت ليلى وهى ذات تمائم ولم يبد للأتراب من ثديها ضخم

وقال الآخر :

أعلاقة أم الوليد بعدما أفنان رأسك كالبغام الأبيض

ثم بعدها الصبابة وسميت بذلك لانصباب القلب الى المحبوب قال الشاعر :

يشكو المحبون الصبابة ليتنى تحملت ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبى لذة الحب كلها فلم يلقها قبلى محب ولا بعدى

ثم الغرام وهو لزوم الحب للقلب لزوما لا ينفك عنه ومنه سمى الغريم غريما لملازمته صاحبه ومنه قوله تعالى : ﴿ إن عذابها كان غراما ﴾(٢) وقد أولع المتأخرون باستعمال هذا اللفظ فى الحب وقل أن تجده فى أشعار العرب ثم العشق وهو سفر إفراط المحبة ولهذا لا يوصف به الرب تبارك وتعالى ولا يطلق فى حقه ثم الشوق وهو سفر القلب الى المحبوب أحث السفر وقد جاء إطلاقها فى حق الرب تعالى كما فى مسند الامام أحمد من حديث عمار بن ياسر إنه صلى صلاة فأوجز فيها فقيل له فى ذلك فقال أما إنى دعوت فيها بدعوات كان النبى ﷺ يدعو بهن اللهم إنى أسألك لعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى إذا كانت الحياة خيرا لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى اللهم إنى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة وأسألك كلمة الحق فى الرضاء والغضب وأسألك القصد فى الفقر والغنى وأسألك نعيما لا ينفد وأسألك قرة عين لا تنقطع وأسألك الرضا بعد القضاء وأسألك برد العين بعد الموت وأسألك لذة النظر الى وجهك الكريم وأسألك الشوق الى لقائك فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة اللهم زينا بزينة الايمان واجعلنا هداة مهتدين وفى أثر آخر : طال شوق الابرار الى وجهك وأنا الى لقائهم أشد شوقا وهذا هو المعنى الذى عبر عنه ﷺ بقوله : ﴿ من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ﴾ وقال بعض أهل البصائر فى قوله تعالى : ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت ﴾(٣) لما علم الله سبحانه شدة

---

(١) سورة الجاثية آية ٢٣
(٢) سورة الفرقان آية ٦٥
(٣) سورة العنكبوت آية ٥

شوق أوليائه الى لقائه وأن قلوبهم لا تهدى دون لقائه ضرب لهم أجلا موعدا للقائه تسكن نفوسهم به وأطيب العيش واللذة على الاطلاق عيش المشتاقين المستأنسين فحياتهم هى الحياة الطيبة فى الحقيقة ولا حياة للعبد أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها فهى الحياة الطيبة المذكورة فى قوله تعالى ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾[1] وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمنكح بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه فى ذلك أضعافا مضاعفة وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد الذى لا يخلف وعده وأى حياة طيبة من حياة من اجتمعت همومه كلها وصارت هى واحدة فى مرضاة الله ولم يستشعب قلبه بل أقبل على الله واجتمعت إرادته وأفكاره التى كانت منقسمة بكل واد منها شعبة على الله فصار ذكر محبوبه الأعلى وحبه والشوق الى لقائه والأنس بقربه وهو المتولى عليه وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره بل خطرات قلبه فإن سكت سكت بالله وإن نطق نطق بالله وإن سمع فيه يسمع وإن أبصر فبه يبصر وبه يبطش وبه يمشى وبه يتحرك وبه يسكن وبه يحيا وبه يموت وبه يبعث كما فى صحيح البخارى عنه ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: « ما تقرب الى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن قبض روح عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه »[2] فتضمن هذا الحديث الشريف الالهى الذى حرم على غليظ الطبع كثيف القلب فهم معناه والمراد به حصر أسباب محبته فى أمرين أداء فرائضه والتقرب إليه بالنوافل وأخبر سبحانه أن أداءالفرائض أحب ماتقرب، إليه المتقربون ثم بعدها النوافل وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتى يصير محبوبا من الله فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة منه أخرى فوق المحبة الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه وحبه مثله الأعلى مالكا لزمام قلبه مستوليا على روحه استيلاء المحبوب على محبه الصادق فى محبته التى قد اجتمعت قوى حبه كلها له ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه وان أبصر أبصر به وان بطش بطش به وان مشى مشى به فهو فى قلبه ومعه ومؤنسه وصاحبه فالباء هنا باء المصاحبة وهى مصاحبة لا نظير لها ولا تدرك بمجرد الاخبار عنها والعلم بها فالمسألةخيالية لا علمية محضة وإذا كان المخلوق يجد هذا فى محبة المخلوق التى لم يخلق لها ولم يفطر عليها كما قال بعض المحبين.

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ... ومثـواك فى قلبى فـأين تغيب

وقال آخر:

وتطلبهم عينى وهم فى سوادها ... ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى
ومـن عجـب أنى أحن اليهـم ... فاسأل عنهم من لقيت وهم معى

(١) سورة النحل آية ٩٧

(٢) صحيح البخارى (كتاب الدعوات) ٨/ ١٣١.

وهذا ألطف من قول الآخر :

ان قلت غبت فقلبى لا يصدقنى إذ أنت فيه مكان السر لم تغب
أو قلت ما غبت قال الطرف ذا كذب فقد يحدث بين الصدق والكذب

فليس شيء أدنى من المحب لمحبوبه وربما تمكنت المحبة حتى يصير فى المحبة أدنى إليه من نفسه بحيث ينسى نفسه ولا ينساه كما قيل :

أريد لأنسى ذكره فكأنما تمثل لى ليلى بكل سبيل

وقال الآخر :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

وخص فى الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر فان هذه الآلات آلات الإدراك وآلات العقل والسمع والبصر يوردان على القلب الإرادة والكراهية ويجلبان اليه الحب والبغض فتستعمل اليد والرجل فإذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظا فى آلات إدراكه فكان محفوظا فى حبه وبغضه محفوظا فى بطشه ومشيه وتأمل كيف اكتفى بذكر السمع والبصر واليد والرجل عن اللسان فانه إذا كان إدراك السمع الذى يحصل باختياره تارة وبغير اختياره تارة وكذلك البصر قد يقع بغير الاختيار فجأة وكذلك حركة اليد والرجل التى لابد للعبد منها فكيف بحركة اللسان التى لا تقع إلا بقصد واختيار وقد يستغنى العبد عنها الا حيث أمر بها وأيضا فانفعال اللسان عن القلب أتم من انفعال سائر الجوارح فإنه ترجمانه ورسوله وتأمل كيف حقق تعالى كون العبد به عند سمعه وبصره الذى يبصر به وبطشه ومشيه بقوله (كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها) تحقيقا لكونه مع عبده وكون عبده فى إدراكاته بسمعه وبصره وحركته بيديه ورجله وتأمل كيف قال بى يسمع وبى يبصر وبى يبطش ولم يقل فلى يسمع ولى يبصر ولى يبطش وربما يظن الظان ان اللام أولى بهذا الموضع إذ هى أدل على الغاية ووقوع هذه الأمور لله وذلك أخص من وقوعها به وهذا من الوهم والغلط إذ ليست الباء ههنا لمجرد الاستعانة فإن حركات الأبرار والفجار وإدراكاتهم إنما هى بمعونة الله لهم وإن الباء ههنا للمصاحبة إنما يسمع ويبصر ويبطش ويمشى وأنا صاحبه ومعه كقوله فى الحديث الآخر (أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه)[1] وهذه المعية الخاصة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ إن الله معنا ﴾ وقول النبى - ﷺ - (ما ظنك باثنين الله ثالثهما)[2] وقوله تعالى ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾[3] وقوله ﴿ إن الله

(١) ابن ماجة - كتاب الادب - باب فضل الذكر ١٢٤٦/٢ رقم ٣٧٩٢
(٢) البخارى ٤/٥ ومسلم - كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٤/٤ رقم ٢٣٨١ .
(٣) سورة العنكبوت آية ٦٩

مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[١] وقوله ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾[٢] وقوله ﴿ كلا إن معى ربى سيهدين ﴾[٣] وقوله تعالى لموسى وهارون ﴿ إننى معكما أسمع وأرى ﴾[٤] فهذه الباء مفيدة معنى هذه المعية دون اللام ولا يتأتى للعبد الاخلاص والصبر والتوكل ونزوله فى منازل العبودية الا بهذه الباء وهذه المعية فمتى كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت المخاوف فى حقه أمانا فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير ويقرب كل بعيد وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم فلا هم مع الله ولا غم مع الله ولا حزن مع الله وحيث يفوت العبد معنى هذه الباء فيصير قلبه حينئذ كالحوت إذا فارق الماء يثب وينقلب حتى يعود اليه ولما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالى فى محابة حصلت موافقة ـ الرب لعبده فى حوائجه ومطالبه فقال ولئن سألنى لأعطينه ولئن استعاذ بى لأعيذنه أى كما وافقنى فى مرادى بامتثال أوامرى والتقرب الى جنابى فانا أوافقه فى رغبته ورهبته فيما يسألنى أن أفعل به ويستعيذنى أن يناله مكروه وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتى اقتضى تردد الرب سبحانه فى إماتة عبده ولأنه يكره الموت والرب تعالى يكره ما يكره عبده ويكره مساءته فمن هذه الجهة تقتضى أنه لا يميته ولكن مصلحته فى إماتته فإنه ما أماته إلا ليحييه وما أمرضه إلا ليصحه وما أفقره إلا ليغنيه وما منعه إلا ليعطيه ولم يخرج من الجنة فى صلب أبيه إلا ليعيده إليها على أحسن الأحوال ولم يقل لأبيه أخرج منها إلا ليعيده إليها فهذا هو الحبيب على الحقيقة لا سواه بل لو كان فى كل منبت شعر لعبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه على عبده :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب الا للحبيب الأول
كم منزل فى الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدا لأول منزل

التتيم

ثم التتيم وهو آخر مراتب الحب وهو تعبد المحب لمحبوبه يقال تيمه الحب إذا عبده ومنه تيم الله أى عبد الله وحقيقة التعبد الذل والخضوع للمحبوب ومنه قولهم طريق معبد أى مذلل قد ذللته الأقدام فالعبد هو الذى ذلله الحب والخضوع لمحبوبه ولهذا كانت أشرف أحوال العبد ومقاماته فى العبودية فلا منزل له أشرف منها وقد ذكر الله سبحانه أكرم الخلق عليه وأحبهم إليه وهو رسوله محمد ﷺ بالعبودية فى أشرف مقاماته وهى مقام الدعوة اليه ومقام التحدى بالنبوة ومقام الأسرى فقال سبحانه ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾[٥] وقال ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾[٦] وقال ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ﴾[٧] وفى حديث الشفاعة إذ هبوا الى محمد ﷺ عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فنال مقام الشفاعة بكمال عبوديته وكمال مغفرة الله له والله سبحانه خلق الخلق لعبادته وحده لا شريك له التى هى أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع والذل وهذا هو حقيقة الاسلام وملة ابراهيم التى من رغب عنها فقد سفه نفسه قال تعالى ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه . . الآية ﴾[٨] ولهذا كان

(١) سورة النحل آية ١٢٨
(٢) سورة الانفال آية ٤٦
(٣) سورة الشعراء آية ٦٢
(٤) سورة طه آية ٤٦
(٥) سورة الجن آية ١٩
(٦) سورة البقرة الآية ٢٣
(٧) سورة الاسراء آية ١
(٨) سورة البقرة آية ١٣٠

أعظم الذنوب عند الله الشرك والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وأصل الشرك بالله الإشراك مع الله فى المحبة كما قال تعالى ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾(١) وأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به من دونه فيتخذ الأنداد من دونه يحبهم كحب الله وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وقيل بل المعنى أنهم أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لله فإنهم وإن أحبوا الله لكن لما أشركوا بينه وبين أندادهم فى المحبة ضعفت محبتهم لله والموحدون لله لما خلصت محبتهم له كانت أشد من محبة أولئك والعدل برب العالمين والتسوية بينه وبين الأنداد هو فى هذه المحبة ولما كان مراد الله من خلقه هو خلوص هذه المحبة له أنكر على من اتخذ من دونه وليا أو شفيعا غاية الإنكار وجمع ذلك تارة وأفرد أحدهما عن الآخر تارة بالإنكار فقال تعالى ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾(٣) وقال تعالى ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾(٤) وقال فى الافراد ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون. قل لله الشفاعة جميعا ﴾(٥) وقال تعالى ﴿ من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴾(٦) فاذا والى العبد ربه وحده وأقام له وليا من شفعاء وعقد الموالاة بينه وبين عباده المؤمنين فصاروا أولياءه فى الله بخلاف من اتخذ مخلوقا أولياء من دون الله فهذا لون وذاك لون والشفاعة الشركية الباطلة لون والشفاعة الحق الثابتة التى انما تنال بالتوحيد لون وهذا موضع فرقان بين أهل التوحيد وأهل الشرك بالله والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم والمقصود أن حقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الاشراك بالله فى المحبة بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها فإن محبة الرسول - ﷺ - بل تقديمه فى الحب على الأنفس وعلى الآباء والأبناء لا يتم الإيمان إلا بها إذ محبته من محبة الله وكذلك كل حب فى الله ولله كما فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان وفى لفظ فى الصحيح لا يجد عبد طعم الايمان إلا من كان فى قلبه ثلاث خصال أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع الى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار وفى الحديث الذى فى السنن (من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الايمان)(٧) وفى حديث آخر (ما تحاب رجلان فى الله إلا كان أفضلهما أشدهما حبا لصاحبه) فان هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها وكلما كانت أقوى كان أصلها كذلك .

(١) سورة البقرة آية ١٦٥
(٢) سورة يونس آية ٣
(٣) سورة السجدة آية ٤
(٤) سورة الانعام آية ٥١
(٥) سورة الزمر آية ٤٣ ، ٤٤
(٦) سورة الجاثية آية ١٠
(٧) البخارى كتاب الايمان ج١ ص١٣ ومسلم - كتاب الايمان ٦٦/١ رقم ٤٣
سنن أبى داود - كتاب السنة ج٥ ص٦٠ رقم ٤٦٨١
ابن حبان - كتاب البر والاحسان - باب البيان بان من كان احب لأخيه المسلم كان افضل ٣٨٨/١ رقم ٥٦٧
والحاكم - كتاب البر والصلة ١٧١/٤ وقال صحيح الاسناد ..

وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها وإنما ضل من ضل بغدم التمييز بينها : أحدها محبة الله ولا تكفى وحدها فى النجاة من الله من عذابه والفوز بثوابه فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله : الثانى محبة ما يحب الله وهذه هى التى تدخله فى الاسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها : الثالث الحب لله وفيه وهى من لوازم محبة ما يحب الله ولا يستقيم محبة ما يحبه الله إلا بالحب فيه وله : الرابع المحبة مع الله وهى المحبة الشركية وكل من أحب شيئا مع الله لا لله ولا من أجله ولا فيه فقد اتخذه ندا من دون الله وهذه محبة المشركين : وبقى قسم خامس ليس مما نحن فيه وهى المحبة الطبيعية وهى ميل الانسان الى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء والجائع للطعام ومحبة النوم والزوجة والولد فتلك لاتذم إلا ان ألهت عن ذكر الله وشغلته عن محبته .كما قال تعالى :﴿ يأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾(٢) .

ثم الخلة وهى تتضمن كمال المحبة ونهايتها بحيث لا يبقى فى القلب لمحبة سعة لغير محبوبه وهى منصب لا يقبل المشاركة بوجه وهذا المنصب خاصة للخليلين صلوات الله وسلامه عليهما ابراهيم ومحمد كما قال ﷺ : (إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا)(٣) .

وفى الصحيح عنه ﷺ (لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل‌الله)(٤)وفى حديث آخر فانى أبرأ الى كل خليل من خلته ولما سأل ابراهيم ـ عليه السلام ـ الولد فأعطيه، فتعلق حبه بقلبه فاخذ منه شعبة غار الحبيب على خليله أن يكون فى قلبه موضع لغيره فأمر بذبحه وكان الأمر فى المنام ليكون تنفيذ المأمورية اعظم ابتلاء وامتحانا ولم يكن المقصود ذبح الولد ولكن المقصود ذبحه من قلبه ليخلص القلب للرب فلما بادر الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ الى الامتثال وقدم محبة الله على محبة ولده حصل المقصود فرفع الذبح وفدى بذبح عظيم فإن الرب تعالى ما أمر بشىء ثم أبطله رأسا بل لابد أن يبقى بعضه أو بدله كما أبقى شريعة الفداء وكما أبقى استحباب الصدقة عند المناجاة وكما أبقى الخمس الصلوات بعد رفع الخمسين وأبقى ثوابها وقال لا يبدل القول لدى خمس فى الفعل وخمسون فى الأجر . .

وأما ما يظنه بعض الظانين أن المحبة أكمل من الخلة وأن ابراهيم خليل الله ومحمد ﷺ حبيب الله فمن جهله فإن المحبة عامة والخلة خاصة الخلة نهاية المحبة وقد أخبر النبى ﷺ أن الله اتخذ ابراهيم خليلا ونفى أن يكون له خليل غير ربه مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها ولعمر بن الخطاب وغيرهم وأيضا فإن الله سبحانه يحب التوابين ويحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب المتقين ويحب المقسطين وخلته خاصة بالخليلين عليهما الصلاة والسلام ـ والشاب التائب حبيب الله وإنما هذا عن قلة العلم والفهم عن الله ورسوله ﷺ .

وقد تقدم أن العبد لا يترك ما يحب ويهواه إلا لما يحبه ويهواه ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة

---

(١) سورة المنافقون آية ٩
(٢) سورة النور آية ٣٧
(٣) ابن ماجه ج١ ص٥٠ رقم ١٤١
(٤) مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ١٨٥٥/٤ رقم ٢٣٨٣

كما أنه يفعل ما يكره لحصول ما محبته أقوى عنده من كراهة ما يفعله والخلاص من مكروه كراهته عنده أقوى من كراهة ما يفعله وتقدم أن خاصية العقل إيثار أعلى المحبوبين على أدناهما وأيسر المكروهين على أقواهما وتقدم أن هذا الكمال قوة الحب والبغض ولم يتم له هذا إلا بأمرين قوة الإدراك وشجاعة القلب فإن التخلف عن ذلك والعمل بخلافه يكون إما بضعف الإدراك بحيث إن لم يدرك مراتب المحبوب والمكروه على ما كان عليه إما لضعف فى النفس وعجز فى القلب لا يطاوعه الإيثار إلا صلح له مع علمه بأنه الأصلح فإذا صح إدراكه وقويت نفسه وتشجع القلب على إيثار المحبوب الأعلى والمكروه الأدنى فقد وافق لأسباب السعادة فمن الناس من يكون سلطان شهوته أقوى من سلطان عقله وإيمانه فيقهر الغالب الضعيف ومنهم من يكون سلطان إيمانه وعقله أقوى من سلطان شهوته وإذا كان كثير من المرضى يحميه الطبيب عما يضره فتأبى عليه نفسه وشهوته إلا تناوله ويقدم شهوته على عقله وتسميه الاطباء عديم المروءة فهكذا أكثر مرضى القلب يؤثرون ما يزيد مرضهم لقوة شهوتهم له فأصل الشر من ضعف الإدراك وضعف النفس ودناءتها وأصل الخير من كمال الإدراك وقوة النفس وشرفها فالحب والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه والبغض والكراهة أصل كل ترك ومبدؤه وهاتان القوتان فى القلب أصل سعادته وشقاوته ووجود العقل الاختيارى لا يكون إلا بوجود سببه من الحب والإرادة وأما عدم الفعل فتارة يكون لعدم مقتضاه وسببه وتارة يكون بوجود البغض والكراهة المانع منه وهذا متعلق الأمر والنهى وهو يسمى الكف وهو متعلق الثواب والعقاب وبهذا يزول الاشتباه فى مسألة الترك هل هو أمر وجودى أو عدمى والتحقيق أنه قسمان فالترك المضاف الى عدم السبب المقتضى عدمى والمضاف الى السبب المانع من الفعل وجودى .

وكل واحد من الفعل والترك الاختياريين فإنما يؤثر الحى لما فيه من الحصول والمنفعة التى يلتذ بحصولها أو زوال الألم الذى يحصل له الشفاء بزواله ولهذا يقال شفاء صدره وشفاء قلبه قال :

هى الشفاء لداء لو ظفرت بها .. وليس منها شفاء الداء مبذول .

وهذا مطلوب يؤثره العاقل حتى الحيوان البهيم ولكن يغلط فيه اكثر الناس غلطا قبيحا فيقصد حصول اللذة بما يعقب عليه أعظم الألم فيؤلم نفسه من حيث يظن أنه يحصل لذتها ويشفى قلبه بما يعقب عليه غاية المرض وهذا شأن من قصر نظره على العاجل ولم يلاحظ العواقب ، وخاصة العقل النظر فى العواقب فأعقل الناس من آثر لذة نفسه وراحته فى الآجلة الدائمة على العاجلة المنقضية الزائلة وأسفة الخلق من باع نعيم الأبد وطيب الحياة الدائمة واللذة العظمى التى لا تنغيص فيها ولا نقص بوجه ما بلذة منقضية مشوبة بالآلام والمخاوف وهى سريعة الزوال وشيكة الانقضاء قال بعض العلماء فكرت فى سعى العقلاء فرأيت سعيهم كلهم فى مطلوب واحد وان اختلفت طرقهم فى تحصيله رأيتهم جميعهم إنما يسعون فى دفع الهم والغم عن نفوسهم فهذا فى الاكل والشرب وهذا فى التجارة والكسب وهذا بالنكاح وهذا بسماع الغناء والأصوات المطربة وهذا باللهو واللعب فقلت هذا المطلوب مطلوب العقلاء ولكن الطرق كلها غير موصلة اليه بل لعل اكثرها إنما يوصل الى ضده ولم أر فى جميع هذه الطرق طريقا موصلا اليه بل لعل اكثرها إنما يؤثر إلى الإقبال على الله وحده ومعاملته وحده وإيثار مرضاته على كل شىء فإن سلك هذا الطريق فاته حظه من الدنيا فقد ظفر بالحظ العالى الذى لا فوت معه وان حصل للعبد حصل

له كل شيء وان فاته فاته كل شيء وان ظفر بحظه من الدنيا ناله على أهنأ الوجوه فليس للعبد أنفع من هذا الطريق ولا أوصل منه إلى لذته وبهجته وسعادته . .

والمحبوب قسمان محبوب لنفسه ومحبوب لغيره ولابد أن ينتهى إلى المحبوب لنفسه دفعا للتسلسل المحال وكل ما سوى المحبوب الحق فهو محبوب لغيره وليس شيء يحب لنفسه إلا الله وحده وكل ما سواه مما يحب فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبته سبحانه وهى من لوازم محبته فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه وهذا موضع يجب الاعتناء به فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة لغيره والتى لا تنفع بل قد تضر واعلم انه لا يحبه لذاته إلا من كماله من لوازم ذاته وإلهيته وربوبيته وغناه من لوازم ذاته وما سواه فإنما يبغض ويكره لمنافاته محابه ومضادته لها وبغضه وكراهته بحسب قوة هذه المنافاة وضعفها فما كان أشد منافاة لمحابة كان أشد كراهة من الأعيان والأوصاف والأفعال والإرادات وغيرها فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته وموالاته ومعاداته فإذا رأينا شخصا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه علمنا ان فيه من معاداته بحسب ذلك واذا رأينا الشخص يحب ما يحبه الرب ويكره ما يكرهه وكلما كان الشيء أحب الى الرب كان أحب اليه وآثر عنده وكلما كان أبغض اليه كان أبغض اليه وأبعد منه علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك فى نفسك وفى غيرك فالولاية عبارة عن موافقة الولى الحميد فى محابه ومساخطه ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة والمحبوب لغيره قسمان أيضا أحدهما ما يلتذ المحب بإدراكه وحصوله ، والثانى ما يتألم به ولكن يحتمله لإفضائه الى المحبوب كشرب الدواء الكريه قال تعالى : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(١) .

فأخبر سبحانه أن القتال مكروه لهم مع انه خير لهم لافضائه إلى أعظم محبوب وأنفعه والنفوس تحب الراحة والفراغة والرفاهية وذلك شر لها لإفضائه الى فوات هذا المحبوب فالعاقل لا ينظر الى لذة المحبوب العاجل فيؤثرها وألم المكروه العاجل فيرغب عنه فإن ذلك قد يكون شرا له بل قد يجلب عليه غاية الألم وتفوته أعظم اللذة بل عقلاء الدنيا يتحملون المشاق المكروهة لما يعقبها من اللذة بعدها وان كانت منقطعة فالأمور أربعة مكروه يوصل إلى مكروه ومكروه يوصل الى محبوب ومحبوب يوصل الى محبوب ومحبوب يوصل الى مكروه فالمحبوب الموصل الى المحبوب قد اجتمع فيه داعى الفعل من وجهين والمكروه الموصل إلى مكروه قد اجتمع فيه داعى الترك من وجهين بقى القسمان الأخيران تتجاوز بهما الداعيان وهما معترك الابتلاء والامتحان فالنفس تؤثر أقربهما جوارا منها وهو العاجل والعقل والايمان يؤثر ان أنفعهما وأبقاهما والقلب بين الداعيين وهو الى هذا مرة والى هذا مرة وههنا محل الابتلاء شرعا وقدرا فداعى العقل والايمان ينادى كل وقت حى على الفلاح عند الصباح يحمد القوم السرى وفى الممات يحمد العبد التقى فإن اشتد ظلام ليل المحبة وتحكم سلطان الشهوة والإرادة يقول :

يانفس اصبرى فما هى إلا ساعة ثم تنقضى ويذهب هذا كله ويزول

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فاصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله وتزاحم هذه المحبة وشبهه

(١) الآية : ٢١٦ من سورة البقرة .

منع كمال التصديق فى معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له فإن قويت حتى عارضت أصلى الحب والتصديق كانت كفرا أو شركا أكبر وإن لم تعارضه قدحت فى كماله وأثرت فيه ضعفا وفتورا فى العزيمة والطلب وهى تحجب الواصل وتقطع الطالب وتنكى الراغب فلا تصلح الموالاة الا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين** ﴾(١) .

فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإن ولاية الله لا تصح إلا بالبراءة من كل معبود سواه .

قال تعالى : ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ واذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾(٣) . اى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمته باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة لا إله إلا الله وهى التى ورثها امام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة وهى الكلمة التى قامت بها الأرض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة وجردت سيوف الجهاد وهى محض حق الله على جميع العباد وهى الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية فى هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهى المنشور الذى لا تدخل الجنة إلا به والحبل الذى لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه وهى كلمة الاسلام ومفتاح دار السلام وبها تنقسم الناس إلى شقى وسعيد ومقبول وطريد وبها انفصلت دار الكفر من دار الإسلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهى العمود الحامل للفرض والسنة ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة وروح هذه الكلمة وسرها إفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة فلا يحب سواه بل كل ما كان يحب غيره فإنما هو تبعا لمحبته وكونه وسيلة الى زيادة محبته ولا يخاف سواه ولا يرجى سواه ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا إليه ولا يرهب إلا منه ولا يحلف إلا باسمه ولا ينذر إلا له ولا يتاب إلا اليه ولا يطاع إلا أمره ولا يحتسب إلا به ولا يستعان فى الشدائد إلا به ولا يلتجى إلا إليه ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه يجتمع ذلك فى حرف واحد وهو أن لا يعبد بجميع أنواع العبادة إلا هو فهذا هو تحقيق شهادة ان لا إله إلا الله ولهذا حرم الله على النار من شهد ان لا إله إلا الله حقيقة الشهادة ومحال أن يدخل النار من تحقق تحقيقه هذه الشهادة وقام بها كما قال تعالى :

﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾(٤) .

فيكون قائما بشهادته فى باطنه وظاهره وفى قلبه وقالبه فان من الناس من تكون شهادته ميتة ومنهم من

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٧٥ - ٧٧ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٤

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

(٤) سورة المعارج آية ٣٣

تكون نائمة اذا نبهت انتبهت ومنهم من تكون مضطجعة ومنهم من تكون إلى القيام أقرب وهى فى القلب بمنزلة الروح فى البدن فروح ميتة وروح مريضة الى الموت أقرب وروح الى الحياة أقرب وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن وفى الحديث الصحيح عنه ﷺ : (إنى لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها روحا(١) فحياة هذه الروح بهذه الكلمة فيها فكما ان حياة البدن بوجود الروح فيه وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو فى الجنة ينقلب فيها فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب فى جنة المأوى وعيشها أطيب عيش قال تعالى ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾(٢) فالجنة مأواه يوم اللقاء وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله والشوق إلى لقائه والفرح به والرضا عنه وبه مأوى روحه فى هذه الدار فمن كانت هذه الجنة مأواه ههنا كانت جنة الخلد مأواه يوم المعاد ومن حرم هذه الجنة فهو لتلك الجنة أشد حرمانا والأبرار فى نعيم وإن اشتد بهم العيش وضاقت بهم الدنيا والفجار فى جحيم وان اتسعت عليهم الدنيا .

قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾(٣) وطيب الحياة جنة الدنيا .

قال تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا** ﴾(٤) وأى نعيم أطيب من شرح الصدر وأى عذاب أضيق من ضيق الصدر .

وقال تعالى : ﴿ **ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم** ﴾(٥) فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشا وأنعمهم بالا وأشرحهم صدرا وأسرهم قلبا وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة قال النبى ﷺ (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا وما رياض الجنة قال حلق الذكر)(٦) ومن هذا قوله ﷺ (ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة)(٧) ومن هذا قوله وقد سألوه عن وصاله فى الصوم فقال : (إنى لست كهيئتكم إنى أظل عند ربى يطعمنى ويسقينى)(٨) فأخبر ﷺ أن ما يحصل له من الغذاء عند ربه يقوم مقام الطعام والشراب الحسى وإن ما يحصل له من ذلك أمر مختص به لا يشركه فيه غيره فإذا أمسك عن الطعام والشراب فله عوض عنه يقوم مقامه وينوب منابه ويغنى عنه كما قيل :

لها احاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضىء به ومن حديثك فى أعقابها حادى
اذا اشتكت من كلال السير أوعدها روح اللقاء فتحيا عند ميعادى

وكلما كان وجود الشىء أنفع للعبد وهو اليه أحوج كان تألمه بفقده أشد ،وكلما كان عدمه أنفع كان تألمه بوجوده أشد ولا شىء على الإطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتنعمه بحبه وإيثاره لمرضاته بل لا حياة له ولا نعيم ولا سرور ولا بهجة إلا بذلك فعدمه آلم شىء له وأشد عذابا عليه

(١) ابن ماجة ـ كتاب الأدب ـ باب فضل لاإله إلا الله ١٢٤٧/٢ رقم ٣٧٩٥ مسند أحمد ٢٨/١ .
(٢) سورة النازعات الآيتان : ٤٠ ، ٤١
(٣) سورة النحل آية ٩٧
(٤) سورة الأنعام آية ١٢٥
(٥) سورة يونس الآيات : ٦٢ ـ ٦٤
(٦) البخارى ٢٨/٣ ومسلم ـ كتاب الحج ١٠١٠/٢ رقم ١٣٩٠
(٧) البخارى باب حرم المدينة ٣٢٣/١ ط/ دار إحياء الكتب العربية
(٨) البخارى ، باب الوصال فى الصوم ٤٨/٣

وإنما تغيب الروح عن شهود هذا الألم والعذاب لاشتغالها بغيره واستغراقها فى ذلك الغير فتغيب به عن شهود ما هى فيه من ألم العقوبة بفراق أحب شيء إليها وأنفعه لها وهذا بمنزلة السكران المستغرق فى سكره الذى احترقت داره وأمواله وأهله وأولاده وهو لاستغراقه فى السكر لا يشعر بألم ذلك الفوات وحسرته حتى إذا صحا وكشف عنه غطاء السكر وأنتبه من رقدة الخمر فهو أعلم بحاله حينئذ وهكذا الحال سواء عند كشف الغطاء ومعاينة طلائع الآخرة والإشراف على مفارقة الدنيا والانتقال منها إلى الله بل الألم والحسرة والعذاب هناك أشد بأضعاف أضعاف ذلك فإن المصاب فى الدنيا يرجو جبر مصيبته فى الدنيا بالعوض ويعلم أنه قد أصيب بشيء زائل لا بقاء له فكيف بمن مصيبته بمالا عوض عنه ولا بدل منه ولا نسبة بينه وبين الدنيا جميعا فلو قضى الله سبحانه بالموت من هذه الحسرة والألم لكان العبد جديرا به وإن الموت لا يعود اكبر امنيته واكبر حسراته هذا لو كان الألم على مجرد الفوات كيف وهناك من العذاب على الروح والبدن أمور أخرى وجودية مالا يقدر قدره فتبارك من حمل هذا الخلق الضعيف هذين الالمين العظيمين اللذين لا تحملهما الجبال الرواسى فاعرض على نفسك الان أعظم محبوب لك فى الدنيا بحيث لا تطيب لك الحياة إلا معه فأصبحت وقد أخذ منك وحيل بينك وبينه أحوج ما كنت اليه كيف يكون حالك هذا ومنه كل عوض فكيف بمن لا عوض عنه كما قيل :

من كل شيء اذا ضيعته عوض وما من الله إن ضيعته عوض

وفى الأثر الإلهى ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب وتكفلت برزقك فلا تتعب ابن آدم اطلبنى تجدنى فإن وجدتنى وجدت كل شيء وان فتك فاتك كل شيء وانا أحب اليك من كل شيء .

ولما كانت المحبة جنسا تحته أنواع متفاوتة فى القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها فى حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ولا يصلح إلا له وحده مثل العبادة والانابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا له وحده وكذا الانابة وقد ذكر المحبة باسمها المطلق كقوله تعالى :

﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾[٢] وأعظم أنواع المحبة المذمومة المحبة مع الله التى سوى فيها المحب بين محبة الله ومحبته للند الذى اتخذه من دون الله وأعظم أنواعها المحمودة محبة الله وحده وهذه المحبة هى أصل السعادة ورأسها التى لا ينجو أحد من العذاب إلا بها والمحبة المذمومة الشركية هى أصل الشقاوة ورأسها التى لا يبقى فى العذاب إلا أهلها فأهل المحبة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار ومن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يبقى فيها منهم احد مدار القرآن على الأمر بتلك المحبة ولوازمها .

والنهى عن المحبة الاخرى ولوازمها وضرب الامثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص ولوازمها للنوعين وتفصيل أعمال النوعين وأوليائهم ومعبود كل منهما واخباره عن فعل النوعين وعن حال النوعين فى الدور الثلاثة دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار والقرآن باقى شأن النوعين وأصل دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم انما هو عبادة الله وحده لا شريك له المتضمنة لكمال حبه وكمال الخضوع والذل له

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .
(٢) البقرة ١٦٥ .

والاجلال والتعظيم ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى وقد ثبت فى الصحيحين من حديث انس عن النبى ﷺ انه قال : (والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من والده وولده والناس أجمعين)(١) وفى صحيح البخارى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال يارسول الله : (والله لأنت أحب الى من كل شيء إلا من نفسى فقال لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال والذى بعثك بالحق لأنت أحب الى من نفسى فقال الآن ياعمر)(٢) فإذا كان هذا شأن محبة النفس ووالده وولده والناس أجمعين فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمها على محبة ما سواه .

ومحبة الرب تعالى تختص عن محبة غيره فى قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون إلى العبد أحب إليه من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التى بين جنبيه فيكون إلهه الحق ومعبوده أحب إليه من ذلك كله والشيء قد يحب من وجه دون وجه وقد يحب بغيره وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده ولا تصلح الألوهية إلا له ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا والتأله هو المحبة والطاعة والخضوع .

وكل حركة فى العالم العلوى والسفلى فأصلها المحبة فهى علتها الفاعلة والغائية وذلك لأن الحركات ثلاثة أنواع حركة اختيارية إرادية وحركة طبيعية وحركة قسرية فالحركة الطبيعية أصلها السكون وإنما يتحرك الجسم إذا خرج عن مستقره ومركزه الطبيعى فهو يتحرك للعود إليه وخروجه عن مركزه ومستقره وإنما يتحرك بتحرك القاسر المحرك له فله حركة قسرية تتحرك بتحريك محركه وقاسرة وحركة طبيعية بذاتها تطلب بها العود إلى مركزه وكلتا حركتيه تابع للمحرك القاسر فهو أصل الحركتين والحركة الاختيارية الإرادية هى أصل الحركتين الأخريين وهى تابعة للإرادة والمحبة فصارت الحركات الثلاث تابعة للمحبة والإرادة والدليل على انحصار الحركات فى هذه الثلاث أن المتحرك إن كان له شعور بالحركة فهى الإرادية وإن لم يكن له شعور بها فإما أن يكون على وفق طبيعته الأولى فالأولى هى الطبيعية والثانية هى القسرية إذا فهمت هذا فما فى السموات والأرض وما بينهما من حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم والرياح والسحاب والمطر والنبات وحركات الأجنة فى بطون أمهاتها فإنما هى بواسطة الملائكة المدبرات أمرا والمقسمات أمرا كما دل على ذلك نصوص القرآن والسنة فى غير موضع والايمان بذلك من تمام الايمان بالملائكة فإن الله وكل بالرحم ملائكة وبالقطر ملائكة وبالنبات ملائكة وبالرياح ملائكة وبالأفلاك والشمس والقمر والنجوم ووكل بكل عبد أربعة من الملائكة كاتبين على يمينه وشماله وحافظين من بين يديه ومن خلفه ووكل ملائكة بقبض روحه وتجهيزها إلى مستقرها من الجنة والنار وملائكة بمسألته وامتحانه فى قبره وعذابه هناك أو نعيمه وملائكة تسوقه الى المحشر اذا قام من قبره وملائكة بتعذيبه فى النار أو نعيمه فى الجنة ووكل بالجبال ملائكة وبالسحاب ملائكة تسوقه الى حيث أمرت به وملائكة بالقطر تنزله بأمر الله بقدر معلوم كما شاء الله ووكل ملائكة بغرس الجنة وعمل آلاتها وفرشها وثيابها والقيام عليها وملائكة بالنار كذلك فاعظم جند الله الملائكة ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله لله وهم يدبرون الأمر ويقسمونه بإذن الله وأمره . قال

(١) البخارى (كتاب الإيمان) جـ ١ صـ ١٠ ومسلم جـ ١ صـ ٩٧ رقم ٤٤ والنسائى ٨/ ١١٤ وابن ماجه ١/ ٢٦ رقم ٦٧ وأحمد ٣/ ١٧٧ .

(٢) البخارى (كتاب الايمان والنذور) ٨/ ١٦١ .

تعالى اخبارا عنهم : ﴿ وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾(٢) وأقسم سبحانه بطوائف من الملائكة المنفذين لامره فى الخليقة كما قال تعالى ﴿ والصافات صفا فالزاجرات زجرا فالتاليات ذكرا ﴾(٣) وقال : ﴿ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا فالفارقات فرقا فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا ﴾(٤) .

وقال تعالى ﴿ والنازعات غرقا والناشطات نشطا والسابحات سبحا فالسابقات سبقا فالمدبرات أمرا ﴾(٥) .

فجميع تلك المحبات والحركات والارادات والافعال هى عباداتهم لرب الأرض والسموات، وجميع الحركات الطبيعية والقسرية تابعة لها فلولا الحب مادارت الأفلاك ولا تحركت الكواكب النيرات ولا هبت الرياح المسخرات ولا مرت السحاب الحاملات ولا تحركت الأجنة فى بطون الأمهات ولا انصدع عن الحب انواع النبات ولا اضطربت أمواج البحار الزاخرات ولا تحركت المدبرات والمقسمات ولا سبحت بحمد فاطرها الأرض والسموات، وما فيها من أنواع المخلوقات فسبحان من تسبحه السموات والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾ (٦) .

إذا عرف ذلك فكل حى له إرادة ومحبة وعمل يحسنه وكل متحرك فأصل حركته المحبة والارادة ولاصلاح للموجودات إلا بان تكون حركاتها ومحبتها لفاطرها وبارئها وحده كما لا وجود لها إلا بابداعه وحده ولهذا قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾(٧) .

ولم يقل سبحانه لما وجدتا ولكانتا معدومتين ولا قال لعدمتا ـ إذ هو سبحانه قادر على ان يبقيهما على وجه الفساد لكن لا يمكن ان تكون على وجه الصلاح والاستقامة إلا بان يكون الله وحده وهو معبود لهما ومعبود ما حوتاه وسكن فيهما فلو كان للعالم إلهان لفسد نظامه غاية الفساد فان كل إله يطلب مغالبة الأخر والعلو عليه وتفرده دونه بالالهية إذ الشرك نقص فى كمال الالهية والاله لا يرضى لنفسه ان يكون إلها ناقصا فإن قهر أحدهما الآخر كان هو الاله وحده والمقهور ليس باله وان لم يقهر احدهما الأخر لزم عجز كل منهما ونقصه ولم يكن تام الالهية فيجب ان يكون فوقهما إله قاهر لهما حاكم عليهما وإلا ذهب كل منهما بما خلق وطلب كل منهما العلو على الآخر .

وفى ذلك فساد أمر السموات والأرض ومن فيهما كما هو المعهود من فساد البلد اذا كان فيها ملكان متكافئان وفساد الزوجة اذا كان لها بعلان والشول اذا كان فيه فحلان وأصل فساد العالم انما هو من فساد اختلاف الملوك والخلفاء ولهذا لم تطمع اعداء الاسلام فيهم فى زمن من الأزمنة إلا فى زمن تعدد الملوك من المسلمين واختلافهم وانفراد كل واحد منهم ببلاد وطلب بعضهم العلو على بعض فصلاح

(١) سورة مريم آية ٦٤
(٢) سورة النجم آية ٢٦
(٣) سورة الصافات الآيات : ١ ـ ٣ .
(٤) سورة المرسلات الآيات : ١ ـ ٦ .
(٥) سورة النازعات الآيات : ١ ـ ٥ .
(٦) سورة الاسراء آية ٤٤
(٧) سورة الأنبياء آية ٢٢

السموات والأرض واستقامتها وانتظام أمر المخلوقات على أتم نظام ومن أظهر الادلة على أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير وان كل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل إلا وجهه الأعلى قال تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ﴾[٣] قيل المعنى لابتغوا السبيل اليه بالمغالبة والقهر كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ويدل عليه قوله فى الآية الاخرى : ﴿ ولعلا بعضهم على بعض ﴾[٤] المعنى لابتغوا اليه سبيلا بالتقرب اليه وطاعته فكيف تعبدونهم من دونه وهم لو كانوا آلهة كما يقولون لكانوا عبيدا له قال ويدل على ذلك وجوه منهاقوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾[٥] أى هؤلاء الذين يعبدونهم من دونى هم عبادى كما انتم عبادى ويرجون رحمتى ويخافون عذابى فلماذا تعبدونهم من دونى الثانى انه سبحانه لم يقل لابتغوا عليه سبيلا قال لابتغوا اليه سبيلا وهذا اللفظ انما يستعمل فى القرب كقوله تعالى : ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾[٦] وأما فى المغالبة فإنه يستعمل بعلى كقوله : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾[٧] الثالث انهم لم يقولوا ان آلهتهم تغالبه وتطلب العلو عليه وهو سبحانه قال : ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون ﴾[٨] وهم إنما كانوا يقولون ان آلهتهم تبتغى التقرب اليه وتقربهم زلفى اليه .

قال تعالى : لو كان الأمركما يقولون لكانت تلك الآلهة عبيدا له فلماذا تعبدون عبيده من دونه .

والمحبة لها آثار وتوابع ولوازم وأحكام سواء كانت محمودة أو مذمومة نافعة أو ضارة من الوجدوالذوق والحلاوة والشوق والانس والاتصال بالمحبوب والقرب منه والانفصال عنه والبعد منه والصد والهجران والفرح والسرور والبكا والحزن وغير ذلك من احكامها ولوازمها والمحبة المحمودة هى المحبة النافعة التى تجلب لصاحبها ما ينفعه فى دنياه وآخرته وهذه المحبة هى عنوان السعادة وضدها هى التى تجلب لصاحبها ما يضره فى دنياه وآخرته وهى عنوان الشقاوة ومعلوم ان الحى العاقل لا يختار محبة ما يضره ويشقيه وإنما يصدر ذلك عن جهله وظلمه فإن النفس قد تهوى ما يضرها ولا ينفعها وذلك ظلم من الإنسان لنفسه اما ان تكون النفس جاهلة بحال محبوبها بأن تهوى الشيء وتحبه غير عالمة بما فى محبته من المضرة وهذا حال من اتبع هواه بغير علم واما عالمة بما فى محبته من الضرر لكن يؤثر هواها على علمها وقد تتركب محبتها من أمرين من اعتقاد فاسد وهوى مذموم وهذا حال من اتبع الظن وما تهوى الانفس

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .
(٢) سورة الأنبياء الآيات : ٢١ ـ ٢٣ .
(٣) سورة الإسراء الآية ٤٢
(٤) سورة المؤمنون آية ٩١
(٥) سورة الاسراء آية ٥٧
(٦) سورة المائدة آية ٣٥
(٧) سورة النساء آية ٣٤
(٨) سورة الاسراء آية ٤٢

فلا تقع المحبة الفاسدة إلا من جهل أو اعتقاد فاسد وهو غالب أو ما تركب من ذلك فاعان بعضه بعضه فتنفق شبهة يشتبه بها الحق بالباطل يزين له أمر المحبوب وشهوة تدعوه الى وصوله فيتساعد جيش الشبهة والشهوة على جيش العقل والايمان والغلبة لاقواهما اذا عرف هذا فتوابع كل نوع من انواع المحبة له حكم متبوعه فالمحبة النافعة المحمودة التى هى عنوان سعادة العبد وتوابعها كلها نافعة له حكمها حكم متبوعها فإن بكى نفعه وان حزن نفعه وان فرح نفعه وان انبسط نفعه وان انقبض نفعه فهو يتقلب فى منازل المحبة وأحكامها فى مزيد وربح وقوة والمحبة المضرة المذمومة توابعها وآثارها كلها ضارة لصاحبها مبعدة له من ربه كيفما تقلب فى آثارها ونزل فى منازلها فهو فى خسارة وبعد وهذا شأن كل فعل تولد عن طاعة ومعصية فكل ما تولد من الطاعة فهو زيادة لصاحبه وقرب وكل ما تولد من المعصية فهو خسران لصاحبه وبعد قال تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع أجر المحسنين ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون** ﴾[(١)] .

أخبر سبحانه فى الآية الاولى ان المتولد عن طاعتهم وأفعالهم يكتب لهم به عمل صالح واخبر فى الثانية ان أعمالهم الصالحة التى باشروها تكتب لهم أنفسها والفرق بينهما ان الأول ليس من فعلهم وانما تولد عنه فكتب لهم به عمل صالح والثانى نفس أفعالهم فكتب لهم فليتأمل قتيل المحبة هذا الفصل حق التأمل ليعلم ماله وما عليه .

سيعلم يوم العرض أى بضاعة أضاع وعند الوزن ما كان حاصلا

وكما أن المحبة والإرادة أصل كل فعل فهى أصل كل دين سواء كان حقا أم باطلا فإن الدين هو من الاعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والإرادة أصل ذلك كله والدين هو الطاعة والعبادة والخلق فهو الطاعة اللازمة الدائمة التى صارت خلقا وعادة ولهذا فسر الخلق بالدين فى قوله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[(٢)] .

قال الامام احمد عن ابن عيينة قال ابن عباس لعلى دين عظيم وسئلت عائشة عن خلق النبى ﷺ فقالت كان خلقه القرآن[(٣)] ، والدين فيه معنى الإذلال والقهر وفيه معنى الذل والخضوع والطاعة فلذلك يكون من الأعلى الى الأسفل كما يقال دنته فدان أى قهرته فذل .

ويكون من الأدنى الى الأعلى كما يقال : دنت الله ودنت لله وفلان لا يدين الله دينا ولا يدين الله بدين فدان الله أى أطاع الله وأحبه وخافه ودان لله أى خشع له وخضع وذل وانقاد والدين الباطن لابد فيه من الخضوع والحب كالعبادة سواء بخلاف الدين الظاهر فإنه لا يستلزم الحب وإن كان فيه انقياد وذلك فى الظاهر وسمى الله تعالى يوم القيامة يوم الدين لأنه اليوم الذى يدين الناس فيه بأعمالهم ان خيرا

(١) سورة التوبة الأيتان : ١٢٠ ، ١٢١

(٢) تفسير ابن كثير سورة ن آية ٤

(٣) مسند احمد ٦/٢١٦

فخير وان شرا فشر وذلك يتضمن جزاءهم وحسابهم فلذلك فسروه بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال تعالى : ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾[1] أى هلا تردون الروح الى مكانها ان كنتم غير مربوبين ولا مقهورين ولا مجزيين وهذه الآية تحتاج الى تفسير فانها سيقت للاحتجاج عليهم فى انكارهم البعث والحساب ولابد ان يكون الدليل مستلزما لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه الى المدلول لما بينهما من التلازم فيكون الملزوم دليلا على لازمه ولا يجب العكس ووجه الاستدلال انهم اذا انكروا البعث والجزاء فقد كفروا ربهم وانكروا قدرته وربوبيته وحكمته فاما ان يقروا بان لهم ربا قاهرا متصرفا فيهم يميتهم اذا شاء ويحييهم اذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم واما ان يقروا برب هذا شأنه فإن أقروا آمنوا بالبعث والنشور والدين الامرى والجزائى وان انكروا كفروا به فقد زعموا انهم غير مربوبين ولا محكوم عليهم ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يقدرون على دفع الموت عنهم اذا جاءهم وعلى رد الروح الى مستقرها اذا بلغت الحلقوم وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته أى فهلا يردون الروح الى مكانها ان كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر يمضي عليكم أحكامه وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التعجيز لهم اذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة إلى مكانها ولو اجتمع على ذلك الثقلان فيالها من آية دالة على وحدانيته وربوبيته سبحانه وتصرفه فى عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريانها عليهم والدين دينان دين شرعى أمرى ودين حسابى جزائى وكلاهما لله وحده فالدين كله أمرا أو جزاء والمحبة أصل كل واحد من الدينين فإن ما شرعه وأمر به فإنه يحبه ويرضاه وما نهى عنه فإنه يكرهه ويبغضه لمنافاته لما يحبه ويرضاه فهو يحب ضده فعاد دينه الأمرى كله إلى محبته ورضاه ودين العبد لله به انما يقبل إذا كان محبة ورضا كما قال النبى ﷺ :

(ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد رسولا)[2] .

وهذا الدين قائم بالمحبة وبسببها شرع ولاجلها شرع وعليها أسس وكذلك دينه الجزائى فإنه يتضمن مجازاة المحسن بإحسانه والمسيء باساءته وكل من الأمرين محبوب للرب فانهما عدله وفضله وكلاهما من صفات كماله وهو سبحانه يحب صفاته وأسماءه ويحب من يحبها وكل واحد من الدينين فهو صراطه المستقيم الذى هو عليه فهو سبحانه على صراط مستقيم فى أمره ونهيه وثوابه وعقابه كما قال تعالى إخبارا عن نبيه هود عليه السلام انه قال لقومه انى أشهد الله ﴿ واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾[3] ولما علم نبى الله ان ربه على صراط مستقيم فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه وقضائه وقدره ومنعه وعطائه وعافيته وبلائه وتوفيقه وخذلانه لا يخرج فى ذلك عن موجب كماله المقدس الذى تقتضيه أسماؤه وصفاته من العدل والحكمة والرحمة والإحسان والفضل ووضع الثواب فى مواضعه والعقوبة فى موضعها اللائق بها ووضع التوفيق والخذلان والعطاء والمنع والهداية والاضلال كل ذلك فى أماكنه ومحاله اللائقه به بحيث يستحق على ذلك كمال الحمد والثناء أوجب له ذلك العلم والعرفان اذ نادى على رءوس الملأ من قومه بجنان ثابت وقلب غير خائف بل متجرد لله ﴿ إنى أشهد الله واشهدوا أنى

---

(١) سورة الواقعة : ٨٦ ، ٨٧ .

(٢) مسلم - كتاب الايمان ١/٦٢ رقم ٣٤

(٣) سورة هود الآيات : ٥٤ - ٥٦ .

بريء مما تشركون من دونه ﴾(١) . الآية .

ثم أخبر عن عموم قدرته وقهره بكل ما سواه وذل كل شيء لعظمته فقال : مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها فكيف أخاف من ناصيته بيد غيره وهو فى قبضته وتحت قهره وسلطانه دونه وهل هذا الأمر الا من أجهل الجهل وأقبح الظلم ثم أخبر انه سبحانه على صراط مستقيم فى كل ما يقضيه ويقدره فلا يخاف العبد جوره ولا ظلمه فلا أخاف مادونه فإن ناصيته بيده ولا أخاف جوره وظلمه فإنه على صراط مستقيم وهو سبحانه ماض فى عبده حكمه عدل فيه قضاؤه له الملك وله الحمد لا يخرج فى تصرفه فى عباده عن العدل والفضل إن أعطى واكرم وهدى ووفق فبفضله ورحمته وإن منع وأهان وأضل وخذل وشقى فبعدله وبحكمته وهو على صراط مستقيم فى هذا وهذا وفى الحديث الصحيح (ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إنى عبدك ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فى حكمك عدل فى قضاؤك أسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء همى وحزنى وذهاب همى وغمى إلا اذهب الله همه وغمه وأبدله فرجا مكانه)(٢) وهذا يتناول حكم الرب الكونى والأمرى والقضاء الذى يكون باختيار العبد وبغير اختياره وكلا الحكمين ماض فى عبده وكلا القضاءين عدل فيه فهذا الحديث مشتق من هذه الآية بينهما اقرب نسب .

ونختتم الجواب بفصل متعلق بعشق الصور وما فيه من المفاسد العاجلة والآجلة وإن كانت أضعاف ما يذكره ذاكر فإنه يفسد القلب بالذات وإذا فسد فسدت الارادات والأقوال والأعمال وفسد ثغر التوحيد كما تقدم وسنقرره أيضا إن شاء الله تعالى والله ـ سبحانه وتعالى ـ إنما حكى هذا المرض عن طائفتين من الناس وهم اللوطية والنساء فأخبر عن عشق امرأة العزيز ليوسف وما راودته وكادته به وأخبر عن الحال التى صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه مع ان الذى ابتلى به أمر لا يصبر عليه إلا من صبره الله عليه فإن موافقة الفعل بحسب قوة الداعى وزوال المانع وكان الداعى ها هنا فى غاية القوة وذلك لوجوه أحدها ماركب الله سبحانه فى طبع الرجل من ميله إلى المرأة كما يميل العطشان إلى الماء والجائع إلى الطعام حتى أن كثيرا من الناس يصبر عن الطعام والشراب ولا يصبر عن النساء وهذا لا يذم إذا صادف حلالا بل يحمد كما فى كتاب الزهد للإمام احمد من حديث يوسف بن عطية الصفار عن ثابت البنانى عن أنس عن النبى ﷺ (حبب الى من دنياكم الطيب والنساء أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن)(٣) الثانى : ان يوسف عليه السلام كان شابا وشهوة الشاب وحدته أقوى .

الثالث : انه كان عزبا لا زوجة له ولا سرية تكسر شدة الشهوة ، الرابع : انه كان فى بلاد غربة يتأتى للغريب فيها من قضاء الوطر مالا يأتى لغيره فى وطنه وأهله ومعارفه الخامس : ان المرأة كانت ذات منصب وجمال بحيث ان كل واحد من هذين الأمرين يدعو إلى موافقتها .

السادس : انها غير أبية ولا ممتنعة فإن كثيرا من الناس يزيل رغبته فى المرأة إباؤها وامتناعها لما يجد فى نفسه من ذل الخضوع والسؤال لها وكثير من الناس يزيده الاباء والامتناع زيادة حب كما قال الشاعر :

(١) سورة هود آية ٥٤
(٢) مسند احمد تحقيق الشيخ شاكر ٢٦٦/٥ رقم ٣٧١٢ وقال : اسناده صحيح ورواه الحاكم ٥٠٩/١ وقال : حديث صحيح على شرط مسلم
(٣) سنن النسائى ٦١/٧ ومسند احمد ٢٨٥/٣

وزادنى كلفا فى الحب ان منعت أحب شيء الى الانسان ما منعا

فطباع الناس مختلفة فى ذلك فمنهم من يتضاعف حبه عند بذل المرأة ورغبتها وتضمحل عند إبائها وإمتناعها وأخبرنى بعض الناس ان إرادته وشهوته تضمحل عند امتناع زوجته أو سريته وإبائها بحيث لا يعاودها .

ومنهم من يتضاعف حبه وإرادته بالمنع ويشتد شوقه بكل ما منع وتحصل له من اللذة بالظفر نظير ما يحصل من لذة بالظفر بالضد بعد امتناعه ونفاره واللذة بادراك المسألة بعد استصعابها وشدة الحرص على إدراكها ، السابع : انها طلبت وأرادت وبذلت الجهد فكفته مؤنة الطلب وذل الرغبة إليها بل كانت هى الراغبة الذليلة وهو العزيز المرغوب إليه ، الثامن : انه فى دارها وتحت سلطانها وقهرها بحيث يخشى ان لم يطاوعها من اذاها له فاجتمع داعى الرغبة والرهبة . التاسع : انه لا يخشى ان تنمى عليه هى ولا أحد من جهتها فانها هى الطالبة والراغبة وقد غلقت الأبواب وغيبت الرقباء ، العاشر : أنه كان مملوكا لها فى الدار بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها ولا ينكر عليه وكان الامن سابقا على الطلب وهو من أقوى الدواعى كما قيل لامرأة شريفة من أشراف العرب ما حملك على الزنا قالت قرب الوساد وطول السواد تعنى قرب وساد الرجل من وسادتى وطول السواد بيننا .

الحادى عشر : أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال فأرته إياهن وشكت حالها اليهن لتستعين بهن عليه فاستعان هو بالله عليهن فقال ﴿ **وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين** ﴾[1] .

الثانى عشر : أنها تواعدته بالسجن والصغار وهذا أنواع إكراه إذ هو تهديد ممن يغلب على الظن وقوع ما هدد به فيجتمع داعى الشهوة وداعى السلامة من ضيق السجن والصغار ان الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرق به بينهما ويبعد كلا منهما عن صاحبه بل كان غاية ما خاطبهما به أن قال ليوسف اعرض عن هذا وللمرأة استغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع وهنا لم يظهر منه غيرة ومع هذه الدواعى كلها فآثر مرضاة الله وخوفه وحمله حبه لله على ان اختار السجن على الزنا فقال ﴿ **رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه** ﴾[2] . وعلم انه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه وان ربه تعالى ان لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن صبا اليهن بطبعه وكان من الجاهلين وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه وفى هذه القصة من العبر والفوائد والحكم ما يزيد على الف فائدة .

والطائفة الثانية : الذين حكى الله عنهم العشق هم اللوطية كما قال تعالى ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون قالوا أولم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾[3] فهذا عشق حكاه سبحانه عن طائفتين عشق كل منهما ما حرم عليه من الصور ولم يبال بما فى عشقه من الضرر وهذا داء أعيا الأطباء دواؤه وعز عليهم شفاؤه وهو والله الداء العضال والسم القاتل الذى ما علق بقلب إلا وعز على الورى

---

(١) سورة يوسف آية ٣٣

(٢) سورة يوسف آية ٣٣

(٣) سورة الحجر الآيات : ٦٧ - ٧٢ .

إستنقاذه من إساره ولا اشتعلت نار فى مهجة إلا وصعب على الخلق تخليصها من ناره وهو أقسام وهو تارة يكون كفرا لمن إتخذ معشوقه ندا يحبه كما يحب الله فكيف إذا كانت محبته أعظم من محبة الله فى قلبه فهذا عشق لا يغفر لصاحبه فإنه من أعظم الشرك والله لا يغفر أن يشرك به وإنما يغفر بالتوبة الماحية مادون ذلك وعلامة هذا العشق الشركى الكفرى أن يقدم العاشق رضاء معشوقه على رضاء ربه إذا تعارض عنده حق معشوقه وحقه وحق ربه وطاعته قدم حق معشوقه على حق ربه وآثر رضاه على رضاه وبذل لمعشوقه أنفس ما يقدر عليه وبذل لربه إذا بذل أردى ما عنده واستفرغ وسعه فى مرضاة معشوقه وطاعته والتقرب إليه وجعل لربه إن اطاعه الفضلة التى تفضل عن معشوقه من ساعاته فتأمل حال أكثر عشاق الصور هل تجدها مطابقة لذلك ثم ضع حالهم فى كفة وتوحيدهم فى كفة وإيمانهم فى كفة ثم زن وزنا يرضى الله ورسوله ويطابق العدل وربما صرح العاشق منهم بان وصل معشوقه أحب اليه من توحيد ربه كما قال العاشق الخبيث :

يترشفن من فمى رشفات هن أحلى فيه من التوحيد

وكما صرح الخبيث الآخر بأن وصل معشوقه أشهى إليه من رحمة ربه فعياذا بك اللهم من هذا الخذلان ومن هذا الحال قال الشاعر :

وصلك أشهى إلى فؤادى من رحمة الخالق الجليل

ولا ريب أن هذا العشق من أعظم الشرك وكثير من العشاق يفرح بأنه لم يبق فى قلبه موضع لغير معشوقه البتة بل قد ملك معشوقه عليه قلبه كله فصار عبدا مخلصا من كل وجه لمعشوقه فقد رضى هذا من عبودية الخالق - جل جلاله - بعبودية المخلوق مثله فإن العبودية أى كمال الحب والخضوع وهذا قد استغرق قوة حبه وخضوعه وذله لمعشوقه فقد أعطاه حقيقة العبودية ولا نسبة بين مفسدة هذا الأمر العظيم ومفسدة الفاحشة فإن تلك ذنب كبير لفاعله حكمه حكم أمثاله ومفسدة هذا العشق مفسدة الشرك وكان بعض الشيوخ من العارفين يقول لئن أبتلى بالفاحشة مع تلك الصورة أحب إلى من أن أبتلى فيها بعشق يتعبد لها قلبى ويشغله عن الله .

ودواء هذا الداء القتال آن يعرف أن ما ابتلى به من الداء المضاد للتوحيد أولا ثم يأتى من العبادات الظاهرة والباطنة بما يشغل قلبه عن دوام الفكر فيه ويكثر اللجوء والتضرع إلى الله سبحانه فى صرف ذلك عنه وأن يرجع قلبه إليه وليس له دواء أنفع من الإخلاص لله وهو الدواء الذى ذكره الله فى كتابه حيث قال : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾[1] فأخبر سبحانه أنه صرف عنه السوء من العشق والفحشاء من الفعل بإخلاصه فإن القلب اذا خلص وأخلص عمله لله لم يتمكن منه عشق الصور فإنه إنما تمكن من قلب فارغ كما قال :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

(١) سورة يوسف آية ٢٤

وليعلم العاقل أن العقل والشرع قد يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها وإعدام المفاسد وتقليلها فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه المصلحة والمفسدة وجب عليه أمران أمر علمى وأمر عملى فالعلمى طلب معرفة الراجح من طرفى المصلحة والمفسدة فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إتيان الأصلح له ومن المعلوم انه ليس فى عشق الصور مصلحة دينية ولا دنيوية بل مفسدته الدينية والدنيوية أضعاف أضعاف ما يقدر فيه من المصلحة وذلك من وجوه أحدها : الاشتغال بذكر المخلوق وحبه عن حب الرب تعالى وذكره فلا يجتمع فى القلب هذا وهذا إلا ويقهر أحدهما ويكون السلطان والغلبة له ، الثانى : عذاب قلبه بمعشوقه فإن من أحب شيئا غير الله عذب به ولابد كما قيل :

فما فى الأرض أشقى من محب وان وجد الهوى حلو المذاق
تراه باكيا فى كل حين مخافة فرقة أو لاشتياق
فيبكى إن نأوا شوقا اليهم ويبكى إن دنوا خوف الفراق
فتسخن عينه عند الفراق وتسخن عينه عند التلاق

والعشق وان استلذ به صاحبه فهو من أعظم عذاب القلب ، الثالث : إن العاشق قلبه أسير فى قبضة معشوقه يسومه الهوان ولكن العاشق لا يشعر بمصابه فقلبه كالعصفورة فى كف الطفل يسومها حياض الردى والطفل يلهو ويلعب فيعيش العاشق عيش الأسير الموثق ويعيش الخلى عيش المسيب المطلق والعاشق كما قيل :

طليق برأى العين هو أسير عليل على قطب الهلاك يدور
وميت يرى فى صورة الحى غاديا وليس له حتى النشور نشور
أخو غمرات ضاع فيهن قلبه فليس له حتى الممات حضور

الرابع : أنه يشتغل به عن مصالح دينه ودنياه فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور أما مصالح الدين فانها منوطة بلم شعث القلب واقباله على الله . وعاشق الصور أعظم شيئا تشعيثا وتشتيتا له وأما مصالح الدنيا فهى تابعة فى الحقيقة لمصالح الدين فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه مصالح دنياه أضيع وأضيع .

الخامس : أن آفات الدنيا والآخرة أسرع إلى عشاق الصور من النار فى يابس الحطب وسبب ذلك أن القلب كلما قرب من العشق وقوى اتصاله به بعد من الله فأبعد القلوب من الله قلوب عشاق الصور وإذا بعد القلب عن الله طرقته الآفات من كل ناحية فإن الشيطان يتولاه ومن تولاه عدوه واستولى عليه لم يأله وبالا ولم يدع أذى يمكنه إيصاله إليه إلا أوصله فما الظن من قلب تمكن منه عدوه وأحرص الخلق على عيبه وفساده وبعده من وليه ومن لا سعادة له ولا فلاح ولا سرور إلا بقربه وولايته ، السادس : أنه إذا تمكن من القلب واستحكم وقوى سلطانه أفسد الذهن وأحدث الوساوس وربما التحق صاحبه بالمجانين الذين فسدت عقولهم فلا ينتفعون بها وأخبار العشاق فى ذلك موجودة فى مواضعها بل بعضها يشاهد

بالعيان وأشرف ما فى الإنسان عقله وبه يتميز عن سائر الحيوانات فإذا عدم عقله التحق بالبهائم بل وربما كان حال الحيوان أصلح من حاله وهل أذهب عقل مجنون ليلى وأضرابه إلا العشق وربما زاد جنونه على جنون غيره كما قيل :

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم العشق أعظم مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهر صاحبه وإنما يصرع المجنون بالحين

السابع : أنه ربما أفسد الحواس أو نقصها إما فسادا معنويا أو صوريا أما الفساد المعنوى فهو تابع لفساد القلب فإن القلب إذا فسد فسدت العين والأذن واللسان فيرى القبيح حسنا منه ومن معشوقه كما فى المسند مرفوعا حبك الشيء يعمى ويصم أذنه عن الإصغاء إلى العذل فيه فلا تسمع الأذن ذلك والرغبات تستر العيوب فإن الراغب فى شيء لا يرى عيوبه حتى إذا زالت رغبته فيه أبصر عيوبه فشدت الرغبة غشاوة على العين تمنع من رؤية الشيء على ما هو عليه كما قيل :

هويتك إذ عيني عليها غشاوة فلما انجلت نفسى رجعت ألومها

والداخل فى الشيء لا يرى عيوبه والخارج منه الذى لم يدخل فيه لا يرى عيوبه ولا يرى عيوبا إلا من دخل فيه ثم خرج منه ولهذا كان الصحابة الذين دخلوا فى الإسلام بعد الكفر خير من الذين ولدوا فى الإسلام قال عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إنما ينتقص عرى الإسلام عروة عروة إذا ولد فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية وأما فساده للحواس ظاهرا فإنه يمرض البدن وينهكه وربما أدى إلى تلفه كما هو المعروف فى أخبار من قتله العشق وقد رفع إلى ابن عباس وهو بعرفة شاب قد انتحل حتى عاد جلدا على عظم فكان ما شأنه كما تقدم هو الافراط فى المحبة بحيث يستولى المعشوق على القلب من العاشق حتى لا يخلو من تخيله وذكره والفكر فيه بحيث لا يغيب عن خاطره وذهنه فعند ذلك تشتغل النفس بالخواطر النفسانية فتتعطل تلك القوى فيحدث بتعطيلها من الآفات على البدن والروح ما يعضر دواؤه ويتعذر فتتغير أفعاله ومقاصده ويختل جميع ذلك فتعجز البشر عن صلاحه كما قيل :

الحب أول ما يكون لحاجة يأتى بها وتسوقه الأقدار
حتى إذا خاض الفتى لجج الهوى جاءت أمور لا تطاق كبار

والعشق مباديه سهلة حلوة وأوسطه هم وشغل قلب وسقم وآخره عطب وقتل إن لم تتداركه عناية من الله كما قيل :

وعش خاليا فالحب أوله عنا وأوسطه سقم وآخره قتل

وقال آخر :

تــولــع بــالعشق حتى عـشق فـلـما اسـتـقـل بـه لم يـطق
رأى لجـة ظـنـهـا مـوجـة فـلـما تمـكـن مـنـهـا غـرق

والذنب له فهو الجانى على نفسه وقد قعد تحت المثل السائر يداك أو كيا وفوك نفخ .

والعاشق له ثلاث مقامات مقام ابتداء ومقام توسط ومقام انتهاء : فأما مقام ابتدائه فالوا جب عليه مدافعته بكل ما يقدر عليه إذا كان الوصل إلى معشوقه متعذرا قدرا وشرعا فإن عجز عن ذلك وأبى قلبه إلا السفر إلى محبوبه وهذا مقام التوسط والانتهاء فعليه كتمانه ذلك والا يفشيه إلى الخلق ولا يشمت بمحبوبه ولا يهتكه بين الناس فيجمع بين الظلم والشرك فإن الظلم فى هذا الباب من أعظم انواع الظلم وربما اعظم ضررا على المعشوق وأهله من ظلمه فى ماله فإنه يعرض المعشوق بهتكه فى عشقه الى وقوع الناس فيه وإنقسامهم الى مصدق ومكذب وأكثر الناس يصدق فى هذا الباب بأدنى شبهة وإذا قيل فلان فعل بفلان أو بفلانة كذبه واحد وصدقه تسعمائه وتسعة وتسعون وخبر العاشق للهتك عن المتهتك عند الناس فى هذا الباب يفيد القطع اليقين بل إذا أخبرهم المفعول به عن نفسه كذبا وافتراء على غيره جزموا بصدقه جزما لا يحتمل النقيض بل لو جمعهما مكان واحد اتفاقا جزموا أن ذلك عن وعد واتفاق بينهما وجزمهم فى هذا الباب على الظنون والتخييل والشبهة والأوهام والأخبار الكاذبة كجزمهم بالحسيات المشاهدة وبذلك وقع أهل الإفك فى الطيبة المطيبة حبيبة رسول الله - ﷺ - المبرأة من فوق سبع سموات بشبهة مجيء صفوان بن المعطل بها وحده خلف العسكر حتى هلك من هلك ولولا أن تولى الله سبحانه براءتها والذب عنها وتكذيب قاذفها لكان أمرا آخر ، والمقصود : أن فى اظهار المبتلى عشق من لا يحل له الاتصال به من ظلمه واذاه ما هو عدوان عليه وعلى أهله وتعريض لتصديق كثير من الناس ظنونهم فيه فإن استعان عليه ممن يستميله إليه إما برغبة أو رهبة تعدى الظلم وانتشر وصار ذلك الواسطة بين الراشى والمرتشى وصار ذلك الواسطة ظالما وإذا كان النبى - ﷺ - قد لعن الرائش وهو الواسطة ديوثا ظالما بين الراشى أو المرتشى لإيصال الرشوة فما الظن بالديوث الواسطة بين العاشق والمعشوق فى الوصلة المحرمة فيتساعد العاشق على ظلم المعشوق وغيره ممن يتوقف حصول غرضهما على ظلمه فى نفس ومال أو عرض فإن كثيرا ما يتوقف حصول المطلوب غرضه على قتل نفس يكون حياتها مانعة من غرضه وكم قتيل أريق دمه بهذا السبب من زوج وسيد وقريب وكم خبيث امرأة على بعلها وجارية وعبد على سيدهما وقد لعن رسول الله - ﷺ من فعل ذلك وتبرأ منه وهو من اكبر الكبائر وإذا كان النبى - ﷺ - قد نهى أن يخطب الرجل على خطبة أخيه وأن يستام على سومه فكيف بمن يسعى بالتفريق بينه وبين امرأته وأمته حتى يتصل بهما وعشاق الصور ومساعدوهم من الديثه لا يرون ذلك ذنبا فان فى طلب العاشق وصل معشوقه ومشاركة الزوج والسيد ففى ذلك من إثم ظلم الغير ما لعله لا يقصر عن إثم الفاحشة إن لم يرب عليها ولا يسقط حق الغير بالتوبة من الفاحشة فإن التوبة وإن أسقطت حق الله فحق العبد باق له المطالبة به يوم القيامة فإن من ظلم الوالد بإفساد ولده وفلذة كبده ومن هو أعز عليه من نفسه وظلم الزوج بإفساد

حبيبته والجناية على فراشه أعظم من ظلمه بأخذ ماله كله ولهذا يؤذيه ذلك أعظم مما يؤذيه بأخذ ماله ولا يعدل ذلك عنده إلا سفك دمه فياله من ظلم أعظم إثما من فعل الفاحشة فإن كان ذلك حقا لغاز فى سبيل الله وقف له الجانى الفاعل يوم القيامة وقيل له خذ من حسناته ما شئت كما أخبر بذلك النبى - ﷺ ثم قال ﷺ فما ظنكم أى فما تظنون تبقى له من حسناته فان انضاف الى ذلك ان يكون المظلوم جارا أو ذا رحم محرم تعدد الظلم وصار ظلما مؤكدا لقطيعة الرحم وأذى الجار ولا يدخل الجنة قاطع رحم ولا من لا يأمن جاره بوائقه فان استعان العاشق على وصال معشوقه بشياطين الجن اما بسحر أو استخدام أو نحو ذلك ضم الى الشرك والظلم كفر السحر فان لم يفعله هو ورضى به كان راضيا بالكفر غير كاره لحصول مقصوده وهذا ليس ببعيد من الكفر والمقصود ان التعاون فى هذا الباب تعاون على الإثم والعدوان وأما ما يقترن بحصول غرض العاشق من الظلم المنتشر المتعدى ضرره فامره لا يخفى فإنه إذا حصل له مقصوده بين المعشوق فللمعشوق أمور اخر يريد من العاشق إعانته عليها فلا يجد من إعانته بدا فيبقى كل منهما يعين الآخر على الظلم والعدوان فالمعشوق يعين العاشق على ظلم من اتصل به من أهله وأقاربه وسيده وزوجه والعاشق يعين المعشوق على ظلم من يكون غرض المعشوق متوقفا على ظلمه فكل منهما يعين الآخر على أغراضه التى يكون فيها ظلم الناس فيحصل العدوان والظلم للناس بسبب اشتراكهما فى القبح لتعاونهما بذلك على الظلم وكما جرت به العادة بين العشاق والمعشوقين من إعانة العاشق لمعشوقه على ما فيه ظلم وعدوان وبغى حتى ربما يسعى له فى منصب لا يليق به ولا يصلح لمثله فى تحصيل مال من غير حله وفى استطالته على غيره فإذا اختصم معشوقه وغيره أو تشاكيا لم يكن إلا فى جانب المعشوق ظالما كان أو مظلوما هذا إلى ما ينضم الى ذلك من ظلم العاشق للناس بالتحيل على أخذ أموالهم والتوصل بها إلى معشوقه بسرقة أو غصب أو خيانه أو يمين كاذبة أو قطع طريق ونحو ذلك وربما أدى ذلك الى قتل النفس التى حرم الله ليأخذ ماله ليتوصل به الى معشوقه فكل هذه الآفات وأضعافها وأضعاف أضعافها تنشأ عن عشق الصور وربما حمله على الكفر الصريح وقد تنصر جماعة ممن نشأ فى الاسلام بسبب العشق كما جرى لبعض المؤذنين حين أبصر وهو على سطح مسجد امرأة جميلة ففتن بها فنزل ودخل عليها وسألها نفسها فقالت هى نصرانية فإن دخلت فى دينى تزوجت بك ففعل فرقى فى ذلك اليوم على درجة عندهم فسقط منها فمات ذكر هذا عبد الحق فى كتاب العاقبة له واذا أراد النصارى أن ينصروا الأسير أروه امرأة جميلة وأمروها أن تطمعه فى نفسها حتى اذا تمكن حبها من قلبه بذلت له نفسها إن دخل فى دينها فهنالك ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء** ﴾[1] . وفى العشق من ظلم كل واحد من العاشق والمعشوق لصاحبه لمعاونته له على الفاحشة وظلمه لنفسه فكل منهما ظالم لنفسه وصاحبه وظلمهما متعد الى الغير واعظم من ذلك ظلمهما بالشرك فقد تضمن العشق أنواع الظلم كلها والمعشوق إذا لم يتق الله فإنه يعرض العاشق للتلف وذلك ظلم منه بأن **يطمعه** فى نفسه ويتزين له ويستميله بكل طريق حتى يستخرج منه ماله ونفعه ولا يمكنه من نفسه لئلا يزول غرضه بقضاء وطره منه فهو يسومه سوء العذاب والعاشق ربما قتل معشوقه ليشفى نفسه منه ولا سيما اذا جاد بالوصال لغيره وكم للعشق من قتيل من الجانبين وكم

(١) سورة ابراهيم آية ٢٧

قد زال من نعمة وافقر من غنى وأسقط من مرتبة وشتت من شمل وكم أفسد من أهل للرجل وولد فإن المرأة إذا رأت بعلها عاشقا لغيرها اتخذت هى معشوقا لنفسها فيصير الرجل مترددا بين خراب بيته بالطلاق وبين القيادة فمن الناس من يؤثر هذا ومنهم من يؤثر هذا فعلى العاقل أن يحكم على نفسه سد عشق الصور لئلا يؤدى به ذلك إلى الهلاك وإلى هذه المفاسد واكثرها أو بعضها فمن فعل ذلك فهو المفرط بنفسه والمغرر بها فإذا هلكت فهو الذى أهلكها فلولا تكراره النظر إلى وجه معشوقه وطمعه فى وصاله لم يتمكن عشقه من قلبه فإن أول أسباب العشق الاستحسان سواء تولد عن نظر أو سماع فإن لم يقارنه طمع فى الوصال وقارنه الاياس من ذلك كم يحدث له العشق فإن اقترن به الطمع فصرفه عن فكره ولم يشغل قلبه به لم يحدث له ذلك فان اطاع مع ذلك الفكر فى محاسن المعشوق وقارنه خوف ماهو اكبر عنده من لذة وصاله اما خوف دينى كخوف النار وغضب الجبار واجتناب الأوزار وغلب هذا الخوف على ذلك الطمع والفكر لم يحدث له العشق فإن فاته هذا الخوف وقارنه خوف دنيوى كخوف إتلاف نفسه وماله وذهاب جاهه وسقوط مرتبته عند الناس وسقوطه من عين من يعز عليه وغلب هذا الخوف لداعى العشق دفعه وكذلك إذا خاف من فوات محبوب هو أحب اليه وأنفع له من ذلك المعشوق وقدم محبته على محبة المعشوق اندفع عنه العشق فانتفاء ذلك كله أو غلبت محبة المعشوق لذلك انجذب اليه القلب بالكلية ومالت اليه النفس كل الميل فإن قيل : قد ذكرتم آفات العشق ومضاره ومفاسده فهلا ذكرتم منافعه وفوائده التى من جملتها رقة الطبع وترويح النفس وخفتها وزوال تلفها ورياضتها وحملها على مكارم الأخلاق من الشجاعة والكرم والمروءة ورقة الحاشية ولطف الجانب وقد قيل ليحيى بن معاذ الرازى : ان ابنك قد عشق فلانة فقال الحمد لله الذى صيره الى الطبع الآدمى .

وقال بعضهم العشق حنان الجبان ويصفى الذهن الغبى ويسخى كف البخيل ويذل عزة الملوك ويسكن نوافر الأخلاق وهو أنيس من لا أنيس له وجليس من لا جليس له .

فالعشق يحمل على مكارم الأخلاق وقال بعض الحكماء : العشق يروض النفس ويهذب الأخلاق إظهاره طبعى وإضماره تكلفى .

وذكر الخرائطى عن أبى غسان قال مر أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ بجارية وهى تقول :

وهويته من قبل قطع تمائمى متمايلا مثل القضيب الناعم

فسألها أحرة أنت أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة فقال : تهوين فتلكأت فأقسم عليها فقالت .

وأنا التى لعب الهوى بفؤادها قتلت بحب محمدبن القاسم

فاشتراها من مولاها وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جعفر بن أبى طالب فقال هؤلاء والله فتن الرجال وكم والله قد مات بهن كريم وعطب بهن سليم ، وجاءت جارية عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ تستدعى على رجل من الأنصار قال لها عثمان : ما قصتك ؟ قالت : كلفت يأمير المؤمنين بابن أخيه فما انفك أداعبه فقال له عثمان اما ان تهبها الى ابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالى فقال أشهدك

يأمير المؤمنين أنها له ونحن لا ننكر فساد العشق الذى يتعلق به فعل الفاحشة بالمعشوق والكلام فى العشق العفيف من الرجل الظريف الذى يأبى له إيمانه ودينه وعفته ومروءته أن يفسد ما بينه وبين الله وما بينه وبين معشوقه بالحرام .

فهذا عمر بن عبد العزيز وعشقه لجارية فاطمة بنت عبد الملك بن مروان وإمرأته مشهورة وكانت جارية بارعة الجمال وكان معجبا بها وكان يطلبها من امرأته ويحرص على ان تهبها له فتأبى ولم تزل الجارية فى نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية فأصلحت وكانت مثلا فى حسنها وجمالها ثم دخلت على عمر وقالت : يأمير المؤمنين إنك كنت معجبا بجاريتى فلانة فسألتنيها أن أهبها لك فأبيت عليك والآن فقد طابت نفسى لك بها فلما قالت له ذلك استبان الفرح فى وجهه وقال عجلى بها على فلما دخلت بها عليه ازداد بها عجبا وقال لها القى ثيابك ففعلت ثم قال لها على رسلك اخبرينى لمن كنت ومن اين صرت لفاطمة فقالت أغرم الحجاج عاملا له بالكوفة مالا وكنت فى رقيق ذلك قالت فأخذنى وبعث بى الى عبد الملك فوهبنى لفاطمة قال وما فعل ذلك العامل قالت هلك قال وهل ترك ولدا قالت نعم قال فما حالهم قالت سيئة قال شدى عليك ثيابك واذهبى الى مكانك ثم كتب الى عامله على العراق ان ابعث الى فلان ابن فلان على البريد فلما قدم قال له ارفع الى جميع ما أغرمه الحجاج لأبيك فلم يرفع إليه شيئا إلا دفعه اليه ثم أمر بالجارية فدفعت اليه ثم قال له اياك فلعل أباك قد وقع بها فقال الغلام هى لك يأمير المؤمنين قال لا حاجة لى بها قال فابتعها منى قال لست إذن ممن نهى نفسه عن الهوى فلما عزم الفتى على الانصراف قالت أين وجدك بى يأمير المؤمنين ؟ قال على حاله ولقد زادنى ولم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات ـ رحمه الله .

قال أبو محمد بن حزم وقد أحب من الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين كثير وقال رجل لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يأمير المؤمنين رأيت امرأة فعشقتها فقال ذلك مالا يملك فالجواب وبالله التوفيق ان الكلام فى هذا الباب لابد فيه من التمييز بين الواقع والجائز والنافع والضار ولا يستعجل عليه بالذم والإنكار ولا بالمدح والقبول من حيث الجملة وإنما يتبين حكمه وينكشف أمره بذكر متعلقه وإلا فالعشق من حيث هو لا يحمد ولا يذم ونحن نذكر النافع من الحب والضار والجائز والحرام اعلم ان انفع المحبة على الاطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها محبة من جبلت القلوب على محبته وفطرت الخليقة على تألهه وبها قامت الأرض والسموات وعليها فطر المخلوقات وهى سر شهادة ان لا إله إلا الله فإن الإله هو الذى تأله القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده والعبادة لا تصح إلا له وحده والعبادة هى كمال الحب مع كمال الخضوع والذل والشرك فى هذه العبودية من أظلم الظلم الذى لا يغفره الله والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجوه وما سواه فإنما يحب تبعا لمحبته وقد دل على وجوب محبته سبحانه جميع كتبه المنزلة ودعوة جميع رسله ـ صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ وفطرته التى فطر عليها عباده وما ركب فيها من العقول وما أسبغ عليهم من النعم فإن القلوب مفطورة مجبولة على محبة من أنعم عليها وأحسن إليها فكيف بمن كل الاحسان منه وما بخلقه جميعهم من نعمة فمنه وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾[1] .

(١) سورة النحل آية ٥٣

وما تعرف به الى عباده من أسمائه الحسنى وصفاته العليا ومادلت عليه آثار مصنوعاته من كماله ونهاية جلاله وعظمته والمحبة لها داعيان الجلال والجمال والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك فانه جميل يحب الجمال بل الجمال كله له والاجمال كله منه فلا يستحق ان يحب لذاته من كل وجه سواه قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ يأأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾(٢) .

والولاية أصلها الحب فلا موالاة إلا بحب كما أن العداوة أصلها البغض والله ولى الذين آمنوا وهم أولياؤه فهم يوالونه بمحبتهم له وهو يواليهم بمحبته لهم فالله يوالى عبده المؤمن بحسب محبته له ولهذا أنكر سبحانه على من اتخذ من دونه أولياء بخلاف من والى أولياءه فإنه لم يتخذهم من دونه بل موالاته لهم من تمام موالاته وقد انكر على من سوى بينه وبين غيره فى المحبة وأخبر أن من فعل ذلك فقد اتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله وأخبر عمن سوى بينه وبين الأنداد فى المحبة أنهم يقولون فى النار لمعبوديهم ﴿ تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين ﴾(٣) .

وبهذا التوحيد فى المحبة أرسل الله سبحانه جميع رسله - صلى الله عليهم وسلم - عليهم الصلاة والسلام - من أولهم الى آخرهم ولاجله خلقت السموات والأرض والجنة والنار فيجعل الجنة لاهله والنار للمشركين به وفيه وقد أقسم النبى - ﷺ - انه (لا يؤمن عبد حتى يكون هو أحب اليه من والده وولده والناس اجمعين)(٤) . فكيف بمحبة الرب جل جلاله .

وقال لعمر بن الخطاب - رضى الله عنه : لا . . حتى أكون أحب اليك من نفسك أى لا يؤمن حتى تصل محبتك لى إلى هذه الغاية

فإذا كان النبى - ﷺ - أولى بنا من أنفسنا بالمحبة ولو ازمها أفليس الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا إله غيره أولى بمحبته وعبادته من أنفسهم وكل ما منه الى عبده المؤمن يدعوه الى محبة ما يحب لعبد ويكره فعطاؤه ومنعه ومعافاته وابتلاؤه وقبضه وبسطه وعدله وفضله وإماتته واحياؤه ولطفه وبره ورحمته وإحسانه وستره وعفوه وحلمه وصبره على عبده وإجابته لدعائه وكشف كربه وإغاثة لهفته وتفريج كربته من غير حاجة منه اليه بل مع غناه التام عنه من جميع الوجوه كل ذلك داع للقلوب الى تألهه ومحبته بل تمكينه عبده من معصيته وإعانته عليها وستره حتى يقضى وطره منها وكلاءته وحراسته له وهو يقضى وطره من معصيته وهو يعينه ويستعين عليها بنعمه من أقوى الدواعى الى محبته فلو أن مخلوقا فعل بمخلوق أدنى شيء من ذلك لم يملك قلبه عن محبته فكيف لا يحب العبد بكل قلبه وجوارحه من يحسن اليه على الدوام بعدد الأنفاس مع إساءته فخيره اليك نازل وشرك اليه صاعد يتحبب اليه بنعمه وهو غنى عنه والعبد يتبغض اليه بالمعاصى وهو فقير اليه فلا إحسانه وبره وإنعامه عليه يبعده عن معصيته ولا معصية العبد ولومه يقطع احسان ربه عنه فالأم اللؤم تخلف القلوب عن محبة من

(١) سورة آل عمران آية ٣١
(٢) سورة المائدة آية ٥٤
(٣) سورة الشعراء الآيتان : ٩٧ ، ٩٨
(٤) البخارى ١٢/١ ومسلم - كتاب الايمان ٦٧/١ رقم ٤٤

هذا شأنه وتعلقها بمحبة سواه وأيضا فكل من تحبه من الخلق أو يحبك إنما يريدك لنفسه وغرضه منك والرب ـ سبحانه وتعالى ـ يريدك لك كما فى الأثر الإلهى عبدى كل يريدك لنفسه وأنا أريدك لك فكيف لا يستحى العبد ان يكون ربه له بهذه المنزلة وهو معرض عنه مشغول بحب غيره وقد استغرق قلبه محبة ما سواه وأيضا فكل من تعامله من الخلق ان لم يربح عليك لم يعاملك ولا بدله من نوع من أنواع الربح والرب تعالى إنما يعاملك لتربح أنت عليه اعظم الربح وأعلاه فالدرهم بعشرة امثاله الى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة والسيئة بواحدة وهى أسرع شىء محوا وأيضا فهو سبحانه خلقك لنفسه وكل شىء خلق لك فى الدنيا والآخرة فمن أولى منه باستفراغ الوسع فى محبته وبذل الجهد فى مرضاته وأيضا فمطالبك بل مطالب الخلق كلهم جميعا لديه وهو أجود الأجودين واكرم الأكرمين ويعطى عبده قبل ان يسأله فوق ما يؤمله يشكر على القليل من العمل وينميه ويغفر الكثير من الزلل ويمحوه ﴿ **يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن** ﴾[1] . لا يشغله سمع عن سمع ولا يغلطه كثرة المسائل ولا يتبرم بإلحاح الملحين بل يحب الملحين فى الدعاء ويحب ان يسأل ويغضب اذا لم يسأل فيستحى من عباده حيث لا يستحى العبد منه ويستره حيث لا يستر نفسه ويرحمه حيث لا يرحم نفسه ورعاه بنعمته واحسانه وناداه الى كرامته ورضوانه فأبى فأرسل رسله ـ صلى الله عليهم وسلم ـ فى طلبه وبعث معهم اليه عهده ثم نزل سبحانه بنفسه وقال من يسألنى فأعطيه من يستغفرنى فأغفر له أدعوك للوصل فتأبى أبعث رسلى فى الطلب أنزل اليك بنفسى ألقاك فى النوم وكيف لا تحب القلوب من لا يأتى بالحسنات الا هو ولا يذهب بالسيئات الا هو ولا يجيب الدعوات ويقبل العثرات ويغفر الخطيئات ويستر العورات ويكشف الكربات ويغيث اللهفات وينيل الطلبات سواه فهو أحق من ذكر وأحق من شكر وأحق من حمد وأحق من عبد وأنصر من ابتغى وأرأف من ملك وأجود من سئل وأوسع من أعطى وأرحم من استرحم واكرم من قصد وأعز من التجىء اليه واكفى من توكل عليه أرحم بعبده من الوالدة بولدها وأشد فرحا بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة فوجدها وهو الملك فلا شريك له والفرد فلا ند له كل شىء هالك إلا وجهه لن يطاع إلا بإذنه ولن يعصى إلا بعلمه يطاع فيشكر وبتوفيقه ونعمته أطيع ويعصى فيغفر ويعفو وحقه أضيع فهو أقرب شهيد وأدنى حفيظ وأوفى وفى بالعهد وأعدل قائم بالقسط حال دون النفوس وأخذ بالنواصى وكتب الآثار ونسخ الآجال فالقلوب له مفضية والسر عنده علانية والعلانية والعيوب لديه مكشوفة وكل أحد اليه ملهوف وعنت الوجوه لنور وجهه وعجزت القلوب عن ادراك كنهه ودلت الفطرة والادلة كلها على امتناع مثله وشبهه أشرقت لنور وجهه الظلمات واستنارت له الأرض والسموات وصلحت عليه جميع المخلوقات لا ينام ولا ينبغى له ان ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور لو كشفه لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره من خلقه .

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض ولو ملك الوجود باسره

وههنا أمر عظيم يجب على اللبيب الاعتناء به وهو ان كمال اللذة والسرور والفرح ونعيم القلب

---

(١) سورة الرحمن آية ٢٩

وابتهاج الروح تابع لامرين أحدهما كمال المحبوب فى نفسه وجماله وانه أولى بإيثار المحبة من كل ما سواه والأمر الثانى كمال محبته واستفراغ الوسع فى حبه وايثار قربه والوصول اليه على كل شيء وكل عاقل يعلم ان اللذة بحصول المحبوب بحسب قوته ومحبته فكلما كانت المحبة اقوى كانت لذة المحبة اكمل فلذة من اشتد ظمؤه بادراك الماء الزلال ومن اشتد جوعه بأكل الطعام الشهى ونظائر ذلك على حسب شوقه وشدة إرادته ومحبته فإذا عرفت هذا فاللذة والسرور والفرح أمر مطلوب فى نفسه بل هو مقصود كل حى وعاقل وإذا كانت اللذة مطلوبة فى نفسها فهى تذم اذا أعقبت الما أعظم منها أو منعت لذة خيرا منها وأجل فكيف اذا أعقبت أعظم الحسرات وفوتت أعظم اللذات والمسرات وتحمد إذا أعانت على لذة عظيمة دائمة مستقرة لا تنغيص فيها ولا نكد بوجه ما وهى لذة الآخرة ونعيمها وطيب العيش فيها قال تعالى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** ﴾[1] قال السحرة لفرعون لما آمنوا ﴿ **اقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا** ﴾[2] الآية.

والله سبحانه وتعالى خلق الخلق ليبتليهم من أطاعه فله هذه اللذة الدائمة فى دار الخلد وأما الدنيا فمنقطعة ولذاتها لا تصفو ابدا ولا تدوم بخلاف الآخرة فإن لذاتها دائمة ونعيمها خالص من كل كدر وألم وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين مع الخلود أبدا فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين بل فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهذا المعني الذى قصده الناصح لقومه بقوله ﴿ **ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار** ﴾[3] فأخبرهم ان الدنيا متاع ليستمتع بها إلى غيرها وان الآخرة هى المستقر واذا عرفت ان لذات الدنيا متاع وسبيل الى لذات الآخرة ولذلك خلقت الدنيا لذاتها فكل لذة أعانت على لذة الآخرة وأوصلت اليها لم يذم تناولها بل يحمد بحسب إيصالها إلى لذة الآخرة اذا عرف فأعظم نعيم الآخرة ولذاتها النظر الى وجه الله جل جلاله وسماع كلامه والقرب منه كما ثبت فى الصحيح فى حديث الرؤية (فوالله ما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر إليه)[4]

وفى حديث آخر (أنه اذا تجلى لهم ورأوه نسوا ما هم فيه من النعيم) .

وفى النسائى ومسند الامام احمد من حديث عمار بن ياسر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى دعائه (وأسألك اللهم لذة النظر الى وجهك الكريم والشوق الى لقائك) وفى كتاب السنة لعبد الله بن الامام احمد مرفوعا (كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن من الرحمن فاذا سمعوه من الرحمن فكأنهم لم يسمعوا قبل ذلك) فإذا عرف هذا فأعظم الأسباب التى تحصل هذه اللذة هو أعظم لذات الدنيا على الاطلاق وهى لذة معرفته سبحانه ولذة محبته فإن ذلك هو لذة الدنيا ونعيمها العالى ونسبة لذاتها الفانية اليه كتفلة فى بحر فإن الروح والقلب والبدن انما خلق لذلك فأطيب ما فى الدنيا معرفته سبحانه ومحبته

---

(١) سورة الاعلى الأيتان :١٦، ١٧

(٢) سورة طه آية ٧٢

(٣) سورة غافر الايتان : ٣٨، ٣٩

(٤) مسلم ـ كتاب الايمان ١٦٣/١ رقم ٢٩٧ والترمذى ـ كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى ٦٨٧/٤ رقم ٢٥٥٢ .

(٥) النسائى كتاب الدعاء ٥٥/٣ ، وأحمد ٢٦٤/٤

وألذ ما فى الجنة رؤيته ومشاهدته بمحبته ومعرفته قرة العيون ولذة الأرواح وبهجة القلوب ونعيم الدنيا وسرورها أما اللذة القاطعة عن ذلك فتنقلب آلاما وعذابا ويبقى صاحبها فى المعيشة الضنك فليس الحياة الطيبة الا بالله وكان بعض المحبين تمر به أوقات فيقول ان كان اهل الجنة فى نعيم مثل هذا انهم لفى عيش طيب وكان غيره يقول لو يعلم الملوك وابناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف واذا كان صاحب المحبة الباطلة التى هى عذاب على قلب المحب يقول فى حاله :

وماالناس إلا العاشقون ذوو الهوى فلا خير فيمن لا يحب ويعشق

ويقول آخر :

أف لـلدنيـا متى مـالم يكـن صاحب الدنيا محبا أو حبيبا

ويقول آخر :

ولا خير فى الدنيا ولا فى نعيمها وأنت وحيـد مفرد غيـر عاشق

ويقول آخر :

أسكن الى سكن تـلذ بحبـه وتهب الـزمـان وانت منفـرد

فكيف بالمحبة التى هى حياة القلوب وغذاء الأرواح وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فلاح ولا حياة إلا بها وإذا افتقدها القلب كان المه اعظم من ألم العين إذا فقدت نورها والأذن إذا فقدت سمعها والأنف إذا فقد شمه واللسان إذا فقد نطقه بل فساد القلب اذا خلا من محبة فاطره وبارئه وإلهه الحق أعظم من فساد البدن إذا خلى منه الروح وهذا الأمر لا يصدق به إلا من فيه حياة وما لجرح بميت إيلام والمقصود أن أعظم لذات الدنيا هى السبب الموصل إلى أعظم لذة فى الآخرة ولذات الدنيا ثلاثة أنواع فأعظمها وأكملها ما أوصل الى لذة الآخرة ويثاب الإنسان على هذه اللذة أتم الثواب ولهذا كان المؤمن يثاب على ما يقصد به الله من أكله وشربه ولبسه ونكاحه وشفاء غيظ لقهر عدو الله وعدوه فكيف بلذة إيمانه ومعرفته بالله ومحبته له وشوقه إلى لقائه وطمعه فى رؤية وجهه الكريم فى جنات النعيم ، النوع الثانى : لذة تمنع لذة الآخرة وتعقب آلاما أعظم منها كلذة الذين اتخذوا من دون الله أوثانا مودة بينهم فى الحياة الدنيا يحبونهم كحب الله ويستمتع بعضهم ببعض كما يقولون فى الآخرة اذا لقوا ربهم ﴿ **ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا** ﴾[1] الآية .

إلى قوله ﴿ **يكسبون** ﴾ .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٨

ولذة أصحاب الفواحش والظلم والبغى فى الأرض والعلو بغير الحق وهذه اللذات فى الحقيقة إنما هى استدراج من الله لهم ليذيقهم بها أعظم الآلام ويحرمهم بها أكمل اللذات بمنزلة من قدم لغيره طعاما لذيذا مسموما يستدرجه به الى هلاكه قال تعالى :

﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملى لهم إن كيدى متين ﴾(١) قال بعض السلف فى تفسيرها كلما أحدثوا ذنبا أحدثنا لهم نعمة ، ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾(٢) الاية .

وقال تعالى لاصحاب هذه اللذة ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾(٣) وقال فى حقهم ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾(٤) الآية .

وهذه اللذة تنقلب آلاما من أعظم الآلام كما قيل :

يارب كائنة فى الحياة لأهلها عذبا فصارت فى المعاد عذابا

النوع الثالث : لذة لا تعقب لذة فى دار القرار ولا آلما يمنع وصول لذة دار القرار وإن منعت كما لها وهذه اللذة المباحة التى لا يستعان بها على لذة الآخرة فهذه زمانها يسير ليس لتمتع النفس بها قدر ولابد ان يشتغل عما هو خير وانفع منها وهذا القسم هو الذى عناه النبى - ﷺ - بقوله : (كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل إلا رميه بقوسه وتأديبه فرسه وملاعبته امرأته فإنهن من الحق)(٥) فما أعان على اللذة المطلوبة لذاتها فهو حق وما لم يعن عليها فهو باطل .

فهذا الحب لا ينكر ولا يذم بل هو أحد أنواع الحب وكذلك حب رسول الله ﷺ وإنما نعنى ما بالمحبة الخاصة وهى التى تشغل قلب المحب وفكره وذكره لمحبوبه والا فكل مسلم فى قلبه محبة الله ورسوله - ﷺ - ولا يدخل الاسلام إلا بها والناس متفاوتون فى درجات هذه المحبة تفاوتا لا يحصيه إلا الله فبين محبة الخليلين صلى الله عليهما وسلم ومحبة غيرهما ما بينهما فهذه المحبة هى التى تلطف وتخفف أثقال التكاليف وتسخى البخيل وتشجع الجبان وتصفى الذهن وتروض النفس وتطيب الحياة على الحقيقة لا محبة الصور المحرمة واذا بليت السرائر يوم اللقاء كانت سريرة صاحبها من خير سرائر العباد كما قيل :

سيبقى لكم فى مضمر القلب والحشا سريرة حب يوم تبلى السرائر

---

(١) سورة الأعراف الآيتان :١٨٢، ١٨٣ .
(٢) سورة الانعام آية ٤٤
(٣) سورة المؤمنون الآيتان : ٥٦، ٥٧
(٤) سورة التوبة آية ٥٥
(٥) قال الزين العراقى فى تخريج احاديث الإحياء ٢٨٥/٢ أخرجه أصحاب السنن الأربعة وفيه اضطراب .

وهذه المحبة هى التى تنور الوجه وتشرح الصدر وتحيى القلب وكذلك محبة كلام الله فانه من علامة حب الله وإذا أردت ان تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله فانظر محبة القرآن من قلبك والتذاذك سماعه أعظم من التذاذ اصحاب الملاهى والغناء المطرب بسماعهم.

فإنه من المعلوم ان من أحب حبيبا كان كلامه وحديثه أحب شيء اليه كما قيل :

ان كنت تزعم حبى فلم هجرت كتابى أما تأملت ما فيه من لذيذ خطابى

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله وكيف يشبع المحب من كلام من هو غاية مطلوب وقال النبى ﷺ يوما لعبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - إقرأ على فقال أقرأ عليك وعليك انزل فقال إنى أحب ان أسمعه من غيرى فاستفتح فقرأ سورة النساء حتى اذا بلغ قوله ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** ﴾(١) . قال حسبك الآن فرفع رأسه فإذا عينا رسول الله ﷺ تذرفان من البكاء وكان الصحابة اذا اجتمعوا ومنهم ابو موسى يقولون ياأبا موسى إقرأ علينا فيقرأ وهم يستمعون فلمحبى القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبى السماع الشيطانى فإذا رأيت الرجل ذوقه وشدة وجده وطربه وشوقه سماعه الأبيات دون سماع الآيات .. فى سماع الالحان دون سماع القرآن وهو كما قيل :

نقرأ عليك الختمة وانت جامد كالحجر وبيت من الشعر ينشد فتميل كالنشوان

فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه وتعلقه بمحبة سماع الشيطان والمغرور يعتقد أنه على شيء ففى محبة الله وكلامه ورسوله - ﷺ - أضعاف أضعاف ما ذكر السائل من فوائد العشق ومنافعه بل لا حب على الحقيقة أنفع منه وكل حب سوى ذلك باطل إن لم يعن عليه ويسق، المحب إليه .

وأما محبة النسوان فلا لوم على المحب منها بل هى من كماله وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾(٢) الآية . فجعل المرأة سكنا للرجل يسكن إليها قلبه وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن .

﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم** ﴾الى قوله

(١) سورة النساء آية ٤١
(٢) سورة الروم آية ٢١

﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾[١] .

وذكر سفيان الثورى فى تفسيره عن ابن طاوس عن ابيه كان اذا نظر الى النساء لم يصبر عنهن وفى الصحيح من حديث جابر عن النبى ﷺ (انه رأى امرأة فأتى زينب فقضى حاجته منها وقال ان المرأة تقبل فى صورة شيطان وتدبر فى صورة شيطان فاذا رأى احدكم امرأة فأعجبته فليأت أهله فان ذلك يرد ما فى نفسه)[٢]ففى هذا الحديث عدة فوائد منها الارشاد الى التسلى عن المطلوب بجنسه كما يقوم الطعام مكان الطعام والثوب مقام الثوب ومنها الأمر بمداواة الإعجاب بالمرأة المورث لشهوتها بأنفع الأدوية وهو قضاء وطره من أهله وذلك ينقض شهوته بها وهذا كما أرشد المتحابين الى النكاح .

كما فى سنن ابن ماجة مرفوعا لم ير للمتحابين مثل النكاح ونكاحه لمعشوقه هو دواء العشق الذى جعله الله داءه شرعا وقدرا وبه تداوى نبى الله داود ﷺ ولم يرتكب نبى الله محرما وانما تزوج المرأة وضمها إلى نسائه لمحبته لها وكانت توبته بحسب منزلته عند الله وعلو مرتبته ولا يليق بنا المزيد على هذا وأما قصة زينب بنت جحش فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه وكان يستشير رسول الله ﷺ فى فراقها وهو يأمره بامساكها فعلم رسول الله ﷺ أنه سيفارقها ولابد ، فأخفى فى نفسه أن يتزوجها إذا فارقها زيد ، وخشى مقالة الناس أن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه فانه كان قد تبنى زيدا قبل النبوة والرب تعالى يريد أن يشرع شرعا عاما فيه مصالح عباده فلما طلقها زيد وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه فجاء زيد واستدبر الباب بظهره وعظمت فى صدره كما ذكر رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب يازينب إن رسول الله ﷺ يخطبك فقالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أوامر ربى وقامت الى محرابها فصلت فتولى الله ـ عز وجل ـ نكاحها من رسوله ﷺ بنفسه وعقد النكاح له من فوق عرشه وجاء الوحى بذلك (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها فكانت تفخر على نساء النبى ﷺ بذلك وتقول : أنتن زوجكن أهليكن وزوجنى الله عز وجل من فوق سبع سموات فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب ولا ريب ان النبى ﷺ حبب اليه النساء كما فى الصحيح من حديث انس ورواه النسائى فى سننه عن النبى ﷺ قال : (حبب الى من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة)[٣]هذا لفظ الحديث لا ما يرويه بعضهم حبب الى من دنياكم ثلاث زاد الامام احمد فى كتاب الزهد فى هذا الحديث (أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن) .

وقد حسده اعداء الله ـ اليهود على ذلك وقالوا ماهمه إلا النكاح فرد الله سبحانه عن رسول الله ـ ﷺ ـ ونافح عنه فقال ﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾[٤] الآية .

وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين وأحب هاجر وتسرى بها ، وهذا داود ـ عليه السلام ـ كان عنده تسعة وتسعون امرأة فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة ، وهذا سليمان ابنه ـ عليه السلام ـ كان يطوف فى الليلة على تسعين امرأة وقد سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن

(١) سورة النساء آية ٢٨

(٢) مسلم ـ كتاب النكاح ـ باب من رأى امرأة فوقعت فى نفسه ١٠٢١/٢ رقم ١٤٠٣
وابو داود ـ كتاب النكاح ـ باب ما يؤمر به من غض البصر ١٦١١/٢ رقم ٢١٥١
والترمذى ـ كتاب النكاح ـ باب الرجل يرى المرأة تعجبه ٣١٣/٢ رقم ١١٦٨
ابن ماجة ـ كتاب النكاح ـ باب فضل النكاح ٥٩٣/١ رقم ١٨٤٧ .

(٣) مسند النسائى ٦١/٧ ومسند أحمد ٢٨٥/٣

(٤) سورة النساء آية ٥٤

أحب الناس اليه فقال عائشة - رضى الله عنها - وقال عن خديجة إنى رزقت حبها فمحبة النساء من كمال الإنسان قال ابن عباس خير هذه الامة أكثرهم النساء وقد ذكر الإمام احمد ان عبد الله بن عمر وقع فى سهمه يوم حلولا جارية كان عنقها ابريق فضة قال عبد الله فما صبرت عنها ان قبلتها والناس ينظرون الى وبهذا احتج الامام احمد على جواز الاستمتاع بالمسبية قبل الاستبراء بغير الوطء بخلاف الأمة المشتركة والفرق بينهما أنه لا يتوهم انفساخ الملك فى المسبية بخلاف المشتركة فقد ينفسخ فيها الملك فيكون مستمتعا بأمة غيره وقد شفع النبى - ﷺ - لعاشق ان يواصله معشوقه بان يتزوج - فأبت وذلك فى قصة مغيث وبربرة فانه رآه يمشى خلفها بعد فراقها ودموعه تجرى على خديه فقال لها رسول الله - ﷺ - لو راجعتيه فقالت أتأمرنى قال لا إنما أشفع فقالت لا حاجة لى به فقال لعمه ياعباس ألا تعجب من حب مغيث بربرة ومن بغضها له ولم ينكر عليه حبها وإن كانت قد بانت منه فإن هذا مالا يملكه .

وكان النبى - ﷺ - يساوى بين نسائه بالقسم ويقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك)[1] يعنى فى الحب وقد قال تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[2] . يعنى فى الحب والجماع فلا تميلوا كل الميل ولم يزل الخلفاء الراشدون الرحماء من الناس يشفعون للعشاق الى معشوقهم الجائز وصلهن .

قال جامع بن مرجية سألت سعيد بن المسيب مفتى المدينة هل على من حب درهما من وزر فقال سعيد إنما تلام على ما تستطيع من الأمر فقال سعيد والله ما سألنى أحد عن هذا ولو سألنى ما كنت أجيب إلا به فعشق النساء ثلاثة أقسام عشق هو قربة وطاعة وهو عشق الرجل امرأته وجاريته وهذا العشق نافع فإنه أدعى إلى المقاصد التى شرع الله لها النكاح وأكف للبصر والقلب عن التطلع الى غير اهله ولهذا يحمد هذا العاشق عند الله وعند الناس وعشق هو مقت عند الله وبعد من رحمته وهو أضر شيء على العبد فى دينه ودنياه وهو عشق المردان فما ابتلى به إلا من سقط من عين الله وطرد عن بابه وأبعد قلبه عنه وهو من أعظم الحجب القاطعة عن الله كما قال بعض السلف اذا سقط العبد من عين الله ابتلاه بمحبة المرد ان وهذه المحبة هى التى جلبت على قوم لوط فأجلبت وما أوتوا من هذا العشق .

قال تعالى ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾[3] .

ودواء هذا الداء الردى الاستعانة بمقلب القلوب وصدق اللجوء اليه والاشتغال بذكره والتعوض بحبه وقربه والتفكر بالألم الذى يعقبه هذا العشق واللذة التى تفوته به فيترتب عليه فوات أعظم محبوب فليكبر على نفسه تكبير الجنازة وليعلم ان البلاء قد أحاط به ، والقسم الثالث من العشق : العشق المباح الذى لا يملك كعشق من صورت له امرأة جميلة أو رآها فجأة من غير قصد وأورثته ذلك عشقا لها ولم يحدث له ذلك العشق معصية فهذا لا يملك ولا يعاقب عليه والأنفع له مدافعته والاشتغال بما هو أنفع له منه والواجب على هذا ان يكتم ويعف ويصبر على بلواه فيثيبه الله على ذلك ويعوضه على صبره لله وعفته وترك طاعة هواه وإيثار مرضاة الله وما عنده .

وأما حديث من عشق وعف فهذا مما يرويه سويد بن سعيد وقد انكره حفاظ الاسلام عليه قال ابن

---

(١) ابن ماجه ٦٣٤/١ رقم ١٩٧١ والنسائى ٦٤/٧

(٢) سورة النساء آية ١٢٩

(٣) سورة الحجر آية ٧٢

عدى فى كامله هذا الحديث أحد ما انكر على سويد وكذلك ذكره البيهقى وابن طاهر فى الزخيرة والتذكرة وابو الفرج بن الجوزى وعده من الموضوعات .

وانكره ابو عبد الله الحاكم على تساهله وقال أنا أتعجب منه قلت والصواب فى الحديث أنه من كلام ابن عباس - رضى الله عنهما - موقوفا عليه فغلط سويد فى رفعه قال أبو محمد بن خلف بن المرزبان حدثنا أبو بكر بن الأزرق عن سويد فعاتبته على ذلك فأسقط ذكر النبى - ﷺ - وكان بعد ذلك يسأل عنه ولا يرفعه ولا يشبه هذا كلام النبوة وأما ما رواه الخطيب له عن الزهرى حدثنا المعافى عن سويد عن هشام ابن عروة عن ابيه عن عائشة مرفوعا فمن أين الخطأ ولا يحمل هذا عن هشام عن ابيه عن عائشة مثل هذا عنه من شم ادنى رائحة من العلم من الحديث ونحن نشهد بالله ان عائشة ما تكلمت بهذا عن رسول الله - ﷺ - قط واما حديث ابن الماجشون عن عبد الله بن ابى حازم عن ابن ابى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا فكذب على ابن الماجشون فإنه لم يحدث بهذا ولم يحدث به عنه الزبير بن بكار وانما هذا من تركيب بعض الوضاعين وياسبحان الله كيف يحتمل هذا الاسناد مثل هذا المتن فقبح الله الواضعين وقد ذكره ابو الفرج بن الجوزى من حديث محمد بن جعفر بن سهل حدثنا يعقوب بن عيسى عن مجاهد مرفوعا وهذا غلط قبيح فإن محمد بن جعفر هذا هو الخرائطى ووفاته سنة سبع وعشرين وثلاث مائة فمحال ان يدرك شيخه يعقوب بن ابى نجيح لاسيما وقد رواه فى كتاب الاعتلال عن يعقوب هذا عن الزبير عن عبد الملك عن عبد العزيز عن ابن ابى نجيح والخرائطى هذا مشهور بالضعف ذكره ابو الفرج فى كتاب الضعفاء .

وكلام حفاظ الاسلام فى انكار هذا الحديث هو الميزان واليهم يرجع فى هذا الشأن وما صححه بل ولا حسنه أحد يعول فى علم الحديث عليه ويرجع فى الصحيح اليه ولا من عادته التسامح والتساهل فإنه لم يصف نفسه له ويكفى ان ابن طاهر الذى يتساهل فى أحاديث النصوص ويروى منها الغث والثمين والمنخنقة والموقوذة قد أنكره وحكم ببطلانه نعم ابن عباس غير مستنكر ذلك عنه وقد ذكر ابو محمد بن حزم عنه انه سئل عن الميت عشقا فقال قتيل الهوى لا عقل له ورفع اليه بعرفات شاب قد صار كالفرخ فقال ما شأنه فقال العشق فجعل عامة يومه يستعيذ من العشق فهذا تفسير من قال من عشق وعف وكتم ومات فهو شهيد ومما يوضح ذلك ان النبى ﷺ عد الشهداء فى الصحيح فذكر المقتول فى الجهاد والمبطون والحريق والنفساء يقتلها ولدها والغريق وصاحب الهدم فلم يذكر منهم العاشق يقتله العشق وحسب قتيل العشق ان يصح له هذا الأثر عن ابن عباس - رضى الله عنهما - على انه لا يدخل الجنة حتى يصبر لله ويعف لله ويكتم لله وهذا لا يكون إلا مع قدرته على معشوقه وإيثار محبة الله وخوفه ورضاه وهذا أحق من دخل تحت قوله تعالى ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾(١) .

وتحت قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾(٢) .

---

(١) سورة النازعات الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .
(٢) سورة الرحمن آية ٤٦

فنسأل الله العظيم رب العرش الكريم ان يجعلنا ممن آثر وابتغى حبه ورضاه على هواه بذلك قربه وحبه ورضاه آمين .

أما بعد .

فها نحن هؤلاء نسير الهوينا لنعيش فى رحاب التفسير فى قوله تبارك اسمه ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون** ﴾(١) .

هذا أدب قرآنى رفيع أدب الله به الجماعة المؤمنة ، فأمر نبيه - ﷺ - أن يقول لهم غضوا من أبصاركم أى عما حرم الله تعالى فإذا وقعت النظرة على سبيل الفجأة فليصرف المؤمن نظره .

روى الإمام مسلم بسنده عن عمرو بن جرير عن جده جرير بن عبد الله البجلى رضى الله عنه قال : (سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرنى أن أصرف بصرى)(٢) وفى رواية لبعضهم فقال (أطرق بصرك) يعنى انظر إلى الأرض ، والصرف أعم فانه قد يكون إلى الأرض وإلى جهة أخرى والله أعلم .

وروى أبو داود بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعلى (ياعلى لا تتبع النظرة النظرة فإن لك الأولى وليس لك الآخرة)(٣) .

وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ (إياكم والجلوس على الطرقات) قالوا يارسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها فقال رسول الله ﷺ (إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه) قالوا وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال (غض البصر وكف الأذى ورد السلام والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)(٤) .

وقال أبو القاسم البغوى بسنده حدثنا فضيل بن حسين سمعت أبا أمامة يقول سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (اكفلوا لى بست أكفل لكم بالجنة ، اذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا اؤتمن فلا يخن ، واذا وعد فلا يخلف ، وغضوا أبصاركم وكفوا أيديكم واحفظوا فروجكم)(٥) .

وفى صحيح البخارى (من يكفل لى ما بين لحييه وما بين رجليه أكفل له الجنة)(٦) .

ولما كان النظر سهما مسموما مصوبا إلى القلب ، فقد أمر الله بالغض منه وقرن ذلك بالمحافظة على الفروج إذ هو مدعاة إلى الوقوع فى ذلك المستنقع اللعين ، فقال سبحانه : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم** ﴾ أى ذلك الغض من الأبصار وحفظ الفروج وكلاهما ينطوى تحت الأمر (قل) فذلك الامتثال للأمر أهدى سبيلا وأقوم قيلا ، وأهدأ بالا واحسن منالا ، ان الذى أمر بذلك الخبير بدقائق الأشياء ، العليم بحقائقها (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير)(٧) ﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات إن تميلوا ميلا عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم** ، وخلق

(١) سورة النور آية ٣٠
(٢) مسلم - كتاب الآداب باب نظر الفجأة ١٦٩٩/٣ رقم ٢١٥
(٣) مسند أبى داود كتاب النكاح - باب ما يؤمر به من غض البصر ٦١٠/٢ رقم ٢١٤٩
(٤) البخارى كتاب المظالم - باب افنية الدور والجلوس فيها ١٦٤/٣ طبعة صبيح
مسلم - كتاب اللباس والزينة باب النهى عن الجلوس فى الطرقات ١٦٧٥/٣ رقم ٢١٢١
(٥) اخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ٣١٤/٨ رقم ٨٠١٨
(٦) البخارى - كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان ١٢٥/٨ ولفظ البخارى (من يضمن لى)
(٧) سورة الملك آية ١٤

الانسان ضعيفا ﴾[١].

وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا كما قال تعالى ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾[٢]. الآية ، وتارة يكون بحفظه من النظر اليه كما جاء فى الحديث فى مسند الامام أحمد والسنن (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[٣] ﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ أى أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم كما قيل من حفظ بصره أورثه الله نورا فى بصيرته ، ونورا فى قلبه .

وروى الامام احمد بسنده عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال (مامن مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض ببصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها)[٤].

وفى الطبرانى بسنده عن أبى أمامة مرفوعا (لتغضن أبصاركم ولتحفظن فروجكم ولتقيمن وجوهكم أو لتكسفن وجوهكم)[٥].

وعنده أيضا عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (إن النظر سهم من سهام إبليس مسموم من تركه مخافتى أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه)[٦].

وقوله تعالى ﴿ إن الله خبير بما يصنعون ﴾ هو كقوله جل شأنه : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[٧] . فقد علم سبحانه أن النظرة سهم يفسد القلوب فنهى عن ذلك حتى يحفظ للأعين مهابتها وللقلوب طهارتها فالله ـ جل شأنه ـ جعل القلوب بين أصبعين من أصابعه كقلب واحد يصرفها كيف يشاء فالعاقل من عمل لما بعد الموت .

وقد قال كثير من السلف إنهم كانوا ينهون أن يحد الرجل نظره إلى الأمرد وقد شدد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك وحرمه طائفة من العلماء لما فيه من الافتتان وشدد اخرون فى ذلك كثيرا جدا .

وقال ابن أبى الدنيا بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله وعينا سهرت فى سبيل الله وعينا يخرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله)[٨] عز جل . وليعلم المغرض أنه مأمور بحفظ أعضائه ولن يكون الأمر مقصورا على غض البصر وحفظ الفرج بل كل عضو يؤدى إلى ما يؤديه البصر والفرج أنت مأمور بحفظه قال رسول الله ـ ﷺ ـ: (كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر وزنا اللسان النطق وزنا الأذنين الاستماع وزنا اليدين البطش وزنا الرجلين الخطى والنفس تتمنى وتشتهى والفرج يصدق ذلك أو يكذبه)[٩] رواه البخارى .

---

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ .
(٢) سورة المؤمنون آية : ٥
(٣) مسند احمد ٥/٣ وسنن أبى داود ـ كتاب الحمام ـ باب ما جاء فى التعرى الحديث ٤٠١٧ وتحفة الأحوذى ـ أبواب الاستئذان ـ باب ما جاء فى حفظ العورة ٧٧/٨ رقم ٢٩٤٦
وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، وسنن ابن ماجه ـ كتاب النكاح ـ باب التستر عند الجماع ٦١٨/١ رقم ١٩٢٠ .
(٤) مسند أحمد ٢٦٤/٥ .
(٥) الطبرانى فى الكبير ٢٤٦/٨ رقم ٧٨٤٠ .
(٦) الطبرانى فى الكبير ٢١٤/١٠ رقم ١٠٣٦٢
(٧) آية ١٩ من سورة غافر .
(٨) الأثر فى الدر المنثور عن ابن أبى الدنيا والديلمى ٤١/٥ .
(٩) مسلم (كتاب القدر) ٢٠٤٧/٤ رقم ٢٦٥٧ .

ولما كان النظر مفسدة من الطرفين فقد أمر الله المؤمنات بما أمر به المؤمنين فقال جل شأنه .

﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن** ﴾ جاء فى سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيان قال : بلغنا ـ والله أعلم ـ أن جابر بن عبد الله الأنصارى حدث ان أسماء بنت مرثد كانت فى محل لها فى بنى حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما فى أرجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله تعالى ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن** ﴾ الآية .

ولما كانت النظرة المريضة بريدا إلى الوقوع فيما حرم الله تعالى من الفواحش فقد رأينا ان نذكر تفصيل ما قاله الفقهاء بهذا الشأن حتى تصير الأمور واضحة الدلالة ، جلية لا ريب فيها ولا لبس ، واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم .

آداب النظر

ومن القضايا الهامة التى يجب ان يركز المربى عليها ، ويهتم لها أن يعود الولد فى سن تمييزه آداب النظر حتى يعلم الولد ما يحل من النظر إليه وما يحرم .. وفى ذلك صلاح أمره ، واستقامة أخلاقه إذا شارف على البلوغ ، وبلغ سن التكليف ..

وهذه الآداب من النظر التى يجب أن يلقنها ويعود عليها مرتبة كما يلى :

١ ـ أدب النظر إلى المحارم :

كل امرأة تحرم على الرجل حرمة مؤبدة فهى من ذوات محارمه .

وكل رجل حرم على المرأة الزواج منه حرمة مؤبدة فهو من ذوى محارمها وعلى هذا يدخل فى المحارم .

المحرمات بسبب النسب : وهن سبع نسوة ذكرهن الله تعالى بقوله :

﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت** ﴾ (النساء : ٢٣)

والمحرمات بسبب المصاهرة : وهن أربع من النسوة :

١ ـ زوجة الأب لقوله تعالى ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء** ﴾ (النساء : ٢٢) .

٢ ـ زوجة الابن الذى من صلبه ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ (النساء : ٢٣) .

٣ ـ أم الزوجة لقوله تعالى : ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ (النساء : ٢٣)

٤ ـ بنت الزوجة لقوله تعالى : ﴿ **وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ (النساء : ٢٣) .

والمحرمات بسبب الرضاع لقوله تعالى : ﴿ **وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة** ﴾ (النساء : ٢٣) .

وقوله عليه الصلاة والسلام : فيما رواه مسلم وأصحاب السنن (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) [١].

فما حرم عن طريق النسب من أم وبنت وأخت وعمة وخالة وبنت الأخ وبنت الأخت حرم نظيره عن

(١) مسلم حديث رقم ١٤٤٤ ، أبوداود (٥٤٥/٢ رقم ٢٠٥٥ ، والترمذى ٤٤٣/٣ رقم ١١٤٦ ، والنسائى ٩٩/٦ ، وابن ماجه رقم ١٩٣٧ .

طريق الرضاع كالأم من الرضاع والبنت من الرضاع ، والأخت من الرضاع .. وهلم جرا .

فالمحرم الذكر يحل له أن يرى من محارمه النساء الصدر وما فوق ، وما تحت الركبتين الى أسفل إن أمن شهوته وشهوتها .. وإن لم يأمن الشهوة فلا يحل له النظر سدا للذرائع .

وبناء على هذا يباح للذكر المحرم النظر من ذوات محارمه إلى مواضع زينتها الظاهرة والباطنة وهى : الرأس ، والشعر ، والعنق ، والصدر دون الجيب ، والأذن ، والعضد ، والساعد ، والكف ؛ والساق الذى تحت الركبة إلى القدم ، والوجه . أما ماعدا ذلك من البطن والظهر والفخذ .. فلا يحل له النظر اليه أبدا .

والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن** ﴾

فيحرم على المحرم الذكر ولا سيما إذا بلغ سن المراهقة أن يرى أحد محارمه من النساء وقد ارتدت الثياب القصيرة التى ارتفعت إلى ما فوق الركبتين ، وكشفت عن الفخذين .. أو ارتدت ثوبا يصف أو يشف ما تحته وبدت العورة التى يحرم النظر إليها . كما يحرم على البنت أو المرأة ان ترى ذلك ـ مابين السرة والركبة ـ من أحد محارمها ولو كان ابنها ، أو أخاها ، أو أباها .. وان أمنت الفتنة ولم تخف الشهوة ولو من أجل التغسيل والتدليك فى الحمام .. (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) .

(ب) أدب النظر إلى المخطوبة :

الشريعة الإسلامية أجازت للخاطب أن ينظر إلى مخطوبته . كما أجازت للمخطوبة أن تنظر إلى خاطبها ليكون كل من الاثنين على بينة من الأمر فى اختيار شريك الحياة . والأصل فى ذلك قول النبى ـ ﷺ ـ فيما رواه الترمذى والنسائى .. للمغيرة بن شعبه : (انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما)[1] أى : هذا النظر أدعى لدوام المحبة والألفة .

وروى مسلم والنسائى ان رجلا جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: نظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : (انظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئا)[2] .(يعنى الصغر) ولكن لهذا النظر آداب فعلى الخاطب أن يراعيها .

١ ـ لا يجوز ان ينظر الخاطب إلا إلى الوجه والكفين بعد أن يعزم على الزواج منها .

٢ ـ يجوز تكرار النظر إذا دعت الحاجة حتى تنطبع الصورة الحسية فى الذهن .

٣ ـ يجوز أن تحدثه ، ويجوز أن يحدثها فى جلسة الخطوبة والنظر .

٤ ـ لا يجوز مصافحة المخطوبة بحال لكونها أجنبية قبل اجراء العقد ، والأجنبية يحرم مصافحتها لما روى البخارى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ما مست يد رسول الله ـ ﷺ ـ يد امرأة فى المبايعة قط ، وإنما مبايعتها كانت كلاما .[3]

---

(١) الترمذى (كتاب النكاح) . باب النظر إلى المخطوبة ٣٨٨/٣ رقم ١٠٨٧ . نسائى ٧٠/٦ .
(٢) مسلم ١٠٤٠/٢ رقم ١٤٢٤ . نسائى ٧٧/٦ .

(٣) البخارى ـ أحكام ـ ٩٩/٩ ـ مسلم ١٤٨٩/٣ رقم ٨٨ .

٥ ـ لا يجوز أن يجتمعا إلا بوجود أحد محارم المخطوبة لأن الاسلام يحرم الخلوة بالأجنبية ، لما روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام ـ (لا يخلو رجل بامرأة ، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم) .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن ما انتشر فى بعض الأوساط المتحللة من أن الخاطب يختلط بخطيبته بلا حدود ولا قيود بدعوى التعرف على أخلاقه وأخلاقها . . ان هذه الدعوى يرفضها الإسلام ، بل يحاربها . . لكونها تتنافى مع أبسط مبادىء الفضيلة والأخلاق . . لأن هذه الخلطة تسىء إلى سمعة المخطوبة أكثر من أن تسىء إلى سمعة الخاطب . فقد لا يتم الزواج فتصبح الفتاة عرضة للتهمة ، ومثارا للشبهة . . مما يجعل الكثير من الناس فى إعراض تام عن الزواج منها . . ومعنى هذا أنها أصبحت عانسا فى سوق الكساد ، ومن ناحية أخرى فإن هذه الخلطة الآثمة لن تحقق أهدافها للتكلف الظاهر الذى يبديه كل واحد منهما إلى الآخر ، وكم سمعنا عن رجال ونساء بقوا فى الخطوبة سنين ، فلم تمض فترة زمنية على الزواج من بعضهم بعضا ، وإذ تحدث الفرقة ، ويقع الطلاق !! فأين التعرف على الأخلاق بخلطة الخطوبة ؟ ألا فليتذكر أولو الألباب . .

(ج) أدب النظر إلى الزوجة :

فيجوز للزوج أن يرى من زوجته كل شىء بشهوة أو بغير شهوة . . لأنه لما جاز المس والجماع فلأن يجوز ما دونهما وهو النظر إلى جميع بدنها من باب أولى ، وإن كان الأفضل ألا ينظر أحدهما إلى عورة صاحبه لحديث عائشة رضى الله عنها (قبض رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يرمنى ولم أرمنه) والأصل فى جواز الرؤية لكل شىء ما رواه أبو داود والترمذى عن معاوية بن حيدة قال : قلت يارسول الله : عوراتنا ما نأتى بها وما نذر؟ قال (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[٢] .

قال تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ﴾ [٣] .

(د) أدب النظر إلى المرأة الأجنبية :

لا يجوز للرجل البالغ أن ينظر إلى امرأة أجنبية ولو كانت غير مشتهاة ولكن ما هى المرأة الأجنبية وما هو الرجل الأجنبى ؟

ـ الرجل الأجنبى : هو من يحل للمرأة الزواج منه كابن عمها ـ وابن عمتها ، وابن خالها ، وابن خالتها ، وزوج أختها ، وزوج خالتها .

ـ والمرأة الأجنبية : هى من يحل للرجل الزواج منها كابنة عمه ، وابنة عمته ، وابنة خاله ، وابنة خالته ، وزوجة أخيه ، وزوجة عمه ، وزوجة خاله ، وأخت زوجته ، وعمتها وخالتها .

ويليق بالرجل الصبى ان كان مراهقا أو مميزا يفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يجوز لأحدهما النظر إلى المرأة الأجنبية . .

---

(١) البخارى ـ جهاد ـ ٧٢/٤ ط الشعب ، مسلم جج ـ ٩٧٨/٢ رقم ١٣٤١ .
(٢) سنن أبى داود ٣٠٤/٤ رقم ٤٠١٧ . الترمذى ٩٧/٥ رقم ٢٧٦٩ . ابن ماجه ٦١٨/١ رقم ١٩٢٠ . أحمد ٣/٥
(٣) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة المؤمنون .

أما الأحاديث :

فقد روى الطبرانى عن عبد الله بن مسعود والحاكم ، وقال الحاكم صحيح الإسناد عن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل (النظرة سهم من سهام إبليس ، من تركها مخافة أبدلته إيمانا يجد حلاوته فى قلبه)(١).

وروى أحمد الطبرانى عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها فى قلبه)(٢)

وروى أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم عن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ ان النبى ﷺ قال : (اضمنوا لى ستا من أنفسكم أضمن لكم الجنة . اصدقوا اذا حدثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدوا إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم)(٣).

وروى الشيخان ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا فهو مدرك لا محالة ، العينان زناهما النظر ، والأذنان زناهما الاستماع ، واللسان زناه الكلام ، واليد زناها البطش ، والرجل زناها الخطى ، والقلب يهوى ويتمنى ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه)(٤).

وروى مسلم والترمذى . . عن جرير ـ رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن نظر الفجاءة فقال : (اصرف بصرك)(٥).

وروى أبو داود والترمذى عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كنت عند رسول الله ـ ﷺ وعنده ميمونة . فأقبل ابن أم مكتوم . وذلك بعد أن أمرنا بالحجاب . فقال النبى ﷺ (احتجبا منه) فقلنا : يارسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال النبى ﷺ (أفعمياوان أنتما ألستما تبصران)(٦).

فهذه النصوص تؤكد تأكيدا تاما بمالا يقبل الجدل أن نظر الرجل الى المرأة الأجنبية حرام ، وان نظر المرأة الى الرجل الأجنبى حرام أيضا اذا كانا فى مجلس واحد وترتب من النظر فتنة .

ولا شك أن الغاية التى يهدف اليها الاسلام من غض البصر ـ كما يقول صاحب الظلال ـ هو إقامة مجتمع نظيف لا تهاج فيه الشهوات فى كل لحظة ، ولا تستثار فيه الغرائز فى كل حين .

فعمليات الاستثارة المستمرة تنتهى بالإنسان إلى سعار شهوانى لا ينطفىء ولا يرتوى ، والنظرة الخائنة والحركة المثيرة والزينة المتبرجة ، والجسم العارى . . كلها لا تصنع شيئا إلا أن تهيج ذلك السعار الشهوانى المجنون واحدى وسائل الاسلام إلى انشاء مجتمع نظيف هى الحيلولة دون هذه الاستثارة وإبقاء

(١) الطبرانى الكبير ٢١٤/١٠ رقم ١٠٣٦٢ . حاكم ٣١٤/٤ .
(٢) أحمد ٢٦٤/٥ . طبرانى الكبير ٢٤٧/٨ رقم ٧٨٤٢ .
(٣) أحمد ٣٢٣/٥ ، ابن حبان ٢٤٥/١ ، الحاكم ٣٥٩/٤ .
(٤) البخارى ـ استئذان ـ ٦٧/٨ ، قدر ـ ١٥٦/٨ ، مسلم ـ قدر ـ ٢٠٤٦/٤ رقم ٢٦٥٧ .
(٥) مسلم ـ آداب ـ ١٦٩٩/٣ رقم ٢١٥٩ ـ ترمذى ١٠١/٥ رقم ٢٧٧٦ .
(٦) سنن أبى داود ـ لباس ـ ٣٦١/٤ رقم ٤١١٢ ، ترمذى ـ استئذان ـ ١٠٢/٥ رقم ٢٧٧٨ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

الدافع الفطري العميق بين الجنسين سليما وبقوة الطبيعة دون استثارة مصطنعة .

لقد شاع فى وقت من الأوقات أن النظرة البريئة ، والحديث الطلق ، والاختلاط الميسور . والدعابة المرحة بين الجنسين ، والإطلاع على مواضع الفتنة المخبوءة . . شاع ان هذا تنفيس وترويح وإطلاق للرغبات الحبيسة .

ووقاية من الكبت ومن العقد النفسية . وتخفيف من حدة الضغط الجنسى وما وراءه من اندفاع غير مأمون . . ولكن نسى هؤلاء الذين يتمسكون بمثل هذه النظريات والأفكار أن الميل الفطرى بين الرجل والمرأة ميل عميق فى التكوين الحيوى ، لأن الله ـ سبحانه ـ قد ناط به امتداد الحياة على هذه الأرض ، وتحقيق الخلافة لهذا الإنسان فيها ، فهو ميل دائم يسكن فترة ثم يعود ، وإثارته فى كل حين تزيد من عرامته ، وتدفع إلى الافضاء المادى للحصول على الراحة . فإذا لم يتم هذا تعبت الأعصاب المستثارة وكان هذا بمثابة عملية تعذيب مستمرة .

فالنظرة تثير ، والحركة تثير ، والضحكة تثير ، والدعابة تثير ، والنبرة المعبرة عن هذا الميل تثير . . (والطريق المأمون هو تقليل هذه المثيرات بحيث يبقى هذا الميل فى حدوده الطبيعية ثم يلبى تلبية طبيعية عن طريق الزواج المشروع ، وهذا هو المنهاج الذى اختاره الإسلام وارتضاه للجنس البشرى ليتم له هدوؤه النفسى . واستقراره الفكرى . وراحته العصبية ، ورباطه السليم الذى يربط بين سائر أبناء الانسان . .) .

وما أحسن ما قال بعضهم فى استثارة النظر :

كل الحوادث مبدؤها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فعلت فى قلب صاحبها فعل السهام بلا قوس ولا وتر
والمرء مادام ذا عين يقلبها فى أعين الغيد موقوف على خطر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحبا بسرور عاد بالضرر

وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ القائل : فيما رواه الطبرانى (ثلاثة لا ترى أعينهم النار . عين حرست فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله)[1]

(هـ) أدب نظر الرجل الى الرجل :

لا يجوز ان ينظر الرجل إلى الرجل فيما بين سرته إلى ركبته سواء أكان الرجل المنظور إليه قريبا أم بعيدا وسواء أكان مسلما أو كافرا . .؟

أما ماعدا ذلك كالبطن والظهر والصدر . . فإنه يجوز إذا أمن الناظر الشهوة . .

والأصل فى حرمة هذا ما رواه مسلم عن النبى ﷺ أنه قال : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا المرأة إلى عورة المرأة) .[2]

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٤١٦/١٩ رقم ١٠٠٣ .

(٢) مسلم ـ حيض ـ ٢٦٦/١ رقم ٣٣٨ .

وما رواه أحمد وأصحاب السنن .. (احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك)[(١)] .

وأخرج الحاكم عنه - عليه الصلاة والسلام - (ما بين السرة والركبة عورة)[(٢)] .

وروى الحاكم ان النبى - ﷺ - رأى رجلا مكشوف الفخذ ، فقال له موجها ومرشدا (غط فخذك فإن الفخذ عورة) وفى رواية الترمذى (الفخذ عورة)[(٣)] .

فمن هذه النصوص يتبين :

أنه لا يجوز للرجل أن يكشف جزءا من سرته إلى ركبته لا فى رياضة ، ولا فى سباحة ، ولا فى تدريب ، ولا فى حمام .. وان أمن الشهوة - واذا أمره أحد فى كشف جزء من عورته فعليه ألا يطيعيه للحديث : (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

أما ما نسب إلى المالكية بأن العورة هى السوأتان فقط ، وماعدا السوأتان يجوز كشفه .. فهذا الادعاء غير صحيح بل هو من الجهل والتضليل .

ان العورة عند المالكية تقسم إلى قسمين :

١ - عورة بالنسبة للصلاة .

٢ - وعورة بالنسبة للنظر .

أما العورة بالنسبة للصلاة فتنقسم إلى قسمين :

عورة مغلظة : وهى السوأتان (القبل والدبر)

عورة مخففة : وهى ما بين السرة الى الركبة .

فالعورة المغلظة إذا كشفت فى الصلاة تعاد مطلقا سواء أخرج وقتها أم لم يخرج ..؟

والعورة المخففة إذا كشفت فى الصلاة تعاد فى الوقت فقط ، أما إذا خرج وقتها فلا تعاد .

أما العورة بالنسبة للنظر : فيحرم كشفها سواء أكانت مغلظة أم كانت مخففة .

فعورة الرجل مع رجل آخر ما بين سرته الى ركبته .

وعورة المرأة مع المرأة إذا كانتا مسلمتين ما بين السرة والركبة .

وعورة المرأة المسلمة مع المرأة الكافرة ، كلها عورة ماعدا الوجه والكفين فى قول ، وجميع بدنها فى قول آخر .

وعورة المرأة مع محارمها هى غير الوجه وغير اليدين وغير الرأس وغير العنق وغير ظهر القدمين .. أما ماعدا ذلك فهو عورة لا تحل النظر إليه .

فيتبين من هذا النص الفقهى المالكى ان الأئمة الأربعة - رضى الله عنهم - متفقون على أن عورة الرجل مع الرجل هى ما بين السرة والركبة ، وبناء على هذا يحرم النظر فيما بينهما ، ويحل النظر فيما عدا ذلك .

---

(١) أحمد ٣/٥ - ترمذى ٩٧/٥ رقم ٢٧٦٩ .
(٢) الحاكم ٥٦٨/٣ .
(٣) الحاكم - معرفة الصحابة ٦٣٧/٣ ، ترمذى ١١١/٥ رقم ٢٧٩٧ .

(و) أدب نظر المرأة إلى المرأة :

لايجوز أن تنظر المرأة من المرأة إلى مابين سرتها إلى ركبتها سواء أكانت المرأة المنظور إليها قريبة أم بعيدة ، وسواء أكانت مسلمة أم كافرة .

والأصل فى ذلك الحديث الذى سبق ذكره : (لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ولا المرأة إلى عورة المرأة) والحديث الذى رواه الحاكم (ما بين السرة والركبة عورة) وحديث (الفخذ عورة) فمن هذه النصوص تبين :

يحرم على المرأة أن تنظر إلى فخذ ابنتها أو أختها أو أمها أو جارتها أو صديقتها . . لا فى حمام ولا فى غيره . .

والحكمة فى هذا التحريم لتكون المرأة مصونة من هياج الغريزة وتوقدها حين ترى منظرا مثيرا . أو مشهدا فيه فتنة . . وقد تؤدى هذه الاستثارة الجنسية بالمرأة إلى (السحاق) الذى هو اتصال المرأة بالمرأة اطفاء لثورة الغريزة فيها . واخمادا لعرامتها . .

ومن علامات الساعة . . كما صح فى الأحاديث . . (اكتفاء الرجال بالرجال (أى اللواط) ، واكتفاء النساء بالنساء (أى السحاق) فعلى المسلمات الغيورات أن يتجنبن النظر إلى عورات نساء مثلهن سواء أكان بذلك أثناء خلع الثياب للاستحمام ، أو التدليك فى الحمام ، أو فى حفلات الأعراس حيث العرى السافل والتكشف الممقوت الذى يندى له جبين الحياء !!

وعلى الرجال الغيورين الا يأذنوا لزوجاتهم ولا لبناتهم فى دخول الحمامات العامة لاشتمالها على التكشف والعرى والمفاسد كما هو شائع فى أوساطنا الاجتماعية اليوم .

والرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ نهى عن ذلك :

روى النسائى والترمذى وحسنه والحاكم عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ أنه قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل خليلته ، (زوجته) الحمام) .

وروى الترمذى وأبو داود وابن ماجه ان نساء حمص أو الشام دخلن على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فقالت : انتن اللاتى تدخلن نساءكن الحمامات ؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول (مامن امرأة تضع ثيابها فى غير بيت زوجها إلا هتكت الستر بينها وبين ربها) .

وروى ابن ماجه وأبو داود عن رسول الله ـ ﷺ ـ انه قال : (ستفتح عليكم أرض العجم ، وستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات فلا يدخلها الرجال إلا بإزار وأمنعوها النساء إلا مريضة أو نفساء) .

(ز) أدب نظر المرأة الكافرة إلى المرأة المسلمة :

يحرم على المرأة المسلمة أن تكشف شيئا من مفاتنها أمام امرأة كافرة إلا ما يبدو عند المهنة ـ أى الخدمة ـ كاليدين والوجه والرجلين لعموم قوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن . . أو

نسائهن ﴾ فمن قوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ يفهم أن المرأة المسلمة لا يجوز أن تبدى زينتها إلّا إذا كان بحضرتها نساء مسلمات صالحات أما إذا كان فى المجلس نساء غير مسلمات أو نساء مسلمات فاجرات فلا يجوز لها إبداء الزينة .

والحكمة فى هذا التحريم هو ما جاء فى حاشية الدسوقى : (فعورة الحرة المسلمة مع الحرة الكافرة ما عدا الوجه واليدين على المعتمد ، (والحكمة) : لئلا تصفها لزوجها الكافر ، فالتحريم كعارض لا لكونها عورة) .

ويحرم كذلك على المرأة المسلمة ان تكشف شيئا من مفاتن جسمها أمام امرأة مسلمة فاجرة أيضا حتى لا تصف محاسنها عند الرجال .. جاء فى الهدية العلائية ما يلى : (ولا ينبغى للمرأة الصالحة أن تنظر إليها الفاجرة لأنها تصفها عند الرجال فلا تضع (أى المرأة الصالحة) جلبابها ولا خمارها ..

وللشيخ الوقور العلامة ابى الأعلى المودودى فهم خاص فى قوله تعالى : ﴿ أو نسائهن ﴾ نذكره كما ورد فى كتابه (تفسير سورة النور) .

إن المراد بقوله تعالى : ﴿ أو نسائهن) النساء المختصات بهن بالصحبة والخدمة والتعارف سواء أكن مسلمات أو غير مسلمات وأن الغرض من الآية أن تخرج من دائرة الأجنبيات اللاتى لا يعرف شيء عن أخلاقهن وآدابهن وعاداتهن ، أو تكون أحوالهن مشتبهة لا يوثق بها .

فليست العبرة فى هذا الشأن بالاختلاف الدينى بل هى بالاختلاف الخلقى . فللنساء المسلمات أن يظهرن زينتهن بدون حجاب ولا تحرج للنساء الكريمات المنتميات الى البيوت المعروفة الجديرة بالاعتماد على أخلاق أهلها سواء أكن مسلمات أو غير مسلمات .

وأما الفاسقات اللاتى لا حياء عندهن ولا يعتمد على أخلاقهن وآدابهن فيجب أن تحتجب عنهن كل امرأة مؤمنة صالحة ولو كن مسلمات لان صحبتهن لا تقل عن صحبة الرجال حذرا على اخلاقها) ..

ولكن أين هؤلاء النساء الكريمات غير المسلمات ذوات الأخلاق والفضل فى هذا العصر ؟ فى تقديرى أن هذا لا يوجد إلا فى بيئات محدودة فعلى المرأة المسلمة أن تحتاط لدينها وسمعتها مخافة التأثر بأخلاق غير دينها . أو بأخلاق مسلمات مستهترات لا يرعين شرفا ولا حرمة !!..

(ح) أدب النظر إلى الأمرد :

الأمرد هو الشاب الذى لم تنبت لحيته بعد ، وهو الذى يتراوح عمره ما بين (١٠ ـ ١٥ سنة) .

والنظر الى الأمرد جائز إذا كان لضرورة كالبيع والشراء والأخذ والعطاء والتطبيب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة .

أما إذا كان النظر من أجل الالتذاذ بالجمال فهو حرام لكونه يجر إلى الشهوة ويؤدى إلى الفتنة .

ودليل الحرمة قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم** .. ﴾ .

ولقد بالغ السلف الصالح فى الأعراض عن المرد الحسان والنظر إليهم ومجالستهم : قال الحسن بن ذكوان : (لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صورا كصور العذارى هم أشد فتنة من النساء) .

ودخل سفيان الثورى الحمام فدخل عليه صبى حسن الوجه فقال : (أخرجوه عنى فإنى أرى مع كل امرأة شيطانا، ومع كل أمرد سبعة عشر شيطانا) .

وجاء رجل إلى الامام أحمد ومعه صبى حسن الوجه فقال له :

من هذا منك ؟

قال : ابن أختى .

قال : (لا تجىء به إلينا مرة أخرى ، ولا تمش معه بطريق لئلا يظن بك من لا يعرفك ويعرفه سوءا) .

وقال سعيد بن المسيب : (إذا رأيتم الرجل يحد النظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه) .

والحكمة فى تحريم النظر إلى الأمرد من غير ما ضرورة هى مخافة الوقوع فى الفاحشة سدا للذرائع وحسما للفساد .

والمسلم التقى الورع هو الذى يحتاط دائما لدينه وخلقه وسمعته ويتقى بحذر مواطن التهم .

(ط) أدب نظر المرأة إلى الأجنبى :

يجوز للمرأة المسلمة أن تنظر إلى الرجال وهم يمشون فى الطرقات أو هم يلعبون ألعابا غير محرمة ، أو هم يتعاطون البيع والشراء أو غير ذلك . والدليل على هذا ما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ جعل ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى حرابهم فى المسجد يوم العيد وعائشة ـ رضى الله عنها ـ تنظر إليهم من ورائه وهو يسترها منهم حتى ملت ورجعت وذلك سنة سبع هجرية .

وأما حديث (احتجبا منه) . . (أفعميا وان أنتما ألستما تبصرانه ؟ فمحمول على اجتماع أم سلمة وميمونة مع ابن أم مكتوم فى مجلس واحد وتحديق بصرهن إليه مقابلة ومواجهة !!

يقول العلامة أبو الأعلى المودودى فى كتابه (الحجاب) : (إن هناك فرقا دقيقا بين نظرة المرأة إلى الرجال) ونظر الرجال إلى النساء من حيث الخصائص النفسية للصنفين ، وذلك أن فى طبيعة الرجل الإقدام فهو إذا أحب شيئا يسعى فى إحرازه والوصول إليه ولكن فى طبيعة المرأة التمنع والفرار ؛ لحيائها) وهى مادامت على فطرتها ولم تنسلخ منها ، لا يمكن أن يكون فيها من الجرأة والوقاحة والإقدام ما تتقدم به بنفسها الى شىء تحبه وتعجب به ، وقد راعى الشارع عليه الصلاة والسلام هذا الفرق بين طبعى الصنفين فلم يشدد فى النهى عن نظر المرأة إلى الأجنبى تشديده فى النهى عن نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية وقد اشتهر حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن رسول الله ﷺ أراها لعب الحبشة بحرابهم فى المسجد مما يفيد أنه ليس فى نظر النساء إلى الرجال بمحظور على الاطلاق وإنما المكروه اجتماع النساء والرجال فى مجلس واحد وتحديق بعضهم الى بعض كأمر أم سلمة وميمونة أن يحتجبا من ابن أم مكتوم ـ وأيضا لا يجوز من النظر ما يخاف منه الفتنة) .

ويقول العلامة ابن حجر فى شرح البخارى : (واستدل بهذا الحديث ـ أى حديث نظر عائشة إلى الحبشة ـ على جواز رؤية المرأة الأجنبية للرجل الأجنبى دون العكس ، ويدل له استمرار العمل على خروج النساء إلى المساجد والأسواق والأسفار منقبات لئلا يراهن الرجال ولم يؤمر الرجال قط بالانتقاب لئلا يراهم النساء ، فدل على اختلاف الحكم بين الفريقين .

وبهذا احتج الامام الغزالى للجواز فقال : لسنا نقول إن وجه الرجل فى حق المرأة عورة كوجه المرأة فى حق الرجل ، فيحرم نظر المرأة الى الرجل عند خوف الفتنة وإن لم تكن فتنة فلا ، إذ لم تزل الرجال على

مر الزمان مكشوفى الوجوه ، والنساء يخرجن متنقبات . . فلو استووا لأمر الرجال بالتنقب أو منعوا من الخروج .

والذى أخلص إليه بعد ما تقدم أن نظر المرأة إلى الأجنبى جائز بشرطين :

الأول : الا يترتب على النظر ما يخشى منه الفتنة .

الثانى : الا يكون التحديق فى مجلس واحد مواجهة ومقابلة .

(ى) حالات ضرورية يباح فيها النظر :

سبق أن ذكرنا أنه لا للرجل أن ينظر إلى امرأة أجنبية ولو كانت دميمة غير مشتهاة . . سواء أكان النظر بشهوة أو بغير شهوة ؟

لعموم قوله تعالى : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم** ﴾ ولشمول قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: (اصرف بصرك)[1] .

ولكن يستثنى من هذا النظر حالات ضرورية وأمور طارئة . . نذكرها على الترتيب التالى :

١ ـ **النظر بقصد الخطبة** : سبق الكلام عليه بشكل مفصل فى بحث (أدب النظر إلى المخطوبة) .

٢ ـ **النظر بقصد التعليم** : يجوز النظر إلى وجه المرأة الأجنبية من غير زينة بقصد التعليم بشرط :

ـ أن يكون العلم الذى تتعلمه معتبرا شرعا فيه صلاح الدين أو الدنيا .

ـ أن يكون فى حدود إختصاصها كتعليمها أصول التمريض وفن الولادة .

ـ والا يخشى من النظر إلى وجهها فتنة .

ـ والا يترتب على التعليم خلوة .

ـ والا يوجد نساء يقمن بالتعليم مقام الرجال .

ولاشك أن الاسلام حين وضع هذه القيود . . أراد تكوين مجتمع نظيف طاهر . . لا تحوم حوله الشبه ، ولا توجه اليه التهم . . حتى تبقى الفتاة حصينة طاهرة ، لا تمتد إليها يد بإثم ، ولا تنظر إليها عين بخيانة .

وصدق الله العظيم القائل : ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾[2] .

٣ ـ **النظر بقصد المداواة** : يجوز أن ينظر الطبيب من الأجنبية إلى المواضع التى يقوم على علاجها ، لما روى مسلم عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أنها استأذنت رسول الله ﷺ فى الحجامة فأمر النبى ﷺ ـ أبا طيبة أن يحجمها[3] .

ومعالجة الطبيب للمرأة الأجنبية لا تجوز إلا بشروط :

١ ـ أن يكون الطبيب تقيا أمينا عدلا ذا اختصاص وعلم .

٢ ـ الا يكشف من أعضاء المرأة إلا قدر الحاجة إذا تعين النظر .

٣ ـ الا تكون هناك امرأة مختصة تقوم مقام الطبيب فى علمه واختصاصه .

٤ ـ أن تكون المعالجة بوجود محرم ، أو زوج أو امرأة ثقة كأمها أو أختها أو جارتها .

---

(١) مسلم الاستئذان حديث رقم ٢١٥٩ وأبو داود ٢١٤٨ والترمذى ٢٧٧٧ وأحمد ٤/٣٥٨ ، ٣٦١ .

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٩

(٣) مسلم ـ كتاب السلام ٤/١٧٣٠ رقم ٢٢٠٦

٥ ـ الا يكون الطبيب كافرا مع وجود مسلم .

فإذا توافرت هذه الشروط فيجوز للطبيب أن ينظر أو يلمس موضع العورة بالنسبة للمرأة لأن الاسلام دين يدفع عن الناس الحرج . ويجلب لهم المصلحة والتيسير ..

فمبدؤه فى ذلك .. ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ [١] .

﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾[٢] .

٤ ـ النظر بقصد المحاكمة والشهادة : يجوز للقاضى والشاهد أن ينظر من المرأة إلى الوجه والكفين وإن خافا الفتنة .. لما يترتب على النظر من إحقاق حق ودفع ظلم .. وإنما جاز النظر لكون المتنقبة غير معروفة لدى القاضى ولدى الشاهد .. فتكشف عن وجهها فى هذه اللحظات لتعرف أنها هى المعنية حتى لا تلتبس الأمور وتضيع فى المجتمع الحقوق .

وما ذاك إلا أن الإسلام دين الواقع والحياة ، يحقق للناس مصالحهم ويحفظ لهم حقوقهم ﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يؤمنون ﴾[٣] .

وفى هذا المقام أسوق هذه القصة التاريخية الخالدة ليعرف أهل الحمية والغيرة من الرجال والنساء كيف كان السلف الصالح يتحرجون فى أن تكشف المرأة وجهها أمام الرجال ولو كان الكشف جائزا شرعا ؟

جلس موسى بن إسحق قاضى الرى والأهواز فى القرن الثالث الهجرى ينظر فى قضايا الناس وكان بين المتقاضين امرأة ادعت على زوجها أن عليه خمسمائة دينار مهرا لها ، فأنكر الزوج أن لها فى ذمته شيئا .

فقال له القاضى : هات شهودك .

فقال : قد أحضرتهم .

فاستدعى القاضى أحدهم وقال له : أنظر إلى زوجته لتشير إليها فى شهادتك فقام الشاهد وقال للزوجة : قومى .

فقال الزوج : ماذا تريدون منها ؟

فقيل له : لابد أن ينظر الشاهد إلى امرأتك وهى مسفرة لتصح عنده معرفته بها .

فكره الرجل أن تضطر زوجته إلى الكشف عن وجهها للشهود أمام الناس .

فصاح : إنى أشهد القاضى على أن لزوجتى فى ذمتى هذا المهر الذى تدعيه ولا تسفر عن وجهها ..

فلما سمعت الزوجة ذلك أكبرت فى رجلها أنه يضن بوجهها على رؤية الشهود ، وأنه يصونها من أعين الناس !!

فصاحت تقول للقاضى : إنى أشهدك على أنى قد وهبت له هذا المهر وأبرأته منه فى الدنيا والآخرة .

فقال القاضى لمن حوله : (أكتبوا هذا فى مكارم الأخلاق) .

فما على المربين إلا أن يأخذوا بآداب الاسلام فى النظر سواء ما يتعلق بأدب النظر الى المحارم أو فى

(١) سورة الحج آية ٧٨

(٢) سورة البقرة آية ١٨٥ .

(٣) سورة المائدة آية ٥٠ .

أدب النظر إلى المخطوبة أو فى أدب نظر الزوج إلى زوجته أو فى أدب نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية أو فى أدب نظر الرجل إلى الرجل أو فى أدب نظر المرأة إلى المرأة وفى أدب نظر المرأة الكافرة إلى المرأة المسلمة أو فى أدب نظر الرجل إلى الأمرد أو فى نظر المرأة إلى الأجنبى أو فى أدب النظر بقصد التعليم أو فى أدب النظر بقصد المداواة . أو فى أدب النظر بقصد المحاكمة أو الشهادة أو فى أدب النظر إلى عورة الصغير .

(ك) أدب النظر إلى عورة الصغير :

قال الفقهاء : الصغير سواء أكان ذكرا أو أنثى لا عورة له إذا كان ابن أربع سنين فما دونها ، ثم زاد على الأربع فعورته القبل والدبر وما حولهما . . حتى إذا بلغ حد الشهوة صارت عورته كعورة البالغ على التفصيل الذى سبق ذكره وكلما عودناه الستر وهو صغير كان أفضل .

كل هذه الآداب من النظر يجب على الآباء والأمهات والمربين جميعا أن يعطوا لأبنائهم القدوة العملية فيها ثم يلقنوها أبناءهم تلقينا وتوعية . . إن أرادوا لهم الخلق الفاضل ، والشخصية الاسلامية المتميزة والسلوك الاجتماعى الخير ، والتربية الاسلامية السامية . . والله سبحانه لن يترهم أعمالهم ولن ينقصهم أجورهم وثوابهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون !!

(من كتاب تربية الأولاد فى الاسلام - الجزء الثانى - للاستاذ عبد الله ناصح علوان) .

قوله تعالى : **﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾** .

والمراد بغض البصر هاهنا أى عما حرم الله كما سبق فى أمر المؤمنين بذلك والمراد بحفظ الفروج أى عن كل ما حرم الله تعالى حتى تكون العفة هى الخلق الذى يتحلى به المؤمنون والمؤمنات والاسلام هو دين النظافة فى كل شىء نظافة العقيدة ونظافة النفس والعقل والمال والعرض والسلوك الاجتماعى والاقتصادى والسياسى والنظافة فيه تسرى سريان الماء فى العود الأخضر .

الله أكبر ان دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

قوله تعالى **﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾** .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

أى لا يظهرن شيئا من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه : قال ابن مسعود كالرداء والثياب يعنى على ما كان يتعاطاه نساء العرب من المقنعة التى تجلل ثيابها وما يبدو من أسافل الثياب فلا حرج عليها فيه لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه ونظيره فى زى النساء ما يظهر من إزارها وما لا يمكن اخفاؤه وقال بقول ابن مسعود ، وقال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس **﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾** قال وجهها وكفاها والخاتم .

وروى عن ابن عمر وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير وأبى الشعثاء والضحاك وإبراهيم النخعى

وغيرهم نحو ذلك وهذا يحتمل أن يكون تفسيرا للزينة التى نهين عن ابدائها كما قال أبو إسحق السبيعى عن أبي الأحوص عن عبد الله قال فى قوله ﴿ ولا يبدين زينتهن ﴾ الزينة القرط والدملوج والخلخال والقلادة .

وفى رواية عنه بهذا الاسناد قال : الزينة زينتان فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار وزينة يراها الأجانب وهى الظاهر من الثياب وقال الزهرى لا يبدو لهؤلاء الذين سمى الله ممن لا تحل له إلا الأسورة والأخمرة والأقرطة من غير حسر وأما عامة الناس فلا يبدو منها إلا الخواتم ، وقال مالك عن الزهرى ﴿ إلا ما ظهر منها ﴾ الخاتم والخلخال .

ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين وهذا هو المشهور عند الجمهور ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه حدثنا يعقوب بن كعب الانطاكى ومؤمل بن الفضل الحرانى قالا : حدثنا الوليد عن سعيد بن بشير عن قتادة عن خالد بن دريك عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها وقال : (يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا) وأشار إلى وجهه وكفيه لكن قال أبو داود وأبو حاتم الرازى هو مرسل

قوله تعالى : ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ يعنى المقانع يعمل لها صفات ضاربات على صدورهن لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ليخالفن شعار نساء أهل الجاهلية فإنهن لم يكن يفعلن ذلك بل كانت المرأة منهن تمر بين الرجال مسفحة بصدرها لا يواريه شيء وربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئتهن وأحوالهن كما قال تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ .

وقال فى هذه الآية الكريمة ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ والخمر جمع خمار وهو ما يخمر به أى يغطى به الرأس وهى التى تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير ﴿ وليضربن ﴾ وليشددن ﴿ بخمرهن على جيوبهن ﴾ يعنى على النحر والصدر فلا يرى منه شيء وقال البخارى حدثنا أحمد بن شبيب بسنده عن عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها . وقال أيضا عن صفية بنت شيبة أن عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت تقول : لما نزلت هذه الآية ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ أخذن أزرهن فشققنها من قبل الحواشى فاختمرن بها ، وقال ابن أبى حاتم عن صفية بنت شيبة قالت : بينا نحن عند عائشة قالت : ذكرنا نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ إن لنساء قريش فضلا وإنى والله ما رأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقا لكتاب الله ولا إيمانا بالتنزيل لقد أنزلت سورة النور ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن) انقلب رجالهن إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهم فيها ويتلو الرجل على امرأته وابنته وأخته وعلى كل ذى قرابته فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ

معتجزات كأن على رءوسهن الغربان . وقال ابن جرير حدثنا يونس عن عروة عن عائشة قالت يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن أكتف مروطهن فاختمرن بها . ورواه أبو داود من حديث ابن وهب .

قوله تعالى : ﴿ ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾[1] أى أزواجهن ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بنى إخواتهن ﴾ أى أزواجهن كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ولكن من غير تبرج وقد روى ابن المنذر ، حدثنا موسى يعنى : ابن هارون ، حدثنا أبو بكر يعنى : ابن أبى شيبة حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة ، أخبرنا داود عن الشعبى وعكرمة فى هذه الآية : ﴿ ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن ﴾ حتى فرغ منها وقال : لم يذكر العم ولا الخال ، لأنهما ينقيان لأبنائهما ، ولاتضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له بما لايكون بحضرة غيره . وقوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ يعنى : تظهر بزينتها أيضا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ، لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك ـ وإن كان محذورا فى جميع النساء ـ إلا أنه فى نساء أهل الذمة أشد ، فإنهن لايمنعهن من ذلك مانع ، فأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه ، وقد قال رسول الله ﷺ :
(لاتباشر المرأة المرأة ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها) أخرجاه فى الصحيحين[2] عن ابن مسعود .
وروى سعيد بن منصور عن أبيه ، عن الحارث بن قيس أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبى عبيدة : أما بعد ، فإنه بلغنى أن نساء من نساء المسلمين يدخلن الحمامات مع نساء أهل الشرك ، فإنه من قبلك فلا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن ينظر إلى عورتها إلا أهل ملتها . وقال مجاهد فى قوله : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس للمرأة المسلمة أن تنكشف بين يدى مشركة ، وروى عبد الله فى تفسيره عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس : ﴿ أو نسائهن ﴾ قال : هن المسلمات ، لاتبديه ليهودية ولا نصرانية ، وهو النحر والقرط والوشاح ، ومالايحل أن يراه إلا محرم .

وروى سعيد : عن ليث عن مجاهد قال : لاتضع المسلمة خمارها عند مشركة ، لأن الله تعالى : يقول ﴿ أو نسائهن ﴾ فليست من نسائهن . وعن مكحول وعبادة بن نسى : أنهما كرها أن تقبل النصرانية واليهودية والمجوسية المسلمة .

فأما مارواه ابن أبى حاتم بسنده عن ضمرة قال : قال ابن عطاء : عن أبيه ، قال : لما قدم أصحاب رسول الله ﷺ بيت المقدس ، كان قوابل نسائهن اليهوديات والنصرانيات ـ فهذا إن صح فمحمول على حال الضرورة ، أو أن ذلك من باب الامتهان ثم إنه ليس فيه كشف عورة ولابد ، والله أعلم .

---

(١) الآية : ٣١ من سورة النور .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه : فى (كتاب النكاح) باب : لاتباشر المرأة المرأة ج ٧ ص ٤٩
وأخرجه أبو داود فى سننه : فى (كتاب النكاح) باب : ماتؤمر به من غض البصر ج ٢ ص ٦١٠ رقم ٢١٥٠ .
وأخرجه الترمذى : فى (كتاب الأدب) باب : كراهية مباشرة الرجال الرجال والمرأة المرأة ج ٥ ص ١٠٩ رقم ٢٧٩٢ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . وأخرجه الإمام أحمد ص ٣٦٠٩

وقوله تعالى : ﴿ أو ماملكت أيمانهن ﴾[١] قال ابن جريج : يعنى من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة ، لأنها أمتها . وإليه ذهب سعيد بن المسيب . وقال الأكثرون : بل يجوز أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذى رواه أبو داود : حدثنا محمد ابن عيسى ، حدثنا أبو جميع سالم بن دينار ، عن ثابت ، عن أنس ، أن النبى ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبى ﷺ ماتلقى قال : (إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك)[٢]

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى تاريخه فى ترجمة خديج الحمصى - مولى معاوية - أن عبد الله بن مسعدة الفزارى كان أسود شديد الأدمة وأنه ، قد كان النبى ﷺ وهبه لابنته فاطمة ، فربته ثم أعتقته ، ثم قد كان بعد ذلك كله مع معاوية أيام صفين ، وكان من أشد الناس على على بن أبى طالب - رضى الله عنه .

وروى الإمام احمد بسنده عن أم سلمة ، ذكرت أن رسول الله ﷺ قال : (إذا كان لإحداكن مكاتب ، وكان له مايؤدى ، فلتحتجب منه)[٣] ورواه أبو داود عن مسدد عن سفيان به .

وقوله تعالى : ﴿ أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال ﴾ يعنى كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك فى عقولهم وله وخوت ولا هم لهم إلى النساء ولا يشتهوهن .

قال ابن عباس : هو المغفل الذى لاشهوة له .

وقال مجاهد : هو الأبله . وقال عكرمة : هو المخنث الذى لايقوم ذكره .

وكذلك قال : غير واحد من السلف . وفى الصحيح من حديث الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة : أن مخنثا كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ وكانوا يعدونه من غير أولى الإربة ، فدخل النبى ﷺ وهو ينعت إمرأة ، يقول : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان : فقال رسول الله ﷺ (ألا أرى هذا يعلم ماههنا لايدخلن عليكن) فأخرجه ، فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم[٤] .

وروى الإمام احمد بسنده : عن أم سلمة أنها قالت : دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث ، وعندها عبد الله بن أبى أمية يعنى : أخاها والمخنث يقول : ياعبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غدا ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : (لايدخلن هذا عليك) أخرجاه فى الصحيحين[٥] .

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب اللباس) باب : العبد ينظر الى شعر مولاته ج ٤ ص ٣٥٩ رقم ٤١٠٦

(٣) أخرجه الإمام احمد فى مسنده من حديث أم سلمه ج ٦ ص ٢٨٩ وأخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب العتق : باب : فى المكاتب يؤدى بعض كتابته فيعجز أو يموت ج ٤ ص ٢٤٤ رقم ٣٩٢٨ .

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب اللباس) باب : فى قوله : (غير أولى الإربة) ج ٦/ ٦٣ رقم ٤١٠٩ .

أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٦/ ٢٩٠

(٥) وأخرجه البخارى فى (كتاب اللباس) باب : إخراج المتشبهين بالنساء من البيوت ، ٧/ ٢٠٥ . وأخرجه الإمام مسلم فى (كتاب السلام) باب : منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب ، ج ٧/ ١٠ ، ١١ .

قال الامام احمد بسنده : عن عروة بن الزبير ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبى ﷺ مخنث ، وكانوا يعدونه من غير أولى الاربة ، فدخل النبى ﷺ وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت إمرأة ، فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : (ألا أرى هذا يعلم ماههنا لايدخلن عليكم هذا ، فحجبوه)[١] .

وقوله تعالى : ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾[٢] يعنى : لصغرهم لايفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن فى المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لايفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، فأما أن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلايمكن من الدخول على النساء . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إياكم والدخول على النساء) قال : يارسول الله ، أفرأيت الحمو؟ قال : (الحمو الموت)[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ ولايضربن بأرجلهن ﴾[٤] الآية : كانت المرأة فى الجاهلية إذا كانت تمشى فى الطريق وفى رجلها خلخال صامت لايعلم صوته ضربت برجلها الأرض ، فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستورا ، فتحركت بحركة لتظهر ماهو خفى ، دخل فى هذا النهى لقوله تعالى : ﴿ ولايضربن بأرجلهن ﴾ إلى آخره ، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها ليشم الرجال طيبها فقد قال أبو عيسى الترمذى بسنده عن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : (كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس ، فهى كذا وكذا) ـ يعنى زانية . . وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حسن صحيح[٥]

وقال أبو داود بسنده : عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : لقيته امرأة وجد منها ريح الطيب ، ولذيلها إعصار فقال ياأمة الجبار ، جئت من المسجد؟ قالت : نعم . قال لها : تطيبت؟ قالت : نعم . قال : إنى سمعت حبى أبا القاسم ﷺ يقول : (لايقبل الله صلاة امرأة تطيبت لهذا المسجد ، حتى ترجع فتغتسل غسلها من الجنابة)[٦].

ورواه ابن ماجه ، عن أبى بكر بن أبى شيبة ، عن سفيان بن عيينة به .

وروى الترمذى أيضا من حديث موسى بن عبيدة ، عن أيوب بن خالد ، عن ميمونة بنت سعد أن

---

(١) أخرجه الإمام احمد فى مسنده : ٦/١٥٢ ، ومسلم فى (كتاب السلام) باب : منع المخنث من الدخول على النساء الأجانب : ٨/١١ ، وسنن أبى داود فى (كتاب اللباس) باب : فى قوله :(غير أولى الإربة : ٤/٦٣ رقم ٤١٠٨

(٢) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٣) أخرجه البخارى فى : (كتاب النكاح : باب : لايخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم ، والدخول على المغيبة ، : ٧/٤٨ . ومسلم ، فى (كتاب السلام) باب : تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها : ٧/٧

(٤) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٥) تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ، أبواب الاستئذان ، باب : ماجاء فى كراهية خروج المرأة متعطرة ، ٨/٧٠ ـ ٧١ رقم ٢٩٣٧ .

(٦) سنن أبى داود (كتاب الترجل) باب : ماجاء فى المرأة تتطيب للخروج حديث رقم ٤١٧٤ ج ٤ ص ٧٩ . وفى سنن ابن ماجه فى (كتاب الفتن) باب : فتنة النساء حديث رقم ٤٠٠٢ ج ٢ ص ١٣٢٦ .

رسول الله ﷺ قال : (الرافلة فى الزينة فى غير أهلها ، كمثل ظلمة يوم القيامة لانور لها)[١] .

ومن ذلك أيضا أنهن ينهين عن المشى فى وسط الطريق لما فيه من القدح .

قال أبو داود حدثنا القعنبى ، حدثنا عبد العزيز ، يعنى : ابن محمد عن أبى اليمان ، عن شداد بن أبى عمرو بن حماس ، عن أبيه ، عن حمزة بن أبى أسيد الأنصارى ، عن أبيه ، أنه سمع النبى ﷺ وهو خارج المسجد .

وقد اختلط الرجال مع النساء فى الطريق ، فقال رسول الله ﷺ للنساء (استأخرن ، فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق ، عليكن بحافات الطريق)[٢]. فكانت المرأة تلصق بالجدار ، حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار ، من لصوقها به ، وقوله تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[٣] أى : افعلوا ماآمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ماكان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل مأمر الله به ورسوله ، وترك مانهيا عنه ، والله تعالى هو المستعان !

(مبحث فقهى فى رحاب الآية)

رأينا من باب تتمة الفائدة فى رحاب تفسيرنا للآيتين الكريمتين السابقتين أن نذكر هذا المبحث الفقهى الذى جاء فى كتاب

(الأعلام بنقد كتاب الحلال والحرام) لمؤلفه :

صالح بن فوزان بن عبد الله آل فوزان ـ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

فقد كتب تحت عنوان : ـ

* حكم كشف المرأة لوجهها وكفيها بحضرة الرجال الأجانب *

قال مانصه :

فى صفحة (١١٢) قال المؤلف : (وعورة المرأة بالنسبة للرجل الأجنبى عنها جميع بدنها ماعدا وجهها وكفيها) ـ وفى الصفحة (١١٣) لما ذكر نظر المرأة إلى الرجل ، قال : (ومثل هذا نظر الرجل إلى ماليس بعورة من المرأة ـ أى إلى وجهها وكفيها فهو مباح ، مالم تصحبه شهوة أو تخف منه فتنة) وفى صفحة (١١٥) بعد أن ذكر قوله تعالى : ﴿ **ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن** ﴾[٤] قال : وهذا التوجيه يتضمن نهى النساء المؤمنات عن كشف الزينة الخفية ، كزينة الأذن ، والشعر ، والعنق ،

---

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : (أبواب الرضاع) باب : ماجاء فى كراهية خروج النساء فى الزينة رقم ١١٧٧ ج ٧ ص ٣٢٩

وقال الترمذى : هذا حديث لانعرفه إلا من حديث موسى بن عبيدة ، وموسى بن عبيدة يضعف فى الحديث من قبل حفظه ، وهو صدوق .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود (فى كتاب الأدب) باب : فى مشى النساء مع الرجال فى الطريق رقم ٥٢٧٢ ج ٤ ص ٣٦٩ .

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .

(٤) من الآية : ٣١ من سورة النور

والصدر ، والساق ، أمام الرجال الأجانب الذين رخص لها أمامهم فى إبداء الوجه ، والكفين ، (ماظهر منها) .

وفى صفحة (١١٣) استدل المؤلف : على جواز نظر الرجل الأجنبى إلى وجه المرأة ، وكفيها ، بحديث عائشة : أن أختها أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ فى لباس رقيق يشف عن جسمها ، فأعرض النبى ﷺ عنها وقال : ياأسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه)(٢) . قال : وفى الحديث ضعف ، ولكن تقويه أحاديث صحاح فى إباحة رؤية الوجه والكفين وكشفهما .

ثم قال : وقد روى أن النبى ﷺ حين وجد الفضل ابن عمه العباس ، ينظر إلى امرأة أجنبية حسناء ، ويطيل الالتفات إليها ، وكان رديف النبى ﷺ فجعل ﷺ يصرف وجهه إلى الشق الآخر ، وقال :

(رأيت شابا وشابة ، فلم آمن عليهما الفتنة(٢) أ هـ حاصل كلامه . وأقول : ان ماذكره المؤلف فى هذا المبحث يشتمل على أخطاء كثيرة هى :

أولا : تجويزه للمرأة أن تكشف وجهها وكفيها بحضرة الرجال الأجانب ، وتجويزه للرجل الأجنبى أن ينظر إليهما باعتبارهما غير عورة ، وهذا قول باطل وخطأ واضح ترده الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة الدالة على أن وجه المرأة وكفيها وجميع بدنها عورة يجب سترها عن الرجال الأجانب ، وإليك ذكر بعض هذه الأدلة :

قال الله تعالى : ﴿ ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن) .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية : ـ رحمه الله ـ فى الكلام على الايتين مانصه :

(والسلف قد تنازعوا فى الزينة الظاهرة على قولين : فقال ابن مسعود ومن وافقه : هى الثياب ، وقال ابن عباس ومن وافقه هى مافى الوجه واليدين مثل الكحل والخاتم ـ إلى أن قال جامعا بين القولين : وحقيقة الأمر ، أن الله جعل الزينة زينتين ـ زينة ظاهرة وزينة غير ظاهرة ، وجوز لها ابداء زينتها الظاهرة لغير الزوج ، وذوى المحارم ، وأما الباطنة فلا تبديها إلا للزوج وذوى المحارم ، وكانوا قبل أن تنزل آية الحجاب كان النساء يخرجن بلا جلباب يرى الرجل وجهها ويديها ، وكان آنذاك يجوز لها أن تظهر الوجه والكفين ، وكان حينئذ يجوز النظر إليها لأنه يجوز لها إظهاره ثم لما أنزل الله ـ عز وجل ـ آية الحجاب بقوله : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾(٥) .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود فى (كتاب اللباس) باب : فيما تبدى المرأة من زينتها ، رقم ٤١٠٤ ج ٤ ص ٦٢ .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند على بن أبى طالب ج ١ ص ٧٦ بلفظ : « رأيت شابا وشابة ، فلم آمن الشيطان عليهما » .

(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور

(٤) الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب

(٥) الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب

حجب النساء عن الرجال ، وكان ذلك لما تزوج النبى ﷺ زينب بنت جحش فأرخى النبى ﷺ الستر ومنع النساء أن ينظرن ، ولما اصطفى صفية بنت حيى بعد ذلك ، عام خيبر قالوا : إن حجبها فهى من أمهات المؤمنين ، وإلا فهى مما ملكت يمينه فحجبها ، فلما أمر الله ألا يسألن إلا من وراء حجاب ، وأمر أزواجه وبناته ونساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن .

والجلباب هو الملاءة ، وهو الذى يسميه ابن مسعود وغيره الرداء وتسميه العامة الإزاروهو الإزار الكبير الذى يغطى رأسها وسائر بدنها ، وقد حكى عبيدة وغيره أنها تدنيه من فوق رأسها فلا تظهر إلا عينها ، ومن جنسه النقاب ، فكان النساء ينتقبن ، وفى الصحيح (إن المحرمة لاتنتقب ، ولا تلبس القفازين)[١] ، فإذا كن مأمورات بالجلباب لئلا يعرفن وهو ستر الوجه أو ستر اليدين بالنقاب ، وكان الوجه واليدان من الزينة التى أمرت ألا تظهرها للأجانب ، فما بقى يحل للأجانب النظر إلا إلى الثياب الظاهرة ، فابن مسعود ، ذكر آخر الأمرين وابن عباس ذكر أول الأمرين انتهى .

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ :

يقول تعالى : آمرا رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات خاصة ، وأزواجه وبناته لشرفهن بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ؛ ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية ، وسمات الاماء .

والجلباب هو الرداء فوق الخمار قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصرى ، وسعيد بن جبير ، وابراهيم النخعى ، وعطاء الخراسانى ، وغير واحد ، وهو بمنزلة الإزار اليوم قال الجوهرى :

الجلباب الملحفة . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس :

أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة .

وقال محمد بن سيرين :

سألت عبيدة السلمانى عن قول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى .

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطى : فى أضواء البيان (٦ ـ ١٩٧ ـ ٢٠٠) لما ذكر النقول عن السلف فى تفسير الزينة بقسميها مانصه :

(وقد رأيت فى هذه النقول عن السلف : أقوال أهل العلم فى الزينة الظاهرة ، والزينة الباطنة ، وأن جميع ذلك راجع فى الجملة إلى ثلاثة أقوال :

الأول : أن المراد بالزينة ماتتزين به المرأة خارجا عن أصل خلقتها ، ولا يستلزم النظر إليه رؤية شىء من بدنها كقول ابن مسعود ومن وافقه : أنها ظاهر الثياب لأن الثياب زينة لها خارجة عن أصل خلقتها وهى ظاهرة بحكم الاضطرار ، كما ترى ـ وهذا القول هو أظهر الأقوال عندنا وأحوطها ، وأبعدها من الريبة وأسباب الفتنة .

القول الثانى : أن المراد بالزينة ماتتزين به ، وليس من أصل خلقتها أيضا ؛ لكن النظر إلى تلك الزينة

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه : فى (كتاب الحج) باب : ماينهى من الطيب للمحرم والمحرمة ج ٣ ص ١٩ وهو جزء حديث : أوله لاتلبسوا القميص إلى ولاتنتقب المرأة المحرمة ، ولاتلبس القفازين .

يستلزم رؤية شيء من بدن المرأة ، وذلك كالخضاب والكحل ونحو ذلك ، لأن النظر إلى ذلك يستلزم رؤية الموضع اللابس من البدن ، كما لايخفى .

القول الثالث :

أن المراد بالزينة الظاهرة بعض بدن المرأة الذى هو من أصل خلقتها ، لقول من قال : إن المراد بما ظهر منها : الوجه والكفان . وماتقدم ذكره عن بعض أهل العلم .

وإذا عرفت هذا فاعلم أننا قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، وتكون فى نفس الآية قرينة دالة على عدم صحة ذلك القول . وقدمنا أيضا فى ترجمته : أن أنواع البيان التى تضمنها أن يكون الغالب فى القرآن ارادة معنى معين فى اللفظ مع تكرار ذلك اللفظ فى القرآن ، فكون ذلك المعنى : هو المراد من اللفظ فى الغالب . يدل على أنه هو المراد فى محل النزاع لدلالة عليه إرادته فى القرآن بذلك اللفظ وذكرنا بعض الأمثلة فى الترجمة .

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن هذين النوعين من أنواع البيان اللذين ذكرناهما فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، ومثلنا لهما بأمثلة متعددة كلاهما موجود فى هذه الآية التى نحن بصددها .

أما الأول منهما : فبيانه أن قول من قال فى معنى :

﴿ ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها ﴾

أن المراد بالزينة الوجه والكفان مثلا . توجد فى الآية قرينة تدل على عدم صحة هذا القول ، وهى أن الزينة فى لغة العرب هى ماتتزين به المرأة مما هو خارج عن أصل خلقتها ، كالحلى والحلل ، فتفسير الزينة ببعض بدن المرأة خلاف الظاهر ، ولايجوز الحمل عليه إلا بدليل يجب الرجوع إليه وبه تعلم أن قول من قال :

الزينة الظاهرة الوجه والكفان ، خلاف ظاهر معنى لفظ الآية ، وذلك قرينة على عدم صحة هذا القول ، فلايجوز الحمل عليه إلا بدليل منفصل يجب الرجوع إليه ، وأما نوع البيان الثانى المذكور ، فإيضاحه أن لفظ الزينة يكثر تكرره فى القرآن العظيم مرادا به الزينة الخارجة عن أصل المزين بها ، ولايراد بها بعض أجزاء ذلك الشيء المزين به كقوله تعالى :

﴿ يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾[١]

وقوله تعالى :

﴿ قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ﴾[٢]

وقوله تعالى :

﴿ إنا جعلنا ماعلى الأرض زينة لها ﴾[٣]

وقوله تعالى :

﴿ وماأوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ﴾[٤]

---

(١) من الاية : ٣١ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية : ٣٢ من سورة الأعراف .
(٣) من الآية : ٧ من سورة الكهف .
(٤) من الآية ٦٠ من سورة القصص .

وقوله تعالى :

﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾(١)

وقوله تعالى :

﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾(٢)

وقوله تعالى :

﴿ فخرج على قومه فى زينته ﴾(٣)

وقوله تعالى :

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾(٤)

وقوله تعالى :

﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة ﴾(٥)

وقوله تعالى :

﴿ قال موعدكم يوم الزينة ﴾(٦)

وقوله تعالى : عن قوم موسى

﴿ ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم ﴾(٧)

وقوله تعالى :

﴿ ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ﴾(٨)

فلفظ الزينة فى هذه الآيات كلها يراد به مايزين به الشيء ، وهو ليس من أصل خلقته كما ترى . وكون هذا المعنى : هو الغالب فى لفظ الزينة فى القرآن ، يدل على أن لفظ الزينة فى محل النزاع يراد به هذا المعنى الذى غلبت إرادته فى القرآن العظيم ، وهو المعروف فى كلام العرب كقول الشاعر :

يأخذن زينتهن أحسن ماترى ... وإذا عطلن فهن خير عواطل

وبه تعلم أن تفسير الزينة فى الآية : بالوجه والكفين فيه نظر .

وإذا علمت أن المراد بالزينة فى القرآن : مايتزين به مما هو خارج عن أصل الخلقة ، وأن من فسروها من العلماء بهذا : اختلفوا على قولين :

فقال بعضهم : هى زينة لايستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة ، كظاهر الثياب . وقال بعضهم :

هى زينة يستلزم النظر إليها رؤية موضعها من بدن المرأة ، كالكحل والخضاب ، ونحو ذلك .

قال مقيد : عفا الله عنه ، وغفر له .

أظهر القولين . المذكورين عندى ، قول ابن مسعود : ـ رضى الله عنه ـ أن الزينة الظاهرة ، هى

(١) الآية : ٦ من سورة الصافات .
(٢) الآية : ٨ من سورة النحل
(٣) من الآية : ٧٩ من سورة القصص .
(٤) من الآية : ٤٦ من سورة الكهف .
(٥) من الآية : ٢٠ من سورة الحديد .
(٦) من الآية : ٥٩ من سورة طه .
(٧) من الآية : ٨٧ من سورة طه
(٨) من الآية ٣١ من سورة النور .

مايستلزم النظر إليها رؤية شيء من بدن المرأة الأجنبية ، وإنما قلنا : أن هذا القول هو الأظهر لأنه هو أحوط الأقوال ، وأبعدها ، عن أسباب الفتنة وأطهرها لقلوب الرجال والنساء ، ولايخفى أن وجه المرأة ، هو أصل جمالها ، ورؤيته من أعظم أسباب الافتتان بها ، كما هو معلوم .

والجارى على قواعد الشرع الكريم : هو تمام المحافظة والابتعاد من الوقوع فيما لاينبغى .

وقال أيضا : فى صفحة (٥٨٤ - ٥٨٦) من الكتاب المذكور على قوله تعالى :

﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾(١)

وقد قدمنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك أن من أنواع البيان التى تضمنها أن يقول بعض العلماء فى الآية قولا ، وتكون فى نفس الآية قرينة تدل على عدم صحة ذلك القول .

وذكرنا أمثلة فى الترجمة ، ومن أمثلته التى ذكرنا فى الترجمة .. هذه الآية الكريمة ، فقد قلنا فى ترجمة هذا الكتاب المبارك ، ومن أمثلته قول كثير من الناس : أن آية الحجاب أعنى . قوله تعالى :

﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾(٢)

خاصة بأزواج النبى ﷺ فإن تعليله تعالى : لهذا الحكم الذى هو ايجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة ، فى قوله تعالى :

﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ قرينة واضحة على ارادة تعميم الحكم ، إذ لم يقل أحد من جميع المسلمين أن غير أزواج النبى ﷺ لاحاجة إلى أطهرية قلوبهن وقلوب الرجال من الريبة ، فهن وقد تقرر فى الأصول أن العلة قد تعمم معلولها ، وإليه أشار فى مراقى السعود بقوله :

وقد تخصص وقد تعمم .. لأصلها لكنها لاتحرم .

أنتهى محل الغرض من كلامنا فى الترجمة ، وبما ذكرنا تعلم أن فى هذه الآية الكريمة ، الدليل الواضح على أن وجوب الحجاب حكم عام فى جميع النساء ، لاخاص بأزواجه ، ﷺ وإن كان أصل اللفظ خاصا بهن لأن عموم علته : دليل على عموم الحكم فيه ، - إلى أن قال :

ومن الأدلة القرآنية على احتجاب المرأة وسترها ؛ جميع بدنها ، حتى وجهها قوله تعالى :

﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾(٣)

فقد قال غير واحد من أهل العلم : إن معنى :

﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾

أنهن يسترن بها جميع وجوههن ، ولايظهر منهن شيء ، إلا عين واحدة تبصر بها ، وممن قال به ابن مسعود ، وابن عباس ، وعبيدة السلمانى وغيرهم : ، ا هـ .

وقال فى صفحة (٥٩٢) أيضا مانصه :

وإذا علمت بما ذكرنا أن حكم آية الحجاب عام ، وأن ماذكرنا معها من الآيات فيه : الدلالة على احتجاب جميع بدن المرأة عن الرجال الأجانب علمت أن القرآن دل على الحجاب .

ولو فرضنا أن آية الحجاب خاصة بأزواجه ﷺ فلاشك أنهن خير أسوة لنساء المسلمين فى الآداب الكريمة المتضمنة للطهارة التامة وعدم التدنس بأنجاس الريبة .

(١)من الآية : ٥٣ من سورة الأحزاب .

(٢) من الآية : ٥٣ من سورة الأحزاب

(٣) من الآية : ٥٩ من سورة الأحزاب .

فمن يحاول منع نساء المسلمين ـ كالدعاة للسفور والتبرج والاختلاط اليوم ـ من الاقتداء بهن فى هذا الأدب السماوى الكريم ، المتضمن سلامة العرض والطهارة من دنس الريبة غاش لأمة محمد ـ ﷺ أنتهى المقصود منه .

وقال الشيخ أبو الأعلى المودودى : فى كتاب الحجاب له بعد أن ذكر جملة من أقوال المفسرين على آية الأحزاب : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ﴾ الآية مانصه : (ويتضح من هذه الأقوال جميعها أنه من لدن عصر الصحابة الميمون إلى القرن الثامن للهجرة حمل جميع أهل العلم هذه الآية على مفهوم واحد ، هو الذى قد فهمناه من كلماتها .

وإذا راجعنا بعد ذلك الأحاديث النبوية والآثار علمنا منها أيضا أن النساء قد شرعن يلبسن النقاب على العموم بعد نزول هذه الآية على العهد النبوى ، وكن لايخرجن سافرات ، فقط جاء فى سنن أبى داود والترمذى والموطأ للإمام مالك وغيره من كتب الأحاديث أن النبى ﷺ قد أمر المحرمة لاتنتقب ولاتلبس القفازين ونهى النساء فى إحرامهن عن القفازين والنقاب وهذا صريح الدلالة على أن النساء فى عهد النبوة قد تعودن النقاب ولبس القفازين عامة ، فنهين عنه فى الإحرام ولم يكن المقصود بهذا الحكم أن تعرض الوجوه فى موسم الحج عرضا ، بل كان المقصود فى الحقيقة الا يكون القناع جزءا من هيئة الاحرام المتواضعة ، كما يكون جزءا من لباسهن عادة . فقد ورد فى الأحاديث الأخرى تصريح بأن أزواج النبى ﷺ وعامة المسلمات كن يخفين وجوههن عن الأجانب فى حالة إحرامهن أيضا ، ففى سنن أبى داود عن عائشة قالت :

(كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزنا كشفناه)[1] إلى أن قال : وكل من تأمل كلمات الآية ، ومافسرها به أهل التفسير فى جميع الأزمان بالاتفاق ، وماتعامل عليه الناس على عهد النبى ﷺ ولم ير فى الأمر مجالا للجحود بأن المرأة قد أمرها الشرع الإسلامى بستر وجهها عن الأجانب ، ومازال العمل جاريا عليه منذ عهد النبى ﷺ إلى هذا اليوم .

وقال الشيخ محمد على الصابونى فى روائع البيان : (٢ ـ ٣٨٤) ومن درس حياة السلف الصالح ، وماكان عليه النساء الفضليات ـ نساء الصحابة والتابعين ـ ، وماكان عليه المجتمع الإسلامى فى عصره الذهبى من التستر والتحفظ والصيانة ، عرف خطأ هذا الفريق من الناس الذين يزعمون أن الوجه لايجب ستره ، بل يجب كشفه ، ويدعون المرأة المسلمة أن تسفر عن وجهها ، بحجة أنه ليس بعورة لأجل أن يتخلصوا من الأثم ـ بزعمهم ـ فى كتم العلم ، ومادروا أنها مكيدة دبرها لهم أعداء الدين ، وفتنة من أجل التبرج بالمرأة المسلمة إلى التخلص من الحجاب الشرعى الذى عمل له الأعداء زمنا طويلا . وإنا لله وإنا إليه راجعون ا هـ .

ومما تقدم تعلم أنه لامستمسك للمؤلف بقوله تعالى : ﴿ إلا ماظهر منها ﴾ وأن الآية حجة لنا لا له .

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه : فى (كتاب المناسك والحج) فى باب : المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ٤١٦ وأخرجه ابن ماجه فى (كتاب الحج) باب : المحرمة تسدل الثوب على وجهها رقم ٢٣ حديث ٢٩٣٥ أخرجه البخارى فى صحيحه فى : (كتاب الحج) باب : ماينهى من الطيب للمحرم والمحرمة ج ٣ ص ١٩ وهو جزء من حديث طويل . أوله : لاتلبسوا القميص إلى ولاتنتقب المرأة المحرمة ولاتلبس القفازين .

وأما أدلة السنة على وجوب الحجاب : فهناك أحاديث كثيرة تدل على وجوب الحجاب منها : حديث عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما : (أن النبى ﷺ قال : لاتنتقب المرأة المحرمة ولاتلبس القفازين)[١] رواه الامام أحمد والبخارى وأهل السنن إلا ابن ماجه ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال شيخ الاسلام ابن تيميه : - رحمه الله - وهذا مما يدل على أن النقاب والقفازين كانا معروفين فى النساء اللاتى لم يحرمن ، وذلك يقتضى ستر وجوههن وأيديهن ، - وقال : ووجه المرأة فى الاحرام فيه قولان :

فى مذهب الإمام أحمد وغيره - قيل : إنه كرأس الرجل فلا يغطى وقيل كبدنه ، فلا يغطى بالنقاب والبرقع ، ونحو ذلك مما صنع على قدره ، وهذا هو الصحيح ، فإن النبى ﷺ لم ينه إلا عن القفازين والنقاب ، وكان النساء يدنين على وجوههن مايسترها من الرجال من غير مايجافيها عن الوجه ، فعلم أن وجهها كبدن الرجل ، وذلك أن المرأة كلها عورة كما تقدم ، فلها أن تغطى وجهها ؛ لكن بغير اللباس المصنوع بقدر العضو أ هـ .

ومنها حديث عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات ، فإذا حاذونا ، أسدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه[٢] .

رواه الإمام أحمد وابو داود وابن ماجه - قال الشوكانى : فى نيل الأوطار واستدل بهذا الحديث على أنه يجوز للمرأة إذا احتاجت إلى ستر وجهها (يريد حال الإحرام) لمرور الرجال قريبا منها فإنها تسدل الثوب من فوق رأسها على وجهها ، لأن المرأة تحتاج إلى ستر وجهها فلم يحرم عليها ستره مطلقا ، كالعورة أ هـ .

ومعناه أنه لايحرم عليها ستر وجهها حالة إحرامها بحضرة أجانب أو غيرهم ، وهذا صريح من الإمام الشوكانى أنه يرى وجوب ستر المرأة لوجهها إذ أن الوجه هو موضع الزينة ، ومحل الافتتان بها ، ونساء الصحابة يكشفن وجوههن حالة الإحرام ، فإذا مر بهن الرجال الأجانب سترن وجوههن عنهم . مما يدل على أن المعتاد عندهم هو ستر الوجه .

هذه بعض أدلة الكتاب والسنة على وجوب ستر الوجه واليدين من المرأة عن الرجال الأجانب ، وطرف من كلام أهل العلم عليها ، ولو تتبعنا كل ماورد وكل ماقيل فى هذا الموضوع لاحتجنا إلى مجلدات ، لكن نكتفى من ذلك بما تحصل به الإشارة .

---

(١) وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبد الله بن عمر) وهو جزء من الحديث ج ٢ ص ١١٩ وأخرجه الترمذى فى (أبواب الحج) باب : ماجاء فى مالايجوز للمحرم لبسه ج ٢ ص ١٦٤ رقم ٨٣٤ وهو جزء من حديث طويل وأخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الحج) باب : مايلبس المحرم ج ٢ ص ٤١١ رقم ١٨٢٥ وفى ص ٤١٢ وقال الخطابى : أخرجه البخارى فى (كتاب الحج) والترمذى والنسائى .

أخرجه الإمام أحمد فى مسنده - مسند عائشة - رضى الله عنها - ج ٦ ص ٣٠

(٢) وأخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب المناسك والحج) باب : فى المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ٤١٦ رقم ١٨٣٣ وأخرجه ابن ماجه فى (كتاب الحج) باب : المحرمة تسدل الثوب على وجهها رقم ٢٣ حديث ٢٩٣٥ .
قال المنذرى : وقد أخرج البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث مجاهد عن عائشة .
والحديث فى سنن أبى داود (كتاب المناسك) باب : فى المحرمة تغطى وجهها ج ٢ ص ١٦٧ لأقم ١٨٣٣

الجواب عما استدل به المؤلف

١ - أما استدلال المؤلف على جواز كشف الوجه واليدين من المرأة بحضرة الرجال بحديث عائشة : فى قصة دخول أسماء على النبى ﷺ وقوله لها : (إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح ان يرى منها إلا هذا وهذا ، وأشار إلى وجهه وكفيه)[1] . فمن العجيب استدلاله بهذا الحديث مع اعترافه هو بضعفه ، فكيف يعارض به الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة الدالة على تحريم نظر الرجل إلى وجه المرأة الأجنبية ، ووجوب ستره - وأما قوله : (لكن تقويه أحاديث صحاح كما نطالبه أيضا ببيان الحد الذى تؤمن عنده الفتنة ، حين النظر إلى وجه المرأة الأجنبية ، وهل هناك أحد يأمن على نفسه الفتنة فى هذا النظر؟ أليس النظر وسيلة إلى الافتتان ؟ .

والمؤلف نفسه فى أول كتابه قد قرر هذه القاعدة فقال : (ماأدى إلى الحرام فهو حرام) فلماذا يتناسى ذلك هنا؟ . وقد قال أيضا فى كتابه : فى صفحة (١١٠) والنظر رسول الفتنة وبريد الزنا وقديما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ومعظم النار من مستصغر الشرر .

وحديثا قال آخر :

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء .

فما باله الأن يتساهل فى النظر ؟!

قال الشيخ الصابونى : فى هذا الموضوع فى كتابه روائع البيان (٢ - ١٧٣) والاسلام قد حرم على المرأة أن تكشف شيئا من عورتها أمام الأجانب خشية الفتنة ، فهل يعقل أن يأمرها الإسلام أن تستر شعرها وقدميها ، وأن يسمح لها أن تكشف وجهها ويديها ، وأيهما تكون الفتنة أكبر - الوجه أم القدم - ياهؤلاء كونوا عقلاء ، ولاتلبسوا على الناس أمر الدين ، فإذا كان الإسلام لايبيح للمرأة أن تدق برجلها الأرض ؛ لئلا يسمع صوت الخلخال وتتحرك قلوب الرجال ، أو يبدو شيء من زينتها ، فهل يسمح لها أن تكشف عن الوجه الذى هو أصل الجمال ، ومنبع الفتنة ، ومكمن الخطر - أ هـ .

وقال العلامة الشنقيطى فى أضواء البيان (٦ - ٦٠٢) مانصه : (وبالجملة فإن المنصف يعلم أنه يبعد كل البعد أن يأذن الشارع للنساء فى الكشف عن الوجه أمام الأجانب مع أن الوجه هو أصل الجمال ، والنظر إليه من الشابة الجميلة هو أعظم مثير للغريزة البشرية ، وداع إلى الفتنة ، والوقوع فيما لاينبغى ألم تسمع بعضهم يقول :

قلت اسمحوا لى أن أفوز بنظرة ودعوا القيامة بعد ذاك تقوم

أترضى أيها الإنسان أن تسمح له بهذه النظرة إلى نسائك وبناتك وأخواتك ولقد صدق من قال :

وما عجب أن النساء ترجلت ولكن تأنيث الرجال عجيب

انتهى . وإضافة إلى ذلك نقول إن الفتنة متوقعة من كل رجل ينظر إلى وجه امرأة أجنبية ، ولاسيما الشابة الجميلة ، فإن الفتنة بالنظر اليها أعظم . فيتعين الحجاب منعا لهذه الفتنة على جميع النساء .

(١) الحديث فى سنن ابى داود (كتاب اللباس) باب فيما تبدى المرأة من زينتها الحديث رقم ٤١٠٤ ج ٤ صـ ٦٢ .

ونعود إلى بيان درجة الحديث الذى إستدل به المؤلف وبيان ماقاله العلماء فيه ، قال ابن كثير : قال أبو داود وأبو حاتم الرازى هو مرسل = خالد بن دريك لم يدرك عائشة ـ رضى الله عنها ـ وقال المنذرى فى مختصر سنن ابى داود : قال أبو داود هذا مرسل ـ خالد بن دريك لم يدرك عائشة ـ رضى الله عنها ـ .

وفى اسناده سعيد بن بشير أبو عبد الرحمن البصرى نزيل دمشق مولى بنى نصر وقد تكلم فيه غير واحد . وذكر الحافظ أبو أحمد الجرجانى هذا الحديث وقال : لاأعلم من رواه غير سعيد بن بشير . وقال مرة : فيه عن خالد بن دريك عن أم سلمة بدل عائشة ـ أ هـ . وقال العلامة الشنقيطى فى أضواء البيان (٦ ـ ٥٩٧) : وهذا الحديث يجاب عنه بأنه ضعيف من جهتين :

الأولى : كونه مرسلا لأن خالد بن دريك لم يسمع من عائشة ، كما قال أبو داود وأبو حاتم الرازى : كما قدمناه فى سورة النور .

الجهة الثانية : أن فى إسناده سعيد بن بشير الأزدى مولاهم قال فيه فى التقريب : ضعيف ـ مع أنه مردود بما ذكرنا من الأدلة على عموم الحجاب . ومع أنه لو قدر ثبوته قد يحمل على أنه كان قبل الأمر بالحجاب ـ أ هـ . قلت : وحديث هذه درجته لايصلح الاستدلال به ، لاسيما فى هذه المسألة الخطيرة .

٢ ـ وأما استدلال المؤلف على جواز نظر الرجل الأجنبى إلى وجه المرأة بحديث الفضل بن العباس ، ونظره إلى الخثعمية ، وصرف النبى ـ ﷺ ـ وجه الفضل عنها ـ فهذا من غرائب الاستدلال لأن الحديث يدل على خلاف مايقول : وذلك لأن الرسول ـ ﷺ ـ لم يقر الفضل على ذلك ، بل صرف وجهه وكيف يمنعه من شيء مباح ـ قال النووى : ـ رحمه الله ـ عند ذكره لفوائد هذا الحديث : ومنها تحريم النظر إلى الأجنبية .

ومنها إزالة المنكر باليد لمن أمكنه . وقال العلامة ابن القيم فى روضة المحبين صفحة (١٠٢) : وهذا منع وإنكار بالفعل فلو كان النظر جائزا لأقره عليه أ هـ .

وقال العلامة الشنقيطى فى أضواء البيان (٦ ـ ٦٠٠ ـ ٦٠١) مجيبا عن هذا الاستدلال مانصه : (وأجيب عن ذلك أيضا من وجهين :

الأول : الجواب بأنه ليس فى شيء من روايات الحديث التصريح بأنها كانت كاشفة عن وجهها ، وأن النبى ـ ﷺ ـ رآها كاشفة عنه ، وأقرها على ذلك ، بل غاية مافى الحديث أنها كانت وضيئة ، وفى بعض اوايات الحديث أنها حسناء ، ومعروفة كونها وضيئة أو حسناء لايستلزم أنها كاشفة عن وجهها ، وأنه ـ ﷺ ـ أقرها على ذلك ، بل قد ينكشف عنها خمارها من غير قصد فيراها بعض الرجال من غير قصد كشفها عن وجهها ، كما أوضحناه فى رؤية جابر سفعاء الخدين .

ويحتمل أن يكون يعرف حسنها . قبل ذلك الوقت ، لجواز أن يكون قد رآها قبل ذلك وعرفها . ومما يوضح هذا أن عبد الله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الذى روى عنه هذا الحديث ، لم يكن حاضرا وقت نظر أخيه إلى المرأة ونظرها إليه لما قدمنا من أن النبى ـ ﷺ ـ قدمه بالليل من مزدلفة إلى منى فى ضعفة أهله ، ومعلوم أنه إنما روى الحديث المذكور من طريق أخيه الفضل وهو لم يقل إنها كانت كاشفة عن وجهها ، وإطلاع الفضل على أنها وضيئة حسناء ، لايستلزم السفور قصدا ، لاحتمال أن يكون رأى وجهها ، وعرف حسنه من أجل انكشاف خمارها من غير قصد منها ، واحتمال أنه رآها قبل ذلك

وعرف حسنها . إلى أن قال : ومع أن جمال المرأة قد يعرف وينظر إليها لجمالها وهى مختمرة ، وذلك لحسن قدها وقوامها ، وقد تعرف وضاءتها وحسنها من رؤية بناتها فقط كما هو معلوم ، ولذلك فسر ابن مسعود ﴿ ولايبدين زينتهن إلا ماظهر منها ﴾ بالملاءة فوق الثياب كما تقدم . ومما يوضح أن الحسن يعرف من تحت الثياب .

قول الشاعر :

طافت أمامه بالركبان آونة ... باحسنها من قوام ما ومنتقبا

فقد بالغ فى حسن قوامها مع أن العادة كونه مستورا بالثياب لامنكشفا .

الوجه الثانى : أن المرأة محرمة ، وإحرام المرأة فى وجهها وكفيها فعليها كشف وجهها إن لم يكن هناك رجال أجانب ينظرون إليها ، وعليها ستره من الرجال فى الإحرام كما هو معروف من أزواج النبى - ﷺ - وغيرهن . ولم يقل أحد أن هذه المرأة الخثعمية نظر إليها أحد غير الفضل بن عباس - رضى الله عنهما - والفضل منعه النبى - ﷺ - من النظر إليها ، وبذلك يعلم أنها محرمة لم ينظر إليها أحد ، فكشفها عن وجهها إذن لإحرامها لا لجواز السفور - إلى أن قال :

ويفهم من صرف النبى - ﷺ - بصر الفضل عنها أنه لاسبيل إلى ترك الأجانب ينظرون إلى الشابة كما ترى ، وقد دلت الأدلة المتقدمة على أنها يلزمها حجب جميع بدنها أنتهى .

الزواج والعفة

قال تعالى :

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

تفسير المفردات

الأيامى : واحدها أيم وهو كما قال النضر بن شميل : كل ذكر لا أنثى معه ، وكل أنثى لاذكر معها بكرا كانت أو ثيبا ، ويقال : آمت المرأة ، وآم الرجل إذا لم يتزوجا بكرين أو ثيبين ، وكثر استعماله فى الرجل إذا ماتت امرأته ، وفى المرأة إذا مات زوجها .

والصالحين : أى الصالحين للنكاح والقيام بحقوقه ، والإماء : واحدهن أمة وهى الرقيقة غير الحرة . واسع : أى غنى . وليستعفف : أى وليجتهد فى العفة ، لايجدون : أى لايتمكنون من وسائله وهى المال والكتاب والمكاتبة يراد بها شرعا : إعتاق المملوك بعد أداء شىء من المال منجما أى : فى موعدين أو أكثر فيقول له : كاتبتك على كذا درهما ، ويقبل المملوك ذلك ، فإذا أداه عتق وصار أحق بمكاسبه ، كما صار أحق بنفسه والفتيات : واحدهن فتاة ، ويراد بالفتى والفتاة لغة : العبد والأمة ، والبغاء : الزنا والتحصن : العفة ، لتبتغوا : أى لتطلبوا ، عرض الحياة الدنيا : أى الكسب وبيع الأولاد ، مبينات : أى مفصلات ماأنتم فى حاجة إلى بيانه من الأحكام والآداب . مثلا : أى قصة عجيبة من قصص الماضين كقصة يوسف ومريم .

المناسبة وإجمال المعنى

لما أمر سبحانه بغض الأبصار ، وحفظ الفروج ونحوها ، مما يفضى إلى السفاح أعقبه بالأمر بإنكاح الأيامى ؛ لأنه الوسيلة لبقاء هذا النوع ، وحفظ الأنساب الذى يستدعى مزيد الشفقة على الأولاد ، وحسن تربيتهم ، ودوام الألفة بينهم ، ثم ذكر حكم من يعجز عن ذلك لعدم وجود المال لديه ، ثم رغب فى مكاتبه الأرقاء ، ليصبروا أحرارا فى أنفسهم ، وفى أموالهم يتزوجون كما يشاءون وبعدئذ أردف ذلك النهى عن إكراه الإماء على الفجور إن أردن العفة ، ابتغاء ظل زائل من عرض الدنيا .

ثم ختم هذا ببيان أنه أنزل عليكم فى هذه السورة ، وفى غيرها آيات مبينات لكل ماأنتم فى حاجة إلى بيانه من أحكام ، وآداب وحدود زاجرة ، وعقوبات رادعة ، وقصص عجيبة عن الماضين ، وأمثال مضروبة ، لتكون عبرة وذكرى لكم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم ﴾[1] هذا أمر بتزويج هؤلاء استدل منه بعض العلماء على الوجوب حيث لم يصرف الأمر صارف إلى غيره ، وليست هناك قرينة مانعة من إرادة ذلك ، ومما يرجح ذلك ماجاء فى الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ (يامعشر الشباب من أستطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر ، وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء) أخرجاه فى الصحيحين من حديث ابن مسعود .[2]

---

(١) من الآية : ٣٢ من سورة النور .

(٢) البخارى (كتاب الصوم) باب : الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة ج ٣ ص ٣٤ ومسلم أول (كتاب النكاح) ج ٤/ ١٢٨ .

وقد جاء فى السنن من غير وجه : أن رسول الله ﷺ قال : (تزوجوا الولود تناسلوا ، فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة)[1] والأيامى : جمع أيم . ويقال : ذلك للمرأة التى لازوج لها ، وللرجل الذى لازوجة له ، وسواء كان قد تزوج ، ثم فارق أو لم يتزوج واحد منهما ، حكاه الجوهرى من أهل اللغة ، يقال : رجل أيم ، وامرأة أيم .

قوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ هذا وعد منه سبحانه ـ وتعالى ـ ووعد الله لايتخلف إن الله لايخلف الميعاد .

فلكل شىء مفتاح ، ومفتاح الرزق النكاح ، إن الزواج عبادة قال ﷺ (وفى بضع أحدكم صدقة) وجزاء هذه العبادة سعة فى الرزق ، وسكنى بدنية ونفسية ومودة ورحمة . قال ابن عباس : رغبهم الله فى التزويج وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى . فقال سبحانه : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾[2]

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد زخرا ... وعند الله للأتقى مزيد
وإدراك الذى يأتى قريب ... ولكن الذى يمضى بعيد

وعن ابن مسعود قال : (التمسوا الغنى فى النكاح) يقول الله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . رواه ابن جرير .[3]

وعن الليث عن محمد بن عجلان ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ : (ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله[4] . رواه الإمام أحمد وقد زوج النبى ﷺ ذلك الرجل الذى لم يجد عليه إلا إزاره ، ولم يقدر على خاتم من حديد ، ومع هذا فزوجه بتلك المرأة ، وجعل صداقها عليه أن يعلمها مامعه من القرآن .

قوله تعالى : ﴿ والله واسع عليم ﴾ أى واسع الغنى والرحمة والمغفرة قال تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾[5] ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ﴾[6] عليم بأحوالكم ، لطيف بكم ، هو القائل ﴿ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ماأريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[7] .

---

(١) سنن أبى داود (كتاب النكاح) باب : النهى عن تزويج من لم يلد من النساء الحديث رقم ٢٠٠٥ : ٢/ ٢٢٠ ، والنسائى (كتاب النكاح) باب : كراهية تزويج العقيم ٦/ ٦٥
(٢) أنظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ج ٦ ص ٥٤
(٣) تفسير الطبرى ١٨/ ٩٨
(٤) أحمد/٢/٢٥١ ، ٤٣٧ وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى : (أبواب فضائل الجهاد) باب : ماجاء فى المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم حديث رقم ١٧٠٦ ج ٥ ص ٢٩٦ قال الترمذى : هذا حديث حسن وأخرجه النسائى فى (كتاب النكاح) باب : الناكح الذى يريد العفاف ج ٦ ص ٦١ وأخرجه ابن ماجه فى (كتاب العتق) باب : المكاتب حديث ٢٥١٨ ج ٢ ص ٨٤١ ، ٨٤٢ .
(٥) من الآية : ١٥٦ من سورة الأعراف
(٦) من الآية : ٧ من سورة غافر .
(٧) الآيات : ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات .

لم يكن الغنى هو الذى يفضل بعض الناس على بعض ، إنما ميزان الناس فى التقدير الإسلامى هو التقوى ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾(١) لم يقل أغناكم ولا أقواكم ولا أحسبكم ولا أنسبكم ولكن لما انتكست تلك الموازين ، واهتزت هاتيكم القيم .

رأيت الناس قد مالوا ... إلى من عنده مال
ومن لاعنده مال ... فعنه الناس قد مالوا
رأيت الناس قد ذهبوا ... إلى من عنده ذهب
ومن لاعنده ذهب ... فعنه الناس قد ذهبوا
رأيت الناس منفضة ... إلى من عنده فضة
ومن لاعنده فضة ... فعنه الناس منفضة

قوله تعالى ﴿ وليستعفف الذين لايجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله . . ﴾(٢) جاء فى الحديث الشريف (يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)(٣)

فليجتهد فى العفة وصون النفس من لايتمكن من المال الذى به يتم النكاح ولينتظر أن يغنيه الله من فضله ، حتى يصل إلى بغيته من النكاح .

قوله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ﴾(٤) أى والمماليك الذين يطلبون من سادتهم أن يكاتبوهم على أداء مال معين بنحو ما ، ليصيروا بعد أدائها أحرارا ويكونون قادرين على الكسب ، وأداء ماكاتبوا عليه من الأمانة والصدق ، فكاتبوهم بعد انتهاء الأجل ، وأداء مأوجبوه على أنفسهم أحرارا فى رقابهم وفى كسبهم .

ثم حث المؤمنين جميعا على تحرير الرقاب فقال : ﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾(٥) أى وآتوا أيها السادة المكاتبين شيئا من مال الله الذى أعطاكم ، وليس لكم فيه فضل ، فإن الله ربكم ورب عبيدكم ، وأموالكم ملكه ، وأعطوا أيها الحكام المكاتبين سهومهم التى جعلها الله لهم فى بيت المال فى مصارف الزكاة بقوله ﴿ وفى الرقاب ﴾(٦) أى وفى تحرير الأرقاء .

وفى هذا حث لجميع المؤمنين على عتق الرقاب ، روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : (ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح يريد العفاف ، والمجاهد فى سبيل الله)(٧) .

---

(١) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .
(٢) من الآية : ٣٢ من سورة النور .
(٣) البخارى (كتاب الصوم) باب : الصوم لمن خاف على نفسه العزوبة : ٣/ ٣٤ ومسلم أول كتاب النكاح ٤/ ١٢٨ .
(٤) من الآية : ٣٣ من سورة النور .
(٥) من الآية : ٣٣ من سورة النور
(٦) من الآية : ٦٠ من سورة التوبة .
(٧) رواه أحمد فى مسند ـ مسنده أبى هريرة ـ ج ٢ ص ٢٥١ ، ٤٣٧ بتقديم وتأخير فى ألفاظه .
وأخرجه ابن ماجه (فى كتاب العتق) باب : المكاتب رقم ٢٥١٨ ج ٢ ص ٨٤١ ، ٨٤٢ مع تقديم وتأخير فى ألفاظه أيضا .
وفى الترمذى فى (أبواب الجهاد) باب : ماجاء فى المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم ج ٣ ص ١٠٣ رقم ١٧٠٦ أيضا بتقديم وتأخير فى ألفاظه وقال : وهو حديث حسن .
وأخرجه الإمام النسائى بنصه : فى (كتاب النكاح) باب : معونة الله الناكح الذى يريد العفاف ج ٦ ص ٥٠ ط الحلبى .

فالحمد لله الذى حرر العبيد بفضل مابعث به نبيه ومصطفاه لقد كانت أول رشفة لبن نزلت فى جوفه الشريف من أمة هى ثويبة جارية عمه أبى لهب ولما بشرته بمولد ابن أخيه قال لها : إذهبى فأنت حرة فكان مولده الشريف إيذانا بتحرير العبيد ، وصارت الحرية حقا لمن يعيش على وجه البسيطة ، صارت كالماء والهواء والضياء ، لقد جعل الاسلام من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم .

سيدى أبا القاسم يارسول الله

لو أن انسانا تخير ملة ... ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يدا ... هى أنت ، بل أنت اليد البيضاء
البر عندك ذمة وفريضة ... لا منة ممنوتة وجباء
جاءت فوحدت الزكاة سبيله ... حتى سخا الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سواء

ـ ومن أراد المزيد عن تحرير العبيد فليرجع إلى رحاب تفسيرنا لقوله تعالى :
﴿ إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم ﴾[1] فى صدر سورة المؤمنون

ثم نهى المؤمنين عن السعى فى جمع المال بسبل الحرام فقال سبحانه :
﴿ ولاتكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾[2] أى لاتكرهوا إماءكم على الزنا إن كن يردن التعفف والتحصن التماسا لعرض الدنيا من مال وزينة ورياش .

وفى قوله : ﴿ إن أردن تحصنا ﴾ زيادة فى تقبيح حالهم وتشنيع عليهم ، فإن ذا المروءة لايرضى بفجور من يحويه بيته من إمائه فضلا عن أمرهن بذلك وإكراههن عليه ، ولاسيما عند إرادة التعفف وتوافر الرغبة فيه .

أخرج مسلم وأبو داود عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أن جارية لعبد الله بن أبى ابن سلول يقال لها : (مسيكة) وأخرى يقال لها : (أميمة) كان يكرههما على الزنا فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية[3] .

ثم أبان أنهن إن أكرهن فالوزر على من أكرههن لاعليهن فقال :
﴿ ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم ﴾[4] أى : ومن يكرههن على البغاء فإن الله غفور رحيم لهن من بعد إكراههن والذنب على المكره لهن ، وكان الحسن إذا قرأ الآية قال : لهن والله لهن والله .

وبعد أن فصل هذه الأحكام وبينها امتن على عباده بذلك فقال تعالى : ﴿ ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين ﴾[5]

---

(١) من الآية : ٦ من سورة المؤمنون .
(٢) من الآية : ٣٣ من سورة النور
(٣) الحديث أورده القرطبى (فى تفسير سورة النور) ج ١٢ ص ٢٥٤ فى صحيح مسلم عن جابر
(٤) من الآية : ٣٣ من سورة النور
(٥) الآية : ٣٤ من سورة النور .

وفى هذه الآية يخبر سبحانه وتعالى : أنه أنزل إلينا فى كتابه آيات مبينات للأحكام ، كما أنزل مثلا من الأمم السابقة ، فإذا كان أهل الإفك قد رموا أم المؤمنين عائشة مما هى منه بريئة . فإن اليهود قد رموا مريم قال تعالى : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ فأتت به قومها تحمله ، قالوا يامريم لقد جئت شيئا فريا ﴾(٢) وقد برأ الله مريم كما برأ عائشة . ﴿ وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾(٣)

وهذا القرآن فيه موعظة للمتقين ، فاقرأوه وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم وهو الهادى إلى الصراط المستقيم .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديلا

فو الله لو أكرمنا كتاب الله ماأهاننا أحد ، ولو طبقنا حدوده لرفرفت راية الحبيب محمد على كل بلد ، فيا أخا الاسلام قم سلسل الدموع حزنا على هذا الفساد الشائع ، ومزق الضلوع كمدا على هذا الضمير الضائع ، بين قسوة العاطفة ، وغفوة الضمير ، نامت النفوس على هدهدة الشهوات ، وضعف وازع الدين فى النفوس ، وكما قال المصلح الإسلامى جمال الدين الأفغانى :
(إن المسلمين ماتت عزائمهم ومات فيهم كل شيء إلا شهواتهم)
أيها المصلحون :

ضاق بنا العيش ولم تحسنوا عليه القياما
عزت السلعة الذليلة حتى بات مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت فى يد الناس كالـ ياقوت حتى نوى الفقير الصياما
أصلحوا نفسا أضر بها الفقر وأحيا بموتها الآثاما
وأغيثوا من الغلاء نفوسا قد تمنت مع الغلاء الحماما
وتخال الرغيف فى البعد بدرا وتظن اللحوم صيدا حراما

النور

قال تعالى :

* ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ

(١) الآية : ١٥٦ من سورة النساء .
(٢) الآية : ٢٧ من سورة مريم .
(٣) الآية : ٤٢ من سورة آل عمران .

زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ
ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ
يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ
ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ
أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ
عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ
مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ
يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ
صَـٰٓفَّـٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

تفسير المفردات

نور : أى ذو نور أى هو هاد أهل السموات والأرض ، والمراد العالم كله والمشكاة : لفظ حبشى معرب يراد به الكوة غير النافذة ، الزجاجة : القنديل من الزجاج ، والدرى : المضىء المتلألىء منسوب إلى الدر ، لاشرقية ولا غربية ، أى : ضاحية للشمس لايظلها جبل ولا شجر ولا يحجبها عنها شىء من الشروق إلى الغروب . يضرب الله الأمثال : أى يبين للناس الأشباه والأمثال .

المراد بالبيوت : المساجد ، وأذن : أمر ، أن ترفع : أى : أن تعظم وتطهر عن الأنجاس ، وعن اللغو من الأقوال ، يسبح : أى : ينزه ويقدس الغدو والغداة : أول النهار ، والأصال : واحدها أصيل وهو العشى : أى : آخر النهار ، تلهيهم : أى : تشغلهم وتصرفهم ، وتجارة أى : نوع من هذه الصناعة ، ولابيع : أى فرد من أفراد البياعات وخصه بالذكر ؛ لأنه أدخل فى الالهاء ، وإقامة الصلاة : أى إقامتها لمواقيتها ، وإيتاء الزكاة : أى المال الذى فرض اخراجه للمستحقين ، واليوم : يوم القيامة ، وتتقلب فيه القلوب والأبصار : أى تضطرب وتتغير من الهول والفزع . السراب : مايرى

فى الفلاة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب ويجرى على وجه الأرض كأنه ماء والقيعة والقاع : المنبسط من الأرض ، والظمآن : شديد العطش لجى : أى ذى لج واللج بالضم معظم الماء ، والمراد بحر عميق الماء كثيره ، يغشاه : أى يغطيه ، لم يكد يراها : أى لم يقرب أن يراها فضلا عن أن يراها .. يسبح : أى ينزه ويقدس صافات : أى باسطات أجنحتها فى الهواء .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه أنزل فى هذه السورة آيات مبينات لكل مايحتاج إليه الناس فى صلاح أحوالهم فى معاشهم ومعادهم من الشرائع والأحكام والآداب والأخلاق ، بين أنه نور السموات والأرض بما بث فيهما من الآيات الكونية والآيات التى أنزلها على رسله دالة على وجوده ووحدانيته ، وسائر صفاته من قدرة وعلم إلى نحو أولئك ، هادية إلى صلاح أمورهم فى الدنيا والآخرة ، ثم بين حال من حصلت لهم الهداية بذلك النور ، وذكر بعض أعمالهم القلبية والحسية ثم أردف ذلك ببيان حال أجدادهم وهم الكفار ، فذكر أنهم يكونون فى الآخرة فى أشد الخسران والبوار ، وفى الدنيا فى ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، وضرب لكلتا الحالتين مثلا يوضحهما أتم الإيضاح والبيان . ثم أعقب ذلك بذكر الأدلة التى تثبت فى جلاء ووضوح أنه الواحد الخالق البارىء المصور وأن تلك الكائنات طوع إرادته ، كل قد علم صلاته وتسبيحه وأن المصير إليه لا إلى غيره ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾[1] فهو المالك الملك المتصرف فى ملكه المدبر لشئون مملكته لاينقصه نائل ، ولايشغله سائل ، هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة سبحه الطير فى وكره ومجده الوحش فى قفره .
﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾[2]

التفسير

قوله تعالى :

﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء . ويضرب الله الأمثال للناس . والله بكل شىء عليم ﴾[3] قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى :

قال أبى بن كعب : مثل نوره فى قلب المسلم . وهذا هو النور الذى أودعه الله فى قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس . وأصله فى قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم يبصره من هو من جنسهم ، وإن كان سائر الخلق له منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا .

---

(١) الآيتان : ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .
(٢) من الآية : ٢٥ من سورة الروم .
(٣) الآية : ٣٥ من سورة النور .

منهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه يضىء مرة ويطفىء مرة أخرى ، إذ كانت هذه حال نوره فى الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا ، بل كان نوره ظاهرا لا باطنا أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله - عز وجل - لهذا النور ومحله وحامله ومادته مثلا بالمشكاة ، وهى الكوة فى الحائط فهى مثل الصدر ، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج حتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه وصفائه وهى القلب . وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هى فى قلب المؤمن ، وهى الصفاء والرقة والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه وتحصل منه الرأفة والرحمة والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله - تعالى - ويغلظ عليهم ويشتد فى الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، ولاتبطل صفة منه صفة أخرى ، ولاتعارضها بل تساعدها وتعاضدها ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ ياأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾[3]

وفى أثر القلوب آنية الله - تعالى - فى أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها » .

وبازاء هذا القلب قلبان مذمومان على طرفى نقيض .

أحدهما : قلب حجرى قاس ، لارحمة فيه ، ولا إحسان ولا بر ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل جبار جاهل ، لاعلم له بالحق ولا رحمة فيه للخلق .

وبإزائه قلب ضعيف مائى لاقوة فيه ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير فى غيره . . وكل ماخالطه أثر فيه من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث وفى الزجاجة مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ولذلك النور مادة وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار فهذه مادة نور المصباح ، وكذلك مادة نور المصباح فى قلب المؤمن هى من شجرة الوحى التى هى أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شىء .

فهذه مادة مصباح الإيمان فى قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه . حتى كاد أن يضىء بنفسه ثم خالط النار فاشتدت بها إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار فيه كان ذلك نورا على نور وهكذا المؤمن . قلبه مضىء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لامادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحى ، فباشرت قلبه وخالطت بشاشته فازداد نورا بالوحى على نوره الذى فطره الله - تعالى - عليه ، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة . نور على نور . فيكاد ينطق بالحق ، وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت

(١) من الآية : ٢٩ من سورة الفتح
(٢) من الآية : ١٥٩ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٧٣ سورة التوبة

به فطرته ، فيكون نورا على نور .

فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحى وعن شهادة الفطرة - فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ومطابقتها لهذه المعانى الشريفة فقد ذكر سبحانه وتعالى : نوره فى السموات والأرض ، ونوره فى قلب عباده المؤمنين : النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى ، فهما نوران عظيمان وأحدهما أعظم من الآخر ، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع لم يهف فيه آدمى ولا غيره ؛ لأن الحيوان إنما يكون حيث يكون النور ومواضع الظلمة التى لايشرق عليها نور لايعيش فيها حيوان ولا يكون البتة .

فكذلك أمة فقد فيها نور الوحى والإيمان ميتة ولابد قلب فقدمنه هذا النور ميت ولابد لاحياة له البتة كما لاحياة للحيوان فى مكان لانور فيه .

قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾(١)

وقد فسر قوله تعالى : ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ بكونه منور السموات والأرض وهادى أهل السموات والأرض ، فبنوره اهتدى أهل السموات والأرض ، وهذا إنما هو فعله وإلا فالنور الذى هو من أوصافه قائم به ومنه اشتق له اسم النور الذى هو أحد الأسماء الحسنى .

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين : إضافة صفة إلى موصوفها ، وإضافة مفعول إلى فاعله .

فالأول كقوله - عز وجل - ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾(٢) فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء .

ومنه قول النبى ﷺ فى الدعاء المشهور (أعوذ بنور وجهك الكريم : أن تضلنى ، لاإله إلا أنت) وفى الأثر الآخر (اعوذ بوجهك أو بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات)(٣) .

فأخبر ﷺ أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله كما أخبر تعالى : أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره وفى معجم الطبرانى والسنة له وكتاب عثمان بن سعيد الدارمى وغيرها : عن ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - قال : (ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه)

وهذا الذى قاله ابن مسعود - رضى الله تعالى عنه - أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادى أهل السموات والأرض .

وأما من فسرها : بأنه منور السموات والأرض فلا تنافى بينه وبين قول ابن مسعود .

والحق أنه نور السموات والأرض بهذه الاعتبارات كلها .

---

(١) الآية : ٣٥ من سورة النور .

(٢) من الآية : ٦٩ من سورة الزمر .

(٣) الحديث رواه محمد بن إسحاق فى السيرة : عن رسول الله ﷺ أنه قاله : فى دعائه يوم آذاه أهل الطائف . هكذا أورده الحافظ ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم - فى تفسير (سورة النور) ج ٦ ص ٦١

وفى صحيح مسلم وغيره من حديث ابى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : (قام بيننا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : (إن الله لاينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماأنتهى إليه بصره من خلقه)[١] .

وفى صحيح مسلم عن ابى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : (سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ قال : (نور أنى أراه ؟)[٢] سمعت شيخ الاسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يقول : معناه : كان ثم نور ، أو حال دون رؤيته نور ، فأنى أراه ؟ قال : ويدل عليه : ان فى بعض الألفاظ الصحيحة هل رأيت ربك ؟ فقال : (رأيت نورا) .

وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صححه بعضهم فقال : (نورانى أراه) على أنها ياء النسب والكلمة كلمة واحدة وهذا خطأ لفظا ومعنى .

وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ : أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه وكان قوله (أنى أراه) كالإنكار للرؤية حاروا فى الحديث ورده بعضهم بإضطراب لفظه .

وكل هذا عدول عن موجب الدليل .

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمى فى كتاب الرؤية له إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك :

وشيخنا يقول : ليس ذلك بخلاف فى الحقيقة قال ابن عباس : لم يقل رآه بعينى رأسه ، وعليه اعتمد احمد فى إحدى الروايتين حيث قال : إنه ﷺ رأى ربه ـ عز وجل ـ ولم يقل بعينى رأسه . ولفظ أحمد لفظ ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ .

ويدل على صحته : ماقال شيخنا فى معنى حديث ابى ذر ـ رضى الله عنه ـ قوله ﷺ فى الحديث الأخر (حجابه النور) فهذا النور هو ـ والله أعلم ـ النور المذكور فى حديث أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ (رأيت نورا)

قوله تعالى ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾[٣] هذا مثل لنوره فى قلب عبده المؤمن كما قال ابى ابن كعب وغيره .

وقد اختلف فى مفسر الضمير فى (نوره) فقيل : هو النبى ﷺ أى : مثل نور محمد ﷺ وقيل : مفسره المؤمن أى : مثل نور المؤمن .

والصحيح : أنه يعود على الله ـ سبحانه وتعالى ـ والمعنى : مثل نور الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى قلب عبده وأعظم عباده نصيبا من هذا النور : رسوله ﷺ فهذا مع ماتضمنه عود الضمير المذكور ، وهو وجه الكلام يتضمن التقارير الثلاثة ، وهو أتم لفظا ومعنى .

---

(١) الحديث اخرجه الإمام مسلم فى صحيحه : فى (كتاب الإيمان) باب : إن الله لاينام الخ ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ رقم ١٧٩ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم : فى (كتاب الإيمان) باب : فى قوله (عليه السلام) نور أنى أراه ، وفى قوله : رأيت نورا ، ج ١ ص ١٦١ رقم ١٧٨ .

(٣) من الآية : ٣٥ من سورة النور .

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه . ويضاف إلى العبد إذا هو محله وقابله فيضاف إلى الفاعل والقابل ، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة .

وقد تضمنت الآية : ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل فالفاعل : هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادى لنوره من يشاء .

والقابل : العبد المؤمن .

والمحل : قلبه والحامل : همته وعزيمته وإرادته .

والمادة : قوله وعمله .

وهذا التشبيه العجيب الذى تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعانى ، وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره . ماتقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم . وفى هذا التشبيه لأهل المعانى طريقتان :

إحداهما : طريقة التشبيه المركب وهي أقرب مأخذا وأسلم من التكلف ، وهى أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه ، ومقابلته بجزء من المشبه به ، وعلى هذا عامة أمثال القرآن .

فتأمل صفة المشكاة وهى كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها مصباح ، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرى فى صفائها وحسنها ، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودا من زيت شجرة فى وسط القراح لاشرقية ولا غربية بحيث تصيبها الشمس فى احد طرفى النهار ، بل هى فى وسط القراح محمية بأطرافه تصيبها الشمس أعدل إصابة ، والآفات إلى الأطراف دونها ، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائه وحسنه يكاد يضىء من غير أن تمسه نار بهذا المجموع المركب ، هو مثل نور الله - تعالى - الذى وصفه فى قلب عبده المؤمن وخصه به .

والطريقة الثانية : طريقة التشبيه المفصل فقيل : المشكاة صدر المؤمن .

والزجاجة : قلبه شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها ، وكذلك قلب المؤمن ، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة فهو يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته وبصفائه ، تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ماهى عليه ، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب مافيه من الصفاء ، وبصلابته يشتد فى أمر الله ويتصلب فى ذات الله - تعالى - ويغلظ على أعداء الله - تعالى - ويقوم بالحق لله - تعالى - .

وقد جعل الله - تعالى - القلوب كالآنية كما قال بعض السلف :

(القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إلى الله أرقها وأصلبها وأصفاها) والمصباح هو نور الإيمان فى قلبه ، والشجرة المباركة : هى شجرة الوحى المتضمنة للهدى ودين الحق ، وهى مادة المصباح التى يتقد منها ، والنور على النور ، نور الفطرة الصحيحة . والإدراك الصحيح ونور الوحى والكتاب ، فينضاف أحد النورين إلى الآخر فيزداد العبد نورا على نور ، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع مافيه من الأثر ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع فى قلبه ونطق به ، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحى ، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذى جاء به الرسول - ﷺ - هو الحق لايتعارض عنده العقل والنقل بل يتصادقان ويتوافقان ، فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت فى قلبه أمواج الشبه الباطلة ،

والخيالات الفاسدة ، من الظنون والجهليات التى يسميها أهلها القواطع العقليات ، فهى فى صدره كما قال الله ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾(١) .

فانظر كيف تضمنت هذه الآيات طرائق انتظمت طوائف بنى آدم أتم انتظام ، وأشتملت عليها أكمل اشتمال ، فإن الناس قسمان : أهل الهدى والبصائر الذين عرفوا أن الحق فيما جاء به الرسول ـ ﷺ عن الله سبحانه ، وأن كل ماعارضه فشبهات يشتبه أمرها على من قل نصيبه من العقل والسمع ، فيظنها شيئا له حاصل ينتفع به وهى :

﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾(٢) .

وهؤلاء هم أهل الهدى ودين الحق ، وأصحاب العلم النافع والعمل الصالح ، الذين صدقوا الرسول ﷺ فى أخباره ، ولم يعارضوه بالشبهات . وأطاعوه فى أوامره ، ولم يضيعوها بالشهوات . فلا هم فى عملهم من أهل الخوض الخراصين ﴿ الذين هم فى غمرة ساهون ﴾(٣) ولا هم فى عملهم من المستمتعين بخلافهم الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، وأولئك هم الخاسرون .

أضاء لهم نور الوحى المبين ، فرأوا فى نوره أهل الظلمات فى ظلمات آرائهم يعمهون وفى ضلالتهم يتهوكون ، وفى ريبهم يترددون مغترين بظاهر السراب منحلين مجدبين مما بعث الله به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب ، إن عندهم إلا نحاته الأفكار وزبالة الأذهان التى قد رضوا بها واطمأنوا إليها وقدموها على السنة والقرآن ﴿ إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه ﴾(٤) أوجبه لهم اتباع الهوى ونخوة الشيطان وهم لأجله يجادلون فى آيات الله بغير سلطان .

القسم الثانى : أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به رسول الله ﷺ والظلم لأنفسهم باتباع أهوائهم الذين قال الله ـ تعالى ـ فيهم ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾(٥) .

وهؤلاء قسمان :

أحدهما : الذين يحسبون أنهم على علم وهدى ، وهم أهل الجهل والضلال .

فهؤلاء أهل الجهل المركب الذين يجهلون الحق ويعادون أهله ، وينصرون الباطل ويوالونه ويوالون أهله ، ﴿ ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾(٦) .

فهم لاعتقادهم الشىء على خلاف ماهو عليه ، بمنزلة رائى السراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذى يخون صاحبه أحوج ماهو إليه ، ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان ، كما هو حال من أم السراب فلم يجده ماء بل أنضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين سبحانه وتعالى ـ فحسب له ماعنده من العلم

---

(١) الآية : ٤٠ من سورة النور
(٢) الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ من سورة النور
(٣) سورة الذاريات : الآية : ١١١
(٤) سورة غافر : من الآية : ٥٦
(٥) الآية : ٢٣ من سورة النجم .
(٦) سورة المجادلة : آية ١٨

والعمل ، فوفاه إياه عثاقيل الذر ، وقدم إلى ماعمل من عمل يرجو نفعه فجعله هباء منثورا .

اذ لم يكن خالصا لوجهه ، ولا على سنة رسوله ﷺ وصارت تلك الشبهات الباطلة التى كان يظنها علوما نافعة كذلك هباء منثورا ، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه و (السراب) مايرى فى الفلاة المنبسطة ، من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجرى .

و (القيعة) والقاع : هو المنبسط من الأرض الذى لاجبل فيه ولا واد .

فشبه علوم من لم يأخذ علومه من الوحى وأعماله : بسراب يراه المسافر فى شدة الحر فيؤمه فيخيب ظنه ويجده نارا تتلظى .

فهذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء ، وإذا أتوه وجدوا الله عنده ، فأخذتهم زبانية العذاب ، فنقلوهم إلى نار الجحيم . ﴿ فسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم ﴾[(١)]

وذلك الماء الذى سقوه هو تلك العلوم التى لاتنفع ؛ والأعمال التى كانت لغير الله - تعالى - صيرها الله تعالى حميا وسقاهم إياه ، كما أن طعامهم ﴿ من ضريع لايسمن ولا يغنى من جوع ﴾[(٢)] .

وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة التى كانت فى الدنيا ، كذلك لاتسمن ولا تغنى من جوع .

وهؤلاء هم الذين قال الله عنهم : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ؟ الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [(٣)].

وهم الذين عنى الله بقوله : ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾

وهم الذين عنى بقوله تعالى ﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار ﴾ .

القسم الثانى من هذا الصنف : أصحاب الظلمات .

وهم المنغمسون فى الجهل بحيث قد أحاطت بهم جاهليتهم من كل وجه ، وهم لذلك بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلا فهؤلاء أعمالهم التى يعملونها على غير بصيرة ، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور الله تعالى .

(فظلمات) جمع ظلمة : وهى ظلمة الجهل ، وظلمة الكفر ، وظلمة ظلم النفس بالتقليد وأتباع الهوى ، وظلمة الشك والريب ، وظلمة الإعراض عن الحق ، الذى بعث الله - تعالى - به رسله - صلوات الله وسلامه عليهم - والنور الذى أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور .

فالمعرض عما بعث الله به عبده ورسوله محمدا ﷺ من الهدى ودين الحق . يتقلب فى خمس ظلمات : قوله ظلمة . وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى ظلمة ، وقلبه مظلم ، ووجهه مظلم ، وكلامه مظلم ، وحاله مظلم وإذا قابلت بصيرته الخفاشية مابعث الله به محمدا ﷺ من النور جد فى الهرب منه ، وكاد نوره يخطف بصره فهرب إلى ظلمات الآراء التى هى

---

(١) سورة محمد جزء الآية : ١٥

(٢) الآية : ٧ من سورة الغاشية .

(٣) الآيتان : ١٠٣ ، ١٠٤ من سورة الكهف .

به أنسب كما قيل : -

خفافيش أغشاها النهار بضوئه ووافقتها قطع من الليل مظلم .

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونحاتة الأذهان جال وصال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع فإذا طلع نور الوحى وشمس الرسالة انجحر فى جحرة الحشرات .

قوله (فى بحر لجى) (اللجى) العميق منسوب إلى لجة البحر وهو معظمه .

قوله تعالى : ﴿ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ﴾(١)

تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه .

فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل فى صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر ، وأنها أمواج بعضها فوق بعض .

والضمير الأول فى قوله : ﴿ يغشاه ﴾ راجع إلى البحر والضمير الثانى فى قوله : ﴿ من فوقه ﴾ عائد إلى الموج .

ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب .

فهناك ظلمات : ظلمة البحر اللجى ، وظلمة الموج الذى فوقه ، وظلمة السحاب الذى فوق ذلك كله إذا أخرج من فى هذا البحر يده لم يكد يراها .

واختلف فى معنى ذلك .

فقال كثير من النحاة : هو نفى لمقاربة رؤيتها وهو أبلغ من نفيه الرؤية ، وأنه قد ينفى وقوع الشىء ولا ينفى مقاربته .

فكأنه قال : لم يقارب رؤيتها بوجه

قال هؤلاء : (كاد) من أفعال المقاربة لها حكم سائر الأفعال فى النفى والإثبات ، فإذا قيل : كاد يفعل فهو إثبات مقاربة الفعل ، فإذا قيل : لم يكد يفعل فهو نفى لمقاربة الفعل .

وقالت طائفة أخرى : بل هذا دال على أنه إنما يراها بعد جهد شديد ، وفى ذلك إثبات رؤيتها بعد أن عظم العسر لأجل تلك الظلمات .

قالوا : لأن (كاد) لها شأن ليس لغيرها من الأفعال فإنها إذا أثبتت نفت ، وإذا نفت أثبتت ، فإذا قلت :

ماكدت أصل إليك فمعناه : وصلت إليك بعد الجهد والشدة فهذا إثبات للوصول . وإذا قلت : كاد زيد يقوم فهى نفى لقيامه . كما قال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾(٢) ومنه قوله تعالى :

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ﴾(٣) .

وأنشد بعضهم فى ذلك لغزا

أنحوى هذا العصر : ماهى لفظة جرت فى لسان جرهم وثمود

وإذا استعملت فى صورة النفى أثبتت فإن أثبتت قامت مقام جحود ؟

(١) من الآية : ٤٠ من سورة النور .
(٢) الآية : ١٩ من سورة الجن .
(٣) من الآية : ٥١ من سورة القلم .

وقالت فرقة ثالثة منهم أبو عبد الله بن مالك وغيره :

إن استعمالها مثبتة ، يقتضى نفى خبرها كقولك :

كاد زيد يقوم ، واستعمالها منفية ، يقتضى نفيه بطريق الأولى ، فهى عنده تنفى الخبر سواء كانت منفية أو مثبتة فلم يكد زيد يقوم أبلغ عنده فى النفى من لم يقم ، واحتج بأنها إذا نفيت وهى من أفعال المقاربة فقد نفت مقاربة الفعل وهو أبلغ من نفيه وإذا استعملت مثبتة فهى تقتضى مقاربة اسمها لخبرها ، وذلك يدل على عدم وقوعه واعتذر عن مثل قوله تعالى : ﴿ فذبحوها وماكادوا يفعلون ﴾[1] وعن مثل قوله : وصلت إليك وماكدت أصل ، وسلمت وماكدت أسلم : بأن هذا وارد على كلامين متباينين أى : فعلت كذا بعد أن لم أكن مقاربا له .

فالأول يقتضى وجود الفعل ، والثانى يقتضى أنه لم يكن مقاربا له ، بل كان آيسا منه ، فهما كلامان مقصود بهما أمران متباينان .

وذهبت فرقة رابعة : إلى الفرق بين ماضيها ومستقبلها فإذا كانت فى الإثبات فهى لمقارنة الفعل سواء كانت بصفة الماضى أو المستقبل ، وإن كانت فى طرف النفى فإن كانت بصيغة المستقبل كانت لنفى الفعل ، ومقاربته نحو قوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ وان كانت بصيغة الماضى :

فهى تقتضى الإثبات نحو قوله : ﴿ فذبحوها وماكادوا يفعلون ﴾

فهذه أربعة طرق للنحاة فى هذه اللفظة .

والصحيح أنها فعل يقتضى المقاربة ، ولها حكم سائر الأفعال ونفى الخبر لم يستفد من لفظها ووضعها فإنها لم توضع لنفيه ، وإنما أستفيد من لوازم معناها فإنها إذا اقتضت مقاربة الفعل لم يكن واقعا فيكون منفيا باللزوم .

وأما إذا استعملت منفية فإن كانت فى كلام واحد فهى لنفى المقاربة .

كما إذا قلت : لايكاد البطال يفلح ، ولايكاد البخيل يسود ، ولايكاد الجبان يفرح ، ونحو ذلك .

وإن كانت فى كلامين اقتضت وقوع الفعل بعد إن لم يكن مقاربا كما قال ابن مالك : فهذا التحقيق فى أمرها .

والمقصود أن قوله : ﴿ لم يكد يراها ﴾ إما أن يدل على أنه لا يقارب رؤيتها لشدة الظلمة ، وهو الأظهر ، فإذا كان لايقارب رؤيتها فكيف يراها ؟

قال ذو الرمة :

إذ غير النأى المحبين لم يكد رسيس الهوى من حب فيه يبرح

أى : لم يقارب البراح وهو الزوال فكيف يزول ؟

فشبه سبحانه أعمالهم أولا : فى فوات نفعها وحصول ضررها عليهم بسراب خداع يخدع رائيه من بعيد ، فإذا جاءه وجد غيره عكس ماأمله ورجاه .

وشبهها ثانيا : فى ظلمتها وسوادها لكونها باطلة خالية عن نور الإيمان بظلمات متراكمة فى لجج البحر المتلاطم الأمواج الذى قد غشيه السحاب من فوقه .

---

(١) من الآية : ٧١ من سورة البقرة .

فياله تشبيها ماأبدعه وأشد مطابقتهلحال أهل البدع والضلال وحال من عبد الله سبحانه ـ وتعالى ـ على خلاف مابعث به رسوله ﷺ وترك به كتابه وهذا التشبيه هو تشبيه لأعمالهم الباطلة بالمطابقة والتصريح ، ولقلوبهم وعقائدهم الفاسدة باللزوم وكل واحد من السراب والظلمات مثل لمجموع علومهم وأعمالهم ، فهى سراب لاحاصل لها ، وظلمات لانور فيها .

وهذا عكس مثل أعمال المؤمن وعلومه ، التى تلقاها من مشكاة الكوة فإنها مثل الغيث الذى به حياة البلاد والعباد .

ومثل النور الذى به انتفاع أهل الدنيا والآخرة .

ولهذا يذكر سبحانه هذين المثلين فى القرآن فى غير موضع لأوليائه وأعدائه .

ذكر سبحانه للكافرين مثلين : مثلا بالسراب ، ومثلا بالظلمات المتراكمة ، وذلك لأن المعرضين عن الهدى والحق نوعان :

أحدهما : من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ماكان يظنه ، وهذه حال أهل الجهل ، وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم فإذا انكشفت الحقائق تبين أنهم لم يكونوا على شيء ، وأن عقائدهم وأعمالهم التى ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرى فى عين الناظر ماء ولاحقيقة له ، وهكذا الأعمال التى لغير الله وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له ، وليست كذلك وهذه الأعمال التى قال ـ عز وجل ـ فيها : ﴿ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾[1] .

وتأمل جعل الله ـ سبحانه ـ السراب بالقيعة وهى الأرض القفراء الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم ، فجعل السراب أرض قفر لاشيء بها ، والسراب لاحقيقة له ، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التى أقفرت من الإيمان والهدى .

وتأمل ماتحت قوله : ﴿ يحسبه الظمآن ماء ﴾ والظمآن : الذى قد اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئا بل خانه أحوج ماكان إليه ، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسول ﷺ ولغير الله جعلت كالسراب ، فرفعت لهم أظمأ ماكانوا ، وأحوج ماكانوا إليها فلم يجدوا شيئا ، ووجدوا الله سبحانه ، فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم .

وفى الصحيح من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى حديث التجلى يوم القيامة (ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها السراب فيقال لليهود : ماكنتم تعبدون ؟ فيقولون كنا نعبد عزير ابن الله ، فيقال كذبتم ، لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال لهم : اشربوا ، فيتساقطون فى جهنم . ثم يقال للنصارى : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد المسيح ابن الله ، فيقال لهم : كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد ، فما تريدون ؟ فيقولون : نريد أن تسقينا ، فيقال لهم : اشربوا فيتساقطون) وذكر الحديث .[2] .

وهذه حال كل صاحب باطل ، فإنه يخونه باطله أحوج ماكان إليه فإن الباطل لاحقيقة له ، وهو كاسمه باطل .

---

(١) الآية : ٢٣ من سورة الفرقان .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم : فى (كتاب الإيمان) باب : معرفة طريق الرؤيا وأخرجه البخارى : فى (كتاب التوحيد) باب : فى قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولاحق ، كان متعلقه باطلا ، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله . أو على أمره بطل العمل ببطلان غايته ، وتضرر عامله من بطلانه ، وبحصول ضد ماكان يؤمله فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لاله ، ولا عليه ، بل صار معذبا بفوات نفعه ، وبحصول ضد النفع فلهذا قال تعالى :

﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ (١)

فلهذا مثل الضال الذى يحسب أنه على هدى .

النوع الثانى :

أصحاب مثل الظلمات المتراكمة وهم الذين عرفوا الحق والهدى ، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال ، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع ، وظلمة النفوس ، وظلمة الجهل ، حيث لم يعملوا بعلمهم ، فصاروا جاهلين ، وظلمة اتباع الغي والهوى ، فحالهم كحال من كان فى بحر لجى لا ساحل له ، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج ومن فوقه سحاب مظلم ، فهو فى ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب ، وهذا نظير ماهو فيه من الظلمات التى لم يخرجه الله منها إلى نور الايمان .

وهذان المثلان بالسراب الذى ظنه مادة الحياة وهو الماء ، والظلمات المضادة للنور . نظير المثلين اللذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين ، وهما المثل المائى ، والمثل النارى ، وجعل حظ المؤمنين منهما : الحياة والإشراق ، وحظ المنافقين منهما : الظلمة المضادة للنور ، والموت المضاد للحياة .

فكذلك الكفار فى هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذى يغر الناظر ولا حقيقة له ، وحظهم الظلمات المتراكمة ، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار ، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحى ، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد ، ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار ، وأن أصحاب المثل الأول : هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة ، بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف ، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وأصحاب المثل الثانى : هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى ، وآثروا الباطل على الحق ، وعموا عنه بعد أن أبصروه وجحدوه ، بعد أن عرفوه ، فهذا حال المغضوب عليهم ، والأول حال الضالين ، وحال الطائفتين : مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين فى قوله تعالى : **﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** - إلى قوله : - **ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾**

فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة المنعم عليهم وهم أهل النور ، والضالين وهم أصحاب السراب ، والمغضوب عليهم ، وهم أهل الظلمات المتراكمة : والله أعلم .

والمثل الثانى لأصحاب العلم الذى لاينفع ، والاعتقادات الباطلة وكلاهما مضاد للهدى ودين الحق ، ولهذا مثل حال الفريق الثانى فى تلاطم أمواج الشكوك والشبهات ، والعلوم الفاسدة فى قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه وإنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم ، وهكذا أمواج الشكوك والشبهات فى قلوبهم المظلمة التى قد تراكمت عليها سحب الغى والهوى ، والباطل .

---

(١) من آية : ٣٩ من سورة النور .

فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين ، وليطابق بينهما وبين المثلين يعرف عظمة القرآن وجلالته ، وأنه تنزيل من حكيم حميد .

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك : أنه لم يجعل لهم نورا بل تركهم على الظلمة التى خلقوا فيها ، فلم يخرجهم منها إلى النور فإنه سبحانه ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور وفى المسند من حديث عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ﷺ قال : (إن الله خلق خلقه فى ظلمة ، وألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله)[1]

فالله سبحانه خلق الخلق فى ظلمة فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا يحيى به قلبه وروحه كما يحيى بدنه بالروح التى ينفخها فيه .

فهما حياتان : حياة البدن بالروح ، وحياة الروح والقلب بالنور ، ولهذا سمى سبحانه الوحى روحا ، لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، كما قال تعالى : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾[2] وقال : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾[4] .

فجعل وحيه روحا ونورا ، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت ، ومن لم يجعل له نورا منه فهو فى الظلمات ، وماله من نور .

جزى الله العلامة ابن القيم عن الاسلام خيرا ، وعن القرآن خيرا ، وعن المسلمين خيرا ، والآن إلى قوله تعالى :

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ، ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير ﴾[5] .

تفسير المفردات

يسبح : أى ينزه ويقدس . صافات : أى باسطات أجنحتها فى الهواء . المصير : المرجع .

التفسير

﴿ ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات ﴾[6]

أى : ألم تعلم بالدليل أن الله ينزهه آنا ، فآنا ، فى ذاته وصفاته وأفعاله جميع مافى السموات والأرض من العقلاء وغيرهم تنزيها تفهمه أرباب العقول السليمة ، إذ كل المخلوقات فى وجودها وبقائها دالة

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ـ مسند عبد الله بن عمرو ج ٢ ص ١٧٦

(٢) من الآية : ٢ من سورة النحل

(٣) سورة غافر : آية ١٥

(٤) من الآية : ٥٢ من سورة الشورى .

(٥) الآيتان : ٤١ ، ٤٢ من سورة النور .

(٦) من الاية : ٤١ من سورة النور

على وجود خالق لها ، متصف بصفات الكمال . منزه عن صفات النقص .

وخص التنزيه بالذكر مع دلالة مافيهما على اتصافه بجميع أوصاف الكمال من جراء أن سياق الكلام لتقبيح شأن الكفار الذين أخلوا بالتنزيه ، فجعلوا الجمادات شركاء له سبحانه .

ونسبوا له إتخاذ الولد إلى نحو أولئك ، تعالى ربنا عما يقول الكافرون علوا كبيرا .

كما ذكر الطير مع دخولها فى جملة مافى الأرض من قبل أنها غير مستقرة فيها ، ولاستقلالها ببديع الصنع وإنبائها عن كمال قدرة خالقها ، ولطف تدبير مبدعها ، فإن منح تلك الأجرام الثقيلة الوسائل التى تتمكن بها من الوقوف فى الجو وتتحرك كيف تشاء ، وإرشادها إلى طريق استعمالها بالقبض والبسط ، والتحريك يمينا وشمالا ، حجة واضحة الدلالة على كمال قدرة الصانع المجيد ، وحكمة المبدى المعيد

﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه ، والله عليم بما يفعلون﴾[1] .

أى : كل مصل منهم ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه لايخفى عليه شيء من أفعالهم طاعتها ومعصيتها ، وعلمه محيط بها ومجازيهم عليها .

وقد يكون المعنى :

إن كل مصل ومسبح ، يعلم مايجب عليه من الصلاة والتسبيح اللذين كلف بهما ، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه ، كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التى لايكاد العقلاء يهتدون إليها .

أنظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها السداسية الأشكال التى لايتمكن من بنائها فطاحل المهندسين ، الا بدقيق الآلات ، وإلى العنكبوت كيف تفعل الجبل اللطيف لاصطياد الذباب ، وإلى الدب يستلقى فى ممر الثور ، حتى إذا قرب منه ورام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ، ولايزال ينهش مابين ذراعيه حتى يثخنه ، ثم يفترسه .

﴿ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير﴾[2] أى أن لله تعالى : ملك السموات والأرض وهو الحاكم المتصرف فيهما إيجادا وإعداما ، بدءا وإعادة ، وإليه وحده مصيركم ومعادكم ، فيوفيكم أجور أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فأحسنوا عبادته واجتهدوا فى طاعته ، وقدموا لأنفسكم صالح الأعمال .

من آيات الله فى الكون

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ

(١) من الآية : ٤١ من سورة النور
(٢) الآية : ٤٢ من سورة النور

لَعِبْرَةً لِّأُولِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ
وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾

تفسير المفردات

يزجى : يسوق برفق وسهولة

يؤلف : أى يجمع بين أجزائه وقطعه .

ركاما : أى متراكما بعضه فوق بعض .

الودق : المطر

من خلاله : أى من فتوقه التى حدثت بالتراكم واحدها خلل كجبال وجبل من جبال : أى من قطع عظام تشبه الجبال .

السنا : الضوء

يذهب بالأبصار : أى يخطفها لشدة ضوئه وسرعة وروده ، وهو كقوله فى البقرة : ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾(١) .

يقلب الله الليل والنهار : أى يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر ذاك ، حتى يعتدلا ويغير أحوالهما بالحر والبرد ، لأولى الأبصار .

أى لأهل العقول والبصائر .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله ﴾

للمفسرين فى هذه الآية الكريمة أقوال نذكر منها ماذكره الشيخ المراغى فى تفسيره حيث قال : أنظر أيها الرسول الكريم إلى السحاب يسوقه الله بقدرته أول ماينشئه ، ثم يجمع بين ماتفرق من أجزائه ، ثم يجعل بعضه متراكما فوق بعض ، فينزل المطر من فتوقه ، وحينا ينزل منه قطع كبيرة من البرد كأنها الجبال ، فيصيب بما ينزل منه من يشاء من عباده ، فيناله الخير والنفع العميم ، أو الضرر الشديد إذا كان فوق الحاجة ، ويصرفه عمن يشاء أن يصرفه ، وإلى مافى السحاب من برق يضىء بشدة وسرعة حتى ليكاد يخطف الأبصار ، وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة إذ فيه توليد الضد من الضد ففيه توليد النار من الماء .

---

(١) من الآية : ٢٠ من سورة البقرة .

« كلمة العلم »

جاء فى كتاب « الاسلام فى عصر العلم » لمؤلفه الأستاذ/ محمد أحمد الغمراوى مانصه : « من أعجب الآيات الكونية فى القرآن آية فى سورة النور جاء فيها لفظ الجبال ، لا على التعريف ، كما فيما عداها من الآيات التى ذكرت فيها الجبال بلفظها ، ولكن على التنكير تعجيبا منها وتنبيها إلى دلالتها تلك هى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد ، فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار** ﴾[1] .

وأكثر المفسرين ـ فيما ذكر أبو حيان فى « البحر » ـ قد فهموا من قوله تعالى : ﴿ **وينزل من السماء من جبال فيها من برد** ﴾ أى فى السماء جبال من برد ، كما فى الأرض جبال من حجر ، وإلى هذا ذهب أبو حيان أيضا كما يدل عليه قوله : عند تفسير الآية والظاهر أن فى السماء جبالا من برد وأن المراد بالسماء الجسم الأزرق المخصوص ، وهو المتبادر للذهن .

حتى الألوسى المتوفى سنة ١٢٧٠هـ أجاز هذا التفسير إذ يقول : فى تفسيره الكبير (روح المعانى) (وعن مجاهد والكلبى وأكثر المفسرين أن المراد بالسماء المظلة ، وبالجبال حقيقتها ـ قالوا : إن الله تعالى : خلق فى السماء جبالا من برد كما خلق فى الأرض جبالا من حجر . . وليس فى العقل ماينفيه من قاطع .

فيجوز إبقاء الآية على ظاهرها كما قيل : مع أنه رحمه الله كان قبل ذلك قد قال فى تفسيره (من جبال) : أى من قطع عظام تشبه الجبال فى العظم على التشبيه البليغ ، وفسر السماء بالسحاب ، وجاء بنكتة فى هذه التسمية إذ عللها بالإيماء إلى « أن للسمو والارتفاع ـ مدخلا » فيما ينزل أى : فى تكوين البرد وتنزيله ، وهو تعليل صحيح وتفسير أقرب كثيرا إلى الصحة من ذلك التفسير الذى نقله هو وأبو حيان عن مجاهد ، وأكثر المفسرين ، والذى يحول دون صحته ماثبت فى العلم الحديث من أن السماء الزرقاء شىء ، وسماء الكواكب شىء آخر .

فالسماء الزرقاء معنا فى جو أرضنا إذ لولا غلاف الأرض الهوائى لبدت السماء سوداء ، كما بدت بالفعل لرجال الفضاء حين علت بهم سفنهم فوق الغلاف بغباره ، وبخار مائه ، ودخلت بهم الطبقة الشديدة التخلخل من هوائه ، وهم لم يبلغوا فى أقصى ارتفاع لهم فى جو الأرض ، إلا بضع مئات من الكيلومترات ، فى حين أن متوسط ارتفاع القمر ـ وهو أقرب كوكب سماوى إلى الأرض ـ أكبر من ذلك نحو ألف مرة ، ومتوسط ارتفاع أقرب سيارة إلى الأرض وهو الزهرة أكبر من ارتفاع القمر أكثر من مائة مرة

أما إرتفاع أقرب نجم ، المسمى بالأقرب القنطورى ، فهو أكبر من أن يقاس بملايين الكيلومترات ولذا قاسوه بسرعة الضوء البالغة ثلاثمائة ألف كيلو متر فى الثانية ، فوجدوه على بعد يقطعه الضوء فى نحو أربع سنين .

فشتان ثم شتان بين السماء الزرقاء والسماء ذات الكواكب والنجوم ، وشتان أيضا بين أقصى

---

(٢) الآية : ٤٣ من سورة النور .

ارتفاع يبلغه سحاب وأقصى ارتفاع لطبقات الهواء ، فهذا قدر ذاك على الأقل عشر مرات .

أما وقد تبين فى ضوء حقائق العلم الحديث أن السماء المعروفة ، سواء أكانت الزرقاء أم ذات الكواكب ، لايمكن أن تكون من معانى السماء فى قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾[1] . فلنحاول أن نتبين المعانى التى يمكن أن تتحملها الآية الكريمة فى حدود ماعليه اللغة من ناحية وماتمليه حقائق العلم من ناحية أخرى .

إن السماء فى اللغة من معانيها : السحاب والمطر أو المطرة الجيدة ، كما ذكر (القاموس) ، والحرف (من) يكون لابتداء الغاية ، أو للتبعيض ، أو للبيان . والجبال من أظهر صفاتها العظم والرسوخ ، لكن السحاب مهما تراكم ليس شىء منه براسخ ولا باق ، والبرد مهما تجمع قبل نزوله أقل بقاء من السحاب وإذن فلفظ (جبال) فى الآية لايحتمل إلا معنى العظم على وجه التشبيه البليغ للسحاب الركام ، أو البرد المستجمع فى السحاب قبل النزول ، أو كليهما فإذا كانت السماء فى الآية الكريمة معناها : المطر أو المطرة الجيدة وكلاهما صالح واقع حسب الظروف ، كانت (من) الأولى للتبعيض و(من) الثانية لابتداء الغاية . . ويكون معنى (من جبال) من سحاب كالجبال فى العظم ويكون (فيها من برد) وصفا للسحاب . وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ أنه سبحانه ينزل نوعا أو أنواعا من المطر من سحاب فيه السحابة كالجبل فى العظم ، فيها نوع أو أنواع من البرد . والتنوع دل عليه التنكير .

هذا الوجه من تفسير الآية الكريمة لم يتناوله أحد من المفسرين ظنا منهم فيما يبدو أن المطر قد سبق ذكره فى قوله تعالى : ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ لكن هناك فرق بين المطرين فالودق من خلال السحاب الركام : ماء لا برد معه ، يكون فى ظروف لاتسمح بتكوين البرد ، فهى من حيث درجة البرودة أخف ومن حيث عظم السحاب الركام أقل من أن يشبه سحابها بالجبال ذلك التشبيه البليغ الذى شبه به سحاب المطر الذى يكون معه البرد إلى فروق أخرى لابد منها حتى يكون البرد فى ذلك السحاب والبرد الذى يكون مع المطر يعرف فى علم الأرصاد الجوية بالبرد المبتل ، أى بالبرد بله ماء المطر تمييزا له من البرد الجاف الذى ينزل لامطر معه فى الأقطار الباردة على الأخص .

هذا البرد الجاف هو الذى تدل عليه الآية إذا كانت (السماء) فيها بمعنى السحاب المرتفع كما نبه الألوسى وإذن تكون (من) الأولى لابتداء الغاية و (من) الثانية للبيان بيان عظم السحاب ـ على البدل والتشبيه البليغ ويكون (فيها من برد) وصفا لجبال ويكون مفعول (وينزل) محذوفا ، دل عليه (من برد) ليذهب الفكر فى تصوره كل مذهب فيكون فى الآية على هذا إيجاز بالحذف ويكون معناها أن الله سبحانه ينزل من السحاب البالغ العظم حتى كأنه جبال ، والذى فيه من البرد أنواع ، بردا متنوعا فى الشكل والوزن والتركيب .

لكن إذا أخذت (من) فى قوله تعالى : ﴿ من جبال ﴾ على التبعيض كان الضمير فى (فيها) راجعا إلى السماء بمعنى السحاب المرتفع وكانت (من) فى (من برد) للبيان وكان مفعول (وينزل) هو (من جبال) أى : وينزل بعض جبال من برد ، فالمشبه بالجبال فى العظم هو مجموع البرد وما يتخلله فى

---

(١) من الآية : ٤٣ من سورة النور

السحاب قبل نزوله وكون النازل من البرد إلى الأرض بعض ذلك المجموع المشبه بالجبال يدل من ناحية على عظم مقدار البرد النازل ، ومن ناحية أخرى على عظم مقدار مايتبقى منه فى السحاب لأن حياته لم تبلغ إحداها فى النمو الحد الذى تكون معه أثقل من أن تحمله التيارات الهوائية أو القوى الكهربائية ، أو كلتاهما فى السحاب ، وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾[1] أنه سبحانه ينزل من السحاب مقادير عظيمة من برد متنوع فى شكله وثقله وتركيبه - ينزلها من مقادير أعظم منها تبلغ جملتها فى العظم مبلغ الجبال فكيف بالسحاب التى يحتويها ؟

هذه كلها معان كل منها آية من آيات القدرة الإلهية وظاهرة من ظواهر الفطرة المتعلقة بالبرد فى السحاب ، جمعها الله لعباده فى ثمانى كلمات من آية واحدة من كتابه العزيز إذا تأملها المتأمل بقدر من الدقة ، فى حدود معانى كلمتين منها فى اللغة هما (السماء) و (من) ودلالة التنكير فى كلمتين أخريين هما (جبال) و (برد) وماأظننا استنفدنا كل مايمكن أن يستنبط من الكلمات الثمانى من حقائق كشف عنها العلم الحديث ، والكلمات الثمانى تقع قريبا فى وسط الآية ٤٣ من سورة النور .

وفى طرفى الآية الكريمة تنبيه إلى مزيد من عجيب الحقائق التى كشف عنها العلم فى العصر الحديث ، لكننا قبل أن ننتقل إلى الطرفين نتأملهما نرى توكيداً للمعانى السابقة أن نورد بعض أمثلة توضيحا لها . ولن يتسع المجال إلا لأقلها .

إن البرد آية فى تركيبه وتنوع حياته وطريقة تكوينه فجثته طبقات تتكون حول نواة جمدية أو ثلجية . (الجمد هو الماء المتجمد كتلا المسمى عند الناس ثلجا ، والثلج بخار متجمد متجمع والجليد الماء الرقيق المتجمد على سطح الأرض) .

والطبقات تتوالى بين جليدية وثلجية وتختلف فى سمكها حسب الظروف حين تتقاذفها التيارات الهوائية والقوى الكهربائية والجاذبية الأرضية من أسفل إلى أعلى ، ومن أعلى إلى أسفل ، ومن جنب إلى جنب ، حتى إذا نمت وكبرت إلى الثقل الكافى لتغليب قوى الجاذبية الأرضية تساقط الحب بردا ، يكون فى الغالب نقمة ، تختلف فى المقدار والمدى باختلاف حب البرد فى الحجم والوزن وأتساع منطقة السقوط .

وقد أورد العالم الروسى (ن . كوليوف) فى فصل البرد من كتابه الممتع (محيطنا الجوى) ثلاث عشرة صورة لمقاطع ثلاث عشرة حبة بردية كلها مختلفة فى الشكل والسعة والتركيب الطبقى ، وقد ذكر أن الحبة فى العاصفة البردية فى الأيام الحارة من العام قد تبلغ حجم بيضة الحمامة أو بيضة الدجاجة ، أو قبضة اليد ، بل كان من بين برد عاصف أصابت الهند فى مايو سنة ١٩٢٩ حبات وزن الواحدة كيلو جرام ، وقطرها ثلاثة عشر سنتيمترا ، وهى أكبر ماعرف فى علم الإرصاد الجوية . وذكر أن سرعة التيار الهوائى العمودى يجب أن تكون عشرة أمتار فى الثانية - أى ٣٦ كيلو مترا فى الساعة - كى يحمل التيار البرد الذى ثخانته سنتيمتر ، وثلاثة أمثال هذه السرعة كى يحمل ما ثخانته عشرة سنتيمترات وأن التيار لايثبت طبعا على سرعة واحدة بل تتعاور سرعته الزيادة والنقصان فاذا زادت صعد التيار بالبرد ، و إذا نقصت نزل الثقل بالبرد فإذا زادت صعد وهكذا دواليك وفى كل مرة يتكاثف على البرد ما يتكاثف حتى

(١) من الآية : ٤٣ من سورة النور .

يبلغ من الحجم والثقل مايبلغ .

وذكر أيضا أن سحب البرد دائما ثقال جدا ، وأن الرصد قد سجل حتى فى المناطق المعتدلة سحابة برد بلغ سمكها عشرة كيلو مترات ، وأن منطقة البرد فى سحابته محدودة فإذا حملت الريح السحابة ونزل البرد فإن منطقة نزوله قل أن تزيد سعتها عن خمسة عشر كيلو مترا ، وإن عرف منها ما بلغ فى الطول ٤٠٠ كيلو متر أو يزيد .

وقد ذكر أيضا أن تاريخ الأرصاد قد سجل عاصفة بردية أصابت فرنسا فى ١٨ يوليو سنة ١٧٨٨ مرت عليها بسرعة ٧٠ كيلو مترا فى الساعة وكان ممرها منقسما إلى ثلاث مناطق متوازية ، الوسطى منها لم يصبها البرد ولكن أصابها مطر شديد وكان عرضها نحو عشرين كيلو مترا . أما الأخريان اللتان مطرتا بردا فأولاهما كان طولها ٧٣٠ كيلو مترا ومتوسط عرضها خمسة عشر كيلو مترا ، وأخراهما كان طولها ٨٤٠ كيلو مترا وعرضها نحو ثمانية كيلو مترات .

وقد قدر البرد الذى نزل تقديرا تقريبيا بما يشغل أربعة ملايين مترا مكعبا . وقدرت الخسائر الناجمة عنه بعشرات الملايين من الفرنكات . وهذاالوصف يوضح قوله تعالى : ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ﴾ كما يوضح أيضا ذلك القدر الهائل للبرد الذى نزل ، وحجم تلك السحابة البردية التى سجلها الرصد قبل ـ وكان ارتفاعها عشرة كيلو مترات ـ يوضح هذان معنى الجبلية فى قوله تعالى : ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ . ويزيد المعنى توضيحا وعلى الأخص مغزى الجمع فى قوله تعالى : ﴿ من جبال ﴾ قول العالم الروسي فى وصف السحابة البردية « إنها تتميز بلون قاعدتها الرمادى وانقسامها إلى رقاع ، وأن قمتها تبدو كجبل له نتوءات كالتلال صفراء ، غير منتظمة ـ وجبال السحابة ـ تعد كلمة (جبال) هنا ترجمة حرفية ـ هذه الجبال تبدو إذا أشرف عليها من أعلى كأنها مغطاة بملاءات من سحب متشعبة ككتل الصوف »

أما بعد فعلى كل عاقل أن يسأل نفسه من الذى أبدع تلك الكائنات ، ومن الذى دبر أمر هذا الملك . الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم . ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . ﴾(٢) وتلك آية أخرى ناطقة بلسان الحال والمقال تصيح أن للكون إلها . ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٣) .

---

(١) الأيتان : ١٠ ، ١١ من سورة لقمان .
(٢) الآية : ٤٤ من سورة النور .
(٣) الآيات : من ٧١ ـ ٧٣ من سورة القصص .

فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
يامن يحار الفهم فى قدرتك وتطلب النفس حمى طاعتك
تخفى عن الناس سنا طلعتك وكل مافى الكون من صنعتك

أنظر أخى بعين عقلك إلى اختلاف الليل والنهار وتقلبهما بزيادة أحدهما ونقص الآخر ، وإلى تغير أحوالهما بالحرارة والبرودة ؛ إن فى هذا لعبرة لمن اعتبر ، وعظة لمن تأمل فيه ممن له عقل ، فهو واضح الدلالة على أن له مدبرا ومقلبا لايشبهه شىء .

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ قال الله تعالى : ﴿ **يؤذينى ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار** ﴾ أخرجه البخارى ومسلم .(١)

* القرآن والعلم والكون *

لو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خالقك ؟ لأجابك أنا مخلوق للواحد الديان .

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبرد والبحر فيض من عطاياه
الوحش مجده والطير سبحه والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمدا فى خلاياه
والناس يعصونه جهرا فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾(٢) وجل جلاله الله إذ يقول :

﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** ﴾(٣) .

انظر إلى الشمس التى جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها فى الجو مثل الشررة

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه : فى كتاب التفسير (سورة الجاثية) ج ٦ ص ١٦٦
وأخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها) باب : النهى عن سب الدهر ج ٤ ص ١٧٨٢ مع نقص بعض ألفاظه (وهى بيدى الأمر)
(٢) الآية : ٢٧ من سورة فصلت .
(٣) الآيات : ٣٧ ـ ٤٠ من سورة يس .

ذاك	هو	الله	الذى	أنعمه	منهمرة
ذو	حكمة		بالغة	وقدرة	مقتدرة
انظر	إلى	الليل	فمن	أوجد فيه	قمره
وزانه			بأنجم	كالدرر	المنتشرة
ذاك	هو		الذى	أنعمه	منهمرة
ذو	حكمة		بالغة	وقدرة	مقتدرة

قال صاحب كتاب (الاسلام فى عصر العلم) : -

لننظر فى الآية ٣٨ من سورة يس ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾فالفعل (تجرى) ينطبق فى أعين الناس على حركة الشمس من المشرق إلى المغرب . وهو فى حرفيته يعبر عن حركة حقيقية أثبتها العلم للشمس بسرعة مخصوصة قدروها بنحو اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه مخصوص فى فضاء الله هو الجهة التى فيها النجم المسمى (فيجا) فى الأفرنجية و (النسر الواقع) فى العربية . والفعل يدل ، ليس فقط على حركة انتقالية ذاتية للشمس ، ولكن يدل أيضا على عظم تلك الحركة إذ الجرى طبعا أدل على السرعة من المشى أو السير . ولو كانت الشمس غير ذات حركة فى الواقع وكان الفعل (تجرى) معبرا فقط عن حركتها الظاهرية بالنسبة إلى الأرض لانفتح للملحد أو مستشرق يكفر بالقرآن أن يقول إن جملة (والشمس تجرى) هى من عند إنسان يصف مايرى ، أما وقد ثبت للشمس جرى حقيقى فى الفضاء متعين المقدار والاتجاه بعد نحو اثنى عشر قرنا من عصر القرآن ، فالجملة القرآنية هى من عند خالق الشمس آية للناس على أن القرآن من عند الله .

أما الشطر الثانى من الآية الكريمة وهو (لمستقر لها) فمن الواضح أن هذا المستقر الذى ينتهى إليه جرى الشمس أمر من أمور الغيب التى لايعلمها إلا الله العزيز العليم ، الذى قدر ذلك الجرى على هيئته ينتهى إلى غايته فى الوقت الذى استأثر سبحانه بعلمه ، إذ هو فيما يبدو متعلق بالأشراط الفلكية لقيام الساعة ، إن لم يكن هو وقت قيامها .

وتنكير المستقر فى قوله ﴿ لمستقر لها ﴾ يشير إلى عظم شأنه وهول آثاره التى ستكون ، كالذى نبه إليه الإمام عبد القاهر من دلالة التنكير فى قوله تعالى :﴿ وأمطرنا عليهم مطرا ﴾ فى قصص قوم لوط . والقرينة على هذه الدلالة فى إحدى الآيتين تختلف عنها فى الأخرى لاختلاف المقام فى كل ، كما يدل عليه السياق . فالمقام فى آية قصة قوم لوط مقام تحذير من عاقبة الإصرار على الغواية وتكذيب الرسل فكانت القرينة قوله تعالى : ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ وقوله : ﴿ وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾(١) .

أما المقام فى آية (يس) فهو مقام تحذير إجمالى من تكذيب الرسل وتنبيه تفصيلى إلى بعض آيات الله الكونية الدالة عليه سبحانه وعلى كمال قدرته وحكمته ، وجلال فضله ونعمته على عباده ، فكانت القرينة اللغوية قوله تعالى : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ والاشارة فى (ذلك) هى طبعا لكون

---

(١) الآية : ١٧٣ من سورة الشعراء .

الشمس تجرى لمستقر ، أى للجرى وغايته معا ، لا لأحدهما وحده ، وغريب أن يكون غاب عن (الفخر الرازى) شمول التقدير للأمرين جميعا إذ جعل اسم الاشارة راجعا إلى الجرى أو إلى المستقر على الاحتمال كما تراه فى موضعه من تفسيره .

وكما دل التنكير على عظم شأن المستقر الذى تنتهى إليه الشمس فى جريها الحقيقى فإنه أيضا قد سمح لأكثر المفسرين أن يذهبوا فى معنى المستقر إلى مايتفق وجرى الشمس الظاهرى ، وتغير مواقعها فى الشروق والغروب طوال العام ، وترددها فى ذلك كل عام بين أقصى موقعين تبلغهما فى الشتاء والصيف لاتتعداهما بحال . فكل موقع من هذين الأقصيين هو لها مستقر ، فى الشتاء مرة وفى الصيف مرة أخرى ، هذا هو خير ماقاله الأكثرون ؛ ولولا تنكير (مستقر) ماأستقام لهم هذا ، لأنهم يقررون أن الشمس إذ تبلغ أحد الموقعين ، تبدأ ترجع أدراجها حتى تبلغ الموقع الآخر فى ستة أشهر . وليس هذا باستقرار إلا على وجه مجازى يبيحه التنكير .

وفى المفسرين القدامى من قال : إنه لا استقرار للشمس فى حركتها حتى يجىء يوم القيامة ، فتبطل حركتها وتستقر .

وهذا أقرب تفسير إلى الصواب لولا أن أهله قصدوا بحركة الشمس هذه الحركة اليومية الظاهرة الراجعة فى الحقيقة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس والراجع اختلاف المشارق والمغارب فيها إلى اختلاف مواقع الأرض من الشمس فى حركة الأرض السنوية ودورانها حول الشمس مرة فى العام ، فهم طبعا لم يقصدوا الحركة الحقيقية العظيمة السرعة التى أثبتها العلم للشمس وأنبأ بها القرآن قبل أن يولد علم الفلك الحديث فكان ذلك للقرآن معجزة علمية كبرى ينبغى أن يتذكرها دائما كل مسلم مثقف ويجعلها نصب عينيه ليزداد بها يقينا أن القرآن من عند الله حقا وليعرف عن اقتناع أن ليس هناك شطط ولاتكلف فى المطابقة الصحيحة الدقيقة بين يقينيات العلم وكونيات القرآن .

فهذه المطابقة بالصورة التى رئيت هنا ، قد بينت صنوفا من الإعجاز فى آية سورة (يس) لايكاد الإنسان يقضى حقها عجبا : آية من أربع كلمات تحوى فى كلمتين (والشمس تجرى) معجزة كبرى علمية وتحوى فى كلمتين أخريين (لمستقر لها) نبوءة مذهلة ستتحقق من غير شك لأنها قرينة المعجزة العلمية الصادرة عن فاطر الشمس سبحانه ، ثم تحوى فى الكلمات الأربع إعجازا بلاغيا فى مراعاة مقتضى الحال ، إذ تحمل فى كل من شطريها تأويلا يتفق مع الظاهر للناس من حركة الشمس ؛ حتى يهتدى بها الناس جميعا ، من عرف سر هذه الحركة النسبية ومن لم يعرف - من عرف هذا السر أهتدى به ، وبالمعجزة العلمية التى حوتها الآية ، ومن لم يعرف اهتدى بموافقة الآية للحركة التى ترى . .

ودوران الأرض حول محورها ودورانها حول الشمس ، ماموقف القرآن منهما ؟ وهل فيه دلالة عليهما ؟ . . إن هذا التساؤل ليس فيه افتئات كما قد يظن بعض من يخشى أن تحمل أى القرآن ما لاتحتمل ، بل هو تساؤل ينبغى أن يكون . إن الله قد أنبأ بالحركة الذاتية للشمس ليكون فيها وفى الإنباء بها آية للناس ، فمن المعقول أن يدل الله فى كتابه على الحركة الذاتية للأرض التى يخلق بها سبحانه هذه الحركة الظاهرة للشمس ليكون فى الدلالة على حركة الأرض فى القرآن آية أخرى للناس تهدى إلى الله وتشهد للقرآن مرة أخرى ، أنه حقا من عند الله . فقد لبث الناس عامتهم وخاصتهم

قرونا بعد نزول القرآن وهم يعتقدون أن الأرض ثابتة لاحراك بها إذ ليس للأرض حركة محسوسة فى الظاهر كحركة الشمس النسبية من المشرق إلى المغرب التى فسرها فلاسفة اليونان تفسيرهم الذى خطأه علم الفلك الحديث من جميع الوجوه .

وفى الحق أن هذا المعقول أن يكون قد كان فعلا فى القرآن ، ففيه دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعيها جاءت عن طريق الإشارة لا صريح العبارة ، مراعاة لمقتضى الحال فى خفائها ، وعدم إحساس الناس بها .

فلو أن القرآن صارحهم بحركة الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه وحيل بينهم وبين هدايته ، فكان من الحكمة البالغة ، ومن الإعجاز البلاغى فى الأسلوب أن ينبه الناس فى كتاب الله إلى آيته سبحانه فى حركة الأرض حول محورها ، وفى حركتها حول الشمس بمختلف الإشارات إلى نتائج كل من الحركتين منا عليهم بها ، وحثا لهم على اكتناه أسبابها .

ومن أعجب مظاهر المن والحث مجتمعين القسم : قسم الخالق سبحانه بمخلوقاته حين غفل الناس عن آياته فيها ، لما تعودوا وألفوا منها حتى غطت العادة والألفة على مواقع النعمة ، ومواطن الحكمة ، ومواضع العبرة ، فيما خلق لعباده ، فإذا أقسم الله فى كتابه العزيز بالليل وبالصبح وبالضحى وبالنهار أفلا يكون فى هذا أكبر داع لهم أن يتأملوها ويتساءلوا : ماذا أودع الله فيها من مجالى حكمته ، ومظاهر عظمته وقدرته ، حتى استحقت أن يقسم لعباده بها وهو خالقهم وخالقها ؟ فإذا بحثوا وعرفوا أنها ناشئة عن حركة الأرض فى كل يوم أمام الشمس ، أفلا يكون فى ذلك القسم دليل إلى تلك الحركة : على أن الله سبحانه لم يجرد القسم من إشارة تدل على طبيعة السر الذى أودع فى المقسم به . فقد وصف الليل عند القسم به بالإدبار تارة ﴿ والليل إذ أدبر ﴾ ووصفه بالإقبال والإدبار كليهما فى قوله : ﴿ والليل إذا عسعس ﴾[١] لأن الفعل معناه أقبل ظلامه أو أدبر ووصفه بالسرى فى سورة الفجر ﴿ والليل إذا يسر ﴾[٢] وكلها أوصاف تقتضى الحركة وهى كناية عجيبة عن حركة الأرض اليومية لاتفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هى الأصل فى جو الأرض فى النصف غير المقابل (أى المدابر) للشمس وإلا إذا تصورنا الأرض تدور حول محورها دورة فى اليوم من المغرب إلى المشرق أمام الشمس ليتعاقب فيها الليل والنهار على كل مكان فى الأرض على جانبى خط الاستواء القريب من القطبين .

ومن عجيب أمر القسم بالصبح وبالنهار فى القرآن أنهما لم يوصفا بإقبال ولا إدبار ، لأن ذلك لو كان لما جاء بمعنى جديد . إذ هو لازم حتما من إدبار الليل وإقباله ، ولكنهما وصفا بالوصف الخاص بهما ، الناشىء عن سلوك الضوء ضوء الشمس فى الغلاف الهوائى المحيط بالأرض وولوجه فيه تدريجا عن طريق الانكسار فى طبقات الهواء العليا الأخف ، إلى طبقات الهواء السفلى الأكثف من الفجر إلى الإسفار ، ثم انتشاره بعد طلوع الشمس تدريجا أيضا بالانعكاس على الأخص ، وبالانكسار أيضا حتى يعم النهار .

ولولا الغلاف الهوائى ماكان هناك فجر ولا صبح ، ولا إسفار فى أول النهار قبل طلوع الشمس ،

---

(١) الآية : ١٧ من سورة التكوير

(٢) الآية : ٤ من سورة الفجر .

ولاشفق فى آخر النهار بعد غروبها ، فليس شيء من ذلك بكائن على القمر مثلا بعد أن فقد هواءه لضعف جاذبيته الناشيء عن صغر كتلته مع سرعة حركة الجزئيات فى أى غاز . من أجل ذلك جاء القسم بالصبح إذا أسفر فى سورة المدثر . بعد القسم ﴿ **بالليل إذ أدبر** ﴾ وجاء القسم بالنهار إذا جلى الشمس فى ﴿ **والنهار إذا جلاها** ﴾[1] وليس على القمر نهار كالذى نعرفه على الأرض تتجلى فيه الشمس ، فسماء القمر تظل مظلمة فى نهاره الطويل طول نصف شهر عندنا كما هو الحال فى نهارنا أيضا إذا علونا بالغلاف الجوى ، بهوائه وسحبه ، كما استنتجه العلماء من أن الضوء لايرى بذاته ولكن بالانعكاس عن المرئيات ، وكما شاهده طيارو الفضاء حين دارت بهم القميرات الصناعية حول الارض أعلى من غلافها الجوى .

ومن عجب أن هذا الذى يستنتجه العلماء وشاهده طيارو الفضاء من ظلمة السماء قاطبة بالنهار إذا علونا الأرض وتجاوزنا غلافها الهوائى هذه الحقيقة التى لم يكن ليصدق بها أحد من قبل ، قد دل عليها القرآن المجيد صراحة فى كلمتين هما : (وأغطش ليلها) فى قوله تعالى : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها** ﴾[2] .

فالضمير فى (**ليلها**) راجع إلى السماء التى تتكلم الآيات الكريمة عنها وحدها ، فالله سبحانه ينبئنا أنه أظلم ليل السماء لا ليل الأرض . ومع ذلك فقد فات المفسرين دلالة هذه الإضافة وهم معذورون إذ صرفوها إلى مايعرفون من هذا الليل وجعلوها من المجاز ولو لزموا النص ودلالته لاهتدوا إلى حقيقة عجيبة غريبة أنبأ بها القرآن ، ولم يحققها الإنسان إلا منذ سنوات لما بدا عصر الفضاء هذا ، فأثبت بذلك من حيث لايدرى معجزة علمية أخرى للقرآن ليس إلى جحودها سبيل .

فإذا تجاوزنا القسم وإشارته واستزدنا من الدلالة على الحركة اليومية فى القرآن وجدناها فى قوله تعالى ﴿ **يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا** ﴾[3] .

فالمغشى يصح أن يكون الليل أو النهار ؛ لأن التعبير يحتملها كما يقول الزمخشرى : وإذن فهو يشملهما إذ لو كان أحدهما هو وحده المغشى الخالق لا الآخر لجاء التعبير القرآنى نصا فى ذلك لايحتمل غيره لأنه كلام الخالق سبحانه الذى لايجوز أن يأتى لفظه أضيق أو أوسع من المعنى الذى قصد ، وإذن فكل من الليل والنهار : يطلب الآخر طلبا حثيثا بإذن الله كى يغشاه ، ثم يكون ذلك على وجه التجدد المستمر ، كما تفيده صيغة المضارعة فى الفعلين مع الحالية فى الفعل الثانى .

فتأمل معى جلال هذه الكلمات القرآنية الخمس كيف صورت أدق تصوير تلك الظاهرة الكونية العجيبة ظاهرة زحف النهار إثر الليل حالا محله من طرف ، وزحف الليل إثر النهار حالا محله من الطرف الآخر فى كل بقعة من بقاع الأرض أثناء دورتها اليومية حول نفسها ، أو حول محورها أمام الشمس ، نتيجة لذلك الدوران الذى يدل على عظم جلاله وجماله مرجع الضمير فى قوله تعالى : ﴿ **يغشى الليل النهار** ﴾ فإنه راجع إلى لفظ الجلالة فى أول الآية الكريمة فى سورة الأعراف .

ثم هذا الدوران نفسه قد دل القرآن عليه بما يكاد يكون نصا صريحا فى قوله : ﴿ **يكور الليل على**

---

(١) الآية : ٣ من سورة الشمس .
(٢) الآيات : من ٢٧ ـ ٢٩ من سورة النازعات .
(٣) من الآية : ٥٤ من سورة الأعراف .

النهار ويكور النهار على الليل ﴾[١] (والتكوير) اللف واللى ، يقال كار العمامة على رأسه وكورها ، كما يقول الزمخشرى فى تفسيره : إلا أنه جعل يلتمس لذلك معنى مجازيا .. لما غاب عنه ما ظل مجهولا للناس أجمعين لقرون بعيدة ، من أن الله سبحانه يلف الليل على النهار بلف محورى حقيقى للأرض ، التى هى محل الليل . ويلف النهار على الليل بلى حقيقى بأشعة ضوء الشمس فى غلاف الأرض الهوائى الذى تملؤه الظلمة وهى تدور .

وفى الفعل (تكور) المكرر مرتين فى الآية : معجزة علمية أخرى إذ قد دل بوضوح على كروية الأرض بكروية جوها الذى يشغله ، ويتعاوره الليل والنهار على التجدد على كل بقعة من بقاع الأرض . وفى هذا غناء عن الاستشهاد على كروية الأرض بكلمة (دحاها) فى (والأرض بعد ذلك دحاها ـ النازعات ٣٠)

فإن احتجت إلى مزيد من الدلالة فى القرآن على الحركة اليومية للأرض فأنت واجد حاجتك بإذن الله فى قوله : ﴿ ولا الليل سابق النهار ، وكل فى فلك يسبحون ﴾ ـ يس ـ ٤٠ ـ ومعنى الكلمات الأربع الأولى : ظاهر فيما تقدم فلا محل للاشكال الذى ذكره (الفخر الرازى) أما الشاهد فهو فى الكلمات الأربع الأخرى ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ وقد جاءت فى إثر الأربع الأولى كما ترى ، فهل تشمل الليل والنهار المذكورين فيها ، كما تشمل الشمس والقمر المذكورين فى مفتتح الآية الكريمة ﴿ لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ ـ يس ٤٠ ـ فالليل والنهار يسبحان فى فلك ، لكل فلك يدور فيه ، ألا وهو فلك الأرض أو بالأحرى فلك جوها الذى يدور بدورانها مرة حول محورها أمام الشمس كل يوم .

أما حركة الأرض السنوية حول الشمس ففى القرآن الكريم دلالتان عليها على الأقل ، إحداهما عن طريق الإشارة إلى أثرها فى الليل والنهار من حيث تداخل أحدهما فى الآخر من جهة الطول والقصر على تتابع الفصول الناشئة من تلك الحركة ، وذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ ـ فاطر ١٣ ـ وقوله : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ ـ لقمان ٢٩ ـ وقوله : ﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾ ـ الحج ٦١ ـ وتكرار المعنى هكذا فى آيات متعددة توكيد له من ناحية ، وتنبيه من الله لعباده أن يتطلبوا سر هذه الظاهرة الكونية التى يحسونها من ناحية أخرى ، والسر هو فى تلك الحركة كما عرفها الفلكيون والجغرافيون خاضعة للسنن الكونية الثلاث المعروفة بقوانين (كيبلر) لدوران السيارات حول الشمس ، ولقانون الجاذبية العامة التى كشفها وكشف قانونها (نيوتن) .

أما الدلالة الثانية فهى أهم ، لأنها إشارة تكاد تكون فى صراحة ، عبارة تنص على أن للأرض حركة غير حركتها اليومية ، وتلك هى دلالة قوله تعالى : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ، صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾ ـ النمل ٨٨ .

والسحاب كما هو معروف لايتحرك بذاته ولكن ينتقل محمولا على الرياح ، فكذلك الجبال يراها الرائى فيظنها جامدة فى مكانها وهى تمر مسرعة محمولة أيضا ، وليس لها حامل إلا الأرض ، فالأرض

(١) من الآية : ٥ من سورة الزمر .

إذن هى المسرعة بها كما تسرع الرياح بالسحاب ، وكلا الأمرين من صنع الله الذى أتقن كل شىء . فالاستنتاج فى الواقع قريب غير بعيد . ييسره الله لأهله بذلك التشبيه العجيب الذى دل ، أو ينبغى أن يدل ، الناظر إلى أن فى حركة الأرض الحاملة للجبال من آيات الله ومن المنافع لعباده مايشبه الآيات والمنافع التى أودعها الله فى حركة الرياح الحاملة للسحاب والتى نوه الله بها فى آيات كثيرة من كتابه الحكيم .

وليس عجيبا أن يفوت المفسرين جميعا هذا المعنى على قربه لمن يعرف ماأثبته العلم للأرض من حركة حول الشمس ، لأنهم لم يكونوا يعرفون أن للأرض حركة ما ، لايومية ولا سنوية . ومن هنا صرفوا المعنى عما يقتضيه المفعول المطلق فى الآية الكريمة ومايستلزمه قوله تعالى : ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾ - النمل ٨٨ - من أن الظاهرة التى لفت الله إليها الإنسان فى قوله : ﴿ **وترى الجبال . .** ﴾ هى ظاهرة كونية فيها من إتقان الصنع بما يدل على جلال حكمته وقدرته سبحانه ، ومايناقى ماسماه قدامى المفسرين نقضا لسنن الله فى الكون يوم القيامة ، أو بين يدى يوم القيامة ، من نسف الجبال نسفا ، إلى آخر مانطقت به الآيات القرآنية المتعلقة بالساعة وأشراطها .

و (الزمخشرى) وحده هو الذى أدرك بذوقه البيانى عدم التلاؤم بين قوله تعالى : ﴿ **صنع الله الذى أتقن كل شىء** ﴾ وبين ماسيحل بالجبال بين يدى الساعة ، فقدر محذوفا يليق فى رأيه بذلك الصنع المتقن إذ قال : « والمعنى يوم ينفخ فى الصور ، وكان كيت وكيت ، أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين » ثم قال : « (صنع الله) يريد به الإثابة والمعاقبة » وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب ، إلى آخر ماقال مما رفضه غيره مثل أبى حيان فى تفسيره ونسبه إلى مذهب الزمخشرى فى الاعتزال .

ولو عرف الزمخشرى وأبو حيان مانعرفه اليوم من دوران الأرض حول الشمس بتلك الكيفية الباهرة ، ومايحكمها من تلك السنن الإلهية الدقيقة القاهرة ومايترتب عليها من المنافع للناس ، إذن لكبروا الله وتسارعوا إلى المعنى المتبادر من الآية ، ومن تشبيهها التمثيلى ، ومن القرائن الحسية والبلاغية فيها ، ولفهموا الخطاب فى ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** ﴾ - النمل ٨٨ - على أنه خطاب للإنسان ، الآن وفى كل عصر آت ، يدل على آية من آيات الله الكبرى عله يهتدى بها إلى الله ، كما دله فى الآية التى قبلها بآيتين على مثيلة أو مثيلات لها تهدى إلى الله ، أو من شأنها أن تهدى إليه سبحانه ، وهى قوله : ﴿ **ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾(١) والسياق ودلالته ينبغى على الأقل أن يشمل هذه الآية ودلالتها فيما يشمل ، وإذن تسقط حجة المحتج بأن آية :

﴿ **ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وكل أتوه داخرين** ﴾(٢) فى موضعها بين الآيتين تشهد لمن يجعل آية الجبال خاصة بما يتعلق بالجبال من أحداث يوم القيامة .

---

(١) الآية : ٨٦ من سورة النمل .

(٢) الآية : ٨٧ من سورة النمل .

وبعد فإن من لطيف المناسبة أن تشير آية : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ إلى ظاهرة تنشأ من إحدى حركتى الأرض وأن تشير آية : ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ إلى الحركة الأخرى ، تلك الإشارة الواضحة العجيبة . ومن حكمة الله البالغة أن جعل بين الآيتين آية تتعلق بيوم البعث ، لتصرف الأذهان بها عن المعنى الذى لم تكن لتعقله قبل أن يأذن الله بالكشف عن سنة الله فى حركة الأرض حول الشمس كسيار من السيارات التى أقسم الله بها تنبيها إلى آياته فيها ، إذ يقول سبحانه : ﴿ فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس ﴾ ـ التكوير ـ ١٥ ، ١٦

وللقرآن الكريم فى كل من ميدانية الخاص والعام أسلوبه الحكيم للدلالة على مايريد أن يدل عليه من أسرار الفطنة ليكون كل سر فيها ، إذا أذن الله بالكشف عنه ، هاديا إلى الله فاطر الفطرة ومنزل القرآن .

ولما كان القرآن إنما أنزل لهداية الناس إلى من أنزله سبحانه فقد اقتضت الحكمة الإلهية فى آياته الكونية أن ينزل لايصدم البديهى المسلم به عند الناس فيكذبوه ، ولا ينافى الحقيقة الكونية فيكون ذلك داعيا إلى تكذيبه إذا يسر الله سبيل الكشف لأولى العلم فى مستقبل العصور . وهذا من أعجب عجائب القرآن التى لاتنقضى . ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقا من عند الله ، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماما ، أو يدل عليها أولى العلم ، ثم لايصدم الناس فيما يعتقدون ولو كان مايعتقدونه مخالفا تلك الحقيقة ـ هذا الأسلوب القرآنى فى التعبير عن الحقائق الكونية أو فى دلالة أولى العلم عليها ، أمر يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه إلا الله الذى أنزل القرآن بالحق هدى للناس .

ولعل أوضح مثل لهذه الظاهرة القرآنية العجيبة قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ـ يس ٣٨ ـ وهى مسبوقه بقوله : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ فكلمة (الشمس) فى الآية إما أن تكون معطوفة على (الليل) فى الآية قبلها ويكون المعنى ﴿ وآية لهم الشمس تجرى لمستقر لها ﴾ ، وتكون جملة ﴿ تجرى لمستقر لها ﴾ كجملة ﴿ نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ﴾ فى الآية قبلها تباينا لوجه آية الله فى الليل وفى الشمس . وإما أن تكون كلمة الشمس مبتدأ فى جملة مستأنفة خبره ﴿ تجرى لمستقر لها ﴾ .

وفى هذه الحالة يكون كونها آية الله من حيث إنها تجرى مفهوما من السياق ، ويدل عليه فى الآية القرآنية نفسها قوله تعالى : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ، وعلى أى الوجهين أعربنا الآية الكريمة فالقضية فيها : هى أن الشمس تجرى . وقضية أخرى أنها تجرى لمستقر لها .

وقد سيقت القضيتان ليكون فى كل منها ، أو فى مجموعها ، هاد إلى الله ، ودليل على أن الذى أجرى الشمس وقدر مجراها هو الإله الحق الذى لاتجب العبادة إلا له ، فضلال أى ضلال أن يعبد الإنسان سواه . .

فأنظر إلى القضية الأولى ، قضية أن الشمس تجرى ، كيف إنطبقت على البديهى المشاهد من حركة الشمس فى السماء من المشرق إلى المغرب فى كل مكان يعيش فيه الإنسان ، فى نصف الكرة الشمالى ، وفى نصفها الجنوبى ، من قطب إلى قطب ، لكن هذه الحركة إنما هى فى الظاهر ، وقد فسرتها الفلسفة اليونانية أو العلم القديم ، بما فسرت أو فسر ، مما خطأه علم الفلك الحديث ، إذ أثبت أن حركة

الشمس فى الظاهر حول الأرض ـ كما هو معروف ـ هى حركة نسبية راجعة فى الحقيقة إلى حركة الأرض حول محور لها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق مرة فى اليوم . ينشأ عنها النهار والليل ، كما أثبتت للأرض حركة سنوية حول الشمس تنشأ عنها الفصول .

فهل فقدت الآية الكريمة شيئا من دلالتها بهذا الذى أثبته العلم ؟ إن الذى جد بما أثبته العلم هو إنتقال الحركة عن الشمس إلى الأرض فصار للأرض حركتان تفسران الليل والنهار ، واختلاف الفصول ، بدلا من حركة الشمس وحدها . والدلالة فى حركة الجرم العظيم حركة دائبة مقدرة تقديرا تنشأ عنه ظواهر كونية متكررة فى اليوم وفى العام ، تنطق بذاتها وبعظمها وبإنتظام تكررها وتكرر آثارها البالغة ، يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، فلابد لها من موجد قدير حكيم قدر ، ودبر ، ولايزال يرعاها بتدبيره وحكمته ، وهو الإله الحق سبحانه ، ولاينتقص من هذه الدلالة شيئا أن يصبح الجرم العظيم الذى له تلك الحركة العجيبة هو الأرض فى حكم العلم الحديث . بعد أن كان هو الشمس فى رأى العين ورأى الفلسفة اليونانية أو العلم الحديث .

لكن هناك سؤالا آخر لايقل أهمية عن السؤال السابق ، لأنه يتعلق بالصدق كما يتعلق ذلك بالدلالة ، فهل فقدت الآية شيئا من صدقها وإن لم تفقد شيئا من دلالتها بذلك الذى أثبته العلم من التفسير الصحيح لظاهرة حركة الشمس من المشرق إلى المغرب ؟ إن الله سبحانه يقول فى كتابه : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ ـ فصلت ٤١ ، ٤٢ ـ فمستحيل أن يكون فى القرآن شىء من الباطل قط ، لا فى تكويناته ولا فيما عدا ذلك مما تعرض له القرآن بعبارة أو إشارة . بهذا تقضى هذه الآية الكريمة ، والمؤمن بها ، الذى يحاذر أن يقفو ماليس له به علم ، ليس له فى الإجابة عن السؤال إلا الجزم بأن آية سورة (يس) لايمكن أن تفقد من صدقها شيئا بما كشف أو يكشف عنه العلم . .

وليس لها فى تفهمها إلا طريقان : طريق الحقيقة وطريق المجاز . والعدول عن الحقيقة إلى المجاز لابد له فى الكلام من قرينة تبرره ، وتدل على أن المعنى المجازى هو المراد ، وليس فى الآية الكريمة ولا فيما قبلها أو بعدها فى موضعها من سورة (يس) مايدل على أن كلمة (تجرى) فى قوله : ﴿ والشمس تجرى ﴾ مستعملة فى غير ما وضعت له . أو أن من الممكن صرفها إلى حركة سريعة للأرض بدلا من حركة سريعة للشمس من باب إطلاق المسبب على السبب ، فلم يبق إلا أن تكون كلمة (تجرى) فى الآية على حقيقتها مسندة إلى الشمس حقيقة لامجازا .

وهنا نتبين عجيبة من عجائب الإعجاز العلمى فى القرآن ، فقد جاء علم الفلك الحديث بعد نحو ثلاثة عشر قرنا من نزول القرآن ، فأثبت للشمس حركة غير هذه الحركة الظاهرة من المشرق إلى المغرب ، فقد أثبت أن هذه الحركة ذاتية للشمس ، وقدر سرعتها بركنيها ، أى من حيث المقدار والإتجاه ، فأما المقدار فهو اثنا عشر ميلا فى الثانية تقريبا ، وأما الاتجاه فهو نحو النجم المسمى (فيجا) فى الإنجليزية والنسر الواقع فى العربية ، أى أن علم الفلك الحديث أثبت أن الشمس ، على عظم كتلتها الهائلة ، تجرى فى الفضاء بسرعة اثنى عشر ميلا فى الثانية فى اتجاه النسر الواقع .

﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[1] فأنت ترى الآن فى قوله سبحانه

(١) الآية : ٣٨ من سورة (يس)

﴿ والشمس تجرى ﴾ معجزة علمية عظمى لم تكن تخطر لأحد على بال ، حتى كشف عنها علم الفلك الحديث ، لم يكشف عنها إلا فى القرن التاسع عشر بعد أن تهيأ له من آلات الرصد وأدوات التحليل الضوئى ومن المقدرة على تفسير النتائج التى توصل إليها عن طريقها ، ماأدى به إلى الكشف عن ذلك السر العظيم ، كتلة من النار قدر كتلة الأرض ٣٣٣ ألف مرة تقريبا تجرى فى ملكوت الله بسرعة تزيد على ضعف سرعة ما يسمونه بالقمر الصناعى فى دورته حول الأرض !!

لقد فتن الناس أو كادوا ، بهذه الأقمار أو القميرات الصناعية ، التى ليس للإنسان فيها إلا صنعها وإحكام إطلاقها مستعملا فى ذلك ماوهبه الله من علم ومقدرة ، أما دورانها حول الأرض فليس له فيه من فضل . إذ هى إنما تدور طوعا لسنن الله فى الحركة من ناحية ، وفى الجاذبية بينها وبين الأرض من ناحية أخرى ، فكيف يمكن أن يكون فى هذه القميرات دليل على وجود الإنسان وما بلغ من رقى فى الصناعة والعلم ، ولايكون فى الشمس وجريها فى الفضاء على ذلك الوجه العظيم الهائل دليل على وجود الله العزيز العليم ، سبحانه الذى خلق الشمس وأجراها وقدر لها مجراها فى الفضاء ؟

ثم كيف لايكون فى إخبار القرآن بجرى الشمس هذا ، قبل أن يؤتى الإنسان من العلم والمقدرة مايكشفه له ، بحيث تمر القرون بعد نزول القرآن والبشرية كلها فى غفلة عن جريها وجهل به ؟ كيف لايكون فى هذا كله دليل قاطع وبرهان ساطع على أن القرآن إنما أنزله رب الشمس سبحانه ، الذى فطرها وأجراها وقدر لها ذلك المجرى ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون ﴾ .

فأنظر الآن كيف أثبت العلم الحديث صدق ماينتجه الإيمان بالقرآن من قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى ﴾ إذا انبعثت الدقة من تطبيق القاعدة البلاغية القاضية بألا يعدل فى تفهم الآيات القرآنية الكونية عن الحقيقة إلى المجاز إلا بقرينة كافية فى نفس الكلام . صحيح أن الاستنتاج قد وقع ونحن نعلم أن العلم قد أثبت صدق الآية حرفيا .

لكن هذا لاينقص شيئا من العبرة التى ينبغى استخلاصها ، ألا وهى وجوب الاستمساك بما ينتجه التطبيق الدقيق لقواعد اللغة فى تفهم آى الذكر الحكيم فى ضوء المعروف من الحق ، والمعروف من الحق فى هذه الحالة هو أن الحركة الظاهرة للشمس من المشرق إلى المغرب راجعة فى حقيقتها إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس من المغرب إلى المشرق .

ثم تأمل بالغ حكمة الله فى أن جعل جرى الشمس حقيقة فى الفضاء يتفق خبره إذا ذكر فى القرآن مع ماعلم سبحانه أن ستبدو به الشمس لعباده نتيجة لما قدره للأرض من حركة يومية حول محورها وحركة سنوية حول الشمس ، ليكون التطابق بين الخبر والجرى الظاهرى فيه عبرة وهدى للناس أثناء الحقبة المتطاولة التى علم الله سبحانه ـ أن سوف تمر قبل أن يستطيع أو لو العلم الكشف عن جرى الشمس الحقيقى ، حتى إذا كشفوه وحققوا صدق الخبر الكونى القرآنى حرفيا ، كان ذلك معجزة علمية كبرى فى القرآن تقنع كل ذى عقل لم يغلبه الهوى والعناد ، أن القرآن حقا من عند الله .

والمعجزة العلمية الكبرى المتمثلة فى قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى ﴾ ينطوى تحتها فى الواقع معجزة أخرى . إذ قد خطأت علم الفلك القديم حين قال فى تفسير الشروق والغروب إن الشمس معلقة أو مركوزة فى فلك مادى كرى هو الذى يدور بالشمس حول الأرض ، فجعل حركة الشمس غير ذاتية ،

والآية الكريمة تقرر أن لها حركة ذاتية سريعة ، فإن الجرى لايمكن الا أن يكون ذاتيا ، وقد وجد التفسير الفلسفى أو الفلكى القديم طريقه إلى كتب التفسير ليس فقط فيما يتعلق بالشمس ولكن أيضا فيما يتعلق بالقمر ، وقد اعتبرهما فلاسفة اليونان خطأ من السيارات التى فسروا حركتها عبر السماء بما فسروا به حركة الشمس ، فافترضوها أى السيارات . مركوزة فى أفلاك كرية شفافة مجوفة بعضها داخل بعض ومركزها جميعا الأرض فهى تدور كلها بحركات مختلفة من المشرق إلى المغرب حول الأرض التى جعلوها ساكنة لا حركة لها ، وتبعهم فى ذلك فلاسفة المسلمين والمفسرون .

وقد يكون من تكليف ماليس فى الوسع أن ينتظر منهم استنباط جرى للشمس غير هذا الذى يرونه بأعينهم كل يوم ، لكن كان من المنتظر على الأقل أن يخطئوا الفلسفة اليونانية فى قولها : إن الشمس والقمر وبقية الكواكب أو السيارات تجرى بالواسطة لا بالذات ، استنادا منهم إلى قوله تعالى : ﴿ والشمس تجرى ﴾ وقوله : ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾ إذ لاقرينة فى الرأى على أن الجرى والسبح معدول بهما عن الحقيقة إلى المجاز .

ذلك من آيات الله

قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله مايشاء ، إن الله على كل شىء قدير ﴾(١) .

هذا هو رابع الأدلة على التوحيد فقد استدل بأحوال السماء والأرض ، وبالآثار العلوية ، وهنا استدل بأحوال الحيوان فقال :

﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾ أى والله خلق كل حيوان يدب على الأرض من ماء هو جزء مادته .

وخص الماء بالذكر من بين مايتركب منه من المواد ، لظهور إحتياج الحيوان إليه ، ولاسيما بعد كمال تركيبه ، ولامتزاج الأجزاء الترابية به .

ثم فصل أجزاء الحيوان مما يدب على وجه الأرض فقال :

﴿ فمنهم من يمشى على بطنه ﴾ كالحيات والسمك وغيرها من الزواحف ، وسمى حركتها مشيا مع كونها تزحف زحفا ، إشارة إلى كمال القدرة ، وأنها مع عدم وجود آلة المشى كأنها تمشى .

﴿ ومنهم من يمشى على رجلين ﴾ كالإنسان والطير .

﴿ ومنهم من يمشى على أربع ﴾ كالأنعام والوحوش .

ولم يذكر سبحانه مايمشى على أكثر من ذلك كالعناكب وغيرها من الحشرات ، لدخوله فى قوله : ﴿ يخلق الله مايشاء ﴾ مما ذكر ومما لم يذكر ، مع الاختلاف فى الصور والأعضاء ، والحركات والطبائع ، والقوى والأفاعيل .

﴿ إن الله على كل شىء قدير ﴾ أى : أن الله على احداث ذلك وخلقه وخلق مايشاء من الأشياء ـ لذو قدرة فلا يتعذر عليه شىء أراده .

وعلى الجملة فاختلاف هذه الحيوانات فى الأعضاء والقوى ومقادير الأبدان والأعمال والأخلاق ـ لابد أن يكون بتدبير مدبر حكيم ، مطلع على أحوالها وأسرار خلقها ، لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا

---

(١) الآية : ٤٥ من سورة النور .

فى السماء ، تعالى الله عما يقول الجاحدون علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا آيات مبينات ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾(١) .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن أنه هو المنزل للآيات المبينات والأدلة الواضحات الناطقة بنعوت الجلال والجمال والكمال ، فهو صاحب العظمة المطلقة وصاحب الكمال المطلق ، وقد جاءت هذه الآية : بعد بيان الآيات الكونية المبثوثة فى الأنفس والآفاق ، ومن قبل ذلك أخبر سبحانه أنه منزل الآيات التنزيلية .

وهكذا تعانق الآيات الكونية الآيات التنزيلية ، فالكل من عنده جل جلاله وكل من الآيات : نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .. صراط الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور .

تلك الطبيعة قف بنا ياسارى ... حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا ... لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه ... تمحو أثيم الشك والانكار

من قبائح القوم

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُولَٰٓئِكَ
بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ
أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟
إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن
يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ * وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾
قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن
تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾

(١) الآية : ٤٦ من سورة النور .

* تفسير المفردات *

يتولى : أى يعرض .
مذعنين : أى منقادين .
مرض : أى فساد من أصل الفطرة يحملهم على الضلال .
ارتابوا : أى شكوا فى نبوتك .
يحيف : أى يجور .
الظالمون : أى الذين يريدون ظلم الناس وجحد حقوقهم .
يخشى الله : أى فيما صدر منه من الذنوب فى الماضى .
يتقه : أى فيما بقى من عمره .
جهد أيمانهم : أى أقصى غايتها من قولهم : جهد نفسه إذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها .
تولوا : أى تتولوا (بحذف إحدى التاءين)

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الواضحة على توحيده وأتم بيانها ، ثم ذكر أنه يهدى بها من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، أعقبه بذكر من لم يهتد بها وهم المنافقون الذين يقولون بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، فيقولون :

آمنا بالله وبالرسول ثم يفعلون ضد مايقولون ، فإذا دعوا ليحكم بينهم الرسول فيما يتنازعون فيه أبوا وخافوا أن يحيف عليهم ، والمؤمن الصادق الإيمان إذا مادعى إلى الله والرسول قال سمعا وطاعة ، ثم بين بعض أكاذيبهم التى يراءون بها ويدعون الإخلاص فيها ، فمنها أنهم يحلفون أغلظ الإيمان أنهم مطيعون للرسول فى كل مايأمرهم به ، حتى لو أمرهم بالخروج والجهاد لبوا الأمر سراعا ، ثم أمر الرسول بنهيهم عن الحلف والأيمان ؛ لأن طاعتهم معروفة لاتحتاج إلى يمين وبأن يقول لهم : أطيعوا الله حقا لارياء ، فإن أبيتم فإنما على التبليغ وعليكم السمع والطاعة ، فإن أطعتمونى اهتديتم ، وإن توليتم فقد فعلت ماكلفت به ، وعلى الله الحساب والجزاء .

قال مقاتل : نزلت هذه الآية فى بشر المنافق دعاه يهودى فى خصومة بينهما إلى رسول الله ﷺ ودعا هو اليهودى إلى كعب بن الأشرف ثم تحاكما إلى رسول الله . ﷺ فحكم لليهودى فلم يرض المنافق لقضائه ـ عليه السلام ـ فقال نتحاكم إلى عمر ـ رضى الله عنه ـ ، فلما ذهبا إليه قال له اليهودى : قضى لى النبى ﷺ فلم يرض بقضائه ، فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال بلى ، فقال مكانكما حتى أخرج إليكما ، فدخل ـ رضى الله عنه ـ بيته وخرج بسيفه فضرب به عنق المنافق حتى برد ، وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله ورسوله ﷺ .

* التفسير *

النفاق مرض إجتماعى خطير والمنافقون فى كل زمان ومكان عالة على الأمة فى السراء ، وسوس ينخر عظامها فى الضراء إنهم الآكلون على كل الموائد .

قال تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ۞ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ماكانوا يعملون ۞ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون ۞ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ۞ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ۞ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لايهدى القوم الفاسقين ﴾(١)

وكم من شخص يلقاك عناقا ويقسم إنه لايطيق لك فراقا ، ملاك فى مظهره ، شيطان رجيم فى مخبره ، يلقاك بوجه أبى ذر ، وقلب أبى لهب . ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ۞ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد ۞ وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾(٢) .

فدع الكذوب فلا يكن لك صاحبا ... إن الكذوب يشين حرا يصحب
يلقـاك يقسم إنه بـك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب
يعطيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

كان المسيح ـ عليه السلام ـ يقول : (يابنى إسرائيل لاتأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ؛ ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله) .

وقد جاء فى الحديث القدسى الجليل : (لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم منهم حيران فبى يغترون ؟ أم على يجترئون)(٣) .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وماأولئك بالمؤمنين ۞ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ۞ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ۞ أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ۞ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ۞ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾(٤) .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن حال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ؛ ولكنهم فى الحقيقة كاذبون يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم قال تعالى : ﴿ ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴾ والمنافقون لاتفرز قلوبهم إلا الكذب والخداع كما تفرز الكبد الصفراء ، وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى

(١) سورة المنافقون . الايات : ١ ـ ٦
(٢) سورة البقرة الآيات : من ٢٠٤ ـ ٢٠٦
(٣) الحديث فى الأحاديث القدسية فى (ماجاء فى الإخلاص فى العمل وذم الرياء ، وترك النهى عن المنكر) ج ٢ ص ٢٩٣ برقم ٢٩٣ ط بيروت
(٤) سورة النور الآيات : ٤٧ ـ ٥٢

الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ماأنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ● أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ﴾(١) .

ثم قال سبحانه : ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾

أى إن كان الحكم لهم وفى جانبهم جاءوا مذعنين طائعين لماذا يفعلون هذا فى قلوبهم مرض وشبهة ، أم إرتابوا فى رسالتك وعدالتك أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ، تنزه الله عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ، وتنزه رسوله عن الحيف والظلم والجور ، بل أولئك هم الظالمون روى بن أبى حاتم بسنده عن الحسن قال : كان الرجل إذا كان بينه وبين الرجل منازعة ، فدعى إلى النبى ﷺ وهو محق أذعن - وعلم أن النبى ﷺ سيقضى له بالحق ، وإذا أراد أن يظلم فدعى إلى النبى ﷺ أعرض ، وقال : أنطلق إلى فلان : فأنزل الله هذه الآية ، فقال النبى ﷺ (من كان بينه وبين أخيه شىء فدعى إلى حكم من حكام المسلمين فأبى أن يجيب فهو ظالم لاحق له)(٣) .

ثم أخبر تعالى : عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله الذين لايبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله ، فقال : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ أى سمعا وطاعة .

ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب فقال تعالى : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ ذكر لنا أن عبادة بن الصامت وكان عقبيا بدويا أحد نقباء الأنصار : أنه لما حضره الموت قال لابن أخيه جنادة بن أبى أمية : ألا أنبئك بماذا عليك وماذا لك ؟ قال : بلى . قال : فإن عليك السمع والطاعة ، فى عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك ، وعليك أن تقيم لسانك بالعدل ، والا تنازع الأمر أهله ، إلا أن يأمروك بمعصية الله بواحا فما أمرت به من شىء يخالف كتاب الله فاتبع كتاب الله .

قال قتادة : ذكر لنا أن أبا الدرداء قال : لا إسلام إلا بطاعة الله ، ولاخير إلا فى جماعة ، والنصيحة لله ولرسوله ، وللخليفة وللمؤمنين عامة . قال وقد ذكر لنا أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان يقول : عروة الإسلام شهادة ألا لاإله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والطاعة لمن ولاه الله أمر المسلمين .

---

(١) سورة النساء آيات : ٦٠ - ٦٣

(٢) سورة النساء آية : ٦٥

(٣) هذا الحديث ورد فى تفسير ابن كثير تفسير سورة النور آية : ٥٠ ص ٨١ طبعة الشعب . وقال : هذا حديث غريب وهو مرسل .

وقوله : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمره به وترك مانهياه عنه ، ويخش الله فيما مضى من ذنوبه ، ويتقه فيما يستقبل . وقوله ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير وآمنوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون ۝ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[1] .

يخبر سبحانه وتعالى : عن بعض صفاتهم التى عرفوا بها ، فقد بلغت بهم الجرأة أنهم يحلفون ويكذبون ، كما قال سبحانه : ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾[2] وكما قال : ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لايرضى عن القوم الفاسقين ﴾[3] .

إن كذب هؤلاء سيمتد بهم حتى بعد البعث(يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون لهم كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا أنهم هم الكاذبون إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ۝ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين . لقد أقسموا بأغلظ الأيمان ، وحلفوا جهد طاقتهم ؛ لئن أمرتهم يامحمد بالخروج جهادا فى سبيل الله ليخرجن ، والله يعلم إنه لكاذبون ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ۝ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة). قل لهم يامحمد لاتقسموا فطاعتكم معروفة لدى الجميع لأنها طاعة مكذوبة مراوغة مخادعة ، ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ۝ لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون ﴾[4] .

وجاء فى قوله تعالى : ﴿ طاعة معروفة ﴾ مامعناه أى إن طاعة المؤمنين معروفة بعدم الحلف فلا داعى للحلف والقسم ، لأن الله مطلع على مافى القلوب عليم بذات الصدور وخبير بما تعملون لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

الله يدرى كل ماتضمر يعلم ماتخفى وماتظهر
وإن خدعت الناس لن تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

قل لهم يامحمد أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن استجابوا لطاعة الله ورسوله فقد صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، وإن تلوا وتعرضوا فإنما عليه ماحمل أى : إبلاغ الرسالة ، وآداء الأمانة ، ﴿ وعليكم ماحملتم ﴾ أى : بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ، ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض ﴾[5] وقوله تعالى ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾

---

(١) سورة النور الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) سورة المنافقون . آية : ٢
(٣) سورة التوبة ، آية : ٩٦ .
(٤) سورة الحشر الآيتان : ١١ ، ١٢
(٥) سورة الشورى ، آية : ٥٣ .

كقوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾(١) وقوله : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ● لست عليهم بمسيطر ﴾(٢) .

قال وهب بن منبه : أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل ـ يقال له : شعياء ـ : أن قم فى بنى إسرائيل فإنى سأطلق لسانك بوحى ، فقام فقال : ياسماء اسمعى ، ويأرض أنصتى ، فإن الله يريد أن يقضى شأنا ويدبر أمرا هو منفذه ، إنه يريد أن يحول الريف إلى الفلاة ، والآجام فى الغيطان ، والأنهار فى الصحارى ، والنعمة فى الفقراء ، والملك فى الرعاة ، ويريد أن يبعث أميا من الأميين ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على العقب اليابس لم يسمع من تحت قدميه ، أبعثه بشيرا ونذيرا ، لايقول الخنا ، أفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأسدده لكل أمر جميل ، وأهب له كل خلق كريم ، وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأحمد اسمه ، أهدى به بعد الضلالة ، وأعلم به من الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء متشتتة ، وأستنقذ به فئاما من الناس عظيما من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين بما جاءت به الرسل(٣) . رواه ابن أبى حاتم .

الوعد الحق

وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

(١) سورة الرعد ، آية : ٤٠ .
(٢) سورة الغاشية الآيتان : ٢١ ، ٢٢
* الخنا : الفحش فى القول .
(٣) أخرجه القاضى عياض فى الشفاء : عن عبد الله بن سلام وكعب الأحبار : ١٥/١ . وأورده ابن كثير فى تفسير سورة النور ط الشعب ج ٦ ص ٨٣ .

* المناسبة واجمال المعنى *

بعد أن بين أن من أطاع الرسول فقد اهتدى إلى الحق ، ومن اهتدى إلى الحق فجزاؤه دار النعيم ، أردف ذلك وعده الكريم بأنه سيجعل المؤمنين المطيعين لله ورسوله خلفاء فى الأرض ، ويؤيدهم بالنصرة والإعزاز ، ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو آمنا فيعبدون الله وحده ، وهم آمنون ومن جحد هذه النعم من بعد ذلك ، فقد عصى ربه وكفر أنعمه ، وبعد أن بشر المؤمنين بأنه سيمكن لهم فى الأرض ، ويجعل لهم من بعد الخوف آمنا ـ أردف ذلك أمرهم بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، شكرا له على ماأنعم به عليهم ، وإحسانا إلى عباده البائسين الفقراء ، كما أحسن إليهم بتبديل ذلهم عزة ، وضعفهم قوة ، ثم أعقبه برفع استبعاد تحقق الوعد السابق مع كثرة عدد عدوهم وعددهم ، وبعدئذ ذكر أن مآلهم إلى النار وبئس القرار .

* التفسير *

حقائق التاريخ تثبت ، ووقائع الأيام تؤكد ، وأحداث الليالى تشهد بأن الله جلت قدرته ، قد صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وفى تلك الآية الكريمة وعد صادق لرسول الله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمنا ، وحكما فيهم ، وقد فعل تبارك وتعالى : ذلك وله الحمد والمنة .

فإنه ـ ﷺ ـ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين ، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ، ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والأسكندرية ـ وهو المقوقس ـ وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة ، الذى تملك بعد أصبحمة ـ رحمه الله وأكرمه ـ ثم لما مات الرسول ـ ﷺ ـ وأختار الله له ماعنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق ، فلم شعث ماوهى بعد موته ـ ﷺ ووطأ جزيرة العرب ومهدها ، وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس صحبة خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة ـ رضى الله عنه ـ ومن معه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثا صحبة عمرو بن العاص ـ رضى الله عنه ـ إلى أرض مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بصرى ودمشق ومخاليفها من بلاد حوران وما والاها ، وتوفاه الله ـ عز وجل ـ واختار له ماعنده من الكرامة ، ومن على أهل الاسلام بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام بالأمر بعده قياما تاما ، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله ، فى قوة سيرته وكمال عدله ، وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها ، وأكثر إقليم فارس ، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر ، وانتزع يده عن بلاد الشام وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ـ عليه من ربه أتم سلام ، وأزكى صلاة ، ثم لما كانت الدولة العثمانية امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ماهنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سبتة مما يلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق ،

وخراسان ، والاهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى مازوى لى منها)[1] فها نحن أولاء نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا ؟ قال الإمام مسلم بن الحجاج فى صحيحه : عن ابن أبى عمر ، بسنده عن جابر بن سمرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لايزال أمر الناس ماضيا ماوليهم اثنا عشر رجلا) ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت عنى فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال : (كلهم من قريش) . ورواه البخارى .

وفى رواية لمسلم : أنه قال ذلك عشية رجم ماعز ابن مالك ، وذكر معه أحاديث أخر[2] . وفى هذا الحديث دلالة على أنه لابد من وجود أثنى عشر خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر ، فان كثيرا من أولئك لم يكن من الأمر شىء . فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يولون فيعدلون ، وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لايشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعا ومتفرقا ، وقد وجد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على - رضى الله عنهم - ، ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وجد منهم ماشاء الله ، ثم قد يوجد منهم من بقى فى الوقت الذى يعلمه الله تعالى ، ومنهم المهدى الذى اسمه يطابق إسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورا وظلما ، وقد روى الإمام أحمد عن سفينة مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (الخلافة بعدى ثلاثون سنة ، ثم تكون ملكا عضوضا)[3]

وقال الربيع بن أنس : عن أبى العالية فى قوله : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[4] قال : كان النبى - ﷺ - وأصحابه بمكة نحو من عشر سنين ، يدعون إلى الله وحده ، وإلى عبادته وحده لاشريك له سرا وهم خائفون ، لايؤمرون بالقتال ، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة ، فقدموها ، فأمرهم الله بالقتال . فكانوا بها خائفين يمسون فى السلاح ويصبحون فى السلاح ، فصبروا على ذلك ماشاء الله ، ثم إن رجلا من الصحابة قال يارسول الله ، أبد الدهر نحن خائفون هكذا ؟ . أما يأتى علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح ؟ فقال رسول الله ﷺ (لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليست فيه حديدة) . وأنزل الله

---

(١) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الفتن) باب : هلاك هذه الأمة بعضهم لبعض : ج ٨ ص ١٧١

(٢) رواه مسلم فى : (كتاب الإمارة) باب : الناس تبع لقريش ج ٦ ص ٣ .
ورواه البخارى فى : (كتاب الأحكام) باب : الاستخلاف : ج ٩ ص ١٠١ .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى مسنده : ٥/٢٢٠ - ٢٢١ وفى سنن أبى داود فى (كتاب السنة) باب : فى الخلفاء ج ٤/٢١١ وفى تحفة الأحوذى أبواب الفتن ، باب : ماجاء فى الخلافة ، رقم ٢٣٢٦ : ج ٦ ص ٤٧٦ ص ٤٧٨ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن . ورواه غير واحد عن سعيد بن جمهان .

(٤) من الآية : ٥٥ من سورة النور .

هذه الآية ، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب ، فآمنوا ووضعوا السلاح ، ثم إن الله تعالى قبض نبيه - ﷺ فكانوا كذلك آمنين فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجزة والشرط وغيروا ، فغير بهم[1] . وقال بعض السلف خلافة أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - حق فى كتاب الله - ثم تلا هذه الآية . وقال البراء بن عازب : نزلت هذه الآية ، ونحن فى خوف شديد . وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض - إلى قوله - لعلكم تشكرون ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ كما قال تعالى : عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ﴾[4] وقوله : ﴿ وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ﴾ كما قال رسول الله - ﷺ - لعدى بن حاتم ، حين وفد عليه : (أتعرف الحيرة ؟) قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال : (فو الذى نفسى بيده ، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز) قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال : نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لايقبله أحد) . قال عدى بن حاتم . فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جواز أحد ، ولقد كنت فيمن أفتتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله ﷺ قد قالها[5] . وقال الامام أحمد بسنده عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ (بشر هذه الأمة بالسنا والرقعة ، والدين والنصر ، والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب)[6] .

قوله تعالى : ﴿ يعبدوننى لايشركون بى شيئا ﴾ . قال الامام احمد بسنده عن أنس : أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف النبى ﷺ على حمار ليس بينى وبينه إلا آخرة الرحل ، قال : (يامعاذ) . قلت : لبيك يارسول الله وسعديك ، قال : ثم سار ساعة ثم قال : (يامعاذ بن جبل) قلت : لبيك يارسول الله وسعديك ، ثم سار ساعة ، ثم قال : (يامعاذ بن جبل) قلت : لبيك يارسول الله وسعديك ، قال : (هل تدرى ماحق الله على العباد ؟) قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا قال : ثم سار ساعة ، ثم قال : (يا معاذ بن جبل) قلت : لبيك يارسول الله وسعديك . قال : (فهل تدرى ماحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال (فإن حق العباد على الله الا يعذبهم) أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة .[7]

---

(١) الدر المنثور ، عن عبد بن حميد وابن أبى حاتم : ج ٥ ص ٥٥ .
(٢) سورة الأنفال : آية : ٢٦
(٣) سورة الأعراف ، آية : ١٢٩ .
(٤) سورة القصص ، آية : ٥ .
(٥) أخرجه البخارى ، (كتاب المناقب) باب : علامات النبوة فى الإسلام : ج ٤ ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ، وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة الفاتحة . الحديث ٤٠٢٩ : ٨/ ٢٨٦ - ٢٨٩ ومسند الإمام أحمد : ٤/ ٢٥٧ .
(٦) مسند الإمام أحمد : ٥/ ١٣٤ .
(٧) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده : ٥/ ٢٤٢
وأخرجه البخارى فى (كتاب اللباس) باب : إرداف الرجل خلف الرجل : ٧/ ٢١٨ . ومسلم ، فى (كتاب الإيمان) باب : من لقى الله بالإيمان الخ : ١/ ٤٣ .

قوله تعالى : ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أى فمن خرج عن طاعتى بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبا عظيما فالصحابة رضى الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم أظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب وأيدهم تأييدا عظيما وحكموا فى سائر العباد والبلاد ، ولما قصر الناس بعدهم فى بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ولكن قد ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة - وفى رواية حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك - وفى رواية - حتى تقاتلوا الدجال - وفى رواية حتى ينزل عيسى بن مريم وهم ظاهرون) وكل هذه الروايات صحيحة ولا تعارض بينها .

قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون . لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض ومأواهم النار ولبئس المصير ﴾ .

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بإقامة الصلاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة ، وهى الاحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ أى سالكين وراءه فيما به أمرهم وترك ما عنه زجرهم لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمهم كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ (لا تحسبن) أى لا تظن يامحمد ان (الذين كفروا أى خالفوك وكذبوك (معجزين فى الأرض) أى لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ولهذا قال تعالى : ﴿ ومأواهم ﴾ أى فى الدار الآخرة (النار ولبئس المصير) أى لبئس المآل مآل الكافرين وبئس القرار وبئس المهاد .

الاستئذان وأحكام أخرى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ

(٢) سورة التوبة الآية رقم ٧١

لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ
جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
﴿٦٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ
أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ
أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ
خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ
فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ
ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

معانى المفردات

ما ملكت أيمانكم : يشمل العبيد والاماء أى الذكران والاناث . الحلم : بسكون اللام وضمها أى وقت البلوغ ، إما بالاحتلام ، وإما ببلوغ الخامسة عشرة سنة من حلم (بفتح اللام) . تضعون : أى تخلعون . الظهيرة : وقت اشتداد الحر حين منتصف النهار والعورات : أى الأوقات التى يختل فيها تستركم ، من قولهم : أعور الفارس : إذا اختلت حاله . جناح : أى إثم وذنب ، طوافون عليكم : أى يطوفون عليكم للخدمة والمخالطة الضرورية ـ القواعد : واحدها قاعد وهى العجوز ـ لا يرجون نكاحا أى لا يطمعن فيه لكبر سنهن ، والتبرج : التكلف فى إظهار ما يخفى من الزينة ، من قولهم : سفينة بارج ، إذا كان لا غطاء عليها .

الحرج لغة : الضيق ، ويراد به فى الدين الاثم . ما ملكتم مفاتحه : أى ما كان تحت تصرفكم من بستان أو ماشية بطريق الوكالة أو الحفظ ، والصديق : يطلق على الواحد والجمع كالخليط والعدو . جميعا : أى مجتمعين ـ أشتاتا : أى متفرقين ، واحدهم شتيت ، على أنفسكم : أى على أهل البيوت ، طيبة : أى تطيب بها نفس المستمع .

التفسير

كان الاستئذان فى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ﴾ كان هذا استئذان الأجانب على غيرهم . أما الاستئذان هنا فى قوله تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ﴾ فإن المراد به استئذان الأقارب من خدم وملك يمين وأطفال لم يبلغوا الحلم . فإن الآية الكريمة حددت لهم ثلاثة أوقات يستأذنون فيها : أول هذه الأوقات : من قبل صلاة الفجر . وثانيها : حين تضعون ثيابكم من الظهيرة . وثالثها : من بعد صلاة العشاء . وسماها القرآن : (ثلاث عورات) لأن الناس فيها قد يتخففون من ثيابهم طلبا للنوم والراحة . فعلى ملك اليمين والأطفال الذين لم يبلغوا الحلم أن يستئذنوا فى الدخول على المالك والقريب ماداموا فى هذه الأوقات .

١ ـ روى أن سبب نزول الآية (أن رسول الله ﷺ بعث وقت الظهيرة إلى عمر رضى الله عنه غلاما من الأنصار يقال له مُدْلج ، وكان عمر نائما ، فدق عليه الباب ودخل ، فاستيقظ وجلس ، فانكشف منه شيء ، فقال : لوددت أن الله تعالى نهى أبناءنا وآباءنا وخدمنا عن الدخول علينا فى هذه الساعة إلا بإذن . فانطلق معه إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد نزلت فخر ساجدا) . وهذا أحد موافقات رأية الصائب رضى الله عنه للوحى .

٢ ـ وقيل إن السبب ما روى من أن أسماء بنت أبى مُرْشد دخل عليها غلام كبير لها فى وقت كرهت دخوله فيه ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فنزلت الآية .

روى سعيد بن جبير عن ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ يأأيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ﴾ الآية . وقوله فى النساء . ﴿ وإذا حضر القسمة أولو القربى ﴾[1] الآية . وقوله فى الحجرات : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] .

٣ ـ وعن عكرمة عن ابن عباس أن رجلين سألاه عن الاستئذان فى العورات الثلاث التى أمر الله بها فى القرآن فقال : إن الله ستِّير يحب الستر ، كان الناس ليس لهم ستور على أبوابهم ولا حجال فى بيوتهم ، فربما فجأ الرجل خادمُه أو ولده أو يتيمه فى حجره وهو على أهله ، فأمرهم الله أن يستأذنوا فى تلك العورات ، ثم بسط الله عليهم الرزق فاتخذوا الستور واتخذوا الحجال فرأوا أن ذلك قد كفاهم من

---

١ ـ هذا الحديث أورده القرطبى فى تفسيره ١٢ / ٤ ـ ٣ بهذا اللفظ .
وبمراجعة كتب الحديث لم أجده الا فى أسباب النزول للواحدى بلفظ : قال ابن عباس : وجه رسول الله ﷺ غلاما من الأنصار يقال له مدلج بن عمرو الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر بحالة كره عمر رؤيته ذلك ، فقال يارسول الله : وددت لو أن الله تعالى أمرنا ونهانا فى حال الاستئذان ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .
راجع أسباب النزول للواحدى / ٢٤٨ تصوير ط : عالم الكتب بيروت على طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ .
٢ ـ وقال قائل : نزلت فى أسماء بنت مرشد كان لها غلام كبير فدخل عليها فى وقت كرهته ، فأتت رسول الله ﷺ فقالت : إن خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكرهها فأنزل الله هذه الآية (أسباب النزول للواحدى/ ٢٤٨) .
واخرج ابن ابى حاتم عن مقاتل قال : بلغنا أن جابر بن عبدالله حدث عن أسماء بنت مرشد كانت فى مخدعها فجعل النساء يدخلن عليها غير متأزرات فيبدو ما فى أرجلهن ، يعنى الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء : ما أقبح هذا ؟ فأنزل الله فى ذلك (وقل للمؤمنات . .) الآية (أسباب النزول للسيوطى / ١٢٧
ـ هذا الحديث : رواه ابو داود وابن المنذر وابن ابى حاتم واللفظ له وابن مردويه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما وراجع الدر المنثور ٥/ ٥٦ ، قال ابن كثير بعد عزوه لابن ابى حاتم وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس تفسير ابن كثير ٦/ ٩٠ ط الشعب .
والحديث رواه ابو داود عن ابن عباس (راجع عون المعبود شرح سنن ابى داود ١٤ / ٨٦ ـ ٩٧ كتاب الأدب ، باب فى الاستئذان فى العورات الثلاث ـ الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ)

الاستئذان الذى أمروا به . وقوله تعالى : ﴿ ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ . الجناح هو الاثم . والمعنى ليس عليكم إثم إذا مكتموهم من الدخول عليكم فى غير هذه الأوقات الثلاثة ، وليس عليهم إثم كذلك إذا دخلوا بدون استئذان فى غير هذه العورات ، فإنهم طوافون عليكم أى يطوفون عليكم لخدمتكم وقضاء حوائجكم فلا غنى لهم من الدخول عليكم ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم . ولهذا روى الامام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن النبى ﷺ قال فى الهرة : (إنها ليست بنجسة إنها من الطوافين عليكم أو الطوافات) .

وكما أنهم يطوفون عليكم لخدمتكم . فأنتم كذلك تطوفون عليهم لطلب الخدمة منهم ، ولقضاء حوائجكم . ومثل ذلك البيان الذى سبق ، يبين لكم الله الآيات والأحكام هنا ، فإنه تعالى العليم بأحوالكم ، الحكيم المنزه عن العبث ، الذى يضع الأمور فى نصابها ويسمى الأشياء بأسمائها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم ، كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) ، فى هذه الآية يبين الله تعالى حكم الأطفال إذا بلغوا الحلم . ولذلك علامات بدنية معروفة ، فإذا كان ذلك كذلك ، فعليهم أن يستأذنوا فى الدخول فى كل الأوقات سواء فى الأوقات الثلاثة أو فى غيرها ، كما استأذن الذين من قبلهم (أى الكبار من الأقارب) وذلك بخلاف ملك اليمين من العبيد والاماء ، فإن حكمهم ثابت لا يتغير فى الاستئذان فى أوقات العورة . ومثل ما بين الله تعالى من الأحكام يبين هنا ، فهو العليم الحكيم ، الذى علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . حكيم منزه عن اللغو والعبث .

قوله تعالى : ﴿ والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وأن يستعففن خير لهن والله سميع عليم ﴾ . المراد (بالقواعد من النساء) هن العجائز اللاتى قعدن عن الولد ويئسن من المحيض ، ولا يطمعن فى الزواج . رفع الله تعالى عنهن الحرج إذا تخففن من بعض الثياب كالجلباب الذى يلبس فوق الملابس ، بحيث لا يظهرن الزينة الداخلية ، وبشرط أن تظل محتفظة بخمارها الصفيق . قال تعالى : ﴿ غير متبرجات بزينة ﴾ ثم رغبهن الله جلت حكمته ـ فى الاحتفاظ بالعفة ، فذلك خير وأحسن تأويلا ، إذ قد لا تؤمن الفتنة ، وكما قال أحدهم :

لكل ساقطة فى الحى لاقطة وكل كاسدة يوما لها سوق

والله سميع لأقوالكم ، عليم بأحوالكم ، فاحذروا عقوبته ، واجتنبوا مخالفته فالسعيد هو التقى :

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ﴾ : للمفسرين فى هذه الآية الكريمة أقوال نبينها فيما يلى :

● قال عطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يقال إنها نزلت فى الجهاد وجعلوا هذه الآية ههنا كالتى فى سورة الفتح ، وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ـ إلى قوله ـ أن لا يجدوا ما ينفقون)(١) .

● وقيل المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك وهذا قول سعيد بن جبير ومقسم .

١ ـ وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ الآية . قال : كان الرجل يذهب بالأعمى أو بالأعرج أو بالمريض إلى بيت أبيه أو أخيه أو بيت أخته أو بيت عمته ، أو بيت خالته ، فكان الزمنى يتحرجون من ذلك يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت عشيرتهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم .(٢) .

٢ ـ قال مقاتل : نزلت فى الحارث بن عمرو ، وكان قد خرج مع رسول الله ﷺ غازيا وخلف مالك بن يزيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال : تحرجت أن آكل من طعامك بغير إذنك .(٣)

٣ ـ وعن ابن عباس رضى الله عنه أن المراد من الحرج المنفى فى الآية الحرج فى الأكل : ذلك أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾(٤) تحرج المسلمون عن مؤاكلة الأعمى لأنه لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والأعرج لأنه لا يستطيع المزاحمة على الطعام ، والمريض لأنه لا يستطيع استيفاء الطعام . فأنزل الله هذه الآية . والمعنى على هذه الرواية : ليس فى مؤاكلة الأعمى ولا ما بعده حرج .

---

(١) سورة التوبة (الآيتان ٩١ ، ٩٢

(٢) هذا الحديث اخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره ١٨/ ١٢٩ /عن مجاهد بلفظ : كان الرجل يذهب بالأعمى والمريض والأعرج إلى بيت أبيه أو إلى بيت أخيه أو عمه أو خاله أو خالته فكان الزمنى يتحرجون من ذلك ، يقولون : إنما يذهبون بنا إلى بيوت غيرهم ، فنزلت هذه الآية رخصة لهم .

واخرجه ايضا عبد الرزاق وابن ابى شيبة وابراهيم وعبد الله حميد وابن المنذر وابن ابى حاتم والبيهقى عنه ايضا (راجع الدر المنثور ٥ / ٥٨) والواحدى فى أسباب النزول ص ٢٤٩ .

(٣) هذا الحديث رواه الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج الحارث غازيا مع رسول الله ﷺ وخلف على أهله خالد بن زيد ، فحرج أن يأكل من طعامه ، وكان مجهودا فنزلت (راجع الدر المنثوره ٥ / ٥٨) .

(٤) سورة البقرة اية ١٨٨

(٥) هذا الحديث رواه الواحدى فى أسباب النزل ٢٤٨ ـ ٢٤٩ عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أنزل الله تبارك وتعالى (لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) تحرج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب والمريض لا يستوفى الطعام ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وكما رفع الله تعالى الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ، رفع الحرج كذلك عن عباده أن يأكلوا فى بيوتهم . وإنما نص عليه مع أنه معلوم أنه لا حرج على الانسان أن يأكل من بيت نفسه ، نص على ذلك ليعطف عليه غيره ويدخل فى بيت الانسان بيت ابنه . لقوله ﷺ : (أنت ومالك لأبيك) وقوله (إن أطيب ما يأكل المرء من كسبه وإن ولده من كسبه)(١)

كذلك لا حرج على العباد أن يأكلوا فى تلك البيوت : بيوت الآباء والأمهات والإخوة والأخوات ، والأعمام والعمات ، والأخوال والخالات ، ومن ملك المفاتيح والأصدقاء والمراد بقوله تعالى ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ هو وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وما يشبه فلا جرج عليه أن يأكل من ثمر الضيعة ويشرب من لبن الماشية ، ولكن لا يحمل ولا يدخر وهذا إذا لم يجعل له أجرا على ذلك ، فإن جعل له أجرا فلا يحل له أكل شيء منها . وقال سعيد بن جبير والسدى : هو خادم الرجل ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف .

٤ ـ وقال الزهرى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان المسلمون يذهبون فى النفير مع رسول الله ﷺ فيدفعون مفاتحهم إلى ضمنائهم ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه فكانوا يقولون إنه لا يحل لنا أن نأكل . إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم . وإنما نحن أمناء فأنزل الله : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾(٢).

وقوله تعالى : ﴿ أو صديقكم ﴾ أى بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ولا يكرهون ذلك .

وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه . وقال ابن زيد : هذا شيء قد انقطع ، إنما كان فى أوّله ولم يكن لهم ستور أبواب ، أو كانت الستور مرخاة ، فربما دخل الرجل البيت وليس فيه أحد ، وربما وجد الطعام وهو جائع . فسُوِّغ له أن يأكل منه ، ثم قال : ذهب ذلك اليوم ، البيوت فيها أهلها فإذا خرجوا أغلقوا .

وعلى هذا ، فالمعنى يجوز الأكل من بيوت هؤلاء ، وإن لم يحضروا إذا علم رضاهم به بصريح اللفظ أو بالقرينة وإن كانت ضعيفة .

---

(١) حديث : أنت ومالك لأبيك رواه ـ والذى بعده رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله أن رجلا قال يارسول الله : ان لى مالا وولدا ، وإن أبى يريد أن يجتاح مالى فقال : أنت ومالك لأبيك ـ قال السندى : وفى الزوائد اسناده صحيح ورجاله ثقات على شروط البخارى ـ سنن ابن ماجه ٢ / ٤٤ أبواب التجارة ، باب ما للرجل من مال ولده ـ الطبعة الاولى) ورواه أحمد فى مسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (المسند ٢ / ٤ ـ ٢)

وفى رواية لاحمد عنه : أنت ومالك لوالدك ، إن أطيب ما أكلتم من كسبكم وإن أموال أولادكم من كسبكم فكلوه هنيئا (المسند ٢ / ١٧٩) .

وفى رواية عنه : ان أولادكم من أطيب كسبكم فكلوا من كسب أولادكم (المسند ٢ / ٢١٤) ورواه ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : أن أطيب ما أكلتم من كسبكم وان اولادكم من كسبكم (سنن ابن ماجه ٢ / ٤٣ ـ ٤٤)

(٢) عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان المسلمون يرغبون فى النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتيحهم إلى ضمنائهم ، ويقولون لهم : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما أحببتم ، فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا ، إنهم آذنوا عن غير طيب نفس ، فأنزل الله عز وجل (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج .. إلى قوله أو ما ملكتم مفاتحه . (رواه البزار وقال : لا نعلم رواه عن الزهرى إلا صالح أ هـ (راجع كشف الاستار ٣ / ٦١ / ٦٢ رقم ٢٢٤١ قال السيوطى فى أسباب النزول ص ١٢٩ (أخرجه البزار بسند صحيح) .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا ﴾ : قيل فى سبب نزولها ما روى عن على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لما أنزل الله ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) قال المسلمون إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل والطعام هو أفضل من الأموال ، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد فكف الناس عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ ليس على الأعمى حرج ـ إلى قوله ـ أو صديقكم ﴾ وكانوا أيضا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده حتى يكون به غيره ، فرخص الله لهم فى ذلك فقال (ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا) : أى لا حرج عليكم أن تأكلوا مجتمعين أو متفرقين(١) .

٤ ـ روى عن ابن عباس والضحاك وقتادة أنها نزلت فى بنى ليث ابن عمرو بن كنانة تحرّجوا أن يأكلوا طعامهم متفرقين . . وكان الرجل منهم يمكث طوال يومه لا يأكل حتى يجد ضيفا يأكل معه فإن لم يجد من يؤاكله لم يأكل شيئا ، وربما قعد الرجل منهم والطعام بين يديه لا يتناوله من الصباح إلى الرواح ، وربما كانت معه الابل الحُفّل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه ، فإذا أمسى ولم يجد أحدا أكل(٢) ،وفى مثل هذا يقول حاتم :

إذا ما صنعت الزاد فالتمس له أكيلا فإنى لستُ آكله وحدى

وفى الحديث : (شر الناس من أكل وحده ، وضرب عبده ، ومنع رِفْدَه) وإنما ذمَّ هذا لأنه بخل بالقِرى .

١ ـ روى الامام أحمد بسنده عن وحش بن حرب عن أبيه عن جده أن رجلا قال للنبى ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع . قال : (لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه)(٣) .

٢ ـ وروى ابن ماجه أيضا بسنده عن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال : (كلوا جميعا ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ .

٣ ـ قال الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس قال : أوصانى النبى ﷺ بخمس خصال قال (يأنس أسبغ الوضوء يزد فى عمرك ، وسلم على من لقيت من أمتى تكثر حسناتك ، وإذا دخلت ـ يعنى بيتك ـ فسلم على أهلك يكثر خير بيتك ، وصل صلاة الضحى فإنها صلاة الأوابين قبلك يأنس أرحم الصغير ووقر الكبير تكن من رفقائى يوم القيامة)(٥) .

---

(١) تقدم تخريجه فى الصفحة قبل السابقة برقم / ٣

(٢) « روح المعانى للألوسى ١٨/ ٢٢١ »

(٣) (رواه احمد وأبو داود وابن ماجه) المسند ٣ / ١ ـ ٥ وعون المعبود ـ ١ / ٢٣٨ كتاب الأطعمة باب فى الاجتماع على الطعام ، سنن ابن ماجه الطبعة الاولى ٢ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ كتاب الأطعمة ، باب الاجتماع على الطعام)

(٤) سنن ابن ماجة ٢ / ٣٠٨ كتاب الاطعمة باب الاجتماع على الطعام .

(٥)(تفسير ابن كثير ٦ / ٩٥ ط الشعب) وأخرجه ايضا : ابن عدى والبيهقى فى شعب الايمان عن أنس ايضا ـ (راجع الدر المنثور ٥ / ٥٩ ـ ٦٠)

ولما كان المسلمون فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد ، صاروا كأن كل واحد منهم نفس الآخر ، لذا جاء التعبير القرآنى (فسلموا على أنفسكم) لأن غيرك نفسك إذ وشيجة الاسلام وآصرته أقوى من وشيجة الدم والعرق .

٤ ـ قال ابن جريج : أخبرنى أبو الزبير : سمعت جابر بن عبد الله يقول إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة ، قال ما رأيته إلا يوجبه)[١] .

٥ ـ وقال مجاهد (إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)[٢] .

٦ ـ وروى الثورى عن عبد الكريم الجزرى عن مجاهد : إذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل بسم الله والحمد لله ، السلام علينا من ربنا ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .. وقال قتادة : إذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فإنه كان يؤمر بذلك وحدثنا أن الملائكة ترد عليه)[٣] .

قوله تعالى : ﴿ تحية من عند الله مباركة طيبة) أى حيوا تحية ثابتة من عند الله فيها البركة لأهل البيت ، كما أنها تطيب نفوسهم . ومثل ذلك التفصيل والبيان يوضح الله لكم الأحكام لتعقلوا وتفهموا . ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل الرشيد بالمنطق السديد ليتدبر الآيات وتكون له زادا ونورا فى حياته .

المؤمنون والرسول

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ
يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ
لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟
دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ
فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ
لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا

(١) رواه ابن جرير فى تفسيره ١٨ / ١٣٢ .

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره ٦٨ / ١٣٢ عن الأعمش عن إبراهيم فى قوله (إذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم) قال : إذا دخلت المسجد فقل السلام على رسول الله وإذا دخلت بيتا ليس فيه أحد فقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإذا دخلت بيتك فقل السلام عليكم .

(٣) (تفسير ابن كثير ٦ / ٩٤ـ ٩٥ ط الشعب) .

عَمِلُواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾

معانى المفردات

أمر جامع : أى خطب جَلَل يستعان فيه بأرباب التجارب والآراء كقتال عدو أو تشاور فى حادث قد عرض . والتسلل : الخروج من البيت تدريجا وخفية ، واللواذ والملاوذة : التستر ، يقال لاذ فلان بكذا ، إذا استتر به ، والمخالفة : أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر فى حاله أو فعله ، فتنة : أى بلاء وإمتحان فى الدنيا . عذاب أليم : أى عذاب مؤلم موجع فى الآخرة .

المناسبة والمعنى الاجمالى

بعد أن أمر الله تعالى المؤمنين بالاستئذان عند الدخول ، بين هنا أن من كمال إيمانهم أن يستأذنوا عند الخروج إذا كانوا على أمر جامع ، أى خطب جسيم ، كإعلان الحرب والقتال ، كما أمر رسوله أن يأذن لمن شاء منهم ويستغفر الله لهم . كما أدبهم فى نداء رسول الله ، بألا ينادوه باسمه إنما ينادونه بـ « يأأيها النبى » و « يأأيها الرسول » وحذرهم من سوء العاقبة إذا خالفوا أمره . وختم سبحانه السورة بإثبات ملكيته للسموات والأرض وإحاطة علمه بكل شىء .

التفسير

بين الله حقيقة المؤمنين الكاملين بأنهم الذين آمنوا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . ومن كمال إيمانهم أنهم إذا كانوا مع قائد المسلمين الأعظم على أمر جامع وشأن خطير ، لم يذهبوا حتى يستأذنوا رسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿ **إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله** ﴾ .

ثم أرشد رسوله ومصطفاه فقال : (**فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم**) وهذه إشارة كريمة فيها التنويه بمكانة رسول الله عند ربه فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله لما سوف يفوتهم من الخير عندما يفارقونك ، فإن فى استغفارك لهم رحمة بهم ، إن الله غفور لذنوبهم رحيم بهم .

قوله تعالى : ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا**) : أى لا تسموه إذا دعوتموه يامحمد ولا تقولوا ياابن عبد الله ولكن شرفوه فقولوا يانبى الله يارسول الله وقال مالك عن زيد بن أسلم فى قوله : (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) قال أمرهم ان يشرفوه هذا قول وهو الظاهر من السياق كقوله تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا**)[1] إلى آخر الآية وقوله تعالى : ﴿ **يأأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ـ إلى قوله ـ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم** ﴾[2] . فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة

١ ـ سورة البقرة الآية رقم ١٠٤
٢ ـ سورة الحجرات الآيات ٢ ـ ٥

النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما امروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته .

والقول الثانى فى ذلك ان المعنى فى (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) أى لا تعتقدوا ان دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب فاحذروا ان يدعو عليكم فتهلكوا حكاه ابن ابى حاتم عن ابن عباس والحسن البصرى وعطية العوفى والله اعلم .

وقد نادى الله تعالى فى القرآن الانبياء بأسمائهم قال : ﴿ ويآآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾[1] ﴿ يانوح اهبط بسلام منا ﴾[2] (ياإبراهيم قد صدقت الرؤيا ﴾[3] (ياموسى إنى أنا ربك ﴾[4] (ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾[5] (يازكريا إنا نبشرك بغلام)[6] (يايحيى خذ الكتاب بقوة)[7] (ياعيسى إنى متوفيك)[8]

فإذا أراد أن ينادى رسوله ومصطفاه ، قال له : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ﴾[9] ﴿ ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾[10].

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد العقلاء ياخير الورى يامن اتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا وطلعت فى الاكوان بدرا نيرا
والله ما خلق الإله وما برا بشرا يرى كمحمد بين الورى

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ فى هذا النص أقوال لأئمة التفسير بيانها كالتالى : ـ قال مقاتل بن حيان هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ، ويعنى بالحديث الخطبة فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل ان يخرج من المسجد ، إلا بإذن من النبى ﷺ فى يوم الجمعة بعد ما يأخذ فى الخطبة وكان إذا أراد أحدهم الخروج أشار بأصبعه إلى النبى ﷺ فيأذن له من غير ان يتكلم الرجل ، لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى ﷺ يخطب ، بطلت جمعته . وقال السدى : كانوا إذا كانوا معه فى جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم .

وقال قتادة فى قوله : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ يعنى : لواذا عن نبى الله وعن كتابه .

وقال سفيان : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ قال من الصف .

وقال مجاهد فى الآية : ﴿ لواذاً ﴾ خلافا .

وقوله : ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أى عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(١) سورة الاعراف الآية رقم ١٩
(٢) سورة هود الآية رقم ٤٨
(٣) سورة الصافات الاية رقم ١٠٤ ، ١٠٥
(٤) سورة طه الآية رقم ١١ ، ١٢
(٥) سورة ص الآية رقم ٢٦
(٦) سورة مريم الآية رقم ٧
(٧) سورة مريم الآية رقم ١٢
(٨) سورة آل عمران الآية رقم ٥٥
(٩) سورة الاحزاب الآية رقم ٤٥
(١٠) سورة المائدة الآية رقم ٦٧

١ - (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد) اى فليحذر وليخف من خالف شريعة الرسول باطنا وظاهرا (أن تصيبهم فتنة) أى فى قلوبهم من كفر ، أو نفاق ، أو بدعة . (أو يصيبهم عذاب أليم) أى فى الدنيا بقتل ، أوحد ، أو حبس ، أو نحو ذلك ،

٢ - (كما روى الامام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ ـ أنه قال : (مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائى يقعن فى النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلك مثلى ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبونى وتقتحمون فيها) أخرجاه من حديث عبد الرزاق[١] .

قوله تعالى : ﴿ ألا إن لله ما فى السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم ﴾ ألا أداة استفتاح (إن لله ما فى السموات والأرض) فهو المالك لهما المدبر لشئونهما (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾[٣] .

وهكذا يقترن الملك بالعلم إذ يلزم ان يكون المالك عالما بشئون ما يملك فما بالك إذا كان المالك .

هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم .

(هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[٤] .

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾

قد هنا للتحقيق إذ العلم الألهى أمر ثابت وحقيقى كما فى قوله : ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً ﴾ وقال تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منكم ﴾[٥] وقال تعالى : (قد سمع الله قول التى تجادلك) (٦)

وقال : ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[٧]

(١) هذا الحديث بهذا اللفظ رواه البخارى معلقا فى كتاب الاعتصام/ث (فتح البارى ١٧/ ٨٢ باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فاخطأ . .) ، وفى كتاب البيوع / ٦٠ (فتح البارى ٥ / ٢٥٩ باب النجش) ورواه مسلم موصولا عن عائشة رضى الله عنها (صحيح مسلم ١٢ / ١٦ كتاب الأقضية ، نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور) ورواه احمد فى مسنده عنها رضى الله عنها (المسند ٦ / ١٤٦)

(٢) البخارى فتح البارى ١٤ / ٩٩ ـ ١٠١ كتاب الرفاق مسلم ١٥/ ٤٩ كتاب الفضائل احمد ٢/ ٢٤٤ / ٣١٢ / ٣ / ٣٦١ ، ٣٩٢

(٣) سورة البقرة الآية رقم ٢٥٥

(٤) سورة الحشر الآيتان رقم ٢٢ ـ ٢٤

(٥) سورة الاحزاب الآية رقم ١٨

(٦) سورة المجادلة الآية رقم ١ .

(٧) سورة الانعام الآية رقم ٣٣ .

وقال : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء ﴾[١] .

فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بقد كقول المؤذن تحقيقا وثبوتا : قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة .

فقوله تعالى : ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ أى هو عالم به مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم . إلى قوله : - إنه هو السميع العليم)[٢] وقوله : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين)[٣] .

وقال تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت)[٤] . أى هو شهيد على عباده ، بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون)[٥] .

وقال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ﴾[٦] :

وقال تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[٧] وقال : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين)[٨] وقوله : ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ أى ويوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ ينبئهم بما عملوا ﴾ أى يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقير ، وصغير وكبير .

كما قال تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر)[٩] . وقال : (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)[١٠] . ولهذا قال ههنا : ﴿ ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شىء عليم ﴾ .

سورة الفرقان

مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق وعدد آياتها سبع وسبعون وكلماتها ثمانمائة واثنتان وسبعون وحروفها ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاث وثلاثون

مقصود السورة

معظم ما اشتملت عليه السورة :

(١) المنة بإنزال القرآن ومنشور رسالة سيد ولد عدنان

(١) سورة البقرة الآية رقم ١٤٤ .
(٢) سورة الشعراء الآيات ٢١٧ - ٢٢٠
(٣) سورة يونس الآية رقم ٦١ .
(٤) سورة الرعد الآية رقم ٣٣ .
(٥) سورة هود الآية رقم ٥
(٦) سورة الرعد الآية رقم ١٠
(٧) سورة هود الاية رقم ٦ .
(٨) سورة الانعام الآية رقم ٥٩
(٩) سورة القيامة الآية رقم ١٣
(١٠) سورة الكهف الآية رقم ٤٩

(٢) تنزيه الحق تعالى من الولد والشريك وذم الأوثان

(٣) الشكاية من المشركين بطعنهم فى المرسلين بأكل الطعام بأخس مكان

(٤) استدعائهم محالات المعجزات من الانبياء كل أوان .

(٥) ذل المشركين فى العذاب والهوان .

(٦) عز المؤمنين فى ثوابهم بفراديس الجنان .

(٧) خطاب الحق مع الملائكة فى القيامة تهديدا لأهل الكفر والطغيان .

(٨) بشارة الملائكة للمجرمين بالعقوبة فى النيران وبطلان أعمال الكفار يوم الميزان .

(٩) الاخبار بمقر المؤمنين فى درجات الجنان .

(١٠) انشقاق السموات بحكم الهول وسياسة العبدان

(١١) الاخبار عن ندامة الظالمين يوم الهيبة ونطق الأركان

(١٢) ذكر الترتيب والترتيل فى نزول القرآن

(١٣) حكاية حال القرون الماضية

(١٤) تمثيل الكفار بالأنعام أخس الحيوان .

(١٥) تفضيل الأنعام عليهم فى كل شان .

(١٦) عجائب صنع الله فى ضمن الظل والشمس وتخليق الليل والنهار والآفات والأزمان .

(١٧) المنة بانزال الأمطار وإنبات الاشجار فى كل مكان .

(١٨) ذكر الحجة فى المياه المختلفة فى البحار وذكر النسب والصهر فى نوع الانسان وعجائب الكواكب والبروج ودور الفلك وسير الشمس والقدر وتفصيل صفات العباد وخواصهم بالتواضع .

(١٩) حكم قيام الليل والاستعاذة من النيران .

(٢٠) ذكر الاقتار والاقتصاد فى النفقة .

(٢١) الأحتراز من الشرك والزنى وقتل النفس بالظلم والعدوان

(٢٢) الاقبال على التوبة والاعراض عن اللغو والزور .

(٢٣) الوعد بالغرف للصابرين على عبادة الرحمن .

(٢٤) بيان ان الحكمة فى تخليق الخلق التضرع والدعاء و الابتهال إلى الله الكريم المنان بقوله : (ما يعبؤبكم ربى لولا دعاؤكم) الآية .

المتشابهات

قوله : ﴿ **تبارك** ﴾ هذه لفظة لا تستعمل الا لله تعالى ولا تستعمل إلا بلفظ الماضى وجاء فى هذه السورة . فى ثلاثة مواضع ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان** ﴾

﴿ **تبارك الذى إن شاء جعل لك** ﴾

﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا** ﴾

وخصت هذه المواضع بالذكر ، لأن ما بعدها عظائم :

الأول ذكر الفرقان ، وهو القرآن المشتمل على معانى جميع الكتب المنزلة من عند الله .

والثانى : ذكر النبى ﷺ -

والثالث ذكر البروج والسيارات ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، ولولاها ما وجد فى الأرض حيوان ولا نبات .

ومثلها ﴿ **فتبارك الله رب العالمين** ﴾[1] ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾[2] ﴿ **تبارك الذى بيده الملك**[3] .

قوله ﴿ **من دونه** ﴾ هنا وفى مريم ويس ﴿ **من دون الله** ﴾ لان فى هذه السورة وافق ما قبله ، وفى السورتين لو جاء ﴿ **من دونه** ﴾ لخالف ما قبله ، لأن ما قبله فى السورتين بلفظ الجمع تعظيما فصرح .

قوله : ﴿ **ضرا ولا نفعا** ﴾ قدم الضر موافقة لما قبله ، وما بعده ، فما قبله نفى وإثبات ، وما بعده موت وحياة قوله : ﴿ **مالا ينفعهم ولا يضرهم** ﴾ قدم النفع ، موافقة لقوله تعالى : ﴿ **هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج** ﴾

قوله : ﴿ **الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن** ﴾ ومثله فى السجدة يجوز أن يكون ﴿ **الذى** ﴾ فى السورتين مبتدأ ﴿ **الرحمن** ﴾ خبره فى الفرقان . ﴿ **وما لكم من دونه** ﴾ خبره فى السورة وجاز غير ذلك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ
فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا
يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو
ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾
قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾

(١) سورة غافر الآية رقم : ٦٤
(٢) سورة المؤمنون الآية رقم : ١٤
(٣) سورة الملك الآية رقم (١)

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ
مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن
تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا
﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ
قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ
بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا
﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ
الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ
كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ
أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا
أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ
وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن
يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ
الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ
بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

مناسبتها لما قبلها

(١) إنه سبحانه اختتم السورة السابقة ، بكونه مالكا لما فى السموات والأرض ، مصرفا له على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة مع النظام البديع ، والوضع الانيق . وانه سيحاسب عباده يوم القيامة ، على ما قدموا من العمل خيرا كان أو شرا .

وافتتح هذه بما يدل على تعاليه فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وعلى حبه لخير عباده ، بإنزال القرآن لهم ، هاديا وسراجا منيرا .

(٢) اختتم السورة السالفة بوجوب متابعة المؤمنين للرسول ﷺ مع مدحهم على ذلك ، وتحذيرهم من مخالفة أمره ، خوف الفتنة والعذاب الأليم ، وافتتح هذه بمدح الرسول وإنزال الكتاب عليه ، لارشادهم إلى سبيل الرشاد ، وذم الجاحدين لنبوته بقولهم : إنه رجل مسحور ، وإنه يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، إلى آخر ما قالوا . .

(٣) فى كل من السورتين وصف السحاب ، وإنزال الأمطار ، وإحياء الأرض الجرز ، فقال فى السالفة **﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾**(١) وقال فى هذه : **﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا ﴾**(٢)

(٤) ذكر فى كل منهما وصف أعمال الكافرين يوم القيامة وأنها لا تجزيهم فتيلا ولا قطميرا ، فقال فى الأول : **﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ﴾**(٣) وقال فى هذه : **﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾**(٤)

(٥) وصف النشأة الأولى للانسان فى أثنائهما فقال فى الأولى **﴿ والله خلق كل دابة من ماء ﴾**(٥) وفى الثانية **﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا ﴾**(٦)

معانى المفردات

تبارك : من البركة ، وهى كثرة الخير لعباده بانعامه عليهم ، وإحسانه إليهم ، كما قال : **﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾**(٧)

والفرقان : هو القرآن ، سمى بذلك ، لأنه فرق فى الانزال ، كما قال : **﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾**(٨) على عبده : أى على رسول الله ﷺ ، ووصفه بذلك تشريفا له بكونه فى أقصى مراتب العبودية ، وتنبيها إلى ان الرسول لا يكون إلا عبدا للمرسل ، وفيه رد على النصارى ، الذين يدعون ألوهية عيسى عليه السلام .

للعالمين : أى الثقلين من الانس والجن .

فقدره : أى هيأه لما أعده له من الخصائص والأفعال .

الافتراء : الاختلاق والكذب

من قولهم : افتريت الأديم - الجلد - إذا قطعته للافساد

جاءوا أى أتوا .

والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه إذ هم قد نسبوا القبيح إلى من كان مبرأ منه .

والزور : الكذب .

الاساطير : واحدها اسطار أو اسطورة كأحدوثة وهو ما سطره المتقدمون .

---

(١) سورة النور آية رقم ٤٣
(٢) سورة الفرقان آية رقم ٤٨
(٣) سورة النور آية رقم ٣٩
(٤) سورة الفرقان آية رقم ٢٣
(٥) سورة النور آية رقم ٤٥
(٦) سورة الفرقان آية رقم ٥٤
(٧) سورة إبراهيم آية رقم ٣٤ ، سورة النحل آية رقم ١٨
(٨) سورة الاسراء آية رقم ١٠٦

اكتتبها : أى أمر بكتابتها .
تملى عليه : أى تلقى عليه بعد اكتتابها ليحفظها
بكرة وأصيلا : أى صباحا ومساء والمراد دائما .
مسحورا : أى سحر فاختل عقله .
الامثال : أى الأقاويل العجيبة الجارية لغرابتها مجرى الأمثال
فضلوا : أى فبقوا متحيرين فى ضلالهم .
اعتدنا : أى هيأنا .
والسعير : النار الشديدة والاشتعال .
رأتهم : أى إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد من قولهم : دور تتراءى أى تتناظر ومنه قوله ﷺ . (ان المؤمن والكافر لا تتراءى ناراهما) أى (تتقاربان) بحيث تكون إحداهما بمرأى من الأخرى ، إذ يجب على المؤمن مجانبة الكافر والمشرك فى أمور الدين ،
والتغيظ : إظهار الغيظ والمراد صوت التغيظ
والزفير : اخراج النفس بعد مده .
مقرنين : أى قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى السلاسل
والثبور : الهلاك .
جنة الخلد : هى التى لا ينقطع نعيمها .
مسئولا : أى جديرا ان يسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون .
ضل السبيل : فقده وخرج عنه .
والذكر : ما ذكر به الناس على السنة أنبيائهم .
بورا : أى هالكين وهو لفظ يستوى فيه الواحد والجمع
صرفا : أى دفعا للعذاب .
يظلم : أى يكفر .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾ لفظ تبارك من البركة العظيمة ، التى لا يدرك كنهها ، فقد عظمت بركة الله حتى شملت الكون كله ، وقد اثنى الله تعالى على ذاته ، لأن المقام مقام نعمة ، لا تسامى ولا يلحق بها ، ولا يشق لها غبار ، إنه مقام تنزيل الفرقان على عبده ومصطفاه ، كما أثنى تبارك اسمه على ذاته بالحمد فى أول سورة الكهف ، حيث قال : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا**[1]
قوله ﴿ **على عبده** ﴾ المقصود به خاتم الأنبياء ، والتعبير بالعبودية هنا ، فيه تشريف وتكريم معبودية الانسان لربه اسمى ما يناله العبد ﴿ **من كان يريد العزة فلله العزة جميعا** ﴾[2] .

(١) سورة الكهف الآيات رقم ١ ـ ٣
(٢) سورة فاطر الآية رقم ـ ١٠

قال القائل :

ومما زادنى شرفا وقدرا وكدت بأخمصى أطأ الثريا
دخولى تحت قولك يا عبادى وأن صيرت أحمد لى نبيا

لذا جاء لفظ العبد ، معبرا عن رسول الله فى أشرف المقامات ، وأسمى الغايات ، فهو فى سورة الاسراء ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾[1] .

وفى سورة النجم ، المشتملة على المعراج ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾[2]

وفى موقف الدعاء : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾[3]

قوله : ﴿ ليكون للعالمين نذيرا ﴾ فى الآية دليل على عموم رسالته ﷺ فالعالمون جمع عالم ، والعالم كل ما سوى الله تعالى ، فقد كانت بعثته ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ عامة للجن والانس ، صح فى الحديث عنه أنه قال : ﴿ كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود ﴾ وقال له ربه : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾[4] وقال عن رسالته : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[5] .

وقال فى شأن إرساله إلى الجن : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ، يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾[6] .

وقال عز من قائل : ﴿ قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) .[7]

﴿ والفرقان ﴾ المنزل على خاتم الأنبياء ، هو القرآن العظيم الذى يفرق الله به بين الحق والباطل ، والنور والظلمات ، أنه الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات ﴿ وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[8]

قوله تعالى : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾

يخبر سبحانه وتعالى عن نفسه ، بأنه له ملك السموات والأرض لا يشاركه فى ذلك الملك أحد ، فهو المالك المدبر المتصرف ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله . قل أفلا تتقون . قل من بيده

---

١ ـ سورة الاسراء آية رقم (١)
٢ ـ سورة النجم آية رقم (١١)
٣ ـ سورة الجن آية رقم ١٩
٤ ـ سورة الاعراف آية رقم ١٥٨
٥ ـ الانبياء آية رقم ١٠٧
٦ ـ سورة الأحقاف الآيات ـ ٢٩ ـ ٣١
٧ ـ سورة الجن الآيات ١ ـ ٣
٨ ـ سورة الشورى الآيتان ٥٢ ـ ٥٣

ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون .[١]
سبحانه لم يتخذ ولدا ، وكيف يكون ذلك كذلك ؟ ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ، وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[٢] لقد قال المفترون : ان الملائكة بنات الله ، فقال لهم مولانا جل ذكره ﴿ **أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون أصطفى البنات على البنين ، مالكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** ﴾[٣]

كما ألقى باللائمة على هؤلاء الذين نسبوا لله الولد ، فقال : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدًا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾[٤]

وقال سبحانه : ﴿ **قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه ، هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون** ﴾[٥] وقال عز من قائل : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾[٦]

فالله جل شأنه نفى الولدية والشريك ، بعد ما أثبت أن له ملك السموات والأرض ، وأثبت أنه خلق كل شىء ، على نظام بديع ، ونسق رتيب ، فقدره تقديرا ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[٧]

قوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾

وبعد بيان الأدلة ، وقيام الحجة على أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ، وخلق كل شىء فقدره تقديرا ، بعد ذلك كله ، اتخذوا من دونه آلهة ، لا نصيب لها من الحقيقة ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ، ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى**[٨] عبدوا من دونه ما لا يخلق شيئا وهو يخلق ، وتركوا عبادة من يخلق ﴿ **قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعم ، قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ، ولا تكونن من المشركين** ﴾[٩]

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ٨٨ ـ ٨٩
(٢) سورة الانعام الآيات ١٠١ ـ ١٠٣
(٣) سورة الصافات الآيات ١٥٠ ـ ١٥٧
(٤) سورة مريم الآيات ٨٨ ـ ٩٥
(٥) سورة يونس الآيات ٦٨ ـ ٧٠
(٦) سورة الاسراء الآية رقم ١١١
(٧) سورة القمر الآيتان : ٤٩ ـ ٥٠
(٨) سورة النجم الآيات ١٩ ـ ٢٣
(٩) سورة الانعام الآية رقم ١٤

ولقد وجه القرآن الكريم هذا السؤال إليهم ، بعد ما عدد البراهين الساطعة ، والحجج القاطعة فى سورة النحل ، من خلق السموات والأرض ، والانسان والأنعام ، وإنزال الماء ، وإنبات النبات ، وتسخير الفلك والبحر وألقاء الرواسى ، قال لهم سبحانه : ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾(١) إن هذه المعبودات مع كونها مخلوقة ، فإنها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾(٢) كما أن هذه المعبودات ، لا تملك الموت ولا الحياة ، ولا البعث بعد الموت قال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ، إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾(٣)

وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار فى قولهم عن القرآن ﴿ إن هذا إلا إفك ﴾ أى كذب ﴿ افتراه ﴾ يعنون النبى - ﷺ - ﴿ وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ أى واستعان على جمعه بقوم آخرين ، فقال الله تعالى : ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ أى فقد افتروا هم قولا باطلا وهم يعلمون أنه باطل ، ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه .

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ يعنون كتبها الأوائل ، أى استنسخها ﴿ فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ أى تقرأ عليه أول النهار وآخره ، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم ، كل أحد يعلم بطلانه ، فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة ، أن محمدا رسول الله ﷺ لم يكن يعرف شيئا من الكتابة ، لا فى أول عمره ولا فى آخره ، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه ، وصدقه ونزاهته ، وبره وأمانته ، وبعده عن الكذب والفجور ، وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى إنهم كانوا يسمونه فى صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره ، فلما أكرمه الله بما أكرمه به نصبوا له العداوة ، ورموه بهذه الأقوال ، التى يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا فيما يقذفونه ، فتارة من افكهم يقولون ساحر ، وتارة يقولون شاعر ، وتارة يقولون مجنون ، وتارة يقولون كذاب ، قال الله تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وقال تعالى فى جواب ما عاندوا ههنا وافتروا : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض ﴾ الآية أى أنزل القرآن المشتمل على أخبار الأولين ، والآخرين ، أخبارا حقا صدقا

---

(١) سورة النحل الآية رقم ١٧

(٢) سورة فاطر الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة الأعراف الآيات ١٩٤ - ١٩٨

مطابقا للواقع فى الخارج ، ماضيا ومستقبلا ﴿ الذى يعلم السر ﴾ أى الله الذى يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ، وقوله تعالى : ﴿ إنه كان غفورا رحيما ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والانابة ، وإخبارهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، مع أن من تاب إليه تاب عليه ،

فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم ، وفجورهم وبهتانهم ، وكفرهم وعنادهم ، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا ، يدعوهم إلى التوبة والاقلاع عما هم فيه إلى الاسلام والهدى ، كما قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾(١) وقال تعالى ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾(٢) قال الحسن البصرى : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة .

قوله تعالى :

﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ، أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا - تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الأنهار ويجعل لك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا ، وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنا لك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ، وادعوا ثبورا كثيرا ، قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا . لهم فيها ما يشاءون كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ .

يقول تعالى ، مخبرا عن تعنت الكفار وعنادهم ، وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وإنما تعللوا بقولهم : ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ﴾ يعنون كما نأكله ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ ويمشى فى الأسواق ﴾ أى يتردد فيها وإليها طلبا للتكسب والتجارة ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ يقولون هلا انزل إليه ملك من عند الله فيكون له شاهدا على صدقه ، وهذا الكلام قاله فرعون من قبل لموسى . ﴿ فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾(٣) وكذلك قال هؤلاء على السواء تشابهت قلوبهم ، ولهذا قالوا ﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ أى كنز ينفق منه ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ أى تسير معه حيث سار ، وهذا كله سهل يسير على الله ولكن له الحكمة فى ترك ذلك ، وله الحجة البالغة . ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾قوله تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ﴾

أى جاءوا بما يقذفونك به ويكذبون به عليك ، من قولهم ساحر مجنون كذاب شاعر ، وكلها أقوال باطلة ، كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم فى ذلك ، ولهذا قال ﴿ فضلوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق ، وطريق الهدى ، فانه ضال

١) سورة المائدة الآيتان : ٧٣ - ٧٤
٢) سورة البروج الآية رقم : ١٠
٣) سورة الزخرف الآية رقم : ٥٣

حيثما توجه ، لأن الحق واحد ومنهجه متحد ، يصدق بعضه بعضا ، ثم قال تعالى . مخبرا نبيه : أنه إن شاء لآتاه خيرا مما يقولون فى الدنيا ، وأفضل وأحسن فقال : ﴿ **تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك** ﴾ الآية ، قال مجاهد : يعنى فى الدنيا ، قال وقريش يسمون كل بيت من حجارة ، قصرا كبيرا كان أو صغيرا ، قال سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن خيثمة قيل للنبى - ﷺ :- (إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطى أحدا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله ، فقال : (اجمعوها لى فى الآخرة فأنزل الله عز وجل فى ذلك ﴿ **تبارك الذى إن شاء جعل لك خيرا من ذلك** ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **بل كذبوا بالساعة** ﴾ أى إنما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا ، لا أنهم يطلبون ذلك تبصرا واسترشادا ، بل تكذيبهم بيوم القيامة ، يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ﴿ **وأعتدنا** ﴾ أى أرصدنا ﴿ **لمن كذب بالساعة سعيرا** ﴾ أى عذابا أليما حارا لا يطاق فى نار جهنم . قال سعيد بن حبير : ﴿ **السعير** ﴾ واد من قيح جهنم ، وقوله : ﴿ **إذا رأتهم** ﴾ أى جهنم ﴿ **من مكان بعيد** ﴾ يعنى من مقام الحشر . قال السدى من مسيرة مائة عام (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى حنقا عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ** ﴾[1] أى يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها على من كفر بالله وروى ابن أبى حاتم بسنده عن خالد بن دريك بإسناده عن رجل من أصحاب النبى ﷺ . قال : قال رسول الله ﷺ : ﴿ **من يقل على ما لم أقل أو ادعى إلى غير والديه ، أو انتمى إلى غير مواليه ، فليتبوأ مقعده من النار - وفى رواية - فليتبوأ بين عينى جهنم مقعدا) قيل يا رسول الله : وهل لها من عينين ؟ قال أما سمعتم الله يقول :** ﴿ **إذا رأتهم من مكان بعيد** ﴾ الآية

وروى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : (إن الرجل ليجر إلى النار فتنزوى وتنقبض بعضها إلى بعض ، فيقول لها الرحمن مالك ؟ فتقول انه ليستجير منى فيقول أرسلوا عبدى ، وإن الرجل ليجر إلى النار فيقول : يارب ما كان هذا الظن بك ، فيقول فما كان ظنك ؟ فيقول ان تسعنى رحمتك قال فيقول أرسلوا عبدى وان الرجل ليجر إلى النار فتشهق إليه النار شهقة البغلة إلى الشعير وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف . (قال ابن كثير وهذا اسناد صحيح)[2] .

وعن مجاهد عن عبيد بن عمير فى قوله : ﴿ **سمعوا لها تغيظا وزفيرا** ﴾ قال : إن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ، ولا نبى مرسل إلا خر لوجهه ، ترتعد فرائصه ، حتى إن إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه ويقول : رب لا أسألك اليوم الا نفسى[3]

وقوله : ﴿ **وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين** ﴾ قال قتادة عن أيوب عن عبد الله بن عمرو قال : مثل

---

(١) سورة الملك آية رقم ٧ ، ٨

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره وابن ماجة وابن أبى حاتم
(جامع البيان ١٨ / ١٤٠ ، تفسير ابن كثير ٦ / ١٠٤ ط الشعب)

(٣) جامع البيان فى تفسير القرآن لابن أبى حاتم ١٨ / ١٤٠ ، تفسير ابن كثير ٦ / ١٠٥ ط الشعب

وهذا الحديث رواه ابن جرير فى تفسيره ١٨ / ١٤٠ عن عبيد بن عمير ولفظه : إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبى إلا خر ترتعد فرائصه ، حتى إن إبراهيم ليجثو على ركبتيه فيقول يارب لا أسألك اليوم إلا نفسى .

الزج فى الرمح أى من ضيقه . وقوله : ﴿ مقرنين ﴾ قال أبو صالح يعنى مكتفين ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ أى بالويل والحسرة والخيبة ﴿ لا تدعو اليوم ثبورا واحدا ﴾ . . . الآية . . أى لا تدعوا اليوم ويلا واحدا وادعوا ويلا كثيرا ، وقال الضحاك الثبور : الهلاك والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار كما قال موسى لفرعون ﴿ وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ أى هالكا .

قوله تعالى : ﴿ قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا ـ لهم فيها ما يشاءون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ .

يقول تعالى : يا محمد هذا الذى وصفناه لك من حال الأشقياء ، الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم ، فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ، ويلقون فى أماكنها الضيق مقرنين ، لا يستطيعون حراكا ولا استنصارا ولا فكاكا مما هم فيه ، اهذا خير أم جنة الخلد التى وعدها الله المتقين من عباده ، التى أعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما أطاعوه ، ومناظر وغير ذلك مما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وهم فى ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا ، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، ولا يبغون عنها حولا ، وهذا من وعد الله الذى تفضل به عليهم ، وأحسن به إليهم ، ولهذا قال : ﴿ كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ أى لابد أن يقع وأن يكون ، كما حكاه أبو جعفر بن جرير عن بعض علماء العربية ان معنى قوله : ﴿ وعدا مسئولا ﴾ أى وعدا واجبا . وقال محمد بن كعب القرظى فى قوله : (كان على ربك وعدا مسئولا) يقول ان الملائكة تسأل لهم ذلك ﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ﴾[1] . وهذا المقام فى هذه السورة ، من ذكر النار ، ثم التنبية على حال أهل الجنة ، كما ذكر تعالى فى سورة الصافات حال أهل الجنة ، وما فيها من النضرة والحبور ، ثم قال بعد ذلك ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون . ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين فهم على آثارهم يهرعون ﴾[2]

فيا أخى المسلم صم عن الدنيا وأفطر على الموت ، وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ، جدد السفينة فإن البحر عميق ، وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، واخلص العمل فإن الناقد بصير ، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود .

ويحذركم الله نفسه

ـ عن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها)[3] رواه مسلم (الزمام ما يجعل فى أنف البعير) .

وعن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أهون أهل النار عذابا يوم القيامة لرجل يوضع فى أخمص قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا

(١) سورة غافر الآية رقم : ٨

(٢) سورة الصافات الآيات : ٦٢ ، ٧٠

(٣) رواه مسلم فى كتاب الجنة وصفه نعيمها وأهلها ، باب جهنم أعاذنا الله منها (صحيح مسلم ١٧ / ١٧٩ بشرح النووى) ورواه الترمذى فى أبواب جهنم / ١ (تحفة الأحوذى ٧ / ٢٩٤) باب ، ما جاء فى صفة النار

وإنه لأهونهم عذابا) متفق عليه . (١)

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن نبى الله ﷺ قال : (منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه ، ومنهم من تأخذه إلى حجزته ، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته) رواه مسلم (الحجزة) معقد الازار تحت السرة و (الترقوة) بفتح التاء وضم القاف : هى العظم الذى عند ثغرة النحر ، وللانسان ترقوتان فى جانبى النحر .

وعن أنس رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط فقال (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا) فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين)(٢) .متفق عليه .

وفى رواية : بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيء فخطب فقال (عرضت على الجنة والنار فلم أر كاليوم فى الخير والشر ، ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه غطوا رءوسهم ولهم خنين)(٣) . (الخنين) بالخاء المعجمة هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال (يقوم الناس لرب العالمين ، حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى انصاف أذنيه) متفق(٤) عليه (والرشح) العرق .

وعن المقداد ـ رضى الله عنه ـ قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل) قال سليم بن عامر الراوى عن المقداد فوالله ما ادرى ما يعنى بالميل ، أمسافة الأرض أم الميل الذى يكحل به العين ؟ فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما ، واشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه ، رواه مسلم .(٥)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعرق الناس يوم القيامة ، حتى يذهب

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الرقاق / ٥١ فتح البارى ١٤ / ٢٢٣ باب صفة الجنة والنار وفى كتاب العيدين / ٩ ، مسلم فى كتاب الايمان (صحيح مسلم ٣ / ٨٥ ـ ٨٦ باب التخفيف عن أبى طالب . .) ، أبو عوانه الاسفرايينى فى مستخرجه الصحيح على مسلم (مسند أبى عوانه ١ / ٩٨ ـ ٩٩) والترمذى فى جهنم / ١٢ ، والنسائى فى الاستفادة / ٦٢ وأحمد ٤ / ٢٧١ ، ٢٧٤

(٢) الحديث : رواه البخارى فى الكسوف / ٢ ، وفى التفسير ٥ / ١٢ ، وفى النكاح ١٠٧ ، وفى الرقاق / ٢٧ ، وفى الايمان ٣ ، مسلم فى الصلاة / ١١٢ ، وفى الكسوف / ١ ، وفى الفضائل / ١٣٤ ، والنسائى فى السهو / ١٠٢ ، وفى الكسوف / ١١ ، ٢٣ ، والترمذى فى الزهد / ٩ ، وابن ماجه فى الزهد ١٩ ، والدارمى فى الرقاق / ٢٦ ومالك فى الموطأ فى الكسوف / ١ ، وأحمد ٢ / ٢٥٧ ، ٣١٣ . . . الخ

(٣) الحديث رواه البخارى فى المواقيت / ٣١١ ، وفى الفتن / ١٥ ، وفى الاعتصام / ٣

(٤) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٤٧ ، وفى الزكاة / ٥٢ ، وفى التفسير (سورة ٨٣) ومسلم فى الجنة ٦٠ ، ٦١ ، والترمذى فى القيامة / ٢ ، وفى تفسير سورة ٨٣ ، وابن ماجة فى الزهد ٣٣ ، أحمد ٢ / ١٣ ، ١٩ ، ٣١ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦

(٥) راجع صحيح مسلم ١٧ / ١٩٦ بشرح النووى
ورواه أيضا : أحمد والطبرانى وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح واقره الذهبى عن عقبة بن عامر الجهنى رضى الله عنه ـ بألفاظ متقاربة)
المسند ٥ / ٢٥٤ ، المستدرك ٤ / ٥٧١ موارد الظمآن ٦٤٠ ، الترغيب والترهيب ٤ / ٣٨٩)

عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم (١) متفق عليه . ومعنى يذهب فى الأرض ينزل ويغوص .

وعنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة فقال : هل تدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا حجر رمى به فى النار منذ سبعين خريفا فهو يهوى فى النار الآن حتى انتهى إلى قعرها فسمعتم وجبتها (٢) رواه مسلم .

وعن عدى بن حاتم - رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر اشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة (٣)) متفق عليه .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إنى أرى ما لا ترون أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع ، إلا وملك واضع جبهته ، ساجدا لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى (٤)) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وأطت (بفتح الهمزة وتشديد الطاء (وتئط) بفتح التاء وبعدها همزة مكسورة . والأطيط صوت الرحل والقتب وشبههما ومعناه ان كثرة من فى السماء من الملائكة العابدين قد أثقلها حتى أطت (والصعدات) بضم الصاد والعين : الطرقات : ومعنى تجأرون ، تستغيثون . وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال قال رسول الله ﷺ : (كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الاذن متى يؤمر بالنفخ فينفخ . فكأن ذلك ثقل على أصحاب رسول الله ﷺ فقال لهم : (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل) (٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن و(القرن) هو الصور الذى قال الله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور ﴾ (٦)) كذا فسر رسول الله ﷺ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، الا ان سلعة الله غالية الا ان سلعة الله الجنة) (٧) رواه الترمذى . وقال حديث حسن .

و(أدلج) باسكان الدال ومعناه سار من أول الليل . والمراد التشمير فى الطاعة والله أعلم .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سمعت رسول الله ﷺ : يقول (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا) قلت يا رسول الله الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال (يا عائشة الأمر

(١) هذا الحديث رواه البخارى واللفظ له ومسلم ولفظه : ان العرق يوم القيامة ليذهب فى الأرض سبعين باعا ، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس أو إلى آذانهم (يشك ثور أيهما قال) قال الحافظ : وفى رواية الاسماعيلى عن سليمان بن بلال (سبعين عاما) : (فتح البارى ١٤ / ١٨٥ . صحيح مسلم ١٧ / ١٩٦)

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة / ٣١ .

(٣) الحديث رواه البخارى فى المناقب / ٢٥ ، وفى الزكاة / ٩ ، وفى الرقاق / ٤٩ ، وفى التوحيد / ٢٤ ، ٣٦ ، ومسلم فى الزكاة / ٦٧ ، والترمذى فى القيامة / ١ ، وابن ماجة فى مقدمة / ١٣ ، وفى الزكاة / ٢٨ ، وأحمد فى المسند ٤ / ٢٥٦ ، ٣٧٧

(٤) الحديث رواه الترمذى فى الزهد / ٩ ، ابن ماجه فى الزهد / ١٩ ، وأحمد فى المسند ٥ / ١٧٣ .

(٥) الحديث رواه الترمذى فى القيامة / ٨ وفى تفسير سورة ٣٩ / ٧ ، وأحمد فى المسند ١ / ٣٢٦ ، ٣ / ٧ ، ٤ ، ٣٧٤

(٦) سورة الزمر آية رقم : ٦٨

(٧) الحديث رواه الترمذى فى القيامة / ١٨

أشد من أن يهمهم ذلك) . وفى رواية (الأمر أهم من ان ينظر بعضهم إلى بعض) [١]. متفق عليه

(غرلا) بضم الغين المعجمة : أى غير مختونين .

اعمل لدار غدا

لا تركنن إلى الدنيا وصافها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (يأكل أهل الجنة فيها ، ويشربون ولا يتغوطون ، ولا يمتخطون ولا يبولون ، ولكن طعامهم ذلك جشاء ، ورشح ، كرشح المسك . يلهمون التسبيح والتكبير ، كما يلهمون النفس)[٢] رواه مسلم

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء اضاءة . لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يمتخطون . امشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ومجامرهم الالوة - عود الطيب - أزواجهم الحور العين ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء)[٣] متفق عليه .

وفى رواية للبخارى ومسلم : آنيتهم فيها الذهب ، ورشحهم فيها المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض : قلوبهم قلب رجل واحد يسبحون الله بكرة واصيلا)[٤].

قوله « على خلق رجل » رواه بعضهم بفتح الخاء واسكان اللام وبعضهم بضمها وكلاهما صحيح .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ : قال سأل موسى ﷺ ربه ، ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة فيقول : لأى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : اترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت رب ، فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله . فيقول فى الخامسة . رضيت رب فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب . قال . رب فاعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت : غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع اذن . ولم يخطر على قلب بشر ، رواه مسلم .

وعن أبى موسى - رضى الله عنه ان النبى - ﷺ قال : (إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الانبياء /٨ ، وفى تفسير ٥/١٤ ، ١٥ ، ٢١ ، وفى الرقاق /٤٥ ومسلم فى الجنة /٥٨ ، الترمذى فى القيامة/ ٣ ، وفى تفسير سورة ٢١ / ٤ والنسائى فى الجنائز ١١٩ ، أحمد فى المسند ٥ / ٣

(٢) الحديث رواه مسلم فى الجنة ١٨ ، ١٩ ، وأحمد فى المسند ٣ / ٣١٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤ ، ٣٨٤

(٣) الحديث : رواه البخارى فى بدء الخلق /٨ ، وفى الانبياء /١ ، ومسلم فى الجنة ١٤ ، ١٦ ، والنسائى فى القيامة /٦٠ ، وفى الجنة ٥ ، ٧ ، وابن ماجة فى الزهد /٣٩ ، والدارمى فى الرقاق /١٠٢ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٣٠ ، ٢٣٢ ... الخ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق /٨ ، ومسلم فى الجنة /١٧ ، والترمذى فى الجنة /٧ ، وأحمد فى المسند ١ /٦ ، ٢ / ٣١٦

مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا . للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضا)(١) متفق عليه (الميل) ستة آلاف ذراع

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة سنة ما يقطعها) متفق عليه ورروياه فى الصحيحين أيضا من رواية إبى هريرة رضى الله عنه قال : يسير الراكب فى ظلها مائة سنة ما يقطعها (الجواد بفتح الجيم وتخفيف الواو الفرس)(٢)

وعن النبى ﷺ قال:(إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الافق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم (قال) يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم قال : بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين)(٣) متفق عليه .

الكوكب الدرى الغابر : الكوكب المعنى الذاهب فى الأفق)

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ. قال : (لقاب قوس فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب)(٤) متفق عليه (لقاب قوس بالقاف والباء) أى قدر ما بين المقبض والسية من القوس . وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة سوقا يأتونها كل جمعة . فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنا وجمالا ، فيرجعون إلى أهليهم ، وقد ازادوا حسنا وجمالا ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسنا وجمالا ، فيقولون وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا)(٥) رواه مسلم .

٥ ـ وعن أبى سعيد وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد ! إن لكم ان تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وان لكم ان تنعموا فلا تبأسوا أبدا)(٦) رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ياربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك فيقول : (الأ أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : أى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا) متفق عليه .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التفسير سورة ١ / ٥٥ ، ومسلم فى الجنة / ٢٣

(٢). الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق /٨ ، وفى تفسير سورة ١ / ٥٦ ، وفى الرقاق / ٥١ ، ومسلم فى الجنة ٦ ، ٨ ، والترمذى فى الجنة ١ ، وفى تفسير سورة ١ ، ٢ / ٥٦ ، وابن ماجه فى الزهد ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق ١١٤ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٥٧ ، ٤٠٤ ، ٤١٨ ، ٤٣٨ ، ٤٥٢ ، ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٧ ، ٣ / ١١٠ ، ١٣٥ ، ١٦٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣٤ .

(٣). الحديث رواه البخارى فى بدء الخلق /٨ ، وفى الرقاق/ ٥١ ، ومسلم فى الجنة / ١١ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٣٣٥ ، ٣٣٩

(٤). الحديث رواه البخارى فى الجهاد / ٥ ، وفى بدء الخلق / ٨ ، ومسلم فى الإمارة ١١٥ ، والنسائى فى الجهاد/ ١٢ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٤٨٢ ، ٥ / ٤٢٢

(٥) الحديث روه مسلم فى الجنة / ١٣

(٦) الحديث رواه مسلم فى الجنة / ٢٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ١٠ / ٣٩ ، أحمد فى مسنده ٢ / ٣١٩ ، ٣ / ٣٨ ، ٩٥

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال : (انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر ، لا تضامون فى رؤيته) متفق عليه.[١]

١ - (عيانا بكسر العين وتخفيف الياء : أى معاينة ، لا تضامون فى رؤيته : بضم التاء وتخفيف الميم : أى لا يصيبكم ضيم : أى ضرر من زحام ونحوه حال رؤيته .

وعن صهيب - رضى الله عنه - ان رسول الله ﷺ قال : (اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا ازيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم) رواه مسلم .[٢]

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾

قال الله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا)

هذا مشهد من مشاهد الحشر ، يجمع الله فيه أهل الضلال ليواجههم بالذين عبدوهم من دون الله أمثال المسيح وعزيز والملائكة فيسأل الله هؤلاء المعبودين أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . وذلك ليقطع المعاذير عليهم ، كما فى قوله جل شأنه : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾[٣] وكما جاء فى هذا المشهد الذى سيلقى الله فيه هذا السؤال على المسيح ابن مريم ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ﴾ فقد قال عز وجل فى آخر سورة المائدة ﴿ واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ماليس لى بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ان تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير ﴾[٤]

---

(١) الحديث رواه البخارى فى المواقيت/ ١٦ ، وفى تفسير سورة ٢ / ٥ ، وفى التوحيد/ ٤ ، وأبو داود فى السنة/ ١٩ ، والترمذى فى الجنة / ١٩ ، وابن ماجه فى المقدمة / ١٣ ، وأحمد فى المسند ٤ / ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الايمان ، باب إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى (صحيح مسلم ٣ / ١٦ - ١٧) بشرح النووى

(٣) سورة سبأ الآيات : ٤٠ - ٤٢ .

(٤) سورة المائدة الآيات : ١١٦ - ١٢٠

فماذا كان جواب المعبودين ، بعد أن قال الله لهم ﴿ **أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل** ﴾ كان جوابهم تنزيها لله وتعظيما له ، وتوقيرا وإجلالا وتقديسا وتوكلا عليه ، وتفويضا للأمر إليه .

﴿ **قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء** ﴾ أنت الواحد الذى تقدس عن الشريك ذاتك ، وتنزهت عن مماثلة الأغيار صفاتك ، بالبر معروف وبالاحسان موصوف ، ما كان لنا أن نشرك بك شيئا ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وشغلتهم الدنيا كما شغلتهم كثرة الأموال والأولاد ، فحجبت قلوبهم عن رؤية الحق ، ففى الآذان وقر ، والقلوب فى اكنة ، ومن بينهم وبين نور التوحيد حجاب ، ﴿ **وكانوا قوما بورا** ﴾ نفوسهم خربة ، كالأرض البور التى لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء ، هنا وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، وقال الله بعد ذلك وقوله الحق : ﴿ **فقد كذبوكم بما تقولون** ﴾

أى بما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى ، كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾(١) . وقوله تعالى : ﴿ فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ﴾ أى لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أى يشرك بالله ﴿ نذقه عذابا كبيرا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا** ﴾

ليس أكل الطعام عيبا وليس المشى فى الاسواق عارا ، وليس محمد ﷺ بدعا من الرسل ﴿ **وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين** ﴾(٢) ﴿ **وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى** ﴾(٣)

فإذا كان محمد - ﷺ - يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، فمنطق الفطرة البشرية يقتضى ذلك ، وهل يطعن ذلك فى صدقه وأمانته وفطانته وعصمته وتبليغه .

وقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة** ﴾ أى ابتلاء واختبارا ، فالانبياء مع الأمم كل منهما فى حال اختبار ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾(٤) فاصبروا أيها الرسل على اذى الأقوام ، وفوضوا الأمر للخبير العلام قال محمد بن اسحق فى قوله : ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون** ﴾ قال ؟ يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى ، فلا يخالفون لفعلت ، ولكنى قد أردت أن أبتلى العباد بهم ، وابتليكم بهم ، وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ : (**يقول الله تعالى انى مبتليك ومبتلى بك**) وفى المسند عن

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦
(٢) سورة الأنبياء الآيتان رقم : ٧ ، ٨
(٣) سورة يوسف الآية رقم : ١٠٩
(٤) سورة الاسراء الآية رقم : ١٥

رسول الله ﷺ (لو شئت لاجرى الله معى جبال الذهب والفضة) وفى الصحيح انه عليه الصلاة والسلام (خير بين ان يكون نبيا ملكا أو عبدا رسولا فاختار أن يكون عبدا رسولا).

ويرحم الله صاحب البردة اذ يقول.

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسها فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ان الضرورة لا تعدو عن العصم

قوله تعالى:

﴿وكان ربك بصيرا﴾ أى مطلع على قلوب العباد وأحوالهم، يعلم الصابر من الجزع والطائع من العاصى

لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء، فعلى كل عاقل أن يعلم ان الدنيا دار فناء وابتلاء، وان الآخرة دار قرار وبقاء، فليأخذ من العاجلة إلى الباقية ومن دار المفر إلى دار المقر، لمثل هذا فليعمل العاملون.

مواقف مع أهل العناد

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا
فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢) وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣) أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ
خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤) وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا (٢٥)
الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ
يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨)
لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (٢٩) وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ
إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ
بِهِ فُؤَادَكَ ۚ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣)
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤) وَلَقَدْ آتَيْنَا
مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ
لِلنَّاسِ آيَةً ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا
بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۚ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ
الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) وَإِذَا رَأَوْكَ إِن

يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا
عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ
أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا

لا يرجون أى : لا يخافون والللقاء : مقابلة الشيء ومصادفته ، ولقاءنا اى : لقاء جزائنا واستكبروا فى أنفسهم أى: أوقعوا . الاستكبار فى شأن أنفسهم بعدها كبيرة الشأن

والعتو : تجاوز الحد فى الظلم تجاوزا بلغ أقصى الغاية ، حين كذبوا الرسول الذى جاء بالوحى ، ولم يكترثوا بالمعجزات التى أتاهم بها ، وحجرا محجورا : كلمة تقولها العرب حين لقاء عدو موتور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يقصدون بها الاستعاذة من وقوع ذلك الخطب الذى يلحقهم ، والمكروه الذى يلم بدارهم أى: نسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ، وقدمنا أى: عمدنا وقصدنا ، والهباء كما قال الراغب : دقاق التراب وما انبث فى الهواء ، ولا يبدو إلا فى أثناء ضوء الشمس من كوة ونحوها ، والمستقر ، المكان الذى يستقر فيه المرء فى أكثر الأوقات للجلوس والمحادثة ، والمقيل : المكان الذى يؤوى إليه للاستمتاع بالأزواج والتمتع بحديثهن ، سمى بذلك،لأن التمتع به يكون وقت القائلة غالبا . (تشقق) تتفتح السماء عن الغمام ، الحق : الثابت الذى لا يزول ، عسيرا : شديدا ، يعض الظالم على يديه : كناية عن الندم ، خليلا : صاحبا وصديقا ، الذكر : القرآن ، خذولا : الخذل الترك من الإعانة ، جملة واحدة أى : دفعة واحدة ، لنثبت به فؤادك أى : لنقوى به قلبك ، ورتلناه أى:أتينا ببعضه اثر بعض على تؤدة ومهل من قولهم ثغر مرتل أى : متفلج الأسنان ، بمثل أى : بنوع من الكلام جار مجرى المثل فى تنميقه وتحسينه ورشاقة لفظه وصدق معناه : تفسيرا أى : ايضاحا ، يحشرون على وجوههم إلى جهنم أى : يسحبون على وجوههم ويجرون إليها . الوزير : قال الزجاج : الوزير من يرجع إليه للاستعانة برأيه ، والتدمير : كسر الشيء على وجه لا يمكن معه إصلاحه ، وأعتدنا:هيأنا وأعددنا ، الرس : البئر غير المبنية ، والجمع رساس . قال ابو عبيدة . والمراد بهم كما قال قتادة أهل قرية من اليمامة يقال لها:الرس والفلج قتلوا نبيهم فهلكوا ، وهم بقية ثمود قوم صالح ، والتتبير : التفتيت والتكسير ، والقرية : هى سدوم أعظم قرى قوم لوط . لا يرجون أى : لا يتوقعون ، والنشور : البعث للحساب والجزاء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حكى سبحانه أباطيل المشركين السالفة بطعنهم فى نبوة محمد ﷺ ـ بقولهم ﴿ لولا أنزل

إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ أردف ذلك بذكر سخافات أخرى لهم فى هذا الصدد ، فقالوا : هلا أنزل علينا الملائكة فيخبرونا بصدقه أو نرى ربنا فينبئنا بذلك ، ثم بين أن هذا عتو عظيم منهم ، ثم أعقب هذا ببيان أنهم سيرون الملائكة حين الهول ، يوم الجزاء والحساب حين يقولون لهم : لا بشرى لكم اليوم بل فيه منعكم من كل خير ، فإن ما قدمتم من عمل صالح فى الدنيا ، صار هباء منثورا ، ثم أخبر بما يكون لأهل الجنة من خير المستقر ، وحسن المقيل ، فى ظل ظليل ونعم لا مقطوعة ولا ممنوعة ، حين يقولون ﴿ الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾[1] ولعل فى ذكر هذا ما يكون حافزا لهم على مراجعة أنفسهم وتخمير الرأى ، ليرشدوا إلى طريق السداد ، ويقلعوا عماهم فيه من هوى متبع وشيطان مطاع .

وبعد أن بين سبحانه فى سابق الآيات أن المشركين طلبوا إنزال الملائكة ـ أردف هذا ببيان أنهم ينزلون حين ينتهى هذا العالم الدنيوى ويختل نظام الأفلاك والأرض والسموات ، ويحشر الناس من قبورهم للعرض والحساب ، فيعض الكافر على يديه نادما على ما فات ويتمنى أن لو كان قد أطاع الرسول فيما أمر ونهى ، ولم يكن قد أطاع شياطين الإنس والجن ، الذين أضلوه السبيل ، وخذلوه عن الوصول إلى محجة الصواب وبعد أن ذكر مقالاتهم الباطلة وتعنتهم الظالم فى الرسول من نحو قولهم ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ وقولهم ﴿ ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ﴾ وقولهم فى القرآن : ﴿ إن هو إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ وقولهم فيه : ﴿ إن هو إلا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ ـ أعقب ذلك بشكاية الرسول إلى ربه ، بأن قومه قد هجروا كتابه ، ولم يلتفتوا إلى ما فيه من هداية لهم ورعاية لمصالحهم فى دينهم ودنياهم ، ثم سلاه سبحانه على ذلك ، بأن هذا ليس دأب قومك فحسب ، بل إن كثيرا من الأمم قد فعلوا مع رسلهم مثل هذا ، فاقتد بأولئك الأنبياء ، ولا تجزع ، ثم وعده وعدا كريما بأن يهديه إلى مطلبه ، وينصره على عدوه ، وكفى به هاديا ونصيرا .

وبعد أن ذكر مطاعنهم فى الكتاب الكريم ، كقولهم : إن هو إلا إفك مبين وقولهم : هو أساطير الأولين ـ قفى على ذلك بذكر شبهة أخرى لهم ، وهى قولهم : لو كان القرآن من عند الله حقا لأنزله جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى ، والإنجيل جملة على عيسى ، والزبور على داود فرد الله عليهم مقالتهم ، وبين لهم فوائد إنزاله منجما ، فذكر منها تثبيت فؤاده ﷺ وتيسير الحفظ ، وفهم المعنى ، وضبط الألفاظ ، إلى نحو أولئك ، ثم وعده بأنهم كلما جاءوا بشبهة دحضها بالجواب الحق ، والقول الفصل الذى يكشف عن وجه الصواب ، وبعدئذ ذكر حال المشركين ، وأنهم حين يحشرون يكونون فى غاية الذل والهوان ، ويجرون على وجوههم إلى جهنم وهم مصفدون بالسلاسل والأغلال . .

وبعد أن تكلم فى دلائل وحدانيته ، ونفى الأنداد ، وفى النبوة ، وأجاب عن شبهات المنكرين لها ، وفى أحوال يوم القيامة وأهوالها ، التى يلقاها الكافرون وفى النعيم الذى يتفضل به على عباده

(١) سورة الزمر آية رقم ٧٤ .

المتقين ، أردف ذلك بقصص بعض الأنبياء مع أممهم ، الذين كذبوهم ، فحل بهم النكال والوبال ، ليكون فى ذلك عبرة لقومه المشركين ، الذين كذبوا رسوله ، حتى لا يحل بهم من العذاب مثلما حل بمن قبلهم ، إذ هم تمادوا فى تكذيبهم ، وأصروا على بغيهم وطغيانهم .

وقد ذكر من ذلك خمس قصص : قصة موسى مع فرعون وقومه . . وقصة نوح وقومه ، وقصة هود مع قومه عاد ، وقصة صالح مع قومه ثمود ، وقصة أصحاب الرس .

وبعد أن ذكر مطاعن المشركين فى النبى ﷺ وأورد شبهاتهم فى ذلك ـ أردف هذا ببيان أن ذلك ما كفاهم ، وليتهم اقتصروا عليه ، بل زادوا على ذلك الاستهزاء به والحط من قدره ، حتى لقد قال بعضهم لبعض : ﴿ أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ ﴾ لقد غالوا فى ذلك فسموا دعوته إضلالا ، فرد الله عليهم مقالهم ، وأبان لهم أنه سيظهر لهم حين مشاهدة العذاب من الضال ومن المضل ، ثم عجب رسوله من شناعة أحوالهم بعد حكاية أقوالهم وأفعالهم القبيحة ، وأرشد إلى أن مثل هؤلاء ، يبعد أن يزدجروا عماهم فيه من الغى بنصحك وإرشادك ، فإن أكثرهم لا يسمعون ولا يعقلون ، وما هم إلا كالأنعام أو أضل منها سبيلا .

روى ان الآية الأولى نزلت فى أبى جهل ومن معه ، فإنه كان إذا مر رسول الله ﷺ ـ مع صحبه قال مستهزئا (أهذا الذى بعث الله رسولا)

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ .

هذا بعض ما اقترحوه ولولا هنا بمعنى هلا ، والمعنى أنزلت علينا الملائكة بالوحى . وذلك يفسره قوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾[(١)] .

ويحتمل أن يكون المعنى : هلا أنزلت علينا الملائكة فنراها رأى العين ، وذلك كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾[(٢)] .

فجاء الرد القاطع من الله ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[(٣)] . وفى هذا المقام يقول عنهم : ﴿ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ .

والكبر غمط الناس وبطر الحق ، والعتو والتمرد عن قبول الحق ، كما قال نوح عن قومه : ﴿ إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا[(٤)] ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا ﴾ أى هم

(١) سورة الانعام الآية رقم : ١٢٤
(٢) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٠ ـ ٩٢
(٣) سورة الاسراء الآية رقم : ٩٣
(٤) سورة نوح الآية رقم : ٥ ـ ٧

لا يرون الملائكة فى يوم خير لهم ، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار ، حين تبشرهم الملائكة بالنار والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : اخرجى أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث ، اخرجى إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتأبى الخروج وتتفرق فى البدن ، فيضربونه كما قال الله تعالى ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم ـ أى بالضرب ـ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾(٢) ولهذا قال فى هذه الآية الكريمة ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين ، حال احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات . وحصول المسرات .

قال الله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾(٣) .

وفى الحديث الصحيح عن البراء بن عازب : « أن الملائكة تقول لروح المؤمن اخرجى أيتها النفس الطيبة فى الجسد الطيب إن كنت تعمرينه ، أخرجى إلى روح وريحان ورب غيرغضبان »(٤).وقد تقدم الحديث فى سورة إبراهيم عند قوله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء ﴾(٥) .

وقال آخرون : بل المراد بقوله ﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى ﴾ يعنى يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما ، ولا منافاة بين هذا وما تقدم ، فإن الملائكة فى هذين اليومين ، يوم الممات ويوم المعاد ، تتجلى للمؤمنين وللكافرين ، تبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، فلا بشرى يومئذ للمجرمين . (ويقولون حجرا محجورا) أى:وتقول الملائكة للكافرين حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ، وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال:حجر القاضى على فلان ، إذا منعه التصرف ، إما لفلس أو سفه أو صغر ، أو نحو ذلك ، ومنه سمى الحجر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطواف ، أن يطوفوا فيه ، وإنما يطاف من ورائه ، ومنه يقال للعقل حجر ، لأنه يمنع صاحبه عن تعاطى ما لا يليق ، والغرض أن الضمير فى قوله ﴿ ويقولون ﴾ عائد على الملائكة ، هذا قول مجاهد وعكرمة والحسن والضحاك وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى وخصيف وغير واحد واختاره ابن جرير .

٢ ـ وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد الخدرى فى الآية : ﴿ ويقولون حجرا محجورا ﴾ قال حراما محرما أن يبشر بما يبشر به المتقون(٦) .

٣ ـ وقد حكى ابن جرير عن ابن جريج ، أنه قال ذلك من كلام المشركين (يوم يرون الملائكة ﴾ أى

(١) سورة الانفال الآية رقم : ٥٠
(٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٣
(٣) سورة فصلت الآية رقم : ٣٠ ـ ٣٢
(٤) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٧
(٥) الحديث رواه ابن ماجه فى الزهد/ ٣١ ، وأحمد فى مسنده ـ ٢/ ٣٦٤ ، ٤/ ٢٨٧ ، ٦/ ١٤٠ .
(٦) راجع تفسير ابن كثير ٦/ ١١١ ط : الشعب .

يتعوذون من الملائكة ، وذلك أن العرب كانوا إذا نزلت بأحدهم نازلة أو شدة يقول (حجرامحجورا)[١] وهذا القول وإن كان له مأخذ ووجه ، ولكنه بالنسبة إلى السياق بعيد ، لا سيما وقد نص الجمهور على خلافه ، ولكن قد روى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، أنه قال فى قوله : ﴿ حجرا محجورا ﴾ أى عوذا معاذا ، فيحتمل أنه أراد ما ذكره ابن جريح ، ولكن فى رواية ابن أبي حاتم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال : (حجرا محجورا) عوذا معاذا الملائكة تقول ذلك فالله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ قال مجاهد (قدمنا) أى عمدنا .

وقوله تعالى : ﴿ فجعلناه هباء منثورا ﴾ قال : سفيان الثورى بسنده عن على ـ رضى الله عنه ـ فى قوله : (هباء منثورا) قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة وقال قتادة فى قوله : ﴿ هباء منثورا ﴾ قال أما رأيت يبس الشجر إذا ذرته الريح ؟ فهو ذلك الريح .

وقال عبد الله بن وهب: أخبرنى عاصم بن حكيم، عن أبي سريع الطائى، عن عبيد بن يعلى قال : إن الهباء الرماد إذا ذرته الريح وحاصل هذه الأقوال التنبيه على مضمون الآية ، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها على شىء فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذى لا يجور ولا يظلم أحدا ، إذ أنها لا شىء بالكلية ، وشبهت فى ذلك بالشىء التافه الحقير المتفرق الذى لا يقدر صاحبه منه على شىء بالكلية كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ذلك هو الضلال البعيد ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شى مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[٤] .

وقال جل شأنه : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾[٥] .

إن الله تعالى لا يقبل العمل ، إلا إذا توافر فيه شرطان ، أن يكون خالصا لله ، وأن يكون صوابا موافقا لشرعه جل فى علاه قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[٦]

(١) راجع تفسير ابن كثير ٦/ ١١١ ط : الشعب .
(٢) سورة ابراهيم الآية رقم : ١٨
(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ١١٦ ـ ١١٧
(٤) سورة البقرة الآية رقم : ٢٦٤
(٥) سورة النور الآية رقم : ٣٩ ـ ٤٠
(٦) سورة الكهف الآية رقم : ١١٠

قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ﴾(٣) .

وعن أمير المؤمنين أبى حفص عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح بن عبد الله ابن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى بن غالب القرشى العدوى ـ رضى الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه ﴾ متفق على صحته(٤) .

وعن أم المؤمنين أم عبدالله عائشة رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : (يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض نخسف بأولهم وآخرهم . قالت قلت : يارسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثون على نياتهم » متفق عليه . هذا لفظ البخارى(٥) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال النبى ﷺ لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا)متفق عليه(٦) ومعناه : لا هجرة من مكة ؛ لأنها صارت دار إسلام .

وعن أبى عبد الله جابر بن عبد الله الأنصارى ـ رضى الله عنهما ـ قال : (كنا مع النبى ﷺ فى غزاة فقال : (إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم حبسهم المرض) وفى رواية (إلا شركوكم فى الأجر) رواه مسلم(٧)

وروى البخارى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : (رجعنا من غزوة تبوك مع النبى ﷺ فقال : (إن أقواما خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبا ولا واديا إلا وهم معنا ؟ حبسهم العذر)(٨) .

(١) سورة البينة الآية رقم : ٥
(٢) سورة الحج الآية رقم : ٣٧
(٣) سورة آل عمران الآية رقم : ٢٩
(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الايمان (فتح البارى ١ / ١٠ ـ ١٩ ط الحلبى) ، وفى العتق / ٦ ، وفى مناقب الأنصار ٤٠ ، وفى النكاح ٥ ، وفى الايمان / ٢٣ وفى الحيل / ١ ـ ورواه مسلم فى الامارة / ١٥٥ ، وأبو داود فى الطلاق / ١١ والترمذى فى فضائل الجهاد / ١٦ ، والنسائى فى أربعة مواضع من سننه (الايمان والطهارة / ٥٩ والعتاق والطلاق / ٢٤ ، وابن ماجه فى الزهد من سننه / ٢٦ وأحمد فى مسنده ١ / ٢٥ ، ٤٣ .
(٥) الحديث رواه البخارى فى الحج / ٤٩ ، وفى البيوع / ٤٩ ، ومسلم فى الفتن / ٤ ، ٦ ـ ٨ ، وأبو داود فى المهدى / ١ ، والترمذى فى الفتن / ١٠ ، ٢١ ، وفى الحج ١١٢ ، وابن ماجه فى الفتن / ٣٠ ، وأحمد فى المسند ٦ / ١٠٥ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٧٩ وفى المغازى / ٥٣
(٦) الحديث رواه البخارى فى الصبر / ١٠ ، وفى الجهاد ١ ، ٢٧ ، ١٩٤ / وفى الجزية / ٢٢ ومسلم فى الحج ٤٤٥ ، وفى الامارة ٨٥ ، ٨٦ ، وأبو داود فى الجهاد ، والترمذى فى السير ٣٢ ، ٣٣ والنسائى فى البيعة ١٥ ، وابن ماجه فى الجهاد ٩ ، كفارات / ١٢ والدارمى فى السير / ٦٩ ، وأحمد فى المسند ١ / ٢٢٦ ، ٢٦٦ ، ٣٠٦ ، ٣٥٥ ٣ / ٤٠١ ، ٦ / ٤٦٦ .
(٧) الحديث رواه مسلم فى الامارة / ١٥٩ ، وأبو داود فى الجهاد / ١٩ ، وابن ماجه فى الجهاد / ٦ .
(٨) الحديث رواه البخارى فى الجهاد / ٣٥ .

وعن أبي يزيد معن بن يزيد بن الأخنس رضي الله عنه ـ وهو وأبوه وجده صحابيون ، قال : كان أبو يزيد أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل في المسجد فجئت فأخذتها فأتيته بها . فقال : (والله ما إياك أردت فخاصمته إلى رسول الله ﷺ فقال :(لك ما نويت يايزيد ولك ما أخذ يامعن) رواه البخاري[١]

وعن أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى القرشي الزهري رضي الله عنه ـ أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، رضي الله عنهم قال : (جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت : يارسول الله ، إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ، قلت : فالشطر يارسول الله ؟ فقال : لا ، قلت فالثلث يارسول الله ، قال : الثلث والثلث كثير ـ إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله ، إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في في امرأتك ، قال : فقلت : يارسول الله أخلف بعد أصحابي ؟ قال : إنك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله ، إلا ازددت به درجة ورفعة ، ولعلك أن تخلف حتى ينتفع بك أقوام ويضربك آخرون . اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم لكن البائس سعد بن خولة) يرثي له رسول الله ﷺ أن مات بمكة متفق عليه[٢] .

وعن أبي هريرة عبد الرحمن بن صخر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ، ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) رواه مسلم[٣]

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله) متفق عليه[٤] .

وعن أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : (إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار ، قلت : يارسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعا وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم أتى

---

(١) الحديث رواه البخاري في الزكاة / ١٥ ، والدارمي في الزكاة / ١٤ ، وأحمد في المسند ٣ / ٤٧٠

(٢) الحديث رواه البخاري في الجنائز ٣٦ ، وفي الوصايا ٢ ، وفي مناقب الانصار / ٤٩ ، وفي المغازي ٦٤ ، وفي النفقات / ١ وفي المرضى ١٦ ، وفي الدعوات ٤٣ ، وفي الفرائض ١٦ ، ورواه مسلم في الوصية ٥ ، ٨ ، وأبو داود في الوصايا / ٢ ، والترمذي في الوصايا / ١ ، والنسائي في الوصايا / ٣ .

(٣) الحديث رواه مسلم في البر / ٣٢ وابن ماجه في الزهد / ٩ . وأحمد في المسند ٢ / ٢٨٥ ، ٥٣٩ .

(٤) الحديث رواه البخاري في التوحيد / ٢٨ ، ومسلم في الامارة / ١٥ ، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦ وابن ماجه في الجهاد ١٣ وأحمد في المسند ٤ / ٣٩٧ ، ٤٠٥ .

المسجد لا يريد إلا الصلاة . لا ينهزه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان فى الصلاة ما كانت الصلاة هى تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم مادام فى مجلسه الذى صلى فيه يقولون : اللهم ارحمه ؟ اللهم اغفر له ! اللهم بث عليه ما لم يؤذ فيه ما لم يحدث فيه) متفق عليه(١) .

وهذا لفظ مسلم وقوله ﷺ : (ينهزه) هو بفتح الياء والهاء وبالزاى : أى يخرجه وينهضه .

٢ ـ وعن أبى العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى قال : (إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك ، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله تبارك وتعالى عنده حسنة كاملة ؛ وإن هم بها فعملها كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله تعالى عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة) متفق عليه(٢) .

٣ ـ وعن أبى عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول : (انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار . فقالوا . إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله تعالى بصالح أعمالكم . قال رجل منهم : اللهم كان لى أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بى طلب الشجر يوما ، فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وان أغبق قبلهما أهلا أو مالا ؟ فلبثت ـ والقدح على يدى ـ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى ـ فاستيقظا فشربا غبوقهما . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلى (وفى رواية : كنت أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلى بينى وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها ، وفى رواية : (فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى وتركت الذهب الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذى له وذهب ، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال ، فجاءنى بعد حين فقال : ياعبد الله أدّ إلىّ أجرى . فقلت كل ماترى من أجرك من الابل والبقر والغنم والرقيق فقال : ياعبد الله لا تستهزىء بى فقلت : لا أستهزىء بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئا : اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون)(٣) متفق عليه .

(١) الحديث رواه البخارى فى الصلاة / ٨٧ ، وفى الأذان / ٣٠ ، وفى البيوع / ٤٩ ، وابو داود فى الصلاة / ٤٨ ، وابن ماجه فى المساجد / ١٦ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٥٢ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٣١ ، ومسلم فى الايمان / ٢٠٧ ٣ ـ الحديث رواه البخارى فى الاجارة / ١٢

المعنى : لا أغبق : « بفتح الهمزة وسكون الغين المعجمة وضم الباء الموحدة وكسرها » أى :لا أقدم فى الشرب قبلهما أهلا ولا مالا من رقيق وخادم (والغبوق) شرب العشى .
أرح : « بضم الهمزة وكسر الراء » أى أرجع
يتضاغون : بالضاد والغين المعجمتين يصيحون من الجوع .

والآن نسأل ما هو الإخلاص . الإخلاص هو تجريد قصد التقرب إلى الله -عز وجل- عن جميع الشوائب وقيل : هو إفراد الله -عز وجل- بالقصد فى الطاعات .

وقيل : هو نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق .

والإخلاص شرط لقبول العمل الصالح الموافق لسنة رسول الله ﷺ وقد أمرنا الله -عز وجل- به فقال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾ .

وعن أبي امامة -رضى الله عنه- قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت رجلا يلتمس الأجر والذكر ما له ؟ فقال رسول الله ﷺ : لا شيء له فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ لا شيء له ثم قال : (ان الله -عز وجل- لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا وابتغى به وجهه) رواه ابو داود والنسائى[1] .

وعن أبي سعيد الخدرى -رضى الله عنه- عن النبى ﷺ أنه قال فى حجة الوداع : (نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب امرء مؤمن : إخلاص العمل لله والمناصحة لأئمة المسلمين ولزوم جماعتهم يغل : بكسر الغين وتشديد اللام وضم الياء من أغل اذا خان ويفتح الياء من غل إذا صار ذا حقد وعداوة .

والمعنى أن هذه الثلاثة تستصلح بها القلوب فمن تخلق بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر .

الدغل : بالتحريك : الفساد . ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالاخلاص لقول الله عز وجل : ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[2] وروى ان أحد الصالحين كان يقول لنفسه : (يانفس أخلصى تتخلصى) .

وكل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ، ويميل اليه القلب قل أو كثر اذا تطرق الى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه ، والانسان مرتبط فى حظوظه ، منغمس فى شهواته ، قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس ، فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا ، وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن الشوائب ، فالاخلاص : تنقية القلب من الشوائب كلها قليلها وكثيرها ، حتى يتجرد فيه قصد التقرب ، فلا يكون فيه باعث سواه ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستغرق الهم بالآخرة ، بحيث لم

(١) الحديث رواه آبو داود فى الجهاد / ٢٤ ، ٣٥ ، والنسائى فى الجهاد / ٣٤ ، وأحمد فى المسند ٢ / ٢٩٠ ، ٣٦٦

(٢) سورة الحجر آية رقم : ٤٠ ، سورة ص آية رقم ٨٣

يبق لحب الدنيا فى قلبه قرار ، فمثل هذا لو أكل أو شرب ، أو قضى حاجته كان خالص العمل ، صحيح النية ، ومن ليس كذلك فباب الإخلاص مسدود عليه الا على الندور وكما ان من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا ، فالذى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة ، فلا تسلم له عبادة من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإن علاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة ، بحيث يغلب ذلك على القلب ، فإن ذاك يتيسر به الإخلاص ؛ وكم من أعمال يتعب الانسان فيها ويظن انها خالصة لوجه الله ، ويكون فيها من المغرورين ، لأنه لم ير وجه الآفة كما حكى عن بعضهم : انه كان يصلى دائما فى الصف الأول فتأخر يوما عن الصلاة ، فصلى فى الصف الثانى فاعترته خجلة من الناس حيث رأوه فى الصف الثانى ، فعلم ان مسرته وراحة قلبه من الصلاة فى الصف الأول ، كانت بسبب نظر الناس إليه ، وهذا دقيق غامض ، قلما تسلم الأعمال من أمثاله ، وقل من ينتبه له إلا من وفقه الله تعالى ، والغافلون عنه يرون حسناتهم يوم القيامة سيئات ، وهم المقصودون بقوله تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ما كسبوا** ﴾[(1)] وبقوله عز وجل : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا** ﴾[(2)] .

بعض الآثار عن الإخلاص

قال يعقوب : (المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته)

قال السوسى : (الإخلاص فقد رؤية الإخلاص ، فإن من شاهد فى إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص) .

وما ذكر إشارة إلى تصفية العمل من العجب بالفعل ، فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب ، وهو من جملة الآفات ، والخالص ما صفا عن جميع الآفات .

قال أيوب : (تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال) .

وقال بعضهم : (إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز) .

وقيل لسهيل : أى شيء أشد على النفس ؟ قال : (الإخلاص ، إذ ليس لها فيه نصيب)

وقال الفضيل : (ترك العمل من أجل الناس رياء ، العملُ من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما)

حقيقة النية وفضلها

النية : ليست قول القائل بلسانه (نويت) بل هى انبعاث القلب يجرى مجرى الفتوح من الله ،

---

(١) سورة الزمر آية رقم : ٤٧ ـ ٤٨

(٢) سورة الكهف آية رقم : ١٠٣

فقد تتيسر فى بعض الأوقات وقد تتعذر فى بعضها ، ومن كان الغالب على قلبه أمر الدين ، تيسر عليه فى أكثر الاحوال أحضار النية للخيرات ، فإن قلبه مائل بالجملة إلى اصل الخير ، فينبعث الى التفاصيل غالبا ، ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم يتيسر له ذلك ، بل لا يتيسر له فى الفرائض إلا بجهد جهيد ، وعن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) رواه البخارى ومسلم .

روى عن الشافعى انه قال : (هذا الحديث ثلث العلم) . قوله : (إنما الأعمال بالنيات) يعنى أن صلاح الأعمال الموافقة للسنة بصلاح النية ، وهو كقوله ـ ﷺ : (إنما الأعمال بالخواتيم) .

وقوله ﷺ : (وإنما لكل امرىء ما نوى) يعنى ثواب العامل على عمله بحسب النيات الصالحة التى يجمعها فى العمل الواحد وقوله : (فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر اليه) وبعد إرساء القاعدة الأولى ، ذكر مثالا للأعمال التى صورتها واحدة ، وتختلف فى صلاحها وفسادها .

والنية الصالحة لا تغير المعاصى عن موضعها ، فلا ينبغى أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) فيظن ان المعصية تصير طاعة بالنية ، فإن قوله ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات) يخص من اقسام العمل الثلاثة : الطاعات والمباحات دون المعاصى ، إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد ، والمباح ينقلب معصية أو طاعة بالقصد ، اما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد ودخول النية فى المعصية ، إذا انضاف اليها قصود خبيثة تضاعف وزرها ووبالها !

والطاعات مرتبطة بالنيات فى أصل صحتها وفى تضاعف فضلها ، فأما الأصل فهو ان ينوى بها عبادة الله وحده ، فإن نوى الرياء صارت معصية ، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة أما المباحات فما من شىء منها إلا ويحتمل نية أو نيات ، يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالى الدرجات .

فضل النية

عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ انه قال : (أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالى والورع عما حرم الله وصدق النية فيما عند الله تعالى)

وقال بعض السلف : (رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية)

وعن يحيى بن ابى كثير : (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل) وصح عن ابن عمر انه سمع رجلا عند احرامه يقول : اللهم إنى أريد الحج والعمرة فقال له : أتعلم الناس أو ليس الله يعلم ما فى نفسك ، وذلك لأن النية هى : قصد القلب ولا يجب التلفظ بها فى شىء من العبادات .

قوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا ﴾ .

وهكذا يقترن الوعد بالوعيد ، فبعد ان حكم الله تعالى على المعاندين بضياع أعمالهم ، وأنها

ستصير هباء منثورا كما قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾[١] .
وكما قال جل شأنه : ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾[٢] .
بين بعد ذلك جزاء الصالحين الذين أخلصوا دينهم لله ، وسماهم أصحاب الجنة ، وهى تسمية فيها تشريف وتكريم ، فالجنة هو خالقها ومالكها ، ومع ذلك سماهم أصحابها كما قال تعالى : ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[٣]
قال الحسن-رضى الله عنه-لما قرأ هذه الآية سبحانك ربى . . الأنفس أنت خالقها ، والمال أنت مالكه ، ومع ذلك تشترى ما تملك وتهب الجنة ، إن هذا لهو الفوز المبين .
وهكذا يقف الإنسان وقفة العجب ، بين أهل الجنة ، وأهل النار ، فى كل خطوة على صعيد القيامة ، فأهل النار عندما يبعثون من القبور يقولون : (ياويلنا من بعثنا من مرقدنا) . فيقول لهم أهل الجنة : (هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون)[٤] أهل الجنة يحشرون بيض الوجوه وفدا كراما ، وأهل النار يحشرون زرقا عطاشا .

﴿ ويوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾[٥] . أهل النار يقال لهم ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين)
وأهل الجنة يقال لهم : ﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾[٦]
أهل الجنة يقول كل منهم : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾[٧] .
وأهل النار يقول كل منهم ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه ﴾[٨] .
أهل الجنة يقول كل منهم ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ﴾[٩] .
وأهل النار يقول كل منهم ﴿ ولم أدر ما حسابيه ﴾[١٠] .
أهل الجنة يقال لهم ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾[١١] .
وأهل النار يقال لكل منهم ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ﴾[١٢] .

(١) سورة محمد الاية رقم : ١
(٢) سورة محمد الآية رقم : ٨
(٣) سورة التوبة الآية رقم : ١١١
(٤) سورة يس الآية رقم : ٥٢
(٥) سورة مريم آية رقم ٨٥ـ ٨٦
(٦) سورة الزمر الآية رقم ٦٠ـ ٦١
(٧) سورة الحاقة الاية رقم ١٩
(٨) سورة الحاقة الآية رقم ٢٥
(٩) سورة الحاقة الآية رقم ٢٠
(١٠) سورة الحاقة الآية رقم ٢٦
(١١) سورة الحاقة الآية رقم ٢٤
(١٢) سورة الحاقة الآية رقم ٣٠ـ ٣٤

ولقد وعى المسلمون الأوائل ما فى هذه الآية من أسرار فكان أبو الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يقول لزوجته (أكثرى من المرق وأطعمى المسكين ، فقد كسرنا نصف السلسلة لما آمنا بالله ، ونريد أن نكسر نصفها الآخر بإطعام المساكين) .

وإنما قال تعالى : ﴿ خير مستقرا ﴾ لما توحيه تلك العبارة من الاستقرار المستلزم للأمن كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾[١] وكما قال جل شأنه : الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[٢] .

وكما قال تبارك اسمه : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾[٣] .

فأنت ترى أن الأمن نعمة عظمى ينعم الله بها على عباده ، ومن ثم فقد قدم الأمن على العيش والرزق ، فقال : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ﴾[٤] .

ويوم يفقد الإنسان الأمن ، فقد فقد أعظم نعمة بعد الايمان بالله ، فيا بن آدم :

إذا كنت معافى فى بدنك ، آمنا فى سربك ، عندك قوت يومك ، فقد حيزت لك الدنيا بحذافيرها .

عش راضيا واترك دواعى الألم ... واعدل مع الظالم مهما ظلم
نهاية الدنيا فناء فعش ... فيها كريما واعتبرها عدم
ويافؤادى تلك دنيا الخيال ... فلا تنؤ تحت الهموم الثقال
سلم له الأمر فمحو الذى ... خطت يد الأقدار أمر محال
دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد ياعاقلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال
أتسمع الطير أطال الصياح ... وقد بدأ فى الأفق نور الصباح
ما صاح إلا باكيا ليلة ... ولت من العمر السريع الرواح

اعلم بأن الدنيا دار مفر ، والآخرة دار مقر ، فخذ من مفرك لمقرك ، وكيف تطمئن إلى دنيا أولها بكاء ، وأوسطها عناء ، وآخرها فناء ، وميت الغد يشيع فيها ميت اليوم .

لاتركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب ان العيش عيش الآخرة

وقوله تعالى : ﴿ وأحسن مقيلا ﴾ والمقيل يطلق على وقت القيلولة ، ويراد به الراحة فى هذا الوقت ، ويطلق على الاستقرار التام والراحة الكاملة ، فهم فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند

---

(١) سورة الحجر الآية رقم ٤٥ ـ ٤٨
(٢) سورة الأنعام الآية رقم ٨٢
(٣) سورة الدخان الآية رقم ٥١ ـ ٥٥
(٤) سورة النحل آية رقم ١١٢

ربهم ويكفيهم رضوان الله قال تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فيها انشقاق السماء ، وتفطرها وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذى يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق فى مقام المحشر ، ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

قال مجاهد وهذا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة)[٢] .

عن ابن عباس انه قرأ هذه الآية : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يجمع الله تعالى الخلق يوم القيامة فى صعيد واحد ، الجن والإنس ، والبهائم والسباع ، والطير وجميع الخلق ، فتنشق السماء الدنيا ، فينزل أهلها وهم أكثر من الجن والانس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالجن والانس وبجميع الخلق ، ثم تنشق السماء الثانية ، فينزل أهلها ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم ، والجن والانس ، وجميع الخلق ، وهم أكثر من أهل السماء الدنيا ومن جميع الخلق ، ثم تنشق السماء الثالثة ، فينزل أهلها وهم أكثر من أهل السماء الثانية والسماء الدنيا ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم وبالجن والإنس وجميع الخلق ، ثم كذلك كل سماء على ذلك التضعيف حتى تنشق السماء السابعة فينزل أهلها وهم أكثر ممن نزل قبلهم من أهل السموات ومن الجن والإنس ومن جميع الخلق ، فيحيطون بالملائكة الذين نزلوا قبلهم من أهل السموات وبالجن والإنس وجميع الخلق كلهم ، وينزل ربنا ـ عز وجل ـ فى ظلل من الغمام وحوله الكروبيون وهم أكثر من أهل السموات السبع من الجن والإنس وجميع الخلق ، لهم قرون كأكعب القنا وهم تحت العرش لهم زجل بالتسبيح والتهليل والتقديس لله ـ عز وجل ـ رواه ابن ابى حاتم بهذا السياق .

قال جل شأنه : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٣] .

قال شهر بن حوشب حملة العرش ثمانية ، أربعة منهم يقولون : (سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك) رواه ابن جرير .

---

(١) سورة التوبة الاية رقم ٧٢
(٢) سورة البقرة الاية رقم ٢١٠
(٣) سورة الحاقة الآيات ١٣ ـ ١٨

قوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير ﴾(١) .

وجاء فى الصحيح (ان الله تعالى يطوى السموات بيمينه ويأخذ الأرض بيده الأخرى ، ثم يقول، أنا الملك .. أنا الديان .. أين الملوك ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟(٢)

قوله تعالى : ﴿ وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ أى شديدا صعبا ، لأنه يوم عدل وقضاء فصل . كما قال تعالى : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾(٣) .

فهذه حال الكافرين فى هذا اليوم ، وأما المؤمنون فكما قال تعالى : ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾(٤) .

وكما قال تعالى : ﴿ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ﴾(٥) .

روى الامام أحمد بسنده عن ابى سعيد الخدرى قال : قيل يارسول الله : (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) .

ما أطول هذا اليوم ؟ فقال رسول الله ﷺ : (والذى نفسى بيده انه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا) .

مجلس فى ذكر القيامة وأهوالها

قال الله عز وجل : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾هذه السورة مكية محكمة بالوعد والوعيد ، يخوف الله تبارك وتعالى بها عباده ، ويذكرهم فيها تزلزل الأرض وقيام الساعة ، لينتهوا عما نهاهم عنه من العصيان ، ويمتثلوا ما أمرهم به من الطاعة والايمان ، وخوفهم الله تبارك وتعالى من يوم القيامة ليستعدوا لها ولعظيم أهوالها .

قال الله سبحانه وبحمده : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ يقول إذا تحركت الأرض بأهلها ، فزلزلت من نواحيها ، وارتجت من مشرقها ومغربها ، فلا تزال كذلك حتى يكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل فى بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرافيل عليه السلام

---

(١) سورة غافر الآيات رقم من ١٥ ـ ٢٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى المنافقين /٢٤ وأبو داود فى السنة /١٩ وابن ماجة فى الزهد ٣٣ وأحمد فى مسنده ٧٢/٣ .

(٣) سورة المدثر الآيات رقم من ٨ ـ ١٠

(٤) سورة الأنبياء الآية رقم ١٠٣

(٥) سورة آل عمران الآية رقم ١٠٧

وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا وساعاتها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها ، وذلك إذا خمد الحق وظهر الباطل وترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم التظالم ، وترك الجهاد وظهر الفساد وفشا الربا ، وكثر اللواطة والزنا ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمور ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ، ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وكرهوا الحق واتبعوا أهواءهم ، وقرىء القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصى والذنوب ، فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار - جل جلاله - عليهم وعند ذلك يقول الله : ياإسرافيل انفخ نفخة الصعق ، فينفخ اسرافيل عند ذلك كما امره الجبار جل جلاله ، فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من غضبة يغضبها الجبار على المنافقين والفجار .

صفة اسرافيل

وإسرافيل عليه السلام ، ملك عظيم جناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى بخمسمائة عام والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى تحت العرش والعرش على كاهله ، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى ، واللوح المحفوظ بين عينيه وقد التقم الصور وشخص ببصره نحو العرش ، وأنصت بإذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ فى الصور ؟ والصور قرن من نور .

قال النبى ﷺ : (الصور قرن من نور ، والذى نفسى بيده إن أعظم ثارة فيه كما بين السماء والأرض)[1] .

وروى عنه ﷺ أنه قال : (كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر ان ينفخ فى الصور فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد ، فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله تبارك وتعالى ، لما عبد فيها ووحد وقرىء كلامه فيها[2] وذلك قوله تعالى : ﴿ **كل شىء هالك إلا وجهه** ﴾[3] جاء فى التفسير ان الأشياء

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ فى كتب الحديث التى عندى والذى وقفت عليه فى وصف الصور ما رواه احمد فى مسنده / ١٦٢ ، ١٩٢ والترمذى فى القيامة / ٨ ، وفى تفسير سورة ٣٩ ، والدارمى فى الرقاق / ٧٩ وابن جرير الطبرى فى تفسيره ٧ / ١٥٧ بلفظ : (الصور قرن ينفخ فيه) .

(٢) لم أجد هذه الرواية المطولة فى مراجع الحديث التى عندى والذى وجدته فى هذا ما رواه أحمد فى مسنده عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وأصغى سمعه ينتظر متى يؤمر (المسند ٣ / ٧٣) والله أعلم .

(٣) سورة القصص الآية رقم : ٨٨

كلها تهلك ، إلا عملا يراد به وجه الله تعالى ، والمساجد لا تهلك ؛ لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى

خشية النبى من هبوب الريح

روى عن النبى ﷺ أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه ، وكان يخرج ويدخل مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض .

فإذا كان رسول الله ﷺ يخاف كل هذا الخوف ، وهو أكرم الخلق على الله ؟ فكيف بمن أفنى عمره فى السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والمبطلات ، وضيع أوقاته فى العصيان حتى مات ؟ ؟ وأنشدوا :

نهارك يامغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين بربهم ... وعمر لك فى النقصان بل أنت ظالم
فلا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم ... ولا أنت فى النوام ناج وسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى ... كما سر باللذات فى النوم حالم
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها ... ولا تكثر العصيان إنك ظالم

وروى عن النبى ﷺ انه قال : (انتهيت ليلة أسرى بى إلى السماء السابعة فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته ، وقدم رجلا وأخر أخرى والعرش على منكبه ، والصور فى فيه بين شدقيه ، وقد تهيأ للنفخ فى الصور ، فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى تبلغنى النفخة كما رأيت من تهيئته للنفخ) .

سئل رسول الله ﷺ عن إسرافيل فقال : (له جناح بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله وإنه ليفكر فى كل يوم ثلاث ساعات فى عظمة الله تعالى فيبكى من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحرا من دموعه أذن له أن يسكب لطبق بين السموات والأرض ، وانه ليتواضع ويصغر حتى يصير كالوضع ، والوضع طير صغير يشبه العندليب ، والعندليب أصغر ما يكون من الطير) .

فالله الله يامعشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعدوا لقيام الساعة وزلزالها قال الله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ تتحرك الأرض وتتمخض وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر وتنهدم المبانى فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونبتها شىء إلا دخل فى جوفها .

قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

متى ينفخ فى الصور

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبى ﷺ عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبنى ، فكان النبى ﷺ يقول : (فى آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم . فإذا غضب الله تعالى على أهل

الأرض أمر الله تعالى إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق فينفخ على غفلة من الناس فمن الناس من هو فى وطنه ومنهم من هو فى سوقه ومنهم من هو فى حرثه ، ومنهم من هو فى سفره ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فمه حتى يخمد ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم) .

وإسرافيل لا يقطع الصعقة حتى تفور عيون الأرض وأنهارها ونباتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه فى بعض فى بطن الأرض والناس خمود صرعى ، فمنهم من هو صريع على وجهه ، ومنهم من هو صريع على ظهره وعلى جنبه وعلى خده ، ومنهم من يكون اللقمة فى فيه فيموت ، وما أدرك أن يبتلعها ، وتنقطع السلاسل التى فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة وتموت ملائكة السبع السماوات ، والحجب والسرادقات ، والصادقون والمسبحون ، وحملة العرش والكرسى ، وأهل سرادقات المجد والكروبيون ، ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام .

كيف يموت جبريل

فيقول الجبار جل جلاله ياملك الموت من بقى ؟ - وهو أعلم - فيقول ملك الموت : سيدى ومولاى أنت أعلم . بقى إسرافيل وبقى جبريل وبقى ميكائيل ، وبقى عبدك الضعيف ملك الموت خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال . فيقول له الجبار تبارك وتعالى : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى جبريل عليه السلام فيجده ساجدا وراكعا فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يامسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير ، والسباع والهوام وسكان السموات وحملة العرش والكرسى والسرادقات وسكان سدرة المنتهى ، وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل عليه السلام ، ويقول متضرعا إلى الله تعالى : ياألله هون على سكرات الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر جبريل منها صريعا ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ياملك الموت ؟ - وهو أعلم - فيقول : مولاى وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت ميكائيل

فيقول الجبار جل جلاله انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله تعالى ، فيجده ينتظر الماء ليكيله على السحاب ، فيقول له ما أغفلك يامسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ولا للهوام . قد مات أهل السموات وأهل الأرض وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى وسرادقات المجد والكروبيون والصادقون والمسبحون ، وقد أمرنى ربى بقبض روحك ، فعند ذلك يبكى ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت ، فيحتضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر صريعا ميتا لا روح

فيه ، فيقول الجبار جل جلاله من بقى ؟ ـ وهو أعلم ـ ياملك الموت ؟ فيقول مولاى وسيدى أنت أعلم ، بقى إسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت إسرافيل

فيقول الجبار تبارك وتعالى انطلق إلى إسرافيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرافيل ، فيقول له ماأغفلك يامسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم وما بقى أحد ، وقد أمرنى ربى ومولاى أن أقبض روحك ، فيقول إسرافيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء ، ثم يقول : مولاى هون على مرارة الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه ، فيخر ميتا صريعا ، فلو كان أهل السموات فى السموات وأهل الأرض فى الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

كيف يموت ملك الموت

فيقول الجبار تبارك وتعالى من بقى ياملك الموت ؟ ـ وهو أعلم ـ فيقول مولاى وسيدى أنت أعلم بمن بقى ، بقى عبدك الضعيف ملك الموت فيقول الجبار تعالى : وعزتى وجلالى لأذيقنك ما أذقت عبادى انطلق بين الجنة والنار ومت ، ينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله تبارك وتعالى أمات الخلائق لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجنها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار الذى خلق الليل والنهار فلا ترى أنيسا ولا تحس حسيسا ، قد سكنت الحركات ، وخمدت الأصوات ، وخلت من سكانها الأرضون والسموات .

لمن الملك اليوم

ثم يطلع الله تبارك وتعالى إلى الدنيا فيقول : يادنيا أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ، وأين سكانك ، وأين عمارك ، أين الملوك وأبناء الملوك ، وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ، أين الذين أكلوا رزقى ، وتقلبوا فى نعمتى وعبدوا غيرى لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول تعالى الملك : لله الواحد القهار ، فينظر الجبار جل جلاله إلى عباده موتى من بين صريع على خده ومن بين بال فى قبره ثم يقول يادنيا أين أنهارك وأين أشجارك وأين سكانك وأين عمارك وأين الملوك وأين الجبابرة لمن الملك اليوم ؟ لا يجيبه أحد ، فيقول تعالى : لله الواحد القهار فتبقى الأرضون والسموات ليس فيهن من ينطق ولا من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل تبقى أربعين يوما وهو مقدار ما بين النفختين ، ثم بعد ذلك يُنزل الله تبارك وتعالى من السماء السابعة من بحر يقال له بحر الحيوان ماء يشبه منى الرجال ينزله ربنا أربعين عاما فيشق ذلك الماء الأرض شقا فيدخل تحت الأرض إلى العظام البالية فتنبت بذلك الماء كما ينبت الزرع بالمطر .

كيفية بعث الموتى

قال الله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ .

قال الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى رحمه الله تعالى فى كتابه (بستان الواعظين ورياض السامعين) .

كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة ، فتجتمع العظام والعروق واللحوم والأشعار ، فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه فى دار الدنيا ، فتلتئم الأجساد بقدرة الجبار جل جلاله ، وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار جل جلاله : ليبعثن إسرافيل فيقوم إسرافيل عليه السلام حيا بقدرة الله تعالى فيقول له الجبار ياإسرافيل التقم الصور وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحيى الله تبارك وتعالى إسرافيل ويأمره أن يلتقم الصور .

حقيقة الصور

والصور قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتجعل فى الصور .

أين يقف إسرافيل

ويأمر الجبار إسرافيل أن يقوم على صخرة بيت المقدس ، وينادى فى الصور ، وهو فى فيه قد التقمه والصخرة أقرب ما فى الأرض إلى السماء ، وهو قوله تعالى : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب ﴾[1] ويقول إسرافيل فى ندائه : أيتها العظام البالية واللحوم المتقطعة والأشعار المتبددة والعروق المتمزقة ، لتقمن إلى العرض على الملك الديان ، ليجازيكن بأعمالكن ، فإذا نادى إسرافيل عليه السلام فى الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور ، فتنتشر بين السماء والأرض ، كأنها النحل ، يخرج من كل ثقب روح ولا يخرج من ذلك الثقب غيره ، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور الإيمان وبنور أعمالها الصالحة ، وأرواح الكافرين تخرج مظلمة كظلمات الكفر ، وإسرافيل يديم الصوت والأرواح قد انتشرت بين السماء والأرض ثم تدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد فيدخل كل روح إلى جسده الذى فارقه فى دار الدنيا ، فتدب الأرواح فى الأجساد كما يدب السم فى الملسوع (وهو الذى لسعته العقرب والحية ونفثت سمها فيه) فيتمشى فى الجسم على مهل إن لم يتدارك بربط العضو الملسوع ، ويجب بعد ربطه ربطا محكما أن يشرط بموس لينزل منه الدم ثم يمتصه آخر ليس فى فمه جروح ، ويوضع عليه ملح الطعام ويسقى ماء الليمون) .

---

١ ـ سورة ق الآية رقم ٤١

حتى ترجع إلى أجسادها ، كما كانت فى دار الدنيا ثم تنشق الأرض من قبل رءوسهم ، فإذا هم قيام على أقدامهم ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وطوامها ، وإسرافيل عليه السلام ينادى بهذا النداء لا يقطع الصوت ويمده مدا ، والخلائق يتبعون صوته ، والنيران تسوق الخلائق إلى أرض القيامة .

ملازمة الأعمال للأجساد

فإذا خرجوا من قبورهم ، خرج مع كل إنسان عمله الذى عمله فى الدنيا ؛ لأن عمل كل إنسان يصحبه فى قبره ، فإن كان العبد مطيعا لربه وعمل عملا صالحا كان أنيسه فى الدنيا ، ويكون أنيسه إذا خرج من قبره يوم حشره يؤنسه من الأهوال ومن هموم القيامة وكروبها ، كلما نظر العبد المؤمن إلى نار أو إلى هول من أهوال القيامة جزع ، فيقول له عمله : ياحبيبى ما عليك من هذا شىء ، ليس يراد به من أطاع الله ، وإنما يراد به من عصى الله تعالى مولاه ، ثم كذب بآياته واتبع هواه ، وأنت كنت عبدا مطيعا لمولاك متبعا لنبيك تاركا لهواك ، فما عليك اليوم من هم ولا حزن حتى تدخل الجنة .

العمل السوء وهيأته

وإذا كان العبد خاطئا وعاصيا لذى الجلال ، ومات على غير توبة وانتقال ، فإذا خرج المغرور المسكين من قبره ، خرج معه عمله السوء الذى عمل فى دار الدنيا ، وكان قد صحبه فى قبره ، فإذا نظر إليه العبد المغتر بربه رآه أسود فظيعا فلا يمر على هول ولا نار ولا شىء من هموم القيامة ، إلا قال له عمله : ياعدو الله هذا كله لك وأنت المراد به ، وأنشدوا :

أى يوم يكون يوم النشور ... يوم فيه يفوز أهل القبور
يوم فيه الجزاء جنة عدن ... لمطيع ومن عصى فى سعير
خاب من قد عصى وفاز مطيع ... راقب الله فى جميع الأمور
قام فى الليل للإله ذليلا ... ليس يخلو من خوفه للقدير
خاف من عظم يوم هول شديد ... شدة الهول من عذاب الزفير

فالله الله عباد الله ، معشر المريدين انتبهوا من هذا المنام واهجروا الفواحش والآثام ، وارجعوا إلى طاعة الملك العلام ، من قبل أن يأتى يوم تشقق السماء فيه بالغمام .

إخراج الأرض وما فيها

قال الله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ يعنى ما فيها من الموتى والكنوز ، وما أودعها من أعمال العباد ، ومن مخبآت أسرارهم من أعمال الطاعة وأعمال العصيان ، فيأمر الله تعالى أن تخرج أعمال العباد ، وذلك أن العبد إذا خرج من قبره يجد عمله على شفير قبره ، فإن كان عملا صالحا وجده نورا يستره ويحجبه ، يستر عورته من أعين الناس ، ويحجبه عن النيران التى تسوق الناس إلى

أرض القيامة ، وإن كان عملا سيئا وجده ظلمة سوداء ، تكون عليه أشد من كل هول يلقاه من أهوال يوم القيامة .

هذا كله فى النفخة الثانية ، وبين النفخة الأولى والثانية ، أربعون سنة فهو قوله : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

فمثل لنفسك يامغرور وقد ترادفت عليك الهموم والكروب ، وأحاطت بك الأهوال والخطوب وأظهرت لك القبائح والعيوب وأثقلت ظهرك الأوزار والذنوب . وأنشدوا :

قد سودت وجهى المعاصى — وأثقلت ظهرى الذنوب
أورثنى ذكرها سقاما — فليس لى فى الورى طبيب
ياشؤم نفسى غداة حشرى — إذا أحاطت بى الكروب
وصوت داع دعا باسمى — أين مفرى وما أجيب ؟
هذا كتاب الذنوب فاقرأ — فعندها تظهر العيوب

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم فى أيامه ، قال له الملك ياعدو الله خذ عملك ، فاحمله على ظهرك كما كنت تلتذ به فى الدنيا ولم تراقب مولاك ؟ وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة ، فيجرها على ظهره أثقل من جبال الدنيا والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقا حثيثا بالعنف والانتهار والاغلاظ عليه ، وآخر يشهد عليه مع علم الله تعالى فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالى إذا جاء الحساب غدا — وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة — من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى لهتك الستر خالقنا — يوم المعاد ويوم الذل والعسار
يفوز كل مطيع للعزيز غدا — بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلود لانفاد له — يخلدون بدار الواحد البارى
ومن عصى فى قرار النار مسكنه — لا يستريح من التعذيب فى النارى
فابكوا كثيرا فقد حق البكاء لكم — خوف العذاب بدمع وأكف جارى

فالله الله ياأولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من أليم العذاب ، وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل عليه السلام لا يقطع النداء فى الصور ، حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموتى ومما أودعها الله تعالى من شىء ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجنها ووحوشها

ودوابها وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرافيل النداء بأمر الله تعالى وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسموات ففى تبديلها قولان :

هيأة الأرض

أحدهما أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء لا جبل فيها ولا بناء ولا بحار ولا أنهار ولا أشجار ، ما سفك عليها دم ولا عصى الله تعالى عليها ، يأتى بها من غامض علمه ، ويقول لها : كونى فتكون وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل إن تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها وتسجير بحارها ، وتسيير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوير شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها وتشققها . فهذه تبديل الأرض والسموات والله أعلم بحقيقة ذلك :

كيف يقف الناس فى المحشر

فإذا قطع إسرافيل عليه السلام النداء ، وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى الأخ بأخيه ولا الوالد بولده ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما قد جاء به من العصيان وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

مقدار زمن المحشر

ويقال والله أعلم : إن الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنى الدنيا ، لا خبر يتنزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استذلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آ من بالبعث سرور
إنما يفرح بالدنيـ ـا جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم السما فيه تمور

بكاء النبى من أهوال القيامة

١ ـ روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (خوفنى جبريل عليه السلام من أهوال يوم القيامة حتى أبكانى فقلت له : حبيبى جبريل أليس قد غفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟ فقال : « يامحمد

---

١ ـ هذا الحديث نقله المصنف مع الكلام السابق واللاحق من (بستان الواعظين لابن الجوزى) ولكن لم أعثر على مخرج لهذا الحديث فيما بين يدى من مراجع وكتب ابن الجوزى بها كثير من مثل هذا

لتشاهدون من الأهوال يوم القيامة ما ينسيك المغفرة » فبكى رسول الله ﷺ حتى بلت دموعه لحيته) .

فهذا كان رسول الله ﷺ يبكى من هول يوم الحساب ، وقد أمنه الجبار من أليم العذاب ، ووعده بالجنة وحسن المآب ، فكيف بأمثالنا المساكين ؟

وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان وأفنى عمره فى معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل فى قوله تعالى : (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا)[1] هو تحريكها ، وقيل : دكا دكا : إذهابا .

معنى دك الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين ، دكا دكا وصفا صفا ؟ فقال : تدكدك الأرض دكا بعد دك ، أى تحرك مرة بعد أخرى ، حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر ، وقوله صفا صفا تأتى الملائكة .

صفا بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظيم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثر زلزال الأرض (فحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويدخل فيها كل قصر شديد من بين قديم وجديد ، فياله من يوم ما أهوله ، ومن بلاء ما أطوله ، ومن جبار ما أعدله . قد أفنى العباد بالحمام ، فلا يرى أحد من الأنام ، فإذا استوى الأولون والآخرون فى أرض القيامة ، أمر الله تبارك وتعالى السموات أن تنشق ، فتنشق كل سماء ، وتنقطع مثل قطع السحاب ، وقيل كما يتطاير القطن بين يدى القطانين إذا ندفوه فمثل لنفسك صوت انشقاقها فى سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ويستقر لفظاعة هوله قدمك ، فقدم فى أيام حياتك ما يقيك تلك الأهوال ، لأن الخلق فى أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم فى الدنيا من خير وشر ، فمن عمل صالحا وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، أمنه مولاه من جميع أهواله وكروبه ، ومن لم يقدم فى دنياه عملا صالحا لأخراه ، لقيته صعاب الخطوب وترادفت عليه الهموم والكروب ، فيندم حين لا تنفعه الندامة إذا حل فى أهوال القيامة .

الأمن والخوف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إذا خافنى عبدى فى الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ﴾[2] .

فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل فى

---

(١) سورة الفجر الآية رقم : ٢١

(٢) الحديث أورده العلامة المناوى فى (الاتحافات السنية بالأحاديث القدسية) ص ٢١١ ـ ٢١٢ بلفظ : لا أجمع على عبدى خوفين ولا أجمع له أمنين ، إذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة ـ وقال : رواه ابن المبارك عن

الظواهر والسرائر ، إذا انشقت السموات عظمت المصائب ، وكثرت النوائب وندم العبد على ما فرط فى الدنيا وضيع من الثواب والرغائب .

فإذا انشقت السماوات ، عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات وظهر العذاب ، وحلت العقوبات ، وأظهر الله مخبآت السريرات وندم العبد المغرور على ما أذنب فى الأيام والأوقات وما جنى فى الشهور والساعات . فإذا انشقت السماوات ، كثرت الأحزان وبرزت النيران ، وأزلفت الجنان ، وندم العاصى على ما عمل من العصيان وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن . فانتبهوا لهذه الأقوال ، يامعشر الاخوان يأهل الاسلام والايمان فإن الهول ـ والله ـ عظيم والخطب كبير جسيم .

ملائكة سماء الدنيا

فإذا انشقت السماوات ، وتقطعت ونزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا ، فزع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنهم قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا لا تجزعوا منا فإنا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها وانعامها وطيرها ووحشها وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفا ، فيبقى العباد يموج بعضهم فى بعض .

ملائكة السماء الثانية

ثم ينزل ملائكة السماء الثانية ، وهم أكثر عددا وأعظم خلقا ممن اجتمع فى الأرض سبعين ضعفا ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من فى الأرض ، فيقولون لهم لا تجزعوا نحن مشغولون بأنفسنا ونخاف مما تخافون منه ، فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفا . وكان أهل كل سماء فى صف واحد على حدة كل واحد منهم قد شغل بنفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا :(١)

يـاغافلين أفيقـوا قبل بعثكم ... وقبل يؤخذ بـالأقدام واللمم
والناس أجمع طراشا خصون غدا ... لا ينطقون بلابكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم ... والله طـالبهم بالحـل والحـرم
وقد تبدى لأهل الجمع كلهم ... وعد الاله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة ... لا ينطقون بلا روح من الزحم

الجبابرة فى الحشر كالذر

روى أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الناس خلقة ، لتجبرهم على العباد

(١) الحسن مرسلا ، ورواه ابو نعيم عن شداد بن اوس موصولا بلفظ : إن هو أمننى فى الدنيا أخفته يوم أجمع عبادى ، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنته يوم أجمع عبادى أ ـ هـ .

فى الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة كل جبار عنيد وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذنب بطال ، فحينئذ لا حيلة لمحتال «فى يوم لا بيع فيه ولا خلال» : ـ

مقام المذنبين غدا عسير ... إذا ما النار قربها القدير
وقد نصب الصراط لكى تجوزوا ... فلا ينجو الكبير ولا الصغير
وقد نسفت جبال الأرض نسفا ... ويبست البحور فلا بحور
وبرزت الجحيم لكل عبد ... على أهل المعاد لها زفير

عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكو وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل والهول الكبير والخطب الجليل والعذاب الشديد الطويل .

حديث فى أهوال يوم القيامة

ذكر فى بعض الأخبار عن النبى ﷺ وعلى آله الأخيار دوام اختلاف الليل والنهار ، أنه قال : (ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة ، فاندم يامسكين على ما صنعت وفات وأصلح بالتوبة النصوح ما هو آت من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ليس للظالمين من نصير ، ولا للعاصين من مجير ولا لأحد من ملجأ ولا نكير .

شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى ، وجميع أهل الأرض فى عرصة القيامة وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام وشخصت الأحداق وتطاولت الأعناق وانثنت من شدة العطش . واجتمع زحام الخلائق وانفاسهم وشدة حر الشمس وضيق اليأس ، ارتفع العرق على وجه الأرض ، حتى يعلو على الأبدان ، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبتهم ، التى أنزلتهم عليها أعمالهم التى عملوها فى دار الدنيا ، وقد زيد فى حر الشمس ما يتضاعف قيل حر عشر سنين ـ ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش ، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله ، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

مطر الرحمة

وقد قيل : إن الله تبارك وتعالى يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده ، وترمى جهنم شررها على طائفة أخرى ، فكم من مستريح ببرد ماء الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار ؟ فمن قطع عمره فى الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان .

ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها ، وصارت مثل السراب ، وتقطعت

السموات وتطايرت مثل قطع السحاب ، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول فى أليم العذاب ، وقد صارت العزة لذى البطش الشديد . ولزمت الذلة كل جبار عنيد ، ثم رجعت السماء كالمهل - وهو دردى الزيت الذى يجلس فى قعر الاناء ، قيل ترجع السماء كالدهن الرقيق وترجع الجبال كالعهن المنفوش ، وهو أضعف ما يكون من الصوف وتصير الخلائق كالفراش وهو البعوض ، وقيل كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ بجهة واحدة .

كذلك الخلق يموج بعضهم فى بعض لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . قد اجتمعت القيامة بأهوالها ، ووضعت الحوامل أحمالها وزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها ، وشهد على الأمم بأعمالها . وشاب الوليد وحضر الوعد وحق الوعيد وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، فتفكروا فيما تسمعون يامعشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم ياجماعة الاخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة ياأولى العقول والألباب . وأنشدوا : -

مثل لقلبك أيها المغرور ... يوم القيامة والسماء تمور
قد كورت شمس النهار وأضعفت ... حرا على رؤوس العباد تفور
وإذا الجبال تعلقت بأصولها ... فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت ... وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا العشار تعطلت عن أهلها ... خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت ... وتقول للأملاك أين نسير
فيقال سيروا تشهدون فضائحا ... وعجائبا قد أحضرت وأمور
وإذا الجنين بأمه متعلق ... خوف الحساب وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف لهوله ... كيف المقيم على الذنوب دهور ؟

جهنم فى المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار جل جلاله أن يؤتى بجهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته ، فيؤتى بها وأهوالها وأنكالها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانيتها، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، ونتن غسلينها وغلى سمومها ، وقد اجتمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلاء ، فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

وصف جهنم

قال الله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾[1] فيراها الخلائق كلهم وهى تغتاظ على العباد ، وكغضب الجبار جل جلاله وتتغيظ وتتسعر ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ، قد تعلق بكل زمام

(١) سورة النازعات الآية رقم : ٣٦

سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهى تريد أن تنفلت من أيديهم ، وتأتى على أهل الموقف والملائكة الذين يحبسونها وجوههم مثل الجمر وأعينهم مثل البرق الخاطف : فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه

بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد من نار ، فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار ، كأمثال الجبال الراسيات العظام ورءوسها كرءوس الأفاعى ، وهى أخف فى يدى الملك من الريشة وأعينهم زرق ووجوههم كلحة ، قد خلقوا من نار السموم ، تريد جهنم أن تنفلت من أيدى الملائكة من غضب الجبار جلا جلاله .

هذا كله قاله الضحاك عن الأئمة عن ابن عباس ـ رضى الله ـ تعالى ـ عنهم .

بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله تبارك وتعالى جاءت بالهول الأكبر والفزع الأعظم ، فيخرج من نفسها وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد . فإذا قربت من الخلائق ، سمعوا لها شهيقا ، ورأوا لها حريقا ، فإذا نظرت فى أهل المعاصى ثارت وفارت وأرادت أن تثب عليهم فاغتاظت وتمحمحت إليهم ، وأرادت أن تأتى على جميع الخلائق ، وتريد أن تنفلت من أيدى الخزان فتهرب الخلائق ، فلا يجدون منفذا ولا مكانا يستغيثون إليه . ومناد ينادى (يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)[1] أى بحجة ـ ثم ترجع جهنم بسلطانها على خزانها ، لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله ، فإذا انفلتت من أيدى الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من فى الموقف ، فيعرض لها صلوات الله وسلامه عليه محمد الرسول ، وكل نبى يومئذ بنفسه مشغول .

رد الرسول جهنم عن الخلائق

فيأخذ محمد ﷺ بزمامها ويقبض على خطامها ، فيردها على خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو ﷺ يقول لها : كفى عن أمتى ، فتخمد من نوره ﷺ وتناديه ايها النبى المكرم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيلى من يديك ، فما جعل الله لى ولا لغيرى من سلطان عليك ، فيناديها الملك الجليل الجبار ، هذا محمد حبيبى سيد الأبرار ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كليلة تحت سكون وخمود بإذن الملك المعبود ، لمحمد ﷺ صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الحقائق والحدود ، ولو

---

(١) سورة الرحمن الآية رقم : ٣٣

تركها خاتم النبيين وسيد المرسلين لأهلكت الخلائق أجمعين غضبا لغضب رب العالمين أعاذنا الله وإياكم ـ برحمته ـ منها إنه أرحم الراحمين .

جهنم وزفيرها

وقيل إن جهنم ـ أعاذنا الله منها وزحزحنا واياكم برحمته عنها ـ إذا نظرت إلى الكفار والمنافقين والفجار وأصحاب الخطايا والأوزار ، زفرت زفرة ، فترمى شررا على رءوس الخلائق مثل عدد نجوم السماء وزبد البحر ورمل البر ، فتقع على رءوس الكافرين والعاصين لرب الأولين والآخرين ، فلو كانت الدنيا باقية لانهارت جبالها وجفت أزهارها ، ويبست عيونها وأنهارها من شدة حر شرر جهنم ، ولو كان ثم موت لمات الخلق كلهم .

الزفرة الثانية

ثم تزفر أخرى أعظم من الأولى ، فلا تبقى دمعة فى عين إلا قطرت ، ويغلب بياض العين على سوادها ، وتبلغ القلوب الحناجر ولا يسأل أحد إلا نفسه البر والفاجر .

الزفرة الثالثة

ثم تزفر الثالثة وهى أعظم من الأولى والثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ، ولا بنى مرسل ، ولا ولى ولا صديق ، إلا جثا على ركبتيه حتى إبراهيم وجميع المرسلين إلا ما خلا من حبيب رب العالمين محمد ﷺ خاتم النبيين ، فإنه لا يُسأل عن هول النار قد خلصه الله من أهوالها .

الزفرة الرابعة

ثم تزفر الرابعة وهى أعظم من الأولى والثانية والثالثة ، فتلقى الزبانية على وجوههم أجمعين وتفر الخلائق كلهم هاربين ، ويتعلق جبريل وميكائيل ـ عليهما السلام ـ بساق العرش ، وكل ملك ينادى نفسى نفسى لا أسألك اليوم غيرها ، ويقول أيضا كل واحد منهم بحرمة محمد وبقدر محمد ﷺ نجنى من عذابك ، لما يرون من حرمته وجلالة قدره وعظيم منزلته عند ربه ، فإذا هرب الخلائق وجهنم تريد أن تأتى عليهم ، وقد غلى بعضها فى بعض ، ويقلب بعضها على بعض ، ولا يبقى غل ولا سربال ولا سلسلة ولا قيد ولا حية ولا عقرب إلا ألقت الكل على متنها .

بماذا تخمد النار ؟

فعند ذلك يقبل إليها محمد ﷺ ويلقى يده فى زمامها ، ويلوح إليها بحلة خضراء ، فتخمد من نور وجهه المبارك وهو ﷺ يضرع إلى العلى المجيد وهو يقول : ياسلام سلم أمتى من العذاب الشديد .
وأنشدوا : ـ

الدمع فى خد من عصى حسن ... حسب الفتى من دموعه الحزن
يـامن شكى حافظاه خلوتـه ... لما خلا والعباد ما فطن
قد كان ربى عليك مطلعا ... وأنت لاهى الفؤاد مفتتن
لم تهتك الستر إذ خلوت به ... ولا انقضت من عطائه المنن
النار تسعى إلى العصاة غدا ... لم يعلم المذنبون ما وسن

ياقوم العجب من القلوب التى بليت بالعباد ، وغفلت عن أهوال يوم المعاد ، وتمادت على معصية الرب الكريم الجواد .

يأخى كأن المراد بهذا كله غيرنا . ليبعثن الجبار ، الذليل والحقير ، ويسألهم عن الفتيل والنقير ، وعن الذرة والقطمير ، وعن القليل والكثير فى اليوم المهول العبوس العسير ، الذى يشيب من فظاعة هوله الطفل الصغير أرفق الله بنا وبكم فى ذلك اليوم إنه على ما يشاء قدير .

ثم يبعث الله تعالى جبريل عليه السلام إلى جهنم ، فيقول لها : الله تعالى يقول لك الطاعة . فتقول وعزة الله وعظيم جلاله لأنتقمن اليوم ممن لم يعمل بطاعة الله واستعان بنعمته على معصيته . ثم تقول : ياجبريل ، هل خلق الله خلقا يعذبنى به ؟

فيقول جبريل : لا ، ما خلقك الله تعالى إلا نقمة لمن عصاه . فتقول جهنم عند ذلك : الحمد لله الذى جعلنى نقمة لمن عصاه ولم يجعل من خلقه من ينتقم منى .

عند ذلك ـ والله ـ تعظم الخطوب ، وتظهر القبائح والعيوب ، ويندم أهل المعاصى والذنوب وأنشدوا :

لـيس فى الـدنـيـا لمـن ... آمـن بـالـبـعـث سـرور

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من باع نفسه فى سوق الخسران ، ترك العز ورضى بالهوان ، وبذل مهجته لعذاب النيران ، وبارز بالخطايا الملك الديان .

من أسباب غفران الذنوب

حكى عن بعض العارفين ـ رحمه الله ـ أنه قال : حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات ، فإذا بضجة الناس ، فتذكرت يوم القيامة ، وذكرت رحمة الله ، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من فى الجمع ، فذكرت أنى فيهم فأمسكت . وأنشدوا :

يـاكثير الـذنوب أقصر قليـلا ... قد بلغت المدى من الإسراف

فإذا اشتد بالخلائق الهلع ، وكثر منهم الخوف والجزع ، وبلغت القلوب الحناجر من خوف من يعلم الظواهر والسرائر ، نادى الملك الرحمن : « ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »[1] فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه . فيقول سبحانه ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا**

(١) سورة الزخرف الآية رقم : ٦٨

مسلمين ﴾ فعند ذلك ييأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار ، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار ، واتبع سنة محمد المختار ، عند ذلك تنشر الدواوين ، وتوضع الموازين وتتطاير الصحف فى الأفق ، فكل امرىء بما اكتسب معترف ، فندم الظالم وخسر الآثم وظهرت فى الصحف الفضائح وكثر الخجل واشتد الوجل ، وبدت الفضائح وشهدت على كل امرىء حفظته والجوارح . وأنشدوا : ـ

طال والله بالذنوب اشتغالى ... وتماديت فى قبيح فعالى
ليت شعرى إذا أتيت فريدا ... والموازين قد نصبت حيالى
والدواوين قد نشرت وجئنا ... والنبيون يشهدون سؤالى
ما اعتذارى وما أقولى لربى ... فى سؤالى وما يكون مقالى
أورثتنى الذنوب دار هموم ... لست أبقى لهاولا تبقى لى
ياعظيم الجلال ما لى عذر ... بل حقيق أنا بنار السفال
غير أن الرجاء فيك مكين ... فارحم العبد ياجميل الفعال
وتفضل على عبيد بشىء ... ليس يرجو سواك ياذا الجلال

هذا يوم الدين

١ ـ روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إذا جمع الله تبارك وتعالى الأولين والآخرين نادى مناد هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون) .

فانظر لنفسك يامسكين ياضعيف الايمان واليقين يامن يقول إنه من المؤمنين المصدقين ، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين ، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين ، ما أجرأك أن تكون عند الله من الكاذبين ، لو خفت من عذاب يوم الدين ، لعملت بالقرآن المبين ، ولو كنت من المؤمنين المصدقين ، لأطعت رب الأولين والآخرين ، فسل مولاك أن يفرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب ، وهتك سترك من القبائح والعيوب ، وأنشدوا : ـ

ياطبيب الذنوب والآثام ... هل دواء أبرأ به من سقامى
إن داء الذنوب أضعف جسمى ... ومشيبى موكل بحمامى
وشفائى أعيا الأطباء إنى ... قد تغذيت مذدق بالحرام
وركبت الذنوب سرا وجهرا ... وتباعدت من محل الكرام
كيف بالطب أن يعالج سقمى ... وكلامى يزيد قرح كلامى

١ ـ لم أعثر على هذا اللفظ فيما بين يدى من مراجع .
والذى وقفت عليه ما أخرجه سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن المنذر عن ابى عبد الله الجدلى قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبدالله بن عمر وكعب الاحبار يتحدثون فى بيت المقدس ، فقال عبادة : إذا كان يوم القيامة جمع الناس فى صعيد واحد فينفذهم البصر ويسمعهم الداعى ويقول الله : هذا يوم لا ينطقون هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ، اليوم لا ينجو منى جبار ولا شيطان مريد ... الخ ، الحديث الطويل « راجع الدر المنثور ٦ / ٣٠٥ »

أيها الناس قد علمتم ذنوبى واغترارى وشقوقى واجترامى
وأنا أرغب الدعاء فجسدوا فى فكاكى من الذنوب العظام
واشتياقى إلى الطواف شديد وإلى الركن والصفا والمقام
وإلى يشرب يحن فؤادى كى أزور النبى خير الأنام
فسلوا الله فى الوصول فإنى ذو اشتياق لحج بيت حرام
فلعل الاله يغفر جرمى وينجى من هول يوم القيامة
ويفك ذو الجلال عبدا ضعيفا مات خوفا من العذاب الغرام

الغرام : لعله يريد العذاب الغريم أى الملازم فاضطرته القافية لذلك ، وقد سبق أن نبهنا على أن هذة الأشعار ، هى ألفاظ عامية يلاحظ فيها المعنى لا التركيب البديعى .

موعظة كعب الأحبار

روى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال لكعب : ياكعب خوفنا فأطرق برأسه ، ثم رفع رأسه وعيناه تذرفان دموعا ، فقال : ياأمير المؤمنين والذى نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة ، فتقطع السلاسل التى بأيدى الزبانية الذين يمسكونها بها ، حتى تفيض على أهل الجمع وتلقى الزبانية على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمى عمل مائة ألف نبى ، ومائة ألف صديق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها ، فعند ذلك يعرض لها النبى ﷺ وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتى كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى ثلاثا . فتقول له : ياأيها النبى الكريم والرسول الرءوف الرحيم ، ما جعل الله لى عليك ولا على أمتك من سبيل ، فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذا رأى الأهوال العظام بالنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيقول يارسول الله : أنقذنى من عذاب الله ، فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربى ، فلم عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يارسول الله غلبت على شقوتى ، فيقول ﷺ لا شقوة على أحد من أمتى ولا على من قال فى الدنيا مخلصا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع فيه . وأنشدوا : ـ

ألا أكرم بأحمد ذى الأيادى شفيع الناس فى يوم التنادى
إذا نشر الخلائق من قبور عراة يبتغون ندا المنادى
وقربت الجحيم لمن يراها فيالله من خوف العباد
وقد زفرت جهنم فاستكانوا سقوطا كالفراش وكالجراد
وقد بلغت حناجرهم قلوبا وقد شخصوا بأبصار حداد
فياجبار عفوا منك فالطف ويارحمن رفقا بالعباد
ونودوا للصراط ألا هموا فهذا ويحكم يوم المعاد
تسوقكم إليه سوق عنف مقامع من زبانية شداد

ألا يامعشر الاسلام هبوا من الإغفال فى غمر الرقاد

حديث فى الترهيب

روى عن النبى ﷺ أنه قال : (كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله وعين غضت عن محارم الله وعين باتت تحرس فى سبيل الله)(١)

فقدموا عباد الله فى اليسير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه فى العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة النقصان .

ففكر فيما تسمع أيها الانسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الانسان وأنشدوا : ـ

مقام المذنبين غدا ذليل وقدر الطائعين غدا جليل
إذا مد الصراط على جحيم يطول على العصاة ويستطيل
ونادى مالكا خذ من عصانى فإنى اليوم لست لهم أقيل

سجود جهنم

ذكر فى بعض الأخبار أن جهنم ـ أعاذنا الله منها وزحزحنا برحمته عنها ـ تستأذن يوم القيامة فى السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ، ثم يقال لها ارفعى رأسك ، فترفع رأسها وهى تقول : الحمد لله الذى خلقنى لينتقم بى ممن عصاه ، ولم يجعل شيئا من خلقه ينتقم به منى .

إلهى قد اشتد بلائى وأخمدت نارى ، وغلا حميمى وزقومى ، وكثر نتنى وغسلينى (هو ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم وزيد فيه الياء والنون) وأكل بعضى بعضا . إلهى عجل على بأهلى ، فوعزتك لأنتقمن لك ، ممن عصاك ، واتبع هواه وجحد آياتك ، وكذب رسلك ، وجعل معك إلها غيرك ، لا إله إلا أنت .

فتنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعا ، ثم تغتاظ على أهل المعاصى فترمى بشرر (فسره ابن عباس بأعناق النخل) كعدد النجوم فى السماء وزبد البحر ورمل البرونبات الأرض على رءوس الخلائق ، فيقع على رءوس العصاة ، فمن كان له عمل صالح صار حجابا بينه وبين شرر جهنم ، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضا لشرر جهنم ، أعاذنا الله منها وزحزحنا عنها برحمته . يارب العالمين . آمين .

قوله تعالى ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ياليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ .

(١) الحديث رواه الترمذى فى فضائل الجهاد / ١٢

روى أن عقبة بن أبى معيط كان يكثر مجالسة النبى ﷺ فدعاه إلى ضيافته ، فأبى أن يأكل من طعامه ، حتى ينطق بالشهادتين ، ففعل . وكان أبى بن خلف صديقه فعاتبه ، وقال له : صبأت ، فقال : لا والله ولكن أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى ، فاستحييت منه ، فشهدت له ، فقال : لا أرضى منك إلا أن تأتيه ، فتطأقفاه ، وتبزق فى وجهه ، فوجده ساجدا فى دار الندوة ففعل ذلك ، فقال له النبى ﷺ لا ألقاك خارجا من مكة إلا علوت رأسك بالسيف ، فأسر يوم بدر فأمر عليا فقتله ، وقتل أبى بن خلف بيده الشريفة يوم أحد ، طعنه بحربة ، فوقعت فى ترقوته فلم يخرج منه دم كثير واحتقن الدم فى جوفه ، فجعل كما يخور الثور ، فأتى أصحابه حتى احتملوه وهو يخور ، فما لبث إلا يوما أو نحوه ، حتى ذهب إلى النار ، فأنزل الله الآية .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (يحشر المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل) أخرجه أبو داود والترمذى(١) .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامكم إلا تقى)(٢) .

وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال : (مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحا طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة)(٣) .

والمراد بالعض على اليدين الندم والحسرة والألم واللوعة النفسية ، وهنا يتمنى النادم أن يكون قد اتخذ مع الرسول طريقا ، يوصل إلى الحق ، وعلى صراط مستقيم ، ثم يتمنى الهلاك لنفسه بقوله : (ياويلتى) يامصيبتى احضرى فقد آن أوانك ، ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا وصاحبا .

نعم خير الاصحاب من إذا ذكرت الله أعانك ، وإذا نسيت ذكرك ، وشر الاصحاب من إذا ذكرت الله لا يعينك ، وإذا نسيت لا يذكرك ،

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ‏ ‏ ‏ ‏ فكل قرين بالمقارن يقتدى

ثم بين له ذلك فقال : - (لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى) والمراد بالذكر هنا القرآن العظيم ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾(٤) . (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾(٥) .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى الأدب ١٦ ، والترمذى فى الزهد / ٤٥ ، وأحمد فى مسنده ٢/٣٠٣ ، ٣٣٤ .
(٢) الحديث رواه أبو داود فى الأدب / ١٦ ، والترمذى فى الزهد / ٥٦ .
(٣) الحديث رواه البخارى فى الذبائح ٣١ ، ومسلم فى البر ١٤٦ .
(٤) سورة الحجر آية رقم : ٩ .
(٥) سورة الزخرف آية رقم : ٣٦ - ٣٩

وليست هذه الآيات خاصة بظالم بعينه ، بل تشمل كل ظالم ، كما أنها تشمل (لعن) كل قرين سوء ﴿ إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا ولا نصيرا ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾(١) .

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفا فدعه ولا تكثر عليه التأسفا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحة وفى القلب صبر للحبيب ولو جفا
فما كل من تهواه يهواك قلبه ولا كل من صافيته لك قد صفا
إذا لم يكن صفو الوداد طبيعة فلا خير فى ودٍ يجىء تكلفا
ولا خير فى خل يخون خليله ويلقاه من بعد المودة بالجفا
وينكر عيشا قد تقادم عهده ويظهر سرا كان بالأمس فى خفا
سلام على الدنيا إذا لم يكن بها صديق وفى يصدق الوعد منصفا

قوله تعالى : ﴿ وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾ أى وكان من عادة الشيطان أن يخذل الانسان ، فيصرفه عن الحق ، ويدعوه إلى الباطل ، ثم لا ينقذه مما يحل به من البلاء ولا ينجيه منه .

قال تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾(٢) .

وقال جل شأنه : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾(٣) .

وقال جل شأنه : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ .

كتب الامام ابن القيم فى كتابه (الفوائد) يقول : هجر القرآن أنواع : أحدهما هجر سماعه والايمان به والاصغاء اليه .

والثانى : هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه وإن قرأه وآمن به .

الثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه فى أصول الدين وفروعه واعتقاد انه لا يفيد اليقين وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم .

الرابع : هجر تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد المتكلم به منه .

---

(١) سورة الاحزاب الآية رقم : ٦٤ - ٦٨
(٢) سورة إبراهيم الآية رقم : ٢٢
(٣) سورة فاطر الآية رقم : ٦
(٤) سورة الحشر الآية رقم : ١٦ ، ١٧

الخامس : هجر الاستشفاء والتداوى به فى جميع أمراض القلوب وأدوائها ، فيطلب شفاء دائه من غيره ، ويهجر التداوى به ، وكل هذا داخل فى قوله : ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾ وان كان بعض الهجر أهون من بعض .

فاعجب معى لأمة تهجر كتابها المنزل من ربها على نبيها .

فالله نور السماوات والأرض والقرآن نور قال تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾(١) .

ونبيها نور : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾(٢) أمة شأنها هكذا ، كيف ترضى لنفسها أن تعيش فى الظلمات ؟ ! إلا فلتعلم هذه الأمة ، فضائل هذا الكتاب ومناقبه ، فتعود إليه ، رافعة لواء الاسلام مرددة نشيد الايمان .

فضائل القرآن ومناقبه

قال تعالى : ، ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم ﴾(٣) .

١ - وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله فى أرضه فتعلموا مأدبته ما استطعتم ، وان هذا القرآن هو حبل الله ، فهو نوره المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة من تبعه لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فيستعتب ولا ينقضى عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقرءوه ، فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات ، أما أنى لا أقول : ألم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة) .

٢ - وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه) .

٣ - وعن أبى الدرداء يرفع إلى النبى ﷺ : « القرآن أفضل من كل شىء دون الله ، فمن وقر القرآن فقد وقر الله ، ومن لم يوقر القرآن ، فقد استخف بحرمة الله ، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده)

---

(١) سورة التغابن الآية رقم : ٨
(٢) سورة المائدة الآية رقم : ١٥
(٣) سورة الحجر الآية رقم : ٨٧

١ - الحديث رواه الدارمى فى فضائل القرآن عن ابن مسعود باب / ١
وأورده المنذرى الترغيب والترهيب ٢ / ١٥٤ وقال : رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن ابراهيم الهجرى عن ابى الاحوص عنه وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه وهو صحيح أ هـ وذكره المحدث عبدالله الصديق القمارى فى فضائل القرآن ١ / ٩ بلفظ مقارب وقال : رواه أبو عبيد فى فضائل القرآن ومحمد بن نصر المروزى فى قيام الليل والحاكم وابن حبان وفى سنده إبراهيم بن مسلم الهجرى ، قال ابو حاتم : لين ليس بالقوى أ هـ
واورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧ / ١٦٤ بلفظ مقارب وقال : رواه الطبرانى وفيه مسلم بن ابراهيم الهجرى وهو متروك أ هـ

٢ - الحديث رواه الترمذى فى ثواب القرآن / ٢٥ ، والدارمى فى فضائل القرآن / ٦

٣ - حديث طويل فى جمع الجوامع ١ / ٤٣٦ جمع بينهما - وزاد كلا ما فى وسطه وعزاه لابى نصر السجزى فى الابانة عن عائشة رضى الله عنها وقال هذا من أحسن الحديث وأعذبه وليس فى اسناده الا مقبول ثقة - والحكيم عن محمد بن على مرسلا - والحاكم فى =

١ ـ وعن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال : (من قرأ ثلث القرآن ، أوتى ثلث النبوة ، ومن قرأ نصف القرآن ، أوتى نصف النبوة ، ومن قرأ ثلثى القرآن ، أوتى ثلثى النبوة ، ومن قرأ القرآن كله ، أوتى النبوة كلها ، ثم يقال له يوم القيامة : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما (معه من) القرآن ثم يقال : اقبض فيقبض ، فيقال : هل تدرى ما فى يديك فإذا فى اليمنى الخلد وفى الأخرى النعيم) .

٢ ـ وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن النبى ﷺ أنه قال : (حملة القرآن محفوفون برحمة الله ، الملبسون نور الله ، المعلمون كلام الله ، فمن عاداهم فقد عادى الله ، ومن والاهم . فقد والى الله يقول الله عز وجل : ياحملة كتاب الله تحببوا إلى الله بتوقير كتابه يزدكم حبا ، ويحببكم إلى خلقه) يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة ، والمستمع آية من كتاب الله ، خير من ثبير ذهبا ولتال آية من كتاب الله ، خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى) .

٣ ـ وعن أبى بريدة قال : كنت عند النبى ﷺ فسمعته يقول : (القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفنى ؟ فيقول ما اعرفك . فيقول انا صاحبك القرآن الذى اظمأتك فى الهواجر . واسهرت ليلتك وان كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة) .

قال : فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان : بم كبسينا هذا ؟ فيقال لهما : بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له : اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها . فهو فى صعود مادام يقرأ هذا كان أو ترتيلا) .

عن معاذ قال : (كنت فى سفر مع رسول الله ﷺ فقلت يارسول الله حدثنا بحديث ينتفع به ، فقال : (إن أردتم عيش السعداء أو موت الشهداء ، والنجاة يوم الحشر ، والظل يوم الحرور ، والهدى

= تاريخه عن محمد بن الحنفية عن على بن أبى طالب موصولا .
والحديث اورده ابن الجوزى فى الموضوعات (من رواية ابن عساكر عن انس بلفظ مقارب وقال : وفيه على بن الحسن الشامى ووافقه السيوطى ثم ابن عراق الكنانى على ذلك (راجع تنزيه الشريعة (١ / ٢٩٤) .

فى تنزيه الشريعة ١ / ٢٩٢ : من قرأ ثلث القرآن أعطى ثلث النبوة ومن قرأ ثلثيه اعطى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن فكأنما اعطى النبوة كلها . . الحديث . اورده ابن الجوزى فى الموضوعات من حديث ابى امامة وقال : لا يصح ، فيه بشير بن نمير . (وتعقب) بان بشيرا من رجال ابن ماجه (قلت) قال الحافظ فى التقريب : متروك متهم والله أعلم ، والحديث اخرجه البيهقى فى الشعب ، وقد ورد مثله من حديث ابن عمر . . الخ ماقال (راجع تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ١ / ٢٩٢ ـ ٢٩٣)

ـ الحديث رواه ابن ماجه فى الأدب / ٥٢ ، والدارمى (سنن الدارمى ٢ / ٣٢٤) فى فضائل القرآن / ١٥ ، وأحمد فى مسنده ٥ / ٣٤٨ ، ٣٥٢ .

ورواه ايضا البيهقى وابن ابى شيبة باسناد صحيح ، وقال الهيثمى بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح أ هـ وقال ابن كثير بعد عزوه له : وهذا إسناد حسن على شرط مسلم ـ وفى رواية : كالرجل الشاب (راجع تفسير ابن كثير ١ / ٣٣ ط الحلبى ، المطالب العالية ٣ / ٨٤ ، بصائر ذوى التمييز ١ / ٦٠ ـ ٦١ ، اللآلئ المصنوعة ١ / ١٢٦ ، الترغيب والترهيب ٢ / ٣٥٠ ـ ٣٥١ ، المنهل العذب المورود ٨ / ١٢٤ (شرح) وفيه : الحاكم عن بريدة .

هزًّا : الهز : الاسراع بالقراءة ـ والترتيل : القراءة بتؤدة .

يوم الضلالة ، فادرسوا القرآن ، فإنه كلام الرحمن وحرس من الشيطان ورجحان فى الميزان)[١] .

وعن عقبة بن عامر قال :

خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن فى الصفة ، فقال :(أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان أو العقيق ، فيأتى بناقتين كوماوين زهراوين فى غير إثم ولا قطيعة رحم ؟) قلنا: كلنا يارسول الله يحب ذلك . قال :

(لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد ، فيتعلم آيتين من كتاب الله ، خير له من ناقتين ، وثلاث خير له من ثلاث ، ومن أعدادهن من الابل)[٢] .

وعن عائشة قالت :

(قال رسول الله ﷺ : الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ،والذى يتتعتع فيه لهأجران)[٣]

وروى عن أبى ذر أنه جاء إلى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله إنى أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به ، فقال - ﷺ - (لايعذب الله قلبا أسكنه القرآن)[٤] .

وعن أنس عن النبى - ﷺ - أنه قال : (من علم آية من كتاب الله كان له أجرها ماتليت)[٥] .

وعن ابن مسعود أن النبى - ﷺ - قال : « من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا ؟ فإن فيه علم الأولين والآخرين ، ألم تسمعوا قوله : ﴿ مافرطنا فى الكتاب من شىء ﴾[٦] .

- وعن واثلة بن الاسقع أن النبى - ﷺ - قال : أعطيت السبع الطوال مكان التوراة ، وأعطيت المائدة مكان الانجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل[٧] .

وعن عثمان بن عفان أنه قال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[٨] .

---

(١) الحديث رواه الديلمى عن غضيف بن الحارث
(راجع : بصائر ذوى التمييز ١/ ٦١ نقلا عن كنز العمال ١/ ١٣٦)

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٥١ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة - أبواب الوتر ١٤ ، وأحمد فى مسنده ٤/ ١٥٤

(٣) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة عبس،ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٤ ، وأبو داود فى كتاب الوتر/ ١٤
والترمذى فى أبواب ثواب القرآن/١٣ ، وابن ماجه فى أبواب الأدب/٥٢ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/١ وأحمد فى مسنده ٦/ ٤٨ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٧٠ ، ١٩٢ ، ٢٣٩ ، ٢٦٦ .

(٤) الحديث رواه الدارمى فى كتاب فضائل القرآن ١

(٥) الحديث ورد بلفظه فى بصائر ذوى التمييز ١/٦٢ ولكنه فى جمع الجوامع ١/٨٠٢ بلفظ : من علم آية فى كتاب الله كان له ثوابها ماتليت- وقال (رواه ابن لال عن أبان عن أنس)

(٦) الحديث ورد بلفظه فى كتاب بصائر ذوى التمييز ١/٦٢ ولكنه فى كنز العمال ١/٥٤٨ رقم ٢٥٤ ورد بلفظ : من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن (رواه الديلمى عن أنس) أى فلينقر عنه وليفكر فى معانيه

(٧) الحديث رواه النسائى فى كتاب الافتتاح ٢٦ ، والدرامى فى كتاب فضائل القرآن/ ١٧

(٨) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل القرآن ٢١ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة - أبواب الوتر (عون المعبود ٤/ ٣٢٥ باب فى ثواب قراءة القرآن) والترمذى فى أبواب ثواب القرآن/ ١٥ ، وابن ماجه فى المقدمة ١٦ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/ ٢

وعن أبي موسى الأشعرى عن النبى - ﷺ - قال : مثل الذى يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة : طعمها طيب وريحها طيب ، ومثل الذى لايقرأ القرآن ويعمل به مثل الثمرة : طعمها طيب ، ولاريح لها ، ومثل الذى يقرأ القرآن ولايعمل به كمثل الريحانة ، لها رائحة وطعمها مر ، ومثل الذى لايقرأ القرآن ولايعمل به مثل الحنظلة لاطعم لها ، ولارائحة) (البخارى ومسلم)[(١)] .

(والاترجه ضرب من الفواكه) .

وسئل النبى - ﷺ - من أحسن الناس صوتا ؟ قال من إذا سمعته يقرأ خشية تخشى الله[(٢)] وكان - ﷺ - يقول لأصحابه : (اقرأوا القرآن بحزن ، فإنه نزل بحزن)[(٣)] .

(كنز العمال)

- وقال ﷺ - (إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد .

قيل : فما جلاؤها يارسول الله ؟ قال : ذكر الموت وتلاوة القرآن : ألم تسمعوا قوله تعالى : ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾[(٤)] .

- وقال - ﷺ - : (القرآن هو الدواء)[(٥)] (كنز العمال)

وقال - ﷺ - : (القرآن غنى لافقر بعده ولا غنى دونه)[(٦)] .

ورد فى الإتقان وذكر أنه أخرجه أبو يعلى والطبرانى من حديث أبى هريرة

وقال - ﷺ - : القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق) وماحل بكسر الحاء المهملة أى:ساع وقيل :

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأطعمة/٣٠ ، وفى كتاب فضائل القرآن/١٧ ، ٣٦ ، وفى كتاب التوحيد/٥٧ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٤٣ ، وأبو داود فى كتاب الأدب/١٦ ، والترمذى فى أبواب الأدب/٧٩ ، والنسائى فى كتاب الإيمان/٣٢ ، وابن ماجه فى المقدمة/١٦ ، والدارمى فى كتاب فضائل القرآن/٨ ، وأحمدفى المسند ٤/٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨

(٢) الحديث رواه الدارمى فى سننه ٢/ ٣٣٨ رقم ٣٤٩١ عن طاوس بلفظ : من إذا سمعته يقرأ أريت أنه يخشى الله وفى كنز العمال ١/٦٠٨ رقم ٢٧٨٨ بلفظ : إن من أحسن الناس صوتا بالقرآن الذى إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله (ابن ماجه عن جابر)

وفى كنز العمال ١/٦٠٢ - ٦٠٣ رقم ٢٧٥٠ بلفظ :(أحسن الناس قراءة الذى إذا قرأ رأيت أنه يخشى الله)رواه محمد ابن نصر فى كتاب الصلاة والبيهقى فى الشعب والخطيب عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وأورده الهيثمى فى المجمع ١٧٠/٧ وعزاه للطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر وثقه ابن حبان وقال ربما أخطأ وبقية رجال البزار رجال الصحيح وقال : وفيه حميد بن حماد بن خوار

(٣) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى أبواب الإمامة رقم/١٧٦ ورواه ابن عساكر وأبو نعيم فى الحلية والطبرانى فى الأوسط عن بريدة بلفظ : اقرأوا القرآن بالحزن فإنه نزل بالحزن(كنز العمال ١/ ٦٠٦ رقم ٢٧٧٧

(٤) الحديث فى كنز العمال ١٥/٥٤٩ - ٥٥٠ رقم ٤٢١٣٠ بلفظ : إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء ، قيل : وماجلاؤها ؟ قال : كثرة ذكر الموت وتلاوة القرآن : (رواه البيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر)

(٥) رواه السجزى فى الإبانة والقضاعى عن على-رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٧ رقم ٢٣١٠)

(٦) رواه ابن عساكر ومحمد بن نصر عن أنس رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٦ - ٥١٧ رقم ٢٣٠٧) وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ٧/ ١٥٨ وقال : رواه أبو يعلى عن أنس وفيه يزيد بن أبان الرقاشى وهو ضعيف أ هـ

خصم مجادل) رواه ابن حبان فى صحيحه(١) .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾

أى كما حصل لك يامحمد فى قومك من الذين هجروا القرآن ، كذلك كان فى الأمم الماضين ، لأن الله جعل لكل نبى عدوا من المجرمين ، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، كما قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم ومايفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون ﴾(٢) .

ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ أى لمن اتبع رسوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه ، فإن الله هاديه وناصره فى الدنيا والآخرة ، وإنما قال : ﴿ هاديا ونصيرا ﴾ لان المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدى أحد به ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ، فلهذا قال : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين ﴾ الآية . .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا . الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لايعنيهم ، حيث قالوا ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أى هلا أنزل عليه هذا الكتاب ، الذى أوحى إليه جملة واحدة ، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة ، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك ، بأنه إنما أنزل منجما فى ثلاث وعشرين سنة ، بحسب الوقائع والحوادث ومايحتاج إليه من الأحكام ، ليثبت قلوب المؤمنين كقوله تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾(٣) ولهذا قال سبحانه : ﴿ لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ قال قتادة : بيناه تبيينا . وقال ابن زيد وفسرناه تفسيرا .

وقوله تعالى : ﴿ ولايأتونك بمثل ﴾ أى بحجة وشبهة ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى: ولايقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق فى نفس الأمر وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم ، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس : ﴿ولايأتونك بمثل ﴾ أى بما يلتمسون به عيب القرآن والرسول ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ أى إلا نزل جبريل من الله تعالى بجوابهم ، وما هذا إلا اعتناء وكبير شرف للرسول ـ ﷺ ـ حيث كان يأتيه الوحى من الله ـ عز وجل ـ بالقرآن صباحا ومساء ، ليلا ونهارا سفرا وحاضرا ، وكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن لا كإنزال الكتاب مما قبله من الكتب المتقدمة ، فهذا المقام أعلى وأجل وأعظم مكانة من سائر إخوانه الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ

---

(١) رواه ابن حبان والبيهقى فى الشعب عن جابر رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود رضى الله عنه (كنز العمال ١/ ٥١٦ رقم ٢٣٠٦)

(٢) سورة الأنعام آية رقم : ١١٢ ، ١١٣ .

(٣) سورة الإسراء آية رقم : ١٠٦

فالقرآن أشرف كتاب أنزله الله ، ومحمد - ﷺ - أعظم نبى أرسله الله تعالى ، وقد جمع الله للقرآن الصفتين معا ، ففى الملأ الأعلى ، أنزل جملة واحدة من اللوح المحفوظ ، إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ثم أنزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث .

روى النسائى باسناده عن ابن عباس قال : (وأنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة)(١)

قال الله تعالى : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾

وقال تعالى : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾

ثم قال تعالى : مخبرا عن سوء حال الكفار فى معادهم يوم القيامة وحشرهم إلى جهنم فى أسوأ الحالات وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا ﴾

وفى الصحيح عن أنس أن رجلا قال يارسول الله : كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال - ﷺ - : (إن الذى أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)

وهكذا قال مجاهد والحسن وقتادة وغير واحد من المفسرين .

قوله تعالى :

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيرا . فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ؛ وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ، وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ، ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا ﴾

يقول تعالى متوعدا من كذب رسوله محمدا - ﷺ - من مشركى قومه ومن خالفه ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه ، مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله ، فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيرا ، أى نبيا مؤاذرا ومؤيدا وناصرا فكذبهما فرعون وجنوده فدمرناهم تدميرا ، قال تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾(٢) وقال سبحانه ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا . قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾(٣)

وقال تبارك اسمه : ﴿ ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ، ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون ﴾(٤) .

---

(١) الحديث رواه النسائى فى كتاب (فضائل القرآن) ص ٥٩ رقم ١٥ / الطبعة الأولى سنة ١٤٠٠هـ طبعة دار الثقافة بالمغرب عن ابن عباس قال : نزل القرآن جملة فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، فكان إذا أراد الله أن يحدث منه شيئا أحدثه .

(٢) سورة مريم آية رقم : ٥١ - ٥٣

٣ - سورة الاسراء : ١٠١ - ١٠٢

(٤) سورة المؤمنون الآيات رقم : ٤٥ - ٤٩

ثم يأتى الحديث عن قوم نوح فيقول تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾

وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾(١) فاعجب معى لقوم يظل فيهم نبيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، يدعوهم إلى التوحيد ليلا ونهارا ، ويبذل فى سبيل ذلك كل أسلوب من أساليب الدعوة ﴿ ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا ، فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾(٢) ثم بعد ذلك تكون النتيجة ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾(٣)

فيالله للبشرية إذا ماوقفت تلك المواقف ، التى تحار فيها الألباب ، وتنشق فيها قلوب الأسود ، وتتفت لها مرائر النمور .

قوله تعالى : ﴿ وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ، وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ، فأخذتهم(٥) اعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾(٤) وقال تبارك اسمه :

﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾(٦) .

أما أصحاب الرس ، فهم الذين قتلوا نبيهم ، وكانوا يقطنون اليمامة

وقال ابن جرير : هم أصحاب الأخدود ، الذين ورد ذكرهم فى سورة البروج فى قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود . ومانقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد . إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾

قوله تعالى : ﴿ وقرونا بين ذلك كثيرا ﴾ أى:أمما كثيرة أهلكناهم لما كذبوا رسلنا . قال تعالى : ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾(٦)

---

(١) سورة العنكبوت الآيات رقم : ١٤ ـ ١٥

(٢) سورة نوح الآيات رقم : ٨ ـ ١٢

(٣) سورة هود . آية رقم : ٤٠

(٤) سورة فصلت الآيات رقم : ١٥ ـ ١٨

(٥) سورة العنكبوت آية، رقم : ٣٨

(٦) سورة الأنعام آية رقم : ٦

وقال سبحانه : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لايؤمنون ﴾[١] وقال عز من قائل : ﴿ ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ، فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وماكانوا يفترون ﴾[٢]

قوله تعالى : ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيرا ﴾ أى وكل هؤلاء أوضحنا لهم حججنا ، وبينا لهم أدلتنا ، وأزحنا عنهم الأعذار فتمادوا فى كفرهم وطغيانهم ، فأهلكناهم أفظع الإهلاك وأشده ونحو ذلك قوله تعالى فى شأن الظالمين : ﴿ ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء . وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام . يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ليجزى الله كل نفس ماكسبت إن الله سريع الحساب هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولوا الألباب ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لايرجون نشورا ﴾ .

أى: وتالله لقد مر هؤلاء المكذبون فى رحلة الصيف على سدوم ، أعظم قرى قوم لوط ، وقد أهلكها الله بأن أمطر عليها حجارة من سجيل ؛ لأن قومها كانوا يعملون الخبائث ، وحذرهم لوط ، فما أغنت عنهم الآيات والنذر .

ثم وبخهم على تركهم التذكر حين مشاهدة مايوجبه فقال :

﴿ أفلم يكونوا يرونها ؟ ﴾ أى: أفلم يروا مانزل بتلك القرية من عذاب الله بتكذيب أهلها رسول ربهم ، فيعتبروا ويتذكروا ويراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم لرسوله . ثم أبان أن عدم التذكر لم يكن سببه عدم الرؤية ، بل منشؤه إنكار البعث والنشور فقال :

﴿ بل كانوا لايرجون نشورا ﴾ أى: إنهم ماكذبوا محمدا ﷺ فيما جاءهم به من عند الله ؛ لأنهم لم يكونوا رأوا ماحل بالقرية التى وصفت ، بل كذبوه من قبل؛ إنهم قوم لايخافون نشورا بعد الممات ، ولايوقنون بعقاب ولاثواب فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصى الله .

---

(١) سورة المؤمنون آية رقم : ٤٤
(٢) سورة الأحقاف الآيتان : ٢٧ ـ ٢٨
(٣) سورة ابراهيم الآيات رقم : ٤٢ ـ ٥٢

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين إذ نجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٢] .

وقوله تعالى ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين[٣] .

قوله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا . إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ .

- أى:وإذا رآك هؤلاء المشركون اتخذوك موضع هزؤ وسخرية ، وقالوا احتقارا لشأنك هذه المقالة .

ثم ذكر مازاد فى قبحه فى زعمهم فقال : ﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ أى ويقولون إنه قد كاد يصدنا عن عبادة آلهتنا لولا صبرنا على عبادتها وثباتنا على ديننا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد ، ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب ﴾[٤] . ونحوه قوله تعالى : ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ أى:إنهم حين يشاهدون العذاب ، الذى استوجبوه بكفرهم سيعلمون من الضال ومن المضل ؟ وفى هذا رد لقولهم : إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ، كما أن فيه وعيدا شديدا على التعامى والإعراض عن الاستدلال والنظر ، فاعجب معى لأهل الباطل ، يصبرون على آلهتهم وضلالتهم وباطلهم ، وأهل الحق يستعجلون ، نعم يامولانا يامن قلت وقولك الحق :

﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[٦] وقلت : ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا ﴾ .

---

(١) سورة هود آية رقم : ٨٢ ، ٨٣
(٢) سورة الصافات آية رقم : ١٣٣ - ١٣٨
(٣) سورة الحجر آية رقم : ٧٣ - ٧٧
(٤) سورة ص آية رقم : ٦ - ٨
(٥) سورة الأنبياء آية رقم : ٣٦ - ٣٧
(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٨٦
(٧) سورة النحل آية رقم : ١٢٦ - ١٢٨

أى انظر فى حال هذا الذى جعل هواه إلهه ، بإن أطاعه وبنى عليه أمر دينه ، وأعرض عن استماع الحجة الباهرة ، والبرهان الجلى الواضح ، وأعجب ولاتأبه به ، فإنك لن تكون حفيظا على مثل هذا ، تزجره عما هو عليه من الضلال ، وترشده إلى الصراط السوى ، وخلاصة ذلك ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : إن هذا الذى لايرى معبودا له إلا هواه ، لاتستطيع أن تدعوه إلى الهدى ، وتمنعه من متابعة الهوى ، إن عليك إلا البلاغ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾[١] وقوله تبارك اسمه : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾[٢] .

وقال جل شأنه : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[٣] .

الهوى هو نوازع النفس إلى مسالك الشر ، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواه ، وتمنى على الله الأمانى ، ومن عرف الهوى فقد هوى ، وقد صح فى الحديث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) .

قال الحافظ ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه ذم الهوى وتحت عنوان (فى ذم الهوى والشهوات)

اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى مايلائمه ، وهذا الميل قد خلق فى الإنسان لضرورة بقائه ، فإنه لولا ميله إلى المطعم مأأكل ، وإلى المشرب ماشرب ، وإلى المنكح مانكح ، وكذلك كل مايشتهيه ، فالهوى مستجلب له مايفيد ، كما أن الغضب دافع عنه مايؤذى ، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق ، وإنما يذم المفرط من ذلك ، وهو مايزيد على جلب المصالح ودفع المضار . ولما كان الغالب من مواقف الهوى أنه لايقف منه على حد المنتفع ، أطلق ذم الهوى والشهوات ، لعموم غلبة الضرر ، لأنه يبعد أن يفهم المقصود من وضع الهوى فى النفس ، وإذا فهم تعذر وجود العمل به وندر مثاله : ان شهوة المطعم إنما خلقت لاجتلاب الغذاء ، فيندر من يتناول بمقتضى مصلحته ولايتعدى ، فإن وجد ذلك انغمر ذكر الهوى فى حق هذا الشخص ، وصار مستعجلا للمصالح ، وأما الأغلب من الناس فإنهم يوافقون الهوى . فإن حصلت مصلحة حصلت ضمنا وتبعا ، فلما كان هذا هو الغالب ذكرت فى هذا الباب ذم الهوى والشهوات مطلقا ، ووسمت كتابى بـ « ذم الهوى » لذلك المعنى .

---

(١) سورة الجاثية آية رقم : ٢٣

(٢) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٥ - ١٧٧

(٣) سورة ص آية رقم : ٢٦

وقد روى عن ابن عباس أنه قال : ماذكر الله ـ عز وجل ـ الهوى فى موضع من كتابه إلا ذمه . وقال الشعبى: إنما سمى هوى ؛ لأنه يهوى بصاحبه .

فصل :

اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر فى عاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلا ، وإن كانت سببا للألم والأذى ومنع لذات فى الآجل .

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألما ، وشهوة تورث ندما ، وكفى بهذا القدر مدحا للعقل وذما للهوى .

ألا ترى أن الطفل يؤثر مايهوى ، وإن أداه إلى التلف ! فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك ، وقد يقع التساوى بينهما فى الميل والهوى ، وبهذا القدر فضل الآدمى على البهائم ـ أعنى ملكة الارادة ـ لأن البهائم واقفة مع طباعها ، لانظر لها إلى عاقبة ، ولا فكر فى مآل ، فهى تتناول مايدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر ، وتفعل ماتحتاج إليه من الروث والبول أى وقت اتفق ، والآدمى يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه .

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبا ، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل ، فإنه سيشير عليه بالنظر فى المصالح الآجلة ، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط فى كف الهوى ، إلى أن يتيقن السلامة من الشر فى العاقبة .

وينبغى للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ماتؤذى غايته . وليعلم العاقل أن مدمنى الشهوات يصيرون إلى حالة لايلتذونها ، وهم مع ذلك لايستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطرارى ، ولهذا ترى مدمنى الخمر والجماع لايلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن ، غير أن العادة تقضيه ذلك فيلقى فى المهالك لنيل مايقتضيه تعوده . ولوزال رين الهوى عن بصر بصيرته ، لرأى أنه قد شقى من حيث قدر السعادة ، واغتم من حيث ظن الفرح ، وألم من حيث أراد اللذة . فهو كالحيوان المخدوع بحب الفخ ، لاهو نال ماخدع به ، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه .

فإن قال قائل : فكيف يتخلص من هذا وقد نشب فيه ؟ قيل له :

بالعزم القوى فى هجران مايؤذى ، والتدرج فى ترك مالا يؤمن أذاه ، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة يهونهما سبعة أشياء .

أحدها : التفكر فى أن الأنسان لم يخلق للهوى ، وإنما هيىء للنظر فى العواقب والعمل للآجل ، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح مالاينا له الإنسان ، مع عيش هنى خال عن فكر وهم . ولهذا تساق إلى منحرها ، وهى منهمكة على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب .

والآدمى لاينال ماتناله لقوة الفكر الشاغل ، والهم الواغل ، وضعف الآلة المستعملة ، فلو كان نيل المشتهى فضيلة لما نجس حظ الآدمى الشريف منه ، وزيد حظ البهائم ، وفى توفير حظ الآدمى من العقل ونجس حظه من الهوى ، مايكفى فى فضل هذا وذم ذلك .

والثانى : أن يفكر فى عواقب الهوى . فكم قد أفات من فضيلة ، وكم قد أوقع فى رذيلة ، وكم من مطعم قد أوقع فى مرض ، وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم .

غير أن صاحب الهوى لايرى إلا الهوى ! فأقرب الأشياء شبها به من فى المدبغة ، فإنه لايجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان .

والثالث : أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه ، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة ، فإنه يراه يربى على الهوى أضعافا . وقد أنشد بعض الحكماء .

وأفضل الناس من لم يرتكب سببا   حتى يميز ماتجنى عواقبه

والرابع : أن يتصور ذلك فى حق غيره ، ثم يتلمح عاقبته بفكرة . فإنه سيرى مايعلم به عيبه إذا وقف فى ذلك المقام .

والخامس : أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات ، فإنه سيخبره العقل أنه ليس بشىء وإنما عين الهوى عمياء .

وفى الحديث عن ابن سعود رضى الله عنه (إذا أعجبت أحدكم أمرأة فليذكر مناتنها)

والسادس : أن يتدبر عز الغلبة وذل القهر ، فإنه مامن أحد غلبه هواه إلا أحس بقوة عز ، ومامن أحد غلب هواه إلا وجد فى نفسه ذل القهر .

والسابع : أن يتفكر فى فائدة المخالفة للهوى ، من اكتساب الذكر الجميل فى الدنيا وسلامة النفس والعرض ، والأجر فى الآخرة . ثم يعكس ، فيتفكر لو وافق الهوى ، فى حصول عكس ذلك على الأبد ، وليفرض لهاتين الحالتين حالتى آدم ويوسف عليهما السلام . فى لقمة هذا وصبر هذا .

ويأيها الأخ النصوح أحضر لى قلبك عند هذه الكلمات ، وقل لى . بالله عليك ، أين لذة آدم التى قضاها ، من همة يوسف التى ماأمضاها ؟

من كان يكون يوسف لو نال تلك اللذة : فلما تركها وصبر عنها بمجاهدة ساعة صار من قد عرفت .

فصل :

واعلم أن الهوى يسرى بصاحبه فى فنون ، ويخرجه من دار العقل إلى دار الجنون .

وقد يكون الهوى فى العلم فيخرج بصاحبه ضد ماأمر به العلم .

وقد يكون فى الزهد فيخرج إلى الرياء .

وكتابنا هذا لذم الهوى فى شهوات الحس ، وإن كان يشتمل على ذم الهوى مطلقا .

وإذ قد ذكرنا فى هذا الفصل من ذم الهوى ماأملاه العقل فلنذكر من ذلك مايحويه النقل .

فصل :

قد مدح الله عز وجل مخالفة الهوى فقال سبحانه ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾[١] قال المفسرون :

---

(١) سورة النازعات آية رقم : ٤٠

هو نهى النفس عما حرم الله عليها .

قال مقاتل : هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

وقال عز وجل : ﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ﴾[١] وقال : ﴿ واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾[٢] وقال : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾[٣]، وقال : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ﴾[٤] وقال : ﴿ واتبعوا أهواءهم ﴾[٥] وقال : ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾[٦] وقال : ﴿ ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾[٧] وقال : ﴿ أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه ﴾[٨] وقال : ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾[٩] وقال : ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾[١٠] وقال : ﴿ ولاتتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[١١] .

قال الحسن فى هذه الآية : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : هو المنافق لايهوى شيئا إلا ركبه .

وقال الغريابى بسنده عن الحسن ، قال : المنافق يعبد هواه ، لايهوى شيئا إلا ركبه . وقال أيضا بسنده عن قتادة ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ قال : إذا هوى شيئا ركبه .

وعن أنس ، أن النبى ﷺ قال (حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات) أخرجه مسلم[١٢] .

وفى لفظ البخارى (حجبت) مكان (حفت)[١٣]

وعن أبى هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله عز وجل الجنة والنار ، أرسل جبريل ، يعنى إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ماأعددت لأهلها فيها ، فجاء فنظر إليها وإلى ماأعد الله عز وجل لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها . فأمر بها فحجبت بالمكاره ، وقال ارجع إليها وانظر إليها ، فرجع فإذا هى قد حجبت بالمكاره فقال : لقد خشيت الا يدخلها أحد

(١) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٦
(٢) سورة الكهف آية رقم : ٢٨
(٣) الفرقان آية رقم : ٤٣
(٤) سورة الروم آية رقم : ٢٩
(٥) سورة محمد آية رقم : ١٦
(٦) سورة القصص آية رقم : ٥٠
(٧) سورة الأنعام آية رقم : ١١٩
(٨) سورة الكهف آية رقم : ٢٨
(٩) سورة البقرة آية رقم : ١٢٠ ، ١٤٥
(١٠) سورة النساء آية رقم : ١٣٥
(١١) سورة ص آية رقم : ٢٦
(١٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة حديث رقم ١ ، وأبو داود فى كتاب السنة رقم ٢٢ والنسائى فى كتاب الأيمان رقم ٣ والدارمى فى كتاب الرقاق رقم ١١٧ ، وأحمد ٢/ ٢٦٠ ..
(١٣) البخارى فى كتاب الرقاق رقم ٢٨ ، وأحمد ٢/ ٣٣٣ ، ٣٧٣

قال : فانظر إلى النار وإلى ماأعددت لأهلها فيها ، فجاءها فنظر إليها وإلى ماأعد لأهلها فيها ، فإذا هى يركب بعضها بعضا ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لايسمع بها أحد فيدخلها . فأمر بها فحفت بالشهوات ، وقال له ارجع اليها فانظر اليها فإذا هى قد حفت بالشهوات ، فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها)

(قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح)(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى ﷺ أنه قال : (لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) (أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى أربعينه ، وهو حسن صحيح)(٢) .

ورد عن أبى برده الأسلمى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(أخوف ماأخاف عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم ومضلات الفتن) (أخرجه أحمد والبزار والطبرانى بلفظ إنما أخشى . .)(٣) .

وعن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى ، عن ابيه عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ (إن أخوف ماأخاف على أمتى حكم جائر وزلة عالم وهوى متبع) (أخرجه البزار والطبرانى بلفظ إنى أخاف)

ـ وعن أبى أمامة الباهلى ، قال : قال رسول الله ﷺ :

(ماتحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع) (أخرجه الطبرانى فى الكبير)(٤) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

(ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه) (أخرجه البزار والبيهقى واسناده ضعيف)(٥)

وعن بلال بن أبى الدرداء ، عن أبيه ، عن النبى ﷺ قال : (حبك الشىء يعمى ويصم) أخرجه أبو داود وأحمد وهو حسن (٦) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (ثلاث منجيات وثلاث مهلكات ، فأما المنجيات ، فتقوى الله فى السر والعلانية ، والقول بالحق فى الرضا والسخط ، والقصد فى الفقر والغنى . وأما المهلكات : فهوى متبع ، وشح مطاع ، وإعجاب المرء بنفسه وهى شرهن) (أخرجه البزار والبيهقى)

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الجنة رقم ٢١

(٢) الحديث رواه الحكيم الترمذى وأبو نصرالسجزى فى الإبانة وقال حسن غريب والخطيب عن ابن عمرو . (راجع جمع الجوامع ١/ ٩١٨)

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٤/ ٤٢٠ ، ٤٢٣

(٤) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية عن أبى أمامة (مجمع الجوامع ١/ ٦٩٩)

(٥) الحديث رواه البزار وأبو نعيم والبيهقى والطبرانى فى الأوسط وأبو الشيخ فى التوبيخ كلهم عن أنس رضى الله عنه ـ قال الحافظ العراقى : سنده ضعيف

(فيض القدير ٣/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧ رقم ٣٤٧١ والحديث أوله : ثلاث منجيات . .)

(٦) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٥/ ١٩٤ ، ٦/ ٤٥٠ ، وأبو داود فى كتاب الأدب (عون المعبود ١٤/ ٣٩ باب فى الهوى)

وروى عن الخليل بن خدويه ، قال : مر إبراهيم الخليل عليه السلام فرأى عبدا فى الهواء متعبدا ، فقال له ، بم نلت هذه المنزلة من الله ؟ قال : بأمر يسير ، فطمت نفسى عن الدنيا ، ولم أتكلم فيما لايعنينى ، ونظرت فيما أمرت به فعملت به ، ونظرت فيما نهانى عنه فانتهيت عنه ، فأنا إن سألته أعطانى ، وإن دعوته أجابنى وإن أقسمت عليه أبر قسمى ، سألته أن يسكننى الهواء فأسكننى .

وروى عن وهب بن منبه يقول : كان فى بنى اسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أن مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان فى البحر ، إذا هما برجل يمشى فى الهواء ، فقالا له : ياعبد الله بأى شىء أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسير من الدنيا ، فطمت نفسى عن الشهوات ، وكففت لسانى عما لايعنينى ، ورغبت فيما دعانى إليه ، ولزمت الصمت ، فإن أقسمت على الله أبر قسمى ، وإن سألته أعطانى .

وروى عن منصور بن عمار ، قال : قال سليمان بن داود : الغالب لهواه أشد من الذى يفتح المدينة وحده .

وروى عن حذيفة بن قتادة المرعنى ، قال : كنت فى المركب فكسر بنا ، فوقعت أنا وامرأة على لوح من ألواح المركب ، فمكثنا سبعة أيام ، فقالت المرأة : أنا عطشى ، فسألت الله تعالىٰ أن يسقيها ، فنزلت علينا من السماء سلسلة فيها كوز معلق فيه ماء ، فشربت . فرفعت رأسى أنظر السلسلة ، فرأيت رجلا جالسا فى الهواء متربعا ، فقلت : من أنت ؟ قال : من الإنس قلت : فما الذى بلغك هذه المنزلة ؟ قال آثرت مراد الله على هواى فأجلسنى كما ترانى .

وروى عن عبد الله بن الصلت ، قال : قال معاوية: المروءة ترك اللذة وعصيان الهوى .

وعن أبى الدرداء ؛ قال : إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله ، فإن كان عمله تبعا لهواه فيومه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعا لعمله فيومه يوم صالح .

وروى عن مالك بن دينار أنه قال : من غلب شهوات الدنيا فذلك الذى يفرق الشيطان من ظله .

وقال أيضا : بئس العبد عبد همه هواه وبطنه .

وروى عن صفوان بن سليم قال : ليأتين على الناس زمان تكون همة أحدهم فيه بطنه ، ودينه هواه .

وروى عن الأصمعى ، قال سمعت أعرابيا يقول : إذا أشكل عليك أمران لاتدرى أيهما أرشد ، فخالف أقربهما من هواك فإن أكثر مايكون الخطأ مع متابعة الهوى .

وروى عن ابن السحال : إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك . داؤك هواك ، ودواؤك ترك هواك .

وروى أنه قال رجل لأبى الحسن المدائنى:ياأبا سعد أى الجهاد أفضل ؟ قال جهادك هواك .

وعن الأصمعى قال : مررت بأعرابى به رمد شديد ودموعه تسيل ، فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ فقال : زجرنى الطبيب ، ولاخير فيمن إذا زجر لاينزجر ، وإذا أمر لايأتمر ، فقلت أما تشتهى شيئا ؟

فقال : أشتهى ولكن أحتمى ، لأن أهل النار غلبت شهواتهم فلم يحتموا فهلكوا .

وروى عن وهب بن نعيم يقول : قال بشر : اعلم أن البلاء كله فى هواك ، والشفاء كله فى مخالفتك لهواك .

وروى عن الفضل بن عياض يقول : من استحوذت عليه الشهوات انقطعت عنه مواد التوفيق .

وروى عن سنيد : سمعت حجاجا يقول : الكفر فى أربعة أشياء : فى الغضب والشهوة والرغبة والرهبة ، ثم قال حجاج رأيت منه اثنتين ، رجلا غضب فقتل أمه ، ورأيت رجلا عشق فتنصر .

وروى عن حسين بن حسن الأسدى ، عن أبيه ، قال : كان عبد الله بن حسن بن حسن يطوف بالبيت ، فنظر إلى امرأة جميلة ، فمشى إلى جانبها ثم قال :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى ... فكيف لى بهوى اللذات والدين

فقالت له : دع أحدهما تنل الآخر .

وقد رويت لنا هذه الحكاية على غير هذا الوجه . فبلغنا عن عمر بن شبة بسنده عن أبى غسان أحمد ابن عثمان ، عن أبيه ، قال لقى عبد الله بن حسن امرأة جميلة فى الطواف ، فلما نظرت إليه ، وإلى جماله مالت نحوه وطمعت فيه ، فأقبل عليها وقال :

أهوى هوى الدين واللذات تعجبنى ... فكيف لى بهوى اللذات والدين

نفس تزين لى الدنيا وزينتها ... وزاجرى من حذار الموت يثنينى

فتركته ومضت .

وروى عن إسحاق الموصلى قال : قال لى المعتصم : ياإسحاق إذا نصر الهوى ذهب الرأى . .

وروى عن أبى سليمان الدارانى أنه قال فى قول الله عز وجل : ﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ﴾[1] قال (صبروا) عن الشهوات .

وروى عن محمد بن محمد بن أبى الورد أنه قال : إن لله عز وجل يوما لاينجو من شره منقاد لهواه . وإن أبطأ الصرعى نهضة يوم القيامة صريع شهوة . وإن العقول لما جرت فى ميادين الطلب كان أوفر حظا من يطالبها بقدر مااستصحبته من الصبر . وإن العقل معدن والفكر معول .

وروى عن يحيى بن معاذ يقول : حفت الجنة بالمكاره وأنت تكرهها ، وحفت النار بالشهوات وأنت تطلبها ، فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء ، إن صبر نفسه على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية ، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت به علة الفتى .

وقال أيضا : عندما قيل له من أصح الناس عزما ، قال : الغالب لهواه .

وروى عن الوليد بن هشام القحذمى ، قال دخل خلف بن خليفه على سليمان حبيب بن المهلب

---

(١) سورة الإنسان آية رقم : ١٢

بالأهواز ، وعند سليمان جارية له يقال لها البدر ، من أحسن الجوارى وجها وأكمله ، فقال سليمان لخلف : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال أصلح الله الأمير مارأت عيناى جارية قط أحسن منها . فقال خذ بيدها .

فقال خلف : ماكنت لأفعل ، ولا أسلبها الأمير وقد عرفت عجبه بها .

فقال : خذها ويحك على عجبى بها ، ليعلم هواى إنى غالب فأخذها بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حبانى وأعطانى وفضلنى عن غير مسألة منى سليمان
أعطانى البدر خودا فى مجاسدها والبدر لم يعطه إنس ولا جان
ولست حقا بناسى عرفه أبدا حتى يغيبنى لحد وأكفان

وروى عن يحيى بن يحيى يقول : قال بعض العباد : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدنيا ، واستصعب قياده على الهوى .

وروى عن الحسن بن محمد الجريرى يقول : أسرع المطايا إلى الجنة الزهد فى الدنيا ، وأسرع المطايا إلى النار حب الشهوات فمن استوى على متن شهوة من الشهوات أسرع به القود إلى مايكره .

وروى عن ابن عطاء : من غلب هواه عقله وجزعه صبره افتضح .

وروى عن يحيى بن معاذ يقول : من أرضى الجوارح فى اللذات فقد غرس لنفسه شجر الندامات .

وروى عن الحسن بن على المطوعى : حتم كل إنسان هواه ، فإذا كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة .

وروى عن أبى عمرو الشيبانى قال : لقى عالم من العلماء راهبا من الرهبان ، فقال له كيف ترى الدهر ؟ فقال يخلق الأبدان ، ويجدد الأمال ، ويبعد الأمنية ، ويقرب المنية . قال له : فأى الأصحاب أبر ؟ قال العمل الصالح . قال : فأى شىء أضر ؟ قال النفس والهوى .

وروى عن ابن أبى الحوارى قال : مررت براهب فوجدته نحيفا فقلت له أنت عليل ؟ قال : نعم قلت منذ كم ؟ قال منذ عرفت نفسى قلت فتداو قال : قد أعيانى الدواء وقد عزمت على الكى . قلت : وما الكى ؟ قال : مخالفة الهوى .

وروى عن الأصمعى والعتبى ، قالا سمعنا أعرابيا يقول : ماأشد تحويل الرأى عند الهوى ، هو الهوان وإنما غلط باسمه فاشتق من جنسه ، وإنما يعرف ماأقول من أبكته المنازل والطلول .

وروى عن بشر بن الحارث يقول : (لاتجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا من حديد)

وروى عن أبى سليمان الدرانى : أفضل الأعمال خلاف هوى النفس .

وروى عن السرى يقول : (لن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته ، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه)

وروى عن أحمد بن خضرويه : لانوم أثقل من الغفلة ولا رق أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة لم تظفر بك الشهوة .

وروى عن يوسف بن الحسين : عين الهوى عوراء .

وروى عن أبى بكر الوراق أنه قال : أصل غلبة الهوى مقاربة الشهوات فإذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم القلب ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق وإذا أبغضه الخلق أبغضهم ، وإذا أبغضهم جفاهم ، وإذا جفاهم صار شيطانا رجيما .

وروى عن أبى على الثقفى : من غلبه هواه توارى عنه عقله ، وقال ليس شىء أولى بأن تمسكه من نفسك ، ولا شىء أولى بأن تغلبه من هواك .

وروى عن على بن سهل : العقل والهوى يتنازعان ، فمعين العقل التوفيق وقرين الهوى الخذلان ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما ظفر كانت فى خيره .

وروى عن أبى الحسين الوراق ؛ يقول الشهوة أغلب سلطان على النفس ، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج .

وروى عن ابراهيم القصار : أضعف الخلق من ضعف عن رد شهوته وأقوى الخلق من قوى على ردها .

قال السلمى بسنده قال المرتعش ، وقيل له:إن فلانا يمشى على الماء فقال : إن من مكنه الله من مخالفة هواه ، لهو أعظم من المشى على الماء .

أنبانا أحمد بن احمد المتوكلى قال : أنبانا احمد بن على بن ثابت ، قال:عن أبى بكر بن ابى الدنيا قال : بلغنى أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء : العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره وينتهك حريمه ؟ فقال الحكيم : بإغفال الحذر وبسط أمد الأمل وبعسى وسوف ولعل ، قال الملك : بم يعتصم من الشهوة وقد ركبت فى أبدان ضعيفة ، ففى كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن ؟ قال الحكيم : إن الشهوة من نتاج الفكر ، وقرين كل فكرة عبرة ، ومع كل شهوة زاجر عنها ، فمن قرن شهواته بالاعتبار ، وحاط نفسه بالازدجار ، انخلت عنه ربقه العدوان ، ودحض سىء فكره بإيثار الصبر على شهوته لما يرجو من ثواب الله على طاعته ويخاف من عقابه على معصيته .

قال بشر الحافى لحسن الفلاس : من جعل شهوات الدنيا تحت قدميه ، فرق الشيطان من ظله ، ومن غلب علمه هواه فهو الصابر الغالب ، واعلم أن البلاء كله فى هواك ، والشفاء كله فى مخالفتك إياه .

وقد حكى عن أنو شروان أنه سئل : أى الأشياء أحق بالاتقاء ؟ فقال أعظمها مضرة : قيل فإن جهل قدر المضرة ؟ قال أعظمها من الهوى نصيبا .

وقيل للمهلب بن ابى صفرة : بم نلت مانلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى .

وقال بشر الحافى لقيت عليا الجرجرانى بجبل لبنان على عين ماء ، فلما بصر بى قال بذنب منى لقيت اليوم إنسانا فسعيت خلفه ، وقلت أوصنى فالتفت إلى وقال : أمستوص أنت ؟ عانق الفقر وعاشر

الصبر ، وعاد الهوى وعف الشهوات ، واجعل بيتك أخلى من لحدك يوم تنقل إليه على هذا طاب المسير إلى الله عز وجل .

قال أبو على الدقاق : من ملك شهوته فى حال شبيبته صيره الله ملكا فى حال كهولته كيوسف عليه السلام ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين ﴾ .

وقال عبد الصمد الزاهد : من لم يعلم أن الشهوات فخوج فهو لعاب وقال أعرابى لابنه : يابنى من خاف الموت بادر الفوت ومن لم يكبح نفسه عن الشهوات بادرت به إلى الهلكات والجنة والنار أمامك .

وقال بعض الحكماء : أعدل الناس من أنصف عقله من هواه

وقال آخر : العاقل من كان له على جميع شهواته رقيب من عقله .

وقال آخر : الهوى ملك عسوف ، وسلطان ظالم ، دانت له القلوب ، وانقادت له النفوس .

وقال آخر : النفس اذا هويت شيئا مالت إليه ، حتى تكون عند الذى هويت أكثر من كونها عند جسدها .

وقال آخر : ان لكل شىء أبا جاد إن أبا جاد الحكمة طرد الهوى ووزن الأعمال .

أشعار قيلت فى دم الهوى

دخل الوليد بن يزيد بعض كنائس الشام فكتب فى حيطانها بفحمة :

ماأرى العيش غير أن تتبع النفس هواها فمخطئا أو مصيبا .

فرأى ذلك البيت عبد الله بن على فكتب تحته .

إن كنت تعلم حين تصبح آمنا ان المنـايـا إن أقمت تقيم
فالزم هواك كما رضيت فإنه لامثل ذلك فى النعيم نعيم .

وقال آخر :

وبالناس عاش الناس قدما ولم يزل من الناس مرغوب إليه وراغب
ومايستوى الصابى ومن ترك الصبا وإن الصبا للعيش لولا العواقب

عن الأصمعى قال سمعت رجلا يقول :

إن الهوان هو الهوى قلب اسمه فإذا هويت فقد لقيت هوانا

وسئل ابن المقفع عن الهوى فقال : هو ان سرقت نونه

فنظمه شاعر فقال :

نون الهوان من الهوى مسروقة فإذا هويت فقد لقيت هوانا

عن أبى بكر القرشي قال : انشدنى الحسن بن سلمان الأبلى :

كم أسير لشهوة وقتيل أف للمشتهى خلاف الجميل
شهوات الانسان تورثه الذل وتلقيه فى البلاء الطويل

وأنشد آخر :

رب مستور سبته صبوة فتعرى ستره فانتهكا
صاحب الشهوة عبد فإذا غلب الشهوة صار الملكا .

وقد أنشدوا لابن المبارك :

ومن البلاء وللبلاء علامة الا يرى لك عن هواك نزع
العبد عبد النفس فى شهواته والحر يشبع تارة ويجوع .

ولمحمد بن عبد الله بن مناذر :

خير ماجتن به المرء التقى فاتخذها عدة دون العدد
وأرى الشهوة مفتاح الردى فاجتنيها وانأ عنها وابتعد

ولصالح بن عبد القدوس :

عاص الهوى ان الهوى مركب يصعب بعد اللين منه الذليل
ان يجلب اليوم الهوى لذة ففى غد منه البكا والعويل
مابين مايحمد فيه وما يدعو إليك الذم إلا القليل .

ولابن الرومى .

اتبع العقل إنه حاكم الله ولاتمشى فى طريق عناده
ماالهوى فى لفيفه ان تأملت بقرن للعقل فى أجناده
لاتعرض سداد رأيك للطعن عليه من ناقص فى سداده

وقال آخر :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى الى بعض مافيه عليك مقال

وقال غيره

وأترك الشيء أهواه ويعجبنى أخشى عواقب مافيه من العار

وقال غيره :

إن المرآة لاتريك عيوب وجهك مع صداها
وكذاك نفسك لاتريك عيوب نفسك مع هواها
وقال آخر

وكل امرىء يدرى مواقع رشده ولكنه أعمى أسير هواه
يشير عليه الناصحون بجهدهم فيأبى قبول النصح وهو يراه
هوى نفسه يعميه عن قصد رشده . ويبصر عن فهم عيوب سواه

وصايا ومواعظ وزواجر

عن الأوزاعى قال : حدثنى يحيى بن ابى كثير ان ابا بكر الصديق كان يقول فى خطبته : أين الوضاة الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ اين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان اين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحا الوحا النجا النجا .

وعن ابن مسعود أنه كان يقول : إنكم فى ممر الليل والنهار فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتى بغتة فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ومن زرع شرا فيوشك ان يحصد ندامة ولكل زارع مازرع .)

عن ابى زكريا التيمى قال بينا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام اذ اتى بحجر منقور فطلب من يقرأه فأتى بوهب بن منبه فقرأه فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك ، لزهدت فى طويل أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك فبان منك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسيب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة .

كتب الأوزاعى إلى أخ له : أما بعد ، فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسار بك فى كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وان يكون آخر عهدك به والسلام .

عن الفضيل بن عياض قال : بلغنى أن رجلا كتب إلى داود الطائى أن عظنى بموعظة قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك واجعل فطرك الموت فكأن قد . والسلام .
قال : فكتب إليه : زدنى فكتب إليه :

أما بعد : فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم . والسلام .

عن النعمان بن عبد السلام عن سفيان قال : أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران : إنه ليست عقوبتى لمن عرفنى واجترأ علىَّ كمن لم يعرفنى .

وعن أبى بكر محمد بن عبد الله الرازى يقول : سمعت محمد بن حاتم الترمذى يقول : رأس

مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالايعنيك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله .

عن ابراهيم بن بشار يقول مررت أنا وأبو يوسف الغولى فى طريق الشام فوثب إليه رجل فسلم عليه ثم قال :

ياأبا يوسف عظنى بموعظة أحفظها عنك

قال فبكى ثم قال :

اعلم ياأخى أن اختلاف الليل والنهار ومرهما يسرعان فى هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغى لك ياأخى الا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أو راض عنك بفضله ورحمته،ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس ، وجيفة غدا ، فإن كنت لاترضى بهذا ، فسترد وتعلم وتندم فى وقت لاينفعك الندم .

قال : وبكى أبو يوسف وبكى الرجل وبكيت لبكائهما ووقعا مغشيا عليهما .

ووعظ اعرابى ولده فقال : لا الدهر يعظك ، ولا الأيام تنذرك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس تعد منك وأحب أمريك اليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء الى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام .

عود إلى رحاب التفسير

قوله تعالى : ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾

ونحوه قوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والأنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[1] .

فشبه أكثر الناس بالأنعام ، والجامع بين النوعين التساوى فى عدم قبول الهدى والانقياد له ، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام ؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدى ، وتتبع الطريق فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا ، والأكثرون يدعونهم الرسل ويهدونهم السبيل ، فلا يستجيبون ، ولايهتدون ولايفرقون بين مايضرهم وبين ماينفعهم .

والأنعام تفرق بين مايضرها من النبات والطريق ، فتتجنبه ، وماينفعها فتؤثره ، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها ، ولا ألسنة تنطق بها ، وأعطى ذلك لهؤلاء ، ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار ، فهم أضل من البهائم ، فإن من لايهتدى إلى الرشد

---

(١) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٩

وإلى الطريق مع الدليل إليه ، هو أضل وأسوأ حالا ممن لايهتدى ، حيث لادليل معه .

من آيات الله الكونية

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ
دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ
سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ
كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا
فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى
مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا
﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾

تفسير المفردات

ألم تر : أى ألم تنظر .
إلى ربك : أى الى صنعه .
مد : بسط
الظل : مايحدث من مقابله جسم كثيف كجبل أو بناء أو شجر للشمس من حين ابتداء طلوعها حتى غروبها .
ساكنا : اى ثابتا على حاله فى الطول والامتداد بحيث لايزول ولا تذهبه الشمس .
دليلا : أى علامة .
قبضناه : أى محوناه
يسيرا : أى على مهل قليلا قليلا بحسب سير الشمس فى فلكها .
سباتا : من السبت وهو القطع لانقطاع التعب فيه أو لانقطاع الحياة الكاملة .
والنشور : البعث

بشرا : (تخفيف بشر بضمتين) واحدها بشور كرسل ورسول اى مبشرات .
والرحمة : المطر بين يديه : اى قدامه
طهورا : اى يتطهر به البلدة : الأرض
والميت : التى لانبات فيها
الأنعام : الأبل والبقر والغنم وخصها بالذكر؛لأنها ذخيرتنا ومعاش أكثر أهل المدر منها .
أناسي : واحدهم إنسان (أصله أناسين أبدلت النون ياء وأدغمت فى الياء)
صرفناه : أى حولناه فى أوقات مختلفة الى بلدان متعددة
ليذكروا : أى ليعتبروا . كفورا : أى كفرانا للنعمة وإنكارا لها
نذيرا : اى نبيا ينذر أهلها .
والمرج : من قولهم مرج فلان دابته إذا تركها وشأنها
فرات : اى مفرط العذوبة .
أجاج : أى شديد الملوحة . برزخا . . أى حاجزا،حجر محجورا : أى تنافرا شديدا فلا يبغى أحدهما على الآخر ولايفسد الملح العذب
نسبا وصهرا : أى ذكورا ينسب إليهم وإناثا يصاهر بهن .

المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه جهالة المعرضين عن دلائل التوحيد ، وسخيف مذاهبهم وآرائهم ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فذكر خمسة أدلة عليه نراها عيانا ، وتتوارد علينا ليلا ونهارا ، وتكون دليلا على وجود الإله القادر الحكيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ انظر أيها المخاطب العاقل إلى صنع ربك ، كيف أنشأ الظل لكل مظل من طلوع الشمس حتى غروبها ، فاستخدمه الإنسان للوقاية من لفح الشمس وشديد حرارتها .

﴿ ولو شاء لجعله ساكنا ﴾ أى ولو شاء لجعله ثابتا على حال واحدة لايتغير ، لكنه جعله متغيرا فى ساعات النهار المختلفة وفى الفصول المتعاقبة ، ومن ثم اتخذ مقياسا للزمن منذ القدم ، فاتخذ المصريون (المسلات) وقاسوا بها أوقات النهار على أوضاع مختلفة وطرق حكيمة منوعة ، واتخذ العرب المزاول لمعرفة أوقات الصلاة ، فقالوا : يجب الظهر عند الزوال : أى إذا تحول الظل إلى جانب المشرق ، والعصر حين بلوغ ظل كل شيء مثله عند الائمة عدا أبا حنيفة الذى قال : لايجب إلا إذا بلغ ظل كل شيء مثليه .

﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ﴾ أى ثم جعلنا طلوع الشمس دليلا على ظهور الظل ومشاهدته للحس

والعيان ، والأشياء تستبين بأضدادها ، فلولا الشمس لما عرف الظل ، ولولا الظلمة ماعرف النور .

﴿ ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا ﴾ أى ثم أزلناه بضوء الشمس يسيرا يسيرا ، ومحوناه على مهل جزءا فجزءا بحسب سير الشمس ، يقول العلامة ابن القيم فى تفسير هاتين الآيتين :

أخبر تعالى أنه بسط الظل ومده ، وأنه جعله متحركا تبعا لحركة الشمس ، ولو شاء لجعله ساكنا لايتحرك ، إما بسكون المظهر له والدليل عليه ، وإما بسبب آخر .

ثم أخبر أنه قبضه بعد بسطه قبضا يسيرا ، وهو شىء بعد شىء ، لم يقبضه جملة ، فهذا من أعظم آياته الدالة على عظيم قدرته وكمال حكمته .

فندب سبحانه الى رؤية صنعته وقدرته وحكمته فى هذا الفرد من مخلوقاته ، ولو شاء ربنا لجعله لاصقا بأصل ماهو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره ، فلم ينتفع به أهله ، فإن كمال الانتفاع به تابع لمده وبسطه وتحوله من مكان إلى مكان ، وفى مده وبسطه ثم قبضه شيئا فشيئا : من المصالح والمنافع مالايخفى ولا يحصى ، فلو كان ساكنا دائما أو قبض دفعة واحدة ، لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس ، فمد الظل وقبضه شيئا فشيئا لازم لحركة الشمس على ماقدرت عليه من مصالح العالم .

وفى دلالة الشمس على الظلال . ماتعرف به أوقات الصلوات وما مضى من اليوم ومابقى منه .

وفى تحركه وانتقاله : مايبرد ماأصابه حر الشمس ، وينفع الحيوانات والشجر والنبات ، فهو من الآيات الدالة عليه وفى الآية وجه آخر : وهو انه سبحانه مد الظل حين بنى السماء كالقبة المضروبة ، ودحا الأرض من تحتها ، فألقت القبة ظلها عليها ، فلو شاء سبحانه لجعله ساكنا مستقرا فى تلك الحال ، ثم خلق الشمس ونصبها دليلا على ذلك الظل ، فهو يتبعها فى حركتها يزيد بها وينقص ، ويمتد ويقلص ، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله .

وفيها وجه آخر : وهو أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه ، وهى الأجرام التى تلقى الظلال ، فيكون قد ذكر اعدامه بإعدام أسبابه ، كما ذكر إنشاءه بإنشاء أسبابه وقوله : **﴿ قبضناه إلينا ﴾** كأنه يشعر بذلك .

وقوله **﴿ قبضا يسيرا ﴾** يشبه قوله **﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾**(١) .

وقوله : **﴿ قبضناه ﴾** بصيغة الماضى لاينافى ذلك كقوله تعالى :

﴿ أتى أمر الله ﴾(٢) والوجه فى الآية هو الأول .

قوله تعالى : **﴿ وهو الذى جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾** .

وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على قدرته ورحمته ، فقد شاء سبحانه أن يجعل الليل بظلمته لباسا ساترا ، وأن يجعل النوم سباتا قاطعا لمتاعب النهار ، فتنامون فيه كما تموتون ، وكما قال ﷺ : (والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا) . سبحانك ربى من قائل : **﴿ وهو الذى**

(١) سورة ق آية رقم : ٤٤

(٢) سورة النحل الآية رقم ١

يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لايفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾(١) وإذا كان الليل والنهار آيتين من آيات الله ، فإن الله جل جلاله يتحدى بهما كل من على وجه الأرض من معاندين ومكابرين وجاحدين **﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾**(٢) .

سبحانك من قائل : **﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا وخلقناكم أزواجا وجعلنا نومكم سباتا وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ﴾**(٣) سبحانك من حكيم جعلت الليل والنهار مطيتين إلى الآخرة فالعاقل من أحسن استعمالهما .

نموت وأيامنا تذهب ونلعب والموت لايلعب
عجبت لذى لعب قد لهى عجبت ومالى لاأعجب
أيلهو ويلعب من نفسه تموت ومنزله يخرب
أرى الليل يطلبنا والنهار ولم أدر أيهما أطلب
أحاط الجديدان جمعا بنا وليس لنا منهما مهرب
وكل له مدة تنقضى وكل له أثر يكتب

إن الله تعالى جعل النوم قطعا لمتاعب النهار ولذا فإن النوم نعمة من نعم الله قال عز من قائل :
﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾(٤)
ماذا قالوا عن النوم :
قالوا: إن النوم طرح روحى مؤقت وقالوا :
لقد دامت أبحاث العلم والطب وقتا طويلا ، لتجد تعليلا لظاهرة النوم ، وإيجاد تفسير لما يحدث فى النوم بعد أن عجز العلم عن بيان الأسباب الدافعة المباشرة للنوم . . فقيل إن النوم رغبة جامحة للراحة تنتاب المرهق المتعب ، ونفى ذلك أن غير المتعب ينام أيضا وتنتابه الرغبة فى النوم ، مثل المكدود فى مواعيد متقاربة ، بل إن من قضت عليه الظروف بالراحة فى الفراش أياما أو شهورا أو أعواما ينام كذلك فى ساعاته المعهودة . . بالرغم من الراحة الجسدية التى حتمتها عليه ظروف وجوده فى الفراش ،

(١) سورة الأنعام الآيات/ ٦٠ ـ ٦٢
(٢) سورة القصص الآيات/ ٧١ ـ ٧٣
(٣) سورة النبأ الآيات ـ ٦ ـ ١١
(٤) سورة الروم الآية رقم/ ٢٣

وفى ذلك يقول الدكتور هريوارد كارنجتون عضو جمعية البحوث النفسية .

قدم الباحثون فيما مضى عدة نظريات لتفسير النوم ، ولكنها رفضت كلها ، ولم يكن من بينها واحدة ملائمة تفى بالغرض مثلا تلك النظريات المسماة النظريات الكيماوية ، تحاول تعليل النوم بافتراضها تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال ساعات اليقظة ، ثم تقريرها أن النوم يبيد هذه المواد ، وترمى بعض النظريات إلى أن سبب النوم حدوث حالات غريبة فى دورة المخ الدموية . ويقول بعضها إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة . وبعضها ينسبه إلى الاسترخاء العضلى ، ولكن هذه النظريات كلها عجزت فى الواقع عن تفسير الحقائق ، التى لاشك فى أنها وجود روح آدمية قائمة بذاتها تنسحب كثيرا أو قليلا من الجسم خلال ساعات النوم » .

وقد عد العلماء أن ماوصل إليه العلم من اعتبار أن النوم طرح روحى مؤقت ، نصرا مابعده من نصر ، إذ أمكن تفسير الأحلام التى يراها الإنسان فى نومه ، فيتحقق منها بعد يقظته طالت المدة أو قصرت ، وأمكن تعليل رؤية النائم لأمكنة أو أشخاص لم يسبق له رؤيتهم ، فإذا مازار هذه الأمكنة أو التقى بهؤلاء الناس عرفهم فورا ، وتعجب من دقة وتطابق للحالتين ، حالة الرؤيا فى النوم والمشاهدة فى اليقظة .

وكان أول من قال إن من دلائل انسجاب الروح فى النوم ، ماتقوم به من سياحات أثناء النوم ، فيراها النائم كأنها حلم وأثبت ذلك الدكتور هدسون تتل إذ يقول فى كتابه (أسرار الروحية) إن سيدة ولدت عمياء استطاعت فى أحلامها أن ترى الأشياء بوضوح وأن تصفها بدقة ، ولما توفيت شرحت جثتها عقب وفاتها وظهر من التشريح أن أعصاب البصر عندها كانت ميتة .

ويقول الدكتور جورج لندسى جونسون إنه أجرى عملية جراحية فى عين فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها ولم تكن قط رأت شيئا ألبتة ، ولكنها لما شفيت ورفعت الأربطة ، تبينت شكل كل فرد فى الحجرة وملبسه ، واستطاعت أن تميز بين الألوان المختلفة ، مما يؤكد أن روحها كانت تنطلق فى منامها فترى مالم تستطع أن تراه بعينها .

وقرر كثيرون أنهم قاموا بأروع أعمالهم عندما شاهدوها فى أحلامهم ، مثل الموسيقار أرثر سيمور سوليفان الذى ألف أغنيته المشهورة « النور الضائع » فى نومه وجوسيب ثارتينى الذى يقول إنه سمع فى نومه كأن الشيطان يغنى ، فما أن صحا من نومه حتى كتب اللحن وسماه « أغنية الشيطان » .

والرياضى المعروف هنرى بوانكارية ، رأى معادلات جبرية أدت إلى استكشافه قانونا هاما رياضيا .

ولعل من الأحلام التى رددت الأوساط صداها كثيرا ، تلك الرؤيا التى نشرت فى عدة كتب وطبعت بأكثر من لغة وفيها : « كان فى الصحراء . . فى جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، سيد وسيدة كلاهما تلقى العلم فى أرقى الجامعات وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لاصديق له . . نفد الماء وعلف الدواب ومعهما رجال من الأدلاء والحراس ، والعمران قصى بعيد والاتجاه فى أى متجه من غير علم به معناه الموت المحقق فى جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا إليها طريقا غير

مسلوك . نزل بها الهم وأخذ منها ومن رجالها القنوط ، فأنيمت الإبل وجلست القافلة فى ذلك القفر ، لا مؤنس لها : إلا الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لامحالة ، فإما طريق إلى الدنيا وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلما وهو بعد ممن لم يعكفوا على التصوف يوما من أيام حياتهم وحلم بامرأة بيضاء أو تلبس البياض لم يستطع أن يصفها قالت له :

« خذ السلسلة التى تعلقها فى عنقك ، وتعال معى إلى قمة هذا الكثيب ، ثم ادفنها هناك ، وفى الصباح إذا حضرت لتأخذها سوف ترى آثار قدميك وقدمى معا ، وبذلك تعرف الطريق » وفعل السيد كما أمر .

وفى الصباح نهض من نومه ، وتذكر الحلم فاصطحب السيد رفيقة سفره ورجاله ، وأراهم آثارها آقدام ذاهبة إلى الكثيب ثم هابطة . واحتفر فى المكان الذى رآه فى نومه فوجد ثم تابع الأقدام فوجد المكان المأهول الذى نجا هو والقافلة بالعثور عليه » .

أما السيد فهو المرحوم أحمد محمد حسنين أما السيدة فالجوالة روزينا فوربس صاحبة الكتاب . والأمثلة التى تشابه ذلك لاتقع تحت حصر ، بل إن كل فرد لابد قد رأى فى نومه حلما تحقق ، وبهذا أمكن إثبات أن النوم إنما هو حالة طرح روحى مؤقت ، والرؤيا ماهى إلا سياحة بالروح إلى حيث شاء الله .

وقبل ذلك بمئات السنين يقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة عن النوم فتقول الآية ٤٢ من سورة الزمر :

﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] .

فجعل النوم كالموت أى طرح روحى يكون دائما حين الموت ومؤقتا فى النوم .

والقرآن الكريم أول كتاب كذلك ذكر النوم بالنهار فالآية ٢٣ من سورة الروم نصها :

﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ .

وظل موضوع النوم فى النهار موضع جدل حتى وصل العلم والطب إلى ماقرره القرآن الكريم ، إذ ينصح مدير التربية البدنية فى جامعة ييل تلاميذه نصيحة خالدة نصها « عليك فى الظهر نسبة من النوم » .

ويقول داى جيلز فى مجلة « تدهوفر » أما وقد بلغ الإرهاق كل مبلغ بالأجسام والعقول والأرواح ، فقد آن الأوان لإعادة النظر فى خطة بسيطة تزيدنا مقدرة على العمل وشعورا بالراحة وتلك هى أن يغفو الإنسان غفوة كل يوم .

لقد اتفق الأطباء على أن هذه الغفوات التى تتخلل النهار تدفع الكلال وتخفض ضغط الدم حوالى ١٥ ـ ٣٠ ملليمترا وترفع عن القلب بعض الحمل المتعب .

(١) سورة الزمر آية رقم : ٤٢

وقد لوحظ أن الإغفاء قبل القيام بأى مجهود بدنى أو عقلى أو بعده يصنع العجائب بالنسبة للإنتاج العضلى والذهنى وللحالة الصحية عامة .

ولقد سئل ديبو عضو الشيوخ الأمريكى والخطيب المشهور كيف يستطيع أن يتكلم عدة ليال فى الأسبوع ، ويقوم مع ذلك بعمله المرهق أثناء النهار فأجاب « إنى أعامل مصرفا للنوم ماأسحب من رصيدى فيه شيئا بالسهر إلا أودعت فى نفس اليوم وديعة أخرى فيظل رصيدى تام التوازن على الدوام » .

وقد أكد الدكتور أدموند جاكوبسون الذى ألف كتابيه عن « الاسترخاء المطرد » و « يجب أن تسترخى » والذى ظل عدة سنين مديرا لمعامل الفسيولوجيا الإكلينيكية بجامعة شيكاغو حقيقة وجوب النوم أثناء النهار .

ويقول ديل كارنيجى فى كتابه « دع القلق وابدأ الحياة » . لقد استطاع جون د . روكفلر الأب أن يضرب رقمين قياسيين الأول أنه جمع أكبر ثروة عرفها العالم فى عهده ، والثانى أنه عاش حتى سن الثامنة والتسعين ، فكيف تأتى له ذلك ؟ أما طول عمره فلعل السبب الأول فيه هو الوراثة .

أما السبب الثانى فهو اعتياده الإغفاء نصف ساعة بعد ظهر كل يوم فى غرفة مكتبه ، فكان يستلقى على أريكته فى غرفة المكتب ويستسلم للراحة التامة . . »

ويتابع قوله إذا تعذر عليك أن تغفو ظهرا فإنك على الأقل تستطيع أن تستلقى على أريكة قبيل العشاء فإذا نمت ساعة فى اليوم فإنك بذلك تضيف ساعة إلى ساعات يقظتك .

لأن ساعة تنامها فى خلال النهار مضافة إلى ست ساعات تنامها ليلا تجعل المجموع سبع ساعات أجدى عليك من ثمانى ساعات من النوم المتواصل ليلا .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾ أى والله الذى أرسل الرياح مبشرات بقدوم الأمطار .

﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾ الطهور اسم لما يتطهر به كالوقود لما توقد به النار والوضوء لما يتوضأ به ، أى وأنزلنا من السحاب ماء تتطهرون به فى غسل ملابسكم وأجسامكم ، وتنتفعون به فى طبخ مطاعمكم ، وتشربونه عذبا فراتا .

روى أن النبى ﷺ قال فى البحر : (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى[1] .

(لنحيى به بلدة ميتا) أى وأنزلناه لنحيى به أرضا طال انتظارها للغيث ، فهى هامدة لانبات فيها ، وبذلك الماء تزدهر بالشجر والنبات والأزهار ، وذلك أشبه بالحياة للإنسان والحيوان .

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الطهارة ٤١ ، والترمذى فى أبواب الطهارة/٥٢ ، والنسائى فى كتاب الطهارة/٤٦ ، وفى المياه/٤ ، وفى كتاب الصيد/٣٥ ، وابن ماجه فى أبواب الطهارة/٣٨ ، وفى أبواب الصيد/١٨ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب الطهارة/١٢ ، وفى كتاب الصيد/١٢ ، والدارمى فى كتاب الوضوء/٥٣ ، وفى كتاب الصيد/٦ ، وأحمد فى مسنده ٢/ ٢٣٧ ، ٣٦١ ، ٣٧٨ ، ٣٩٣ ، ٣/ ٣٧٣ ، ٥/ ٣٦٥

ونحو الآية قوله : ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾[١] وقوله : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾[٢] .

﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾ أى وليشرب منه الحيوان والإنسان ، وأخر ذكر الإنسان عن النبات والحيوان لحاجته إليهما فى حياته ، ولأنهم إذا ظفروا بماء يسقى أرضهم ومواشيهم لم يعدموا مايكون منه سقياهم .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[٣] .

وقوله جل شأنه : ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٤] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾[٥] .

وقوله جل شأنه ﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾[٦] .

وقوله جل جلاله : ﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾[٧] .

وقوله جلا جلاله : ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ﴾[٨] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾[٩] .

فى رحاب الآيات نعيش مع الحقائق العلمية والعلم يدعو إلى الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[١٠] .

كتب الدكتور جمال الفندى فى كتابه (القرآن والعلم)

تحت عنوان : الطبيعة الجوية والقرآن . . دورة الرياح العامة وتوزيع السحاب والمطر .

---

(١) سورة الحج آية رقم/ ٥
(٢) سورة الروم آية رقم/ ٥٠
(٣) سورة الأعراف آية رقم/ ٥٧
(٤) سورة الروم آية رقم/ ٤٦
(٥) سورة الروم الآيات رقم/ ٤٨ ـ ٥١
(٦) سورة النور آية رقم/ ٤٣
(٧) سورة فاطر آية رقم/ ٩
(٨) سورة الرعد آية رقم/ ١٢
(٩) سورة الشورى آية رقم/ ٢٨
(١٠) سورة فصلت آية رقم/ ٥٣

يقول الله تعالى فى سورة البقرة :

إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وماأنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

ويتضمن توزيع الرياح على الأرض فى طبقات الجو المختلفة ومن ثم صعودها أو هبوطها وإثارتها للسحب الممطرة ، موضوع دراسات واسعة المدى من الناحيتين الديناميكية والطبيعية . وعلى الرغم من أن هذه الدراسات الحديثة لم تكتمل بعد ، فإننا سنلخص أهم النتائج العلمية التى تم التوصل إليها لنلمس أهميتها وعمق ماتشير إليه الآية الكريمة .

فمن حيث طبقات الغلاف الجوى كانت معظم معلوماتنا عنه حتى عهد قريب ـ قبل عصر الفضاء ـ إنما تجمع عن طريق دراسة الطبقة السفلى المعروفة باسم (التروبوسفير) أو منطقة التغير باستخدام البالونات أو الطائرات التى قلما تصل إلى علو يزيد على ٣٠ ميلا ثم الطبقة التى تعلوها وهى (الأوزونوسفير) أو منطقة تجمع الأوزون باستخدام أجهزة قياس تجمع الأوزون فى الاتجاه الرأسى (يتكون من ثلاث ذرات من الأكسجين) .

وتكون (الأوزونوسفير) الجزء السفلى من طبقة (الستراتوسفير) أو المحيط ذو الطبقات .

وهى الآن تدرس بالصواريخ كذلك ويلى (الستراتوسفير) من أعلى طبقة متأنية هى (الأيونوسفير) التى يتواجد فيها الأكسجين الذرى . وكانت معالم هذه الطبقة تجمع باستخدام مسجل التأين الذى يحدد عمليا درجات تركيز الكهارب على الارتفاعات المختلفة داخل (الايونوسفير) ، تتكاثر هذه الكهارب فى طبقات معينة تعرف علميا باسم طبقات (هفينسيد) وهى التى تعكس أمواج اللاسلكى بعد انطلاقها من محطات الإذاعة وتردها إلى مراكز الاستقبال . كل ذلك بالإضافة إلى تحليل طيف الفجر القطبى وهو ظاهرة ضوئية تحدث فى أعالى الجو الممتد من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ كيلو متر ويطلق عليه الفرنجة اسم (الأورورا) وهو لايشاهد عادة إلا بالقرب من قطبى الأرض .

ويبلغ ارتفاع الطبقة السفلى (التروبوسفير) نحو ١٨ كيلو مترا عند خط الأستواء ، ٨ كيلو مترا فقط عند القطبين .

وتحدث كافة التقلبات الجوية فى هذه الطبقة : ففيها تثار السحب وينزل المطر وتحدث الأعاصير .

ومن أهم صفاتها الطبيعية أن درجة الحرارة فيها تنخفض بازدياد الارتفاع بمعدل متوسطه ٦,٥ درجة مئوية لكل ألف متر .

وعلة ذلك أن مصدر الحرارة فى هذه الطبقة هو سطح الأرض ، بما يكتسب من الإشعاع الشمسى . ولقد قدر بالقياسى والحساب أن نحوا من ٣٠ فى المائة من الإشعاع الشمسى الذى يرد إلى سطح الأرض يستخدم فى تبخير المياه من الأسطح المائية ، ويتحول إلى حرارة كامنة فى البخار العالق فى الجو ، وتنطلق هذه الحرارة الكامنة كلها فى طبقة (التروبو سفير) عندما يتم تكاثف بخار الماء وتحوله إلى سحب ومطر .

وترتفع درجة الحرارة فى طبقة (الأوزونوسفير) نظرا لما يمتصه غاز الأوزون من الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس .

وتصل درجة الحرارة أقصى ارتفاع لها عند علو نحو ٥٠ كيلو مترا .

وحديثا أطلق على الجزء العلوى من (الستراتوسفيز) اسم (الميزوفير) أو الكرة الوسطى . وفى هذه الطبقة لاتكفى كثافة الأوكسجين لتكوين الأوزون ، ولذلك تنخفض درجة الحرارة كلما صعدنا قدما إلى أعلى حتى تصل أقل قيمة لها فى جوالأرض على ارتفاع نحو ٨٠ كيلو مترا ، وبعد ذلك يلعب الأوكسجين الذرى الموجود فى الجو العلوى دورا هاما فى امتصاص بعض الأشعة فوق البنفسجية الواردة من الشمس ، فيسبب تسخين تلك الطبقات من جديد .

ولهذا تعرف مشارف الهواء العلوى كذلك باسم (الثيرموسفير) أو المحيط الحرارى . وفوق (الثيرموسفير) منطقة من الغلاف الجوى تنخفض فيها كثافة الهواء إلى الحد الذى يحول دون توهج الشهب ، إلا أنها رغم ذلك تستطيع حمل الفجر القطبى .هذهالمنطقة هى(الأكوسفير) أو المحيط الخارجى .

وليست هناك أية حدود معينة عليا لهذه الطبقة ، إلا أننا نستطيع أن نقول بأنها تنتهى حيث تتعادل الكثافة مع كثافة الفضاء الكونى القريب وهو نحو ١٠٠ جسيم مثلا لكل سنتيمتر مكعب .

ولقد دلت عمليات الرصد الجوى على سطح الأرض خلال العديد من السنين على مساحات واسعة أن الرياح إنما تتبع فى سيرها قواعد معينة تجعلها توزع على الأرض بطريقة خاصة فى المتوسط هى الدورة العامة .

ولما كان الدافع للهواء على الحركة هو اختلاف الضغط الجوى أو كثافة الهواء من مكان لآخر ، فانه من الطبيعى أن نجد توزيع الرياح على الأرض مرتبطا بتوزيع الضغط الجوى ، وهذا الأخير يرتبط بتوزيع درجات الحرارة التى هى المحدد الأول لكثافة الهواء على الأرض .

ومن البديهى أن تتواجد درجات الحرارة العظمى (والكثافات والضغوط المنخفضة) فى المناطق الاستوائية عموما ، كما تتواجد درجات الحرارة المنخفضة (والكثافات الكبيرة والضغوط العالية) . فى المناطق الباردة وخاصة داخل القارات فى الشتاء وحول القطبين .

وتهب الرياح بميل حول خطوط الضغط المتساوى (الأيسوبارز) إلى مناطق الضغط المنخفض متدفقة من مناطق الضغط العالى ، متبعة فى قاعدة عامة هى :

« فى نصف الكرة الشمالى تدور الرياح حول خطوط الضغط المتساوى منحرفة نحو الضغط المنخفض بحيث تكون هذه المراكز على يسارها وتكون مراكز الضغط العالى يمينها ، ويحدث العكس فى نصف الكرة الجنوبى »

وتبعا لذلك نجد أن للرياح (دورة عامة) من أهم مظاهرها :

أولا : توجد حول خط الاستواء منطقة ضغط خفيف وتتركز هذه المنطقة عادة شمال خط الأستواء بقليل ، كما أنها تتذبذب صوب الشمال أو الجنوب متبعة فى ذلك الوضع الظاهرى للشمس .

ثانيا : يحد هذه المنطقة من شمالها ومن جنوبها منطقتان من الضغط العالى (مابين خطى عرض ١٥ درجة و ٣٠ درجة شمالا وجنوبا) .

وهما يظهران بوضوح وجلاء فوق المحيطات ، وخاصة فى نصف الكرة الجنوبى حيث يقل اتساع اليابس نسبيا عما هو عليه فى نصف الكرة الشمالى ، وتعرف المنطقتان عادة باسم (ركاب الخيل) ويهب من كل منها هواء يتجه إلى مناطق الضغط الخفيف حولها وينحرف هذا الهواء تجاه الغرب أثناء سيره إلى منطقة الضغط الخفيف عند خط الاستواء فيغطى الرياح الشمالية الشرقية فى نصف الكرة الشمالى ، والرياح الجنوبية الشرقية فى نصف الكرة الجنوبى . وتعرف هذه الرياح عندنا باسم (الرياح التجارية) .

ثالثا : ـ الأهوية التى تتجه إلى القطبين تنحرف صوب الشرق بحيث تصير جنوبية غربية فى نصف الكرة الشمالى ، وتعرف باسم (الغربيات السائدة) .

وشمالية غربية فى نصف الكرة الجنوبى وهى شديدة السرعة . وتميل الضغوط الجوية إلى الهبوط والتناقص فى مناطق هبوب الغربيات السائدة . وذلك نظرا لما يتولد فيها من آن لآخر من عواصف محلية واضطرابات جوية متجولة تعرف باسم (الانخفاضات العرضية) هذه الانخفاضات تتتابع فى سلسلة تجعل توزيع الضغط العام يهبط نسبيا داخل مناطق هبوب الغربيات السائدة بينما تظل مناطق القطبين عالية الضغوط نظرا لبرودتها وهبوط الهواء فيها من أعلى .

رابعا : ـ تكون منطقة كل قطب أشبه شيء بطاقية من الضغط العالى الذى تنطلق منه غالبا رياح شرقية تتجه إلى مناطق هبوب الغربيات السائدة .

نرى مما سبق أن الرياح التجارية ريح شرقية عموما ، تهب بشدة على المحيطات حيث تكون أثبت أنواع الرياح على الأرض ، وهى تلعب دورا هاما فى توزيع طاقة الاشعاع الشمسى التى تصل المحيطات كما أنه لاينتابها إلا بعض الاضطرابات التى تكون فى صورة أمواج تسبب من آن لآخر ظهور نكباء المناطق الحارة التى طالما هددت السفن وسببت الرعب للملايين فى مختلف العصور .

أما داخل القارات فإن حزام الرياح التجارية كثيرا ما يتقطع ويصبح غير متصل كما أن أهويتها تكون جافة ولهذا تكثر فى مناطق هبوب التجاريات الصحارى والقفار مثل الصحراء الكبرى وصحراء الغرب .

أما الغربيات السائدة فهى غير ثابتة ، تتغير شدتها واتجاهاتها تبعا لحالة الجو المحلية ، فقد تصبح جنوبية شرقية أو جنوبية أو جنوبية غربية أو حتى غربية .

وفى المحيط الأطلسى تدفع الغربيات السائدة معها مياه البحر الدافئة من مناطق ركاب الخيل إلى شواطىء غرب أوروبا حتى خط عرض نحو ٨٠ درجة شمالا .

ونظرا لهبوبها من مناطق ساخنة نسبيا إلى أخرى أبرد فهى رياح ممطرة ، ذلك لأن تبريد الهواء أو انخفاض درجة حرارته هو السبب فى حمل أبخرة الماء العالقة فيه على التجمع والتكاثف أو التحول إلى نقط من الماء تكون السحب والأمطار ونحوها .

وتتذبذب منطقة الغربيات السائدة أيضا صوب الشمال أو الجنوب تبعا للوضع الظاهرى للشمس فهى فى فصل الشتاء تغمر منطقة البحر الأبيض المتوسط ومصر وتصيبها بأمطار شتوية .

وتتابع الانخفاضات العرضية (وهى مناطق الضغط المنخفض التى تتولد تباعا على شمال الأطلسى فى مناطق هبوب الغربيات السائدة وتسير من الغرب إلى الشرق وتدور حولها الأهوية فى سلسلة تغمر المنطقة كلها بمتوسطات من الضغوط الخفيفة فتقبل إليها الرياح من الشمال والجنوب)

ولعل هذا هو السبب فى عدم اقتحام هذا المحيط حتى عهد قريب نسبيا .

أما المحيط الهندى وبحر العرب فتجتاحهما فى أشهر الصيف رياح موسمية جنوبية غربية تبدأ من نصف الكرة الجنوبى (جنوب خط الاستواء) كرياح جنوبية شرقية تنحرف إلى جنوبية غربية بعد عبورها خط الاستواء وتستمر لكى تغذى انخفاض الهند الموسمى الصيفى وانخفاض السودان الصيفى المعروفين »

وفوق منطقة الركود تلتقى الرياح التجارية المقبلة من الجنوب والشمال فتصعد إلى أعلى مثيرة السحب الممطرة التى تنشأ عنها الغابات الاستوائية . وعند حوالى خطى عرض ٣٠ درجة شمالا وجنوبا تهبط الرياح من أعلى فترتفع درجة حرارتها ولاتثار السحب وتنشأ الصحارى المدارية .

وحول خطى عرض ٦٠ درجة شمالا وجنوبا تلتقى الغربيات السائدة مع الشرقيات القبلية فترتفع مثيرة للسحب الممطرة التى تنشأ عنها الغابات الصنوبرية .

أما على القطبين فإن الهواء يهبط من أعلى ولاتتكون السحب ، وبذلك تنشأ الصحارى الجليدية .

وهكذا نرى أن تصريف الرياح أو توزيعها إنما يتبعه توزيع السحب العام على الأرض ، ومن ثم الأمطار التى تتحكم فى عالم النبات ويضطرب الجو فى مناطقنا والمناطق المعتدلة مثل حوض البحر المتوسط وأوروبا تحت تأثير مرور ماعرفناه علميا باسم الانخفاضات العرضية التى سبق ذكرها .

والانخفاض العرضى عبارة عن جزء من الجو ينخفض فيه الضغط الجوى انخفاضا كبيرا بحيث تحدث ذبذبة فى الضغط كثيرا ماتفوق سعتها سعة التغيرات السنوية ، إذ قد تصل السعة إلى ٥٠ مللييار فى المركز . والانخفاض لايثبت بعد تكوينه فى مكان واحد إلا نادرا وتحت ظروف خاصة ، والعادة أنه يسير من الغرب إلى الشرق (فى نصف الكرة الشمالى) وتصحبه أثناء سيره التقلبات الجوية التى تتكرر فى كل مكان بتكرار مرور هذه الانخفاضات .

وتتفاوت الانخفاضات العرضية من حيث الاتساع والعمق ، فمن حيث الاتساع تتراوح أقطارها مابين ٣٠٠٠ كيلو متر إلى مالايزيد قطره على ٣٠٠ كيلو متر . أما من حيث العمق فقد يهبط الضغط فى مركز الانخفاض إلى ٩٣٠ مللييار وقد يظل عند ١٠٠٠ مللييار ، ولايدل عمق الانخفاض على شدته ، وإنما ترتبط شدة الدورة حول الانخفاض ارتباطا وثيقا « بتدرج الضغط » (أى تقارب خطوط الضغط من بعضها) وفى العادة يبلغ تدريج الانخفاض فى المتوسط نحو ٥ مللييار لكل ١٠٠ كيلومتر ويزداد فى الانخفاضات النشطة إلى ١٥ مللييار لكل ١٠٠ كيلو متر ، ويمتد تأثير بعض هذه الانخفاضات أحيانا

من بحر البلطيق شمالا إلى حوض البحر الأبيض المتوسط جنوبا وتدور الرياح حول هذه الانخفاضات فى اتجاه مضاد لعقارب الساعة .

ولدراسة الانخفاض من حيث تولده وتحركه ثم امتلاؤه بعد ذلك ، ولإمكان عمل التنبؤات الجوية ، ترسم خرائط الطقس ، وهى خرائط عادية تبين مواقع محطات الرصد وتوقع عليها عناصر الجو لكل محطة ثم ترسم عليها خطوط الضغط المتساوى ، ويتكرر ذلك فى ساعات معينة كل يوم وفقا بالنظام الدولى الخاص بالأرصاد .

وترسم خطوط الضغط المتساوى بحيث تتفاوت عن بعضها البعض بمقدار ٢ أو ٤ أو ٥ ملليبارات وتتحدد بذلك مناطق الضغط الخفيف أو الانخفاضات وترسم أيضا إلى جانب ذلك خرائط الجو العلوى وهو تبين توزيع الضغط والحرارة على ارتفاعات معينة وتفيد فى أعمال التنبؤ إذ أنها لاتتأثر فيها العناصر الجوية مثل درجة الحرارة واتجاه الرياح وسرعتها بالعوامل المحلية .

وهناك عدة نظريات تشرح تولد الانخفاض العرضى ، ومن أهم هذه النظريات ، وأقربها للحقيقة والواقع ، وأعمها شيوعا نظرية الجبهة القطبية ، وهذه الجبهة هى السطح التخيلى الذى يفصل الغربيات السائدة عن التيارات القطبية الشمالية الشرقية . وتتكون نواة الانخفاض فى بادىء الأمر فى صورة التواء أو تنوء فى هذه الجبهة وينمو هنا النتوء على غرار نمو الدوامات تقريبا ويبدأ الانخفاض مثلا بسطح مستو يفصل بين تيار شمالى شرقى بارد وآخر جنوبى غربى ساخن نسبيا ثم يندفع الهواء الساخن داخل التيار البارد فى صورة نتوء لايلبث أن ينمو مكونا القطاع الساخن أى حوض الهواء الساخن المتجمع داخل الهواء البارد نسبيا . وتبعا لذلك تلتوى الجبهة الفاصلة بين الكتلتين فى صورة موجة يتميز نصفها الأمامى عن نصفها الخلفى بمميزات معينة ، ويسمى النصف الأمامى الجبهة الساخنة والنصف الخلفى الجبهة الباردة . ونقطة تلاقيهما هى مركز الانخفاض . ويتحرك مركز الانخفاض غالبا فى اتجاه الرياح داخل القطاع الساخن .

وهناك جبهة مدارية كشفها المؤلف كذلك تتكون عليها الانخفاضات الخماسين فى الربيع ، وهواؤها ساخن جدا يعرف بالسموم أو الخماسين التى تنفذ أتربتها إلى العيون والآذان والأنوف والحناجر .

وقد تصل أتربة هذه العواصف إلى بحر البلطيق شمالا . وقد تبلغ النهاية العظمى لدرجة الحرارة فيها ٤٨ أو أكثر فى الظل ، كما تصل درجة الرطوبة النسبية حدود ٢ فى المائة ، أى منتهى الجفاف ، مما يعمل على هلاك النبات والأحياء من الدواب على السواء ، خصوصا إذا ما ازدادت سرعة الرياح ، وطالت مدتها ، واشتدت حدتها .

والمعروف أو المألوف أن « الحسومات » فترة من العواصف الحادة التى تهب فى موسم الخماسين فى الشرق الأوسط ، وربما تميط لنا هذه الحقيقة اللثام عن تفسير الآية الخاصة بالرياح المعجزة التى أهلكت قوم عاد فى قوله تعالى :

﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ ـ الحاقة ـ .

وعلى أية حال فالمعروف أن رياح الخماسين أهلكت جيش قمبيز وهو فى طريقه إلى سيوه عندما كانت عامرة فى القدم .

وعموما أى انخفاض عرضى عندما تدخل الجبهة الساخنة يتغير اتجاه الرياح إلى الجنوب أو الجنوب الغربى ، وتسوء الرؤية نوعا ما بحسب محتويات الهواء الساخن من الأتربة ونحوها . وعندما يكون متشبعا بأبخرة المياه تتكون أيضا السحب المنخفضة الممطرة .

أما إذا كان الهواء الساخن غير محمل بأبخرة كافية كما هو الحال فى الشرق الأوسط عموما ، حيث يأتى الهواء الساخن من قلب الصحارى ، فإن الجبهة الساخنة قلما يصحبها مطر ، وقد يكون فى صورة رذاذ فقط قرب الساحل ، وتنعدم السحب تقريبا وسط القطاع الساخن ، ثم تظهر السحب الركامية المتوسطة الارتفاع باقتراب الجبهة الباردة ، فالسحب الركامية المنخفضة الممطرة نتيجة الحركات الرأسية العنيفة التى تصحب مقدمة هذه الجبهة حيث يتدفق الهواء البارد من آن لآخر إلى السطح فيدفع بالهواء إلى أعلى ، ويتغير اتجاه الريح إلى الغربى فالشمالى الغربى وتتحسن الرؤية ، ويكون المطر فى صورة رخات متواصلة أو متقطعة تتوقف شدتها على كميات أبخرة المياه العالقة وعلى مدى استقرار الجو وعدمه فى الطبقات العليا .

وفى العادة تسير الجبهة الباردة بسرعة أكبر من سرعة سير الجبهة الساخنة التى فى المقدمة ، ولهذا يأخذ القطاع الساخن فى التناقص تدريجيا من الخلف ، وتنطبق بذلك أجزاء الجبهة الباردة بأجزاء الجبهة الساخنة القريبة من المركز ويمتد هذا الانطباق تدريجيا كلما انكمشت مساحة القطاع الساخن مكونا جبهة واحدة هى جبهة الامتلاء ولاتزال هذه الجبهة الأخيرة تمتد حتى يختفى القطاع الساخن وبذلك يتم رفع جميع الهواء الساخن إلى أعلى ويختفى القطاع الساخن بحلول الهواء البارد محله . ويصحب هذه الظاهرة فى العادة المطر المتواصل فى أوروبا .

وهناك أنواع عديدة من الانخفاضات العرضية الأخرى مثل انخفاضات قبرص الجوية التى يرجع السبب الرئيسى فى تولدها إلى هبوب تيارات باردة حول الانخفاضات العرضية الممتلئة فى شرق البحر المتوسط . وأهم مميزات هذه الانخفاضات تعدد الجبهات الباردة وعدم وجود قطاع ساخن واضح يتبعها ، والمؤلف أول من أطلق عليها هذا الاسم وأحاط عنها اللثام فى بحث مفصل .

والحديث عن تقسيم الرياح بمثل هذا التفصيل إنما يبصرنا بآيات الخالق فى مجال واحد من مجالات البحث والتنقيب عن أسرار هذه الأرض الذى هو موضوع كتابنا هذا فما بال المجالات الأخرى !! .

والحق أن تصريف الرياح إنما يتم وفق نظام محكم ، هو أساس دراسات الطبيعة الجوية . وإتماما لما قدمنا نقول إن هناك أيضا الارتفاعات الجوية وهى مناطق الضغط العالى ، ويصحبها غالبا طقس هادىء جميل . وتكثر فيها ظاهرة هبوط أو تساقط الهواء من أعلى ، ولذا تصفو السماء كما ترتفع درجات الحرارة عموما وخاصة أثناء النهار بالإشعاع الشمسى ، وينشط فيها الإشعاع الحرارى أثناء الليل وتزداد حالات تكون الضباب والندى فى الصباح المبكر .

ويمكن أن تقسم الارتفاعات الجوية عموما إلى ثلاثة أنواع :

الارتفاعات الموسمية . ومن أمثلة ذلك ارتفاع سيبيريا الشتوى ، حيث يرتفع الضغط إلى ١٠٥٠

ملليبار (أو مايعادل نحو ٧٨٠ ملليمتر) وهو لايضمحل إلا فى أواسط الربيع . وكثيرا مايزحف أثناء الشتاء إلى أوروبا وينشر فيها الصقيع حيث قد تصل درجة الحرارة إلى ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر .
وهو أيضا قد تزحف أطرافه إلى البلقان وآسيا الصغرى ويعطى نفس الظواهر ثم يسبب إثارة الجوفى الشرق الأوسط عموما ، إذ تولد ألسنة الهواء البارد عند عبورها البحر المتوسط أكثر الانخفاضات الجوية نشاطا ، (هى انخفاضات قبرص الجوية) .

هذا كما أن هنالك الارتفاعات النسبية ، وهى تتواجد بين الانخفاضات وتتحرك عموما بغير انتظام وببطء ، وإذا تحركت سميت « باردة » أما الارتفاعات الجوية الثابتة فهى (دافئة) ذلك لأن حالات الركود وعدم الحركة فيها تجعل ظاهرة هبوط الطبقات العليا أهم عامل لتسخين الهواء تدريجيا بالتضاغط وخاصة فى المركز . ويحدث الهبوط عادة بمعدل ثلث كيلو متر فى اليوم .

وتوجد أيضا الارتفاعات العرضية ، وهى مناطق من الضغط العالى التى تتكون لمدة قصيرة نسبيا ثم تضمحل دون أن ترتبط بالانخفاضات العرضية .

ومن أمثلة ذلك الارتفاع الذى يقع فوق مصر فى الاعتدالين وأغلب فصل الشتاء .

أما الأعاصير الاستوائية فهى تتولد فى المحيطات الساخنة قرب خط الاستواء أو داخل التجاريات ، وهى تسير معها من الشرق إلى الغرب عموما على عكس الانخفاضات العرضية التى تتولد فى مناطق الغربيات السائدة ، وأهم المناطق المشهورة بهذه الأعاصير هى جزر الهند الغربية ، وخليج المكسيك وبحر العرب وبحر الصين وجزائر الفليبين واليابان والمحيط الهندى وشرق جزيرة مدغشقر والمحيط الهادى وشرق أستراليا ويطلق عليها اسم (ولى ولى) ، وتسمى (للتيفون) فى الصين واليابان والهوكين فى الولايات المتحدة ، وقد سبق أن عرفناها باسم النكباء .

ومن أهم الأوصاف الدقيقة التى وردت فى القرآن الكريم خاصة بهذه الأعاصير عندما تجتاح السفن وتدهمها عبر المحيط قوله تعالى :

﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ﴾ - النور (٤٠) -

ومن الإعجاز العلمى فى هذه الآية أن العاصفة تخرج منها أمواج مختلفة الارتفاع (أو السعة) والصفات ، يلاحق بعضها بعضا تحت ظلمة السحاب المنعقد فى السماء . ونحن نستطيع من دراسة هذه الأمواج عندما تصل إلى محطاتنا الأرضية الخاصة برصد موج البحر وتحليلها رياضيا أن نحدد مركز العاصفة . وجدير بالذكر أن الرسول (ﷺ) لم يكن قد سافر قط عبر هذه المحيطات حتى يذكر مثل هذا الوصف الدقيق . مما يثبت قطعا أنه من وحى الخالق العظيم .

ويلاحظ أن جميع مناطق هذه الأعاصير تقع إلى الجانب الغربى من المحيطات ، وليس فى الجانب الشرقى منها . وهى تظهر أولا عادة على البحار

وتستمر فى عنفوانها إلى أن تدخل اليابس فتضمحل نوعا ما ، ثم تتحول إلى انخفاضات صغيرة تتلاشى سريعا . وتدور الرياح حول الأعاصير كدورتها حول (الانخفاضات) مع ازدياد هائل فى

السرعة ثم فى تدرج الضغط ، وكثيرا مايبدأ الإعصار بإتساع يزيد على ٨٠ كيلو مترا ثم يزداد إلى أكثر من ٥٠٠ كيلو متر . وفى مركز الإعصار يسود الهدوء وتنكشف السماء ويهطل المطر فى منطقة محدودة هى « عين الإعصار » لايزيد قطرها على نحو ٣٥ كيلو مترا ، وأهم مميزات الأعاصير غزارة الأمطار ، فقد تهطل مئات المليمترات فى بضع ساعات ، وتلعب الحرارة التى تنطلق بعمليات التكاثف هذه دورا هاما فى نشاط الإعصار :

وهناك نوع من العواصف يقال له (التورنادو) ، وهذا نوع من الأعاصير الشديدة الصغيرة الحجم ولايزيد قطرها عموما على نصف كيلو متر ولكنها تشتهر بالتدمير وذلك لشدة هبوط الضغط الجوى فيها ثم سرعة دوران الرياح من حولها : فقد تصل أحيانا إلى ٥٠٠ كيلو متر فى الساعة ، وأهم مناطقها وادى نهر المسيسبى بأمريكا ، وكثيرا مايصحبها ظهور قمع من السحب يتدلى إلى الأرض . ويستغرق مكثها فى أى مكان قبل تحركها إلى مكان آخر نحو ساعة فقط يحدث خلالها تدمير شامل لكل ماتصادفه أو يعترضها على الأرض .

وهنا نحب أن نشير إلى أن أعاصير البحر عندما تدنو من الشواطىء فقد تحدث طوفانات محلية تغرق الأرض ومن عليها ، خصوصا المناطق المنخفضة .

* فى الهواء ماء على هيئة بخار *

لاتراه الأعين

لعل أول كتاب قرر حقيقة أن السحاب الممطر إنما تثيره الرياح هو القرآن الكريم ، وقد كانت الفكرة السائدة فى الحضارات القديمة أن المطر يأتى من ماء مخزون فى السماء عندما تفتح الآلهة الأبواب والنوافذ !! والآن لندرس قوله تعالى :

١ - ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء** ﴾ الروم (٤٨) .

وكذلك قوله تعالى :

٢ - ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾ - الأعراف ٥٧ -

يظهر لنا مدى الإعجاز العلمى فى الآيتين ، إذا ماتذكرنا أنه فى العهد الذى نزل فيه القرآن الكريم لم يكن أحد من الناس - ربما إلا قلة نادرة - يعرف أن الهواء يحمل مقادير وفيرة من الماء على هيئة بخار ، وأن هذا البخار هو الذى يكون السحب ، ويعطى المطر عندما تندفع تيارات الهواء إلى أعلى ، وتبرد تحت تأثير الانتشار بتقليل ضغط الواقع عليها بالارتفاع .

ويسمى هذا التبريد علميا باسم التبريد الذاتى (أى منه فيه) ، وهو يفسر المبدأ الذى تعمل به ثلاجات الكهرباء ، وتبلغ قيمة التبريد الذاتى من الهواء الصاعد الذى لايحده التكاثف درجة واحدة سنتجراد لكل ١٠٠ متر ، فإذا ماحدث التكاثف بسبب التبريد ، تهبط قيمة معدل التبريد الذاتى إلى ٠,٦٥ درجة سنتجراد لكل ١٠٠ متر .

والمعروف علميا أن قدرة الهواء على حمل بخار الماء تقل بانخفاض درجة الحرارة ، وباستمرار

التبريد يحدث التشبع ويعود جزء من بخار الماء العالق فى الهواء إلى حالة السيولة (نقط ماء) أو حالة الصلابة (بللورات ثلج) .

ويتم هذا التكاثف عادة على جسيمات خاصة يحملها الهواء تسمى علميا باسم (نوى التكاثف) ، وأغلبها مساحيق دقيقة تذوب فى الماء أو تمتصه ، مثل ملح الطعام وكلورود الكلسيوم وثانى أوكسيد الكبريت ، وتتجمع جزئيات بخار الماء على هذه النوى مكونة نقطا دقيقة جدا لاتلبث أن تنمو بالتصادم والالتصاق مع بعضها البعض .

وفى الثلاجات الكهربائية يعمل المحرك (الموتور) على ضغط نوع معين من الغاز ببطء ويتركه يتمدد فجأة حول صندوق التبريد ، أما فى الجو فإن التمدد إنما يحدث بالصعود إلى أعلى ، ويضطر الهواء إلى الصعود إلى أعلى تحت تأثير عوامل عديدة مثل التجمع من كل الجهات فى صعيد واحد عند سطح الأرض ، ومثل حالات عدم الاستقرار التى يتواجد فيها الهواء البارد الكثيف فوق الهواء الساخن الخفيف ، ومما يعمل على نقص كثافة الهواء إضافة بخار الماء إليه ، فالهواء الرطب أقل وزنا أو كثافة من الهواء الجاف ، الذى فى نفس درجة الحرارة وتحت نفس الضغط .

ومما يدلنا على مبلغ ماستحدثته هذه الآية من جديد فى ميدان الطبيعة الجوية ، نقول إن قدماء المصريين مثلا كانوا يفاخرون الإغريق بأن النيل الخالد الذى يروى مصر ، إنما يفيض من المحيط الأعظم الذى لاينفد ، أما بلاد الإغريق ، فأغلب ماتعتمد على المطر الذى يأتى من ماء مخزون فى السماء ، عندما يفتح الآلهة أبواب السماء ، ومامن شك أنه سيأتى يوم ينفد فيه هذا الماء !!

لقد فاتهم ـ وفات غيرهم ـ أن الهواء هو الذى يثير السحب ويعطى المطر ، وأن للماء العذب على الأرض دورة مستمرة ، وأنه يتجدد على الدوام ، تحت تأثير الطاقة الشمسية التى تبخر بعض ماء البحر ، وان ماء المطر ، إنما يعود فى النهاية إلى البحر عن طريق الأنهار والمياه الجوفية والمطر المباشر ، ولقد ذكر القرآن الكريم تلك الحقيقة ، كما ذكر حقيقة أن الهواء يحمل نوى التكاثف اللازمة لتكوين السحب وأستمرار عمليات التكاثف فى إعجاز بليغ أخاذ كما سنبين فيمايلى .

تلقيح الرياح للسحب لتجود بالمطر ،

(نوى التكاثف) ،

دورة الماء مابين الجو والأرض

تحت هذا العنوان تدخل قائمة هامة من أحدث الحقائق العلمية الرائعة ، التى لم يتوصل إليها الإنسان إلا فى عصر النهضة العلمية ، بعد أن اخترع الأجهزة التى يقيس بها عناصر الجو مثل : الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، ودرجة الرطوبة ، وسرعة الرياح واتجاهها ، الخ . . وبعد أن درست طبيعة السحب الممطرة ، وظهرت فيها المؤلفات العديدة ، نقول بعد كل هذا المجهود العلمى الضخم الذى اشتركت فيه أغلب أمم الأرض ، توصل الإنسان إلى أن عمليات التكاثف داخل السحب ، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم (نويات التكاثف) كما ذكرنا . وأهم أنواع هذه

النويات أو النوى ، هى مساحيق ملح الطعام ، وكلورور الكلسيوم التى تتطاير من سطح الأرض والبحر مع تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أوكسيد الكبريت الناتج من عمليات الاحتراق . ووظيفة هذه النوى تجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها لتكون نقطا صغيرة من الماء أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذى يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى ، هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها . وعندما تعجز الرياح لسبب ما عن تلقيح السحب بهذه النوى لتجود بالمطر ، يعمد الناس إلى التلقيح الصناعى باستخدام الطائرات أو المولدات الأرضية ، التى يمكن أن تقذف بالمساحيق الى أعالى الجو . وتعرف هذه العمليات علميا الآن باسم (المطر الصناعى) ، وأهم المواد التى تستخدم هى يودور الفضة ، أو مسحوق ملح الطعام الصخرى . ويستخدم كذلك ثانى أوكسيد الكربون الجاف .

وفى الواقع نجد أن نظرية المطر الصناعى وحتى المطر الطبيعى ، هى أكثر تعقيدا من ذلك ، إذ يستغل فيها حقيقة أن الهواء المشبع بالنسبة لنقط الماء السائل يكون فى حالة فوق التشبع ، بالنسبة لبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، وبذلك تنشط عمليات التكاثف إذا تواجد ثلج جنبا إلى جنب مع نقط الماء البارد ، ويتكون هذا الثلج على نوى التكاثف الصلبة التى على غرار مساحيق ملح الطعام ، أو يودور الفضة أو حتى ثانى أوكسيد الكربون الجاف الذى يمكن أن تلقح به السحابة تلقيحا طبيعيا بواسطة الهواء (ملح الطعام) أو صناعيا بواسطة الطائرات كما قلنا .

وفى الطبيعة يمكن أن تتواجد نقط الماء ، وهى فى حالة السيولة تحت درجات حرارة منخفضة جدا ، قد تصل إلى ٤٠ درجة سنتجراد تحت الصفر ، وعندئذ تسمى نقط الماء فوق المبرد . ويعطى الجدول الآتى ضغط بخار الماء اللازم للتشبع بالنسبة لنقط الماء وبللورات الثلج التى فى نفس درجة الحرارة ، لنتبين كيف تكون السحابة المشبعة بالنسبة لنقط الماء فوق المبرد فى حالة من فوق التشبع ، إذا تكون الثلج فيها عن طريق تلقيح السحابة بنوى التكاثف ، وعندما تنمو البللورات الثلجية داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد تزداد سرعات تساقطها نسبيا ، فتتصادم مع غيرها من النقط الصغيرة وتلتحم بها ، وهكذا تنمو النقط سريعا ، وتزداد حجومها ، فتتساقط على هيئة مطر .

أما الآية التى تقرر كل هذا فى إعجاز أخاذ وإيجاز رائع فهى قوله تعالى :

﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه** ﴾[1] .

وهكذا تربط الآية الشريفة وتوثق العلاقة بين تلقيح الرياح للسحاب بنوى التكاثف وبين نزول المطر . وثمة معنى آخر هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر ، بسبب إرسالها لتتجمع فى صعيد واحد إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر . وقد حسب المؤلف مقدار الهواء الذى يصعد فى انخفاضات قبرص الجوية ، فوجده نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة فى المتوسط !!!

وأعجب من كل هذا وأروع أن الآية تمضى فتقول : ﴿ **وما أنتم له بخازنين** ﴾ ، أى من الماء

(١) سورة الحجر آية رقم ٢٢

الذى ينزل من السماء على هيئة مطر لايختزنه أحد ، ولايمكن أن يختزن ، بل هو يتجدد دائما ، إشارة إلى الدورة العظمى لماء الأرض مابين سطحها وسمائها أو غلافها الجوى .

فهل بعد ذلك إعجاز علمى ؟ وهل بعد ذلك يقول قائل : إن هذا القرآن من صنع محمد ؟ ويعود القرآن ليذكر الناس بهذه الحقيقة حين يقول فى سورة الطارق - ١١ - ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾ أى التى تعود مرتدة إلى الأرض والمراد ماء السحب .

والمطر ، كما هو معروف ، مصدر المياه العذبة على الأرض ، وعليه يتوقف كيان الزراعة التى هى ينبوع الرخاء ومورد الثروة الدائم منذ القدم ، وإذا شحت كمية المطر عن معدلها فى إقليم ما ، أجدبت الأراضى ، وأقحلت المراعى ، ونفقت الماشية ، وقد لاتنصلح حال الإقليم إلا بعد سنوات . وتتوقف أعمال الرى والرعى ، سواء كانت باستخدام المطر المباشر ، أو بالأنهر والترع والقنوات ، على ماتجود به السماء من مطر كل عام .

ومنذ القدم عرف الإنسان البدائى قيمة المطر لحياته وحياة ماشيته ، فكان يعالج شئونه بالسحر والشعوذة . وفى كثير من الشعوب المتحضرة تستخدم الصلاة ، ومنها صلاة الاستسقاء لتجود السماء بالماء ، بعد طول الجفاف واشتداد البلاء .

ولقد ثبت الاستسقاء بالكتاب والسنة - قال تعالى :

﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا** ﴾(١) .

وكان الرسول (ﷺ) يستسقى فيدعو الله تعالى ، ومن دعائه :

(اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد من الجهد والجوع والضنك مالا نشكو إلا إليك ، اللهم أنبت لنا الزرع ، وأدر لنا الضرع ، وأنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت لنا من بركات الأرض ، واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا ، فأرسل السماء علينا مدرارا) .

ويوجه القرآن كذلك أنظارنا إلى أن ماء المطر العذب ؛ يحيى الأرض بعد موتها ، ويعطينا مثلا يتجدد أمام أعيننا ليوم البعث الذى يحيى فيه الله الموتى . ومن الآيات التى تؤدى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ **والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور** ﴾(٢) .

وهنا مرة أخرى يربط القرآن الكريم بين إرسال الرياح وإثارة السحب المطيرة ، ولقد حسب المؤلف حجم الهواء ، الذى يتجمع ويصعد إلى أعالى الجو عندما تنساب الرياح حول انخفاض قبرص الجوى ، الذى يسبب أمطار الشتاء فى الشرق الأوسط ، فوجده يعادل نحو ٧٠ ألف كيلو متر مكعب فى الساعة الواحدة كما قدمنا .

وعندما ننظر إلى قوله تعالى :

﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون** ﴾(٣) .

---

(١) سورة نوح الآيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة فاطر آية رقم ٩

(٣) سورة الواقعة الآيات من ٦٨ - ٧٠

نجد أن الظروف الطبيعية التى تؤدى إلى تكوين المزن ، (وهو السحاب الممطر) ونزول المطر لايمكن أن يصنعها البشر ، بل حتى لاسبيل إلى التحكم فيها ، ولايزال موضوع المطر الصناعى - او استمطار السحب العابرة - فى مرحلة التجارب التى لم يتم نجاحها بعد . وحتى إذا ماتم نجاحها ، فإنه من اللازم أن توفر الطبيعة الظروف الملائمة للمطر الطبيعى ، حتى يمكن استمطار السماء صناعيا ، أى أن واجب علماء الطبيعة الجوى لايتعدى قدح الزناد فقط ، بتوليد حالات من فوق التشبع داخل السحب الركامية ، وعلى الأخص داخل مناطق نقط الماء فوق المبرد ، بقذف بعض المواد التى تصلح لتكون نوى تكاثف على هيئة مساحيق أو أبخرة ، مثل ملح الطعام ، أو يودور الفضة ، أو بللورات ثانى أكسيد الكربون ، وتمضى الآية الكريمة فتقول إنه لو شاء الله لجعل ماء المطر ملحا زعانا كماء البحر لايشرب .

وآيات طبيعة السحب متعددة ، منها على سبيل المثال :

١ - ﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾(١) .

إن ثورة الطبيعة التى تلازم الجو العاصف من برق ورعد وصواعق ومطر . . كلها تذكرنا بطاعة الله تعالى خوفا وطمعا . خوفا من عذابه وطمعا فى رحمته - والرعد ، رغم جبروته ، إنما يحدث وفق أمره وحسب سننه وتبعا لحكمته .

٢ - ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله ﴾(٢) .

ونحب أن نضيف هنا أن التيارات الهوائية العليا التى تنساب فى أعالى (التربوسفير) إنما تلعب دورا هاما فى تقلبات الجو على سطح الأرض ، وهذه التيارات لايمكن أن يتحكم فيها البشر بحال من الأحوال ، كما أنه لم يتم التعرف عليها بالتفصيل إلا فى السنين الأخيرة ، التى استخدم فيها الطيران العالى .

ففى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، تم اكتشاف تيارات هوائية عليا تتدفق بسرعة كبيرة داخل أحزمة معينة ، وأطلق عليها اسم (التيارات العليا النفاثه) وأهم هذه التيارات تياران دافقان يكونان إطارين حول الأرض وينساب الهواء فيهما بسرعة تتراوح بين ١٠٠ و ١٥٠ ميلا فى الساعة الواحدة ، على علو يقارب ارتفاع « التروبوبوز » أحدهما فى المنطقة المعتدلة الشمالية ، والثانى فى الجنوبية ، وحديثا جدا تم التعرف كذلك على التيار النفاث الاستوائى ، الذى يتدفق من الشرق إلى الغرب ، ويلعب دورا هاما فى الأمطار الموسمية ، ومنها أمطار السودان والحبشة التى ينجم عنها فيضان النيل .

٣ - ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ﴾(٣) .

والمعروف علميا أن المطر فى أية منطقة على الأرض إنما يصحب هبوب تيارات هوائية معينة على

(١) سورة الرعد الآيتان ١٣ ، ١٤

(٢) سورة الروم الآية رقم ٤٨

(٣) الروم الآية رقم ٤٦

المنطقة . ففى مصر مثلا تقبل الأمطار مع الرياح الشمالية الغربية خلال الشتاء ، وفى السودان تكون الرياح الموسمية الممطرة فى الصيف ، هى الجنوبية الغربية أو الجنوبية عموما . . ويمكن التعرف عليها من خواصها .

٤ - ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ﴾(١) - ، أما رياح الكتل الهوائية الجافة الساخنة المتربة (الصفراء) فمن أوصافها :

٥ - ﴿ ولئن أرسلنا رِيحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾ - الروم (٥١) - ، فعندما تحمل الرياح الساخنة الجافة الأتربة والرمال يكون لونها مصفرا ، نظرا لأن الجسيمات الصلبة العالقة فيها تعمل على تشتيت أشعة الشمس الصفراء بدرجة كبيرة فيبدو الجو مصفرا علامة الجفاف والجدب والحر .

٦ - ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصبا ﴾(٢)

والمراد الرياح الشديدة التى تثير الحصى . والمعروف أن الرياح هى التى تثير الرمال والحصى كلما اشتدت وزادت سرعتها ، فتكون عواصف الرمال والأعاصير . وتتوقف درجة التركيز - أى عدد الحبيبات لكل سنتيمتر مكعب من الهواء - على سرعة الرياح وحجوم الحبيبات المثارة .

ولتيارات الهواء الصاعدة أثرها فى رفع الحصى ونقله عبر مسافات كبيرة ، وتعظم هذه التيارات وتشتد فى حالات عدم الاستقرار الجوى ، أو مرور الجبهات الباردة .

قوله تعالى : ﴿ ولقد صرفناه بينهم ﴾ أى ولقد صرفنا المطر بين الناس على أوضاع شتى ، فلا تمر ساعة فى ليل ولا نهار إلا كان فيه دليل على آثار قدرتنا ، فننزله على قوم ونحجبه عن آخرين ، فنحن صرفناه بينهم كما صرفنا الليل والنهار ، فالشمس تجرى من عند قوم وتذهب إلى آخرين : ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾(٣) إلى أن الماء يكون جامدا يشبه الحجر ، وسائلا يشبه الزيت وسائر المائعات ، وحينا بخاريا يشبه الهواء ، وهو أيضا غاد ورائح فى الجو وفى الأنهار وفى الغدران وفى أجسام النبات والحيوان والإنسان .

قوله تعالى : ﴿ ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾

أى صرفناه بينهم ، ليعتبروا ويعرفوا حق النعمة ، فيشكروا ولكن أكثر الناس أبوا إلا جحودا للنعمة وكفرانا بخالقها ، ثم بين منته على رسوله وأنه كلفه الأحمال الثقال من أعباء النبوة ، ليزداد شرفا ويعظم قدرا فقال : ﴿ ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا ﴾

أى ولو أردنا أن نرسل رسولا إلى أهل كل قرية لفعلنا وخفت عنك أعباء النبوة ، ولكن بعثناك إلى القرى كلها وحملناك ثقل النذارة ، لتستوجب بصبرك ماأعددناه لك من الكرامة والمنزلة الرفيعة ، فقابل ذلك بشكر النعمة ، وبالثبات والاجتهاد فى الدعوة وإظهار الحق كما قال : ﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾(٤) .

---

(١) الأعراف الآية رقم ٥٧
(٢) القمر آية رقم ٣٤
(٣) سورة النمل آية رقم : ٨٨
(٤) سورة الأعراف آية رقم : ١٥٨

وجاء فى (الصحاح) (بعثت إلى الأحمر والأسود »[١] أى إلى العجم والعرب . والخلاصة - إنا عظمناك بهذا الأمر وجعلناك مستقلا بأعبائه ، لتحوز ماادخر لك من عظيم جزائه ، وكبير مثوبته ، فعليك بالمجاهدة والمثابرة ، ولاعليك من تلقيهم الدعوة بالإعراض والمشاكسة .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا** ﴾

أى فلاتطع الكافرين فيما يدعونك إليه من موافقتهم على مذاهبهم وآرائهم وجاهدهم بالشدة والعنف لا بالملاينة والمداراة لتكسب ودهم ومحبتهم ، وعظهم بما جاء به القرآن من المواعظ والزواجر وذكرهم بأحوال الأمم المكذبة لرسلها ، وذلك منتهى الجهاد الذى لايقادر قدره .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **يأأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **يأأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **فلا تطع المكذبين ودوا لوتدهن فيدهنون** ﴾[٤] والقول الفصل ماجاء فى قوله تبارك اسمه : ﴿ **قل يأأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون ماأعبد ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين** ﴾[٥] .

الله اكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لاتذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

والخلاصة - إنك مبعوث إلى الناس كافة ، لتنذرهم مابين أيديهم وما خلفهم ، فاجتهد فى دعوتك ، ولاتتوان فيها ، ولاتحفل بوعيدهم فإن الله ناصرك عليهم ومظهر دينك على الدين كله ولو كره المشركون .

قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا** ﴾

أى ومن آثار نعمته على خلقه أن خلى البحرين متجاورين متلاصقين وجعلهما لايمتزجان ، ومنع الملح من تغيير عذوبة العذب وإفساده إياه وحجزه عنه بقدرته ، فكأن بينهما حاجزا يمنع أحدهما من إفساد الآخر ، وكأن بينهما ساترا يجعله لايبغى عليه .

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب المساجد/٣ ، والدارمى فى كتاب السير/٢٨ ، وأحمد فى مسنده ١/ ٢٥٠ ، ٣٠١ ، ٤/ ٤١٦ ، ٥/ ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٦٢ من هذا يتضح أن قوله فى الصحيحين خطأ .
(٢) سورة التوبة آية رقم ٧٣ وسورة التحريم آية رقم : ٩
(٣) سورة الأحزاب الآيات ١ - ٣
(٤) سورة القلم الآيتان ٨ ، ٩
(٥) سورة الكافرون .

والخلاصة ـ أنه تعالى جعل البحرين مختلطين فى مرأى العين ، منفصلين فى التحقيق بقدرته تعالى بحيث لايختلط الملح بالعذب ولا العذب بالملح ولايتغير طعم أحدهما بالآخر ولايفسده .

ونحو الآية قوله فى سورة الرحمن : ﴿ مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لايبغيان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[1] .

* مبحث يتعلق بالإعجاز العلمى فى القرآن الكريم *

يقول الدكتور/ ابراهيم عوض فى كتابه (مصدر القرآن ـ دراسة فى الإعجاز النفسى) .

وقريب من النبوءات المنتشرة فى القرآن ، والتى لم أذكر هنا سوى بعضها ، ماورد فى القرآن أيضا من آيات تتعلق بمعارف علمية : ـ تاريخية وجغرافية وأحيائية (بيولوجية) وطبية ، وتشريحية ، وكيميائية وطبيعية (فيزيائية) ، وفلكية كان مستحيلا على محمد ، لو لم يكن رسولا مؤيدا بالوحى الإلهى ، ومستحيلا كذلك على أحد فى عصره فى شرق العالم أو غربه أو شماله أو جنوبه ، وبل وفيما بعد عصره بقرون طوال ، أن يحلم بله أن يكون على علم بها . وأقل مايمكن أن يقال بالنسبة إلى هذه الحقيقة هو ماخرج به الدكتور موريس بوكاى الطبيب الفرنسى ، من دراسة الكتب الدينية الثلاثة : التوراة والإنجيل والقرآن والمقابلة بينها وبين حقائق العلم الحديث ، إذ قال : « لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر مسبق وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث ، وكنت أعرف هذه الدراسة ، وعن طريق الترجمان ، أن القرآن يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة وبفضل الدراسة الواعية للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لايحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم الحديث » ليس هذا فحسب بل يمضى العالم الطبيب الفرنسى قائلا : « وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول ، أى سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات لايمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا فى عصرنا . وأما بالنسبة للأناجيل فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ، ونعنى بها شجرة أنساب المسيح . وذلك أن نص إنجيل متى يناقض بشكل جلى إنجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لايتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض .

أما النتيجة التى وصل إليها الدكتور بوكاى فهى هى الحكم الذى أصدره القرآن على هذه الكتب منذ أربعة عشر قرنا ، ودون أن يكون لدى محمد عليه الصلاة والسلام لا الوقت ولا نصوص الكتابين الآخرين ولاالمقدرة العلمية التى تمكنه من القيام بمثل ماقام به العالم الفرنسى من دراسة . استمع إلى مايقوله الدكتور بوكاى : « إن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لايحتملها التصديق وتلك الأخرى

---

(١) سورة الرحمن الآيات : ١٩ ـ ٢١

التى لاتتفق والعلم ، لايبدو لى أنها تستطيع أن تضعف الإيمان بالله ولاتقع المسئولية فيها الا على البشر .

ولايستطيع أحد أن يقول كيف كانت النصوص الأصلية ومانصيب الخيال والهوى فى عملية تحريرها ، أو مانصيب التحريف المقصود من قبل كتبة هذه النصوص ، أو مانصيب التعديلات غير الواعية التى أدخلت على الكتب المقدسة . ثم يعود الدكتور بوكاى إلى الحديث عن دراسته التطبيقية على القرآن الكريم فيقول : « أما الجزء الثالث (يقصد من كتابه) فسيجد فيه القارىء أمثلة توضيحية لتطبيق العلم على دراسة أحد الكتب المقدسة وهو تطبيق لم يكن ليتوقعه الإنسان .

كما سيجد القارىء فى ذلك بيانا لما قد جاء به العلم الحديث ، الذى هو فى متناول كل يد من أجل فهم أكمل لبعض الآيات القرآنية التى ظلت حتى الآن مستغلقة أو غير مفهومة . ولا عجب فى هذا إذا عرفنا أن الإسلام قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توأمان متلازمان . وأنا إذ أستشهد بالدكتور بوكاى ، لاأعنى أن أحدا لم يسبقه إلى مثل هذه الدراسة ، فالعلماء المسلمون يفعلون ذلك منذ عشرات السنين ولكنى قصدت أن أقول إن الدراسة العلمية للقرآن الكريم ، وهى فقط أحد الجوانب التى يمكن أن يدرس منها هذا الكتاب الإلهى ، قد أدت بهذا العالم . إلى الدخول فى دين الإسلام .

ولست أنوى أن أناقش كل الآيات المتعلقة بالعلم فى القرآن المجيد فما أكثر الكتب التى قامت ، كما قلت آنفا ، بهذه المهمة، وإن غالى بعضها فى الربط بين حقائق العلم الحديث ونظرياته وبعض الآيات ، التى يصعب على الدارس الموضوعى الذى لايغلبه تحمسه لدينه على نفسه أن يرى فيها شيئا قاطعا أو على الأقل واضحا يربطها بالحقائق العلمية الثابتة ، ودعك من بعضهم الذين يرون فى بعض الآيات أشياء لاوجود لها ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وإنما سأكتفى بمجرد ذكر عدد من الآيات التى بهذا الشكل وسأقف عند بعضها مستأنيا بعض الشىء . اقرأ مثلا هذه الآيات الكريمة ، وراجع بنفسك تفسيرها فى ضوء حقائق العلم الحديث : ﴿ **ويسألونك عن المحيض . قل : هو أذى . فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن** . . ﴾(١) .

﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات** ﴾(٢)

﴿ **وينزل من السماء من جبال فيها من برد** ﴾(٣)

﴿ **وان لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين** . . ﴾(٤) .

﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾(٥)

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٢٢
(٢) سورة الأعراف آية : ٥٧
(٣) سورة النور آية : ٤٣
(٤) سورة النحل آية : ٦٦
(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ ـ ١٤

﴿ وجعلنا من الماء كل شئ حى ﴾[(١)] **﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾**[(٢)] **﴿ والشمس تجرى لمستقر لها . ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . وكل فى فلك يسبحون ﴾**[(٣)] .

﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾[(٤)] .

ولنعد مرة ثانية إلى الدكتور بوكاى ، الذى يقول : « ومن الثابت فعلا أنه فى فترة تنزيل القرآن . . كانت المعارف العلمية فى مرحلة ركود منذ عدة قرون ، كما أن عصر الحضارة الإسلامية النشط مع الازدهار العلمى الذى واكبها كان لاحقا لنهاية تنزيل القرآن . إن الجهل وحده بهذه المعطيات الدينية والدنيوية هو الذى يسمح بتقديم الاقتراح الغريب الذى سمعت بعضهم يصوغونه أحيانا والذى يقول إنه إذا كان القرآن فيه دعاوى ذات صفة علمية مثيرة للدهشة ، فسبب ذلك هو تقدم العلماء العرب على عصرهم ، وأن محمدا ﷺ بالتالى قد استلهم دراساتهم . إن من يعرف ولو يسيرا تاريخ الاسلام يعرف أيضا أن عصر الازدهار الثقافى والعلمى فى العالم العربى فى القرون الوسطى لاحق لمحمد ﷺ ، ولن يسمح لنفسه بإقامة مثل هذه الدعاوى الوهمية . فلا محل لأفكار من هذا النوع ، وخاصة أن معظم الأمور العلمية الموحى بها أو المصوغة بشكل بين تماما فى القرآن لم تتلق التأييد إلا فى العصر الحديث . من هنا ندرك كيف أن مفسرى القرآن ربما فى ذلك مفسرو عصر الحضارة الإسلامية العظيم ، قد أخطأوا حتما وطيلة قرون ، فى تفسير بعض الآيات التى لم يكن باستطاعتهم أن يفطنوا إلى معناها الدقيق .

وهنا نصل إلى الآيات التى ذكرت آنفا ، إننى أحب أن أستأنى عندها قليلا ، فقد وجدت فى التفاسير القديمة مايؤكد هذا الذى يقوله الدكتور بوكاى ، ففى تفسير قوله تعالى : **﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ﴾**[(٥)] .

يقول الشريف الرضى : « والعسل عند المحققين من العلماء غير خارج من بطون النحل ، وإنما تنقله بأفواهها من مساقطه ومواقعه من أوراق الأشجار وأصناف النبات ، لأنه يسقط كسقوط الندى فى أماكن مخصوصة وعلى أوصاف معلومة ، والنحل تتبع تلك المساقط ، وتعهد تلك المواقع فتنقل العسل بأفواهها إلى كوراتها والمواضع المعدة لها فقال سبحانه **﴿ يخرج من بطونها ﴾** والمراد « من جهة بطونها » وجهة بطونها أفواهها .

وهذا من غوامض هذا البيان وشرائف هذا الكلام

فانظر كيف أن العلماء المحققين فى عصر الشريف الرضى (القرن الخامس الهجرى) يقررون أن

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٣٠
(٢) سورة الزمر آية ٦
(٣) سورة يس ٣٨ ـ ٤٠
(٤) سورة الطارق الآيات : ٥ ـ ٧
(٥) سورة النحل الآيتان : ٦٨ ، ٦٩

العسل لايخرج من بطون النحل ومن ثم عد هو قوله تعالى :
﴿ يخرج من بطونها شراب .. ﴾ مجازات القرآن التى أدار عليها كتابه الذى اقتبسنا منه النص السابق ، والصواب هو ماقاله القرآن من أن العسل يخرج فعلا من بطون النحل التى تجمع الرحيق ، ويتحول فى معدتها إلى عسل تقوم بافرازه بعد ذلك .

وفى خطأ مشابه يقع الإمام الباقلانى ، إذ يعد قوله تعالى : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾[1] نوعا من التعميم فى التعبير ، فقد ظن أن القرآن حينما قال : إن كل الدواب مخلوقة من ماء لم يقصد أنها كلها كذلك بل بعضها فقط ، ولكنه عم القول . فماذا يقول علماء العصر الحديث ، الذين قتلوا هذه المسألة بحثا .

الثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائى ، وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية ، فلا حياة ممكنة بلا ماء . واذا مانوقشت إمكانية الحياة على كوكب ما فإن أول سؤال يطرح هو : أيحتوى هذا الكوكب على كمية كافية من الماء للحياة عليه ؟

والطريف أن الباقلانى قال ذلك دفاعا عما ظنه الملحدون فى عصره مطعنا فى القرآن الكريم .

وهذا نص كلامه « وأما قوله عز وجل : ﴿ والله خلق كل دابة من ماء .. ﴾

قال الملحدون : وفى هذه الآية ! حالة من وجوه ! أحدها أنه خلق كل دابة من ماء وليس الأمر كذلك ، لأن منها مايخلق من بيض وتراب ونطف .. والجواب أن قوله « كل » لايقتضى استغراق الجنس بل هو صالح للتعميم والتخصيص . ولو ثبت العموم لجاز تخصيصه إذ علمنا أن من الدواب مالم يخلق من ماء . على أن من الناس من يقول : أصل الأشياء كلها أربع : الماء والهواء والنار والأرض وكل دابة مركبة من بلة ورطوبة »

والآيتان السابقتان وتعليق الشريف الرضى والباقلانى عليهما لايحتاجان إلى تعقيب ، اللهم إلا القول بأن هذين العالمين قد أتيا بعد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام بعدة قرون أحرز المسلمون أثناءها تقدما علميا كبيرا جدا بالقياس إلى معارف العرب بل والعالم كله فى عصر الرسول ، ومع ذلك فالقرآن على صواب ، وهذان العالمان ، وهما يعكسان معارف عصريهما ، هما المخطئان .

ويمكن أن نلحق بهاتين الآيتين قوله تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء .. ﴾[2] .

فقد فسر البيضاوى ، وهو مفسر متأخر نسبيا (عاش فى القرن الثامن الهجرى) ، عبارة « كأنما يصعد فى السماء على النحو التالى : « شبهه (أى شبه الله من يريد أن يضله) مبالغة فى ضيق صدره بمن يزاول مالايقدر عليه ، فإن صعود السماء مثل فيما يبعد عن الاستطاعة . ونبه به على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع الصعود . وقيل : معناه : كأنما يتصاعد إلى السماء نبوا عن الحق وتباعدا فى الهرب منه . أما تفسير الآية فى ضوء مكتشفات العلم التجريبى ، فهو أن الذى يضله الله يشعر بِنَفَسٍ ضيق الصدر

---

١ - سورة النور آية رقم/ ٤٥
٢ - سورة الأنعام آية رقم/ ١٢٥

الذى يحسه الصاعد فى طبقات الجو العليا حيث الهواء مخلخل فلاتجد الرئتان كفايتهما من الهواء والأكسجين . وأنا ، وإن لم أكن متخصصا فى أى فرع من العلوم الطبيعية ، يصعب علىَّ أن أوافق الدكتور موريس بوكّاى ، الذى يؤكد أن هذه الآية تعبر عن فكرة عادية تماما ، والذى يخالف من يقولون إن فكرة ضيق التنفس كانت مجهولة عند العرب فى عصر الرسول عليه السلام ، لأن وجود مرتفعات عالية تربو على ٣٠٠٠ متر فى شبه الجزيرة العربية يجعل من غير المنطقى فى الآية ، القول بجهل صعوبة التنفس الناشئة عن الارتفاع .

وتنهض مخالفتى للدكتور بوكاى على أساس أن الآية تتحدث عن « التصعد فى السماء » وهو مالم يكن متاحا لأى إنسان فى عصر الرسول عليه السلام (بغض النظر عن حادث المعراج) ولافيما بعده ببضعة عشر قرنا لا « التصعيد فى الجبال » كما يفيد كلامه .

كذلك فإن الرسول عليه السلام ، كما نعرف من سيرته الشريفة ، لم يصعد غير جبلى حراء وثور ، أولهما فى فترة التحنث السابقة على البعثة ، والثانى فى طريقه هو وأبى بكر إلى يثرب . . ولم ترد فى السيرة أية إشارة ، ولو من بعيد ، إلى أى أثر لهذا الصعود على جهازه التنفسى عليه السلام . بل إنى لاأذكر أن أحدا من كتاب السيرة فى العصر الحديث الشديد على تسجيل كل ما يعتريهم أثناء ذلك من تأثرات عضوية أو نفسية . ولم يثبت أن الرسول ﷺ قد زار صنعاء التى يشير إليها الدكتور (بوكاى) بل إنى أستبعد أن يكون سكان مثل هذه المدن العالية فى ذلك العصر ، حتى لو كانوا أحسوا بشىء من هذا ، قد تنبهوا إلى السبب الحقيقى لذلك .

وأحب أن أكرر القول ، كيلا ننسى ، أن القرآن يتحدث عن « التصعد فى السماء » لا « التصعد فى الجبال »

ثم هاهى ذى كتب التفسير القديمة ، لاتجدها حين تبلغ هذه الآية إلا تقول ، إن المقصود هوأن الكافر الذى أغلق قلبه يستحيل عليه الإيمان ، كما يستحيل على أى بشر أن يصعد فى السماء ، وهو مايدل دلالة قاطعة على أن فكرة ضيق التنفس المشار اليها كانت مجهولة لدى هؤلاء المفسرين الذين كانوا بلاشك يعيشون فى ظل حضارة متقدمة أعظم التقدم بالقياس إلى الحياة البدائية التى كان يحياها عرب الجاهلية وعصر المبعث .

وثمة آية أخرى أزانى ، رغم عدم تخصصى كما سلف القول فى أى من العلوم الطبيعية ، مضطرا إلى أن أخالف فى تفسيرها الدكتور بوكاى الذى يكرر كلام المفسرين القدامى . وهذه هى ﴿ **وهو الذى مرج البحرين . هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا** ﴾ وفى تفسيرها يقول د . بوكاى : « معروفة تلك الظاهرة التى كثيرا ماتشاهد عن عدم الاختلاط الفورى لمياه البحر المالحة بالمياه العذبة للأنهار الكبيرة ، ويرى البعض أن القرآن يشير إليها لعلاقتها بمصب نهرى دجلة والفرات ، الذين يشكلان بالتقائهما جسرا ، إذا جاز القول ، طوله اكثر من ١٥٠ كم ، هو شط العرب . وفى الخليج ينتج تأثير المد ظاهرة طيبة هى انحسار الماء العذب إلى داخل الأراضى وذلك يضمن ريا طيبا .

والحقيقة أن هذا التفسير غير مقنع . فمن الناحية اللغوية يصعب على أن أوافق العالم الفرنسى ومفسرينا القدامى ، على أن أداة التعريف فى « البحرين » هنا هى للعهد ، الذى قيل على أساسه إن « البحرين » المذكورين هما دجلة والفرات ، إن الآيات السابقة تتحدث عن الظل (الظلام) والرياح والماء والأنعام والأناسى ، وهى مفاهيم عامة لاتشير إلى ظلام بعينه ، ولارياح بعينها ، ولا ماء معين ، ولا أنعام ، ولا أناسى مخصوصة ، فلم يقال إذن إن « البحرين » هناهما بحران معينان (دجلة والفرات) ؟ إن السياق الذى وردت فيه هذه الكلمة هو سياق عام ، ومن ثم فإن بلاغة الكلام تقتضى أن يكون (البحران) أيضا هما « النهر والبحر » بإطلاق أى أن (الـ) فيهما هى (الـ) الجنس لا العهد ، فهذا من ناحية اللغة والبلاغة ، وفضلا عن ذلك ، فإن ماء النهر مهما توغل بقوة اندفاعه إلى مدى بعيد فى داخل البحر أو المحيط ، يختلط فى النهاية بمائهما ، ومن ثمة كان ظاهر الأمر ، أن النهر يبغى فى البداية على البحر (عندما شق ماءه الملح وأزاحه عن طريقه) ليعود البحر فيبغى فى النهاية عليه (عندما اختلط ماؤه العذب بماء البحر الملح الذى أفقده خاصية العذوبة وأعطاه بدلا منها ملوحته)

فأين البرزخ إذن والحجر المحجور ، أما المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، فإنه يقول فى هامش خصصه للتعليق على هذه الآية ، إنها ربما (تشير إلى نعمة الله على عباده ، بعدم اختلاط الماء الملح المتسرب من البحار فى الصخور القريبة من الشاطىء بالماء العذب المتسرب إليها من البر اختلاطا تاما ، بل إنهما يلتقيان مجرد تلاق : يطفو العذب منها فوق الملح ، كأن بينهما برزخا يمنع بغى أحدهما على الآخر وحجرا محجورا ، أى حاجزا خفيا مستورا لانراه . لكن ثمة نقطة هامة يبدو لى أن كاتبى هذا التعليق ، على رغم جدته وطرافته (بالنسبة لى على الأقل) قد أغفلوها ، إذ إن الماء العذب والماء الملح اللذين يلتقيان فى الشقوق على هذا النحو لايمكن تسميتهما بحرين .

ثم إذا كان الماءان فى هذه الظروف لايلتقيان ، فإنهما فى عرض البحر والمحيط يلتقيان ويتمازجان ويصبحان فى النهاية ماء واحدا ، كما قلنا من قبل ، يبدو لى ، والله أعلم ، أن البرزخ المذكور فى هذه الآية ، هو القوانين التى بمقتضاها بقى كل من الماء العذب والملح ، كل هذه الدهور المتطاولة التى لا يعلم مداها إلا الله ، وسيبقيان إلى أن يرث الله الأرض والسماوات ، فالأنهار تصب فى البحار والمحيطات ، وكان المفروض لو أن الأمر انتهى عند هذا الحد ، أن يختلط الماءان اختلاطا دائما ، فلا ينفصلا بعد ذلك أبدا ، ويصبح كل الماء الموجود على سطح الأرض ماء ملحا .

بيد أن التقدير الإلهى ، قد شاء أن يقوم البحر بحمل الماء من البحار والمحيطات ، فتسوقه الرياح ليسقط على الجبال ، وينحدر إلى الأنهار ماء عذبا كما كان وهكذا دواليك ، وهكذا أيضا يبقى الماء العذب والماء الملح ، ويتعايش البحران دون أن يبغى أحدهما على الآخر ، ويقضى عليه ، فهذا هو البرزخ وهذا هو الحجر المحجور فيما أفهم . والله أعلم .

ثم يستطرد الباحث قائلا : ـ

ونأتى الآن إلى آخر آية أحب أن أتريث عندها قليلا ، وهى قوله تعالى : **﴿ ومايستوى البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج . ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون**

حلية تلبسونها ﴾[1] .

ماأكثر ماقرأت هذه الآية ولكن لم ألتفت إلى ماتنبهت إليه وأفزعنى منذ فترة ليست بالبعيدة ، وهو ماتؤكده الآية من أن الحلى تستخرج من النهر والبحر كليهما ، إذ أن الذى كنت أعرفه حتى ذلك الوقت هو أن اللؤلؤ والمرجان (المذكورين فى آية متشابهة فى سورة « الرحمن »)

لايوجدان إلا فى البحار . وقفز السؤال إلى عقلى على الفور مفزعا « أيمكن أن يكون القرآن قد أخطأ ؟ » . إن ثمة آية أخرى متشابهة فى سورة « الرحمن » ولكنها لاتثير آية مشاكل ، فنصها هو :

﴿ مرج البحرين يلتقيان . بينهما برزخ لايبغيان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ ومعناه أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من مجموع البحرين لا من كل منهما ، كما تقول : « إن فى يدى هاتين مائة جنيه ، ويكون المبلغ كله فى اليد الأولى بينما الثانية خلو تماما من أى نقود ، ولاتكون قد عدوت الحقيقة . أما آية سورة « فاطر » فإنها تقول بصريح العبارة ﴿ ومن كل . . وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ ولم يسعفنى ماعندى من تفاسير قديمة فأخذت أقلب نظرى فى أرفف مكتبتى فأجد فيها شفاء نفسى ، إذ يذكر المترجم ـ رحمه الله ـ (فى تعليقه على هذه الآية فى الهامش) من الحلى البحرى اللؤلؤ والمرجان ، ومن الحلى النهرى العقيق وبرادة الذهب وغيرهما ، ثم رجعت بعد ذلك إلى دائرة المعارف البريطانية .
(مادة Rearl)

والمنتخب من تفسير القرآن الكريم « فوجدت أن اللؤلؤ يوجد أيضا فى المياه العذبة . وكأن الكتاب الأخير يرد على حيرتى إذ يقول :

« وقد يستبعد بعض الناس أن تكون المياه العذبة مصدرا للحلى ، ولكن العلم والواقع أثبتا غير ذلك . أما اللؤلؤ فإنه كما يستخرج من أنواع معينة من البحر ، يستخرج أيضا من أنواع معينة أخرى من الأنهار ، فتوجد اللآلىء فى المياه العذبة فى انجلترا واسكتلندا وويلز وتشيكوسلوفاكيا واليابان . . الخ ، بالاضافة إلى مصايد اللؤلؤ البحرية المشهورة ، ويدخل فى ذلك ماتحمله المياه العذبة من المعادن العالية

---

(١) سورة فاطر آية رقم ١٢

الصلادة كالماس ، الذى يستخرج من رواسب الأنهار الجافة المعروفة باليرقة . ويوجد الياقوت كذلك فى الرواسب النهرية فى موجوك بالقرب من باندالاس فى بورما العليا . أما فى سيام وفى سيلان فيوجد

الياقوت غالبا فى الرواسب النهرية . ومن الأحجار شبه الكريمة التى تستعمل فى الزينة حجر التوباز ويوجد فى الرواسب النهرية فى مواقع كثيرة ومنتشرة فى البرازيل وروسيا (الأورال وسيبريا) وهو فلور

سيليكات الألمونيوم ويغلب أن يكون أصفر أو بنيا والزيركون CIRON حجر كريم جذاب تتقارب خواصه من خواص الماس ، ومعظم أنواعه الكريمة تستخرج من الرواسب النهرية ، وحتى يقدر

القارىء رد فعلى الأولى حق قدره أذكر له أنه حتى بعض المترجمين الأوروبين فى العصر الحديث ، قد استبعدوا أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر الحلى ، وقد تجلى هذا فى ترجمتهم لهذه الآية ، فمثلا نرى رودويل الإنجليزى يترجم الجزء الخاص بالحلى منها هكذا :

Yet from bath yoeat drerh jish, and take jarth for you atname nts to wear .

فعبارة (fram bath) تصلح لترجمة آية سورة الرحمن لا هذه الآية ، كذلك ينقل رودى باريت هذه العبارة إلى الألمانية على النحو الآتى :

Aus beiden est ihr jrisches Fleirch إلى هنا والترجمة صحيحة ، فهذه العبارة تقابل بالضبط قوله تعالى : ﴿ ومن كل تأكلون لحما طريا ﴾ وإن كان استخدم فى مقابل « طريا » كلمة " Irisch ومعناها الدقيق « طازج » لكن تنبه لترجمته للجزء الآتى الذى يقول فيه :

Umd (aus dem S alzmeer)geurmmt ihr Schmwck um ihm euch anzulegen .

والذى ترجمته : « وتستخرجون (من البحر الملح) حلية تلبسونها . ويرى القارىء أن المترجم قد

أضاف من عنده بين قوسين عبارة : « من البحر الملح (aus dem Salzmeer) وهو مايوحى باستبعاده أن تكون الأنهار مصدرا من مصادر اللؤلؤ والعقيق ، وغيرهما من أنواع الحلى على ماتقول الآية الكريمة .

(أما ترجمتا سيل وبالمر (الانجليزيتان) وترجمتا كاز يمريسكى وماسون (الفرنسيتان) وكذلك

ترجمتا ماكس هنخ ومولانا صدر الدين (الألمانيتان) على سبيل المثال فقد ترجمت كل النص القرآنى كما هو ولكنها لزمت الصمت فلم تعلق بشىء .

ويرى القارىء من هذه الآية بالذات كيف ان القرآن قبل أربعة عشر قرنا ، قد أشار إلى حقيقة يستبعدها واحد مثلى يعيش فى القرن العشرين ، وآخرون مثل المستشرق الانجليزى رودويل ونظيره

الألمانى رودى باريت فكيف عرفها محمد إذن وأداها بهذه البساطة لو كان هو مؤلف القرآن ، وبخاصة أن الأنهار التى ذكر أن اللؤلؤ وغيره من الأحجار الكريمة وشبه الكريمة ، تستخرج منها تقع فى بلاد سحيقة بالنسبة للجزيرة العربية ، بل إن بعضها كالبرازيل مثلا لم تكتشف إلا فى العصور الحديثة ؟ أخشى ما أخشاه إذا تنبه المستشرقون لأهمية هذه الآية ؟ أن يزعموا أن سيدنا رسول الله - ﷺ - قد قام برحلات إلى هذه البلاد خفية فى الفترات التى كان يدعى فيها لزوجته أنه ذاهب إلى غار حراء للتحنث . أما كيف كان ذلك فليست هذه مشكلتهم .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾
أى خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدله وجعله كامل الخلقه ذكرا وأنثى كما يشاء . ﴿ فجعله نسبا وصهرا ﴾ فهو فى ابتداء أمره ولد نسيب ثم يتزوج فيصير صهرا ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان ربك قديرا ﴾

* لا معبود إلا الله *

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ
عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى
ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ
أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا
سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ
شُكُورًا ﴿٦٢﴾

* معانى المفردات *

الظهير والمظاهر : المعاون فهو يعاون الشيطان على ربه أى على رسوله بالعداوة .

وسبح بحمده : أى ونزهه وصفه بصفات الكمال ويقال كفى بالعلم جمالا : أى حسبك فلا تحتاج معه إلى غيره . والخبير بالشىء : العليم بظاهره وباطنه وبكل مايتصل به . والبروج : منازل السيارات الأثنى عشر المعروفة التى جمعها بعضهم فى قوله .

حمل الثور جوزة السرطان ورعى الليث سنبل الميزان
ورمى عقرب بقوس لجدى نزح الدلو بركة الحيتان

فهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت وهى منازل الكواكب السيارة السبعة وهى : المريخ وله الحمل والعقرب، والزهرة ولها الثور والميزان، وعطارد وله الجوزاء والسنبلة، والقمر :وله السرطان، والشمس ولها الأسد، والمشترى وله القوس والحوت، وزحل : وله الجدى والدلو .

وهى فى الأصل القصور العالية فأطلقت عليها على طريق التشبيه

والسراج : الشمس .

خلفه : اى يخلف أحدهما الآخر ويقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بسط سبحانه أدلة التوحيد ، وأرشد إلى مافى الكون من باهر الآيات ، وعظيم المشاهدات ، التى تدل على بديع قدرته ، وجليل حكمته ، أعاد الكرة مرة أخرى وبين شناعة أقوالهم وقبيح أفعالهم ، إذ هم مع كل مايشاهدون لايرعوون عن غيهم ، بل هم عن ذكر ربهم معرضون ، فلا يعظمون إلا الأحجار والأوثان ، ومالاينفع فيه إن عبد ومالاضر فيه ان ترك إلى أنهم يظاهرون أولياء الشيطان ويناوئون أولياء الرحمن ، وإن تعجب لشىء فاعجب لأمرهم ، فقد بلغ من جهلهم أنهم يضارون من جاء لنفعهم ، وهو الرسول الذى يبشرهم بالخير العميم . إذا هم أطاعوا ربهم ، وينذرهم بالويل والثبور إذا هم عصوه ثم هو على ذلك لايبتغى أجرا .

ثم أمر رسوله بألا يرهب وعيدهم ، ولايخشى بأسهم ، بل يتوكل على ربه ، ويسبح بحمده ، وينزهه عما لايليق به من صفات النقص كالشريك والولد وهو الخبير بأفعال عباده فيجازيهم بما يستحقون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولا يضرهم ﴾ أى ومن قبائح هؤلاء أنهم بعد ظهور الأدلة ، وقيام البراهين ، ونصب الآيات التكوينية ، عبدوا من دون الله آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولا نشورا .

نعم عبدوا مالاينفعهم لو عبدوه ولا يضرهم إذا تركوا عبادته ﴿ واتخذوا من دونه آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾(١) .

﴿ قال أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وماتعملون ﴾(٢) .

وقال سبحانه ﴿ واتل عليهم نبأ ابراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى الا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾(٣) .

سبحانك ربى :

مافى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها ... رهبا وكل الكائنات توحد
انت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

سبحانه .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾

قال العلامة ابن القيم :

هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه ، وأن المؤمن دائما مع الله على نفسه وهواه وشيطانه

---

(١) سورة مريم الأيتان رقم : ٨١ ، ٨٢
(٢) الصافات الأيتان رقم : ٩٥ ، ٩٦
(٣) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ ـ ٨٢
(٤) سورة فاطر الأيتان : ١٣ ـ ١٤

وعدو ربه ، وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه ، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه ، يحاربهم ويعاديهم ويبغضهم له سبحانه ، كمايكون خواص الملك معه على حرب أعدائه والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به ، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه .

وعبارات السلف على هذا تدور ، وقد ذكر ابن ابى حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال : عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك .

وقال ليث ومجاهد : يظاهر الشيطان على معصيته الله يعينه عليها . وقال : زيد بن اسلم : ظهيرا أى مواليا .

والمعنى : أنه يوالى عدوه على معصيته والشرك به ، فيكون مع عدوه معينا له على مساخط ربه ، فالمعية الخاصة التى للمؤمن مع ربه وإلهه ، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وملذاته .

ولهذا صدر الآية بقوله : ﴿ ويعبدون من دون الله مالاينفعهم ولايضرهم ﴾ وهذه العبارة هى الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة لهم .

فظاهر أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه ، بخلاف وليه سبحانه ، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه .

وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله .

قوله تعالى : ﴿ وما ارسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾

نعم مبشرا بالجنة ، ونذيرا للعصاة بالنار ، فأنت النبى المجتبى ، والرسول المختار ، الذى زكى الله عقله فقال : ﴿ ماضل صاحبكم وماغوى ﴾ ، وزكى لسانه فقال : ﴿ وماينطق عن الهوى ﴾ وزكى شرعه فقال :

﴿ إن هو الا وحى يوحى ﴾ وزكى معلمه فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وزكى فؤاده فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد مارأى ﴾ .

وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ الصبر وماطغى ﴾ وزكى رسالته فقال :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ وزكاه كله فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله

أنت الذى من نورك البدر اكتسى ... والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما ... بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا ... ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفضت دين الشرك ياعلم الهدى ... ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وماعسى ... أن يجمع الكتاب من معناك
صلى عليك الله ياعلم الهدى ... ماشتاق مشتاق إلى مثواك

لقد خاطبك الله بقوله : ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه

وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولاتطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[١] .

واذا كنت انت المبشر النذير فلاتذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون)

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ﴾[٢] .

﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون ﴾[٣]

فبشر الذين يعملون الصالحات بالجنة ، وانذر العصاة من عذاب النار ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ماهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾[٤] .

وكيف يكذبونك ويقفون منك موقف العناد ، وأنت الصادق المعصوم الذى لاتسألهم عن التبليغ أجرا ﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ﴾[٥]

قال تعالى : ﴿ قل ماأسألكم عليه من أجر ﴾[٦] أى أجر اذ النكرة فى سياق النفى تفيد العموم ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ﴾

أى لكن من أراد أن يتخذ لنفسه أجرا عند الله ومثوبة وسبيلا إلى الجنة فليفعل ذلك بالانفاق فى مرضات الله والجهاد فى سبيله .

﴿ وانفقوا فى سبيل الله ولاتلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾[٧] .

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾[٨] .

قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده ﴾

أما أنت أيها النبى ، فلا تأسى على القوم الكافرين ، ولا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد ـ لن يضروك بشىء ولو اجتمعوا على ذلك ، لأن الله تعالى يعصمك من الناس ، فتوكل على الحى الذى لايموت ، وسبح بحمده ، أى قل سبحان الله وبحمده ونزه ربك عن كل نقص تنزيها مصحوبا بالحمد لنعمته ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾

(١) سورة الأحزاب الآيات : ٤٥ ـ ٤٨
(٢) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ ـ ٣٥
(٣) سورة المائدة آية رقم : ٩٩
(٤) الكهف الآيات : ١ ـ ٦
(٥) سورة الطور آية رقم : ٤٠
(٦) سورة (ص) آية رقم : ٨٦
(٧) سورة البقرة آية رقم : ١٩٥
(٨) سورة البقرة آية رقم : ٢٤٥

فهو الذى يعلم ماتكسب كل نفس ، الخبير بدقائق الأشياء ، العليم بحقائقها ، صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

قوله تعالى : ﴿ الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾ .

قال الامام مالك : (الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، فإنه تعالى كان ولا مكان وهو على ماكان قبل خلق المكان لم يتغير عما كان .

سبحانه فلا العرش يحمله ، ولا الكرسى يسنده ، بل الكل محمول بقدرته ، مقهور بارادته ، علم ماكان وعلم مايكون وعلم ماسيكون وعلم مالايكون لو كان كيف كان يكون .

خالق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[١]

كيف يكون له شريك أو ولد ، ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[٢] .

(الرحمن) أى عظيم الرحمة بكم والحدب عليكم ، فلا تعبدوا إلا إياه ، ولا تتوكلوا إلا عليه .

والخلاصة : توكلوا على من لايموت ، وهو رب كل شىء وخالقه ، وخالق السموات السبع على ارتفاعها واتساعها ومافيها من عوالم ، لايعلم كنهها إلا هو ، وخالق الأرض السبع على ذلك الوضع البديع فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ويقضى بالحق .

﴿ فاسأل به خبيرا ﴾ أى فاسأل عن خلق ماذكر خبيرا به يخبرك بحقيقته ، وهو الله سبحانه ، لأنه لايعلم تفاصيل تلك المخلوقات إلا هو .

بيان فضيلة التوكل

يقول حجة الاسلام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى كتابه الإحياء عن فضيلة التوكل :

أما من الآيات فقد قال تعالى : ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾[٣]

وقال عز وجل ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[٤]

وقال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[٥] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله يحب المتوكلين ﴾[٦] .

وأعظم بمقام موسوم بمحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه ، فمن كان الله

(١) سورة الملك الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ - ١٠٤
(٣) سورة المائدة آية : ٢٣
(٤) سورة ابراهيم آية : ١٢
(٥) سورة الطلاق آية : ٣
(٦) سورة آل عمران آية رقم : ١٥٩

تعالى حسبه وكافيه ، ومحبه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم ، فإن المحبوب لايعذب ولايبعد ولايحجب ، وقال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾[١] فطالب الكفاية من غيره ، والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية ، فإنه سؤال فى معرض استنطاق بالحق ، كقوله تعالى : ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهرلم يكن شيئا مذكورا ﴾[٢] .

وقال عز وجل : ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾[٣] اى عزيز لايذل من استجار به ، ولايضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه وحماه ، وحكيم لايقصر عن تدبير من توكل على تدبيره ، وقال تعالى : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾[٤] بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر حاجته مثل حاجتكم ، فكيف يتوكل عليه .

وقال تعالى : ﴿ إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾[٥]

وقال عز وجل : ﴿ ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون ﴾[٦] .

وقال عز وجل : ﴿ يدبر الأمر مامن شفيع إلا من بعد اذنه ﴾[٧] وكل ماذكر فى القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار وأما الأخبار : فقد قال ﷺ فيما رواه ابن مسعود (أريت الأمم فى الموسم فرأيت أمتى قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتنى كثرتهم وهيأتهم فقيل لى أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء تسعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يارسول الله ؟ قال الذين لايكتوون ولايتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى فيهم فقال : رسول الله ﷺ : اللهم اجعله فيهم فقام آخر فقال : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم فقال ﷺ : سبقك بها عكاشة ﴾[٨]

وقال ﷺ : (لو انكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[٩]

---

(١) سورة الزمر آية رقم : ٣٦
(٢) سورة الانسان آية : ١
(٣) سورة الأنفال آية : ٤٩
(٤) سورة الأعراف آية/ ١٩٤
(٥) سورة العنكبوت آية رقم : ١٧
(٦) سورة المنافقون آية : ٧
(٧) سورة يونس آية : ٣
(٨) الحديث رواه البخارى فى الرقاق /٥٠ ، وفى الطب/ ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس/ ١٨ ورواه مسلم فى كتاب الإيمان دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (صحيح مسلم ٣/ ٨٨) ، وأبوعوانه الاسفرائينى (مسند أبى عوانه ١/ ١٤٠ ، ٨٦-٨٧ ورواه الدارمى فى الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢/ ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢
(١) الحديث رواه أحمد فى المسند وفى الزهد والترمذى وقال حسن صحيح والنسائى وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح وأقره الذهبى .
(المسند ١/ ٣٠ ، ٥٢ الزهد/ ٥٨ ، تحفة الأحوذى ٧/ ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ماجاء فى الزهادة ، فيض القدير ٥/ ٣١١ رقم ٧٤٢٠

وقال ﷺ (من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لايحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها)(١)

وقال ﷺ (من سره ان يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما فى يديه)(٢)

ويروى عن رسول الله ﷺ (أنه كان اذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرنى ربى عز وجل قال عز وجل ﴿ وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾(٣)

وقال ﷺ (لم يتوكل من استرقى واكتوى)

وروى أنه لما قال جبريل لابراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمنجنيق ألك حاجة قال أما إليك فلا . . وفاء بقوله حسبى الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمى فأنزل الله تعالى ﴿ وابراهيم الذى وفى ﴾

وأوحى الله تعالى الى داود عليه السلام ياداود مامن عبد يعتصم بى دون خلقى فتكيده السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا(٤)

وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدغتنى عقرب فأقسمت على أمى لتسترقين فناولت الراقى يدى التى لم تلدغ وقرأ الخواص قوله تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت ﴾ إلى آخرها فقال ماينبغى للعبد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى .

وقيل لبعض العلماء فى مقامه : من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته . وقال بعض العلماء لايشغلك المضمون لك من الرزق عن المفروض عليك من العمل ، فتضيع أمر آخرتك ، ولاتنال من الدنيا إلا ماقد كتب الله لك .

وقال يحيى بن معاذ فى وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأمور بطلب العبد .

وقال ابراهيم بن أدهم : سألت بعض الرهبان من اين تأكل فقال لى ليس هذا العلم عندى ولكن سل ربى

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الصغير وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ، واسناد الطبرانى مقارب وابن ابى الدنيا وعن طريقه أخرجه البيهقى فى الشعب قال الحافظ العراقى : لم يسمع منه وفيه أبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم من رواية الحسن بن عمران ،واختلف فى سماعه منه/ورواه عنه أيضا الخطيب وابن أبى حاتم فى تفسيره (الدر المنثور ٦/٢٣٣ ، احياء علوم الدين ٤/ ٢٣٩ سعادة الدارين فى الصلاة على سيد الكونين ص ٦٥١

(٢) الحديث أخرجه الحاكم والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (الاحياء ٤/ ٢٣٩)

(٣) الحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام ـ قال : الحافظ العراقى : ومحمد بن حمزة ابن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيبعد سماعه من جد أبيه ا هـ (الاحياء للغزالى بتخريج العراقى ٤/٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل) وأخرجه أحمد فى الزهد وابن أبى حاتم فى تفسيره عن ثابت رضى الله عنه وعبد الرزاق فى المصنف عن رجل من قريش وأخرجه سعيد بن منصور فى مسنده وابن المنذر فى تفسيره من طريق عثمان عن حمزة بن عبد الله بن سالم (الزهد ص ٤٦ ، سعادة الدارين ص ٦٥١)

(٤) الاحياء للغزالى ٤/ ٢٣٩ أول كتاب التوحيد والتوكل

وأخرجه أحمد فى الزهد عن وهب قال : يقول الله تبارك وتعالى : إذا توكل على عبدى لوكادته السموات والأرض جعلت له من بين ذلك المخرج (الدر المنثور ٦/ ٣٣٤)

من أين يطعمني .

وقال هرم بن حيان لأويس القرني : أين تأمرني أن أكون ، فأومأ إلى الشام ، قال هرم : كيف المعيشة ، قال اويس : أف لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الموعظة ، وقال بعضهم : متى رضيت بالله وكيلا ، وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان ، وجميع أبواب الايمان لاتنتظم إلا بعلم وحال وعمل ، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، وعمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكل فلنبدأ ببيان العلم الذى هو الأصل ، هو المسمى إيمانا فى أصل اللسان ، إذ الايمان هو التصديق ، وكل تصديق بالقلب ، فهو علم ، وإذا قوى سمي يقينا ، ولكن أبواب اليقين كثيرة ، ونحن إنما نحتاج منها إلى مانبنى عليه التوكل ، وهو التوحيد ، الذى يترجمه قولك : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، والايمان بالقدرة الذى يترجم عنه قولك : له الملك ، والايمان بالجود والحكمة ، الذى يدل عليه قولك : وله الحمد ، فمن قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، تم له الايمان الذى هو أصل التوكل ، أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه ، فأما التوحيد فهو الأصل ، والقول فيه يطول ، وهو من علم المكاشفة ، ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ، ولايتم علم المعاملة إلا بها ، فإذن لانتعرض إلا للقدر ، الذى يتعلق بالمعاملة ، وإلا فالتوحيد هو البحر الخضم الذى لاساحل له ، فنقول : للتوحيد أربع مراتب ، وينقسم إلى لب ، وإلى لب اللب ، وإلى قشر ، وإلى قشر القشر ، ولنمثل ذلك تقريبا إلى الأفهام الضعيفة بالجوز فى قشرته العليا ، فإن له قشرتين وله لب ، وللب دهن هو لب اللب ، فالمرتبة الأولى من التوحيد ، هى أن يقول الانسان بلسانه لاإله إلا الله ، وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين ، والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام ، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف ، بواسطة نور الحق ، وهو مقام المقربين ، وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار ، والرابعة الا يرى فى الوجود إلا واحدا ، وهى مشاهدة الصديقين وتسمية الصوفية الفناء فى التوحيد لأنه من حيث لايرى إلا واحدا فلايرى نفسه أيضا ، واذا لم ير نفسه لكونه مستغرقا بالتوحيد ، كان فانيا عن نفسه فى توحيده ، بمعنى أنه فنى عن رؤية نفسه والخلق ، فالأول موحد بمجرد اللسان ، ويعصم ذلك صاحبه فى الدنيا عن السيف والسنان ، والثانى موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه ، وهو عقدة على القلب ، ليس فيه انشراح وانفساح ، ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب فى الآخرة إن توفى عليه ولم تضعف بالمعاصى عقدته ، ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله ، تسمى بدعة ، وله حيل يقصد بها دفع حيلة التحليل والتضعيف ، ويقصد بها أيضا أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما ، والعارف به يسمى متكلما ، وهو فى مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن

تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام ، وقد يخص المتكلم باسم الموحد ، من حيث إنه يحمى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام ، حتى لاتنحل عقدته ، والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد الا فاعلا واحدا إذا انكشف له الحق ، كما هو عليه ولايرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا ، وقد انكشفت له الحقيقة كما هى عليه لا أنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة ، فإن تلك رتبة العوام والمتكلمين إذا لم يفارق المتكلم العامى فى الاعتقاد بل فى صنعة تلفيق الكلام الذى به حيل المبتدع عن تحليل هذه العقدة . والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر فى شهوده غير الواحد .

فلا يرى الكل من حيث أنه كثير ، بل من حيث انه واحد ، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثانى كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب ، وكما أن القشرة العليا من الجوز لاخير فيها ، بل ان أكل فهو مر المذاق ، وان نظر إلى باطنه فهو كريه المنظر ، وان اتخذ حطبا اطفأ النار وأكثر الدخان ، وان ترك فى البيت ضيق المكان ، فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوز للصون ثم يرمى به عنه ، فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر مذموم الظاهر والباطن ، لكنه ينفع مدة فى حفظ القشيرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هى القلب والبدن ، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة ، فإنهم لم يؤمروا بشق القلوب ، والسيف انما يصيب جسم البدن ، وهو القشرة ، وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده ، وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالاضافة إلى القشرة العليا ،فإنها تصون اللب وتحرسه عن الفساد عند الادخار ، وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالاضافة إلى اللب ، وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالاضافة إلى الكشف والمشاهدة ، التى تحصل بانشراح الصدر وانفساحه ، وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو المراد بقوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾[1] وبقوله عز وجل : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[2] .

وكما ان اللب نفيس فى نفسه بالاضافة إلى القشر وكله المقصود ، ولكنه لايخلو عن شوب عصارة بالاضافة إلى الدهن المستخرج منه ، فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالاضافة إلى من لايشاهد سوى الواحد الحق .

فإن قلت : كيف يتصور الا يشاهد الا واحدا ، وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة ، وهى كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا .

فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات ، وأسرار هذا العلم لايجوز أن تسطر فى كتاب ، فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم المعاملة نعم ذكر مايكسر سورة استبعادك ممكن ، وهو أن الشىء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ، ويكون واحدا بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار ، وهذا كما أن الانسان كثير ان التفت الى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه ،

(١) سورة الأنعام آية رقم ١٢٥
(٢) سورة الزمر آية رقم : ٢٢

وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد ، إذ نقول إنه انسان واحد ، فهو بالاضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولايخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما انه فى حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه فى عين الجمع والملتفت إلى الكثرة فى تفرقة فكذلك كل مافى الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة ، فهو بإعتبار واحد من الاعتبارات واحد ، وباعتبارات أخرى سواه كثيرة بعضها أشد كثرة من بعض ، ومثاله الإنسان وأن كان لايطابق الغرض ، ولكنه ينبه فى الجملة على كيفية مصير الكثرة فى حكم المشاهدة واحدا ، ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق ، فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب ، وان لم يكن ماآمنت به صفتك ، كما أنك اذا آمنت بالنبوة وان لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقدر قوة إيمانك ، وهذه المشاهدة التى لايظهر منها إلا الواحد الحق تارة ، وتارة تطرأ كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام .

نادر عزيز وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج ، حيث رأى الخواص يدور فى الأسفار ، فقال : فبماذا أنت فقال : أدور فى الأسفار لأصحح حالتى فى التوكل ، وقد كان من المتوكلين ، فقال الحسين : أفنيت عمرك فى عمران باطنك ، فأين الفناء فى التوحيد ، فكأن الخواص كان فى تصحيح المقام الثالث فى التوحيد ، فطالبه بالمقام الرابع ، فهذه مقامات الموحدين فى التوحيد على سبيل الإجمال .

فإن قلت فلابد لهذا من شرح بمقدار مايفهم كيفية ابتناء التوكل عليه .

فأقول : أما الرابع فلا يجوز الخوض فى بيانه ، وليس التوكل أيضا مبينا عليه ، بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث وأما الأول وهو النفاق فواضح

وأما الثانى وهو الاعتقاد فهو موجود فى عموم المسلمين ، وطريق تأكيده بالكلام ، ودفع حيل المبتدعة فيه مذكور فى علم الكلام ، وقد ذكر فى كتاب الاقتصاد فى الاعتقاد القدر المهم منه .

وأما الثالث : فهو الذى يبني عليه التوكل ، إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لايورث حال التوكل ، فلنذكر منه القدر الذى يرتبط التوكل به ، دون تفصيله ، الذى لايحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك ان لافاعل إلا الله تعالى ، وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وفقر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم فالمنفرد بابداعه واختراعه هو الله عز وجل لاشريك له فيه ، وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره ، بل كان منه خوفك وإليه رجاؤك وبه ثقتك وعليه اتكالك ، فإنه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخرون لااستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض ، وإذا انفتحت لك ابواب المكاشفة اتضح لك هذا ايضاحا أتم من المشاهدة بالبصر ، وإنما يصدك الشيطان عن هذا التوحيد فى مقام يبتغى به ان يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين :

أحدهما الالتفات الى اختيار الحيوانات الثانى الالتفات إلى الجمادات

أما الالتفات إلى الجمادات ، فكاعتمادك على المطر فى خروج الزرع ونباته ونمائه ، وعلى الغيم فى نزول المطر ، وعلى البرد فى اجتماع الغيم وعلى الريح فى استواء السفينة وسيرها ، وهذا كله شرك فى

التوحيد وجهل بحقائق الأمور ولذلك قال تعالى :
﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾(١) .

قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجونا ، ومن انكشف له امر العالم كما هو عليه ، علم ان الريح هو الهواء والهواء لايتحرك بنفسه مالم يحركه محرك ، وكذلك محركه وهكذا الى أن ينتهى الى المحرك الأول ، الذى لامحرك له ولا هو متحرك فى نفسه ـ عز وجل ـ فالتفات العبد فى النجاة إلى الريح يضاهى التفات من أخذ لتجز رقبته فكتب الملك توقيعا بالعفو عنه وتخليته ، فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذى به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لاحكم له فى نفسه وانما هو مسخر فى يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطر بباله القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم فى الأرض وكل حيوان وجماد مسخرات فى قبضة القدرة كتسخير القلم فى يد الكاتب ، بل هذا تمثيل فى حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع ، والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى : ﴿ ومارميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾(٢) .

فإذا انكشف لك ان جميع مافى السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه ، انصرف عنك الشيطان خائفا ، وأيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك ، فأتاك فى المهلكة الثانية وهى الالتفات الى إختيار الحيوانات فى الافعال الاختيارية ، ويقول كيف ترى الكل من الله ، وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره ، فإن شاء أعطاك وان شاء قطع عنك ، وهذا الشخص هو الذى يحز رقبتك بسيفه ، وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك ، وإن شاء عفى عنك ، فكيف لاتخافه وكيف لا ترجوه ، وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ، ويقول له ايضا نعم ان كنت لاترى القلم لأنه مسخر فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو المسخر له ، وعند هذا زلت اقدام الأكثرين الا عباد الله المخلصين ، الذين لاسلطان عليهم للشيطان اللعين ، فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخرا مضطرا ، كما نشاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخرا ، وعرفوا أن غلط الضعفاء فى ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد ، فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع ، فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو المسود للبياض ، وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم ، لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للاسلام ، قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل ، فوقف فى الطريق على الكاتب ، وهو جهل محض ، بل أرباب القلوب والمشاهدات قد أنطق الله تعالى فى حقهم كل ذرة فى السموات والأرض ، بقدرته التى بها نطق كل شىء ، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى ، وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق ، تتكلم بلا حرف ولا صوت ، لايسمعه الذين هم عن السمع معز ولون ، ولست أعنى به السمع الظاهر الذى لايجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم ، وإنما أريد

(١) العنكبوت آية رقم ٦٥
(٢) سورة الأنفال آية رقم/ ١٧

به سمعا يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي .

فإن قلت فهذه أعجوبة لايقبلها العقل ، فصف لى كيفية نطقها ، وأنها كيف نطقت ، وبماذا نطقت ، وكيف سبحت وقدست ، وكيف شهدت على نفسها بالعجز ، فاعلم أن لكل ذرة فى السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة فى السر ، وذلك مما لاينحصر ولا يتناهى ، فانها كلمات تستمد من بحر كلام الله تعالى الذى لانهاية له ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر ﴾[1] الآية . .

ثم أنها تتناجى بأسرار الملك والملكوت ، وإفشاء السر لؤم بل صدور الأحرار قبور الأسرار ، وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك ، قد نوجى بخفاياه ، فنادى بسره على ملأ من الخلق ، ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال النبى - ﷺ - (لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)

بل كان يذكر ذلك لهم حين يكون ولايضحكون ولما نهى عن إفشاء سر القدر ، ولما قال (إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابى فأمسكوا)

ولما خص حذيفة رضى الله عنه ببعض الأسرار فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان :

أحدهما استحالة افشاء السر .

الثانى خروج كلماتها عن الحصر والنهاية ، ولكن فى المثال الذى كنا فيه وهى حركة القلم نحكى من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الاجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ، ونرد كلماتها إلى الحروف والأصوات ، وان لم تكن هى حروفا وأصواتا ولكن هى ضرورة التفهيم فنقول :

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد ، وقد رآه أسود وجهه بالحبر ، مابال وجهك كان أبيض مشرقا ، والآن قد ظهر عليه السواد ، فلم سودت وجهك ، وما السبب فيه فقال الكاغد :

ماانصفتنى فى هذه المقالة ، فأنى ماسودت وجهى بنفسى ، ولكن سل الحبر ، فانه كان مجموعا فى المحبرة التى هى مستقره ، ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحة وجهى ظلما وعدوانا ، فقال : صدقت ، فسأل الحبر عن ذلك فقال :

ماأنصفتنى ، فإنى كنت فى المحبرة وادعا ساكنا عازما على أن الا أبرح منها ، فاعتدى على القلم بطمعه الفاسد ، واختطفنى من وطنى وأجلانى عن بلادى ، وفرق جمعى ويددنى كما ترى على ساحة بيضاء ، فالسؤال عليه لا على ، فقال : صدقت ، ثم سأل القلم عن السبب فى ظلمه وعدوانه وإخراج الحبر من أوطانه ، فقال سل اليد والأصابع ، فإنى كنت قصبا نابتا على شط الأنهار ، متنزها بين خضرة الأشجار ، فجاءتنى اليد بسكين فنحت عنى قشرى ، وفرقت عنى ثيابى واقتلعتنى من أصلى ، وفصلت بين انابيبى ، ثم برتنى وشقت رأسى ثم غمستنى فى سواد الحبر وحرارته ، وهى تستخدمنى وتمشينى على قمة رأسى .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ١٠٩

ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك وعتابك ، فتنح عنى وسل من قهرنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له ، فقالت اليد : ما أنا إلا لحم وعظم ودم ، وهل رأيت لحما يظلم أو جسما يتحرك بنفسه ، وإنما أنا مركب مسخر ركبنى فارس يقال له القدرة والعزة فهى التى ترددنى وتجول فى نواحى الأرض ، أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شىء منها مكانه ، ولا يتحرك بنفسه ، إذا لم يركبه مثل هذا الفارس القوى القاهر ، أما ترى أيدى الموتى تساوينى فى صورة اللحم والعظم والدم ، ثم لا معاملة بينها وبين القلم ، فأنا أيضا من حيث أنا لا معاملة بينى وبين القلم ، فسل القدرة عن شأنى ، فإنى مركب أزعجنى من ركبنى ، فقال : صدقت ، ثم سأل القدرة عن شأنها فى استعمالها اليد وكثرة استخدامها وترديدها ، فقالت : دع لومى ومعاتبتى فكم من لائم ملوم ، وكم من ملوم لا ذنب له ، وكيف خفى عليك أمرى ، وكيف ظننت انى ظلمت اليد لما ركبتها ، وقد كنت لها راكبة قبل التحريك ، وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بى أنى ميتة أو معدمة ، لأنى ما كنت أتحرك ولا احرك ، حتى جاءنى موكل أزعجنى وارهقنى إلى ما تراه منى ، فكانت لى قوة على مساعدته ، ولم تكن لى قوة على مخالفته ، وهذا الموكل يسمى الارادة ولا أعرفه الا باسمه وهجومه وصياله ، إذ أزعجنى من غمرة النوم ، وارهقنى إلى ما كان لى مندوحة عنه لو خلانى ورأيى ، فقال : صدقت ، ثم سأل الارادة ما الذى جرأك على هذه القدرة الساكنة المطمئنة ، حتى حدفتها إلى التحريك ، وأرهقتها اليه إرهاقا لم تجد عنه مخلصا ولا مناصا ، فقالت : الارادة : لا تعجل على فلعل لنا عذرا ، أو أنت تلوم ، فإنى ما انتهضت بنفسى ولكن انهضت وما انبعثت ، ولكنى بعثت بحكم قاهر وأمر حازم ، وقد كنت ساكنة قبل مجيئه ، ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة ، فأشخصتها باضطرار ، فإنى مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ، ولا ادرى بأى جرم وقفت عليه وسخرت له وألزمت طاعته ، لكنى أدرى انى فى دعة وسكون ، ما لم يرد على هذا الوارد القاهر ، وهذا الحاكم العادل أو الظالم ، وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته الزاما ، بل لا يبقى لى معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمرى مادام هو فى التردد مع نفسه والتحير فى حكمه ، فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأنى ودع عنى عتابك ، فإنى كما قال القائل :

متى ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

فقال : صدقت ، وأقبل على العلم والقلب مطالبا لهم ومعاتبا إياهم على استنهاض الارادة وتسخيرها لاشخاص القدرة ، فقال العقل : أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ، ولكن أشعلت ، وقال القلب : اما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت ، وقال العلم أما أنا فنقش نقشت فى بياض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى ، فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عنى ، فسل القلم عنى ؛ لان الخط لا يكون إلا بالقلم ، فعند ذلك تتعتع السائل ولم يقنعه جواب ، وقال : قد طال تعبى فى هذا الطريق وكثرت منازلى ولا يزال يحيلنى من طمعت فى معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكن

كنت أطيب نفسا بكثرة التراداد لما كنت أسمع كلاما مقبولا فى الفؤاد ، وعذرا ظاهرا فى دفع السؤال ، فأما قولك إنى خط ونقش ، وإنما خطنى قلم فلست أفهمه ، فإنى لا أعلم قلما إلا من القصب ، ولا لوحا إلا من الحديد أو الخشب ، ولا خطا إلا بالحبر ، ولا سراجا إلا من النار ، وإنى لأسمع فى هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ، ولا أشاهد من ذلك شيئا ، أسمع جعجعة ولا أرى طحنا ، فقال له القلم : ان صدقت فيما قلت ، فبضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف واعلم ان المهالك فى الطريق التى توجهت اليها كثيرة ، فالصواب لك ان تنصرف وتدع ما أنت فيه ، فما هذا بعشك ، فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له ، وإن كنت راغبا فى استتمام الطريق الى المقصد ، فألق سمعك وأنت شهيد . واعلم أن العوالم فى طريقك هذا ثلاثة : عالم الملك والشهادة أولها ، ولقد كان الكاغد والحبر والقلم واليد من هذا العالم ، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، والثانى عالم الملكوت ، وهو رائى فاذا جاوزتنى انتهيت إلى منازله ومنه المهامه والنيح ، والجبال الشاهقة ، والبحار المفرقه ، ولا أدرى كيف تسلم فيها . والثالث عالم الجبروت ، وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ، ولقد قطعت منها ثلاث منازل ، فى أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم ، وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت ؛ لأن عالم الملك أسهل منه طريقا ، وعالم الملكوت أوعر منه نهجا ، وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت ، يشبه السفينة التى هى فى الحركة بين الأرض والماء ، فلاهى فى حد اضطراب الماء ، ولا هى فى حد سكون الارض وثباتها ، وكل من يمشى على الأرض يمشى فى عالم الملك والشهادة ، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة ، كان كمن يمشى فى عالم الجبروت ، فإن انتهى إلى أن يمشى على الماء من غير سفينة ، مشى فى عالم الملكوت من غير تتعتع ، فإن كنت لا تقدر على المشى على الماء فانصرف ، فقد جاوزت الارض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الماء الصافى ، وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذى يكتب به العلم فى لوح القلب ، وحصول اليقين الذى يمشى به على الماء ، اما سمعت قول رسول الله ﷺ فى عيسى عليه السلام : (لو ازداد يقينا لمشى على الهواء) لما قيل له إنه كانَ يمشى على الماء ، فقال السالك السائل : قد تحيرت فى أمرى واستشعر قلبى خوفا مما وصفته من خطر الطريق ، ولست أدرى أطيق قطع هذه المهامة التى وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك ، واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى ، فإن ظهر لك القلم الذى به أكتب فى لوح القلب ، فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق ، فإن كل من جاوز عالم الجبروت ، وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، اما ترى ان النبى ﷺ فى أول امره كوشف بالقلم إذ أنزل عليه ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ فقال السالك : لقد فتحت بصرى وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ، ولا أعلم قلما إلا كذلك ، فقال العلم لقد أبعدت النجعة ، أما سمعت ان متاع البيت يشبه رب البيت ، أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات ، فكذلك لا تشبه يده الأيدى ، ولا قلمه الأقلام ، ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط ، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت ، فليس الله تعالى فى ذاته بجسم ولا هو فى مكان ، بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدى ، ولا قلمه من قصب ، ولا لوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ،

ولا خطه رقم ورسم ولا حبره زاج وعفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا ، فما أراك إلا مخنثا بين فحولة التنزيه وأنوثة التشبيه ، مذبذبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فكيف نزهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها ، ونزهت كلامه عن معانى الحروف والأصوات ، وأخذت تتوقف فى يده وقلمه ولوحه وخطه ، فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ : (إن الله خلق آدم على صورته)[1] الصورة الظاهرة المدركة بالبصر ، فكن مشبها مطلقا ، كما يقال كن يهوديا صرفا ، وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت شبه الصورة الباطنة ، التى تدرك بالبصائر لا بالأبصار ، فكن منزها صرفا ومقدسا فحلا واطو الطريق ، فإنك بالواد المقدس طوى ، واستمع بسر قلبك لما يوحى ، فلعلك تجد على النار هدى ، ولعلك من سرادقات العرش تنادى بما نودى به موسى ﴿ إنى أنا ربك ﴾[2] فلما سمع السالك من العلم ذلك ، استشعر قصور نفسه ، وأنه مخنث بين التشبيه والتنزيه ، فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ، ولقد كان زيته الذى فى مشكاة قلبه يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته ، فاصبح نورا على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة ، وافتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ، ففتح بصره ، فانكشف له القلم الإلهى ، فإذا هو كما وصفه العلم فى التنزيه ، ما هو من خشب ولا قصب ، ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام فى قلوب البشر كلهم أصناف العلوم ، وكان له فى كل قلب رأس ولا رأس له ، فقضى منه العجب ، وقال نعم الرفيق العلم فجزاه الله تعالى عنى خيرا ، إذ الآن ظهر لى صدق أنبائه عن أوصاف القلم ، فإنى أراه قلما لا كالأقلام ، فعند هذا ودع العلم وشكره ، وقال قد طال مقامى من عندك ، ومرادى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم ، وأسأله عن شأنه ، فسافر إليه وقال له : ما بالك أيها القلم ، تخط على الدوام فى القلوب من العلوم ما تبعث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفها الى المقدورات فقال : أوقد نسيت ما رأيت فى عالم الملك والشهادة ، وسمعت من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد ، قال : لم أنس ذلك ، قال : فجوابى مثل جوابه ، قال : كيف وأنت لا تشبهه ، قال القلم : اما سمعت الله تعالى خلق آدم على صورته ، قال : نعم ، قال : فسل عن شأنى الملقب بقين الملك ، فإنى فى قبضته ، وهو الذى يرددنى وأنا مقهور مسخر ، فلا فرق بين القلم الالهى وقلم الأدمى فى معنى التسخير ، وإنما الفرق فى ظاهر الصورة ، فقال : فمن يمين الملك ، فقال القلم : أما سمعت قوله تعالى : ﴿ والسموات مطويات بيمينه ﴾[3] قال : نعم ، قال : والاقلام ايضا فى قبضة يمينه ، هو الذى يرددها ، فسافر السالك من عنده إلى اليمين ، حتى شاهده ، ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ، لا يجوز وصف شىء من ذلك ، ولا شرحه بل لا تحوى مجلدات.

كثيرة عشر عشير وصفه ، والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمان ، يد لا كالأيدى ، وأصبع لا كالأصابع ،

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاستئذان رقم ١ ، ومسلم فى كتاب البر حديث رقم ١١٥ ، وفى كتاب الجنة حديث رقم ٢٨ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٤ ، ٣١٥ ، ٣٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٦٣ ، ٥١٩.

(٢) سورة طه الآية رقم : ١٢

(٣) سورة الزمر الآية رقم : ٦٧

فرأى القلم محركا فى قبضته ، فظهر له عذر القلم ، فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم ، فقال : جوابى مثل ما سمعته من اليمين التى رأيتها فى عالم الشهادة ، وهى الحوالة على القدرة ، إذ اليد لا حكم لها فى نفسها ، وإنما محركها القدرة لا محالة ، فسافر السالك إلى عالم القدرة ، ورأى فيه من العجائب ما استحضر عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين ، فقالت : إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العمدة على الموصوفات لا على الصفات ، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال ، فثبت بالقول الثابت وقيل : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) فخر صعقا يضطرب فى غشيته ، فلما أفاق ، قال : سبحانك ما أعظم شأنك ، تبت إليك وتوكلت عليك ، وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار ، فلا أخاف غيرك ، ولا أرجو سواك ، ولا أعوذ الا بعفوك من عقابك ، وبرضاك من سخطك ، وما لى إلا أن أسألك واتضرع إليك ، وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لى صدرى لأعرفك ، واحلل عقدة من لسانى ، لأثنى عليك ، فنودى من وراء الحجاب ، إياك ان تطمع فى الثناء ، وتزيد على سيد الأنبياء ، بل ارجع اليه ، فما آتاك فخذه ، وما نهاك عنه ، فانته عنه ، وما قاله لك فقله ، فإنه ما زاد فى هذه الحضرة على أن قال (سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) .

من أقوال الرسول ﷺ
فى التوكل واليقين

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى ليس معه أحد إذ رفع لى سواد عظيم فظننت انهم أمتى فقيل لى : هذا موسى وقومه ، ولكن انظر إلى الافق فنظرت ، فإذا سواد عظيم ، فقيل لى : انظر إلى الافق الآخر ، فإذا سواد عظيم ، فقيل له : هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب فقال بعضهم فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم : فلعلهم الذين ولدوا فى الاسلام فلم يشركوا بالله ـ وذكروا أشياء ـ فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال : (ما الذى تخوضون فيه ؟) فاخبروه فقال : (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون) فقام عكاشة بن محض فقال : (ادع الله ان يجعلنى منهم فقال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلنى منهم فقال سبقك بها عكاشة)[1] . متفق عليه .

« الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : و « الأفق » الناحية والجانب . « سواد عظيم » أى اشخاص كثيرة « لايسترقون » لا يطلبون الرقية من غيرهم . « ولا يتطيرون » أى لا يتشاءمون بالطيور ونحوها . و « عكاشة » بضم العين وتشديد الكاف صحابى من أصحاب الرسول ﷺ .

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق / ٥٠ ، وفى الطب / ١٧ ، ٤٢ ، وفى اللباس / ١٨ ، ومسلم فى كتاب الايمان ـ دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (صحيح مسلم ٣ / ٨٨) ، وأبو عوانة الاسفرائينى (مسند أبى عوانه ١ / ١٤٠ ، ٨٦ ـ ٨٧) ، والدارمى فى كتاب الرقاق ٨٦ ، ١٠٢ ، وأحمد ٢ / ٣٠٢ ، ٣٥١ ، ٤٠١ ، ٤٥٦ ، ٥٠٢ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أيضا ان رسول الله ﷺ كان يقول (اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت : اللهم أعوذ بعزتك ، لا إله إلا أنت ان تضلنى أنت الحى الذى لا تموت والجن والانس يموتون)(١) . متفق عليه « لك اسلمت » استسلمت لحكمك وامرك . « وأنبت » رجعت إلى عبادتك ، والاقبال على ما يقرب منك « وبك خاصمت » اعداء الدين .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما ايضا قال : « حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى فى النار ؟ وقالها محمد ﷺ حين قالوا إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل) (رواه البخارى) .

وفى رواية للبخارى أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : (كان آخر قول إبراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل ﴾(٢) .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير »(٣) رواه مسلم

قيل معناه متوكلون وقيل قلوبهم رقيقة .

وعن جابر رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ بذات الرقاع فإذا آتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله ﷺ : معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافنى ؟ قال : لا ، فقال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله .

وفى رواية لأبى بكر الاسماعيلى فى صحيحه ـ فقال من يمنعك منى ؟

قال : الله . فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ وسلم السيف فقال من يمنعك منى ؟ فقال كن خير آخذ فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ؟ قال لا ولكنى أعاهدك الا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك فخلى سبيله فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس)(٤) متفق عليه

وعن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن معناه

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم / ١ ، وفى كتاب الدعوات رقم / ٩ ، وفى كتاب التوحيد رقم ٨ ، ٢٤ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١١٩ ، وفى كتاب الذكر حديث رقم ٦٨ ، وابو داود فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، والترمذى فى أبواب الدعوات رقم / ٢٩ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم / ٩ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم / ١٨٠ والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٦٩ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب القرآن رقم / ٣٤ ، وأحمد فى مسنده ١ / ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣٥٨ .

(٢) راجع فتح البارى ٩ / ٢٩٧ كتاب التفسير (سورة آل عمران) باب قوله : الذين قال لهم الناس ... الخ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة / ٢٧ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٣٣١ .

(٤) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٣١١ ، وأحمد فى مسنده ٣ / ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠ (وليس متفقا عليه كما ذكر)

(٥) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١ / ٣٠ ، ٥٢ ، وفى الزهد ص ٥٨ ، والترمذى فى جامعه وقال حسن صحيح (تحفة الأحوذى ٧ / ٨ حديث رقم ٢٤٤٧ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ، والنسائى فى سننه ، وابن ماجه والحاكم فى كتاب الرقائق وقال صحيح واقره الذهبى (فيض القدير ٥ / ٣١١ رقم ٧٤٢) .

تذهب أول النهار خماصا : أى ضامرة البطون من الجوع وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .

وعن ابى عمارة البراء بن عازب رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (يافلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك : وفوضت أمرى إليك والجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت ، فإنك إن مت من ليلتك مت على الفطرة وإن أصبحت أصبت خيرا)[1] متفق عليه وفى رواية فى الصحيحين عن البراء قال : قال لى رسول الله ﷺ : (إذا آتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل وذكر نحو هذا الحديث ثم قال : واجعلهن آخر ما تقول)[2] .

(أسلمت نفسى) أى جعلتها منقادة لك ، طائعة لحكمك ، راضية بقضائك ، قانعة بقدرك ، والجأت : أى اسندت « ظهرى إليك » إلى حفظك ، رغبة ورهبة إليك ، أى طمعا فى ثوابك وخوفا من عقابك . آمنت بكتابك الذى انزلت : أى القرآن وقوله ﷺ : « على الفطرة أى على الايمان » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه قال : (نظرت إلى أقدام المشركين ونحن فى الغار وهم على رءوسنا فقلت : يارسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا . فقال : ما ظنك ياأبا بكر باثنين الله ثالثهما)[3] متفق عليه .

ومعنى (الله ثالثهما) أى بالنصر والمعونة والحفظ ، أيصيبهما ضيم ؟ وعن أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها ان النبى ﷺ (كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله توكلت على الله : اللهم إنى أعوذ بك ان أضل أو أضل أو أزل أو أزل ، أو أظلم او أظلم أو أجهل أو يجهل على)[4] .

ومعنى « ان اضل » بفتح أوله وكسر الضاد المعجمة أى أغيب عن معالى الأمور أو أضل « بضم ففتح » أى يضلنى غير . . أو أزل فتح فكسر أى أزل عن الطريق المستقيم أو « أزل » بضم ففتح أى يستولى على من يزلنى عن معالى الأمور إلى سفسافها .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قال : (هذه إذا خرج من بيته : ـ بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . وفى رواية أبى داود فيقول يعنى الشيطان ـ لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدى وكفى ووقى ؟)[5] .

---

(١) الحديث فى عمدة القارىء ٢٥ / ١٥٦ ـ ١٥٧ كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى أنزله بعلمه ، صحيح مسلم ١٧ / ٣٣ ـ وفى فتح البارى ١٧ / ٢٤١ : بلفظ : أصبت أجرا .

(٢) وفى رواية للبخارى وأبى داود : فإن مت مت على الفطرة واجعلهم آخر ما تقول (فتح البارى ١٣ / ٣٥٥ ـ ٣٥٧ ، عون المعبود ١٣ / ٣٨٩) .

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ رقم /٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ٩ ، ١١ وأحمد فى مسنده ١ / ٤ .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الأدب رقم ١٠٣ والترمذى فى أبواب الدعوات رقم /٢٨ ، والنسائى فى كتاب الاستعاذة رقم ٣٠ ، ٦٥ ، وابن ماجه فى أبواب الدعاء رقم / ١٨ ، وأحمد فى مسنده ٦ / ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٢

(٥) الحديث رواه أبو داود والترمذى وقال بحسن صحيح غريب وابن السنى وعبد الرزاق فى مصنفه .
(عون المعبود ١٣ / ٤٣٧ ـ ٤٣٨ كتاب الأدب ـ باب ما يقول إذا خرج من بيته ، تحفة الاحوذى ٩ / ٣٨٤ أبواب الدعوات ، باب ما يقول الرجل إذا خرج من بيته ، عمل اليوم والليلة ص ٧٥ رقم ١٧٧ باب ما يقول إذا خرج من بيته ، المصنف ٥ / ٣٢ ـ ٣٣ رقم ١٩٨٢٧) .

وعن أنس رضى الله عنه قال : (كان أخوان على عهد النبى ﷺ وكان أحدهما يأتى النبى ﷺ والآخر يحترف ، فشكا المحترف أخاه للنبى ﷺ فقال : لعلك ترزق به)[١] رواه الترمذى بإسناد صحيح ومعنى « يحترف » أى يكتسب ويتسبب .

قوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾

ومن قبائح هؤلاء الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، أنهم كانوا إذا أمروا بالسجود للرحمن ، سألوا متجاهلين ، وما الرحمن نحن لا نعرف إلا رحمن اليمامة ، وهكذا لجوا فى طغيانهم يعمهون ، وفى دينيهم يترددون ، ثم ازدادوا فسوقا وعصيانا ، فقالوا نسجد لما تأمرنا ، قالوها تهكما واستهزاء ويوم القيامة سيعضون على أيديهم ندما ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾[٢]

وقد كان موقف فرعون مشابها لموقفهم ، لما قالوا وما الرحمن ؟ فقد قال فرعون لموسى : وما رب العالمين ؟ وهو يعلم علم اليقين ما رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لاظنك يافرعون مثبورا ﴾[٣] .

روى الضحاك أن رسول الله ﷺ وأصحابه سجدوا ، فلما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية المسجد مستهزئين ، وقد ورد فى فضل سجود التلاوة ، قوله ﷺ إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويله أمر بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار)[٤] رواه احمد ومسلم وابن ماجه عن أبى هريرة .

(والويل : الهلاك يقصد نفسه : أى ياحزن الشيطان وياهلاكه) .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك اجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود قال ابن عباس فرأيت النبى ﷺ ، قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد : كما حكى الرجل عن كلام الشجرة)[٥] رواه الترمذى .

وحكم هذا السجود كما بين العلماء : فقد ذهب جمهور العلماء إلى ان سجود التلاوة سنة للقارىء والمستمع ، لما رواه البخارى عن عمر انه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى جاء السجدة ، فنزل وسجد وسجد الناس حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى إذا جاء السجدة قال ياأيها الناس

(١) الحديث رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح : صحيح الترمذى بشرح الامام ابن العربى ٩ /٢٠٨ أبواب الزهد ، باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ـ الطبعة الاولى ١٣٥٣ هـ مصطفى البابى الحلبى .

(٢) سورة ن الآية رقم ٤٢ ، ٤٣

(٣) سورة الاسراء آية رقم ١٠١ ، ١٠٢

(٤) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢ /٤٤٣ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠ .

(٥) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفى أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠

إنا لم نؤمر بالسجود فمن سجد فقد أصاب ومن لم يسجد فلا إثم عليه .

لقد اشترط جمهور الفقهاء لسجود التلاوة ما اشترطوه للصلاة من طهارة واستقبال قبلة وستر عورة .

ومن سجد سجود التلاوة دعا بما شاء ، وقد صح عن رسول الله ﷺ انه كان يقول فى سجوده (سجد وجهى للذى خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين)[١] رواه الخمسة إلا ابن ماجه

وبالنسبة لسجود التلاوة فى الصلاة : يجوز للامام والمنفرد ان يقرأ كل منهما آية السجدة فى الصلاة الجهرية والسرية ، ويسجد متى قرأها روى البخارى ومسلم عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة رضى الله عنه : صلاة العتمة أو قال صلاة العشاء فقرأ : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد فيها فقلت ياأبا هريرة ما هذه السجدة ؟ فقال سجدت فيها خلف أبى القاسم ﷺ فلا أزال أسجدها حتى ألقاه[٢] قال النووى : لا يكره قراءة للسجدة عندنا للامام كما لا يكره للمنفرد ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد متى قرأها .

ومواضع السجود فى القرآن الكريم خمسة عشر موضعا فى سورة (الاعراف آية ٢٠٦) ، (الرعد آية ١٥) ، (النحل آية ٤٩) ، (الاسراء آية ١٠٧) ، (مريم آية ٥٨) ، (الحج آية ١٨) ، (الحج آية ٧٧) ، (الفرقان آية ٦٠) ، (النمل آية ٢٥) ، (السجدة آية ١٥) (ص آية ٢٤) ، (فصلت آية ٣٧) ، (النجم آية ٦٢) ، (الانشقاق آية ٢١) ، واسجد واقترب ـ العلق آية ١٩) .

فتأمل حال السعداء من حال الاشقياء ، السعداء إذا امروا بالسجود خروا سجدا وبكيا ، الاشقياء إذا أمروا بالسجود قالوا : ﴿ أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا ﴾ .

كان سفيان الثورى يقول فى هذه الآية : إلهى زدنى لك خضوعا ، ما زاد عداك نفورا .

ثم يأتى الجواب قاطعا والبرهان ساطعا عما سألوا عنه ، انهم لما قالوا : وما الرحمن ! جاءتهم الاجابة من قبل الرحمن فى قوله تعالى ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ، وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ .

أى تقدس ربنا الذى جعل فى السماء نجوما كبارا عدها المتقدمون نحو ألف وعدها علماء العصر الحاضر بعد كشف آلات الرصد الحديثة أكثر من مائتى ألف ألف ولا يزال البحث يكشف كل حين منها جديدا ، وجعل فيها شمسا متوقدة وقمرا مضيئا .

ثم بين آية أخرى من آيات قدرته وفيها الدليل على وحدانيته فقال سبحانه : ﴿ وهو الذى جعل

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٠١ ، وفى كتاب الجنائز حديث رقم ٧ ، وأبو داود فى كتاب الصلاة رقم ١١٩ ، وفى السجود ٧ ، وفى كتاب الجنائز رقم ١٧ ، والترمذى فى أبواب الجمعة رقم ٥٥ ، وفى أبواب الدعوات رقم ٣٣ ، والنسائى فى كتاب التطبيق رقم ٦٧ /٧٠ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ٧٠ ، وفى أبواب الجنائز رقم ٦ ، وأحمد فى مسنده ٦/ ٣١ ، ٢١٧ ، ٢٩٧

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأذان رقم١٠٠ ، ١٠١ ، وفى كتاب السجود رقم ١١ ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ١١٠ .

الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ أى وهو الذى جعل الليل والنهار متعاقبين يخلف أحدهما الآخر ، فيكون فى ذلك عظة لمن أراد ان يتعظ باختلافهما ويتذكر آلاء الله فيهما ويتفكر فى صنعه أو أراد ان يشكر نعمة ربه ليجنى ثمار كل منهما ، إذ لو جعل أحدهما دائما لفاتت فوائد الآخر ، ولحصلت السآمة والملل وفتر العزم الذى يثيره دخول وقت الآخر ، إلى نحو أولئك من الحكم التى أحكمها العلى الكبير .

وقد جل جلال الله إذ يقول : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾(١)

وإذ يقول سبحانه : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾(٢)

ويقول سبحانه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٣)

وفى رحاب هذه الآيات نعيش مع قصة الايمان (للشيخ نديم مفتى طرابلس ولبنان الشمالى)

فقد كتب تحت عنوان (المطويات بيمينه) قال بأسلوب شائق ممتع فيه الروعة والجمال فى صورة سؤال وجواب التلميذ واسمه حيران بن الاضعف يسأل والشيخ وأسمه ابو النور الموزون من علماء سمرقند .

قال الشيخ : ـ والآن ياحيران بأى آيات الله فى مخلوقاته نبدأ ؟

حيران : الخيار لك يامولاى ، فمخلوقات الله فى السماء والأرض أكثر من ان تحصى ، فهل إلى ذكرها كلها من سبيل ؟

الشيخ : ليس الخيار لى ولكنى سأتبع نهج القرآن الكريم ، وأختار ما اختاره فيه العليم الحكيم . فالقرآن يحض على النظرة الشاملة حين يقول : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾(٤) ونقسم هذه النظرة الشاملة حين يقول ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾(٥) ويختار من آياته ، فى الآفاق وفى أنفسنا ، أشياء يخصها بالذكر ، فمن الخير لنا ان نتبع نفس التقسيم والترتيب ، ولكن لا سبيل لنا ، كما قلت ياحيران ، لتفصيل الكلام عن كل شىء من آيات الله ، فلابد ان نحصر الكلام فى نطاق ما خصه القرآن بالذكر ، لنتخذ منه ، كما أراد لنا العليم الحكيم ، منطلقا للنظرة الشاملة الكاملة .

حيران : إذًا نبدأ بآيات الله فى الآفاق

الشيخ : نعم فى الآفاق .

---

(١) سورة الاسراء آية رقم ١٢
(٢) سورة النور اية رقم ٤٤
(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ ـ ٧٣
(٤) سورة الاعراف آية رقم : ١٨٥
(٥) سورة فصلت آية رقم : ٥٣

حيران : ونبدأ بالسماء

الشيخ : نعم نبدأ بالسماء ياحيران لنرى ، على ضوء القرآن والعلم ، ما هو حظ المصادفة فى هذا الخلق العظيم .

يقول الخلاق العظيم فى كتابه الكريم : ﴿والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون﴾[١] .

ويقول سبحانه : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾[٢] .

- ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾[٣]

- ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ﴾[٤]

- ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾[٥]

- ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾[٦] .

- ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾[٧]

- ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾[٨]

- ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا ﴾[٩]

- ﴿ والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[١٠]

- ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾[١١]

فتعال ياحيران ننظر كما أمر الله سبحانه ، وعلى ضوء العلم ، إلى ما فى هذه السماء من شىء مخلوق بلا تفاوت ، وبنيان مشيد بلا عمد ، وسقف محفوظ بلا فطور ، وسمك مرفوع بلا فروج ، وإلى ما هى عليه هذه السماء من سعة تستحق ان يقول عنها خالقها بكل جبروت الألوهية : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ وإلى ما فى بنائها من نجوم لا تعد ولا تحصى ، وما لهذه النجوم من (مواقع) تستحق ان تكون محلا للقسم العظيم يقسمه الخلاق العظيم بماذا أحدثك عن سعة السماء ياحيران . . ؟ ان السعة التى عرفها العلم اليوم من السماء لم تكن تخطر على قلب بشر فى العصر الذى نزل فيه القرآن .

أنت تعلم ان الضوء يقطع فى الثانية ١٨٦ ألف ميل (أو ٣٠٠ ألف كيلو متر) أى أنه يقطع فى الدقيقة (١١ مليون و ١٦٠ ألف ميل) وفى السنة الواحدة من سنينا يقطع (ستة ملايين مليون ميل أو ستة آلاف مليار ميل تقريبا) بهذه المسافة هى التى اصطلحوا على تسميتها (السنة الضوئية) ليعبروا بها

---

(١) سورة الذاريات آية رقم ٤٧
(٢) سورة الاعراف آية رقم ١٨٥
(٣) سورة ق اية رقم ٦
(٤) سورة الرعد آية رقم ٢
(٥) سورة الانبياء آية رقم ٣٢
(٦) سورة الملك آية رقم ٣
(٧) سورة النازعات آية رقم ٢٧ ، ٢٨
(٨) سورة فاطر آية رقم ٤١
(٩) سورة الفرقان آية رقم ٦١
(١٠) سورة يس الآيات من رقم ٣٨ـ ٤٠
(١١) سورة الواقعة الآيتان ٧٥ ، ٧٦

عن أبعاد السماء الهائلة ؟ فمتى قيل لنا إن نجما يبعد عنا سنة ضوئية فهمنا انه يبعد عنا ستة ملايين مليون ميل .

فالقمر ، ياحيران ، وهو اقرب الاجرام السماوية إلى الأرض ، يصل نوره إلينا فى أقل من ثانيتين ، لأن بعده عن الأرض ٢٤٠ ألف ميل تقريبا اما الشمس فيصل نورها إلينا فى نحو ٨ دقائق لان بعدها عن الأرض ٩٣ مليون ميل تقريبا . فهل تدرى ياحيران كم يبعد عنا أقرب نجم الينا بعد الشمس ؟

حيران : اذكر انى تعلمت فى المدرسة ان نور الشمس يصل إلينا فى ٨ دقائق ولا أذكر ما قيل لنا عن القمر والنجوم .

الشيخ : ان اقرب نجم إلى الارض يبعد عنها أربع سنوات ضوئية تقريبا ، ومعنى ذلك انه يبعد عنا ٢٣ مليون مليون ميل تقريبًا .

حيران : هذا شيء هائل .

الشيخ : هذا شيء تافه ياحيران ، فوراء ذلك (النسر الطائر) الذى يبعد عنا ١٤ سنة ضوئية ، (والنسر الواقع) الذى يبعد عنا ٣٠ سنة ضوئية ، و (السمال الرامح) الذى يبعد عنا ٥٠ سنة ضوئية أى (٢٩٤ مليون مليون ميل) تقريبا .

حيران حقا إن ذاك شيء تافه ، فهذا هو الهائل؛الشيخ ـ وهذا ايضا تافه ياحيران ، فوراء ذلك نجوم تبعد عنا ألف سنة ضوئية ، ووراء مجراتنا هذه سدم منها سديم (المرآة المسلسلة) الذى يبعد عنا مليون سنة ضوئية ، ووراءه من السدم ما هو أبعد فى تقدير العلماء . فهل يكفيك هذا ياحيران لتدرك معنى ذلك التوكيد المضاعف الذى عبر به الخلاق العظيم عن سعة السماء بقوله : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون** ﴾ .

حيران : سبحان الخلاق العظيم . . سبحانه .

الشيخ : هذا فى سعة السماء ، أما عدد النجوم فماذا أحدثك ؟ إنهم فى الماضى كانوا يعدون النجوم بالألوف ، ثم صاروا يعدونها بالملايين ، ثم صاروا يعدونها الى مليارين ـ اما اليوم فإنهم يقدرون عدد النجوم فى المجرة التى نحن من عالمها بثلاثين مليارا .

حيران : ثلاثون مليارا فى مجرتنا وحدها .

الشيخ : نعم ثلاثون مليارا فى مجرتنا هذه التى تسمى عندنا (درب التبان)

وتسمى عند الافرنج (الدرب اللبنية) . وهذه المجرة ، التى يقع نظامنا الشمسى كله فى طرفها ، يوجد وراءها عالم السدم .

ومن جملته سديم المرآة المسلسلة بل عوالم السدم التى رأوا منها حتى اليوم بآلات التصوير (٥٠٠) ألف سديم ، ثم قالوا لو تقدمت هذه الآلات وازدادت اتقانا ، لرأينا أكثر من مليون سديم .

حيران : ياللهول . سبحان الخلاق العظيم .

الشيخ : وعن مواقع النجوم بماذا أحدثك ياحيران . . . ؟ لقد رأى العلماء ان لهذه النجوم مواقع

لا تتبدل ولا تتغير ، فظنوها ثابتة ، وسموها (الثوابت) ، ومنها شمسنا . . وما هى بثوابت كما حقق العلماء فى هذا العصر ، بل كلها تدور وتجرى ، لمستقر لها فى مجريين مختلفين ، متداخل أحدهما فى الآخرة ، كأنها فوجان من النحل مختلطان .

، ولكن هذا الجرى يتم ويستمر فى مواقع ومدارات لا تتبدل ولا تتغير بنسبة بعضها إلى بعض على كر الدهور بذلك النظام العجيب الذى كان محل القسم العظيم .

حيران : والشمس تجرى معها أيضا ؟

الشيخ : كيف لا والشمس نجم من جملة نجوم هذه المجرة ، إنها تجرى مثلها ومعها أيضا ساحبة وراءها موكبها من السيارات ومن جملتها الأرض .

حيران : فرج الله عنك يامولاى كما فرجت عنى . فقد كان العلم يؤكد ان النجوم ثوابت ، وان الشمس ثابتة ، وكنت أجادل مشايخى فى معنى قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ .

الشيخ : ألم تتعلم ياحيران ، من كل ما قررته لك ، ان حقائق العلم لا يمكن ان تتنافى مع حقائق الدين الحق . ان النجوم كلها تدور وتجرى ، والشمس معها تدور وتجرى إنهم عرفوا من قبل ، أنها تدور على محورها مرة فى مدة ٢٦ يوما ، ولكنهم كان يحسبونها ثابتة لا تنتقل ولا تجرى ، أما اليوم فقد ثبت لهم ثبوتا لا ريب فيه ، أنها تجرى ، وان النظام الشمسى كله يجرى فى السماء ، كما تجرى كل النجوم فى مجرتنا وفيما وراءها جريا عجيبا لمستقر لها ، كما قال القرآن . ومن مواقع النجوم عرف العلم ان لها اقدارا ثابتة .
مقدرة بحسب نورها وعددها ! عدوا منها فى الماضى البعيد ستة اقدار ووقفوا ، ثم مازال العلم يكشف الجديد ، حتى وصلوا إلى القدر العشرين ثم إلى القدر الحادى والعشرين . والعجيب فى هذه الاقدار انها تسير مترقية أو متدينة بحسب عدد النجوم تارة ، وبحسب قوة نورها أخرى ، فى نسب مدهشة تطرد فى عدد النجوم ، فتزداد تباعا من قدر إلى قدر ، فيكون عدد نجوم القدر الاول ١٤ نجما ، ثم لا يزال يزداد حتى يبلغ فى القدر العشرين ٧٦ مليون نجم ، ويبلغ فى القدر الحادى والعشرين مليارى نجم . اما فى قوة النور ، فالعجيب ان قوة النور فى تلك الاقدار ، تزداد باطراد من القدر الأول إلى القدر العاشر ، فكلما زاد عدد نجوم القدر زادت قوة نور نجومه ، واما بعد القدر العاشر فتنعكس الآية وتأخذ قوة النور فى التضاؤل .

وترى مثل هذا التناسب بين الأبعاد فى عالم الشمس . فأنت تعلم أن فى المجموعة الشمسية ثمانية كواكب غير منيرة تدور حول الشمس : أصغرها عطارد ثم المريخ ثم الزهرة ، فالأرض فأورانوس فنبتون فزحل فالمشترى ، ثم بلوتو الذى كشفوه منذ ثلاثين سنة (وهو كوكب شاذ فى صغر حجمه وفى بعده عن الشمس فلا يصلح أن يكون سببا قاطعا لإبطال النسبة العجيبة التى سأذكرها لك عن بعد الكواكب من الشمس) . هذا فى ترتيب أحجامها ، وأما بعدها عن الشمس فالكواكب تأتى على ترتيب آخر : فأقربها عطارد الذى يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل ، ثم الزهره

ومتوسط بعدها ٦٧ مليونا ، فالأرض ومتوسط بعدها ٩٣ مليونا ، فالمريخ وبعده ١٤٢ مليونا ، فالمشترى وبعده ٤٨٤ مليونا ، فزحل وبعده ٨٨٧ مليونا فأورانوس وبعده ١٧٨٢ مليونا ، ونبتون ومتوسط بعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليونا من الأميال .

وما ذكرت هذه الأحجام والأبعاد لأعرفك بشيء أنت تعرفه ، أو تستطيع أن تعثر عليه فى أبسط كتب الفلك ، وإنما ذكرتها لأعرفك بما تنطوى عليه هذه الأبعاد من نسب مقدرة تدهش العقول : فقد كشف العلماء ان أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطردة تسير وفق (٩) منازل : أولها (الصفر) ثم نليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (٣) ثم تتدرج متضاعفة هكذا : (٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ - ٣٨٤) .

فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد (٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ، ظهر مقدار بعد السيارة ، التى فى منزلة العدد ، عن الشمس . أى أنه بإضافة (٤) إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا : (٤ - ٧ - ١٠ - ١٦ - ٢٨ - ٥٢ - ١٠٠ - ١٩٦ - ٣٨٨) . فإذا أخذنا اعداد المنازل هذه وضربنا كل عدد منها بتسعة ملايين ، يظهر لنا بعد السيارة التى هى فى منزلة ذلك العدد عن الشمس . فعطارد مثلا يبلغ متوسط بعده عن الشمس (٣٦) مليون ميل كما سبق القول ، وبما ان منزلته فى البعد هى الاولى ، فيكون رقمها (٤) فإذا ضربنا ٤ × ٩ ملايين يكون حاصل الضرب (٣٦) مليون ميل . وهكذا تسير النسبة فى بعد كل سيارة عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة .

ولكنهم حاروا كيف تكون المنازل التى اكتشفوها فى تفاوت الأبعاد تسع منازل فى حين ان الكواكب المعروفة ثمانية . فقد وجدوا أن منزلة العدد (٢٨) ليس فيها كوكب ، بل يأتى ، بعد المريخ صاحب العدد (١٦) ، كوكب المشترى الذى هو صاحب العدد (٥٢) . فما هو السر فى هذا الفراغ ؟ إما أن تكون النسبة التى اكتشفوها غير مطردة ، وإما أن يكون هنالك كوكب غير منظور فى مرتبة العدد (٢٨) على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس ، أى بين المريخ والمشترى .

ومن عجائب النظام الباهر انهم وجدوا اخيرا فى هذا الفراغ الشيء الذى قدروا انه لابد من وجوده . ولكنهم لم يجدوه كوكبا كبيرا بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها فى الفراغ المذكور الذى بين المريخ والمشترى ، أى فى نفس المنزلة التى حسبوها من قبل فارغة فهل هذا التناسب فى مواقع النجوم وأقدارها ، ومواقع الكواكب وأبعادها ، كله أثر من أثار المصادفة العمياء ياحيران ؟

حيران : زدنى يامولاى من هذه العجائب زدنى .

الشيخ : ماذا أزيدك ، خذ لك كتابا من كتب الفلك واقرأه تزدد إيمانا وخشوعا ياحيران . بماذا أحدثك ؟ أأحدثك عن أحجام النجوم والشموس التى تبهر العقول ؟ أأحدثك عن الأضواء التى تبهر الأبصار . . . . ؟ وما قولى تبهر الأبصار كأنى احدثك عن شمسنا .

حيران : إذن فهناك نجوم أبهر نورا من شمسنا وأكبر .

الشيخ : وما هى شمسنا هذه ياحيران فى نورها وحجمها بالنسبة للنجوم الكبرى ؟ ان نور شمسنا يبلغ بتقدير العلماء (ثلاثة آلاف مليون مليون مليون شمعه) ، ولكن ما قولك إذا عرفت

أن نور النجم المسمى (الشعرى اليمانية) أقوى من نور شمسنا بـ ٢٦ مرة . . . وإن هنالك ، فى النجوم البعيدة ، شموسا نورها أقوى من نور شمسنا بمائة مرة . . . .

حيران ـ ياللهول !

الشيخ : وما قولك إذا عرفت ان العلم اكتشف اليوم أن هنالك نجوما نورها أقوى من نور شمسنا بـ ٥٠٠ ألف مرة . . . ؟

حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : الهول الهائل فى أحجام النجوم الكبرى وأوزانها ياحيران .

فحجم أرضنا هو أكثر من مليون مليون كيلو متر مكعب ، والشمس فى حجمها أكبر من أرضنا (بمليون و ٣٠٠ ألف مرة) . لأن متوسط قطر الأرض هو (١٢٧٥٦) كيلو مترا فى حين أن متوسط قطر الشمس هو : (مليون و ٣٩٠ ألف) كيلو متر . فتكون نسبة قطر الأرض إلى قطر الشمس كنسبة (واحد إلى ١٠٩) . ومن المعلوم أن أحجام الكرات تتناسب وكعوب اقطارها . فيكون حجم الشمس (١٠٩مكعبة) أى (مليون و ٣٠٠ ألف مرة) أكثر من حجم الأرض .

وأرضنا هذه وزنها (خمسة آلاف مليون مليون مليون) طن . أما الشمس فلا استطيع ان أقول لك كم وزنها ، ولكن أقول لك ان كتلة الشمس (masse) أى وزنها أكبر من كتلة الأرض بمقدار (٣٣٢ ألف) مرة فاضرب وزن الأرض بـ (٣٣٢ ألف مرة) وانظر هل تستطيع ان تقرأ حاصل الضرب ؟

والآن بعد أن عرفت حجم الشمس وقطرها ووزنها بالنسبة للأرض فإنى مخبرك ان قطر النجم المسمى (منكب الجوزاء) هو أطول بـ ٤٦٠ مرة من قطر الشمس فيكون حجمه إذن أعظم من حجم الشمس (بمائة مليون مرة) تقريبا .

حيران : ياللهول الهائل !

الشيخ : وهذا أيضا ضئيل وتافه بالنسبة إلى حجم (سديم المرآة المسلسلة) الذى يضرب العلماء مثلا ، ليعرفوك بالفرق العظيم بين حجمه وحجم الشمس ، فيقولون لك : (هذه الهباءة من الغبار التى تراها فى شعاع الشمس النازل من الكوة إلى أرض غرفتك كم هو حجمها ووزنها تلك الهباءة ، بالقياس إلى حجم الأرض ؟ هكذا حجم شمسنا ووزنها بالقياس الى سديم المرآة المسلسلة ، وحق لهم ان يضربوا هذا المثل ، فان كتلة سديم المرآة المسلسلة ، أى وزنها يفوق قدر كتلة الشمس بنحو (ألف مليون مرة) . أما حجمه ياحيران فأعظم بكثير . . فلكى تعرف ما هو حجم سديم المرآة المسلسلة بالنسبة إلى حجم الشمس ، يجب أن تعرف مقدار قطره بالنسبة لقطر الشمس الذى سبق معك ان طوله مليون و ٣٩٠ ألف كيلو متر ، فهل تدرى كم هو طول قطر سديم المرآة المسلسلة ؟ إنه يبلغ نحو ٣٠ ألف سنه نورية . . أى أن حجم هذا السديم يبلغ قدر حجم الشمس (مليون مليون مليون مليون مرة (أو الف مليّار مليار مليار مرة .)

حيران : ياللهول الهائل . . سبحان الله العظيم . . . كيف تقف هذه الأحجام والأوزان الهائلة

فى الفضاء بهذا التوازن العجيب ؟

الشيخ : يجيبك القرآن عن هذا فيقول لك : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها** ﴾ ويقول لك : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ .

أما العلم فيقول إن هذا الامساك يحصل بقوة الجاذبية ، التى شاهد العلماء آثارها ،وأحصوا أطوارها ، ومسوا سطوحها ولم يسبروا أغوارها ، وعرفوا قوانينها ونواميسها ولم يعرفوا بعد اسرارها . . ولعمرى انه الحق ما قالوا . فالجاذبية حق ، وقوانينها المحسوبة المتزنة المتناسبة المحكمة الدقيقة حق . ولكن هل يكون القانون الدقيق المحكم اثرا من آثار المصادفة العمياء ياحيران . . . ؟

﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾[1] .

عباد الرحمن

وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾
وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ
عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ
يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ
ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ
ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ
إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ

---

(١) سورة الزمر الآية رقم ٦٧

رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾

معانى المفردات

الهون : الرفق واللين والمراد أنهم يمشون فى سكينة ووقار ، ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ،
الجاهلون : أى السفهاء
سلاما : أى سلام توديع ومتاركة لاسلام تحية كقول إبراهيم لأبيه : « سلام عليك »
يبيتون : أى يدركهم الليل ناموا أو لم يناموا كما يقال بات فلان قلقا .
غراما : أى هلاكا لازما ، قال الأعشى

إن يعاقب يكن غراما وإن يعط   جزيلا فإنه لا يبالى

الاسراف : ـ مجاوزة الحد فى النفقة بالنظر لنظرائه فى المال .
التقتير : التضييق والشح
قواما : أى وسطا عدلا

لا يدعون : أى لا يشركون
الأثام : الاثم والمراد جزاؤه
مهانا : أى ذليلا مستحقرا
لا يشهدون الزور : أى لا يقيمون الشهادة الكاذبة والمراد أنهم لا يساعدون أهل الباطل على باطلهم .
واللغو ما ينبغى أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه .
كراما : أى مكرمين أنفسهم عن الخوض فيه
الخرور : السقوط على غير نظام وترتيب .
قرة العين : يراد بها الفرح والسرور .
الامام : يستعمل للمفرد والجمع والمراد الثانى أى أئمة يقتدى بهم فى إقامة مراسم الدين .
الغرفة : كل بناء عال مرتفع ويراد بها الدرجات الرفيعة .
ما يعبأ بكم : أى لا يعقد بكم .
دعاؤكم : أى عبادتكم .
لزاما : أى لازما يحيق بكم حتى يكبكم فى النار .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وصف الكافرين بالاعراض عن عبادته والنفور من طاعته والسجود له ـ عز اسمه ـ ذكر هنا أوصاف خلص عباده المؤمنين وبين ما لهم من فاضل الصفات ، وكامل الاخلاق ، التى لأجلها استحقوا

جزيل الثواب من ربهم ، وأكرم لأجلها مثواهم ، وقد عد من ذلك تسع صفات مما تشرئب إليها أعناق العاملين ، وتتطلع إليها نفوس الصالحين الذين يبتغون المثوبة ونيل النعيم كفاء ما اتصفوا من كريم الخلال ، وأتوا به من جليل الأعمال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ .

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ **الذين يمشون على الأرض هونا** ﴾ أى بسكينة ووقار من غير جبرية ولا استكبار ، كقوله تعالى : ﴿ **ولا تمش فى الأرض مرحا** ﴾ فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعا ورياء ، فقد كان سيد ولد ادم ﷺ إذا مشى كأنما من صبب ، وكأنما الأرض تطوى له ، وقد كره بعض السلف المشى بتضعف وتصنع ، حتى روى عن عمر أنه رأى شابا يمشى رويدًا ، فقال ما بالك أأنت مريض ؟ قال لا ياأمير المؤمنين فعلاه بالدرة وامره ان يمشى بقوة،وإنما بالمراد بالهون هنا السكينة والوقار كما قال رسول الله ﷺ (إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة فما ادركتم منها فصلوا وما فاتكم فأتموا) .

وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصرى فى قوله (وعباد الرحمن) قال : إن المؤمنين قوم ذلل ، ذلت منهم والله الأسماع والأبصار والجوارح ، حتى يحسبهم الجاهل مرضى وما بالقوم من مرض ، وإنهم والله لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة .

قالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن . أما والله ما أحزنهم ما أحزن الناس ولا تعاظم فى نفوسهم بشىء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ، إنه من لم يتعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا فى مطعم أو مشرب ، فقد قل علمه وحضر عذابه .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ أى إذا سفه عليهم الجهال بالقول السىء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلما ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه** ﴾ .

وروى الامام أحمد بسنده عن النعمان بن مقرن المزنى قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلا عنده فجعل المسبوب يقول : عليك السلام فقال رسول الله ﷺ : (أما إن ملكا بينكما يذب عنك كلما شتمك هذا قال له بل أنت وأنت أحق به وإذا قلت له وعليك السلام قال لا بل عليك وأنت أحق به)[1] .

---

(١) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٥ / ٤٤٥

وقال مجاهد (قالوا سلاما) يعنى قالوا:سدادا ، وقال سعيد بن جبير : ردوا معروفا من القول ، وقال الحسن البصرى ، قال سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا ، يصاحبون عباد الله نهارهم بما يسمعون ، ثم ذكر أن ليلهم خير ليل ، فقال تعالى : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما ﴾ أى فى طاعته وعبادته ،كما قال تعالى : ﴿ كانوا قليلا من الليل مايهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾[١] وقوله : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾[٣] .

فضل قيام الليل

عن أبى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة:عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى .

وابن ماجه وقال : (فيصبح نشيطا طيب النفس ، قد أصاب خيرا ، وإن لم يفعل أصبح كسلا خبيث النفس لم يصب خيرا)[٤] رواه ابن خزيمة فى صحيحه ونحوه .

وزاد فى آخره : فحلوا عقد الشيطان ولو بركعتين .

المعنى : ـ

[قافية] الرأس : مؤخره ومنه سمى آخر بيت الشعر قافية .

يعقد : أى يأتى بأشياء حقيقية وينويها ويثبتها ويسحر عليها ، كى تمنع الانسان من القيام من نومه ، ليعبد ربه ، كما يعقد الساحر من سحره . قال العينى واكثر ما يفعله النساء : تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عقدا وتتكلم عليها بالكلمات ، فيتأثر المسحور عند ذلك ، كما أخبر الله تعالى فى كتابنا الكريم : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾[٥] فالذى خذل يعمل فيه ، والذى وفق يصرف عنه ، والدليل على كونه على الحقيقة ما رواه ابن ماجه ومحمد بن نصر من طريق صالح عن أبى هريرة مرفوعا (على قافية رأس احدكم حبل فيه ثلاث عقد)[٦] إلى أن قال بعضهم : هو على المجاز كأنه شبه فعل الشيطان بالنائم بفعل الساحر بالمسحور ، وقيل : هو من عقد القلب وتصميمه ، فكأنه يوسوس بأن

---

(١) الذاريات الآية رقم : ١٧ ، ١٨

(٢) السجدة الآية رقم : ١٦

(٣) الزمر الآية رقم : ٩

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم /١٢ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم /١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين رقم ٢٠٧ ، وابو داود فى كتاب التطوع رقم /١٨ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٩٥ وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٣ .

(٥) سورة الفلق الآية رقم ٤

(٦) الحديث رواه ابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم ١٧٤ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٥٣

عليك ليلا طويلا ، فيتأخر عن القيام بالليل ، وقال صاحب النهاية : المراد تثقيله فى النوم وإطالته ، فكأنه قد سد عليه سدا وعقد عليه عقدا .

يضرب : يمر بيده ويضغط على حباله الداعية إلى الكسل والخمول والعجز والتقصير عن الطاعات ، وتحصيل الدرجات ، ونيل الحسنات وكسب الخيرات ، وقيل يضرب بالرقاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فضربنا على آذانهم فى الكهف** ﴾[1] ومعناه حجب الحس عن النائم حتى لا يستيقظ قائلا عند كل ضربة : نم ليلك طويل .

فارقد : نم واهدأ .

فأصبح : يستقبل يومه بسرور ، وصباحه بحبور ، وبكورته بفرح جزيل ، قوى البنية ، منشرح الصدر ، باسم الثغر ، مثلوج الفؤاد ، قرير العين ، لان الله تعالى وفقه لطاعته ، وجلب المحامد ، وكسب المحاسن ، وقد بارك له فى وقته وفى نفسه وتصرفه الحسن ، وأزال سلطان الشيطان عليه وقهره .

وإلا : وإن ترك ما كان اعتاده أو نواه من فعل الخير ، ولم يقم من نومه ، يتهجد ، طلع النهار وعليه الغضب والخبث (كسلان) ببقاء أثر تثبيط الشيطان عليه ، قال الكرمانى : واعلم أن مقتضى (وأصبح) ان من لم يجمع الأمور الثلاثة : الذكر والوضوء والصلاة ، فهو داخل تحت من الصبح خبيث النفس كسلان وإن أتى ببعضها ، وقال العينى : وإن لم يذكر ولم يتوضأ ولم يصل ، يصبح خبيث النفس كسلان ؛ وفيه ان الذكر يطرد الشيطان ، وكذا الوضوء والصلاة ، ويجزىء كل ما يصدق عليه ذكر الله تعالى ، ويدخل فيه تلاوة القرآن ، ولا تحل عقدة الجنب إلا بالاغتسال .

وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من ذكر ولا أنثى إلا على رأسه جرير معقود حين يرقد بالليل ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة فإذا قام توضأ وصلى ، انحلت العقد وأصبح خفيفا طيب النفس قد أصاب خيرا)[2] . رواه ابن خزيمة فى صحيحه

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل)[3] . رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه

وعن عبدالله بن سلام رضى الله عنه قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس إليه ، فكنت فيمن جاءه ، فلما تأملت وجهه واستبنته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . قال فكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : (أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام)[4] رواه الترمذى

(١) سورة الكهف الآية رقم : ١١

(٢) صحيح ابن خزيمة ٢ / ١٧٥ ـ ١٧٦ رقم ١١٣٣ ، كتاب الصلاة قال ابو بكر ابن خزيمة : الجرير : الحبل .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الصيام حديث رقم ٢٠٢ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ٢٠٧ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ٦ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٣٤٤

(٤) الحديث رواه الترمذى فى أبواب القيامة رقم /٤٢ ، وابن ماجه فى أبواب القيامة رقم / ١٧٤ ، وفى ابواب الاطعمة رقم /١ ، والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٥٦ ، وفى كتاب الاستئذان رقم / ٤ ، وأحمد ٥ / ٤٥١ .

المعنى

أفشوا : اكثروا من رميه على من عرفت ومن لم تعرف ، والسلام من الله الأمان والرحمة .
أطعموا الطعام : اكثروا من إطعام الطعام والجود والكرم وبذل المعروف وإيواء الجائع .
وصلوا الأرحام : زوروا أقاربكم وودوهم بصلة وهدية وساعدوهم وأعينوهم واستجلبوا رضاهم .
وصلوا بالليل : - تهجدوا
بسلام : بلا عذاب
انجفل الناس : أى أسرعوا ومضوا كلهم .
استبنته : أى تحققته وتبينته .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (فى الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها فقال ابو مالك الأشعرى : لمن هى يارسول الله ؟ قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وبات قائما والناس نيام)[1] رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى

أطاب الكلام : أحسن القول ، وأبش وجهه ، وطاب كلامه ، وعذب لفظه ، وكثر خيره ، وعم بره ولطفه ، وجل أدبه وعظم حياؤه ، ورق شعوره ودق إحساسه .

بات قائما : يذكر الله تعالى ، ويتهجد ويعبد ربه فى ليله ، والناس نائمون ، وأفشوا فعل أمر : أى أظهروه برفع الصوت ، وأن تسلم على كل من لقيته من المسلمين وإن لم تعرفه ، وبذل الطعام أن تتصدق بما فضل عن نفقة من تلزمك نفقته .

قال النووى : السلام أول أسباب التآلف ، ومفتاح استجلاب المودة ، وفى إفشائه تمكين ألفة المسلمين بعضهم لبعض وإظهار شعارهم من غيرهم من أهل الملل ، مع ما فيه من رياضة النفوس ، ولزوم التواضع ، وإعظام حرمات المسلمين .

وبه يزول التنافر ياأخى المسلم فسلم ، لتدوم المحبة وتجتمع القلوب ، فعليك به ، اجعله تحيتك لأهل بيتك وللمسلمين ، وإفشاؤه سبب رضاء الله تعالى عن عبده ، ويثيب عليه ، قال ﷺ : (أفشوا السلام فإنه لله تعالى رضا) رواه عمر بن الخطاب .

وعن أبى الدرداء (أفشوا السلام كى تعلوا) حديث حسن أى إذا أفشيتم السلام تحاببتم فاجتمعت كلمتكم فقهرتم عدوكم وعلوتم عليه .

وعن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام)[2]

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن والحاكم وقال:صحيح على شرطهما . (الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٣ - ٤٢٤)
(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان صـ ٦٨ رقم ٦٤١ .

رواه ابن حبان فى صحيحه

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قلت يارسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى أنبئنى عن كل شىء ، قال : (كل شىء خلق من الماء فقلت أخبرنى بشىء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : أطعم الطعام وأفش السلام وصل الأرحام وصل بالليل والناس نيام . تدخل الجنة بسلام)(١) رواه احمد وابن أبى الدنيا .

المعنى : -

طابت : فرحت وطهرت واستبشرت وطابت نفسه بالشىء : إذا سمحت به من غير كراهة ومنه الحديث أنه قال لعمار : (مرحبا بالطيب المطيب) أى الطاهر المطهر .

وقرت : سرت ومنه حديث « لو رآك لقرت عيناه » أى لسر بذلك وفرح وحقيقته : أبرد الله دمعة عينيه لأن دمعة الفرح والسرور باردة) .

وقيل : معنى أقر الله عينك بلغك أمنيتك حتى ترضى نفسك وتسكن عينك فلا تستشرف إلى غيره .

أنبئنى : - أخبرنى

كل شىء خلق من ماء : - الماء أول حادث بعد العرش من أجرام هذا العالم وكل شىء خلق منه وفى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾(٢)

قيل خلقهما لم يكن حائل بينهما لا أنه موضوع على متن الماء ، واستدل به على إمكان الخلاء .

وروى عن على رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فى الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلل ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مد البصر فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاءوا ، فيقول الذين أسفل منهم درجة يارب بما بلغ عبادك هذه الكرامة كلها ؟ قال فيقال لهم : كانوا يصلون بالليل ، وكنتم تنامون ، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون ، وكانوا ينفقون وكنتم تبخلون ، وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون)(٣) رواه ابن ابى الدنيا

المعنى : -

لا تروث : لا تنزل ثغلا للطعام

خطوها : أى مقدار الخطوة الواحدة نهاية امتداد البصر فى الآفاق ، بمعنى أنها تنهب الأرض نهبا وتطويها طيا بقدرة الله تعالى ، لتظهر البهجة والرواء والعزة والنعيم ، وتذهب إلى أى مكان أراده أهل الجنة ، فيراهم من هم أقل منهم عملا صالحا فى دنياهم ، ويسألون الله عز وجل عن سبب هذا

---

(١) الحديث رواه أحمد ٢/٢٩٥ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٤٩٣ ورواه أيضا ابن أبى الدنيا فى كتاب التهجد،وابن حبان فى صحيحه،والحاكم وصححه(الترغيب والترهيب ١/٤٢٥)

(٢) سورة هود الآية رقم ٧

(٣) الترغيب والترهيب ١ / ٤٢٥

النعيم ، فيتفضل المولى تبارك وتعالى بالاجابة بفضل التهجد ، وصيام النافلة ، وكثرة الصدقات ، وعمل مشروعات الخير ، وإعانة المحتاج والانفاق فى البر والجهاد فى إعلاء دين الله ، والشجاعة فى إظهار الحق ، والمروءة فى العدل والشمم فى نصر الدين ، والدفاع عن شرع الرسول ﷺ .

وروى عن أسماء بنت يزيد رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : (يحشر الناس فى صعيد واحد يوم القيامة فينادى مناد فيقول : أين الذين كانوا تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل فيدخلون الجنة بغير حساب ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب)[1] رواه البيهقى .

المعنى : -

صعيد واحد : وجه الأرض أى مستوى .

تتجافى جنوبهم : يستيقظون ويهجرون فراش النوم فى السحر وفيه دليل على أن التهجد يمنع من الحساب .

وعن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال : قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه ، فقيل له : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[2] رواه البخارى ومسلم والنسائى .

المعنى : -

تورمت قدماه : أصابها ورم وانتفاخ ، وفى النهاية انتفخت من طول قيامه فى صلاة الليل ، يقال : ورم يرم ، والقياس يورم وهو أحد ما جاء على هذا البناء .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقوم حتى ترم قدماه ، فقيل له : أى رسول الله أتصنع هذا وقد جاءك من الله ان قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[3] رواه ابن خزيمة فى صحيحه

المعنى :

ترم : فعل مضارع مبنى للمجهول وترم بكسر الراء . من ورم جلده يرم تورم وورمه غيره توريما .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال : (أفلا أحب أن أكون عبدا

---

(١) الحديث أورده المنذرى فى الترغيب والترهيب بصيغة التمريض (روى) ١ / ٤٢٥ - ٤٢٦ كتاب الصلاة - الترغيب فى قيام الليل وعزاه للبيهقى .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (سورة الفتح) (فتح البارى ١٠ / ٢٠٦) ومسلم فى كتاب صفات المؤمنين واحكامهم (صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢) ، النسائى ١ / ٢٤٤ كتاب قيام الليل وتطوع النهار ذكر صلاة رسول الله ﷺ بالليل ، الترمذى (تحفة الأحوذى ٢ / ٤٦٠ - ٤٦١) ، البيهقى فى السنن الكبرى ٣ / ١٦ كتاب الصلاة ، باب من وثق بنفسه فشدد على نفسه بالعبادة .

(٣) صحيح ابن خزيمة ٢ / ٢٠١ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٨٤

شكورا)[١] رواه البخاري ومسلم

المعنى :

تتفطر : أى تتشقق وتتألم من كثرة الوقوف .

عبدا شكورا : بينه ﷺ بأنه يتهجد ثلث الليل ويكثر من صوم التطوع . قال الشرقاوى : أى أترك قيامى وتهجدى لما غفر لى (فلا أكون عبدا شكورا) . يعنى أن غفران الله لى سبب لأن أقوم وأتهجد شكرا له فكيف أتركه : كأن المعنى ألا أشكره وقد أنعم على وخصنى بخير الدارين ، فان الشكور من أبنية المبالغة يستدعى نعمة خطيرة ، وتخصيص العبد بالذكر مشعر بغاية الاكرام والقرب من الله تعالى ، ومن ثم وصفه به فى مقام الاسراء ولأن العبودية تقتضى صحة النسبة ، وليست الا بالعبادة والعبادة عين الشكر ، وفيه أخذ الانسان على نفسه بالشدة فى العبادة ، وهو أفضل إن لم يخش الملل ؛ لأنه إذا كان هذا فعل المغفور له ، فكيف من جهل حاله وأثقلت ظهره الأوزار ، ولا يأمن غدا النار .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما)[٢] رواه البخارى ومسلم وأبو داود .

المعنى : -

يقوم ثلثه : وقت تجلى الرب تبارك وتعالى على عباده .

ينام سدسه : ليستريح من تعب القيام فى بقية الليل ، وإنما كان هذا أحب إلى الله تعالى ، لأنه أخذ بالرفق على النفوس التى يخشى منها السآمة المؤدية إلى ترك العبادة ، والله يحب أن يوالى فضله ويديم إحسانه ، وإنما كان ذلك أرفق ؛ لأن النوم بعد القيام ، يريح البدن ويذهب ضرر السهر وذبول الجسم ، بخلاف السهر إلى الصباح ، وفيه من المصلحة أيضا استقبال الصبح وأذكار النهار بنشاط وإقبال ، ولأنه أقرب إلى عدم الرياء ، لأن من نام السدس الاخير ، أصبح ظاهر اللون سليم القوى ، فهو أقرب إلى أنه يخفى عمله الماضى على من يراه . أشار إليه ابن دقيق العيد .

وعن جابر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة)[٣] رواه مسلم

المعنى :

قال النووى : فيه إثبات ساعة الاجابة فى كل ليلة ، ويتضمن الحث على الدعاء فى جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (سورة الفتح) فتح البارى ٣ / ٢٥٦ باب قيام النبى ﷺ بالليل ، ومسلم (صحيح مسلم ١٧ / ١٦٢) كتاب صفات المؤمنين وأحكامهم ، إكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم /٧ ، وفى كتاب الانبياء رقم /٣٨ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم /١٤ ، وفى كتاب الصيام رقم ٦٩ ، وابن ماجه فى أبواب الصيام رقم ٣١ ، وأحمد ٢ / ١٦٠ ، ٢٠٦

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ١٦٦ ، ١٦٧

أيها المكروب . إذا أصابك هم فالجأ إلى الله تعالى ، واستيقظ من نومك سحَرا ، وتوضأ وصل ركعتين لله نافلة ، وتضرع إليه جل وعلا عسى أن تصادفك ساعة الاجابة ، فيزيل الله كربك ويشرح صدرك ، ويذهب عسرك ويبعد ضيقك .

وعن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وقربة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم)(١) رواه الترمذى .

المعنى :

دأب : العادة والشأن من دأب العمل : جد وتعب .

مكفرة للسيئات : سبب تغطية الذنوب وسترها ومزيلها وفى النهاية أصل الكفر : تغطية الشىء تغطية تستهلكه ومنه (من ترك الرحى فنعمة كفرها) .

منهاة : أى مبعدة وفى النهاية أى حالة من شأنها ان تنهى عن الاثم ، أو هى مكان مختص بذلك ، وهى مفعلة من النهى والميم الزائدة والنهى العقول واحدتها نهية بالضم ، سميت بذلك لأنها تنهى صاحبها عن القبيح .

نعم إن الذى تعود أن يقف بين يدى ربه يناجيه بلسان الاخلاص شرح الله صدره للعبادة فطهر نفسه من أدران الحياة ، فيتحرى الصالحات فيعملها .

وعن سلمان الفارسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ومقربة لكم إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الاثم ، ومطردة للداء عن الجسد)(٢)رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى : -

مقربة : يفتح لكم أبواب رحماته ، ويتجلى عليكم برضوانه ، فيستجاب دعاؤكم وتشعرون بالرضا .

مطردة : - فى النهاية (هو قربة إلى الله تعالى ، مطردة الداء عن الجسد) أى أنها حالة من شأنها إبعاد الداء ، أو مكان يختص به ويعرف ، وهى مفعلة من الطرد . إن هذا وصف طبيب النفوس ، من قام ليله صفا جسمه ، وملك صحته ، وأزال الله مرضه ، وحسبك الالتجاء إلى الحكيم الخالق أن يشفيه ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾(٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (رحم الله رجلا قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته ، فإن أبت نضح فى وجهها الماء ، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت . وأيقظت

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى أبواب الدعوات رقم ١٠١ ، ورواه ايضا ابن خزيمة فى صحيحه ٢ / ١٧٦ - ١٧٧ كتاب الصلاة حديث رقم ١١٣٥

(٢) الحديث أورده الهيثمى فى المجمع وعزاه للطبرانى فى الكبير وقال : وفيه عبدالرحمن بن سليمان بن أبى الجون وثقه دحيم وابن حبان وابن عدى وضعفه ابو داود وابو حاتم (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥) وأورده ايضا بلفظ : عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وهو قربة إلى ربكم ومكفر للسيئات ومنهاة عن الاثم .

- وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط عن ابى امامة وفيه عبدالله بن صالح كاتب الليث ، قال عبد الملك بن شعيب بن الليث : ثقة مأمون وضعفه جماعة من الأئمة أ هـ

(٣) سورة الشعراء الآيات رقم : ٧٨ - ٨٠

زوجها ، فإن أبى نضحت فى وجهه الماء)[١] رواه أبو داود

المعنى : -

نضح : أن يأخذ قليلا من الماء فيرش به ، وقد نضح عليه الماء ونضحه به : إذا رشه عليه ، وفيه من السنن العشر الانتضاح .

أى يرش مذاكيره بعد الوضوء لينفى عنه الوسواس ، يدعو النبى ﷺ لمن استيقظ ليتهجد فيوقظ زوجه بالرحمة والخير ، وشموله بالبركة والرضوان فإذا فتر الصديق ، أو كسل عن اليقظة ، أتى خليله وخدنه بقليل من الماء يمره على وجهه ، ليزول نومه ، ويبعد كسله ، ويملك شعوره ، ويتعاونان على عبادة الله . هذه التربية العالية أيها المسلمون أن يتفق الرجل وزوجه على طاعة الله ، وبذا توجد الثقة والاطمئنان ويدوم العيش الرغد ، وترفرف السعادة بين المتآلفين ، وحسبك أنهما فى ظل الله يوم القيامة ، وهما أحد السبعة (اجتمعا عليه وتفرقا عليه) وقد دعا ﷺ ايضا للزوجة إن استيقظت للعبادة ودعت زوجها النائم للتهجد،ان الذى يفعل ذلك بتعاليم القرآن عمل لآخرته ، ودخل فى زمرة من قال الله فيهم : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾[٢] . يقول البيضاوى (مبارك)كثير النفع والفائدة ، مصدق الكتب التى قبله أو التوراة ، ولينذر أهل مكة ، وأهل الشرق والغرب ، فإن من صدق بالآخرة خاف العاقبة ، ولا يزال الخوف يحمله على التدبر والنظر ، حتى يؤمن بالنبى ﷺ والكتاب والضمير يحتملها ويحافظ على الطاعة ، وتخصيص الصلاة لأنها عماد الدين وعلم الايمان .

وروى الطبرانى فى الكبير عن أبى مالك الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما من رجل يستيقظ من الليل فيوقظ امرأته ، فإن غلبها النوم نضح فى وجهها الماء ، فيقومان فى بيتهما فيذكران الله عز وجل ساعة من الليل إلا غفر لهما)[٣]

وعن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : (إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصليا ، أو صلى ركعتين جميعا ، كتبا فى الذاكرين والذاكرات)[٤] رواه ابو داود

وعن عبدالله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية)[٥] رواه الطبرانى

المعنى : -

فضل : ثواب والمعنى المحافظة على التهجد تسبب حسنات لمصليها جمة ، لبعدها عن الرياء ،

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب التطوع رقم / ١٨ ، وفى كتاب الوتر رقم / ١٣ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم / ٥ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٥٠ ، ٤٣٦

(٢) سورة الانعام الآية رقم : ٩٢

(٣) جمع الجوامع ١ / ٧١٧ـ قال الهيثمى : وفيه محمد بن اسماعيل بن عياش وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٣)

(٤) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الوتر رقم / ١٣ ، وابن ماجه فى أبواب الاقامة رقم / ١٧٥

(٥) الحديث رواه ابن المبارك فى الزهد والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود رضى الله عنه قال الهيثمى ورجاله ثقات أ هـ وخرجه البيهقى باللفظ المذكور وصحح وقفه (فيض القدير ٤ / ٤٣٦ رقم ٥٨٧٢ ، مجمع الزوائد ٢ / ٢٥١)

ولمجاهدة النفس فى ترك لذة النوم ، وطلب مناجاة الرب جل وعلا ، وقال المناوى : يؤخذ منه أن المقتدى به المعلم غيره صلاة النهار فى حقه أفضل ، كما فى إظهار المقتدى به الصدقة بقصد أن يتبعه الناس .

وقد علق عليه الشيخ الحفنى : يؤخذ من هذا التشبيه ، أنه لو كان يصلى فى النهار ، لقصد تعليم الناس ، أو ليقتدى به غيره ، كان أفضل من صلاة الليل ، كما أن صدقة العلانية حينئذ أفضل .

وروى عن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : (أمرنا رسول الله ﷺ ان نصلى من الليل ما قل أو كثر ونجعل آخر ذلك وترا)[١] رواه الطبرانى والبزار

المعنى : -

نصلى من الليل : صلاة التهجد وبعد ذلك نختم بالوتر . هذا فى حق من آنس القيام بالليل وضمن اليقظة وأمن الغفلة .

وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه قال :(صلاة فى مسجدى تعدل بعشرة آلاف صلاة ، وصلاة فى المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألفى ألف صلاة وأكثر من ذلك كله الركعتان يصليهما العبد فى جوف الليل لا يريد بهما إلا ما عند الله عز وجل)[٢] رواه ابو الشيخ بن حبان فى كتاب الثواب

المعنى : -

مسجدى : مسجده ﷺ بالمدينة : ثواب الركعة فيه مضاعف حسنات تساوى هذا العدد فى غيره .

المسجد الحرام : - بمكة

أرض الرباط : - المكان الذى ينتظر فيه المجاهدون

جوف الليل : - وسطه ، والمعنى أن ثواب الركعتين مضاعف الأجر كثير الثواب .

وعن إياس بن معاوية المزنى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :(لابد من صلاة بليل ، ولو حلب شاة ، وما كان بعد صلاة العشاء فهو من الليل.)[٣] رواه الطبرانى

المعنى : -

حلب : - أى تصلى فى وقت قدر إخراج اللبن من ضرع الشاة : أى فى نحو خمس دقائق .

الليل : - بعد راحة وفتور الجسم ، وأخذه قسطا ، ولو قليلا من النوم ولا يعد التهجد إلا بعد القيام من نومه . قال تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾[٤]

(١) الحديث رواه البزار والطبرانى فى الأوسط والكبير وابو يعلى - وللبزار فى رواية : أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا ان نصلى كل ليلة بعد الصلاة المكتوبة نحوه - وإسناده ضعيف - قاله الهيثمى (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٢) الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٠ كتاب الصلاة - الترغيب فى قيام الليل .

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه محمد بن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٤) سورة السجدة آية رقم ١٦ .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فذكرت قيام الليل ، فقال بعضهم : إن رسول الله ﷺ قال :(نصفه ثلثه ربعه ، فواق حلب ناقة ، فواق حلب شاة)[١] رواه ابو يعلى

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :(أمرنا رسول الله ﷺ بصلاة الليل ، ورغب فيها حتى قال عليكم بصلاة الليل ولو ركعة)[٢] رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط

المعنى : -

أمره ﷺ للندب ، والترغيب فى قيام الليل ، وذكر الله وتسبيحه وعدم غفلة المسلم،وكنت واقفا أمام سيدنا الحسين رضى الله عنه فجاءنى رجل أعده وليا من أولياء الله ، وأكثر من ذكر هذه الجملة (من كثر دمه كثر نومه ، ومن كثر نومه فالنار أولى به) .

فأيقنت أن هذا يخاطب الجمهور ، ولكن يعلمنى لعلى أفقه فأعمل .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنهما قال : (جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد : عش ما شئت فإنك ميت ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به ؛ وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس)[٣] رواه الطبرانى فى الأوسط

المعنى : - عن الناس :

سيدنا جبريل عليه السلام يعطى درسا لأشرف الخلق عليه الصلاة والسلام ، ليرشد أمته ﷺ ان العمر وإن طال فمآله الفناء ، وكل محاسب على عمله ، إن خيرا وإن شرا مجازى به ومسئول عنه ، ويأمر بالمحبة وحسن المعاشرة والتودد والتحلى بمكارم الأخلاق ، ليكسب الانسان الذكر الحسن بعد فراقه ﴿ **كل من عليها فان** ﴾[٤] وأخبر أن التهجد رفعة ، ورقى ومحامد ، والعز عدم سؤال أى مخلوق .

أشراف : -

كرماء وفضلاء وأعاظم وأسياد أمتى الذين يحفظون القرآن ، ويعملون بأوامره ، ويجتنبون مناهيه ، ويصونون قراءته عن الابتذال ، ويتحرون أماكن النظافة،والمستمعين ويكونون قدوة حسنة وأسوة صالحة .

أصحاب الليل : - المتهجدون العابدون الذاكرون المستغفرون .

وروى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من صلى منكم من الليل فليجهر بقراءته ، فإن الملائكة تصلى بصلاته ، وتستمع لقراءته ، وإن مؤمنى الجن الذين يكونون فى الهواء وجيرانه فى مسكنه ، يصلون بصلاته ويستمعون قراءته ، وإنه يطرد بقراءته عن داره وعن الدور التى حوله فساق الجن ومردة الشياطين وإن البيت الذى يقرأ فيه القرآن عليه خيمة من نور يهتدى بها أهل السماء كما يهتدى بالكوكب الدرى فى لجج البحار وفى الأرض القفر ، فإذا مات صاحب القرآن

---

(١) الحديث رواه ابو يعلى ، قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، قال الهيثمى : وفيه حسين بن عبدالله وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢)

(٣) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى :وفيه‌زافربن سليمان ، وثقه احمد وابن معين وابو داود ، وتكلم فيه ابن عدى وابن حبان بما لا يضر (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٣)

(٤) سورة الرحمن الآية رقم : ٢٦

رفعت تلك الخيمة ، فتنظر الملائكة من السماء ، فلا يرون ذلك النور . فتلقاه الملائكة من سماء إلى سماء فتصلى الملائكة على روحه فى الأرواح ، ثم تستقبل الملائكة الحافظين الذين كانوا معه ، ثم تستغفر له الملائكة إلى يوم يبعث ، وما من رجل تعلم كتاب الله ، ثم صلى ساعة من ليل ، إلا أوصت به تلك الليلة الماضية الليلة المستأنفة ، أن تنبهه لساعته وأن تكون عليه خفيفة ، فإذا مات وكان أهله فى جهازه ، جاء القرآن فى صورة حسنة جميلة فوقف عند رأسه ، حتى تدرج فى أكفانه فيكون القرآن على صدره دون الكفن ، فإذا وضع فى قبره وسوى وتفرق عنه أصحابه ، أتاه منكر ونكير عليهما السلام فيجلسانه فى قبره فيجىء القرآن حتى يكون بينه وبينهما ، فيقولان له : إليك حتى نسأله ؟ فيقول : لا ورب الكعبة إنه لصاحبى وخليلى ولست أخذ له على حال ، فإن كنتما أمرتما بشىء ، فامضيا لما أمرتما ودعانى مكانى ، فإنى لست أفارقه حتى أدخله الجنة ، ثم ينظر القرآن إلى صاحبه فيقول : أنا القرآن الذى كنت تجهر بى وتخفينى وتحبنى ، فأنا حبيبك ومن أحببته أحبه الله ليس عليك بعد مسألة منكر ونكيرهم ولا حزن ، فيسأله منكر ونكير ويصعدان ويبقى هو والقرآن ، فيقول لأفرشنك فراشا لينا ، ولأدثرنك دثارا حسنا جميلا بما أسهرت ليلك وأنصبت نهارك .

قال : فيصعد القرآن إلى السماء أسرع من الطرف ، فيسأل الله ذلك له ، فيعطيه ذلك فيجىء القرآن فينزل به ألف ألف ملك من مقربى السماء السادسة فيجىء القرآن فيحييه فيقول : هل استوحشت ما زدت منذ فارقتك أن كلمت الله تبارك وتعالى ، حتى أخذت لك فراشا ودثارا ومصباحا ، وقد جئتك به فقم حتى تفرشك الملائكة عليهم السلام . قال : فتنهضه الملائكة إنهاضا لطيفا ثم يفسح له فى قبره مسيرة أربعمائه عام ، ثم يوضع له فراش بطانته من حرير أخضر حشوه المسك الأذفر ، ويوضع له مرافق عند رجليه ورأسه من السندس والاستبرق ، ويسرج له سراجان من نور الجنة عند رأسه ورجليه يزهران إلى يوم القيامة ثم تضجعه الملائكة على شقه الايمن مستقبل القبلة ثم يؤتى بياسمين الجنة وتصعد عنه ويبقى هو والقرآن ، فيأخذ القرآن الياسمين ، فيضعه على أنفه غضا فيستنشقه حتى يبعث ، ويرجع القرآن إلى أهله ، فيخبرهم كل يوم وليلة ، ويتعاهده كما يتعاهد الوالد الشفيق ولده بالخير ، فإن تعلم أحد من ولده القرآن بشره بذلك ، وإن كان عقبه عقب سوء دعا لهم بالصلاح والاقبال أو كما ذكر)[1] رواه البزار .

المعنى : -

يطرد : يبعد

فساق : عصاة

مردة : جمع مارد : العاتى الشديد

خيمة : ظلة ساترة ومنه خيم بالمكان : أقام فيه وسكنه ، فاستعارها لظل رحمة الله ورضوانه ، وأمنه ، وهذا معنى « الشهيد فى خيمة الله تحت العرش » .

(١) الحديث رواه البزار ، قال الهيثمى قال البزار ، قال : ابن معدان لم يسمع من معاذ قلت : وفيه من لم أجد من ترجمه أ هـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٣ - ٢٥٤) .

بالكوكب : أى الشديد الانارة ، كأنه نسب إلى الدر تشبيها بصفاته ، وقال الغراء : الكوكب الذى عند العرب هو العظيم المقدار ، وقيل : هو أحد الكواكب الخمسة السيارة .

لجج : فضائها الواسع ولجة البحر : معظمة ، والمعنى فى شدة تلاطم أمواجه وظلمه يسطع النور السارى .

القفر : المفازة : الصحراء التى لا تنبت ، والمعنى يستضىء الماشى فى المهامة به ، كذلك يستضاء بالقرآن .

فتلقاه : أى فتقابله بالبشرى وتستقبله بالفرح .

فتصلى : فتدعو له بنعيم روحه ، وتجعل الملائكة احتفالا بهيجا لحراسه والحافظين عليه فى حياته .

تستغفر : تكون وظيفة الملائكة طلب الاستغفار له من الله جل وعلا ، حتى ينشر ويخرج من قبره للحساب .

صلى : ذكر الله وسبح واستغفر وتهجد جزءا من الزمن فى سحره .

الليلة : الليلة الآتية الجديدة توصيها سابقتها بيقظته . . والرأفة به وتلطيف هوائها وإزالة شرها : وإبعاد أذاها ، حتى يتجدد نشاطه وتقوى صحته ويزداد انشراحا وقبولا ويشعر بالسرور

جهازه : الاستعداد لدفنه

دون : يتمثل القرآن نورا ملاصقا لصدره فوق كفنه

فيجىء القرآن : يمثل الله القرآن بشفيع قوى الحجة مدافع عنه

إليك : إبعد عنا وتنح

ولست أخذله : والله لا أهزمه ولا أتركه

فامضيا : اسألا ونفذا مهمتكما واعملا بواجبكما

ودعانى : اتركانى ملازما له .

تجهر : كنت تقرأ فى الجهر وفى السر ولا تخشى فى الله لومة لائم وتحترمنى وتعظ الناس بى وتعمل بآدابى .

ويصعدان : يذهبان إلى ربهما .

ولأدثرنك : والدثار : الثوب الذى يكون فوق الشعار (القميص) ، ومنه دثرونى : أى غطونى بما أدفأ به . قال تعالى : ﴿ **يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر** ﴾[1] . وإن القلب يدثر كما يدثر السيف فجلاؤه ذكر الله : أى يصدأ كما يصدأ السيف .

أسهرت : بعدت جفونك عن النوم .

وأنصبت : ـ **أقمت يومك فى العبادة والتلاوة .**

الطرف : لمح البصر .

---

(١) سورة المدثر الآيات ١ ـ ٣

مقربى : الأبرار المقربين المطيعين

فيحييه : ـ يقدم له أجل تحية مباركة للاستئناس .

فتنهضه : ـ تطلب منه تخلى هذا المكان برفق لتكسوه من أغلى الرياش وأفخر الأثاث (بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)

مسيرة أربعمائة عام : ـ بمقدار سير ناقة نجيبة مسرعة . قبره يساوى هذه المسافة فى الاتساع .

حشوه المسك : كثير الطيب منتشر الرائحة .

السندس : الحرير الرقيق .

الاستبرق : الحرير الغليظ . قال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا عليهم ثياب سندس خضر واستبرق** ﴾[1]

يسرج : ـ يضاء له

يزهران : يلمعان وفى صفته ﷺ أنه كان أزهر اللون ، والزهر الأبيض المستنير والزهر والزهرة : البياض النير وهو أحسن الألوان .

ياسمين : نوع من أحسن الرياحين عرفها ذكى وشذاها طيب .

غضا : طريا لم يتغير ومنه حديث على هل ينتظر أهل غضاضة الشاب أى نضارته وطراوته .

عقب : إن ترك ذرية فاسقة ، تضرع القرآن لربه عز وجل أن يوفقهم للعمل كأبيهم . وهذه بشارة عظيمة لحامل القرآن أن يبارك الله فى ذريته ويحيطهم برحمته ، ويشملهم برضاه تعالى .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :(من بات ليله فى خفة من الطعام والشراب يصلى تراكضت حوله الحور العين حتى يصبح)[2] رواه الطبرانى فى الكبير .

المعنى : ـ

تراكضت : ـ أى لازمته وأحاطت به وفى حديث ابن عمرو بن العاص (المؤمن أشد ارتكاضة على الذنب من العصفور حين يعذف به) أى أشد حركة واضطرابا ، والركض : الضرب بالرجل والاصابة بها . وفى الحديث طلب الأكل الخفيف فى العشاء وعدم تثاقل المعدة بالطعام ، رجاء اليقظة للتهجد و لذكر الله تعالى ، ليعمه نعيم الله ورضوانه ، وتحفه رياض الجنة ، وزهرتها ، ويحوطه نساء الجنة الحسان يدعون له بالتوفيق ، برجاء أن يزف إليهن يوم القيامة . ياأخى : السيدة الحسناء والغادة الهيفاء تبتهج بعبادتك وتنتظرك ، لتتمتع بها فى آخرتك وتنادى مهرها التهجد .

وقيدت نفسى فى هواك محبة ... ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر

وعن عمر وبن عتبة رضى الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول : (أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر فإن استطعت ان تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن) رواه الترمذى .

---

(١) سورة الانسان الأيتان ٢٠ ، ٢١

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه أصرم بن حوشب وهو متروك (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥) .

المعنى :

جوف الليل : بعد نصف الليل إلى مطلع الفجر كما قال ﷺ : (ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : من يدعونى فأستجيب له ، ومن يسألنى فأعطيه ومن يستغفرنى فأغفر له ؟) أى تنزل رحمته وأمره وملائكته ومعناه الاقبال على الداعين بالاجابة واللطف .

وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(ما خيب الله امرأ قام فى جوف الليل فافتتح سورة البقرة وآل عمران)[١] رواه الطبرانى فى الأوسط

المعنى : ـ ما خيب :

أى ما أسقط وما حرم ، والخائب : الذى لا نصيب له فى الخير وخاب يخيب ويخوب ومنه الحديث : (خيبة لك وياخيبة الدهر)

وعن أبى الدرداء رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال :(ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم ويستبشر بهم : الذى إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل ، فإما أن يقتل وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه فيقول : انظروا إلى عبدى هذا كيف صبر لى بنفسه ؟ والذى له امرأة حسنة وفراش لين حسن ، فيقوم من الليل فيقول : يذر شهوته ويذكرنى ، ولو شاء رقد والذى إذا كان فى سفر وكان معه ركب فسهروا ثم هجعوا فقام من السحر فى ضراء وسراء .)[٢]رواه الطبرانى

المعنى : يكفيه : يبعد عنه شرهم ويزيل ضررهم .

يذر : يترك لذته ويبتعد عن تمتعه بزوجته الحسناء حبا فى ذكر الله وتسبيحه تهجدا .

رقد : نام وأحل الله له ذلك وتمتع .

ركب : جماعة رفقاؤه

فهروا : أدلجوا طول الليلة ولم يذوقوا النوم .

هجعوا : ناموا ليلا وفى حديث الثورى : طرقنى بعد هجع من الليل . والهجع والهجعة والهجيع : طائفة من الليل .

السحر : آخر الليل يتحمل آلام السهر فى طاعة الله وذكره ويشعر بالسرور فى درك ثواب الله .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (عجب ربنا تعالى من رجلين : رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحبه إلى صلاته ، فيقول الله جل وعلا : انظروا إلى عبدى ثار عن فراشه ووطائه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى،ورجل غزا فى سبيل الله وانهزم أصحابه وعلم ما عليه فى الانهزام وماله فى الرجوع ، فرجع حتى يريق دمه فيقول الله انظروا الى عبدى رجع رجاء فيما عندى وشفقة مما عندى حتى يهريق دمه)[٣]رواه احمد

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط ، قال الهيثمى : وفيه ليث بن أبى سليم وفيه كلام وهو ثقة مدلس أ هـ (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٤)

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٥)

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ١ /٤١٦ واللفظ له ، وابو يعلى والطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى بعد عزوه لهم : وإسناده حسن (مجمع الزوائد٢/ ٢٥٥)

المعنى : ـ

ثار : ـ بعد من ثار الشيء يثور : انتشر وارتفع ومنه الحديث (فرأيت الماء يثور من بين أصابعه) أى ينبع بقوة وشدة .

الشيء المذلول : الموطوء : أى ترك فراشه وغطاءه الدفء . والوطاء : ما تحت الأقدام .

حبه : أقربائه وحبيبه .

رغبة : رجاء ثوابى وحبا فى طلب رضاى

شفقة : ـ خوفا من عذابى ومنه قوله تعالى : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾(١) أى خائفون .

ما عليه : علم أن الاندحار سبب موته وأسره وقتله ولكن جاهد حتى يشتهد طلبا فى نعيم الله .

يهريق : ـ يراق وبسال دمه ، والمعنى أن رجلين اكتسبا زيادة الأجر من الله تعالى :

أ ـ من هجر لذة نومه وترك سريره ليتهجد

ب ـ المجاهد فى سبيل الله المستبسل ولم يفر عند الهزيمة .

* وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :(الرجل من أمتى يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فإذا وضأ يديه انحلت عقدة وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة وإذا مسح رأسه انحلت عقدة واذا وضأ رجليه انحلت عقدة فيقول الله عز وجل للذين وراء الحجاب : انظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه يسألنى ما سألنى عبدى هذا فهو له)(٢). رواه احمد

المعنى :

الطهور : الوضوء : أى ما يتطهر به

عقد : خبال غلب عليه الشيطان وكتفه بخيوط الكسل والغفلة وجرى مجرى عروق الدم منه رجاء نسيان ذكر الله ورقوده وسباته ، فإذا اراد الله له باليقظة ، فذكر الله حطم سلسلة من قيوده وفرق عقلة من اغلاله ، وهكذا حتى يتم الوضوء ، فيتجلى عليه الرب جل وعلا ويباهى بفعله هذا ملائكته المقربين ، ويأمرهم ان ينظروا إلى فعل طاعته ، وتذلل لربه رجاء رحمته تعالى ، ثم يبشرهم بإجابة كل ما سأل تفضلا وتكرما ، الله اكبر هذا وقت المعاملة الحسنة مع الله ، والتجارة مع الغنى الكريم والتضرع إليه وقد تكفل سبحانه بعدم رد طلب لمن سأل .

* وعن أبى عبيدة رضى الله عنه قال : قال عبد الله : إنه مكتوب فى التوراة : « لقد أعد الله للذين تتجافى جنوبهم من المضاجع ما لم ترعين ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ولا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل » قال ونحن نقرؤها (فلا تعلم نفس ماأخفى لهم من قرة أعين)(٣) رواه الحاكم .

---

(١) سورة سأل الآية رقم ٢٧

(٢) الحديث رواه احمد فى مسنده ٤ / ١٥٩ ، ٢٠١ ـ قال الهيثمى : وفيه ابن لهيعه وفيه كلام (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٤)

(٣) الحديث رواه الحاكم فى المستدرك ٢ / ٤١٤ كتاب التفسير (سورة السجدة) وقال صحيح واقره الذهبى ولفظه ولا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ...اعين جزاء بما كانوا يعملون » .

قال الحافظ المنذرى : ابو عبيدة لم يسمع من عبد الله بن مسعود ، وقيل سمع (الترغيب والترهيب ١ / ٤٣٧)

المعنى : عبدالله : سيدنا عبدالله بن سلام كان حبرا وعالما انبأنا عما فى التوراة لسيدنا موسى ، وقد أوفقه كلام الله عز وجل فى قرآنه عن جزاء المتهجد العابد الذاكر المستغفر سحرا .

* وعن عبد بن أبى قيس رضى الله عنه قال : قالت عائشة رضى الله عنها : « لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعدا »[1] رواه ابو داود

المعنى : لا تدع : لا تترك . لا : الناهية

لا يدعه : كان لا يتركه

مرض أو كسل : أعياه التعب : ولحق به العناء .

* وعن طارق بن شهاب أنه بات عند سلمان رضى الله عنه لينظر ما اجتهاده قال : « فقام يصلى من آخر الليل ، فكأنه لم ير الذى كان يظن ، فذكر ذلك له ، فقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراحات ما لم تصب المقتلة ، فإذا صلى الناس العشاء صدروا عن ثلاث منازل .

منهم : من عليه ولا له ، ومنهم : من له ولا عليه ومنهم : من لا له ولا عليه ، فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فركب فرسه فى المعاصى ، فذلك عليه ولا له . ومن له ولا عليه : فرجل اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس ، فقام يصلى فذلك له ولا عليه ، ومن لا له ولا عليه : فرجل صلى ثم نام فلا له ولا عليه : إياك والحقحقة وعليك بالقصد ودوامه » . رواه الطبرانى فى الكبير موقوفا .

المعنى : ـ ماجتهاده : ما اسم استفهام مبتدأ : أى شىء بلغ اجتهاده .

كفارات : ـ مزيلات الصغائر وسائر الخطايا التى يقترفها الانسان .

المقتلة : ما لم تفعل الكبائر التى أوعد الله بها العقاب الأليم ونهى عنها وشدد على مرتكبيها مثل الزنا ، والسرقة ، والشرك بالله ، والسحر ، والربا ، وقتل النفس ، وعقوق الوالدين ، وقذف المحصنات الغافلات ، والغيبة والنميمة ، والكبر والحسد ، والفتنة .

من له : أى يجاهد نفسه فى التوبة من المعاصى وكثرة الاستغفار والانابة إلى الله والاقلاع عن الشرور والتهجد .

فركب : أى استرسل فى إدراك شهوات نفسه وأطلق لها العنان فى فعل الموبقات ، فذلك أوزاره جمة وسيئاته كثيرة وعذابه أليم وحسابه عسير .

فذلك : ـ له الثواب الجزيل ولا ذنب عليه .

نام : ـ لا له ولا عليه .

ودوامه : ـ اى استمر فى العبادة جهد الطاقة ، ولا تتعب نفسك بكثرة السهر واترك الغلو فى العبادة ، ولا تحمل نفسك فوق طاقتها ، وفيه ان الانسان يصلى العشاء وينام رجاء ان الله يوفقه بالقيام للتهجد ، لينال من الله النعيم ، ويجاب دعاؤه ، ويحذر أن يسهر فى معصية ويسامر فى غضب الله ،

وفيه النهى عن المغالاة فى العبادة « إن الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى »

الحقحقة : بحاءين مهملتين مفتوحتين وقافين ، الأولى ساكنة ، والثانية مفتوحة : هو أشد السير ، وقيل : هو أن يجتهد فى السير ويلح فيه ، حتى تعطب راحلته ، أو تقف ، وقيل غير ذلك .

* وعن سمرة بن جندب رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يقول لنا :(ليس فى الدنيا حسد إلا فى اثنتين : الرجل يغبط ان يعطيه الله المال الكثير فينفق منه فيكثر النفقة ، يقول الآخر : لو كان لى مال لأنفقته مثل ما ينفق هذا وأحسن فهو يحسده ، ورجل يقرأ القرآن فيقوم الليل ورجل إلى جنبه لا يعلم القرآن فهو يحسده على قيامه وعلى ما علمه الله عز وجل القرآن ، فيقول : لو علمنى الله مثل هذا لقمت مثل ما يقوم)(١) رواه الطبرانى فى الكبير

المعنى :ـ

حسد : هنا غبطة : أي تتمنى أن تفعل خيرا مثله وليس الحسد المذموم الذى هو تمنى زوال النعمة عن اخيك .

ما علمه الله عز وجل من القرآن :ـ يبين رسول الله ﷺ خصلتين نتمنى ان تتحلى بهما أيها المسلم :

أـ خلة الانفاق والجود على إنشاء مشروعات الخير وتشييد الصالحات وتنظر إلى المحسنين ، فتتمنى أن يكون لك مال لتعمل مثلهم .

ب ـ خلة التقوى المنبعثة من قراءة القرآن الداعية إلى التهجد الغارسة دوحات العلم النافع فى قلب حافظه ، فتتمنى ان تفقه القرآن وتقرأه لتظهر تعاليمه وتثمر أوراقه فى حديقتك .

الحسد :ـ

يطلق ويراد به تمنى زوال النعمة عن المحسود ، وهذا حرام بالاتفاق ويطلق ويراد به الغبطة وهو تمنى حالة كحالة المغبط من غير تمنى زوالها عنه ، وهو المراد فى هذا الحديث وفى نظائره ، فإن كانت الحالة التى عليها المغبط محمودة فهو تمن محمود ، وإن كانت مذمومة فهو تمن مذموم يأثم عليه المتمنى .

* وعن عبدالله رضى عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار،ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار)(١) رواه مسلم

وعن يزيد بن الاخنس وكانت له صحبة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (لا تنافس إلا فى اثنتين : رجل اعطاه الله قرآنا ، فهو يقوم به آناء الليل والنهار ، فيقول رجل لو أن الله اعطانى ما اعطى فلانا ، فأقوم به كما يقوم ، ورجل اعطاه الله مالا ، فهو ينفق منه ويتصدق ، فيقول رجل مثل ذلك)

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفى اسناده بعض ضعف ورواه البزار بإسناد ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٥٦)

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التمنى رقم / ٥ ، وفى كتاب التوحيد رقم / ٤٥

رواه الطبرانى فى الكبير .

تنافس : التسابق فى الخير وانتهاز فرص نيل الثواب .

آناء : ساعاته جمع إنا بالكسر والقصر أو جمع آناء بالفتح والمد قال تعالى ﴿ **ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾(١)

والمعنى انه يعظ الناس به فى أوقات الليل ان سنحت الفرصة وكذا فى النهار مع العمل به ، ويقرأ امام الفقراء ويحترم قراءته ونفسه ثم رسخ الايمان بقلبه ، فتهجد وذكر الله فى السحر .

ينفق : ينشىء به الاعمال الصالحات ومشروعات تفيد الابناء ، ويوجد اعمالا للعاطلين ، ويكسو عريانا ويطعم جائعا ويصرف فى وجوه البر ويزكى

ـ وعن فضالة بن عبيد وتميم الدارى رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (من قرأ عشر آيات فى ليلة كتب له قنطار والقنطار خير من الدنيا وما فيها فإذا كان يوم القيامة ، يقول ربك عز وجل : اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينتهى إلى آخر آية مِنهُ يقول ربك عز وجل للعبد : اقبض ، فيقول العبد بيده : يارب أنت أعلم يقول لهذه الخلد ولهذه النعيم)(٢) . رواه الطبرانى

ظاهره من أى سورة ينال ثوابا لو وزن لرجحت كفته عن القنطار ، وهذا خير من نعيم الدنيا الفانى على ان الله تعالى يتفضل ويرقيه إلى درجات عالية كل آية درجة يصعد بها إلى العلياء والعز والنعيم المقيم لما فى الآيات من ذكر الله وتسبيحه وتقديسه ، بمعنى انه يتهجد وبعد فاتحة الكتاب يقرأ ما تيسر من القرآن يحفظ الله له ذلك ذخيرة عنده يوم القيامة ويجازيه ، وما من كمال إلا وعند الله اكمل منه ، قال ﷺ : (ان فى الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين ، كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه المقنطرين ﴾(٤)

ـ وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين) (٣) رواه ابو داود

لم يكتب من الغافلين : أى صلى نافلة وتلا فى صلاته عشر آيات عد من الذاكرين الله كثيرا ومحيت عنه الغفلة ، ومن قام اى تهجد فى صلاته فقرأ مائة آية ، كتبه الله من الطائعين الخاشعين العابدين وفيه (تفكر ساعة خير من قنوت ليلة)

---

(١) سورة طه آية رقم ١٣٠

(٢) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط ، قال الهيثمى : وفيه اسماعيل بن عياش ، ولكنه من روايته عن الشاميين وهى مقبولة (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٧)

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الجهاد رقم / ٤ ، وفى كتاب التوحيد رقم / ٢٢ والترمذى فى أبواب الجنة رقم ٤ وأحمد ٢ / ٣٣٥ .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى سننه واللفظ له،وابن حبان ولفظه : ومن قام بمائتى آية كتب من المقنطرين ـ قال فى عون المعبود : قال السندى : والحديث سكت عنه المنذرى أ هـ (المنهل العذب ٨ / ١٥ ـ ١٦ ، عون المعبود ٤ / ٢٧٤ ابواب قيام الليل ، باب تحزيب القرآن ، موارد الظمآن ١٧٢ رقم ٦٦٢ كتاب المواقيت ، باب القراءة فى الليل .

وقال ابن الانبارى : القنوت على أربعة اقسام :

الصلاة وطول القيام وإقامة الطاعة والسكوت أ . هـ ومنه :

أ- ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ وقيل اى الصلاة أفضل ؟

قال : طول القنوت اى الاشتغال بالعبادة ورفض كل من سواه سبحانه وتعالى فعليك أخى بكثرة القراءة فى الصلاة عسى ان تنال هذه الصفة قال تعالى :

(ب) ﴿ ان إبراهيم كان أمة قانتا ﴾[1]

(ج) ﴿ يامريم اقنتى لربك ﴾[2]

(د) ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾[3]

وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال :(القنطار اثنا عشر ألف أوقية . . الأوقية خير مما بين السماء والأرض)[4] رواه ابن حبان فى صحيحه

ـ وعن ابى امامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليلة ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين ومن قرأ اربعمائة آية كتب من العابدين ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ومن قرأ ثمانمائة آية كتب من المخبتين ومن قرأ الف آية اصبح له قنطار والقنطار ألف ومائتا أوقية والأوقية خير مما بين السماء والأرض . أو قال : خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من الموجبين)[5] رواه الطبرانى

المعنى : ـ

الحافظين : الذين أجادوا معرفته وعد من المطهرين المقربين ، الذين قال الله عنهم : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾[6] ما شاء الله زيادة التلاوة فى الصلاة ، تنقى صحائف القارىء ، وتطهره من الآثام ، وتجعله فى صفوف الابرار الصالحين الذين يخافون الله جل وعلا الذين يعنيهم الله بقوله : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان)[7]

الخاشعين : المتواضعين الذين يعنيهم الله بقوله :﴿ فالهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾[8] .

---

(١) سورة النحل آية رقم ١٢٠

(٢) سورة آل عمران آية رقم ٤٣

(٣) سورة الاحزاب آية رقم ٣١

(٤) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان ص ١٧٢ حديث رقم ٦٦٣

(٥) الحديث رواه الطبرانى فى الكبير ، قال الهيثمى : وفيه يحيى بن عقبة بن أبى العيزار وهو ضعيف (مجمع الزوائد ٢ / ٢٦٧ - ٢٦٨)

(٦) سورة الانفطار آية رقم ١٠ ، ١١ ، ١٢

(٧) سورة الرحمن آية رقم ٤٦

(٨) سورة الحج الآيتان رقم ٣٤ ، ٣٥

المخبتين : زيادة التواضع والذلة لله يقال أخبت لله .
أى زاد تواضعا : الموجب : الذى اتى بفعل يوجب له الجنة وكذلك من أتى بفعل يوجب له النار
أربع خصال حازها المخبتون : أولا : خوف الله،ثانيا : الصبر عند المصائب،ثالثا : إقامة الصلاة .
رابعا : الانفاق فى الخيرات ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ .

صلاة التهجد سعادة وهى ثمرات دوحات نبتت فى قلوب المتقين فأزهرت .
أى الصلاة بالليل بعد العشاء وأصله ترك الهجود وهو النوم : قال ابن فارس : المتهجد : المصلى ليلا وفى نسخة من الليل
أريد ان ابين للمسلمين ان القيام ليلا لذكر الله يجلب هناءة الضمير وقرة العين وإنشراح الصدر .

أولا : لازالة سلطة الشيطان عليه وقهره وفك عقد كسله (فأصبح نشيطا)

ثانيا : سبب دخول الجنة وحصن منيع من النار ، وقد رأى سيدنا عبد الله بن عمر ملكين اخذاه الى النار ، فقابله آخر قال : (لن تراع لن تراع) فقص الرؤيا على أخته (السيدة حفصة) فقصتها على سيدنا رسول الله ﷺ فقال : (نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل) فما ترك التهجد بعدئذ .

قال شراح الحديث : فيه ان القيام بالليل يمنع عذاب النار ، وأى فرح وعز وشعور بالنجاة والسرور من ان يضمن الانسان لنفسه السلامة من جهنم والفوز بجنة اعدها الله للمحسنين الصالحين .

ثالثا : يقف الخلائق للحساب إلا المتهجد فيمر بسلام .

رابعا : لعل المتهجد يتفق دعاؤه ساعة تفتحت لها أبواب رحمة الله تعالى فيجاب دعاؤه وينال سؤاله وتقضى آماله فينجح ويربح .

خامسا : اخبرنا الصادق المصدوق ﷺ ان قيام الليل يجدد للجسم نشاطه ويبعث الصحة ، ويقوى دورة الدم وينقيه باستنشاق نسيم السحر العليل البليل الجميل .

ويعطى الرئتين قوة ومناعة وتصح العينان ، ويسلم الرأس من عوارض الزكام والصداع ، وتطرد الأدواء عن الجسم (ومطردة للداء عن الجسد) كما قال ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام : (ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ذو مرة)[1]

صدق أيها المسلم واحى هذه العادة الجميلة لتحيا حياة الابرار وتعيش عيشة الاخيار الاطهار .

سادسا : تبادل الثقة بين الزوجين : الرجل يوقظ زوجته أو هى توقظ زوجها وقد دعا لهما ﷺ بالرحمة ان فعلا ذلك ، هذه هى السعادة ان يتعاونا على طاعة الله وهنا تتجدد عرى الصداقة وتقوى روابط الأسرة ، ويزول سوء التفاهم ، وتشرق أنوار السعادة على هذا البيت ، فيخرج الزوج إلى عمله قرير العين ، مثلوج الفؤاد ، آمنا على عرضه ، مطمئنا على بيته وقديما قيل (رأس الحكمة مخافة الله) وأترك للقارىء حوادث سوء النية للزوج أو الزوجة اللذين لا يخافان الله وإنها لكثيرة : شقاق وكدر وغضب ومحاكم وتبرج ونزاع وإسراف وقلة أدب ، وهكذا مما يجره عدم العمل بكتاب رب العالمين

(١) ١ ـ سورة النجم آيات رقم : ٢ ـ ٦

وسنة سيد المرسلين ونسيان قوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة ﴾[١] وقوله ﷺ : (فصلى وأيقظ امرأته) .

سابعا : عد ﷺ قيام الليل شرفا وسيادة ، وعلو نفس طماعة إلى كسب المعالى ، وجنى ثمار المحامد ، ولو كشف الله بصيرته لرأى جمال الهيئة وأنوار ملائكة الرحمة ، وفرح الحور العين بعمله ، وتجليات المولى جل وعلا عليه بالرحمة واستظلاله بظل الله ، والناس غافلون ، وقد نفى ﷺ الخيبة فى طلبه والخسران فى عمله ، وكفل له الربح والفلاح وأمنه الله من المكاره وزال عنه الاخطار .

ثامنا : تخفيف الطعام فى العشاء من سنة رسول الله ﷺ لتستريح المعدة ، ويهدأ نومه وهذا نهاية الطب ومجلب للصحة .

أدلة التهجد من القرآن

قال تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا . وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾[٢] .

قيل المراد بالصلاة صلاة المغرب ثم بين مبدأ الوقت ومنتهاه وقال ﷺ : (أتانى جبريل لدلوك الشمس حين زالت فصلى بى الظهر وقيل : لغروبها (وقرآن الفجر) صلاة الصبح تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، أو شواهد قدرة الخالق جل وعلا من تبدل ظلمة الليل بضياء النهار والنوم بالانتباه ، ليعتبر العقلاء ، فيقوموا لذكر الله وشاهدنا (ومن الليل فتهجد به) اى وبعض الليل فاترك الهجود للصلاة ، والضمير للقرآن (نافلة لك) فريضة زائدة لك على الصلوات المفروضة ، أو فضيلة لك لاختصاص وجوبه بك رجاء مقام يحمده القائم فيه وكل من عرفه .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال : (هو المقام الذى أشفع فيه لأمتى)[٣] ثم دعا ﷺ بدعاء (أدخلنى) أى فى القبر إدخالا مرضيا (وأخرجنى) اى منه عند البعث إخراجا ملقى بالكرامة ، أو أدخلنى يارب المدينة أو مكة ظاهرا عليها ، أو فيما جعلتنى من أعباء الرسالة ، وأخرجنى من مكة سالما آمنا من المشركين ، أو أخرجنى مما حملتنى من عباء الرسالة مؤديا حقه ، أو أدخلنى الغار وأخرجنى سالما وقونى بحجة تنصرنى على من خالفنى ، أو ملكا ينصر الاسلام على الكفر . والحق الاسلام ، والباطل الشرك كان مضمحلا غير ثابت .

عن ابن مسعود رضى الله عنه انه عليه الصلاة والسلام دخل مكة يوم الفتح وفيها ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل ينكت بمخصرته فى عين واحد واحد منها فيقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكب

---

(١) سورة طه آية رقم ١٣٢

(٢) سورة الاسراء الآيات رقم ٧٨ - ٨١

(٣) الحديث رواه أحمد فى مسنده ٢ / ٤٤١ ، ٥٢٨ عن أبى هريرة

لوجهه حتى ألقى جميعها ، وبقى صنم خزاعة فوق الكعبة ، وكان من صفر فقال يا على : ارم به فصعد فرمى به فكسره[١] .

قال الشرقاوى : فى صحيح النووى انه نسخ عنه التهجد كما نسخ عن أمته قال : ونقله الشيخ ابو حامد عن النص وهو الاصح أو الصحيح ففى مسلم عن عائشة رضى الله عنها ما يدل عليه أو فضيلة لك فإنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحينئذ فلم يكن فعل ذلك يكفر شيئا ، ويرجع التكاليف كلها فى حقه عليه الصلاة والسلام قرة عين وإلهام طبع ، وتكون صلاته فى الدنيا مثل تسبيح اهل الجنة فى الجنة لا على وجه الكلفة والتكليف ، وهذا كله مفرع على طريقة إمام الحرمين من أن التكليف يستلزم الوعيد ، وأما على طريقة القاضى حيث يقول : لو أوجب الله تعالى شيئا لوجب وإن لم يكن وعيد فلا يمتنع حينئذ بقاء التكاليف فى حقه عليه الصلاة والسلام على ما كانت عليه مع طمأنينته عليه الصلاة والسلام من ناحية الوعيد ، وعلى كلا التقديرين فهو معصوم ولاذنب ولاعتب ، وأما أمره بالاستغفار فى قوله ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾ فهو تعبد على الفرض والتقدير : أى استغفر مما عساه ان يقع لولا عصمتك .

ب - ﴿ ان المتقين فى جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾[٢]

ج - ﴿ ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾[٣] .

روى انه عليه الصلاة والسلام كان يصلى متلففا بمرط مفروش على عائشة رضى الله عنها وأصله المتزمل فأدغم التاء فى الزاى من تزمل الزمل : تحمل الحمل : أى ياأيها المتحمل أعباء النبوة قم إلى الصلاة أو داوم عليها ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾[٤] قولا : أى القرآن لما فيه من التكاليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ إذا كان عليه ان يتحملها ويحملها أمته ﴿ إن ناشئة الليل ﴾ اى إن النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة من نشأ من مكانه إذا نهض وقام .

أو قيام الليل على ان الناشئة له أو العبادة التى تنشأ بالليل : أى تحدث أو ساعات الليل ؛ لأنها تحدث واحدة بعد اخرى ﴿ هى أشد وطأ ﴾ أى كلفة او ثبات قدم وقرىء ﴿ وطاء ﴾ أى مواطأة القلب اللسان لها أو فيها أو موافقة لما يراد منها من الخضوع والاخلاص ﴿ وأقوم قيلا ﴾ اى وأشد مقالا أو اثبت قراءة لحضور القلب وهذه الاصوات .

﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾[٥] أى تقلبا فى مهماتك

---

(١) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة الاسراء ، وفى كتاب المظالم ومسلم فى كتاب الجهاد ، الترمذى فى تفسير سورة الاسراء - وقال حسن صحيح - وأحمد ١ / ٣٧٧ ، ٣٧٨

(٢) سورة الذاريات آيات : ١٥ - ١٩ (٣) سورة المزمل آيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) سورة المزمل آيات ٥ ، ٦

(٥) المزمل الآيات : ٧ - ٨

واشتغالا بها فعليك بالتهجد فإن مناجاة الحق تستدعى فراغا (قرىء سبخا) أى فراغا تفرغ قلب بالشواغل مستعار من سبخ الصوف وهو نقشه ونشر أجزائه ودم على ذكر ربك ليلا ونهارا وذكر الله يتناول كل ما يذكر به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآن ودراسة علم (وتبتل) وانقطع إليه بالعبادة وجرد نفسك عما سواه .

أيها المسلم : هل تقتدى بسيدنا رسول الله ﷺ امره الله بالتهجد ، فزاد كمالا . ونصره الله ، ودانت له الأرض ، وعز ملكه وانتشر دينه ﷺ ونال الشفاعة العظمى وخصه الله بمحامد ومكارم وأخلاق .

قال تعالى : ﴿ وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١] ﷺ (غير ممنون) غير مقطوع أو ممنون به عليك من الناس فانه تعالى يعطيك بلا توسط ، لأنك تتحمل من قومك ما لا يتحمل أمثالك ، وسئلت عائشة رضى الله عنها عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » ألست تقرأ القرآن ؟ بلى اقرأ قد أفلح المؤمنون اللهم صل عليه وانفعنا بسنته ووفقنا لنهج منهجه إنك عزيز حكيم .

وقد اخبر الله تعالى فى محكم كتابه انه ﷺ وأصحابه قاموا بالتهجد خير قيام ، قال جل وعلا : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾[٣] (ادنى) استعار الادنى للاقل ، لأن الأقرب إلى الشىء أقل بعدا منه ويقوم بذلك جماعة من أصحابك ولا يعلم مقادير ساعات الليل والنهار كما هى إلا الله سبحانه وتعالى ، ولن تحصوا تقدير الأوقات ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات (فتاب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام المقدر ورفع التبعة ، كما رفع التبعة عن التائب (فاقرءوا ما تيسر من القرآن) : فصلوا ما تيسر عليكم من صلاة الليل عبر عن الصلاة بالقرآن كما عبر عنها بسائر أركانها وقيل : فاقرءوا القرآن بعينه كيفما تيسر عليكم والضرب فى الأرض المسافرة للتجارة أو لتحصيل العلم .

﴿ فاقرءوا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ المفروضة

التحذير من صلاة الانسان وقراءته حال النعاس

عن عائشة رضى الله عنها ان النبى ﷺ قال :(اذا نعس احدكم فى الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن احدكم إذا صلى وهو ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه) . رواه مالك والبخارى ومسلم

اذا نعس احدكم وهو يصلى فلينصرف فلعله يدعو على نفسه وهو لا يدرى .

وعن انس رضى الله عنه ان النبى ﷺ قال :(اذا نعس احدكم فى الصلاة فلينم حتى يعلم ما

(١) سورة (ن) الآيتان : ٣ـ ٤

(٢) سورة المزمل الآية رقم : ٢٠

يقرؤه .) رواه البخارى والنسائى إلا انه قال :(اذا نعس احدكم فى صلاته فلينصرف وليرقد)(١)

نعس : اخذه النوم يقال نعس نعسة ونعاسا وهو الوسن وأول النوم ، نهى ﷺ ان يستمر الناعس فى صلاته خشية ان يدعو على نفسه وهو لا يدرى وخشية عدم إتمام الأركان ، فليقطع صلاته ولينم حتى يذهب عنه النوم ، وحتى يذهب ليفعل الوسائل التى تزيل وسنه ، وفيه ان المصلى لابد ان يملك شعوره ويعلم حركاته واقواله وان المتهجد اذا لم يذهب نومه بل غلبه ينام أحسن من الاستمرار فى الصلاة خوفا من الخلط وسب نفسه .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا قام احدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع)(٢) رواه مسلم .

المعنى : استعجم : استغلق

على لسانه : اى ثقلت عليه القراءة كالأعجمى لغلبة النعاس .

قال العلقمى : قال القرطبى : القرآن مرفوع على انه فاعل استعجم اى صارت قراءته كالعجمية لاختلاف حروف النائم وعدم بيانها .

فليضجع : قال المناوى : للنوم ندبا ان خف النعاس بحيث يعقل القول ، أو وجوبا ان غلبه بحيث أفضى الى الاخلال بواجب . أ . هـ .

وقال العلقمى : لئلا يغير كلام الله ويبدله أ . هـ

وقال الحفنى : والتقييد بالليل للغالب من ان النوم فى الليل وإلا فالنوم فى النهار كذلك . أ . هـ

واقول : ينام إذا كان فى تهجد ليلا أو نافلة نهارا ، أما اذا كان يصلى الفرض وينام فيقطع صلاته ويرش على وجهه الماء ويذهب النوم عنه ويصلى خشية ان يضيع الوقت وخوفا من ذهاب الفضيلة ، والله سبحانه وتعالى اعلم .

التحذير من نوم الانسان الى الصباح
وترك قيام شىء من الليل

عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : ذكر عند النبى ﷺ رجل نام ليلة حتى اصبح قال : ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه ، أو قال فى أذنه)(٣) رواه البخارى ومسلم .

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوضوء رقم ٥٣ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٢ ، وأبو داود فى كتاب صلاة التطوع رقم /١٨ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ١٤٦ ، وابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٨٤ ، ومالك فى الموطأ فى كتاب صلاة الليل رقم ٣ ، والدارمى فى كتاب الصلاة رقم ١٠٧ ، واحمد فى مسنده ٦ / ٥٦ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٥٩ ، ٣ / ١٤٢ ، ١٥٠

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٢٣ ، وابو داود فى كتاب التطوع رقم ١٨ ، وابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٨٤ ، واحمد ٢ / ٣١٨

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد رقم ١٣ ، وفى كتاب بدء الخلق رقم ١١ ، ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين حديث رقم ٢٠٥ ، والنسائى فى كتاب قيام الليل رقم ٥ ، وابن ماجه فى ابواب الامامة رقم ١٧٤ ، وأحمد ١ / ٣٧٥ ، ٤٢٧ ، ٢ / ٢٦٠ ، ٤٢٧

المعنى : بال : قيل معناه سخر منه وظهر عليه حتى نام عن طاعة الله عز وجل كقول الشاعر : بال سهيل فى الفضيخ ففسد .

أى لما كان الفضيخ يفسد بطلوع سهيل كان ظهوره عليه مفسدا له وعن الحسن مرسلا ان النبى ﷺ قال : (فإذا نام شغر الشيطان برجله فبال فى اذنه) وسهيل الفضيخ كوكبان وشغر رفع احدى رجليه ليبول ، والمعنى ان الشيطان يسلح على الغافل تارك التهجد وهو كالتغوط للانسان .

وروى الطبرانى فى الأوسط حديث ابن مسعود رضى الله عنه ولفظه قال رسول الله ﷺ :(اذا اراد العبد الصلاة من الليل أتاه ملك فقال له : (قم فقد اصبحت فصل واذكر ربك فيأتيه الشيطان فيقول : عليك ليل طويل وسوف تقوم ، فإن قام فصلى أصبح نشيطا خفيف الجسم قرير العين وان هو اطاع الشيطان حتى اصبح بال فى اذنه)

المعنى : ملك : من ملائكة الرحمة الحفظة .

فصل : قربت من السحر فتهجد

قرير العين : مسرورا اقر الله عينه اعطاه حتى تفرح فلا تطمح إلى من هو فوقه ودمعة السرور باردة والحزن حارة .

وعن ابى هريرة رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : (يعقد الشيطان على قافية رأس احدكم اذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا اصبح خبيث النفس كسلان)[1] رواه مالك والبخارى ومسلم .

فيصبح نشيطا طيب النفس قد أصاب خيرا وإن لم يفعل أصبح كسلان خبيث النفس لم يصب خيرا .

وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :(قالت ام سليمان بن داود لسليمان : يابنى : لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة)[2] رواه ابن ماجه

فقيرا : خاليا من الحسنات .

وعنه رضى الله عنه ايضا ان النبى ﷺ قال :(ما من مسلم ذكر ولا انثى ينام الا وعليه جرير معقود فإن هو توضأ وقام إلى الصلاة أصبح نشيطا قد أصاب خيرا وقد انحلت عقده كلها وان استيقظ ولم يذكر الله اصبح وعقده عليه ، واصبح ثقيلا كسلان ولم يصب خيرا) .[1] رواه ابن حبان و ابن خزيمة .

---

(١) سبق تخريجه ص ٢١

(٢) الحديث رواه ابن ماجه فى ابواب الاقامة رقم ١٧٤

(١) هذا الحديث رواه ابن ماجه فى صحيحه بهذا اللفظ

قال الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ١ /٤٤٦ بعد ذكره لهذه الرواية : رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما واللفظ لابن حبان وتقدم لفظ ابن خزيمة أ هـ

وعن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ان الله يبغض كل جعظرى جواظ صخاب فى الاسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم بأمر الدنيا جاهل بأمر الآخرة)[١] رواه ابن حبان .

قال أهل اللغة : الجعظرى : الشديد الغليظ

الجواظ : الأكول

والصخاب : الصياح .

المعنى : يخبر ﷺ ان الله تعالى خلق الانسان للعمل والعبادة ، قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٢]

أى لما خلقهم على صورة متوجهة إلى العبادة مغلبة لها ، وجعل خلقهم مغيابها مبالغة فى ذلك ، ولو حمل على ظاهره مع ان الدليل يمنعه . لنا فى ظاهره قوله : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ﴾[٣] ذرأ خلق وقد قرأ ابن عباس رضى الله عنهما ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ وقيل معناه إلا لأمرهم بالعبادة ، وهو منقول عن على رضى الله عنه وقيل :إلا ليكونوا عبادا لى والوجه أن تحمل العبادة على التوحيد ، وقد قال ابن عباس رضى الله عنه : كل عبادة فى القرآن توحيد والكل يوحدونه فى الآخرة .

قال تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾[٤] ﴿ ما أريد منهم من رزق ﴾ اى ما أريد أى أحد منكم فى تحصيل رزقى ، فاشتغلوا بما انتم كالمخلوقين له أو المأجورين به ، والمراد ان يبين ان شأنه مع عباده ليس شأن السادة من عبيدهم ، فإنهم إنما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم ، والله تعالى يرزق كل من يفتقر الى الرزق ، وفيه إيماء باستغنائه عنه . . فسبحانه غنى شديد القوة ، واذا عرفت معنى هذه الآية علمت ان الذى خلق ليأكل مذموم وتراه معتنيا بملذاته وترفه ، فيغلظ جسمه ويتضخم ، ثم يتفنن فى الطعام والشراب وينسى حقوق الله ويترك الصدقة ، ثم يكثر اللغط والسباب والفسوق والصياح ، ولا يذكر الله تعالى ، فالله ينتقم منه ويعذبه يوم القيامة ، ويمنع عنه سبحانه وتعالى رحمته ، ويحمل عليه سخطه (حمار بالنهار) اى شغال لجمع الدنيا ولا يفقه فى الدين ، وعالم بظاهر الحياة بلا عمل صالح . قال تعالى : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾

---

(١) الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه والاصبهانى
(الترغيب والترهيب ١ / ٤٤٦ - ٤٤٧)
(٢) سورة الذاريات الآيات رقم : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨
(٣) سورة الاعراف الآية رقم ١٧٩
(٤) سورة الأنعام الآية رقم ٢٣
(٥) سورة الروم الآية رقم ٧

وهذا دعاء ورجاء ، فكل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار عافية ، والغرام هو الشيء الملازم الدائم قال الحسن : كل شيء يصيب ابن آدم ويزول عنه فليس بغرام ، وإنما الغرام اللازم مادامت السموات والأرض قوله تعالى : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ اى بئس المستقر وبئس المقام جهنم .

قال ابن ابى حاتم عند قوله : ﴿ إنها ساءت مستقرا ومقاما ﴾ حدثنا ابى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا ابو الاحوص عن الاعمش عن مالك بن الحارث قال : (إذا طرح الرجل فى النار هوى فيها فإذا انتهى الى بعض ابوابها ، قيل له مكانك حتى تتحف قال فيسقى كأسا من سم الاساود والعقارب قال فيتميز الجلد على حدة والشعر على حدة والعصب على حدة والعروق على حدة) .

وقال ايضا عن عبيد بن عمير قال : ان فى النار لجبابا فيها حيات أمثال البخت وعقارب امثال البغال الدهم فإذا قذف بهم فى النار خرجت اليهم من أوطانها فأخذت بشفاههم وأبشارهم وأشقارهم فكشطت لحومهم الى اقدامهم فإذا وجدت حر النار رجعت .

وقال الامام احمد بسنده عن انس عن مالك عن النبى ﷺ قال : (إن عبدا فى جهنم لينادى ألف سنة ياحنان يامنان فيقول الله عز وجل لجبريل اذهب فائتنى بعبدى هذا ، فينطلق جبريل فيجد اهل النار مكبين يبكون فيرجع إلى ربه عز وجل فيخبره ، فيقول الله عز وجل ائتنى به فانه فى مكان كذا وكذا فيجىء به فيوقفه على ربه عز وجل ، فيقول له ياعبدى كيف وجدت مكانك ومقيلك ؟ فيقول يارب شر مكان وشر مقيل ، فيقول الله عز وجل : ردوا عبدى فيقول يارب ما كنت ارجو اذ اخرجتنى منها ان تردنى فيها فيقول الله عز وجل دعوا عبدى)[1]

قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أى ليسوا بمبذرين فى انفاقهم ، فيصرفون فوق الحاجة ولا بخلاء على أهليهم ، فيقصرون فى حقهم ، فلا يكفونهم بل عدولا خيارا وخير الأمور أوسطها لا هذا ولا هذا .

﴿ وكان بين ذلك قواما ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ .

قال الامام أحمد عن ابى الدرداء عن النبى ﷺ (من فقه الرجل قصده فى معيشته) .

وقال الامام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ (ما عال من اقتصد) وقال الحافظ البزار عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ (ما أحسن القصد فى الغني وما أحسن القصد فى الفقر وما أحسن القصد فى العبادة) .

وقال الحسن البصرى : ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف وقال اياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف وقال غيره السرف النفقة فى معصية الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . إلا من تاب وآمن

(١) الحديث رواه احمد ٣ / ٢٣٠

وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا) .

قال الامام أحمد حدثنا ابو معاوية،حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبدالله هو ابن مسعود قال سئل رسول الله ﷺ أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أندادا وهو خلقك » قال ثم أى ؟ قال : « ان تقتل ولدك خشية ان يطعم معك » قال ثم أى ؟ قال : « ان تزانى حليلة جارك » . قال عبدالله وأنزل الله تصديق ذلك (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر)(١) وقال النسائى حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا جرير عن منصور عن هلال بن يساف عن سلمة بن قيس قال : قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع « ألا إنما هى أربع » فما أنا بأشح عليهن منذ سمعتهن من رسول الله ﷺ ، (لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تزنوا ، ولا تسرقوا)(٢) وقال الامام أحمد حدثنا على بن المدينى رحمه الله حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان حدثنا محمد بن سعيد الانصارى سمعت ابا طيبة الكلاعى سمعت المقداد بن الأسود رضى الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ يقول لأصحابه : (ما تقولون فى الزنا ؟) قالوا حرمه الله ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه : (لأن يزنى الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزنى بإمرأة جاره) قال (فما تقولون فى السرقة ؟) قالوا حرمها الله ورسوله فهى حرام . قال : (لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من ان يسرق من بيت جاره)(٣) وقال ابو بكر بن ابى الدنيا حدثنا عمار بن نصر حدثنا بقية عن أبى بكر بن أبى مريم عن الهيثم بن مالك الطائى عن النبى ﷺ قال : (ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل فى رحم لا يحل له) . وقال ابن جريج أخبرنى يعلى عن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس يحدث ان ناسا من اهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم اتوا محمدا ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا ان لما عملنا كفارة فنزلت ﴿ **والذين لايدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ﴾ الآية وقال ابن ابى حاتم حدثنا ابى حدثنا ابن ابى عمر حدثنا سفيان عن عمرو عن أبى فاختة قال : قال رسول الله ﷺ لرجل (إن الله ينهاك أن تعبد المخلوق وتدع الخالق ، وينهاك ان تقتل ولدك وتغذم كلبك ، وينهاك ان تزنى بحليلة جارك) قال سفيان وهو قوله : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر** ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ **ومن يفعل ذلك يلق أثاما**) . روى عن عبدالله ابن عمرو أنه قال : أثاما : واد فى جهنم ، وقال عكرمة (يلق أثاما) نكالا : كنا نحدث انه واد فى جهنم .

وقد ذكر لنا ان لقمان كان يقول : يابنى ! إياك والزنا فإن أوله مخافة وآخره ندامة . وقد ذكر فى الحديث الذى رواه ابن جرير وغيره عن أبى إمامة الباهلى موقوفا ومرفوعا ان غيا وأثاما بئران فى قعر

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب التفسير (تفسير سورة البقرة ٢٥ ، وفى التوحيد رقم ٤٠ ، ٤٦ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤١ ، ١٤٢ ، والترمذى فى تفسير سورة ٢٥ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٤ ، واحمد ١ / ٣٨٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٤ .

(٢) الحديث رواه أحمد ٤ / ٣٣٩

(٣) الحديث رواه أحمد ٦ / ٨

جهنم أجارنا الله منها ، بمنه وكرمه . وقال السدى (يلق أثاما) جزاء وهذا أشبه بظاهر الآية وبهذا فسره بما بعده مبدلا عنه وهو قوله تعالى : ﴿ **يضاعف له العذاب يوم القيامة** ﴾ أى يكرر عليه ويغلظ . ﴿ **يخلد فيه مهانا** ﴾ أى حقيرا ذليلا .

قال الامام ابن القيم رحمه الله تعالى : وقد دل القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين بعدهم والأئمة على ان من الذنوب كبائر وصغائر قال الله تعالى : ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش الا اللمم** ﴾ . وفى الصحيح عنه ﷺ أنه قال : (الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر)[1] وهذه الاعمال المكفرة لها ثلاث درجات:إحداها ان تقصر عن تكفير الصغائر لضعفها وضعف الاخلاص فيها والقيام بحقوقها بمنزلة الدواء للضعيف الذى ينقص عن مقاومة الداء كمية وكيفية ، الثانية ان تقاوم الصغائر ولا ترتقى إلى تكفير شىء من الكبائر،الثالثة ان تقوى على تكفير الصغائر وتبقى فيها قوة تكفر بها بعض الكبائر فتأمل هذا فإنه يزيل عنك إشكالات كثيرة وفى الصحيح عنه ﷺ انه قال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . قلنا : بلى يارسول الله ، فقال : الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور)[2] وروى فى الصحيح عنه ﷺ : (اجتنبوا السبع الموبقات . قيل وما هن يارسول الله ؟ قال : (الاشراك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا . والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات)[3] وفى الصحيح عنه ﷺ ، انه سئل أى الذنب أكبر عند الله قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك قيل ثم أى ، قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قيل ثم أى ، قال أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديقها : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ واختلف الناس فى الكبائر هل لها عدد يحصرها على قولين . ثم الذين قالوا بحصرها اختلفوا فى عددها . فقال عبدالله بن مسعود : هى أربعة وقال غيره هى إحدى عشر ، وقال آخر هى سبعون ، وقال أبو طالب المكى : جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة فى القلب وهى : الشرك بالله ، والاصرار على المعصية ، والقنوط من رحمة الله ، والآمن مكر الله . وأربعة فى اللسان وهى : شهادة الزور وقذف المحصنات واليمين الغموس والسحر . وثلاثة فى البطن : شرب الخمر وأكل مال اليتيم وأكل الربا . واثنتان فى الفرج وهما : الزنا واللواطة . واثنتان فى اليدين : وهما القتل والسرقة . وواحدة فى الرجلين وهى

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الطهارة حديث رقم ١٤ ، ١٥ ، والترمذى فى ابواب المواقيت رقم ٣٦ ، وابن ماجه فى ابواب الطهارة رقم ٧٨ ، ١٠٦ ، وأحمد ٢ / ٢٢٩ ، ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٦ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ٦ ، وفى كتاب الاستئذان رقم ٣٥ ، وفى كتاب الايمان رقم ١٦ ، وفى كتاب الاستتابة رقم ١ ، وفى كتاب الديات رقم ٢ ، وفى كتاب الشهادات رقم ١٠ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٣ ، ١٤٤ ، وابو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والترمذى فى أبواب البر رقم ٤ ، وفى أبواب البيوع رقم ٣ ، وفى أبواب الشهادات رقم ٣ ، وفى تفسير سورة ٤ ، والنسائى فى كتاب التحريم رقم ٣ ، وفى كتاب القسامة رقم ٤٩ ، والدارمى فى كتاب الديات رقم ٩ وأحمد ٢ / ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١٤

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الوصايا رقم ٢٣ وفى كتاب الطب رقم ٤٨ ، وفى كتاب الحدود رقم / ٤٤ ، ومسلم فى كتاب الايمان حديث رقم ١٤٤ ، وابو داود فى كتاب الوصايا رقم ١٠ ، والنسائى فى كتاب الوصايا رقم ١٢

الفرار من الزحف . وواحدة تتعلق بجميع الجسد وهى عقوق الوالدين . والذين لا يحصرونها بعدد منهم من قال : كل ما نهى الله عنه فى القرآن فهو كبيرة ، وما نهى عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة . وقالت طائفة : ما اقترن بالنهى عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة ، وما لم يقرن به من ذلك شىء فهو صغيرة . وقيل كل ما رتب عليه حد فى الدنيا أو وعيد فى الآخرة فهو كبيرة . وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة . وقيل كل ما اتفقت الشرائع على تحريمه فهو من الكبائر وما كان تحريمه فى شريعة دون شريعة فهو صغيرة،وقيل كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة . وقيل كل ما ذكر من أول سورة النساء إلى قوله : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ . والذين لم يقسموها إلى كبائر وصغائر قالوا : الذنوب كلها بالنسبة للجراءة على الله سبحانه معصيته ومخالفة أمره كبائر . فانظر الى من عصى أمره وانتهك محارمه فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر وهى مستوية فى هذه المفسدة . قالوا ويوضح هذا ان الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته ولا فرق فى ذلك بين ذنب وذنب . قالوا ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى . ولهذا لو شرب رجل خمرا أو وطأ فرجا حراما وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان اتى بإحدى المفسدتين وهو الذى يستحق العقوبة دون الأول فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب . قالوا ويدل على هذا ان المعصية تتضمن الاستهانة بأمر المطاع ونهيه وانتهاك حرمته وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب قالوا فلا ينظر العبد إلى كبر الذنب وصغره فى نفسه ولكن ينظر إلى قدر من عصاه وعظمته وانتهاك حرمته بالمعصية وهذا لا يقترن فيه الحال بين معصية ومعصية . فإن ملكا عظيما مطاعا لو أمر أحد مملوكيه ان يذهب فى مهم له إلى بلد بعيد وأمر آخر أن يذهب له فى شغل الى جانب الدار فعصياه وخالفا امره لكانا فى مقته والسقوط من عينه سواء، قالوا ولهذا كانت معصية من ترك الحج من مكة وترك الجمعة ، وهو جار المسجد اقبح عند الله من معصية من تركه من المكان البعيد ، والواجب على هذا أكثر من الواجب على هذا ، ولو كان مع رجل مائة درهم فمنع زكاتها ومع آخر مائتا ألف درهم فمنع زكاتها لا يستويان فى منع ما وجب على كل واحد منهما ولا يبعد استواؤهما فى العقوبة اذا كان كل منهما مصرا على منع زكاة ماله قليلا كان المال أو كثيرا .

فصل

وكشف الغطاء عن هذه المسألة ان يقال إن الله عز وجل ارسل رسله وأنزل كتبه وخلق السماوات والأرض ليعرف ويعبد ويوحد ويكون الدين كله له ، والطاعة كلها له والدعوة له كما قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ جعل الله الكعبة البيت

---

(١) سورة الذاريات آية ٥٦
(٢) سورة الحجر آية ٨٥
(٣) سورة الطلاق آية ١٢

الحرام قياما للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما فى السماوات وما فى الأرض وأن الله بكل شىء عليم ﴾[١] .

فأخبر سبحانه أن القصد بالخلق والأمر أن يعرف بأسمائه وصفاته ويعبد وحده لا يشرك به وأن يقوم الناس بالقسط وهو العدل الذى قامت به السماوات والأرض . كما قال تعالى : ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[٢] فأخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط وهو العدل ، ومن أعظم القسط التوحيد ، بل هو رأس العدل وقوامه وأن الشرك ظلم كما قال تعالى : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ فالشرك أظلم الظلم ، والتوحيد أعدل العدل ، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر وتفاوتها فى درجاتها بحسب منافاتها له ، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود ، فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات . فتأمل هذا الأصل حق التأمل واعتبر بتفاصيله تعرف به أحكم الحاكمين وأعلم العالمين فيما فرضه على عباده وحرمه عليهم . وتفاوت مراتب الطاعات والمعاصى ، فلما كان الشرك بالله منافيا بالذات لهذا المقصود كان أكبر الكبائر على الاطلاق . وحرم الله الجنة على كل مشرك ، وأباح دمه وماله وأهله لأهل التوحيد وأن يتخذوهم عبيدا لهم لما تركوا القيام بعبوديته ، وأبى الله سبحانه ان يقبل من مشرك عملا أو يقبل فيه شفاعة أو يستجيب له فى الآخرة دعوة أو يقبل له فيها عشرة . فإن المشرك أجهل الجاهلين بالله حيث جعل له من خلقه ندا ، وذلك غاية الجهل به كما انه غاية الظلم منه . . . وإن كان المشرك لم يظلم ربه وإنما ظلم نفسه ووقعت مسألة وهى ان المشرك إنما قصده لعظيم جناب الرب تبارك وتعالى ، أو انه لعظمته لا ينبغى الدخول عليه الا بالوسائط والشفعاء كحال الملوك . . فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبية ، وإنما قصد تعظيمه ، وقال إنما أعبد هذه الوسائط لتقربنى إليه وتدخلنى عليه ، فهو المقصود وهذه وسائل وشفعاء وكان هذا القدر موجبا لسخطه وغضبه تبارك وتعالى ومخلدا فى النار وموجبا سفك دماء اصحابه واستباحة حريمه وأموالهم وترتب على هذا سؤال آخر ، وهو انه هل يجوز ان يشرع الله سبحانه لعباده التقرب إليه بالشفعاء والوسائط ، فيكون تحريم هذا إنما استفيد من الشرع أم ذلك قبيح فى الفطر والعقول يمتنع ان تأتى به شريعة بل جاءت بتقرير مافى الفطر والعقول من قبحه الذى هو اقبح من كل قبيح ، وما السبب فى كونه لا يغفره من دون سائر الذنوب كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[٣] . .

وتأمل هذا السؤال واجمع قلبك وذهنك على جوابه ولا تستهونه فإن به يحصل الفرق بين المشركين والموحدين والعالمين بالله والجاهلين وأهل الجنة وأهل النار فنقول وبالله التوفيق والتأييد ومنه نستمد المعونة والتسديد ، فإنه من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادى له ، ولا مانع لما اعطى ولا معطى لما منع ، الشرك شركان شرك يتعلق بذات المعبود واسمائه وصفاته وأفعاله ، وشرك فى عبادته

---

(١) سورة المائدة آية ٩٧

(٢) سورة الحديد آية ٢٥

(٣) سورة النساء الآية رقم ٤٨ ، ١١٦

ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد انه سبحانه لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، والشرك الأول نوعان ، احدهما شرك التعطيل وهو أقبح أنواع الشرك كشرك فرعون اذ قال : وما رب العالمين ؟ . . وقال تعالى مخبرا عنه انه قال : ﴿ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ﴾[1] .

فالشرك والتعطيل متلازمان ، فكل مشرك معطل وكل معطل مشرك ، لكن لا يستلزم اصل التعطيل ، بل قد يكون المشرك مقرا بالخالق سبحانه وصفاته . ولكن عطل حق التوحيد . وأصل الشرك وقاعدته التى ترجع إليها هو التعطيل ، وهو ثلاثة أقسام : تعطيل المصنوع عن صانعه وخالقه ، وتعطيل الصانع سبحانه عن كمال المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته وأفعاله ، وتعطيل معاملته عما يجب على العبد من حقيقة التوحيد ومن هذا شرك طائفة أهل وحدة الوجود الذين يقولون ما ثم خالق ومخلوق ، ويقولون ههنا شيئان بل الحق المنزه هو عين الخلق المشبه ، ومنه شرك الملاحدة القائلين بقدم العالم وأبديته وانه لم يكن معدوما اصلا بل لم يزل ولا يزال والحوادث بأثرها مستندة عندهم إلى أسباب ووسائط اقتضت إيجادها ليسمونها العقول والنفوس ومن هذا شرك من عظيم أسماء الرب تعالى وأوصافه وأفعاله من غلاة الجهمية والقرامطة فلم يثبتوا له اسما ولا صفة ، بل جعلوا المخلوق أكمل منه اذ كمال الذات بأسمائها وصفاتها .

فصل

النوع الثانى شرك من جعل معه إلها آخر ، ولم يعطل اسماءه وربوبيته وصفاته ، كشرك النصارى الذى جعلوه ثالث ثلاثة ، فجعلوا المسيح إلها وأمه إلها ، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظلمة ، ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذى يخلق افعال نفسه ، وانها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته وارادته ، ولهذا كانوا من اشباه المجوس ، ومن هذا شرك الذى حاج ابراهيم فى ربه اذ قال ابراهيم : ربى الذى يحيى ويميت ، قال انا احيى وأميت ، فهذا جعل نفسه ندا لله يحيى ويميت بزعمه ، كما يحيى الله ويميت ، فألزمه إبراهيم عليه السلام ورحمة الله وبركاته ان طرد قولك ان تقدر على الإتيان بالشمس من غير الجهة التى يأت الله بها منها ، وليس هذا انتقالا كما زعم بعض أهل الجدل بل إلزاما على طرد الدليل ان كان حقا ، ومن هذا شرك كثيرا ممن يشرك بالكواكب العلويات ، ويجعلها أربابا مدبرة لأمر هذا العالم ، كما هو مذهب مشركى الصابئة وغيرهم ، ومن هذا شرك عباد الشمس وعباد النار وغيرهم ، ومن هؤلاء من يزعم ان معبوده هو الإله على الحقيقة ومنهم من يزعم أنه أكبر الآلهة ، ومنهم من يزعم انه إله من جملة الآلهة ، وانه اذا خصه بعبادته والتبتل إليه والانقطاع إليه أقبل عليه واعتنى به ، ومنهم من يزعم ان معبودهم الادنى ، يقربه إلى المعبود الذى هو فوقه والفوقانى يقربه إلى ما هو فوقه حتى تقربه تلك الآلهة إلى الله

(١) سورة غافر الآية رقم ٣٦ ، ٣٧

سبحانه ، فتارة تكثر الوسائط وتارة تقل .

فصل

وأما الشرك فى العبادة ، فهو اسهل من هذا الشرك وأخف امرا ، فإنه يصدر ممن يعتقد انه لا إله إلا الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطى ولا يمنع إلا الله ، وإنه لا إله غيره ولا رب سواه ، ولكن لا يخلص لله فى معاملته وعبوديته ، بل يعمل لحظ نفسه تارة ، وطلب الدنيا تارة ، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخالق تارة ، فلله من عمله وسعيه نصيب ، ولنفسه وحظه وهواه نصيب ، وللشيطان نصيب ، وللخلق نصيب . هذا حال أكثر الناس ، وهو الشرك الذى قال فيه النبى ﷺ فيما رواه ابن حبان فى صحيحه : (الشرك فى هذه الأمة اخفى من دبيب النمل . قالوا وكيف ننجو منه يارسول الله ؟ قال : قل : (اللهم إنى أعوذ بك ان أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم) فالرياء كله شرك . قال تعالى : ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[1] اى كما انه إله واحد لا إله سواه . فكذلك ينبغى ان تكون العبادة له وحده ، فكما تفرد بالالهية يجب ان يفرد بالعبودية ، فالعمل الصالح هو الخالى من الرياء المقيد بالسنة ، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (اللهم اجعل عملى كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا) وهذا الشرك فى العبادة يبطل ثواب العمل وقد يعاقب عليه إذا كان العمل واجبا ، فإنه ينزله منزلة من لم يعمله ، فيعاقب على ترك الأمر فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ﴾[2] فمن لم يخلص لله فى عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذى اتى به شىء غير المأمور به ، فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى : ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك . فمن عمل عملا أشرك معى فيه غيرى فهو للذى أشرك به وأنا منه برىء ﴾ .

وهذا الشرك ينقسم إلى مغفور وغير مغفور وأكبر وأصغر ، والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر ، وليس شىء منه مغفور فمنه الشرك بالله فى المحبة والتعظيم ، بان يحب مخلوقا كما يحب الله ، فهذا من الشرك الذى لا يغفره الله ، وهو الشرك الذى قال سبحانه فيه : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا ﴾[3] وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم وقد جمعتهم الجحيم : ، تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾[4] . ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه فى الخلق والرزق والاماتة والأحياء والملك والقدرة ، وإنما سووهم به فى الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم ، فكيف يسوى من خلق من التراب برب الأرباب ، وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب ، وكيف يسوى

---

(١) سورة الكهف الآية رقم ١١٢
(٢) سورة البينة الآية رقم ٥
(٣) سورة البقرة الآية رقم ١٦٥
(٤) سورة الشعراء الآية رقم ٩٧ ، ٩٨

الفقير بالذات الضعيف بالذات العاجز بالذات المحتاج بالذات الذى ليس له من ذاته إلا العدم بالغنى بالذات القادر بالذات الذى غناه وقدرته وملكه وجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام من لوازم ذاته ، فأى ظلم أقبح من هذا ، وأى حكم أشد جورا منه ، حيث عدل مَن لا عدل له يخلقَه ، كما قال تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾(١) فعدل المشرك من خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، بمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، فيالك من عدل تضمن أكبر الظلم وأقبحه .

فصل

ويتبع هذا الشرك الشرك به سبحانه في الاقوال والأفعال ، والارادات ، والنيات ، فالشرك فى الأفعال كالسجود لغيره والطواف بغير بيته ، وحلق الرأس عبودية وخضوعا لغيره ، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذى هو يمين الله فى الأرض ، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها . وقد لعن النبى ﷺ من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلى لله فيها فكيف بمن اتخذ القبور أوثانا يعبدها من دون الله ، وفى الصحيحين عنه انه قال : (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد . .) وفى الصحيح عنه ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد)(٢) وفى الصحيح ايضا عنه ان من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك ، وفى مسند الامام أحمد رضى الله عنه وصحيح ابن حبان عنه ﷺ : (لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)(٣) .وقال : (اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد)(٤) وقال : (إن من كان قبلكم إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة)(٥) فهذا حال من سجد لله فى مسجد على قبر فكيف حال من سجد للقبر بنفسه) وقد قال النبى ﷺ اللهم لا تجعل قبرى وثنا

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١

تعليق قصير جدا على هذه الأحاديث

قال الحافظ فى الفتح ٢ / ٧١ ط : الحلبى : قال البيضاوى : لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيما لشأنهم ، ويجعلونها قبلة يتوجهون فى الصلاة نحوها ، واتخذوها أوثانا ، لعنهم الله ، ومنع المسلمين عن مثل ذلك ، فأما من اتخذ مسجدا فى جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل فى ذلك الوعيد أ هـ والكلام كثير فى الرد على من يرى غير ذلك (كصاحب هذا الكتاب) ولا يتسع المقام لذكره .

(٢) الحديث رواه احمد فى مسنده ١ / ٤٣٥

(٣) الحديث رواه ابو داود فى كتاب الجنائز رقم ٧٨ ، والترمذى فى ابواب الصلاة ١٢١ ، والنسائى فى كتاب الجنائز رقم ١٠٤ ، وأحمد ١ / ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب المغازى رقم ٢٤ ، ومسلم فى كتاب الجهاد حديث رقم ١٠٦ ومالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٨٥ ، واحمد ١ / ٢٨٨ ، ٢ / ٣١٧ ، ٤٩٢

(٥) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصلاة رقم ٤٨ ، ٥٤ ، وفى كتاب الجنائز رقم ٧٠ ، وفى كتاب مناقب الانصار رقم ٣٧ ، ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ١٦ ، وفى كتاب الفتن حديث رقم ١١٠ ، ١١٦ ، ١٣١ ، والنسائى فى كتاب المساجد رقم ١٣ .

يعبد)[١] . وقد حمى النبى ﷺ جانب التوحيد أعظم حماية حتى نهى عن صلاة التطوع لله سبحانه عند طلوع الشمس وعند غروبها ، لئلا يكون ذريعة الى التشبه بعباد الشمس الذين يسجدون لها فى هاتين الحالتين وسد الذريعة ، بأن منع الصلاة بعد العصر والصبح ، لاتصال هذين الوقتين بالوقتين اللذين يسجد المشركون فيهما للشمس ، وأما السجود لغير الله ، فقال لا ينبغى لأحد ان يسجد لأحد إلا الله ، ولا ينبغى فى كلام الله ورسوله ﷺ للذى هو فى غاية الامتناع شرعا . كقوله تعالى : ﴿ وما ينبغى للرحمن ان يتخذ ولدا ﴾[٢] وقال : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ﴾[٣]وقوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم ﴾[٤] وقوله عن الملائكة : ﴿ ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ﴾[٥] ...

فصل

ومن الشرك به سبحانه ـ الشرك به فى اللفظ كالحلف بغيره كما رواه أحمد وأبو داود عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وصححه الحاكم وابن حبان)[٧] .

ومن ذلك قول القائل للمخلوق : ماشاء الله وشئت ، كما ثبت عن النبى ﷺ انه قال له رجل : ماشاء الله وشئت . قال : أجعلتنى لله ندا . قل ، ما شاء الله وحده)[٦] وهذا مع أن الله قد آثبت للعبد مشيئة كقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ . فكيف من يقول : أنا متوكل على الله وعليك . وأنا فى حسب الله وحسبك . وما لى إلا الله وأنت . وهذا من الله ومنك وهذا من بركات الله وبركاتك . والله لى فى السماء وأنت لى فى الأرض . ويقول : والله وحياة فلان أو يقول : نذرا لله ولفلان . وأنا تائب لله ولفلان أو أرجو الله وفلانا ، ونحو ذلك . فوازن بين هذه الألفاظ وبين قول القائل : ما شاء الله وشئت . ثم انظر أيهما أفحش يتبين لك ان قائلها أولى لجواب النبى ﷺ لقائل تلك الكلمة وأنه إذا كان قد جعله ندا لله بها ، فهذا قد جعل من لا يدانى رسول الله ﷺ فى شيء من الأشياء بل لعله أن يكون من أعدائه ندا لرب العالمين ، فالسجود والعبادة ، والتوكل والانابة ، والتقوى والخشية ، والتحسب والتوبة ، والنذر والحلف ، والتسبيح والتكبير ، والتهليل والتحميد ، والاستغفار وحلق الرأس خضوعا وتعبدا . والطواف بالبيت والدعاء ، كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغى لسواه من ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، وفى مسند الامام أحمد ان رجلا اتى به إلى النبى ﷺ قد أذنب ذنبا فلما وقف بين يديه قال : اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد ، فقال قد عرف الحق لأهله) .

---

(١) الحديث رواه مالك فى الموطأ فى كتاب السفر رقم ٨٥ ، وأحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٦ .
(٢) سورة مريم الآية ٩٢
(٣) سورة يس الآية ٦٩
(٤) سورة الشعراء الآية ٢١٠ ، ٢١١
(٥) سورة الفرقان الآية ١٨
(٦) الحديث رواه احمد ٢ / ٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذى فى ابواب النذور رقم / ٩ ، والنسائى فى كتاب الايمان رقم ٤ ، وابن ماجه فى ابواب الكفارات رقم / ٢ ، والدارمى فى كتاب النذور رقم / ٦
(٧) الحديث رواه أحمد ٢/٣٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٨٧ ، ٩٨ ، ١٢٥ ، ١٤٢ ، والترمذى فى أبواب النذور رقم ٩ ، والنسائى فى كتاب الإيمان رقم ٤ ، وابن ماجه فى أبواب الكفارات رقم ٢ ، والدارمى فى كتاب النذور رقم ٦ .
(٨) الحديث رواه احمد ١ / ٢١٤ ، ٢٢٤ ٢٨٣ ، ٣٤٧

فصل

وأما الشرك فى الارادات والنيات ، فذلك البحر الذى لا ساحل له ، وقل من ينجو منه ، فمن أراد بعمله غير وجه الله نوى شيئا غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه. فقد أشرك فى نيته وإرادته ، والاخلاص ان يخلص لله فى أفعاله وأقواله وإرادته ونيته ، وهذه هى الحنيفية ملة إبراهيم التى أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها ، وهى حقيقة الاسلام كما قال تعالى : ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[1] وهى ملة إبراهيم عليه السلام التى من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء .

فصل

وإذا عرفت هذه المقدمة إن فتح لك باب الجواب عن السؤال المذكور فنقول : ومن الله وحده نستمد الصواب حقيقة الشرك هو التشبه بالخالق والتشبيه للمخلوق به هذا هو التشبيه فى الحقيقة لا إثبات صفات الكمال التى وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسول الله ﷺ ، فعكس من نكس الله قلبه وأعمى عين بصيرته وأوكسه بلبسه الأمر وجعل التوحيد تشبها والتشبيه تعظيما وطاعة ، فالمشرك مشبه للمخلوق بالخالق فى خصائص الالهية ، فإن من خصائص الالهية التفرد بملك الضر والنفع والعطاء والمنع ، وذلك يوجب تعليق الدعاء والخوف والرجاء والتوكل به وحده ، فمن علق ذلك بمخلوق ، فقد شبهه بالخالق وجعل من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا أفضل من غيره ، تشبها بمن له الأمر كله ، فأزمة الأمور كلها بيديه ، ومرجعها اليه فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، لا مانع لما أعطى وما معطى لما منع ، بل إذا فتح لعبده باب رحمته لم يمسكها احد ، وإن أمسكها عنه لم يرسلها إليه أحد فمن اقبح التشبيه تشبيه هذا العاجز الفقير بالذات بالقادر الغنى بالذات ، ومن خصائص الالهية الكمال المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجه من الوجوه ، وذلك يوجب ان تكون العبادة كلها له وحده والتعظيم والاجلال والخشية والدعاء والرجاء والانابة والتوكل والاستعانة وغاية الذل مع غاية الحب كل ذلك يجب عقلا وشرعا وفطرة ان يكون له وحده ويمنع عقلا وشرعا وفطرة ان يكون لغيره . فمن جعل شيئا من ذلك لغيره فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له ولا ند له وذلك اقبح التشبيه وأبطله ولشدة قبحه وتضمنه غاية الظلم ، أخبر سبحانه عباده انه لا يغفره مع أنه كتب على نفسه الرحمة ، ومن خصائص الالهية العبودية التى قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما غاية الحب مع غاية الذل ، هذا تمام العبودية وتفاوت منازل الخلق فيها بحسب تفاوتهم فى هذين الاصلين ، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله ، فقد شبهه به فى خالص حقه ، وهذا من المحال ان تأتى به شريعة من الشرائع وقبحه مستقر فى كل فطرة وعقل ، ولكن غيرت الشياطين فطر أكثر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم واجتالتهم عنها ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله الحسنى ، فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم ، فازدادوا بذلك نورا على نور يهدى الله لنوره من يشاء . إذا عرف هذا فمن خصائص الالهية السجود فمن سجد لغيره ، فقد شبه المخلوق به ومنها

(١) سورة آل عمران الآية رقم ٨٥

التوكل فمن توكل على غيره فقد شبهه به ومنها التوبة فمن تاب لغيره فقد شبهه به ومنها الحلف باسمه تعظيما واجلالا ، فمن حلف بغيره فقد شبهه به . هذا فى جانب التشبيه . واما فى جانب التشبه به فمن تعاظم وتكبر ودعا الناس إلى اطرائه فى المدح والتعظيم والخضوع والرجاء وتعليق القلب به خوفا ورجاء والتجاء واستعانة فقد تشبه بالله ونازعه فى ربوبيته وإلهيته ، وهو حقيقة بان يهينه غاية الهوان ويذله غاية الذل ، ويجعله تحت اقدام خلقه وفى الصحيح عنه ﷺ قال ﴿ يقول الله عز وجل : العظمة إزارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحدا منهما عذبته ﴾[1] وإذا كان المصور الذى يصنع الصورة بيده من أشد الناس عذابا يوم القيامة لتشبهه بالله فى مجرد الصنعة فما الظن بالتشبه بالله فى الربوبية والالهية كما قال النبى ﷺ : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون . يقال لهم : احيوا ما خلقتم)[2] .

وفى الصحيحين عنه ﷺ انه قال : (قال الله عز وجل : ﴿ ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخلقى فليخلقوا ذرة فليخلقوا شعيرة ﴾[3] فنبه بالذرة والشعيرة على ما هو أعظم منهما وأكبر والمقصود ان هذا حال من تشبه به فى صنعة صوره ، فكيف حال من تشبه به فى خواص ربوبيته وإلهيته . وكذلك من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا لله وحده كملك الأملاك ، وحاكم الحكام ونحوه . وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ انه قال : (إن اخنع الاسماء عند الله رجل يسمى بشاهان شاه ملك الملوك ولا ملك إلا الله)[4] وفى لفظ أغيظ رجل على الله رجل يسمى بملك الاملاك)[5] فهذا مقت الله وغضبه على من تشبه به فى الاسم الذى لا ينبغى إلا له ، فهو سبحانه ملك الملوك وحده ، وهو حاكم الحكام وحده ، فهو الذى يحكم على الحكام كلهم ويقضى عليهم كلهم لا غيره .

فصل

إذا تبين هذا فههنا أصل عظيم يكشف سر المسألة ، وهو أن أعظم الذنوب عند الله إساءة الظن به ، فإن المسىء به الظن قد ظن به خلاف كما له المقدس ، فظن به ما يناقض اسماءه وصفاته ، ولهذا توعد الله سبحانه الظانين به ظن السوء بما لم يتوعد به غيرهم كما قال تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ﴾[6]

وقال تعالى لمن أنكر صفة من صفاته ﴿ وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرادكم فأصبحتم من الخاسرين ﴾[7] وقال تعالى عن خليله إبراهيم ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون أإفكا آلهة دون الله

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب البر حديث رقم ١٣٦ ، وأبو داود فى كتاب اللباس رقم ٢٥ ، وابن ماجه فى ابواب الزهد رقم ١٦ ، واحمد فى مسنده ٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ٤٢٧ ٤٤٢ ٦ / ١٩

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب اللباس رقم ٨٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ والترمذى فى أبواب المواقيت رقم ١٤٩

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب التوحيد رقم ٥٦ ، واحمد ٢ / ٢٣٢ ، ٢٥٩ ، ٣٩١ ، ٤٥١ ، ٥٢٧ .

(٤) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب رقم ١١٤ ، وأبو داود فى كتاب الأدب رقم ٦٢ ، والترمذى فى أبواب الأدب رقم ٦٦ ، وأحمد ٢ / ٢٤٤

(٥) الحديث رواه احمد ٢ / ٣١٥

(٦) سورة الفتح الآية رقم ٦

(٧) سورة فصلت الآية رقم ٢٣

تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾[١] أى فما ظنكم ، اى يجازيكم به إذا لا قيتموه وقد عبدتم غيره ، وماذا ظننتم به حين عبدتم معه غيره ، وما ظننتم باسمائه وصفاته وربوبيته من النقص ، حتى أحوجكم ذلك إلى عبودية غيره ، فلو ظننتم به ما هو أهله من انه بكل شيء عليم ، وهو على كل شيء قدير ، وانه غنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، وأنه قائم بالقسط على خلقه ، وأنه المتفرد بتدبير خلقه لا يشرك فيه غيره والعالم بتفاصيل الأمور ، فلا يخفى عليه خافية من خلقه والكافى لهم وحده ، فلا يحتاج إلى معين ، والرحمن بذاته فلا يحتاج فى رحمته إلى من يستعطفه ، وهذا بخلاف الملوك وغيرهم من الرؤساء فإنهم يحتاجون إلى من يعرفهم أحوال الرعية وحوائجهم وإلى من يعينهم على قضاء حوائجهم وإلى من يسترحمهم وإلى من يستعطفهم بالشفاعة ، فاحتاجوا إلى الوسائط ضرورة لحاجتهم وضعفهم وعجزهم وقصور علمهم ، فأما القادر على كل شيء الغنى عن كل شيء الرحمن الرحيم الذى وسعت رحمته كل شيء فإدخال الوسائط بينه وبين خلقه نقض لحق ربوبيته وإلهيته وتوحيده وظن به ظن سوء ، وهذا يستحيل ان يشرعه لعباده ويمتنع فى العقول والفطر ، وقبحه مستقر فى الفطر السليمه فوق كل قبيح ، يوضح هذا ان العابد معظم لمعبوده متأله خاضع ذليل له ورب تعالى وحده هو الذى يستحق كمال التعظيم والجلال والتأله والتذلل والخضوع ، وهذا خالص حقه فمن اقبح الظلم ان يعطى حقه لغيره أو يشرك بينه وبينه فيه ولا سيما الذى جعل شريكه فى حقه هو عبده ومملوكه كما قال تعالى :

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم ﴾[٢] أى إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريكا له فى رزقه ، فكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء فيما أنا به متفرد ، وهو الالهية التى لا تنبغى لغيرى ولا تصح لسوائى فمن زعم ذلك فما قدرنى حق قدرى ، ولا عظمنى حق عظمتى ولا أفردنى بما انا متفرد به وحدى دون خلقى ، فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره كما قال تعالى : ﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾[٣] إلى قوله ﴿ لقوي عزيز ﴾ . فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر على خلق أضعف حيوان وأصغره ، وان يسلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدروا على الاستعاذة منه . قال تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ﴾[٤] فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه فى عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة ، بل هو أعجز شيء وأضعفه فما قدر القوى العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال : انه لم يرسل إلى خلقه رسولا ، ولا أنزل كتابا ، بل نسبه إلى ما لايليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدى وخلقهم باطلا عبثا ، وكذا ما قدره حق قدره من نفى حقائق اسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فنفى سمعه وبصره وإرادته واختياره وعلوه فوق خلقه وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد ونفى عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم . ومعاصيهم ، فأخرجها عن قدرته

(١) سورة الصافات الآيات رقم ٨٥ - ٨٧
(٢) سورة الروم الآية رقم ٢٨
(٣) سورة الحج الآيتان ٧٣ ، ٧٤
(٤) سورة الزمر الآية رقم ٦٧

ومشيئته ، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب ، فيكون فى ملكه ما لا يشاء ويشاء مالا يكون ، فتعالى عن قولة أشباه المجوس علوا كبيرا ، وكذلك ما قدره حق قدره من قال أيعاقب عبده على ما لا يفعله عبده ولا له عليه قدرة ولا تأثير له فيه البته ، بل هو نفس فعل الرب جل جلاله ، فيعاقب عبده على فعله ، فهو سبحانه الذى جبر العبد عليه،وجبره على الفعل أعظم من إكراه المخلوق للمخلوق ، وإذا كان من المستقر فى الفطر والعقول ان السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه وإليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحا فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة ، ثم يعاقب عليه . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقول هؤلاء شر من أشباه قول المجوس . والطائفتان ما قدر الله حق قدره ، وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا مكان يرغب عن ذكره ، بل جعله فى كل مكان ، وصانه عن عرشه ان يكون مستويا عليه ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وتعرج الملائكة والروح،وتنزل من عنده وتدبر الأمر من السماء الى الأرض ، ثم تعرج اليه فصانه عن استوائه على سرير الملك ثم جعله فى كل مكان يأنف الانسان بل غيره من الحيوان ان يكون فيه ، وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه ، وغضبه ومقته ، ولا من نفى حقيقة حكمته التى هى الغايات المحمودة المقصودة بفعله ، ولا من نفى حقيقة مجيئه واتيانه واستوائه على عرشه وتكليمه موسى من جانب الطور ومجيئة يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه ، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التى نفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره ، وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولدا ، وجعله سبحانه يحل فى جميع مخلوقاته ، أو جعله عين هذا الوجود ، وكذلك لم يقدره حق قدره من قال إنه رفع اعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم ، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعزو وضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته،أهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا ، وهذا يتضمن غاية القدح فى جناب الرب . تعالى عن قول الرافضة علوا كبيرا ، وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارى فى رب العالمين ، انه ارسل ملكا ظالما فادعى النبوة لنفسه وكذب على الله وأخذ زمانا طويلا يكذب على الله كل وقت ، ويقول : قال كذا وامر بكذا ، ونهى عن كذا . وينسخ شرائع أنبيائه ورسله ويستبيح دماء اتباعهم وأموالهم وحريمهم ويقول : الله اباح لى ذلك والرب تعالى يظهره ويؤيده ، ويعليه ويقربه ، ويجيب دعواته ويمكنه ممن يخالفه ، ويقيم الأدلة على صدقه ولا يعاديه أحد إلا ظفر به ، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره وتحدث ادلة تصديقه شيئا بعد شيء إلى يوم القيامة،ومعلوم ان هذا يتضمن أعظم القدح والطعن فى الرب سبحانه وتعالى وعلمه وحكمته ورحمته وروبيته تعالى الله عن قول الجاحدين . علوا كبيرا . فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر :

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما بأسحم داج عوض لا يتفرق

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال انه يجوز ان يعذب أولياءه ، ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم ، وان كل الامرين بالنسبة إليه وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك فمعناه

للخبر لا للمخالفة حكمته وعدله ، وقد أنكر سبحانه فى كتابه على من جوز عليه ذلك غاية الانكار وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام ، وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم انه لا يحيى الموتى ، ولا يبعث من فى القبور ، ولا يجمع الخلق ليوم يجازى المحسن فيه بإحسانه ، والمسىء فيه بإساءته ، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من ظالمه ، ويكرم المتحملين المشاق فى هذه الدار من أجله وفى مرضاته بأفضل كرامته ، ويبين لخلقه الذين يختلفون فيه ، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين،وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه امره فعصاه ، ونهيه فارتكبه ، وحقه فضيعه ، وذكره فأهمله ، وغفل قلبه عنه وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله فلله الفضلة من قلبه وعلمه ، وقوله وعمله وماله وسواه المقدم فى ذلك ، لأنه المهم عنده يستخف بنظر الله إليه واطلاعه عليه وهوفى قبضته وناصيته بيده ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه ، ويستخفى من الناس ولا يستخفى من الله ، ويخشى الناس ولا يخشى الله ، ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره ، وإن قام فى خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة ، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه وقدمه على كثير من مصالحه ، حتى إذا قام فى حق ربه ان ساعده القدر قام قياما لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله ، وبذل له من ماله ما يستحى ان يواجه به مخلوقا مثله ، فهل قدر الله حق قدره من هذا وصفه ، وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه فى محض حقه من الاجلال والتعظيم والطاعة والذل والخضوع والخوف والرجاء ، فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكا فى ذلك لكان ذلك جراءة وتوثبا على محض حقه واستهانة به وتشريكا بينه وبين غيره فيما لا ينبغى ولا يصلح إلا له سبحانه ، فكيف وإنما اشرك معه أبغض الخلق اليه واهونهم عليه وأمقتهم عنده ، وهو عدوه على الحقيقة ، فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان . كما قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان . إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾(١) .

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان ، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة كما قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا . ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون ﴾(٢)

فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته ويوهمهم انه ملك كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب وهى التى تخاطبهم وتقضى لهم الحوائج ، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار ، فيقع سجودهم له ، وكذلك عند غروبها ، وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان ، فإنه يزعم انه يعبد من امره بعبادته وعبادة امه ورضيها لهم وأمرهم بها ، وهذا هو الشيطان الرجيم . لعنة الله عليه لا عبد الله ورسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ان لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عبد مبين . وان اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ فما عبد أحد من بنى آدم غير الله كائنا من كان إلا وقعت عبادته

(١) سورة يس الآيتان ٦٠ ، ٦١

(٢) سورة سبأ الآيتان ٤٠ ، ٤١

للشيطان ، فيستمتع العابد بالمعبود فى حصول أغراضه ، ويستمتع المعبود بالعابد فى تعظيمه له وإشراكه مع الله الذى هو غاية رضاء الشيطان ولهذا قال تعالى : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا يامعشر الجن قد استكثرتم من الانس** ﴾ . اى من اغوائهم واضلالهم ﴿ **وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم** ﴾(١)

فهذه اشارة لطيفة إلى السر الذى لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله ، وانه لا يغفره بغير التوبة منه ، وإنه يوجب الخلود فى النار ، وانه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهى عنه ، بل يستحيل على الله سبحانه أن يشرع لعباده إلهاغيره ،كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كمال ونعوت جلاله ، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والالهية والعظمة والاجلال ان يأذن فى مشاركته فى ذلك او يرضى به تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فصل

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذى خلق الله له الخلق كان من أكبر الكبائر عند الله ، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم ، فإن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده ، والشرك والكبر ينافيان ذلك ، ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر ولا يدخلها من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر .

فصل

ويلى ذلك فى كبر المفسدة القول على الله بلا علم فى أسمائه وصفاته وأفعاله ووصفه بضد ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ ، فهذا أشد شيء منافاة ومناقضة لكمال من له الخلق والأمر وقدح فى نفس الربوبية وخصائص الرب ، فإن صدر ذلك عن علم فهو عناد أقبح من الشرك وأعظم اثما عند الله فإن المشرك المقر بصفات الرب خير من المعطل الجاحد لصفات كماله ، كما ان من اقر بالملك للملك ولم يجحد ملكه ولا الصفات التى استحق بها الملك لكن جعل معه شريكا فى بعض الأمور تقربيا اليه خيرا ممن جحد صفات الملك وما يكون به الملك ملكا هذا امر مستقر فى سائر الفطر والعقول فأين القدح فى صفات الكمال والجحد لها من عباده واسطة بين المعبود الحق وبين العابد يتقرب اليه بعبادة تلك الواسطة اعظم له واجلالاً،فداء التعطيل هذا الداء العضال الذى لا دواء له ، ولهذا حكى عن امام المعطلة فرعون انه انكر على موسى ما أخبر به من ان ربه فوق السموات ﴿ **ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب اسباب السماوات فأطلع إلى اله موسى وانى لأظنه كاذبا** ﴾ ، واحتج الشيخ ابو الحسن الأشعرى فى كتبه على المعطلة بهذه الآية وقد ذكرنا لفظه فى غير هذا الكتاب ، وهو كتاب اجتماع

(١) سورة الأنعام الآية رقم ١٢٨

الجيوش الاسلامية على حرب المعطلة والجهمية فى اثبات العلوم . والقول على الله بلا علم والشرك متلازمان ، ولما كانت هذه البدع المضلة جهلا بصفات الله وتكذيبا بما اخبر به عن نفسه واخبر به عنه رسوله ﷺ عنادا وجهلا ، كانت من اكبر الكبائر ان قصرت عن الكفر وكانت أحب إلى إبليس من كبار الذنوب ، كما قال بعض السلف البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ؛ لان المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها ، وقال إبليس لعنه الله: أهلكت بنى آدم بالذنوب وأهلكونى بلا اله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك بثثت فيهم الاهواء ، فهم يذنبون ولا يتوبون ؛ لانهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ومعلوم ان المذنب إنما ضرره على نفسه ، وأما المبتدع فضرره على النوع ، وفتنة المبتدع فى أصل الدين ، وفتنة المذنب فى الشهوة ، والمبتدع قد قعد للناس على صراط الله المستقيم يصدهم عنه والمذنب ليس كذلك، والمبتدع قادح فى أوصاف الرب وكماله، والمذنب ليس كذلك ، والمبتدع مناقض لما جاء به الرسول ﷺ ، والعاصى ليس كذلك ، والمبتدع يقطع على الناس طريق الآخرة ، والعاصي بطىء السير بسبب ذنوبه .

فصل

ثم لما كان الظلم والعدوان منافيين للعدل الذى قامت به السموات والأرض وأرسل الله سبحانه رسله - صلى الله عليهم وسلم - وانزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، كان أى الظلم من أكبر الكبائر عند الله وكانت درجته فى العظمة بحسب مفسدته فى نفسه وكان قتل الانسان ولده الطفل الصغير الذى لا ذنب له ، وقد جبل الله سبحانه وتعالى القلوب على محبته ورحمته وعطفها عليه وخص الوالدين من ذلك بمزية ظاهرة وقتله خشية أن يشاركه فى مطعمه ومشربه وماله من أقبح الظلم وأشده ، وكذلك قتله أبويه اللذين كانا سبب وجوده ، وكذلك قتله ذات رحمه وتتفاوت درجات القتل بحسب قبحه واستحقاق من قتله السعى فى إبقائه ونصيحته ، ولهذا كان أشد الناس عذابا يوم القيامة من قتل نبيا أو قتله نبى ، ويليه من قتل إماما عادلا ، أو عالما يأمر الناس بالقسط ويدعوهم إلى الله سبحانه وينصحهم فى دينهم وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمدا ، الخلود فى النار ، وغضب الجبار ولعنته واعداد العذاب العظيم له . هذا موجب قتل المؤمن عمدا ما لم يمنع منه مانع ، ولا خلاف ان الاسلام الواقع بعد القتل طوعا واختيارا مانع من نفوذ ذلك الجزاء ، وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه فيه . فيه قولان للسلف والخلف وهما روايتان عن احمد، والذين قالوا لا تمنع التوبة من نفوذه رأوا انه حق لآدمى لم يستوفه فى دار الدنيا وخرج منه بظلامته فلابد ان يستوفى له فى دار العدل . قالوا فما استوفاه الوارث ، فإنما استوفى محض حقه الذى خيره الله بين استيفائه والعفو عنه وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه ، وأى استدراك بظلامته حصل له باستيفاء وارثه ، وهذا اصح القولين فى المسألة ان حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث ، وهى وجهان لاصحاب الشافعى واحمد وغيرهما ، ورأت طائفة انه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث ، فإن التوبة تهدم ما قبلها ، والذنب الذى قد جناه قد اقيم عليه حده ، قالوا: وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر ، وهما أعظم إثما من القتل ، فكيف تقصر عن محو أثر القتل ، وقد

قبل الله توبة الكفار الذين قتلوا أولياءهم وجعلهم من خيار عباده ، ودعا الذين أحرقوا أولياءهم وفتنوهم عن دينهم ودعاهم إلى التوبة ، وقال تعالى : ﴿ **ياعبادى الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾(١) وهذا فى حق التائب وهى تتناول الكفر فما دونه . قالوا : وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة ؟ هذا معلوم انتفاؤه فى شرع الله وجزائه ، قالوا وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه ، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول ، فأقام الشارع وليه مقامه ، وجعل تسليم النفس إليه كتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذى عليه لوارثه ، فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث والتحقيق فى المسألة ان القتل يتعلق به ثلاثة حقوق : حق الله ، وحق للمظلوم المقتول وحق للولى ، فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختيارا إلى الولى ، ندما على ما فعل ، وخوفا من الله ، وتوبة نصوحا يسقط حق الله بالتوبة ، وحق الولى بالاستيفاء أو الصلح او العفو وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه ، فلا يبطل حق هذا ولا تبطل توبة هذا ، وأما مسألة المال فقد اختلف فيها . فقالت طائفة : إذا أدى ما عليه من مال إلى الوارث فقد برىء من عهدته فى الأخرة ، كما برىء منها فى الدنيا . وقالت طائفة : بل المطالبة لمن ظلمه بأخذه باقية عليه يوم القيامة ، وهو لم يستدرك ظلماته بأخذ وارثه له ، فإنه منعه من انتفاعه به فى طول حياته ، ومات ولم ينتفع به ، فهذا ظلم لم يستدركه وإنما ينتفع به غيره بإدراكه ، وبنوا هذا على انه لو انتقل من واحد إلى واحد وتعدد الورثة كانت المطالبة للجميع ، لانه حق كان يجب عليه دفعه إلى كل واحد منهم عند كونه هو الوارث ، وهذا قول طائفة من أصحاب مالك وأحمد ، وفصل شيخنا رحمه الله بين الطائفتين ، فقال : إن تمكن الموروث من اخذ ماله والمطالبة به فلم يأخذ حتى مات صارت المطالبة به للوارث فى الآخرة ، كما هى له كذلك فى الدنيا ، وإن لم يتمكن من طلبه واخذه بل حال بينه وبينه ظلما وعدوانا فالطلب له فى الآخرة ، وهذا التفصيل من أحسن ما يقال فإن المال إذا استهلكه الظالم على الموروث وتعذر أخذه منه ، صار بمنزلة عبده الذى قتله قاتل وداره التى احرقها غيره وطعامه وشرابه الذى أكله وشربه غيره ، ومثل هذا إنما تلف على الموروث لا على الوارث فى حق المطالبة لمن تلف على ملكه ، فينبغى أن يقال ، فإذا كان المال عقارا وأرضا أو أعيانا قائمة باقية بعد الموت ، فهى ملك للوارث يجب على الغاصب دفعها إليه كل وقت ، وإذا لم تدفع إليه أعيان ما له استحق المطالبة بها عند الله تعالى ، كما يستحق المطالبة بها فى الدنيا ، وهذا سؤال قوى لا مخلص منه إلا بأن يقال المطالبة لهما جميعا كما لو غصب مالا مشتركا بين جماعة استحق كل منهم المطالبة بحقهم منه ، وكما لو استولى على وقف مرتب على بطون فأبطل حق البطون كلهم منه كانت المطالبة يوم القيامة لجميعهم ولم يكن بعضهم اولى بها من بعض والله أعلم .

فصل

ولما كانت مفسدة القتل هذه المفسدة قال الله تعالى : ﴿ **من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس**

(١) سورة الزمر آية رقم ٥٣

جميعا ﴾[١] وقد أشكل فهم هذا على كثير من الناس ، وقالوا معلوم ان إثم قاتل مائة أعظم إثما عند الله من إثم قاتل نفس واحدة ، وإنما أتوا من ظنهم ان التشبيه فى مقدار الاثم والعقوبة،والقول لم يدل على هذا ولا يلزم من تشبيه الشيء أخذه بجميع أحكامه وقد قال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾[٣] وذلك لا يوجب ان لبثهم فى الدنيا إنما كان هذا المقدار وقد قال النبى ﷺ : (من صلى العشاء فى جماعة فكأنما قام نصف الليل ومن صلى الفجر فى جماعة فكأنما قام الليل كله)[٤] اى مع العشاء كما جاء فى لفظ آخر وأصرح من هذا قوله : من صام رمضان وأتبعه ستة من شوال فكأنما صام الدهر)[٥] وقوله ﷺ من قرأ قل هو الله فكأنما قرأ ثلث القرآن)[٦] ومعلوم ان ثواب فاعل هذه الأشياء لم يبلغ ثواب المشبه به . فيكون قدرها سواء ، ولو كان قدر الثواب سواء لم يكن لمصلى الفجر والعشاء فى جماعة فى قيام الليل منفعة غير التعب والنصب ، وما أوتى احد بعد الايمان أفضل من الفهم عن الله وعن رسوله ﷺ ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فإن قيل ففى اى شيء وقع التشبيه بين قاتل نفس واحدة وقاتل الناس جميعا ، قيل : فى وجوه متعددة:أحدها ان كل واحد منهما عاص لله ورسوله ﷺ ، مخالف لأمره متعرض لعقوبته،وكلا منهما قد باء بغضب من الله ولعنته واستحقاق الخلود فى نار جهنم واعدلهم عذابا عظيما ، وان تفاوتت درجات العذاب فليس إثم من قتل نبيا أو إماما عادلا أو عالما يأمر الناس بالقسط كمن قتل من لا مزية له من آحاد الناس . الثانى انهما سواء فى استحقاق ازهاق النفس ، الثالث انهما سواء فى الجراءة على سفك الدم الحرام فإن من قتل نفسا بغير استحقاق بل لمجرد الفساد فى الأرض ولأخذ ماله فإنه يجترىء على قتل كل من ظفر به وامكنه قتله ، فهو معاد للنوع الانسانى ، ومنها انه يسمى قاتلا أو فاسقا أو ظالما أو عاصيا بقتله واحدا ، كما يسمى ذلك بقتله الناس جميعا ، ومنها ان الله سبحانه وتعالى جعل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم وتواصلهم كالجسد الواحد اذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر . فإذا اتلف القاتل عضوا من ذلك الجسد فكأنما اتلف سائر الجسد وآلم جميع أعضائه فمن آذى مؤمنا واحدا فقد آذى جميع المؤمنين وفى اذى جميع المؤمنين اذى جميع الناس كلهم ، فإن الله إنما يدافع عن الناس بالمؤمنين الذين بينهم فإيذاء الخفير إيذاء المخفر وقد قال النبى ﷺ : ـ (لا تقتل النفس ظلما بغير حق إلا كان على ابن ادم الأول كفل منها لأنه أول من سن القتل ولم يجىء هذا الوعيد فى أول زان ولا أول سارق ولا أول شارب مسكر .

---

(١) سورة المائدة آية رقم ٣٢

(٢) سورة النازعات آية رقم ٤٦

(١) سورة الأحقاف آية رقم ٣٥

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الاذان رقم ٣٤ ، ومسلم فى كتاب المساجد حديث رقم ٢٦٠ ، والترمذى فى ابواب الصلاة رقم ٢٨ ،واحمد ١ / ٥٨ ، ٦٨

(٣) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصوم رقم ٥٩ ، وفى كتاب النكاح رقم ١ ، ومسلم فى كتاب الصيام حديث رقم ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، والترمذى فى ابواب الصوم رقم ٤٤ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٧٥ ، والنسائى فى كتاب الصيام رقم ٧٢ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٢ ، وابن ماجه فى ابواب الصيام / ٣٢ ، واحمد ٥ / ١٤٦

(٤) الحديث لفظه :(من قرأ قل هو الله احد فكأنما قرأ بثلث القرآن) رواه احمد والنسائى فى اليوم والليلة عن ابى بن كعب ، أو عن رجل من الانصار ـ قال الهيثمى بعد عزوه لأحمد : ورجاله رجال الصحيح)
(المسند ٥ / ١٤١ ،مجمع الزوائد ٧ / ١٤٧ ، تفسير ابن كثير ٤ / ٥٦٧ ط : الحلبى

وإن كان أول المشركين قد يكون أولى بذلك من أول قاتل،لأنه أول من سن الشرك ، ولهذا رأى النبى - ﷺ - عمرو بن لحى الخزاعى يعذب أعظم العذاب فى النار ، لأنه أول من غير دين ابراهيم - عليه السلام - وقد قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا أول كافر به ﴾ (١) ، أى فيقتدى بكم من بعدكم فيكون إثم كفره عليكم وكذلك حكم من سن سنة سيئة فاتبع عليها .

وفى جامع الترمذى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : (يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده وأوداجه تشخب دما يقول يارب سل هذا فيما قتلنى فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ﴾ (٢) ثم قال : ما نسخت هذه الآية ولا بدلت وأنى له التوبة قال الترمذى : هذا حديث حسن (٣) .

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : (أول ما ينتن من الانسان بطنه فمن استطاع منكم ألا يأكل الا طيبا فليفعل ومن استطاع الايحول بينه وبين الجنة ملء كف من دم أهرقه فليفعل)(٤)

وفى جامع الترمذى عن نافع قال : (نظر عبد الله بن عمر يوما الى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك) قال الترمذى هذا حديث حسن .

وفى صحيح البخارى - أيضا - عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ - : (لا يزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دما حراما) (٥) .

وذكر البخارى أيضا عن ابن عمر قال : (من ورطات الأمور التى لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة يرفعه : (سباب المؤمن فسوق . وقتاله كفر) (٦) .

وفيهما أيضا عنه - ﷺ - (لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) (٧) .

وفى صحيح البخارى عنه ﷺ : (من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وان ريحها يوجد مسيرة

---

(١) سورة البقرة الآية : ٤١

(٢) سورة النساء من الآية : ٩٣

(٣) الحديث فى سنن الترمذى « أبواب تفسير القرآن » ج٤ ص٣٠٦ - ٣٠٧ عن ابن عباس بلفظ « يجىء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسهبيده وأوداجه تشخب دما يقول : يارب قتلنى هذا حتى يدنيه من العرش ، قال : فذكروا لابن عباس التوبة فتلا هذه الآية . . » الخ وقال : هذا حديث حسن .

(٤) صحيح البخارى كتاب الاحكام - باب من شاق شق الله عليه » من حديث طويل » من سَمَّعَ الله به يوم القيامة . . الخ عن جندب .

(٥) الترغيب والترهيب . . كتاب الحدود . . باب الترهيب من قتل النفس . . الخ ج٣ ص٢٩٢ حديث رقم ٤ وهذا جزء من حديث ابن عمر . ثم قال المنذرى : رواه البخارى والحاكم وقال : صحيح على شرطهما .

(٦) الترغيب والترهيب كتاب الادب وغيرهباب« الترهيب من السباب واللعن . . الخ » ج٣ ص٤٦٦ الحديث رقم ٢ عن ابن مسعود - رضى الله عنه - بلفظه . .

(٧) صحيح البخارى كتاب العلم - باب « الانصات للعلماء » ج١ ص٤١ عن جرير ان النبى - ﷺ - قال له فى حجة الوداع : استنصت الناس فقال : لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وانظر سنن الترمذى كتاب الفتن ابواب القدر ج٣ ص٣٢٩ حديث رقم ٢٢٨٩ .

أربعين عاما)(١) .

هذه عقوبة قاتل عدو الله اذا كان معاهدا فى عهده وامانه فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن .

واذا كانت امرأة قد دخلت النار فى هرة حبستها حتى ماتت جوعا وعطشا فرآها النبى - ﷺ - فى النار والهرة تخدشها فى وجهها وصدرها . فكيف عقوبة من حبس مؤمنا حتى مات بغير جرم . وفى بعض السنن عنه - ﷺ - (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق) .

﴿ مفسدة الزنا ﴾

ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهى منافية لمصلحة نظام العالم فى حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقى ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته واخته وأمه وفى ذلك خراب العالم ، كانت تلى مفسدة القتل فى الكبر ولهذا قرنه الله - سبحانه - بها فى كتابه ورسوله - ﷺ - فى سننه . قال الامام احمد ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم من الزنا وقد أكد الله سبحانه حرمته بقوله : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ (٢) ، فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود فى النار وفى العذاب المضاعف المهين مالم يرفع العبد وجبٌ ذلك بالتوبة والايمان والعمل الصالح وقد قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ (٣) . فأخبر عن فحشه فى نفسه وهو القبيح الذى قد تناها قبحه حتى استقر فحشه فى العقول حتى عند كثير من الحيوانات كما ذكر البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت فى الجاهلية قردا زنا بقردة فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا)(٤) ثم أخبر عن غايته بأنه ساء سبيلا فانه سبيل هلكة وبوار وافتقار فى الدنيا وسبيل عذاب فى الآخرة وخزى ونكال ، ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم فقال انه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه فلا سبيل له الى الفلاح بدونه فقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ الى قوله : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ (٥) . وهذا يتضمن ثلاثة أمور : من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين ، وانه من الملومين ، ومن العادين ، ففاته الفلاح واستحق اثم العدوان ، ووقع فى اللوم ،

---

(١) « الترغيب والترهيب » كتاب الحدود باب « من قتل معاهداً . . الخ ج٣ ص٢٩٨ ، حديث رقم ٢٣ عن عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظه . وقال المنذرى : رواه البخارى واللفظ له ، والنسائى إلا انه قال : من قتل قتيلا من أهل الذمة » وانظر البيهقى ج٨ ص١٣٣ باب ما جاء فى اثم من قتل ذميا . . الخ بزيادة « بغير حق » وقال رواه البخارى فى الصحيح عن قيس بن جعفر . . الخ

(٢) سورة الفرقان من الآية : ٦٨

(٣) سورة الاسراء الآية : ٣٢

(٤) صحيح البخارى « القسامة فى الجاهلية » ج٥ ص٥٦ عن عمرو بن ميمون بلفظ قال :«رأيت فى الجاهلية قردة اجتمع عليها قردة قد زنت فرجموها فرجمتها معهم »

(٥) سورة المؤمنون الآيات من ١ - ٧

فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك ، ونظير هذا أنه ذم الانسان ، وانه خلق هلوعا لا يصبر على شر ولا خير ، بل اذا مسه الخير منع وبخل ، واذا مسه الشر جزع إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه فذكر عنهم ﴿ الذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وأمر الله ـ تعالى ـ نبيه أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم مطلع عليها ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[1] . ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج فإن الحوادث مبدؤها من النظر كما أن معظم النار مبدؤها من مستغر الشرر .

﴿ أثر المعاصى ﴾

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة مالا يعلمه إلا الله فمنها :

حرمان العلم فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، والمعصية تطفىء ذلك النور ، ولما جلس الامام الشافعى بين يدى مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وقور فطنته وتوقد ذكائه وكمال فهمه فقال : إنى أرى الله قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وقال : اعلم بان العلم فضل ... وفضل الله لا يؤتاه عاصى

ومنها حرمان الرزق :

وفى المسند أن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه و، تقدم ولما أن كانت تقوى الله مجلبة للرزق فترك التقوى مجلبة للفقر ، فما استجلب رزق الله بمثل ترك المعاصى .

ومنها وحشة يجدها العاصى فى قلبه بينه وبين الله لا يوازنها ولا يقارنها لذة ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ، فلو لم يكن ترك الذنوب إلا حذرا من وقوع تلك الوحشة لكان العاقل حريا بتركها ، وشكا رجل الى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه فقال له :

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها إذا شئت واستأنس وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب فالله المستعان .

ومنها الوحشة التى تحصل له بينه وبين الناس ولا سيما أهل الخير منهم فانه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم وحرم بركة الانتفاع بهم وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما يبعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم فتقع بينه وبين امرأته

(١) سورة غافر الآية : ١٩

ووله وأقاربه وبيته وبين نفسه ، فتراه مستوحشا من نفسه وقال بعض السلف : إنى لأعصى الله فأرى ذلك فى خلق دابتى وامرأتى ،

وفى تعسير أموره عليه فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقا دونه أو متعسرا عليه .

وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا ، فمن عطل التقوى جعل الله له من أمره عسرا .

وياالله العجب كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه متعسرة عليه وهو لا يعلم من أين أتى .

ومنها ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم اذا ادلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع فى البدع والضلالات والأمور المهلكة . وهو لا يشعر كأعمى أخرج فى ظلمة الليل يمشى وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا فى الوجه حتى يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : ان للحسنة ضياء فى الوجه ونورا فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن ، ومحبة فى قلوب الخلق .

وان للسيئة سوادا فى الوجه ، وظلمة فى القبر والقلب ووهنا فى البدن ، ونقصا فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق .

ومنها أن المعاصى توهن القلب والبدن ، وأما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لا يزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية ، وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه .

وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتخونه قوته عند أحوج ما يكون الى نفسه ، فتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم عند أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم . ومنها حرمان الطاعة فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا انه يصد عن طاعة تكون بدله ، ويقطع طريق طاعة اخرى فينقطع عليه طريق ثالثة ، ثم رابعة ، وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة ، منعته من عدة أكلات أطيب منها . والله المستعان .

ومنها أن المعاصى تقصر العمر وتمحق بركته ولابد فإن البر كما يزيد فى العمر فالفجور ينقص .

وقد اختلف الناس فى هذا الموضع فقالت طائفة : نقصان عمر العاصى هو ذهاب بركة عمره ومحقها عليه ، وهذا حق وهو بعض تأثير المعاصى .

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسبابا كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة فى العمر أسباب تكثره وتزيده قالوا : ولاتمنع زيادة العمر بأسباب ، كما ينقص بأسباب ، فالأرزاق ، والآجال ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والغنى ، والفقر ، وان كانت بقضاء الله ـ عز وجل ـ فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها .

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن تفوته حقيقة الحياة ، وهى حياة القلب ، ولهذا جعل الله ـ سبحانه وتعالى . . الكافر ميتا غير حى ، كما قال سبحانه ﴿ أموات غير أحياء ﴾[(١)] فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الانسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته ، بالله ، فتلك ساعات عمره .

فالبر والتقوى والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ولا عمر له سواها .

وبالجملة فالعبد اذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غب إضاعتها يوم يقول :﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾[(٢)] فلا يخلو اما أن يكون له مع ذلك تطلع الى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا ، فان لم يكن له تطلع الى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله وذهبت حياته باطلا ، وان كان له تطلع الى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضرارها ، وذلك نقصان حقيقى من عمره .

وسر المسألة ان عمر الانسان مدة حياته ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وايثار مرضاته .

ومنها أن المعاصى تزرع أمثالها وتولد بعضها بعضا حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة سيئة بعدها ، وان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها .

فالعبد اذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها : اعملنى أيضا ، فاذا عملها قالت الثانية . . كذلك وهلم جرا فيتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك كانت السيئات . أيضا حتى تصير الطاعات والمعاصى هيئات راسخة ، وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ، فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأحس من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها ، حتى ان كثيرا من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانىء حيث قال :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

وقال الآخر :

وكانت دوائى وهى دائى بعينه ... كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله ـ سبحانه ـ برحمته عليه الملائكة تأزه اليها أزا ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ، ومجلسه اليها ، ولا يزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله اليه الشياطين فتأزه اليها أزا ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد فكانوا اكثر من أعوانه ، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه .

---

(١) سورة النحل من الآية : ٢١

(٢) سورة الفجر من الآية : ٢٤

ومنها وهو من أخوفها على العبد أنها تضعف القلب عن إرادته فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئا فشيئا الى أن تنسلخ من قلبه ارادة التوبة بالكلية ، فلو مات نصفه لما تاب الى الله ، فيأتى بالاستغفار وتوبة الكذابين باللسان لشيء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصر عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه ، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها الى الهلاك .

ومنها ان ينسخ من القلب استقباحها فتصير له عادة فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه ، وهو عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة ، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يافلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، وتسد عليهم طريق التوبة وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب كما قال النبى - ﷺ - (كل أمتى معافى إلا المجاهرين وان من الاجهار ان يستر الله على العبد ثم يصبح يفضح نفسه ويقول : يافلان عملت البارحة يوم كذا وكذا فتهتك نفسه وقد بات يستره ربه)(١) .

ومنها أن كل معصية من المعاصى فهى ميراث عن أمة من الأمم التى أهلك الله - عز وجل - فاللوطية ميراث عن قوم لوط ، وأخذ الحق بالزائد ودفعه بالناقص ميراث عن قوم شعيب ، والعلو فى الأرض والفساد ميراث عن فرعون وقوم فرعون ، والتكبر والتجبر ميراث عن قوم هود . فالعاصى لابس ثياب بعض هذه الأمم وهم أعداء الله .

وقد روى عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه عن مالك بن دينار قال : أوحى الله الى نبى من أنبياء بنى اسرائيل أن قل لقومك لا تدخلوا مداخل أعدائى ، ولا تلبسوا ملابس أعدائى ، ولا تركبوا مراكب أعدائى ، ولا تطعموا مطاعم أعدائى ، فتكونوا أعدائى، كما هم أعدائى .

وفى مسند أحمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبى - ﷺ - قال : (بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم)(٢) .

ومنها أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم واذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد كما قال الله تعالى : ﴿ **ومن يهن الله فماله من مكرم** ﴾(٣) . وان عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم اليهم أو خوفا من شرهم لهم فى قلوبهم أحقر شيء وأهونه .

ومنها ان العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر فى قلبه وذلك علامة الهلاك فان الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله .

(١) الحديث فى رياض الصالحين-باب ستر عورات المسلمين والنهى عن اشاعتها لغير ضرورة-ص١٢٦ ولفظه ، عن ابى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « كل أمتى معافى الا المجاهرين ، وان من المجاهرة ان يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله عليه فيقول : يافلان ، عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله » متفق عليه .

(٢) مسند الامام احمد المجلد الثانى ط دار الفكر العربى ص٥٠ بلفظه عن ابن عمر .

(٣) سورة الحج من الآية : ١٨

وقد ذكر البخارى فى صحيح على بن مسعود قال : (ان المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وان الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال : هكذا فطار)[١] .

ومنها ان غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم قال ابو هريرة : ان الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم ، وقال مجاهد : ان البهائم تلعن عصاة بنى آدم اذا اشتدت السنة وأمسك المطر وتقول هذا بشؤم معصية ابن آدم وقال عكرمة : دواب الارض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بنى آدم فلا يكفيه عقاب ذنبه حتى يبوء بلعنة من لا ذنب له .

ومنها ان المعصية تورث الذل ولابد ، فان العز كل العز فى طاعة الله ـ تعالى ـ قال تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ﴾[٢] . فليطلبها بطاعة الله فانه لا يجدها إلا فى طاعته ، وكان من دعاء بعض السلف (اللهم أعزنى بطاعتك ولا تذلنى بمعصيتك) . قال الحسن البصرى : انهم وان طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين ان ذل المعصية لا تفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه وقال عبد الله بن المبارك .

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك واحبار سوء ورهبانها

ومنها أن المعاصى تفسد العقل فان للعقل نورا والمعصية تطفىء نور العقل ، ولابد ، واذا طفىء نوره ضعف ونقص ، وقال بعض السلف : ماعصى الله أحد حتى يغيب عقله وهذا ظاهر ، فانه لو حضر عقله لحجزه عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى أو تحت قهره وهو مطلع عليه وفى داره على بساطه ، وملائكته . شهود عليه ، ناظرون اليه ، وواعظ القرآن ينهاه ، ولفظ الايمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذه بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم .

ومنها ان الذنوب اذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها فكان من الغافلين ، كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾[٣] قال:هو الذنب بعد الذنب وقال

---

(١) شرح السنة للامام البغوى كتاب الدعوات ـ باب التوبة ـ ج٥ ص٨٦ ط/ المكتب الاسلامى عن الحاريث بن سويد قال : دخلت على عبد الله أعوده وهو مريض ، فحدثنا بحديثين:حديث عن نفسه ، وحديث عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « ان المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف ان يقع ، وان الفاجر يرى ذنوبه مثل ذباب مر على أنفه فذبه عنه ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : لله أشد فرحا بتوبة عبده ... الخ

وانظر صحيح البخارى ج١١ ص١٠٢ باب التوبة حديث رقم ٦٣٠٨ مع اختلاف فى بعض الفاظه .

(٢) سورة فاطر من الآية : ١٠

(٣) سورة المطففين آية : ١٤

الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم ، وأصل هذا ان القلب يصدى من المعصية فاذا زادت غلب الصدى حتى يصير رانا ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا وختما ، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فاذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد . .

ومنها أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة رسول الله ـ ﷺ ـ فانه لعن على معاص والتى غيرها اكبر منها ، فهى أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة فلعن الواشمة والمستوشمة،والواصلة والموصلة،والنامصة والمتنمصة،والواشرة والمستوشرة ، ولعن أكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده ، ولعن المحلل والمحلل له ، ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر وساقيها وعاصرها ومعتصرها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها وحاملها والمحمولة اليه ، ولعن من غير منار الأرض وهى اعلامها وحدودها ، ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثا أو آوى محدثا ، ولعن المصورين ، ولعن من عمل عمل قوم لوط ، ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كمه أعمى عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من رسم دابة فى وجهها،ولعن من ضار بمسلم أو مكر به ، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ، ولعن من أتى امرأة فى دبرها ، وأخبر ان من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب الى غير ابيه ، وأخبر ان من أشار الى اخيه بحديدة فان الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة ، وقد لعن الله من أفسد فى الأرض وقطع رحمه واذاه وأذى رسوله ، ولعن من كتم ما انزل الله ـ سبحانه ـ من البينات والهدى ، ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة ، ولعن من جعل سبيل الكافر أهدى من سبيل المسلم ، ولعن رسول الله ـ ﷺ ـ الرجل يلبس لباس المرأة ، والمرأة تلبس لباس الرجل ، ولعن الراشى والمرتشى والرائش وهو الواسطة فى الرشوة ، ولعن على اشياء أخر غير هذه لولم يكن فى فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك ما يدعو الى تركه .

ومنها حرمان دعوة رسول الله ﷺ ـ ودعوة الملائكة فان الله ـ سبحانه ـ أمر نبيه ان يستغفر للمؤمنين والمؤمنات .

وقال تعالى : **﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾** (١) . فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التابعين المتبعين لكتابه وسنة رسوله الذين لا سبيل لهم غيرها فلا يطمع غير هؤلاء باجابة هذه الدعوة اذا لم يتصف بصفات المدعو له بها .

---

(١) سورة غافر الآيات : ٧ ، ٨ ، ٩ .

ومن عقوبات المعاصي ـ ما رواه البخارى فى صحيحه من حديث سمره بن جندب قال : (كان النبى ـ ﷺ ـ مما يكثر ان يقول لأصحابه : هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا فيقص عليه ما شاء الله ان يقص وانه قال لنا ذات غداة : انه أتانى الليلة آتيان وأنهما انبعثا لى وانهما قالا لى : انطلق وانى انطلقت معهما وإنا اتينا على رجل مضطجع واذا آخر قائم عليه بصخرة واذا هو يهوى بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر هاهنا فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع اليه حتى يصح رأسه كما كان ثم يعود عليه فيفعل به مثل ما فعل فى المرة الأولى قال : قلت لهما : سبحان الله ما هذان ؟ قالا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على رجل مستلق لقفاه واذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد واذا هو يأتى احد شقى وجهه فيشرشر شدقه الى قفاه،ومنخره الى قفاه،وعينه الى قفاه ثم يتحول الى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصح ذلك الجانب كما كان ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى ، قال : سبحان الله ما هذان ؟ فقال لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا على مثل التنور واذا فيه لغط وأصوات قال : فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة واذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا فقال : قلت : من هؤلاء ؟ قال : فقالا لى : انطلق انطلق قال : فانطلقنا فأتينا على نهر أحمر مثل الدم فاذا فى النهر رجل سابح يسبح واذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة واذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق فيسبح ثم يرجع اليه كما رجع اليه فيفغر له فاه فيلقمه حجرا قال : قلت لهما : ما هذان ؟ قالا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فاتينا على رجل كريه المرأى كأكره ما أنت راء رجلا مرآه،واذا هو عنده نار يحشها ويسعى حولها قال : قلت لهما : ما هذا ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق فانطلقنا على روضة مغيمة فيها من كل نور الربيع واذا بين ظهرانى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء واذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط قال : قلت : ما هذا ؟ وما هؤلاء ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق فانطلقنا فأتينا دوحة عظيمة لم أر دوحة قط أعظم منها ولا أحسن قال : قالا لى : ارق فيها فارتقينا فيها الى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة قال : فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا فد خلناها فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر منهم كأقبح ما أنت راء قال لهم : اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر قال : واذا نهر معترض يجرى كان ماءه المحض فى البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا وقد ذهب ذلك السوء عنهم قال : قالا لى : هذه جنة عدن وهناك منزلك قال : فسما بصرى صعدا فاذا قصر مثل الربابة البيضاء قال : قالا لى : هذاك منزلك .

قال : قلت لهما : بارك الله فيكما فذرانى أدخله قالا : أما الآن فلا،وأنت داخله قال : قلت لهما : فإنى رأيت منذ الليلة عجبا فما هذا الذى رأيت قال : قالا لى : أما إنا سنخبرك ، أما الرجل الأول الذى أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فانه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه الى قفاه ومنخره الى قفاه وعينه الى قفاه فانه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق ، وأما الرجال والنساء العراة الذين هم فى مثل بناء التنور فانهم الزناة والزوانى ، وأما الرجل الذى أتيت عليه يسبح فى النهر ويلقم الحجارة فانه آكل الربا ، وأما الرجل

الكريه المنظر الذى عند النار يحثها ويسعى حولها ، فانه مالك خازن جهنم ، وأما الرجل الطويل الذى فى الروضة فانه ابراهيم ، وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة - وفى رواية البرقانى - ولد على الفطرة . فقال بعض المسلمين : يارسول الله ، وأولاد المشركين فقال رسول الله - ﷺ - وأولاد المشركين ، وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم قوم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم ﴾[1] .

ومن آثار الذنوب والمعاصى انها تحدث فى الأرض انواعا من الفساد فى المياه والهوى والزرع والثمار والمساكن قال تعالى : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾ قال مجاهد : اذا ولى الظالم سعى بالظلم والفساد فيحس بذلك القطر فيهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ثم قرأ ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون** ﴾[2] . ثم قال : أما والله ما هو بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر وقال عكرمة : ظهر الفساد فى البر والبحر أما انى لا أقول لكم بحركم هذا ولكن كل قرية على ماء ، وقال قتادة : اما البر فأهل العمور وأما البحر فأهل القرى والريف قلت : وقد سمى الله - تعالى - الماء العذب بحرا فقال : ﴿ **وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج** ﴾[3] . وليس فى العالم بحر حلو واقفا وانما هى الأنهار الجارية والبحر المالح هو الساكن فتسمى القرى التى على المياه الجارية باسم تلك المياه ، وقال ابن زيد : ظهر الفساد فى البر والبحر قال : الذنوب ، قلت : أراد ان الذنب سبب الفساد الذى ظهر وان أراد ان الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها فيكون قوله : ﴿ **ليذيقهم بعض الذى عملوا** ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الاول فالمراد بالفساد النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد فكل ما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة كما قال بعض السلف كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة ، والظاهر - والله أعلم - ان الفساد المراد به الذنوب وموجباتها ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **ليذيقهم بعض الذى عملوا** ﴾ فهذا حالنا وانما أذاقنا الشىء اليسير من أعمالنا فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

ومن تأثير المعاصى فى الأرض ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله - ﷺ - على ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم الا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستقاء من أبيارهم حتى أمر الا يعلف العجين الذى عجن بمياههم لنواضح الابل لتأثير شؤم المعصية فى الماء وكذلك شؤم تأثير الذنوب فى نقص الثمار وما ترى به من الآفات .

وقد ذكر الامام احمد فى مسنده فى ضمن حديث قال : وجدت فى خزائن بعض بنى أمية حنطة الحبة بقدر نواة الثمر وهى فى صبرة مكتوب عليها كان هذا ينبت فى زمن العدل وكثير من هذه الآفات أحدثها الله - سبحانه وتعلى - بما أحدث العباد من الذنوب .

---

(١) صحيح البخارى كتاب الجنائز ج ٢ ص١٢٥ وما بعدها ورد الحديث عن سمره بن جندب مع اختلاف فى اللفظ .
(٢) سورة الروم الآية : ٤١
(٣) سورة الفرقان من الآية : ٥٣

وأخبرنى جماعة من شيوخ الصحراء انهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هى الآن ، وكثير من هذه الآفات التى تصيبها لم يكونوا يعرفونها . . وانما حدثت من قرب ، وأما تأثير الذنوب فى الصور والخلق فقد روى الترمذى فى جامعه عن النبى ـ ﷺ ـ انه قال :(خلق الله آدم وطوله فى السماء ستون ذراعا[(١)] ولم يزل الخلق ينقص حتى الآن فاذا أراد الله ان يطهر الأرض من الظلمة والخونة والفجرة أخرج عبدا من عباده من أهل بيت نبيه ـ ﷺ ـ فيملأ الارض قسطا كما ملئت جورا ويقتل المسيح اليهود والنصارى ويقيم الدين الذى بعث الله به رسوله وتخرج الأرض بركاتها وتعود كما كانت حتى ان العصابة من الناس ليأكلون الرمانة ويستظلون بقحفها ويكون العنقود من العنب وقر بعير ولبن اللقمة الواحدة يكفى الفئام من الناس وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصى ظهرت فيها آثار البركة من الله ـ تعالى ـ التى محقتها الذنوب والكفر ، ولا ريب ان العقوبات التى أنزلها الله فى الأرض بقية آثارها سارية فى الأرض تطلب ما يشاء ، كلها من الذنوب التى هى آثار تلك الجرائم التى عذبت بها الأمم ، فهذه الآثار فى الأرض من آثار العقوبات كما أن هذه المعاصى من آثار الجرائم فتناسبت كلمة الله وحكمه الكونى أولا وآخرا وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية ، والأخف للأخف ، وهنا يحكم سبحانه بين خلقه فى دار البرزخ ودار الجزاء ، وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره فانه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه ، ولما أثرت طاعته فى الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شىء من الروح والرحمة والبركة .

ومن عقوباتها : انها تطفىء من القلب نار الغيرة التى هى لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن ، فان الغيرة حرارته وناره التى تخرج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة كما يخرج الكير خبث الذهب والفضة والحديد ، وأشرف الناس وأعلاهم قدرا وهمة أشدهم غيرة على نفسه وخاصته وعموم الناس ولهذا كان النبى ـ ﷺ ـ أغير الخلق على الأمة ، والله ـ سبحانه ـ أشد غيرة منه كما ثبت فى الصحيح عنه ﷺ انه قال :(اتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير منى)[(٢)] وفى الصحيح ايضا عنه انه قال ـ ﷺ ـ فى خطبة الكسوف (يا أمة محمد ، ما أحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته)[(٣)] وفى الصحيح ـ أيضا ـ عنه ـ انه قال : (لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا احد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك ارسل الرسل مبشرين ومنذرين ولا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك اثنى على نفسه)[(٤)] فجمع فى هذا الحديث بين الغيرة التى أصلها كراهة القبائح وبغضها وبين محبة العذر الذى يوجب كمال العدل والرحمة والاحسان . والله ـ سبحانه ـ

---

(١) مسند الامام احمد ج٢ ص٣١٢ ورد الحديث عن ابى هريرة بلفظ : «خلق الله ـ عز وجل ـ آدم على صورته طوله ستون ذراعا . . الخ
وانظر كنز العمال ج٦ ص١٢٩ حديث رقم ١٥١٢٩ وعن ابى هريرة بلفظ « خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعا . . الخ

(٢) صحيح البخارى ج٧ ص٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظه .
وانظر مسند الامام احمد ج٤ ص٢٤٨ ورد الحديث عن المغيرة بن شعبه مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) صحيح البخارى ج٧ ص٤٥ باب الغيرة ورد الحديث بلفظ « ياأمة محمد ما أحد أغير من الله ان يزنى عبده أو أمته

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٨١

مع شدة غيرته يحب ان يعتذر اليه عبده ويقبل عذر من اعتذر اليه ، وانه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه حتى يعذر اليهم ، ولاجل ذلك ارسل رسله وانزل كتبه اعذارا وانذارا وهذا غاية المجد والاحسان ونهاية الكمال فان كثيرا ممن تشتد غيرته من تحمله شدة الغيرة على سرعة الايقاع والعقوبة من غير إعذار منه ، ومن غير قبول العذر ممن اعتذر إليه ، بل قد يكون له فى نفس الأمر عذر ولاتدعه شدة الغيرة أن يقبل عذره ، وكثير ممن تقبل المعاذير يحمله على قبولها قلة الغيرة حتى يتوسع فى طرق المعاذير ويرى عذرا ما ليس بعذر حتى يعذر كثير منهم بالعذر . وكل منها غير ممدوح على الاطلاق ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال : ﴿ إن من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغضها الله ، فالتى يبغضها الله الغيرة من غيرريبة ﴾[1] وذكر الحديث وإنما الممدوح اختزان الغيرة بالعذر فيغار فى محل الغيرة ويعذر فى موضع العذر ، ومن كان هكذا فهو الممدوح حقا .

ولما جمع ـ سبحانه ـ صفات الكمال كلها كان أحق بالمدح من كل أحد ولا يبلغ أحد أن يمدحه كما ينبغى له بل هو مدح نفسه وأثنى على نفسه ، فالغيور قد وافق ربه ـ سبحانه ـ فى صفة من صفاته ، ومن وافق الله فى صفة من صفاته قادته تلك الصفة اليه بزمامه وأدخلته على ربه وأدنته منه وقربته من رحمته وصيرته محبوبا له ، فانه ـ سبحانه ـ رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء ، عليم يحب العلماء ، قوى يحب المؤمن القوى وهو أحب اليه من المؤمن الضعيف ، حتى يحب أهل الجفاء ، جميل يحب ما يحب أهل الجمال وتر يحب أهل الوتر ، ولو لم يكن فى الذنوب والمعاصى الا انها توجب لصاحبها ضد هذه الصفات وتمنعه من الاتصاف بها لكفى بها عقوبة ، فإن الخطرة تنقلب وسوسة ، والوسوسة تصير إرادة ، والارادة تقوى فتصير عزيمة ، ثم تصير فعلا ، ثم تصير صفة لازمة ، وهيئة ثابتة راسخة ، وحينئذ يتعذر الخروج منها كما يتعذر عليه الخروج من صفاته القائمة به ، والمقصود انه كلما اشتدت ملابسته للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وأهله وعموم الناس ، وقد تضعف فى القلب حدا لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ، ولا من غيره ، وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل فى باب الهلاك ، وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه إليه ويحثه عليه ويسعى له فى تحصيله ، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله والجنة حرام عليه ، وكذلك محلل الظلم والبغى لغيره ومزينه لغيره ، فانظر ما الذى حملت عليه قلة الغيرة وهذا يدلك على أن أصل الدين الغيرة ومن لا غيرة له لا دين له ، فالغيرة تحمى القلب فتحمى له الجوارح فتدفع السوء والفواحش ، وعدم الغيرة تميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ، ومثل الغيرة فى القلب مثل القوة التى تدفع المرض وتقاومه فاذا ذهبت القوة وجد الداء المحل

(١) السنن الكبرى للبيهقى ج٩ ص١٥٦ كتاب السير ـ باب الخيلاء فى الحرب ـ ورد الحديث عن جابر بن عتيك بلفظ : « ان من الغيرة ما يحبها الله ، ومنها ما يبغض الله ، فاما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، وأما الغيرة التى يبغض فالغيرة فى غير ريبة .. الخ

قابلا ولم يجد دافعا فتمكن فكان الهلاك ، ومثلها مثل صياصى الجاموس التى تدفع بها عن نفسه وعن ولدها فاذا تكسرت طمع فيها عدوها .

ومن عقوباتها ذهاب الحياء الذى هو مادة الحياة للقلب ، وهو أصل كل خير،وذهابه ذهاب كل خير بأجمعه وفى الصحيح عنه - ﷺ - انه قال :(الحياء خيركله)[١]وقال : (ان مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى اذا لم تستح فاصنع ماشئت)[٢]وفيه تفسيران : أحدهما : انه على التهديد والوعيد والمعنى من لم يستح فانه يصنع ما شاء من القبائح ، اذ الحامل على تركها الحياء ، فاذا لم يكن هناك حياء نزعه عن القبائح فانه يوافقها . وهذا تفسير ابى عبيدة والثانى : ان الفعل اذا لم تستح فيه من الله فافعله وانما الذى ينبغى تركه ما يستحى فيه من الله ، وهذا تفسير الامام احمد فى رواية ابن هانى فعلى الاول : يكون تهديدا كقوله :﴿ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾[٣]وعلى الثانى : يكون اذنا واباحة . فان قيل:فهل من سبيل الى حمله على المعنيين ؟ قلت : لا ولا على قول من يحمل المشترك على جميع معانيه لما بين الاباحة والتهديد من المنافاة ، ولكن اعتبار احد المعنيين يوجب اعتبار الآخر ، والمقصود ان الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية ، حتى ربما انه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله ولا باطلاعهم عليه ، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبيح ما يفعله،والحامل على ذلك انسلاخه من الحياء ، واذا وصل العبد الى هذه الحالة لم يبق فى صلاحه مطمع واذا رأى ابليس طلعة وجهه حياه وقال : فديت من لا يفلح .

والحياء مشتق من الحياة والغيث سمى حيا بالقصر،لان به حياة الأرض والنبات والدواب . وكذلك سميت بالحياة حياة الدنيا والآخرة ، فمن لا حياء فيه ميت فى الدنيا شقى فى الآخرة ، وبين الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين ، وكل منهما يستدعى الآخر ويطالبه حثيثا ، ومن استحى من الله عند معصيته استحى الله من عقوبته يوم يلقاه ، ومن لم يستح من الله - تعالى - من معصيته لم يستح الله من عقوبته .

ومن عقوباتها : انها تضعف فى القلب تعظيم الرب - جل جلاله - وتضعف وقاره فى قلب العبد ولابد شاء أم أبى ، ولو تمكن وقار الله وعظمته فى قلب العبد لما تجرأ على معاصيه ، وربما اغتر المغتر وقال : انما يحملنى على المعاصى حسن الرجاء وطمعى فى عفوه لا ضعف عظمته فى قلبى ، وهذا من مغالطة النفس فان عظمة الله - تعالى - وجلاله فى قلب العبد وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب ، والمتجرئون على معاصيه ما قدروه حق قدره ، وكيف يقدره حق قدره أو يعظمه أو يكبره أو يرجو وقاره ويجله من يهون عليه أمره ونهيه هذا من أمحل المحال وأبين الباطل ، وكفى بالعاصى عقوبة ان يضمحل من قلبه تعظيم الله - جل جلاله - وتعظيم حرماته ويهون عليه ، ومن بعض عقوبة هذا ان يرفع الله - عز وجل - مهابته من قلوب الخلق ويهون عليهم ويستخفون به ، كما هان عليه أمره واستخف به ، فعلى قدر محبة العبد لله يحبه الناس ، وعلى قدر خوفه من الله يخافه الناس ، وعلى قدر تعظيمه الله وحرماته

(١) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج٨ ص٢٦ باب « ما جاء فى الحياء ».. ورد الحديث بلفظه عن انس
(٢) مجمع الزوائد المجلد الرابع ج٨ باب « ما جاء فى الحياء » ص٢٧ ورد الحديث بلفظه عن حذيفة .
(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٠

يعظم الناس حرماته ، وكيف ينتهك عبد حرمات الله ويطمع الا ينتهك الناس حرماته ، ام كيف يهون عليه حق الله ولا يهونه الله على الناس ، أم كيف يستخف بمعاصى الله ولا يستخف به الخلق وقد أشار - سبحانه - الى هذا فى كتابه عند ذكر عقوبات الذنوب وانه اركس اربابها بما كسبوا وغطى على قلوبهم وطبع عليها بذنوبهم وانه نسيهم كما نسوه واهانهم كما اهانوا دينه وضيعهم كما ضيعوا امره ، ولهذا قال تعالى : فى آية سجود المخلوقات له : ﴿ ومن يهن الله فماله من مكرم ﴾ (١) . فانهم لما هان عليهم السجود له واستخفوا به ولم يفعلوه أهانهم فلم يكن لهم من مكرم بعد ان اهانهم ومن ذا يكرم من أهانه الله أو يهن من اكرم .

ومن عقوباتها : انها تستدعى نسيان الله لعبده وتركه وتخليته بينه وبين نفسه وشيطانه ، وهنالك الهلاك الذى لا يرجى معه نجاة قال الله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون . ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾ (٢) فأمر بتقواه ونهى ان يتشبه عباده المؤمنون بمن نسيه بترك تقواه ، وأخبر أنه عاقب من ترك التقوى بأن أنساه نفسه ، أى : أنساه مصالحها وما ينجيها من عذابه ، وما يوجب له الحياة الأبدية وكمال لذتها وسرورها ونعيمها ، فأنساه الله ذلك كله جزاء لما نسيه من عظمته وخوفه والقيام بأمره ، فترى العاصى مهملا لمصالح نفسه مضيعا لها قد أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا ، قد انفرطت عليه مصالح دنياه وآخرته وقد فرط فى سعادته الأبدية واستبدل بها أدنى ما يكون من لذة إنما هى سحابة صيف أو حبال طيف .

أحلام نوم أو كظل زائل ان اللبيب بمثلها لا يخدع

وأعظم العقوبات نسيان العبد لنفسه وإهماله لها وإضاعته حظها ونصيبها من الله وبيعها ذلك بالغبن والهوان وأبخس الثمن فضيع من لا غنى له عنه ولا عوض له منه ، واستبدل به من عنه كل الغنى أو منه كل العوض .

من كل شيء اذا ضيعته عوض وليس فى الله ان ضيعت من عوض

فالله سبحانه يعوض عن كل شيء ما سواه ولا يعوض منه شيء ، ويغنى عن كل شيء ولا يغنى عنه شيء ، ويمنع من كل شيء ولا يمنع منه شيء ، ويجير من كل شيء ولا يجير منه شيء ، كيف يستغنى العبد عن طاعة من هذا شأنه طرفة عين ، وكيف ينسى ذكره ويضيع أمره ، حتى ينسيه نفسه فيخسرها ويظلمها أعظم الظلم ، فما ظلم العبد ربه ولكن ظلم نفسه ، وما ظلمه ربه ولكن هو الذى ظلم نفسه .

ومن عقوباتها : أنها تخرج العبد من دائرة الاحسان وتمنعه من ثواب المحسنين ، فان الاحسان اذا باشر القلب منعه عن المعاصى ، فان من عبد الله كأنه يراه لم يكن كذلك إلا لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه

---

(١) سورة الحج من الآية : ١٨
(٢) سورة الحشر الآيتان : ١٨ ، ١٩

ورجائه على قلبه ، بحيث يصير كأنه يشاهده ، وذلك سيحول بينه وبين ارادة المعاصى فضلا عن مواقعتها ، فاذا خرج من دائرة الاحسان فاته صحبة رفقته الخاصة وعيشهم الهنيء ونعيمهم التام ، فان اراد الله به خيرا أقره فى دائرة عموم المؤمنين ، فان عصاه بالمعاصى التى تخرجه من دائرة الايمان كما قال النبى - ﷺ - (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربه وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع اليه الناس فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن ، اياكم وإياكم والتوبة معروضة بعد) . ومن فاته رفقة المؤمنين خرج عن دائرة الايمان ، فاته حسن دفاع الله عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، وفاته كل خير رتبه الله فى كتابه على الايمان وهو نحو مائة خصلة كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها .

فمنها الاجر العظيم ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾(١) .

ومنها الدفع عنهم شرور الدنيا والآخرة ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا ﴾(٢) ومنها استغفار حملة العرش لهم ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ﴾(٣) .

ومنها موالاة الله لهم ولا يذل من والاه الله قال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾(٤) ومنها أمره ملائكته بتثبيتهم ﴿ اذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾(٥). ومنها ان لهم الدرجات عند ربهم والمغفرة والرزق الكريم ومنها العزة ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾(٦) ومنها معية الله لاهل الايمان ﴿ وإن الله مع المؤمنين ﴾(٧) ومنها الرفعة فى الدنيا والآخرة ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾(٨) ومنها اعطاهم كفلين من رحمته واعطاهم نورا يمشون به ومغفرة ذنوبهم، ومنها الود الذى يجعله سبحانه لهم وهو انه يحبهم ويحببهم الى ملائكته وانبيائه وعباده الصالحين ومنها أمانهم الخوف يوم يشتد الخوف ﴿ من أمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٩) ومنها انهم المنعم عليهم الذين أمرنا ان نسأله ان يهدينا الى صراطهم المستقيم فى كل يوم وليلة سبع عشرة مرة .

ومنها ان القرآن انما هو هدى لهم وشفاء ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾(١٠) .

والمقصود ان الايمان سبب جالب لكل خير ، وكل خير فى الدنيا والآخرة فسببه الايمان ، فكيف يهون على العبد ان يرتكب شيئا يخرجه من دائرة الايمان ، ويحول بينه وبينه ، ولكن لا تخرج من دائرة عموم المسلمين ، فان استمر على الذنوب واصر عليها خيف عليه ان يرين على قلبه فيخرجه عن

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٦
(٢) سورة الحج من الآية : ٣٨
(٣) سورة غافر من الآية : ٧
(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٥٧
(٥) سورة الانفال من الآية : ١٢
(٦) سورة المنافقون من الآية : ٨
(٧) سورة الأنفال من الآية : ١٩
(٨) سورة المجادلة من الآية : ١١
(٩) سورة المائدة من الآية : ٦٩
(١٠) سورة فصلت من الآية : ٤٤

الاسلام بالكلية ، ومن هنا اشتد خوف السلف كما قال بعضهم : انتم تخافون الذنوب وانا أخاف الكفر .

ومن عقوباتها انها تضعف سير القلب الى الله والدار الآخرة أو تعوقه وتوقفه وتعطفه عن السير فلا تدعه يخطو الى الله خطوة،هذا ان لم ترده عن وجهته الى ورائه ، فالذنب يحجب الواصل ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب انما يسير الى الله بقوته فاذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التى تسير ، فان زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعا يبعد تداركه والله المستعان .

فالذنب إما يميت القلب ، وإما يمرضه مرضا مخوفا ، أو يضعف قوته ، ولابد حتى ينتهى ضعفه الى الاشياء الثمانية التى استعاذ منها النبى - ﷺ - وهى الهم ، والحزن ، والكسل ، والعجز ، والجبن ، والبخل ، وضلع الدين ، وغلبة الرجال ، وكل اثنين منها قرينان فالهم والحزن قرينان فإن المكروه والوارد على القلب ان كان من أمر مستقبل يتوقعه أحدث الهم ، وان كان من أمر ماض قد وقع أحدث الحزن . والعجز والكسل قرينان ، فان تخلف العبد عن أسباب الخير والفلاح إن كان لعدم قدرته فهو العجز ، وان كان لعدم ارادته فهو الكسل ، والجبن والبخل قرينان ، فان عدم النفع منه ان كان ببدنه فهو الجبن ، وان كان بماله فهو البخل ، وضلع الدين وقهر الرجال قرينان فان استيلاء الغير عليه ان كان بحق فهو من ضلع الدين ، وان كان بباطل فهو من قهر الرجال .

والمقصود أن الذنوب من أقوى الأسباب الجالبة لهذه الثمانية ، كما أنها من أقوى الأسباب الجالبة لجهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء ومن أقوى الأسباب الجالبة لزوال النعم ، وتحول عافيته وفجاءة نقمته وجميع سخطه .

ومن عقوبات الذنوب انها تزيل النعم وتحل النقم فمازالت عن العبد نعمة إلا بسبب ذنب ولا حلت به نقمة إلا بذنب كما قال على بن ابى طالب - رضى الله عنه : مانزل بلاء إلا بذنب ولا رفع بلاء الا بتوبة وقد قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾[(١)] وقال تعالى : ﴿ ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[(٢)] فاخبر الله تعالى انه لا يغير نعمته التى انعم بها على احد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه فيغير طاعة الله بمعصيته وشكره بكفره واسباب رضاه باسباب سخطه فاذا غير غير عليه جزاء وفاقا ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[(٣)] فان غير المعصية بالطاعة غير الله عليه العقوبة بالعافية والذل بالعز قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾[(٤)] وفى بعض الآثار الالهية عن الرب - تبارك وتعالى - انه قال : ﴿ وعزتى وجلالى لا يكون عبد من عبيدى على ما أحب ثم ينتقل عنه الى ما أكره إلا انتقلت له مما يحب عبدى الى ما يكره ولا يكون عبد من عبيدى على ما اكره فينتقل عنه الى ما أحب إلا انتقلت له مما يكره الى ما يحب ﴾ وقد أحسن القائل :

اذا كنت فى نعمة فارعها ... فان الذنوب تزيل النعم

(١) سورة الشورى من الآية : ٣٠
(٢) سورة الأنفال من الآية : ٥٢
(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦
(٤) سورة الرعد من الآية : ١١

وحطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم
واياك والظلم مهما استطعت فظلم العباد شديد الوخم
وسافر بقلبك بين الورى لتبصر آثار من قد ظلم
فتلك مساكنهم بعدهم شهود عليهم ولا تتهم
وما كان شيء عليهم أضر من الظلم وهو الذى قد قصم
فكم تركوا من جنان ومن قصور واخرى عليهم أطم
صلوا بالجحيم وفات النعم وكان الذى نالهم كالحلم

ومن عقوباتها : ما يلقيه الله ـ سبحانه وتعالى ـ من الرعب والخوف فى قلب العاصي فلا تراه إلا خائفا مرعوبا فان الطاعة حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب ، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف فى حقه أمانا ، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف ، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحى طائرإن حركت الريح الباب قال جاء الطلب ، وان سمع وقع قدم خاف ان يكون نذيرا بالعطب ، يحسب كل صيحة عليه وكل مكروه قاصدا اليه ، فمن خاف الله آمنه من كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

بدا قضاء الله بين الخلق مذ خلقوا ان المخاوف والاجرام فى قرن

ومن عقوباتها : انها توقع الوحشة العظيمة فى القلب ، فيجد المذنب نفسه مستوحشا مذ وقعت الوحشة بينه وبين ربه ، وبين الخلق وبينه ، وبين نفسه وكلما كثرت الذنوب اشتدت الوحشة وأمر العيش عيش المستوحشين الخائفين ، وأطيب العيش عيش المستأنسين ، فلو نظر العاقل ووزان بين لذة المعصية وما يولد فيه من الخوف والوحشة . لعلم سوء حاله وعظيم غبنه ، اذ باع أنس الطاعة وأمنها وحلاوتها بوحشة المعصية وما توجبه من الخوف . .

اذا كنت قد أوحشتك الذنوب فدعها اذا شئت واستأنس

وسر المسألة : أن الطاعة توجب القرب من الرب ـ سبحانه ـ وكلما اشتد القرب قوى الأنس ، والمعصية توجب البعد من الرب ، وكلما زاد البعد قويت الوحشة ، ولهذا يجد العبد وحشة بينه وبين عدوه للبعد الذى بينهما ، وان كان ملابسا له قريبا منه ، ويجد أنسا قويا بينه وبين من يحب ، وان كان بعيداً عنه ، والوحشة سببها الحجاب ، وكلما غلظ الحجاب زادت الوحشة فالغفلة توجب الوحشة ، وأشد منها وحشة المعصية ، وأشد منها ، وحشة الشرك الكفر ، ولا تجد أحدا يلابس شيئا من ذلك إلا ويعلوه من الوحشة بحسب مالابسه منه فتعلوا الوحشة وجهه وقلبه فيستوحش ويستوحش منه .

ومن عقوباتها : انها تصرف القلب عن صحته واستقامته الى مرضه وانحرافه ، فلا يزال مريضا معلولا لا ينتفع بالأغذية التى بها حياته وصلاحه ، فان تأثير الذنوب فى القلوب كتأثير الأمراض فى

الأبدان ، بل الذنوب أمراض القلوب وداؤها ، ولا دواء لها الا تركها ، وقد أجمع السائرون الى الله ان القلوب لا تعطى مناها حتى تصل الى مولاها ، ولا تصل الى مولاها حتى تكون صحيحة سليمة ، ولا تكون صحيحة سليمة حتى ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها ، ولايصح ذلك إلا بمخالفة هواها ، وهواها مرضها ، وشفاؤها مخالفته ، فإن استحكم المرض قتل أو كاد ، وكما ان من نهى نفسه عن الهوى كانت الجنة مأواه ، كذلك يكون قلبه فى هذه الدار فى جنة عاجلة لايشبه نعيم أهلها نعيم البتة ، بل التفاوت الذى بين النعيمين كالتفاوت الذى بين نعيم الدنيا والآخرة ، وهذا أمر لا يصدق به الا من باشر قلبه هذا وهذا ، ولا تحسب ان قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم . وإن الفجار لفى جحيم** ﴾[(١)] مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل فى دورهم الثلاثة كذلك أعنى : دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار . فهؤلاء فى نعيم ، وهؤلاء فى جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ، وهل العذاب إلا عذاب القلب ، وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وإنقطاعه عن الله بكل واد منه شعبة ، وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فانه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئا غير الله عذب به ثلاث مرات فى هذه الدار ، فهو يضرب به قبل حصوله حتى يحصل ، فاذا حصل عذب به حال حصوله بالخوف من سلبه وفواته والتنغيص والتنكيد عليه . وأنواع المعارضات ، فاذا سلبه اشتد عذابه عليه ، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار، وأما فى البرزخ فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجى عوده ، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد ، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما تعمل الهوام والديدان فى أبدانهم ، بل عملها فى النفوس دائم مستمر حتى يردها الله الى أجسادها فحينئذ ينتقل العذاب الى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم يرقص قلبه طربا وفرحا وانسا بربه ، واشتياقا اليه ، وارتياحا بحبه ، وطمأنينة بذكره ، حتى يقول بعضهم : فى حال نزعه واطرباه ، ويقول آخر : ان كان اهل الجنة فى مثل هذا الحال انهم لفى عيش طيب ، ويقول الآخر : مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا لذيذ العيش فيها وما ذاقوا أطيب ما فيها ويقول الآخر : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف . ويقول الآخر : ان فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

فيا من باع حظه الغالى بأبخس الثمن وغبن كل الغبن فى هذا العقد وهو يرى انه قد غبن اذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فاسأل المقومين ، فيا عجبا من بضاعة معك الله مشتريها وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يده عقد التبايع وضمن الثمن عن المشترى هو الرسول - ﷺ - وقد بعتها بغاية الهوان .

اذا كان هذا فعله عبد بنفسه فمن ذاله من بعد ذلك يكرم

﴿ **ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء** ﴾[(٢)]

---

(١) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ - ١٤

(٢) سورة الحج من الآية : ١٨

ومن عقوباتها : أنها تعمى بصر القلب وتطمس نوره ، وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية ، وقد قال مالك للشافعى - رحمهما الله تعالى - لما اجتمع به ورأى تلك المخايل : إنى أرى الله - تعالى - قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمة المعصية ، ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل وظلام المعصية يقوى حتى يصير القلب فى مثل الليل البهيم - فكم من مهلك يسقط فيه وهو لا يبصر كأعمى خرج بالليل فى طريق ذات مهالك ومعاطب ، فيا عزة السلامة ويا سرة العطب ، ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض من القلب الى الجوارح فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها وتزايدها ، فاذا كانت عند الموت ظهرت فى البرزخ فامتلأ القبر ظلمة كما قال النبى - ﷺ -: (إن هذه القبور ممتلئة على أهلها ظلمة ، وان الله ينورها بصلاتى عليهم.)[١] فاذا كان يوم المعاد وحشر العباد وعلت الظلمة الوجوه علوا ظاهرا يراه كل احد حتى يصير الوجه أسود مثل الحممة فيالها من عقوبة لا توازن لذات الدنيا بأجمعها من أولها الى آخرها ، فكيف يقسط العبد المنغص المنكد المتعب فى زمن انما هو ساعة من حلم والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تصغر النفس وتقمعها وتدسيها وتحقرها حتى تصير أصغر كل شىء وأحقره كما أن الطاعة تنميها وتزكيها وتكبرها ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾[٢]. والمعنى قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله وأصل التدسية الاخفاء ومنها قوله تعالى :﴿ يدسه فى التراب ﴾[٣] فالعاصى يدس نفسه فى المعصية ويخفى مكانها ويتوارى من الخلق من سوء ما يأتى به،قد انقمع عند نفسه وانقمع عند الله وانقمع عند الخلق فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها حتى تصير أشرف شىء وأكبره وأزكاه وأعلاه ومع ذلك فهى أذل شىء وأحقره وأصغره لله - تعالى - وبهذا الذل حصل لها هذا الشرف والعز والنمو فما صغر النفس مثل معصية الله وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله .

ومن عقوباتها أن العاصى دائما فى أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ، ولا أسير أسوء حالا عن أسير أسره أعدى عدو له ، ولا سجن أضيق من سجن الهوى ، ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير الى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد ، وكيف يخطو خطوة واحدة اذا تقيد القلب طرقته الآفات ، وكلما نزل استوحشه جانب بحسب قيوده ، ومثل القلب مثل الطائر كلما علا بعد عن الآفات وكلما نزل استوحشه الآفات ، وفى الحديث : (الشيطان ذئب الانسان) وكما ان الشاة التى لا حافظ لها وهى بين الذئاب سريعة العطب فكذا العبد اذا لم يكن عليه حافظ من الله فذئبه مفترسه ولابد ، وانما يكون عليه حافظ من الله بالتقوى ، فهى وقاية وجنة حصينة بينه وبين ذئبه ، كما هى وقاية بينه وبين عقوبات الدنيا والآخرة ، وكلما كانت الشاة أقرب من الراعى كانت أسلم من الذئب ، وكلما بعدت عن الراعى كانت أقرب الى الهلاك ، فأحمى ما تكون الشاة اذا قربت من الراعى ، وانما يأخذ الذئب القاصى من الغنم ، وهى أبعدهن من الراعى ، وأصل هذا كله

(١) سنن الدار قطنى كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر ج٢ ص٧٧ حديث رقم ٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن انس .
(٢) سورة الشمس الآيتان : ٩ - ١٠
(٣) سورة النحل من الآية : ٥٩

أن القلب اذا كان أبعد من الله كانت الآفات اليه أسرع ، وكلما كان أقرب من الله بعدت عنه الآفات ، والبعد من الله مراتب بعضها أشد من بعض ، فالغفلة تبعد العبد عن الله ، وبعد المعصية أعظم من بعد الغفلة ، وبعد البدعة اعظم من بعد المعصية ، وبعد النفاق والشرك اعظم من ذلك كله .

ومن عقوباتها : سقوط الجاه والمنزلة والكرامة عند الله وعند خلقه ، فان أكرم الخلق عند الله اتقاهم ، وأقربهم منه منزلة أطوعهم له ، وعلى قدر طاعة العبد تكون له منزلة عنده ، فاذا عصاه وخالف أمره سقط من عينه فأسقطه من قلوب عباده ، واذا لم يبق له جاه عند الخلق وهان عليهم عاملوه على حسب ذلك ، فعاش بينهم أسوء عيش خامل الذكر ، ساقط القدر ، ذرى الحال ، لا حرمة له ، فلا فرح له ، ولا سرور ، فان خمول الذكر وسقوط القدر والجاه معه كل هم وغم وحزن ، ولا سرور معه ولا فرح ، وأين هذا الألم من لذة المعصية لولا سكر الشهوة .

ومن أعظم نعم الله على العبد ان يرفع له بين العالمين ذكره ، ويعلى قدره ، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم كما قال تعالى : ﴿ واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار * إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾[1] أى خصصناهم بخصيصة وهو الذكر الجميل الذى يذكرون به فى هذه الدار وهو لسان الصدق الذى سأله ابراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - حيث قال : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾[2] وقال - سبحانه وتعالى - عنه وعن نبيه : ﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا ﴾[3] وقال لنبيه - ﷺ - ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾[4] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم وكل من خالفهم فانه من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم .

ومن عقوباتها : انها تسلب صاحبها أسماء المدح والشرف وتكسوه أسماء الذم والصغار فتسلبه اسم المؤمن ، والبر ، والمحسن ، والمتقى ، والمطيع ، والمنيب ، والولى ، والورع ، والصالح ، والعابد ، والخائف ، والأواب ، والطيب ، والرضى ، ونحوها ، وتكسوه اسم الفاجر ، والعاصى ، والمخالف ، والمسىء ، والمفسد ، والخبيث ، والمسخوط ، والزانى ، والسارق ، والقاتل ، والكاذب ، والخائن ، واللوطى ، والغادر ، وقاطع الرحم ، وأمثالها .

فهذه أسماء الفسوق وبئس الاسم الفسوق بعد الايمان التى توجب غضب الديان ودخول النيران وعيش الخزى والهوان .

وتلك أسماء توجب رضاء الرحمن ودخول الجنان وتوجب شرف المسمى بها على سائر أنواع الانسان ، فلو لم يكن فى عقوبة المعصية إلا استحقاق تلك الأسماء وموجباتها لكان فى العقل ناه عنها ، ولو لم يكن فى ثواب الطاعة الا الفوز بتلك الاسماء وموجباتها لكان فى العقل أمر بها ، ولكن لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطى لما منع ، ولا مقرب لمن باعد ، ولا مبعد لمن قرب . ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾[5] .

---

(١) سورة ص الأيتان : ٤٥ - ٤٦
(٢) سورة الشعراء الآية : ٨٤
(٣) سورة مريم الآية : ٥٠
(٤) سورة الشرح الآية : ٤
(٥) سورة الحج الآية : ١٨

ومن عقوباتها : انها تؤثر بالخاصة فى نقصان العقل فلا تجد عاقلين أحدهما مطيع لله والآخر عاص إلا وعقل المطيع منهما أوفر وأكمل ، وفكره أصح ، ورأيه أسد ، والصواب قرينه ، ولهذا تجد خطاب القرآن انما هو مع أولى الألباب والعقول كقوله : ﴿ واتقون يا أولى الألباب ﴾(١) .

وكقوله : ﴿ فاتقوا الله يا أولى الألباب ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾(٣) .

ونظائر ذلك كثيرة وكيف يكون عاقلا وافر العقل من يعص من هو فى قضيته وفى داره وهو يعلم أنه يراه ويشاهده فيعصيه ، وهو بعينه غير متوار عنه ، ويستعين بنعمه على مساخطه ، ويستدعى كل وقت غضب عليه ، ولعنته له ، وإبعاده من قربه ، وطرده عن بابه ، وإعراضه عنه ، وخذلانه له ، والتخلية بينه وبين نفسه وعدوه ، وسقوطه من عينه ، وحرمانه وروح رضاه وحبه ، وقرة العين بقربه ، والفوز بجواره ، والنظر الى وجهه فى زمرة أوليائه ، الى أضعاف اضعاف ذلك من عقوبة أهل المعصية ، فأى عقل لمن آثر لذة ساعة أو يوم أو دهر ثم تنقضى كأنها حلم لم يكن على هذا النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، بل هو سعادة الدنيا والآخرة ، ولولا العقل الذى تقوم عليه به الحجة لكان بمنزلة المجانين ، بل قد يكون المجانين أحسن حالا منه ، وأسلم عاقبة ، فهذا من هذا الوجه .

واما تأثيرها فى نقصان العقل العيشى فلولا الاشتراك فى هذا النقصان لظهر لمطيعنا نقصان عقل عاصينا ولكن الجائحة عامة ، والجنون فنون ، ويا عجبا لو صحت العقول لعلمت ان الطريق الذى يحصل به اللذة والفرحة والسرور وطيب العيش انما هو فى رضاء من النعم كله فى رضاه ، والألم والعذاب كله فى سخطه وغضبه ، ففى رضاه قرة العيون ، وسرور النفوس ، وحياة القلوب ، ولذة الأرواح ، وطيب الحياة ، ولذة العيش ، وأطيب النعيم مما لو وزن منه مثقال ذرة بنعيم الدنيا لم تف به ، بل اذا حصل للقلب من ذلك أيسر نصيب لم يرض بالدنيا وما فيها عوضا منه ، ومع هذا فهو يتنعم بنصيبه من الدنيا أعظم من نعم المترفين فيها ، ولا يشوب تنعمه بذلك الحظ اليسير ما يشوب تنعم المترفين من الهموم والغموم والأحزان والمعارضات ، بل قد حصل له على النعيمين وهو ينتظر نعيمين آخرين أعظم منهما ، وما يحصل له فى خلال ذلك من الآلام ، فالأمر كما قال سبحانه : ﴿ إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجعون ﴾(٤) .

فلا إله إلا الله ما أنقص عقل من باع الدر بالبعر ، والمسك بالرجيع ومرافقة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين بمرافقة الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا .

ومن أعظم عقوباتها : أنها توجب القطيعة بين العبد وبين وربه ـ تبارك وتعالى ـ واذا وقعت

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٩٧

(٢) سورة المائدة من الآية : ١٠٠ ، وسورة الطلاق من الآية : ١٠

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٦٩

(٤) سورة النساء من الآية : ١٠٤

القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر ، فأى فلاح وأى رجاء وأى عيش لمن انقطعت عنه أسباب الخير ، وقطع ما بينه وبين وليه ومولاه الذى لا غنى له عنه طرفة عين ، ولا بدل له منه ، ولا عوض له عنه ، واتصلت به أسباب الشر ، ووصل ما بينه وبين اعداء عدو له ، فتولاه عدوه ، وتخلى عنه وليه ، فلا تعلم نفس مالهذا الانقطاع والاتصال من أنواع الآلام وانواع العذاب .

قال بعض السلف : رأيت العبد ملقى بين الله ـ سبحانه ـ وبين الشيطان فان اعرض الله عنه تولاه الشيطان ، وان تولاه الله لم يقدر عليه الشيطان ، وقد قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه افتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾[(1)] يقول سبحانه لعباده :أنا أكرمت أباكم ، ورفعت قدره ، وفضلته على غيره ، فأمرت ملائكتى كلهم ان يسجدوا له تكريما وتشريفا فأطاعونى ، وأبى عدوى وعدوه فعصى أمرى وخرج عن طاعتى ، فكيف يحسن بكم بعد هذا ان تتخذوه وذريته أولياء من دونى ، فتطيعوه فى معصيتى ، وتوالوه فى خلاف مرضاتى ، وهم أعدا عدو لكم ، فواليتم عدوى وقد أمرتكم بمعاداته ، ومن والى اعداء الملك كان هو وأعداؤه عنده سواء ، فان المحبة والطاعة لا تتم إلا بمعادات أعذاء المطاع وموالاة أوليائه ، وأما ان توالى أعداء الملك ثم تدعى انك موال له فهذا محال ، هذا لو لم يكن عدو الملك عدوا لكم ، فكيف اذا كان عدوكم على الحقيقة ، والعداوة التى بينكم وبينه اعظم من العداوة التى بين الشاة والذئب ، فكيف يليق بالعاقل ان يوالى عدوه وعدو وليه ومولاه الذى لا مولى له سواه ، ونبه سبحانه على قبح هذه الموالاة بقوله : ﴿ **وهم لكم عدو** ﴾ وكما نبه على قبحها بقوله تعالى : ﴿ **ففسق عن أمر ربه** ﴾ فتبين ان عداوته لربه وعداوته لنا كل منهما سبب يدعو الى معاداته ، فما هذه الموالاة وما هذا الاستبدال بئس للظالمين بدلا ، ويشبه ان يكون تحت هذا الخطاب نوع من العقاب لطيفا عجيبا ، وهو انى عاديت إبليس إذ لم يسجد لأبيكم آدم مع ملائكتى فكانت معاداته لأجلكم ثم كان عاقبة هذه المعاداة ان عقدتم بينكم وبينه عقد المصالحة .

ومن عقوباتها : انها تمحق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة الطاعة وبالجملة انها تمحق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة فى عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله ، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصى الخلق قال الله تعالى : ﴿ **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** ﴾[(2)] .

وقال تعالى : ﴿ **وألو استقاموا على الطريقه لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه** ﴾[(3)] .

وان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، وفى الحديث : (ان روح القدس نفث فى روعى انه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب فانه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته ، وان الله جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط)[(4)] وقد تقدم الأثر الذى

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٥٠

(٢) سورة الأعراف من الآية : ٩٦

(٣) سورة الجن الآية : ١٦٠ وجزء من الآية : ١٧

(٤) كشف الخفاء ج١ ص٢٦٨ حديث رقم ٧٠٧ ورد بلفظ . . ان روح القدس نفث فى روعى لن تموت النفس حتى تستكمل =

ذكره احمد فى كتاب الزهد (أنا الله اذا رضيت باركت وليس لبركتى منتهى ، واذا غضبت لعنت ولعنتى تدرك السابع من الولد ، وليست سعة الرزق والعمل بكثرته ، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام ، ولكن سعة الرزق والعمر بالبركة فيه) وقد تقدم ان عمر العبد هو مدة حياته ، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره ، بل فحياة البهائم خير من حياته فإن حياة الانسان بحياة قلبه وروحه ، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره ومحبته وعبادته وحده ، أو الانابة اليه والطمأنينة بذكره والأنس بقربه ، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله ، ولو تعوض عنها بما تعوض به فى الدنيا بل ليست الدنيا بأجمعها عوضا عن هذه الحياة ، فمن كل شيء يفوت العبد عوض،واذا فاته الله لم يعوض عنه شيء البتة ، وكيف يعوض الفقير بالذات عن الغنى بالذات ، والعاجز بالذات عن القادر بالذات ، والميت عن الحى الذى لا يموت ، والمخلوق عن الخالق ، ومن لا وجود له فى شيء له من ذاته البتة . عمن غناه وحياته وكماله ووجوده ورحمته من لوازم ذاته ، وكيف يعوض من لا يملك مثقال ذرة عمن له ملك السموات والأرض ، وانما كانت معصية الله سببا لمحق بركة الرزق والأجل ؛ لأن الشيطان موكل بها وبأصحابها فسلطانه عليهم وحوالته على هذا الديوان وأهله وأصحابه ، وكل شيء يتصل به الشيطان ويقارنه فبركته ممحوقة ، ولهذا شرع ذكر اسم الله - تعالى - عند الأكل ، والشرب ، واللبس ، والركوب ، والجماع ، لما فى مقارنة اسم الله من البركة وذكر اسمه يطرد الشيطان فتحصل البركة ولا معارض لها،وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة ، فان الرب هو الذى يبارك وحده والبركة كلها منه ، وكل ما نسب اليه مبارك ، فكلامه مبارك ، ورسوله مبارك ، وعبده المؤمن النافع لخلقه مبارك ، وبيته الحرام مبارك ، وكنانته من أرضه وهى الشام أرض البركة ، وصفها بالبركة فى ست آيات من كتابه فلا مبارك إلا هو وحده ، ولا مبارك الا ما نسب اليه ، اعنى الى محبته وألوهيته ورضاه ، والا فالكون كله منسوب الى ربوبيته وخلقه ، وكل ما باعده من نفسه من الاعيان والأقوال والأعمال فلا بركة فيه ولا خير فيه ، وكل ما كان منه قريبا من ذلك ففيه من البركة على قدر قربه منه ، وضد البركة اللعنة فأرض لعنها الله ، أو شخص لعنه الله ، أو عمل لعنه الله ، أبعد شيء من الخير والبركة ، وكل ما اتصل بذلك وارتبط به وكان منه السبيل فلا بركة فيه البتة ، وقد لعن عدوه ابليس وجعله ابعد خلقه منه ، فكل ما كان من جهته فله من لعنة الله بقدر قربه منه واتصاله ، فمن ههنا كان للمعاصى أعظم تأثير فى محق بركة العمر ، والرزق ، والعلم ، والعمل ، فكل وقت عصيت الله فيه ، أو مال عصى الله به ، أو بدن ، أو جاه ، أو علم ، أو عمل فهو على صاحبه ليس له ، فليس له من عمره وماله وقوته وجاهه وعلمه وعمله الا ما أطاع الله به ، ولهذا من الناس من يعيش فى هذه الدار مائة سنة أو نحوها ويكون عمره لا يبلغ عشرين سنة أو نحوها ، كما أن منهم من يملك القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويكون ماله فى الحقيقة لا يبلغ الف درهم أو نحوها ، وهكذا الجاه . والعلم وفى الترمذى عنه - ﷺ - (الدنيا ملعونة

= رزقها ، فاتقوا الله واجملوا فى الطلب . . وانظر حلية الأولياء ج١٠ ص٢٧ عن ابى امامة قال : قال رسول الله - ﷺ - « ان روح القدس نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها فاجملوا فى الطلب ، ولا يحملن أحدكم استبطاء الرزق ان يطلبه بمعصية فان الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته » .

ملعون ما فيها إلا ذكر الله ـ عز وجل ـ وما والاه أو عالما أو متعلما)[١] وفى أثر آخر :(ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله هذا هو الذى فيه البركة خاصة والله المستعان .

ومن عقوباتها انها تجعل صاحبها من السفلة بعد أن كان مهيئا لأن يكون من العلية ، فان الله خلق خلقه قسمين : علية ، وسفلة وجعل عليين مستقر العلية ، وأسفل سافلين مستقر السفلة ، وجعل أهل طاعته الأعليين فى الدنيا والآخرة ، وأهل معصيته الأسفلين فى الدنيا والآخرة ، كما جعل أهل طاعته أكرم خلقه عليه ، وأهل معصيته أهون خلقه عليه ، وجعل العزة لهؤلاء ، والذلة والصغار لهؤلاء ، كما فى مسند احمد من حديث عبد الله بن عمر عن النبى ـ ﷺ ـ انه قال : (جعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى وكلما عمل العبد معصية نزل الى أسفل درجة ولا يزال فى نزول حتى يكون من الأسفلين ، وكلما عمل طاعة ارتفع بها درجة ولا يزال فى ارتفاع حتى يكون من الأعليين)[٢] وقد يجتمع للعبد فى أيام حياته الصعود من وجه والنزول من وجه وأيهما كان أغلب عليه كان من أهله فليس من صعد مائة درجة ونزل درجة واحدة كمن كان بالعكس ولكن يعرض ههنا للنفوس غلط عظيم وهو ان العبد قد ينزل نزولا بعيدا أبعد مما بين المشرق والمغرب ومما بين السماء والأرض لا بفىء بصعوده الف درجة بهذا النزول الواحد كما فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ انه قال : (ان العبد ليتكلم بالكلمة الواحدة ولا يلقى لها بالا يهوى بها فى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب)[٣] فأى صعود يوازن هذه النزلة والنزول أمر لازم للانسان ، ولكن من الناس من يكون نزوله الى غفلة ، فهذا متى استيقظ من غفلته عاد الى درجته او الى أرفع منها بحسب يقظته ، ومنهم من يكون نزوله الى مباح لا ينوى به الاستعانة على الطاعة ، فهذا اذا رجع الى الطاعة قد يعود الى درجته ، وقد لا يصل اليها ، وقد يرتفع عنها ، فانه قد يعود أعلى همة مما كان ، وقد يكون اصعف همة ، وقد تعود همته كما كانت ، ومنهم من يكون نزوله الى معصية اما صغيرة وإما كبيرة ، فهذا يحتاج فى عودته الى درجته الى توبة نصوح ، وانابة صادقة ، واختلف الناس هل يعود بعد التوبة الى درجته التى كان فيها بناء على أن التوبة تمحو أثر الذنب ، وتجعل وجوده كعدمه فكأنه لم يكن أولايعود بناء على أن التوبة تأثيرها فى اسقاط العقوبة ، واما الدرجة التى فاتته فانه لايصل اليها قالوا : وتقرير ذلك انه كان مستعدا باشتغاله بالطاعة فى الزمن الذى عصى فيه لصعود آخر وارتفاعه بجملة أعماله السابقة بمنزلة كسب الرجل كل يوم بجملة ماله الذى يملكه ، وكلما تضاعف المال تضاعف الربح ، فقد راح عليه فى زمن المعصية ارتفاع ، وربح بجملة أعماله ، فاذا استأنف العمل استأنف صعودا من نزول ، وكان قبل ذلك صاعدا من أسفل الى اعلى

---

(١) سنن ابن ماجة ج٢ ص١٣٧٧ كتاب الزهد باب « مثل الدنيا » ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة حديث رقم ٤١١٢

(٢) صحيح البخارى كتاب الجهاد-باب ما قيل فى الرماح ج٤ ص٤٩ عن ابن عمر عن النبى ـ ﷺ ـ « جعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى »

وانظر مسند الامام احمد ج٢ ص٥٠ فقد ورد هذا الحديث جزءا من روايتين لابن عمر .

(٣) صحيح البخارى كتاب الرقاق ـ باب حفظ اللسان ج١١ ص٣٠٨ حديث رقم ٦٤٧٧ ، ٦٤٧٨ الروايتان عن ابى هريرة فقد ذكر الحديث مع اختلاف يسير فى الفاظ الحديث الذى معنا .

وانظر مسند الامام احمد المجلد الثانى ص٣٧٩ فقد ورد الحديث عن ابى هريرة بلفظ « ان العبد يتكلم بالكلمة يزل بها فى النار ابعد ما بين الشرق والغرب »

وبينهما بون عظيم ، قالوا : ومثل ذلك رجلان مرتقيان فى سلمين لا نهاية لهما وهما سواء فنزل أحدهما الى أسفل ولو درجة واحدة ، ثم استأنف الصعود فان الذى لم ينزل يعلو عليه ولابد ، وحكم شيخ الاسلام ابن تيمية بين الطائفتين حكما مقبولا فقال : التحقيق أن من التائبين من يعود الى أرفع من درجته ، ومنهم من يعود الى مثل درجته ، ومنهم من لا يصل الى درجته ، ومنهم من يعود الى درجته . قلت : وهذا بحسب قدر التوبة وكمالها ، وما أحدثت المعصية للعبد من الذل والخضوع ، والانابة والحذر والخوف من الله والبكاء من خشية الله ، وقد تقوى على هذه الأمور حتى يعود التائب الى أرفع من درجته ويصير بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، فهذا قد تكون الخطيئة فى حقه رحمة ، فانها نفت عنه داء العجب وخلصته من ثقته بنفسه وأعماله ووضعت خد ضراعته وذله وانكساره على عتبة باب سيده ومولاه ، وعرفته قدره ، وأشهدته فقره وضرورته الى حفظ سيده له ، ومولاه،والى عفوه عنه ومغفرته له ، وأخرجت من قلبه صولة الطاعة ، وكسرت أنفه من ان يشمخ بها أو يتكبر بها أو يرى نفسه بها خيرا من غيره ، وأوقفته بين يدى ربه موقف الخطائين المذنبين ناكس الرأس بين يدى ربه مستحيا خائفا منه وجلا محتقرا لطاعته مستعظما لمعصيته ، عرف نفسه بالنقص والذم وربه متفرد بالكمال والحمد والوفى كما قيل :

استأثر الله بالوفى وبالحمد ... وولى الملامة الرجلا

فأى نعمة وصلت من الله اليه استكثرها على نفسه ورأى نفسه دونها ولم يرها أهلا لها ، وأى نقمة أو بلية وصلت اليه رأى نفسه أهلا لما هو أكبر منها ، ورأى مولاه قد أحسن اليه اذ لم يعاقبه على قدر جرمه ولا شطره ولا أدنى جزء منه ، فان ما يستحقه من العقوبة لا تحمله الجبال الراسيات ، فضلا عن هذا العبد الضعيف العاجز ، فإن الذنب وان صغر فان مقابله العظيم الذى لاشىء أعظم منه ، الكبير الذى لاشىء أكبر منه ، الجليل الذى لا أجل منه ، ولا أجمل ، المنعم بجميع أنواع النعم دقيقها وجليلها من أقبح الأمور وأفظعها وأشنعها ، فان مقابلة العظماء والأجلاء وسادات الناس بمثل ذلك يستقبحه كل أحد مؤمن وكافر ، وأرذل الناس وأسقطهم مروءة من قابلهم بالرذائل ، فكيف بعظيم السموات والأرض وملك السموات والأرض ، وإله أهل السموات والأرض ، ولولا ان رحمته سبقت غضبه ، ومغفرته سبقت عقوبته وإلا لزلزلت الأرض بمن قابله بما لا تليق مقابلته به ، ولولا حلمه ومغفرته لزالت السموات والأرض ، من معاصى العباد قال تعالى : ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾[1] فتأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه وهما الحليم والغفور كيف تجد تحت ذلك أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض ، وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن كفر بعض عباده أنه تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، وقد أخرج الله ـ سبحانه ـ الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه ولعن إبليس

(١) سورة فاطر الآية : ٤١

وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره ، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل :

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجى درج الجنان لذى النعيم الخالد
ولقد علمنا أخرج الأبوين من ملكوتها الأعلى بذنب واحد

والمقصود أن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأرفع درجة ، وقد تضعف الخطيئة همته وتوهن عزمه وتمرض قلبه فلا يقوى ذو التوبة على اعادته الى الصحة الأولى فلا يعود الى درجته ، وقد يزول المرض بحيث تعود الصحة كما كانت ويعود الى مثل عمله فيعود الى درجته ، هذا كله اذا كان نزوله الى معصيته فان كان نزوله الى امر يقدح فى اصل ايمانه مثل الشكوك والريب والنفاق فذاك نزول لا يرجى لصاحبه صعود الا بتجديد اسلامه من رأسه .

ومن عقوباتها : انها تجترىء على العبد مالم يكن يجترىء عليه من أصناف المخلوقات ، فتجترىء عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتغرير وانسائه ما مصلحته فى ذكره ومضرته فى نسيانه ، فتجترىء عليه الشياطين حتى تؤزه الى معصيته الله أزا وتجترىء عليه شياطين الانس بما تقدر عليه من الأذى فى غيبته وحضوره ،ويجترىء عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان البهيم قال بعض السلف : انى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق امرأتى ودابتى .

وكذلك يجترىء عليه أولياء الأمر بالعقوبة التى ان عدلوا فيها أقاموا عليه الحدود ، وتجترىء عليه نفسه فتتأسد عليه وتصعب عليه فلو أرادها لخير لم تطاوعه ولم تنقد له وتسوقه الى ما فيه هلاكه شاء أم أبى ، وذلك لأن الطاعة حصن الرب ـ تبارك وتعالى ـ الذى من دخله كان من الأمنين فإذا فارق الحصن اجترأ عليه قطاع الطريق وغيرهم وعلى حسب اجترائه على معاصى الله يكون اجتراء هذه الأفات والنفوس عليه وليس شيء يرد عنه فان ذكر الله وطاعته والصدقة وارشاد الجاهل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقاية ترد عن العبد بمنزلة القوة التى ترد المرض وتقاومه،فاذا سقطت القوة غلب وارد المرض وكان الهلاك ، ولابد للعبد من شيء يرد عنه فان موجب السيئات والحسنات يتدافع ويكون الحكم للغالب كما تقدم .

وكلما قوى جانب الحسنات كان الرد أقوى ، فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، والايمان قول وعمل فبحسب قوة الايمان تكون قوة الدفع والله المستعان .

ومن عقوباتها : انها تخون العبد أحوج ما يكون الى نفسه فان كل احد محتاج الى معرفة ما ينفعه وما يضره فى معاشه ومعاده ، وأعلم الناس أعرفهم بذلك على التفصيل ، وأقواهم وألبسهم من قوى على نفسه وإرادته فاستعملها فيما ينفعه وكفها عما يضره ، وفى ذلك تفاوت معارف الناس وهممهم ومنازلهم فأعرفهم من كان عارفا بأسباب السعادة والشقاوة ، وأرشدهم من آثر هذه على هذه ، كما ان أسفههم من عكس الأمر والمعاصى تخون العبد أحوج ما كان الى نفسه فى تحصيل هذا العلم . وايثار الحظ الأشرف العالى الدائم على الحظ الخسيس الأدنى المنقطع فتحجبه الذنوب عن كمال هذا العلم

وعن الاشتغال بما هو أولى به وأنفع له فى الدارين ، فاذا وقع فى مكروه واحتاج الى التخلص منه خانه قلبه ونفسه وجوارحه ، وكان بمنزلة رجل معه سيف قد غشيه الحرب ولزم قرابه بحيث لا ينجذب مع صاحبه اذا جذبه فعرض له عدو يريد قتله ، فوضع يده على قائم سيفه واجتهد ليخرجه فلم يخرج معه ، فدهمه العدو وظفر به ، كذلك القلب يصدأ بالذنوب ويصير مثخنا بالمرض ، فاذا احتاج الى محاربة العدو لم يجد معه شيئا ، والعبد انما يحارب ويصاول ويقدم بقلبه والجوارح تبع للقلب ، فاذا لم يكن عند ملكها قوة يدفع به فما الظن بها عند عدم ملكها ، وكذلك النفس فانها تخبث بالشهوات والمعاصى وتضعف أعنى النفس المطمئنة وان كانت الامارة تقوى وتتأسد ، وكلما قويت هذه ضعفت هذه ، فبقى الحكم والتصرف للأمارة ، وربما ماتت نفسه المطمئنة موتا لا يرجى معه حياة ، فهذا ميت فى الدنيا ميت فى البرزخ غير حى فى الآخرة حياة ينتفع بها ، بل حياته حياة يدرك بها الألم فقط ، والمقصود ان العبد اذا وقع فى شدة أو كربة أو بلية خانه قلبه ولسانه وجوارحه عما هو أنفع شىء له : فلا ينجذب قلبه للتوكل على الله ـ تعالى ـ والانابة اليه والجمعية عليه والتضرع والتذلل والانكسار بين يديه ولا يطاوعه لسانه لذكره وان ذكره بلسانه لم يجمع بين قلبه ولسانه فلا ينحبس القلب على اللسان بحيث يؤثر فيه الذكر ولا ينحبس اللسان والقلب على المذكور ، بل ان ذكر أو دعا ذكر بقلب غافل لاه ساه ولو أراد من جوارحه ان تعينه بطاعة تدفع عنه لم تنقد له ولم تطاوعه ، وهذا كله أثر الذنوب والمعاصى لمن له جند يدفع عنه الاعداء فأهمل جنده وضيعهم وأضعفهم وقطع اخبارهم ثم أراد منهم عند هجوم العدو عليه ان يستفرغوا وسعهم فى الدفع عنه بغير قوة ، هذا وثم أمر أخوف من ذلك وأدهى وأمر ، وهو ان يخونه قلبه ولسانه عند الاحتضار والانتقال الى الله ـ تعالى ـ فربما تعذر عليه النطق بالشهادة كما شاهد الناس كثيرا من المحتضرين أصابهم ذلك حتى قيل لبعضهم قل : لا إله إلا الله ، فقال آه آه لا أستطيع أن أقولها ، وقيل لآخر : قل : لا إله إلا الله ، فقال شاه رخ غلبتك ، ثم قضى ، وقيل ، لآخر : قل لا آله إلا الله فقال : يارب قائلة يوما وقد تعبت : أين الطريق الى حمام منجاب ثم قضى وقيل لآخر : قل لا إله إلا الله ، فجعل يهزى بالغناء ويقول: تاتا نتنتا ، فقال : وما ينفعنى ما تقول ولم أدع معصية إلا ركبتها ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ، ذلك فقال : وما يغنى عنى وما أعلم أنى صليت لله ـ تعالى ـ صلاة ثم قضى ولم يقلها ، وقيل لآخر ذلك فقال : هو كافر بما تقول وقضى، وقيل لآخر ذلك: فقال: كلما أردت ان أقولها فلسانى يمسك عنها، وهناك بعض الشحاذين عند موته فجعل يقول لله فليس لله فليس حتى قضى ، وأخبرنى بعض التجار عن قرابة له أنه احتضر وهو عنده فجعلوا يلقنونه : لا إله إلا الله وهو يقول : هذه القطعة رخيصة هذا مشترى جيد هذه كذا حتى قضى ، وسبحان الله كم شاهد الناس من هذا عبرا والذى يخفى عليهم من أحوال المحتضرين أعظم وأعظم ، واذا كان العبد فى حال حضور ذهنه وقوته وكمال ادراكه قد تمكن منه الشيطان واستعمله بما يريده من المعاصى وقد أغفل قلبه عن ذكر الله ـ تعالى ـ وعطل لسانه من ذكره وجوارحه عن طاعته ، فكيف الظن به عند سقوط قواه واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع وجمع الشيطان له كل قوته وهمته وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه؛ لينال منه فرصته، فان ذلك آخر العمل فاقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت ، وأضعف ما يكون هو فى تلك

الحالة فمن ترى يسلم على ذلك ، فهناك ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء** ﴾[1] فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله - سبحانه - قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطا فبعيد من قلبه بعيد من الله - تعالى - غافل عنه متعبد لهواه ، مصير لشهواته ولسانه يابس من ذكره ، وجوارحه معطلة من طاعته ، مشتغلة بمعصية الله ان يوفق لحسن الخاتمة ولقد قطع خوف الخاتمة ظهور المتقين، وكأن المسيئين الظالمين قد أخذوا توقيعا بالأيمان ﴿ **أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة ان لكم لما تحكمون * سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾[2] .

يا آمنا من قبيح الفعل يصنعه ... هل أتاك تواقيع أم انت تملكه
جمعت شيئين أمنا واتباع هوى ... هذا واحداهما فى المرء تهلكه
والمحسنون على درب المخاوف قد ... ساروا وذلك درب لست تسلكه
فرطت فى الزرع وقت البذر من سفه ... فكيف عند حصاد الناس تدركه
هذا وأعجب شيء منك زهدك فى ... دار البقاء بعيش سوف تتركه
من السفيه إذاً بالله أنت أم ... المغبون فى البيع غبنا سوف تدركه

ومن عقوباتها : أنها تعمى القلب فإن لم تعمه أضعفت بصيرته ولابد ، فإذا عمى القلب وضعف فإته من معرفة الهدى وقوته على تنفيذه فى نفسه وفى غيره بحيث تضعف بصيرته وقوته ، فان كمال الانسان مداره فى أصلين : معرفة الحق من الباطل ، وايثاره عليه ، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله - تعالى - فى الدنيا والآخرة الا بقدر تفاوت منازلهم فى هذين الأمرين وهما اللذان أثنى الله بهما - سبحانه - على أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام - فى قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار** ﴾[3] فالأيدى: القوة فى تنفيذ الحق ، والأبصار: البصائر فى الدين فوصفهم بكمال ادراك الحق ، وكمال تنفيذه .

وانقسم الناس فى هذا المقام أربعة أقسام : فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله - تعالى - القسم الثانى : عكس هؤلاء من لا بصيرة له فى الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم اكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون وحمى الأرواح وسقم القلوب ، يضيقون الديار ويغلون الأسعار ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار، القسم الثالث : من له بصيرة فى الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة اليه ، وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله منه .
القسم الرابع : من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة فى الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الشيطان ، بل يحسب كل سوداء تمرة ، وكل بيضاء شحمة ، يحسب الورم شحما ، والدواء النافع سما ، وليس فى هؤلاء من يصلح للامامة فى الدين ، ولا هو موضعا لها سوى القسم الأول قال

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٧
(٢) سورة القلم الآيتان : ٣٩ - ٤٠
(٣) سورة ص الاية : ٤٥

الله - تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنايوقنون ﴾[١] فأخبر - سبحانه - ان بالصبر واليقين نالوا الامامة فى الدين ، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله - سبحانه - من جملة - الخاسرين وأقسم بالعصر الذى هو زمن سعى الخاسرين والدائخين على ان من عداهم فهو من الخاسرين فقال تعالى : ﴿ والعصر ان الانسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوابالصبر ﴾[٢] فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصى بعضهم بعضا ويرشده اليه ويحثه عليه ، فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين ، فمعلوم ان المعاصى والذنوب تعمى بصيرة القلب ، فلا يدرك الحق كما ينبغى ، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه ، بل قد تتوارد على القلب حتى ينعكس ادراكه كما ينعكس سيره فيدرك الباطل حقا ، والحق باطلا والمعروف منكرا والمنكر معروفا ، فينتكس فى سيره ويرجع عن سفره الى الدار الآخرة الى سفره الى مستقر النفوس المبطلة التى رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت بها ، وغفلت عن الله وآياته ، وتركت الاستعداد للقائه ، ولو لم يكن فى عقوبة الذنوب إلا هذه وحدها لكانت كافية داعية الى تركها والبعد منها والله المستعان .

وهذا كما أن الطاعة تنور القلب وتجلوه وتصقله وتقويه وتثبته حتى يصير كالمرآة المجلوة فى جلائها وصفائها فيمتلىء نورا،فاذا دنا الشيطان منه أصابه من نوره ما يصيب مسترق السمع من الشهب الثواقب ، فالشيطان يفرق من هذا القلب أشد من فرق الذئب من الأسد ، حتى ان صاحبه ليصرع الشيطان فيخر صريعا فيجتمع عليه الشياطين فيقول بعضهم لبعض ما شأنه ، فيقال : أصابه إنسى وبه نظرة من الأنس .

فيا نظرة من قلب حر منور ... يكاد لها الشيطان بالنور يحرق

أفيستوى هذا القلب وقلب مظلم أرجاؤه ، مختلفة أهواؤه ، قد اتخذه الشيطان وطنه ، وأعده مسكنه،إذا تصبح بطلعته حياه وقال : فديت من لا يفلح فى دنياه ولا فى أخراه .

أنا قرينك فى الدنيا وفى الحشر بعدها ... فأنت قرين لى بكل مكان
فان كنت فى دار الشقاء فإننى ... وأنت جميعا فى شقا وهوان

قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾[٣] .

فأخبر - سبحانه - ان من عشى عن ذكره وهو كتابه الذى أنزل على رسوله - ﷺ - وبارك فيه

---

(١) سورة السجدة آية : ٢٤

(٢) سورة العصر الآيات : ١ - ٢ - ٣

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩

فأعرض عنه وعمى عنه وعشت بصيرته عن فهمه وتدبره ومعرفة مراد الله منه قيض الله له شيطانا عقوبة له فى إعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه لا فى الاقامة ولا فى المسير ، ومولاه وعشيره الذى هو بئس المولى وبئس العشير .

رضيعى لبان ثدى أم تقاسما   بأسحم واج عوض لا يتفرق

ثم أخبر ـ سبحانه ـ ان الشيطان ليصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل اليه والى جنته ، ويحسب هذا الضال المضل الصدود أنه على طريق هدى ، حتى اذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ـ كنت لى فى الدنيا أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق ، وأغويتنى حتى هلكت،وبئس القرين انت لى اليوم ، ولما كان المصاب اذا شاركه غيره مصيبته حصل بالتأسى نوع تخفيف وتسلية.اخبر الله ـ سبحانه ـ ان هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشتركين فى العذاب ، وان القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه وان كانت المصائب فى الدنيا اذا عمت صارت مسلاة كما قالت الخنساء فى أخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين حولى   على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل اخى ولكن   أعزى النفس عنه بالتأسى
ألا يا صخر لا أنساك حتى   افارق عيشتى وورود رمسى

فمنع الله ـ سبحانه ـ هذا القدر من الراحة على أهل النار فقال : ﴿ ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون ﴾.

ومن عقوباتها : انها مدد من الانسان يمد به عدوه عليه وجيش يقويه به على حربه ، وذلك ان الله ـ سبحانه ـ ابتلى هذا الانسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، صاحبه ينام ولا ينام عنه ، ويغفل لا يغفل عنه ، يراه هو وقبيله من حيث لا يراه ، يبذل جهده فى معاداته بكل حال ، ولا يدع أمرا يكيده به يقدر على ايصاله اليه إلا أوصله ، ويستعين عليه ببنى جنسه من شياطين الانس وغيرهم من شياطين الجن ، وقد نصب له الحبائل وبغى له الغوائل ، ومد حوله الاشراك ونصب له الفخاخ والشباك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم ، لا يفوتكم ولا يكون حظه الجنة وحظكم النار ، ونصيبه الرحمة ونصيبكم اللعنة ، وقد علمتم أن ما جرى على وعليكم من الخزى واللعن والابعاد من رحمة الله بسببه ومن أجله ، فابذلوا جهدكم ان يكونوا شركاءنا فى هذه البلية ، اذ فاتنا شركة صالحيهم فى الجنة ، ولما علم ـ سبحانه ـ ان آدم وبنيه قد بلوا بهذا العدو وسلطوا عليهم أمدهم بعساكر وجند يلقون بها ، وأمد عدوهم ـ أيضا ـ بجند وعساكر يلقاهم به ، وأقام سوق الجهاد فى هذه الدار فى مدة العمر التى هى بالاضافة الى الآخرة كنفس واحد من انفاسها ، واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بان لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون . وأخبر أن ذلك وعد مؤكد عليه فى أشرف كتبه وهى التوراة

والانجيل والقرآن ، ثم أخبر انه لا أوفى بعهده منه ـ سبحانه ـ ثم أمرهم ان يستبشروا بهذه الصفقة التى من أراد ان يعرف قدرها فلينظر الى المشترى من هو ، والى الثمن المبذول فى هذه السلعة ، والى من جرى على يديه هذا العقد ، فأى فوز أعظم من هذا ، وأى تجارة أربح منه ، ثم أكد ـ سبحانه ـ معهم هذا الأمر بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾(١).

ولم يسلط سبحانه هذا العدو على عبده المؤمن الذى هو أحب المخلوقات اليه الا لأن الجهاد أحب شيء اليه، وأهله أرفع الخلق عنده درجات، وأقربهم اليه وسيلة ، فعقد ـ سبحانه ـ لواء هذا الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذى هو محل معرفته ومحبته وعبوديته والاخلاص له والتوكل عليه والانابة اليه ، فولاه أمر هذه الحرب ، وأيده بجند من الملائكة لا يفارقونه ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، يعقب بعضهم بعضا كلما جاء جند وذهب جاء بدله آخر ، يثبتونه ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويعدونه بكرامة الله ، ويصبرونه ويقولون : انما هو صبر ساعة وقد استرحت راحة الأبد ثم أيده ـ سبحانه ـ بجند آخر من وحيه وكلامه ، فأرسل اليه رسوله ـ ﷺ ـ وانزل اليه كتابه ، فازداد قوة الى قوته ، ومددا الى مدده ، وعدة الى عدته ، وأمده مع ذلك بالعقل وزيرا له ومدبرا ، وبالمعرفة مشيرة عليه ناصحة له ، وبالايمان مثبتا له ومؤيدا وناصرا ، وباليقين كاشفا له عن حقيقة الأمر حتى كأنه يعاين ما وعد الله ـ تعالى ـ أولياءه وحزبه على جهاد أعدائه ، فالعقل يدبر امر جيشه ، والمعرفة تضع له أمور الحرب وأسبابها ومواضعها اللائقة بها ، والايمان يثبته ويقويه ويصبره ، واليقين يقدم به ويحمل به الحملات الصادقة ، ثم مد ـ سبحانه ـ القائم بهذا الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة ، فجعل العين طليعة ، والأذن صاحب خبرة ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه ، وأقام ملائكته وحملة عرشه يستغفرون له ، ويسألون له ان يقيه السيئات ويدخله الجنات ، وتولى ـ سبحانه ـ الدفع والدفاع عنه بنفسه ، وقال : هؤلاء حزب الله وحزب الله هم المفلحون ، وهؤلاء جنده ، وان جندنا لهم الغالبون ، وعلم عباده كيفية هذه الحرب والجهاد ، فجمعها لهم فى أربع كلمات فقال :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾(٢) .

ولا يتم امر هذا الجهاد الا بهذه الأمور الأربعة ، فلا يتم الصبر إلا بمصابرة العدو وهى مقاومته ومنازلته ، فاذا صابر عدوه احتاج الى امر آخر وهو المرابطة وهى لزوم ثغر القلب وحراسته، لئلا يدخل منه العدو ، ولزوم ثغر العين، والأذن واللسان، والبطن واليد والرجل ، فهذه الثغور يدخل منها العدو فيجوس خلال الديار ويفسد ما قدر عليه ، فالمرابطة لزوم هذه الثغور ، ولا يخلى مكانها فيصادف العدو الثغر خاليا فيدخل منه ، فهؤلاء أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ خير الخلق بعد النبيين والمرسلين ـ صلى

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ ـ ١٣

(٢) سورة آل عمران آية : ٢٠٠

الله عليهم وسلم ـ أجمعين ـ وأعظم حماية وحراسة من الشيطان الرجيم ـ وقد خلوا المكان الذى أمروا بلزومه يوم أحد فدخل منه العدو فكان ما كان ـ واجماع هذه الثلاثة وعمودها الذى تقوم به هو تقوى الله فلا ينفع الصبر ولا المصابرة ولا المرابطة إلا بالتقوى ولا تقوم التقوى الا على ساق الصبر ، فانظر الآن فيك الى إلتقاء الجيشين ، واصطدام العسكرين ، وكيف تداله مرة ويدال عليك أخرى ، اقبل ملك الكفرة بجنوده وعساكره فوجد القلب فى حصنه جالسا على كرسى مملكته ، أمره نافذ فى أعوانه وجنده قد حصنوا به ، يقاتلون عنه ، ويدافعون عن حوزته ، فلم يمكنهم الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض أمرائه وجنده عليه ، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ، فقيل له هى النفس ، فقال لأعوانه : أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها فعدوها به ومنوها اياه وانقشوا صورة المحبوب فيها فى يقظتها ومنامها ، فاذا اطمئنت اليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة وخطاطيفها ثم جروها بها اليكم ، فاذا خامرت على القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغر العين والأذن واللسان والفم واليد والرجل فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة ، فمتى دخلتم منها الى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح مثخن بالجراحات ، ولاتخلوا هذه الثغور ولا تمكنوا سرية تدخل منها الى القلب فتخرجكم منها ، وان غلبتم فاجتهدوا فى اضعاف السرية ووهنها ، حتى لا تصل الى القلب ، فان وصلت اليه وصلت ضعيفة لا تغنى عنه شيئا ، فاذا استوليتم على هذه الثغور فامنعوا ثغر العين ان يكون نظره اعتبارا ، بل اجعلوا نظره تفرجا واستحسانا وتلهيا ، فان استرق نظرة عبرة فأفسدوهاعليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة ، فانه اقرب اليه واعلق بنفسه وأخف عليه ، ودونكم ثغر العين فان منه تنالون بغيتكم ، فانى ما أفسدت بنى آدم بشىء مثل النظر فإنى أبذر به فى القلب بذر الشهوة ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم لا أزال أعده وأمنيه حتى أقوى عزيمته وأقوده بزمام الشهوة الى انخلاع من العصمة ، فلا تهملوا أمر هذا الثغر وأفسدوه بحسب استطاعتكم ، وهو نوا عليه أمره ، وقولوا له مقدار نظرة تدعوك الى تسبيح الخالق والرازق البديع،والتأمل والتجمل صفته ، وحسن هذه الصورة التى انما خلقت ليستدل بها الناظر عليه ، وما خلق الله لك العينين سدى ، وما خلق الله هذه الصورة ليحجبها عن النظر ، وإن ظفر تم به قليل العلم فاسد العقل ، فقولوا له هذه الصورة مظهرة من مظاهر الحق ومجلى من مجاليه فادعوه الى القول بالاتحاد ، فان لم يقبل فالقول بالحلول العام والخاص ولا تقنعوا منه بدون ذلك فانه يصير به من اخوان النصارى،فمروه حينئذ بالعفة والصيانة والعبادة والزهد فى الدنيا ـ واصطادوا عليه الجهال فهذا من أقرب خلفائى واكبر جندى بل انا من جنده وأعوانه .

ثم امنعوا ثغر الأذن ان يدخل عليه ما يفسد عليكم الأمر ، فاجتهدوا الا تدخلوا منه الا الباطل ، فانه خفيف على النفس تستحليه وتستملحه ، وتخيروا له أعذب الألفاظ وأسحرها للألباب ، أمزجوه بما تهوى النفس مزجا ، وألقوا الكلمة فان رأيتم منه إصغاء اليها فزيدوه بأخواتها ، فكلما صادفتم منه استحسان شىء فالهجوا له بذكره ، وإياكم ان يدخل من هذا الثغر شىء من كلام الله أو كلام رسوله ـ ﷺ ـ أو كلام النصحاء ، فان غلبتم على ذلك ودخل شىء من ذلك فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره والتفكر فيه والعظة به إما بإدخال ضده عليه وإما بتهويل ذلك وتعظيمه ، وان هذا امر قد

حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها اليه ، وهو حمل ثقيل عليها لا تستقل به ونحو ذلك ، واما بإرخاصه على النفوس ، وان الاشتغال ينبغى ان يكون بما هو أعلى عند الناس واعز عليهم واغرب عندهم،وزبونه اكثر ، وأما الحق فهو مهجور والقائل به معرض نفسه للعدوان ولا ينبغى،والربح بين الناس أولى بالايثار ونحو ذلك ، فيدخلون الباطل عليه فى كل قالب يقبله ويخف عليه،ويخرجون له الحق فى كل قالب يكرهه ويثقل عليه ، واذا شئت ان تعرف ذلك فانظر الى اخوانهم من شياطين الانس كيف يخرجون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب كثرة الفضول وتتبع عثرات الناس ، والتعرض من البلاء مالا يطيق ، والقاء الفتن بين الناس ونحو ذلك ، ويخرجون أتباع السنة ووصف الرب - تعالى - بما وصف به نفسه ووصفه به رسول الله - ﷺ - فى قالب التشبيه والتجسيم والتكليف ، ويسمون علو الله على خلق خلقه واستوائه على عرشه ومباينته لمخلوقاته تحيزا ، ويسمون نزوله الى سماء الدنيا وقوله من يسألنى فأعطيه تحركا وانتقالا ، ويسمون ما وصف به نفسه من اليد والوجه أعضاء وجوارح ، ويسمون ما يقوم به من أفعاله حوادث ، وما يقوم من صفاته أعراضا ، ثم يتوصلون الى نفى ما وصف به نفسه بهذه الأمور ، ويوهمون الأغمار وضعفاء البصائر أن اثبات الصفات التى نطق بها كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - تستلزم هذه الأمور ، ويخرجون هذا التعطيل فى قالب التنزيه والتعظيم ، وأكثر الناس ضعفاء العقول يقبلون الشىء بلفظ ، ويردونه بعينه بلفظ آخر ، قال الله - تعالى - ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا** ﴾(1) فسماه زخرفا وهو القول الباطل،لان صاحبه يزخرفه ويزينه ما استطاع ويلقيه الى سمع المغرور فيغتر به ، والمقصود ان الشيطان قد لزم ثغر الاذن ان يدخل فيها ما يضر العبد ، ويمنع ان يدخل اليها ما ينفعه ، وان دخله بغير اختياره أفسده عليه .

ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان فانه الثغر الأعظم وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه وامنعوا ان يجرى عليه شىء مما ينفعه من ذكر الله واستغفاره وتلاوة كتابه ونصيحة عباده ، أو التكلم بالعلم النافع ، ويكون لكم فى هذا الثغر أثران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتم . أحدهما : التكلم بالباطل فإنما المتكلم بالباطل أخ من إخوانكم ومن أكبرجندكم وأعوانكم ، الثانى : السكوت عن الحق فان الساكت عن الحق أخ لكم أخرس كما أن الاول أخ لكم ناطق ، وربما كان الأخ الثانى أنفع إخوانكم لكم ، أما سمعتم قول الناصح المتكلم بالباطل شيطان ناطق ، والساكت عن الحق شيطان أخرس ، فالرباط الرباط على هذا الثغر ان يتكلم بحق أو يمسك عن باطل ، وزينوا له التكلم بالباطل بكل طريق ، وخوفوه من التكلم بالحق بكل طريق ، واعلموا يابنى ان ثغر اللسان هو الذى أهلك منه بنوا آدم وأكبهم منه على مناخرهم فى النار ، فكم لى من قتيل وأسير وجريح أخذته من هذا الثغر ، وأوصيكم بوصية فاحفظوا : لينطق أحدكم على لسان أخيه من الانس بالكلمة ، ويكون الآخر على لسان السامع فينطق باستحسانها وتعظيمها والتعجب منها ، ويطلب من أخيه اعادتها ، وكونوا

---

(1) سورة الأنعام من الآية : ١١٢

أعوانا على الانس بكل طريق ، وادخلوا عليهم من كل باب ، واقعدوا لهم كل مرصد ، أما سمعتم قسمى الذى أقسمت به لربهم حيث قلت : ﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين ﴾[1] . أما ترونى قد قعدت لابن آدم بطرقه كلها فلا يفوتنى من طريق إلا قعدت له من طريق غيره حتى أصبت منه حاجتى أو بعضها ، وقد حذرهم ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال لهم : إن الشيطان قد قعد لابن آدم بطرقه كلها قعد له بطريق الاسلام فقال له : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ فخالفه وأسلم فقعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ؟ فخالفه وهاجر ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : أتجاهد فتقتل ويقسم المال وتنكح الزوجة ؟ فخالفه وجاهد فهكذا فاقعدوا لهم بكل طريق الخير ، فإذا أراد أحدهم ان يتصدق فاقعدوا له على طريق الصدقة فقولوا له فى نفسه : أتخرج المال وتبقى مثل هذا السائل وتصير بمنزلته أنت وهو سواء ، أو ما سمعتم ما ألقيته على لسان رجل سأله آخر أن يتصدق عليه قال : أموالنا إذا أعطيناكموها صرنا مثلكم ، واقعدوا له بطريق الحج فقولوا له : طريقة مخوفة مشقة يتعرض سالكها لتلف النفس والمال ، وهكذا فاقعدوا له على سائر طرق الخير بالتنفير منها وذكر صعوبتها وآفاتها ثم اقعدوا على المعاصى فحسنوها فى عين بنى آدن وزينوها فى قلوبهم ، واجعلوا اكبر أعوانكم على ذلك النساء فمن أبوابهن فادخلوا عليهم فنعم العون هن لكم ، ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين فامنعوها أن تبطن بما يضركم أو تمشى فيه ، واعلموا إن أكبر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة فأعينوها واستعينوا بها وأمدوها واستمدوا منها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا فى كسرها وإبطال قواها ولا سبيل إلى ذلك إلا بقطع مواردها عنها فإذا انقطعت مواردها عنها وقويت موارد النفس الأمارة وطاعت لكم أعوانها فاستنزلوا القلب من حصنه وأعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس ، فإنها لا تأمر إلا بما تهوونه وتحبونه ولا تجبكم بما تكرهونه البتة مع أنها لا تخالفكم فى شىء تشيرون به عليها بل إذا اشرتم عليها بشىء بادرت إلى فعله ، فإن أحسستم من القلب منازعة إلى مملكته وأردتم الأمن من ذلك فاعقدوا بينه وبين النفس عقد النكاح ، فزينوها وجملوها وأروها إياه فى أحسن صورة عروس توجد ، وقولوا له ذق حلاوة طعم هذا الوصال والتمتع بهذه العروس كما ذقت طعم الحرب وباشرت مرارة الطعن والضرب ، ثم وازن بين لذة هذه المسالمة ومرارة تلك المحاربة ، فدع الحرب تضع أوزارها فليست بيوم وينقضى ، وإنما هو حرب متصل بالموت وقواك تضعف عن الحرب الدائم واستعينوا يا بنى بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما . أحدهما : جند الغفلة فاغفلوا قلوب بنى آدم عن الله ـ تعالى ـ والدار الآخرة بكل طريق فليس لكم شىء أبلغ من تحصيل غرضكم من ذلك فإن القلب إذا غفل عن الله ـ تعالى ـ تمكنتم منه ومن أعوانه/الثانى : جند الشهوة فزينوها فى قلوبهم وحسنوها فى أعينهم ، وصولوا عليهم بهذين العسكرين ، فليس لكم فى بنى آدم أبلغ منهما ، واستعينوا على الغفلة بالشهوات وعلى الشهوات بالغفلة ، واقرنوا بين الغافلين ثم استعينوا بهما على الذاكر ، ولا يغلب واحد

(١) سورة الأعراف الآيتان : ١٦ ، ١٧

خمسة فإن مع الغافلين شيطانين صاروا أربعة ، وشيطان الذاكر معهم ، وإذا رأيتم جماعة مجتمعين على ما يضركم من ذكر الله ومذاكرة أمره ونهيه ودينه ولم تقدروا على تفريقهم فاستعينوا عليهم ببنى جنسهم من الإنس البطالين ، فقربوهم منهم ، وشوشوا عليهم بهم ، وبالجملة فأعدوا للأمور أقرانها وادخلوا على كل واحد من بنى آدم من باب إرادته وشهوته فساعدوه عليها ، وكونوا له أعوانا على تحصيلها ، وإذا كان الله قد أمرهم بالصبر أن يصبروا لكم ويصابروكم ويرابطوا عليكم الثغور فاصبروا أنتم وصابروا ورابطوا عليهم بالثغور ، وانتهزوا فرصتكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادوا بنى آدم فى أعظم من هذين الموطنين ، واعلموا أن منهم من يكون سلطان الشهوة عليه أغلب وسلطان غضبه ضعيف مقهور ، فخذوا عليه طريق الشهوة ودعوا طريق الغضب ، ومنهم من يكون سلطان الغضب عليه أغلب فلا تخلوا طريق الشهوة عليه ، ولا تعطلوا ثغرها فإن من لم يملك نفسه فانه بالحرى ألا يملكها عند الشهوة ، فزوجوا بين غضبه وشهوته ، وأمزجوا أحدهما بالآخر ، وادعوه الى الشهوة من باب الغضب والى الغضب من طريق الشهوة ، واعلموا أنه ليس لكم فى بنى آدم سلاح أبلغ من هذين السلاحين ، وانما أخرجت أبويهم من الجنة بالشهوة ، وإنما ألقيت العداوة بين أولادهم بالغضب ، فبه قطعت أرحامهم وسفكت دماءهم ، وبه قتل أحدا بنى آدم أخاه ، واعلموا أن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه ، وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير ، واياكم أن تمكنوا ابن آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة ، فإن ذلك يطفىء عنهم نار الغضب والشهوة وقد أمرهم نبيهم بذلك .

وقال : إن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم أما رأيتم من احمرار عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحسن بذلك فليتوضأ . وقال لهم : إنما تطفأ النار بالماء وقد أوصاهم الله ان يستعينوا عليكم بالصبر والصلاة فحولوا بينهم وبين ذلك ، وانسوهم إياه ، واستعينوا عليهم بالشهوة والغضب ، وأبلغ أسلحتكم فيهم وأنكاها الغفلة واتباع الهوى ، واعظم أسلحتهم فيكم وأمنهم حصونهم ذكر الله ومخالفة الهوى ، فإذا رأيتم الرجل مخالفا لهواه فاهربوا من ظله ولا تدنوا منه ، والمقصود أن الذنوب والمعاصى سلاح ومدد يمد بها العبد أعداءه ويعينهم بها على نفسه ، فيقاتلونه بسلاحه ، والجاهل يكون معهم على نفسه وهذا غاية الجهل ، قال : ما يبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه ومن العجائب ان العبد يسعى بنفسه ، فى هوان نفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ويجتهد فى حرمانها من حظوظها واشراقها ، وهو يزعم أنه يسعى فى حظها ويبذل جهده فى تحقيرها وتصغيرها وتدنيسها ، وهو يزعم انه يسعى فى صلاحها ويعليها ويرفعها ويكبرها ، وكان بعض السلف يقول فى خطبته ألا رب مهين لنفسه وهو يزعم أنه لها مكرم ، ومذل لنفسه وهو يزعم أنه لها معز ، ومصغر لنفسه وهو يزعم انه لها مكبر ، ومضيع لنفسه وهو يزعم أنه مراع لحقها ، وكفى بالمرء جهلاً أن يكون مع عدوه على نفسه يبلغ منها بفعله مالا يبلغه عدوه والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه فإذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها ، فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه وإذا نسى نفسه فأى شىء يذكره وما معنى نسيانه نفسه قيل:نعم ينسى نفسه أعظم

نسيان ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾[١] فلما نسوا ربهم - سبحانه - نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾[٢] فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين أحدهما : أنه سبحانه نسيه ، والثانية : أنه أنساه نفسه ، ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ونسيانه ، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم ، وأما إنساؤه نفسه فهو انساؤه لحظوظها العالية وأسباب سعادتها وفلاحها واصلاحها وما يكملها ، ينسيه ذلك كله جميعه فلاً يخطره بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره وأيضا فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها ، فلا يخطر بباله إزالتها وإصلاحها ، وأيضا فينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها ولا السعى فى إزالة عللها وامراضها إلتى تؤول بها إلى الفساد والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ومرضه مترام به الى التلف ، ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة للعامة والخاصة ، فأى عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسى مصالحها وداءها ودواءها ، وأسباب سعادتها وصلاحها وفلاحها وحياتها الأبدية فى النعيم المقيم .

ومن تأمل هذا الموضع تبين له آن أكثر هذا الخلق قد نسوا أنفسهم حقيقة وضيعوها وأضاعوا حظها من الله ، وباعوها رخيصة بثمن بخس بيع الغبن ، وإنما يظهر لهم هذا عند الموت ، ويظهر هذا كل الظهور يوم التغابن ، يوم يظهر للعبد أنه غبن فى العقد الذى عقده لنفسه فى هذه الدار ، والتجارة التى اتجر فيها لمعاده ، فإن كل أحد يتجر فى هذه الدنيا لآخرته ، فالخاسرون الذين يعتقدون أنهم أهل الربح والكسب ، اشتروا الحياة الدنيا وحظهم فيها فأذهبوا طيباتهم ولذاتهم بالآخرة ، وحظهم فيها فى حياتهم الدنيا وحظهم فيها ولذاتهم بالآخرة واستمتعوا بها ورضوا بها واطمأنوا إليها وكان سعيهم لتحصيلها فباعوا واشتروا واتجروا وباعوا آجلا بعاجل ونسيئة بنقد وغائبا بناجز وقالوا هذا هو الزهرة ، ويقول أحدهم : خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ، فكيف أبيع حاضرا نقدا شاهدا فى هذه الدار بغائب نسيئة فى دار اخرى غير هذه ، وينضم إلى ذلك ضعف الإيمان وقوة داعي الشهوة ومحبة العاجلة والتشبه ببنى الجنس ، فأكثر الخلق فى هذه التجارة الخاسرة التى قال الله فى أهلها: ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون ﴾[٣] وقال فيهم : ﴿ فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[٤] فإذا كان يوم التغابن ظهر لهم الغبن فى هذه التجارة ، فتنقطع عليهم النفوس حسرات ، وأما الرابحون فإنهم باعوا فانيا بباق ، وخسيسا بنفيس ، وحقيرا بعظيم ، وقالوا : ما مقدار هذه الدنيا من أولها إلى آخرها حتى نبيع حظنا من الله - تعالى - والدار الآخرة بها ، فكيف بما ينال العبد منها فى هذا الزمن القصير الذى هو فى الحقيقة كغفوة حلم لا نسبة له إلى دار القرار البتة ، قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها * الى ربك منتهاها * انما أنت منذر من يخشاها * كأنهم

---

(١) سورة الحشر من الآية : ١٩
(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧
(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٦
(٤) سورة البقرة من الآية : ١٦
(٥) سورة يونس من الآية : ٤٥

يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ﴾[3] وقال تعالى :﴿ ويوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا * يتخافتون بينهم ان لبثتم إلا عشرا * نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما ﴾[4] فهذه حقيقة هذه الدنيا عند موافاة يوم القيامة فلما علموا قلة لبثهم فيها ، وان لهم دارا غير هذه الدار دار الحيوان ودار البقاء ، رأوا من أعظم الغبن بيع دار البقاء بدار الفناء ، فاتجروا تجارة الأكياس ، ولم يغتروا بتجارة السفهاء من الناس ، فظهر لهم ربح تجارتهم ومقدار ما شروه ، وكل أحد فى هذه الدنيا بائع مشتر متجر ، وكل الناس يغد فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾[5] فهذا أول نقد من ثمن هذه التجارة ،فتاجروا أيها المفلسون ويامن لا يقدر على هذا الثمن ، ههنا ثمن آخر فان كنت من أهل هذه التجارة فأعط هذا الثمن ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[6] ﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم * تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[7] والمقصود ان الذنوب تنسى العبد حظه من هذه التجارة الرابحة وتشغله بالتجارة الخاسرة وكفى بذلك عقوبة والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تزيل النعم الحاضرة وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل ، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته ، ولا استجلب مفقودها بمثل طاعته ، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته ، وقد جعل الله ـ سبحانه ـ لكل شىء سببا وآفة ـ سببا يجلبه وآفة تبطله ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته وآفاتها المانعة منها معصيته ، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها ، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها ، ومن العجب علم العبد بذلك مشاهدة فى نفسه وغيره ، وسماعا لما غاب عنه من أخبار من أزيلت نعم الله عنهم بمعاصيه وهو مقيم على معصيته الله ، كأنه مستثنى من هذه الجملة ، أو مخصوص من هذا العموم وكأن هذا أمر جار على الناس لا عليه ، وواصل إلى الخلق لا إليه ، فأى جهل أبلغ من هذا وأى ظلم للنفس فوق هذا فالحكم لله العلى الكبير .

ومن عقوباتها : أنها تباعد عن العبد وليه ، وأنصح الخلق له ، وأنفعهم له ، ومن سعادته فى قربه منه ، وهو الملك الموكل به ، وتدنى منه عدوه وأغش الخلق له وأعظمهم ضررا له وهو الشيطان ، فان العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية ، حتى إنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة

(١) سورة النازعات الآيات : ٤٢ ـ ٤٦
(٢) سورة الاحقاف من الآية : ٣٥
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١١٢ ـ ١١٤
(٤) سورة طه الآيات : ١٠٢ ـ ١٠٤
(٥) سورة التوبة اية : ١١١
(٦) سورة التوبة آية : ١١٢
(٧) سورة الصف الآيتان : ١٠ ، ١١

بعيدة ، وفى بعض الآثار إذا كذب العبد تباعد منه الملك ميلا من نتن ريحه ، فإذا كان هذا تباعد الملك منه من كذبة واحدة ، فماذا يكون قدر تباعده منه مما هو أكبر من ذلك وأفحش منه ، وقال بعض السلف : إذا ركب الذكر عجت الأرض إلى الله وهربت الملائكة إلى ربها وشكت إليه عظم ما رأت ، وقال بعض السلف : إذا أصبح ابن آدم ابتدره الملك والشيطان ، فإن ذكر الله وكبره وحمده وهلله طرد الملك الشيطان وتولاه ، وان افتتح بغير ذلك ذهب الملك عنه وتولاه الشيطان ، ولا يزال الملك يقرب من العبد حتى يصير الحكم والطاعة والغلبة له فتتولاه الملائكة فى حياته وعند موته وعند مبعثه ، قال الله - تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ،نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾(١)واذا تولاه الملك تولاه أنصح الخلق له وأنفعهم وأبرهم له فثبته وعلمه وقوى جنانه وأيده ، قال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾(٢)ويقول الملك عند الموت لا تخف الموت ،وفى القبر عند المسألة فليس أحد أنفع للعبد من صحبة الملك له ، وهو وليه فى يقظته ومنامه وحياته وعند موته وفى قبره ، ومؤنسه فى وحشته ، وصاحبه فى خلوته ، ومحدثه فى سره ويحارب عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ويعينه عليه ، ويعده بالخير ويبشره به ، ويحثه على التصديق بالحق ، كما جاء فى الأثر الذى يروى مرفوعا وموقوفا !! للملك بقلب ابن آدم لمة وللشيطان لمة ، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد ، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، واذا اشتد قرب الملك من العبد تكلم على لسانه ، وألقى على لسانه القول السديد ، وإذا أبعد منه وقرب الشيطان من العبد تكلم على لسانه قول الزور والفحش ، حتى يرى الرجل يتكلم على لسان الملك ، والرجل يتكلم على لسان الشيطان وفى الحديث : (إن السكينة تنطق على لسان عمر - رضى الله عنه) وكان أحدهم يسمع الكلمة الصالحة من الرجل الصالح فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الملك ، ويسمع ضدها فيقول ما ألقاها على لسانك إلا الشيطان ، فالملك يلقى فى القلب الحق ويلقيه على اللسان ، والشيطان يلقى الباطل فى القلب ويجريه على اللسان .

فمن عقوبة المعاصى : أنها تبعد من العبد وليه الذى سعادته فى قربه ومجاورته وموالاته ، وتدنى منه عدوه الذى شقاؤه وهلاكه وفساده فى قربه وموالاته ، حتى إن الملك لينافح عن العبد ويرد عنه إذا سفه عليه السفيه وسبه ، كما اختصم بين يدى النبى - ﷺ - رجلان فجعل أحدهما يسب الآخر وهو ساكت فتكلم بكلمة يرد بها على صاحبه ، فقام النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله ، لما رددت عليه بعض قوله قمت ، فقال : كان الملك ينافح عنك ، فلما رددت عليه جاء الشيطان ، فلم أكن لأجلس) واذا دعا العبد المسلم فى ظهر الغيب لأخيه أمن الملك على دعائه فقال : ولك بمثل ذلك ، وإذا فرغ من قراءة الفاتحة أمن على دعائه ، فإذا أذنب العبد الموحد المتبع سبيله وسنة رسوله - ﷺ - استغفر له حملة العرش ومن حوله ، وإذا نام العبد المؤمن بات فى شعاره ملك ، فملك المؤمن يرد عليه ويحارب ويدافع عنه ويعلمه ويثبته ويشجعه فلا يليق به أن ينسى جواره ويبالغ فى أذاه وطرده عنه وابعاده ، فإنه ضيفه

(١) سورة فصلت الآية : ٣٠ وجزء من الآية : ٣١

(٢) سورة الانفال من الآية : ١٢

وجاره ، وإذا كان اكرام الضيف من الآدميين والإحسان إلى الجار من لزوم الإيمان وموجباته فما الظن بإكرام أكرم الأضياف وخير الجيران وأبرهم ، وإذا أذى العبد الملك بأنواع المعاصى والظلم والفواحش دعا عليه ربه وقال : لا جزاك الله خيرا ، كما يدعو له إذا أكرمه بالطاعة والإحسان ، قال بعض الصحابة - رضى الله عنهم : ان معكم من لا يفارقكم فاستحيوا منهم وأكرموهم ، والأهم ممن لا يستحى من الكريم العظيم القادر ولا يكرمه ولا يوقره وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله : ﴿ وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين * يعلمون ماتفعلون ﴾[1] أى استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون آن يريكم عليه من هو مثلكم ، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، وإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصى بين يديه وإن كان قد يعمل مثل عمله فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين والله المستعان .

ومن عقوباتها : أنها تستجلب مراد هلاك العبد فى دنياه وآخرته فإن الذنوب هى أمراض القلوب متى استحكمت قتلت ولابد ، وكما أن البدن لا يكون صحيحا إلا بغذاء يحفظ قوته واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والاخلاط الردية التى متى غلبت عليه أفسدته جميعه ، وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره ، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته ، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الردية منه ، وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب ما يضادها ، وهى عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة ، والتقوى اسم يتناول هذه الأمور الثلاثة ، فما فات منها فات من التقوى بقدره ، وإذا تبين هذا فالذنوب مضادة لهذه الأمور الثلاثة ، فانها تستجلب المواد المؤذية وتستوجب التخليط المضاد للجميع وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح ، فانظر الى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض وهو لا يستفرغها ولا يحتمى لها كيف تكون صحته وبقاؤه ولقد أحسن القائل :

جسمك بالحمية أحصنته ... مخافة من ألم طارى
وكان أولى بك أن تحتمى ... من المعاصى خشية البارى

فمن حفظ القوة بامتثال الأوامر واستعمل الحمية باجتناب النواهى واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح لم يدع للخير مطلبا ولا من الشر مهربا والله المستعان .

فان لم ترعك هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيرا فى قلبك فأحضره العقوبات الشرعية التى شرعها الله ورسوله على الجرائم ، كما قطع السارق فى ثلاثة دراهم ، وقطع اليد والرجل على قطع الطريق على معصوم المال والنفس،وشق الجلد بالسوط على كلمة قذف بها المحصن أو قطرة خمر يدخلها جوفه ، وقتل بالحجارة أشنع قتلة فى إيلاج الحشفة فى فرج حرام ، وخفف هذه العقوبة عمن لم تتم عليه نعمة الاحصان بمائة جلدة وينفى سنة عن وطنه وبلده إلى بلد الغربة ، وفرق بين رأس العبد وبدنه إذا وقع على ذات محرم أو ترك الصلاة المفروضة أو تكلم بكلمة كفر ، وأمر بقتل من وطىء ذكرا مثله ، وقتل

(١) سورة الانفطار الآيات : ١٠ - ١٢

المفعول به ، وأمر بقتل من أتى بهيمة ، وقتل البهيمة معه ، وغرم على تحريق بيوت المتخلفين عن الصلاة فى الجماعة ، وغير ذلك من العقوبات التى رتبها الله على الجرائم ، وجعلها بحكمته على حسب الدواعى إلى تلك الجرائم ، وحسب الوازع عنها ، فما كان الوازع طبعيا وما ليس فى الطباع داعيا إليه اكتفاء بالتحريم مع التعزير ولم يرتب عليه حدا ، كأكل الرجيع،وشرب الدم وأكل الميتة،وما كان فى الطباع داعيا إلى ترتب عليه من العقوبة بقدر مفسدته وبقدر داعى الطبع إليه ، ولهذا لما كان داعى الطباع الى الزنا من أقوى الدواعى كانت عقوبته العظمى من أشنع القتلات وأعظمها وعقوبته السهلة على أنواع : الجلد مع زيادة التعذيب ، ولما كان اللواطة فيها الأمران كان حده القتل بكل حال ، ولما كان داعى السرقة قويا ومفسدتها كذلك قطع فيها اليد ، وتأمل حكمته فى افساد العضو الذى باشر به الجناية ، كما أفسد على قاطع الطريق يده ورجله اللتين هما آلة قطعه ، ولم يفسد على القاذف لسانه الذى جنى به،إذ مفسدة قطعه تزيد على مفسدة الجناية ولا يبلغها فاكتفى من ذلك بإيلام جميع بدنه بالجلد ، فان قيل : فهلا أفسد على الزانى فرجه الذى باشر به المعصية ؟ قيل بوجوه :

أحدها: أن مفسدة ذلك تزيد على مفسدة الجناية اذ فيه قطع النسل وتعرضه للهلاك .

الثانى : أن الفرج عضو مستور لا يحصل بقطعه مقصود الحد من الردع والزجر لأمثاله من الجناية بخلاف قطع اليد .

الثالث : أنه إذا قطع يده أبقى له يد أخرى تعوض عنها بخلاف الفرج .

الرابع : أن لذة الزنا عمت جميع البدن فكان الأحسن أن تعم العقوبة جميع البدن وذلك أولى من تخصيصها ببضعة منه .

فعقوبات الشارع جاءت على أتم الوجوه وأوفقها للعقل وأقومها بالمصلحة ، والمقصود أن الذنوب انما ترتب عليها العقوبات الشرعية والقدرية أو يجمعها الله على العبد وقد يرفعها عمن تاب وأحسن .

وعقوبات الذنوب نوعان : شرعية وقدرية .

فإذا أقيمت الشرعية رفعت العقوبات القدرية أو خففها ولا يكاد الرب ـ تعالى ـ يجمع على عبده بين العقوبتين إلا إذا لم تف إحداهما برفع موجب الذنب ، ولم يكن فى زوال دائه ، وإذا عطلت العقوبات الشرعية استحالت قدرية وربما كانت أشد من الشرعية ، وربما كانت دونها ، ولكنها تعم ، والشرعية تخص ، فإن الرب ـ تبارك وتعالى ـ لا يعاقب شرعا إلا من باشر الجناية أو تسبب إليها .

وأما العقوبة القدرية فانها تقع عامة وخاصة : فإن المعصية إذا خفيت لم تضر إلا صاحبها ، وإذا أعلنت ضرت الخاصة والعامة ، وإذا رأوا الناس المنكر فاشتركوا فى ترك انكاره ، أوشك أن يعمهم الله ـ تعالى ـ بعقابه ، وقد تقدم أن العقوبة الشرعية شرعها الله ـ سبحانه ـ على قدر مفسدة الذنب وتقاضى الطبع لها وجعلها سبحانه ثلاثة أنواع : القتل ، والقطع ، والجلد . وجعل القتل بإزاء الكفر وما يليه ويقرب به وهو الزنا واللواطة ، فإن هذا يفسد الأديان ، وهذا يفسد الانسان . قال الامام أحمد رحمه الله : لا أعلم بعد القتل ذنبا أعظم من الزنا واحتج بحديث عبد الله بن مسعود أنه قال يارسول الله : (أى الذنب أعظم ؟ قال : ان تجعل لله ندا وهو خلقك ، قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تقتل

ولدك مخافة أن يطعم معك . قال : قلت ثم أى ؟ قال : أن تزنى بحليلة جارك . فأنزل تصديقها فى كتابه : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ﴾(١) الآية . . والنبى - ﷺ - ذكر كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السأل فانه سئل عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها ، وما هو أعظم كل نوع .

فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندا .

وأعظم أنواع القتل أن يقتل ولده خشية أن يشاركه فى طعامه وشرابه .

وأعظم أنواع الزنا أن يزنى بحليلة جاره ، فإن مفسدة الزنا تتضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق ، فالزنا بالمرأة التى لها زوج أعظم إثما وعقوبة من التى لا زوج لها ، إذ فيه انتهاك حرمة الزوج ، وإفساد فراشه ، وتعليق نسب عليه لم يكن منه ، وغير ذلك من أنواع أذاه ، فهو أعظم إثما وجرما من الزنا بغير ذات البعل ، فإن كان زوجها جارا له إنضاف الى ذلك سوء الجوار ، وإذا أجاره بأعلى أنواع الأذى وذلك من أعظم البوائق ، وقد ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال :(٢) (لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه) ولا بائقة اعظم من الزنا بإمرأته ، فالزنا بمائة إمرأة لا زوج لها أيسر عند الله من الزنا بامرأة الجار ، فان كان الجار أخا له أو قريبا من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم ، فيتضاعف الإثم ، فإن كان الجار غائبا فى طاعة الله كالصلاة ، وطلب العلم ، والجهاد ، تضاعف الإثم ، حتى إن الزانى بإمرأة الغازى فى سبيل الله يوقف له يوم القيامة ويقول : خذ من حسناته ما شئت قال - النبى - ﷺ (٣) : (فما ظنكم أى ما ظنكم أنه يترك له من حسنات قد حكم فى أن يأخذ منها ما شاء على شدة الحاجة الى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه ولا الصديق لصديقه حقا يجب عليه) فان اتفق أن تكون المرأة رحما منه انضاف إلى ذلك قطيعة رحمها ، فإن اتفق على أن يكون الزانى محصنا كان الإثم أعظم ، فإن كان شيخا كان أعظم إثما وهو أحد الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ، فإن اقترن بذلك أن يكون فى شهر حرام ، أو بلد حرام ، أو وقت معظم عند الله ، كأوقات الصلاة ، وأوقات الإجابة ، تضاعف الإثم ، وعلى هذا فاعتبر مفاسد الذنوب وتضاعف درجاتها فى الاثم والعقوبة . والله المستعان .

وجعل سبحانه القطع بإزاء إفساد الأموال الذى لا يمكن الاحتراز منه ، فإن السارق لا يمكن الاحتراز منه لأنه يأخذ الأموال فى الاختفاء ، وينقب الدور ويتسور من غير الأبواب ، فهو كالصقور والحية التى تدخل عليك من حيث لا تعلم ، فلم ترفع مفسدة سرقته إلى القتل ولا تندفع بالجلد ،

---

(١) مسند الامام احمد ج١ ص٣٨٠ ورد هذا الحديث وكذا فى ص٤٣١ ، ٤٣٤ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ من رواية عبد الله مع اختلاف يسير فى بعض الفاظه .

انظر سنن النسائى ج٧ ص٨٢ باب ذكر اعظم الذنوب ورد هذا الحديث عن عبد الله مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه . سورة الفرقان من الآية : ٦٨ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الايمان باب بيان تحريم ايذاء الجار ج١ ص٦٨ حديث رقم ٧٣ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٣) صحيح مسلم كتاب الامارة باب حرمة نساء المجاهدين ، واثم من خانهم فيهن ج٣ رقم ١٥٠٨ برقم ١٣٩ .

فأحسن ما دفعت به مفسدته أبانة العضو الذى تسلط به على الجناية ، وجعل الجلد بإزاء إفساد العقول وتمزيق الأعراض بالقذف فدارت عقوباته ـ سبحانه ـ الشرعية على هذه الأنواع الثلاثة ، كما دارت الكفارات على ثلاثة أنواع :

العتق وهو أعلاها .

والاطعام والصيام .

ثم جعل سبحانه الذنوب ثلاثة أقسام :

قسم فيه الحد فهذا لم يشرع فيه كفارة اكتفاء بالحد .

وقسم لم يترتب عليه حد فشرع فيه كفارة كالوطء فى نهار رمضان ، والوطء فى الإحرام ، والظهار ، وقتل الخطأ والحنث فى اليمين ، وغير ذلك .

وقسم لم يترتب عليه حد ولا كفارة وهو نوعان :

احدهما ما كان الوازع عنه طبيعيا كأكل العذرة ، وشرب البول والدم .

والثانى ما كانت مفسدته أدنى من مفسدة ما رتب عليه الحد كالنظرة ، والقبلة واللمس ، والمحادثة ، وسرقة فلس ، ونحو ذلك وشرع الكفارات فى ثلاثة أنواع :

أحدها : ما كان مباح الأصل ثم عرض تحريمه فباشره فى الحالة التى عرض فيها التحريم كالوطء فى الإحرام ، والصيام ، وطرده الوطء فى الحيض ، والنفاس ، بخلاف الوطء فى الدبر ، ولهذا كان إلحاق بعض الفقهاء له بالوطء فى الحيض لا يصح فإنه لا يباح فى وقت دون وقت فهو بمنزلة التلوط وشرب المسكر .

النوع الثانى : ما عقد لله من نذر ، أو ما لله من يمين ، أو حرمه الله ثم أراد حله ، فشرع الله سبحانه حله بالكفارة وسماها تحلة ، وليست هذه الكفارة ماحية لهتك حرمة الاسم بالحنث كما ظنه بعض الفقهاء ، فإن الحنث قد يكون واجبا ، وقد يكون مستحبا ، وقد يكون مباحا ، وإنما الكفارة حل لما عقده .

النوع الثالث : ما تكون فيه جابرة لما فات ككفارة قتل الخطأ ، وان لم يكن هناك إثم ، وكفارة قتل الصيد الخطأ ، وان لم يكن هناك إثم ، فإن ذلك من باب الجوابر .

والنوع الاول من باب الزواجر والنوع الوسط من باب التحلة لما منعه العقد ولا يجتمع الحد والتعزير فى معصية بل إن كان فيها حد اكتفى به كفارة فيها ، وما فيه كفارة فلا حد فيه ، وهل يجتمع التعزير والكفارة فى المعصية التى لا حد فيها فيه وجهان ، وهذا كالوطء فى الإحرام ، والصيام ، ووطء الحائض ، إذا أوجبنا فيه الكفارة .

فقيل : يجب فيه التعزير لما انتهك من الحرمة بركوب الجناية .

وقيل : لا تعزير فى ذلك اكتفاء بالكفارة لانها جابرة وماحية .

وأما العقوبات القدرية فهى نوعان :

نوع على القلوب والنفوس .

ونوع على الأبدان والأموال .

والتى على القلوب نوعان :

أحدهما : آلام وجودية يضرب بها القلب .

والثانى : قطع المواد التى بها حياته وصلاحه عنه ، وإذا قطعت عنه حصل له أضدادها .

وعقوبة القلوب أشد العقوبتين ، وهى أصل عقوبة الأبدان ، وهذه العقوبة تقوى وتتزايد حتى تسرى من القلب الى البدن ، كما يسرى ألم البدن إلى القلب ، فإذا فارقت النفس البدن صار الحكم متعلقا بها ، فظهرت عقوبة القلب حينئذ ، وصارت علانية ظاهرة ، وهى المسماة بعذاب القبر ، ونسبته إلى البرزخ كنسبة عذاب الأبدان إلى هذه الدار .

والتى على الأبدان - أيضا - نوعان :

نوع فى الدنيا .

ونوع فى الآخرة . وشدتها ودوامها بحسب مفاسد ما رتب عليه فى الشدة والخفة ، فليس فى الدنيا والآخرة شر أصلا إلا الذنوب وعقوباتها ، فالشر اسم لذلك كله وأصله من شر النفس وسيئات الأعمال ، وهما الأصلان اللذان كان النبى - ﷺ - يستعيذ منهما فى خطبته بقوله : (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا) وسيئات الأعمال من شرور النفس فعاد الشر كله إلى شر النفس ، فإن سيئات الأعمال من فروعه وثمراته .

وقد اختلف فى معنى قوله : ومن سيئات أعمالنا . هل معناه السيء عن أعمالنا فيكون من باب إضافة النوع إلى جنسه ، أو يكون بمعنى من ، وقيل : معناه من عقوباتها التى تسوء ، فيكون التقدير ومن عقوبات أعمالنا التى تسوءنا ، ويرجح هذا القول ان الاستعاذة تكون قد تضمنت جميع الشر ، فإن شرور الأنفس تستلزم الأعمال السيئة ، وهى تستلزم العقوبات السيئة ، فنبه بشرور الأنفس على ما تقتضيه من قبح الأعمال ، واكتفى بذكرها منه أو هى أصله .

ثم ذكر غاية الشر ومنتهاه وهو السيئات التى تسوء العبد من عمله من العقوبات والآلام ، فتضمنت هذه الاستعاذة أصل الشر وفروعه وغايته ومقتضاه ، ومن دعاء الملائكة للمؤمنين قولهم : ﴿وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾[1] فهذا يتضمن طلب وقايتهم من سيئات الأعمال وعقوباتها التى تسوء صاحبها فإنه سبحانه متى وقاهم عمل السيء وقاهم جزاء السيء وإن كان قوله : ﴿ ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ﴾ أظهر فى عقوبات الأعمال المطلوب وقايتهم يومئذ .

فإن قيل : فقد سألوه - سبحانه - أن يقيهم عذاب الجحيم وهذا هو وقاية العقوبات السيئة ، فدل على أن المراد السيئة التى سألوا وقايتها الأعمال السيئة ، ويكون الذى سأله الملائكة نظير ما استعاذ منه النبى - ﷺ - ولا يرد على هذا قوله : ﴿ يومئذ ﴾ فإن المطلوب وقاية شرور سيئات الأعمال ذلك اليوم . وهى سيئات فى نفسها .

قيل : وقاية السيئات نوعان :

(١) سورة غافر من الآية : ٩

أحدهما وقاية فعلها بالتوفيق فلا تصدر منه .

والثانى : وقاية جزاؤها بالمغفرة فلا يعاقب عليها .

فتضمنت الآية سؤال الأمرين والظرف تقييد للجملة الشرطية لا بالجملة الطلبية ، وتأمل ما تضمنه هذا الخبر عن الملائكة من مدحهم بالإيمان والعمل الصالح والإحسان إلى المؤمنين بالاستغفار لهم ، وقدموا بين يدى استغفارهم وتوسلهم إلى الله - سبحانه - بسعة علمه وسعة رحمته ، فسعة علمه يتضمن علمه بذنوبهم وأسبابها وضعفهم عن العصمة واستيلاء عدوهم وأنفسهم وهواهم وطباعهم وما زين لهم من الدنيا وزينتها ، وعلمه بهم إذ أنشأهم من الأرض وإذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم ، وعلمه السابق بأنهم لابد أن يعصوه ، وأنه يحب العفو والمغفرة ، وغير ذلك من سعة علمه الذى لا يحيط به أحد سواه ، وسعة رحمته تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به من أهل توحيده ومحبته ، فانه واسع الرحمة لا يخرج عن دائرة رحمته إلا الأشقياء ، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التى وسعت كل شىء .

ثم سألوه أن يغفر للتائبين الذين اتبعوا سبيله وهو صراطه الموصل إليه الذى هو معرفته ومحبته وطاعته فيما أمر وترك ما يكره فتابوا مما يكره واتبعوا السبيل الذى يحبها .

ثم سألوه أن يقيهم عذاب الجحيم وأن يدخلهم والمؤمنين من أصولهم وفروعهم وأزواجهم جنات عدن التى وعدهم بها ، وهو - سبحانه - وإن كان لايخلف الميعاد فإنه وعدهم بها بأسباب ، من جملتها : دعاء الملائكة لهم بأن يدخلهم الجنة ، يدخلونها برحمته التى منها : أن وفقهم لأعمالها ، وأقام ملائكته يدعون لهم بدخولها ، ثم أخبر سبحانه عن ملائكته أنهم قالوا عقيب هذه الدعوة : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى مصدر ذلك وسببه وغايته صادر عن كمال قدرتك ، وكمال علمك ، فإن العزة كمال القدرة ، والحكمة كمال العلم وبهاتين الصفتين يقضى - سبحانه وتعالى - ما يشاء ، ويأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، فهاتان الصفتان مصدر الخلق والأمر ، والمقصود أن عقوبات السيئات تتنوع إلى عقوبات شرعية وعقوبات قدرية وهى إما فى القلب ، وإما فى البدن وإما فيهما ، وعقوبات فى دار البرزخ بعد الموت ، وعقوبات يوم عود الأجسام فى الدار الآخرة ، فالذنب لا يخلو من عقوبة البتة ، ولكن لجهل العبد لا يشعر بما هو فيه من العقوبة ، لأنه بمنزلة السكران والمخدر والنائم الذى لا يشعر بالألم ، فإذا استيقظ وصحا أحس بالمؤلم ، فترتب العقوبات على الذنوب كترتيب الاحراق على النار ، والكسر على الانكار ، والاغتراف على الماء ، وفساد البدن على السموم ، والأمراض للأسباب الجالبة لها ، وقد تقارن المضرة للذنب ، وقد تتأخر عنه إما يسيرا وإما مدة ، كما يتأخر المرض عن سببه أن يقارنه ، وكثيرا ما يقع الغلط للعبد فى هذا المقام ويذنب الذنب فلا يرى أثره عقيبه ، ولا يدرى أنه يعمل ، وعمله على التدريج شيئا فشيئا كما تعمل السموم ، والأشياء الضارة حذو القذفة بالقذفة ، فإن تدارك العبد نفسه بالأدوية والاستفراغ والحمية ، وإلا فهو صائر إلى الهلاك هذا إذا كان ذنبا واحدا لم يتداركه بما يزيل أثره فكيف بالذنب على الذنب كل يوم . . وكل ساعة . . والله المستعان .

فاستحضر بعض العقوبات التى رتبها الله - سبحانه وتعالى - على الذنوب ، وجوز وصولها إليك ،

واجعل ذلك داعيا للنفس إلى هجرانها ، وأنا أسوق إليك منها طرفا يكفى العاقل مع التصديق ببعضه .

فمنها الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار ، والأقفال على القلوب ، وجعل الأكنة عليها ، والرين عليها ، والطبع عليها ، وتقليب الأفئدة والأبصار ، والحيلولة بين المرء وقلبه ، وإغفال القلب عن ذكر الرب ، وإنساء العبد نفسه ، وترك إرادة الله تطهير القلب ، وجعل الصدر ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، وصرف القلوب عن الحق وزيادتها مرضا على مرضها ، واركاسها وإنكاسها بحيث تبقى منكوسة ، كما ذكر الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان ـ رضى الله عنه ـ انه قال : القلوب أربعة :

فقلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن .

وقلب أغلف فذلك قلب الكافر .

وقلب منكوس فذلك قلب المنافق .

وقلب تمده مادتان : مادة إيمان ، ومادة نفاق وهو لما غلب عليه منهما .

ومنها التثبط عن الطاعة والابتعاد عنها .

ومنها جعل القلب أصم لا يسمع الحق ، أبكم لا ينطق به ، أعمى لا يراه ، فيصير النسبة بين القلب وبين الحق الذى لا ينفعه غيره كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات وعين الأعمى والألوان ولسان الأخرس والكلام[1] وبهذا يعلم أن الصم والبكم والعمى للقلب بالذات ، والحقيقة والجوارح بالفرض والتبعية . (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)[2] وليس المراد نفى العمى الحسى عن البصر كيف وقد قال تعالى : ﴿ **ليس على الأعمى حرج** ﴾[3] .وقال : ﴿ **عبس وتولى * ان جاءه الأعمى** ﴾[4] وإنما المراد :أن العمى التام على الحقيقة عمى القلب حتى أن عمى البصر بالنسبة إليه كالأعمى حتى يصح نفيه بالنسبة إلى كماله وقوته كما قال النبى ـ ﷺ ـ (ليس الشديد بالصرعة ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب) وقوله ـ ﷺ ـ (ليس المسكين بالطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ولا يفطن له فيتصدق عليه) ونظائره كثيرة والمقصود أن من عقوبات المعاصى جعل القلب أعمى أصم أبكم .

ومنها الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه فيخسف به إلى أسفل سافلين . وصاحبه لا يشعر ، وعلامة الخسف به أنه لا يزال جوالا حول السفليات والقاذورات والرذائل ، كما أن القلب الذى رفعه الله وقربه إليه لا يزال جو الأحوال البر والخير ومعالى الأمور والأعمال والأقوال والأخلاق قال بعض السلف : إن هذه القلوب جوالة : فمنها ما يجول حول العرش ، ومنها ما يجول حول الحشر ، ومنها مسخ القلب فيمسخ كما تمسخ الصورة فيصير القلب على قلب الحيوان الذى شابهه فى أخلاقه وأعماله وطبيعته ، فمن القلوب ما يسمخ على قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به ، ومنها ما يمسخ على خلق كلب أو حمار أو حية أو عقرب وغير ذلك . وهذا تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى : ﴿ **وما**

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٣ ص١٧ ورد الحديث

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٦

(٣) سورة النور من الآية : ٦١

(٤) سورة عبس الآيتان : ١ ـ ٢

من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾[١] قال : منهم من يكون على أخلاق السباع العادية ، ومنهم من يكون على أخلاق الكلاب ، وأخلاق الخنزير ، وأخلاق الحمير ، ومنهم من يتطوس فى ثيابه لحمًا بتطوس الطاووس فى ريشه ، ومنهم من يكون بليدًا كالحمار ، ومنهم من يؤثر على نفسه كالديك ، قال : منهم من يألف ويؤلف كالحمام ، ومنهم الحقود كالجمل ، ومنهم الذى هو خير كله كالغنم ، ومنهم أشباه الذئاب ، ومنهم أشباه الثعالب التى يروغ كروغانها ، وقد شبه الله ـ تعالى ـ أهل الجهل والغى بالحمر تارة ، وبالكلب تارة ، وبالأنعام تارة ، وتقوى هذه المشابهة باطنا حتى تظهر فى الصورة الظاهرة ظهورا خفيا يراه المتفرسون ، ويظهر فى الأعمال ظهورا يراه كل أحد ، ولايزال يقوى حتى تعلو الصورة ، فتنقلب له الصورة بإذن الله وهو المسخ التام ، فيقلب الله ـ سبحانه وتعالى ـ الصورة الظاهرة على صورة ذلك الحيوان كما فعل باليهود وأشباههم ، ويفعل بقوم من هذه الأمة ويمسخهم قردة وخنازير فسبحان الله كم من قلب منكوس وصاحبه لايشعر ، وقلب ممسوخ ، وقلب مخسوف به ، وكم من مفتون بثناء الناس عليه ، ومغرور بستر الله عليه ، ومستدرج بنعم الله عليه ، وكل هذه عقوبات وإهانة ويظن الجاهل أنها كرامة.

ومنها مكر الله بالماكر ، ومخادعته للمخادع ، واستهزاؤه بالمستهزىء ، وازاغته لقلب الزائغ عن الحق . ومنها نكس القلب حتى يرى الباطل حقا ، والحق باطلا ، والمعروف منكرا ، والمنكر معروفا ، ويفسد ويرى انه يصلح ، ويصد عن سبيل الله وهو يرى انه يدعو إليها ، ويشترى الضلالة بالهدى وهو يرى انه على الهدى ، ويتبع هواه وهو يزعم انه مطيع لمولاه ، وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية على القلوب .

ومنها حجاب القلب عن الرب فى الدنيا ، والحجاب الأكبر يوم القيامة كما قال تعالى : **﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾**[٢] .

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم ، فيصلوا اليها ، فيروا ما يصلحها ويزكيها ، وما يفسدها ويشقيها ، وان يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم فتصل القلوب اليه ، فتفوز بقربه وكرامته ، وتقر به عينا ، وتطيب به نفسا ، بل كانت الذنوب حجابا بينهم وبين قلوبهم وحجابا بينهم وبين ربهم وخالقهم .

ومنها المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة قال تعالى : **﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا * ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾**[٣]وفسرت المعيشة الضنك، بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه ، وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات فإن عمومها من حيث المعنى ، فإنه ـ سبحانه ـ رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وان تنعم فى الدنيا بأصناف النعم ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى يقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما تواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة إن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ، فسكر هذه الأمور أعظم من

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٨
(٢) سورة المطففين من الآية : ١٥
(٣) سورة طه من الآية : ١٢٤

سكر الخمر ، فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا سكر فى سكر الأموات ، فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله - ﷺ - فى دنياه وفى البرزخ ويوم معاده ، ولا تقر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بأهلها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله - تعالى - انما جعل الحياة الطيبة لمن آمن بالله وعمل صالحا كما قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾(١) فضمن لأهل الايمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء فى الدارين ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين** ﴾(٢) ونظيرها قوله تعالى: ﴿ **وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله** ﴾(٣) .

ففاز المتقون المحسنون بنعم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين ، فان طيب النفس وسرور القلب وفرحته ولذته وابتهاجه وطمأنينته وانشراحه ونوره وسعته وعافيته من ترك الشهوات المحرمة ، والشبهات الباطلة هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه ، فقد قال بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف ، وقال آخر : إنه يمر بالقلب أوقات أقول فيها إن أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ، وقال الآخر : إن فى الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة : ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبى - ﷺ - إلى هذه الجنة بقوله : (إذا مررتم برياض الجنة فارتقوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر . وقال : ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة)(٤) .

ولا تظن أن قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم * وإن الفجار لفى جحيم** ﴾(٥) يختص بيوم الميعاد فقط ، بل هؤلاء فى نعيم فى دورهم الثلاثة ، وهؤلاء فى جحيم فى دورهم الثلاثة ، وأى لذة ونعيم فى الدنيا أطيب من بر القلب وسلامة الصدر ومعرفة الرب - تعالى - ومحبته والعمل على موافقته ، وهل عيش فى الحقيقة إلا عيش القلب السليم . وقد أثنى الله - تعالى - على خليله - عليه السلام - بسلامة القلب فقال : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم * إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾(٦) وقال حاكيا عنه أنه قال : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾(٧) .

والقلب السليم هو الذى سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر وحب الدنيا والرياسة فسلم من كل آفة تبعده من الله وسلم من كل شبهة تعارض خبره ومن كل شهوة تعارض أمره ، وسلم من كل ارادة تزاحم مراده ، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله . فهذا القلب السليم فى

(١) سورة النحل الاية : ٩٧

(٢) سورة النحل الآية : ٣٠

(٣) سورة هود من الآية : ٣

(٤) سنن الترمذى أبواب الدعوات ج٥ ص١٩٤ الحديث ٣٥٧٧ من رواية انس ابن مالك الحديث بلفظه ولم يرد فيه : « وقال : ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة) ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٥) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٦) سورة الصافات الآيتان : ٨٣ ، ٨٤

(٧) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ ، ٨٩

جنة معجلة فى الدنيا ، وفى جنة فى البرزخ ، وفى جنة يوم المعاد ، ولا يتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء : من شرك يناقض التوحيد وبدعة تخالف السنة ، وشهوة تخالف الأمر ، وغفلة تناقض الذكر ، وهو يناقض التجريد ، والإخلاص يعم ، وهذه الخمسة حجب عن الله وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن إفراد الأشخاص لا تحصر ، ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله ان يهديه الصراط المستقيم ، فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة وليس شيء أنفع منها ، فإن الصراط المستقيم يتضمن علوما وإرادة وأعمالا وتروكا ظاهرة وباطنة تجرى عليه كل وقت فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد وقد لا يعلمها ، وقد يكون مالا يعلمه أكثر مما يعلمه ، وما يعلمه قد يقدر عليه ، وقد لا يقدر عليه ، وهو من الصراط المستقيم ، وان عجز عنه وما يقدر عليه قد تريده نفسه وقد لا تريده كسلا وتهاونا أو لقيام مانع وغير ذلك ، ومانريده قد يفعله وقد لا يفعله وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص ، وقد لا يقوم ، ومايقوم فيه بشروط الإخلاص ، قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه ، وقد صرف قلبه عنه ، وهذا كله واقع سار فى الخلق فمستقل ومستكثر ، وليس فى طباع العبد الهداية إلى ذلك كله ، بل متى وكل إلى طباعه حيل بينه وبين ذلك وهذا هو الإركاس الذى أركس الله به المنافقين بذنوبهم فأعادهم إلى طباعهم ، وما حلقت عليه نفوسهم من الجهل والظلم ، والرب ـ تبارك وتعالى ـ على صراط مستقيم فى قضائه وقدره وأمره ونهيه ، فيهدى من يشاء إلى صراط مستقيم بفضله ورحمته ، وجعل الهداية حيث تصلح ويصرف من يشاء عن صراط مستقيم بعدله وحكمته لعدم صلاحية المحل ، وذلك موجب صراطه المستقيم الذى هو عليه فهو على صراط مستقيم ، ونصب لعباده من أمره صراطا مستقيما ، دعاهم جميعا اليه حجة منه وعدلا وهدى من يشاء منهم الى سلوكه نعمة منه وفضلا ، ولم يخرج بهذا الفضل وهذا العدل عن صراطه المستقيم الذى هو عليه ، فإذا كان يوم القيامة نصب لخلقه صراطا مستقيما يوصلهم الى جنته ، ثم صرف عنه من صرف فى الدنيا وأقام من أقام فى الدنيا ، وجعل نور المؤمنين به وبرسوله وما جاء به الذى كان فى قلوبهم فى الدنيا نورا ظاهرا لهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم فى ظلمة الحشر ، وحفظ عليهم نورهم حتى يقطعوه كما حفظ عليهم الإيمان حتى لقوه ، وأطفىء نور المنافقين أحوج ما كانوا اليه ، كما أطفأه من قلوبهم فى الدنيا ، وأقام أعمال العصاة بجنبتى الصراط كلاليب وحسكا تخطفهم كما تخطفهم فى الدنيا عن الاستقامة عليه وجعل على قدر سيرهم وسرعتهم إليه فى الدنيا ، ونصب للمؤمنين حوضا يشربون منه بإزاء شربهم من شرعه فى الدنيا وحرم من الشرب هناك من حرم من الشرب من شرعه ودينه ههنا فنظروا إلى الآخرة كأنها رأى عين ، وتأمل حكمة الله ـ سبحانه ـ فى الدارين تعلم حينئذ علما يقينا لاشك فيه أن الدنيا مزرعة الآخرة ، وعنوانها ونموذجها ، وأن منازل الناس فيها من السعادة والشقاوة على حسب منازلهم فى هذه الدار فى الإيمان والعمل الصالح وضدها وبالله التوفيق فمن أعظم عقوبات الذنوب الخروج عن الصراط فى الدنيا والآخرة .

* التوبة معروضة بعد *

قوله تعالى : ﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما * ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾[1] .

هذا استثناء مما سبق فالذين سبق الحديث عنهم من أهل الكبائر شاءت رحمة الله الواسعة ألا تقنط أحدا ﴿ قل ياعبادى الذى أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾[2] .

وقد قال ﷺ فى حديثه الجامع :(لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الى آخر الحديث)[3] قال فى نهايته (والتوبة معروضة بعد) وفى قوله جل شأنه : ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ .

قولان : أحدهما : أنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى الآية قال : هم المؤمنون كانوا من قبل إيمانهم على السيئات فرغب الله بهم عن السيئات فحولهم الى الحسنات فأبدلهم مكان السيئات الحسنات ، وروى عن مجاهد عن ابن عباس أنه كان ينشد عند هذه الآية :

بـدلن بعد حـره خريفـا وبعد طول النفس الـوجيفا

يعنى: تغيرت تلك الأحوال إلى غيرها. وقال عطاء بن أبى رباح : هذا فى الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ثم يبدله الله بها خيرا .

وقال سعيد بن جبير أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين . وأبدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات .

وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السىء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك إخلاصا ، وأبدلهم بالفجور إحصانا وبالكفر اسلاما وهذا قول أبى العالية وقتادة وجماعة آخرين .

(والقول الثانى): إن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وماذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار فيوم القيامة وإن وجده مكتوبا عليه فإنه لا يضره وينقلب حسنة فى صحيفته كما ثبتت السنة بذلك وصحت به الآثار المروية عن السلف ـ رضى الله عنهم ـ فعن أبى ذر رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤتى برجل فيقول :نحوا عنه كبار[4]

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٧٠ ، ٧١

(٢) سورة الزمر الآية : ٥٣

(٣) صحيح مسلم كتاب الايمان باب بيان نقصان الايمان بالمعاصى .. الخ ج١ ص٧٧ حديث رقم ١٠٤ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٤) صحيح مسلم كتاب الايمان باب ـ أدنى أهل الجنة منزلة فيها ـ ج١ ص١٧٧ حديث رقم ٣١٤ من رواية ابى ذر مع اختلاف بعض الفاظه .

وانظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٧ .

ذنوبه وسلوه عن صغارها قال فيقال له : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا ، كذا ، وكذا فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة فيقول : يارب عملت أشياء لا أراها ههنا) قال فضحك رسول الله - ﷺ - حتى بدت نواجذه ، انفرد باخراجه مسلم . وقال الحافظ أبو القاسم بسنده عن أبي مالك الاشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - (أذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان أعطنى صحيفتك فيعطيه إياها فما وجد فى صحيفته من حسنة محابها عشر سيئات من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات ، فاذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثا وثلاثين تكبيرة ، ويحمد أربعا وثلاثين تحميده ، ويسبح ثلاثا وثلاثين تسبيحة فتلك مائة)[١] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن سلمان قال : (يعطى الرجل يوم القيامة صحيفته فيقرأ أعلاها فإذا سيئاته ، فإذا كاد يسوء ظنه نظر فى أسفلها فإذا حسناته ، ثم ينظر فى أعلاها فإذا هى قد بدلت حسنات)[٢] .

وقال أيضا حدثنا أبى عن هشام بن عمار بسنده عن أبى العنبسى عن أبيه عن أبى هريرة قال : (ليأتينى الله - عز وجل - بأناس يوم القيامة رأوا أنهم قد استكثروا من السيئات ، قيل من هم ياأبا هريرة ؟ قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات)[٣] .

وقال أيضا حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن أبى زياد حدثنا سيار حدثنا جعفر حدثنا أبو حمزة عن أبى الصيف - قلت وكان من أصحاب معاذ بن جبل - قال : يدخل أهل الجنة الجنة على أربعة أصناف المتقين ثم الشاكرين ثم الخائفين ثم أصحاب اليمين ، قلت : لم سموا أصحاب اليمين ؟ قال لأنهم قد عملوا بالسيئات والحسنات فأعطوا كتبهم بأيمانهم فقرأوا سيئاتهم حرفا حرفا وقالوا ياربنا هذه سيئاتنا فأين حسناتنا فعند ذلك محا الله النسيئات وجعلها حسنات فعند ذلك قالوا :(هاؤم اقرءواكتابيه)[٤]فهم أكثر اهل الجنة .

وقال على بن الحسين زين العابدين (يبدل الله سيئاتهم حسنات) قال فى الأخرة .

وقال مكحول يغفرها لهم فيجلعها حسنات رواهما ابن أبى حاتم[٥] .

وروى ابن جرير عن سعيد بن المسيب مثله .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابى جابر أنه سمع مكحولا يحدث قال : (جاء شيخ كبير هرم قد سقط حاجباه على عينيه فقال يارسول الله رجل غدر وفجر ولم يدع حاجة ولا داجة إلا اقتطفها بيمينه ولو[٦]

---

(١) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ج٦ ص٢٨٢ ط دار الفكر الحديث بلفظه أخرجه الطبرانى عن أبى مالك الأشعرى .

(٢) الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ج٦ ص٢٨٠ ط/ دار الفكر ورد الحديث بلفظ عن سلمان وأخرجه عبد بن حميد وابن ابى حاتم .

(٣) انظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة . وانظر الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ج٦ ص٢٨١ بلفظ . أخرج ابن أبى حاتم وابن مردوية عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ (ليأتين ناس يوم القيامة ودوا أنهم استكثروا من السيئات قيل : ومن هم يارسول الله ؟ قال : ﴿ الذين بدل الله سيئاتهم حسنات ﴾

(٤) انظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٨ ورد الحديث بلفظه عن أبى الضيف .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه - عن أبى جابر انه سمع مكحولا .

(٦) وانظر الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ج٦ ص٢٨١ فقد ورد الحديث وقد أخرجه ابن أبى حاتم عن مكحول غير أن به اختلافا فى بعض ألفاظه .

قسمت خطيئته بين أهل الأرض لأوبقتهم فهل له من توبه ؟ فقال النبى - ﷺ - أسلمت) قال أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله فقال النبى - ﷺ - (فان الله غافر لك ما كنت كذلك ومبدل سيئاتك حسنات) فقال يارسول الله وغدراتى وفجراتى ؟ فقال (وغدراتك وفجراتك) فولى الرجل يكبر ويهلل .

وروى الطبرانى من حديث أبى المغيرة عن أبى فروة أنه أتى رسول الله - ﷺ - فقال : أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة فهل له من توبة ؟ فقال (أسلمت ؟) فقال نعم ، قال (فافعل الخيرات واترك السيئات فيجعلها الله لك خيرات كلها) قال وغدراتى وفجراتى ؟

قال (نعم) فمازال يكبر حتى توارى . رواه الطبرانى من طريق أبى فروة الرهاوى عن ياسين الزيات عن أبى سلمة الحمصى عن يحيى بن جابر عن سلمة بن نفيل مرفوعا[١] .

وقال أيضا حدثنا أبو زرعة حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا عيسى بن شعيب بن ثوبان عن فليح بن عبيد بن أبى عبيد الشماسى عن أبيه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : (جاءتنى امرأة فقالت هل لى من توبة ؟ إنى زنيت وولدت وقتلته ، فقلت : لا ولا نعمت العين ولا كرامة ، فقامت وهى تدعو بالحسرة ، ثم صليت مع النبى - ﷺ - الصبح فقصصت عليه ما قالت المرأة وما قلت لها فقال رسول الله - ﷺ -: (بئسما قلت أما كنت تقرأ هذه الآية ؟) ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر - إلى قوله - إلا من تاب ﴾[٢] الآية فقرأتها عليها فخرت ساجدة وقالت الحمد لله الذى جعل لى مخرجا، ثم قال تعالى مخبرا عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب إليه منهم تاب عليه من أى ذنب كان جليلا أو حقيرا كبيرا أو صغيرا .

فقال تعالى :﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾[٣] أى فإن الله يقبل توبته كما قال تعالى ﴿ ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ وقال تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾ .

قوله تعالى ﴿ والذين لا يشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾[٤] .

وتلك من صفات عباد الرحمن وما أجلها من صفة وما أعظمها من فضيلة وهم أهل الفضائل والكرم وقد ورد فى تفسير ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أقوال لأئمة التفسير نبينها فيما يلى :

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٣٨ - ١٣٩ فقد ورد الحديث بلفظه .
وانظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ج٢ ص٥٢٥ عن أبى بكر بن أبى عاصم عن أبى طويل شطب المدود مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) سورة الفرقان من الآيتان : ٦٨ - ٧٠

(٣) سورة الفرقان من الآية : ٧١

(٤) سورة الفرقان الآيتان : ٧٢ - ٧٤

قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق والكفر واللغو والباطل . وقال محمد ابن الحنفية : هو اللغو والغناء وقال أبو العالية وطاوس وابن سيرين والضحاك والربيع بن أنس - وغيرهم : هو أعياد المشركين وقال عمرو بن قيس : هى المجالس السوء والخنا . وقال مالك عن الزهرى : شرب الخمر لا يحضرونه ولا يرغبون فيه كما جاء فى الحديث (من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر)[١] وقيل المراد بقوله تعالى : ﴿ لا يشهدون الزور ﴾ أى شهادة الزور وهى الكذب معتمدا على غيره كما فى الصحيحين عن أبى بكرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثا : قلنا : بلى يارسول الله قال : الشرك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول الزور ألا وشهادة الزور فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[٢] . والأظهر من السياق أن المراد لا يشهدون الزور أى لا يحضرونه ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ أى لا يحضرون الزور واذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشىء ولهذا قال ﴿ مروا كراما ﴾ وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابراهيم بن ميسر أن ابن مسعود مر بلهو فلم يقف فقال رسول الله - ﷺ - (لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما)[٣] .

وحدثنا الحسين بن محمد بسنده عن ميسرة قال بلغنى أن ابن مسعود مر بلهو معرضا فلم يقف فقال رسول الله - ﷺ - (لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما) ثم تلا ابراهيم بن ميسرة ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صميا وعميانا ﴾ .

وهذه - أيضا - من صفات المؤمنين ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٤] بخلاف الكافر فإنه إذا سمع كلام الله لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله كما قال تعالى : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ﴾[٥] فقوله ﴿ لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾ أى بخلاف الكافر الذى اذا سمع آيات الله فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله كأن لم يسمعها أصم أعمى .

قال مجاهد قوله : ﴿ لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾ قال لم يسمعوا ولم يبصروا ولم يفقهوا شيئا ، وقال الحسن البصرى - رضى الله عنه - : كم من رجل يقرؤها ويخر عليها أصم أعمى .

وقال قتادة قوله تعالى : ﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ﴾ .

يقول : لم يصموا عن الحق ولم يعموا فيه ، فهم والله قوم عقلوا عن الحق وانتفعوا بما سمعوا من كتابه . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن حمران عن ابن عون قال سألت الشعبى قلت الرجل

(١) سنن الدارمى ج٢ كتاب الأشربة باب النهى عن القعود على مائدة يدار عليها الخمر ج٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر .
(٢) صحيح البخارى كتاب الأدب ج٨ ص٤ ورد الحديث بلفظه عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه - رضى الله عنه .
(٣) أنظر تفسير ابن كثير ج٦ ص١٤٠ فقد ورد ذلك عن ابن أبى حاتم .

(٤) سورة الانفال الآية : ٢
(٥) سورة التوبة الآية : ١٢٤ وجزء من الآية ١٢٥

يرى القوم سجودا ولم يسمع ما سجدوا أيسجد معهم ؟ قال فتلا هذه الآية : يعنى أنه لا يسجد معهم لأنه لم يتدبر أمر السجود ولا ينبغى للمؤمن أن يكون إمعة بل يكون على بصيرة من أمره ويقين واضح بين. قال الإمام ابن القيم - رحمة الله تعالى - فى تفسير هذه الآية :

قال مقاتل : إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صما ، لم يسمعوه ، وعميانا : لم يبصروه ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به .

وقال ابن عباس : لم يكونوا عليها صما وعميانا بل كانوا خائفين خاشعين . وقال الكلبى : يخرون عليها سمعا وبصرا .

وقال الفراء : واذا تلى عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى كأنهم لم يسمعوه : فذلك الخرور ، وسمعت العرب تقول : قعد يشتمنى ، كقولك : قام يشتمنى وأقبل يشتمنى .

والمعنى على ما ذكر : لم يصيروا عندها صما وعميانا .

وقال الزجاج : المعنى إذا تليت عليهم آيات ربهم خروا سجدا وبكيا سامعين ، مبصرين ، كما أمروا به .

وقال ابن قتيبه : أى لم يتغافلوا عنها ، كأنهم صم لم يسمعوها وعمى لم يروها .

قلت : ههنا أمران : ذكر الخرور وتسليط النفى عليه : وهل خرور القلب أو خرور البدن للسجود ؟ وهل المعنى : لم يكن خرورهم عن صمم وعمه . فلهم عليها خرور بالقلب خضوعا أو بالبدن سجودا أو ليس هناك خرور ، وعبر به عن القعود .

قوله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾[(١)].

يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له قال : قال ابن عباس يعنون من يعمل بطاعة الله فتقربه أعينهم فى الدنيا والآخرة ، قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ولكن أرادوا ان يكونوا مطيعين .

وسئل الحسن البصرى عن هذه الآية فقال : أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله لا والله لا شىء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو لد ولد أو أخا أو حميا مطيعا لله - عز وجل - قال ابن جريج فى قوله ﴿ هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ قال : يعبدونك فيحسنون عبادتك ولا يجرون علينا الجرائر وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى يسألون الله - تعالى - لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للإسلام .

وقال الامام احمد بسنده عن جبير بن نصير عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوما فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله - ﷺ - لوددنا أنا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت فاستغضب المقداد فجلعت أعجب لأنه ما قال إلا خيرا ثم أقبل إليه فقال : ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه لا يدرى لو شهده كيف يكون فيه ، والله لقد حضر رسول الله - ﷺ - أقوام اكبهم الله على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه ، أولا تحمدون الله اذ أخرجكم من بطون

(١) سورة الفرقان من الآية : ٧٤

أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم ؟ لقد بعث الله النبى - ﷺ - على أشر حال بعث عليها نبيا من الأنبياء فى فترة جاهلية ، ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان فجاء بفرقان فرق به بين الحق والباطل وفرق بين الوالد وولده

إن كان الرجل ليرى والده وولده وأخاه كافرا وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقرعينه . وهو يعلم أن حبيبه فى النار وأنها التى قال الله تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ﴾ وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه[1] .

وقوله تعالى ﴿ واجعلنا للمتقين إماما ﴾ .

قال ابن عباس والحسين والسدى وقتادة والربيع بن أنس : أئمة يقتدى بنا فى الخير ، وقال غيرهم ، هداة مهتدين دعاة الى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعديا الى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا ولهذا ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو علم ينتفع به من بعده أو صدقة جارية)[2] .

قوله تعالى : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبؤا بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ .

لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة والأقوال والأفعال الجليلة ، قال بعد ذلك كله ﴿ أولئك ﴾ أى المتصفون بهذه ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهى الجنة . . قال أبو جعفر الباقر وسعيد ابن جبير والضحاك والسدى : سميت بذلك لارتفاعها ﴿ بما صبروا ﴾ أى على القيام بذلك ﴿ ويلقون فيها ﴾ أى فى الجنة ﴿ تحية وسلاما ﴾ أى يبتدرون فيها بالتحية والاكرام ويلقون التوقير والاحترام . فلهم السلام وعليهم السلام فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

وقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ أى مقيمين لا يظعنون ولا يحولون ولا يموتون ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى : ﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ حسنت مستقرا ومقاما ﴾ أى حسنت منظرا وطابت مقيلا ومنزلا .

ثم قال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى ﴾ أى لا يبالى ولا يكترث بكم اذا لم تعبدوه ، فانه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا ، قال مجاهد وعمرو بن شعيب ﴿ ما يعبأ بكم ربى ﴾ يقول ما يفعل بكم ربى .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى ﴾ يقول لولا إيمانكم وأخبر

---

(١) صحيح مسلم ج٦ ص٢ ،٣ ورد الحديث بلفظه عن عبد الرحمن بن جبير عن أبيه .

(٢) الترغيب والترهيب « كتاب العلم » باب من علم ومن لم يعلم » ج١ ص٩٩ حديث ٩٩ عن أبى هريرة بلفظ : « قال رسول الله - ﷺ - : (اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له) وقال : رواه مسلم وغيره .

(٣) سورة هود من الآية : ١٠٨

تعالى الكفار انه لا حاجة له بهم اذ لم يخلقهم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب اليهم الايمان كما حببه الى المؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون .

﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أى فسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم يعنى مقتضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم فى الدنيا والآخرة ، ويدخل فى ذلك يوم بدر كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب ومحمد بن كعب القرظى ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم وقال الحسن البصرى ﴿ فسوف يكون لزاما ﴾ أى: يوم القيامة ولا منافاة بينهما ، آخر تفسير سورة الفرقان ولله الحمد والمنة .

﴿ سورة الشعراء ﴾

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، إلا آية واحدة : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ إلى آخره ، عدد آياتها مائتان وسبع وعشرون فى عد الكوفى والشامى وست فى عد الباقين .

كلماتها الف ومائتان وسبع وسبعون . وحروفها خمسة آلاف وخمسمائة وثنتان وأربعون .

وسميت سورة الشعراء لاختتامها بذكرهم فى قوله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ .

مقصود السورة وجل ما اشتملت عليه : ذكر القسم ببيان آيات القرآن وتسلية الرسول عن تأخير المنكرين عن الايمان وذكر موسى وهارون ومناظرة فرعون الملعون ، وذكر السحرة ومكرهم فى الابتداء ، وإيمانهم وانقيادهم فى الانتهاء ، وسفر موسى ببنى اسرائيل من مصر وطلب فرعون إياهم ، وانفلاق البحر وإغراق القبط وذكر الجبل ، وذكر المناجاة ودعاء ابراهيم الخليل .

وذكر استغاثة الكفار من عذاب النيران ، وقصة نوح وذكر الطوفان ، وتعدى عاد وذكر هود ، وذكر عقوبة ثمود ، وذكر قوم لوط وخبثهم ، وقصة شعيب وهلاك أصحاب الأيكة لعبثهم ، وتنزيل جبريل على النبى بالقرآن العربى وتفصيل حال الأمم السالفة الكثيرة وأمر الرسول - ﷺ - بإنذار العشيرة ، وتواضعه للمؤمنين ، وأخلاقه اللينة وبيان غواية شعراء الجاهلية وأن العذاب منقلب الذين يظلمون فى قوله : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ﴾ سبق فى الأنبياء . ﴿ فسيأتيهم ﴾ سبق فى الأنعام ، وكذا ﴿ أو لم يروا ﴾ وما تعلق بقصة موسى وفرعون سبق فى الأعراف .

قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ مذكور فى ثمانية مواضع : أولها : فى محمد - ﷺ - وان لم يتقدم ذكره صريحا ، فقد تقدم كناية ووضوحا ، والثانية : فى قصة موسى ، ثم ابراهيم، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ثم شعيب .

قوله ﴿ ألا تتقون ﴾ الى قوله : ﴿ العالمين ﴾ مذكور فى خمسة مواضع فى قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب - عليهم السلام - ثم كرر ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فى قصة نوح ، وهود ، وصالح ، فصار ثمانية مواضع ، وليس فى ذكر النبى - ﷺ - ﴿ وما أسألكم عليه من أجر ﴾ لذكرها فى مواضع وليس فى قصة موسى؛ لأنه رباه فرعون حيث قال : ﴿ ألم نربك فينا وليدا ﴾ ولا فى قصة ابراهيم ؛ لأن أباه فى المخاطبين حيث يقول : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ وهو رباه فاستحيا موسى وابراهيم ان يقولا : ما أسألكم عليه من أجر ، وان كانا منزهين من طلب الأجر .

قوله : فى قصة ابراهيم : ﴿ ما تعبدون ﴾ وفى الصافات ﴿ ماذا تعبدون ﴾ لأن ﴿ ما ﴾ لمجرد الاستفهام فأجابوا فقالوا : ﴿ نعبد أصناما ﴾ و﴿ ماذا ﴾ فيه مبالغة وقد تضمن فى الصافات معنى التوبيخ فلما وبخهم ولم يجيبوا زاد فى التوبيخ فقال ﴿ أئفكا آلهة دون الله تريدون فما ظنكم برب العالمين ﴾ فجاء فى كل سورة ما اقتضاه ما قبله وما بعده .

قوله : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * واذا مرضت فهو يشفين ﴾ زاد ﴿ هو ﴾ فى الاطعام والشفاء؛ لأنهما مما يدعى الانسان ، فيقال : زيد يطعم وعمرو يداوى . فأكد إعلاما لأن ذلك منه - سبحانه وتعالى - لا من غيره وأما الخلق والموت والحياة فلا يدعيها مدع . فاطلق .

قوله فى قصة صالح : ﴿ ما أنت ﴾ بغير واو وفى قصة شعيب ﴿ وما أنت ﴾ لأنه فى قصة صالح بدل من الأول وفى الثانية عطف وخصت الأولى بالبدل؛ لأن صالحا قلل فى الخطاب ، فقللوا فى الجواب وأكثر شعيب فى الخطاب فأكثروا فى الجواب .

﴿ فضلها ﴾

عن البراء بن عازب ان النبى - ﷺ - قال : (إن الله أعطانى السبع الطوال مكان التوراة وأعطانى المثين مكان الانجيل وأعطانى الطواسين مكان الزبور وفضلنى بالحواميم والمفصل ما قرأهن نبى قبلى) .

﴿ مناسبتها ﴾

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(أ) إن فيها بسطا وتفصيلا لبعض ما ذكر فى موضوعات سالفتها .

(ب) إن كلتيهما قد بدئت بمدح الكتاب الكريم .

(ج) إن كلتيهما ختمت بإيعاد المكذبين .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ

﴿٣﴾ إن نشأ ننزل عليهم من السماء ءاية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴿٤﴾ وما
يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴿٥﴾ فقد كذبوا فسيأتيهم
أنبؤا ما كانوا به يستهزءون ﴿٦﴾ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم
﴿٧﴾ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿٨﴾ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴿٩﴾

﴿ تفسير المفردات ﴾

(لعلك) لعل : هنا للاستفهام الذى يراد به الانكار ، وقال العسكرى : إنها للنهى ، و(باخع نفسك) : أى مهلكها من شدة الحزن . وأصل البخع . ان تبلغ بالذبح البخاع (بكسر الباء) وهو عرق مستبطن فقار الرقبة ، وذلك يكون من المبالغة فى الذبح . و(ذكر) : أى : موعظة (أنباء) والمراد بالأنباء ما سجل بهم من العذاب و(زوج) : أى صنف ، والكريم من كل شىء : المرضى المحمود منه .

﴿ التفسير ﴾

(قوله تعالى : ﴿ ط . س . م . بعض حروف الهجاء وفيها اشارة الى الكتاب المعجز الذى أعجز فحول البلاغة واساطين البيان (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[1] ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أى: هذه آيات القرآن الواضحة البينة التى تزاحم الشمس فى الجلاء ، وترسل اشعتها الكاشفة تبدد غياهب الظلمات وتحيى كل موات فهى روح ونور ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ أى: لا تقتل نفسك عليهم حزنا وهما وكمدا وغما قال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾[3] وقال جل شأنه : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ قال مجاهد وقتادة وعكرمة وغيرهم ﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أى: قاتل نفسك قال الشاعر :

---

(١) سورة الاسراء الآية : ٨٨
(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ـ ٥٣
(٣) سورة فاطر الآية : ٨

ألا أيهذا الباخع الحزن نفسه لشيء نحّته عن يديه المقادر

قوله تعالى : ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين ﴾ أى لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم الى الايمان قهرا ، ولكن لا نفعل ذلك لأنا لا نريد من أحد إلا الايمان الاختيارى وقال تعالى (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾[١] .

وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾[٣] وقال جل شأنه ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾[٤] وقال تبارك اسمه ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا * إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾[٥] وقال تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾[٦] وقال عز وجل ﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾[٧] ولذلك لما اقترحوا على رسول الله ما اقترحوه من الآيات ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا * أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ﴾[٨] لما اقترحوا تلك الآيات كان الرد عليهم ﴿ قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾ وفى التعبير بخضوع الاعناق ما يفيد الرضوخ والقهر والجبر وليس هذا موافقا لحقيقة الايمان إذ الإيمان تصديق ناشىء عن رضا ويقين فليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل فالايمان عمل من أعمال القلوب لا يستوى مع القسر والقهر .

قوله تعالى : ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾ هذا شأنهم وديدنهم وهجيرهم تكذيب وجحود وعناد وإصرار ﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا * وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ﴾[٩] وقال تعالى ﴿ وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى : ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون ﴾[١٠] وقال تعالى : ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾[١١] ولهذا قال تعالى ههنا فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون ﴾[١٢] أى : فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[١٣]

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦
(٢) سورة يونس الآية : ٩٩
(٣) سورة هود الآيتان : ١١٨ - ١١٩
(٤) سورة الكهف من الآية : ٢٩٠
(٥) سورة الانسان الآيتان : ٢ ، ٣
(٦) سورة البلد الآية : ١٠
(٧) سورة الشمس الآيات : ٧ - ١٠
(٨) سورة الاسراء من الآيات : ٩٠ - ٩٣
(٩) سورة نوح الآيات : ٥ - ٧
(١٠) سورة يس الآية : ٣٠
(١١) سورة المؤمنون آية : ٤٤
(١٢) سورة الشعراء الآية : ٦
(١٣) سورة الشعراء الآية : ٢٢٧

قوله تعالى : ﴿ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[١] .

وفى هذا تنبيه على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه للذين اجترأوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه وهو القاهر العظيم القادر الذى خلق الأرض وأنبت فيها من كل زوج كريم من زروع وثمار وحيوان قال سفيان الثورى عن رجل عن الشعبى : الناس من نبات الأرض فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ماصنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هى الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

تباركت ربنا وتعاليت يامن قلت وقولك الحق : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾[٢] .

ويامن قلت وقولك الصدق : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾[٣] .

﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ أى : دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذى بسط الأرض ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس بل كذبوا به وبرسله وكتبه وخالفوا أمره وارتكبوا نهيه . ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[٤] وقوله : ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾[٥] وقوله : ﴿ تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[٦] ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ ﴿ العزيز ﴾ الذى عز كل شىء وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ أى : بخلقه فلا يعجل على من عصاه بل يؤجله وينظره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر . قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس : العزيز فى نقمته وانتصاره ممن خالف أمره وعبد غيره ، وقال سعيد بن جبير : الرحيم بمن تاب إليه وأناب .

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٧ ، ٨ ، ٩
(٢) سورة لقمان الآيتان : ٩ ، ١١
(٣) سورة ق الآيات : من ٧ - ١١
(٤) سورة يوسف الآية : ١٠٣
(٥) سورة الأنعام الآية : ١١٦
(٦) سورة الرعد الآية : ١

مع موسى عليه السلام

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ
رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ
﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾
فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ
نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى
رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ
رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن
كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ
جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا
لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ
وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ
﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟
حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ

تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ
وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا
لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ
حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا
بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا
لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ
الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ
وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

تفسير المفردات

﴿ **كلا** ﴾ كلمة زجر وردع والمراد اتق بالله وانزجر عن خوفك منهم . ﴿ **بآياتنا** ﴾ المراد هنا معجزاتنا . ﴿ **ففرت منكم** ﴾ خرجت من بينكم إلى مدين . ﴿ **مبين** ﴾ : أى : ظاهر أنه ثعبان بلا تمويه ولا تخييل كما يفعل السحرة ، ﴿ **الملأ** ﴾ : إشراف القوم ، ﴿ **عليم** ﴾ : أى : خبير بفن السحر حاذق فى تلك الصنعة ، ﴿ **فماذا تأمرون** ﴾ أى : فبم تشيرون ، ﴿ **أرجه وأخاه** ﴾ : أى : أخر أمرهما ولا تباغتهما بالقتل خيفة الفتنة . ﴿ **حاشرين** ﴾ أى : اجعل رجال الشرطة يحشرون السحرة ﴿ **الميقات** ﴾ : ما وقت به أى حدد من مكان وزمان ومنه مواقيت الاحرام ﴿ **اليوم المعلوم** ﴾ هو يوم الزينة الذى حدده موسى فى قوله : ﴿ **موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ ، ﴿ **وبعزة فرعون** ﴾ : أى : قوته التى يمتنع بها من الضيم ، ﴿ **تلقف** ﴾ أى : تبتلع بسرعة . ﴿ **يأفكون** ﴾ أى : يقلبونه عن وجهه وحقيقته بكيدهم وسحرهم ، ﴿ **من خلاف** ﴾ أى : بقطع الايادى اليمنى

والأرجل اليسرى ، لا ضير ، أى : لا ضرر علينا فيما ذكرت ، ﴿ ينقلبون ﴾ أى : راجعون . ﴿ اسرى ﴾ : سار ليلا ، ﴿ متبعون ﴾ : أى : يتبعكم فرعون وجنوده ﴿ والشرذمة ﴾ : الطائفة القليلة من الناس ، ﴿ غائظون ﴾ أى : فاعلون ما يغيظنا ﴿ حاذرون ﴾ : أى من دأبنا الحذر فى الأمور ، كنوز أى : أموال كنزوها وخزنوها فى باطن الأرض ، ﴿ ومقام كريم ﴾ : أى : قصور عالية ودور فخمة ، ﴿ أورثناها ﴾ : أى ملكناها لهم تمليك الميراث ، ﴿ مشرقين ﴾ : أى داخلين فى وقت الشروق ، ﴿ تراءى الجمعان ﴾ أى : تقاربا بحيث رأى كل منهما الآخر ، ﴿ لمدركون ﴾ أى : سيدركوننا ويلحقون بنا ، ﴿ كلا ﴾ : أى لن يدركوكم ، ﴿ انفلق ﴾ : انشق ، ﴿ الفرق ﴾ الجزء المنفرق منه ، ﴿ والطود ﴾ : الجبل ، ﴿ وأزلفنا ﴾ أى : قربنا . ﴿ وثم ﴾ : أى هناك ، ﴿ لآية أى : لعظة وعبرة توجب الايمان بموسى .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه سوء حال المشركين وشدة عنادهم وقبيح لجاجهم سلى رسوله ﷺ ـ على ذلك بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم وانه ليس بالأوحد فى الأنبياء المكذبين ، فقد كذب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر الآيات وعظيم المعجزات . ولم تغن الآيات والنذر ، فحاق بالمكذبين ما كانوا به يستهزئون وأخذهم الله بذنوبهم وأغرقهم فى اليم جزاء اجتراحهم للسيئات ، وتكذيبهم بعد ظهور المعجزات ، وما ربك بظلام للعبيد .

التفسير

هذا جزء من قصة موسى على نبيا وعليه الصلاة والسلام ـ وقد جاء بعد ذلك الحديث عن إبراهيم ، ثم نوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ثم لوط ، ثم شعيب

كلمة عن القصة فى القرآن

الحدث التاريخى والقصة

إن القصة القرآنية بنيت بناء محكما من لبنات الحقيقة المطلقة التى لا يطوف بحماها طائف من الخيال ، ولا يطرقها طارق منه . . ثم هى مع هذا « قصة » حيث سمى القرآن كل ما جاء على هذا النحو قصصا ، فقال تعالى مخاطبا النبى الكريم : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾[2] .

---

(١)سورة طه الآية : ٥٩

(١)سورة يوسف الآية : ٣

(٢) سورة آل عمران الآية : ٦٢

هكذا أطلق القرآن لفظ القصص على ما حدّث به من أخبار القرون الأولى فى مجال الرسالات السماوية ، وما كان يقع فى محيطها من صراع بين قوى الحق والضلال ، وبين مواكب النور وجحافل الظلام .

والقصص القرآنى كله عرض لأحداث تاريخية مضى بها الزمن فهو - والأمر كذلك - وثيقة تاريخية من أوثق ما بين يدى التاريخ من وثائق ، فيما جاء فيه من أشخاص وأحداث ، وما يتصل بالأشخاص والأحداث من أمكنة وأزمنة .

الشخصية والحادثة

يقوم العمل القصصى على محورين : إما الشخصية ، وإما الحدث .. بمعنى ان تكون الشخصية هى الفلك الذى تدور حوله الأحداث ، أو أن تكون الأحداث هى المركز الذى تدور فى دائرته الشخصيات : وقد تتوازن فى العمل القصصى الشخصية والحدث ، فيتبادلان نقطة الارتكاز والتجمع مرة بعد مرة .. ! ويلاحظ فى القصص التاريخى غلبة الشخصية على الحدث .. فيكون الشخص هو محور الحركة فى القصة ، وهو منطلق الأحداث الجارية فيها ..

ومن هنا كان أبطال القصص التاريخى أشخاصا لا أحداثا ..

وفى القصص القرآنى نرى تدبيرا عجيبا معجزا ، فى توزيع المشاهد القصصية توزيعا محكما متوازنا ، بين الحدث والشخصية .. فلا تجد موقفا من المواقف تستأثر به الشخصية وحدها ، أو الحادثة وحدها .. وإنما تلتقى الشخصية مع الحادثة أو الحادثة مع الشخصية فيتخلق من اجتماعهما مضمون هو الذى يصبح بطل الموقف . فتكون شخصيته أبرز شخوص القصة ، ويكون صوته اندى الأصوات فيها ، وأقواها سلطانا على المشاهدين أو المستمعين !

فالاشخاص فى القصص القرآنى - أيا كانوا - ليسوا مقصودين لذاتهم من حيث هم أشخاص تاريخيون يراد ابراز معالمهم وكشف احوالهم ، والتمجيد أو التنديد بأعمالهم .. وإنما يعوض القرآن ما يعرض من شخصيات كنماذج بشرية فى مجال الحياة الخيرة أو الشريرة ، وفى صراعها مع الخير والشر وفى تجاوبها أو تعاندها مع الأخيار والأشرار ..

إن الشخصية فى القصة القرآنية ، إنما ينظر إليها بهذا الاعتبار الذى تؤدى فيه دورها كشاهد من شواهد الانسانية ، فى قوتها أو ضعفها ، وفى استقامتها أو انحرافها ، وفى هداها أو ضلالها ، وفى رشدها أو غيها ، وفى حكمتها أو سفاهتها .. إلى غير ذلك مما تندرج تحته عوالم الانسانية ، وتتشعب فيه مذاهب سعيها ومسلكها فى مضطرب الحياة !

وكذلك الشأن فى الأحداث التى يعرضها القرآن فى قصصه .. إنها ليست إلا محاك اختبار تظهر فيها معادن الرجال ، وتختبر بها مواطن القوة والضعف فيهم ، ومنازع الاحسان والسوء فيهم .. !

ومن أجل هذا ، كان ذلك الذى نشهده فى القصص القرآنى ، من عرض الشخصية فى معارض

كثيرة ، حيث تستدعيها الأحداث والمواقف . . فنجد كثيرا من الشخصيات تأخذ مواقف متعددة فى القرآن الكريم ، وذلك فى أزمنة متباعدة ، فى عرض القرآن لها ، حسب نزوله . . ولو أن الشخصية كانت مقصودة قصدا اصليا لذكرت احداثها ومواقفها فى معرض واحد . . فكنا نجد قصة موسى مثلا فى سورة واحدة ، وكذلك قصة إبراهيم ، وعيسى ، ونوح وغيرهم . . ولكن الذى كان هو أننا نرى الشخصية مع حدث من الأحداث تتفاعل معه ، وتمضى به إلى غايتها فى موقفه منها أو موقفها منه . . ثم ينتهى المشهد ، ويطوى الموقف . حتى إذا مضى زمن ـ طال أو قصر ـ طالعنا وجه الشخصية من جديد مع حدث آخر ، يأخذ دوره معه ، ثم يمضى . . وهكذا .

وعلى هذا ، فإن التكرار الذى يقال عنه فى القصص القرآنى ليس تكرارا للحدث ، ولا إعادة للواقعة بصورتها التى عرضت بها أولا ، بل إن أكثر القصص القرآنى تتكرر فيه الشخصية ، ولا تتكرر فيه الحادثة .

وإنما الذى دعا إلى هذا القول هو ظهور الشخصية فى مواقف متعددة ، فوقع للنظرة المجردة من التعمق والتبصر أن ذلك من التكرار ، بل التكرار الممل الذى لا تدعو اليه داعية ، مِنْ حال أو مقام !

إن الشخصية فى القصص القرآنى ليست مقصودة لذاتها ، ولا كان ذكر الأشخاص منظورا إليه نظرة القصص التاريخى إلى شخصياته ، وعرضهم فى معارض البطولة . . فى أى مجال من مجالاتها .

وإنما الأحداث والوقائع . . أولا ، ثم الشخصيات التى تلبست بها أو لابستها الأحداث . . ثانيا . . لأن مناط العبرة والعظة إنما هو فى الحدث ، وفى موقف الناس منه ، وتلقيهم له ، من بين محسن ومسىء ، ومقبل ومعرض ، ومستقيم ومنحرف . . ومن خلال هذه المواقف التى يقفها المحسنون أو المسيئون من الأحداث تنكشف وجوه العبرة والعظة منها . . وهذا ما جاء القصص القرآنى من أجله . .

لا تكرار فى القصص القرآنى

والذى يتتبع القصص القرآنى يجد ان أحداثه كلها تقريبا تدور فى محيط الدعوة إلى الله ، وإلى تحرير العقيدة وتصفيتها من العبودية لغير الله ، وتوجيهها إلى عبادة الاله الواحد ، الخالق ، رب العالمين . . . ولذلك كانت دعوات الأنبياء هى الشخصية الغالبة فى القصص القرآنى ، بحيث ساغ أن يسمى القصص باسم صاحب الدعوة فيقال : قصة يوسف ، وقصة موسى ، وقصة يونس ، وقصة هود ، ونوح ، وصالح ، وآدم وهكذا . . والملحظ الذى نود أن نشير إليه هنا مرة أخرى ، هو انه لو كانت الشخصية ـ لا الحادثة ـ هى مناط القصة ودافعها الأصلى لجاءت قصة كل نبى أو كل شخصية غير نبى فى موضع واحد من القرآن ، فى سورة أو بعض سورة . . ولما كان هناك داع لتقطيع حياة الشخصية إلى تلك الأجزاء الموزعة فى مواضع متباعدة فى القرآن ، ولكن اذا نحن اعتبرنا الحادثة ـ لا الشخصية ـ هى محور القصة ـ لم نجد هذا التمزق فى الشخصيات ، وإنما نجد فى كل حادثة أو موقف قصة كاملة وان كان هذا لا يمنع من ان نلتقى بالشخصية الواحدة فى أكثر من حدث وفى أكثر من موقف ، مع تباعد الزمان والمكان . كما ان هذا لا يمنع من ان تقترن الأحداث المتماثلة ويجتمع بعضها

إلى بعض فى مساق واحد ، وفى عرض متصل ، فى سورة أو بعض سورة !

وهذا ما نجده فعلا فى القصص القرآنى !

ففى أكثر من سورة من القرآن الكريم جمعت احداث كثيرة لعدد من الانبياء حيث تتماثل الأحداث ، وتتشاكل الوقائع ، وان اختلفت الأزمنة والأمكنة ، وفى هذا الجمع ما يعطى دلالة واضحة مؤكدة لما فى الانسان من عناد وكنود ، وأن الانسان هو الانسان حيث اختلف زمانه ومكانه .

مفهوم القصة فى القرآن

وهنا يلقانا هذا السؤال : إذا كان القرآن قد سمى الأحداث والوقائع قصصا ، فهل هذه التسمية تتلاقى مع المفهوم الاصطلاحى ، ومع المحتوى الفنى للقصة ، كما تعرف فى الآداب الانسانية قديما وحديثا ؟

ونحن ننظر فى المعنى اللغوى للقصة نرى أن أصل اشتقاقها يتلاقى مع المفهوم الذى قام عليه اصل التسمية للقصص القرآنى . . فالقصة مشتقة من القص وهى تتبع الأثر ، قال تعالى : ﴿ **وقالت لأخته قصيه** ﴾[1] أى : تتبعى آثاره ، على ما انتهى إليه أمره .

ومن هذا قولهم قص الأثر نظر فيه ، واقتفى آثاره وشواهده . . يقال قصصت أثره واقتصصته وتقصصته ، وخرجت فى أثر فلان قصصا .

وفى القرآن ﴿ **فارتدا على آثارهما قصصا** ﴾[2] . . وقص عليه الرؤيا والحديث . . .

وفى القرآن ﴿ **لا تقصص رؤياك على إخوتك** ﴾[3] .

فالقص للأثر أشبه بما يعرف فى عصرنا بتصوير « البصمات » أو رفع الآثار وتصويرها ليستدل منها على ما وراءها من أحداث مضت وليمسك بما يقدر على إمساكه منها .

والقصة فى القرآن إنما تتبع احداثا ماضية واقعة ، وتعرض منها ما ترى علاضيه ! ومن هنا كانت تسميه الأخبار التى جاء بها القرآن قصصا ، مما يدخل فى المعنى العام للكلمة خبرا أو نبأ . وقد استعمل القرآن الكريم الخبر والنبأ بمعنى التحدث عن الماضى ، وان كان قد فرق بينهما فى المجال الذى استعملا فيه ، جريا على ما قام عليه نظمه من دقة وإحكام واعجاز . . . فاستعمل النبأ والأنباء فى الأخبار عن الاحداث التى مضى الزمن بعيدا بها ، ولفها فى اطوائه . . على حين انه استعمل الخبر والاخبار فى الكشف عن الوقائع القريبة العهد بالوقوع ، أو التى لا تزال شواهدها قائمة ماثلة للعيان .

ففى النبأ والأنباء يقول تعالى فى أصحاب الكهف : ﴿ **نحن نقص عليك نبأهم بالحق** ﴾[4] ويقول سبحانه فى شأن الأمم الماضية وما وقع فيها من مثلات : ﴿ **ذلك من أبناء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد** ﴾[5] ويقول سبحانه فيما يقص على نبيه من قصص الأولين .

---

(١) سورة القصص الآية : ١١
(٢) سورة الكهف الآية : ٦٤
(٣) سورة يوسف الآية : ٥
(٤) سورة الكهف الآية : ٣
(٥) سورة هود الآية : ١٠٠

﴿ تلك من أبناء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا .. الآية ﴾ (١) وفى الخبر والأخبار يقول سبحانه مخاطبا المؤمنين !

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ (٢) .

ويقول جل شأنه فيما يكون من احداث يوم القيامة : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ﴾ (٣) والتحدث بالأخبار إنما يكون فى هذا الوقت الذى تقوم فيه الساعة .

وانظر فى قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك نبأهم بالحق ﴾ (٤) تجد أن القصص القرآنى إنما هو من قبيل الأنباء .. أى الأخبار التى بعد الزمن بها ، واندثرت أو كادت تندثر ، ولهذا سماها القرآن : من أنباء الغيب .

وحين ننظر فى القصص القرآنى نجد انه يجىء بمادته كلها من الماضى البعيد دون أن يكون فيه شىء من واقع الحال أو من متوقعات المستقبل .

قصص الأحداث الجارية والمستقبلة

ولعل سائلا يسأل : لماذا لا يكون من تدبير القرآن ان يجىء بقصص يصور الأحداث الواقعة الدائرة فى محيط الدعوة الاسلامية ، أو بأحداث مستقبلة تتنبأ لسير هذه الدعوة عبر المستقبل ، كما نرى فى كثير من القصص الأدبية التى يكشف بها أصحابها عن رؤى جديدة فى ضباب الأحداث المطلة على الحياة ، أو فى المستقبل الذى ينتظر الحياة ؟ .. لماذا لم يكن من تدبير القصص القرآنى مثل هذا القصص الأدبى ؟

والجواب عن هذا من وجوه :

فأولا : قد جاء القرآن الكريم بصور كثيرة من أحداث الوقائع الدائرة فى محيط الدعوة الاسلامية فى اوقات نزوله ، فكشف ضبابها ، وابان عن وجه الحق فيها ﴿ كما ترى ذلك فى حديث الافك ، وفى وقعة بدر وأحد وحنين ، وفى بيعة الرضوان ، وصلح الحديبية ، وغير ذلك كثير مما جاء به القرآن الكريم فى أحوال وشئون ملابسة لنزوله كذلك جاء القرآن الكريم مخبرا عن أحداث ووقائع مستقبلة . فأخبر سبحانه وتعالى عن الصراع الذى كان دائرا بين الفرس والروم ، وان معركة ستدور بعد بضع سنين ، وسيكتب النصر فيها للروم على الفرس . قال تعالى : ﴿ ال م غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين الآية ﴾ (٥) كما أخبر سبحانه عن فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجا فى قوله : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ (٦) كما أخبر عن هزيمة المشركين يوم بدر بقوله سبحانه ﴿ سيهزم

(١) سورة هود الآية : ٤٩
(٢) سورة محمد الآية : ٣١
(٣) سورة الزلزلة الآيتان : ٤ ، ٥
(٤) سورة الكهف الآية : ٣
(٥) سورة الروم الآيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤
(٦) سورة النصر الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

الجمع ويولون الدبر ﴾[١] وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ يقول : كنت أقرأ هذه الآية وأسأل : أى جمع هذا الذى سيهزم ؟ حتى كان يوم بدر ؟ ورسول الله ﷺ ـ يقرأ : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فرأيت الجمع المهزوم !

فهذه أحداث تحدث عنها القرآن ، وكشف عن وجهها من قبل أن تقع ، فجاءت على الوجه الذى صورها به ، دون ان تفقد لمحة واحدة من ملامحها ، وكان الذين استمعوا إلى تلك الآيات وأمثالها حين نزولها ثم شاهدوا أحداثها حين وقعت ـ كانوا كأنما ينظرون إلى شخوص ماثلة فى جانب ، وإلى صورها الواقعة فى المرآة فى جانب آخر !

وهذه الأحداث لم يسمها القرآن قصصا ، لأن القصة تتبع للآثار الماضية والتفات إلى وراء ، لا نظر إلى قدام !

وثانيا : ليس القصص مجرد أحداث تروى ، وإنما هو أحداث تتفاعل وتتحرك ، وتلد عظات وعبرا . . وليس كذلك الشأن فى الأحداث القائمة أو المستقبلة التى يكشف القرآن عن وجهها إذ أن أهم ما فيها هو هذا الكشف ، الذى يتم بمجرد نزول الآية أو الآيات المتعلقة بها هذه الأحداث .

وثالثا : الاشتقاق اللغوى للقصة هو كشف عن آثار ، وتنقيب عن أحداث ، نسيها الناس أو غفلوا عنها ، وغاية ما يراد بهذا الكشف هو إعادة عرضها من جديد ، لتذكير الناس بها ، والفاتهم إليها ، ليكون لهم منها عبرة وموعظة ، وهكذا كان القصص القرآنى ، ولهذا جاء ، قال تعالى : ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[٢] .

ورابعا : فى القصص الأدبى الذى يعالج الحياة الواقعة أو المتوقعة يختلط فيه الخيال بالحقيقة ، وتكثر فيه الشطحات والرؤى والأحلام ، ولا يجد الناس غرابة فى هذا ، فهم إنما يأخذونه على هذا الوجه ، وينظرون فيه على تلك الصفة ـ وليس كذلك ما كان من القرآن من حديث عن الواقع أو المستقبل رجما بالغيب ، ولا خيالا من الخيالات ، ولا حلما من الأحلام ، ولكنه الصدق المصفى ، والحق المبين . . ومن هنا لم يكن لهذه الأخبار التى جاء بها القرآن مدخل إلى القصص ، الذى لابد فيه من عناصر الغرابة أو المفارقة أو الاستحالة ، التى تثير الدهش والاستغراب ، والتى يلعب فيها الخيال فى عقول الناس دورا كبيرا . فصان الله سبحانه أخبار الغيب التى نطق بها القرآن من أن تقع فى نفوس الناس هذا الموقع ، وأن يتدسس إلى مشاعرهم منها هذا الإحساس .

القصة والحكاية

ومع هذا يلقانا سؤال آخر ، هو !

لماذا لم يطلق على القصص القرآنى اسم الحكاية بدلا من القصص ؟ والحكاية كما نرى هى أقرب شىء إلى موضوع هذا القصص ، إذ كان إعادة للماضى وتشخيصا ، ومحاكاة له ، لاسيما أن لفظ

---

(١) سورة القمر الآية : ٤٥

(٢) سورة يوسف الآية : ١١١

« القصص » يوحى بأن جانبا من الخيال قد اختلط به ، على خلاف الحكاية التى تدل على محاكاة مماثلة للحدث أو الاحداث ، دون تزيد عليها ؟

والجواب عن هذا ، هو أن عرض القرآن للأحداث الماضية ليس محاكاة لها ، ولا تمثيلا لشخوصها ومشاهدها ، وإنما هو بعث لها ، وإعادة لوجودها فى النظم المعجز الذى ينقل إلينا الماضى أو ينقلنا إليه ، فنطالع هناك وجوه الحياة فى زمانها ومكانها ، حتى لكأننا أبناء هذه القطعة أو القطع من الزمن وأهله ، فكان لفظ القصص ، أو القص أنسب لفظ يطلق على تلك الأنباء التى عرضها القرآن اذ أن ذلك أشبه بقص أثر الشىء وتتبعه ، ثم الوقوف عليه بذاته ، لا على صورته أو ما يشبه صورته .

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن القصص القرآنى هو أنباء وأحداث تاريخية ، لم تتلبس بشىء من الخيال ، ولم يدخل عليها شىء غير الواقع ، ومع هذا فقد اشتمل على مالم يشتمل عليه غيره من قصص ، من الإثارة والتشويق ، مع قيامه على الحقائق المطلقة ، الأمر الذى لا يصلح عليه القصص الأدبى بحال أبدا .

اعتراضات وتمويهات

وهناك اعتراضات كثيرة يلقيها بعض الدارسين والباحثين فى وجه القول بأن القصص القرآنى تسجيل لأحداث واقعة ، وأنه جاء بهذه الأحداث كما وقعت دون أن يدخل عليها بشىء من التحوير أو التبديل ، أو الزيادة والحذف بحيث يغير من وجوهها ، أو يخالف بين واقعها وما يقصه منها .

وتتلخص هذه الاعتراضات فى :-

أولا : استحالة نقل أى حدث من الأحداث مع جميع ملابساته ، فهناك كثير من الأمور التى تصحب وقوع الحادثة ، ثم لا يكون لها ذكر إذ لا حاجة إليها فى عرض المحتوى المشخص للحادثة ، وإبراز الملامح ذات الدلالة القوية عليها . . ولو أن نقل الحادثة كان يعنى الإمساك بكل جزئية من جزئياتها لكان ذلك ـ على استحالته ـ ضربا ، بل ضروبا من العبث الذى يدعو إلى الملل والسأمة ويذهب بكل ما فى النفس من طاقات الصبر على احتمال هذا اللغو والسخف تصور ـ مثلا ـ حادثة عابرة من الحوادث الكثيرة التى تقع كل يوم على مرأى ومشهد من الناس ، ولتكن سيارة صدمت شخصا ، فى أحد شوارع القاهرة ، وفى وقت من أوقاتها . . وانظر أتستطيع قوة بشرية أن ترصد مجريات هذه الحادثة وأن تمسك بكل قريب وبعيد منها ؟ ـ السيارة ، لونها ، شكلها ، رقمها ، سائقها ، هيئته ـ طوله ـ عمره ـ ثم الشخص الذى صدم . . أوصافه الجسدية وكيف صدم ، وإيه كانت الصدمة ، ومدى آثارها ـ ثم اجتماع الناس ـ والتفافهم حول الحادثة ثم بعض ما كان من تعليقات عليها . . ثم عملية رجال الشرطة والاسعاف ـ ثم انجلاء الموقف ـ وعودة الحياة إلى سيرتها فى هذا المكان . . ذلك أقصى ما يمكن أن يمسك به إنسان من شهود هذه الحادثة من صورها وما دار فى محيطها .

وإن ذلك لقليل إلى كثير جدا مما وقع هناك ، ولم يلتفت إليه أحد ، ولم يكن فى حسبان أحد . .

فكم من الناس من شهدوا هذا الحادث مثلا ؟ وكم الذكور وكم الاناث منهم ؟ وكم الصغار وكم الكبار ؟ وما أسماؤهم ؟ وماذا يلبس كل واحد ؟ ثم ما شأن كل إنسان من شهود هذه الحادثة ؟ إلى أين كانت وجهته ؟ وماذا تركت الحادثة فى نفسه ؟ وهل انطلق بعدها إلى غايته ، أو انصرف إلى وجهة أخرى ؟ إن لكل انسان من هؤلاء قصة طويلة .. لا تكاد تنتهى .

وهل ينتهى الأمر عند هذا ؟ كلا ، فإن هناك مئات بل ألوفا من الأمور الصغيرة أو الكبيرة التى تتصل بهذه الحادثة ـ يمكن أن يجتمع منها كتاب ضخم لو تتبعها متتبع ، ثم يبقى بعد ذلك كثير من مجريات الأمور قد أفلت منه ، ولم يقدر على الإمساك به ، ولو استعان بمئات من الأشخاص والأدوات المسجلة والمصورة .

وهذا يكشف لنا عن أمرين : أولهما : استحالة نقل الحدث مهما صغر نقلا كاملا ، بملابساته جميعها مما حواه زمانه ، واشتمل عليه مكانه .

وثانيهما : ان نقل جميع الملابسات التى تتلبس بالحادث ـ على فرض امكانها ـ لا داعى إليها فى التعرف على وجه الحادثة والاستدلال على مشخصاتها والوقوف على ما يحتاج إليه منها . إذ يكفى من هذه المشخصات ما يصور الملامح الواضحة للحادث ويشخصه .

وبدهى ان القصص القرآنى إذ نقل صورا من أحداث الماضى لم ينقل كل ما تلبس بها من قريب وبعيد ، وإنما أخذ منها ما كان ذا دلالة واضحة عليها ، وأهمل ما لا تدعو الحاجة إليه .. فى تصويرها وتشخصيها !

وإذ كان ذلك كذلك فى القصص القرآنى .. فإنه يعنى أن هذا القصص لم يجىء بالواقع كله بل أخذ بعضا وأعرض عن بعض .. ويعنى أيضا أن هناك تفاوتا واختلافا كثيرا أو قليلا بين هذا القصص وبين الواقع ..

وهذا يعنى ـ مرة ثالثة ـ أن القصص القرآنى مغاير للواقع على نحو ما .. وهذا يعنى ـ مرة رابعة ـ ان هذا القصص قد تصرف فى الأحداث كما يتصرف الكاتب القصصى فى الأحداث الواقعة ، حين يؤلف منها قصة من القصص ، أو رواية من الروايات ، وهذا يعنى أخيرا ان انباء القصص القرآنى ليست الواقع كما وقع ، إذ أنها ليست الصدق كل الصدق .

هذا مدخل من المداخل التى رآها بعض الباحثين آذنة لهم بالقول بأن القرآن الكريم شأنه شأن القصص الأدبى .. لم يقف عند حدود الأحداث الواقعة ، بل تصرف فيها على الوجه الذى يقيم منها قصصا فنيا ، الأمر الذى جعله يغير من وجوه الواقع ، ويخرج به على غير مألوف الحياة ، حتى تجد النفس إقبالا عليه ، لما فيه من جدة وغرابة ولما فى هذه الجدة والغرابة من إثارة

وثانيا : يقدم أصحاب هذا الرأى أدلة على قولهم هذا من القرآن الكريم نفسه .. حيث إن القرآن قد جاء بصور متعددة مختلفة للحادثة الواحدة وتحدث عنها حين عرضها بأساليب مختلفة تتغاير بها صور الحوادث وألوانها .

فمثلا :

فى قصة موسى !

يذكر القرآن الكريم ابتداء رسالة موسى ، وتكليم الله - سبحانه وتعالى - له وذلك فى أكثر من موضع من القرآن .

ففى سورة طه ، يقول تعالى : ﴿ وهل آتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى .. فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى .. إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ، واتبع هواه ، فتردى .. وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى .. قال ألقها يا موس فألقاها فإذا هى حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى - لنريك من آياتنا الكبرى ﴾[1]

وفى سورة القصص تجىء هذه الأحداث هكذا .. يقول الله تعالى : ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين ، وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ، يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه ، إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[2] .

وفى سورة النمل تجىء القصة هكذا . ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، إذ قال موسى لأهله امكثوا إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ، فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين .. يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم - وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون إلا من ظلم ، ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم ، وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[3].

هذا ، ويلاحظ أن السور الثلاث التى وردت فيها هذه القصة هى سور « مكية » ومعنى هذا ان الداعى الذى جاءت له هذه القصة هو هو لم يتغير ، حيث كانت الدعوة الاسلامية فى مواجهة قريش ، ولم يجىء بعد الدور الذى واجهت فيه البلاء مواجهة مباشرة بعد الهجرة !

وإذن فهذا التكرار ، وهذا الاختلاف فى وجوه العرض لم يكن عن مقتضى دواع جديدة دعت

---

(١) سورة طه الآيات : من ٩ - ٢٣

(٢) سورة القصص الآيات : من ٢٩ - ٣٢

(٣) سورة النمل الآيات : من ٦ - ١٢

إليه ، فيتغير الاسلوب بتغير الموقف ومن يقفون فيه . فعن أى داع إذن كان هذا التكرار ؟ .

والآن نود أن نكشف عن وجوه الاتفاق أو الاختلاف فى هذه المواقف التى عرضتها هذه الآيات القرآنية فى السور الثلاث ، ولهذا الجانب الذى عرضته من قصة موسى ـ عليه السلام ـ وذلك لنرى وجه هذا التكرار وهل كان لمجرد التأكيد والتقرير بعرض الوقائع فى هذا اللون من التكرار ـ أم أن ذلك كان لإضافات جديدة تزاد على كل عرض منها . لتكتمل من ذلك كله الصورة التى يراد تقريرها . . والتى تمثل فى مجموعها الواقع كما وقع !؟

وننظر فى هذا فنرى ان الحادثة التاريخية تتضمن العناصر الآتية :

(١) موسى فى طريق عودته إلى مصر من أرض مدين ، وقد بلغ الطور ، ومعه أهله ، وهناك رأى نارا موقدة .

(٢) عندئذ طلب إلى أهله أن يمكثوا حيث هم . وان يذهب هو إلى حيث رأى النار .

(٣) غايته من هذا الذهاب ، وأنه يريد بهذا أن يحصل على شعلة من النار ، ليوقد منها نارا يصطلى بها هو وأهله . . أو لعله يجد هناك عند موقد النار من يؤنس وحشته فى هذه المتاهة الموحشة .

(٤) وهناك قرب النار سمع موسى نداء الله ـ سبحانه وتعالى ـ يخبره فيه ان هذا الذى رآه ليس نارا ، وإنما هو نور الحق . . وان المتكلم هو الله ـ سبحانه ـ وانه سبحانه قد اختار موسى ليكون رسوله إلى فرعون وإلى بنى إسرائيل .

(٥) واذ كلف موسى بهذه الرسالة فقد وضع الله ـ سبحانه وتعالى ـ بين يديه معجزات يحاج بها فرعون ، وان هذه المعجزات ـ هى عصاه التى يلقيها من يده فتنقلب حية عظيمة تسعى . . ويده التى يدخلها فى جيبه ثم يخرجها فإذا هى بيضاء مشرقة وضيئة من غير سوء !

هذه هى أهم عناصر هذه الواقعة التاريخية التى عرضها القرآن فى ثلاثة معارض من النظم القرآنى ـ فى سورة : طه ، والقصص ، والنمل .

ولكى يبدو لنا وجه الشبه أو المخالفة بين هذه المعارض ـ نجعل بعضها إزاء بعض على هذا النحو :

سورة طه .

١ ـ ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا ﴾ .

٢ ـ ﴿ فقال لأهله امكثوا . . إنى آنست نارا ﴾ .

٣ ـ ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ .

٤ ـ ﴿ فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى ﴾ . .

٥ ـ ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى . . قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ، ولى فيها مآرب أخرى ، قال ألقها يا موسى ، فألقاها فإذا هى حية تسعى ، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى ﴾ .

٦ ـ ﴿ واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى . . لنريك من آياتنا الكبرى اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ .

سورة النمل
١ - ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ .
٢ - ﴿ إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ .
٣ - ﴿ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ، يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ .
٤ - ﴿ وألق عصاك ، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ، ولم يعقب . يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون ، إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء ، فإنى غفور رحيم ، وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء .. فى تسع آيات إلى فرعون وقومه ، إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[١] .

سورة القصص
١ - ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ﴾ .
٢ - ﴿ قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر ، أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ .
٣ - ﴿ فلما أتاها نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ .
٤ - ﴿ وأن ألق عصاك .. فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف .. إنك من الآمنين ﴾ .
٥ - ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء . واضمم إليك جناحك من الرهب .. فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[٢] .

فهذه خمسة مشاهد أو مواقف فى هذه القصة :

ويلاحظ :
أولا : لم يجر ذكر المشهد الأول وهو رؤية موسى للنار فى سورة النمل ، على حين قد جرى ذكره فى السورتين الأخريين : طه ، والقصص .

وهذا المشهد هو مدخل إلى القصة ، لا يتعلق به غرض أصيل فيها ، بل هو أشبه بالدقات التقليدية على خشبة المسرح ، التى تسبق رفع الستار فى الرواية المسرحية . ومع هذا فإن فى كل حال من هذه الأحوال الثلاثة نغما خاصا يمهد به للجو الذى تعرض فيه القصة .. ففى سورة (طه) كانت القصة امتدادا لتعداد ما حوى القرآن الذى نزل على النبى الكريم من آيات ، وعبر وعظات ، منها

(١) سورة النمل الآيات من ٦ - ١٢
(٢) سورة القصص الآيات من ٢٩ - ٣٢

القصص ، وفيه قصة موسى هذه . . وكذلك الشأن فى سورة النمل حيث تجىء القصة منبئة عن حكمة الحكيم العليم .

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم . . إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا ﴾ أما فى سورة القصص فإن هذا المقطع هو امتداد لقصة موسى كلها التى بدأت من أولها فى هذه السورة ، وشملت قصة حياته من مولده ، وإلقائه فى اليم ، ونجاته ، ونبوته ، ولقائه فرعون ، وخروجه ببنى إسرائيل من مصر . .

ثانيا : حين يرفع الستار عن أول مشهد من صميم القصة نرى صورة واحدة للمشهد فى المعارض الثلاثة فى السور الثلاث كما ترى . . ففى السور الثلاث جاءت الآية التى تتصدر هذا المشهد هكذا : ﴿ قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ﴾ . . مع تغيير لا يكاد يحس به ، حيث يزيد فى إحداها حرف العطف (الفاء) : (فقال) . . وفى الأخرى تقدمها الظرف (إذ) . . (إذ قال) وذلك مما يطلبه سياق النظم ولا يستدعيه المعنى الذى جاءت الآية لأدائه .

ثالثا : وفى الموقف الثالث ، من القصة نجد اختلافا فى مقول القول لموسى . . وإن كان هذا الاختلاف اللفظى لا يغير شيئا من المعنى . . ولكن نحن بصدد البحث فى التزام القرآن بحكاية الواقع ، ونقل الأحداث على الصورة التى وقعت ـ فإن هذا الاختلاف يثير كثيرا من التساؤل !

ففى سورة طه يجىء بقول موسى : ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ على حين يكون قوله فى سورة القصص ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ثم يجىء قوله فى سورة (النمل) هكذا : ﴿ سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ .

فهناك أمران اقتضاهما هذا الموقف الذى وقفه موسى من أهله حين رأى نارا فدعاهم إلى الانتظار حيث هم فى مكانهم لا يبرحونه ، ولا يتحولون عنه بحال .

أما هو فمنطلق إلى حيث رأى النار ليحقق هذين الأمرين : أولهما : هو أن يأتى بجذوة من النار .

وثانيهما : أن يجد عند النار من يؤنس وحشتهم ، فى هذا المكان القفر الموحش .

وقد رأينا صور التعبير عن هذين الأمرين تختلف فى كل آية من الآيات الثلاث فى السور الثلاث .

فتارة يقدم أحد المطلوبين على الآخر ، وتارة يؤخر . . ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ ومرة يكون الحديث عن النار المستجلبة بأنها جذوة ، ومرة بانها شهاب قبس ، ومرة ثالثة بأنها شهاب ، وحسب .

وفى آية يكون أحد المطلوبين (خبرا) يلتمس عند النار ، وفى آية أخرى يكون هذا المطلوب (هدى) يلتمس عند النار أيضا .

وفى سورتين يصدر المطلوب كله بحرف الترجى (لعل) على حين يذكر المطلوب فى السورة الثالثة غير مصدر بحرف الرجاء هذا . هذه الوجوه الكثيرة من المغايرة تدعو إلى التساؤل حقا . . فهو موقف واحد لاشك فيه ، وهو قول واحد قيل فى هذا الموقف فكيف يتفق هذا مع هذه المقولات الثلاث

وما بينها من اختلاف ؟

إن هذا الاختلاف لو كان فى غير القرآن لما كان له هذا الشأن الذى نجده له هنا فى القرآن الكريم ، حيث إن للقرآن مقامه من الصدق فى نقل الأخبار ، والمشاهد والأحداث ، وحيث إن لكل حرف أو حركة فيه وزنها الذى يرجح وزن السموات والأرض ! وهذه الصور المختلفة من الأداء فى الإخبار عن الواقع نتقبلها من غير القرآن ، لأن المعول عليه فى نقل الأخبار هو المعنى ، وهى بجميع صورها هنا تعبر عن المعنى المقصود ، فى جملته ، وإن اختلفت صور الأداء .

أما والقرآن هو الذى يحدث بهذا الحديث ، فهو الصدق المطلق فى جميع صوره وأشكاله . . وكل صورة من صوره فهو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! والحق وجه واحد ، لا يدخل عليه شىء مطلقا من تبديل أو تحوير .

وكيف يكون هذا ، وقد جاء الحق فى هذه المعارض الثلاثة على ما بينها من خلاف ؟

أتريد الجواب ؟

إذن ، فلا تعجل ، ولا تضجر . . وخذ نفسك باليقظة وبالصبر معا ، فإننا بين يدى أسرار محجبة ، وكنوز مصونة فى روائع الكلم ، لا تأذن بشىء مما عندها ، إلا لمن يقف بين يديها متلطفا ، متأنيا ، متخاشعا !!

ودع ما يذهب إليه بعض المفسرين من أن هذه المقولات الثلاث كانت من موسى فى موقفه مع أهله ، حيث كان ذلك على سبيل التوكيد ، للتسرية عنهم ، والطمأنينة لهم ، وإشاعة الغبطة فيهم ، بعد أن ظهرت لهم أمارات الرجاء فى ضوء هذه النار .

فهذا الرأى على وجاهته لا نراه يغطى هذا الموقف ، ويقيم له الدليل المقنع . والذى نراه ، ونرجو أن يكون مما أرانا الله ، هو :

أولا : ان مقول موسى لأهله هو قوله : ﴿ امكثوا إنى آنست نارا ﴾ ولهذا جاء فى السور الثلاث على صورة واحدة ، لم يقع فيها خلاف ، أو إختلال فى حرف واحد . . ﴿ إمكثوا إنى آنست نارا ﴾ . . إذ لم يكن له إلا قول واحد ، وإلا شعور واحد ينطلق منه هذا القول .

ثانيا : ان بقية مقول القول لا يعدو أن يكون أحد الصور الثلاث : ﴿ لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾ أو ﴿ سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ أو ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ . وليس فى مقدورنا أن نقطع بأى منها هو الذى كان القول الذى أسمعه موسى أهله !

أما المقولان الآخران فهما ـ فى رأينا ـ مما كان يدور فى خلد موسى ويخطر فى خاطره ، وهو يحدث أهله بما سيكون من شأنه مع تلك النار التى رآها . .

فهو بين يأس ورجاء مما سيجد عند النار . . فقد يكون موقد النار ركب تجار ، أو قطاع طرق ! . . ولهذا فإنه إن صرح بأنه سيأتى بخبر راجع نفسه ، فقدر غير هذا التقدير . . ثم عاوده الأمل ثم طلع عليه الخوف . . وهكذا . . ثم قال : لعل وعسى !! وهو موزع النفس بين الأمرين المتطلع

إليهما . . الحصول على قبس من النار ، والعثور على الأنيس الذى يبدد مخاوف هذا المكان المخيف ، ويذهب بوحشته . وهو حريص عليهما معا ، طامع فيهما جميعا ، فهو وإن قدم أحدهما لفظا فإنه قد يكون هو المقدم فى خاطره ، ثم يدفعه صاحبه ، ويتقدم عليه . . وهكذا .

والنار التى تصور أنه سيحصل عليها ليست فى تصوره لها على حال واحدة ، لأنه لا يدرى ما هو الذى يمكن ان سيحصل عليه منها ، أهو بعض شرارات من النار ، أو هو شعلة منها . وهكذا تكون هذه الصورة المتكررة هى من منطوق موسى عليه السلام ، ومن الخواطر المتلبسة بهذا المنطوق أيضا . .

وهذا التصوير الدقيق لأحوال النفس ، ومسارب الخاطر ، لا يمكن ان يكون فى غير القرآن . . ولا يمكن ان يحتمله نظم غير نظم القرآن .

ثم إنه لا يمكن ان يكون على صورة مقبولة مع هذا التكرار ، إلا إذا جاء موزعا كما هو واقع فى هذه المعارض الثلاثة ، وإلا تراكمت ألوان الصورة وتدافعت ، ولطم بعضها وجه بعض ! هذا ، ويمكن ان تكون هذه المقولات الثلاث قد خرجت من همس الخاطر جميعها ، وتسربت إلى الخارج تحت ضغط الانفعال النفسى ، فكانت ألفاظا مسموعة من موسى أسمعها أهله ، ليكونوا على بينة مما وراء هذا الوجه الذى يتجه إليه ، ولا يدرى على وجه التحقيق ماذا هو ملاق عنده .

وفى المشهد الرابع . . وهو الذى يصور وصول موسى إلى النار ، ثم سماعه نداء الحق هناك ، وإبلاغه أن هذه النار التى رآها ليست على ما تصور وتخيل ، وإنما هى نور الحق جل وعلا . . وان على موسى ـ وقد عرف هذا ـ أن يأخذ لهذا الموقف ما ينبغى له من التوقير والاحترام ، وهنا يؤمر بخلع نعليه ، وان يتهيأ لسماع ما يوحى إليه من الله تعالى . . فقد اختارته العناية الالهية ليكون رسولا من رسل الله إلى عباده ـ فى هذا المشهد نجد أن الصور الثلاث التى صورت بها المشاهد الثلاثة انما هى صورة واحدة ، قد توزعت توزيعا دقيقا محكما ، بحيث أخذ كل مشهد بحظ منها ، يمكن ان يقوم بنفسه ، مستغنيا عن غيره ، فترى فيه ملامح الصورة كلها مجتمعة ، ومفترقة ! كما يمكن اذا انضم إلى المشهدين الآخرين ان يكون معهما صورة مسجدة ، تبرز فيها الملامح ، وتظهر المضمرات ، وما استتر وراء الكلمات ! فنحن نرى من مجموع الصور الثلاث التى تقع لنا من هذه المشاهد الثلاثة ان مكان هذا الحدث كان بالوادى المقدس طوى ، وانه كان بالجانب الأيمن للبقعة المباركة من الشجرة ، وان موسى سمع صوت الحق يناديه : ﴿ **إنى أنا ربك . . فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله . . لا إله إلا أنا فاعبدنى ، وأقم الصلاة لذكرى** ﴾[1] .

﴿ **إنى أنا الله رب العالمين** ﴾[2] ـ ﴿ **إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾[3] وواضح من هذا أن هذه الكلمات التى تفرقت فى السور الثلاث يمكن أن تظهر فى مشهد واحد ، فيجتمع بعضها إلى بعض على هذا النحو ، دون أن يكون بينها تدافع أو تفكك ، بل إن بعضها ليصافح بعضا فى تعاطف واشتياق ، فهى

---

(١) سورة طه الآيات : من ١٢ ـ ١٤

(٢) سورة القصص الآية : ٣٠

(٣) سورة النمل الآية : ٩

جميعها من قول الله سبحانه وتعالى لموسى فى هذا الموقف ، قد حملت كل سورة بعضا منه ، وهذا البعض كاف لذاته لأداء المعنى المراد ، فإذا اجتمع بعضها إلى بعض اتسع اطار الصورة ، فإزدادت وضوحا ، وإن لم تتغير محتوى ومضمونا !

وواضح أيضا أن هذا التكرار فى الحديث عن الله ـ ﴿ إنى أنا ربك . . إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى . . إنى أنا الله رب العالمين . . إننى أنا الله العزيز الحكيم ﴾ هذا التكرار المتلاحق فى سرعة وانطلاق إنما اقتضاه الموقف الذى اهتز له موسى من اقطاره ، فكان صوت الحق سبحانه بهذه النداءات المتكررة سكنا لقلب موسى ، وامساكا لنفسه وقد كادت تذهب شعاعا !

أما فى المشهد الخامس ، وهو الذى يكشف عن المعجزات التى وضعها الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى يد موسى ، وما كان من موسى حين رأى هذه المعجزات تنفجر من بين يديه لأول مرة ـ فى هذا المشهد نرى فيه ما رأينا فى سابقه ، من أن الصورة الكبيرة الجامعة للمشهد كله ، قد وزعت بين السور الثلاث ، بحيث يمكن ان يستقل كل مقطع منها فى سورته بتأدية المعنى الذى تؤديه الصورة مجتمعة فى مقاطعها الثلاثة ، وبحيث إذا اجتمعت هذه المقاطع تشكلت منها صورة تكشف عن الأجزاء الدقيقة الخفية ، التى كانت تطل من وراء حجاب ، فى مقطعها الذى شكلت فيه !!

ففى أحد المقاطع نرى موسى يتحدث عن عصاه ، ويكشف عن وظيفتها الأصلية التى يعرفها لها ، والتى صحبها عليها . . الأمر الذى لا نجده فى المقطعين الآخرين .

ونرى العصا حين يؤمر موسى بإلقائها من يده تنقلب حية تسعى فى أحد المقاطع ، ثم نراها تهتز كأنها جان فى المقطعين الآخرين . . فتكتمل بذلك الصورة الحقيقية لما صارت إليه العصا . . فهى حية فى ضخامتها ، جان فى خفتها ونشاطها وحيويتها التى تضاعف من أفاعيلها ، وتضاعف من مشاعر الفزع والهلع منها . . وأنت ترى فى تصويرها بالحية قد وصفت الحية بأنها « تسعى » ، ومن هذا الوصف نجد معنى الخفة والنشاط الذى كشف عنه ما وصفت به فى المقطعين الآخرين من أنها « تهتز كأنها جان » . . كما نرى فى تصويرها وهى « جان » بأنها تهتزـ ما يشعر بضخامتها لأنها لو كانت دون ضخامة الحية لما كان منها اهتزاز بل انطلاق أشبه بإنطلاق السهم . !

فالحية التى تسعى والجان الذى يهتز . . كل منهما يعطى صورة واضحة لما انقلبت إليه العصا . . فهى حية فى جان ، و جان فى حية . . (والجان هو فرخ الحيات) وقد جاء فى القرآن وصف آخر لما صارت إليه العصا . . وهو ﴿ ثعبان مبين ﴾ . . وهذا الوصف يناظر تماما الوصفين السابقين لها . . فهى ثعبان فى خفة الحركة ولكنه ثعبان مبين فى عظم الجسم وضخامته ! وهكذا نجد التكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدى وظيفة حيوية فى إبراز جوانب لا يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير بل لابد أن تعاد العبارة مرة ومرة لكى تحمل فى كل مرة بعضا من مشخصات المشهد وإن كانت كل عبارة منها تعطى صورة مقاربة للمشهد كله .

ولنا أن نشبه ذلك على بعد ما بين المشبه والمشبه به . . بالتصوير (الفتوغرافى) . . اللقطة الواحدة تصور المشهد كله . تصويرا كاملا صامتا . . فالصورة هنا وإن أعطت جميع ملامح المشهد فإنها تحتاج فى قراءتها إلى مهارة وحذق ،

للكشف عن مضمونها أو بعض مضمونها . . أما الصورة السينمائية فإنها تتشكل من مئات وآلاف (اللقطات) حتى تتجسم الأحداث وتتحرك الشخصيات وتنكشف كل خافية كانت مختبئة وراء الصورة (الفتوغرافية) إن تكرار الأحداث القصصية فى القرآن هو إعجاز من إعجاز القرآن . تتجلى فيه روعة الكلمة وجلالها ، بحيث لا يرى لها وجه فى أية لغة وفى أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه فى جلاله وروعته وسطوته ! وهل شهدت الحياة الكلمة تؤدى ما يؤديه العمل السينمائى اليوم من نقل المشاهد بأبعادها الثلاثة - (طولها وعرضها وعمقها) وبحركاتها وسكناتها ، ونطقها ، وصمتها ؟ وكم تتكلف السينما لهذا العمل من لقطات ؟ مئات وألوفا ! أما النظم القرآنى فإنه ينقل المشاهد بأبعادها وأعماقها وبحركاتها وسكناتها وبنطقها وصمتها وبوسوسة خواطرها . وهجسات نفوسها ، ثم لا يكون ذلك كله إلا بلقطة أو لقطتين أو ثلاث للمشهد الواحد كله . ومن تدبير القرآن فى هذا أنه لم يجمع هذه اللقطات فى معرض واحد حتى لا تتراكب وتتراكم بل جعلها موزعة فى مواضع متباعدة فى القرآن الكريم بحيث يمكن أن تستقل كل (لقطة) منها بذاتها مستغنية عن كل تفصيل ، ثم بحيث لو نظر ناظر إليها من خلال اللقطات الأخرى المماثلة أو المناظرة لها لوجد منها جميعا صورة واحدة . .

وإذن فالذين يقولون إن هذه الوجوه المختلفة فى عرض القصة الواحدة لا يستقيم منها القول بأن القصص القرآنى قصص واقعى بجميع عناصره ومقوماته ، هذا القول إنما يستقيم فى نظر من ينظر إلى القرآن على أنه مجرد كلام من الكلام يرسل على عواهنه ويلقى به بغير حساب ولا تقدير ، ولكنه لا يستقيم أبدا عند من ينظر فى القرآن بعين بصيرته فيرى فى كل كلمة من كلمات الله عالما فسيحا لا حدود له مشرقا بأضواء الحق من أرضه وسمائه .

ثالثا : ومما يراه أصحاب هذا الرأى مؤيدا لوجهة نظرهم فيه أيضا أن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، والشخصيات التى وردت فى هذا القصص لم يكن لسانها عربيا كموسى . وفرعون ويوسف واخوته . والعزيز وامرأة العزيز ، وأصحاب الكهف ، وما كان بينهم من حديث ، والأنبياء وأقوامهم ، إلى كثير من الشخصيات التى نطق عنها القرآن بلسان عربى . . ففرعون مثلا نطق عنه القرآن بمقولات كثيرة كقوله : ﴿ **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟** ﴾[1] .

وقوله : ﴿ **يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى** ﴾[2] .

وإنه مما لاشك فيه أن فرعون لم ينطق بهذه الكلمات فى مقاطعها وحروفها ، وإنما الذى نطق به هو ما حملت هذه الكلمات من معنى . . فهى ترجمة أمينة صادقة لما قال ! وهذا النقل أيا كان من الدقة والاحكام فى نقل المعانى من لسان إلى لسان فإنه على أى حال صورة مخالفة للواقع ولو فى الصورة والشكل وإن لم يكن فى المضمون والمحتوى ، وأى مخالفة أكبر من أن تتبدل ألسنة الناس فينطقوا بغير اللغة التى نطقوا بها ؟ ففرعون - ولغته المصرية القديمة - ينطق بالعربية الفصحى ، وأصحاب الكهف

---

(١) سورة الزخرف الآية : ٥١

(٢) سورة غافر الآية : ٣٦

ولا تعرف لغتهم على وجه التحديد ـ يتحاورون بلسان عربى مبين .. وهكذا ؟

وأكثر من هذا .. الحيوانات والجماد ينطقها القرآن بهذا البيان المبين ﴿ **ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها .. قالتا أتينا طائعين** ﴾ (١) ..

﴿ **قالت نملة : يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ (٢) .

والهدهد ينطق بين يدى سليمان قائلا : ﴿ **أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم** ﴾ (٣)

فهذه المفارقات وأشباهها قد جعل منها بعض الدارسين منفذا آخر ينفذون به إلى القول بأن القصص القرآنى شأنه شأن القصص التاريخى الذى لا يكون قصصا إلا إذا لونه القاص بألوان من خارج الواقع وجعل لنفسه سلطانا على الأحداث فيغير ويبدل كما يقتضى الحال وتستدعى أجواء القصة .

دعاوى متهافتة :ـ

والحق أن هذه الاعتراضات كلها مماحكات وتلبيسات متهافتة ، لا تقوم على أساس من الحجة الواضحة والمنطق المستقيم .. فالقول بأن القصص القرآنى لم يحمل فى اطوائه الأحداث التى جاء بها متلبسة بكل ما صحبها من صور وأشكال ساكنة ومتحركة فى مجال الزمان والمكان على سواء ـ هذا القول ـ مع تسليمنا به لا تقوم منه حجة أبدا على أن القصص القرآنى قد بعد عن الواقع فى قليل أو كثير ..

ذلك أن الحياة كلها بأزمنتها وأمكنتها ، وأشخاصها وأحداثها حاضرة عتيدة كلها بين يدى الحكيم الخبير الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء !

وهذا القصص الذى جاء به القرآن الكريم لم يكن تاريخا للحياة كلها وأحداثها ، وإنما هو عرض لبعض المواقف وكشف عن بعض الأحداث التى من شأنها أن تحدث فى النفس أثرا ، وتقيم فى الضمير وازعا ، وتفتح العقل والقلب على مواقع ماثلة للعبرة والعظة .

فالقصص القرآنى لا يمسك بالأحداث الواقعة فى الحياة كلها .. وإنما يمسك من الأحداث والوقائع بما يراه مجليا عن عبرة كاشفا عن عظة ، لتنتفع بها الدعوة الاسلامية فى مقام الدعوة إلى الله ، والانابة إليه .. ولا يعنيه أن يكون الحدث مدويا صارخا ، أو مزلزلا عاتيا بقدر ما تعنيه الدلالة التى يدل عليها ، والعظة التى ينطوى عليها .. ولاشك أن هذه الأحداث والوقائع التى يقتطعها القصص القرآنى من (شريط) الحياة هى الصدق الخالص ، والحق الذى لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من

---

(١) سورة فصلت الآية : ١١

(٢) سورة النمل الآية : ١٨

(٣) سورة النمل الآيتان ٢٢ ، ٢٣

خلفه . . يقتطعها القرآن زمانا ومكانا وأشخاصا وملابسات ، وينفخ فيها نفخة الحياة فتبعث من مرقدها ، وقد تساقط منها ما جف من أوراقها ، وما ذبل من أغصانها . . وإذا هى ثمر طيب ، دانى القطوف ، تأخذه العين وتشتهيه النفس ! .

وإذن فليس تخليص القصص القرآنى من الزوائد والحواشى التى لا تغنى شيئا فى تصوير الحدث وعرضه فى معرض الاعتبار والعظة ـ ليس هذا التخليص إلا عملية غربلة وتصفية ، غايتها تنقية الحدث من الشوائب ، وتخليصه من الغثاء والزبد ، ليصفو مورده ، ويسوغ مذاقه للواردين . . وليس ذلك عن عجز أو غفلة عن جميع الملابسات التى اتصلت بالحدث من كل جهة من جهاته ، والتقت به من قريب أو بعيد !

وهذا التصرف الذى كان من صنيع القرآن فى عرض الأحداث ، وفى تخير الجوانب التى تخدم بروز الأحداث ، وتجليتها ـ ليس مما يصح أن يقال معه : إن القرآن ـ وقد أباح التصرف فى الأحداث على أى وجه من الوجوه قد ـ أدخل فى القصص القرآنى ما ليس من صميم الواقع ، أو أنه غير وبدل فى معالمه . فهذه مغالطة ـ كما قلنا ـ لأن ما جاء فى القصص القرآنى هو الصميم من الواقع ، واللباب من الحادث ، وإن يكن ترك ما ترك من حواش وأطراف وزوائد ، وقشور .

وأما القول بأن القرآن نفسه قد جاء بالحادثة الواحدة فى صور مختلفة متغايرة ، فهذا أيضا خلط وتخبط ، جاء عن نظر قاصر لا يرى إلا ظاهر الأشياء ، ولا ينفذ إلى شىء مما وراء هذا الظاهر !

وقد رأينا فيما ذكر القرآن من قصة موسى أن هذا الاختلاف : إما اختلاف غايته تصوير ما توارد على النفس من خواطر ، وما تردد عليها من صور . . كقول موسى لأهله :

﴿ امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾[1] .

وقوله : **﴿ امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾**[2] .

ثم قوله : **﴿ امكثوا إنى آنست نارا ، سآتيكم منها بخبر ، أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾**[3] .

وأنت ترى أن الصورة ظلت واحدة فى المقام الذى لم يكن بد من ثباتها فيه ، كقوله لأهله حين رأى النار (امكثوا) إذ لم يكن ثم سبيل إلى تردد فى هذا الأمر . وكذلك الشأن فى قوله **﴿ إنى آنست نارا ﴾** فهذا سبب ، لا سبب غيره فى دعوته لأهله إلى المكث حيث هم ، وحيث ينطلق هو وحده ليرى ماذا هناك !

ثم كان هذا التردد الذى تذهب النفس فى شعابه مذاهب مختلفة ، حين أراد أن يكشف لأهله عما يبغى من وراء ذهابه إلى النار . . إن الأمر هنا مختلف ، فهو لا يدرى ماذا هنالك عندها ، ومن

---

(١) سورة طه الآية : ١١
(٢) سورة القصص الآية : ٢٩
(٣) سورة النمل الآية : ٧

موقدها .. وأخيرا أيصيب عندها خيرا أم شرا ؟ .

ولهذا كثرت وساوسه ، وتعددت خواطره . فكانت هذه المقولات أصدق تصوير لحاله تلك فى ظاهر أمره وباطنه جميعا .. وإما أن يكون الاختلاف فى اللفظ عن اختلاف فى الأحوال والمواقف .. كقوله فى وصف عصا موسى وما تصير إليه بعد أن يلقيها من يده .. فهى مرة (حية تسعى) وهى مرة أخرى (ثعبان مبين) وهى مرة ثالثة (تهتز كأنها جان) .. فهى صور من أحوال العصا يكمل بعضها بعضا .. فهى حية فى ضخامتها ، وهى ثعبان فى خفتها ونشاطها ، وهى جان فيما تثير من رعب وفزع .. ولقد رآها موسى على تلك الصفات كلها ، وصحبها على تلك الوجوه التى تكشفت له منها .

وأما أن القرآن قد تحدث بلسانه العربى عن ألسنة غير عربية ، أو نطق عن دلالة الحال ، كما فى تحديثه عن الجماد والحيوان ، فهذا لا يمكن أن يجىء منه الادعاء بأن القرآن قد تقول على من نطق عنه ، وإنما هذا الذى نطق به القرآن مترجما به عما نطق به الناطقون ، أو نطقت به دلائل الأحوال - إنما هو المضمون الحق ، والمحتوى الصادق الأمين لما نطقت به الألسنة ، أو أشارت إليه دلالات الأحوال .

وماذا كان يمكن أن يكون غير هذا فى مثل هذه الأحوال إذا أريد نقلها وعرضها فى الحياة ؟

أكان من التدبير الحكيم هنا أن يجىء القرآن بالأشخاص والأحداث فيبعثها من مرقدها ويحركها على مسرح الحياة من جديد لتنطق هى بما نطقت به ، أو لتشير إلى ما كانت تشير إليه ؟

إن قدرة الله تعالى لا يعجزها شىء .. ولكن هل تحتمل الحياة هذا لو انه حدث ؟ وهل يلقاه الناس فلا يفتتنون به ، ولا يخرجون عن عقولهم فى تخبط مجنون ؟ ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[1] !

ثم هل لو استمع العرب إلى هذه المقولات التى نطق بها أصحابها كما نطقوها بألسنتهم ، أو بأصواتهم - هل يفهمون شيئا ، أو ينتفعون مما استمعوا بشىء ؟

ان القصص القرآنى لكى يكون قصصا مثمرا نافعا ، فقد جاء على وفق الحياة التى يحياها الناس ، ولم يخرج على مألوفها .. !

ولو جاء على غير هذا لما كان للناس التفات إليه ، ولو أنهم التفتوا إليه لما وقع لهم منه إلا البلبلة والاضطراب ! .

فالناس يتداولون الأنباء ، ويروون الأخبار ويتناقلونها ، على تعدد الأشخاص ، واختلاف الألسنة .. ثم لا يكون شىء من ذلك حائلا بينهم وبين أن يفيدوا منها وينتفعوا بها ، ويخلصوا إلى مضامينها .

وغاية ما يمكن أن ينظروا إليه فى هذا الأحوال ، هو الصدق فى الرواية ، والأمانة فى النقل ، والدقة فى التصوير والتعبير . وإذا كان هناك ملتمس تلتمس فيه هذه الغاية على أتم تمامها ، وأكمل كمالها فلن يكون ذلك على هذا الوجه إلا فى القرآن ، وفيما نطق عنه القرآن .

إن القصص القرآنى وإن يكن سماوى المطلع فهو بشرى الصورة ، إنسانى المنازع والعواطف ، يتحدث عن الناس إلى الناس ، ويأخذ من الحياة للحياة .. يقرؤه الناس ويسمعونه فكأنما يقرأون

(١) سورة الاسراء الآية : ٩٥

اطواء أنفسهم ، ويسمعون همس ضمائرهم ، ووسوسة خواطرهم ، ومن هنا فهم يعيشون فيه ، ويحيون معه ، وينتفعون به انتفاع الأرض بصوبها الغيث .. فيقع منها مواقع مختلفة ، بين وديان وسهول ، وجبال وقيعان ، وأحراش وسهول !

المؤثرات المباشرة وغير المباشرة فى القصص القرآنى :

وهنا سؤال يلقانا بعد هذه المقولات التى قلناها فى القصص القرآنى ، من أنه أحداث واقعية مقتطعة من التاريخ ، وأن القرآن قد تخير من هذه الأحداث ما يخدم الدعوة ، ويفتح للناس طرقا للعبرة والعظة منها ، كما انه تخير من هذه الأحداث ما رآه من المواقف والمشاهد صالحا لبناء الصورة المحققة لهذه الغاية .

نقول : إن سؤالا يلقانا بعد هذه المقولات .. وهو : إذا كان ما فى القصص القرآنى هو مجرد أحداث تاريخية . فكيف تحسب هذه الأحداث فى عداد القصص ؟ ومن أى باب تدخل إليه ؟ وهى ليست إلا تاريخا ، أو بمعنى أدق حقائق تاريخية ؟ وفى القرآن الكريم كثير من الحقائق التاريخية ، والنفسية ، والاجتماعية ، والعلمية ، مع هذا فلم تدخل فى القصص القرآنى المعروف ! فلم اختصت هذه الحقائق التاريخية دون غيرها باسم القصص ؟

والجواب عن هذا من وجهين :

أولا : الاسلوب الذى جاء عليه القرآن من هذا النظم الرائع المعجز المفجر هو فى ذاته آية الآيات فى فن الكلام .. ومن هنا كانت آيات القرآن الكريم كلها فنا عاليا لا يطاول .. من فنون القول ، وكان أى لون من الوان الحقائق معجبا مثيرا إذا حملته ألفاظ القرآن ، وجلته فى هذا النظم المعجب المعجز !

وإذن فكل آيات القرآن تحقق لقارئها أو لسامعها أصدق وأقوى ما تحقق أروع آيات الفن القولى ، فى مجال النثر أو الشعر ، وفى مجال الخطابة ، أو القصة .

فالآية ـ أو الآيات من الكتاب الكريم ـ لك ان تطلق عليها الوصف الذى يروعك ويروقك من فنون القول . فتقول عنها إنها قصيدة أو خطبة ، أو قصة .. لا تعنى بذلك الاسلوب الذى نظمت به وجاءت عليه ، وإنما تعنى ما دخل عليك منها من آثار فنية ، ملكت عليك عقلك وقلبك .. وهذا ما كان من قريش وهى تستمع من القرآن فتأخذها منه روعة ، وتغشاها من تلقائه سطوة .. ثم لا تدرى ماذا تقول فيه .. فتقول مرة .. إنه شعر ، ومرة أخرى هو سحر ، ومرة ثالثة : أساطير الأولين ، أو هو قول كاهن ، أو قول شاعر ،

وهكذا تمضى فى تنقلها من قول إلى قول فيه ، لأنها تجد منه أحوالا أشبه بهذه الأحوال التى تجدها للشعر ، وللسحر ، وللأخبار الغريبة التى يحدِّث بها الكهان وأصحاب الأساطير .. وإن كان ما يلقاها من القرآن أصفى صفاء ، وأبلغ اثرا ، وأصدق خبرا ..

ومن أجل هذا اراد بعضهم ان يكيد للنبى ، وهو يدعو قريشا إلى الاسلام ، فجلب قينات يعزفن ويغنين ، ليجذب قريشا إليه ، وليملأ أسماعهم بتلك الألحان والأغانى ، التى استجلبها ، وهو يحسب أن ذلك سيصرف الناس عن الاستماع إلى القرآن ، والخشوع له ، فما التفت احد إلى هذا

العبث إزاء ما كان يملأ به القرآن الآذان والقلوب من آياته البينات المعجزة ، وفى هذا يقول القرآن الكريم : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾(١) . وحين لم ينفع هذا شيئا من النفع فيما أريد له ، جعلوا يشوشون على القرآن حين يتلى ، حتى لا يخلص منه إلى الآذان ما ينفذ إلى القلوب منه من جلال ورهبة ، وقد فضح القرآن الكريم هذا الكيد الصبيانى ، فقال تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾(٢) .

فالقرآن كله يدخل على العقول والقلوب مدخل الروعة والدهشة والإثارة ، بما لا تستطيع اروع آيات الفن الكلامى ان تبلغ أقل القليل منه .. متفرقة ومجتمعة ! ..

وهذا يؤدى بنا إلى القول بأن الأحداث التاريخية فى النظم القرآنى لها من الإثارة الفنية ما لا يحدثه أروع الملاحم ، وأكثرها إغرابا فى الخيال .. حتى لو كانت هذه الأحداث التى يعرضها القرآن تساق مساعق الخبر ، مجردة من كل صور الصراع ، والاحتكاك بغيرها من الأحداث .

ثانيا : اذا كان ذلك هو شأن القرآن كله من حيث نظمه ، وما لهذا النظم من روعة آسرة وسلطان قاهر متحكم فى العقول والقلوب ، فإن اطلاق اسم القصص على بعض الأحداث التاريخية التى جاء بها لا تأباه هذه الأحداث ، بل إنها فى هذا النظم المعجز ليست مجرد سرد للأخبار ولا عرض للأحداث وإنما هى - كما قلنا - بعث جديد لها ، كما تبعث الحياة فى الأرض الموات !

وإذن فليست الأحداث التى جاء بها القصص القرآنى محتاجة إلى شىء جديد من مواد التشويق والإثارة ، تضاف إليها ، لكى تكتسب ألوانا من الإثارة والتأثير .. إذ أنها فو هذا النظم القرآنى غنية عن كل زخرف ، مستغنية عن كل طلاء ، بما أفاض الله عليها من آيات الحسن ، والجمال والجلال .. فكل حسن إلى حسنها باهت ، وكل جمال إلى جمالها ما حل ، وكل جلال إلى جلالها ظل زائل ! .

وفيما سيلقانا من مباحث هذا الكتاب شواهد كثيرة لما نقول ...

الأمثال فى القرآن :-

هذا ، وهناك امثال ضربها القرآن الكريم ، لأحوال وأحداث ، وهى على امتداد القصص ، من حيث إنها للعبرة والعظة ، كما يقول الله تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس ، لعلهم يتفكرون** ﴾(٣) .

ومع هذا فلم يدخلها القرآن فى القصص ولم يعدها منه .

وماذا فى هذه التفرقة ؟ :-

ولنا أن نقول : إن القرآن ينظر إلى القصة نظرة أكبر من مجرد أنها أحداث وحقائق تاريخية ، إذ أن فى كيانها من العناصر المعروفة فى القصص ما ليس فى غيرها من الحقائق التى تصور لمجرد الكشف عن ذاتها .

(١) سورة لقمان الآية : ٦
(٢) سورة فصلت الآية : ٢٦
(٣) سورة الحشر الآية : ٢١

ونعم .. فإن الذى يتأمل القصص القرآنى ، وينظر فى الأحداث والمواقف التى أطلق عليها القصص - يجد أن الحادثة القصصية فى القرآن حادثة متميزة بطابع خاص ، لا نجده فى تلك الأحداث التى تحدث عن أمثال واقعة أو مفترضة .

ففى أحداث القصص القرآنى صور من الصراع بين قوى الخير والشر ، وبين النور والظلام ، والإيمان والشرك .. والهدى والضلال ، كما أن فيها صورا من الحوار والجدل الذى تنشأ عنه (أزمة) الحدث أو عقدته ، وأخيرا تتمخض هذه الأزمة أو تلك العقدة عن موقف تنفرج فيه الأزمة ، أو تحل العقدة ..

ثم إن هذه القصص أيضا لا تعدم مشاهدة وجه المرأة كما تعرفها الحياة . فى عقلها وطيشها ، وفى حبها وبغضها ، وفى قوتها وضعفها ..

والمرأة كما نعرف عنصر أصيل من عناصر القصص ، كما ان الحوار المنتج للأزمات ، والمولد لحلولها عنصر قوى فيها أيضا . وبهذين العنصرين - الحوار المنتج ، والمرأة بكل أنوثتها - بهذين العنصرين القويين دخلت الحادثة القرآنية تحت هذا الاسم . (القصة) !

وهذا وذاك جميعه من واقع الحياة ومن صميمها ..

لم تشبه شائبة توليد ، أو تخييل (المرجع : القصصى القرآنى فى منطوقه ومفهومه . للاستاذ عبد الكريم الخطيب)

والآن إلى كليم الله موسى :

قوله تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون ﴾[١] .

أى : اذكر لقومك وقت نداء ربك موسى من جانب الطور الأيمن وقوله له : ائت القوم الظالمين قوم فرعون . الذين عم ظلمهم البلاد والعباد ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون** ﴾ واعجب معى لهذا الموقف الرهيب : موسى عندما خرج من مصر قال : ﴿ **رب نجنى من القوم الظالمين** ﴾[٣] . ولما التقى بشيخ مدين وقص عليه القصص قال : ﴿ **لا تخف نجوت من القوم الظالمين** ﴾[٤] . ولما ناداه ربه من جانب الطور الأيمن قال له : ﴿ **ائت القوم الظالمين** ﴾ ﴿ **وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** ﴾[٥] .

فانظر إلى مراحل الظلم ، والظلم مرتعه وخيم ، وعاقبته خسران مبين ، وعقابه أليم . قال جلت قدرته : ﴿ **فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ، وجعلناهم أئمة**

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ١٠ ، ١١
(٢) سورة القصص الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦
(٣) سورة القصص الآية : ٢١
(٤) سورة القصص الآية : ٢٥
(٥) سورة التحريم الآية : ١١

يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ ألا يتقون ؟ ﴾ أى ألا يتقون الله ؟ ألا يحذرون عقوبته ؟ ألا يخافون عذابه ؟ ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون . ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾[٣] .

هذا تضرع من كليم الله موسى لربه : إنى أخاف أن يكذبون . ويضيق صدرى من تكذيبهم ولا ينطلق لسانى بالدعوة من شدة ما يصيبنى من التكذيب . فأرسل إلى هارون أى : أرسل جبريل بالوحى لتشد به عضدى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى . أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا . قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾[٤] .

وقوله : ﴿ ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾[٥] تفسيره فى قوله تعالى : ﴿ قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ﴾[٦] وليس الخوف من القتل فى حد ذاته ، فالمرسلون يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا . إنما الخوف من أن يقتلوه قبل أن يبلغ رسالات ربه ويؤدى أمانة الدعوة . وقصة القتل هى التى وردت فى قوله جل ذكره : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان ، هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه . قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين . قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى ، فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

والخلاصة أن موسى سأل ربه أمرين : أحدهما أن يرسل معه أخاه هارون كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون ﴾[٧] فاستجاب له ربه . قال تعالى : ﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما . بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾[٨] . وقال عز وجل : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن ، وقربناه نجيا . ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾[٩] .

---

(١) سورة القصص الآيات : ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢
(٢) سورة المطففين الآيات : ٤ ، ٥ ، ٦
(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٢ ، ١٣ ، ١٤
(٤) سورة طه الآيات : ٢٥ - ٣٦
(٥) سورة الشعراء الآية : ١٤
(٦) سورة القصص الآية : ٣٣
(٧) سورة القصص الآية : ٣٤
(٨) سورة القصص الآية : ٣٥
(٩) سورة مريم الآيات : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

والامر الاخر آن يصرف الله عنه شرهم حتى يتمكن من إبلاغ الدعوة فاستجاب له ربه ﴿ قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾[١] .

وفى سورة الشعراء ﴿ قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾[٢] : والمراد بالآيات المعجزات الباهرات وخوارق العادات كالعصا واليد . ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾ فمن كان الله معه فمن عليه ؟ ومن وجد الله فماذا فقد ؟ .

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وما أجل قوله جل جلاله : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ﴾[٣] .

وما أعظم قوله جل ذكره : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم ﴾[٤] .

وما أكرم قوله جل ذكره : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فاتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين . أن أرسل معنا بنى اسرائيل ﴾[٦] : وإنما جاء بلفظ الرسول مفردا نظرا إلى توحيد دعوتهما كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة ، فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾[٧] فرسل الله جميعا قد عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول لا إله إلا الله . فمن كذب واحدا منهم فقد كذبهم جميعا . قال تعالى : ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾[٨] وقال : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾[٩] وقال : ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾[١٠] . وقال : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾[١١] . وقال : ﴿ كذب أصحاب لئيكة المرسلين ﴾[١٢] . وقد جاء موسى إلى فرعون ليدعوه إلى عبادة الله وحده قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . اذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾[١٣] . وقال جل شأنه : ﴿ فاتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ﴾[١٤] .

---

(١) سورة طه الايتان : ٤٥ ، ٤٦
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٥
(٣) سورة الأنفال الآية : ١٢
(٤) سورة التوبة الآية : ٤٠
(٥) سورة النحل الآية : ١٢٨
(٦) سورة الشعراء الايتان : ١٦ ، ١٧
(٧) سورة الحاقة الايتان : ٩ ، ١٠
(٨) سورة الشعراء الآية : ١٠٥
(٩) سورة الشعراء الآية : ١٢٣
(١٠) سورة الشعراء الآية : ١٤١
(١١) سورة الشعراء الآية : ١٦٠
(١٢) سورة الشعراء الآية : ١٧٦
(١٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩
(١٤) سورة طه الآية : ٤٧

﴿ وكان فرعون قد استعبد بنى إسرائيل وأعمل فيهم القتل فذبح الأبناء واستحيى النساء ، وطغى وبغى وتجاوز كل حد حتى لقد تجاوز حدود العبودية ، فحشر فنادى فقال : أنا ربكم الأعلى ﴾[١] وقال فرعون ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾[٢] .

لقد ظل استعباده لبنى إسرائيل قرونا فأراد ربك ان يرفع عنهم تلك القيود ، وأن يخرجهم عن تلك الأسوار والحدود .

قوله تعالى : ﴿ قال : ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ﴾[٣] فى الكلام جمل طواها القرآن كما يطوى البرق معصرات الغمام وذلك للعلم بها . وكما قال العلامة ابن مالك :

وحذف ما يعلم جائز كما   تقول زيد بعد من عندكما

والبلاغة الايجاز كما جاء فى قوله تعالى فى قصة يوسف : ﴿ وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق ﴾[٤] . وتقدير الكلام : فأرسلوه فذهب إلى يوسف فى سجنه وجلس معه ثم قال له : يوسف أيها الصديق :

وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت : يا أيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم ﴾[٥] أى فذهب وألقى الخطاب فقرأته وقالت : إنى ألقى إلى كتاب كريم .

فقد يطوى القرآن جملا تعلم من سياق الكلام . أى فذهب موسى إلى فرعون واستأذن فى الدخول عليه وأبلغه رسالة ربه فقال فرعون : ﴿ ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ ﴾[٦] أى أبعد أن ربيناك فى بيوتنا ولم نقتلك فى جملة من قتلنا وأنعمنا عليك بنعمنا ردحا من الزمن تقابل الاحسان بكفران النعمة وتواجهنا بمثل تلك المقالة ؟

روى أنه لبث فيهم ثمانى عشرة سنة وقيل ثلاثين سنة .

ـ وقوله ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾[٧] أى وقتلت ذلك القبطى الذى وكزته وهو من خواصى فكنت من الجاحدين لنعمتى عليك من التربية والاحسان إليك . وخلاصة ما سلف ـ أنه عدد نعماءه عليه أولا من تربيته وإبلاغه مبلغ الرجال ثم بتوبيخه بما جرى على يديه من قتل خبازه وهو من خواصه وهو بهذا أيضا قد كفر نعمته وجحد فضله .

فأجاب موسى عن الأمر الثانى وترك أمر التربية لأنها معلومة مشهورة ، ولا دخل لها فى توجيه الرسالة فإن الرسول إذا كان معه حجة ظاهرة على رسالته تقدم بها إلى المرسل إليهم سواء أكانوا أنعموا

---

(١) سورة النازعات الآيتان : ٣٣ ، ٣٤
(٢) سورة القصص الآية : ٣٨
(٣) سورة الشعراء الآية : ١٨
(٤) سورة يوسف الآيتان : ٤٥ ، ٤٦
(٥) سورة النمل الآيتان : ٢٨ ، ٢٩
(٦) سورة الشعراء الآية ١٨
(٧) سورة الشعراء الآية : ١٩

عليه أم لم ينعموا .

﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ (١) أى قال موسى مجيبا فرعون : فعلتى هذه الفعلة التى ذكرت وهى قتل القبطى وأنا إذ ذاك من الجاهلين بأن وكزتى تأتى على نفسه فإنى إنما تعمدت الوكز للتأديب ، فأدى ذلك إلى القتل .

﴿ ففرت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ﴾ (٢) أى فخرجت هاربا منكم حين توقعت مكروها يصيبنى حين قيل لى ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ﴾ (٣) فوهب لى ربى علما بالأشياء على وجه الصواب وجعلنى من المرسلين من قبله لهداية عباده وإرشادهم إلى النجاة من العذاب .

وخلاصة ما قال ـ إن القتل الذى توبخنى به لم يكن مقصودا لى بل كنت أريد بوكزه التأديب فحسب ، فلا أستحق التخويف الذى أوجب فرارى وإن أنتم أسأتم إلى : فقد أحسن إلى ربى فوهب لى فهم الأمور على حقائقها وجعلنى من زمرة عباده المخلصين .

ثم بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة فقال :

﴿ وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل ﴾ (٤) يقال عبدت الرجل وأعبدته إذا اتخذته عبدا ، وتمن من المنة بمعنى الانعام : أى وما أحسنت إلى وربيتنى إلا وقد أسأت إلى بنى إسرائيل جملة فجعلتهم عبيدا وخدما تصرفهم فى أعمالك وأعمال رعيتك الشاقة .

وخلاصة ذلك ـ أيفى إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت به إلى مجموعهم ؟ فهو ليس بشىء إذا قيس بما فعلته بالشعب أجمع ، وكأنه قال : إن هذا ليس بنعمة لأن الواجب عليك ألا تقتلهم ولا تستعبدهم فإنهم قومى فكيف تذكر احسانك إلى على الخصوص وتنسى استعباد الشعب كله .

وأخذ فرعون يسأل موسى ـ عليه السلام ـ ﴿ قال فرعون مارب العالمين ﴾ (٥) لأن موسى قال له ﴿ إنا رسول رب العالمين ﴾ والمراد بالعالمين هنا كل ما سوى الله تعالى مما يعلم به وجود الخالق فكان الجواب ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ (٦) أى إن كان عندكم يقين وتصديق فالذى رفع السموات بلا عمد وبسط الأرض وخلق ما بينهما هو الرب المعبود بحق فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ومن سمائه إلى أرضه وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال أنا مخلوق للواحد الديان .

تلك الطبيعة قف بنا يا سارى ... حتى أريك بديع صنع البارى
الأرض حولك والسماء اهتزتا ... لروائع الآيات والآثار
من شك فيه فنظرة فى خلقه ... تمحو أثيم الشك والانكار

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٠
(٢) سورة الشعراء الآية : ٢١
(٣) سورة القصص الآية : ٢٠
(٤) سورة الشعراء الآية : ٢٢
(٥) سورة الشعراء الآية : ٢٣
(٦) سورة الشعراء الآية : ٢٤

قوله تعالى ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون ؟ ﴾ أى التفت فرعون إلى الملأ والرؤساء من حوله وقال لهم على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تعجبون من مقالته وزعمه أن لكم إلها غيرى ؟

ثم زاد موسى وصف إله إيضاحا وبيانا .

﴿ قال ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أى قال : إنه هو خالقكم وخالق من قبلكم من آبائكم وأجدادكم .

وقد انتقل بهم موسى من النظر فى الآفاق وما فيها من باهر الأدلة إلى النظر فى الأنفس وما فيها من عجيب الصنع فإن التناسل المستمر فى النبات والحيوان والانسان وما فيها من العجائب لأوضح دلالة من النظر فى الآفاق .

ولما لم يستطع ردا لما جاء به أورد ما يشك قومه فى حسن تقديره للأمور وفهمه لما يقول :

﴿ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾ أى : قال فرعون لقومه : إن رسولكم لا عقل له ، إذ يقول قولا لا نعرفه ولا نفهمه فهو يدعى أن ثمة إلها غيرى .

ثم وصف موسى الاله بأنه خالق الأكوان ، ورب الزمان والمكان . ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾

أى قال موسى : إن ربكم هو الذى جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع انتظام مداراتها وتغير المشارق والمغارب كل يوم ، إن كان لكم عقول تفقهون بها ما يقال لكم وتسمعون بها ما تسمعون ، إن فى كل أدلة على أن هناك إلها مصورا صور هذ العوالم كلها وابدعها وزينها ورتبها ونظمها على أحسن النظم .

وقد لا ينهم أولا وعاملهم بالرفق حيث قال لهم إ: إن كنتم موقنين ثم لما رأى شدة شكيمتهم خاشنهم واغلظ لهم فى الرد وعارضهم بمثل مقالهم بقوله إن كنتم تعقلون ، لأنه أوفق بما قبله من رد نسبة الجنون إليه .

ولما قامت الحجة على فرعون عدل إلى القهر واستعمال القوة ولبس لموسى جلد النمر كما حكى سبحانه عنه .

﴿ قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾ أى قال له : لأجعلنك فى زمرة الذين فى سجونى على ما تعلم من فظاعة أحوالها وشديد أهوالها وكانت سجونه أشد من القتل لأنه إذا سجن أحدا لم يخرجه حتى يموت وكان يطرحه فى هوة عميقة تحت الأرض وحده وفى توعده بالسجن ضعف منه ، لما يروى أنه كان يفزع من موسى فزعا شديدا .

وحينئذ اضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية وراءه ظهريا ويلجأ إلى المعجزات وخوارق العادات .

﴿ قال أولو جئتك بشىء مبين ؟ ﴾ أى أتفعل هذا ولو جئتك بحجة بينة على صدق دعواى وهى المعجزة الدالة على وجود الإله القادر وحكمته وعلى صدق دعوى من ظهرت على يديه .

وحين سمع فرعون هذا الكلام من موسى .

﴿ قال فات به إن كنت من الصادقين ﴾ فى دعوى الرسالة فإن من يدعى النبوة لابد له من حجة على صدق ما يدعى وقد أمره بذلك ظنا منه أنه يقدر على معارضته .

﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ أى فبعد أن قال له فرعون مقالته ألقى عصاه فإذا هى ثعبان واضح لا لبس فيه ولا تخييل ولا تمويه وقد روى أنها لما صارت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون ، فقال : بالذى أرسلك إلا أخذتها فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت .

وقد جاء فى آية أخرى ﴿ كأنها جان ﴾ والجان الصغير من الحيات ، تشبيها لها به من جراء الخفة والسرعة .

ولما أتى موسى بهذه الآية قال له فرعون : هل هناك غيرها ؟ قال نعم . ﴿ ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ أى وأدخل يده فى جيبه ثم أخرجها فإذا هى تضىء الوادى من شدة نورها وكأنها فلقة قمر . قال ابن عباس : أخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء تلمع للناظرين لها شعاع كشعاع الشمس يكاد يعشى الأبصار ويسد الأفق .

ولما رأى فرعون هذه الحجج بادر بالتكذيب والعناد وذكر لأشراف قومه أمورا ثلاثة :

١ - ﴿ قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم ﴾ أى قال لرؤساء دولته وأشراف قومه الذين حوله ليروج عليهم بطلان ما يدعيه موسى : إن هذا الرجل البارع فى السحر حاذق فى الشعوذة ومراده من هذا أن ما ظهر على يديه إنما هو من قبيل السحر لا من وادى المعجزات .

ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته والكفر به والتنفير منه بقوله :

٢ - ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ﴾ أى يريد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا السحر فيكثر أعوانه وأتباعه ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم .

٣ - ﴿ فماذا تأمرون ﴾ أى فأشيروا علىَّ ماذا أصنع ؟ وبم أدافعه عما يريد ومثل هذا القول يوجب جذب القلوب والتضافر فى مكافحة العدو والتغلب عليه جهد المستطاع .

قال المفتى أبو السعود : بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه من ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبده فى زعمه ، والامتثال لأمرهم ، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا بالرأى والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبه إلى إخراجهم من الأرض لتنفيرهم منه .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم ﴾ أى قالوا : أخر البت فى أمرهما ولا تعاجلهما بالعقوبة حتى تجمع لها من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم ، ثم تقابلهم به وجها لوجه ويأتون من ضروب السحر ما يستطيعون به التغلب عليه ، فتكون قد قابلت الحجة بالحجة وقرعت الدليل بمثله ويكون لك النصر والتأييد عليه وتجتذب قلوب الشعب إليك .

وقد كان هذا من تسخير الله تعالى له ليجتمع الناس فى صعيد واحد وتظهر آيات الله وحججه للناس فى وضح النهار جهرة .

روى أن فرعون أراد قتله فقال له الملأ : لا تفعل . فإنك إن قتلته أدخلت على الناس شبهة فى

أمره وأشاروا عليه بإنفاذ حاشرين يجمعون له كل سحار عليم ، ظنا منهم أنهم إذا أكثروا غلبوه على أمره وتم لفرعون الغلب . فأخذ بمشورتهم وأجابهم إلى طلبتهم .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ﴾ أى إن الملأ بعد أن أشاروا على فرعون بتأخير البت فى أمر موسى وبان من الخير له أن يجمع السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قوله ـ رضى بما أشاروا به واستقر عليه الرأى ، وأحب أن تقع المناظرة فى يوم عيد لهم لتكون بمحضر الجم الغفير من الناس ، ويتم الله نوره ويظهر الحق على الباطل بلطفه وفضله .

﴿ وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ﴾ أى وقيل للناس حثا لهم على المبادرة إلى الاجتماع ومشاهدة ما يكون من الجانبين : هل أنتم مجتمعون فى ذلك الميقات لتروا ما سيكون فى ذلك اليوم المشهود وكان ذلك ثقة من فرعون بالظهور ، وقد طلب أن يكون ذلك بمجمع من الناس لئلا يؤمن بموسى أحد منهم فوقع من موسى الموقع الذى يريده لأنه يعلم أن حجة الله هى الغالبة وحجة الكافرين هى الداحضة وفى ظهور حجة الله بمجمع من الناس زيادة فى الاستظهار للمحقين وقهر للمبطلين .

﴿ لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾ أى نرجو أن يكون لهم الغلبة فنتبعهم ونستمر على دينهم ولا نتبع دين موسى .

﴿ فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ؟ قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ .

أى فلما جاء السحرة مجلس فرعون طلبوا منه الاحسان ببذل المال والتقرب إليه إن هم غلبوا فأجابهم إلى ما طلبوا وزاد على هذا أن وعدهم بأنهم سيكونون من جلسائه وخاصة بطانته .

بعدئذ عادوا إلى مقام المناظرة وقالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين .

﴿ قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ .

أى قال لهم موسى ألقوا ما تريدون إلقاءه مما يكون حجة لكم على إبطال ما أدعيه من المعجزات فألقوا ما معهم من الحبال والعصى وقد كانت مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة به ، وقالوا بقوة فرعون وجبروته : إنا لنحن الغالبون ، فلما حميت حرارة الشمس اشتدت حركتها وصارت كأنها حيات تدب من كل جانب وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم .

وجاء فى سورة طه **﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾** .

وقد استفرغوا الوسع وقاموا بما ظنوا أن فيه الكفاية بل ما فوقها وأن النصر قد كتب لهم .

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ أى وحين ألقى موسى عصاه ابتلعت ما كانوا يقلبون صورته وحالته الأولى بتمويههم وتخييل الحبال والعصى أنها حيات تسعى .

وجاء فى اية أخرى **﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾** .

وقد قامت الحجة لموسى عليهم واستبان لهم أن هذا ليس من متناول أيديهم كما أشار إلى ذلك

سبحانه بقوله :

﴿ **فألقى السحرة ساجدين** ﴾ أى فخروا سجدا لله لأنهم قد علموا أن هذا الذى فعلوه هو منتهى التخييل السحرى ، فلما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا من قدرة فوق ما عرفوا وما هو إلا من قوة آتية من السماء لتأييد موسى حينئذ خروا سجدا لله القوى القاهر فوق عباده .

وفى التعبير بالإلقاء إشارة إلى أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الدهش حتى كأنهم أخذوا فطرحوا . ثم فاهوا بما ـ يجيش فى صدورهم وتنطوى عليه جوانحهم .

﴿ **قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون** ﴾ أى قالوا : آمنا برب العالمين الذى دعا إليه موسى أول ما تكلم مع فرعون .

وفى هذا إيماء إلى عزل فرعون عن الربوبية وأن سبب إيمانهم ما أجراه الله على يدى موسى وهارون من المعجزات .

وبعد أن حصحص الحق ووضح الصبح لذى عينين لجأ فرعون إلى العناد والمكابرة وشرع يهدد ويتوعد ولكن ذلك لم يجد فى السحرة شيئا ولم يزدهم إلا إيمانا وتسليما إذ كان حجاب الكفر قد انكشف واستبان لهم نور الحق وعلمهم ما جهل قومهم وأن القوة التى تؤيد موسى قوة غيبية قد أيده الله بها وجعلها دليلا على صدق ما يدعى .

﴿ **قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟** ﴾ . أى قال لهم : أتؤمنون به قبل أن تستأذنوا وقد كان ينبغى أن تفعلوا ذلك ، والا تفتاتوا على ، فإنى أنا الحاكم المطاع ؟

ثم التمس لإيمانهم عذرا آخر غير انبلاج الحق ، ليعمى على العامة ، ويصرفهم عن وجه الحق فقال :

﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ فأنتم فعلتم ذلك عن مواطأة بينكم وبينه .

ولاشك أن هذا تضليل لقومه ، ومكابرة ظاهرة البطلان ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون هو كبيرهم الذى افادهم صناعة السحر ؟! ثم توعدهم فقال :

﴿ **فلسوف تعلمون** ﴾ وبال ما فعلتم ، وسوء عاقبة ما اجترحتم ، ثم بين ذلك بقوله .

﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ أى لأقطعن اليد اليمنى من كل منكم والرجل اليسرى ، ثم لأصلبنكم أجمعين بعد ذلك .

فأجابوه غير مكترثين بقوله ، ولا عابئين بتهديده ، بأمرين فى كل منهما دليل على اطمئنان النفس وبرد اليقين :

أ ـ ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾ أى قالوا لا ضرر علينا فى تنفيذ وعيدك ، ولا نبالى به ، لأن كل حى لا محالة مائت .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

ونحو ذلك قول على كرم الله وجهه : لا أبالى أوقعت علىَّ الموت أم وقع الموت على ؟

٢ ـ ﴿ **إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ؟** ﴾ أى ولأنا نؤمل أن يغفر لنا ربنا ما

فعلنا من السحر ، واعتقدناه من الكفر ، من أجل أن كنا أول من آمن من الجماعة الذين شهدوا الموقف ، انقيادا للحق ، واعراضا عن زخرف الدنيا وزينتها .

قوله تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ، إن هؤلاء لشرذمة قليلون ، وإنهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ، فأخرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، كذلك وأورثناها بنى اسرائيل** ﴾

قال العلامة ابن كثير رحمه الله تعالى :

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببنى اسرائيل ليلا من مصر وأن يمضى بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل ، خرج بهم بعد ما استعاروا من قوم فرعون حليا كثيرا ، وكان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع الفجر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كسف القمر تلك الليلة فالله أعلم وأن موسى عليه السلام سأل عن قبر يوسف عليه السلام فدلته إمرأة عجوز من بنى إسرائيل عليه ، فاحتمل تابوته معهم ويقال إنه هو الذى حمله بنفسه عليهما السلام ، وكان يوسف عليه السلام قد أوصى بذلك إذا خرج بنو إسرائيل أن يحتملوه معهم ، وقد ورد فى ذلك حديث رواه ابن أبى حاتم رحمه الله فقال : حدثنا على ابن الحسين حدثنا عبد الله بن عمر بن ابان بن صالح حدثنا بن فضيل عن يونس بن أبى اسحاق عن ابن أبى بردة عن أبيه عن أبى موسى قال : نزل رسول الله ﷺ بأعرابى فأكرمه فقال له رسول الله ﷺ : (تعاهدنا) فأتاه الأعرابى فقال له رسول الله ﷺ : (ما حاجتك ؟) قال : ناقة برحلها وأعنز يحتلبها أهلى ، فقال : (أعجزت أن تكون مثل عجوز بنى إسرائيل ؟ (فقال له أصحابه وما عجوز بنى إسرائيل يا رسول الله ؟ قال : (إن موسى عليه السلام لما أراد أن يسير ببنى إسرائيل أضل الطريق فقال لبنى إسرائيل ما هذا ؟ فقال له علماء بنى إسرائيل نحن نحدثك ان يوسف عليه السلام لما حضرته الوفاة أخذ علينا موثقا من الله الا نخرج من مصر حتى ننقل تابوته معنا ، فقال لهم موسى فأيكم يدرى أين قبر يوسف ؟ قالوا ما يعلمه إلا عجوز من بنى إسرائيل ، فأرسل إليها فقال لها دليني على قبر يوسف ، قالت والله لا أفعل حتى تعطينى حكمى ، فقال لها وما حكمك ؟ قالت : حكمى أن أكون معك فى الجنة ، فكأنه ثقل عليه ذلك فقيل له أعطها حكمها ـ قال ـ فانطلقت معهم إلى بحيرة ـ مستنقع ماء ـ فقالت لهم انضبوا هذا الماء فلما انضبوه قالت احفروا فلما حفروا واستخرجوا قبر يوسف فلما احتملوه إذا الطريق مثل ضوء النهار) .

وهذا حديث غريب جدا والأقرب انه موقوف والله أعلم . فلما أصبحوا وليس فى ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعا فى بلاده حاشرين أى من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم ﴿ **إن هؤلاء** ﴾ يعنى بنى اسرائيل ﴿ **لشرذمة قليلون** ﴾ أى بطائفة قليلة ﴿ **وإنهم لنا لغائظون** ﴾ أى كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا ﴿ **وإنا لجميع حاذرون** ﴾ .

أى نحن كل وقت نحذر من غائلتهم وقرأ طائفة من السلف ﴿ **وإنا لجميع حذرون** ﴾ أى مستعدون بالسلاح ، وإنى أريد أن استأصل شأفتهم وأبيد خضراءهم فجوزى فى نفسه وجنده بما اراد لهم ، قال الله تعالى : ﴿ **فأجرجناهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم** ﴾ أى فخرجوا من هذا النعيم إلى الحجيم وتركوا لكم المنازل العالية والبساتين والأنهار والأموال والأرزاق والملك والجاه الوافر فى الدنيا ﴿ **كذلك وأورثناها بنى إسرائيل** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها** ﴾[1] الآية وقال تعالى : ﴿ **ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾ الآيتين .

قوله تعالى : ﴿ **فأتبعوهم مشرقين ، فلما تراءا الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

ذكر غير واحد من المفسرين ان فرعون خرج فى محفل عظيم وجمع كبير هو عبارة عن مملكة الديار المصرية فى زمانه أولى الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ، فأما ما ذكره غير واحد من الاسرائيليات من انه خرج فى ألف ألف وستمائة ألف فارس منها مائة ألف على خيل ففيه نظر ، وقال كعب الأحبار فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم وفى ذلك نظر ، والظاهر أن ذلك من مجازفات بنى إسرائيل والله سبحانه وتعالى أعلم ، والذى أخبر به القرآن هو النافع ولم يعين عدتهم إذ لا فائدة تحته لأنهم خرجوا بأجمعهم ﴿ **فأتبعوهم مشرقين** ﴾ أى وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها ﴿ **فلما تراءى الجمعان** ﴾ أى رأى كل من الفريقين صاحبه فعند ذلك ﴿ **قال أصحاب موسى إنا لمدركون** ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر وهو بحر القلزم فصار أمامهم البحر وقد ادركهم فرعون بجنوده فلهذا قالوا : ﴿ **إنا لمدركون ، قال كلا إن معى ربى سيهدين** ﴾ أى لا يصل إليكم شىء مما تحذرون فإن الله سبحانه هو الذى أمرنى ان أسير ههنا بكم وهو سبحانه وتعالى لا يخلف الميعاد ، وكان هارون عليه السلام فى المقدمة ومعه يوشع بن نون ومؤمن آل فرعون . وموسى عليه السلام فى الساقة ، وقد ذكر غير واحد من المفسرين انهم وقفوا لا يدرون ما يصنعون وجعل يوشع بن نون أو مؤمن آل فرعون يقول لموسى عليه السلام : يا نبى الله ههنا أمرك ربك ان تسير ؟ فيقول نعم فاقترب فرعون وجنوده ولم يبق إلا القليل فعند ذلك أمر الله نبيه موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر فضربه وقال انفلق بإذن الله .

وروى ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا صفوان بن صالح حدثنا الوليد حدثنا محمد بن حمزة ابن يوسف عن عبد الله بن سلام ان موسى عليه السلام لما انتهى إلى البحر قال : يا من كان قبل كل شىء والمكون لكل شىء والكائن بعد كل شىء اجعل لنا مخرجا فأوحى الله إليه[2] :

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٣٧

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطى ٦ / ٢٩٩

﴿ أن اضرب بعصاك البحر ﴾ وقال قتادة أوحى الله تلك الليلة إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فاسمع له وأطع فبات البحر تلك الليلة وله اضطراب ولا يدرى من أى جانب يضربه موسى، فلما انتهى إليه موسى قال له فتاه يوشع بن نون يا نبى الله أين أمرك ربك ـ عز وجل ـ ؟ قال : أمرنى أن أضرب البحر قال : فاضربه ، وقال محمد بن اسحق : أوحى الله ـ فيما ذكر لى ـ إلى البحر أن إذا ضربك موسى بعصاه فانفلق له قال فبات البحر يضطرب ويضرب بعضه بعضا فرقا من الله تعالى وانتظارا لما امره الله ، وأوحى الله الى موسى ﴿ ان اضرب بعصاك البحر ﴾ فضربه بها وفيها سلطان الله الذى اعطاه فانفلق ، وذكر غير واحد انه جاءه فكناه فقال انفلق على أبا خالد بإذن الله . قال تعالى ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أى كالجبل الكبير ، قاله ابن مسعود وابن عباس ومحمد بن كعب والضحاك وقتادة وغيرهم . وقال عطاء الخراسانى : هو الفج بين الجبلين وقال ابن عباس : صار البحر اثنى عشر طريقا . . لكل سبط طريق ، وزاد السدى وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيله كالحيطان وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته فسار يبسا كوجه الأرض قال الله تعالى : ﴿ فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾[1] وقال فى هذه القصة : ﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ أى هنالك . قال ابن عباس وعطاء الخراسانى وقتادة والسدى ﴿ وأزلفنا ﴾ أى قربنا من البحر فرعون وجنوده وأتينا بهم إليه ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين ﴾ . أى أنجينا موسى وبنى إسرائيل ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده فلم يبق منهم رجل الا هلك ، وروى ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا شبابة حدثنا يونس بن أبى اسحاق عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله هو ابن مسعود ان موسى عليه السلام حين أسرىٰ ببنى اسرائيل بلغ فرعون ذلك فأمر بشاة فذبحت ، وقال لا والله لا يفرغ من سلخها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فانطلق موسى حتى انتهى إلى البحر فقال له : انفرق فقال له البحر قد استكبرت يا موسى وهل انفرقت لأحد من ولد آدم فأنفرق لك ؟ قال ومع موسى رجل على حصان له فقال له ذلك الرجل أين أمرت يا نبى الله ؟ قال : ما أمرت إلا بهذا الوجه يعنى البحر فأقحم فرسه فسبح به فخرج فقال أين أمرت يا نبى الله ؟ .

قال : والله ما كذب ولا كذبت : قال فأوحى الله إلى موسى ان اضرب بعصاك البحر ، فضربه موسى بعصاه فانفلق فكان فيه اثنا عشر سبطا لكل سبط طريق يتراءون فلما خرج أصحاب موسى وتتام أصحاب فرعون التقى البحر عليهم فأغرقهم ، وفى رواية اسرائيل عن ابى اسحق عن عمرو بن ميمون عن عبد الله قال : (فلما خرج آخر أصحاب موسى وتكامل أصحاب فرعون إنطم عليهم البحر فما رئى سواد أكثر من يومئذ ، وغرق فرعون لعنه الله ، ثم قال تعالى ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ أى فى هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة وحكمة بالغة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[2] .

---

(١) سورة طه الآية : ٧٧

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطى ٦/ ٣٠١

نبأ إبراهيم

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا
فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ
﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾
أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ
يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى
ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا
وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ
لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ
يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ
﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ
﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ
﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

تفسير المفردات

نبأ : النبأ الخبر المهم .

عاكفين : مقيمين على عبادتها .

خطيئتى : ذنبى

حكما : فهما وعلما وحكمة ومنه قولهم : الصمت حكم وقليل فاعله

لسان صدق : أى : ثناء حسنا

وأزلفت الجنة : قربت وأدنيت ليدخلوها .

وبرزت الجحيم : المراد ظهرت جهنم .

فكبكبوا فيها : ألقوا فيها ، والكبكبة الإلقاء على الوجه مرة بعد مرة .

كرة : رجعة إلى الدنيا

وتتلخص القصة التى ذكرت فى هذه السورة :

أ ـ فى محاجة إبراهيم لأبيه وقومه فى عبادة الأصنام وترك عبادة الواحد القهار .

ب ـ ما ينتظره المؤمنون والكافرون يوم القيامة من أحوال .

جـ العبرة من القصة .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر فى أول السورة شدة حزنه ﷺ على كفر قومه وعدم استجابتهم دعوته ، ثم ذكر قصص موسى عليه السلام ليكون فى ذلك تسلية له وليعلم أنه ليس ببدع فى الرسل وأن قومه ليسوا بأول الأمم عنادا واستكبارا فقد أتى موسى بباهر المعجزات وعظيم الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا القليل ، ولم يؤمن به من المصريين إلا النذر اليسير ـ اردف ذلك بقصص إبراهيم أبى الانبياء ، وخليل الرحمن وكليم الله ، ليعلم أن حزنه لكفران قومه كان أشد وآلامه كانت أمض ، فهو كان يرى أن أباه وقومه صائرون إلى النار ، وهو ليس بمستطيع إنقاذهم وقد أكثر حجاجهم حتى حجهم ولم يجد ذلك فيهم شيئا ، بل ركنوا إلى التقليد بما ورثوه عن الآباء والأجداد ، وقد أبان لهم أثناء حجاجه أن أصنامهم لا تغنى عنهم شيئا ، فهى لا تسمع دعاءهم (ولا يسمع الصم الدعاء) ولو سمعت لم تغن عنهم شيئا . ثم ذكر لهم صفات الرب الذى ينبغى أن يعبد وفصلها أتم التفصيل .

وبعد أن أثنى إبراهيم على ربه بما أثنى عليه ـ ذكر مسألته ودعاءه إياه بما ذكره كما هو دأب من يشتغل بدعائه تعالى ، فإنه يجب عليه أن يتقدم بالثناء عليه وذكر عظمته وكبريائه ليستغرق فى معرفة ربه ومحبته ، ويصير أقرب شبها بالملائكة الذين يعبدون الله بالليل والنهار لا يفترون ، وبذا يستنير قلبه إلى ما هو أرفق به فى دينه ودنياه وتحصل له قوة إلهية تجعله يهتدى إلى ما يريد ، ومن ثم جاء فى الأثر حكاية عن الله تعالى « من شغله القرآن عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .

وبعد أن ذكر أنه لا ينفع فى هذا اليوم مال ولا بنون وإنما ينفع العبد بعده عن الكفر والنفاق ـ ذكر هنا من وصف هذا اليوم أمورا تبين شديد أهواله ، وعظيم نكاله .

التفسير

قوله تعالى « واتل عليهم نبأ إبراهيم : إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ـ قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك

يفعلون . قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباءكم الأقدمون . فإنهم عدولى إلا رب العالمين ﴾ .

هذا خطاب من العلى العظيم إلى نبيه الكريم محمد - ﷺ - أن يتلو على أمته خبر إبراهيم الخليل إمام الحنفاء(١)﴿ إن ابراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) ﴾(٢) .

لقد كان لابراهيم نبأ عظيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون بدأ بأبيه ثم ثنى بقومه لأن الداعية الصادق هو الذى يبدأ بأهله ثم بمن يعول . وهكذا فعل الصادق المعصوم محمد - ﷺ - (عندما جمع أهله وأخذ يخاطب كلا منهم يا عباس عم محمد اعمل لا أغنى عنك من الله شيئا يا صفية عمة محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا يا فاطمة بنت محمد اعملى لا أغنى عنك من الله شيئا)(٣) . وهو الذى قال : (لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها وكان الفاروق - رضى الله عنه - يقول لأهله اتقوا الله يا آل عمر فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم)(٤) .

وقد قال أحد الحكماء :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى ... كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى ... بالقول منك وينفع التعليم
ولا تنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

لقد ضرب إبراهيم الشرك فى جبهتيه حطمه وجعله جذاذا ضربه فى صورة الأفلاك وضربه فى صورة الأصنام .

﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى آراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن

---

(١)اخرجه الترمذى - كتاب فضائل القرآن ٥/ ١٨٤ رقم ٢٩٢٦
وقال : هذا حديث حسن غريب
(٢)سورة النحل الآيات : ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣
(٣) متفق عليه من حديث أبى هريرة
(٤) متفق عليه من حديث عائشة

من القوم ضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون . الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشأ إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين . . أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾[١] .

وكذلك ضرب الشرك فى عالم الأوثان والأصنام والتماثيل اقرأ معى هذا المشهد القرآنى المهيب :

﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباءكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فاتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قل بل فعله كبيرهم هذا فسالوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين . ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾[٢] .

ثم اقرأ بعد ذلك هذا المشهد القرآنى الرائع ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين ﴾ .

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٧٤ ، ٩٠

(٢)سورة الانبياء ٥١ ـ ٧٣

أى مقيمن على عبادتها ودعائها ﴿ **قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ يعنى اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئا من ذلك وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون .

فهم على آثارهم يهرعون .

وتلك أمة التقليد الأعمى التى ألقى القرآن على أهلها باللائمة ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كانت عاقبة المكذبين** ﴾[١] .

وقال تعالى ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله . قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾[٢] .

إن الاسلام حرر العقل من قيود التقليد الأعمى وجعل التفكير فريضة ولذا ذم التقليد وأصحابه من أهل الضلال .

قال إبراهيم لهم ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباءكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين** ﴾[٣] . أى إن كانت هذه الأصنام شيئ ولها تأثير فلتخلص إلى بالمساءة فإنى عدو لها لا أبالى بها ولا أفكر فيها ، وهذا كما قال تعالى مخبرا عن نوح عليه السلام ﴿ **فأجمعوا أمركم وشركاءكم** ﴾[٣] الآية وقال هود عليه السلام ﴿ **إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم** ﴾[٤] . وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله** ﴾[٥] الآية وقال تعالى ﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم** ﴾ إلى قوله ﴿ **حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال ابراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون** ﴾[٧] . يعنى لا إله إلا الله .

قوله تعالى ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ .

وهكذا يذكر إبراهيم لهؤلاء الضالين أن لهذا الكون إلها لا شريك له بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله ويؤكد تلك الحقيقة العليا فيقول ﴿ **الذى خلقنى فهو يهدين** ﴾ فيثبت لله تعالى صفة الخلق والايجاد . ﴿ **أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت . وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا**

---

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٢ ـ ٢٥
(٢) سورة البقرة الآية : ١٧٠
(٣) سورة يونس الآية : ٧١
(٤) سورة هود الآيات : ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦
(٥) سورة الأنعام الآية : ٨١
(٦) سورة الممتحنة الآية : ٤
(٧) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨

تذكرون . أفرايتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . . إنا لمغرمون بل نحن محرون . أفرايتم الماء الذى تشربون . أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾(١) .

هذا هو الله الخالق البارىء المصور خالق الانسان ومبدع الأكوان ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾**(٢) .

سبحانك اللهم أنت الواحد … كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى يا قيوم أنت المرتجى … وإلى علاك عنا الجبين الساجد .

سبحانك ربى الذى خلقنى فهو يهدين . فلا أعبد إلا الذى يفعل هذه الأشياء ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾ أى هو الخالق الذى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه فكل يجرى على ما قدر له وهو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ﴿ **والذى هو يطعمنى ويسقين** ﴾ أى هو خالقى ورازقى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية فساق المزن وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد وأنزل الماء عذبا زلالا يسقيه مما خلق أنعاما وأناسى كثيرا .

لا تجعلن فليس الرزق بالعجل … الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا … لكنه خلق الإنسان من عجل

وقوله ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ أسند المرض إلى نفسه وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ولكن أضافه إلى نفسه أدبا كما قال تعالى آمرا للمصلى أن يقول ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم . غير المغضوب عليهم ولا الضالين** ﴾(٣) . فأسند الإنعام والهداية إلى الله تعالى والغضب حذف فاعله ادبا وأسند الضلال إلى العبيد كما قالت الجن ﴿ **وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم اراد بهم ربهم رشدا** ﴾(٤) . وكذلك قال إبراهيم ﴿ **وإذا مرضت فهو يشفين** ﴾ أى وإذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه ﴿ **والذى يميتنى ثم يحيين** ﴾ أى هو الذى يحيى ويميت لا يقدر على ذلك احد سواه فإنه هو الذى يبدىء ويعبد ، ﴿ **والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين** ﴾ أى لا يقدر على غفران الذنوب فى الدنيا والآخرة إلا

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٨ ـ ٧٤
(٢) سورة الأعلى الآيات : ١ ـ ٥
(٣) سورة الفاتحة الآيتان : ٦ ، ٧
(٤) سورة الجن الآية : ١٠

هو ومن يغفر الذنوب إلا الله وهو الفعال لما يشاء .

قوله تعالى ﴿ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين . واجعل لى لسان صدق فى الآخرين . واجعلنى من ورثة جنة النعيم . واغفر لأبى إنه كان من الضالين . ولا تخزنى يوم يبعثون . يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ .

وهنا يتوجه الخليل إلى رافع السماء بلا عمد يدعوه ويسأله أن يهب له حكما قال ابن عباس : هو العلم وقال عكرمة : هو اللب .

وقيل : الحكم هو الحكمة وهى جماع كل خير فهى العلم الغزيز والحكم والصواب والعمل الموفق قال تعالى : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾[١] .

وقال فى شأن يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه كلما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾[٢] .

وفى شأن موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾[٣] .

قوله ﴿ وألحقنى بالصالحين ﴾ أى : اجعلنى مع الصالحين فى الدنيا والآخرة .

كما قال النبى - ﷺ - عند الاحتضار : « اللهم فى الرفيق الأعلى »[٤] قالها ثلاثا .

وفى الحديث فى الدعاء : ﴿ اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مبدلين ﴾[٥] .

قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[٦] .

والمرء مع من أحب فاللهم احشرنا مع هؤلاء الذين أنعمت عليهم واجمع بيننا وبينهم فى مستقر رحمتك .

قوله : ﴿ واجعل لى لسان صدق فى الآخرين ﴾ أى : اجعل لى ثناء جميلا وذكرا حسنا بعدى أذكر به ويقتدى بى فى الخير كما قال تعالى : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على ابراهيم . كذلك نجزى المحسنين ﴾[٧] .

قال مجاهد وقتادة : (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) يعنى الثناء الحسن . قال مجاهد كقوله تعالى : ﴿ وآتيناه فى الدنيا حسنة ﴾[٨] . وكقوله : ﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا ﴾[٩] .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٩

(٢) سورة يوسف الآية : ٢٢

(٣) سورة القصص الآية : ١٤

(٤) البخارى - كتاب الرقاق - باب من أحب لقاء الله ٨/١٣٢ ، ١٣٣ مسلم - كتاب السلام - باب استحباب رقية المريض ٤/١٧٢٢

(٥) مسند الامام احمد عن عبد الله الرزقى ٣ / ٤٢٤

(٦) سورة النساء الآية : ٦٩

(٧) سورة الصافات الآيات : ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠

(٨) سورة النحل الآية : ١٢٢

(٩) سورة العنكبوت الآية : ٢٧

قال ليث بن أبي سليم : كل ملة تحبه وتتولاه وكذا قال عكرمة .

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثوانى
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للانسان عمر ثان
واصبر على نعم الحياة وبؤسها فنعم الحياة وبؤسها سيان

قوله تعالى : ﴿ واجعلنى من ورثة جنة النعيم ﴾ وهكذا جمع إبراهيم فى دعائه بين خيرى الدنيا والآخرة حيث طلب الثناء الحسن فى الدنيا وجنة النعيم فى الآخرة وكان عليه السلام كريما فقد دعا للمؤمنين بالمغفرة والرحمة حيث قال : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾(١) وهكذا دعاء الصالحين يطلبون من الله خيرى الدنيا والآخرة .

﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار ﴾(٢). وهكذا يحكم الله تعالى لأهل الصلاح والتقوى بأنهم ورثة الفردوس .

﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾(٣).

قوله : ﴿ واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾ هو كقوله ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾(٤).

وهذا مما رجع عنه إبراهيم ـ عليه السلام ـ كما قال تعالى : ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما يتبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾(٥) وقد قطع تعالى الالحاف فى استغفاره لأبيه فقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ﴾(٦)

وقوله ﴿ ولا تخزنى يوم يبعثون ﴾ وهكذا دعاء الصالحين : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك . فقنا . عذاب النار . ربنا إنك من

(١) سورة إبراهيم الآية : ٤١
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٠١
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١ ـ ١٠
(٤) سورة ابراهيم الآية : ٤١
(٥) سورة التوبة الآيتان : ١١٣ ، ١١٤
(٦) سورة الممتحنة الآية : ٤

تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فأمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾[١] .

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ـ : (يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه عليه الغبرة والقترة) ﴾[٢] .

قوله : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون** ﴾ أى لا يقى المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهبا ﴿ **ولا بنون** ﴾ أى ولو افتدى بمن على الأرض جميعا ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله واخلاص الدين له والتبرى من الشرك وأهله .

ولذا قال : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ واقرأ معى فى مشاهد القيامة قوله تعالى ﴿ **يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه كلا** ﴾[٣] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ **فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ما سعى . وبرزت الجحيم لمن يرى . فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى** ﴾[٤] .

وقوله عز وجل : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة . أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾[٥] .

وقوله عز وجل : ﴿ **فاليوم لا يؤخذ منكم فدية . ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير** ﴾[٦] .

أما أصحاب القلوب السليمة فانهم فى روح وريحان وجنة نعيم ودولة القلوب كلها اسرار لا يملك مفاتيحها الا علام الغيوب .

وللامام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ صولات وجولات فى عالم القلوب جاء فى كتابه (إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان) وتحت عنوان (فى انقسام القلوب الى صحيح وسقيم وميت) جاء هذا العلم النافع .

قال رحمه الله تعالى :

لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها . انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة .

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩٠ ـ ١٩٤
(٢) البخارى ـ كتاب الانبياء ـ باب قول الله تعالى : [واتخذ الله ابراهيم خليلا] ١٦٩/٤
(٣) سورة المعارج الآيات : ١١ ـ ١٥
(٤) سورة النازعات الآيات : ٣٤ ـ ٤١
(٥) سورة عبس الآيات : ٣٣ ـ ٤٢
(٦) سورة الحديد الآية : ١٥

فالقلب الصحيح : هو القلب الذى لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به كما قال تعالى : ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ . والسليم هو السالم وجاء على هذا المثال لأنه للصفات ، كالطويل والقصير والظريف ، فالسليم القلب الذى قد صارت السلامة صفة ثابتة له كالعليم والقدير ، وأيضا فانه ضد المريض والسقيم والعليل .

وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم والأمر الجامع لذلك : أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ومن كل شبهة تعارض خيره فسلم من عبودية ما سواه وسلم من تحكيم غير رسوله ، فسلم بلأمحبته لله مع تحكيمه لرسوله ، فى خوفه ورجائه والتوكل عليه ، والانابة إليه ، والذل له ، وإيثار مرضاته فى كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق وهذا هو حقيقة العبودية التى لا تصلح الا لله وحده .

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله منه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة وتوكلا وإنابة وإخباتا وخشية وزجاء ، وخلص عمله لله ، فان أحب فى الله وان ابغض البغض فى الله وان أعطى أعطى لله وإن منع منع لله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ـ ﷺ ـ فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الإئتمام والاتگسه وحده دون كل أحد من الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهى العقائد واقوال اللسان وهى الخبر عما فى القلب وأعمال القلب وهى الارادة والمحبة والكراهة وتوابعها أعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه فى ذلك كله دقة وجله . هو ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل . كما قال تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾[1] .

أى لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعلة ـ وان صغرت ـ الا ينشر لها ديوانيان : لم ؟ وكيف ؟ أى لم فعلت وكيف فعلت ، فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل ، أم الباعث على الفعل القيام نحو العبودية وطلب التودد والتقرب الى الرب سبحانه وتعالى . وابتغاء الوسيلة إليه .

ومحل هذا السؤال : إنه ، هل كان عليك ان تفعل هذا الفعل لمولاك ؟ أم فعلته لحظك وهواك .

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى ذلك التعبد أى هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولى أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص والثانى عن المتابعة فان الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص وطريق التخلص من السؤال الثانى بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من ارادة تعارض الاخلاص وهوى يعارض الاتباع . فهذا حقيقة سلامة القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة .

(١) سورة الحجرات الآية : ١

فصل فى القلب الميت

والقلب الثانى : ضد هذا وهو القلب الميت الذى لا حياة به فهو لا يعرف ربه ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه ، بل هو واقف مع شهواته ولذاته ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، فهو لايبالى إذا فاز بشهوته وحظه رضى ربه أم سخط فهو متعبد لغير الله . حبا وخوفا ورجاء ورضا وسخطا وتعظيما وذلا . إن أحب أحب لهواه وإن أبغض أبغض لهواه . وان أعطى أعطى لهواه وإن منع منع لهواه .

فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه ، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه فهو بالفكر فى تحصيل الأغراض الدنيوية مغمور وبسكره الهوى وبحب العاجلة مخمور .

ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد ، لا يستجيب للناصح ويتبع كل شيطان مريده الدنيا تسخطه والهوى يعميه عما سوى الباطل ويعميه فهو فى الدنيا كما قيل فى ليلى :

عدو لمن عادت وسلم لأهلها ومن قربت ليلى أحب وأقربا

مخالصة هذا القلب سقم ومعاشرته سم ومجالسته هلاك .

فصل فى القلب المريض

والقلب الثالث : قلب له حياة وبه علة . فله مادتان تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلت عليه منهما ، ففيه من محبة الله تعالى والايمان به والاخلاص له والتوكل عليه : ما هو مادة حياته وفيه من محبة الشهوات وايثارها والحسد على تحصيلها والحبر والكبر والعجب وحب العلو والفساد فى الأرض بالرياسة : ما هو مادة هلاكه وعطبه وهو ممتحن بين داعيين : داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة وداع يدعوه إلى العاجلة . وهو إنما يجيب أقربهما منه بابا وادناهما إليه جوارا .

فالقلب الأول حى مخبت لين واع والثانى يابس ميت والثالث مريض فإما إلى السلامة أدنى وأما الى العطب أدنى .

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة فى قوله :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى الا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب فى هذه الآيات ثلاثة . .

قلبين مفتونين وقلبا ناجيا . فالمفتونان : القلب الذى فيه مرض والقلب القاسى . والناجى : القلب

(١) سورة الحج الآيات : ٥٢ ـ ٥٤

المؤمن المخبت إلى ربه . وهو المطمئن إليه الخاضع له ، المستسلم المنقاد .

وذلك : أن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحا سليما لا آفة به ، يتأتى منه ما هيء له وخلق لأجله . وخروجه عن الاستقامة إما ليبسه وقساوته . وعدم التأتى لما يراد منه ، كاليد الشلاء واللسان الأخرس ، والأنف الأخشم ، والعين لا تبصر شيئا . واما بمرض وآفة فيه تمنعه من كمال هذه الأفعال ووقوعها على السداد . فلذلك انقسمت القلوب إلى هذه الأقسام الثلاثة . فالقلب الصحيح السليم : ليس بينة وبين قبول الحق ومحبته وإيثاره سوى إدراكه فهو صحيح الادراك للحق ، تام الانقياد والقبول له .

والقلب الميت القاسى : لا يقبله ولا ينقاد له .

والقلب المريض : إن غلب عليه مرضه التحق بالميت القاسى . وإن غلبت عليه صحته التحق بالسليم .

فما يلقيه الشيطان فى الأسماع من الألفاظ وفى القلوب من الشبه والشكوك . فتنة لهذين القلبين . وقوة للقلب الحى السليم لأنه يردد ذلك ويكرهه ويبغضه ويعلم أن الحق فى خلافه فيخبت للحق ويطمئن وينقاد ويعلم بطلان ما ألقاه الشيطان ، فيزداد إيمانا بالحق ومحبة له وكفرا بالباطل وكراهة له ، فلا يزال القلب المفتون فى مرية من إلقاء الشيطان . وأما القلب الصحيح فلا يضره ما يليقه الشيطان ابدا .

قال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : (تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودا عودا . فأى قلب اشربها نكتت فيه نكتة سوداء . وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء ، حتى تعود القلوب على قلبين . قلب اسود مرباء كالكوز مجخيا . لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، الا ما أشرب من هواه ، وقلب أبيض ، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض)[1] فشبه عرض الفتن على القلوب شيئا فشيئا كعرض عيدان الحصير ، وهى طاقاتها شيئا فشيئا ، وقسم القلوب عند عرضها عليها إلى قسمين : قلب اذا عرضت عليه فتنة اشربها ، كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء ، فلا يزال يشرب كل فتنة تعرض عليه حتى يسود وينتكس وهو معنى قوله : (كالكوز مجخيا) أى مكبوبا منكوسا ، فإذا اسود وانتكس عرض له من هاتين الآفتين مرضان خطران مترامیان به إلى الهلاك : أحدهما :

اشتباه المعروف عليه بالمنكر ، فلا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، والحق باطلا والباطل حقا ، الثانى : تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول ﷺ .

وانقياده للهوى واتباعه له .

وقلب ابيض قد أشرق فيه نور الايمان . وأزهر فيه مصباحه ، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها ، فإزداد نوره وأشراقه وقوته .

---

(١) مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا ١ / ١٢٨ رقم ١٤٤ ، ومسند أحمد ٥/ ٣٨٦

والفتن التى تعرض على القلوب هى أسباب مرضها ، وهى فتن الشهوات وفتن الشبهات ، فتن الغى والضلال فتن المعاصى والبدع ، فتن الظلم والجهل . فالأولى توجب فساد القصد والارادة ، والثانية توجب فساد العلم والاعتقاد .

وقد قسم الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ القلوب إلى أربعة ، كما صح عن حذيفة ابن اليمان : (القلوب أربعة : قلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق ، عرف ثم أنكر ، وأبصر ثم عمى ، وقلب تمده مادتان : مادة ايمان ، ومادة نفاق ، وهو لما غلب عليه منهما)[١] .

فقوله (قلب اجرد) أى متجرد مما سوى الله ورسوله ، فقد تجرد وسلم مما سوى الحق ـ و (فيه سراج يزهر) وهو مصباح الايمان : فأشار بتجرده إلى سلامته من شبهات الباطل وشهوات الغى ، وبحصول السراج فيه إلى اشراقه واستنارته بنور العلم والإيمان ، وأشار بالقلب الأغلف الى قلب الكافر ، لانه داخل فى غلافه وغشائه ، فلا يصل إليه نور العلم والإيمان ، كما قال تعالى ، حاكيا عن اليهود :

﴿ **وقالوا قلوبنا غلف** ﴾[٢] وهو جمع أغلف ، وهو الداخل فى غلافه ، كقلف وأقلف ، وهذه الغشاوة هى الأكنة التى ضربها الله على قلوبهم ، عقوبة لهم على رد الحق والتكبر عن قبوله ، فهى أكنة على القلوب ووقر فى الاسماع ، وعمى فى الابصار ، وهى الحجاب المستور عن العيون فى قوله تعالى : ﴿ **وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا** ﴾[٣] . فإذا ذكر لهذه القلوب تجريد التوحيد وتجريد المتابعة ، ولى أصحابها على ادبارهم نفورا . وأشار بالقلب المنكوس ـ وهو المكبوب ـ إلى قلب المنافق ، كما قال تعالى : ﴿ **فما لكم فى المنافقين فئتين والله أركسهم بما كسبا** ﴾[٤] . أى نكسهم وردهم فى الباطل الذى كانوا فيه . بسبب كسبهم وأعمالهم الباطلة . وهذا شر القلوب وأخبثها ، فهو يعتقد الباطل حقا ويوالى أصحابه ، والحق باطلا ويعادى أهله ، فالله المستعان .

وأشار بالقلب الذى له مادتان إلى القلب الذى لم يتمكن فيه الايمان ولم يزهر فيه سراجه ، حيث لم يتجرد للحق المحض الذى بعث الله به رسوله ، بل فيه مادة منه ومادة من خلافه ، فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر والحكم للغالب وإليه يرجع .

فى ذكر حقيقة مرض القلب

قال الله تعالى عن المنافقين : ﴿ **فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا** ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ **ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض** ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء**

---

(١) مسند أحمد ١٧/٣
(٢) سورة البقرة الآية : ٨٨
(٣) سورة الاسراء الآية : ٤٥
(٤) سورة النساء الآية : ٨٨
(٥) سورة البقرة الآية : ١٠
(٦) سورة الحج الآية : ٥٣

إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾[1] أمرهن ألا يلن فى كلامهن ، كما تلين المرأة المعطية الليان فى منطقها ، فيطمع الذى فى قلبه مرض الشهوة ، ومع ذلك فلا يخشن فى القول بحيث يلتحق بالفحش ، بل يقلن قولاً معروفا ، وقال تعالى : **﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ـ الآية ﴾**[2] .

﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾[3] ، أخبر الله سبحانه عن الحكمة التى جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر ، فذكر سبحانه خمس حكم : فتنة الكافرين . فيكون ذلك زيادة فى كفرهم وضلالهم ، وقوة يقين أهل الكتاب ، فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك لما عندهم عن انبيائهم من غير تلق من رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فتقوم الحجة على معاندهم ، وينقاد للايمان من يرد الله أن يهديه . وزيادة ايمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والاقرار به ، وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك ، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به .

فهذه أربع حكم : فتنة الكفار ، ويقين أهل الكتاب ، وزيادة ايمان المؤمنين ، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب .

والخامسة : حيرة الكافر ومن فى قلبه مرض ، وعمى قلبه عن المراد بذلك ، فيقول **﴿ ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾** وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها ، قلب يفتتن به كفرا وجحودا ، وقلب يزداد به ايمانا وتصديقا ، وقلب يتيقنه ، فتقوم عليه به الحجة ، وقلب يوجب له حيرة وعمى ، فلا يدرى ما يراد به . واليقين وعدم الريب فى هذا الموضع ، إن رجعا إلى شىء واحد ، كان ذكر عدم الريب مقررا لليقين ومؤكدا له ، ونافيا عنه ما يضاده بوجه من الوجوه ، وإن رجعا إلى شيئين ، بأن يكون اليقين راجعا إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة ، وعدم الريب عائدا إلى عموم ما أخبر الرسول به ، لدلالة هذا الخبر الذى لا يعلم الا من جهة الرسل على صدقه ، فلا يرتاب من قد عرف هذا الخبر بعد صدق الرسول ـ ﷺ ـ ظهرت فائدة ذكره . والمقصود : ذكر مرض القلب وحقيقته .

وقال تعالى : **﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾**[5] فهو شفاء لما فى الصدور من مرض الجهل والغى ، فإن الجهل مرض شفاؤه العلم والهدى . والغى مرض شفاؤه الرشد ، وقد نزه الله سبحانه نبيه عن هذين الداءين . فقال : **﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾**[6] ووصف رسوله ـ ﷺ ـ خلفاءه بضدها فقال : **﴿ عليكم**

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٢
(٢) سورة الاحزاب الآية : ٦٠
(٣) سورة المدثر الآية : ٣١
(٤) سورة يونس الآية ٥٧
(٥) سورة النجم الآيتان : ١ ، ٢

بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ﴾[1] وجعل كلامه سبحانه كموعظة للناس عامة ، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة ، وشفاء تاما لما فى الصدور ، فمن استشفى به صح وبرىء من مرضه ومن لم يستشف به فهو كما قيل :

إذا بل من داء به ظن انه نجا وبه الداء الذى هو قاتله

وقال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾[2]، والأظهر أن (من) ههنا لبيان الجنس ، فالقرآن جميعه شفاء ورحمة للمؤمنين .

فصل فى أسباب ومشخصات مرض البدن والقلب

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعى ، لفساد يعرض له ، يفسد به ادراكه وحركته الطبيعية ، فإما ان يذهب ادراكه بالكلية ، كالعمى والصمم والشلل ، واما أن ينقص إدراكه ، لضعف فى آلات الادراك مع استقامة إدراكه واما أن يدرك الأشياء على خلاف ما هى عليه ، كما يدرك الحلو مرا ، والخبيث طيبا ، والطيب خبيثا .

وأما فساد حركته الطبيعية فمثل أن تضعف قوته الهاضمة ، أو الماسكة ، أو الدافعة ، أو الجاذبة ، فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حد الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الادراك والحركة .

وسبب هذا الخروج عن الاعتدال : إما فساد فى الكمية وإما فى الكيفية .

فالأول : إما لنقص فى المادة ، فيحتاج إلى زيادتها ، وإما لزيادة فيها فيحتاج إلى نقصها .

والثانى : إما بزيادة الحرارة ، أو البرودة ، أو الرطوبة ، أو اليبوسة ، أو نقصانها عن القدر الطبيعى ، فيداوى بمقتضى ذلك ، ومدار الصحة على حفظ القوة ، والحمية عن المؤذى ، واستفراغ المواد الفاسدة ، ونظر الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة ، وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة : فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض ان يفطر فى رمضان . ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برىء ، حفظا لقوتها عليها ، فإن الصوم يزيد المريض ضعفا ، والمسافر يحتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، والصوم يضعفها .

وأما الحمية عن المؤذى : فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل ، إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حمية له عن ورود المؤذى عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذى له فى باطنه .

وأما استفراغ المادة الفاسدة : فإنه سبحانه اباح للمحرم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه ،

---

(١) اخرجه ابو داود ـ كتاب السنة ـ باب لزوم السنة ٥ / ١٣ رقم ٤٦٠٧ وابن ماجه ١ / ١٦ رقم ٤٢ والبيهقى ١٠ / ١١٤ وابن حبان ١ / ١٠٤ رقم ٥

(٢) سورة الاسراء الآية : ٨٢

فيستفرغ بالحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفها ، فنبه به على ما هو أحوج إليه منه .

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا ، فقال : والله لو سافرت إلى الغرب فى معرفة هذه الفائدة لكان سفرا قليلا ، أو كما قال :

وإذا عرف هذا ، فالقلب محتاج إلى ما يحفظ عليه قوته وهو الايمان و أوراد الطاعات ، وإلى حمية عن المؤذى الضار ، وذلك بإجتنباب الآثام والمعاصى ، وأنواع المخالفات ، وإلى استفراغه من كل مادة فاسدة تعرض له ، وذلك بالتوبة النصوح ، واستغفار غافر الخطيئات ، ومرضه هو نوع فساد يحصل له ، ويفسد به تصوره للحق وارادته له ، فلا يرى الحق حقا ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ، أو ينقص إدراكه له ، وتفسد به ارادته له ، فيبغض الحق النافع ، تارة بالشك والريب ، كما قال مجاهد وقتادة فى قوله تعالى :

﴿ فى قلوبهم مرض ﴾[١] أى شك ، وتارة بشهوة الزنا ، كما فسر به قوله تعالى : ﴿ **فيطمع الذى فى قلبه مرض** ﴾[٢] ، فالأول مرض الشبهة ، والثانى مرض الشهوة .

والصحة تحفظ بالمثل والشبه ، والمرض يدفع بالضد والخلاف وهو يقوى بمثل سببه ، ويزول بضده ، والصحة تحفظ بمثل سببها وتضعف أو تزول بضده .

ولما كان البدن المريض يؤذيه مالا يؤذى الصحيح : من يسير الحر ، والبرد ، والحركة ، ونحو ذلك ، فكذلك القلب . إذا كان فيه مرض أذاه أدنى شيء : من الشبهة أو الشهوة ، حيث لا يقوى على دفعهما إذا وردا عليه ، والقلب الصحيح القوى يطرقه أضعاف ذلك وهو يدفعه بقوته وصحته .

وبالجملة فإذا حدث للمريض مثل سبب مرضه زاد مرضه وضعفت قوته وترامى إلى التلف ، مالم يتدارك ذلك بأن يحصل له ما يقوى قوته ويزيل مرضه .

فى اقسام أدوية أمراض القلب إلى قسمين : طبيعية ، وشرعية

مرض القلب نوعان : نوع لا يتألم به صاحبه فى الحال ، وهو النوع المتقدم كمرض الجهل ، ومرض الشبهات والشكوك ، ومرض الشهوات ، وهذا النوع أعظم النوعين ألما ، ولكن لفساد القلب لا يحس بالألم ، ولأن سكرة الجهل والهوى تحول بينه وبين ادراك الألم ، وإلا فألمه حاضر فيه حاصل له ، وهو منوار عنه باشتغاله بضده ، وهذا أخطر المرضين وأصعبهما .

وعلاجه إلى الرسل واتباعهم . فهم أطباء هذا المرض .

والنوع الثانى : مرض مؤلم له فى الحال كالهم والغم والحزن والغيظ وهذا المرض قد يزول بأدوية طبيعية كإزالة أسبابه أو بالمدواة بما يضاد تلك الأسباب . وما يدفع موجبها مع قيامها وهذا كما أن القلب قد يتألم بما يتألم به البدن ويشقى بما يشقى به البدن فكذلك البدن يتألم كثيرا بما يتألم به القلب ويشقيه ما يشقيه .

---

(١)سورة البقرة الآية : ١٠
(٢) سورة الاحزاب الآية : ٣١

فأمراض القلب التى تزول بالأدوية الطبيعية من جنس أمراض البدن ، وهذه قد لا توجب وحدها شقاءه وعذابه بعد الموت وأما أمراضه التى لا تزول إلا بالادوية الايمانية النبوية فهى التى توجب له الشقاء والعذاب الدائم إن لم يتداركها بأدويتها المضادة لها ، فإذا استعمل تلك الأدوية حصل له الشفاء ، ولهذا يقال : (شفى غيظ) فإذا استولى عليه عدوه آلمه ذلك فإذا انتصف منه اشتفى قلبه . قال تعالى : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء ﴾[1] فأمر بقتال عدوهم وأعلمهم ان فيه ست فوائد :

فالغيظ يؤلم القلب ، ودواؤه فى شفاء غيظ ، فإن شفاه بحق اشتفى ، وإن شفاه بظلم وباطل زاده مرضا من حيث ظن أنه يشفيه وهو كمن شفى مرض العشق بالفجور بالمعشوق فإن ذلك يزيد مرضه ويوجب له أمراضا أخرى أصعب من مرض العشق ، وكذلك الغم والهم والحزن أمراض للقلب وشفاؤها بأضدادها من الفرح والسرور ، فإن كان ذلك بحق اشتفى القلب وصح وبرىء من مرضه ، وإن كان بباطل توارى ذلك واستتر ولم يزل وأعقب أمراضا هى أصعب وأخطر .

وكذلك الجهل مرض يؤلم القلب ، فمن الناس من يداويه بعلوم لا تنفع ، ويعتقد أنه قد صح من مرضه بتلك العلوم ، وهى فى الحقيقة انما تزيده مرضا إلى مرضه ، لكن اشتغل القلب بها عن ادراك الألم الكامن فيه ، بسبب جهله بالعلوم النافعة التى هى شرط فى صحته وبرئه ، قال النبى - ﷺ -: فى الذين افتوا بالجهل ، فهلك المستفتى بفتواهم (قتلوه ، قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا ؟ فإنما شفاء العى السؤال)[2] فجعل الجهل مرضا وشفاءه سؤال أهل العلم .

وكذلك الشاك فى الشيء المرتاب منه ، يتألم قلبه حتى يحصل له العلم واليقين ، ولما كان ذلك يوجب له حرارة قيل لمن حصل له اليقين : ثلج صدره : وحصل له برد اليقين ، وهو كذلك يضيق بالجهل والضلال عن طريق رشده ، وينشرح بالهدى والعلم . قال تعالى : ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾[3] .

والمقصود : ان من أمراض القلب ما يزول بالادوية الطبيعية ومنها ما لا يزول إلا بالأدوية الشرعية والايمانية ، والقلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظم مما للبدن .

انتهى المجلد الثانى والخمسون من كتابنا : فى رحاب التفسير ويليه بمشيئة الله تعالى المجلد الثالث والخمسون مبدوءا بتلك العبارة :

(فى ان حياة القلب واشراقه مادة كل خير فيه وموته وظلمته مادة كل شرفيه)

---

(١)سورة التوبة الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٢) اخرجه أبو داود - كتاب الطهارة - باب المجروح يتيمم ١ / ٢٤٠ رقم ٣٣٧ وابن ماجه - كتاب الطهارة - باب المجروح تصيبه الجنابة ١ / ١٨٩ رقم ٥٧٢ والحاكم ١ / ١٧٨ وابن حبان رقم ٢٢٠١ واحمد ١ / ٣٣٠

(٣) سورة الانعام الآية : ١٢٥

فصل

فى أن حياة القلب وإشراقه مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .
أصل كل خير ، وسعادة للعبد ، بل لكل حى ناطق كمال حياته ونوره ، فالحياة والنور مادة الخير كله .

قال الله تعالى : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ ؟[١] .

فجمع بين الأصلين : الحياة والنور ، فبالحياة تكون قوته وسمعه وبصره وحياؤه وعفته وشجاعته وصبره وسائر أخلاقه الفاضلة ، ومحبته للحسن ، وبغضه للقبيح ، فكلما قويت حياته قويت فيه هذه الصفات ، وإذا ضعفت حياته ضعفت فيه هذه الصفات ، وحياؤه من القبائح هو بحسب حياته فى نفسه ، فالقلب الصحيح الحى إذا عرضت عليه القبائح نفر منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها بخلاف القلب الميت ، فإنه لايفرق بين الحسن والقبيح كما قال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : (هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر) .

وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك بحسب قوة المرض وضعفه ، وكذلك إذا قوى نوره ، واشراقه انكشفت له صور المعلومات وحقائقها على ما هى عليه ، فاستبان حسن الحسن بنوره ، واثره بحياته ، وكذلك قبح القبيح .

وقد ذكر سبحانه وتعالى هذين الأصلين فى مواضع من كتابه فقال تعالى :

﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾[٢] .

فجمع بين الروح الذى يحصل به الحياة ، والنور الذى يحصل به الإضاءة والإشراق ، وأخبر أن كتابه الذى أنزله على رسوله ـ ﷺ ـ متضمن للأمرين ، فهو روح تحيا به القلوب ، ونور تستضىء وتشرق به .

كما قال تعالى : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[٣] .

أى أو من كان كافرا ميت القلب مغمورا فى ظلمة الجهل فهديناه لرشده ، ووفقناه للايمان ، وجعلنا قلبه حيا بعد موته مشرقا مستنيرا بعد ظلمته ، فجعل الكافر ـ لانصرافه عن طاعته وجهله بمعرفته وتوحيده وشرائع دينه ، وترك الأخير بنصيبه من رضاه ، والعمل بما يؤديه إلى نجاته وسعادته ـ بمنزلة الميت الذى لاينفع نفسه بنافعة ، ولايدفع عنها من مكروه ، فهديناه للاسلام ، وأنعشناه به ، فصار يعرف مضار نفسه ومنافعها ، ويعمل فى خلاصها من سخط الله ـ تعالى ـ وعقابه ، فابصر الحق

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢
(٢) سورة الشورى الآية : ٥٢ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ١٢٢

بعد عماه عنه ، وعرفه بعد جهله به ، واتبعه بعد اعراضه عنه ، وحصل له نور وضياء يستضيء به ، فيمشي بنوره بين الناس وهم فى سدف الظلام .

كما قيل :

ليلى بوجهك مشرق ... وظلامه فى الناس سارى
الناس فى سدف الظلا ... م ونحن فى ضوء النهار

ولهذا يضرب الله سبحانه وتعالى المثلين المائي والنارى لوحيه ولعباده .

أما الأول : فكما قال فى سورة الرعد : ﴿ **أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال** ﴾(١) .

فضرب لوحيه المثل بالماء لما يحصل به من الحياة وبالنار لما يحصل بها من الاضاءة والاشراق .

وأخبر سبحانه أن الأودية تسيل بقدرها ، فواد كبير يسع ماء كثيرا ، وواد صغير . يسع ماء قليلا .

كذلك القلوب مشبهة بالأودية ، فقلب كبير يسع علما كثيرا ، وقلب صغير يسع بقدره ، وشبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات بسبب مخالطة الوحى لها ، وإمازته لما فيها من ذلك بما يحتمله السيل من الزبد .

وشبه بطلان تلك الشبهات باستقرار العلم النافع فيها بذهاب ذلك الزبد ، والقاء الوادى له ، وإنما يستقر فيه الماء الذى به النفع ، وكذلك فى المثل الذى بعده : يذهب الخبث الذى فى ذلك الجوهر ويستقر صفوه . .

وأما ضرب هذين المثلين للعباد ، فكما قال فى سورة البقرة ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . صم بكم عمى فهم لايرجعون** ﴾(٢) .

فهذا المثل النارى .

ثم قال : ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت** ﴾(٣) .

فهذا لمثل المائى والمقصود أن صلاح القلب وسعادته وخلاصه موقو على هذين الأصلين .

قال تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا** ﴾(٤) .

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والانذار به إنما يحصل لمن هو حى القلب ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾(٥) .

(١) سورة الرعد الآية : ١٧
(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٧ ، ١٨
(٣) سورة البقرة من الآية : ١٩
(٤) سورة يس الآيتان : ٦٩ ، ٧٠
(٥) سورة ق من الآية : ٣٧

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[١] .

فأخبر سبحانه وتعالى : أن حياتنا إنما هى باستجابتنا لما يدعونا اليه الله والرسول من العلم والايمان ، فعلم أن موت القلب وهلاكه بفقد ذلك .

وشبه سبحانه من لايستجيب لرسوله بأصحاب القبور .

وهذا من أحسن التشبيه ، فإن أبدانهم قبور لقلوبهم ، فقد ماتت قلوبهم وقبرت فى أبدانهم .

فقال الله تعالى : ﴿ ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾[٢] .

ولقد أحسن القائل

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله
وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسومهم
وليس لهم حتى النشور نشور

ولهذا جعل سبحانه : وحيه الذى يلقيه إلى الأنبياء روحا كما قال تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾[٣] .

فى موضعين من كتابه :

وقال سبحانه : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾[٤] .

لأن حياة الأرواح والقلوب به ، وهذه الحياة الطيبة هى التى خص بها سبحانه من قَبِلَ وحيه ، وعمل به .

فقال بحانه : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٥] .

فخصهم سبحانه وتعالى بالحياة الطيبة فى الدارين ، ومثله قوله تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾[٦] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾[٧] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة ﴾[٨] .

فبين سبحانه : انه يسعد المحسن باحسانه فى الدنيا وفى الآخرة ، كما أخبر أنه يشقى المسىء بإساءته فى الدنيا والآخرة .

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٢٤
(٢) سورة فاطر آية : ٢٢
(٣) سورة غافر من الآية : ١٥
(٤) سورة الشورى من الآية : ٥٢
(٥) سورة النحل الآية : ٩٧
(٦) سورة هود من الآية : ٣
(٧) سورة النحل من الآية : ٣٠
(٨) سورة الزمر من الآية : ١٠

قال تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[١] .

وقد جمع بين النوعين ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون ﴾[٢] .

فأهل الهدى والايمان لهم شرح الصدر واتساعه وانفساحه ، وأهل الضلال لهم ضيق الصدر والحرج .

وقال تعالى : ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾[٣] .

فأهل الايمان فى النور وإنشراح الصدر ، وأهل الضلال فى الظلمة وضيق الصدر .

والمقصود أن حياة القلب وإضاءته مادة كل خير فيه ، وموته وظلمته مادة كل شر فيه .

* فى أن حياة القلب وصحته لاتحصل إلا بأن يكون مدركا للحق مريدا له ، مؤثرا له على غيره .

لما كان فى القلب قوتان : قوة العلم والتميز ، وقوة الارادة والحب ، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ، ويعود عليه بصلاحه وسعادته ، فكماله باستعمال قوة العلم فى إدراك الحق ، ومعرفته ، والتمييز بينه وبين الباطل ، وباستعمال قوة الارادة والمحبة فى طلب الحق ومحبته ، وإيثاره على الباطل . فمن لم يعرف الحق فهو ضال ، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه ، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه .

وقد أمرنا الله سبحانه ـ وتعالى ـ : أن نسأله فى صلاتنا أن يهدينا صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، ولهذا كان النصارى أخص بالضلال ، لأنهم أمة جهل . واليهود أخص بالغضب ، لأنهم أمة عناد ، وهذه الأمة هى المنعم عليهم ولهذا قال سفيان بن عيينه : (من فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى . ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود ، لأن النصارى عبدوا بغير علم ، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه) .

وفى المسند والترمذى من حديث عدى بن حاتم عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون)[٤].

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين فى غير موضع من كتابه ، فمنها قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداع إذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾[٥] .

فجمع سبحانه بين الاستجابة له والايمان به . ومنها قوله عن رسوله ـ ﷺ ـ : ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾[٦] .

---

(١) سورة طه ، الآية : ١٢٤
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٢٥
(٣) سورة الزمر من الآية : ٢٢
(٤) انظر سنن الترمذى فى (كتاب تفسير القرآن) باب : ومن سورة فاتحة الكتاب ج ٥ ص ٢٠٤ رقم ٢٩٥٤
(٥) سورة البقرة الآية : ١٨٦
(٦) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٧

وقال تعالى : ﴿ ألم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وألئك هم المفلحون ﴾(١) .

وقال تعالى فى وسط السورة : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ـ إلى آخر الآية ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ والعصر ، إن الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾(٣) .

فأقسم سبحانه بالدهر الذى هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة ، على أن كل واحد فى خسر ، إلا من كمل قوته العلمية بالايمان بالله ، وقوته العملية بالعمل بطاعته . فهذا كماله فى نفسه ، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك ، وأمره إياه به ، وبملاك ذلك وهو الصبر . فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح ، وكمل غيره بتعليمه اياه ذلك ، ووصيته له بالصبر عليه ، ولهذا قال الشافعى ـ رحمه الله ـ : (لو فكر الناس فى سورة العصر لكفتهم) وهذا المعنى فى القرآن فى مواضع كثيرة : يخبر سبحانه أن أهل السعادة : هم الذين عرفوا الحق واتبعوه ، وأن أهل الشقاوة : هم الذين جهلوا الحق وضلوا عنه ، أو علموه وخالفوه واتبعوا غيره .

وينبغى أن تعرف أن هاتين القوتين لاتتعطلان فى القلب ، فهو إما استعمل قوته العلمية فى معرفة الحق وإدراكه ، وإما استعملها فى معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل ، وإما استعمل قوته الارادية العملية فى العمل به ، وإلا إستعملها فى ضده ، فالانسان حارس همام بالطبع ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : (أصدق الأسماء : حارث وهمام)(١) فالحارث الكاسب العامل ، والهمام المريد ، فإن النفس متحركة بالارادة ، وحركتها الارادية لها من لوازم ذاتها ، والارادة تستلزم مرادا يكون مصورا لها ، متميزا عندها ، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته ، وأرادته ولابد .

* فى أنه لاسعادة للقلب ، ولا لذة ، ولا نعيم ، ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو الهه وفاطره وحده ، وهو معبوده وغاية مطلوبه ، وأحب إليه من كل ما سواه .

معلوم أن كل حى ـ سوى الله سبحانه ـ : من ملك أو إنس أو جن أو حيوان ، هو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ولايتم ذلك له إلا بتصوره للنافع والضار ، والمنفعة من جنس النعيم واللذة ، والمضرة من جنس الألم والعذاب .

---

(١) سورة البقرة ، الآيات : ١ ـ ٥
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧٧
(٣) سورة العصر من الآية : ١ ـ ٣

فلابد له من أمرين : أحدهما معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذى ينتفع به ويلتذ بإدراكه ، والثانى : معرفة المعين الموصل المحصل لذلك المقصود . وبإزاء ذلك أمران آخران ، أحدها : مكروه بغيض ضار ، والثانى : معين دافع له عنه ، فهذه أربعة أشياء : أحدهما أمر هو محبوب مطلوب الوجود . الثانى : أمر مكروه مطلوب العدم . الثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب ، الرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه .

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد ، بل ولكل حيوان ، لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها .

فإذا تقرر ذلك ، فالله ـ تعالى ـ هو الذى يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب . الذى يراد وجهه ، ويبتغى قربه ، ويطلب رضاه ، وهو المعين على حصول ذلك . وعبودية ما سواه والالتفات إليه ، والتعلق به . هو المكروه الضار ، والله هو المعين على دفعه ، فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه . فهو المعبود المحبوب المراد . وهو المعين لعبده على دفعه عنه ، كما قال أعرف الخلق به : (أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك)[1] .

وقال : (اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ، ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)[2] .

فمنه المنجى ، وإليه الملجأ ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته ، فالإعاذة فعله ، والمستعاذ منه فعله ، أو مفعوله الذى خلقه بمشيئته . فالأمر كله له ، والحمد كله له ، والملك كله له ، والخير كله فى يديه ، لايحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه كل أحد من خلقه ، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته فى تحقيق معنى قوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾[3] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ، لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب .

فالأول : من معنى ألوهيته ، والثانى من معنى ربوبيته ، فإن الاله هو الذى تألهه القلوب : محبة ، وإنابة ، وإجلالا ، وإكراما ، وتعظيما ، وذلا ، وخضوعا ، وخوفا ، ورجاء ، وتوكلا ، والرب هو الذى يربى عبده ، فيعطيه خلقه ، ثم يهديه إلى مصالحه . فلا إله إلا هو ، ولارب إلا هو . فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل ، فكذلك إلهية ما سواه .

وقد جمع الله ـ سبحانه ـ بين هذين الأصلين فى مواضع من كتابه كقوله : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[4] وقوله عن نبيه شعيب : ﴿ وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾[5] .

---

(١) انظر الترمذى والنسائى من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : كنت نائمة الى جنبى النبى ﷺ ـ ففقدته من الليل فلمسته فوقعت يدى على قدميه وهو ساجد يقول : أعوذ برضاك .. الخ .. ورواه مسلم وأصحاب السنن .

(٢) انظر البخارى ومسلم وأبو داود الترمذى

(٣) سورة الفاتحة الآية : ٥

(٤) سورة هود ، من الآية : ١٢٣

(٥) سورة هود ، من الآية : ٨٨

وقوله : ﴿ وتبتل إليه تبتيلا ، رب المشرق والمغرب لا آله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾[(١)] . وقوله : ﴿ قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾[(٢)] . وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾[(٣)] فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين لمعنى التوحيد اللذين لا سعادة للعبد بدونهما البتة .

الوجه الثانى : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ : خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمعرفته والانابة إليه ومحبته ، والاخلاص له ، فبذكره تطمئن القلوب ، وتسكن نفوسهم ، وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ، ويتم نعيمهم ، فلا يعطيهم فى الآخرة شيئا هو أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم ، ولا أنعم لقلوبهم : من النظر إليه ، وسماع كلامه منه بلا واسطة ، ولم يعطهم فى الدنيا شيئا خيرا لهم ولا أحب إليهم ، ولا أقر لعيونهم من الإيمان به ، ومحبته والشوق إلى لقائه ، والأنس بقربه ، والتنعم بذكره .

وقد جمع النبى ـ ﷺ ـ بين هذين الأمرين فى الدعاء الذى رواه النسائى والامام أحمد ، وابن حبان فى صحيحه وغيرهم ، من حديث عمار بن ياسر : أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يدعو به : (اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحينى ما علمت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيرا لى ، وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسالك كلمة العدل والحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، واسألك نعيما لا يبيد ، وقرة عين لاتنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، وأسألك الشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الايمان ، واجعلنا هداة مهتدين)[(٤)] .

فجمع فى هذا الدعاء العظيم القدر بين أطيب شىء فى الدنيا ، وهو الشوق إلى لقائه سبحانه ، وأطيب شىء فى الآخرة ، وهو النظر إلى وجهه سبحانه . ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفا على عدم مايضر فى الدنيا ويفتن فى الدين قال : (فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة) .

ولما كان كمال العبد فى أن يكون عالما بالحق متبعا له معلما لغيره ، مرشدا له ، قال : (واجعلنا هداة مهتدين)[(٥)] .

ولما كان الرضا النافع المحصل للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لاقبله ، فإن ذلك عزم على الرضا ، فإذا وقع القضاء إنفسخ ذلك العزم ، سأل الرضى بعده ، فإن المقدور يكتنفه أمران : الاستخارة قبل وقوعه ، والرضا بعد وقوعه . فمن سعادة العبد أن يجمع بينهما ، كما فى المسند وغيره عنه ﷺ : (إن من سعادة ابن آدم استخارة الله ورضاه بما قضى الله وإن من شقاوة إبن آدم ترك

(١) سورة الفرقان من الآية : ٥٨

(٢) سورة المزمل من الآيتين : ٨ ، ٩

(٣) سورة الرعد من الآية : ٣٠

(٤) سورة الممتحنة من الآية : ٤

(٥) انظر مسند الامام أحمد ـ من حديث عمار بن ياسر ج ٤ ص ٢٦٤ وابن حبان فى ذكر جواز دعاء المرء فى الصلاة بما ليس فى كتاب الله ج ٣ ص ٢١٢ رقم ١٩٦٨

استخارة الله وسخطه بما قضى الله تعالى)[١] .

ولما كانت خشية الله عز وجل رأس كل خير فى المشهد والمغيب ، سأله خشيته فى الغيب والشهادة .

ولما كان أكثر الناس إنما يتكلم بالحق فى رضاه فإذا غضب أخرجه غضبه إلى الباطل ، وقد يدخله أيضا رضاه فى الباطل ، وسأل الله عز وجل أن يوفقه إلى كلمة الحق فى الغضب والرضا ، ولهذا قال بعض السلف : (لاتكن ممن إذا رضى أدخله رضاه فى الباطل وإذا غضب أخرجه غضبه من الحق) .

ولما كان الفقر والغنى بليتين ومحنتين يبتلى الله بهما عبده ، ففى الغنى يبسط يده ، وفى الفقر يقبضها . سأل الله ـ عز وجل ـ القصد فى الحالين ، وهو التوسط الذى ليس معه إسراف ولاتقتير .

ولما كان النعيم نوعين : نوعا للبدن ، ونوعا للقلب ، وهو قرة العين ، وكماله بدوامه وإستمراره ، جمع بينهما فى قوله (أسألك نعيما لاينفد ، وقرة عين لاتنقطع) .

ولما كانت الزينة زينتين : زينة البدن وزينة القلب ، وكانت زينة القلب أعظمهما قدرا وأجلهما خطرا ، وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه فى العقبى ، سأل ربه الزينة الباطنة فقال : (زينا بزينة الإيمان)[٢] .

ولما كان العيش فى هذه الدار لايبرد لأحد كائنا من كان ، بل هو محشو بالغصص والنكد ، ومحفوف بالآلام الباطنة والظاهرة ، سأل برد العيش بعد الموت .

والمقصود : أنه جمع فى هذا الدعاء بين أطيب ما فى الدنيا ، وأطيب ما فى الآخرة .

فإن حاجة العباد إلى ربهم فى عبادتهم إياه وتأليههم له ، كحاجتهم إليه فى حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ، ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أحسن الحسنات ، وكان توحيد الألوهية رأس الأمر ، وأما توحيد الربوبية الذى أقر به المسلم والكافر ، وقرره أهل الكلام فى كتبهم ، فلا يكفى وحده ، بل هو الحجة عليهم ، كما بين ذلك سبحانه فى كتابه الكريم فى عدة مواضع ، ولهذا كان حق الله على عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا كما فى الحديث الصحيح الذى رواه معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ ـ قال : (أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقه على عباده أن يعبدوه ولايشركوا به شيئا ، أتدرى ما ق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه الا يعذبهم بالنار)[٣] ولذلك يحب سبحانه عباده المؤمنين الموحدين ويفرح بتوبتهم ، كما أن فى ذلك أعظم لذة العبد وسعادته ونعيمه ، فليس فى الكائنات شيء غير الله عز وجل يسكن القلب إليه ، ويطمئن به ويأنس به ، ويتنعم بالتوجه إليه ، ومن عبد غيره سبحانه وحصل

---

(١) انظر مسند الامام أحمد بن حنبل ومسند أبى اسحاق سعد بن أبى وقاص ح ١ ص ١٦٨

(٢) جزء من حديث رواه الامام أحمد فى مسنده من حديث عمار بن ياسر ج ٤ ص ٢٦٤ وإبن حبان فى جواز دعاء المرء فى الصلاة بما ليس فى كتاب الله ج ٣ ص ٢١٢

(٣) أنظر مسن الامام أحمد من حديث معاذ بن جبل ج ٥ ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦

له به فرع منفعة ولذة ، فمضرته بذلك أضعاف أضعاف منفعته وهو بمنزلة أكل الطعام المسموم اللذيذ ، وكما أن السموات والأرض لو كان فيهما آلهة غيره سبحانه لفسدتا ، كما قال تعالى ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ فكذلك القلب إذا كان فيه معبود غير الله تعالى : فسد فسادا لايرجى صلاحه إلا بأن يخرج ذلك المعبود منه ، ويكون الله تعالى : وحده أكرم ومعبوده الذى يحبه ويرجوه ويخافه ، ويتوكل عليه ، وينيب إليه .

الوجه الثالث : إن فقر العبد إلى أن يعبد الله سبحانه : وحده لايشرك به شيئا ليس له نظير ، فيقاس به ، لكن يشبه من بعض الوجوه ، حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس ، فيقاس بها ، لكن بينهما فروق كثيرة ، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذى (لا إله إلا هو) ، فلا يطمئن إلا بذكره ، ولايسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادح إليه كدحا فملاقيه ، ولابد له من لقائه ولا صلاح له الا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه ، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل ، فلا يدوم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا فى حال ، وبهذا فى حال ، وكثيرا ما يكون ذلك الذى يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته . وأما إلهه الحق فلابد له منه فى كل وقت ، وفى كل حال ، واينما كان فنفس الايمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الانسان وقوته ، وصلاحه وقوامه ، كما عليه أهل الايمان ودلت عليه السنة والقرآن ، وشهدت به الفطر والجنان ، لا كما يقوله : من قل نصيبه من التحقيق والعرفان ، ونحس حظه من الاحسان إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان ، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل ، كالمعاوضة بالاثمان ، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان ، كما هى مقالات من نقص حظه من معرفة الرحمن ، وقل نصيبه من ذوق حقائق الايمان ، وفرح بما عنده من زبد الأفكار وزبالة الأذهان ، بل عبادته ومعرته وتوحيده وشكره قرة عين الانسان ، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذاالشأن والله المستعان وعليه التكلان .

وليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، وإن وقع ذلك ضمنا وتبعا فى بعضها ، لأسباب اقتضته لابد منها ، هى من لوازم هذه النشأة .

فأوامره سبحانه ، وحقه الذى أوجبه على عباده ، وشرائعه التى شرعها لهم ، هى قرة العيون ولذة القلوب ، ونعيم الأرواح وسرورها ، وبها شقاؤها وسعادتها وفلاحها ، وكمالها فى معاشها ومعادها ، بل لا سرور لها ولا فرح ولا لذة ولا نعيم فى الحقيقة إلا بذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[1] .

قال سعيد الخدرى : (فضل الله : القرآن ورحمته : أن جعلكم من أهله) وقال هلال بن يسان (بالاسلام الذى هداكم إليه ، والقرآن الذى علمكم إياه ، هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة) .

---

(١) سورة يونس الآية : ٥٧

والتحقيق : أن كلا منهما فيه الوصفان ، الفضل والرحمة ، وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الأيمان** ﴾[١] والله سبحانه إنما رفع من رفع بالكتاب والايمان . ووضع من وضع بعدمهما .

فإن قيل : فقد وقع نسبة ذلك تكليفا فى القرآن كقوله : ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾[٢] وقوله : ﴿ **لانكلف نفسا إلا وسعها** ﴾[٣] .

قيل : نعم إنما جاء ذلك فى جانب النفس ، ولم يسم سبحانه أوامره وشرائعه تكليفا قط ، بل سماها روحا ونورا ، وشفاء وهدى ورحمة ، وحياة ، وعهدا ، ووصية ، ونحو ذلك .

الوجه الرابع : أن أفضل نعيم الآخرة وأعلاها على الاطلاق هو النظر إلى وجه الرب ـ عز وجل ـ وسماع خطابه كما فى صحيح مسلم عن صهيب ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ ـ (اذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ويدخلنا الجنة ، ويجرنا من النار ؟ قال فيكشف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه)[٤] وفى حديث آخر (فلا يلتفتون إلى شىء من النعيم ما داموا ينظرون إليه) فبين عليه ـ الصلاة والسلام ـ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم فى الجنة لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه .

من مشاهد القيامة

قوله تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين ، وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون . فكبكبوا فيها وهم الغاوون . وجنود إبليس أجمعون ـ قالوا وهم فيها يختصمون بالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[٥] .

هذا إخبار منه تبارك وتعالى عن دار الجزاء فى الآخرة ، فالجنة قد أزلفت وقربت وزينت للمتقين الذين خافوا الجليل ، وعملوا بالتنزيل ، ورضوا بالقليل ، واستعدوا ليوم الرحيل ، إنهم الذين تناديهم الحور العين نحن الناعمات فلا نبأس ، نحن الراضيات فلا نسخط ، نحن المقيمات فلا نظعن ، نحن الخالدات فلا نبيد ، طوبى لمن كنا له وكان لنا قال تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[٦]

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢

(٢)سورة البقرة من الآية : ٢٨٦

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٥٢

(٤) الحديث رواه مسلم فى (كتاب الايمان) باب : اثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ج ١ ص ١٦٣ رقم ١٨١ بلفظ : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب . فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) .

(٥) سورة الشعراء من الآية : ٩٠ـ ١٠٤

(٦) سورة السجدة الآية : ١٧

لاتركنن إلى القصور الفاخرة   واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل   يارب إن العيس عيش الآخرة

قف خاشعا أمام هذا الجلال ، ومتع السمع والبصر بهذا الجمال ، وأملأ القلب روعة بهذا الكمال ، قف أمام هذا المشهد المشرق البسام ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا . ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا . إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا . إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا . وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا متكئين فيها على الأرائك لايرون فيها شمسا ولازمهريرا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا . ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدروها تقديرا ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا** ﴾[1] .

وينتقل بنا النظم الكريم من نور الوعد إلى نيران الوعيد ، ومن منازل السعداء إلى درك الأشقياء ، فيقول تبارك اسمه ﴿ **وبرزت الجحيم للغاوين** ﴾ أى : سارت الجحيم ظاهرة لمن يرى غير خافية ﴿ **هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون . اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾[2] إنها منزل لكل من ضل وغوى عن سواء السبيل ، ﴿ **إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا . لايذقون فيها بردا ولاشرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لايرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾[3] .

القبر باب وكل الناس داخله   يا ليت شعرى بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما   يرضى الاله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما   فانظر بنفسك أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا   وإن هفو هفوة فالرب غفار

إن الغاوين الضالين يقال لهم يوم القيامة : ﴿ **أين ما كنتم تعبدون من دون الله** ﴾[4] ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون . لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون . لهم فيها زفير وهم فيها لايسمعون** ﴾[5] هل ينصرونكم ؟ إنهم لايستطيعون ، أو ينتصرون

(١) سورة الانسان الآيات : ٥ - ٢٢
(٢) سورة الطور الآيات : ١٤ - ١٦
(٣) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠
(٤) سورة الشعراء من الآية : ٩٢ ، ٩٣ .
(٥) سورة الأنبياء الآيات : ٩٨ - ١٠٠

لأنفسهم ! إنهم لايقدرون ﴿ فكبكبوا فيها وهم الغاوون ﴾[١] والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك . ﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾[٢] كذلك ألقى فيها جنود إبليس ﴿ فلم نغادر منهم أحدا ﴾ وفى لفظ الكبكبة ما يفيد التدهور والقاء بعضهم على بعض مما يوحى بالازدراء والاستهانة ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٣]

﴿ قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾[٤] هذا حديث عن أهل النار وهم فيها ونحو قوله تعالى : ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾[٥] ونحو قوله تعالى : ﴿ قال أدخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والأنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون . إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لاتفتح لهم أبواب السماء ولايدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين . لم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾[٦] ثم أقسموا قائلين تالله إن كنا لفى ضلال مبين إذ نسويكم برب العالمين ﴾[٧] .

لقد أقسموا بالله بأنهم كانوا فى ضلال مبين (فإن) هنا مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف والتقدير إنه كنا لفى ضلال مبين أى : كان شأننا هكذا فى بعد عن الحق واضح ، ثم بينوا وجه ضلالهم فقالوا : ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ثم اعترفوا قائلين ﴿ وما أضلنا إلا المجرمون ﴾[٨] ولكن بعد ما فات الأوان وأدرجوا فى أكفان القدر ودخلت الشمس فى منطقة الكسوف .

وذهبت السكرة ، وحلت الفكرة ، وانقضت الدنيا ، وانفض السوق ، ربح منه من ربح ، وخسر فيه من خسر ، يقول الامام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ : فى قوله تعالى : ﴿ إذ نسويكم برب العالمين ﴾ ان هذه التسوية إنما كانت فى الحب والتأليه واتباع ما شرعوا ، لا فى الخلق والقدرة والربوبية وهى العدل الذى أخبر به عن الكفار ، كقوله ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ﴾[٩] .

وأصح القولين : أن المعنى ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلا يحبونه ويقدسونه ويعبدونه ، كما يعبدون الله ، ويعظمون أمره .

وقال فى طريق الهجرتين : وهذه التسوية لم تكن منهم فى الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله ـ سبحانه ـ فى أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها فى المحبة والعبودية

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٩٤
(٢) سورة الشعراء الآية : ٩٥
(٣) سورة الزخرف الآية : ٧٦
(٤) سورة الشعراء الآيات : ٩٦ ـ ٩٨
(٥) سورة غافر الآيات : ٤٧ ـ ٤٨
(٦) سورة الأعراف الآيات : ٣٨ ـ ٤١
(٧) سورة الشعراء الآيتان : ٩٧ ، ٩٨
(٨) سورة الشعراء الآية : ٩٩
(٩) سورة الأنعام آية : ١

والتعظيم ، مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها فتصحيح هذه : هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله .

فحقيق لمن نصح نفسه ، وأحب سعادتها ونجاتها : أن يتيقظ لهذه المسألة علما وعملا ، وتكون أهم الأشياء عنده ، وأجل علومه وأعماله . فإن الشأن كله فيها ، والمدار كله عليها ، والسؤال يوم القيامة عنها .

قال تعالى : ﴿ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾[١] قال غير واحد من السلف : هو عن قول « لا إله إلا الله » وهذا حق ، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها ، وواجباتها ولوازمها . فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ، ولوازمها وحقوقها . قال أبو العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون (ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟) .

فالسؤال عما ذا كانوا يعبدون : هو السؤال عنها نفسها . والسؤال عماذا أجابوا المرسلين : سؤال عن الوسيلة والطرق المؤدية إليها هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم إليها ؟ فعاد الأمر كله إليها . وأمر هذا شأنه حقيق بأن تبنى عليه الخناصر ، ويعض عليه بالنواجذ ، ويقبض فيه على الجمر . ولايؤخذ بأطراف الأنامل ، ولايطلب على فضلة بل يجعل هو المطلب الأعظم ، وما سواه إنما يطلب على الفضلة . أ هـ .

أما قول أهل النار ﴿ فمالنا من شافعين ولاصديق حميم ﴾[٢] فهو كقوله تعالى : ﴿ ما سلككم فى سقر . قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين حتى آتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾[٣] قال بعض المفسرين : أى من الملائكة وكما يقولون : ﴿ فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾[٤] قال تعالى : ﴿ ولاتنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ولايقبل منها عدل ولاتنفعها شفاعة ولا هم ينصرون ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ﴾[٧] وقال : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ﴾ ﴿ ولايشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[٨] فلا شفاعة لهؤلاء الذين كفروا وماتوا وهم كفار . ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب اليم . وما لهم من ناصرين ﴾[٩] وليس لهم صديق حميم ، أو قريب ، أو ولى أو نصير . قال سبحانه : ﴿ يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولايسأل حميم حميما يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤيه ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه . كلا ﴾[١٠].

لقد تمنوا العودة إلى الدنيا فقالوا : ﴿ لو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾[١١] ونحوه قوله تعالى :

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩٢
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٠٠ ، ١٠١
(٣) سورة المدثر الآيات : ٤٢ - ٤٨
(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٣
(٥) سورة سبأ من الآية : ٢٣
(٦) سورة البقرة الآية : ١٢٣
(٧) سورة البقرة من الآية : ٤٨ ، ٢٥٥
(٨) سورة الأنبياء من الآية : ٢٨
(٩) سورة آل عمران آية : ٩١
(١٠) سورة المعارج الآيات : ٨ - ١٥
(١١) سورة الشعراء الآية : ١٠٢

﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها . كذلك نجزى كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير . إن الله عالم غيب السموات والأرض ، إنه عليم بذات الصدور ﴾(١) .

لقد سبق فى علمه القديم أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه , قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾(٢) قوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾(٣) أى فيما سبق من قصة الخليل .

وذكر الوعد والوعيد لعبرة وعظة ولكن هل تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ! قال تعالى : ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾(٤) ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا اهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾(٥) قوله تعالى : ﴿ وان ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٦) العزيز الذى لايغلب ولايقهر إن يشأ يستأصلهم بعذاب من عنده ﴿ ولايخاف عقباها ﴾(٧) لكنه وسعت رحمته كل شيء ﴿ وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا ﴾(٨) وقال تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولايستقدمون ﴾(٩) وقال سبحانه : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾(١٠)

نوح وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ
﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠

(١) سورة فاطر الآيات : ٣٦ ـ ٣٨
(٢) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ ـ ٢٩
(٣) سورة الشعراء من الآية : ١٢١
(٤) سورة القمر الآيات : ٢ ـ ٥
(٥) سورة الشعراء الآية : ١٢٢
(٦) سورة الشمس الآية : ١٥
(٧) سورة الكهف الآية : ٥٨
(٨) سورة النحل الآية : ٦١
(٩) سورة فاطر الآيتان : ٤٤ ، ٤٥
(١٠) سورة الشعراء الآيات : ١٠٥ ـ ١٢٢

بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

تفسير المفردات

القوم : اسم لا واحد له من لفظه كرهط ونفر يذكر ويؤنث ، أخوهم : أى : أخوة نسب ، كما يقال : يا أخا العرب ، ويا أخا تيم ، يريدون يا من هو واحد منهم . الأرذلون : واحدهم أرذل ، والرذالة : الخسة والدناءة ، وقد استرذلوهم ، لاتضاع نسبهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، من المرجومين : أى من المقتولين رميا بالحجارة ، فافتح : أى احكم من الفتاحة بمعنى الحكومة ، والفلك : يستعمل واحدا وجمعا ، المشحون : أى المملوء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص على رسوله ﷺ ـ قصص أبيه ابراهيم وما لقيه من تكذيب قومه له مع ما أرشدهم إليه من أدلة التوحيد وما حجهم به من الآيات ـ أردف بقصص رسول من أولى العزم وهو نوح ـ عليه السلام ـ ، وفيه مالاقاه من قومه من شديد التكذيب لدعوته ، وعكوفهم على عبادة الأصنام والأوثان وأنه مع طول الدعوة لهم لم يزدهم ذلك إلا عتوا واستكبارا ، وقد كان من عاقبة أمرهم ما كان لغيرهم ممن كذبوا رسل ربهم بعد أن أملى لهم بطول الأمد : ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[1] فأغرقهم الطوفان ولم ينج منهم إلا من حملته السفينة .

التفسير

هذه قصة شيخ الأنبياء نوح الذى بعث إلى قوم وصفهم نوح لربه قائلا : ﴿ **رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبار . ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا** ﴾[2] كم ظل على هذه الحال إقرأ قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما** ﴾[3] ماذا كان مصيرهم ﴿ **فأخذهم الطوفان وهم ظالمون** ﴾ وماذا كان مصيره والذين آمنوا معه ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة** ﴾[4] وماذا كان الهدف ﴿ **وجعلناها آية للعالمين** ﴾ .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٣
(٢) سورة نوح الآيات : ٥ ـ ٩
(٣) سورة العنكبوت : الآية : ١٤
(٤) سورة العنكبوت الآية : ١٥

ماذا قال لهم فى دعوته ﴿ **ألا تتقون إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[١] أمر بالتقوى والطاعة فهل فى هذا فظاظة أو غلظة أو خسران أو ضرر ، لقد بين لهم أنه رسول أمين مفوض إليه بشرع من الله ، ومأمور بتبليغه ، وهو أمين على تبليغ هذا الوحى ، أمين عليهم : إنه أخوهم والرائد لايكذب أهله ، اقرأ معى مرة ثانية هذه الآيات التى تسيل رقة وعطفا ورحمة ورفقا ﴿ **إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون** ﴾ ألا تحذرون عقاب الله ، ألا تخافون عذابه ألا تخشون يوما ترجعون فيه إلى الله ، ألا تظنون أنكم مبعثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، فاتقوا الله الذى خلقكم والذين من قبلكم ، وأطيعونى فيما أمرتكم به ، فأنا لاأسألكم على التبليغ أجرا فإن الرسل أصحاب رسالات بعثوا هادين لاجابين ﴿ **وما أسئلكم عليه من أجر** ﴾[٢] والنكرة هنا فى سياق النفى تفيد العموم أى ما اسألكم عليه أى أجر ﴿ **إن اجرى إلا على رب العالمين** ﴾[٣] فإننا لانلتمس الأجر من أحد غيره ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن اجرى الا على الله** ﴾ ثم كرر الأمر بالتقوى والطاعة فقال ﴿ **فاتقوا الله واطيعون** ﴾[٤] فأنت ترى هنا أن الأمر بالتقوى يملأ الجو عبيرا وأريجا ويتضوع مسكا وطيبا ، لقد قال لهم ﴿ **إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله** ﴾ فالعز كل العز فى وحدانيته ، وطاعته وإفراده بالعبادة ، والذل كل الذل فى معصيته وعبادة غيره .

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى ... تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ... ولا خير فيمن كان لله عاصيا

وجميل قول هذا الحكيم :

إلا إنما التقوى هو العز والكرم ... وحبك للدنيا هو الذل والندم

ثم بما أمرهم اسمع معى إلى هذا القلب الكبير الذى يرسل أشعته الكاشفة تبدد غياهب الظلمات فى قلوبهم ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[٥] ثم يحرك فيهم هذه النفوس التى نامت على هدهدة الشهوات بين قسوة العاطفة وغفوة الضمير ﴿ **ما لكم لاترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾[٦] فبما ردوا عليه ، ردوا بلسان الكبر وسوء الأدب ﴿ **أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾[٧] لقد احتقروا أتباع الأنبياء واستهانوا بهم لفقرهم وقلة مالهم ، وهكذا كان دأب الملأ وسيظل فى كل زمان ومكان ، وقد قال الملأ من قريش لرسول الله ﷺ ـ اطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ونحن نؤمن

---

(١) سورة الشعراء من الآية : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٠٩
(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٠
(٤) سورة نوح الآيات : ١٠ ـ ١٤
(٥) سورة الشعراء الآية : ١١١
(٦) سورة الأنعام الآية : ٥٢
(٧) سورة الأنعام من الآية : ٥٤

بك ، وكانوا يقصدون بذلك أمثال عمار وبلال وصهيب وخباب وابن مسعود . فقال له ربه : ﴿ **ولاتطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾[١] بل لقد أوصاه بهم خيرا فقال ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾[٢] بل وأمره أن يصبر نفسه معهم ، ونهاه أن يسمع لهؤلاء المستكبرين ، فقال : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولاتعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولاتطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا** ﴾[٣] .

فماذا قال نوح لهم ؟ ﴿ **وقال وما علمى بما كانوا يعملون** ﴾[٤] فكل إنسان مسئول عما قدمت يداه أمام الله ، والمسئولية فى الاسلام فردية ﴿ **كل امرىء بما كسب رهين** ﴾ ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾[٥] ﴿ **من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها** ﴾[٦] ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾[٧] ﴿ **فقل لى عملى ولكم عملكم** ﴾[٨] ﴿ **إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون** ﴾[٩] فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، وجل - جلال الله - إذ يقول ﴿ **ولاتزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** ﴾[١٠] ، واذ يقول ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ .

ثم يقول نوح عليه السلام ﴿ **وما أنا بطارد المؤمنين** ﴾[١١] وكيف يطردهم وقد بعث الأنبياء لتجميع القلوب ، وجاءوا بشرع هو للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم . . إن وظيفة الأنبياء دعوة إلى الله ، وهداية العباد ، وتبشير المؤمنين ، وإنذار المعاندين وسياسة الدنيا بالدين ، لذا قال نوح : ﴿ **إن انا إلا نذير مبين** ﴾ وقال ﴿ **قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون . ويا قوم لاأسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولاأقول لكم عندى خزائن الله ، ولاأعلم الغيب ولاأقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين** ﴾[١٢] .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٢٨
(٢) سورة الشعراء الآية : ١١٢
(٣) سورة المدثر الآية : ٣٨
(٤) سورة الاسراء الآية : ١٥
(٥) سورة النجم الآية : ٣٨
(٦) سورة يونس الآية : ٤١
(٧) سورة الشعراء ، الآية : ١١٣
(٨) سورة فاطر من الآية : ١٨
(٩) سورة الأنبياء الآية : ٤٧
(١٠) سورة الشعراء الآية : ١١٤
(١١) سورة الشعراء الآية : ١١٥
(١٢) سورة هود الآيات : ٢٨ - ٣١

وهكذا تسير القافلة والذئاب تعوى ، فينتقل بهم الحديث من الحجة والبرهان الذى يتكلم الأنبياء بهما إلى الوعيد والتهديد من قبل أهل الباطل ، ﴿ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾(١) ـ ـ : إن لم تنته عما تقوله من الدعوة إلى عبادة إله واحد لنقتلنك رجما ﴿ قال نوح ربى إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ، ومكروا مكرا كبارا ، وقالوا لاتذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا ، وقد أضلوا كثيرا ولاتزد الظالمين إلا ضلالا ﴾(٢) .

فبما قابل نوح هذا التهديد ، لقد توجه إلى ربه ﴿ قال رب إن قومى كذبون ﴾(٣) وكفى بهذه التهمة ثقلا ، وألما ، ولوعة ، وجوى ، فى نفوس الأنبياء الذين اتصفوا بالصدق والأمانة ، والتبليغ والفطانة ، والعصمة ، ثم يسأل نوح ربه أن يحكم فهو خير الحاكمين . ﴿ فافتح بينى وبينهم فتحا ﴾(٤) يا سريع الحساب ، يا من إذا حكمت عدلت ، فلا معقب لحكمك ، ولاراد لقضائك ، ﴿ ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾(٥) وهنا يقول ربك : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾(٦) ﴿ فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ﴾ بأهل الايمان ﴿ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴾(٧) وهم أهل الكفر والعصيان ، وهكذا حكم الله . وأرخى الستار على تلك المأساة إن فى ذلك الذى حدث لآية وعبرة . وما كان أكثرهم مؤمنين ، لقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٨) الذى لايغلب ولايقهر ومع عزته فهو الرحيم بعباده ، من أقبل ناداه من قريب فأهل ذكره أهل عبادته ، وأهل طاعته أهل محبته ، وأهل شكره أهل زيادته ، وأهل معصيته لايقنطهم من رحمته .

هود عليه السلام وقومه

قال تعالى : كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ

(١) سورة الشعراء الآية : ١١٦
(٢) سورة نوح الآيات : ٢١ ـ ٢٤
(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٧
(٤) سورة الشعراء الآية : ١١٨
(٥) سورة القمر الآيات : ١٠ ـ ١٤
(٦) سورة الشعراء الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠
(٧) سورة الشعراء الآيتان : ١٢١ ، ١٢٢
(٨) سورة الشعراء الآيات : ١٢٣ ـ ١٤٠

وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٧﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٣٩﴾ ﴿١٤٠﴾

تفسير المفردات

عاد : اسم أبى القبيلة الأكبر ، ويعبر عن القبيلة إذا كانت عظيمة باسم الأب أو يا بنى فلان أو آل فلان ، والريع (بالفتح والكسر) المكان المرتفع ، ويقال : كم ريع أرضك أى : ارتفاعها ، آية : أى قصرا مشيدا عاليا ، تعبثون : أى تفعلون العبث ، ومالا فائدة فيه ، مصانع : أى قصورا مشيدة وحصونا منيعة ، ولعل هنا معناها التشبيه ، أى : كأنكم تخلدون والبطش : الأخذ بالعنف ، والجبار : المتسلط العاتى بلا رأفة ولاشفقة أمدكم : أى سخر لكم ، والوعظ : كلام يلين القلب بذكر الوعد والوعيد . خلق الأولين : أى عادتهم التى كانوا بها يدينون ، ونحن بهم مقتدون نموت ونحيا بلا حساب ولابعث .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر قصص نوح وقومه ، أردف هذا قصص هود ـ عليه السلام ـ مع قومه عاد ، وكانوا بعد قوم نوح كما قال فى الأعراف ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة** ﴾ يسكنون الأحقاف وهى جبال الرمل قريبة من حضر موت متاخمة ببلاد اليمن ، وكانت لهم أرزاق دارة وأموال ، وجنات وأنهار وزروع وثمار ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله فيهم نبيا منهم يبشرهم وينذرهم ويدعوهم إلى عبادة الله وحده ، ويحذرهم نقمته وعذابه ، فكذبوه فأهلكهم كما أهلك المكذبين لرسله .

التفسير

﴿ **وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود** ﴾(١) .

لكى تعلم مدى ما كان عليه القوم من جبروت فعليك أن تقرأ قوله ـ عز وجل ـ : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون** ﴾(٢) وحسبك أن تقف أمام ما قالوه ﴿ **من أشد منا قوة ؟** ﴾ استفهام انكارى يفيد النفى أى لاأحد فى هذا الكون أشد منا قوة ، وجاء الجواب مشعرا بجبروت هؤلاء ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة** ﴾(٣) لذا كان العقاب ملائما للجرم ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا**

(١) سورة هود الآيات : ٥٩ ـ ٦٠
(٢) سورة فصلت الآية : ١٥
(٣) سورة فصلت من الآية : ١٥

فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ﴾[١] .

ويوضح هذا الجزاء ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ؟ ﴾[٢] .

وكانت شدة العذاب ظاهرة فى قوله جل شأنه : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابى ونذر ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين ﴾[٤] جاءت هذه المقالة على لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب للتنبيه إلى أن بعثة الأنبياء أسها الدعاء إلى معرفة الله وطاعته فيما يقرب المدعو إلى الثواب ، ويبعده من العقاب ، وأن الأنبياء مجمعون على ذلك وإن اختلفوا فى تفصيل الأحكام تبعا لاختلاف الأزمنة والعصور ، وأن الأنبياء منزهون عن المطامع الدنيوية لايأبهون بها ، ولايجعلونها قبلة أنظارهم ، ومحط رحالهم .

ولما فرغ من دعائهم إلى الايمان أتبعه الانكار بعض ما هم عليه فقال : ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ ﴾ أى أتبنون فى كل مرتفع عال قصرا مشيدا للتفاخر والدلالة على الغنى ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ أى : وتتخذون الحصون والقلاع كأنكم مخلدون فى الدنيا .

روى ابن أبى حاتم أن أبا الدرداء ـ رضى الله عنه ـ لما رأى ما أحدث المسلمون فى غوطة دمشق من النبيان ونصب الشجر ، قام فى مسجدهم فنادى يا أهل دمشق ، فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون مالا تأكلون ، وتبنون مالا تسكنون ، وتأملون مالا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون ، يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غرورا ، وأصبح جمعهم بورا ، وأصبحت مساكنهم قبورا ، ألا إن عادا ملكت ما بين عدن وعمان خيلا وركابا ، فمن يشترى منى ميراث عاد بدرهمين ؟[٥] .

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت ... إن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا الذى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
إن الملوك التى كان مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

(١) سورة فصلت الآية : ١٦
(٢) سورة الحاقة الآيات : ٦ ، ٨
(٣) سورة القمر الآيات : ١٨ ـ ٢١
(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٢٣ ـ ١٢٧
(٥) انظر تفسير القرآن الكريم للحافظ بن كثير ج ٦ ص ١٦٢ ، ١٦٣

ودورنا لخراب الدهر نبنيها — أموالنا لذوى الميراث نجمعها
أمست خرابا وأفنى الموت أهليها — كم فى المدائن فى الآفاق قد بنيت
من المنية آمال تقويها — لكل نفس وإن كانت على وجل
والمرء يبسطها والدهر يطويها — النفس تنشرها والموت يقبضها
الدين أولها والعقل ثانيها — والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والفضل سادسها — إن المكارم أخلاق مطهرة
والبر سابعها والشكر ثامنها — والصبر تاسعها واللين باقيها
ولست أرشد إلا حين أعصيها — والنفس تعلم أنى لاأصادقها
فالموت لاشك يفنينا ويفنيها — لاتركنن إلى الدنيا وما فيها
والجار أحسن والرحمن ناشيها — واعمل لدار غد رضوان خازنها
والزعفران حشيش نابت فيها — قصورها ذهب والمسك طينها

قوله تعالى : ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين** ﴾[١] وهذا إخبار عن أنهم قوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ، جفاة الطباع ، لو وزعت قسوة قلب أحدهم على أهل الأرض ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم ، ثم يأمرهم بتقوى الله والطاعة له ، فيقول : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[٢] أى : اتقوا الله فلا تخالفوا أمره ، وأطيعونى فأنا لكم ناصح أمين ، ثم يعيد الأمر مرة أخرى فيذكرهم بنعم الله عليهم ، فيقول : ﴿ **واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون** ﴾[٣] ثم يفصل ما أجمل ويبسط النعم بسطا فيقول ﴿ **أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون** ﴾[٤] أبعد هذه النعم تعصون ، وبعد هذا الكرم تخالفون ، وعلى رب العزة تتمردون ، أنعام تضيق بها شعاب الجبال من إبل وبقر وغنم ، وأبناء أولو قوة ، وأولو بأس شديد ، وجنات من أعناب ونخيل وفواكه كثيرة منها تأكلون وعيون تجرى بالماء عذبا فراتا سلسبيلا ، فماذا قالوا لهذا الناصح الأمين والنبى الكريم : ؟ ﴿ **قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين وما نحن بمعذبين** ﴾[٥] .

قالوا هذا بعد ما حذرهم من عذاب الله وقال لهم : ﴿ **إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾[٦] فتأمل الفرق الشاسع بين الموقفين : يخاف عليهم عذاب يوم عظيم وهم ينكرون هذا اليوم فأى الفريقين أحق بالأمن الذى يخاف عذاب الله ، أم الذى يأمن مكر الله إنه لايأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

قوله تعالى : ﴿ **قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين** ﴾ أى : هون عليك وأرح نفسك ، فكل هذا تعب ضائع ، وجهاد فى غير عدو ، وضرب فى حديد بارد ، فإنا لن نرجع عما نحن عليه ، ثم ذكروا السبب فى أن الوعظ وعدمه سواء بقولهم : ﴿ **إن هذا إلا خلق الأولين ، وما نحن**

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١٣٠
(٢) سورة الشعراء الآية : ١٣١
(٣) سورة الشعراء : ١٣٢
(٤) سورة الشعراء الآيتان : ١٣٣ ، ١٣٤
(٥) سورة الشعراء الآيات : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨
(٦) سورة الشعراء الآية : ١٣٥

بمعذبين ﴾ أى : ما هذا الدين الذى نحن عليه إلا دين الأولين من الآباء والأجداد ، فنحن سالكون سبيلهم ، نعيش كما عاشوا ونموت كما ماتوا ، ولابعث ولامعاد ولاثواب ولاعقاب ، ولاجنة ولانار .

﴿ فكذبوه فأهلكناهم ﴾ أى : فاستمروا فى تكذيبهم ومخالفة أمر رسوله ، فأهلكناهم بريح صرصر عاتية : (ريح عظيمة ذات برد شديد) كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾[(١)] وقوله : ﴿ وأنه أهلك عادا الأولى ﴾[(٢)] ﴿ إن فى ذلك لآية ﴾ أى : إن فى إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها ـ لعبرة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أى : وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون فى سابق علمنا . ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[(٣)] أى : وان ربك لهو الشديد فى انتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه المؤمنين .

صالح عليه السلام وقومه

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

تفسير المفردات

الطلع : أول ما يطلع من الثمر . والهضيم : هو النضيج الرخص اللين اللطيف : والنحت : النجر والبرى ، والمنحت : ما ينحت به ، والعزة : النشاط وشدة الفرح . من المسحرين : أى الذين

---

(١) سورة الفجر الآية : ٦

(٢) سورة النجم الآية : ٥٠

(٣) سورة الشعراء الآيتان : ١٧٤ ، ١٧٥

(٤) سورة الشعراء الآيات : ١٤١ ـ ١٥٩

سحروا حتى ذهبت عقولهم ، الشرب : (بالكسر) النصيب والحظ ، فعقروها : أى : رموها بسهم ، ثم قتلوها .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص عاد وهود ـ قص قصة صالح وقومه وقد كانوا عربا مثلهم يسكنون مدينة الحجر التى بين وادى القرى والشام ومساكنهم معروفة تتردد عليها قريش فى رحلة الصيف ، وهم ذاهبون إلى بلاد الشام . دعاهم صالح إلى عبادة الله وحده ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من رسالة ربهم فأبوا وكذبوا بعد أن اتى لهم بالآيات المصدقة لرسالته ، فأخذهم العذاب وزلزلت بهم الأرض ، ولم تبق منهم ديارا ولانافخ نار .

التفسير

هذا إخبار من الله ـ عز وجل ـ عن عبده ورسوله صالح ـ عليه السلام ـ أنه بعثه إلى قومه ثمود وكانوا عربا يسكنون مدينة الحجر التى بين وادى القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة فدعاهم نبيهم صالح إلى الله ـ عز وجل ـ أن يعبدوه وحده لاشريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوا وخالفوه ، وأخبرهم أنه لايبتغى بدعوتهم أجرا منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله ـ عز وجل ـ ، ثم ذكرهم آلاء الله عليهم فقال سبحانه :

﴿أتتركون فى ما هاهنا آمنين فى جنات وعيون .وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ، فاتقوا الله وأطيعون ، ولاتطيعوا أمر المسرفين الذى يفسدون فى الأرض ولايصلحون ﴾(١) .

يقول لهم : واعظا ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكرا بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم فى أمن من المحذورات ، وأنبتت لهم من الجنات ، وفجر لهم من العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ، ولهذا قال لهم : **﴿ ونخل طلعها هضيم ﴾** قال ابن عباس : إذا رطب واسترخى فهو هضيم . وقال مجاهد : هو الذى إذا يبس تهشم وتفتت وتناثر . وقال عكرمة وقتادة : الهضيم الرطب اللين . وقال الضحاك : إذا كثر حمل الثمرة وركب بعضها بعضا فهو هضيم . وقال الحسن البصرى : هو الذى لانوى له .

وقوله تعالى : **﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾** قال ابن عباس وغير واحد : يعنى حاذقين . وفى رواية عنه : شرهين أشرين ، وهو اختيار مجاهد ، ولامنافاة بينهما ، فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة ، فى الجبال أشرا وبطرا وعبثا من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها . **﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾** أى : أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم فى الدنيا والآخرة ، من عبادة ربكم الذى خلقكم ورزقكم ، لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا ، **﴿ ولاتطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولايصلحون ﴾** يعنى : رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٤٦ ـ ١٥٢

والكفر ومخالفة الحق .

قوله تعالى : ﴿ **قالوا إنما أنت من المسحرين . ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين ـ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم . ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم . فعقروها فأصبحوا نادمين . فأخذهم العذاب . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾(١) .

يقول تعالى : مخبرا عن ثمود فى جوابهم لنبيهم صالح ـ عليه السلام ـ حين دعاهم إلى عبادة ربهم ـ عز وجل ـ إنهم ﴿ **قالوا** : **إنما أنت من المسحرين** ﴾ قال مجاهد وقتادة يعنون من المسحورين ، وروى أبو صالح عن ابن عباس ﴿ **من المسحرين** ﴾ يعنى : من المخلوقين واستشهد بعضهم على هذا بقول الشاعر :

فإن تسألينا فيم نحن فإننا ... عصافير من هذا الأنام المسحر

يعنى : الذين لهم سحر ، والسحر هو الرئة ، والأظهر فى هذا قول لمجاهد وقتادة أنهم يقولون : إنما أنت فى قولك هذا مسحور لاعقل لك ، ثم قالوا : ﴿ **ما أنت إلا بشر مثلنا** ﴾ يعنى : فكيف أوحى اليك دوننا ، كما قالوا فى الآية الأخرى : ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟ بل هو كذاب أشر ، سيعلمون غدا من الكذاب الأشر** ﴾ ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ، وأشاروا إلى صخرة عندهم ، من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبى الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه ، فأعطوه ذلك ، فقام نبى الله صالح ـ عليه السلام ـ فصلى ثم دعا الله ـ عز وجل ـ أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التى أشاروا إليها عن ناقة عشراء على الصفة التى وصفوها ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ، ﴿ **قال** : هذه **ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم** ﴾ يعنى : ترد ماءكم يوما ويوما تردونه أنتم ، ﴿ **ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم** ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حينا من الدهر ترد الماء ، وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها يحلبون منها ما يكفيهم : شربا وريا ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالأوا على قتلها وعقرها . ﴿ **فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب** ﴾ وهو أن أرضهم زلزلت زلزالا شديدا ، وجاءتهم صيحة عظيمة اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا فى ديارهم جاثمين . ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

*** لوط وقومه ***

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٥٣ ـ ١٥٩

﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ
﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ
قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ
الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي
الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

تفسير المفردات :

أخرهم : أى : فى البلد والسكنى ، لا فى الدين ولا فى النسب ، لأنه ابن أخرى ابراهيم وهما من أرض بابل ، والذكران : واحدهم ذكر ضد الأنثى من كل حيوان ، عادون : أى متعدون الحدود التى رسمها العقل والشرع ، من المخرجين : أى : ممن تخرجهم من أرضنا وننفيهم من قريتنا ، من القالين : أى المبغضين لفعلهم ، والقلى : البغض الشديد ، كأنه يقلى الفؤاد ، يقال قليته أقلية قلى وقلاء ، الغابرين : أى الباقين فهى لم تخرج مع لوط ومن مضى معه .

المناسبة وإجمال المعنى

قص الله علينا فى هذه الآيات قصص لوط بن هاران بن آزر بن أخى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام بعثه الله فى حياته إلى أمة عظيمة تسكن سدوم وما حولها من المدائن من بلاد الغور بالقرب من بيت المقدس ، فدعاهم إلى عبادة الله وحده وطاعة رسوله ، ونهاهم عن معصيته وإرتكاب ما كانوا قد ابتدعوه من الفواحش مما لم يسبقهم إليه أحد من العالمين ، فكذبوه فأهلكهم الله ، فأرسل عليهم كبريتا ونارا من السماء فأحترقت قريتهم وأحدث بها زلزالا جعل عاليها سافلها كما جاء فى قوله : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ .

﴿ **كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[١] . تقدم تفسير هذا فى سالف القصص وبعد أن نصحهم بما سلف ذكره وبخسهم على قبيح ما ابتدعوه ، بقوله :

﴿ **أتاتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم** ﴾ أى : أأنتم دون الناس جميعا تفعلون هذه الفعلة الشنعاء ، تغشون الذكور وتتركون النساء اللاتى جعلهن الله حلا لكم تستمتعون بهن ، ويستمتعن بكم . ﴿ **بل أنتم قوم عادون** ﴾ أى بل أنتم قوم أحقاء بأن توصفوا

(١)سورة الشعراء الآيات : ١٦٠ - ١٧٥

بالعدوان وتجاوز الحدود التى تسيغها العقول وتبيحها الشرائع بارتكابكم هذا الجرم الذى لم يخطر ببال أحد ممن قبلكم .

ولما اتضح لهم وجه الحق ، وانقطعت حجتهم لجأوا إلى التهديد واستعمال القوة :

﴿ **قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين** ﴾ أى : لئن لم تنته عما أنت فيه من إنكارك ما تنكره من أمرنا لننفينك من قريتنا ، وليكونن شأننا معك شأن من أخرجناهم من قبلك بالعنف والعسف ، واحتباس الأموال : ﴿ **كما هو شأن الظلمة ، إذا أجلوا بعض من يبغضونهم ، صادروا أملاكهم** ﴾ . حينئذ أجابهم بأن إبعاده لايقف به عن الانكار عليهم .

﴿ **قال إنى لعملكم من القالين** ﴾ أى : إنى برىء مما تعملون ، فبغض له ، لاأحبه ولاأرضاه ، ولايضيرنى تهديدكم ولاوعيدكم ، وإنى لراغب فى الخلاص من سوء جواركم .

وقال ﴿ **من القالين** ﴾ دون (قالٍ) إيماء إلى أنه من القوم الذين لو سمعوا بما تفعلون لأبغضوه ، كما يقال : فلان من العلماء فإنه أشد مدحا من قولك فلان عالم ، إذ الأولى تدل على أنه فى عداد زمرة العلماء المعروفين بمساهمته لهم فى العلم .

ثم أعرض عنهم وتوجه إلى الله أن ينجيه من أعمال السوء هو وأهله قال :

﴿ **رب نجنى وأهلى مما يعملون** ﴾ أى رب نجنى من شؤم أعمالهم ، وأبعدنى من عذابك الدنيوى والأخروى .

فأجاب الله دعاءه واغاثه بعد أن استغاثه قال : ﴿ **فنجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزا فى الغابرين** ﴾ أى فنجيناه وأهله جميعا مما حل بأهل القرية من العذاب ، فأمرناه بالخروج منها قبل أن ينزل بهم ما نزل ، إلا عجوزا قد بقيت ولم تخرج معه وهى إمرأته كما جاء فى سورة هود :

﴿ **إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم** ﴾ وكانت عجوز سوء لم تتبع لوطا فى الدين ولم تخرج معه .

والخلاصة - فنجيناه وأهله من العذاب بإخراجهم من بينهم ليلا عند حلول العذاب بهم ، إلا عجوزا قدر الله بقاءها ، لسوء أفعالها ، وقبح طويتها ، ولما لها من ضلع فى استحسان أفعالهم .

﴿ **ثم دمرنا الآخرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين** ﴾ أى : ثم أهلكنا المؤخرين عن لوط ، فأمطرنا عليهم حجارة من السماء . قال وهب بن منبه : أنزل الله عليهم الكبريت والنار .

وبئس المطر هذا وما أشد وطأته وما أقسى وقعه ، فقد أحدث بأرضهم زلزالا جعل عاليها سافلها .

﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين : وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ سبق تفسيره تباركت ربنا وتعاليت يا من قلت وقولك الحق إن هذا لهو القصص الحق .

كتب الشيخ المراغى : (رحمه الله تعالى) تحت عنوان (إيضاح لهذه القصة بما كتبه الباحثون) ويقصد بها قصة لوط - عليه السلام - مع قومه كتب يقول : كتبت مجلة السياسة الأسبوعية فصلا قالت فيه : روت الكتب المنزلة أن الله أهلك مدينتى سدوم وعمورة ، وثلاث مدن أخرى بجوارهما ، بأن أمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل . وأهل بيته ، ولوط

وابنتيه ، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن ، بل نزح إليهما من الشمال طلبا للكلأ والمرعى بحسب عادة القبائل الرحل فى ذلك الزمن .

وكان كثير من المؤرخين يرى أن هذه قصة خرافية وبعضهم يقول : إنها قصة واقعية كما تشهد بذلك آثار البلاد المجاورة للبحر الميت (بحيرة لوط) وقد قام الدكتور (أولبرابط) بمباحث واسعة فى وادى نهر الأردن ، وعلى سواحل البحر الميت ، حيث يظن أن سدوم وعموره والثلاث مدن الأخرى كانت فيها ، فاستبان له أن هذه القصة حقيقية بجميع تفاصيلها ، وعلم أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - انحدر حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد من بلاد ما بين النهرين إلى فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهله ، ومعهما أنعام كثيرة ، فحدث نزاع وشجار بين الرعاة فرأى لوط : حفظا للسلام أن يفترق عن إبراهيم .

واختار منطقة وادى الأردن التى كانت فيها سدوم وعمورة ، وأقام بسدوم ، واختار إبراهيم المرتفعات التى فى الشمال ، وضرب خيامه هنالك . وكشف الدكتور آثارا تدل على صدق هذه القصة ، إذ وجد هناك آثار حصن قديم يعلو سطح البحر بنحو خمسمائة قدم وبجواره (المذبح) هو حجارة منصوبة على شكل أعمدة يرجح أن الوثنيين فى ذلك الزمن كانوا يقدمون عليها قرابينهم ، ويرجح أن البحر الميت طغا على المدن الخمس التى كانت فى منطقة الأردن .

وبعض علماء الجيولوجيا (طبقات الأرض) يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلادا كانت آهلة بالسكان .

وفى التوراة : إن إبراهيم كان ذات يوم جالسا بباب خيمته فى حر النهار إذ أقبل إليه ثلاثة ملائكة ، فاستقلبهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة ، واحتفى بهم ، وفى أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سدوم ، وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشرورهم وانغماسهم فى شهواتهم البهيمية ، ولاسيما المحرمة منها ، فلما وصلوا إلى سدوم ساروا توا إلى منزل لوط إبن أخى إبراهيم ليبيتوا عنده ، وعلم أهل سدوم بقدومهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موبقا ، ولكن لوطا دافع عنهم وعرض أن يضحى بشرف ابنتيه لينقذهم ، فأبى أهل سدوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء ، وقد تمكن الضيوف من الفرار ، وأقنعوا لوطا وأهل بيته بالفرار ، وحين أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط (صوعر) فأمطر الرب على سذوم وعمورة كبريتا ونارا من السماء ، وقلب تلك المدن وجميع ساكنها ، ونظرت إمرأة لوط إلى الوراء فصارت عمود مسلح : (اختنقت بالغازات الكثيرة التى التهبت إما بحدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو) .

وفى التاريخ ما يدل على حدوث انقلابات هيولوجية شبيهة بحادثة (سذوم وعمورية) فقد يثور بركان ويتدفق حممه على البلاد المجاورة ، فيغمرها ويهلك أهلها ، وقد تغور بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هى وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان ، وقد تنشق الأرض فتبتلع مدنا بأسرها .

والخلاصة - إن هذه المدن كانت قاعدة لملوك جبارين ، وكانت ذات رياض غناء ، وغياض غنية بوفرة مائها وخيراتها ، وشمل أهلها الفساد ، ورتعوا فى شهواتهم البهيمية ولم يبق فيها بر إلا لوط

وأهله ، فانتقم الله منهم ، فأمطر عليهم نارا وكبريتا من السماء ، فألهب البراكين النارية التى فيها ، فعجلت دمارهم ، وخسفت الأرض بهم ، وظهرت البحيرة على ما نراه الآن . فسبحانه الله رب العالمين الذى قال فى محكم آياته : ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه . هدى للمتقين ﴾(١) . وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾(٢) .

يا أمة الاسلام هذا كتاب ربكم من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وما من يوم ينشق فجره إلا وتؤكد الحقائق العلمية صدقه المطلق ، تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد)(٣) .

اقبلوا على هذا القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وأقيموا دولة الاسلام فى بيوتكم تقم على أرضكم .

فى التحذير من عمل قوم لوط

يقول الامام الجليل أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى فى كتابه الجامع : (ذم الهوى) .

أخبرنا هبة الله بن محمد الشيبانى قال : أنبأنا الحسن بن على التميمى قال : أنبأنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد قال : حدثنى أبى قال : حدثنا محمد بن سلمة ، عن محمد بن إسحق عن عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (ملعون ملعون من عمل بعمل قوم لوط)(٤) .

أخبرنا ابن الحصين قال : أنبأنا ابن المذهب قال : انبأنا أحمد بن جقال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثنى أبى قال : حدثنا عبد الرحمن عن زهير ، عن عمرو يعنى : ابن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط ، ولعن الله من عمل عمل قوم لوط)(٥)

أخبرنا محمد بن عبد الباقى البزار قال : أنبأنا محمد بن الحسن بن الغراء قال : أنبأنا على بن عمر السكرى قال : حدثنا حامد بن بلال قال : حدثنا محمد بن عبد الله يعنى : البخارى قال : حدثنا يحيى بن النضر قال : حدثنا عمار بن عمر بن الصبح عن مقاتل بن حيان عن أبى الجارود العبسى عن جابر بن عبد الله قال : بلغنى حديث فى القصاص ـ وكان صاحب الحديث بمصر ـ فاشتريت بعيرا وشددت عليه رحلا ، ثم سرت شهرا ، فذكر الحديث إلى أن قال : فلقيت الرجل فقال : سمعت

(١) سورة البقرة الآية : ٢
(٢) سورة الاسراء من الآية : ٩
(٣) سورة فصلت : الآية : ٥٣
(٤) الحديث انظره فى نصب الراية للزيلعى : فى كتاب الحدود ص ٢٣٨ ج ٣
(٥) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٣ ص ٤٨١ باب لعن الله من ذبح لغير الله وقال : رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى ، وعند النسائى آخره مكررا وروى مسلم نحوه

رسول الله - ﷺ - يقول : (ان أخوف ما أخاف على أمتى من بعدى عمل قوم لوط ، ألا فليرتقب أمتى العذاب إذا كان الرجال بالرجال والنساء بالنساء)[١] .

أخبرنا عبد الله بن على قال : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا أبو القاسم بن بشر ان قال : حدثنا الآجرى قال : حدثنا أبو مسلم الكثبى قال : حدثنا سليمان الشاذكونى .

وأخبرنا ابن ناصر قال : انبأنا طراد قال : أنبأنا على بن محمد بن بشران قال : أنبأنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشي قال : حدثنا عبيد الله بن عمر الجشمى قالا : حدثنا عبد الوارث قال : حدثنا القاسم بن عبد الواحد عن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول : ان رسول الله - ﷺ - قال : (إنه أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط)[٢] .

أخبرنا المبارك بن على قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد السمرقندى قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : حدثنا محمد بن أحمد السلمى قال : حدثنا محمد بن جعفر السامرى قال : حدثنا ابراهيم بن الجنيد قال : حدثنا يوسف بن أبى أمية الثقفى قال : حدثنا عبد الله بن سعد الكندى قال : حدثنا أبو خالد الأحمر عن الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - (لاينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى دبرها)[٣] .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا محمد بن على بن ميمون قال : أنبأنا على بن المحسن التنوخى قال : أنبأنا عبد الله بن ابراهيم الزينبى قال : أنبأنا محمد بن سفيان الحنائى قال : حدثنا محمد بن عيسى بن حيان قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا أبو زيد محمد بن حسان قال : حدثنا إبراهيم بن يحيى عن ابن أبى ذئب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال : قال النبى - ﷺ - : لم يعل فحل فحلا حتى كان قوم لوط فإذا علا الفحل الفحل ارتج أو اهتز عرش الرحمن - عز وجل - فاضطربت الملائكة تعظيما لفعلهما فقالوا : يارب ألا تأمر الأرض أن تعزرهما وتأمر السماء أن تحصبهما ؟ فقال : إنى حليم لايفوتنى شيء)[٤] .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : أنبأنا أبو محمد الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمى قال : حدثنا على بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن قال : حدثنا الفضل بن دكين قال : حدثنا مسعر عن سماك بن حرب عن ابن عباس أنه قال : إن الرجل ليأتى الرجل فتصيح الأرض من تحتهما ، والسماء من فوقهما ، والبيت والسقف كلهم يقولون : أى : رب ائذن لنا أن ينطبق بعضنا على بعض فنجعلهم نكالا ، ومعتبرا فيقول الله عز وجل : إنه وسعهم

---

(١) الحديث فى الترغيب والترهيب للمنذرى باب فى الترهيب من اللواط ج ٣ ص ٤٧٨ رقم ١ وقال : رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن غريب ، والحاكم : وقال صحيح الاسناد

(٢) أخرجه الحاكم فى (كتاب الحدود) وقال : صحيح الاسناد

(٣) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى باب : لاينظر الله الى رجل أتى رجلا أو امرأة فى دبرها ج ٣ ص ٤٨٥ رقم ١٢ وقال رواه الترمذى ، والنسائى وابن حبان فى صحيحه ، وصححه ابن حزم .

(٤) انظر كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبى : فى الكبيرة الحادية عشرة : اللواط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف فى بعض ألفاظه وقال المحقق : ذكر السيوطى حديثا نحو هذا الحديث رآه على ظهر نسخة ابن أبى شيبة بخط مغربى .

حلمى ولن يفوتونى .

أخبرنا عبد الله بن على ومحمد بن ابى منصور قالا : انبأنا طراد قال : حدثنا أبو الحسين بن بشران قال : حدثنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا خالد بن خراش قال : حدثنا مسلم ابن قتيبة قال : سمعت سفيان الثورى يقول : لو أن رجلا عبث بغلام بين أصبعين من أصابع رجليه يريد الشهوة لكان لواطا .

فصل

وأعلم أن المرأة مع المرأة كالرجل مع الرجل .

أخبرنا عبد الله بن على ، ومحمد بن ناصر قالا : أنبأنا على بن محمد بن العلاف قال : أنبأنا عبد الملك بن بشران ، قال : حدثنا أبو بكر محمد بن الحسين قال : حدثنا أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفى قال : حدثنا عمار بن نصر الخرسانى قال : أنبأنا عثمان بن عبد الرحمن الحرانى عن عنبسة بن عبد الرحمن القرشى عن العلاء ، عن مكحول ، عن وائلة بن الأسقع قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (سحاق النساء زنا بينهن)[1] .

فى عقوبة اللوطى فى الدنيا

اعلم أن الله ـ عز وجل ـ قص علينا من قصة عمل قوم لوط إيثارهم الفاحشة ، وميلهم إليها ، وشرح عقابه إياهم فى الدنيا ، فأطال فى ذكر ذلك ما لم يطل فى ذكر كفرهم .

ومعلوم أن الكفر أعظم من الفاحشة ، ولكنه أراد تحذيرنا من تلك الأفعال ، وقصة القوم فى القرآن فى مواضع ، وقد عرفنا منها أنه عاقبهم فى الدنيا بالرجم والحجارة .

وقد رويت فى عقوبة اللوطى فى الدنيا أحاديث :

أخبرنا عبد الله بن على وابن ناصر قالا : أنبأنا طراد بن محمد قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال : أنبأنا ابن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا خالد بن خداش قال : حدثنا عبد العزيز الداوردى قال : حدثنا عمرو بن أبى عمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أن النبى ـ ﷺ ـ قال فيمن عمل عمل قوم لوط : (يقتل الفاعل والمفعول به)[2] .

أخبرنا ابن الحصين قال : أنبأنا ابن المذهب قال : أنبأنا أحمد بن جعفر قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : حدثنى أبى قال : حدثنا أبو القاسم ابن أبى الزناد قال : أخبرنى ابن أبى حبيبة وداود ابن الحصين ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (اقتلوا الفاعل والمفعول به فى عمل قوم لوط)[3] .

---

(١) أخرجه ابن حجر فى المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية فى كتاب الحدود ـ باب : السحاق ج ٢ ص ١١٥ رقم ١٨٠٩

(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند ابن عباس ج ١ ص ٣٠٠

(٣) أخرجه أبو داود فى الحدود ـ باب : فيمن عمل عمل قوم لوط ص ٢٥٧ ج ٢ والترمذى باب : ما جاء فى حد اللوطى ص ١٨٨ ـ ج ١ وعند ابن ماجه فى الحدود ـ باب : من عمل عمل قوم لوط ، ص ١٨٧ ح ٢ وعند الحاكم فى الحدود ، ص ٣٥٥ ـ ج ٢ وقال : صحيح الاسناد

أخبرنا عبد الله بن على قال : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا عبد الملك بن بشران قال : حدثنا أبو بكر الآجرى قال حدثنا أبو بكر بن أبى داود قال : حدثنا الحسن بن الصباح قال : حدثنا عبد الوهاب بن عطاء ، وأخبرنا بن ناصر قال أنبأنا عبد القادر بن محمد قال : أنبأنا الجوهرى قال : حدثنا ابن المظفر قال : حدثنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباس قال : حدثنا عيسى بن شعيب كلاهما عن عباد بن منصور ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (اقتلوا الفاعل والمفعول به)(١) .

أخبرنا المبارك بن على قال : أنبأنا عبد الله بن أحمد السمرقندى قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : أنبأنا محمد بن أحمد بن الوليد قال : حدثنا محمد بن جعفر السامرى قال : حدثنا على بن داود القنطرى قال : حدثنا عبد الله بن صالح قال : حدثنا يحيى بن ايوب عن عباد بن كثير أن عبد الله بن محمد بن محمد بن عقيل حدثه ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (من عمل بعمل قوم لوط فاقتلوه)(٢) .

قال السامرى : وحدثنا أحمد بن ملاعب قال : حدثنا يعقوب بن الزبيرى قال : حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن عمر عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فارجموا الأعلى والأسفل)(٣) .

ذكر ما روى عن أبى بكر الصديق وغيره من الصحابة فى ذلك :

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن على قالا : أنبأنا طراد قال : أنبأنا أبو الحسين بن بشران قال : انبأنا الحسين بن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا عبيد الله بن عمر قال : حدثنا عبد العزيز بن أبى حازم ، عن داود بن بكر ، عن محمد بن المنكدر أن خالد بن الوليد كتب إلى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه وجد رجلا فى بعض الأضاحى ينكح كما تنكح المرأة ، فجمع أبو بكر لذلك أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ منهم على بن أبى طالب فقال ، على : إن هذا ذنب لم تعمل به إلا أمة واحدة ، ففعل الله بهم ما قد علمتم أرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأى أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ أن يحرق بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق بالنار قال : وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك(٤) .

وبالاسناد قال حدثنا القرشى قال : حدثنا سويد قال : حدثنا ابن أبى زائدة عن ابن أبى ليلى ، عن يزيد بن قيس أن عليا ـ عليه السلام ـ رجم لوطيا(٥) .

وقد روى عن عمر أنه قال : (من عمل عمل قوم لوط فاقتلوه) .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن على قالا : أنبأنا على بن محمد قال : ـ أنبأنا عبد الملك بن بشران قال : حدثنا أبو بكر الآجرى قال : حدثنا ابن مخلد قال : حدثنا محمد بن إسحاق الصاغانى قال :

---

(١) أخرجه أبو داود فى الحدود باب : فيمن عمل عمل قوم لوط ج ٢ ص ٢٥٧ والحاكم فى الحدود ج ٤ ص ٣٥٥

(٢) انظر نصب الراية للزيلعى ج ٣/ ٣٤٠

(٣) أخرجه ابن ماجه فى الحدود ـ باب : من عمل عمل قوم لوط ج ٤ ص ٣٥٥

(٤) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى باب والأقوال فى حد اللوطى ج ٣ ص ٤٨٣ رقم ١٠

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة فى (كتاب الحدود) ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٨٨ فى اللوطى حد كحد الزانى وقال : أخرجه الزيلعى فى قصة الراية ج ٣ ص ٣٤١ وقال : أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٨/ ٢٣٢

حدثنا هارون بن معروف قال : حدثنا غسان بن مضر ، عن سعيد بن يزيد قال : سئل ابن عباس ما حد اللوطى ؟ قال : ينظر أعلى بيت فى القرية فيرمى منكسا ثم يتبع بالحجارة)[١] .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الجوهرى قال : حدثنا ابن المظفر قال : حدثنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباس بن يزيد قال : حدثنا غسان قال : حدثنا أبو مسلمة عن أبى نضرة قال : سئل ابن عباس عن حد اللوطى قال : ينظر إلى أعلى بناء فى القرية فيرمى به منكوسا ثم يتبع بالحجارة[٢] .

ذكر كلام التابعين ومن بعدهم فى ذلك :

أخبرنا المبارك بن على قال : أنبأنا أحمد بن عبد الواحد قال : أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد السلمى قال : حدثنا محمد بن جعفر الخرائطى قال : حدثنا على بن حرب قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا سفيان ، عن جابر ، عن الشعبى قال : اللوطى (يرجم أحصن أو لم يحصن)[٣] .

وبالاسناد قال : حدثنا الخرائطى قال : وحدثنا أحمد بن منصور الرمادى قال : حدثنا محمد بن الصباح قال : حدثنا إبراهيم بن سعد قال : حدثنا صالح بن كيسان ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب قال : (على اللوطى الرجم أحصن أو لم يحصن)[٤] .

قال : وحدثنا عباس الدورى قال : حدثنا عبيد الله بن موسى قال حدثنا سفيان عن حماد عن إبراهيم قال : (حد اللوطى حد الزانى)[٥] .

قال سفيان : وحدثنا حماد ، عن قتادة ، عن جابر بن زيد فى اللوطى يرجم .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الحسن بن على الجوهرى قال : حدثنا محمد بن المظفر الحافظ قال : حدثنا الهيثم بن خلف الدورى قال : حدثنا محمد بن أحمد ابن النضر قال : حدثنا معاوية بن عمرو قال حدثنا محمد بن بشر عن سفيان عن ابن أبى نجيح ، عن عطاء قال : (حد اللوطى حد الزانى) وعن سفيان عن منصور عن إبراهيم قال : (اللوطى حده حد الزانى ان أحصن رجم وإلا جلد)[٦] .

ويه قال الهيثم : وحدثنا عبد الرحمن بن منصور قال : قال معاذ بن هشام : وحدثنى أبى عن قتادة ، عن الحسن أنه قال فى الرجل خالط الرجل : إن كان أحصن جلد ورجم ، وإن كان لم يحصن

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (فى كتاب الحدود) باب فى اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٢٩ رقم ٨٣٨٦ وقال : أخرجه الزيلعى فى نصب الراية ج ٣/ ٣٤٢ وأخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٨ ص ٢٣٢

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى ج ٨ ص ٢٣٢ (فى كتاب الحدود) باب ما جاء فى حد اللوطى وأخرجه ابن أبى شيبة فى مصنعه فى (كتاب الحدود) باب فى اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٢٩ رقم ٨٣٨٦

(٣) أخرجه ابن أبى شعبة فى مصنفه فى (كتاب الحدود) باب : حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٩٠ وقال المحقق : أورده ابن حزم فى المحلى ١١/ ٤٦٧ من الشعبى .

(٤) انظر البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الحدود) باب : ما جاء فى حد اللوطى ج ٨ ص ٢٣٢

(٥) أخرجه ابن أبى شيبة فى (كتاب الحدود) باب اللوطى حد كحد الزانى ج ٩ ص ٥٣٠ رقم ٨٣٩١ وقال المحقق : أخرجه عبد الرازق فى مصنفه فى باب من عمل عمل قوم لوط رقم ١٣٤٨٧

(٦) انظر السنن الكبرى للبيهقى فى (كتاب الحدود) باب : ما جاء فى حد اللوطى ج ٨ ص ٢٣٣

جلد ونفى) وقال معاذ : وحدثنى أبى عن قتادة ، عن جابر بن زيد وعبيد الله بن عبد الله بن معمر . أنهما قالا : عليه الرجم إن كان أحصن وإن لم يحصن .

قال قتادة : وقول الحسن أعجب إلى .

وقال قتادة : وكان الحسن يقول فى الرجل يخالط البهيمة : إن كان أحصن جلد ورجم ، وإن لم يحصن جلد ونفى .

وبالاسناد عن الهيثم قال : حدثنا عبد الله بن سعيد الكندى قال : حدثنا حماد بن خالد ، عن مالك بن أنس ، عن الزهرى قال : يرجم إن أحصن أو لم يحصن ، وكذلك قال ربيعة وابن هرمز ومالك : يرجم أحصن أو لم يحصن ، وقال الزهرى سنة ماضية .

أخبرنا ابن ناصر وعبد الله بن على قالا : أنبأنا ابن العلاف قال : حدثنا ابن بشران قال : حدثنا الأجرى قال : حدثنا عبد الله بن العباسى الطيالسى قال : حدثنا إسحاق الكوسج قال : قلت لأحمد بن حنبل : أيرجم اللوطى أحصن أو لم يحصن ؟ قال : يرجم أحصن أو لم يحصن) . وقال إسحق بن راهوية : كما قال أحمد .

وقد روى عن أحمد أن حد اللوطى كحد الزانى يختلف بالثيوبة والبكارة وهذا قول أبى يوسف ومحمد .

وعن الشافعى كالروايتين عن أحمد .

وقال الحكم : يضرب اللوطى دون الحد ، وإلى هذا مال أبو حنيفة .

وقال النخعى : لو كان أحد ينبغى أن يرجم مرتين لكان ينبغى للوطى أن يرجم مرتين .

أخبرتنا شهدة بنت أحمد قالت : أنبأنا جعفر بن أحمد السراج قال : أنبأنا عبد العزيز بن على قال : أنبأنا على بن جعفر الصوفى قال : سمعت الموازينى يقول : قال لى رجل من الحجاج : مررت بديار قوم لوط فأخذت حجرا مما رجموا به فطرحته فى مخلاة ودخلت مصر فنزلت فى بعض الدور فى الطبقة الوسطى ، وكان فى سفل الدار حدث فأخرجت الحجر من خرجى ووضعته فى روزنة (الكوة) فى البيت فدعا الحدث الذى كان فى السفل صبيا إلى عنده واجتمع معه فسقط الحجر على الحدث من الروزنة فقتله) .

أخبرتنا شهدة قالت : أنبأنا جعفر بن أحمد قال : أنبأنا أبو الحسن محمد ابن عثمان بن مكى قال : أخبرنى جدى أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن حمد قال : أنبأنا أبو العباس أحمد بن عيسى الوشاء المغزىء قال : سمعت أبا عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الحليم يقول : سمعنا يونس بن عبد الأعلى يقول : خرجت حاجا إلى مكة ، فلما كان ليلة عرفات رأى الامام الذى حج بنا تلك الليلة مناما فلما صرنا إلى مكة بعد انقضاء الحج سمعنا مناديا ينادى فوق الحجر أنصتوا يا معشر الحجاج ، فأنصت الخلق فقال : يا معشر الحجيج إن إمامكم رأى أن الله - عز وجل - قد غفر لكل من وافى العام البيت إلا رجلا واحدا فإنه فسق بغلام .

فى ذكر عقوبة اللوطى فى الآخرة

أخبرنا أحمد بن منازل قال : أنبأنا المبارك بن عبد الجبار قال : : أنبأنا أبو محمد الخلال قال :

حدثنا العباس بن أحمد الهاشمى قال : حدثنا على بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن أبى عبد الله الشعرانى قال : حدثنا داود بن المحبر ، عن أبى عائشة السعدى ، عن يزيد بن عمر بن عبد العزيز ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة وابن عباس قالا : (خطبنا رسول الله - ﷺ - فقال فى خطبته : (من نكح امرأة فى دبرها ، أو غلاما أو رجلا حشر يوم القيامة أنتن من الجيفة ينادى به الناس حتى يدخله الله نار جهنم ويحبط الله عمله ، ولايقبل منه صرفا ولاعدلا ، ويجعل فى تابوت من النار ، ويسمر عليه بمسامير من حديد من نار ، فتستل تلك المسامير فى وجهه وفى جسده)(١) .

قال أبو هريرة : هذا لمن لم يتب .

أخبرنا عمر بن هدية الصواف قال : أنبأنا على بن أحمد بن بيان قال : أنبأنا أبو الحسن بن مخلد قال : أنبأنا إسماعيل بن محمد الصفار قال : أنبأنا الحسن بن عرفة قال : حدثنى على بن ثابت الجزرى ، عن مسلم بن جعفر ، عن حسان بن حميد ، عن أنس ابن مالك عن النبى - ﷺ - قال : سبعة لاينظر الله إليهم يوم القيامة ولايزكيهم ولايجمعهم مع العاملين ، يدخلون النار أول الداخلين إلا أن يتوبوا ، فمن تاب تاب الله عليه : الناكح يده ، والفاعل والمفعول به ، ومدمن خمر ، والضارب أبويه حتى يستغيثا ، والمؤذى جيرانه حتى يلعنوه ، والناكح حليلة جاره)(٢) .

أخبرنا أحمد بن منازل قال : أنبأنا عبد الجبار قال : أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمى قال : حدثنا على بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن يونس قال : حدثنا محمد بن حيان قال : أنبأنا روح بن مسافر ، عن حماد عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - (اللوطيان لو اغتسلا بماء البحر لم يجزهما إلا أن يتوبا)(٣) .

أخبرنا أبو منصور بن عبد الرحمن القزاز قال : أنبأنا أحمد بن على بن ثابت قال : أخبرنى أحمد بن جعفر بن حمدان قال : حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد القاضى قال : حدثنا مسلم بن عيسى قال : حدثنا أبى قال : حدثنا حماد بن زيد ، عن سهيل ، عن أنس قال : قال رسول الله - ﷺ - : (من مات من أمتى يعمل عمل قوم لوط نقله الله إليهم حتى يحشر معهم)(٤) .

أخبرنا عبد الله بن على ومحمد بن ناصر قالا : أنبأنا طراد بن محمد قال : أنبأنا أبو الحسن بن بشران قال : حدثنا الحسين بن صفوان قال : حدثنا أبو بكر القرشى قال : حدثنا سويد بن سعيد قال : حدثنا مسلم بن خالد عن إسماعيل بن كثير ، عن مجاهد قال : لو أن الذى عمل ذلك العمل -

---

(١) ذكر صدر الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى فى باب ما جاء فى كراهية إتيان النساء فى أدبارهن ج ٤ ص ٣٣٩ رقم ١١٧٦ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) انظر كتاب الكبائر للشيخ شمس الدين الذهبى - باب الكبيرة الحادية عشرة اللوط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف فى بعض الفاظه والحديث فى كنز العمال للمفتى الهندى باب : الترهيب السباعى من الاكمال ج ١٦ ص ٩٠ ، ٩١ رقم ٤٤٠٤٠ وقال : رواه البيهقى فى شعب الايمان والحسن بن عرفة فى جزءيه عن أنس .

(٣) انظر اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (كتاب الحدود) ج ٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩

(٤) انظر الخطيب البغدادى فى تاريخه ج ١١ ص ١٦٠ رقم ٥٨٥٣ فى ترجمة عيسى بن مسلم الصفار وفى كشف الخفاء ج ٢ ص ٣٨٧ رقم ٢٦٢١ وقال : رواه الديلمى بلا سند مرفوعا عن أنس وحكاه ابن وقيع فيما أسنده ابن عساكر عنه

يعني : عمل قوم لوط ـ لو اغتسل بكل قطرة من السماء وكل قطرة فى الأرض لم يزل نجسا)[١] .

أخبرنا ابن ناصر قال : أنبأنا عبد القادر بن محمد بن يوسف قال : أنبأنا الجوهرى قال : حدثنا محمد بن المظفر قال : أنبأنا الهيثم بن خلف قال : حدثنا عباد بن الوليد الغنوى قال : سمعت إبراهيم ابن شماس يقول : سمعت الفضيل بن عياض يقول : لو ان لوطيا اغتسل بكل قطرة من السماء لقى الله غير طاهر)[٢] .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا ابن عبد الجبار قال : أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس بن أحمد الهاشمى قال : حدثنا على بن أحمد بن نوح قال : حدثنا محمد بن عبد الرحمن قال : حدثنا أبو أيوب ابن سليمان ، عن طلحة بن زيد ، عن برد بن سنان ، عن أبى المنيب ، عن عبد الله بن عمرو قال : (يحشر اللوطيون يوم القيامة فى صورة القردة والخنازير)[٣] .

أخبرنا ابن منازل قال : أنبأنا ابن عبد الجبار قال أنبأنا الخلال قال : حدثنا العباس الهاشمى قال : حدثنا محمد بن يحيى الأزدى قال : حدثنا أحمد بن نصير قال : حدثنا سعدان بن عمرو المعافرى عن أبى الصهباء ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : من خرج من الدنيا على حال خرج من قبره على تلك الحال حتى إن اللوطى يخرج يعلق ذكره على دبر صاحبه مفتضحين على رءوس الخلائق يوم القيامة) .

قصة شعيب عليه السلام

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ
﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ
وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن
نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ
أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

(١) انظر اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (كتاب الحدود) ج ٢ ص ١٩٩ وقال : أخرجه البيهقى فى شعب الايمان انظره فى التعليق على الحديث السابق

(٢) انظر كتاب الكبائر لشمس الدين الذهبى فى الكبيرة الحادية عشرة : اللواط ج ١ ص ٥٧ مع اختلاف فى بعض ألفاظه قال المحقق : ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات مرفوعا .

(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٧٦ - ١٩١

تفسير المفردات

الأيكة : غيضة كثيرة الشجر قرب مدين بعث الله إلى أهلها شعيبا كما بعثه إلى أهل مدين ولم يكن منهم نسبا .

من المسحرين: أى المطففين الآخذين من الناس أكثر مما لهم .

والقسطاس : الميزان .

والمستقيم : أى العدل . ولاتعثوا : أى لاتفسدوا .

والجبلة : بكسر الجيم والباء وتشديد اللام وبضمهما وتشديد اللام : الخلقة والطبيعة ، ويقال جبل فلان على كذا : أى خلق والمراد أنهم كانوا على خلقة عظيمة .

كسفا : واحدها كسفة كقطعة (وزنا ومعنى) .

والظلة : السحابة التى استظلوا بها .

المناسبة واجمال المعنى

قص الله تعالى : علينا فى هذه الآيات قصص شعيب مع قومه أهل مدين وقد بعثه إليهم فنصحهم بإيفاء الكيل والميزان ، وألا يعثوا فى الأرض فسادا ، فكذبوه ، فسلط الله عليهم الحر الشديد ، فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحر من غيرها ، فيخرجون ، ثم أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها ، فأمطرت عليهم نارا فاحتقروا جميعا .

التفسير

سبحانك ربى ما أعدلك لاتعجل كعجلة أحدنا وإنما تملى للظالم حتى إذا أخذته لم تفلته ﴿ **وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنها لبإمام مبين** ﴾ .

هذا خطيب الأنبياء شعيب على نبينا وعليه ـ الصلاة والسلام ـ يرسله ربه إلى أصحاب الأيكة ، وكانوا قوما يعبدون المال ويخسرون الميزان والمكيال ، فأمرهم بإيفاء الكيل والميزان .

قوله تعالى ﴿ **كذب أصحاب الأيكة المرسلين . إذ قال لهم شعيب ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[1] .

هذا ديدن أهل الباطل تكذيب يقابله من الأنبياء منطق العدالة والحق ، والانبياء الذين ارسلوا إلى أقوامهم كان منطقهم ألا تتقون ؟ ويقول كل منهم إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . . أمين على وحى السماء ، أمين على هدايتكم ، وإرشادكم ، فاتقوا الله واحذروا عقابه ، واطيعون فيما أبلغكم عن الله ، فأنا صاحب رسالة لاأسألكم على التبليغ أجرا ، وأصحاب الرسالات يتجردون عن طلب الأجر لأنهم يبتغون ما عند الله ، والله خير وابقى ، هذا منطق المرسلين ، ولقد قال شعيب : مثلما قال اخوانه الأنبياء ، ثم توجه إلى القوم آمرا وناهيا .

﴿ **أوفوا الكيل ولاتكونوا من المخسرين** ﴾ أى : إذا بعتم للناس فكيلوا لهم الكيل كاملا ، ولاتبخسوهم حقهم فتعطوه ناقصا ، وإذا اشتريتم ، فخذوا كما لو كان البيع لكم .

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٧٦ ـ ١٨٠

وخلاصة ذلك ـ خذوا كما تعطون وأعطوا كما تأخذون .

﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ أى : وزنوا بالميزان السوى العدل ، وقد جاء فى سورة المطففين مثل هذا مع التحذير منه فقال ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثهم ليوم عظيم ﴾ .

ثم عمم النهى عن البخس فى كل حق فقال : ﴿ ولاتبسخوا الناس أشياءهم ﴾ أى : : ولاتنقصوا الناس حقهم فى كيل أو وزن أو غيرهما ، كالمذروعات والمعدودات ، كأخذ بيض كبير وإعطاء بيض صغير ، وإعطاء رغيف صغير وأخذ رغيف كبير ، وهكذا .

ثم نهاهم عن جرم أعظم شأنا وأشد خطرا وهو الفساد فى الأرض بجميع ضروبه وأشكاله فقال : ﴿ ولاتعثوا فى الأرض مفسدين ﴾ أى : ولاتكثروا فيها الفساد بالقتل والغارة وقطع الطريق ، والسلب والنهب ، ونحوها وبعد أن نهاهم عن ذلك خوفهم سطوة الجبار الذى خلقهم وخلق من قبلهم ممن كانوا أشد منهم بطشا وعتوا فقال : ﴿ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ﴾ أى وخافوا بأس الله الذى خلقكم من العدم للاصلاح فى الأرض ، وخلق من قبلكم ممن كانوا أشد منكم قوة وأكثر مالا ، كقوم هود الذين قالوا : من أشد منا قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وقد تمخض هذا النصح عن شيئين : القدح فى رسالته أولا ، واستصغار الوعيد ثانيا .

(١) ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ أى : ما أنت ألا ممن سحر عقله مرة بعد أخرى فصار كلامه جزافا لايعبر عن حقيقة ولايصيب هدف الحق .

﴿ وما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ فما وجه تفضيلك علينا وإرسالك رسولا إيضا .

ثم أكدوا هذا الانكار بقولهم :

﴿ وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ أى : وإنا لنعتقد أنك ممن يتعمد الكذب فيما يقول : ولم يرسلك الله نبيا إلينا .

(٢) ٢﴿ فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ أى فإن كنت صادقا فى دعواك الرسالة فأنزل علينا من السحاب قطعا يكون فيها العذاب لنا .

وهذا شبيه بما قالته قريش لنبيهم فيما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ـ إلى أن قالوا ـ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾[1] وقوله : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[2] .

فأجابهم شعيب :

﴿ قال ربى أعلم بما تعملون ﴾ فيجازيكم به فإن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره إلى

---

(١) سورة الاسراء الآيات : ٩٠ ـ ٩٢

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٢

أجل معلوم ، وما على إلا البلاغ وأنا مأمور به ، فلم أنذركم من تلقاء نفسى ، ولاأدعى القدرة على عذابكم .

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ أى : وهكذا دأبوا على التكذيب فجازاهم بجنس ما طلبوا من إسقاط الكسف من السماء فجعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم أخذ بأنفاسهم لم ينفعهم فيه ظل ولاماء ولاشراب ، فاضطروا إلى أن يخرجوا إلى البرية ، فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما ، فاجتمعوا كلهم تحتها فأمطرتهم شواظا من نار فاحترقوا .

﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ أى : إن فى ذلك الانجاء لكل رسول ومن أطاعه ، والعذاب لكل من عصاه فى كل العصور لدلالة واضحة على صدق الرسل ، وما كان أكثر قومك بمؤمنين ، مع أنك قد أتيتهم بما لايكون معه شك لما يصحبه من الدليل والبرهان .

﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ أى : وإن ربك لهو العزيز فى انتقامه من الكافرين الرحيم بعباده المؤمنين التائبين .

(تنبيه) :

جاءت هذه القصص السبع مختصرة هنا وفيها البرهان الساطع على أن القرآن جاء من عالم الغيب ، فان النتائج التى حصل عليها الأنبياء مع أقوامهم هى مثل النتائج التى حصل عليها النبى ـ ﷺ ـ ولم يكن حين نزولها ذا شوكة ولا ذا قوة ، وإن ما أصيب به من التكذيب والأذى ، وكانت عاقبته الفتح والنصر المبين ، نموذج لما حدث للأنبياء السالفين قبله .

منطق الحق والعدل

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ
﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ
﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ
﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾
أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا
كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٩ ـ ٢٢٧.

ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ
عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ
عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ
تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن
تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾
وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا
يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

تفسير المفردات

الروح الأمين : هو جبريل - عليه السلام - ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين .

وحيه تعالى : وموصله إلى من شاء من عباده .

على قلبك : أى على روحك ، لأنه المدرك والمكلف دون الجسد .

الزبر : الكتب ، واحدها زبرة كصحف وصفحة .

الآية : الدليل والبرهان .

الأعجمين : واحدهم أعجمى ، وهو من لايقدر على التكلم بالعربية .

سلكناه : أى أدخلناه .

المجرمين : مشركى قريش .

بغتة : فجأة .

منظرون : أى مؤخرون .

ذكرى : أى تذكرة وعبرة لغيرهم وما ينبغى لهم أى : ما يتيسر ولايتسنى لهم ، وما يستطيعون : أى ما يقدرون على ذلك لمعزولون : أى لممنوعون بالشهب بعد أن كانوا ممكنين .

أنبئكم : أى أخبركم . والأفاك : كثير الافك والكذب .

الأثيم : كثير الذنوب والفجور .

يلقون السمع : أى يصغون أشد الاصغاء إلى الشياطين ، فيتلقون منهم ما يتلقون مما أكثره الكذب .

الغاوون : الضالون المائلون عن السنن القويم .

الوادى : الشعب ، يهيمون : أى يسيرون سير البهائم حائرين لايهتدون إلى شىء .

المنقلب : المرجع .

*** المناسبة وإجمال المعنى***

بعد أن اختتم سبحانه هذا القصص ، وبين مادار بين الأنبياء وأقوامهم من الحجاج والجدل ، وذكر أنه قد أهلك المكذبين وكان النصر فى العاقبة لرسله المتقين ، فإن سنته فى كل صراع بين الحق والباطل أن تزول دولة الباطل ، وينتصر الحق وإن طال الزمن ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه** ﴾[١] .

وفى ذلك سلوة لرسوله ، وعدة له ، بأنه مهما أوذى من قومه ولقى منهم من الشدائد ، فإن النصر والفوز له ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾[٢] .

أردف هذا ببيان أن هذا القرآن الذى جاء بذلك القصص وحى من الله أنزله على عبده ورسوله جبريل ـ عليه السلام ـ بلسان عربى مبين ، لينذر به العصاة ويبشر به عباده المتقين ، وأن ذكره فى الكتب المتقدمة المأثورة عن الأنبياء الذين بشروا به حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه يبشر به كما قال : ﴿ **وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾[٣] وأن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكره فى كتبهم كما قال : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والأنجيل** ﴾[٤] .

وكما أن الأعجمين إذا قرىء عليهم لم يدروا منه شيئا ولم يؤمنوا به ، كذلك هؤلاء المجرمون من قريش لايؤمنون به كفرا وعنادا حتى يأتيهم عذاب الله بغتة وهم لايشعرون ، فيتمنون إذ ذاك النظرة ليطيعوا الله ويتبعوا أوامره وأنى لهم ذلك ؟ وهل يجديهم التمنى ساعتئذ ؟

﴿ **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا** ﴾[٥] .

وقد جرت سنتنا ألا نهلك قوما إلا بعد أن نبعث إليهم الرسل مبشرين ومنذرين .

ثم رد على مشركى قريش الذين قالوا : إن لمحمد ـ ﷺ ـ تابعا من الجن يخبره كما تخبر الكهنة ـ بأن الشياطين من سجاياهم الفساد ، وإضلال العباد ، والقرآن فيه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبأنهم ممنوعون عن سماع ما تتكلم به الملائكة فى السماء ، لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا مدة إنزال القرآن على رسوله ـ ﷺ ـ فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استراق السمع كما قال : ﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا** ﴾[٦] .

وبعد أن بالغ سبحانه فى تسلية رسوله ـ ﷺ ـ وأقام الحجة على نبوته ، ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه ـ أردف ذلك أمره بعبادته وحده وإنذار العشيرة الأقربين ، ومعاملة المؤمنين بالرفق ، ثم

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٨

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٦٢

(٣) سورة الصف آية : ٦

(٤) سورة الأعراف آية : ١٥٧

(٥) سورة غافر : آية : ٨٥

(٦) سورة الجن الآيتان : ٨ ، ٩

ختم هذه الأوامر بالتوكل عليه تعالى وحده ، فإنه هو العليم بكل شئونه وأحواله .

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : لما أنزل الله : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ أتى النبى - ﷺ - الصفا فصعد عليه ثم نادى يا صباحاه ، فاجتمع الناس إليه ، بين رجل يجىء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله - ﷺ - (يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهد ، يا بنى لؤى ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟) وأنزل الله تعالى : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾[1] .

وبعد أن أبان سبحانه امتناع الشياطين بالقرآن ، وأثبت أنه تنزيل من رب العالمين - أعقب هذا ببيان استحالة تنزلهم على رسول الله - ﷺ - ، فإنها لاتنزل إلا على كل كذاب فاجر ، ورسول الله صادق أمين ، ثم ذكر أن الكذابين يلقون السمع إلى الشياطين ، فيتلقون وحيهم وهو تخيلات لاتطابق الحق والواقع .

وبعدئذ ذكر أن محمدا - ﷺ - ليس بشاعر ، لأن الشعراء يهيمون فى كل واد من أودية القول من مدح وهجو وتشبيب ومجون بحسب الهوى والمنفعة ، فأقوالهم لاتترجم عن حقيقة ، وليس بينهما وبين الصدق نسب ، ومحمد - ﷺ - لايقول إلا الصدق فأنى له أن يكون شاعرا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين** ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى : عن القرآن العظيم ، فهو تنزيل من حكيم حميد ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين** ﴾[2] وقوله جل شأنه : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾[3] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾[4] وقوله جل وعز : ﴿ **تنزيل من الرحمن الرحيم** ﴾[5] وقوله تبارك وتعالى :

﴿ **وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[6]

﴿ **نزل به الروح الأمين** ﴾ جبريل - عليه السلام - ونحوه قوله تعالى : ﴿ **قل من كان عدوا**

---

(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده - مسند ابن عباس : ١/٣٠٧ ورواه البخارى ، تفسير سورة (تبت يدا أبى لهب وتب) : ٦/ ٢٢١ ، ٢٢٢ . وتفسير سورة الشعراء : ٦/ ١٤٠ .. ومسلم ، كتاب الايمان ، باب فى قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) : ١/ ١٣٤ . وتحفة الأحوذى ، تفسير سورة (تبت) الحديث ٢ ، ٣٤ : ٩/ ٢٩٦ - ٢٩٨ وقال الترمذى : (هذا حديث حسن صحيح) .

(٢) سورة السجدة آية : ٢

(٣) سورة الأحقاف آية : ٢

(٤) سورة غافر آية : ٢

(٥) سورة فصلت آية : ٢

(٦) سورة فصلت من الآية ٤١ ، ٤٣

لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾[١] .
ونحوه أيضا : ﴿ إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين ﴾[٢] .
ونحوه قوله تعالى : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولابقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾[٣] .
وقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾[٤] .
وسمى جبريل الروح ، لأنه يروح ويغدو بين الله ورسله ، ووصف بالأمين ، لأنه أمين على الوحى لايزيد ولاينقص ، وما هو على الغيب بضنين : وهكذا كان جبريل من بين ملاكة الله سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء .
﴿ على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ أى على قلب رسول الله ـ ﷺ ـ لانذار البغاة المعاندين .
﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾[٥] .
﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴾[٦] . ﴿ كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾[٧] .
﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾[٨] .
﴿ بلسان عربى مبين ﴾ هو كقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾[٩] وقوله : ﴿ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾[١٠] وقوله ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ﴾[١١] وقوله جل شأنه : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾[١٢].

* نزول القرآن الكريم *

نزل القرآن مفرقا ، وفى أوقات متباعدة وتاريخه هو تاريخ الرسالة المحمدية ، ومدته هى مدتها ، أو قريبا من ذلك .
وقد صرح القرآن بأن نزوله كان فى رمضان ، وفى ليلة القدر منه على الخصوص كما قال تعالى :
﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾[١٣].
وقال ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾[١٤] .
وأكد ذلك بالنسبة إلى الليلة المذكورة قوله فى الآية الأخرى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة ﴾[١٥].

---

(١) سورة البقرة آية : ٩٧
(٢) سورة التكوير الآية : ٢٠
(٣) سورة الحاقة الآيات : ٤١ ـ ٤٢
(٤) سورة النجم آية : ٥
(٥) سورة « يس » الآيتان : ٦٩ ، ٧٠
(٦) سورة هود الآيتان : ١ ، ٢
(٧) سورة الأعراف آية : ٢
(٨) سورة الأحزاب آية : ٤٥
(٩) سورة يوسف آية : ٢
(١٠) سورة الزخرف آية : ٣
(١١) سورة فصلت آية : ٣
(١٢) سورة النحل آية : ١٠٣
(١٣) سورة البقرة من الآية : ١٨٥
(١٤) سورة القدر الآية : ١
(١٥) سورة الدخان الآية : ٣

ورمضان مختص بإنزال الكتب السماوية السابقة ، فقد جاء فى مسند الامام أحمد من حديث واثله بن الأسقع - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : (أنزلت صحف ابراهيم - عليه الصلاة والسلام - فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والانجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله تعالى القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان)[١] .

ومعنى إنزاله لأربع وعشرين خلت : أنه نزل بعد تمام أربع وعشرين ليلة . فيكون إنزاله فى ليلة خمس وعشرين .

وهذه الكتب المنزلة ماعدا القرآن نزل كل منها على الرسول الذى نزل عليه جملة واحدة .

وأما القرآن المجيد : فمعلوم أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقا من حين رسالته إلى قرب وفاته ، بيد أن ظاهر هذه الآيات يدل على أنه نزل كله جملة واحدة فى ليلة من ليالى شهر رمضان ، وهو أيضا ظاهر حديث واثلة السابق . وهذا يثير فى النفس تساؤلا . كيف يتسنى القول بنزول القرآن كله جملة واحدة مع ما هو معلوم يقينا من أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقا فى اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر تقريبا ، حتى أن الكافرين قالوا كما حكى الله تعالى عنهم فى سورة الفرقان : ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة** ﴾[٢] .

وقد يجيب بعض الناس عن هذا التساؤل فيقول : إن الذى أنزل فى ليلة القدر إنما هو أول القرآن نزولا وهو قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الأنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الأنسان ما لم يعلم** ﴾[٣] فيكون قوله تعالى :

﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ معناه شهر رمضان الذى ابتدىء فيه إنزال القرآن .

وقوله : ﴿ **إنا أنزلناه** ﴾ معناه إنا ابتدأنا إنزاله .

وهذا الجواب ليس بسديد ، لأن فيه حمل الآيات على غير ظاهرها .

والجواب السديد هو ما أجاب به ابن عباس فى آثار صحيحة مروية عنه نكتفى منها بما يلى :

أولا : أخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (فصل القرآن من الذكر ، فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا فجعل جبريل ينزل به على النبى ﷺ - ومعنى قوله : (فصل القرآن من الذكر) أن الملائكة كتبوا القرآن الكريم نقلا من اللوح المحفوظ ، ثم أنزلوا ما كتبوه إلى مكان فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة .

ثانيا : أخرج النسائى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : (أنزل

---

(١) مسند الامام أحمد من حديث واثلة بن الأسقع ج ٤ ص ١٠٧ وفى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ١ ص ٤٥١ فى الجزء الثانى أخرجه أحمد وابن جرير ومحمد بن نصر وابن أبى حاتم والطبرانى والبيهقى فى شعب الايمان والأصبهانى فى الترغيب عن واثلة بن الأسقع .

(٢) سورة الفرقان الآية : ٣٢

(٣) سورة العلق الآيات : ١ - ٥

(٤) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير ج ٢ ص ٢٢٣ وقال الحاكم : صحيح الاسناد

القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد فى عشرين سنة)[١] . وقوله (فى عشرين سنة) فيه إيجاز بالاقتصار على ذكر العقدين الكاملين وحذف الكسر وهو سنتان وخمسة أشهر تقريبا .

ثالثا : ـ أخرج ابن مردويه والبيهقى وابن أبى حاتم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه سأله عطية بن الأسود ، فقال : (وقع فى قلبى الشك)[٢] قول الله تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ وقوله : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ وقوله :

﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ وقد أنزل فى شوال ، وفى ذى القعدة ، وفى ذى الحجة ، وفى المحرم ، وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر ، وفى ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام وقوله : (وقع فى قلبى الشك) .

لايقصد به حقيقة الشك فإن القرآن لايشك فيه مسلم ، وإنما مقصوده أن هذا التعارض الذى يبدو لأول وهلة يثير فى النفس حيرة عن الفهم مع إيمان بأن القرآن حق لاريب فيه .

وقوله : (أنزل على مواقع النجوم) معناه أنه أنزل مفرقا على مثل مساقط النجوم فإن النجوم تسقط أمام الأنظار فى أوقات مختلفة يتبع بعضها بعضا .

وقوله : (رسلا) بكسر الراء ـ معناه (تؤده) أى فى زمن طويل . ولاشك أن نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى موضع مخصوص فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة ـ لايقوله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ اجتهادا ، ولاتخمينا ، فإنه من علم الغيب الذى لايطلع الله عليه إلا رسوله ـ ﷺ ـ .

وهذا النزول الغيبى إن كان مما يحمل على القول به هو إبقاء الآيتات الواردة فى نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة ، فإنه لايعارض نزوله الحسبى فى التاريخ المذكور ، أى : ابتداء نزوله على الرسول ـ ﷺ ـ مفرقا ، بل إن الرواية نفسها تشير إلى ذلك وتبين المراد به ، فهما إذن نزولان ، غيبى وحسبى وتاريخهما واحد .

ويتساءل العلامة الزركشى عن السر فى هذا النزول ؟ ويجيب عن ذلك بقوله : (فإن قيل : ما السر فى إنزاله جملة إلى السماء ؟ قيل فيه تفخيم لأمره ، وأمر من نزل عليه ، وذلك بإعلان سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قربناه إليهم لتنزله عليهم) .

وقد بين الله تعالى : حكمة نزول القرآن مفرقا لاجملة واحدة فى موضعين فى الكتاب العزيز .

الموضع الأول : قوله تعالى فى سورة الاسراء : ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا** ﴾ .

---

(١) الحديث أخرجه الحاكم فى المستدرك (فى كتاب التفسير) باب : أنزل القرآن جملة واحدة فى ليلة القدر الى السماء الدنيا ج ٢ ص ٢٢ وقال الحاكم : حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وأخرجه الامام النسائى والبيهقى عن ابن عباس .

(٢) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى فى الجزء الأول ص ٤٥٦ قال : وأخرج ابن جرير ومحمد بن نصر فى كتاب الصلاة ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى وابن مردوية والبيهقى فى الأسماء والصفات ، عن مقسم قال : سأل عطية ابن الأسود ، ابن عباس فقال : وذكر الحديث .

الموضع الثانى : قوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا . ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ .

وصدر آية سورة الاسراء ﴿ **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث** ﴾ يرشد إلى حكمة من حكم التفرقة وهى أن يتيسر على الناس حفظه وفهمه وتخليهم عن عقائدهم وأعمالهم الفاسدة بالتدريج وتحليهم بالعقائد والأعمال الصالحة بالتدريج أيضا وآخرها ﴿ **ونزلناه تنزيلا** ﴾ .

يرشدك إلى حكمة أخرى من حكم التفرقة ، وهى الدلالة على أن القرآن منزل من الله تعالى : وليس من قول البشر ، فإنه مع نزوله مفرقا حسب الحوادث ، وإعجازه بهذا الترتيب الزمنى كان الرسول ـ ﷺ ـ يأمر الكتبة كلما نزلت آية أن يضعوها بأمر الله تعالى : بعد آية كذا ، من سورة كذا ، فكان ترتبه فى التلاوة غير ترتيبه فى النزول وكان مع ذلك متناسبا أعظم التناسب ، بل معجزا للخلق جميعا أن يأتوا بمثله ، فهذا إعجاز متكرر مرتين .

أولاهما : بترتيبه فى التلاوة آيات وسورا طوالا وقصارا وأوساطا والآية الأولى من آيتى (الفرقان) : ﴿ **وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا** ﴾ .

ترشد إلى حكمة ثالثة ، وهى تثبيت قلب الرسول ـ ﷺ ـ بتجدد الوحى ، ونزول الملك وهو أمر يدعو إلى طمأنينة القلب وانشراح الصدر مع ما فى ذلك من تيسر الحفظ ، وتكرار انتصاره على الأعداء بتكرار عجزهم عن الاتيان بمثله كلما تحداهم .

والآية الكريمة الثانية من آيتى الفرقان : ﴿ **ولايأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** ﴾ ترشد إلى حكمة رابعة ، وهى مسايرة الحوادث بإجابة السائلين ، وبيان حكم الله تعالى : فى الوقائع المتجددة وتوجيه أنظار المسلمين إلى ما يقعون فيه من أخطاء أولا فأول ، وهتك أستار المنافقين والمشككين كلما هموا بأمر فيه كيد للاسلام والمسلمين .

وكان أول ما نزل هو وقوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ كما تفيده السنة الصحيحة ، ففى البخارى عن عائشة قالت : (أول ما بدىء به رسول الله ـ ﷺ ـ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ما أنا بقارىء . قال : فأخذنى فغطنى ، حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الأنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم** ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده . . . الحديث[1] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى ـ سورة العلق ج ٢٠ ص ١٠٨ وفى مسلم الرؤيا الصادقة كما جاء فى نهاية الحديث . وانظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى) ٣ ـ باب ج ١ ص ٢٣

لكن جاء فى صحيح مسلم عن جابر : (أول ما نزل من القرآن سورة المدثر)[١] وهذا محمول عند العلماء على ما بعد فترة الوحى التى تلت النزول الأول .

والروايات المختلفة الألفاظ للحديث عند البخارى وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك ونورد هنا رواية البخارى لوضوحها واختصارها وهى عندهما معا من طريق ابن شهاب الزهرى عن أبى سلمة ، عن جابر أن النبى ـ ﷺ ـ قال : وهو يحدث عن فترة الوحى :

(بينما أنا أمشى ، إذا سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، زاد مسلم فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر إلى قوله : والرجز فاهجر** ﴾[٢] فحمى الوحى وتتابع فبان بهذا أن الأولية الحقيقية هى التى فى حديث عائشة ، وأن التى فى حديث جابر إنما هى أولية إضافية ، لأن الحديث عن فترة الوحى لايكون إلا بعد وحى سابق زيادة على أن مضمون الآيات المفتتح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا ، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يا أيها المدثر .

وإذا كانت أول ما نزل هو قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك** ﴾ كما ثبت لدينا بالدليل القاطع ، فإن آخر ما نزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى : ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله** ﴾[٣] .

أخرجه النسائى وابن مردويه والطبرى عن ابن عباس .

وهذا يرشدنا إلى أن ثمرة المعرفة هى التقوى التى تعنى حسن السلوك ومحاسبة النفس ، فالعلم فى الاسلام ليس غاية فى ذاته ولكنه وسيلة إلى تزكية النفس ، ونفع العباد حتى يكون الانسان خليقا بهذا المنصب الرفيع الذى أهل له منذ وجود أول فرد منه ، وهو خلافة الله فى أرضه ، المقتضية لاعلاء منار شريعته الكفيلة بسعادة الدنيا والآخرة .

وقد نزل القرآن بأرقى صور الوحى . إذ ورد فى القرآن أن الله تعالى يكلم الناس فى صور ثلاث قال تعالى :

﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء** ﴾[٤] .

فأول صورة لكلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ للانسان ، هى الايحاء ، ومعناه الاشارة السريعة تلقى فى روع الانسان ، وفى هذه الحالة يتكلم الأنبياء وغيرهم من المتقين بنفث من روح القدس ، فيلقى فى نفس الموحى إليه فكرة تشع فى روعه بنور خاطف كأنه البرق ، ولايكون الايحاء فى هذه الصورة مصاغا بكلام ، بل يكون خطرة تخطر بالبال لايسبقها تفكير وتجلى بها شكوك .

---

(١) انظر الحديث فى تفسير القرطبى ـ تفسير سورة المدثر ج ١٩ ص ٦٠

(٢) انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى) ٣ ـ باب ج ١ ص ٢٧ رقم ٤

(٣) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ٢ ص ١١٦ قال : وأخرج أبو عبيد وعبيد بن حميد وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : آخر آية نزلت من القرآن على النبى ـ ﷺ ـ ﴿ **واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله** ﴾ .

(٤) سورة الشورى من الآية : ٥١

وثانى صورة لكلام الله ـ سبحانه وتعالى ـ للانسان : هى الكلام من وراء حجاب . وثالث صورة لكلام الله للانسان : الحالة التى يرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها كلاما منه يحمله ملك رسول إلى الموحى إليه .

وهذه الصورة هى أعلى مراتب التنزيل حيث اختص الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها أنبياءه ورسله دون سواهم لتبليغ رسالاته إلى الناس ، وأما الصورتان الأوليان : الايحاء والكلام من وراء حجاب ، فتقل مرتبتهما عن الصورة الثالثة ويشترك فيهما الأنبياء ومن عداهم ممن سلكوا نهجهم من عباد الله المتقين . وأما الرسل فقد أمرهم الله بأن يبلغوا رسالاته إلى الناس وينذروهم بها ، وذلك لتجنيبهم مواطن الضلال ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم المفضى إلى نجاتهم وإسعادهم ، ورسالة هذه غايتها تكون أشد شأنا مما عداها ، ويكلم الله فيها رسوله بأعلى صور الكلام مرتبة ، فلا تكون فكرة عابرة ، ولا كلاما يسمعه الرسول وينطق به بنفث من روح القدس ، بل يرسل الله تعالى : كلاما يحمله روح القدس إلى الرسول ، ويسمى كلام الله هذا الوحى المتلو ، وبه نزل القرآن كله بدون استثناء .

فالقرآن وحى متلو على النبى نزل به الروح الأمين على قلب النبى بكلام عربى مبين وبأرقى صور الوحى .

وهناك صور أخرى للوحى فقد ورد أن النبى كان يرى قبل نزول القرآن الرؤيا الصادقة (إن أول ما بدىء به من الوحى الرؤيا الصادقة فكان رسول الله لايرى رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح) .

ويتبع هذه الصورة من الوحى ما ورد من أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يسمع أصواتا خفية ، وهذه الصورة يعبر عنها بالوحى الخفى يوحى بها الله إلى الرسول .

وتختلف حالة الانسان أثناء تلقى الوحى باختلاف صوره . ففى القسمين الأولين تعترى الانسان حالة غير عادية ، سواء أتاه الايحاء فى وقت النوم أو اليقظة ، ولايحدث تغيير بين فى الموحى إليه ، وأما فى الصورة الثالثة : وهى التى اختص الله بها أنبياءه ورسله فتتغير حالة الموحى إليه تغييرا كبيرا ، فينتقل معها من عالم إلى آخر ، ولايزال الموحى إليه يقظا تمام اليقظة غير مصروع ولاغائب عن وعيه ، شاعرا بوطأة الوحى ويستطيع من حوله من الناس أن يشاهدوا هذا التغير المحسوس أثناء الوحى ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال الرسول : أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال : وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا .

وبهاتين الحالتين : نزل القرآن على الرسول ـ ﷺ ـ ، ففى كلتيهما كان الرسول يرى جبريل ، وفى كلتيهما كان جبريل ينقل كلام الله إليه فيفصم عنه فيعى ما يقول ، ولافرق بين الحالتين سوى أنه فى إحداهما كان جبريل يظهر على صورة رجل ينقل كلام الله بصوت هادىء لين ، وأما فى الحالة الثانية

---

(١) أخرجه البخارى فى (كتاب بدء الوحى) باب : كيف كان بدء الوحى ج ١ ص ٢

فكان الوحى يأتى كصلصلة الجرس - أى : أن جبريل كان ينقل كلام الله بصوت قوى شديد .

وكان الوحى على هذا أشد وطأة على الرسول - ﷺ - من الحالة السابقة ، وكان الحامل لكلام الله تعالى : فى كلتا الحالتين جبريل - عليه السلام - وكان الرسول الكريم وقت نزول الوحى ينتقل - كما ذكرنا من عالم إلى آخر ، وكان يبلغ منه الجهد مبلغا كبيرا حتى كان جبينه يتصبب عرقا فى أشد أيام البرد .

وسواء أظهر جبريل - عليه السلام - فى صورة رجل أم لا ، وسواء أبلغت الرسالة فى صوت هادىء لين أم فى صوت قوى شديد ، فإنه لاريب فى أن الموحى به كان كلاما من الله يحمله جبريل إلى الرسول - ﷺ - ونزل القرآن جميعه بهذه الصيغة منجما على الرسول بواسطة جبريل .

وقد كان الرسول يتلقى التنزيل بصورتيه وهو جالس مع أصحابه أحيانا ، ويستخلص من ذلك أن الرسول كان يرى جبريل ويسمع منه التنزيل .

وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول عشر آيات فى قصة الافك جملة . وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنون جملة ، وصح نزول جملة ﴿ **غير أولى الضرر** ﴾ وحدها وهى بعض آية .

والحكمة فى نزول الأيات قليلة العدد على هذا النحو هى فى أن يتمكن النبى - ﷺ - من حفظها ومن تعليمها للناس ، ومن إملائها على كتابه ليدونوها .

ولنزول القرآن حسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة : وهى كل القرآن تقريبا . فمن ذلك مثلا ما اتصل بعمر بن الخطاب ، وكان هو سببا فى نزوله ، فقد روى عنه أنه قال : وافقت ربى فى ثلاث قلت : يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية : - ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ .

وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب ، واجتمع على رسول الله نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن** ﴾ فنزلت كذلك .(١)

وفى رواية أخرى : أنه لما نزلت الآية : ﴿ **ولقد خلقنا الأنسان من سلالة من طين** ﴾ قال عمر بن الخطاب قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت الآية كما نطق عمر : ﴿ **فتبارك الله أحسن الخالقين** ﴾ .

وفى طبقات ابن سعد عن الواقدى : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى ، فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) .

ثم قطعت يده اليسرى فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : (وما محمد إلا رسول) ثم قتل فسقط اللواء .

---

(١) سورة التحريم الآية : ٥

قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية (وما محمد إلا رسول) يومئذ حتى نزلت بعد ذلك .

وذكر البخارى من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه : ﴿ **لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله** ﴾ فجاء ابن أم مكتوم وقال : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت وكان أعمى فأنزل الله ﴿ **غير أولى الضرر** ﴾ وكذلك قوله تعالى :(١) .

﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم** ﴾ بعد قوله تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾(٢) .

كانت الآيات التشريعية وهى آيات الأحكام تنزل على الرسول ـ ﷺ ـ فى الغالب جوابا لحوادث فى المجتمع الاسلامى ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول ، وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتبا وجعلوها أساسا لفهم القرآن ، وأحيانا كانت تنزل الآيات جوابا عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين ، وقليلا ما كانت تنزل الأحكام مبتدأة .

ولنضرب أمثلة لكل من هذين القسمين :

١ ـ أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ مرثدا الغنوى إلى مكة ليخرج منها قوما مسلمين مستضعفين ، فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه ، وكانت ذات جمال ومال فأعرض عنها خوفا من الله ، ثم أقبلت عليه تريد زواجه ، فقبل ووقف ذاك على إذن رسول الله ـ ﷺ ـ فلما قدم المدينة عرض قضيته على رسول الله ـ ﷺ ـ وطلب إجازة ذلك النكاح فنزل قوله تعالى : فى سورة البقرة :

﴿ **ولاتنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولاتنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾(٣) .

٢ ـ ورد فى القرآن أحكام كثيرة عقب أسئلة صدرت من المؤمنين أو من غيرهم من ذلك قوله تعالى : فى سورة البقرة :

﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم** ﴾(٤) ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولاتقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾(٥) .

﴿ **يسالونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبيرٌ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد**

---

(١) انظر الحديث فى القرطبى فى تفسير سورة النساء آية : ٩٥ ج ٥ ص ٣٤١ ، ٣٤٢

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٨

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٢١

(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢١٩ ، ٢٢٠

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٢٢

الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾[٤] .

وفى سورة النساء : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ﴾[٥] .

إلى غير ذلك من الآيات .

أما الأحكام التى أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة ، وقلما نرى حكما لم يذكر له المفسرون حادثا أنزل الحكم مرتبا عليه ولسعة زمن نزول القرآن واختلاف أماكنه نسبت سور القرآن وآياته إلى أزمانها وأماكنها ، فكان من أشهر ما أطلق على الآيات أنها (مكية) أو (مدنية) : نسبة إلى مكة وهى المهد الأول للدعوة الاسلامية ، وإلى المدينة وهى مستقر هذه الدعوة . كما قد ينسب منه شىء إلى غير هاتين المدينتين هى أشهر نسبة وإليها وجهت العناية ببيان المكى والمدنى من آى القرآن ، وتعيينه وترتيبه ووصفه وما إلى ذلك .

وقد ذكر السيوطى اصطلاحات يمكن التفريق فيها بين المكى والمدنى ، قال : اعلم أن للناس فى المكى والمدنى اصطلاحات ثلاثة أشهرها :

١ ـ أن المكى ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع ، أم بسفر من الأسفار .

أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده إلى يحيى بن سدم قال :

ما نزل بمكة وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى ـ ﷺ ـ المدينة فهو مكى ، وما نزل على النبى ـ ﷺ ـ فى أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدنى وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل فى سفر الهجرة مكى اصطلاحا .

٢ ـ أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة وعلى هذا تثبت الواسطة . فما نزل بالأسفار لايطلق عليه مكى ولا مدنى ، وقد أخرج الطبرانى أن رسول الله قال : أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة : مكة والمدينة والشام : (وقيل فى تفسير الشام : إنها بيت المقدس أو تبوك وهذا أرجح) .

قال السيوطى : ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية . وفى المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع .

٣ ـ أن المكى ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة . قال القاضى أبو بكر فى الانتصار : إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين . ولم يرد عن النبى ـ ﷺ ـ فى ذلك قول : لأنه لم يؤمر به ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة وإن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت[٣] .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢١٧

(٢) سورة النساء من الآية : ١٧٦

(٣) انظر تفسير ابن كثير فى مقدمته ج ١ ص ١٢ فقد ذكر الحديث وقال المحقق : رواه ابن جرير الطبرى ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود .

وقال أيوب سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن ، فقال : نزلت فى سفح ذلك الجبل وأشار إلى سلع .

وهناك ضوابط أحصاها القدماء تميز المكى من المدنى ، وهذه الضوابط هى من قبيل الاحصاء ، إذ أنها بنيت على ما جاء فى مصحف عثمان بن عفان .

أولا : إن آيات المكى على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنية وشاهد ذلك أن السور تزيد قليلا على ١١/ ٣٠ من القرآن وعدد آياتها ١٤٥٦ أى : أنها تزيد قليلا على ربع مجموع آياته . ومن الأمثلة القريبة على ذلك جزء قد سمع كله مدنى وعدد آياته ١٣٧ وجزء تبارك مكى وعدد آياته ٤٣١ ، وجزء عم مكى وعدد آياته ٥٧٠ .

ومن ذلك الأنفال والشعراء كلتاهما نصف جزء من القرآن ، لكن الأولى مدنية عدد آياتها ٧٥ والثانية المكية عدد آياتها ٢٢٧ .

وهذا المميز أغلبى ، فقد يوجد فى بعض الآيات المكية طول وأكثره فى السور الطوال .

ثانيا : ـ خطاب الجمهور فى الآيات المدنية يغلب أن يكون بقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ وقلما يرد بقوله ﴿ يا أيها الناس ﴾ وأما خطابه فى الآيات المكية فبالعكس ، ولم نر فى السور المكية ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ .

أما فى السور المدنية فورد يا أيها الناس سبع مرات .

١ ـ يا أيها الناس اعبدوا ربكم .

٢ ـ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا . كلتاهما (بالبقرة) .

٣ ـ يا أيها الناس اتقوا ربكم .

٤ ـ إن يشأ يذهبكم أيها الناس .

٥ ـ يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم .

٦ ـ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم (بالنساء) .

٧ ـ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى (بالحجرات) .

ثالثا : آيات المكى ليس فيها شىء من التشريع التفصيلى ، بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى المقصد الأول من الدين وهو توحيد الله سبحانه وتعالى : وإقامة البراهين على وجوده والتحذير من عذابه ، ووصف يوم الدين وأهواله ونعيمه ، والحث على مكارم الأخلاق التى بعث رسول الله ـ ﷺ ـ ليكملها ثم ضرب الأمثال بما أصاب الأمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه أنبياؤها .

أما التشريع التفصيلى فمعظمه وارد فى الآيات المدنية .

ولمعرفة أماكن نزول السور والآيات أهمية كبيرة ، لأنها تعين على معرفة أسباب النزول وتواريخ الحوادث التى عرض لها القرآن وبذا تكون آياته أكثر وضوحا وقربا من الأذهان . وقد بدأت عناية الأقدمين المبكرة بالتأليف فى أسباب نزول القرآن ، وجعلوها نوعا من أنواع الدراسات القرآنية التى سموا مجموعتها (علوم القرآن) واشتملت كتب التفسير على هذه الأسباب عند تفسير آياتها .

كما وضعت الكتب المفردة فى تلك الأسباب ، مثل كتاب (الباب المنقول ، فى أسباب النزول) للسيوطى وغير ذلك من كتب فى أسباب النزول .

وقالوا : (لايحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن عللها .

كما قدروا ما قد يقع من وهم الراوى للأسباب ، وأشاروا إلى بعض مسببات الوهم ، (كأن تتلى الآية عند الحادثة فيهم الراوى فيقول : فنزل عند ذلك كذا) وبهذه الدقة يجب النظر فى أسباب النزول فهما للقرآن المجيد .

قوله تعالى : ﴿ **وإنه لفى زبر الأولين . أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل . ولو نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين** ﴾[(١)] .

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن والتنويه به لموجود فى كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به فى قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيبا فى ملئه بالبشارة بأحمد ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد** ﴾[(٢)] والزبر ههنا هى الكتب وهى جمع زبور وكذلك الزبور وهو كتاب داود ، وقال الله تعالى :

﴿ **وكل شىء فعلوه فى الزبر** ﴾[(٣)] .

أى مكتوب عليهم فى صحف الملائكة ثم قال تعالى : ﴿ **أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل** ﴾[(٤)] أى أو ليس مكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بنى إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن فى كتبهم التى يدرسونها والمراد العدول فهم الذين يعترفون بما فى أيديهم من صفة محمد ـ ﷺ ـ ومبعثه وأمته كما أخبر بذلك من آمن . منهم ، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسى عمن أدركه منهم ، ومن شاكلهم .

قال الله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾[(٥)] ثم قال تعالى : مخبرا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن أنه لو نزل على رجل من الأعاجم ممن لايدرى من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لايؤمنون به ، ولهذا قال : ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين** ﴾[(٦)] كما أخبر عنهم فى الآية الأخرى ﴿ **ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا** ﴾[(٧)] وقال تعالى : ﴿ **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى** ﴾[(٨)] وقال تعالى : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون** ﴾[(٩)] .

انتهى بمشيئة الله تعالى : المجلد الثالث والخمسون من كتابنا فى رحاب التفسير ويليه إن شاء الله المجلد الرابع والخمسون مبدوءا بقوله تعالى : ﴿ **كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين** ﴾ .

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١٩٦
(٢) سورة الصف آية : ٦
(٣) سورة القمر آية : ٥٢
(٤) سورة الشعراء آية : ١٩٧
(٥) سورة الاعراف آية : ١٥٧
(٦) سورة الشعراء الآية : ١٩٨
(٧) سورة الحجر آية : ١٤
(٨) سورة الأنعام آية : ١١١
(٩) سورة يونس آية : ٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : ﴿كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم . فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون . فيقولوا هل نحن منظرون . أفبعذابنا يستعجلون . أفرأيت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون . وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين﴾ .

يخبر ـ سبحانه وتعالى ـ انه أدخل التكذيب والكفر والعناد فى قلوب هؤلاء الجاحدين جزاء ما وقفوا من الحق موقف الانكار . والمجرمون فى كل زمان ومكان يقفون للحق بالمرصاد ، قال ـ تعالى ـ ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾(١)

وقال ـ جلت قدرته ـ ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾(٢)

وقال ـ تبارك اسمه ـ : ﴿ وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ﴾(٣)

ثم يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴾

أى : لا يصدقون بالحق ولا يوقنون به ، وستظل حالهم هكذا إلى أن يروا العذاب الأليم ، حيث ﴿ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ﴾(٤)

قال ـ تعالى ـ : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾(٥)

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ الآية ﴿ وقد عصيت قبل وكنت من الكافرين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾(٦)

إن هؤلاء الناس لا تقبل منهم معذرة ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾(٧)

يقول ـ تعالى ـ عن العذاب النازل بهم ﴿ فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ وكفى ببغتة العذاب من عذاب ! ! وكفى بنعمة الأمن للمؤمنين من نعمة ، كيف حال هؤلاء عند نزول العذاب بهم بغتة ؟ قال ـ تعالى ـ : ﴿ فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أى : أخر هذا العذاب عنا ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين

(١) الآيتان ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .
(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجر .
(٣) الآيتان ٢ ، ٣ من سورة القمر .
(٤) من الآية ١٥٨ من سورة الأنعام .
(٥) الآيتان ٨٤ ، ٨٥ من سورة غافر .
(٦) الآيات ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ من سورة يونس .
(٧) من الآية ٥١ ، والآية ٥٢ من سورة غافر .

لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾(١)

قوله - تعالى - : ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾

هذا تهديد ووعيد تنخلع من هوله القلوب وتنفطر من شدته الأفئدة ، لقد كانوا يستعجلون العذاب استهزاء ويقولون : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(٢) ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾(٣)

وقال - سبحانه - ﴿ ويدع الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا ﴾(٤) وقال - تبارك اسمه - : ﴿ ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾(٥)

وقال - تبارك وتعالى - : ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون ﴾(٦)

وقال أصدق القائلين : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول : ﴿ ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾(٧)

وقال أصدق القائلين : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج ﴾(٨)

قوله - تعالى - : ﴿ أفرأيت ان متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ .

أى : لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحينا من الزمان - وإن طال - ثم جاءهم أمر الله اى شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعيم ؟ ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾(٩) وقال - تعالى - : ﴿ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر ﴾(١٠) وقال تعالى : ﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾(١١) ولهذا قال - تعالى - : ﴿ ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾

وفى الحديث الصحيح : (يؤتى بالكافر فيغمس فى النار غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت خيرا قط ؟ هل رأيت نعيما قط ؟ فيقول : لا والله يارب : ويؤتى بأشد الناس بؤسا كان فى الدنيا فيصبغ فى

---

(١) الآية ٤٤ من سورة ابراهيم
(٢) من الآية ٣٢ من سورة الانفال .
(٣) الآية ٢٥ من سورة الملك
(٤) الآية ١١ من سورة الاسراء
(٥) من الآية ٦ من سورة الرعد .
(٦) الآية ١١ من سورة يونس .
(٧) الآيات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ من سورة العنكبوت .
(٨) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة المعارج .
(٩) الآية ٤٦ من سورة النازعات
(١٠) الآية ٩٦ من سورة البقرة .
(١١) الآية رقم ١١ من سورة الليل .

الجنة صبغة ثم يقال له : هل رأيت بؤسا قط ؟ فيقول لا والله يارب »[١] أى : ما كأن شيئا كان ، ولهذا كان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يتمثل بهذا البيت .

كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذى أنت تطلب

قال ـ سبحانه ـ ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية : ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه ﴾[٢]

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين ﴾ ونحوه قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون ﴾[٣]

وقال ـ سبحانه ـ ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٤]

وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾[٥]

وقال : ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ﴾[٦]

قوله ـ جل شأنه ـ : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾

هذا إخبار منه ـ تبارك وتعالى ـ عن حفظ القرآن من كل شيء خلافه ، كما أن فى ذلك إخبارا عن سلامة القرآن وعصمته من كل خطأ ، وفى ذلك تحقيق لوعد الله فى قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[٧] وفى قوله : ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ وذلك لثلاثة وجوه

أولها : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما ينبغى لهم ﴾ أن يأتوا بمثل هذا القرآن لانه معجز ولأنهم أهل فساد ، والقرآن نور ، وهدى ، والشياطين ظلمات وضلال .

والوجه الثانى : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وما يستطيعون ﴾ ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[٨]

والوجه الثالث : فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ وهذا الوجه قد بينه ـ عز وجل ـ فى قوله حكاية عن الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا . وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾[٩] وقال ـ سبحانه ـ ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾[١٠] وقال ـ تبارك

---

(١) انظر مسند أحمد (مسند انس) ج ٣ ص ٢٥٣ مع تقديم وتأخير ، واختلاف فى بعض الالفاظ .
(٢) الايات من ٢٥ ـ ٢٩ من سورة الحاقة
(٣) الآية ٥٩ من سورة القصص .
(٤) الآية ١٥ من سورة الاسراء .
(٥) الآية ١١٧ من سورة هود .
(٦) الآية ١٣١ من سورة الانعام .
(٧) الآية ٩ من سورة الحجر .
(٨) الآية ٨٨ من سورة الاسراء .
(٩) الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠ من سورة الجن .
(١٠) الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ من سورة الحجر .

اسمه - : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير ﴾[١]

فسبحان من حفظ كتابه ووحيه فقال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾[٢]

وقوله - تعالى - : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين . وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذى يراك حين تقوم . وتقلبك فى الساجدين . إنه هو السميع العليم ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ فلا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين ﴾

هذا نهى عن الشرك بكل معانيه ، والنهى عن الشىء أمر بضده ، فهو أمر بالتوحيد ونهى عن الشرك ، قال تعالى : - ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم . إن الدين عند الله الإسلام ﴾[٣]

وقال - سبحانه - : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذورا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[٤] وقال : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[٥] وقال - صلوات ربى وسلامه عليه - : (أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلى لا إله إلا الله)[٦]

أما عاقبة المشركين فكما قال - تعالى - بعد فاء السببية الواقعة بعد النهى ﴿ فتكون من المعذبين ﴾ والعذاب هنا خالد دائم ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾[٧]

وقال - سبحانه - ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾[٨]

وقال - عز من قائل - : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[٩]

---

(١) الآية ٥ من سورة الملك .
(٢) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الجن .
(٣) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة آل عمران .
(٤) من الآية ١ ، والآية ٢ من سورة النحل .
(٥) الآية ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٦) انظر تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك (كتاب الحج) باب : جامع الحج ج ١ ص ٣٦٩ فقد رواه عن طلحة بن عبيد الله بن كريز ان رسول الله ﷺ قال : « أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة ، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .
(٧) الآية ١١٦ من سورة النساء .
(٨) الآية ٦ من سورة البينة .
(٩) من الآية ٣١ من سورة الحج .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ أى : الأدنين إليه ، وأنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه ـ عز وجل ـ وأمره ان يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين ، ومن عصاه من خلق الله كائنا من كان فليتبرأ منه ، ولهذا قال ـ تعالى ـ : ﴿ **فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون** ﴾ وهذه النذارة الخاصة لاتنافى العامة ، بل هى جزء من أجزائها ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ **لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون** ﴾[1] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾[2] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم** ﴾[3]

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا** ﴾[4]

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **لأنذركم به ومن بلغ** ﴾[5]

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده**)[6] وفى صحيح مسلم : (والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم يؤمن بى إلا دخل النار)[7]

وقد وردت أحاديث كثيرة فى نزول هذه الآية الكريمة فلنذكرها : ـ قال الامام أحمد ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما نزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ أتى النبى ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : (ياصباحاه) فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : ـ (يابنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، يابنى لؤى : أرأيتم لو أخبرتكم ان خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟) قالوا : نعم . قال : (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) فقال أبو لهب : تبالك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا وأنزل الله : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب** ﴾[8]

قال الامام أحمد بسنده عن عائشة قالت : لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : (يافاطمة ابنة محمد ، ياصفية ابنة عبد المطلب ، يابنى عبد المطلب ، لا أملك لكم من الله شيئا سلونى من مالى ما شئتم)[9]

قال الامام احمد بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **وإنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ دعا رسول الله ـ ﷺ ـ قريشا فعم وخص ، فقال : (يامعشر قريش : أنقذوا

---

(١) الآية ٦ من سورة يس .
(٢) الآية ٧ من سورة الشورى .
(٣) الآية ٥١ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٩٧ من سورة مريم .
(٥) الآية ١٩ من سورة الانعام .
(٦) الآية ١٧ من سورة هود .
(٧) الحديث رواه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب وجوب الايمان برسالة النبى ﷺ ج ٢ ص ١٨٦ بشرح النووى : عن أبى هريرة ، ولفظه : « والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى احد من هذه الأمة : يهودى ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى ارسلت به إلا كان من أصحاب النار .
(٨) الآية ١ من سورة المسد .
وانظر الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عبدالله بن عباس رضى الله عنهما) ج ١ ص ٢٨١
(٩) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عائشة ـ رضى الله عنها ـ) ج ٦ ص ١٨٧

أنفسكم من النار ، يامعشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يامعشر بنى عبد المطلب : أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى ـ والله ـ لا أملك لكم من الله شيئا ، إلا أن لكم رحما سأبلى ببلالها ﴾(١)

قال الامام أحمد بسنده عن زهير بن عمرو قال : لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد رسول الله : رضمة من جبل على أعلاها حجر ، فجعل ينادى : (يابنى عبد المناف إنما أنا نذير ، إنما مثلى ومثلكم كرجل رأى العدو فذهب يربأ أهله رجاء أن يسبقوه ، فجعل ينادى ويهتف : ياصباحاه)(٢)

قال الامام أحمد بسنده عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ جمع النبى ﷺ من أهل بيته ، فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا ، قال : قال لهم : (من يضمن عنى دينى ومواعيدى ويكون معى فى الجنة ويكون خليفتى فى أهلى ؟) فقال رجل ـ لم يسمه شريك ـ يارسول الله أنت كنت بحرى من يقوم بهذا ، قال : ثم قال الآخر ـ ثلاثا ـ قال : فعرض ذلك على أهل بيته فقال على : أنا)(٣)

قال الامام أحمد بسنده عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : جمع رسول الله : أودعا رسول الله : بنى عبد المطلب وهم رهط وكلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مدا من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقى الطعام كما هو كأنه لم يمس ، ثم دعا بعس فشربوا حتى رووا وبقى الشراب كأنه لم يمس أو لم يشرب ، وقال : (يابنى عبد المطلب : انى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة ، فقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأيكم يبايعنى على ان يكون أخى وصاحبى ؟) قال : فلم يقم إليه أحد ، قال : فقمت إليه وكنت أصغر القوم قال : فقال : (اجلس) ثم قال ـ ثلاث مرات ـ كل ذلك أقوم إليه فيقول لى : (اجلس) حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى)(٤)

(طريق أخرى أغرب وأبسط من هذا السياق بزيادات أخرى) :

روى الحافظ البيهقى بسنده عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) قال رسول الله ﷺ : (عرفت أنى إن بادرت بها قومى رأيت منهم ما أكره ، فصمت ، فجاءنى جبريل ـ عليه السلام ـ فقال : يامحمد إنك إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك) .

قال على ـ رضى الله عنه ـ فدعانى فقال : (ياعلى إن الله ـ تعالى ـ قد أمرنى انذر عشيرتك الأقربين ، فعرفت انى إن بادرتهم بذلك رأيت منهم ما اكره ، فصمت عن ذلك ، ثم جاءنى جبريل

---

(١) اورد الامام احمد هذا الحديث فى مسنده (مسند أبى هريرة) ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) انظر مسند احمد (قبيصة بن مخارق ـ رضى الله عنه) ج ٥ ص ٦٠ من رواية قبيصة بن مخارق ، وزهير بن عمرو : قالا : لما نزلت : وأنذر عشيرتك الأقربين .. الحديث

(٣) انظر كنز العمال ج ١٣ ص ١٢٨ ، ١٢٩ رقم ٣٦٤٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن على من رواية الامام احمد . وانظر مسند الامام احمد (مسند على بن ابى طالب ـ رضى الله عنه) ح ١ ص ١١١

(٤) انظر مسند الامام احمد (مسند على بن ابى طالب ـ رضى الله عنه) ح ١ ص ١٥٩

فقال : يامحمد إن لم تفعل ما أمرت به عذبك ربك)[١] فاصنع لنا ياعلى شاة على صاع من طعام ، وأعد لنا عس لبن ، ثم اجمع لى بنى عبد المطلب) ففعلت ، فاجتمعوا اليه وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أو ينقصون رجلا فيهم أعمامه ابو طالب وحمزة والعباس وابو لهب الكافر الخبيث ، فقدمت إليهم تلك الجفنة فاخذ منها رسول الله ﷺ جذبة فشقها بأسنانه ثم رمى بها فى نواحيها وقال : (كلوا بسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما يرى إلا آثار أصابعهم . والله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله - ﷺ - (اسقهم ياعلى) فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ ان يكلمهم بدره ابو لهب إلى الكلام فقال : لشدَّ ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله ﷺ فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ (ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم . . ففعلت ، ثم جمعتهم له ، فصنع رسول الله ﷺ كما صنع بالأمس فأكلوا حتى نهلوا عنه ، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ، ثم قال رسول الله ﷺ : (اسقهم ياعلى) فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا ، وايم الله ان كان الرجل منهم ليشرب مثله ، فلما أراد رسول الله ﷺ

أن يكلمهم بدره أبو لهب بالكلام فقال : لشد ما سحركم صاحبكم . فتفرقوا ولم يكلمهم رسول الله : فلما كان الغد قال رسول الله : : - (ياعلى عد لنا بمثل الذى كنت صنعت لنا بالأمس من الطعام والشراب فإن هذا الرجل قد بدرنى إلى ما سمعت قبل أن أكلم القوم) ففعلت ، ثم جمعتهم له فصنع رسول الله : كما صنع بالأمس فاكلوا حتى نهلوا ، ثم سقيتهم من ذلك العقب حتى نهلوا عنه ، وايم الله إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها ويشرب مثلها ، ثم قال رسول الله : : (يابنى عبد المطلب : إنى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إنى قد جئتكم بخير الدنيا والأخرة)

وقد رواه ابن جرير بسنده عن على بن أبى طالب فذكر مثله وزاد بعد قوله : (إنى جئتكم بخير الدنيا والآخرة) : ﴿ وقد أمرنى الله أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أن يكون أخى وكذا وكذا ؟) قال : فأحجم القوم عنها جميعا ، وقلت وإنى لأحدثهم سنا ، وأدمعهم عينا ، وأعظمهم بطنا ، وأحمشهم ساقا : أنا يانبى الله أكون وزيرك عليه ، فأخذ برقبتى ثم قال : (إن هذا أخى وكذا وكذا فاسمعوا له وأطيعوا) ثم قام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع . تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن القاسم أبى مريم ، وهو متروك كذاب شيعى اتهمه على بن المدينى وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة رحمهم الله .

طريق أخرى : قال ابن أبى حاتم :

عن على رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال لى رسول الله ﷺ : (اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام وإناء لبنا) قال : ففعلت ، ثم قال لى : (ادع بنى هاشم)

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى (كتاب السير) باب مبتدأ الفرض على النبى ﷺ . . . الخ ج ٩ ص ٧ فقد ذكر الحديث الى قوله : « عذبك ربك » ثم قال البيهقى : ثم ذكر قصة فى جمعهم وانذاره إياهم .
وانظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٧٩ فى تفسير سورة الشعراء ، فقد ذكر الحديث وقصته .

قال فدعوتهم إنهم يومئذ اربعون غير رجل أو أربعون ورجل ، قال : وفيهم عشرة كلهم يأكل الجذعة بادامها قال : فلما اتوا بالقصعة أخذ رسول الله ﷺ من ذروتها ثم قال : (كلوا) فأكلوا حتى شبعوا ، وهى على هيئتها لم يزدردوا منها إلا اليسير ، قال : ثم أتيتهم بالأناء فشربوا حتى رووا ، قال : وفضل فضل . فلما فرغوا أراد رسول الله ﷺ أن يتكلم فبدروه الكلام ، فقالوا : ما رأينا كاليوم فى السحر . فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : (اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام) فصنعت ، قال : فدعاهم فلما أكلوا وشربوا قال : فبدروه ، فقالوا مثل مقالتهم الأولى ، فسكت رسول الله ﷺ ثم قال : (اصنع لى رجل شاة بصاع من طعام) فصنعت ، قال : فجمعتهم ، فلما أكلوا وشربوا بدرهم رسول الله ﷺ فقال : (أيكم يقضى عنى دينى ويكون خليفتى فى أهلى ؟) قال : فسكتوا وسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله ، قال : وسكت انا لسن العباس ، ثم قال مرة اخرى فسكت العباس ، فلما رأيت ذلك قلت : أنا يارسول الله ، قال : وإنى يومئذ لأسوأهم هيئة ، وإنى لأعمش العينين ضخم البطن حمش الساقين .

فهذه طرق متعددة لهذا الحديث عن على رضى الله عنه .

ومعنى سؤاله ﷺ لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه ويخلفوه فى أهله : يعنى ان قتل فى سبيل الله . كأنه خشى إذا قام بأعباء الانذار أن يقتل ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾(1) فعند ذلك أمن ، وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية : ﴿ والله يعصمك من الناس) ولم يكن أحد فى بنى هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول الله ﷺ من على رضى الله عنه ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول الله ﷺ ثم كان بعد هذا ـ والله أعلم ـ :

دعاؤه الناس جهرة على الصفا وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته لينبه بالأدنى على الأعلى ، أى : إنما أنا نذير والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر عن عبد الواحد الدمشقى قال : رأيت أبا الدرداء ـ رضى الله عنه ـ يحدث الناس ويفتيهم وولده إلى جنبه ، وأهل بيته جلوس فى جانب المسجد يتحدثون ، فقيل له : ما بال الناس يرغبون فيما عندك من العلم وأهل بيتك جلوس لاهين ؟ فقال : لأنى سمعت رسول الله : يقول : (أزهد الناس فى الدنيا الأنبياء وأشدهم عليهم الأقربون)(2)

وذلك فيما أنزل الله عز وجل قال تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾

قوله ـ تعالى ـ ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أى : فى جميع أمورك فإنه مؤيدك وحافظك وناصرك ومظفرك ومعلى كلمتك .

---

(1) الآية ٦٧ من سورة المائدة .

(2) انظر صحيح البخارى طبعة الشعب (كتاب التوحيد) باب قراءة الفاجر والمنافق ج ص ١٩٨ فقد روى هذا الحديث عن عائشة رضى الله عنها

وقوله - تعالى - ﴿ الذى يراك حين تقوم ﴾ أى : هو معتن بك كما قال - تعالى - (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[1] قال ابن عباس : (الذى يراك حين تقوم) وقال الحسن : (الذى يراك حين تقوم) يعنى الى الصلاة وقال عكرمة : يرى قيامه وركوعه وسجوده إذا صليت وحدك

وقال الضحاك : (الذى يراك حين تقوم) أى : من فراشك أو مجلسك وقال قتادة : (الذى يراك) قائما وجالسا وعلى حالاتك .

وقوله - تعالى - (وتقلبك فى الساجدين) قال قتادة : (الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين) قال : فى الصلاة يراك وحدك ، ويراك فى الجمع وهذا قول عكرمة وعطاء الخراسانى والحسن البصرى .

وقال مجاهد : كان رسول الله ﷺ يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، ويشهد لهذا ما صح فى الحديث : (سووا صفوفكم فإنى أراكم من وراء ظهرى)[2]

وروى البزار وابن ابى حاتم من طريقين عن ابن عباس انه قال فى هذه الآية : نعنى تقلبه من صلب نبى إلى صلب نبى حتى أخرجه نبيا وقوله - تعالى - : ﴿ إنه هو السميع العليم) أى السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم ، كما قال - تعالى - : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه ﴾[3]

قوله - تعالى - ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون)

يقول - تعالى - مخاطبا لمن زعم من المشركين ان ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق وأنه شىء افتعله من تلقاء نفسه ، أو أنه أتاه به رئى من الجان ، فنزه الله - سبحانه وتعالى - جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه نزل به ملك كريم أمين عظيم وانه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة فى مثل هذا القرآن العظيم .

وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة ، ولهذا قال الله - تعالى - ﴿ هل أنبئكم ﴾ أى : أخبركم ﴿ على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم ﴾ أى : كذوب فى قوله ، وهو الأفاك ﴿أثيم ﴾ وهو الفاجر فى أفعاله ، فهذا هو الذى تنزل عليه الشياطين من الكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة ، فإن الشياطين أيضا كذبة فسقة ﴿ يلقون السمع ﴾ أى : يسترقون السمع من السماء فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من

(١) انظر صحيح البخاري ط / الشعب كتاب التفسير - تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد هذا الحديث عن أبى هريرة . وانظر ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق) باب صفة إبليس وجنوده ج ٤ ص ١٥٢ فقد رواه عن عائشة - رضى الله عنها - وانظر تفسير بن كثير ج ٦ ص ١٨٣ .

(٣) من الآية ٦١ من سورة يونس

الانس فيحدثون بها ، فيصدقهم الناس فى كل ما قالوه بسبب صدقهم فى تلك الكلمة التى سمعت من السماء ، كما صح بذلك الحديث كما رواه البخارى عن عروة بن الزبير يقول : قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان فقال : ﴿ إنهم ليسوا بشىء ﴾ قالوا : يارسول الله فإنهم يحدثون بالشىء يكون حقا . فقال النبى ﷺ : (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة)[1]

وروى البخارى أيضا عن أبى هريرة قال : إن النبى ـ ﷺ ـ قال : (إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله ، كأنها سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض ـ وصفه سفيان بيده فحرفها وبدد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء)[2] تفرد به البخارى .

وروى مسلم من حديث الزهرى عن على بن الحسين عن ابن عباس عن رجال من الانصار قريبا من هذا .

وقال البخارى بسنده عن عائشة عن النبى ﷺ انه قال : فى الأرض ، إن الملائكة تحدث فى العنان والعنان (الغمام) بالأمر فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة فيزيدون معها مائة كذبة ﴾[3] .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾[3] قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : يعنى الكفار يتبعهم ضلال الانس والجن .

وكذا قال مجاهد ـ رحمه الله ـ

وقال عكرمة : كان الشاعران يتهاجيان فننتصر لهذا فئام من الناس ولهذا فئام من الناس ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ وقال الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقال النبى ﷺ (خذوا الشيطان ـ أو امسكوا الشيطان ـ لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا ﴾ [4]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : فى

---

(١) انظر صيح البخارى طبعة الشعب (كتاب التوحيد) باب قراءة الفاجر والمنافق ج ٩ ص ١٩٨ فقد روى هذا الحديث عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ

(٢) انظر صحيح البخارى ط / الشعب كتاب التفسير ـ تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد هذا الحديث عن أبى هريرة . وانظر ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣

(٣) انظر صحيح البخارى (كتاب بدء الخلق) باب صفة إبليس وجنوده ج ٤ ص ١٥٢ فقد رواه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٣

الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ) ج ٣ ص ٨ و ص ٤١ وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٤ .

كل لغو يخوضون . وقال الضحاك عن ابن عباس : فى كل فن من الكلام . وكذا قال مجاهد وغيره . وقال الحسن البصرى : قد ـ والله ـ رأينا أوديتهم التى يخوضون فيها ، مرة فى شتيمة فلان ، ومرة فى مديحة فلان .

وقال قتادة : الشاعر يمدح قوما بباطل ، ويذم قوما بباطل . قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وأنهم يقولون مالا يفعلون ﴾ قال العوفى عن ابن عباس : كان رجلان على عهد رسول الله : احدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين ، وأنهما تهاجيا فكان مع كل واحد منهما غواة من قومه ، وهم السفهاء ، فقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : أكثر قولهم يكذبون فيه وهذا الذى قاله ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ هو الواقع فى نفس الأمر ، فإن الشعراء يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم فيتكثرون بما ليس لهم ، ولهذا اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ فيما إذا اعترف الشاعر فى شعره بما يوجب حدا هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لانهم يقولون ما لا يفعلون ؟ على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد فى (الطبقات) والزبير بن بكار فى كتاب (الفكاهة) أن أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضى الله عنه استعمل النعمان بن عدى فضلة على ميسان من أرض البصرة وكان يقول الشعر ، فقال :

الاهل أتى الحسناء ان خليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم
إذا ش ... ورقاصة تحنو على كل مبسم
ت غنتنى دهاقين قرية ... ولا تسقنى بالأصغر المتثلم
فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ... تنادمنا بالجوسق المتهدم
لعل أمير المؤمنين يسوؤه

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

ـ رضى الله عنه ـ قال : أى ـ والله ـ إنه ليسوؤنى ذلك ، ومن لقيه فليخبره أنى قد عزلته . وكتب إليه عمر : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير) أما بعد : فقد بلغنى قولك :

لعل أمير المؤمنين يسوؤه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله انه ليسوؤنى ، وقد عزلتك ، فلما قدم على عمر بكته بهذا الشعر ، فقال : والله ياأمير المؤمنين ما شربتها قط ، وما ذاك الشعر إلا شىء طفح على لسانى . فقال عمر : أظن ذلك ، ولكن ـ والله ـ لا تعمل لى عملا ابدا وقد قلت ما قلت . فلم يذكر انه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره ؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون ، ولكنه ذمه عمر ـ رضى الله عنه ـ ولامه على ذلك وعزله به ، ولهذا جاء فى الحديث : (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من ان يمتلىء شعرا) والمراد من هذا أن الرسول ـ ﷺ ـ الذى أنزل عليه هذا القرآن ليس بكاهن ولا بشاعر ؛ لان حاله مناف لحالهم من وجوه

ظاهرة ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ان هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾[١] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ إنه لقول رسول كريم . وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾[٢]

وهكذا قال ههنا : ﴿ إنه لتنزيل رب العالمين ـ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾ إلى أن قال : ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ إلى أن قال : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾

وقوله : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . قال محمد بن إسحق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبى الحسن سالم البراد بن عبد الله ـ مولى تميم الدارى . قال : لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهم يبكون قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبى ﷺ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ ، ﴿ وذكر الله كثيرا ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ ، ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ رواه ابن ابى حاتم وابن جرير .

وقد روى ابن أبى حاتم أيضا عن أبى سعيد الأشج ، عن أبى أسامة ، عن الوليد بن أبى كثير ، عن يزيد بن عبد الله ، عن أبى الحسن ـ مولى بنى نوفل ـ أن حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة أتيا رسول الله ﷺ حين أنزلت هذه الآية : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ يبكيان ، فقال رسول الله ﷺ وهو يقرؤها عليهما : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ حتى بلغ : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال : ﴿ أنتم ﴾ وقال أيضا : عن هشام بن عروة ، عن عروة قال : لما نزلت : ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ إلى قوله : ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ قال عبد الله بن رواحة : يارسول الله : قد علم الله أنى منهم . فأنزل الله ـ تعالى ـ ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ وهكذا قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة وزيد بن اسلم وغير واحد : إن هذا استثناء مما تقدم ، ولا شك أنه استثناء ، ولكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات شعراء الانصار؟ وفى ذلك نظر ، ولم يتقدم إلا مرسلات لا يعتمد عليها . والله اعلم .

ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الانصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية ، بذم الاسلام

وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحا وذكر الله كثيرا فى مقابلة ما تقدم من الكلام السىء ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وامتدح الاسلام وأهله فى مقابلة ما كان يذمه .

كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم :

---

(١) الآية ٦٩ من سورة يس .
(٢) الآيات : ٤٠ ـ ٤٣ من سورة الحاقة .

يارسول المليك إن لسانى راتق ما فتقت إذ أنابور
إذا أجارى الشيطان فى سنن الغى ومن مال ميله مثبور

وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا ، فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ وكان يمدح رسول الله ﷺ بعد ما كان يهجوه ، ويتولاه بعد ما كان قد عاداه .

وهكذا روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ان أبا سفيان ضمر بن حرب لما أسلم قال : يارسول الله : ثلاث اعطينهن قال : (نعم) قال : معاوية تجعله كاتبا بين يديك ، قال : (نعم) قال : وتؤمرنى حتى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال : (نعم) وذكر الثالثة ، وهكذا قال ـ تعالى ـ ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا ﴾

قيل معناه : ذكروا الله كثيرا فى كلامهم ، وقيل : فى شعرهم ، وكلاهما صحيح مكفر لما سبق .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال ابن عباس : يردون على الكفار الذين كانوا يهجون به المؤمنين . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد . وهذا لما ثبت فى الصحيح ان رسول الله ﷺ قال لحسان : (اهجهم ـ أو قال : هاجهم ـ وجبريل معك)

وقال الامام أحمد بن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال للنبى ﷺ ان الله ـ عز وجل ـ قد أنزل فى الشعراء ما أنزل . فقال رسول الله ﷺ : ﴿ إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ، والذى نفسى بيده لكأن ما ترمونهم به نضح النبل ﴾[١]

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾

كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ﴾[٢]

وفى الصحيح ان رسول الله ﷺ قال : ﴿ إياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ﴾[٣] قال قتادة بن دعامة فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ يعنى من الشعراء وغيرهم . وقال ابو داود الطيالسى : حدثنا إياس بن أبى تميمة قال : حضرت الحسن ومر عليه بجنازة نصرانى فقال : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ وقال عبد الله ابن أبى رباح عن صفوان ابن محرز أنه كان إذا قرأ هذه الآية بكى حتى أقول : قد اندق قضيب زوره : ﴿ وسيعلم الذين ظلموا

(١) انظر صحيح مسلم .. كتاب الفضائل .. باب من فضائل ابى سفيان بن حرب فقد ذكر الحديث من رواية ابن عباس ج ٤ ص ١٩٤٥ رقم ١٦٨ / ٢٥٠١ وذكر الثالثة التى لم تذكر فى روايتنا وقال : عندى احسن العرب وأجمله : أم حبيبة بنت ابى سفيان أزوجكها ..

(٢) الآية ٥٢ من سورة غافر .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٦ رقم ٥٦ / ٢٥٧٨ من رواية جابر ابن عبد الله ، بلفظ : « اتقو الظلم .. الحديث » ورقم ٥٧ / ٢٥٧٩ من رواية ابن عمر ، بلفظ : « إن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

وانظر مسند الامام احمد (مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ـ) ج ٢ ص ١٠٦ فقد اورده بلفظ : « يأيها الناس اياكم والظلم .. الحديث » وانظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ١٨٧ .

أى منقلب ينقلبون ﴾

وقال ابن وهب : أخبرنى ابن سريج الاسكندرانى عن بعض المشيخة انهم كانوا بأرض الروم فبينما هم ليلة على نار يشتوون عليها أو يصطلون إذا بركبان قد اقبلوا ، فقاموا إليهم فإذا فضالة بن عبيد فيهم فأنزلوه فجلس معهم ـ قال ـ وصاحب لنا قائم يصلى حتى مر بهذه الآية : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾ قال فضالة بن عبيد : هؤلاء الذين يخربون البيت . وقيل : المراد بهم أهل مكة . وقيل : الذين ظلموا من المشركين . والصحيح أن هذه الآية عامة فى كل ظالم ـ كما قال ابن أبى حاتم : ـ ذكر عن يحيى بن زكريا بن يحيى الواسطى حدثنى الهيثم بن محفوظ ابو سعد النهدى حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن المحبر ، حدثنا هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كتب ابى فى وصية سطرين : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما وصى به أبو بكر بن أبى قحافة عند خروجه من الدنيا حين يؤمن الكافر وينتهى الفاجر ويصدق الكاذب : إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن يعدل فذاك ظنى به ورجائى فيه ، وإن يجر ويبدل فلا أعلم الغيب ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾

سورة النمل

مقدمة

● قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها خمس وتسعون فى عد الحجاز ، وأربع فى عد الشام ، والبصرة ، وثلاث فى عد الكوفة ، كلماتها ألف ومائة وتسع وأربعون . وحروفها أربعة آلاف وسبعمائة وتسع وتسعون . والآيات المختلف فيها ﴿ **أولوا بأس شديد** ﴾ ، ﴿ **من قوارير** ﴾ مجموع فواصل آياتها (من ؟) وسميت سورة النمل ، لاشتمالها على مناظرة النمل سليمان فى قوله : ﴿ **قالت نملة يأيها النمل ادخلوا** ﴾

* مقصود السورة ومعظم ما تضمنته : بيان شرف القرآن ، وما منه نصيب أهل الايمان ، والشكاية من أهل الشرك والعصيان ، وإشارة إلى ذكر الوادى المقدس ، وموسى بن عمران ، وذكر خبر داود وسليمان ، وفضل الله ـ تعالى ـ عليهما بتعليمهما منطق الطير وسائر الحيوان ، وقصة النمل ، وذكر الهدهد ، خبر بلقيس ، ورسالة الهدهد إليها من سليمان ، ومشاورتها أركان الدولة ، وبيان أثر الملوك إذا نزلوا فى مكان ، وإهداء بلقيس إلى سليمان ، وتهديده لها ، ودعوة آصف لاحضار تخت بلقيس فى أسرع زمان ، وتغيير حال العرش لتجربتها ، وإسلامها على يد سليمان ، وحديث صالح ومكر قومه فى حقه ، وطرف من حديث قوم لوط أولى الطغيان ، والبرهان فى الحدائق ، والأشجار ، والبحار والأنهار ، وإجابة الحق دعاء أهل التضرع ، والابتهال إلى الرحمن ، وهداية الله الخلق فى ظلمات أكبر ، والبحر ، واطلاع الحق ـ تعالى ـ على أسرار الغيب ، وتسلية الرسول ﷺ فى إعراض المنكرين عن قبول القرآن ، وقبول الايمان ، وخروج الدابة ، وظهور علامة القيامة ، والإخبار عن حال الجبال فى ذلك اليوم ، وبيان جزاء المجرمين ، واعراض الرسول عن المشركين ، وإقباله على القرآن الكريم ،

وأمر الله له بالحمد على إظهار الحجة ، أعنى القرآن فى قوله : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته ﴾

المتشابهات

قوله : ﴿ فلما جاءها نودى ﴾ ، وفى القصص وطه ﴿ فلما أتاها ﴾ .. قال فى هذه السورة : ﴿ سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس ﴾ فكرر ﴿ آتيكم ﴾ فاستثقل الجمع بينهما وبين ﴿ فلما أتاها ﴾ فعدل إلى قوله : ﴿ فلما جاءها ﴾ بعد أن كانا بمعنى واحد . وأما فى السورتين فلم يكن إلا ﴿ سآتيكم ﴾ ﴿ فلما آتاها ﴾ .

قوله : ﴿ وألق عصاك ﴾ وفى القصص : ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ ، لأن فى هذه السورة ﴿ نودى ان بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم . وألق عصاك ﴾ فحيل بينهما بهذه الجملة فاستغنى عن إعادة (أن) وفى القصص : ﴿ أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك ﴾ فلما يكن بينهما جملة أخرى عطف بها على الأول ، فحسن إدخال (أن)

قوله : ﴿ لا تخف ﴾ ، وفى القصص : ﴿ أقبل ولا تخف ﴾ خصت هذه السورة بقوله : ﴿ لا تخف ﴾ لأنه بنى على ذكر الخوف كلام يليق به ، وهو قوله : ﴿ إنى لا يخاف لدى المرسلون ﴾ ، وفى القصص اقتصر على قوله : ﴿ لا تخف ﴾ ولم يبن عليه كلام ، فزيد قبله ﴿ أقبل ﴾ ليكون فى مقابلة ﴿ مدبرا ﴾ أى : أقبل آمنا غير مدبر ، ولا تخف فخصت هذه السورة به .

قوله : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ وفى القصص : ﴿ اسلك يدك فى جيبك ﴾ خصت هذه السورة بـ ﴿ ادخل ﴾ لانه أبلغ من قوله : ﴿ اسلك يدك ﴾ لأن ﴿ اسلك ﴾ يأتى لازما ، ومتعديا ، و ﴿ ادخل ﴾ متعد لا غير ، وكان فى هذه السورة (فى تسع آيات) أى : مع تسع آيات مرسلا إلى فرعون وخصت القصص بقوله : ﴿ اسلك ﴾ موافقة لقوله : ﴿ اضمم ﴾ ثم قال : ﴿ فذانك برهانان من ربك ﴾ [وكان] دون الأول فخص بالأدون من اللفظين .

قوله : ﴿ إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ ، وفى القصص : ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ لأن الملأ أشراف القوم ، وكانوا فى هذه السورة موصوفين بما وصفهم الله به من قوله : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها ﴾ .. الآية ، فلم يسمهم ملأ بل سماهم قوما .

وفى القصص لم يكونوا موصوفين بتلك الصفات ، فسماهم ملأ ، وعقبه : ﴿ وقال فرعون يأأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾ . وما يتعلق بقصة موسى سوى هذه الكلمات قد سبق ..

قوله : ﴿ وأنجينا الذين آمنوا ﴾ وفى حم ﴿ ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ و ﴿ نجينا ﴾ و ﴿ انجينا ﴾ بمعنى واحد . وخصت هذه السورة بـ ﴿ أنجينا ﴾ موافقة لما بعده وهو : ﴿ فأنجيناه وأهله ﴾ وبعده : ﴿ وأمطرنا ﴾ ، ﴿ وأنزلنا ﴾ كله على لفظ أفعل . وخص حم بـ ﴿ نجينا ﴾ موافقة لما قبله : ﴿ وزينا ﴾ وبعده ﴿ وقيضنا لهم ﴾ وكله على لفظ فعل

قوله : ﴿ وأنزل لكم ﴾ سبق

قوله : ﴿ أإله مع الله ﴾ فى خمس آيات ، وختم الأولى بقوله : ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ ثم قال : ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ثم قال : ﴿ قليلا ما تذكرون ﴾ ثم قال : ﴿ تعالى الله عما يشركون ﴾

ثم ﴿ هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ أى : عدلوا ، وأول الذنوب العدول عن الحق ، ثم لم يعلموا ، ولو علموا لما عدلوا ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال فأشركوا من غير حجة وبرهان . قل لهم يامحمد : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

قوله : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السماوات ﴾

وفى الزمر ﴿ فصعق ﴾ : خصت هذه السورة بقوله : ﴿ فزع ﴾ موافقة لقوله : ﴿ وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾ ، وخصت الزمر بقوله : ﴿ فصعق ﴾ ، موافقة لقوله : ﴿ إنهم ميتون ﴾ لان معناه : مات .

مناسبتها ما قبلها من وجوه !

(١) إنها كالتتمة لها ، إذ جاء فيها زيادة على ما تقدم من قصص الأنبياء قصص داود وسليمان .

(٢) إن فيها تفصيلا وبسطا لبعض القصص السالفة كقصص لوط وموسى ـ عليهما السلام ـ .

(٣) إن كليتهما قد اشتملتا على نعت القرآن وأنه منزل من عند الله .

(٤) تسلية رسوله ﷺ على ما يلقاه من أذى قومه وعنتهم ، وإصرارهم على الكفر به والاعراض عنه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾

تفسير المفردات

﴿ طس ﴾ : بعض حروف الهجاء ، وفيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم الذى أنزله الله بتلك الحروف العربية .

﴿ يعمهون ﴾ : يترددون متحيرين
﴿ من لدن ﴾ : أى : من عند .
﴿ حكيم ﴾ : منزه عن العبث

التفسير

قوله ـ تعالى ـ ﴿ تلك آيات القرآن وكتاب مبين ﴾ القرآن المجيد معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ، وهو كتاب فصلت آياته من لدن حكيم خبير ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ليكون للعالمين نذيرا وبشيرا ، والقرآن دستور دولة ، وقانون حكم ، وإصلاح مجتمع . . . اخرج به محمد رسول ـ الهدى ـ الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى البر والتقوى ، اخرجهم من الضلال إلى الهدى ، ومن البغى إلى الرشد ، ومن الجهل إلى المعرفة . . .

﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(١)

قال العلامة (فينى) : إن القرآن ليس بكتاب دينى فقط ، بل كتاب علم وآداب ، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الانسان إلى وظائفه اليومية ، والأحكام السياسية التى إن لم توجد فى القرآن توجد فى السنة ، والتى لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالسنة توجد فى الفقه الواسع الذى هو علم الحقوق .

لم يستطع الذين صاولوا الدعوة الاسلامية أول عهد الاسلام ان يجحدوا إعجازه أو ينكروا بلاغته مع استمرار العناد فى نفوسهم ، واستفحال المكابرة فى صدورهم وذلك لان القرآن المجيد فى طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حكم الناس إلى عقولهم ، وفتح عيونهم إلى الكون ، وما فى الكون من سماء وأرض ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ، ونواميس وسنن ، وكان فى طريقة عرضه معجزا ، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها ، الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها ، على حين ان هذا الذى جاء بالقرآن رجل أمى ، نشأ فى أمة أمية لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها ، بل إن بعض تلك العلوم لم تنشأ إلا بعد عهد النبوة بقرون وأجيال ، فأنى يكون لرجل أمى كمحمد ﷺ ذلك السجل الجامع لتلك العلوم والمعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكى عليم ؟ .

قال الله تعالى ـ مقررا لهذا الاعجاز : **﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولاتخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾**(٢)

وقد توفر المسلمون على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته ، يستعينون على هذه الثقافة العليا

---

(١) الآية ٢ من سورة الجمعة
(٢) الأيتان ٤٨ ، ٤٩ من سورة العنكبوت

بمواهبهم الفطرية ، وملكاتهم السليمة من ناحية ، وبما يشرحه الرسول الكريم ويبينه لهم بأقواله وأعماله ،

كما قال الله ـ تعالى ـ ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾(١)

كان همهم الأول هو القرآن المجيد يحفظونه ويفهمونه ، ثم يعملون بتعاليمه بدقة ، ويهتدون بهديه . وبهذا وحده صفت أرواحهم ، وطهرت نفوسهم ، وعظمت آثارهم ، لأن الروح الانسانى هو أقوى شيء فى هذا الوجود ، فمتى صفا وتهذب ، وحسن توجيهه وتأدب أتى بالعجب العجاب .

وقد أتت الأمة العربية بالعجب فى الهداية والارشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر العزيز ، حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والعدل فى ذلك العهد : دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب ، ثم دانت لهم الدنيا ففتحوا بعض دول أوروبا ، وأقاموا فيها دولة عربية ، كانت النواة الناجحة فى نهضة أوروبا المعاصرة . .

تلك هى دولة الأندلس .

قال السير ريتشارد وود فى تقرير رسمى طبع ونشر عام ١٨٧٨ .

(إن القرآن يتضمن أحكام الدين وفى نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية) .

وإن كثيرا من مؤلفى الافرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معارج الحضارة مادموا مقيدين بنصوص القرآن التى يقولون : إنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون ، وهذا وهم نشأ من الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفى برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ، ودرسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل ارسطو وإقليدس وأبقراط وبطليموس وغيرهم .

ةقال الفيلسوف الألمانى (جوته) : إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية .

إن القرآن فى الاسلام معجزة دعوته ودعامة شريعته ، وهو فى الانسانية دعوة خالدة إلى سبل السلام والخير .

وذكر الشيخ محمد الخضرى : (الكتاب هو القرآن ، وهو أجل من ان يعرف)

وقال محمد فريد وجدى : القرآن علم للكتاب الذى يقدسه المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ويتبركون به ، ويتبعون سننه وفرائضه ، ويعتقدون اعتقادا راسخا انه أنزل على النبى العربى محمد بن عبد الله وأنه آخر الكتب السماوية نزولا .

وقال الراغب الأصبهانى فى المفردات : القرآن فى الأصل مصدر ـ على وزن فعلان ـ بالضم ـ مثل : رجحان وكفران ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فأتبع قرآنه ﴾(٢)

قال إبن عباس : إذا جمعناه وأثبتناه فى صدرك فاعمل به .

وأورد السيوطى خمسة أقوال فى لفظ القرآن هى :

---

(١) الآية ٤٤ من سورة النحل

(٢) الأيتان ١٧ ، ١٨ من سورة القيامة .

أولا : ما ذهب إليه الشافعى أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزا ولا مشتقا ، بل وضع علما على الكلام المنزل على محمد ﷺ .

ثانيا : ما نقل عن الأشعرى وأقوام انه مشتق من : قرنت الشىء بالشىء : إذا ضممته إليه . ثم جعل علما على اللفظ المنزل ، وسمى بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

ثالثا : ذهب الفراء إلى انه مشتق من القرائن ، لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضا ، وجعل علما على اللفظ المنزل لذلك ، وهو على هذين غير مهموز أيضا ، كالذى قبلهما ونونه أصلية .

رابعا : قال الزجاج : هو وصف على وزن فعلان ـ مهموز ـ مشتق من (القرء) بمعنى الجمع ، ومنه : قرأت الماء فى الحوض : إذا جمعته .

وسمى الكلام المنزل على النبى المرسل به قرآنا ؛ لأنه جمع السور ، أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

خامسا : ما ذهب إليه الحيانى وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران ، سمى به المقروء ، من تسمية المفعول بالمصدر .

وينقل كتاب الاتقان عن الجاحظ أن الله سمى كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم . . سمى جملته قرآنا ، كما سمى العرب جملة كلامهم ديوانا ، وسمى بعضه سورة ، كقصيدة ، وسمى بعض السورة آية ، كالبيت ، وسمى آخر السورة فاصلة ، كقافية .

ويذكر الاتقان أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما : سماه كتابا ، ومبينا ، فى قوله ﴿ حم ، والكتاب المبين ﴾[1]

وقرآنا ، وكريما ، فى قوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾[2]

وكلاما : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾[3]

ونورا : ﴿ وأنزلنا إليكم نورا مبينا ﴾[4]

وهدى ، ورحمة : ﴿ هدى ورحمة للمؤمنين ﴾[5]

وفرقانا : ﴿ نزل الفرقان على عبده ﴾[6]

وشفاء : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ﴾[7]

وموعظة : ﴿ قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ﴾[8]

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الزخرف والدخان .
(٢) الآية ٧٧ من سورة الواقعة .
(٣) الآية ٦ من سورة التوبة
(٤) الآية ١٧٤ من سورة النساء .
(٥) الآية ٥٧ من سورة يونس
(٦) الآية ١ من سورة الفرقان
(٧) الآية ٨٢ من سورة الاسراء
(٨) الآية ٥٧ من سورة يونس .

وذكرا ، ومباركا : ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾[١]
وعليا : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى ﴾[٢]
وحكمة : ﴿ حكمة بالغة ﴾[٣]
وحكيما : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾[٤]
ومهيمنا : ﴿ مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ﴾[٥] .
وحبلا : ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾[٦]
وصراطا مستقيما : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما ﴾[٧]
وقيما : ﴿ قيما لينذر ﴾[٨]
وقولا ، وفصلا : ﴿ إنه لقول فصل ﴾[٩]
ونبأ عظيما : ﴿ عما يتساءلون . عن النبأ العظيم ﴾[١٠] .
وأحسن الحديث ومثانى ومتشابها : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى ﴾[١١]
وتنزيلا : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾[١٢]
وروحا : ﴿ أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾[١٣]
ووحيا : ﴿ إنما انذركم بالوحى ﴾[١٤] .
وعربيا : ﴿ قرآنا عربيا ﴾[١٥] .
وبصائر : ﴿ هذا بصائر ﴾[١٦] .
وبيانا : ﴿ هذا بيان للناس)[١٧] .
وعلما : ﴿ من بعد ما جاءك من العلم ﴾[١٨] .
وحقا : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾[١٩] .
وهاديا : ﴿ إن هذا القرآن يهدى ﴾[٢٠]
وعجبا : ﴿ قرآنا عجبا ﴾[٢١] .
وتذكرة : ﴿ وإنه لتذكرة ﴾[٢٢] .

---

(١) الآية ٥٠ من سورة الأنبياء .
(٢) الآية ٤ من سورة الزخرف
(٣) الآية ٥ من سورة القمر .
(٤) الآية ١ من سورة يونس . .
(٥) الآية ٤٨ من سورة المائدة .
(٦) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران .
(٧) الآية ١٥٣ من سورة الأنعام .
(٨) الآية ٢ من سورة الكهف .
(٩) الآية ١٣ من سورة الطارق .
(١٠) الآيتان ١ ، ٢ من سورة النبأ .
(١١) الآية ٢٣ من سورة الزمر .
(١٢) الآية ١٩٢ من سورة الشعراء .
(١٣) الآية ٥٢ من سورة الشورى .
(١٤) الاية ٤٥ من سورة الأنبياء
(١٥) الآيات ٢ من سورة يوسف ، ١١٣ من سورة طه ، ٢٨ من سورة الزمر ، ٣ من سورة فصلت ، ٧ من سورة الشورى ، ٣ من سورة الزخرف .
(١٦) الآية ٢٠ من سورة الجاثية .
(١٧) الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .
(١٨) الآيتان ١٤٥ من سورة البقرة ، ٦١ من سورة آل عمران .
(١٩) الآية ٦٢ من سورة آل عمران .
(٢٠) الآية ٩ من سورة الاسراء .
(٢١) الآية ١ من سورة الجن .
(٢٢) الآية ٤٨ من سورة الحاقة .

والعروة الوثقى : ﴿ استمسك بالعروة الوثقى ﴾[1] .
وصدقا : ﴿ والذى جاء بالصدق ﴾[2] .
وعدلا : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾[3] .
وأمرا : ﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾[4] .
ومناديا : سمعنا مناديا ينادى للايمان ﴾[5] .
وبشرى : ﴿ هدى وبشرى ﴾[6] .
ومجيدا : ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾[7] .
وزبورا : ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور ﴾[8] .
وبشيرا ونذيرا : ﴿ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا ﴾[9] .
وعزيزا : ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾[10] .
وبلاغا : ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾[11] .
وقصصا : ﴿ أحسن القصص ﴾[12] .
وسماه أربعة أسماء فى آيتين : ﴿ فى صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة)[13] .

وقد سمى القرآن ﴿ النور ﴾ لانه يدرك به غوامض الحلال والحرام ، ﴿ وأما الهدى ﴾ فلأن فيه الدلالة على الحق . وأما ﴿ الفرقان ﴾ فلأنه فرق بين الحق والباطل .

﴿ وأما الشفاء ﴾ فلأنه يشفى من الأمراض القلبية : كالكفر ، والجهل ، والغل ، والبدنية أيضا .

﴿ وأما الذكر ﴾ فلما فيه من المواعظ ، وأخبار الأمم الماضية ، والذكر أيضا : المشرف ، قال تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ أى شرف لانه بلغتهم .

﴿ وأما الحكمة ﴾ فلأنه نزل على القانون المتبر من وضع كل شىء فى محله ، أو لأنه مشتمل على الحكمة .

---

(١) الأيتان ٢٥٦ من سورة البقرة ، ٢٢ من سورة لقمان .
(٢) الآية ٣٣ من سورة الزمر .
(٣) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ٥ من سورة الطلاق .
(٥) الآية ١٩٣ من سورة آل عمران .
(٦) الآيات ٩٧ من سورة البقرة ، ١٠٢ من سورة النحل ، ٢ من سورة النمل .
(٧) الآية ٢١ من سورة البروج .
(٨) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء .
(٩) الآية ٣ ، وجزء من الآية ٤ من سورة فصلت .
(١٠) الآية ٤١ من سورة فصلت .
(١١) الآية ٥٢ من سورة ابراهيم .
(١٢) الآية ٣ من سورة يوسف .
(١٣) الأيتان ١٣ ، ١٤ من سورة عبس .

وأما ﴿ الحكيم ﴾ فلأنه أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعانى ، وأحكمت عن تطرق التبديل والتحريف والاختلاف والتباين .

وأما ﴿ المهيمن ﴾ فلأنه شاهد على جميع الكتب والأمم السالفة .

﴿ وأما الحبل ﴾ فلأنه من تمسك به وصل إلى الجنة أو الهدى ، والحبل : السبب .

﴿ وأما الصراط المستقيم ﴾ فلأنه طريق إلى الجنة قويم لاعوج فيه .

وأما ﴿ المثانى ﴾ فلأن فيه بيان قصص الأمم الماضية فهو ثان لما تقدمه .

وأما ﴿ المتشابه ﴾ فلأنه يشبه بعضه بعضا فى الحسن والصدق .

وأما ﴿ الروح ﴾ فلانه تحيا به القلوب والأنفس .

وأما ﴿ المجيد ﴾ فلشرفه .

وأما ﴿ العزيز ﴾ فلأنه يعز على من يروم معارضته وأما ﴿ البلاغ ﴾ فلأنه أبلغ منه الناس ما أمروا به ونهوا عنه ، ولأن فيه بلاغة وكفاية عن غيره .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أى : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾(١) وقال ـ تعالى ـ : ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾(٢) ولهذا قال ـ تعالى ـ ههنا ﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾أى : يكذبون بها ويستبعدون وقوعها ﴿ زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ أى : حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم فى غيهم ، فهم يتيهون فى ضلالهم ، فكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾(٣) .

﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة ﴿ وهم فى الآخرة هم الأخسرون ﴾ أى : ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل الحشر .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أى : ﴿ وإنك ﴾ يامحمد ﴿ لتلقى ﴾ أى : لتأخذ ﴿ القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أى : من عند حكيم عليم ، أى : حكيم فى أمره ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾(٤)

مع موسى كليم الله

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ

(١) الآية ٤٤ من سورة الزخرف .
(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت .
(٢) الآية ٩٧ من سورة مريم .
(٣) الآية ١١٠ من سورة الأنعام .
(٤) الآية ١١٥ من سورة الأنعام .

تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾
إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ
بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾
فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ
ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

تفسير المفردات

﴿ **آنست** ﴾ أى : أبصرت إبصارا حصل لى به أنس . ﴿ **بخبر** ﴾ أى : عن الطريق وحاله . ﴿ **بشهاب** ﴾ أى : بشعلة نار . ﴿ **قبس** ﴾ أى : قطعة من النار مقبوسة ومأخوذة من أصلها . ﴿ **تصطلون** ﴾ أى : قد تستدفئون بها . ﴿ **جان** ﴾ أى : حية صغيرة سريعة الحركة . ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ أى : التفت هاربا . ﴿ **ولم يعقب** ﴾ أى : لم يرجع على عقبه ، ولم يلتفت إلى ما وراءه ، من قولهم : عقب المقاتل : اذا كر بعد الفر . ﴿ **من غير سوء** ﴾ أى : من غير برص ولا نحوه من الآفات . **آيات** ﴾ أى : معجزات دالة على صدقك . ﴿ **مبصرة** ﴾ أى : بينة واضحة ﴿ **فجحدوا بها** ﴾ أى : كذبوا . ﴿ **واستيقنتها أنفسهم** ﴾ أى : علمت علما يقينيا انها من عند الله ﴿ **وعلوا** ﴾ أى : ترفعا واستكبارا .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن وصف ـ عز اسمه ـ القرآن بأنه هدى وبشرى للمؤمنين ، وأن من اعرض عنه كان من الخاسرين . . أردفه بذكر قصص النبيين تسلية لرسوله ﷺ وأنه ليس بالأوحد فى الأنبياء المكذبين ، فقد كذب موسى من قبلك على ما أتى به من باهر الآيات ، وعظيم المعجزات . ولم تغن الآيات والنذر ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس**

لعلكم تصطلون ﴾ أى : واذكر أيها الرسول لقومك حين قول موسى لأهله وقد سار بهم فضل الطريق فى ليل دامس وظلام حالك ، فرأى نارا تأجج وتضطرب ، إنى أبصرت نارا سآتيكم منها إما بخبر عن الطريق أو آتيكم بشعله ، من النار تستدفئون بها ، وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم واقتبس نورا جليلا .

وقد كان هذا حين مسيره من مدين إلى مصر ، ولم يكن معه سوى امرأته ، وكانا يسيران ليلا ، فاشتبه عليهما الطريق ، والبرد شديد ، وفى مثل هذه الحال يستبشر الناس بمشاهدة النار من بعد ، لما يرجى فيها من زوال الحيرة ، وأمن الطريق ، ومن الانتفاع بها للاصطلاء ومن ثم قال لها هذه المقالة .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ **فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين** ﴾ .

أى : فلما وصل إلى النار نودى بأن بورك من فى مكان النار ومن حول مكانها ، ومكانها هو البقعة المباركة المذكورة فى قوله ـ تعالى ـ من سورة القصص : ﴿ **نودى من شاطىء الواد الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة** ﴾(1) ﴿ **ومن حولها** ﴾ من فى ذلك الوادى وحواليه من أرض الشام الموسومة بالبركات ومهبط الخيرات ، لكونها مبعث الأنبياء وكفاتهم أحياء وأمواتا .

وقوله : ﴿ **سبحان الله** ﴾ : تنزيه لنفسه عما لا يليق به فى ذاته وحكمته ، وإيذان بأن مدبر ذلك الأمر هو رب العالمين .

أخرج عبد بن حميد ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم والبيهقى عن أبى موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال : « **إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجا به النور أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات (أنوار) وجهه كل شىء أدركه بصره . ثم قرأ أبو عبيده (أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين)** » .

وفى التوراة : (جاء الله من سيناء ، وأشرف من ساعير ، واستعلى من جبل فاران) فمجيئه من سيناء بعثه موسى منها ، وإشراقه من ساعير بعثه المسيح منها ، واستعلاؤه من فاران بعثه محمدا ﷺ **(وفاران : مكة)** .

ولما تشوقت النفس إلى تحقيق ما يراد بالتصريح قال ـ تعالى ـ : تمهيدا لما اراد اظهاره على يد موسى من المعجزات الباهرة : ﴿ **ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم** ﴾ أى : ياموسى إن الذى يخاطبك ويناجيك هو ربك الذى عز كل شىء وقهره ، وهو الحكيم فى أقواله وأفعاله .

ثم أرى موسى آية تدل على قدرته ، ليعلم ذلك علم شهود فقال : ﴿ **وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب** ﴾ أى : وألق عصاك ، فلما ألقاها انقلبت حية سريعة الحركة ، فلما رأها كذلك ﴿ **ولى مدبرا** ﴾ ولى هاربا خوفا منها ولم يلتفت وراءه من شدة فرقه .

وحينئذ تاقت النفس إلى معرفة ما قيل إذ ذاك فقال : ﴿ **ياموسى لا تخف إنى لا يخاف لدى**

---

(١) اية ٣٠ من سورة القصص .

المرسلون ﴾ أى : لا تخف مما ترى ، فإنى لا يخاف عندى رسلى وانبيائى الذين أختصهم واصطفيهم بالنبوة .

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فإنى غفور رحيم ﴾ أى : ولكن من ظلم من سائر العباد ، فإنه يخاف ، إلا إذا تاب ، فبدل بتوبته حسنا بعد سوء ، فإنى أغفر له وأمحو ذنوبه وجميع آثارها ، كما فعل السحرة الذين آمنوا بموسى ، وفى هذا بشارة عظيمة لسائر البشر : فإن من عمل ذنبا ثم أقلع عنه وتاب وأناب ، فإن الله يتوب عليه ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[٢] ثم أراه ـ جلت قدرته ـ آية أخرى ذكرها بقوله : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أى : وأدخل يدك فى جيبك « مدخل الرأس منه المفتوح إلى الصدر » قميصك تخرج بيضاء بياضا عظيما ، ولها شعاع كشعاع الشمس بلا آفة بها من برص أو غيره .

والآية الأولى كانت بتغيير ما فى يده وقلبها من جماد إلى حيوان ، والثانية بتغيير يده نفسها وقلب أوصافها إلى أوصاف أخرى نورانية .

فهاتان آيتان من خوارق العادات ، وفى ذلك كله تأييد لك .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فى تسع آيات ﴾ وهى : اليد ، والعصا ، والطمس على الأموال ، كما جاء فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾[١]

ورابعة الآيات الأخذ بالسنين العجاف والقحط ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾[٢] والآيات الباقية جاءت فى قوله ـ جل شأنه ـ : ﴿ فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾[٣] .

ولقد ذكر الله ـ عز وجل ـ فى كتابه العزيز أن القوم راوغوا وظنوا أنهم يخادعون الله ، وجهلوا أنهم إنما يخادعون أنفسهم وما يشعرون قال ـ تعالى ـ : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا ياموسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[٤] وهذا جزاء كل أمة تكذب بآيات ربها ، وتعصى رسله ، وتضرب بأحكامه عرض الحائط ، وتغفل عن آياته ، إذا أراد الله بقوم قحطا نادى مناد من قبل الله : « ياأمعاء اسمعى ، يابركة

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ رقم ٢٩٣ / ١٧٩ من رواية أبى موسى الاشعرى ، وانظر الحديث ٢٩٥ عن أبى موسى . وانظر سنن ابن ماجه « المقدمة » ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ رقمى ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٢) الآية : ٨٢ من سورة طه .

(١) الآية : ٨٨ من سورة يونس .

(٢) آية : ١٣٠ من سورة الأعراف .

(٣) آية : ١٣٣ من سورة الأعراف .

(٤) آيات : ١٣٤ ـ ١٣٦ من سورة الأعراف .

ارتفعى ، ياعين لا تشبعى » ان ظلم الشعوب جرم كبير ، لا يرضاه الله ، بل إنه - تعالى - لا يعجل كعجلة أحدنا ، إنه ليمكن للظالم حتى إذا اخذه لم يفلته : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[١] .

لقد أيد الله موسى بتسع آيات بينات ، وأرسله إلى قوم فاسقين خارجين عن حدود الله قال كبيرهم : ﴿ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[٢] وقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾[٣] فماذا كان موقف القوم من تلك الآيات المبصرة الواضحة الدلالة البينة البرهان ؟

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ﴾ فتأمل معى كيف حكموا على الحقائق بأنها سحر ، وعلى المعجزات بأنها تخيلات فى الحس وأوهام فى العقل ؟ وشتان شتان بين المعجزة والسحر ، فالمعجزة امر خارق للعادة يظهره الله على أيدى الأنبياء تصديقا لهم فى دعواهم ، مع عجز جميع الخلق عن الاتيان بمثل هذه الآيات ، فأى سحر فى انقلاب العصاحية ؟ ! وأى تخييلات فى انشقاق القمر بعد ما رأوه بأعينهم ؟ ! إن أهل الباطل يحاولون قلب الحقائق والحكم على الأشياء بغير واقع الأمر ، قال - تعالى - : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ﴾[٤] مع إنك لو اطلعت على ما فى قلوبهم علمت أنهم فى قرارة انفسهم يوقنون بصدق الآيات ، ولكنهم يكذبونها ظلما وعلوا واستكبارا وإباءً حتى لا يظهروا امام قومهم بأنهم قد خضعوا للحق ، قال - تعالى - : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ فلابد من وقوع العاقبة ، ولابد من الجزاء العادل ، قال - تعالى - : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ وقد بين الله تلك العاقبة الوخيمة فى قوله : ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾[٥]

وفى قوله : ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[٦]

مع داود وسلميان

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن

---

(١) الآية ١٠٢ من سورة هود .
(٢) الآية ٣٨ من سورة القصص .
(٣) الآية ٢٤ من سورة النازعات .
(٤) الأيتان ١ ، ٢ من سورة القمر .
(٥) الآية ١٣٧ من سورة الاعراف
(٦) الآية ٤٠ - ٤٢ من سورة القصص .

كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَٰكِنَكُمْ
لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً
تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ
مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾
أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾
اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ۩ * قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾
اذْهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا
الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾
أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً
أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي
مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً
وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِۦَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾

ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾
قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ
مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ
هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ
رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ
﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا
مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ
لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ
مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

تفسير المفردات

﴿ **ورث سليمان داود** ﴾ أى : قام مقامه فى النبوة والملك . ﴿ **منطق الطير** ﴾ أى : منهم ما يريده كل طائر إذا صوت : ﴿ **حشر** ﴾ أى : جمع ﴿ **يوزعون** ﴾ أى : يحبس أولهم ليلحق آخرهم فيكونون مجتمعين لا يتخلف منهم أحد . ﴿ **وادى النمل** ﴾ : واد بأرض الشام . ﴿ **لا يحطمنكم** ﴾ أى : لا يهشمنكم . ﴿ **أوزعنى** ﴾ أى : يسر لى . ﴿ **التفقد** ﴾ : طلب ما فقد . ﴿ **بسلطان مبين** ﴾ أى : بحجة واضحة ، والاحاطة بالشىء علمه من جميع جهاته . وسبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب ابن قحطان أبو قبيلة باليمن ، و ﴿ **نبأ** ﴾ أى : خبر عظيم والعرش : سرير الملك . ﴿ **عن السبيل** ﴾ عن سبيل الحق والصواب و ﴿ **الخبء** ﴾ : هو المخبوء من كل شىء كالمطر وغيره من شئون الغيب ﴿ **تول عنهم** ﴾ أى : تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك . ﴿ **فانظر** ﴾ أى : تأمل وفكر ﴿ **يرجعون** ﴾ أى : يرجع بعضهم إلى بعض من القول ويدور بينهم بشأنه . و ﴿ **الملأ** ﴾ : أشراف القوم وخاصة الملك . ﴿ **ألا تعلوا على** ﴾ أى : ألا تتكبروا ولا تنقادوا للنفس والهوى . ﴿ **مسلمين** ﴾ : أى : منقادين خاضعين . ﴿ **أفتونى** ﴾ أى : أشيروا على بما عندكم من الرأى والتدبير فيما حدث . ﴿ **قاطعة أمرا** ﴾ أى : باتة فيه منفذته ﴿ **تشهدون** ﴾ أى : تحضرونى ،

والمراد بالقوة : القوة الحسية وكثرة الآلات ، والمراد بالبأس : النجدة والثبات فى الحرب . العفريت من البشر : الخبيث الماكر الذى يعفر أقرانه ، ومن الشياطين ، المارد . ﴿ **مقامك** ﴾ أى : مجلسك الذى تجلس فيه للحكم . ﴿ **قوى** ﴾ أى : قادر على حمله لا أعجز عنه . ﴿ **أمين** ﴾ أى : على ما فيه من لآلىء وجواهر وغيرها . و﴿ **الكتاب** ﴾ هو علم الوحى والشرائع ، والذى عنده علم هو سليمان ـ عليه السلام ـ كما اختاره الرازى وقال : إنه أقرب الآراء ، ﴿ **يرتد** ﴾ أى : يرجع ، والطرف ، تحريك الأجفان ، والمراد بذلك : السرعة العظيمة . ﴿ **مستقرا** ﴾ أى : ساكنا قارا على حاله التى كان عليها . الفضل : التفضل والاحسان ﴿ **ليبلونى** ﴾ أى : ليعاملنى معاملة المختبر . ﴿ **أم أكفر** ﴾ أى : أقصر فى أداء واجب الشكر . كفر : أى : لم يشكر . ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ **أى : غيروا هيئته وشكله بحيث لا تعرفه بسهولة** ، ﴿ **مسلمين** ﴾ أى : خاضعين منقادين . ﴿ **صدها** ﴾ أى : منعها . و ﴿ **الصرح** ﴾ : أى : القصر ، وكل بناء عال . **واللجة** : الماء الكثير . ﴿ **ممرد** ﴾ أى : ذو سطح أملس . **القوارير** : الزجاج . واحدها : قارورة . ﴿ **أسلمت** ﴾ أى خضعت .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ قصة موسى ـ عليه السلام ـ أردفه قصص داود وسليان ، وذكر أنه آتى كلا منهما طائفة من علوم الدين والدنيا ، فعلم داود صنعة الدروع ولبوس الحرب ، وعلم سليمان منطق الطير ثم بين أن سليمان طلب من ربه ان يوفقه الى شكر نعمه عليه وعلى والديه ، وأن يمكن من العمل الصالح وأن يدخله جنات النعيم وسخر الله لسليمان الجن والأنس والطير وجعلهم جنودا له وذكر أنه احتاج جنديا من جنوده وهو الهدهد ، فبحث عنه فلم يجده ، فتوعده بالعذاب أو القتل إلا إذا أبدى له عذرا يبرئه ، فحضر بعد قليل ، وقص عليه خبر مملكة باليمن من أغنى الممالك وأقواها تحكمها امرأة هى بلقيس ملكة سبأ ، ووصف له ما لها من جلال الملك وابهته وانها وقومها يعبدون الشمس لا خالق الشمس العليم بكل شىء فى السموات والأرض ، والعليم بما نخفى وما نعلن ، والعليم بالسر والنجوى ، وهو رب العرش العظيم . ثم امره سليمان بتبليغ كتاب منه إلى ملكة سبأ ، والتنحى جانبا ليستمع ما يدور من الحديث بينها وبين خاصتها بشأنه ، وكانت خاتمة المطاف أن قالوا : الرأى لدينا القتال ، فإنا قوم أولوا بأس ونجدة ، والأمر مفوض إليك فافعلى ما بدا لك وهنا قالت : إنى أرى أن عاقبة الحرب الدمار والخراب وصيرورة العزيز ذليلا ، وإنى أرى ان نهادنه ونرسل إليه بهدية ثم ننظر ماذا يكون رده ، عله يقبل ذلك منا ، ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجا نحمله إليه كل عام ونلتزم ذلك له ، وبذا يترك قتالنا وحربنا ، ولما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان قال له : أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ثم قال له : ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون . فتجهزت بلقيس للسفر مقبلة إلى سليمان ، وكان سليمان قد احضر عرشها فى لمح البصر وأمر بتغيير معالم العرش وتبديل أوضاعه ، ثم سألها عنه ليختبر مقدار عقلها ، ولتعلم صدقه فى دعواه النبوة وتتظاهر لديها الأدلة على قدرة المولى ـ سبحانه وتعالى ـ فحينما

رأت ملكه العظيم أيقنت بأن دين سليمان هو الحق ، وأنها قد ظلمت نفسها بكفرها بالله ربها خالق السموات والأرض ، وصاحت تقول : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين . .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ قال ابن أبي حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام ، أخبرنى ابى عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : (إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ، لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ ؟

وفى الآية إخبار منه ـ تعالى ـ عن أنه ـ بفضله وكرمه ـ قد آتى عبديه داود وسليمان علما ، وأشرف العلم : علم الوحى المعصوم ، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك ، فكانا نبيين ملكين ، وفى هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء ، حمداه على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتوفيق العبد للحمد فى حاجة إلى حمد ، فنعمة التوفيق لا تعدلها نعمة والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فيارب كيف أشكرك وتوفيقك لى إلى أن أشكرك فى حاجة إلى شكر ؟ !

يقول الامام ابن القيم فى [اثبات الحمد كله لله عز وجل]

إنه ـ تعالى ـ هو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله فى أعدائه ، كما هو المحمود فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ [1]

﴿ التفسير ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ قال ابن أبي حاتم : ذكر عن إبراهيم بن يحيى بن هشام ، أخبرنى ابى عن جدى قال : كتب عمر بن عبد العزيز : (إن الله لم ينعم على عبده نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه ،

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الاسراء .

لو كنت لا تعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل ، قال الله ـ تعالى : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ﴾ فأى نعمة أفضل مما أوتى داود وسليمان ـ عليهما السلام ؟

وفى الآية إخبار منه ـ تعالى ـ عن أنه ـ بفضله وكرمه ـ قد آتى عبديه داود وسليمان علما ، وأشرف العلم : علم الوحى المعصوم ، فقد أنعم عليهما بالنبوة والملك ، فكانا نبيين ملكين ، وفى هذا الباب مراتب لا تحصى ومراق لا تستقصى ، ولقد قابلا هذا العلم والفضل العظيم بالحمد لله صاحب الإنعام والكرم والجود والسخاء ، حمداه على تفضيله لهما على كثير من عباده المؤمنين ، وتوفيق العبد للحمد فى حاجة إلى حمد ، فنعمة التوفيق لا تعدلها نعمة والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فيارب كيف أشكرك وتوفيقك لى إلى أن أشكرك فى حاجة إلى شكر ؟!

يقول الامام ابن القيم فى [اثبات الحمد كله لله عز وجل]

إنه ـ تعالى ـ هو المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار ، والملائكة والشياطين ، وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله فى أعدائه ، كما هو المحمود فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾[1] .

وكان فى قول النبى ﷺ عند الاعتدال من الركوع « ربنا ولك الحمد ، ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد فله ـ سبحانه ـ الحمد حمدا يملأ المخلوقات والفضاء الذى بين السموات والأرض ، ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده ، وذاك يحمل أمرين :

أحدهما أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض ، والمعنى : أن الحمد ملء ما خلقته ، وملء ما تخلقه بعد ذلك .

الثانى أن يكون المعنى : ملء ما شئت من شىء بعد يملأه حمدك ، أى : يقدر مملوءا بحمدك ، وإن لم يكن موجودا . ولكن يقال : المعنى الأول أقوى ، لأن قوله : ﴿ ما شئت من شىء بعد ﴾ يقتضى أنه شىء يشاؤه ، وما شاء كان ، والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له . . فتأمله . لكنه إذا شاء كونه فله الحمد ملؤه . فالمشيئة راجعة إلى المملوء بالحمد . فلابد ان يكون شيئا موجودا يملأه حمده .

وأيضا قوله : ﴿ من شىء بعد ﴾ يقتضى أنه شىء يشاؤه ـ سبحانه ـ بعد هذه المخلوقات ، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها ، ولو أريد تقدير خلقه لقيل : وملء ما شئت من شىء ، ومع ذلك لان المقدر يكون مع المحقق . وأيضا فإنه لم يقل : ملء ما شئت أن يملأه الحمد ، بل قال : ما شئت ، والعبد قد حمد حمدا اخبر به ، وإن ثناءه ووصفه بأنه يملأ ما خلقه الرب

١ ـ الآية ٤٤ من سورة الإسراء .

ـ سبحانه ـ وما يشاء بعد ذلك وأيضا فقوله : ﴿ وملء ما شئت من شيء بعد ﴾ يقتضى إثبات مشيئة تتعلق بشيء بعد ذلك ، وعلى الوجه الثانى قد تتعلق المشيئة بملء المقدر ، وقد لا تتعلق ، وأيضا فإذا قيل : ﴿ ما شئت من شيء بعد ذلك ﴾ كان الحمد مالئا لما هو موجود يشاؤه الرب دائما ، ولا ريب ان له الحمد دائما فى الأولى والآخرة ، وأما إذا قدر ما يملأه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لا حد لها ، وما من شيء منها إلا يمكن تقدير شيء بعده وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الاعداد : ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة ، بل قيل : ﴿ ملء ما لا يتناهى ﴾ فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودا مقدرا ، وإن كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها ، فهذا كله مما يشاؤه بعد .

وأيضا الحمد : هو الاخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ، ومحاسن المحمود ـ تعالى ـ إما قائمة بذاته ، وإما ظاهرة فى مخلوقاته ، فأما المعدوم المحض الذى لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها ، فلا محامد فيه البتة ، فالحمد لله الذى يملأ المخلوقات ما وجد فيها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته ، والمحاسبة الظاهرة فى مخلوقاته ، وأما مالا وجود له فلا محامد ولا مذام ، فجعل الحمد مالئا له لما لا حقيقة له .

وقد اختلف الناس فى معنى كون حمده يملأ السموات والأرض وما بينهما ، فقالت طائفة : على جهة التمثيل ، أى : لو كان أجساما لملأ السموات والأرض وما بينهما . قالوا: فإن الحمد من قبيل المعانى والأعراض التى لا تملأ بها الأجسام ، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام . والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد ، فإن ملء كل شيء يكون بحسب المالىء والمملوء . فإذا قيل : امتلأ الاناء ماء ، وامتلأت الجفنة طعاما ، فهذا الامتلاء نوع . وإذا قيل : امتلأت الدار رجالا وامتلأت المدينة خيلا ورجالا فهذا نوع آخر ، وإذا قيل : امتلأ الكتاب سطورا فهذا نوع آخر ، وإذا قيل : امتلأت مسامع الناس حمدا أو ذما لفلان فهذا نوع آخر ، كما فى أثر معروف . (أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه . وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له) وقال عمر بن الخطاب فى عبد الله بن مسعود : كنيف ملىء علما ، ويقال : فلان علمه قد ملأ الدنيا . وكان يقال : ملأ ابن أبى الدنيا الدنيا علما ، ويقال : خبث فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق ، وحبه قد ملأ القلوب ، وبغض فلان قد ملأ القلوب ، وامتلأ قلبه رعبا . وهذا اكثر من ان تستوعب شواهده ، وهو حقيقة فى بابه ، وجعل الملء والامتلاء حقيقة للأجسام خاصة تحكم باطل ودعوى لا دليل عليها البتة ، والأصل الحقيقة الواحدة ، والاشتراك المعنوى هو الغالب على اللغة والأفهام والاستعمال ، فالمصير إليه أولى من المجاز والاشتراك . . .

﴿ والحمد كله لله ﴾ فهذا له معنيان : (احدهما) أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام ؛ وإن كان بعض خلقه يحمد أيضا ـ كما يحمد رسله وأنبياؤه وأتباعهم ـ فذلك من حمده ـ تبارك وتعالى ـ بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات ، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده فهو المحمود أولا وآخرا ، وظاهرا وباطنا ، وهذا كما أنه بكل شيء عليم . وقد علم غيره من علمه ما لم يكن يعلمه بدون تعليمه . وفى الدعاء المأثور : (اللهم لك الحمد كله ، ولك الملك كله ، وبيدك الخير كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله وأعوذ بك من الشر كله)

وهو - سبحانه - له الملك وقد أتى من ملكه بعض خلقه ، وله الحمد وقد آتى غيره من الحمد ما شاء . وكما أن ملك المخلوق داخل فى ملكه فحمده أيضا داخل فى حمده . فما من محمود يحمده على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولوية ايضا . وإذا قال : ﴿ اللهم لك الحمد ﴾ فالمراد به : أنت المستحق لكل حمد ، ليس المراد به الحمد الخارجى فقط .

﴿ والمعنى الثانى ﴾ أن يقال : ﴿ لك الحمد كله ﴾ أى : الحمد التام الكامل . فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شريك .

والتحقيق ان له الحمد بالمعنيين جميعا ، فله عموم الحمد وكماله ، وهذا من خصائصه - سبحانه - فهو المحمود على كل حال ، وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه ، كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو ، وليس الملك التام الكامل الاله .

قوله - تعالى - : ﴿ وورث سليمان داود ، وقال يأأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين ﴾

أى : ورث سليمان داود فى الملك والنبوة وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان كذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة فإن الأنبياء لا تورث أموالهم كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿ نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه فهو صدقة ﴾[1] وقال : ﴿ يأأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أى : أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الانس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضا ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ، ومن زعم من الجهلة والرعاع أن الحيوانات كانت تنطق كنطق بنى آدم قبل سليمان ابن داود - كما قد يتفوه به كثير من الناس - فهو قول بلا علم ، ولو كان الأمر كذلك لم يكن لتخصيص سليمان بذلك فائدة ؛ إذ كلهم يسمع كلام الطيور والبهائم ويعرف ما تقول ، وليس الأمر كما زعموا ولا كما قالوا ، بل لم تزل البهائم والطيور وسائر المخلوقات من وقت خلقت إلى زماننا هذا على هذا الشكل والمنوال . ولكن الله - سبحانه - كان قد أفهم سليمان ما تتخاطب به الطيور فى الهواء ، وما تنطق به الحيوانات علىٰ اختلاف أصنافها ولهذا قال - تعالى - : ﴿ علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء ﴾ أى : مما يحتاج إليه المملك ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ أى : الظاهر البين لله علينا .

وقوله - تعالى - : ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ﴾ أى : وجمع لسليمان جنوده من الجن والانس والطير ، يعنى ركب فيهم فى أبهة وعظمة كبيرة فى الانس وكانوا هم الذين يلونه ، والجن هم بعدهم فى المنزلة ، والطير ومنزلتها فوق رأسه فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها .

وقوله : ﴿ فهم يوزعون ﴾ أى : يكف أولهم على آخرهم لئلا يتقدم أحد عن منزلته التى هى مرتبة له ، قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على اخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما يفعل الملوك اليوم .

وقوله : ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ﴾ أى : حتى إذا مر سليمان ـ عليه السلام ـ بمن معه من الجيوش والجنود على وادى النمل ﴿ **قالت نملة يأأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ اى : خافت على النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول الى مساكنهم ، ففهم ذلك سليمان ـ عليه السلام ـ منها ﴿ **فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن اكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه**) أى : ألهمنى أن أشكر نعمتك التى مننت بها على من تعليمى منطق الطير والحيوان ، وعلى والدى بالاسلام لك ، والايمان بك ، ﴿ **وأن أعمل صالحا ترضاه** ﴾ أى : عملا تحبه وترضاه ﴿ **وادخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾ أى : إذا توفيتنى فألحقنى بالصالحين من عبادك والرفيق الأعلى من أوليائك .

قد دل بحث الباحثين فى معيشة النمل على ما لها من عجائب فى معيشتها وتدبير شئونها ، فإنها لتتخذ القرى فى باطن الأرض ، وتبنى بيوتها أروقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات ، وتملؤها حبوبا وقوتا للشتاء ، وتخفى ذلك فى بيوت من مساكنها منعطفات إلى فوق حذرا من ماء المطر .

وفى هذه الآية تنبيه إلى هذا لايقاظ العقول إلى ما أعطيته من الدقة وحسن النظم والسياسة ، فإن نداءها لهم تحت أمرها وجمعها لرقم ليشير إلى كيفية سياستها ، وحكمتها وتدبيرها لأمورها ، وأنها تفعل ما يفعل الملوك ، وتدبر وتسوس كما يسوس الحكام .

ولم يذكره الكتاب . الكريم إلا ليكون أمثالا تضرب للعقلاء ؛ فيفهمون حال هذه الكائنات وكيف ان النمل أجمعت أمرها على الفرار خوفا من الهلاك كما تجتمع على طلب المنافع ، وإن امة لا تصل فى تدبيرها إلى مثل ما يفعل هذا الحيوان الأعجم تكون أمة حمقاء تائهة فى أودية الضلال ، وهى أدنى حالا من الحشرات والديدان .

﴿ **ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾(١) فسبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾(٢)

أسمعت إلى قصة النملة مع أخواتها وكان لها إمرة على هذا النمل فوقفت موقف الناصح الأمين كمسئولة عن رعيتها ؟ ثم أسمعت قبلها إلى قصة موسى ؟ ثم أسمعت إلى قصة سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون ؟ إن فى قصص القرآن عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ .

قال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما عن ابن عباس وغيره : كان الهدهد مهندسا يدل .

---

(١) الاية ٣٥ من سورة النور .

(٢) الآية ٣٨ من سورة الأنعام .

سليمان ـ عليه السلام ـ على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء فى تخوم الأرض كما يرى الانسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مسافة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان ـ عليه السلام ـ الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره ، فنزل سليمان ـ عليه السلام ـ يوما بفلاة من الأرض فتفقد الطير ليرى الهدهد فلم يره ﴿ **فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ حدث يوما عبد الله بن عباس بنحو هذا وفى القوم رجل من الخوارج يقال له نافع بن الأزرق ـ وكان كثير الاعتراض على ابن عباس ـ فال له : قف يابن عباس ، غلبت اليوم ، قال : ولم ؟ قال : إنك تخبر عن الهدهد أنه يرى الماء فى تخوم الأرض ، وإن الصبى ليضع له الحبة فى الفخ ويحثو على الفخ ترابا فيجىء الهدهد ليأخذها فيقع فى الفخ فيصيده الصبى . قال ابن عباس ، لولا أن يذهب هذا فيقول : رددت على ابن عباس لما اجبته ، ثم قال : ويحك ؛ إنه إذا نزل القدر عمى البصر وذهب الحذر ، فقال له نافع : والله لا أجادلك فى شيء من القرآن ابدا . وقد ذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة أبى عبد الله البرزى من أهل برزة من غوطة دمشق ، وكان من الصالحين يصوم الاثنين والخميس ، وكان أعور قد بلغ الثمانين ، فروى ابن عساكر بسنده إلى أبى سليمان بن زيد أنه سأله عن سبب عوره فامتنع عليه ، فألح عليه شهورا فأخبره ان رجلين من أهل خراسان نزلا عند جمعة فى قرية برزة وسألاه عن واد بها ، فأريتهما إياه فأخرجا مجامر وأوقدا فيها بخورا كثيرا حتى عجعج الوادى بالدخان ، فأخذا يعزمان والحيات تقبل من كل مكان إليهما فلا يلتفتان إلى شيء منها ، حتى أقبلت حية نحو الذراع وعيناها تتوقدان مثل الدينار ، فاستبشرا بها عظيما ، وقالا : الحمد لله الذى لم يخيب سفرنا من سنة ، وكسرا المجامر وأخذا الحية فأدخلا فى عينها ميلا فاكتحلا به ، فسألتهما أن يكحلانى ، فأبيا ، فألححت عليهما وقلت : لابد من ذلك ، ووعدتهما بالدولة ، فكحلا عينى الواحدة اليمنى ، فحين وقع فى عينى نظرت الى الارض تحتى مثل المرآة انظر ما تحتها ثم قالا لى : سر معنا قليلا فسرت معهما وهما يحدثان ، حتى اذا بعدت عن القرية اخذانى فكتفانى وادخل احدهما يده فى عينى ففقأها ورمى بها ومضيا ، فلم أزل كذلك ملقى مكتوفا حتى مر بى نفر ففك وثاقى ، فهذا ما كان من خبر عينى . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا على بن الحسين ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة بن عمرو الغسانى ، حدثنا عباد بن ميسرة المنقرى عن الحسن قال : اسم هدهد سليمان ـ عليه السلام ـ عنبر وقال محمد بن إسحق : كان سليمان ـ عليه السلام ـ إذا غدا إلى مجلسه الذى كان يجلس فيه تفقد الطير ، وكان ـ فيما يزعمون ـ يأتيه نوب من كل صنف من الطير كل يوم طائر ، فنظر فرأى من أصناف الطير كلها من حضره إلا الهدهد ﴿ **فقال ما لى لا أرى الهدهد ام كان من الغائبين** ﴾ أخطأه بصرى من الطير أم غاب فلم يحضر ؟ وقوله : ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا** ﴾ قال الأعمش عن المنهال بن عمرو ، عن سعيد ، عن ابن عباس : يعنى ينتف ريشه ، وقال عبد الله ابن شداد : نتف ريشه وتشميسه ، وكذا قال غير واحد من السلف : إنه نتف ريشه وتركه ملقى يأكله الذر والنمل . وقوله : ﴿ **أو لأذبحنه** ﴾ يعنى : قتله . ﴿ **أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ بعذر بين واضح ، وقال سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن شداد : لما قدم الهدهد قالت له الطير : ما خلفك فقد نذر سليمان دمك ؟ فقال : هل استثنى ؟ قالوا : نعم ، قال :

﴿ لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ قال : نجوت إذا . قال مجاهد إنما دفع الله عنه ببره بأمه .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فمكث غير بعيد ﴾ أى : غاب زمانا يسيرا ثم فاجأ سليمان بقوله : ﴿أحطت بما لم تحط به ﴾ أى : علمت بأشياء لم تعلمها أنت ، وإنما فاجأه بهذا القول ليثير فيه عامل الاصغاء واستمالة قلبه إلى قبول عذره ، ولبيان خطر ما شغله .

قال صاحب الكشاف : ألهم الله الهدهد فكافح سليمان بهذا الكلام على ما أوتى من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة ، ابتلاء له فى علمه ، وتنبيها على ان فى ادنى خلقه وأضعفه من احاط بما لم يحط به ، لتتحاقر إليه نفسه ، ويتصاغر إليه علمه ، ويكون لطفا له فى ترك الاعجاب الذى هو فتنة العلماء ، وأعظم بها فتنة . وإنما قال : ﴿ بنبأ يقين ﴾ حتى يعلم سليمان أنه خبر جدير بالمعرفة والبحث ، إذ التخمين لا تنبنى عليه أحكام ، ولم يدع الهدهد النبأ غامضا إنما فصله قائلا : مبينا فى قوله ثلاثة أشياء :

(١) إن ملكتهم امرأة وهى بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها من قبلها ملكا جليل القدر واسع الملك .

(٢) إنها أوتيت من الثراء وأبهة الملك وما يلزم ذلك من عتاد الحرب والسلاح وآلات القتال الشيء الكثير الذى لا يوجد مثله إلا فى الممالك العظمى .

(٣) إن لها سريرا عظيما تجلس عليه ، مرصعا بالذهب وأنواع اللآئى والجواهر فى قصر كبير رفيع الشأن ، وفى هذا أكبر الأدلة على عظمة الملك وسعة رقعته ورفعة شأنه بين الممالك .

وبعد أن بين الهدهد لسليمان شئون القوم الدنيوية شرع يبين شئونهم الدينية ، وما هم عليه من مخالفات جسيمة : من الشرك ، وعبادة غير الله ، فقال : ﴿ وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ أى : وجدتها وقومها فى ضلال مبين ، فهم يعبدون الشمس لارب الشمس وخالق الكون المحيط بكل شيء علما ، وزين لهم الشيطان قبيح أعمالهم ، فظنوا حسنا ما ليس بالحسن وصدهم عن الطريق القويم الذى بعث به الأنبياء والرسل وهو إخلاص السجود والعبادة لله وحده . ثم فرع على ذلك القول : ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ وإنما

فعل بهم ذلك حتى لا يعرفوا الطريق القويم ، وحتى لا يسلكوا الصراط المستقيم ، ولئلا يسجدوا لله رب العالمين ، الذى يخرج كل شيء مخبوء فى السموات والأرض ، فهو الذى ينزل المطر وينبت النبات ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى .

﴿ **ويعلم ما تخفون وما تعلنون** ﴾ هو كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار** ﴾(١) .

وقوله ـ جل شأنه ـ : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾(٢) ثم اسند الأمر المتعلق بالألوهية الحقة لله وحده لا شريك له فهو المستغنى عما سواه ، والمفتقر إليه جميع من عداه ، فوجب إفراده بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وافعالا ، فلا سجود الا له ، ولا خضوع الا له ، ولا تعظيم إلا له ، فسبح باسم ربك العظيم ، وسبح باسم ربك الاعلى .

ما فى الوجود سواك رب يعبد كلا ، ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الاله الواحد الحق الذى كل القلوب له تقر وتشهد

الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وائتونى مسلمين** ﴾ .

﴿ **قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ؟** ﴾أى : قال : سنختبر مقالك ، ونتعرف حقيقته بالامتحان ، أصادق أنت فيما تقول أم أنت من الكاذبين ؟ وهذا شأن الحاكم العادل إذا وصله نبأ عن قوم لابد ان يتثبت ، ومن الخطأ الشنيع أن يصدر الأحكام دون ان يتبين ، عندئذ سيخطىء الحساب ويأتى بأوخم العواقب ، وإنما قال له ﴿ **أم كنت من الكاذبين** ﴾ ولم يقل : ﴿ **أصدقت أم كذبت** ﴾ إيذانا بأن تلفيق الأقوال المنمقة ، واختيار الأسلوب الذى يستهوى السامع إلى قبولها ـ من غير ان يكون لها حقيقة تعبر عنها ـ لا يصدر إلا ممن مرن على الكذب وصار سجية له ، حتى لا يجد وسيلة للبعد عنه ، وهذا يفيد انه كاذب على أتم وجه ، ومن كان كذلك لا يوثق به .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الرعد .
(٢) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

ثم شرع يفعل ما يختبره به ، فكتب له كتابا موجزا ، وأمره بتبليغه إلى ملكة سبأ فقال : ﴿ **إذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون** ﴾ أى : اذهب بهذا الكتاب فألقه إليهم ، ثم تنح عنهم وكن قريبا منهم ، واستمع مراجعة الملكة أهل مملكتها ، وما بعد ذلك من مراجعة بعضهم بعضا ونقاشهم فيه .

ثم فصل ما دار بينهم بشأنه فقال : ﴿ **قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم** ﴾ أى : وبعد أن ذهب الهدهد بالكتاب القاه إلى الملكة ، ففضت خاتمه وقرأته ، وجمعت أشراف قومها ومستشاريها ، وقالت تلك المقالة المشهورة ، وطلبت أخذ الرأى فى ذلك الخطب الذى نزل بها كما هو دأب الدول الديمقراطية .

وفى الآية إيماء إلى أمور :

(١) سرعة الهدهد فى إيصال الكتاب اليهم .

(٢) إنه اوتى قوة المعرفة فاستطاع ان يفهم بالسمع كلامهم .

(٣) إنها ترجمت ذلك الكتاب فورا بواسطة تراجمتها .

(٤) إن من آداب رسل الملوك أن يتنحوا قليلا عن المرسل إليهم بعد اداء الرسالة ، ليتشاور المرسل إليهم فيها .

ثم بينت مصدر الكتاب وما فيه لخاصتها وذوى الرأى فى مملكتها فقالت : ﴿ **إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وائتونى مسلمين** ﴾ .

ونص هذا الكتاب على وجازته يدل على امور :

(١) إنه مشتمل على إثبات الاله ووحدانيته وقدرته وكونه رحمانا رحيما .

(٢) نهيهم عن اتباع أهوائهم ، ووجوب اتباعهم للحق .

(٣) أمرهم بالمجىء إليه منقادين خاضعين . وبهذا يكون الكتاب قد جمع كل ما لابد منه فى الدين والدنيا .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ .

﴿ **قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ . أى : قالت بلقيس لأشراف قومها : أيها الملأ أشيروا على فى أمر هذا الكتاب الذى ألقى إلى ، فإنى لا أقضى فيه برأى حتى تشهدونى فأشاوركم فيه . وفى قولها هذا دلالة على إجلالهم وتكريمهم ليمحضوها النصح ، ويشيروا عليها بالصواب ، ولتختبر عزمهم على مقاومة عدوهم ، وحزمهم فيما يقيم أمرهم ، وإمضاءهم على الطاعة لها ، علما منها أنهم إن لم يبذلوا أنفسهم وأموالهم ودماءهم دونها لم يكن لها طاقة بمقاومة عدوها ، وإن لم يجتمع أمرهم وحزمهم وجدهم كان ذلك عونا لعدوهم عليهم ، وإن لم تختبر ما عندهم وتعلم

قدر عزمهم لم تكن على بصيرة من أمرهم . وربما كان فى استبدادها برأيها وهن فى طاعتها ، وتعمية فى تقدير أمرهم ، وكان فى مشاورتهم وأخذ رأيهم عون على ما تريد من قوة شوكتهم وشدة مدافعتهم ، ألا ترى إلى قولهم فى جوابهم : ﴿ نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ على ما لها من عقل راجح وأدب جم فى التخاطب وعلى هذا النهج سار الاسلام ، فقد قال ـ سبحانه ـ لنبيه : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾[1] وقد مدح ـ سبحانه ـ صحابة رسوله بقوله : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .[2]

فأجابوا عن مقالها :

﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظر ماذا تأمرين ﴾ أى : قال الملأ من قومها حين شاورتهم فى أمرها وأمر سليمان : نحن ذوو بأس ونجدة فى القتال ، إلى ما لنا من وافر العدة وعظيم العتاد وكثير الكراع والسلاح ، وإن امر القتال والسلم مفوض إليك ، فأنظرى وقلبى الرأى على وجوهه ثم مرينا نأتمر بذلك .

ولما أحست منهم الميل إلى القتال شرعت تبين لهم وجه الصواب ، وأنهم فى غفلة عن قدرة سليمان وعظيم شأنه ، إذ من سخر له الطير على الوجه الذى يريده ليس من السهل مجالدته والتغلب عليه .

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ﴾ أى : قالت لهم حين عرضوا عليها أنفسهم لقتال سليمان : إن الملوك إذا دخلوا قرية فاتحين أفسدوها بتخريب عمائرها وإتلاف أموالها ، وأذلوا أهلها بالأسر والاجلاء عن موطنهم ، أو قتلوهم تقتيلا ، ليتم لهم الملك والغلبة ، وتتقرر لهم فى النفوس المهابة ، وهكذا يفعلون معنا ، وفى هذا تحذير شديد لقومها من مسير سليمان إليهم ، ودخوله بلادهم .

وبعد أن أبانت ما فى الحرب والمجالدة من الخطر أتبعته بما عزمت عليه من المسالمة بقولها : ﴿ وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة . بم يرجع المرسلون ﴾ أى : وإنى سأرسل إليهم هدية من نفائس الأموال لأتعرف حاله ، واختبر امره ، أنبى هو أم ملك ؟ فإن كان نبيا لم يقبلها ولم يرض منا إلا ان نتبعه على دينه . وإن كان ملكا قبل الهدية وانصرف إلى حين ، فإن الهدايا مما تورث المودة ، وتذهب العداوة ، وفى الحديث : ﴿ تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء ﴾[1] ولقد أحسن من قال :

هدايا الناس بعضهم لبعض ... تولد فى قلوبهم الوصالا
وتزرع فى الضمير هوى وودا ... وتكسبهم إذا حضروا جمالا

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾ .

لما وصلت الهدية مع الرسول إلى سليمان وكانت من ذهب وجواهر ولآلىء وغيرها مما يقدمه الملوك

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين : شرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٣٤٦ من حديث عائشة رضى الله عنها فيما رواه الطبرانى ولكن بزيادة « وهاجروا تورثوا ابناءكم مجدا » .

العظام . قال سليمان للرسول : أتصانعوننى بالمال لأترككم على شرككم وكفركم ؟ لن يكون ذلك ابدا إن الذى أعطانيه الله من النبوة والملك الواسع الأرجاء ، والمال الوفير ، خير مما أنتم فيه ، فلا حاجة لى بهديتكم ، وليس رأيى فى المال كما ترون ، فأنتم تفرحون به دونى ، فارجع بما جئت به إلى من ارسلك ولنأتينكم بجنود لا طاقة لكم بدفعها ولا الانتصار عليها ، ولنخرجنكم من أرضكم أذلة مأسورين مستعبدين ، إن لم تأتونى مستسلمين منقادين .

قوله - تعالى - : ﴿ **قال يأأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ .

وهكذا أبى سليمان ، ان يقبل المال ؛ لأنه لا مساومة على دين الله ووحدانيته ، وأصحاب الرسالات لا يرضون الدنية فى دينهم ، فهم القمم العوالى والجبال الراسيات التى لا تستطيع الدنيا ان تقتحم عليهم تلك الأسوار العالية ، ليس فى العقيدة أنصاف حلول . إن المال الذى قدمته بلقيس - ملكة سبأ - كانت قد ظنت بتقديمه أنه سيخضع سليمان ويلين من قلبه ويجعله فى حالة انعدام وزن من أمره وتنتقل القضية بهذا المال من مجال العقيدة الى المناورة والمساومة على المزيد لكن أنبياء الله كما وصفوا بالصدق والأمانة والتبليغ - وصفوا كذلك بالفطنة ، والفطنة : حضور البديهة وسرعة الادراك وقوة الحجة . كذلك وصفوا بالعصمة ، فقد حفظ الله ظواهرهم وبواطنهم من التلبس بمنهى عنه ، لذا فإن سليمان أصدر إنذارا حاسما لا تردد فيه ولا رجوع عنه : ﴿ **أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ هذه عزة النفس وكرامة الدين وعظمة الرسالة . ثم أضاف : ﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ ثم يعقد سليمان جلسة طارئة يلقى فيها هذا السؤال على الملأ : ﴿ **أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ .

قال محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان قال : فلما رجعت إليها الرسل بما قال سليمان قالت : قد - والله - عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئا . وبعثت إليه : إنى قادمة عليك بملوك قومى لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك . ثم أمرت بسرير ملكها الذى كانت تجلس عليه . وكان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد والؤلؤ فجعل فى سبعة أبيات بعضها فى بعض ، ثم أقفلت عليه الأبواب ثم قالت لمن خلفت على سلطانها : احتفظ بما قبلك وسرير ملكى فلا يخلص إليه أحد من عباد الله ، ولا يرينه أحد حتى آتيك ، ثم شخصت إلى سليمان فى اثنى عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن ، تحت يدى كل قيل ألوف كثيرة ، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل

يوم وليلة ، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والانس ممن تحت يده فقال : ﴿ **يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين** ﴾ . ومن ههنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك وما سخر له من الجنود الذى لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعده ، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها لأن هذا عمل خارق عظيم ان يأتوا بعرشها كما هو من بلادها قبل أن يقدموا عليه ، هذا وقد حجبته بالأغلاق والأقفال والحفظة .

لقد قال لها رجالها وعظماء قومها : ﴿ **نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد** ﴾ فأراد سليمان أن يثبت لها أن قوة الله فوق كل قوة ، وإرادته فوق كل إرادة ، وما كان الله ليعجزه شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا . سبحانه كل شيء قائم به ، وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه . ﴿ **يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز** ﴾[1] لقد قال لها الملأ من قومها : ﴿ **والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ وكانوا فى هذا القول من الغافلين عن الحقيقة العليا : ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾[2] ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون** ﴾[3] فسبحان من تنزه عن الشريك ذاته . وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالاحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية . واحد لا من قلة . وموجود لا من علة . كيف يفوضون إليها الأمر ؟ لقد نسوا أو تناسوا أن للكون إلها يدبر أحكامه ويفعل ما يشاء .

فيابن آدم لا تخف سلطان أحد مادام سلطان الله باقيا ، وسلطان الله دائم لا يزول أبدا . . لقد أراد نبى الله سليمان أن يلقنها دروسا فى العقيدة تتمركز فى سويداء قلبها ؛ ليعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا .

قال عفريت من الجن (أى : مارد) : ﴿ **أنا آتيك به** ﴾ (أى : بعرشها) ﴿ **قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ وقد فصل الأئمة هذا المقام : فقال ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ يعنى قبل أن تقوم من مجلسك . وقال مجاهد : مقعدك . وقال السدى وغيره : كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس . قوله : ﴿ **وإنى عليه لقوى أمين** ﴾ أى : قوى على حمله والاتيان به ، أمين لن تمتد يدى إليه بسوء ، بل سآتى به كاملا غير منقوص ، إذ الأمانة ضد الخيانة . ومعلوم أن العفريت مارد . قد يتجاوز الحدود ، لذلك فقد ذكر هاتين الصفتين : القوة والأمانة حتى لا يتطرق الشك إلى قلوب السامعين ، لكن سليمان قال : أريد أعجل من ذلك . ﴿ **قال الذى عنده علم من الكتاب** ﴾ وللمفسرين فى الذى عنده علم من الكتاب أقوال : قال ابن عباس : هو آصف كاتب سليمان ، وكذا روى محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء . وكان صديقا يعلم

---

(١) الآيات ١٥ ـ ١٧ من سورة فاطر .
(٢) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران .
(٣) الآية ١٢٣ من سورة هود .

الاسم الأعظم . وقال قتادة : كان مؤمنا من الانس واسمه آصف .

ويرى الشيخ المراغى ـ رحمه الله تعالى ـ ان الذى عنده علم من الكتاب هو سليمان نفسه ؛ قال الشيخ فى تفسيره لهذه الآية : أى : قال سليمان للعفريت متحدثا بنعمة الله وعظيم فضله : أنا أفعل ما لا تستطيع أنت ، أنا أحضره فى أقصر ما يكون مدة ، أنا احضره قبل ارتداد طرفك إليك . وقد كان كما قال .

ويقول العلامة ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ فى قوله : ، **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ أى : ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك . وقال وهب بن منبه : امدد بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به ، فذكروا أنه امره ان ينظر نحو اليمن التى فيها هذا العرش المطلوب ثم قام فتوضأ ودعا الله ـ تعالى ـ قال مجاهد : قال : ياذا الجلال والاكرام . وقال الزهرى : قال : ياإلهنا وإله كل شيء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها . قال : فمثل بين يديه .

وهكذا طويت المسافات الشاسعة ، وقطعت مئات الأميال من اليمن إلى القدس بقدرة من لا يغفل ولا ينام ، وبعظمة من يقول للشيء : كن فيكون ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾(١) نعم لقد اتى بالعرش ما بين طرفة عين وانتباهتها ، وسبحان من يقول : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾(٢) ومن يقول : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شيء قدير** ﴾(٣) ومن يقول : ﴿ **وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم** ﴾(٤) ومن يقول : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾(٥) .

سبحانك ربى :

لا الأمر أمرى ولا التقدير تقديرى — **ولا الشئون التى تجرى تدبيرى**
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى — **احاط بى علمه من قبل تصويرى**

فيابن آدم : إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت باستعن بالله .

سهرت أعين ونامت عيون — فى شئون تكون أو لا تكون
إن ربا كفاك بالأمس ما كان — سيكفيك فى غد ما يكون

فاجعل بربك كل عزك يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

إذا أصابتك ضراء فقل : يارب ، وإذا تنكر لك الأصدقاء فقل : يارب ، وإذا عزّ الدواء فقل :

---

(١) الآية ٥٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان ٤٩ ، ٥٠ من سورة القمر .
(٣) الآية ٧٧ من سورة النحل .
(٤) الآية ١٣ من سورة الأنعام .
(٥) الآية ١٨ من سورة الأنعام .

يارب ، وإذا قل ناصرك وكثروا واترك فقل : يارب ، وإذا نمت على فراش المرض فقل : يارب ، وإذا جاءتك سكرة الموت بالحق فقل : يارب .

وإذا رميت من الزمان بشدة وأصابك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب

ماذا قال سليمان عندما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده ؟ هل استطاع الغرور أن يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعة ؟ فقال بلسان الفخر الكاذب :

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
فالخيل والليل والبيداء تعرفنى والسيف والرمح والقرطاس والقلم ؟

هل دخل الكبر نفسه العظيمة فقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى ؟

هل هاجت ثعابين الغرور فى قلبه فقال :

إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها ؟

هل قال للرعية : والله لاحزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ؟ لا . ثم لا . ثم لا . . لقد قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين . وبقلب ذاكر . وفؤاد شاكر : ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ إنه منطق الأنبياء ، إنها صفة الصفوة ولغة المصطفين الأخيار .

قوله - تعالى - : ﴿ **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ هذا من قبيل قوله - تعالى - : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها** ﴾[(١)] . وكقوله - جل شأنه - : ﴿ **ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون** ﴾[(٢)] . . فالله هو الغنى عن العباد وعبادتهم ، كريم فى نفسه وإن لم يعبده أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد وهذا كما قال موسى : ﴿ **وإن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد** ﴾[(٣)] وفى صحيح مسلم : (يقول الله - تعالى - : ياعبادى ؛ لو ان أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا . ياعبادى ؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، ياعبادى ؛ إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[(٤)] .

قال - تعالى - : ﴿ **قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها ادخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال**

---

(١) الاية ١٥ من سورة الجاثية .

(٢) الآية ٤٤ من سورة الروم .

(٣) الآية ٨ من سورة إبراهيم .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ - ١٩٩٥ رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ من حديث أبى ذر : « ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى » . . فهذا جزء حديث .

إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾

أراد سليمان ـ عليه السلام ـ أن يختبر ذكاء بلقيس وحصافة عقلها ورجاحة رأيها ، فلما جيء له بالعرش قبل أن تأتى إليه قال : ﴿ **نكروا لها عرشها** ﴾ أى : غيروا فيه بعض معالمه . قال المفسرون فى هذا التنكير أقوالا :

قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فغير ما كان فيه أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر ، وما كان أخضر جعل احمر ، غير كل شيء عن حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا .

ولقد بين سليمان الحكمة من هذا فقال : ﴿ **ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟** ﴾ لقد ألقت بلقيس نظرة فاحصة على العرش . فلم تعرفه ، وفى نفس الوقت لم تنكره ، فلم تقدم على أن هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته وإن غير وبدل ونكر فقالت : ﴿ **كأن هو** ﴾ أى : يشبهه ويقاربه . وهذا دليل على أنها كانت صائبة الرأى ثاقبة الفكر متوقدة الذكاء . وقيل : إنها شبهت عليهم كما شبهوا عليها . فلما كان السؤال بـ : أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو . ولو قيل لها : أهذا عرشك لقالت : إنه هو . أما قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين** ﴾ فقد قال مجاهد : إن هذه العبارة من كلام سليمان ، أى : الله آتانا العلم بأنها ستسلم ، وعلمنا ذلك قبل أن تعلنه علينا ، وكنا مسلمين لله رب العالمين .

وقال غيره : إن هذه العبارة من كلام بلقيس ، كأنها تقول لسليمان لما نكر لها عرشها : لست فى حاجة إلى كثير من المعجزات ، فقد أوتينا العلم بنبوتك وصدق رسالتك ، فقد قامت الأدلة على ذلك ـ فقد كان الهدهد آية من آيات الله دلت على صدق رسالتك . وما سمعناه عنك من معجزات اخرى كتسخير الريح والشياطين والطير ، وكنا مسلمين . وما صدنا عن الاسلام إلا أننا نشأنا فى بيئة تعبد الشمس فتكيفنا بتلك البيئة وتقليد الآباء الأقدمين .

قال تعالى ـ : ﴿ **وصدها ما كانت تعبد من دون الله** ﴾ أى : ومنعها من الاسلام ما كانت تعبده من دون الله ، ولو أنها فتحت أمامها نوافذ المعرفة ـ وأزيل عنها التقليد الأعمى لأسلمت من قبل أن يأتى الهدهد بخبرها ، لكنها كانت من قوم كافرين جاحدين مقلدين . والتقليد شر ما يبتلى به الانسان .

﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾[1]

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قيل لها إدخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربى إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ :

روى ان سليمان أمر قبل مقدمها ببناء قصر عظيم جعل صحنه من زجاج أبيض شفاف يجرى من تحته الماء ، وألقى فيه دواب البحر من سمك وغيره ، فلما قدمت إليه استقبلها فيه وجلس فى

---

(١) الآية ٢١ من سورة لقمان .

صدره ، فحين أرادت الوصول إليه حسبته ماء فكشفت عن ساقيها لئلا تبتل أذيالها ـ كما هى عادة من يخوض الماء ـ فقال لها سليمان : إن ما تظنينه ماء ليس بالماء ، بل هو صرح قد صنع من الزجاج ، فسترت ساقيها وعجبت من ذلك ، وعلمت أن هذا ملك أعز من ملكها ، وسلطان أعز من سلطانها ، ودعاها سليمان إلى عبادة الله ، وعابها على عبادة الشمس دون الله ، فأجابته إلى ما طلب وقالت : رب إنى ظلمت نفسى بالثبات على ما كنت عليه من الكفر ، وأسلمت مع سليمان لله رب كل شىء ، وأخلصت له العبادة .

الاسلام دين الأنبياء

قالت بلقيس : ﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فقولها : أسلمت مع سليمان لله رب العالمين دليل ساطع وبرهان قاطع وحجة بالغة على أن دين الأنبياء هو الاسلام . فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول : « لا إله إلا الله » ، ونظرة فى كتاب الله الكريم تعطيك هذا المعنى ، فكل الأنبياء آمنوا بالله ربا وبالاسلام دينا . قال نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿ إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[1] وقال إبراهيم : ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾[2]

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[3] وقال ـ جل شأنه ـ : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ؟ قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله . وما الله بغافل عما تعملون ﴾[4] .

وقال يوسف : ﴿ رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين ﴾[5] .

وقال موسى : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[6] وقال الله ـ تعالى

---

(١) الآية ٧٢ من سورة يونس .
(٢) الآية ١٣١ من سورة البقرة .
(٣) الآيتان ١٣٢ ، ١٣٣ من سورة البقرة .
(٤) الآيات ١٣٦ ـ ١٤١ من سورة البقرة .
(٥) الآية ١٠١ من سورة يوسف .
(٦) الآية ٨٤ من سورة يونس .

للمسيح بن مريم ـ : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾(١) .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا ﴾(٢) .

وقال ـ تعالى ـ : لأمة محمد ﷺ : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾(٣) .

وقال لأهل السموات والأرض : ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾(٤) وحذر من مخالفة ذلك الحكم مبينا عاقبة ذلك فى الدنيا والآخرة فقال : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾(٥)

تعقيب

بعد ما مضى من القصص فى هذه السورة المباركة يحسن بنا أن نذكر شيئا عن القصة فى القرآن من كتاب (**تذكرة الدعاة**) للشيخ البهى الخولى ، قال ـ رحمه الله تعالى ـ :

تمتاز القصة بأنها تصور نواحى الحياة ، فتعرض لك الأشخاص ، وحركاتهم وأخلاقهم ، وأفكارهم ، وإتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبعية والزمنية ، تعرضهم عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم ، فإذا رأيت هذه التصرفات والأعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش عرفت ما يستكن فى النفوس من طباع ، وما يهجس فيها من خواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم وضقت ذرعا بذوى النفوس المظلمة ، والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأى العين ، وتسمع منهم سمع الأذن ، وتعاشرهم وتحيا بينهم .

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل إليها . فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وإنتباهه بنسق القصصى البارع استشرافا لمعرفة ما خفى من بقية الأنباء .

والقصة بهاتين الميزتين من خير الوسائل التى يتوسل بها الداعية لابلاغ تعاليمه إلى أعماق القلوب ؛ فهى بالميزة الأولى تعرض هذه التعاليم فى صورة عملية حية تحرك الوجدان ، وترفع نبض المشاعر . . وهى بالميزة الثانية : ـ ميزة التنبه والتقبل ـ تجعل النفوس أوعية مفتوحة ، يصب فيها الداعية ما يشاء فيبلغ القرار .

فاستمسك بذلك ـ ياأخى ـ فإنه من سنة الله والله ـ عز شأنه ـ قد سنه فى القرآن الكريم ، فقص على رسوله أحسن القصص ، وضمنه خير التعاليم والمواعظ تثبيتا له ولأمته على الحق : ﴿ وكلا نقص

---

(١) الآية ١١١ من سورة المائدة .
(٢) الآية ٤٤ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٣ من سورة المائدة .
(٤) الآية ١٩ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٨٥ من سورة آل عمران .

عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾[1]

وخير القصص كله : قصص القرآن الكريم شرح الله صدرك له ، وأنار بصيرتك بما فيه وإلى ما فيه ، لقد أحكمت به عروة العقيدة ، واكتمل نظام الأخلاق ، واشتدت به أركان الحضارة الاسلامية ، فكانت أوفى وأكمل الحضارات . .

مثال من قصص القرآن

ونحن نسوق لك مثلا قصة سليمان وملكة سبأ ، ولا تؤاخذنى إن قصر بى العجز عن الاحاطة بمراميها القيمة البعيدة .

إن هدهدا كشف لسليمان ـ عليه السلام ـ ما عليه مملكة سبأ من الشرك والضلال ، فبعث إليهم سليمان أن يسلموا لرب العالمين ، فحاولوا إسترضاءه عنهم بالمال ، فلم تغنهم المحاولة شيئا ، فقد رفض المال وأوعدهم وأنذرهم جنودا لا قبل لهم بها ، وحينئذ نزلوا على حكم سليمان وجاءوه مسلمين .

وفى هذه القصة يقرر الله ـ تبارك وتعالى ـ القواعد الأصيلة : المادية والروحية ، التى لابد منها لقيام الدولة النموذجية الفاضلة على النحو الآتى : ـ

(١) قوة وعلم :

يقوم الملك العظيم على دعامتين كبيرتين أصيلتين هما : القوة والعلم .

فالقوة : تجمع قوة الأبدان ، وكثافة الجنود المدربين ، ووفرة الاسلحة والآلات .

والعلم : هو نور العقول والقلوب ، وهو وسيلتك إلى معرفة قوانين الوجود وسنن الطبيعة لتسخير ما يمكن تسخيره منها فى منافع الدولة ، وهذا هو العلم النافع ، هو العلم بالله ـ عز وجل ـ .

هذا أصل صالح من أصول الدولة ، ذكره الله ـ عز وجل ـ فى مواضع كثيرة من كتابه : **﴿ قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟ ! قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم ، والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾**[2] ولكن الله ـ عز وجل ـ لم يقف بنا عند حد الترسيم والوصف النظرى لمقومات الملك ، بل ذكر لنا ملكا عمليا ، ودولة نموذجية ، لنرى هذه الصفات حقائق ماثلة للعيان ، فى معالم ملكها الشامخ ، فنحتذى حذوها على بصيرة ، فإن لم نبلغ هذا المثال ـ ولن نبلغه ـ فلنحقق منه ما تتسع به الطاقة .

القوة فى قصة سليمان :

إن الله ـ عز وجل ـ يريد لنا ملكا عمليا ، فذكر لنا هذه الصفات مجردة ، ثم أوردها محققة فى ملك سليمان ؛ لنكون عمليين فى بناء المجد ، لا كلاميين ولا نظريين ، فما القوة هنا ؟ وما كثافة الجند ؟ اقرأ معى قول الله ـ عز وجل ـ : **﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم ﴾** من كثرتهم وتزاحمهم **﴿ يوزعون ﴾ : يدفعون حفظا لنظامهم ، وإبقاء على تنسيق صفوفهم ، فلا يتقدم**

(١) الآية ١٢٠ من سورة هود .
(٢) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، وهذه الجنود الكثيفة التى لم يعرف لها مثيل فى تعدد اجناسها تبعث الرعب فى جميع الآفاق ، حتى ليدخل الوجل فى قلوب النمل فضلا عن غيره ، **فإذا ﴿ أتوا على واد النمل قالت نملة يأأيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾** .

ويعرف سليمان هذه القوة من جنده ، وأنها لا يقف لها شىء فى الأرض ، فيرد هدية ملكة سبأ بقوله : **﴿ ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾** .

أرأيت - ياأخى - الجند مصورا هذا التصوير الرائع فى مثل هذا الكلام اليسير الموجز ؟ وهو تصوير لم يدع ناحية من نواحى الجند إلا ألم بها : كثرة العدد ، النظام ، عظمته بتعدد الأجناس فيه ، إلقاؤه الرعب فى قلوب المخلوقات ، حتى اليسير منها والتى لا قصد للجنود إليها ، وكونه جندا غالبا مظفرا على اعدائه فى كل المواطن ، فتبارك الله رب العالمين ، وما أجل شأن القرآن الكريم !

العلم فى قصة سليمان :

ثم أين العلم فى هذه القصص ؟ واين رسالته التى أداها للدولة ؟ اقرأ معى قول الله - عز وجل - **﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان ﴾** ميراث نبوة وعلم **﴿ داود ﴾** وهذا العلم الذى اشار الله إليه ، يفسره سليمان بأنه هو اللغات ، وسائر أنواع العلم فى قوله : **﴿ يأأيها الناس علمنا منطق الطير . وأوتينا من كل شىء . إن هذا لهو الفضل المبين ﴾** .

فأما منطق الطير وغيرها ، فإنك تراه فى حواره المعروف مع الهدهد ، وتراه كذلك فى فهمه ما قالت النملة التى أنذرت ذويها بجنده ليدخلوا مساكنهم .

وأما ما عدا اللغات من اى أنواع العلم فهو قوله : **﴿ وأوتينا من كل شىء ، إن هذا لهو الفضل المبين ﴾** .

ونرجو ان نتأمل قول الله - عز وجل - : **﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾** وهذا الفضل هو العلم معترفا به على لسان سليمان الشاكر الذاكر - عليه السلام - .

وأما ثمرة هذا العلم العملية فى الدولة ﴿ فهى السيطرة على قوانين الطبيعة وقواها المختلفة ، ليسخرها أهله فى منافع الدولة ، وهو ما تصوره قصتنا فيما يلى :

لما أيقن أهل سبأ وملكتهم أن سليمان - عليه السلام - ليس ممن يعملون للمال ، وأنه لابد آخذهم بالبأس الماحق إن لم يسلموا ، خرجت الملكة فى وفد كبير ذاهبة إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق ، أراد - عليه السلام - ان يحدث آية تدهش القوم ، وتلين قلوبهم للايمان ، فقال لجنوده وفيهم من أرباب القوى العجيبة ، وأهل العلم بأسرار الوجود : **﴿ يأأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ﴾** أرأيت الذى عنده علم من الكتاب كيف يسخر علمه لمشيئة الملك العادل ، والامام الفاضل والنبى الصالح ؟ . . وهذا الذى عنده علم من الكتاب هو ممن تفضل بهم الله على

سليمان ليكونوا فى خدمة ملكه ، فلما تحقق فضل الله - بتسخير هذا العلم عمليا - اعترف به فقال : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ .

وفضل الله كما نراه هنا : هو القوى العلمية بدون شك ، فإنك تقرأ فى هذه السورة : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ﴾ وتقرأ فى سورة أخرى : ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ، ياجبال أوبى معه والطير ، وألنا له الحديد ﴾[1] فسبحان الله العظيم ، فسخر الاسرار للعاملين فى الأرض بطاعته ، المؤيدين لسلطانه فيها ﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[2] وحسبنا هنا هذه الحادثة شاهدا لتسخير العلم والقوى الطبيعية ، فهى وحدها كافية لتصوير المراد ، وإلا فإنك تجد تسخير الطبيعة ، لملك سليمان فى آيات اخرى : ﴿ ولسليمان الريح ، غدوها شهر ورواحها شهر ، وأسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾[3]

هذا شأن العلم والقوة فى هذه القصة ، وقد شرحته لنا بأوفى بيان وأكمله ورسالة .

(٢) ورسالة :

ولابد للدولة من رسالة مجيدة تسعى لتحقيقها ، وتصرف إليها قوتها وعلمها فما هذه الرسالة ؟ هل هى اتساع الملك ، وكثرة المستعمرات والاستيلاء على أراضى الضعفاء ؟ هل يرتاح ضميرك ان تكون هذه اللصوصية وهذا الفساد فى الأرض رسالة مجيدة ؟ ان علم الله أرفع من ان يسخر لمثل هذه المخازى والمآسى ، وإن الله - عز وجل - أرفع من أن يرسم لأوليائه مثل هذه الغاية الشريرة الآثمة ، إن الغاية الفاضلة التى يجب ان تعيش لها الدولة الفاضلة وتعمل جاهدة لتحقيقها غير ناظرة إلى شىء سواها ، هى : توحيد الله عز وجل ، وجمع الناس على الايمان به وحده ، وتطهير الأرض من كل رجس وشرك ، حتى تكون كلمة الله هى العليا ، ويكون الدين كله لله ، يجب تحقيق ذلك بكل الوسائل يجب إقامة النظم السياسية ، والتشريعية ، والعملية ، التى تكفل استقرار الناس فى ظلال هذه الغاية ، فإن استقر ذلك بالتى هى أحس فبها ونعمت ، وإن استعصى الأمر على الوسائل السلمية فلنتذرع بالتى هى أحسن أيضا ، وليس أحسن فى هذه الحالة من القوة المسلحة فمن أنزله السيف على أمر الله فهو معنا : له ما لنا ، وعليه ما علينا ، وإلا فلن نكف عن أعداء الله حتى نطهر الأرض من رجسهم : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾[4] ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾[5]

إنتهى المجلد الرابع والخمسون ويليه المجلد الخامس والخمسون مبدوءا بعبارة ﴿ تلك هى الغاية التى يجب ان تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة) .

---

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ
(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأنبياء
(٣) الآية ١٢ ، ١٣ من سورة سبأ .
(٤) الآية ١٩٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٣٩ من سورة الأنفال .

بسم الله الرحمن الرحيم

تلك هى الغاية التى يجب أن تكون هدف الدولة الربانية الفاضلة ، وقد أثنى الله على المسلمين ، وشهد لهم أنه عاشوا لها : لتطهير الأرض من الرجس .

ولتثبيت دعائم الإيمان بالله ، فقال عز شأنه :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله ﴾(١) .

وأثنى على القائد الصالح القوى صاحب سورة الكهف ، الذى آتاه من كل شىء سببا ، أثنى عليه لأنه وجه قواه لتعذيب أهل الشر ، وتشجيع أهل الإيمان ومعونتهم ﴿ قلنا ياذا القرنين ، إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا ﴾(٢) . فوضع لقوته دستورا صالحا ، يعذب عليه أو يثيب . ﴿ أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا . وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى ، وسنقول له من أمرنا يسرا ﴾(٣) .

وهذا حسن فى موضعه بالغ درجة الحسن ، لأنه الله عز شأنه ، أراد مجرد التقرير ، تقرير هذه الغاية والنص عليها ، أما حين أراد تصويره عمليا ، فقد أقامه لنا فى قصتنا الخالدة ، فى منتهى الشرح والتفصيل ، ومنتهى الإيجاز والإعجاز ، اقرأ قوله تعالى حكاية عن الهدهد : ﴿ إنى وجدت امرأة تملكهم ـ وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون ﴾

وهذا ضلال فى العقيدة ، وضلال فى العمل ، يفسدان على الدولة غايتها ويقودانها إلى شر المصير . . وهل صلاح الحياة ، إلا عقيدة صالحة ، وعمل صالح ؟ . . وبعد أن تبين الهدهد فساد هذه الدولة وعقيدتها وأعمالها ، استمر فى بيان العقيدة الصالحة التى يجب أن تعيش عليها الإنسانية أفرادا وجماعات : ﴿ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون ، الله لاإله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ ونرى سليمان عليه السلام ، وهو رئيس الدولة الأعلى ، يعمل لهذه الغاية نفسها ، وفق مايحكيه الله عن الهدهد ، فيرسل إلى سبأ بهذا الكتاب الموجز

الحكيم ، يدعوهم إلى الإسلام لله : ﴿ إنه من سليمان ، وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علىّ وائتونى مسلمين ﴾ ويصر سليمان على أن ينزلهم على حكم الإسلام ، فيهدد مايهدد بالقوى المسلحة الجبارة . حتى تقول ملكتهم فى النهاية :

﴿ رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

---

(١) آل عمران آية رقم ١١٠
(٢) الكهف آية رقم ٨٦
(٣) الكهف الآيتان ٨٧ ، ٨٨

ألا ترى يا أخى أن هذه الدولة الكريمة قد عاشت حقا عاملة لهذه الغاية الكريمة ، أولا ترى أن هذه الغاية واضحة جميلة فى النسق التصويرى المحكم الذى ساقها الله عز وجل فيه .

(٣) إيمان الرئيس الأعلى وعنايته بكل شىء :

والحقيقة الثالثة فى هذه القصة تبين لنا أن من تمام نظام الدولة ، أن يكون رئيسها الأعلى عالما بغايتها ، مؤمنا بها ، عاملا جهده لها .

هذه واحدة والأخرى أن يكون يقظا ومنتبها ، متعهدا لشئون رعيته صغيرها وكبيرها ، حازما فى محاسبة المسئولين ، فإن لم يكن كذلك انحل التناسق فى قوى الدولة وانفرط عقدها . وهذا كلام لاغبار عليه ولاتردد فى قبوله ، فلا نطيل فى الإستشهاد له من كتاب الله ، ولنلتمسه مصورا فى قصتنا أبدع تصوير . ﴿ وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين ؟ ﴾ . . . ألا تراه عليه السلام معنيا برعيته ، يتفقدهم ولا يهملهم ؟ والذى يعنى بتفقد الطير ، لايفوته أن يتفقد ماهو أهم منه ، وذلك إستقصاء كامل فى رعاية نواحى الدولة ، والعناية بأمرها . . . ثم ترى يقظته العجيبة ، وفطنته الحساسة إذ يفطن إلى غياب هدهد ، وسط هذه الألوف ، بل الملايين من الخلائق المحشورة له ، فيقف متسائلا ﴿ مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ وهذا مثل أعلى فى يقظة الحس ، من العسير إن لم يكن من المستحيل على بشر عادى أن يدركه ، ولكنه من الأمور الميسورة لنبى من أنبياء الله ، ينظر الأشياء بنور بصيرته الملهمة ، لا بنور بصره فقط ، وهو على كل حال مثل أعلى فى اليقظة ، ينصبه الله عز وجل ، ليحتذيه كل من ولى من أمور الناس شيئا ، وانظر إليه بعد هذا ، كيف يهتم بغياب الهدهد ، ويسأل عنه ، ويتوعده بالعقوبة الصارمة ؟ خبرنى بربك ، ماقيمة هدهد فى هذه الجيوش الجرارة ؟

ما غناء هذا الهدهد إذا حضر وما مضرته إذا غاب ؟ . . هو القائد الحكيم يا أخى يرى أن لكل شىء رسالة صغر أو كبر . ولكل جندى عملا لايؤديه غيره ، فإذا غاب أو أهمل ، اختل التناسق فى العمل ، وأدركه الاضطراب والخلل ، ومن هنا يعظم فى صدر القائد الحساس مايقع من جرائم الغياب أو التقصير ، فيكون حازما فى مؤاخذة أصحابها مؤاخذة تحمل العذاب الشديد ، وتمتد إلى عقوبة الإعدام ﴿ لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ وفى المجال قول كثير ، وتعليق مستفيض ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أن الله عز وجل اختار لنا من يقظة سليمان ، هذا المقال ، ليعلمنا أن الذى يهتم بصغار الأمور هذا الاهتمام ، يكون بكبارها أشد رعاية واهتماما ، وأن الذى يحاسب الحساب العسير الحازم على ما قد يبدو تافها ، لايمكن أن يفرط فى المؤاخذة على الأخطاء الجسيمة .

ثم هو لم يأخذ اعتذار الهدهد قضية مسلمة ، بل وضعها موضع التحقيق والاختبار فقال **﴿ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾** .

وأما ايمانه بالغاية ، والعمل لها ، وعدم الركون إلى غيرها ، من مال أو نحوه ، فيتجلى لك من أول القصة إلى آخرها ، فليس له هدف إلا الله ، وتسخير كل شيء لله . وحسبك منه انصرافا عن كل ماعدا الله ، أنه سخر برسل بلقيس ملكة سبأ وبهديتهم ، وقال هذا القول الذى يصور إعراضه عن المال ، وتهكمه بأهله أصدق تصوير ، فلما جاء سليمان قال متهكما : **﴿ أتمدونن بمال ؟ فما آتانى الله خير مما آتاكم ، بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ﴾** ولقد روى الله تبارك وتعالى عن صاحب الكهف مايشبه ذلك : **﴿ قالوا : ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض - فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا . قال : مامكنى فيه ربى خير - من المال - فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ﴾**(١) .

(٤) إيمان أفراد الشعب برسالة الدولة :

ورابعة ننقلها من هذه القصة ، ولابد من النص عليها : أن كل فرد من الرعية - يجب أن يؤمن بغاية الدولة ، وأن يجند نفسه لها ، وكل مامضى مما قررناه يصبح عديم الجدوى .

- إذا شذ أفراد الرعية ، فاتجهوا إلى غير هذا الاتجاه ، وأنت ترى الهدهد ، يعتز بواجبه ، ويقول فى ثقة المؤمن العامل لغايته العليا مخاطبا سليمان ، وهو حاكم الجن والإنس :

﴿ أحطت بما لم تحط به ! وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم و . . الخ ﴾ ومن حق خطاب الهدهد بهذه اللهجة العجيبة ، أن نتأمله وندرسه ، لنرى أنه ليس خطاب المهمل المذنب المضطرب ، وإنما هو خطاب الذى رضى عن نفسه ، واطمأن إلى أداء واجبه فهو لايعبأ أن يخاطب أعظم مخلوق بلغة الحق القوى ولو كان هو سليمان حاكم الإنس والجن .

يأيها الناس ، يأيها الشباب ، اعرفوا واجبكم . واسعوا فى صدق إلى غايتكم ، فإن أمة لايساوى رجالها هدهدا لهى أمة من الغثاء والهباء ، وإن أمة هدهدها خير من رجال لهى أمة مقعدها فى السماء فوق هامة الجوزاء .

وماذا بعد هذا فى هذه القصة يأخى ؟ فيها أن فساد العقيدة والعمل كما رأيناه فى دولة سبأ ، لا يخلق إلا رجالا لاعقول لهم ولا حمية ، من هذا الطراز الذى جمعته بلقيس ، لتستشيرهم فيما نزل بها من خطب جسيم ، فلم يكن عندهم من غناء ، إلا أن قالوا : **﴿ الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين ﴾** وماجمعتهم لهذا ، وإنما جمعتهم لتقول لهم . **﴿ ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ﴾** فلم يسعفوها برأى تستأنس به ، وهذا ضرب من الرجال لا تقوم به دولة . ولا تبنيه إلا عقيدة زائفة ، ونظام من العمل فاسد مضطرب . فالعقيدة العقيدة أيها الإخوان .

نحن فى هذه القصة أمام أربع معان دقيقة خطيرة ، لاتقوم دولة عظيمة إلا بها .

---

(١) الكهف الآيتان ٩٤ ، ٩٥

١) قوة وعلم ٢) رسالة مجيدة ٣) إيمان الرئيس الأعلى وتفقده - فى انتباه - كل شىء ٤) إيمان أفراد الشعب بغايتهم وشدة إخلاصهم لواجبهم .. فخبرنى ياأخى ، لو أن قصصيا من الأفذاذ النوابغ ، أراد تصوير هذه المعانى الجليلة ، أكان يعرضها عليك فى مثل هذه القوة ، وفى مثل هذا الوضوح ، الذى يفوق ضوء الشمس فى شدة جلائه ، أو كان يعرضه عليك فى مثل هذا القدر الوفير من البيان الرائع المعجز !! .

ولسنا بصدد إعجاز القرآن فنحدثك عن أحكام التعبير ، ودقة التركيب ، وسداد مراعى الإرشادات ؛ أو نحدثك عن خلود المعانى والقوانين الصحيحة التى ضمنها الله هذه القصة ، فهو نوع من أسرار الإعجاز ، إذ لا يلتفت إلى هذا النظام الكامل للدولة العظيمة بشر .. لايحيط به إلا الله الذى خلق كل شىء وأحاط بكل شىء علما ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[1] وصدق الله العظيم : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[2] .

أقول : لسنا بصدد شىء من إثبات هذا الإعجاز القرآنى وإنما بصدد طبيعة القصة ، فى عرضها للمعانى الدقيقة عرضا مصورا فى حوادث عملية . ونحسب أن قد قمنا فى تحليل هذه القصة بقدر يكفى بالإقناع لما قصدنا إليه .

والآن نسوق إليك القصة بأكملها فى نسقها الإلهى المعجز ؛ قال عز شأنه فى سورة النمل : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين ، وورث سليمان داود وقال : ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين ، وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون ، حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين . وتفقد الطير فقال : مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ . لأعذبنه عذابا شديدا ، أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعيد ، فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شىء ، ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ، ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لاإله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت ياأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وائتونى مسلمين . قالت ياأيها الملأ أفتونى فى أمرى ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا : نحن أولو قوة وأولو بأس شديد ، والأمر إليك

(١) الملك آية / ١٤
(٢) الاسراء آية / ٨٨

فأنظرى ماذا تأمرين . قالت : إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال : أتمدونن بمال ؟ ! فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون . ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، قال : ياأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى آمين . قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال : نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لايهتدون . فلما جاءت قيل : أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو ، وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ماكانت تعبد من دون الله ، إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها أدخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال : إنه صرح ممرد من قوارير ، قالت : رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ .

وأنت ترى فى القصة بعد تلاوتها الآن أن فيها لطائف دقيقة ، كالنص على حقيقة الاستعمار وسوء عاقبته على الذين يحل بهم فى قوله تعالى :
﴿ **إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة** ﴾ وإن هذا ديدنهم فى كل زمان ومكان ﴿ **وكذلك يفعلون** ﴾ فلا ينفكون عنه .. وترى فطنة بلقيس ، وتوقد ذكائها فى إدراكها معنى الاستعمار ، كما ترى هذا الذكاء فى تريثها ، واختبار حقيقة سليمان ، فإنها لم تحاول أن ترشوه بالمال وإلا كانت غبية . وإنما حاولت أن تختبر حقيقته ، فإن كان ممن يعملون للمال فقد أسكتته الهدية ، ورضى بما يدفع له من خراج ، وإذا كان من أرباب العقائد والإيمان بما يدعوها إليه فى خطابه ـ فسوف يرد الهدية ولا يقبل إلا السيف ، فإذا تبين لها ذلك كان حقا عليها ـ وهى العاقلة الذكية ـ ألا تترد فى مبايعة هذا المؤمن ، فذلك مقتضى الحكمة ..

وهو الذى قد كان كما ترى فى القصة .. ومحاولة الاختبار تلمحها فى قول بلقيس : ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية ، فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ فقولها : ﴿ **فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ يضع يديك على رغبة الاختبار الذى قصدت إليه .. وتلمح هذا الذكاء أيضا حين عرضوا عليها عرشها ، وقد نكروه ، فغيروا معالمه بالزيادة والنقصان ، وقالوا لها : أهكذا عرشك ؟ فلم تقل : إنه هو ، لأنها تركته وراءها فى بلادها والمسافة بعيدة ، ولكنها فى الوقت نفسه لم تقل ليس عرشى ، لأنها تراه بكثير من معالمه وصفاته .. ولم تقل لاأدرى لأنه غباوة وبلادة ذهن ، فخرجت من هذا السؤال المحرج ، بهذه الإجابة الكيسة اللبقة ، التى ماكان يصلح للموقف غيرها .. فقالت : ﴿ **كأنه هو** ﴾
وتر فى القصة غير هذا من اللفتات اللبقة الدقيقة ، نتركه آسفين خوف الإطالة والإملال .
فعليك بقصص القرآن ياأخى ، وادرس أغراضه ومعانيه ، واجعله من وسائلك فى تبليغ دعوتك ، فإنه يسعفك بما لايسعفك به قصص آخر .

* صالح مع قومه ثمود *

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾

معانى المفردات : (يختصمون) يتنازعون (اطيرنا) تطيرنا أى تشاءمنا والطيرة تعليق الخير أو الشر على طيران الطائر يمينا أو شمالا (تفتنون) تمتحنون (رهط) الرهط اسم للجماعة (لوليه) من له ولاية دمه (مهلك) هلاك .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون ﴾**

هذا أمر بتوحيد الألوهية ، وهو إفراد المعبود بالعبادة ، دون أن يشرك به ، كما قال سبحانه : **﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾**(١) وتلك رسالة الأنبياء جميعا ، اشتملت على هذا المبدأ الوطيد ، قال تعالى : **﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾**(٢) .

وقال : **﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون ﴾**(٣) .

وقال : **﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من**

---

(١) سورة الكهف آية رقم آ ١١٠
(٢) سورة هود الآيتان ٢٥ / ٢٦
(٣) سورة هود الآية آ ٥٠

الأرض واستعمركم منها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب ﴾[١] .

وقال سبحانه : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون ﴾[٣] وقال عز من قائل : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ قال مجاهد : مؤمن وكافر كقوله تعالى : ﴿ قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أى لم تستعجلون العذاب ، وكان الواجب عليكم بمقتضى عقولكم أن تطلبوا الهداية والرحمة ، قال تعالى : ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا ﴾[٦] .

لقد قالوا ـ وهم كفار مكة ـ ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾[٧] .

وكان المنطق السليم يقتضى أن يقولوا : فاهدنا إليه ، لكنهم لما ملئت قلوبهم ظلما وعلوا لم يهتدوا صراطا مستقيما ، ولذا قال صالح لقومه : ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ أى كان عليكم أن تطلبوا المغفرة من الله تعالى ، ليرحمكم بدلا من أن تطلبوا العذاب ، فإن الله هو التواب الرحيم .

قوله تعالى : ﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون ﴾ أى مارأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيرا ، وذلك أنهم لشقائهم كان لايصيب أحدا منهم سوء إلا قال هذا من قبل صالح وأصحابه . قال مجاهد : تشاءموا بهم ، وهذا كما قال الله تعالى إخبارا عن قوم فرعون : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾[٨] .

وقال تعالى : ﴿ وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل كل من عند الله ﴾[٩] . أى بقضائه وقدره ثم قال تعالى بعد ذلك) فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ﴾ وقال سبحانه فى سورة يس ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها

(١) سورة هود الآية آ ٦١
(٢) سوره هود ايه رقم ا ٨٤
(٣) سورة الأنبياء آية رقم آ ٢٥
(٤) سورة الزخرف آية رقم آ ٤٥
(٥) سورة الأعراف آية رقم آ ٧٥
(٦) سورة الأسراء آية رقم آ ١١
(٧) سورة الأنفال آية رقم آ ٣٢
(٨) سورة الأعراف آية رقم آ ١٣١
(٩) من النساء آية رقم آ ٧٨

المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ماأنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون وماعلينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم . لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم . قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾(١) .

وقال هؤلاء لنبيهم صالح عليه السلام ﴿ اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله ﴾ أى الله يجازيكم على ذلك .

﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ قال قتادة : تبتلون بالطاعة والمعصية .

قال تعالى : ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾(٢) كما قال : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون . قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ماشهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون . ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

قوله تعالى : ﴿ وكان فى المدينة ﴾ أى مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط) أى تسعة نفر ﴿ يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم . وهؤلاء هم طغاة البلاد وجبابرتهم ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ومايمكرون إلا بأنفسهم ومايشعرون ﴾(٤) .

وقال سبحانه : ﴿ وماأرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾(٥) .

قال العوفى عن ابن عباس : هؤلاء هم الذين عقروا الناقة ، أى الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم ، قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك ـ وكان من هؤلاء التسعة ـ قدار بن سالف عاقر الناقة ، أى الذى باشر ذلك بيده .

قال تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾(٦) وقال سبحانه :

﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعث أشقاها . فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها . فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولايخاف عقباها ﴾(٧) .

ووجوه الإفساد فى الأرض كثيرة لاتحصى فقول الله تعالى : ﴿ يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾ يفيد أن إفسادهم اكثر من أن يستقصى ، فكل المعاصى إفساد ، سواء أكانت فى العرض ،

(١) سورة يس الآيات رقم آ ١٣ إلى آ ١٩
(٢) سورة الأنبياء الآية رقم آ ٣٥
(٣) سورة الفرقان الآية رقم آ ٢٠
(٤) سورة الأنعام الآية رقم آ ١٢٣
(٥) سورة سبأ الآية رقم آ ٣٤
(٦) سورة القمران الآية رقم آ ٢٩
(٧) سورة الشمس الآيات من ١١ ـ ١٥

أم المال ، أم النفس ، أم العقل ، فإن وجوه الفساد لاتكاد تقف عند حد ، قال تعالى فى صفة أهل الفساد : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لايعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[(١)] وقال عز من قائل : ﴿ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لايحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[(٢)] .

وقال تعالى : ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ﴾[(٣)] .

وقال عز من قائل : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . إذ قال له قومه لاتفرح إن الله لايحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك . ولاتبغ الفساد فى الأرض . إن الله لايحب المفسدين ﴾[(٤)] .

وقال جل جلاله : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾[(٥)] وقال جل جلاله : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ﴾[(٦)] .

وقوله تعالى : ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ أى تحالفوا وتبايعوا على قتل نبى الله صالح عليه السلام من لقيه ليلا غيلة . فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم .

ولأئمة التفسير فى هذه الآية الكريمة أقوال :

قال مجاهد : تقاسموا وتحالفوا على هلاكه فلم يصلوا إليه حتى هلكوا وقومهم أجمعين .

وقال قتادة : تواثقوا على أن يأخذوه ليلا فيقتلوه وذكر لنا أنهم بينما هم معانيق إلى صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم .

قال العوفى عن ابن عباس : هم الذين عقروا الناقة قالوا : حين عقروها لنبيتن صالحا وأهله فنقتلهم ثم نقول لأولياء صالح ماشهدنا من هذا شيئا ومالنا به من علم فدمرهم الله أجمعين .

وقال محمد بن إسحق قال هؤلاء التسعة بعد ماعقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحا ، فان كان

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٨ ـ ١٦
(٢) سورة البقرة الآيتان ٢٠٥ ـ ٢٠٦
(٣) سورة القصص آية رقم آ ٤
(٤) سورة القصص الآيتان آ ٧٦ ، ٧٧
(٥) سورة القصص آية رقم آ ٨٣
(٦) سورة الأنفال آية رقم آ ٧٣

صادقا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا ، كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوه ليلا ليبتوه فى أهله ، فدفعتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطأوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم منشدخين قد رضخوا بالحجارة ، فقالوا لصالح أنت قتلتهم ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لاتقتلونه أبدا وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فان كان صادقا فلا تزيدوا ربكم عليكم غضبا ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون فانصرفوا عنهم ليلتهم .

قال عبد الرحمن بن أبى حاتم : لما عقروا الناقة قال لهم صالح : ﴿ **تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب** ﴾[(١)] .

قالوا زعم صالح أنه يفرغ منا إلى ثلاثة أيام فنحن نفرغ منه وأهله قبل ثلاث ، وكان لصالح مسجد فى الحجر عند شعب هناك يصلى فيه ، فخرجوا إلى كهف أى غار هناك ليلا ، فقالوا إذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا إذا فرغنا منه إلى أهله ففرغنا منهم ، فبعث الله عليهم صخرة من الهضب حيالهم فخشوا أن تشدخهم فتبادروا فانطبقت عليهم الصخرة وهم فى ذلك الغار ، فلايدرى قومهم أين هم ولايدرون مافعل بقومهم : فعذب الله هؤلاء ههنا وهؤلاء ههنا وأنجى الله صالحا ومن معه ، ثم قرأ ﴿ **ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لايشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية** ﴾ أى فارغة ليس فيها أحد ﴿ **بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون . وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾

المكر من العبد حيلة سيئة وخداع ، والمكر من الله تعالى بطش انتقام ، قال سبحانه : ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة مكرهم** ﴾ أى خداعهم ﴿ **أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **وهم لايشعرون** ﴾ دليل على أن الله سبحانه يمهل ولا يهمل ، بل إنه ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، قال سبحانه : ﴿ **فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[(٢)]

وقال عز من قائل : ﴿ **ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لايرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء** ﴾[(٣)] .

إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها إقرأ قوله جل شأنه : ﴿ **فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لايشعرون** ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة هود آية رقم آ ٦٥
(٢) سورة القلم الآيتان رقم ٤٤/ ٤٥
(٣) سورة ابراهيم الآيتان رقم ٤٢/ ٤٣
(٤) سورة يوسف الآية رقم آ ١٥

وقال عز من قائل : ﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون ﴾[١] .

وقال عز من قائل : ﴿ وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون ﴾[٢] .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون . أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾[٣] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾[٤] .

وقال عظمت حكمته : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون ﴾[٥]

وقوله تعالى : ﴿ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ﴾ ب١جزاء ماكذبوا وخدعوا وضلوا وأضلوا ﴿ إنهم كانوا لايرجون حساباً وكذبوا بآيتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[٦] .

﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ أى ساقطة سقطت سقوفها وعروشها ، كما أن جدرانها قد هوت على سقوفها أمست خرابا وأفنى الموت أهليها ، أصبحت تنعق فوقها البوم والغربان بسبب ظلمهم وطغيانهم ، فالظلم لايدوم وإذا دام دمر ، والحرام لايدوم وإذا دام لاينفع ، إن فى ذلك لآية وعبرة لقوم يعلمون ، أما الغافلون فهم كالأنعام بل هم أضل لايهتدون سبيلا ولا يعرفون للحق طريقا .

﴿ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾

قال تعالى : ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾[٧] .

وقال سبحانه : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٨]

ثم كانت نهاية المطاف أن وقف نبى الله صالح وقال : ﴿ ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين ﴾[٩] .

---

(١) سورة القصص الآية رقم آ ٩
(٢) سورة القصص الآية رقم آ ١١
(٣) سورة الزخرف الآيتان رقم ٧٩/ ٨٠
(٤) سورة الأنفال الآية رقم ٣٠
(٥) سورة الأعراف الآيتان ٩٤/ ٩٥
(٦) سورة النبأ الآيات ٢٧ ـ ٣٠
(٧) سورة يونس آية ١٠٣
(٨) سورة فصلت الآيتان ١٧ ، ١٨
(٩) سورة الأعراف الآية رقم ٧٩

لوط عليه السلام وقومه

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟
أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ
قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

معانى المفردات

الفاحشة : الفعلة القبيحة المنكرة ، والمراد بها إتيان الذكور فى أدبارهم . قدرناها : قضينا أنها من الغابرين ، أى الهالكين فى العذاب . يتطهرون : أى:ينزهون أنفسهم ، ويتباعدون مما نفعله ويزعمون أنه من القاذورات

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه ﴾ أى:ولقد أرسلنا لوطا إلى قومه - أهل سدوم - فقال لهم مؤنبا وداعيا :

﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ ؟ أنكر عليهم إتيان الفعلة المتناهية فى الفحش ، حتى كأنها المعروفة به وحدها ، ومن العجيب أنهم يأتونها وهم يبصرون ، ويعلمون أنها فاحشة وماكانوا يستترون حين فعلها ، بل يبصرون وينظرون بعضهم لبعض عتوا وتمردا ، واستكبارا فى الأرض وفسادا .

أئنكم لتأتون الرجال فى أدبارها ؟ متجاوزين النساء وهن محل ذلك العمل وخلقن من أجله ، تأتون ذلك الفعل المنكر للشهوة فقط لا لشىء آخر ، وهذا تفسير للفاحشة التى ذكرت أولا ، بل أنتم قوم تجهلون حقيقة ماخلقت المرأة له وتجهلون أنفسكم ومكانكم فى المجتمع الإنسانى ، وتجهلون خطر ما أقدمتم عليه ومقدار دعوة نبيكم الذى أرسل رحمة لكم ، فما كان جواب قومه على هذا إلا أن قالوا :

أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون !! ياللعجب يأمرون بإخراج لوط ومن آمن به من القرية ، لأنهم أناس يتطهرون !! ياللعجب العاجب . من الناس من ينقمون على إخوانهم ، لأنهم آمنوا بربهم . ودعوا غيرهم إلى الدين الحق .

ولكن هل يغفل الحق-تبارك وتعالى-أمر هؤلاء وهؤلاء ؟ لا . أبدا . . لن يكون ذلك ، فهذا لوط مع قومه العتاة العصاة المتجبرين ، قد نجاه الله وأهله والذين آمنوا معه إلا امرأته ، فقد قضى عليها أن

تكون من الهالكين ولم ينفعها قربها من لوط مادامت تستحق الهلاك لكفرها ، وأمطر الله على العصاة المتكبرين مطر السوء ، وأبادهم وخسف بهم الأرض ، فساء وقبح مطر المنذرين ، وتلك عاقبة العصاة الفاسقين .

* الإيدز عقاب الله *

تحت هذا العنوان كتب الأستاذ السيد جويل بحثا عن الشذوذ الجنسى قال : منذ صيف عام ١٩٨١ وقد اكتشف مركز مقاومة الأمراض بولاية جورجيا الأمريكية المرض توالت أقلام الكتاب والباحثين الكتابة عنه دون إصدار كتاب باللغة العربية .

ولم يرفع النقاب عنه فى مصر ، إلا حينما دق ناقوس الخطر ، مما دفع إحدى المجلات المصرية أن تفاوض مسئولا كبيرا حول مخاوفها من انتشاره مع أحد المصريين أثناء اغترابه فى عملية نقل دم له بمستشفيات الغرب ، وأصبحت البلاد الإسلامية على خطر داهم ، إما من المنحرفين والعصاة الآتيين إليها من ملاهى أمريكا وأوروبا وأماكنها المشبوهة ، أو فى استيراد الدماء والمستحضرات الدموية من تلك البلاد الموبوءة ، ولاسيما أمريكا ، فرغم أنها تحذر وتتأكد من خلوهامن الإيدز فمن يضمن لنا إجابة هذا السؤال المطروح ؟ هل ستلتزم بهذه القواعد الصارمة عندما يتعلق الأمر بالبلاد الإسلامية وبمصالحها الإسلامية ؟ !

خاصة .. بعد أن أصبحت أنباء الإيدز تحتل الصفحات الأولى من الصحف وأغلفة المجلات العالمية ، وأصبحت تفرد له برامج تليفزيونية وإذاعية بل وصل الأمر إلى تكوين جماعات مهمتها الإنذار والتحذير من العدوى وأخرى لمساعدة المرضى بعد أن أصبح المريض منبوذا :

- فصاحب السكن والعمل يطرده .
- وتتبرأ منه عائلته وأصدقاؤه .
- وترفض الممرضات فى المستشفيات استقباله . حتى أن أحد متعهدى دفن الموتى قد رفض دفن جثة أحد الهالكين بالمرض وصدق أحد الباحثين فى قوله :

« أصبح الناس يفرون من مرض الإيدز كما كانوا يفعلون فى القرون الوسطى مع مرض الطاعون »

حتى وصل الأمر بأن بعض رجال الشرطة والعاملين فى الخدمات العامة قد امتنعوا عن التعامل مع الأشخاص المصابين .. مما دفع المجلس البلدى للمدينة إلى اصدار قرار يعاقب من يميز بين هؤلاء المرضى وبقية السكان .

ومما زاد الرعب فى العالم ارتباط المرض باسم الممثل العالمى روك هدسون المشهور ، والذى عاقبه الله لشذوذه الجنسى - واجترائه على الفطرة بأن داهمه المرض ، ففر عنه معجبوه ، وأصبح آية لعالم الشواذ ، ودليلا لعقاب الله للمجتمعات البشرية الضالة . ويخدعون الشباب اليوم بالمغنى مايكل جاكسون المخنث ، وهو أحد المصابين بهذا المرض الذين ينتظرون الموت والهلاك كذلك .

ثم قال :

ماأصدق ماقاله الصادق المصدوق حين أخبر أن الفاحشة إذا ظهرت فى قوم ابتلاهم الله بالأوجاع والأمراض ، روى ابن ماجه قوله ﷺ : (ولم تظهر الفاحشة فى قوم قط يعمل بها علانية إلا فشا فيها الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم) .

وهذا مجتمع أمريكا وقد انتشر فيه الشواذ جنسيا ، وأصبحت لهم نواد علنية يمارسون فيها الشذوذ وطغت فيهم الفاحشة فى أحط صورها ، فأصابهم الله بمرض يحكم على صاحبه بالإعدام ، فمنذ أن اكتشف فيروس المرض فى عام ١٩٨١ بولاية جورجيا الأمريكية وتستقبل المستشفيات الشباب الذين تتراوح أعمارهم مابين ٢٠ ، ٣٠ سنة ، وهم أقرب إلى الأشباح مما أصابهم من شحوب وهزال . . وأصبح المجتمع الأمريكى يصبح ويمسى فى رعب من اللعنة القادمة والهلاك المدمر ، حتى أنه قد انتشرت لافتات التحذير من عدوى الإيدز فى كل مكان على الفنادق ودورات المياه العامة وغيرها .

وقد أعلنت وزارة الصحة الأمريكية فى تقرير لها توقعاتها بظهور مايقرب من ٣٥٠ ألف حالة إيدز سنويا فى أرجاء أمريكا ، وماتم رصده منذ خمس سنوات حوالى ١٢ ألف حالة توفى نصفهم ، وحاليا فى نيويورك وحدها يوجد مليون مصاب ٩٣ ٪ منهم من الرجال كلهم معرضون للموت المحقق . وفى الوقت الذى يعلن فيه ريجان فلسفة ردع الاعتداء بالقوة ، فإنه أمام خطر الإيدز تقف حكومته مشلولة أمام عقاب الله لهم بمرض اللاشفاء أو قل مرض الموت والهلاك ، ولذا فقد أعلن شيلى لينجل رئيس الشئون الصحية بأمريكا أن الحكومة أنفقت ١١٠ ملايين دولار هذا العام على الأبحاث الخاصة به فى حين أنها خصصت ١٢٦ مليونا أخرى للعام القادم ولم تصل الأبحاث بعد إلى مصل واحد من المرض ، ويحذر الدكتور روبرت جالو وهو أحد مكتشفى فيروس لإيدز من أن عدد المصابين بالإيدز سوف يتزايد ويصيب نوعيات مختلفة وجديدة فى المجتمع الأمريكى . هذا فى الوقت الذى يتكلف فيه مريض الإيدز مابين ٥٠ ألفا ، ١٥٠ ألف دولار لعلاجه دون احتمال لشفائه حتى الآن ، بل أن أحد مشاهير الأطباء ممن يعملون فى مجال الإيدز قد أعلن :

« إن من يعملون فى المعركة مع الإيدز أشبه بغريق فى خضم الأمواج يبحث عن قشة يتعلق بها لينجو »

وذلك لأن الاصابة بالمرض تبقى خافية فى دور الحضانة فترة من الزمن قد تمتد إلى خمس سنوات أو أكثر ثم لايلبث أن يلقى حتفه بعد ثلاث سنين من ظهور الأعراض .

ويرى البروفيسور غالو : وهو من أبرز الباحثين المهتمين بهذا المرض أن ٩٨ ٪ من الحاملين لهذا المرض لايزالون غير مكتشفين وغير معروفين .

ـ وزحف هذا المرض فى غير المجتمع الأمريكى إلى مجتمعات الشذوذ والفاحشة ، فتظهر فى فرنسا ٣٠٠ حالة حتى أبريل الماضى وتزداد فى سويسرا مما دفع الحكومة إلى تخصيص مبلغ ٨ ملايين دولار لمنع زحفه وانتشاره .

وفى ظل هذه الحقائق تنبهت مجتمعات الغرب إلى ماهى فيه من انحطاط وترد ، فبدأت عمليات فرز الشواذ والابتعاد عنهم ونبذهم ، وخلت شوارع أوروبا والبرازيل من الشواذ والمنحرفات ، وهجر

الأمريكيون المطاعم التى يشتهر عن جرسوناتها ممارسة الشذوذ ، وقد أصبحت مواطن الشذوذ من مقاه وملاه خالية من زبائنها ، واجتاح الذعر قلوب الشواذ لدرجة أنهم قاموا بمظاهرات لمطالبة الحكومة الأمريكية بحمايتهم من هذا الوباء القاتل . المدمر . . الفتاك ، الذى يفتك بالخلايا الدموية البيضاء ، وهى العنصر الذى لايمكن الاستغناء عنه فى جهاز المناعة بالجسم البشرى ، ويفتك كذلك بخلايا المخ والجهاز العصبى إلى حد قد يصل إلى تدميرها على أنه يصيب خلايا العين .

وهناك حقيقة كبرى لايراها غير المتأمل البصير ، وهى أنه لا تطغى الشهوة فى مجتمع ، إلا إذا تخلى عن الإيمان ونحى دين الله بعيدا عن الحياة ، فحينما تخلى قديما قوم لوط عن منهج الله طغت فيهم الشهوة فى أحط صورها . . فكان عقاب الله لهم بأن جعل عالى القرية سافلها .

ولم يكن ذلك عقابا وانتهى ليتعظ الناس . . وتتناقله القصص والروايات . . وإنما كان عقابا ممتدا ودرسا مستمرا مكرورا :

﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[1] .

وما يحدث اليوم فى مجتمعات الأرض الكافرة التى شردت عن المنهج من عقاب لأفصح بيان لهذه الحقيقة .

وقد رأينا طرفا مما تتكلفه هذه المجتمعات الضالة فى جاهليتها الحديثة من جراء معصيتها ونكوصها عن الطريق السوى وتنكبها منهج الله الذى فيه الصلاح والطهارة والنقاء .

ثم قال : إن اللواط والسحاق والممارسات الجماعية للجنس والزواج التجريبى أو الحب السابق للزواج ونوادى العراة وعلب الليل والأفلام الماجنة والصور الخليعة . . كل هذه وغيرها باتت السمة المميزة للمجتمعات البشرية فى شتى أنحاء الأرض .

هذه الثورة الجنسية المحمومة ، التى اندلعت فى تلك المجتمعات ، كانت نتيجة متوقعة منذ اللحظة الأولى ، التى بدأ فيها الفكر المادى يجتاح الوجود الإنسانى . . منذ اللحظة التى قطع الناس فيها صلتهم بالسماء ، وأنكروا وجود ضوابط أخلاقية لحياتهم وعقوبات ربانية لتصرفاتهم .

منذ تلك اللحظة غدا الإنسان حيوانا ، يغيش بغرائزه ولها ، ويحيا لنزواته وبها ، فصارت الشهوات أكبر همه ، وأصبحت الدنيا مبلغ علمه ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾[2]

وإذا كان الله ـ تعالى ـ قد دمر من قديم قوم لوط ، بأن جعل عالى القرية سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل يتلو بعضها بعضا ، لانحرافهم عن منهج الله ، وشذوذهم عن الفطرة ، فيجب على الناس أن يتيقنوا أن أمثال هذا العقاب الإلهى ليس ببعيد عنهم ، إن هم ساروا على نهج قوم لوط أو غيرهم ، ممن أداروا ظهورهم لدعاة الحق ﴿ وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾[3]

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٤
(٢) سورة الأعراف آية رقم : ١٧٩
(٣) سورة الجاثية ٢٤

وإن أراد الناس دليلا ماديا على صدق ما نقول ، فهاكم تلك الظاهرة المرضية العجيبة الغريبة ، التى بدأت تنشر الفزع فى أوساط الممارسين للشذوذ الجنسى فى المجتمعات الغربية ، والتى اصطلح على تسميتها (إيدز) وهى اختصار لمجموعة من الكلمات معناها : ظهور عوارض نقص المناعة .

ولقد أعلنت منظمة الصحة العالمية أثناء اجتماعها فى الدانمارك ، أن هذا المرض قد هاجم الدول الأوروبية بدرجة كبيرة ، ففى بريطانيا يوجد ٢٤ مصابا وفى فرنسا ٩٤ مصابا ، وفى ألمانيا الغربية ٤٢ مصابا ، وفى بلجيكا ٣٨ مصابا ، وفى سويسرا يوجد ١٧ مصابا .

والمعروف أن هذا المرض يبدأ بالأعضاء التناسلية ، ثم يشمل بقية الجسم ويتسبب فى الوفاة وحتى الآن لايعرف الأطباء السبب الكامن وراء الإصابة به ، كما أنهم لايعرفون له علاجا وإن كان معظم المصابين به من الشواذ جنسيا .

ثم يمضى كاتب هذا البحث فيقول : ولقد كتب الأستاذ أنيس منصور فى عموده المعروف (مواقف) فى أهرام ٨/ ١٠/ ١٩٨٣ مايلى :

(ليست الحروب الجديدة هى التى أفزعت أمريكا وأوروبا أخيرا ، فقد اعتاد العالم على الحروب . ففى العالم الآن ٤٣ حربا بين الدول المتجاورة ، وإنما هو ظهور مرض جديد يسمى (إيدز) وهى حروف أولى لكلمات معناها : ظهور أعراض نقص المناعة . ويكون ذلك على شكل دمامل وأورام وفقر دم حاد ، وتتلاشى الكريات البيضاء فى الدم ، الكريات التى تساعد على المقاومة ، والكريات التى توقف المقاومة عند حد معين .

أما المرض المفاجىء فيجىء عن طريق الشذوذ الجنسى عند الرجال والنساء أو للإسراف فى الجنس ، وقد يصيب الأطفال فى بطون أمهاتهم وعن طريق الاختلاط بكل أبناء جزر تاهيتى الموجودين فى أمريكا .

أما ضحايا هذا المرض فهم ٧٥ ٪ من كل الذين يصابون به بعد سنة أو سنة ونصف ، وكان الشواذ جنسيا قد اكتسبوا حقوقا كثيرة فى أوروبا وأمريكا ، حق الزواج الشاذ ، وفتح الأندية والمظاهرات . . وارتداء الملابس الخليعة .

ولكن بعد ظهور هذا المرض بدأت الأندية الشاذة تغلق أبوابها ، وبدأت الشركات والمحلات تطرد الشواذ ، بل إن بعض الآباء طردوا أبناءهم وبناتهم ، كما أن بعض المحلات امتنعت عن البيع لهؤلاء الشواذ ، حتى لاتنتقل العدوى إلى بقية الزبائن .

وكانت فرحة رجال الدين والتعليم والتربية عظيمة ، وهذا المرض أكبر عقوبة للشواذ وللذين أعطوهم هذه الحقوق الهائلة ودقت أجراس الكنائس تعلن نهاية الحضارات الغربية بسبب الانحراف الجنسى ، وكما يحدث دائما سوف يجد العلماء والأطباء تفسيرا لظهور هذا المرض الشاذ ، وسوف يعرفون الميكروب أو الفيروس ناقل العدوى ، ويجدون علاجا لذلك تماما ، كما اهتدوا إلى علاج الزهرى والسيلان واكتشفوا حبوب منع الحمل .

ومع ذلك فليست هذه العقاقير ولا هذه الحبوب هى التى تمنع الإنسان عن الرذيلة أو الانحراف

وإنما يمنعه دينه وأخلاقه .. يمنعه الخوف من الحرام والرذيلة .. يمنعه أنه هو شخصيا لايريد ذلك ..)

ومن قبل كتب جورج بالوش فى كتابه الثورة الجنسية :

(إن أطنانا من القنابل الجنسية تنفجر كل يوم ويترتب عليها آثار تدعو إلى القلق ، قد لاتجعل أطفالنا وحوشا أخلاقيا فحسب ، بل قد تشوه مجتمعات بأسرها) .

وتعالت فى الغرب ـ مؤخرا ـ صيحات تستنكر الانحرافات الجنسية الخطيرة ، وتذكر الأمريكيين ماصرح بهم رئيسهم كينيدى سنة ١٩٦٢م بأن مستقبل أمريكا فى خطر ، لأن شبابها مائع منحل ، غارق فى الشهوات ، لايقدر المسئولية الملقاة على عاتقه ، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد ، يوجد ستة غير صالحين ، لأن الشهوات التى غرقوا فيها أفسدت لياقتهم الطبية والنفسية .

إن هذه الصيحات وغيرها ، لاتمثل فى نظرنا غير رد فعل عابر غير مرتكز على أسس عقائدية وأخلاقية سليمة ، وتصحيح الواقع الاجتماعى فى رأينا لن يبدأ إلا بعودة الناس إلى خالقهم واستقامة أهل الأرض على منهج السماء .

* سر المرض الفتاك (إيدز) *

*** لايعرف له علاج :**

حالة من الذعر تنتاب الولايات المتحدة ، نتيجة هذا المرض الفتاك ، الذى لايعرفون له علاجا ، وأخذ فى الانتشار بصورة وبائية منذ عام ١٩٨١م ، وزاد الذعر عندما بدأت تظهر حالات فى أناس لم يمارسوا الشذوذ ، ولكن نقل لهم دم من بنوك الدم ، يشتبه فى أنها تبرع من شواذ .

كما ظهرت حالات بين الأطفال !! ودق جرس الإنذار .. وعم التشاؤم فى الأوساط الطبية الأمريكية .

*** ينتشر بين الأطفال :**

والقصة كما تقول النيوزويك تقول :

إن المرض الفتاك نشب فى أوساط الشواذ ، وترعرع بين مدمنى الهيروين واللاجئين الهايتيين ومرض الهيموفيليا (مرض سيولة الدم) ، ويخشى خبراء الصحة العامة أن ينتشر الوباء بين الأطفال وحتى بين المرضى الذين احتاجوا إلى عمليات نقل دم !!! ومع ظهور كل حالة يزداد صوت إنذار الخطر ارتفاعا ، وخاصة لعدم معرفة الأوساط الطبية لأسباب هذا المرض .

*** إصابات قاتلة :**

وقد سمى هذا المرض الجديد Aids وذلك اختصارا لعدة كلمات بمعنى (انهيار وسائل الدفاع الطبيعية فى الجسم) وهذا يقود إلى إصابات قاتلة بأنواع من السرطان قاتلة مختلفة ، وعدوى بأمراض قاتلة ، لايقدر الجسم أن يدافع فيها عن نفسه ، لانهيار هذه الوسائل الطبيعية .

وقد سجل المركز الطبى لمكافحة الأوبئة ٨٢٧ حالة إصابة و ٣١٢ حالة وفاة ونسبة الوفيات من

المرض هى ٣٨٪

ويقول الدكتور هنرى ماسيور من المعهد الوطنى للصحة :

(إنه لايعرف حالة واحدة من الحالات التى قام بدراستها قد نجت من الموت فى مدة أقصاها ثمانية عشر شهرا ، فما إن يصابوا بالمرض بشدة ، إلا وأعتقد أنهم هالكون) .

وقد نشر مرض (الإيدز) الذعر فى مجتمعات الشواذ ، ويشبه (لارى كرامر) حالة الذعر هذه السائدة الآن بين الشواذ فى أمريكا ، بحالة سكان مدينة لندن أثناء القصف الألمانى فى الحرب العالمية الثانية ، فهم لا يعرفون أين تسقط القنبلة الثانية ، ويقول أيضا :

(إنه شخصيا فقد حتى الآن ١٧ صديقا والآخرون فى المستشفيات) .

* عوارض المرض :

ويبدو أن المرض يتسلل إلى المصاب على مدى شهور أو سنوات ، ويظهر على شكل أورام فى الغدد الليمفاوية ، مع نقص فى الوزن ، وعرق فى الليل وانخفاض فى الحرارة ، وفى ٤٠٪ من الحالات تتحول الأورام إلى أورام سرطانية ، وهو نوع من السرطان موجود فى افريقيا الاستوائية .

كما يتعرض (ضحايا الإيدز) إلى أخطار العدوى بأمراض فتاكة ، قلما يتعرض لها الإنسان الصحيح ، ومن أسوأ هذه الأمراض مرض يسببه طفيلى عن نوع (الهربس) وهو يهاجم الجهاز العصبى المركزى .

* اختلال التوازن بين الخلايا :

والخلل الذى يسببه (الإيدز) مرتبط بتناقض شديد فى إعداد الخلايا البيضاء ، وهى الخلايا المجهزة لمجابهة أنواع من الفيروس والفطريات ، وجسيمات من نوع Tb والطفيليات فيختل التوازن بين الخلايا ، التى تعمل على تنشيط الحصانة وتلك التى تعمل على تقليلها ، والنسبة الصحيحة بين الاثنين ٢ : ١ على التوالى ولكنها فى ضحايا (الإيدز) تكون عكس ذلك .

* ومرض آخر يستشرى فى الشواذ :

وعلى نمط مرض (الإيدز) وبالطريقة نفسها ينتشر (الهياتيتى ب) وهو مرض فى الكبد يستشرى فى الشواذ ومدمنى المخدرات ، وأحيانا المرضى الذين ينقل لهم دم ، وينتقل المرض عند الاتصال الجنسى ، أو عدوى من إبر المخدرات الملوثة ، أما السبع حالات التى ظهرت فى مرض الهيموفيليا (سيولة الدم) فقد تكون عدوى منقولة بسبب تعاطى هؤلاء المرضى (عوامل تخثر الدم) بانتظام .

ومن الحالات المحزنة إصابة طفل فى سنته الثانية ، وكان قد تلقى عمليات نقل متعددة ، وقد أمكن تتبع مصدر الدم وكانت منها وحدة مأخوذة من رجل توفى (بالإيدز) وحيث إن الرجل كان سليما

وقت تبرعه بالدم ، فلا يمكن للأطباء الجزم بأنه السبب فى مرض الطفل .

وقد سجلت اثنتان وعشرون حالة مرض (بالإيدز) فى الأطفال حتى الآن ، ويؤكد الدكتور (جيمس أوليسك) فى مركز سانت ميشائيل الطبى فى نيوارك بنيوجيرس ، بأن الثمانى حالات التى عالجها فى الأطفال ، هى حالات (إيدز) وأن الأطفال المصابين من عائلات تعتبر شديدة التعرض للإصابة بالمرض بسبب نشاطها الجنسى الشاذ ، أو استعمال المخدرات أو الأصل الهايتى ، وقد تكون إصابة هؤلاء الأطفال ، قد حدثت عن طريق المشيمة فى أثناء الوضع ، أو بحكم التصاق المولود بأمه ، ويبدو الطفل طبيعيا عند الولادة ، ولكن سرعان ما يبدأ فى فقد الشهية مع حمى وسعال ، وأحيانا إسهال وطفح جلدى ثم التهاب حاد يهدد الحياة .

ولا يعرف أحد الصلة بين المرض وهايتى ، وهناك نظرية تقول : إن المرض كان كامنا وغير وبائى فى الجزيرة ، والتقطه شواذ ممن يتخذون هايتى مرتعا لسياحتهم ولهوهم .

وقد باءت جميع محاولات عزل العامل المسبب (الإيدز) بالفشل ، ولم يقدر البحاث أن ينقلوا (الإيدز) للحيوانات بحقنهم بدماء المرض كخطوة أولى منطقية .

*** إعادة النظر فى أساليب نقل الدم :**

والوقاية خير من العلاج . وستعيد دائرة الصحة والخدمات أساليب نقل الدم والتبرع به ، ويقترحون عدم قبول التبرع من المستهترين والشواذ ، ولكن موظفى الصحة العامة بالولايات المتحدة ، ينصحون بعدم المبالغة فى إنذار لا موجب له ، حيث إن حالة واحدة فقط هى التى تأكدت .

سببها نقل الدم والمخاطرة بالنسبة لعدد السكان قليلة ، والحاجة إلى الدم أهم من التخوف من الإيدز حاليا وكان هذا رأى الدكتور هارولد ياف .

*** بعض الشواذ يرتعدون !!**

وقد بدأ الكثير من الشواذ فى تغيير خط حياتهم ، وبدأت مظاهر الكساد تنزل بالحمامات وغيرها ويقول كرامر :

(إن الشواذ أصبحوا أقل إقبالا على ممارستهم ، فالأمر يحتاج إلى غباء مطلق للاستمرار فيه بعد ذلك)

وبعد أيها القارىء الكريم : أليس هذا مصداقا للحديث النبوى الشريف عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال :

(خمس خصال إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن أو أن يقعن فيكم ، ماظهرت الفاحشة فى قوم حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم)[1] . الحديث : حديث حسن .

الطاعون : أى : الوباء ، والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم . أى : الأمراض التى لم تكن فى أسلافكم .

(١) الترغيب والترهيب ص ١٩٨ ج ٣ - وأخرجه ابن ماجه فى سننه ج ٢ ص ١٣٣٢ ، ص ١٣٣٣ برقم ٤٠١٩ وقال فى الزوائد : هذا حديث صالح للعمل به ، كما أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٥٤٠ كتاب الفتن والملاحم . وقد بدأ الحديث بقول النبى صلى الله عليه وسلم يامعشر المهاجرين .

* عواقب أخرى تنتظر الشواذ *

إذا كان هذا المرض الرهيب (إيدز) من حصاد تلك الثورة الجنسية ، فإن أضرارا أخرى كثيرة وخطيرة ، تنتظر أهل الشذوذ عن الفطرة ، والانحراف عن الطريقة المشروعة للممارسة الجنسية السليمة .

وقد جمعها الدكتور محمد وصفى فى كتابه (الإسلام والطب) ننقلها لكم هنا بشيء من التصرف .

- أولا : التأثير على الجهاز العصبى :

فاللواط يسبب اختلالا فى الجهاز العصبى وارتباكا فى التفكير وركودا فى التصرفات وبلاهة فى العقل ، وضعفا فى الإرادة ، ويرجع ذلك كله إلى قلة الإفرازات التى تفرزها الغدة الدرقية وغيرها .

كما أن اللواط علة شاذة ، وطريقة غير كافية لإشباع العاطفة الجنسية ، وذلك لأنها بعيدة الأصل عن الملامسة الطبيعية ، ولاتقوم بإرضاء المجموع العصبى .

- ثانيا : الرغبة عن المرأة :

من الأمور الفطرية ميل الرجل إلى المرأة ، ولكن من شأن اعتياد الممارسة الجنسية بطريقة اللواط ، أن تصرف الرجل عن المرأة ، وقد يبلغ به الأمر إلى الحد الذى يعجز فيه عن مباشرتها ، وبذلك تتعطل أهم وظيفة من وظائف الزواج وهى التناسل ، ولو قدر لمثل هذا الرجل أن يتزوج ، فإن زوجته تكون ضحية معذبة معلقة ، لا هى متزوجة ولا هى مطلقة .

- ثالثا : تأثيرات موضعية :

فاللواط من ناحية أخرى ، يتسبب فى تمزيق المستقيم ، وهتك أنسجته ، وارتخاء عضلاته ، وسقوط بعض أجزائه ، وقد يصل الأمر إلى فقدان السيطرة على عملية التبرز ، فتخرج الفضلات بغير إرادة أو شعور .

- رابعا : اللواط والصحة العامة :

يصاب مقترف اللواط بضيق فى الصدر ، وخفقان فى القلب ، وضعف عام يجعله عرضة للإصابة بعديد من الأمراض ، كما أن اللواط يضعف فرز مراكز الإنزال الرئيسية فى الجسم ، ويقضى على الحيوية المنوية ، ويؤثر فى تركيب المنى مما يؤدى إلى عدم القدرة على الإنجاب .

- خامسا : التيفود وغيره من الأمراض المعدية :

يتسبب اللواط فى كثير من الأحيان فى الإصابة بمرض التيفود وغيره من الأمراض المعدية ، وذلك عن طريق التلوث بالمواد البرازية التى تحتوى على أنواع كثيرة من الميكروبات .

- سادسا : أمراض الزنا :

إن الأمراض التى تنتشر عن طريق الزنا ، مثل الزهرى والسيلان ، تنتشر كذلك عن طريق اللواط .

- وأخيرا : فإن اللواط لوثة أخلاقية ، ومرض نفسى خطير ، فنجد جميع من يتصفون به سيىء

الخلق ، لا يميزون بين الفضائل والرذائل ، ليس لهم وجدان يؤنبهم ، ولا ضمير يردعهم ، لذلك لايتحرج أحدهم من السطو على الأطفال ، واستعمال العنف لإشباع عاطفته الفاسدة .

ولذا حرص التشريع الإسلامى على التنكيل بمقترفيه ، وأمر بالقضاء عليهم ، وتخليص العالم من شرورهم .

* دلائل التوحيد *

قال تعالى : قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ
بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ
ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ
أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ
ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ
مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾

معانى المفردات

اصطفى : اختار ، حدائق : جمع حديقة وهى البستان الذى عليه سور وحائط ، لأن الحائط أحدق به . بهجة : البهجة : حسن المنظر يعدلون يميلون يقال : عدل عنه أى :مال عنه . قرارا : مكانا يقر عليه الإنسان وغيره بمعنى يستقر . خلالها : أى: بين جهاتها المختلفة حاجزا : مانعا ، المضطر : الذى أصابه الضر . بشرا : مخفف بشرا جمع بشير والمراد مبشرات .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على رسوله قصص أولئك الأنبياء السالفين ، وذكر أخبارهم الدالة على

كمال قدرته وعظيم شأنه وعلى ماخصهم به من المعجزات الباهرة الناطقة بجلال أقدارهم ، وصدق أخبارهم ، وفيها بيان صحة الإسلام والتوحيد ، وبطلان الشرك والكفر ، وأن من اقتدى بهم ، فقد اهتدى ، ومن أعرض عنهم ، فقد تردى فى مهاوى الردى ، ثم شرح صدره-عليه الصلاة والسلام-بما فى تضاعيف تلك القصص من العلوم الإلهية والمعارف الربانية الفائضة من عالم القدس مقررا بذلك قوله :

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾

أردف هذاأمره - عليه الصلاة والسلام ،بأن يحمده - تعالى - على تلك النعم ، ويسلم على الأنبياء كافة ، لفضلهم وأداء لحق تقدمهم ، واجتهادهم فى الدين ، وتبليغ رسالات ربهم على أكمل الوجوه وأمثل السبل ، ثم ذكر الأدلة على تفرده بالخلق والتقدير ووجوب عبادته وحده ، وأنه لاينبغى عبادة شىء سواه من الأصنام والأوثان .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . . ﴾ هذا خطاب من الله-تعالى- إلى حبيبه ومصطفاه ، كما يشمل كل من يتأتى منه الخطاب ، فالكل مأمور بحمد الله تعالى والثناء عليه ، فهو صاحب الإنعام والكرم ، وصاحب النعماء والفضل العظيم ، فالحمد لله ، كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، ربنا لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، (الحمد لله) أى على نعمه على عباده من النعم التى لاتعد ولا تحصى ، وعلى مااتصف به من الصفات العلى والأسماء الحسنى ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام ، عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام . هكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره : إن المراد بعباده الذين اصطفى ، هم الأنبياء ، قال وهو كقوله : ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين ﴾[١] . والقصد أن الله-تعالى-أمر رسوله ومن اتبعه بعد ذكره لهم مافعل بأوليائه من النجاة والنصر والتأييد ، وما أحل بأعدائه من الخزى والنكال والقهر ، أن يحمدوه على جميع أفعاله ، وأن يسلموا على عباده المصطفين الأخيار .

قال الإمام ابن القيم فى تفسير هذه الآية :

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

هؤلاء هم أعلى الطبقات وأكرمها على الإطلاق . وهم المرسلون فأكرم الخلق على الله ، وأخصهم بالزلفى لديه . هم رسله . وهم المصطفون من عباده الذين سلم عليهم فى الصالحين ، كما قال تعالى : ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ وقال تعالى : ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾[٢] وقال: ﴿ سلام على ابراهيم * كذلك نجزى المحسنين ﴾[٣] وقال: ﴿ سلام على آل ياسين ﴾[٤]

---

(١) الصافات الايات رقم ١٨٠ - ١٨٢
(٢) الصافات آية رقم ٧٩
(٣) الصافات آية رقم ١٠٩
(٤) الصافات آية رقم ١٣٠

وقال : هل السلام من الله ؟ فيكون المأمور به : الحمد والوقف التام عليه ، أو هو داخل فى القول والأمر بهما جميعا ؟

فالجواب عنه : أن الكلام يحتمل الأمرين . ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح .

فيرجح كونه داخلا فى جملة القول لأمور :

منها : اتصاله به ، وعطفه عليه من غير فاصل ، وهذا يقتضى أن يكون فعل القول واقعا على كل واحد فيهما ، هذا هو الأصل مالم يمنع منه مانع ، ولهذا إذا قلت قل : الحمد لله ، وسبحان الله فإن التسبيح هنا داخل فى القول .

ومنها : أنه إذا كان معطوفا على القول ، كان عطف خبر على خبر ، وهو الأصل ، ولو كان منقطعا عنه ، كان عطف جملة خبرية على جملة الطلب ، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب .

ومنها : أن قوله:﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

ظاهر فى أن المسلم هو القائل : الحمد لله ، ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ، ولم يقل سلام على عبادى .

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور .

أحدها : مطابقته لنظائره فى القرآن ، من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى ، كقوله: ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾ وقوله ﴿ سلام على ابراهيم ﴾ ، و ﴿ سلام على موسى وهارون ﴾ و ﴿ سلام على إل ياسين ﴾ .

والثانى : أن عباده الذين اصطفى : هم المرسلون : والله-سبحانه-يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم ، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم .

أما الأول : فقال تعالى:﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين ﴾ وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لايليق بجلاله ، ثم سلام على رسله ، وفى اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع ، فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقا ، كما نزه نفسه عما يقول ضلال خلقه فيه ، ثم سلم على المرسلين .

وهذا يقتضى سلامتهم من كل مايقول المكذبون لهم ، المخالفون لهم . وإذا سلموا من كل مارماهم أعداؤهم لزم سلامة كل ماجاءوا به من الكذب والفساد .

وأعظم ماجاءوا به : التوحيد ومعرفة الله ، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم ، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد ، فهو الحق المحض . وماخالفه : فهو الباطل ، والكذب المحال .

وهذا المعنى بعينه فى قوله:﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾ فإنه يتضمن حمده بما هو من نعوت الكمال وأوصاف الجلال ، والأفعال الحميدة ، والأسماء الحسنى ، وسلامه رسله من كل عيب ونقص وكذب ، وذلك يتضمن سلامة ماجاءوا به من كل باطل فقابل هذا السر فى اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه ، فهذا يشهد بكون السلام هنا من الله تعالى ، كما هو فى آخر سورة الصافات .

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله : ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان ﴾[١] . وقوله: ﴿ وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾[٢] ونظائره كثيرة .

وفصل الخطاب فى ذلك : أن يقال : الآية تتضمن الأمرين جميعا وتنتظمها انتظاما واحدا ، فإذ الرسول هو المبلغ عن الله كلامه ، وليس له فيه إلا البلاغ ، والكلام كلام الرب-تبارك وتعالى- فهو الذى حمد نفسه ، وسلم على صفوة عباده ، وأمر رسوله بتبليغ ذلك ، فإذا قال الرسول : الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد الرب به نفسه وسلم به هو على عباده . فهو سلام من الله ابتداء ومن المبلغ بلاغا ، ومن العباد : اقتداء وطاعة .

فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى : ﴿ الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ﴾

وكلمة « السلام » ههنا يحتمل أن تكون داخلة فى حيز القول ، فتكون معطوفة على الجملة الخبرية ، وهى « الحمد لله » ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معا .

وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة . ويكون محلها النصب ؟ محكية بالقول .

ويحتمل أن تكون جملة مستأنفة مستقلة ، معطوفة على جملة الطلب ، وعلى هذا : فلا محل لها من الإعراب ، وهذا التقدير أرجح .

وعليه يكون السلام من الله عليهم ، وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه على رسله-صلى الله عليهم وسلم-.

وعلى التقدير الأول : يكون أمرنا بالسلام عليهم ، ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب ، مع تنافر مابينهما فلايحسن أن يقال قم وذهب زيد ، ولا اخرج وقعد عمرو .

ويجاب عن هذا : بأن جملة الطلب قد حكيت بجملة خبرية ، وعلى هذا لا يمتنع عطف الخبر على الجملة الطلبية : لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه . وهذا نظير قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ﴾[٣] .

فقوله تعالى : ﴿ وماتغنى الآيات ﴾ ليس معطوفا على القول وهو ﴿ انظروا ﴾ بل معطوف على الجملة الكبرى ، على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى : ﴿ قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ماتصفون ﴾[٤] .

والمقصود : أنه على هذا القول : يكون الله-سبحانه-قد سلم على المصطفين من عباده ، والرسل أفضلهم وقد أخبر تعالى : أنه أخلصهم كما قال تعالى : ﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾[٥] .

(١) الأنبياء آية رقم ١١٢
(٢) المؤمنون آية رقم ١١٨
(٣) يونس آية رقم ١٠١
(٤) الأنبياء آية رقم ١١٢
(٥) (ص) الأيتان ٤٦ - ٤٧

ويكفى فى شرفهم وفضلهم : أن الله اختصهم بوحيه : وجعلهم أمناء على رسالته ، وواسطته بينه وبين عباده ، وخصهم بأنواع كراماته ، فمنهم من اتخذه خليلا ، ومنهم من كلمه تكليما ، ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ، ولم يجعل لعباده طريقا للوصول إليه إلا من طريقهم ، ولا دخولا إلى جنته إلا خلفهم .

وقوله تعالى : ﴿ ءآلله خير أما يشركون ﴾ الاستفهام هنا فيه إنكار شديد على الذين اعترفوا بالله ربا وأشركوا به إلها . ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾[(1)] لقد اعترفوا لله بالربوبية من خلق ورزق وملك للسمع والأبصار وتدبير للأمر ولكنهم أشركوا فى عبادته ، وقالوا عن الشركاء : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[(2)]

فقال لهم الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ۞ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ۞ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾[(3)]

وقال : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾[(4)] .

ءآلله خير أم هؤلاء الشركاء بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم لايهدى إلا أن يهدى فمالكم كيف تحكمون وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لايغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾[(5)]

قال عز وجل : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذالكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[(6)] .

فتوحيد الربوبية وحده لايكفى ، إذ لابد من توحيد الألوهية معه قال تعالى :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[(7)] .

ثم أقام سبحانه الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على أنه المعبود بحق لايشرك فى حكمه أحدا فقال تبارك اسمه: ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾ .

﴿ أمن خلق السموات ﴾ أى: خلق تلك السموات فى ارتفاعها وصفائها ، وماجعل فيها من الكواكب المنيرة ، والنجوم الزاهرة ، والأفلاك الدائرة ، وخلق الأرض فى أشكالها وكثافتها وماجعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار ، والفيافى والقفار ، والزروع والأشجار ، والثمار والبحار ،

(١) يونس الآيتان ٣١ ، ٣٢
(٢) الزمر آية رقم ٣
(٣) ق الآيات من ١٦ - ١٨
(٤) البقرة آية رقم ١٨٦
(٥) يونس الآيات من ٣٤/ ٣٦
(٦) الروم آية رقم ٤٠
(٧) الكهف آية رقم ١١٠

والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك . وقوله تعالى : ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ أى:جعله رزقا للعباد ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ أى:بساتين ﴿ ذات بهجة ﴾ أى:منظر حسن وشكل بهى ﴿ ماكان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أى:لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ماسواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾[1] ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله ﴾[2] أى:هم معترفون بأنه الفاعل لجميع ذلك وحده لاشريك له ، ثم هم يعبدون معه غيره مما يعترفون أنه لايخلق ولا يرزق ، وإنما يستحق أن يفرد بالعبادة من هو المتفرد بالخلق والرزق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أءله مع الله ؟ ﴾ أى:أءله مع الله يعبد ، وقد تبين لكم ولكل ذى لب مما يعترفون به أيضا أنه الخالق الرازق .

ومن المفسرين من يقول معنى قوله : ﴿ أءله مع الله ﴾ فعل هذا وهو يرجع إلى معنى الأول ، لأن تقدير الجواب أنهم يقولون : ليس ثم أحد فعل هذا معه ، بل هو المتفرد به ، فيقال فكيف تعبدون معه غيره ، وهو المستقل المتفرد بالخلق والرزق والتدبير ؟ كما قال تعالى :

﴿ أفمن يخلق كمن لايخلق ﴾[3] الآية . وقوله تعالى ههنا : ﴿ أمن خلق السموات والأرض ﴾ ﴿ أمن ﴾ فى هذه الآيات كلها ، تقديره أمن يفعل هذه الأشياء كمن لايقدر على شىء منها ؟ هذا معنى السياق ، وإن لم يذكر الآخر ، لأن فى قوة الكلام مايرشد إلى ذلك ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ءآلله خير أما يشركون ﴾ ثم قال تعالى فى الآية الأخرى:﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ أى يجعلون لله عدلا ونظيرا . وهكذا قال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾[4] . أى: أمن هو هكذا كمن ليس كذلك ؟ ولهذا قال تعالى :

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[6] أى : أمن هو شهيد على أفعال الخلق ، حركاتهم وسكناتهم ، يعلم الغيب جليله وحقيره ، كمن هو لا يعلم ولا يسمع ولا يبصر من هذه الأصنام التى عبدوها من دون الله ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء قل سموهم ﴾ وهكذا هذه الآيات الكريمات كلها .

سبحانك ربى

يـامن يحار الفهم فى قـدرتـك وتـطلب النفس حمى طـاعتـك

(١) الزخرف آية رقم ٨٧
(٢) سورة العنكبوت رقم ٦٣
(٣) النحل آية رقم ١٧
(٤) الزمر آية رقم ٩
(٥) الزمر آية رقم ٢٢
(٦) الرعد آية رقم ٣٣

تخفى على الناس سنى طلعتك وكل مافى الكون من صنعتك

فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والأفلاك ومدارها ، والشمس وشعاعها والبحار وأمواجها ، والأرض واتساعها ، والجبال وشموخها ، وإلى كل ظاهر وكامن ، ومتحرك وساكن ، الكل يشهد بجلال الله ويقر بأعماله ، ويعلن بذكره ولا يغفل عن شكره . سموات ذات أبراج وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا ، سل الزهر والندى سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما وسل كل شيء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا

نصب الأدلة فى الأنفس والآفاق والكون ، على أنه الواحد سبحانه وتعالى عما يشركون ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لاإله إلا أنا فاتقون ﴾[١] . حدثنا عن خلق الكون العلوى والسفلى فقال سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ﴾[٢] ثم حدثنا عن خلق أنفسنا فقال : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾[٣] ثم انتقل إلى خلق الأنعام والدواب فقال سبحانه : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾[٤] .

ثم أنبأنا بما سيجد من وسائل المواصلات ، فى العصور اللاحقة فقال: ﴿ ويخلق مالا تعلمون ﴾ ثم أنعم علينا ببيان السبيل المستقيمة فقال : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ وأخبر أن هناك من يسلك طرقا معوجة فقال: ﴿ ومنها جائر ﴾ وبين أن قانون المشيئة مهيمن على الكون كله فقال : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾[٥] ثم انتقل النظم الكريم بنا إلى عالم الماء والنبات فقال تعالى :

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[٦] .

ثم انتقل بنا إلى عالم الفلك فقال سبحانه: ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[٧] .

(١) النحل آية رقم ٢
(٢) النحل آية رقم ٣
(٣) النحل آية رقم ٤
(٤) النحل الآيات ٥ - ٨
(٥) النحل آية ٩
(٦) النحل الآيتان ١٠ - ١١
(٧) النحل الآية ١٢

ثم انتقل بنا إلى مافى الأرض من كنوز فقال تعالى :

﴿ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلف ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾(١) .

ثم انتقل بنا إلى عالم البحار ، ومافيها من أسرار ، فقال تعالى :

﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٢) .

ثم انتقل إلى طبقات الأرض وما بها من جبال فقال تعالى :

﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾(٣) .

وبعد هذه الآيات الباهرات والبراهين الساطعات ، ألقى بهذا السؤال على أصحاب العقول ، فقال تعالى : ﴿ أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون ﴾(٤) .

وبعدما طال تعداد النعم قال : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾(٥) ثم أثبت لذاته صفة العلم الشامل الكامل المحيط فقال : ﴿ والله يعلم ماتسرون وما تعلنون ﴾(٦) ثم قال مثبتا عجز غيره: ﴿ والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء ومايشعرون أيان يبعثون ﴾(٧) ثم بين تلك الحقيقة العليا فقال عز وجل: ﴿ إلهكم إله واحد ﴾(٨)

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجبين الساجد

قوله تعالى : ﴿ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله بل أكثرهم لايعلمون ﴾ .

هو كقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذالكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين * هو الحى لاإله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾(٩) .

وقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا ﴾(١٠).

فسبحان من خلقها وأرساها بالجبال ، قال تعالى : ﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ماتشكرون ﴾(١١).

وجل جلال الله إذ يقول : (خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا منها من كل زوج كريم * هذا خلق الله

---

(١) النحل آية رقم ١٣
(٢) النحل آية ١٤
(٣) النحل الآيتان ١٥ ، ١٦
(٤) النحل آية ١٧
(٥) النحل آية ١٨
(٦) النحل آية ١٩
(٧) النحل آية ٢٠ ، ٢١
(٨) النحل آية ٢٢
(٩) غافر آية ٦٤ ، ٦٥
(١٠) النبأ الآيتان ٦ ، ٧
(١١) الأعراف آية رقم ١٠

فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾(١) .

وجل جلاله إذ يقول : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ﴾(٢) وكما قال أيضا : ﴿ قال فما بال القرون الأولى ✽ قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى ✽ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلاوأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى ✽ كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾(٣)

قوله تعالى : ﴿ وجعل خلالها أنهارا ﴾ أى:جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة ، شقها فى خلالها وصرفها فيها ، مابين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقا وغربا وجنوبا وشمالا بحسب مصالح عباده فى أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم فى أرجاء الأرض ، وسير لهم أرزاقهم بحسب ما يحتاجون إليه ﴿ وجعل لها رواسى ﴾ أى:جبالا شامخة ترسى الأرض وتثبتها لئلا تميد بكم ﴿ وجعل بين البحرين حاجزا ﴾ أى جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزا أى:مانعا يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد هذا بهذا ، وهذا بهذا ، فإن الحكمة الإلهية تقتضى أن تكون عذبة زلالا يسقى الحيوان والنبات والثمار منها ، والبحار المالحة هى المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب ، والمقصود منها أن يكون ماؤها ملحا أجاجا ، لئلا يفسد الهواء بريحها ، كما قال تعالى : ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ ومايستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٥)

وقال تعالى : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان ﴾(٦) .

﴿ أءله مع الله ﴾ فعل هذا ﴿ بل أكثرهم لايعلمون ﴾ إن ماسوى الله باطل لايملك لنفسه خيرا ولانفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فهم جاهلون إذ أشركوا مع الله غيره .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ✽ له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون ✽ قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ✽ ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ✽ بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ✽ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(٧) .

(١) لقمان الآيتان من ١٠ ـ ١١
(٢) الملك آية رقم ١٦
(٣) طه الآيات من ٥١ ـ ٥٥
(٤) الفرقان آية رقم ٥٣
(٥) فاطر آية رقم ١٢
(٦) الرحمن الآيتان ١٩/ ٢٠
(٧) الزمر الآيات من ٦٢ ـ ٦٧

قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ماتذكرون ﴾

هذه سلسلة متصلة الحلقات من نعم الله على عباده ، وآلائه التى لاتحصى ، وأفضاله التى لاتستقصى .

يامن يجيب دعا المضطر فى الظلم ويكشف الضر والبلوى مع السقم
إن كان أهل التقى فازوا بما فعلوا فمن يجود على العاصين بالكرم

كلمة فى الدعاء

١ ـ الأمر به :

أمر الله الناس أن يدعوه ، ويضرعوا إليه ، ووعدهم أن يستجيب لهم ، ويحقق لهم سؤلهم .

(١) فقد روى أحمد وأصحاب السنن عن النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال : (إن الدعاء هو العبادة) ثم قرأ : ﴿ ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[١] .

(٢) وروى عبد الرزاق عن الحسن : أن أصحاب رسول الله ﷺ سألوه : أين ربنا ؟ فأنزل الله : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[٢] .

(٣) وروى الترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (ليس شىء أكرم على الله من الدعاء)[٣]

(٤) وروى الترمذى عنه : أنه صلوات الله عليه وسلامه قال : (من سره أن يستجيب الله-تعالى-له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء فى الرخاء)[٤]

(٥) وثبت عنه ﷺ قوله : (من لم يسأل الله يغضب عليه)[٥] .

(٦) عن عائشة-رضى الله عنها-قالت : قال رسول الله ﷺ :(لايغنى حذر من قدر ، والدعاء ينفع مما نزل ومما لم ينزل وإن البلاء لينزل فيلقاه الدعاء فيعتلجان إلى يوم القيامة)

رواه البزار والطبرانى والحاكم وقال : صحيح الإسناد[٦] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الدعاء برقم ٣٨٢٨ ج ٢ ، وأحمد ج ٤ ص ٢٦٧ والترمذى برقم ٣٤٣٢ ج ٥ وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية (وإذا سألك عبادى عنى)

(٣) أخرجه ابن ماجه ٣٨٢٩ كتاب الدعاء ج ٢ والترمذى برقم ٣٤٢٩ فى أبواب :الدعاء ج ٥ وقال:هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث عمران القطان

(٤) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٤٤٢ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن غريب

(٥) أخرجه الطبرانى برقم ٢٣٠٦٨ ج ١ ص ٦٠٣ وابن ماجه برقم ٣٨٢٧ ج ٢ والترمذى برقم ٣٤٣٣ ج ٥

(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٤٩٢ كتاب الدعاء والحديث فى الصغير للطبرانى برقم ٩٩٧٧ ص ٤٥٣ كما رواه البزار فى كتاب القدر ج ٣ ص ٢٩ برقم ٢١٦٤ ، ٢١٦٥

(٧) وعن سلمان الفارسي-رضى الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال : (لايرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر) رواه الترمذى(١) .

آدابه

للدعاء آداب ينبغى مراعاتها نذكرها فيمايلى :

(١) تحرى الحلال :

أخرج الحافظ بن مردويه عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ : ﴿ ياأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ﴾ فقام سعد بن أبى وقاص فقال:يارسول الله ، ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال : (ياسعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به)

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (ياأيها الناس إن الله طيب لايقبل إلا طيبا- وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ ياأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم ﴾ .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر- أشعث أغبر- ومطعمه حرام- وملبسه حرام- وغذى بالحرام- يمد يديه إلى السماء : يارب يارب ، فأنى يستجاب لذلك)(٢)

(٢) استقبال القبلة إن أمكن ، فقد خرج النبى يستسقى فدعا واستسقى واستقبل القبلة .

(٣) ملاحظة الأوقات الفاضلة والحالات الشريفة ، كيوم عرفة وشهر رمضان ويوم الجمعة ، والثلث الأخير من الليل ، ووقت السحر ، وكحالة السجود ، ونزول الغيث ، وبين الأذان والإقامة والتقاء الجيوش ، وعند الوجل ، ورقة القلب .

أ - فعن أبى أمامة قيل : يارسول الله : أى الدعاء أسمع ؟ قال : (جوف الليل الآخر ، ودبر الصلوات المكتوبات) رواه الترمذى بسند صحيح .(٣) .

ب - وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا من الدعاء)(٤)

وأحاديث أخرى كثيرة .

---

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٢٢٥ ج ٣ ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ أبواب القدر وقال : هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث يحيى بن الضريس .

(٢) أخرجه الإمام احمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٢٨

(٣) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات رقم ٣٥٦٦ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن وقد روى عن أبى ذر وابن عمر عن النبى ﷺ أنه قال : (جوف الليل الآخر الدعاء فيه أفضل وأرجى)

وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب ج ٢ ص ٧٠٣ برقم ٦٥/ ١٠١٥

(٤) أخرجه أبود داود فى كتاب الصلاة باب الدعاء والركوع والسجود ج ١ ص ٥٤٥ برقم ٨٧٥

وأخرجه مسلم برقم ٤٨٢ ج ١ ص ٣٥٠ كتاب الصلاة

(٤) رفع اليدين حذو المنكبين فقد روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : المسألة أن ترفع يديك حذو مكنبيك أو نحوهما ، والاستغفار أن تشير بأصبع واحدة ، والابتهال أن تمد يديك جميعا

وروى عن سليمان ، أنه ﷺ قال : (إن ربكم-تبارك وتعالى-حيى كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرا)(١) .

(٥) أن يبدأ بحمد الله وتمجيده والثناء عليه ، ويصلى على النبى ﷺ

لما رواه أبو داود والنسائى والترمذى وصححه عن فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو فى صلاته لم يمجد الله-تعالى - ولم يصل على النبى فقال : (عجل هذا) ثم دعاه ، فقال له او لغيره :(اذا صلى (دعا) أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه-جل وعز-والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يدعو بما يشاء)(٢).

(٦) حضور القلب ، وإظهار الفاقة والضراعة إلى الله-جل شأنه- وخفض الصوت بين المخافتة والجهر قال تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لايحب المعتدين ﴾(٣) قال ابن جرير:تضرعا : تذللا واستكانه لطاعته . وخفية : يقول بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بواحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه لا جهارا مراءاة

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ : (يأيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لاتدعون أصم ولاغائبا إنما تدعون سميعا بصيرا ، إن الذى تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، ياعبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لاحول ولا قوة إلا بالله ﴾(٤) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لايستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل)(٥).

(٧) الدعاء بغير إثم أو قطيعة رحم . لما رواه أحمد عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال : (مامن مسلم يدعو الله - عز وجل - بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الأخرى ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها قالوا : إذن نكثر يارسول الله ؟ قال : (الله أكبر)(٦) .

---

(١) أخرجه البغوى فى شرح السنة برقم ١٣٨٦ ج ٥ ولكن بلفظ:إن الله حيى كريم ويزيادة حتى يجعل فيها خيرا.والحديث من رواية أنس بن مالك .
وأخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٦٢٧ ج ٥ ص ٢١٧

(٢) أخرجه الترمذى برقم ٣٥٤٦ ج ٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الأعراف آية رقم ٥٥

(٤) أخرجه البخارى فى باب مايكره رفع الصوت بالتكبير ج ٤ ص ٦٩
وأخرجه مسلم برقم ٢٧٠٤ ج ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . وأخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٣ برقم ١٥٢٨ .

(٥) أخرجه الإمام احمد فى مسنده ج ٢ ص ١٧٧ .

(٦) أخرجه الإمام احمد ج ٣ ص ١٨

(٨) عدم استبطاء الإجابة لما رواه مالك عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : (يستجاب لأحدكم مالم يعجل يقول : دعوت فلم يستجب لى)[١] .

(٩) الدعاء مع الجزم بالإجابة لما رواه أبو داود عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لايقولن أحدكم : اللهم اغفر لى إن شئت ، اللهم ارحمنى إن شئت ، ليعزم المسألة فإنه لامكره له)[٢]

(١٠) اختيار جوامع الكلم مثل (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار)[٣] فقد كان ﷺ يستحب الجوامع من الدعاء ، ويدع ماسوى ذلك .

(١١) تجنب الدعاء على نفسه وأهله وماله . فعن جابر أن رسول الله ﷺ قال : (لاتدعوا على أنفسكم ، ولاتدعوا على أولادكم ، ولاتدعوا على خدمكم ، ولاتدعوا على أموالكم ، لاتوافقوا من الله -تبارك وتعالى- ساعة نيل فيها عطاء فيستجاب لكم)[٤] .

(١٢) تكرار الدعاء ثلاثا : (فعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يعجبه أن يدعو ثلاثا ويستغفر ثلاثا) رواه أبو داود .[٥]

(١٣) إذا دعا لغيره أن يبدأ بنفسه .

قال تعالى : ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾[٦] .

وعن أبى بن كعب قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر أحدا فدعا له بدأ بنفسه[٧] رواه الترمذى بإسناد صحيح .

دعاء الوالد والصائم والمسافر والمظلوم

روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى بسند حسن : أن النبى ﷺ قال : (ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن : دعوة الوالد ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم)[٨]

دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب

روى أبو داود والترمذى : أن النبى ﷺ قال : (أسرع الدعاء إجابة ، دعوة غائب لغائب)[٩] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٠٩٥ فى كتاب الدعاء والاستغفار والتوبة
(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٦٣ برقم ١٤٨٣ كتاب الصلاة - باب الدعاء -
(٣) البقرة آية رقم ٢٠١
(٤) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٥ برقم ١٥٣٢ كتاب الصلاة باب النهى عن أن يدعو الإنسان على أهله وماله .
(٥) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ١٨٢ برقم ١٥٢٤ .
(٦) الحشر آية رقم ١٠

(٧) أخرجه الترمذى برقم ٣٤٤٥ ج ٥ ص ١٣١ وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .
(٨) أخرجه ابو داود ج ٢ ص ١٨٧ برقم ١٥٣٦ وأخرجه الإمام احمد ج ٢ ص ٣٤٨ وأخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٥٠٩ ج ١ ص ٣٥١٠ ج ٥ ص ١٦٤
(٩) أخرجه الترمذى فى باب البر برقم ٢٠٤٦ ج ٣ ص ٢٣٧ وأخرجه أبو داود فى باب الوتر

بعض ماورد فيما ينبغى أن يستفتح به الدعاء رجاء أن يقبل :

١ ـ عن بريدة : أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يقول :

(اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لاإله إلا أنت الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) فقال:(لقد سألت الله بالاسم الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب) رواه أبو داود والترمذى وحسنه[1]

٢ ـ وعن معاذ بن جبل : أن النبى ﷺ سمع رجلا وهو يقول : ياذا الجلال والإكرام ، فقال : (قد استجيب لك فسل) رواه الترمذى وقال حسن .[2]

٣ ـ وعن أنس قال : مر رسول الله ﷺ بأبى عياش ، زيد بن الصامت الزرقى وهو يصلى ـ وهو يقول : اللهم إنى اسألك بأن لك الحمد ، لاإله إلا أنت ياحنان يامنان ، يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، ياحى ياقيوم . فقال رسول الله ﷺ : لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى)[3] رواه أبو داود وغيره .

٤ ـ وعن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:(من دعا بهؤلاء الكلمات الخمس ، لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه : لاإله إلا الله ، والله أكبر ، لاإله إلا الله وحده لاشريك له له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لاإله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله)[4] رواه الطبرانى بإسناد حسن .

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ماتذكرون ﴾

أى: من هو الذى لايلجأ المضطر إلا إليه ، والذى لايكشف ضر المضرورين سواه .

قال تعالى : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾[5]

وقال جل شأنه : ﴿ ومابكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾[6] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ﴾[7].

روى الإمام أحمد بسنده عن رسول الله ﷺ أنه أتاه رجل فقال:يارسول الله إلام تدعو ؟ قال : (أدعو إلى الله وحده الذى إن مسك ضر دعوته كشف عنك ، والذى إن أضللت بأرض قفر فدعوته رد عليك ، والذى إن أصابتك سنة فدعوته أنبت لك ، قال : قلت أوصنى قال : (لاتسبن أحدا ولاتزهدن فى المعروف ولو أن تلقى أخاك وأنت منبسط إليه وجهك ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى

---

(١) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات برقم ٣٥٤٢ ج ٥ ص ١٧٨ وقال:هذا حديث حسن غريب وأخرجه أبو داود فى سننه ج ٢ ص ١٦٧ برقم ١٤٩٣ باب الدعاء

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٢٣٦

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الصلاة باب الدعاء برقم ١٤٩٥ ج ٢ ص ١٦٧ .

(٤) أخرجه الطبرانى برقم ٢١٩٢٧ ج ٦ ص ٣٧٩

(٥) الإسراء آية رقم ٦٧

(٦) النحل آية رقم ٥٢

(٧) يونس آية رقم ١٢

واتزر إلى نصف الساق فإن أبيت فإلى الكعبين وإياك وإسبال الإزار فإن إسبال الإزار من المخيلة وإن الله لايحب المخيلة)[١] .

وقال ابن أبى حاتم عن عبيد الله بن أبى صالح قال :

دخل على طاوس يعودنى فقلت له : ادع الله لى ياأبا عبد الرحمن فقال : ادع لنفسك ، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه ، وقال وهب بن منبه:قرأت فى الكتاب الأول أن الله-تعالى-يقول :(بعزتى إنه من اعتصم بى فإن كادته السموات بمن فيهن والأرض بمن فيهن فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجا ومن لم يعتصم بى فإنى أخسف به من تحت قدمية الأرض فأجعله فى الهواء فأكله إلى نفسه) .

وذكر الحافظ بن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى ، قال:هذا الرجل كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزبدانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة ، فقال لى:خذ فى هذه فإنها أقرب ، فقلت لاخبرة لى فيها ، فقال بل هى أقرب ، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر ، وواد عميق ، وفيه قتلى كثيرة ، فقال لى:أمسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكينا معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه ، وتبعنى فناشدته الله ، وقلت:خذ البغل بما عليه فقال:هو لى وإنما أريد قتلك ، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه ، وقلت:إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين فقال : عجل فقمت أصلى فارتج على القرآن ، فلم يحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيرا وهو يقول :

هيا أفرغ ، فأجرى الله على لسانى قوله تعالى : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ﴾ فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى وبيده حربة ، فرمى بها الرجل ، فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعا فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت؟ فقال : أنا رسول الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالما .

قوله تعالى : ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أى يخلف بعضكم بعضا كقوله جل شأنه : ﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾[٢] .

وكقوله جل شأنه :

﴿ هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾[٤] .

إن الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ممن ناداه وينادى هل من تائب فأتوب عليه

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٦٤
(٢) الأنعام آية ١٦٥
(٣) فاطر آية ٣٩
(٤) البقرة أية ٣٠

هل من سائل فأعطيه هل من مستغفر فأغفر له .

وإن الذى جعلكم خلفاء الأرض هو الله وحده ، أإله مع الله فعل هذا ، كلا ، ثم كلا ، ثم كلا ، بل هو الله العزيز الحكيم . ولكنكم قليلا ما تذكرون .

قوله تعالى : ﴿ أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أءله مع الله تعالى الله عما يشركون ﴾ .

وتلك نعمة جليلة من نعم الله تعالى على عباده ، إذ يهديهم فى أسفارهم فى ظلمات البر والبحر ولولا ذلك لضلوا الطريق لكنه جل شأنه رؤوف رحيم بهم قال تعالى : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ۞ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾[(١)] .

وقال جل شأنه : ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴾[(٢)] .

وكما هدانا الله برا وبحرا فى أسفارنا ، فقد هدانا فى أسفارنا جوا ، فها هو ذا عالم الطيران يجوب المعمورة شرقا وغربا ، وشمالا وجنوبا ، وها هو ذا الإنسان يركب سفن الفضاء ، وينظر فيها فيرى كوكب الأرض معلقا فى فضاء فسيح ، ويسأل نفسه من الذى أمسك هذا الكوكب فى هذا الفضاء ، وتأتيه الإجابة ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾[(٣)] .

وينتقل بنا النظم الكريم ، إلى نعمة أخرى ، وهى نعمة إرسال الرياح مبشرات بالمطر ، ويرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، والمطر نعمة عظمى ، قال تعالى : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾[(٤)] .

وقال : ﴿ وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد ﴾[(٥)] وقال عز من قائل :

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾[(٦)] من الذى يقوى أن يرسل الرياح ، فتثير السحاب ، وينزل الماء ، أءله مع الله فعل هذا ، تعالى الله عما يشركون ، هو الواحد فى ذاته ، لا قسيم له ، الواحد فى صفاته ، لا شبيه له الواحد فى أفعاله ، لا شريك له !

ما فى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ولا مولى هناك فيقصد

أإله مع الله فعل هذا . الطبيعة الصماء . أم الصدفة العمياء . كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

قوله تعالى : ﴿ أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ﴾ .

---

(١) النحل أية ١٥ ، ١٦
(٢) الأنعام أية ٩٧
(٣) فاطر أية ٤١
(٤) الأعراف أية ٥٧
(٥) الشورى أية ٢٨
(٦) الروم أية ٤٨

أي:هو الذى بقدرته وسلطانه ، يبدأ الخلق ثم يعيده ، كما قال تعالى : ﴿ إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدئ ويعيد ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٢]

وقال تعالى : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٣] .

وقال سبحانه : ﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون ﴾[٤]

قوله : ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي:بما ينزل من مطر السماء ، وينبت من بركات الأرض .

كما قال تعالى : ﴿ والسماء ذات الرجع*والأرض ذات الصدع ﴾[٥]

وقال تعالى : ﴿ يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء ومايعرج فيها وهو الرحيم الغفور ﴾[٦]

فاعلم أنه لايملك الروح والرزق إلا الله ﴿ وماتدرى نفسى ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت ﴾[٧] .

لاتعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم أن ماقدر على فكيك أن تمضغاه ، فلابد أن تمضغاه فامضغه بعزة .

ولو ركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه ، لركب الرزق البرق ، حتى يقع فى فم ابن آدم ، أءله مع الله فعل هذا ، لاإله إلا الله ، قل هاتوا برهانكم ودليلكم على شرككم إن كنتم صادقين فيما تدعون .

وحيث قامت الأدلة فى الأنفس والآفاق على وحدانية الله-تعالى - فلا برهان لكم على باطلكم ، فلو سألتم العالم من عرشه الى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلتم له من خالقك لقال لكم بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

لاإله إلا الله أخلو بها وحدى
لا إله إلا الله يغفر بها ذنبى
لاإله إلا الله أفنى بها عمرى
لا إله إلا الله أدخل بها قبرى
لا إله إلا الله ألقى بها ربى .

---

(١) البروج الأيتان : ١٢ ، ١٣
(٢) الروم آية ٢٧
(٣) يس آية ٧٩
(٤) يونس آية ٣٤
(٥) الطارق الآيتان ١١/ ١٢
(٦) سبأ آية ٢
(٧) لقمان آية ٣٤

إنكارهم البعث

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ
ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا
إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾
وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو
فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾

معانى المفردات

ادارك : أصله تدارك بمعنى تلاحق .

عمون : جمع عم . والمقصود بالعمى هنا الضلال والبعد عن الحق .

قال تعالى : ﴿ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾(١) .

أساطير : جمع أسطورة وهى ماسطره الأقدمون من خرافاتهم وأحاديثهم .

ضيق : فى ضيق صدر .

ردف لكم : تبعكم ولحقكم .

ماتكن صدورهم : ماتخفيه .

غائبة : التاء فيها للمبالغة كالتاء فى علامة ونسابة والأصل غائب

التفسير

قل لهم يامحمد : لايعلم من استقر فى السموات والأرض ، من الملائكة والإنس والجن ، حتى الأنبياء والرسل لايعلمون الغيب ، أى:ماغاب عنهم ، ومن جملته قيام الساعة لكن الله يعلم الغيب والشهادة ، ويعلم السر وأخفى ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام

---

(١) الحج آية ٤٦

وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾(١) .

قالت عائشة : من زعم أن محمدا ﷺ ، يعلم ما فى غد ، فقد أعظم على الله الفرية ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير ﴾(٢)

وهذا يفيد وصف الله بالعلم التام الشامل ، بعد وصفه بالقدرة والوحدانية ، وذلك كله يفيد انفراده بالألوهية ومايشعر الكفار فى أى وقت يبعثون للحساب والجزاء ، وستأتيهم الساعة بغتة ، وهم يجحدون ، بل ادارك علمهم وتلاحق أى:تكامل علمهم فى الآخرة عنها ، لأنهم رأوا كل ماوعدوا به معاينة ، فتكامل علمهم به بعد إنكارهم لأحوالها كلها ، بل هم فى شك منها فى الدنيا ، بل هم من الآخرة وأحوالها عمون بقلوبهم ، لايؤمنون بها ولايفكرون فيها .

وقال الذين كفروا بالله وبرسله : أئذا كنا ترابا بعد موتنا نحن وآباؤنا أئنا لمخرجون ـ من قبورنا بعد أن صرنا ترابا ـ للبعث والجزاء ؟ إن هذا شىء لايمكن أن نصدقه ، ولا أن نؤمن به ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل كثيرا ، ولم نسمع أن قام أحد بعد موته وصيرورته ترابا ، ماهذا الذى تدعونا اليه وتخبرنا به أيها الرسول إلا أساطير الأولين وأكاذيبهم ، التى دونوها رأى الله-سبحانه وتعالى-فيهم هذا الإنكار للبعث ، وهو يعلم أن سبب ذلك حبهم للدنيا وافتتانهم بها ، وحبهم للرياسة الكاذبة والزخرف الزائل ، فعالج هذا الداء من أساسه ، وأمر رسوله أن ينبههم إلى السير فى أرض الحجاز والشام واليمن ، لينظروا بأعينهم كيف كانت عاقبة الكفار المجرمين ، هؤلاء هم الذين اغتروا بدنياهم ، وافتتنوا بزخرفها ، وما هى إلا ساعة ، حتى فارقوها وتركوا ديارهم تنعاهم لمن بعدهم ، فيأيها الناس آمنوا وصدقوا ولا تغتروا بالدنيا ، فهى متاع زائل وعرض حائل والآخرة خير وأبقى .

وأنت يامحمد لاتحزن عليهم ، ولاتك فى ضيق وكرب مما يمكرون ، فإن الله معك وناصرك وعاصمك من الناس ومؤيدك .

وانظر إليهم وهم يقولون : متى هذا الوعد ؟ إن كنتم ـ أيها القائلون : صادقين وهذا سؤال المراد منه الإنكار واستبعاد تحقق الوعد فيرد الله عليهم : قل لهم يامحمد : عسى أن يكون ردفكم ولحقكم واقترب منكم بعض الذى تستعجلون من العذاب ، وعسى فى كلام الله للتحقق ، وقد تحقق هذا فى غزوة بدر ، ويتحقق فى عذاب القبر قريبا .

وإن ربك لذو فضل على الناس جميعا ، مؤمنهم وكافرهم ، أنعم حيث أنعم على الجميع بنعمه فى الدنيا ، وعلى المؤمن خاصة بنعمة الهداية ، وعلى الكافر بتأخير العذاب ، لعله يثوب إلى رشده ، وأن ربك ليعلم السر وأخفى ، ويعلم الغيب والشهادة ، وهو العليم بذات الصدور ومامن شىء يغيب عنه ويخفى خفاء شديدا ، أينما كان فى السماء أو الأرض ، إلا كان فى كتاب مسطور كتاب مبين ﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾(٣) .

---

(١) لقمان آية ٣٤

(٢) الأعراف آية ١٨٨

(٣) لقمان آية ٣٤

البعث حق

من الكلمات الجامعة التى بلغت أعلى طبقات البلاغة ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ **ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** ﴾(١) .

يبين لنا مولانا-جل فى علاه - أن دنيانا هذه لاقرار فيها ولا استقرار ، إنما الإنسان فيها راحل منها إلى دار القرار .

﴿ **يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه** ﴾(٢) فما الإنسان فى جيل إلاذرة فى فضاء ، وما الجيل فى الزمان إلا لبنة فى بناء ، وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء .

فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر والعمر مهما طال ، فلابد من دخول القبر .

جاء فى الحديث الشريف عن المعصوم ﷺ :

أنه قال : (والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبدا أو لنار أبدا)

والبعث قضية من قضايا العقيدة ، لايؤمن أحد إلا إذا آمن بأنه حق ، وإن الساعة آتية لاريب فيها ، ولما سبق فى علم الله-تعالى-أن هناك ناسا سيسألون هذا السؤال : ﴿ **أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد** ﴾(٣)

أقام الله الأدلة الكونية المنصوبة فى الآفاق ، وأقطار الكون ، ليقطع الطريق على هؤلاء المجادلين المعاندين المكابرين ، الذين يقحمون أنفسهم فى المتاهات ، التى لانهاية لها وينسون أنفسهم .

يقول مولانا-تبارك اسمه - ﴿ **يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لايعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج** ﴾(٤) .

هذه الآية الرائعة الحاسمة الجازمة الباذخة الراسخة أنتجت خمس نتائج اجتمعت فى قوله تعالى :

(١) ذلك بأن الله هو الحق .

(٢) وأنه يحيى الموتى .

(٣) وأنه على كل شىء قدير .

(٤) وأن الساعة آتيه لاريب فيها .

(٥) وأن الله يبعث من فى القبور(١) .

---

(١) المؤمنون الآيتان : ١٥ ، ١٦
(٢) الانشقاق آية ٦
(٣) الرعد من الآية : ٥
(٤) الحج آية ٥

واسمع إليه تبارك اسمه وهو يقدم للبعث فى سورة الرعد فيقول عز من قائل :
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم . المر تلك آيات الكتاب والذى أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون * الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاءربكم توقنون* وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون. وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾
ثم يعقب سبحانه على تلك الآيات فيقول :
﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ﴾
ثم يحكم الله تعالى على هؤلاء الحاقدين فيقول :
﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(١) .

يقول الأستاذ عبد الله سراج فى كتابه « الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها »
قال الله تعالى : ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾(٢)
أن من أصول الاعتقادات الإيمانية : الاعتقاد الجازم بأن الله‌تعالى-يبعث الخلائق بعد موتها فيجمع أجزاءها بعد تفرقها ويعيد إليها أرواحها بعد مفارقتها ويعيدها كما بدأها .
قال تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾(٣) .
وقوله تعالى : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾(٤) .
فهو سبحانه يعيد هذا الخلق بجواهره بل وأعراضه على المعتمد كما بدأه أول مرة وليس فى هذا شىء من المحالات العقلية ولا المناقضات الفكرية .
وذلك أن العاقل إذا اتبع نظراته العابرة فى العالم الإنسانى وتكويناته الخلقية وتطوراته وتقلباته فى تلك الأدوار وتغيراته فى تلك الأطوار .
وهكذا أجال نظره فى عالم النبات وانفلاق تلك النواة الدفينة فى بطن الأرض بقدرة البارى-تعالى- عن شجرتها وفروعها وأغصانها وثمراتها ، ثم جعل ينتقل فى عجائب الأرض ، وعظمة السموات ومافيها من المبدعات ، فإنه حينئذ تتجلى له حقائق قدرة البارى-تعالى-ويشاهد آيات إبداعه وخلقه ، ويعلم يقينا أن من قدر على بدء الخلق لهو القادر على إعادتهم بلا ريب .
ولقد جاء القرآن العظيم بطرق واضحة ، تثبت أمر المعاد الجسمانى والروحانى ألا وهى طريقة

---

(١) الرعد الآيات : ١ ـ ٥
(٢) المؤمنون الآيتان: ١٥ ، ١٦
(٣) الروم آية : ٢٧
(٤) الأعراف من الآية : ٢٩

البرهان وطريقة العيان ، وليس بعد البرهان والعيان دليل وتبيان وتلك الحجج القرآنية هى المحجة البيضاء التى لا تعشو فيها الأبصار ولا تتخبط فيها العقول والأفكار .

الطريقة الأولى : النظر فى الآيات الآفاقية والنفسية قال الله تعالى : ﴿ ق والقرآن المجيد * بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب * أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد * قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ * بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج * أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب * ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد * رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج * كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود * وعاد وفرعون وإخوان لوط * وأصحاب الأيكة وقوم تبع كلٌ كذب الرسل فحق وعيد * أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من الخلق جديد ﴾[1] .

إذا أمعن القارىء فى هذه الآيات الكريمة ، وتدبر مافيها ، يتضح له وجه المناسبات الحكيمة ، وأنها كلها براهين قطعية ، وأدلة عيانية ، شاهدة على أن الإعادة حق ، وأن الله على كل شىء قدير ، وأنه لايعجزه شىء ، وذلك أن للإعادة أشباها ونظائر ، يتقلبون فيها ويشاهدونها بأعينهم ، فعلام يعجب الجاحدون ، وينكر المنكرون ؟

﴿ فقال الكافرون هذا شىء عجيب . أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ﴾ .

استبعدوا الرجعة بعد الموت ، وتفرق الأجزاء وبلاها ، فجاءهم الجواب :

﴿ قد علمنا ماتنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾ وذلك أن ماتأكله الأرض من أجزائهم هو معلوم عند الله-تعالى- لا يغيب مهما تباعد وتفرق ، فهو سبحانه يعلم كل جزء عمن انفصل ، وبمن كان اتصل ، وأن تلك الأجزاء كلها محفوظة فى كتاب جمعها كلها ، فهى وإن غابت عن أبصار أهل الدنيا لكنها محفوظة فى ذلك الكتاب الذى عنده سبحانه بذواتها وذراتها فإن استبعدوا ذلك بالنسبة للقدرة ، فهذه السماوات والأرض ، أكبر خلقا منهم وأشد ، فإن كانوا يرون أن الإعادة ليست أكبر من البدء ؛ فالذى قدر على البدء يقدر على الإعادة .

وإن كانوا يرون أن الإعادة أكبرمن البدء وأعظم ، فلقد خلق الله-سبحانه-ماهو أكبر منهم وأشد خلقا منهم ، وهى السماوات والأرض المشهودة لديهم بأعينهم .

إلى هذا يرشد سبحانه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ﴾

أى:وهى الجبال التى نصبها سبحانه ، وأودع فيها ماأودع من خزائن ومعادن وخصائص .

﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة ﴾ للمستبصرين(وذكرى) للمتذكرين. ومايتبصر ويتذكر إلا

(١) سورة « ق » الآيات:من ١ : ١٥

كل عبد منيب .

ولذا قال سبحانه : ﴿ وذكرى لكل عبد منيب ﴾

ثم بين الله -تعالى- فى سياق الحجة على منكرى الإعادة بعد الموت ، فقال سبحانه : ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * إلى قوله تعالى * كذلك الخروج ﴾

وهكذا الدليل يثبت قدرة الله -تعالى- ويثبت عظمة القدرة الإلهية وسعتها .

وهذا الدليل يقرب أمر الإعادة ، ويبين أن لها نظائر وأشباها مشهورة أمامهم .

* الحبة والنواة *

وذلك أنه سبحانه أنبت فى هذه الأرض من حبة أو نواة دفينة فى بطنها أصنافا من زروع وأشجار وثمار على مختلف ألوانها وطعمها وتنوع منافعها ، وذلك دليل باهر يبصر به أرباب البصائر ، ويستدل به أولو العقول على إثبات البعث ، وكيفية الإعادة لهذا الجسم ، الذى تحتفظ الأرض بأجزائه ، مهما تفرقت وتبددت وتباعدت ، ومن تلك الأجزاء الدفينة ينشىء الله -تعالى- النشأة الآخرة .

ولذا قال سبحانه : ﴿ كذلك الخروج ﴾ أى: مثل هذا الإخراج المشهود المعاين أمامكم من الأرض الفواكه والثمار والأقوات والحبوب ، فيخرجكم من الأرض بعدما غيبتم فيها ودفنتم فى أنحائها وبطونها .

* تكذيب الجاحدين *

ثم إنه سبحانه بين فى قوله : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ الآيات - أن إنكار المعاد وتكذيب الرسل : هو عادة كل جبار عنيد ، يكذب بالحق بعدما تبين ، وينكر الواقع بعد ما اتضح ، فلا فائدة فى الجدل معه فإنه لايستخرج منه العناد إلا سطوة رب العباد ، وأخذه بالعذاب والعقاب .

(كل كذب الرسل فحق وعيد)

ثم بين سبحانه وتعالى دليلا نفسيا على إثبات الإعادة لهذا الخلق ، بأنه سبحانه لما بدأ هذا الخلق لم يعى ، ولم يمسسه لغوب ولا تعب ، فيعجز عن إعادته ثانيا ، فإن كانوا قد عموا وصموا عن الأدلة السابقة كلها: السماوية والأرضية ، فليفكروا فى أنفسهم ، وليتعقلوا فى نشأتهم الحاضرة التى هم فيها ، فإنهم الآن يتقلبون فى خلق جديد يتجدد عليهم . غير أنهم قد التبس الأمر عليهم ، فظنوا أنهم هم فى كل حال ، وأنهم لايعتريهم تبديل ولا تحويل ولا تخليق جديد ، ولكن الأمر ليس بذلك ، بل إنهم فى كل لحظة ، بل فى أقل من أجزاء اللحظة ، تفنى منهم أجزاء خلقية وجواهر فردية ، ويخلق الله -تعالى- غيرها ، ويجدد عليهم وجودها ، وهكذا وهكذا . .

وهذا الأمر لايخالف فيه إلا جاهل مكابر

* أطوار خلق الإنسان *

إن الله خلق الإنسان أولا نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة،ثم جنينا،ثم طفلا ، ثم مراهقا ، ثم شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخا،ثم هرما فانيا .

ومن المقطوع البديهى أنه لم يتنقل من طور إلى طور دفعة واحدة ، بل مرت عليهم لحظات وساعات فنيت منهم أجزاء ، وتجددت فيهم أجزاء أخرى شيئا فشيئا تدريجيا ، حتى انتقل إلى الطور الثانى ، وهكذا دواليك ، ولكن لم يتبين له ذلك التجديد والتحويل .

قال الله تعالى : ﴿ مالكم لاترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا ﴾[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾[2]

فلا فرق بين تلك الأطوار التى يقلبكم فيها بالنسبة لقدرته سبحانه وتعالى ، ولا يعجزه شىء فى ذلك ، بل إن جميع ذلك يسير عليه ، وهو على جميع ذلك وغير ذلك قدير وقال الله تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى انشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

* المجادلة فى البعث *

روى ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس-رضى الله عنهما-: أن العاص بن وائل الجاهلى ، أخذ عظما من البطحاء ففته بيده ، ثم قال لرسول الله ـ ﷺ ـ : أيحيى الله هذه بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ : (نعم ، يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم)[4] . فنزلت هذه الآيات ردا عليه وعلى أمثاله .

---

(١) سورة نوح الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٢) سورة المؤمنون الآيات:١٢ ـ ١٦

(٣) سورة يس الآيات:٧٧ ـ ٨١

(٤) انظر تفسير الطبرى:٢١/٢٣ .

وروى أن قائل ذلك هو أبى بن خلف ، فجاء الجواب القرآنى على هذه الشبهة الفاسدة بوجوه :

١ - أن هذا الضال استبعد الإعادة والحياة فى عظام رفات ، وترك نفسه من الاعتبار ، فإن الله-تعالى الذى خلق الإنسان ونقله من العدم إلى الوجود - لهو قادر على الإعادة ، فما لهذا الضليل نسى خلقه بعد العدم ، فراح ينكر حياته بعد الموت ؟

٢ - ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[1] . فإن إيجاد البادىء أصعب فى مطرد العادة والعرف من رد شىء كان إلى ما كان عليه من ذى قبل : يعنى أن القادر على البداية هو قادر من باب أولى على الإعادة .

٣ - ﴿ وهو بكل شىء عليم ﴾ فإن جميع أجزاء الإنسان مهما تفرقت وتباعدت ، فإنها معلومة عند الله تعالى ، محفوظة عنده ، ﴿ لا يضل ربى ولا ينسى ﴾[2] . ولا يلتبس عليه شىء .

٤ - ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾[3].

وفى هذا دليل على أن هناك قوة تتغلب على المتنافرين المتناقضين ، وهما : الأخضر الحى ، والنار اليابسة - ألا وهى : قدرة الله-تعالى- الذى يستخرج الشىء من ضده ، بل من نقيضه . .

٥ - أن الذى أبرز النار التى كانت كامنة فى الشجر والحجر ، فأظهرها بالقدح ، وأشعلها بالنفخ - لهو قادر على أن يبرز الميت الدفين فى التراب الكامن فى الخبايا الأرضية . بسبب أنه سبحانه يأمر إسرافيل عليه السلام بالنفخ فى الصور ، والنقر فى الناقور .

الطريقة الثانية من الحجج التى أقامها الله-تعالى-على عباده ، وأثبت لهم فيها قدرته على إعادة الخلق بعد موتهم هى : طريقة الشهود والعيان ، وهى أن الله-تعالى-أجرى فى ذلك أمورا فعلية ، حيث أمات فيها طوائف من الإنسان ومن الحيوان ومن الطيور . ثم أحياهم بعد موتهم على مشهد ومرأى من الناس ليعلموا أن الذى أعاد ذلك بعد الموت ، لهو قادر على أن يعيد الأموات كلهم بعد موتهم .

وقد أخبر القرآن عن تلك الوقائع ، وبين أنها أمور معلومة ومشهودة لدى الأمم الماضية .

* قوم أحياهم الله بعد موتهم *

فمن ذلك القوم الذين أخبر الله-تعالى-عنهم بقوله : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر غير واحد من السلف : أن هؤلاء القوم أهل بلدة من زمان بنى إسرائيل ، استوخموا أرضهم ، وأصابهم بها وباء شديد ، فخرجوا فرارا من الموت هاربين إلى

(١) الاية :٧٩ من سورة يس .
(٢) الآية :٥٢ من سورة طه .
(٣) الآية :٨٠ من سورة يس .

البرية ، فنزلوا واديا أفيح - واسعا - فملأوا ما بين عدورتيه ، فأرسل الله إليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه ، فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم : ثم إنهم تفرقت أجزاؤهم وتمزقت فلما كان بعد دهر مر بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له:(حزقيل) فسأل الله تعالى- أن يحييهم على يديه ، فأجابه إلى ذلك وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾[1] .

أى:فيما يريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة ، والدلالات الدامغة ، التى تثبت أن الله -تعالى- قادر على إعادة الأموات بلا ريب .

* أصحاب موسى عليه السلام *

ومن ذلك أيضا : السبعون الذين اختارهم موسى-عليه الصلاة والسلام-للميقات الذى وعده الله -تعالى-إن يكلمه فيه ، وينزل عليه التوراة ، أماتهم الله -تعالى- ثم أحياهم .

قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك ﴾[2] . أى بأن الله-تعالى-أعطاك التوراة ، أو أن الله تعالى قد كلمك .

﴿ حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ﴾ أى:نار من السماء أحرقتهم ، أو صيحة سماوية خروا لها صعقين ميتين يوما وليلة .

﴿ وأنتم تنظرون . ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾[3] .

وكان بعثهم بعد موتهم بسبب دعاء موسى-عليه الصلاة والسلام- ومناشدته ربه .

* دحض شبهة باطلة *

ولا يتنافى موت هؤلاء الذين تقدم ذكرهم فى الدنيا مرتين مع قوله تعالى : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا ﴾[4] . لأن موتهم إذ ذاك لم يكن عن استيفاء آجالهم ، وإنما هو موت عقوبة ، فكأنه ليس بموت ، أى:إنه عارض أعقبه حياة فى الدنيا نفسها لا فى عالم آخر ، فلا يختلف مع الآية الثانية .

* قصة العزير *

ومن ذلك : أيضا قصة العزير،عليه السلام ـ أماته الله-تعالى-مائة عام ثم بعثه ، قال الله تعالى :

---

(١) من الآية:٢٤٣ من سورة البقرة .
(٢) من الآية:٥٥ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ٥٥ ، والآية : ٥٦ .
(٢) من الآية:من سورة غافر ١١ .

﴿ أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال : كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير ﴾[1] .

قال جمهور السلف ـ رضى الله عنهم : إن هذا الذى مر على قرية هو (العزير) أحد أنبياء إسرائيل ، مر على بلد بيت المقدس ، بعدما دخلها (بختنصر) وخربها ، فرآها العزير وهى خاوية على عروشها ، أى : ساقطة على سقوفها باعتبار أن سقوف البيوت تسقط أولا ، ثم تهتدم الجدران وتتساقط عليها ، أى : على السقوف .

قال : أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟؟

قال ذلك استعظاما للأمر ، وتفخيما من عظمة قدرة الله ـ تعالى ـ القدير على كل شىء ، لا من باب الاستبعاد والإنكار .

وذلك نظير قول زكريا ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما أخبر الله ـ تعالى ـ عنه لما بشر بالغلام : ﴿ قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا ﴾[2] . يعنى : أن ذلك الأمر عظيم ، جدير بان يتعجب من عظمته وفخامته .

﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ : أحياه بعد موته ﴿ قال كم لبثت ﴾ ؟ وهذا السؤال ورد لإظهار عجز العزير وغيره من الإحاطة بشئون الله ـ تعالى ـ وعظيم قدرته .

﴿ قال لبثت يوما أو بعض يوم ﴾ .

وإنما قال ذلك لأنه مات ضحى النهار وبعث بعد المائة قبل الغروب ، فقال قبل أن ينظر الى الشمس : ﴿ يوما ﴾ ثم التفت فرأى أن الشمس لم تغرب ، بل آثار أنوارها على الأماكن العالية ، فقال : ﴿ أو بعض يوم ﴾ على طريق الاضراب .

﴿ قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه ﴾ .

أى : لم يتغير فى هذه المدد الطويلة والسنين العديدة ، وكان طعامه على ما روى عنبا وتينا ، وشرابه عصيرا أو لبنا .

﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ : كيف نخرت عظامه ، وتفرقت أوصاله ، وهكذا أمره الله ـ تعالى ـ أن ينظر أولا إلى طعامه وشرابه ، لم يتغير ، حتى يتبين له أن الذى حفظ له طعامه وشرابه من التغير والفساد على طول السنين المائة ، هو الذى حفظ العزير من التغير ، ومن أن تأكله الأرض ، وتفسده على مر السنين العديدة ، بل أبقى له جسمه بعد موته وحفظه ، من البلى ، لأنه الله ـ تعالى ـ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

وأمره الله ـ تعالى ـ أن ينظر ثانيا إلى حماره ، وقد بلى وتفرق وتمزق ليزداد يقينا بأنه مر عليه مائة سنة .

---

(١) الآية : من سورة البقرة ٢٥٩

(٢) الآية : من سورة مريم ٨

ثم قال تعالى له : ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أى عبرة ودليلا على قدرة الله تعالى ، على احياء الأموات وبعثها ، وانه سبحانه قادر أن يحفظ أجساد من أراد حفظهم ، وانه سبحانه قدير على كل شيء ، ولا يعجزه شيء .

ثم قال له : ﴿ وانظر إلى العظام ﴾ أى عظام الحمار البالى المتفرقة أوصاله وعظامه ﴿ كيف ننشزها ﴾ أى كيف نرفعها عن الأرض ونركبها فوق بعضها ونعيدها كما كانت قبل الموت والتمزق ﴿ ثم نكسوها لحما ﴾ أى نستر العظام باللحم .

﴿ فلما تبين له ﴾ اتضح له ايضاحا تماما ، وعاين كيفية الاحياء ﴿ قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ وذلك علم رؤية وعيان ، فوق ما انا عليه من اليقين والإيمان .

* إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام *

ومن ذلك : قصة إحياء الطيور على يد الخليل سيدنا ابراهيم ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام ، وقد ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم بعد قصة العزير عليه السلام .

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال ابراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾[1] .

اختلفت الأخبار المنقولة عن علماء السلف رضى الله عنهم فى سبب سؤال الخليل - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - ربه ان يريه كيفية إحياء الموتى .

فجاء عن الحسن البصرى والضحاك وقتادة وغيرهم : أن الخليل عليه الصلاة والسلام سأل ربه ذلك لينقل من مرتبة علم اليقين الى عين اليقين .

وقد جاء فى الحديث : أن رسول الله ﷺ قال : (ليس الخبر كالمعاينة ، ان الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه فى العجل فلم يلق الألواح ، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت)[2] .

وروى عن ابن عباس والسدى وسعيد بن جبير ان الملك بشر الخليل عليه السلام بأن الله تعالى قد اتخذه خليلا ، وأنه يجيب دعوته ، وانه يحيى الموتى بدعائه ، فلذلك سأل الله ما سأل .

وروى عن محمد بن إسحق ان سبب سؤال الخليل ذلك - هو منازعة النمرود إياه فى إحياء الموتى ، حين قال له الخليل : ﴿ ربى الذى يحيى ويميت ﴾[3] .

ورد على النمرود زعمه أن العفو عن المجرم هو إحياء له وان تنفيذ القتل فيه إماتة له ، وراح النمرود يتوعد الخليل بالقتل ان لم يحى الله الموتى على يد الخليل بحيث يشاهد النمرود ذلك ، فدعا سيدنا الخليل ربه حينئذ فقال : ﴿ رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن ﴾[4] . أى ألم تعلم وتؤمن بأنى قادر على الاحياء كيف أشاء حتى تسألنى عنه ؟

---

(١) الآية من سورة البقرة : ٢٦٠
(٢) أخرجه الإمام احمد ج ١ ص٢١٥ ، ص٢٧١
(٣) الآية من سورة البقرة : ٢٥٨
(٤) الآية من سورة البقرة : ٢٦٠

أولم تؤمن بأنى قد اتخذتك خليلا ؟

أولم تؤمن بأن الجبار النمرود لا يستطيع أن يقتلك ؟ ﴿ قال بلى ﴾ أى أنا مؤمن بذلك ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ بانضمام رؤية العيان الى الايمان بأنك القادر على ذلك ، وليطمئن قلبى بالخلة التى تفضلت بها على ، وأكرمتنى بها وبلوازمها ، من إجابة الدعاء وما وراء ذلك . أو ليطمئن قلبى بأن الجبار لا يقتلنى بعدما يشاهد كيفية إحيائك للموتى على يدى .

وعلى كل ، فسؤال الخليل لم يكن عن شك أصلا ، بدليل قوله : ﴿ أولم تؤمن قال بلى ﴾ أى : أنا مؤمن ﴿ ولكن ليطمئن قلبى ﴾ .

وقد قطع النبى ﷺ دابر الوهم الذى يتلاعب فى بعض الخواطر ، فقال كما فى الصحيحين عن أبى هريرة : (نحن أحق بالشك من ابراهيم عليه السلام اذ قال : رب أرنى كيف تحيى الموتى)(١) . ويعنى بذلك - ﷺ - أنا لم نشك أصلا . فكأنه ﷺ يقول : إن شك ابراهيم فنحن أحق بالشك ولكنا نحن لم نشك ، فإبراهيم لم يشك ، صلوات الله تعالى على حبيبه وخليله وآلهما أجمعين .

قال سبحانه : ﴿ فخذ أربعة من الطير ﴾ أى مختلفة الأنواع .

وإنما خص الطير بذلك لسهولة ما يفعل بها من التجزئة والتوزيع والتفرقة على الجبال ، ففى جمعها وإعادتها وإحيائها مزيد ظهور لقدرته سبحانه وتعالى . ﴿ فصرهن ﴾ أى قطعهن أجزاء واضممهن ﴿ إليك ﴾ واجمعهن ﴿ ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ﴾ .

وبهذا أمر الله تعالى الخليل عليه السلام ان يذبح تلك الطيور ويقطعها إربا إربا ، ويجزئها ما استطاع ، يخلطها الى بعضها ، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءا .

﴿ ثم ادعهن يأتينك سعيا ﴾ أى ساعيات مسرعات فى العدو والعودة اليك .

والحكمة فى سعى الطيور اليه مشيا دون الطيران اليه هى انه لو طارت لتوهم متوهم انها غير الطيور الميتة التى ذبحها ومزقها ، لذلك قال الله تعالى : ﴿ يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ غالب لا يعجزه شىء ، حكيم يضع الأشياء فى مواضعها .

وفى هذا دليل على ان هذا الأمر كان على مشهد من الناس وعلى مرأى من النمرود ، ليكون حجة للخليل عليه السلام ، قائمة على النمرود وأتباعه .

ولذلك جاءت هذه القصة بعدما ذكر الله تعالى المحاجة التى جرت بين الخليل والنمرود .

قال سبحانه :

﴿ ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ﴾(٢) . الآية .

فهذه وقائع ثابتة أجراها الله تعالى وأوقعها ليقيم الحجة على العباد ، وليبين لهم أنه قادر على إحياء

---

(١) أخرجه الامام مسلم فى كتابه الفضائل رقم ١٥٢ ، ٥١ ص١٨٣٩ط الحلبى

(٢) من الآية ٢٥٨ من سورة البقرة .

الموتى-سبحانه - وإعادتهم الى حياة جديدة فى عالم آخر يوم القيامة ، أى :

﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[(١)] .

* البعث فى القرآن الكريم *

لما كانت قضية البعث من أكثر القضايا جدلا عند ذوى القلوب المريضة ، فإن القرآن الكريم بسط القول فيها بسطا لا يكاد يدع لمرتاب شبهة ، إلا أن يكون فى أذنيه وقر ، وقلبه فى أكنة ومن بينه وبين الحق حجاب .

نرى القرآن الكريم فى بعض مواضعه يقدم الأدلة على القضية وأحيانا يقدم القضية ثم يقيم الأدلة عليها .

ففى سورة الحج يقدم القرآن العظيم الأدلة ثم يذكر النتيجة .

* عالم الأرحام *

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

ثم يستنتج القرآن من هذه الأدلة خمس نتائج :

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾[(٢)] .

﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾[(٣)] .

﴿ وأنه على كل شىء قدير ﴾[(٤)] .

﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾[(٥)] .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[(٦)] .

وهذه أضواء فى تفسير تلك الآيات البينات ، يذكرها لنا العلامة ابن كثير فيقول :

لما ذكر تعالى المخالف للبعث ، المنكر للمعاد ، ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد ، بما يشاهد من بدئه للخلق فقال : ﴿ ياأيها الناس إن كنتم فى ريب ﴾ أى فى شك ﴿ من البعث ﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿ فإنا خلقناكم من تراب ﴾ أى أصل برئه لكم من تراب وهو الذى خلق منه آدم عليه السلام ﴿ ثم من نطفة ﴾ أى جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم من علقة ثم من مضغة ﴾ .

---

(١) الآية ٦ من سورة المطففين .
(٢) من الآية من سورة الحج ٦
(٣) من الآية من سورة الحج ٦
(٤) الآية من سورة الحج ٦
(٥) الآية من سورة الحج ٧
(٦) الآية من سورة الحج ٧

وذلك انه اذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوما كذلك ، يضاف اليه ما يجتمع اليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله ، فتمكث كذلك أربعين يوما ، ثم تستحيل فتصير مضغة . (قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط) .

ثم يسرع فى التشكيل والتخطيط فيصور منها رأسا ويدين وصدرا وبطنا وفخذين ورجلين وسائر الأعضاء .

فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ، ولهذا قال تعالى ﴿ **ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة** ﴾ أى كما تشاهدونها ﴿ **لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى** ﴾ أى وتارة تستقر فى الرحم لا تلقيها المرأة ولا تسقطها ، كما قال مجاهد فى قوله : ﴿ **مخلقة وغير مخلقة** ﴾ قال : هو السقط مخلوق وغير مخلوق .

فإذا مضى عليها أربعون يوما وهى مضغة أرسل الله تعالى ملكا اليها فنفخ فيها الروح وسواها ، كما يشاء الله عز وجل : من حسن وقبح ، وذكر وأنثى ، وكتب رزقها وأجلها ، وشقيا أو سعيدا ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث الأعمش عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق : (وإن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين ليلة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقى أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح)[1] .

وروى ابن حاتم وابن جرير من حديث داود أبى هند عن الشعبى عن علقمة عن عبد الله قال : النطفة إذا استقرت فى الرحم جاءها ملك بكفه فقال : يارب مخلقة أو غير مخلقة فإن قيل : غير مخلقة ، لم تكن نسمة ، وقذفتها الأرحام دما . وإن قيل : مخلقة قال : أى رب ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ؟ ما الأجل ؟ وما الأثر ؟ وبأى أرض يموت ؟ قال : فيقال للنطفة : من ربك ؟ فتقول : الله ، فيقال : من رازقك ؟ فتقول : الله ، فيقال له : اذهب الى الكتاب فإنك ستجد فيه قصة هذه النطفة قال : فتخلق فتعيش فى أجلها ، وتأكل رزقها ، وتطأ أثرها ، حتى إذا جاء أجلها ماتت فدفنت فى ذلك . ثم تلا عامر الشعبى ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة** ﴾ .

فإذا بلغت مضغة نكست فى الخلق الرابع فكانت نسمة وإن كانت غير مخلقة قذفتها الأرحام دما ، وإن كانت مخلقة نكست نسمة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى ، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار ، عن أبى الطفيل ، عن حذيفة بن أسيد ، يبلغ به النبى ﷺ قال : (يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر فى الرحم بأربعين يوما أو خمسا وأربعين يوما فيقول : أى رب أشقى أم سعيد ؟ فيقول الله ويكتبان . فيقول : أذكر أم أنثى ؟ فيقول الله ويكتبان . ويكتب عمله وأثره ورزقه وأجله ، ثم تطوى

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم ٢٦٤٣ كتاب القدر .

الصحف فلا يزاد على ما فيها ولا ينقص)[١] . ورواه مسلم من حديث سفيان بن عيينه ، ومن طريق آخر عن أبى الطفيل بنحو معناه .

وقوله : ﴿ ثم نخرجكم طفلا ﴾ أى :ضعيفا فى بدنه وسمعه وبصره ، وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا ، ويلطف به ، ويحنن عليه والديه فى آناء الليل وأطراف النهار . ولهذا قال:﴿ ثم لتبلغوا أشدكم ﴾ أى:يتكامل القوى ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر .

﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أى:فى حال شبابه وقواه .

﴿ ومنكم من يرد إلى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم والضعف : ضعف القوة والفهم وتناقص الأحوال وضعف الفكر ولهذا قال : ﴿ لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ .

كما قال تعالى:﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[٢] .

* منح إلهية للطائعين *

قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن على بن المثنى الموصلى فى مسنده : حدثنا منصور بن أبى مزاحم ، حدثنا خالد الزيات ، حدثنى داود أبو سليمان عن عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم الأنصارى عن أنس بن مالك رفع الحديث قال :

(المولود حتى يبلغ الحنث ما عمل من حسنة كتبت لوالده أو لوالديه ، وما عمل من سيئة لم تكتب عليه ولا على والديه ، فإذا بلغ الحنث أجرى الله عليه القلم ، وأمر الملكين اللذين كانا معه أن يحفظا وأن يشددا ، فإذا بلغ أربعين سنة فى الإسلام أمنه الله من البلايا الثلاث : الجنون والجذام والبرص . فإذا بلغ الخمسين خفف الله حسابه . فإذا بلغ ستين رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ السبعين أحبه أهل السماء . فإن بلغ الثمانين كتب الله حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وشفعه فى أهل بيته وكتب أمين الله ، وكان أسير الله فى أرضه . فإذا بلغ أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا كتب الله له مثل ما كان يعمل فى صحته من الخير . فإذا عمل سيئة لم تكتب عليه)[٣] . رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده موقوفا ومرفوعا .

فقال : حدثنا أبو النضر ، حدثنا الفرج ، حدثنا محمد بن عامر عن محمد بن عبد الله العاملى عن عمرو بن جعفر عن أنس قال : (إذا بلغ الرجل المسلم أربعين سنة أمنه الله من أنواع البلايا : من الجنون والبرص والجذام ، فإذا بلغ الخمسين لين الله حسابه ، وإذا بلغ الستين رزقه الله إنابة يحبه

---

(١) أخرجه الإمام مسلم برقم ٢٦٤٤ كتاب القدر ، والإمام أحمد (حديث حنيفة بن أسيد ج٤ ص٧
(٢) الآية ٥٤ من سورة الروم .
(٣) أخرجه الإمام أحمد ٢١٨/٣

عليها ، وإذا بلغ السبعين أحبه الله وأحبه أهل السماء ، وإذا بلغ الثمانين تقبل الله حسناته ومحا عنه سيئاته ، وإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله فى أرضه وشفع فى أهله) .

ثم قال : حدثنا هشام ، حدثنا الفرج ، حدثنى محمد بن عبد الله العامرى عن محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان عن عبد الله بن عمر بن عمر بن الخطاب عن النبى ﷺ مثله .

ورواه الإمام أحمد أيضا : حدثنا أنس بن عياض ، حدثنى يوسف بن أبى بردة الأنصارى عن جعفر بن عمرو بن أمية الضمرى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : (ما من معمر يعمر فى الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه ثلاثة أنواع من البلاء : الجنون والبرص والجذام)(١) . وذكر تمام الحديث كما تقدم سواء .

ورواه الحافظ أبو بكر البزار عن عبد الله بن شبيب عن أبى شيبة عن عبد الله بن عبد الملك عن أبى قتادة العدوى عن ابن أخى الزهرى عن عمه أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ :

(ما من عبد يعمر فى الإسلام أربعين سنة إلا صرف الله عنه أنواعا من البلاء : الجنون والجذام والبرص،فإذا بلغ خمسين سنة لين الله له الحساب ، فإذا بلغ ستين سنة رزقه الله الإنابة إليه بما يحب ، فإذا بلغ سبعين سنة غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله وأحبه أهل السماء ، فإذا بلغ الثمانين تقبل الله منه حسناته وتجاوز عن سيئاته ، فإذا بلغ التسعين غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وسمى أسير الله فى الأرض وشفع فى أهل بيته) .

* دلالة إحياء الأرض على البعث *

وقوله : ﴿ وترى الأرض هامدة ﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحيى الأرض الميتة الهامدة ، وهى المقحلة التى لا ينبت فيها شىء . وقال قتادة : غبراء متهشمة . وقال السدى : ميتة .

﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ :

أى:فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت ، أى:تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها ﴿ وربت ﴾ أى: ارتفعت لما سكن فيها الثرى : ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشتات النبات فى اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أى:حسن المنظر طيب الريح .

وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أى:الخالق المدبر الفعال لما يشاء .

﴿ وأنه يحيى الموتى ﴾ أى:كما أحيا الأرض الميتة وأنبتت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذى أحياها

(١) أخرجه الإمام أحمد ج٣ ص٢١٨

لمحيى الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .
﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾(١) .
﴿ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أى كائنة لاشك فيها ولا مرية .

﴿ وأن الله يبعث من فى القبور ﴾ : أى يعيدهم بعدما صاروا فى قبورهم رمما ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى : ﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾(٢) .

والآيات فى هذا كثيرة .

قال الامام أحمد : حدثنا بهز حدثنا حماد بن سلمة قال : أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن عدى عن عمه أبى رزين العقيلى واسمه لقيط بن عامر انه قال : (يارسول الله : أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ فقال رسول الله ﷺ : (أليس كلكم ينظر إلى القمر مخليا به ؟) قلنا : بلى . قال : (فالله أعظم) قال : قلت يارسول الله : كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال (أما مررت بوادى أهلك ممحلا) ؟ قال : بلى قال : ثم مررت به فاهتز خضرا ؟ قال : بلى . قال : (فكذلك يحيى الله الموتى وذلك آيته فى خلقه) .

ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به .

ثم رواه الامام أحمد أيضا : حدثنا على بن إسحق أنبأنا ابن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن سليمان بن موسى عن أبى رزين العقيلى قال : (أتيت رسول الله ﷺ وقلت : يارسول الله : كيف يحيى الله الموتى ؟ قال : (أمررت بأرض من أرض قومك مجدبة ثم مررت بها مخصبة ؟ قال : نعم . قال : كذلك النشور)(٤) . والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا عيسى بن مرحوم حدثنا بكير بن السميط عن قتادة عن أبى الحجاج عن معاذ بن جبل قال : (من علم أن الله هو الحق المبين ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور دخل الجنة) .

وهكذا انتهى النموذج الأول من نماذج إثبات البعث فى القرآن الكريم بتقديم الأدلة ، ثم إثبات النتيجة .

* النموذج الثانى فى الاستدلال على البعث *

أما النموذج الآخر ، فإنه يبدأ بقضية البعث ، ثم يقيم الأدلة الكونية والآفاقية على أنه حق واقع .

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يس
(١) الآيات ٧٨ - ٨٠ من سورة يس .
(٢) أخرجه الامام أحمد ٤/ ١١،١٢ وابن ماجه رقم ١٨٠ ج١ ص٦٤ ، وابو داود برقم ٤٧٣١ ص٩٩ ، ص١٠٠ ج٥
(٤) أخرجه الإمام أحمد ٤/ ١١

قال سبحانه وتعالى : ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾(١) ؟

تلك هى القضية التى أقام القرآن الأدلة القطعية على ثبوتها ووقوعها ، فأقام خمسة أدلة :

١ - ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾(٢) .

٢ - ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾(٣) .

٣ - ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾(٤) .

٤ - ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾(٥) .

٥ - ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾(٦) .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآيات كلاما جليلا وجميلا .

يقول رحمه الله تعالى : قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة : (جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفى يده عظم رميم ، وهو يذروه فى الهواء وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار)(٧) .

* القرآن هدى ورحمة *

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن ذكر سبحانه ما يتعلق بالنشأة الأولى وأنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، وما يتصل بالبعث والنشور ، وأقام على ذلك الدليل يتلو الدليل بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ، أردف ذلك

(١) الآيات ٧٧ - ٧٨ من سورة يس
(٢) الآية ٧٩ من سورة يس .
(٣) الآية ٨٠ من سورة يس .
(٤) الآية ٨١ من سورة يس .
(٥) الآية ٨٢ - ٨٣ من سورة يس .
(٦) الآية ٨١ - ٨٣ من سورة يس .
(٧) انظر تفسير الطبرى ٢١/٣٢

الكلام فى نبوة محمد ﷺ ، وأقام الأدلة على صحتها ، وصدق دعواه فيما يدعى ، وكان من أعظم ذلك القرآن الكريم ،لاجرم بين الله تعالى فصاحته وبلاغته وإعجازه من وجوه :

(١) أن ما فيه من القصص موافق لما فى التوراة والإنجيل مع أنه كان ﷺ أميا ولم يخالط أحدا من العلماء للاستفادة والتعلم ، فلا يكون ذلك إذن إلا من وحى إلهى من لدن حكيم خبير .

(٢) أن ما فيه من دلائل عقلية على التوحيد والبعث والنبوة والتشريع العادل المطابق لحاجة البشر فى دنياهم وآخرتهم ـ لا يوجد له نظير فى كتاب آخر ، فلابد أن يكون ذلك من عند الله .

(٣) أنه قد بلغ الغاية فى الفصاحة والبلاغة حتى لم يستطع أحد أن يتصدى لمعارضته مع حرصهم عليها أشد الحرص ، فدل ذلك على أنه خارج عن قوى البشر ، وأنه من الملأ الأعلى ومن لدن خالق القوى والقدر .

ثم ذكر بعد ذلك أنه جاء حكما على بنى إسرائيل فيما اختلفوا فيه ، فأبان لهم الحق فى هذا كاختلافهم فى أمر المسيح ، فمن قائل هو الله،ومن قائل هو ابن الله،ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، وقوم يقولون إنه كاذب فى دعواه النبوة ، كما نسبوا مريم إلى ما هى منزهة عنه ، وقالوا:إن النبى المبشر به فى التوراة هو (يوشع) عليه السلام أو هو نبى آخر يأتى آخر الدهر ، إلى نحو ذلك مما اختلفوا فيه ، وأنه لا يحكم إلا بالعدل فقوله الحق وقضاؤه الفصل .

ثم أمر رسوله ﷺ أن يتوكل عليه فإنه حافظه وناصره ، وأن يعرض عن أولئك الذين لا يستمعون لدعوته ، لأنهم صم بكم لا يعقلون ، والذكرى لا تنفع إلا من له قلب يعى ، وآذان تسمع دعوة الداعى إلى الحق ، فتستجيب لها .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾ :

هذا إخبار من الله تبارك وتعالى عن الكتاب الكريم والقرآن العظيم ، بما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان ، أنه يقص على بنى إسرائيل وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أكثر الذى هم فيه يختلفون ﴾ كاختلافهم فى عيسى وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا ، والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل ، أنه عبد من عباد الله وأنبيائه ورسله الكرام عليه أفضل الصلاة والسلام ـ كما قال تعالى : ﴿ ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ﴾[١] .

قوله تعالى: ﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أى:هدى لقلوب المؤمنين به ورحمة لهم فى العمليات وذلك كقوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾[٢] .

وقوله: ﴿ ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[٣] .

---

(١) الآية ٣٤ من سورة مريم .
(٢) الآية ٩ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٥٧ من سورة يونس .

وقوله: ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾[١] .

اللهم اجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء همنا وذهاب حزننا . .

ثم قال تعالى :

﴿ إن ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز الحكيم ﴾ أى:يوم القيامة ﴿ بحكمه وهو العزيز ﴾ أى: فى انتقامه ﴿ العليم ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

سبحانه إذا أراد قضى المراد ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب . ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ .

أى:كل جميع أمورك إلى الله ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾[٢] .

فمن اعتمد على ماله قل ، ومن اعتمد على الناس مل ، ومن اعتمد على علمه ضل ، ومن اعتمد على جاهه ذل ، ومن اعتمد على ذكائه زل ، ومن اعتمد على عقله اختل ، ومن اعتمد على الله فلا قل ولا مل ، ولا ضل، ولا ذل ولا زل ولا اختل .

﴿ إنك على الحق المبين ﴾ إنه القرآن العظيم والإسلام النظيف قال تعالى : ﴿ له دعوة الحق ﴾[٣] . وقال : ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾[٤] .

وقال :﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾[٥] .

قوله تعالى:﴿ إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ .

أى:لا تسمعهم شيئا ينفعهم ، فكذلك هؤلاء على قلوبهم غشاوة ، وفى آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى:﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أى:إنما يستجيب لك من هو سميع بصير ، السمع والبصر النافع فى القلب ، والبصيرة ، الخاضع لله ، وكما جاء عنه على ألسنة الرسل-عليهم السلام-.

* خروج الدابة *

* وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

(١) الآية ٤٤ من سورة فصلت .
(٢) الآية ١٢٣ من سورة هود .
(٣) من الآية ١٤ من سورة الرعد .
(٤) من الآية ٢٥ من سورة النور .
(٥) الآية ٦٢ من سورة الحج .

* التفسير *

ورد فى ذكر هذه الدابة أحاديث ذكرها المفسرون بيانا وتفسيرا .

قال الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : أشرف علينا رسول الله ﷺ من غرفة ونحن نتذاكر أمر الساعة فقال : (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدابة وخروج يأجوج ومأجوج وخروج عيسى بن مريم-عليه السلام-والدجال وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب وخسف بالمشرق وخسف بجزيرة العرب ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا)(١) .

(طريق أخرى) : عن رسول الله ﷺ أنه قال : (لها ثلاث خرجات من الدهر فتخرج خرجة من أقصى البادية ولا يدخل ذكرها القرية - يعنى مكة - ثم تكمن زمنا طويلا ثم تخرج خرجة أخرى دون تلك فيعلو ذكرها فى أهل البادية ويدخل ذكرها القرية) يعنى مكة قال رسول الله ﷺ : (ثم بينما الناس فى أعظم المساجد على الله حرمة وأكرمها المسجد الحرام لم يرعهم إلا وهى ترغو بين الركن والمقام تنفض عن رأسها التراب فارفض الناس عنها شىء ومعا ، وبقيت عصابة من المؤمنين وعرفوا أنهم لم يعجزوا الله ، فبدأت بهم فجلت وجوههم ، حتى جعلتها كأنها الكوكب الدرى وولت فى الأرض لا يدركها طالب ولا ينجو منها هارب ، حتى أن الدجال ليتعوذ منها بالصلاة فتأتيه من خلفه فتقول : يافلان الآن تصلى فيقبل عليها فتسمه فى وجهه ثم تنطلق ويشترك الناس فى الأموال ويصطحبون فى الأمصار يعرف المؤمن من الكافر حتى أن المؤمن ليقول يا كافر اقضنى حقى،وحتى أن الكافر ليقول يا مؤمن اقضنى حقى)(٢) .

● قال مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عمرو قال : حفظت من رسول الله ﷺ حديثا لم أنسه بعد : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا)(٣) .

● روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة-رضى الله عنه-أن رسول الله ﷺ قال : (بادروا بالأعمال ستا : طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخاصة أحدكم)(٤).

● عن أبى هريرة-رضى الله عنه-قال : قال رسول الله ﷺ:(تخرج دابة الأرض ومعها عصا موسى وخاتم سليمان-عليهما السلام-فتخطم أنف الكافر بالعصا وتجلى وجه المؤمن بالخاتم حتى يجتمع الناس على الخوان يعرف المؤمن من الكافر)(٥) .

قال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة ان ابن عباس قال : (هى دابة ذات زغب لها أربع قوائم تخرج من بعض أودية تهامة) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ٤/٧ وأخرجه مسلم برقم ٢٩٠١/٣٩ ج٤ ص٢٢٢٦ .
(٢) الدر المنثور ٥/ ١١٦ .
(٣) أخرجه الامام مسلم ج٤ ص٢٢٦٠ برقم ١١٨/ ٢٩٤١
(٤) أخرجه الامام مسلم ج٤ ص٢٢٦٧ برقم ١٢٨/ ٢٩٤٧
(٥) الدر المنثور ٥/ ١١٦

قال محمد بن اسحق عن إبان بن صالح قال : سئل عبد الله بن عمرو عن الدابة فقال (الدابة تخرج من تحت صخرة بجياد والله لو كنت معهم أو لو شئت بعصاى الصخرة التى تخرج الدابة من تحتها قيل فتصنع ماذا ياعبد الله بن عمرو فقال تستقبل المشرق فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل الشام فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل المغرب فتصرخ صرخة تنفذه ثم تستقبل اليمن فتصرخ صرخة تنفذه ثم تروح من مكة فتصبح بعسفان قيل ثم ماذا قال ثم لا أعلم) .

هذه الدابة تخرج فى آخر الزمان عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق يخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك :

قال ابن عباس والحسن وقتادة ويروى عن على رضى الله عنه (تكلمهم كلاما) أى :تخاطبهم مخاطبة .

وقال عطاء الخراسانى تكلمهم فتقول لهم : (إن الناس كانوا بآياتنا لا يؤمنون) .

وهناك أقوال أخرى فى بيان تلك الدابة ضربنا الذكر عنها صفحا لضعفها ولأن فى سنة رسول الله ﷺ التى بينت تلك الآية الجواب الكافى والدواء الشافى .

* مشاهد وعظات *

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ
أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا
ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن
فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ
ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ
مِّنْهَا ۚ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ
تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ
كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا

يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ
فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

* تفسير المفردات *

نحشر : أى نجمع .
فوجا : أى جماعة من الرؤساء .
يوزعون : أى يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا فى موقف التوبيخ والمناقشة أولم تحيطوا بها علما : أى ولم تدركوا حقيقة كنهها .
ألم يروا : أى ألم يعلموا .
ليسكنوا فيه : أى ليستريحوا فيه ويهدأوا .
مبصرا : أى ليبصروا بما فيه من الإضاءة طرق التقلب فى أمور معاشهم .
الصور : البوق
داخرين : أى أذلاء صاغرين .
جامدة : أى ثابتة فى أماكنها .
أتقن : أى أحكم . يقال رجل تقن (بكسر التاء وسكون القاف) أى حاذق بالأشياء .
الحسنة : الإيمان وعمل الصالحات .
السيئة : الإشراك بالله والمعاصى .
كبت : أى ألقيت منكوسة .
البلد : هى مكة .
أتلو القرآن : أى أواظب على تلاوته .
من المنذرين : أى المخوفين قومهم من عذاب الله .

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن ذكر سبحانه خروج الدابة من الأرض تكلم الناس أنهم كانوا لا يؤمنون بآيات ربهم ، وانه حينئذ ينفخ فى الصور فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، وأن الجبال تجرى وتمر مر السحاب ، ثم بين أحوال المكلفين بعد ذلك وجعلهم قسمين : مطيعين يعملون الحسنات فيثابون عليها بما هو خير منها ، ويأمنون الفزع والخوف ساعتئذ ، وعاصين يكبون فى النار على وجوههم ويقال لهم حينئذ هذا جزاء ما كنتم تعملون .

وبعد أن بين سبحانه أحوال المبدأ والمعاد ، وفصل أحوال القيامة أمر رسوله أن يقول للمشركين

هذه المقالة تنبيها لهم إلى أنه قد تم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه ، ولم يبق له بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله والاستغراق فى مراقبته غير مبال بهم ضلوا أو رشدوا صلحوا أو فسدوا ، إثارة لهممهم بألطف وجه إلى تدارك أحوالهم ، وتحصيل ما ينفعهم ، والتدبر فيما يقرع أسماعهم من باهر الآيات التى تكفى فى إرشادهم ، وتشفى عللهم وأمراضهم .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ .

هذا مشهد عصيب من مشاهد الآخرة ، إنه حشر المكذبين إلى ربهم ، وسؤالهم عن تكذيبهم بآيات الله البينات ، والحشر هو سوق العباد إلى أرض الموقف ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا * ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا * لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا ﴾(١) .

قال تعالى : ﴿ وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا * وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا * ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾(٢) .

وفى قوله تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ﴾ إخبار منه عز وجل عن يوم القيامة ، وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدى الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه فى الدار الدنيا ، تقريعا وتوبيخا وتصغيرا وتحقيرا ، فقال تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجا ﴾ أى من كل قوم وقرن فوجا أى جماعة ﴿ ممن يكذب بآياتنا ﴾ .

كما قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾(٣) . وقال تعالى ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾(٤) .

وقوله تعالى ﴿ فهم يوزعون ﴾ : قال ابن عباس رضى الله عنهما يرفعون ، وقال قتادة : وزعه : ترد أولهم على آخرهم .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يساقون ﴿ حتى إذا جاءوا ﴾ ووقفوا بين يدى الله عز وجل فى مقام المساءلة ﴿ قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون ﴾ .

أى فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة وكانوا كما قال الله عنهم

---

(١) الآيات ٨٥ - ٨٧ من سورة مريم .
(٢) الآيات ٤٧ - ٤٩ من سورة الكهف .
(٣) الآية ٢٢ من سورة الصافات .
(٤) الآية ٧ من سورة التكوير .

﴿ فلا صدق ولا صلى * ولكن كذب وتولى ﴾[١] . فحينئذ قامت عليهم الحجة ولم يكن لهم عذر يعتذرون به .

كما قال تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾[٢] .

وهكذا قال ههنا ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ .

أى بهتوا فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا فى الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا إلى عالم الغيب والشهادة الذى لا تخفى عليه خافية .

فما أسوأ المصير ، وما أتعس المآب ، حيث يقال لهم ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغنى من اللهب * إنها ترمى بشرر كالقصر * كأنه جمالت صفر * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل يومئذ للمكذبين ﴾[٣] .

ما أتعس مآبهم ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون * إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[٤] .

اقرأ قوله عز وجل لترى ما سوف يحيق بالمكذبين الضالين : ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لما شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾[٥] .

ثم بين الله تعالى عظيم قدرته وجليل نعمته على عباده ، وكان الواجب عليهم أن يشكروا ولا يكفروا ، وأن يؤمنوا ولا يجحدوا ، فقد ذكر سبحانه من هذه النعم آيتين عظيمتين فقال : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ أى فى ظلام الليل ، لتسكن حركاتهم بسببه ، وتهدأ أنفاسهم ويستريحون من نصب التعب فى نهارهم ﴿ والنهار مبصرا ﴾ أى منيرا مشرقا ، فبسبب ذلك يتصرفون فى المعايش والمكاسب والأسفار والتجارات ، وغير ذلك من شئونهم التى يحتاجون إليها ، ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

ونحو هذه الآية قوله تعالى ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار

---

(١) الآيتان ٣١ - ٣٢ من سورة القيامة .
(٢) الآيتان ٣٥ - ٣٦ من سورة المرسلات .
(٣) الآيات ٢٩ - ٤٠ من سورة المرسلات .
(٤) الآيتان ٣٩ - ٤٠ من سورة مريم .
(٥) الآيات ١٩ - ٢٤ من سورة فصلت .

نشورا ﴾(١) .

وقوله جل شأنه ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾(٢) .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(٣) .

وقوله عظمت حكمته ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا * وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا ﴾(٤) .

فوا عجبا كيف يعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قوله تعالى ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين * وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

هذا إخبار منه تعالى عن الهول الذى سيعقب النفخ فى الصور ، قال سبحانه ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾(٥) .

والصور كما جاء فى الحديث (قرن ينفخ فيه) .

وفى حديث الصور إن إسرافيل هو الذى ينفخ فيه بأمر الله تعالى ، فينفخ فيه أولا نفخة الفزع ويطولها ، وذلك فى آخر عمر الدنيا حين تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من فى السموات ومن فى الأرض (إلا من شاء الله) وهم الشهداء ، فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

قال الإمام مسلم بن الحجاج حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبرى حدثنا أبى حدثنا شعبة بن النعمان ابن سالم سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود الثقفى سمعت عبد الله بن عمرو رضى الله عنه

---

(١) الآية : ٤٧ من سورة الفرقان .
(٢) الآية : ١٢ من سورة الإسراء .
(٣) الآيات : ٧١ - ٧٣ من سورة القصص .
(٤) الآيات : ٦ - ١١ من سورة النبأ .
(٥) الآيات ٦٨ - ٧٠ من سورة الزمر .

وجاءه رجل فقال : (ما هذا الحديث الذى تحدث أن الساعة تقوم إلى كذا وكذا ؟ فقال : سبحان الله ؟ أو لا إله إلا الله أو كلمة نحوهما ـ لقد هممت ألا أحدث أحدا شيئا أبدا . إنما قلت إنكم سترون بعد قليل أمرا عظيما يخرب البيت ويكون ويكون ، ثم قال:قال رسول الله ﷺ : (يخرج الدجال فى أمتى فيمكث أربعين لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهرا أو أربعين عاما ، فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه)[١] . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ قال (فيبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان ، وهم فى ذلك دار رزقهم حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغر ليتا ورفع ليتا ـ قال ـ وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال : فيصعق ويصعق الناس ، ثم يرسل الله ـ أو قال ينزل الله ـ مطرا كأنه الطل ـ أو قال الظل ـ شعبة الشاك ـ فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه اخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار فيقال من كم فيقال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال فذلك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق) .

وقوله : (ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغر ليتا ورفع ليتا) الليت : هو صفحة العنق أى أمال عنقه ليستمعه من السماء جيدا ، فهذه نفخة الفزع ، ثم بعد ذلك نفخة الصعق وهو الموت ، ثم بعد ذلك نفخة القيام لرب العالمين وهو النشور من القبور لجميع الخلائق ، ولهذا قال تعالى ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ . داخرين أى صاغرين ، مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره .

كما قال تعالى ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾[٢] .

وقال تعالى ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾[٣] .

وفى حديث الصور أنه فى النفخة الثالثة يأمر الله الأرواح فتوضع فى ثقب فى الصور ، ثم ينفخ إسرافيل فيه بعد ما تنبت الأجساد فى قبورها وأماكنها ، فإذا نفخ فى الصور طارت الأرواح تتوهج أرواح المؤمنين نورا ، وأرواح الكافرين ظلمة ، فيقول الله عز وجل : وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى أجسادها . فتدب فيها كما يدب السم فى اللديغ ، ثم يقومون ينفضون التراب من قبورهم ، قال تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾[٤] .

يا أخا الإسلام

تزود من التقوى فإنك راحل ... وسارع الى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوما ان تـرد الـودائع

(١) انظر ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : (ياأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة) أول سورة الحج .
(٢) الآية ٥٢ من سورة الاسراء
(٣) الآية ٢٥ من سورة الروم .
(٤) الآية ٤٣ من سورة المعارج .

قوله تعالى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب ﴾ .

أى تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهى تمر مر السحاب ، أى تزول عن أماكنها كما قال تعالى : ﴿ يوم تمور السماء مورا * وتسير الجبال سيرا ﴾(١) .

وقال تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا * فيذرها قاعا صفصفا * لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾(٢) .

وقال تعالى ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾(٣) .

وقال تعالى ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾ : أى يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿ الذى أتقن كل شىء ﴾ أى أتقن كل ما خلق ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع .

قوله تعالى: ﴿ إنه خبير بما يفعلون ﴾ أى هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

* مبحث علمى فى الجبال *

يتحدث هذا المبحث عن عالم الجبال وهو عالم رهيب ومهيب ، كما يتضمن تفسيرا لبعض الآيات التى تتحدث عن الجبال ، فاقرأ هذا المبحث بفكر وروية ، وفقك الله للعلم النافع . تحت عنوان الجبال فى القرآن كتب الباحث الدكتور : محمد أحمد الغمراوى فى كتابه : (الإسلام فى عصر العلم) قال :

١ - الجبال والقيامة :

جاء ذكر الجبال فى القرآن بلفظها فى نحو تسع وعشرين آية ، وبوصفها أنها رواسى فى نحو تسع آيات ، ومن الآيات التسع والعشرين إحدى عشرة آية تتعلق بالقيامة وأشراطها ، هى حسب ترتيب نزول الوحى بها : المزمل ، والتكوير ، والقارعة ، والمرسلات ، وطه ، والواقعة ، والكهف ، والطور ، والحاقة ، والمعارج ، والنبأ ، ومن بين هذه الإحدى عشرة سورة أربع أنبات أن الجبال تسير فتسير ، ألا وهى : التكوير ، والكهف ، والطور ، والنبأ - فى الأربع آيات هى حسب ترتيب النزول ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾(٤) . التكوير : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة ﴾(٥) . الكهف ، ﴿ ويوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا ﴾(٦) الطور ، ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾(٧) . النبأ .

(١) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الطور
(٢) الأيات ١٠٥ - ١٠٧ من سورة طه .
(٣) الأية ٤٧ من سورة الكهف .
(٤) الأية ٣ من سورة التكوير .
(٥) الأية ٤٧ من سورة الكهف .
(٦) الأيتان ٩ ، ١٠ من سورة الطور .
(٧) الأية ٢٠ من سورة النبأ .

وآية سورة التكوير جاءت تتلوها آية ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ فدل ذلك على أن تسيير الجبال علامة من علامات الساعة ، أو هو بدء قيامها ، إذا العشار كانت لا تزال موجودة فى الدنيا ، وإنما أصابها التعطيل ، وهاتان الآيتان وما قبلهما وما بعدهما أحداث يتلو بعضها بعضا ، والله أعلم بفترات ما بينها وهى فى العد اثنا عشر حدثا عظيما ، وتأملها يدل على أن نصفها الأول من الأشراط ، ونصفها الثانى من الوقائع التى تكون بعد قيام الساعة فى يوم البعث ،

فتسيير الجبال حدث من الأحداث سنة عظمى ، تقع بين يدى يوم البعث ، ولذا جاء الفعل فيها مبنيا للمجهول . ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ كما جاءت أفعال الآيات العشر الأخرى فى أوائل سورة التكوير .

وتجىء آية سورة الكهف ﴿ **ويوم نسير الجبال** ﴾[1] . بضمير المتكلم ، ضمير الجلالة ، فتدل على أن الجبال حين سيرت إنما سيرها الله سبحانه ، فبأمره قامت ، وبأمره سارت سيرا فعليا ، كما تدل عليه آية الطور ﴿ **وتسير الجبال سيرا** ﴾[2] . ثم تجىء آية النبأ فيها الفعل مبنى للمجهول مرة أخرى ، بعد أن سبق النص بضمير الجلالة فى آية الكهف على أن المسير هو الله سبحانه ، لكن ليس فى هذه الآيات الثلاث بترتيب نزولها هذا ما يدل على مصير الجبال بعد مسيرها حتى تأتى رابعة آيات التسيير آية سورة النبأ : ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سرابا** ﴾[3] . فتنبىء بأن الجبال حين تسير فتسير إنما ينتهى بها سيرها إلى الفناء ، فلا يبقى لها من الوجود الذى كان إلا كالوجود الذى يكون فى السراب .

هذه أربع آيات كريمة يجمع بينها اشتراكها فى ذكر ظاهرة تقع بالجبال عند الرجفة الأولى بين يدى يوم البعث يوم القيامة الكبرى وهناك أربع آيات أخرى تتعلق بظاهرة أخرى تقع أيضا بالجبال هى ظاهرة النسف . . هذه الآيات الأربع هى بترتيب النزول ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا** ﴾[4] . ﴿ **وإذا الجبال نسفت** ﴾[5] .

﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا * فيذرها قاعا صفصفا * لا ترى فيها عوجا ولا أمتا** ﴾[6] .

و ﴿ **إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا** ﴾[7] .

والآيات الأربع المقصودة هى طبعا التى ذكرت الجبال فيها بلفظها ، وقد ذكر معها من الآى ما يزيد موضوعها وضوحا ، وقد ذكر النسف صراحة فى الآيتين الثانية والثالثة وذكر بمعناه فى الآية الرابعة أما الآية الأولى آية المزمل فهى تمهد للنسف بذكرها مقدمته من صيرورة الجبال كثيبا مهيلا ، إذ من الواضح أن الجبال إذا صارت كثيبا مهيلا فقد أعدت لأن تنسف نسفا وتكون هباء منبثا ومن هنا ألحقت آية المزمل بالآيات الثلاث الأخرى ، وإن لم يذكر فيها النسف لا باللفظ ولا بالمعنى .

---

(١) من الآية ٤٧ من سورة الكهف .
(٢) من الآية ١٠ من سورة الطور .
(٣) الآية ٢٠ من سورة النبأ .
(٤) الآية ١٤ من سورة المزمل .
(٥) الآية ١٠ من سورة المرسلات .
(٦) الآيات ١٠٥ ـ ١٠٧ من سورة طه .
(٧) الآيات ٤ ـ ٦ من سورة الواقعة .

هاتان إذن مجموعتان كل من أربع آيات تتحدث عن ظاهرة تقع بالجبال ظاهرة تسيير وسير ﴿ وتسير الجبال سيرا ﴾[١] .

وظاهرة نسف ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ﴾[٢] .

فهل هما يا ترى ظاهرة واحدة فيكون تسيير الجبال هو عين نسفها أو هما ظاهرتان مختلفتان ؟

إن التسيير الذى تطيعه الجبال فتسير سيرا حقيقيا غير النسف الذى تبس فيه الجبال بسا فتكون هباء منبثا ، واتحادهما يقتضى حمل أحدهما على المجاز ، والمجاز يقتضى قرينة تدل عليه فى نفس الكلام ، وهذه القرينة مفقودة فى أى الآيات الثمانى ، فالتسيير والنسف إذن على حقيقتهما هما ظاهرتان مختلفتان تنزلان بالجبال ، إما على التعاقب فيسير الجبل ثم ينسف ، وإما على التقسيم : فيسير بعض الجبال وينسف البعض الآخر ، ولا ثالث لهذين الاحتمالين .

لكن الاحتمال الأول تمنع منه آية سورة النبأ ﴿ وسيرت الجبال فكانت سرابا ﴾[٣] .

إذ الجبال بعد أن انتهى بها التسيير إلى أن تفنى وتكون سرابا ، لا يمكن أن يلحق بها نسف ، وقد انعدمت بالفعل فلم يبق إلا الاحتمال الثانى .

ويتعين أن يكون الفناء عن طريق التسيير خاصا ببعض الجبال ، والفناء عن طريق النسف خاصا بالبعض الآخر ، وهذا يقتضى أن تكون الجبال صنفين : أحدهما يقبل بفطرته التى فطره الله عليها أن ينسف بعد أن يصير بالرجفة كثيبا مهيلا ، والآخر يقبل بفطرته أن يسير حتى يصير سرابا ، ولابد من تغيير فى هذا الصنف يمهد للتسيير ، كما مهد للنسف فى الصنف الأول بالانهيال إذ كل من الصنفين فى حالته الدنيوية راس راسخ لابد فى حكمة الله من إعداده للنسف والتسيير .

وفى آيتى المعارج والقارعة ما يؤيد هذا الاستنباط ، من أن الجبال صنفان ، لأنها تذكران تحولا تصير إليه الجبال يخالف ويقابل ما تصير إليه من كثيب مهيل ، كما فى آية المزمل ، فإن الآيتين كلتيهما تذكران ان الجبال تكون كالعهن ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾[٤] وتزيد آية القارعة وصفا للعهن ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾[٥] .

والعهن هو الصوف المصبوغ ، فالآية الكريمة تقول إن الجبال يوم القارعة تكون كالصوف المصبوغ المنفوش ، ولكل من هذه الكلمات الثلاث دلالتها ، فالصوف فيه من التماسك ماليس فى الرمل الذى يكون فى الكثيب المهيل .

وإذن ، فالجبال التى تصير بالرجفة كثيبا مهيلا غير الجبال التى تصير كالصوف فى طبيعتها وتكوينها وفيما تصير إليه يوم الرجفة ، وإذا كان انهيال الأولى يهيئها للنسف فتفكك الثانية حتى تكون كالصوف يهيئها للسير بالتسيير الذى تصير به بعد سرابا .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الطور

(٢) الآية ١٠٥ من سورة طه .

(٣) الآية ٢٠ من سورة النبأ .

(٤) الآية ٥ من سورة القارعة .

(٥) الآيتان ٤ ـ ٥ من سورة القارعة .

والجبال التى قال الله عنها فى الآية (٢٧) من سورة فاطر : ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ .

هى التى تصير بالقارعة كالصوف المصبوغ ، و(من) التبعيضية فى هذه الآية الكريمة تدل على أن الملون من الجبال هو الذى يصير كالعهن وأن ليس كل الجبال كذلك ، ففيها مثلا الأبيض كله مثل جبال الطباشير والحجر الجيرى المتبلور أو غير المتبلور ، وهذه لا يمكن أن تكون هى المشبهة بالعهن والصوف المصبوغ .

فالجبال فى الآيتين الكريمتين ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ ، و ﴿ تكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ .

مقصود بها الملون من الجبال لا مطلق الجبال ، وهذا يحل لنا الإشكال الناشىء عن المعنى المتبادر من فهم الجبال على إطلاقها فى هذا النص وغيره من نصوص الآيات الثمانى السابقة ، فالجبال كلها مصيرها الى الزوال والفناء بين يدى الساعة ، أوحين تقوم ، لكن لا بطريقة واحدة ، فليس كلها يصير كثيبا مهيلا ، وليس كلها يصير كالعهن قبل أن يذهب ويزول ، إذ ليس كلها ذا تكوين واحد ، ولا خواص واحدة ، وعلماء طبقات الأرض الذين تعددت أقسام الجبال عندهم هم الذين يستطيعون زيادة هذه الناحية من الموضوع بيانا .

ووصف العهن بالمنفوش فى آية سورة القارعة له أهميته ودلالته ، لا من حيث تيسير تسيير الجبال بعد أن تصير إلى هذه الحال فيما يبدو ، ولكن من حيث توكيد تقسيم الجبال الى ذينك الصنفين اللذين يصير احدهما بالرجفة كثيبا مهيلا ، ويصير الآخر كالعهن المنفوش ، فلولا وصف العهن بالمنفوش فى الآية لجاز أن يكون تشبيه الجبال بالعهن راجعا إلى التشابه فى اللون والصبغة فحسب ، لا إلى التشابه فى شىء من صفات الصوف الأخرى كالتماسك الذى يكون بين أليافه وفيها ، والذى استفدنا إليه فى التفرقة بين الجبال التى تنهال كثيبا ، والجبال التى تنفش كالصوف .

تبقى من الإحدى عشرة آية المتعلقة بالجبال ، وأحداث القيامة آية واحدة هى آية الحاقة ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾[1] .

والله أعلم بكيفية ذلك الحمل ثم بكيفية ذلك الدك لكنهما على أى حال يستتبعان تلك الأحداث التى تقدمت بها تلك الآيات الكريمة العشر ، فالدك يحول الجبال إما إلى كثبان مهيلة ينسفها الله بما يشاء كيف يشاء ، وإما إلى حالة من التحلل والتفكك تصير بها بنية الجبال كالصوف المصبوغ المنفوش ثم يسيرها الله بعد ذلك بما يشاء كيف يشاء ، حتى تصير سرابا ، وأثرا بعد عين .

بقيت آية عن الجبال هى معجزة قرآنية علمية ، لأنها تقرر حركة انتقالية للأرض قبل أن يعرفها العلم بقرون ، ويلحقها قدامى المفسرين بالآيات السابق ذكرها ، إذ لم يكن يخطر ببالهم أن للأرض حركة .

---

(١) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

وينكر بعض المحدثين أن تكون الآية عن الجبال فى الدنيا ، فى حياتنا هذه ، صونا للآيات القرآنية أن تقحم عليها النظريات العلمية ، بل أن تقحم عليها الحقائق العلمية ، ناسين أن الطريق الصحيح لصون القرآن عن مثل هذا ليس هو إيصاد الباب دون إثبات الإعجاز العلمى للقرآن ، ولكن هو النقد الدقيق لدليل ذلك الإعجاز .

تلك الآية العجيبة هى آية أواخر سورة النمل : ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون** ﴾ .

وكل حجتهم فيما أنكروا أن آية الجبال مسبوقة بآية النفخ فى الصور ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين** ﴾ . فالسياق فى رأيهم يقتضى ان تكون آية الجبال متعلقة بيوم النفخ فى الصور .

وقد سبق أن تناولنا هذه المسألة فى غير إفاضة ، اكتفاء بما سيق معها من دليل على أن الآية تنبىء بحركة للجبال تشبه حركة السحاب الذى يتحرك ، لا بالذات ولكن بواسطة الرياح التى تحمله ، وإذن فللجبال حركة ، لا بالذات (لأنها فى مرأى العين جامدة) ولكن بواسطة الأرض التى تحملها ، أى أن الآية تثبت للأرض حركة انتقالية عن طريق إثبات حركة للجبال تشبه حركة السحاب ، وهى معجزة علمية قرآنية لا شك فيها .

والسياق الذى استند إليه منكرو هذا المعنى لا ينبغى أن يقتصر فيه على الآية قبلها فحسب ، وإذا توسعنا فيه ليشمل أربع آيات أخر قبلها وجدنا مثالا كالذى احتجوا به ، إلا أن الحجة فيه عليهم لا لهم .

وحسبنا ثلاث آيات فى يوم البعث أو الحشر ، تليها آية كونية لا يمكن أن ترجع إلى يوم الحشر ، والآيات الأربع هى :

﴿ **ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون * حتى إذا جاءوا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون * ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون * ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ .

فلو صحت حجة من يزعم أن آية ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ متعلقة بيوم النفخ فى الصور ، لمجرد أنها مسبوقة بآية ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور** ﴾ لصحت حجة زاعم أن آية ﴿ **ألم يروا أنا جعلنا الليل** .... ﴾ متعلقة بيوم الحشر ، لمجرد أنها مسبوقة بآيات عنه .

فالسياق فى هذه الآيات الأربع دلالته على عكس ما يظنون : يذكر بيوم القيامة إنذارا ووعيدا وزجرا لغير المؤمنين ، ثم يأتى ببعض آيات الله فى الكون الدالة عليه سبحانه لعلهم يؤمنون .

وكذلك الحال فى الآيتين التاليتين للآيات الأربع ، يذكر وينذر بيوم القيامة فى آية ﴿ **ويوم ينفخ فى الصور** ﴾ ثم يذكر آية أخرى لله فى الكون تدل عليه سبحانه . ﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة** ﴾ ثم يتابع حديث يوم القيامة فى الآيتين بعدها ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ .

ثم يعود إلى الدعوة إلى الله على لسان رسوله ، وهى المقصود الأول فى هذا ، وفى القرآن كله ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ .

وحتى آخر السورة : ﴿ وأن أتلوا القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين . وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ .

٢ - آيات الجبال فى القصص القرآنى

بقى من الآيات التى ذكرت الجبال فيها بلفظها سبع عشرة آية تتعلق بالجبال فيما دون القيامة ، أى فى دنيا الأرض هذه التى استخلف فيها الإنسان ، قد وردت فى ست عشرة سورة ، هى حسب ترتيب نزول الوحى بها : (ص ، والأعراف ، والشعراء ، وهود ، والحجر ، وسبأ ، والغاشية ، والنحل - آيتان - وإبراهيم ، والأنبياء ، والنبأ ، والنازعات ، والأحزاب ، والرعد ، والنور ، والحج)

وآيات الجبال فى الست السور الأولى آيات قصص يلتحق بها آية سورة الأنبياء .

فهذه سبع آيات ، ثلاث منها وردت فى قصص داود عليه السلام فى (ص وسبأ ، والأنبياء) ، وثلاث فى قصص ثمود فى : الأعراف ، والشعراء ، والحجر ، وواحدة فى قصة نوح فى سورة هود .

* الجبال فى سورة ص ، سبأ ، الأنبياء *

وأول تلك الآيات آية سورة (ص) يذكر الله فيها معجزة كبرى أتاها نبيه داود ، أو هما معجزتان فى آيتين كريمتين : ﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ﴾ والطير محشورة كل له أواب ﴾[1] .

ولعظم دلالة هاتين المعجزتين على قدرته سبحانه من ناحية ، وفضل داود عليه السلام من ناحية أخرى ، أعاد الله ذكرهما فى إجمال معجز فى بعض آية إذ قول فى سورة سبأ ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ﴾[2] .

وإذ يقول فى سورة الأنبياء : ﴿ وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ﴾[3] .

والمتأمل هذه الآيات الكريمة الثلاث يجد بينها اشتراكا واختصاصا فى التعبير ، ولكل دلالته العجيبة ، فالحرف (مع) مشترك بينها ، وكذلك ضمير الجلالة للمتكلم . ودلالة الحرف أن داود كان يبدأ التسبيح فتشاركه الجبال .

ولو كان التعبير باللام (بدلا من مع) لأثبت التسبيح فقط للجبال .

أما دلالة الضمير فهى أعجب وأعظم ، فهو أولا لا يمكن أن يرجع إلا إلى الله عز وجل ، إذ لا

---

(١) الأيتان ١٨ - ١٩ من سورة ص .
(٢) الآية ١٠ من سورة سبأ .
(٣) الآية ٧٩ من سورة الأنبياء .

يقدر على تسخير الجبال غيره سبحانه ، وهو ثانيا ضمير الجلالة للمتكلم ، فدل بوضوح على أن الآيات القرآنية الثلاث إنما هى من عند الله سبحانه وتعالى ، لا من عند محمد أو غيره ، كما يزعم المستشرقون ومقلدوهم ، وكما غفل عن ذلك أو أغفله المشركون الذين قالوا إن محمدا افتراه .

وضمير الجلالة مثبوت فى القرآن كله ، لتكون له هذه الدلالة القاطعة بأن القرآن كله إنما هو من عند الله .

أما عن الاختصاص فى الآيات الكريمة الثلاث : فقد اختصت الآية الأولى وأختها معها بتفصيل ما أجمل فى الآيتين الأخريين ، ومن بين ذلك تبيين الوقت ، وقت التسبيح .

واختصت الآية الثانية ، آية سبأ بنداء الجبال ، وأمرها أن ترجع التسبيح مع داود ، ﴿ **ياجبال أوبى معه والطير** ﴾[1] ونداء الجبال وأمرها أمر تسخير لا يمكن أن يكون إلا من خالق الجبال سبحانه .

واختصت الآية الثالثة آية الأنبياء بقوله تعالى : ﴿ **وكنا فاعلين** ﴾ بعد قوله عز وجل ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير** ﴾ وفى ذلك تنبيه إلى عظم المعجزتين ، ونفى لما قد يرد على الخاطر من استبعاد أن يكون التسبيح بلسان المقال ، ومن حمله على التسبيح بلسان الحال المذكور فى آية الإسراء : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾[2] .

فدلالة الأشياء على الله بما أودع سبحانه فيها من أسرار وخواص أمر عام للناس أجمعين ، أما تسبيح الجبال مع داود عليه السلام فأمر خاص به ، ومعجزة آتاه الله إياها . .

* الجبال فى قصص ثمود *

وآيات الجبال فى قصص ثمود تدل على أن ثمود كانوا قوما أولى عمارة وتشييد ونحت مثل قدماء المصريين ، وأولى تلك الآيات الثلاث آية الأعراف التى هى أولى آيات الجبال فى القرآن ، حسب ترتيب المصحف ، وثانيها حسب نزول الوحى ، وقد وردت ، هى وأختها آية سورة الشعراء ، على لسان نبى الله صالح إذ يدعوهم إلى الله ويذكرهم بنعم الله عليهم ويحذرهم الكفران ﴿ **واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾[3] .

وآية الشعراء : ﴿ **أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون** ﴾[4] .

والشاهد هو طبعا فى رابعة هذه الآيات الخمس .

---

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ .
(٢) الآية ٤٤ من سورة الإسراء .
(٣) الآية ٧٤ من سورة الأعراف .
(٤) الآيات ١٤٦ ـ ١٥٠ من سورة الشعراء .

ويبدو أن ثمود كانوا يقتطعون الصخور من الجبال يبنونها قصورا فى السهول ، كما تشهد له آية الفجر ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾(١) .

كما كانوا يتخذون البيوت ينحتونها فى الجبال نفسها ، كما تدل عليه آية سورة الأعراف ، ويشهد للأمرين جميعا آية سورة الشعراء ، وتحقيق هذا ميسور بدراسة مساكن ثمود فى الحجر ، فإنهم هم أصحاب الحجر الذين يقول الله فيهم فى سورة الحجر ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين . وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾(٢) .

وما أظن أحدا من الأثريين الافرنج قام بهذه الدراسة ، وأجدر الجامعات أن تقوم بها الجامعة الأزهرية ، لتتعرف مبلغ التشابه بين ثمود وقدماء المصريين فى نحت الجبال ، ذلك التشابه المتوقع من قوله تعالى ﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾(٣) . بعد قوله ﴿ الذين جابوا الصخر بالواد ﴾(٤) .

ومتأمل الآيات الثلاث وسياقها يدرك أولا أن التكرار فى القصص القرآنى ليس مجرد تكرار المعنى والتعبير ، بل هو صور من الإعجاز فى المعنى والأسلوب ـ وفى آيتى الجبال فى سورتى الشعراء والحجر مثال من زيادة الفائدة فى المعنى مع الاشتراك فى أكثر الألفاظ : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ الشعراء (١٤٩) ، ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ الحجر (٨٢) .

ولكل من الآيتين فى سياقها إعجازها ، ففى التعبير مثلا باسم الفاعل (فارهين) إعجاز معنوى عجيب ، لأن الفعل يختلف معناه باختلاف بابه : مرة من باب كرم معناه حذق ، ومن باب فرح معناه أشر وبطر ، كما فى القاموس واسم الفاعل يدل على المعنيين .

فنبى الله صالح يذكر قومه بنعمة الله عليهم فيما آتاهم من الحذق فى اتخاذ البيوت ينحتونها من الجبال ، وينعى عليهم كفرانهم بتلك النعمة ، إذ يسيئون استعمالها بالتعالى فى تلك البيوت أشرا وبطرا ، فجمع الله ذلك المعنى كله فى لفظة واحدة (فارهين) اسم الفاعل من الفعلين جميعا .

وما أظن كلمة واحدة فى غير العربية كانت تتحمل كل هذا ، فمثل هذا سر من أسرار العربية التى أعدها الله فى سابق علمه لتكون لغة كتابه العزيز الذى أنزله معجزة خالدة للناس .

أما آية الحجر ﴿ وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين ﴾ فإعجازها فيما يبدو وهو فى الجو الذى يضفيه عليها ضمير الجلالة للمتكلم . فى الآية قبلها ، ﴿ وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين ﴾ وتضفيه عليها الآية بعدها ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾(٥) ، بعد الأمن الذى كانوا فيه ، ودل على استقراره فيهم صيغة الحال فى كلمة آمنين .

وقد يظن ان سياق كل من آيتى الأعراف والشعراء قد خلا من دلالة ضمير الجلالة الظاهر فى سياق آية الحجر ، وليس الأمر كذلك فآية الجبال فى الأعراف جاءت عقب قوله ﴿ وإلى ثمود أخاهم

---

(١) الآية ٩ من سورة الفجر .

(٢) الايتان ٨٠ ـ ٨١ من سورة الحجر .

(٣) الآية ١٠ من سورة الفجر .

(٤) الآية ٩ من سورة الفجر .

(٥) الآية : ٨٣ من سورة الحجر والآيتان قبلهما

صالحا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من آله غيره ﴾ (٧٣) عطفا على قوله ﴿ وإلى ثمود أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ (٦٥) فى مفتتح قصة عاد .

وهذه جاء ، عطفا على قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ فى مفتتح قصة نوح فى الآية (٥٩) وهى أول قصص الأنبياء فى سورة الأعراف .

فمن الواضح أن التقدير هو ﴿ وإلى عاد ﴾ ﴿ أرسلنا أخاهم هودا ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود ﴾ ﴿ أرسلنا ﴾ ﴿ أخاهم صالحا ﴾ فى الآيتين الكريمتين (٥٩ ، ٦٥) .

وحذف كلمة (أرسلنا) اعتمادا على ورودها فى الأول ، وإبقاء مفعولها منصوبا دليلا فى كل من الآيتين هو مثل من الإعجاز القرآنى فى الإيجاز اللفظى .

أما سورة الشعراء ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين ﴾ (١٤٩) .

فقد ناب عن ورود ضمير الجلالة فيها وروده فى ختام قصة عاد قبلها مباشرة فى الآية (١٣٩) ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ (١٣٩ ، ١٤٠) .

مع اشتراك القصتين فى المبدأ من حيث الصيغة : ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ ﴿ وكذبت ثمود المرسلين ﴾ وفى النهاية بالذات ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

وفى ضمير الخطاب ضمير الرسالة . فى قوله تعالى ﴿ وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ دليل آخر يقطع بأن هذا القصص ليس من عند محمد ، ولكن من عند ربه عز وجل الذى أرسله رحمة للناس .

بقيت من آيات الجبال فى القصص القرآنى آية سورة هود ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ (٤٢) وفيها تشبيه رهيب لموج الطوفان الذى أغرق الله به قوم نوح ، استدل به الفخر الرازى على أن الطوفان كان مصحوبا برياح شديدة العصف ، وهو استنتاج صحيح ، فقد ذكر العالم الرياضى الطبيعى (إذنجتن) عن تولد الأمواج بالريح ان الريح لا تحدث أى تغضن فى سطح الماء إلا إذا بلغت سرعتها ميلا فى الساعة ، وهو ما يسميه بالأمواج الشعرية .

أما الموج كما نعرفه فلا يبدأ ظهوره إلا إذا بلغت سرعة الريح فى الساعة ميلين ، فما ظنك بسرعتها إذا بلغ الموج من العظم ان صار كالجبال ؟

والقصة التى وردت فيها الآية الكريمة تكرر فيها ضمير الجلالة للمتكلم فى الأول وأثناءها وفى الآخر ، كما تكرر فيها ضمير الرسالة إذ جاء فى الوسط مرة ﴿ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ﴾ (٣٥) ، وفى الآخر مرت فى الآية (٤٩) ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ فكان فى ذلك برهان مضاعف أن القصة كأخواتها إنما هى من عند الله .

٣ - اقتران ذكر الجبال بذكر الأرض والسماء

بقيت بعد آيات الجبال والقيامة ، وآيات الجبال فى القصص القرآنى ، آيات إحدى عشرة جاءت

الجبال فيها بلفظها فى عشر سور هى : مريم،والغاشية والنحل،وابراهيم،والنبأ،والنازعات،والأحزاب، والرعد، والنور،والحج مرتبة هكذا حسب ترتيبها فى نزول الوحى بها .

وآية سورة مريم هى ثالثة الآيات الكريمة ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئا إدا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا** ﴾ (٨٨ - ٩٠) .

وهى آيات قد تؤخذ على أنها من باب المبالغة عند من لا يفقه كيف يكون قول من ينسب الولد إلى الله سبحانه سببا يدنى السموات من الانفطار ، والأرض من الانشقاق ، والجبال من الانهداد لكن المبالغة لا تكون إلا فى كلام محدودى القدرة ، ما يعجزون عنه (ويعلمون أنه لا يمكن أن يتحقق) .

يقولون عند المبالغة أنه تحقق أو كاد ، فى ظرف من الظروف لأمر من الأمور . أما الحق سبحانه الذى لا يعجزه شىء والذى بيده أمر السموات والأرض ، فلا يمكن أن تكون هناك مبالغة فيما يخاطب به عباده ، إلا أن ترد على لسان من يحكى عنهم القرآن من الإنس أو الجن أو الملائكة .

وإذن فالآيات الكريمة الثلاث ليست من المبالغة فى شىء ، وإنما تقرر حقيقة . من الحق أن نسبة الولد إلى الله هى من الشناعة ومن الإجرام فى جنب الله بحيث تغضبه الغضب الذى لولا حلم الله سبحانه وتعالى ، ولولا حكمته لعجل الله من أجله بالقيامة ، ليحاسبهم على ما يفترون ، إذ الأحداث الهائلة المذكورة فى الآية الكريمة لن تقع إلا عند القيامة .

ونسبة تلك الأحداث إلى السماء والأرض والجبال فى الآية الكريمة هى من الاعجاز البلاغى ، ومن أدلة ان القرآن من عند الله ، إذ ليس يخطر على بال مخلوق أن يحكى عن السماء أنها تنفطر ، وعن الأرض أنها تهوى ، فهذه لقول يقوله فريق من عباد الله ينسبون به الولد إلى الله سبحانه .

ولعل هذه الصيغة الإعجازية وخلوها من التصريح بأن الله هو فاعل ذلك كله لو كان ، لعل ذلك هو الذى ييسر حمل الآية على المبالغة عند بعض الناس ، لكن الآية لم تخل من الإشارة إلى أن تلك الأجرام الهائلة ، من سماء وأرض وجبال ، لا تنفطر ولا تنشق ولا تنهد من نفسها ، والإشارة هى : أولا فى المصدر المنصوب على التمييز فى ختام الآية الكريمة ﴿ **وتخر الجبال هدا** ﴾ والهد هو الهدم الشديد ، كما فى القاموس ، والهدم لابد له من فاعل ، ولا يقدر على هدم الجبال وهدها إلا الله سبحانه وتعالى :

وإذ قد ظهر أن أحد الأحداث الثلاثة المذكورة فى الآية هو من فعل الله ، فالحدثان الآخران هما من فعله أيضا . وثانيا يؤيد ذلك ويشير إليه الفعل المطاوع المسند إلى السماء وإلى الأرض لأن المطاوعة فى الفعل تقتضى فعلا متعديا يناسبه ، وليس يقدر على شق الأرض وتفطير السماء إلا الله .

فانظر إلى هذا الإعجاز فى الإيجاز وفى المعنى .

وعجيبة عن الجبال فى الآية الكريمة ينبغى ألا تغيب عن تاليها المنكر فيها ، تلك هى أن الجبال قد ذكرت مع السموات والأرض على سواء ، فلابد أن يكون فى الجبال من أسرار الخلق ومن الخصائص ما يجعل انهدادها جديرا أن يسلك مع تفطر السماء وانشقاق الأرض فى سلك ، خصوصا من حيث أثره فى حياة الناس .

وأسرار الخلق ، خلق الجبال ، قد أمرنا فى آية سورة الغاشية أن نتعرفها وننظر فيها نظرة تأمل واعتبار ، والآية هى ثالثة الآيات الكريمة الآتية ﴿ **أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[1] .

وهنا نلتقى بتلك العجيبة مرة أخرى ، عجيبة ذكر الجبال مع السماء والأرض على سواء ، وإن جاء ذكرها بعد ذكر السماء ، وقبل ذكر الأرض لما بين رفعة السماء وارتفاع الجبال من تناسب ، وما بين نصب الجبال وبسط الأرض من تقابل ، والجبال جزء من الأرض ، فأى سر ذاك ، وأية حكمة فى رفعها عن سطح الأرض ؟

أو - إذا نظرنا إليها من الناحية المقابلة - أى سر ذلك وأية حكمة فى خفض سطح الأرض عن سطح الجبل ، وفى خفض سطح الجبال بعضها عن بعض ، إن علوم الفلك وطبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية وما إليها من فروع العلم هى الكفيلة بالإجابة عن ذلك ، وتبيانه لمن أراد التعمق ، وإلا ففيما يعرفه الناس ، كل بقدر علمه وعقله ، ما يكفى للهداية إلى رب السماء والأرض والجبال .

ونستقرىء بقية الآيات لنرى هل من بينها ما تحققت فيه ايضا تلك العجيبة ، عجيبة ذكر الجبال مع الأرض والسماء على سواء ، فنجدها تحققت فى أربع من التسع الباقية فى سورة النبأ والنازعات المكيتين ، والأحزاب والحج المدنيتين ، فالأولى هى ﴿ **والجبال أوتادا** ﴾ من قوله فى سورة النبأ : ﴿ **ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا** ﴾[2] .

والثانية هى ﴿ **والجبال أرساها** ﴾ من قوله فى سورة النازعات : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها** ﴾ (٢٧ - ٣٢) .

وأما المدنيتان فهما آخر سورة الأحزاب : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا** ﴾ (٧٢) .

ثم الآية ١٨ من سورة الحج : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب** ﴾ .

وفى هذه الآية الأخيرة ذكرت الشمس والقمر والنجوم بدلا من السماء ، وذكرت الجبال والشجر والدواب بدلا من الأرض ، مادام المقام مقام تعديد كل ما يسجد لله فى الكون ، أى كل ما يطيعه سبحانه تمام الطاعة ، وينقاد لحكمه أتم انقياد ، لم يستثن من هذا الشمول إلا الناس ، فكثير منهم يسجد ويطيع ، ويلزم من هذا أن باقيهم لا يفعل ، فهو داخل فى الكثير الذى حق عليه العذاب .

لكن هذا الكثير ليس مقصورا على الكافرين والعاصين من الناس ، بل يشمل الشياطين وعصاة الجن أيضا ، وإلا لدخل هؤلاء فى الساجدين المنقادين الذين دل عليهم الاسم الموصول للعاقل فى قوله

(١) الآيات ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية

(٢) الآيات ٦ - ١٢ من سورة النبأ .

﴿ ومن فى الأرض ﴾ وهذا غير معقول ولا مقبول ، ولا يمكن أن يكون هؤلاء مسكوتا عنهم مادام قوله تعالى : ﴿ وكثير حق عليهم العذاب ﴾ يمكن أن يشملهم ويشمل العاصين والكافرين من الناس فتلوا الآية الكريمة شاملة حكم الله فى كل مخلوق خلقه .

وآية سورة الحج هذه تبين النتيجة العملية لما أخبرت به آية آخر سورة الأحزاب : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ﴾ (٧٢) ، بأن الأمانة عند جمهور المفسرين فيما حكاه أبو حيان هى (كل ما يؤتمن عليه من أمر ونهى وشأن دين ودنيا والشرع كله أمانة فهى فيما يبدو أمانة العقل والاختيار ومايتبعها فى الدين من التكاليف والجزاء) .

فالسموات والأرض والجبال هابت أن توهب نعمة العقل والاختيار مقرونين بشرط التكليف والجزاء بالمثوبة إن أطاعت والعقوبة إن عصت ، وآثرت السلامة والعافية فى تمام الطاعة والانقياد لسنن الله فيها ، خوفا وإشفاقا أن يضلها النظر والاختيار فتزيغ عن أمر الله فتتعرض لعذابه .

أما الإنسان فقد قبل أن يحمل ما أشفقت السموات والأرض والجبال من حمله ، راجيا أن يقوى على أداء ما يكلفه الله به ، عازما أن يطيع ولا يعصى حتى إذا ما ابتلى بإبليس الذى لا يملك من فتنته إلا أن يوسوس إليه ويقترح عليه الكفر والمعصية مجرد اقتراح ووسوسة ، لا يملك معها أن يجبره ، وهو مع ذلك قد حذر أنه له عدو مبين . حتى إذا كان ذلك نسى العهد وأهمل وأساء الاختيار ، فكان ذلك منه سفها وجهلا وظلما لنفسه ولمن معه من الناس ، اللهم إلا من أعطى الأمانة حقها فى الكثير الغالب ، واستغفر الله وتاب اليه كلما خدعه الشيطان عن شىء من دينه ، فكان ممن قال الله فيهم ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ (الفرقان ٧٠) ولم يكن من الكثير الذين حق عليهم العذاب .

وواضح أن موضوع هاتين الآيتين المدنيتين غير موضوع بقية الآيات الأربع ، آيات مريم والغاشية والنبأ والنازعات . وإن اتفقت كلها فى ذكر الجبال مع السموات والأرض أو السماء والأرض ، على سواء ، والاختلاف بينهما فى البيئة التى نزلت فيها ، فالبيئة المدنية غلب عليها الإسلام ، فلم تحتج إلى ما احتاجت إليه البيئة المشركة المكية من إقامة الدليل على الله من آيات الله الواضحة الظاهرة فى الكون ، ومنها آياته فى السماء والأرض والجبال على النحو المتجلى فى آيات الغاشية والنبأ والنازعات .

أما آية مريم فالمخاطب بها فيما يبدو من كان يغشى البيئة المكية من النصارى ، والزجر الشديد الذى فيها وفى الآيات التى تليها ، يذهب بما يوسوس به المستشرقون من النصارى من أن محمدا أخذ عن نصارى مكة أو بعض رهبان الشام شيئا مما جاء به من الدين .

لكن المهم فيما نحن بصدده أمران : أن ذكر الجبال على الخصوص ، وهى جزء من الأرض ، فى آيات ست ذكرت فيها السموات والأرض ، أو السماء والأرض دليل ليس بعده دليل على الأهمية القصوى للجبال من ناحية ، ومن ناحية عظم أثرها فى حياة الناس ، وحياة غيرهم مما على الأرض من الأحياء .

وعلينا نحن معشر أهل القرآن أن نحيط بما عرفه العلم من ذلك ، ونكشف عما لم يعرفه وأشار

إليه القرآن ، هذا أمر ، والأمر الثانى هو التنوع العجيب فيما ذكر عن السموات والأرض والجبال فى تلك الآيات .

فآية مريم لم تزد على ذكر السموات والأرض والجبال شيئا من صفاتها أو خواصها ، لأن مالها من الروعة فى النفوس يكفى فى الزجر الذى سيقت الآية من أجله .

وآيات الغاشية لفتت الناس من السماء إلى رفعتها كيف كانت ، ومن الجبال إلى ارتفاعها عن الأرض وتماسكها كيف كان ، ومن الأرض إلى كيف سطَّحها الله حول الجبال .

وآيات النبأ لفت الله فيها الناس من الأرض إلى انه قد سطحها على وجه يجعلها صالحة للعيش عليها ، والراحة فيها ، كأنها مهاد للإنسان ، ولفته من الجبال إلى سر فيها لم يكشف الإنسان عن كنهه الى الآن ، وأشار الله إلى مفتاح كشفه ، فشبهها بالأوتاد ، ثم لفتهم من السموات إلى عددها ، وإلى أنه سبحانه قد خلقها تشد بعضها بعضا شد البنيان بعضه بعضا ، بحيث لا تسقط علينا وهى فوقنا .

وآيات النازعات لفتت مفكرى البعث من الناس إلى أن الله بناها ـ وفى الفعل (بنى) مفتاح سر إنشائها ، ولفتهم الى عظم البعد بينها وبين الأرض وبين بعضها وبعض ، وإلى أن لها ليلا مظلما غير ليل الأرض ، وإلى أن الله أخرج ضوءها أى ضوء ما فيها من شمس ونجم ، لا مجرد ضوء شمسها كما يقول الزمخشرى وغيره ، والعلم قد أثبت أن نجومها شموس ينفجر الضوء منها بتفجر ذراتها ، كالذى يحدث فى التفجر النووى فى القنابل الايدروجينية ، وما إليها بل أشد .

أما الأرض فقد لفتنا الله فى الآيات الثلاث المتعلقة بها إلى أنه سبحانه بسطها ، وأخرج منها الماء والمرعى ، بعد أن كان قد خلق السماء والأرض إذ خلق إحداهما يستلزم خلق الأخرى لما بينهما فى اللغة من تقابل ، فهما خلقتا معا لا قبل ولا بعد ، كما تدل عليه آيات سورة فصلت .

ثم لفتنا سبحانه إلى إرساء الجبال فى الأرض ، ويكفى أن ننبه إلى ما فى الآيات الأربع ، حسب ترتيب نزول الوحي بها ، من مثل رائع للترقى بالناس فى معارج النظر إلى آيات الله فى السماء والأرض والجبال ، عسى أن يهتدوا إلى خالقها سبحانه .

٤ ـ والجبال أوتادا

نبدأ بحث هذه الآية الكريمة مستعينين بالله فى محاولة لالتماس حكمته سبحانه فى أن ذكر الجبال مع السموات والأرض على سواء فى مواطن عدة من القرآن الكريم ، أحدهما فى سورة النبأ فى آيات هذه إحداها **﴿ والجبال أوتادا ﴾** (٧) ، والجبال فى هذه الآية منصوبة بالفعل (نجعل) فى الآية التى قبلها : **﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا ﴾** (٦ ، ٧) .

وهى واردة فى معرض منّ الله على عباده بآيات له فى الخلق هى من مظاهر قدرته ومجال حكمته ، ففى منافعها للناس بعض تجليات حكمته ، وفى أسرار خلقها وتصييرها إلى صورتها التى يشهدها الناس بعض دلائل قدرته التى ليس يعجزها شىء .

وينبغى أن يتحقق الأمران جميعا فى معنى الكلمتين الكريمتين **﴿ والجبال أوتادا ﴾** ينبغى أن

يكون فى تشبيه الجبال بالأوتاد ، هذا التشبيه المحذوف منه أداة التشبيه ، والذى يسميه علماء البيان من أجل ذلك بالتشبيه البليغ ، لأنه يجعل المشبه عين المشبه به ، توكيدا للشبه الشديد بينهما ، ينبغى أن يكون ذلك هاديا إلى أطراف المعنى من ناحيتيه ، من ناحية الدلالة على القدرة وكمالها ، ومن ناحية الهداية إلى الحكمة وجلالها ، وأطراف المعنى إنما تتبين من تعدد أوجه الشبه بين الجبال والأوتاد تعددا يدل على مجاوزته المألوف فى كلام الناس إذا بالغوا فى التشبيه .

إن التشبيه البليغ هنا هو من قبل الحق سبحانه ، ثم هو تشبيه للأعلى بالأدنى ، وللضخم الرائع بالضئيل الممتهن عند الناس ، فليس هو فى شىء من تهويل الناس ومبالغتهم فى تشبيهاتهم البليغة ، ولكنه دليل على أمور فى الجبال هى من آيات الله فى الخلق ، تناظرها أمور يعرفها الناس فى الأوتاد ، على عظم الفرق بين الجانبين فى النسبة والمقدار . فكأن ذلك التشبيه العجيب مفتاح أو مصباح يستكشف به المجهول من أمر الجبال ، عن طريق المعروف من تظاهر لها فى الأوتاد .

والجبال فيما يتبادر إلى الذهن تشبه الأوتاد من ناحية البروز عن سطح الأرض ، وناحية الرسوخ فيها ، لكن التشابه والتناظر بينهما أشمل وأدق من هذا ، فالأوتاد تختلف من ناحية البروز فى مداه وفى درجات الميل .

والجبال تختلف فى الارتفاع وفى درجات الميل كذلك . والأوتاد يختلف رسوخها باختلاف صلابتها وشكلها ومدى ذهابها فى الأرض ، وطبيعة تلك الأرض ، وكذلك تختلف الجبال من ناحية الرسوخ فى ذلك كله ، واذا كان تفسير هذا فى الأوتاد هينا فتفسيره فى الجبال يحتاج الى علم واختصاص ، فالأوتاد الى هنا لم تزد على أن تشير الى نواح ينبغى أن يتجه اليها الباحث ، ليقف على مظاهر من آيات الله فى الجبال .

لكن هناك عوامل فى اتخاذ الأوتاد تدل بذلك التشبيه البليغ على تظاهر لها فى نشأة الجبال ، لم تكن تخطر ببال الإنسان عند نزول القرآن ، فالأوتاد لابد فى إنشائها من تشكيلها ثم من تثبيتها فى الأرض بقوة ما .

وإذن فجعل الجبال أوتادا فيما أنبأ الله فى كتابه من شأنه أن يقتضى أن تكون الجبال قد أنشئت بفعل قوة أو قوى ، وهذا وحده حقيقة علمية حديثة دل عليها القرآن عن طريق ذلك التشبيه البليغ ، فما بالك إذا كان بين القوى فى الحالتين تناظر وتشابه من أكثر من وجه ؟

إن أهم أنواع الجبال وأعظمها من غير شك سلاسلها ، وسلاسل الجبال عند علماء طبقات الأرض قد نشأت نتيجة لقوى عظيمة عملت جانبيا فى القشرة الأرضية لما هبطت بثقلها ، حين خلا ما تحتها بانقباض باطن الأرض وانكماشه لما برد بالتدريج فى الأحقاب الطويلة ، وشبهوا ذلك بتغضن جلد التفاحة لما ينقبض باطنها وينكمش تدريجيا بالجفاف البطىء .

تلك القوى الهائلة لها نظائر ، على قدر ، عند دق الأوتاد ، فالدق من أعلى لأسفل يناظر فعل التثاقل عند هبوط قشرة الأرض ، والضغوط الجانبية على التربة من حوالى الوتد عند دقه تناظر تلك القوى الجانبية العاملة فى القشرة الأرضية على خطوط الضعف فيها ، حتى تتموج إلى نجاد ، هى الجبال

والهضاب ، ووهاد منها الوديان ، أليس هذا التشابه والتناظر بين القوى بعجيب ؟

وفى علم طبقات الأرض أن ما يسمى بعوامل التربة - من نحو الرياح والأمطار والتمدد بحرارة الشمس ، والتقبض بالبرودات المختلفة حتى تتعتت بتعاقبها المستمر طبقات الصخر طبقة بعد طبقة ، وتأتى الرياح السافية والأمطار الجارفة فتزيل ما تفتت ، ويتجدد ذلك هكذا دواليك حتى قد يتضاءل به نسبيا فى النهاية الجبل الأشم ، فيدل تضاؤله على أنه فى العمر أسن وأقدم من مثله المحتفظ بشموخه - هذه العوامل تعمل فى انتقاص الجبال فى الوقت الذى تنشأ فيه أخرى بفعل تلك القوى ، وما نراه اليوم من الجبال هو حاصل تنافس هذين النوعين .

فحتى تناقص الجبال بفعل قوى التعرية هذه له نظير فى تآكل الأوتاد بنفس العوامل وغيرها فى الزمن المتطاول ، إذ المقارنة والمشابهة ينبغى أن تكون بين الجبال وبين ما يترك من الأوتاد قائما غير منزوع .

فالتناظر والتشابه ، كما ترى ، تام أو يكاد يكون تاما بين الجبال والأوتاد فى النشأة ، وفى طوارىء الحدثان عليها ، حتى ليكاد تاريخ حياة الثابت من الأوتاد يدل بذلك التشبيه البليغ القرآنى على تاريخ حياة الجبال ، ولا يزال فى أوجه الشبه بقية .

فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين اثنتين فى كتابه العزيز . هما الآية السابقة من سورة النبأ ﴿ **والجبال أوتادا** ﴾ .

* * * *

على أننا لم نتناول من الآية الكريمة إلا ناحية ما أودع الله فيها من دلالة على قدرته ، وبقيت الناحية الأخرى ، ناحية الدلالة على حكمته سبحانه متمثلة فى وظيفة الجبال المناظرة لوظيفة الأوتاد عند الناس .

والمفسرون جميعا قالوا فى تفسير آية النبأ : إن الله سبحانه ثبت الأرض بالجبال كى لا تميد ، كما تثبت بيوت الأعراب والخيام بالأوتاد ، ولكنهم فى قياسهم هذا لم يكونوا منطقيين دقيقين ، لأن الأوتاد حين تدق فى الأرض لا يقصد بها تثبيت الأرض ، ولكن تثبيت شىء فوق الأرض هو الخيمة ، أو بيت الجلد الذى من الله علينا به سبحانه ، إذ يقول : ﴿ **والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم** ﴾ (النحل ٨٠) .

فالدقة فى قياس الجبال على الأوتاد فى المنفعة والوظيفة تقتضى شيئا فوق الأرض يعلو سطحها فى جملته ، ويمسه فى أطرافه كما تفعل الخيمة ، وتكون الجبال معينة على الاحتفاظ به على الأرض ، نقول معينة لأن الأوتاد وحدها لا تكفى للاحتفاظ بالخيام ، إذ لابد لكل خيمة مع الأوتاد من عماد ، فما هو الشىء الذى فوق سطح الأرض يعلوها كالخيمة ، ويساعد الجبال على حفظه على الأرض ،

ثم ما هو العامل الآخر الذى يتم عمل الجبال فى الاحتفاظ بذلك الشىء كما يتم العماد عمل الأوتاد ؟

أظن الجواب صار قريبا ، أو ينبغى أن يكون ، فالشىء الذى فوق الأرض يعلو الناس ويعمل

عمله فى وقايتهم ، كما تعلو الخيمة أهلها وتقيهم أشعة الشمس والمطر ، هو الغلاف الهوائى الذى يحيط بالأرض من جميع الجهات ، ويرتفع فوق سطح الأرض مئات الكيلو مترات .

ويكفى الناس على الاقل شر الشهب ، وشر القلر المؤذى من أشعة الشمس البنفسجية وفوق البنفسجية .

وهذا كاف فى تحقيق الشبه الكبير فى الوضع والمنفعة بينه وبين خيام لا عداد لها تغطى وجه الأرض ، فالله سبحانه يلفتنا بآية النبأ إلى أن الجبال تعمل فى الاحتفاظ بتلك الخيمة الجوية الهائلة عمل الأوتاد ، أما الذى يعمل عمل العماد متمما عمل الجبال ، أو الجبال متممة عمله ، فهو قوة الجاذبية بين الأرض وجملة الهواء .

والعماد لم يرد لها ذكر فى الآية ، ولكن الآية تفيدها عن طريق اللزوم ، إذ لا تقوم الخيام بالأوتاد إلا مع العماد ، وهذا مثل عجيب للاكتفاء البلاغى فى القرآن ، ثم هو مثل أعجب للإشارة إلى حقيقة كونية كبرى ، حقيقة التجاذب بين الأرض والقبة الهوائية ذات الكتلة الهائلة ، ذلك التجاذب العمودى الاتجاه على سطح الأرض بالضبط كاتجاه العماد .

وقوة الجاذبية الأرضية هذه ينسب العلماء إليها سر احتفاظ الأرض بهوائها الجوى ولا يزيدون ، لكن خالق الأرض والهواء يشير إلى القوة التى عرفها العلماء تلك الاشارة اللزومية العجيبة فى آية النبأ ويزيد عباده علما بعامل ثان يجهلونه ، يتمم عمل الجاذبية التى يعرفونها ، وهذا معناه ، أو هذا مقتضاه .

حقيقة أخرى غير معروفة : أن جاذبية الأرض وحدها غير كافية لاحتفاظ الأرض بهوائها ، فهاتان حقيقتان قرآنيتان لم يكشفهما علماء الفلك والطبيعة الى اليوم ، وعلى مسلميهم المؤمنين بالقرآن البحث عنهما علميا حتى ينكشفا ويثبتا ، فينكشف بهما ويثبت للعالم الإسلامى وغير الإسلامى معجزتان كونيتان جديدتان للقرآن .

وسيكون البحث عنهما صعبا وربما عويصا ، وسيحتاج فيه إلى الرياضة العالية ، وربما إلى إجراء تجارب لتقدير كتل الجبال كتلك التجربة البندولية التى أجراها (مسكلين) على جبل (شيهالين) لتقرير كتلته ، وليتوصل بها إلى تقدير كتلة الأرض عن طريق قانون الجاذبية العام (لنيوتن) وأهل هذا البحث أخبر بما يلزم له وبالمسلك الذى يسلك فيه ، لكنى أرجو ألا يصدهم عنه ما يتوقعون من صعاب فيه ، لأن الحق سبحانه لا يشير فى كتابه إلى آية من آياته فى الخلق إلا وييسر فقهها لمن يصدقه الجهاد فى سبيل كشفها .

والبحث فى هذا الأمر الخطير ـ إذا كان لمثلى أن يشير فيه برأى ـ يمكن أن يؤخذ على خطوات ، أو يتخذ عدة اتجاهات ، فمن الممكن مثلا التساؤل عن جاذبية الأرض أكانت تكون كافية للاحتفاظ بالطبقة الهوائية لو أن كتلتها (أى الأرض) نقصت بقدر كتلة جبالها ؟ وهذا طبعا يحتاج إلى تقدير كتلة مجموعة الجبال ولو بالتقريب ، فإذا ظهر أن الجبال هى من الكبر بحيث لو أنقصت من كتلة الأرض لعجزت الأرض عن الاحتفاظ بجوها ، كان هذا حقيقة جديدة أدت الآية الكريمة إلى كشفها . .

لكن الجبال كما اختصت بثقلها اختصت أيضا بارتفاعها فهل لارتفاعات الجبال دخل فى احتفاظ الأرض بجوها ، وباستمرار الحياة فيها بالتبع ؟ أى لو أن الجبال اندكت فى الأرض ، لم تبرز ، وكان سطح الأرض لا نتوء فيه مع احتفاظ الأرض بكتلتها غير منقوصة ، أكانت جاذبيتها عندئذ تكفى للاحتفاظ بهوائها ؟ أم كان يتسرب منها إلى الفضاء الكونى بالتدرج ، حتى إذا مضت حقبة كافية فقدت الأرض جوها كما فقد القمر جوه ؟ هذا سؤال يبدو أصعب حلا ، لكنه أمس بجوهر معنى الآية الكريمة لأنه يتعلق بالجبلية نفسها متمثلة فى ارتفاعات الجبال .

ثم يبقى بحث أثر الجبال من حيث توزيعها على سطح الأرض ، فهى فيما يبدو تكون سورا فيه ثغراته ، لكنه على العموم يكون فى كل من جانبيه شبه حوض تعلو الكتل الهوائية وتنخفض فيه من غير أن تزايله ، فالرياح تصطدم بالجبال وترتد عنها صاعدة أو هابطة أو راجعة ، فماذا يا ترى كان يؤول اليه أمرها لو لم تجد هذا السور يحبسها على صورة ما فى شبه الحوض الذى تكونه سلاسل الجبال فى توزيعها الحاضر على سطح الأرض ؟ .

إن وتدية الجبال ـ التى من الله بها على عباده ، ولفتهم بآية النبأ إلى سر جديد فيها من أسرار خلقه ، هو الذى عرضناه هنا ـ هى جديرة بتضافر الجامعات الإسلامية على بحثها مع الثقة مقدما بالنتيجة ، فقد أنبأ الله بها عن طريق تلك المشابهة العجيبة بين الجبال والأوتاد ، وهذا ينبغى أن يثبت أهل البحث من المؤمنين بالقرآن ويعينهم على تذليل صعوباته حتى يفوزوا بالإثبات العلمى لتلك الحقيقة الكبرى المنطوية فى تلك الآية من كتاب الله العزيز .

إن الرجاء كبير فى أن تكون جامعة الأزهر هى البادئة بالنظر فى أمر هذا البحث الخطير ، وسواء أطال أمد هذا الأمر أم قصر ، فإنا نرجو أن يكون تبين للآية الكريمة بعض مظاهر أخرى لإعجازها العلمى عن طريق الفحوى وباللزوم والقياس التمثيلى الدقيق .

٥ ـ والجبال أرساها

هذه آية كريمة أخرى من كلمتين فى الجبال ، نزل الوحى بها بعد أخت لها تأملناها قبل هذه مباشرة . . هذه من سورة النازعات ، وأختها من سورة النبأ .

والسورتان ترتيبهما واحد فى المصحف ، وفى نزول الوحى بهما ـ فآية النازعات هى آخرة الآيات المكية التى ذكرت فيها الجبال مطلقة ، وإن كانت آخرة الآيات حسب ترتيب المصحف هى آية سورة الغاشية : ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾(١) .

وقد رأينا كيف جمع الله لعباده من الجبال فى آية سورة النبأ ما لا يكاد المتأمل يقضى حقه عجبا من الحقائق الطبيعية التى كانت مجهولة للعالم أجمع فى عصر نزول القرآن ، وظلت كذلك حتى كشف عنها العلم الحديث .

وفى الآية مزيد من أسرار خلق الجبال أودعها الله الفعل (أرسى) إن أول معنى لهذا الفعل ، هو

(١) الآية ١٩ من سورة الغاشية .

ثبت بتشديد الباء ، وعلى هذا المعنى اقتصر أهل التفسير ، لكن الكلمة تستعمل مادتها أيضا مع السفن ، ففى القاموس من استعمالاتها (رست السفينة : وقفت على الأنجر) وفيه تحت مادة أنجر : والأنجر مرساة السفينة وهى خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة إذا رست السفينة .

وإرساء الجبال أمر مجهول لقارىء الآية الكريمة ، وإرساء السفينة أمر معلوم له ، فهل يستطيع أن يتوصل بهذا الذى يعرف إلى شىء عن ذلك الذى يجهل ، ويكون ما يتوصل إليه عن هذا الطريق موافقا للمعروف فى العلم عن الجبال ؟ .

إن أول ما يتجه إليه الذهن هو القوى المؤثرة فى السفينة فى مرساها . هناك ثقل المرساة وثقل السفينة إلى أسفل يقابله ثقل الجبال ، وهناك رفع الماء للسفينة إلى أعلى يقابل ضغط حرارة جوف الأرض بغازاته وأبخرته على الجبال ، وهناك القوى الجانبية المؤثرة فى السفينة من نحو فعل الموج ، وقوى الشد المتغير بين السفينة والمرساة الواحدة أو المتعددة عن طريق ما يصل بين السفينة وبينها من حبل أو سلسلة ، ويقابلها فى حالة الجبال تلك القوى الجانبية الهائلة التى أنشأ الله الجبال بفعلها فى قشرة الأرض حتى تموجت على العموم جبالا ووديانا ، وأقام الله الميزان بينها وبين غيرها من القوى فاستقرت الجبال ورست فى الأرض ، كما رست السفينة واستقرت فى مرساها بتوازن القوى المؤثرة فيها .

وإلى هنا تجد كلمة (أرساها) فى آية النازعات قد أدت إجمالا إلى نفس النتائج التى أدى إليها تأمل جعل الله الجبال أوتادا ، فيما يتعلق بالنشأة مما لفت الله إليه بآية النبأ .

لكن هناك العلاقة بين السفينة والبحر التى من أجلها احتاجت السفينة إلى المرساة ، فهل لهذه الناحية شىء يقابلها فى إرساء الجبال ؟ وبعبارة أخرى هل هناك سائل رست فيه الجبال كما رست السفينة فى ماء البحر ؟

المقارنة تقتضى أن يكون جوف الأرض سائلا ، وأن الجبال تستقر عليه كما تستقر السفينة على ماء البحر ، وسيولة جوف الأرض المستنبطة هكذا من كلمة ﴿ أرساها ﴾ فى الآية حقيقة واقعة ، ينم عنها ما نشاهده فى بعض البراكين عند ثورانها من قذفها بالحمم والصخر المنصهر ، لكن الرسو على هذا الجوف السائل لا ينطبق فى العلم إلا على نوع من الجبال هو ما يسمى بالجبال النارية فى مقابل ما يسمى بالجبال الرسوبية ، وهما النوعان الأساسيان من أنواع الجبال .

وفى هذا الصدد يقول العالم الجيولوجى (أ . فيشر) : (إن البحث من ناحيتيه الرياضية والجيولوجية يدل على أن تحت القشرة الأرضية طبقة سائلة تحوى غازات مذابة ، وأن الجبال لها جذور غير منصهرة ذاهبة فى منصهر سائل مادته أثقل من مادتها) .

وقد دل البحث على يد غير (فيشر) على أن متوسط كثافة مادة الجبال هو نحو (٦و٢) ومتوسط كثافة الأرض هو نحو (٥و٥) ، فبطن الأرض السائل أكثف حتى من جبالها ، وهذه حقيقة علمية أخرى تقابل المعروف من أن متوسط كثافة السفينة أى وزنها مقسوما على حجمها هو أقل من كثافة ماء البحر أو النهر ، والا لما طفت عليه بل لغرقت فيه .

فإلى هذا الحد من الدقة يتحقق الشبه بين إرساء الجبال فى أحد نوعيها الأساسيين وبين إرساء السفينة :

وتبارك الذى أودع هذه الحقائق عن الأرض وجبالها آية واحدة من كلمتين فى كتابه ﴿ **والجبال أرساها** ﴾ ، لكن الآية الكريمة فيها بعد ذلك مزيد .

إن سيولة جوف الأرض ورسو الجبال النارية فيها هدت إليها سيولة ماء البحر ، لكن ماذا عن البحر نفسه ومائه ورسو السفن فيه ؟ أليس لذلك مقابل فى الجبال إن العلم يحدثنا أن الجبال الرسوبية تنشأ طبقاتها أول ما تنشأ فى البحر قريبا من شواطئه ، بما تحمله الأنهار إلى البحار من طمى ورمال وما اليهما ترسب فيه طبقات بعضها فوق بعض ، حتى إذا تراكمت وعظم سمكها فى الحقب الطوال رفعها الله بقوى من تحتها وجانبها ، حتى تصير جبالا شاطئية ظاهرة الطبقات الرسوبية .

وإذن فالآية الكريمة تدل بالفعل (أرسى) ، المسند إلى ضمير الجلالة ، على أهم نوعين من الجبال . النارى منها والرسوبى . كل راس راسخ ، هذا على شاطىء البحر وذلك بجذور له فى طبقات سائلة من منصهر الصخر فى جوف الأرض ، فسبحان الذى جمع لعباده كل هذا فى كلمتين تكونان آية من آيات كتابه العزيز .

وإذا تتبعنا مادة (رسا) متعلقة بالجبال فى الكتاب العزيز وجدناها وردت فى صيغة اسم الفاعل مجموعا فى تسع آيات ، ذكرت فيها الجبال لا بلفظها ولكن بوصف انها رواسى .

وذلك فى تسع سور : واحدة مدنية وهى (الرعد) ، وثمان مكية هى حسب نزول الوحى بها : (المرسلات) و(ق) ، (والنمل) ، (والحجر) ، (ولقمان) ، (وفصلت) ، (والنحل) (والأنبياء) .

وآية المرسلات هى قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾[1] .

(فيها) أى فى الأرض المذكورة فى الآيتين قبلها : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا** ﴾[2] .

وآية (ق) هى : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾[3] .

وبالفعلين (جعل) و(ألقى) جاء التعبير عن خلق الجبال فى بقية الآيات الكريمة التسع ، بالفعل (جعل) فى آيات (النمل ، وفصلت ، والأنبياء ، والرعد) ، وبالفعل (ألقى) فى آيات (الحجر ، ولقمان ، والنحل) .

والدلالة فى (جعل) عامة تشمل أنواع الجبال كلها ما ذكرنا منها وما لم نذكر . لكن الدلالة فى (ألقى) أخص منها فى (جعل) .

وقد لاحظ ذلك (ابن عطية) فيما ذكره (أبو حيان) عند تفسير آية النحل إذ نقل عنه قوله : قال المتأولون (ألقى) بمعنى (خلق وجعل) ، وهى عندى أخص من خلق وجعل ، وذلك أن

---

(١) الآية ٢٧ من سورة المرسلات .
(٢) الآيتان ٢٥ - ٢٦ من سورة المرسلات .
(٣) الآية ٧ من سورة ق .

(ألقى) تقتضى أن الله أوجد الجبال ليس من الأرض ولكن من قدرته واختراعه ، ويؤيد هذا النظر ما روى فى القصص . وإلى آخر ما قال عن (الحسن) ، و(وهب بن منبه) .

وقد أحسن فى التنبه إلى أن (ألقى) أخص من (جعل) لكنه لم يكن يعرف أن الجبال أنواع مختلفة النشأة ، وأن الفعل (ألقى) ينطبق تماما على نشأة الرسوبى منها ، فهى بالفعل يلقيها الحق سبحانه فى الأرض ، فمادتها تنقلها الأنهار وتلقيها قرب شواطىء البحار بأمره ، حتى إذا تراكمت إلى الحد الذى قدره سبحانه وتماسكت بالتضاغط وبغيره رفعتها تلك القوى جبالا شاطئية بأمره .

فقد خلق الله الجبال من الأرض وخلق ثانى نوعيها الأساسيين من قدرته واختراعه ، لا فجأة مرة واحدة كما فهم (ابن عطية) من الفعل (ألقى) . ومما روى فى القصص ، ولكن قدر الله سبحانه خلقها حين ألقاها خطوات ، كما قدر خلق الجنين فى بطن أمه فى أطوار ، لتكون كل خطوة ككل طور آية حقيقية ، يمكن إذا آن الأوان أن يكشف عنها عباده ، وليكون انطباق ما يكشفون عنه من حقائق الفطرة على حرفية ما أنزل فى كتابه العزيز ، كما رأيت فى (أرسى) و(ألقى) ، شاهد صدق على أن من أنزل القرآن هو فاطر الفطرة سبحانه .

٦ ـ والأرض مددناها

وخلق الجبال الرسوبية بهذه الصورة التى كشف عنها علم طبقات الأرض هو مثل يفسر معنى مد الأرض فى الآية ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى ﴾ هو مثل من أمثلة ، وصورة من صور ، اذ لابد أن تكون هناك صور أخرى لمد الأرض ، كما يشير إليه تقديم مد الأرض على إلقاء الرواسى فى آية (ق) وفى أختها آية (الحجر) : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون ﴾[1] . وفى آية الرعد : ﴿ وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ﴾[2] .

صحيح ان الواو فى اللغة لا تفيد الترتيب حتما ، كما تفيد الفاء وثم ، لكن ترتيب الذكر عند العطف بالواو فى كتاب الله خصوصا إذا تكرر بذاته كما فى الآيات الثلاث ، لابد أن تكون له حكمة ، كما هو واضح مثلا فى مجىء المحارم ، حسب درجات القرابة فى قوله ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت ﴾ (النساء ٢٣) .

ولو لم يأت التعبير إلا بالفعل (ألقى) فى الآيات الثلاث التى ورد فيها ذكر الرواسى مقرونا بذكر مد الأرض ، لكان هذا كافيا فى قصر صور هذا المد على ما تلقيه الأنهار من رواسب فى المياه الضحلة ، كمياه شواطىء البحار فى العادة ، سواء أرفعت طبقات الرواسب المتراكمة جبالا بعد ذلك أم لم ترفع ، بل بقيت أرضا تزرع وتسكن كما فى دلتا الأنهار .

لكن التعبير جاء أيضا بالفعل (جعل) حين ورد ذكر الرواسى مقرونا بمد الأرض فى آية الرعد ، ودلالة هذا الفعل عامة شاملة لأنواع الجبال .

وإذن فالجبال النارية على الأقل لابد أن يكون فيها أيضا مثال لما ذكر الله فى الآيات الكريمة الثلاث من مده الأرض أى اليابسة ، إذ على هذا ينبغى هنا أن يفهم معنى الأرض مادام يابس الأرض

---

(١) الآية ١٩ من سورة الحجر .

(٢) الآية ٣ من سورة الرعد .

هو الذى يزداد ويكثر بالجبال الرسوبية ، ودلتا الأنهار ، وهذا طبعا لا يمنع أن يكون لمد الأرض معنى آخر ، قد يكون الفلكيون عرفوه فى تاريخ نشأة الأرض الكوكب السيار ، لكن المد بمعنى الزيادة فى يابس الأرض هو الذى يوحى به الإنباء عنه مقترنا بالإنباء عن الرواسى (إلقاء) فى آيتين (وجعلا) فى آية ، أى على وجه الخصوص بالرواسى الرسوبية فى آيتين ، وعلى وجه العموم بها وبغيرها فى آية .

وقد تحقق المد بالمعنى الخاص المتضمن فى الفعل (ألقى) فهل هو متحقق على وجه أوسع ، كما يشير إليه الفعل ذو المعنى الأعم ؟

والعجيب أن المد بالمعنى الأوسع المستفاد من هذه الإشارة القرآنية متحقق بالفعل ، متحقق أيضا فى الجبال النارية ، أو هى معروفة فيه بالجزر البركانية ، مثل جزائر (هاواى) وأكثر جزر المحيط الهادى .

وفى دائرة معارف (هتشنسون) المصورة .

إن الجزائر إما قارية تتصل بالقارات من تحت الماء كأنها كانت جزءا منها ، وإما محيطية أى فى المحيطات منقطعة عن القارات ، وهذه بركانية تكونت بارتفاع قاع المحيط بالقوى البركانية بالتدريج ، أو بها فى غير تدرج ، كأنما ثار قاع المحيط بركانا وارتفع فجأة ، فهى جميعا أشبه بقمم بادية من جبال مغمورة فى المحيط .

وفى بعضها مثل (جاوة) سلاسل جبال صخرها نارى وفيها براكين أكثرها خامد وأقلها يثور من حين لحين . فهذه الجزر وجبالها كانت يوما ما قاعا للمحيطات ، ثم رفعها الله للعيان زيادة فى اليابسة كما زادها بالرسوبى من الجبال وبدلتا الأنهار .

وفى الآيات الكريمة الثلاث لطيفة أخرى تستنتج من أن مد الأرض ورد فى آيتين مع الفعل (ألقى) وفى آية مع الفعل (جعل) إشارة فيما يبدو إلى أن المد فى اليابسة عن طريق رواسب الأنهار أكثر وأغلب ، إن لم تكن ضعف مدها عن طريق رفع القيعان الصخرية النارية جزرا وجبالا فى البحار . وهذا يحتاج فى تحقيقه إلى بحث جغرافى ، لكنه أجدر أن يكون واقعا بالفعل ، إن لم يكن بالنسبة إلى الرسوبى والنارى من الجبال ، فبالنسبة إلى النارى من الجزر ، والرسوبى من دلتا الأنهار .

فتأمل وانظر إلى تلك الحقائق العلمية التى دل عليها القرآن بتشبيه بليغ ، يأتى فى آية ﴿ والجبال أوتادا ﴾ .

أو بلفظ فعل يأتى التعبير به كما فى الفعل (أرسى) والفعل (ألقى) أو بتقديم ظاهرة فى الفطرة على ظاهرة فى الذكر كلما ذكرت الظاهرتان معا ، كما فى مد الأرض وخلق الرواسى ، أو حتى بنسبة التكرار فى الذكر بين فعل وفعل كما فى ألقى وجعل .

ثم تأمل مع هذا كيف جاء ضمير الجلالة فى كل آية حاملا على قبول ما يظهر من أسرارها ، باعثا على استنباطها فى دقة وحذر ، واحكم ماذا كان يكون أثرها ووقعها لو كان من المسلمين (الفخر الرازى) مثلا من سبق الى استنباطها هكذا من اللفظ والتعبير القرآنى ، فسبق بذلك عن طريق القرآن إلى الكشف عن تلك الحقائق المتعلقة بالجبال ، قبل أن يكشف عنها العلم الحديث .

فهذا جانب آخر من جوانب إعجاز القرآن من الناحية العلمية لا يمكن أن ينسب بحق إلى عبقرية بشر ، لأن العبقرى إنما تظهر عبقريته فى ميدان هو مشتغل به متفرغ له ، ثم هو لا يكتفى فى ذكر نتاج عبقريته بالإشارة يودعها كلمة أو كلمتين أو كلمات معدودة ، كالألفاظ فى أى آية كونية من آيات القرآن ، على أن ضمير الجلالة فى الآية القرآنية يحول قطعا دون مثل هذا الاحتمال .

٧ - وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم

من تسع آيات فى القرآن ذكرت الجبال فيها بالرواسى ، نظرنا فى ثلاث ذكرت الرواسى فيها متصلة بمنّ الله على عباده بمد الأرض ، وهى آيات (ق) و(الحجر) و(الرعد) ، ولهذه فى الآيات الست الباقية نظائر ، ثلاث ذكرت الرواسى فيها سببا لنعمة أخرى كبرى ، هى أن الله منع بها الأرض أن تميد وتضطرب بالناس .

تلك الآيات الثلاث هى حسب ترتيب نزول الوحى بها آية سورة لقمان ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾(١) .

وآية النحل ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا ﴾(٢) .

وآية سورة الأنبياء ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم)(٣) .

والخطاب فى آيتى لقمان والنحل للناس كافة ، أما ضمير الغائب فى آية الأنبياء فراجع الى (الذين كفروا) فى الآية قبلها ، إذ يذكرهم بعجائب من آيات قدرته وحكمته عسى ان يؤمنوا به وحده ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون * وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ﴾(٤) .

وأسرار الفطرة المنبه اليها فى الآيات الثلاث متعددة لكنا نقصر القول هنا على ما تعلق منها بالجبال ، ما كشف العلم الحديث عنه وماينتظر الكشف ، وأول ذلك ما فى قوله تعالى ﴿ أن تميد بكم ﴾ وفى القاموس (ماد يميد ميدا وميدانا تحرك وراغ) من إشارة واضحة إلى حركة الأرض ، فإن الذى يخشى منه أن يميد ويضطرب هو الجسم المتحرك لا الساكن .

وحركة الأرض لم تكن معروفة للمفسرين القدامى ، وإنما الأرض كانت عندهم ساكنة كما كانت عند الناس أجمعين حتى الفلاسفة ، ولذا ردوا احتمال اضطراب الأرض إلى ما يحيط باليابسة من البحار ، كأنما الأرض سفينة فوق ماء ، يخشى أن يضطرب بها لولا أن ثقلها الله بالجبال .

وكذا فسروا (وتدية) الجبال فى قوله تعالى ﴿ والجبال أوتادا ﴾ بأنها تثبت الأرض كما تثبت الأوتاد الخيمة ، وليست الأرض بخيمة كما بينا عند النظر فى هذه الآية الكريمة .

---

(١) الآية ١٠ من سورة لقمان .
(٢) من الآية ١٥ من سورة النحل .
(٣) الآية ٣١ من سورة الأنبياء
(٤) الآية : ٣٠ ومن الآية : ٣١ من سورة الأنبياء .

فلننظر الآن فيما يمكن أن يقال من الناحية العلمية فى الجبال ، كيف يمكن أن تكون سببا فى عدم اضطراب الأرض فى حركتها ليستقيم بعدم اضطرابها عيش الناس عليها ، فلو أنها اضطربت بهم فى حركتها اليومية لساء عيشهم فيها سوءا لا يقدره ، ولا يدرك أى نعمة لله على الناس فى امتناعه ، إلا من اضطربت به السفينة فى البحر أو الطيارة فى الهواء ، وطال ذلك عليه ثم ذهب ما كان به حين هدأ البحر أو سكن الهواء بدخول المرفأ أو النزول فى المطار ، وليتصور الإنسان بعد ذلك ماذا كان يكون حاله لو أن ذلك الاضطراب استمر به طول الحياة ؟

إن الأرض كرة ـ أو كالكرة ـ تدور أمام الشمس ، من المغرب إلى المشرق دورة كاملة فى اليوم ، حول محور لها يصنع مع مستوى فلك دورانها حول الشمس زاوية قدرها ثلاث وعشرون درجة ونصف .

هذا الدوران المستمر حول محور ثابت يسمى فى اللغة دروارا ـ فى القاموس (در السهم دروارا . دار دورانا على الظفر ، وأدرت الغازلة المغزل فتلته فتلا شديدا حتى كأنه واقف من دورانه) .

والدرور فى الأرض ثابت المقدار والاتجاه طبقا لسنة كشف عنها (نيوتن) هى قانون من قوانين الحركة المنسوبة إليه يقول إن الجسم المتحرك لا تتغير حركته فى المقدار أو الاتجاه إلا بقوة تؤثر فيه من حيث المقدار أو الاتجاه أو كليهما .

وقد صان الله الأرض منذ فطرها على تلك الحركة اليومية عن كل قوة عارضة كى تدوم حركتها تلك إلى ما شاء الله ، أى إلى أن يشاء الله طلوع الشمس من مغربها كما جاء فى الحديث الصحيح ، إذ من الممكن فى العلم أن يحدث هذا .

والشمس تجرى بمجموعتها فى الفضاء بسرعة (١٢) ميلا فى الثانية ـ بأن تقترب من نجم أكبر منها يغلبها على الأرض بالقدر الذى يتغير به اتجاه حركتها اليومية ، فيصبح من المشرق إلى المغرب بدلا من المغرب إلى المشرق ، فيصير المشرق مغربا والمغرب مشرقا ، وعندئذ لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، كما فى الحديث الصحيح .

وسنة ثانية لله سبحانه يعرفها علماء حركة الأجسام : أن الجسم المتماسك فى الكتلة حول محور لا يضطرب ولا يميد إذا دار أو (در) حول ذلك المحور ، والأرض فى الواقع لا تميد ولا تضطرب فى درورها أو دورانها المستمر حول محور لها لا يتبدل ولا يتغير ، فلابد طبقا لسنة الله هذه أن تكون متماثلة فى الكتلة بالنسبة لهذا المحور .

هذه نتيجة رياضية يقينية ، أظن العلماء اكتفوا بها فلم يحققوها عمليا لما يكتنف تحقيقها من الصعوبات ، خصوصا فيما يتعلق بتوزيع كتل الجبال ، إذ معنى التماثل فى الكتلة أن أى مستوى يقطع الجسم مارا بمحور التماثل فإنه يقسم الجسم إلى قسمين متماثلين فى الكتلة : لكل جزء فى أحد القسمين نظير فى القسم الآخر يساويه فى الكتلة والوزن لا فى الهيئة والحجم .

لكن الله فاطر الأرض ومرسى جبالها ينبىء عباده فى كتابه العزيز أنه أرسى الجبال فيها بحيث يمتنع ميدان الأرض واضطرابها ، فأول تفسير لهذا ، طبق سنته تعالى فى الجسم الدرار غير المضطرب ،

إن الجبال موزعة فى الأرض بحيث تتماثل فى الكتلة بالنسبة لحركة الأرض اليومية ، وهى نتيجة عجيبة حقا .

فمن أعجب عجائب القدرة والإحكام أن تتماثل كل الجبال الواقعة فى شقى الأرض إذا انشقت فى أى اتجاه بمستوى يمر بمحور دورانها اليومى أمام الشمس .

فهذا مجال واسع أمام علماء الفطرة ، وخاصة من أهل القرآن ، ليثبتوا عمليا ولو فى اتجاه واحد أن الجبال ذات كتل متماثلة بالنسبة لمحور درور الأرض وهو عمل عظيم لابد من اشتراك الحكومات فيه لتكفل ما يقتضيه من نفقات .

ومن يقل ان هذا ناتج نظريا من قانون عدم اضطراب الجسم الدوار ، وإذن فلا داعى لتحقيقه عمليا . إذا قامت دونه الصعوبات ، قلنا له كفى إعجازا علميا للقرآن ودليلا كونيا على أنه من فاطر الفطرة وخالق الأرض بحيث تدور ولا تميد .

إن القرآن نبه مرة بعد مرة إلى هذه الحقيقة النظرية الرياضية ، قبل أن يعرف العلم القانون الذى ينتجها .

وقد يكون الأمر أعظم سرا حتى من هذا ، قد تكون هناك عوامل ثانوية تعمل على اتزان الأرض فى حركتها اليومية ، حتى لايشعر بها الناس ، مثل فعل حركة الجزء السائل فى جوف الأرض أثناء الدوران أو فعل حركة مياه البحار على الشاطىء ، ومأاكثرها إن كان لها أثر مثل هذا ، فإن كان هذا له دخل فقد أشارت إليه الآيات بكلمة (رواسى) التى سميت بها الجبال ، إذا تذكرنا الحقائق العلمية التى ذكرناها عند النظر فى قوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾(١) .

وعلى أى حال فقد نبهت تلك الآيات إلى عجيبة من عجائب آيات الله فى الفطرة تتصل بعيش الناس فى الأرض ، وعليها يتوقف هناؤهم فيها ، وعلى علماء الفطرة أن يبحثوها وأولاهم بذلك علماء الفطرة من أهل القرآن ، فإن لم يفعلوا فسيقيض الله غيرهم لبحثه ، والكشف عنه ، وفاء بوعده سبحانه فى قوله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ (فصلت ٥٣)

كما قد حدث فعلا على أيدى علماء الفلك الحديث بالكشف عن جريان الشمس فى الفضاء ، وعن الحركات الذاتية للنجوم ، تفسيرا لقوله : ﴿ والشمس تجرى ﴾(٢) من سورة يس ، و ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾(٣) من سورة الأنبياء .

٨ - بقية الآيات الموصوفة فيها الجبال بالرواسى

من الآيات التسع التى وصفت فيها الجبال بالرواسى ثلاث ، اقترن فيها ذكر الرواسى بمد

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النازعات .

(٢) من الآية ٣٨ من سورة يس

(٣) من الآية ٣٣ من سورة الأنبياء .

الأرض ، وثلاث بمنع ميدانها ، وثلاث أطلق الذكر فيها ، فلم يقترن بظاهرة خاصة فى الأرض كالتى ذكرت فى الآيات الست الأخرى .

هذه الآيات الثلاث الأخيرة هى حسب ترتيب نزول الوحى بسورها ﴿ **وجعلنا فيها رواسى شامخات** ﴾ (المرسلات ٢٧) وبقيتها :

﴿ **وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾ والآية (٦١) من النمل :

﴿ **أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون** ﴾

والآية (١٠) من فصلت : ﴿ **وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾

وقد جاء ذكر الأرض صريحا فى آية النمل كما ترى ، وبالضمير فى آيتى المرسلات وفصلت ، فإن الضمير فى (فيها) فى كل منهما راجع إلى الأرض المصرح بها فى أولى الآيتين (٢٥ ، ٢٦) من سورة المرسلات : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا** ﴾

وفى الآية (٩) من فصلت : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين** ﴾ .

وآية سورة المرسلات أول آية قرآنية ذكرت فيها الجبال بالوصف لا باللفظ ، وقبلها نزل الوحى بثلاث آيات ذكر فيها الجبال باللفظ ، هى آية المزمل : ﴿ **يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيبا مهيلا** ﴾ (١٤) .

وآية التكوير ﴿ **وإذا الجبال سيرت** ﴾ (٣) .

وآية القارعة ، ثانية الآيتين : ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾ (٤ ، ٥) .

وكلها كما ترى تتعلق بأمور هائلة تقع بالجبال بين يدى الساعة أو عند قيامها .

وإذن فآية المرسلات هى أول الآيات القرآنية التى ذكرت فيها الجبال من حيث علاقتها بهذه الحياة ، أى من حيث وجودها لافنائها ، ومن حيث دلالتها على الله الذى فطرها ، وحقق بها ماحقق من منافع للناس ، ومن هنا نتبين حكمة ذكرها باسمها فى آيات التذكير بهول يوم القيامة ، وذكرها بوصفها فى أول آية لفت الله بها عباده إلى مظهر من مظاهر قدرته فى خلق الجبال .

وفى الآية الكريمة وصفان للجبال كما ترى : أنهن رواسى ، وأنهن شامخات على التنكير لا على التعريف ، تنبيها إلى قبيل خاص من الجبال ، فلئن كانت كلها رواسى من حيث الثبوت والرسوخ فى الأرض ، وهو المعنى الذى يعرفه كل أحد ، فليست كلها شوامخ بالغة الارتفاع ، وإن كان تقدير الشموخ نسبيا عند الناس ، ولكن مهما يكن اختلافهم فى التقدير فالكلمة فى اللغة تدل على امتياز فى الارتفاع ، ففى القاموس (شمخ الجبل : علا وطال)

ولعل فى العلم حدا لايعتبر الجبل شامخا دونه عند علماء الجغرافيا الطبيعية أو الجيولوجيا . أو

الأرصاد الجوية ، فإن لم يكن فالآية تلفت إلى بحث هذه الناحية فيما تلفت إليه من بحث الكيفية التى رفع الله بها الجبال من ناحية ، وخالف بين ارتفاعها من ناحية أخرى ، حتى كان منها الشامخ الممتاز فى ارتفاعه عند أهل كل إقليم ، إذ الآية تتحدث عن الأرض عامة لا أرض العرب خاصة .

والضمير فى ﴿ وأسقيناكم ﴾ من قوله ﴿ وأسقيناكم ماء فراتا ﴾ ضمير خطاب للناس فى عصر نزول القرآن أولا ، ثم فى كل عصر يأتى بعده ؛ ولأن الماء العذب ضرورى للحياة فى كل زمان ومكان .

وقد جاءت آية الماء الفرات تتلو فى السورة الكريمة آية الرواسى الشامخات ، ليدل التتالى على أن بين الأمرين صلة ، وأن شموخ الجبال له دخل كبير فى نزول الماء يسقاه الناس ، وما لهم من صنوف الزروع والحيوان ، ودخلها هذا حق يقرره علماء الجغرافيا الطبيعية والأرصاد ، ويعرف بعض وجوهه كل مثقف بين الناس .

فمن المعلومات العامة بين المثقفين أن الأنهار مرد منابعها إلى الجبال . والماء الفرات ، أى العذب جدا كما يقول القاموس ، يدل أول مايدل على ماء المطر ، لكن تنكيره فى الآيات الكريمة يفيد العموم فهو يشمل كل ماء عذب فى الأرض سواء أكان ماء نهر أو بئر أو مطر ، بل إلى الأمطار فى النهاية مرد مياه الأنهار والعيون والعذب من الآبار .

والمطر فى العلم يشمل كل ماينزل من السماء من ماء أو ثلج أو برد ، وطبق سنة الله سبحانه فى دورة الماء العذب بين البحار الملح والمحيطات وبين اليابسة ، فكل عذب على الأرض أصله الماء الأجاج .

ومنه سبحانه على الناس بالماء الفرات فى آية المرسلات لايخلو بهذا الوصف من إشارة إلى هذه الحقيقة الكبرى عند من يخلط ضمير الجلالة فى الآية ، ويعلم أن البحار والمحيطات التى فى مجموعها تغطى نحو واحد وسبعين فى المائة من مساحة الكرة الأرضية . يتبخر ماؤها باستمرار طبق سنن الله فى تبخر الماء فى مختلف الظروف ، حتى إذا حملت الرياح البخار إلى أعالى الجو تكاثف سحابا ، وتكاثف السحاب مطرا طبق سنن الله فى ذلك كله ، حتى إذا جرت الأنهار خلال الأرض منصبة نحو البحار عاد معظم الماء إلى المصدر الذى منه جاء ، وهكذا دواليك بإذن الله فى دورة تتوقف عليها الحياة فى الأرض ، من غير أن يضيع فيها من الماء العذب شىء .

فإن ما يظن الإنسان ضياعه ذهابا فى جوف الأرض أو فى الجو ، مصيره أن يختزن فى باطن الأرض ، ليتفجر حيث يشاء الله عيونا طبيعية ، وآبارا ارتوازية ، أو أن يتكثف إلى سحاب ليعود مطرا من جديد .

ويتضمن وصف الرواسى بالشامخات فى آية المرسلات حقيقة أخرى فى الفطرة ، وظاهرة معجبة ، تلك هى ظاهرة الثلج الدائم يكلل هامات الجبال التى تكون درجة الحرارة فى قممها دائما تحت الصفر ، إذا زاد ارتفاعها عن حد خاص يتوقف على موقعها من خط الاستواء ، حيث الحد الأعلى لارتفاع بدء منطقة الثلج ، أو خط الثلج الدائم كما يسمونه ، فهو عند خط الاستواء بين ستة عشر وسبعة عشر ألف قدم ، أى نحو خمسة آلاف متر فى المتوسط ، وهو يقل عن ذلك بالتدريج كلما بعد الموقع عن خط الاستواء ، أى كلما قلت درجة الحرارة الجوية فى المنطقة .

ففى مدار السرطان مثلا ، أى شمال خط الاستواء بنحو ٢٣ درجة يكون ارتفاع خط الثلج الدائم نحو ثلاثة عشر ألف قدم ، ويصغر ارتفاعه إلى نحو ستة آلاف قدم عند خط عرض (٥٠) شمال خط الاستواء ، ونحو (أربعة آلاف) قدم عند خط عرض (٦٠)° ، وهلم جرا حتى ينمحى تماما عند خط عرض (٧٠)° إذ يكون الثلج دائما على مستوى سطح البحر ، كما يدل عليه الرسم البيانى لخط الثلج الدائم فى نصف الكرة الشمالى فى دائرة معارف (هتشنش) المصورة ، وانمحاؤه هذا يحول دون اتخاذه معيارا عاما لشموخ الجبال فى كل منطقة .

لكن من الممكن اتخاذه معيارا للشموخ فى المنطقتين الحارة والمعتدلة ، فيكون الجبل شامخا فى المنطقة وابيضت هامته بالثلج على الدوام .

وكثير من الجبال يزيد ارتفاعه على ارتفاع خط الثلج الدائم فى منطقته ، فإذا كان الفرق بين الارتفاعين كبيرا كان لتراكم الثلج فيما بينهما فضل فى تغذية الأنهار بالماء ، نتيجة لذوبان بعض الثلج باستمرار لضغط الطبقات العليا على السفلى ، ولانزلاق ماعلا على ماذاب من أسفل ، ليتعدى حد خط الثلج شيئا فشيئا ، ولايكاد يتعداه حتى يسيل ، ولن تنفد الثلوج على قمم الجبال باستمرار ذوبان أطرافها الدنيا لأنها كما تسيل هكذا باستمرار تتجدد أيضا باستمرار ، ولولا هذه الظاهرة العجيبة لجفت الأنهار التى تجرى فى وديان تحفها الصحراء إذا انقضت فصول الأمطار عند منابعها .

وينبغى أن نتذكر أن الرياح التى تضع حمولتها من الماء على شوامخ الجبال تهب على ماوراءها ولا ماء فيها ، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يرسل الغيث على ماوراءها عن طريق آية أخرى له فى الخلق ، هى الكهربائية الجوية التى يلفت الله عباده إلى ما أودعه فيها من مظاهر قدرته ورحمته فى الآيات التى تذكر الرعد والبرق فى كتابه العزيز .

ويتبين طرف من هذا الموضوع عندما نتأمل الآية ٤٣ من سورة النور ، لكن لايفوتنا التنبيه هنا إلى أن العموم الذى أفاده تنكير الماء فى آية المرسلات يشمل ماء الطريقين جميعا ، طريق الكهربائية الجوية وطريق شوامخ الجبال .

وقد تكرر ضمير الجلالة للمتكلم ثلاث مرات فى آية المرسلات عند ذكر الأرض ، وعند ذكر الرواسى الشامخات ، وعند ذكر الماء الفرات ، للدلالة على جلال ماأودع الله فى كل من أسرار قدرته وحكمته ورحمته ، مما ذكرنا بعضه ومما لايستطيع استقصاءه أحد ، ولكيلا يستكثر أحد على الآية منها أن تدل على ماعلم الله أنه سيهدى أهل العلم الحديث إليه من أسرارها ، وماكشف أو يكشفه العلم الحديث من تلك الأسرار ، إن هو إلا تفصيل لما أجملته كل آية من حجة الله على الناس ألا يعبدوا إلا إياه .

أما آية النمل (٦١) ﴿ **أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا** ﴾ فقد أقام الله حجته على عباده فيها بالأرض أيضا ، ولكن من حيث أنها قرار ، وبالماء ولكن من حيث أنه أنهار ، وبالرواسى من غير تخصيص بالشامخ منها ، وبآية رابعة له سبحانه فى الخلق تتصل اتصالا وثيقا بالأنهار ، وهى الحجز بينها وبين البحار الأجاج ، التى تصب فيها حتى

لاتطغى البحار عليها ؛ لأن البحرين المذكورين فى غير وصف فى قوله :
﴿ وجعل بين البحرين حاجزا ﴾ هما عين البحرين المذكورين فى قوله من سورة الفرقان ﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا ﴾[1]

وسورة الفرقان قد نزل بها الوحى قبل سورة النمل .

وهذا يفسر ذكر البحرين فى آية النمل من غير وصف ، بعد أن تبين وصفهما فى آية الفرقان .

وكذلك الأمر فى ذكر حاجز بين البحرين مجردا فى آية النمل ، كأنه تلخيص للبرزخ والحجر المحجور ، وبيان لحكمة الله فيه .

وليس هذا موضع بيان كيف أن سنة الله فى جذب الأرض لما عليها إلى أقرب نقطة من مركزها هو الحاجز بين البحر أن يطغى على النهر ؛ لأن سطح البحر أقرب إلى مركز الأرض من سطح اليابسة الذى يجرى عليه النهر ، فبسنة الله العامة فى الجاذبية ينزل الله الأمطار ، ويجرى الأنهار ، ويحفظها من أن تطغى عليها البحار .

وللأنهار تاريخ طويل فى ماضيها وحاضرها يبحث عنها كيف نشأت وشقت مجاريها وتشققها فى الأرض ، وعلماء طبقات الأرض والجغرافيا الطبيعية هم الذين يدركون جلال ماتدل عليه هذه الكلمة القرآنية الفذة .

أما الرواسى فى الآية فينبغى تقدير آيات الله فيها من حيث علاقتها بجعله سبحانه الأرض قرارا لمن عليها ، وذلك ليس فقط ؛ لأن السياق يقتضى هذا ، ولكن أيضا بقرينة لفظة فى الآية قليلة الحروف كبيرة الدلالة هى قوله تعالى :

(لها) بدلا من (فيها) فى الآية الكريمة ﴿ وجعل لها رواسى ﴾ .

وأول ذلك ماتبين هنا من صلتها بالأنهار ، أو صلة الشوامخ منها ، وثانى ذلك حفظ الله الأرض بها أن تميد بالناس ، أما علاقة الرواسى بمد الله الأرض فقد تأملنا آياتها أيضا فيما مضى ، وهو فيما تبين هناك موضوع إنشاء الجبال فى أهم أنواعها .

وتبقى آية فصلت من الآيات الثلاث المذكورة فى صدر هذا الحديث ، وواضح فيها ومن الآية قبلها أن ذكر الرواسى فيها كان طورا من أطوار خلق الأرض ، تمهيدا للطور الرابع الذى بارك الله فيه الأرض ، وقدر فيه أقواتها ، والدليل على الأمرين جميعا جمعه سبحانه يومى الطورين الأول والثانى مع يومى الطورين الثالث والرابع فى قوله :
﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ﴾[2] بعد قوله :
﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ﴾[3]

وقوله فى ثانية آيتين بعدها ﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾[4] .

فهذه ثمانية أيام فى مجموعها ، لو أخذت مستقلا بعضها عن بعض . لكن الله سبحانه قد أخبر

---
(١) الآية ٥٣ من سورة الفرقان .
(٢) من الآية ١٠ من سورة فصلت
(٣) من الآية ٩ من سورة فصلت
(٤) من الآية ١٢ من سورة فصلت

فى آيات متعددة أنه خلق السموات والأرض فى ستة أيام .

فلا مناص من أن الأربعة الأيام فى ثانية آيتى فصلت تشمل حتما اليومين فى أولاهما ، واليوم هذا ليس من أيام الدنيا ، ولكن من أيام الله ، والله سبحانه يقول : ﴿ ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ (السجدة ٢٥) ، ويقول :
﴿ وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ (الحج ٤٧) ، ويقول سبحانه : ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ (المعارج ٤) .

فالله أعلم بطول اليوم فى كل من أيام خلق الأرض والسموات .

وقد ثبت فى علم الفلك الحديث أن الأرض انفصلت عن الشمس استنادا على الأخص إلى ماثبت فى علم الكيمياء ، من أن المشترك من العناصر بين الأرض والشمس لايقل بل : يزيد على الستين والنيف ، وأن الارتفاع الهائل فى درجة حرارة باطن الشمس كاف فى تحليل مازاد على الستين والنيف من ثقيل عناصر الأرض ، وهى العناصر التى لم يكشفها التحليل الطيفى فى الشمس .

وإذن فاليوم الأول من أيام خلق الأرض هو الحقبة التى تم فيها انفصال جزء من الشمس ، الذى صار فيما بعد أرضا ، واليوم الثانى هو الحقبة التى تم فيها تبريد نفس الجزء حتى جمعه ، واليوم الثالث هو الحقبة التى خلق الله فيها الجبال فى الأرض بما على قشرتها من القوى الهائلة التى لايعرف قدرها إلا هو ، والتى عرف علماء طبقات الأرض كثيرا منها .

ومن عجائب الإعجاز العلمى البيانى فى آية فصلت أن دل الله سبحانه على التداخل بين آخر طور التبريد والتجميد ، وأول طور خلق الجبال ، بجمعه يومى الطورين الأول والثانى إلى يومى الطورين الثالث والرابع ، ودل عليها جميعا بقوله : ﴿ فى أربعة أيام ﴾ كما دل أيضا على أن خلق الجبال كان ضروريا لخلق الحياة ، وتقدير الأقوات فى الأرض ، فقد أخبر سبحانه فى سورة الأنبياء أنه جعل من الماء كل شىء حى ، ودل بذكر الأنهار أو الزروع فى أكثر آيات الجبال فى القرآن على أن الجبال ضرورية لسقيا الأرض وأهلها وزروعهاوحيواناتها بالماء الفرات ، وهذا فيما يتعلق بالإنسان هو الحكمة الأولى الكبرى فى خلق الجبال الرواسى .

* الجزاء العادل *

قوله تعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴾

قد يراد بالحسنة هنا الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقد يقصد بها الإخلاص لله تعالى ، وقد يراد بها قول « لاإله إلا الله » أو كل عمل طيب كالبر والصلة والصدق والأمانة وقد فصل الله تعالى ـ هذه الخيرية ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾[1] وفى قوله : ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾[2] . ثم يأتى الفضل العظيم متمثلا فى الأمن من الفزع يوم القيامة . قال تعالى : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى

(١) الآية ١٦٠ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٢٦١ من سورة البقرة

أولئك عنها مبعدون * لايسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون * لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾[٢] .

إن نعمة الأمن من أعظم ماينعم الله به على العبد بعد نعمة الإسلام قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى مقام أمين . فى جنات وعيون . يلبسون من سندس واستبرق متقابلين . كذلك وزوجناهم بحور عين . يدعون فيها بكل فاكهة آمنين . لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم . فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾[٣] .

قوله تعالى : ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ماكنتم تعملون ﴾

وعلى الجانب الآخر يأتى الحديث عن الذين جاءوا بالأعمال السيئة : وهكذا يقترن الوعد بالوعيد . قال تعالى : ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ماهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٤] . . وقد تفسر السيئة بالشرك والمعنى يشمل كل هذا . جزاء هؤلاء أن يكبوا على وجوههم فى النار كما قال تعالى :﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون ﴾[٥] . ويقال لهم : ﴿ هل تجزون إلا ماكنتم تعملون ﴾[٦] ﴿ إن الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾[٩] .

سبحانك ربى يامن قلت : ﴿ وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾[٨] وقلت : ﴿ إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا . أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير ﴾[٩] . ويامن قلت عن هؤلاء :﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾[١٠] ثم قلت : ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون أم أبرموا أمرا فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم . بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾[١١].

قوله تعالى : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ .

---

(١) الآيات من ١٠١ إلى ١٠٣ من سورة الانبياء
(٢) الآية ٣٧ من سورة سبأ
(٣) الآيات من ٥١ إلى ٥٧ من سورة الدخان
(٤) الآية ٢٧ من سورة يونس
(٥) الآيتان : ٩٤- ٩٥
(٦) من الآية ٩٠ من سورة النمل
(٧) الآية ٤٤ من سورة يونس
(٨) الآية ٧٦ من سورة الزخرف
(٩) الآية ٤٠ من سورة فصلت
(١٠) الآيتان : ٧٤ ـ ٧٥ من سورة الزخرف .
(١١) الآيات : ٧٧ ـ ٨٠ من سورة الزخرف .

وبعد بيان الجزاء العادل يأمر الله تعالى رسوله ومصطفاه أن يقول للأمة :

﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة ﴾ والمقصود بها مكة المكرمة . وإضافتها إلى الرب سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتكريم - زادها الله تشريفا وتعظيما وتكريما ومهابة وعظمة - إن هذا الأمر فيه التوحيد الخالص ﴿ قل ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولاتكونن من المشركين ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذاً من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلاراد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم . قل ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ومآأنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ (١). وقال تعالى : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين.وأمرت لأن أكون أول المسلمين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل الله أعبد مخلصا له دينى ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين.لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين.قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾(٣) .

وقد بين رسول الله ﷺ حرمة البلد الحرام فى قوله الذى جاء فى الصحيحين عن ابن عباس يوم فتح مكة : (إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لايعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها ولايختلى خلاها)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وله كل شىء ﴾ فلا يخرج شىء عن إرادته وعلمه ومشيئته وقدرته فاللهم أنت ربى لاإله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن . أعلم أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفس ومن شر كل دابة ، أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم . سبحانك جعلت لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما من دخل هذا البيت كان آمنا قال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴾(٥) . وكما أمر الله تعالى رسوله أن يعبد رب هذه البلدة أمره أن يكون من المسلمين . فصلوات ربى وسلامه عليه هو أول المسلمين المبعوث رحمة للعالمين . شمس الهداية الربانية

---

(١) الآيات ١٠٤ إلى ١٠٩ من سورة يونس

(٢) الآيات ١١ : ١٤ من سورة الزمر

(٣) الآيات ١٦١ إلى ١٦٤ من سورة الأنعام

(٤) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الحج ج ٢ ص ٩٨٦

(٥) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت

ومبعوث العناية الإلهية ، أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا . . كما أمره سبحانه أن يتلو القرآن عليهم فقال : ﴿ وأن أتلو القرآن ﴾ امتثالا لقوله عز وجل ﴿ واتل ماأوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا ﴾(١) . وقوله : ﴿ اتل ماأوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون ﴾(٢) وقوله : ﴿ نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾(٣) فمن اهتدى واتبع سبيل المتقين فلنفسه . ومن ضل فإنما يضل عليها قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وماربك بظلام للعبيد ﴾(٤) وقال : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وماكنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾(٥) . وقال : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾(٦) .

وهنا يقول تعالى : ﴿ ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ كقوله جل شأنه :

﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ﴾(٧) وقوله : ﴿ وكذب به قومك وهو الحق قل لست عليكم بوكيل * لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون ﴾(٨)

قوله تعالى : ﴿ وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وماربك بغافل عما تعملون ﴾(٩)) .

قال الإمام ابن القيم فى الحمد : المقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل مايحدث من إحسان ونعمة وامتحان وبلية . ومايقضيه من طاعة ومعصية . والله تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر ، أما حمد المدح فالله محمود على كل ماخلق إذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين . وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة فى حق المؤمن إذا اقترن بواجبه من الإحسان ، والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة ، والطاعة من أجل نعمه .

وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ماهو نعمة أيضا وإن كان سببها مسخوطا مبغوضا للرب سبحانه ، ولكنه يحب مايترتب عليها من التوبة والاستغفار ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل إذا ضلت راحلته بأرض دوية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها ومن الحياة فنام ثم استيقظ فإذا بها قد تعلق خطامها فى أصل شجرة فجاء حتى أخذها . فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته .

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الكهف
(٢) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت
(٣) الآية ٤٥ من سورة ق
(٤) الآية ٤٦ من سورة فصلت
(٥) الآية ١٥ من سورة الاسراء
(٦) الآية ١٠٤ من سورة الأنعام
(٧) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الغاشية
(٨) الآيتان ٦٦ ، ٦٧ من سورة الأنعام
(٩) الآية ٩٣ من سورة النمل

فهذا الفرح العظيم الذى لايشبهه شيء أحب إليه سبحانه من عدمه ، وله أسباب ولوازم لابد منها ، ومايحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبا له فهذا الفرح أحب إليه بكثير ، ووجوده بدون لازمة ممتنع ، فله من الحكمة فى تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة . هذا بالإضافة إلى الرب سبحانه ، وأما بالإضافة إلى العبد فانه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفا على أسباب لاتحصل بدونها . فتقدير الذنب عليه إذا اتصل به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته ومايعقبه ، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه ، والرب سبحانه محمود على الأمرين . فإن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد والاعتبار بكمال النهاية لاينقص البداية ، وإن لم يتصل به ذلك فهذا لايكون إلا من خبث نفسه وشره وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة فى الملأ الأعلى . ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث مافيها . فلابد من خروج ذلك منها من القوة إلى الفعل ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة فى المحل الأسفل . فإن هذه النفوس إذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الأسباب التى توصلها إلى ماهى مهيأة له ولايليق بها سواه ، والرب سبحانه محمود على ذلك أيضا كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له ، فما كل أحد قابلا لنعمته تعالى ، فحمده وحكمته تقتضى ألا لايودع نعمه وإحسانه وكنوزه فى محل غير قابل لها .

قوله تعالى : ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ هذا وعد صادق وعده من لايخلف الميعاد ، فقد أمر سبحانه وتعالى بالنظر فى الآفاق والأنفس . قال تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض ﴾(١) . وقال : ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾(٢) وقال : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾(٣) وقال : ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وماخلق الله من شيء ﴾(٤) وقال : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾(٥) وقال : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾(٦) وقال : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾(٧) وقال : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت ﴾(٨) . لقد صدق الله وعده إذ يقول : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد . ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ﴾(٩) .

سبحانك ربى أنت القائل : ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ وكيف لايكون ذلك كذلك وأنت الله الحى القيوم لاإله إلا أنت ، الوجود ملكك والقضاء حكمتك وكل الكائنات طوع إرادتك ، علوت

١ - من الآية ١٠١ من سورة يونس
٢ - من الآية ٢٥٩ من سورة البقرة
٣ - من الآية ٩٩ من سورة الأنعام
٤ - من الآية ١٨٥ من سورة الأعراف
٥ - الآية ٥ من سورة الطارق
٦ - الآية ٢٤ من سورة عبس
٧ - الآية ٦ من سورة ق
٨ - الآيات ١٧ - ٢٠ من سورة الغاشية
٩ - الآيتان ٥٣ ، ٥٤ من سورة فصلت

فقهرت ، وبطنت فخبرت،وملكت فقدرت ، وحكمت فعدلت ، خلقتنا فأنت على كل شىء قدير ، ورزقتنا فأنت أكرم الأكرمين ، وتميتنا فأنت الجبار ذو القوة المتين،وتحيينا فأنت أسرع الحاسبين ، وأحكم الحاكمين،وأعدل العادلين .

سورة القصص

قال صاحب البصائر فى تلك السورة :

السورة مكية بالاتفاق . عدد آياتها ثمان وثمانون وكلماتها ألف وأربعمائة وواحدة وحروفها خمسة آلاف وثمانمائة . وسميت سورة القصص لاشتمالها عليها فى قوله ﴿ وقص عليه القصص ﴾ أى قص موسى على شعيب .

مقصود السورة : بيان ظلم فرعون بنى إسرائيل ، وولادة موسى ، ومحبة آسية له،ورد موسى على أمه ، وحديث القبطى والإسرائيلى ، وهجرة موسى من مصر إلى مدين وسقيه لبنات شعيب ، واستئجار شعيب موسى ، وخروج موسى من مدين ، وظهور آثار النبوة ، واليد البيضاء ، وقلب العصا ، وإمداد الله تعالى له بأخيه هارون،وحيلة هامان فى معارضة موسى ، وإخبار الله تعالى عما جرى فى الطور ، ومدح مؤمنى أهل الكتاب ، وقصة إهلاك القرون الماضية ، ومناظرة المشركين يوم القيامة ، واختيار الله - تعالى - ماشاء ، وإقامة البرهان على وجود الحق إياه بالقهر ، ووعد الرسول ﷺ بالرجوع إلى مكة ، وبيان أن كل مادون الحق فهو فى عرضة الفناء والزوال ، وأن زمام الحكم بيده (تعالى) فى قوله : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه ﴾ أى كمل أربعين سنة . وقيل : كمل عقله وقيل : خرجت لحيته . وفى يوسف ﴿ بلغ أشده ﴾ فحسب ؛ لأنه أوحى إليه فى صباه . قوله : ﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة ﴾ وفى يس : ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل ﴾ قيل : اسمه خزبيل مؤمن من آل فرعون وهو النجار . وقيل شمعون وقيل : حبيب وفى يس هوهو . قوله : ﴿ من أقصى المدينة ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن يكون ﴿ من أقصى المدينة ﴾ صفة لرجل . والثانى أن يكون صلة لجاء ، والثالث أن يكون صلة ليسعى . والأظهر فى هذه السورة أن يكون وصفا ، وفى يس أن يكون صلة . وخصت هذه السورة بالتقديم لقوله تعالى قبله : ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ ثم قال : ﴿ وجاء رجل ﴾ وخصت سورة يس بقوله : ﴿ وجاء من أقصى المدينة ﴾ ولما جاء بالتفسير أنه كان يعبد الله فى جبل ، فلما سمع خبر الرسل سعى مستعجلا . قوله ﴿ ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ﴾ وفى الصافات ﴿ من الصابرين ﴾ لأن ماهنا من كلام شعيب . والمعنى : ﴿ ستجدنى من الصالحين ﴾ فى حسن العشرة والوفاء بالعهد ، وفى الصافات من كلام إسماعيل حين قال له أبوه ﴿ أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ فأجاب ﴿ ياأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ أى على الذبح .

قوله : ﴿ ربى أعلم بمن جاء ﴾ وبعده : ﴿ من جاء ﴾ بغير باء . الأول هو الوجه ، لأن ﴿ أعلم ﴾ هذا فيه معنى الفعل ، ومعنى الفعل لايعمل فى المفعول به ، فزيد بعده باء ، تقوية للعمل . وخص الأول بالأصل ثم حذف من الآخر الباء اكتفاء بدلالة الأول عليه . ومحله نصب بفعل آخر ، أى يعلم من جاء بالهدى ولم يقتض تغييرا ؛ لأن دلالة الأول قام مقام التغيير ، وخص الثانى لأنه فرع .

قوله : ﴿ لعلى أطلع إلى إله موسى ﴾ وفى المؤمن ﴿ لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى ﴾ لأن قوله : ﴿ أطلع إلى إله موسى ﴾ فى هذه السورة خبر لعل . وفى المؤمن عطف على خبر (لعلى) وجعل قوله ﴿ أبلغ الأسباب ﴾ خبر لعل ، ثم أبدل منه ﴿ أسباب السماوات ﴾ وإنما زاد ليقع فى مقابلة قوله : ﴿ أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ ؛ لأنه زعم أنه إله الأرض ، فقال : ﴿ ماعلمت لكم من إله غيرى ﴾ أى : فى الأرض ، ألا ترى أنه قال : ﴿ فأطلع إلى إله موسى ﴾ فجاء فى كل سورة على مااقتضاه ماقبله .

قوله : ﴿ وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾ وفى المؤمن ﴿ كاذبا ﴾ ؛ لأن التقدير فى هذه السورة : وإنى لأظنه كاذبا من الكاذبين ، فزيد ﴿ من الكاذبين ﴾ لرءوس الآية ثم أضمر ﴿ كاذبا ﴾ لدلالة ﴿ الكاذبين ﴾ عليه . وفى المؤمن جاء على الأصل ، ولم يكن فيه موجب تغيير .

قوله : ﴿ وما أوتيتم من شىء ﴾ بالواو . وفى الشورى ﴿ فما أوتيتم من ﴾ بالفاء ؛ لأنه لم يتعلق فى هذه السورة بما قبله أشد تعلق ، فاقتصر على الواو ، لعطف جملة على جملة ، وتعلق فى الشورى بما قبلها أشد تعلق ؛ لأنه عقب مالهم من المخافة بما أوتوه من الأمنة ، والفاء حرف التعقيب .

قوله ﴿ وزينتها ﴾ وفى الشورى ﴿ فمتاع الحياة الدنيا ﴾ فحسب ؛ لأن فى هذه السورة ذكر جميع ما بسط من الرزق وأعراض الدنيا كلها مستوعبة بهذين اللفظين .

فالمتاع : مالا غنى عنه فى الحياة : من المأكول والمشروب والملبوس والملبس والمنكوح . والزينة : مايتجمل به الإنسان ، وقد يستغنى عنه كالثياب الفاخرة والمراكب الفارهة ، والدور المجصصة ، والأطعمة الملبقة . وأما فى الشورى فلم يقصد الاستيعاب ، بل ماهو مطلوبهم فى تلك الحالة : من النجاة والأمن فى الحياة ، فلم يحتج إلى ذكر الزينة .

قوله ﴿ إن جعل الله عليكم الليل سرمدا ﴾ وبعده ﴿ إن جعل الله عليكم النهار سرمدا ﴾ قدم الليل على النهار ؛ لأن ذهاب الليل بطلوع الشمس أكثر فائدة من ذهاب النهار بدخول الليل ، ثم ختم الآية الأولى بقوله : ﴿ أفلا تسمعون ﴾ بناء على الليل وختم الأخرى بقوله : ﴿ أفلا تبصرون ﴾ بناء على النهار ، والنهار مبصر ، وآية النهار مبصرة .

قوله : ﴿ ويكأن ﴾ ﴿ ويكأنه ﴾ ليس بتكرار ؛ لأن كل واحد منهما متصل بغير ما اتصل به الآخر . قال ابن عباس : وى صلة . وإليه ذهب سيبويه . فقال : وى : كلمة يستعملها النادم بإظهار ندامته . وهى مفصولة من (كأنه ﴾ . وقال الأخفش : أصله ويك (وأن) بعده منصوب بإضمار العلم ، أى : أعلم أن الله . . وقال بعضهم أصله : ويلك وفيه ضعف . وقال الضحاك : الياء والكاف صلة . وتقديره وأن الله .

وجه المناسبة

ووجه مناسبتها لما قبلها أمور :

١) أنه سبحانه بسط فى هذه السورة ماأوجز فى السورتين قبلها من قصص موسى عليه السلام وفصل ماأجمله هناك ، فشرح تربية فرعون لموسى وذبح أبناء بنى إسرائيل الذى أوجد إلقاء موسى حين ولادته فى اليم خوفا عليه من الذبح ، ثم ذكر قتله القبطى ، ثم فراره إلى مدين وما وقع له مع شعيب من زواجه ببنته ، ثم مناجاته لربه .

٢) أنه أجمل فى السورة السالفة توبيخ المشركين بالسؤال عن يوم القيامة ، وبسط هنا أتم البسط .

٣) أنه فصل هناك أحوال بعض المهلكين من قوم صالح وقوم لوط ، وأجمله هنا فى قوله ﴿ وكم أهلكنا من قرية ﴾ الآيات .

٤) بسط هناك حال من جاء بالحسنة وحال من جاء بالسيئة ، وأوجز ذلك هنا ، وهكذا من المناسبات التى تظهر بالتأمل حين قراءة السورتين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ
أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ
أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ
لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ
فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ

لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن
قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ
كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ
وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

تفسير المفردات

نتلو عليك : أى ننزل عليك ، والنبأ : الخبر العجيب ، علا : تجبر واستكبر ، شيعا : أى فرقا يستخدم كل صنف فى عمل من بناء وحفر وحرث إلى نحو ذلك من الأعمال الشاقة ويغرى بينهم العداوة والبغضاء حتى لايتفقوا . يستضعف : أى : يجعلهم ضعفاء مقهورين . والطائفة هنا هم بنو اسرائيل . ونمن : أى : نتفضل .

الأئمة : واحدهم إمام وهو من يقتدى به فى الدين أو فى الدنيا

ويقال : مكن له إذا جعل له مكانا موطأ ممهدا يجلس عليه .

والمراد به هنا التسلط على أرض مصر والتصرف فيها .

وهامان :وزير فرعون

يحذرون : أى : يتوقعونه من ذهاب ملكهم وهلكهم على يد مولود من بنى اسرائيل .

الوحى : الإلهام كما جاء فى قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾[1]

والخوف : غم يحصل بسبب توقع مكروه يحدث فى المستقبل .

والحزن : (بفتحتين ويضم فسكون كالرشد والرشد والسقم والسقم) غم يحدث بسبب مكروه قد حصل .

واليم : البحر والمراد هنا نهر النيل .

والالتقاط : أخذ الشىء فجأة من غير طلب له .

والمراد من الخطأ هنا : الخطأ فى الرأى وهو حق الصواب والمراد به الشرك والعصيان لله وقرت به العين : فرحت به وسرت

فارغا : أى خاليا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد عدوه نحو ماجاء فى قوله : ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾[2] أى خلاء لاعقول بها . والإبداء : إظهار الشىء

والربط على القلب : شده والمراد هنا تثبيته .

---

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل

(٢) من الآية ٤٣ من سورة ابراهيم

وقصيه : أى : اقتفى أثره وتتبعى خبره .
فبصرت به : أى : بصرته
عن جنب : أى : عن بعد . لايشعرون : أى : لايدرون أنها أخته . حرمنا : أى : منعنا .
يكفلون : أى : يضمنون رضاعه والقيام بشئونه . والنصح : إخلاص العمل والمراد أنهم يعملون ماينفعه فى غذائه وتربيته ولايقصرون فى خدمته .
واحدة الأشد : شدة كأنعم ونعمة
والشدة : القوة والجلادة
وبلوغ الأشد : استكمال القوة الجسمانية وانتهاء النمو المعتد به .
والاستواء : اعتدال العقل وكماله ويختلف باختلاف الاقاليم والأزمان والأحوال
والحكم : الحكمة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ طسم . تلك آيات الكتاب المبين ﴾
الطاء والسين والميم بعض حروف الهجاء التى تشير إلى إعجاز هذا الكتاب المبين وحقا أنه معجز ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[1] .

* كلمة عن الإعجاز *

قال صاحب البصائر : إعلم أن الإعجاز إفعال من العجز الذى هو زوال القدرة عن الإتيان من عمل أو رأى أو تدبير . والذى يظهر على الخلق من هذا المعنى ثلاث درجات : مخرقة وكرامة (ومعجزة) وبين المخرقة والمعجزة فروق كثيرة .

منها أن المخرقة لابقاء لها ، كعصى سحرة فرعون ، والمعجزة باقية كعصا موسى . ومنها أن المخرقة لاحقيقة لها ، ولا معنى ، لأن بناءها على الآلات والحيل ، والمعجزة لا آلة لها ، ولا حيلة ، ومنها أن العوام يعجزون عن المخرقة ، وأما الحذاق والأذكياء فلا يعجزون عنها . وأما المعجزة فالخواص والعوام على درجة واحدة فى العجز عنها .

ومنها أن المخرقة متداولة بين الناس فى جميع الأزمان غير مختصة بوقت دون وقت ، وأما المعجزة فمختصة بزمان النبوة ، خارجة عن العرف ، خارقة للعادة .

ومنها أن المخرقة يمكن نقضها بأضدادها ، ولا سبيل للنقض إلى المعجزة .

---

(١) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

وأما الفرق بين المعجزة والكرامة فهو أن المعجزة مختصة بالنبى دائما .

وقت إظهارها مردد بين الجواز والوجوب ، ويقرن بالتحدى ، وتحصل بالدعاء ، ولاتكون ثمرة المعاملات المرضية ولا يمكن تحصيلها بالكسب والجهد ويجوز أن يحيل النبى المعجزة إلى نائبه لينقلها من مكان إلى مكان كما فى شمعون الصفا الذى كان نائبا عن عيسى فى إحياء الموتى ، وأرسله إلى الروم ، فأحيا الموتى هناك . وأيضا يكون أثر المعجزة باقيا بحسب إرادة النبى ، وأما الكرامة فموقوفة على الولى ، ويكون كتمانها واجبا عليه ، وإن أراد إظهارها وإشاعتها زالت وبطلت .

وربما تكون موقوفة على الدعاء والتضرع . وفى بعض الأوقات يعجز عن إظهارها .

وبما ذكرنا ظهر الفرق بين المعجزة والكرامة والمخرقة .

وجملة المعجزات راجعة إلى ثلاثة معان : إيجاد معدوم،أو إعدام موجود ، أو تحويل حال موجود .

إيجاد معدوم كخروج الناقة من الجبل بدعاء صالح عليه السلام .

وإعدام الموجود كإبراء الأكمه والأبرص بدعاء عيسى عليه السلام .

وتحويل حال الموجود كقلب عصى موسى ثعبانا .

وكل معجزة كانت لنبى من الأنبياء فكان مثلها لرسول الله ـ ﷺ ـ ، وكان إظهارها له ميسرا مسلما .

وأفضل معجزاته وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذى نزل عليه بأفصح اللغات ، وأصحها ، وأبلغها ، وأوضحها،وأثبتها ، وأمتنها ، بعد أن لم يكن كاتبا ولا شاعرا ولا قارئا ، ولا عارفا بطريق الكتابة ، واستدعاء من خطباء العرب العرباء وبلغائهم وفصحائهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فأعرضوا عن معارضته ، عجزا عن الإتيان بمثله . فتبين بذلك أن هذه المعجزة أعجزت العالمين عن آخرهم .

ثم اختلف الناس فى كيفية الإعجاز .

فقيل : لم يكونوا عاجزين عن ذلك طبعا ، إلا أن الله صرف همتهم ، وحبس لسانهم ، وسلبهم قدرتهم ، لطفا بنبيه ﷺ ، وفضلا منه عليه . وذلك قوله : ﴿ وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾[1] . وهو قول مردود غير مرضى .

وقال آخرون : لم يكن عجزهم عن الإتيان بمثل لفظه ، وإنما كان عن الإتيان بمثل معناه .

وقيل : لم يعجزوا عنهما ، وإنما عجزوا عن نظم مثل نظمه ، فإن أنواع كلامهم كانت منحصرة فى الأسجاع ، والأشعار ، والأراجيز ، فجاء نظم التنزيل على أسلوب بديع لايشبه شيئا من تلك الأنواع ، فقصرت أيدى بلاغاتهم عن بلوغ أدنى رتبة من مراتب نظمه .

ومذاهب أهل السنة أن القرآن معجز من جميع الوجوه : نظما ، ومعنى ، ولفظا ، لا يشبهه شىء من كلام المخلوقين أصلا ، مميز عن خطب الخطباء ، وشعر الشعراء ، باثنى عشر معنى لو لم يكن للقرآن غير معنى واحد من تلك المعانى لكان معجزا ، فكيف إذا اجتمعت فيه جميعا .

(١) من الآية ١١٣ من سورة النساء

ومجملها إيجاز اللفظ ، وتشبيه الشيء بالشيء ، واستعارة المعانى البديعة ، وتلاؤم الحروف ، والكلمات ، والفواصل ، والمقاطع فى الآيات ، وتجانس الصيغ والألفاظ ، وتعريف القصص والأحوال ، وتضمين الحكم والأسرار ، والمبالغة فى الأمر والنهى ، وحسن بيان المقاصد والأغراض ، وتمهيد المصالح والأسباب ، والإخبار عما كان ، وعما يكون .

أما إيجاز اللفظ مع تمام المعنى فهو أبلغ أقسام الإيجاز . ولهذا قيل : الإعجاز فى الإيجاز نهاية إعجاز . وهذا المعنى موجود فى القرآن إما على سبيل الحذف ، وإما على سبيل الاختصار .

فالحذف مثل قوله تعالى : ﴿ **واسأل القرية** ﴾[1] أى أهلها ﴿ **ولكن البر من آمن بالله** ﴾[2] أى بر من آمن . والاختصار ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾[3]

هذه أربع كلمات وستة عشر حرفا يتضمن ما ينيف على ألف ألف مسألة ، قد تصدى لبيانها علماء الشريعة ، وفقهاء الإسلام فى مصنفاتهم ، حتى بلغوا ألوفا من المجلدات ، ولم يبلغوا بعد كنهها وغايتها .

وأما تشبيه الشيء بالشيء فنحو قوله تعالى : ﴿ **أعمالهم كسراب بقيعة** ﴾[4] وقوله ﴿ **أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف** ﴾[5] وقوله ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق** ﴾[6] وكل مثل من هذه الأمثال ورج جواهر ، وبرج زواهر ، وكنز شرف ، وعالم علم . وحق حقائق ، وبحار درر دراية ، ومصابيح سالكى مسالك السنة . ولهذا يقال : الأمثال سرج القرآن .

وأما استعارة المعنى فكالتعبير عن المضى والقيام بالصدع ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾[7] . أى قم بالأمر ، وكالتعبير عن الهلاك ، والعقوبة بالإقبال والقدوم ﴿ **وقدمنا إلى ماعملوا من عمل** ﴾[8] وكالتعبير عن تكوين الليل والنهار بالسلخ ﴿ **وءاية لهم الليل نسلخ منه النهار** ﴾[9]

ولايخفى مافى أمثال هذه الاستعارات من كمال البلاغة ، ونهاية الفصاحة ، يحكى أن أعرابيا سمع ﴿ **فاصدع بما تؤمر** ﴾ فلم يتمالك أن وقع على الأرض وسجد ، فسئل عن سبب سجدته فقال : سجدت فى هذا المقام ، لفصاحة هذا الكلام .

وأما تلاؤم الكلمات والحروف ففيه جمال المقال ، وكمال الكلام ، نحو قوله تعالى : ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا** ﴾[10] ﴿ **وأسلمت مع سليمان لله** ﴾[11] ﴿ **ياأسفى على يوسف** ﴾[12] ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم** ﴾[13] ﴿ **فأدلى دلوه** ﴾[14]

---

(١) الآية ٨٢ من سورة يوسف
(٢) الآية ١٧٧ من سورة البقرة
(٣) الآية ١٧٩ من سورة البقرة
(٤) الآية ٣٩ من سورة النور
(٥) الآية ١٨ من سورة ابراهيم
(٦) الآية ١٩ من سورة البقرة
(٧) الآية ٩٤ من سورة الحجر
(٨) الآية ٢٣ من سورة الفرقان
(٩) الاية ٣٧ من سورة يس
(١٠) الآية ٢٤ من سورة البقرة
(١١) الآية ٤٤ من سورة النمل
(١٢) الآية ٨٤ من سورة يوسف
(١٣) الآية ٤٣ من سورة الروم
(١٤) الآية ١٩ من سورة يوسف

﴿ فروح وريحان ﴾[١] ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾[٢] ونظائرها . وأما فواصل الآيات ومقاطعها فعلى نوعين : أما على حرف كطه ، فإن فواصل آياتها على الألف ، وكاقتربت ، فإن مقاطع آياتها على الراء ، وإما على حرفين كالفاتحة ؛ فإنها بالميم والنون ، :

﴿ الرحمن الرحيم مالك يوم الدين ﴾ ونحو ﴿ ق ، والقرآن المجيد ﴾ فإنها بالباء والدال .

وأما تجانس الألفاظ فنوعان أيضا : إما من قبيل المزاوجة ، كقوله ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ﴾[٣] ﴿ إنما نحن مستهزءون الله يستهزىء بهم ﴾[٤] ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾[٥] ﴿ يكيدون كيدا وأكيد كيدا ﴾[٦] ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾[٧] ﴿ وجزاء سيئة سيئة ﴾[٨] ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[٩] وإما من قبيل المناسبة كقوله :

﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ﴾[١٠] ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[١١]

وأما تصريف القصص والأحوال فهو أن الله تعالى ذكر بحكمه البالغة أحوال القرون الماضية ، ووقائع الأنبياء ، وقصصهم ، بألفاظ مختلفة وعبارات متنوعة ، بحيث لو تأمل غواصو بحار المعانى ، وخواصو لجج الحجج ، وتفكروا فى حقائقها ، وتدبروا فى دقائقها ، لعلموا وتيقنوا (وتحققوا) وتبينوا أن مافيها من الألفاظ المكررة المعادات ، إنما هى لأسرار ولطائف لايرفع برقع حجابها من الخاصة إلا أوحدهم وأخصهم ، ولا يكشف ستر سرائرها من النحارير إلا واسطتهم وقصهم .

وأما تضمين الحكم والأسرار فقولنا فى الفاتحة :

إن فى (بسم) إلتجاء الخلق إلى ظل عنايته ، وكلمة الجلالة تضمن آثار القدرة والعظمة ، وكلمة الرحمن إشارة إلى أن مصالح الخلق فى هذه الدار منوط بكفايته . وكلمة الرحيم بيان لإحتياج العالمين إلى فيض من خزائن رحمته . والنصف الأول من الفاتحة يتضمن أحكام الربوبية . والنصف الثانى يقتضى أحكام العبودية . وخذ على هذا القياس . فإن كل كلمة من كلمات القرآن كنز معان ، وبحر حقائق ومن جوامع ايات القرآن قوله تعالى : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾[١٢] فإنها جامعة لجميع مكارم الأخلاق ، وقوله : ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[١٣] مستجمعة لجميع أسباب السياسة والإيالة . وقوله : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾[١٤] محتوية على حاجات الحيوانات

---

١ - الآية ٨٩ من سورة الواقعة
٢ - الآية ٥٤ من سورة الرحمن
٣ - الآية ١٩٤ من سورة البقرة
٤ - الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة البقرة
٥ - الآية ١٤٢ من سورة النساء
٦ - الآية ١٥ من سورة الطارق
٧ - الآية ٥٤ من سورة آل عمران
٨ - الآية ٤٠ من سورة الشورى
٩ - الآية ٦٠ من سورة الرحمن
١٠ - من الآية : ١٢٧ من سورة التوبة
١١ - من الآية : ٣٧ من سورة النور
١٢ - الآية ١٩٩ من سورة الأعراف
١٣ - الآية ٩٠ من سورة النحل
١٤ - الآية ٣١ من سورة النازعات

كافة وقوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ﴾[١] إلى آخر ثلاث آيات الجامعة لجميع الأوامر والنواهى ، ومصالح الدنيا والآخرة . وقوله : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ يشتمل على أمرين ، ونهيين وخبرين ، وبشارتين .

وأما المبالغة فى الأسماء والأفعال فالأسماء ﴿ فعال لما يريد ﴾[٢] ، ﴿ وإنى لغفار لمن تاب ﴾[٣] ، ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٤] ، ﴿ الملك القدوس ﴾[٥] .

﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾[٦] ، ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾[٧] ، ﴿ يوسف أيها الصديق ﴾[٨] . والأفعال : ﴿ أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾[٩] ، ﴿ ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾[١٠] ، ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمما ﴾[١١] ، ﴿ ورتلناه ترتيلا ﴾[١٢] ، ﴿ وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[١٣] ، ﴿ وكلا تبرنا تتبيرا ﴾[١٤] ، ﴿ قدروها تقديرا ﴾[١٥]

وأما حسن البيان فلتمام العبارة : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون ﴾[١٦] ، ولبيان فصل الخصومة والحكومة ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾[١٧] وللحجة للقيامة ﴿ يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[١٨] ، وللنصيحة والموعظة ﴿ يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾[١٩] ولثبات الإيمان والمعرفة : ﴿ كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾[٢٠] ، ولبيان النعت والصفة ﴿ بكل شىء عليم ﴾[٢١] ، ﴿ على كل شىء قدير ﴾[٢٢] ، ودليلا لثبوت الرسالة ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ﴾[٢٣] وإظهارا للعلم والحكمة ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾[٢٤] ، وللرحمة السابقة واللاحقة ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[٢٥] ، وبرهانا على الوحدانية والفردانية ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[٢٦] ، وتحقيقا للجنة والنار : ﴿ أعدت للمتقين ﴾[٢٧] ، ﴿ أعدت للكافرين ﴾[٢٨] ، وتحقيقا للرؤية واللقاء ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾[٢٩] وتمهيدا لمصالح الطهارات ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا ﴾[٣٠] وللصلاة ﴿ أقيموا الصلاة ﴾[٣١] وللزكاة والصيام والحج ﴿ وءاتوا الزكاة ﴾[٣٢] ، ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾[٣٣] ، ﴿ ولله

١ - الآية ١٥١ من سورة الأنعام
٢ - الآية ١٠٧ من سورة هود
٣ - الآية ٨٢ من سورة طه
٤ - الآية ٤٦ من سورة فصلت
٥ - الآية ٢٣ من سورة الحشر
٦ - الآية ١١١ طه
٧ - الآية ٣٤ النساء
٨ - الآية ٤٦ يوسف
٩ - الآية ٦١ الأحزاب
١٠ - الآية ٦ ابراهيم
١١ - الآية ١٦٨ الأعراف
١٢ - الآية ٣٢ الفرقان
١٣ - الآية ١٢ الاسراء
١٤ - الآية ٣٩ الفرقان
١٥ - الآية ١٦ الانسان
١٦ - الآية ٢٥ الدخان
١٧ - الآية ١٧ النبأ
١٨ - الآية ٧٩ يس
١٩ - الآية ٥٧ يونس
٢٠ - الآية ٢٢ المجادلة
٢١ - الآية ٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٨٢ البقرة ، ١٧٦ النساء ، ٩٧ المائدة
٢٢ - الآية ١٧ ، ١٩ ، ٤٠ المائدة ، ١٧ الأنعام
٢٣ - الآية ٤٥ الزخرف
٢٤ - الآية ١٧ النساء
٢٥ - الآية ٤٣ الأحزاب
٢٦ - الآية ٢٢ الأنبياء
٢٧ - الآية ١٣٣ آل عمران
٢٨ - الآية ١٣١ آل عمران
٢٩ - الآية ٢٢ من سورة القيامة
٣٠ - الآية ٤٨ من سورة الفرقان
٣١ - الآية ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ من سورة البقرة ، ٧٧ ، ١٠٣ من سورة النساء ٧٣ ، الأنعام ، ٢٩ الأعراف ، ٨٧ يونس ، ٧٨ الحج ، ٥٦ النور ، ١٣١ الروم
٣٢ - ٤٣ ، ٨٣ ، ١١٠ البقرة ، ٧٧ النساء ، ٧٨ الحج ، ٥٦ النور
٣٣ - الآية ١٨٣ البقرة

على الناس حج البيت ﴾[١] ، وللمعاملات ﴿ أحل الله البيع ﴾[٢] وللصيانة والعفة ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم ﴾[٣] ، وللطلاق والفراق بشرط العدة ﴿ فطلقوهن لعدتهن ﴾[٤] ولرعاية مصلحة النفوس ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾[٥] ولكفارة النذور والأيمان ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين ﴾[٦] .

وعلى هذا القياس جميع أحكام الشريعة تأيدت بالآيات القرآنية .

وأما الإخبار عما كان وعما يكون : أما المتقدم فكتخليق العرش ، والكرسى ، وحال الحملة والخزنة . وكيفية اللوح والقلم ، ووصف السدرة ، وطوبى،وسير الكواكب ، ودور الأفلاك ، وحكم النيرين ، والسعدين ، والنحسين ، وقرآن العلويين والسفليين ، ورفع السماء ، وتمهيد الأرض ، وتركيب الطبائع والعناصر ، وترتيب الأجسام والأجرام،وحكم المشرق والمغرب من الأفق الأعلى إلى ماتحت الثرى مما كان ، ومما هو كائن ، ومما سيكون : من أحوال آدم ، وعالمى الجن والإنس ، والملائكة ، والشياطين ، ففى القرآن من كل شىء إشارة وعبارة تليق به .

وأما المتأخر فكأخبار الموت ، والقبر ، والبعث ، والنشر ، والقيامة ، والحساب ، والعقاب ، والعرض ، والحوض-والسؤال ، ووزن الأعمال ، والميزان،والصراط،والجنة ، والنار،وأحوال المتنعمين ، والمعذبين فى الدركات ، وأحوال المقربين فى الدرجات ، ما بين مجمل ومفصل ، لا إجمالا يعتريه شك ولا تفصيلا يورث كلالة وملالة .

كل ذلك على هذا الوجه مذكور فى القرآن ، فلا غرو أن يترقى هذا الكلام عن إدراك الأفهام ، وتناول الأوهام ، ويعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضته ومقابلته .

وبلغنى عن الأئمة الراسخين ، والعلماء المحققين أن الذى اشتمل عليه القرآن من الدقائق ، والحقائق والمبانى ، والمعانى ، سبعون قسما .

وهى المحكم ، والمتشابه ، والناسخ ،والمنسوخ ، والحقيقة ، والمجاز ، والمنع ، والجواز ، والحذف، والزيادة ، والبيان، والكناية، والمقلوب ، والمستعار ، والإظهار ، والإضمار ، والإيجاز ، والاختصار، والاخبار ، والاستخبار ، والخاص ، والعام ، والحدود ، والأحكام ، والتحليل ، والتحريم ، والسبر، والتقسيم ، والأمر ، والنهى ، والجحد ، والنفى ، والقصص ، والأمثال ، والتفصيل ، والإجمال ، والزجر ، والتأديب ، والترغيب، والترهيب ، والوعد ، والوعيد ، والعطف والتوكيد، والتحكم ، والتهديد، والوصف ، والتشبيه ، والكشف ، والتنبيه ، والتقديم ، والتأخير ، والتأويل والتفسير ، والتكرار، والتقرير ، والتعريض، والتصريح ، والإشارة، والتلويح ، والتجنيس، والتقريب والتعجيب ، والسؤال، والجواب، والدعاء ، والطلب، والبشارة ، والنذارة، والفاتحة، والخاتمة ، ولكل قسم من ذلك نظائر وشواهد فى القرآن لا نطول بذكرها .

والغرض من ذكر هذا المجمل التنبيه على أن الكلمات القرآنية كل كلمة منها بحر لا قعر له ، ولا

---

١ - الآية ٨٧ آل عمران
٢ - الآية ٢٧٥ البقرة
٣ - الآية ٣٢ النور
٤ - الآية ١ الطلاق
٥ - الآية ١٧٩ البقرة
٦ - الآية ٨٩ المائدة

ساحل ، فأنى للمعارض الماحل (الماكر) يحكى أن جماعة من أهل اليمامة قدموا على الصديق الأكبر - رضى الله عنه - فسألهم عن مسيلمة وعما يدعيه أنه من الوحى النازل عليه ، فقرأوا عليه منه هذه السورة .

(ياضفدع نقى نقى إلى كم تنقين ، لا الماء تكدرين ، ولا الطين تفارقين ، ولا العذوبة تمنعين) .

فقال الصديق - رضى الله عنه - والله إن هذا الكلام لم يخرج من إل **(من قبل الله سبحانه وتعالى)** .

ويحكى عن بعض الأشقياء أنه سمع قوله تعالى : **﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾**(١) . فقال مستهزئا : انظر إلى (هذا الدعوى المعرى) عن المعنى . الذى يدعيه محمد يأتينا به المعول والفئوس . فانشقت فى الحال حدقتاه ، وتضمخت بدم عينيه خداه ، ونودى من أعلاه ، قل للمعول والفئوس ، يأتيان بماء عينيك .

وذكر أن بعض البلغاء قصد معارضة القرآن وكان ينظر فى سورة هود ، إلى أن وصل إلى قوله تعالى : **﴿ ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ﴾**(٢) الآية فانشقت مرارته من هيبة هذا الخطاب .

ومات من حينه . ودخل الوليد بن عقبة على النبى ﷺ وقال : يامحمد اقرأ على شيئا مما أنزل عليك فقرأ قوله تعالى : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾**(٣) الآية فقال الوليد : إن لهذا الكلام لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن لى فيه نظرا ، ولا يقول مثل هذا بشر .

وفى الآثار أنه مانزل من السماء آية إلا سمع من السماء صلصلة كسلسلة جرت فى زجاجة ، ولم يبق فى السماء ملك مقرب إلا خروا لله ساجدين . وأغمى على النبى ﷺ من ثقل برحاء الوحى . وكان إذا سرى عنه ارتعدت مفاصله فرقا ، وتصبب وجهه عرقا فهذا طرف مما ذكر فى إعجاز لفظ القرآن .

* قوله تعالى : **﴿ نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين * ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين * ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾**

يخبر تعالى فى هذه الآيات بأنه يتلو على نبيه ومصطفاه ﷺ خبر موسى وفرعون وذلك كقوله جل شأنه **﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾**(٤) وقوله : **﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾**(٥) وقوله تعالى : **﴿ لقوم يؤمنون ﴾** ؛ لأن أهل الإيمان هم أهل العبرة والإمتثال فهم المنتفعون بهذه الآيات .

قوله تعالى : **﴿ نتلو ﴾** بأسلوب المضارع هكذا يفيد ذكر الأمر على ماكان عليه كأنك تشاهد وكأنك حاضر ثم قال تعالى : **﴿ إن فرعون علا فى الأرض ﴾** أى تكبر وتجبر وطغى **﴿ وجعل أهلها**

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الملك
(٢) الآية ٤٤ من سورة هود
(٣) الآية ٩٠ من سورة النحل
(٤) الآية ٥٨ من سورة آل عمران
(٥) الآية ٣ من سورة يوسف

شيعا ﴾ أى أصنافا قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته وقوله تعالى :

﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ يعنى بنى إسرائيل وكانوا فى ذلك الوقت خيار أهل زمانهم ، هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم فى أخس الأعمال ، ويكدهم ليلا ونهارا فى أشغاله وأشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيى نساءهم إهانة لهم وإحتقارا وخوفا من أن يوجد منهم الغلام الذى كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكان القبط قد تلقوا هذا من بنى اسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ماجرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه فبشر ابراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك فرعون على يديه فكانت القبط تحدث بهذا عند فرعون ، فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بنى إسرائيل ، ولن ينفع حذر من قدر ؛ لأن أجل الله إذا جاء لايؤخر . فالله تعالى يقول : **﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾**[١] ويقول : **﴿ لكل أجل كتاب ﴾**[٢] ويقول : **﴿ ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾**[٣] وفى هذه الآية يعرض علينا الكتاب العظيم الصحيفة الجنائية لطاغية من طغاة الأرض، فقد أتى أفعالا جساما .

علا فى الأرض واستكبر حتى قال : أنا ربكم الأعلى . وقال : ياأيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى.ثم : التفرقة بين الرعية . يستضعف طائفة منهم.ثم : سفك الدماء بغير حساب وإزهاق الأرواح البريئة بغير ما جرم ولا ذنب يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم . ثم : يمركز تلك الجنايات وغيرها فى قوله : **﴿ إنه كان من المفسدين ﴾** وكلمة المفسدين تتسع لوجوه الفساد والشر وهكذا أطلقها القرآن الكريم لتذهب النفس فيها كل مذهب .

وأراد ربك ولا راد لما أراد وقضى وإذا قضى فلا نقض لقضائه ولا استئناف ، وحكم وإذا حكم فلا معقب لحكمه . بماذا حكم وماذا أراد . قال : **﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون ﴾** .

وقد نفذ وعد الله . قال سبحانه : **﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ماكان يصنع فرعون وقومه وماكانوا يعرشون ﴾**[٤] . **قال تعالى : ﴿ واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون . كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم.ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾**[٥] وقال جل شأنه : **﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون.وكنوز ومقام كريم.كذلك وأورثناها بنى إسرائيل ﴾**[٦]

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى . فما نفعه ذلك مع قدرة المالك العظيم الذى

---

١ - الآية ٨٢ من سورة يس
٢ - الآية ٣٨ من سورة الرعد
٣ - الآية ١١ من سورة المنافقون
٤ - الآية ١٣٧ من سورة الأعراف
٥ - الآية ٢٨ من سورة الدخان
٦ - الآيات ٥٧ إلى ٥٩ من سورة الشعراء

لايخالف أمره القدرى ولا يغلب،بل نفذ حكمه وجرى قلمه فى القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذى احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفا من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفى دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وتتفداه وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوى العزيز الشديد المحال الذى ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن .

عبدى : أنت تريد وأنا أريد ولا يكون إلا ماأريد . فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد . وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ولا يكون إلا ماأريد . سبحانك ربى يامن قلت وقولك الحق : ﴿ **إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود** ﴾[١] .

ويامن قلت:﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد* إرم ذات العماد* التى لم يخلق مثلها فى البلاد* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد* فصب عليهم ربك سوط عذاب* إن ربك لبالمرصاد** ﴾[٢] ويا من قلت : ﴿ **ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار** ﴾[٣]

إن الله تعالى لايعجل كعجلة أحدكم إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته اقرأوا إن شئتم ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[٤] وسبحانه عز من قائل : ﴿ **فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[٥] سبحانك ربى يامن تمهل ولا تهمل .

قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين * فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين * وقالت امرأة فرعون قرت عين لى ولك لاتقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لايشعرون** ﴾

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بنى إسرائيل خافت القبط أن يفنى بنى إسرائيل فيلون هم ماكانوا يلونه من الأعمال الشاقة فقالوا لفرعون،إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم وغلمانهم يقتلون ، ونساؤهم لايمكن أن تقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عاما وتركهم عاما ، فولد هارون عليه السلام فى السنة التى يتركون فيها الولدان ، وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها الولدان ، وكان لفرعون ناس موكلون بذلك وقوابل يدرن على النساء فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لايقبلها إلا نساء القبط فإن ولدت

---

١ ـ الآيات ١٢ إلى ١٨ من سورة البروج
٢ ـ الآيات ٦ إلى ١٤ من سورة الفجر
٣ ـ الآية ٤٢ من سورة ابراهيم
٤ ـ الآية ١٠٢ من سورة هود
٥ ـ الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القلم

المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاما دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا قبحهم الله تعالى .

فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكرا ضاقت به ذرعا وخافت عليه خوفا شديدا وأحبته حبا زائدا وكان موسى عليه السلام لايراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحب طبعا وشرعا ، قال الله تعالى : ﴿ **وألقيت عليك محبة منى** ﴾(1) فلما ضاقت به ذرعا ألهمت فى سرها وألقى فى خلدها ونفث فى روعها كما قال تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين** ﴾ وذلك أنه كانت دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتا ومهدت فيه مهدا وجعلت ترضع ولدها فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه ذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وسيرته فى البحر وربطته بحبل عندها فلما كان ذات يوم دخل من تخافه فذهبت فوضعته فى ذلك التابوت وأرسلته فى البحر وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجوارى فاحتملنه فذهبن به إلى امرأة فرعون ولايدرين مافيه وخشين أن يفتتن عليها فى فتحه دونها ، فلما كشف عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته فى قلبها حين نظرت إليه وذلك لسعادتها ومأأراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها ولهذا قال : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا** ﴾ الآية .

وفى قوله تعالى : ﴿ **وأوحينا إلى أم موسى** ﴾ خبران هما : أوحينا وخفت . وأمران هما : أرضعيه وألقيه . ونهيان هما : ولاتخافى ولا تحزنى . وبشارتان هما : إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين .

وسبحان من هذا كلامه ، قوله تعالى : ﴿ **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا** ﴾ .

قال محمد بن إسحق وغيره : اللام هنا لام العاقبة لا لام التعليل ؛ لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ولاشك أن ظاهر اللفظ يقتضى ماقالوه ولكن إذا نظر إلى معنى السياق فإنه تبقى اللام للتعليل ؛ لأن معناه أن الله تعالى قيضهم لالتقاطه ليجعله عدوا لهم وحزنا فيكون أبلغ فى إبطال حذرهم منه ، ولهذا قال تعالى :

﴿ **إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين** ﴾ . إن يد الله تعمل فى الخفاء فدعوها تعمل بطريقتها الخاصة فليس لأحد أن يستعجلها أو يقترح عليها . وقد روى عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ أنه كتب كتابا إلى قوم من القدرية فى تكذيبهم بكتاب الله وبأقداره النافذة فى علمه السابق ، وموسى فى علم الله السابق لفرعون عدو وحزن قال الله تعالى ﴿ **ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ماكانوا يحذرون** ﴾ وقلتم أنتم لو شاء فرعون أن يكون وليا وناصرا والله تعالى يقول : ﴿ **ليكون لهم عدوا وحزنا** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك** ﴾ الآية يعنى أن فرعون لما رآه هم بقتله خوفا من أن يكون من بنى اسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه وتذب دونه وتحببه إلى فرعون فقالت ﴿ **قرة عين لى ولك** ﴾ فقال فرعون أمالك فنعم وأمالى فلا ، فكان كذلك وهداها الله بسببه وأهلكه الله على يديه .

---

١ ـ الآية ٣٩ من سورة طه .

وقوله ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ وقد حصل لها ذلك وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه . وقوله : ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾ أى أرادت أن تتخذه ولدا وتتبناه وذلك أنه لم يكن لها ولد منه وقوله تعالى : ﴿ وهم لايشعرون ﴾ أى لايدرون ماأراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة والحجة القاطعة .

قوله تعالى : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لايشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **وأصبح فؤاد أم موسى فارغا** ﴾ أى من كل شأن من شئون الدنيا بل أصبح شغلها الشاغل وليدها الرضيع الذى ألقته بين معترك الأمواج وحسبك أن تعلم أن للأم قلبا أرق من النسيم وأنضر من صفحة الروض الوسيم سداه الرحمة ولحمته الرأفة .

قوله تعالى : ﴿ **إن كادت لتبدى به** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو عبيدة والضحاك والحسن البصرى وقتادة وغيرهم أى إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها قال الله تعالى : ﴿ **لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصيه** ﴾

أى أمرت ابنتها وكانت كبيرة تعى مايقال لها فقالت لها (قصيه) أى اتبعى أثره وخذى خبره وتطلبى شأنه من نواحى البلد فخرجت لذلك ﴿ **فبصرت به عن جنب** ﴾ .

قال ابن عباس : عن جانب ، وقال مجاهد : بصرت به عن جنب عن بعيد .

وقال قتادة : جعلت تنظر إليه وكأنها لاتريده وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون وأحبته امرأة الملك واستطلقته منه عرضوا عليها المراضع التى فى دارهم فلم يقبل منها ثديا وأبى أن يقبل شيئا من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته ، فلما رأته بأيديهم عرفته ولم تظهر ذلك ولم يشعروا بها . قال الله تعالى :

﴿ **وحرمنا عليه المراضع من قبل** ﴾ أى تحريما قدريا وذلك لكرامته عند الله وصيانته له أن يرتضع غير ثدى أمه ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سببا إلى رجوعه إلى أمه لترضعه وهى آمنة بعدما كانت خائفة فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه : ﴿ **قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون** ﴾ قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا فى أمرها وقالوا لها ومايدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعته فأرسلوها فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحا شديدا وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلا وهى لاتعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها .

ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت : إن لى بعلا وأولادا ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت،فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها

النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمنا فى عز وجاه ورزق دار . ولهذا جاء فى الحديث :

(مثل الذى يعمل ويحتسب فى صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها)[١] ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل يوم وليلة أو نحوه والله أعلم فسبحان من بيده الأمر ، ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن الذى يجعل لمن اتقاه بعد كل هم فرجا وبعد كل ضيق مخرجا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فرددناه إلى أمه كى تقر عينها** ﴾ أى به ﴿ **ولاتحزن** ﴾ أى عليه ﴿ **ولتعلم أن وعد الله حق** ﴾ أى فيما وعدها من رده إليها وجعله من المرسلين فحينئذ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين فعاملته فى تربيته ماينبغى له طبعا وشرعا . وقوله تعالى : ﴿ **ولكن أكثرهم لايعلمون** ﴾ أى حكم الله فى أفعاله وعواقبها المحمودة التى هو المحمود عليها فى الدنيا والآخرة فربما يقع الأمر كريها إلى النفوس وعاقبته محمودة فى نفس الأمر كما قال تعالى : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهم خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم** ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ **فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** ﴾[٣] .

قوله تعالى ﴿ **ولما بلغ أشده واستوى ءاتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين** ﴾ . وهكذا ذكر لنا القرآن الكريم مولده ، كما ذكر مولد إسحق ويحيى وعيسى ؛ لأن موسى ولد فى عصر رجل كان يقتل الأبناء ويستحيى النساء فنجاه الله منه بل رباه فى قصره وتلك إرادة الله ولا غالب لإرادته بل هو غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون كما نص على ولادة اسحق ؛ لأنه ولد من أبوين كبيرين قالت أمه لما بشرت بمولده ﴿ **ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾ كما نص القرآن على مولد يحيى ؛ لأنه أيضا ولد من أبوين قد بلغا من الكبر عتيا لذا قال أبوه زكريا : ﴿ **أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا * قال كذلك قال ربك هو على هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾[٤].

كما نص على مولد المسيح ؛ لأنه ولد من غير أب . حتى قالت أمه مريم لما بشرت بمولده : ﴿ **أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا** ﴾[٥] كما قاس القرآن ولادة المسيح بخلق آدم ؛ لأنهما خلقا بالكاف والنون فقال : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[٦] وكل المخلوقات خلقت بكن فيكون إلا أن النص هنا يفيد أن الله لايعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض فإذا كان

---

(١) الحديث بمعناه فى فيض القدير شرح الجامع الصغير رقم ٨١٤٣ بلفظ : (مثل الذين يغزون من أمتى ويأخذون الجعل يتقوون به على عدوهم مثل أم موسى : ترضع ولدها وتأخذ أجرها) من رواية أبى داود فى مراسيله ، والبيهقى فى السنن الكبرى عن جبير بن نفير مرسلا ورمز له بالصحة .

(٢) الآية ٢١٦ من سورة البقرة

(٣) الآية ١٩ من سورة النساء .

(٤) الآيتان ٨ ، ٩ من سورة مريم

(٥) الآيتان ٢٠ ، ٢١ من سورة مريم

(٦) الآية ٥٩ من سورة آل عمران

خلق آدم بلا أب ولا أم فأى غرابة فى خلق المسيح من أم بلا أب ؟ إنه لاغرابة وكان ربك قديرا ﴿الحق من ربك فلا تكن من الممترين . لكنه لما أراد أن يحدثنا عن مولد المصطفى ﷺ قال : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾[١] .

مشيرا إلى أن حياة الأب أو موته لايغير من مقادير الله شيئا بل قدرة الله ماضية وأمره نافذ لا محالة . فقد ولد يوسف تحوطه عناية أبيه ورعايته فلم يغن ذلك عنه شيئا وفرق بينهما بينما ولد محمد يتيما فكان اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين والقائد العظيم الذى علم المتعلمين وقاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ومعترك الأمواج إلى مرفأ الأمان وشاطىء الله رب العالمين : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾[٢] . ولما حدثتنا سورة القصص عن مولد موسى بلغت بنا الآيات إلى قوله جل شأنه : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى ﴾ أى قوى عوده واستوى على سوقه ﴿ آتيناه حكما وعلما ﴾ قال مجاهد : المقصود بالحكم : النبوة . وقد يراد بالحكم الحكمة وهى حكم صواب وعلم غزير وعمل موفق .

ومثل ذلك الجزاء الحسن يجزى الله المحسنين وأهل الفضل ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ومايذكر إلا أولو الألباب ﴾[٣] . ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٤] فسبحانه من إله منعم متفضل . ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ماتسرون وما تعلنون ﴾[٥] .

* أحداث فى حياة موسى *

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ

(١) الآية ٦ من سورة الضحى
(٢) الآية ١٦٤ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة
(٤) الآية ٧٤ من سورة آل عمران
(٥) الآيتان ١٨ ، ١٩ من سورة النحل

لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ
أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا
تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ
ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا
يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن
يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ
مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ
إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ ۖ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ
وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ
إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن
تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ
مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

معانى المفردات

المدينة: هى مصر

على حين غفلة : أى : وقت لايتوقعون دخولها فيه

من شيعته ؛ أى : ممن شايعه وتابعه فى الدين وهم بنو اسرائيل

من عدوه : أى : من مخالفيه فى الدين وهم القبط

فاستغاثه : أى : طلب غوثه ونصره

فوكزه : أى :فضربه بجمع يده أى بيده مجموع الأصابع

فقضى عليه : أى : فقتله وأنهى حياته

من عمل الشيطان : أى : من تزيينه
مبين : أى : ظاهر العداوة والاضلال
فاغفر لى : أى : فاستر ذنوبى
بما أنعمت على : أى : اقسم بنعمك على
ظهيرا : أى : معينا
يترقب : أى : ينتظر مايناله من أذى
استنصره : أى : طلب نصره ومعونته
يستصرخه : أى : يطلب الاستغاثة برفع الصوت
غوى : أى : ضال
يبطش : أى : يأخذ بصولة وسطوه
والجبار : هو الذى يفعل مايفعل دون نظر فى العواقب . من المصلحين : أى : ممن يبغون الإصلاح بين الناس ويدفعون التخاصم بالحسنى .
أقصى المدينة : أى : أبعدها مكانا .
يسعى : أى : يسرع
الملأ : أشراف الدولة ووجوهها .
يأتمرون بك : أى : يتشاورون فى أمرك
يترقب أى : يلتفت يمنة ويسرة
توجه إلى الشيء : صرف وجهه إليه
تلقاء مدين أى : جهتها
ورد : أى : وصل والمراد بماء مدين البئر التى كانوا يستقون منها
أمة : أى : جماعة
تذودان : أى : تطردان غنمهما عن الماء خوفا من السقاة الأقوياء .
ماخطبكما أى : ماشأنكما ولما لاتردان مع هؤلاء ؟ قال رؤبة ياعجبا ماخطبه وخطبى ؟

يصدر الرعاء : أى : يصرفون مواشيهم عن الماء والرعاء : واحدهم راع
تولى : أى : انصرف
والظل : ظل شجرة كانت هناك
والخير : يكون بمعنى الطعام كما فى الآية . وبمعنى المال كما قال : ﴿ إن ترك خيرا ﴾(١) .
وبمعنى القوة كما قال : ﴿ أهم خير أم قوم تبع ﴾(٢)
وبمعنى العبادة كقوله : ﴿ وأوحينا إليهم فعل الخيرات ﴾(٣) .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة البقرة
(٢) الآية ٣٧ من سورة الدخان
(٣) الآية ٧٣ من سورة الأنبياء

فقير : أى محتاج
الاستحياء : شدة الحياء
ليجزيك : أى : ليثيبك
القصص : الحديث المقصوص أى : المخبر به
أنكحك : أزوجك
ويقال أجرته أى : كنت له أجيرا كما تقول أبوته أى كنت له أبا
والحجج : واحدها حجة بكسر الحاء وهى السنة . أشق عليك أى : أدخل عليك مشقة
الأجلين : أى : الأطول أو الأقرب
فلا عدوان : أى :فلا حرج
وكيل : أى :شهيد

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ماأفاض به على موسى من نعمه فى الصغر من إنجائه من الهلاك بعد وضعه فى التابوت وإلقائه فى النيل وإنجائه من الذبح الذى عم أبناء بنى إسرائيل أردفه ذكر ماأنعم به عليه فى كبره من إيتائه العلم والحكمة ثم إرساله رسولا ونبيا إلى بنى إسرائيل والمصريين ثم ذكر ماحصل منه من قتل المصرى الذى اختصم مع اليهودى فوكزه بجمع يده وكان ذلك سببا فى موته ثم طلبه المغفرة من ربه على مافعل ثم تصميمه وعزمه ألا يناصر غويا مجرما ثم أعقب ذلك بذكر خصام آخر بين ذلك اليهودى وقبطى آخر وقد هم موسى بإغاثته أيضا فقال له المصرى : أتريد الإصلاح فى الأرض أم تريد أن تكون من الجبارين المفسدين.واعلم أنه بعد أن انتشر فى المدينة حديث موسى عليه السلام مع القبطى رفعه أعوان فرعون وبطانته إليه فأتمر هو ومستشاروه وأجمعوا أمرهم على قتله وكان من آل فرعون رجل مؤمن يكتم إيمانه فأسرع إليه يخبره الخبر وينصحه بالهرب فانتصح بنصحه وسافر إلى أرض مدين إلى الجانب الشرقى من البلاد المصرية وكان من أمره مع قوم شعيب ماقصه الله علينا فى هذه الآيات إلى أن رجع إلى مصر وقد أوتى النبوة وهو قافل فى طريقه .

التفسير

﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾

أى:دخل مصر آتيا من عين شمس فى وقت ليس من المعتاد الدخول فيه وهو وقت القائلة روى أنه دخلها مستخفيا من فرعون وقومه ؛ لأنه كان قد خالفهم فى دينهم وعاب ماكانوا عليه ثم أبان ماحدث منه حينئذ فقال :

(فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان)

أى فوجد فى مصر رجلين أحدهما من بنى إسرائيل وثانيهما من القبط وهو طباخ فرعون وكان قد

طلب منه أن يحمل حطبا للمطبخ فأبى فطلب الاسرائيلى من موسى غوثه ونصره على عدوه القبطى فضربه موسى بجمع يده فى صدره وحنكه فقتله فقال : إن هذا الذى حدث من القتل هو من تزيين الشيطان ووسوسته .

ثم أخبر عن حال الشيطان ليحذر منه فقال ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾

أى : أنه عدو فينبغى الحذر منه مضل فلا يقود إلى خير بين العداوة والضلال .

ثم أخبر بندم موسى على قتله نفسا لم يؤمر بقتلها بقوله ﴿ قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ﴾

أى:قال رب إنى ظلمت نفسى بقتل نفس لايحل قتلها فاغفر لى ذنبى واستره ولا تؤاخذنى بما فعلت . قال قتادة : عرف والله المخرج فاستغفر ا . هـ .ثم لم يزل ـ ﷺ ـ يعدد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غفر له حتى أنه يوم القيامة يقول عند طلب الناس الشفاعة منه إنى قتلت نفسا لم أومر بقتلها وإنما عده ذنبا وقال : ﴿ إنى ظلمت نفسى فاغفر لى ﴾ من أجل أنه لاينبغى لنبى أن يقتل حتى يؤمر بالقتل .

وروى مسلم عن سالم بن عبد الله أنه قال : ياأهل العراق : ماأسألكم واركبكم للكبيرة سمعت أبى عبد الله بن عمر يقول سمعت رسول الله ﷺ ـ يقول (إن الفتنة تجىء من هاهنا ـ وأومأ بيده نحو المشرق ـ من حيث يطلع قرنا الشيطان وأنتم بعضكم يضرب رقاب بعض وإنما قتل موسى الذى قتل من آل فرعون خطأ فقال الله عز وجل

﴿ وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ﴾[1]

ثم ذكر أنه أجاب دعاءه وغفر له فقال : فغفر له أى فعفا عن ذنبه ولم يعاقبه عليه وبعدئذ ذكر ماهو العلة لما قبله فقال : ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾

أى : أنه تعالى هو الستار لذنوب من أناب إليه المتفضل عليه بالعفو عنها الرحيم له أن يعاقبه بعد أن أخلص توبته ورجع عن حوبته

ثم ذكر أنه شكر ربه على هذه النعمة التى أنعم بها عليه فقال :

﴿ قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾

أى:قال رب اعصمنى بحق ماأنعمت على بعفوك عن قتل هذه النفس . لأمتنعن عن مثل هذا الفعل ولن أكون معينا للمشركين فأصحبهم وأكثر سوادهم وقد كان عليه السلام يصحب فرعون ويركب بركوبه كالولد مع الوالد ومن ثم كانوا يسمونه ابن فرعون وقد يكون المراد لأمتنعن عن مظاهرة من تؤول مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الاسرائيلى التى أدت إلى القتل الذى لم يؤمر به ونحو الآية قوله : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾[2]

ثم ذكر حاله بعد قتل القبطى فى المدينة فقال :

(١) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ج ٤ ص ٢٢٢٩ رقم ٤٧

(٢) الآية ١١٣ من سورة هود

﴿ فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوى مبين ﴾

أى : فصار موسى فى تلك المدينة التى قتل فيها القبطى خائفا من جنايته التى جناها بقتله النفس التى قتلها وصار يتحسس الأخبار ويسأل عما يتحدث به الناس من أمره وأمر القبطى وماهم بالغوه به وداخلته الهواجس خيفة أن يقتلوه به وإذا الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس على المصرى يطلب منه الغوث والعون على مصرى آخر فقال له موسى : إنك لذو غواية وضلال لاشك فيه وقد تبينت ذلك بقتالك أمس رجلا واليوم آخر ثم دنا منهما .

﴿ فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس ﴾ أى فلما أراد موسى أن يأخذ الفرعونى عدوهما بالشدة والعنف قال له منكرا: أتريد أن تفعل معى كما فعلت بالأمس وتقتلنى كما قتلت من قتلت وكان قد عرف ذلك من حديث المصريين عنه .

ثم زاد الإنكار توكيدا فقال :

﴿ إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ﴾

أى : ماتريد إلا أن تكون قاهرا عاليا فى الأرض تضرب وتقتل دون أن تنظر فى العواقب ولاتريد أن تكون ممن يعمل فيها بما فيه صلاح أهلها ودفع تخاصمهم بالحسنى

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين ﴾

أى : وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يخفى إيمانه عن فرعون وآله لأسباب هو بها عليم يسرع للحاق بموسى إشفاقا وخوفا عليه أن يصيبه مكروه من فرعون وآله وقال : ياموسى إن الملك وبطانته وأشراف دولته يدبرون لك المكايد وينصبون لك الحبائل يريدون أن يقتلوك فالبدار البدار والهرب الهرب قبل أن يقبضوا عليك وينفذوا مادبروه ويقتلوك فاخرج من المدينة مسرعا وإنى لك لناصح أمين فانتصح بنصحه وتقبل قوله **﴿ فخرج منها خائفا يترقب ﴾** أى : فخرج من مدينة فرعون خائفا يترقب لحوق الطالبين ويتلفت يمينا ويسارا وينظر أيتبعه أحد ؟

ثم لجأ إلى الله ـ تعالى ـ علما منه أن لاملجأ إلا إليه **﴿ قال رب نجنى من القوم الظالمين ﴾**

أى : قال رب نجنى من هؤلاء الذين من دأبهم الظلم والعسف ووضع الأمور فى غير مواضعها فيقتلون من لايستحق القتل ومن لايجرم إلى أحد فاستجاب الله دعاءه ووفقه إلى سلوك الطريق الأعظم نحو مدين .

روى أن فرعون لما بعث فى طلبه قال :

﴿ اركبوا بنيات الطريق ﴾ فانبثوا فيما بين الطريق الأعظم يمينا وشمالا ففاتهم ونجا من بغيهم ثم أخبر عما ناجى به موسى ربه وهو سائر إلى مدين فقال :

﴿ ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ﴾

أى : ولما اتجه نحو مدين ماضيا إليها شاخصا عن مدينة فرعون قال: رب اهدنى إلى سواء السبيل

وارشدنى إلى الطريق القويم ونجنى من هؤلاء الظلمه.وقد قال هذا توكلا على الله وثقة بحسن توفيقه وقد كان لايعرف الطريق فعن له ثلاث طرائق فسار فى الوسطى وأخذ طالبوه فى الآخرين وقالوا:المريب لايسلك أعظم الطرق بل يأخذ بنياتها (أضيقها غير المشهور منها) وقد روى أنه بقى ثمانى ليال وهو حاف لايطعم إلا ورق الشجر إذ ليس معه زاد ولا دابة يركبها ثم ذكر سبحانه ماجرى له حين وصوله إلى مدين من الأحداث فقال :

﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ماخطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ﴾

أى : ولما وصل إلى مدين ورد ماءها وقد كان لها بئر يرده رعاء الشاء فوجد جماعة منهم يسقون نعمهم ومواشيهم ووجد فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذوها فلما رآهما موسى كذلك رق لهما ورحمهما قال : **ما خبركما** ثم لاتردان الماء مع هؤلاء القوم ؟

فأجابتاه : قالتا لانسقى غنمنا إلا إذا فرغ هؤلاء من السقى وأبونا شيخ كبير لايستطيع السقى بنفسه فنحن نلجأ إلى ماترى نشرب مواشينا فضل الماء .

ثم ذكر مافعله بعد أن سمع هذا القصص فقال :

﴿ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير ﴾ .

أى : فسقى لهما غنمهما ثم انصرف إلى ظل شجرة ليقيل ويستريح وناجى ربه قائلا : إنى لمحتاج إلى شيء تنزله إلى من خزائن جودك وكرمك .

روى عن ابن عباس أنه قال :

لقد قال موسى ذلك وهو أكرم خلق الله عليه ولقد افتقر إلى شق ثمرة ولصق بطنه بظهره من شدة الجوع .

فجاء الفرج بعد الشدة وأجاب الله طلبه

فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت: (**إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا**) .

أى : فجاءته إحدى المرأتين تمشى وهى حيية قد سترت وجهها بثوبها قائلة : إن أبى يدعوك ليكافئك على ماصنعت من الإحسان وأسديت إلينا من المعروف بسقى غنمنا .

ولما قدمت هذه المرأة إلى موسى أجابها تبركا بالشيخ لا طمعا فى الأجر .

قوله تعالى : **﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين ﴾** أى:فلما جاء موسى هذا الشيخ وحدثه عن فرعون وآله فى كفرهم وطغيانهم وإذلالهم للعباد وتآمرهم على قتله وهربه منهم بعد الذى علمه ـ قال له : لاتخف من حولهم وطولهم ، إنك قد نجوت من سطوة هؤلاء الظلمة ، إذ لاسلطان لهم علينا ، ولسنا فى دائرة ملكهم .

ولما آمنه وطمأنه على نفسه دار الحديث وكان ذا شجون .

(**قالت إحداهما ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين**)

أى : قالت : إحدى ابنتى هذا الرجل قيل : هى التى ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت

لأبيها (ياأبت استأجره) أى: لرعيه هذه الغنم .

قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وقتادة وغير واحد لما قالت ﴿ **إن خير من استأجرت القوى الأمين** ﴾ قال لها أبوها وماعلمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التى لايطيق حملها إلا عشرة رجال وإنى لما جئت معه تقدمت أمامه فقال لى كونى من ورائى فإذا اختلف علىَّ الطريق فاحذفى بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدى إليه .

﴿ **قال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين** ﴾ أى : طلب إليه هذا الرجل الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين وفى هذا دليل على مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل إن وجده صالحا كما عرض عمر ابنته حفصة على أبى بكر . وقوله : ﴿ **على أن تأجرنى ثمانى حجج فإن أتممت عشرا فمن عندك** ﴾ أى : على أن ترعى غنمى ثمانى سنين فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك وإلا ففى الثمانى كفاية ﴿ **وماأريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين** ﴾ أى : لاأشاقك ولاأؤاذيك ولا أماريك . وقد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم فى صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية .

قال له موسى عليه السلام ﴿ **قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على مانقول وكيل** ﴾

قال موسى الأمر على ماقلت من أنك استأجرتنى على ثمان سنين فإن أتممت عشرا فمن عندى فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت من العهد وخرجت من الشرط ولهذا قال ﴿ **أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على** ﴾ أى: فلا حرج على مع أن الكامل وإن كان مباحا لكنه فاضل من جهة أخرى بدليل من خارج كما قال تعالى : ﴿ **فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه** ﴾[(١)] هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما وقال البخارى بسنده عن سعيد ابن جبير قال :

سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ؟ فقلت لاأدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت على ابن عباس رضى الله عنه فسألته فقال قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذ قال فعل .

وقد روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال:(سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال أتمهما وأكملهما)[(٢)] .

موسى فى طريقه لتبليغ الرسالة

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ

---

١ - الآية ٢٠٣ من سورة البقرة

٢ - الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير رقم ٤٦٠٩ بلفظه ورواية أبى يعلى والحاكم فى المستدرك عن ابن عباس ، ورمز له بالصحة .

لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ
ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ
كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ
فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن
رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا
فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا
فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا
بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ
أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ
فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسْتَكْبَرَ
هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ
وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ
﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون . . إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون ، قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم. وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . . قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ .

وفى سورة يونس جاءت صورة الموقف على هذا الوجه : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ، وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ هذه معارض أربعة ، وقد عرض فيها هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، عرضا مبسوطا، اتسع لأهم الأحداث التى جرت فيه . والتقط أدق الخلجات النفسية التى وقعت فى مجريات الصراع بين شخصياته .

كما قلنا من قبل فيما عرضنا من الصور القرآنية المتعددة للحدث الواحد نقول هنا إن هذه الصورة إذا ضم بعضها إلى بعض قامت فيها صورة واحدة ، هى صورة مكبرة لكل واحدة من هذه الصور على حدة . . فإنك إذ تنظر فى الصورة الكبيرة ثم تنظر فى أى من الصور الصغيرة تجد الملامح هى الملامح ، والصورة هى الصورة ، وإن حملت الصورة الكبيرة ألوانا أكثر . وشغلت مساحة أكبر .

وقد قلنا : إنه يمكن أن يرى ذلك من خلال فهم هذه الصور بعضها إلى بعض ، وتلاوتها فى معرض واحد ، حيث يمضى القارىء فى القراءة أو المرتل فى الترتيل ، دون أن يستشعر أنه يعيد ما قرأ ، أو يكرر مارتل . ونريد هنا أن نصنع صنيعا آخر مع هذه الآيات يتضح لنا منه ـ بصورة أكثر وضوحا ـ خلو القصص القرآنى من التكرار بالمعنى الذى فهم عليه ، والذى كان فى نظر الأغبياء

والادعياء تهمة يرمى بها القرآن فى أعز ما يعتز به من فصاحة وبيان.

ونتظر فى الواقعة ذاتها فنجد أنها تشتمل على العناصر الآتية :ـ

١ ـ موسى ، ومعه أخوه هارون ، وما لقيا به فرعون من آيات ومقولات.

٢ ـ فرعون ، والملأ الذين معه من قومه ، وسحرته ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحديات.

٣ ـ ما كان بين موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم من عجز وتسليم ، وإيمان.

٤ ـ ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره ، وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وموقفهم من هذا الوعيد.

وصنيعنا هنا هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر فى هذه الصور الأربع التى عرض فيها القرآن الواقعة كلها.

(أ) موسى وهارون فى مواجهة فرعون ؛

موسى وهارون : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾[1] . (من سورة طه)

موسى وهارون : ﴿ إنا رسول رب العالمين.أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾[2] . (من سورة الشعراء).

موسى : ﴿ يافرعون إنى رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾[3] .

أما الصورة الرابعة ـ والتى جاءت بها سورة يونس فليس فيها ما يحدث عن الموقف بين موسى وفرعون.

واقرأ هذه المقولات الثلاث ، واحدة بعد أخرى ، تجد أنها تصور الموقف أدق وأصدق وأحكم تصوير ، وأنها قد جاوزت به متلبسا بكل ما كان يجرى فى النفوس من مشاعر وأحاسيس.

فهذه المقولات الثلاث ليست قولا واحدا جاء به القرآن فى ثلاثة معارض من القول .. وإنما هى أقوال ثلاثة فعلا كل قول منها مستقل بنفسه ، قائم بذاته.

ولا نستطيع الجزم بالترتيب الذى بين هذه الأقوال ، وأيها يسبق صاحبه أو يتأخر عنه .. ومع هذا فإن الترتيب الذى تجتمع عليه فى كل موضع ممكن ، هو ترتيب يتسع له الموقف ويتطلبه.

ويكفى أن ننظر إليها فى وضع واحد من هذه الأوضاع ، وليكن وضعها هذا الذى جاء هنا من غير قصد ولا تدبير.

١ ـ فهذا موسى ومعه أخوه هارون .. يدخلان على فرعون معا ، ويتحدثان بصوت واحد معا .. إذا كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون قبل ان يلقاه ، فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه هارون. فهو أفصح منه لسانا ، فيقولان : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾[4] . (سورة طه).

(١) سورة طه الآية ١٨
(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧
(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥
(٤) سورة طه الآية ١٨

وهى قوله لا تلقى فرعون لقاء مواجها ، إنها حكم عام . ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾

٢ - ثم ها هما ذات قد أخذت تزايلهما رهبة الموقف ، وروعة اللقاء . فيلقيان فرعون لقاء مباشرا ، ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم . فيقولان معا : ﴿ إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾[1] . (سورة الشعراء) ونستشعر من هذا أن موسى لا يزال يجد الرهبة والخوف من فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ولا يزال هارون معه يأخذ مكانه إلى جانبه ، ليشد أزره ، ويثبت جنانه .

٣ - ثم ها هو ذا موسى بعد أن تمرس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل الصدمات الأولى لها .

- ها هو ذا يلقى فرعون وحده ، ويسمعه بلسانه مضمون رسالته . فى قوة وصراحة .

﴿ يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾[2] .

ياللإعجاز الذى تذل لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له الأعناق ، وتعنو الوجوه !

يافرعون !

هكذا يقولها موسى فى وجه فرعون !

أتراه كان يفعل ذلك لأول لقاء ولأول مواجهة ؟ وكيف وهو الذى حسب لهذا الموقف ألف حساب وحساب قبل أن يقدم عليه ؟

إن هذا لا يكون ، إلا بعد ممارسة الموقف ، ومعاودة التجربة !

وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : يافرعون ! ولا أن يقول بعدها : إنى ؟ هذا الضمير المحقق لشخصيته والمؤكد لذاتيته : إنى . . لا أحد غيرى (رسول من رب العالمين) ولحرف الجر (من) هنا ما له من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التى تحملها ، والجهة التى جاءت منها ، ففيها ما ليس فى قوله لو قال : ﴿ رسول رب العالمين ﴾ من الشحنة القوية المليئة بالاعتزاز بهذا السلطان الذى يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين . . ﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ وهذا اعتزاز بعد اعتزاز ، لشخصه الذى يحمل رسالة السماء . . ومن هذا الأفق العالى يتنزل أمر موسى هادرا مدويا فى وجه فرعون : ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ ! ! ولك أن تضع هذا الأمر الصادع إلى هذا الرجاء الذى أسمعاه - موسى وهارون - لفرعون من قبل ﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ . وسيتضح لك ما بين الحالين من مفارقات وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع ، مما لم يعهد سماعه من أحد من قبل » .

ننظر ونرى !

(ب) فرعون وقومه وسحرته :

وفرعون فى هذا الموقف يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دهشا عجبا لهذا التطاول عليه ، والخروج

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

على المألوف فى حضرته . . ثم إنه مع هذا هو فرعون ! ! يبسط سلطانه على أهل المجلس ، يلقى نظرة هنا ونظرة هناك ، ويرمى بكلمة هنا وكلمة هناك . . إنه هنا المحور الذى تدور به ومن حوله الأحداث وطبيعى ألا يأخذ إتجاها واحدا ، لتعدد الأطراف المشتركة فيه . . فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملأ . .

ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التى عرضها القرآن لهذا الموقف ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون ، وإنما هى (لقطات) مركزة مجمعة لأكثر من لقاء ، إذ من غير الطبيعى أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، وينتهى إلى هذا التحدى الذى حددا موعده ، والذى يلتقى فيه موسى بالسحرة . . ولكن المقدر فى هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما إلى أن ييأس كل منهما من الوصول إلى وفاق مع خصمه فلا يكون بعد هذا إلا التحدى والصراع .

ومع هذا ، فإن اقتدار القرآن ، وإعجازه فى تصوير مشاهد هذا الموقف فى أزمنة مختلفة ، وأحوال مختلفة أيضا قد جعل منها مشهدا واحدا ، تمسك به تلك المشاعر التى كان يعيش بها أصحابها فى هذا الموقف ، دون أن يحدث الانفصال الزمانى أو المكانى فيها خلخلة ، أو ازدواجا . ولهذا ، فإننا سنعرض هذه المشاهد على أنها صورة واحدة ، فى موقف واحد ، وسنرى أنها تقبل مثل هذا العرض وتتلاقى فيه وجوهها ، دون ان تتخالف ، أو تتصادم ، أو تتدافع . ولقد رأينا فى الموقف السابق أن فرعون قد أخذ بالمباغتة التى طلع بها موسى وهارون عليه ، وأنه حين اسمعاه هذا القول الذى قالا . له ، فى قوة وجرأة . وجم ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فاتجه إلى موسى بهذه الكلمات الساخرة الهازئة :

﴿ ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ ؟ (سورة الشعراء) .

وقد قدر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى فى الصميم وإنها ستخفض رأسه فى حضرته . . إذ أنه سيذكر بهذه الكلمات طفولته وضياعه ، ووقوعه ليد فرعون ، ثم إنه سيرى صورة مخيفة لفعلته التى فعلها ، وهى قتل المصرى . . ١

ولكن موسى يقف لفرعون ويجيبه قائلا :

﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ؟ ﴾ (سورة الشعراء) .

وهنا يلقاه فرعون سائلا :

﴿ من ربكما ياموسى ؟ ﴾ (سورة طه)

وانظر إلى كيد فرعون فى هذا السؤال الماكر . . إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما فى لسان موسى من حبسة . . وذلك ليحرجه ، أو يفحمه أمام الجميع . ويجيب موسى وقد أطلق الله حبسة لسانه :

﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾[١] . (سورة طه) .

ويعاجله فرعون بسؤال آخر :

﴿ فما بال القرون الأولى ﴾[٢] . (سورة طه)

ويرد موسى هذا الرد المفحم :

﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٣] . (سورة طه)

وانظر أيضا كيف عدل موسى عن الجواب عن سؤال فرعون ، والدخول معه فى هذه الجهة التى يكثر فيها اللجاج ، ولا يستطيع أحد المتخاصمين أن ينال موقفا حاسما : ما بال القرون الأولى ؟ طوفان يغرق فيه من يتصدى للجواب عنه . . ثم خلص من هذا إلى العرض الواضح المحسوس الذى لا ينكر لقدرة الله ، ولهذه القدرة من آثار تملأ وجوه الحياة .

ويضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة . . فيجىء إلى موسى من طريق آخر فيسأله :

﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويكون جواب موسى حاضرا :

﴿ رب السموات والأض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾[٤]. (سورة الشعراء)

ويتلفت فرعون حواليه . عجبا ، دهشا ، مستنكرا . . يقول لأهل مجلسه : ﴿ ألا تستمعون ﴾[٥]. سورة الشعراء

وإلى هذه الجبهة الجديدة التى فتحها فرعون يتجه موسى قائلا : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ! (سورة الشعراء) وتثير هذه الجرأة حنق فرعون . . إذ كيف يجرؤ موسى على تخطى فرعون ومخاطبة غيره فى حضرته . . ثم هو يخشى من جهة أخرى أن يكون لقول موسى أثر فى هؤلاء الذين وجه إليهم حديثه فيقول لهم : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾[٦]. (سورة الشعراء)

ويرد موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ما قال من قبل . . فيقول : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾[٧]. (سورة الشعراء)

---

(١) سورة طه الآية ٥٠
(٢) سورة طه الآية ٥١
(٣) سورة طه الآية ٥٢
(٤) سورة الشعراء الآية ٢٤
(٥) سورة الشعراء الآية ٢٦
(٦) سورة الشعراء الآية ٢٧
(٧) سورة الشعراء الآية : ٢٨

وفى قولة موسى هذه تحريض قوى لهؤلاء الأتباع من قوم فرعون أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بعقولهم ، فلا يكون فرعون هو الذى يفكر لهم ، ويقرر مصيرهم .. ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ .

ويجن جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم ـ قوم فرعون ـ من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فيلقاه بهذا الوعيد :

﴿ لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾(١) . (سورة الشعراء)

ويلقى موسى هذا الوعيد بقوله : ﴿ أولو جئتك بشىء مبين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويجيبه فرعون :

﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ (سورة الشعراء)

ويقبل موسى بما معه :

﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ (سورة الشعراء)

ويحسب فرعون أن هذا من عمل موسى ، وسحر من سحره وأنه ليس بين يديه آية ، تشهد له أنه رسول من عند الله ، فيقول له :

﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾(٢) . (سورة الأعراف)

وليس بين يدى موسى آية غير تلك الآية التى قدمها من قبل .. فيعرضها مرة اخرى .

﴿ فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾(٣) . (سورة الأعراف)

إنه نفس المنظر الذى عرضه موسى من قبل ، والذى ذكر فى سورة (الشعراء) .. لم تتغير لمحة من لمحاته .. إنه كلمة من كلمات الله . و ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ ..

وهنا يبدى فرعون رأيه فى هذا العمل الذى قدمه موسى على أنه الآية التى بين يدى دعواه ، ويكثر لغط القوم حول هذه الآية ، وتكثر أقوالهم فيها ، ثم يتكشف هذا اللغط ، وتنتهى هذه الأقوال إلا قول واحد فيها ، هو ما قاله فرعون : ﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ﴾(٤) ؟ . (سورة الشعراء)

وتعمل هذه القولة عملها فى حاشيته ، ويلقى بها كل واحد إلى من بجواره ، وإذا بها تتردد على أفواه الجميع .. ويضبطها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ﴾(٥) . (سورة الاعراف) .

ويمسك فرعون مرة اخرى بزمام الموقف ، بعد ان أشاع فى قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٩
(٢) سورة الاعراف الآية : ١٠٦
(٣) سورة الاعراف الآية : ١٠٧ ، ١٠٨
(٤) سورة الشعراء الآية : ٣٤ ، ٣٥
(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠

عليم .. ثم يجسد هذه المشاعر فى تلك الكلمات المتحدية المهددة .. يواجه بها موسى :

﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ﴾(١) .

وانظر فى هذا الاعجاز الذى تتقطع دونه الأعناق ! لقد وزع القرآن هذا المشهد فى معرضين ، من صور العرض لهذه القصة ، فجعل قولة فرعون فى سورة ، وجعل قولة الملأ فى سورة أخرى ، حتى لا تتراكم الصور ، وتتراكب ، وحتى لا يقع هذا التكرار على أية صورة ، لفظية أو معنوية . وانظر مرة أخرى فى هذه المقولة : ﴿ فماذا تأمرون ﴾؟ لقد جاءت على لسان فرعون ، كما جاءت على لسان الملأ من حوله .. إنها الكلمة التى كانت تدور على الألسنة فى مثل هذا الموقف كل يسأل صاحبه : (ما العمل ؟) .. ثم يجىء الجواب ممسكا بالاتجاه الغالب ، الذى كاد يستقر عليه الرأى ، وتجتمع عليه الأكثرية ..

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم ﴾(٢) .

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾(٣)

وإذا كان الرأى قد غلب فى إرجاء موسى وأخيه . وفى البحث عن السحرة فى كل مكان ، فإن الرأى كاد يتوازن بين دعوة كل ساحر أو دعوة من مهر فى السحر من السحرة .. فقال فريق بدعوة كل ساحر ، وقال فريق آخر بدعوة كل سحار .. ولهذا أعيد الجواب ، فكان مقترنا بكلمة « ساحر » مرة ، بينما اقترن بكلمة « سحار » فى المرة الاخرى .

هذا مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل ، من تلك الفواصل الزمانية والمكانية بين الآيتين الكريمتين ، ومع ملاحظة أن كلا منهما فى موقف ، وإن كنا قد جمعناهما فى موقف واحد .

(ج) ما كان بين موسى والسحرة :

هذا موقف كان له صدى بعيد فى المجتمع المصرى يومذاك ، فقد وقف موسى وحده ليس معه إلا عصاه ، وإلا هارون أخوه يتحدى فرعون بكل جبروته وسلطانه ، ويلقاه بكل ما أعد له من سحرة وسحر !

وقد اجتمع الناس ، وحشدوا حشدا لهذا الموقف فى اليوم والمكان الموعودين : ﴿ يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ . وكان موسى هو الذى اقترح هذا اليوم ، وهو يوم العيد حيث يفرغ الناس له ، ويخلون أنفسهم من كل عمل إلا ما كان لمرح ولهو ، وليس كهذا المشهد داعيا يدعو الناس إليه ، ويحملهم على أن يتخلوا من كل عمل جاد وهازل من أجله .. و (الضحى) الذى كان موعد اللقاء فى هذا اليوم هو الساعة التى تبلغ فيها حركة الناس ونشاطهم غايتهما ..

---

(١) سورة طه الآية : ٧٠

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢

وإذن فهو موقف مشهور ومشهود ، وما يتكشف عنه هذا الموقف هو مما يسفر به وجه الحق ، وتتجلى فيه آياته ، فى صراعه مع الباطل . . وهو بهذا صورة كريمة من الصور التى ينبغى أن تكون متمثلة دائما فى خاطر أصحاب الدعوات ، ليكون لهم منه عبرة وعظة تخف بها أعباؤهم ، وتشتد عزائمهم فى السير إلى غاياتهم .

ومن أجل هذا فقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف فى مواضع كثيرة منه ، وعرضها عرضا يكشف عن جوانبه ، ويصور أدق خفاياه ، ويلتقط ما تكن الضمائر ، وما تخفى الصدور ، وقبل أن يرفع الستار عن هذا المشهد ، يعلن القرآن عما اتخذ فرعون لهذا الموقف من أهبة ، وما بذل من جهد ، وما حشد من قوى . .

فنحن نعرف فى الموقف الذى كان بين موسى وفرعون أن الرأى قد استقر بين فرعون وملئه على أن يبعث جنده وأعوانه فى المدائن كلها ليجلبوا منها كل من عنده علم من السحر .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ﴾(١) .

﴿ وقالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾(٢) .

ثم انفض المجلس على هذا ، وبدأ فرعون ينفذ خطته ، وها هو ذا القرآن يرصد خطواته ، ويكشف المستور من أمره **﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾**(٣) . (سورة طه)

ثم نراه وقد أصدر أوامره إلى من يراه صالحا لتنفيذ هذه المهمة : **﴿ وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ﴾**(٤) . ثم نرى المحصول الذى اجتمع من هذا التدبير . . فها هم أولاء السحرة قد جىء بهم من كل مكان ، وها هى ذى أبواق الدعاية تنفخ فى كل جهة ، تدعو الناس إلى أن يكونوا من وراء السحرة ، مؤيدين وناصرين .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾(٥) .

لقد بلغ الأمر غايته وأعد له كل شىء !

وها هم أولاء السحرة يجتمعون بين يدى فرعون ، قبل أن يدخلوا المعركة ، ليتلقوا توجيهاته ، وليستعرضوا بين يديه وجوههم ، وما يحملون من معدات القتال . . !

ونلمح من آيات الكتاب الكريم أنه قد كان هناك استعراض أو استعراضات ، قبل الاستعراض الأخير الذى تم فى يومه اللقاء ، والتحم الصراع .

﴿ فلما جاء السحرة . . قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾(٦) .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧
(٢) سورة الاعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢
(٣) سورة طه الآية : ٦٠
(٤) سورة يونس الآية : ٧٩
(٥) سورة الشعراء الآيات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠
(٦) سورة الشعراء الآية : ٤١

فهذا الاسترخاء والمط الذى توحى به كلمة : ﴿ فلما جاء السحرة فرعون ﴾ يوحى بأن السحرة كانوا يتوافدون عليه حالا بعد حال ، وأنه كان يلقاهم أفرادا وجماعات ، ليعرف أولا فأولا ماذا يجتمع له من هذه القوى . . ثم يشعرنا هذا الاستفهام المتخاذل المتخافت فى قولهم : ﴿ **أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين** ﴾ أن السحرة لا يزالون مأخوذين برهبة الموقف بين يدى فرعون ، وأنهم يدخلون عليه بهذا الطلب مدخلا متلطفا مستأذنا . . أئن لنا لأجرا ؟ . . إن كنا نحن الغالبين ؟

ويلقى فرعون هذه المنى بوعد غير منجز ، وعد موقوت بالظرف المناسب له ، مقدور بالحالة التى يقع عليها . . ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

وانظر إلى الصورة من جانبيها . . استفهاما ، وجوابا عنه : **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم ، وإنكم إذاً لمن المقربين ؟ ثم انظر إلى الصورة وقد اكتملت ألوانا وظلالا .**

﴿ **وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾[1] .

إنك تجد آيات بينات من إعجاز تلك المعجزة الكبرى التى حملها محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين يديه ، وعلى لسانه وفى قلبه ، هدى ورحمة للعالمين . .

١ ـ فلقد خلت الصورة الثانية من كلمة (فلما) تلك الكلمة التى تشعر بالاسترخاء والمط ـ كما قلنا ـ والتى تدل على ان السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالا بعد حال . .

٢ ـ أخذ الفعل (جاء) مفعوله وهو (فرعون) فى الصورة الثانية ، على حين لم يذكر له مفعول فى الصورة الاولى . .

أ ـ ولما جاء السحرة . . قالوا لفرعون . .

ب ـ وجاء السحرة فرعون . . قالوا . .

وهذا يقوى ما قلناه من قبل من أن الصورة الاولى كانت لقاء غير مباشر مع فرعون ، إذ كان يلقاهم أعوانه وحاشيته ، أو كان لقاء مفرقا لم يحتشد له السحرة ، بينما كانت الصورة الثانية كاشفة عن اللقاء الاخير فى مواجهة فرعون ، وفى تلقى توجيهه الاخير لما أعدهم له .

٣ ـ فى الصورة الاولى استفهام من السحرة عن الجزاء الذى يجزيهم فرعون به ، إذا هم انتصروا فى هذا الموقف ـ أشبه بالاستجداء ، يقابله وعد مسترخ متعال ، تفوح منه رائحة التصدق من فرعون ! ، بينما يتحول هذا الاستجداء فى اللحظة الاخيرة وقد أزفت الآزفة ، وواجه فرعون الامتحان . . تحول هذا الاستجداء إلى طلب ، واستقضاء لأجر فى مقابل عمل . . ﴿ **إن لنا لأجرا . . إن كنا نحن الغالبين** ﴾ ولا يملك فرعون إلا أن يضع نفسه تحت تصرف السحرة . . ﴿ **قال نعم وإنكم لمن المقربين** ﴾ بعد أن كان قوله لهم: ﴿ **نعم وإنكم إذن لمن المقربين** ﴾ .

---

(١) سورة الاعراف الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

فكلمة (إذا) هنا تحمل رنين الوعد الزائف ، أو الساخر أو هما معا .

وها قد عبئت القوى التى أعدها فرعون لموسى .. وها هى ذى تتحرك نحو الميدان ، حيث قد احتشد الناس منذ بكرة الصباح ، وقد باتوا ليلهم ، لهذه الساعة المقتربة ، فى حديث متصل ، وفى تقديرات وتخمينات ، وتهكمات ، ووساوس وآمال وإذن فنحن هنا فى انتظار ان يرفع الستار عن هذا المشهد المشهود .. وبلغة المسرح يمكن أن نقول : الآن أطفئت أنوار (الصالة) وأضيئت أنوار المسرح : وها هى ذى الدقات التقليدية التى تسبق رفع الستار قد بدأت تدق !

إنها ليست دقات ، ولكنها دمدمة جيش كبير وراء الستار ، وقد دعته نفخات (البوق) إلى التأهب والاستعداد !

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ (١) .

هذه هى الاشارة الوحيدة التى ذكرت فى القرآن لتصوير هذه اللحظة التى تجعلنا وجها لوجه امام المعركة ! وما كانت هذه الاشارة لتتكرر مرة أخرى فى أى مساق من مساقات هذه القصة .. لأنها لم تقع الا مرة واحدة ، وعلى وجه واحد . وعلى الذين يرون فى القصص القرآنى تكرارا أن يقفوا طويلا عند هذه (اللقطة) فإن فيها دلالة كافية على أن تكرار هذا القصص هو معارض للأحداث على وجوهها المختلفة ، ومن زواياها المتعددة ! استيفاء للصورة ، ومَلْئاً للفراغات التى تدل عليها الآلات والاحوال ، والتى قد يعرف بعض الناس وجهها ، وقد يخفى على بعضهم .

ويرفع الستار . وإذا السحرة وما جلبوا فى جانب .. وموسى ، وعصاه ، وأخوه فى جانب ! وحين تتلاقى الوجوه ، وينظر كل من الفريقين فى وجه صاحبه ، وما يحمل من وسائل الصراع يتوجه موسى إلى السحرة بتلك الدعوة التى يقودهم بها إلى طريق الحق ، وليعذر إليهم بعد أن يلفتهم إلى هذا الضلال الذى يعملون له ، ويحيون فيه .

﴿ قال لهم موسى .. ويلكم لا تفتروا على الله كذبا .. فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ﴾ (٢) .

ويتلقى السحرة هذا القول فيقع منهم مواقع مختلفة .. يثور له بعضهم ، ويتهدد بعض ، ويلين بعض .. وتكاد تكون بينهم فرقة !

ثم يشار عليهم أن ينحازوا إلى ناحية من الميدان يجمعون فيها أمرهم ، ويحكمون رأيهم ..

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى * قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى * فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفًا ، وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ (٣) .

وهكذا تضيع عند القوم تلك الدعوة الكريمة ، التى كان من شأنها أن تحسم الموقف ، فلا يقع

(١) سورة طه الآية : ٦٠

(٢) سورة طه الآية : ٦١

(٣) سورة طه الآيات : ٦٢ - ٦٤

بين الفريقين هذا الصراع الذى لابد ان ينجلى عن هزيمة احدهما . . وقد كان ! ويبدأ السحرة المعركة مناوشة بالكلام . .

﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾(١)

وفى صوت خافت مضطرب يجيبهم موسى : ﴿ ألقوا ﴾ ويضيع هذا الصوت الخافت الذى لا يكاد يسمع ، ويعاود السحرة القول ، فى قوة ، ليرهبوا موسى ، وليشهدوا المشاهدين :

﴿ ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ؟ ﴾(٢) ويجيب موسى بصوت مسموع مخنوق :

﴿ بل ألقوا ﴾

ويأخذ السحرة يلقون ما بين أيديهم من سحر . . من حبال وعصى تتحرك فى تماوج واضطراب كأنها حيات . . ويضطرب موسى وتأخذه حال من الخوف والدهش ، ولكنه يذكر ما وعد الله ، فيمسك عليه نفسه بتلك الكلمات يرددها وكأنه يريد أن يذهل بها عن الموقف . . فكان كلما تتابعت رميات السحرة لقيها بهذه الكلمات التى ربما لا يسمعها غيره .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون . . . ﴾(٣) .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون . . . ﴾(٤) .

ويهمهم موسى بهذه الكلمات مختلطة باليأس والرجاء ، فعل من توجه إليه الضربات من يد قوية ، فيقول لضاربه : اضرب ، اضرب ! . . وما به من حاجة إلى طلب المزيد من الضرب ، ولكنه يقوى نفسه ، ويشد عزمه .

وننظر فى الصورة التى صورها القرآن لأفعال السحرة وموقعها من عينى موسى :

١ ـ ﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾(٥) .

٢ ـ ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى * فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾(٦) .

٣ ـ ﴿فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾(٧) .

فالصورة هنا لم تتسلط على موسى وحده ، وإنما امتدت إلى المشهد كله ، فالتقطت الأثر الذى

---

(١) سورة الاعراف الآية : ١١٥
(٢) سورة طه الآية : ٦٥
(٣) سورة يونس الآية : ٨٠
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٣
(٥) سورة الشعراء الآية : ٤٤
(٦) سورة طه الآيتان : ٦٦ ، ٦٧
(٧) سورة الأعراف الآية : ١١٦

تركه فعل السحرة فى المشاهدين جميعا ..
وفى هذا الكرب الكارب والبلاء العظيم يجىء صوت الحق ليملأ قلب موسى أمنا وسكينة :
﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾(1)
﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾(2) ..
فهاتان لقطتان تصوران النداء الذى ألقى إلى موسى من السماء .. فقد جاء النداء الأول هكذا :
﴿ أن ألق عصاك ﴾ وكأن موسى لم يجد فى هذا الأمر القدر من الطمأنينة له .. فجاء الأمر الشارح الواضح :
﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .
ويمتلىء كيان موسى أمنا ، وطمأنينة ورجاء . ويحرك موسى عصاه فى يده ، وكأنه ينظر إليها لأول مرة ويتجه بها إلى القوم قائلا :
﴿ ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ، ولوكره المجرمون ﴾(3) .
ثم يلقى عصاه ..
﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون .. ﴾(4)
وكان ذلك تصديقا لما وعد من قبل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾(5) .
﴿ وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾(6) ..
ويتجلى الموقف عن هزيمة منكرة يلقاها السحرة وسحرهم : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾(5) ..
ثم يجىء لهذا الاجمال تفصيل .. وهذا التفصيل لتلك الخاتمة المسعدة أمر لابد منه ، لأنه المنهل الذى ترتوى منه النفوس التى أظمأها حر الكفاح ، ووهج الصراع ..
﴿ وألقى السحرة ساجدين ◦ قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾(8)

---

(1) سورة الأعراف الآية : ١١٧
(2) سورة طه الآيتان : ٦٨ ، ٦٩
(3) سورة يونس الآيتان : ٨١ ، ٨٢
(4) سورة الشعراء الآية : ٤٥
(5) سورة الأعراف الآية : ١١٧
(6) سورة طه الآية : ٦٩
(7) سورة الأعراف الآيتان : ١١٨ ، ١١٩
(8) سورة الاعراف الآيات : ١٢٠ ، ١٢٢

﴿ فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾[١] .

﴿ فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾[٢] .

فهذا التكرار على صورة واحدة فى الصورتين الاولبين إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسعد ، ثم إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جوانب الحشد الكبير ، الذى قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان . . والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانبا ثالثا من جوانب هذا الحشد تجيء بصوت آخر ، غير الصوت الذى تردد مدويا عاليا بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهارون . . فهذا الصوت سمع معلنا عن الإيمان برب موسى وهارون . . إذ أنه من غير الطبيعى ان يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون . . وإذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة ، فإن بعضا من القوم ينظر إلى هارون نفس النظرة ، إذ كان صاحب فصاحة وبيان اكثر من موسى . . أو أن هذا التقديم لهارون هنا إنما كان من الذين قدموه إقرارا قويا مؤكدا بالتسليم والايمان لهارون فضلا عن موسى . . وهذا وذاك يحتمله الموقف ، وتتقبله احتمالاته التى لا يكون من بينها ما يراه بعضهم من أن هذا التقديم لهارون كان لرعاية الفاصلة التى جاءت عليها آيات السورة . . ومعاذ الله أن ينزل بيان القرآن وإعجازه على حكم النظم ، وتعديل الصياغة !

(د) ما كان من فرعون ، ووعيده السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد : وتقع فى أذن فرعون ولعينيه كلمات السحرة المستسلمة ، وسجودهم الخاشع الخاضع . . موقع الصواعق المزلزلة ، فتعروه رعشات الحمى ، وتأخذه حال المحمومين ، فيخبط ويتخبط ، ويهذى ويهدر وإذا الكلمات المحمومة المسعورة تنطلق من فمه . . على غير وعى وبلا حساب .

﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾[٣] .

﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾[٤] . .

﴿ قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾[٥] .

هذه ثلاث مقولات لفرعون ، وقد كربه الكرب ، وأحاط به البلاء ، وحلت به وبجنده تلك الهزيمة المخزية القاصمة على الملأ وتسيطر على فرعون فى هذه اللحظة حال تستبد بكل تفكيره ، وهى خروج احد عن طاعته ، وتحول احد من حال إلى حال من غير إذنه .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٤٦ ، ٤٨
(٢) سورة طه الآية : ٧٠
(٣) سورة طه الآية : ٧١
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٩
(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤

إن ذلك معناه ضياع هيبته ، وسقوط سلطانه ! وماذا بقى لفرعون أو من فرعون بعد هذا ؟ آمنتم له قبل ان آذن لكم ؟ قبل أن آذن لكم ؟ قبل أن أذن لكم ؟

إن الهول الذى يغرق فرعون فى هذا الذهول فيردد هذه الكلمة التى كان فى مدلولها سقوط هيبته ، وضياع سلطانه فى رعيته ، حين يبلغ بهم الحال ان يعملوا عملا بغير إذنه .. وأن ذلك لم يكن إلا عن تدبير بيت بليل .. فهذه هى التثيلة التى يمسك بها الغريق ! ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ﴾

﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾

وتلك خيانة عظمى .. لها عقابها المرصود .

(فسوف تعلمون)

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ﴾

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾

كلمات يرددها ويهذى بها هذيان المحموم .

ويحسب فرعون أن هذه الكلمات التى يهذر بها أو يهذى ستنال من السحرة منالا ، فيجىء الأمر على خلاف ما يتوقع .. اصرار ، وتحد عنيد ، واستخفاف بكل وعد أو وعيد !

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر .. والله خير وأبقى ﴾(١) . (سورة طه)

﴿ قالوا : لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾(٢)

﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾(٣) .

إنه الإيمان الذى يقوم على علم ، وينشأ من حجة وبرهان .. إيمان يمسك بكيان الإنسان كما تمسك أصول الشجرة الطيبة بالأرض الطيبة ، لا تنال منها العواصف ، ولا تزعزعها الأعاصير .

وهذه المقولات ليست على لسان واحد أو جماعة من السحرة ، وإنما هى ومقولات كثيرة غيرها قد سمعت فى هذا الجو العاصف ! ولكن تلك المقولات الثلاث هى الروافد الثلاثة التى صبت فيها جميع المقولات .

ونظرة بعد هذا إلى هذه الصورة التى عرضناها من صور التكرار فى قصة موسى ، وهى أكثر

---

(١) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٥ ، ١٢٦

قصص القرآن دورانا وذكرا ، وقد اخترناها عن قصد لنواجه بها القول بالتكرار فى القرآن ، وبأن هذا التكرار فضول .. أو ما يشبه الفضول !

فهل لهذا القول مكان بعد هذا ؟

قد يكون ! ولكن فى مجال الجدل ! أو فى مقام العناد !

وليس لنا مع المجادلين موقف ، ولا لنا المعاندين سلطان ! هذا ، وهناك صور كثيرة لقصة موسى مع فرعون ، ولكنها صور لا تجىء لعرض القصة ، ولا للكشف عن جانب منها ، وإنما هى (لقطات) للإلفات والذكرى .. تجىء فى مواقف الإلفات والتذكير .

فمن ذلك :

١ ـ ما جاء فى سورة النمل : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾(١) .

إنها قصة موسى وفرعون ، تجمع بين أطرافها جمعا ، فى هذا العرض الموجز السريع .

٢ ـ ومثل هذا ما جاء فى سورة القصص ! ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾(٢) .

٣ ـ ومثل ذلك أيضا ما جاء فى سورة النازعات .. وقد جاء عرضنا لقصة موسى كلها !

﴿ هل آتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ (٣) .

٤ ـ ومثل هذا ما جاء فى سورة الذاريات :

﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾ (٤) .

٥ ـ وكذلك ما جاء فى سورة الإسراء :

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لاظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر .. وإنى لأظنك يافرعون مثبورا * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾ (٥) .

وهكذا جاءت صور كثيرة من هذا القبيل ، لا يراد بها العرض القصصى وإنما غايتها ـ كما قلنا ـ الإلفات والتذكير ، فى مقام الإلفات والتذكير ، فهى ليست من القصص ، وإن كانت تضم فى كيانها احداث القصة كلها .

(١) سورة النمل الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة القصص الآيتان : ٣٦ : ٣٧
(٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ ـ ٢٦
(٤) سورة الذاريات الآيات : ٣٨ ـ ٤٠
(٥) سورة الإسراء الآيات : ١٠١ ـ ١٠٣

وأحسب أن القول بأن فى القصص القرآنى تكرارا بعد هذا العرض الذى عرضناه من صور التكرار لأكثر قصص القرآن تكرارا ، وهى قصة موسى ـ أحسب أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال أو التضليل . وإذا كان ذلك هو الشأن فى القصص القرآنى ، فإنه فى غير القصص أظهر وأبين . .

ولا نريد أن نعرض صورا من التكرار فى غير القصص ، فقد عرفنا الوجه الذى يقوم عليه كل تكرار يلحظ فى القرآن ويكفى ان نقف بين يدى الآية الكريمة :

﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون ﴾(1) .

فى هذه الآية ثلاثة مفاهيم لموقف واحد . . هو موقف المشركين من يوم القيامة . . فهؤلاء ليسوا على حال سواء فى أمر هذا اليوم ، وليست مشاعرهم على درجة واحدة فى إنكاره ، بل هم درجات كثيرة ، يكاد يكون لكل واحد من آحادهم شعوره الخاص به ، ومفهومه له . .

ولتصوير هذه المشاعر فى جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ينبغى أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدد له .

ولكن ذلك أمر لا يضبط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة . .

ولو أنه ضبط لما كان له كبير قيمة فى كشف الموقف العام للمشركين منه . . إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة التى يكاد يلمح فيما بينها فرق إلا تحت النظر (الميكروسكوبى) .

وإذن فإن العمل الذى يجدى فى هذه الحال هو ضبط الناس فى (مجاميع) كل مجموعة تمثل اتجاها معينا ، له صفته ، وله وجهه وهذا هو الذى فعله القرآن هنا :

فقد قسم المشركين فى نظرتهم ليوم القيامة ، وفى شعورهم له ـ إلى ثلاث مجموعات ، كما يتبين ذلك فى صريح الآية الكريمة : ﴿ بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون ﴾ .

فالمجموعة الأولى من هؤلاء المشركين تأخذ علمها عن الساعة من مدلول النظر العقلى المجرد ، دون التفات إلى مقررات الرسالات السماوية فى هذا . .

وأمر الساعة من الأمور الغيبية التى يؤمن بها على الغيب أولا ، ثم يبحث عنها بالعقل ثانيا ، بحثاً يهتدى بالإيمان ، وبما تقرره الشرائع عن هذا اليوم .

ولهذا ، فإن علم هؤلاء الذين لا يقوم علمهم من وراء الإيمان ، هو علم مضطرب ، غير مستقر ، تتوارد عليه الخواطر المختلفة ، التى لا تدع له فرصة للاستقرار على وجه من الوجوه . . فهم على علم متدارك ينسخ بعضه بعضا .

والمجموعة الثانية . . هى التى انتهى بها هذا العلم العقلى المجرد إلى أودية الضلال والتيه ، فلم يروا إلا أوهاما وخيالات . . فهم فى شك من هذا اليوم .

والمجموعة الثالثة . . هى التى لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تفتح قلبها للإيمان

---

(1) سورة النمل الآية : ٣٦

جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين * فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون . . إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم . وجاء السحرة فرعون ، قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين . قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا . فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم. وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون . . قال فرعون آمنتم به قبل أن أذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾ .

وفى سورة يونس جاءت صورة الموقف على هذا الوجه : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون . قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ، وما نحن لكما بمؤمنين ، وقال فرعون إئتونى بكل ساحر عليم فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ هذه معارض أربعة ، وقد عرض فيها هذا الموقف الذى كان بين موسى وفرعون ، عرضا مبسوطا، اتسع لأهم الأحداث التى جرت فيه . والتقط أدق الخلجات النفسية التى وقعت فى مجريات الصراع بين شخصياته .

كما قلنا من قبل فيما عرضنا من الصور القرآنية المتعددة للحدث الواحد نقول هنا إن هذه الصورة إذا ضم بعضها إلى بعض قامت فيها صورة واحدة ، هى صورة مكبرة لكل واحدة من هذه الصور على حدة . . فإنك إذ تنظر فى الصورة الكبيرة ثم تنظر فى أى من الصور الصغيرة تجد الملامح هى الملامح ، والصورة هى الصورة ، وإن حملت الصورة الكبيرة ألوانا أكثر . وشغلت مساحة أكبر .

وقد قلنا : إنه يمكن أن يرى ذلك من خلال فهم هذه الصور بعضها إلى بعض ، وتلاوتها فى معرض واحد ، حيث يمضى القارىء فى القراءة أو المرتل فى الترتيل ، دون أن يستشعر أنه يعيد ما قرأ ، أو يكرر مارتل . ونريد هنا أن نصنع صنيعا آخر مع هذه الآيات يتضح لنا منه ـ بصورة أكثر وضوحا ـ خلو القصص القرآنى من التكرار بالمعنى الذى فهم عليه ، والذى كان فى نظر الأغبياء

والادعياء تهمة يرمى بها القرآن فى أعز ما يعتز به من فصاحة وبيان .

وننظر فى الواقعة ذاتها فنجد أنها تشتمل على العناصر الآتية :ـ

١ ـ موسى ، ومعه أخوه هارون ، وما لقيا به فرعون من آيات ومقولات .

٢ ـ فرعون ، والملأ الذين معه من قومه ، وسحرته ، وما استقبلوا به موسى من مقولات وتحديات .

٣ ـ ما كان بين موسى والسحرة ، وما انتهى إليه أمرهم من عجز وتسليم ، وإيمان .

٤ ـ ما كان من فرعون حين خذله سحرته ، وخرجوا عن طاعته وأمره ، وما توعدهم به من عذاب ونكال ، وموقفهم من هذا الوعيد .

وصنيعنا هنا هو أن نجمع لكل عنصر من هذه العناصر ما كان له من ذكر فى هذه الصور الأربع التى عرض فيها القرآن الواقعة كلها .

(أ) موسى وهارون فى مواجهة فرعون ؛

موسى وهارون : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾[1] . (من سورة طه)

موسى وهارون : ﴿ إنا رسول رب العالمين.أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾[2] . (من سورة الشعراء) .

موسى : ﴿ يافرعون إنى رسول من رب العالمين ، حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾[3] .

أما الصورة الرابعة ـ والتى جاءت بها سورة يونس فليس فيها ما يحدث عن الموقف بين موسى وفرعون .

واقرأ هذه المقولات الثلاث ، واحدة بعد أخرى ، تجد أنها تصور الموقف أدق وأصدق وأحكم تصوير ، وأنها قد جاوزت به متلبسا بكل ما كان يجرى فى النفوس من مشاعر وأحاسيس .

فهذه المقولات الثلاث ليست قولا واحدا جاء به القرآن فى ثلاثة معارض من القول . . وإنما هى أقوال ثلاثة فعلا كل قول منها مستقل بنفسه ، قائم بذاته .

ولا نستطيع الجزم بالترتيب الذى بين هذه الأقوال ، وأيها يسبق صاحبه أو يتأخر عنه . . ومع هذا فإن الترتيب الذى تجتمع عليه فى كل موضع ممكن ، هو ترتيب يتسع له الموقف ويتطلبه .

ويكفى أن ننظر إليها فى وضع واحد من هذه الأوضاع ، وليكن وضعها هذا الذى جاء هنا من غير قصد ولا تدبير .

١ ـ فهذا موسى ومعه أخوه هارون . . يدخلان على فرعون معا ، ويتحدثان بصوت واحد معا . . إذا كان ذلك هو شعور موسى من لقاء فرعون قبل ان يلقاه ، فطلب من الله أن يشد أزره بأخيه هارون . فهو أفصح منه لسانا ، فيقولان : ﴿ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾[4] . (سورة طه) .

---

(١) سورة طه الآية ١٨

(٢) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

(٤) سورة طه الآية ١٨

وهى قوله لا تلقى فرعون لقاء مواجها ، إنها حكم عام . ﴿ أن العذاب على من كذب وتولى ﴾

٢ - ثم ها هما ذات قد أخذت تزايلهما رهبة الموقف ، وروعة اللقاء . فيلقيان فرعون لقاء مباشرا ، ويلقيان إليه بهذا الأمر العظيم . فيقولان معا : ﴿ إنا رسول رب العالمين * أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾(١) . (سورة الشعراء) ونستشعر من هذا أن موسى لا يزال يجد الرهبة والخوف من فرعون ، وأنه لم تزايله رهبة الموقف بعد ولا يزال هارون معه يأخذ مكانه إلى جانبه ، ليشد أزره ، ويثبت جنانه .

٣ - ثم ها هو ذا موسى بعد أن تمرس بالموقف ، وارتاد الطريق ، واختبر المواجهة ، واحتمل الصدمات الأولى لها .

- ها هو ذا يلقى فرعون وحده ، ويسمعه بلسانه مضمون رسالته . فى قوة وصراحة .

﴿ يافرعون إنى رسول من رب العالمين * حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾(٢) .

ياللإعجاز الذى تذل لجلاله جباه الجبابرة ، وتخضع له الأعناق ، وتعنو الوجوه !

يافرعون !

هكذا يقولها موسى فى وجه فرعون !

أتراه كان يفعل ذلك لأول لقاء ولأول مواجهة ؟ وكيف وهو الذى حسب لهذا الموقف ألف حساب وحساب قبل أن يقدم عليه ؟

إن هذا لا يكون ، إلا بعد ممارسة الموقف ، ومعاودة التجربة !

وما كان لموسى أن يقول هذه القولة : يافرعون ! ولا أن يقول بعدها : إنى ؟ هذا الضمير المحقق لشخصيته والمؤكد لذاتيته : إنى . . لا أحد غيرى (رسول من رب العالمين) ولحرف الجر (من) هنا ما له من الإشعار بهذا الاعتزاز بتلك الشخصية ، والرسالة التى تحملها ، والجهة التى جاءت منها ، ففيها ما ليس فى قوله لو قال : ﴿ رسول رب العالمين ﴾ من الشحنة القوية المليئة بالاعتزاز بهذا السلطان الذى يستند إليه ، وهو سلطان رب العالمين . . ﴿ حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق ﴾ وهذا اعتزاز بعد اعتزاز ، لشخصه الذى يحمل رسالة السماء . . ومن هذا الأفق العالى يتنزل أمر موسى هادرا مدويا فى وجه فرعون : ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ ! ! ولك أن تضع هذا الأمر الصادع إلى هذا الرجاء الذى أسمعاه - موسى وهارون - لفرعون من قبل ﴿ أن أرسل معنا بنى إسرائيل ﴾ . وسيتضح لك ما بين الحالين من مفارقات وماذا يكون من فرعون بعد أن سمع ما سمع ، مما لم يعهد سماعه من أحد من قبل » .

ننظر ونرى !

(ب) فرعون وقومه وسحرته :

وفرعون فى هذا الموقف يواجه موسى وتحدياته ، فيلقاه دهشا عجبا لهذا التطاول عليه ، والخروج

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٦ ، ١٧

(٢) سورة الأعراف الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥

على المألوف فى حضرته . . ثم إنه مع هذا هو فرعون ! ! يبسط سلطانه على أهل المجلس ، يلقى نظرة هنا ونظرة هناك ، ويرمى بكلمة هنا وكلمة هناك . . إنه هنا المحور الذى تدور به ومن حوله الأحداث وطبيعى ألا يأخذ إتجاها واحدا ، لتعدد الأطراف المشتركة فيه . . فرعون ، وموسى ، وحاشية فرعون ، وشهود هذه المساجلة من الملأ . .

ونود أن نشير هنا إلى أن هذه الصور التى عرضها القرآن لهذا الموقف ليست للقاء واحد بين موسى وفرعون ، وإنما هى (لقطات) مركزة مجمعة لأكثر من لقاء ، إذ من غير الطبيعى أن ينحسم الأمر بين موسى وفرعون ، وينتهى إلى هذا التحدى الذى حددا موعده ، والذى يلتقى فيه موسى بالسحرة . . ولكن المقدر فى هذه الحالة أن يتكرر لقاء موسى وفرعون ، ويتكرر الأخذ والعطاء بينهما إلى أن ييأس كل منهما من الوصول إلى وفاق مع خصمه فلا يكون بعد هذا إلا التحدى والصراع .

ومع هذا ، فإن اقتدار القرآن ، وإعجازه فى تصوير مشاهد هذا الموقف فى أزمنة مختلفة ، وأحوال مختلفة أيضا قد جعل منها مشهدا واحدا ، تمسك به تلك المشاعر التى كان يعيش بها أصحابها فى هذا الموقف ، دون أن يحدث الانفصال الزمانى أو المكانى فيها خلخلة ، أو ازدواجا . ولهذا ، فإننا سنعرض هذه المشاهد على أنها صورة واحدة ، فى موقف واحد ، وسنرى أنها تقبل مثل هذا العرض وتتلاقى فيه وجوهها ، دون ان تتخالف ، أو تتصادم ، أو تتدافع . ولقد رأينا فى الموقف السابق أن فرعون قد أخذ بالمباغتة التى طلع بها موسى وهارون عليه ، وأنه حين اسمعاه هذا القول الذى قالا . له ، فى قوة وجرأة . وجم ولم ينطق .

ثم صحا من هذا الذهول ، وتنبه لحقيقة الموقف ، فاتجه إلى موسى بهذه الكلمات الساخرة الهازئة :

﴿ ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين * وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ ؟ (سورة الشعراء) .

وقد قدر فرعون أن هذه الكلمات ستصيب موسى فى الصميم وإنها ستخفض رأسه فى حضرته . . إذ أنه سيذكر بهذه الكلمات طفولته وضياعه ، ووقوعه ليد فرعون ، ثم إنه سيرى صورة مخيفة لفعلته التى فعلها ، وهى قتل المصرى . . ا

ولكن موسى يقف لفرعون ويجيبه قائلا :

﴿ قال فعلتها إذن وأنا من الضالين * ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين * وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل ؟ ﴾ (سورة الشعراء) .

وهنا يلقاه فرعون سائلا :

﴿ من ربكما ياموسى ؟ ﴾ (سورة طه)

وانظر إلى كيد فرعون فى هذا السؤال الماكر . . إنه يطلب الجواب من موسى ، وهو يعلم ما فى لسان موسى من حبسة . . وذلك ليحرجه ، أو يفحمه أمام الجميع . ويجيب موسى وقد أطلق الله حبسة لسانه :

﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾[١] . (سورة طه) .

ويعاجله فرعون بسؤال آخر :

﴿ فما بال القرون الأولى ﴾[٢] . (سورة طه)

ويرد موسى هذا الرد المفحم :

﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى * الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا . وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٣] . (سورة طه)

وانظر أيضا كيف عدل موسى عن الجواب عن سؤال فرعون ، والدخول معه فى هذه الجهة التى يكثر فيها اللجاج ، ولا يستطيع أحد المتخاصمين أن ينال موقفا حاسما : ما بال القرون الأولى ؟ طوفان يغرق فيه من يتصدى للجواب عنه . . ثم خلص من هذا إلى العرض الواضح المحسوس الذى لا ينكر لقدرة الله ، ولهذه القدرة من آثار تملأ وجوه الحياة .

ويضيق فرعون بهذا التدبير الذى أفلت به موسى من المصيدة . . فيجىء إلى موسى من طريق آخر فيسأله :

﴿ وما رب العالمين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويكون جواب موسى حاضرا :

﴿ رب السموات والأض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾[٤]. (سورة الشعراء)

ويتلفت فرعون حواليه . عجبا ، دهشا ، مستنكرا . . يقول لأهل مجلسه : ﴿ ألا تستمعون ﴾[٥]. سورة الشعراء

وإلى هذه الجبهة الجديدة التى فتحها فرعون يتجه موسى قائلا : ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ ! (سورة الشعراء) وتثير هذه الجرأة حنق فرعون . . إذ كيف يجرؤ موسى على تخطى فرعون ومخاطبة غيره فى حضرته . . ثم هو يخشى من جهة أخرى أن يكون لقول موسى أثر فى هؤلاء الذين وجه إليهم حديثه فيقول لهم : ﴿ إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ﴾[٦]. (سورة الشعراء)

ويرد موسى قول فرعون هذا ، ويؤكد لمستمعيه ما قال من قبل . . فيقول : ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾[٧]. (سورة الشعراء)

---

(١) سورة طه الآية ٥٠
(٢) سورة طه الآية ٥١
(٣) سورة طه الآية ٥٢
(٤) سورة الشعراء الآية ٢٤
(٥) سورة الشعراء الآية ٢٦
(٦) سورة الشعراء الآية ٢٧
(٧) سورة الشعراء الآية : ٢٨

وفى قولة موسى هذه تحريض قوى لهؤلاء الأتباع من قوم فرعون أن يستقلوا بوجودهم ، وأن يحتفظوا بعقولهم ، فلا يكون فرعون هو الذى يفكر لهم ، ويقرر مصيرهم .. ﴿ إن كنتم تعقلون ﴾ .

ويجن جنون فرعون لما يريد موسى أن يبلغه من القوم ـ قوم فرعون ـ من إغرائهم على الخروج عن طاعته ، والخلاف عليه ، فيلقاه بهذا الوعيد :

﴿ لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين ﴾(١) . (سورة الشعراء)

ويلقى موسى هذا الوعيد بقوله : ﴿ أولو جئتك بشىء مبين ﴾ ؟ (سورة الشعراء)

ويجيبه فرعون :

﴿ فأت به إن كنت من الصادقين ﴾ (سورة الشعراء)

ويقبل موسى بما معه :

﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾ (سورة الشعراء)

ويحسب فرعون أن هذا من عمل موسى ، وسحر من سحره وأنه ليس بين يديه آية ، تشهد له أنه رسول من عند الله ، فيقول له :

﴿ إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ﴾(٢) . (سورة الأعراف)

وليس بين يدى موسى آية غير تلك الآية التى قدمها من قبل .. فيعرضها مرة اخرى .

﴿ فألقى عصاه ، فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ﴾(٣) . (سورة الأعراف)

إنه نفس المنظر الذى عرضه موسى من قبل ، والذى ذكر فى سورة (الشعراء) .. لم تتغير لمحة من لمحاته .. إنه كلمة من كلمات الله . و ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ ..

وهنا يبدى فرعون رأيه فى هذا العمل الذى قدمه موسى على أنه الآية التى بين يدى دعواه ، ويكثر لغط القوم حول هذه الآية ، وتكثر أقوالهم فيها ، ثم يتكشف هذا اللغط ، وتنتهى هذه الأقوال إلا قول واحد فيها ، هو ما قاله فرعون : ﴿ قال للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ، فماذا تأمرون ﴾(٤) ؟ . (سورة الشعراء)

وتعمل هذه القولة عملها فى حاشيته ، ويلقى بها كل واحد إلى من بجواره ، وإذا بها تتردد على أفواه الجميع .. ويضبطها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم .. يريد أن يخرجكم من أرضكم ، فماذا تأمرون ﴾(٥). (سورة الاعراف) .

ويمسك فرعون مرة اخرى بزمام الموقف ، بعد ان أشاع فى قومه هذا الشعور بأن موسى ساحر

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٢٩
(٢) سورة الاعراف الآية : ١٠٦
(٣) سورة الاعراف الآية : ١٠٧ ، ١٠٨
(٤) سورة الشعراء الآية : ٣٤ ، ٣٥
(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠

عليم .. ثم يجسد هذه المشاعر فى تلك الكلمات المتحدية المهددة .. يواجه بها موسى :

﴿ أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى ﴾(١) .

وانظر فى هذا الاعجاز الذى تتقطع دونه الأعناق ! لقد وزع القرآن هذا المشهد فى معرضين ، من صور العرض لهذه القصة ، فجعل قولة فرعون فى سورة ، وجعل قولة الملأ فى سورة أخرى ، حتى لا تتراكم الصور ، وتتراكب ، وحتى لا يقع هذا التكرار على أية صورة ، لفظية أو معنوية . وانظر مرة أخرى فى هذه المقولة : ﴿ فماذا تأمرون ﴾؟ لقد جاءت على لسان فرعون ، كما جاءت على لسان الملأ من حوله .. إنها الكلمة التى كانت تدور على الألسنة فى مثل هذا الموقف كل يسأل صاحبه : (ما العمل ؟) .. ثم يجىء الجواب ممسكا بالاتجاه الغالب ، الذى كاد يستقر عليه الرأى ، وتجتمع عليه الأكثرية ..

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين * يأتوك بكل سحار عليم ﴾(٢) .

﴿ قالوا : أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾(٣)

وإذا كان الرأى قد غلب فى إرجاء موسى وأخيه . وفى البحث عن السحرة فى كل مكان ، فإن الرأى كاد يتوازن بين دعوة كل ساحر أو دعوة من مهر فى السحر من السحرة .. فقال فريق بدعوة كل ساحر ، وقال فريق آخر بدعوة كل سحار .. ولهذا أعيد الجواب ، فكان مقترنا بكلمة « ساحر » مرة ، بينما اقترن بكلمة « سحار » فى المرة الاخرى .

هذا مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل ، من تلك الفواصل الزمانية والمكانية بين الآيتين الكريمتين ، ومع ملاحظة أن كلا منهما فى موقف ، وإن كنا قد جمعناهما فى موقف واحد .

(ج) ما كان بين موسى والسحرة :

هذا موقف كان له صدى بعيد فى المجتمع المصرى يومذاك ، فقد وقف موسى وحده ليس معه إلا عصاه ، وإلا هارون أخوه يتحدى فرعون بكل جبروته وسلطانه ، ويلقاه بكل ما أعد له من سحرة وسحر !

وقد اجتمع الناس ، وحشدوا حشدا لهذا الموقف فى اليوم والمكان الموعودين : ﴿ يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ . وكان موسى هو الذى اقترح هذا اليوم ، وهو يوم العيد حيث يفرغ الناس له ، ويخلون أنفسهم من كل عمل إلا ما كان لمرح ولهو ، وليس كهذا المشهد داعيا يدعو الناس إليه ، ويحملهم على أن يتخلوا من كل عمل جاد وهازل من أجله .. و (الضحى) الذى كان موعد اللقاء فى هذا اليوم هو الساعة التى تبلغ فيها حركة الناس ونشاطهم غايتها ..

---

(١) سورة طه الآية : ٧٠

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٣) سورة الأعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢

وإذن فهو موقف مشهور ومشهود ، وما يتكشف عنه هذا الموقف هو مما يسفر به وجه الحق ، وتتجلى فيه آياته ، فى صراعه مع الباطل . . وهو بهذا صورة كريمة من الصور التى ينبغى أن تكون متمثلة دائما فى خاطر أصحاب الدعوات ، ليكون لهم منه عبرة وعظة تخف بها أعباؤهم ، وتشتد عزائمهم فى السير إلى غاياتهم .

ومن أجل هذا فقد ذكر القرآن الكريم هذا الموقف فى مواضع كثيرة منه ، وعرضها عرضا يكشف عن جوانبه ، ويصور أدق خفاياه ، ويلتقط ما تكن الضمائر ، وما تخفى الصدور ، وقبل أن يرفع الستار عن هذا المشهد ، يعلن القرآن عما اتخذ فرعون لهذا الموقف من أهبة ، وما بذل من جهد ، وما حشد من قوى . .

فنحن نعرف فى الموقف الذى كان بين موسى وفرعون أن الرأى قد استقر بين فرعون وملئه على أن يبعث جنده وأعوانه فى المدائن كلها ليجلبوا منها كل من عنده علم من السحر .

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل سحار عليم ﴾[1] .

﴿ وقالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ﴾[2] .

ثم انفض المجلس على هذا ، وبدأ فرعون ينفذ خطته ، وها هو ذا القرآن يرصد خطواته ، ويكشف المستور من أمره ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ﴾[3] . (سورة طه)

ثم نراه وقد أصدر أوامره إلى من يراه صالحا لتنفيذ هذه المهمة : ﴿ وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ﴾[4] . ثم نرى المحصول الذى اجتمع من هذا التدبير . . فها هم أولاء السحرة قد جىء بهم من كل مكان ، وها هى ذى أبواق الدعاية تنفخ فى كل جهة ، تدعو الناس إلى أن يكونوا من وراء السحرة ، مؤيدين وناصرين .

﴿ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم * وقيل للناس هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ﴾[5] .

لقد بلغ الأمر غايته وأعد له كل شىء !

وها هم أولاء السحرة يجتمعون بين يدى فرعون ، قبل أن يدخلوا المعركة ، ليتلقوا توجيهاته ، وليستعرضوا بين يديه وجوههم ، وما يحملون من معدات القتال . . !

ونلمح من آيات الكتاب الكريم أنه قد كان هناك استعراض أو استعراضات ، قبل الاستعراض الأخير الذى تم فى يومه اللقاء ، والتحم الصراع .

﴿ فلما جاء السحرة . . قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾[6] .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٣٦ ، ٣٧
(٢) سورة الاعراف الآيتان : ١١١ ، ١١٢
(٣) سورة طه الآية : ٦٠
(٤) سورة يونس الآية : ٧٩
(٥) سورة الشعراء الآيات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠
(٦) سورة الشعراء الآية : ٤١

فهذا الاسترخاء والمطالذى توحى به كلمة : ﴿ فلما جاء السحرة فرعون ﴾ يوحى بأن السحرة كانوا يتوافدون عليه حالا بعد حال ، وأنه كان يلقاهم أفرادا وجماعات ، ليعرف أولا فأولا ماذا يجتمع له من هذه القوى . . ثم يشعرنا هذا الاستفهام المتخاذل المتخافت فى قولهم : ﴿ أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ﴾ أن السحرة لا يزالون مأخوذين برهبة الموقف بين يدى فرعون ، وأنهم يدخلون عليه بهذا الطلب مدخلا متلطفا مستأذنا . . أئن لنا لأجرا ؟ . . إن كنا نحن الغالبين ؟

ويلقى فرعون هذه المنى بوعد غير منجز ، وعد موقوت بالظرف المناسب له ، مقدور بالحالة التى يقع عليها . . ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾

وانظر إلى الصورة من جانبيها . . استفهاما ، وجوابا عنه : **فلما جاء السحرة قالوا لفرعون : أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين قال نعم ، وإنكم إذاً لمن المقربين ؟ ثم انظر إلى الصورة وقد اكتملت ألوانا وظلالا .**

﴿ وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين. قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾[1] .

إنك تجد آيات بينات من إعجاز تلك المعجزة الكبرى التى حملها محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بين يديه ، وعلى لسانه وفى قلبه ، هدى ورحمة للعالمين . . .

١ ـ فلقد خلت الصورة الثانية من كلمة (فلما) تلك الكلمة التى تشعر بالاسترخاء والمط ـ كما قلنا ـ والتى تدل على ان السحرة كانوا يتوافدون على فرعون حالا بعد حال . .

٢ ـ أخذ الفعل (جاء) مفعوله وهو (فرعون) فى الصورة الثانية ، على حين لم يذكر له مفعول فى الصورة الاولى . .

أ ـ ولما جاء السحرة . . قالوا لفرعون . .

ب ـ وجاء السحرة فرعون . . قالوا . .

وهذا يقوى ما قلناه من قبل من أن الصورة الاولى كانت لقاء غير مباشر مع فرعون ، إذ كان يلقاهم أعوانه وحاشيته ، أو كان لقاء مفرقا لم يحتشد له السحرة ، بينما كانت الصورة الثانية كاشفة عن اللقاء الاخير فى مواجهة فرعون ، وفى تلقى توجيهه الاخير لما أُعدهم له .

٣ ـ فى الصورة الاولى استفهام من السحرة عن الجزاء الذى يجزيهم فرعون به ، إذا هم انتصروا فى هذا الموقف ـ أشبه بالاستجداء ، يقابله وعد مسترخ متعال ، تفوح منه رائحة التصدق من فرعون ! ، بينما يتحول هذا الاستجداء فى اللحظة الاخيرة وقد أزفت الآزفة ، وواجه فرعون الامتحان . . تحول هذا الاستجداء إلى طلب ، واستقضاء لأجر فى مقابل عمل . . ﴿ إن لنا لأجرا . . إن كنا نحن الغالبين ﴾ ولا يملك فرعون إلا أن يضع نفسه تحت تصرف السحرة . . ﴿ قال نعم وإنكم لمن المقربين ﴾ بعد أن كان قوله لهم: ﴿نعم وإنكم إذن لمن المقربين ﴾ .

---

(١) سورة الاعراف الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

فكلمة (إذا) هنا تحمل رنين الوعد الزائف ، أو الساخر أو هما معا .

وها قد عبئت القوى التى أعدها فرعون لموسى .. وها هى ذى تتحرك نحو الميدان ، حيث قد احتشد الناس منذ بكرة الصباح ، وقد باتوا ليلهم ، لهذه الساعة المقتربة ، فى حديث متصل ، وفى تقديرات وتخمينات ، وتهكمات ، ووساوس وآمال وإذن فنحن هنا فى انتظار ان يرفع الستار عن هذا المشهد المشهود .. وبلغة المسرح يمكن أن نقول : الآن أطفئت أنوار (الصالة) وأضيئت أنوار المسرح : وها هى ذى الدقات التقليدية التى تسبق رفع الستار قد بدأت تدق !

إنها ليست دقات ، ولكنها دمدمة جيش كبير وراء الستار ، وقد دعته نفخات (البوق) إلى التأهب والاستعداد !

﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ﴾ (١) .

هذه هى الاشارة الوحيدة التى ذكرت فى القرآن لتصوير هذه اللحظة التى تجعلنا وجها لوجه امام المعركة ! وما كانت هذه الاشارة لتتكرر مرة أخرى فى أى مساق من مساقات هذه القصة .. لأنها لم تقع الا مرة واحدة ، وعلى وجه واحد . وعلى الذين يرون فى القصص القرآنى تكرارا أن يقفوا طويلا عند هذه (اللقطة) فإن فيها دلالة كافية على أن تكرار هذا القصص هو معارض للأحداث على وجوهها المختلفة ، ومن زواياها المتعددة ! استيفاء للصورة ، ومَلْئاً للفراغات التى تدل عليها الآلات والاحوال ، والتى قد يعرف بعض الناس وجهها ، وقد يخفى على بعضهم .

ويرفع الستار . وإذا السحرة وما جلبوا فى جانب .. وموسى ، وعصاه ، وأخوه فى جانب ! وحين تتلاقى الوجوه ، وينظر كل من الفريقين فى وجه صاحبه ، وما يحمل من وسائل الصراع يتوجه موسى إلى السحرة بتلك الدعوة التى يقودهم بها إلى طريق الحق ، وليعذر إليهم بعد أن يلفتهم إلى هذا الضلال الذى يعملون له ، ويحيون فيه .

﴿ قال لهم موسى .. ويلكم لا تفتروا على الله كذبا .. فيسحتكم بعذاب ، وقد خاب من افترى ﴾ (٢) .

ويتلقى السحرة هذا القول فيقع منهم مواقع مختلفة .. يثور له بعضهم ، ويتهدد بعض ، ويلين بعض .. وتكاد تكون بينهم فرقة !

ثم يشار عليهم أن ينحازوا إلى ناحية من الميدان يجمعون فيها أمرهم ، ويحكمون رأيهم ..

﴿ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ۞ قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ، ويذهبا بطريقتكم المثلى ۞ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفًا ، وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾ (٣) .

وهكذا تضيع عند القوم تلك الدعوة الكريمة ، التى كان من شأنها أن تحسم الموقف ، فلا يقع

---

(١) سورة طه الآية : ٦٠

(٢) سورة طه الآية : ٦١

(٣) سورة طه الآيات : ٦٢ - ٦٤

بين الفريقين هذا الصراع الذى لابد ان ينجلى عن هزيمة احدهما .. وقد كان ! ويبدأ السحرة المعركة مناوشة بالكلام ..

﴿ قالوا ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين ﴾[١]

وفى صوت خافت مضطرب يجيبهم موسى : ﴿ ألقوا ﴾ ويضيع هذا الصوت الخافت الذى لا يكاد يسمع ، ويعاود السحرة القول ، فى قوة ، ليرهبوا موسى ، وليشهدوا المشاهدين :

﴿ ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ؟ ﴾[٢] ويجيب موسى بصوت مسموع مخنوق :

﴿ بل ألقوا ﴾

ويأخذ السحرة يلقون ما بين أيديهم من سحر .. من حبال وعصى تتحرك فى تماوج واضطراب كأنها حيات .. ويضطرب موسى وتأخذه حال من الخوف والدهش ، ولكنه يذكر ما وعد الله ، فيمسك عليه نفسه بتلك الكلمات يرددها وكأنه يريد أن يذهل بها عن الموقف .. فكان كلما تتابعت رميات السحرة لقيها بهذه الكلمات التى ربما لا يسمعها غيره .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ... ﴾[٣] .

﴿ ألقوا ما أنتم ملقون ... ﴾[٤] .

ويهمهم موسى بهذه الكلمات مختلطة باليأس والرجاء ، فعل من توجه إليه الضربات من يد قوية ، فيقول لضاربه : اضرب ، اضرب ! .. وما به من حاجة إلى طلب المزيد من الضرب ، ولكنه يقوى نفسه ، ويشد عزمه .

وننظر فى الصورة التى صورها القرآن لأفعال السحرة وموقعها من عينى موسى :

١ ـ ﴿ فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾[٥] .

٢ ـ ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ ﴿ فأوجس فى نفسه خيفة موسى ﴾[٦] .

٣ ـ ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾[٧] .

فالصورة هنا لم تتسلط على موسى وحده ، وإنما امتدت إلى المشهد كله ، فالتقطت الأثر الذى

---

(١) سورة الاعراف الآية : ١١٥
(٢) سورة طه الآية : ٦٥
(٣) سورة يونس الآية : ٨٠
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٣
(٥) سورة الشعراء الآية : ٤٤
(٦) سورة طه الآيتان : ٦٦ ، ٦٧
(٧) سورة الأعراف الآية : ١١٦

تركه فعل السحرة فى المشاهدين جميعا ..

وفى هذا الكرب الكارب والبلاء العظيم يجىء صوت الحق ليملأ قلب موسى أمنا وسكينة :

﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك ﴾[١]

﴿ قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ، ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾[٢] ..

فهاتان لقطتان تصوران النداء الذى ألقى إلى موسى من السماء .. فقد جاء النداء الأول هكذا :

﴿ أن ألق عصاك ﴾ وكأن موسى لم يجد فى هذا الأمر القدر من الطمأنينة له .. فجاء الأمر الشارح الواضح :

﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى * وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ .

ويمتلىء كيان موسى أمنا ، وطمأنينة ورجاء . ويحرك موسى عصاه فى يده ، وكأنه ينظر إليها لأول مرة ويتجه بها إلى القوم قائلا :

﴿ ماجئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ، ولوكره المجرمون ﴾[٣] .

ثم يلقى عصاه ..

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون .. ﴾[٤]

وكان ذلك تصديقا لما وعد من قبل : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾[٥] .

﴿ وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا ﴾[٦] ..

ويتجلى الموقف عن هزيمة منكرة يلقاها السحرة وسحرهم : ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ﴾[٥] ..

ثم يجىء لهذا الاجمال تفصيل .. وهذا التفصيل لتلك الخاتمة المسعدة أمر لابد منه ، لأنه المنهل الذى ترتوى منه النفوس التى أظمأها حر الكفاح ، ووهج الصراع ..

﴿ وألقى السحرة ساجدين * قالوا آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون ﴾[٨]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١١٧
(٢) سورة طه الآيتان : ٦٨ ، ٦٩
(٣) سورة يونس الآيتان : ٨١ ، ٨٢
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٥
(٥) سورة الأعراف الآية : ١١٧
(٦) سورة طه الآية : ٦٩
(٧) سورة الأعراف الآيتان : ١١٨ ، ١١٩
(٨) سورة الاعراف الآيات : ١٢٠ ، ١٢٢

﴿ فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾[١] .

﴿ فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى ﴾[٢] .

فهذا التكرار على صورة واحدة فى الصورتين الاوليين إنما هو تأكيد لهذا الخبر الطيب المسعد ، ثم إنه من جهة أخرى عرض لأكثر من جانب من جوانب الحشد الكبير ، الذى قال هذه القولة ، وأذعن بهذا الإذعان . . والصورة الثالثة ، إذ تعرض جانبا ثالثا من جوانب هذا الحشد تجىء بصوت آخر ، غير الصوت الذى تردد مدويا عاليا بإعلان السحرة عن إيمانهم برب موسى وهارون . . فهذا الصوت سمع معلنا عن الإيمان برب موسى وهارون . . إذ أنه من غير الطبيعى ان يكون السحرة على هوى واحد لكل من موسى وهارون . . وإذا كانت الأغلبية تنظر إلى موسى نظرة القائد لهذه المعركة ، فإن بعضا من القوم ينظر إلى هارون نفس النظرة ، إذ كان صاحب فصاحة وبيان اكثر من موسى . . أو أن هذا التقديم لهارون هنا إنما كان من الذين قدموه إقرارا قويا مؤكدا بالتسليم والايمان لهارون فضلا عن موسى . . وهذا وذاك يحتمله الموقف ، وتتقبله احتمالاته التى لا يكون من بينها ما يراه بعضهم من أن هذا التقديم لهارون كان لرعاية الفاصلة التى جاءت عليها آيات السورة . . ومعاذ الله أن ينزل بيان القرآن وإعجازه على حكم النظم ، وتعديل الصياغة !

(د) ما كان من فرعون ، ووعيده السحرة ، وموقفهم من هذا الوعيد : وتقع فى أذن فرعون ولعينيه كلمات السحرة المستسلمة ، وسجودهم الخاشع الخاضع . . موقع الصواعق المزلزلة ، فتعروه رعشات الحمى ، وتأخذه حال المحمومين ، فيخبط ويتخبط ، ويهذى ويهدر وإذا الكلمات المحمومة المسعورة تنطلق من فمه . . على غير وعى وبلا حساب .

﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر . فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ، ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ﴾[٣] .

﴿ قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين ﴾[٤] . .

﴿ قال فرعون : آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ﴾[٥] .

هذه ثلاث مقولات لفرعون ، وقد كربه الكرب ، وأحاط به البلاء ، وحلت به وبجنده تلك الهزيمة المخزية القاصمة على الملأ وتسيطر على فرعون فى هذه اللحظة حال تستبد بكل تفكيره ، وهى خروج احد عن طاعته ، وتحول احد من حال إلى حال من غير إذنه .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٤٦ ، ٤٨
(٢) سورة طه الآية : ٧٠
(٣) سورة طه الآية : ٧١
(٤) سورة الشعراء الآية : ٤٩
(٥) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤

إن ذلك معناه ضياع هيبته ، وسقوط سلطانه ! وماذا بقى لفرعون أو من فرعون بعد هذا ؟ آمنتم له قبل ان آذن لكم ؟ قبل أن آذن لكم ؟ قبل أن أذن لكم ؟

إن الهول الذى يغرق فرعون فى هذا الذهول فيردد هذه الكلمة التى كان فى مدلولها سقوط هيبته ، وضياع سلطانه فى رعيته ، حين يبلغ بهم الحال ان يعملوا عملا بغير إذنه .. وأن ذلك لم يكن إلا عن تدبير بيت بليل .. فهذه هى التشيلة التى يمسك بها الغريق ! ﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾ ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها** ﴾

﴿ **إنه لكبيركم الذى علمكم السحر** ﴾

وتلك خيانة عظمى .. لها عقابها المرصود .

(فسوف تعلمون)

﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾

﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين** ﴾

﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين** ﴾

كلمات يرددها ويهذى بها هذيان المحموم .

ويحسب فرعون أن هذه الكلمات التى يهذر بها أو يهذى ستنال من السحرة منالا ، فيجىء الأمر على خلاف ما يتوقع .. اصرار ، وتحد عنيد ، واستخفاف بكل وعد أو وعيد !

﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا * إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر .. والله خير وأبقى** ﴾[1] . (سورة طه)

﴿ **قالوا : لا ضير ، إنا إلى ربنا منقلبون * إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين** ﴾[2]

﴿ **قالوا إنا إلى ربنا منقلبون * وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين** ﴾[3] .

إنه الإيمان الذى يقوم على علم ، وينشأ من حجة وبرهان .. إيمان يمسك بكيان الإنسان كما تمسك أصول الشجرة الطيبة بالأرض الطيبة ، لا تنال منها العواصف ، ولا تزعزعها الأعاصير .

وهذه المقولات ليست على لسان واحد أو جماعة من السحرة ، وإنما هى ومقولات كثيرة غيرها قد سمعت فى هذا الجو العاصف ! ولكن تلك المقولات الثلاث هى الروافد الثلاثة التى صبت فيها جميع المقولات .

ونظرة بعد هذا إلى هذه الصورة التى عرضناها من صور التكرار فى قصة موسى ، وهى أكثر

---

(١) سورة طه الآيتان : ٧٢ ، ٧٣

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة الاعراف الآيتان : ١٢٥ ، ١٢٦

قصص القرآن دورانا وذكرا ، وقد اخترناها عن قصد لنواجه بها القول بالتكرار فى القرآن ، وبأن هذا التكرار فضول .. أو ما يشبه الفضول !

فهل لهذا القول مكان بعد هذا ؟

قد يكون ! ولكن فى مجال الجدل ! أو فى مقام العناد !

وليس لنا مع المجادلين موقف ، ولا لنا المعاندين سلطان ! هذا ، وهناك صور كثيرة لقصة موسى مع فرعون ، ولكنها صور لا تجىء لعرض القصة ، ولا للكشف عن جانب منها ، وإنما هى (لقطات) للإلفات والذكرى .. تجىء فى مواقف الإلفات والتذكير .

فمن ذلك :

١ - ما جاء فى سورة النمل : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾(١) .

إنها قصة موسى وفرعون ، تجمع بين أطرافها جمعا ، فى هذا العرض الموجز السريع .

٢ - ومثل هذا ما جاء فى سورة القصص ! ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ﴾(٢) .

٣ - ومثل ذلك أيضا ما جاء فى سورة النازعات .. وقد جاء عرضا لقصة موسى كلها !

﴿ هل آتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾(٣) .

٤ - ومثل هذا ما جاء فى سورة الذاريات :

﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين * فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾(٤) .

٥ - وكذلك ما جاء فى سورة الإسراء :

﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم ، فقال له فرعون إنى لاظنك ياموسى مسحورا * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر .. وإنى لأظنك يافرعون مثبورا * فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾(٥).

وهكذا جاءت صور كثيرة من هذا القبيل ، لا يراد بها العرض القصصى وإنما غايتها - كما قلنا - الإلفات والتذكير ، فى مقام الإلفات والتذكير ، فهى ليست من القصص ، وإن كانت تضم فى كيانها احداث القصة كلها .

---

(١) سورة النمل الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة القصص الآيتان : ٣٦ : ٣٧
(٣) سورة النازعات الآيات : ١٥ - ٢٦
(٤) سورة الذاريات الآيات : ٣٨ - ٤٠
(٥) سورة الإسراء الآيات : ١٠١ - ١٠٣

وأحسب أنّ القول بأن فى القصص القرآنى تكرارا بعد هذا العرض الذى عرضناه من صور التكرار لأكثر قصص القرآن تكرارا ، وهى قصة موسى ـ أحسب أن هذا القول ضرب من الهزل أو الجهل ، ولون من ألوان الضلال أو التضليل . وإذا كان ذلك هو الشأن فى القصص القرآنى ، فإنه فى غير القصص أظهر وأبين . .

ولا نريد أن نعرض صورا من التكرار فى غير القصص ، فقد عرفنا الوجه الذى يقوم عليه كل تكرار يلحظ فى القرآن ويكفى ان نقف بين يدى الآية الكريمة :

﴿ **بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها ، بل هم منها عمون** ﴾[1] .

فى هذه الآية ثلاثة مفاهيم لموقف واحد . . هو موقف المشركين من يوم القيامة . . فهؤلاء ليسوا على حال سواء فى أمر هذا اليوم ، وليست مشاعرهم على درجة واحدة فى إنكاره ، بل هم درجات كثيرة ، يكاد يكون لكل واحد من آحادهم شعوره الخاص به ، ومفهومه له . .

ولتصوير هذه المشاعر فى جميع مستوياتها ، وعلى اختلاف منازلها ينبغى أن يكون لكل إنسان صورة خاصة به ، ووصف محدد له .

ولكن ذلك أمر لا يضبط ، بل يقع موقع الاستحالة المطلقة . .

ولو أنه ضبط لما كان له كبير قيمة فى كشف الموقف العام للمشركين منه . . إذ ما أكثر الصور المتشابهة المتكررة التى يكاد يلمح فيما بينها فرق إلا تحت النظر (الميكروسكوبى) .

وإذن فإن العمل الذى يجدى فى هذه الحال هو ضبط الناس فى (مجاميع) كل مجموعة تمثل اتجاها معينا ، له صفته ، وله وجهه وهذا هو الذى فعله القرآن هنا :

فقد قسم المشركين فى نظرتهم ليوم القيامة ، وفى شعورهم له ـ إلى ثلاث مجموعات ، كما يتبين ذلك فى صريح الآية الكريمة : ﴿ **بل ادارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون** ﴾ .

فالمجموعة الأولى من هؤلاء المشركين تأخذ علمها عن الساعة من مدلول النظر العقلى المجرد ، دون التفات إلى مقررات الرسالات السماوية فى هذا . .

وأمر الساعة من الأمور الغيبية التى يؤمن بها على الغيب أولا ، ثم يبحث عنها بالعقل ثانيا ، بحثاً يهتدى بالإيمان ، وبما تقرره الشرائع عن هذا اليوم .

ولهذا ، فإن علم هؤلاء الذين لا يقوم علمهم من وراء الإيمان ، هو علم مضطرب ، غير مستقر ، تتوارد عليه الخواطر المختلفة ، التى لا تدع له فرصة للاستقرار على وجه من الوجوه . . فهم على علم متدارك ينسخ بعضه بعضا .

والمجموعة الثانية . . هى التى انتهى بها هذا العلم العقلى المجرد إلى أودية الضلال والتيه ، فلم يروا إلا أوهاما وخيالات . . فهم فى شك من هذا اليوم .

والمجموعة الثالثة . . هى التى لم ترفع رأسها للبحث والنظر ، ولم تفتح قلبها للإيمان

---

(١) سورة النمل الآية : ٣٦

والتسليم .. هى هذا الصنف من الناس الذين يعيشون كما يعيش الأنعام بلا عقل ، ولا قلب ! ..
﴿ بل هم منها عمون ﴾ !

الحاجة إلى إرسال الرسل مع سوق بعض الأدلة على صدق الرسول :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

المفردات : ﴿ الشاهدين ﴾ الحاضرين ﴿ قرونا ﴾ أمما ﴿ فتطاول عليهم العمر ﴾ أى: طال عمرهم ﴿ ثاويا ﴾ مقيما يقال ثوى بالمكان يثوى به أقام ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ المراد فإن لم يفعلوا ﴿ تظاهرا ﴾ تعاونا ﴿ وصلنا لهم القول ﴾ اتبعنا بعضه بعضا من الإنزال ليتصل التذكير .

وهذا لون من العبرة بقصة موسى ، ونتيجة عامة لسوقها ، إذ هى من الأدلة على صدق الرسول حيث قص أخبارا صادقة عن قوم لم يشهدهم ولم يكن معهم ، ولم ترد له أخبارهم ، فلم يبق إلا الوحى مصدرا لهذا كله ، وفى ذلك عبرة وعظة ، ودليل على صدق النبى - ﷺ - وهذا أيضا شروع فى بيان أن إنزال القرآن الكريم جاء فى زمن ، الحاجة فيه ماسة وداعية إليه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾ .

فى هذه الآية الكريمة تنبيه وإخبار منه تعالى على نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبرا كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم وهو رجل أمى لا يقرأ شيئا من الكتب نشأ بين قوم لا يعرفون شيئا من ذلك كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها قال تعالى : ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾[1] الآية أى وما كنت حاضرا لذلك ولكن الله أوحاه إليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ثم قال تعالى : ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ الآية . وقال فى آخر السورة : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك** ﴾[2] وقال بعد ذكر قصة يوسف : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾ **الآية وقال فى سورة طه** ﴿ **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق** ﴾[3] الآية وقال ههنا بعد ما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له ﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾ يعنى ما كنت يامحمد بجانب الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى ﴿ **وما كنت من الشاهدين** ﴾ لذلك ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهانا على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا** ﴾ أى:مقيما فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب وما قال لقومه وما ردوا عليه .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾[4] الخ القصة .

قوله تعالى : ﴿ **ولكنا كنا مرسلين** ﴾ أى ولكنا أوحينا إليك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا وقوله تعالى : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ أى إذ نادينا موسى كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وأذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا** ﴾ .[5] وكما قال جل شأنه ؛﴿ **وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين** ﴾[6] وقال : ﴿ **هل أتاك حديث موسى إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى** ﴾[7] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٤٤
(٢) سورة هود الآية : ١٠٠
(٣) سورة طه الآية : ٩٩
(٤) سورة هود الآيات : ٨٤ ـ ٨٦
(٥) سورة مريم الآيتان : ٥١ ، ٥٢
(٦) سورة الشعراء الآية : ١٠
(٧) سورة النازعات الآيتان : ١٥ ، ١٦

وقال أبو عبد الرحمن النسائى فى التفسير من سننه أخبرنا على بن حجر أخبرنا عيسى بن يونس عن حمزة الزيات عن الأعمش عن على بن مدرك عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ قال نودوا أن ياأمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألونى وأجبتكم قبل أن تدعونى . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ **وما كنت بجانب الطور إذ نادينا** ﴾ أمتك فى أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت .

قوله تعالى : ﴿ **ولكن رحمة من ربك** ﴾ أى:ولكن الله تعالى أنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . وقوله تعالى : ﴿ **لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون** ﴾ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل لعلهم يتذكرون ويهتدون .

﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾[(١)] .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا** ﴾[(٢)] .

﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[(٣)]

قوله تعالى : ﴿ **ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين** ﴾[(٤)] قال الإمام ابن القيم : فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وهذا صريح فى أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة ، بحيث استحقوا أن يصابوا بها بالمصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل . وهذا هو فصل الخطاب .

وتحقيق القول فى هذا الأصل العظيم ، إن القبح ثابت للفعل فى نفسه ، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد اقامة الحجة بالرسالة . وهذه النكتة هى التى فاتت المعتزلة والكلابية كليهما ، فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى ، لعدم جمعها بين هذين الامرين ! فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل ، وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلى . وأحسنوا فى رد ذلك عليهم .

واستطالت المعتزلة عليهم فى إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة ، وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح ، واستواء الأفعال فى أنفسها وأحسنوا فى رد هذا عليهم .

فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب . وأما من سلك هذا المسلك الذى سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ، ولا الظفر عليه أصلا ، فإنه لوافق لكل طائفة على

---

(١) سورة الفرقان الآية : ١
(٢) سورة الفتح الآية : ٢٨
(٣) سورة سبأ الآية : ٢٨
(٤) سورة القصص : آية ٤٧

ما معها من الحق مقرر له . مخالف لها فى باطنها منكر له .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾[١] أى وأرسلناك إليهم لتقيم عليهم الحجة ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب من الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير كما قال تعالى بعد ذكره إنزال كتابه المبارك وهو القرآن : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين . أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ ياأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ﴾[٤] الآية . والآيات فى هذا كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه . إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين . ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والالحاد : ﴿ لولا أوتى مثل ما أوتى موسى ﴾ الآية . يعنون والله أعلم من الآيات الكثيرة مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله وكفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة ، التى أجراها الله تعالى على يدى موسى ـ عليه السلام ـ حجة وبرهانا له على فرعون وملئه وبنى إسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع فى فرعون وملئه بل كفروا بموسى وأخيه هارون كما قالوا لهما : ﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فكذبوهما فكانوا من المهلكين ﴾[٦] ولهذا قال ها هنا : ﴿ أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ﴾ أى : أولم يكفر البشر بما أوتى موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ أى : تعاونا ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أى : بكل منهما كافرون ، ولشدة التلازم والتصاحب والمقاربة بين موسى وهارون دل ذكر أحدهما على الآخر كما قال الشاعر :

فما أدرى إذا يممت أرضا أريد الخير أيهما يلينى

أى : فما أدرى يلينى الخير أو الشر . قال مجاهد : أمرت اليهود قريشا أن يقولوا لمحمد ﷺ ذلك فقال الله : ﴿ أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا ﴾ قال يعنى موسى وهارون صلى

---

(١) تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٤ / ٢٥١
(٢) سورة الأنعام الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧
(٣) سورة النساء الآية : ١٦٥
(٤) سورة المائدة الآية : ١٩
(٥) سورة يونس الآية : ٧٨
(٦) سورة المؤمنون الآية : ٤٨

الله عليهما وسلم (تظاهرا) أى : تعاونا وتناصرا وصدق كل منهما الآخر ؟ وبهذا قال سعيد بن جبير وأبو رزين فى قوله : (ساحران) يعنون موسى وهارون وهذا قول جيد قوى والله أعلم ، وقال مسلم بن يسار عن ابن عباس : (قالوا ساحران تظاهرا) قال : يعنون موسى ومحمدا ﷺ وهذه رواية الحسن البصرى . وقال الحسن وقتادة : يعنى عيسى ومحمد ﷺ وهذا فيه بعد لأن عيسى لم يجر له ذكرهنا والله أعلم . وأما من قرأ (سحران تظاهرا) فقال على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس يعنون التوراة والقرآن وكذا قال عاصم الجندى والسدى وعبد الرحمن بن يزيد بن أسلم قال السدى : يعنى صدق كل واحد منهما الآخر وقال عكرمة : يعنون التوراة والانجيل وهو رواية عن أبى زرعة واختاره إبن جرير . قال الضحاك وقتادة : الإنجيل والقرآن والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب والظاهر على قراءة (سحران) أنهم يعنون التوراة والقرآن لانه قال بعده : ﴿ قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ﴾ وكثيرا ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كما فى قوله تعالى : ﴿ قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس (إلى أن قال) وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾[٢] وقال فى آخر السورة : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن ﴾[٣] الآية وقال : ﴿ وهذا كتاب أنزلنا مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾[٤] وقالت الجن : ﴿ إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه ﴾[٥] وقال ورقة ابن نوفل : هذا الناموس الذى أنزل على موسى . وقد علم بالضرورة لذوى الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتابا من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذى أنزل على محمد ﷺ وهو القرآن وبعده فى الشرف والعظمة الكتاب الذى أنزله على موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ وهو الكتاب الذى قال الله فيه : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾ والإنجيل إنما أنزل متمما للتوراة ومحلا لبعض ما حرم على بنى إسرائيل ولهذا قال تعالى : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين ﴾[٦] .

أى : فيما تدافعون به الحق وتعارضون به من الباطل قال الله تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أى فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ولم يتبعوا الحق ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ أى : بلا دليل ولا حجة ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ أى : بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ قال مجاهد فصلنا لهم القول . وقال السدى بينا لهم القول ، وقال قتادة : يقول تعالى : أخبرهم كيف صنع بمن مضى وكيف هو صانع ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ قال مجاهد وغيره : (وصلنا لهم) يعنى قريشا وهذا هو الظاهر لكن قال حماد بن

---

(١) تفسير الطبرى ٢٠ / ٥٣ .
(٢) سورة الانعام الآيتان : ٩١ ، ٩٢
(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٤
(٤) سورة الأنعام الآية : ١٥٥
(٥) سورة الأحقاف الآية : ٣٠
(٦) سورة المائدة الآية : ٤٤

سلمة عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن رفاعة - رفاعة هذا هو ابن قرظة القرظى - وجعله ابن مندة : رفاعة بن شموال خال صفية بنت حيى وهو الذى طلق تميمة بنت وهب التى تزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير بن باطا ، كذا ذكره ابن الأثير - قال : نزلت ﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ فى عشرة أنا أحدهم . رواه ابن جرير وابن ابى حاتم من حديثه .

المؤمنون من أهل الكتاب

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

المفردات : ﴿ ويدرأون ﴾ يدفعون يقال درأ عنه كذا أى دفع ﴿ اللغو ﴾ هو ما لا يعتد به من القول أو ما كان فيه أذى من شتم أو سب ﴿ لا نبتغى الجاهلين ﴾ لا نطلب صحبتهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت أن القرآن وحى من عند الله ، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - أكد هذا بأن أثبت أن أهل الكتاب آمنوا به حين رأوا الأدلة تتظاهر على صدقه ، وموافقته لما فى كتبهم من وصف ، فأجدر بمن لا كتاب لهم من قبله أن يؤمنوا به .

قال سعيد بن جبير . نزلت هذه الآية فى سبعين من القسيسين بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ فلما ندموا عليه قرأ عليهم ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا .

التفسير

وهذا هو الصنف الذى فى قلبه ميل إلى الخير ، وفى نفسه استعداد لقبول الطيب من الدعوات ، وهم جماعة من أهل الكتاب آمنوا بنبيهم ، ولم يحرفوا كلمهم وبشارة كتبهم بالنبى العربى فهم قد آمنوا به أولا بظهر الغيب ثم آمنوا به ثانيا إيمان مشاهدة وإقرار بما سبق ، وإذا يتلى على هؤلاء القرآن قالوا : آمنا به وصدقناه وصدقنا من جاء على لسانه ، وكأن سائلا سأل وقال لم هذا ؟ فأجابوا إنه الحق من ربنا نعم إنه كلامه الحق الذى لا شك فيه ، ونحن أدرى به من غيرنا ، إنا كنا من قبل نزوله مسلمين ومنقادين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا مرة لإيمانهم بكتابهم ونبيهم ومرة لإيمانهم بالقرآن

والنبى ، وصبرهم على ذلك كله ، وهم يدرأون بالحسنة السيئة ، ويدفعون الشر بالخير وينفقون مما رزقناهم فى سبيل الله .

وإذا سمعوا لغوا من قول المشركين أو أصابهم أذى منهم ، أعرضوا عنهم ، وقالوا لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، سلام عليكم سلام ترك وموادعة ، نحن لا نبتغى الجاهلين ، ولا نطلب مصاحبتهم .

رد على بعض مزاعم المشركين

قوله تعالى : إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ
﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ
إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ
مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ
مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا
ظَـٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَـٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَـٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَـٰهُ مَتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ
هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

المفردات

الهداية : تارة يراد بها الدعوة والارشاد إلى طريق الخير وهى التى أثبتها الله لرسوله فى قوله : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾ وتارة يراد بها هداية التوفيق وشرح الصدر بقذف نور يحيا به القلب كما جاء فى قوله : ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا ﴾ وهى بهذا المعنى نفيت عن رسول الله ﷺ فى هذه الآية . يجبى إليه : أى يجمع إليه ، يقال جبى الماء فى الحوض : أى جمعه ، والجابية : الحوض العظيم . والخطف : الانتزاع بسرعة ويراد به هنا الإخراج من البلاد . ونتخطف من أرضنا : ننتزع منها بسرعة . أو لم نمكن لهم حرما آمنا . نجعل مكانهم حرما ذا أمن ـ بطرت معيشتها أى: بغت وتجبرت ولم تحفظ الله . وأمها أكبرها وأعظمها وهى أصلها وعاصمتها ، من

المحضرين : أى الذين يحضرون للعذاب وقد اشتهر ذلك فى عرف القرآن كما قال ﴿ **لكنت من المحضرين** ﴾ وقال : ﴿ **إنهم لمحضرون** ﴾ لأن فى ذلك إشعارا بالتكليف والالزام ولا يليق ذلك بمجالس اللذات بل هو أشبه بمجالس المكاره والمضار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ ثبت فى الصحيحين أنها نزلت فى أبى طالب عم رسول الله ﷺ وقد كان يحوطه وينصره ويقوم فى صفه ويحبه حبا شديدا طبعيا لا شرعيا . فلما حضرته الوفاة وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الايمان والدخول فى الاسلام ، فسبق القدر فيه واختطف من يده فاستمر على ما كان عليه من الكفر ولله الحكمة التامة .

قال الزهرى : حدثنى سعيد بن المسيب عن أبيه وهو المسيب بن حزن المخزومى - رضى الله عنه - قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده ابا جهل بن هشام وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقال رسول الله ﷺ (**ياعم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله**) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبى أمية : ياأبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)[1] فأنزل الله تعالى : ﴿ **ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى** ﴾ وأنزل فى أبى طالب : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾ هكذا رواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث يزيد بن كيسان عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : لما حضرت وفاة أبى طالب أتاه رسول الله ﷺ فقال : (ياعماه قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة) فقال : لولا أن تعيرنى بها قريش يقولون ما حمله عليه إلا جزع الموت لأقررت بها عينك لا أقولها إلا لأقر بها عينك)[2] فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت** ﴾ يدل دلالة صادقة وقاطعة على مدى المسئولية الفردية قال تعالى : ﴿ **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾[3] وقال - عز وجل - ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** ﴾[4] وها هو ذا نبى الله نوح يدعو ابنه إلى النجاة فيأبى قال تعالى : ﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾[5] وتأخذ الرأفة قلب نوح

---

(١) أخرجه البخارى - باب قصة أبى طالب ٥ / ٦٥ - ٦٦
ومسلم - كتاب الايمان - باب أول الايمان قوله لا إله إلا الله ١ / ٥٤ رقم ٢٤

(٢) أخرجه مسلم - فى كتاب الايمان - باب أول الايمان قول لا إله إلا الله ١ / ٥٥ رقم ٢٥
والترمذى فى سننه كتاب تفسير القرآن - باب تفسير سورة القصص ٥ / ٣٤١ رقم ٣١٨٨

(٣) سورة النحل الآية : ١١١

(٤) سورة فاطر الآية : ١٨

(٥) سورة هود الآيتان : ٤٢ - ٤٣

وتملك عليه الرحمة جنبات نفسه وتعتلج لواعج الشوق فى فؤاده فينادى ربه : ﴿ رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ﴾[١] فبم أجابه العلى الأعلى جل جلاله ؟ ﴿ قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾[٢].

وها هو ذا نبى الله ابراهيم يدعو أباه إلى الايمان بالله وحده ، فيقول له آزر : ﴿ أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾[٣] ثم يعده بالاستغفار له فيقول : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربى إن كان بى حفيا ﴾[٤] . ويبر إبراهيم بوعده مع أبيه فيدعو ربه ويقول : ﴿ واغفر لأبى إنه كان من الضالين ﴾[٥].

ثم يأتى فصل الخطاب فى قوله تعالى : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾[٦] . نعم ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ . ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ﴾[٧] . وكان رسول الله ﷺ إذا رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل يقول : ﴿ سبحان الله يخرج الحى من الميت ﴾

إذا طاب أصل الشيء طابت فروعه ... ومن عجب جادت يد الشوك بالورد
وقد يخبث الفرع الذى طاب أصله ... ليظهر فعل الله فى العكس والطرد

قوله تعالى : ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ لقد أبطل القرآن حجج هؤلاء المعاندين الذين قالوا لرسول الله ﷺ إننا نخاف إن اتبعنا ما جئت به من الهدى وخالفنا ما كان عليه الآباء وخرجنا على مألوف الاجداد ـ لو قلنا ذلك لحاربنا هؤلاء وأولئك وتخطفونا من أرضنا . فأبطل الله تعالى قولهم هذا بقوله : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا ﴾ قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾[٨].

---

(١) سورة هود الآية : ٤٥
(٢) سورة هود الآيتان : ٤٦ ، ٤٧
(٣) سورة مريم الآية : ٤٦
(٤) سورة مريم الآية : ٤٧
(٥) سورة الشعراء الآية : ٤٦
(٦) سورة التوبة الآية : ١١٤
(٧) سورة التحريم الآيتان : ١٠ ، ١١
(٨) سورة العنكبوت الآية : ٦٧

ومن نعم الله على هذا الحرم الآمن المطمئن أن يجبى إليه ثمرات كل شيء استجابة لدعوة الخليل ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[١] وقد أصبحت فاكهة الشام تؤكل رطبة فى أرض الحجاز ﴿ رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فمن الذى يرزق إلا الله ؟ ومن الذى يجود بالكرم ويهب النعم إلا الله ولكن أكثرهم لا يعلمون أن شكر المنعم واجب فهم معرضون .

قوله تعالى : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ : وهنا إخبار منه تعالى عن كثرة إهلاكه للقرى الطاغية الباغية الظالمة التى بدلت نعمة الله كفرا كما قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾[٢] وكما قال تعالى : ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾[٣].

ثم أخبر سبحانه عن عدله وأنه لا يهلك أحدا إلا بعد الانذار وقيام الحجة بإرسال الرسل فقال : ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ﴾ أى : وما كانت سنته فى عباده أن يهلك القرى حتى يبعث فى كبراها رسولا يتلو عليهم الآيات الناطقة بالحق ، ويدعوهم إليه بالترغيب حينا والترهيب حينا آخر فيكون ذلك أدعى إلى إلزام الحجة وقطع المعذرة . وإنما كان البعث فى أم القرى لأن فى أهلها فطنة وكياسة ، فهم أقبل للدعوة وأعرف بمواقع الحق إلى أن الرسول يبعث للأشراف كما يرسل إلى العامة ، وهم يسكنون المدائن وهى ام ما حولها . ونحو الآية قوله : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[٤] .

ثم بين أنه لا يهلك القرى بعد إرسال الرسل إلا إذا ظلموا أنفسهم وكذبوا رسلهم فقال : ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ أى : ولا نهلك القرى التى نبعث فيها الرسل الذين يدعونهم إلى الحق ، ويرشدونهم إلى سبيل السداد إلا إذا ظلموا بتكذيب الرسول وكفروا بالآيات ، فلا نهلك قرية بإيمان ، ولكن نهلكها بظلمها واجترامها المعاصى وارتكابها الآثام ، وقوله : بظلم إشارة إلى أنه لو أهلكهم وهم مصلحون لكان ذلك ظلما منه ، تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا .

قوله تعالى : ﴿ وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ﴾ .

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٧
(٢) سورة النحل الآيتان : ١١٢ ، ١١٣
(٣) سورة الاسراء الآيتان : ١٦ ، ١٧
(٤) سورة الاسراء الآية : ١٥

قال رسول الله ﷺ (والله ما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا كما يغمس أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر ماذا يرجع إليه) .[١]

وكان رسول الله ﷺ يقول لابن عمر : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور) .

ومهما أوتى الانسان من شيء فى هذه الدنيا فهو متاع إلى زوال ، قال تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾[٢] وقال : ﴿ **والله عنده حسن المآب** ﴾[٣] وقال : ﴿ **وما عند الله خير للأبرار** ﴾[٤] وقال : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾[٥] وقال : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾[٦]

وقال تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .[٧]

وقال تعالى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى** ﴾[٨] . فيا بن آدم جدد السفينة فإن البحر عميق وأكثر الزاد فإن السفر طويل ، وأخلص العمل فإن الناقد بصير وخفف الحمل فإن العقبة كئود .

تالله لو عاش الفتى فى دهره ... ألفا من الأعوام مالك أمره
متنعما فيها بكل نفيسة ... متلذذا فيها بنعمى عصره
لا يعتريه السقم فيها مرة ... كلا ولا ترد الهموم بباله
ما كان هذا كله فى أن يفى ... بمبيت أول ليلة فى قبره

قال عمر بن عبد العزيز للحسن البصرى : ياتقى الدين عظنا وأوجز . قال : ياأمير المؤمنين صم عن الدنيا وأفطر على الموت وأعد الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أى أجننتم فلا تعقلون ؟ يامن تؤثرون الفانية على الباقية والعاجلة على الآخرة :

دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد ياغافلا ... وتشترى دنيا المنى والضلال

(١) مسلم - كتاب الجنة - باب فناء الدنيا
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٤
(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨٥
(٤) سورة آل عمران الآية : ١٩٨
(٥) سورة النحل الآية : ٩٦
(٦) سورة الاسراء الآيات : ١٨ - ٢١
(٧) سورة الحديد الآيتان : ٢٠ ، ٢١
(٨) سورة الأعلى الآيتان : ١٦ ، ١٧
تفسير الطبرى ٢٠ / ٦٢

قوله تعالى : ﴿ أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ :

يقول تعالى : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذى هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذاب بلقاء الله ووعده ووعيده فهو ممتع فى الحياة الدنيا أياما قلائل ﴿ **ثم هو يوم القيامة من المحضرين** ﴾ قال مجاهد وقتادة من المعذبين ثم قد قيل : إنها نزلت فى رسول الله ﷺ وفى أبى جهل وقيل : فى حمزة وعلى وأبى جهل وكلاهما عن مجاهد والظاهر أنها عامة وهذا كقوله تعالى إخبارا عن ذلك المؤمن حين أشرف على صاحبه وهو فى الدرجات وذاك فى الدركات فقال : ﴿ **ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون** ﴾

بعض مواقف المشركين يوم القيامة

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا
هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ
ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾
وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ
لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

المفردات

حق عليهم القول : ثبت ووجب يقال : حق يحق ويحق ثبت ، أغوينا : أى أضللنا يقال : غوى يغوى ضل . فعميت عليهم الأنباء : أى صارت كالعمى لا تهتدى إليهم ، واصل التركيب فعموا عن الأنباء ثم حصل قلب وهذا مألوف فى اللغة العربية .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ان التمتع بزينة الدنيا وزخرفها دون طاعة الله وعظيم شكره على نعمه - يكون وبالا على الكافر يوم القيامة حين يحضر للعذاب - اردف ذلك ببيان ما يحصل فى هذا اليوم من الاهانة والتقريع للمشركين حين يسألهم سؤالات يحارون فى الجواب عنها ، ويشتد عليهم الخطب حين لا يجدون مخلصا ومعذرة تبرر لهم ما كانوا يقترفون ، فيسألهم أولا عن الآلهة التى كانوا يعبدونها فى الدنيا من أصنام وأوثان ، هل ينصرونهم أو ينتصرون ؟ ثم يأمرهم بدعوتهم فلا يجدون منهم ردا ، ثم يسألهم

عما أجابوا به الرسل حين دعوهم إلى الايمان بربهم ، فتخفى عليهم الحجج التى تنجيهم من العذاب الذى لا مفر لهم منه ، ولا يستطيع بعضهم أن يسأل بعضا عما يلقنه من حجة لهول الموقف واشتداد الخطب ثم ذكر بعدئذ حال المؤمنين بربهم الذين عملوا صالح الاعمال وبين أنهم يلقون الفوز والظفر بالمراد فضلا من ربهم ورحمة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ﴾ هذا سؤال توبيخ وتقريع لهؤلاء الذين اشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم والزعم مطية الكذب فهم كاذبون فيما اشركوا به قال تعالى : ﴿ انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾(١) فالكون كله يهتف بوحدانية الله ، ويقر بكماله ويسبّح بجلاله ويعلن بذكره ولا يغفل عن شكره قال تعالى لهؤلاء الضالين : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾(٢) فاسألوا الكائنات عن خالقها تخبركم بلسان الحال والمقال بأنه : ﴿ الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(٣) . اسألوا الكون كله ينبئكم الخبر ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون . وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم . ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير . قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ . وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون . اتبع ما أوحى إلى من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾(٤) .

فسبحان من خشعت له الأصوات وعنت له الوجوه وهو الحى القيوم . الذى يحيى العظام وهى رميم وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . هو الواحد فى ذاته لا قسيم له . الواحد فى صفاته لا شبيه له الواحد فى أفعاله لا شريك له .

---

(١) سورة الانعام الآية : ٢٤
(٢) سورة الانعام الآية : ٩٤
(٣) سورة الحشر الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٤) سورة الأنعام الآيات : ٩٥ - ١٠٦

قال تعالى : ﴿ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ . أى : قال رؤساء الضلال والدعاة إلى الكفر الذين حق عليهم غضب الله ، ولزمهم الوعيد بقوله :

﴿ لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾(١) فدخلوا النار ـ قالوا ـ: ربنا إن هؤلاء الأتباع الذين أضللناهم ، أغويناهم باختيارهم كما غوينا نحن كذلك ، ولم يكن منالهم إلا الوسوسة والتسويل لا القسر والإلجاء ، فهم كانوا مختارين حين أقدموا على تلك العقائد وهذه الأعمال .

وخلاصة ذلك : أن تبعة غيهم واقعة عليهم لا علينا ، إذ لم نلجئهم إلى ذلك ، بل كان منا مجرد الوسوسة فحسب ، فإن كان تسويلنا لهم داعيا إلى الكفر ، فقد كان فى مقابلته دعاء الله لهم إلى الايمان ، بما وضع من الأدلة العقلية ، وبعث إليهم من الرسل ، وأنزل إليهم من الكتب المشحونة بالوعد والوعيد والمواعظ والزواجر ، وناهيك بذلك صارفا عن الكفر ، داعيا إلى الايمان .

وصدق الله ـ تعالى ـ إذ يقول فى شأن هؤلاء :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾(٢)

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾(٣) .

وقال الخليل ـ عليه السلام ـ لقومه : ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾(٤) .

وقال الله ـ تعالى ـ: ﴿ إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾(٥) .

ولهذا قال : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ أى : ليخلصوكم مما أنتم فيه كما كنتم ترجون منهم فى الدار الدنيا ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب ﴾ أى : وتيقنوا انهم صائرون إلى النار لا محالة .

وقوله : ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أى : فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين فى الدار الدنيا ، وهذا كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا . ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴾(٦) .

وقوله : ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾(٧) النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ، ماذا كان جوابكم للمرسلين إليكم ؟ وكيف كان حالكم معهم ؟ وهذا كما يسأل العبد فى قبره : من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد انه لا إله إلا الله وأن محمدا عبده

(١) من الآية : ١١٩ من سورة هود .
(٢) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة مريم .
(٣) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة الأحقاف .
(٤) الآية : ٢٥ من سورة العنكبوت .
(٥) الآيتان : ١٦٦ ، ١٦٧ من سورة البقرة .
(٦) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الكهف .
(٧) الآية : ٦٥ من سورة القصص

ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه هاه ؟ لا أدرى ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا ، ولهذا قال ـ تعالى ﴿ **فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون** ﴾[1] قال مجاهد : فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب ، وقوله : ﴿ **فأما من تاب وآمن وعمل صالحا** ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ **فعسى ان يكون من المفلحين** ﴾[2] أى : يوم القيامة ، و (عسى) من الله موجبة ، فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

كلمة فى التوبة

قال العلماء : التوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله ـ تعالى ـ لا تتعلق بحق آدمى فلها ثلاثة شروط :

أحدها : ان يقلع عن المعصية .

والثانى : ان يندم على فعلها .

والثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبدا .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته . وإن كانت المعصية تتعلق بآدمى فشروطها أربعة : هذه الثلاثة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كان حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحل منها .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته ـ عند أهل الحق ـ من ذلك الذنب ، وبقى عليه الباقى . وقد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة .

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[3] .

وقال ـ تعالى ـ ﴿ **استغفروا ربكم ثم توبوا إليه** ﴾[4] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾[5] .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة)[6] رواه البخارى .

وعن الأغر بن يسار المزنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (يا أيها الناس : توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة) رواه مسلم[7] .

---

(١) الآية : ٦٦ من سورة القصص .
(٢) الآية : ٦٧ من سورة القصص .
(٣) من الآية : ٣١ من سورة النور .
(٤) من الآية : ٣ من سورة هود .
(٥) من الآية : ٨ من سورة التحريم .
(٦) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الدعوات) باب استغفار النبى ﷺ فى اليوم والليلة جـ ٨ ص ٨٣ .
(٧) الحديث اخرجه مسلم فى صحيحه ، فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه جـ٤ ص ٢٠٧٥ ، ٢٠٧٦ رقم ٤٢/ ٢٧٠٢

وعن أبى حمزة انس بن مالك الأنصارى خادم رسول الله ﷺ - رضى الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : (الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد اضله فى أرض فلاة) . متفق عليه(١) .

وفى رواية لمسلم (لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح)(٢) .

وعن أبى موسى عبد الله بن قيس الأشعرى - رضى الله عنه عن النبى ﷺ - قال : (إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها) . رواه مسلم(٣) .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه) رواه مسلم (٤) .

وعن أبى عبدالرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما - عن النبى ﷺ قال : (إن الله - عز وجل - يقبل توبة العبد ما لم يغرغر - أى : تصل الروح حلقومه)(٥) . رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن ذر بن حبيش قال : أتيت صفوان بن عسال - رضى الله عنه - أسأله عن المسح على الخفين فقال : ما جاء بك ياذر ؟ فقلت : ابتغاء العلم . فقال : (إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضاء بما يطلب . فقلت : إنه قد حك فى صدرى المسح على الخفين بعد الغائط والبول ، وكنت امرأ من أصحاب النبى ﷺ فجئت اسألك : هل سمعته يذكر فى ذلك شيئا ، قال : نعم ، كان يأمرنا إذا كنا سفرا - أو مسافرين - ألا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة ، لكن من غائط وبول ونوم . فقلت : هل سمعته يذكر فى الهوى شيئا ؟ قال : نعم ، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفر فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابى بصوت له جهورى : يا محمد ؟ فأجابه رسول الله ﷺ نحوا من صوته هاؤم (أى : خذ) فقلت له : ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبى ﷺ وقد نهيت عن هذا ! فقال : والله لا أغضض .

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب التوبة) باب فى الحض على التوبة والفرح بها ص ٧٤٧ رقم ١٨٤٨ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب فى الحض على التوبة والفرح بها جـ٤ ص ٢١٠٤ رقم ٧ / ٢٧٤٧

(٣) اخرجه مسلم فى صحيحه ، فى (كتاب التوبة) باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة جـ٤ ص ٢١١٣ رقم ٣١ / ٢٧٥٩

(٤) الحديث فى صحيح مسلم فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه جـ٤ ص ٢٠٧٦ رقم ٤٣ / ٢٧٠٣

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى (أبواب الدعوات) جـ٥ ص ٢٠٧ رقم ٣٦٠٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب .

قال الأعرابي : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ قال النبي ﷺ : (المرء مع من أحب يوم القيامة) . فما زال يحدثنا حتى ذكر بابا من المغرب مسيرة عرضه - أو يسير الراكب في عرضه - أربعين أو سبعين عاما . قال سفيان أحد الرواة : (قبل الشام ، خلقه الله - تعالى - يوم خلق السموات والأرض مفتوحا للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس منه)[1] رواه الترمذي وغيره وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري - رضي الله عنه - أن نبي الله ﷺ قال : (كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب ، فأتاه فقال له : إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله - تعالى - فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب .

فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبا مقبلا بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرا قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم - أي : حكما - فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة)[2] متفق عليه . وفي رواية في الصحيح : (فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها) .

وفي رواية في الصحيح : (فأوحى الله تعالى إلى هذه ان تباعدي وإلى هذه أن تقربي وقال : قيسوا ما بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له) وفي رواية : فنأى بصدره نحوها .

وعن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب - رضي الله عنه - من بنيه حين عمي قال : سمعت كعب بن مالك - رضي الله عنه - يحدث بحديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك . قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله - تعالى - بينهم وبين عدوهم بغير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام . وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها . وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها (أي : أوهم انه يريد غيرها)

---

(١) الحديث اخرجه الترمذي في (أبواب الدعوات) باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله بعباده جـ٥ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ رقم ٣٦٠٢ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب التوبة) باب قبول توبة القاتل وان كثر قتله ص ٧٥٢ رقم ١٧٦٠ مع اختلاف في اللفظ تتفق مع الرواية الثالثة في الصحيح .

حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا ، واستقبل عدوا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ (يريد بذلك الديوان) قال كعب : فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى به ما لم ينزل فيه وحى من الله ، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، فأنا إليها أصعر ، فتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أعدو لكى أتجهز معه فأرجع ولم أقض شيئا وأقول - فى نفسى - : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل يتمادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئا ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا ، فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فياليتنى فعلت !! ثم لم يقدر ذلك لى ، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزننى أنى لا أرى لى أسوة ، إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله - تعالى - من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه . فقال له معاذ بن جبل - رضى الله عنه - : بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا ، فسكت رسول الله ﷺ فبينا هو على ذلك رأى رجلا مبيضا يزول به السراب ، فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة ، فإذا هو أبو خيثمة الأنصارى وهو الذى تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون . قال كعب : فلما بلغنى ان رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سخطه غدا ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى - حتى جئت فلما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعالى ، فجئت أمشى ، حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ قال : قلت : يا رسول الله انى - والله - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت انى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد اعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله يسخطك على ، وإن حدثتك حديث صدق تجد على فيه ، إنى لأرجو فيه عقبى الله - عز وجل - والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك قال : فقال رسول الله ﷺ : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك . وسار رجال من بنى سلمة فاتبعونى فقالوا لى : والله ما علمناك أذنبت ذنبا قبل هذا ، لقد عجزت فى الا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك . قال : فوالله مازالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى من أحد ؟ قالوا : نعم :

لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قال : قلت : من هما ؟ قالوا : مرارة ابن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى .

قال : فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة ، قال : فمضيت حين ذكروهما لى .

ونهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن كلامنا ـ أيها الثلاثة ـ من بين من تخلف عنه ، قال : فاجتنبنا الناس ـ أو قال : تغيروا لنا ـ حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان . وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ، ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة ـ وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ـ فسلمت عليه ، فوالله ما رد على السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة : أنشدك بالله : هل تعلمنى أحب الله ورسوله ـ ﷺ ـ فسكت ، فعدت فناشدته ، فسكت ، فعدت فناشدته . فقال : الله ورسوله أعلم .

ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشى فى سوق المدينة اذا نبطى من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلى حتى جاءنى ، فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا . فقرأته ، فإذا فيه : أما بعد : فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحى اذا رسول رسول الله ـ ﷺ ـ يأتينى فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنها ، وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت له . . يا رسول الله : إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربنك ، فقالت : إنه ـ والله ـ ما به من حركة إلى شىء ، ووالله مازال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك ؟ فقد اذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ؟ فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ وما يدرينى ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟ فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ، ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى منا : قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أو فى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجدا ، وعرفت أنه قد جاء فرج ، فآذن رسول الله ﷺ الناس بتوبة الله ـ عز وجل ـ علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا .

فذهب قبل صاحبى مبشرون ، وركض إلىّ رجل فرسا وسعى ساع من أسلم قبلى وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقانى الناس فوجا فوجا يهنئوننى بالتوبة ، ويقولون لى : لتهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس فقام طلحة بن عبيد الله ـ رضى الله عنه ـ يهرول حتى صافحنى وهنأنى .

والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، فكان كعب لا ينساها لطلحة . قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور : أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك . فقلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله عز وجل ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله : إن من توبتى أن أنخلع (أخرج) من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . فقال رسول الله ﷺ : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . فقلت : إنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يا رسول الله إن الله ـ تعالى ـ إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى الا أحدث إلا صدقا ما بقيت ، فو الله ما علمت أحدا من المسلمين أبلاه الله ـ تعالى ـ فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلانى الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله ـ تعالى ـ فيما بقى ، قال : فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة** ﴾[1] . حتى بلغ : ﴿ **إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت** ﴾[2] حتى بلغ : ﴿ **اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[3] قال كعب : والله ما أنعم الله على من نعمة قط بعد إذ هدانى الله للاسلام أعظم فى نفسى من صدق رسول الله ﷺ الا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله ـ تعالى ـ قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، فقال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** ﴾[4] قال كعب : كنا خلفنا ـ أيها الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ـ ﷺ ـ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله ـ تعالى ـ فيه بذلك . قال الله ـ تعالى ـ ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ (وليس الذى ذكر مما خلفنا تخلفنا ـ عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه)[5].

---

(١) من الآية : ١١٧ من سورة التوبة .
(٢) من الآية : ١١٧ ومن الآية ١١٨ من سورة التوبة .
(٣) من الآية : ١١٩ من سورة التوبة .
(٤) الآيتان : ٩٥ ، ٩٦ من سورة التوبة .
(٥) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب التوبة) باب : حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ص ٧٥٤ ـ ٧٦٢ رقم ١٧٦٢ مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ .

متفق عليه . وفى رواية (ان النبى ﷺ خرج فى غزوة تبوك يوم الخميس ، وكان يحب ان يخرج يوم الخميس)فى رواية : (وكان لا يقدم من سفر إلا نهارا فى الضحى ، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه) .

وعن أبى نجيد عمران بن الحصين الخزاعى ـ رضى الله عنهما ـ أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حبلى من الزنا فقالت : يا رسول الله : أصبت حدا فأقمه على ، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال : (أحسن إليها ، فإذا وضعت فائتنى ، ففعل ، فأمر بها نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال : ثم تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟) رواه مسلم (١) .

وعن ابن عباس وانس بن مالك ـ رضى الله عنهم ـ أن رسول الله ﷺ قال : (لو أن لابن آدم واديا من ذهب أحب أن يكون له واديان ، ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب) متفق عليه .) (٢) .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (يضحك الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة ، يقاتل هذا فى سبيل الله فيقتل ، ثم يتوب الله على القاتل فيسلم فيستشهد) متفق عليه(٣) .

من دلائل التوحيد

قوله تعالى : وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ

(١) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الحدود) باب من اعترف على نفسه بالزنا جـ٣ ص ١٣٢٤ رقم ٢٤ / ١٦٩٦ .

(٢) انظر الؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب : لو أن لابن آدم واديين لابتغى ثالثا ص ٢٢١ برقمى ٦٢٢ ، ٦٢٣ .
(٣) انظر الؤلؤ والمرجان (كتاب الامارة) باب : بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة . ص ٤٩٤ رقم ١٢٣٨ .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

المفردات :

(الخيرة) أى : الاختيار . (تكن) : تخفى (سرمدا) دائما ، مأخوذ من السرد ، وهو المتابعة . (تسكنون فيه) : تهدأون فيه وتستريحون . (ونزعنا) : أخرجنا (وضل عنهم) : تاه

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وبخهم فيما سلف على اتخاذهم الشركاء ، وذكر أنه يسألهم عنهم يوم القيامة تهكما بهم وتقريعا لهم ، أردف ذلك بتجهيلهم على اختيار ما أشركوه ، واصطفائهم إياه للعبادة ، وأبان لهم أن تمييز بعض المخلوقات عن بعض ، واصطفاءه على غيره من حق الله لا من حقكم أنتم ، والله لم يصطف شركاءكم الذين اصطفيتموهم للعبادة والشفاعة ، فما أنتم إلا جهال ضلال .

وبعد ان ذكر ـ سبحانه ـ انه المستحق للحمد على ما أولاه من النعم ، وتفضل به من المن ، أردف هذا تفصيل ما يجب ان يحمد عليه منها ، ولا يقدر عليه سواه .

وبعد ان وبخ المشركين اولا على فساد رأيهم فى اتخاذ الشركاء لله ، ثم ذكر التوحيد ودلائله ـ عاد إلى تقريعهم وتبكيتهم ثانيا ببيان أن اشراكهم لم يكن عن دليل صحيح ، بل كان عن محض الهوى ، كما يرشد إلى ذلك قوله : (قل هاتوا برهانكم) .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون . وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون . وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾** .

يخبر الله ـ تعالى ـ أنه المنفرد بالخلق والاختيار وما سوى الله لا يخلق شيئا ، بل هو المخلوق ، ولا يختار ، لأن ارادة الله فوق كل ارادة ، فهو إذا أراد قضى المراد ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وإذا قضى امرا فإنما يقول له : كن فيكون **﴿ وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ وليا فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين . قل إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾**[1] . ويقول ـ سبحانه :ـ **﴿ قل أغير الله**

---

(١) الآيات : من ١٣ ـ ١٨ من سورة الأنعام .

أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[١] .

ويقول ـ سبحانه ـ : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾[٢] . ولما كان ـ سبحانه ـ هو المنفرد بالخلق والاختيار جاء تذييل الآية تنزيها من الشرك (سبحان الله وتعالى عما يشركون) وليس هذا الانفراد بالخلق والاختيار عبثا ـ تعالى الله عن ذلك ـ : انما هو مبنى على العلم الشامل والحكمة البالغة . قال ـ تعالى ـ : ﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ فاللهم أنت ربى لا إله إلا أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم ، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علما ، وأحصى كل شيء عددا . اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . سبحانه : علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾[٣] .

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٤] .

إذا علمت ذلك ـ أيها المؤمن ـ فاطلب الخيرة من الله ، واعلم أن هناك صلاة تسمى صلاة الاستخارة ، واليك بيانها .

صلاة الاستخارة

يسن لمن أراد أمرا من الأمور المباحة ، والتبس عليه وجه الخير فيه ، أن يصلى ركعتين من غير الفريضة ، ولو كانتا من السنن الراتبة ، أو تحية المسجد ، فى أى وقت من الليل أو النهار ، يقرأ فيهما بما شاء بعد الفاتحة ، ثم يحمد الله ويصلى على نبيه ﷺ ثم يدعو بالدعاء الذى رواه البخارى من حديث جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة فى الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : (إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل : اللهم أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال : عاجل أمرى وآجله ـ فاقدره لى ، ويسره لى ، ثم بارك لى فيه ، وإن كنت تعلم

---

(١) الآية : ١٦٤ من سورة الأنعام .
(٢) الآية : ٣٦ من سورة الأحزاب
(٣) الآية : ٧ من سورة المجادلة .
(٤) الآية : ٥٩ من سورة الأنعام .

أن هذا الأمر شر لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى أو قال : عاجل أمرى وآجله ـ فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ، ثم أرضنى به)[1] قال : ويسمى حاجته ، أى : يسمى حاجته عند قوله : (اللهم إن كان هذا الأمر) .

ولم يصح فى القراءة فيها شىء مخصوص ، كما لم يصح شىء فى استحباب تكرارها . قال النووى : ينبغى ان يفعل بعد الاستخارة ما ينشرح له ، فلا ينبغى أن يعتمد على انشراح كان فيه هوى قبل الاستخارة ، بل ينبغى للمستخير ترك اختياره رأسا ، وإلا فلا يكون مستخيرا لله ، بل يكون غير صادق فى طلب الخيرة وفى التبرى من العلم والقدرة واثباتهما لله ـ تعالى ـ فإذا صدق فى ذلك تبرأ من الحول والقوة ومن اختياره لنفسه .

أساس كل خير

أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها . وتتضرع إليه الا يقطعها عنك ، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته ، فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها ، ولا يكلك فى فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك .

وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد . وكل شر فأصله خذلانه لعبده . وأجمعوا أن التوفيق الا يكلك الله إلى نفسك وأن الخذلان هو أن يخلى بينك وبين نفسك ، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجوء والرغبة والرهبة إليه . فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له ، ومتى أضله عن المفتاح بقى باب الخير مرتجا دونه .

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء ، فإذا ألهمت الدعاء فإن الاجابة معه ، وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته فى ذلك يكون توفيقه ـ سبحانه ـ واعانته ، فالمعونة من الله تتنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم . والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك ، فالله ـ سبحانه أحكم الحاكمين ، وأعلم العالمين ، يضع التوفيق فى مواضعه اللائقة به ، والخذلان فى مواضعه اللائقة به ، وهو العليم الحكيم .

وما أتى من أتى إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء . ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء . وملاك ذلك : الصبر ، فإنه من الايمان بمنزلة

(١) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصلاة) باب التطوع مثنى مثنى جـ٢ ص ٧٠ وفى جـ٨ ص ١٠١ فى (كتاب الدعوات) باب الدعاء عند الاستخارة .
ورواه احمد جـ٣ ص ٣٤٤ وانظر الترمذى (كتاب ابواب التطوع) باب ما جاء فى صلاة الاستخارة جـ١ ص ٢٩٨ رقم ٤٧٨ وابو داود (كتاب الصلاة) باب : فى الاستخارة جـ ٢ ص ١٨٧ رقم ١٥٣٨ .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها) جـ١ ص ٤٤٠ رقم ١٣٨٣

الرأس من الجسد ، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد .

وما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله . خلقت النار لإذابة القلوب القاسية . أبعد القلوب من الله القلب القاسى . إذا قسا القلب قحطت العين .

قسوة القلب من أربعة أشياء : إذا جاوزت قدر حاجة الأكل ، والنوم ، والكلام ، والمخالطة . كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب . فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجح فيه المواعظ .

من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته ـ القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها . القلوب آنية الله فى أرضه فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها . شغلوا قلوبهم بالدنيا ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت فى معانى كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفوائد ـ إذا غذى القلب بالتذكر وسقى بالتفكر ونقى من الدغل رأى العجائب ، وألهم الحكمة .

ليس كل من تحلى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها ، بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى ، وأما من قتل قلبه فأحيا الهوى فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه .

خراب القلب من الأمن والغفلة ، وعمارته من الخشية والذكر . إذا زهدت القلوب فى موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة ، واذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد . الشوق الى الله ولقائه نسيم يهب على القلب يروح عنه وهج الدنيا ، من وطن قلبه عند ربه سكن وإستراح ، ومن أرسله فى الناس اضطرب واشتد به القلق .

لا تدخل محبة الله فى قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل فى سم الابرة . إذا أحب الله عبدا اصطنعه لنفسه واجتباه لمحبته واستخلصه لعبادته فشغل همه به ، ولسانه بذكره ، وجوارحه بخدمته . والقلب يمرض كما يمرض البدن ، وشفاؤه فى التوبة والحمية ، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر . ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى ، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن ، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والانابة والخدمة .

إياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلا ولأيامك وأنفاسك أمدا . ومن كل ماسواه بد ولابد لك منه ـ من طلب الاختيار والتدبير فى طلب زيادة دنيا أو جاه ، أو فى خوف نقصان ، أو فى التخلص من عدو توكلا على الله وثقة بتدبيره له ، وحسن اختياره له ، فألقى كنفه بين يديه ، وسلم الأمر إليه ، ورضى بما يقضيه له ، استراح من الهموم والغموم والأحزان ، ومن أبى إلا تدبيره لنفسه وقع فى النكد والنصب وسوء الحال والتعب ، فلا عيش يصفو ، ولا قلب يفرح ، ولا عمل يزكو ، ولا أمل يقوم ، ولا راحة تدوم .

والله ـ سبحانه ـ سهل لخلقه السبيل إليه ، وحجبهم عنه بالتدبير ، فمن رضى بتدبير الله له ، وسكن إلى اختياره ، وسلم لحكمه أزال ذلك الحجاب ، فأفضى القلب إلى ربه ، واطمأن إليه وسكن ـ المتوكل لا يسأل غير الله ، ولا يرد على الله ، ولا يدخر مع الله .

ومن شغل بنفسه شغل عن غيره . ومن شغل بربه شغل عن نفسه ، الاخلاص هو ما لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا عدو فيفسده ، ولا يعجب به صاحبه فيبطله - الرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام . الناس فى الدنيا معذبون على قدر هممهم بها - للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع له : ثلاثة سافلة ، وثلاثة عالية ، فالسافلة ، دنيا تتزين له ، ونفس تحدثه ، وعدو يوسوس له . فهذه مواطن الأرواح السافلة التى لا تزال تجول فيها .

والثلاثة العالية : علم يتبين له ، وعقل يرشده ، وإله يعبده . والقلوب جوالة فى هذه المواطن .

اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد ، فإن اتباع الهوى يعمى عن الحق معرفة وقصدا . وطول الأمل ينسى الآخرة ويصد عن الاستعداد لها - لا يشم عبد رائحة الصدق ويداهن نفسه أو يداهن غيره ، اذا اراد الله بعبد خيرا جعله معترفا بذنبه ، ممسكا عن ذنب غيره . جوادا بما عنده ، زاهدا فيما عند غيره ، محتملا لأذى غيره ، وإن أراد به شرا عكس ذلك .

الهمة العلية لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء :

تعرف لصفة من الصفات العليا ، تزداد بمعرفتها محبة وارادة ، وملاحظة لمنة تزداد بملاحظتها شكرا وطاعة ، وتذكر لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية ، فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاثة جالت فى اودية الوساوس والخطرات .

من عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيرته من خدمها وعبيدها وأذلته ، ومن أعرض عنها نظرت إلى كبر قدره فخدمته وذلت له .

إنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل ، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده ؟!

قوله - تعالى - : ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾ .

﴿ **وهو الله لا إله إلا هو** ﴾ أى : هو المنفرد بالالهية فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ **له الحمد فى الأولى والآخرة** ﴾ أى : فى جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته . ﴿ **وله الحكم** ﴾ أى : الذى لا معقب له لقهره وغلبته وحكمته ورحمته ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ أى : جميعكم يوم القيامة ، فيجزى كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية فى سائر الأعمال .

ولما كانت كلمة التوحيد أساس العقيدة آثرنا أن نبين فضلها ، فقد قال رسول الله ﷺ لما قال له أبو هريرة :

(١) من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ : (لقد ظننت يا أبا هريرة الا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث . أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه - أو نفسه ﴾[١] . رواه البخارى

(١) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ/زروق (كتاب العلم) باب الحرص على الحديث . . جـ١ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ رقم ٣٧

(٢) وعن عبادة بن الصامت ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، والجنة حق والنار حق ، أدخله الله الجنة على ما كان من عمل ـ زاد جنادة ـ: من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء)[١] رواه البخارى واللفظ له ، ومسلم .

(٣) وفى رواية لمسلم والترمذى : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار)[٢] .

ومعنى حرم : أبعد عنه العقاب .

(٤) وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ ان النبى ﷺ ومعاذ رديفه على الرحل قال : (يا معاذ بن جبل ؟) قال : لبيك يا رسول الله وسعديك ـ ثلاثا ـ قال (ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرمه الله على النار) . قال : يا رسول الله افلا أخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال :(إذا يتكلوا) وأخبر بها معاذ عند موته تأثما [٣] . رواه البخارى ومسلم .

معنى (تأثما) أى : تحرجا من الاثم ، وخوفا منه ان يلحقه إن كتمه (قال المملى) عبد العظيم : وقد ذهب طوائف من أساطين أهل العلم إلى أن مثل هذه الاطلاقات التى وردت فيمن قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، أو حرم الله عليه النار ، ونحو ذلك إنما كان فى ابتداء الاسلام ، حين كانت الدعوة إلى مجرد الاقرار بالتوحيد ، فلما فرضت الفرائض وحدت الحدود نسخ ذلك ، والدلائل على هذا كثيرة متظاهرة ، وإلى هذا القول ذهب الضحاك ، والزهرى ، وسفيان الثورى ، وغيرهم . وقالت طائفة أخرى : لا احتياج إلى ادعاء النسخ فى ذلك ، فإن كل ما هو من أركان الدين وفرائض الاسلام هو من لوازم الاقرار بالشهادتين ، وتتماته ، فإذا أقر ثم امتنع عن شىء من الفرائض جحدا ، أو تهاونا ـ على تفصيل الخلاف فيه ـ حكمنا عليه بالكفر ، وعدم دخول الجنة ، وهذا القول أيضا قريب ، وقالت طائفة أخرى : التلفظ بكلمة التوحيد سبب يقتضى دخول الجنة والنجاة من النار ، بشرط ان يأتى بالفرائض ، ويجتنب الكبائر ، فإن لم يأت بالفرائض ولم يجتنب الكبائر لم يمنعه التلفظ بكلمة التوحيد من دخول النار ، وهذا قريب مما قبله ، أو هو هو ، وقد بسطنا الكلام على هذا ، والخلاف فيه فى غير ما موضع من كتبنا . والله ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم .

(٥) روى عن زيد بن ارقم ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال : لا إله إلا الله

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الايمان) باب : من لقى الله بالايمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ص ٧ رقم ١٧ .

وانظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الأنبياء) باب قولة تعالى : يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم .. الخ جـ٦ ص ٤٢٣ رقم ١٠٧ .

(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا جـ١ ص ٥٧ ، ٥٨ رقم ٤٧ / ٢٩

(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ، فى (كتاب الايمان) باب من لقى الله بالايمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار ص ٨ رقم ٢٠

وانظر البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب العلم) باب : من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية ألا يفهموا .. الخ جـ١ ص ٣٠٧ رقم ٦٥

مخلصا دخل الجنة . قيل : وما إخلاصها ؟ قال : أن تحجزه عن محارم الله)[١] . رواه الطبرانى فى الأوسط ، وفى الكبير إلا انه قال : (أن تحجزه عما حرم الله عليه) .
- ومعنى (تحجزه) أى : تمنعه وتبعده عن ارتكاب المعاصى وغشيان الفجور .

قوله تعالى : **﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلاتسمعون*قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾** .

إن الليل والنهار آيتان من آيات الله . قال ـ تعالى ـ **﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾**[٢] . وقد تحدى الله ـ تعالى ـ بهاتين الآيتين عباده الذين لم يحسنوا الظن به ، وظنوا أنهم قادرون على هذه الأرض ، وخاصة الجبابرة الذين ذكر القرآن نموذجين منهم فى هذه السورة (سورة القصص) : الفرعونية الحاكمة ، والقارونية الكانزة ، طاغوت الحكم ، وطاغوت المال ، ولقد كان هذا التحدى ومازال وسيظل قائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وفى هاتين الآيتين امتنان من الله ـ تعالى ـ لعباده الشاكرين ، فيقول ـ تعالى ـ ممتنا على هؤلاء العباد بما سخر من الليل والنهار اللذين لا قوام لهما بدونهما وبين أنه لو جعل الليل دائما عليهم سرمدا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولسئمته النفوس وانحصرت منه ، ولهذا قال ـ تعالى ـ : **﴿ من إله غير الله يأتيكم بضياء ﴾** أى : تبصرون به وتستأنسون بسببه . **﴿ أفلا تسمعون ﴾** ؟ ثم أخبر ـ تعالى ـ أنه لو جعل النهار سرمدا ، أى : دائما مستمرا إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان وكلت من كثرة الحركات والأشغال ، ولهذا قال ـ تعالى ـ : **﴿ من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾** أى : تستريحون من حركاتكم وأشغالكم **﴿ أفلا تبصرون . ومن رحمته ﴾** أى : بكم **﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾** أى : خلق هذا وهذا **﴿ لتسكنوا فيه ﴾** أى : فى الليل **﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾** أى : فى النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال وهذا من باب اللف والنشر ، وقوله : **﴿ ولعلكم تشكرون ﴾** أى : تشكرون الله بأنواع العبادات فى الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل ، كما قال ـ تعالى ـ : **﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾**[٣] .

---

(١) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب الايمان) باب فيمن شهد ان لا إله إلا الله جـ١ ص ١٨ وقال الهيثمى: رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير إلا أنه قال فى الكبير : قال رسول الله ﷺ : (إخلاصه : ان تحجزه عما حرم الله عليه) ثم قال : وفى اسناده محمد بن عبد الرحمن بن غزوان وهو وضاع اهـ : مجمع

(٢) الآية : ١٢ من سورة الاسراء

(٣) الآية : ٦٢ من سورة الفرقان .

يقول الامام ابن القيم - رحمه الله تعالى - :

خص - سبحانه - النهار بذكر البصر ، لأنه محله . وفيه سلطان البصر وتصرفه ، وخص الليل بذكر السمع ، لأن سلطان السمع يكون بالليل ، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع فى النهار ، لأنه وقت هدوء الأصوات ، وخمود الحركات ، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر ، والنهار بالعكس ، فيه قوة سلطان البصر ، وضعف سلطان السمع .

فقوله : ﴿ **أفلا تسمعون** ﴾ راجع إلى قوله ﴿ **قل أرأيتم** ﴾ أى : إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم به ؟

وقوله : ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ راجع إلى قوله : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة** ﴾ .

قوله - تعالى - : ﴿ **ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون . ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ .

وهذا أيضا نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلها آخر يناديهم الله - تعالى - على رءوس الأشهاد فيقول : ﴿ **أين شركائى الذين كنتم تزعمون** ﴾ أى : فى دار الدنيا ﴿ **ونزعنا من كل أمة شهيدا** ﴾ قال مجاهد : يعنى رسولا . ﴿ **فقلنا هاتوا برهانكم** ﴾ أى : على صحة ما ادعيتمره من أن لله شركاء ﴿ **فعلموا أن الحق لله** ﴾ أى : لا إله غيره فلم ينطقوا ولم يحيروا جوابا ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾ أى : ذهبوا فلم ينفعوهم .

قصة قارون

قوله تعالى : * إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ

لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ
مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ
يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ
بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

المفردات

﴿ **فبغى عليهم** ﴾ : تكبر عليهم ، أو ظلمهم ، ﴿ **الكنوز** ﴾ كنز المال : جمعه وادخره ، والكنز : المال المدفون ، وجمعه : كنوز ﴿ **لتنوء بالعصبة** ﴾ : لتثقل ، يقال : ناء به الحمل : ثقل عليه ، والعصبة الجماعة من الناس . ﴿ **وابتغ** ﴾ : اطلب . ﴿ **على علم عندى** ﴾ : أوتيته على معرفة عندى ﴿ **ويلكم** ﴾ الويل : الهلاك ، أو العذاب . ﴿ **فخسفنا** ﴾ المراد : جعلنا عاليها سافلها . ﴿ **وى كأنه** ﴾ وكلمة ﴿ **وى** ﴾ بمعنى : أتعجب ، و ﴿ **كأن** ﴾ للتشبيه . ﴿ **ويقدر** ﴾ أى : يضيق ويقتر . ﴿ **علوا** ﴾ تكبرا وغلبة . وهذه هى آخر القصص التى ذكرت فى تلك السورة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ حديث أهل الضلالة وما يلقونه من الاهانة والاحتقار يوم القيامة ، ومناداتهم على رءوس الاشهاد بما يفضحهم ويبين لهم سوء مغبتهم ، أعقبه بقصص قارون ، ليبين عاقبة أهل البغى والجبروت فى الدنيا والآخرة ، فقد أهلك قارون بالخسف ، وزلزلت به الأرض ، وهوت من تحته ، ثم أصبح مثلا يضرب للناس فى ظلمه وعتوه ، ويستبين لهم به سوء عاقبة البغاة ، وما يكون لهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة ، فيندمون على ما فعلوا .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

وبعد أن ذكر فيما سلف بغى قارون وعتوه وجبروته ، وكثرة ما أوتيه من المال الذى تنوء به العصبة أولو القوة ، أردف ذلك تفصيل بعض مظاهر بغيه وكبريائه ، فذكر أنه خرج على قومه ، وهو فى أبهى

حليه وحلله ، والعدد العديد من أعوانه وحشمه ، قصدا للتعالى على العشيرة ، وابناء البلاد ، وفى ذلك كسر للقلوب ، وإذلال للنفوس ، وتفريق للكلمة . فلا تربطهم رابطة ، ولا تجمعهم جامعة ، فيذلون فى الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم ، وتفريقهم شذر مذر ، وقد غرت هذه المظاهر بعض الجهال الذين لا هم لهم إلا زخرف الحياة وزينتها ، فتمنوا أن يكون لهم مثلها ، فرد عليهم من وفقهم الله لهدايته ، بأن ما عنده من النعيم لمن اتقى خير مما أوتى قارون ، ولا يناله إلا من صبر على الطاعات ، واجتنب المعاصى ، ثم أعقب ذلك بذكر ما آل إليه أمره من خسف الأرض به وبداره ، ولم يجد معينا ينصره ويدفع العذاب عنه ، وقد انقلب حال المتمنين المعجبين بحاله الى متعجبين مما حل به ، قائلين : إن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ، لا لفضل منزلته عنده وكرامته لديه ، كما بسط لقارون ، ويضيق على من يشاء ، لا لهوانه عليه ولا لسخط عمله ، ولولا أن تفضل علينا فصرف عنا ما كنا نتمناه بالأمس لخسف بنا الأرض .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ قول أهل العلم بالدين : ثواب الله خير ـ أعقب ذلك بذكر محل الجزاء ، وهو الدار الآخرة ، وجعله لعباده المؤمنين المتواضعين ، الذين لا يترفعون على الناس ، ولا يتجبرون عليهم ، ولا يفسدون فيهم ، بأخذ أموالهم بغير حق ، ثم بين بعدئذ ما يحدث فى هذه الدار ، جزاء على الأعمال فى الدنيا ، فذكر أن جزاء الحسنة عشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما لا يحيط به الإعلام الغيوب ، فضلا من الله ورحمة ، وجزاء السيئة مثلها ، لطفا منه بعباده ، وشفقة عليهم .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس قال : (إن قارون كان من قوم موسى) قال : كان ابن عمه . وقال ابن جريج : هو قارون بن يصهب بن قاهث ، وموسى بن عمران بن قاهث .

ولقد نافق قارون كما نافق السامرى فأهلكه البغى لكثرة ماله . قال ـ تعالى ـ: **﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين . فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾**[1] .

قوله ـ تعالى ـ **﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾** أى : الأموال **﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ﴾**

---

(١) الأيتان : ٣٩ ، ٤٠ من سورة العنكبوت .

أي : ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها . قال الأعمش عن خيثمة : كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الاصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدته ، فإذا ركب حملت على ستين بغلا أغر محجلا) . قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ أى : وعظه فيما هو فيه صالحو قومه فقالوا على سبيل النصح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون : لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ . قال ابن عباس : يعنى المرحين . وقال مجاهد : يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم . وقوله :

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى : استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل والنعمة الطائلة فى طاعة ربك والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها الثواب فى الدنيا والآخرة ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أى : مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولزورك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أى : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ ولا تبغ الفساد فى الأرض ﴾ أى : لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض وتسىء إلى خلق الله ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

هذه خمس نصائح وجهها قومه إليه ، والدين النصيحة ، والنصيحة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم .

وللاسلام موقف جليل فيما يتعلق بالدلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة :

قال ـ تعالى ـ : ﴿ وادع إلى ربك ﴾(١) وقال ـ تعالى ـ : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾(٢) وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾(٣) . وقال ـ تعالى ـ: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾(٤) .

وعن أبى مسعود عقبة بن عمرو الأنصارى البدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) رواه مسلم (٥) .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)(٦) .

---

(١) من الآية : ٦٧ من سورة الحج .

(٢) من الآية : ١٢٥ من سورة النحل .

(٣) من الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٤) من الآية : ١٠٤ من سورة آل عمران .

(٥) الحديث اخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الامارة) باب فضل اعانة الغازى فى سبيل الله . . جـ٣ ص ١٥٠٦ رقم ١٣٣ / ١٨٩٣ .

(٦) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب العلم) باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة جـ٤ ص ٢٠٦٠ رقم ١٦ / ٢٦٧٤

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدى ـ رضى الله عنه ـ ان رسول الله ﷺ قال يوم خبير : (لأعطين هذه الراية غدا رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله) فبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ـ ﷺ ـ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال : (وأين على بن أبي طالب) فقيل : يا رسول الله هو يشتكى عينيه . قال : (فأرسلوا إليه . . فأتى به ، فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه ودعا له فبرىء ، حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية . قال على ـ رضى الله عنه ـ: يا رسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ـ تعالى ـ فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)[١] . متفق عليه . قوله : ﴿ يدوكون ﴾ أى : يخوضون ويتحدثون . قوله : ﴿ رسلك ﴾ بكسر الراء وبفتحها لغتان ، والكسر أفصح .

ـ ﴿ حمر النعم ﴾ النعم : الابل ، والحمر منها أنفس أموال العرب . .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن فتى من أسلم قال : يا رسول الله : انى أريد الغزو ، وليس معى ما أتجهز به ؟ قال : (ائت فلانا قد كان تجهز فمرض) فأتاه فقال : إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ، ويقول : أعطنى الذى تجهزت به ، فقال : (يا فلانة أعطيه الذى تجهزت به ولا تحبسى منه شيئا ، فوالله لا تحبسين منه شيئا فيبارك لنا فيه)[٢] رواه مسلم .

إن فى النصيحة والدلالة إلى الخير تعاونا على البر والتقوى ، وقد أمر الله ـ تعالى ـ بذلك فقال : ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾[٣] . وقال ـ تعالى ـ : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[٤] .

قال الامام الشافعى ـ رحمه الله ـ كلاما معناه : إن الناس ـ أو أكثرهم ـ فى غفلة ـ عن تدبر هذه السورة .

وعن أبي عبد الرحمن زيد بن خالد الجهنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا)[٥] . متفق عليه .

ـ معنى (خلف) ـ بفتح الخاء المعجمة وتخفيف اللام ـ أى : قام بما يحتاجون إليه .

وعن أبي سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ بعث بعثا إلى بنى لحيان من هذيل فقال : (لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما) رواه مسلم .[٦] .

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب فضائل الصحابة) باب : من فضائل على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ص ٦٤٠ رقم ١٥٥٧ .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الامارة) باب فضل إعانة الغازى فى سبيل الله . . الخ جـ٣ ص ١٥٠٦ رقم ١٣٤ / ١٨٩٤

(٣) من الآية : ٢ من سورة المائدة .

(٤) سورة العصر .

(٥) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الامارة) باب فضل اعانة الغازى . . الخ ص ٤٩٤ رقم ١٢٣٩ .

(٦) الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الامارة) باب فضل اعانة الغازى . . الخ جـ٣ ص ١٥٠٧ رقم ١٣٧ / ١٨٩٦ .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ان رسول الله ﷺ لقى ركبا بالروحاء فقال : (من القوم ؟) قالوا : المسلمون ، فقالوا : من أنت ؟ قال : (رسول الله) فرفعت إليه امرأة صبيا فقالت : ألهذا حج ؟ قال : (نعم ولك أجر) رواه مسلم .

(الروحاء) : مكان بقرب المدينة المنورة .

وعن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ أنه قال : (الخازن المسلم الأمين الذى ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملا موفرا طيبة به نفسه فيدفعه الى الذى أمر له به : أحد المتصدقين) متفق عليه[1] وفى رواية (الذى يعطى ما أمر به) وضبطوا (المتصدقين) بفتح القاف مع كسر النون على التثنية ، وعكسه على الجمع ، وكلاهما صحيح .

بم أجاب قارون قومه ؟ (قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) .

كان هذا جواب قارون الذى أجاب به قومه بعد أن نصحوه ، فهو يقول لهم : لست بحاجة إلى نصائحكم أو توجيهاتكم أو ارشاداتكم ، لأننى أوتيت هذا المال على علم عندى ، وهو كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] .

وقوله جل شأنه : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى ﴾[3] . أى هذا استحقه . ولهذا قال ـ تعالى ـ رادا عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال : ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ لكثرتها . وظهورها عيانا بيانا . قال الامام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندى ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال ، وقرأ : ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ﴾ الآية . وهكذا يقول من قل علمه إذا رأى من وسع الله عليه : لولا أن يستحق ذلك لما أعطى .

إن الصراع بين النفس والمال عنيف إذا كان صاحب هذه النفس لا يعرف الله ولا يتقيه .

النفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

لقد ظن ذلك الطاغية أن ما أعطاه الله من المال دليل على رضاه عنه . كلا : ﴿ فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن ﴾[4]. كلا ، فليس المال دليلا على الرضا وليس الفقر دليلا على السخط .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب اجر الخازن الأمين والمرأة اذا تصدقت من بيت زوجها . . الخ ص ٢١٣ رقم ٦٠٢ .

(٢) الآية : ٤٩ من سورة الزمر .

(٣) من الآية : ٥٠ من سورة فصلت .

(٤) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة الفجر .

هى القناعة فاحفظها تكن ملكا لو لم تكن لك إلا راحة البدن
وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

صدق رسول الله - ﷺ - إذ يقول : (نعم المال الصالح للعبد الصالح ﴾[1] .

ما فى الحياة بقاء ما فى الحياة ثبوت
نبنى البيوت وحتما تنهار تلك البيوت
تموت كل البرايا سبحان من لا يموت .

قوله - تعالى - : ﴿ **فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾ .

نعم يا ربنا لقد جلت حكمتك ، وعظمت آيتك ، أنت القائل : ﴿ **ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ فأنت حين تريد عقابهم لا تسألهم عن مقدار ذنوبهم ، ولا عن كنهها ، لأنك عليم ، ولا تعاتبهم عليها ، كما قلت : ﴿ **وما هم من المعتبين** ﴾[2] . وقلت : ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾[3] .

ونحو الآية قولك : ﴿ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾[4] .

وهذا لا يمنع أنهم يسألون سؤال تقريع وإهانة ، كما جاء فى قولك : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين * عما كانوا يعملون** ﴾[5] .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى مشهد آخر من مشاهد القصة . إن قارون يخرج فى زينته على قومه مختالا فخورا ، والدنيا إذا أقبلت على انسان خلعت عليه محاسن غيره ، فإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه . فكل سيئة للغنى فى نظر الناس حسنة ، وكل حسنة للفقير فى نظر الناس سيئة ، فالغنى إذا كان أبكم قال الناس : إنه رزين ، وإذا كان جبانا قال الناس : إنه حكيم ، وإذا كان ممسكا قال الناس : إنه محافظ على النعمة . والفقير إذا كان كريما قال الناس : انه متلاف ، وإذا كان شجاعا قال الناس : إنه متهور ، وإذا كان فصيحا قال الناس : إنه ثرثار .

يمشى الفقير وكل شىء ضده والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب اذا رأت رجل الغنى حنت اليه وحركت أذنابها

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده (حديث عمرو بن العاص) جـ٤ ص ١٩٧ ولفظه : (نعم المال الصالح للمرء الصالح)
وانظر كشف الخفاء جـ٢ ص ٤٤٢ رقم ٢٨٢٣ .
(٢) من الآية : ٢٤ من سورة فصلت .
(٣) من الآية : ٨٤ من سورة النحل .
(٤) من الآية : ٣٩ من سورة الرحمن .
(٥) الايتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة الحجر .

واذا رأت يوما فقيرا ماشيـا نبحت عليه وكشرت انيـابها

يقول ـ تعالى ـ مخبرا عن قارون : إنه خرج ذات يوم فى زينة عظيمة ، وتجمل باهر : من مراكب ، وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى . ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ أى : ذو حظ وافر من الدنيا ، فلما سمع مقالتهم أهل العلم النافع قالوا لهم :

﴿ ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ﴾ أى : جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين فى الدار الآخرة خير مما ترون ، كما فى الحديث الصحيح : (يقول الله ـ تعالى ـ : **أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر** [١]) .

واقرأوا إن شئتم : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[٢] .

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[٣] .

﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾[٤] .

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون[٥] ﴾ ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب ﴾ [٦].

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ أى : ولا يتبع هذه النصيحة ، ولا يعمل بها إلا من صبر على أداء الطاعات ، واجتنب المحرمات ، ورضى بقضاء الله فى كل ما قسم من المنافع والمضار ، وانفق ماله فى كل ما فيه سعادة لنفسه ولمجتمعه ، وكان قدوة صالحة فى حفظ مجد أمته ، ورفع صيتها بين الأمم ، ببذل كل ما فيه نفعها وقوتها ، وإعلاء شأنها ، وبذا ينال حسن الأحدوثة بين الناس ، ويلقى المثوبة من ربه .

عاقبة قارون

قال ـ تعالى ـ : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ص ٧٩٤ رقم ١٧٩٨ من رواية أبى هريرة ـ رضى الله عنه .
(٢) الآية : ١٧ من سورة السجدة .
(٣) الآيات : ٧ ـ ١٠ من سورة يونس .
(٤) الآيتان : ١٨ ، ١٩ من سورة الاسراء .
(٥) الآيتان : ١٥ ، ١٦ من سورة هود .
(٦) الآية : ٢٠ من سورة الشورى .

المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

المرء فى زمن الاقبال كالشجرة ... والناس من حولها مادامت الثمرة
حتى إذا راح عنها حملها انصرفوا ... وخلفوها تقاسى الحر والغبرة

إن الاسلام العظيم أقام ميزان العدالة صادقا فى تقدير الناس . قال ـ تعالى ـ: **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾**(١) . ولكن لما انتكست موازين الناس واختلت المعايير ، واهتزت القيم أصيب كل شىء بالانتكاسة :

رأيت الناس قد مالوا ... إلى من عنده مال
ومن لا عنده مال ... فعنه الناس قد مالوا

***

رأيت الناس قد ذهبوا ... إلى من عنده ذهب
ومن لا عنده ذهب ... فعنه الناس قد ذهبوا

***

رأيت الناس منفضة ... إلى من عنده فضة
ومن لا عنده فضة ... فعنه الناس منفضة

إن من سوء التقدير ، ومن الظلم المبين أن تكون الموازين مبنية على المال ، والفقر والغنى ، والجاه والقوة والضعف ، فترى الناس لا يحترمون إنسانا إلا لماله :

إذا قل مالى فما خل يصاحبنى ... وفى الزيادة كل الناس خلانى
كم من عدو لأجل المال صادقنى ... وكم صديق لفقد المال عادانى
إن الغنى وان تكلم بالخطا ... قالوا : أصبت وصدقوا ما قالا
وإذا الفقير أصاب قالوا كلهم ... أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم فى المجالس كلها ... تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة ... وهى السلاح لمن أراد قتالا

•

يقول الامام ابن كثير ـ رضى الله عنه ـ: لما ذكر ـ تعالى ـ اختيال قارون فى زينته ، وفخره على قومه ، وبغيه عليهم ، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت فى الصحيح عند البخارى من حديث الزهرى عن سالم أن أباه حدثه أن رسول الله ﷺ قال : (بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به ، فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة)(٢) . ثم رواه من حديث جرير بن زيد عن سالم ، عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ نحوه)(٣) وقال الامام أحمد : حدثنا النضر بن إسماعيل أبو المغيرة القاضى ،

(١) سورة الحجرات من الآية : ١٣
(٢) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب بدء الخلق) باب ما ذكر عن بنى اسرائيل ج ٤ ص ٢١٥
(٣) انظر حديث أبى هريرة فى اللؤلؤ والمرجان ، فى (كتاب اللباس والزينة) باب تحريم التبختر فى المشى مع اعجابه بثيابه ص ٥٤٤ رقم ١٣٥١ ونصه : (بينما رجل يمشى فى حلة تعجبه نفسه ، مرجل جمته ، إذ خسف الله به ، فهو يتجلجل إلى يوم القيامة) .

حدثنا الأعمش ، عن عطية ، عن أبي سعيد قال : قال رسول الله ﷺ (بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين أخضرين يختال فيهما أمر الله الأرض فأخذته ، فإنه ليتجلجل فيها إلى يوم القيامة)[١] تفرد به أحمد واسناده حسن ، وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى : حدثنا خيثمة ، حدثنا يعلى بن منصور ، أخبرنى محمد بن مسلم : سمعت زياد النميرى يحدث عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (بينما رجل ممن كان قبلكم خرج فى بردين فاختال فيهما فأمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)[٢]. وقد ذكر الحافظ محمد بن المنذر فى كتاب العجائب الغريبة بسنده عن نوفل بن مساحق قال : رأيت شابا فى مسجد نجران فجعلت أنظر إليه وأتعجب من طوله وتمامه وجماله : فقال : مالك تنظر الى ؟ فقلت : أعجب من جمالك وكمالك . فقال : إن الله ليعجب منى . قال : فما زال ينقص وينقص حتى صار بطول الشبر فأخذه بعض قرابته فى كمه وذهب به .

وقد ذكر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبى الله ـ عليه السلام ـ واختلف فى سببه ، فعن ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى اسرائيل وهو قائم فيهم يتلو عليهم كتاب الله ـ تعالى ـ فتقول : يا موسى إنك فعلت بى كذا كذا ، فلما قالت ذلك فى الملأ لموسى ـ عليه السلام ـ أرعد من الفرق وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ثم قال : أنشدك بالله الذى فرق البحر وأنجاكم من فرعون ، وفعل كذا وكذا ، لما قلت بالذى حملك على ما قلت ؟ فقالت : أما إذ نشدتنى فإن قارون أعطانى كذا وكذا على أن أقول ذلك لك ، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فعند ذلك خر موسى لله ـ عز وجل ـ ساجدا ، وسأل الله فى قارون ، فأوحى الله إليه : أن قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض ان تبتلعه وداره فكان ذلك .

وقيل : ان قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك وهو راكب على البغال الشهب ، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة ، فمر فى محفله ذلك على مجلس نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ وهو يذكرهم بأيام الله ، فلما رأى الناس قارون انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه ، فدعاه موسى ـ عليه السلام ـ وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا موسى أما لئن كنت فضلت على بالنبوة فقد فضلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون على وأدعو عليك ، فخرج موسى وخرج قارون فى قومه ، فقال موسى ـ عليه السلام ـ تدعو أو أدعو أنا ؟ فقال : بل أدعو أنا ، فدعا قارون فلم يجب له ، ثم قال موسى : أدعو ؟ قال : نعم ، فقال موسى : اللهم مر الأرض ان تطيعنى اليوم ، فأوحى الله إليه أنى قد فعلت ، فقال موسى : يا أرض خذيهم ، فأخذتهم إلى اقدامهم ، ثم قال : خذيهم فأخذتهم إلى ركبهم ، ثم إلى مناكبهم ، ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم ، قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليهم ، ثم أشار موسى بيده ، ثم قال : واذهبوا بنى لاوى ، فاستوت بهم الأرض ، وعن ابن عباس قال : خسف بهم إلى الأرض السابعة . وقال قتادة : ذكر لنا أنه يخسف بهم كل يوم قامة فهم يتجلجلون فيها إلى يوم القيامة .

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند أبى سعيد الخدرى) ج٣ ص ٤٠

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج٣ ص ٨٢٢ فقد وردهناك حديثان من رواية ابن عمر وأبى سعيد الخدرى بنفس المعنى .

وقد ذكر ههنا إسرائيليات غريبة أضربنا عنها صفحا .

وقوله - تعالى - : **﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾** أى : ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه وحشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله . ولا كان هو فى نفسه منتصرا لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

وقوله - تعالى - : **﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾** أى : الذين لما رأوه فى زينته **﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾** فلما خسف به أصبحوا يقولون :(ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أى : ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه ، فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : (إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الايمان إلا من يحب) .

﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا ﴾ أى : لولا لطف الله بنا وإحسانه إلينا لخسف بنا كما خسف به ، لأننا وددنا أن نكون مثله . **﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾** يعنون أنه كان كافرا ولا يفلح الكافرون عند الله فى الدنيا ولا فى الآخرة . وقد اختلف النحاة فى معنى قوله ههنا : **﴿ ويكأن ﴾** فقال بعضهم : معناه ويلك إعلم أن . ولكن خفف فقيل : ويك ، ودل فتح **﴿ أن ﴾** على حذف اعلم ، وهذا القول ضعفه ابن جرير ، والظاهر أنه قوى ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها فى المصاحف متصلة ويكأن والكتابة أمر وضعى اصطلاحى ، والمرجع إلى اللفظ العربى . والله أعلم . وقيل : معناها **﴿ ويكأن ﴾** أى : ألم ترأن . قاله قتادة . وقيل : معناها **﴿ وى كأن ﴾** ففصلها وجعل حرف وى للتعجب أو للتنبيه ، وكأن بمعنى أظن وأحتسب . قال ابن جرير : وأقوى الأقوال فى هذا قول قتادة : إنها بمعنى **﴿ ألم ترأن ﴾** واستشهد بقول الشاعر :

سألتانى الطلاق إذ رأتانى ... قل مالى وقد جئتمانى بنكر
ويكأن من يكن له نشب يحـ ... ـبب ومن يفتقر يعش عيش ضر

قوله - تعالى -: **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين * من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾** .

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

إن العاقبة للمتقين : تلك حقيقة ثابتة قررها العليم الخبير . قال لحبيبه ومصطفاه : **﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾**(١) .

(١) الآية : ٤٩ من سورة هود .

وها هو ذا القرآن الكريم يزيدها توكيدا فيقول : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ والدار الآخرة ونعيمها الباقى الذى لا يفنى ولا يزول أبدا ، أعد الله هذا النعيم المقيم للمتواضعين الطائعين .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ... على صفحات الماء وهو رفيع
ولاتك كالدخان يعلو بنفسه ... إلى طبقات الجو وهو وضيع

وفى تفسير ﴿ **العلو** ﴾ أقوال لأئمة التفسير : قال عكرمة : العلو : التجبر . وقال سعيد بن جبير : العلو : البغى . وقال سفيان بن سعيد الثورى عن منصور عن مسلم البطين : العلو فى الأرض التكبر بغير حق ، والفساد : أخذ المال بغير حق ، وقال ابن جريج : ﴿ **لا يريدون علوا فى الأرض** ﴾ تعظما وتجبرا ﴿ **ولا فسادا** ﴾ عملا بالمعاصى . وقال ابن جرير : حدثنا وكيع ، حدثنا أبى ، عن أشعث السمان ، عن أبى سلام الأعرج ، عن على قال : ان الرجل ليعجب من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ وهذا محمول على ما اذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (أنه أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد)[(١)] . وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلا قال : يا رسول الله انى أحب أن يكون ردائى حسنا ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : (لا ، إن الله جميل يحب الجمال)[(٢)] .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ **من جاء بالحسنة** ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ **فله خير منها** ﴾ أى : ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافا كثيرة ؟! وهذا مقام الفضل ، ثم قال : ﴿ **ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون** ﴾ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[(٣)] وهذا مقام الفضل والعدل .

بشارة وتوجيهات

قوله ـ تعالى ـ : إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب فى التواضع ج٥ ص ٢٠٣ رقم ٤٨٩٥ من حديث عياض بن حمار بلفظ : (إن الله أوحى إلى . . . الخ) .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : البغى ج٢ ص ١٤٠٩ رقم ٤٢١٤ من حديث انس بن مالك قال فى الزوائد : هذا اسناد حسن لاختلاف فى اسم سنان بن سعد ، أو سعد بن سنان .

(٢) الحديث اخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب تحريم الكبر وبيانه ج١ ص ٩٣ رقم ١٤٧ / ٩١ من رواية عبد الله ابن مسعود ، وهو جزء حديث . وانظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ص ٢٤٠/ ٧٨٢٢ من حديث ابى امامة الباهلى .

(٣) الآية : ٩٠ من سورة النمل .

فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

المفردات :

(فرض) أنزله عليك . (معاد) قيل : هو المقام المحمود الذى وعد ان يبعث فيه ، وقيل : هو مكة ، إذ معاد الرجل بلده ، لأنه ينصرف منها ثم يعود إليها . (ظهيرا) : معينا وناصرا . يقول الفخر الرازى فى تفسيره : ثم إنه ـ سبحانه وتعالى ـ لما شرح لرسوله أمر يوم القيامة واستقصى فى ذلك شرح له ما يتصل بأحواله فقال : (إن الذى فرض عليك القرآن . . .)

(هالك) أى : معدوم . (الحكم) أى : القضاء النافذ .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر قصص موسى وقومه مع قارون ، وبين بغي قارون . واستطالته عليهم ثم هلاكه ، ونصرة أهل الحق عليه ، أردف هذا قصص محمد ـ ﷺ ـ وأصحابه مع قومه ، وإيذاءهم إياه ، وإخراجهم له من مسقط رأسه ، ثم إعزازه إياه بالإعادة إلى مكة ، وفتحه إياها منصورا ظافرا .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد** ﴾ فرضه عليك ، أى : أنزله وأوجب عليك تبليغه وهو الله ـ تعالى ﴿ **تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين** ﴾[(١)] ﴿ **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين** ﴾[(٢)].

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ لأئمة التفسير فيها أقوال : قال بعضهم : ﴿ **لرادك إلى معاد** ﴾ أى : إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين** ﴾[(٣)] وقال ـ تعالى ـ: ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم** ﴾[(٤)] وقال : ﴿ **وجيء بالنبيين والشهداء** ﴾[(٥)] وقال السدى عن أبي صالح عن ابن عباس : (إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) يقول : لرادك إلى الجنة ثم سائلك عن القرآن . قال السدى : وقال أبو سعيد

(١) الآية : ٢ من سورة السجدة .

(٢) الآية : ٦٧ من سورة المائدة .

(٣) الآية : ٧ من سورة الأعراف . (٤) من الآية : ١٠٩ من سورة المائدة .

(٥) من الآية : ٦٩ من سورة الزمر .

مثلها ، وقال الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : (لرادك إلى معاد) قال : إلى يوم القيامة ورواه مالك عن الزهرى ، وقال الثورى عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : (لرادك إلى معاد) إلى الموت ، ولهذا طرق عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وفى بعضها : لرادك إلى معدنك من الجنة . وقال مجاهد : يحييك يوم القيامة . وكذا روى عن عكرمة وعطاء وسعيد ابن جبير وأبى قزعة وأبى مالك وابى صالح . وقال الحسن البصرى : أى ـ والله ـ إن له لمعادا فيبعثه الله يوم القيامة ثم يدخله الجنة . وقد روى عن ابن عباس غير ذلك ، كما قال البخارى فى التفسير من صحيحه : حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العصفورى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) قال : إلى مكة . وهكذا رواه النسائى فى تفسير سننه ، وابن جرير من حديث يعلى ـ وهو ابن عبيد الطنافسى ـ به ، وهكذا رواه العوفى عن ابن عباس (لرادك إلى معاد) أى : لرادك إلى مكة كما أخرجك منها . وقال محمد بن إسحق عن مجاهد فى قوله : (لرادك إلى معاد) إلى مولدك بمكة .

قال سفيان : فسمعناه من مقاتل منذ سبعين سنة : عن الضحاك قال : لما خرج النبى ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأنزل الله عليه : ﴿ **إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد** ﴾ إلى مكة .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين** ﴾ أى : قل لمن خالفك وكذبك ـ يا محمد ـ من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم ، قل : ربى أعلم بالمهتدى منكم ومنى ، وستعلمون لمن تكون له عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة . ثم قال ـ تعالى ـ مذكرا لنبيه نعمته العظيمة عليه وعلى العباد إذا ارسله إليهم : ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب** ﴾ أى : ما كنت تظن أن ينزل الله عليك النبوة والكتاب ، لأن ذلك كان فى مكنون علم الله ـ تعالى ـ ولكن الله أنزله إليك وأرسلك به إلى الناس بشيرا ونذيرا ، ورحمة من لدنه بعباده ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[1] إنه الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[2] .

إذا كان ذلك كذلك ﴿ **فلا تكونن ظهيرا للكافرين** ﴾ فالله ناصرك عليهم ، ومؤيدك ، وجاعل كلمته هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم ﴿ **ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك** ﴾ أى : لا يمنعنك أحد منهم عن تبليغ آيات الله مهما اشتدت مخالفتهم ، وزاد عنادهم ، فإن الله معك ، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا وادع إلى ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، واثبت على ما أنت عليه من التوحيد ، ولا تكونن من المشركين ، واثبت على توحيد

---

(١) الآية : ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٢) الآيتان : ٥٢ ، ٥٣ من سورة الشورى .

الألوهية والربوبية ، ﴿ ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ﴾ أى : لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغى الالهية إلا لعظمته . وقوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقى ، الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولايموت .

كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[1] . فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله ههنا : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أى : إلا إياه ، وقد ثبت فى الصحيح من طريق أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل)[2] . وقال مجاهد والثورى فى قوله ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أى : إلا ما أريد به وجهه ، وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له ، قال ابن جرير : ويستشهد من قال ذلك بقول الشاعر :

أستغفر الله ذنبا لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل

وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله ـ تعالى ـ من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته ـ تعالى وتقدس ـ فإنه الأول والآخر الذى هو قبل كل شيء وبعد كل شيء . قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبى الدنيا فى كتابه (التفكر والاعتبار) : حدثنا أحمد بن محمد بن أبى بكر ، حدثنا مسلم بن إبراهيم ، حدثنا عمر بن سليم الباهلى ، حدثنا أبو الوليد قال : كان ابن عمر إذا أراد أن يتعاهد قلبه يأتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين ، فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ . وقوله : ﴿ له الحكم ﴾ أى : الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى : يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر .

سورة العنكبوت

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا ، عدد آياتها تسع وستون بالاتفاق ، وكلماتها تسعمائة وثمانون ، وحروفها أربعة آلاف ومائة وخمسة وتسعون .

سميت سورة العنكبوت لتكرر ذكرها فيها ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ .

معظم مقصود السورة

توبيخ أهل الدعوى ، وترغيب أهل التقوى ، والوصية ببر الوالدين للأبرار ، والشكاية من

(١) الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن .

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الشعر) ص ٥٨٦ رقم ١٤٥٤ ونص الحديث : (أصدق كلمة قالها الشاعر : كلمة لبيد (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) وكاد أمية بن أبى الصلت ان يسلم)

المنافقين فى جرأتهم على حمل الأوزار ، والاشارة إلى بلوى نوح والخليل ، لتسلية الحبيب ، وهجرة إبراهيم من بين قومه إلى مكان غريب . ووعظ لوط قومه باختيار الخبث ، وعدم اتعاظهم ، و إهلاك الله إياهم ، والاشارة إلى حديث شعيب ، وتعيير عباد الاصنام ، وتوبيخهم ، وتمثيل الصنم ببيت العنكبوت ، وإقامة حجج التوحيد ، ونهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر ، وأدب الجدال مع المنكرين ، والمبتدعين ، وبيان الحكمة فى كون رسولنا - ﷺ - آميا ، والخبر عن استعجال الكفار العذاب ، وأن كل نفس بالضرورة ميتة ، ووعد المؤمنين بالثواب ، وضمان الحق رزق كل دابة وبيان أن الدنيا دار فناء وممات ، و أن العقبى دار بقاء وحياة ، وبيان حرمة الحرم وأمنه ، والإخبار بأن الجهاد ثمنه الهداية ، وأن عناية الله مع أهل الإحسان ، فى قوله : ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ إلى آخر السورة .

المتشابهات

قوله : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ ، وفى لقمان ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ﴾[١] وفى الأحقاف : ﴿ بوالديه إحسانا ﴾[٢] الجمهور على أن الآيات الثلاث نزلت فى سعد بن مالك (وهو سعد ابن أبى وقاص) وأنها فى سورة لقمان اعتراض بين كلام لقمان لابنه ، ولم يذكر فى لقمان ﴿ حسنا ﴾ لأن قوله بعده : ﴿ أن آشكر لى ولوالديك)[٣] قام مقامه ، ولم يذكر فى هذه السورة ﴿ حمله ﴾ ولا ﴿ وضعه ﴾ موافقة لما قبله من الاختصار ، وهو قوله : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ﴾ ، فإنه ذكر فيها جميع ما يقع بالمؤمنين بأوجز كلام ، وأحسن نظام ، ، ثم قال بعده : ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ أى : ألزمناه ﴿ حسنا ﴾ فى حقهما ، وقياما بأمرهما ، وإعراضا عنهما ، وخلافا لقولهما إن أمراه بالشرك بالله . وذكر فى لقمان والأحقاف حاله فى حمله ووضعه .

قوله : ﴿ وإن جاهداك لتشرك بى ﴾ وفى لقمان : ﴿ على أن تشرك ﴾ ، لأن ما فى هذه السورة وافق ما قبله لفظا ، وهو قوله : ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ وفى لقمان محمول على المعنى ، لأن التقدير : وإن حملاك على أن تشرك .

قوله : ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ بتقديم العذاب على الرحمة فى هذه السورة فحسب ، لأن إبراهيم خاطب به نمرود وأصحابه ، فإن العذاب وقع بهم فى الدنيا .

قوله : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ﴾ ، وفى الشورى ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ﴾[٤] ، لأن (ما) فى هذه السورة خطاب لنمرود حين صعد الجو موهما أنه يحاول السماء ، فقال له ولقومه :

(١) من الآية : ١٤ من سورة لقمان .
(٢) من الآية : ١٥ من سورة الأحقاف .
(٣) من الآية : ١٤ من سورة لقمان .
(٤) من الآية : ٣١ من سورة الشورى .

﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ﴾ أى : من فى الأرض : من الجن والإنس ، ولا من فى السماء : من الملائكة ، فكيف تعجزون الله ؟ ! وقيل : من فى السماء : من الملائكة ، فكيف تعجزون الله ؟! وقيل : وما أنتم بفائتين عليه ، ولو هربتم فى الأرض ، أو صعدتم فى السماء ، فقال : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ﴾ لو كنتم فيها . وما فى الشورى خطاب للمؤمنين ، وقوله : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾[1] يدل عليه . وقد جاء ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ فى قوله : ﴿ والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ من غير ذكر الأرض ولا السماء .

قوله ﴿ فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ وقال بعده : ﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾ . فجمع الأولى ووحد الثانية ، لأن الأولى إشارة إلى إثبات النبوة ، وفى النبيين - صلوات الله وسلامه عليهم - كثرة ، والثانى إشارة إلى التوحيد وهو - سبحانه - واحد لا شريك له .

قوله : ﴿ إنكم ﴾ جمع بين استفهامين فى هذه السورة وقد سبق فى الأعراف .

قوله : ﴿ ولما أن جاءت رسلنا لوطا ﴾ . وفى هود : ﴿ ولما جاءت ﴾ بغير ﴿ أن ﴾ ، لأن ﴿ لما ﴾ يقتضى جوابا واذا اتصل به (أن) دل على أن الجواب وقع فى الحال من غير تراخ ، كما فى هذه السورة ، وهو قوله :﴿ سىء بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ ومثله فى يوسف : ﴿ فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ﴾ وفى هود اتصل به كلام بعد كلام ، إلى قوله : ﴿ قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ فلما طال لم يحسن دخول ﴿ أن ﴾ .

قوله : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال ﴾ هو عطف على قوله : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث ﴾ .

قوله : ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ﴾ أخره فى هذه السورة لما وصف . وقد سبق .

قوله : ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ وفى القصص ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ وفى الرعد والشورى : ﴿ لمن يشاء ويقدر ﴾ لأن ما فى هذه السورة اتصل بقوله : ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها . . ﴾ الآية ، وفيها عموم فصار تقديره : يبسط الرزق لمن يشاء من عباده أحيانا ، ويقدر له أحيانا ، لأن الضمير يعود إلى ﴿ من ﴾ وقيل : يقدر له البسط ، من التقدير . وفى القصص تقديره : يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لمن يشاء . وكل واحد منهما غير الآخر ، بخلاف الأولى . وفى السورتين يحتمل الوجهين فأطلق .

قوله : ﴿ من بعد موتها ﴾ وفى البقرة والجاثية : ﴿ بعد موتها ﴾ لأنمافىهذه السورة وافق ما قبله وهو ﴿ من قبله ﴾ فإنهما يتوافقان ، وفيه شىء آخر ، وهو أن ما فى هذه السورة سؤال وتقرير ، والتقرير يحتاج إلى التحقيق فوق غيره ، فقيد الظرف بمن ، فجمع بين طرفيه ، كما سبق .

قوله : ﴿ لهو ولعب ﴾ سبق قوله : (فسوف يعلمون) سبق قوله .

---

(١) الآية : ٢٠ من سورة الشورى .

قوله : ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ بغير واو لاتصاله بالأول أشد اتصال ، وتقديره : ذلك نعم أجر العاملين .

مناسبتها لما قبلها

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر فى السورة السالفة استعلاء فرعون وجبروته وجعل أهلها شيعا ، وافتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم المشركون ، وعذبوهم على الايمان ، دون ما عذب به فرعون بنى اسرائيل ، تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم ، وحثا لهم على الصبر ، كما قال : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ .

(٢) ذكر فى السورة السابقة نجاة موسى من فرعون وهربه منه ثم عوده الى مصر رسولا نبيا . ثم ظفره من بعد بغرق فرعون وقومه ونصره عليهم نصرا مؤزرا ، وذكر هنا نجاة نوح ـ عليه السلام ـ وأصحاب السفينة واغراق من كذبه من قومه .

(٣) نعى هناك على عبدة الأصنام والأوثان ، وذكر أنه يفضحهم يوم القيامة على رءوس الأشهاد ، وهنا نعى عليهم أيضا وبين أنهم فى ضعفهم كضعف بيت العنكبوت .

(٤) هناك قص قصص قارون وفرعون ، وهنا ذكرهما أيضا ، وبين عاقبة أعمالها .

(٥) ذكر هناك فى الخاتمة الاشارة إلى هجرة النبى ﷺ فى قوله :
﴿ إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ وفى خاتمه هذه أشار إلى هجرة المؤمنين بقوله : ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ وَهُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾
وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ
إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى

ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ
ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا
كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

المفردات:

(الفتنة) : الامتحان والاختبار . ﴿ ليعلمن الله الذين صدقوا ﴾ أى : ليظهرن صدقهم (السبق) : الفوت ، والمراد به : الفوت عن المجازاة . (السيئات) هى الشرك بالله والمعاصى التى يجترحونها . (ساء ما يحكمون) أى : قبح حكمهم أنهم يهربون منا . (يرجو) أى : يطمع . (لقاء الله) أى : نيل ثوابه وجزائه . (أجل الله) : الوقت المضروب للقائه . (جاهد) أى : بذل جهده فى جهاد حرب أو نفس . ﴿ ووصينا الإنسان ﴾ أى : أمرناه ، فكلمة (وصى) فى اللغة كأمر فى معناها وتصرفها . (حسنا) أى : بأن يفعل معهم حسنا ، أى : فعلا ذا حسن ، أو هو نفس الحسن مبالغة . (فتنة للناس) أى : أذاهم ، واستعمال القوة والعنف فى الرد عن الاسلام . (أثقالهم) : أوزارهم . والمراد بالحمل هنا : تبعة الذنوب ، والأثقال واحدها : ثقل وهو الحمل الذى يئود حامله ، والمراد به الذنب والاثم .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن قال ـ سبحانه ـ فى اواخر السورة السالفة : ﴿ وادع إلى ربك ﴾ وكان فى الدعاء إليه توقع الطعن فى الحرب ، لأن النبى ﷺ وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد ان لم يؤمن المشركون ويستجيبوا للدعاء ، وذلك مما يشق على بعض المؤمنين ـ اردف ذلك تنبيههم إلى أن المؤمنين لا يتبين ايمانهم الحق إلا إذا فتنوا .

روى ابن جرير وابن المنذر أن ناسا ممن كانوا بمكة آمنوا ، فكتب اليهم أصحاب رسول الله ﷺ من المدينة لما نزلت آية الهجرة : لا يقبل منكم اسلام حتى تهاجروا وتخرجوا إلى المدينة ، فتبعهم

المشركون فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآيات ، فكتبوا إليهم : أنزلت فيكم آية كذا وكذا . فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾[1] . ويبين - سبحانه - ان العبد لا يترك فى الدنيا سدى . وان من ترك ما كلف به عذب واردف ذلك بيان ان من يعترف بالآخرة ويعمل لها لا يضيع الله عمله ولا يخيب أمله ، ثم ذكر ان طلب ذلك من المكلف ليس لنفع يعود إلى الله - تعالى - فهو غنى عن الناس جميعا ، ثم أرشد إلى ان جزاء العمل الصالح تكفير السيئات ، ومضاعفة الحسنة الى عشر أمثالها فضلا منه ورحمة . وأعقب ذلك - سبحانه - بذكر البر بالوالدين والحدب عليهما ؟ لأنهما سبب وجوده ، فلهما عليه الاحسان والطاعة ، فالاحسان إلى الوالد بالانفاق ، وإلى الوالدة بالاشفاق ، إلا إذا حرضاه على الشرك ، وأمراه بالمتابعة على دينهما إذا كانا مشركين ، فإنه لا يطيعهما فى ذلك ، ثم بين ان من يعمل الصالحات يدخله الله فى زمرة الانبياء والأولياء ويؤتيه الكرامة والدرجة الرفيعة والزلفى عنده مثل ما أوتى هؤلاء . وبين - سبحانه - أن الناس ثلاثة أقسام فى الدين : مؤمن حسن الاعتقاد والعمل ، وكافر يجاهر بالكفر والعناد ، ومذبذب بينهما ، يظهر الإيمان بلسانه ويبطن الكفر فى فؤاده ، وقد بين القسمين الأولين بقوله : ﴿ **فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ وبين أحوالهما بقوله : ﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ ثم أردف ذلك القسم الثالث بقوله : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله ..** ﴾ الخ .

روى أن الآية نزلت فى عياش بن أبى ربيعة ، أسلم وهاجر ، ثم أوذى وضرب فارتد ، وقد كان عذبه أبو جهل والحارث ، وكانا أخويه لأمه ، ثم عاش بعد ذلك دهرا وحسن إسلامه .

التفسير

قوله - تعالى - :

الم : بعض حروف الهجاء التى تشير إلى إعجاز هذا الكتاب ، قال تعالى : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾[1] . كما أن هذه الحروف تشير إلى التنبيه إلى ما سيأتى بعد من أخبار وأحكام حتى يستيقظ العقل وينتبه للتلقى

﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ .

الاستفهام هنا للإنكار الذى يفيد النفى ، أى : أن المؤمن لن يترك دون ما اختبار ، فليوطن المؤمنون أنفسهم على هذا ، قال - تعالى - : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾[2] .

وقال - عز من قائل - : ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين**

---

(١) الآية : ٨٨ من سورة الإسراء .
(٢) الآية : ١٢٤ من سورة البقرة .

الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين . أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ (١) .

وقال - تبارك اسمه -: ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾ (٢) .

وقال رسول الله - ﷺ - فى الحديث الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد له فى البلاء » (٣) .

ولذا قال - تعالى - : ﴿ ولقد فتنا الذين من قبلهم ﴾ أى : ولقد اختبرنا أتباع الأنبياء من الأمم السالفة وأصبناهم بضروب من البأساء والضراء فصبروا وعضوا على دينهم بالنواجذ ، فابتلينا بنى اسرائيل بفرعون وقومه ، واصابهم منه البلاء العظيم والجهد الشديد ، وابتلينا من آمن بعيسى بمن كذبه وتولى عنه - لاجرم ليصيبن أتباعك أذى شديد وجهد عظيم ممن خالفهم وناصبهم العداء .

روى البخارى وأبو داود والنسائى عن خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال : (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها - ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد لحمه وعظمه ، فما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون) (٤) .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك ، فوضعت يدى عليه ، فوجدت حره بين يدى فوق اللحاف فقلت : يارسول الله ما أشدها عليك ! قال : (إنا كذلك يضعف لنا البلاء ويضعف لنا الأجر) قلت : يارسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : (الأنبياء) قلت : ثم من ؟ قال : (ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباءة يجوبها (يمزقها) وإن كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء) (٥) .

---

(١) الآيات : ١٤٠ - ١٤٢ من سورة آل عمران .
(٢) الآية : ١٦ من سورة التوبة .
(٣) الحديث فى الصغير رقم ١٠٥٤ من رواية أحمد والبخارى والترمذى وابن ماجة : عن سعد بن أبى وقاص .
وانظر جامع الترمذى (كتاب الزهد) باب : ما جاء فى الصبر على البلاء جـ٤ ص ٦٠١ ، ٦٠٢ رقم ٢٣٩٨ فقد ورد الحديث من رواية سعد بن أبى وقاص . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وفى الباب عن أبى هريرة وأخت حذيفة ابن اليمان . .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : الصبر على البلاء ج٢ ص ١٣٣٤ رقم ٤٠٢٣ فقد ذكره عن سعد بن أبى وقاص أيضا .
(٤) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الاكراه) باب : من اختار الضرب والقتل والهوان ج٩ ص ٢٥ ، ٢٦ .
وانظر سنن أبى داود (كتاب الجهاد) باب فى الاسير يكره على الكفر ج٣ ص ١٠٨ رقم ٢٦٤٩ .
(٥) الحديث اخرجه ابن ماجه فى (كتاب الفتن) باب : الصبر على البلاء ج٢ ص ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ رقم ٤٠٢٤ قال فى الزوائد : إسناده صحيح . رجاله ثقات .

﴿ فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ أى : الذين صدقوا فى دعوى الايمان ممن هو كاذب فى قوله ودعواه والله ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة ، وبهذا يقول ابن عباس وغيره فى مثل قوله : ﴿ إلا لنعلم ﴾ : إلا لنرى : وذلك لأن الرؤية إنما تتعلق بالموجود ، والعلم أعم من الرؤية ، فإنه يتعلق بالمعدوم والموجود .

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ أم هنا بمعنى بل والهمزة ، أى : بل أحسب الذين يقترفون السيئات والمعاصى أن يهربوا من عقابنا ، وأن يفلتوا من عذابنا مهما أوتوا من قوة وسلطان ؟ لقد قبح حكمهم هذا وساء سبيلا ، قال ـ تعالى ـ: ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾[1] وقال : ﴿ وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[2] وقال ـ تعالى :ـ ﴿ وكل شىء أحصيناه كتابا ﴾[3] . وقال : ﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا ﴾[4] وقال ـ سبحانه ـ: ﴿ ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾[5] وقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[6] فسبحان من يمهل ولا يهمل ، ولا يعجل كعجل أحدنا ، إنه ليمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾ هذا وعد من الله ـ تعالى ـ والله لا يخلف الميعاد ، إذا وعد أنجز ، وإذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، وإذا دعا هدى إلى الصراط المستقيم . فمن كان يرجو ثواب الله فى الدار الآخرة فليعمل عملا صالحا ، ثم ليثق فى أن أجل الله الذى أجله ، والموعد الذى حدده آت لا محالة ، وعد الله لا يخلف الله وعده ، ، قال ـ سبحانه وتعالى ـ يعلمنا الدعاء : ﴿ ربنا آتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾[7] وقال ـ تبارك اسمه ـ: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾[8] وقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾[9] فالجنة حق لا مراء فى ذلك ، كما ان النار حق ، والذى أخبر بهذا هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم .

قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين ﴾ .

---

(١) الآية : ٥٩ من سورة الأنفال .
(٢) الآية : ٢٢ من سورة العنكبوت .
(٣) الآية : ٢٩ من سورة النبأ .
(٤) الآية : ١٢ من سورة الجن .
(٥) الآية : ٤٢ من سورة إبراهيم .
(٦) الآية : ١٠٢ من سورة هود .
(٧) الآية : ١٩٤ من سورة آل عمران .
(٨) الآية : ٩ من سورة العنكبوت .
(٩) الآية : ٤٢ من سورة الأعراف .

الجهاد والمجاهدة : بذل الطاقة واستفراغ الوسع ، وهو ينتظم جهاد الدعوة وجهاد السيف وجهاد النفس وغير ذلك ، فمن فعل فإنما خيره عائد لنفسه ، كقوله ـ جل شأنه ـ : **﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾**[1] وليعلم الجميع أن الله ـ تعالى ـ غنى عن العالمين أجمعين ، لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل هو الغنى الذى يحتاج إليه كل خلقه **﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾**[2] **﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾**[3] .

ومن جهاد النفس : الصبر وحقيقته : هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التى بها صلاح شأنها وقوام أمرها ، وسئل الجنيد بن محمد فقال : (تجرع المرارة من غير تعيس) وقال ذو النون : (هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة) وقيل : (الصبر : هو الوقوف مع البلاء بحسن الأدب) وقال أبو عثمان : (الصبار : هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره) (وقيل الصبر : المقام على البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية) ومعنى هذا ان الله على العبد عبودية فى عافيته وفى بلائه ، فعليه أن يحسن صحبة العافية بالشكر ، وصحبة البلاء بالصبر ، وقال الخواص : (الصبر على أحكام الكتاب والسنة) .

وقال على بن أبى طالب : (الصبر مطية لا تكبو) وقيل : الصبر ثبات القلب عند موارد الاضطراب ، والصبر والجزع ضدان ، والجزع قرين العجز وشقيقه ، والصبر قرين الكيس ومادته ، والنفس مطية العبد التى يسير عليها إلى الجنة أو النار ، والصبر لها بمنزلة الخطام والزمام ، فإن لم يكن للمطية خطام ولا زمام شردت فى كل مذهب .

والنفس فيها قوتان : قوة الإقدام وقوة الإحجام ، فحقيقة الصبر : أن يجعل قوة الإقدام مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة الإحجام إمساكا عما يضره . ومن الناس من تكون قوة صبره على فعل ما ينتفع به وثباته عليه أقوى من صبره عما يضره ، فيصبر على مشقة الطاعة ولا صبر له عن داعى هواه إلى ارتكاب ما نهى عنه . ومنهم من تكون قوة صبره عن المخالفات أقوى من صبره على مشقة الطاعات ، ومنهم من لا صبر له على هذا ولا ذاك . وأفضل الناس أصبرهم على النوعين .

وقيل : (الصبر : ثبات باعث العقل والدين فى مقابلة باعث الهوى والشهوة) ومعنى هذا أن المطيع يتقاضى ما يحب ، وباعث العقل والدين يمنع منه ، والحرب قائمة بينهما وهى سجال ، ومعرك هذا الحرب قلب العبد والصبر والشجاعة والثبات .

فى بيان أسماء الصبر بالإضافة إلى متعلقه

لما كان الصبر المحمود هو الصبر النفسانى الاختيارى عن إجابة داعى الهوى المذموم كانت مراتبه

---

(١) من الآية : ٤٦ من سورة فصلت .
(٢) الآية : ١٥ من سورة فاطر .
(٣) الآيات : ٥٦ ـ ٥٨ من سورة الذاريات .

وأسماؤه بحسب متعلقه ، فإنه إن كان صبرا عن شهوة الفرج المحرمة سمى عفة ، وضدها الفجور والزنا والعهر ، وإن كان عن شهوة البطن وعدم التسرع إلى الطعام أو تناول ما لا يجمل منه سمى شرف نفس ، وسمى ضده شرها ودناءة ووضاعة نفس ، وإن كان عن اظهار ما لا يحسن اظهاره من الكلام سمى كتمان سر ، وضده إذاعة وافشاء ، أو تهمة أو فحشا أو سبا أو كذبا أو قذفا ، وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، وضده سمى حرصا وإن كان على قدر يكفى من الدنيا سمى قناعة ، وضدها الحرص أيضا ، وإن كان عن إجابة داعى الغضب سمى حلما ، وضده تسرعا ، وإن كان من إجابة العجلة سمى وقارا وثباتا ، وضده طيشا وخفة ، وإن كان عن إجابة داعى الفرار والهرب سمى شجاعة ، وضده جبنا وخورا ، وإن كان عن إجابة داعى الانتقام سمى عفوا وصفحا ، وضده انتقاما وعقوبة ، ، وإن كان عن إجابة داعى الامساك والبخل سمى جودا ، وضده بخلا ، وإن كان عن إجابة داعى الطعام والشراب فى وقت مخصوص سمى صوما ، وإن كان عن إجابة داعى العجز والكسل سمى كيسا وإن كان عن إجابة داعى إلقاء الكل على الناس وعدم حمل كلِّهم سمى مروءة ، فله عند كل فعل وترك اسم يخصه بحسب متعلقه والاسم الجامع لذلك كله (الصبر) وهذا يدلك على ارتباط مقامات الدين كلها بالصبر من أولها إلى آخرها . وهكذا يسمى عدلا إذا تعلق بالتسوية بين المتماثلين ، وضده الظلم ، ويسمى سماحة إذا تعلق ببذل الواجب والمستحب بالرضا والاختيار ، وعلى هذا جميع منازل الدين .

فى ذكر أقسام الصبر باعتبار متعلقه

ويقول ابن القيم :

الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام : صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها ، وصبر عن المناهى والمخالفات حتى لا يقع فيها ، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .

وهذه الأنواع الثلاثة هى التى قال فيها الشيخ عبدالقادر فى فتوح الغيب « لابد للعبد من أمر يفعله ، ونهى يجتنبه ، وقدر يصبر عليه به ، وهذا الكلام يتعلق بطرفين : طرف من جهة الرب تعالى . وطرف من جهة العبد .

فأما الذى من جهة الرب فهو أن الله تعالى : له على عبده حكمان : حكم شرعى دينى ، وحكم كونى قدرى . فالشرعى متعلق بأمره . والكونى متعلق بخلقه . وهو سبحانه له الخلق والأمر . وحكمه الدينى الطلبى نوعان : بحسب المطلوب . فإن المطلوب إن كان محبوبا له فالمطلوب فعله إما واجبا وإما مستحبا . ولا يتم ذلك إلا بالصبر ، وإن كان مبغوضا له ، فالمطلوب تركه ، إما تحريما وإما كراهة ، وذلك أيضا موقوف على الصبر ، فهذا حكمه الدينى الشرعى . وأما حكمه الكونى فهو ما يقضيه ويقدره على العبد من المصائب التى لا صنع له فيها ، ففرصته الصبر عليها ، وفى وجوب الرضا بها قولان للعلماء : وهما وجهان فى مذهب أحمد أصحهما أنه مستحب ، فمرجع الدين كله إلى هذه القواعد الثلاث : فعل المأمور ، وترك المحظور ، والصبر على المقدور .

وأما الذى من جهة العبد فإنه لا ينفك عن هذه الثلاث مادام مكلفا ، ولا تسقط عنه هذه الثلاث

حتى يسقط عنه التكليف ، فقيام عبودية الأمر والنهى والقدر على ساق الصبر . لا تستوى إلا عليه ، كما لا تستوى السنبلة إلا على ساقها .

فالصبر متعلق بالمأمور والمحظور والمقدور بالخلق والأمر . وهذه الثلاثة هى التى أوصى بها لقمان ابنه فى قوله : ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[١] فأمره بالمعروف يتناول فعله بنفسه وأمر غيره به ، وكذلك نهيه عن المنكر . أما من حيث إطلاق اللفظ فتدخل نفسه وغيره فيه ، وأما من حيث اللزوم الشرعى فإن الآمر الناهى لا يستقيم له أمره ونهيه حتى يكون أول مأمور ومنهى .

وذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى قوله :﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب* الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب* والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ﴾[٢] فجمع لهم مقامات الإسلام والإيمان فى هذه الأوصاف ، فوصفهم بالوفاء بعهده الذى عاهدهم عليه ، وذلك يعم أمره ونهيه الذى عهده إليهم بينهم وبينه ، وبينهم وبين خلقه ، ثم أخبر عن استمرارهم بالوفاء به بأنهم لا يقع منهم نقضه . ثم وصفهم بأنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل . ويدخل فى هذا ظاهر الدين وباطنه ، وحق الله وحق خلقه ، فيصلون ما بينهم وبين ربهم بعبوديته وحده لا شريك له ، والقيام بطاعته والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، وحبه وخوفه ، ورجائه والتوبة إليه ، والاستكانة له ، والخضوع والذلة له ، والاعتراف له بنعمته وشكره عليها ، والإقرار بالخطيئة والاستغفار منها ، فهذه هى الوصلة بين الرب والعبد . وقد أمر الله بهذه الأسباب التى بينه وبين عبده أن توصل ، وأمر أن نوصل ما بيننا وبين رسوله بالإيمان به وتصديقه ، وتحكيمه فى كل شىء ، والرضا لحكمه والتسليم له ، وتقديم محبته على محبة النفس والولد والوالد والناس أجمعين .

ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فدخل فى ذلك القيام بحقه وحق رسوله ، أن نصل ما بيننا وبين الوالدين والأقربين بالبر والصلة ، وأمر أن نصل ما بيننا وبين الزوجات بالقيام بحقوقهن ومعاشرتهن بالمعروف وأن نصل ما بيننا وبين الجار القريب والبعيد بمراعاة حقه ، وحفظه فى نفسه وماله وأهله بما نحفظ به نفوسنا وأهلينا وأموالنا .

فهذا كله مما أمر الله به أن يوصل ، ثم وصفهم بالحامل لهم على هذه الصلة وهو خشية وخوف سوء الحساب يوم المآب ، ومتى ترحلت الخشية من القلب انقطعت هذه الصلة ، ثم جمع لهم سبحانه ذلك كله فى أصل واحد هو أرضية ذلك وقاعدته ومداره الذى يدور عليه ، وهو الصبر فقال : ﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ فلم يكتف منهم بمجرد الصبر حتى يكون خالصا لوجهه .

ثم ذكر لهم ما يعينهم على الصبر وهى الصلاة فقال سبحانه : ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وهذان العونان على مصالح الدنيا والآخرة ، وهما الصبر والصلاة فقال تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة

---

(١) الآية : ١٧ من سورة لقمان .
(٢) سورة الرعد من الآية : ١٩ والآيات : ٢٠ ـ ٢٢

وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾[١] وقال سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾[٢] .

ثم ذكر سبحانه إحسانهم إلى غيرهم بالإنفاق عليهم سرا وعلانية ، فأحسنوا إلى أنفسهم بالصبر والصلاة ، وإلى غيرهم بالإنفاق عليهم ، ثم ذكر حالهم إذا جهل عليهم وأوذوا ، إنهم لا يقابلون ذلك بمثله ، بل يدرأون بالحسنة السيئة ، فيحسنون إلى من يسىء إليهم . فقال : ﴿ ويدرأون بالحسنة السيئة ﴾[٣] وقد فسر هذا الدرء بأنهم يدفعون الذنب بالحسنة بعده ، كما قال تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾[٤] وقال ﷺ : (أتبع السيئة الحسنة تمحها)[٥] والتحقيق أن الآية تعم النوعين .

والمقصود أن هذه الآيات تناولت مقامات الإسلام والإيمان كلها . اشتملت على فعل المأمور وترك المحظور والصبر على المقدور . وقد ذكر تعالى هذه الأصول الثلاثة فى قوله : ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ﴾[٦] وقوله : ﴿ إنه من يتق ويصبر ﴾[٧] وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[٨] فكل موضع قرن فيه التقوى بالصبر اشتمل على الأمور الثلاثة ، فإن حقيقة التقوى فعل المأمور وترك المحظور .

والصبر : اختيارى واضطرارى ، والاختيارى أكمل من الاضطرارى ، فإن الاضطرارى يشترك فيه الناس ، ويتأتى ممن لا يتأتى منه الصبر الاختيارى ، ولذلك كان صبر يوسف الصديق ﷺ عن مطاوعة امرأة العزيز وصبره على ما ناله من الحبس والمكروه أعظم من صبره على ما ناله من إخوته لما ألقوه فى الجب وفرقوا بينه وبين أبيه ، وباعوه بيع العبيد . ومن الصبر الثانى إنشاء الله ـ سبحانه ـ له ما أنشأه من العز والرفعة والملك والتمكين فى الأرض ، وكذلك صبر الخليل إبراهيم ﷺ والكليم موسى ، وصبر نوح والمسيح ، وصبر خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم ﷺ كان صبرا على الدعوة إلى الله ومجاهدة أعداء الله ، ولهذا سماهم الله أولى العزم وأمر رسوله أن يصبر صبرهم فقال تعالى ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[٩] .

ومن الجهاد جهاد السيف

والمجاهدون فى سبيل الله ، وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ، ويحفظ بهم بيضة الإسلام ، ويحمى بهم حوزة الدين ، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هى العليا ، قد بذلوا أنفسهم فى محبة الله ونصر دينه وإعلاء كلمته ودفع أعدائه ، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم فى أعمالهم التى يعملونها ، وإن باتوا فى ديارهم ، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فإنهم كانوا هم السبب فيه .

وقد تظاهرت آيات الكتاب ، وتواترت نصوص السنة على الترغيب فى الجهاد ، والحض عليه ،

---

(١) سورة البقرة آية : ٤٥
(٢) سورة البقرة آية : ١٥٣ .
(٣) سورة الرعد من الآية : ٢٢ .
(٤) سورة هود من الآية : ١١٤ .
(٥) حديث شريف
(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٢٥ .
(٧) سورة يوسف من الآية : ٩٠
(٨) سورة آل عمران : ٢٠٠
(٩) سورة الأحقاف من الآية : ٣٥ .

ومدح أهله والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ﴾[١] فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم ، فقال سبحانه : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال سبحانه : ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[٢] يعنى : أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلام ، فكأنها قالت : فمالنا فى الجهاد من الحظ ؟ !

فقال سبحانه : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ ومع المغفرة ﴿ ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾[٣] .

فكأنها قالت : هذا فى الآخرة فما لنا فى الدنيا ؟ فقال سبحانه : ﴿ وأخرى تحبونها : نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾[٤] فالله الله ما أحلى هذه الألفاظ ، وما ألصقها بالقلوب ، وما أعظمها جذبا لها ، وتسييرا إلى ربها ، وما ألطف موقعها من قلب كل محب .

ومن هذا قوله تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدى القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾[٥] .

فأخبر سبحانه : أنه لا يستوى عمار المسجد الحرام ، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة . هذه هى عمارة المساجد المذكورة فى القرآن ، وأهل سقاية الحاج لا يستوون هم وأهل الجهاد فى سبيل الله ، وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وأنهم هم الفائزون ، وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات .

وقال تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ، درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما ﴾[٦] فنفى سبحانه وتعالى : التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد ، وبين المجاهدين ، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة ، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات ، وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس من جهة أن القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات إن كانوا هم القاعدين الذين فضل الله عليهم أولى الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا ، وعلى هذا فماوجه استثناء أولى الضرر وهم لا يستوون ، والمجاهدون أصلا ؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحدا ، فهذا وجه الإشكال ، ونحن نذكر ما يزيل الإشكال بحمد الله فاختلف القراء فى إعراب

---

(١) سورة الصف الآية : ١٠ .
(٢) سورة الصف الآية : ١١ .
(٣) سورة الصف ، الآية : ١٢
(٤) سورة الصف ، الآية : ١٣
(٥) سورة التوبة ، الآيات : ١٩ - ٢٢
(٦) سورة النساء ، الآيتان : ٩٥ ، ٩٦

(غير) : فقرىء رفعا ونصبا وهما فى السبعة ، وقرىء بالجر فى غير السبعة وهى قراءة أبى حيوة .

فأما قراءة النصب فعلى الاستثناء ، لأن غيرا يعرب فى الاستثناء إعراب الاسم الواقع بعد إلا وهو النصب ، هذا هو الصحيح . وقالت طائفة : إعرابها نصب على الحال أى : لا يستوى القاعدون غير مضرورين ، أى : لا يستوون فى حالهم صحتهم ، هم والمجاهدون والاستثناء أصح ، فإن غيرا لا تكاد تقع حالا فى كلامهم إلا مضافة إلى نكرة . فإن أضيفت إلى معرفة كانت تابعة لما قبلها ، والكلام فى عدم تعريف غير بالإضافة وحسن وقوعها إذ ذاك حالا له مقام آخر . وأما الرفع فعلى النعت للقاعدين ، هذا هو الصحيح . وقال أبو إسحق ، وغيره : هو خبر مبتدأ محذوف تقديره : الذين هم غير أولى الضرر . والذى حمله على هذا ظنه أن غيرا لا تقبل التعريف بالإضافة ، فلا تجرى صفة للمعرفة . وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها سوى أن غيرا توغلت فى الإبهام ، فلا تتعرف بما تضاف إليه . . وجواب هذا أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعيينها ما تضاف إليه . وأما قراءة الجر ففيها وجهان : أحدهما ـ وهو الصحيح ـ أنه نعت للمؤمنين ، والثانى ـ وهو قول المبرد ـ أنه بدل منه ، بناء على أنه نكرة فلا تنعت به المعرفة . وعلى الأقوال كلها فهو مفهوم معنى الاستثناء وإن نفى التسوية غير مسلط على ما أضيف إليه غيره ، وقوله تعالى : ﴿ فضل الله المجـاهدين على القاعدين درجة ﴾ هو مبين لمعنى نفى المساواة . . قالوا : والمعنى فضل الله المجاهد على القاعد من أولى الضرر درجة واحدة لامتيـازه عنه بالجهاد بنفسه وماله ، ثم أخبر سبحانه وتعالى : أن الفريقين كليهما موعود بالحسنة .

فقال سبحانه : ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ أى : المجاهد والقاعد المضرور ، لاشتراكهما فى الإيمان . . قالوا : وفى هذا دليل على تفضيل الغنى المنفق على الفقير ، لأن الله أخبر أن المجاهد بماله ونفسه أفضل من القاعد ، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس . وأما الفقير فنفى عنه الحرج بقوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾[1] فأين مقام من حكم له بالتفضيل إلى مقام من نفى عنه الحرج ، قالوا فهذا حكم القاعد من أولى الضرر والمجاهد . وأما القاعد من غير أولى الضرر فقال تعالى : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما ﴾[2] وقوله ﴿ درجات ﴾ قيل : هو نصب على البدل من قوله ﴿ أجرا عظيما ﴾ وقيل : تأكيد له وإن كان بغير لفظه ، لأنه هو فى المعنى ، قال قتادة : كان يقال : الإسلام درجة ، والهجرة فى الإسلام درجة ، والجهاد فى الهجرة درجة ، والقتل فى الجهاد درجة . وقال ابن زيد : الدرجات التى فضل الله بها المجاهد على القاعد سبع : وهى التى ذكرها الله ـ تعالى ـ فى سورة براءة إذ يقول تعالى : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ فهذه خمس ثم قال : ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم

(١) سورة التوبة من الآية : ٩٢ .
(٢) سورة النساء من الآية : ٩٥ ،والآية : ٩٦

به عمل صالح ﴾[١] فهاتان اثنتان وقيل : الدرجات سبعون درجة بين الدرجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة . والصحيح أن الدرجات هى المذكورة فى حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى فى صحيحه ، عن النبى - ﷺ - أنه قال : (من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فإن حقا على الله أن يدخله الجنة ، هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها) قالوا يا رسول الله أفلا نخبر الناس بذلك ؟ قال : (إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة)[٢] .

قالوا : وجعل سبحانه وتعالى : التفضيل الأول بدرجة فقط ، وجعله هنا بدرجات مغفرة ورحمة ، وهذا دليل على أنه يفضل على غير أولى الضرر فهذا تقرير القول وإيضاحه .

ولكن بقى أن يقال : إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا لزم ألا يستوى مجاهد وقاعد مطلقا ، فلا يبقى فى تقييد القاعدين بكونهم من غير أولى الضرر فائدة ، فإنه لا يستوى المجاهدون والقاعدون الذين هم أولو الضرر أيضا ، وأيضا فان القاعدين المذكورين فى الآية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير أولى الضرر لا القاعدون الذين هم أولو الضرر فإنهم لم يذكر حكمهم فى الآية ، بل استثناهم وبين أن التفضيل على غيرهم فاللام فى ﴿ القاعدين ﴾ للعهد ، والمعهود هم غير أولى الضرر لا المضرورن ، وأيضا فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل أجر المجاهد ، كما ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال : (إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ، ولا قطعتم واديا إلا وهم معكم قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال وهم بالمدينة ، حبسهم العذر) . وعلى هذا فالصواب أن يقال : الآية دلت على أن القاعدين عن الجهاد من غير أولى الضرر لا يستوون هم والمجاهدون وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ، ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين ، بل هذا النوع منقسم إلى معذور من أهل الجهاد غلبه عذره وأقعده عنه ، ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها ، وإنما أقعده العجز ، فهذا الذى تقضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد . وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفى التسوية وهذا لأن قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل ، أو مقدماته نزل صاحبه فى الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام . كما دل عليه قوله - ﷺ - : (إذا تواجه المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصا على قتل صاحبه)[٣] .

ومثله من سأل الشهادة بصدق بلغه الله سبحانه وتعالى : منازل الشهداء ولو مات على فراشه ونظائر ذلك كثيرة .

والقسم الثانى : معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزما تاما ، فهذا لا يستوى هو والمجاهد ، فى سبيل الله ، بل قد فضل الله المجاهدين عليه ، وإن كان معذورا لأنه لا نية له تلحقه

---

(١) سورة التوبة من الآية : ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) اخرجه البخارى فى (كتاب التوحيد) باب : وكان عرشه على الماء ج ٩ ص ١٥٣
(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الديات) باب : قول الله تعالى ومن أحياها .. الخ ج ٩ ص ٥ بلفظ إذا التقى المسلمان بسيفهما الخ .

بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول . وقد قال النبي - ﷺ - في حديث عثمان بن مظعون (إن الله قد أوقع أجره على قدر نيته)(١) فلما كان القسم المعذور فيه التفضيل لم يجز أن يساوى بالمجاهد مطلقا ، ولا ينفى عنه المساواة مطلقا ، ودلالة المفهوم لا عموم لها . فإن العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة ، وعوارض الألفاظ ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على أن له عموما يجب اعتباره ، فإن أدلة المفهوم ترجع إلى شيئين : أحدهما التخصيص ، والآخر التعليل . فأما التحخصيص : فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور يقتضى نفى الحكم عما عداه وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا لا يقتضى العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم إلى ما يسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها ثبوت تفضيل فيه ، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه إما بشرط لا تجب مراعاته فى المنطوق ، وإما فى وقت دون وقت . بخلاف حكم المنطوق فإنه ثابت أبدا ، ونحو ذلك من فوائد التخصيص ، وإذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة ، فإثباته مجرد الحكم . وأما التعليل : فإنهم قالوا : ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضى نفى الحكم عما عداه ، وإلا لم يكن الوصف المذكور علة . وهذا أيضا لا يستلزم عموم النفى عن كل ما عداه ، وإنما غايته اقتضاؤه نفى الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفى عنها الوصف ، وأما نفى الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر ، وعلة أخرى ، فإن الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلل مختلفة وفى الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه ومثال هذا ما نحن فيه لأن قوله تعالى : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون ﴾ لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقا من حيث الضرورة ، بل إن ثبت المساواة فإنها معللة بوصف آخر وهى النية الجازمة والعزم التام ، والضرر المانع من الجهاد فى ذلك الحال لا يكون مانعا من المساواة فى الأجر والله أعلم .

والمقصود الكلام على طبقات الناس فى الآخرة . وأما النصوص الداله على فضل الجهاد وأهله فأكثر من أن تذكر هنا ، فهذه الدرجات الثلاث هى درجات السبق ، أعنى درجة العلم والعدل والجهاد وبها سبق الصحابة . وأدركوا من قبلهم ، وفاتوا من بعدهم واستولوا على الأمد والبعيد ، وحازوا قصبات العلا ، وهم كانوا السبب فى وصول الإسلام إلينا ، وفى تعليم كل خير وهدى ، وسبب تنال به السعادة والنجاة ، وهم أعدل الأمة فيما ولوه ، وأعظمها جهادا فى سبيل الله والأمة فى آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة ، فلا ينال أحد منهم مسألة علم نافع إلا على أيديهم ، ومن طريقهم نالها ، ولا يسكن بقعة من الأرض آمنا إلا بسبب جهادهم وفتوحهم ، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدى إلا كانوا هم السبب فى وصولهم إليه ، فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف ، والقلوب بالإيمان ، وعمروا البلاد بالعدل والقلوب بالعلم ، والهدى ، فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلى يوم القيامة مضافا إلى أجر أعمالهم التى اختصوا بها ، فسبحان من يختص بفضله ورحمته من يشاء . وإنما نالوا هذا

(١) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده من حديث جابر بن عتيك ح ٥ ص ٤٤٦ وهو جزء من حديث . وفى فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٢٤٥ رقم ١٧٥٩ عن مالك من رواية أحمد ، أبو داود والنسائى وابن ماجه وابن حبان والحاكم فى المستدرك عن جابر بن عتيك ورمز له بالصحة .

بالعلم والجهاد والحكم بالعدل ، وهذه مراتب السبق التى يهبها الله من يشاء من عباده .

جزاء الصالحين

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ﴾[١]

يخبر سبحانه وتعالى أنه مع غناه عن الخلائق جميعهم وضع بره وإحسانه بهم يجازى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء وهو أنه يكفر عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويجزى على السيئة بمثلها أو يعفو ويصفح كما قال تعالى : **﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾**[٢] وقال ههنا : **﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ﴾** .

الإحسان إلى الوالدين

قوله تعالى : **﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾**[٣] .

(روى الترمذى عند تفسيره لهذه الآية : حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن المثنى حدثنا محمد ابن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب قال : سمعت مصعب بن سعد يحدث عن أبيه سعد قال أنزلت فى أربع آيات فذكر قصته ، وقال : قالت أم سعد : أليس قد أمرك الله بالبر ؟ والله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت) **﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾**[٤] الآية وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : **﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾** وهذا دليل على اقتران الإيمان ببر الوالدين كما قال سبحانه : **﴿واعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا ﴾**[٥] وقوله : **﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ﴾**[٦] فالله تعالى : هو الموجد الحقيقى للإنسان والوالدان هما السبب المباشر ، والوالد يكرم ولده بالإنفاق ، والأم تكرمه بالإشفاق . وقد أمر الله تعالى : بطاعتهما إلا إذا أمرا ولدهما بالشرك عندئذ لا طاعة فى معصية الله ، ولكن مع مصاحبتهما بالمعروف إذ المرء يوم القيامة يحشر مع من أحب فى الله وكل نفس بما كسبت رهينة ،وكل امرىء بما

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٧

(٢) سورة النساء آية : ٤٠

(٣) سورة العنكبوت الآيتان : ٨ ، ٩

(٤) الحديث أخرجه الإمام الترمذى فى سننه فى (كتاب تفسير القرآن) باب : ومن سورة العنكبوت ج ٥ ص ٣٤١ ، ٣٤٢ رقم ٣١٨٩ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) سورة النساء من الآية : ٢٦ .

(٦) سورة الإسراء من الآية : ٢٣ .

كسب رهين . فليحرص الإنسان على سلامة دينه مهما كانت الأمور إذ المرجع والمآب إلى الله فى يوم يفر المرء فيه من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه فليحرص المسلم على أن يكون مع الموحدين الصادقين يوم البعث قال تعالى فى سورة لقمان : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[١] .

فكن بارا بوالديك وأطعهما إلا فيما يغضب الله ، ولا تشرك بالله وإن قطعت أو حرقت واحرص على أن تكون ممن قال فيهم بعد ذلك : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين ﴾[٢] .

الإسلام دين البر والصلة

عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : (الصلاة على وقتها . قلت : ثم أى ؟ قال : بر الوالدين . قلت : ثم أى ؟ قال : الجهاد فى سبيل الله . رواه البخارى ومسلم)[٣] . (ومعنى بر الوالدين : طاعتهما) وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ : (لا يجزى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه)[٤] رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة ـ معنى مملوكا : عبدا ملكه الغير .

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء رجل الى نبى الله ـ ﷺ ـ فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : (أحى ولداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى[٥] معنى : ففيهما فجاهد : فأكرمهما محبة فى ثواب الله لتنال ثواب الجهاد . بالانقياد إلى أوامرهما .

وفى رواية لمسلم : أقبل رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد أبتغى الأجر من الله . قال : (فهل من والديك أحد حى ؟ قال : نعم ، بل كلاهما حى . قال : فتبتغى الأجر من الله ؟ قال : نعم . . قال : فارجع إلى والديك ، فأحسن صحبتهما)[٦] . معنى (فتبتغى) : فتطلب .

---

(١) سورة لقمان الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٢) سورة العنكبوت الآية : ٩

(٣) الحديث فى رياض الصالحين للإمام النووى رقم ٣١٠ وقال المحقق : (متفق عليه) يعنى رواه البخارى ومسلم فى باب : بر الوالدين وصلة الأرحام . ورواه الترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣١٠ رقم ١٨٩٨ بألفاظ متقاربة ومتحدة فى المعنى . وقال أبو عيسى : حديث حسن صحيح .

(٤) انظر رياض الصالحين باب : بر الوالدين وصلة الأرحام رقم ٣١١ قال المحقق : رواه مسلم . فى كتاب البر والصلة والآداب وأخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب : ما جاء ، فى حق الوالدين رقم ١٩٠٦ ج ٤ ص ٣١٥ وقال : حديث حسن لا نعرفه إلا من حديث سهيل بن صالح ، وقد روى سفيان الثورى وغير واحد عن سهيل بن أبى صالح هذا الحديث . كما رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه .

(٥) انظر رياض الصالحين باب : بر الوالدين وصلة الأرحام رقم ٣١٩ وقال المحقق : متفق عليه أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة ، والآداب باب : بر الوالدين وأنهما أحق ، وأخرجه البخارى : فى (كتاب الجهاد) باب : الجهاد بإذن الأبوين .

(٦) الحديث لمسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب : بر الوالدين وأنهما أحق به رقم ٢٥٤٩ ج ٤ ص ١٩٧٥ .

وعن عبدالله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ، فقال : جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبكيان ، فقال : (ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما) رواه أبو داود[١] معنى (أضحكهما) : أدخل عليهما السرور وآجلب لهما الفرح .

وعن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول ـ ﷺ ـ فقال : (هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواى . قال : أذنا لك ؟ قال : لا . قال : فارجع إليهما ، فاستأذنهما ، فإن أذنا لك فجاهد ، وإلا فبرهما)[٢] رواه أبو داود . معنى (برهما أحسن إليهما بطاعتك .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ يستأذنه فى الجهاد ، فقال : (أحى والداك ؟ قال : نعم . قال : ففيهما فجاهد)[٣] رواه مسلم وأبو داود وغيره وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى رجل رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : إنى أشتهى الجهاد ولا أقدر عليه . قال : (هل بقى من والديك أحد ؟ قال : أمى . قال : قابل الله فى برها ، فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد)[٤] رواه أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط وإسنادهما جيد ، ميمون بن نجيح وثقه ابن حبان ، وبقية رواته ثقات مشهورون . ومعنى (فأنت حاج ومعتمر ومجاهد) أى إن أرضيت أمك حزت ثواب الذى حج واعتمر وحارب فى سبيل الله تعالى ترغيب فى إطاعة الأم .

وروى عن طلحة بن معاوية السلمى ـ رضى الله عنه ـ قال : أتيت النبى ـ ﷺ ـ فقلت : يا رسول الله إنى أريد الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : (أمك حية ؟ قلت : نعم قال النبى ـ ﷺ ـ : (الزم رجلها فثم الجنة)[٥] رواه الطبرانى .ومعنى : (الزم رجلها فثم الجنة) : الخضوع لها واقترب منها وراعها واخدمها فهناك الجنة بسبب رضاها تحظى بنعيم الله (الجنة تحت أقدام الأمهات)[٦] .

وعن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا قال : يا رسول الله (ما حق الوالدين على ولدهما ؟ قال : هما جنتك ونارك)[٧] رواه ابن ماجه من طريق على بن يزيد عن القاسم . وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله أردت أغزو ، وقد جئت أستشيرك فقال : (هل

---

(١)الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب الجهاد) باب : فى الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٨ رقم ٢٥٢٨ وقال الخطابى : وأخرجه النسائى : ٣١٠٥ (فى الجهاد) باب الرخصة لمن له والدان ص ٥ ص ١٠ وابن ماجه حديث ٨٢٢٧ فى الجهاد باب : الرجل يغزو وله أبوان .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى (كتاب الجهاد) باب : الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٩ رقم ٢٥٣٠ .

(٣) أخرجه مسلم فى(كتاب البر والصلة والآداب) باب : بر الوالدين ج ٤ ص ١٩٧٥ رقم ٢٥٤٩ .

(٤) الحديث فى مجمع الزوائد (فى كتاب البر والصلة) باب : ماجاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى والطبرانى فى الصغير والأوسط ورجالهما رجال الصحيح غير ميمون بن نجيح ووثقه ابن حبان .

(٥) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمى : رواه الطبرنى عن ابن إسحاق وهو مدلس عن محمد بن طلحة ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

(٦) فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة ـ باب . ما جاء فى البر وحق الوالد ج ٨ ص ١٣٨ عن معاوية بن جاهمة بلفظ : (الزمها فإن الجنة تحت أقدامها) وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله ثقات .

(٧) الحديث أخرجه ابن ماجة فى (كتاب الأدب) باب : بر الوالدين ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٣٦٦٢ قال فى الزوائد : قال ابن معين : على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة : هى ضعيفة كلها ، وقال الساجى : اتفق أهل النقل على ضعف على بن يزيد .

لك من أم ؟ قال : نعم . قال : فالزمها . فإن الجنة عند رجلها)[١] رواه ابن ماجه والنسائى ، واللفظ له والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ـ معنى (فإن الجنة عند رجلها) كناية عن شدة إكرامها ورضاها والتذلل طاعة لها . قال تعالى : ﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾[٢] .

ورواه الطبرانى بإسناد جيد ، ولفظه قال : أتيت النبى ـ ﷺ ـ أستشيره فى الجهاد ، فقال النبى ـ ﷺ : ألك والدان ؟ قلت : نعم . قال : الزمهما فإن الجنة تحت أرجلهما .

وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ أن رجلا أتاه فقال : إن لى امرأة ، وإن أمى تأمرنى بطلاقها ؟ فقال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فأضع هذا الباب أو احفظه)[٣] رواه ابن ماجه والترمذى واللفظ له ، وقال : ربما قال سفيان : أمى ، وربما قال : أبى ، قال الترمذى حديث صحيح .

ـ معنى . (فأضع) فأذهب ، من أضاع بمعنى ترك.ورواه ابن حبان فى حديثه ولفظه : أن رجلا أتى أبا الدرداء ، فقال : إن أبى لم يزل بى حتى زوجنى ، وإنه الآن يأمرنى بطلاقها ؟ قال : ما أنا آمرك أن تعق والديك ولا بالذى آمرك أن تطلق امرأتك غير أنك إن شئت حدثتك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول : (الوالد أوسط أبواب الجنة ، فحافظ على ذلك الباب إن شئت أو دع) ، قال : فأحسب عطاء قال : فطلقها[٤] .

ـ معنى (دع) : اترك وتجنب .

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (من سره أن يمد له فى عمره ويزاد فى رزقه فليبر والديه ، وليصل رحمه)[٥] رواه أحمد ، ورواته محتج بهم فى الصحيح ، وهو فى الصحيح باختصار ذكر البر .

ـ معنى : (فليبر والديه) فليكرمهما .

معنى : (وليصل رحمه) وليود بالهدية والزيارة أقاربه .

وعن معاذ بن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من بر والديه طوبى له زاد الله فى عمره)[٦] رواه أبو يعلى والطبرانى والحاكم والأصبهانى ، كلهم من طريق زبان بن قائد عن سهل بن

---

(١) الحديث فى مجمع الزوائد ـ كتاب البر والصلة ـ باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٨ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح . وأخرجه الحاكم فى المستدرك باختلاف يسير (فى كتاب البر والصلة) باب . بر أمك ثم أباك . . الخ ج ٤ ص ١٥١ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٢) سورة الإسراء آية : ٢٤ .

(٣) وأخرجه ابن ماجه فى سننه (فى كتاب الأدب) باب : بر الوالدين ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٣٦٦٣ الحديث أخرجه الترمذى فى سننه (فى كتاب البر والصلة) باب : ما جاء من الفضل فى رضا الوالدين ج ٤ ص ٣١١ رقم ١٨٩٩ وقال : هذا حديث صحيح .

(٤) انظر الحاكم فى المستدرك (فى كتاب البر والصلة) باب : الوالد أوسط أبواب الجنة ج ٤ ص ١٥٢ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ـ مسند أنس بن مالك ج ٣ ص ٢٦٦ وانظره فى البخارى فى (كتاب البيوع) باب : من أحب البسط فى الرزق . وفى مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب : صلة الرحم وتحريم قطعها ج ٤ ص ١٩٨٢ رقم ٢٥٥٧ .

(٦) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٧ وقال الهيثمى : رواه أبو يعلى والطبرانى وفيه زبان بن قائد وثقه أبو حاتم وضعفه غيره ، وبقية رجال أبى يعلى ثقات .

معاذ عن أبيه ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

ـ ومعنى (طوبى) : شجرة فى الجنة يملك قدر ظلها البار بوالديه . وعن ثوبان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول ـ الله ـ ﷺ ـ (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر)(١) رواه ابن ماجه وابن حِبان فى صحيحه ، واللفظ له والحاكم بتقديم وتأخير وقال : صحيح الإسناد .

ـ معنى : (ليحرم) ليمنع ويضيق عليه . وعن سلمان ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (لا يرد القضاء إلا الدعاء ، ولا يزيد فى العمر إلا البر)(٢) رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم ، وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، ومن أتاه أخوه متنصلا فليقبل ذلك محقا كان أو مبطلا ، فإن لم يفعل لم يرد على الحوض)(٣) رواه الحاكم من رواية سويد عن أبى رافع عنه وقال : صحيح الإسناد .

[قال الحافظ] : سويد عن قتادة هو ابن عبدالعزيز واه .

ـ معنى (متنصلا) متبرئا عاتبا معترفا بذنبه . بر . يبر من باب علم وضرب .

ومعنى (محقا) أى صاحب حق أو كان على باطل ، يترك الجدال ، والمعنى يقبل اعتذار من اعتذر ويكون سهلا لينا كريما ظريفا لا يحمل ضغنا ، فإن كان جافا غليظ الطبع طرد من الشرب من الحوض يوم القيامة .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة)(٤) رواه مسلم [رغم أنفه] : أى لصق بالرغام ، وهو التراب .

وعن جابر ، يعنى ابن سمرة ـ رضى الله عنه ـ قال : صعد النبى ـ ﷺ ـ المنبر فقال : (آمين ، آمين ، آمين . قال : أتانى جبريل ـ عليه السلام ـ ، فقال : يا محمد : من أدرك أحد أبويه فمات ، فدخل النار ، فأبعده الله ، فقل آمين ، فقلت : آمين ، فقال : يا محمد من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له ، فأدخل النار ، فأبعده الله فقل آمين ـ فقلت : آمين . قال : ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات ، فدخل النار ، فأبعده الله فقل : آمين فقلت : آمين)(٥) .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى سننه (فى كتاب الفتن) باب . العقوبات ج ٢ ص ١٣٣٤ مع اختلاف فى بعض ألفاظه واتحاد فى المعنى وقال فى الزوائد : إسناده حسن وأخرجه ابن حبان فى صحيحه باب : (الأدعية) ذكر الإخبار عما يستحب للمرء من المواظبة على الدعاء ج ٢ ص ١١٦ .

(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب القدر) باب : ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء ج ٤ ص ٤٤٨ رقم ٢١٣٩ .

(٣) الحديث أخرجه الحاكم : فى المستدرك (فى كتاب البر والصلة) باب : من بر والديه ج ٤ ص ١٥٤ وقال الذهبى فى لمخيص .. قلت : سويد ضعيف .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم فى (كتاب البر والصلة) باب : فى بر الوالدين وأنهما أحق باب : رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر ، فلم يدخل الجنة ج ٤ ص ١٩٧٨ رقم ١٥٥١ .

(٥) الحديث فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٩ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى بأسانيد وأحدها حسن .

رواه الطبرانى بأسانيد أحدها حسن ، ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة إلا أنه قال فيه : « من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار فأبعده الله قل آمين فقلت آمين » رواه أيضا من حديث الحسن بن مالك بن الحويرث عن أبيه عن جده ، وتقدم ورواه الحاكم وغيره من حديث كعب بن عجرة ، وقال فى آخره . (فلما رقيت الثالثة قال : بعد من أدرك أبويه الكبر عنده أو أحدهما ، فلم يدخلاه الجنة . قلت آمين)[1] رواه الطبرانى من حديث ابن عباس بنحوه ، وفيه : (ومن أدرك والديه أو أحدهما فلم يبرهما دخل النار ، فأبعده الله وأسحقه . قلت : آمين)[2] .

- ومعنى : آمين (اللهم استجب) .

ومعنى (أسحقه) أهلكه وأبعده عن رحمته .

وعن مالك بن عمرو القشيرى - رضى الله عنه - : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (من أعتق رقبة مسلمة فهى فداؤه من النار ، ومن أدرك أحد والديه ثم لم يغفر له فأبعده الله زاد فى رواية : وأسحقه)[3] رواه أحمد من طرق أحدها حسن . وروى البخارى قال : (بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر فمالوا إلى غار فى الجبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها لله - عز وجل - صالحة ، فادعوا الله بها لعله يفرجها ، فقال أحدهم : اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران ، ولى صبية صغار كنت أرعى ، فإذا رحت عليهم فحلبت لهم بدأت بوالدى أسقيهما قبل ولدى ، وإنه نأى الشجر فما أتيت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب ، فقمت عند رأسيهما أكره أن أوقظهما من نومهما ، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله - عز وجل لهم حتى رأوا منها السماء[4] .

- معنى (غار) بيت منقور فى الجبل .

معنى (فانحطت) نزلت .

معنى (يفرجها) يزيلها ويوسعها .

معنى (يتضاغون) يبكون جوعا .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك)[5] رواه البخارى ومسلم .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك جزء من حديث فى كتاب البر والصلة باب : لعن الله العاق لوالديه .. الخ ج ٤ ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

(٢) وقال الحاكم : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٥٠ ، ٣٤٤ .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى فى (كتاب الأدب) باب : دعاء من بر والديه ج ٨ ص ٣ وهذا جزء من حديث طويل .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب « البر والصلة والآداب » باب بر الوالدين وأيهما أحق به ج ٤ ص ١٩٧٤ برقم ١ - ٢٥٤٨ وفى حديث قتيبة : من أحق بحسن صحابتى ؟ ولم يذكر الناس .

وأخرجه البخارى فى صحيحه (فى كتاب الأدب) باب : من أحق الناس بحسن الصحبة ج ٨ ص ٢ .

ـ الرجل هو جدبهز بن حكيم . قال ابن بطال : مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، قال وكان ذلك لصعوبة الحمل ، ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ، ثم تشارك الأب فى التربية ، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين** ﴾(١) من سورة لقمان . فسوى بينهما فى الوصاية وخص الأمور الثلاثة ، وقال القرطبى : المراد أن الأم تستحق على الولد الحظ الأوفر من البر وقال عياض : وذهب الجمهور إلى أن الأم تفضل فى البر على الأب .

وقد رتب ـ ﷺ ـ فى حديث (أمك وأباك ثم أختك وأخاك ثم أدناك أدناك) أى تقدم القرابة من ذوى الرحم . وأخرج أحمد والنسائى وصححه الحاكم من حديث عائشة : سألت النبى ـ ﷺ ـ أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال : (زوجها ! قلت فعلى الرجل قال أمه)(٢) .

وعن أسماء بنت أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ قالت : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ـ ﷺ ـ ، فأستفتيت رسول الله ـ ﷺ ـ . قلت : قدمت على أمى ، وهى راغبة ، أفأصل أمى ؟ قال : نعم صلى أمك)(٣) رواه البخارى، ومسلم وأبو داود . ولفظه قالت : (قدمت على أمى راغبة فى عهد قريب ، وهى راغمة مشركة ، فقلت : يا رسول الله إن أمى قدمت على . وهى راغمة مشركة أفأصلها ! قال نعم : صلى أمك) .

[راغبة] أى طامعة فيما عندى تسألنى الإحسان إليها .

[راغمة] أى كارهة للإسلام .

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد)(٤) رواه الترمذى ، ورجح وقفه ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم ، قالا : صحيح على شرط مسلم ، ورواه الطبرانى من حديث أبى هريرة إلا أنه قال : (طاعة الله طاعة الوالد ، ومعصية الله معصية الوالد)(٥) ورواه البزار من حديث عبد الله بن عمر ، أو ابن عمرو ، ولا يحضرنى أيهما .

---

(١) سورة لقمان الآية : ١٤ .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم : فى المستدرك (فى كتاب البر والصلة) باب بر أمك ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب ج ٤ ص ١٥٠ وسكت عنه الحاكم . والذهبى .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى مع اختلاف فى بعض ألفاظه فى (كتاب الأدب) باب : صلة المرأة أمها ولها زوج ج ٨ ص ٥ وأخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب الزكاة) باب : فضل النفقة والصدقة على الأقربين ... الخ ج ٢ ص ٦٩٦ رقم ٤٩ ـ ١٠٠٣ وأخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الزكاة) فى باب : الصدقة على أهل الذمة ج ٢ ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ رقم ١٦٦٨ .

(٤)أخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب البر والصلة) باب : ما جاء من الفضل فى رضا الوالدين ج ٤ ص ٣١١ بلفظ : « رضا الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد » .

وفى الحاكم : بلفظ : (رضا الرب) الخ (فى كتاب البر والصلة) باب رضا الرب .. الخ ج ٤ ص ١٥٢ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(٥) وفى مجمع الزوائد : (فى كتاب البر والصلة) باب : ما جاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٦ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن كيسان وهو لين عن إسماعيل بن عمرو البجلى وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه أبو حاتم وغيره وبقية رجاله رجال الصحيح .

ولفظه قال : (رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين ، وسخط الله تبارك وتعالى فى سخط الوالدين)[(١)].

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : (أتى النبى - ﷺ - رجل فقال : إنى أذنبت ذنبا عظيما فهل له من توبة ؟ فقال : هل لك من أم ؟ قال : لا . قال : فهل لك من خالة ؟ قال : نعم . قال : فبرها)[(٢)] رواه الترمذى ، واللفظ له . وابن حبان فى صحيحه والحاكم إلا أنهما قالا : هل لك والدان بالتثنية ، وقال الحاكم : صحيح على شرطهما .

- معنى برهما : أحسن إليهما . والبر : ضد العقوق . يبر خالقه : يشكره ويطيعه .

وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى - رضى الله عنه - قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاء رجل من بنى سلمة ، فقال : يا رسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال : نعم الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما)[(٣)] رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان فى صحيحه . وزاد فى آخره . قال الرجل : ما أكثر هذا يا رسول الله وأطيبه . قال : فاعمل به .

- معنى (الصلاة عليهما) : الدعاء لهما بالنعيم . معنى (الاستغفار لهما) : أطلب من الله تعالى أن يعفو عن زلاتهما . معنى (إنفاذ عهدهما) : العمل بوصيتهما . معنى (صلة الرحم) مودة الأرقاب المحارم وغير المحارم . معنى (إكرام صديقهما) : رعاية واجب أصحابهما .

وعن عبد الله دينار عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة ، فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت على رأسه . قال ابن دينار : فقلت له : أصلحك الله إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير ، فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب وإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه)[(٤)] رواه مسلم .

- معنى (الأعراب) : سكان البوادى يتحملون خشونة العيش وشظفه . معنى (أهل ود أبيه) إن أعظم الصلة لأصحاب أبيك الذين كان يودهم ويحبهم ويعاملهم .

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت لا . قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه

---

(١) وأخرجه البزار فى كشف الأستار عن زوائده فى (كتاب البر والصلة) باب بر الوالدين ج ٢ ص ٣٦٦ رقم ١٨٦٥ وقال البزار : لا نعلم رواه عن يحيى بن سعيد إلا عصمة .

(٢) انظر كتاب البر والصلة فى سنن الترمذى ، باب : ما جاء فى بر الخالة ج ٤ ص ٣١٣ رقم ١٩٠٤ بلفظ : (الخالة بمنزلة الأم) .

(٣) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه (فى كتاب الأدب) باب فى بر الوالدين ج ٥ ص ٣٥٢ رقم ٥١٤٢ . وأخرجه ابن ماجه (فى كتاب الأدب) باب : صل من كان أبوك يصل ج ٢ ص ١٢٠٨ رقم ٣٦٦٤ .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب البر والصلة والآداب) باب : فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما ج ٤ ص ١٩٧٩ رقم ٢٥٥٢ .

بعده ، وإن كان بين أبي عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك)[١] رواه ابن حبان فى صحيحه .

ـ معنى (يصل أباه) يقدم لأبيه صلة ورحمة . معنى (إخوان أبيه) أصحابه .

فوائد بر الوالدين من فقه أحاديث سيدنا رسول الله ـ ﷺ ـ

أولا : إكرامهما من العمل الذى يحبه الله ـ تعالى ـ ويساوى ثواب الجهاد فى سبيل الله تعالى ، بل هو أفضل .

ثانيا : يساوى ثواب الحاج والمعتمر .

ثالثا : يوصل إلى نعيم الجنة (الزم رجلها) .

رابعا : يزيد فى العمر ، وفى الأرزاق ويسبب البركة فى المال (من سره) بسبب إكرامهما الله النجابة فى الأبناء والطهارة والهداية والتوفيق فتشب على محبة الوالدين (بروا آباءكم) .

خامسا : فرصة سانحة لضمان دخول الجنة ومن ضيعها خاب (ورغم أنفه) .

سادسا : يزيل الهموم ويجلب اليسر ويضمن النجاة (لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله) .

سابعا : لقد قرن الله رضاه ـ سبحانه ـ برضاهما .

الآيات الدالة على طلب إكرام الوالدين

ا ـ ﴿ (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ﴾[٢] سورة النساء .

ب ـ وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٣] من سورة العنكبوت .

أى : بإيتائهما فعلا ذا حسن ، والآية نزلت : فى سعد بن أبى وقاص وأمه حمنة ، فإنها لما سمعت بإسلامه حلفت أنها لا تنتقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ، ولبثت ثلاثة أيام كذلك ، وكذا التى فى لقمان والأحقاف وقد أخرج مسلم من طريق مصعب بن سعد عن أبيه قال : (حلفت أم سعد لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه قالت : زعمت أن الله أوصاك بوالديك فأنا أمك ، وأنا آمرك بهذا ، فنزلت : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ﴾ .

(ج) : وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى

(١) أخرجه ابن حبان فى صحيحه : باب : حق الوالدين باب : ذكر البيان بأن بر المرء بإخوان أبيه وصلته إياهم بعد موته من وصلة رحمه فى قبره ج ١ ص ٣٢٩ رقم ٤٣٣ .

(٢) سورة النساء الآية : ٣٦ .

(٣) سورة العنكبوت الآية : ٨ .

أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين * أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾[١] من سورة الأحقاف.

(د) وقال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا ﴾[٢] من سورة الإسراء .

(أف) : فلا تضجر مما يستقذر منهما وتستثقل من مؤونتهما ولا تزجرهما عمالا يعجبك بإغلاظ (قولا كريما) : جميلا لا شراسة فيه ، وتذلل لهما وتواضع (من الرحمة) : من فرط رحمتك عليهما ، وادع الله ـ تعالى ـ أن يرحمهما برحمته الباقية . (للأوابين) : للتوابين (غفورا) : ما فرط منهم عند حرج الصدر من أذية أو تقصير .

هـ ـ وقال تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير * وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾[٣] من سورة لقمان .

فريق من الناس

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين . وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله ﴾ أى بلسانه لا بقلبه فقد تلفظ بها لسانه دون أن تستقر كلمة الإيمان مع قلبه فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾[٥] .

قال الزجاج : ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله . أخرج أحمد والترمذى وابن ماجه وأبو ليلى عن أنس قال:قال ـ ﷺ ـ : (لقد أوذيت فى الله ، وما يؤذى أحد ، ولقد أخفت فى الله ، وما

(١) سورة الأحقاف الآيات : ١٥ ، ١٦ .
(٢) سورة الإسراء الآيات ٢٣ ـ ٢٥
(٣) سورة لقمان الآية : ١٤ ، ١٥ .
(٤) سورة العنكبوت الآيتان : ١٠ ، ١١
(٥) سورة الحج آية : ١١

يخاف أحد ، ولقد أتت على ثالثة ، ومالى ولعيالى طعام يأكله ذو كبد إلا مايوارى إبط بلال)[١] .

والخلاصة أن هناك فريقا يقول : آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته ، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه ، جعل فتنة الناس فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة ، فارتد عن إيمانه ورجع إلى كفره ، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى ، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان ، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان ، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر ، وعذاب الناس له دافع ، وعذاب الله ليس له دافع ، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده العقاب الأليم ، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾[٢] يفسره قوله تعالى : ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾[٣] وقوله جل شأنه : ﴿ فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين)[٤] وهذه حال المنافقين فى كل عصر ومكان . عالة على الأمة فى السراء وسوس ينخر فى عظامها فى البأساء والضراء وحين البأس وسبحانه القائل : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين * فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾[٥] وسبحان من يقول : ﴿ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا * أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ﴾[٦] .

هؤلاء المراءون المخادعون الله ـ تعالى ـ يعلم ما فى صدورهم من الخبايا والأمراض ، ومن ثم جاء تذييل الآية . ﴿ أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين ﴾ والمنافقون فريق منهم ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[٧] وليظهرن الله مدلول علمه لعباده المؤمنين فيختبر الناس بالسراء والضراء والاختبار هو الذى يمحص ويميز المؤمنين من المنافقين قال تعالى : ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ـ مسند أنس ج ٣ ص ١٢٠ وأخرجه ابن ماجه فى سننه بلفظه كما جاءبه المؤلف فى كلمة : (ولبلال) (وما وارى) (فى المقدمة) باب فضل سلمان وأبى ذر والمقداد ج ١ ص ٥٤ رقم ١٥١ وقال : أخرجه الترمذى فى آخر باب الزهد ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) سورة العنكبوت من الآية : ١٠

(٣) سورة النساء من الآية : ١٤١ .

(٤) سورة المائدة من الآية : ٥٢ .

(٥) سورة المائدة الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٦) سورة النساء الآيتان : ٦٢ ـ ٦٣

(٧) سورة البقرة الآيات : ٨ ـ ١٠ .

الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾[1] وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء ﴾[2] وصدق الله إذ جمع تلك المعانى فى قوله ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين * وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[3]

ألا يعلم هؤلاء الضالون المضلون أن كل إنسان يوم القيامة سيحمل أوزاره دون أن يحملها عنه غيره قال تعالى :﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾[4] وقال : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾[5] وقال جل شأنه : ﴿يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميما * يبصرونهم يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه * ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه * كلا ﴾[6] وقال سبحانه : ﴿ أفرأيت الذى تولى * وأعطى قليلا وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما فى صحف موسى * وإبراهيم الذى وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى ﴾[7]

وقال عز من قائل : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[8] وقال تعالى : ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾[9] وقال عظمت حكمته : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه. وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[10]

غدا توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

وفى قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾[11] إخبار عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٤٠ ـ ١٤٢
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٧٩ .
(٣) سورة العنكبوت آية : ١١ ـ ١٣ .
(٤) سورة الطور من الآية : ٢١ .
(٥) سورة فاطر من الآية : ١٨ ـ .
(٦) سورة المعارج الآيات : ٨ ـ ١٥
(٧) سورة النجم الآيات : ٣٣ ـ ٤٢
(٨) سورة الإسراء من الآية : ١٥ .
(٩) سورة النحل الآية : ١١١ .
(١٠) سورة عبس الآيات : ٣٣ ـ ٣٧ .
(١١) سورة العنكبوت آية : ١٢ .

الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتبعوا سبيلنا (ولنحمل خطاياكم) أى : وآثامكم إن كانت لكم آثام فى ذلك علينا ، وفى رقابنا كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك فى رقبتى ، قال الله ـ تعالى ـ تكذيبا لهم : ﴿ **وما هم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون** ﴾(١) أى : فيما قالوه أنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم فإنه لا يحمل أحد وزر أحد قال الله تعالى : ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **ولا يسأل حميم حميما يبصرونهم** ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم** ﴾(٤) إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم وأوزارا أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئا كما قال تعالى : ﴿ **ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم** ﴾(٥) الآية وفى الصحيح (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئا)(٦) وفى الصحيح (ما قتلت نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل)(٧) وقوله تعالى : ﴿ **وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون** ﴾ أى: يكذبون ويختلقون من البهتان ، وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا .

فقال : حدثنا أبى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان بن حفص بن أبى العالية ، حدثنا سليمان بن حبيب المحاربى ، عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ بلغ ما أرسل به ثم قال : (إياكم والظلم فإن الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتى وجلالى لا يحوزنى اليوم ظلم ثم ينادى مناد فيقول أين فلان ابن فلان ؟ فيأتى يتبعه من الحسنات أمثال الجبال فيشخص الناس

---

(١) سورة العنكبوت آية : ١٢ .
(٢) سورة فاطر من الآية : ١٨ .
(٣) سورة المعارج الآية : ١٠ ، ١١ .
(٤) سورة العنكبوت من الآية : ١٣ .
(٥) سورة النحل من الآية : ٢٥ .
(٦) جزء من حديث أخرجه مسلم فى (كتاب العلم) باب : من سن سنة حسنة أو سيئة الخ ج ٤ ص ٢٠٦٠ .
(٧) انظر سنن الترمذى (فى كتاب العلم) باب : ما جاء الدال على الخير كفاعله ج ٥ ص ٤٢ رقم ٢٦٧٣ بلفظ ما من نفس تقتل ظلما إلا كان على إبن آدم كفل من دمها ، وذلك لأنه أول من أسن القتل : (وقال عبدالرزاق : سن القتل) قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
وانظروفى تفسير ابن كثير سورة العنكبوت آية : ١٣ ج ٣ ص ٣١ وانظره ايضا فى مختصر ابن كثير فى تفسير سورة المائدة آية : ٣١ ج ١ ص ٥٠٨ .

إليها أبصارهم حتى يقوم بين يدى الرحمن - عز وجل - ثم يأمر المنادى فينادى من كانت له تباعة أو ظلامة عند فلان بن فلان فهلم فيقبلون حتى يجتمعوا قياما بين يدى الرحمن فيقول الرحمن : «اقضوا عن عبدى ، فيقولون كيف نقضى عنه ؟ فيقول خذوا لهم من حسناته فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة ، وقد بقى من أصحاب الظلامات فيقول : اقضوا عن عبدى . فيقولون لم يبق له حسنة فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه »[1] ثم نزع النبى - ﷺ - بهذه الآية الكريمة ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾[2] وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من غير هذا الوجه (إن الرجل ليأتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، وقد ظلم هذا وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإذا لم تبق له حسنة أخذ من سيئاتهم فطرح عليه)[3] وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن أبى الحوارى ، حدثنا أبو بشر الحذاء ، عن أبى حمزة الثمالى ، عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : قال لى رسول الله - ﷺ - (يا معاذ إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بإصبعيه ، فلا ألفينك تأتى يوم القيامة وأحد أسعد بما آتاك الله منك ﴾ .

نوح وقومه

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

تفسير المفردات والمعنى الجملى

(الطوفان) ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أوموت أو ظلام ليل .

وهذه قصة نوح - عليه السلام - أطول الأنبياء عمرا ، دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، ومع هذا فلم يؤمن معه إلا قليل ، وقد سيقت تسلية وعبرة لمن يعتبر ، وقد ذكر بعدها قصص بعض الأنبياء بهذا الغرض .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا ﴾ - وقد ورد أنه أول نبى أرسل إلى قومه ، وكانوا أهل كفر وفسق وعصيان ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله ويذكرهم بيوم القيامة ، ولكنهم كانوا يردون عليه أسوأ رد وأفحشه ، وقد بذل نوح منتهى ما فى وسعه كبشر ، وطال الزمن وهو يدعوهم

---

(١) انظر تفسيرابن كثير- تفسير سورة العنكبوت آية : ١٢ ، ١٣ وقال المحقق : أخرجه أبى حاتم عن أبى أمامة مرفوعا .
(٢) سورة العنكبوت آية : ١٣ .
(٣) انظره فى مختصر تفسير ابن كثير تفسير سورة العنكبوت آية رقم ١٣ ج ٣ ص ٣١ .

أن يقلعوا عن عبادة الأصنام فلم يزدهم دعاؤه إلا إعراضا واستكبارا ، وقال نوح : ﴿ رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا ﴾[١] ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فقال لما ضاق به الأمر :(رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) وكان أن صنع السفينة وركبها والمؤمنون وترك الكفار فغرقوا جميعا ، وأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، وأنجاه الله هو ومن معه فى الفلك المشحون ، وجعل ربك سفينة نوح آية وعبرة للعالمين ، فهل من مدكر !!

قال تعالى : ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما ﴾[٢] . وقال : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ وقال : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾[٣] وقال : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر.وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر.وحملناه على ذات ألواح ودسر.تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٤] .

* قصة إبراهيم وقومه *

قوله تعالى :وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ

لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ

كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ

ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ

ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ

﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾

---

(١) سورة نوح الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٢) سورة الفرقان آية : ٣٧ .
(٣) سورة النجم الآية : ٥٢ .
(١) سورة القمر الآيات : ٩ ـ ١٧ .

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾
فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ * فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ
إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ وَءَاتَيْنَـٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى
ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

معنى المفردات

(أوثانا) : الوثن هو ما اتخذ من جص أو حجر ، والصنم : ما كان من معدن ، والتمثال : ما لوحظ فيه أن يكون مثالا لكائن حى .

(إفكا) : الإفك الكذب مأخوذ من الإفك وهو صرف الشىء عن وجهه ، والكذب : كلام مصروف عن وجهه (النشأة الآخرة) : هى إعادة الخلق فى الآخرة (تقلبون) : تردون (ولى) : صديق وناصر أو متولى أمر الإنسان (حرقوه) : أحرقوه (مودة بينكم) : لتتوادوا بينكم وتتواصلوا .

وتلك قصة إبراهيم أبى الأنبياء فانظر ياأيها الرسول كيف كان موقفه مع قومه ، وما انتهى إليه أمره وأمرهم والأمر كله لله .

المناسبة وإجمال المعنى:

بعد أن قص علينا القرآن العظيم قصة نوح وقومه أُتبع ذلك بقصة إبراهيم مع قومه . ولقد أقام إبراهيم دعوته كما أقامها جميع الأنبياء على التوحيد الخالص فأمرهم بعبادة الله وحده وهدم عبادة الأوثان لأنها لا تملك ضراً ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وحذرهم من عاقبة التكذيب إذ فى ذلك هلاكهم ، وأن ليس عليه إلا البلاغ المبين .

وبعد أن أقام الأدلة على الوحدانية ، ثم الرسالة بقوله : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[1] شرع يبين الأصل الثالث وهو البعث والنشور وهذه الأصول الثلاثة لا يكاد ينفصل بعضها

(١) سورة العنكبوت من الآية : ١٨ .

من بعض فى الذكر الإلهى ، فأينما تجد أصلين منها تجد الثالث . وبعد أن أقام لهم الحجج والبراهين على الوحدانية وإرسال الرسل والحشر والجزاء ، أردف هذا ببيان أنهم جحدوا وعاندوا ودفعوا الحق بالباطل بعد أن ألزمهم الحجة ، ولم يجدوا للدفاع سبيلا وحينئذ عدلوا إلى استعمال القوة كما هو دأب المحجوج المغلوب على أمره .

فقالوا لقومهم : ﴿ ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم ﴾ فأنجاه الله من كيدهم وجعلها عليه بردا وسلاما ، فعاد إلى لومهم بعد أن أخرج من النار وقال إن تمسكتم بما أنتم عليه لم يكن عن دليل وبرهان ، بل عن تقليد وحفظ للمودة بينكم ، فلا يريد أحدكم أن يفارقه صاحبه فى السيرة والطريقة ولكنكم يوم القيامة تتحاجون حين يزول عمى القلوب ، وتستبين الأمور للبيب الأريب ، ويكفر بعضكم بعضا ، فيقول العابد : ما هذا معبودى ، ويقول المعبود : ما هؤلاء بعبدتى ، ويلعن بعضكم بعضا ، فيقول هذا : لذاك أنت الذى أوقعتنى فى العذاب حيث عبدتنى ، ويقول ذاك لهذا : أنت الذى أوقعتنى فيه حيث أضللتنى بعبادته ، ويود كل منكم أن يبعد عن صاحبه ، وأنى لهما ذلك ، وهما مجتمعان فى النار ؟ وما لهما ناصر يخلصهما منها كما خلصنى ربى من النار التى ألقيتمونى فيها . وبعد أن ذكر إنجاء إبراهيم من النار ، وأن ذلك معجزة له لا يفقه قدرها إلا من كان ذكى الفؤاد ، قوى الفطنة ، يفهم الدلائل التى أودعها الله فى الكون أردف هذا بيان أنه لم يصدقه بما رأى إلا لوط ـ عليه السلام ـ ، فقد آمن به ، واستقر الإيمان فى قلبه . ثم بين أن إبراهيم لما يئس من إيمان قومه هاجر إلى بلاد الشام ـ فرارا بدينه وقصدا إلى إرشاد الناس وهدايتهم ، ثم عدد نعمه العاجلة عليه فى الدنيا بأن آتاه بنين وحفدة ، وجعل فيهم النبوة ، وأنزل عليهم الكتب ، وآتاه الذكر الحسن إلى يوم القيامة ، ونعمه الآجلة أنه مكتوب فى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[1] .

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له فى التقوى وطلب الرزق منه وحده لا شريك له وتوحيده فى الشكر ، فإنه المشكور على النعم لا مجرى لها غيره فقال لقومه : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ أى : أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أى : إذا فعلتم ذلك جعل لكم الخير فى الدنيا والآخرة

---

(١) سورة العنكبوت الآيات : ١٦ ـ ١٨ .

واندفع عنكم الشر فى الدنيا والآخرة ، ثم أخبر تعالى : أن الأصنام التى يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها فسميتموها آلهة ، وإنما هى مخلوقة مثلكم ، هكذا رواه العراقى عن ابن عباس .

وروى الوالبى عن ابن عباس : وتصنعون إفكا أى تنحتونها أصناما وبه قال مجاهد فى رواية : وعكرمة والحسن وقتادة .

وهى لا تملك لكم رزقا ﴿ فابتغوا عند الله الرزق ﴾ وهذا أبلغ فى الحصر كقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ﴿ رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ﴾ ولهذا قال ﴿ فابتغوا ﴾ أى فاطلبوا ﴿ عند الله الرزق ﴾ أى لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئا ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ أى : كلوا من رزقه واعبدوه وحده واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله .

كلمة عن الشكر

الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر ، قال غير واحد من السلف : (الصبر نصف الإيمان) وقال عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ (الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر) ولهذا جمع الله سبحانه بين الصبر والشكر فى قوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ فى سورة إبراهيم وفى سورة حمعسق ، وفى سورة سبأ ، وفى سورة لقمان ، وقد ذكر لهذا التنصيف اعتبارات :

أحدها: أن الإيمان اسم لمجموع القول والعمل والنية وهى توجه إلى شطرين فعل وترك ، فالفعل هو العمل بطاعة الله ، وهو حقيقة الشكر والترك هو الصبر عن المعصية . والدين كله فى هذين الشيئين . فعل المأمور وترك المحظور .

الاعتبار الثانى : أن الإيمان مبنى على ركنين : يقين وصبر ، وهما الركنان المذكوران فى قوله تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾[1] فباليقين يعلم حقيقة الأمر والنهى والثواب والعقاب ، وبالصبر ينفذ ما أمر به ويكف نفسه عما نهى عنه ، ولا يصل له التصديق بالأمر والنهى إنه من عند الله ، وبالثواب والعقاب إلا باليقين ، ولا يمكنه الدوام على فعل المأمور وكف النفس عن المحظور إلا بالصبر فصار الصبر نصف الإيمان ، والنصف الثانى الشكر بفعل ما أمر به وبترك ما نهى عنه .

الاعتبار الثالث : أن الإيمان قول وعمل . والقول قول القلب واللسان والعمل عمل القلب والجوارح . وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمنا ، كما قال عن قوم فرعون ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ﴾[2] .

وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح : ﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم

---

(١) سورة السجدة الآية : ٥٤

(٢) سورة النمل من الآية : ١٤

الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾[١] وقال موسى لفرعون : ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر ﴾[٢] فهؤلاء حصل لهم قول القلب وهو المعرفة والعلم ولم يكونوا بذلك مؤمنين ، وكذلك من قال بلسانه ماليس فى قلبه لم يكن بذلك مؤمنا ، بل كان من المنافقين ، وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمنا حتى يأتى بعمل القلب من الحب والبغض والموالاة والمعاداة .

فيحب الله ورسوله ، ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداءه ، ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته ، والتزام شريعته ظاهرا وباطنا ، وإذا فعل ذلك لم يكف فى كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به .

فهذه الأركان الأربعة هى أركان الإيمان التى قام عليها بناؤه ، وهى ترجع إلى علم وعمل ، ويدخل فى العمل كف النفس الذى هو متعلق النهى وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر . فصار الإيمان نصفين : أحدهما الصبر والثانى متولد عنه من العلم والعمل .

الاعتبار الرابع : أن النفس لها قوتان قوة الإقدام وقوة الإحجام وهى دائما تتردد بين أحكام هاتين القوتين فتقدم على ما تحبه وتحجم عما تكرهه . والدين كله إقدام وإحجام . إقدام على طاعة الله وإحجام عن معاصى الله . وكل منهما لا يمكن حصوله إلا بالصبر .

الاعتبار الخامس : أن الدين كله رغبة ورهبة . فالمؤمن هو الراغب الراهب قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا ﴾[٣] وفى الدعاء عند النوم الذى رواه البخارى فى صحيحه (اللهم إنى أسلمت نفسى إليك ووجهت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك - وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك)[٤] .

فلا تجد المؤمن أبدا إلا راغبا وراهبا . والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر . فرهبته تحمله على الصبر ، ورغبته تقوده إلى الشكر .

الاعتبار السادس : أن جميع ما يباشره العبد فى هذه الدار لا يخرج عما ينفعه فى الدنيا والآخرة أو يضره فى الدنيا والآخرة ، أو ينفعه فى أحد الدارين ويضره فى الأخرى . وأشرف الأقسام أن يفعل ما ينفعه فى الآخرة ويترك ما يضره فيها وهو حقيقة الإيمان . ففعل ما ينفعه هو الشكر . وترك ما يضره هو الصبر .

الاعتبار السابع : أن العبد لا ينفك عن أمر يفعله ونهى يتركه وقدر يجرى عليه وفرضه فى الثلاثة الصبر والشكر ففعل المأمورهو الشكر وترك المحظور والصبر على المقدور هو الصبر .

الاعتبار الثامن : ان العبد فيه داعيان : داع يدعوه إلى الدنيا وشهواتها ولذاتها ، وداع يدعوه إلى

---

(١) العنكبوت الآية : ٣٨ .
(٢) سورة الإسراء من الآية : ١٠٢ .
(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٩٠ .
(٤) الحديث فى الترغيب والترهيب للمنذرى - الترغيب فى كلمات يقولهن حين يأوى إلى فراشه . . الخ ج ١ ص ٤١٠ رقم ١ وقال المنذرى : رواه البخارى فى كتاب التوحيد ومسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

الله والدار الآخرة وما أعد فيها لأوليائه من النعيم المقيم . فعصيان داعى الشهوة والهوى هو الصبر . وإجابة داعى الله والدار الآخرة هو الشكر .

الاعتبار التاسع : أن الدين مداره على أصلين : العزم والثبات . وهما الأصلان المذكوران فى الحديث الذى رواه أحمد والنسائى عن النبى - ﷺ - (اللهم إنى أسألك الثبات فى الأمر والعزيمة على الرشد)(١) وأصل الشكر صحة العزيمة وأصل الصبر قوة الثبات فمتى أيد العبد بعزيمة وثبات فقد أيد بالمعونة والتوفيق .

الاعتبار العاشر : أن الدين مبنى على أصلين : الحق والصبر . وهما المذكوران فى قوله تعالى ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ولما كان المطلوب من العبد هو العمل بالحق فى نفسه وتنفيذه فى الناس وكان هذا هو حقيقة الشكر لم يمكنه ذلك إلا بالصبر عليه . فكان الصبر نصف الإيمان والله سبحانه وتعالى أعلم .

فى بيان تنازع الناس فى الأفضل من الصبر والشكر

حكى أبو الفرج ابن الجوزى فى ذلك ثلاثة أقوال (أحدها) : أن الصبر أفضل (والثانى) : أن الشكر أفضل (والثالث) : أنهما سواء كما قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - (لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت) ونحن نذكر ما احتجت به كل فرقة وما لها وعليها فى احتجاجها بعون الله وتوفيقه .

قال الصابرون : قد أثنى الله سبحانه على الصبر وأهله ومدحه وأمر به وعلق عليه خير الدنيا والآخرة ، وقد ذكره الله فى كتابه فى نحو تسعين موضعا وقد تقدم من النصوص والأحاديث فيه وفى فضله ما يدل على أنه أفضل من الشكر ، ويكفى فى فضله قوله - ﷺ - (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر)(٢) فذكر ذلك فى معرض تفضيل الصبر ورفع درجته على الشكر ، فإنه ألحق الشاكر بالصابر وشبهه به ، ورتبة المشبه به أعلى من رتبة المشبه وهذا كقوله (مدمن الخمر كعابد وثن) ونظائر ذلك قالوا وإذا وازنا بين النصوص الواردة فى الصبر والواردة فى الشكر وجدنا نصوص الصبر أضعافها .

ولهذا لما كانت الصلاة والجهاد أفضل الأعمال كانت الأحاديث فيهما فى سائر الأبواب فلا تجد الاحاديث النبوية فى باب أكثر منها فى باب الصلاة والجهاد . قالوا وأيضا فالصبر يدخل فى كل باب بل فى كل مسألة من مسائل الدين . ولهذا كان من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

قالوا وأيضا فالله - سبحانه وتعالى - علق على الشكر الزيادة فقال : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾(٣) وعلق على الصبر الجزاء بغير حساب . وأيضا فإنه سبحانه أطلق جزاء

---

(١) أخرجه الامام احمد فى مسنده - من حديث شداد بن اوس ج ٤ ص ١٢٣ ورواه صاحب كتاب اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٧٦ كما رواه النسائى فى سننه ب ٦١ - ٣٩١٣ .

(٢) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الصوم) باب : فيمن قال الطاعم الشاكر كالصائم الصابر ج ١ ص ٥٦١ رقم ١٧٦٤ .

(٣) سورة إبراهيم من الآية : ٧ .

الشاكرين فقال : ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾(١) وقيد جزاء الصابرين بالإحسان فقال ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٢) .

قالوا وقد صح عن النبى - ﷺ - أنه قال : يقول الله تعالى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به »(٣) وفى لفظ (وكل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها) قال الله تعالى « إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » وما ذاك إلا لأنه صبر النفس ومنعها من شهواتها كما فى الحديث نفسه يدع شهوته وطعامه وشرابه من أجلى . ولهذا قال النبى - ﷺ - لمن سأله عن أفضل الأعمال (عليك بالصوم فإنه لا عدل له)(٤) ولما كان الصبر حبس النفس من إجابة داعى الهوى ، وكان هذا حقيقة الصوم فإنه حبس النفس عن إجابة داعى شهوة الطعام والشراب والجماع .

فسر الصبر فى قوله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة ﴾(٥) أنه الصوم وسمى رمضان شهر الصبر . وقال بعض السلف : الصوم نصف الصبر . وذلك أن الصبر حبس النفس عن إجابة داعى الشهوة والغضب ، فإن النفس تشتهى الشىء لحصول اللذة بإدراكه ، وتغضب لنفرتها من المؤلم لها ، والصوم صبر عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب ، ولكن من تمام الصوم وكماله صبر النفس عن إجابة داعى الأمرين . وقد أشار إلى ذلك النبى - ﷺ - فى الحديث الصحيح وهو قوله (إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يجهل ولا يصخب فإن أحد سابه أو شاتمه فليقل إنى صائم)(٦) فأرشد - ﷺ - إلى تعديل قوى الشهوة والغضب وأن الصائم ينبغى له أن يحتمى من إفسادهما لصومه ، فهذه تفسد صومه ، وهذه تحبط أجره ، كما قال فى الحديث الآخر : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه)(٧) .

قالوا : ويكفى فى فضل الصبر على الشكر قوله تعالى : ﴿ إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾(٨) فجعل فوزهم جزاء صبرهم وقال تعالى : ﴿ والله مع الصابرين ﴾ لا شىء يعدل معيته لعبده ، كما قال بعض العارفين : ذهب الصابرون بخيرى الدنيا والآخرة ، لأنهم نالوا معية الله .

وقال تعالى : ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾(٩) وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصبر لحكمة .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٤٤ .
(٢) سورة النحل من الآية : ٩٦ .
(٣) أخرجه البخارى فى (كتاب الصوم) باب : هل يقول : إنى صائم إذا شُتم ج ٣ - ٣٤ .
(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب الصوم) باب : إذا كان أول ليلة من رمضان الخ ج ١ ص ٤٢١ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد .
(٥) سورة البقرة من الآية : ٤٥ .
(٦) الحديث فى البخارى فى (كتاب الصوم) باب من لم يدع قول الزور والعمل به ج ٣ ص ٣٤ بلفظ وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب الخ وهو جزء من حديث وفى صحيح مسلم فى (كتاب الصيام) باب : حفظ اللسان للصائم ج ٢ ص ٨٠٦ رقم ١١٥١ بلفظ : إذا أصبح أحدكم يوما صائما ، فلا يرفث ولا يجهل ، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله : الحديث .
(٧) الحديث أخرجه أبو داود فى (كتاب الصوم) باب : الغيبة للصائم ج ٢ ص ٧٦٧ رقم ٢٣٦٢ وقال الخطابى : أخرجه البخارى فى الصوم باب : من لم يدع قول الزور (٣ - ٣٣) .
(٨) سورة المؤمنون الآية : ١١١ .
(٩) سورة الطور من الآية : ٤٩ .

وقد وعد الصابرين بثلاثة أشياء : كل واحد خير من الدنيا وما عليها وهى صلواته تعالى عليهم ورحمته لهم ، وتخصيصهم بالهداية فى قوله تعالى : ﴿ **أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[1] وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم ، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور فى آيتين من كتابه وأمر رسوله أن يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل وقد تقدم ذكر ذلك .

قالوا وقد دل الدليل على أن الزهد فى الدنيا والتقلل منها مهما أمكن من الاستكثار منها والزهد فيها حال الصابر ، والاستكثار منها حال الشاكر . قالوا : وقد سئل المسيح - ﷺ - عن رجلين مرا بكنز فتخطاه أحدهما ولم يلتفت إليه ، وأخذه الآخر وأنفقه فى طاعة الله تعالى . أيهما أفضل ؟

فقال الذى لم يلتفت إليه وأعرض عنه أفضل عند الله . قالوا ويدل على صحة هذا أن النبى - ﷺ - عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فلم يأخذها - وقال (بل أجوع يوما وأشبع يوما) ولو أخذها لأنفقها فى مرضاة الله وطاعته فآثر مقام الصبر عنها والزهد فيها قالوا ، وقد علم أن الكمال الانسانى فى ثلاثة أمور : علوم يعرفها وأعمال يعمل بها ، وأحوال ترتب له على علومه وأعماله ، وأفضل العلم والعمل والحال ; العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله ، والعمل بمرضاته وانجذاب القلب إليه بالحب والخوف والرجاء ، فهذا أشرف ما فى الدنيا وجزاؤه أشرف ما فى الآخرة وأجل المقاصد معرفة الله ومحبته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه والتنعم بذكره . وهذا أجل سعادة الدنيا والآخرة ، وهذا هو الغاية التى تطلب لذاتها وإنما يشعر العبد تمام الشعور بأن ذلك عين السعادة إذا انكشف له الغطاء وفارق الدنيا ودخل الآخرة ، وإلا فهو فى الدنيا وان شعر بذلك ببعض الشعور فليس شعوره به كاملا للمعارضات التى عليه والمحن التى امتحن بها ، والا فليست السعادة فى الحقيقة سوى ذلك ، وكل العلوم والمعارف تبع لهذه المعرفة مرادة لأجلها وتفاوت العلوم فى فضلها بحسب إفضائها إلى هذه المعرفة وبعدها فكل علم كان أقرب إفضاء إلى العلم بالله وأسمائه وصفاته ، فهو أعلى مما دونه ، وكذلك حال القلب فكل حال كان أقرب إلى المقصود الذى خلق له فهو أقرب مما دونه ، وكذلك الأعمال فكل عمل كان أقرب إلى تحصيل هذا المقصود كان أفضل من غيره لهذا كانت الصلاة والجهاد من أفضل الأعمال وأفضلها لقرب إفضائها إلى المقصود ، وهكذا يجب أن يكون . فإنه كلما كان الشىء أقرب إلى الغاية كان أفضل من البعيد عنها . فالعمل المعد للقلب المهىء له لمعرفة الله وأسمائه وصفاته ومحبته وخوفه ورجائه أفضل مما ليس كذلك . وإذا اشتركت عدة أعمال فى هذا الإفضاء فأفضلها أقربها الى هذا المفضى .

ولهذا اشتركت الطاعات فى هذا الإفضاء فكانت مطلوبة لله واشتركت المعاصى فى حجب القلب وقطعه عن هذه الغاية ، فكانت منهيا عنها وتأثير الطاعات والمعاصى بحسب درجاتها .

وها هنا أمر ينبغى التفطن له . وهو أنه قد يكون العمل المعين أفضل منه فى حق غيره . فالغنى الذى بلغ له مال كثير ونفسه لا تسمح ببذل شىء منه فصدقته وايثاره أفضل له من قيام الليل وصيام النهار نافلة . والشجاع الشديد الذى يهاب العدو سطوته . وقوفه فى الصف ساعة وجهاده أعداء الله أفضل من الحج والصوم والصدقة والتطوع . والعالم الذى قد عرف السنة والحلال والحرام وطرق الخير

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٧ .

والشر : مخالطته للناس وتعليمهم ونصحهم فى دينهم أفضل من اعتزاله وتفريغ وقته للصلاة وقراءة القرآن والتسبيح . . وولى الأمر الذى قد نصبه الله للحكم بين عباده : جلوسه ساعة للنظر فى المظالم وانصاف المظلوم من الظالم وإقامة الحدود ونصر المحق وقمع المبطل . أفضل من عبادة سنين من غيره . ومن غلبت عليه شهوة النساء فصومه له أنفع وأفضل من ذكر غيره وصدقته . وتأمل تولية النبى - ﷺ - لعمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما من أمرائه وعماله ، وترك تولية أبى ذر ، بل قال له:إنى أراك ضعيفا وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم ، وأمره وغيره بالصيام وقال عليك بالصوم فإنه لا عدل له . وأمر آخر بألا يغضب .

وأمر ثالثا بألا يزال لسانه رطبا من ذكر الله . ومتى أراد الله بالعبد كمالا وفقه لا ستفراغ وسعه فيما هو مستعد له . قابل له قد هىء له . فإذا استفرغ وسعه بز على غيره وفاق الناس فيه كما قيل :

مازال يسبق حتى قال حاسده هذا طريق الى العلياء مختصر

وهذا كالمريض الذى يشكو وجع البطن مثلا إذا استعمل دواء ذلك الداء انتفع به . وإذا استعمل دواء وجع الرأس لم يصادف داءه ، فالشح المطاع مثلا من المهلكات ، ولا يزيله صيام مائة عام ، ولا قيام ليلها . وكذلك داء اتباع الهوى والإعجاب بالنفس لا يلائمه كثرة قراءة القرآن واستفراغ الوسع فى العلم والذكر والزهد وإنما يزيله إخراجه من القلب بضده ، ولو قيل أيهما أفضل : الخبز أو الماء ؟ لكان الجواب أن هذا فى موضعه أفضل . وهذا فى موضعه أفضل .

واذا عرفت هذه القاعدة فالشكر ببذل المال عمل صالح يحصل به للقلب حال ، وهو زوال البخل والشح بسبب خروج الدنيا منه . فتهيأ لمعرفة الله ومحبته فهو دواء للداء الذى فى القلب يمنعه من المقصود . وأما الفقير الزاهد فقد استراح من هذا الداء والدواء . وتوفرت قوته على استفراغ الوسع فى حصول المقصود ، ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا : فإن قيل فقد حث الشرع على الأعمال وانفصلوا عنه . بأن قالوا : الطبيب إذا أثنى على الدواء لم يدل على أن الدواء يراد لعينه ، ولا أنه أفضل من الشفاء الحاصل به ، ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب . ومرض القلوب مما لا يشعر به غالبا . فوقع الحث على العمل المقصود وهو شفاء القلب ، فالفقير الآخذ لصدقتك يستخرج منك داء البخل كالحجام يستخرج منك الدم المهلك .

قالوا : واذا عرف هذا عرف أن حال الصابر حال المحافظ على الصحة والقوة . وحال الشاكر المتداوى بأنواع الأدوية لإزالة مواد السقم .

قال الشاكرون : لقد تعديتم طوركم ، وفضلتم مقاما غيره أفضل منه

وقدمتم الوسيلة على الغاية . والمطلوب لغيره على المطلوب لنفسه والعمل الكامل على الأكمل ، والفاضل على الأفضل ، ولم تعرفوا للشكر حقه ولا رقيتموه مرتبته . وقد قرن تعالى ذكره الذى هو المراد من الخلق بذكره وكلاهما هو المراد بالخلق والأمر والصبر خادم لهما ، ووسيلة إليهما وعون عليهما قال تعالى : ﴿ اذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[١] وقرن سبحانه الشكر بالايمان وأخبر أنه لا غرض له من عذاب خلقه إن شكروا وآمنوا به فقال : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾[٢] أى إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والايمان فما أصنع بعذابكم ؟ هذا وأخبر سبحانه : أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده فقال : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾[٣] وقسم الناس إلى شكور وكفور ، فأبغض الأشياء اليه الكفر وأهله ، وأحب الأشياء إليه الشكر وأهله . قال تعالى فى الانسان : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾[٤] .

وقال نبيه سليمان : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[٧] وهذا كثير فى القرآن .

يقابل سبحانه بين الشكر والكفر ، فهو ضده قال تعالى : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين ﴾[٨] .

والشاكرون هم الذين ثبتوا على نعمة الايمان فلم ينقلبوا على أعقابهم . وعلق سبحانه المزيد بالشكر ، والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره . وقد وقف سبحانه كثيرا من الجزاء على المشيئة كقوله : ﴿ فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ﴾[٩] وقوله فى الاجابة ﴿ فيكشف ما تدعون إليه إن شاء ﴾[١٠] وقوله : فى الرزق ﴿ يرزق من يشاء ﴾[١١] وفى المغفرة ﴿ ويغفر لمن يشاء ﴾[١٢] والتوبة

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٢ .
(٢) سورة النساء الآية : ١٤٧ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ٥٣ .
(٤) سورة الانسان الآية : ٣ .
(٥) سورة النمل من الآية : ٤٠ .
(٦) سورة إبراهيم الآية : ٧ .
(٧) جزء من آية فى سورة الزمر رقم ٧ .
(٨) سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .
(٩) سورة التوبة من الآية : ٢٨ .
(١٠) سورة الأنعام من الآية : ٤١ .
(١١) سورة النور من الآية : ٣٨ .
(١٢) سورة المائدة من الآية : ٤٠ .

﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾[١] وأطلق جزاء الشكر إطلاقا حيث ذكر كقوله ﴿ وسنجزى الشاكرين ﴾ ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾ .

ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر ، وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى فى قطع الناس عنه فقال : ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[٢] ووصف الله سبحانه الشاكرين بأنهم قليل من عباده فقال تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾[٣] .

وذكر الامام أحمد عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رجلا يقول : (اللهم اجعلنى من الأقلين) . فقال ما هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين . إن الله قال : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾[٥] وقال : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ماهم ﴾[٦] (فقال عمر صدقت) .

وقد أثنى الله سبحانه ـ وتعالى ـ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر فقال : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا ﴾[٧] وفى تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلى الاقتداء به فإنه أبوهم الثانى . فإن الله تعالى : لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلا إلا من ذريته كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾[٨] فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم فى الشكر فإنه كان عبدا شكورا .

وقد أخبر سبحانه أنما يعبده من شكره . فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته فقال : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[٩] وأمر عبده موسى أن يتلقى ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر فقال تعالى : ﴿ يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[١٠] وأول وصية وصى الله بها الانسان بعدما عقل عنه بالشكر له وللوالدين ، فقال : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾[١١] وأخبر أن رضاه فى شكره فقال تعالى : ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[١٢] وأثنى سبحانه على خليله إبراهيم بشكر نعمه فقال : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾[١٣] فأخبر عنه سبحانه بأنه أمة أى قدوة يؤتم به فى الخير ، وأنه قانت لله والقانت هو المطيع المقيم على طاعته والحنيف هو المقبل على الله المعرض عما سواه ، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه شاكر لأنعمه ، فجعل الشكر غاية خليله .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ١٥ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧ .
(٣) سورة سبأ من الآية : ١٣ .
(٤) سورة هود من الآية : ٤٠ .
(٥) سورة سبأ من الآية : ١٣ .
(٦) سورة (ص) من الآية : ٢٤ .
(٧) سورة الإسراء الآية : ٣ .
(٨) سورة الصافات آية : ٧٧ .
(٩) سورة البقرة من الآية : ١٧٢ .
(١٠) سورة الأعراف : آية : ١٤٤ .
(١١) سورة لقمان الآية : ١٤ .
(١٢) سورة الزمر من الآية : ٧ .
(١٣) سورة النحل الآية : ١٢٠ ، ١٢١

وأخبر سبحانه : أن الشكر هو الغاية من خلقه وأمره ، بل هو الغاية التى خلق عبده لأجلها ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[١] فهذه غاية الخلق وغاية الأمر فقال : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾[٢] ويجوز أن يكون قوله : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ تعليلا لقضائه لهم بالنصر ، ولأمره لهم بالتقوى ، ولهما معا : وهو الظاهر فالشكر غاية الخلق والأمر ، وقد صرح سبحانه بأنه غاية أمره وإرساله الرسول فى قوله تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٣] قالوا : فالشكر مراد لنفسه والصبر مراد لغيره والصبر إنما حمد لإفضائه وإيصاله إلى الشكر ، فهو خادم الشكر . وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أنه قام حتى تفطرت قدماه فقيل له أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[٤] وثبت فى المسند والترمذى أن النبى - ﷺ - قال لمعاذ : (والله إنى لأحبك فلا تنسى أن تقول دبر كل صلاة اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[٥] وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا اسحاق بن اسماعيل ، حدثنا أبو معاوية وجعفر بن عون هشام بن عروة قال : (كان من دعاء النبى - ﷺ - : (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) قال : وحدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا المؤمل بن اسماعيل ، حدثنا حماد بن سلمة ، حدثنا حميد الطويل عن طلق بن حبيب ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكر ولسانا ذاكرا ، وبدنا على البلاء صابرا وزوجة لا تبغيه خوفا فى نفسها ولا فى ماله)[٦] وذكر أيضا من حديث القاسم بن محمد عن عائشة عن النبى - ﷺ - قال : (ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله له شكرها ، وما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر الله له قبل أن يستغفره ، وإن الرجل يشترى الثوب بالدينار فيلبسه فيحمد الله فما يبلغ ركبتيه حتى يغفر له)[٧] .

(١) سورة النحل الآية : ٧٨ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٢٣ .
(٣) سورة البقرة الآيتان : ١٥١ ، ١٥٢ .
(٤) فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان الطبعة العصرية بالكويت (فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم) باب : أكثر الأعمال والاجتهاد فى العبادة رقم ١٧٩٥ وقال المحقق : أخرجه البخارى (فى كتاب التهجد) باب : قيام النبى - ﷺ - حتى تورم قدماه ورواه الامام احمد فى مسنده عن المغيرة بن شعبة كما جاء فى تفسير سورة الفتح فى مختصرابن كثيرج ٣ - ٣٤٠ وقال : أخرجه البخارى ومسلم وبقية الجماعة إلا أبا داود ، كما اخرجه مسلم والامام أحمد .
(٥) الحديث فى الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لشمس الدين بن قيم الجوزية ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ وقال محققه الشيخ الأنصارى : لم أجده فى الترمذى والذى ذكره شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية فى كتاب الكلم الطيب أن هذا الحديث أخرجه أبو داود والنسائى ذكر ذلك فى الفصل الذى عقده للدعاء فى الصلاة وبعد التشهد ، وقال الحافظ ابن عبدالهادى فى كتابه « المحرر فى الحديث » « وعن معاذ ان رسول الله - ﷺ - أخذ بيده وقال : يا معاذ إنى أحبك ، أوصيك يا معاذ لابد عن فى دبر كل صلاة تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك رواه احمد وابو داود والنسائى .
(٦) الحديث أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير فى ترجمة طلق بن جبيب عن ابن عباس ج ١١ ص ١٣٤ رقم ١١٢٧٥ وقال المحقق : ورواه فى الأوسط ١٩١ مجمع البحرين بنفس السند والسنن فلا معنى لقول الحافظ الهيثمى فى المجمع ٤ - ٢٧٣ ورجال الأوسط رجال الصحيح . فهو فى الكبير بنفس السند . قال المنذرى فى الترغيب ٣ - ٢٠٦ رواه الطبرانى بإسناد جيد . وضعفه شيخنا فى سلسلة الضعيفة ١٠٦٦ .
(٧) فى مجمع الزوائد .

وقد ثبت فى صحيح مسلم عنه - ﷺ - أنه قال : (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها)[١] فكان هذا الجزاء العظيم الذى هو أكبر أنواع الجزاء كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾[٢] فى مقابلة شكره بالحمد . وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله ابن صالح : حدثنا أبو زهير يحيى بن عطارد القرشى ، عن أبيه قال : قال رسول الله - ﷺ - (لا يرزق الله عبدا الشكر فيحرمه الزيادة)[٣] لأن الله - تعالى - يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدكم ﴾[٤] وقال الحسن البصرى (إن الله ليمتع بالنعمة ما شاء ، فإذا لم يشكر عليها قلبها عذابا) ولهذا كانوا يسمون الشكر « الحافظ » لأنه يحفظ النعم الموجودة و « الجالب » لأنه يجلب النعم المفقودة وذكر ابن أبى الدنيا عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - أنه قال لرجل من همذان : (إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر يتعلق بالمزيد وهما مقرونان فى قرن ، فلن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبيد) .

وقال عمر بن عبدالعزيز (قيدوا نعم الله بشكر الله) وكان يقال : (الشكر قيد النعم) وقال مطرف بن عبد الله (لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر) وقال الحسن (أكثروا من ذكر هذه النعم فإن ذكرها شكر) وقد أمر الله تعالى : نبيه أن يحدث بنعمة ربه فقال : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾[٥] والله تعالى يحب من عبده أن يرى عليه أثر نعمته فإن ذلك شكرها بلسان الحال وقال على ابن الجعدى : سمعت سفيان الثورى يقول : (إن داود عليه الصلاة والسلام قال : الحمد لله حمدا كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله فأوحى الله إليه : يا داود أتعبت الملائكة .

وقال شعبة : حدثنا المفضل بن فضالة ، عن أبى رجاء العطاردى قال : (خرج علينا عمران بن الحصين وعليه مطرف خز لم نره عليه قبل ولا بعد فقال : إن رسول الله - ﷺ - قال : (إذا أنعم الله على عبد نعمة يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[٦] وفى صحيفة عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبى - ﷺ - قال : (كلوا واشربوا وتصدقوا فى غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[٧] وذكر شعبة عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص ، عن أبيه قال : (أتيت رسول الله - ﷺ - وأنا قشف الهيئة ، فقال هل لك من مال ؟ قال : قلت : نعم ، قال : من أى المال ؟

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ج ٤ ص ٢٠٩٥ رقم ٢٧٣٤ .
(٢) سورة التوبة من الآية : ٧٢ .
(٣) انظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى فى تفسير سورة إبراهيم ج ٥ ص ٩ بمعناه .
(٤) سورة ابراهيم من الآية : ٧ .
(٥) سورة الضحى الآية : ١١ .
(٦) مجمع الزوائد فى (كتاب اللباس) باب : اظهار النعم واللباس الحسن ج ٥ ص ١٣٢ وقال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد ثقات .
(٧) هذا جزء من حديث اخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : ما جاء إن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ج ٥ ص ١٢٤ رقم ٢٨١٩ .

قلت : من كل المال قد آتانى الله من الابل والخيل والرقيق والغنم قال : فإذا آتاك الله مالا فلير عليك)[١] وفى بعض المراسيل : أن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده فى مأكله ومشربه . وروى عبد الله بن يزيد المقرى عن أبى معمر عن بكير بن عبد الله رفعه (من أعطى خيرا فرؤى عليه سمى حبيب الله محدثا بنعمة الله ، ومن أعطى خيرا ولم ير عليه سمى بغيض الله معاديا لنعمة الله)[٢] وقال فضيل بن عياض كان يقال : من عرف نعمة الله بقلبه وحمده بلسانه لم يستتم ذلك حتى يرى الزيادة لقول الله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقال : (من شكر النعمة أن يحدث بها) وقد قال تعالى : (يا ابن آدم إذا كنت تتقلب فى نعمتى وأنت تتقلب فى معصيتى فاحذرنى لأصرعك بين معاصى ، يا ابن آدم اتقنى ونم حيث شئت) وقال الشعبى (الشكر نصف الايمان) واليقين الايمان كله وقال أبو قربة (لا تضركم دنيا شكرتموها) وقال الحسن (إذا أنعم الله على قوم سألهم الشكر ، فإذا شكروه كان قادرا على أن يزيدهم ، وإذا كفروه كان قادرا على أن يبعث نعمته عليهم عذابا) وقد ذم الله سبحانه الكنود وهو الذى لا يشكر نعمه . قال الحسن (إن الانسان لربه لكنود) بعد المصائب وينسى النعم وقد أخبر النبى - ﷺ - أن النساء أكثر اهل النار لهذا السبب قال : (لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : ما رأيت منك خيرا قط) فإذا كان هذا بترك شكر نعمة الزوج وهى فى الحقيقة من الله فكيف بمن ترك شكر نعمة الله .

يا أيها الظالم فى فعله ... والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى ... تشكو المصيبات وتنسى النعم

ذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى عبد الرحمن السلمى ، عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله - ﷺ - (التحدث بالنعمة شكر وتركها كفر ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله والجماعة بركة . والفرقة عذاب)[٣] .

قال مطرف بن عبد الله : (نظرت فى العافية والشكر فوجدت فيهما خير الدنيا والآخرة ولأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر) ورأى بكر بن عبد الله المزنى حمالا عليه حمله وهو يقول : الحمد لله أستغفر الله قال : فانتظرته حتى وضع ما على ظهره وقلت : أما تحسن غير هذا ؟ قال : بلى . أحسن خيرا كثيرا، أقرأ كتاب الله غير أن العبد بين نعمة وذنب ، فأحمد الله على نعمه السابغة وأستغفر لذنوبى فقلت الحمال أفقه من بكر .

---

(١) فى مجمع الزوائد فى (كتاب اللباس) باب : اظهار النعم واللباس الحسن ج ٥ ص ١٣٣ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الصغير ورجاله رجال الصحيح .

(٢) اخرجه ابن أبى الدنيا باب : شكر الصنيعة (كتاب قضاء الحوائج) ص ٩٠ رقم ٧٧ .

(٣) الحديث اخرجه ابن كثير فى تفسير الضحى ج ٨ ص ٤٤٩ بتقديم وتأخير فى بعض الفاظه وقال : اسناده ضعيف وقال المحقق رواه الامام احمد فى مسنده : ٤ - ٢٧٨ ، ٣٧٥ .

وذكر الترمذى من حديث جابر عن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : خرج رسول الله ـ ﷺ ـ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها إلى آخرها فسكتوا ، فقال :(قرأتها على الجن ليلة الجن فكانوا أحسن ردا منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا : لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد)[1] وقال مشعر : لما قيل لآل داود (اعملوا آل داود شكرا) لم يأت على القوم ساعة إلا وفيهم مصلٍ . وقال عون بن عبد الله : قال بعض الفقهاء إنى رأيت فى أمرى ، لم أر خيرا إلا شرا معه إلا المعافاة والشكر ، فرب شاكر فى بلائه ، ورب معافى غير شاكر ، فإذا سألتم الله فاسألوهما جميعا . وقال أبو معاوية : لبس عمر بن الخطاب قميصا فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ، ثم مد يديه فنظر شيئا يزيد على يديه فقطعه ، ثم أنشأ يحدث ، قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (من لبس ثوبا (أحسبه جديدا) فقال : حين يبلغ ترقوته ، أو قال قبل أن يبلغ ركبتيه مثل ذلك ، ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكسابه مسكينا لم يزل فى جوار الله ، وفى ذمة الله وفى كنف الله حيا وميتا ، ما بقى من ذلك الثوب سلك)[1] .

وقال عون بن عبد الله (لبس رجل قميصا جديدا فحمد الله فغفر له ، فقال رجل ارجع حتى أشترى قميصا فألبسه وأحمد الله)وقال شريح : (ما أصيب عبد بمصيبة إلا كان لله عليه فيها ثلاث نعم : ألا تكون كانت فى دينه ، وألا تكون أعظم مما كانت ، وأنها لابد كائنة فقد كانت) وقال عبد الله ابن عمر بن عبد العزيز : (ما قلب عمر بن عبد العزيز بصره إلى نعمة أنعم الله عليه إلا قال : اللهم إنى أعوذ بك أن أبدل نعمتك كفرا ، وأن أكفرها بعد أن عرفتها ، وأن أنساها ولا أثنى بها) وقال روح ابن القاسم : (تنسك رجل فقال لا آكل الخبيص لا أقوم بشكره) فقال الحسن : هذا أحمق وهل يقوم بشكر الماء البارد ؟ .

وفى بعض الآثار الإلهية يقول الله ـ عز وجل ـ : (ابن آدم خيرى إليك نازل وشرك إلى صاعد ، أتحبب إليك بالنعم ، وتتبغض إلى بالمعاصى ، ولا يزال ملك كريم قد عرج إلى منك بعمل قبيح) قال ابن أبى الدنيا حدثنى أبو على قال : كنت أسمع جارا لى يقول فى الليل : (يا إلهى خيرك على نازل وشرى إليك صاعد ، كم من ملك كريم قد صعد إليك منى بعمل قبيح ، وأنت مع غناك عنى تتحبب إلى بالنعم ، وأنا مع فقرى إليك وفاقتى أتمقت إليك المعاصى ، وأنت فى ذلك تجبرنى وتسترنى وترزقنى) وكان أبو المغيرة إذا قيل له كيف أصبحت يا أبا محمد قال : أصبحنا مغرقين فى النعم عاجزين عن الشكر يتحبب إلينا ربنا وهو غنى عنا ، ونتمقت إليه ونحن إليه محتاجون . وقال عبد الله بن ثعلبة : إلهى من كرمك أنك تطاع ولا تعصى ، ومن حلمك أنك تعصى وكأنك لا ترى ، وأى زمن لم يعصك فيه سكان أرضك وأنت بالخير عواد ، وكان معاوية بن قرة إذا لبس ثوبا جديدا قال : بسم الله والحمد لله . وقال أنس بن مالك : (ما من عبد توكل بعبادة الله إلا عزم الله السموات والأرض تعزم رزقه ، فجعله فى أيدى بنى آدم يعملونه حتى يدفع عنه إليه ، فإن العبد قبله أوجب عليه الشكر وأن أباه وجد

(١) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب تفسير القرآن باب : تفسير من سورة الرحمن) ج ٥ ص ٣٩٩ رقم ٣٢٩١ وقال ابو عيسى : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد .

(٢) الحديث فى كتاب الدعاء باب : أدعية اللباس : ما يقوله المسلم إذا لبس ثوبا جديدا رقم ٣ ص ١٣٢ .

الغنى الحميد عبادا فقراء يأخذون رزقه ويشكرون له) .

وقال يونس بن عبيد : قال رجل لأبى تميمة : كيف أصبحت ؟ قال :« أصبحت بين نعمتين لا أدرى أيتهما أفضل . ذنوب سترها الله فلا يستطيع أن يعيرنى بها أحد . . ومودة قذفها الله فى قلوب العباد لا يبلغها عملى » .

وروى ابن أبى الدنيا عن سعيد المقبرى ، عن أبيه ، عن عبد الله بن سلام ، أن موسى - عليه السلام - قال : « يا رب ما الشكر الذى ينبغى لك ؟ قال : لا يزال لسانك رطبا من ذكرى » وروى سهيل بن أبى صالح عن أبيه ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : (دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبى - ﷺ - فانطلقنا معه ، فلما طعم وغسل يديه قال : الحمد لله الذى يطعم ولا يطعم ، من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا ، وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ربى ولا مكافأ ولا مكفور ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذى أطعم من الطعام ، وسقى من الشراب وكسى من العرى ، وهدى من الضلالة وبصر من العمى ، وفضل على كثير من خلقه تفضيلا . الحمد لله رب العالمين) .

وفى مسند الحسن بن الصلاح من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : (ما أنعم الله على عبد نعمة فى أهل ولا مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، فيرى فيه آفة دون الموت) ويذكر عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - دخل عليها فرأى كسرة ملقاة فمسحها وقال : يا عائشة أحسنى جوار نعم الله فإنها قلما نفرت عن أهل بيت فكادت أن ترجع إليهم) ذكره ابن أبى الدنيا . وقال الامام أحمد حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا صالح ، عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الجلد قال : قرأت فى مسألة داود أنه قال : (يا رب كيف لى أن أشكر وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك . . قال : فأتاه الوحى : يا داود أليس تعلم أن الذى بك من النعم منى ؟ قال : بلى يا رب . قال : فإنى أرضى بذلك منك شكرا)(١) .

وقال عبد الله بن أحمد حدثنا أبو موسى الأنصارى ، حدثنا أبو الوليد ، عن سعيد بن عبدالعزيز قال : (كان من دعاء داود : سبحان مستخرج الشكر بالعطاء ومستخرج الدعاء بالبلاء) . وقال الامام أحمد : حدثنا أبو معاوية ، حدثنى الأعمش ، عن المنهال ، عن عبد الله بن الحارث قال : أوحى الله إلى داود (أحبنى وأحب عبادى وحببنى إلى عبادى قال : يا رب هذا حبك وحب عبادتك فكيف أحببك إلى عبادك ؟ قال : تذكرنى عندهم فإنهم لا يذكرون منى إلا الحسن ، فجل جلال ربنا ، وتبارك اسمه وتعالى جده ، وتقدست أسماؤه ، وجل ثناؤه ولا إله غيره) وقال أحمد : حدثنا عبدالرازق بن عمران قال : سمعت وهبا يقول : (وجدت فى كتاب آل داود : بعزتى أن من اعتصم بى فإن كادته السموات بمن فيهن ، والأرضون بمن فيهن فإنى أجعل له من بين ذلك مخرجا . ومن لم يعتصم بى فإنى أقطع يديه من أسباب السماء ، وأخسف به من تحت قدميه الأرض ، فأجعله فى الهواء ، ثم أكله إلى نفسه . كفى بى لعبدى مالا ، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى ، وأجبته قبل أن يدعونى ، وإنى أعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه) .

(١) انظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى ج ٦ ص ٦٨١ تفسير سورة سبأ مع اختلاف يسير فى الفاظه

وقال أحمد : حدثنا يسار ، حدثنا حفص ، حدثنا ثابت قال : كان داود - عليه السلام - قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فيها ، قال فعمهم تبارك وتعالى فى هذه الآية : ﴿ **اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور** ﴾[١] .

قال أحمد : وحدثنا جابر بن زيد عن المغيرة بن عتبة ، قال داود : (يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكرا لك منى ؟ فأوحى الله إليه : نعم الضفدع . وأنزل الله عليه ﴿ اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾ قال يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذى تنعم على ، ثم ترزقنى على النعمة الشكر ، ثم تزيدنى نعمة بعد نعمة ، فالنعم منك والشكر منك ، فكيف أطيق شكرك ؟ قال : الآن عرفتنى يا داود)[٢] قال أحمد : وحدثنا عبدالرحمن ، حدثنا الربيع بن صبيح ، عن الحسن قال نبى الله داود : (إلهى لو أن لكل شعرة منى لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر ما وفيت حق نعمة واحدة)[٣] وذكر ابن أبى الدنيا عن أبى عمران الجونى ، عن أبى الجلد قال . قال موسى : يا رب كيف لى أن أشكرك وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لا يجازى بها عملى كله ، قال : فأتاه الوحى : يا موسى الآن شكرتنى) .

قال بكر بن عبد الله : (ما قال عبد قط الحمد لله فجزاء تلك النعمة أن يقول الحمد لله فجاءت نعمة أخرى ، فلا تنفد نعم الله) وقال الحسن ! سمع نبى الله رجلا يقول : الحمد لله بالاسلام ، فقال :(إنك لتحمد الله على نعمة عظيمة) . وقال خالد بن معدان : سمعت عبد الملك بن مروان يقول : (ما قال عبد كلمة أحب إلى الله وأبلغ فى الشكر عنده من أن يقول : الحمد لله الذى أنعم علينا وهدانا للاسلام) وقال سليمان التيمى : إن الله سبحانه : أنعم على عبده على قدره . وكلفهم الشكر على قدرتهم وكان الحسن إذا ابتدأ حديثه يقول :(الحمد لله ، ربنا لك الحمد بما خلقتنا ورزقتنا وهديتنا وعلمتنا وأنقذتنا وفرجت عنا ، لك الحمد بالاسلام والقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال والمعافاة ، كبت عدونا وبسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا وجمعت فرقتنا وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ما سألناك ربنا أعطيتنا فلك الحمد على ذلك حمدا كثيرا ، لك الحمد بكل نعمة أنعمت بها علينا فى قديم أو حديث أو سر أو علانية ، أو خاصة أو عامة أو حي أو ميت ، أو شاهد أو غائب ، لك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت) .

وقال الحسن : قال موسى (يا رب كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت إليه . خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك وأسكنته جنتك وأمرت الملائكة فسجدوا له ، فقال يا موسى : علم أن ذلك منى فحمدنى عليه ، فكان ذلك شكر ما صنعت إليه)وقال سعد بن مسعود الثقفى إنما سمى نوح عبدا

---

(١) الحديث فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ٦٨٠ وقال : وأخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد وابن أبى حاتم والبيهقى فى شعب الايمان انظره .

(٢) الحديث أخرجه السيوطى فى الدر المنثور فى التفسير بالمأثور فى تفسير سورة سبأ ج ٦ ص ٦٨١ .

(٣) جزء من حديث أورده صاحب الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ج ٦ ص ٦٨١ وقال : عن أبى الجلد (بدل الخلد) .

شكورا لأنه لم يلبس جديدا ولم يأكل طعاما إلا حمد الله . وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء مسح بطنه بيده وقال : يالها من نعمة لو يعلم العباد شكرها وقال مخلد بن الحسين : كان يقال : الشكر ترك المعاصى . وقال أبو حازم : كل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية . وقال سليمان : ذكر النعم يورث الحب لله . وقال حماد بن زيد : حدثنا ليث عن أبى بردة قال : قدمت المدينة فلقيت عبد الله بن سلام فقال لى : ألا تدخل دخلة النبى - ﷺ - ونطعمك سويقا وتمرا ؟ ثم قال :(إن الله إذا جمع الناس غدا ذكرهم بما أنعم عليهم . فيقول العبد ما آية ذلك ؟ فيقول آية ذلك أنك فى كربة كذا وكذا قد دعوتنى فكشفتها . وآية ذلك أنك كنت فى سفر كذا وكذا فاستصحبتنى فصحبتك . قال : يذكره حتى يذكر ، فيقول : آية ذلك أنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم . يقف عبده بين يديه فيعدد عليه نعمه فبكى ثم بكى ثم قال : إنى لأرجو الله ألا يقعد الله عبدا بين يديه فيعذبه). وروى ليث بن أبى سليم عن عثمان ، عن ابن سيرين ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - يؤتى بالنعم يوم القيامة والحسنات والسيئات فيقول الله - عز وجل - لنعمة من نعمه : خذى حقك من حسناته ، فما تترك له من حسنة إلا ذهبت بها) وقال بكر بن عبد الله المزنى ينزل بالعبد الأمر فيدعو الله فيصرف عنه ، فيأتيه الشيطان فيضعف شكره ، يقول : إن الأمر كان أيسر مما تذهب إليه ، قال : أولا يقول العبد كان الأمر أشد مما أذهب إليه ، ولكن الله صرفه عنى . وذكر ابن أبى الدنيا عن صدقة ابن يسار قال :(بينا داود عليه السلام فى محرابه إذ مرت به ذرة : فنظر إليها وفكر فى خلقها وعجب منها وقال : ما يعبؤ الله بهذه ؟ فأنطقها الله فقالت : يا داود أتعجبك نفسك فو الذى نفسى بيده لأنا علىٰ ما آتانى الله من فضله أشكر منك على ما آتاك الله من فضله) .

وقال أيوب : (إن من أعظم نعمة الله على عبده أن يكون مأمونا على ما جاء النبى - ﷺ) وقال سفيان الثورى : كان يقال : ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة ، والرخاء مصيبة . وقال زازان : مما يجب لله على ذى النعمة بحق نعمته ألا يتوصل بها إلى معصية . قال ابن أبى الدنيا أنشدنى محمود الوراق .

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عم سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منة ... تضيق بها الأفهام والبر والبحر

وقد روى الدرا وردى عن عمر بن أبى عمرو ، عن سعيد المقبرى ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه - : قال رسول الله - ﷺ - يعنى : قال الله - عز وجل - :(إن المؤمن عندى بمنزلة كل خير ، يحمدنى وأنا أنزع نفسه من بين جنبيه). ومر محمد ابن المنكدر بشاب يغامز امرأة فقال : يا فتى ما هذا جزاء نعم الله عليك . وقال حماد بن سلمة عن ثابت قال : قال أبو العالية : إنى لأرجو ألا يهلك عبد بين

اثنين : نعمة يحمد الله عليها وذنب يستغفر منه . وكتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولى القضاء بالرقة (أما بعد) : فلتكن التقوى من بالك على كل حال ، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها ، فإن فى النعم حجة وفيها تبعة ، فأما الحجة بها فالمعصية بها . وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها ، فعفا الله عنك كلما ضيعت من شكر أو ركبت من ذنب ، أو قصرت من حق ، ومر الربيع بن أبى راشد برجل به زمانة ، فجلس يحمد الله ويبكى ، قيل له ما يبكيك ؟ قال : ذكرت أهل الجنة وأهل النار فشبهت أهل الجنة بأهل العافية ، وأهل النار بأهل البلاء ، فذلك الذى أبكانى . وقد روى أبو هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - (إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته ولا ينظر إلى من فوقه) ، قال عبد الله بن المبارك أخبرنى يحيى بن عبد الله قال: سمعت أبى قال: سمعت أبا هريرة فذكره) .

وقال ابن المبارك : حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال : قال أبو الدرداء : من لم يعرف نعمة الله عليه إلا فى مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه . قال ابن المبارك أخبرنا مالك بن أنس ، عن إسحق بن عبد الله بن أبى طلحة ، عن أنس - رضى الله عنه - قال : سمعت عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سلم على رجل فرد عليه السلام ، فقال عمر للرجل كيف أنت ؟ قال الرجل : أحمد إليك الله ، قال : هذا أردت منك ، قال ابن المبارك : وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد ، عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لعلنا نلتقى فى اليوم مرارا يسأل بعضنا عن بعض ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله - عز وجل - . وقال مجاهد : فى قوله تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) قال : لا إله إلا الله ، وقال ابن عيينة : ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله ، قال : وإن لا إله إلا الله لهم فى الآخرة كالماء فى الدنيا .

وقال بعض السلف فى خطبته يوم عيد : أصبحتم زهرا وأصبح الناس غبرا ، أصبح الناس ينسجون وأنتم تلبسون ، وأصبح الناس يعطون وأنتم تأخذون ، وأصبح الناس ينتجون وأنتم تركبون ، وأصبح الناس يزرعون وأنتم تأكلون ، فبكى وأبكاهم . وقال عبد الله بن قرط الأزدى : وكان من الصحابة على المنبر وكان يوم أضحى ورأى على الناس ألوان الثياب . يا لها من نعمة ما أشبعها ، ومن كرامة ما أظهرها ، مازال عن قوم شىء أشد من نعمة لا يستطيعون ردها ، وإنما تثبت النعمة بشكر المنعم عليه للمنعم .

وقال سلمان الفارسى - رضى الله عنه - إن رجلا بسط له من الدنيا فانتزع ما فى يديه فجعل يحمد الله ويثنى عليه حتى لم يكن له فراش إلا بارية ، قال : فجعل يحمد الله ويثنى عليه ، وبسط لآخر من الدنيا فقال لصاحب البارية : أرأيتك أنت على ما تحمد الله ؟ قال : أحمده على مالو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم إياه . قال وما ذاك ؟ قال أرأيتك بصرك ، أرأيتك لسانك ، أرأيتك يديك ، أرأيتك رجليك .

وجاء رجل إلى يونس بن عبيد يشكو ضيق حاله فقال له . يونس : أيسرك ببضرك هذه مائة ألف درهم ؟ قال الرجل : لا قال فبيديك مائة ألف ؟ قال : لا ، قال فبرجليك مائة ألف ؟ قال : لا ، قال : فذكره نعم الله عليه ، فقال يونس : أرى عندك مئين الألوف وأنت تشكو الحاجة ، وكان أبو الدرداء يقول : الصحة الملك .

وقال جعفر بن محمد ـ رضى الله عنه ـ : فقد أبي بغلة له فقال : إن ردها الله على لأحمدنه بمحامد يرضاها ، فما لبث أن أتى بسرجها ولاجمها ، فركبها فلما استوى عليها وضم إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء فقال : الحمد لله لم يزد عليه فقيل له : فى ذلك فقال : هل تركت وأبقيت شيئا جعلت الحمد كله لله وروى ابن أبي الدنيا من حديث سعد بن اسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه ، عن جده قال : بعث رسول الله ـ ﷺ ـ بعثا من الأنصار وقال : إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكرا ، قال : فلم يلبثوا أن غنموا وسلموا ، فقال بعض أصحابه : سمعناك تقول : إن سلمهم الله وغنمهم فإن لله على فى ذلك شكرا ؟ قال : قد فعلت (اللهم لك الحمد شكرا ولك الحمد وصلا) .

وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم ، قال محمد بن المنكدر لأبي حازم يا أبا حازم ما أكثر من يلقانى فيدعو لى بالخير ، ما أعرفهم وما صنعت إليهم خيرا قط ؟ فقال أبو حازم : لا تظن أن ذلك من قبلك ، ولكن انظر إلى الذى ذلك من قبله فاشكره ، وقرأ أبو عبد الرحمن ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ﴾[1] وقال على بن الجعد : حدثنا عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون ، حدثنى من أصدقه أن أبا بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ كان يقول فى دعائه : (أسالك تمام النعمة فى الأشياء كلها ، والشكر لك عليها حتى ترضى ، وبعد الرضا والخيرة فى جميع ما تكون فيه الخيرة بجميع ميسر الأمور كلها لا معسورها يا كريم) .

وقال الحسن : ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان ما أعطى أكثر مما أخذ . قال ابن أبي الدنيا : وبلغنى عن سفيان بن عيينة أنه قال : هذا خطأ لا يكون فعل العبد أفضل من فعل الله ثم قال : وقال بعض أهل العلم إنما تفسير هذا أن الرجل إذا أنعم الله عليه نعمة وهو ممن يجب عليه أن يحمده عرفه ما صنع به فيشكر الله كما ينبغى له أن يشكره ، فكان الحمد له أفضل قلت لا يلزم الحسن ما ذكر عن ابن عيينة ، فإن قوله الحمد لله نعمة من نعم الله ، والنعمة التى حمد الله عليها أيضا نعمة من نعم الله ، وبعض النعم أجل من بعض ، فنعمة الشكر أجل من نعمة المال والجاه والولد والزوجة ونحوها والله أعلم . وهذا لا يستلزم أن يكون فعل العبد أفضل من فعل الله وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله ، وفعل العبد هو مفعول الله ، ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض . وقال بعض أهل العلم : لنعم الله علينا فيما زوى عنا الدنيا أفضل من نعمه علينا فيما بسط لنا منها ، وذلك أن الله لم يرض لنبيه الدنيا ، فأن أكون فيما رضى الله لنبيه وأحب له أحب إلى من أن أكون فيما كره له وسخطه .

وقال ابن أبي الدنيا : بلغنى عن بعض العلماء أنه قال : ينبغى للعالم أن يحمد الله على ما زوى

---

(١) سورة مريم الآية : ٩٦

عنه من شهوات الدنيا ، كما يحمده على ما أعطاه ، وأين يقع ما أعطاه الله ، والحساب يأتى عليه ، إلى ما عافاه الله ولم يبتله به ، فيشغل قلبه ويتعب جوارحه ، فيشكر الله على سكون قلبه وجمع همه .

وحدث عن ابن أبى الحوارى قال : جلس فضل بن عياض وسفيان بن عيينة ليلة إلى الصباح يتذكران النعم ، فجعل سفيان يقول : (أنعم الله علينا فى كذا وكذا ، أنعم الله علينا فى كذا فعل بنا كذا) وحدثنا عبد الله بن داود عن سفيان فى قوله : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ قال : يسبغ عليهم النعم ويمنعهم الشكر ، وقال غير سفيان كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة . وسئل ثابت البنانى عن الاستدراج فقال : ذلك مكر الله بالعباد المضيعين . وقال يونس فى تفسيرها إن العبد إذا كانت له عند الله منزلة حفظها وبقى عليها ثم شكر الله بما أعطاه ، أعطاه أشرف منها ، وإذا هو ضيع الشكر استدرجه الله ، وكان تضييعه الشكر استدراجا .

وقال أبو حازم : نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما أعطانى منها ، إنى رأيته أعطاها أقواما فهلكوا ، وكل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية ، وإذا رأيت الله سابغا عليك نعمة وأنت تعصيه فاحذره .

وذكر كاتب الليث عن هقل عن الأوزاعى أنه وعظهم فقال فى موعظته : أيها الناس ، تقووا بهذه النعم التى أصبحتم فيها ، على الهرب من نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة ، فإنكم فى دار : الثوى فيها قليل وأنتم فيها مرجون خلائف من بعد القرون الذين استقبلوا من الدنيا أنفعها وزهرتها ، فهم كانوا أطول منكم أعمارا ، وأمد أجسادا ، وأعظم آثارا ، فقطعوا الجبال ، وجابوا الصخور ونقبوا فى البلاد مؤيدين ببطش شديد وأجسام كالعماد ، فما لبثت الأيام والليالى أن طوت مددهم وعفت آثارهم وأخوت منازلهم وأنست ذكرهم فما تحس منهم من أحد ولاتسمع لهم ركزا ، كانوا يلهون آمنين لبيات قوم غافلين أو لصباح قوم نادمين ، ثم إنكم قد علمتم الذى نزل بساحتهم بياتا من عقوبة الله ، فأصبح كثير منهم فى دارهم جاثمين ، وأصبح الباقون ينظرون فى آثارهم نقمة وزوال نعمة ومساكن خاوية فيها ، أن للذين يخافون العذاب الأليم ، وعبرة لمن يخشى ، وأصبحتم من بعدهم فى أجل منقوص ودنيا مقبوضة وزمان قد ولى عفوه ، وذهب رخاؤه ، فلم يبق منه إلا حماة شر ، وصبابة كدر ، وأهاويل عبر ، وعقوبات غير ، وإرسال فتن وتتابع زلازل ورذلة خلف ، بهم ظهر الفساد فى البر والبحر . ولا تكونوا أشباها لمن خدعه الأمل ، وغره طول الأجل ، وتبلغ بطول الأمانى ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن وعى إنذاره ، وعقل بشره فمهد لنفسه . اهـ

وكان يقال : الشكر ترك المعصية ، وقال ابن المبارك : قال سفيان ليس بفقيه من لم يعد البلاء نعمة والرخاء مصيبة .

ودعى عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ إلى قوم على ريبة فانطلق ليأخذهم فتفرقوا قبل أن يبلغهم فأعتق رقبة شكرا لله ألا يكون جرى على يديه خزى مسلم .

وقال رجل لأبى حازم : ماشكر العينين ياأبا حازم ؟ قال : إن رأيت بهما خيرا أعلنته ، وإن رأيت بهما شرا سترته ، قال : فما شكر الأذنين ؟ قال : إن سمعت بهما خيرا وعيته ، وإن سمعت بهما شرا دفعته ، قال : فما شكر اليدين ؟ قال لاتأخذ بهما ماليس لهما ولا تمنع حقا لله هو فيهما : قال : فما شكر

البطن ؟ قال أن يكون أسفله طعاما ، وأعلاه علما ، قال : فما شكر الفرج ؟ قال : قال الله ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾[1] قال فما شكر الرجلين ؟ قال : إن علمت ميتا تغبطه استعملت بهما عمله ، وإن منعته رغبت عن عمله وأنت شاكر لله وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه ، فمثله كمثل رجل له كساء فأخذ بطرفه ولم يلبسه فما ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر .

وذكر ابن المبارك أن النجاشي أرسل ذات يوم إلى جعفر وأصحابه فدخلوا عليه وهو فى بيت عليه خلقان جالس على التراب ، قال جعفر : فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال ، فلما رأى مافى وجوهنا قال : إنى أبشركم بما يسركم ، إنه جاءنى من نحو أرضكم عين لى فأخبرنى أن الله نصر نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأهلك عدوه ، وأسر فلان وفلان ، وقتل فلان وفلان ، التقوا بواد يقال له بدر كثير الأراك كأنى أنظر إليه كنت أرعى به لسيدى رجل من بنى حمزة . فقال له جعفر : فما بالك جالسا على التراب ليس تحتك بساط وعليك هذه الأخلاق ، قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى - ﷺ - أن حقا على عباد الله أن يحدثوا لله تواضعا عندما أحدث الله لهم من نعمة ، فلما أحدث الله لى نصر نبيه أحدثت لله هذا التواضع .

وكان رسول - ﷺ - إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجدا شكرا له - عز وجل - ذكره أحمد

وقال عبد الرحمن بن عوف : « خرج علينا رسول الله - ﷺ - فتوجه نحو صدقته فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا فأطال السجود فقلت : يارسول الله ، : سجدت سجدة حسبت أن يكون الله قد قبض نفسك فيها ، فقال : إن جبريل أتانى فبشرنى أن الله - عز وجل - يقول لك : من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه » رواه أحمد[2] .

وعن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - قال : خرجنا مع النبى - ﷺ - من مكة نريد المدينة ، فلما كنا قريبا من عزور نزل ثم رفع يديه ودعا الله ساعة ثم خر ساجدا فمكث طويلا ثم قام فرفع يديه ساعة ثم خر ساجدا - فعله ثلاثا - وقال : إنى سألت ربى وشفعت لأمتى فأعطانى ثلث أمتى فخررت ساجدا شكرا لربى ، ثم رفعت رأسى فسألت ربى لأمتى فأعطانى ثلث أمتى فخررت ساجدا لربى ، ثم رفعت رأسى فسألت ربى فأعطانى الثلث الآخر ، فخررت ساجدا لربى . رواه ابو داود[3]

ولقد سجد كعب بن مالك فى عهد النبى - ﷺ - لما بشر بتوبة الله عليه ، والقصة فى الصحيحين .

(١) سورة المؤمنون الآيات : ٥ - ٧

(٢) الترغيب والترهيب : كتاب الذكر والدعاء » باب الترغيب فى إكثار الصلاة على النبى - ﷺ - .. الخ ج ٢ ص ٤٩٥ حديث ٤ عن عبد الرحمن بن عوف ولفظه « خرج رسول الله - ﷺ - فاتبعته حتى دخل نخلا فسجد فأطال السجود حتى خفت أو خشيت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه ، قال : فجئت أنظر فرفع رأسه فقال : مالك ياعبد الرحمن ؟ قال : فذكرت ذلك له قال : فقال : إن جبريل - عليه السلام - قال لى : ألا أبشرك إن الله - عز وجل - يقول : من صلى عليك صليت عليه ، ومن سلم عليك سلمت عليه .زاد فى رواية : فسجدت لله شكرا .. رواه أحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد

(٣) سنن أبو داود « كتاب الجهاد » باب فى سجود الشكر .. ج ٣ ص ٢١٧ رقم ٢٧٧٥ ورد الحديث بلفظه عن عامر بن سعد عن أبيه ..

فإن قيل : فنعم الله دائما مستمرة على العبد فما الذى اقتضى تخصيص النعمة الحادثة بالشكر دون الدائمة ، وقد تكون المستدامة أعظم ؟ . قيل : الجواب من وجوه :

أحدها : أن النعمة المتجددة تذكر بالمستدامة ، والإنسان موكل بالأدنى

الثانى : أن هذه النعمة المتجددة تستدعى عبودية مجددة وكان أسهلها على الإنسان وأحبها إلى الله السجود شكرا له .

الثالث : إن المتجددة لها وقعها فى النفوس ، والقلوب بها أعلق ، ولهذا يهنأ بها ويعزى بفقدها .

الرابع : أن حدوث النعم توجب فرح النفس وانبساطها ، وكثير مايجر ذلك إلى الأشر والبطر ، والسجود لله ذل لله وعبودية وخضوع ، فإذا تلقى به نعمته لسروره وفرح النفس وانبساطها فكان جديرا بدوام تلك النعمة ، وإذا تلقاها بالفرح الذى لايحبه الله والأشر والبطر كما يفعله الجهال عندما يحدث الله لهم من النعم كانت سريعة الزوال وشيكة الانتقال ، وانقلبت نقمة ، وعادت استدراجا .

(فصل) ومن دقيق نعم الله على العبد التى لايكاد يفطن لها أنه يغلق عليه بابه فيرسل الله إليه من يطرق عليه الباب يسأله شيئا من القوت ليعرفه نعمته عليه .

وقال سلام بن أبى مطيع : دخلت على مريض أعوده فإذا هو يئن فقلت له : اذكر المطروحين على الطريق ، اذكر الذين لامأوى لهم ولا لهم من يخدمهم ، قال : ثم دخلت عليه بعد ذلك فسمعته يقول لنفسه : اذكرى المطروحين فى الطريق ، اذكرى من لامأوى له ولا له من يخدمه .

وقال عبد الله بن أبى نوح : قال لى رجل على بعض السواحل : كم عاملته تبارك اسمه بما يكره فعاملك بما تحب ؟ قلت : ماأحصى ذلك كثرة ، قال : فهل قصدت إليه فى أمر كربك فخذلك ؟ قلت : لا والله ، ولكنه أحسن إلى وأعاننى . قال : فهل سألته شيئا فلم يعطكه قلت : وهل منعنى شيئا سألته ؟ ماسألته شيئا قط إلا أعطانى ، ولا استعنت به إلا أعاننى . قال : أرأيت لو أن بعض بنى آدم فعل بك بعض هذه الخلال ماكان جزاؤه عندك ؟ قلت : كنت أقدر له مكافأة وجزاء ، قال : فربك أحق وأحرى أن تدأب نفسك له فى أداء شكره ، وهو المحسن قديما وحديثا إليك ، والله لشكره أيسر من مكافآة عباده ، إنه تبارك وتعالى يرضى من العباد بالحمد شكرا .

وقال ابن زيد : إنه ليكون فى المجلس الرجل الواحد يحمد الله ـ عز وجل ـ فيقضى لذلك المجلس حوائجهم كلهم .

وقال وهب : عبد الله عابد خمسين عاما فأوحى الله إليه أنى قد غفرت لك قال : أى ربى ، وما تغفر لى ولم أذنب ؟ فأذن الله لعرق فى عنقه يضرب عليه فلم ينم ولم يصل ، ثم سكن فقام ، ثم أتاه ملك فشكا إليه فقال مالقيت من ضربان العرق ، فقال الملك : إن ربك يقول : إن عبادتك خمسين سنة تعدل سكون العرق .

(فصل) وبهذا تبين معنى الحديث الذى فى الصحيح : لن ينجى أحدا فيكم عمله ، قالوا ولا

أنت يارسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل ، فإن أعمال العبد لاتوافى نعمة من نعم الله عليه[١] .

(فصل) ويدل على فضل الشكر على الصبر أن الله ـ سبحانه ـ يحب أن يسأل العافية ومايسأل شيئا أحب إليه من العافية كما فى المسند عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قام أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ على المنبر ثم قال : « سلوا الله العافية فإنه لم يعط عبد بعد اليقين خيرا من العافية »[٢] .

وفى الترمذى عن العباس قلت : يارسول الله ، علمنى شيئا أسأله الله ؟ قال : سل الله العافية ، فمكثت أياما ثم جئت فقلت : علمنى شيئا أسأله الله ؟ فقال لى : ياعباس ، ياعم رسول الله ـ ﷺ ـ سل الله العافية فى الدنيا والآخرة .

وفى حديث آخر : « سلوا الله العفو والعافية والمعافاة »[٣] وهذا السؤال يتضمن العفو عما مضى والعافية فى الحال والمعافاة فى المستقبل بدوام العافية واستمرارها .

وفى صحيح مسلم أنه ـ ﷺ ـ عاد رجلا قد خفت ـ أى هزل ـ فصار مثل الفرخ . فقال ـ ﷺ ـ هل كنت تدعو الله بشىء أو تسأله إياه ؟ قال نعم كنت أقول اللهم ماكنت معاقبنى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : سبحانه لاتطيقه ، أولاتستطيعه ، أفلا قلت : اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، فدعا الله له فشفاه .[٤]

وقال شيبان : كان الحسن إذا جلس مجلسا يقول : لك الحمد بالاسلام ولك الحمد بالقرآن ، ولك الحمد بالأهل والمال ، بسطت رزقنا ، وأظهرت أمننا ، وأحسنت معافاتنا ، ومن كل ماسألناك أعطيتنا ، فلك الحمد كثيرا كما تنعم كثيرا . أعطيت خيرا كثيرا وصرفت شرا كثيرا ، فلوجهك الجليل الباقى الدايم الحمد .

وقال الحسن : خلق الله آدم حين خلقه فأخرج أهل الجنة من صفحته اليمنى وأخرج أهل النار من صفحته اليسرى ، فدبوا على وجه الأرض منهم الأعمى والأصم والمبتلى ، فقال آدم : يارب ألا سويت بين ولدى قال : ياآدم إنى أريد أن أشكر .

وفى السنن عنه ـ ﷺ ـ « من قال حين يصبح : اللهم ماأصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لاشريك لك ، فلك الحمد ولك الشكر ، إلا أدى شكر ذلك اليوم ومن قالها حين يمسى

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٤٨٢ ، ٤٨٨ ، ٥٠٣ ، ٥٣٧ ، ج ٣ ص ٣٦٢ فقد ورد الحديث بها بروايات مختلفة .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣ ورد هذا الحديث عن أوسط ضمن حديث بلفظ « . . فقال أبو بكر : سلوا الله المعافاة أو قال العافية فلم يؤت أحد قط بعد اليقين أفضل من العافية أو المعافاة . . الخ .

(٣) انظر مسند الإمام احمد ج ١ ص ٣ ورد هذا الحديث من رواية رفاعة بن رافع بلفظ « . . سمعت أبابكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ يقول على منبر رسول الله ـ ﷺ ـ سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول (فبكى أبو بكر حين ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ ثم سرى عنه ثم قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول فى هذا الغيظ عام الأول : سلوا الله العفو والعافية واليقين فى الآخرة والأولى . .

(٤) انظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة . . الخ باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة فى الدين ج ٤ ص ٢٠٦٨ ، ٢٠٦٩ حديث رقم ٢٣/ ٢٦٨٨ ورد الحديث بلفظه عن أنس

فقد أدى شكر ليلته »[1] .

ـ ويذكر عنه ـ ﷺ ـ أنه أوصى رجلا بثلاث ، فقال : أكثر من ذكر الموت يشغلك عما سواه ، وعليك بالدعاء ، فإنك لاتدرى متى يستجاب لك ، وعليك بالشكر فإن الشكر زيادة »[2] .

ـ ويذكر عنه ـ ﷺ ـ أنه إذا أكل قال : «الحمد لله الذى أطعم وسقى وسوغه وجعل له مخرجا »[3]

ـ ويذكر عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إذا أنعم الله على عبد نعمة فحمده عندها فقد أدى شكرها[4] »» .

وذكر على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أن بختنصر أتى بدانيال فأمر به فحبس فى جب وأضرى أسدين ثم خلى بينهما وبينه ثم فتح عليه بعد خمسة أيام فوجده قائما يصلى والأسدان فى ناحية الجب لم يعرضا له . فقال له : ماقلت حين دفع عنك ؟ قال : قلت : « الحمد لله الذى لاينسى من ذكره ، والحمد الله الذى لايخيب من رجاه ، والحمد لله الذى لايكل من توكل عليه إلى غيره ، والحمد الله الذى هو ثقتنا حين تنقطع عنا الحيل ، والحمد الله الذى هو رجاؤنا حين يسوء ظننا بأعمالنا ، والحمد لله الذى يكشف عنا ضرا بعد كربتنا ، والحمد لله الذى يجزى بالإحسان إحسانا ، والحمد لله الذى يجزى بالصبر نجاة» .

وقال بكر بن عبد الله : ياابن آدم ، إذا أردت أن تعرف قدر ما أنعم الله عليك فغمض عينيك .

وقال مقاتل فى قوله تعالى :

﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾[5] قال أما الظاهرة فالإسلام وأما الباطنة فستره عليكم بالمعاصى .

وقال أبو هريرة ـ رضى الله عنه ـ « من رأى صاحب بلاء فقال : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضلنى عليك وعلى جميع خلقه تفضيلا فقد أدى شكر تلك النعمة »

وقال كعب : « ما أنعم الله على عبد من نعمة فى الدنيا فشكرها لله وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها فى الدنيا ورفع له بها درجة فى الأخرى ، وما أنعم الله على عبد نعمة فى الدنيا فلم يشكرها ولم يتواضع بها إلا منعه الله نفعها فى الدنيا وفتح له طبقات من النار يعذبه إن شاء أو يتجاوز عنه » .

وقال الحسن : من لايرى الله عليه نعمه إلا فى مطعم أو مشرب أو لباس فقد قصر علمه وحضر عذابه .

---

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الأدب » باب مايقول إذا أصبح ج ٥ ص ٣١٤ ، ٣١٥ حديث رقم ٥٠٧٣ ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن غنام البياضى . وقال الخطابى : نسبه المنذرى للنسائى فى السنن الكبرى .

(٢) انظر حلية الأولياء للأصبهانى فى ج ٧ ص ٣٠٥

(٣) انظر سنن أبى داود وكتاب الأطعمه باب مايقول الرجل إذا طعم ج ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ حديث رقم ٣٨٥١ وورد الحديث بلفظ عن أبى أيوب الأنصارى وقال الخطابى ـ ونسبه المنذرى للنسائى أيضا .

(٤) انظر الترغيب والترهيب كتاب الذكر والدعاء باب التسبيح والتكبير والتحميد . . الخ ج ٢ ص ٧٣٩ حديث رقم ٥٠ عن رواية جابر ـ رضى الله عنه ـ مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه ، وقال رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .
وقد زاد فى هذا الحديث : « فإن قالها ثانيا جدد الله ثوابها ، فإن قالها الثالثة غفر الله ذنوبه »

(٥) سورة لقمان من الآية : ٢٠

وقال ابن المبارك : سمعت عليا بن صالح يقول فى قوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾[١] قال : أى من طاعتى ، والتحقيق أن الزيادة من النعم ، وطاعته من أجل نعمه .

وذكر ابن أبي الدنيا : أن محارب بن دثار كان يقوم بالليل ويرفع صوته أحيانا أنا الصغير الذى ربيته فلك الحمد ، وأنا الضعيف الذى قويته فلك الحمد ، وأنا الفقير الذى أغنيته فلك الحمد ، وأنا الصعلوك الذى مولته فلك الحمد ، وأنا العزب الذى زوجته فلك الحمد ، وأنا الساغب الذى أشبعته فلك الحمد ، وأنا العارى الذى كسوته فلك الحمد ، وأنا المسافر الذى صاحبته فلك الحمد ، وأنا الغائب الذى رددته فلك الحمد ، وأنا الراجل الذى حملته فلك الحمد ، وأنا المريض الذى شفيته فلك الحمد ، وأنا السائل الذى أعطيته فلك الحمد ، وأنا الداعى الذى أجبته فلك الحمد . ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا .

وقال ابن المبارك بسنده عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال :

سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « خصلتان من كانتا فيه كتبه الله صابرا شاكرا ، ومن لم يكونا فيه لم يكتبه الله صابرا شاكرا ، من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به . ومن نظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على مافضله به عليه ، كتبه الله صابرا شاكرا ومن نظر فى دينه إلى من هو دونه ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على مافاته منه لم يكتبه الله صابرا شاكرا »[٢]

وعن ابن عمر : أربع خصال من كن فيه بنى الله له بيتا فى الجنة « من كان عصمة أمره لاإله إلا الله ، وإذا أصابته مصيبة قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإذا أعطى شيئا قال : الحمد لله . وإذا أذنب قال استغفر الله » .

وقال ابن مبارك بسنده عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾[٣] قال : لم يأكل شيئا إلا حمد الله عليه . ولم يشرب شرابا قط إلا حمد الله عليه ، ولم يبطش بشىء قط إلا حمد الله عليه ، فأثنى الله عليه إنه كان عبدا شكورا .

وقال ابن ابى الدنيا : بلغنى عن بعض الحكماء قال « لو لم يعذب الله على معصيته لكان ينبغى أن لايعصى لشكر نعمته» .

(فصل) ولله - تبارك وتعالى - على عبده نوعان من الحقوق لاينفك عنهما :

أحدهما : أمره ونهيه اللذان هما محض حقه عليه .

والثانى : شكر نعمه التى أنعم بها عليه فهو - سبحانه - يطالبه بشكر نعمه وبالقيام بأمره ، فمشهد الواجب عليه لايزال يشهده تقصيره وتفريطه وأنه محتاج إلى عفو الله ومغفرته ، فإن لم يداركه بذلك هلك ، وكلما كان أفقه فى دين الله كان شهوده للواجب عليه أتم ، وشهوده لتقصيره أعظم ، وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة ، بل بالقيام مع ذلك بالأوامر المحبوبة لله .

(١) سورة ابراهيم من الآية : ٧

(٢) انظر كنز العمال الكتاب الثالث من حرف الهمزة فى الأخلاق من قسم الأقوال باب الأخلاق والافعال المحمودة الفصل الأول فى حرف الشين - الشكر ج ٣ ص ٢٥٧ - ٢٥٨ برقم ٦٤٢٣ وهذا الحديث روى عن عبد الله بن عمر بلفظ حديث حسن غريب

(٣) سورة الإسراء من الآية : ٣

وأكثر الديانين لايعبأون منها إلا بما شاركهم فيه عموم الناس ، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والنصيحة لله ورسوله وعباده ونصره الله ورسوله ودينه وكتابه . فهذه الواجبات لاتخطر ببالهم فضلا عن أن يريدوا فعلها ، وفضلا عن أن يفعلوها ، وأقل الناس دينا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات وإن زهد فى الدنيا جميعها ، وقل أن ترى منهم من يحمر وجهه ويمعره لله ويغضب لحرماته ويبذل عرضه فى نصرة دينه . وأصحاب الكبائر أحسن حالا عند الله من هؤلاء . وقد ذكر أبو عمرو وغيره أن الله ـ تعالى ـ أمر ملكا من الملائكة أن يخسف بقرية ، فقال يارب : إن فيهم فلانا العابد الزاهد قال : به فابدأ وأسمعنى صوته ، إنه لم يتمعر وجهه فى يوم قط .

(فصل) وأما شهود النعمة فإنه لايدع له رؤية حسنة من حسناته أصلا ولو عمل أعمال الثقلين ، فإن نعم الله ـ سبحانه ـ أكثر من أعماله ، وأدنى نعمة من نعمه تستنفذ عمله ، فينبغى للعبد ألا يزال ينظر فى حق الله عليه .

فمشاهدة العبد النعمة والواجب لاتدع له حسنة يراها ، ولا يزال مزريا على نفسه ذاما لها ، وما أقربه من الرحمة إذا أعطى هذين المشهدين حقهما والله المستعان .

أيهما أفضل الغنى الشاكر أم الفقير الصابر

والتحقيق أن يقال : أفضلهما أتقاهما لله ـ تعالى ـ ، فإن فرض استواؤهما فى التقوى استويا فى الفضل ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يفضل بالفقر والغنى ، كما لم يفضل بالعافية والبلاء ، وإنما فضل بالتقوى كما قال ـ تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾(١) وقد قال ـ ﷺ ـ « **لافضل لعربى على عجمى ولا فضل لعجمى على عربى إلا بالتقوى** »(٢) .

والتقوى مبنية على أصلين : الصبر ، والشكر . وكل من الغنى والفقير لابد له منهما ، فمن كان صبره وشكره أتم كان أفضل .

فإن قيل : فإذا كان صبر الفقير أتم ، وشكر الغنى أتم فأيهما أفضل ؟ .

قيل : أتقاهما لله فى وظيفته ومقتضى حاله . ولا يصح التفضيل بغير هذا البتة ، كما قال تعالى فى الأثر الإلهى : ﴿ **ماتقرب إلى عبدى بمثل مداومة ما افترضت عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فأى الرجلين كان أقوم بالواجبات وأكثر نوافل كان أفضل** ﴾(٣)

فإن قيل : فقد ثبت عن النبى ﷺ قال : « يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم . وذلك خمسمائة عام »(٤) قيل : هذا لايدل على فضلهم على الأغنياء فى الدرجة وعلو المنزلة وإن سبقوهم

---

(١)سورة الحجرات من الآية : ١٣

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٤١١ وهذا جزء من حديث الرسول ﷺ فى خطبة الوداع :

(٣) انظر السنن الكبرى ج ١ ص ٢١٩ كتاب الشهادات باب ينبغى للمرء ألا يبلغ منه ولا من غيره من تلاوة قرآن ولا صلاة نافلة ولا نظر فى علم مايشغله عن الصلاة حتى يخرج وقتها من رواية أبى هريرة ورواه البخارى فى الصحيح عن محمد بن عثمان بن كرامة .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٤٣ من رواية أبى هريرة .

بالدخول . فقد يتأخر الغنى والسلطان العادل فى الدخول لحسابه . فإذا دخل كانت درجته أعلى ومنزلته أرفع كسبق الفقير القفل فى المضائق وغيرها ويتأخر صاحب الأحمال بعده .

قيل : احتج بحال رسول الله ﷺ كل واحدة من الطائفتين .

والتحقيق : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ جمع له بين المقامين كليهما على أتم الوجوه وكان سيد الأغنياء الشاكرين ، وسيد الفقراء الصابرين ، فحصل له من الصبر على الفقر مالم يحصل لأحد سواه . ومن الشكر على الغنى مالم يحصل لغنى سواه . ومن تأمل سيرته ـ ﷺ ـ وجد الأمر كذلك فكان ﷺ أصبر الخلق فى مواطن الصبر ، وأشكر الخلق فى مواطن الشكر . وربه ـ تعالى ـ كمل له مراتب الكمال فجعله فى أعلى رتب الأغنياء الشاكرين . وفى أعلى مراتب الفقراء الصابرين .

والمقصود : أنه ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الغنى والفقر مطيتين للابتلاء والامتحان ولم ينزل المال لمجرد الاستمتاع به كما فى المسند عنه ﷺ قال : « يقول الله ـ تعالى ـ « إنا نزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد من مال لابتغى إليه ثانيا ، ولو كان له ثان لابتغى له ثالثا ، ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب »[(١)] »

فأربح الناس من جعلها وسائل إلى الله والدار الآخرة وذلك الذى ينفعه فى معاشه ومعاده ، وأخسر الناس من توسل بها إلى هواه ونيل شهواته وأغراضه العاجلة ، فخسر الدنيا والآخرة .

والمقصود أنه ـ سبحانه ـ جعل الفقر والغنى ابتلاء وامتحانا للشكر والصبر والصدق والكذب والإخلاص والشرك قال تعالى : ﴿ الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾[(٢)]

وقال تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾[(٣)]

فجعل الدنيا عرضا عاجلا ، ومتاع غرور ، وجعل الآخرة دار جزاء وثواب وحف الدنيا بالشهوات وزينها بها كما قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[(٤)] . فأخبر ـ سبحانه أن ذلك كله متاع الحياة الدنيا ، ثم شوق عباده إلى متاع الآخرة وأعلمهم أنه خير من هذا المتاع وأبقى فقال ـ سبحانه ـ :

﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ﴾[(٥)]

ثم ذكر ـ سبحانه ـ من يستحق هذا المتاع ومن هم أهله الذين هم أولى به فقال : ﴿ الذين

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢١٩ فقد ورد الحديث عن أبى واقد الليثى مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه . وانظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب مايتقى من فتنة المال ج ٨ ص ١١٥ فقد وردت أحاديث كثيرة بهذا المعنى .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ١ ـ ٣

(٣) سورة التغابن الآية : ١٥

(٤) سورة آل عمران الآية : ١٤

(٥) سورة آل عمران الآية : ١٥

يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾(١) فأخبر سبحانه أن ماأعد لأوليائه المتقين من متاع الآخرة خير من متاع الدنيا وهو نوعان : ثواب يتمتعون به وأكبر منه وهو رضوانه عليهم .

قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : « مالى وللدنيا إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب قال فى ظل شجرة فى يوم صائف ثم راح وتركها »(٢) .

وفى جامع الترمذى من حديث سهل بن سعد قال : قال رسول الله - ﷺ - « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ماسقى كافرا منها شربة ماء »(٣) قال الترمذى حديث صحيح .

وفى صحيح مسلم من حديث المستورد بن شداد ، قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع وأشار بالسبابة »(٤) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون مافيها إلا ذكر الله وماوالاه ، وعالم أومتعلم »(٥) أخرجه الترمذى وقال حسن .

قوله تعالى : **﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾** .

وهذا مقام الرسالة التى تنطق حقا وتقول صدقا فيه الوعد والوعيد ، أى : إن تكذبوا بما جئتكم به من التوحيد والنبوة والبعث . فإن هناك أمما سبقتكم كذبت رسلها فحق عليهم الوعيد فأهلكهم الله . قال تعالى : **﴿ وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين ﴾**(٦) وقال عز من قائل : **﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون . فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا**

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٦ - ١٧

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٤٤١ وهذا جزء من حديث مروى عن عبد الله بن مسعود

(٣) انظر المستدرك كتاب الرقاق ج ٤ ص ٣٠٦ عن رواية سهل بن سعد من حديث طويل والحديث الذى معنا جزء منه ، غير أنه جاء بكلمة «تزن» بدلا من «تعدل» وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وانظر كنز العمال ج ٣ ص ١٩٧ حديث رقم ٦١٣٢ فقد ورد برواية سهل بن سعد غير أنه جاء بكلمة تعدل - أيضا .

وانظر حلية الأولياء ج ٣ ص ٢٥٣ فقد ورد الحديث عن سهل بن سعد بلفظ « تعدل » وقال : هذا حديث غريب من حديث عبد الحميد بن سليمان عن أبى حازم .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها » باب .. فناء الدنيا - الخ ج ٤ ص ٢١٩٣ حديث رقم ٥٥ / ٢٨٥٨ فقد ورد هذا الحديث من رواية المستورد بلفظه مع زيادة لفظ « والله » ومع تقديم وتأخير فى الجزء الأخير من الحديث .

وانظر مجمع الزوائد « كتاب التوبة » باب « مثل الدنيا مع الآخرة » ج ١٠ ص ٢٨٨ فقد ورد الحديث برواية عن شداد بن أدمى الفهرى ، وانظر سنن الترمذى كتاب الزهد ص ٣٨٤ رقم ٢٤٢٥ فقد ورد الحديث عن مستورد . وقال : هذا حديث حسن صحيح

(٥) انظر سنن الترمذى « كتاب الزهد » باب ماجاء فى هوان الدنيا على الله .. ص ٣٨٤ حديث ٢٤٢٤ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة . وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٦) سورة العنكبوت الآية : ٣٨

فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله عز وجل : ﴿ فإنما عليه ماحمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾[٢] ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾[٣] وقوله : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر ﴾[٤] ثم انتقل إبراهيم بعد بيان التوحيد والرسالة الى إثبات البعث وهذه الأصول الثلاثة قد أجمعت عليها رسالات السماء : الإلهيات ـ والنبوات ـ والسمعيات قال :

﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ﴾

وقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده ﴾

قياس الإعادة على البدء دليل على أن الإعادة أهون ، فالذى خلق من العدم قادر على أن يعيد مابدأ بعد الفناء قال سبحانه :

﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ ويقول الإنسان أئذا مامت لسوف أخرج حيا . أو لايذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾[٦] وقال جل جلاله ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[٧] لذا جاء تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ . ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾[٨] .

ثم أقام الأدلة على أن البعث يسير على الله فقال :

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾ لقد بدأه من العدم وبعد أن لم يكن شيئا مذكورا ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[٩] ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[١٠] وعلى كل كفار عنيد أن يسأل نفسه هذا السؤال الذى أدلى به القرآن الكريم على سمع كل عاقل ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون ﴾[١١]

---

(١) سورة فصلت الآيات : ١٣ ـ ١٨
(٢) سورة النور من الآية : ٥٤
(٣) سورة ق من الآية : ٤٥
(٤) سورة الغاشية الآيتان : ٢١ ـ ٢٢
(٥) سورة الروم الآية : ٢٧
(٦) سورة مريم الآيتان : ٦٦ ـ ٦٧
(٧) سورة يس الآيات : ٧٧ ـ ٧٩
(٨) سورة لقمان الآية : ٢٨
(٩) سورة فصلت الآية : ٥٣
(١٠) سورة غافر الآية : ٥٧
(١١) سورة الطور الآيتان : ٢٥ ـ ٢٦

إن الذى أبدع هذا الكون قادر على أن ينشىء النشأة الآخرة ﴿ **أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون*فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾[١] .

لذا جاء تذيل الآية ﴿ **ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير** ﴾ فسبحان من اقتضت حكمته أن يعيد الخلق بعد فنائهم ليقيم ميزان العدالة ﴿ **ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[٢] قال تعالى :

﴿ **يعذب من يشاء ويرحم من يشاء** ﴾ بمقتضى العدالة فالقيامة دار جزاء واليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل .

القبـر باب وكل الناس داخـله	ياليت شعرى بعد الموت ما الدار
الـدار دار نعيم إن عملـت بما	يرضـى الإله وإن خالفـت فالنار
هما محـلان ما للمـرء غيـرهما	فانظـر لنفسـك أى الدار تختـار
ماللعباد سوى الفردوس إن عملوا	وإن هفوا هفوة فالرب غفـار

(وإليه تقلبون) أى ترجعون فاعلموا أنكم غدا بين يدى الله موقوفون وعن أعمالكم محاسبون وعلى رب العزة ستعرضون ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[٣] فسبحانك ربى كل شىء قائم بك ، وكل شىء خاشع لك ، ياعز كل ذليل ياقوة كل ضعيف ، ياغنى كل فقير ، يامفزع كل ملهوف من عاش فعليك رزقه ، ومن مات فإليك منقلبه ، من سكت علمت سره ، ومن تكلم سمعت نطقه ، ياعالم السر والنجوى ، ياكاشف الضر والبلوى ، يامن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء عمن ناداه .

قوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ أى : لايعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه بل هو القاهر فوق عباده فكل شىء خائف منه فقير إليه وهو الغنى عما سواه ﴿ **ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه** ﴾ أى: جحدوها وكفروا بالمعاد ﴿ **أولئك يئسوا من رحمتى** ﴾ أى لانصيب لهم فيها ، ﴿ **وأولئك لهم عذاب أليم** ﴾ أى موجع شديد فى الدنيا والآخرة .

قوله تعالى : ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ وقال ﴿ **إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين** ﴾

---

(١) سورة يس الآيات : ٨١ ـ ٨٣

(٢) سورة النجم من الآية : ٣١

(٣) سورة الشعراء من الآية : ٢٢٧

وهذا منطق الباطل الذى عهدناه من قوم إبراهيم لقد دعاهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر بالحكمة والموعظة الحسنة ولكنهم لإفلاسهم الفكرى وبعد قيام الحجة عليهم لجأوا إلى استعمال العنف والقوة والقسوة فلم يقابلوا الحجة بالحجة والدليل بالدليل إنما استعملوا القوى العضلية مقابل القوى العقلية . ﴿ **قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين** ﴾(١) وذلك أنهم حشدوا فى جمع أحطابا عظيمة مدة طويلة ، وحوطوا حولها ثم أضرموا فيها النار فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتفوه وألقوه فى كفة المنجنيق ثم قذفوه فيها فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وخرج منها سالما بعدما مكث فيها أياما ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماما . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان .

وقوله تعالى : ﴿ **فأنجاه الله من النار** ﴾ أى : سلمه منها بأن جعلها عليه بردا وسلاما ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ وهكذا حكمت محكمة الأرض على إبراهيم بالإعدام حرقا ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين** ﴾(٢) فأصدرت محكمة السماء حكمها لإبراهيم بالإفراج فورا . ﴿ **قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم** ﴾(٣) نزع الله منها الحرارة والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾(٤) .

وكان إبراهيم عندما ألقى فى النار يقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، وهذه الكلمة أمان الخائف قال تعالى :

﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا** ﴾ يقول لقومه مقرعا لهم وموبخا على سوء صنيعهم فى عبادتهم للأوثان : إنما اتخذتم هذه لتجتمعوا على عبادتها فى الدنيا

صداقة وألفة منكم بعضكم لبعض فى الحياة الدنيا وهذا على قراءة من نصب مودة بينكم على أنه مفعول له ، وأما على قراءة الرفع فمعناه : إنما اتخاذكم هذا لتحصل لكم المودة فى الدنيا فقط ﴿ **ثم يوم القيامة** ﴾ ينعكس هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة بغضا وشنآنا ثم ﴿ **يكفر بعضكم ببعض** ﴾ أى تتجاحدون ماكان بينكم ﴿ **ويلعن بعضكم بعضا** ﴾ أى يلعن الأتباع المتبوعين والمتبوعون الأتباع ﴿ **كلما دخلت أمة لعنت أختها** ﴾(٦)

وقال تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾(٧)

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٩٧ - ٩٨
(٢) سورة الأنبياء الآية : ٦٨
(٣) سورة الأنبياء الآية : ٦٩
(٤) سورة الأنبياء الآيتان : ٧٠ - ٧١
(٥) سورة آل عمران الآيات : ١٧٣ - ١٧٥
(٦) سورة الأعراف من الآية : ٣٨
(٧) سورة الزخرف الآية : ٦٧

وقال ههنا : ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ﴾ الآية : أى ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار ومالكم من ناصر ينصركم ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك . قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا أبو عاصم الثقفى حدثنا الربيع بن إسماعيل بن عمرو بن سعيد بن جعدة بن هبيرة المخزومى عن أبيه عن جده عن أم هانىء أخت على بن أبى طالب ، قالت :

قال لى النبى - ﷺ-: « أخبرك أن الله - تعالى - يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة فى صعيد واحد فمن يدرى أين الطرفان ؟ - قالت ، الله ورسوله أعلم - ثم ينادى مناد من تحت العرش ياأهل التوحيد فيشرئبون - قال أبو عاصم : يرفعون رءوسهم - ثم ينادى ياأهل التوحيد ، ثم ينادى الثالثة ياأهل التوحيد ، إن الله قد عفا عنكم - قال - : فيقوم الناس قد تعلق بعضهم ببعض فى ظلامات الدنيا - يعنى المظالم - ثم ينادى ياأهل التوحيد ليعف بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب »(١) .

قوله تعالى : ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾ أى : فلما رأى لوط معجزة إبراهيم آمن به وقال إبراهيم : إنى جاعل بلاد الشام دار هجرتى ؛ إذ أمرنى ربى بالتوجه إليها ، ويقال : إن مهجره كان من كوثى من سواد الكوفة إلى أرض الشام ، فإنه لما بالغ فى الإرشاد ولم يهتد به أحد من قومه إلا لوط أصبح بقاؤه بينهم مفسدة ، لأنه إما اشتغال بما لافائدة فيه وهو عبث ، وإما سكوت وهو دليل الرضا ، فلم تبق إلا الهجرة .

ذكر البيهقى عن قتادة قال : أول من هاجر من المسلمين إلى الله - عز وجل - بأهله عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، قال أنس بن مالك : خرج عثمان بن عفان ومعه رقية بنت رسول الله إلى أرض الحبشة ، فأبطأ على رسول الله - ﷺ - خبرهما ، فقدمت امرأة من قريش فقالت : يامحمد رأيت ختنك ومعه امرأته ، قال : على أى حال رأيتها ؟ قالت : رأيته وقد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة ﴿ التى تدب فى الأرض ولا تسرع ﴾ وهو يسوقها ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صحبهما الله ، إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط »(٢) .

ثم ذكر العلة فى الهجرة فقال

﴿ إنه العزيز الحكيم ﴾ أى : إن ربى هو العزيز الذى لا يذل من نصره ، بل يمنعه ممن أراده بسوء ، الحكيم فى تدبير شئون خلقه ، وتصريفه إياهم فيما صرفهم فيه .

ثم ذكر سبحانه مامن به عليه من النعم فى الدنيا والآخرة كفاء إخلاصه له فقال :

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٨٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن أم هانىء .

(٢) انظر كنز العمال-كتاب الهيئة فصل الاكمال كتاب الهجرتين من قسم الأقوال ج ١٠٦ ص ٦٥٦ حديث رقم ٤٦٢٥٧ .
وانظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٣ ص ٣٣٩ - ٣٤٠ تفسير سورة العنكبوت فى قوله تعالى ﴿ فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى ﴾

(١) - ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ أى : ورزقناه من لدنا إسحاق ولدا ويعقوب من بعده حفيدا .

ونحو الآية قوله : ﴿ فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ﴾[١] وقوله : ﴿ وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ﴾[٢]

وفى الصحيحين : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم »[٣]

(٢) - ﴿ وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ﴾ فلم يوجد نبى من بعده إلا وهو من سلائله ، فجميع أنبياء بنى اسرائيل من أولاد يعقوب ، حتى كان آخرهم عيسى بن مريم .

(٣) -﴿ وآتيناه أجره فى الدنيا ﴾ فبدل الله أحواله فى الدنيا بأضدادها ، فبدل وحدته بكثرة الذرية ، وبدل قومه الضالين بقوم مهتدين ، وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب ، وكان لامال له ولا جاه وهما غاية اللذة فى الدنيا ، فكثر ماله ، وعظم جاهه ، فصارت تقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الأنبياء ، وصار معروفا بأنه شيخ الأنبياء بعد أن كان خامل الذكر ، حتى قال قائلهم : ﴿ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ﴾[٤] وهذا لايقال إلا فى المجهول بين الناس ، الا أنه تعالى اتخذه خليلا ، وجعله للناس إماما .

(٤) - ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ أى : وإنه فى الآخرة لفى عداد الكملة فى الصلاح والتقوى ، المستحقين لتوفير الأجر ، وكثرة العطاء ، والفوز بالدرجات العلى من لدن رب العالمين .

وقصارى أمره - أنه - سبحانه - جمع له بين سعادة الدارين وآتاه الحسنى فى الحياتين .

* قصة لوط مع قومه *

قوله تعالى : وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ

---

(١) سورة مريم الآية : ٤٩

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٧٢

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٢٤ كتاب بدء الخلق باب من انتسب إلى آبائه فقد ورد الحديث بلفظ عن ابن عمر وأبى هريرة .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٦٠

ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ
ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا
مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ
بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

* تفسير المفردات

(الفاحشة) أى : الفعلة الفاحشة المتناهية فى القبح قيل : هى إتيان الرجال فى أدبارها ﴿ وتقطعون السبيل ﴾ أى : الطريق (المنكر) الأمر المخالف للشرع المجافى للطبع السليم كاللواطة وأنواع الفحش (بالبشرى) بالبشارة بإسحاق ويعقوب (الغابرين) الباقين فى العذاب (سىء بهم) جاءته المساءة والغم بسببهم ﴿ ضاق بهم ذرعا ﴾ أى ضاق ذرعه بهم ، وذرع الإنسان طاقته كقولهم : ضاقت يده عن كذا مثلا ﴿ رجزا من السماء ﴾ عذابا شديدا منها وسمى بذلك لأنه يقلق المعذب مأخوذ من قولهم :

ارتجز إذا ارتجس أى : اضطرب .

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن قص علينا - سبحانه - قصص إبراهيم ومالاقاه من قومه من العتو والجبروت ، ثم نصره له نصرا مؤزرا . أعقبه بقصص لوط ، إذ كان معاصرا له وسبقه إلى الدعوة إلى الله ، وقد افتن قومه فى فعلة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، ولأن الملائكة الذين أنزلوا بقرية سدوم العذاب جاءوا ضيوفا لإبراهيم - عليه السلام -.

ولما استنصر لوط - عليه السلام - بربه بقوله : ﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾ استجاب دعاءه وبعث لنصرته ملائكته ، وأمرهم بإهلاك قومه ، وأرسلهم من قبل بالبشرى لإبراهيم فجاءوه وبشروه بذرية طيبة ثم قالوا له : إنا مهلكو أهل هذه القرية لتمادى أهلها فى الشر وإصرارهم على الكفر والمعاصى ، فأشفق إبراهيم على لوط وقال : إن فى القرية لوطا ، فقالوا : إنا منجوه وأهله إلا امرأته ، ثم ينزل عليهم من السماء عذابا بما اجترحوا من السيئات واجترموا من الذنوب والآثام ، ثم ندعهم عبرة للغابرين ، وآية بينة لقوم يعقلون .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ﴾

المقصود بالفاحشة هنا : ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ أتأتون الذكران من العالمين ۞ وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم ﴾(١) وماجاء فى قوله تعالى : ﴿ أئنكم لتأتون الرجال ﴾ وهذه الفعلة الشنيعة لم يسبقهم بها أحد لذا عذبوا عذابا لم يعذبه أحد من العالمين . قال تعالى : ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ۞ مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين ۞ مسومة عند ربك للمسرفين ﴾(٢)

وقال تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى . فغشاها ماغشى ﴾(٣) وقال : ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر . فذوقوا عذابى ونذر ﴾(٤) ولقد أضافوا إلى تلك الفعلة الشنيعة كفرهم بالله وقطعهم السبيل على المارة فكانوا يسلبونهم أموالهم ويعتدون عليهم بكل أنواع الأذى كما أضافوا إلى ذلك إتيانهم المنكر فى ناديهم ومجتمعاتهم .

قال الإمام أحمد : حدثنا حماد بن أسامة أخبرنى حاتم بن أبى صغيرة ، حدثنا سماك بن حرب ، عن أبى صالح - مولى أم هانىء - عن أم هانىء . قالت لى : سألت رسول الله - ﷺ - عن قوله تعالى : ﴿ وتأتون فى ناديكم المنكر ﴾ قال : كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم فذلك المنكر الذى كانوا يأتونه »(٥)

قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ولهذا استنصر عليهم نبى الله فقال : ﴿ رب انصرنى على القوم المفسدين ﴾

قوله تعالى : ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾ .

لما استنصر لوط - عليه السلام - بالله - عز وجل - عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم - عليه السلام - فى هيئة أضياف فجاءهم بما ينبغى للضيف فلما رأى إبراهيم أنه لاهمة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه أنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١٦٥ وجزء الآية : ١٦٦
(٢) سورة الذاريات الآيتان : ٣٣ - ٣٤
(٣) سورة النجم الآيتان : ٥٣ - ٥٤
(٤) سورة القمر الآيتان : ٣٨ - ٣٩
(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٤٠ - ٣٤١ « حديث أم هانىء » فقد ورد الحديث عن روح عن أم هانىء بلفظه .

لعلهم ينظرون لعل الله أن يهديهم ، ولما قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴿ قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾

أى : من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ودبرهم ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط فى صورة شبان حسان فلما رآهم كذلك ﴿ سىء بهم وضاق بهم ذرعا ﴾ أى : اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ولم يعلم بأمرهم فى الساعة الراهنة ﴿ قالوا لاتخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ﴾ وذلك أن جبريل ـ عليه السلام ـ اقتلع قراهم من قرار الأرض ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذابا يوم المعاد ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ أى واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[1]

* قصص مدين وعاد وثمود وغيرهم *

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا
وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ۖ وَمِنْهُم مَّنْ
أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ۖ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

تفسير المفردات

(الرجفة) الزلزلة يقال : رجف يرجف رجفة أى : اضطراب (جاثمين) باركين على ركبهم ميتين (سابقين) فائتين غير مدركين (حاصبا) ريحا حاصبا أى : فيها حصباء يقال حصبه يحصبه إذا رماه بالحصباء (الصيحة) الصرخة الشديدة .

(١) سورة الصافات الآيتان : ١٣٧ ـ ١٣٨

* التفسير *

وإلى مدين أرسلنا لهم أخاهم شعيبا فدعاهم إلى الإيمان بالله وقال لهم : ياقوم اعبدوا الله ربكم مالكم من إله غيره ، وارجوا اليوم الآخر أى افعلوا ماترجون به العافية فى يوم الحساب والجزاء وإياكم والفساد فى الأرض ، فإن عاقبته وخيمة . فكذبوه ولم يؤمنوا به فأخذتهم الصيحة بالعذاب فارتجفت قلوبهم واضطربت حيث لاينفع الاضطراب والخوف ، وأصبحوا فى ديارهم جاثمين على ركبهم ميتين كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ! ؟ فهل من مدكر ؟ وأهلكنا عادا لما أرسلنا لهم أخاهم هودا يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسله ، فكذبوا وكفروا وأهلكنا ثمودا لما أرسلنا لهم أخاهم صالحا يدعوهم إلى عبادة الله فكفروا به وكذبوه .

وهاأنتم أولاء ياأهل مكة . ويامشركى العرب قد تبين لكم ذلك أى : إهلاكهم ، وظهرت لكم الأدلة الواضحة على عذابهم ، وهم قد زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل الحق والصراط المستقيم فكانت عاقبة أمرهم خسرا ، وكانوا مستبصرين أى : عقلاء أصحاب فكر ونظر ولكنهم لم ينتفعوا بذلك أفليس من العقل والحكمة أن تعتبروا وتتعظوا بهؤلاء فالعاقل من اتعظ بغيره ، والسعيد من اتعظ بنفسه ، وإنما يتذكر أولو الألباب .

وأهلكنا قارون لما طغى وبغى ولما يمتثل أمر الله ، وأهلكنا فرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات من عند ربهم فاستكبروا فى الأرض ، إنهم كانوا خاطئين وكان فرعون وهامان عالين من المفسدين ، ولكنهم ماكانوا سابقين فائتين ، بل أدركهم أمر الله وبطشه ﴿ إن بطش ربك لشديد﴾﴿إنها أن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾[1]

فكلا من هؤلاء وهؤلاء أخذنا بذنبه إذ كل نفس بما كسبت رهينة فمنهم من أرسلنا عليه ريحا حاصبة أهلكته وهم قوم لوط إنهم كانوا قوما يعملون الخبائث ، ومنهم من أخذته الصيحة بالعذاب كمدين وثمود ، صيحة ترجف الأرض منها والجبال فكانت بحق هى الرجفة ، ومنهم من خسفنا به وبداره الأرض . وهو قارون ليكون عبرة لكل طاغية جبار .

ومنهم من أغرقنا كقوم نوح وفرعون ، لما طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد . وماكان الله ليظلمهم أبدا ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

*مثل اتخاذ الأصنام آلهة *

قوله تعالى :

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾

(١) سورة لقمان الآية : ١٦

وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

ـ تفسير المفردات ـ

(أولياء) أصناما يرجون نفعها (العنكبوت) حشرة معروفة (أوهن) أضعف (مثل) المثل : الصفة التى تشبه المثل فى الغرابة .

ـ المناسبة وإجمال المعنى ـ

لما بين الله تعالى أنه أهلك المشركين وأفناهم لما كذبوا الرسل وبالغوا فى العناد ، وكان هذا بمثابة تعجيل العذاب لهم فى الدنيا زيادة على ماأعد لهم فى الآخرة من عذاب مقيم ، ولم ينفعهم فى الدارين من دون الله معبود ، ولم يدفع عنهم العذاب ركوعهم للأصنام وسجودهم . لما بين هذا ضرب لهم مثلا فى اتخاذهم معبوداتهم آلهة باتخاذ العنكبوت بيتا لم يقها من شر عاد عليها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾

يقول العلامة ابن القيم : إن الله ـ سبحانه ـ ذكر أنهم ضعفاء وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم : فهم فى ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا . وهو أوهن البيوت وأضعفها .

وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ماكانوا حيث اتخذوا من دون الله أولياء . فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا على ضعفهم كما قال تعالى :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[1] وقال تعالى :

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون ﴾[2] وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب ﴾[3] .

---

(١) سورة مريم الآيتان : ٨١ ـ ٨٢

(٢) سورة يس الآيتان : ٧٤ ـ ٧٥

(٣) سورة هود الآية : ١٠١

فهذه أربعة مواضع فى القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليا يتعزز به ، ويتكبر به ، ويستقربه لم يحصل له به إلا ضد مقصوده .

وفى القرآن أكثر من ذلك . وهو من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك ، وعلى خسران صاحبه وحصوله على مقصوده . فإن قيل : فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله : ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ ؟

فالجواب : أنه ـ سبحانه ـ لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم الموتى أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا ، فلو علموا ذلك ما فعلوه ، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزة وقدرة . والأمر فى الواقع بخلاف ماظنوه .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿ إن الله يعلم مايدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم ﴾ بعد التمثيل ! ولقد قال الزمخشرى فى تفسير الآية : وهذا زيادة توكيد على التمثيل . . على معنى أن الله يعلم أنهم لايدعون من دونه شيئا له وجود ، وهو العزيز الحكيم فكيف يجوز للعاقل أن يترك القادر الحكيم العليم الخبير ، ويشتغل بعبادة ماليس بشىء أصلا .

وتلك الأمثال الرائعة التى هى من عيون الكلام لعمق أثرها فى النفس ، وقوة فعلها فى العقل نضربها للناس لا للبهائم والجمادات ، ومايعقلها ويدرك سرها ويقف على إشاراتها إلا العالمون ، ويقول الفخر : العلم الحدسى يعلمه العاقل والعلم الفكرى الدقيق يعقله العالم ، والمقصود من هذا أن العلم الذى أساسه محسوسات يسمى علما حدسيا كالاستدلال بالصوت على حياة صاحبه . أما إذا كان أساس العلم أمورا نظرية وآيات علمية كان إدراكها علما فكريا دقيقا يحتاج إلى معلومات وأفهام ، وذلك كالأمثال ، ومن هنا ندرك السر فى تعبير القرآن : ومايعقلها إلا العالمون

﴿ خلق الله السموات والأرض بالحق إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾

وفى هذه الآية سلوى للمؤمنين ، أى : إذا لم يؤمنوا مع وضوح الأدلة وذكر القصص وضرب الأمثال فلا يكون ذلك مانعا لكم مشككا فى صحة دينكم فإن خلق الله السموات والأرض بالحق هو للمؤمنين بيان ظاهر وبرهان واضح وإن لم يؤمن به على وجه الأرض كافر ، حقا إن فى ذلك أى خلق السموات والأرض آية للمؤمنين أما خلقهما فقط فهو آية لكل عاقل كما قال تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[1]

* آداب إسلامية *

ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ

(١) سورة البقرة الآية : ١٦٤

وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

* التفسير *

اتل يامحمد ، وكذا كل مسلم ، اتل ماأوحى إليك من الكتاب الكامل الذى لاريب فيه هدى للمتقين ، اتله واحفظه ليبقى مدى الدهر ، واعمل بما فيه ، ففيه نجاتك وضرك وعلاجك وعليك بالصلاة فهى عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد والرب ، فإن جفاك الناس وألم بك حادث تكرهه فعليك بالقرآن ، والجأ إلى الصلاة تتصل بالله ، وإذا اتصلت به كنت ربانيا روحانيا عند ذلك تدين لك الصعاب ، وتخضع الرقاب ، وتصل إلى ماتريد .

الصلاة عملية تطهير لصاحبها ، تتكرر لتغسل أدرانه ، وماقد يكون علق بنفسه وروحه من غبار الدنيا ، وهى كما يقول النبى - ﷺ - مامعناه : هى عين أمام بيتك تغتسل منها خمس مرات فهل يبقى عليك درن ووسخ ؟ !!

الصلاة الحقيقية التامة الأركان ، المستوفية الشروط ، المقومة بأركانها وسننها وآدابها ، الصادرة من قلب برىء خالص ، سليم من الرياء والنفاق ، مملوء بالخوف من الله والرجاء فى عفوه .

هذه الصلاة هى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر . عن ابن عباس وابن مسعود قالا : « فى الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصى الله - تعالى - فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله - تعالى - إلا بعدا » وقال الحسن وقتادة : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه »[1] ومن هنا ندرك كيف يقع من بعض المصلين فحش ومنكر ؟ والجواب : أنها صلاة بلا روح صلاة بلا خشوع ولا خضوع ، صلاة فيها رياء وسمعة ، صلاة لا يمكن أن تنهى عن فحشاء ومنكر .

فليست الصلاة تنهى بقيامها وركوعها وسجودها لا إنما تنهى بذكر الله وتذكره .

﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[2] ومن هنا قال الله : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ والله يعلم الغيب والشهادة وهو العليم بذات الصدور فراقبوا الله مراقب من يعلم أن الله يسمعه ويراه .

والذكر النافع هو الذى يكون مع العلم وإقبال القلب وتفرغ النفس مما سوى الله ، وأما مالا يتجاوز اللسان فشىء آخر والله يعلم ماتصنعون .

قوله تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** ﴾

قيل فى معناها : انكم فى الصلاة تذكرون الله ، وهو ذاكركم ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من

---

(١) سنن الإمام أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٤٣٦ ورد الحديث بلفظ : « حدثنا عبد الله حدثنى أبى حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى سفيان عن جابر قال : قال رسول الله - ﷺ مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات .

وعن أبى هريرة عن النبى - ﷺ مثله فماذا يبقى ذلك من الدرن »

(٢) سورة الرعد من الآية : ٢٨

ذكركم إياه ، وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبى الدرداء وابن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ
وذكر ابن أبى الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية « ولذكر الله أكبر . . قال هو قوله تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾[١] فذكر الله ـ تعالى ـ لكم أكبر من ذكركم إياه .

وقال ابن زيد وقتادة : معناه ، ولذكر الله أكبر من كل شىء .

وقيل لسلمان أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ ويشهد لهذا حديث أبى الدرداء .

(ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم وتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قلنا : بلى . قال ذكر الله)[٢]

وكان شيخ الإسلام أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه يقول : الصحيح أن معنى الآية : أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، وأحدهما أعظم من الآخر . فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى مشتملة على ذكر الله ـ تعالى ـ ولما فيها من ذكر الله ـ تعالى ـ ، أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

وذكر ابن أبى الدنيا عن ابن عباس : أنه سئل أى العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر .

* كلمة فى الذكر *

الذكر : هو مايجرى على اللسان والقلب ، من تسبيح الله ـ تعالى ـ وتنزيهه وحمده والثناء عليه ، ووصفه بصفات الكمال ، ونعوت الجلال والجمال .

١ ـ وقد أمر الله بالإكثار منه فقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[٣] .

٢ ـ وأخبر أنه يذكر من يذكره فقال : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ وقال فى الحديث القدسى الذى رواه البخارى ومسلم : (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن اقترب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا ، وإن اقترب إلى ذراعا اقتربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة ﴾[٤] .

ومعنى ﴿ أنا عند ظن عبدى بى ﴾ أى : إن ظن أن الله يقبل دعاءه وهو يدعوه قبله ـ ومن استغفره وظن أن الله يغفر له فإنه يغفر له وهكذا .

ومعنى ﴿ أتيته هرولة ﴾ أى : أنه كلما زاد إقبال العبد على ربه كان الله له بكل خير أسرع .

٣ ـ وأنه ـ سبحانه ـ اختص أهل الذكر بالتفرد والسبق فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « سبق المفردون » .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٥٢

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل ذكره ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣١٩٠ فقد روى الحديث عن أبى الدرداء مع اختلاف فى لفظى : أزكاها ـ انفاق فقد جاء بلفظى أرضاها ، وإعطاء وانظر اتحاف السادة المتقين ج ٥ ص ٧ ، وانظر كنز العمال ج ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧

(٣) سورة الأحزاب الآيتان : ٤١ ـ ٤٢

(٤) صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء الخ باب فضل الذكر والدعاء . . الخ ج ٤ ص ٢٠٦٨ ص ٢٠٦ حديث ٢٦٧٥ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة وانظر أحمد ص ١٢٢ من رواية أنس .

قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » رواه مسلم(١)

٤ ـ وأنهم هم الأحياء على الحقيقة ، فعن أبي موسى : أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « مثل الذى يذكر ربه ، والذى لايذكر مثل الحى والميت »(٢) رواه البخارى .

٥ ـ والذكر رأس الأعمال الصالحة ، من وفق له فقد أعطى منشور الولاية ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يذكر الله فى كل أحيانه .

ويوصى الرجل الذى قال له : إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشيء أتشبث به ؟ فيقول له : « لايزال فوك رطبا من ذكر الله » ويقول لأصحابه : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى ، يارسول الله قال : « ذكر الله »(٣) رواه الترمذى وأحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

ومعنى (أتشبث) أى أتمسك به .

ومعنى (الورق) الفضة .

٦ ـ وأنه سبيل النجاة فعن معاذ رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « ماعمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل »(٤) رواه أحمد .

٧ ـ وعند أحمد : أنه ﷺ قال « إن ماتذكرون من جلال الله ـ عز وجل ـ من التهليل ، والتكبير ، والتحميد ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له مايذكر به ؟ »(٥)

* حد الذكر الكثير : ـ

أمر الله ـ جل ذكره ـ بأن يذكر ذكرا كثيرا ، ووصف أولى الألباب الذين ينتفعون بالنظر فى آياته بأنهم : ﴿ **الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم** ﴾(٦) ﴿ **والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد**

(١) صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء . . الخ باب الحث على ذكر الله تعالى ج ٤ ص ٢٠٦٢ حديث ٢٦٧٦ ورد عن أبى هريرة بلفظ : قال كان رسول الله ﷺ ـ يسير في طريق مكة ، فمر على جبل يقال له جمدان فقال : « سيروا ، هذا جمدان . سبق المفردون . . الخ » وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٥ أبواب الدعوات حديث ٣٦٦٦

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٨ ص ١٠٧ كتاب الدعاء : باب فضل ذكر الله ـ عز وجل ـ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية ابى موسى .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الذكر » ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣٧٩٠ فقد روى الحديث عن أبى الدرداء مع تغير فى بعض ألفاظه فقد ذكر « أرضاها » بدلا من « أزكاها » وإعطاء بدلا من « انفاق وانظر اتحاف السادة المتقين ج ٥ ص ٧ فقد ورد الحديث عن رواية أبى الدرداء ـ وقد ذكر فيه لفظ « اعطاء » بدلا من «انفاق» أيضا .
وانظر كنز العمال ج ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧ فقد ورد عن رواية لأبى الدرداء .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الذكر » حديث ٣٧٩٠ فقد جاء فى آخر الحديث قال معاذ بن جبل : « ماعمل امرؤ بعمل أنجى له من عذاب الله ـ عز وجل ـ من ذكر الله » .
وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث برواية معاذ ـ رضى الله عنه .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ٤ ص ١٧١ فقد ورد الحديث عن النعمان بن بشير مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٩١

الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾[١] .

وقال مجاهد : لايكون من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات حتى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا .

وسئل ابن الصلاح عن القدر الذى يصير به من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات فقال : إذا واظب على الأذكار المأثورة المثبتة صباحا ومساء ، فى الأوقات والأحوال المختلفة ليلا ونهارا ، كان من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى هذه الآيات قال : إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ، وعذر أهلها فى حال العذر ، غير الذكر ، فإن الله لم يجعل له حدا ينتهى إليه . ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على تركه فقال : ﴿ فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾[٢] بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر ، والحضر والغنى والفقر ، والسقم ، والصحة ، والسر والعلانية وعلى كل حال

ـ شمول الذكر كل الطاعات .

قال سعيد بن جبير : كل عامل لله بطاعة فهو ذاكر لله ، وأراد بعض السلف أن يخصص هذا العام ، فقصر الذكر على بعض أنواعه ، منهم عطاء حيث يقول : مجالس الذكر هى مجالس الحلال والحرام ، كيف تشترى وتبيع ، وتصلى وتصوم ، وتنكح وتطلق ، وتحج وأشياء مثل ذلك . وقال القرطبى :

مجلس الذكر ، يعنى مجلس علم وتذكير ، وهى المجالس التى يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ، وأخبار السلف الصالحين ، وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين ، المبرأة عن التصنع والبدع ، والمنزهة عن المقاصد الردية والطمع .

* آداب الذكر : ـ

المقصود من الذكر تزكية الأنفس ، وتطهير القلوب ، وإيقاظ الضمائر وإلى هذا تشير الآية الكريمة : ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ أى أن ذكر الله فى النهى عن الفحشاء والمنكر أكبر من الصلاة وذلك أن الذاكر حين ينفتح لربه جنانه وينهج بذكره لسانه يمده الله بنوره فيزداد إيمانا إلى إيمانه ويقينا إلى يقينه ، فيسكن قلبه للحق ويطمئن به ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[٣]

وإذا اطمأن القلب للحق اتجه نحو المثل الأعلى ، وأخذ سبيله إليه ، دون أن تلفته عنه نوازع

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٥

(٢) سورة النساء من الآية : ١٠٣

(٣) سورة الرعد الآية : ٢٨

الهوى ، ولا دوافع الشهوة . ومن ثم عظم أمر الذكر ، وجل خطره فى حياة الإنسان . ومن غير المعقول أن تتحقق هذه النتائج بمجرد لفظ يلفظه اللسان ، فإن حركة اللسان قليلة الجدوى ، مالم تكن مواطئة للقلب . وموافقة له ، وقد أرشد الله إلى الأدب الذى ينبغى أن يكون عليه المرء أثناء الذكر فقال :

﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾(١) .

والآية تشير إلى أنه يستحب أن يكون الذكر سرا ، لاترتفع به الأصوات ، وقد سمع رسول الله - ﷺ - جماعة من الناس رفعوا أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال : (يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصم ولا غائبا ، إن الذى تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته)(٢) . كما تشير إلى حالة الرغبة والرهبة التى يحسن بالإنسان أن يتصف بها عند الذكر .

ومن الأدب أن يكون الذاكر نظيف الثوب ، طاهر البدن طيب الرائحة ، فإن ذلك مما يزيد النفس نشاطا ، ويستقبل القبلة ماأمكن ، فإن خير المجالس ، مااستقبل به القبلة .

* استحباب الاجتماع فى مجالس الذكر :-

يستحب الجلوس فى حلق الذكر . وقد جاء فى ذلك مايأتى :

١ - عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » : قالوا : ومارياض الجنة يارسول الله ؟ قال : « حلق الذكر ، فإن لله تعالى سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر ، فإذا أتوا عليهم حفوا بهم »(٣)

٢ - وروى مسلم عن معاوية أنه قال : خرج رسول الله ﷺ على حلقة من أصحابه فقال : ماأجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ماهدانا للإسلام ومن به علينا . قال : « الله ماأجلسكم إلا ذاك ، أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة »(٤)

٣ - وروى أيضا عن أبى سعيد الخدرى وأبى هريرة رضى الله عنهما :

أنهما شهدا على رسول الله - ﷺ - أنه قال : « لايقعد قوم يذكرون الله تعالى إلا حفتهم الملائكة ،

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٠٥

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب : استحباب خفض الصوت بالذكرحديث ٢٧٠٤/٤٤ فقد ورد عن أبى موسى حديث بهذا المعنى .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٠ فقد ورد الشق الأول من الحديث من رواية لأنس إلى قوله : « .. حلق الذكر » وانظر سنن الترمذى أبواب الدعوات » باب ٨٧ ص ١٩٤ حديث رقم ٣٥٧٧ من رواية لأنس إلى قوله : « حلق الذكر » وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٩٢ فقد ورد هذا الحديث عن أبى سعيد الخدرى من حديث طويل لمعاوية وانظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء الخ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكرج ٤ ص ٢٠٧٥ حديث ٢٠٧١/٤٠ فقد ورد الحديث عن أبى سعيد الخدرى من حديث طويل لمعاوية .

وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »(١)

فضل من قال : لاإله إلا الله مخلصا : ـ

١ ـ عن أبى هريرة أن النبى ـ ﷺ ـ قال :

« ماقال عبد : لاإله إلا الله قط مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفضى إلى العرش ما اجتنبت الكبائر »(٢)

رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

معنى (يفضى إلى العرش) أى يصل هذا القول إليه ، وهذا كقول الله تعالى ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾(٣) .

٢ ـ وعنه أنه ﷺ ـ قال : جددوا إيمانكم ، قيل : يارسول الله ـ وكيف نجدد إيماننا ؟ قال : أكثروا من قول لاإله إلا الله »(٤) رواه أحمد بإسناد حسن .

٣ ـ وعن جابر : أن النبى ﷺ قال : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله »(٥) رواه النسائى وابن ماجه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

* فضل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير وغير ذلك :

١ ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »(٦) رواه الشيخان والترمذى . .

٢ ـ عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « لأن أقول سبحان الله ، والحمد لله ولاإله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس »(٧) رواهما مسلم والترمذى .

---

(١) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل الذكر ج ٢ ص ١٢٤٥ حديث ص ٣٧٩١ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة وأبى سعيد مع تغيير فى بعض ألفاظه .
وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٤٤٧ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة وأبى سعيد مع تقديم وتأخير فى بعض جمله وما تغير فى بعض ألفاظه .
وانظر صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء . . الخ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن الخ ج ٤ ص ٢٠٧٤ حديث رقم ٣٩/ ٢٧٠٠ فقد ورد الحديث رواية أبى هريرة وأبى سعيد .

(٢) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٣ أبواب الدعوات حديث ٣٦٦٠ رواية أبى هريرة وقال الترمذى هذا حديث حسن غريب .

(٣) سورة فاطر من الآية : ١٠

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٥٩ فقد ورد هذا الحديث بلفظه عن أبى هريرة

(٥) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب ٥٥ فضل الحامدين ج ٢ ص ١٢٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه

(٦) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب ٥٦ فضل التسبيح ج ٢ ص ١٢٥١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه .
وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ١٧٤ أبواب الدعوات باب ٦١ حديث رقم ٣٥٣٤ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .

(٧) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء ، فضل التهليل والتسبيح والدعاء حديث رقم ٢٦٩٥/٣٢ وانظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٦ أبو الذكر والدعاء حديث ٣٦٦٧ قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

٣ ـ عن أبي ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله قلت : أخبرنى يارسول الله . قال إن أحب الكلام إلى الله سبحان الله وبحمده »(١) رواه مسلم والترمذى ولفظه أحب الكلام إلى الله ـ عز وجل ـ مااصطفى الله لملائكته . سبحان ربى وبحمده . سبحان ربى وبحمده .

٤ ـ عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من قال سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة فى الجنة »(٢) رواه الترمذى وحسنه

٥ ـ وعن أبى سعيد أن النبى قال : استكثروا من الباقيات الصالحات قيل : وماهن يارسول الله ؟ قال : « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »(٣) رواه النسائى والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٦ ـ عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : لقيت إبراهيم ليلة أسرى بى فقال : « يامحمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر » رواه الترمذى والطبرانى وزاد « ولا حول ولا قوة إلا بالله »(٤) .

ـ معنى (قيعان) جمع قاع أى أنها مستوية منبسطة واسعة .

٧ ـ وعند مسلم : أن النبى ﷺ قال : « أحب الكلام إلى الله أربع لايضرك بأيهن بدأت : سبحان الله ، والحمد لله ولا إله إلا الله ، والله أكبر »(٥) .

٨ ـ وعن أبى مسعود رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »(٥) رواه البخارى ومسلم .

أى ﴿ أجزأتاه عن قيام الليلة ﴾ وقيل كفتاه مايكون من الآفات تلك الليلة ، وقال ابن خزيمة فى صحيحه ، « باب ، ذكر أقل مايجزىء من القراءة فى قيام الليل » ثم ذكره .

٩ ـ وعن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال النبى : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة ؟

---

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٤ كتاب الذكر والدعاء فضل سبحان الله حديث رقم ٢٧٣١/٨٥ وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٦١ من رواية أبى ذر

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب آ ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ حديث رقم ٣٥٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح لانعرفه إلا من حديث أبى الزبير عن جابر .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ مسند أبى سعيد فقد ورد الحديث بلفظه مع اختلاف فى بعض ألفاظه . وانظر الحاكم « كتاب الدعاء » ج ١ ص ٥١٢ .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب آ ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ حديث رقم آ ٣٥٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الآداب » باب كراهة التسمية بالأسماء القبيحة ج ٢ ص ١٦٨٥ حديث ٢١٣٧/١٢ فقد ورد هذا الحديث عن سمرة بن جندب بلفظ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ـ والحمد لله ـ ولاإله إلا الله ـ والله أكبر لايضرك بأيهن بدأت ، ولا تسمين غلامك يسارا ، ولا رباحا .. الخ ..

(٦) انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة الخ ج ١ ص ٥٥٥ حديث ٢٥٦/ ٨٠٨ فقد ورد الحديث من رواية أبى مسعود الأنصارى .

فشق ذلك عليهم . وقالوا : أينا يطيق ذلك يارسول الله : ! فقال ﷺ . . الله الواحد الصمد ثلث القرآن »(١) رواه البخارى ومسلم والنسائى .

ـ معنى (الله الواحد الصمد) يقصد سورة الإخلاص .

١٠ ـ وعن أبى هريرة : أن رسول الله قال : « من قال لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، فى يوم مائة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به ، إلا أحد عمل أكثر من ذلك »(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وزاد مسلم والترمذى والنسائى ، ومن قال سبحان الله وبحمده ، فى يوم مائة مرة ، حطت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر(٣)

* فضل الاستغفار : ـ

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « ياابن آدم إنك مادعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ماكان منك ولا أبالى ، ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم إستغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، ياإبن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة »(٤) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن غريب .

وعن عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ، ورزقه من حيث لايحتسب »(٥) رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم وقال صحيح الإسناد .

ـ معنى (العنان) السحاب

ـ معنى (القراب) مايقارب ملأها .

* الذكر المضاعف وجوامعه : ـ

١ ـ عن جويرية رضى الله عنها أن النبى ـ ﷺ ـ خرج من عندها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١٢٢ فقد ورد الحديث عن أبى مسعود بلفظ أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة الله الواحد الصمد .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب فضل لاإله إلا الله . . ج ٢ ص ١٢٤٨ حديث ٣٧٩٨ فقد ورد الحديث بلفظه مع تقديم وتأخير وتغيير فى بعض ألفاظه .
وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨/ ٢٦٩١ عن رواية أبى هريرة فقد ورد الحديث بلفظه .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨/٢٦٩١ عن رواية أبى هريرة فقد ورد الحديث بلفظه وانظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » ج ٥ ص ١٧٤ حديث رقم ٣٥٣٣ من رواية أبى هريرة وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأنظر ص ١٧٥ حديث ٣٥٣٥

(٤) انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٠٨ « كتاب الدعوات » باب ١٠٦ حديث رقم ٣٦٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك ، وقال هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه

(٥) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب الاستغفار ج ٢ ص ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ حديث رقم ٣٨١٩ فقد ورد الحديث عن عبد الله ابن عباس بلفظه .

جالسة ، فقال : « مازلت على الحال التى فارقتك عليها ؟ قالت : نعم ، قال النبى :

لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته »(١) رواه مسلم وأبو داود .

٢ ـ ودخل رسول الله ـ ﷺ ـ على امرأة ، وبين يديها نوى أو حصى ، تسبح الله به فقال : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا ، أو أفضل فقال : « سبحان الله عدد ماخلق فى السماء ، وسبحان الله عدد ماخلق فى الأرض ، وسبحان الله عدد ماخلق بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك »(٢) . رواه أصحاب السنن والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

٣ ـ وعن ابن عمر ـ رضى الله عنهما : أن رسول الله ـ ﷺ ـ حدثهم أن عبدا من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها » فصعدا إلى السماء فقالا : ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لاندرى كيف نكتبها ؟ قال الله ـ عز وجل ـ وهو أعلم بما قال عبده ـ : ماذا قال عبدى ؟ قالا : يارب ، إنه قال :

يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله ـ عز وجل ـ لهما « اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها »(٣)

رواه أحمد وابن ماجه .

ـ معنى (فعضلت) اشتدت وعظمت .

* عد الذكر بالأصابع وأنه أفضل من السبحة : ـ

١ ـ عن يسيرة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « عليكن بالتسبيح ، والتهليل والتقديس ، ولا تغفلن فتنسين الرحمة ، واعقدن بالأنامل ، فإنهن مسئولات ، ومستنطقات »(٤)

---

(١) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٩٠ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب « التسبيح أول النهار وعند النوم حديث ٧٩/ ٢٧٢٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن جويرية

وانظر سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب « فضل التسبيح باب ٥٦ ج ٢ ص ١٢٥١ حديث رقم آ ٣٨٠٨ فقد ورد الحديث عن جويريه.

(٢) انظر سنن الترمذى « كتاب الدعوات » باب فى دعاء النبى ـ ﷺ ـ وتعوذه فى دبر كل صلاة ج ٥ ص ٢٢٢ ، ٢٢٣ حديث ٣٦٣٩ عن أبى سعد بن أبى وقاص فقد ورد الحديث بلفظه ، وقال : هذا حديث حسن غريب من حديث سعد .

(٣) انظر ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « فضل الحامدين » ج ٢ ص ١٢٤٩ حديث رقم آ ٣٨٠١ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمر

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٣٧٠/ ٣٧١ حديث بسيره فقد ورد الحديث بلفظه

(ن ٤ ك ، د ، حب) عن يسيرة

وإسناده حسن صحيح الألباني ١٣٩٦٦٠

رواه أصحاب السنن والحاكم بسند صحيح .

- معنى (مستنطقات) فى هذا دليل على أن التسبيح على الأصابع أفضل من السبحة وإن كان يجوز العد عليها .

٢ - وقال عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : رأيت رسول الله ﷺ يعقد التسبيح بيمينه »[١] . رواهما أصحاب السنن .

* الترهيب من أن يجلس الإنسان مجلسا لايذكر الله فيه ولايصلى على نبيه :

عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

« ماقعد قوم مقعدا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على النبى ﷺ إلا كان عليهم حسرة يوم القيامة » .

رواه الترمذى وقال : حسن ، ورواه أحمد بلفظ : ماجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه إلا كان عليهم تره ، ومامن رجل يمشى طريقا فلم يذكر الله تعالى إلا كان عليه تره ، ومامن رجل آوى إلى فراشه فلم يذكر الله عز وجل إلا كان عليه ترة .

وفى رواية إلا كان عليهم حسرة ، وإن دخلوا الجنة للثواب[٢]

---

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الصلاة » باب التسبيح بالحصى » ج ٢ ص ١٧٠/١٧١ حديث رقم ١٥٠٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر ، وقد أخرجه النسائى فى الافتتاح باب رقم ٢٩٤ عقد التسبيح حديث ١٣٥٦ والترمذى فى الدعوات باب عقد التسبيح باليد حديث آ ٣٤٨٢ وقال : (حسن غريب من هذا الوجه)

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب : ماجاء فى القوم يجلسون ولا يذكرون الله ج ٥ ص ١٢٩ باب ٨ حديث آ ٣٤٤٠ فقد ورد الحديث من أبى هريرة بلفظ « ماجلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم » وقال : هذا حديث حسن ، وقد روى عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - من غير وجه . انظر الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٤٩٦ كتاب الدعاء عن أبى هريرة .

- معنى الترة : الحسرة أو النقص ، أو التبعة .

وفى فتح العلام : الحديث دليل على وجوب الذكر والصلاة على النبى ﷺ فى المجلس لاسيما مع تفسير الترة : بالنار أو العذاب ، فقد فسرت بهما ، فإن التعذيب لا يكون إلا لترك واجب ، أو فعل محظور ، وظاهره أن الواجب هو الذكر والصلاة عليه ﷺ معا .

* ذكر كفارة المجلس :

١ - عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من جلس مجلسا فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لاإله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك ، إلا كفر الله له ماكان فى مجلسه ذلك »(١) .

- معنى (لغطه): من باب نفع : واللغط : كلام فيه جلبة واختلاط .
- معنى (كفر) ستر .

مايقوله من اغتاب أخاه المسلم : -

روى عن النبى ﷺ ، أنه قال : « إن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته ، تقول : اللهم اغفر لنا وله »(٢)

والمذهب المختار أن الاستغفار لمن اغتيب وذكر محامده يكفر الغيبة ولا يحتاج إلى إعلامه واستسماحه .

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٦ ص ٢٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة إلا أنه جاء فى آخر الحديث « إلا غفر الله له » بدلا من « إلا كفر الله له »

وانظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤٩٤ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة

وانظر كنز العمال ج ٩ ص ١٤٢ حديث رقم ٢٥٤١٨ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٧ ص ٥٥٨ فقد ورد الحديث عن أنس موقوفا بلفظ « إن من كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته تقول : « اللهم اغفر لنا وله » وهو ضعيف .

* مجادلة أهل الكتاب *

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ (٤٦) وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ (٤٨) بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ (٤٩) ﴾

معاني المفردات

(ولا تجادلوا) المجادلة المناقشة (يجحد) الجحد إنكار الشيء بعد معرفته (لارتاب) لشك (المبطلون) غير المحقين فيما ذهبوا إليه .

٦

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن بين الله - سبحانه وتعالى - أنه الواحد المعبود بحق وأن الذين اتخذوا من دونه أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وبعد أن بين لنا أنه يضرب الأمثال للناس وبعد أن أدبنا ووجهنا إلى الخلق القويم فأمرنا بإيقام الصلاة لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر . بعد ذلك علمنا أدب المجادلة مع أهل الكتاب وفى هذه الآيات شروع فى إرشاد أهل الكتاب ومعالجتهم ودعوتهم إلى الدين الحق دين الفطرة السليمة ، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى أتباع موسى وعيسى - عليهما السلام - ، وهم قوم يقولون بوجود الله واليوم الآخر والتصديق ببعض الكتب والأنبياء . هذه عقائدهم الأساسية ، وإن حاولوا طمسها فى بعض الأحيان والأحوال .

وهذه الآية تدعونا إلى البحث فى واجب المسلمين نحو دعوتهم ونشر دينهم ، وماذا يكون موقفهم أمام معارضيهم وأعدائهم .

والخلاصة : أن علينا نشر الدعوة لأنها دعوة عامة شاملة صالحة لكل زمان ومكان ﴿ **وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ** ﴾[1] .

ومن ندعوه إن قبل الإسلام فقد كفى الله المؤمنين القتال ، ومن حاربنا ووقف فى طريقنا وكم

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٩

أفواه دعاتنا حاربناه لاسيما مشركى العرب الذين بالغوا فى عداوة الإسلام ، ودعوتنا إلى الإسلام أولا تكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

لهذا لانعجب إن رأينا آيات فى القرآن تحثنا على الدعوة إلى الإسلام بالحسنى وآيات تأمرنا بالقتال وتحث عليه ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم .. الآية ﴾(١)

قوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾

فى هذا النص الكريم توجيه وارشاد لنا معشر المسلمين كما أن فيها حثا على مجادلة من أراد الاستبصار من أهل الكتاب بالحسنى كما قال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾(٢) وكما قال جل ذكره لموسى وهارون ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أى : حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم قال الله ـ عز وجل ـ ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾(٤) .

قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف ، قال مجاهد : ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعنى أهل الحرب ومن امتنع منهم من أداء الجزية .

وقوله تعالى : ﴿ وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ أى : إيمانا إجماليا بالذى لم يدخله التحريف أو التبديل وفى السنة المطهرة أحاديث ترشد إلى هذا الإيمان الإجمالى والمعنى :

إذا أخبروا بما لانعلم صدقه ولا كذبه فهذا لانقدم على تكذيبه لأنه قد يكون حقا ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلا ولكن نؤمن به إيمانا مجملا معلقا على شرط وهو أن يكون منزلا لا مبدلا ولا مؤولا . قال البخارى رحمه الله حدثنا محمد بن بشار حدثنا عثمان بن عمر أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : « كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام فقال رسول الله ﷺ « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وما أنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون »(٥) وهذا الحديث تفرد به البخارى وقال الإمام أحمد حدثنا عثمان بن عمرو وأخبرنا يونس عن الزهرى أخبرنى ابن أبى نملة أن أبا نملة الأنصارى أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود فقال يامحمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ .. « الله أعلم »

(١) سورة التوبة من الآية : ٥
(٢) سورة النحل الآية : ١٢٥
(٣) سورة طه الآيتان : ٤٣ ـ ٤٤
(٤) سورة الحديد الآية : ٢٥
(٥) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ١٣٦ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى : لاتسألوا أهل الكتاب عن شىء « من رواية أبى هريرة » .

قال عثمان بن عفان رضى الله عنه : « سابقنا أهل جهادنا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وظالمنا أهل بدونا ، لايشهدون جماعة ولا جمعة »

وقيل : الظالم : المقصر فى العمل بالقرآن ، والمقتصد العامل به فى أغلب الأوقات ، والسابق الذى يضم التعليم والإرشاد إلى العمل . وقال الحسن : الظالم : من خفت حسناته ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته . والسابق من رجحت حسناته على سيئاته . وقد اختلف فى هذه الأصناف على نيف وأربعين قولا ، ثم عقب سبحانه وتعالى الآيات المذكورة بقوله ـ سبحانه وتعالى : ﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾ والظاهر أن الضمير المرفوع فى (يدخلونها) عائد على الأصناف الثلاثة . وهو قول عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى الدرداء ، وعقبة بن عامر ، وأبى سعيد ، وعائشة ، ومحمد بن الحنفية ، وجعفر الصادق ، وغيرهم ـ رضى الله تعالى عنهم ـ .

وقال الزمخشرى : هو عائد على السابق فقط ، ولهذا جعل ذلك إشارة إلى (السبق) المفهوم من قوله : (سابق) ، قال : وفى اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم . والسكوت عن الآخرين مافيه من وجوب الحذر ، فليحذر المقتصد ، وليملك الظالم لنفسه حذرا ، وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ، ولا يغتر بما رواه عمر ـ رضى الله عنه ـ ، عن رسول الله ﷺ : « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له »(1) فإن شرط ذلك صحة التوبة ، لقوله تعالى : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾(2) وقوله تعالى : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾(3) ولقد نطق القرآن بذلك فى مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ، ولم يعلل نفسه بالخدع .

فإن قلت : ما الحكمة فى تأخير السابق وتأخير الظالم : أجيب : لئلا يعجب السابق ، وييأس الظالم من رحمته . ولما كان الظالم له ذلة ، والسابق له صولة ، يرفع تعالى ذلة الظالم بقوله : (لنفسه) وكسر صولة السابق بقوله : (بإذن الله) كأنه يقول : ياظالم ـ ارفع رأسك ، ظلمت ولكن على نفسك ياسابق ـ اخفض رأسك ، سبقت ولكن بإذن الله ـ تعالى ـ وفى قوله فى بقية الآية : ﴿ إن ربنا لغفور ﴾ إشارة إلى دخول الظالم لنفسه الجنة ، و﴿ شكورا ﴾(4) إشارة إلى (السابق) ، وأنه كثير الحسنات .

و (دار المقامة) هى الجنة ، لأنها دار مقامه لايرحل عنها .

وقوله تعالى قبل هذه الآية : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله ﴾(5) أى يقرأونه ويداومون على تلاوته ، وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير :

---

(1) انظر اتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٦٠٠ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث عمر أنظر كنز العمال ج ٢ ص ٤٨٥ من سورة فاطر ـ حديث رقم ٤٥٦١ ، ٤٥٦٣

(2) سورة التوبة من الآية : ١٠٢

(3) سورة التوبة من الآية : ١٠٦

(4) سورة فاطر من الآية : ٣٤

(5) سورة فاطر من الآية : ٢٩

هذه آية القراء ، والمراد : يتبعون كتاب الله فيعملون بما فيه . وقال الكلبي : يأخذون بما فيه . وقال السدي : هم أصحاب الرسول ﷺ . وقال عطاء : هم المؤمنون . ولما ذكر الله تعالى وصفهم بالخشية ، وهي عمل القلوب ، ذكر أنهم (يتلون كتاب الله) وهو عمل اللسان ، و (أقاموا الصلاة) وهي عمل الجوارح ، (وأنفقوا) ، وهو العمل المالي وقوله : ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ خبر إن ، أي : لن تكسد ، ولن يتعذر الربح فيها ، وهو إشارة إلى الإخلاص ، أي يفعلون تلك الأفعال من التلاوة وإقام الصلاة والإنفاق ، يقصدون بذلك وجه الله ، لا الرياء والسمعة . وقوله (ليوفيهم) متعلق بـ (يرجون) ، أو بـ (لن تبور) ، أو بمضمر تقديره : فعلوا ذلك . أقوال .

وقال الزمخشري : وإن شئت جعلت (يرجون) في موضع الحال ، أي : أنفقوا راجين ليوفيهم ، أي فعلوا جميع ذلك لهذا الغرض .

وخبر إن قوله : ﴿ إنه غفور رحيم ﴾ على معنى : غفور لهم ، شكور لأعمالهم ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ قيل : بتشفيعهم فيمن أحسن إليهم . قاله أبو وائل وفي الحديث . بتضعيف حسناتهم . وقيل : بالنظر إلى وجه الله الكريم .

وفي قوله : ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾[1] مع قوله : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ إشارة ؛ كأنه تعالى قال : إنا علمنا البواطن وأبصرنا الظواهر ، فاصطفينا عبادا ثم أورثناهم الكتاب .

وفي الصحيحين من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[2] وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله أهلين من الناس ، قالوا : من هم يارسول الله .. ؟ قال : أهل القرآن ، هم أهل الله وخاصته »[3] ، رواه النسائي والحاكم . أي حفظة القرآن ، العاملون به ، هم أولياء الله ، والمختصون به ، إختصاص أهل الإنسان به ، وليس من أهله من حفظ لفظه وضيع حدوده .

وسئل ذو النون المصري عن حملة القرآن ، فقال : هم الذين مطرت عليهم سحائب الأشجان ، ونصبوا ركبهم والأبدان ، وتسربلوا بالخوف والأحزان ، وشربوا بكأس اليقين ، وراضوا أنفسهم رياضة المتقين ، كحلوا أبصارهم بالسهر ، وغضوها عن النظر ، فقاموا ليلهم أرقا ، وتبادرت دموعهم فرقا ، حتى ضنيت منهم الأبدان ، وتغيرت منهم الأبدان ، صحبوا القرآن بأبدان ناحلة ، وشفاه ذابلة ، ودموع وابلة ، وزفرات قاتلة ، فحال بينهم وبين نعيم المتنعمين ، وشغلهم عن مطامع

---

(١) سورة فاطر الآية : ٣١

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٥٨ عن رواية عثمان بن عفان سطر ١٩ .
وانظر صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٣٦ باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه والحديث مروى عن عثمان بن عفان .
وانظر اتحاف السادة المتقين للعلامة الزبيدي ج ٤ ص ٤٦٤ قال العراقي رواه البخاري من حديث عثمان بن عفان .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ من رواية أنس .

الراغبين ، فاضت عبراتهم من وعيده ، وشابت ذوائبهم من تحذيره ، ﴿ أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾[١]

وعن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : (الم) حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[٢] رواه الترمذى وصححه . وروى السلفى فى البلدانيات عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا هريرة تعلم القرآن وعلمه الناس ، فإنك إن مت وأنت كذلك زارت الملائكة قبرك كما تزور البيت العتيق »[٣] .

وعن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ : « أبشروا إن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله . وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا »[٤] رواه : (الطبرانى فى الكبير) وعنه ﷺ : « كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض »[٥] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ﴾ هو كتاب الله ، وهذا من أبلغ الاستعارات ، وألطف الإشارات لما كان يتوصل بالحبل والسبب إلى نيل الأغراض استعير للقرآن الموصل إلى نيل السعادة الدنيوية والأخروية . وعن ابن مسعود قال :

قال رسول الله ﷺ « إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته مااستطعتم ، إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، نجاة لمن اتبعه ، لايزيغ فيستعتب، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، أتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته . كل حرف عشر حسنات ؛ أما إنى لاأقول : الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »[٦] ـ رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجرى ، عن أبى الأحوص عنه ، وقال : تفرد به صالح بن عمر عنه ، وهو صحيح .

وفى فتاوى ابن الصلاح قراءة القرآن كرامة أكرم الله بها البشر ، فقد ورد أن الملائكة لم يعطوا ذلك ، وأنها حريصة لذلك على استماعه من الإنس

(١) سورة الزمر الآية : ١٨

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين للعلامة الزبيدى ج ٤ ص ٤٦٥ من رواية ابن مسعود .
وانظر كنز العمال الباب السابع فى تلاوة القرآن وفضائله ج ١ ص ٥٣٤ رقم ٢٣٩٤ بلفظ عوف بن مالك
وانظر الترمذى فى أبواب فضائل القرآن باب ١٦ ماجاء فى من قرأ حرفا من القرآن ج ٤ ص ٢٤٨ برقم ٣٠٧٥ قال : حديث حسن صحيح غريب عن رواية عبد الله بن مسعود .

(٣) انظر اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ج ١ ص ١١٥ فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل لأبى هريرة :

(٤) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٢٢ ص ١٨٨ حديث رقم ٤٩١ رواية عن أبى شريح الخزاعى فيه زيادة فى أوله ولفظه : « أبشروا أليس تشهدون أن لاإله إلا الله وأنى رسول الله ، قالوا : بلى قال : « إن هذا القرآن .. الخ .

(٥) انظر كنز العمال ج ١ ص ١٨٨ حديث رقم ٩٥٦ برواية (ش وابن جرير عن أبى سعيد)

(٦) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب أخبار فى فضائل القرآن جملة .. ج ١ ص ٥٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق ، له أجران »[1] وفى روايه : « والذى يقرأ القرآن وهو يشتد عليه له أجران »[2] رواه البخارى ومسلم واللفظ له ، وأبو داود والترمذى وابن ماجة ، والسفرة : جمع سافر ، ككاتب وكتبة والسافر . الرسول والسفرة الرسل ؛ لأنهم يسفرون إلى الناس برسالات الله تعالى . وقيل : السفرة : الكتبة ، والبررة : المطيعون ؛ من البر : وهو الطاعة . والماهر : الحاذق الكامل الحفظ ، الذى لايتوقف ، ولا تشق عليه القراءة ، لجودة حفظه وإتقانه . قال القاضى عياض : يحتمل أن يكون معنى كونه مع الملائكة أن له فى الآخرة منازل يكون فيها رفيقا للملائكة السفرة ، لاتصافه بصفتهم ، من حمل كتاب الله تعالى . قال :

ويحتمل أن يراد أنه عامل بعملهم ، وسالك مسلكهم . وأما الذى يتعتع فيه فهو الذى يتردد فى تلاوته لضعف حفظه ، فله أجران . أجر القراءة ، وأجر تعبه ومشقته . فإن قلت : يلزم أن يكون المتعتع أفضل من الماهر ؛ من حيث إن له أجرين ، ولم يذكر للماهر أجرين ؟ أجيب : بأنه ﷺ قد ذكر لكل واحد فضيلة ، ليكون حثا له على القراءة ، فذكر للمتعتع أجرين ، وللماهر كونه مع السفرة ، والكون مع السفرة لايتقاعد على حصول الأجرين . وقال القاضى عياض : ليس معناه أن الذى يتعتع له من الأجر أكثر من الماهر به ، بل الماهر أفضل وأكثر أجرا ، فإنه مع السفرة ، وله أجور كثيرة ، وكيف يلتحق به من لم يعتن بكتاب الله ، وحفظه وإتقانه ، وكثرة تلاوته ودراسته ، كاعتنائه به حتى مهر فيه .

وفى الأصل التاسع من نوادر الأصول لأبى عبد الله الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأبى الدرداء . قالا : قال رسول الله ﷺ :

« إن بيوتات المؤمنين لمصابيح إلى العرش ، يعرفها مقربو السموات السبع ؛ يقولون : هذا النور من بيوتات المؤمنين التى تتلو فيها القرآن »[3] .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل الماهر بالقرآن .. الخ .. ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ فقد ورد الحديث برقم ٢٤٤/ ٧٩٨ برواية عن عائشة بلفظه

وانظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء فى فضل قارىء القرآن : ج ٤ ص ٣٤٤ حديث رقم ٣٠٦٨ فقد ورد الحديث عن عائشة غير أنه جاء فى آخره « والذى يقرأه ـ قال هشام ـ وهو شديد عليه وقال شعبة وهو عليه شاق له أجران » وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل الماهر بالقرآن ...الخ ج ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ فقد ورد الحديث برقم ٢٤٤/ ٧٩٨ بلفظه من رواية وكيع .

وانظر سنن الترمذى ـ أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء فى فضل قارىء القرآن ج ٤ ص ٣٤٤ لحديث عائشة .

(٣) انظر كنز العمال الباب السابع فى تلاوة القرآن وفضائله الاكمال من الفصل الأول ص ٥٥٤ برقم ٢٤٨١ بلفظ أبى هريرة وأبى الدرداء

وأنظر نوادر الأصول للحكيم الترمذى الأصل التاسع فى مرتبة روح المؤمن ص ١٦ فقد ورد هذا الحديث من رواية لأبى هريرة .

وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ القرآن فاستظهره ، فأحل حلاله ، وحرم حرامه ، أدخله الله الجنة وشفعه فى عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار »[١].

ورواه الترمذى وأبو عيسى . وقال حديث غريب ، وخرجه أبو داود ، وصححه الحاكم ، من حديث معاذ بن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس والده يوم القيامة تاجا من نور ، ضوءه أحسن من ضوء الشمس ، فى بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا »[٢] .

وروى الحاكم ، وقال صحيح على شرط مسلم ، من حديث بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ القرآن وتعلمه ، وعمل بما فيه ألبس يوم القيامة تاجا من نور ضوءه مثل ضوء الشمس ، ويكسى والديه حلتان ، لا يقوم بهما الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا ! ؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن »[٣]

وروى الترمذى وحسنه ، من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يجىء صاحب القرآن يوم القيامة ، فيقول القرآن : يارب ـ حله ، فيلبس تاج الكرامة ، ثم يقول يارب زده ، فيلبس حلة الكرامة ، ثم يقول : يارب ارض عنه فيقال : إقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة »[٤] وروى الترمذى أيضا ، وصححه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ أنه قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ ، وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها »[٥] .

قال الخطابى فيما نقله عن الحافظ عبد العظيم المنذرى وغيره : جاء فى الأثر « أن عدد آى القرآن على قدر درج الجنة ، فيقال للقارىء : إرق فى الدرج على قدر ماكنت تقرأ من آى القرآن ، فمن استوفى قراءة جميع القرآن استولى على أقصى درجة الجنة فى الآخرة ، ومن قرأ جزءا منه كان رقيه فى الدرج على قدر ذلك . فيكون منتهى الثواب عند منتهى القراءة .

قوله تعالى : ﴿ ومايجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أى مايكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطى ضوء الشمس بالوصائل وهيهات ، ثم قال تعالى : ﴿ وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ أى : قد لبثت فى قومك يامحمد من قبل أن تأتى بهذا القرآن عمرا لاتقرأ كتابا ولا تحسن الكتابة بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمى لاتقرأ ولا تكتب وهكذا صفته

---

(١) انظر سنن الترمذى أبواب فضائل القرآن ، باب ماجاء فى فضل قارىء القرآن ج ٤ ص ٢٤٥ حديث رقم ٣٠٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن على بن أبى طالب ـ وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه

(٢) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب « ذكر فضائل وآى متفرقة ج ١ ص ٥٦٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه » وقال هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٣) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب ذكر فضائل وآى متفرقة ج ١ ص ٥٦٧/٥٦٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن بريدة الأسلمى عن أبيه : وقال هذا الحديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن » باب ماجاء فى من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر ج ٤ ص ٢٤٨ حديث رقم آ ٣٠٧٦ فقد ورد الحديث برواية عن أبى هريرة .

(٥) انظر سنن الترمذى « أبواب فضائل القرآن : باب ١٨ ج ٤ ص ٢٥٠ حديث رقم ٣٠٨١ فقد ورد الحديث بروايته عن عبد الله بن عمرو .

فى الكتب المتقدمة كما قال تعالى :
﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾(١) الآية .

وهكذا كان رسول الله ﷺ دائما إلى يوم القيامة لايحسن الكتابة ، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده بل كان له كتاب يكتبون بين يده الوحى والرسائل إلى الأقاليم . ومن زعم من متأخرى الفقهاء كالقاضى أبى الوليد الباجى ومن تابعه أنه ـ عليه السلام ـ كتب يوم الحديبية : هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله . فإنما حمله على ذلك رواية فى صحيح البخارى : ثم أخذ فكتب . وهذه محمولة على الرواية الأخرى : ثم أمر فكتب . ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجى وتبرأوا منه وأنشدوا فى ذلك أقوالا وخطبوا به فى محافلهم : وإنما أراد الرجل ـ أعنى الباجى ـ فيما يظهر عنه أنه كتب ذلك على وجه المعجزة لا أنه كان يحسن الكتابة كما قال ﷺ إخبارا عن الدجال : « مكتوب بين عينيه كافر » .

وفى رواية : « ك ف ر ، يقرؤها كل مؤمن » وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلم الكتابة فضعيف لا أصل له ، قال الله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو ﴾ أى تقرأ ﴿ من قبله من كتاب ﴾ لتأكيد النفى ولا تخطه بيمينك تأكيدا أيضا وخرج مخرج الغالب كقوله تعالى : ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ إذا لارتاب المبطلون ﴾ أى لو كنت تحسنها لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول إنما تعلم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء مع أنهم قالوا هذا مع علمهم بأنه أمى لا يحسن الكتابة ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾(٢)

قال الله تعالى : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض ﴾(٣) الآية وقال ههنا : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أى هذا القرآن آيات بينة واضحة فى الدلالة على الحق أمرا ونهيا وخبرا يحفظه العلماء يسره الله عليهم حفظا وتلاوة وتفسيرا كما قال تعالى : ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾(٤) وقال رسول الله ﷺ : « ما من نبى إلا وقد أعطى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا »(٥) .

وفى حديث عياض بن حماد فى صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إنى مبتليك ومبتل بك ومنزل عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان »(٦) أى لو غسل الماء المحل المكتوب فيه لما احتيج إلى ذلك

---

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٥٧
(٢) سورة الفرقان آية : ٥
(٣) سورة الفرقان من الآية : ٦
(٤) سورة القمر الآية : ١٧
(٥) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٥١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى هريرة وانظر صحيح البخارى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى ﷺ بعثت بجوامع الكلم ج ٩ ص ١١٣ برواية لأبى هريرة .
(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار ج ٤ ص ٢١٩٧ حديث رقم ٦٣/٢٨٦٥ فقد ورد حديث طويل عن عياض ورد فيه الحديث كجزء منه مع اختلاف فى بعض الألفاظ

المحل لأنه قد جاء فى الحديث الآخر: «لو كان القرآن فى إهاب لما أحرقته النار»[1] ولأنه محفوظ فى الصدور ميسر على الألسنة مهيمن على القلوب معجز لفظا ومعنى ولهذا جاء فى الكتب المتقدمة فى صفة هذه الأمة أنا جيلهم فى صدورهم، واختار ابن جرير أن المعنى فى قوله تعالى: ﴿بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم﴾ بل العلم بأنك ماكنت تتلو من قبل هذا الكتاب كتابا ولا تخطه بيمينك آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب، ونقله عن قتادة وابن جريج وحكى الأول عن الحسن البصرى فقط قلت: وهو الذى رواه العوفى عن ابن عباس ونقله الضحاك وهو الأظهر والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون﴾

أى: مايكذب بها ويبخس حقها ويردها إلا الظالمون أى: المعتدون المكابرون الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه كما قال تعالى: ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾[2].

* ذكر بعض الشبه والرد عليها *

قوله تعالى: وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

معانى المفردات

(شهيدا) يشهد بصدقى (أجل مسمى) معلوم محدد (بغتة) فجأة (يغشاهم) يصيبهم.

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ١٥٤/ ١٥٥ فقد ورد الحديث عن عقبة مع اختلاف فى بعض ألفاظه.

(٢) سورة يونس الآيتان: ٩٦- ٩٧

* المناسبة وإجمال المعنى *

بعد أن ذكر الدليل على أن القرآن من عند الله وليس بمفترى من عند محمد ﷺ أردف هذا شبهة أخرى لهم ، وهى أنهم طلبوا من النبى ﷺ أن يأتى لهم بمعجزة محسوسة كما أتى بذلك الأنبياء السابقون كناقة صالح وعصا موسى ، فأجابهم بأن أمر ذلك . إلى الله لا إليه ، فلو علم أنكم تهتدون بها لأجابكم إلى ماطلبتم ، ثم بين سخف عقولهم وطلبهم الآيات الدالة على صدقه بعد أن جاءهم بالمعجزة الباقية على وجه الدهر وهى القرآن يتلى عليهم آناء الليل وأطراف النهار ، فيه خبر من قبلهم ونبأ من بعدهم وحكم مابينهم ، وفيه بيان الحق ودحض الباطل وفيه ذكرى حلول العقاب بالمكذبين والعاصين .

ثم أبان أن الله شهيد على صدقه وهو العليم بما فى السموات والأرض .

ثم هدد الكافرين بأن كل من يكذب رسل الله بعد قيام الأدلة على صدقهم ، ويؤمن بالجبت والطاغوت فقد خسرت صفقته ، وسينال العقاب من ربه جزاء وفاقا على جحوده وإنكاره .

أخرج الدارمى وأبو داود عن يحيى بن جعدة قال : جاء ناس من المسلمين بكتب قد كتبوها فيها بعض ماسمعوه من اليهود ، فقال النبى ﷺ - « كفى بقوم حمقا أو ضلالة أن يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ماجاء به غيره إلى غيرهم »[1] فنزلت : ﴿ أو لم يكفهم ﴾ الآية وأخرج البخارى عند تفسير الآيات قوله ﷺ ليس منا من لم يتغن بالقرآن »[2] أى يستغنى به عن غيره . وعن عبد الله بن الحارث الأنصارى قال : دخل عمر بن الخطاب على النبى ﷺ بكتاب فيه مواضع من التوراة فقال هذه أصبتها مع رجل من أهل الكتاب أعرضها عليك . فتغير وجه رسول الله ﷺ تغيرا شديدا لم أر مثله فقط . فقال عبد الله بن الحارث لعمر : أما ترى وجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر : رضينا بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، فسرى عن رسول الله ﷺ وقال : لو نزل موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم ، أنا حظكم من النبيين ، وأنتم حظى من الأمم »[3] أخرجه عبد الرازق .

وبعد أن أنذر المشركين بالعذاب ، وهددهم أعظم تهديد قالوا له تهكما واستهزاء : إن كان هذا حقا فأتنا به ، وهم يقطعون بعدم حصوله ، فأجابهم بأنه لايأتيكم بسؤالكم ولا يعجل باستعجالكم لأن الله أجله لحكمة ، ولولا ذلك الأجل المسمى الذى اقتضته حكمته ، وارتضته رحمته ، لعجله لكم ولأوقعه بكم ، وإنه ليأتينكم فجأة وأنتم لاتشعرون به ، ثم تعجب منهم فى طلبهم الاستعجال وهو سيحيط بهم فى جميع نواحيهم ، ويقال لهم على طريق الإهانة والتوبيخ : ذوقوا جزاء ماكنتم تعملون .

---

(١) انظر تفسير القرطبى « سورة العنكبوت » عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ ج ١٣ ص ٣٥٥ فقد ورد الحديث عن يحيى بن جعدة مع اختلاف فى بعض ألفاظه

(٢) انظر الحاكم « كتاب فضائل القرآن » باب ذكر فضائل سور متفرقة ج ١ ص ٥٧٠ فقد جاء الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) انظر كنز العمال الباب الثانى فى الاعتصام بالكتاب والسنة ج ١ ص ١٨٣ حديث رقم ٩٢٧ من رواية لعبد الله بن الحارث فقد ورد الحديث بلفظه .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾ يقصدون الآيات هنا المعجزات التى جاء بها الرسل من قبل كناقة صالح وعصا موسى فقال لهم الله - تبارك وتعالى - إنما الآيات عند الله فلو علم سبحانه أنكم ستهتدون بتلك الآيات لأجراها على يدى حبيبه ومصطفاه لكنكم إنما تطلبون ذلك عنادا وكبرا .

قال تعالى : ﴿ ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾[1]

وقال جل شأنه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[2]

وقال عزت حكمته :

﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر . وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر . وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر . حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾[3] .

لقد اقترحوا على رسول الله ﷺ آيات كثيرة ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا ﴾[4]

هذا هو الرد الحاسم فالرسول البشر والبشر الرسول لايملك الآيات إنما الذى يملكها هو خالق القوى والقدر لذا جاء الرد فى سورة العنكبوت ﴿ قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ﴾

ثم قال تعالى بعد ذلك :

﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾

قال ﷺ : « كفى بقوم ضلالة ان يرغبوا عما جاء به نبيهم إليهم إلى ماجاء به غيره إلى غيرهم »[5]

ثم تلا قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾

ولما قال الفاروق عمر - رضى الله عنه - يارسول الله ، إنا نسمع من اليهود أحاديث تعجبنا أفنكتب بعضها ؟ قال له الرسول الكريم « أمتهوكون أنتم ؟ أى أمتحيرون - كما تهوكت اليهود

---

(١) سورة الحجر الآيتان : ١٤ ، ١٥
(٢) سورة يونس الآيتان : ٩٦ - ٩٧
(٣) سورة القمر الآيات : ١ - ٥
(٤) سورة الإسراء الآيات : ٩٠ - ٩٣
(٥) انظر فتح البارى للعسقلانى « كتاب فضائل القرآن » ج ٩ ص ٦٨ باب من لم يتغن بالقرآن .

والنصارى- لقد جئتكم بها بيضاء نقية ولو كان أخى موسى حيا ماوسعه إلا اتباعى »[١] .

وفى قوله تعالى : ﴿ أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ إخبار منه تعالى عن إنزال الكتاب العظيم الذى فيه خبر ماقبلهم ونبأ مابعدهم وحكم مابينهم أو لم يكفهم ذلك آية وأنت رجل أمى لاتقرأ ولا تكتب ولم تخالط أحدا من أهل الكتاب فجئتهم بأخبار مافى الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح المبين الجلى كما قال تعالى :

﴿ أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ﴾[٢]

وقال تعالى : ﴿ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أو لم تأتهم بينة مافى الصحف الأولى ﴾[٣]

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة- رضى الله عنه- قال :

قال رسول الله ﷺ « ما من الأنبياء من نبى إلا قد أعطى من الآيات مامثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة »[٤]

وفى هذا الكتاب رحمة وشفاء ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ [٥]

كما أن فيه ذكرى وموعظة لقوم يؤمنون وفيه من الفضائل مالا يحصى ومن المحاسن ما لا يستقصى وإذا تقرر هذا فاعلم أن القرآن هو كلام الله تعالى القائم بذاته غير مخلوق ولا حال فى المصاحف ولا فى القلوب والألسنة والآذان بل معنى قديم قائم بذات الله تعالى مكتوب فى مصاحفنا بنقوش وصور وأشكال موضوعة للحروف الدالة عليه قال الله تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ﴾[٦] مقروء بألسنتنا بحروفه المنظومة المسموعة قال عليه الصلاة والسلام لايقرأ القرآن حائض ولا جنب ، مسموع بآذاننا قال تعالى ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾[٧]

محفوظ فى صدورنا بالألفاظ المخيلة

قال تعالى : ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾

وهذا كما يقال :

النار جوهر محرق يذكر باللفظ ويكتب بالقلم ولا يلزم منه كون حقيقة النار صوتا وحرفا .

وتحقيقه أن للشىء وجودا فى الأعيان ووجودا فى الأذهان ووجودا فى العبارة ووجودا فى الكتابة فالكتابة تدل على العبارة وهى على مافى الأذهان وهو على مافى الاعيان فحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم القديم كما فى قولنا :

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٣٨٧ فقد ورد الحديث عن عمر بن الخطاب وفيه اختلاف فى بعض الفاظه .
وانظر كنز العمال ج ١ ص ٢٠٠ حديث رقم ١٠٠٩ عن ابن عباس مع اختلاف فى بعض الفاظه .

(٢) سورة الشعراء آية : ١٩٧

(٣) سورة طه الآية : ١٣٣

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٥١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٥) سورة الإسراء من الآية : ٨٢

(٦) سورة الواقعة الأيتان : ٧٧ - ٧٨

(٧) سورة التوبة من الآية : ٦

القرآن غير مخلوق فالمراد حقيقته الموجودة فى الخارج وحيث يوصف القرآن بما هو من لوازم المخلوقات والمحدثات يراد به الألفاظ المنطوقة المسموعة (كما فى قولنا قرأت نصف القرآن) أو المخيلة (كما فى قولنا حفظت القرآن) أو الاشكال المنقوشة (كما فى قولنا يحرم على المحدث مس القرآن)

قوله تعالى : ﴿ قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا ﴾

أى : هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ويعلم ماأقول لكم من إخبارى عنه بأنه أرسلنى فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى كما قال تعالى :

﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾(١)

وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ولهذا أيدنى بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات

﴿ يعلم مافى السماوات والأرض ﴾ أى لاتخفى عليه خافية .

﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾

أى : يوم القيامة سيجزيهم على مافعلوا ويقابلهم على ماصنعوا فى تكذيبهم بالحق واتباعهم الباطل كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم .

قوله تعالى :

﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لايشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت ارجلهم ويقول ذوقوا ماكنتم تعملون ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن جهل المشركين فى استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم وبأس الله أن يحل عليهم كما قال تعالى : ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾(٢)

وقال ههنا : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾

أى : لولا ماحكم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب سريعا كما استعجلوه ثم قال ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ أى : فجأة ﴿ وهم لايشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾

أى يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لامحاله قال شعبة ، عن سماك ، عن عكرمة ، قال فى قوله : ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ قال ابن عباس ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ وجهنم هو هذا البحر الأخضر تنتثر الكواكب فيه وتكور فيه الشمس والقمر ثم يوقد فيكون هو جهنم .

---

(١) سورة الحاقة الآيات : ٤٤ - ٤٧

(٢) سورة الأنفال الآية : ٣٢

ثم قال ـ عز وجل : ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ لو يعلم الذين كفروا حين لايكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ﴾[٣] الآية :

فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ فى العذاب الحسى . وقال تعالى : وتقول ذوقوا ماكنتم تعملون ﴾ تهديد وتقريع وتوبيخ وهذا عذاب معنوى على النفوس كقوله تعالى : ﴿ يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر . إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لاتبصرون . اصلوها فاصبروا أو لاتصبروا سواء عليكم إنما تجزون ماكنتم تعملون ﴾[٥]

قوله تعالى ﴿ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ
ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ
ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ
رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ
﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ
وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾

معانى المفردات

لنبوئنهم : لننزلهم ، غرفا : الغرف جمع غرفة وهى الحجرة (وكأين) أى كم بمعنى كثير ، من

(١) سورة الأعراف من الآية : ٤١
(٢) سورة الزمر من الآية : ١٦
(٣) سورة الأنبياء من الآية : ٣٩
(٤) سورة القمر الآيتان : ٤٨ ، ٤٩
(٥) سورة الطور الآيات : ١٣ ـ ١٦

الدواب ، دابة : كل ما دب على وجه الأرض من الحيوان يقال له دابة . يؤفكون : يصرفون ، يقدر له : يضيق عليه مثل يقتر عليه رزقه ، لهو : اللهو الاشتغال بما لايعنى ، ومالا ينفع عن النافع المفيد ، وفى المصباح ، اللهو الترويح عن النفس بما لا تقتضيه الحكمة ، واللعب : هو العبث . الحيوان : الحياة الدائمة الخالدة .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال المشركين ، وأنذرهم بالخسران ، وجعلهم من أهل النار - اشتد عنادهم للمؤمنين وكثر أذاهم لهم ومنعوهم من العبادة فأمرهم الله بالهجرة إلى دار أخرى إن تعذرت عليهم العبادة فى ديارهم . ولما كانت مفارقة الأوطان عزيزة على النفس كريهة لديها ، بين لهم أن المكروه واقع لامحالة إن لم يكن بالهجرة فهو حاصل بالموت ، فأولى بكم أن يكون ذلك فى سبيل الله لتنالوا جزاءه ومرجعكم إلى ربكم ، وحينئذ تنالون من النعيم المقيم مالا عين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ، فهنالك الغرف التى تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم هذا الأجر جزاء للعاملين الصابرين المتوكلين على ربهم ، الذين يعلمون أن الله قد تكفل بأرزاقهم ، كما تكفل بأرزاق جميع مخلوقاته ، وهو السميع لدعائهم العليم بحاجتهم .

روى أن الآية نزلت فى قوم تخلفوا عن الهجرة ، وقالوا : نخشى إن نحن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة .

وبعد ما بين للمشركين وذكر لهم مغبة أعمالهم - خاطب المؤمنين بما فيه مدكر لهم ، وإرشاد للمشرك لو تأمله وفكر فيه ، ومثل هذا مثل الوالد له ولدان : احدهما رشيد والآخر مفسد ، فهو ينصح المفسد أولا ، فإن لم يسمع يعرض عنه ، ويلتفت إلى الرشيد قائلا : إن هذا لايستحق أن يخاطب ، فاسمع أنت ولاتكن كهذا المفسد ، فيكون فى هذا نصيحة للمصلح ، وزجرا للمفسد ، ودعوة له إلى سبيل الرشاد .

التفسير

قوله تعالى ﴿ يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون ﴾ هذا خطاب تشريف وتكريم للمؤمنين حيث أضافهم الله تعالى إلى ذاته وخاطبهم بطريق النداء وبشرهم بأن أرضه واسعة ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾[1] وأمرهم بعبادته وحده فكل الوجود ملكه ، وكل قضاء له حكمته وكل الكائنات طوع إرادته ﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[2] .

---

(١) الآية ١١٤ من سورة البقرة
(٢) من الآية ١٥ من سورة الملك

أخرج الامام أحمد فى مسنده عن الزبير بن العوام قال . قال رسول الله ﷺ (البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله فحيثما أصبت خيرا فأقم) ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين هناك النجاشى ملك الحبشة رحمه الله تعالى فآواهم وأيدهم بنصره وجعلهم أصحاب كرامة ببلاده ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية(١) .

وعلى هذا فإن المؤمن إذا ضاقت به أرض بلاده فعليه أن يضرب فى عرصات الأرض فإن الله تعالى جاعل له فرجا ومخرجا ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾(٢) .

إذا أنت لم تكرم بأرضك فارتحل　　فلا خير فى أرض مهان كريمها

وقال آخر

إن الفلا حدثتنى وهى صادقة　　فيما تحدث أن العز فى النقل

وقال الشافعى رضى الله عنه :

ما فى المقام لذى عقل وذى أدب　　من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه　　وانصب فإن لذيذ العيش فى النصب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده　　ان سال طاب وان لم يجر لم يطب
الأسد لولا فراق الغاب مافترست　　والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت فى الفلك دائمة　　لملها الناس من عجم ومن عرب
والتبر كالترب ملقى فى أماكنه　　والعود فى أرضه نوع من الحطب
فإن تغرب هذا عز مطلبه　　وان تغرب ذاك عز كالذهب

ثم تأتى الحقيقة التى لاريب فيها ولاتقبل المساومة ولا أنصاف الحلول إنها حقيقة الموت حيث يقول تعالى :

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾(٣) فلا عجب أن تجد قضايا الموت كلها موجبة كلية أى قد سورت بسور كلى لم يسبقه نفى قال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾(٤) .

وقال عظمت حكمته : ﴿ ولاتدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾(٥) .

وقال جلت قدرته : ﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾(٦) ولو كتب

---

(١) الحديث اخرجه الامام أحمد فى مسنده ١/ ١٦٦
(٢) الآية ٤١ من سورة النحل
(٣) من الآية ٥٧ من سورة العنكبوت
(٤) من الآية ١٨٥ من سورة آل عمران
(٥) الآية رقم ٨٨ من سورة القصص
(٦) الآيتان ٢٦ ، ٢٧ من سورة الرحمن

الخلود لاحد لكان لرسول الله صلوات ربى وسلامه عليه ولكنه تعالى أخبره بمصيره المحتوم حيث قال له ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾(١) وقال له ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين مت فهم الخالدون ﴾(٢) ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾(٣) (ولقد نام رسول الله ﷺ على فراش الموت وكان يمسح وجهه الشريف بماء بارد ويقول اللهم هون على سكرات الموت . سبحان الله أن للموت سكرات وقال له جبريل : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت واعمل ما شئت فإنك مجزى به وأحبب من شئت فإنك مفارقه واعلم بأن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس)(٤) . ولما علم المسلمون بموت رسول الله ﷺ غشيتهم غاشية حتى وقف عمر كالأسد الرأبال وقد ديس عرينه يوعد ويهدد : من قال إن محمدا قد مات ضربته بسيفى هذا . لقد ذهب إلى ربه وسيعود كما عاد موسى لولا أن قيض الله لهذا الموقف رجل الساعة الصديق رضى الله عنه وكان غائبا ساعة الوفاة فدخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فكشف الغطاء عن الوجه الشريف وقبله وقال له: طبت حيا وميتا يا رسول الله . أما الموت الذى كتب عليك فقد ذقته ولن تذوق الموت بعد ذلك أبدا ، ثم خرج على الناس بهذا البيان الحاسم الجازم ايها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت ثم تلا قوله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ﴾(٥) ونزلت هذه الآية على قلب عمر كما تتنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى نزلت بردا وسلاما حتى قال عمر لكأنى لم أسمعها إلا الآن يا أبا بكر وهكذا ودع رسول الله دنيانا هذه إلى الرفيق الأعلى حيث النعيم المقيم والخلود ، والروح والريحان قال الله تعالى ﴿ ثم إلينا ترجعون ﴾(٦) وقال ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٧) وقال ﴿ أن اشكر لى ولوالديك الى المصير ﴾(٨) وقال تعالى ﴿ إنا إلينا إيابهم ثم إنا علينا حسابهم ﴾(٩).

تزود من حياتك للمعاد ... وقم لله واجمع خير زاد
ولاتركن الى الدنيا كثيرا ... فإن المال يجمع للنفاد
اترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد

ثم بين الله تعالى مصير المؤمنين المتقين فقال سبحانه ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(١٠).

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الزمر
(٢) الآية ٣٤ من سورة الانبياء
(٣) الآية ٣٥ من سورة الانبياء
(٤) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الجنائز حديث ١٦٢٣
(٥) الآية ١٤٤ من سورة آل عمران
(٦) من الآية ٥٧ من سورة فاطر
(٧) من الآية رقم ١٥ من سورة لقمان
(٨) من الآية رقم ١٤ من سورة لقمان
(٩) الآيتان ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية
(١٠) الآية رقم ٥٨ من سورة العنكبوت

(روى ابن ابى حاتم بسنده عن أبى مالك الأشعرى حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام وقام بالليل والناس نيام)[1].

﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾[2] المخصوص بالمدح هنا الجنة .

لاتركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

وقد وصف الله هؤلاء المؤمنين الذين بوأهم من الجنة غرفا وانزلهم بها منازل السعداء وصفهم بالصبر والتوكل فالصبر مقاومة النفس الهوى لئلا تنقاد إلى القبائح أو هو حبس النفس على طاعة الله تعالى ، أو هو ثبات باعث الدين فى مقابل باعث الشهوات .

قال صاحب البردة :

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... وان هما محضاك النصح فاتهم
ولاتطع منهما خصما ولا حكما ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم
فالنفس كالطفل ان تهمله شب على ... حب الرضاع وان تفطمه ينفطم
كم زينت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدر ان السم فى الدسم

والتوكل على الله هو الأخذ بالأسباب وتفويض العواقب إلى مولانا سبحانه وتعالى مع الاعتقاد بأن الله مالك الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : (عرضت على الأمم فرأيت النبى ومعه الرهيط ، والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى ليس معه أحد إذ رفع لى سواد عظيم فظننت أنهم أمتى فقيل لى : هذا موسى وقومه ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لى : هذه أمتك ومعهم سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ولاعذاب ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب فقال بعضهم : فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم فلعلهم الذين ولدوا فى الاسلام فلم يشركوا بالله ـ وذكروا أشياء ـ فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال « ما الذى تخوضون فيه ؟ » فأخبروه فقال : هم الذين لايرقون ، ولايسترقون ، ولايتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة بن محصن فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم فقال :

---

(١) الحديث أخرجه ابن أبى حاتم عن أبى مالك الأشعرى مرفوعا
(٢) الآيات ارقام ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ من سورة آل عمران

« أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ادع الله ان يجعلنى منهم فقال : سبقك بها عكاشة)[١] متفق عليه . « الرهيط » تصغير رهط وهم دون عشرة أنفس : والأفق : الجانب ، وعكاشة بضم العين وتشديد الكاف صحابى .

وروى البخارى عن ابن عباس أيضا قال : كان آخر قول ابراهيم ﷺ حين ألقى فى النار : حسبى الله ونعم الوكيل[٢] .

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من قال ـ يعنى اذا خرج من بيته ، بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يقال له : هديت وكفيت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان)[٣] رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

وقد قرن الله تعالى التوكل بالرزق لما بينهما من كمال الاتصال .

عن عمر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا)[٤] رواه الترمذى . ومعناه . تذهب أول النهار خماصا ، أى ضامرة البطون من الجوع ، وترجع آخر النهار بطانا : أى ممتلئة البطون .

وروى عنه ﷺ (ان روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب)[٥] .

قوله تعالى ﴿ وكأين من دابة لاتحمل رزقها ﴾[٦] أى لاتطيق جمعه وتحصيله ولاتدخر شيئا لغد ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أى الله يقيض لها رزقها على ضعفها وييسره عليها فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر فى قرار الأرض ، والطير فى الهواء ، والحيتان فى الماء قال تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[٧] وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لى « يا ابن عمر مالك لاتأكل ؟ » قال قلت لاأشتهيه يا رسول الله قال لكنى اشتهيه وهذا صبح رابعة منذ لم أذق طعاما ولم أجده ولو شئت لدعوت ربى فأعطانى مثل ملك كسرى وقيصر فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت فى قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟[٨] قال فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾[٩]

---

(١) الحديث أخرجه الامام أحمد ١/ ٢٧١ والبخارى فى كتاب الطب باب ٤٢ ح ٧ ص ٢٥ ، ومسلم فى كتاب الايمان ح ١ ص ٧٩

(٢) الحديث اورده ابن كثير فى تفسير الآية ١٧٣ من سورة آل عمران

(٣) الحديث فى اتحاف السادة المتقين ٤/ ٣٢٦ ، القرطبى ١٠/ ٤٠٧ ، كنز العمال ٤١٥٣٦ والحديث أخرجه أبو داود فى سننه فى كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته حديث ٥٠٩٥ ج ٥ ص ٣٢٨ ، والترمذى فى الدعوات حديث ٣٩٢٢ ، ونسبه المنذرى الى النسائى .

(٤) الحديث : أخرجه الترمذى حديث ٢٣٤٤ ، ابن ماجه فى كتاب الزهد حديث ٤٨٦٤ واحمد ١/ ٥٢

(٥) الحديث اخرجه الترمذى فى كتاب الصيد باب ٩

(٦) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

(٧) من الآية ٦ من سورة هود

(٨) الحديث فى تفسير القرطبى ١٣/٥ ٣٥٩ ، اتحاف ٩/ ٢٤٥ ، والدر المنثور ٥/ ١٤٥

(٩) الآية ٦٠ من سورة العنكبوت

فقال رسول الله ﷺ (إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات فمن كنز دنياه يريد بها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز دينارا ولادرهما ولاأخبيء رزقا لغد) وقد ذكروا أن الغراب إذا فقس عن فراخه البيض خرجوا وهم بيض فإذا رآهم أبواهم كذلك نفرا عنهم أياما حتى يسود الريش فيظل الفرخ فاتحا فاه يتفقد أبويه فيقيض الله تعالى طيرا صغارا كالبرغش فيغشاه فيتقوت به تلك الأيام حتى يسود ريشه والأبوان يتفقدانه كل وقت فكلما رأوه أبيض الريش نفرا عنه فإذا رأوه قد اسود ريشه عطفا عليه بالحضانة ولهذا قال الشاعر :

يا رازق النعاب في عشه وجابر العظم الكسير الخافض

وقال البيهقي بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : (سافروا تصحوا وتغنموا) وفي رواية لأحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ (سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا واغزوا تغنموا)[1] وفي لفظ (سافروا مع ذوي الجد والميسرة) وقوله تعالى ﴿ وهو السميع العليم ﴾[2] اي السميع لأقوال عباده العليم بحركاتهم وسكناتهم .

قالوا للحسن رضي الله عنه ما سر زهدك في الدنيا يا تقي الدين قال : علمت أن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي ، وعلمت ان عملي لن يقوم به سواي فاشتغلت به ، وعلمت ان الله مطلع على فاستحييت أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعدت الزاد للقاء الله .

إن لله عبادا فطنا طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحي وطنا
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون . الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم ، ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعقلون ﴾[3] .

إن الذين أقروا بأن الله هو الذي خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر وبأنه المالك المتصرف والرزاق أقروا بذلك ولكنهم اشركوا في عبادته ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال . فأنى تصرفون ﴾[4] .

فيا من آمنتم بالله ربا لم اشركتم به معبودا ﴿ فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ﴾[5] ثم يقول تعالى مخبرا عن أنه الباسط القابض الرافع الخافض الذي بيده

---

(١) الحديث اخرجه البيهقي في السنن الكبرى واحمد ٢ / ٣٨٠
(٢) من الآية ٦٠ من سورة العنكبوت
(٣) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ من سورة العنكبوت
(٤) الآيتان ٣١ ، ٣٢ من سورة يونس
(٥) من الآية ١١٠ من سورة الكهف

مقاليد الأمور والذى قدر الأرزاق على عباده فيقول سبحانه ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾[١] فالبسط والقبض فى الرزق ليس عبثا إنما لحكمة علمها الله تعالى ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[٢] وقضية الرزق قضية تتعلق بالعقيدة فلو ركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فم ابن آدم .

لاتعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الانسان من عجل

لذا أقسم المولى سبحانه وتعالى فقال ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾[٣] ﴿ فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[٤] .

كما ألقى باللائمة على الذين يظنون ان كثرة الأولاد تضيع الرزق وتضيقه فقال فى سورة الأنعام ﴿ ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[٥] وقال فى سورة الإسراء ﴿ ولاتقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[٦] .

للأمر أمرى ولا التدبير تدبيرى ... ولا الشئون التى تجرى بتقديرى
لى خالق رازق ما شاء يفعل بى ... أحاط بى علمه من قبل تصويرى

قوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقــولن الله قل الحمد بل اكثرهم لايعقلون ﴾ [٧]

وهذه آية أخرى من آيات الله التى لايقوى عليها سواه ، فهو الذى أنزل من السحاب ماء بقدر معلوم فأحيا الأرض بالنبات بعد ما كانت هامدة فأنبتت به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها قال تعالى: ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[٨] .

وقال جل شأنه: ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾[٩] . وقال عظمت حكمته: ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾[١٠] وقال جلت قدرته: ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب

(١) الآية ٦٢ من سورة العنكبوت
(٢) الآية ١٧ من سورة المؤمنون
(٣) الآية ٢٢ من سورة الذاريات
(٤) الآية ٢٣ من سورة الذاريات
(٥) من الآية ١٥١ من سورة الانعام
(٦) الآية ٣١ من سورة الاسراء
(٧) الآية ٦٣ من سورة العنكبوت
(٨) الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ من سورة الحج
(٩) الآية ٣٩ فصلت
(١٠) الآية ٤٨ من سورة الفرقان

ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[١] وقال تبارك اسمه: ﴿ ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾[٢] وقال جل جلاله: ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾[٣] كل هؤلاء لو سألتهم عمن فعل هذا فسوف يقولون انه الله قل الحمد لله بل اكثرهم لايعقلون لانهم لو عقلوا وتدبروا ما أشركوا بعبادته وما اتخذوا من دونه أولياء .

قوله تعالى: ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون . فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا . فسوف يعلمون ﴾[٤] .

يقول تعالى مخبرا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لادوام لها وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ وإن الدار الآخرة لهى الحيوان ﴾[٥] أى الحياة الدائمة الحق الذى لازوال له ولا انقضاء بل هى مستمرة أبد الآباد وقوله تعالى ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾[٦] أى لآثروا ما يبقى على ما يفنى . قال تعالى ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[٧] ثم يقول سبحانه: ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٨] .

وقال تبارك اسمه: ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[٩] ثم يقول سبحانه: ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولايرهق وجوههم قتر ولاذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾[١٠] وقال عز وجل: ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[١١] ثم يقول سبحانه: ﴿ قل أؤنبئكم بخير من ذالكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾[١٢].

---

(١) الآيتان ١٠ ، ١١ من سورة النحل
(٢) الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة ق
(٣) الآيات ٢٤ ـ ٣٢ من سورة عبس
(٤) الآيات ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ من سورة العنكبوت
(٥) من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت
(٦) من الآية ٦٤ من سورة العنكبوت
(٧) الآية ٢٠ من سورة الحديد
(٨) الآية ٢١ من سورة الحديد
(٩) الآية ٢٤ من سورة يونس
(١٠) الآية ٢٦ من سورة يونس
(١١) الآية ١٤ من سورة آل عمران
(١٢) الآيات ١٥ ، ١٦ ، ١٧ من سورة آل عمران

وقال عز وجل: ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾(١) وقال تبارك اسمه: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا ﴾(٢) .

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴾(٣) وقال وسعت رحمته: ﴿ من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ﴾(٤) .

وكان رسول الله ﷺ يقول لابن عمر: (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور) .

وعن عمرو بن عوف الأنصارى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة الجراح رضى الله عنه إلى البحرين يأتى بجزيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبى عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشىء من البحرين ؟ فقالوا أجل يا رسول الله فقال ابشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر اخشى عليكم ولكنى اخشى ان تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم)(٥) متفق عليه .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال: (إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها)(٦) متفق عليه .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء)(٧) رواه مسلم .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : اللهم لاعيش إلا عيش الآخرة)(٨) متفق عليه .

---

(١) الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ من سورة الاسراء
(٢) الآية ٤٥ من سورة الكهف
(٣) الآية ٤٦ من سورة الكهف
(٤) الآية ٢٠ من سورة الشورى
(٥) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد حديث ٢٩٦١ ج ٤ ص ٢٢٧٣ ، ٢٢٧٤ والبخارى فى الجزية ج ٤ باب ١٢
(٦) الحديث فى احمد ٣/ ٢١ وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب ٤١ ج ١ ص ٢٨٧ والبخارى فى باب الزكاة على الرقاب باب ٤ ج ٢ ص ٢١٦ .
(٧) الحديث أخرجه الامام احمد ٣/ ١٩ ، ٢٢ ، ٦١ وأخرجه البخارى فى باب فضائل الصحابة باب ٤٣ ج ٤ ص ٢٠٩
(٨) الحديث أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى ٧/ ٤٨ ، ٩/ ٣٩ ، وفى حلية الأولياء ٢/ ٣٠١ والبخارى ١/ ١١٧

وعنه عن رسول الله ﷺ قال:(يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله)[(١)] متفق عليه .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ـ فيصبغ فى النار صبغة ثم يقال : يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤسا فى الدنيا من أهل الجنة فيصبغ صبغة فى الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط هل مر بك شدة قط ؟ فيقول لا والله ما مر بى بؤس قط ولا رأيت شدة قط)[(٢)] رواه مسلم .

وعن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع)[(٣)] رواه مسلم .

وعن جابر أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه فمر بجدى أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : (أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشىء وما نصنع به ؟ ثم قال : أتحبون انه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا إنه أسك فكيف وهو ميت . فقال (فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم)[(٤)] رواه مسلم قوله « كنفتيه » أى عن جانبيه ، « والأسك : الصغير الأذن » .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة (أرض ذات حجارة سود) بالمدينة فاستقبلنا أحد فقال « يا أبا ذر » قلت : لبيك يا رسول الله . فقال:« ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينار إلا شىء أرصده لدين إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا) عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم سار فقال:(إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه (وقليل ما هم) ثم قال لى : « مكانك لاتبرح حتى آتيك » ثم انطلق فى سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتا قد ارتفع فتخوفت ان يكون أحد عرض للنبى ﷺ فأردت أن آتيه فذكرت قوله : « لاتبرح حتى آتيك » فلم أبرح حتى أتانى فقلت : لقد سمعت صوتا تخوفت منه فذكرت له فقال : « وهل سمعته ؟ قلت نعم قال : « ذاك جبريل أتانى فقال : من مات من أمتك لايشرك بالله شيئا دخل الجنة ، قلت وإن زنى وان سرق ؟ قال: وإن زنى وان سرق)[(٥)] متفق عليه .

وعن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال:(لو كان لى مثل أحد ذهبا لسرنى ألا تمر على ثلاث ليال وعندى منه شىء إلا شىء أرصده لدين)[(٦)] متفق عليه .

---

(١) الحديث فى فتح البارى ١١/ ٣٦٢ ، والبخارى ٨/ ١٣٤ ، ومسلم فى الزهد المقدمة رقم ٥ والترمذى حديث ٢٣٧٩ واتحاف السادة المتقين ٦/ ٣٠٠ ، ٨/ ١٤٦

(٢) الحديث اخرجه الامام احمد ٣/ ٢٠٣

(٣) الحديث اخرجه الامام احمد ٤/ ٢٢٩ ، والحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ج ٤ ص ١٩٣ ، حديث ٥٥/ ٢٨٥٨

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ حديث ٢/ ٢٩٥٧

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ج ٧ ص ١٦٦ وأخرجه الأمام مسلم فى كتاب الزكاة باب الصدقة ص ٦٨٧ حديث

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب ١٣ ج ٧ ص ١٦٦ وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة باب تغليظ عقوبة من لا يؤدى الزكاة ص ٦٨٧ حـ ٢

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولاتنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم)(١) متفق عليه .

وعنه عن النبى ﷺ قال : (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطى رضى وان لم يعط لم يرض)(٢) البخارى .

وعنه قال : لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء : إما إزار وإما كساء قد ربطوا فى اعناقهم ، فمنها ما يبلغ نصف الساق ومنها ما يبلغ الكعبين فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته)(٣) رواه البخارى .

وعنه قال رسول الله ﷺ (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)(٤) رواه مسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى وقال : (كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وكان ابن عمر يقول (إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك)(٥) رواه البخارى .

وعن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ، فقال (ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما عند الناس يحبك الناس)(٦) حديث حسن رواه ابن ماجه .

وعن النعمان بن بشير قال : ذكر عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه « والدقل » بفتح الدال والقاف : ردىء التمر .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : (توفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى)(٧) متفق عليه . قولها شطر شعير قال الترمذى اى شىء من شعير .

وعن عمرو بن الحارث قال : (ما ترك رسول الله ﷺ عند موته دينارا ولادرهما ولاعبدا ولاأمة ولاشيئا إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه وأرضا جعلها لابن السبيل صدقة)(٨) رواه البخارى .

وعن خباب بن الارت قال : (هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله تعالى فوقع أجرنا على

---

(١) الحديث أخرجه البخارى ح ٨ فى كتاب الرفاق ص ١٢٧ ، ١٢٨ ومسلم ص ٢٢٧٥ ج ٤ كتاب الزهد والرقائق حديث ٨/ ٢٩٦٣

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد والسير باب ٩ ج ٣ ص ٢٠٤

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ج ١ ص ١٢٠

(٤) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٢ حديث رقم ١/ ٢٩٥٧

(٥) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب ٢ ج ٧ ص ١٥٩

(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا حديث ٤١٠٢ ج ٢ ص ١٣٧٣ ، ١٣٧٤

(٧) الحديث أخرجه الامام مسلم فى كتاب الزهد باب ٢٧ ص ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ حديث ٢٧/ ٢٩٧٣

(٨) الحديث اخرجه البخارى ج ٤ ص ٣ كتاب الوصايا

الله فمنا من مات ولم يأكل من أجره شيئا منهم مصعب بن عمير رضى الله عنه قتل يوم أحد وترك تنميرة فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه وإذا غطينا بها رجليه بدا رأسه فامرنا رسول الله ﷺ أن نغطى رأسه ونجعل على رجليه شيئا من الاذخر (نبت طيب الرائحة) ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهديها)[١] متفق عليه .

وعن سهل قال : قال رسول الله ﷺ : (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء)[٢] رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالما ومتعلما)[٣] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

معنى ملعونة : أى مبغوضة ساقطة . وما والاه : أى قاربه من الطاعة الموصلة لمرضاة الله تعالى ولايفهم من هذا الحديث سب الدنيا مطلقا ولعنها بل الملعون منها ما يبعد عن الله تعالى ويشغل عنه كما يوحى إليه آخر الحديث .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لاتتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا)[٤] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

ومعنى ضيعة : العقار . لاتتوغلوا فى اتخاذ الضيعة فترغبوا عن صلاة الآخرة كما قال ﷺ : (فترغبوا فى الدنيا) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : مر علينا رسول الله ﷺ ونحن نعالج خصاصنا فقال : « ما هذا ؟ » فقلنا : قد وهى فنحن نصلحه فقال : (ما أرى الأمر إلا أعجل من ذلك)[٥] رواه أبو داود والترمذى بإسناد البخارى ومسلم وقال الترمذى حديث حسن وصحيح .

ومعنى : الخص (بضم الخاء المعجمة وتشديد الصاء المهملة) بيت من خشب وقصب سمى خصا لما فيه من الخصاص وهى الفرج والأثقاب . قد وهى (بفتحتين) أى ضعف وهم بالسقوط .

وعن كعب بن عياض رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتى المال)[٦] رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

ومعنى فتنة (بكسر الفاء) أى ما يمتحنون به .

وعن أبى عمرو ويقال أبو عبد الله ويقال أبو ليلى عثمان بن عفان رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (ليس لابن آدم فى سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته . وجلف الخبز ، والماء)[٧] رواه الترمذى وقال : حديث صحيح . قال الترمذى : سمعت أبا داود سليمان بن سالم

---

(١) الحديث ذكره ابن الأثير فى اسد الغابة فى ترجمة مصعب بن عمير ترجمة رقم ٤٩٢٩ ج ٥ ص ١٨١ ، ١٨٣
(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا ج ٣ ص ٣٨٣ حديث ٤٢١٢
(٣) الحديث أخرجه الترمذى ج ٣ فى كتاب الزهد باب ما جاء فى هوان الدنيا ج ٣ حديث ٢٤٢٤ ص ٣٨٤
(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء فى هم الدنيا حديث ٢٤٣٨ ج ٣ ص ٣٨٦
(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد ما جاء فى قصر الأمل ج ٣ حديث ٢٤٣٨
(٦) الحديث أخرجه الترمذى فى أبواب الزهد باب ما جاء فى أن فتنة هذه الأمة فى المال ج ٣ ص ٣٨٩ حديث ٢٤٣٩
(٧) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ج ٤ ص ٣ حديث ٢٤٤٤

البلخى يقول : سمعت النضر بن شميل يقول : الجلف : الخبز ليس معه إدام . وقال غيره : هو غليظ الخبز . وقال الهروى : المراد به هنا وعاء الخبز ، كالجوالق والخرج والله أعلم .

وعن عبد الله بن الشخير رضى الله عنه أنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو يقرأ : (ألهاكم التكاثر) قال : (يقول ابن آدم : مالى مالى وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟!)[1] رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : قال رجل للنبى ﷺ يا رسول الله والله إنى لأحبك فقال : « انظر ماذا تقول ؟ » قال : والله إنى لأحبك ، ثلاث مرات فقال : (إن كنت تحبنى فأعد للفقر تجفافا فإن الفقر أسرع إلى من يحبنى من السيل إلى منتهاه)[2] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

« التجفاف » بكسر التاء المثناة فوق وإسكان الجيم وبالفاء المكررة وهو شىء يلبسه الفرس ليتقى به الأذى وقد يلبسه الانسان .

وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما ذئبان جائعان أرسلا فى غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[3] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : (نام رسول الله ﷺ على حصير فقام وقد أثر فى جنبه قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء . فقال : مالى وللدنيا ؟ ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها)[4] رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

معنى وطاء : « بكسر الواو وبالمد » هو الفراش الوطىء . وفى رواية ابن ماجة فقلت يا رسول الله لو كنت آذنتنا ففرشنا لك شيئا يقيك .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام)[5] رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن ابن عباس وعمران بن الحصين رضى الله عنهم عن النبى ﷺ قال : (إطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء)[6] متفق عليه من رواية ابن عباس ، ورواه البخارى أيضا من رواية عمران بن الحصين .

وعن أسامة بن زيد رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : (قمت على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين . وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار)[7] متفق عليه و« الجد » الحظ والغنى .

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الزهد ج ٣ ص ٢٢٧٣ حديث ٢٩٥٣
(٢) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى فضل الفقر ج ٤ ص ٧ حديث ٢٤٥٤
(٣) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ج ٤ ص ١٦ حديث ٢٤٨٢
(٤) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى أخذ المال بحقه ج ٤ ص ١٧ حديث ٢٤٨٣
(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى ابواب الزهد باب ما جاء فى فضل الفقر ج ٤ ص ٨ حديث ٢٤٥٨
(٦) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ٧٩ ومسلم فى كتاب التركى ج ٢ ص ٣٢٠
(٧) الحديث البخارى فى كتاب النكاح باب ٨٧ ج ٧ ص ١٨٧ ومسلم فى كتاب الذكر ب ٢٦ ج ٢ ص ٣٢٠

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد . ألا كل شىء ما خلا الله باطل)[١] متفق عليه .

* بيان حال الكفار فى الشدة والرخاء *

قوله تعالى : فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا
جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ
﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِلْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

معانى المفردات

(الفلك) السفينة فى البحر (مخلصين له الدين) صادقين فى نياتهم (حرما آمنا) حرما ذا أمن وطمأنينة (مثوى) مأوى ومستقر (يتخطف) الخطف الأخذ بسرعة والمراد يقتل بعضهم بعضا بسرعة ويسبى بعضهم بعضا (أظلم) الظلم وضع الشىء فى غير موضعه .

المناسبة واجمال المعنى :

لما ذكر فيما سلف أنهم يعترفون بأن الله هو الخالق وأنه هو الرازق ، وهم بعد ذلك يتركون عبادته ، ويعبدون من دونه الشركاء اغترارا بزخرف الدنيا وزينتها - أردف ذلك أن هذه الدنيا باطل وعبث زائل . وإنما الحياة الحقة هى الحياة الآخرة التى لافناء بعدها ، فلو أوتوا شيئا من العلم ما آثروا تلك على هذه .

ثم أرشد إلى أنهم مع إشراكهم بربهم سواه فى الدعاء والعبادة ، إذا هم ابتلوا فى الشدائد ، كما إذا ركبوا البحر وعلتهم الأمواج من كل جانب ، وخافوا الغرق نادوا الله ، معترفين بوحدانيته ، وأنه لا منجى سواه ، وليتهم استمروا على ذلك ، ولكن سرعان ما يرجعون القهقرى ، ويعودون سيرتهم الأولى ، كما هو دأب من يعمل للخوف لا للعقيدة .

وبعد أن ذكر أن المشركين حين يشتد بهم الخوف إذا ركبوا فى الفلك ونحوه لجأوا إلى الله وحده مخلصين له العبادة - ذكر هنا أنهم حين الأمن كما إذا كانوا فى حصنهم الحصين وهو مكة التى يأمن من دخلها من الشرور والأذى يكفرون به ويعبدون معه سواه ، وتلك حال من التناقض لا يرضاها لنفسه

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب ٩٠ ج ٧ ص ١٠٠ ومسلم فى كتاب الشعر ص ١٧٦٨ ج ٤

عاقل ، فإن دعاءهم إياه حال الخوف مع الاخلاص ما كان إلا ليقينهم بأن نعمة النجاة منه لا من سواه ، فكيف يكفرون به حين الأمن ، وهم يوقنون بأن الأصنام حين الخوف لاتجديهم فتيلا ولاقطميرا ؟

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾[١] وقوله جل شأنه : ﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾[٢] . وقوله جل شأنه: ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[٣] ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾[٤] وقوله جل شأنه : ﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ﴾[٥] .

وقال ههنا : ﴿ فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[٦] وقد ذكر محمد بن اسحاق عن عكرمة ابن أبى جهل أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارا منها فلما ركب فى البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة فقال أهلها يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء فإنه لاينجى ههنا الا هو ، فقال عكرمة والله لئن كان لاينجى فى البحر غيره فإنه لاينجى فى البر أيضا غيره ، اللهم لك على عهد لئن خرجت لأذهبن فلأضعن يدى فى يد محمد فلأجدنه رءوفا رحيما فكان كذلك وقوله تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة لأنهم لايقصدون ذلك ولاشك أنها كذلك بالنسبة إليهم وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ذلك وتقييضه إياهم لذلك فهى لام التعليل ، قوله تعالى:﴿ فسوف يعلمون ﴾ أسلوب وعيد وتهديد كما فى قوله تعالى : ﴿ فذرهم فى غمرتهم حتى حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[٧] وقوله جل شأنه: ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾[٨] وقوله تعالى : ﴿ فذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم

---

(١) الأيتان ٢٢ ، ٢٣ من سورة يونس
(٢) الآية ٦٣ من سورة الانعام
(٣) الآية ٣١ من سورة لقمان
(٤) الآية ٣٢ من سورة لقمان
(٥) الآية ٦٧ من سورة الاسراء
(٦) من الآية ٦٥ من سورة العنكبوت
(٧) الآيات ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ من سورة المؤمنون
(٨) الأيتان ٢ ، ٣ من سورة الحجر

قليلا ﴾[١] . وقوله تبارك اسمه: ﴿ لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[٢] .

لاتظلمن إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

وقال آخر :

يا نائم الليل مسرورا بأوله ... إن الحوداث قد يأتين أسحارا

وقال غيره :

هى الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركم منى إبتسام ... فقولى مضحك والفعل مبكى

وقال آخر :

لكل شىء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

وقال غيره :

هى الأيام لاتبقى عزيزا ... وساعات السرور بها قليلة
إذا نشر الضياء عليك نجم ... وأشرق فارتقب يوما أفولا

وقال غيره :

وكم من جبال كم علت شرفاتها ... رجال فزالوا والجبال جبال

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين . والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ﴾ أى أو لم يعلم هؤلاء ويبصروا أن الله تعالى قد أنعم عليهم بنعمة الحرم الآمن كما قال تعالى : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[٣] ردا على الذين قالوا : ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾[٤] وكما قال تعالى : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾[٥] وقال : ﴿ وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾[٦] والناس من الأعراب يتخطفون من حول الحرم بطريق السلب والنهب . قال

(١) الآية ١١ من سورة المزمل
(٢) الآية ١٩٦ من سورة آل عمران
(٣) من الآية ٥٧ من سورة القصص
(٤) من الآية ٥٧ من سورة القصص
(٥) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران
(٦) من الآية ٢٦ من سورة الحج

تعالى : ﴿ ويتخطف الناس من حولهم ﴾ كان الواجب على هؤلاء أن يقابلوا النعمة الجليلة بالشكر كما قال تعالى : ﴿ لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾(١) لكنهم بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أنداد ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾(٣) والباطل شرك وتكذيب والنعمة إيمان وتصديق لذا قال جل شأنه : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بالحق لما جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾(٤) أى لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله فقال : ان الله أوحى إليه ولم يوح إليه شىء . ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه فالأول مفتر والثانى مكذب ولهذا قال تعالى : ﴿ أليس فى جهنم مثوى للكافرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ يعنى الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ أى لنبصرنهم سبلنا أى طرقنا فى الدنيا والآخرة .

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى أخبرنا عباس الهمدانى أبو أحمد من أهل عكا فى قول الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ قال الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله لما لايعلمون . قال أحمد بن أبى الحوارى فحدثت به أبا سليمان يعنى الدارانى فأعجبه وقال ليس ينبغى من ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه فى الأثر ، فإذا سمعه فى الأثر عمل به وحمد الله حتى وافق ما فى قلبه . وقوله : ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عيسى بن جعفر قاضى الرى حدثنا أبو جعفر الرازى عن المغيرة عن الشعبى قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام : إنما الاحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ليس الاحسان أن تحسن الى من أحسن إليك . والله أعلم . فلكى تنال الهداية إلى سبل الخير لابد أن تجاهد نفسك ومجاهدة النفس من أعظم أنواع الجهاد ولكى تنال المعية الكريمة لابد أن تكون محسنا ولكى تنال الهداية والمعية لابد مع المجاهدة المحاسبة .

يقول الامام ابن الجوزى رحمه الله تعالى : اعلم بأن النفس مجبولة على حب الهوى فافتقرت لذلك إلى المجاهدة والمخالفة ومتى لم تزجر عن الهوى هجم عليها الفكر فى طلب ما شغفت به فاستأنست بالأراء الفاسدة ، والأطماع الكاذبة ، والأمانى العجيبة ، خصوصا إن ساعد الشباب الذى هو شعبة من الجنون وامتد ساعد القدرة إلى نيل المطلوب .

عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ،

---

(١) سورة قريش الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤
(٢) الآيتان ١١٢ ، ١١٣ من سورة النحل
(٣) من الآية ٦٧ سورة العنكبوت
(٤) الآية ٦٨ سورة العنكبوت

والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »[١] أخرجه الترمذى وقال حسن ، وابن ماجة .

وقال أبو بكر القرشي : (من أتبع نفسه هواه) . وقال ابن الأنبارى : (الكيس من أدان نفسه) و« الفاجر » بدل « العاجز » . قال : وقال لنا أحمد بن يحيى النحوى : الكيس عند العرب العاقل والكيس العقل .

وأنشدنا :

فكن أكيس الكيسى إذا ما لقيتهم وكن جاهلا إذا ما لقيت ذوى الجهل

قال : وقوله : « من أدان نفسه » معناه : أخذ لنفسه من نفسه ، من صحته لسقمه ، ومن غناه لفقره .

ومن روى : « من دان نفسه » معناه : من استعبد نفسه وأذلها لطاعة الله . قال الأعشى :

هو دان الذئاب إذ كرهوا الدين دراكا بعزة وصيال . معناه : هو استعبدَ الذئاب .

عن ابن البجير ، وكان من أصحاب النبى ﷺ ، قال أصاب النبى يوما جوع شديد ، فوضع حجرا على بطنه ، ثم قال : « ألا رب نفس طاعمة ناعمة فى الدنيا ، جائعة عارية يوم القيامة ، ألا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، ألا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم ، ألا يارب متخوض متنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق ، ألا وإن عمل الجنة حزنة بربوة ، ألا وإن عمل النار سهل بسهوة ، ألا يارب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلا » . (والحزن ضد السهل . والربوة المكان المرتفع من الأرض) والمراد من الحديث أن عمل الجنة صعب ، وعمل النار سهل ، لأن ذلك يخالف الطباع ، وهذا يوافقها .

عن جابر ، قال : قدم النبى ﷺ من غزاة له فقال لهم رسول الله ﷺ : « قدمتم خير مقدم ، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » قالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه »[٢] .

اعلم أنه إنما كان جهاد النفس أكبر من جهاد الأعداء ، لأن النفس محبوبة وما تدعو إليه محبوب . لأنها لاتدعو إلا إلى ما تشتهى ، وموافقة المحبوب فى المكروه محبوبة ، فكيف إذا دعا إلى محبوب ! فإذا عكست الحال وخولف المحبوب فيما يدعو إليه من المحبوب ، اشتد الجهاد وصعب الأمر ، بخلاف جهاد الكفار ، فإن الطباع تحمل على خصومة الأعداء .

وقال ابن المبارك فى قوله تعالى : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده ﴾ قال : هو جهاد النفس والهوى .

وعن ثابت بن الحجاج ، قال : قال عمر بن الخطاب : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم فى الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم يوم القيامة . وتزينوا للعرض الأكبر ، يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية .

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ذكر الموت حديث ٤٢٦٠ ج ٢

(٢) الحديث أورده صاحب كنز العمال حديث ١١٢٦٠ ، ١١٧٧٩ ، والخطيب ج ١٣ ص ٤٩٣

وعن أنس بن مالك قال : سمعت عمر بن الخطاب يوما ، وخرجت معه حتى دخل حائطا ، فسمعته يقول وبيني وبينه جدار : (عمر بن الخطاب ! بخ بخ والله بنى الخطاب ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك) .

وعن الحسن قال : أيسر الناس حسابا يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم لله عز وجل فى الدنيا ، فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذى هموا به لله عز وجل مضوا فيه ، وإن كان عليهم أمسكوا . قال : وإنما يثقل الحساب يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور فى الدنيا اتخذوا على غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر . ثم قرأ : ﴿ يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾[1] .

وعن الحسن قال : إن المؤمن قوام على نفسه ، يحاسب نفسه لله عز وجل ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه فيقول : والله إنى لأشتهيك وإنك لمن حاجتى ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات هيهات ، حيل بينى وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا ، مالى وهذا ، والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم . إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لايأمن شيئا حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه وبصره ولسانه وجوارحه .

وعن الحسن قال : فى وصية لقمان لابنه : يا بنى إن الايمان قائد والعمل سائق ، والنفس حرون ، فإن فتر سائقها ضلت عن الطريق ، وإن فتر قائدها حرنت ، فإذا اجتمعا استقامت . إن النفس إذا أطمعت طمعت ، وإذا فوضت إليها أساءت ، وإذا حملتها على أمر الله صلحت . وإذا تركت الأمر إليها فسدت . فاحذر نفسك واتهمها على دينك ، وأنزلها منزلة من لا حاجة له فيها ولابد له منها . وإن الحكيم يذل نفسه بالمكاره ، حتى تعترف بالحق ، وإن الأحمق يخير نفسه فى الأخلاق ، فما أحبت منها أحب وما كرهت منها كره .

وعن حجاج بن الأسود قال : سمعت قتادة يقول : يا ابن آدم إن كنت تريد ألا يأتى الخير إلا عن نشاط ، فإن نفسك إلى السآمة والفتور والملل اقرب ، ولكن المؤمن هو العجاج ، والمؤمن هو المتوفى والمؤمن هو المتشدد ، وإن المؤمنين هم العجاجون إلى الله عز وجل بالليل والنهار ، والله مازال المؤمنون يقولون ربنا ربنا فى السر والعلانية حتى استجاب لهم .

وعن أبى عبيدة الناجى ، أنه سمع الحسن يقول حادثوا هذه القلوب ، فإنها سريعة الدثور ، وأقرعوا هذه الأنفس فإنها طلعة ، وإنها تنازع إلى شر غاية ، وأنكم إن تقاربوها لم تبق لكم من أعمالكم شيئا ، فتصبروا وتشددوا ، فإنما هى ليال تعد ، وإنما أنتم ركب وقوف ، يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم .

---

(١) من الآية ٤٩ من سورة الكهف

إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم وبين شهواتهم ، وإنما صبر على هذا الحق من عرف فضله ورجا عاقبته .

وعن مجاهد ، فى قوله : ﴿ ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾[1] قال : تندم على ما فات وتلوم نفسها .

وعن ميمون بن مهران قال : لايكون الرجل تقيا حتى يحاسب نفسه محاسبته لشريكه .

وعنه أيضا أنه قال : لايكون الرجل تقيا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه .

عن سلمة بن منصور ، عن مولى لهم كان يصحب الأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء ، وكان يجىء الى المصباح فيضع إصبعه ثم يقول : حس . ثم يقول : يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ، ما حملك على ما صنعت يوم كذا ! .

وعن مالك بن دينار قال : إن قوما من بنى إسرائيل كانوا فى مسجد لهم فجاء شاب حتى قام على باب المسجد ، فقال ليس مثلى من يدخل معكم ، أنا صاحب كذا أنا صاحب كذا ، يزرى على نفسه ، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن فلانا صديق .

وعن حبيش قال : قال وهب بن الورد : بينما امرأة فى الطواف ذات يوم وهى تقول : يارب ذهبت اللذات وبقيت التبعات ، يارب سبحانك إنك لأرحم الراحمين ، يارب ما لك عقوبة إلا النار .

فقالت صاحبة لها : يا أخية دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقالت : والله ما أرى هاتين القدمين ، وأشارت إلى قدميها ، أهلا للطواف حول بيت ربى عز وجل ، فكيف أراهما أهلا أطؤبها بيت ربى ، وقد علمت حيث مشتا وأين مشتا ! .

وعن عبد الجبار بن النضر قال : مر حسان بن أبى سنان بغرفة ، فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لايعنيك لأعاقبنك بصوم سنة فصامها .

وعن منكدر بن محمد عن أبيه ، أن تميما الدارى نام ليلة لم يقم يتهجد فيها ، فقام سنة لم ينم فيها عقوبة للذى صنع .

قال معاوية بن هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ما بلغ ؟ فذكر كلاما طويلا إلى أن قال : كان أشد الناس على نفسه سلطانا .

وعن محمد بن سعيد الدارمى ، عن أبيه ، قال : قيل لرجل : صف لنا الأحنف بن قيس . فقال : ما رأيت أحدا أعظم سلطانا على نفسه منه .

وعن شيب بن شيبة قال : قال سليمان بن عبد الملك بن هشام لخالد بن صفوان : بم بلغ فيكم الأحنف بن قيس ؟ قال : إن شئت أخبرتك عنه ألفا ، وإن شئت حذفت فيه القول حذفا . قال : بل احذفه حذفا . قال : ان شئت ثلاثا ، وإن شئت إثنين وإن شئت واحدة . قال : هات الثلاث . قال : كان لايشره ، ولايحيد ولايمنع أحدا من حق ، قال : فهات الاثنتين . قال : كان موفقا للخير

---

(١) الآية ٢ من سورة القيامة

عن أبى ربيعة قال : قال عمر بن عبد العزيز : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس .

وعن عمر بن واصل قال : سمعت سهلا يقول : من صحب نفسه هلك ، ومن صحبته نفسه لم يسلم .

وعن محمد بن أحمد بن سعيد قال : سمعت أبا بكر الوراق يقول : استعن على سيرك إلى الله بترك من شغلك عن الله عز وجل ، وليس بشاغل يشغلك عن الله عز وجل كنفسك التى هى بين جنبيك .

وعن أبى على الروذبارى قال : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، فالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة ، والعبد مجتهد فى ردها ، فمتى أعنها فهو شريكها فى فسادها .

وعن سمنون قال : أول وصال العبد للحق هجرانه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق مواصلته لنفسه .

وعن أبى بكر الكنانى قال : قال لى على بن سعيد : رأيت فى النوم امرأة لاتشبه نساء الدنيا ، فقلت من أنت ؟ قالت : حوراء .

قلت : زوجينى نفسك . فقالت : اخطبنى إلى سيدى . قلت : فما مهرك ؟ قالت : حبس نفسك عن مألوفاتها .

وعن إبراهيم بن الأشعث أنه سمع الفضل بن عياض يقول فى قوله تعالى : ﴿ ولاتقتلوا أنفسكم ﴾[1] قال : لاتغفلوا عن أنفسكم ، فإن من غفل عن نفسه فقد قتلها .

وعن أحمد بن على البوارنجى قال : سمعت أبا عمران الحديثى يقول : ما مددت يدى مذ عقلت عن الله عز وجل ، ولنفسى فيه نصيب ، ولولا أن الله عز وجل أودعنا هذه النفوس بحفظها له لجعلنا على ذروة كل جبل منها قطعة .

وعن على بن عبدالحميد الغضائرى ، قال : سمعت السرى يقول : أقوى الفتوة غلبتك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس .

وعن أحمد بن سليمان قال : وجدت فى كتابى عن حاتم الأصم قال : الموت الأحمر مخالفة النفس .

وعن أحمد بن أبى الحوارى قال : من لم يعرف نفسه فهو من دينه فى غرور .

وعن منصور بن عبد الله قال : سمعت محمد بن حامد يقول : قال رجل لأحمد بن خضروية أوصنى . فقال : أمت نفسك تحيها .

وعن الحسن بن علوية يقول : قال يحيى بن معاذ : لاتربح على نفسك بشىء أجل من أن تشغلها فى كل وقت بما هو أولى بها

(١)من الآية ٢٩ من سورة النساء

معصوما عن الشر . قال فهات الواحدة : قال : لم أر أحدا قط كان أقوى سلطانا على نفسه منه .

وعن عبد الله بن محمد ، قال : حدثنى ابن أبى شميلة ، قال : دخل رجل على عبد الملك بن مروان ممن كان يوصف بالعقل والأدب . فقال له عبد الملك تكلم . قال : بم أتكلم . وقد علمت أن كل كلام يتكلم به المتكلم وبال عليه . إلا ما كان لله ! فبكى عبد الملك ثم قال : يرحمك الله ، لم يزل الناس يتواعظون ويتواصلون . قال : يا أمير المؤمنين إن للناس فى القيامة جولة لاينجو من غصص مرارتها إلا من أرضى الله بسخط نفسه .

قال عبد الله الأهتم لابنه : « يا بنى توق نفسك ، فإن فى خلافها رشدك » .

وعن وهب بن منبه أن رجلا تعبد زمانا ، ثم بدت له إلى الله عز وجل حاجة ، فصام سبعين سبتا يأكل فى كل سبت إحدى عشرة تمرة ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه فقال : منك أتيت ، لو كان فيك خير أعطيت حاجتك ، فنزل إليه عند ذلك ملك فقال : يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت وقد قضى الله حاجتك .

قال محمد بن المنكدر : إنى خلفت زياد بن أبى زياد مولى ابن عياش وهو يخاصم نفسه فى المسجد ، يقول : اجلسى ، أين تريدين ؟ أين تذهبين ؟ أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد ؟ انظرى إلى ما فيه ، تريدين أن تبصرى دار فلان ودار فلان ؟!

قال : وكان يقول لنفسه : مالك من الطعام إلا هذا الخبز وهذا الزيت ومالك من الثياب إلا هذين الثوبين ، ومالك من النساء إلا هذه العجوز ، أفتحبين أن تموتى ؟ فقالت : أنا أصبر على هذا العيش .

قال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل كيف تصنع فى شهوتك ؟ قال : ما فى الأرض نفس أبغض إلى منها ، فكيف أعطيها شهوتها .

وعن عبد الله بن المبارك أنه قال : إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوا ، وإن أنفسنا لاتكاد تواتينا إلا على كره ، فينبغى لنا أن نكرهها .

وعن جميلة بن الحارث أنه كان يقول : اعكسوا هذه الأنفس عكس الخيل باللجم ، فوالذى نفسى بيده إنى لألبس ما يساوى ثلاثة دراهم فأظل أنظر فى عطفى ! .

وعن محمد بن بلال بن أبى الدرداء أن أمة عثامة كف بصرها ، فدخل عليها ابنها يوما وقد صلى ، قالت أصليتم بنى ؟ فقال نعم فقالت :

عثام مالك لاهية ... حلت بدارك لاهية
ابكى الصلاة لوقتها ... إن كنت يوما باكية
وابكى القرآن إذا تلى ... قد كنت يوما تالية
تتلينه بتفكر ... ودموع عينك جارية
فاليوم لاتتلينه ... إلا وعندك تالية
لهفى عليك صبابة ... ما عشت طول حياتيه

وعن أحمد بن حمدون قال : سمعت أبى يقول : من استطاع منكم ألا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل .

وعن الحسن بن علوية قال : قال محمد بن الفضل : أنزل نفسك منزلة من لا حاجة له فيها ولابد له منها ، فإن من ملك نفسه عز ، ومن ملكته نفسه ذل .

وعن أبى صالح قال : قال أبو سعيد الخراز : مثل النفس مثل ماء واقف طاهر صاف ، فإن حركته ظهر ما تحته من الحمأة . وكذا النفس تظهر عند المحن والفاقة والمخالفة ، ومن لم يعرف ما فى نفسه فكيف يعرف ربه .

وعن أبى محمد الجريرى قال : من استولت عليه النفس صار أسيرا فى حكم الشهوات ، محصورا فى سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد فلا يستلذ كلامه ولايستحليه ، وإن كثر ترداده على لسانه .

وقال محمد بن أحمد بن سالم البصرى : من صبر على مخالفة نفسه أوصله الله إلى مقام أنسه .

وعن أبى بكر بن الضرير المقرى يقول : دافعت الشهوات حتى صارت شهوتى المدافعة .

وعن الجريرى قال : سمعت الجنيد يقول : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وعن الحسن بن أحمد الصوفى قال : قال فراس العابد : قلت لراهب أوصنى فقال : عليك بما تكره نفسك فألزمه قلبك ، فإنه يقدم بك على ما تحب ، وإياك وما تحبه ، فإنه يقفك على ما تكره .

* ذكر أشعار قيلت فى ذلك :

عن الحسين بن عبد الرحمن قال : حج سعيد بن وهب ماشيا ، فبلغ منه وجهد ، فقال :

قدمى اعتورا رمل الكثيب ... واطرقا الآجن من ماء القليب
رب يوم رحتما فيه على ... زهرة الدنيا وفى واد خصيب
وسماع حسن من حسن ... صخب المزهر كالظبى الربيب
فاحسبا ذاك بهذا واصبرا ... وخذا من كل فن بنصيب
إنما أمشى لأنى مذنب ... فلعل الله يعفو عن ذنوبى

وعن أحمد بن على بن ثابت ، قال : أنشدنى أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازى الواعظ :

إذا ما أطلعت النفس فى كل لذة ... نسبت إلى غير الحجا والتكرم
إذا ما أجبت النفس فى كل دعوة ... دعتك إلى الأمر القبيح المحرم

وقال عبد الله بن المعتز :

وكم دهى المرء من نفسه ... فلا تؤكلن بأنيابها
وإن أمكنت فرصة فى العدو ... فلا يبد فعلك إلا بها

وإيـاك من نـدم بعـدهـا وتـأميـل أخـرى وأنى بهـا

أنشدنى أبو زيد بن الحسن الطبرى :

إذا طالبتك النفس يوما بحاجة فكـان عليهـا للقبيـح طـريق
فدعها وخالف ما هويت فإنما هواك عدو والخلاف صديق

واعلم ان المغلوب بموافقة الهوى والنفس مقهور ، ولذلك تجد فى نفسه ذلك لمكان القهر ، وغالب الهوى ذو صولة ، ولذلك وقع عظيم فى الشرع وعند الخلق .

أما فى الشرع فإن قهر الهوى يوجب المباهاة .

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : (عجب ربنا من شاب ليس له صبوة)(١) .

وعن يزيد بن ميسرة قال : ان الله عز وجل يقول : (أيها الشاب التارك شهوته من أجلى ، أنت عندى كبعض ملائكتى) .

وعن يزيد بن ميسرة قال : إن الله تبارك وتعالى يقول : (أيها الشاب التارك شهوته لى ، المتبذل شبابه من أجلى ، أنت عندى كبعض ملائكتى) .

وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول : قال الله تعالى : (من كان لى مطيعا كنت له وليا ، فليثق بى وليحكم على ، فو عزتى لو سألنى زوال الدنيا لأزلتها له) .

وأما عند الخلق فإنهم يعجبون من الزاهد ، ويذلون له ، ويتبركون به ، لأنه قوى على حمل ما ضعفوا عنه ، وهجر ما يستطيعون هجره .

وقد كان أهل الحزم يعودون أنفسهم مخالفة هواها وإن كان مباحا ، ليقع التمرين للنفس على ترك الهوى مطلقا ، وليطلب الأرباح فى المعاملة بترك المباح .

عن عبد الله بن أبى عثمان ، قال : كان عبد الله بن عمر أعتق جاريته التى يقال لها رميثة ، وقال : إنى سمعت الله قال فى كتابه : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾(٢) ، وإنى والله إن كنت لأحبك فى الدنيا اذهبى فأنت لوجه الله .

عن إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدى ، قال : كانت لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجة عمر بن العزيز جارية ذات جمال فائق ، وكان عمر معجبا بها قبل أن تفضى إليه الخلافة . فطلبها منها وحرص ، فأبت دفعها إليه وغارت من ذلك ، فلم تزل فى نفس عمر فلما استخلف أمرت فاطمة بالجارية ، فأصلحت ثم جليت فكانت حديثا فى حسنها وجمالها ، ثم دخلت فاطمة بالجارية على عمر ، فقالت : يا أمير المؤمنين إنك كنت بفلانة جاريتى معجبا وسألتنيها ، فأبيت ذلك عليك ، وإن نفسى قد طابت لك بها اليوم فدونكها ، فلما قالت ذلك استبانت الفرح فى وجهه ، ثم قال : ابعثى بها إلى ،

(١) الحديث فى كشف الخفاء ج ٢ ص ٥ ، ٧١

(٢) من الآية ٩٢ من سورة آل عمران

ففعلت فلما دخلت عليه نظر إلى شيء أعجبه فازداد بها عجبا ، فقال لها : ألق ثوبك ، فلما همت أن تفعل ، قال : على رسلك ، اقعدى ، أخبريني لمن كنت ومن أين أنت لفاطمة ؟ قالت : كان الحجاج ابن يوسف أغرم عاملا كان له من أهل الكوفة مالا ، وكنت فى رقيق ذلك العامل ، فاستصفانى عنه مع رقيق له وأموال ، فبعث بى إلى عبد الملك بن مروان ، وأنا يومئذ صبية ، فوهبنى عبد الملك لابنته فاطمة . قال : وما فعل ذلك العامل ؟ قالت : هلك ، قال : وما ترك ولدا ؟ قالت : بلى . قال : وما حالهم ؟ قالت : سيئة . قال : شدى عليك ثوبك .

ثم كتب إلى عبد الحميد عامله أن سرح لى فلان بن فلان على البريد ، فلما قدم قال له : ارفع إلى جميع ما أغرم الحجاج أباك ، فلم يرفع إليه شيئا إلا دفعه إليه ، ثم أمر بالجارية فدفعت إليه ، فلما أخذ بيدها قال : إياك وإياها فإنك حديث السن ، ولعل أباك أن يكون قد وطئها ، فقال الغلام : يا أمير المؤمنين هى لك .

قال : لا حاجة لى فيها . قال : فابتعها منى ، قال : لست إذن ممن ينهى النفس عن الهوى ، فمضى الفتى بها ، فقالت الجارية : فأين موجدتك بى يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إنها لعلى حالها ولقد ازدادت فلم تزل الجارية فى نفس عمر حتى مات .

وعن عبد الرحمن بن مهدى قال : رأيت سفيان الثورى فى المنام ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت فى اللحد حتى وقفت بين يدى الله تعالى ، فحاسبنى حسابا يسيرا ، ثم أمر بى إلى الجنة ، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها ، ولا أسمع حسا ولا حركة ، إذ سمعت قائلا يقول : سفيان بن سعيد ؟ فقلت : سفيان بن سعيد ، قال : تحفظ أنك آثرت الله على هواك يوما ؟ قال : قلت : إى والله ، فأخذتنى صوانى النثار من جميع الجنة .

وعن محمد بن سهل بن عسكر قال : سمعت عبد الرازق يقول : بعث أبو جعفر الخشابين حين خرج إلى مكة ، فقال : إن رأيتم سفيان الثورى فاصلبوه ، قال : فجاء النجارون ونصبوا الخشب ، ونودى سفيان ، وإذا رأسه فى حجر الفضل ، ورجلاه فى حجر ابن عيينه . قال : فقالوا له : يا أبا عبد الله اتق الله ولاتشمت بنا الأعداء . قال فتقدم إلى الأستار ثم أخذها ، ثم قال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر . قال : فمات قبل أن يدخل مكة . فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئا . فتلمح يا أخى أثر خلاف الهوى ، كيف بان فى مقام لو أقسم ! وميز ما بين إدلال المطيع وذل العاصى .

(لو أقسم) يشير إلى قول الرسول : رب أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره .

وقد سمعت أن عمر لما جاءه منكر ونكير جذب بذؤابة هذا وذؤابة هذا وقال : من ربكما ؟! ولولا انقباض يده عن الهوى ما انبسطت إلى منكر ونكير .

وقد قال بعض الحكماء : ظاهر التقوى شرف الدنيا وباطنها شرف الآخرة ، واعلم أنك إذا عكست هذه الحال فى حق موافق الهوى والنفس ، رأيت الذل ملازما والجاه منكسرا ، وكذلك الأمر عند المخلوقين فى الأمرين جميعا ، فإنه من عرف عندهم بقهر الهوى عظم ، ومن نبذ بأنه مقهور الهوى أهين ، فالعجب من سكرة ذى الهوى ، كيف غلبت عليه فلما أفاق لم ير غير اللوائم .

سورة الروم

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا . عدد آياتها خمس وستون عند المكيين ، وستون عند الباقين وكلماتها ثمانمائة وسبع ، وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثلاثون ، والآيات المختلف فيها أربع : ألم (غلبت الروم) (فى بضع سنين) (يقسم المجرمون) فواصل آياتها نمر ، على الراء آيتان (قدير فى موضعين) وسميت سورة الروم لما فيها من ذكر غلبة الروم .

معظم مقصود السورة : غلبة الروم على فارس ، وعيب الكفار فى إقبالهم على الدنيا ، وأخبار القرون الماضية ، وذكر قيامة الساعة وآيات التوحيد ، والحجج المترادفة الدالة على الذات والصفات ، وبيان بعث القيامة ، وتمثيل حال المؤمنين والكافرين وتقرير المؤمنين على الإيمان ، والأمر بالمعروف ، والإحسان إلى ذوى القربى ، ووعد الثواب على أداء الزكاة ، والاخبار عن ظهور الفساد فى البر والبحر ، وعن آثار القيامة ، وذكر عجائب الصنع فى السحاب والأمطار ، وظهور آثار الرحمة فى الربيع وإصرار الكفار على الكفر ، وتخليق الله الخلق مع الضعف والعجز ، وإحياء الخلق بعد الموت ، والحشر والنشر ، وتسلية رسول الله ﷺ ، وتسكينه عن جفاء المشركين وأذاهم فى قوله : ﴿ **ولايستخفنك الذين لايوقنون** ﴾[(١)] .

قوله : ﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض** ﴾[(٢)] ، وفى فاطر وأول المؤمن بالواو ، وفى غيرهن بالفاء ، لأن ما قبلها فى هذه السورة ﴿ **أو لم يتفكروا** ﴾[(٣)] وكذلك ما بعدها (وأثاروا) بالواو ، فوافق ما قبلها ، وما بعدها وفى فاطر أيضا وافق ما قبله وما بعده ، فإن قبله ﴿ **ولن تجد لسنت الله تحويلا** ﴾[(٤)] ، وبعدها ﴿ **وما كان الله** ﴾[(٥)] وكذلك أول المؤمن قبله ﴿ **والذين يدعون من دونه** ﴾[(٦)] وأما آخر المؤمن فوافق ما قبله وما بعده ، وكان بالفاء ، وهو قوله : ﴿ **فأى آيات الله تنكرون** ﴾[(٧)] ، وبعده ﴿ **فما أغنى عنهم** ﴾[(٨)] .

قوله : ﴿ **كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة** ﴾[(٩)] (من قبلهم) متصل بكون آخر مضمر وقوله : ﴿ **كانوا أشد منهم قوة** ﴾[(١٠)]: إخبار عما كانوا عليه قبل الاهلاك ، وخصت هذه السورة بهذا النسق لما يتصل به من الآيات بعده . وكل إخبار عما كانوا عليه وهو (وأثاروا الأرض وعمروها) وفى فاطر : ﴿ **كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا** ﴾[(١١)] بزيادة الواو ، لأن التقدير : فينظروا كيف أهلكوا وكانوا أشد منهم قوة . وخصت هذه السورة به لقوله : ﴿ **وما كان الله ليعجزه من شىء** ﴾ الآية . وفى المؤمن ﴿ **كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة** ﴾ فأظهر (كان) العامل فى (من قلبهم) وزاد (هم) لأن فى هذه السورة وقعت فى أوائل قصة نوح ، وهى تتم

---

(١) من الآية ٦٠ من سورة الروم
(٢) من الآية ٩ من سورة الروم
(٣) من الآية ٨ من سورة الروم
(٤) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(٥) من الآية ٤٤ من سورة فاطر
(٦) من الآية ١٤ من سورة الرعد
(٧) من الآية ٨١ من سورة غافر
(٨) من الآية ٨٢ من سورة غافر
(٩) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(١٠) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(١١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر

فى ثلاثين آية ، فكان اللائق به البسط ، وفى آخر المؤمن ﴿ كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم ﴾(١) فلم يبسط القول ، لأن أول السورة يدل عليه .

قوله : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾(٢)، وختم الآية بقوله (يتفكرون) لأن الفكر يؤدى إلى الوقوف على المعانى التى خلقت لها من التوانس والتجانس ، وسكون كل واحد منهما إلى الآخر .

قوله : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ﴾(٣) وختم بقوله : (للعالمين) لأن الكل تظلهم السماء ، وتقلهم الأرض ، فكل واحد منفرد بلطيفة فى صورته يمتاز بها عن غيره ، حتى لاترى اثنين فى ألف يتشابه صورتاهما ويلتبس كلاهما ، وكذلك ينفرد كل واحد بدقيقة فى صورته ، يتميز بها من بين الأنام ، فلا ترى اثنين يشتبهان ، وهذا يشترك فى معرفته الناس جميعا . فلهذا قال : (لآيات للعالمين) ومن حمل اختلاف الألسن على اللغات ، واختلاف الألوان على السواد والبياض ، والشقرة والسمرة . فالاشتراك فى معرفتها أيضا ظاهر . ومن قرأ (للعالمين) بالكسر فقد أحسن ، لأن بالعلم يمكن الوصول إلى معرفة ما سبق ذكره .

قوله : ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار ﴾ وختم بقوله ﴿ يسمعون ﴾ فإن من سمع أن النوم من صنع الله الحكيم لايقدر أحد على اجتلابه إذا امتنع ، ولا على دفعه إذا ورد ، تيقن أن له صانعا مدبرا ، قال الامام : معنى (يسمعون) ههنا : يستجيبون إلى ما يدعوهم إليه الكتاب . وختم الآية الرابعة بقوله : (يعقلون) لأن العقل ملاك الأمر فى هذه الأبواب ، وهو المؤدى إلى العلم ، فختم بذكره .

قوله : ﴿ ومن آياته يريكم ﴾ أى أنه يريكم . وقيل : تقديره : ويريكم من آياته البرق . وقيل : أن يريكم ، فلما حذف (أن) سكن الياء وقيل : (ومن آياته) كلام كاف ، كما تقول : منها كذا ، ومنها كذا ، ومنها . . وتسكت ، تريد بذلك الكثرة .

قوله : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾(٤) وفى الزمر : ﴿ أو لم يعلموا ﴾(٥) لأن بسط الرزق مما يشاهد ويرى ، فجاء فى هذه السورة على ما يقتضيه اللفظ والمعنى . وفى الزمر اتصل بقوله ﴿ أوتيته على علم ﴾ وبعده ﴿ ولكن أكثرهم لايعلمون ﴾ فحسن أو لم يعلموا

قوله : ﴿ ولتجرى الفلك بأمره ﴾(٦) ، وفى الجاثية ﴿ فيه بأمره ﴾ لأن فى هذه السورة تقدم ذكر الرياح ، وهو قوله ﴿ أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ بالمطر ، وإذاقة الرحمة ، ولتجرى الفلك بالرياح بأمر الله تعالى .

ولم يتقدم ذكر البحر . وفى الجاثية تقدم ذكر البحر ، وهو قوله ﴿ الله الذى سخر لكم البحر ﴾(٧) فكنى عنه ، فقال : ﴿ لتجرى الفلك فيه بأمره ﴾(٨) .

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة فاطر
(٢) من الآية ٢١ من سورة الروم
(٣) من الآية ٢٢ من سورة الروم
(٤) من الآية ٣٧ من سورة الروم
(٥) من الآية ٥١ من سورة الزمر
(٦) من الآية ٤٦ من سورة الروم
(٧) من الآية ١٢ من سورة الجاثية
(٨) من الآية ١٢ من سورة الجاثية

* **مناسبتها ما قبلها من وجوه :**

(١) إن السورة السابقة بدئت بالجهاد وختمت به ، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا فى الأرض ليناموا على مهاد الراحة ، بل خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم ، وأنهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل والأمم التى يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون فى الله ولوجهه فكأن هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(٢) إن ما فى هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر فى الآفاق ، والأنفس مفصل لما جاء منه مجملا فى السورة السالفة ، إذ قال فى السالفة : ﴿ **فانظر كيف بدأ الخلق** ﴾[(١)] إلخ ، وهنا بين ذلك ، فقال : ﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض** ﴾[(٢)] إلخ ، وقال : ﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده** ﴾[(٣)] .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)

معانى المفردات

(الم) فيها ما مر فى أخواتها من حيث القراءة والمراد (الروم) هى مملكة الرومان وعاصمتها القسطنطينية (فى أدنى الأرض) المراد أقرب الأرض إلى العرب من جهة الشام مما يلى فارس . (فى بضع سنين) البضع ما بين الثلاثة إلى التسع من السنين .

نزلت هذه الآيات عندما غزا الفرس الرومان ، وغلبوهم فى مشارف الشام ، مما يلى بلاد العرب ، ففرح بذلك مشركو العرب إذ قالوا : إن الفرس لا كتاب لهم مثلنا ، والرومان لهم كتاب مثلكم لأنهم من النصارى ، ولننتصرن عليكم كما انتصر الفرس ، فحلف أبو بكر بعد نزول الآية أن الرومان سيغلبون الفرس بعد هزيمتهم هذه ، فقالوا له : إجعل لنا موعدا ونراهنك على ذلك فضرب موعدا بسيطا ثم استشار النبى ﷺ فقال له : زد فى الرهان ومد الأجل فإن البضع من ثلاث إلى تسع

(١)من الآية ٢٠ من سورة العنكبوت
(٢) من الآية ٩ من سورة الروم
(٣) من الآية ١١ من سورة الروم

ففعل وانتصر الرومان فى السنة التاسعة ، وأخذ أبو بكر الجعل وتصدق به .

*** التفسير ***

(ألم) حروف هجائية افتتح القرآن الكريم بها بعض سوره إذا جمعناها وحذفنا المكرر منها أنتجت لنا عبارة تقول : (نص حكيم قاطع له سر) وفيها إشارة إلى إعجاز هذا الكتاب الخالد : قال تعالى : **﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾**[1] .

قوله تعالى : **﴿ غلبت الروم فى أدنى الأرض ﴾** قال ابن عباس كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب فذكر ذلك لأبى بكر فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : (أما إنهم سيغلبون) فذكره أبو بكر لهم فقالوا إجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : (ألا جعلتها إلى دون ـ أراه قال العشر ـ)[2] قال سعيد بن جبير البضع ما دون العشر ثم ظهرت الروم بعد قال فذلك قوله : **﴿ ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾** .

والروم من سلالة العيص بن إسحق بن إبراهيم وهم أبناء عم بنى إسرائيل ويقال لهم بنو الأصفر وكانوا على دين اليونان واليونان من سلالة يافث بن نوح أبناء عم الترك وكانوا يعبدون الكواكب السيارة السبعة ويقال لها المتحيرة ويصلون إلى القطب الشمالى وهم الذين أسسوا دمشق وبنوا معبدها وفيه محاريب إلى جهة الشمال فكان الروم على دينهم إلى بعد مبعث المسيح بنحو من ثلاثمائة سنة وكان من ملك منهم الشام مع الجزيرة يقال له قيصر فكان أول من دخل فى دين النصارى من ملوك الروم قسطنطين بن قسطس وأمه مريم الهيلانية الغندقانية من أرض حران كانت قد تنصرت قبله فدعته إلى دينها وكان قبل ذلك فيلسوف فتابعها يقال له تقية واجتمعت به النصارى وتناظروا فى زمانه مع عبد الله بن أريوس واختلفوا اختلافا كثيرا منتشرا متشتتا لاينضبط إلا أنه اتفق من جماعتهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا فوضعوا لقسطنطين العقيدة وهى التى يسمونها الأمانة الكبيرة وإنما هى الخيانة الحقيرة ووضعوا له القوانين يعنون كتب الأحكام من تحريم وتحليل وغير ذلك مما يحتاجون اليه وغيروا دين المسيح عليه السلام وزادوا فيه ونقصوا منه فصلوا إلى المشرق واعتاضوا عن السبت بالأحد وعبدوا الصليب وأحلوا الخنزير واتخذوا أعيادا أحدثوها كعيد الصليب والقداس والغطاس وغير ذلك من البواعيث والشعانين وجعلوا له الباب وهو كبيرهم ثم البتاركة ثم المطارنة ثم الأساقفة والقساقسة ثم الشمامسة وابتدعوا

---

(١) الآية ٢٣ من سورة البقرة
(٢) الحديث أخرجه الامام أحمد فى مسنده ١/ ٢٧٦ ، ٣٠٤

الرهبانية وبنى لهم الملك الكنائس والمعابد وأسس المدينة المنسوبة اليه وهى القسطنطينية يقال إنه بنى فى أيامه اثنى عشر ألف كنيسة وبنى بيت لحم بثلاثة محاريب وبنت أمه القمامة وهؤلاء هم الملكية يعنون الذين هم على دين الملك ثم حدثت بعدهم اليعقوبية أتباع يعقوب الأسكاف ثم النسطورية أصحاب نسطورا وهم فرق وطوائف كثيرة كما قال رسول الله ﷺ (إنهم افترقوا على اثنتين وسبعين فرقة)[1] والغرض أنهم استمروا على النصرانية كلما هلك قيصر خلفه آخر بعده حتى كان آخرهم هرقل وكان من عقلاء الرجال ومن أحزم الملوك وأدهاهم وأبعدهم غورا وأقصاهم رأيا فتملك عليهم فى رياسة عظيمة وأبهة كثيرة فناوأه كسرى ملك الفرس وملك البلاد كالعراق وخراسان والرى وجميع بلاد العجم وهو سابور ذو الاكتاف وكانت مملكته أوسع من مملكة قيصر وله رياسة العجم وحماقة الفرس وكانوا مجوسا يعبدون النار فتقدم عن عكرمة أنه قال بعث اليه نوابه وجيشه فقاتلوه والمشهود أن كسرى غزاه بنفسه فى بلاده فقهره وكسره وقصره حتى لم يبق معه سوى مدينة قسطنطينية فحاصره بها مدة طويلة حتى ضاقت عليه وكانت النصارى تعظمه تعظيما زائدا ولم يقدر كسرى على فتح البلد ولا أمكنه ذلك لحصانتها لأن نصفها من ناحية البر ونصفها الآخر من ناحية البحر فكانت تأتيهم الميرة والمدد من هنالك فلما طال الأمر دبر قيصر مكيدة ورأى فى نفسه خديعة فطلب من كسرى أن يقلع من بلاده على مال يصالحه عليه .

ويشترط عليه ما شاء فأجابه إلى ذلك وطلب منه أموالا عظيمة لايقدر عليها أحد من ملوك الدنيا من ذهب وجواهر وأقمشة وجوار وخدام وأصناف كثيرة فطاوعه قيصر وأوهمه أن عنده جميع ما طلب واستقل عقله لما طلب منه ما طلب ولو اجتمع هو وإياه لعجزت قدرتها عن جمع عشره وسأل كسرى أن يمكنه من الخروج إلى بلاد الشام وأقاليم مملكته ليسعى فى تحصيل ذلك من ذخائره وحواصله ودفائنه فأطلق سراحه فلما عزم قيصر على الخروج من مدينة قسطنطينية جمع أهل ملته وقال : إنى خارج فى أمر قد أبرمته فى جند قد عينته من جيش فان رجعت اليكم من قبل الحول فأنا ملككم وإن لم أرجع اليكم قبلها فأنتم بالخيار إن شئتم استمررتم على بيعتى وإن شئتم وليتم عليكم غيرى فأجابوه بأنك ملكنا مادمت حيا ولو غبت عشرة أعوام ، فلما خرج من القسطنطينية خرج جريدة فى جيش متوسط هذا وكسرى مخيم على القسطنطينية ينتظره ليرجع فركب قيصر من فوره وسار مسرعا حتى انتهى إلى بلاد فارس فعاث فى بلادهم قتلا لرجالها ومن بها من المقاتلة أولا فأولا ولم يزل يقتل حتى انتهى إلى المدائن وهى كرسى مملكة كسرى فقتل من بها وأخذ جميع حواصله وأمواله وأسر نساءه وحريمه وحلق رأس ولده وركبه على حمار وبعث معه من الأساورة من قومه فى غاية الهوان والذلة وكتب إلى كسرى يقول هذا ما طلبت فخذه فلما بلغ ذلك كسرى أخذه من الغم مالا يحصيه إلا الله تعالى واشتد حنقه على البلد فجد فى حصارها بكل ممكن فلم يقدر على ذلك فلما عجز ركب ليأخذ عليه الطريق من مخاضة جيحون التى لاسبيل لقيصر إلى القسطنطينية إلا منها . فلما علم قيصر بذلك احتال بحيلة عظيمة لم يسبق اليها وهو أنه أرصد جنده وحواصله التى معه عند فم المخاضة وركب فى بعض الجيش وأمر بأحمال من التبن والبعر

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى سننه ـ كتاب السنة باب شرح السنة الحديث ٤٥٩٦ ج ٤/ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ وابن ماجه فى كتاب الفتن باب افتراق الأمم الحديث ٣٩٩٢ ج ٢ ص ١٣٢٢

والروث فحملت معه وسار الى قريب من يوم فى الماء مصعدا ثم أمر بالقاء تلك الأحمال فى النهر فلما مرت بكسرى وجنده ظن أنهم قد خاضوا من هنالك فركبوا فى طلبهم فشغرت المخاضة عن الفرس وقدم قيصر فأمرهم بالنهوض والخوض فخاضوا وأسرعوا السير ففاتوا كسرى وجنوده ودخلوا القسطنطينية فكان ذلك يوما مشهودا عند النصارى وبقى كسرى وجيوشه حائرين لايدرون ماذا يصنعون لم يحصلوا على بلاد قيصر وبلادهم قد خربتها الروم وأخذوا حواصلهم وسبوا ذراريهم ونساءهم فكان هذا من غلب الروم لفارس وكان ذلك بعد تسع سنين من غلب فارس للروم وكانت الوقعة الكائنة بين فارس والروم حين غلبت الروم بين أذرعات وبصرى على ما ذكره ابن عباس وعكرمة وغيرهما وهى طرف بلاد الشام مما يلى بلاد الحجاز وقال مجاهد كان ذلك فى الجزيرة وهى أقرب بلاد الروم من فارس فالله أعلم ثم كان غلب الروم لفارس بعد بضع سنين وهى تسع فان البضع فى كلام العرب ما بين الثلاث إلى التسع : وكذلك جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وغيرهما من حديث عبد الله بن عبد الرحمن الجمحى عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر فى مناحبه ﴿ الم . غلبت الروم ﴾ الآية (ألا احتطت يا أبا بكر فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع ؟)[١] ثم قال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه . وروى ابن جرير عن عبد الله ابن عمرو أنه قال ذلك والله أعلم وقوله تعالى ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أى من قبل ذلك ومن بعده فبنى على الضم لما قطع المضاف وهو قوله قبل عن الاضافة ونويت ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾ أى للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر فى قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثورى والسدى وغيرهم وقد ورد فى الحديث الذى رواه الترمذى وابن جرير وابن حاتم عن أبى سعيد قال : (لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ففرحوا به)[٢] وأنزل الله ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ .

وليس ثمة أدنى شك كان يوم عيد للأمة الاسلامية بنصر الله لعباده المؤمنين . قال تعالى : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام.إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب . فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾[٣] ثم يقول تعالى : ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم ﴾[٤] ويقول سبحانه ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾[٥] وقد

(١) الحديث فى تحفة الاحوذى ، تفسير سورة الروم ٩/ ٥٢ ، وتفسير الطبرى ٢١/ ١٢ وأخرجه الترمذى
(٢) الحديث أخرجه الامام احمد فى مسنده ج ١/ ٢٧٦ ، ٣٠٤
(٣) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة الأنفال
(٤) الآية ١٧ من سورة الانفال
(٥) الآية ١٢٣ من سورة آل عمران

كتب الله تعالى النصر للأتقى فالتقوى هى السلاح الأقوى فإن لم يكن هناك أتقى كان النصر للأقوى . قال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ وقال سبحانه : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ، ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق . فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[(١)] .

قوله تعالى ﴿ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾[(٢)] العزيز الذى لايغلب ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز ﴾[(٣)] فهو المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ﴿ إعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾ قوله تعالى : ﴿ وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾[(٤)] سبحانه إذا وعد وفى وإذا قال صدق وإذا حكم عدل وقد وعد بنصر إحدى الطائفتين وقد صدق الله وعده إنه لايخلف الميعاد وما سبق فى علم الله لابد من نفاذه ولكن أكثر الناس لايعلمون ذلك إنما يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وشئونها المادية ولايعلمون عن الأخرة إلا القليل وقد يغفلون عن هذا القليل فقد جل جلال الله إذ يقول : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[(٥)]. قال الحسن البصرى : والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلى . وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾[(٦)] يعنى الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم فى أمر الدين جهال .

لفت أنظار المشركين وتهديد لهم

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا

(١) الآيات من ١ الى ٧ من سورة محمد
(٢) من الآية ٥ من سورة الروم
(٣) الآية ٢١ من سورة المجادلة
(٤) الآية ٦ من سورة الروم
(٥) الآية ٧ من سورة الروم
(٦) الآية ٧ من سورة الروم

أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ
﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ
﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾

معانى المفردات

(وأثاروا الأرض) حرثوها وزرعوها (السوءى) مؤنث الأسوء والمراد بها النار (يبلس) أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته ، ولم يؤمل أن تكون له حجة ، والمبلس الساكت المنقطع فى حجته اليائس من أن يهتدى إليها (روضة) الروضة الجنة وأصلها النبات حول الغدير من البقول (يحبرون) ينعمون ويسرون من الحبور وهو السرور .

المناسبة وإجمال المعنى

لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده ، وأنكروا البعث كما قال وهم عن الآخرة هم غافلون ـ أردف هذا أن الأدلة متظاهرة فى الأنفس والآفاق على وجوه وتفرده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه ، وأنها لم تخلق سدى ولا باطلا ، بل خلقت بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة ، ثم أمرهم بالسير فى أقطار الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم بأسا وقوة ، فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله وصاروا كأمس الدابر والمثل الغابر ، وما كان ذلك إلا بظلمهم وفساد أنفسهم لا بظلم الله لهم .

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ . المقصود بالتفكر : التدبر والنظر . قال تعالى : ﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾[1] وقال جل شأنه : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات

(١) الآية ١٨٥ من سورة الاعراف

والأرض ﴾(١) وقال : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ وقال : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما ﴾(٣) وقال جل شأنه : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾(٤) والنظر هو التدبر فى الأمور الجزئية بقصد الوصول إلى حكم كلى وقد أمر الله تعالى بالتفكر قال تعالى : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾(٥) كما أمر هنا بالتفكر فى الأنفس والعالم العلوى والسفلى من السموات والأرض ليعلموا أن الله واحد وأن البعث حق وإن كثيرا من الناس بعد وضوح الأدلة وظهور الآيات بلقاء ربهم لكافرون .

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر
وأنت الكتاب المبين الذى ... بأحرفه يظهر المضمر
وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر

* كنوز الأسرار *

ولكى نسلك مدارج الأنوار ونقف على حقائق الأسرار فبين أيدينا الآن كتاب : (مفتاح دار السعادة) للامام إبن القيم يحدثنا فيه عن الآيات الباهرة والبراهين الساطعة والحجج القاطعة على عظمة الله تعالى ووحدانيته وقدرته . فيقول رحمه الله : إذا تأملت ما دعا الله سبحانه وتعالى فى كتابه إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر فى آياته . ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه فى كتابه ليستدل بها على غيرها (فمن ذلك خلق الأنسان وقد ندب سبحانه) إلى التفكر فيه والنظر فى غير موضع من كتابه كقوله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾(٦) وقوله تعالى : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾(٧) .

وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾(٨) وقال تعالى : ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾(٩) وقال

(١) الآية ١٠١ من سورة يونس
(٢) الآيات ٢٤ الى ٣٢ من سورة عبس
(٣) من الآية ٢٥٩ من سورة البقرة
(٤) من الآية ٩٩ من سورة الأنعام
(٥) الآية ٤٦ من سورة سبأ
(٦) الآية ٥ من سورة الطارق
(٧) الآية ٢١ من سورة الذرايات
(٨) من الآية ٥ من سورة الحج
(٩) الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ من سورة القيامة

تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ﴾ . وقال : ﴿ أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾(١) وقال : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾(٢) وهذا كثير فى القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر فى مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شىء إلى الانسان نفسه ، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما يقتضى الأعمار فى الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه ولو فكر فى نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره .

قال الله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ﴾(٣) فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والترائب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث (فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة وهى قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه ، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما فى موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولابرد يجمده ولا عارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقة حمراء إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة فى لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة فى شكلها وهيأتها وقدرها وملبسها ولونها .

(وانظر) كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحما ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهى محفوظة به ، وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤوسها بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأنامل وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه (ثم انظر) الحكمة البالغة فى تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له وكيف قدرها ربها وخالقها

---

(١) الآية ٧٧ من سورة يس
(٢) الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ من سورة المؤمنون
(٣) الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ من سورة عبس

بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب بعضها فى بعض فمنها ما تركبه تركب الذكر فى الأنثى ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فإنها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الانسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه للتردد فى حاجته لم يجعل عظامه عظما واحدا بل عظاما متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من أحد طرفى العظم وألصق أحد طرفى العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل فى أحد طرفى العظم زوائد خارجة عنه وفى الآخر نقرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزءا من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمس وخمسون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الادراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر فى مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الابصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا وهو إنسان العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس فتبارك الله أحسن الخالقين .

(فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتها ومقدارهما ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما وسترا وحفظا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذى والغبار ويقيانها من البارد المؤذى والحار المؤذى ثم غرس فى أطراف تلك الأجفان والأهداب جمالا وزينة ولمنافع آخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذى يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزا لرؤية ما فوقها من الكواكب وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب فى هذا المقيد الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السموات مع إتساع أكنافها وتباعد أقطارها وشق له السمع (وخلق) الأذن أحسن خلقة وأبلغها فى حصول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر بإخراجه وجعل فيها غضونا وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حدته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لامساكه وفيه أيضا حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا فى غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولايقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة فى رجوعه وجعل ماء العينين ملحا ليحفظهما فإنها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ما هى عليه إذ لو كان على غير

ذلك الصفة لأحالها إلى طبيعته كما أن من عرض لفمه المرارة استمر طعم الأشياء التى ليست بمرة كما قيل .

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

(ونصب سبحانه) قصبة الأنف فى الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التى تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل فى داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل فى الأذن لئلا يمسك الرائحة ـ فيضعفها ويقطع مجراها وجعل سبحانه مصبا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتتجمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد فى مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لايضره ولايزعجه .

ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة ورحمة فإنه لما كان قصبة ومجرى ساترا لما ينحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل فى وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجرى فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين فى الغالب فيبقى الآخر للتنفس وإما أن يجرى فيهما فينقسم فلا يفسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للتنفس وأيضا فإنه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فانه ربما أصيبت إحداها أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة وكان وجود أنفين فى الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا وجعل فيه منفذين خجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين فى المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين (وشق سبحانه) للعبد الفم فى أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يبهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤديا عنه كما جعل الأذن رسولا مؤديا مبلغا إليه فهى رسوله وبريده الذى يؤدى إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد .

(واقتضت حكمته سبحانه) أن جعل هذا الرسول مصونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤديا منه إلى الخارج جعل له سترا مصونا لعدم الفائدة فى إبرازه لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب (وأيضا) فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق يستره ويصونه وجعل فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر وأيضا فإنه من ألطف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لايتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغير ذلك من الحكم والفوائد (ثم زين سبحانه الفم بما فيه) من الأسنان التى هى جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاء للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رءوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها

الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسنا وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعهما وهما الشفتان فحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهيأتهما وجعلهما غطاء للفم وطبقا له وجعلهما إتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الحلق بداية له واللسان وما جاوره وسطا ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة واقتضت حكمته أنه جعل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها فى الحركة .

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولايكاد يشتبه صوتان إلا نادرا ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بأصواتهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور (وزين سبحانه) الرأس بالشعر وجعله لباسا له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما أنبت به من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما ينحدر من بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه أيضا باللحية وجعلها كمالا ووقارا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب وتحتهما من العنفقة (وكذلك خلقه سبحانه) لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس حال معاشه فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل والابهام بإثنتين ووضع الأصابع الأربع فى جانب والابهام فى جانب لتدور الابهام على الجميع فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا فتبارك من لو شاء لسواها وجعلها طبقا واحدا كالصحيفة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فإن بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رءوسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لاينالها جسم للأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير وآلة لمعاشه وليحك الانسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذى هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الانسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته اليه ولم يقم مقامه شيء فى حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد اليد ولو فى النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة ثم انظر إلى الحكمة البالغة فى جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها فى الثخانة والصلابة لأنها محمولة .

(ثم انظر كيف جعل) الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقنا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها

فى بعض هى مجمع أضلاعه والتى تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع (وانظر) كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظم الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك عظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما مائتان وثمانية وأربعون مفاصل وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضرة على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فى هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج فى جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكم بين النظرين (ثم إنه سبحانه ربط تلك) الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهى مختلفة فى الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وابصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هى له كالآلات التى بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم فى قطرة ماء مهين فويل للمكذبين ويعدا للجاحدين (ومن عجائب خلقه) أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذا بعضها إلى بعض ، خزانة فى مقدمه وخزانة فى وسطه وخزانة فى آخره وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل (ومن عجائب خلقه) ما فيه من الأمور الباطنة التى لاتشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة وسائر ما فى بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع (فأما القلب) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر فى الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوانى والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات الكمال فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هى جند من أجناد القلب فإن العين طليعته ورائده الذى يكشف له المرئيات . فإن رأت شيئا أدته إليه ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه إذا إستقر فيه شىء ظهر فيها فهى مرآته المترجمة للناظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدى لسمع ما فيه .

ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه فى كتابه بين هذه الثلاث كقوله:﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[1] وقوله:﴿ وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة ﴾[2] وقوله:﴿ صم بكم عمى ﴾[3] وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله:﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ﴾[4] وقوله فى حق رسوله محمد ﷺ:﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[5] ثم قال:﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾[6] وكذلك الأذن هى رسوله المؤدى إليه (وكذلك) اللسان ترجمانه وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده

---

(١) من الآية ٣٦ من سورة الأسراء
(٢) الآية رقم ٢٦ من سورة الاحقاف
(٣) من الآية رقم ١٨ من سورة البقرة
(٤) من الآية ١١٠ من سورة الانعام
(٥) الآية ١١ من سورة النجم
(٦) الآية ١٧ من سورة النجم

وقال النبى ﷺ:(ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهى القلب)[١] (وقال أبو هريرة) القلب ملك والأعضاء جنوده فإن طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده وجعلت الرئة كالمروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء حرارة بل هو منبع الحرارة (وأما الدماغ) وهو المخ فإنه جعل باردا واختلف فى حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ باردا لتبريد الحرارة التى فى القلب ليردها عن الافراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدا عن القلب بل كان ينبغى أن يحيط به كالرئة أو يكون قريبا منه فى الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الأولى : بعد الدماغ من القلب لايمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لايتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسطت فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فإنه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الأقذار والكدر خال من الجلبة والزجل ، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر وإستخراج الصواب عند سكون البدن وفتور حركاته وقلة شواغله ومزعجاته ، ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلا فى ذلك صالحا له ولهذا تجود هذه الأفعال فى الليل وفى المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند الهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية (وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى) وهى أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة) : مبدؤها كلها القلب وهى مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق ، قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التى هى آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتى إلى كل واحد من هذه الأجسام التى فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) إذا أبصرت شيئا أدته بالآلة التى فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا أحس صوتا أداه إلى القلب وكذلك كل حاسة .

ثم أوردوا على أنفسهم سؤالا فقالوا (إن قيل كيف) يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمده عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقوة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى (وأجابوا عن ذلك) بأن جميع العروق التى فى البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة ، فما من عرق ولا عضو إلا وله اتصال بالقلب اتصالا قريبا أو بعيدا قالوا وينبعث منه فى تلك العروق والمجارى إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق ، وإلى كل ذى قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى ، ولهذا كان الرأى الصحيح أنه أول الأعضاء تكوينا . قالوا ولاريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف فى ذلك آخرون وقالوا بل العقل فى الرأس (فالصواب أن مبدأه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته فى الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الايمان باب ٤٠ ج ١ ص ٢٠ طبع الشعب

فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾ وقال : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب . ونازعهم فى ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وأنكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقة (والصواب التوسط) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهى قوة معنوية لاتحتاج فى وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فإن وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لايتوقف إلا على قبولها واستعدادها وإمداد القلب لا على مجار وأعصاب وبهذا يزول الالتباس فى هذا المقام الذى طال فيه الكلام وكثر فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب (والمقصود التنبيه) على أقل القليل من وجوه الحكمة التى فى خلق الانسان والأمر أضعاف ما يخطر بالبال أو يجرى فيه المقال وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التى هى شىء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه . وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط فى مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم يدخل منه آلة تقطعه صغارا ثم طاحون تطحنه ثم أعين بماء يعجنه ثم جعل له مجرى وطريقا إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقا توصله إلى المعدة فهى خزانة وموضع إجتماعه ولها بابان : أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه تفله والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للضار منه .

والأسفل منطبق دائما ليستقر الطعام فى موضعه فإذا انتهى الهضم فإن ذلك الباب ينفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك ، والأعلى يسمى فم المعدة . والطعام ينزل إلى المعدة متكيا فإذا استقر فيها إنماع وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام فيها كما ينضج الطعام فى القدرة بالنار المحيطة به ولذلك يذيب ما هو مستحجر كالحصا وغيره حتى يتركه مائعا فإذا أذابه علا صفوه إلى فوق ورسى كدره إلى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف ما فى ذلك وألطفه وأخفه إلى الأرواح فيبعث إلى البصر بصرا أو إلى السمع سمعا وإلى الشم شما وإلى كل حاسة بحسبها فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه إلى الدماغ ما يناسبه فى اللطافة والاعتدال ثم ينبعث من الباقى إلى الأعضاء فى تلك المجارى بحسبها وينبعث منه إلى العظام والشعر والأظفار ما يغذيها ويحفظها فيكون الغذاء داخلا إلى المعدة من طرق ومجار وخارجا منها إلى الأعضاء من طرق ومجار هذا وارد إليها وهذا صادر عنها حكمة بالغة ونعمة سابغة ولما كان الغذاء إذا استحال فى المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء وبلغما اقتضت حكمته سبحانه وتعالى أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفا ينصب إليه ويجتمع فيه ولاينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله فوضع المرارة مصبها للمرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للمرة السوداء والكبد تمتص أشرف ما فى ذلك وهو الدم ثم تبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل إلى كل واحد من الشعور والأعصاب والعظام والعروق ما يكون به قوامه ثم إذا نظرت إلى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة فى أنفسها ومنافعها رأيت العجب العجاب كقوة سمعه وبصره وشمه وذوقه ولمسه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه

وغير ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والارادة وكذلك القوى المنصرفة فى غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافقة له إلى الأعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الأعضاء حاجتها منه إلى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وأنه لو إجتمع الانس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا بل عظما واحدا من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذى أتقن كل شيء فى قطرة من ماء مهين . فمن هذا صنعه فى قطرة ماء فكيف صنعه فى ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هى أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الانسان بل لا نسبة لجميع ما فى الأرض إلى عجائب السموات قال الله تعالى : ﴿ **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾[2] وهذا كثير فى القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة إلى السموات كقطرة فى بحر .

ولهذا قل أن تجيء سورة فى القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمها وسعتها وإما إقساما بها وإما دعاء إلى النظر فيها وإما إرشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها وإما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذى لا إله إلا هو وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التى تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكم من قسم فى القرآن بها كقوله ﴿ **والسماء ذات البروج** ﴾[3] ﴿ **والسماء والطارق** ﴾[4] ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾[5] ﴿ **والسماء ذات الرجع** ﴾[6] ﴿ **والشمس وضحاها** ﴾[7] ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾[8] ﴿ **والنجم الثاقب** ﴾[9] ﴿ **فلا أقسم بالخنس** ﴾[10] وهى الكواكب التى تكون خنسا عند طلوعها جوار فى مجراها ومسيرها كنسا عند غروبها فأقسم بها فى أحوالها الثلاثة ولم يقسم فى كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ فى الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ، ولهذا يعظم سبحانه هذا القسم كقوله ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾[11] وأظهر القولين أنه أقسم بمواقع هذه النجوم التى فى السماء فإن إسم النجوم عند الاطلاق إنما ينصرف إليها

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النزاعات
(٢) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران
(٣) الآية ١ من سورة البروج
(٤) الآية ١ من سورة الطارق
(٥) الآية ٥ من سورة الشمس
(٦) الآية ١١ من سورة الطارق
(٧) الآية ١ من سورة الشمس
(٨) الآية ١ من سورة النجم
(٩) الآية ٣ من سورة الطارق
(١٠) الآية ١٥ من سورة التكوير
(١١) الآيتان ٧٥ ، ٧٦ من سورة الواقعة

وأيضا فإنه لم تجر عادته سبحانه باستعمال النجوم فى آيات القرآن ولا فى موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عادته باستعمال النجوم فى الكواكب فى جميع القرآن وأيضا فإن نظير الاقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى النجم فى قوله ﴿ والنجم إذا هوى ﴾[(١)] وأيضا فإن هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضا فإنه سبحانه يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده . هذه طريقة القرآن قال الله تعالى ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ﴾[(٢)] ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾[(٣)] ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾[(٤)] ﴿ حم والكتاب المبين ﴾[(٥)] ونظائره (والمقصود أنه سبحانه) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته وقد أثنى سبحانه فى كتابه على المفكرين فى خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون ﴾[(٦)] وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شدادا ﴾[(٧)] وقال تعالى ﴿ أأنتم أشد خلق أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ﴾[(٨)] وقال ﴿ وجعلنا السماء سقفا محفوظا ﴾ فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذى رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات وكيف ابتدأ خلقه من بخار إرتفع من الماء وهو الدخان .

فسبحان من لايقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيى عن بينة وإن الله لسميع عليم فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفى كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها وإختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها فى الحركة على الداوم من غير فتور فى حركتها ولاتغير فى سيرها بل تجرى فى منازل قد رتبت لها بحساب مقدر لايزيد ولاينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها وانظر إلى كثرة كواكبها وإختلاف ألوانها ومقاديرها .

فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصى (ثم انظر) إلى مسير الشمس فى فلكها فى مدة سنة ثم هى فى كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولأطبق الظلام على العالم ، أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة ، وكيف قدر لها العزيز العليم سفرين متباعدين ، أحدهما سفرها صاعدة إلى أوجها والثانى سفرها هابطة إلى حضيضها ، تنتقل فى منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من

---

(١) سورة النجم الآية ١
(٢) الآية ١ من سورة ص
(٣) الآيتان ١ ، ٢ من سورة يس
(٤) الآية ١ من سورة ق
(٥) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الزخرف
(٦) من الآية ٣٢ من سورة الأنبياء
(٧) من الآية ١٢ من سورة النبأ
(٨) الآية ٢٧ من سورة النازعات

الصيف والشتاء والخريف والربيع ، فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهواء وظهر الشتاء ، وإذا استوت فى وسط السماء اشتد القيظ ، وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها . (وانظر) إلى القمر وعجائب آياته كيف يبديه الله كالخيط الدقيق ثم يتزايد نوره ويتكامل شيئا فشيئا كل ليلة حتى ينتهى إلى إبداره وكماله وتمامه ، ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود إلى حالته الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد فى معاشاتهم وعباداتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنون ، وقام حساب العالم مع ما فى ذلك من الحكمة والآيات والعبر التى لا يحصيها إلا الله (وبالجملة فما من كوكب من الكواكب) إلا وللرب تبارك وتعالى فى خلقه حكم كثيرة ، ثم فى مقداره ، ثم فى شكله ولونه ، ثم فى موضعه من السماء وقربه من وسطها ، وقربه وبعده من الكوكب الذى يليه ، وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الاجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوت ما بين المتجاورات منها وبعد ما بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له ، وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها . وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة ونيفا وستين مرة . والكواكب التى تراها كثيرا منها أصغرها بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفى حديث ابى هريرة الذى رواه الترمذى ، ان بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماءين كذلك[1] ، وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلكه قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر ، وذلك بقدر لحظة واحدة لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلا ثم سار فى اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة فى لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام ، والعبد غافل عنه وعن آياته ، وقال بعضهم إذا تلفظت بقولك لا ، نعم ، فبين اللفظين تكون الشمس قد قطعت من الفلك مسيرة خمسمائة عام ، ثم انه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[2]

والنظر فى هذه الآيات وأمثالها نوعان ، نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا فوقه السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر . والثانى ان يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول فى أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهى به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ، ومجده ورفعته ، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير ، والأمر ينزل من فوقه

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٥ ص ٧٧ ، ٧٨ فى تفسير سورة الحديد من حديث أبى هريرة
(٢) سورة لقمان الآيتان : ٩ـ ١٠

بتدبير الممالك والجنود التى لا يعلمها إلا ربها مليكها ، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين ، وإعزاز قوم وإذلال آخرين ، وإسعاد قوم وشقاوة آخرين ، وإنشاء ملك وسلب ملك ، وتحويل نعمة من محل إلى محل ، وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر ، وإغناء فقير ، وشفاء مريض ، وتفريج كرب ، ومغفرة ذنب ، وكشف ضر ، ونصر مظلوم ، وهداية حيران ، وتعليم جاهل ، ورد آبق ، وأمان خائف ، واجارة مستجير ومدد لضعيف ، وإغاثة لملهوف ، وإعانة لعاجز ، وانتقام من ظالم ، وكف العدوان . فهى مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ فى اقطار العوام لا يشغله سمع شىء منها عن سمع غيره ، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا تنقص ذرة من خزائنه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فحينئذ يقوم القلب بين يدى الرحمن مطرقا لهيبته خاشعا لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدى الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد . فهذا سفر القلب وهو فى وطنه وداره ومحل ملكه ، وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعه فياله من سفر ، ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه واجل منفعته وأحسن عاقبته ، سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب لا كالسفر الذى هو قطعة من العذاب .

واذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده ، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم . وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها فى حوائجهم وتصرفاتهم . وأرساها بالجبال فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم وسع أكنافها ، ودحاها فمدها وبسطها ، وطحاها فوسعها من جوانبها ، وجعلها كفاتا للأحياء تضمهم على ظهرها ماداموا أحياء ، وكفاتا للأموات تضمهم فى بطنها إذا ماتوا ، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات وقد أكثر تعالى من ذكر الارض فى كتابه ، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر فى خلقها فقال تعالى ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾[1] ، ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قرارا ﴾[2] ، ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشا ﴾[3] ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[4] ﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾[5] وهذا كثير فى القرآن ، فانظر إليها وهى ميتة هامدة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج فأخرجت عجائب النبات فى المنظر والمخبر ، بهيج للناظرين ، كريم للمتناولين فأخرجت الأقوات على اختلافها وتباين مقاديرها وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار ، وأنواع الأدوية . ومراعى الدواب والطير . (ثم انظر) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحد فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة فى اللون

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٨
(٢) سورة غافر الآية ٦٤
(٣) سورة البقرة الآية ٢٢
(٤) سورة الغاشية الآية ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠
(٥) سورة الجاثية الآية ٣

والشكل والرائحة والطعم والمنفعة ، واللقاح واحد والأم واحدة كما قال تعالى : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾(١) فكيف كانت هذه الأجنة المختلفة مودعة فى بطن هذه الأم ، وكيف كان حملها من لقاح واحد ، صنع الله الذى أتقن كل شىء لا إله إلا هو ، ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده ، وهداهم إلى التفكر فيه . قال الله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٢) . فجعل النظر فى هذه الآية وما قبلها من خلق الجنين دليلا على هذه النتائج الخمس مستلزما للعلم بها ، ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات ، الشوامخ ، الصم الصلاب ، وكيف نصبها فأحسن نصبها ، وكيف رفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض لئلا تضمحل على تطاول السنين ، وترادف الأمطار والرياح بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ، ثم هدى الناس إلى استخراج تلك المعادن منها ، وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلى والزينة واللباس والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ، ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم على شىء منه ولا قدرة عليه .

(من آياته الباهرة) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض ، يدرك بحس اللمس عند هبوبه ، يدرك جسمه ولا يرى شخصه ، فهو يجرى بين السماء والأرض ، والطير مختلفة فيه ، سابحة بأجنحتها فى أمواجه كما تسبح حيوانات البحر فى الماء ، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر ، فإذا شاء سبحانه وتعالى حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدى رحمته ، ولا قحا للسحاب يلقحه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل . وتسمى رياح الرحمة بالمبشرات والنشر والذاريات والمراسلات والرخاء واللواقح . ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما فى البحر ، والعقيم ، والصرصر ، وهما فى البر ، ان شاء حركه بحركة العذاب فجعله عقيما وأودعه عذابا اليما وجعله نقمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصرا ونحسا وعاتيا ومفسدا لما يمر عليه ، وهى مختلفة فى مهابها فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال ، وفى منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ، فريح لينة رطبة تغذى النبات وابدان الحيوان ، واخرى تجففه ، واخرى تهلكه ، وتعطبه ، وأخرى تشده وتصلبه ، واخرى توهنه وتضعفه . ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها . فريح تثير السحاب ، وريح تلقحه ، وريح تحمله على متونها ، وريح تغذى النبات . لما كانت الرياح مختلفة فى مهابها وطبائعها ، جعل لكل ريح ريحا مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ، ويبقى لينها ورحمتها ، فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فإنه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لاهلاك ما ترسل لإهلاكه ، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون

---

(١) سورة الرعد آية ٤

(٢) سورة الحج آية ٥ ، ٦ ، ٧

كالجيش العظيم الذى لايقاومه شيء ، يدمر كل ما أتى عليه . وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا فى البر ، واما فى البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ [1] فإن السفن إنما تسير بالريح الواحدة التى تأتى من وجه واحد فإذا اختلفت الريح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها ، فالمقصود منها فى البحر خلاف المقصود منها فى البر ، اذ المقصود فى البحر ان تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء فأفردت هنا وجمعت فى البر . ثم إنه سبحانه أعطى هذا المخلوق اللطيف الذى يحركه أضعف المخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يتعلق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ، ويزعجها عن أماكنها ويفتتها ويحملها على متنه ، فانظر إليه مع لطافته وخفته إذا دخل فى الزمن مثلا وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه لتغمسه فى الماء لم يطف، وضع الحديد والصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوى الشديد ، وبهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه ، وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فإنه لا يرسب فيه لان الهواء يمتنع من الغوص فى الماء فتعلق به السفينة المشحونة الموقرة ، فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف ، وتعلق به حتى أمِنَ من الغرق ، وهذا كالذى يهوى فى قليب فيتعلق بذيل رجل قوى شديد يمتنع من السقوط فى القليب فينجو بتعلقه به ، فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد ، ومن آياته السحاب المسخر بين السماء والأرض ، كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتسيره كثفا ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ، ثم تلحقه الريح وهى التى سماها سبحانه لواقح ، ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه ، فإذا علاها واستوى عليها اهراق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو فى الجو فتذروه وتفرقه لئلا يؤذى ويهدم ما ينزل عليه بجملته حتى اذا رويت واخذت حاجتها منه أقلع عنها وفارقها فهى روايا الأرض محمولة على ظهور الرياح . وفى الترمذى وغيره ان النبى ﷺ لما رأى السحاب قال : « هذه روايا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه » [2] فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التى عليها ميرتهم . وكان الحسن إذا رأى السحاب قال فى هذا : والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم . وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : (بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا فى سحابة اسق حديقة فلان ، فمر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فإذا برجل معه مسحاة يسجى الماء بها فقال : ما اسمك ياعبد الله ؟ قال فلان للاسم الذى سمعه فى السحابة) [3] (وبالجملة) فإذا تأملت السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع فى جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله متى شاء ، وإذا شاء ، وهو مع لينه ورخاوته

---

(١) سورة يونس آية ٢٢

(٢) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٥ ص ٧٧ تفسير سورة الحديد . مع اختلاف فى لفظ يذكرونه قال ولا يدعونه .

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق باب الصدقة فى المساكين حـ ٤ ص ٢٢٨٨ رقم ٤٥/ ٢٩٨٤

حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه فى إرسال ما معه من الماء فيرسله وينزل منه مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ، ولا يتأخر متقدمها ، وتدرك القطرة صاحبتهافلا تمزج بهابل تنزل كل واحدة فى الطريق الذى رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عنيت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تتعداه إلى غيره فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخرجوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر فى لحظة واحدة لعجزوا عنه . فتأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب والطير والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلانية فى الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلانى فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش فى وقت كذا ، وكذا ، ثم كيف أودعه فى الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية ، والأثواب فهذا النبات يغذى ، وهذا يصلح الغذاء ، وهذا ينقذه ، وهذا يضعف ، وهذا سم قاتل ، وهذا شفاء من السم ، وهذا يمرض ، وهذا دواء من المرض ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل فى المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق . وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال إليها ، وهذا يدفع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل اليهما ، وهذا يهيج الدم ، وهذا يسكنه ، وهذا ينوم ، وهذا يمنع النوم ، وهذا يفرح ، وهذا يجلب الغم ، إلى غير ذلك من عجائب النبات التى لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع تعجز عقول البشر عن الاحاطة بها وتفصيلها . وانظر إلى مجارى الماء فى تلك العروق الرقيقة الضئيلة الضعيفة التى لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديقه كيف يقوى قسره واجتذابه من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف فى تلك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم تتفرق وتتشعب وتدق إلى غاية لا ينالها البصر .

ثم انظر إلى تكون حمل الشجرة ونقلته من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجاب فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين . بينما تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها اذا كساها ربها وخالقها من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة ، وكساها من الورق كسوة هى أثبت من الأولى ، ثم اطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة لتستجن به من الحر والبرد والآفات ، ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها فى تلك العروق والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبن أمه ، ثم رباها ونماها شيئا فشيئا حتى استوت وكملت وتناهى ادراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء ، هذا وكم لله من آية فى كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه تفنى الأعمار دون الاحاطة بها وبجميع تفاصيلها .

ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا يعيد ذكرهما فى القرآن ويبديه كقوله تعالى : ﴿ ومن آياته الليل والنهار ﴾[1]

وقوله ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا ﴾[2] وقوله عز وجل

---

(١) سورة فصلت آية ٣٧

(٢) سورة الفرقان آية ٤٧

﴿ وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾[١] وقوله عز وجل ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾[٢] وهذا كثير فى القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من الصبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعى والتعب حتى إذا اخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة وفرقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفا منها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم ، ولا ضعف فى قدرة القادر التام القدرة ، ولا قصور فى حكمته ، ولا فى علمه ، يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهذا ايضا من آياته الباهرة أن يعمى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ، ولا يبصرها لمن هو واقف فى الماء إلى حلقه وهو يستغيث من العطش ويتكرر وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع اليه ويسأل .

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكثفة لأقطار الأرض التى هى خلجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة فى بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء ولولا امساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيئته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها ، هذا طبع الماء ، ولهذا حار عقلاء الطبيعة فى سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وأن يغمره ، ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك الا الاعتراف بالعناية الأزلية . والحكمة الألهية التى اقتضت ذلك ليعيش الحيوان الأرضى فى الأرض ، وهذا حق ولكنه يوجد الاعتراف بقدرة الله ، وارادته ومشيئته ، وعلمه ، وحكمته ، وصفات كماله ، ولا محيص عنه .

وفى مسند الامام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال : (ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بنى آدم)[٣] وهذا أحد الأقوال فى قوله عز وجل ﴿ والبحر المسجور ﴾[٤] إنه المحبوس حكاه ابن عطيه وغيره . قالوا ومنه ساجور الكلب وهى القلادة من عود أو حديد التى تمسكه ، وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض ، فالأرض فى البحر كبيت فى جملة الأرض ، وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها . وأشكالها ، ومقاديرها ، ومنافعها ، ومضارها ، وألوانها ، حتى أن فيها حيوانات أمثال الجبال لا يقوم له شىء ، وحتى أن منه من الحيوانات

(١) سورة الأنبياء آية ٣٣
(٢) سورة غافر آية ٦١
(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد (مسند عمر بن الخطاب ح ١ ص ٤٣ مع اختلاف فى الألفاظ
(٤) سورة الطور آية ٦

ما يرى ظهورها فنظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان ، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفى البحر أمثاله ، حتى الانسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يعهد لها نظير فى البر أصلا هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤ كيف أودعت فى كل كالبيت لها وهى الصدفة تكنها ، وتحفظها ، ومنه اللؤلؤ المكنون وهو الذى فى صدفه لم تمسه الأيدى . وتأمل كيف نبت المرجان فى قعره فى الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر .

هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائس التى يقذفها البحر ولا تستخرج منه ، ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها فى البحر تشقه وتمخره بلا قائد ليقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التى يسخرها الله لاجرائها ، فإذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راكدة على وجه الماء ، قال الله تعالى : ﴿ ومن آياته الجـوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[1] وقال الله تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[2] فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها فى كتابه كثيرا :

وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصيها إلا الله سبحانه . وقال الله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾[3] .

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشى على بطنه ومنه الماشى على رجليه ومنه الماشى على أربع ، ومنه ما جعل سلاحه فى رجليه وهو ذو مخالب ، ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب ، ومنه ما سلاحه الأسنان ، ومنه ما سلاحه العياصى وهى القرون يدافع بها عن نفسه من يروم أخذه ، ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فان سلاحه قوته ، ومنه ما سلاحه فى ذرقة وهو نوع من الطير إذا دنا منه يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه ويكرر فى القرآن أمر عباده بالنظر فى الآيات مرة أخرى فهو من أجل مقاصد القرآن ؟

قال الله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾[5] .

وقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا

---

(١) سورة الشورى آية : ٣٢ ، ٣٣
(٢) سورة النحل آية : ١٤
(٣) سورة الحاقة آية : ١١ ، ١٢
(٤) سورة يونس آية ١٠١
(٥) سورة آل عمران آية ١٩٠
(٦) سورة الغاشية الآيات ١٧٠ ـ ٢٠
(٧) سورة الأعراف آية ١٨٥

ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾(١) فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه واثماره ووقت نضجه وإدراكه . يقال أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن فى خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ، ثم خروجه من حد العقوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع ، والطعم اللذيذ الشهى لآيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس ان يخرجوا وقت إدراك الثمار وينعها فينظروا اليها . . ثم تلا : ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾(٢) ولو أردنا أن نستوعب ما فى آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأنه الله الذى لا إله إلا هو الذى ليس كمثله شيء ، وأنه الذى لا أعظم منه ، ولا أكمل منه ، ولا أبر ولا ألطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ، ولكن ما لا يدرك جميعه لا ينبغى ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك .

تأمل فى وضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، فانك اذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما يحتاج اليه ، فالسماء سقفه المرفوع عليه ، والأرض مهاد وبساط ، وفراش ، ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له ، وزينة وادلة للمنتقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر ، والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذى يصلح له وضروب النبات مهيأة لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه ، فمنها الركوب ومنها الحلوب ، ومنها الغناء ، ومنها اللباس ، والأمتعة ، والآلات ، ومنها الحرس الذى وكل بحرس الانسان يحرسه ـ وهو نائم وقاعد ـ مما هو مستعد لاهلاكه وأذاه ، فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقر للانسان قرار بينهم وجعل الانسان كالملك المخول فى ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففى هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم ، قدره أحسن تقدير ، ونظمه أحسن نظام ، وأن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الاله واحد لا إله إلا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، وأنه لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامها وتعطلت مصالحها ، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئتان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال فى أوائل العقول وبداية الفطر ، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، اذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون . عالم

(١) سورة الأنعام الآيات ٩٥ ـ ٩٩

(٢) سورة الانعام آية ٩٩

الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يعجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدح صحيح ، أو يأتوا بأحسن منهما ، ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ، ولولا خشية الاطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر ، وسنفرد ان شاء الله كتابا مستقلا لأدلة التوحيد .

فتأمل خلق السماء ، وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات فى علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها ، بل هى ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض ان تزولا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له ، حتى ان من أصابه شىء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المستقبلة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له ، هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

ثم تأمل حال الشمس والقمر فى طلوعهما وغروبهما لاقامة دولتى الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون فى معايشهم ، ويتصرفون فى أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ، ثم تأمل الحكمة فى غروبها فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات ، وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة كظهور سلطانها فى النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها ، من حيوان ، ونبات ، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدأوا ، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل ، وحر هذا مع برد هذا ، مع تضادهما متعاونين متظاهرين بهما تمام مصالح العالم . وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبه عباده عليه بقوله عز وجل : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنوا فيه أفلا تبصرون** ﴾[1] .

خص سبحانه النهار بذكر البصر لأنه محله وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن سلطان السمع يكون بالليل ، وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع فى النهار لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر ، والنهار بالعكس فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله أفلا تسمعون راجع إلى قوله : ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ راجع إلى قوله : « **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة** » وقال تعالى : ﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا** . وهو

(١) سورة القصص آية ٧١ ، ٧٢

الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾[١] فذكر تعالى خلق الليل والنهار وأنهما خلفة أى يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر ، لا يجامعه ، ولا يحاذيه بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حثيثا حتى يزيله عن سلطانه ثم يجىء الآخر عقبه فيطلبه حثيثا ويزيله عن سلطانه فهما دائما يطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه .

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس فى انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلا واحدا لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه فلو كان صيفا كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان صيفا كله لفاتت مصالح الصيف وكذلك لو كان ربيعا كله أو خريفا كله ففى الشتاء تغور الحرارة فى الأجواف وبطون الأرض والجبال فتتولد مواد الثمار وغيرها ، وتبرد الظواهر ويستكشف فيه الهواء فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذى به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان وقوتها وتزايد القوى الطبيعية ، واستخلاف ما حللته حرارة الصيف من الأبدان ، وفى الربيع تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة فى الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك الحيوان للتناسل ، وفى الصيف يحتد الهواء ويسخن جدا فتنضج الثمار وتنحل فضلات الابدان والاخلاط التى انعقدت فى الشتاء ، وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ، ولهذا تبرد العيون والآبار ، ولا وتهضم المعدة الطعام التى كانت تهضمه فى الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت تهضمها بالحرارة التى سكنت فى البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد وغارت البرودة فيه فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم ، وجعله الله بحكمته برزخا بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره ، فإذا انتقل إليه بتدريج وترتيب لم يصعب عليه فانه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتى جمرة البرد بعد استعداد وقبول ، حكمة بالغة وآية باهرة . وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدريج ، وترتيب ، وترتيب ، فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والاضاءة ، وكيف جعل لهما بروجا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لاقامة دولة السنة ، وتمام مصالح حساب العالم الذى لا غناء لهم فى مصالحهم عنه ، فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والاجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك ، فلولا حلول الشمس والقمر فى تلك المنازل وتنقلهما فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شىء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا فى غير موضع من كتابه كقوله : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾[٣]

---

(١) سورة الفرقان آية ٦١ ، ٦٢
(٢) سورة يونس آية ٥
(٣) سورة الاسراء آية ١٢

ثم تأمل الحكمة فى طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العليم ـ سبحانه ـ فإنها لو كانت تطلع فى موضع فى السماء فتقف فيه ولا تغدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل احد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر ، وكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم ، والنهار سرمدا على من هى طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء ، فاقتضت الحكمة الالهية ، والعناية الربانية ، أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربى ، ثم لا تزال تدور وتغشى جهة من جهة حتى تنتهى إلى المغرب فتشرق على ما استتر عنها فى أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم .

ثم تأمل الحكمة فى مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم والليلة لو زاد على ما قدر أو نقص لفاتت المصلحة واختلفت الحكمة بذلك ، بل جعل مكبا لها أربعا وعشرين ساعة وجعلا يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد فى احدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ﴾(١) وفيه قولان : احدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا فى مكان ضياء ذلك وضياء هذا فى مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما فى موضع صاحبه . وعلى هذا فهى عامة فى كل ليل ونهار للقول الثانى أنه يزيد فى أحدهما ما ينقصه من الآخر فما ينقص منه يلج فى الآخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار فى غير زمن الاعتدال فهى خاصة فى الزمان وفى مقدار ما يلج فى أحدهما من الآخر وهو فى الأقاليم المعتدلة غاية ما تنتهى الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الاقليم فى الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهى إلى حد لا يسكنه الانسان ولا يتكون فيه النبات ، وكل موضع لا تقع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ، ولا نبات لفرط برده ويبسه ، وكل موضع لا تفارقه كذلك لفرط حره ويبسه ، والمواضع التى يعيش فيها الحيوان ، والنبات ، هى التى تطلع عليها الشمس وتغيب ، واعدلها المواضع التى تتعاقب عليها الفصول الأربعة ؛ ويكون فيها اعتدالان ، خريفان وربيعان ، ثم تأمل إنارة القمر والكواكب فى ظلمة الليل ، والحكمة فى ذلك فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدوء الحيوان ، وبرد الهواء على الأبدان ، والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشىء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لا ضوء فيه أصلا فكان لا يتمتع الحيوان فيه من شىء من الحركة ولا الأعمال ، ولما كان الحيوان قد يحتاج فى الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتهيأ له بالنهار لضيق النهار ، او لشدة الحرارة أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان ، جعل فى الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحرث وغير ذلك من أهل الحروث والزروع ، فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات ، وجعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض مع نقص ضوئه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما ، والتفاوت الذى قدره العزيز العليم ، فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذى اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ، ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه

(١) سورة فاطر آية ١٣

وإحسانا ، فسبحان من أتقن من صنع وأحسن كل شيء خلقه .

ثم تأمل حكمته تبارك وتعالى فى هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يتهدى بها فى طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ، ثم تأمل تسخيرها منقادة بأمر ربها ـ تبارك وتعالى ـ جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعلمه ألا تخرج عنه فجعل منها البروج والمنازل والثوابت والسيارة والكبار والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ، ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه وجعل منطقة البروج قسمين ، مرتفعة ، ومنخفضة ، وقدر سيرها تقديرا واحدا ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها ، فمنها ما يقطعها فى شهر واحد وهو القمر ، ومنها ما يقطعها فى عام ، ومنها ما يقطعها فى عدة أعوام ، كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسبابا لما يحدثه ـ سبحانه ـ فى هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التى تقارنها كمعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التى تقارنها ، وكذلك غيرها من المنازل والسيارات ، ثم تأمل جعله سبحانه بنات نعش وما قرب منها ظاهر لا تغيب لقربها من المركز ولما فى ذلك من الحكمة الالهية ، وإنها بمنزلة الاعلام التى يهتدى بها الناس فى الطرق المجهولة فى البر والبحر ، فهم ينظرون إليها وإلى الجدى والفرقدين كل وقت ارادوا فيهتدون بها حيث شاءوا .

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفقته ، ولا يفرد عنهم سيره ابدا بل لا يسيرون إلا جميعا ، وبعضها يسير سيرا مطلقا غير مقيد برفيق ولا صاحب ، بل إذا اتفق له مصاحبته منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى ، فبينما تراه ورفيقه وقرينه إذا رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط ، وهذه السيارة لها فى سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف ، سير عام يسير بها فلكها ، وسير خاص تسير هى فى فلكها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحى ذات الشمال ، والرحى تأخذ ذات اليمين فللنملة فى ذلك حركتان مختلفتان إلى جهتين متباينتين ، احداهما بنفسها ، والأخرى مكرهة عليها تبعا للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها ، وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ،

ثم يسير فلكها وبمنزلها إلى جهة الغرب ، فسل الزنادقة والمعطلة أى طبيعة اقتضت هذا ؟ وأى فلك أوجبه ؟ ، وهلا كانت كلها راتبة أو متنقلة ؟ أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد ؟ وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارىء المصور الذى ليس كمثله شيء أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذى خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر ! : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾[1] فإن قلت : فما الحكمة فى كون بعض النجوم راتبا وبعضها

(١) سورة الأعراف آية ٥٤

متنقلا ؟ قيل إنها لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التى نشأت من تنقلها فى منازلها ومسيرها فى بروجها ، ولو كانت كلها متنقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ، ولا رسم يقاس عليها ، لأنه انما يقاس مسير المتنقلة منها بالراتب كما تقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التى يمرون عليها ، فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التى فى اختلافها ، ولتشبث المعطل بذلك وقال لو كان فاعلها ومبدعها مختارا لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد ، فهذا الترتيب والنظام الذى هى عليه من ادلة الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته .

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه ، وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام ، وما فى طى ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد ، وما فى ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات ، وهل يخفى على ذى بصيرة أن هذا ابداع المبدع الحكيم ، وتقدير العزيز العليم ، ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده فى الله ، وإنما دعوهم إلى عبادتهوحده لا إلى الاقرار به ، فقالت لهم : ﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾[1] فوجوده ـ سبحانه ـ وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الاطلاق ، فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار ، وأبين للعقول من كل ما تعقله وتقر بوجوده ، فما ينكره إلا مكابر بلسانه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى : ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفى الأرض قطع متجاورات ﴾[2] الآية .

وقال تعالى : ﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين . وفى خلقكم وما يبث من دابة ﴾ إلى قوله: ﴿ وآياته يؤمنون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة ﴾ إلى قوله: ﴿ فى ضلال مبين ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هم خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ إلى قوله: ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾[5] وتأمل كيف وجد سبحانه الآية من قوله : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ﴾ إلى آخرها[6] . وختمها بأصحاب الفكرة فأما توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد ، وهو الماء الذى أنزله من السماء ، فأخرج به كل ما ذكره من الأرض وهو على اختلاف انواعه لقاحه واحد ، وأمه واحدة ، فهذا نوع واحد من آياته . وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التى ذكرها من الماء موضع فكر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل منه إلى نظر القلب فى حكمة ذلك وبديع صنعه

---

(١) سورة إبراهيم آية ١٠
(٢) سورة الرعد آية ٢ ـ ٤
(٣) سورة الجاثية آية ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦
(٤) سورة لقمان آية ١٠ ١١
(٥) سورة النحل لآية ٤ ـ ١٧
(٦) سورة النحل اية ١٠

والاستدلال به على خالقه وباريه ، وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى فى الآية التى بعدها: **﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾** فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم ، وهى آيات متعددة مختلفة فى أنفسها وخلقها ، وكيفياتها ، إظلام الجو لغروب الشمس ومجيىء الليل الذى يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ، ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فيهزم عسكر الظلام ، وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجملته آية اخرى ، ثم فى الشمس التى هى آية النهار آية اخرى ، وفى القمر الذى هو آية الليل آية اخرى ، وفى النجوم آيات اخر ، كما قدمناه ، هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الريح واختلافها وسائر ما يحدثه الله بسببها آيات أخر ، فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم مما قبلها وأدل وأكبر ، والأولى كالباب لهذه فمن استدل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التى هى أعظم منها إلى العقل الذى هو فوق الفكر فتأمله ، فأما قوله فى الآية الثالثة **﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾** فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيدها فكتوحيد الأولى سواء ، فإن ما ذرأ فى الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله فى محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وان تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن فى ذلك ان يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى فى سورة ق : **﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾**[1] فالتبصر التعقل والتذكرة والتذكر والفكر باب ذلك ومدخله فإذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير فى الآية لترتيبه على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ، ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته . واخر التذكر اذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حق التأمل فإن قلت ما الفرق بين التذكر والتفكر فإذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكر والتذكر اصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام فى التفكر فى هذا الوجه لعظم المنفعة ، وشدة الحاجة إليه قال الحسن : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكر فى التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فإذا لها أسماع وأبصار . فاعلم ان التفكر طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها هذا حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون موردا للفكر استحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال ، وتلك المواد هى الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلا عنده لم يتفكر فيه فإذا عرف هذا فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادىء التى عنده الى المطلوب الذى يريده فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والترك وما ينبغى إيثاره وما ينبغى اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكر وثمرته فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكره فاستخرج ما لم يكن حاصلا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره مادام عاقلا ، لأن العلم والادارة لا يقفان على حد بل هو دائما سائر بين العلم والادارة . (وإذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة

---

(١) سورة ق آية ٧ ، ٨

وذكرى ، يتبصر بها من عمى القلب ، ويتذكر بها من غفلته ، فإن المضاد للعلم إما عمى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر . والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالاشارة إلى شيء من بعض آيات الله ولو ذهبنا نتتبع ذلك لنفد الزمان ولم نحط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ، ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما انقضت فيه الأنفاس التفكر فى آيات الله وعجائب صنعه والانتقال منها إلى تعليق القلب والهمة به دون شيء من مخلوقاته .

فسل المعطل الجاحد ما تقول فى دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللا فى مادته ولا فى صورته وقد جعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها ، وفى تلك الحديقة من يلم شعثها ، ويحسن مراعاتها وتعهدها ، والقيام بجميع مصالحها ، فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم ، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام ، أترى هذا إتقانا بلا صانع ؟ ولا مختار ولا مدبر ؟ بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة وكل ذلك إتقانا من غير فاعل ، ولا قيم ، ولا مدبر ، افترى ما يقول لك عقلك فى ذلك لو كان ؟ وما الذى يفتيك به ؟ وما الذى يرشدك إليه ؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم ان خلق قلوبا عميا لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية كما خلق اعينا لا أبصار لها ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهى لا تراها ، فما ذنبها ان أنكرتها وجحدتها ، فهى تقول فى ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئا ولقد أحسن القائل :

وهبنى قلت هذا الصباح ليلا ... أيعمى العالمون عن الضياء

ثم تأمل الممسك للسماوات والأرض الحافظ لهما أن تزولا أو تقعا أو يتعطل بعض ما فيهما أفترى من الممسك لذلك ؟ ومن القيم بأمره ؟ ومن المقيم له ؟ فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديقة العظيمة . من كان يصلحه ؟ وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة فى رده كما كان ؟ فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس فجعل عليهم الليل سرمدا . من الذى كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ؟ ولو حبسها فى الأفق ولم يسيرها ، فمن ذا الذى كان يسيرها ويأتيهم بالليل ؟ ولو أن السماء والأرض زالتا ، فمن ذا الذى كان يمسكهما من بعده ؟ ثم تأمل هذه الحكمة البالغة فى الحر والبرد وقيام النبات والحيوان عليهما ، وفكر فى دخول احدهما على الآخر بالتدريج والمهلة حتى يبلغ لنهايته ، ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها ، وبالنبات ، كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط فى البرودة ولولا العناية والحكمة والرحمة والاحسان لما كان ذلك فإن قلت هذا التدريج والمهلة إنما كان لابطاء سير الشمس فى ارتفاعها وانخفاضها ، قيل لك فما السبب فى ذلك الانخفاض والارتفاع ؟ فإن قلت السبب فى ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها ، قيل لك ، فما السبب فى بعد المسافة ؟ ولا تزال المسألة متوجهة عليك كلما عينت سببها حتى تقضى بك إلى أحد أمرين ؟ اما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك إتقان من غير مدبر ولا صانع ، وإما الاعتراف برب

العالمين ، والاقرار بقيوم السموات والأرضين ، والدخول فى زمرة اولى العقل من العالمين . ولن تجد بين القسمين واسطة ابدا ، فلا تتعب ذهنك بهذيانات الملحدين ، فإنها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين ، واذا طلع فجر الهدى واشرقت النبوة فعساكر تلك الخيالات والوساوس فى أول المنهزمين ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

ثم تأمل الحكمة فى خلق النار على ما هى عليه من الكمون والظهور ، فإنها لو كانت ظاهرة ابدا كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لا تظهر ابدا لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة فى الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته اليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعل فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فسقطت المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانفعال والسلامة من الضرر قال تعالى : ﴿ أفرأيتم النار التى تورون ﴾ إلى قوله ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾[1] فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف الينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين ، فأخبر سبحانه انه جعلها تذكرة بنار الآخرة فتستجير منها ونهرب إليه منها ، ومتاعا للمقوين وهم المسافرون النازلون بالقواء ، ـ والقواء هى الأرض الخالية ـ وهى أحوج إلى الانتفاع بالنار للاضاءة والطبخ والخبز والتدفى والأنس وغير ذلك ثم تأمل حكمته تعالى فى كونه خص بها الانسان دون غيره من الحيوانات ، فلا حاجة بالحيوان اليها بخلاف الانسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه فى معاشه ومصالحه ، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ، وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهى هذا المصباح الذى يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاءوا من ليلهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف اعمارهم بمنزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة او صناعة أو تصرفا فى ظلمة الليل الداجى ، وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع فى وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم او غير ذلك ، ثم انظر إلى ذلك النور المحمول فى ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضىء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد ، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يقرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفنى ولا ينفد ولا يضعف ، وأمامنا فع النار فى انضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع الا بجفافه وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى . ثم تأمل ما أعطته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة ، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلا ، فمن أعطى هذه القوة التى يطلب بها الهبوط إلى مستقره واعطى هذه القوى التى تطلب بها الصعود إلى مستقرها ؟ وهل هذا ؟ الا بتقدير العزيز العليم .

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان ، والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهرا وباطنا ، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها

---

(١) سورة الواقعة آيات ٧١ ـ ٩٦

وتؤديها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذى شأنه حمل الأخبار والرسائل ، وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع فتأتى العبد الرائحة من حيث تهب الريح ، وكذلك تأتيه الأصوات ، وهو ايضا الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات ، وتأمل منفعة الريح وما يجرى له فى البر والبحر وما هيئت له من الرحمة والعذاب ، وتأمل كم سخر السحاب من ريح حتى امطر فسخرت له المثيرة أولا فتثيره بين السماء والأرض ، ثم سخرت له الحاملة متى تحمله على متنها كالجمل الذى يحمل الراوية ، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كفه وقطعه ، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طبقا واحدا ، ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذى يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ولولاه لكان جهاما لا ماء فيه ، ثم سخرت له المزجية التى تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ، ثم سخرت له بعد اعصاره المفرقة التى تبثه وتفرقه فى الجو فلا ينزل ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجعله قطرا ، وكذلك الرياح التى تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقيما وكذلك الرياح التى تسير السفن ولولاها لوقفت على ظهر البحر ، ومن منافعها أنها تبرد الماء ، وتضرم النار التى يراد اضرامها ، وتجفف الأشياء التى يحتاج إلى جفافها . وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح ، فإنها لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وانتن العالم وفسد ، الا ترى اذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذى لو دام لأتلف النفوس واسقم الحيوان وامرض الاصحاء وأنهك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع واحدث الوباء فى الجو ، فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتى بروحه ورحمته ولطفه ونعمته ، كما قال النبى ﷺ فى الرياح : « إنها من روح الله تأتى بالرحمة »[1] وتنبه للطيفة فى هذا الهواء وهو أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام وليس نفس الاصطكاك ، كما قال ذلك من قاله ولكنه موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعة عنده فسببه قرع أو قلع فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء ويؤديه الى مسامع الناس فينتفعون به فى حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم ، فلو كان اثر هذه الحركات والأصوات يبقى فى الهواء كما يبقى الكتاب فى القرطاس لامتلأ العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء ، والاستبدال به أعظم من حاجاتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة فإن ما يلقى من الكلام فى الهواء أضعاف ما يودع فى القرطاس ، فاقتضت حكمة العزيز الحكيم ان جعل هذا الهواء قرطاسا خفيا يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ، ثم يمحى بإذن ربه فيعود جديدا نقيا لا شىء فيه فيحمل ما حمل كل وقت ثم تأمل خلق الأرض على ما هى عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهادا ومستقرا للحيوان

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد حـ ٢ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ عن أبى هريرة قال ، (حدثنا عبد الله ، حدثنى أبى حدثنا عبد الرازق حدثنا معمر عن الزهرى حدثنى ثابت ابن قيس ان ابا هريرة قال أخذت الناس ريح بطريق مكة وعمر بن الخطاب حاج فاشتدت عليهم الريح فقال عمر لمن حوله من يحدثنا عن الريح فلم يرجعوا إليه شيئا فبلغنى الذى سأل عنه عمر من ذلك فاستحثثت براحلتى حتى ادركته فقلت ياأمير المؤمنين اخبرت انك سألت عن الريح وانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (الريح من روح الله تأتى بالرحمة وتأتى بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا به من شرها)

والنبات والامتعة ، ويتمكن الحيوان والناس من السعى عليها فى مآربهم ، والجلوس لراحتهم والنوم لهدوئهم والتمكن من أعمالهم ، ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوءا ، ولا ثبت لهم عليها بناء ، ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة ، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم الى ترك منازلهم والهرب منها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله ﴿ **وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم . . .** ﴾(١)

وقوله تعالى: ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا . .** ﴾(٢) وقوله: ﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا . . .** ﴾(٣) وفى القراءة الأخرى مهادا .

وفى جامع الترمذى وغيره من حديث انس ابن مالك عن النبى ﷺ قال : (لما خلق الله الأرضين جعلت تميد فخلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شىء أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله)(٤) ثم تأمل الحكمة البالغة فى ليونة الأرض مع يبسها فإنها لو أفرطت اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الانتفاع بها ولو أفرطت فى اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها ، فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل مهب الشمال عليها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تنحدر المياه على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثم تفيض فتصب فى البحر . فكما أن البانى إذا رفع سطحا رفع أحد جانبيه وخفض الأخر ليكون مصبا للماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فأفسده .

كذلك جعل مهب الشمال فى كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقى الماء واقفا على وجه الأرض فمنع الناس من العمل والانتفاع وقطع الطرق والمسالك واضر بالخلق ، أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذى اتقن كل شىء .

ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها ، وفى حديث اسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبى ﷺ : (بالذى نصب الجبال وأدع فيها المنافع آلله أمرك بكذا وكذا ؟ ، قال اللهم نعم) . فمن منافعها أن

---

(١) سورة النحل آية ١٥
(٢) سورة غافر آية ٦٤
(٣) سورة الزخرف آية ١٠
(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد حـ ٣ ص ١٢٤ عن رواية انس بن مالك ثم انظر الحديث فى كنز العمال حـ ٦ ص ٣٩٨ رقم ١٦٢٤٠ ، وانظر صحيح الترمذى حـ ٥ ص ٤٢٣ أبواب تفسير القرآن ـ باب المعوقين رقم ٣٣٦٩ . تحقيق الشيخ شاكر .

الثلج يسقط عليها فيبقى فى قللها حاصلا لشراب الناس الى حين نفاده ، وجعل فيها ليذوب اولا فأولا فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت فى المروج والوهاد ، والربا ضروب النبات والفواكة والأدوية التى يكون مثلها فى السهل والرمل ، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه وكان فى انحلاله جملة السيول التى تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن تلافيه ولا دفعة لأذيته . ومن منافعها ما يكون فى حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التى بمنزلة الحصون والقلاع ، وهى ايضا اكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من احجارها للأبنية على اختلاف اصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد ، واضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشىء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ومن منافعها ايضا انها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها فى أمان من الرياح العظام المؤذية ، ومن منافعها انها ترد عنهم السيول اذا كانت فى مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول فى مجاريها ما مرت به ، فتكون لهم بمنزلة السد والسكن ، ومن منافعها انها أعلام يستدل بها فى الطرقات فهى بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة الى الطرق ، ولهذا سماها الله أعلاما فقال ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام** ﴾[1] فالجوارى هى السفن وأعلام الجبال واحدها علم فسمى الجبل علما من العلامة والظهور .

ومن منافعها أيضا ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التى لا تكون فى السهول والرمال كما أن ما ينبت فى السهول والرمال لا ينبت مثله فى الجبال ، وفى كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط بهما إلا الخلاق العليم .

ومن منافعها أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع ، بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن ، ومن منافعها ما ذكره الله تعالى فى كتابه أن جعلها للأرض أوتادا تثبتها ، ورواسى بمنزل مراسى السفن ، أعظم بها من منفعة وحكمة ، هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها فى غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها . ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ، ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام . فكان اولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذى نصبت عليه ، ولقد دعانا الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز الى النظر فيها وفى كيفية خلقه

---

(١) سورة الشورى آية ٣٢

فقال ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ﴾[١] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها وعلمه وحكمته ووحدانيته ، هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته ، وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها واشفقت من حملها ، ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه ، ومنها الجبل الذى حبب الله رسوله وأصحابه اليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه ، ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سورا على نبيه ، وجعل الصفا فى ذيل احدهما ، والمروة فى ذيل الأخر ، وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم . ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات ، فلله كم به من ذنب مغفور ، وعثرة مقالة وزلة معفو عنها ، وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة ، كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاءوا من كل فج عميق ، وقوفا لربهم خاضعين لعظمته ، خاشعين لعزته ، شعثا غبرا ، حاسرين عن رؤوسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهى بهم الملائكة ، فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو فى غاره فهو الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم ، فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك ، فسبحان من أختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالا هى مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه ، فهى تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها ، كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ، ووضع له القبول فى الأرض .

وإذا تأملت البقاع وجدتها ... تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلانى وجبل بنى فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به ... فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وإنها لتعلم لها موعدا ويوما تنسف فيها نسفا وتصير كالعهن من هوله وعظمه فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له . وكانت أم الدرداء ـ رضى الله عنها ـ إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها ، أسمعت الجبال ما وعدها ربها فيقال ما أسمعها فتقول ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾[٢] .

فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد اخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله .

فياعجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب ، فليس بمستنكر على الله عز وجل ، ولا يخالف حكمته أن تخلق لها

---

(١) سورة الغاشية آية ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(٢) سورة طه آية ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧

نارا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه ، فمن لم يلن الله فى هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلا فإن أمامه الملين الأعظم ، وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم .

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمال لينتفع بكل ذلك فى وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التى تحمل فى بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج الى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ما خرج منها وجعلها ـ سبحانه ـ كفاتا للأحياء ما داموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم فى بطنها ، فكانت كفنا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفى بطنها أمواتا ، فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد اثقلها الحمل وحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أثقالها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتنى وتخرج كنوزها بإذنه تعالى ثم تحدث اخبارها وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير وشر .

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل فى تجاويفها وتحدث فيها الأبخرة وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله ـ سبحانه ـ لها فى الأحيان بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والانابة والاقلاع عن معاصيه والتضرع إليه والندم .

وقد قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض إن ربكم يستعتبكم وقال عمر بن الخطاب فخطبهم ووعظهم وقال : « لئن عادت لا أساكنكم فيها »

ثم تأمل حكمة الله عز وجل فى عزة هذين النقدين ، الذهب والفضة وقصور خيرة العالم عما حاولوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله إياهما مع شدة حرصهم وبلوغ اقصى جهدهم واجتهادهم فى ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكنوا أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم واستفاض الذهب والفضة فى الناس حتى صارا كالسعف والفخار ، وكانت تتعطل المصلحة التى وضعا لأجلها وكانت كثرتهما جدا سبب تعطل الانتفاع بهما فإنه لا يبقى لهما قيمة ، ويبطل كونهما قيما لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ، ولم يتسخر بعض لبعض اذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة ، فلو اغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتهانها منها فى الصنائع التى لا قوام للعالم إلا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما فى العزة كالكبريت الأحمر الذى لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما فى العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده .

وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الانبارى قال اخبرنى بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا فى طلبها إلى بعض نواحى الجبل فانتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصلبا بماء غزير لا يدرك ولا حيلة فى عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين . ومن ثم فقد اقتضت حكمة الله عز وجل عزة هذين الجوهرين وقلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدثه الناس من الأمتعة كان

نفيسا عزيزا مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فإذا فشي وكثر فى أيدى الناس وقدر عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه .

ومن هذا قول القائل : نفاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهد الناس فى العالم أهله وجيرانه وأرغبهم فيه البعداء عنه .

وتأمل الحكمة البعيدة تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج إليه وتوسيعه وبذله فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده ، فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها ، فاعتبر هذا بالأصول الاربعة التراب ، والماء ، والهواء ، والنار .

وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته ، فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق فى البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه اينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده فى أقطار العالم لاختنق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المنعقد .

فتأمل حكمة الله فى أن سخر له الرياح فاذا تصاعد إلى الجو احالته سحابا أو ضبابا فأذهبت عن العالم شره واذاه ، فسل الجاحد ، من الذى دبر هذا التدبير ؟ ، وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك ويقلبوه سحابا ، أو ضبابا ، أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ، ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ، ولولا ذلك لضاقت عن ساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم واعشابهم . فإن قلت فما حكمة هذه القفار الخالية والفلوات الفارغة الموحشة فاعلم أن فيها معايش لا يحصيه الا الله من الوحوش والدواب وعليها ارزاقهم وفيها مطردهم ومنزلهم ، كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم ، ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب اذا احتاجوا الى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بيداء صارت قصورا وجنانا ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين فى أماكنهم لا يجدون عنها انتقالا اذا فدحهم ما يزعجهم عنها ويضطرهم إلى النقلة منها . وكذلك الماء لولا كثرته وتدفقه فى الأودية والأنهار لضاق عن حاجة الناس إليه ولغلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع فاقتضت الحكمة أن كان بهذه الكثرة والسعة فى كل وقت . وأما النار فقد تقدم ان الحكمة اقتضت مكونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهى ةإن لم تكن مبثوثة فى كل مكان فإنها عتيدة حاصلة متى احتيج إليها ، واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة فى أجسام جعلت معادن لها للحكمة التى تقدمت .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومنخفضها ومرتفعها ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر ، وفى ذلك فساد فاقتضت حكمته ان سقاها من فوقها فينشيء

سبحانه السحاب وهى روايا الأرمن ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار واذا بعدت من البحر قل مطرها وفى هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت	متى لجج خضر لهن نئيج

وفى الموطأ مرفوعا وهو أحد الأحاديث الأربعة المقطوعة (إذا نشأت سحابة بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة)(١) فالله سبحانه وتعالى ينشىء الماء فى السحاب انشاء تارة يقلب الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التى ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريا على ظهورها لم يحصل عموم السقى الا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقى لأجزائها فصاعده ـ سبحانه ـ إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية اللطف والحكمة التى لا اقتراح لجميع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمته على الأرض .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما ـ أعنى الصحو والغيم ـ يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام احدهما كان فيه فساده ، فلو توالت الأمطار لأهلكت ما على الأرض ، ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزرع والخضراوات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء ، فحدثت ضروب من الأمراض ، وفسد اكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ، ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضر واصطدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس واحدث ذلك ضروبا من الأماض عسرة الزوال ، فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلح .

ثم تأمل الحكمة الالهية فى اخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شىء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة ، فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التى رتبت على تلاحقها وتتابعها ، فإن كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر ، فهذا حار وهذا بارد ، وهذا معتدل وكل فى فصله موافق للمصلحة ، لا يليق به غير ما خلقكم فيه . ثم انه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع اخر من العصف والخشب والورق والنور والسعف والكرب وغيرها من منافع النبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم واداة الأبينة والسفن والرحال والأوانى وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمنظر البهيج الذى يشوق الناظرين وحسن مرائى الشجر وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف . ثم اذا تأملت اخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم

---

(١) الحديث فى موطأ مالك حـ ١ ص ١٩٢ كتاب الاستسقاء باب الاستمطار بالنجوم وقال بن عبد البر : هذا الحديث لا أعرفه بوجه من الوجوه ، فى غير الموطأ ، إلا ما ذكره الشافعى فى الأم .

اخراج تلك الثمار على اختلاف انواعها واشكالها ومقاديرها والوانها وطعومها وروائحتها ومنافعها وما يراد منها ، ثم تأمل أين كانت مستودعة فى تلك الخشبة وهاتيك العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم ، فهل كان فى قدرة الأب العاجز الضعيف ابراز هذا التصوير العجيب ! وهذا التقدير المحكم ! وهذه الأصباغ الفائقة ، وهذه الطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، وهذه المناظر العجيبة . فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وابرازه وترتيبه شيئا فشيئا ؟ وسوق الغذاء إليه فى تلك العروق اللطاف التى يكاد البصر يعجز عن ادراكها وتلك المجارى الدقاق فمن الذى تولى ذلك كله ؟ ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات ؟ وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج الى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة افواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر

كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه فى مجار وطرق قد احكمت غاية الأحكام ، فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ، ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيده على قدر صاحبه ، فسل الجاحد من اعطاها هذا ، ومن هداها إليه ووضعه فيها ؟ فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وارادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة او صناعة أو حيلة أو مزاولة ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته ! ، كما قيل :

فواعجبا كيف يعصى الاله ... أم كيف يجحده الجاحد

ولله فى كل تحريكة ... وتسكينه أبدا شاهد

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

ثم تأمل اذا نصبت خيمة وفطاطا تمده من كل جانب بالاطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعوج هكذا تجد النبات والشجر له عروق ممتدة فى الأرض منتشرة الى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت اعاليه امتدت عروقه واطنابه من اسفل فى الجهات ، ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف ، وتأمل سبق الخلق الالهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفاطيط من خلقه للشجر والنبات لان عروقها اطناب لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفاطيط ثم يحاكى بها الشجرة .

ثم تأمل الحكمة فى خلق الورق فإنك ترى فى الورقة الواحدة من جملة العروق الممتدة فيها المبثوثة فيها ما يبهر الناظر ، فمنها غلاظ ممتدة فى الطول والعرض ، ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجبا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة فى عام كامل ولا احتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم فى أيام قلائل من ذلك ما

يملأ الأرض سهلها وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ، إن هى إلا إرادته النافذة فى كل شىء ، وقدرته التى لا يمنع منها شىء ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقوله له كن فيكون ﴾(١) ، فتأمل الحكمة فى تلك العروق المتخلله الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل اليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المبثوثة فى الأبدان التى توصل الغذاء إلى كل جزء منه ، وتأمل ما فى العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومتانتها لئلا تتمزق وتضمحل فهى بمنزلة الأعصاب لبدن الحيوان فتراها قد احكمت صنعتها ومدت العروق فى طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق .

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فى كونها جعلت زينة للشجر وسترا ولباسا للثمرة ووقاية لها من الأفات التى تمنع كمالها ولهذا اذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها ، وانظر كيف جعلت وقاية لمنبت الثمرة الضعيفة من اليبس فإذا ذهبت الثمرة بقى الورق وقاية لتلك الأفنان الضعيفة من الحر حتى اذا طفئت تلك الجمرة ولم يضر الأفنان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسى لباسا جديدا احسن منه ، فتبارك الله رب العالمين الذى يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها فلا تخرج منه ورقة الا بإذنه ولا تسقط إلا بعلمه ، ومع هذا فلو شاهدها العباد على كثرتها وتنوعها وهى تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفنان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرا آخر ولرأوا خلقتها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى : ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾(٢) فالنجم ما ليس له ساق من النبات والشجر ما له ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده ﴿ وإن من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا ﴾(٣) ولعلك أن تكون ممن غلظ حجابه فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط ثم تأمل حكمته سبحانه فى ابداع العجم والنوى فى جوف الثمرة وما فى ذلك من الحكم والفوائد التى منها انه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقتها ولطافتها ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع إليها الفساد فهو بمنزلة العظام والثمرة بمنزلة اللحم الذى يكسوه الله عز وجل العظام . ومنها ان فى ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذى يغرس فيعود مثلها . ومنها ما فى تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والاصباغ وضروب اخر من المصالح التى يعلمها الناس وما خفى عليهم منها أكثر ، فتأمل الحكمة فى اخراجه سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لذيذا شهيا يتفكه به ابن آدم ، ثم تأمل هذه الحكمة البديعة فى أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التى يفسدها الهواء والشمس غشاء يحفظها ، وغشاء يواريها كالرمان والجوز واللوز ونحوه ، وأما ما لا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه غشاء يواريه لضعفه ولقلة صبره على الحر فإذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى للشمس والهواء كطلع النخل وغيره .

ثم تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فإنك ترى داخل الرمانة كأمثال القلاق سحما مترا كما فى نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا ومنضودا نضدا لا تمكن الأيدى ان تنضد ، وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج

---

(١) سورة يس آية ٨٢

(٢) سورة الرحمن آية ٦ .

(٣) سورة الاسراء آية ٤٤ .

والطفه وأدقه على غير منوال ، الا منوال كن فيكون ، ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه احسن ضم ، فتأمل هذه الحكمة البديعة فى الشحم المودع فيها فإن الحب لا يمد بعضه بعضا إذ لو مد بعضه بعضا لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه أنك ترى أصول الحب مركوزه فى ذلك الشحم ، وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق اختها بل يجرى الغذاء فى تلك العرق مجرى واحد ثم ينقسم منه فى مجارى الحبوب كلها فينبعث منه فى كل مجرى غذاء تلك الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم انه لف ذلك الحب فى تلك الرمانة بتلك اللفائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صونا له وحفظا وممسكا له بإذن الله وقدرته ، فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ، واللبيب يكتفى ببعض ذلك . وأما من غلبت عليه الشقاوة ﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾[1] غافلون عن موضوع الدلالة فيها ،

- ثم تأمل هذا الريع والنماء الذى وضعه الله فى الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما انبتت سبعمائة حبة ولو انبتت حبة واحدة مثلها لا يكون فى القلة متسع لما يرد فى الأرض من الحب وما يكفى الناس ويفوت الزارع الى ادراك زرعه فصار الزرع يريع هذا الريع ليفى بما يحتاج إليه للقوت والزراعة ، وكذلك ثمار الأشجار والنخيل ، وكذلك ما يخرج مع الاصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه فى مآربهم خلفا فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ، ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لاعطى اهله ما يبذرونه فيه وما يقيتهم الى استواء الزرع فاقتضت حكمة اللطيف الخبير ان اخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقيت الخارج الناس ويدخرون منه ما يزرعون .

- ثم تأمل الحكمة فى الحبوب كالبر والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجا فى قشور على رؤسها أمثال الاسنة فلا يتمكن جند الطير من إفسادها والعبث فيها ، فإنه لو صادف الحب بارزا لا صوان عليه ولا وقاية تحول درنه لتمكن منه كل التمكن فأفسد وعاب وعاث واكب عليه اكلا ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للانسان فانه اولى به لأنه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذى يحتاج اليه أضعاف حاجة الطير .

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى هذه الأشجار كيف تراها فى كل عام لها حمل ووضع فهى دائما فى حمل وولادة فإذا أذن لها ربها فى الحمل احتسبت الحرارة الطبيعية فى داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها فى الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ تكوين النطف فتعمل المادة فى اجوافها عملها وتهيئها للعلوق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء فى أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من النور والورق وما تتبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبان للناظر عملها علم حينئذ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة فى بطون امهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٥

وقت الفطام وتدلت إليك إقفانها كأنما تناولك ثمرة درها فإذا قابلتها رأيت الافنان كأنها تلقاك بأولادها وتحبيك وتكرمك بهم وتقدمهم اليك حتى كأن مناولا يناولك إياهم بيده ولا سيما قطوف جنات النعيم الدانية التى يتناولها المؤمن قائما وقاعدا ومضجعا وكذلك ترى الرياحين كأنها تحبيك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا اكراما لك وعناية بأمرك وتخصيصا لك وتفضيلا على غيرك من الحيوانات افيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها ، فكيف اذا استعنت بها على معاصيه ، وصرفتها فى مساخطة ، فكيف اذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال سبحانه : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾[١] فجدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره فى هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوفقه على المراد منها ما هو ؟ ولأى شيء خلق ؟ ، ولماذ هيىء ؟ ، وأى امر طلب منه على هذه النعم ؟ ، كما قال تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾[٢] فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده الفلاح والسعادة لأن ذلك لا يزيده إلا محبة لله وحمدا وشكرا وطاعة ، وشهود تقصيره بل تفريطه فى القليل مما يجب لله عليه ولله در القائل .

قد هيأك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل

ـ ثم تأمل الحكمة فى شجر اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة ان يكون حمله ثمارا كبارا جعل نباته منبسطا على الأرض اذ لو انتصب قائما كما ينتصب الزرع لضعفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة ولنقصت قبل ادراكها وانتهائها الى غاياتها فاقتضت حكمة مبدعها وخالقها ان بسطه ومده على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق الضعيف الدقيق من ذلك منبسطا على الأرض وثماره مبثوثة حواليه كأنها حيوان قد اكتنفها اجزاؤها فهى ترضعهم ولما كان شجر اللوبياء والباذنجان والباقلاء وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته انبته الله منتصبا قائما على ساقه إذ لا يلقى من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه .

ـ ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الالهية موافات اصناف الفواكه الثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المقتضى لها فتوافيهم كموافات الماء للظمآن فتتلقاها الطبيعة بانشراح واشتياق منتظرة لقدومها كانتظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف إنما يوافى الشتاء لصادف من الناس كراهية واستثقالا بورزوده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى ما فى ربيعها فى الخريف او ما فى خريفها فى الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاذ ، ولهذا نجد المتأخر منها عن وقته مملولا محلول الطعم ولا يظن ان هذا لجريان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التى لا يخل بها الحكيم الخبير .

ثم تأمل هذه النخلة التى هى احدى آيات الله ، تجد فيها من الأيات والعجائب ما يبهرك ، فإنه لما قدر أن يكون فيه أناث تحتاج إلى اللقاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الاشجار بالانسان خصوصا بالمؤمن كما مثله النبى ﷺ من وجوه كثيرة .

(احدها) ثبات اصلها فى الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التى اجتثت من فوق

(١) سورة الواقعة آية ٨٢
(٢) سورة الجمعة آية ١٠

الأرض ما لها من قرار .

(الثانى) طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها ، كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل ، فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

(الثالث) دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفا ولا شتاء ، كذلك المؤمن لايزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافى ربه تعالى .

(الرابع) سهولة تناول ثمرتها وتيسره اما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها . وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها هيئت منها المراقى والدرج الى اعلاها ، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا باللئيم .

(الخامس) ان ثمرتها من أنفع ثمار العام فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسة يكون قوتا وادما وفاكهة ، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ، ويدخل فى الأدوية والاشربة وعموم المنفعة به وبالعنب فوق الثمار .

(السادس) من وجوه التشبيه ان النخلة اصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف افنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة ، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح .

(السابع) ان النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شىء بغير منفعة فثمرها منفعة وجذعها فيه من النافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك ، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والخلل ، وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها ، وليفها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس ، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة فى المسلم تقابلها فلما جاء الى الشوك الذى فى النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على اعداء الله واهل الفجور ، فيكون عليهم فى الشدة والغلظة بمنزلة الشوك ، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة ولينا ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ... ﴾[1]

(الثامن) انها كلما اطال عمرها ازداد خيرها وجاء ثمرها وكذلك المؤمن اذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله .

(التاسع) ان قلبها من أطيب القلوب وأحلاها وهذا امر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من اطيب القلوب .

(العاشر) انها لا يتعطل نفعها بالكلية ابدا بل ان تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع ، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شىء من خصال الخير قط ان أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب آخر فلا يزال خيره مأمولا وشره مأمونا .

فتأمل خلقة الجذع الذى لها كيف هو ؟ ! تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى

---

(١) سورة الفتح آية ٢٩

معترضة كاللحمة كنحو المنسوج باليد وذلك لتشدد وتصلب الجذع فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل ، وتصبر على هز الرياح العاصفة ولبثها فى السقوف والجسور والأوانى وغير ذلك مما يتخذ منها ، وهكذا سائر الخشب وغيرها إذ تأملته شبه النسج ولا تراه مصمتا كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه دخل بعضا طولا وعرضا كتداخل اجزاء اللحم بعضها فى بعض فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه . فإنه لو كان مصمتا كالحجارة لم يمكن ان يستعمل فى الآلات والأبواب والأوانى والامتعة والاسرة والتوابيت وما اشبهها ، ومن بديع الحكمة فى الخشب ان جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة الكثيرة ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت فى البر لعظمت المؤنة فى نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى إعطائه ـ سبحانه ـ بهيمة الانعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الانسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الانتفاع بها ، ثم سلبها العقول ـ على كبر ـ خلقها التى للانسان ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنعت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له ، فأعطيت من التميز والادراك ما يتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الانسان وليظهر ايضا فضيلة التميز والاختصاص .

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر اجسامها ولم يكن يطيقها لولا تسخيره قال الله تعالى : **﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾**(١) أى مطيقين ضابطين . وقال تعالى : **﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾**(٢)

فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبى الصغير ذليلا منقادا ، ولو ناخ عليه لسواه بالأرض .

ثم تأمل الحكمة فى خلق آلات البطش فى الحيوانات من الانسان وغيره ، فالانسان لما خلق مهيئا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطى والنشر والجمع والتفريق وضم الشىء إلى مثله ، والحيوان البهيم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع ، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف مدمجة ذوات براثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله فى أكلة اللحم من الحيوان ، وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها اظلافا تقيها خشونة الأرض اذا جالت فى طلب المرعى ، ولبعضها حوافر ململمة مقعرة كأخمص القدم لتنطبق على الأرض وتتهيأ للركوب والحمولة ولم يخلق لها براثن ولا أنيابا لان غذاءها لا يحتاج إلى ذلك **﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . . . ﴾**(٣)

---

(١) سورة الزخرف آية ١٢ ، ١٣
(٢) سورة يس آية ٧١ ، ٧٢
(٣) سورة النحل آية ١٨

فأعد النظر فيك وفى نفسك من الذى دبرك بالطف التدبير وانت جنين فى بطن أمك فى موضع لا يد تنالك ، ولا بصر يدركك ، ولا حيلة لك فى التماس الغذاء ، ولا فى دفع الضرر . فمن الذى أجرى اليك من دم الأم ما يغذوك ؟ كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به فى أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التكسب والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكم وقوى اديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاة الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الأيدى والتقلب على الغبراء ، هاج الطلق بأمك فأزعجك إلى الخروج أيما إزعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول ، والاشتمال حين وضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرد والاخراج وكان مبتهجا بحملك فصار يستغيث ويعج الى ربك من ثقلك فمن الذى فتح لك بابه حتى ولجت ؟ ، ثم ضمه عليك حتى حفظت وكملت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه لمح البصر لم يخنقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه ، فلو تأملت حالك فى دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب ، فمن الذى أوحى إليه ان يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تفسد هناك ، وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليما إلى أن خرجت فريدا وحيدا ضعيفا لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال ، أحوج خلق الله واضعفهم وافقرهم ، فصرف ذلك اللبن الذى كنت تتغذى به فى بطن أمك إلى خزانتين معلقتين الطف سوق على مجار وطرق قد تهيأت له فلا يزال واقفا فى طرقه ومجاريه ، حتى تستوفى ما فى الخزانة فيجرى وينساق إليك فهو بئر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها ، يسوقها اليك فى طرق لا يهتدى اليها الطواف ولا يسلكها الرجال ، فمن صفاه لك وأطاب طعمه وحسن لونه واحكم طبخه اعدل إحكام ؟ ! لا بالحار المؤذى ولا بالبارد الردى ، ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة ، بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلال ما كان فى البطن فوافاك فى أشد اوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد ، وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلمظت وحركت شفتيك للرضاع فتجد الثدى المعلق كالأدواة قد تدلى اليك وأقبل بدره عليك ثم جعل فى رأسه تلك الحلمة التى هى بمقدار صغر فمك فلا يضيق عنها ، ولا تتعب بالتقامها ، ثم نقب لك فى رأسها نقبا لطيفا بحسب احتمالك ، ولم يوسعه فتنخنق باللبن ، ولم يضيقه فيمتصه بكلفة ، بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصلحتك فمن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة ؟ حتى تكون فى أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها فإذا أحست منك بأدق صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة اليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شىء وان حياتها تزاد فى حياتك ، فمن الذى وضع ذلك فى قلبها ؟ حتى إذا قوى بدنك واتسعت امعاؤك وخشنت عظامك واحتجت الى غذاء اصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليك لحمك ، وضع فى فيك آلة القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحنه بها ، فمن الذى حبسها عنك أيام رضاعك رحمة بأمك ولطفا بها ، ثم أعطاكها أيام الكلل رحمة بك وإحسانا إليك ولطفا بك ، فلو إنك خرجت من البطن ذا سن

وناب وناجذ وضرس كيف كان حال أمك بك ، ولو أنك فعلتها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأطعمة التى لا تسبغها إلا بعد تقطيعها وطحنها ، وكلما ازددت قوة وحاجة إلى الأسنان فى أكل الأطعمة المختلفة زيد لك فى تلك الآلات حتى تنتهى إلى النواجذ فتطيق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر الصلب ، ثم اذا ازددت قوة زيد لك فيها حتى تنتهى إلى الطواحين التى هى أخر الاضراس فمن الذى ساعدك بهذه الآلات وانجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء ؟ ثم انه اقتضت ان أخرجك من بطن امك لا تعلم شيئا بل غبيا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل ولا الفهم والمعرفة ، بل كنت تتمزق وتتصدع بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا ، فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل يصادفك يسيرا يسيرا حتى يتكامل فيك ، فاعتبر ذلك ، وكان دخولك هذا العالم وانت غبى لا تعقل شيئا ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير ، فتلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى تألف الاشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والحيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف فيها والتدبير والاتقان لها ، وفى ذلك وجوه اخر من الحكمة غير ما ذكرناه ، فمن هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شىء من المنافع والآداب والآلات فى وقت حاجتك ؟ ، لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ، ثم انه اعطاك الأظفار وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن اكثر العمل لما كان برءوس الاصابع وعليها الاعتماد أعينت بالاظافر قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم وقشط الأذى الذى لا يخرج اللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها ، ثم جملك بالشعر على الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد ، اذ هو مجمع الحواس ومعدن الفكر والذكر وثمرة العقل تنتهى إليه ثم خص الذكر بان جمل وجهه باللحية وتوابعها وقارا وهيبة له وجمالا وفصلا له عن سن الصبا ، وفرقا بينه وبين الاناث ، وبقيت الأنثى على حالها لما خلقت من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون اهيج للرجل على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع ، فالماء واحد والجوهر واحد والوعاء واحد واللقاح واحد ، فمن الذى اعطى الذكر الذكورية والأنثى الأنوثية ؟ إنه ذلك المرسوم الألهى الذى يلقيه إلى ملك التصوير حين يقول : يارب ذكر أم أنثى ؟ شقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيوحى ربك ما يشاء ويكتب الملك ﴿ لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾[1] فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال . احدها من تلد الأناث فقط . الثانية من تلد الذكر فقط . الثالثة من تلد الزوجين الذكر والأنثى ، وهو معنى التزويج هنا أن يجعل ما يهب له من زوجين ذكرا وأنثى الرابعة العقيم التى لا تلد أصلا .

وانظر كيف جعلت آلات الجماع فى الذكر والأنثى جميعا على وفق الحكمة فجعلت فى حق الذكر آلة ناشزة تمتد حتى توصل المنى إلى قعر الرحم بمنزلة من يناول غيره شيئا فهو يمد يده إليه حتى يوصله إياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه فى قعر الرحم ، وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوفا لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ، ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من اجزاء

(١) سورة الشورى آية ٤٩ ، ٥٠

الجسد رقيقا ضعيفا لا يخلق منه الولد جعل له الانثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم انضاجه ليشتد وينعقد ويصير قابلا لأن يكون مبدأ التخليق ، ولم تحتج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مازج ما الرجل غلظ وشدته قوى به واستحكم ، ولو كان الماءان رقيقان ضعيفان لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحكم طبخ الماء وانضاجه فيها ، ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله . وفيها أنها لما كانت محلا للجماع اعطيت من الآلة ما يليق بها ، فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقه . . كل منهما عليه .

فارجع الى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك ، وتأمل أعضاءك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهيأ لها ، فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والاعطاء والمحاربة والدفع ، والرجلان لحمل البدن والسعى والركوب وانتصاب القامة ، والعينان للاهتداء والجمال والزينة والملاحة ورؤية ما فى السموات والأرض وآياتها وعجائبها ، والفم للغذاء والكلام والجمال وغير ذلك ، والأنف للنفس واخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه ، واللسان للبيان والترجمة عنك ، والأذنان صاحبتا الأخبار تؤديانها إليك ، واللسان يبلغ عنك ، والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتنضجه وتطبخه وتصلحه اصلاحا آخر وطبخا اخر غير الاصلاح والطبخ الذى توليته من الخارج فأنت تعانى انضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن انه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وانضاج آخر ، وطباخة الداخل ومنضجه يعانى من نضجه وطبخه ما لا تهتدى إليه ولا تقدر عليه ، فهو يوقد عليه نيرانا تذيب الحصى وتذيب ما لا تذيبه النار وهى فى ألطف موضع منك لا تحرقك ولا تلتهب وهى أشد حرارة من النار والا فما يذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جدا حتى يجعلها ماء ذائبا ، وجعل الكبد للتخليص واخذ صفوة الغذاء والطفه ، ثم رتب منها مجارى وطرقا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر ، وجعل المنازل والأبواب لادخال ما ينفعك واخراج ما يضرك . وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة حياتك ، فهذه خزانة للطعام ، وهذه خزانة للحرارة ، وهذه خزانة للدم ، وجعل منها خزائن مؤديات لئلا تختلط بالخزائن الأخر ، فجعل خزائن للمرة السوداء ، واخرى للمرة الصفراء ، واخرى للبول ، واخرى للمنى . فتأمل حال الطعام فى وصوله إلى المعدة وكيف يسرى منها إلى البدن فإنه اذا استقر فيها اشتملت عليه وانضمت فتطبخه وتجيد صنعته ثم تبعثه الى الكبد فى مجار دقائق ، وقد جعل بين الكبد وبين تلك المجارى غشاء رقيقا كالمصفاة الضيقة الأنجاش تصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شىء غليظ خشن فينكؤها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فإذا قبلته الكبد انفذته إلى البدن كله فى مجار مهيأة له بمنزلة المجارى المعدة للماء ليسلك فى الأرض فيعمها بالسقى ، ثم يبعث ما بقى من الخبث والفضول إلى مقابض ومصارف قد اعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة . فمن ذا الذى تولى ذلك كله واحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير؟ . ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾(١) .

---

(١) سورة الاعراف آية ٥٤

فأعد النظر فى نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير فى تركيب البدن ووضع هذه الاعضاء مواضعها منه واعدادها لما أعدت له واعداد هذه الاوعية المعدة لحمل الفضلات وحجمها لكيلا تنتشر فى البدن فتفسده ، ثم تأمل الحكمة البالغة فى تنميتك وكثرة اجزائك من غير تفكيك ولا تفصيل ، ولو أن صانعا اخذ تمثالا من ذهب او فضة او نحاس فأراد ان يجعله اكبر مما هو هل كان يمكنه ذلك الا بعد ان يكسره ويصوغه صياغة اخرى ؟ والرب تبارك وتعالى ينمى جسم الطفل واعضاءه الظاهرة والباطنة وجميع اجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يتزايل ولا ينفك ولا ينقص .

وأعجب من هذا كله تصويره فى الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه الأيدى ولا تصل إليه الآلات فيخرج بشرا سويا مستوفيا لكل ما فيه مصلحته وقوامه من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع ، إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ ، وما فى ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقة وخفى الحكمة وبديع الصنعة ، كل هذا صنع الله أحسن الخالقين .

فاعد النظر فى نفسك وحكمة الخلاق العليم فى خلقك وانظر إلى الحواس التى منها تشرف على الاشياء كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم تجعل فى الأعضاء التى تمتهن كاليدين والرجلين فتتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات ، ولا جعلها فى الاعضاء التى وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك الالتفات والاطلاع على الاشياء . فلما لم يكن لها فى شىء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس اليق المواضع بها وأجملها ، فالرأس صومعة الحواس ثم تأمل الحكمة فى ان جعل الحواس خمسا فى مقابلة المحسوسات الخمس فجعل البصر فى مقابلة المبصرات ، والسمع فى مقابلة الأصوات ، والشم فى مقابلة انواع الروائح المختلفات ، والذوق فى مقابلة الكيفيات المذوقات ، واللمس فى مقابلة الملموسات ، فأى محسوس بقى بلا حاسة ؟ ولو كان فى المحسوسات شىء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ، ولما كان ما عداها انما يدرك بالباطن اعطاك الحواس الباطنة وهى هذه الأخماس التى جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث يقولون : المفكر المتأمل ضرب أخماسه فى اسداسه فأخماسه حواسه الخمس واسداسه جهاته الست وارادوا بذلك نه جذبه القلب وسار به فى الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس فى جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره .

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات اخرى منفصلة عنها تكون واسعة فى إحساسها ، فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاه لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنفع العين شيئا ، وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الاصوات فى الجو يلقيها إلى الأذن فتحويه ثم تنقله إلى القوة السامعه ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا ، واعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يؤديها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا ، واعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل فى الفم تدرك القوة الذائقة به طعوم الأشياء ، ولهذا لم يكن له طعم ولاحامض ولا مالح ولا حريف لأنه يحيل تلك الطعوم الى طعمه ولايحصل به مقصوده واغنى حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات ولم تحتج إلى شىء من خارج بخلاف غيرها من الحواس ، بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملامسة فلم تحتج إلى واسطة .

ثم تأمل حال عدم البصر وما يناله من الخلل فى أمور فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ، ولا يتمكن من استفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتهيأ له الاعتبار والنظر فى عجائب ملك الله ، هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصالحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسبع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقتله ، ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولولا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطبه اقرب من سلامته . ولذلك جعل الله ثوابه إذا صبر واحتسب الجنة ، ومن كمال لطفه ان عكس نور بصره إلى بصيرته فهوى اقوى الناس بصيرة وحدسا وجمع عليه همه فقلبه مجموع عليه غير مشتت ليهنأ له العيش وتتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف ، فأما من أصيب بعينه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المنتقلين من العافية الى البلية فالمحنة عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما الفه من المرائى والصور ووجوه الانتفاع ببصره

فهذا له حكم آخر . وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة ويعدم لذة المذاكرة ونغمة الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس فى خطابه ويتبرمون به ولا يسمع شيئا من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب ، وحى كميت ، وقريب كبعيد ، وقد اختلف النظار فى أيهما اقرب إلى الكمال وأقل اختلالا لأموره الضرير أو الأطروش والذى يليق بهذا الموضع - أن يقال عادم البصر أشدهما ضررا وأسلمهما دينا واحدهما عاقبة ، وعادم السمع أقلهما ضررا فى دنياه وأجلهما بدينه واسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتحت له طرق الشهوات التى يدركها البصر ولا يناله من العلم ما يكفه عنها ، فضرره فى دينه اكثر ، وضرر الأعمى فى دنياه أكثر ، ولهذا لم يكن فى الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضراء وقل ان يبتلى الله أولياءه بالطرش ويبتلى كثيرا منهم بالعمى فهذا فصل الخطاب فى هذه المسألة . فمضرة الطرش فى الدين ، ومضرة العمى فى الدنيا ، والمعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه وبصره وجعلهما الوارثين منه .

ثم تأمل حكمته فى الأعضاء التى خلقت فيك آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما فى ذلك من الحكم البالغة ، فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منها واحدا فقط اذ لا مصلحة فى كونه أكثر من ذلك الا ترى انه لو اضيف إلى الرأس رأس آخر لأثقلا بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التى يحتاج اليها مجتمعة فى رأس واحد ، ثم إن الانسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من احدهما وسمع به وابصر وشم وذاق بقى الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وابصر وسمع بهما معا كلاما واحدا وسمعا واحدا وبصرا واحدا كان الآخر فضلة لا فائدة فيه ، وان اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وادراكاته وكذلك لو كان له لسانان فى فم واحد فإن تكلم بهما كلاما واحدا كان أحدهما ضائعا ، وان تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وان تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدر بأى الكلامين يأخذ . وهذا بخلاف الاعضاء التى خلقت مثنى كالعينين والاذنين والشفتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والثديين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بينة والجمال والزينة عليها بادية ، فلو كان الانسان بعين واحدة لكان مشوه الخلقة ناقصها وكذلك الحاجبان وأما اليدان

والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضرورى للانسان لا تتم مصلحته الا بذاك ، الا ترى من قطعت احدى يديه او رجليه كيف تبقى حاله وعجزه فاقتضت الحكمة ان اعطى من هذا الضرب من الجوارح اثنين اثنين . وكذلك اعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته الا بهما ، وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومر الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك ، وأما الأعضاء الثلاثة فهى جوانب انفه وحيطانه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم ، وأما الأعضاء الرباعية فالكعاب الأربعة التى هى مجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحركتهما وفيهما منافع الساقين ، وكذلك أجفان العينين ، فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء العينين ، ووقاية لهما ، وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فاقتضت الحكمة البالغة أن جعلت الأعضاء على ما هى عليه من العدد والشكل والهيئة ، فلو زادت أو نقصت لكان نقصا فى الخلقة ، ولهذا يوجد فى النوع الانسانى من زائد فى الخلقة وناقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى ، وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا ، وليعلم الكامل الخلقة تمام النعمة عليه ، وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد فى خلقه مالا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج إليه ، كما يراه فى غيره ، فهو أجدر أن يزداد شكرا وحمدا لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك من صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه وأنه يخلق ما يشاء .

الحنجـرة حتى ينتهـى إلى الحـلق واللسـان والشـفتين والأسـنان فيحـدث لـه هنـاك مقـاطع ونهـايات أجـراس يسـمع لـه عنـد كـل مقطـع ونهـاية جـرس مبيـن منفصـل عن

من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل فى النوع الانسانى بين صورهم فقل أن يرى اثنان متشابهان من كل وجه ، وذلك من اندر ما فى العالم ، بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطير وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الظباء والثلة من الغنم والذود من الأبل والصوار من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الأخر الا بعد طول تأمل ، أو بعلامة ظاهرة ، والناس مختلفة صورهم وخلقتهم فلا يكاد إثنان منهم يجتمعان فى صفة واحدة وخلقة واحدة ، بل ولا صوت واحد وحنجرة واحدة ، والحكمة البالغة فى ذلك ان الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعيانهم وحلاهم لما يجرى من المعاملات ، فلولا الفرق والاختلاف فى الصور لفسدت أحوالهم ، وتشتت نظامهم ، ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ، ولا المدين من رب الدين ، ولا البائع من المشترى ، ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ، ولا هى تعرف بعلها من غيره ، وفى هذا أعظم الفساد والخلل ، فمن الذى ميز بين حلاهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تنالها العبارة ولا يدركها الوصف ؟ ! فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل فى الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق فى النوع ؟ ! وأين قول الطبائعيين ان فعلها متشابه لأنها واحدة فى نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها ؟ ! فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا ؟ ! ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ، وربما وقع فى النوع الانسانى تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما لتعظم عليهم المؤنة فى معاملتها وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق ، وإذا كان هذا يعرض فى التشابه فى الأسماء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقى ، فما الظن لو وضع التشابه فى الخلقة والصورة ؟ ! ولما كان الحيوان البهيم والطير والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم

تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها فتبارك الله أحسن الخالقين الذى وسعت حكمته كل شيء ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا ادركا اشتركا فى نبات العانة ، ثم ينفرد الرجل عن المرأة باللحية ، فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قيما على المرأة وجعلها كالخول له والعانى فى يديه ميزه عليها بما فيه ، له من المهابة والعز والوقار والجلالة لكماله وحاجته إلى ذلك ، ومنعتها المرأة لكمال الاستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتراكا فى سائر الشعور والحكمة والمنفعة التى فيها .

ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجد الحكمة بالباهرة فى هواء ساذج يخرج من الجوف فيستهلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق واللسان والشفتين والاسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات أجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبين منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة حتى ينتهى إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها الكلام كل أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثره وخطبه ومواعظه وفضوله ، فمنه المضحك ، ومنه المبكى ، ومنه المؤيس، ومنه المطمع ومنه المخوف ، ومنه المرجى المسلى ، والمحزن ، والقابض للنفس والجوارح ، والمنشط لها ، والذى يسقم الصحيح ويبرىء السقيم ، ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ، ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء ، وتستمال به القلوب ، ويؤلف به بين المتباغضين ، ويوالى به بين المتعادين ، ومنه ما هو بضد ذلك ، ومنه الكلمة التى لا يلقى لها صاحبها بالا يهوى بها فى النار أبعد ما بين المشرق والمغرب ، والكلمة التى لا يلقى لها بالا صاحبها يركض بها فى أعلى عليين فى جوار رب العالمين ، فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدرى ما يراد به ، ولا أين ينتهى ولا أين مستقره ، هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التى لايحصيها إلا الله ، فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلغته فتسمع لغات مختلفة وكلاما منتظما مؤلفا ولا يدرى كل منهم ما يقول الآخر واللسان الذى هو جارحة واحدة فى الشكل والمنظر ، وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت ، فالآية فى ذلك كالآية فى الأرض التى تسقى بماء واحد وتخرج من ذلك من أنواع النبات والأزهار والحبوب والثمار ، تلك الأنواع المختلفة المتباينة ، ولهذا اخبر الله سبحانه فى كتابه ان فى كل منها آيات ، قال : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾[1] وقال : ﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ﴾[2] الآية فانظر الآية فى الحنجرة كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان ، والشفتان ، والاسنان لصياغة الحروف والنغمات ، الا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ، ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء واللام ، ومن عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية . وقد شبه أصحاب التشريح

---

(١) سورة الروم آية ٢٢

(٢) سورة الرعد آية ٤

مخرج الصوت بالمزمار ، والرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه ، والعضلات التى تقبض على الرئة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق حتى يخرج الهواء فى القصب والشفتين والاسنان التى تصوغ الصوت حروفا ونغما بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه ألحانا .

والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأبخاش التى فى القصبة حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان فإذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والعظام ويابعد مابينهما ، ولكن المألوف المعتاد لايقع عند النفوس موقع التعجب ، فإذا رأت مالا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب ـ تعالى ـ وعندها من آياته العجيبة الباهرة ماهو أعظم من ذلك مما لايدركه القياس .

ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفاة والأسنان ، فمن الذى ميز بينها أتم تمييز مع تشابه محالها سوى الخلاق العليم .

وفى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام ففى الحنجرة مسالك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع ، وفى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها ، وفيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام وأن يلوكه ويقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق ، وفى الأسنان من المنافع ماهو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم ، وفيها إسناد الشفتين وإمساكها عن الاسترخاء وتشويه الصورة ، ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخى شفتاه ، وفى الشفتين منافع عديدة يرشف بهما الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه مايخرج من الجوف ، ومنه يبتدىء مايلج فيه ، فهما غطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ، ويغلقهما إذا شاء ، وهما أيضا جمال وزينة للوجه ، وفيهما منافع أخرى سوى ذلك ، وانظر إلى من سقطت شفتاه ماأشوه منظره . وقد بان أن كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى ، هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت العجب العجاب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل ، قد لف بحجب وأغشية بعضها فوق بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ، ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمه والسقطة والضربة التى تصل إليه فتتلقاها تلك البيضة عنه بمنزلة الخوذة التى على رأس المحارب ، ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذى هو فروة الرأس يستر العظم من البروز للمؤذيات ، ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد والأذى وجمالا وزينة له ، فسل المعطل من الذى حصن الدماغ هذا التحصين ؟ ! وقدره هذا التقدير ؟ !

وجعله خزانة أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ماأودعه ، ثم أحكم سد تلك الخزانة وحصنها أتم تحصين ، وصانها أعظم صيانة ، وجعلها معدن الحواس والإدراكات ، ومن الذى جعل الأجفان على العينين كالغشاء والأشفار كالأشراج والأهداب كالرفوف عليها إذا أفتحت ؟ ! ومن الذى ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبعا ؟ ! ، وجعل لكل طبقة منفعة

وفائدة ؟ ! ، فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر ، ومن شقهما فى الوجه أحسن شق ؟ ! وأعطاهما أحسن شكل ؟ ! وأودع الملاحة فيهما وجعلهما مرآة للقلب وطليعة وحارسا البدن ؟ ! ، ورائدا يرسله كالجند فى مهماته ، فلا يتعب ولا يعيا على كثرة ظعنه وطول سفره ، ومن أودع النور الباصر فيه فى قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب من داخل سبع طبقاتٍ ؟ ! ، وجعلهما فى أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ربيئة للبدن ! ، ومن حجب الملك فى الصدر وأجلسه هناك على كرسى المملكة ، وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى الباطنة والظاهرة فى خدمته وذللها له ؟ ! ، فهى مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكدح وتسعى فى مرضاته فلا تستطيع منه خلاصا ولا خروجا عن أمره ، فمنها رسوله ، ومنها بريده ، ومنها ترجمانه ، ومنها أعوانه ، وكل منها على عمل لايتعداه ولا يتصرف فى غير عمله حتى إذا أراد الراحة أو عز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته ، فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لاتفتر ، فلو شاهدته فى محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر فى خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا ، فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التى لايحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين . وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾[1] فدعا عباده إلى التفكر فى أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم نوسع الكلام فى هذا الباب ولا أطلنا النفس إلى هذه الغاية ، ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس ، وكم له من خادم ، وكم له من عبيد ولايشعر به ، والله ماخلق له وهيأ له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب ، فإما على سرير الملك فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه ، وإما أسير فى السجن الأعظم بين أطباق النيران فى العذاب الأليم ، فلو عقل هذا السلطان ماهيىء له لضن بملكه ولسعى فى الملك الذى لاينقطع ولا يبيد، ولكنه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

* ومن جعل فى الحلق منفذين ؟ ! ، أحدهما للصوت والنفس الواصل الى الرئة ، والآخر للطعام والشراب وهو المرىء الواصل إلى المعدة ، وجعل بينهما حاجزا يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر ، فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان ، ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لاتنِى ولا تفتر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك . ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجا تقبضها لكيلا تجرى جريا دائما فتفسد على الإنسان عيشه ، ويمنع الناس مجالسة بعضهم بعضا . ومن جعل المعدة كأشد مايكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وانضاجها فلو كانت لحما غضا لانطبخت هى ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التى تحتها ،

ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة ؟ ! ، لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو ألطف من عمل المعدة . ومن حصن المخ اللطيف الرقيق فى أنابيب صلبة من العظام ليحفظها

(١) سورة الذاريات الآيات ٢٠ ، ٢١

ويصونها فلا تفسد ولاتذوب ؟ ! ، ومن جعل الدم السيال محبوسا محصورا فى العروق بمنزلة الماء فى الوعاء ليضبط فلا يجرى ؟ ! ، ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات ؟ ! ، ومن جعل داخل الأذن مستويا كهيئة الكوكب ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا يتكوأه وليعذر على الهولم النفوذ إليها قبل أن يمسك وليمسك ماعساه أن يغشاه من الوسخ ولغير ذلك من الحكم . ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقيها من الأرض ؟ ! ، فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل . ومن جعل ماء العينين ملحا يحفظها من الذوبان ؟وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض ، وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها ، ومن جعل باب الخلاء فى الإنسان فى أستر موضع ؟ ! ، كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخلى فى أستر موضع فى الدار ، وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان فى أستر موضع ليس بارزا من خلفه ولاناشزا بين يديه بل مغيب فى موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متواريا ، فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض . ومن جعل الأسنان حدادا لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضا لرضه وطحنه،ومن سلب الإحساس الحيوانى الشعور والأظفار التى فى الأدمى لأنها قد تطول وتمتد ، وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاها الحس لألمته وشق عليه أخذ ماشاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها فى إحدى البليتين إما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وإما مقاساة الألم والوجع عند أخذها ومن جعل باطن الكف غير قابل لانبات الشعر ؟ ! ، لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللمس ولشق عليه كثير من الأعمال التى تباشر بالكف . ولهذه الحكمة لم يكن هن الرجل قابلا لانباته لأنه يمنعه من الجماع . ولما كانت المادة تقتضى انباته هناك نبت حول هن الرجل والمرأة ، ولهذه الحكمة سلب عن الشفتين ، وكذا باطن الفم ، وكذا أيضا القدم أخمصها وظاهرها لأنها تلاقى التراب والوسخ والطين والشوك ، فلوكان هناك شعر لأذى الإنسان جدا وحمل من الأرض كل وقت مايثقل الانسان ، وليس هذا للإنسان وحده ، بل ترى البهائم قد جللها الشعر كلها وأخليت هذه المواضع منه لهذه الحكمة ، أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة ؟ ! ، وجاءت بكل صواب ، وكل منفعة ، وكل مصلحة ، و لما اجتهد الطاعنون فى الحكمة العائبون للخلقة فيما يطعنون به ، عابوا الشعور تحت الآباط ، وشعر العانة ، وشعر باطن الأنف ، وشعر الركبتين ، وقالوا أى حكمة فيها وأى فائدة وهذا من فرط جهلهم ، فإن الحكمة لايجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها ، بل لانسبة لما علموه إلى ماجهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى فى خلقه وأمره إلى ماخفى عنهم منها كانت كنقرة عصفور فى البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على مالايعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلها فيما علمه بل أعظم وأدق ،

وما مثل هؤلاء الحمقى إلا كمثل رجل لاعلم له بدقائق الصنائع والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والخياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها فى شىء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعاتهم فخفيت عليه ، فجعل كلما خفى عليه منها شىء ، قال هذا لافائدة فيه ،

وأى حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم فى صنائعهم ويفوقهم فيها ، فما الظن بمن بهرت حكمته القول الذى لايشاركه مشارك فى حكمته كما لايشاركه فى خلقه ، فلا شريك له بوجه ، فمن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله ، أو يجعل عقله عيارا عليها ، فما أدركه أقر به وما لم يدركه نفاه ، فهو من أجهل الجاهلين لله فى كل ماخفى على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لاتدفع ولاتنكر . فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة مااقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ، ألا ترى أن العشب ينبت فى مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن ، وهى أقبل لنبات الشعر وأهيأ ، فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعرا ولو حبست فى داخل البدن لأضرته وآذت باطنه ، فخروجها عين مصلحة الحيوان ، واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه ، وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكمالها ، ولهذا يكون احتباسه لفساد الطبيعة ونقص فيها . ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانه كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الخلقة ضعيف التركيب ، فإذا شاهدت ذلك فى الشعر الذى عرفت بعض حكمته فمالك لاتعتبره فى الشعر الذى خفيت عليك حكمته . ومن جعل الريق يجرى دائما فى الفم لاينقطع عنه ؟ ! ، ليبل الحلق واللهوات ويسهل الكلام ويسيغ الطعام . قال بقراط: الرطوبة فى الفم مطية الغذاء ، فتأمل حالك عندما يجف ريقك بعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التى لايستغنى عنه .

ثم تأمل حكمة الله تعالى فى كثرة بكاء الأطفال وماهم فيه من المنفعة . فإن الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا فى أدمغة الأطفال رطوبة لو بقت فى أدمغتهم لأحدثت أحداثا عظيمة ، فالبكاء يسيل ذلك ويحدره من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح . وأيضا فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجارى النفس ويفتح العروق ويصلبها ويقوى الأعصاب ، وكم للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه ، فإذا كانت هذه الحكمة فى البكاء الذى سببه ورود الألم المؤذى وأنت لاتعرفها ولا تكاد تخطر ببالك فهكذا إيلام الأطفال فيه وفى أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكم ماقد خفى على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام فى حكمه اضطراب الأرشية وسلكوا فى هذا الباب مسالك .

فقالت طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة ، وكلما سئلوا عن شىء أجابوا بلا « يسأل عما يفعل » وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفى حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها ، وإنما المراد بالآية إفراده بالإلهية والربوبية وأنه لكمال حكمته لامعقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لايفعل شيئا سدى ولا خلق شيئا عبثا وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ، ألا ترى إلى قوله :

﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون . لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾(١) كيف ساق الآية فى الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساويه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله لايسأل عما يفعل إثبات لحقيقة الإلهية وإفراد له بالربوبية

---

(١) سورة الأنبياء الآيات ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣

والإلهية ، وقوله:وهم يسئلون ، ففى صلاح تلك الألهة المتخذة للإلهية فإنها مسئولة مربوبة مدبرة ، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرق ؟ فهذا الذى سبق له الكلام فجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا فى إنكار حكمته وتعليل أفعاله بآياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب . وقالت طائفة الحكمة فى ابتلائهم تعويضهم فى الآخرة بالثواب التام،فقيل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلام.فأجابوا بأن توسط الإيلام فى حقهم كتوسط التكاليف فى حق المكلفين،فقيل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلام أطفال الكفار ؟ فأجابوا بأنا لانقول إنهم فى النار كما قاله من قاله من الناس ، والنار لايدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لاذنب لهم ، وكذا الكلام معهم فى مسألة الأطفال والحجاج فيها من الجانبين بما ليس هذا موضعه فإن هذا لاتعويض فيه قطعا ، ولا هو عقوبة على الكفر ، فإن العقوبة لاتكون سلفا وتعجيلا فحاروا فى هذا الموضع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل . وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه مالايلزم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التى لم يخلق منفكا عنها فهى كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والغم والضعف والعجز ، فالسؤال عن حكم الحاجة إلى الأكل عند الجوع ، والحاجة إلى الشرب عند الظمأ ، وإلى النوم والراحة عند التعب ، فإن هذه الآلام هى من لوازم النشأة الإنسانية التى لاينفك عنها الإنسان ولا الحيوان ، فلو تجرد عنها لم يكن إنسانا بل كان ملكا أو خلقا آخر ، وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين . ولكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم ، وكم بين مايقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل ، وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الخلقة ، فلو لم يخلق كذلك لكان خلقا آخر ، فيرى أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فإيلامه بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كإيلامه بالجوع والعطش والبرد والحر ودون ذلك أو فوقه وماخلق الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة .

قالوا : فإن سأل سائل وقال فلم خلق كذلك ؟ وهلا خلق خلقة غير قابلة للألم ؟ فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه فى عالم الابتلاء والامتحان من مادة ضعيفة فهى عرضة للآفات ، وركبه تركيبا معرضا للأنواع من الآلام وجعل فيه الأخلاط الأربعة التى لاقوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها ، وهى لامحالة توجب امتزاجا واختلاطا وتفاعلا يبغى بعضها على بعض بكيفيته تارة ، وبكميته تارة ، وبهما تارة ، وذلك موجب للآلام قطعا ووجود الملزوم بدون لازمه محال ، ثم إنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة مايوجب حركته الدائبة وسعيه فى طلب مايصلحه ودفع مايضره بنفسه تارة وبمن يعنيه تارة،فأحوج النوع بعضه إلى بعض ، فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبغى بعضهم على بعض ، فحدث من ذلك الآلام والشرور بنحو مايحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبغى بعضها على بعض . والآلام لاتختلف عن هذا الامتزاج أبدا إلا فى دار البقاء والنعيم المقيم لا فى دار الابتلاء والامتحان ، فمن ظن أن الحكمة فى أن تجعل خصائص تلك الدار فى هذه فقد ظن باطلا،بل الحكمة التامة البالغة اقتضت أن تكون هذه الدار ممزوجة عافيتها ببلائها ، وراحتها بعنائها ، ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها،وفرحها بغمها،فهى دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض كما قال القائل :

أصبحت فى دار بليات ** أدفع آفات بآفات

ولقد صدق ، فإنك إذا فكرت فى الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر ما يستلذ به رأيته يدفع بها ماقابله من الآلام والبليات ، أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع ، وبالشرب ألم العطش ، وباللباس ألم الحر والبرد ، وكذا سائرها ، ومن هنا قال بعض العقلاء :

إن لذاتها لنا هى دفع الآلام لاغير ، فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وإن الحكمة التى اقتضت ذلك هى أولى باقتضاء دارين دار خاصة للذات لايشوبها ألم ، ودار خالصة للآلام لايشوبها لذة ما ، والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار ، أفلا ترى كيف دلك ذلك على ماأنت مجبول عليه فى هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ، ورأيت شواهدهما وأدلة فى وجودهما من نفسك حتى كأنك تعاينهما عيانا وانظر كيف دل العيان والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار ، فتأمل كيف قاد النظر فى حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله ومأأخبروا به تفصيلا يدل عليه العقل مجملا ، فأين هذا من مقام من أداة عمله إلى المعارضة بين ماجاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدلته ، ولكن تلك العقول كادها باريها ووكلها إلى أنفسها فحلت بها عساكر الخذلان من كل جانب . فارجع الآن إلى نفسك وفكر فى هذه الأفعال الطبيعية التى جعلت فى الإنسان ومافيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها فى الطبع المجرد والداعى الذى يقتضيه ويستحثه ، فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته ، والكرى يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن ، والأعضاء وإجمام القوى وعودتها إلى قوتها جديدة غير كالة ، والشبق يقتضى الجماع الذى به دوام النسل ، وقضاء الوطر وتمام اللذة ، فتجد هذه الدواعى تستحث الإنسان هذه الأمور ، وتتقاضاها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة ، فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعى هذه المستحثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لايشعر ، كماإذا احتاج بدنه إلى شىء من الدواء والصلاح فدافعه وأعرض عنه حتى إذا استحكم به الداء أهلكه ، فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه أزا إلى مافيه قوامه وبقاؤه ومصلحته ، وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه . ثم انظر إلى مايعطيه من القوى المختلفة التى بها قوامه فأعطى القوة الجاذبية الطالبة المستحثة التى تقتضى معلوما من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ، ثم أعطى القوة الممسكة التى تمسك الطعام وتحبسه ريثما تنضجه الطبيعة وتحكم طبخه وتهيىء لمصارفه وتبعثه لمستحقه . ثم أعطى القوة الهاضمة التى تصرفه فى البدن وتهضمه عن المعدة . ثم أعطى القوة الدافعة وهى التى تدفع ثقله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهكه ، فمن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها ؟ ! ، ومن جعلها خادما لك ؟ ! ، ومن أعطاها أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ؟ ! ، ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت فى شخص واحد ؟ ومحل واحد ؟ ولو عادى بينها كان بعضها يذهب بعضا ، فمن كان يحول بينه وبين ذلك ، فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركا لطلب الغذاء الذى به قوام البدن ؟ ، ولولا الممسكة كيف كان الطعام يذهب فى الجوف حتى تهضمه المعدة ؟ ، ولولا الهاضمة

كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماقه ؟ ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذى القاتل لو انحبس يخرج أولا بأول ؟ فيستريح البدن فيخف وينشط ، فتأمل كيف وكلت هذه القوة بك والقيام بمصالحك ، فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه ، قد وكل بتلك الدار أقواما يقومون بمصالحها ، فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها ، وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزنه إلى أن يهيأ ويصلح ، وبعضهم يقبضه فيهيئه ويصلحه ويدفعه إلى أهل الدار ويفرقه عليهم بحسب حاجتهم ، وبعضهم لمسح الدار ، وتنظيفها ، وكنسها من المزابل والأقذار ، فالملك هو الملك الحق المبين - جل جلاله - والدار أنت ، والحشم ، والخدم ، الأعضاء ، والجوارح ، والقوام عليها هذه القوى التى ذكرناها .

فرق بين نظر الطبيب والطبائعى فى هذه الأمور ، فنظرهما فيها مقصور على النظر فى حفظ الصحة ودفع السقم ، فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط ، وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خلقها وباريها وماله فيها من الحكم البالغة والنعم السابغة والآلاء التى دعا العباد إلى شكرها وذكرها .

● ثم تأمل حكمة الله عز وجل فى الحفظ والنسيان الذى خص به نوع الإنسان وماله فيها من الحكم وما للعبد فيها من المصالح فإنه لولا القوة الحافظة التى خص بها لدخل عليها الخلل فى أموره كلها ، ولم يعرف ماله وما عليه ، ولا ما أخذو لا ماأعطى ، ولا ماسمع ورأى ، ولا ماقال ولا ماقيل له ، ولا ذكر من أحسن إليه ومن أساء إليه ، ولا من عامله ولا من نفعة فيقرب منه ، ولا من ضره فينأى عنه ، ثم كان لايهتدى إلى الطريق الذى سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علما ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ، ولا يستطيع أن يعتبر شيئا على مامضى ، بل كان خليقا أن ينسلخ من الإنسانية أصلا ، فتأمل عظيم المنفعة عليك فى هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلا عن جميعهن ، ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئا ، ولا انقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبته ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ، ولا تمتع بشىء من متاع الدنيا مع ذكر الآفات ، ولا رجا غفلة عدو ، ولا نقمة من حاسد ، فتأمل نعمة الله فى الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما وجعله فى كل واحد منهما ضربا من المصلحة .

● ثم تأمل هذا الخلق الذى خص به الإنسان - دون جميع الحيوان - وهو خلق الحياء الذى هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدرا وأكثرها نفعا ، بل هو خاصة الإنسانية ، فمن لاحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة ، كما أنه ليس معه من الخير شىء ، ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ، ولم يوف بالوعد ، ولم تؤد أمانة ، ولم يقض لأحد حاجة ، ولا تحرى الرجل الجميل فآثره ، والقبيح فتجنبه ، ولاستر له عورة ، ولا امتنع من فاحشة ، وكثير من الناس لولا الحياء الذى فيه لم يؤد شيئا من الأمور المفترضة عليه ، ولم يرع لمخلوق حقا ، ولم يصل له رحما ، ولا بر له والدا ، فإن الباعث على هذه الأفعال إما دينى وهو رجاء عاقبتها الحميدة ، وإما دنيوى علوى وهو حياء فاعلها من الخلق ، فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها . وفى الترمذى وغيره مرفوعا : (استحيوا من الله حق الحياء قالوا : وماحق الحياء ؟ قال : أن تحفظ الرأس

وما حوى والبصر وما وعى وتذكر المقابر .. والبلى[١] . وقال ﷺ : إذا لم تستح فاصنع ما شئت »[٢] .

وأصح القولين فيه قول أبو عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى : ﴿ إعملوا ماشئتم ﴾[٣] وقوله ﴿ كلوا وتمتعوا قليلا .. ﴾[٤] وقالت طائفة هو إذن وإباحة ، والمعنى أنك إذا أردت أن تفعل فعلا فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله ، وإن كان مما لايستحيا منه فافعله ، فإنه ليس بقبيح ، وعندى أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر ، وهو فى قوة قولهم من لايستحى صنع مايشتهى ، فليس بإذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو فى معنى الخبر والمعنى أن الردع عن القبيح إنما هو الحياء فمن لم يستح فإنه يصنع ماشاء وإخراج هذا المعنى فى﴾[٥] صيغة الطلب لنكتة بديعة جدا ، وهى أن للإنسان آمرين وزاجرين : آمر وزاجر من جهة الحياء ، فإذا أطاعه امتنع من فعل كل مايشتهى ، وله آمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فمن لم يطع آمر الحياء وزاجره أطاع آمر الهوى والشهوة ، ولابد فإخراج الكلام فى قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لايستحى صنع مايشتهى .

وهكذا تبين لنا مما تقدم مدى حكمة الله البالغة وقدرته الباهرة وسلطانه القاهر وآياته الظاهرة ، يشاهدها كل مخلوق فتبارك الله رب العالمين .

إنذار المشركين

قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

أى: أقعد هؤلاء المكذبون الجاحدون ولم يسيروا فى جنبات الأرض ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم من الأمم الطاغية الباغية لقد كانوا أشد منهم قوة بل لقد بلغ من جبروتهم أن قالوا : من أشد منا قوة ؟ فجاء الجواب من الله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون . فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لاينصرون ﴾[٥] لقد كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا وأثاروا الأرض وحرثوها ، ونقبوا فى بطنها حتى أخرجوا منها الكنوز كما عمروها ، واتخذوا من سهولها قصورا ونحتوا الجبال بيوتا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ولكنهم فرحوا بما عندهم من العلم فكان العذاب عاقبتهم ومصيرهم جزاء تكذيبهم وإستهزائهم بآيات الله ورسله ، كما قال تعالى : ﴿ ثم كان

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٣ ، ٥٤ أبواب صفة القيامة رقم ٢٥٧٥
- انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٣ ص ٢٤٦ رقم ٣١٩٢
(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٣٨٣ مسند حذيفة بن اليمان
انظر سنن أبى داود ج ٥ ص ١٤٨ ، ١٤٩ كتاب الأدب باب فى الحياء . رقم ٤٧٩٧
(٣) سورة فصلت جزء من الآية ٤٠
(٤) سورة المرسلات آية ٤٦
(٥) سورة فصلت الآيات ١٥ ، ١٦

عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون ﴾ فكان هذا العذاب جزاءهم ، وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون . ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ وماتأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ماكانوا به يستهزءون . ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾(١) .

ولقوله تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ماكانوا به يستهزءون . كل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(٢) وكقوله جل شأنه : ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ماأنزل الله فأحبط أعمالهم . أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾(٣) وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق . ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾(٤) وقوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾(٥) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وماكان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض أنه كان عليما قديرا ﴾(٦) .

وقوله جل شأنه : ﴿ ولقد أهلكنا ماحولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾(٧) بعد أن قال سبحانه ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون ﴾(٨) وقوله تعالى : ﴿ فأخذتهم الصيحة مشرقين . فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل . . إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . وإنها لسبيل مقيم . إنه فى ذلك لآية للمؤمنين . وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين . فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾(٩) وقوله جل جلاله : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾(١٠) . وقوله جل جلاله : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾(١١) .

---

(١) سورة الأنعام الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ .
(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٠ ، ١١
(٣) سورة محمد الآيات ٨ ، ٩ ، ١٠
(٤) سورة غافر الآيات ٢١ ، ٢٢
(٥) سورة غافر الآيات ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥
(٦) سورة فاطر آية ٤٤
(٧) سورة الأحقاف آية ٢٧
(٨) سورة الأحقاف آية ٢٦
(٩) سورة الحجر الآيات من ٧٣ - ٧٩
(١٠) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ، ١٣٨
(١١) سورة السجدة آية ٢٦

قوله تعالى : ﴿ الله يبدؤا الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون . ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون . ولم يكن لهم من شركائهم شفعؤا وكانوا بشركائهم كافرين . ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون . وأما الذين كفروا وكذبوا بآيتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾.

﴿ يقول تعالى ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أى كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أى يوم القيامة فيجازى كل عامل بعمله . ثم قال ﴿ ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ﴾ قال ابن عباس :

ييأس المجرمون . وقال مجاهد : يفتضح المجرمون وفى رواية يكتئب المجرمون ﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أى ماشفعت فيهم الآلهة التى كانوا يعبدونها من دون الله تعالى وكفروا بهم وخانوهم أحوج ماكانوا إليهم . ثم قال تعالى : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ قال قتادة : هى والله الفرقة التى لااجتماع بعدها . يعنى أنه إذا رفع هذا إلى عليين وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذلك آخر العهد بينهما ولهذا قال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ﴾ قال مجاهد وقتادة : ينعمون كثيرا.

﴿ وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة ﴾ أى جحدوا آيات الله التى بعث بها أنبياءه وجحدوا اليوم الآخر ﴿ وقالوا ان هى إلا حياتنا الدنيا ومانحن بمبعوثين ﴾[1] . فجزاء هؤلاء أنهم محضرون فى العذاب لايخفف عنهم ولا هم ينصرون ﴿ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[2] . قال تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾.

* أوقات التسبيح والعبادة *

قوله تعالى : فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ

(١) سورة الزخرف الأياتيان ٧٧ ، ٧٨
(٢) سورة فاطر الآيتان ٣٦ ، ٣٧

بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

ـ معانى المفردات

(فسبحان) : علم على التسبيح وهو التنزيه ، وقيل هو الصلاة . (تمسون) : تدخلون فى المساء وهو انتشار الظلام (وعشيا) : العشى والعشية من صلاة المغرب إلى العتمة وقيل العشاء آخر النهار عند ميل الشمس للمغيب ، وهو مأخوذ من عشا العين وهو نقص النور من الناظر وذلك هو وقت العصر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما بين سبحانه أن المقام الأعلى لمن آمن وعمل صالحا حيث قال : ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون** ﴾ قال إذا علمتم ذلك ، فاعلموا أن الإيمان تنزيه بالجنان ، وتوحيد باللسان ، وعمل صالح يشمل جميع الأركان ، وكل هذا تنزيه وتقديس ، وتحميد وتسبيح ﴿ **فسبحان الله** ﴾ أى سبحوا الله تسبيحا ، علمه سبحان الله وهو بهذه المعانى ، إيمان وتوحيد وعمل ـ فإنه الموصل إلى الحبور والجالب للسرور فى جنا الخلد والنعيم . .

عنه ـ الصلوت الخمس فى القرآن قيل له : أين ؟ فقال : قال الله : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ صلاة المغرب والعشاء ﴿ **وحين تصبحون** ﴾ صلاة الفجر ﴿ **وعشيا** ﴾ صلاة العصر ﴿ **وحين تظهرون** ﴾ صلاة الظهر ، ولعل تخصيص هذه الأوقات للعبادة إشارة إلى مايجب عمله فى تحصيل المعاش ، وجلب الرزق ، فالإسلام دين الجد والعمل ، لادين الرهبانية والكسل .

ولله الحمد سبحانه وتعالى فى السموات والأرض ، نعم له الحمد من كل مخلوق ، وهذه الجملة معترضة بين الأوقات للإشارة إلى أن هذا التسبيح لله فى الصلاة إنما هو لأصحابه ولا يعود منه شىء على الله ، فعليهم أن يحمدوه حمدا يوازى نعماءه وهدايته .

والله سبحانه وتعالى يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بالنبات بعد موتها وجدبها ، ومثل ذلك الإخراج والانتقال من حال إلى حال مخالفة تخرجون وتبعثون من موت وفناء إلى حياة خاصة للثواب والعقاب .

وعلى هذا فالمراد بالتسبيح فى الآية مايعم الصلاة والتنزيه لله عن صفات النقص ووصفه بصفات الكمال والجلال ، ولاشك أن الصلاة عماد ذلك وعموده .

ولعل المناسبة بين هذه الآية والآية التى قبلها أن الإنسان فى الصباح يخرج من الموت الأصغر وهو النوم إلى الحياة ، فكذلك تبعثون من الموت إلى الحياة الآخرة .

ـ وانظر صحيح البخارى ـ كتاب الدعوات باب فضل التسبيح ج ٨ ص ١٠٧
ـ انظر سنن الترمذى كتاب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣٤ . وقال هذا حديث حسن صحيح غريب .
ـ ثم انظر سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل التسبيح ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦
ـ والحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٢٣٢ مسند أبى هريرة

وعن رسول الله ﷺ : (من سره أن يكال له بالقفيز الأوفى فليقل:﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾[١] الآية

* التفسير *

قوله تعالى : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ﴾ هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده فى هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه عند المساء وهو إقبال الليل بظلامه وعند الصباح وهو إسفار النهار بضيائه . ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح وهو التحميد فقال تعالى : ﴿ وله الحمد فى السموات والأرض ﴾ أى هو المحمود على ماخلق فى السموات والأرض ثم قال تعالى : ﴿ وعشيا وحين تظهرون ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام والإظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا ، وهذا فالق الإصباح وجعل الليل سكنا .

كما قال تعالى : ﴿ والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ والضحى . والليل إذا سجى ﴾[٤] وقال الإمام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « ألا أخبركم لم سمى الله إبراهيم خليله الذى وفى ! لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون »[٥] وروى الطبرانى بسنده عن عبد الله بن عباس عن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال حين يصبح سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . الآية بكمالها أدرك مافاته فى يومه ومن قالها حين يمسى أدرك مافاته فى ليلته »[٦].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال . قال رسول الله - ﷺ - :

(كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) . رواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى ، وابن مـاجـه[٧] .

---

(١)الحديث فى جمع الجوامع أو الجامع الكبير للسيوطى ص ٧٨٥ بلفظ « من سره أن يكتال بالميكيال الأوفى يوم القيامة فليقل عند انصرافه من الصلاة سبحان ربك رب العزة عما يصنعون ...) إلى آخر السورة الديلمى عن على .

(٢) سورة الشمس الآيتان ٣ ، ٤

(٣) سورة الليل الآيتان ١ ، ٢

(٤) سورة الضحى الآيتان ١ ، ٢

(٥) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٣٩ مسند سهل بن معاذ عن أبيه .

(٦) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١٢ ص ٢٣٩ رقم ١٢٩٩١

وقال محقق الطبرانى . ورواه أبو داود ٥٠٥٥ وقال الحافظ فى تخريج الكشاف ٤٧٢/٣ أخرجه أبو داود والعقيلى وابن عدى من حديث ابن عباس وإسناده ضعيف . وقال البخارى لايصح . وقال المنذرى فى إسناده محمد بن عبد الرحمن البيلمانى عن أبيه وكلاهما لايحتج به . وقال ابن كثير فى تفسيره ٣/ ٤٢٨ اسناد ضعيف .

(٧) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٢٦٩٤/٣١ - كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار . باب فضل التهليل والتسبيح .

وعن أبي ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ . قلت : يارسول الله أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله : سبحان الله وبحمده) . رواه مسلم والنسائى والترمذى إلا أنه قال :

سبحان ربى وبحمده . وقال حديث حسن .

وفى رواية مسلم : أن رسول الله ﷺ سئل أى الكلام أفضل ؟

قال : ماأصطفى الله لملائكته ، أو لعباده : سبحان الله وبحمده .(١)

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : (من قال سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ومن قال : لاإله إلا الله كان له بها عهد عند الله يوم القيامة) رواه الطبرانى بإسناد فيه نظر(٢) .

زاد فى رواية له عن أيوب بن عقبة عن عطاء عنه بنحوه ، فقال رجل :

(كيف نهلك بعد هذا يارسول الله ؟ قال : إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله تكاد أن تستنفد ذلك كله إلا أن يتطول الله برحمته)(٣) .

- معنى (تستنفد) : تذهب .

- معنى (يتطول) : يتفضل وينعم ويسامح ، وفيه الإكثار من ذكر الله .

ورواه الحاكم من حديث إسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه عن جده ولفظه : قال رسول الله - ﷺ - : (من قال لاإله إلا الله دخل الجنة ، أو وجبت له الجنة ، ومن قال : سبحان الله وبحمده مائة مرة كتب الله له مائة ألف حسنة وأربعا وعشرين ألف حسنة . قالوا : يارسول الله إذا لايهلك منا أحد ؟ قال : قال بلى إن أحدكم ليجيىء بالحسنات لو وضعت على جبل أثقلته

ثم تجيء النعم فتذهب بتلك ثم يتطاول الرب بعد ذلك برحمته) .

قال الحاكم : صحيح الإسناد(٤) .

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

(من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة)(٥) . رواه البزار بإسناد حسن

وعن أبي أمامة - رضى الله عنه - قال قال : رسول الله - ﷺ - :

(من هاله الليل أن يكابده ، أو بخل بالمال أن ينفقه ، أو جبن عن العدو أن يقاتله فليكثر من : سبحان

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل سبحان الله وبحمده . ج ٤ ص ٢٠٩٤ رقم ٨٥/ ٢٧٣١

(٢) انظر الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١٢ ص ٤٣٧ رقم ١٣٥٩٧ .

وقال محققه . قال فى المجمع ١٠/ ٨٧ وفى النضر بن عبيد ولم أعرفه وبقية رجاله وثقوا .

(٣) هذه الرواية الزائدة فى المعجم الكبير للطبرانى وهى جزء من الحديث رقم ١٣٥٩٥ ج ١٢ ص ٤٣٧ .

(٤) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ٢٥١ . وقال (صحيح)

(٥) الحديث فى سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣١

الله وبحمده ، فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب ينفقه فى سبيل الله عز وجل) . رواه الفريانى والطبرانى واللفظ لـه[١].

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (ومن قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر)[٢] رواه مسلم والترمذى .

- (زبد البحر) : كناية عن المبالغة فى الكثرة

وعن مصعب بن سعد رضى الله عنه قال : حدثنى أبى قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فسأله سائل من جلسائه كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ قال : يسبح مائة تسبيحة فتكتب له ألف حسنة ، أو تحط عنه ألف خطيئة)

رواه مسلم والترمذى وصححه[٣] .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس)[٤] رواه مسلم والترمذى .

- وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (أحب الكلام إلى الله أربع : سبحان الله ، والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر ، لايضرك بأيهن بدأت)[٥] رواه مسلم والنسائى وزاد : وهن من القرآن

- وعن رجل من أصحاب النبى - قال : (أفضل الكلام سبحان الله والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر)[٦] رواه أحمد .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - مر به وهو يغرس غرسا ، فقال : (ياأبا هريرة ، ماالذى تغرس ؟ قلت غراسا . قال : ألا أدلك على غراس خير من هذا ؟ سبحان الله والحمد لله ، ولاإله إلا الله ، والله أكبر تغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة)[٧] رواه ابن ماجه بإسناد

---

(١) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ص ٢٣٠ رقم ٧٨٠٠
وقال محققه . قال فى المجمع ١٠ / ٩٤ وفيه سلمان بن أحمد الوسطى وثقه عبدان وضعفه الجمهور ، والغالب على بقية رجاله التوثيق .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم . وهو جزء من الحديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ ج ٤ ص ٢٠٧١
(كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء .
وانظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦١ ج ٥ ص ١٧٤ رقم ٣٥٣٣ وقال . هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج ٤ ص ٢٠٧٣ رقم ٢٦٩٨/٣٧ .
وانظر سنن الترمذى أبواب الدعوات باب ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ رقم ٣٥٣٠ . وقال . هذا حديث حسن صحيح

(٤) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة ولإستغفار . باب فضل التهليل والتسبيح ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٣٢/ ٢٦٩٥ .
وأنظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٢٣٦ أبواب الذكر والدعاء حديث ٣٦٦٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الآداب) باب كرهة التسمية بالأسماء القبيحة ج ٢ ص ١٦٨٥ رقم ٢١٣٧/١٢ . فقد ورد هذا الحديث بلفظه .

الحديث فى سنن الإمام أحمد ج ٤ ص ٣٦ مسند حديث بعض أصحاب النبى .

(٧) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢٥١ (كتاب الأدب) باب فضل التسبيح برقم ٣٨٠٧ ، وقال : فى الزوائد : إسناده حسن . وأبو سنان اسمه عيسى بن سنان الحنفى ، مختلف فيه .

حسن .

ـ وعن ابن سعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لقيت ابراهيم عليه السلام ليلة أسرى بى فقال : يامحمد : أقرىء أمتك منى السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد الله ولاإله إلا الله والله أكبر ﴾ (١). رواه الترمذى والطبرانى فى الأوسط والصغير وزاد : ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(القيعان : أمكنة مستوية منبسطة واسعة فى وطأة من الأرض يعلوها ماء السماء : أى المطر فتمسكه ويستوى نباتها والقيعان جمع قاع)

وعن أبى هريرة وأبى سعيد ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (إن الله اصطفى من الكلام أربعا : سبحان الله ، والحمد لله ولاإله إلا الله ، والله أكبر ، فمن قال : سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ، وحطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال الله أكبر فمثل ذلك ، ومن قال لاإله إلا الله ، فمثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة ، وحطت عنه ثلاثون سيئة)(٢). رواه أحمد والنسائى واللفظ له ، والبيهقى ، وفى آخره : ومن أكثر ذكر الله فقد برىء من النفاق

وعن أبى مالك الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (الطهور : شطر الإيمان ، والحمد لله : تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله : تملآن أو تملأ مابين السماء والأرض ، والصلاة : نور ، والصدقة : برهان ، والصبر : ضياء ، والقرآن : حجة لك ، أو عليك ، كل الناس يغدو فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها) رواه مسلم(٣)

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ أن ناسا من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ قالوا للنبى ـ ﷺ ـ : يارسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم قال : (أو ليس قد جعل الله لكم ماتصدقون به ؟ إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا : يارسول الله أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام كان عليه وزر ؟ ! فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر) (٤) رواه مسلم .

(والبضع) بضم الباء : هو الجماع .

ـ وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء أعرابى إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : علمنى كلاما أقوله ، قال (قل : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم)

---

(١) أنظر سنن الترمذى (أبواب الدعوات) باب ٦٠ ج ٥ ص ١٧٣ رقم ٣٥٢٩ . وقال هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود .

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٠٢ مسند أبى هريرة

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء ج ١ ص ٢٠٣ رقم ١/ ٢٢٣

(٤) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ج ٢ ص ٦٩٧ رقم ٥٣/ ١٠٠٦ .

قال : هؤلاء لربى فمالى ؟ قال قل : (اللهم اغفر لى وارحمنى واهدنى وارزقنى . وفى رواية أخرى قال : فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك). رواه مسلم(١) .

ـ وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ (قال : استكثروا من الباقيات الصالحات . قيل : وماهن يارسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله) رواه أحمد ، وأبو يعلى والنسائى(٢) .

ـ وعن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :(إن مما تذكرون من جلال الله ، التسبيح ، والتهليل ، والتحميد ينعطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل تذكر بصاحبها أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لايزال له من يذكر به). رواه ابن أبى الدنيا ، وابن ماجة واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم(٣) .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أخذ غصنا فنفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فانتفض فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :(إنه سبحان الله ، والحمد الله ، ولاإله إلا الله والله أكبر تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها) . . رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح(٤) .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ : ـ

(أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله ـ قال رسول الله ـ ﷺ : . رواه ابن إبى الدنيا ، والبزار والطبرانى . والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم(٥) .

قوله تعالى : ﴿ يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ﴾ فهو سبحانه القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض ، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ، كما يفعل ضد هذا ، فيخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر ، وفى هذا دلالة على كمال قدرته وبديع صنعه ، وكون البيضة والنطفة كائنا حيا لاتعرفه العرب ولا تعترف به . . ﴿ ويحيى الأرض بعد موتها ﴾ أى ويحيى الأرض بالمطر ، فتخرج النبات الغض بعد أن كانت صعيدا جرزا .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾(٧) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والاستغفار) ج ٤ ص ٢٠٧٢ رقم ٣٣/ ٢٦٩٦ .
وانظر الحديث أيضا بمعناه فى مسند أحمد ج ٤ ص ٣٥٦ مسند ابن أبى أوفى .

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ (مسند أبى سعيد الخدرى)
وانظر الحاكم كتاب الدعاء ج ١ ص ٥١٢

(٣) والحديث فى مسند أحمد ج ٤ ص ٢٧١ مسند النعمان بن بشير
وانظر كتاب المستدرك (كتاب الدعاء) ج ١ ص ٥٠٣
ثم انظر الحديث فى سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٢٥٢ (كتاب الأدب) باب ٥٦ برقم ٣٨٠٩

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٥٢ مسند أنس

(٥) الحديث فى كتاب المستدرك للحاكم ج ١ ص ٥٠٢ . وقال ، هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٦) سورة يس آية ٣٣ .

(٧) سورة الحج آية ٥ .

﴿ وكذلك تخرجون ﴾ أى وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه وإنماء الأرض بإنباتها بعد موتها - يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾(٢) .

بعض آيات الله الناطقة بقدرته ووحدانيته

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ
أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ
وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ
خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ
ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى
يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

معانى المفردات

(تنتشرون : أى منتشرون فى الأرض تبتغون من فضل الله . لتسكنوا إليها : يقال سكن إليه إذا مال إليه واطمأن .

(١) سورة الروم آية ٥٠ . (٢) سورة فصلت آية ٣٩ .

مودة ورحمة : قال السدى : المودة ؛ المحبة . والرحمة ؛ الشفقة ، البرق : هو الشرارة الكهربائية التى تظهر فى الجو وخاصة عند السحب وينشأ عنها الرعد . قانتون : مخلصون فى طاعته . المثل الأعلى : الصفة العليا .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن أمر ـ سبحانه ـ بتنزيهه عن الأسواء والنقائص التى لاتليق بجلاله وكماله ذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات ، وبين قدرته على الإماتة والإحياء ، ذكر هنا ـ سبحانه ـ أدلة باهرة ، وحججا ظاهرة على البعث والإعادة ، ومنها خلقكم من التراب الذى لم يشم رائحة الحياة ، ولا مناسبة بينه وبين ماأنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد ، فإذا مات الأب قام ابنه مقامه لتبقى سلسلة الحياة متصلة بهذا النوع وبسائر الأنواع الأخرى بالأزدواج والتوالد إلى الأجل الذى قدره الله لأمد هذه الحياة .

ثم أعقب ذلك بدلائل أخرى فى الأكوان المشاهدة ، والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لاحصر لها ، مع كونهم من أب واحد وأصل واحد ، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلا ، وحركتهم السريعة نهارا . فى السعى على الأرزاق ، والجد والكد فيها . ثم ذكر سبحانه مايعرض للأكوان والآفاق ونشاهده رأى العين الفينة بعد الفينة ، مما فيه العبرة لمن ادكر ، ونظر فى العوالم نظرة متأمل معتبر فى بدائع الأكوان ، ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى . وبعد أن أقام الأدلة على الوحدانية وهى الأصل الأول ، وعلى القدرة على الحشر وهى الأصل الثانى ـ أعقب ذلك بقوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾

يقول الله تعالى ﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم ، بشر تنتشرون ﴾ فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ، ثم مضغة ثم صار عظاما شكله على شكل الإنسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيرا ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ، ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكر وغور ودهاء ومكر ورأى وعلم واتساع فى أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعايش والمكاسب ، وفاوت بينهم فى العلوم والفكر والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة ، ولهذا قال سبحانه : ﴿ ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾

أخرج الأمام أحمد بسنده عن أبى موسى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين

ذلك ، والخبيث والطيب ، والسهل والحزن وبين ذلك » رواه أبو داود والترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح .(١)

وقوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا ﴾ أى خلق لكم من جنسكم إناثا لتكون لكم أزواجا . ﴿ لتسكنوا إليها ﴾ أى لتأنسوا بها ، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام ، ونحو الآية قوله ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾(٢) . يعنى بذلك حواء خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر . ولو أنه تعالى جعل بن آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم أو من جان أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببنى آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن مودة وهى المحبة ، ورحمة وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو لرحمته بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

ـ الآيات القرآنية فى الترغيب فى النكاح ـ

١ ـ قال تعالى : ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ﴾ ٣٢ من سورة النور وهذا أمر .

٢ ـ وقال تعالى : ﴿ فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ﴾ ٢٣٢ من سورة البقرة ، وهذا منع من العضل ، ونهى عنه .

٣ ـ وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم ﴿ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية .. ﴾ ٣٨ من سورة الرعد ، فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل .

٤ ـ وقال تعالى : ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ﴾ ٧٤ من سورة الفرقان : سبحانه مدح أولياءه بسؤال ذلك فى الدعاء .

فوائد النكاح وآفاته الناجمة من الانحراف عن جادة الصواب .

أولا : الولد لأنه المقصود بهذا العقد والتمتع البهيمى ، وفى التوسل إلى الولد قربة ، فلا يحب الصالح أن يلقى الله عزبا وتلبية الأمر بالزواج كما قال الغزالى :

١ ـ موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .

٢ ـ محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .

٣ ـ طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده .

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٤٠٠ مسند أبى موسى .
(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٩

٤ ـ طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

ثانيا : التحصن عن الشيطان ، وكسر التوقان ، ودفع غوائل الشهوة وغض البصر ، وحفظ الفرج .

ثالثا : ترويح النفس ، وإيناسها بالمجالسة ، والنظر ، والملاعبة إراحة للقلب ، وتقوية له على العبادة ، فإن النفس ملول ، وهى عن الحق نفور قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾(١)

رابعا : تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل الطبخ ، والكنس ، والفرش وتنظيف الأوانى وتهيئة أسباب المعيشة ، ولولا شهوة الوقاع لتعذر على الإنسان العيش فى منزله وحده .

قال أبو سليمان الدارنى فى رحمة الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرغك للآخرة ، وإنما تفريغها بتدبير المنزل ، وبقضاء الشهوة جميعا . وقال محمد بن كعب القرطبى به فى معنى قوله تعالى : ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة . . ﴾ قال : المرأة الصالحة .

خامسا : مجاهدة النفس ورياضتها بالرغاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده .

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ :

(ماأنفقه الرجل على أهله فهو صدقة ، وإن الرجل ليؤجر على اللقمة يرفعها إلى فى امرأته)(٢)

وآفات النكاح

أولا : االعجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب ، والإطعام من الحرام ، وربما يتبع هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه .

ثانيا : القصور عن القيام بحقهن ، والصبر على أخلاقهن واحتمال الأذى منهن ، وفى هذا خطر لأنه راع ومسئول عن رعيته

قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثما أن يضيع من يعول »(٣) .

وقال تعالى : ﴿ قوا أنفسكم وأهليكم نارا ﴾ أمرنا أن نقيهم النار كما نقى أنفسنا وذلك بفعل الطاعات وترك المحرمات .

ثالثا : أن يكون الأهل والولد شاغلا عن الله تعالى وجاذبا إلى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة

---

(١) سورة الروم آية ٢١

(٢) الحديث فى اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ج ٥ ص ٣١٤ .

(٣) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب صلة الرحم ج ٢ ص ٣٢١ وقال (أن يضيع من يقوت . ـ انظر صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك ج ٢ ص ٦٩٢ رقم ٤٠/٦٩٦ . وقال « كفى بالمرء إثما أن يحبس عمن يملك قوته) .

للأولاد بكثرة جمع المال ، وادخاره لهم وطلب التفاخر والتكاثر بهم وكل ماأشغل عن الله من أهل ومال وولد فهو مشئوم على صاحبه فينقل من التنعم المباح إلى الإغراق فى ملاعبة النساء ومؤانثتهن والإمعان فى التمتع بهن . .

ترغيب الزوج فى الوفاء بحق زوجته ، وحسن عشرتها والمرأة بحق زوجها وطاعته، وترهيبها من إسقاطه ومخالفته .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « كلكم راع ومسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته ، وكلكم راع ومسئول عن رعيته » . رواه البخارى ومسلم(١)

ـ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا ، وخياركم خياركم لنسائهم » رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح(٢)

وقوله ﷺ خياركم لنسائهم أى أفضل المسلمين : المحسنون إلى أزواجهم

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ

(خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى)(٣) . رواه ابن حبان فى صحيحه وقوله : (وأنا خيركم لأهلى) : برا ونفعا وفى هذا حث للمؤمنين على الاقتداء به ﷺ فى حسن معاملة الزوجة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (استوصوا بالنساء ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وان أعوج مافى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء)(٤) رواه البخارى ومسلم وغيره .

(وإن أعوج مافى الضلع أعلاه) إشارة إلى أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع مبالغة فى إثبات هذه الصفة لهن ، ويحتمل أن يكون ضرب ذلك مثلا لأعلى المرأة لأن أعلاها رأسها ، وفيه لسانها ، وهو الذى يحصل منه الأذى ، واستعمال أعوج ، وإن كان من العيوب لأنه أفعل الصفة ، وأنه شاذ ،

---

(١) ـ الحديث فى صحيح البخارى ج ٢ ص ٦ كتاب الجمعة
ـ وانظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٩ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر رقم ٢٠/ ١٨٢٩
انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٩ ـ كتاب الإماره ـ باب فضيلة الإمام العادل . رقم ٢٠/ ١٨٢٩ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٥ أبواب النكاح باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢ . وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ١ ص ٣٣٠ ، ٣٣١ رقم ٤٣٦ : باب ذكر استحباب الاقتداء بالمصطفى .
انظر بسنن ابن ماجه ج ١ ص ٦٣٦ كتاب النكاح باب حسن معاشرة النساء . رقم ١٩٧٧ .

(٤) انظر صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٤ كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء
الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ٦٠/ ١٤٦٨ .
انظر كنز العمال ج ١٦ ص ٣٧٣ حديث رقم ٤٤٩٥٨

وإنما يمتنع عند الالتباس بالصفة ، فإذا تميز عنه بالقرينة جاء البناء . (وكسره ـ طلاقها) .

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لايَفْرَكْ مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر)[1] رواه مسلم

يفرك بسكون الفاء ، وفتح الياء ، والراء أيضا : أى يبغض .

والمعنى لايكره الزوج زوجته الصالحة الطائعة ، فإن لها محامد ومساوىء .

ولتضيع أخلاقها الحسنة شذوذها أحيانا ، فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة .

ـ وعن معاوية بن حيدة ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت يارسول الله ماحق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : (أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ، ولاتقبح ولا تهجر إلا فى البيت)[2] رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه .

(لاتقبح) بتشديد الباء : أى لاتسمعها المكروه ، ولاتشتمها ، ولا تقل قبحك الله ، ونحو ذلك .

وعن عمر بن الأحوص الجشمى ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ فى حجة الوداع يقول : بعد أن حمد الله وأثنى عليه وذكر ووعظ . ثم قال : (ألا واستوصوا بالنساء خيرا فإنما هن عوان عندكم ، ليس تملكون منهن شيئا غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة . فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، ألا إن لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فحقكم عليهن أن لايوطئن فرشكم من تكرهون ، ولايأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن فى كسوتهن وطعامهن)[3] رواه ابن ماجه والترمذى وقال حديث حسن صحيح . (عوان : أُسيرات)

(فاحشة مبينة) أى معصية ثابتة بيقين ، بعيدة عن التهم الكاذبة .

(غير مبرح) غير مهلك لم يؤذ بكسر .

(فلا تبغوا) فلا تطلبوا غير الطاعة طريقا .

(ألا يوطئن فرشكم من تكرهون) لايكون الفراش لأجنبى وطاء سهلا يتمتع بلذته

وعن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ٦١/ ١٤٦٩

(٢) الحديث فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠٦ كتاب النكاح باب حق المرأة على زوجها . رقم ٢١٤٢

ـ انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٤ كتاب النكاح باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥٠ .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٥ كتاب النكاح باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٣ وقال هذا حديث حسن صحيح .

ـ انظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٤ كتاب النكاح باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥١

(أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة)[١] رواه الترمذى وحسنه
(وفيه الحث على إرضاء الزوج وطاعته والإخلاص له رجاء كسب نعيم الله ورضوانه .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -
(إذا صلت المرأة خمسها ، وحصنت فرجها ، وأطاعت بعلها ، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت)[٢] رواه ابن حبان فى صحيحه .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سألت رسول الله - ﷺ -
(أى الناس أعظم حقا على المرأة ؟ قال : زوجها . قلت فأى الناس أعظم حقا على الرجل ؟ قال أمه)[٣] . رواه البزار وإسناده حسن

- وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : (جاءت امرأة إلى النبى ﷺ - فقالت : يارسول الله ! أنا وافدة النساء إليك هذا الجهاد كتبه الله على الرجال ، فإن يصيبوا أجروا ، وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ، ونحن معشر النساء نقوم عليهم ، فمالنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله)[٤] رواه البزار هكذا مختصرا .
(وقليل منكن من يفعله أى من يقوم بحق الزوج) .

وعن ابن أبى أوفى - رضى الله عنه - قال : لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد للنبى - ﷺ - ، فقال رسول الله - ﷺ - « ماهذا ؟ قال يارسول الله . قدمت الشام ، فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفهم فأردت أن أفعل ذلك بك ؟ قال : لاتفعل فإنى لو أمرت شيئا أن يسجد لشىء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذى نفسى بيده لاتؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها »[٥] رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)[٦] . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٤ .
انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٤ أبواب الرضاع باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٧١ . وقال هذا حديث حسن غريب .
(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٤ كتاب النكاح باب إيجاب الجنة للمرأة إذا أطاعت زوجها رقم ٤١٥١ . وقال . أبو حاتم . تفرد بهذا الحديث عبد الملك بن عمير من حديث أبى سلمة ومارواه عن عبد الملك إلا هدبة بن المنهال وهو شيخ أهوازى - وانظر مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ كتاب النكاح باب ثواب المرأة على طاعتها لزوجها .
(٣) الحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار ج ٢ ص ١٧٦ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٤٦٢ . قال البزار ؛ لانعلمه مرفوعا إلا بهذا الإسناد ، وأبو عتبة لانعلم حدث عنه إلا مسعر .
(٤) الحديث فى زوائد البزار ج ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ كتاب النكاح باب ثواب من أطاعت زوجها رقم ١٤٧٤ . وقال البزار : لانعلم رواه عن ثابت إلا روح ، وهو بصرى مشهور
(٥) الحديث فى مسند ابن ماجة ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ انظر صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٦ ، ١٨٧ كتاب النكاح باب استحباب الاجتهاد للمرأة فى قضاء حقوق زوجها رقم ٤١٥٩
(٦) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٢
- انظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣١٤ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٦٩ . وقال (وفى الباب عن معاذ بن جبل وسراقة بن مالك ابن جعشم وعائشة وابن عباس وعبد الله بن أبى أوفى وطلق بن على وأم سلمة ، أنس وابن عمر . حديث أبى هريرة حديث حسن غريب من هذا الوجه ، من حديث محمد بن عمرو ، عن أبى سلمة ، عن أبى هريرة .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (لا يحل لامرأة أن تصوم ، وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه)[1] رواه البخارى ومسلم .

المراد صيام النفل والأفضل أن تفطر حتى إذا أراد منها شيئا فعل ولا تأذن بدخول أحد ، أو بتصدق ، أو ببيع شىء إلا بإذنه .

وعن زيد بن أرقم - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (المرأة لاتؤدى حق الله عليها حتى تؤدى حق زوجها كله ، ولو سألها وهى على ظهر قتب لم تمنعه نفسها)[2] رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا)[3] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح »[4] رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى (إلى فراشه : كناية عن طلبها بجواره ليتمتع بها فظل طول ليله ساخطا عليها لعدم إجابتها اكتسبت دعوات الملائكة عليها بالطرد ، والاقصاء والعذاب : ودعاء الملائكة مستجاب .

وفى رواية للبخارى ومسلم قال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده مامن رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها »[5] .

وعن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ثلاثة لا تقبل لهم صلاة ، ولا تصعد لهم إلى السماء حسنة : العبد الآبق حتى يرجع إلى مواليه فيضع يده فى أيديهم ، والمرأة الساخط عليها زوجها حتى يرضى ، والسكران حتى يصحو)[6] رواه الطبرانى فى الأوسط وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٩ كتاب النكاح باب صوم المرأة بإذن زوجها تطوعا ط / الشعب .
(٢) الحديث فى مجمع الزوائد ج ٤ ص ٣٠٨ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة
- انظر صحيح ابن حبان ج ٦ ص ١٨٧ رقم ٤١٥٩ كتاب النكاح باب استحباب للمرأة فى قضاء حقوق زوجها .
- الحديث فى سنن ابن ماجة ج ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣
(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ١ ص ٦٤٩ كتاب النكاح باب فى المرأة تؤذى زوجها رقم ٢٠١٤
وانظر سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٢٠ أبواب الرضاع باب ٠١٩ رقم ١١٨٤ وقال هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه ورواية اسماعيل بن عياش عن الشاميين أصلح . وله عن أهل الحجاز وأهل العراق مناكير .
الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦ كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٢٢/ ١٤٣٦
(٤) الحديث فى صحيح البخارى كتاب النكاح باب اذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ج ٧ ص ٣٩
(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح باب تحريم امتناعها من فراش زوجها رقم ١٢١/ ١٤٣٦
(٦) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٧ ص ٣٧٠ رقم ٥٣٣١
انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٣ رقم ٣٤

وعن ابن عمر - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن المرأة إذا خرجت من بيتها وزوجها كاره ، لعنها كل ملك فى السماء وكل شىء مرت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع)(١) . رواه الطبرانى فى الأوسط .

وقد رهب الإسلام من الظلم عند تعدد الزوجات

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة ، وشقه ساقط)(٢) ، رواه الترمذى والحاكم وقال صحيح على شرطهما . وقال صحيح على شرطهما .

(شقه ساقط : أى مائل معوج والمعنى جاء على حالة نقص .

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت : (كان رسول الله ﷺ يقسم فيعدل ، ويقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك)(٣) ، يعنى القلب ، رواه أبو داود والترمذى وقال مرسلا وهو أصح .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما ولوا)(٤) رواه مسلم .

ولو علم المسلم مدى ماعند الله تعالى من الأجر العظيم له لوقام على أهله بالمعروف والعدل والإحسان ، وأحسن تربيتهم ، وكان راعيا صالحا لشئونهم ، لو علم ذلك ماغمض له جفن عن رعايتهم وإسداء المعروف لهم .

فعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرا الذى أنفقته على أهلك)(٥) رواه مسلم .

وعن ثوبان - رضى الله عنه - مولى رسول الله ﷺ : قال - قال رسول الله ﷺ (أفضل دينار ينفقه الرجل . دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه على فرسه فى سبيل الله ، ودينار ينفقه

---

(١) الحديث فى الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٣ ، ١٠٤ . وقال رواه الطبرانى فى الأوسط ، ورواته ثقات إلا سويد بن عبدالعزيز ، قال فى الميزان (سويد بن عبدالعزيز الدمشقى قاضى بعلبك أصله واسطى . قال ابن معين ليس حديثه بشىء ، وقال النسائى ليس بثقه ، وقال أبو حاتم لين ، وقال الدارقطنى يعتبر به .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٠٤ أبواب النكاح باب ماجاء فى التسوية بين الضرائر رقم ١١٥٠ . وقال : ولانعرف هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث همام

- الحديث فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠١ كتاب النكاح باب فى القسم بين النساء رقم ٣١٣٣

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٢ ص ٣٠٤ . أبواب النكاح باب ماجاء فى التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٩ . قال . وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة .

- انظر سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠١ كتاب النكاح باب فى القسم بين النساء . رقم ٢١٣٤ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨ / ١٨٢٧

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٢ رقم ٣٩/ ٩٩٥ كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك .

على أصحابه فى سبيل الله). قال أبو قلابة : بدأ بالعيال : ثم قال : أى رجل أعظم أجرا من رجل ينفق على عيال صغار ينفعهم الله به ويغنيهم ؟(١) رواه مسلم والترمذى .

وعن ابن مسعود البدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - : قال : (إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة)(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وعن عبد الله بن سعود - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك)(٣)

(أى اختر الأقرب فالأقرب) رواه الطبرانى بإسناد حسن .

وعن كعب بن عجرة - رضى الله عنه - قال : مر على النبى - ﷺ - رجل فرأى أصحاب رسول الله - ﷺ - جلده ونشاطه ، فقالوا يارسول الله . لو كان هذا فى سبيل الله فقال رسول الله - ﷺ - : (إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله ، وان كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان)(٤) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

وروى عن جابر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (أول مايوضع فى ميزان العبد نفقته على أهله)(٥) رواه الطبرانى فى الأوسط .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : (مامن يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا)(٦) . رواه البخارى خلفا : أى عوضا وزيادة ، والممسك : البخيل المقتر ، تلفا : خرابا ودمارا

وعن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال قال رسول الله - ﷺ - : (كفى بالمرء إثما أن يضيع من يقوت)(٧) رواه أبو داود والنسائى .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩١ ، ٦٩٢ كتاب (الزكاة) باب فضل النفقة على العيال والمملوك . رقم ٩٩٤/٣٨
- وانظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ . أبواب البر والصلة . باب ماجاء فى النفقة على الأهل . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ١ ص ٢١ ، ٢٢ كتاب الايمان باب ماجاء إن الأعمال بالنيات .
وانظر صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٩٥ رقم ٤٨/ ١٠٠٢

(٣) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١ ص ٧٩ رقم ١٣٨٤ مع اختلاف فى الألفاظ : ورجاله رجال الصحيح .
- وانظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٦٤ مسند (حديث رجل من بنى يربوع رضى الله عنه)
- انظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١٠٩ ، ١١٠ . باب فى النفقة على الزوجة والعيال برقم ٧ وقال اسناد حسن .

(٤) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٩ ص ١٢٩ رقم ٢٨٢ . وقال فى المجمع ورجاله رجال الصحيح . وهو فى الثلاثة بإسناد واحد . وقال المنذرى فى الترغيب ورجاله رجال الصحيح .
- وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١١ . قال ورجاله رجال الصحيح .

(٥) الحديث فى الترغيب والترهيب ج ٣ باب نفقة الرجل على أهله صدقة ص ١١٣ رقم ١٤

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٠ رقم ٥٧/ ١٠١٠
- وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٤ . وقال . وهو حديث مرسل فإن الحسن وهو البصرى لم يذكر الصحابى الذى روى عنه ولعله رواه عن أنس رضى الله عنه بدليل الحديث الذى بعده .

(٧) الحديث فى سنن أبى داود . كتاب الزكاة باب صلة الرحم ج ٢ ص ٣٢١

وعن الحسن ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع حتى يسأل الرجل عن أهل بيته)[٥] رواه ابن حبان فى صحيحه .

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل ، فلم تجد عندى شيئا غير تمرة واحدة ، فأعطيتها إياها ، فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها شيئا ، ثم قامت فخرجت ، فدخل النبى ﷺ علينا فأخبرته فقال :(من ابتلى من هذه البنات بشىء ، فأحسن إليهن كن له سترا من النار)[٢] رواه البخارى ومسلم والترمذى وفى لفظ له : من ابتلى بشىء من البنات فصبر عليهن كن له حجابا من النار) (فأحسن إليهن : بالإنفاق والتأديب وتعليم الدين وتقوى الله .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : (من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضم أصابعه)[٣] رواه مسلم .

(وعال : ربى وعاهد ، والمعنى تقرب منزلته فى الجنة بجوار منزلة رسول الله ﷺ) .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

(مامن مسلم له ابنتان فيحسن إليهما ماصحبتاه ، أو صحبهما إلا أدخلتاه الجنة)[٤]رواه ابن ماجه بإسناد صحيح .

وروى الطبرانى عن عوف بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال (مامن مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يبن أو يمتن إلا كن له حجابا من النار ، فقالت له امرأة : أو بنتان قال : وبنتان)[٥] .

وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ

(من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن ، وجبت له الجنة البتة ، قيل : يارسول الله فإن كانتا اثنتين ؟ قال : وإن كانتا اثنتين قال : فرأى بعض القوم أنه لو قال . واحدة لقال : واحدة)[٦] رواه أحمد بإسناد جيد .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾

يقول تعالى : **﴿ ومن آياته ﴾** الدالة على قدرته العظيمة **﴿ خلق السموات والأرض ﴾** أى خلق

---

(١) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٧ ص ١٢ كتاب السير باب ذكر الأخبار بسؤال الله عز وجل من استرعى رعية رقم ٤٤٧٥ ـ وانظر الترغيب والترهيب ج ٣ ص ١١٥

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٧ كتاب البر والصلة باب فضل الإنسان إلى البنات رقم ١٤٧/ ٢٦٢٩ ـ انظر سنن الترمذى ج ٣ ص ٢١٣ ، ٢١٤ كتاب البر والصلة رقم ١٩٨٠ . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٢٧ ، ٢٠٢٨ كتاب البر والصلة باب فضل الإحسان إلى البنات رقم ١٤٩/ ٢٦٣١

(٤) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٢١٠ كتاب الأدب باب بر الوالد والإحسان إلى البنات رقم ٣٦٧٠ .. بلفظ مامن رجل .

(٥) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ١٨ ص ٥٦ رقم ١٠٢ . وقال محققه وفيه النهاس بن فهم وهو ضعيف . قلت ورواه أحمد ولم ينسبه إليه .

(٦) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٠٣.

السماوات فى ارتفاعها واتساعها ، وشقوق أجرامها ، وزهارة كواكبها ، ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها ومافيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار .

وقوله تعالى : ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ يعنى اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر لهم لغة أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء اكراد ، إلى غير ذلك مما لايعلمه إلا الله - تعالى - من اختلاف لغات بنى آدم واختلاف ألوانهم ، وهى حلاهم فجميع أهل الأرض بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشىء من السمت أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا . يظهر عند التأمل كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لاتشبه أخرى ، ولو توافق جماعة فى صفة من جمال أو قبح لابد من فارق بين كل واحد منهم وبين الآخر ﴿ إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾ أى ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم فى الليل والنهار فيه تحصل الراحة وسكون الحركة وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾

أى يعون . قال الطبرانى حدثنا حجاج بن عمران السدوسى حدثنا عمرو بن الحصين العقيلى حدثنا محمد بن عبد الله بن علانه، حدثنا ثور بن يزيد، عن خالد بن معدان، سمعت عبد الملك بن مروان يحدث عن أبيه، عن زيد بن ثابت - رضى الله عنه - قال أصابنى أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال « قل اللهم غارت النجوم، وهدأت العيون، وأنت حى قيوم ، ياحى ياقيوم أنم عينى واهدىء ليلى »[1] فقلتها فذهب عنى . »

قوله تعالى :

﴿ ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾

ومن آيات الله تعالى فى كونه البرق . وهو تلك الشرارة الكهربائية التى تظهر فى الجو وخاصة عند السحب وينشأ عنها الرعد . فيكون فى رؤيته الخوف مما قد يكون وراء ذلك من الصواعق المهلكة المدمرة .

قال تعالى : ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾[2] وقد يكون فى رؤية البرق الرجاء والطمع فيما يكون وراءه من المطر الذى يحيى الله به

---

(١) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى ج ٥ ص ١٣٤ رقم ٤٨١٧
وقال محققه قال فى المجمع ١٠/ ١٢٨ وفيه عمرو بن الحصين العقيلى وهو متروك .
(٢) سورة الرعد جزء من الآية ١٣

الأرض بعد موتها . إن فى ذلك ، الذى سبق ، لآيات لقوم يعقلون ويتدبرون ويعلمون أن هذه الآيات لايمكن أن تكون ناشئة عن الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء إنما هذه الآيات تصيح بلسان الحال والمقال قائلة : أنا مخلوقة للواحد الديان .

قوله تعالى : ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾

كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إذا اجتهد فى اليمين أقسم قائلا والذى تقوم السماء والأرض بأمره . ونحو الآية قوله تعالى

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾(١) .

وقوله جل شأنه ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾(٢)

وهذا منتهى الإتقان ولا عجب فإنه صنع الله الذى أتقن كل شىء . وستظل الحال هكذا ، فالسموات قائمة بأمره ، والأرض قائمة بأمره إلى أن يأذن ربك بقيام الساعة ، فتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية ، ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ماقدمت وأخرت ﴾(٣) . واقرأ قوله جل شأنه :

﴿ فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك مايوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين ﴾(٤)

قوله تعالى : ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾

والمراد بالخروج هنا هو البعث والدعوة هى ماجاء فى قوله تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة ﴾(٥) وقوله جل شأنه : ﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾(٦) وقوله تبارك اسمه . ﴿ وماأمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾(٧) فسبحان من أقام الأدلة فى الأنفس والآفاق ليقطع المعاذير على كل ختار كفور وأفاك أثيم .

قوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون . وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ورد فى الحديث الشريف عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعا (كل حرف فى القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة)(٨)

---

(١) سورة فاطر آية ٤١
(٢) جزء من الآية ٦٥ من سورة الحج
(٣) سورة الإنفطار الآيات ١ - ٥
(٤) سورة المرسلات الآيات ٨ - ١٥
(٥) سورة النازعات آية ١٣ ، ١٤
(٦) سورة يس آية ٥٣
(٧) سورة القمر آية ٥٠
(٨) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٧٥ مسند أبى سعيد

فالكل عبيده ، والسموات والأرض ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته وله أسلم من فى السموات والأرض وإليه يرجعون . ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ (١)

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ للمفسرين أقوال فى هذا النص الكريم .

قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، يعنى أيسر عليه ، وقال مجاهد الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هينة ، وكذا قال عكرمة وغيره.وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)(٢)

وقوله ﴿ وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ وقال قتادة مثله أنه لا إله إلا هو ولا رب غيره .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

فسبحان من دلت آياته على عظيم قدرته،وبرهنت آياته على دليل قدرته .

إذا سكن الغدير على صفاء رجنب أن يحركه النسيم
يرى فيه السماء بلا إمتراء كذاك الشمس تبدو والنجوم
كذاك قلوب أرباب التجلى يرى فى صفوها الله العظيم

وهو العزيز الذى لايغالب ولا يمانع بل قد غلب كل شيء وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه الحكيم فى أقواله وأفعاله شرعا وقدرا . وعن مالك فى تفسيره المروى عنه عن محمد بن المنكدر فى قوله تعالى ﴿ وله المثل الأعلى ﴾ قال لاإله إلا الله .

مثل فى التوحيد

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٥ ، ٢٦

(٢) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٧٣٩ تفسير سورة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ باب ٤٩٧٤

تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

معانى المفردات

مثلا : صفة غريبة تشبه المثل فى الغرابة .

نفصل : نوضح ونبين بعد ماظهرت الآيات الناطقة بالوحدانية والقدرة فى الإنسان وأطواره . وهذا الكون العجيب وأحواله وثبت بهذا أنه له المثل الأعلى والصفات العلى التى منها الوحدانية وغيرها ، ضرب مثلا لهؤلاء المشركين كشف به سترهم وقوض به حجتهم وكان المثل فى أقرب شىء لهم وهى نفوسهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾

قال الإمام بن القيم فى تفسير هذه الآية .

هذا دليل قياسى . احتج الله سبحانه به على المشركين حيث جعلوا له من عبده وملكه شركاء ، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم لايحتاجون فيها إلى غيرهم .

ومن أبلغ الحجاج . أن يأخذ الإنسان من نفسه ويحتج عليه بما هو فى نفسه مقرر عندها ، معلوم لها . فقال ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم ﴾ من عبيدكم وإمائكم شركاء فى المال والأهل ؟ أى هل يشارككم عبيدكم فى أموالكم وأهليكم فأنتم وهم فى ذلك سواء ؟ تخافون أن يقاسموكم أموالكم ويشاطروكم إياها ويستكثرون ببعضها عليكم ، كم يخاف الشريك شريكه ؟ !

وقال ابن عباس : تخافونهم أن يرثوكم ، يرث بعضكم بعضا .

والمعنى : هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه فى ماله وأهله حتى يساويه فى التصرف فى ذلك ؟ فهو يخاف أن ينفرد فى ماله بأمر يتصرف فيه ، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار ، فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بى من خلقى من هو مملوك لى ؟ فإن كان هذا الحكم باطلا فى فطركم وعقولكم ، مع أنه جائز عليكم ممكن فى حقكم ، إذ ليس عبيدكم ملكا لكم حقيقة وإنما هم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم وأنتم وهم عباد لى ، فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم فى حقى ؟ مع أن من جعلتموهم لى شركاء عبيدى وملكى وخلقى ؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولى العقول .

قوله تعالى : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله ومالهم من ناصرين ﴾

لكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ، اتبعوا أهواءهم جهلا منهم لحق الله عليهم ، فأشركوا

الآلهة والأوثان فى عبادته ، ولو قلبوا وجوه الرأى واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق ووصلوا إلى سبيل الرشد ولكن أنى لهم ذلك ؟

﴿ فمن يهدى من أضل الله ﴾ أى فمن يهدى من خلق الله فيه الضلال وجعله كاسبا له باختياره لسوء استعداده وميله بالفطرة إليه وعلم الله فيه ذلك ؟

﴿ ومالهم من ناصرين ﴾ أى وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله وشديد انتقامه إذا حل بهم لأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن .

الإسلام دين الفطرة

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

معانى المفردات

(حنيفا) : مائلا عن جميع الأديان المحرفة (فطرة الله) : خلقة الله (القيم) : المستقيم على الطريق الحق ، (منيبين إليه) : مقبلين عليه . (شيعا) : جمع شيعة وهى الحزب والجماعة المتشيعة لإمامها (حزب) : الحزب الجماعة المتحزبة المتجمعة حول رأى خاص .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عدد سبحانه البينات والأدلة على وحدانيته ، وأثبت الحشر وضرب لذلك المثل ، وسلى رسوله ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، فلا مخلص لهم مما هم فيه ، ولا ينقذهم من ذلك لاهو ولا غيره فلا تذهب نفسك عليهم حسرات . أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه ، وعدم المبالاة بأمرهم ، وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يمنة ولا يسرة ، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفا ﴾ هذا أمر من الله تعالى إلى رسوله بتسديد وجهه إلى دين الله الحنيف المائل عن كل انحراف ، والخطاب كذلك موجه إلى كل عاقل رشيد رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ذلك لأن التوحيد هو فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل

لخلق الله،ذلك لأن الله تعالى خلق جميع عباده على تلك الفطرة دون تبديل أو تغيير . جاء فى الحديث : « إنى خلقت عبادى حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم »(١) وقد يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ لاتبديل لخلق الله ﴾ أى لاتبدلوا خلق الله بتغيير فطرة التوحيد ، فيكون خبرا يفيد النهى والإنشاء كما فى قوله : ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾(٢) أى أمنوا من دخله . ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أى المستقيم الذى لاانحراف ولا اعوجاج فيه ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وماكان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾(٣) إن المستقيم أقرب صلة بين نقطتين وقد لقننا الله تعالى تلك الدعوة فى سورة الفاتحة ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾ كما أمر باتباع هذا الصراط فقال : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾(٤). قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ لأنهم اتبعوا الهوى ، والنفس الأمارة بالسوء ، وأصروا واستكبروا استكبارا عن الحق ﴿ وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين ﴾(٥) والناس أعداء ماجهلوا وإذا كانوا لايعلمون فإنهم جاهلون وعلى أعينهم غشاوة . قال تعالى :

﴿ وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضا الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لايستطيعون سمعا ﴾(٦)

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مامن مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء »(٧). ثم يقول ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحسن عن الأسود بن سريع قال :

أتيت رسول الله ﷺ وغزوت معه فأصبت ظفرا فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « مابال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذرية ؟

---

(١) هذا الحديث جزء من حديث (الأ إن ربى أمرنى أعلمكم ماجهلتم . .)
صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها . باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم ٦٣/ ٢٨٦٥

(٢) جزء من الآية ٩٧ من سورة آل عمران

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٦١ - ١٦٤

(٤) سورة الأنعام آية ١٥٣

(٥) سورة فصلت الآيتان ٥ ، ٦

(٦) سورة الكهف الآيتان ١٠٠ ، ١٠١

(٧) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ مسند أبى هريرة .

فقال رجل : يارسول الله أما هم أبناء المشركين فقال لا إنما خياركم أبناء المشركين - ثم قال - لاتقتلوا ذرية لاتقتلوا ذرية - وقال - كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها »(١)

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس قال : أتى على زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع المسلمين وأولاد المشركين مع المشركين حتى حدثنى فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » قال : فلقيت الرجل فأخبرنى فأمسكت عن قولى »(٢)

وروى الإمام أحمد بسنده عن عياض بن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال فى خطبته : « إن ربى عز وجل أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علمنى فى يومى هذا : كل مانحلته عبادى حلال . وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ماأحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطانا ، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك ، وأنزلت عليك كتابا لايغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان ثم إن الله أمرنى أن أحرق قريشا ، فقلت ربى إذا يثلغ رأسى فيدعه خبزة قال : استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك ، وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك - قال - : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، ورجل عفيف متعفف ذو عيال ؤ قال - وأهل النار خمسة : الضعيف الذى لازبر له الذين هم فيكم تبعا لايبتغون أهلا ولامالا ، والخائن الذى لايخفى له طمع وإن دق إلا خانه . ورجل لايصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك »(٣)

قوله تعالى : ﴿ منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولاتكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ . الإنابة : هى الرجوع إلى الله تعالى . والتقوى هى : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل .

تزود من التقوى فإنك لاتدرى ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكا ... وقد نسجت أكفانه وهو لايدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حينا من الدهر

وإقامة الصلاة الإتيان بها مستقيمة كاملة بأركانها وشروطها وسننها ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ أى اثبتوا على التوحيد فإلهكم إله واحد لاإله إلا هو الرحمن الرحيم .

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٤٣٥ مسند الأسود بن سريع
(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢١٥ مسند ابن عباس
(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمدج ٤ ص ٢٦٦ مسند عياض بن حماد وانظر صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٩٧ ، ٢١٩٨ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب الطفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة رقم ٦٣/ ٢٨٦٥ .

روى ابن جرير بسنده عن يزيد بن أبى مريم قال : مر عمر - رضى الله عنه - بمعاذ بن جبل فقال عمر . ماقوام هذه الأمة قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات الإخلاص وهى الفطرة . . فطرة الله التى فطر الناس عليها . والصلاة وهى الملة ، والطاعة وهى العصمة . فقال عمر صدقت .

قوله تعالى : ﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أى لاتكونوا من المشركين الذين قد فرقوا دينهم أى بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقرأ بعضهم : فارقوا دينهم . أى تركوه وراء ظهورهم وهؤلاء كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان وسائر أهل الأديان الباطلة مما عدا أهل الإسلام . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ﴾ الآية(١) فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة . وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شىء ، وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة إلا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين فى قديم الدهر وحديثه كما رواه الحاكم فى مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال : « من كان على من أنا عليه اليوم وأصحابى » .

بيان طبيعة الناس مع توجيهات لهم

قوله تعالى : وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

معانى المفردات

(ضر) : المراد شدة وبلاء : (سلطانا) : حجة قوية تتسلط عليهم (يقنطون) : القنوط اليأس من رحمة الله . (يبسط) : يوسع (يقدر) : يضيق ﴿ وما آتيتم من ربا ﴾ : المراد مافعلتم من ربا وجئتم به . (المضعفون) : مأخوذ من أضعف إذا صار ذا ضعف بأن يضاعف له ثواب ماأعطاه كأقوى وأيسر إذا صار ذا قوة ويسار .

المناسبة وإجمال المعنى

لما أرشد سبحانه إلى التوحيد ، وأقام الأدلة عليه ، وضرب له المثل ؛ أعقبه بذكر حال للمشركين يعرفون بها ، وسيماء لاينكرونها ، وهى أنهم حين الشدة يتضرعون إلى ربهم ، وينيبون إليه ، فإذا خلصوا منها رجعوا إلى شنشنتهم الأولى ، وأشركوا به الأوثان والأصنام ، فليضلوا ماشاءوا ، فإن لهم يوما يرجعون فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على مااجترحوا من السيئات ، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل ، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون ، بل هو الهوى المطاع ، والرأى المتبع ، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقيهم ، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا ، فإن آتاهم ربهم منها رضوا ؛ وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا ، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقتارها بيده وحده ، وقد جعل ذلك أسبابا متى سلكها فاعلها وصل إلى مايريد ، وليس علينا إلا أن تطمئن نفوسنا إلى مايكون ، فكله بقدر الله وقضائه ، وعلينا أن نستسلم له ، ونعمل ، ونعمل ماطلب إلينا عمله من الأخذ فى الأسباب والجد فى العمل جهد الطاقة .

وبعد أن بين سبحانه أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ـ أردف ذلك ببيان أنه يحب الإحسان على ذوى القربى وذوى الحاجات من المساكين وأبناء السبيل فإنه إذا بسط الرزق لمن ينقصه الإنفاق ، وإذا قدر لم يزده الإمساك .

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها *** على الناس طرا إنها تتقلب
فلا الجود يغنيها إذا هى أقبلت *** ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن حال فريق من الناس فى الضراء والسراء إنهم إن أصابهم ضر من فقر أو مرض أو شدة توجهوا إلى الله بالدعاء طالبين كشف الضر ، فإذا ماأذاقهم الله منه رحمة فكشف مابهم من ضر وأسبغ عليهم نعمة أشركوا به غيره وأسندوا الفضل إلى من لايملك ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا

أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ماكانوا يعملون ﴾[١] ماعاقبة هؤلاء الضالين . قال تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أى ستكون عاقبتهم الكفر بما آتاهم الله من نعم وأسبغ عليهم من آلاء فتمتعوا فسوف تعلمون . هذا تهديد ووعيد منه تعالى لهؤلاء كما فى قوله جل شأنه ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾[٢] . قال بعضهم والله لوتوعدنى حارس درب لخفت منه فكيف والمتوعد ههنا هو الذى يقول للشيء كن فيكون . ثم قال تعالى منكرا على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان .

﴿ أم أنزلنا عليهم سلطانا ﴾ أى حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أى ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ وهذا استفهام إنكار أى لم يكن لهم شيء من ذلك ، ثم قال تعالى : ﴿ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴾ هذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه ، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال ﴿ ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ﴾[٣] أى يفرح فى نفسه ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾[٤] أى صبروا فى الضراء وعملوا الصالحات فى الرخاء كما ثبت فى الصحيح « عجبا للمؤمن لايقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »[٥] . وقال تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ قوله تعالى : ﴿ فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون ﴾ هذا أمر منه ـ سبحانه وتعالى ـ بإيتاء ذى القربى حقه من البر والصلة والإحسان كذلك إعطاء المسكين الذى لايملك شيئا أو يملك مالا يكفيه ، وكذلك ابن السبيل وهو المسافر الذى يحتاج إلى مايعينه من النفقة فذلك كله خير للذين يقصدون ماعند الله ويؤدون العمل خالصا لوجهه تبارك وتعالى ، وهؤلاء هم الذين حكم الله لهم بالفلاح فى قوله : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ أى من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لاثواب له عند الله ، بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب والشعبى ، وهذا الصنيع مباح وإن كان لاثواب فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله

---

(١) سورة يونس آية ١٠
(٢) سورة الحجر آية ٣
(٣) سورة هود جزء من آية ١٠
(٤) سورة هود جزء من الآية ١١
(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير رقم ٦٤/ ٢٩٩٩

الضحاك واستدل بقوله تعالى : ﴿ ولاتمنن تستكثر ﴾(١)

أى لاتعط العطاء تريد أكثر منه ؛ فمن كان يريد ثواب الله فليدفع من ماله الزكاة فإنها نماء وطهارة وبركة ويريد بها وجه الله تعالى دون رياء أو سمعة . إن الذين يفعلون هذا هم المضعفون الذين يضاعف لهم الثواب يوم القيامة ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾(٢) ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ماأنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٣)

وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾(٤)

وقال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾(٥)

وفى الصحيح : « ماتصدق أحد بعدل ثمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه أو فصيلة حتى تصير الثمرة أعظم من أحد »(٦)

وروى عن أبى برزة الأسلمى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله عز وجل حتى تكون مثل أحد)(٧) . رواه الطبرانى فى الكبير .

ـ معنى الكسرة : القطعة من الخبز .

وروى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله عز وجل ليدخل باللقمة الخبز ، وقبصة التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ثلاثة الجنة : رب البيت الآمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم الذى يناول المسكين ، فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدمنا)(٨) . رواه الحاكم والطبرانى فى الأوسط .

ـ معنى (القبصة) بفتح القاف وضمها ، وإسكان الباء ، وبالصاد المهملة : هو مايتناوله الآخذ برءوس أنامله الثلاث .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال :

(مانقصت صدقة من مال ، ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل)(٩) رواه مسلم والترمذى ، ورواه مالك مرسلا .

وروى عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : (ياأيها

---

(١) سورة المدثر آية : ٦
(٢) سورة البقرة آية : ٢٦١
(٣) سورة البقرة آية : ٢٦٢
(٤) سورة البقرة آية : ٢٦٥
(٥) جزء من الآية ٣٩ من سورة سبأ
(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٠٢ كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب رقم ٦٣/ ١٠١٤
(٧) الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٢٦٨ ، مسند أبى هريرة .
وأنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ٣٣٣
(٨) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٤ ص ١٣٤ ، ١٣٥ كتاب الأطعمة . وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .
(٩) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٠١ كتاب البر والصلة باب استحباب العفو والتواضع رقم ٦٩/ ٢٥٨٨

الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ترزقوا وتنصروا وتجبروا)[1] . رواه ابن ماجة .

- معنى : ﴿ كثرة ذكركم له ﴾ أى داوموا على ذكر الله وحمده وتسبيحه واستغفاره والصلاة على حبيبه ﷺ .

- ومعنى ﴿ تجبروا ﴾ تجب دعواتكم وتغتنوا .

من دلائل التوحيد ونتائج الأعمال

قوله تعالى : ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾

معانى المفردات

(الفساد) : الجدب ، وأخذ المال ظلما ، والمفسدة ، ضد المصلحة .

(يرجعون) : يثوبون إلى رشدهم ويؤمنون بربهم . (لامرد له) : لا راد له ولا مانع منه . (يصدعون) : يتفرقون (يمهدون) : يوطئون لأنفسهم فراشا ومسكنا وقرارا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه ، وأشركوا به غيره ، والشرك سبب الفساد ، كما

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٣٤٣ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب فى فرض الجمعة رقم ١٠٨١

يرشد إلى ذلك قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[١] ـ أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات الله ، واجترحوا المعاصى ، وفشا بينهم الظلم والطمع ، وأكل القوى مال الضعيف ، فصب عليهم ربهم سوط عذابه ، فكثرت الحروب ، وافتن الناس فى أدوات التدمير والإهلاك ، فمن غائصات البحار تهلك السفن الماخرة فيها ، إلى طائرات قاذفات للحمم والمواد المحرقة ، إلى مدافع تحصد الناس حصدا ، إلى دبابات سميكة الدروع تهد المدن هدا ؛ وما الحرب القائمة الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية ، والمجازر البشرية التى سلط الله فيها العالم بعضه على بعض ، فارتكب المظالم ، واجترح المآثم ، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان .

وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم ، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فليجعلوا من سبقهم مثلا لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين . وبعد أن نهى الكافر عن بقائه على حاله التى هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب أردف ذلك أمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ماهم عليه ، بعبادتهم الواحد الأحد ، قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى يتفرق فيه العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن عمل صالحا فقد أعد لنفسه مهادا يستريح عليه بما قدم من صالح العمل . وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه مالا يخطر له ببال ، ولا يدور له فى حسبان والكافر سيلقى فى هذا اليوم العذاب والنكال ، لأن ربه يبغضه ويمقته جزاء مادسى به نفسه من سيىء العمل .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ الخالق الرازق هو الله وحده ، والمحيى المميت هو الله وحده . الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . ﴿ ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[٢] ـ يقول جل شأنه : ﴿ ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون. الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾[٣] وهكذا جمعت الآيتان بين الخلق والرزق .

وقال تعالى : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[٤] . وقال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى ﴾[٥] وقال : ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾[٦] وقال : ﴿ ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٢
(٢) سورة الأنعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣
(٣) سورة البقرة آية ٢١ ، ٢٢
(٤) سورة النساء آية ١
(٥) سورة الأعلى آية ١ ، ٢
(٦) سورة الأعراف آية ١٨٩

خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك ﴾[١] . ثم قرن الرزق بالخلق لأن الرزق قضية طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها أعماق القلوب . ومن ثم فقد أكدها القرآن إلى أبعد مدى من التوكيدات . قال تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[٢] وقال : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٣] وقال جل شأنه : ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين ﴾[٤] وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[٥] وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[٦] وقال : ﴿ وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾[٧]

فاعلم ياابن آدم أنه لايملك الروح والرزق إلا الله فلو ركب ابن آدم الريح فرارا من رزقه لركب الرزق البرق حتى يقع فى فمه .

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل ... الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا ... لكنه خلق الإنسان من عجل

واعلم أنه ماقدر على ماضغيك أن تمضغاه فلابد أن تمضغاه فامضغه بعزة .

لاتخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنيا تستعز به ... وكن عفيفا وعظم حرمة الدين
واستغن بالله عن دنيا الملوك ... كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون

ومن هنا فإن الله تعالى ذكر الخلق والرزق بصيغة الماضى ليفيد معنى الثبوت والاستقرار، ثم ذكر الموت والحياة بصيغة المضارع ليفيد أنهما سيأتيان فيما بعد لامحالة فقال : ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ثم قال : ﴿ هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ﴾ ثم أجاب سبحانه قائلا : ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ واقرأ معى قوله جل جلاله : ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾[٨] سبحانك اللهم خلقتنا فأنت على كل شىء قدير ورزقتنا فأنت أكرم الأكرمين ، وتميتنا لأنك أنت الجبار ذو القوة المتين،

---

(١) سورة الانفطار الآيات ٦ ، ٧ ، ٨
(٢) سورة الذاريات آية ٢٢ ، ٢٣
(٣) سورة الذاريات الآيات ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨
(٤) سورة هود آية ٦
(٥) سورة الأنعام جزء من الآية ١٥١
(٦) سورة الإسراء آية ٣١
(٧) سورة العنكبوت آية ٦٠
(٨) سورة النمل آية ٦٤

وتحيينا فأنت أعدل العادلين وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين .

قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ لأئمة التفسير فى هذه الآية أقوال نبينها فى مايلى : قال ابن عباس وعكرمة والضحاك والسدى وغيرهم : المراد بالبر ههنا الفيافى وبالبحر الأمصار والقرى ، وفى رواية عن ابن عباس وعكرمة : البحر الأمصار ، والقرى ماكان منها على جانب نهر ، وقال آخرون بل المراد بالبر هو البر المعروف وبالبحر هو البحر المعروف ، وقال زيد بن رفيع ﴿ ظهر الفساد ﴾ يعنى انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعنى دوابه ، رواه ابن أبى حاتم . وقال : حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد بن المقرى عن سفيان عن حميد بن قيس الأعرج عن مجاهد ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ قال فساد البر قتل ابن آدم ، وفساد البحر أخذ السفينة غصبا ، وقال عطاء الخراسانى المراد بالبر مافيه من المدائن والقرى ، وبالبحر جزائره . والقول الأول أظهر وعليه الأكثرون ، ويؤيده ماقاله محمد بن إسحاق فى السيرة : أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة وكتب إليه ببحره يعنى ببلده .

ومعنى قوله تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ﴾ أى بأن النقص فى الزروع والثمار بسبب المعاصى .

وقال أبو العالية : من عصى الله فى الأرض فقد أفسد فى الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ، ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود : (لحدٌّ يقام فى الأرض أحب إلى أهلها من أن يمطروا أربعين صباحا)[1] والسبب فى هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس أو أكثرهم أو كثير منهم عن تعاطى المحرمات ، وإذا تركت المعاصى كان سببا فى حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام فى آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة فى ذلك الوقت من قتل الخنزير وكسر الصليب ووضع الجزية وهو تركها فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله فى زمانه الدجال وأتباعه ويأجوج ومأجوج قيل للأرض أخرجى بركتك فيأكل من الرمانة الفئام من الناس ويستظلون بحقفها ، ويكفى لبن اللقحة الجماعة من الناس وماذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ـ ﷺ ـ فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير ، ولهذا ثبت فى الصحيحين (أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب)[2] . وقال الإمام أحمد بن حنبل بسنده عن أبى مخذم قال : وجد رجل فى زمان زياد أو ابن زياد حبرة فيها حب يعنى من بر أمثال النوى مكتوب فيها هذا نبت فى زمان كان يعمل فيه بالعدل ، وروى مالك عن زيد بن أسلم أن المراد بالفساد ههنا الشرك ، وفيه نظر وقوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ الآية . أى يبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختبارا منه لهم ومجازاة على صنيعهم . ﴿ لعلهم يرجعون ﴾

---

(١) الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى ج ٨ ص ١٦٢ كتاب قتال أهل البغى باب فضل الإمام العادل .
ـ الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٦٢ مسند أبى هريرة
ـ انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ٨٤٨ كتاب الحدود باب إقامة الحدود رقم ٢٥٣٧ ، ٢٥٣٨
(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ماجاء فى مستريح ومستراح منه ج ٢ ص ٦٥٦ رقم ٦١/ ٩٥٠

أى عن المعاصى . كما قال تعالى : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾[1] قال ابن زيد المراد بالفساد الذنوب .

قال الإمام ابن القيم : قلت : أراد أن الذنب سبب الفساد الذى ظهر ، وإن أراد أن الفساد الذى ظهر هو الذنوب نفسها .

فيكون اللام فى قوله ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ لام العاقبة والتعليل وعلى الأول : فالمراد بالفساد : النقص والشر والآلام التى يحدثها الله فى الأرض بمعاصى العباد فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم عقوبة . كما قال بعض السلف : كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة .

والظاهر - والله أعلم - أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ ليذيقهم بعض الذى عملوا ﴾ فهذا حالنا دائما ، أذاقنا الله الشىء اليسير من أعمالنا ، فلو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة .

قوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴾

أى الذين من قبلكم . ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أى فانظروا ماحل بهم من تكذيب الرسل وكفر النعم وذلك كقوله تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[2] ثم يقول سبحانه : ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وماكان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[3]

قوله تعالى : ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لايحب الكافرين ﴾

يقول تعالى آمرا عباده بالمبادرة إلى الاستقامة فى طاعته ، والمبادرة إلى الخيرات ، ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامرد له من الله ﴾ أى يوم القيامة إذا أراد كونه ، فلا راد له ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ أى يتفرقون . ففريق فى الجنة وفريق فى السعير ولهذا قال تعالى :
﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون . ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ أى يجازيهم مجازاة الفضل ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى مايشاء الله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ . ومع هذا هو العادل فيهم الذى لايجور .

من آياته فى الرياح والمطر

قوله تعالى : وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ

(1) جزء من الآية ١٦٨ سورة الأعراف
(2) سورة الانعام آية ١١
(3) سورة العنكبوت آية ٤٠

وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا
إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ
﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن
كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا
فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِن بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ
إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم
مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

معانى المفردات

(مبشرات) : تبشر بالخير (أجرموا) : فعلوا جرما وارتكبوا إثما . (فتثير) : تهيجه وتحركه (فيبسطه) : المراد ينشره متصلا بعضه ببعض . (كسفا) : جمع كسفة وهى القطعة من الشىء (لمبلسين) : يقال أبلس الرجل فهو مبلس سكت فلم ينطق وقيل أيس . (مصفرا) : أى رأوا الزرع مصفرا لجفافه (الرياح) : جمع ريح قال أبو عمر : كل ماكان بمعنى الرحمة فهو جمع . وماكان بمعنى العذاب فهو مفرد ، وعليه قول النبى - ﷺ - : (اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا)[1] : (فترى الودق) الودق هو المطر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه أن الفساد ظهر فى البر والبحر بسبب الشرك والمعاصى ، نبههم إلى دلائل وحدانيته بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح وبالأمطار ، فتحيا بها الأرض بعد موتها . وجرى الفلك حاملة لما هم فى حاجة إليه ، مما فيه غذاؤهم ، وعليه مدار حياتهم .

---

(١) الحديث فى كنز العمال ج ٧ ص ٧٥ حديث رقم ١٨٠٣٣ . وقال محققه . رواه الطبرانى وفيه حسن بن قيس - وهو متروك وبقية رجاله رجال الصحيح ؛

ولما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوحدانية والبعث والنشور ، ولم يرعوِ بها المشركون ، بل لجوا فى طغيانهم يعمهون ، سلى رسوله - ﷺ - فذكر له أنك لست أول من كذب ، فكثير ممن قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات ، فلم تغنهم الآيات والنذر ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، ولنجرين عليك وعلى قومك سنننا ، ولننتقمن منهم ، ولننصرنك عليهم ، فالعاقبة للمتقين .

وبعد أن سلى رسوله - ﷺ - على مايلاقيه من أذى قومه ببيان أنه ليس ببدع فى الرسل ، فكأين من رسول قبله قد كذب ، ثم دالت الدولة على المكذبين ، ونصر الله رسوله والمؤمنين ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوحدانية ، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة فى الآفاق ، مرشدة إلى قدرته ، وعظيم رحمته ، ثم بما يرى فى الأرض الموات من إحيائها بالمطر ، وهو دليل لائح يشاهدونه ، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين ، والفينة بعد الفينة ، أفليس فيه حجة لمن اعتبر ومقنع لم ادكر ؟

وبعد أن ذكر سبحانه صنوف الأدلة ، ثم ضرب المثل على توحيده . ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة .

ووعد وأوعد بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ثم مازادهم دعاء الرسول إلا إعراضا ، ولا تكرار النصح إلا إصرارا وعنادا - أردف هذا تسليته على مايراه من التمادى فى الإعراض ، وكثرة العناد واللجاج ، فأبان أن هؤلاء كأنهم موتى ، فأنى لك أن تسمعهم ، وكأنهم صم ، فكيف يسمعون دعاءك حتى يستجيبوا لك ؟ إنما الذى يستجيب من يؤمن بآيات الله ، فهو إذا سمع كتابه تدبره وفهمه ، فيخضع لك بطاعته ، ويتذلل لمواعظ كتابه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله** ﴾

أى ومن الأدلة على وحدانيته تعالى ، والحجج القائمة على أنه رب كل شىء أنه يرسل الرياح من حين إلى آخر مبشرات بالغيث الذى به تحيا الأرض وينبت الثمر والزرع فتأكلون منه مالذ ، حاملة للأقوات وأنواع الثمار منتقلة من قطر إلى قطر ، فتأتى بما فى أقصى المعمور من الشرق إلى أقصاه فى الغرب والعكس بالعكس ، فلا تحتجبن الثمرات والأقوات فى أماكنها وتكون وقفا على قوم بأعيانهم .

﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أى وليعدكم لشكره كفاء ماأسدى إليكم من نعمه الوفيرة وخيراته العميمة التى لاتحصى كما قال: ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين** ﴾

أى ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك إلى أقوامهم الكافرين كما أرسلناك إلى قومك عابدى

الأوثان من دون الله فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله فكذبوهم كما كذبك قومك ، وردوا عليهم ماجاءوهم به من عنده ، كما ردوا عليك ماجئتهم به ، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام واكتسبوا السيئات من أقوامهم ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، ونحن فاعلو ذلك بمجرمى قومك وبمن آمن بك سنة الله التى شرعها لعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه وهو لايخلف الميعاد . أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « مامن مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »[1] ثم تلا ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ .

ولا يخفى مافى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه والوعيد والنكال والخسران فى المآل ، لمن كذب به من قومه .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾

أى : الله الذى يرسل الرياح فتنشىء سحابا فينشره ويجمعه جهة السماء تارة سائرا وأخرى واقفا وحينا قطعا فترى المطر يخرج من وسطه فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه .

﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾

أى : وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم قانطين يائسين من نزوله ، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقعا عظيما .

والخلاصة : أنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ومن قبل ذلك أيضا إذا هم ترقبوه فى إبانه فتأخر ، ثم مضت فترة فترقبوه فيها فتأخر ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط وبعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

﴿ فانظروا إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾ أى:فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذى أنبت من الزرع والأشجار والثمار وفيه الدليل الكافى على عظيم القدرة وواسع الرحمة .

وإذا قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إربا إربا ومن ثم قال :

﴿ إن ذلك لمحى الموتى ﴾ أى:أن ذلك الذى قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الأجسام حين البعث .

ثم أكد هذا بقوله ﴿ وهو على كل شىء قدير ﴾ فلا يعجزه شىء فإحياؤكم من قبوركم هين عليه ونحو الآية قوله ﴿ قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ﴾[2]

---

(١) الحديث فى شرح السنة للبغوى ج ١٣ ص ١٠٦ حديث رقم ٣٥٢٨ وقال فيه ليث وشهر وحى ضعيفان .الحديث فى سنن الترمذى ج ٣ ص ٢١٩ أبواب البر والصلة باب ماجاء فى الذب عن المسلم . رقم ١٩٩٦ .

(٢) سورة يس جزء من الآيتان ٧٨ ، ٧٩

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم ، فإذا أصابهم الخير فرحوا به وإن أصابهم السوء يئسوا وأبلسوا وانقطع رجاؤهم من الخير فقال :

﴿ ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون ﴾

أى ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذى زرعوه ونما واستوى على سوقه فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرته - لظلوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم . ولا يخفى مافى ذلك من المبالغة فى احتقارهم لتزلزلهم فى عقيدتهم ، إذا كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ويلجأوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ولا ييأسوا من روح الله ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه لكنهم قد عكسوا الأمر ، وأبوا مايجديهم وأتوا بما يؤذيهم .

إفراد الريح وجمعها

بعد أن تحدث ابن القيم فى كتابه « بدائع الفوائد » عن إفراد السماء فى قوله - تعالى - ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾[1] من سورة يونس وجمعها فى قوله - تعالى - : ﴿ قل من يرزقكم من السموات والأرض ﴾[2] من سورة سبأ ، قال : ومن هذا الباب ذكر الرياح فى القرآن جمعا ومفردة ، فحيث كانت فى سياق الرحمة أتت مجموعة ، وحيث وقعت فى سياق العذاب أتت مفردة ، وسر ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمهاب والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح أنشأ لها ما يقابلها مما يكسر سورتها ، ويصدم حدتها فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكل ريح منها فى مقابلها ما يعدلها ويرد سورتها ، فكانت فى الرحمة ريحا ، وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد وحمام واحد لا يقوم لها شيء ولا يعارضها غيرها حتى تنتهى إلى حيث أمرت ، لا يرد سورتها ولا يكسر شدتها ، فتمتثل ما أمرت به وتصيب ما أرسلت إليه ، ولهذا وصف - سبحانه - الريح التى أرسلها على عاد بأنها عقيم ، فقال : ﴿ فأرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾[3] وهى التى لا تلقح ، ولا خير فيها ، والتى تعقم ما مرت عليه ، ثم تأمل كيف اطرد هذا إلا فى قوله فى سورة يونس : ﴿ هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ﴾[4] فذكر ريح الرحمة الطيبة بلفظ الافراد ؛ لأن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد سيرها ، فإذا اختلف عليها الرياح وتصادمت وتقابلت فهو سبب الهلاك ،

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة يونس
(٢) من الآية : ٢٤ من سورة سبأ
(٣) من الآية : ٤١ من سورة الذاريات .
(٤) من الآية ٢٢ من سورة يونس .

فالمطلوب هناك ريح واحدة لا رياح ، وأكد هذا المعنى بوصفها بالطيب دفعا لتوهم أن تكون ريحا عاصفة ، بل هى مما يفرح بها لطيبها ، فلينزه الفطن بصيرته فى هذه الرياض الموفقة المعجبة التى ترقص القلوب لها فرحا ويتغذى بها عن الطعام والشراب ، والحمد لله الفتاح العليم . فمثل هذا الفصل يعض عليه بالنواجز وتثنى عليه الخناصر ، فإنه يشرف بك على أسرار عجائب تجتنيها من كلام الله ، والله الموفق للصواب .

منطق العلم

وللعلم كلمته الدالة على قدرة العلى الحكيم وعظمته ووحدانيته وما له من قوة فائقة فى صنع هذا الكون وظواهره : من سحاب ومطر ورياح وجبال وكهربائية جوية ، ولنسلط الأضواء على تلك المخلوقات لنقف على مدى ما تشتمل عليه من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

السحاب

هو بخار ماء تكاثف فى طبقات الجو العلوية كما يتكاثف الضباب فى الطبقات القريبة من الأرض ، ولابد لتكوين السحاب من شرطين أساسيين يجب توافرهما فى الهواء العلوى ، الأول : أن يكون الهواء فوق المشبع بالبخار . والثانى : أن يكون الهواء محتويا عددا كبيرا من النويات يتكاثف عليها البخار . وكل هواء يكفى فى زيادة تشبعه ان يبرد تبريدا كافيا ، لكن من الواضح انه كلما كانت نسبة الرطوبة فى الهواء اكثر كان مدى التبريد المطلوب لزيادة التشبع أصغر ، فهناك إذن عاملان يسهلان توافر شرط زيادة التشبع الاساسى فى تكوين السحاب : تبريد الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة فيه .

فتبريد الهواء فى المناطق العلوية من الجو يكفله أولا برودة الجو فى تلك المناطق ، وثانيا قلة الضغط فى المناطق الجوية العليا ، فإن الضغط الجوى يتناقص بالتدريج كلما زاد الارتفاع ، ولتناقص الضغط كلما زاد الارتفاع أثر بعيد فى تبريد الهواء الصاعد ؛ لأنه يتمدد أثناء صعوده ، ويزداد تمدده كلما صغر الضغط بالعلو فى المناطق التى يصير إليها ، فالهواء إذا صعد يبرد مرتين ، مرة باختلاطه بالهواء العلوى البارد ، ومرة بتمدده فى المناطق العلوية المخلخلة .

وقد تسخن كتل عظيمة من الهواء مرة واحدة فتصعد معا حتى إذا بلغت الطبقات العلوية بردت بالتمدد فكونت سحبا عظيمة ، قاعدتها أفقية حيث ابتداء زيادة التشبع ، وحدودها الأخرى كالقباب المتلامسة المتدرجة فى العلو وهى الحدود التى وصلت إليها تلك الكتل فى تمددها ، هذا هو السحاب الركام ، ويكثر فى العواصف الرعدية ، ويكون عندئذ عظيم العمق عظيم الارتفاع .

وثالث عامل يكفل التبريد هو الاختلاط بالرياح الباردة الآتية من المناطق القطبية ، فإن الريح الدافئة المحملة بالبخار إذا التقت بريح باردة انخفضت درجة حرارة الأولى ، وارتفعت درجة حرارة الثانية ، لكن مقادير البخار فى الأولى كثيرا ما تكون فوق مقدرة الريحين أن تحملاها فى درجة الحرارة الناتجة ، أى : كثيرا ما ينتج من اختلاط ريحين : دافئة وباردة ريح واحدة فوق المشبعة وقد كان

الريحان من قبل غير مشبعتين .

وقد تمر الباردة من تحت الساخنة فى الطبقات العلوية فيتكون السحاب بينهما عند محتكهما ويكون السحاب عندئذ متموجا لتموج الهواء عند ملتقى الريحين ، وللرياح دخل عظيم فى تكوين السحاب وتوزيعه لكن سر الرياح وتقلباتها لم يدرك العلم غوره إلى الآن .

ورابع عامل يكفل التبريد هو الجبال ، وهذه تفعل فعلها بطريقتين : طريق تبريد الرياح الأفقية التى تصطدم بأعاليها ؛ لأن أعالى الجبال الشامخة شديدة البرودة ، فتبرد الرياح إلى ما فوق التشبع ، وعندئد يتكاثف السحاب المتكون ماء يسيل على جوانب الجبال ، هذا طريق . والطريق الثانى : طريق تحويل مجرى الريح إلى أعلى إذا اصطدمت الرياح الأفقية بالجبال دون أعاليها فالرياح الساخنة أو المعتدلة الحرارة إذا اعترضتها الجبال غيرت مجراها ، وأرغمتها على الصعود إلى المناطق العلوية حيث يتكاثف بخارها سحابا ، ويتكاثف سحابها مطرا على أعالى تلك الجبال .

لكن التبريد إلى ما فوق التشبع لا يكفى وحده فى تكوين السحاب إلا إذا بلغ مبلغا عظيما ، بخلاف ما إذا كان فى الهواء ما يتكاثف البخار حوله كالغبار ، فإن البخار عندئذ يتكاثف بمجرد انخفاض درجة حرارته ولو قليلا عن درجة التشبع أو درجة (الندى) كما يسمونها . وجسيمات الغبار الخفية والمرئية ليست هى كل ما يتكاثف عليه بخار الماء فى الهواء ، ولو كانت هى كل ما يمكن أن يصلح نوى لقطيرات الماء فى الهواء فوق المتشبع لعز تكون السحاب ، ولاقتصر على المناطق التى يكثر فى أجوائها العليا هذا الغبار ، لكن الذى قدر الأشياء ، وعلم حاجة الزرع والحيوان إلى الماء ، جعل مما يتكاثف عليه البخار فى أعالى الجو أشياء أُخرى غير الهواء ، هى الذرات والجزئيات الغازية المجهرية المعروفة بالأيونات أو الأويلبات جمع الأويلب ، تصغير آلب ، من الفعل : ألبى ، بمعنى : ساق وجمع واجتمع وأسرع - كما فى القاموس - .

وعوامل أولية أو تأيين الهواء ، أى : تكوين الأيونات أو الأويلبات فيه متعددة :

منها النيران ، فإن النار فيها غازات محملة بالنوعين الموجب والسالب ، ومنها الضوء ، فإن أشعة الشمس إذا اخترقت الهواء أينته أو أولبته ، فيتكون فى مسار كل شعاع عدد كبير أو صغير من الأيونات ، ومنها الأشعة النفاذة الجيمية التى تخرج من العناصر الشعاعة الموجودة فى القشرة الأرضية ، أو الأشعة النفاذة الكهربائية المصدر المعروفة بأشعة رنتجن . ومنها احتكاك الماء فى البحار بتلاطم الأمواج بعضها ببعض وبالساحل أو بالصخور ، فقد عرف أن الكهرباء تتولد بالاحتكاك . والبخار الذى يتصاعد من المياه المتلاطمة يحمل هذه الكهرباء بعضها أو كلها إلى الطبقات العليا الجوية ، وكل جزء من جزئيات هذا البخار المكهرب ، كغيره من الأيونات - يصلح أن يكون نواة يتكاثف عليها البخار .

فأنت ترى أن جميع ما يساعد على تكوين السحاب موجود فى الطبقات العليا الجوية ، سواء أكان من ناحية البرودة أم من ناحية النويات اللازمة لتكاثف البخار اذا تجاوز الهواء درجة التشبع - ولو قليلا - التبريد .

المطر

لكن تكون السحاب لا ينفع الناس شيئا إذا لم يكن فى الإمكان أن ينزل ماؤه عليهم مطرا ، وماء السحاب لا يمكن أن ينزل على الناس مطرا إلا إذا نمت قطيراته وأصبحت أثقل من أن يحملها أو يعوق نزولها الهواء ، إن القطيرات السحابية خاضعة طبقا للجاذبية ، فهى تبدأ تسقط إلى الأرض بمجرد تكونها ، لكن الهواء ولو كان ساكنا يقاوم مرورها فيها ، والناس لو تركوا إلى الجاذبية وحدها ما سقوا من السحاب قطرة ماء .

وإن الجاذبية إنما تنفع نفعها إذا تحولت القطيرات السحابية إلى قطرات مطرية . وهذا التحول قد يسر الله أسبابه فى الرياح والجبال والكهرباثية الجوية ، وإن كان العلم لم يحط بتفاصيل ذلك إلى الآن .

الرياح والجبال والكهربائية الجوية

والرياح كما لها أبعد الأثر فى تكوين السحاب لها أبعد الأثر فى تكثيفه مطرا بفعل الجبال أو بفعل الكهربائية الجوية ، فأما الجبال فإنها مكثفات هائلة نصبها الله لتكثيف السحاب من الجو إذا حملته إليها الرياح ، لكن السحاب إذا لامس أعلى الجبال الباردة سواء أكان متكونا عليها أو محمولا إليها تكاثف على سطحها ماء بالتجمع وبالتبريد ، ومن هنا كانت الأنهار منابعها كلها من الجبال .

وإلى هذا كله تشير الآية الكريمة التى من الله فيها بالجبال من هذه الناحية على الإنسان إذ يقول ـ سبحانه ـ : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾[1]

وأظنك الآن تدرك بعض سر ترتيب سقيا الناس الماء على شموخ الجبال ، وإذا تذكرت أن هذا الماء كله مصدره البحار المالحة أدركت سر وصف الماء هنا بالذات .

والكهربائية التى تتولد فى الهواء والتى ذكرنا لك بعض مصادرها يكتسبها السحاب عند تكونه على الأيونات أو الأويلبات التى تحملها هذه فى الطبقات العليا الجوية ، وأنت تعرف أن نوعى الكهربائية يتجاذبان ، وأن الموجب والموجب أو السالب والسالب يتدافعان أو يتنافران كما تشاء أن تقول ، هذا التدافع او التنافر من شأنه . تفريق السحاب ذى النوع الواحد .

لكن الله ـ سبحانه ـ قد يجمعه برغمه بواسطة الرياح ، وعندئذ تكبر السحابة ، وقد كانت قبل سحابتين أو أكثر ، وتكبر شحنتها الكهربائية ، ثم إذا شاء الله ساق السحاب بالريح حتى يقترب السحاب الموجب من السحاب السالب قربا كافيا فى اتجاه أفقى أو فى اتجاه رأسى ، أو فيما شاء الله من الاتجاهات ، فإذا اقتربا تجاذبا ، ومن شأن اقترابهما هذا أن يزيد فى كهربائية مجموع السحاب بالتأثير ، ولايزالان يتجاذبان ويتقاربان حتى لايكون محيص من اختلاطهما واتحاد كهربائيتيهما بهدوء ، أو من اتحاد كهربائيتيهما من بعد ، وعندئذ تحدث شبه شرارة عظمى كهربائية ، هى البرق الذى كثيرا ما يرى فى

---

(١) الآيات : ٢٥ ـ ٢٧ من سورة المرسلات .

البلاد الكثيرة الأمطار .

والمطر نتيجة لازمة لحدوث ذلك الاتحاد الكهربائى ، سواء حدث فى هدوء أو بلا براق ، فإذا حدث بهدوء حدث بين القطيرات المختلفة فى السحابتين فتجذب كل منها قرينتها أو قريناتها حتى تتحد وتكون قطرة فيها ثقل فتنزل ، وتكبر أثناء نزولها بما تكتسب من كهربائية وما تجتذب من قطيرات أثناء اختراقها السحاب المكهرب الذى يكون بعضه فوق بعض فى السحاب الركام ، أما إذا حدث الاتحاد الكهربائى فى شدة البرق وعنفه فإنه يحدث لابين القطيرات ولكن بين الكتل من السحاب ويسهل حدوثه عند تخلخل الهواء ، أى : قلة ضغطه فى تلك الطبقات .

والبرق يمثل قوة كهربائية هائلة ، تستطيع أن تكون فكرة عنها إذا عرفت أن شرارته قد تبلغ أميالا فى طولها أو تزيد ، وأن أكبر شرارة كهربائية أحدثها الإنسان لا تزيد على بضعة أمتار ، فالحرارة الناشئة عن البرق لا شك هائلة فهى تمدد الهواء بشدة ، وتحدث مناطق جوية عظيمة تخلخلة ، الضغط داخلها يعادل الضغط خارجها مادام الهواء داخل المنطقة ساخنا ، حتى إذا تشععت حرارته وبردت تلك المناطق برودة كافية ـ وما أسرع ما تبرد ـ خف منها الضغط وصار أقل كثيرا من ضغط الطبقات الهوائية السحابية المحيطة بها ، فهجمت عليها فجأة بحكم الفرق العظيم بين الضغطين وتمددت فيها وحدث لذلك صوت شديد هو صوت الرعد وهزيمه أو هديره ، هذا الصوت قد يكون صدى الرعد بين كتل السحاب يتردد ، فنسميه قعقعة الرعد ، أو حدوث الشرارة الكهربائية البرقية ، فهو بدء الرعد ، ويكون ضعيفا بالنسبة لهزيمه وقعقعته ، لذلك نسمع الرعد ضعيفا فى الأول ثم يزداد كأنما أوله إيذان بتضخمه ، كما قد تؤذن الطلقة المفردة بانطلاق بطاريات برمتها من المدافع الضخمة فى الحروب ، فالرعد يحدث لا عند اتحاد الكهربائيتين حين يحدث البرق فقط ، ولكن يحدث أكثره بعد ذلك عند تمدد الكتل الهوائية العظيمة الهاجمة فى المنطقة المفرغة ، وهى إذا تمددت بردت برودة شديدة فيتكاثف ما فيها من البخار ومن كتل السحاب فينزل على الأرض إما مطرا واما بردا حسب مقدار البرودة الحادثة فى تلك المناطق ، وهذا هو السبب فى أن الرعد والبرق يعقبهما فى الغالب مطرات شديدة ، سواء أكانت المطرة مائية أم بردية ، وقطرات الماء أو حبات البرد تنمو بعد ذلك باختراقها كتل السحاب المتراكم تحت المنطقة التى حدث فيها التفريغ .

سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، ولا إله غيرك ، حكمت فعدلت ، وعلوت فقهرت ، وبطنت فخبرت ، وملكت فقدرت .

فواعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه الواحد

قوله ـ تعالى ـ ﴿ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين.وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾(١)

(١) الآيتان : ٨٠ ـ ٨١ من سورة النمل .

قال العلامة ابن كثير :

يقول - تعالى - كما أنك ليس فى قدرتك أن تسمع الأموات فى أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لايسمعون وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق وردهم عن ضلالتهم ، بل ذلك إلى الله ؛ - تعالى - بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء - إذا شاء - ويهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾

أى : خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال - تعالى - ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾[1] وقد استدلت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - بهذه الآية : ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر فى روايته مخاطبة النبى ﷺ القتلى الذين ألقوا فى قليب بدر بعد ثلاثة أيام ، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم ، حتى قال له عمر : يارسول الله ما يخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون)[2] وتأولته عائشة - على أنه قال : (إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق) وقال قتادة : أحياهم الله حتى سمعوا مقالته تقريعا وتوبيخا ونقمة . والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة ، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححا له عن ابن عباس مرفوعا : (ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ﴾[3] وثبت عنه ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه ، فيقول المسلم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين . وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل ، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد ، والسلف مجمعون على هذا ، وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحى له ويستبشر ، فروى ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم)[4] وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : إذا مر الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد علية السلام . وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن رجل من آل عاصم الجحدرى قال : رأيت عاصما الجحدرى فى منامى بعد موته بسنتين فقلت : أليس قد مت ؟ قال : بلى . قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا - والله - فى روضة من رياض الجنة ؟ أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله

---

(١) الآية : ٣٦ من سورة الأنعام

(٢) رواه احمد فى مسند عبدالله بن عمر حـ٢ ص ١٣١ والرواية التى معنا هى رواية انس فى صحيح مسلم برقمى ٢٨٧٣/٧٦ ، ٢٨٧٤/٧٧ حـ ٤ ص ٢٢٠٢ ، ٢٢٠٣ وانظر مسند انس فى مسند الامام أحمد .

(٣) ابن كثير فى تفسيره حـ ٦ ص ٣٣٠

(٤) الحديث فى اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين حـ ١٠ ص ٣٦٥ وقال العراقى بـ رواه ابن ابى الدنيا فى كتاب القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله. ورواه ابن عبد البر فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه ، وصححه عبد الحق الاشبيلى .

المزنى فنتلقى أخباركم . قال : قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال : هيهات ! ! قد بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح . قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس . قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته . قال : وحدثنا محمد ابن الحسين بسنده عن حسن القصاب قال : كنت أغدو مع محمد بن واسع فى كل غداة سبت حتى نأتى أهل الجبان فنقف على القبور فنسلم عليهم وندعو لهم ثم ننصرف ، فقلت ذات يوم : لو صيرت هذا اليوم يوم الإثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبلها ويوما بعدها . قال : حدثنا محمد ، حدثنا عبد العزيز ابن أبان قال : حدثنا سفيان الثورى قال : بلغنى عن الضحاك أنه قال : من زار قبرا يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته . فقيل له : وكيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

حدثنا خالد بن خداش ، حدثنا جعفر بن سليمان عن أبى التياح يقول : كان مطرف يغدو فإذا كان يوم الجمعة أدلج . قال : وسمعت أبا التياح يقول : بلغنا أنه كان ينزل بغوطة فأقبل ليلة حتى إذا كان عند المقابر يقوم وهو على فرسه فرأى أهل القبور كل صاحب قد جالسا على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتى الجمعة ، ويصلون عندكم يوم الجمعة ؟ قالوا : نعم : ونعلم ما يقول فيه الطير . قلت : وما يقولون ؟ قال : يقولون : سلام عليكم .

حدثنى محمد بن الحسن بسنده عن الموفق ابن خال سفيان بن عيينة قال : لما مات أبى جزعت عليه جزعا شديدا ، فكنت آتى قبره فى كل يوم ، ثم قعدت عن ذلك ما شاء الله ، ثم إنى أتيته يوما فبينا أنا جالس عند القبر غلبتنى عيناى فنمت ، فرأيت كأن قبر أبى قد انفرج وكأنه قاعد فى قبره متوشح أكفانه عليه سحنة الموتى ، قال : فكأنى بكيت لما رأيته قال : يابنى ما أبطأ بك عنى ؟ قلت : وإنك لتعلم بمجيئى ؟ قال : ما جئت مرة إلا علمتها ، وقد كنت تأتينى فأسر بك ويسر من حولى بدعائك .

قال : فكنت آتيه بعد ذلك كثيرا .

حدثنى محمد ، حدثنا يحيى بن بسطام عن عثمان بن سويد الطفاوى قال : وكانت أمه من العابدات ، وكان يقال لها راهبة ، قال : لما احتضرت رفعت رأسها إلى السماء فقالت : ياذخرى وذخيرتى ، من عليه اعتمادى فى حياتى وبعد موتى ، لا تخذلنى عند الموت ولا توحشنى . قال : فماتت فكنت آتيها فى كل جمعة فأدعو لها واستغفر لها ولأهل القبور ، فرأيتها ذات يوم فى منامى فقلت لها : ياأمى كيف أنت ؟ قالت : أى بنى : إن للموت لكربة شديدة ، وإنى بحمد الله لفى برزخ محمود يفرش فيه الريحان ونتوسد السندس والاستبرق إلى يوم النشور . فقلت لها : ألك حاجة ؟ قالت : نعم . قلت : وما هى ؟ قالت : لا تدع ما كنت تصنع من زياراتنا والدعاء لنا ؛ فإنى لأبشر بمجيئك يوم الجمعة إذا اقبلت من أهلك ، يقال لى : ياراهبة هذا ابنك قد أقبل ، فأسر ويسر بذلك من حولى من الأموات .

حدثنى محمد ، عن محمد بن عبد العزيز بن سليمان ، حدثنا بشر بن منصور قال : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبان فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على المقابر فقال :

آنس الله وحشتكم ، ورحم غربتكم ، وتجاوز عن مسيئكم ، وقبل حسناتكم ، لا يزيد على هؤلاء الكلمات ، قال : فأنسيت ذات ليلة وانصرفت إلى أهلى ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، قال : فبينا أنا نائم إذا بخلق قد جاءونى ، فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر ، قلت : ما حاجتكم ؟ قالوا : إنك عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا: الدعوات التى كنت تدعو بها ، قال : قلت : فإنى أعود لذلك ، قال : فما تركتها بعد .

وأبلغ من ذلك أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه .

قال عبد الله بن المبارك بسنده عن أيوب قال : تعرض أعمال الأحياء على الموتى ، فإذا رأوا حسنا فرحوا واستبشروا ، وإن رأوا سوءا قالوا : اللهم راجع به .

وذكر ابن أبى الدنيا عن أحمد بن أبى الحوارى قال : حدثنا محمد أخى قال : دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين فقال : عظنى قال : بم أعظك أصلحك الله ؟ بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم من الموتى ، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك . فبكى إبراهيم حتى أخضل لحيته . .

قال ابن أبى الدنيا ، وحدثنى محمد بن الحسين ، حدثنى خالد بن عمرو الأموى ، حدثنا صدقة ابن سليمان الجعفرى ، قال : كانت لى شرة سمجة فمات أبى فتبت وندمت على ما فرطت ، ثم زللت أيما زلة ، فرأيت أبى فى المنام فقال : أى بنى : ما كان أشد فرحى بك وأعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين فلما كانت هذه المرة استحييت لذلك حياء شديدا ، فلا تخزنى فيمن حولى من الأموات . قال : فكنت اسمعه بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر ـ وكان جارا لى بالكوفة : أسألك إيابة لا رجعة فيها ولا حور ، يامصلح الصالحين ، وياهادى المضلين ، وياأرحم الراحمين .

وهذا باب فيه آثار كثيرة عن الصحابة ، وكان بعض الأنصار من أقارب عبد الله بن رواحة يقول :

اللهم إنى أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبد الله بن رواحة . كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبد الله .

وقد شرع السلام على الموتى ، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسَلِّم محال ، وقد علم النبى ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا : سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ، نسأل الله لنا ولكم العافية . فهذا السلام والخطاب والنداء لموجود يسمع ويخاطب ويعقل ويرد ، وإن لم يسمع المسلم الرد .

الآيات التى فى الإنسان وختام السورة

* ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ

سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ
إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ
وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

معانى المفردات

(ضعف) الضعف : ما قابل القوة . (شيبة) أى : شيبا ، وهو بياض الشعر الأسود ،

(الساعة)) : مدة من الزمن قليلة .

(يؤفكون) : يقال : أفك الرجل : إذا صرف عن الصدق والخير .

(ولا هم يستعتبون) أى : لا يطلب منهم الإعتاب ، وحقيقة أعتبته : أزلت عتبه ، فالإعتاب : إزالة العتب بفعل ما يرضى ،

يقال : استعتبته ، فأعتبنى ، أى : استرضيته فأرضانى .

(مبطلون) أى : متبعون الباطل والسحر .

(ولا يستخفنك) يقال : استخف فلان فلانا ، أى : استجهله حتى حمله على اتباعه فى الغى .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته أردفها دلائل الأنفس ، فذكر خلق الأنفس ، فى أطوارها المختلفة من ضعف إلى قوة ، ثم انتكاسها وتغيير حالها من قوة إلى ضعف ، ثم إلى شيخوخة وهرم . وبين أنه العليم بها فى مختلف أحوالها ، القدير على تغييرها واختلاف أشكالها ،

وبعد أن ذكر فيما سلف بدء النشأة الأولى ، وذكر الإعادة والبعث ، وأقام عليه الأدلة فى شتى السور ؛ وضرب له الأمثال ، أردف ذلك ذكر أحوال البعث وما يجرى فيه من الأفعال والأقوال من الأشقياء والسعداء ؛ ليكون فى ذلك عبرة لمن يدكر .

وبعد أن ذكر من الأدلة على الوحدانية والبعث ما ذكر ، وأعاد وكرر ، بشتى البراهين ، وبديع الأمثال ـ أردف ذلك أنه لم يبق بعد هذا زيادة لمستزيد ، وأن الرسول ﷺ قد أدى واجبه ، وأن من طلب

شيئا بعد ذلك فهو معاند مكابر ، فإن من كذب الدليل الواضح اللائح ، لا يصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ هذا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن الله - تعالى - لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، فإنه خلق الإنسان من ماء مهين ، فجعله فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، ثم خلقه إنسانا سويا ، ثم أمده بالقوة من بعد ضعف ، ثم عاد ضعيفا حال الشيخوخة والهرم ، ثم غزا الشيب رأسه ، أليس ذلك بقادر على أن يعيده مرة أخرى يوم القيامة ؟ ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[1] واسمع إلى قوله - جل شأنه - ﴿ ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث . فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[2]

فسبحان الخالق المحيى المميت الباعث الوارث المعز المذل الرافع الخافض الباسط القابض الأول الآخر الظاهر الباطن يخلق ما يشاء بقدرته ، ويحكم ما يريد بحكمته ، وهو العليم الذى أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، القدير الذى لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض ، خشعت الأصوات لعظم ملكوته ، وعنت الوجوه لجلال جبروته ، سبحانه يحيى العظام وهى رميم ، وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم ، ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾[3]

قوله - تعالى - : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون . وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون . فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ﴾ .

---

(١) الآيتان : ٦٧ ، ٦٨ من سورة غافر
(٢) الآيات : ٥ - ٧ من سورة الحج
(٣) الآيات : ٥ - ٨ من سورة الطارق

وهذا مشهد من مشاهد القيامة ، وما أكثر مشاهدها ! !

﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾(١) إن المجرمين كما كذبوا على الله فى الدنيا وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، كذلك يقسمون فى الآخرة كذبا وبهتانا قائلين : ما لبثنا غير ساعة . أى : ما لبثنا فى الدنيا إلى هذا اليوم غير ساعة ، أى : ما لبثنا إلا زمنا يسيرا . قال - تعالى - ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ﴾(٢)

وقال - جل شأنه : - ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون . قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون . قال اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى . وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾(٣) نعم قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . إن هؤلاء ضيعوا أعمارهم فى شهوات البطن والفرج ، وغرتهم أموالهم وأولادهم حتى ماتوا وفوجئوا بالبعث ، فأقسموا مالبثوا غير ساعة

قال - تعالى - ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور . وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾(٤) لقد جهلوا حق الله فى الدنيا وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون ، وبمثل هذا الجهل كانوا يؤفكون ويصرفون عن الحق ،

أما المؤمنون من أولى العلم بالعقيدة والإيمان ، والذين قال الله فيهم : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ﴾(٥) فإنهم يردون عليهم قائلين : لقد لبثتم فيما كتبه الله لكم من الأعمار فى الدنيا ، وبعد البرزخ إلى يوم البعث ، أتدرون ما يوم البعث الذى أنكرتموه وجحدتموه وقلتم وأقسمتم بالله جهد أيمانكم لا يبعث الله من يموت ؟ هذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون فقد

---

(١) الآيات : ٥١ - ٥٤ من سورة يس
(٢) الآية : ٦٠ من سورة الزمر .
(٣) الآيات : ١٠١ : ١١٦ من سورة المؤمنون
(٤) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة فاطر .
من الآية : ١٨ من سورة آل عمران .

يعلمون . قال ـ تعالى ـ : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾ (١) وقال : ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ﴾ (٢) وقال ـ سبحانه ـ : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ (٣) وقال : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ (٤) وقال : ﴿ ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون ﴾ (٥) .

أما أنت ياصاحب الرسالة العصماء ، يامبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، فاصبر إن وعد الله حق ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾ (٦) وكما قال : ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ (٧) وكما قال : ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ (٨) .

﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ أى : لا يحملنك أفعال هؤلاء الذين خلت قلوبهم من اليقين والإيمان على الجزع والقلق ، فإن الله معك يرعاك بعنايته ورعايته ، فتوكل على الله إنك على الحق المبين .

سورة لقمان

مقدمة :

قال صاحب البصائر : السورة مكية ، سوى آيتين : ﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام . . ﴾ إلى آخر الآيتين . عدد آياتها ثلاث وثلاثون عند الحجازيين ، وأربع وثلاثون عند الباقين . وكلماتها خمسمائة وثمان وأربعون . وحروفها ألفان ومائة وعشر . .

معظم مقصود السورة :

بشارة المؤمنين بنزول القرآن ، والأمر بإقامة الصلاة ، وأداء الزكاة ، والشكاية من قوم اشتغلوا بلهو الحديث ، والشكاية من المشركين فى الإعراض عن الحق ، وإقامة الحجة عليهم ، والمنة على لقمان

---

(١) الآية : ١٧ من سورة فصلت
(٢) الآيتان : ٦ ، ٧ من سورة البقرة
(٣) من الآية : ٥ من سورة الصف
(٤) من الآية : ١٥٥ من سورة النساء
(٥) الآيات : ١٠٦ ـ ١٠٨ من سورة النحل
(٦) الآية : ١٠٩ من سورة يونس
(٧) الآيات : ١٢١ ـ ١٢٣ من سورة هود
(٨) الآية ١٢٩ من سورة التوبة .

حجبكم عن العلم عنادكم وجحودكم ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ﴾[١] ففى هذا اليوم لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم . قال - تعالى - ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام ﴾[٢] .

قوله - تعالى - : ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أى : ولا هم يرجعون إلى الدنيا إن طلبوا ذلك ، أو لا يعاتبون وإنما يعاقبون أو . وإن يطلبوا الرضا فلن ينالوه ؛ فما هم من أهل الرضا . ﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون . وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين . فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾[٣] .

قوله - تعالى - ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون . كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون . فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾

يذكر - سبحانه وتعالى - أنه وضح لعباده وبين لهم كل ما يلزمهم فى معاشهم ومعادهم ، ومن أساليب الايضاح والتبيين أنه ضرب لهم فى القرآن من كل مثل سواء فى أصول العقيدة ، أو شعائر العبادات ، أو شرائع السلوك ، أو مناهج الأخلاق ، أو مبادىء الأحكام ، أو قواعد النظام .

قال - تعالى - : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[٤] وقال : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ﴾[٥] وقال : ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[٦] ومع هذا الإيضاح وذلك البيان فإنك لو جئتهم بآية كما اقترحوا عليك فسوف يقول الذين كفروا : إن أنتم إلا مبطلون وكاذبون ؛ لأنهم جبلوا على العناد والجحود ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٧] ومثل ذلك الجحود يؤدى إلى الطبع على قلوبهم والختم عليها حتى لا يتسرب إليها نور المعرفة ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا

---

(١) الآيات : ٢٧ - ٢٩ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات : ٤٤ - ٤٦ من سورة إبراهيم
(٣) الآيات : ١٩ - ٢٤ من سورة فصلت
(٤) الآية : ٤٣ من سورة العنكبوت
(٥) من الآية : ٢٥ من سورة ابراهيم
(٦) من الآية ٣٥ من سورة النور .
(٧) الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ من سورة يونس .

بما أعطى من الحكمة ، والوصية ببر الوالدين ، ووصية لقمان لأولاده ، والمنة بإسباغ النعمة ، وإلزام الحجة على أهل الضلالة ، وبيان أن كلمات القرآن بحور المعانى ، والحجة على حقية البعث ، والشكاية من المشركين بإقبالهم على الحق فى وقت المحنة ، وإعراضهم عنه فى وقت النعمة ، وتخويف الخلق بصعوبة القيامة وهولها ، وبيان أن خمسة علوم مما يختص به الرب الواحد ـ تعالى ـ فى قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ إلى آخرها .

المتشابهات التى فى سورة لقمان :

قوله : ﴿ كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾ وفى الجاثية : ﴿ كأن لم يسمعها فبشره ﴾[1] زاد فى هذه السورة : ﴿ وكأن فى أذنيه وقرا ﴾ جل المفسرين على أن الآيتين نزلتا فى النضر بن الحارث ، وذلك أنه ذهب إلى فارس ، فاشترى كتاب كليلة ودمنة ، وأخبار رستم واسفنديار ، وأحاديث الأكاسرة ، فجعل يرويها ويحدث بها قريشا ، ويقول : إن محمدا يحدثكم بحديث عاد ، وثمود ، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار ، ويستملحون حديثه ، ويتركون استماع القرآن ، فأنزل الله هذه الآيات ، وبالغ فى ذمه ، لتركه استماع القرآن . فقال : ﴿ كأن فى أذنيه وقرا ﴾ أى : صمما ، لا يقرع مسامعه صوت . ولم يبالغ فى الجاثية هذه المبالغة ؛ لما ذكره بعده : ﴿ وإذا علم من آياتنا شيئا ﴾[2] لأن ذلك العلم لا يحصل إلا بالسماع ، أو ما يقوم مقامه : من خط وغيره .

قوله ﴿ يجرى إلى أجل مسمى ﴾ وفى الزمر ﴿ لأجل ﴾ قد سبق شطر من هذا . ونزيد بيانا أن (إلى) متصل بآخر الكلام ، ودال على الانتهاء ، واللام متصلة بأول الكلام ، ودالة على الصلة .

مناسبتها لما قبلها من وجوه : -

(١) إنه ـ تعالى ـ قال فى السورة السالفة : ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ وأشار إلى ذلك فى مفتتح هذه السورة .

(٢) إنه قال فى آخر ما قبلها : ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ وقال فى هذه : ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا ﴾

(٣) إنه قال فى السورة السابقة : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقال هنا : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ ففى كلتيهما إفادة سهولة البعث .

(٤) إنه ذكر هناك قوله : ﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾ وقال هنا : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ فذكر فى كل من الآيتين قسما لم يذكره فى الآخر .

(٥) إنه ذكر فى السورة التى قبلها محاربة ملكين عظيمين لأجل الدنيا ، وذكر هنا قصة عبد مملوك زهد فيها ، وأوصى ابنه بالصبر والمسالمة وذلك يقتضى ترك المحاربة . وبين الأمرين التقابل وشاسع البون كما لا يخفى .

---

(١) من الآية ٨ من سورة الجاثية

(٢) من الآية ٩ من سورة الجاثية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

وهذا بدء سورة كريمة جاء على وفق ما هو معروف غالبا فى السور المكية التى تبدأ بأحرف هجائية ، حيث تكلمت عن القرآن وآياته ، وهو افتتاح شبيه بافتتاح سورة البقرة .

التفسير

﴿ الم ﴾ : بعض حروف الهجاء التى يقصد بها إعجاز هذا الكتاب الحكيم الذى تلك آياته ، والحكيم : اسم من أسمائه .

قال صاحب البصائر :

اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، أو كماله فى أمر من الأمور . أما ترى أن كثرة اسماء الأسد دلت على كمال قوته ؟ وكثرة أسماء القيامة دلت على كمال شدته وصعوبته ؟ وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايتها ؟ وكذلك كثرة أسماء الله ـ تعالى ـ دلت على كمال جلال عظمته ، وكثرة أسماء النبى ـ ﷺ ـ دلت على علو رتبته ، وسمو درجته ، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه ، وفضيلته .

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ للقرآن مائة اسم نسوقها على نسق واحد :

الأول : العظيم (سبعا من المثانى والقرآن العظيم) الحجر

الثانى : العزيز (وإنه لكتاب عزيز) فصلت

الثالث : العلى ﴿ لدينا لعلى ﴾ الزخرف

الرابع : المجيد ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ البروج

الخامس : المهيمن ﴿ ومهيمنا عليه ﴾ المائدة

السادس : النور ﴿ واتبعوا النور الذى أنزل معه ﴾ الأعراف

السابع : الحق ﴿ قد جاءكم الحق ﴾ يونس

الثامن : الحكيم ﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾ يس

التاسع : الكريم ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ الواقعة

العاشر : المبين ﴿ حم والكتاب المبين ﴾ الزخرف

الحادى عشر : المنير ﴿ والكتاب المنير ﴾ آل عمران
الثانى عشر : الهدى ﴿ هدى للمتقين ﴾ البقرة
الثالث عشر : المبشر ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ الكهف
الرابع عشر : الشفاء ﴿ وشفاء لما فى الصدور ﴾ يونس
الخامس عشر : الرحمة ﴿ ورحمة للمؤمنين ﴾ النمل
السادس عشر : الكتاب ﴿ وهذا كتاب أنزلناه ﴾ الأنعام
السابع عشر : المبارك ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ الأنعام
الثامن عشر : القرآن ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾ الرحمن
التاسع عشر : الفرقان ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان ﴾ الفرقان
العشرون : البرهان ﴿ برهان من ربكم ﴾ النساء
الحادى والعشرون : التبيان ﴿ وتبيانا لكل شيء ﴾ النحل
الثانى والعشرون : البيان ﴿ بيان للناس ﴾ آل عمران
الثالث والعشرون : التفصيل ﴿ وتفصيلا لكل شيء ﴾ الأنعام ـ الأعراف
الرابع والعشرون : المفصل ﴿ الكتاب مفصلا ﴾ الأنعام
الخامس والعشرون : الفصل ﴿ إنه لقول فصل ﴾ الطارق
السادس والعشرون : الصدق ﴿ والذى جاء بالصدق ﴾ الزمر
السابع والعشرون : المصدق ﴿ مصدق الذى بين يديه ﴾ الأنعام
الثامن والعشرون : ذكرى ﴿ وذكرى لكل عبد منيب ﴾ ق
التاسع والعشرون : الذكر ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ الأنبياء
الثلاثون : التذكرة ﴿ إن هذه تذكرة ﴾ الإنسان
الحادى والثلاثون : الحكم ﴿ أنزلناه حكما عربيا ﴾ الرعد
الثانى والثلاثون : الحكمة ﴿ حكمة بالغة ﴾ القمر
الثالث والثلاثون : محكمة ﴿ سورة محكمة ﴾ محمد
الرابع والثلاثون : الإنزال ﴿ وأنزلنا إليكم ﴾ النساء
الخامس والثلاثون : التنزيل ﴿ وإنه لتنزيل ﴾ الشعراء
السادس والثلاثون : التصديق ﴿ ولكن تصديق الذى بين يديه ﴾ يونس
السابع والثلاثون : المنزل ﴿ منزل من ربك ﴾ الأنعام
الثامن والثلاثون : التبصرة ﴿ تبصرة وذكرى ﴾ ق
التاسع والثلاثون : البصائر ﴿ هذا بصائر للناس ﴾ الجاثية
الأربعون : الموعظة ﴿ وموعظة للمتقين ﴾ البقرة
الحادى والأربعون : البينة ﴿ بينة من ربكم ﴾ الأنعام

الثانى والأربعون : البشير ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ البقرة وفاطر
الثالث والأربعون : الوحى ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ النجم
الرابع والأربعون : الرسالة ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ المائدة
الخامس والأربعون : النبأ ﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ ص
السادس والأربعون : القيم ﴿ قيما لينذر ﴾ الكهف
السابع والأربعون : قيمة ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ البينة
الثامن والأربعون : الروح ﴿ روحا من أمرنا ﴾ الشورى
التاسع والأربعون : الكلام ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ التوبة
الخمسون : الكلمات ﴿ ما نفدت كلمات الله ﴾ لقمان
الحادى والخمسون : الكلمة ﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ الأنعام
الثانى والخمسون : الآيات ﴿ تلك آيات الله ﴾ البقرة
الثالث والخمسون : البينات ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ العنكبوت
الرابع والخمسون : الفضل ﴿ قل بفضل الله ﴾ يونس
الخامس والخمسون : القول ﴿ يستمعون القول ﴾ الزمر
السادس والخمسون : القيل ﴿ ومن أصدق من الله قيلا ﴾ النساء
السابع والخمسون : الحديث ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ الأعراف
الثامن والخمسون : أحسن الحديث ﴿ الله نزل أحسن الحديث ﴾ الزمر
التاسع والخمسون : العربى ﴿ قرآنا عربيا ﴾ يوسف
الستون : الحبل ﴿ واعتصموا بحبل الله ﴾ آل عمران
الحادى والستون : الخير ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ﴾ النحل
الثانى والستون : البلاغ ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ إبراهيم
الثالث والستون : البالغة ﴿ حكمة بالغة ﴾ القمر
الرابع والستون : الحق ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ الحاقة
الخامس والستون : المتشابه والمثانى ﴿ كتابا متشابها مثانى ﴾ الزمر
السادس والستون : الغيب ﴿ يؤمنون بالغيب ﴾ البقرة
السابع والستون : الصراط المستقيم ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الفاتحة
الثامن والستون : المبين : ﴿ قرآن مبين ﴾ الحجر
التاسع والستون : الحجة ﴿ قل فلله الحجة البالغة ﴾ الأنعام
السبعون : العروة الوثقى ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ البقرة ـ لقمان
الحادى والسبعون : القصص ﴿ فاقصص القصص ﴾ الأعراف
الثانى والسبعون : المثل ﴿ ضرب الله مثلا ﴾ ابراهيم ـ النحل

الثالث والسبعون : العجب ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا ﴾ الجن

الرابع والسبعون : الأثارة ﴿ أو أثارة من علم ﴾ أى : ما يؤثر عن الأولين أى : يروى عنهم الأحقاف

الخامس والسبعون : القسط ﴿ فاحكم بينهم بالقسط ﴾ المائدة .

السادس والسبعون : الإمام ﴿يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ الإسراء .

السابع والسبعون : النجوم ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ الواقعة .

الثامن والسبعون : النعمة ﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ القلم

التاسع والسبعون : الكوثر ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ الكوثر

الثمانون : الماء ﴿ وأنزلنا من السماء ماء ﴾ المؤمنون

الحادى والثمانون : المتلو ﴿ يتلونه حق تلاوته ﴾ البقرة

الثانى والثمانون : المقروء ﴿ لتقرأه على الناس على مكث ﴾ الإسراء

الثالث والثمانون : العدل ﴿ كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ الأنعام

الرابع والثمانون : البشرى ﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ البقرة

الخامس والثمانون : المسطور ﴿ وكتاب مسطور ﴾ الطور

السادس والثمانون : الثقيل ﴿ قولا ثقيلا ﴾ المزمل

السابع والثمانون : المرتل ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ المزمل

الثامن والثمانون : التفسير ﴿ وأحسن تفسيرا ﴾ الفرقان

التاسع والثمانون : المثبت ﴿ ما نثبت به فؤادك ﴾ هود

ومنها : الصحف ، والمكرم ، والمرفوع ، والمطهر ﴿ فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ﴾

ومن أسماء القرآن الواردة فى الحديث النبوى : القرآن ، حبل الله المتين ، وشفاؤه النافع ، بحر لا تنقضى عجائبه ، والمرشد : من عمل به رشد ، العدل : من حكم به عدل .

المعتصم الهادى : من اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم .

العصمة : عصمة لمن تمسك به .

قاصم الظهر : من بدله من جبار قصمه الله . مأدبة الله فى أرضه

النجاة : (ونجاة لمن اتبعه)

النبأ والخبر : (فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم)

الدافع : يدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة

صاحب المؤمن : يقول القرآن للمؤمن يوم القيامة : أنا صاحبك)

كلام الرحمن : الحرس من الشيطان . الرجحان فى الميزان

فهذا الكتاب الذى أبى الله أن يؤتى بمثله ولو كان الناس بعضهم لبعض ظهيرا وذلك لأنه كتاب جاء من غيب الغيب ، بعالم من العلم ، وصل إلى القول ، ومن القول إلى القلم ، ومن القلم إلى

صفحة اللوح ، إلى حد الوحى ومن الوحى إلى سفارة الروح الأمين ، ومن سفارته إلى حضرة النبوة العظمى .

واتصل منها إلى أهل الولاية حتى اشعلوا سرج الهداية ، وظفروا منها بكاف الكفاية ، فلم يزل متعلقة بحروفها وكلماته الراحة فالرحمة والعزة والنعمة ، ففى حال الحياة للمؤمن رقيب ، وبعد الوفاة له رفيق ، وفى القبر له عديل ، وفى القيامة له دليل ، وميزان طاعته به ثقيل . وفى عرضات الحشر له شفيع وكفيل ، وعلى الصراط له سائق ورسيل ، وفى الجنة أبدا الآبدين له أنيس وخليل . جعله الله لنا شفيعا ، ومنزلنا بالعلم والعمل بما فيه رفيعا .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ هدى ورحمة للمحسنين ﴾ أى : هذا الكتاب الكريم هدى ورحمة ، فالهدى : هو الإرشاد إلى طريق النجاة والرحمة : ما يرحم الله به عباده فى البأساء والضراء وحين البأس ، فهذا الكتاب من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، والمحسنون هم الذين قال الله فيهم : ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ﴾ أى : هم الذين عبدوا الله كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فهم على علم ويقين بأنه يراهم . والصلاة نموذج للعبادة البدنية والقلبية ، والزكاة نموذج للعبادة المالية ، والإيمان باليوم الآخر نموذج العقيدة الصحيحة ، فالصلاة لو لم تكن رأس العبادات لعدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان وطهارة أردان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يريد به المخلوق التوجه إلى الخالق ، فانظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع .

وكيف سادت العلية بالزمع ، والزكاة فيها النماء والطهارة والبركة والإصلاح الإجتماعى ، فلن يجهد الفقراء إلا ببخل الأغنياء ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾[١] .

والإيمان باليوم الآخر هو صمام الأمن لنظام المجتمع ، وهو محور الإرتكاز لحسن السلوك فى الدنيا ، وهو حجر الزاوية لإصلاح أى أمة تؤمن باليوم الآخر ، قال ـ تعالى ـ ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾[٢] لذا جاء الحكم لهؤلاء صادقا شافيا كافيا وافيا ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ (وعلى) هنا تفيد التمكن والثبات ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ وضمير الفصل هنا وتعريف الطرفين المسند والمسند إليه كل هذا يفيد الحصر والقصر ، أى : أولئك هم المفلحون لا سواهم ، وهذا تشريف وتعظيم وتكريم من رافع السماء بلا عمد فطوبى لكم أيها المحسنون المهتدون المفلحون . طوبى لكم وحسن مآب .

---

(١) من الآية ٣٤ والآية ٣٥ من سورة التوبة

(٢) الآيات : ٤ ـ ٦ من سورة المطففين

الكافرون بالقرآن والمؤمنون به

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ
وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾

معانى المفردات

(لهو الحديث) اللهو : كل باطل ألهى عن الخير .
(هزوا) أى : مهزوءا بها .
(وقرا) : ثقلا وصمما .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين حال السعداء الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾[1] أردف ذلك ذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب .

روى عن ابن عباس أن الآية نزلت فى بن الحارث : اشترى قينة (مغنية) وكان لايسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق بها إليه فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام وأن تقاتل بين يديه .

وروى عن مقاتل أنه كان يخرج تاجرا إلى فارس فيشترى كتب الأعاجم فيرويها ويحدث بها قريشا ويقول لهم : إن محمدا يحدثكم حديث عاد وثمود ، وأنا أحدثكم حديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستلمون حديثه ويتركون سماع القرآن .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها

(١) الآية ٢٣ من سورة الزمر .

هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾

لما ذكر ـ تعالى ـ حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله وينتفعون بسماعه ، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾(١) عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، واقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ قال : هو والله الغناء .

روى ابن جرير بسنده عن أبى الصهباء البكرى أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ فقال عبد الله بن مسعود : الغناء ـ والله الذى لا إله إلا هو ـ يرددها ثلاث مرات . حدثنا عمرو بن على بسنده عن أبى الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ﴾ قال : الغناء . وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومكحول وعمرو بن شعيب وعلى بن بذيمة .

وقال الحسن البصرى : نزلت هذه الآية : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالا ، ولكن شراءه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع ، وقيل : أراد بقوله : ﴿ يشترى لهو الحديث ﴾ اشتراء المغنيات من الجوارى .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى أمامة عن النبى ﷺ قال : (لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن ، وأكل أثمانهن حرام ، وفيهن أنزل الله ـ عز وجل ـ على ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾(٢)

وقال الضحاك فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ﴾ قال : يعنى الشرك

وقوله : ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ، وعلى قراءة فتح الياء تكون اللام لام العاقبة ، أو تعليلا للأمر القدرى ، أى : قيضوا لذلك ليكونوا كذلك . وقوله ـ تعالى ـ ﴿ ويتخذها هزوا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا يستهزىء بها . وقال قتادة : يعنى ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله : ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر ، ثم قال ـ تعالى ـ ﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا ﴾ أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامم وما به من صمم ، كأنه ما سمعها : لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ولا

---

(١) من الآية : ٢٣ من سورة الزمر

(٢) الحديث فى مسند الامام احمد (مسند أبى أمامة ـ رضى الله عنه) جـ ٥ ص ٢٥٢ بدون قوله : « وأنزل الله على فيهن .. الخ » وانظر سنن ابن ماجه (كتاب التجارات) باب : ما لا يحل بيعه جـ ٢ ص ٧٣٣ رقم ٣١٦٨

أرب له فيها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أى : يوم القيامة يؤلمه كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم . خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم ﴾ .

ويأتى نور الوعد بعد نيران الوعيد لتكون حال المؤمن بين الخوف والرجاء ، فالمؤمنون الصالحون لهم جنات النعيم ، لهم فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾(١) وما أجمل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾(٢)

وما أجل قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا . أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا ﴾(٣) وما أعظم قوله : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾(٤) .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ خالدين فيها وعد الله حقا ﴾ كقوله ـ تعالى ـ ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾(٥) فأنت ترى هنا أن الإيمان قد اقترن بالعمل الصالح ، فبين المؤمنين ولاية نصرة ومحبة ومودة ، ومن أعمالهم الصالحة أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، وليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، فالإيمان تصديق بالجنان وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ، والذى حكم لهم بالجنة والخلود فيها هو العزيز الغالب الذى لا راد لقضائه ، وهو الحكيم الذى لا معقب لحكمه ، والذى تنزهت أفعاله عن العبث إذا قال صدق ، وإذا وعد أنجز ، وإذا حكم عدل .

لاتركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لا شك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

---

(١) الآيتان : ٩ ، ١٠ من سورة يونس
(٢) الآية ٢٥ من سورة البقرة
(٣) الآيتان : ٣٠ ، ٣١ من سورة الكهف .
(٤) الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة الكهف
(٥) الآيتان : ٧١ ، ٧٢ من سورة التوبة

هذا خلق الله

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

معانى المفردات

(عمد) جمع عماد ، وهو ما يعمد به ، أى : يسند ، يقال : عمدت الحائط : إذا دعمته . والدعامة : ما يسند به الحائط إذا مال لتمنعه السقوط .

(رواسى) : ثوابت

(أن تميد بكم) : تضطرب

(وبث) : نشر وفرق

(زوج) : صنف .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان فيما سلف كمال قدرته وعلمه وإتقان عمله ، أردف ذلك الاستشهاد لما سلف بخلق السموات والأرض وما بعده مع تقرير وحدانيته وإبطال أمر الشرك وتبكيت أهله .

التفسير

من آيات قدرة الله ـ تعالى ـ الدالة على وحدانيته وعظمته أنه رفع السموات بغير عمد ، والكل يشاهد ذلك ويراه ، كما ألقى الجبال على الأرض رواسى ثابتات شاخات حتى لا تميد وتهتز . ونشر فى الأرض من كل دابة ، فهو مبدع الكائنات وخالق كل شىء ، وهو على كل شىء وكيل ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأنبت فى الأرض من كل نوع كريم وزوج بهيج ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

---

(١) الآيات : ٢ ـ ٤ من سورة الرعد

من الخالق لكل هذا ؟ الطبيعة الصماء ؟ أم الصدفة العمياء ، كلا،بل هو الله العزيز الحكيم . هذا خلق الله وحده لا شريك له ﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

تأمل فى نبات الأرض وانظر   إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات   بأبصار هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد ، شاهدات   بأن الله ليس له شريك

فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ إنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا .

﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾[2] .

فمن يقل إن هناك خالقا غير الله فهو من الظالمين ، والظالمون فى ضلال مبين .

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين . وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[3] فاللهم إنا نشهدك ونشهد ملائكتك وحملة عرشك وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ونبيك ورسولك ، رضينا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا .

كلمات ربى

من كتاب (قصة الإيمان) يقول الشيخ نديم الجسر مفصلا هذا الحوار بين التلميذ واسمه (حيران) والشيخ واسمه (الموزون) يقول (الشيخ نديم الجسر)

يقول حيران بن الأضعف خرجت من غرفة الشيخ بعد أن ناولته المصحف ، وأويت إلى فراشى فلم أجد إلى النوم سبيلا ؛ لأنى ما تعودت أن أنام فى هذه الساعة ، ولم أجد إلى المطالعة سبيلا ، لأن المصباح لا يزال عند الشيخ ، فأخذت أتناوم .

وبعد لأى أغفيت إغفاءة خفيفة صحوت منها على صوت سعال الشيخ . فرأيت أنه لا يزال ساهرا . . ثم استغرقت فى النوم إلى أن صحوت على الخادم العجوز يقرع الباب،ولما نهضت من فراشى

---

(١) الأيتان : ١٠٢ ، ١٠٣ من سورة الأنعام
(٢) الأيتان : ٧٣ ، ٧٤ من سورة الحج .
(٣) الآيات : ٦٢ - ٦٧ من سورة الزمر .

لأفتح له وجدت المصباح فى غرفة الشيخ لا يزال منيرا ، ولما أذن المؤذن لصلاة الصبح وخرج الشيخ إلى وضوئه سألته عن سهره ، فقال : إننى لم أنته من التلاوة إلا الساعة .

قلت : إن السهر يامولاى يضنيك

قال : كل هذا من أجلك ياحيران .

قلت : من أجلى أنا ؟

فتبسم ومر إلى وضوئه ، ثم صلينا الصبح ، وانفتل بعد الصلاة إلى غرفته وهو يقول : لن أخرج اليوم إلى الغياض .. إننى بحاجة إلى النوم .

وقضيت نهارى كله بين الغياض أراجع ما أملاه على الشيخ ليلة أمس ، وأعيد الجمع والحساب فى ﴿ أحجية الورقة المقطعة ﴾ .. فوجدتها يقينية فآمنت بأن عقولنا تكل أحيانا عن تصور حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلى على صحتها ... وعرفت أنه لا يجوز لنا أن نجمد أمام هذا الكلال العقلى ، بل علينا أن نأخذ بالبرهان القاطع الذى قام لدينا ، ونؤمن بأن ذلك الكلال وهم ، والوهم لا يقاوم البرهان . فتذكرت ما قاله الغزالى فى هذا الباب ، فراجعته ، وأدركت الآن معنى قوله : (إنه لم يجد لنفسه علاجا من الشك وأوهامه إلا بالدليل ، والدليل لا يكون إلا من تركيب الأوليات والضروريات التى لا يصل العقل إلى اليقين إلا بها) .

ثم قلت : ياويل نفسى ! ! كيف كنت أدرك كل هذا ؟ وكيف كنت أتعلم إطراح الوهم عند قيام البرهان القاطع لو لم يقيض الله لى هذا الرجل المرشد الصبور ؟

ثم قلت : ياويل الناس من هذه الشكوك التى لا يخلص منها أحد كما قال الشيخ ، أتراهم يستطيعون أن يتوفروا على مثل هذه الدراسة الطويلة ؟ إن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .. فكيف يدفعون هذه الشكوك عن إيمانهم .

ولما كان المساء دخلت على الشيخ ، فرأيته يكتب فى دفتر كبير بعض آيات القرآن ، فألقيت السلام وأهويت على يديه أقبلهما ، فتبسم وقال الشيخ : مالك تقبل يدى بلا داع ؟ أأراك تودعنى ... ؟ أتحسب أنك انتهيت من الدرس فأردت أن ترجع إلى بلدك ؟ كلا ياحيران ؛ فشوطك فى الدرس لا يزال بعيد المدى .

حيران : لم يخطر ببالى أن أفارقك يامولاى . ولو ذهبت لزيارة أبى لعدت إليك فقد انقطعت عن العلم فى جامعة (بشاور) ولا أجد ـ والله ـ خيرا منك لوصل ما انقطع ، وإنما قبلت يديك لأنى أحب أن أناجيك بنجوى ثقيلة ، فأردت أن أقدم بين يدى نجواى صدقة .

الشيخ : قل ما تريد ، فلا أجد منك شيئا ثقيلا .

حيران : لقد فكرت مليا فيما كشفته لى ليلة أمس من الحق ، فكيف بالله يامولاى كنت أدرك كل هذا ؟ وكيف كنت أتعلم اطراح الوهم عند قيام البرهان العقلى القاطع ، لو لم يقيض الله لى هاديا مرشدا مخلصا ، صبورا ، واسع الصدر مثلك يامولاى الكريم ؟ الشيخ : الهداة المرشدون كنز ياحيران ، وعنهم أخذنا . وليس على طالب الهدى إلا أن ينعم النظر ، ويطيل التأمل ، ويسأل أهل الذكر .

حيران : وهل يتاح لكل الناس أن يتركوا مشاغل الحياة وأسباب الرزق ليتفرغوا للنظر العميق ، والبحث الطويل ، والاستدلال المرهق العسير ، وهل يكلف الله نفسا إلا وسعها ؟

الشيخ : هذا حق ياحيران : وهذا الذى كنت أريد أن أصل بك إليه ، وأدلك عليه ، وأنصحك به ، بعد أن بلغت ما أردته من إرشادك إلى صحة البراهين النظرية المركبة وصدقها ، بل أنصح به كل إنسان من الذين لا يتاح لهم أن يتفرغوا للنظر والبحث والتأمل . . ألم تر أنى قضيت الليل كله أقرأ القرآن من أجلك ؟

حيران : بماذا تنصحنى يامولاى ؟

الشيخ : إننى انصحك وأنصح نفسى ، بل كل إنسان بما نصح به ابن رشد : وهو أن نلجأ فى إثبات وجود الله إلى البراهين البديهية السهلة ، البسيطة ، الواضحة ، التى يدركها العقل بدون أن يحتاج إلى الغوص فى حجج الاستدلال والجدل ، ومن غير أن يعتريه ارتباك أو كلال أو عجز أو وهم ، وهى البراهين التى أكثر من ذكرها القرآن واعتمد عليها أكثر مما اعتمد على البراهين العقلية المركبة الأخرى ؛ لأنه يستوى فى إدراكها الجاهل الساذج والعالم الفيلسوف ، أما الساذج فيدركها إجمالا لبساطتها ووضوحها وبداهتها ، وأما العالم فيدركها تفصيلا ويعلم أن هذه البداهة فى أدلة القرآن تعتمد على شواهد كثيرة ، تؤلف بمجموعها حكما عقليا يكون إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

حيران : هذا ـ والله ـ عجيب وعظيم . فقد سبق لمولاى الشيخ أن نوه بما فى القرآن من إعجاز ، فى باب التدليل على وجود الله وخلق العالم ، وسبق لى أن لاحظت عند التلاوة بعض هذه الأدلة ، ولكنى لم أكن أظن أنها تؤلف بمجموعها حكما عقليا يعد إنكاره بمثابة الإنكار لقضية رياضية صحيحة .

الشيخ : كم مرة قرأت القرآن ياحيران ؟

حيران : أظن أننى قرأته أكثر من عشر مرات .

الشيخ : الا تذكر قول أبيك لك فى الرؤيا : (ألا تقرأ القرآن ؟)

حيران : أذكره ولا أنساه .

الشيخ : هل خطر على بالك أن تنعم النظر فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1] لتدرك أنه ـ سبحانه ـ حصر الخشية فى العلماء ، وأنه أراد بهم العالمين بأسرار الوجود وأسرار الخلق ، كما قال ابن رشد والجسر ،

حيران : لقد سألت عن هذا ، فقيل لى : إن المقصود بالآية (علماء الدين)

الشيخ : وهل المفروض من علماء الدين أن يكون علمهم مقصورا على المعنى الإصطلاحى (للفقه) الذى يراد به استنباط أحكام العبادات والمعاملات ، وألا يكونوا مطلعين على أسرار الوجود والخلق عن طريق العلم والفلسفة ؟ كلا ياحيران ، فالفقه هو (الفهم) لكل شىء ، ولكل ما فى الدين من أسرار وحكم وأحكام ، وأول ما يجب أن نفهمه هو كلام الله ، وأول شىء يجب أن نفهمه من

---

(١) من الآية : ٢٨ من سورة فاطر

كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله ، وعلى أنه الخالق العليم ، القادر المريد ، البارىء المصور الحكيم . وهذه الآيات لا تفسر على الوجه الأكمل إلا إذا اطلعنا على ما فى الكون من أسرار الخلق والنظام والإحكام والإتقان . فعلماء الدين هم أولى الناس بالاطلاع على أسرار العلم ، ولا يصدق عليهم (الحصر) الوارد فى قوله ـ تعالى ـ ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ والمراد به الخشية الكاملة ، إلا إذا كانوا عارفين من العلوم الكونية كل ما يتعلق بأسرار الوجود والخلق التى دلنا عليها القرآن ، وذكر لنا بعضها ؛ لأن هذه الآية لم ترد فى سياق الكلام عن أمر يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو الأخلاق ، بل وردت فى سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته فى إنزال المطر وخلق النباتات والحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها ، حيث يقول الله ـ تعالت قدرته ـ : ﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[1] .

حيران : لا ريب فى أن المراد بالآية هم العلماء المطلعون على أسرار الخلق ونواميسه .

الشيخ : فالفهم الكامل لما جاء فى القرآن من البراهين الدالة على وجود الله وقدرته وحكمته ، يفتقر إلى ثلاثة أمور : جمع هذه الآيات كلها فى صعيد واحد حتى تكون فى متناول البصر والبصيرة عند المقارنة ؛ فلا يتشتت الفكر للبحث عنها فى خضم القرآن . ورغبة صادقة فى درس هذه الآيات على ضوء العلم والفلسفة ، لاستنباط ما فيها من البراهين ، وما فيها من الردود على المنكرين . وانطلاق من قيود التعصب الأعمى لأى رأى دينى أو فلسفى .

حيران : إننى سمعت من بعض العلماء أن القرآن لم يترك شيئا من العلوم إلا وأشار إليه .

الشيخ : كلا ياحيران كلا . وهؤلاء الذين يقولون ذلك ليسوا بعلماء ولا عقلاء ولا أذكياء ، فالقرآن ليس بدائرة معارف علمية ، ولا من مقاصده إرشاد الناس إلى العلوم الكونية من باب التعليم ، ولكن ما ورد فيه من الآيات التى تشير إلى حقائق كونية كشفها العلم ، إنما ورد بقصد التنبيه إلى ما فى خلق العالم من آثار الإرادة والقدرة والعلم والحكمة والإتقان والاتزان الدالة على وجود الله ، النافية للتكوين بالمصادفة ، ولم يقصد به تقرير العلوم الكونية ؛ لأن القرآن خطاب للبشر بلغة البشر ، والله أحكم من أن يخاطب الناس بأمور لا يعرفون أسماءها فضلا عن أسرارها ، ولكنه أشار إلى دلائل وجوده وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ببيان عجيب يفهمه على ظاهره البدوى الساذج فى القرن السابع ، ويفهم أسراره رجل العلم فى القرن العشرين . وفى هذا يتجلى إعجاز القرآن ، لا فى بلاغته وحدها كما سبق القول ؛ فإعجاز البلاغة والفصاحة إنما يدركه العرب ، والقرآن خطاب للناس كافة ، وإلى هذا الضرب من الإعجاز أشار العليم الحكيم بقوله : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[2] . وقد أراهم ـ سبحانه ـ بعد عصور وعصور آياته فى آفاق السموات والأرض وفى أنفسهم كما وعدهم فتبين لهم أنه الحق ، وألفوا فى ذلك المطولات فى بلاد المغرب . ولكننا ـ نحن

---

(١) الآية : ٢٧ وبعض الآية : ٢٨ من سورة فاطر .

(٢) من الآية : ٥٣ من سورة فصلت .

المسلمين ـ الذين كان لنا السبق والفضل فى كشف كثير من تلك الآيات من طريق العلم قصرنا فى إراءة أولئك العلماء أن هذا القرآن قدم هذا الوعد ، وأشار إلى الكثير من دلائل وجود الله ، ووحدانيته وقدرته ، وحكمته ، منذ ألف وأربعمائة سنة .

وخلاصة القول ياحيران أن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين دعوة إلى الله وإرشاد إلى دلائل وجوده ووحدانيته وعلمه وقدرته وإرادته وعنايته ورحمته وجميع صفات كماله ، ووعد ووعيد للترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته ، وتوكيد ليوم البعث والدين ، وأحكام فى العبادات والمعاملات ، وحكمة عملية فى الحياة ، وحض على مكارم الأخلاق ، وقصص يمت بسبب إلى هذه الأقسام الستة ، ولكن أهم هذه الأقسام وأعظمها عند الله هو القسم الأول ؛ لأن الايمان بالله هو الأصل وهو الأساس لكل ما عداه .

ولذلك ترى ـ وأنت تتصفح القرآن ـ أن الآيات الدالة على الله لاتكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحيانا فى السورة الواحدة .

يقول حيران بن الأضعف : وهنا ناولنى الشيخ الدفتر الذى كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ ـ هذا هو الدفتر الذى جمعت لك به على ترتيب النزول أكثر آيات القرآن التى أراد بها الله ـ تعالى ـ إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارىء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها ـ سبحانه ـ من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والاحكام والإتقان والتقدير والاتزان فى خلق السموات والأرض ، والشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والجبال والأنهار والبحار والنبات والحيوان والإنسان والأسماع والأبصار والأفئدة ، وما ينطوى عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس ، فتعال ياحيران نقرأ هذه الآيات ونستغرقها جملة واحدة ، ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

حيران : لماذا اختار مولاى إيراد الآيات على ترتيب النزول ولم يوردها على ترتيب السور ؟

الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذى نزل به القرآن لترى كيف توالى الوحى وتتابع الهدى فى خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثرا فى نفسك وأيسر فى تفهم أسلوب الهدى الكريم الذى اتبعه القرآن .

يقول حيران : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعنى . فقرأت الآيات الآتية :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[1] .

وللآيات بقية نذكرها عند تفسير قوله ـ تعالى ـ : **﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعد سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾** . من سورة لقمان

---

(١) الآيات : ١ ـ ٥ من سورة العلق

وصية لقمان لابنه

قوله - تعالى - : وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ
لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ
وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ
بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ
ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ
فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ
أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ
﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

معانى المفردات

(لقمان) : كان نجارا أسود من سودان مصر ، آتاه الله الحكمة ، ومنحه النبوة .

(الحكمة) : العقل والفطنة ، وقد نسب إليه من المقالات الحكيمة شيء كثير ، كقوله لابنه : أى بنى : إن الدنيا بحر عميق ، وقد غرق فيها ناس كثيرون ، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى ، وحشوها الإيمان ، وشراعها التوكل على الله ، لعلك تنجو ، ولا أراك ناجيا .

وقوله : من كان له من نفسه واعظ كان له من الله حافظ ، ومن أنصف الناس من نفسه زاده الله بذلك عزا . والذل فى طاعة الله أقرب من التعزز بالمعصية .

وقوله : يابنى لا تكن حلوا فتبتلع ولا مرا فتلفظ

وقوله : يابنى إذا أردت أن تؤاخى رجلا فأغضبه قبل ذلك ، فإن أنصفك عند غضبه فآخه ، وإلا فاحذره .

والشكر : الثناء على الله - تعالى - وإصابة الحق ، وحب الخير للناس وتوجيه الأعضاء وجميع

النعم لما خلقت له .

العظة : تذكير بالخير يرق له القلب ، والوهن : الضعف ، والفصال : الفطام .

(جاهداك) أى : حرصا على متابعتك لهما فى الكفر .

(أناب) : أى رجع .

المثقال : ما يوزن به غيره ، ومثقال حبة الخردل : مثل فى الصغر .

(لطيف) أى : يصل علمه إلى كل خفى .

(خبير) أى : عليم بكنه الأشياء وحقائقها .

(من عزم الأمور) أى : من الأمور المعزومة التى قطعها الله قطع إيجاب . تصعير الخد : ميله وإبداء صفحة الوجه ، وهو من فعل المتكبرين . .

وفى الحديث : (يأتى على الناس زمان ليس فيهم إلا أصعر أو أبتر)(١)

والأصعر : المعرض بوجهه كبرا . وفى الحديث : (كل صعار ملعون)(٢)

أى : كل ذى أبهة وكبر هو كذلك .

(مرحا) أى : فرحا وبطرا .

والمختال : هو الذى يفعل الخيلاء ، وهى التبختر فى المشى كبرا .

والفخور : من الفخر ، وهو المباهاة بالمال والجاه ونحو ذلك .

(اقصد) أى : توسط .

(اغضض) أى : انقص منه وأقصر ، من قولهم فلان يغض من فلان : إذا قصر به ، ووضع منه ، وحط من قدره .

(أنكر الأصوات) أى : أقبحها وأصعبها على السمع ، من نكر بالضم أى : صعب

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن بين فساد اعتقاد المشركين بإشراك من لا يخلق شيئا بمن خلق كل شىء ، ثم بين أن المشرك ظالم ضال ، أعقب ذلك ببيان أن نعمه الظاهرة فى السموات والأرض ، والباطنة : من العلم والحكمة ترشد إلى وحدانيته ، وقد آتاها لبعض عباده كلقمان الذى فطر عليها ، ثم بين ـ سبحانه ـ أن لقمان أوتى الحكمة ، فشكر ربه على نعمه المتظاهرة عليه ، وهو يرى آثارها فى الآفاق والأنفس آناء الليل وأطراف النهار ، أردف ذلك ببيان أنه وعظ ابنه بذلك أيضا ، ثم استطرد فى أثناء هذه المواعظ إلى ذكر وصايا عامة وصى بها ـ سبحانه ـ الأولاد فى معاملة الوالدين رعاية لحقوقهم وردا لما أسدوه من جميل النعم إليهم ، وهم لا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، على ألا يتعدى ذلك إلى حقوقه تعالى ثم رجع إلى ذكر بقية التى بعضها بحقوقه ، وبعضها يرجع إلى معاملة الناس بعضهم مع بعض .

---

(١) انظر تفسير القرطبى : طبع الشعب ، (تفسير لقمان) ص ٥١٥١

(٢) القرطبى (تفسير سورة لقمان) ص ٥١٥٣

التفسير

قوله - تعالى - : ﴿ ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾

هذا إخبار منه - تعالى - عن جزيل نعمته على عبده لقمان ؛ فقد آتاه الحكمة ، والحكمة : علم غزير ، وحكم صواب ، وعمل موفق ، قال - تعالى - ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾(١) وقد دعا الخليل ربه أن يهبه الحكمة ، فقال : ﴿ رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ﴾(٢) وقال تعالى - فى شأن يوسف : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما ﴾(٣) وقال فى شأن موسى : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما ﴾(٤) وقال فى شأن خاتم الأنبياء محمد ﷺ : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾(٥)

ثم أمر الله - تعالى - لقمان بالشكر ، وهو صرف الجوارح إلى طاعة الله ، فلكل جارحة شكر وذكر ، فذكر العينين : البكاء ، وذكر الأذنين : الإصغاء ، وذكر اللسان : الثناء ، وذكر اليدين : العطاء ، وذكر البدن : الوفاء ، وذكر الروح : الخوف والرجاء ، وذكر القلب : التسليم والرضاء ، فمن ذكر فقد شكر ، قال موسى لربه : ﴿ يارب كيف أشكرك ؟ قال : ياموسى تذكرنى ولا تنسانى ، إنك ذكرتنى شكرتنى ، وإن نسيتنى كفرتنى، اقرأوا إن شئتم قول الله - عز وجل : - ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾(٦)

ثم قال - تعالى - : ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ إذ العمل الصالح يعود على صاحبه ، قال - تعالى - : ﴿ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾(٧) والكفر يقابل الشكر ، فشكر النعمة يقابله الجحود ، لذا قال - تعالى - : ﴿ ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾ كما جاء فى قوله - جل شأنه - ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾(٨).

ولما رأى نبى الله سليمان عرش بلقيس مستقرا عنده ، وقد سخر الله له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين بالاصفاد ، وقال له ربه : ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾(٩) فماذا قال سليمان بعد هذه النعم ؟ هل استطاع الغرور ان يقتحم عليه أسوار نفسه المنيعة ؟ إن الغرور مقبرة النجاح ، لقد قال سليمان بلسان العبد الشاكر : ﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾(١٠) ولقد كان ﷺ سيد الذاكرين الشاكرين ، خير بين أن يكون نبيا عبدا ونبيا ملكا ، فتواضع لله وقال بل نبيا عبدا ، أجوع يوما فأذكرك وأشبع يوما فأشكرك .

---

(١) الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ٨٣ من سورة الشعراء .
(٣) الآية : ٢٢ من سورة يوسف .
(٤) الآية : ١٤ من سورة القصص .
(٥) الآية : ١٦٤ من سورة آل عمران .
(٦) الآية : ١٥٢ من سورة البقرة .
(٧) الآية : ٤٤ من سورة الروم .
(٨) الآية : ٧ من سورة ابراهيم .
(٩) الآية : ٣٩ من سورة ص .
(١٠) الآية : ٤٠ من سورة النمل .

وراودته الجبال الشم من ذهب عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته إن الضرورة لا تعدو على العصم

فصبرت ، وأعطيت فشكرت ، وظلمت فغفرت ، ولقد أقمتنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، فجزاك الله خير ما جزى به نبيا عن أمته ، ورسولا عن قومه .

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله فإن الإله سريع النقم

قوله - تعالى - : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعمها وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

وأخذ لقمان يعظ ابنه ، فنهاه عن الشرك ، وفى النهى عن الشرك أمر بالتوحيد ، وفى التوحيد الأساس المتين لكل إصلاح ، قال - تعالى - : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾[1] وفى الشرك إحباط لكل عمل ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾[2] وكان لقمان عبدا صالحا يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ؛ فقد بدأ الموعظة بالأصل الأول الذى تبنى عليه الأعمال وهو توحيد الألوهية والربوبية ، والأسماء والصفات ، ولم يقف عند هذا الحد بل بين عاقبة الشرك فى قوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أى : هو من أعظم الظلم ، قال البخارى بسنده عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾[3] شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ - وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ (إنه ليس بذلك ، ألا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾[4] والموعظة فيها حياة للقلوب ، ويقظة للعقول ، فهى تسرى فى الأفئدة سريان الماء فى العود الأخضر ، لذا كان الرسول ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة حتى ينبه الغافل ، ويذكر الناسى ، إن النفس البشرية كالزجاجة إن لم يملأها شىء ملأها الهواء ، ونفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، والموعظة كالدواء الذى لابد أن يرج قبل تعاطيه وإلا رسبت العقاقير ، ومن ثم فعلى الواعظ الحكيم ، أن يتعهد الناس بالمواعظ كما يتعهد الطبيب مريضه ، والفلاح زرعه ، والأم أطفالها ، ولقد عقد ابن رجب الحنبلى مجلسا فى التذكر والوعظ قال فيه :

---

(١) الآية : ١٦٣ من سورة البقرة
(٢) الآية : ٣١ من سورة الحج .
(٣) الآية : ٨٢ من سورة الأنعام .
(٤) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى (كتاب أحاديث الأنبياء) جـ ٦ ص ٤١٧ رقم ١٠١ (البخارى بشرح الشيخ زروق) طبع مطبعة
وانظره فى تفسير سورة الأنعام فى صحيح البخارى .
وأخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (ابواب تفسير القرآن) حـ ٥ ص ٢٦٢ باب : ومن سورة الأنعام رقم ٣٠٦٧ قال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

أخرج الامام أحمد والترمذى وابن حبان فى صحيحة من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قلنا : يارسول الله ؛ مالنا إذا كنا عندك رقت قلوبنا ، وزهدنا فى الدنيا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا خرجنا من عندك فآنسنا أهلنا وشممنا أولادنا أنكرنا أنفسنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : (لو أنكم إذا خرجتم من عندى كنتم على حالكم ذلكم لزارتكم الملائكة فى بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم ﴾[1] كانت مجالس النبى ﷺ مع أصحابه عامتها مجالس تذكير بالله ، وترغيب وترهيب ، إما بتلاوة القرآن أو بما آتاه الله من الحكمة والموعظة الحسنة ، وتعليم ما ينفع فى الدين ، كما أمره الله ـ تعالى ـ فى كتابه أن يذكر ويعظ ويقص ، وأن يدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يبشر وينذر ، وسماه الله مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فقيل : سراجا للمؤمنين فى الدنيا ، ومنيرا للمذنبين يوم القيامة بالشفاعة ، وسمى سراجا لأن السراج الواحد يوقد منه ألف سراج ولا ينتقص من نوره شيء .

والتبشير والإنذار هو الترغيب والترهيب ، فلذلك كانت تلك المجالس توجب لأصحابه كما ذكر ابو هريرة فى هذا الحديث رقة القلوب ، والزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، فأما رقة القلوب فتنشأ عن الذكر ؛ فإن ذكر الله يوجب خشوع القلب وصلاحه ورقته ، ويذهب الغفلة عنه ، قال الله تعالى : ـ ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[2] وقال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وبشر المخبتين . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾[4] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾[5] وقال ـ تعالى ـ : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾[6] وفى السنن عن الورباخى بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون . وقال ابن مسعود : نعم المجلس المجلس الذى تنشر فيه الحكمة وترجى فيه الرحمة هى مجالس الذكر . وشكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه ، فقال : أدنه من الذكر ، وقال : مجلس الذكر محياة العلم ويحدث فى القلب الخشوع .

وفى مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة ، وتحف الملائكة ، ويذكر الله أهلها فيمن عنده ، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم ، فربما رحم معهم من جلس إليهم وإن كان مذنبا ، وربما بكى فيهم

---

(١) انظر مسند الامام احمد ٢/ ٣٠٥ ورواه الترمذى فى جامعه الصحيح برقم ٢٥٢٦ والاحسان بترتيب صحيح ابن حبان حـ ٩ ص ٢٤١

(٢) الآية : ٢٨ من سورة الرعد .

(٣) الآية : ٢ من سورة الأنفال .

(٤) من الآيتين : ٣٤ ، ٣٥ من سورة الحج

(٥) الآية : ١٦ من سورة الحديد .

(٦) من الآية : ٢٣ من سورة الزمر

باك من خشية الله فوهب أهل المجلس كلهم له ، وهى رياض الجنة ، قال ﷺ (إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قالوا : وما رياض الجنة يارسول الله ؟ قال : مجالس الذكر)[1] وإذا انفض مجلس الذكر فأهله بعد ذلك على أقسام : فمنهم من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشىء مما سمعه فى مجلس الذكر ، ولا يزداد هدى ، ولا يرتدع عن ردى ، وهؤلاء أشر الأقسام ، ويكون ما سمعوه حجة عليهم ، فتزداد به عقوبتهم ، وهؤلاء الظالمون لأنفسهم ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون ﴾[2] .

ومنهم من ينتفع بما سمعه وهم على أقسام :

فمنهم من يرده ما سمعه عن المحرمات ويوجب له التزام الواجبات وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين ، ومنهم من يرتقى عن ذلك إلى التشمير فى نوافل الطاعات والتورع عن دقائق المكروهات ، ويشتاق إلى اتباع آثار السلف الصالح ، وهؤلاء السابقون المقربون .

وينقسم المنتفعون بسماع الذكر فى استحضار ما سمعوه فى المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام :

فقسم يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيشتغلون بها ، فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه فى مجلس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعده ووعيده ، وثوابه وعقابه ، وهذا هو الذى شكاه الصحابة إلى النبى ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم وشدة خوفهم - أن يكون نفاقا ، فأعلمهم النبى ﷺ أنه ليس بنفاق .

وفى صحيح مسلم عن حنظلة أنه قال : يارسول الله نافق حنظلة . قال : وما ذاك ؟ قال : نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنها رأى عين ، فإذا رجعنا من عندك عافنا (أى عالجنا) الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا . فقال : (لو تدومون على الحال التى تقومون بها من عندى لصافحتكم الملائكة فى مجالسكم وفى طرقكم ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة) .

ومعنى هذا أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب فى جميع الأحوال عزيز جدا ولا يقدر كثير من الناس عليه ، فيكتفى منهم بذكر ذلك أحيانا وإن وقعت الغفلة عنه فى حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة ، ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك ، بل يلوم نفسه عليه ، ويحزنه ذلك من نفسه ؛ فالعارف يتأسف فى وقت الكدر على زمن الصفا ، ويحن إلى زمان القرب والوصال فى حال الجفا .

ما أذكر عيشنا الذى قد سلفا ... إلا وجف القلب وكم قد وجفا
واها لزماننا الذى كان صفا ... هل يرجع بعد فوته ؟ وا أسفا

---

(١) الحديث اخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (ابواب الدعوات) باب ٨٣ حـ ٥ ص ٥٣٢ رقم ٣٥١٠ من رواية أنس - رضى الله عنه -
وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ثابت عن أنس .

(٢) الآية : ١٠٨ من سورة النحل

(٣) الحديث اخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) حـ ١٧ ص ٦٦ باب فضل دوام الذكر والفكر فى أمور الآخرة (مسلم بشرح النووى)

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الجمعة) باب خطبته ﷺ - فى الجمعة حـ ٦ ص ١٥٣ .

وقسم آخر يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر ، فلا يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازما لهم . وهؤلاء على قسمين ، أحدهما : من يشغله ذلك عن مصالح الدنيا المباحة ، فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ، ولا القيام بوفاء حقوقهم ، وكان كثير من السلف على هذه الحال ، فمنهم من كان لا يضحك أبدا ، ومنهم من كان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة لفسد .

والثانى من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه ، ويدخل ببدنه فى مصالح دنياه : من اكتساب الحلال ، والقيام على العيال ، ويخالط الخلق فيما يوصل إليهم به النفع ، مما هو عبادة فى نفسه : كتعلم العلم ، والجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وهؤلاء أشرف القسمين ، وهم خلفاء الرسل ، وهم الذين قال فيهم على - رضى الله عنه - (صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى) وقد كان حال النبى ﷺ عند الذكر تتغير ، ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم .

وفى الصحيحين عن عدى بن حاتم أن النبى ﷺ قال : (اتقوا النار وأشاح ، ثم قال : اتقوا النار ، ثم أعرض وأشاح - ثلاثا - حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة) .

وفى صحيح مسلم عن جابر أن النبى ﷺ (كان إذا خطب وذكر الساعة اشتد غضبه وعلا صوته ، كأن منذر جيش يقول : صبحكم ومساكم)[1] وسئلت عائشة ؟ كيف كان رسول الله ﷺ إذا خلا مع نسائه ؟ قالت : كان كرجل من رجالكم ، إلا أنه كان أكرم الناس وأحسن الناس خلقا ، وكان ضحاكا بساما . فهذه الطبقة خلفاء الرسل عاملوا الله بقلوبهم ، وعاشروا الخلق بأبدانهم .

ولقد جعلتك فى الفؤاد محدثى … وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس … وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

(والمواعظ) سياط تضرب بها القلوب فتؤثر فى القلوب كتأثير السياط فى البدن ، والضرب لا يؤثر بعد انقضائه كتأثيره فى حال وجوده ، لكن يبقى أثر التألم بحسب قوته وضعفه ، فكلما قوى الضرب كانت مدة بقاء الألم أكثر .

كان كثير من السلف إذا خرجوا من مجلس سماع الذكر خرجوا عليهم السكينة والوقار ، فمنهم من كان لا يستطيع أن يأكل طعاما عقب ذلك ، ومنهم من كان يعمل بمقتضى ما سمعه مدة .

وإنما يصح التأديب بالسوط من صحيح البدن ، ثابت القلب ، قوى الذراعين فيؤلم ضربه فيردع ، فأما من هو سقيم البدن لا قوة له ، فماذا ينفع تأديبه بالضرب ؟ كان الحسن إذا خرج إلى الناس كأنه رجل عاين الآخرة ثم جاء يخبر عنها ، وكانوا إذا خرجوا من عنده خرجوا وهم لا يعدون الدنيا شيئا ، وكان أحمد لا تذكر الدنيا فى مجلسه ولا تذكر عنده ، قال بعضهم : لا تنفع الموعظة إلا إذا خرجت من القلب ، فإنها تصل إلى القلب ، فأما إذا خرجت من اللسان فإنها تدخل من الأذن ثم تخرج

---

(١) الحديث اخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الجمعة) باب خطبته ﷺ فى الجمعة حـ ٦ ص ١٥٣

من الآخرى . قال بعض السلف : إن العالم إذا لم يرد بموعظته وجه الله زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا .

فى بعض الكتب السالفة (إذا أردت ان تعظ الناس فعظ نفسك ، فإن اتعظت وإلا فاستح منى) .

وغير تقى يأمر الناس بالتقى — طبيب يداوى الناس وهو سقيم
يـاأيهـا الـرجـل المعلم غيره — هلا لنفسك كان ذا التعليم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها — فإن انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى — بـالقول منـك وينفع التعليم
لاتنـه عن خلق وتـأتى مثله — عار عليك اذا فعلت عظيم

لما حاسب المتقون أنفسهم خافوا من عاقبة الوعظ والتذكير ، قال رجل لابن عباس : أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر . فقال له ابن عباس : إن لم تخش أن تفضحك هذه الآيات الثلاث فافعل ، وإلا فابدأ بنفسك ، ثم تلا : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾[1] وقوله - تعالى - : ﴿ لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[2] وقوله حكاية عن النبى شعيب - عليه السلام - : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾[3] قال النخعى : كانوا يكرهون القصص لهذه الآيات الثلاث ومع هذا كله فلابد للانسان من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والوعظ والتذكير ، ولو لم يعظ إلا بعصوم من الزلل لم يعظ الناس بعد رسول الله ﷺ أحد لأنه لا عصمة لأحد بعده .

لئن لم يعظ العاصين من هو مذنب — فمن يعظ العاصين بعد محمد

خطب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - يوما فقال فى موعظته : إنى لا أقول هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندى ، فأستغفر الله وأتوب إليه .

وقوله ﷺ : (لو لم تذنبوا لجاء الله بخلق جديد حتى يذنبوا فيغفر لهم) فالمراد بهذا أن لله - تعالى حكمة - فى إلقاء الغفلة على قلوب عباده أحيانا حتى تقع منهم بعض الذنوب ، فإنه لو استمرت لهم اليقظة التى يكونون عليها حال سماع الذكر لما وقع منهم ذنب ، وفى إيقاعهم فى الذنوب أحيانا فائدتان عظيمتان ، إحداهما : اعتراف المذنبين بذنوبهم وتقصيرهم فى حق مولاهم ، وتنكيس رءوس عجبهم ، وهذا أحب إلى الله من فعل كثير من الطاعات ، فإن دوام الطاعات قد توجب لصاحبها العجب ، قال بعضهم : ذنب أفتقر به إليه أحب إلى من طاعة أدل بها عليه .

وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين ؛ لأن زجل المسبحين ربما شابه الافتخار ، وأنين المذنبين يزينه الانكسار والافتقار . قال الحسن : إن العبد ليعمل بالذنب فلا ينساه ولا يزال متخوفا منه

---

(١) الآية : ٤٤ من سورة البقرة .
(٢) الآيتان : ٢ ، ٣ من سورة الصف
(٣) الآية : ٨٨ من سورة هود .

حتى يدخل الجنة .

والفائدة الثانية . حصول المغفرة والعفو من الله لعبده ؛ فإن الله يحب أن يعفو ويغفر ، ومن أسمائه « الغفار والعفو ، والتواب» فلو عصم الخلق فلمن كان العفو والمغفرة ؟

يارب أنت رجائي وفيك حسنت ظني
يارب فاغفر ذنوبي وعافني واعف عني
العفو منك إلهي والذنب قد جاء مني
والظن فيك جميل حقق بحقك ظني

وعقد الأستاذ عبد الله ناصح علوان فى كتابه (تربية الأولاد فى الإسلام) فصلا تحت عنوان « التربية بالموعظة) قال فيه : من أهم وسائل التربية المؤثرة فى تكوين الولد إيمانيا ، وإعداده خلقيا ونفسيا واجتماعيا . . تربيته بالموعظة ، وتذكيره بالنصيحة ، لما للموعظة والنصيحة من أثر كبير فى تبصير الولد حقائق الأشياء ، ودفعه إلى معالى الأمور ، وتحليه بمكارم الأخلاق ، وتوعيته بمبادىء الإسلام فلا عجب أن نجد القرآن الكريم قد انتهجها ، وخاطب النفوس بها ، وكررها فى كثير من آياته ، وفى مواطن عدة من توجيهاته وعظاته . . وإليكم بعض النماذج فى تكرار القرآن العظيم لكلمات الوعظ والنصيحة والانتفاع بالذكر :

قال الله ـ تعالى ـ فى سورة لقمان :

﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون . يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ، يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور . .) ١٢ ـ ١٩

وقال تعالى فى سورة سبأ على لسان الرسول ﷺ ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد.قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد . قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ٤٥ ـ ٤٩

وقال تعالى فى سورة هود على لسان نوح ـ عليه السلام ـ ﴿ قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ ٣٢ ـ ٣٤

وقال الله ـ تعالى ـ فى سورة الأعراف على لسان هود ـ عليه السلام ـ) ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين . . . ﴾ ٦٥ ـ ٦٨

وأسلوب القرآن الكريم متنوع فى الدعوة إلى الله ، وفى التذكير بالله ، وفى إلقاء الموعظة ، والإرشاد بالنصيحة . . حيث جرى ذلك كله على ألسنة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وتردد على أفواه الدعاة من جماعتهم وأتباعهم .

ولا يختلف اثنان أن الموعظة المخلصة ، والنصيحة المؤثرة إذا وجدت لها نفسا صافية ، وقلبا متفتحا ، وعقلا حكيما متدبرا . . فإنها أسرع للاستجابة وأبلغ فى التأثير .

والقرآن الكريم قد أكد هذا المعنى فى كثير من آياته وكرر الانتفاع بالذكر ، والتأثير بالكلمة الهادية ، والنصيحة الراشدة . ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ (ق : ٣٧) .

﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (الذاريات : ٥٥) .

﴿ وما يدرك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ (عبس ٢ ـ ٣)

﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ (ق : ٨)

ذلك ذكرى للذاكرين ﴾ (هود : ١١٤)

﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ (الطلاق : ٢)

والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تتخذ أسلوب الوعظ اساسا لمنهج الدعوة ، وطريقا إلى الوصول لإصلاح الأفراد ، وهداية الجماعات . . ومن استعرض صفحات القرآن الكريم يجد ظاهرة الأسلوب الوعظى حقيقة ملموسة فى كثير من آياته . . تارة بالتذكير بالتقوى ، وأخرى بالتنويه بالتذكرة ، وثالثة بالتعبير بالموعظة ، ورابعة بالحض على النصح ، وخامسة باتباع سبيل الرشاد ، وسادسة بالإغراء بالترغيب ، وسابعة باستعمال أسلوب التهديد ، وهكذا يجد القارىء ظاهرة الوعظ مناسبة فى ألفاظ القرآن الكريم ومعانيه بقوالب متعددة ، وأساليب متنوعة . . مما يؤكد لكل ذى بصر وبصيرة أن للوعظ فى القرآن الكريم أهمية بالغة فى تربية النفوس على الخير ، وحملها على الحق ، واستجابتها للهدى . .

وسبق أن ذكرنا جملة من الاستشهادات القرآنية التى تفصح بشكل قاطع لا يقبل الشك أن النفوس الصافية ، والقلوب المتفتحة ، والعقول الواعية المتدبرة . . إذا تراءى لها الحق منسابا بالكلمة المؤثرة والموعظة البليغة ، والنصيحة الرشيدة ، والتذكرة المخلصة . . فإنها سرعان ما تستجيب فى غير تردد ، وتتأثر من غير توقف . . بل سرعان ما تخضع للحق ، وتتقبل هدى الله الذى أنزله

هذا فى الكبير . . فكيف بالمولود الصغير الذى ولد على الفطرة وقلبه الطاهر البرىء لم يَتَلَوَّن بعد ؟ ونفسه البيضاء الصافية لم تتدنس بمفاسد الجاهلية ، ولم تتقلب فى مدارج الإثم والعدوان . . ؟ فلا شك أن تأثره بالموعظة أبلغ ، وقبوله للتذكرة أقوى ! . .

فما على المربين إلا أن يفهموا هذه الحقيقة ، وأن ينهجوا منهج القرآن الكريم فى مواعظه وإرشاداته فى إعداد أولادهم الصغار ـ قبل سن التمييز وبعده ـ إيمانيا وخلقيا ، وتكوينهم نفسيا واجتماعيا . . إذا أرادوا لأولادهم الخير والكمال . والنضج الخلقى والعقلى والاتزان .

ولابد فى هذا المضمار أن نلمح طريقة القرآن الكريم فى الموعظة والنصح عسى أن ينتهجها من كان له فى عنقه حق التربية ، ليصلوا بأولادهم أو تلامذتهم إلى الغاية المثلى فى الإعداد والتكوين ، والتهذيب والتعليم .

وفى تقديرى أن طريقة القرآن فى الموعظة تتميز بالأساليب التالية :

● النداء الإقناعى : مصحوبا بالاستعطاف أو الاستنكار . وهذا الأسلوب له إيحاءاته المؤثرة على المشاعر . وتأثيره البالغ فى القلوب . . وهذا الأسلوب من الإقناع الاستنكارى أو الاستعطافى ظاهر واضح فى مخاطبة القرآن لقلوب الناس وعقولهم ، على اختلاف أشكالهم وأجناسهم وطبقاتهم ، على ألسنة الأنبياء والدعاة .

وإليكم نماذج من هذه النداءات بأساليبها المتنوعة :

● نداؤه للأبناء : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابنى لا تشرك بالله . . ﴾

وعلى لسان نوح - عليه السلام - : (يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ﴾ (هود : ٤٢)

وعلى لسان يعقوب - عليه السلام - ﴿ يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾ (يوسف : ٥)

وعلى لسان إبراهيم ويعقوب - عليهما السلام - ﴿ يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (البقرة : ١٣٢)

نداؤه للنساء : على لسان الملائكة لمريم - عليها السلام - ﴿ يامريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ (آل عمران ٤٢ - ٤٣)

﴿ يانساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ﴾ (الأحزاب : ٣٢)

● نداؤه للأقوام : على لسان موسى - عليه السلام : - ﴿ ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ (البقرة : ٥٤) .

وعلى لسان الداعية الذى آمن من قوم موسى : ﴿ ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار . . ﴾ وقوله : ﴿ وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . .) (غافر ٣٨ : ٤١)

وعلى لسان الجن الدعاة :

﴿ ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . ياقومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ (الاحقاف ٣٠ - ٣١)

نداؤه للمؤمنين :

﴿ يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين ﴾ (البقرة ١٥٣)

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ (آل عمران : ١٠٢)
يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . . ﴾ (الأنفال : ٢٤)

نداؤه لأهل الكتاب :

﴿ يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ (آل عمران : ٦٤)

﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ (المائدة : ٦٨) .

● نداؤه للناس أجمعين :

﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (البقرة ٢٠ - ٢٢)

﴿ يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا ﴾ (النساء ١٧٤)

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ (الحج ١ - ٢) .

وهذا النداء كثير فى القرآن الكريم .

٢ - الاسلوب القصصى مصحوبا بالعبرة والموعظة :

وهذا الأسلوب له تأثيراته النفسية ، وانطباعاته الذهنية ، وحججه المنطقية والعقلية . . وقد استعمله القرآن الكريم فى كثير من المواطن ، ولا سيما فى أخبار الرسل مع أقوامهم ، وقد من الله على رسوله - عليه الصلاة والسلام - بأن قص عليه أحسن القصص ، ونزل عليه أحسن الحديث . . ليكون للناس آية وعبرة وللرسول - عليه الصلاة والسلام - عزما وتثبيتا .

﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن) (يوسف ٣)

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ (الاعراف ١٠١)

﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ (هود ١٢٠)

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ (الأعراف ١٧٦)

﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ (النازعات : ١٥)

- ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ (الذاريات ٤)

- ﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ﴾ (البروج ١٧ - ١٨)

والقرآن الكريم ملىء بقصص الأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم ، وأحيانا تكون القصة مكررة فى سور عدة من القرآن ، لإظهار القصة فى كل مرة بأسلوب جديد يختلف عن أسلوبها فى

المرات السابقة ، لتذوق الإعجاز القرآنى فى أسلوبه الرائع ، وبيانه الفريد من ناحية ، ومن ناحية أخرى لإظهار عبرة أخرى تكمن وراء الآيات ، وتتراءى خلال الألفاظ والمعانى التى لا يدركها إلا الراسخون فى العلم ، والمتذوقون لبلاغة القرآن الكريم !

ولنضرب على ذلك مثلا .

قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون مذكورة مرات ومرات فى القرآن ، فلنختر قصتين من هذه القصص ، ثم نقارن بينهما ليعلم القارىء سر هذا التكرار :

القصة الأولى فى سورة الأعراف (١٠٤ ـ ١٣٩)

﴿ وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين ، حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ﴾ .

القصة الثانية من سورة النازعات (١٥ ـ ٢٦) :

﴿ هل أتاك حديث موسى . إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ، إذهب إلى فرعون إنه طغى . فقل هل لك إلى أن تزكى . وأهديك إلى ربك فتخشى . فأراه الآية الكبرى . فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

من المقارنة بين القصتين يتبين الأمور التالية :

١ ـ الأولى مفصلة وطويلة ، والثانية مختصرة وقصيرة .

٢ ـ فرق كبير بين الأسلوبين ، سواء ما يتعلق بالآيات وفواصلها فى طولها وقصرها ، أو معانيها وتراكيبها ، أو صيغ الأمر والنهى فيها . . .

٣ ـ التركيز على العبرة فى سورة الأعراف يتناول :

أ ـ إقامة الحجة على فرعون .

ب ـ إظهار المعجزات الدالة على صدق موسى ـ عليه السلام ـ

ج ـ الحوار الذى دار بين موسى والسحرة

د ـ إيمان السحرة بعد قيام الحجة .

هـ ـ تهديد فرعون ووعيده .

و ـ عدم اكتراث السحرة بالتهديد بعد أن خالط الإيمان بشاشة قلوبهم .

ز ـ أخذ آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات .

ح ـ انتقام الله منهم بالغرق .

أما التركيز فى سورة النازعات فيتناول :

أ ـ إهلاك الله لفرعون لادعائه الألوهية .

ب ـ أخذ العبرة لمن يريد أن يتذكر أو يخشى

بعد هذا البيان تبين لك الفرق الكبير ما بين القصتين ، سواء ما يتعلق بالتذوق البلاغى ، أو

بأخذ العبرة والعظة ، إذن فلا يجوز أن نرى فى القصص المعادة مجرد تكرار ، لأن القصص التى كررها القرآن الكريم ليست كذلك ، كما رأيت من الفارق الكبير من عرض القصتين .

٣ ـ التوجيه القرآنى مصحوبا بالوصايا والمواعظ

القرآن الكريم ملىء بالآيات المصحوبة بالوصايا وبالنصوص المقرونة بالمواعظ لتوجيه القارىء إلى ما ينفعه فى دينه ودنياه وآخرته ، وتكوينه فى روحه وعقله وجسمه ، وإعداده ليكون رجل دعوة وبطل جهاد .

وللقرآن الكريم تأثيره البالغ على الأرواح والقلوب ، فحينما يسمع المسلم آيات الله تتلى ، يتخشع لها قلبه ، وتتوق إليها نفسه ، وتتحرك لجرسها روحه ، فيعاهد الله ـ سبحانه ـ على أن يعمل بمواعظها ، ويستجيب لوصاياها ، ويمتثل أوامرها ، ويتجنب نواهيها ، لأنها تنزيل من حكيم حميد ، فيها البلسم الشافى لأسقامه . والعلاج الواقى لأمراض الجسم ، وآفات القلوب .

وإليكم بعض هذه النماذج التوجيهية من القرآن الكريم :

(أ) من سورة لقمان : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه .. ﴾

(ب) ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا ، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما ، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما . قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ (الفرقان ٦٣ ـ ٧٧)

(ج) ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾ (النساء ٣٦ ـ ٣٨)

(د) ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (البقرة ١٧٧)

(هـ) ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا . إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا. ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا ، وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ﴾ الاسراء : ٢٣ - ٣٨

إلى غير ذلك من هذه الوصايا ، والمواعظ والتوجيهات ، والأوامر والنواهى التى تفيض فيها آيات الله ، ويدعو إليها قرآنه المجيد ! !

ويتفرع من هذا :

(أ) التوجيه القرآنى المصحوب بأدوات التوكيد : كقوله ـ تعالى ـ :

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] وقوله ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[2] وقوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾[3] وقوله : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[4]

(ب) التوجيه القرآنى المصحوب بأدوات الاستفهام الإنكارى : كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾[5] .

﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ﴾[6]

﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾[7]

﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ﴾[8]

---

(١) من الآية : ١٢ من سورة النحل ، ومن الآية : ٤ من سورة الرعد ، ومن الآية : ٢٤ من سورة الروم .
(٢) من الآية : ٢١ من سورة الروم .
(٣) من الآية : ٢٣ من سورة الروم .
(٤) من الآية : ٣٧ من سورة ق .
(٥) الآيتان : ٣١ ، ٣٢ من سورة الطور .
(٦) الآية : ٣٢ من سورة الطور .
(٧) الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ من سورة الطور .
(٨) الآية : ٣٥ من سورة الطور .

﴿ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ؟ ﴾[١]
﴿ أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ؟ ﴾[٢]
﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ؟ ﴾[٣]
﴿ أم له البنات ولكم البنون ؟ ﴾[٤]
﴿ أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ؟ ﴾[٥]
﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟ ﴾[٦]
﴿ أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ﴾[٧]
﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ؟ ﴾[٨] (الطور : ٣٠ - ٤٣)

(هـ) التوجيه القرآنى المصحوب بالأدلة العقلية : كقوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (البقرة : ١٦٤)

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ (الأنبياء : ٢٢)
﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ؟ ﴾ (الطور : ٣٦)
﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ (الذاريات : ٢٠ ،٢١) .

(د) التوجيه القرآنى المصحوب بشمولية الإسلام : كقوله - تعالى - : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وإقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ (البقرة : ١٧٧)

- وفى سورة النحل : ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (النحل : ٨٩)

- وفى سورة الأنعام : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ (الأنعام : ٣٨)

---

(١) الآية : ٣٦ من سورة الطور .
(٢) الآية : ٣٧ من سورة الطور .
(٣) الآية : ٣٨ من سورة الطور .
(٤) الآية : ٣٩ من سورة الطور .
(٥) الآية : ٤٠ من سورة الطور .
(٦) الآية : ٤١ من سورة الطور .
(٧) الآية : ٤٢ من سورة الطور .
(٨) الآية : ٤٣ من سورة الطور .

(هـ) التوجيه القرآنى المصحوب بقواعد التشريع : كقوله - تعالى - :

- فى قاعدة العدل القضائية : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا ﴾ (النساء : ٥٨)

- وكقوله فى قاعدة الشورى الدستورية : ﴿ فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ (الشورى : ٣٨)

وكقوله فى قاعدة المساواة الإنسانية : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : ١٣)

تلكم أهم الأساليب التى سلكها القرآن الكريم فى نصائحه ومواعظه . . وهى أساليب متنوعة لها إيحاءاتها المؤثرة ، وحساسياتها البالغة ، واهتزازاتها الضاربة على أوتار القلوب ! . .

ومن بديهيات القول أن المربين جميعا لو سلكوا هذه الأساليب التى انتهجها القرآن الكريم فى تأديب أولادهم ، وتهذيب أفلاذ أكبادهم . . لنشأ الأولاد - ولا شك - على خير ما ينشأون من التربية الفاضلة ، والأخلاق الحميدة ، والسلوك الإنسانى القويم ، والوعى الاسلامى الشامل . .

والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - قد اهتم للنصيحة ، ووجه المربين والدعاة . . إلى إلقاء الموعظة ، وأهاب بكل مسلم فى الحياة أن يكون الداعية إلى الله فى كل مكان يحل فيه ، وفى كل بيئة يوجد فيها . . عسى أن يتأثر بمواعظه وإرشاداته من كل له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعسى أن يقوم بمهمة الإنقاذ - عن طريق الدعوة والموعظة - لرجال توحلوا فى مستنقع الجاهلية ، وتعثروا فى دروب الانحلال ، وضاعوا فى متاهات الزيغ والضلال . .

وإليكم أهم توجيهاته - عليه الصلاة والسلام - فى بث النصيحة ، وإلقاء الموعظة والدعوة إلى الله :

- روى مسلم عن تميم بن أوس الدارى - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ قال : (الدين النصيحة ؛ قلنا : لمن ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ﴾[١] .

- وروى الشيخان عن جرير بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : (بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم)[٢] .

- وروى مسلم عن أبى مسعود الأنصارى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)[٣] .

- وروى مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا)[٤] .

---

(١) الحديث اخرجه الامام مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الايمان) باب : الدين النصيحة ج ٢ ص ٣٧ .
(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الايمان) باب بيان ان الدين النصيحة ج ١ ص ١٢ رقم ٣٥
(٣) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى فى (كتاب الامارة) باب فضل الصدقة فى سبيل الله تعالى ج ١٣ ص ٣٨ ، ٣٩
(٤) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ٢٢٧ فى (كتاب العلم) باب من سن سنة حسنة أو سيئة .

ـ وروى الشيخان من حديث سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال لعلى ـ كرم الله وجهه ـ لما وجهه إلى فتح خيبر : (انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الاسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم)(١) .

ـ معنى (حمر النعم) النعم : الإبل ، والحمر منها انفسها .

والأحاديث فى هذا الشأن كثيرة ومستفيضة ، فعلى المربين أن يأخذوا بتوجيهاتها ، وأن يكونوا محققين لما جاء فيها . . ولا سيما الأمور التى تخص أولادهم وتلامذتهم ومريديهم .

ومعلمنا الأول ـ عليه الصلاة والسلام ـ له منهجه الأفضل ، وطريقته المثلى فى إلقاء الموعظة ، وتجدد أسلوبها ، وتنوع عرضها . .

وإليكم أهم ما فى هذا المنهج وهذه الطريقة :

(أ) انتهاج أسلوب القصة : ولنذكر بعض الامثلة :

١ ـ قصة الأبرص والأقرع والأعمى :

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع النبى ﷺ يقول : (إن ثلاثة من بنى إسرائيل ، أبرص ، وأقرع ، وأعمى) أراد الله أن يبتليهم (يختبرهم) فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص :

الملك : أى شىء أحب اليك ؟

الأبرص : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا .

الملك : فأى المال أحب إليك ؟

الأبرص : الإبل ، فأعطى ناقة عشراء (حاملا) .

الملك : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع :

الملك : أى شىء أحب إليك ؟

الأقرع : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . .

الملك : فأى المال أحب اليك ؟

الأقرع : البقرة فأعطى بقرة حاملا .

الملك : بارك الله لك فيها . .

فأتى الأعمى :

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الفضائل) باب : من فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه ص ٦٤٠ رقم ١٥٥٧ .

الملك : أى شىء أحب إليك ؟
الأعمى : أن يرد الله بصرى ، فأبصر الناس ، فرد إليه بصره
الملك : فأى المال أحب إليك ؟
الأعمى : الغنم ، فأعطى شاة والدة (حاملا) .
فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الابل ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .
ـ ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته :
الملك : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم (أى : معونة من المال) إلا بالله ثم بكى ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن . والجلد الحسن والمال ، بعيرا أتبلغ به فى سفرى .
الأبرص : الحقوق كثيرة !!
الملك : فإنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟
الأبرص : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر (أبا عن جدا) !!
الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

الملك : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ بى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك الشعر الحسن ، والمنظر الحسن ، والمال ، بقرة أتبلغ بها فى سفرى .
الأقرع : الحقوق كثيرة !!

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته :

الملك : كأنى أعرفك ، ألم تكن أقرع يقذرك الناس ؟ فقيرا فأعطاك الله ؟ .
الأقرع : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر !!

الملك : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت .
وأتى الأعمى فى صورته وهيئته :

الملك : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك ، شاة أتبلغ بها فى سفرى .

الأعمى : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى، فخذ ماشئت ، ودع ماشئت ، فوالله لاأجهدك (لاأعارضك) بشىء أخذته لله عز وجل .

الملك : أمسك مالك فإنما ابتليتم (اختبرتم) . فقد رضى الله عنك ، وسخط على صاحبيك(١) .

٢ ـ قصة الخشبة العجيبة .

روى البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ :

« أنه ذكر رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه (يقرضه) ألف دينار

المقرض : ائتنى بالشهداء أشهدهم .

المقترض : كفى بالله شهيدا !

المقرض : فائتنى بالكفيل .

المقترض : كفى بالله كفيلا !

المقرض : صدقت !! فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر ، فقضى حاجته ، ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله ، فلم يجد مركبا ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار . وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها (أى : سده) ثم أتى بها البحر .

المقترض : « اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانا (اقترضت منه) ألف دينار ، فسألنى كفيلا ، فقلت : كفى بالله كفيلا ، فرضى بك ، وسألنى شهيدا ، فقلت : كفى بالله شهيدا ، فرضى بك ، وإنى جهدت (بذلت جهدى) أن أجد مركبا أبعث إليه الذى له ، فلم أقدر ، وإنى أستودعكها (أى : أجعلها فى أمانتك) ، فرمى بها فى البحر !! حتى ولجت فيه ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه (أقرضه) ينظر : لعل مركبا قد جاء بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال !!! فأخذها لأهله حطبا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه ، فأتى بألف دينار .

المقترض : والله مازلت جاهدا فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبا قبل الذى اتيت فيه .

المقرض : هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ .

المقترض : أخبرك أنى لم أجد مركبا قبل الذى جئت فيه .

المقرض : فإن الله أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بألف الدينار راشدا » .(٢)

قصة هاجر وإسماعيل

روى البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء ابراهيم ـ عليه السلام ـ بأم اسماعيل (هاجر) ، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة (شجرة) فوق زمزم من أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جرابا (كيسا) فيه تمر ، وسقاء فيه ماء .

ثم قفى (رجع) إبراهيم ـ عليه السلام ـ منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : ياإبراهيم أين

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الزهد والرقائق) ص ٨٢٦ ، ٨٢٧ رقم ١٨٦٨ .

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الزكاة) باب : مايستخرج من البحر ج ٢ ص ١٥٩

تذهب ؟ وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء !! -

قالت له ذلك مرارا ، وهو لايلتفت إليها !!

هاجر : آلله أمرك بهذا ؟ .

إبراهيم : نعم .

هاجر : إذن لا يضيعنا !!

ثم رجعت فانطلق إبراهيم ـ عليه السلام ـ ثم إذا كان عند الثنية (مكان بمكة) حتى لايرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، فرفع يديه فقال : ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ، وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفد مافى السقاء عطشت وعطش ولدها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت (الصفا) أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا ؟ فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى ، رفعت طرف درعها (ثوبها) ثم سعت سعى الإنسان المجهود (المتعب) حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال :

« فلذلك سعى الناس بينهما »

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه !! تريد نفسها ـ

ثم تسمعت فسمعت أيضا ـ فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث (إغاثة) فأغث .

فإذا هى بملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ـ أو قال ـ بجناحه ، حتى فجر الماء ، فجعلت تحوضه (تجعله حوضا) ، وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف بسقائها وهو يفور بعدما تغرف ، فشربت وأرضعت ولدها .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : قال النبى ـ ﷺ ـ :

« رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عينا معينا »

فقال لها الملك : « لاتخافوا ضيعة (هلاكا) ، فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لايضيع أهله » .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله .

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم (اسم قبيلة) مقبلين من طريق كداء (اسم موضع) فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا (حائما) فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على الماء !!

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء !! فأرسلوا جريا (رائدا) فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء .

جرهم : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

هاجر : نعم ، ولكن لاحق لكم بالماء .

جرهم : نعم .

قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال رسول الله - ﷺ -

« فألفى ذلك (وجد الحى) أم إسماعيل وهى تحب الأنس »

فنزلوا فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم وأنفسهم (أى : سبقهم) وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم - عليه السلام - بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته (يتفقد أسرته) فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه .

الكنة : خرج يصيد لنا ، ثم سألها عن عيشتهم وهيئتهم .

الكنة : نحن بشر !! نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه !!

إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، وقولى له يغير عتبة بابه (كناية عن الطلاق) .

إسماعيل : هل جاءكم من أحد ؟

زوجته : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا (وصفته له) فسألنا عنك ، فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا فى جهد وشدة .

إسماعيل : فهل أوصاك بشىء ؟

زوجته : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : « غير عتبة بابك »

إسماعيل : ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، الحقى بأهلك ، فطلقها .

وتزوج إسماعيل منهم مرة أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم - عليه السلام - ماشاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسأل عنه :

إبراهيم : أين إسماعيل ؟ وكيف أنتم ؟

الكنة : ذهب يصيد لنا ، ونحن بخير وسعة ، ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟

إبراهيم : وما طعامكم وشرابكم ؟ .

الكنة : طعامنا اللحم ، وشرابنا الماء .

إبراهيم : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم .

فقال أبو القاسم - ﷺ -

« بركة دعوة ابراهيم » .

إبراهيم : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ، ومريه « يثبت عتبة بابه » .

جاء إسماعيل وهو يقول : هل أتاكم من أحد ؟

الزوجة : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، (وأثنت عليه) ، فسألنى عنك فأخبرته أنا بخير .

إسماعيل : فأوصاك بشيء ؟

الزوجة : نعم : يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك .

إسماعيل : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك .

ثم لبث عنهم ماشاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له (قوسا) تحت دوحة (شجرة) قريبة من زمزم . فلما رآه قام إليه ، وصنع كما يصنع الوالد بالولد (أى : تعانقا)

إبراهيم : ياإسماعيل إن الله أمرنى بأمر .

إسماعيل فاصنع ماأمرك ربك .

إبراهيم : وتعيننى ؟

إسماعيل : أعينك .

ابراهيم : فان الله أمرنى أن أبنى بيتا ههنا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ماحولها .

فعند ذلك رفع القواعد من البيت .

فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر (المقام) فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان :

(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم)(١)

إلى غير ذلك من هذه القصص الواردة .

فالواعظ البارع ، والمربى الحكيم ، والداعية الموفق . يستطيعون أن يكيفوا عرض القصة بالأسلوب الملائم الذى يتناسب مع عقلية المخاطبين ، كما أنهم يستطيعون أن يستخرجوا من القصة أهم مواطن العبرة والعظة . . ليكون التأثير أبلغ ، والاستجابة أقوى .

إذن فما على المربى إلا أن يستغل انفعال العاطفة ، ومثار الانتباه فى عرض القصة لدى السامع حتى إذا تفاعل روحيا ، وتفتح ذهنيا . . صب فى مشاعره وأحاسيسه وأعماق قلبه من معين العبرة ، وسلسبيل العظة . .

وإذا هو مذعن ملتزم خاشع مخبت لله رب العالمين . وعندئذ يأخذ المربى عليه العهد ليلتزم الإسلام منهاجا وتشريعا . ويتخلق بمبادىء هذا الدين سلوكا ومعاملة .

وهكذا يستطيع المربى الواعظ أن يضفى ـ بأسلوبه الشائق واستجلائه مواطن العبرة ـ على القصة جلالها ، وأن يترك فى النفوس أثرها ، وأن ينقل المستمع إلى أجواء الطهر والروحانية والخشوع .

(ب) انتهاج أسلوب الحوار والاستجواب :

وذلك بطرح الأسئلة على أصحابه ، ليثير انتباههم ، ويحرك ذكاءهم ، ويقدح فطنتهم ، ويسقيهم المواعظ المؤثرة فى قالب الإقناع والمحاجة .

ولنضرب على ذلك أمثلة :

١ ـ روى الإمام أحمد فى مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ قال :

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه بشرح الشيخ زروق ، فى (كتاب أحاديث الأنبياء) ج ٦ ص ٣٦٠ ـ ٣٦٨ رقم ٤٤

سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « أتدرون من المسلم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده .

قال : أتدرون من المؤمن ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : المؤمن من أمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم .

ثم ذكر المهاجر فقال : والمهاجر من هجر السوء فاجتنبه »(١) .

٢ - وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شىء ؟ »

قالوا : لايبقى من درنه شىء .

قال : ذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا »(٢)

٣ - وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - : « أتدرون من المفلس ؟

قالوا : المفلس فينا من لادرهم له ولا متاع .

قال : المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت قبل أن يقضى ماعليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار »(٣) .

(ج) بدء الموعظة بالقسم بالله - تعالى : -

وذلك لتنبيه السامع على أهمية المقسم عليه لفعله أو اجتنابه :

- روى مسلم فى صحيحه عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « والذى نفسى بيده لاتدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا .. أو لا ادلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .(٤)

- وروى البخارى من حديث أبى شريح - رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، والله لايؤمن ، قيل : من يارسول الله ؟ قال : الذى لايأمن جاره بوائقه »(٥) أى شروره ، وهذا كثير فى توجيهاته - عليه الصلاة والسلام - ..

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما) - ج ٢ ص ٢٠٦

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم . انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب المساجد) باب المشى إلى الصلاة .. الخ ص ١٣٢ رقم ٣٨٩

(٣) هذا الحديث رواه الإمام مسلم فقط .
أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم ج ١٦ ص ١٣٥ ، ١٣٦

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإيمان) باب لايدخل الجنة إلا المؤمنون ج ٢ ص ٣٥
وانظر جامع الترمذى (كتاب الاستئذان) باب ماجاء فى إفشاء السلام ج ٥ ص ٥٢ رقم ٢٦٨٨

(٥) انظر صحيح البخارى (كتاب الأدب) ج ٧ ص ٧٤

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

سورة السجدة والأحزاب

الجزء الحادى والعشرون

المكتب المصرى الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

نموذج رقم ١٧

AL-AZHAR
ISLAMIC RESEARCH ACADEMY
GENERAL DEPARTMENT
For Research, Writting & Translation

الأزهـــر
مجمع البحـوث الاســلامية
الادارة العــامة
للبحـوث والتـأليف والترجمــة

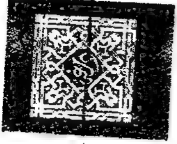

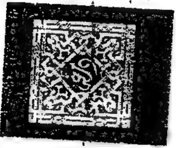

السـيد / الأستاذ مدير المكتب المصري الحديث (أحمد يحيى)

السـلام عليـكم ورحمــة اللــه وبركاته ـــ وبعـد :

فبناء على الطلب الخاص بفحص ومراجعة كتاب : جواهر البخاري
الجزء الحادي عشر والعشرون تأليف : الشيخ / عبد الحميد كشك

نفيد بأن الـكتاب المذكور ليس فيه ما يتعارض مع العقيدة الاسلامية ولا مـانع من طبعــه على نفقتــكم الخـاصة .

مع التـأكيد على ضرورة العنـاية التامة بكتـابة الآيات القــرآنية والأحاديث النبــوية الشريفــة .

واللـــه المــوفق ،،،

والسـلام عليـكم ورحمــة اللـــه وبركاته ،،،

ممدوح ماهر

مدير عـــام
ادارة البحوث والتـأليف والترجمــة

تحريرا فى ٢٢ / ١ / ١٤١٢ هـ
الموافق ٢ / ٨ / ١٩٩١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب التفسير

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٢٤١٢٧
الاسكندرية ٧ شارع نوبار المنشية ت ٤٨٢٦٦٠٢
فاكسيميلى القاهرة ٣٤٧٥٤٢٧ (٠٠٢٠٢)

(د) دمج الموعظة بالمداعبة

وذلك لتحريك الذهن ، وإذهاب الملل ، وتشويق النفس . . من هذا :

ماروواه أبو داود والترمذى عن أنس - رضى الله عنه - قال : إن رجلاً جاء إلى رسول الله - ﷺ - يستحمله بعيرا من الصدقة ليحمل عليه متاع بيته ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنى حاملك على ولد الناقة ، فقال الرجل : يارسول الله ماأصنع بولد الناقة ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : وهل تلد الإبل إلا النوق ؟ »(١)

فأفهمه - ﷺ - عن طريق هذه المداعبة أن الجمل ولو كان كبيرا يحمل الأثقال مايزال ولد الناقة .

وهذا كثير فى مداعباته - عليه الصلاة والسلام - .

(هـ) الاقتصاد بالموعظة مخافة السآمة :

- روى مسلم عن جابر بن سمرة - رضى الله عنه - قال : « كنت أصلى مع النبى ﷺ فكانت صلاته قصدا » أى : وسطا (٢)

- وروى أبو داود عن جابر بن سمرة : « كان رسول الله - ﷺ - لايطيل الموعظة يوم الجمعة - إنما هى كلمات يسيرات » .(٣) .

- ومما يروى عنه - عليه الصلاة والسلام - : « أنه إذا خطب لايخل ولا يُملّ »

وأيضا : « كان رسول الله - ﷺ - يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة »(٤) .

(و) الهيمنة بالتأثير الوعظى على الحاضرين :

روى الترمذى عن العرباض بن سارية أنه قال : « وعظنا رسول الله - ﷺ - موعظة مضت - اخترقت - منها الجلود - وذرفت منها العيون . ووجلت منها القلوب ، فقلنا : كأن هذه موعظة مودع يارسول الله ؟ فماذا تعهد إلينا ؟

فقال : « أن اتقوا الله ، وأن تتبعوا سنتى ، وسنة الخلفاء الهادية المهدية من بعدى ، وعضوا عليها بالنواجذ ، فإن كل بدعة ضلالة »(٥)

---

(١) انظر سنن أبى داود بتحقيق أ محمد محيى الدين عبد الحميد (كتاب الأدب) باب ماجاء فى المزاح ج ٤ ص ٣٠٠ رقم ٤٩٩٨ وانظره فى سنن الترمذى (فى كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى المزاح ج ٤ ص ٣٥٧ رقم ١٩٩١ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب . .

(٢) رواه مسلم بمعناه فى (كتاب الصلاة) باب القراءة فى الصبح ج ١ ص ٣٣٧ رقم ١٦٩/ ٤٥٨ . وانظر نصه فى مسلم فى (كتاب الجمعة) باب تخفيف الصلاة والخطبة ج ٢ ص ٥٩١ رقم ٤١/ ٨٦٦

(٣) انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) تفريع أبواب الجمعة : باب إقصار الخطب ج ١ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ رقم ١١٠٧

(٤) انظر صحيح البخارى (كتاب كيف كان بدء الوحى) باب ماكان النبى - ﷺ - يتخولهم بالموعظة والعلم . . الخ ج ١ ص ٢٧ من رواية ابن مسعود - رضى الله عنه .
وانظر صحيح مسلم (كتاب صفة المنافقين وأحكامهم) باب الاقتصاد فى الموعظة ج ٤ ص ٢١٧٢ ، ٢١٧٣ رقمى ٨٢ ، ٨٣ والترمذى رقم ٢٨٥٥ .

(٥) انظر الجامع الصحيح للترمذى (كتاب العلم) باب ماجاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع ج ٥ ص ٤٤ رقم ٢٦٧٦ ولفظه « أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة وإن عبد حبشى ؛ فإنه من يعش منكم ير اختلافا كثيرا ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإنها ضلالة ، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، عضوا عليها بالنواجذ » قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

جاء فى المسند ومسلم عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : إن رسول الله - ﷺ - قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ، والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ ورسول الله - ﷺ - يقول هكذا بيده : يحركها ، يقبل بها ويدبر : يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله - ﷺ - المنبر ، حتى قلنا :

ليخرن به ، أساقط هو برسول الله - ﷺ ؟[1] .

ولايتصف الواعظ الداعية بهذه الهيمنة والتأثير إلا أن يكون مخلص النية ، رقيق القلب ، خاشع النفس ، طاهر السريرة ، مشرق الروح ، وإلا فالمسئولية كبيرة عند رب العالمين .

روى ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلا بإرسال جيد عن مالك بن دينار عن الحسن - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مامن عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ماأراد بها ؟ »[2]

فكان مالك إذا حدث بهذا الحديث بكى ، ثم يقول : تحسبون أن عينى تقر بكلامى عليكم ؟ وأنا أعلم أن الله - عز وجل - سائلى عنه يوم القيامة : ماأردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبى ، لو لم أعلم أنه أحب إليك ، لم أقرأ بهه على اثنين أبدا .

وفرق كبير بين داعية يتكلم بلسانه وهو متصنع بالكلام ليسبى به قلوب الرجال ، وبين داعية مؤمن مخلص مكلوم القلب على الإسلام ، يتكلم بنبضات قلبه ، ولواعج حزنه وأساه ، لما آل إليه حال المسلمين !! فلا شك أن تأثير الثانى أبلغ ، والاستجابة إليه أقوى ، والاتعاظ بكلامه أعظم .

قال عمر بن ذر لأبيه : ياأبت : مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ فقال : يابنى ، ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة .

روى أبو داود عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« من تعلم صرف الكلام ليسبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا »[3] .

- معنى (الصرف) : التوبة ، والعدل : الفدية .

(ز) الموعظة بضرب المثل .

كان - عليه الصلاة والسلام - يستعين على توضيح مواعظه بضرب المثل مما يشهده الناس بأم

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب صفة القيامة والجنة والنار) ج ١٧ ص ١٣٢ ولفظه :
قال : « يأخذ الله - عز وجل - سمواته وأراضيه بيديه فيقول : أنا الله - ويقبض أصابعه ويبسطها - أنا الملك ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه ، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله - ﷺ - ؟ !
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : ذكر البعث فقد أورده مع اختلاف فى بعض الألفاظ وقال فى الزوائد : إسناده صحيح .

(٢) انظر الترغيب والترهيب (باب : من لم ينفعه علمه ضره جهله) ج ١ ص ١٢٦ وقال المنذرى : رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرسلا بإرسال جيد .

(٣) انظر سنن أبى داود بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (كتاب الأدب) باب ماجاء فى المتشدق فى الكلام ج ٤ ص ٣٠٢ رقم ٥٠٠٦

أعينهم ، ويقع تحت حواسهم ، وفى متناول أيديهم ؛ ليكون وقع الموعظة فى النفس أشد ، وفى الذهن أرسخ .

- روى النسائى فى سننه عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة (فاكهة تشبه البرتقال) ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لايقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لايقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها ، ومثل جليس السوء كصاحب الكير (كمثل الحداد النافخ فى النار) إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه »(١)

وفى هذه التشبيهات النبوية أبلغ ترغيب فى الخير ، وأزجر تحذير عن الشر ، بأوضح أسلوب يدركه المخاطبون .

(ح) الموعظة بالتمثيل باليد :

وكان - ﷺ - إذا أراد أن يؤكد أمرا هاما يمثل بكلتى يديه إشارة منه إلى الأمر الهام الذى يجب أن يهتموا به ويمتثلوه .

- روى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا - وشبك رسول الله بين أصابعه - »(٢) .

روى البخارى عن سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنهم - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .(٣) .

- وروى الترمذى فى سننه عن سفيان بن عبد الله البجلى - رضى الله عنه - قال :

قلت : يارسول الله حدثنى بأمر أعتصم به ، قال : « قل ربى الله ثم استقم »

قلت : يارسول الله ماأخوف ماتخاف على ؟ فأخذ - عليه الصلاة والسلام - بلسان نفسه ثم قال : (هذا)(٤) .

---

(١) انظر سنن النسائى (كتاب الإيمان وشرائعه) باب : مثل الذى يقرأ القرآن من مؤمن ومنافق ج ٨ ص ١٢٤ ، ١٢٥ من رواية أنس عن أبى موسى الأشعرى .
وليس فى الحديث : « ومثل جليس السوء ... الخ »
وأما نص الحديث الذى معنا ففى سنن أبى داود ، فى (كتاب الأدب) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٢٩ .

(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم .. الخ ص ٧٠٣ رقم ١٦٧٠ بلفظ : « إن المؤمن .. الحديث »

(٣) انظر صحيح البخارى (كتاب الطلاق) ج ٦ ص ١٧٠ ، و (كتاب الأدب) ج ٧ ص ٧٢ وفى سنن أبى داود فى (كتاب الأدب) باب فيمن ضم اليتيم ج ٤ ص ٣٣٨ رقم ٥١٥٠

(٤) روى الترمذى هذا الحديث فى (كتاب الزهد) باب : ماجاء فى حفظ اللسان ج ٤ ص ٦٠٧ رقم ٢٤١٠ عن سفيان بن عبد الله الثقفى .
وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح

(ط) الموعظة بالفعل التطبيقى :

وكان - ﷺ - يعطى لأصحابه النموذج الحى فى أسلوب التعليم والتربية والتكوين . وإليكم بعض الأمثلة :

- روى أبو داود والنسائى وابن ماجة من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رجلا أتى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله كيف الطهور ؟ (أى : الوضوء) فدعا رسول الله - ﷺ - بماء فى إناء ، فغسل كفيه ثلاثا حتى استوفى ، ثم قال : « فمن زاد عن هذا أو نقص فقد تعدى وظلم » .(٤)

- وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله - ﷺ - توضأ أمام جمع من الناس ، ثم قال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين ، لايحدث فيهما نفسه بشىء من الدنيا غفر له ماتقدم من ذنبه » .(٢)

- وروى البخارى حديثا ذكر فيه أنه - ﷺ - صلى مرة بالناس إماما وهو على المنبر ليروا صلاته كلهم ، وليتعلموها من أفعاله ومشاهداته فلما فرغ أقبل على الناس فقال : « ياأيها الناس : إنما صنعت هذا لتأتموا بى ، ولتعلموا صلاتى » .(٣)

(ك) الموعظة بإنتهاز المناسبة :

وكان - ﷺ - كثيرا ما ينتهز المناسبة لمن يريد وعظهم وإرشادهم ؛ لتكون أبلغ فى التأثير ، وأفضل للفهم والمعرفة ، ومن ذلك :

- روى مسلم عن جابر - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - مر بالسوق داخلا من بعض العالية والناس كنفتيه (أى : عن جانبيه) فمر بجدى أسك (أى : صغير الأذنين) ميت ، فتناوله بأذنه ثم قال : « أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ » قالوا : مانحب أنه بشىء ، أو مانصنع به ؟

قال : « أتحبون أنه لكم ؟ » قالوا : والله لو كان حيا كان هذا السك عيبا ، فكيف وهو ميت ؟

فقال : « فو الله ، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم » .(٤)

- وروى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قدم على رسول الله سبى فإذا امرأة من السبى (الأسرى) قد تحلب ثديها إذ وجدت صبيا فى السبى ، فأخذته فألزقته ببطنها فأرضعته ، فقال رسول الله - ﷺ - : « أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟ - وهى تقدر على ألا تطرحه - ؟ .

---

(١) سنن أبى داود (كتاب الطهارة) باب : الوضوء ثلاثا ج ١ ص ٣٣ رقم ١٣٥ .
ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الطهارة) باب الاعتداء فى الوضوء ج ١ ص ٨٨
وأنظر سنن ابن ماجه (كتاب الطهارة) باب : ماجاء فى القصد فى الوضوء وكراهية التعدى فيه ج ١ ص ١٤٦ رقم ٤٢٢

(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الطهارة) باب الوضوء ثلاثا ثلاثا ج ١ ص ٣٣١ رقم ٢١ من رواية عثمان بن عفان ، وفى ص ٣٣٥ رقم ٢٦
وانظره فى (كتاب الصوم) من نفس المصدر ، باب : سواك الرطب واليابس للصائم ج ٤ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ رقم ٤١ .

(٣) البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الجمعة) باب : الخطبة على المنبر ج ٣ ص ٣٧ ، ٣٨ رقم ٣٩ من رواية سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه -

(٤) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى (فى كتاب الزهد) ج ١٨ ص ٩٣ .

قلنا : لا والله ، قال : « فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها » .(١)

(ى) الموعظة بالالتفات إلى الأهم :

وكان - ﷺ - يلفت السؤال عن سؤال إلى شيء أهم ، من ذلك :

ماروى البخارى ومسلم عن أنس - رضى الله عنه - أن أعرابيا سأل رسول الله - ﷺ - فقال : متى الساعة يارسول الله ؟ فقال له الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « ماذا أعددت لها ؟ » قال : حب الله ورسوله .

فقال : « أنت مع من أحببت » .(٢)

فلفته - ﷺ - عن سؤاله عن قيام الساعة - التى اختص الله بعلمها - إلى شيء آخر هو أحوج مايكون إليه ، وهو اعداد العمل الصالح لهذا اليوم الذى يقوم فيه الناس لله رب العالمين .

(ل) الموعظة بإظهار المحرم الذى ينهى عنه :

وكان - ﷺ - يحمل بيده الشيء المحرم الذى ينهى عنه ، ويرفعه أمام المخاطبين ، ليقرر لهم الشيء المنهى عنه بالقول والمشاهدة ، ليكون ذلك أزجر للنفوس ، وأقطع فى الدلالة على التحريم ، من ذلك :

ماروى أبو داود والنسائى وابن ماجه فى سننهم عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : أخذ رسول الله - ﷺ - حريرا بشماله ، وذهبا بيمينه ، ثم رفع بهما يديه ، فقال : « إن هذين حرام على ذكور أمتى ، حل لإناثهم » .(٣)

تلكم أهم الأساليب التى كان يتبعها المعلم الأول - ﷺ - فى توجيه الكبار ، وتعليم الصغار ، وإرشاد الخاصة ، وهداية العامة ، وتثبيت الفضائل ، وتقويم الاعوجاج . . وهى . . كما رأيتم - أيها المربون - طرائق متنوعة ، ووسائل مختلفة . . بل كان - عليه الصلاة والسلام - لايختص بأسلوب واحد فى إرشاد الناس وهدايتهم ، وإصلاحهم وتوجيههم ، وإنما كان ينتقل بهم من القصة إلى الحوار والاستجواب ، ومن التأثير الخاشع إلى المداعبة اللطيفة ، ومن ضرب الأمثال إلى التوضيح بالرسم أو التمثيل باليد . . ، ومن الموعظة بالكلمة إلى الاقتداء بالفعل ، ومن التذكير بالقرآن الكريم إلى استجلاء العبرة بانتهاز المناسبة . . ، ومن السؤال المهم إلى السؤال الأهم ، ومن النهى بالقول إلى النهى بالمشاهدة . .

ولايخفى مافى هذا التنوع من الأساليب من أثر كبير فى ترسيخ المعلومات ، وإثارة الفهم ، وتحريك الذكاء ، وقبول الموعظة ، وقدح الفطنة والانتباه لدى المخاطب والولد . .

فالمربى حين يحسن عرض هذه الأساليب فى إلقاء مواعظه وإرشاداته على من يقوم بإعدادهم وتربيتهم من أهل وولد وتلاميذ . . فإنهم - لاشك - يتعلمون ويطبقون ويتأثرون . . ويكونون دعاة خير

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب التوبة) باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه ص ٧٤٨ رقم ١٧٥١

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب البر والصلة والآداب) باب المرء مع من أحب ص ٧١٤ رقم ١٦٩٣

(٣) أبو داود (كتاب اللباس) باب : فى الحرير للنساء ج ٤ ص ٥٠ رقم ٤٠٥٧ والنسائى (كتاب الزينة) باب : تحريم الذهب على الرجال ج ٨ ص ١٦٠ وابن ماجه (كتاب اللباس) باب لبس الحرير والذهب للنساء ج ٢ ص ١١٨٩ رقم ٣٥٩٥ .

وأئمة هدى ، وجنود رسالة ، وأبطال جهاد . . بل يكونون القاعدة الصلبة فى بناء المجتمع الفاضل ، وإقامة دولة الإسلام .

فما على المربين إلا أن يأخذوا بطرق الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فى التوجيه وأساليبه فى الموعظة لكونها أحسن الطرق وأفضل الأساليب ؛ لأن الرسول ـ ﷺ ـ لاينطق عن الهوى ، وقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهو مصنوع على عين الله ، ومشمول دائما برعايته وعنايته .

وإذا كان الأمر كذلك فكل مايصدر عنه من أقوال وأفعال وتقريرات فهى تشريع للإنسانية وهداية لها على مدى الزمان والأيام .

ويكفيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فخرا وشرفا وخلودا أن يقول الله ـ سبحانه ـ فيه : **﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾** الأحزاب : ٢١

وأن يقول أيضا : **﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾** (النساء : ٨٠)

وعلينا أن نعلم أن المربى إن لم يتحل بما يقول ، وإن لم يطبق ما يعظ الناس به ، فلا أحد يقبل كلامه ، ولا إنسان يتأثر بموعظته ، ولا مخاطب يستجيب لندائه ، بل يكون محل نقد العامة ، واستهزاء الخاصة ، واستهجان الناس أجمعين لأن الكلمة التى لاتنبعث من القلب ، لاتنفذ إلى القلب . .

والموعظة التى لاتمتزج بالروح لاتؤثر فى النفس ، ولقد سمعتم قبل قليل ماأجاب الأب ولده حين سأله : مالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، وإذا تكلم غيرك لم يبكهم ؟ أجاب :

(يابنى ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة)

ويقصد ليس الداعية المكلوم على الإسلام ، والمتحلى بالإيمان ، مثل الواعظ المنافق المهرج .

أسأل الله ـ تعالى ـ أن ينفعنا بما سمعنا ، وأن يعلمنا ماينفعنا ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وقد عقد الإمام أبو الفرج بن الجوزى ـ رحمه الله تعالى ـ بابا فى الوصايا والمواعظ والزواجر ، قال فيه بسنده عن يحيى بن كثير قال : إن أبا بكر الصديق كان يقول فى خطبته : أين الوضاه الحسنة وجوههم ؟ أين المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر ، فأصبحوا فى ظلمات القبور ، الوحا الوحا ، النجا النجا .

وقال أحمد بسنده : عن ابن مسعود ، أنه كان يقول : إنكم فى ممر الليل والنهار ، فى آجال منقوصة وأعمال محفوظة والموت يأتى بغتة ، فمن زرع خيرا فيوشك أن يحصد رغبة ، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة ، ولكل زارع مازرع .

وقال إسماعيل بن أحمد بسنده عن أبى زكريا التيمى : قال : بينا سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه ، فقرأه ، فإذا فيه : ابن آدم : إنك لو رأيت قرب مابقى من أجلك لزهدت فى طويل أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك ندمك لو قد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك

وحشمك ، فبان منك الوالد والقريب ، ورفضك الولد والنسيبُ ، فلا أنت إلى دنياك عائد ، ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة ، قبل الحسرة والندامة .

وقال محمد بن أبى منصور بسنده عن يحيى بن عبد الملك قال : كتب الأوزاعى إلى أخ له : أما بعد : فإنه قد أحيط بك من كل جانب ، واعلم أنه يسار بك فى كل يوم وليلة ، فاحذر الله والقيام بين يديه ، وأن يكون آخر عهدك به . والسلام .

وقال المحمدان بن عبد الملك بسنده عن الفضيل بن عياض قال : بلغنى أن رجلا كتب إلى داود الطائى : أن عظنى بموعظة .

قال : فكتب إليه :

أما بعد : فاجعل الدنيا كيوم صمته عن شهوتك ، واجعل فطرك الموت ، فكأن قد . والسلام .

قال : فكتب إليه : زدنى . فكتب إليه :

أما بعد : فارض من الدنيا باليسير مع سلامة دينك ، كما رضى أقوام بالكثير مع ذهاب دينهم . والسلام .

وقال محمد بن ناصر بسنده عن سفيان ، قال : أوحى الله ـ تعالى ـ إلى موسى بن عمران : أنُه ليست عقوبتى لمن عرفنى واجترأ على كمن لم يعرفنى .

وقال ابن ناصر بسنده عن ابن حاتم الترمذى قال : رأس مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بارتكاب مالا يعينك ، فمتى يربح من خسر رأس ماله ؟ !

وقال محمد بن أبى منصور بسنده عن إبراهيم بن بشار قال : مررت أنا وأبو يوسف الفسولى فى طريق الشام ، فوثب إليه رجل فسلم عليه ، ثم قال : ياأبا يوسف عظنى بموعظة أحفظها عنك .

قال : فبكى ، ثم قال :

إعلم ياأخى أن اختلاف الليل والنهار وممرهما يسرعان فى هدم بدنك ، وفناء عمرك ، وانقضاء أجلك .

فينبغي لك ياأخى ألا تطمئن حتى تعلم أين مستقرك ومصيرك ، وساخط ربك عليك بمعصيتك وغفلتك ، أوراض عنك بفضله ورحمته ؟

ابن آدم الضعيف نطفة بالأمس وجيفة غدا ، فإن كنت لاترضى بهذا فسترد وتعلم وتندم فى وقت لاينفعك الندم .

قال : وبكى أبو يوسف : وبكى الرجل وبكيت لبكائهما ، ووقعا مغشيا عليهما !!

ووعظ أعرابى ولده فقال : لا الدهر يعظك ولا الأيام تنذرك ، والساعات تعد عليك ، والأنفاس تعد منك ، وأحب أمريك إليك أعودهما بالضر عليك .

وكتب بعض الحكماء إلى أخ له : أما بعد : فإن الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، ونحن فى أضغاث أحلام . والسلام

* الإحسان إلى الوالدين *

قوله تعالى : ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ، وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إلى ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

التفسير :

قال مجاهد : مشقة : وهن الولد

وقال قتادة : جهدا على جهد

وقال عطاء الخراسانى : ضعفا على ضعف

وقوله ﴿ وفصاله فى عامين ﴾ أى : تربيته وإرضاعه بعد وضعه فى عامين ، كما قال - تعالى - ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾(١) الآية

ومن هنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لأنه قال فى الآية الأخرى :

﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهرا ﴾(٢) وإنما يذكر - تعالى - تربية الوالدة وتعبها ومشقتها فى سهرها ليلا ونهارا ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه كما قال - تعالى - : ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾(٣) .

ولهذا قال : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير ﴾ أى : فإنى سأجزيك على ذلك أوفر جزاء

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد الله بن أبى شيبة ومحمود بن غيلان ، قالا : حدثنا عبيد الله ، أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق ، عن سيد بن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبى - ﷺ - فقام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنى رسول رسول الله - ﷺ - إليكم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئا وأن تطيعونى لا آلوكم خيرا ؛ وإن المصير إلى الله ، إلى الجنة أو إلى النار ، إقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت .

وقوله : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلاتطعهما ﴾ أى : إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما فى الدنيا معروفا ، أى : محسنا إليهما ﴿ واتبع سبيل من أناب إلى ﴾ يعنى المؤمنين ﴿ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾

قال الطبرانى فى كتاب العشرة : حدثنا أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا أحمد ابن أيوب بن راشد ، حدثنا مسلمة بن علقمة ، عن داود بن أبى هند أن سعد بن مالك قال : أنزلت فى هذه الآية .

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما .. ﴾ الآية . قال : كنت رجلا برا

---

(١) الآية : ٢٣٣ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ١٥ من سورة الأحقاف .

(٣) من الآية : ٢٤ من سورة الإسراء .

بأمى فلما أسلمت قالت : ياسعد : ماهذا الذى أراك قد أحدثت ؟ ! لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى ، فيقال : ياقاتل أمه .

فقلت : لاتفعلى يا أمه فإنى لاأدع دينى هذا لشىء .

فمكثت يوما وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما آخر وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوما وليلة أخرى لاتأكل فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : ياأمه تعلمين - والله - لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسا نفسا ماتركت دينى هذا لشىء ، فإن شئت فكلى وإن شئت لاتأكلى . فأكلت .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -

« خرج ثلاثة فيمن كان قبلكم يرتادون لأهلهم فأصابتهم السماء فلجأوا إلى جبل ، فوقعت عليهم صخرة ، فقال بعضهم لبعض : عفا الأثر ، ووقع الحجر ، ولايعلم بمكانكم إلا الله ، فادعوا الله بأوثق أعمالكم ، فقال أحدهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كانت لى امرأة تعجبنى فطلبتها فأبت على فجعلت لها جعلا فلما قربت نفسها تركتها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا ، فزال ثلث الحجر . وقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لى والدان ، وكنت أحلب لهما فى إنائهما ، فإذا أتيتهما وهما نائمان قمت حتى يستيقظا فإذا استيقظا شربا ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا .

فزال ثلث الحجر . وقال الثالث : اللهم إن كنت تعلم أنى استأجرت أجيرا يوما فعمل لى نصف النهار فأعطيته أجرا فسخطه ولم يأخذه فوفرتها عليه حتى صار من كل المال ، ثم جاء يطلب أجره ، فقلت : خذ هذا كله ، ولو شئت لم أعطه إلا أجره الأول ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك رجاء رحمتك وخشية عذابك فافرج عنا . فزال الحجر وخرجوا يتماشون . رواه ابن حبان فى صحيحه (١)

وعن أبى هريرة أيضا - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يارسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمك ، قال :

ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك . رواه البخارى ومسلم(٢)

وعن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : قدمت علىَّ أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله - ﷺ - فاستفتيت رسول الله - ﷺ - قلت : قدمت على أمى وهى راغبة أفأصل أمى ؟ قال : « نعم صلى أمك » . رواه البخارى ومسلم(٣) وأبو داود ، ولفظه :

قالت : قدمت على أمى راغبة فى عهد قريب وهى راغمة مشركة ، فقلت : يارسول الله ، إن أمى قدمت على وهى راغمة مشركة ،

---

(١) الحديث فى الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى (كتاب الرقائق) باب ذكر الخصال التى يرتجى للمرء باستعمالها زوال الكرب فى الدنيا عنه . ج ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ رقم ٩٦٧

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب البر والصلة والآداب) باب : بر الوالدين .. الخ ص ٦٩٣ رقم ١٦٥٢

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب : فضل النفقة والصدقة على الأقربين .. الخ ص ٢٠٦ رقم ٥٨٧ .

أفأصلها ؟ قال : « نعم صلى أمك . »[(١)] ومعنى (راغبة) أى : طامعة فيما عندى تسألنى الإحسان إليها ، ومعنى (راغمة) أى : كارهة للإسلام .

وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « رضا الله فى رضا الوالد ، وسخط الله فى سخط الوالد » . رواه الترمذى ، ورواه الطبرانى[(٢)] من حديث أبى هريرة إلا أنه قال : « طاعة الله طاعة الوالد ومعصية الله معصية الوالد » .

وعن أبى أسيد مالك بن ربيعة الساعدى - رضى الله عنه - قال : بينا نحن جلوس عند رسول الله - ﷺ - إذ جاء رجل من بنى سلمة فقال : يارسول الله هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟

قال : « نعم ؛ الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لاتوصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » . رواه أبو داود وابن ماجه ، وابن حبان فى صحيحه ، وزاد فى آخره : قال الرجل : ماأكثر هذا يارسول الله وأطيبه ؟ ! قال : « ماعمل به »[(٣)]

وعن عبد الله بن دينار ، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رجلا من الأعراب لقيه بطريق مكة فسلم عليه عبد الله بن عمر ، وحمله على حمار كان يركبه ، وأعطاه عمامة كانت فى رأسه . قال ابن دينار : فقلنا له : أصلحك الله ، إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير . فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان ودا لعمر بن الخطاب ، وإنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه » رواه مسلم[(٤)]

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا . قال : سمعت رسول - ﷺ - يقول : « من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده » وإنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك . رواه ابن حبان فى صحيحه .[(٥)]

احذر عقوق الوالدين :

وكما أوصى الإسلام ببر الوالدين وحث عليه حذر فى نفس الوقت من عقوقهما ، ورهب منه :

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب : الصدقة على أهل الذمة ج ٢ ص ١٢٧ رقم ١٦٦٨

(٢) انظر الترمذى (أبواب البر والصلة) باب الفضل فى رضا الوالدين ج ٣ ص ٢٠٧ رقم ١٩٦٢ وانظر مجمع الزوائد للهيثمى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى البر وحق الوالدين ج ٨ ص ١٣٦
وأنظر المستدرك للحاكم (كتاب البر والصلة) باب : رضا الرب فى رضا الوالد ج ٤ ص ١٥٢

(٣) سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٤٢ وابن ماجه (كتاب الأدب) باب : صل من كان أبوك يصل ج ٢ ص ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ رقم ٣٦٦٤ .

(٤) انظر فى صحيح مسلم فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما ج ٤ ص ١٩٧٩ رقم ١١ / ٢٥٥٢

(٥) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (كتاب البر والإحسان) باب ذكر البيان بأن بر المرء بإخوان أبيه وصلته إياهم بعد موته من وصله رحمه فى قبره ج ١ ص ٣٢٩ رقم ٤٣٣ .

عن المغيرة بن شعبة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :
« إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » . رواه البخارى وغيره .(١)

وعن أبى بكرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ - ثلاثا قلنا : بلى يارسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » .
رواه البخارى ومسلم والترمذى(٢)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » رواه البخارى(٣) .

وفى كتاب النبى - ﷺ - الذى كتبه إلى أهل اليمن ، وبعث به مع عمرو حزم : « وإن أكبر الكبائر عند الله يوم القيامة الإشراك بالله ، وقتل النفس المؤمنة بغير الحق ، والفرار فى سبيل الله يوم الزحف ، وعقوق الوالدين ، ورمى المحصنة وتعلم السحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم .. الحديث » رواه ابن حبان فى صحيحه(٤) .

وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن رسول الله - ﷺ - قال : « ثلاثة لاينظر الله إليهم يوم القيامة :
العاق لوالديه ، ومدمن الخمر ، والمنان عطاءه . وثلاثة لايدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والديوث ، والرجلة »
رواه النسائى والبزار(٥)

وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :
« ثلاثة لايقبل الله - عز وجل - منهم صرفا ولا عدلا :

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الأقضية) باب النهى عن كثرة المسائل من غير حاجة والنهى عن منع وهات .. الخ ص ٤٣٠ رقم ١١١٧

(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الإيمان) باب بيان الكبائر وأكبرها ص ١٦ رقم ٥٤ وانظر سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى عقوق الوالدين ج ٤ ص ٣١٢ رقم ١٩٠١ .

(٣) صحيح البخارى (كتاب الإيمان والنذور) ج ٧ ص ٢١٢ و (كتاب الديات) ج ٨ ص ٣٤

(٤) انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان فى (باب كتب النبى ﷺ) وذكر كتبه المصطفى - ﷺ - كتابه إلى أهل اليمن ج ٨ ص ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ رقم ٦٥٢٥

(٥) رواه النسائى فى سننه فى (كتاب الزكاة) باب : المنان بما أعطى ج ٥ ص ٨٠ ، ٨١ مع تقديم وتأخير فى الألفاظ . وانظر مجمع الزوائد ج ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ وقال : رواه البزار بإسنادين رجالهما ثقات .
والحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار فى (كتاب البر والصلة) باب العقوق ج ٢ ص ٣٧٢ رقم ١٨٧٥

عاق ، ولا منان ، ومكذب بقدر » رواه ابن أبى عاصم فى كتاب السنة بإسناد حسن (١)

وروى عن ثوبان - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال :

« ثلاثة لاينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف » رواه الطبرانى فى الكبير(٢)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاصى - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا :

يارسول الله ، وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم ؛ يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى .(٣)

وعن عمرو بن مرة الجهنى - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - فقال : يارسول الله ؛ شهدت أن لاإله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت رمضان . فقال النبى - ﷺ - : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا - ونصب أصبعيه - مالم يعق والديه » رواه أحمد والطبرانى(٤)

وعن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - قال : أوصانى رسول الله - ﷺ - بعشر كلمات ، قال : « لاتشرك بالله شيئا وإن قتلت وحرقت ، ولاتعقن والديك وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك »(٥)

وروى عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : خرج علينا رسول الله - ﷺ - ونحن مجتمعون ، فقال : « يامعشر المسلمين : اتقوا الله ، وصلوا أرحامكم ؛ فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى ؛ فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة البغى ، وإياكم وعقوق الوالدين ، فإن ريح الجنة توجد من مسيرة ألف عام ، والله لايجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا شيخ زان ، ولا جار إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين ، والكذب كله إثم إلا مانفعت به مؤمنا ،

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد من طريق آخر فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى العقوق ج ٨ ص ١٤٧ والحديث من طريق أبى أمامة أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ج ٨ ص ١٤٠ رقم ٧٥٤٧

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥٦٩ تفسير سورة الأنفال .
وقال : هذا أيضا حديث غريب جدا .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب : بيان الكبائر وأكبرها ص ١٧ رقم ٥٧ ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى عقوق الوالدين رقم ١٩٠٢ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
وأورده أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين ج ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٤١ والترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب : ماجاء فى عقوق الوالدين ج ٣ ص ٢٠٨ رقم ١٩٦٥ وقال : هذا حديث صحيح .

(٤) انظر الدر المنثور للسيوطى فى تفسير سورة النساء (تفسير قوله تعالى : ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم .. الآية ج ٢ ص ٥٩٠ من رواية أحمد عن عمرو بن مرة الجهنى ورواه فى الترغيب والترهيب للمنذرى فى (كتاب البر والصلة) باب الترهيب من عقوق الوالدين ج ٣ ص ٥٤٣ رقم ١٢ وقال الترمذى : رواه أحمد والطبرانى بإسنادين أحدهما صحيح . ورواه ابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحيهما باختصار .

(٥) انظر الترغيب والترهيب (كتاب البر والصلة) باب الترهيب من عقوق الوالدين ج ٣ ص ٥٤٣ رقم ١٣ وقال المنذرى : رواه أحمد وغيره .

ودفعت به عن دين ، وإن فى الجنة لسوقا مايباع فيها ولا يشترى ، ليس فيها إلا الصور فمن أحب صورة من رجل أو امرأة دخل فيها » . رواه الطبرانى فى الأوسط .[١]

وعن أبى بكرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « كل الذنوب يؤخر الله منها ماشاء إلى يوم القيامة إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يعجله لصاحبه فى الحياة قبل الممات »[٢] رواه الحاكم والأصبهانى كلاهما من طريق بكار بن عبد العزيز ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد

وروى عن عبد الله بن أبى أوفى ـ رضى الله عنه قال :

كنا عند النبى ـ ﷺ ـ فأتاه آت ، فقال : شاب يجود بنفسه ، فقيل له : قل : لاإله إلا الله ، فلم يستطع .

فقال : « كان يصلى ؟ » فقال : نعم ، فنهض رسول الله ـ ﷺ ـ ونهضنا معه ، فدخل على الشاب فقال له :

« قل : لاإله إلا الله » فقال : لاأستطيع . قال :

« لم ؟ » قال : كان يعق والدته . فقال النبى ـ ﷺ ـ :

« أحية والدته ؟ » قالوا : نعم . قال : « ادعوها »

فدعوها فجاءت ، فقال : « هذا ابنك ؟ » فقالت :

نعم . فقال لها : « أرأيت لو أججت نار ضخمة فقيل لك : إن شفعت له خلينا عنه ، وإلا حرقناه بهذه النار ، أكنت تشفعين له ؟ » قالت :

يارسول الله إذن أشفع له . قال : « فأشهدى الله وأشهدينى قد رضيت عنه » قالت : اللهم إنى أشهدك وأشهد رسولك أنى قد رضيت عن ابنى فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : « ياغلام قل : لاإله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » فقالها . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « الحمد لله الذى أنقذه بى من النار »

رواه الطبرانى ، وأحمد مختصرا[٣]

وعن العوام بن حوشب ـ رضى الله عنه ـ قال : نزلت مرة حيا ، وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس الحمار وجسده جسد إنسان ، فنهق ثلاث نهقات .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب (كتاب البر والصلة) باب : ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ج ٣ ص ٥٤٤ رقم ١٤ ورواه الهيثمى فى مجمع الزوائد فى (كتاب البر والصلة) باب : ماجاء فى العقوق ج ٨ ص ١٤٩ وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط من طريق محمد بن كثير عن جابر الجعفى وكلاهما ضعيف جدا .

(٢) الحديث أخرجه الحاكم فى (كتاب البر والصلة) ج ٤ ص ١٥٦ وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وتعقبه الذهبى فقال : قلت : بكار ضعيف .

(٣) انظر مجمع الزوائد للهيثمى كتاب البر والصلة باب ماجاء فى العقوق ج ٨ ص ١٤٧ بنفس لفظه وقال الهيثمى : رواه الطبرانى وأحمد باختصار كثير وفيه فائد ابو الورقاء وهو متروك .

ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعرا أو صوفا ، فقالت امرأة : ترى تلك العجوز ؟ قلت : مالها ؟ قالت : تلك أم هذا ، قلت :

وماكان قصته ؟ قالت : كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يابنى اتق الله ، إلى متى تشرب هذه الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار ، قالت : فمات بعد العصر ، قالت : فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم فينهق ثلاث نهقات ثم ينطبق عليه القبر . رواه الأصبهانى وغيره .

قوله ـ تعالى :

﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السماوات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير . يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور . ولا تصعر خدك للناس ولاتمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور . واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾(١) .

وأخذ لقمان الحكيم يربى ملكة الرقابة الإلهية فى نفس ابنه ، وفى نفس كل عاقل رشيد ، فقال له : يابنى : إنها إن تك مثقال حبة من خردل أى : المظلمة أو الخطيئة التى يفعلها العبد لو كان حجمها كأصغر الأشياء ، واحتجبت حجابا منيعا فى صخرة ، أو كانت فى عالم السموات العلا أو فى أرجاء الأرض فإن الله يأتى بها يوم القيامة ، ويسأل العبد عنها .

فياأيها العاقل : اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

الله يدرى كل ماتضمر ... يعلم ماتخفى وما تظهر
وإن خدعت للناس لم تستطع ... خداع من يطوى ومن ينشر

ويأتى ختام الآية مناسبا لصدرها ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أى : عليم بدقائق الأشياء ﴿ عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾(٢)

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾(٣) .

فسبحان من يسمع دبيب أرجل النملة السمراء فوق الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء .

يامن يرى من البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل

(١) من الآية : ١٦ ـ ١٩ من سورة لقمان .
(٢) من الآية : ٣ من سورة سبأ .
(٣) الآية : ٤٧ من سورة الأنبياء .

ويرى ويسمع مايرى مادونها   فى قاع بحر زاخر متجندل

وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم مافى البر والبحر وماتسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾(١)

ويقول : ﴿ ألم تر أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ماكانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إلا الله بكل شىء عليم ﴾ (٢)

ويقول : ﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(٣)

ويقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ﴾(٤)

ويقول : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان مالها . يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾(٥) .

ثم يجمع له الخير كله فيقول له :

(يابنى أقم الصلاة) وإقامتها : الإتيان بها كاملة تامة الأركان والشروط والسنن ، مستقيمة الأداء ، إذ أول مايحاسب عنه العبد يوم القيامة الصلاة ، وهى مفتاح الجنة ، إن حسنت حسن سائر أعمال العبد .

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يحدثنا ونحدثه ، ويكلمنا ونكلمه ، فإذا حضرت الصلاة كأنه لايعرفنا ولا نعرفه .

هكذا قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ

فالصلاة عماد الدين ، وهى الصلة بين العبد وربه ، ثم بعد ذلك يأتى بصمام أمن المجتمع فيأمره بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ركن من أركان الدين ، ويوم يختل ذلك الركن سيصير

---

(١) الآتيان : ٥٩ ، ٦٠ من سورة الأنعام .

(٢) الآية : ٧ من سورة المجادلة .

(٣) الآتيان : ١٣ ، ١٤ من سورة الملك .

(٤) الآية : ١٩ من سورة غافر .

سورة الزلزلة .

المنكر معروفا والمعروف منكرا ، والذئب راعيا والخصم العنيد قاضيا .

ولما كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الحصون المنيعة ، والأسوار العالية التى ضربت حول الأمة لتقيها شر الذئاب الضارية ، والكلاب العادية ، والجرائم الشنيعة ، والإثم والبغى والعدوان والفواحش ـ لما كان ذلك كذلك ـ شدد رسول الله ـ ﷺ ـ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أحاديث تنخلع لها القلوب وتنفطر من هولها الأفئدة .

عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار فتندلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يافلان ! مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟

فيقول : بلى !! كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه » رواه البخارى ومسلم .(١)

وفى رواية لمسلم قال : قيل لأسامة بن زيد : لو أتيت عثمان فكلمته ؟ فقال : إنكم لترون أنى لاأكلمه إلا أسمعكم ، وإنى أكلمه فى السر دون أن أفتح بابا لاأكون أول من فتحه ، ولا أقول لرجل أن كان على أميرا : إنه خير الناس بعد شىء سمعته من رسول الله ـ ﷺ ـ قال : وماهو؟ قال : سمعته يقول : « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتابه ، فيدور كما يدور الحمار برحاه ، فيجتمع أهل النار عليه ويقولون : يافلان ماشأنك؟ أليس كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول :

كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن الشر وآتيه » .(٢)

(الأقتاب) : الأمعاء ، واحدها : قتب

(تندلق) أى: تخرج

وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاههم بمقاريض من النار ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون ؟ ! » رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له ، والبيهقى .(٣)

وفى رواية لابن أبى الدنيا : « مررت ليلة أسرى بى على قوم يقرض شفاههم بمقاريض من نار؛ كلما قرضت عادت ، فقلت :

ياجبريل : من هؤلاء؟ قال : خطباء من أمتك يقولون مالا يفعلون ؟

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزهد والرقائق) باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ص ٨٣٣ ، ٨٣٤ رقم ١٨٨٢ .

أنظر البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب بدء الخلق) باب صفة النار وأنها مخلوقة ج ٦ ص ٣٠١ رقم ٧٧

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزهد) باب : عقوبة من يأمر بالمعروف ولايفعله ، وينهى عن المنكر ويفعله ج ١٨ ص ١١٧ ، ١١٨ ورواية مسلم هذه هى التى وردت بلفظ :

« يؤتى .. الحديث » وليست كما ذكرها المؤلف ، فهناك اختلاف فى كثير من الألفاظ .

وهذه الرواية تتفق كثيرا مع لفظ حديث البخارى .

(٣) انظر صحيح ابن حبان (كتاب الإسراء) باب ذكر وصف الخطباء الذين يتكلون على القول دون العمل حيث رآهم ـ ﷺ ـ ... الخ ج ١ ص ١٣٥ رقم ٥٣

وفى رواية للبيهقى قال : « أتيت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاهم بمقاريض من نار . فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يقولون مالايفعلون ، ويقرأون كتاب الله ولا يعملون به » .

وعن الحسن رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - قال :

« مامن عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة : ماأردت بها ؟ قال : فكان مالك - يعنى ابن دينار - إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عينى تقر بكلامى عليكم ، وأنا أعلم أن الله سائلى عنه يوم القيامة ؟ قال : ماأردت به ؟ فأقول : أنت الشهيد على قلبى ، لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبدا . رواه أبى الدنيا ، والبيهقى مرسلا بإسناد جيد(١) .

وروى عن الوليد بن عقبة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن ناسا من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله مادخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل » . رواه الطبرانى فى الكبير(٢) .

وعن أبى تميمة عن جندب بن عبد الله الأزدى صاحب رسول الله - ﷺ ، رضى الله عنه عن رسول الله - ﷺ - قال : « مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضىء للناس ، ويحرق نفسه » . (٣) رواه الطبرانى وإسناده حسن ، ورواه البزار من حديث أبى برزة إلا أنه قال : مثل الفتيلة .

وعن عمران بن حصين - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« إنى أخوف ماأخاف عليكم بعدى كل منافق عليم باللسان » . رواه الطبرانى فى الكبير والبزار . (٤)

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - ، عن رسول الله - ﷺ - قال :

« إن الرجل لايكون مؤمنا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء ، ويكون لسانه مع قلبه سواء ، ولا يخالف قوله عمله . ويأمن جاره بوائقه » رواه الأصبهانى .(٥)

وعن على بن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إنى لاأتخوف على أمتى مؤمنا ولا مشركا ، أما المؤمن فيحجزه إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أتخوف عليكم منافقا

---

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٥ - ١٢٦ رقم ٨ وقال : - رواه ابن أبى الدنيا - والبيهقى مسندا بإسناد جيد .

(٢) انظر الترهيب والترغيب ج ١ ص ١٢٥ رقم ٧ وقال : - رواه الطبرانى فى الكبير .

(٣) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٦ رقم ١١ وقال : - رواه البزار عن أبى برزة . وانظر رقم ١٣ من نفس المرجع . وقال

(٤) المنذرى رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده حسن .

(٥) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ رقم ١٨ وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والبزار ورواته محتج بهم فى الصحيح ، ورواه احمد من حديث عمر بن الخطاب .

انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٨ رقم ١٩ وقال : رواه الاصبهانى بإسناد فيه نظر .

عالم اللسان يقول ماتعرفون ، ويفعل ماتنكرون » . رواه الطبرانى فى الصغير ، والأوسط من رواية الحارث .(١)

- معنى (فيحجزه) : يمنعه . ومعنى (يقمعه) : يضربه بالقمعة كالمجن .

وعن الأغر بن مالك قال : لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر بعث إليه فدعاه فأتاه ، فقال : إنى أدعوك لأمر متعب لمن وليه ، فاتق الله ياعمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ ، ثم إن الأمر معروض لايستوجبه إلا من عمل به ، فمن أمر بالحق ، وعمل بالباطل ، وأمر بالمعروف ، وعمل بالمنكر ، يوشك أن تنقطع أمنيته ، وأن يحبط عمله ، فإن أنت وليت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن تجف يدك من دمائهم ، وأن تضمر بطنك من أموالهم وأن تجف لسانك عن أعراضهم فافعل ، ولا قوة إلا بالله » رواه الطبرانى .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينه »

رواه ابن حبان فى صحيحه(٢)

- معنى (الجذع) : جذع النخلة .

قوله - تعالى - : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أى : من الأمور المعزوم عليها ، المرغوب فيها ، المحببة إلى قلوب المؤمنين .

قوله - تعالى - : ﴿ واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾

أى : امش مقتصدا ، مشيا ليس بالبطىء المتثبط ولا بالسريع المفرط ، بل عدلا وسطا بين بين .

قال - تعالى - : ﴿ ولاتمش فى الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾(٣) .

وقال - جل شأنه - :

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ﴾(٤)

وقال فى حق النساء : ﴿ ولايضربن بأرجلهن ليعلم مايخفين من زينتهن ﴾(٥) .

وقال : ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ﴾(٦) .

أى : لاتبالغ فى الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لافائدة فيه .

﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ قال مجاهد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أى : غاية من

---

(١) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ١٢٧ رقم ١٧ وقال : رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط من رواية الحارث - وهو الأعود - وقد وثقه ابن حبان وغيره .

(٢) انظر ابن حبان الحظر والإباحة باب ذكر الإخبار عما يجب على المرء من تفقد عيوب نفسه .. الخ ج ٧ ص ٥٠٦ رقم ٥٧٣١

(٣) الآية : ٣٧ من سورة الإسراء

(٤) الآية : ٦٣ من سورة الفرقان .

(٥) من الآية : ٣١ من سورة النور ..

(٦) من الآية ٢٥ من سورة القصص .

رفع صوته أنه يشبه بالحمير فى علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله - تعالى - وتشبيه الصوت هنا بالحمير يقتضى تحريمه وذمه ، وذلك كتشبيه العائد فى هبته كالكلب الذى يعود فى قيئه . قال - ﷺ - : « ليس منا مثل السوء ، العائد فى هبته كالكلب يقىء ثم يعود فى قيئه »(١) .

روى النسائى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال :

« إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ؛ فإنها رأت شيطانا » . (٢) .

تعقيب طيب :

عقب الإمام الحافظ ابن كثير على تلك الوصايا اللقمانية تعقيبا مفيدا ، أسأل الله أن ينفع به .

قال - رحمه الله تعالى - :

هذه وصايا نافعة جدا ، وهى من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم ، وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة ، فلنذكر منها أنموذجا ودستورا إلى ذلك ، قال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله - ﷺ - قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئا حفظه » .

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن القاسم بن مخيمرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يابنى إياكَ والتقنع فإنه مخوفة بالليل مذمة بالنهار »

وقال لابنه : إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك .

وقال أيضا لابنه : يابنى إذا أتيت نادى قوم فارمهم بسهم الإسلام ، يعنى السلام ، ثم اجلس فى ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم نطقوا ، فإن أفاضوا فى ذكر الله فأجل سهمك معهم ، وإن أفاضوا فى غير ذلك فتحول عنهم إلى غيرهم .

فى فضيلة الخمول والتواضع

وذلك متعلق بوصية لقمان - عليه السلام - لابنه ، وقد جمع فى ذلك الحافظ أبو بكر بن أبى الدنيا كتابا مفردا ، ونحن نذكر منه مقاصده ، قال :

حدثنا إبراهيم بن المنذر بسنده عن أنس بن مالك : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « رب أشعث ذى طمرين يصفح عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبره »(٣) وروى أيضا عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « طوبى للأتقياء الأثرياء الذين إذا حضروا لم يعرفوا ، وإذا

---

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب الهبة) ج ٣ ص ١٣١

(٢) انظر عمل اليوم والليلة لابن السنى (باب مايقول إذا سمع الديكة) ص ٩٧ رقم ٣١٢
وانظر سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب : ماجاء فى الديك والبهائم ج ٤ ص ٣٢٧ رقم ٥١٠٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد بنحوه ج ٣ ص ١٤٥ وانظر إتحاف السادة المتقين (باب فضيلة الخمول) ج ٩ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥

غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشتتة »[١]

وفى رواية أخرى « قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة »

وقال أيضا : حدثنا اسحاق بن إبراهيم بسنده عن سالم بن أبى الجعد قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن من أمتى من لو أتى باب أحدكم يسأله دينارا أو درهما أو فلسا لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ، ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ، ذو طمرين لايؤبه له لو أقسم على الله لأبره » قال ابن كثير : حديث مرسل من هذا الوجه[٢]

وعن عبد الله بن عمرو قال : « أحب عباد الله إلى الله الغرباء : قيل ومن الغرباء ؟ قال : الفرارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم »[٣] وقال الفضيل بن عياض بلغنى : أن الله ـ تعالى ـ يقول للعبد يوم القيامة : « ألم أنعم عليك ؟ ألم أعطك ؟ ألم أسترك ؟ ألم . . ألم أجمل ذكرك ؟ » ثم قال الفضيل : إن استطعت ألا تعرف فافعل ، وماعليك الا يثنى عليك ، وماعليك أن تكون مذموما عند الناس محبوبا عند الله ؟ ! . وكان ابن محيرز يقول : اللهم إنى أسألك ذكرا خاملا . وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلنى عندك من أرفع خلقك واجعلنى فى نفسى من أوضع خلقك . وعند الناس من أوسط خلقك .

باب ماجاء فى الشهرة

حدثنا أحمد بن عيسى المصرى بالسند عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حسب امرىء من الشر ـ إلا من عصم الله ـ أن يشير الناس إليه بالأصابع فى دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم »[٤] . قيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ؟

فقال : إنما المراد : من يشار إليه فى دينه بالبدعة ، وفى دنياه بالفسق .

وعن على ـ رضى الله عنه ـ قال : لاتبدأ لأن تشتهر ، ولاترفع شخصك لتذكر ، .

وتعلم واكتم ، واصمت تسلم ، تسر الأبرار وتغيظ الفجار .

وقال إبراهيم بن أدهم ـ رحمه الله ـ ماصدق الله من أحب الشهرة . وقال أيوب : ماصدق الله عبد إلا سره ألا يشعر بمكانه . وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب ألا يعرفه الناس . وكان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . ورأى طلحة قوما يمشون معه فقال : ذباب طمع ، وفراش النار . وقال ابن عون : عن

---

(١) انظر إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين (باب فضيلة الخمول) ج ٨ ص ٢٣٦

(٢) انظر إتحاف السادة المتقين (باب فضيلة الخمول) ج ٨ ص ٢٣٦

(٣) انظر تفسير بن كثير ج ٦ فى تفسير سورة لقمان ص ٣٤٥ فصل فى الخمول والتواضع .

(٤) انظر إتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٢٣٢ باب بيان ذم الشهرة وإنتشار الصيت وقال العراقى هو غير معروف من حديث جابر معروف من حديث أبى هريرة ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف مقتصرين على أوله ورواه مسلم مقتصرا على الزيادة التى فى آخره ، وروى الطبرانى والبيهقى فى الشعب أوله من حديث عمران بن حصين بلفظ كفى بالمرء إثما .

الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس ، فقال : والله لو تعلمون ماأغلق عليه بابى ماتبعنى منكم رجلان . وقال عبد الرازق معمر : كان أيوب يطيل قميصه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إن الشهرة فيما مضى كان فى طول القميص ، واليوم فى تشميره .

وقال إبراهيم النخعى : لاتلبس من الثياب مايشهر فى الفقهاء ولا مايزدريك السفهاء . وقال الثورى : كانوا يكرهون من الثياب الجياد التى يشتهر بها ، ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم . والثياب الرديئة التى يحتقر فيها ويستذل دينه .

وقال الحسن - رحمه الله - : إن قوما جعلوا الكبر فى قلوبهم والتواضع فى ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرف بمطرفه مالهم تفاقدوا ؟ ! . وفى بعض الأخبار أن موسى - عليه السلام - قال لبنى إسرائيل : مالكم تأتونى عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب ؟ ! البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بالخشية .

فصل فى حسن الخلق

قال أبو النياح عن أنس - رضى الله عنه - : « كان رسول الله - ﷺ - من احسن الناس خلقا »(١) وعن عطاء عن ابن عمر : قيل : يارسول الله أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا »(٢)

وعن أنس مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد »(٣) وعنه أيضا مرفوعا : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »(٤) وعن عائشة مرفوعا : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار »(٥) وقال ابن أبى الدنيا بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - سئل رسول الله - ﷺ - : عن أكثر مايدخل الناس الجنة ؟ فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر مايدخل الناس النار ؟ فقال : « الأجوفان : الفم والفرج »(٦) وقال أسامة ابن شريك : كنت عند رسول الله - ﷺ - فجاءته

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ٢٧٠١٣ (مسند أنس رضى الله عنه -) ومسلم فى كتاب الفضائل باب : كان رسول الله - ﷺ - أحسن الناس خلقا ج ٤ ص ١٨٠٥ رقم ٥٥/ ٢٣١٠

(٢) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب : ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٥٩ من رواية عطاء عن ابن عمر ، ونصه : عن ابن عمر أنه قال : كنت مع رسول الله - ﷺ - فجاءه رجل من الأنصار فسلم على النبى - ﷺ - ثم قال : يارسول الله ؛ أى المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خلقا » قال : فأى المؤمنين أكيس ؟ قال : « أكثرهم للموت ذكرا ، وأحسنهم لما بعده استعدادا ، أولئك الأكياس » .

(٣) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ٣٤٦)

(٤) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ ص ٣٤٧) وانظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢٤ - ٢٥ باب ماجاء فى حسن الخلق وقال الهيثمى رواه الطبرانى عن شيخه المقدام بين داود وهو ضعيف .
وقال بن دقيق العيد فى الإمام : - أنه وثق . وبقية رجاله ثقات .

(٥) انظر مسند أحمد ٦/ ٦٤ ورواه أبو داود فى (كتاب الأدب) باب فى حسن الخلق ٥ ص ١٤٩ رقم ٤٧٩٨

(٦) انظر مسند أحمد (مسند أبى هريرة) ٢/ ٢٩١ وابن ماجه فى (كتاب الزهد) باب: ذكر الذنوب ج ٢ رقم ١٤١٨ والترمذى (أبواب البر والصلة) باب : ماجاء فى حسن الخلق ج ٣ ص ٢٤٥ رقم ٢٠٧٢ وابن ماجه (الزهد) باب : ذكر الذنوب ج ٢ ص ١٤١٨ رقم ٤٢٤٦

الأعراب من كل مكان ، فقالوا : يارسول الله : ماخير ماأعطى الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق »[(١)]

وعن مكحول عن أبى ثعلبة مرفوعا : « إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا أحاسنكم أخلاقا ، وإن أبغضكم إلى وأبعدكم منى منزلا فى الجنة مساويكم أخلاقا الثرثارون المتشدقون المتفيهقون »[(٢)] وعن أبى إويس عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعا : « ألا أخبركم بأكملكم إيمانا أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يؤلفون ويألفون »[(٣)] .

وقال عبد الله بن إدريس عن أبيه عن جده عن أبى هريرة مرفوعا : « إنكم لاتسعون الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق »[(٤)]

وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

فصل فى ذم الكبر

قال علقمة عن ابن مسعود رفعه إلى النبى - ﷺ - : « لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولايدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان »[(٥)] . وقال إبراهيم بن أبى عيلة عن أبى سلمة عن عبد الله بن عمرو مرفوعا : « من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر أكبه الله على وجهه فى النار »[(٦)]

وقال الحسن : عجبا لابن آدم يغسل الخرء بيده فى اليوم مرتين ثم يتكبر يعارض جبار السموات والأرض .

وقال الحسن عن يحيى عن أُبَىّ قال : إن مطعم ابن آدم ضرب مثلا للدنيا وأن قزحه وملحه .[(٧)]

وقال محمد بن الحسين بن على - من ولد على رضى الله عنه - : مادخل قلب رجل من شىء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك .[(٨)]

ونظر طاوس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال فى مشيته - وذلك قبل الخلافة - فطعن طاوس فى جنبه بأصبعه وقال : ليس هذا شأن من فى بطنه خرء ؛ فقال له كالمعتذر إليه : ياعم لقد ضرب كل عضو منى على هذه المشية حتى تعلمتها . قال أبو بكر بن أبى الدنيا كان بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية .

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٧٨

(٢) مسند أحمد (حديث أبى ثعلبة الخشنى) ج ٤ ص ١٩٣

وانظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢١ باب ماجاء فى حسن الخلق وقال : - رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال صحيح .

(٣) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٧ .

(٤) انظر مجمع الزوائد للهيثمى ج ٨ ص ٢٢ باب ماجاء فى حسن الخلق . وقال : - رواه أبى يعلى والبزار ، وزاد : - (وحسن الخلق) وفيه عبد الله بن سعيد المقبورى وهو ضعيف .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ١/ ٤١٢ ، ٤٥١ .

(٦) انظر تفير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٨ .

(٧) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ (ص ٣٤٨)

(٨) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان ج ٦ (ص ٣٤٩)

فصل فى الاختيال

عن ابن أبى ليلى عن ابن بريدة ، عن أبيه مرفوعا إلى النبى - ﷺ - : « من جرثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه »[١].

وعن أبى هريرة مرفوعا : « لاينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره ، وبينما رجل يتبختر فى برديه أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »[٢].

وبعد :

فهذه نصائح لقمانية تفيض حكمة وتشع ضياء ، فما أجدر كل والد أن ينصح بها ولده ، لقد وجه لقمان ابنه إلى رقابة الله عليه عندما قال له :

(يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) كما أمره بأداء الصلاة أداء مستقيما ، وأمره بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم أردف ذلك بالصبر على المصيبة : (يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك) وإنما جاء الأمر بالصبر على المصيبة بعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لأن الآمر والناهى قد يتعرض لشدائد ، وقد يعتريه الألم من معاملة الناس له ، فلابد أن يصبر ، وأن يوطن نفسه على ذلك ، كان عمر - رضى الله عنه - يقول : « ياحق لم تبق لى صاحبا »

وكان على يقول : « صدق المقال لم يبق لى صديقا »

قال - تعالى - : ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور ﴾[٣]

اصبر على كيد الحسود ... فإن صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ماتأكله

وقال آخر :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ماكان يعرف طيب عرف العود

وقال غيره :

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... وآبى أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة فأزيد حلما ... كعود زاده الإحراق طيبا

---

(١) انظر تفسير بن كثير (تفسير سورة لقمان) ج ٦ ص ٣٤٩ وأخرجه الامام أحمد عن طريق سفيان ج ٥/ص ٩ : ١٠ وانظر صحيح البخارى كتاب اللباس باب قول الله تعالى : - قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ج ٧ ص ١٨٢

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) الآية : ١٨٦ من سورة آل عمران .

وقال غيره :

إن يحسدونى فإنى غير لائمهم غيرى من الناس أهل الفضل قد

فتم لى ولهم مابى ومابهم حسدوا ومات أكثرنا غيظا بما يجد

وقال غيره :

عداى لهم فضل على ومنة لاأذهب الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

إن إقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على المصيبة ، كل ذلك من عزم الأمور ، ومن أطيب الأخلاق ، ومن أحب الشمائل وأكرم السجايا .

وبعد هذا ينهى لقمان ابنه عن الكبر فى صورتين : عندما يلقى الناس لايصعر خده ، ولايمل بوجهه عنهم كبرا ، وعندما يمشى لايمشى الخيلاء : ﴿ **إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا** ﴾[1]

« فتبسمك فى وجه أخيك صدقة » ﴿ **ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا إن الله لايحب كل مختال فخور** ﴾ أى : متكبر يترفع على الناس ويلوى وجهه عنهم ، فخور بما أوتى من مال وجاه .

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجو وهو وضيع

ثم يوجهه إلى المشى المحبوب لدى الله ، والصوت المرغوب فيه فيقول :

﴿ **واقصد فى مشيك واغضض من صوتك** ﴾ وينفره من الصوت العالى فى غير ماحاجة إلى ذلك فيقول : ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾ فاللهم علمنا ماينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وهب لنا علما ينفعنا ، وعملا يرفعنا .

نعم الله وآياته

قوله ـ تعالى ـ :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً

(١) من الآية : ٣٧ من سورة الإسراء .

وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ
اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ
السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ *وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ
الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن
بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا
كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ
فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ
فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

معانى المفردات

(سخر) : ذلل ، (أسبغ) : أكمل وأتم ، يجادل : يخاصم . (بغير علم) : بغير حجة .

وهذا رجوع إلى مامضى قبل قصة لقمان من خطاب المشركين ، وتوبيخ لهم على إصرارهم على

ماهم عليه على مشاهدتهم لدلائل التوحيد .

(ومن يسلم وجهه إلى الله) : يخلص عبادته إليه ، (محسن) الإحسان : الإتقان ، (نضطرهم) : نلجئهم ونسوقهم . (يولج) : يدخل الليل فى النهار . (أجل مسمى) : أى : معلوم مقدر ، (الفلك) : السفن . (صبار) : كثير الصبر . (كالظلل) : جمع ظلة : وهى الجبال التى تظل من تحتها . (مقتصد) متوسط ، (ختار) : الختر : أسوأ الغدر ، (كفور) : جاحد لنعم الله كافر به .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أقام الأدلة ـ سبحانه ـ على التوحيد ، وذكر أن لقمان فهمه بالحكمة ، عاد إلى خطاب المشركين وتوبيخهم على إصرارهم على ماهم عليه من الشرك مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد لائحة للعيان ، يشاهدونها فى كل آن ، فى السموات والأرض ، وتسخيرها لما فيه مصالحهم فى المعاش والمعاد ، وإنعامه عليهم بالنعم المحسوسة والمعقولة ، المعروفة وغير المعروفة ؛ ثم أبان أن كثيرا من الناس يجادلون فى توحيد الله وصفاته بدون دليل عقلى على مايدعون ، ولا رسول أرسل إليهم بما عنه يناضلون ، ولا كتاب أنزل إليهم يؤيد مايعتقدون ، وإذا هم أفحموا بالحجة والسلطان المبين ، لم يجدوا جوابا إلا تقليد الآباء والأجداد بنحو قولهم : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[1] وماذاك إلا نزغات الشيطان ، والشيطان لايدعو إلا إلى الضلال الموصل إلى النار ، وبئس القرار .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ حال المشرك المجادل أردف ذلك ذكر حال المستسلم المفوض أموره إلى الله ، وبيان عاقبته وماله ، ثم سلى رسوله على مايلقاه من المشركين من العناد والكفران ، وبين له أنه قد بلغ رسالات ربه وتلك وظيفة الرسل ، وعلى الله الحساب والجزاء . وبين ـ سبحانه ـ أن المشركين معترفون بأنه هو الخالق لهذه السموات ، وهذا يستدعى أن يكون الحمد كله له وحده ، ومن يستحق الحمد هو الذى يستحق العبادة ، فأمرهم عجب !! يعلمون المقدمات ثم ينكرون النتيجة التى تستتبعها ، فيعبدون من لايستحق عبادة ، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا : من الأصنام والأوثان .

ثم أردف ذلك ببيان أن تلك النعم وهذه المخلوقات لاحصر لها ، ولا يعلمها إلا خالقها ، ولما كانت تلك النعم لانهاية لها ، وربما ظن أنها مبعثرة لاقانون لها ، أو أنها لكثرتها يصعب عليه تدبيرها وتصريف شئونها كما يريد ـ دفع هذا بقوله : ﴿ **ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾

روى أنه لما نزل بمكة قوله ـ تعالى : ﴿ **ويسألونك عن الروح** .. ﴾ الآية وهاجر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة أتاه أحبار اليهود وقالوا : بلغنا أنك تقول : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾[2] أتعنينا أم تعنى قومك ؟

---

(١) من الآية : ٢٣ من سورة الزخرف .

(٢) من الآية : ٨٥ من سورة الإسراء .

قال : كُلّاً عنيت . قالوا : « ألست تتلو فيما جاءك أنا أوتينا التوراة فيها علم كل شيء ؟ فقال ـ ﷺ ـ : هى فى علم الله قليل ، وقد أتاكم ماإن عملتم به انتفعتم . قالوا : كيف تزعم هذا وأنت تقول :

﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ﴾(١) فكيف يجتمع علم قليل وخير كثير ؟ فنزلت الآية :

﴿ ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ﴾

وهذا امتنان من الله ـ تعالى ـ على عباده ، وهو صاحب الفضل والمنة ، وهو مولى النعم ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾(٢) ألم تروا ـ أيها المخاطبون ـ رؤية بصرية وعلمية أن الله ـ تعالى ـ سخر لكم مافى السموات من نجوم وشمس وقمر وسحاب إلى غير ذلك ؟ كما سخر لكم مافى الأرض من بحار وأنهار ونبات إلى غير ذلك ؟ ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾(٣) ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ماسألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾(٣)

واقرأ قوله ـ جل شأنه ـ فى سورة النحل أو سورة النعم :

﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالاتعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾(٥)

---

(١) من الآية : ٢٦٩ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ١٥ من سورة الملك .
(٣) الآية : ١٨ من سورة النحل .
(٤) الآيتان : ٣٣ ، ٣٤ من سورة إبراهيم .
(٥) الآيات : ٥ ـ ١٨ من سورة النحل .

قوله تعالى : ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾

روى أن النبى ﷺ قال لابن عباس وقد سأله عن هذه الآية : « الظاهرة : الإسلام وماحسن من خلقك ، والباطنة : ماستر عليك من سيء عملك » وقيل : الظاهرة : الصحة وكمال الخلق ، والباطنة : المعرفة والعقل ، وقيل : الظاهرة : مايرى بالأبصار من المال والجاه والجمال ، وتوفيق الطاعات ، والباطنة : مايجده المرء فى نفسه من العلم بالله ، وحسن اليقين ، ومايدفع عن العبد من الآفات .

ومع هذا التسخير وذلك الإسباغ فإن أكثر الناس لايؤمنون ولايشكرون ولايعقلون ، بل تراهم فى خوضهم يلعبون ، وفى طغيانهم يعمهون ، وفى ريبهم يترددون ، بل يجادلون فى الله بغير علم وعلى غير هدى ، وليس بين أيديهم كتاب منير يستندون إليه فى جدالهم ، قال تعالى : ﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾(1) وقال جل شأنه :

﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد . كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير ﴾(2)

وقال تعالى : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾(3) .

ومما يزيد الطين بلة أن هؤلاء المجادلين بالباطل إذا قيل لهم : تعالوا إلى ماأنزل الله ﴿ قالوا بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا ﴾(4) وفى آية أخرى : ﴿ بل نتبع ماألفينا عليه آباءنا ﴾(5) هذا هو التقليد الأعمى الذى لايثبت أمام الحق ، ولايصمد فى مجال النور والبرهان ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ماأرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾(6)

﴿ قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(7)

وهنا يلقى الله عليهم باللائمة الشديدة فيقول فى موضع : ﴿ أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولايهتدون ﴾ وفى موضع آخر : ﴿ أولو كان آباؤهم لايعلمون شيئا ولايهتدون ﴾ وهنا فى سورة لقمان يقول : ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾

فأنت ترى فى تلك المواضع أنه لاعقل ولااهتداء ولاعلم ، وحيث كان ذلك كذلك فلم يبق إلا

---

(1) من الآية : ١٣ من سورة الرعد .
(2) الآيتان : ٣ ، ٤ من سورة الحج .
(3) الآيات : ٨ - ١٠ من سورة الحج .
(4) من الآية : ٢١ من سورة لقمان .
(5) من الآية : ١٧٠ من سورة البقرة .
(6) الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ من سورة الزخرف .
(7) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة الزخرف .

طريق الشيطان ﴿ يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾(١) ﴿ أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾(٢) ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾(٣) ﴿ ياأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولايغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير . الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير . أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلاتذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون ﴾(٤)

قوله تعالى : ﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور . ومن كفر فلايحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور . نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾

هذا إخبار منه - تعالى - عن الفريق الآخر ، وهو الذى لم يجادل فى الله ولم يتبع أسلوب تقليد الآباء والأجداد ، بل آمن بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا . ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾(٥) إنه فريق المخلصين الذين اعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله ، فليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل .

لقد استمسكوا بالعروة الوثقى ، والصلة القوية . ﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾(٦) إنه الفريق الناجى ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾(٧) أما الذين جادلوا فى الله بغير علم ولاهدى ولاكتاب منير وقلدوا الأجداد والآباء ﴿ أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٨)

إن العروة الوثقى هى الميثاق الأكيد والصلة القوية ، هى الإسلام ، هى التوحيد ، هى كلمة الله العليا ، وإلى الله عاقبة الأمور ، فهو الذى يعلمها ، وهى التى تؤول إليه وترجع لا إلى غيره قال تعالى : ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وماربك بغافل عما تعملون ﴾(٩) أم من كفر وأدبر وتولى وعمى عن الحق فلاتذهب نفسك على هؤلاء حسرات ولا يحزنك كفره . ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾(١٠)

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾(١١)

﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء

---

(١) الآية : ١٢٠ من سورة النساء .
(٢) من الآية : ١٩ من سورة المجادلة .
(٣) الآية : ٢٠ من سورة المجادلة .
(٤) الآيات ٥ - ٨ من سورة فاطر .
(٥) الآية : ١٣١ من سورة البقرة .
(٦) الآية : ٢٥٦ من سورة البقرة .
(٧) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٨) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٩) الآية : ١٢٣ من سورة هود .
(١٠) الآية : ٣٣ من سورة الأنعام .
(١١) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .

فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾(١)

قال تعالى : ﴿ واصبر وماصبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾(٢)

لاتحزن على هؤلاء فإن إلينا مرجعهم ﴿ إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم ﴾(٣) ﴿ فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾(٤)

﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾(٥) ﴿ يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ﴾(٦) ﴿ إنهم كانوا لايرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شىء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾(٧) ﴿ يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا ، وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾(٨)

هؤلاء الكافرون الذى غرتهم الدنيا وغرهم المال والأولاد ﴿ نمتعهم قليلا ﴾(٩) ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾(١٠) فالدنيا إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات .

﴿ لايغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾(١١) ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾(١٢).

﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون ﴾(١٣)

﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم ﴾ أى : نلجئهم (إلى عذاب غليظ) أى : فظيع وشنيع . ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾(١٤) .

(١) الآية : ٣٥ وبعض الآية ٣٦ من سورة الأنعام .
(٢) الآيتان : ١٢٧ ، ١٢٨ من سورة النحل .
(٣) الآيتان : ٢٥ ، ٢٦ من سورة الغاشية .
(٤) من الآية : ٦ من سورة المجادلة .
(٥) من الآية : ١١٩ من سورة آل عمران . ومن الآية : ٧ من سورة المائدة . ومن الآية : ٢٣ من سورة لقمان .
(٦) الآية : ١٩ من سورة غافر .
(٧) الآيات : ٢٧ - ٣٠ من سورة النبأ .
(٨) الآية : ٣٠ من سورة آل عمران .
(٩) من الآية : ٢٤ من سورة لقمان .
(١٠) من الآية : ٧٧ من سورة النساء .
(١١) الآيتان : ١٩٦ ، ١٩٧ من سورة آل عمران .
(١٢) الآيتان : ٦٩ ، ٧٠ من سورة يونس .
(١٣) الآية : ٣ من سورة الحجر .
(١٤) الآية : ٥٦ من سورة النساء .

قوله تعالى :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون . لله مافى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لاشريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله ﴾ أى : إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بل أكثرهم لايعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ لله مافى السموات والأرض ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إن الله هو الغنى الحميد ﴾ أى : الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه ، الحميد فى جميع ماخلق ، له الحمد فى السموات والأرض على ماخلق وشرع ، وهو المحمود فى الأمور كلها .

قال تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم . ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾

قال أئمة التفسير فى هذه الآية الكريمة أقوالا جديرة بالاحترام والتوقير ، قال الحسن البصرى : لو جعل شجر الأرض أقلاما وجعل البحر مدادا ، وقال الله : من أمرى كذا ومن أمرى كذا لنفد ماء البحر وتكسرت الأقلام .

وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفد ، فقال الله تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ أى : لو كان شجر الأرض أقلاما ومع البحر سبعة أبحر ماكان لتنفد عجائب ربى وحكمته وخلقه وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام ﴾ ... الآية ، يقول : لو كان البحر مدادا لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما لانكسرت الأقلام وفنى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لايفنيها شىء ، لأن أحدا لايستطيع أن يقدر قدره ولايثنى عليه كما ينبغى ، حتى يكون هو الذى يثنى على نفسه ، إن ربنا كما يقول وفوق مانقول .

قال الإمام الحافظ بن كثير فى تفسيره لهذه الآية :

يقول تعالى مخبرا عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا وكلماته التامة التى لايحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى : ﴿ ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله ﴾ أى : لو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مدادا وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مددا ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ولم يرد الحصر ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى :

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾[(١)] فليس المراد (بمثله) آخر فقط ، بل بمثله ، ثم بمثله ، ثم بمثله ، ثم هلم جرا ، لأنه لاحصر لآيات الله وكلماته .

وسبب نزول هذه الآية ماوراه ابن إسحاق بسنده عن ابن عباس أن أحبار يهود قالوا لرسول الله ﷺ بالمدينة : يامحمد ، أرأيت قولك : ﴿ وماأوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ إيانا تريد أم قومك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « كلاكما » قالوا : ألست تتلو فيما جاءك أنا قد أوتينا التوراة فيها تبيان لكل شىء ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها فى علم الله قليل ، وعندكم من ذلك مايكفيكم » وأنزل الله فيما سألوه عنه فى ذلك﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ .

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أى : غالب قاهر ، لايغلبه أحد ولايقهره غيره ، حكيم متنزه عن العبث ، يضع الأمور فى نصابها ، ويسمى الأشياء بأسمائها .

قوله تعالى : ﴿ ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾ ماخلقكم من العدم ولابعثكم بعد الفناء إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾[(٢)] .

﴿ إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾[(٣)]

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾[(٤)]

﴿ ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير ﴾[(٥)]

﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾[(٦)]

﴿ فإنما هى زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾[(٧)]

﴿ إن الله سميع بصير ﴾ إن الله سميع بأقوال العباد ، بصير بشئونهم أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا ، تبارك سمع الله إذ يقول ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ﴾[(٨)] وجل بصر الله إذ يقول : ﴿ إن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[(٩)]

---

(١) الآية : ١٠٩ من سورة الكهف .
(٢) الآية : ٤٠ من سورة النحل .
(٣) من الآية : ٤٧ من سورة آل عمران . ومن الآية : ٣٥ من سورة مريم .
(٤) الآية : ٨٢ من سورة يس .
(٥) الآية : ٧٧ من سورة النحل .
(٦) الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة القمر .
(٧) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة النازعات .
(٨) الآية : ١ من سورة المجادلة .
(٩) الآيتان : ٥ ، ٦ من سورة آل عمران .

وعظم علم الله إذ يقول : ﴿ يعلم خائنة الأعين وماتخفى الصدور ﴾[١]

قال الشيخ لتلمذه حيران :

إن آيات القرآن تكاد تكون مقسمة بين : دعوة إلى الله وإرشاد إلى دلائل وجوده ، ووحدانيته ، وعلمه ، وقدرته ، وإرادته ، وعنايته ، ورحمته ، وجميع صفات كماله ، ووعد ووعيد ، للترغيب فى طاعته والتحذير من معصيته ـ وتوكيد ليوم البعث وحض على مكارم الأخلاق ـ وقصص يمت بسبب الى هذه الأقسام الستة ولكن أهم هذه الأقسام ، وأعظمها عند الله ، هو القسم الأول ؟ لأن الإيمان بالله هو الأصل ، وهو الأساس لكل ماعداه ، ولذلك ترى ـ وأنت تتصفح القرآن ـ أن الآيات الدالة على الله ، لاتكاد تخلو منها سورة من السور ، بل يتكرر ذكرها أحيانا ، فى السورة الواحدة .

يقول حيران بن الأضعف : وهنا ناولنى الشيخ الدفتر الذى كان يكتب فيه الآيات وقال :

الشيخ : هذا هو الدفتر الذى جمعت لك به ، على ترتيب النزول أكثر آيات القرآن التى أراد بها الله تعالى إقامة البراهين على وجوده ، وعلى أنه هو الخالق ، البارىء ، المصور ، العليم ، القادر ، الحكيم ، وأكثر فيها ـ سبحانه ـ من الإشارة إلى أسرار قدرته وحكمته الدالة على القصد والنظام والإحكام والإتقان والتقدير والاتزان فى : خلق السموات والأرض ، والشمس ، والقمر ، والكواكب ، والنجوم ، والليل والنهار ، والرياح ، والأمطار ، والجبال ، والأنهار ، والبحار والنبات ، والحيوان ، والإنسان ، والأسماع ، والأبصار والأفئدة ، وماينطوى عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس . فتعال ياحيران نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملة واحدة ثم ندرسها على ضوء ماكشفه العلم من أسرار الوجود والخلق .

حيران : لماذا اختار مولاى إيراد الآيات على ترتيب النزول ، ولم يوردها على ترتيب السور ؟

الشيخ : لأنى أردت لك أن تتصور نفسك من أهل العصر الذى نزل به القرآن ، لترى كيف توالى الوحى ، وتتابع الهدى ، فى خطاب الناس بهذه البراهين الدالة على الله ، فإن ذلك يجعل تلاوة هذه الآيات أبلغ أثرا فى نفسك ، وأيسر فى تفهم أسلوب الهدى الكريم ، الذى اتبعه القرآن .

يقول حيران : ثم دفع إلى الشيخ ذلك الدفتر وقال : اقرأ وأسمعنى ، فقرأت الآيات الآتية :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم ﴾ سورة العلق الآيات : ١ ـ ٥

﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى . والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى ﴾ سورة الأعلى : الآيات ١ ـ ٥

﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد ﴾ سورة الإخلاص

﴿ قتل الإنسان ما أكفره . من أى شىء خلقه . من نطفة خلقه فقدره . ثم السبيل يسره ﴾ سورة عبس ـ الآيات : ١٧ ـ ٢٠

﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا . ثم شققنا الأرض شقا . فأنبتنا فيها حبا . وعنبا

(١) الآية : ١٩ من سورة غافر .

وقضبا . وزيتونا ونخلا . وحدائق غلبا . وفاكهة وأبا ﴾ سورة عبس ، الآيات : ٢٤ ـ ٣١
﴿ والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاها . والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها . ونفس وما سواها ﴾ سورة الشمس ، الآيات : ١ ـ ٧

﴿ ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ سورة التين : الآية : ٤
﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ سورة القيامة .
﴿ والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا . عذرا أو نذرا ﴾ سورة المرسلات : الآيات : ١ ـ ٦
﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . إلى قدر معلوم . فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين . ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا . وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ سورة المرسلات : الآيات : ٢١ ـ ٢٨
﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ سورة ق الآيات : ٦ ـ ١١
﴿ ألم نجعل له عينين . ولسانا وشفتين . وهديناه النجدين ﴾ سورة البلد ، ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ سورة القمر الآية : ٤٩
﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ سورة الأعراف : الآية : ٥٤
﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ سورة الأعراف : الآية : ٥٧
﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ﴾ سورة الأعراف ﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ سورة الأعراف ، ﴿ أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ﴾ سورة الأعراف : من الآية : ١٩١ .
﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾ سور يس ، الآيات : ٣٣ ـ ٤٠ .

﴿ أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ سورة يس ، الآيات : ٧١ - ٧٣

﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ سورة يس ، الآيات : ٧٧ - ٨١

﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ سورة الفرقان ، من الآية : ٢

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا . ثم قبضناه إلينا قبضا يسيرا . وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا . وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا . لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا . ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ . سورة الفرقان ، الآيات : ٤٥ - ٥٠

﴿ وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا . وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ﴾ . سورة الفرقان ، الآيتان : ٥٣ ، ٥٤ .

﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا . وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ سورة الفرقان ، الآيتان : ٦١ ، ٦٢

﴿ يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٣

﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾ . سورة فاطر ، الآية : ٩

﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ومايعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير . وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ﴾ . سورة فاطر ، الآيات : ١١ - ١٣

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ﴾ سورة فاطر ، الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا ﴾ سورة فاطر ، الآية : ٤١

﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾ سورة مريم ، الاية : ٦٧
﴿ قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى . قال فما بال القرون الأولى . قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيهه سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾ سورة طه ، الآيات : ٤٩ ـ ٥٤ ﴿نحن خلقناكم فلو لاتصدقون . أفرأيتم ماتمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ سورة الواقعة ، الآيات : ٥٧ ـ ٥٩ .

أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم ﴾ . سورة الواقعة ، الآيات :٦٨ ـ ٧٤ ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ . سورة الواقعة ، الآيتان : ٧٥ ـ ٧٦ ﴿ أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ . سورة الشعراء ، الآيتان : ٧ ـ ٨ .

﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون ﴾ سورة النمل ، الآيتان : ٦٠ ، ٦١
﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٦
﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾ سورة النمل ، الآية : ٨٨
﴿ وربك يخلق مايشاء ويختار ﴾ سورة القصص ، من الآية : ٦٨
﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ . سورة القصص ، الآيات : ٧١ ـ ٧٣
﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾ سورة الإسراء ، الآية : ١٢
﴿ ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ﴾ سورة الإسراء : ٦٦

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ سورة الإسراء : ٧٠

﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ سورة الاسراء الآية : ٨٥

﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ سورة يونس : ٥ ، ٦

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾ . سورة يونس : ٣١ ، ٣٢

﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى تؤفكون . قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لايهدى إلا أن يهدى فما لكم كيف تحكمون . وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لايغنى من الحق شيئا إن الله عليم بما يفعلون ﴾ سورة يونس ٣٤ ـ ٣٦

﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ سورة يونس : ٦٧

﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ﴾ سورة يونس : ١٠١

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور ﴾ سورة هود : ٩

﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ سورة يوسف : ١٠٥

﴿ والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون . وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين . وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر معلوم . وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وماأنتم له بخازنين وإنا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون ﴾ سورة الحجر : ١٩ ـ ٢٣

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ﴾ سورة الحجر : ٢٦

﴿ وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق ﴾ سورة الحجر : من الآية ٨٥

﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون . هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ﴾ سورة الأنعام : ١ ـ ٢

﴿ ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ سورة الأنعام : من الآية ٣٨

﴿ وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم

يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ سورة الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ سورة الأنعام : ٩٥ ـ ٩٩

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ سورة الأنعام : ١٠٢ ـ ١٠٣ .

﴿ وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين . ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ سورة الأنعام : ١٤١ ـ ١٤٢

﴿ فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ سورة الصافات : ١١

﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم . هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين ﴾ سورة لقمان : ١٠ ـ ١١

﴿ ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات ومافى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولاهدى ولا كتاب منير ﴾ سورة لقمان : ٢٠

﴿ ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾ سورة لقمان : ٢٧

﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن مايدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ سورة لقمان : ٢٩ ـ ٣١

﴿ ويرى الذى أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾

﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾ سورة الزمر : ٥ ـ ٦ .

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفر ثم يجعله حطاما إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب ﴾ سورة الزمر : ٢١

﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل . له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون . قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ سورة الزمر : الآيات : ٦٢ - ٦٤

﴿ هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا ومايتذكر إلا من ينيب ﴾ سورة المؤمن أو غافر : ١٣

﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لايشكرون . ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون . كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون . الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ سورة المؤمن : ٦١ - ٦٤

﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون . هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ سورة غافر : ٦٧ - ٦٨

﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ سورة غافر : ٧٩ - ٨١

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ سورة فصلت : الآية ٣٧

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ سورة فصلت : ٥٣

﴿ فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ سورة الشورى : ١١

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض ومابث فيهما من دابة ﴾ سورة الشورى : من الآية : ٢٩

﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام . إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ سورة الشورى : الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم . الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون . والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون . والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ماتركبون ﴾ سورة الزخرف : ٩ - ١٢

﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وماأنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ سورة الجاثية : ٣ - ٦

﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر

لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ . سورة الجاثية : ١٢ ـ ١٣

﴿ ماخلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون . قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين ﴾ سورة الأحقاف : ٣ ـ ٤

﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ سورة الذاريات : الآيتان : ٢٠ ، ٢١

﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون . ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ سورة الذاريات : الآيات : ٤٧ ـ ٤٩

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر ﴾ سورة الغاشية : الآيات ١٧ ـ ٢١

﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا ﴾ سورة الكهف : ٣٧

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا ﴾ سورة الكهف : ١٠٩

خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون . خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين . والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ﴾ سورة النحل : الآيات ٣ ـ ٨

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون . أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون . وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم . والله يعلم ماتسرون وما تعلنون . والذين يدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾ سورة النحل : ١٠ ـ ٢٠ ﴿ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ سورة النحل : ٤٠

﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم فى الأنعام لعبرة . نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين . ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ سورة النحل : ٦٥ ـ ٦٩

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون . ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا اللهإن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ سورة النحل الآيات : ٧٨ - ٨٢

﴿ وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ سورة نوح : ١٤ - ٢٠

﴿ أفى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ سورة إبراهيم ، من الآية : ١٠

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ﴾ سورة إبراهيم : ٢٤ - ٢٦

﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار . وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ سورة ابراهيم : ٣٢ ، ٣٣

﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون . وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون . وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون . وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون ﴾ سورة الأنبياء : ٣٠ - ٣٣

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وماكنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون . فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون . وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين . وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون . وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ سورة المؤمنون : ١٢ - ٢٢

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون . وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون . وهو الذى يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون ﴾ سورة المؤمنون : ٧٨ - ٨٠

﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون ﴾ سورة السجدة : الآيات ٧ - ٩

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون ﴾ سورة السجدة : ٢٧

﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لايوقنون ﴾ سورة الطور : ٣٥ ـ ٣٦

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾ سورة الملك : ١ ـ ٤

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ﴾ سورة الملك : من الآية ١٥

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن ﴾ سورة الملك : من الآية ١٩

﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون ﴾ سورة الملك : ٢٣

﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ﴾ سورة الملك : ٣٠

﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لاتبصرون ﴾ سورة الحاقة : ٣٨ ـ ٣٩

﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ﴾ سورة المعارج : ٤٠

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا . وجنات ألفافا ﴾ سورة النبأ : الآيات ٦ ـ ١٦

﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها ﴾ سورة النازعات : الآيات ٢٧ ـ ٣٢

﴿ ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك . فى أى صورة ماشاء ركبك ﴾ سورة الانفطار : ٦ ـ ٨

﴿ أو لم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى . . ﴾ سورة الروم : من الآية ٨

﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون . يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين . ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون . ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ سورة الروم : ١٧ ـ ٢٤

﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ سورة الروم : ٤٦

﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون . وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين . فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾ سورة الروم : ٤٨ : ٥٠

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . . . ﴾ سورة العنكبوت : من الآية ١٠

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ﴾(١) .

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شىء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾(٢) سورة العنكبوت .

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾(٣) . سورة العنكبوت

﴿ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾(٤) سورة العنكبوت

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾(٥) سورة البقرة

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون . هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم ﴾(٦) سورة البقرة .

﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى امرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾(٧) سورة البقرة

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾(٨) سورة البقرة .

﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾(٩) سورة البقرة

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾(١٠) سورة البقرة .

(١) سورة العنكبوت الآية : ٢٠
(٢) سورة العنكبوت الآيات : ٤١ - ٤٣
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦١
(٤) سورة العنكبوت الآية : ٦٣
(٥) سورة البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢
(٦) سورة البقرة الآيتان : ٢٨ ، ٢٩
(٧) سورة البقرة الآية : ١١٧
(٨) سورة البقرة الآية : ١٦٤
(٩) سورة البقرة الآية : ١٧١
(١٠) سورة البقرة من الآية : ١٨٩

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم . هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾[1] سورة آل عمران

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[2] سورة آل عمران .

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[3] سورة آل عمران .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ﴾[4] . سورة آل عمران

﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء . . . ﴾[5] سورة النساء .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . . . ﴾[6] سورة الحديد

﴿ اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾[7] سورة الحديد

﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[8] سورة الرعد

﴿ هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشىء السحاب الثقال ﴾ سورة الرعد .

﴿ قل من رب السموات والأرض قل الله قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾[9] سورة الرعد .

﴿ الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان . الشمس والقمر بحسبان ﴾[10] سورة الرحمن .

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٦ ، ٧
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨
(٣) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١
(٥) سورة النساء من الآية : ١
(٦) سورة الحديد من الآية : ٦
(٧) سورة الحديد من الآية : ١٧
(٨) سورة الرعد الآيات : ٢ - ٤
(٩) سورة الرعد الآية : ١٦
(١٠) سورة الرحمن الآيات : ١ - ٥

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا . إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾[١] ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ [٢] سورة الطلاق

﴿ ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار . والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾[٣] سورة النور .

﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم لنخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾[٤] سورة الحج .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾[٥] سورة الحج .

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾[٦] سورة الحج .

﴿ ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وإن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير . ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة . إن الله لطيف خبير . له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم . وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴾[٧] سورة الحج .

﴿ يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾[٨] . ﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾[٩] سورة التغابن .

---

(١) سورة الانسان الآيتان : ١ ، ٢
(٢) سورة الطلاق من الآية : ٣
(٣) سورة النور الآيات : ٤٣ - ٤٥
(٤) سورة الحج الآيتان : ٥ ، ٦
(٥) سورة الحج الآية : ١١
(٦) سورة الحج الآية : ٤٦
(٧) سورة الحج الآيات : ٦١ - ٦٦
(٨) سورة الحج الآيتان : ٧٣ ، ٧٤
(٩) سورة التغابن الآية : ٣

يقول جيران بن الأضعف ولما انتهيت من قراءة هذه الآيات قلت للشيخ الموزون : جزاك الله عنا خيرا يامولاى فقد والله ، قرأت الساعة آيات لا أتذكر أنها مرت على فى كل ما أُتيح لى فى عمرى ، من التلاوات ، وما أظن ذلك إلا من ترك التأمل والتدبر ، فى التلاوة المعتادة للتبرك .

الشيخ : لا يكفى أن تقرأ هذه الآيات مرة أو مرتين ولكن يجب ان تصنفها أصنافا ليجتمع أمام عينيك ، فى كل شىء من خلق الله ، الآيات المشيرة إليه ، وقد يكون بعضها شاملا لعدة أشياء ، فلا بأس من تكرار ذكرها .

من آيات الله الكونية

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير . ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير** ﴾[1] .

وتلك آية أخرى من الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته ، فالليل والنهار آيتان من آيات الله . قال تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا** ﴾[2] وقال عز من قائل ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون . قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون . ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[3]

ومن آيات الله فى الليل والنهار انه يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ويكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل . ألم تشاهد أيها الناظر ، بعينيك أن الله يزيد ما نقص من ساعات الليل فى ساعات النهار ، ويزيد ما نقص من ساعات النهار فى ساعات الليل .

والخلاصة : أنه يأخذ فى الليل من النهار ، فيقصر ذاك ويطول هذا ، وذاك فى مدة الصيف ، إذ يطول النهار إلى الغاية ، ثم يبتدىء النهار فى النقصان ، ويطول الليل إلى الغاية فى مدة الشتاء .

﴿ **وسخر الشمس والقمر** ﴾ لمصالح خلقه ومنافعهم .

﴿ **كل يجرى إلى أجل مسمى** ﴾ أى : كل منهما يجرى بأمره إلى وقت معلوم ، وأجل محدد ، إذا بلغه كورت الشمس والقمر .

﴿ **وأن الله بما تعملون خبير** ﴾ أى : وأن الله بأعمالكم من خير وشر خبير بها لا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو مجازيكم بها .

ثم بين الحكمة فى إظهار آياته للناس ، فقال : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل** ﴾ أى : إنما يظهر آياته للناس ليستدلوا بها على أنه هو المستحق للعبادة ، وأن كل ما سواه هو

---

(١) سورة لقمان الآيتان : ٢٩ ، ٣٠
(٢) سورة الاسراء الآية : ١٢
(٣) سورة القصص الآيات : ٧١ ـ ٧٣

الباطل الذى يضمحل ويفنى ، فهو الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه .

﴿ وأن الله هو العلى الكبير ﴾ أى : وأنه تعالى المرتفع على كل شىء والمتسلط على كل شىء ، فكل شىء خاضع له ، وهو الحكم العدل اللطيف الخبير .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور . وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾(١) .

وكما أن الليل والنهار آيتان من آيات الله يولج كلا منهما فى الآخر ، فكذلك تسخير الشمس والقمر من آيات الله ، والكل يجرى إلى أجل مسمى حدده الله تعالى . ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق . . يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ ﴿ إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون ﴾ . كذلك جريان الفلك فى البحر بنعمة الله حسب قانون الأجسام الطافية وما ركزه الله تعالى فى هذا الكون من نواميس آية أخر . ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح ﴾ ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ .

هذا الكون من نواميس آية اخر ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ﴿ وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام ﴾ .

قال تعالى : ﴿ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب السفن وهى تسير فى البحر حاملة للأقوات والمتاع ، ومن بلد إلى آخر ، ومن قطر إلى قطر هو فى حاجة إليها لينتفع الناس بما على ظاهر الأرض مما ليس فى أيديهم .

وفى هذا دليل على عجيب قدرته التى ترشدكم إلى أنه الحق الذى أوجد ما ترون من الأحمال الثقيلة على وجه الماء الذى ترسب فيه الابرة فما دونها .

ثم ذكر من يستفيد من النظر فى الآيات ، فقال : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أى إن فيها ذكر لدلائل واضحات لكل صبار فى الضراء ، شكور فى الرضاء ، قال الشعبى : الصبر نصف الايمان ، والشكر نصف الايمان ، واليقين الايمان كله ، ألم تر إلى قوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ وقوله ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام : « الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر » .

ثم بين أن المشركين ينسون الله فى السراء ويلجئون إليه حين الضراء فقال : ﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أى وإذا أحاطت بالمشركين الذين يدعون من دون الله الآلهة والأوثان . الأمواج العالية كالجبال ، وأحدق بهم الخطر من كل جانب حين يركبون السفن ـ فزعوا

(١) سورة لقمان الآيتان : ٣١ ، ٣٢

بالدعاء إلى الله مخلصين له الطاعة لا يشركون به شيئا ولا يدعون معه أحدا سواه ، ولا يستغيثون بغيره .

﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحدون بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ أى فلما نجوا من الأهوال التى كانوا فيها ، وخلصوا إلى البر ، فمنهم متوسط فى أقواله وأفعاله بين الخوف والرجاء ، موف بما عاهد عليه الله فى البحر ، ومنه من غدر ونقض عهد الفطرة ، وكفر بأنعم الله عليه .

سبحانك ربى كل ما فى الكون من صنعتك ، فأنت الخالق المدبر الحكيم المريد القدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، سبحه الطير فى وكره ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته ان تقوم السماء والأرض بأمره ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾[1] .

ختام السورة

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

معانى المفردات

اتقوا ربكم : أى خافوا عقابه ، لا يجزى : أى لا يغنى ، والغرور ، ما غر الانسان من مال وجاه . وشهوة وشيطان ، والساعة : يوم القيامة . ما فى الأرحام : أى ما فى أرحام النساء من صفاته وأحواله كالذكورة والأنوثة والحياة والموت ، وغيرها من الأعراض .

بعد أن ذكر دلائل التوحيد على ضروب مختلفة ، وأشكال منوعة ـ أمر بتقوى الله على سبيل الموعظة والتذكير بيوم عظيم ، يوم يحكم الله بين عباده ، يوم لا تنفع فيه قرابة ، ولا تجدى فيه صلة رحم ، فلو أراد والد أن يفدى ابنه بنفسه لما قبل منه ذلك ، وهكذا الابن مع أبيه ، فلا تلهينكم الدنيا

(١) سورة فاطر من الآية : ١٣ إلى الآيات ١٧

عن الدار الآخرة ، ولا يغرنكم الشيطان فيزينن لكم بوساوسه المعاصى والآثام . ثم ختم السورة بذكر ما استأثر الله بعلمه ، مما فى الكائنات ، وهى الخمس التى اشتملت عليها الآية الكريمة ، مما لم يؤت علمها ملك مقرب ، ولا نبى مرسل .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم ﴾ هذا خطاب للبشرية جمعاء فيه أمر بالتقوى ، والتقوى هى : الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل . ﴿ واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ﴾ أى : احذروا هذا اليوم الذى يفر المرء فيه من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، فالوالد لا يملك أن يفدى ولده ، وكذلك المولود لا يستطيع أن يفدى والده ، بل إن الولد يلقى أباه فيقول له : ياأبت لقد كنت بك برا وإليك محسنا وعليك مشفقا فهل أجد لديك من حسنة يعود على خيرها اليوم ، فيقول له أبوه : يابنى ليتنى استطيع ذلك انى اشكو مما منه تشكو . وتلقى الأم ولدها فتقول له يابنى : لقد كان بطنى لك وعاء وكان ثديى لك سقاء ، وكان حجرى لك وطاء . فهل أجد عندك من حسنة يعود على خيرها اليوم ؟ فيقول لها : ليتنى أستطيع ذلك إننى أشكو مما منه تشكين . . اقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ . وكما أمر الله تعالى : عباده بالتقوى والخشية من يوم يجعل الولدان شيبا أخبرهم بأن وعده حق ، فهو الحق وقوله الحق ولقاؤه حق ووعده حق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا بزخارفها الخادعة ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا . ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ أى : الشيطان الذى قال الله فيه : ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) . وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ فما طريق النجاة ؟ ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير ﴾ .

هذه خمسة أشياء لا يعلمها إلا الله : إن الله عنده علم الساعة فلا يعلمها أحد سواه ، لا ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، كما قال : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ .

(٢) ﴿ وينزل الغيث ﴾ فى وقته المقدر له ، ومكانه المعين فى علمه تعالى .

(٣) ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ أذكر هو أم أنثى ، أتام الخلق أما ناقصه ، أو نحو ذلك من الأحوال العارضة له .

(٤) ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ﴾ من خير أو شر .

(٥) ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ أى : لا يدرى أحد أين مضجعه من الأرض ؟ أفى بحر أم فى بر ، أم فى سهل أم فى جبل .

﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أى : إن الله عليم بجميع الأشياء ، خبير ببواطنها كما هو خبير بظواهرها .

أخرج ابن المنذر عن عكرمة (أن رجلا يقال له : الوارث بن عمرو بن حارثة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد متى قيام الساعة ، وقد أجدبت بلادنا ، فمتى تخصب ؟ وقد تركت امرأتى حبلى فما تلد ؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا ؟ وقد علمت بأى أرض ولدت ، فبأى أرض أموت ، فنزلت الآية : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾[١] الخ .

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر ، أن رسول الله ﷺ قال : (مفاتيح الغيب خمس : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾[٢] .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

قال الحافظ بن كثير رحمه الله تعالى فى تفسير هذه الآية :

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها واخراها . ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان . . لا علم لأحد بذلك ، وهذا شبيهه بقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (خمس لا يعلمهن إلا الله ـ عز وجل ـ : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير)[٣] .

وروى الإمام احمد بسنده عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : (أوتيت مفاتيح كل شىء إلا الخمس : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب

---

(١) انظر الدر المنثور فى تفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ح ٦ ص ٥٣٠ ، ٥٣١ فى تفسير قوله تعالى : إن الله عنده علم الساعة الآية .

(٢) فى الدر المنثور فى تفسير المأثور فى تفسير سورة لقمان آية « إن الله عنده علم الساعة » الآية ح ٦ ص ٥٦١ وقال اخرج الفريابى والبخارى ومسلم وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عمر وذكر الحديث . . »

(٣) رواه الامام احمد فى مسنده (من حديث بريدة) ح ٥ ص ٣٥٥

غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير)[١] .

وقال البخارى : بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يوما بارزا للناس إذ أتاه رجل يتمشى ، فقال : يارسول الله ما الايمان ؟ قال ؟ « الايمان ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » قال : يارسول الله ما الاسلام ؟ قال : « الاسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان) قال : يارسول الله ما الاحسان ؟ قال : (الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قال : يارسول الله متى الساعة ؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربتها فذاك من أشراطها ، وإذا كان الحفاة العراة رءوس الناس ، فذاك من أشراطها فخمس لا يعلمهن إلا الله ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام ﴾ . الآية : ثم انصرف الرجل فقال : ردوه على فأخذوا ليردوه فلم يروا شيئا قال : (هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم)[٢]

روى الأمام أحمد بسنده عن حراش عن رجل من بنى عامر أنه إستأذن على النبى ﷺ فقال : أألج ؟ فقال النبى ﷺ لخادمه : « إخرجى إليه فإنه لا يحسن الاستئذان فقولى له : فليقل : السلام عليكم أأدخل » قال : فسمعته يقول ذلك ، فقلت السلام عليكم أأدخل ؟ فأذن لى ، فدخلت فقلت : بم أتيتنا ؟ قال (لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وان تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ، وأن تصوموا من السنة شهرا وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم) . قال : فقال فهل بقى من العلم شىء لا تعلمه ؟ قال : (قد علمنى الله - عز وجل - خيرا وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله - عز وجل - : الخمس (إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام)[٣] الآية .

وقد جاء فى الحديث : (إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له فيها حاجة)[٤] .

جنس الجنين

ولد أو بنت

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه : خلق الانسان بين الطب والقرآن قضية تشغل بال الآباء والأمهات كثيرا . . ترى ماذا يكون الحمل ؟ ولد أو بنت . . ذلك سر مغلق بالنسبة للآباء والأمهات

---

(١) رواه الامام احمد فى مسنده (مسند عبد الله بن عمر) ج ٢ ص ٨٥ .

(٢) انظر صحيح البخارى (كتاب الايمان) باب : سؤال جبريل النبى ﷺ عن الايمان والاسلام ، والاحسان وعلم الساعة . . الخ ج ١ ص ١٩ ، ٢٠

(٣) مسند الامام أحمد (من أحاديث رجال من أصحاب النبى ﷺ (ج ٥ ص ٣٦٩

(٤) الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ١ ص ٢٦٧ رقم ٤٠٤ وقال المناوى : اخرجه احمد والطبرانى فى الكبير وابو نعيم فى الحلية عن أبى عزة ، يسار بن عبدالله او ابن عبد او ابن عمر الهزلى له صحبة سكن البصرة ، وقيل : هو مطر بن عكامس لان حديثهما واحد ، وهو هذا ، وقيل : غيره ، ورواه عنه الترمذى فى العلل ثم ذكر انه سأل عنه البخارى فقال : لا أعرف لأبى عزة إلا هذا انتهى قال الهيثمى : يعد عزوه لأحمد والطبرانى . فيه محمد بن موسى الخرشى ، وفيه خلف انتهى . ورواه عنه ايضا البخارى فى الأدب والحاكم وبالجملة : فهو حسن .

حتى يحين موعد الولادة . ولكن العلم الحديث توصل إلى معرفة ذلك السر ، إنه سر لا يباح كثيرا ، فليس من اليسير عمل الفحوصات الخاصة بمعرفة الجنين ، إذ أن ذلك يتطلب سحب كمية من السائل الامينوسى (الرهل) المحيط بالجنين والمتناثرة فيه بعض خلاياه وبفحص هذه الخلايا ، وبالذات فحص أجسامها الملونة (الكروموسومات) يمكن تحديد نوع الجنين ذكر أو أنثى ، ولكن الأطباء لا يجرون مثل هذه الفحوص إلا إذا كانوا مشتبهين بوجود تشويهات خلقية ، وفى أثناء ذلك يتعرفون على جنس الجنين ومن الناحية الطبية ليست هناك أى أهمية لمعرفة نوع الجنين المهم أن يكون سليما من التشويهات تام الخلقة . مكتمل الاعضاء . . ومن المقرر علميا أن جنس المولود يتحدد فى اللحظة الأولى التى يلتقى فيها الحيوان المنوى بالبويضة فيلقحها ، فإذا ما التقى حيوان منوى يحمل شارة الذكورة (Y) بالبويضة ، فإن الجنين سيكون ذكرا بإذن الله . أما إذا كان الحيوان المنوى الذى سيلقح البويضة . يحمل شارة الأنوثة فإن الجنين سيكون أنثى بإذن الله . إذن فالحيوان المنوى أو نطفة الرجل هى التى تحدد نوعية الجنين : ذكر أم أنثى . ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذ تمنى** ﴾[1] والنطفة التى تمنى : هى نطفة الرجل بلا ريب . ويقول تعالى أيضا : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه (أى المنى) الزوجين الذكر والأنثى . . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾[2] .

وبالنسبة للأطباء فإنه لا يمكن معرفة الجنين إلا بعد مضى أربعة أشهر على الأقل عندما يمكن أن تغرز إبرة لسحب نقطة من السائل الأمينوسى لفحص خلايا الجنين . . هل تحمل شارة الذكور ؟ (Y) أو تحمل شارة الأنوثة (X) أما فى الجنين ذاته فإنه لا يمكن تمييزه ولو نزل سقطا ، ويشرح تشريحا كاملا حتى نهاية الاسبوع السادس الرحمى ، فغدد التناسل : الخصية (فى الذكر) والمبيض (فى الأنثى) تتشابهان تماما فى هذه المرحلة المبكرة من النمو . . ولا يمكن التمييز بينهما . . وفى نهاية الاسبوع السابع تبدأ الخصية بالنمو قبل المبيض ويظهر فيها نسيج خاص ، كما أنها تلف بغلالة بيضاء تدعى اللفافة البيضاء ويقول المصطفى ـ صلوات الله عليه ـ (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أو أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء) وفى تلك اللحظة يعلم الملك نوع الجنين ذكر أو أنثى أما فى علم الله فهو معروف منذ الأزل . . وعلى مستوى الصيفات (الكروموسومات) يتحدد نوع الجنين منذ لحظة التلقيح . . والتقاء الحيوان المنوى (ماء الرجل) ببويضة المرأة (ماء المرأة) وتنمو الخصية أو المبيض من الحدبة التناسلية فى منطقة بين الصلب (العمود الفقرى) والترائب (الأضلاع) ، ثم تنزل تدريجا إلى الحوض إبتداء من الاسبوع العاشر للحمل حتى تصل إلى الحوض فى الشهر السابع ، ثم تواصل الخصية نزولها فى الشهر التاسع إلى كيس الصفن خارج الجسم ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾[3]

---

(١) سورة النجم الايتان : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) سورة القيامة الآيات : ٣٦ ـ ٤٠ .

(٣) سورة الطارق الآيات : ٥ ـ ٧

*** الأعضاء التناسلية الظاهرة :**

يصعب التفريق بين الذكر والأنثى من حيث الأعضاء التناسلية الظاهرة إلى بداية الشهر الرابع من الحمل .. ومن ثم يكون التميز بينهما .. أما بداية تكون هذه الأعضاء فتبدأ فى الأسبوع الرحمى السادس (٤٢ يوما) وتستمر فى النمو . ولكن التمييز لا يظهر إلا فى بداية الشهر الرابع وتبدأ الأعضاء الظاهرة برعما صغيرا فوق شق .. أما البرعم فيتحول إلى قضيب أو بظر (حسب نوع الجنين) وأما الشق فإما أن يبقى فيكون على جانبه الشفران كما هو فى البنت أو يلتصق ويكون كيس الصفن كما هو فى الولد ، ثم تنزل الخصية من كل جانب إلى كيس الصفن فى الشهر التاسع .

ويبدأ التكوين الجنسى (فى الأسبوع السادس) (٤٢ يوما) إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء) ويبدأ الملك عمله منذ تلك اللحظة فى توجيه الأنسجة والخلايا الصماء إلى وظائفها وأماكنها المحدودة فى وقتها المعلوم ، وعندما تكتمل مراحل النطفة والعلقة والمضغة يؤمر الملك بالدخول مرة أخرى ليحدد الأعضاء الظاهرة هذا ذكر وهذه انثى . هذا تقدير بعد تقدير وتصوير بعد تصوير .. فقد قدر الله ـ سبحانه ـ أمر المخلوقات قبل خلقها فى اللوح المحفوظ ، ثم قدرها وهى فى عالم الذر حين قبض قبضة من اليمين فقال : هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون . وقبض الأخرى وقال : هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون . ثم قدر سبحانه ـ وتعالى ـ حيوانا منويا بعينه من بين بلايين الحيوانات المنوية التى يقذفها الرجل ليلقح بويضة واحدة ثم نموها من بين ملايين البويضات الموجودة فى مبيض جنين الأنثى .. ثم اختارها من بين مئات البويضات التى تنمو كل شهر تحت تأثير هورمون الغدة النخامية وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة فى قوله تعالى : ﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه . وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون** ﴾[1] والسلالة : هى الخلاصة .. ونسل الانسان من خلاصة الخلاصة . من الماء المهين (المنى) .. الذى يختار الله منه حيوانا منويا واحدا فقط ليلقح البويضة المختارة من بين آلاف البويضات الموجودة فى مبيض المرأة ، ويتحدد جنس الجنين على مستوى الصبغيات (الكروموسومات) فى لحظة التلقيح فإذا ما لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة كان الجنين انثى بإذن الله .

أما على مستوى الأنسجة فلا يتحدد جنس الجنين إلا فى الاسبوع السابع بعد دخول الملك حينما تعلم الغدة التناسلية هل هى مبيض او خصية .. ثم تحدد بعد ذلك الأعضاء التناسلية الخارجية فى الاسبوع الثانى عشر .. وقد لا يتطابق التكوين الجنسى الظاهرى للاعضاء التناسلية مع التكوين الجنسى للغدة التناسلية فقد يكون جنس المولود ذكرا فى الحقيقة بينما اعضاؤه التناسلية توحى بأنه أنثى وقد يكون العكس .. وهذا ما تكتبه الصحف والمجلات من أن سعيدة قد أجريت لها عملية وتحولت إلى سعيد والواقع أن الجراح لم يغير جنس الجنين بل أعاده إلى وضعه الطبيعى ، وهناك حالات اكثر تعقيدا نتركها

(١) سورة السجدة الآيات : ٧ ـ ٩

للاطباء . . ومن المعلوم أن الأعضاء التناسلية الخارجية إنما تنشأ من نتوءات بالجلد ولا يتم تكوين الجلد الا فيما بين الاسبوع العاشر والثانى عشر . . وحديث رسول الله ﷺ الذى اخرجه مسلم ، يقول : (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها . . ثم قال : رب اذكر أم أنثى ؟)[1] .

ومعنى ذلك أن الأعضاء التناسلية الخارجية لاتظهر إلا بعد ظهور السمع والبصر والعظام واللحم والجلد . . . ومن الإعجاز ههنا أن يُذكر تكون الجلد قبل ظهور أعضاء التناسل الخارجية ، لأن الجلد يسبق ظهورها . . بل ومنه تتكون الأعضاء التناسلية الخارجية . (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله أشقى أم سعيد)[2] .

قد يسأل سائل فيقول : أليس فى هذا معرفة للغيب . . والله قد استأثر بعلم الغيب عنده . . وذكر ان مفاتح الغيب خمسة من المذكور فى الآية ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافى الأرحام وماتدرى نفس ماذا تكسب غدا وماتدرى نفس بأى أرض تموت . إن الله عليم خبير** ﴾ .

وجاء فى تفسير ابن كثير عن هذه الآية ما يلى :

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله ـ تعالى ـ بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى . فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبى مرسل ولا ملك مقرب ﴿ **لا يجليها لوقتها إلا هو** ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد ان يخلقه الله تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى ، شقيا أو سعيدا . علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذا لا تدرى نفس ماذا تكسب غدا فى دنياها أو أخراها ، ﴿ **وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان . . لا علم لأحد بذلك .

وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو** ﴾ الآية . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب . قال ابن حجر : (وأما ما ثبت بنص القرآن ان عيسى ـ عليه السلام ـ قال إنه يخبرهم بما يأكلون وما يدخرون ، وأن يوسف قال : إنه ينبئهم بالطعام قبل أن يأتى إلى غير ذلك مما ظهر من المعجزات والكرامات فكل ذلك يمكن أن يستفاد من الاستثناء إلا من ارتضى من رسول) فإنه يقتضى إطلاع الرسول على بعض الغيب . والولى التابع للرسول عن الرسول ليأخذ به يكرم ، والفرق بينهما أن الرسول يطلع على ذلك بأنواع الوحى كلها . والولى لا يطلع على ذلك إلا بمنام أو إلهام . والله أعلم . ونقول : إن الآية الكريمة جعلت التعبير مختلفا من جملة إلى أخرى . . ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ فهو المختص وحده بعلمها ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من**

---

(١) جزء من حديث اخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب القدر) باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه . . الخ ج٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٢٦٤٥ .

ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾ ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها . قل إنما علمها عند ربى ﴾ ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله ﴾ .

وعندما سئل عنها رسول الله ﷺ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) . فقد أخبر ﷺ عن أشراطها وعلاماتها وذكر كثيرا من هذه العلامات الصغرى والكبرى .

﴿ وينزل الغيث ﴾ فهو وحده الذى ينزل الغيث : ولكن الله تعالى لم ينف عن البشر أن يعرفوا مواقيت نزول الغيث بأمارات وإشارات .. تختلف قوة إدراكها من شخص لآخر ، ومن زمان لزمان .. حسب الخبرة وتجمع المعلومات ، ومع هذا فرغم الدقة العلمية ، التى بلغها الانسان فى هذا الزمان ، فإن التنبؤات الجوية كثيرا ما تخيب وتفشل .. وعلم نزول الغيث ظنى بالنسبة للانسان لا يقنى ، ولا شك أن هناك فرقا هائلا وبونا شاسعا بين علم الله .. سبحانه وتعالى : غير المحدود واللانهائى .. والذى لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه ، والذى لا يمكن قط أن يخطىء .. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وبين علم البشر المحدود القابل للخطأ وللنسيان وللتبديل والتخريف ، ومعرفة نزول الغيث معرفة إشاراته وعلاماته . مثل أن ترى السحاب الكثيف من بعد مع خبرة بأنواع السحاب تصدق فى كثير من الأحيان ، وتخيب وتفشل فى معرفة بعضها استنادا إلى عوامل متعددة تدخل فيها خبرة الشخص ووسائله المتاحة له ، ومع وجود عوامل اخرى ، قد تأتى وتعارضها فجأة ، وكذلك علم ما فى الأرحام ، فالله وحده هو الذى يعلم علما محيطا شاملا بما فى الأرحام . ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام .. وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ﴾[1] ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ فعلمه سبحانه شامل كامل محيط يعرف كل صغيرة وكبيرة فى الرحم وغيره . ﴿ إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله . إن الله لطيف خبير ﴾[2] ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو . ويعلم ما فى البر والبحر .. وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[3] فعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ شامل لما فى الرحم من ذكورة وأنوثة ، ومن طول وقصر ، ومن صفات وملامح وشيات ، ومن طبائع موروثة ، وأخرى ستكتسب فيما يقبل من الأيام ، بل إن الملك الموكل بالرحم يعلم ذلك ويكتبه كما مر معنا فى الأحاديث النبوية الشريفة ويعلم ذلك مجملا فى نهاية الأربعين الأولى من عمر النطفة ، ثم يعلمها مفصلة فى نهاية مرحلة المضغة .. ويكتب ذلك بين عينيه حتى النكبة ينكبها ويكتب أربع كلمات : (رزقه ـ وأجله ـ وعمله ـ وشقى أم سعيد) .

تلك التفاصيل الهائلة سقط ام تمام مشوهة الخلق ، أم سليمها ناقص الأطراف مبتورها ، أم كاملها .. بعين واحدة ام بعينين ، بشفة مبتورة شرماء أم كاملة ، سقف حنكه تام أم ناقص . قلبه سليم التكوين أم به عيوب خلقيه ، وما أكثرها . جهازه العصبى .. دماغه وأعصابه مساراتها المختلفة .. عضلاته .. واسرارها .. جلده وما يحمله .. شراينه وأوردته ومجاريها .. غدده

(١) سورة الرعد الآية : ٨

(٢) سورة لقمان الآية : ١٦

(٣) سورة الأنعام الآية : ٥٩

المختلفة .. إلى آخره .. حتى الجسيمات الملونة (الكروموسومات) وأسرار البروتينات وأسرار الأنوية ، وأسرار التكوين ، ثم بعد ذلك اسرار الروح .

وأسرار النفخة الكريمة التى اختص بها الانسان ، ترى من يعلم كل ذلك .. من غير الله ... ؟ فإذا عرفنا نوعية الجنين ذكر أم أنثى فتلك معرفة ناقصة مبتورة ، ومع هذا يمكن أن تخطىء يمكن أن يكون الأعضاء الظاهرة لأنثى ، وتكون الغدد التناسلية للذكر ، ويحتاج الطفل بعد ولادته لعملية لارجاعه إلى جنسه الحقيقى ، وقد يكون العكس ظاهره ولد وحقيقته أنثى ولا يعلم ذلك إلا بعد الولادة ، وبعد فحوص طويلة ، وقد يكون الأمر أعقد وأغرب .. وهو خنثى حقيقية تحمل صفات الذكورة وصفات الأنوثة .. تحمل الخصية والمبيض معا فمتى يدرك الانسان ذلك ، وهى لا تعرف إلا بعد إجراء فحوص وعمليات بعد الولادة لفترة من الزمان إذن : فعلم الانسان بما فى الأرحام ظنى لا يقينى ، وعلم الله ـ سبحانه وتعالى ـ شامل كامل محيط لا يتسرب إليه الشك ولا الخطأ .. علم الانسان على النقيض من ذلك كله .. علم ما فى الأرحام يشبه علم التنبؤات الجوية .. تصدق حينا وتخطىء أخرى ، وقد يغلب الصواب فيها بناء على الخبرة والمعرفة والعلوم الحديثة ، واستخدام الوسائل التقنية البارعة ، ولكن ذلك كله لا يخرجها إلى علم اليقين المطلق .. تظل كما هى فى حدود البشرية قابلة للخطأ .. قابلة للنقد .. قابلة للتحريف .. وكذلك علم ما فى الأرحام .

سورة السجدة

مقدمة : قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، سوى ثلاث آيات ، فإنها مدينة ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا** ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث : عدد آياتها تسع وعشرون عند البصريين وكلماتها : ثلاثمائة وثلاثون ، وحروفها ألف وخمسمائة وتسع وتسعون . ولها ثلاثة أسماء (سورة السجدة) لاشتمالها على سجدة التلاوة ، الثانى سجدة لقمان ، للتمييز عن (حم السجدة) ، الثالث المضاجع : لقوله ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ .

مقصود السورة :

تنزيل القرآن ، وإنذار سيد الرسل ، وتخليق السماء والأرض وخلق الخلائق ، وتخصيص الانسان من بينهم ، وتسليط ملك الموت على قبض الأرواح ، وتشوير العاصين فى القيامة ، وملء جهنم من أهل الانكار ، والضلالة ، وإسقاط خواص العباد فى أجواف الليالى للعبادة ، وإخبارهم بما ادخر لهم فى العقبى : من أنواع الكرامة والتفريق بين الفاسقين ، والصادقين فى الجزاء ، والثواب فى يوم المآب ، وتسلية النبى ﷺ بتقرير أحوال الأنبياء الماضين ، وتقرير حجة المنكرين للوحدانية ، وامر الرسول ﷺ بالاعراض عن مكافأة أهل الكفر ، وامره بانتظار النصر ، بقوله : ﴿ **فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ وفى سأل سائل (خمسين ألف سنة) موضع بيانه التفسير . . والغريب فيه ما روى عن عكرمة فى جماعة : أن اليوم فى المعارج عبارة عن أول أيام الدنيا إلى انقضائها ، وأنها خمسون سنة ، لايدرى أحدكم كم مضى وكم بقى إلا الله ـ عز وجل ـ .

ومن الغريب أن هذه عبارة عن الشدة ، واستطالة أهلها إياها ، كالعادة فى استطالة أيام الشدة والحزن ، واستقصار أيام الراحة والسرور ، حتى قال القائل : سنة الوصل سِنة ، وسِنة الهجر سنة . وخصت هذه السورة بقوله : ألف سنة ، لما قبله ، وهو قوله : ﴿ فى ستة أيام ﴾ وتلك الأيام من جنس ذلك اليوم ، وخصت : سورة المعارج بقوله : ﴿ خمسين ألف سنة ﴾ لأن فيها ذكر القيامة وأهوالها ، فكان هو اللائق بها .

قوله : ﴿ ثم أعرض عنها ﴾ (ثم) ههنا يدل على أنه ذكر مرات ثم تأخر واعرض عنها . والفاء يدل على الاعراض عقيب التذكير قوله : ﴿ عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ ، وفى سبأ ﴿ التى كنتم بها ﴾ لأن النار وقعت فى هذه السورة موقع الكناية ، لتقدم ذكرها ، والكنايات لا توصف ، فوصف العذاب ، وفى سبأ لم يتقدم ذكر النار ، فحسن وصف النار . قوله : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون ﴾ بزيادة (من) سبق فى سورة طه .

قوله : ﴿ إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ ليس غيره ، لأنه لما ذكر القرون والمساكن بالجمع حسن جمع الآيات ، ولما تقدم ذكر الكتاب ـ وهو مسموع ـ حسن لفظ السماع مختم الآية به .

مناسبتها لما قبلها

وذلك من وجوه :

(١) اشتمال كل منهما على دلائل الألوهية .

(٢) إنه ذكر فى السورة السالفة دلائل التوحيد ، وهو الأصل الأول ، ثم ذكر المعاد ، وهو الأصل الثانى ، وهنا ذكر الأصل الثالث ، وهو النبوة .

(٣) إن هذه السورة شرحت مفاتح الغيب التى ذكرت فى خاتمة ما قبلها ، فقوله : ﴿ ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة ﴾ شرح لقوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ وقوله : ﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ شرح لقوله : ﴿ وينزل الغيث ﴾ وقوله : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ﴾ تفصيل لقوله : ﴿ ويعلم ما فى الأرحام ﴾ وقوله : ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ﴾ إيضاح لقوله : ﴿ وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ﴾ وقوله : ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض . . . الخ ﴾ شرح لقوله : ﴿ وما تدرى نفس بأى أرض تموت ﴾ .

وقد عقد الامام ابن القيم فصلا عن خصائص يوم الجمعة ذكر فيه : وكان من هديه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره .

وكان ﷺ يقرأ فى فجره بسورتى ﴿ الم تنزيل ﴾ و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ويظن كثير ممن لا

علم عنده : أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجدة زائدة . ويسمونها سجدة الجمعة ، وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة ، استحب قراءة سورة اخرى فيها سجدة ، ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة فى فجر الجمعة ، دفعا : لتوهم الجاهلين ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيميه يقول : إنما كان النبى ﷺ يقرأ هاتين السورتين فى فجر الجمعة لأنهما تضمنتا ما كان ويكون فى يومها ، فإنهما اشتملتا على خلق آدم ، وعلى ذكر المعاد ، وحشر العباد ، وذلك يكون يوم الجمعة ، وكان فى قراءتهما فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون ، والسجدة جاءت تبعا ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها ، حيث اتفقت . فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ
ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن
وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ
كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ
﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ
مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ
وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

معانى المفردات

لا ريب : لا شك ، افتراه : اختلقه ، أيام : جمع يوم والعرب تطلقه على جزء من اليوم . وقال النحاس اليوم فى اللغة بمعنى الوقت ، العرش : الملك ، يدبر الأمر : أى أمر الدنيا ثم يعرج إليه : يرجع ويصعد ، نسله : ذريته وسميت الذرية نسلا: لأنها تنسل منه أى : تنفصل، مهين : أى ضعيف هو النطفة ، ثم سواه : أى سوى خلقه وأتمه .

روى البخارى فى كتاب الجمعة : بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كان النبى ﷺ

يقرأ فى الفجر يوم الجمعة ﴿ الم تنزيل ﴾ السجدة و ﴿ هل أتى على الإنسان ﴾[(١)] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الم ﴾ هذه بعض حروف الهجاء وفيها إشارة وتنبه إلى إعجاز هذا الكتاب العربى المبين ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ .

﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ أى : أن هذا الكتاب الكريم منزل من لدن حكيم عليم على وجه اليقين والقطع :

﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[(٢)] .

﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا إليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾[(٣)] .

﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[(٤)] .

﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا ﴾[(٥)] .

قوله تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾[(٦)] .

أم هنا : بمعنى (بل) (والهمزه) أى : بل أيقولون افتراه ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليهم قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾[(٧)] وقال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[(٨)] وقال جل شأنه : ﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق ﴾[(٩)]

وقد رد الله تعالى على فريتهم فقال : ﴿ بل هو الحق من ربك ﴾ فالله هو الحق وكتابه حق ، ولقاؤه حق ، ووعده الحق ، والساعة حق والجنة ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد ﷺ حق

---

(١) سورة السجدة الآيات : ١ ـ ٩
فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى فى (كتاب الجمعة) باب : ما يقرأ فى صلاة الفجر يوم الجمعة ج٢ ص ٣٧٧ رقم ٨٩١
(٢) سورة الفرقان الآية : ٦
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٥١
(٤) سورة الفرقان الآية : ١
(٥) سورة الاسراء الآية : ١٠٥
(٦) سورة السجدة الآية : ٣
(٧) سورة الفرقان الآيات : ٤ ـ ٦
(٨) سورة هود الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٩) سورة الرعد الآية : ٣٧

﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾(١)

﴿ لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك ﴾(٢) وتلك رسالة الأنبياء إنذار وخوف ورجاء ، ودعوة إلى الهداية لعلهم يهتدون ، فالقرآن هو الروح الذى يحيى الله به الموات ، والنور الذى يبدد الله به غياهب الظلمات ، ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب والإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴾(٣) .

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا ، وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون : يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنه مما تعدون . ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾(٥) .

ومن آيات قدرته أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام : فقد خلق السموات فى يومين ، والأرض فى يومين ، وما بينهما فى يومين ، ولو شاء لخلق الجميع فى أقل من طرفة عين فأمره بالكاف والنون . ﴿ إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾(٦) سبحانه مالك الملك وملك الملوك . ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ استواء يليق بذاته فالاستواء معلوم والكيف مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ومن الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، فإنه تعالى : كان ولا مكان وهو على ما كان قبل خلق المكان ، لم يتغير عما كان ، سبحانه وتعالى عما يصفون ﴿ ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ﴾ أى : ما لكم غير الله من ولى ، يلى أموركم ولا شفيع يشفع لكم ، فكل ما سوى الله باطل ، ﴿ ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾(٧) ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾(٨) ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾(٩) أنسيتم فلا تتذكرون ، أغفلتم فلا تعلمون ، ﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه ﴾ أى يتنزل أمره من أعلى السموات إلى أقصى تخوم الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما ﴾ وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا مسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة ، وسمك السماء خمسمائة سنة قال مجاهد وقتادة ، والضحاك : النزول من الملك فى مسيرة خمسمائة عام ، وصعوده فى مسيرة خمسمائة عام ، ولكنه يقطعها فى طرفة

---

(١) سورة النور الآية : ٢٥
(٢) سورة السجدة من الآية : ٣
(٣) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣
(٤) سورة الاسراء الآيتان : ٩ ، ١٠
(٥) سورة السجدة الآيات : ٤ - ٦
(٦) سورة (ق) الآية : ٣٨
(٧) سورة النور من الآية : ٤٠
(٨) سورة الحج من الآية : ١٨
(٩) سورة الكهف من الآية : ١٧

عين ولهذا قال تعالى : ﴿ فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾[1] أى : المدبر لهذه الأمور الذى هو شهيد على أعمال عباده ، يرفع إليه جليلها ، وصغيرها ، وكبيرها ، هو العزيز الذى قد عز كل شىء فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز فى رحمته رحيم فى عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

قوله تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[2] أى :وهو الذى أحسن كل شىء خلقه فالكل من خلق الله ﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل ﴾ والكل قد أحسن الله خلقه . ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾[3] .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، و نزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾[4] فانظر إلى السماء وارتفاعها ، والشمس وشعاعها ، والجبال ورسوخها ، والبحار ومعينها ، والأرض واتساعها ، والأفلاك ومدارها ، وإلى كل متحرك وساكن ، وظاهر وكامن ، الكل يشهد بجلال الله ، ويقر بكماله ، ويعلن بذكره ، ولا يغفل عن شكره ، وبعد أن حدثنا سبحانه وتعالى : عن إحسان كل شىء خلقه حدثنا عن خلق الانسان فقال سبحانه ﴿ وبدأ خلق الانسان من طين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ﴾[5] ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[6] .

وكما قال تعالى : ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ﴾[7] .

---

(١) سورة السجدة من الآية : ٥ ، ٦
(٢) سورة السجدة الآيات : ٧ ـ ٩
(٣) سورة الملك الآيات : ١ ـ ٥
(٤) سورة (ق) من الآية : ١ ـ ١١
(٥) سورة ص الآية : ٧١
(٦) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ ـ ١٤
(٧) سورة المرسلات الآيات : ٢٠ ـ ٢٣

قوله تعالى : ﴿ ثم سواه ونفخ فيه من روحه ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ .

حركات إرادية فى الجنين

نفخ الروح

قال تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه .. وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار الأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[(١)]

﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾[(٢)] ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[(٣)]

وقال ـ ﷺ ـ فى الحديث الذى أخرجه الشيخان : (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح الحديث)[(٤)] .

فإن قيل : الجنين قبل نفخ الروح فيه هل كان فيه حركة وإحساس أم لا ؟ قيل : كان فيه حركة النمو والاغتذاء كالنبات . ولم تكن حركة نموه واغتذائه بالارادة ، فلما نفخت انضمت حركة حسيته وارادته إلى حركة نموه واغتذائه .

الروح أمر مجهول لا نقول فيه إلا أنه من أمر ربى ، وما أوتى البشر من العلم إلا قليلا ، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أخبرنا أنه كرم آدم بنفخ الروح فيه .

وكذلك كرم نبيه آدم حيث جعل نسله « من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه .. »

والرسول الكريم ﷺ يوضح لنا متى ينفخ الروح فى الجنين فيقول : إن ذلك إنما يكون بعد مروره فى مراحل واطوار مختلفة .. النطفة أولا .. وقد شرحناها فيما سبق ، وقلنا ان المبيض إنما يفرز بويضة واحدة فى الشهر .. تمكث بعد ذلك يوما أو يومين على الأكثر ليتم تلقيحها بإذن الله بالحيوان المنوى (نطفة الرجل) ، وتتحد النطفتان لتكونا معا النطفة الأمشاج المختلطة من ماء الرجل (الحيوان المنوى) ، وماء المرأة (البويضة) ، وتنمو النطفة الأمشاج لتصبح مثل الكرة ، أو التوتة ، ثم تغلق فى الرحم بعد أسبوع من تكونها (أى النطفة الأمشاج) ، وتكون علقة بجدار الرحم ، ثم تكون مضغة

---

(١) سورة السجدة الآيات : ٧ ـ ٩

(٢) سورة الحجر الآية : ٢٩

(٣) سورة الاسراء الآية : ٨٥

(٤) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب القدر) باب : كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه مع اختلاف فى بعض ألفاظه رقم ١٦٩٥ ص ٧١٥ .

يتخلق فيها الجنين ، وتتكون أعضاؤه وفى هذه الأثناء تتكون العظام ، ثم يكسوها اللحم (العضلات) وتتكون وتتكامل الأجهزة : القلب ـ الكبد ـ الاطراف ـ السمع ـ البصر ـ الدماغ ـ وتبدأ فى الجنين حركات ارادية فى نهاية الشهر الثالث ، يمص أصابعه ـ يمسك بالحبل السرى ويصبح كثير الحركة . . يتقلب فى الرحم . . ينام ويصحو . . يسمع الأصوات . . تكتب على جبينه وترسم كتابة لا نظير لها مطلقا . . تتضح معالم شخصيته المتفردة عن جميع البشر الذين سبقوه أو عاصروه او سيلحقونه ، بصمات أصابعه المتفردة تظهر فى نهاية الشهر الثالث ـ الكتابة والرسم العجيب على جبينه يظهر فى نهاية الشهر الثالث ـ المشيمة تستقل بوظيفتها فى الشهر الثالث ـ الكبد والقلب والدماغ والاطراف والسمع والبصر يكتمل بناؤها الأساسى فى الشهر الثالث .

وفى نهاية هذا الشهر أيضا ، تتميز الأعضاء التناسلية الباطنة والظاهرة ، ويمكن التفريق بين الذكر والأنثى ، كما ان فحص عينة من السائل الأمينوس (الرهل) تصبح ممكنة بعد الشهر الثالث ، وبفحص خلايا الجنين التى تسقط فى السائل يمكن معرفة بعض الأمراض الوراثية ، كما يمكن معرفة نوعية الجنين ذكرا أم أنثى .

وفى هذه الفترة ايضا يتخذ وجهه الشكل الانسانى المميز . . أما قبل ذلك فشكله يشبه جنين السمك أو الطائر او الأرنب . . لا فرق واضحا يمكن الاعتماد عليه لنقول هذا جنين دجاجة أو سمكة او جنين إنسان عدا ان مراحل النمو تختلف من نوع إلى آخر ، ومن فصيلة إلى أخرى .

وفى هذا الشهر تظهر السمات الانسانية ، ويكتمل نمو الوجه تقريبا ، وتكسى العظام بالعضلات ، وتكتمل تغذية العضلات وتبدأ العضلات الارادية بالتحرك ، بل إن عضلات الوجه تعبر عن حالة الجنين وما يعانيه .

فى نهاية هذا الشهر الجنين يسمع . . الجنين يتحرك إراديا . . الجنين ترتسم على وجهه علامات الرضا أو الضيق . . فى نهاية هذا الشهر يعرف جنس الجنين . . وتظهر ملامح شخصيته المتفردة المتميزة عن بقية البشر .

أليست هذه كلها دلائل على نفخ الروح ؟ بلى ، ويؤكد الحديث الشريف (أن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما . . ثم يكون علقة فى ذلك مثل ذلك . . ثم يكون مضغة فى ذلك مثل ذلك . . ثم ينفخ فيه الروح) .

وتدل عليه الآية الكريمة : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (من كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن د . محمد على البار)

قوله تعالى : ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم

السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[١] أعلمت مقدار هذه النعم ؛ نعمة السمع ونعمة البصر ونعمة الأفئدة .

تعالى معى لنستمع معا إلى صوت الحقائق العلمية تحدثنا عن بديع صنع الله الذى أتقن كل شيء ، وكيف تكونت هذه الحواس .

تكوين السمع

قال تعالى : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾[٢]

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة .. قليلا ما تشكرون ﴾ .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[٣]

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[٤] .

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾[٥] .

جهاز السمع

فى كل الآيات القرآنية الكريمة يقدم الله ـ سبحانه وتعالى ـ السمع على البصر ، ولا تكاد تجد آية قدم فيها البصر على السمع .. ذلك لأن السمع أعظم وأهم من البصر ذاته على عظيم أهمية نعمة البصر ..

ويتعلم المولود بواسطة السمع بأضعاف أضعاف ما يتعلمه بواسطة البصر ، والأصم منذ الولادة لا يستطيع أن يتعلم اللغة ابدا ، فهو أبكم ايضا ؛ بينما المولود بدون نعمة البصر يستطيع أن يتعلم اللغة ، بل اللغات بكل يسر ، وتستطيع ان تعد مئات بل آلاف العباقرة من فاقدى نعمة البصر ، ولكنه من العسير ان تعد الأحاد من العباقرة الذين فقدوا نعمة السمع ، وخاصة اذا كان فقد السمع منذ الولادة او فى الطفولة الباكرة ؛ ولهذا جاء فى الآية الكريمة : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

فقدم سبحانه ذكر السمع على البصر فى معرض سياق الطرق الاساسية التى بها يكتسب الانسان المعرفة .

ويتكون جهاز السمع العجيب الذى منحنا الله ـ تبارك وتعالى ـ إياه دون ان نقدره حق قدره ، ولا نشكره حق شكره ، يتكون هذا الجهاز من الأذنين ولكل أذن ثلاثة أجزاء .

---

(١) سورة النحل الآية : ٧٨
(٢) سورة الانسان الآية : ٢
(٣) سورة السجدة من الآية : ٩
(٤) سورة النحل الآية : ٧٨
(٥) سورة الاسراء الآية : ٣٦

١) الأذن الخارجية : وتشكل صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية ، وتنتهى عند طبلة الأذن ، ووظيفتها جمع الأصوات .

٢) الأذن الوسطى : وهى قناة عظمية غضروفية بها غشاء الطبلة وعظام الأذن الثلاث : المطرقة ـ الركاب ـ السندان ووظيفتها نقل الاصوات إلى الأذن الداخلية .

الأذن الداخلية : وهى مكونة من جهازين مختلفين تمام الاختلاف : أولهما : جهاز السمع المستقبل للاصوات والذى ينقلها بواسطة العصب السمعى إلى المخ (الدماغ) .

والثانى : جهاز للتوازن ، وهو جهاز معقد أيضا ، وبواسطة قنوات هلالية متصلة ببعضها وبداخلها شعيرات تستطيع ان تميز أى حركة أو اهتزاز او تغيير فى وضع الجسم ، فترسل بذلك اشارات إلى الدماغ ، حيث يستقبل هذه المعلومات ويسجلها ويستفيد منها ثم يرسل أوامره إلى الجسم والعضلات لتوائم هذا التغيير ، ولعل القارىء الكريم قد لاحظ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحد لفظ السمع بينما جمع لفظ الأبصار ، وذلك لأن هناك مركزين للابصار فى مؤخرة الدماغ ، بينما نجد ان مركزى السمع فى الدماغ (فى العضدين الصدغيين) مرتبطان ارتباطا وثيقا بحيث يمكن اعتبارهما مركزا واحدا .

تكوين الأذن الداخلية

تتكون الأذن الداخلية من الطبقة الجرثومية (جرثومة الشىء : أصله ومنبعه) الخارجية (الكتودرم) ويبدأ تكوينها مبكرا جدا إذ تبدأ فى اليوم الثانى والعشرين (أى : بداية مرحلة المضغة) كثخانة من سطح الطبقة الخارجية (الاكتودرم) على جانبى موقع المخ المؤخرى ، وتتحول هذه الثخانة فى الأسبوع الرابع إلى حفرة ، ثم إلى حويصلة ، وتعرف عندئذ بحويصلة السمع .

وفى الأسبوع الخامس تنقسم هذه الحويصلة السمعية إلى قسمين :ـ

١) قسم أمامى : ويتحول إلى كيس صغير وقناة القوقعة .

٢) قسم خلفى : سرعان ما يصبح ـ العيبية (وهى تصغير عيبة أى : قربة) والقنوات نصف الدائرية (الهلالية) .

وتعرف هاتان المجموعتان المذكورتان آنفا بالنيه الغشائى ، ثم يحاط هذه التيه الغشائى بالعظام ، ويعرف عندئذ بالتيه العظمى ، ويفصل بين التيه العظمى والغشائى باحتان ضيقتان بهما سائل لمغاوى .

وفى أثناء تكوين الحويصلة السمعية تنفصل منها (أى : من الحويصلة السمعية) مجموعة من الخلايا مكونة عقدة السمع ، وعقدة التوازن ، وتغذى عقدة السمع جهاز كورتى للسمع الذى يتكون من القوقعة . كما تغذى عقدة التوازن جهاز التوازن الموجود فى القنوات نصف الدائرية ، والكييس والعيبية وفى الاسبوع السادس تستطيل قناة القوقعة ، ثم تنطوى على محورها إلى أن تكمل دورتين ونصف فى الأسبوع الثامن ، ويتكون شريط داخل قناة القوقعة يفصلها إلى جزءين :

الجزء الدهليزى ، والجزء السمعى ، وذلك فى الأسبوع العاشر .

وعلى هذا الشريط والذى يدعى الغشاء القاعدى تتكون الشعيرات السمعية المتصلة بعقدة السمع .

وهذه الشعيرات السمعية وما يتصل بها من عصب ليست إلا امتدادا من الدماغ (المخ) المؤخرى تماما ، كما سنرى ان حويصلة الأبصار ليست إلا امتدادا من المخ المقدمى .

ويعرف جهاز السمع الداخلى هذا والمكون من الشعيرات السمعية وما يحيط بها من أغشية يعرف باسم عضو كورتى على اسم مكتشفها .

ويتكون جهاز التوازن من القنوات الهلالية (نصف دائرية) والكييس (تصغير كيس) والعييبة أو الشكوه وتظهر القنوات الهلالية فى الاسبوع السادس ويظهر فيها جهاز التوازن فى الاسبوع السابع ، كما تظهر العييبة ، او الشكوه والكييس بوضوح فى الأسبوع السادس ويظهر فيهما جهاز التوازن فى الأسبوع السابع ، ويتصل كل من جهاز السمع وجهاز التوازن بالعصب السمعى الدهليزى ، وهو العصب الرأسى الثامن ، والذى يصب فى المخ المؤخرى .

الأذن الوسطى : تتكون الأذن الوسطى من غشاء الطبلة وعظام الأذن الثلاث : المطرقة والركاب والسندان ، ووظيفتها نقل الأصوات إلى الأذن الداخلية ، ويتكون غشاء الطبلة الداخلية (الأنتودرم) كامتداد لجيب القوس البلعومى الأول . . الذى يظهر فى الأسبوع الرابع ، ويلى هذا الغشاء طبقة رفيعة آتية من الميزودرم (الطبقة المتوسطة) المحيطة بالأقواس البلعومية ، ثم يليه غشاء مكون من امتداد الجلد أى من الطبقة الجرثومية الخارجية (الاكتودرم) وتتكون عظام الاذن الوسطى كما يلى :

١) **المطرقة والسندان** : ـ وتتكونان من امتداد غضروف القوس البلعومى الأول اى قوس الفك السفلى .

٢) **الركاب** : ـ ويتكون من غضروف القوس البلعومى الثانى أى القوس اللامى ، ويحيط بهذه العظام خلايا من الطبقة الداخلية (الأنتودرم) التى تبطن الجيب البلعومى الأول وقرب نهاية الحمل فى الشهور بعد الولادة يتسع التجويف الطبلى نتيجة امتصاص النسيج الضام المحيط بالعظام فتصبح العظام حينئذ قادرة على الحركة لدى أى اهتزاز .

ومع هذا فمن الثابت الآن أن الجنين يستطيع السمع فى الشهر الرابع .

الأذن الخارجية : تتكون الأذن الخارجية من صوان الأذن والقناة السمعية الخارجية ، ووظيفته تجميع الأصوات التى تنتقل عبر القناة السمعية الخارجية إلى طبلة الأذن ، فإذا ما اهتزت طبلة الأذن نتيجة الموجات الصوتية ، انتقلت هذه الذبذبات عبر عظمات الأذن التى تنقلها إلى الغرفة السمعية فى الأذن الداخلية (فى قوقعة الأذان) ، حيث تؤثر على الشعيرات السمعية ، فتنقلها عبر عصب السمع إلى الدماغ الذى وهبه الله القدرة على تمييز هذه الأصوات ، ومعرفة مصدرها وصاحبها ، كما وهبه الله القدرة على فهمها ، واستيعابها وتسجيلها ورصدها ، فسبحان من خلق وقدر .

صوان الأذان : ـ يتكون صوان الأذان من جملة نتوءات من الجيب البلعومى الأول والثانى ، وتبدأ هذه النتوءات بجانب فتحة الأذن الخارجية (الصماغ) فى الأسبوع السادس ، وتتحد هذه النتوءات وتستدير لتكون شكل صوان الأذن ، أو ما يعرف لدى العامة بالأذن .

وجميع هذه النتوءات مصدرها الطبقة الجرثومية المتوسطة (الميزدوم) الموجودة فى القوسين البلعومين الأول والثانى وتغطى بعد ذلك بالجلد وهو من الطبقة الجرثومية الخارجية الاكتودرم .

قناة السمع الخارجية : تصل قناة السع الخارجية ما بين صوان الأذن وطبلة الأذن ، وتتكون من بطانة الشق البلعومى الأول الذى يمتد على هيئة قمع حتى يصل إلى غشاء الطبلة .

وفى البداية تكون هذه القناة مقفلة ومصمتة نتيجة امتلائها بخلايا مكونة ما يعرف باسم سدادة الصماخ ، ثم تمتص هذه السداده وتزاح فى الشهر السابع .

﴿ سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره ﴾[1] .

وسيأتى عندما نتحدث عن العين كيف تقفل الجفون ويلتصق الجفنان ، ثم فى الشهر السابع تشق وتفتح ، وكل ذلك يؤكد معنى شق سمعه وبصره .. الذى وضعه حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وهو يناجى ربه فى سجوده .. كما قد مر معنا كيف يصور الوجه فى الصور المتلاحقة العجيبة حتى يخلقه الله فى أحسن صورة . ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾[2] .

أفلا يكون بعد هذا كله حرى بنا أن نسجد ونطيل السجود ، ونسبح فنطيل التسبيح ، ونشكر فنزيد فى الشكر للذى خلق وصور وشق السمع والبصر ، إن ذلك هو أقل ما توجبه علينا هذه النعم المتتالية للخالق البارى المصور تباركت أسماؤه وعزت صفاته .

تكوين البصر

﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[3] تبارك .

﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾[4] السجدة .

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[5] لا شك ان حاسة البصر من النعم التى لا تقدر بثمن .. بل لو وزنت أعمال العبد الصالح جميعا لما كانت كفاء لنعمة البصر التى أنعم الله بها على الانسان ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى نعمة البصر مقترنة بنعمة السمع والفؤاد ، والسمع والبصر هما أهم الوسائل التى بها يتعرف الانسان على ما حوله وتشترك بعد ذلك بقية الحواس الخمس من اللمس والذوق والشم فى إمدادنا بالمعلومات عن البيئة التى حولنا ، ولكنها جميعا لا ترقى إلى ما تدرك بواسطة السمع والبصر ، ولذا جاء

---

(١) فى دعاء للدكتور محمد السيد طنطاوى من أدعية السجود (جزء من حديث رواه مسلم واصحاب السنن (ج١ ص ١٤٤ رقم ١
(٢) سورة آل عمران من الآية : ٦
(٣) سورة الملك الآية : ٢٣
(٤) سورة السجدة من الآية : ٩
(٥) سورة النحل الآية : ٧٨

قوله تعالى : ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾(١) .

يخرج الطفل إلى الدنيا وليس لديه من المعرفة شيء ، ولكنه يكتسب هذه المعرفة بالحواس الخمس وأهمها : السمع والبصر . . فالمولود يسمع أى ضجة وينزعج لها ، ويستطيع أن يميز بسرعة صوت أمه ، بل إن الجنين فى بطن أمه يستطيع سماع الأصوات ، وذلك منذ الشهر الرابع بينما هو فى ظلام تام فى رحم الأم ، ولا يستطيع بأى حال أن يرى شيئا .

أما نعمة الفؤاد وما يعبر عنه بالقلب فهى : أتم النعم وأكملها إذ ليس المقصود بالفؤاد تلك العضلة الصنوبرية الشكل والمودعة فى الجانب الأيسر من الصدر ، فهو كما يقول الامام الغزالى فى الاحياء : موجود للبهائم فهو (قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة إذ تدركه البهائم بحاسة البصر ، فضلا عن الآدميين ، ولكن المقصود بالفؤاد هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسمانى تعلق ، وتلك اللطيفة هى حقيقة الانسان ، وهو المدرك العالم العارف من الانسان وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب . (أحياء علوم الدين كتاب عجائب القلب) ونعمة البصر : مرتبطة بالعين ، والعين تشبه الكاميرا حيث أنها تلتقط الصور التى تنعكس على العدسة فى الشبكية التى تشبه الفيلم ، ثم تنتقل عبر ملايين الأعصاب المتجمعة فى العصب البصرى الى مؤخرة المخ ، حيث يقوم المخ بتحميض الصور وطبعها ، والتعرف عليها ، وكل ذلك يتم فى جزء بسيط من الثانية ، إذ أن سرعة الارسال تبلغ ألف متر فى الثانية ، وكذلك تتم عمليات الطبع والتحميض ، والادراك بمثل هذه السرعة الرهيبة .

مما تقدم ترى : أن الجزء المبصر من العين هو فى الواقع امتداد للمخ ، وكذلك تنمو حويصلة الأبصار كامتداد من المخ المقدمى ، ويبدأ أول ظهورها فى الأسبوع الثالث بعد التلقيح ، وفى الاسبوع الرابع تبدأ خلايا حويصلة الابصار تنفصل من المخ المقدمى . وفى الاسبوع الخامس تتخذ شكل كوب مكون من طبقتين . والطبقة الخارجية تنشأ بها حبيبات ملونة تغطى شبكية العين فيما بعد : أما الطبقة الداخلية . فتكون الجزء الحساس المبصر والمتصل بعصب العين .

وتتباين الطبقة الداخلية إلى جزءين :

١) جزء خلفى : ويمثل أربعة أخماس الكوب ، وقوامه نسيج عصبى وهو الذى يكون شبكية العين بطبقاتها المختلفة ، وهو الجزء الحساس للضوء ويشبه فى ذلك الفيلم فى الكاميرا ، حيث تسجل عليه الصور وترسل عندئذ عبر العصب البصرى إلى المخ لتحميضها ، وإدراك ابعادها ومراميها .

٢) جزء آمامى : ـ ويمثل الخمس الأمامى من كوب الأبصار ، ويساهم فى تكوين القزحية والجسم الهدبى . والقزحية هى التى تعطى العين لونها الأسود أو العسلى أو الأزرق حسب ما فيها من صبغة ، كما أنها التى تتحكم فى لؤلؤ (فتحة) العين ، ويتحكم الجسم الهدبى بواسطة عضلاته فى تحدب

---

(١) سورة النحل الآية : ٧٨

عدسة العين ، بحيث تتمكن العدسة من زيادة تحدبها أو انقاصه لنرى الأشياء القريبة (زيادة التحدب) أو البعيدة (اقلال التحدب) .

وعضلة الجسم الهدبى : هى العضلة الوحيدة فى الجسم التى تتكون من الطبقة الجرثومية الخارجية (الاكتودرم) ، أما بقية عضلات الجسم الارادية ، وغير الارادية ، فتتكون جميعها من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) .

وفى الشهر الثالث : تنمو شبكية العين إلى أربع طبقات ، وفى تمام الشهر السابع يكتمل نمو الشبكية إلى طبقاتها التسع المعروفة فى المولود ، كما يتكون الصلب البصرى ويتصالب فى مساره المعروف بالتصالب البصرى ، حتى يصل إلى المخ المؤخرى .

العدسة البصرية :

يبدأ ظهور العدسة كثخانة فى الطبقة الخارجية (الاكتودرم) والتى يتكون منها الجلد ايضا فى المنطقة التى يظهر فيها الكوب البصرى ، وذلك فى أواخر الاسبوع الرابع وأوائل الخامس ، وتنزح نواة العدسة من الطبقة الخارجية والتى تكون الجلد أيضا إلى داخل الكوب البصرى ، ثم تنفصل تماما عن الطبقة الخارجية (الاكتودرم) .

وتفقد خلايا العدسة أنويتها حتى تصبح شفافة مثل البلور وتدعى عندئذ العدسة البلورية البصرية تصور أن العدسة الشفافة ليست إلا نوعا من الجلد شاءت يد القدر المبدعة ان يكون مبصرا .

ويغطى العدسة محفظة من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) وتسمى عندئذ المحفظة العدسية الدعائية ؛ لأنها تتخللها الأوعية الدموية التى تضمر فى الشهر السابع ، وتشق هذه المحفظة فى وسطها مكونة فتحة وفرجة تعرف باسم حدقة العين أو « الثؤثؤ » وقد مر معنا فى فصل السمع كيف يشق السمع عندما تزاح سدادة الصماخ ، وتشق قناة السمع الخارجية فى الشهر السابع ، وكذلك تشق محفظة العدسة لتكون الثؤثؤ أو حدقة العين ، ثم تشق الجفون وتفتح فى الشهر السابع .

الصلبة والقرنية والغشاء المشيمى

إن العين كالكرة ولكنها مكونة من ثلاث طبقات : الداخلية : وهى كوب الابصار الذى وصفناه ، وقلنا : إنه امتداد للمخ ، ويكون أساسا للشبكية بطبقاتها المختلفة كما يساهم الجزء الأمامى فى هذا الكوب فى تكوين القزحية والجسم الهدبى وتحيط بهذه الكرة أو كوب الابصار كرة ثانية تسمى بالغشاء المشيمى للعين وهى كرة تكثر فيها الأوعية الدموية ، وتساهم مع الجزء الامامى من كوب الابصار فى تكوين الجسم الهدبى والقزحية ، ومصدر خلايا هذه الكرة هى الطبقة المتوسطة (الميزودرم) وتلى هذه الكرة كرة اخرى من الخارج ، وهى ايضا من الطبقة المتوسطة ، وتحيط بالغشاء المشيمى مكونة من جزأين :

١) الجزء الخلفى ويشكل ٥/٦ من الكرة وهو من نسيج ليفى ثخين وقوى ابيض اللون ويسمى لذلك الصلبة ويمنع دخول الضوء .

٢) الجزء الامامى ويشكل ١/٦ من الكرة وهو رقيق وشفاف ويسمح للضوء بالدخول ويسمى القرنية .

وتظهر الصلبة والقرنية فى الاسبوع السابع ، وكذلك تظهر مشيمة العين فى هذه الفترة وتتكون الرطوبة الزجاجية خلف العدسة ، وأمام الشبكية وذلك فى الشهر الثالث نتيجة امتصاص خلايا المزودرم .

الجفون :

يبدأ تكون الجفنين العلوى والسفلى فى الاسبوع السابع من الطبقة الخارجية (الاكتوردم) الموجودة فى منطقة الجبهة ، ويتكون ردب ذو طبقتين يتوسطهما نسيج من الطبقة المتوسطة (الميزودرم) .

وتكون الطبقة الخارجية (الاكتودرم) (١) جلد الجفن (٢) رموش العين (٣) الملتحمة ويكتمل نمو الجفون فى الشهر الثالث ، ويلتصق الجفنان منذ ذلك الوقت إذ لا حاجة للجنين بالرؤية فى ذلك الظلام الدامس ، ولحماية العين مما يحيط بها من السائل الامنوسى (الرهل) ، وفى الشهر السابع تنفتق الجفون مرة اخرى استعدادا لخروج الجنين إلى الدنيا ومرة اخرى نقول : مع المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه فى سجوده (سجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره)[١] .

الغدد الدمعية

تتكون الغدة الدمعية من الجزء الوحشى من الحفرة الحجابية ، ويبدأ ظهورها مبكرا جدا فى الأسبوع التاسع كامتداد من الملتحمة وتكون على هيئة ستة اعواد مليئة ، ولكنها سرعان ما تشق لتكون قنوات تفتح على الملتحمة ، وللدموع وظائف غير البكاء ، وتبريد لوعة الحزن ، وأهمها ترطيب العين وتعقيمها وتنظيفها مما يعلق بها من أتربة وغبار وميكروبات ، ففى هذه الدموع مواد مطهرة تقتل الميكروبات ، ومواد منظفة تزيل الأتربة .

وافراز الدموع مستمر لكننا لا نراه ، لأنه يندفع بيسر فى الملتحمة ليصب فى القناة الدمعية فى الأنف ، فيتبخر منها . . إلا إذا زاد الافراز ، فعندئذ تمتلأ المآقى بالدموع وتنسكب من العيون وتسيل من الأنف .

وكما أن للدموع وظيفة غسل العين وتنظيفها وتطهيرها ؛ فإن لها كذلك وظيفة غسل الأدران من القلب اذا كانت العين تبكى من خشية .

(لا تمس النار عينا بكت من خشية الله ولا عينا باتت تحرس فى سبيل الله) ولنترك إذن من حين لآخر لمآقينا أن تمتلىء بالدموع ولتسكب العبرات تتبعها الزفرات ، فإن فى ذلك تطهيرا للقلوب من أدرانها ، وللنفوس من كثافتها وطغيانها ، وليس هناك ما يجلى الصدأ عن القلب مثلما تجلوه عين بكت من خشية الله .

من الذى خلق هذا ؟ ومن الذى قدر فهدى ؟ ومن الذى اتقن كل شىء ؟ الطبيعة الصماء أم الصدفة العمياء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم .

---

(١) انظر الدعاء للدكتور محمد سيد طنطاوى باب من ادعية السجود ج ١ وقال ص رقم ١ رواه مسلم وأصحاب السنن .

انظر إلى المرء وقل من شق فيه بصره
من ذا الذى جهزه بقدرة مفتكرة
ذاك هو الذى انعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

إنكارهم للبعث

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ
يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ
نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾
وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ
أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

المفردات :

ضللنا : العرب تقول ضل الماء فى اللبن إذا ذهب ، وتقول للشىء غلب عليه غيره حتى خفى فيه أثره ضل وتقول : لما غاب فى الأرض ضل : والمراد هلكنا وصرنا ترابا . « يتوفاكم » : توفى العدد والشىء إذا استوفاه وقبضه جميعا وقالوا : توفاه الله أى قبض روحه ، والتوفى والاستيفاء بمعنى واحد والمراد : يقبض ارواحهم حتى لا يبقى احد منهم .

(ناكسوا رءوسهم) : مطأطئوها وخافضوها

(الجنة) الجن

التفسير

يقول تعالى : مخبرا عن المشركين فى استبعادهم المعاد حيث قالوا : ﴿ أئذا ضللنا فى الأرض ﴾ أى : تمزقت أجسامنا وتفرقت فى أجزاء الأرض ، وذهبت ﴿ أئنا لفى خلق جديد ﴾ أى : أننا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذى

بدأهم وخلقهم من العدم الذى إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، ولهذا قال لنا : ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة كما هو المتبادر من حديث البراء المتقدم ذكره فى سورة ابراهيم وقد سمى فى بعض الآثار بعزرائيل وهو المشهور . قاله قتادة وغير واحد : وله أعوان وهكذا ورد فى الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من سائر الجسد حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت[١] قال مجاهد : (طويت له الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء)[٢] ورواه ابن محمد عن النبى - ﷺ - مرسلا . وقاله ابنه - رضى الله عنهما - وروى ابن أبى حاتم بسنده عن جعفر بن محمد قال : سمعت أبى يقول : نظر رسول الله - ﷺ - إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال له النبى - ﷺ - (ياملك الموت أرفق بصاحبى ، فإنه مؤمن) فقال ملك الموت : يامحمد طب نفسا وقر عينا ، فإنى بكل مؤمن رفيق ، واعلم ان ما فى الأرض بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر إلا وأنا اتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى إنى أعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم[٣] والله يامحمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ماقدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها . قال جعفر : بلغنى أنه إنما يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ، فإذا حضرهم عند الموت فإن كان ممن يحافظ على الصلاة دنا منه الملك ودفع عنه الشيطان ولقنه الملك : لا إله إلا الله محمد رسول الله فى تلك الحال العظيمة عن ابراهيم بن ميسرة قال : سمعت مجاهد يقول ، ما على ظهر الأرض من بيت شعر أو مدر الا وملك الموت يطوف به كل يوم مرتين . . وقال كعب الاحبار : والله ما من بيت فيه أحد من أهل الدنيا إلا وملك الموت يقوم على بابه كل يوم سبع مرات ينظر هل فيه احد امر ان يتوفاه)[٤] رواه ابى حاتم .

قوله تعالى : ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أى : يوم معادكم وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾[٥] .

يخبر تعالى : عن حال المشركين يوم القيامة ، وحالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدى الله - عز وجل - حقيرين ذليلين ناكسى رؤوسهم أى : من الحياء والخجل يقولون : ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾

---

(١) انظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٢
(٢) انظر تفسير ابن كثير فى نفس المصدر والصفحة ص ٣٦٣
(٣) انظر تفسير ابن كثير نفس السورة السابقة ج ٦ ص ٣٦٣ وقال المحقق اخرجه السيوطى فى الدر المنثور عن أبى حاتم وأبى الشيخ : ١٧٤/٥
ولكننا وجدناه فى الدر المنثور للسيوطى عن أبى حاتم وابى الشيخ عن ابى جعفر محمد بن على فى تفسير سورة السجدة الجزء الحادى والعشرين ج ٦ ص ٥٦٣ مع اختلاف فى بعض الفاظه وزيادة ونقص .
(٤) انظر تفسير ابن كثير سورة السجدة من الآية : ٧ - ١١ وقال : اخرجه ابن ابى حاتم .
(٥) سورة السجدة الآيات : ١٢ - ١٤ .

أى : نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك كما قال تعالى : ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ﴾ وهكذا : هؤلاء يقولون · ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا ﴾ أى : إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحا إنا موقنون ﴾ أى : قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى : منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارا ، ويكذبون بآيات الله ، ويخالفون رسله كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ الآية .

وقال ههنا ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ﴾ ﴿ ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ أى : من الصنفين فدارهم النار لا محيد لهم عنها ، ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك .

﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أى : يقال : لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أى : سنعاملكم معاملة الناس لأنه تعالى : لا ينسى شيئا ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة كما قال تعالى : ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقال تعالى ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أى : بسبب كفركم وتكذيبكم كما قال تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . الا حميا وغساقا إلى قوله . . . فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[(1)] .

المؤمنون وجزاؤهم

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ
لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا
رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟
فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى
كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

(١) سورة النبأ الآيات : ٢٤ ـ ٣٠
(٢) الآيات من ١٥ ـ ٢٢ من سورة السجدة .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات (تتجافى) : التجافى : الابتعاد والارتفاع ـ « المضاجع » جمع مضجع وهو الموضوع الذى يضجع فيه بفرش للنوم .

« قرة أعين » : القرة اسم لما يحصل به القرير أى : الفرح والسرور .

« فاسقا » : أى كافرا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ أى إنما يصدق بها ﴿ الذين إذا ذكروا بها خروا سجدا ﴾ أى : استمعوا لها وأطاعوا قولا وفعلا ، (وسبحوا بحمده ربهم وهم لا يتكبرون) عن إتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهله من الكفرة الفجرة ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعنى : بذلك قيام الليل وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة . قال مجاهد والحسن فى قوله تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعنى : بذلك قيام الليل . وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبى حازم وقتادة هو الصلاة بين العشاءين وعن أنس ايضا : هو انتظار العتمة[1] ,

رواه ابن جرير بإسناد جيد . وقال الضحاك : هو صلاة العشاء فى جماعة وصلاة الغداة فى جماعة ﴿ يدعون ربهم خوفا وطمعا ﴾ أى : خوفا من وبال عقابه ، وطمعا فى جزيل ثوابه ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية ، ومقدم هؤلاء وسيدهم وفخرهم فى الدنيا والآخرة رسول الله ـ ﷺ ـ كما قال عبدالله ابن رواحه ـ رضى الله عنه :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا أنشق معروف من الصبح ساطع
ارانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

وقال الأمام أحمد بسنده عن الهمدانى عن ابن مسعود مسعود عن النبى ـ ﷺ ـ قال (عجب ربنا من رجلين : رجل ثار من وطائه ولحافه من بين حبه وأهله إلى صلاته رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى ، ورجل غزا فى سبيل الله تعالى : فانهزموا ، فعلم ماعليه من الفرار وما له فى الرجوع . فرجع حتى أهريق دمه رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى فيقول : الله ـ عز وجل ـ للملائكة انظروا إلى عبدى رجع دمه رغبة فيما عندى ، ورهبة مما عندى ، حتى أهريق دمه)[2] وهكذا رواه أبو داود فى الجهاد عن موسى بن إسماعيل عن حماد بن سلمة به بنحوه[3] .

وقال الأمام أحمد حدثنا عبد الرازاق ، أخبرنا معمر ، عن عاصم بن أبى النجود ، عن أبى وائل

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٣٦٤

(٢) أخرجه الأمام أحمد فى مسنده ـ مسند عبد الله بن مسعود ج ١ ص ٤١٦

(٣) واخرجه ابو داود فى سننه (فى كتاب الجهاد) باب : فى الرجل الذى يثرى نفسه حديث رقم ٥٢٣٦ ، ج ٣ ص ٩ ـ ٢٠

عن معاذ بن جبل ، قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر فأصبحت يوما قريبا منه ،ونحن نسير فقلت : يانبى الله ! أخبرنى بعمل يدخلنى الجنة ، ويباعدنى من النار : (لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه ، تعبد الله ولا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، ثم قال : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وصلاة الرجل فى جوف الليل - ثم قرأ - ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ حتى بلغ ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ ، ثم قال : ألأخبرك برأس الأمر وعموده ، وذروة سنامه ؟ - فقلت : بلى يارسول الله : فقال : (رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله ، ثم قال : (ألا أخبرك بملاك ذلك كله ؟) فقلت : بلى يانبى الله : فأخذ بلسانه ثم قال : كف عليك هذا) فقلت : يارسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، فقال : ثكلتك أمك يامعاذ ، وهل يكب الناس فى النار على وجوههم - أو قال على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم)[1] , رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه ,

قال : سمعت عروة بن النزال يحدث عن معاذ بن جبل ، أن رسول الله - ﷺ - قال له : (ألا أدلك على أبواب الخير : الصوم جنة والصدقة تكفر الخطيئة ، وقيام العبد فى جوف الليل » وتلا هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ [2] رواه أيضا من حديث الثورى .

وعن معاذ أيضا عن النبى - ﷺ - فى قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ قال : (قيام العبد من الليل) وروى ابن أبى حاتم بسنده عن معاذ بن جبل قال كنت مع النبى - ﷺ - فى غزوة تبوك فقال : (إن شئت نبأتك بأبواب الخير ، الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، وقيام الرجل فى جوف الليل) ثم تلا رسول الله - ﷺ - ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾[3] الآية ، ثم قال : حدثنا أبى حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا على بن مسهر ، عن عبدالرحمن بن اسحق ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد ، قالت : قال رسول الله - ﷺ - (إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة ، جاء مناد فنادى بصوت يسمع الخلائق ، سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ، ثم يرجع فينادى : ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع - الآية ، فيقومون وهم قليل)[4] ,

وقال لبزار بسنده عن زيد بن أسلم عن أبيه قال : قال بلال : لما نزلت هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ كنا نجلس وناس من أصحاب رسول الله - ﷺ - يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ ثم قال : لا نعلم روى أسلم عن بلال سواه وليس له طريق عن بلال غير هذا الطريق[5]

---

(١) أخرجه الامام احمد فى مسنده مسند معاذ بن جبل ج ٥ ص ٢٣١

(٢) انظر ايضا فى تحفه الاحوذى ابواب الايمان ، باب : ما جاء فى حرمة الصلاة ، الحديث ٢٧٤٩ : ٧/ ٣٦٢ - ٣٦٥ وسنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : كف اللسان فى الفتنة الحديث ٣٩٧٣ ج ٢/ ١٣١٤ - ١٣١٥ .

(٣) وانظره فى تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٦

(٤) نظر تفسير ابن كثير - تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ٣٦٦

(٥) الحديث فى مجمع الزوائد فى كتاب التفسير - سورة السجدة ج ٧ ص ٩٠ وقال الهيثمى : رواه البزار عن شيخه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف .

وقال تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ .

فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم فى الجنات من النعيم المقيم واللذات التى لم يطلع على مثلها أحد ، لما أخفوا أعمالهم ، كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقا ، فان الجزاء من جنس العمل ، قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم ترعين ولم يخطر على قلب بشر . رواه ابن ابى حاتم . قال البخارى : قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ حدثنا على بن عبدالله بسنده ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (قال الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴾ (١) ,

قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ قال : وحدثنا عن الأعرج ، عن أبى هريرة ، قال : قال الله مثله . قيل لسفيان رواية قال : فأى شىء ؟ ورواه مسلم والترمذى من حديث سفيان بن عينيه به . قال الترمذى حسن صحيح(٢) ثم قال البخارى : بسنده عن أبى هريرة ، عن النبى ـ ﷺ ـ يقول الله تعالى : ﴿ أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ذخرامن بله ما أطلعتم عليه ﴾ (٣) ثم قرأ : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ قال أبو معاوية : عن الأعمش ، عن أبى صالح قرأ ابو هريرة (قرات أعين) انفرد به البخارى من هذا الوجه(٤) وقال الإمام أحمد : بسنده عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن الرسول ـ ﷺ ـ ، (إن الله تعالى قال أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴾ (٥) ,

وقال حماد بن سلمة : بسنده عن حماد أحسبه عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (من يدخل الجنة ينعم لا ييأس ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه ، فى الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴾ (١) رواه مسلم .

وروى الإمام أحمد بسنده عن سهل بن سعد الساعدى ـ رضى الله عنه ـ يقول : شهدت من رسول الله ـ ﷺ ـ مجلسا ، وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : فى آخر حديثه (فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) ثم قرأ هذه الآية ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع إلى قوله يعملون ﴾ (٢) أخرجه مسلم .

وقال ابن جرير : حدثنى العباسى بسنده عن عقبة بن عبدالغافر عن أبى سعيد الخدرى . عن رسول الله ﷺ ـ يروى عن ربه ـ عز وجل ـ قال : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت

(١) أخرجه البخارى فى تفسير سورة السجدة ج ٦ ص ١٤٥

(٢) اخرجه مسلم ، فى كتاب الجنة : ٨/ ١٤٣ وتحفة الأحوذى تفسير سورة السجدة الحديث ٣٢٤٩ : ٩/ ٥٦

(٣) فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٦٥ قال الخطابى كأنه يقول : دع ما استطعتم عليه فإنه سهل فى جلب ما ادخر لهم ويعقب ابن حجر بقوله : « وهذا لائق بشرح (بله) بغير تقدم (من) عليها ، وأما إذا تقدمت (من) عليها ، فقد قيل : هى بمعنى « كيف » .. الخ .

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة السجدة : ٦ـ ١٤٥

(٥) اخرجه الأمام أحمد فى مسنده ـ مسند أبى هريرة ـ ج ٢ ص ٣١٣ من حديث طويل .

(٦) أخرجه مسلم فى (كتاب الجنة) باب : فى دوام نعيم أهل الجنة ج ٨/ ١٤٨

(٧) اخرجه الأمام أحمد فى مسنده ـ من حديث أبى مالك سهل بن سعد الساعدى ج ٥ ص٣٣٤واخرجه مسلم فى صحيحة فى

ولا خطر على قلب بشر ﴾ (١)

وقال مسلم أيضا : فى صحيحه بسنده عن المغيرة بن شعبة ، قال : سمعته على المنبر يرفعه إلى النبى - ﷺ قال : (سأل موسى عليه السلام ربه - عز وجل - ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ قال : هو رجل يجىء بعدم أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له : ادخل الجنة : فيقول أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم ، وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب فيقول : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت ربى ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله معه ، ولك ما أشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت رب قال : رب فأعلاها منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت غرس كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم ترعين ، ولم تسمع اذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال : ومصداقه من كتاب الله - عز وجل - ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ (٢) ,

ورواه الترمذى عن ابن عمر وقال : حسن صحيح ، قال : ورواه بعضهم عن الشعبى ، عن المغيرة ، ولم يرفعه والمرفوع أصح قال ابن أبى حاتم : حدثنا جعفر بن المدائنى ، حدثنا ابو بدر بن شجاع بن الوليد ،حدثنا زيادة بن خثيمة ، عن محمد بن حجازة،عن عامر بن عبدالواحد ، قال : بلغنى أن الرجل من أهل الجنة يمكث فى مكانه سبعين سنة ، ثم يلتفت ، فإذا هو بامرأة أحسن مما كان فيه ،فتقول له : قد آن لك ان يكون لنا منك نصيب ؟ فيقول : من أنت ؟ فتقول : قد آن لك أن يكون لنا منك نصيب ، فيقول : من أنت ؟ فتقول : أنا التى قال الله ﴿ فلا تعلم نفسى ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ وقال ابن لهيعة : بسنده عن سعيد بن جبير قال : تدخل عليهم الملائكة فى مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله من جنات عدن ما ليس فى جناتهم ، وذلك قوله تعالى ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾ ويخبرون أن الله عنهم راض ،وروى ابن جرير بسنده عن أبى اليمان الهوزنى أو غيره قال : الجنة مائة درجة ، أولها : درجة فضة ، وأرضها فضة ، ومساكنها فضة , وآنيتها فضة ،وترابها المسك ، والثانية : ذهب ، وأرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيتها ذهب ، وترابها المسك ، والثالثة : لؤلؤ ، وأرضها لؤلؤ ، ومساكنها اللؤلؤ ، وآنيتها اللؤلؤ ، وترابها المسك وسبع وتسعون بعد ذلك ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ،ثم تلا هذه الآية ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم ﴾ (٣) الاية وقال ابن جرير : بسنده عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - عن الروح الأمين ، قال : (يؤتى بحسنات العبد وسيئاته ، ينقص بعضها من بعض ، فإن بقيت حسنة [واحدة] وسع الله له فى الجنة ، قال : فدخلت على يزداد فحدث بمثل هذا الحديث ، قال : فقلت : فأين ذهبت الحسنة ؟ قال : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم ﴾ الآية قلت : قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من

(كتاب الجنة) ٨٩/ ١٤٣ .

(١) انظر تفسير الطبرى : ج ٢١ ص ٦٧

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الايمان باب . أدنى أهل الجنة منزلة ج ١ ص ١٢٠ ، ١٢١ .
انظر تفسير بن كثير ج ٦ ص ٣٦٩ تفسير سورة السجدة

(٣) انظر تفسير الطبرى : ٢١/ ٦٦

قرة أعين ﴾ قال : العبد يعمل سرا أسره إلى الله لم يعلم به الناس ، فأسر الله له يوم القيامة قرة أعين [١] ,

وفى قيام الليل وفضلة : يحدثنا الرسول ـ ﷺ ـ فيقول : فى فضل قراءة القرآن فى قيام الليل : ـ (س قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القائمين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين [٢] , رواه ابو داود وابن خزيمة فى صحيحه .

ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : القنطار اثنا عشر ألف أوقية ، الأوقية ، خير مما بين السماء والأرض) رواه ابن حبان وروى عن أبى أمامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ ـ : (من قرأ عشر آيات فى ليلة لم يكتب من الغافلين ، ومن قرأ مائة آية كتب له قنوت ليل ، ومن قرأ مائتى آية كتب من القانتين ، ومن قرأ اربعماية آية كتب من العابدين ، ومن قرأ خمسمائة آية كتب من الحافظين ، ومن قرأ ستمائة آية كتب من الخاشعين ، ومن قرأ ثمانمائة آية كتب من المخبتين ، ومن قرأ ألف آية أصبح له قنطار . والقنطار ألف ومائتا أوقية ، الأوقية خير مما بين السماء والأرض ـ أو قال) خير مما طلعت عليه الشمس ومن قرأ الفى آية كان من الموجبين ﴾ [٣] رواه الطبرانى

المعنى : الاخبات : زيادة التواضع والذلة لله . يقال : أخبت لله تعالى : اى زاد تواضعا . أربع خصال حازها المخبتون .

أولا : خوف الله . ثانيا : الصبر عند المصائب . ثالثا إقامة الصلاة . رابعا : الانفاق فى الخيرات ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ .

الموجب هنا : الذى أتى بفعل يوجب له الجنة .

قوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون . أما الذين آمنو وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون . ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ [٤]

التفسير

يخبر تعالى : عند عدله وكرمه ، أنه لايساوى فى حكمه يوم القيامة من كان مؤمنا بآياته متبعا لرسله ، بمن كان فاسقا . أى : خارجا عن طاعة ربه مكذبا رسل الله إليه ، كما قال تعالى : ﴿ أم

---

(١) انظر تفسير الطبرى : ٢١ / ٦٧

(٢) اخرجه ابو داود فى (كتاب الصلاة) باب : تحزيب القرآن ج ٢ ص ١١٨ وأخرجه ابن خزيمة فى صحيحه فى (ابواب التطوع بالليل) باب فضل قراءة ألف آية فى ليلة .... الخ

(٣) الحديث فى مجمع الطبرانى من حديث القاسم بن عبدالرحمن بن يزيد الشامى مولى معاوية عن أبى أمامه , الخ ج ٨ ص ٢١٢ رقم ٧٧٤٨ وقال المحقق : قال فى المجمع : ٢ / ٢٦٨ .

(٤) سورة السجدة الآيات : ١٨ ـ ٢٢

حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ .

وقال تعالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[١] .

وقال تعالى ﴿ لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾[٢] ولهذا قال تعالى : هنا ، ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون ﴾[٣] أى عند الله يوم القيامة ، وقد ذكر عطاء بن يسار والسدى وغيرهما : أنها نزلت فى على بن أبى طالب وعقبة بن أبى معيط ، ولهذا فصل حكمهم فقال ﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى : صدقت قلوبهم بآيات الله ، وعملوا بمقتضاها وهى الصالحات ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أى : التى فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نزلا ﴾ أى ضيافة وكرامة ، ﴿ بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا ﴾ أى خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها كقوله . ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ قال الفضيل بن العياض : والله إن الايدى لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم ، ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾ .

أى : يقال لهم ذلك تقريعا توبيخا ، وقوله تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ .

قال ابن عباس : يعنى بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها ، ومايحل بأهلها مما يبتلى الله به عباده ليتوبوا إليه ، وروى مثله عن أبى بن كعب وأبى العالية .

وقال بن عباس فى رواية عنه : يعنى به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة : يعنى به عذاب القبر ، وقال النسائى أخبرنا عمرو بن على ، أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى ، عن اسرائيل عن أبى إسحاق ، عن أبى الأحوص وأبى عبيدة ، عن عبد الله ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ .

قال : سنون أصابتهم ، وقال عبد الله بن الامام بسنده عن أبى بن كعب فى هذه الآية ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ قال : القمر والدخان قد مضيا ، والبطشة واللزام وقال عبد الله بن مسعود ايضا فى رواية عنه العذاب الأدنى ماصابهم من القتل والسبى يوم بدر ، وكذا قال : مالك عن زيد بن أسلم[٤] قال السدى وغيره : لم يبق بيت بمكة الا دخله الحزن على قتيل لهم أو اسير فأصيبوا أو غرموا ، ومنهم من جمع له الأمران .

وقوله تعالى تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أى : لاأظلم ممن ذكره

---

(١) سورة ص الآية : ١٨

(٢) سورة الحشر الآية : ٢٠

(٣) سورة السجدة الآية : ١٨

(٤) انظر تفسير ابن كثير ، سورة السجدة آية رقم ٢١

الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها واعرض عنها ، وتناساها كأنه لايعرفها .

قال قتادة: إياكم والاعراض عن ذكر الله ، فان من اعرض عن ذكره فقد اغتر أكبر الغرة وأعوز أشد العوز ، وعظم من اعظم الذنوب ولهذا قال تعالى : متهددا لمن فعل ذلك ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ سأنتقم ممن فعل اشد الانتقام .

وروى ابن جرير ، حدثنى عمران بن بكار بسنده : عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (ثلاث من فعلهن فقد اجرم ، من عقد لواء فى غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ (١) .

مواعظ وعبر

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾
وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ
بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ
ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَـٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ
ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَـٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

المفردات

مرية : شك

أئمة : جمع إمام أى: زعماء وقادة فى الدين

أو لم يهد لهم : أو لم يتبين لهم .

القرون : الأمم السابقة

---

(١) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير عن معاذ بن جبل وأخرجه ابن منيع..أيضا انظره

(٢) سورة السجدة من الآية : ٢٣ ـ ٣٠ آخرالسورة .

الجرز : هى الارض اليابسة التى جرز نباتها أى : قطع لرعى أو لعدم الماء فيها مع صلاحيتها للانبات وقيل : رجل جروز إذا كان لايبقى شيئا ، ألا أكله . وناق جروز : أى : تأكل كل شىء تجده ، وسيف جراز : أى ، قاطع ماض (متى هذا الفتح ؟) متى هذا الحكم ؟ إذ الفتح القضاء . وقيل : للحاكم فاتح وفتاح ، لأن الأشياء تنفتح على يديه ، وتنفصل ، وعليه قوله تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ .

وهذا رجوع إلى أحد الأصول الثلاثة ، وهى الرسالة والتوحيد وإثبات البعث التى تعنى بها السور المكية ، وإنما اختار موسى لكثرة الشبه بينه وبين النبى محمد ﷺ ولكثرة أتباعه وقوة تأثيرهم فى المجتمع العربى ، وكل من المسحيين واليهود يؤمنون به ، ومع هذا كثير من المواعظ والعبر .

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه فى أول السورة : الرسالة والتوحيد والبعث ـ عاد فى آخرها إلى ذكرها مرة أخرى ، وبعد أن أعاد ذكر الرسالة فى قوله : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ﴾ أعاد هنا ذكر التوحيد مع ذكر البرهان عليه بما يرونه من المشاهدات التى يبصرونها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولقد اتينا موسى الكتاب ﴾ أى : ولقد آتينا موسى أخاك الكتاب فأوذى وكذب ، وناله ماناله من ألوان العذاب والسخرية ، فلا تكن فى شك من أنه سيلقاك مالقيه من التكذيب والأذى ، إذ تلك سنة الكون ونظام الناس ، لابد من اصطراع أهل الحق مع أهل الباطل ، وجعلنا الكتاب الذى أنزل على موسى هدى ونورا لبنى اسرائيل ، وجعلنا منهم أئمة وقادة ، وهم أنبياء بنى اسرائيل يهدون الناس بأمرنا ، ويدعونهم ويعظونهم ، وكانوا بآياتنا يوقنون ، كل ذلك لما صبروا على أحكام الدين وتكاليفه ، وصبروا على البلاء وعلى متاع الدنيا الزائل .

إن ربك هو يفصل بين المؤمنين والكافرين المنكرين للرسالة ، ويقضى بحكمه العدل فيجازى كلا على عمله ، ويعطيه مايستحق من ثواب أو عقاب .

وقيل المعنى : إن ربك يقضى بين الأنبياء وأممهم بالحق .

أغفلوا ولم يتبين لكفار مكة إهلاكنا كثيرا من الامم السابقة ؟ حالة كونهم يمشون للتجارة فى مساكنهم فيعتبروا ويتعظوا بما حل بغيرهم ، إن فى ذلك لآيات دالات على قدرة الله وحكمة العدل بين الكفار والمؤمنين افلا يسمعون سماع قبول وتدبر بقلوبهم ؟

أعموا أنا يروا إن نسوق الماء الى الأرض الجرز التى لا نبات فيها بواسطة المطر أو الانهار والسيول ، فنخرج بالماء زروعا وثمارا تأكل منه انعامهم وانفسهم أفلا يبصرون !

ألم يروا إلى مثل مصر فإنها هبة النيل ، ولولا أن الله ساقه إليها لبقيت مصر قطعة من الصحراء لاخير فيها ولاحياة ، وأن ربك على كل شىء قدير أفلا يبصرون ذلك فيعتبرون ويتعظون .

وكان المسلمون يقولون : غدا سيفتح الله علينا ويحكم بيننا بالحق وهو خير الفاصلين ، فكان المشركون يقولون : متى هذا الفتح ؟ استبعادا وانكارا واستهزاء بالنبى وصحبه ! قل لهم : يوم الفتح والقضاء الفصل هو يوم القيامة ، يومئذ لاينفع الذين كفروا إيمانهم بأنهم على باطل وأنهم تركوا الصراط المستقيم ، واتبعوا سبل الشيطان فضلوا عن سواء السبيل ، ولاينفعهم إيمانهم بأن النبى والقرآن حق ، ولا هم ينظرون ، بل سيأخذون جزاءهم فورا .

فأعرض عنهم وانتظر مايحل بهم من العذاب فى الدنيا والآخرة وانهم منتظرون بك حادث موت أو قتل فيستريحون منك ، وما علموا أن الله عاصمك من الناس ومؤيدك ، حتى تؤدى رسالتك كاملة غير منقوصة .

سورة الأحزاب

قال صاحب البصائر :-

السورة مدنية بالاتفاق . آياتها ثلاث وسبعون . كلماتها ألف ومائتان وثمانون . حروفها خمسة آلاف وسبعمائة وستة وتسعون .

سميت سورة الاحزاب : لاشتمالها على قصة حرب الأحزاب فى قول : ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا** ﴾ .

معظم مقصود السورة : التى اشتملت عليه : الأمر بالتقوى ، وأنه ليس فى صدر واحد قلبان ، وأن المتبنى ليس بمنزله الابن ، وأن النبى ﷺ للمؤمنين بمكان الوالد ، وأزواجه الطاهرات بمكان الأمهات ، وأخذ الميثاق على الانبياء ، والسؤال عن صدق الصادقين ، وذكر حرب الأحزاب ، والشكاية من المنافقين ، وذم المعرضين ، ووفاء الرجال بالعهد ، ورد الكفار بغيظهم ، وتخيير أمهات المؤمنين ووعظهن ونصحهن ، وبيان شرف أهل البيت الطاهرين ، ووعد المسلمين والمسلمات بالأجور الوافرات ، وحديث تزويج زيد وزينب ورفع الحرج عن النبى ﷺ وختم الانبياء به - عليه السلام - والأمر بالذكر الكثير ، والصلوات والتسليمات على المؤمنين ، والمخاطبات الشريفة لسيدنا المصطفى - ﷺ - وبينان النكاح والطلاق والعدة ، وخصائص النبى ﷺ فى باب : النكاح وتخييره فى القسم بين الأزواج ، والحجر عليه فى تبديلهن ، ونهى الصحابة عن دخول حجرة النبى - ﷺ - بغير إذن منه ، وضرب الحجاب ، ونهى المؤمنين عن تزويج أزواجه بعده والموافقة مع الملائكة فى الصلاة على النبى - ﷺ - وتهديد المؤذين للنبى وللمؤمنين ، وتعليم آداب النساء فى خروجهن من البيوت ، وتهديد المنافقين فى إيقاع الأراجيف ، وذل الكفار فى النار ، والنهى عن أيذاء الرسول - ﷺ - والأمر بالقول السديد ، وبيان عرض الأمانة (على السموات والأرض) وعذاب المنافقين وتوبة المؤمنين فى قوله : ﴿ **أنا عرضنا الأمانة** ﴾[1] . إلى آخر السورة .

المتشابهات : ذهب بعض القراء الى أنه ليس فى هذه السورة متشابه . وأورد بعضهم فيها كلمات

---

(١) سورة الأحزاب من الآية : ٧٢

وليس فيه كثير تشابه بل قد تلتبس على الحافظ القليل البضاعة .

فأوردناها ، أذا لم يخل من فائدة وذكرنا مع بعضها علامة يستعين بها المبتدىء فى تلاوته .

منها قوله : ﴿ ليسئل الصادقين عن صدقهم ﴾[١] . وبعده ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ ليس فيها تشابه ، لأن الأول : من لفظ السؤال وصلته (عن صدقهم) وبعده ﴿ وأعد للكافرين ﴾ والثانى : من لفظ الجزاء وفاعله الله ، وصلته ﴿ بصدقهم ﴾ بالياء وبعده ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ ومنها قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ﴾[٢] .

وبعده ﴿ يأأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾[٣] . فيقال للمبتدىء : إن الذى يأتى بعد العذاب الأليم نعمة من الله على المؤمنين .

وما يأتى قبل قوله ﴿ هو الذى يصلى عليكم ﴾ .

اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ شكرا على أن انزلكم منزلة نبيه فى صلاته وصلاة ملائكته عليه حيث يقول ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى) ومنها قوله : يأأيها النبى قل لازواجك وبناتك ﴾ ليس من المتشابه ، لأن الأول : فى التخير والثانى : فى الحجاب .

ومنها قوله : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾ [فى موضعين] .

وفى الفتح ﴿ سنة الله التى قد خلت ﴾[٤] التقدير فى الآيات : سنة الله التى قد خلت فى الذين خلوا ،فذكر فى كل سورة الطرف الذى هو أعم ، واكتفى به عن الطرف الآخر ، والمراد بما فى أول هذه السورة النكاح نزلت حين عيروا رسول الله بنكاح زينب ، فأنزل الله : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾[٥] أى : النكاح سنة فى النبيين على العموم . وكانت لداود تسع وتسعون ، فضم إليها التى خطبها أوريا ، وولدت سليمان . والمراد بما ففى آخر هذه السورة القتل ، نزلت فى المنافقين والشاكين الذين فى قلوبهم مرض ، والمرجفين فى المدينة ، على العموم وما فى سورة الفتح يريد به نصرة الله لأنبيائه . والعموم فى النصرة أبلغ منه فى النكاح والقتل ، ومثله فى حم ﴿ سنت الله التى قد خلت فى عباده ﴾ فإن المراد بها عدم الانتفاع بالايمان عند البأس فلهذا قال : ﴿ قد خلت ﴾ .

ومنها قوله : إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ ﴿ وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ ﴿ وكان الله قويا عزيزا ﴾ ﴿ وكان الله عليما حكيما ﴾ وهذا من باب الاعراب ؛ وإنما نصب لدخول كان على الجملة فتفردت السورة ، وحسن دخول (كان) عليها ، مراعاة لفواصل الآى .

مناسبتها لما قبلها

ووجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه وخاتمة السالفة ، فإن تلك ختمت بأمر النبى ـ ﷺ ـ بالاعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره عليه ـ الصلاة والسلام ـ بالتقوى ، وعدم إطاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ما أوحى اليه من ربه مع التوكل عليه .

(١) سورة الأحزاب من الآية : ٨
(٢) سورة الأحزاب من الآية : ٩
(٣) سورة الأحزاب من الآية : ٤١
(٤) سورة الفتح من الآية : ٣٣
(٥) سورة الاحزاب الآية :٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾
وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ
بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ
مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ
وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ
فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ
قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ
وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن
تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

معانى المفردات

تظاهرون ﴾ أن يقول الرجل لامرأته أنت على كظهر أمى قصدا إلى تحريمها **أدعياءكم** ﴾ أجمع دعى وهو من يدعى لغير أبيه على أنه إبنه وفى الواقع هو إبن غيره . ﴿ **أقسط** ﴾ : أعدل وأقوم ﴿ **ومواليكم** ﴾ : المراد هم بنو عمومتكم . ﴿ **وجناح** ﴾ : ذنب ﴿ **مسطورا** ﴾ : مكتوبا . ﴿ **ميثاقهم** ﴾ : الميثاق هو العهد المؤكد . ﴿ **ميثاقا غليظا** ﴾ : ميثاقا شديدا .

المناسبة وإجمال المعنى

أخرج ابن جرير عن الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : إن أهل مكة ، ومنهم الوليد بن المغيرة ، وشيبة بن ربيعة دعوا النبى - ﷺ - أن يرجع عن قوله : على أن يعطوه شطر أموالهم ، وخوفه المنافقون واليهود بالمدينة إن لم يرجع قتلوه ، فنزلت الآيات [١] .

وبعد أن أمر سبحانه نبيه بتقواه ، والخوف منه ، وحذره من طاعة الكفار والمنافقين ، والخوف منهم - ضرب لنا الأمثال ليبين أنه لايجتمع خوف من الله وخوف من سواه ، فذكر أنه ليس للانسان قلبان حتى يطيع بأحدهما ويعصى بالآخر ، وإذا لم يكن للمرء إلا قلب واحد ، فمتى اتجه لأحد الشيئين صد عن الآخر ، فطاعة الله تصد عن طاعة سواه ، وأنه لا تجتمع الزوجية والأمومة فى امرأة ، والبنوة الحقيقية والتبنى فى انسان .

روى الشيخان والترمذى والنسائى فى جماعة آخرين عن ابن عمر - رضى الله عنهما (أن يـزيد بن حـارثة مـولى رسـول الله - ﷺ - ماكـنا ندعـوه الا زيـد بن حـارثه مولى رسـول الله - ﷺ - ماكنا ندعوه الا زيد بن محمد حتى نزل القرآن : ﴿ أدعوهم لآبائهم ﴾ الآية : فقال رسول الله - ﷺ - : أنت زيد بن حارثة بن شراحبيل) [٢] .

وكان من خبره أن سبى من قبيلته كلب وهو صغير ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة ، فلما تزوجها رسول الله - ﷺ - وهبته له ، ثم طلبه أبوه وعمه ، فخير بين أن يبقى مع رسول الله ، وأن يذهب مع أبيه ، فاختار البقاء مع رسول الله - ﷺ - فأعتقه وتبناه .

وكانوا يقولون : زيد بن محمد ، فلما تزوج رسول الله - ﷺ - زينب ، وكانت زوجا لزيد وطلقها ، قال المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ، وهو ينهى عن ذلك ، فنزلت الآية لنفى أن يكون للمتبنى حكم الابن حقيقة فى جميع الاحكام التى تعطى للابن .

وبعد أن ابان سبحانه : أن الدعى ليس ابنا لمن تبناه ، فمحمد - ﷺ - ليس أبا لزيد بن حارثه ، ثم أعقب ذلك بالارشاد إلى أن المؤمن أخو المؤمن فى الدين ، فلا مانع أن يقول إنسان لآخر : أنت اخى فى الدين - أردف ذلك بيان أن محمدا - ﷺ - ليس أبا لواحد من أمته ، بل أبوته عامة ، وأزواجه أمهاتهم وأبوته أشرف من أبوة النسب ، لان بها الحياة الحقيقية ، وهذه بها الحياة الفانية ، بل هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فإذا حضهم على الجهاد ونحوه ، فذلك لارتقائهم الروحى ، فإذا كيف يستأذن الناس آبائهم وأمهاتهم حين أمرهم - ﷺ - بغزوة تبوك ، وهو أشفق عليهم من الآباء ، بل من أنفسهم .

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن رسول الله - ﷺ - قال : (مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس

---

(١) انظر الدر المنثور فى تفسير المأثور لجلال الدين السيوطى ج ٦ ص ٥٦٠ تفسير سورة الأحزاب .
(٢) أخرجه البخارى فى تفسير الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥ ، ١٤٦ وأخرجه مسلم فى (كتاب الفضائل) باب : فضائل زيد بن حارثة ج ٨/ ١٣٠ ، ١٣١ وفى تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى (تفسير سورة الأحزاب) ج ٩ ص ٧٢ رقم ٣٢٦٢ .

به فى الدنيا والآخرة ، إقرأوا إن شئتم ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا ، فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك دينا أو ضياعا (عيالا) فليأتنى ، فأنا مولاه » (١) .

وفى الصحيح : أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : (يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء إلا من نفسى ، فقال ـ ﷺ ـ : لاياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يارسول الله ، والله لأنت أحب إلى من كل شىء ، حتى من نفسى ، فقال ـ ﷺ ـ : الآن ياعمر» (٢) وبعد أن أبان سبحانه أحكاما شرعها لعباده ، وكان فيها أشياء مما كان فى الجاهلية ، وأشياء مما كان فى الاسلام ، ثم أبطلت ونسخت اتبع ذلك بذكر مافيه حث على التبليغ ، فذكر أخذ العهد على النبيين أن يبلغوا رسالات ربهم ، ولاسيما أولو العزم منهم ، وهم الخمسة المذكورون فى الآية ، كما ذكر فى آية اخرى سؤال الله أنبياءه عن تصديق أقوامهم له ، ليكون فى ذلك تبكيت للمكذبين من الكفار فقال : ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ (٣) .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما . واتبع مايوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا . وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله ، وقال على ـ رضى الله عنه ـ التقوى هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

تزود من التقوى فإنك راحل ... وسارع الى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون الا ودائع ... ولابد يوما أن ترد الودائع

وقوله تعالى : ﴿ يأيها النبى اتق الله ﴾ أى : اثبت ودوام على تقوى الله ، وقد جاء مثل ذلك فى قوله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ﴾ (٤) أى اثبتوا وداوموا على ذلك . وفى قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى ﴾ ونداؤه بعنوان النبوة تكريم له ـ ﷺ ـ وماناداه ربه إلا بعنوان النبوة ، أو الرسالة . والله تعالى عندما يخاطب أنبياءه فى القرآن الكريم يخاطبهم بأسمائهم . ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾ (٥) ﴿ يانوح اهبط بسلام منا ﴾ (٦) ﴿ ياابراهيم . قد صدقت الرؤيا ﴾ (٧) ﴿ ياموسى إنى أنا

---

(١) اخرجه البخارى : فى تفسير سورة الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥

(٢) الحديث فى مسند الامام احمد من رواية زهرة بن معبد ج ٤ ص ٣٣٦ وفى صحيح البخارى ـ كتاب الايمان والنذور ـ باب : كيف كان يمين النبى ـ ﷺ ـ ج ٨ / ١٦١

(٣) سورة المائدة من الآية : ١٠٩

(٤) سورة النساء الآية : ١٣٦

(٥) سورة البقرة من الآية : ٣٥

(٦) سورة هود من الآية : ٤٨

(٧) سورة الصافات الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥

ربك ﴾ (١) ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ﴾ (٢) ﴿ يازكريا إنا نبشرك بغلام ﴾ (٣) ﴿ يايحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ (٤) ﴿ ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ﴾ (٥) فإذا أراد أن يخاطب نبيه ومصطفاه قال : ﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ﴾ (٦) ﴿ ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك ﴾ (٧)

ياسيد العقلاء ياخير الورى ... يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا ... وطلعت فى الأكوان بدرا نيرا
والله ماخلق الاله ولا برى ... بشرا يرى كمحمد بين الورى

قوله تعالى : ﴿ ولاتطع الكافرين والمنافقين ﴾ أى لاتسمع منهم ولا تستشرهم . ﴿ إن الله كان عليما حكيما ﴾ أى : فهو أحق أن تتبع أوامره وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم فى أقواله وأفعاله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ واتبع مايوحى اليك من ربك ﴾ أى : من قرآن وسنة ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية ، ﴿ وتوكل على الله ﴾ أى : فى جميع أمورك وأحوالك . ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ أى : وكفى به وكيلا لمن توكل عليه وأناب إليه .

قوله تعالى : ﴿ ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه وماجعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وماجعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ماتعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

يقول تعالى : موطئا قبل المقصود المعنوى أمرا معروفا حسيا ، وهو أنه كما لايكون للشخص الواحد قلبان فى جوفه ، ولاتصير زوجته ـ التي يظاهر منها بقوله : أنت على كظهر أمى ـ أماله ، كذلك لايصير الدعى ولدا للرجل إذا تبناه ، فدعاه ابنا له فقال : ﴿ ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ كقوله : عز وجل ﴿ ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ﴾ (٨) وقوله تعالى : ﴿ وما جعل ادعياءكم أبناءكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفى ، فإنها نزلت فى شأن زيد بن حارثه ـ رضى الله عنه ـ مولى النبى ـ ﷺ ـ وكان النبى ـ ﷺ ـ قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى : أن يقطع هذا الالحاق ، وهذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ وماجعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ كمال قال تعالى : فى أثناء السورة ﴿ ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين . وكان الله بكل شىء عليما ﴾ وقال ههنا : ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعنى : تبنيكم لهم قول لايقتضى أن يكون ابنا

(١) سورة طه من الآيتان : ١١ ، ١٢
(٢) سورة ص الآية : ٢٦
(٣) سورة مريم الآية : ٧
(٤) سورة مريم الآية : ١٢
(٥) سورة آل عمران الآية : ٥٥
(٦) سورة الاحزاب الآية : ٤٥
(٧) سورة المائدة الآية : ٦٧
(٨) سورة المجادلة الآية ٢

حقيقيا ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لايمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان .

قوله تعالى : ﴿ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾ للعلماء فى تفسير الحق أقوال : قال سعيد ابن جبير ﴿ يقول الحق ﴾ أى : العدل . وقال بعضهم : الحق : ضد الباطل وقال البعض : الحق هو طريق التوحيد وقالوا ؛ الحق هو دعوة الله الخالصة ، له دعوة الحق . ﴿ وهو يهدى السبيل ﴾ قال قتادة : أى الصراط المستقيم . قال بعض المفسرين . وذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت فى رجل من قريش كان يقال له ذو القلبين وأنه كان يزعم ان له قلبين كل منهما بعقل وافر فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليه .

وروى الإمام احمد بسنده عن ابن أبى ظبيان قال : ان أباه حدثه قال : قلت : لابن عباس أرأيت قول الله تعالى : ﴿ وماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ ماعنى بذلك ؟ قال : قام رسول الله - ﷺ - يوما يصلى فخطر خطرة فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين قلبا معكم وقلبا معهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ ماجعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾ [(١)] قوله تعالى : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ هذا ناسخ لما كان فى ابتداء الاسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى : برد نسبهم إلى آبائهم فى الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر .

وروى البخارى بسنده : عن عبد الله بن عمر قال : ان زيد بن حارثه - رضى الله عنه - مولى رسول الله - ﷺ - ماكنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ [(١)] قوله تعالى : ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ أمر تعالى : برد انساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم فى الدين ، ومواليهم أى : عوضا عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله - ﷺ - يوم خرج من مكة عام عمرة ، وتبعتهم ابنه حمزة - رضى الله عنه - تنادى ياعم ياعم ، فأخذها - على رضى الله عنه - وقال لفاطمة - رضى الله عنها - : دونك ابنة عمك ، فاحتملها فاختصم فيها على وزيد وجعفر - رضى الله عنهم - فى أيهم يكفلها ، فكل أدلى بحجة . فقال على - رضى الله عنه - أنا أحق بها وهى ابنة عمى ، وقال زيد : ابنة اخى وقال جعفر بن أبى طالب : ابنة عمى وخالتها تحتى يعنى : أسماء بنت عميس ، فقضى بها النبى - ﷺ - لخالتها ،

وقال : (الخالة بمنزلة الأم) وقال : لعلى - رضى الله عنه - : (أنت منى وأنا منك) وقال لجعفر - رضى الله عنه - (اشبهت خلقى وخلقى) وقال لزيد : - رضى الله عنه - : (أنت أخونا ومولانا) ففى هذا الحديث احكام كثيرة من أحسنها انه - ﷺ - حكم بالحق وأرضى كلا من المتنازعين وقال لزيد : - رضى الله عنه - ﴿ أنت أخونا ومولانا ﴾[(٣)] كما قال تعالى : ﴿ فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ .

---

(١) مسند الامام احمد ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨

(١) البخارى : تفسير سورة الاحزاب : ج ٦ ص ١٤٥ - ١٤٦

(٣) البخارى : (كتاب الصلح) باب : كيف يكتب : هذا ما صالح فلان ابن فلان . ج ٣/ ٢٤١ ، ٢٤٢

كلمة عن زيد بن حارثة

حب رسول الله - ﷺ - الذى قال فى شأنه : (أنت مولاى ومنى وأحب القوم إلى) نشأته وشأنه ، ومكانته فى الإسلام :

خرجت أمه (سعدى بنت ثعلبة) معه تزور قومها (بنى معن) فأغارت خيل لبنى القين بن جسر ، فمروا على أبيات (بنى معن) فاحتملوا زيدا - وقد كان يومئذ غلاما يافعا - ولم يعرف بعد شيئا عنه .

وكان موسم الحج قد اقبل « فحج قوم من « كلب » وأمام أعينهم دائما صورة هذا الرجل الباكى « حارثة بن شرحبيل » ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا « زيدا » فعرفهم ، وعرفوه وأقبل عليهم ، وعلموا منه ان خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوجها شريف قريش محمد بن عبد الله - ﷺ - وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب لفدائه ، وقدما مكة ، فسألا عن النبى - ﷺ - فدخلا عليه وقالا : ياابن عبدالله ! ياابن عبدالمطلب ! ياابن هاشم ! ياابن سيد قومه ! أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير جئنا فى ابننا ، فامتن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه ، فإنا سندفع لك الفداء ، فقال لهم الرسول - ﷺ - : (ادعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى اختار على من اختارنى) .

فدعاه النبى - ﷺ - وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال : نعم . قال : من هما ؟ قال زيد : هذا أبى وهذا عمى . فقال رسول الله - ﷺ - (فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أوفاخترهما) فقال زيد : ما أنا بالذى اختار عليك احدا ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا: ويحك يازيد! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك قال زيد : نعم إنى قد رأيت من الرجل شيئا ، ما أنا بالذى اختار عليه احدا ابدا فلما رأى رسول الله - ﷺ - ذلك أخرجه إلى الحجر ، وقال : (يامن حضر ، اشهدوا أن زيدا ابنى : أرثه ويرثنى) .

فلما رأى ابوه وعمه ذلك : طابت نفساهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء . ولم يفارق النبى - ﷺ - لحظة فأحبه النبى حبا شديدا . وأذن النبى - ﷺ - فى الهجرة لأصحابه ، وهاجر زيد ، ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة . ولما هاجر الرسول الأعظم الى « يثرب » وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد : أخوين فى الله ، ثم آخى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير [1] .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدرا وأُحدا ، واستخلفه رسول الله - ﷺ - على المدينة ، حين خرج إلى « المريسيع » « وشهد الخندق » و « الحديبية » و « وحنينا » وخرج زيد اميرا فى سبع سرايا : أولها « القردة » واعترض لغير قريش

---

(١) انظره فى أُسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ج ٢ ص ٢٨٠ - ٣٨٣ رقم ١٨٢٩ فى ترجمة زيد بن حارثة

فأصابها ، وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر « زيد » فرات بن حيان العجلى »
وقدم بالبعير على النبى - ﷺ - وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - : « مابعث رسول الله - زيد بن حارثة فى جيش قط ، إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده : لاستخلفه »(١) .

وأراد رسول الله - ﷺ - ان يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلا : (عليكم زيد بن حارثه فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، فإن أصيب جعفر : فعبد الله ابن رواجه »(٢) .

وتحرك الجيش الاسلامى بقيادة لواء الاسلام « زيد بن حارثة » أليس فى هذا المعنى مايعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ؟

هذا « زيد » يقود جيشا فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد بن الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول ، ومن بعد زيد : قاد ابنه « اسامه) الحملة بعد وفاة رسول الله - ﷺ - قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه ابو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه الأمة .

(أى : دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى : ! معنى أوضح من هذا المعنى ؟) .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الاسلام الذى كرم البشرية ، وزكى النفوس وطهر القلوب !

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

الدين والدنيا لنا جمعتهما ... لك شرعة قدسية غراء
والمسلمون جميعهم جسد إذا ... عضو شكا ، سهرت له الأعضاء

سار المسلمون ، وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤنة » وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلا .

ولكن ما لبث الأمير أن اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ ! وتناولته السيوف بالطعن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله - ﷺ - وأخيرا : استشهد الأمير . أيتها النفس الكبيرة !

---

(١) الحديث اورده ابن كثير فى تفسير سورة الأحزاب : الآية ٣٧ وقال : اخرجه الامام احمد فى مسنده - مسند عائشة - رضى الله عنها .

(٢) انظره فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الاثير ج ٢ ص ٢٨٣

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة ، حيث قال : (زيد ابنى)[١]، ثم أمرَّك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى - ﷺ - يقول : (استغفروا لزيد : لقد دخل الجنة وهو يسعى) ثم أتى اهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبى - ﷺ - حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يارسول الله : ما هذا ؟ فقال له الرسول - ﷺ - : (ياسعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .

يرحمك الله يازيد بن حارثة يا من أثنى عليك رسول الله خيرا ، ويامن أنعم الله عليك بالاسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق . . يامن ختم الله لك حياتك الكريمة بالموتة الكريمة ، فلقيته شهيدا ، وعشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر **﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**[٢]. لقد حرم الاسلام التبنى ووضع الأمور فى نصابها وسمى الأشياء بأسمائها ووضع النقاط على حروفها . جاء فى الحديث الشريف : (ليس من رجل ادعى الى غير أبيه وهو يعلمه الا كفر)[٣] وهذا تشديد وتهديد ووعيد أكيد فى التبرى من النسب المعلوم ولهذا قال تعالى : **﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾** ثم قال تعالى : **﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾** أى إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه فى الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع فإن الله تعالى قد وضع الحرج فى الخطأ ورفع إثمه كما أرشد اليه فى قوله تبارك وتعالى آمرا عباده ان يقولوا : (**ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا**)[٤] وثبت فى صحيح مسلم أن رسول الله - ﷺ - : قال : (قال الله - عز وجل - قد فعلت)[٥] وفى صحيح البخارى عن عمرو بن العاص - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ؛ (اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر)[٦]

وفى الحديث الآخر (إن الله تعالى رفع عن أمتى الخطأ والنسيان والأمر الذى يكرهون عليه)[٧] وقال تبارك وتعالى هنا : **﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما ﴾** أى : وإنما الاثم على من تعمد الباطل كما قال عز وجل : **﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم ﴾**[٨]

وروى الامام أحمد بسنده عن عمر - رضى الله عنه - قال : إن الله تعالى بعث محمدا ﷺ بالحق وأنزل معه الكتاب فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فرجم رسول الله - ﷺ - ورجمنا بعده ، ثم قال : قد كنا نقرأ : **﴿ ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم ﴾** وأن رسول الله - ﷺ -

---

(١) مسلم - كتاب فضائل الصحابة - باب فضل زيد بن حارثة ٤/ ١٨٨٤ رقم ٢٤٢٥ وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢٨٢/٢
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١٦٩ ، ١٧٠
(٣) البخارى - كتاب المناقب ٢١٩/٤
(٤) سورة البقرة الآية : ٢٨٦
(٥) مسلم - كتاب الإيمان - باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف الا ما يطاق آ ١١٦ رقم ٢٠٠
(٦) البخارى - كتاب الاعتصام - باب أجر الحاكم اذا اجتهد فأصاب أو أخطأ ١٣٢/٩ .
(٧) سنن ابن ماجه - كتاب الطلاق - باب طلاق المكره والناسى ج ١ ص ٦٥٩ رقم ٢٠٤٥
(٨) سورة البقرة الآية : ٢٢٥

قال : (لا تطرونى كما أطرى عيسى بن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنما أنا عبد الله فقولوا عبده ورسوله ، وربما قال عمر (كما أطرت النصارى ابن مريم)[١] ورواه فى الحديث الآخر (ثلاث فى الناس كفر ، الطعن فى النسب ، والنياحة على الميت ، والاستسقاء بالنجوم)[٢].

قوله تعالى : **﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب مسطورا﴾** .

جاء فى الصحيح : (والذى نفسى بيده لا يؤمن احدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين)[٣] وفى الصحيح أيضا ان عمر رضى الله عنه قال : يارسول الله والله لأنت أحب الى من كل شىء إلا من نفسى ، فقال ـ ﷺ ـ : لا ياعمر حتى أكون أحب إليك من نفسك . فقال يارسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شىء حتى من نفسى ، فقال ـ ﷺ ـ : « الآن ياعمر »[٤].

قال ابن مسعود : اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد فاختاره لرسالته ثم اطلع على القلوب بعده فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته فما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن .

لقد شرح الله صدره ورفع ذكره وعلم أنه أرحم الناس بالناس فأمر بطاعته والرضا بحكمه . قال تعالى : **﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾**[٥] وقرن الله طاعته بطاعته فقال : **﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾**[٦] وجعل اتباعه شرطا فى محبة الله فقال : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾**[٧].

قال البخارى عند قوله تعالى : **﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾** حدثنا ابراهيم بن المنذر بسنده عن ابى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : (ما من مؤمن الا وأنا أولى الناس به فى الدنيا والآخرة : إقرأوا إن شئتم : **﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ فأيما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته من كانوا وان ترك دينا أو ضياعا فليأتنى فأنا مولاه)**[٨]

---

(١) مسند الامام احمد ـ مسند عمر بن الخطاب ٤٧/١

(٢) رواه مسلم والامام أحمد عن ابى مالك الاشعرى انظر مسلم ـ كتاب الجنائز ـ باب التشديد فى النياحة ٦٦٤/١ رقم ٢٩ ومسند أحمد ٣٤٢/٥

(٣) البخارى ـ كتاب الايمان ـ باب حب الرسول ﷺ ١٢/١

(٤) البخارى ـ كتاب الايمان والنذور ـ باب كيف كان يحين النبى ﷺ ١٦١/٨

(٥) سورة النساء الآية : ٦٥

(٦) سورة النساء الآية : ٨٠

(٧) سورة آل عمران الآية : ٣١

(٨) البخارى تفسير سورة الاحزاب ١٤٥/٦ وفى كتاب الاستقراض باب الصلاة على من ترك دينا ١٥٥/٣

سيدى أبا القاسم يارسول الله

لو شرق القوم الكبار وغربوا — فإليك حتما منتهى الخطوات
ضلت علومهم برغم نبوغهم — وتعرضوا لمهالك خطرات
وتنكبوا سبل السلام وأقبلوا — يتشدقون بأتفه الكلمات
لو ادركوا معنى السلام لأسلموا — ما غير دينك سلّم لنجاة
القول فيك معطر الكلمات — ياصاحب الآيات والسورات
أيام مولدك الكريم مضيئة — فى كل ماض فى الزمان وآت
يوم أتى بك للوجود فإنه — تاج الزمان وغرة السنوات
تتعاقب الايام فى دوراتها — وترد كل جديدة لموات
وضياك يسطع كل يوم نوره — ويزيد فى الاشراق والنفحات
فالحق انت وأنت إشراق الهدى — ولك الكتاب الخالد الصفحات
علمتنا سر الحياة وقدتنا — للخير والتوفيق والبركات
جنبتنا الزلل الكبير وصنتنا — من شهوة تطغى ومن نزوات
من يقصد الدنيا بدونك يلقها — تيها من الأهوال والظلمات
لما أراد الله جل جلاله — ان ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى ياسيدى — فيضا من الأنوار والرحمات
ياصاحب الحق الكبير عرفته — وبسطته فى حكمة وأناة
وطلعت فى الليل البهيم مؤذنا — بالحق والأنوار والصلوات
دعوت للخيرات قوما ضللوا — ما كان ابعدهم من الخيرات
ودعوت حتى كنت اصبر من دعا — وأقمت بين إساءة وإذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت فى — أعناقهم فى عزة وثبات
فحظيت بالنصر المبين مؤزرا — وأقمت دينك خافق الرايات
وضربته مثلا لكل مكابر — لا يستوى حق بغير حماة
ياسيدى لما ذكرتك أشرقت — نفسى وهامت بالسعادة ذاتى
القاك فى الحق المجلجل فى دمى — فى زحمة الدنيا وفى خلواتى
ألقاك فى الليل البهيم وفى الضحا — ألقاك فى صحوى وفى غفواتى
ألقاك من حولى وبين جوانحى — فى بسمتى تأتى وفى عبراتى
فلأنت فى خيرى تزيد دعاته — ولأنت فى شرى؟ تذود دعائى
ولأنت فى قلبى وملء نواظرى — وخواطرى ومشاعرى وحياتى

قوله تعالى : ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أى فى الحرمة والاحترام ، والتوقير والاكرام والاعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن واخواتهن بالاجماع ، وان سمى بعض العلماء

بناتهن اخوات المؤمنين كما هو منصوص الشافعى - رضى الله عنه - فى المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم .

قوله تعالى : ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله ﴾ أى فى حكم الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ قال ابن عباس وغيره : كان المهاجرى يرث الانصارى دون قراباته وذوى رحمه للأخوة التى أخى بينهما رسول الله - ﷺ - وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : أنزل الله - عز وجل - فينا خاصة معشر قريش والانصار ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض ﴾ وذلك انا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا فوجدنا الأنصار نعم الاخوان فواخيناهم ووراثناهم فآخى ابو بكر - رضى الله عنه - خارجة بن زيد ، وآخى عمر - رضى الله عنه - فلانا ، وآخى عثمان - رضى الله عنه - رجلا من بنى زريق : ابن سعد الزرقى ويقول بعض الناس غيره . قال الزبير - رضى الله عنه - وواخيت انا كعب ابن مالك فجئته فابتعلته فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى فوالله يابنى لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيرى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش والانصار خاصة فرجعنا إلى موارثينا .

قوله تعالى : ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا ﴾ أى ذهب الميراث وبقى النصر والبر والصلة والاحسان والوصية ،

وقوله تعالى : ﴿ كان ذلك فى الكتاب مسطورا ﴾ أى هذا الحكم وهو أن أولى الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب فى الكتاب الأول الذى لا يبدل ولا يغير . قال مجاهد وغير واحد وان كان تعالى قد شرع خلافه فى وقت لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم انه سينسخه إلى ما هو جار فى قدره الأزلى وقضائه القدرى الشرعى والله اعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ ونحو ذلك قولع تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾[١] وقد أخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء ونص على خمسة منهم وهم أولو العزم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم أجمعين - وعطف هؤلاء الخمسة على النبيين من باب عطف الخاص على العام وقد صرح بهم سبحانه وتعالى فى آية اخرى قال تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾[٢] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٨١ .
(٢) سورة الشورى الآية : ١٣

قوله تعالى : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾ بسؤالهم عما فعلوا حين الارسال كما قال : ﴿ ولنسألن المرسلين ﴾(١) .

وقد جرت العادة ان الملك اذا ارسل رسولا ، وأمره بشيء وقبله كان ذلك ميثاقا عليه ، فإذا أعلمه بأنه سيسأله عما يقول ويفعل كان ذلك تغليظا للميثاق ، وحتى لا يزيد ولا ينقص فى الرسالة ثم بين علة اخذ الميثاق على النبيين فقال :

﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ أى وأخذنا من هؤلاء الانبياء كيما أسأل المرسلين عما اجابتهم به اممهم ، وما فعل أقوامهم فيما ابلغوهم عن ربهم من الرسالة .

﴿ وأعد للكافرين عذابا أليما ﴾ أى ليسأل الصادقين عن صدقهم ، وأعد لهم ثوابا عظيما ، ويسأل الكاذبين عن كذبهم ، وأعد لهم عذابا اليما .

غزوة الاحزاب وبنى قريظة

قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ
الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا
اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا (١٢) وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا
(١٣) وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا (١٤)
وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (١٥) قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ
الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٦) قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ
مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٧) *
قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا

(١) سورة الأعراف الآية : ٦

(١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ
عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا
فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (١٩) يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ
الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا
إِلَّا قَلِيلًا (٢٠) لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ
فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا (٢٣) لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ
بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥)
وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا (٢٧)

معانى المفردات

المراد بالجنود هنا . الأحزاب ، وهم قريش يقودهم ابو سفيان ، وبنو أسد يقودهم طليحة ، وغطفان يقودهم عيينة بن حصن ، وبنو عامر يقودهم عامر بن الطفيل ، وبنو سليم يقودهم ابو الأعور السلمى ، وبنو النضير من اليهود ، ورؤساؤهم حيى بن أخطب ، وأبناء أبي الحقيق ، وبنو قريظة من اليهود أيضا سيدهم كعب بن أسد ، وكان بينهم وبين رسول الله - ﷺ - عهد فنبذه كعب بسعى حيى وكان مجموع جيوش الأعداء عشرة آلاف أو نحو ذلك ، « والجنود التى » لم تروها : هى الملائكة ، « من فوقكم » أى : من أعلى الوادى من جهة المشرق ، وكانوا بنى غطفان ، « ومن أسفل منكم »

أى : من أسفل الوادى من قبل المغرب ، وكانوا قريشا ومن شايعهم ، وبنى كنانة وأهل تهامة ، ﴿ زاغت الأبصار ﴾ أى : انحرفت عن مستوى نظرها حيرة ودهشة ، ﴿ وبلغت القلوب الحناجر ﴾ يراد به فزعت فزعا شديدا ﴿ ابتلى المؤمنون ﴾ أى اختبروا وامتحنوا ، ﴿ وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾أى اضطربوا اضطرابا شديدا من الفزع وكثرة العدو ، ﴿ والذين فى قلوبهم مرض ﴾ قوم كان المنافقون يستميلونهم بإدخال الشبه عليهم لقرب عهدهم بالاسلام ، ﴿ الا غرورا ﴾ أى وعد غرور لا حقيقة له ؛ ﴿ يثرب ﴾ من أسماء المدينة ، ﴿ لا مقام لكم ﴾ أى لا ينبغى لكم الاقامة ها هنا . ﴿ عورة ﴾ أى ذات عورة لأنها خالية من الرجال فيخاف عليها سرق السراق ﴿ والأقطار ﴾ واحدها قطر وهو الناحية والجانب ، ﴿ والفتنة ﴾ الردة ومقاتلة المؤمنين ﴿ آتوها ﴾ أى عطوها ، ﴿ وما تلبثوا بها ﴾ أى : وما أقاموا بالمدينة ، ﴿ يعصمكم ﴾ أى : يمنعكم ، ﴿المعوقين ﴾ أى : المثبطين عن القتال مع رسول الله - ﷺ - ﴿ هلم إلينا ﴾ أى : أقبلوا إلينا ، ﴿ والبأس ﴾ الشدة ، والمراد به هنا الحرب والقتال ، ﴿ أشحة ﴾ واحدهم شحيح أى بخيل بالنصرة والمنفعة ، ﴿ تدور أعينهم ﴾ أى : تدير أعينهم احداقهم من شدة الخوف ، ﴿ سلقوكم ﴾ أى : آذوكم بالكلام ، ﴿ بألسنة حداد ﴾ أى : ألسنة دربة سلطة تفعل فعل الحديد ، ﴿ أشحة على الخير ﴾ أى : بخلاء حريصين على مال الغنائم ، ﴿ أحبط الله أعمالهم ﴾ أى : أبطلها لإضمارهم الكفر ، ﴿ لو أنهم بادون فى الأعراب ﴾ أى : خارجون إلى العدو مقيمون بين أهله ، ﴿ أسوة ﴾ أى : قدوة والمراد به المقتدى به ، ﴿ قضى نحبة ﴾ أى : فرغ من نذره ووفى بعهده ، وصبر على الجهاد حتى استشهد كحمزة ، ومصعب بن عمير ، ﴿ والغيظ ﴾ أشد الغضب ، ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أى : وقاهم شره ﴿ عزيزا ﴾ أى : غالبا مستوليا على كل شىء ، ﴿ ظاهروهم ﴾ أى : عاونوهم ﴿ من أهل الكتاب ﴾ أى : من بنى قريظة ، ﴿ من صياصيهم ﴾ أى : من حصونهم واحدها صيصية وهى كل ما يمتنع به ، قال الشاعر :

فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يبتدرن الصياصيا

﴿ وقذف ﴾ أى : ألقى ، ﴿ والرعب ﴾ الخوف الشديد .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد ان امر سبحانه عباده بتقواه ، وعدم الخوف من سواه - ذكر هنا تحقيق ما سلف فأبان انه أنعم على عباده المؤمنين ، إذ صرف عنهم اعداءهم وهزمهم حين تألبوا عليهم عام الخندق .

وتفسير هذا على ما قاله أرباب السير : أن نفرا من اليهود قدموا على قريش فى شوال سنة خمس من الهجرة بمكة ، فدعوهم الى حرب رسول الله - ﷺ - وقالوا لهم : إن دينكم خير من دينه ، ثم جاءوا غطفان وقيسا وعيلان ، وحالفوا جميع هؤلاء أن يكونوا معهم عليه ، فخرجت هذه القبائل ومعها قادتها وزعماؤها .

ولما سمع رسول الله - ﷺ - بمسيرهم أمر المسلمين بحفر خندق حول المدينة بإشارة سليمان الفارسى ، وعمل فيه رسول الله - ﷺ - والمسلمون وأحكموه ؛ وكان رسول الله يرتجز بكلمات ابن رواحه ، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا [1]

وفى أثناء[2] العمل برزت لهم صخرة بيضاء فى بطن الخندق فكسرت حديدهم وشقت عليهم ؛ فلما علم بها رسول الله - ﷺ - أخذ المعول من سلمان وضربها به ضربة صدعها وبرق منها برق أضاء ما بين لابيتها (جانبى المدينة) حتى كأنه مصباح فى جوف بيت مظلم ؛ فكبر رسول الله - ﷺ - تكبير فتح وكبر المسلمون وهكذا مرة ثانية وثالثة فكانت تضىء وكان التكبير ؛ ثم قال رسول الله - ﷺ - : ضربت ضربتى الأولى فبرق البرق الذى رأيتم فأضاء لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها انياب الكلاب ، وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ؛ ثم ضربت ضربتى الثانية ، فبرق البرق الذى رأيتم اضاء لى منها قصور قيصر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب . فأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها ، ثم ضربت الثالثة فبرق البرق الذى رأيتم أضاء لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب ، فأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها ، فأبشروا ؛ فاستبشر المسلمون ، وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده ؛ فقال المنافقون : ألا تعجبون ؟ يمنيكم ويعدكم بالباطل ، ويخبركم أنه ينظر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى ، أنها تفتح لكم وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق لا تستطيعون ان تبرزوا ، فنزل : ﴿ وإذ يقول المنافقون ﴾ الخ . ونزل : ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾[3] الآية .

ولما اجتمع هؤلاء الاحزاب الذين حزبهم اليهود ، وأتوا إلى المدينة رأوا الخندق حائلا بينهم وبينها ، فقالوا : والله هذه مكيدة ما كانت العرب تكيدها ، ووقعت مصادمات بين القوم كرا وفرا ، فمن المشركين من كان يقتحم الخندق فيرمى بالحجارة ، ومنهم من كان يقتحمه بفرسه فيهلك .

ثم[4] إن نعيم بن مسعود بن عامر من غطفان أتى رسول الله - ﷺ - فأعلمه أنه أسلم وأن قومه لم يعلموا بذلك ، فقال - ﷺ - : إنما أنت فينا رجل واحد ، فخذّل عنا إن استطعت ، فإن الحرب خدعة ، فأتى قريظة وقال لهم : لا تحاربوا مع قريش وغطفان إلا إذا اخذتم منهم رهنا من أشرافهم يكونون بأيديكم تقية لكم على أن يقاتلوا معكم محمدا ، لأنهم رجعوا وسئموا حربه ، وإنكم وحدكم لا تقدرون عليه ، وذهب إلى قريش وإلى غطفان ، فقال لهم : إن اليهود يريدون أن يأخذوا منكم رهنا يدفعونها لمحمد ، فيضرب أعناقهم ، ويتحدون معه على قتالكم ، لأنهم ندموا على ما فعلوا من نقض العهد وتابوا ، وهذا هو المخرج الذى اتفقوا عليه .

وحينئذ تخاذل اليهود والعرب ، ودب بينهم دبيب الفشل . ومما زاد فى فشلهم ان بعث الله عليهم ريحا فى ليلة شاتية شديدة البرد ، فجعلت تكفىء قدورهم ، وتطرح آنيتهم .

---

(١) البخارى - كتاب الجهاد - باب الرجز فى الحرب ٧٨/٤ وكتاب المنافق - باب غزوة الخندق ١٤٠/٥
(٢) تفسير الطبرانى ١٣٤/٢١
(٣) سورة آل عمران الآية : ٢٦
(٤) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٣٤٨/٥

وقد قام رسول الله - ﷺ - ليلة يصلى على التل الذى عليه مسجد الفتح ثم يلتفت ويقول : هل من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ فعل ذلك ثلاث مرات ، فلم يقم رجل واحد ، من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فدعا حذيفة بن اليمان وقال : ألم تسمع كلامى منذ الليلة ؟ قال حذيفة : فقلت يارسول الله منعنى أن أجيبك الضر والقرّ ، قال : انطلق حتى تدخل فى القوم ، فتسمع كلامهم وتأتينى بخبرهم . اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، حتى ترده إلى ، انطلق ولا تحدث شيئا حتى تأتينى ، فانطلق حذيفة بسلاحه ، ورفع رسول الله - ﷺ - يده يقول : ياصريخ المكروبين ، ويامجيب المضطرين ، اكشف همى وغمى وكربى ، فقد ترى حالى وحال اصحابى فنزل جبريل وقال : ان الله قد سمع دعوتك ، وكفاك هول عدوك ، فخر رسول الله - ﷺ - على ركبتيه ، وبسط يديه ، وأرخى عينيه ، وهو يقول : شكرا شكرا كما رحمتنى ورحمت اصحابى ، وذهب حذيفة إلى القوم ، فسمع ابا سفيان يقول : يامعشر قريش ، انكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، واخلفتنا بنوقريظة ، وبلغناهم الذى نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، فارتحلوا فإنى مرتحل ، فلما رجع أخبر رسول الله - ﷺ - فضحك حتى بدت انيابه فى سواد الليل .

بلغة العسكريين

ولنستمع الآن الى وصف دقيق لوقائع غزوة الخندق وبنى قريظة بلغة العسكريين كما يرويها لنا اللواء (محمود شيت خطاب) فى كتابه (الرسول القائد) كتب تحت عنوان (الخندق) فقال :

الموقف العام

١ - المسلمون : نجح المسلمون فى إعادة النظام إلى صفوفهم بعد « أحد » وتخلصوا من يهود بنى النضير ، وبذلك قوى مركزهم فى المدينة قاعدتهم الأمينة ، كما اثروا على معنويات قريش وكافة القبائل التى طمعت فى مهاجمة المدينة لقد استعادوا فى هذه الفترة سمعتهم ، وأصبح سلطانهم مهيبا فى المدينة وخارجها على حد السواء .

٢ - المشركون واليهود : -

لم تستطع قريش لقاء المسلمين فى (بدر) الصغرى ، لأنها قدرت أن قوة المسلمين اكبر من ان تستطيع القضاء عليها وحدها .

كما لم تستطع القبائل ان تهاجم المدينة كما ارادت ، اذ هاجمها المسلمون على انفراد فى عقر دارها وتغلبوا عليها بالتعاقب .

وكان اليهود اضعف من ان يفكروا فى التعرض وحدهم للمسلمين ، ولكنهم كانوا يترقبون الفرص .

وكان لابد من تجمع قوى قريش والقبائل الاخرى واليهود فى صعيد واحد للقضاء على المسلمين ، إذ اصبح المسلمون بدرجة من القوة يصعب معها القضاء عليهم اذ لم تحتشد كافة قوى اعدائهم ؛ وفعلا قام الموتورون من يهود بنى النضير بمهمة تجميع قوات المشركين واليهود حول المدينة ، ونجحوا فى حشد اكبر قوة متفوقة للقضاء على الدين الجديد .

قوات الطرفين

١ ـ المسلمون : ثلاثة آلاف رجل بقيادة الرسول ـ ﷺ ـ

٢ ـ المشركون : عشرة آلاف عدا اليهود من بنى قريظة ، منهم أربعة آلاف من قريش وستة آلاف من بنى سليم وأسد وفزارة واشجع وغطفان . كانت قريش بقيادة ابى سفيان بن حرب بن أمية .

وكانت غطفان بقيادة عيينة بن حصن والحارث بن عوف .

وكانت أشجع بقيادة مسعود بن رخيلة وهم أربعمائة .

وكانت سليم سبعمائة يقودهم سفيان بن عبد شمس حليف حرب بن أمية وكانت بنو أسد بقيادة طلحة بن خويلد الأسدى .

أهداف الطرفين

١ ـ المسلمون : الدفاع عن الاسلام .

٢ ـ المشركون واليهود : القضاء على المسلمين وانتهاب أموالهم وذراريهم .

التوقيت

كانت غزوة الخندق فى شوال من السنة الخامسة للهجرة واستمر الحصار حوالى شهر واحد .

قبل المعركة

١ ـ المسلمون :

أ ـ قرر المسلمون البقاء فى المدينة وحفروا خندقا عميقا يحيط بشمال المدينة ويقع بين حرة المدينة وجبل « سلع » لان هذه المنطقة هى المنطقة الوحيدة المكشوفة ؛ إذ أن جهات المدينة الأخرى محاطة بالبساتين الكثيفة والعوارض الطبيعية الأخرى ، وذلك يحول دون إمكان إجراء القتال بقوات كبيرة فى أطراف المدينة عدا الشمالية منها ، حيث إنها مكشوفة كما أسلفنا ، لذلك أشار سلمان الفارسى بحفر الخندق فى هذه المنطقة ، ولم يكن حفر الخنادق للأغراض الدفاعية معروفا عند العرب من قبل .

قسم الرسول منطقة الحفر على أصحابه : لكل عشرة منهم أربعون ذراعا ، واشتغل هو بالحفر ايضا ، كأى فرد منهم ، بل كان المسلمون يستعينون به عندما تصادفهم بعض العقبات أثناء الحفر كظهور الصخور فيحضر بنفسه لتفتيتها .

وكان العمل يستمر طيلة النهار ، ثم يأوى المسلمون ليلا الى دورهم ليأخذوا قسطا من الراحة ، وقد سيطر الرسول بنفسه على العمل . فلا يذهب احد لعمله الخاص إلا بموافقته .

ب ـ عسكر المسلمون الى سفح « سلع » وجعلوا « سلعا » خلف ظهورهم .

ج ـ جمع الرسول النساء والأطفال فى بيوت قوية البنيان فى منطقة أمينة داخل المدينة للإفادة من مناعتها لحمايتهم ، وهجروا البيوت الواهنة .

د ـ بعد انجاز حفر الخندق ، احتل المسلمون مواضعهم خلف الخندق واستفادوا من مناعة جبل « سلع » لحماية ظهورهم وجناحهم الأيسر من التفاف الأحزاب لقطع خط رجعتهم الى المدية المنورة وضربهم من الخلف وتطويقهم .

٢ ـ المشركون واليهود :

أ ـ قصد نفر من اليهود قريشا فى مكة منهم سلام بن أبى الحقيق وحيى بن أخطب ، فدعوهم إلى حرب الرسول ، ووعدوهم أنهم سيكونون معهم فى القتال .

فلما وافقت قريش على قتال المسلمين ، قصد اليهود غطفان وغيرها من القبائل ، ودعوهم إلى حرب الرسول أيضا ، وأخبروهم ان قريشا معهم على ذلك ، فوافقت غطفان والقبائل الأخرى .

ب ـ لما وصلت قريش وغطفان والقبائل الاخرى الى ضواحى المدينة استطاع حيى بن أخطب التأثير على اليهود من بنى قريظة ، فنكثوا عهدهم مع المسلمين وانضموا مع الأحزاب .

ج ـ كانت مواضع قتال الأحزاب فى ضواحى المدينة كما يلى :

أولا : قريش فى موضع مجتمع الأسيال من دومة بين الجرف وزغابة

ثانيا : غطفان وقبائل نجد فى موضع ذنب نقمى الى جانب « أحد »

ثالثا : بنو قريظة فى حصونهم فى ضواحى المدينة .

سير القتال

١ ـ تحرج موقف المسلمين كثيرا ، خاصة بعد انضمام بنى قريظة للأحزاب ، فقد كان بإمكان هؤلاء اليهود التسلل إلى داخل المدينة والتعريض بالنساء والأطفال خاصة أنهم يعرفون تفاصيل مسالكها لأنهم من أهلها ، مما يؤثر على معنويات المسلمين الذين يقاتلون فى ساحة المعركة لأنهم اصبحوا غير مطمئنين على مصير عوائلهم وذراريهم وأموالهم .

كما كان بإمكان اليهود القيام بحركة جريئة لقطع خط رجعة المسلمين إلى داخل المدينة ، وبذلك يفسحون المجال للأحزاب لاقتحام الخندق دون مقاومة تذكر .

لذلك كان وقع نكث بنى قريظة لعهدهم شديدا على نفوس المسلمين ، وقد ارسل اليهود رجلا منهم الى داخل المدينة ، فاستطاع التسلل إلى الدور التى تجمع بها النساء والأطفال ، ولكن هذا اليهودى لم يعد الى قومه ليخبرهم عن مواضع النساء والاطفال ، وعن درجة مناعتها وحمايتها ، لأن امرأة مسلمة رأته يستطلع المواضع ، فاستطاعت قتله مستفيدة من عمود خشبى .

إن هذا اليهودى كان دورية استطلاع للحصول على المعلومات عن مواضع النساء والأطفال ، حتى يمهد بما يحصل عليه من معلومات لقيام اليهود بهجوم مباغت عليهم بعد التأكد من عدم تيسر الحماية لهم ، ليضطروا المسلمين إلى الانسحاب من مواضعهم الاصلية لنجدة أهليهم وإنقاذ أموالهم .

إن قتل هذا اليهودى خلص المسلمين من خطر داهم ، إذ جعل اليهود يفكرون أن داخل المدينة حراسا أشداء من المسلمين ، وليس من السهل التغلب على هذه الحراسة الشديدة ، لذلك قبع اليهود فى حصونهم لا يفكرون فى الخروج .

٢ ـ تحركت مفرزة من فرسان قريش فيهم عمرو بن عبد ود ، وعكرمة بن أبى جهل ، ومروا ببنى كنانة واستثاروا حميتهم للقتال ، فلما وصلت هذه المفرزة إلى الخندق استطلعوا منطقة ضيقة فيه ، فعبروها بخيولهم ، فخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين للقائهم ، واتجهوا فورا إلى الثغرة التى عبر المشركون منها لقطع خط رجعة المشركين أولا ولمنع الامدادات من الاحزاب اليهم ثانيا ثم نازل على بن أبى طالب عمرو بن عبد ود فقتله ، كما قتل المسلمون رجلين من المشركين ، وعادت بقية فرسان قريش هاربة إلى قواعدها .

٣ ـ قامت مفرزة من المشركين بالهجوم على المسلمين باتجاه دار الرسول ـ ﷺ ـ فقاتلهم المسلمون النهار كله حتى الليل ، فلما حانت صلاة العصر تحرج موقف المسلمين لاقتراب المشركين من منزل الرسول ، حتى لم يستطع المسلمون ان يصلوا ، ولكنهم استطاعوا مع الليل صد مفرزة المشركين خائبة على أعقابها .

٤ ـ حاول الرسول ـ ﷺ ـ ان يرد بعض الأحزاب عن المدينة لقاء ثلث الثمار ، وكاد أن يصل فى مفاوضاته مع قادة غطفان إلى هذا الاتفاق ، ولكن سادات الأوس والخزرج اقترحوا الا يعطوا المشركين شيئا من ثمارهم ، فوافق الرسول ـ ﷺ ـ على اقتراحهم هذا .

٥ ـ اثرّ بقاء الاعراب مدة طويلة حول المدينة على معنوياتهم خاصة وان الموسم شتاء ، وان الاعراب لا يطيقون الصبر طويلا على الحصار ولا على قتال مديد بصورة عامة ، لذلك اخذوا يبدون تذمرهم من بقائهم مدة طويلة دون جدوى .

٦ ـ جاء نعيم بن مسعود الغطفانى الى الرسول وأخبره انه أسلم ولا يعلم قومه بإسلامه ، فقال له الرسول : (إنما أنت رجلٍ واحد ، فخذل عنا ما استطعت ، فإن الحرب خدعة)[1] .

خرج نعيم حتى أتى بنى قريظة وكان نديما لهم فى الجاهلية ، فقال لهم : (عرفتم ودى إياكم ، وقد ظاهرتم قريشا وغطفان على حرب محمد وليسوا كأنتم . البلد بلدكم به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون ان تتحولوا منه ، وإن قريشا وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٥ ص ٣٤٨

لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ، ولا طاقة لكم به ، فلا تقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهنا من أشرافهم حتى تناجزوا محمدا .

قالت بنو قريظة : « أشرت بالنصح ولست عندنا بمتّهم » ثم خرج نعيم إلى قريش ، فقال لهم : « بلغنى ان قريظة ندموا ، وقد ارسلوا إلى محمد : هل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب اعناقهم ، ثم نكون معك على من بقى منهم ؟ فأجابهم ان نعم فإن طلبت قريظة منكم رهنا من رجالكم ، فلا تدفعوا لهم رجلا واحدا» .

وجاء نعيم غطفان فقال لهم : « أنتم أهلى وعشيرتى » . وقال لهم مثل ما قال لقريش . . وحذرهم ! !

أرسل ابو سفيان وسادة غطفان إلى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان فى ليلة سبت ، وطلبوا منهم الاستعداد للهجوم نهار السبت ، ولكن قريظة اعتذروا بأنهم لا يقاتلون يوم السبت ، ثم طلبت قريظة رهائن من قريش وغطفان قبل أن تشرع بأى هجوم !

قالت قريش وغطفان : لقد صدق نعيم .

ولما رفض طلب قريظة بإعطائها رهائن من قريش وغطفان قالت :

لقد صدق نعيم ! وتفرقت قلوب الأحزاب وزالت الثقة بينهم .

٧ - أرسل الرسول - ﷺ - حذيفة بن اليمان ليلا ليستطلع اخبار الأحزاب ، فرأى قريشا تشد رحالها متجهة إلى مكة ، فلما علمت غطفان بارتحال قريش دون علمها ، عادت ادراجها مع القبائل الاخرى الى مواطنها .

وحينذاك علم الرسول - ﷺ - ببصيرته النافذة ان المشركين فقدوا فرصتهم الثمينة ، وأن مثل هذه الفرصة لن تعود اليهم مرة اخرى ، وإذا لم يستطع المشركون بعد تجمعهم الضخم هذا ان يقضوا على المسلمين فكيف يستطيعون القضاء عليهم بعد تفرقهم ؟

خسائر الطرفين

١ - المسلمون :

ستة شهداء

٢ - المشركون :

ثلاثة قتلى .

أسباب فشل الأحزاب

١ - قيادة غير موحدة : -

لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة على جميع القوات المتجمعة وتوجيهها للعمل

الحاسم فى الوقت الحاسم .

كان لكل قبيلة قائد بل عدة قواد ، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم على المسلمين ؛ وقد كان من المستحيل اتفاقهم على قائد منهم ليسيطر على الجميع لأن هذا القائد سينال شرفا عظيما يمتاز به على الآخرين ، ولا يمكن للآخرين ان يرضوا بهذا الامتياز .

لقد كانت النعرة الجاهلية لا الهدف المشترك هى التى تسيطر على القيادة ، ولا يمكن ان تنجح مثل هذه القيادة فى أى موقف بأى معركة حتى ولو كانت لها كل الظروف المؤاتية كما فى غزوة الخندق بالنسبة للاحزاب واليهود .

٢ ـ المباغتة بالخندق : ـ

لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب ، فلم تكن العرب تعرف هذا الاسلوب ، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب للتغلب على مثل هذا الموقف .

لذلك بقى القتال مستكنا طول مدة الحصار ، عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخندق باءت كلها بالفشل . .

٣ ـ الطقس . .

كان موسم القتال شتاء ، وكان الاعراب فى العراء يعيشون فى غير مواطنهم التى يستفيدون فيها من موادهم المتيسرة للتدفئة وللاعاشة وللسكنى .

لذلك لم يستطيعوا البقاء لحصار المدينة مدة طويلة .

٤ ـ انعدام الثقة : ـ

كانت الثقة بين الاحزاب انفسهم من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة اخرى واهنة جدا ، بل لم تكن هناك ثقة بينهم على الاطلاق .

قريش تريد القضاء على المسلمين بالافادة من جهود القبائل الأخرى ، واليهود والقبائل الأخرى تريد الأسلاب بالدرجة الأولى من اى مصدر كان ، ولو وقعت اموال احلافهم بنى قريظة بيدهم لأخذوها أيضا .

واليهود لا يثقون فى الجميع ويريدون القضاء على المسلمين بدماء قريش والقبائل الاخرى ، وهكذا انعدمت الثقة بينهم لتفرق الأهداف والمقاصد .

٥ ـ الصبر على الحصار :

يحتاج الصبر على الحصار الى قوات مدربة لها اهداف معلومة وقيادة مسيطرة ، أما القبائل فلا صبر لها على الحصار ، لانها اعتادت على التنقل بين فترة واخرى ، كما انها لا تطيق صبرا على فراق وطنها وأهلها مدة طويلة .

لذلك تذمر الأعراب من طول مدة الحصار ـ على قصرها ـ وآثروا الارتحال على الصبر .

دروس من غزوة الخندق

١ ـ القيادة : عالجنا أسلوب القيادة المرتبك عند الأحزاب واليهود ، مما كان له أسوأ الأثر على نتيجة

معركتهم .

وبقدر ما كانت قيادة الأحزاب واهنة ، كانت قيادة المسلمين قوية حازمة رشيدة قرر الرسول - ﷺ - البقاء فى المدينة ، وأمر بحفر الخندق ، وانتخب منطقة الحفر فى السهول الكائنة شمال المدينة ، ووزع اعمال الحفر بالتساوى بين أصحابه ، وسيطر على العمل ، فلا يستطيع احد ترك واجبه إلا بأمر منه ، حتى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين .

واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تماما ، بل استأثر دونهم بالمحلات الصلبة التى لم يستطع اصحابه التغلب عليها - كفلق الصخور القاسية ! !

ثم قسم واجبات احتلال الموضع بين اصحابه ، بحيث لا يغفل احد عن شبر من الخندق ليلا ونهارا ، على الرغم من برودة الطقس ، وقد كان هو بنفسه لا يترك مقره الا ليقوم بتفتيش الحراس والمواضع الدفاعية وليشجعهم ويرفع من معنوياتهم ، وأهم من ذلك كله سيطرته على أصحابه عندما تأزم الموقف حين وصلت الأحزاب الى ضواحى المدينة بقوات متفوقة على المسلمين ، وحين نكثت قريظة عهدها ، فأصبح الخطر يهدد المسلمين من الداخل والخارج .

٢ - تعبئة جديدة : -

استفاد المسلمون من حفر الخندق للدفاع عن المدينة ، وهذا الأسلوب الجديد من أساليب القتال يدخل فى أساليب العرب الحربية لأول مرة فى التاريخ .

إن القائد العبقرى هو الذى يستخدم اسلوبا جديدا او سلاحا جديدا فى القتال ، والخندق هو الأسلوب الجديد الثانى الذى استخدمه الرسول - ﷺ - فى القتال ، بعد أن استخدم اسلوب الصفوف فى معركة بدر .

لقد أخذ الرسول - ﷺ - بفكرة حفر الخندق من سلمان الفارسى ، لذلك قال فيه كلمته الخالدة : (سلمان منا اهل البيت)[1] ، ليشجع على التفكير المفيد ويشيد بالعاملين للمصلحة العامة ويقطع دابر العصبيات .

٣ - الحرب خدعة : -

رأينا أثر الاشاعات التى بثها نعيم بن مسعود فى تفريق كلمة الأحزاب ؛ ولا يمكن نجاح الاحزاب او غيرهم الا بجمع الكلمة ، فلما تفرقت كلمتهم ، فشلوا ، إن الحرب الحديثة تعتمد على بث الاشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبلبلة الافكار ، وقسم بث الاشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات فى تشكيلات الجيوش .

وبقدر ما كانت الاشاعة تعمل عملها فى صفوف الاحزاب ، فإن الاشاعة لم يكن لها أى أثر فى صفوف المسلمين .

حاول المنافقون ان يبثوا سموم اشاعتهم لتحطيم معنويات المسلمين ، ولكن محاولتهم فشلت .

وعندما ارسل الرسول - ﷺ - اصحابه لمعرفة موقف بنى قريظة ، وعاد هؤلاء اليه بعد ان تأكدوا

---

(١) مجمع الزوائد - كتاب المغازى والسير - باب غزوة الخندق ٦/١٣٠

من صحة إشاعة نكث بنى قريظة بعهدوها ، حرصوا على ان يخبروا الرسول - ﷺ - بهذا الخبر بأسلوب من الكلام لا يفهمه غير الرسول - ﷺ - نفسه « بالرموز » حتى لا يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين .

لقد عرف المسلمون اثر الاشاعة على المعنويات قبل اربعة عشر قرنا .

٤ - المبادأة : -

غزوة الخندق هى المعركة الحاسمة الثانية بعد معركة بدر الكبرى ، فلو نجح المشركون واليهود فى هذه المعركة لتغيرت وجهة التاريخ الاسلامى .

لقد استطاع اليهود ان يجمعوا الأحزاب حول المدينة ، وعاونهم اليهود من بنى قريظة ، للقضاء على المسلمين ، وهذا التجمع فرصة لا تعود ابدا ، خاصة اذا فشلت الاحزاب .

إن معنى فشل الاحزاب بعد هذا التجمع الهائل ، انهم لن يجتمعوا مرة اخرى وانهم لا يستطيعون القضاء على المسلمين بعد ذلك منفردين بعد ان عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين ، ولهذه النتيجة اثر حاسم على انتشار الاسلام فيما بعد .

لقد انتقل المسلمون من دور الدفاع الى دور الهجوم فى اليوم الذى انتهت به غزوة الخندق ، لذلك قال الرسول - ﷺ - لأصحابه بعد انسحاب الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا »(١) .

وانتقلت المبادأة الى يد المسلمين بعد هذه الغزوة ، ولم يتركوها حتى شمل الاسلام شبه الجزيرة العربية كلها ، وارتفعت راية الاسلام شرقا وغربا فوق كل راية ﴿ **ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا** ﴾ .

محاسبة الغادرين

الموقف العام

١ - **المسلمون** : استطاع المسلمون الثبات امام الأحزاب واليهود فى ظروف قاسية جدا ضد قوات العدو المتفوقة عليهم تفوقا ساحقا ، فثبتوا تجاه الخطر الداهم الذى يهددهم من خارج المدينة ومن داخلها .

وهذا النجاح وهذا الثبات جعل معنويات المسلمين فى وضع ممتاز لم يسبق له مثيل من قبل .

لقد تخلصوا من الاحزاب ، وبقى أمامهم بنوقريظة جيرانهم فى المدينة الذين لم يرعوا للجار حقا ولم يحافظوا على العهد ، وخانوا المسلمين فى أشد أوقات محنتهم ، فلابد من تصفية الحساب معهم .

٢ - **المشركون** : انسحب الاحزاب وقريش إلى ديارهم يحملون معهم كل معانى الفشل ، فلم تستطع قريش القضاء على المسلمين ، ولم تستطع القبائل الاخرى نهب اموال المسلمين ، ولم يعودوا بأية فائدة يمكن ان تخفف عنهم ما بذلوه من جهد فى السفر والحصار ايام الشتاء ، ومن مال صرفوه لامداد قواتهم

---

(١) البخارى باب غزوة الخندق ١٤٧/٥

بالمواد . والأرزاق قبل المعركة واثناءها وبعدها .

لقد اثر ذلك على معنويات المشركين ، وجعلهم يخافون المسلمين كل الخوف .

٣ ـ اليهود : بقى اليهود من بنى قريظة وحدهم بعد انسحاب الاحزاب ، وبقيت معهم غدرتهم الشنيعة التى فضحت طواياهم ، فأصبحوا كالمجرم الذى ثبتت ادانته فهو يرقب القصاص العادل . لقد كانت معنوياتهم منحطة للغاية ، إذ كانوا يتوقعون هجوم المسلمين عليهم ويعرفون نتيجة هذا الهجوم .

الهدف الحيوى

محاسبة الغادرين من اليهود على غدرهم بالمسلمين فى أشد اوقاتهم حرجا ، ومحاسبة القبائل التى غدرت بدعاة المسلمين .

غزوة بنى قريظة

١ ـ أسباب الغزوة : نكث بنى قريظة لعهدهم مع المسلمين عند تجمع الاحزاب حول المدينة .

قوات الطرفين :

أ ـ المسلمون : ثلاثة آلاف بقيادة الرسول ـ ﷺ ـ معهم ستة وثلاثون فارسا فقط .

ب ـ بنو قريظة : من ٦٠٠ ـ ٧٠٠ مقاتل بقيادة كعب بن اسد يعاونه حيى بن أخطب رأس اليهود الذين حشدوا الأحزاب وجمعوها حول المدينة .

٣ ـ الهدف : القضاء على بنى قريظة لنكثها بعهودها ، مما جعل المسلمين مهددين بالابادة .

٤ ـ الحوادث : عاد الرسول ـ ﷺ ـ إلى المدينة صباح الليلة التى انسحب الأحزاب فيها الى ديارهم وأمر أصحابه ظهر ذلك اليوم بالحركة إلى بنى قريظة والاسراع بالاطباق على حصونهم بحيث لا يصلون العصر إلا هناك ، وعلى الرغم من تعب المسلمين الشديد لبقائهم مدة طويلة محاصرين ، وعلى الرغم من برودة الطقس ، فقد أسرع المسلمون لتنفيذ امر الرسول ـ ﷺ ـ وانجزوا تجمعهم حول حصون بنى قريظة قبل ان يحل الظلام من ذلك اليوم ! واستمر الحصار خمسا وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض المناوشات الطفيفة بالنبل والحجارة ، كان من اثرها استشهاد احد المسلمين مصابا برحى رمته بها امرأة يهودية من فوق سطح منزلها .

لم يجرؤ بنو قريظة على الخروج من حصونهم طيلة مدة الحصار ، وكانوا مترددين لا يستقر رأيهم على شيء من شدة الخوف . طلب منهم قائدهم ان يعتنقوا الاسلام ، فرفضوا ؛ فطلب منهم الخروج للقتال ، فرفضوا ايضا ، وبقوا فى حصونهم لا يفعلون شيئا .

واخيرا أرسل اليهود يعرضون الخروج إلى « أذرعات » تاركين وراءهم ما يملكونه ؛ فأبى الرسول الا أن يسلموا بدون قيد أو شرط .

وعاد اليهود يطلبون التسليم على أن يحكم سعد بن معاذ فى مصيرهم ، وقد اختاروه لأنه سيد الأوس حلفائهم فى الجاهلية ، لعل الرسول - ﷺ - يقبل من حلفاء الأوس ما قبل من يهود بنى قينقاع حلفاء الخزرج .

ورضى الرسول - ﷺ - بنزولهم على حكم سعد ؛ وقبل سعد ان يقوم بالتحكيم بين المسلمين من جهة واليهود من جهة اخرى بعد ان اخذ المواثيق على الطرفين ان يرضى كلاهما بقضائه ، فلما أعطوه المواثيق ، أمر بنى قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح ، ففعلوا . .

وكان حكم سعد فيهم : « ان يقتل المقاتلون ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذرارى والنساء ، لأن سعدا ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لكان مصير المسلمين الابادة من الوجود ، فجزاهم سعد بمثل ما عرضوا المسلمين له .

لم تكن حرب بنى قريظة حرب ميدان انما كانت حرب أعصاب ، فلم يستطع اليهود ان يتحملوا الحصار على الرغم من توافر المواد الغذائية لديهم وتوافر المياه والآبار ومناعة حصونهم وصعوبة اقتحامها ، فآثروا التسليم على مكابدة الحصار .

والحق ان الموقف العسكرى كان إلى جانبهم لتلك الأسباب كلها ولشدة تعب المسلمين ولبرودة الطقس ، ولكن معنوياتهم المنحطة انهارت ، فلم يقاوموا طويلا كما كان المؤمل وقتل مقاتلو بنى قريظة جميعا ومعهم حيى بن أخطب الذى تزعم حركة تجميع الأحزاب ضد المسلمين ، إلا ثلاثة رجال من اليهود اسلموا ، ولم يقتل من الأطفال والنساء أحد عدا المرأة التى قتل الشهيد المسلم برحاها ، فقتلت بجرمها هذا .

سرية عبد الله بن عتيك

١ - **الهدف** : قتل أبى رافع سلام بن أبى الحقيق اليهودى الذى حرض الاحزاب مع حيى بن أخطب ، ثم فر إلى يهود « خيبر » ليتخلص من العقاب .

الحوادث : بعد القضاء على بنى قريظة ، خرج من المدينة خمسة من الخزرج إلى خيبر ، للقضاء على أبى رافع بن أبى الحقيق وإلقاء الرعب فى قلوب يهود خيبر ، حتى لا يعيدوا الدور الذى قام به اليهود الآخرون ، وقد كانت هذه المفرزة بقيادة عبد الله بن عتيك .

وصل المسلمون « خيبر » ليلا ، فأمر عبد الله بن عتيك أصحابه بالبقاء قريبا من الحصن حتى يستطلع لهم موضع ابن ابى الحقيق ، فلما وصل حصنه استطاع دخوله وكمن فى اسطبل الحيوانات .

وعندما آوى ابن أبى الحقيق إلى فراشه وهدأت الأصوات والحركة ، خرج عبد الله فأخذ مفاتيح الحصن من موضعها الذى كانت فيه ، ثم ذهب الى غرفة ابن أبى الحقيق فناداه ليعرف مكانه من صوته ، لان الظلام كان يغمر الغرفة التى كان بها ابن ابى الحقيق ، ثم هجم بالسيف عليه حتى قضى عليه ، وانسحب الى اصحابه بعد ان سقط من الدرج وانكسرت رجله .

وعاد المسلمون إلى المدينة وقد أزالوا من طريق الدعوة عدوا لدودا ، وتسامع الناس بعاقبة من يؤلب الناس ضد المسلمين ، مما زاد هيبة المسلمين فى النفوس وجعلهم يسيطرون سيطرة تامة على المدينة من كافة الوجوه ، فلم يبق اى صوت لليهود أو المنافقين .

غزوة بنى لحيان

١ - الهدف :

أ - عقاب بنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين عند ماء الرجيع قبل عامين خلوا وهم ستة من الصحابة : اغتالت أربعة منهم وباعت الاثنين الباقيين لقريش ، فضربت قريش عنق احدهما وصلبت الثانى .

ب - التأثير على معنويات قريش والقبائل الأخرى .

٢ - الحوادث :

علم الرسول - ﷺ - بمحاولة قريش التجمع مع حلفائها لغزو المسلمين ، ففكر فى الحركة اليهم للتأثير على معنويات قريش والقبائل الأخرى والتعرض لبنى لحيان الذين غدروا بدعاة المسلمين . .

أظهر الرسول - ﷺ - أنه يريد الشام حتى يستطيع مباغتة بنى لحيان دون ان يعرفوا بحركته اليهم ، فتحرك بقواته شمالا ، فلما أطمأن إلى انتشار أخبار حركته إلى الشمال باتجاه الشام ، عاد راجعا باتجاه مكة مسرعا فى حركته حتى بلغ منازل بنى لحيان « بغران » ، ولكن بنى لحيان فروا إلى رءوس الجبال ، واستطاعوا النجاة بأرواحهم وأموالهم . عند ذاك ترك الرسول - ﷺ - القسم الأكبر من قواته فى « غران » وسار على رأس مائتى راكب باتجاه مكة حتى وصل « عسفان » شمال مكة للتأثير على معنويات قريش ، فلم تخرج قريش للقائه ، ثم عاد المسلمون إلى المدينة متحملين شدة الحر ، بعد ان أثروا على معنويات القبائل وجعلوهم يخافون المسلمين اشد الخوف .

غزوة ذى قرد

١ - الهدف : مطاردة عيينة بن حصن مع جماعة من غطفان لإعادة ابل المسلمين التى انتهبها المشركون .

الحوادث :

أغار عيينة بن حصن الفزارى على أطراف المدينة ، فوجد هناك بعض اللقاح ترعى بحراسة مسلم وامرأته ، فقتل عيينة وأصحابه الرجل وهو ابن ابى ذر الغفارى ، وساقوا الابل واحتملوا المرأة .

ولكن سلمة بن عمرو بن الأكوع الاسلمى بصر بالقوم وقد اقتادوا الابل فأنذر المسلمين فنادى : الفزع الفزع : فنودى : ياخيل الله اركبى ! وكان أول ما نودى بها ! وقام سلمة بمطاردة عيينة وأصحابه وحده ، حتى لحق به المسلمون الذين استطاعوا تخليص الابل والمرأة المسلمة بعد ان وصلوا بمطاردتهم ماء « بذى قرد » .

وجاء من يخبر المسلمين ان عيينة وأصحابه وصلوا موضعا بعيدا عن « ذى قرد » فنحروا لهم جزورا ، فلما كشطوا عنها جلدها رأوا غبارا ، فتركوا جزورهم فى محلها وهربوا بسرعة ، لانهم ظنوا أن المسلمين اقتربوا من مواضعهم ولم يكد هؤلاء الاعراب يصدقون انهم يستطيعون النجاة بأنفسهم ! ! !

سرايا توطيد الأمن وتشديد الحصار الاقتصادى

١ - **الهدف** : تأمين المدينة القاعدة الامينة للاسلام وفرض سيطرة المسلمين على القبائل التى حولها وتشديد وطأة الحصار الاقتصادى على قريش وحلفائها .

٢ - **الحوادث** : -

أ - سرية عكاشة بن محصن الأسدى الى الغمر :

وجه رسول الله - ﷺ - عكاشة بن محصن الاسدى فى شهر ربيع الأول سنة ست للهجرة الى « الغمر » فى أربعين رجلا ، فخرج سريعا يغذ السير ، ولكن الاعراب علموا بمسيره اليهم فهربوا وتركوا ديارهم خالية ، فاستاق المسلمون مائة بعير وعادوا الى المدينة دون ان يلقوا كيدا .

ب - سرية محمد بن مسلمة إلى « ذى القصة »

بعث رسول الله - ﷺ - محمد بن مسلمة فى ربيع الآخر سنة ست للهجرة الى بنى ثعلبة وبنى عوال من ثعلبة وهم (بذى القصة) فى عشرة نفر ، فوردوا عليهم ليلا ، ولكن الاعراب وهم مائة رجل استطاعوا قتل أصحاب محمد بن مسلمة وجرحه فبعث رسول الله - ﷺ - ابا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا إلى مصارع المسلمين فلم يجدوا احدا ووجدوا نَعَماً وشاء فساقه ابو عبيدة ورجع إلى المدينة .

ج - سرية ابى عبيدة بن الجراح الى ذى القصة : -

بعث رسول الله - ﷺ - ابا عبيدة بن الجراح فى أربعين رجلا فى شهر ربيع الآخر إلى (ذى القصة) إلى بنى محارب وأغار الذين اجمعوا ان يغيروا على سرح المدينة وهو يرعى « بهيفا » فمشوا اليهم بعد صلاة المغرب حتى وافوا (ذا القصة) فى عماية الصبح ، فأغاروا عليهم ، فهرب الاعراب ، واصاب ابو عبيدة رجلا واحدا فأسلم وتركه وأخذ نعما من نعمهم فاستاقه كما اخذ متاعهم وقدم بذلك إلى المدينة .

د - سرية زيد بن حارثة إلى سليم بالجموم : -

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة فى شهر ربيع الآخر سنة ست للهجرة إلى بنى سليم فسار حتى ورد (الجموم) فأصاب نعما وشاء وأسرى ، ثم عاد بأصحابه إلى المدينة .

هـ - سرية زيد بن حارثة إلى العيص : -

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبى فى جمادى الأولى سنة ست للهجرة يتعرض لعير قريش فى طريق عودتها من الشام الى مكة ، فأخذ المسلمون العير وما فيها وأسروا ناسا ممن كان فى العير وعادوا الى المدينة .

و- سرية زيد بن حارثة إلى الطرف :-

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثة الكلبى فى جمادى الآخرة سنة ست للهجرة الى الطرف فخرج الى بنى ثعلبة فى خمسة عشر رجلا فأصاب نعما وشاء ، وهربت الأعراب وصبح زيد بالنعم إلى المدينة بعد أن غاب أربع ليال دون أن يلقى كيدا .

ز- سرية زيد بن حارثه إلى حسمى

بعث رسول الله - ﷺ - زيد بن حارثه الكلبى فى جمادى الآخره سنة ست للهجرة إلى (حسمى) فى خمسمائة رجل ، فكان زيد يسير الليل ويكمن النهار ومعه دليل من بنى عذرة ، فلما وصل (حسمى) هجم على القوم مع الصبح فقتلوا فيهم فأوجعوا وأغاروا على ما شيتهم فأخذوا من النعم ألف بعير ومن الشاة خمسة آلاف شاة ومن السبى مائة من النساء والصبيان .

ولكن زيد بن رفاعة الجذامى رحل فى نفر من قومه إلى رسول الله - ﷺ - فدفع اليه كتابه الذى كان كتب له ولقومه ليالى قدم عليه فأسلم ، فعبث على بن أبى طالب إلى زيد بن حارثة يأمره ان يخلى بينهم وبين اموالهم وحرمهم .

وكان سبب هذه الغزوة أن دحيه بن خليفة الكلبى اقبل مرة عند قيصر فى طريق عودته الى المدينة ، فلقيه الهنيد بن عارض وابنه عارض ابن الهنيد فى ناس من جذام بحسمى ، فقطعوا عليه الطريق فلم يتركوا عليه إلا سمل ثوب ، فقدم دحية على النبى - ﷺ - فأخبره بذلك ، فبعث زيدا لاعطاء درس قاس لجذام حتى لا يعودوا لمثلها ابدا .

ح -سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل :-

بعث رسول الله - ﷺ - عبد الرحمن بن عوف فى شعبان سنة ست للهجرة الى بنى كلب فى دومة الجندل ، وقبل أن يبعثه دعاه فأقعده بين يديه وعممه بيده وقال : (اغز باسم الله وفى سبيل الله فقاتل من كفر بالله ! لا تغل ولا تغدر ولا تقتل وليدا !)(١) .

سار عبد الرحمن حتى قدم « دومة الجندل » فمكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الاسلام ، فأسلم الأصبع بن عمرو الكلبى وكان نصرانيا وكان رأسهم ، واسلم معه ناس كثير من قومه ، وأقام من أقام على إعطاء الجزية .

ط- سرية على بن أبى طالب إلى بنى بكر بفدك

بلغ رسول الله - ﷺ - ان جمعا من بنى سعد بن بكر يريدون ان يمدوا يهود خيبر ، فبعث اليهم على بن أبى طالب فى مائة رجل ، فسار الليل وكمن النهار حتى انتهى إلى « الهجع » فوجدوا به رجلا فسألوه عن القوم فقال : أخبركم على أنكم تؤمنونى ، فأمنوه فدلهم ، فأغاروا عليهم ، فأخذوا خمسمائة بعير وألفى شاة ، وهربت بنو سعد وقدم على المدينة ولم يلق كيدا .

ى- سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة بوادى القرى :

خرج زيد بن حارثة فى تجارة الى الشام ومعه بضائع لاصحاب النبى - ﷺ - فلما كان دون (وادى القرى) لقيه ناس من بنى بدر فضربوه وضربوا اصحابه واخذوا ما كان معهم .

وعاد زيد الى المدينة فبعثه رسول الله - ﷺ - فى شهر رمضان سنة ست للهجرة اليهم ، فكمنوا النهار

(١) مسند احمد ٢٤٠/٤

وساروا الليل ، وعلم بنو بدر بحركة المسلمين اليهم ولكن زيدا وأصحابه صبحوهم واخذوا منهم اسرى وعاد زيد الى المدينة وبشر رسول الله - ﷺ - بنصر الله .

ك - سرية عبد الله بن رواحة الي اسير بن زارم :-

لما قتل ابو رافع سلام بن ابى الحقيق امرت اليهود عليهم أسير بن زارم . فسار فى غطفان وغيرهم يجمعهم لحرب المسلمين .

وبلغ ذلك رسول الله - ﷺ - فوجه عبد الله بن رواحة فى ثلاثة نفر فى شهر رمضان سنة ست للهجرة سرا فسأل عن خبر أسير فأخبر بذلك وقدم ابن رواحه على النبى - ﷺ - واخبره خبر أسير ، فندب الناس فانتدب له ثلاثون رجلا ، فبعث عليهم عبد الله بن رواحه ، فقدموا على أسير وقالوا : إن رسول الله - ﷺ - بعثنا اليك لتخرج اليه فيستعملك على خيبر ويحسن اليك ، فطمع فى ذلك ، فخرج وخرج معه ثلاثون رجلا من اليهود مع كل رجل رديف من المسلمين حتى اذا كانوا « بقرقرة ربثار » ندم اسير واراد الغدر بالمسلمين ولكن المسلمين حملوا عليهم فقتلوا اصحابه جزاء غدرهم .

وعادوا الى المدينة فأخبروا رسول الله - ﷺ - بغدر اليهود ، فقال : (نجاكم الله من القوم الظالمين) .

ل - سرية كرز بن جابر الفهرى الى العرانيين :-

قدم نفر من « عرينة » ثمانية على رسول الله - ﷺ - فأسلموا ، فأمر بهم إلى لقاحه وكانت ترعى فى منطقة (قباء) على ستة أميال من المدينة ، فكانوا فيها حتى صحوا وسمنوا فغدوا على اللقاح فاستاقوها ، فأدركهم يسار مولى رسول الله - ﷺ - ومعه نفر فقاتلهم فقذعوا يده ورجله وغرزوا الشوك فى لسانه وعينيه حتى مات .

وبلغ رسول الله - ﷺ - الخبر ، فبعث فى اثرهم عشرين فارسا واستعمل عليهم كرز بن جابر الفهرى فأدركوهم واحاطوا بهم وأسروهم وربطوهم ثم اردفوهم على الخيل حتى قدموا بهم المدينة ، فقتلوا .

م - سرية عمرو بن أمية الضمرى :-

قال ابو سفيان لنفر من قريش « الا احد يغتال محمدا ، فإنه يمشى فى الاسواق ؟ » فأتاه رجل من الأعراب متطوعا لقتل النبى الكريم ، فأعطاه ابو سفيان بعيرا ونفقة وقال : « إطو أمرك » فخرج ليلا حتى قدم المدينة بعد خمسة أيام .

ولما رأى رسول الله - ﷺ - هذا الأعرابى رابه امره فقال : « إن هذا ليريد غدرا » .

وحاول الاعرابى اغتيال رسول الله - ﷺ - فجذبه أسيد بن الحضير فأسره من إزاره فوجد خنجرا لديه ، فقال له رسول الله - ﷺ - : - (أصدقنى ما أنت ؟) قال : وأنا آمن ؟ ، قال : « نعم » فأخبره بأمره وما جعل له ابو سفيان ، فخلى عنه .

وبعث رسول الله - ﷺ - عمرو بن أمية وسلمة بن أسلم إلى أبى سفيان بن حرب وقال : « إن اصبتما منه غرة فاقتلوه » ، فدخلا مكة ومضى عمرو بن أمية يطوف بالبيت ليلا فرآه معاوية بن أبى

سفيان فعرفه ، فأخبر قريشا بمكانه ، فخافوه وطلبوه .

وهرب عمرو وسلمة ، وقتل عمرو فى طريق عودته إلى المدينة رجلين مشركين .

دروس من غزوات محاسبة الغادرين

١ ـ الوقت : ـ

انسحبت الأحزاب عن المدينة ، وعاد المسلمون إلى ديارهم صباح ليلة الانسحاب ، واصدر الرسول ـ ﷺ ـ امره الانذارى للحركة إلى بنى قريظة ظهر ذلك اليوم نفسه ، على الا يصلى المسلحون العصر الا فى ديار بنى قريظة .

لقد ادرك الرسول ـ ﷺ ـ بثاقب فكرة أهمية الوقت فى الحصول على نتائج باهرة فى القتال ، فلو أن الرسول ـ ﷺ ـ أبطأ بحركته هذه ، لاستفاد اليهود من الوقت فى الاستعانة بحلفائها أو إقناع اليهود الأخرين بمعاونتهم ، أو التشبث بالحصول على قوات من القبائل لتساند قوتهم ، ولكان بإمكانهم إكمال قضاياهم الادارية التى يحتاجون اليها فى القتال ، حتى يستطيعوا الصمود فى حصارهم أطول مدة ممكنة .

ولكن إسراع الرسول ـ ﷺ ـ بحركة قواته لتطويقهم ، حالت بين اليهود وبين كل ذلك ، إذ لم يكن اليهود يعلمون بالموعد الأكيد لانسحاب الاحزاب ليسبقوا النظر فى إعداد كافة متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين .

بل إن حركة المسلمين السريعة لم تترك لهم الوقت الكافى لليهود لتنظيم أى خطة على الاطلاق ، فقد ظهر لنا من سير الحوادث فى غزوة بنى قريظة ان اليهود لم يفعلوا شيئا ، وكانوا مترددين فى كل شيء ، وأكثر من ذلك فإن حركة المسلمين المبكرة شلت معنويات اليهود وقضت على روح المقاومة فيهم ، فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التى كانت بجانبهم والتى كان بإمكانهم ـ لو أحسنوا التصرف ـ الاستفادة من هذه المحسنات لكى يقاوموا المسلمين وقتا غير قصير . حصونهم قوية ومنيعة وعددهم كبير ، وسلاحهم وفير ، والأرزاق والماء متيسران ، كل ذلك يساعدهم على الصمود ، ولكن هذ المحسنات العسكرية التى بجانب اليهود لا تفيد شيئا مادامت معنوياتهم منحطة تماما ، ولولا استفادة الرسول ـ ﷺ ـ من الوقت لتحسنت معنويات اليهود ولاستطاعوا ان يقوموا بدور أكثر حزما من الدور الذى قاموا به أثناء حصارهم .

ومما يزيد من قيمة حرص المسلمين على المحافظة على الوقت ، ان ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب .

لقد كانوا منهوكى القوى لسهرهم على حراسة مواضعهم حوالى شهر فى موقف عصيب يحطم اعصاب أشجع الشجعان .

وكان الطقس باردا ، وقد تحملوا البرد فى العراء وقتا طويلا اثناء حصارهم ، فلما انسحبت

الاحزاب آن لهم ان ينالوا بعض الدفء فى بيوتهم القريبة . وكانت قضاياهم الادارية بشكل لا يحسدون عليه ، اذ ما هى إمكانات اعاشتهم مثلا وهى اهم ما يديم قوة المقاتلين ؟ خاصة ان الجندى يمشى على بطنه كما يقولون .

إن عدم اكتراث المسلمين بكل هذه المشاكل بغرض الاسراع بتطويق حصون بنى قريظة يدعو إلى الاعجاب والتقدير .

٢ ـ المباغته . . . ـ

تكون المباغتة بالوقت والمكان والأسلوب .

المباغتة بالمكان ، أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو . والمباغتة بالزمان ان تقوم بحركة فى وقت لا يتوقعه العدو . والمباغتة بالاسلوب ان تقوم بالقتال بأسلوب جديد او بسلاح جديد .

والقائد العبقرى هو الذى يحاول ان يباغت خصمه حتى يقضى عليه ماديا ومعنويا ؛ لأن المباغتة ، الناجحة تشل حركة العدو وتقضى عليه كليا .

لقد طبق الرسول ـ ﷺ ـ أساليب المباغتة ، لقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد فى القتال هو حفر الخندق ، كما رأينا كيف أنه باغت قريشا بالقتال بأسلوب الصفوف .

وفى غزوة بنى قريظة باغت اليهود بالزمان فى حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها ، فشل من معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حتى نهاية المعركة .

وفى غزوة بنى لحيان تحرك شمالا باتجاه الشام حتى لا يعرف بنو لحيان وقريش اتجاه حركته الحقيقية ، وبذلك باغتهم بالمكان إن المباغتة أهم مبادىء الحرب قديما وحديثا ، وقد حرص المسلمون على تطبيق هذا المبدأ فى أكثر غزواتهم ، مما ساعدهم على النصر .

٣ ـ القصاص : ـ

القصاص العادل الذى أصاب بنى قريظة بعد تسليمهم ، يقره كل إنسان واقعى سليم التفكير والانصاف .

لقد طغن هؤلاء اليهود المسلمين فى احرج وقت من أوقات محنتهم ، ولو لم يكن هناك عهد بينهم وبين المسلمين لهان الخطب ولوجدنا بعض العذر لهم ، ولكن أى عذر لهم وقد خانوا العهد فى مثل تلك الظروف ، وأحب ان اتساءل : لو نجح الأحزاب فى غزوة الخندق ، فماذا كانوا يفعلون بالمسلمين ؟ ألم تكن عاقبة المسلمين الابادة والتمثيل ؟ فلماذا لا يبيدون الذين حاولوا معاونة اعدائهم على إبادتهم ؟ لقد أفسح المسلمون المجال أمام بنى قينقاع وبنى النضير من اليهود للجلاء الى خيبر أو إلى ضواحى الشام ، فماذا كانت النتيجة ؟ أثار هؤلاء اليهود الاحزاب وحشدوهم أمام خندق المدينة للقضاء على المسلمين . ومع ذلك فالموقف جد مختلف بين هؤلاء اليهود وبين يهود بنى قريظة . إذ أن خيانة هؤلاء ونكثهم عهودهم كان فى أحرج الأوقات وأشدهم خطورة على مستقبل الاسلام والمسلمين .

فهل يبقى المسلمون سلما على بنى قريظة ليقوموا بدور اسلافهم بنى قينقاع وبنى النضير ؟ . .

﴿ **قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين** ﴾[1] .

لقد كان بإمكان هؤلاء اليهود ان يتخلصوا من القتل لو أعلنوا إسلامهم كما فعل ثلاثة رجال منهم ، فنجوا بحياتهم وأموالهم .

ولم يقض المسلمون بالقتل إلا على الرجال الذين قاتلوهم فعلا بعد أن خانوا عهودهم وعرضوا المسلمين للابادة ، أما الأطفال والنساء فلم يصابوا بأذى ، كما أن الذين ثبتوا على عهودهم من اليهود لم يصابوا بسوء .

والمرأة الوحيدة التي قتلت من بنى قريظة هى التى قتلت مسلما بقذفه بالرحى من فوق سطحها ، وإنما كان قتلها على جريمتها هذه لا بسبب آخر . اما قتل أبى رافع بن أبى الحقيق ، فلأنه أحد رءوس اليهود الذين حرضوا الأحزاب ، وقتله عبرة لغيره من الذين يحاولون محاولته فى المستقبل وحتى قوانين الحرب الدولية الحديثة تجيز القتل فى مثل هذا الموقف ، فهذا اليهودى كان من بنى النضير الذين أرادوا اغتيال الرسول - ﷺ - فحاصرهم وتغلب عليهم واضطرهم الى الاستسلام ، ثم سمح لهم بالرحيل بعيدا عن المدينة على ألا يعودوا إلى قتاله أو التحريض عليه ، فإذا نكث هذا بالعهد وحرض الأحزاب على تطويق المدينة ، وحرض بنى قريظة على نكث عهدهم مع المسلمين ، إذا كانت هذه أعماله بعد ان أطلقه الرسول - ﷺ - مع قومه بعد استسلامهم ، فمن حق المسلمين ان يقتلوه كمجرم حرب لا كمحارب شريف .

وما يقال عند ذلك يقال عن سرايا القصاص التى بعثها الرسول - ﷺ - لمحاسبة الغادرين الآخرين .

لقد كان قصاص المسلمين من اليهود ومن غيرهم ضروريا وعادلا .

٤ - العقيدة : -

ظهر لنا فى هذه الفترة من كفاح الرسول - ﷺ -، أثر العقيدة فى توحيد الصفوف للعمل للمصلحة العامة وحدها ، وأثرها فى اندفاع المسلمين ، كل يسابق اخاه إلى الشهادة ، وأثرها فى جعل المسلم يحاسب نفسه على ما اقترفه من ذنب لا يعلم به احد غيره من الناس .

طلبت بنو قريظة من المسلمين حضور أبى لبابة بن عبد المنذر ليستشيروه ، وقد كان ابو لبابة حليفا لهم فى الجاهلية وصديقا شريفا لا يشكون فى إخلاصه ، فأرسله الرسول - ﷺ - فاستقبله الرجال والنساء والأطفال بالبكاء والعويل ، فأثر ذلك على نفسيته كإنسان . واستشاره اليهود : اينزلون على حكم محمد ؟ فقال لهم : « نعم » وأشار إلى حلقه كأنه ينبههم إلى أن مصيرهم الذبح .

ولكن ابا لبابة ادرك لفوره انه خان الرسول - ﷺ - « بإشارته » تلك وانه خضع لشعوره لا لعقيدته فيما وقع منه ، فمضى هائما على وجهه نادما حتى وصل مسجد المدينة ، فربط نفسه إلى سارية فيه ، وحلف لا يفك نفسه حتى يتوب الله عليه .

وبقى على حاله هذا متشفعا بالرسول - ﷺ - حتى تاب الله عليه ، لم يعرف احد بإشارة ابى لبابة

(١) سورة التوبة الآية : ١٤

إلى حلفه حين استشاره اليهود فى التسليم ، ولم تكن اشارته هذه نتيجة تدبر وتفكير ، ومع ذلك لم يستر ابو لبابة فعلته هذه وأعلنها للناس جميعا وعاقب نفسه بنفسه عقابا صارما مما يدل على عقيدته الراسخة وايمانه العظيم .

وحكم سعد بن معاذ على بنى قريظة بأن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسم الأموال يدل على عقيدته الراسخة ايضا .

لقد كان سعد سيد الأوس حلفاء بنى قريظة فى الجاهلية ، وقد توقع اليهود ان تنفعهم هذه الصلة القوية عند الحكم عليهم ، كما توقع الأوس ايضا ان يتساهل سعد مع اصدقائهم الاقدمين ، بل استقبله الأوس حين قدومه للحكم هاتفين : ياأبا عمرو! أحسن فى مواليك .

وقد أحسنت الخزرج قبل ذلك فى مواليها اليهود عندما استسلموا للمسلمين ، فلماذا لا يحسن الأوس فى مواليهم مثلما احسن الخزرج ؟ ولكن سعدا صاح بقومه وقد اكثروا عليه الرجاء : « قد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم » .

وأصدر سعد حكمه العادل غير متأثر بالأهواء بل بعقيدته الراسخة فقط وايمانه العظيم : ﴿ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾(١) .

وماذا يعنى دخول عبد الله بن عتيك وحده الحصن الذى يسكنه اليهودى ابو رافع بن ابى الحقيق فى وسط اهله وعشيرته ، وتعرض عبد الله نفسه للخطر الداهم بينما ترك اصحابه خارج الحصن فى أمان ؟ !

هل يعنى هذا العمل الا استئثار القائد لنفسه بالخطر دون اصحابه طمعا فى الشهادة ، فقد كان بإمكانه تكليف احد اصحابه بهذا الواجب ، ولكنه آثر ان يقوم بنفسه بهذا العمل كله ، فنجح فى القضاء على ابن ابى الحقيق ، والتحق بأصحابه ليلا بعد أن كسرت رجله أثناء نزوله من سطح الحصن . . هذه الأمثلة التى ظهرت لنا فى هذه الفترة من حياة المسلمين ومثلها كثير ، تدل بوضوح على رسوخ العقيدة فى نفوسهم ، مما جعلهم يستهينون بكل شىء فى سبيل عقيدتهم .

٥ ـ القضايا الادارية : ـ

ـ الغنائم : ـ

قسمت غنائم بنى قريظة على المسلمين : سهم للراجل وثلاثة اسهم للفارس منها سهمان للفرس ، وذلك تشجيعا للاكثار من الخيل لفائدتها الكبيرة فى القتال ، وبقى الخمس للرسول ـ ﷺ ـ لتوزيعه على المحتاجين ولتأمين اعاشة وركوب وسلاح المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم فى الجهاد .

لقد تحسنت الحالة الاقتصادية للمسلمين بهذه الغنيمة ، فاستطاعوا الاستغناء عن بعضها لشراء الخيل والاسلحة من نجد ! استعدادا للحركات المقبلة .

ب ـ الماء : ـ

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٧

عندما وصل المسلمون إلى حصون بنى قريظة ، سيطروا على بئر تعود لبنى قريظة بسرعة خاطفة للاستفادة من مائها فى أيام الحصار .

ولولا سرعة المسلمين فى الاستيلاء على هذه البئر ، لكان من المؤكد ان تقوم قريظة بتدميرها حتي تحرم المسلمين من مياهها الضرورية لهم فى القتال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يأأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ﴾ .

رواية الامام ابن كثير : ـ

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مخبرا عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين فى صرفه اعداءهم وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم وتحزبوا وذلك عام الخندق ، وذلك فى شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور ، وكان سبب قدوم الاحزاب ان نفرا من أشراف يهود بنى النضير الذين كانوا قد اجلاهم رسول الله ـ ﷺ ـ من المدينة إلى خيبر منهم سلام بن أبى الحقيق وسلام بن مسكم وكنانة ابن الربيع خرجوا الى مكة فاجتمعوا باشراف قريش وألبوهم على حرب النبي ـ ﷺ ـ ووعدوهم من أنفسهم النصر والاعانة فأجابوهم إلى ذلك ثم خرجوا الى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم ايضا ، وخرجت قريش فى أحابيشها ومن تابعها وقائدها ابو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن ابن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف فلما سمع رسول الله ـ ﷺ ـ بمسيرهم امر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة مما يلى الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ونقل معهم رسول الله ـ ﷺ ـ التراب وحفر ، وكان فى حفره ذلك آيات بينات ودلائل واضحات . وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة قريبا من أحد ونزلت طائفة منهم فى أعالى ارض المدينة كما قال الله تعالى ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ ومن معه من المسلمين وهم نحو من ثلاثة آلاف وقيل سبعمائة فأسندوا ظهورهم إلى سلع ووجوههم الى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة ان تصل إليهم وجعل النساء والذرارى فى آطام المدينة ، وكانت بنوقريظة وهم طائفة من اليهود لهم حصن شرقى فى المدينة ولهم عهد من النبى ـ ﷺ ـ وذمة وهم قريب من ثمانمائة مقاتل فذهب اليهم حيى بن أخطب النضرى فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ومالأوا الأحزاب على رسول الله ـ ﷺ ـ فعظم الخطب واشتد الأمر وضاق الحال كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ﴾ ومكثوا محاصرين للنبى ـ ﷺ ـ واصحابه قريبا من شهر الا أنهم لا يصلون اليهم ولم يقع بينهم قتال ، إلا ان عمرو بن ود العامرى وكان من الفرسان الشجعان المشهورين فى الجاهلية ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق وخلصوا إلى ناحية المسلمين فندب رسول الله ـ ﷺ ـ خيل المسلمين إليه فيقال انه لم يبرز اليه احد ،

فأمر عليا ـ رضى الله عنه ـ فخرج إليه فتجاولا ساعة ثم قتله على ـ رضى الله عنه ـ فكان علامة على النصر . ثم ارسل الله ـ عز وجل ـ إلى الاحزاب ريحا شديدة الهبوب قوية حتى لم تبق لهم خيمة ولا شىء ، ولا توقد لهم نار ولا يقر لهم قرار حتى ارتحلوا خائبين خاسرين كما قال الله ـ عز وجل ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا ﴾ قال مجاهد وهى الصبا ، ويؤيد الحديث الآخر : (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور)[١] . وقال ابن جرير بسنده عن عكرمة قال : (قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقى ننصر رسول الله ـ ﷺ ـ فقالت الشمال : إن الحرة لا تسرى بالليل قال : فكانت الريح التى أرسلت عليهم الصبا)[٢] ورواه ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فذكره . وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال أرسلنى خالى عثمان بن مظعون ـ رضى الله عنه ـ ليلة الخندق فى برد شديد وريح إلى المدينة فقال : (ائتنا بطعام ولحاف قال فاستأذنت رسول الله ـ ﷺ ـ فأذن لى وقال : (من اتيت من اصحابى فمرهم يرجعوا) قال : فذهبت والريح تسفى كل شىء فجعلت لا ألقى أحدا الا امرته بالرجوع إلى النبى ـ ﷺ ـ قال : فما يلوى احد منهم عنقه ، قال : وكان معى ترس لى فكانت الريح تضربه على وكان فيه حديد قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفى فأبعدها إلى الأرض[٣]

وقوله ﴿ وجنودا لم تروها ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت فى قلوبهم الرعب والخوف فكان رئيس كل قبيلة يقول : يابنى فلان إلى فيجتمعون إليه فيقول : النجاء ، النجاء ، لما ألقى الله ـ عز وجل ـ فى قلوبهم من الرعب ، .

وقال محمد بن إسحاق بسنده عن محمد بن كعب القرظى قال : (قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة ابن اليمان ـ رضى الله عنه ـ ياأبا عبد الله رأيتم رسول الله ـ ﷺ ـ وصحبتموه ؟ قال : نعم ياابن اخى . قال : وكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد ، قل الفتى والله لو أدركناه يمشى على الأرض ولحملناه على أعناقنا قال : قال حذيفة ـ رضى الله عنه ـ ياابن اخى والله لو رأيتنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ بالخندق وصلى رسول الله ـ ﷺ ـ هويا من الليل ثم التفت فقال : « من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ ـ يشترط له النبى ـ ﷺ ـ ان يرجع ـ ادخله الله الجنة)[٤] .

قال فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله ـ ﷺ ـ هويا من الليل ثم التفت الينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله ـ ﷺ ـ هويا من الليل ثم التفت الينا فقال : (من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ـ يشترط له رسول الله ـ ﷺ ـ الرجعة ـ أسأل الله تعالى أن يكون رفيقى فى الجنة) فما قام رجل من القوم من شدة الخوف وشدة الجوع وشدة البرد ، فلما لم يقم احد دعانى رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يكن لى بد من القيام حين دعانى فقال ـ ﷺ ـ (ياحذيفة اذهب فادخل فى القوم فانظر ما

---

(١)البخارى ـ كتاب الاستسقاء ـ باب قول النبى ـ ﷺ ـ نصرت بالرعب ٤٠/٢
(٢) تفسير الطبرى ٨٠/٢١
(٣) تفسير الطبرى ٨٠/٢١
(٤) مسند الامام أحمد ٣٩٢/٥

يفعلون ولا تحدثن شيئا حتى تأتينا) قال فذهبت فدخلت فى القوم والريح وجنود الله - عز وجل - تفعل بهم ما تفعل لا تقر لهم قرارا ولا نارا ولا بناء فقام ابو سفيان فقال : يامعشر قريش لينظر كل امرىء من جليسه قال حذيفة - رضى الله عنه - فأخذت بيد الرجل الذى إلى جنبى فقلت من أنت ، فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال ابو سفيان : يامعشر قريش انكم والله ما أصبحتم بدار مقام لقد هلك الكراع والخف واخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نكره ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمك لنا بناء فارتحلوا فإن مرتحل ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله - ﷺ -: ألا تحدث شيئا حتى تأتينى لو شئت لقتلته بهم ، قال حذيفة - رضى الله عنه - فرجعت إلى رسول الله - ﷺ - وهو قائم يصلى فى مرط لبعض نسائه مرحل فلما رآنى أدخلنى بين رجليه وطرح على طرف المرط ثم ركع وسجد وإنى لفيه ، فلما سلم أخبرته الخبر وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين الى بلادهم . واخرج ابو داود فى سننه منه « كان رسول الله - ﷺ - إذا حزبه أمر صلى »[1] .

قوله تعالى : ﴿ إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ﴾ أى : الأحزاب . ومن أسفل منكم والمقصود بهم بنوقريظة ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أى : من شدة الخوف والفزع ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ وفيه أقوال : قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله - ﷺ - أن الدائرة على المؤمنين وأن الله سيفعل ذلك ، وقال محمد بن اسحاق فى قوله تعالى : ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير اخو بنى عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يذهب الى الغائط ، وقال الحسن فى قوله - عز وجل - ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظنون مختلفة ظن المنافقون ان محمدا - ﷺ - وأصحابه يستأصلون . وأيقن المؤمنون ان ما وعد الله ورسوله حق وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقال ابن ابى حاتم بسنده عن ابى سعيد - رضى الله عنه - قال : قلنا يوم الخندق يارسول الله هل من شىء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال : - ﷺ - نعم ، قولوا ﴿ اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ﴾[2] قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح وكذا رواه الامام احمد بن حنبل عن أبى عامر العقدى .

قوله تعالى : ﴿ هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم ياأهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ .

وهذا بيان لحال المؤمنين عندما حوصرت مدينتهم وحوصروا من الأحزاب لقد نزل بهم بلاء عظيم حتى زلزلت النفوس من الخوف والفزع زلزالا شديدا ولا عجب فإن النفس البشرية قد يعتريها

---

(١) ابو داود فى سننه - كتاب الصلاة - باب وقت قيام النبى - ﷺ - من الليل ٢/٧٨ - ١٣١٩
(٢) مسند أحمد ٣/٣

الخوف والأمان والفزع والطمأنينة والرجاء والقلق وحينئذ نجم النفاق وتحركت آثاره فى قلوب المرضى حتى قال قائلهم : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا ﴾ لا حقيقة لتلك الوعود وهكذا النفوس المريضة اذا تحركت فيها عقارب البغضاء وهاجت فى جحورها ثعابين الحقد فالمنافقون ومرضى القلوب فى كل زمان ومكان عالة على المجتمع فى السراء وسوس ينخر فى عظام الأمة فى البأساء والضراء وحين البأس قال تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا ، وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذن مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا الم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا للصلاة قاموا كسالا يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا . إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يأهل يثرب ﴾ المقصود بيثرب المدينة كما جاء فى الصحيح : (رأيت فى المنام دار هجرتكم ارضا بين حرتين فذهب وهلى أنها هجر فإذا هى يثرب)(٢) وفى لفظ المدينة . ويقال إنما كان اصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له يثرب بن عبيد بن مهلاييل بن عوض بن عملاق بن لاوذبن إرم بن سام بن نوح . قاله الهيلى ، قال وروى عن بعضهم أنه قال ان لها فى التوراة أحد عشر اسما : المدينة وطابة وطيبة والمسكينة والجابرة والمحبوبة والقاصمة والمجبورة والعذراء والمرحومة .

وقوله : ﴿ لا مقام لكم ﴾ أى : لا إقامة لكم فى ميدان القتال مع رسول الله - ﷺ - فارجعوا إلى المدينة ثم بعد ذلك ابتدعوا من الأعذار ما يدل على سوء طويتهم وخبث نفوسهم وسواد قلوبهم . قالوا ﴿ ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنه - المراد بالطائفة بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق .

قال ابن اسحاق ان القائل لذلك هو اوس بن قيظى يعنى اعتذروا فى الرجوع الى منازلهم بأنها عورة اى ليس دونها ما يحجبها من العدو فهم يخشون عليها منهم قال الله تعالى : ﴿ وما هى بعورة ﴾ أى ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون الا فرارا ﴾ أى هربا من الزحف .

---

(١) سورة النساء الآيتان : ١٣٨ ، ١٣٩

(٢) البخارى - كتاب المناقب ٢٤٧/٤ وكتاب مناقب الأنصار - باب هجرة النبى - ﷺ - واصحابه الى المدينة ٧١/٥ وكتاب التعبير - باب اذا رأى بقرأ تنحر ٥٢/٩ ومسلم - كتاب الرؤيا - باب رؤية النبى - ﷺ - ١٧٧٩/٤ رقم ٢٢٧٢

قوله تعالى : ﴿ ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا . ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا . قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا . قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ .

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ثم سئلوا الفتنة وهى الدخول فى الكفر لكفروا سريعا وهم لا يحافظون على الايمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع ، هكذا فسرها قتادة وعبد الرحمن بن زيد وابن جرير وهذا ذم لهم فى غاية الذم ، ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل هذا الخوف : ألا يولوا الأدبار ولايفروا من الزحف ﴿ وكان عهد الله مسئولا ﴾ أي : وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لابد من ذلك ، ثم اخبرهم ان فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ولا يطول أعمارهم بل ربما كان ذلك سببا فى تعجيل اخذهم غرة ولهذا قال تعالى : ﴿ وإذا لا تمتعون إلا قليلا ﴾ أى : بعد هربكم وفراركم ﴿ قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى ﴾[1] ثم قال تعالى : ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله ﴾ أى يمنعكم ﴿ إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ أى : ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

قوله تعالى : ﴿ قد يعلم الله المعوقين منك والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس الا قليلا . أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ .

هذا إخبار عن علم الله المحيط بكل شيء ومما علم الله تعالى علم بهؤلاء المعوقين المعرقلين الذين يمنعون غيرهم من الزحف المقدس جهادا فى سبيل الله ويقولون لاخوانهم وعشائرهم (هلم إلينا) وأقبلوا علينا لنعيش فى الظلال والثمار ﴿ ولا يأتون البأس إلا قليلا ﴾ أى : أنهم عازفون عن الجهاد وحضور الغزو وشهود المعارك ، إن الله يعلم ما عليه هؤلاء ولن يقعد قوم عن الجهاد الا ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

قوله تعالى : ﴿ أشحة عليكم ﴾ أى : بالخير فهم بخلاء أنانيون ﴿ قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم إن الله عليم بذات الصدور ﴾ . إنهم ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت

---

(١) سورة النساء الآية : ٧٧

إن كنتم صادقين ﴾(١) فرد عليهم المولى الكريم بقوله ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ـ فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ، الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم . إن الذين اشتروا الكفر بالايمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم . ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير ﴾(٢) .

ان هؤلاء المعوقين القائلين لاخوانهم : (هلم إلينا) المخلدين إلى الراحة والظلال والثمار قد اختلفت احوالهم سلما وحربا ، أمنا وخوفا إنهم اذا جاء الخوف واحيط بهم وسمعوا النفير يعلن الجهاد والرد على المعتدين رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى تنتابه غمرات الموت وسكراته إنهم جبناء رعاديد ، فإذا ما ذهب الخوف وجاء الأمن استأسد الحمل وتعملق القزم وسلقوكم بألسنة حداد فليس لهم سلاح إلا تلك الألسنة إذ قلوبهم واجفة خائفة إنهم لا يصمدون أمام الأحداث ولكنهم كما قال القائل :

أسد على وفى الحروب نعامة

إنهم (أشحة على الخير) لايعرفون من الاسلام الا اسمه ومن المصحف إلا رسمه همهم بطونهم وقبلتهم نسائهم إذا رأوك حسدوك واذا تواريت عنهم اغتابوك

السنة عندهم بدعة والبدعة عندهم سنة يلقاك احدهم بوجه أبى بكر وقلب أبى لهب تحسبه ملاكا فى مظهره ولكنه شيطان رجيم فى مخبره .

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحبا ان الكذوب يشين حرا يصحب
يلقاك يقسم انه بك واثق واذا توارى عنك فهو العقرب

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٦٨
(٢) سورة آل عمران الآيات : ١٦٩ ـ ١٨٠

يسقيك من طرفُ اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

لقد حكم الله على هؤلاء بقوله : ﴿ أولئك لم يؤمنوا ﴾ (إذ الايمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل وإن قوما غرتهم الدنيا وألهتهم الأمانى ولا حسنة لهم وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا لو احسنوا الظن لأحسنوا العمل)(١) ﴿ ويل لكل أفاك أثيم يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾(٢) وإذا لم يؤمنوا فقد أُحبط الله اعمالهم وابطلها ﴿ كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولايؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾(٣) .

وليس إحباط أعمال هؤلاء بالأمر العسير بل كان ذلك على الله يسيرا وسهلا ميسورا .

قوله تعالى : ﴿ يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ .

وهذا ايضا من صفاتهم القبيحة فى الجبن والخور والخوف ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ بل هم قريب منهم وان لهم عودة اليهم ، ﴿ وان يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أى ويودون اذا جاءت الأحزاب انهم لا يكونون حاضرين معكم فى المدينة بل فى البادية يسألون عن أخباركم وما كان من امركم مع عدوكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا ﴾ أى : ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم الا قليلا لكثرة جبنهم وذلتهم وضعف يقينهم والله ـ سبحانه وتعالى ـ العالم بهم .

قوله تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا . ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا إيمانا وتسليما ﴾

هذا بيان منه تعالى فى أن الأسوة الحسنة تتمثل فى الفرد والجماعة ، اما الفرد فهو المثل الأعلى والانسان الكامل محمد ـ ﷺ ـ فهو الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة ، وأما الجماعة ففى محمد وصحبه قال تعالى : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ (٤)

لمثل هذا فليعمل العاملون وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، لقد اطلع الله على قلوب العباد فوجد قلب محمد ـ ﷺ ـ خير قلوب العباد فاختاره لرسالته ، ثم اطلع على قلوب العباد بعده فوجد قلوب اصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته فما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن .

---

(١) اخرجه البخارى فى التاريخ
(٢) سورة الجاثية الآيات : ٧ ـ ٩
(٣) سورة البقرة الآية : ٢٦٤
(٤) سورة الفتح الآية : ٢٩

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبه بالرجال فلاح

هذه الاسوة الحسنة إنما يقربها ويعترف من كان يرجو لقاء الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا فكل من كان يرجو لقاء ربه فإنه يعمل لهذا اللقاء والعمل إنما يتقبله الله بشرطين ان يكون صوابا وان يكون خالصا ولن يكون صوابا إلا إذا كان على هدى ـ رسول الله ـ ﷺ ـ ولن يكون خالصا إلا إذا ابتغى به وجه الله وقد اجتمع الشرطان فى قوله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾(١) .

وإنما جاءت آية الأسوة كاللؤلؤة بين آيات الغزوة لما كان عليه صلى الله عليه وسلم أثناء الغزوة من الثبات والقوة والصبر والحلم لقد كان يعلم اصحابه ان يقولوا : ﴿ اللهم استر عوراتنا وآمن روعلتنا ﴾(٢) سيدى ابا القاسم يارسول الله :

أنت الذي قاد الجيوش محطما عهد الضلال وأدب السفهاء

وسموت بالبشر الذين تعلموا سنن الشريعة فاتقوا سعداء

لقد كان حال المؤمنين وقت الشدة حال الواثق الثابت الموقن بوعد الله وصدقه : ﴿ ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله ﴾ أى من الابتلاء والشدائد ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ الوعد ﴿ وما زادهم ﴾ هذا ﴿ إلا إيمانا وتسليما ﴾ الا إيمانا ويقينا وتسليما وتفويضا ، ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين امنوا معه متى نصر الله الا إن نصر الله قريب ﴾(٣) .

وقوله جل شأنه : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدو منكم ويعلم الصابرين ﴾(٤) وقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾(٥) .

الأسوة الحسنة

لقد زكى الله عقل نبينا فقال سبحانه : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾(٦) ، وزكى لسانه فقال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾(٧) وزكى شرعه فقال ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾(٨) وزكى معلمه فقال ﴿ علمه شديد القوى ﴾(٩) وزكى فؤاده فقال ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾(١٠) وزكى بصره فقال ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾(١١) وزكى امته فقال ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيدا ﴾(١٢) وزكاها مرة أخرى فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وزكى أهل بيته ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ .

---

(١) سورة الكهف الآية : ١١٠
(٢) مسند احمد : ٣/٣
(٣) سورة البقرة الآية : ٢١٤
(٤) سورة آل عمران الآية : ١٤٢
(٥) سورة التوبة الآية : ١٦
(٦) سورة النجم الآية : ٢
(٧) سورة النجم الآية : ٣
(٨) سورة النجم الآية : ٤
(٩) سورة النجم الآية : ٥
(١٠) سورة النجم الآية ١١
(١١) سورة النجم الآية : ١٧
(١٢) سورة البقرة الآية : ١٤٣

وزكى رسالته فقال ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(١) وزكاه كله فقال ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(٢) .

أنت الذى من نورك البدر اكتسى — والشمس مشرقة بنور بهاك
أنت الذى لما رفعت إلى السما — بك قد سمت وتزينت لسراك
أنت الذى ناداك ربك مرحبا — ولقد دعاك لقربه وحباك
وخفض دين الشرك ياعلم الهدى — ورفعت دينك فاستقام هناك
ماذا يقول المادحون وما عسى — أن تجمع الكتاب من معناك
صلى الله عليك ياعلم الهدى — ما اشتاق مشتاق مثواك الى مسواك

إن أجل الغايات وأشرفها ، وأكرم الأهداف وأسماها : أن تنعقد عزائمنا على اتباع رسول الله ، وان تتأكد روابط قلوبنا على محبته ، والعمل بسنته ، وأن نتنافس فى التأسى به ، واقتفاء آثاره النبوية الشريفة ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾(٣) .

والذى لا شك فيه ، أننا نحن الذين نستفيد من الاستظلال بلواء رسول الله - ﷺ - فقد غفر الله له ذنبه ، ورفع له ذكره ، وشرح له صدره ﴿ وأتاه سؤله ، وهداه بهدى الأنبياء جميعا ، وجعله اماما وشهيدا .

﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾(٤) فهو إذن صاحب المقام المحمود ، والحوض المورود .

واذا كان الله عز وجل أكرم نبينا ومرشدنا بهذه المكارم كلها فنحن مع ذلك نسأل الله المزيد له فرفعة درجته رفعة لنا ، بل للبشرية جميعا ﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾(٥) .

وإذا كان من بلاغة القول ان يسلس البيان ، ويهذب الوجدان ويجعل العقول والأفئدة تتمايل تمايل الطروب النشوان .

فإن من البلاغة ايضا ان تنبهر فتعجز عن التعبير ، وأن تحاول الكلام فتعجز عن التصوير ، ومقام البلاغة الثانى هو الذى يلازمنى هنا وفى كل زمان ومكان ، كلما أردت عن النبى - ﷺ - كلاما ، أو فى الرسول مديحا .

دع ما ادعته النصارى فى نبيهم — واحكم بما شئت قدرا فيه واحتكم
فمبلغ العلم فيه انه بشر — وانه خير خلق الله كلهم

لقد كانت عظمة الرسول - ﷺ - عظمة مستمدة من مكنون القدر ، وداخل النفس ، فهى عظمة غير مكتسبة بمال ، ولا جاه ، ولا سلطان ! ! وهى عظمة لا يزيدها الرخاء ولا تنقصها الشدة ، ولا

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٠٧
(٢) سورة القلم الآية : ٤
(٣) سورة المطففين الآية : ٢٦
(٤) سورة النساء الآية : ٤١
(٥) سورة الانبياء الآية : ١٠٧

يظهرها الغنى ولا يخفيها الفقر ، ولا يكبرها سلطان ولا يصغرها زواله ، ولا يقويها نصر ولا تضعفها هزيمة .

إنما هى عظمة ثابتة ثبات الأزل ، لأنها من الأزل نفسه ، السارية فى الكون سريان القوانين الالهية ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمتها بعضها إلى بعض واعتبرتها بأسرارها العلمية ، لرأيت فيها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الانسان الأعظم ، كما يقوم الكون الكبير بسنن وأصول الحكمة فيه ، ولأيقنت ان هذا النبى الكريم ، إن هو الا معجم نفسى حى ألفته الحكمة الالهية بعلم من علمها ، وقوة من قوتها ، لتتخرج به الأمة التى تبدع العالم إبداعا جديدا ، وتنشئه النشأة المحفوظة له فى أطوار كماله ..

فهو إنسان غرس فى التاريخ غرسا ليكون حدا لزمن وأولا لزمن بعده ، وما كانت حياته تلك الا طريقة غرسه ، وهو ابدا قائم فى مكانه الاجتماعى ، إذ كان الزمن كلما تقدم زاد فى إثباته ... فلن يتغير أو يمحى الا اذا تغير او محى المشرق والمغرب (وحى القلم لمصطفى صادق الرافعى : ج٢) .

ونحن لا نريد بحب رسول الله - ﷺ - ذلك الحب البارد أو الفاتر الذي ينتهى بالصلوات والتسبيحات ، والهمهمات والتمتمات إن هذا الحب لا يبنى فردا ، ولا مجتمعا ، ولا يقيم صرحا ولا عمدا انما نريد الحب المشتعل ، والفؤاد المفعم الوثاب ، والعاطفة المشدودة الى مثلها العليا التى خطها لها النبى الأعظم - سيدنا محمد ﷺ - ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم ﴾(١) ولذلك كان من صحة الايمان او كماله ، أن يكون هوى المؤمن تبعا لما جاء به نبيه وهاديه .

فيكيف نفسه بهداه ، ويربطها بسماه ، ويعبقها بشذاه ، ويسخط بسخطه ويرضى لرضاه .

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٢) .

فالتجرد لهذا الحب هو ما يطالب به الاسلام ، وهو « بطاقة » الجنة ، وهو الذى يرسخ قدمك على الأرض ، ويمد قامتك إلى عنان السماء !]!

* * *

هل النبى يستحق هذا الحب ؟

ونضيف إلى هذا السؤال سؤالا آخر : وهل حبنا لرسول الله - ﷺ - أمر تعبدى أو وجدانى ، أو تمليه الشخصية « اليتيمة » والافاضة الربانية غير المحدودة ؟

والجواب عندى أن حبنا مهما زاد ، وعملنا مهما اتصل ، فلن نقدر رسول الله قدره ، ولا ان نوفيه حقه ، ولا بعضا من هذا الحق الذى أصبح دينا مستكنا فى أعماق النفس البشرية لا يجحده إلا جهول

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٣١

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٤

ولا ينكره إلا مأفون ! وهو حب مملى من الأقدار ؛ لأنه نبى اجتمعت فيه خصائص الأنبياء ، وحب يفيض به الوجدان لأنه يجد فيه الانسان المفرد فى مزاياه ، المنزه عن الشركة فى طبائعه وسجاياه فهو حب هابط على القلوب ونابع عنها ، يزرعه الاله ، ويرويه الانسان وينميه الدين ، فهو حب من غير اكراه ، حب يقذف فى اعماق النفس ، وهو حب يسمو به المحب ويعلو حتى يصل إلى درجات الصديقين ! !

والمسلمون اليوم ينقصهم الحب الذكى المتفاعل مع جوارح الانسان وعواطفه واذا كانت الامم تجتمع على زعمائها المخلصين لها ، فيتفانون فى إرضائهم ويتسابقون فى تقديرهم . .

أفلا نستمسك ـ نحن المسلمين ـ بعروة نبينا الوثقى ، ونتفانى فى إرضائه ، ونحرص على الحنيفية السمحة التى بعث بها ﷺ ان زعماء الدنيا تتوقف زعامتهم بأيام معدودة ، وتنتهى بانتهائهم .

أما رسولنا العظيم ، فقد قادنا أيام حياته إلى أقوم صراط ، وسيقودنا فى يوم الزحام ، إلى الحوض لنشرب ، وإلى الجنة لننعم إلى المجتمع الذى لاغل فى صدره ، ولا تفكك فى صفوفه :

﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾[1] .

ـ لقد عاش سلفنا الصالح فى نبيهم فسادوا وقادوا ، وفتحوا وعمروا فهل يعيش الخلف المعاصر عيشهم ليسودوا ويقودوا . ويفتحوا ويعمروا ؟

هذه هى الأمنية الوحيدة التى توقظ المسلمين من سباتهم العميق ، وتشعل عواطفهم التى ران عليها ما كسبوه من الأثام والسيئات ان هذا « التجمع » حول نبينا ـ ﷺ ـ هو وحده الذى يجعلنا نقاوم طغيان الطغاة ، وعبث العابثين .

ـ وإذا كانت الأمم تجعل مثلها الأعلى نابعا من بيئتها وتفكيرها ، فبعض الأمم ينبع مثلها الأعلى من غريزتها ، فيكون امرأة جميلة وقدا مستقيما ، والبعض ينبع مثله الأعلى من بطنه فيكون فى أكلة ـ طيبة . . وشربة حلوة وكفى .

والبعض ينبع مثله الأعلى من طبيعته المتجبرة ، فيكون سلطانا واستعبادا واذلالا وإقهارا .

ولكن الله ـ عز وجل ـ أراد من الأمة المسلمة ان تجعل مثلها الأعلى هو رسول الله ـ ﷺ ـ فى كل شىء ! ! فى علمه وعمله ، فى ضحكه وبكائه ، فى نومه ويقظته ، فى قعوده وسيره ، فى حربه وسلمه ، فى مأكله ومشربه ، فى حلمه وغضبه ، فى جميع أفعاله وتصرفاته ، لانه ﷺ ، هو أكمل النماذج البشرية جميعا وأعظم المستويات جميعا .

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .

ـ والأمة حين تتوحد فى عاداتها على عادات هذ النبى ، وفى هديها على هديه ، وفى سلوكها على سلوكه ، تكون سيدة الأمم هديا ورقيا وحضارة وسلوكا .

والحمد لله الذى جعلنا من أمة هذا النبى الذى طلعت شمسه علينا فأطفأت كل قنديل ، وهى شمس تملأ الدنيا حرارة وقوة ، ونماء واريجا ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون

---

(١) سورة الحجر الآية : ٤٧

عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾(١) .

قال مصطفى صادق الرافعى رحمه الله :

كما تطلع الشمس بأنوارها ، فتفجر ينبوع الضوء المسمى بالنهار ، يولد النبى فيوجد فى الانسانية ينبوع النور المسمى بالدين وليس النهار الا يقظة الحياة تحقق أعمالها ، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها .

والشمس خلقها الله حاملة طابعه الالهى فى عملها للمادة تحول به وتغير . والنبى يرسله الله حاملا مثل ذلك الطابع فى عملة للروح ترقى فيه وتسمو .

ورعشان الضوء من الشمس هى قصة الهداية للكون فى كلام من النور . وأشعة الوحى فى النبى هى قصة الهداية لانسان الكون فى نور من الكلام والعامل الالهى العظيم يعمل فى نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين، أجرام النور من الشموس والكواكب ، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء فليس النبى إنسانا من العظماء ، يقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ومع المنطق الشك ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة . ولكنه إنسان نجمى يقرأ بمثل التلسكوب فى الدقة معه العلم ، ومع العلم الايمان ، ثم يدرس بكل ذلك على طبيعته النورانية وحدها . والحياة تنشىء علم التاريخ .

ولكن هذه الطريقة فى درس الانبياء ـ صلوات الله عليهم ـ تجعل التاريخ هو ينشىء علم الحياة .

فإنما النبى إشراق إلهى على الانسانية ، يقومها فى فلكها الاخلاقى ويجذ بها إلى الكمال فى نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية فى الكواكب . أ هـ .

إننا نطالب الأمة الاسلامية ونهيب بها أن تتجمع حول هذا النبى العظيم ، لتتوحد تحت رايته ولنرتبط به ، ونربط قلوبنا عليه ! !

فالمسلمون اليوم تتوزعهم شعارات مختلفة ، وتفرقهم أهواء متباينة فلكل دولة شعار ، ولكل بلد تقاليد وعادات ، ولكل أمة سبيل ومنهاج فلماذا هذا الخلاف والصراط مستقيم ، والنبى واحد ، والقبلة واحدة ، والدين واحد .

﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴾(٢) .

قال الاستاذ أحمد عبد الجواد الدومى (رحمه الله) .

وفى هذه الأيام تتعرض الأمة الاسلامية للطواحين الطاحنة ، والأفكار المسمومة ، والثقافات الدخيلة .

ومما يؤسف له أن عاداتنا العربية ذابت فى تقاليد الغرب ، وان فلسفتنا الشرقية انصهرت فى الفلسفة الغربية ، وان حضارتنا العريقة انطمست معالمها على مرأى منا ومسمع ، وحييت الحضارات الملوثة ، والرطانات المخبولة .

إنك تدخل بيوت كثير من عظمائنا العرب وعظمائنا المسلمين ، فلا تشم الا رائحة التقليد

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٠
(٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٢

الغربي فى المأكل والمشرب ولا تنظر إلا الزرابى المبثوثة ، والنمارق المصفوفة ، ومع ذلك فلو سألت عن سجادة او حصير للصلاة لا تجد شيئا من ذلك فى هذه البيوت الفخمة لان الصلاة ليست فى الحسبان ، ومع هذا فنحن عرب ونحن مسلمون . وتجلس على الموائد الممدودة ، فلا تجد مظهرا من مظاهر الاسلام ولا أدبا من آدابه .

لقد اختفى مظهر البساطة ، ومظهر غسل اليد قبل الطعام ، ومظهر الأكل مما يليك ، مع مَضغ اللقمة ، كما اختفى مظهر الحديث الهادىء الوديع ، وحل محل ذلك كله الأيدى القاطعة بالمدى ، والأعين الزائغة الطائرة ، والنفوس الطامعة المسعورة ، والحديث عن آخر المودات والتقاليع . كأن ذلك هو كل ما ورثناه ومع هذا فنحن عرب ونحن مسلمون .

وأصبح المسلم ابن المسلم يستحى ان يخرج من المسجد ولا يستحى حين يُخرج من السينما ، ويمشى مع خليلته كما يمشى مع حليلته ، ومع ذلك كله فنحن نزعم اننا عرب وأننا مسلمون !

قوله تعالى : ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ﴾ .

قال البخارى رحمه الله تعالى بسنده عن خارجه بن زيد بن ثابت عن ابيه قال : لما نسخنا المصحف فقدت آية من سورة الأحزاب كنت اسمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقرؤها لم أجدها إلا مع خزيمة ابن ثابت الانصارى ـ رضى الله عنه ـ الذى جعل رسول الله ـ ﷺ ـ شهادته بشهادة رجلين ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾(١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن ثابت قال : قال أنس : عمى أنس بن النصر ـ رضى الله عنه ـ سميت به لم يشهد مع رسل الله ﷺ يوم بدر فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله ـ ﷺ ـ غبت عنه لئن ارانى الله تعالى مشهدا فيما بعد مع رسول الله ـ ﷺ ـ ليرين الله ـ عز وجل ـ ما اصنع . قال فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله ـ ﷺ ـ يوم احد فاستقبل سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ فقال له أنس ـ رضى الله عنه ـ ياأبا عمرو أين ؟ واها لريح الجنة إنى اجده دون أحد قال : فقاتلهم حتى قتل ـ رضى الله عنه ـ قال : فوجد فى جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية فقالت اخته عمتى الربيع ابنة النضر : فما عرفت أخى الا ببنانه قال فنزلت هذه الآية ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ﴾ قال فكانوا يرون انها نزلت فيه وفى أصحابه ـ رضى الله عنهم (٢)

وأخرج مسلم والترمذى من حديث سليمان بن المغيرة وقال ابن ابى حاتم بسنده عن أنس ـ رضى

(١) البخارى تفسير سورة الأحزاب ١٤٦/٦
(٢) مسند الامام احمد ١٩٣/٤

الله عنه - قال : ان عمه يعنى انس بن النضر - رضى الله عنه - غاب عن قتال بدر فقال : غبت عن أول قتال قاتله رسول الله - ﷺ - المشركين لئن اشهدنى الله - عز وجل - قتالاً للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، قال فلما كان يوم احد انكشف المسلمون فقال : اللهم إنى اعتذر إليك مما صنعه هؤلاء - يعنى أصحابه - وابرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعنى المشركين - ثم تقدم فلقيه سعد - يعنى ابن معاذ - - رضى الله عنه - دون أحد فقال : أنا معك قال سعد - رضى الله عنه - فلم استطع أن أصنع ماصنع فلما قتل قال : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف وطعنة رمح ورمية سهم وكانوا يقولون فيه وفى اصحابه نزلت ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾(١)

وروى ابن جرير بسنده عن موسى بن طلحة عن ابن طلحة - رضى الله عنه - قال : لما أن رجع رسول الله - ﷺ - من أحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وعزى المسلمين بما أصابهم وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ثم قرأ هذه الآية ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾(٢)

قال مجاهد ﴿ **فمنهم من قضى نحبه** ﴾ يعنى عهده (ومنهم من ينتظر) قال : يوما فيه القتال فيصدق فى اللقاء . وقال الحسن (فمنهم من قضى نحبه) يعنى موته على الصدق والوفاء ، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ومنهم من لم يبدل تبديلا .

وقال بعضهم : ﴿ **نحبه** ﴾ ﴿ **نذره** ﴾ ﴿ **وما بدلوا تبديلا** ﴾ أى : وما غيروا عهدهم ويدلوا الوفاء بالغدر ، بل استمروا على ما عاهدوا الله عليه وما نقضوه كفعل المنافقين الذين قالوا : ﴿ **إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا** ﴾ ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا** ﴾ .

إن هذه الآية الكريمة تعتبر برقية عزاء ربانية ظاهرة نزل بها أمين السماء وسفير الأنبياء وكبير امناء وحى صاحب العظمة والكبرياء ، نزل بها الروح الأمين على قلب أمين الأرض والسماء وقد شهد الله لهؤلاء الطاهرين الطيبين فى هذه الآية بثلاث خصال : شهد لهم بالايمان ، وهو العقيدة التى إذا تباشرت بشاشتها شغاف القلوب وتمكنت تكاد تجعل المستحيل ممكنا والملح الأجاج عذبا فراتا سلسبيلا ، كما شهد لهم بالرجولة ، والرجولة عملة نادرة وكلمة طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها إلى أعماق القلوب والاسلام صانع الرجال الذين جعلوا من البحر الأبيض والبحر الأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان فى ارض الإسلام قال تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجال** ﴾ وقال : ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه . فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾(٣) وقال أصدق القائلين ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾(٤) وقال تعالى :

---

(١) مسلم - كتاب الامارة - باب ثبوت الجنة للشهيد ١٥١٢/٣ رقم ١٩٠٣ والترمذى - كتاب التفسير سورة الاحزاب ج ٢٨/٥ رقم ٣٢٥٣

(٢) تفسير الطبرى ٩٣/٢١

(٣) سورة التوبة الآية : ١٠٨

(٤) سورة النور الآيات : ٣٦ - ٣٨

﴿ وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فأخرج انى لك لمن الناصحين ﴾[1]

﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسئلكم أجرا وهم مهتدون . وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون . أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين إنى آمنت بربكم فاسمعون قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعذكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾[3] .

ان الاسلام يؤمن بالواحد ، إذ الكثرة قد تكون عبثا ثقيلا على كاهل الجماعة إذا كانت تلك الكثرة غثاء كغثاء السيل وكما شهد الله لهم بالايمان والرجولة شهد لهم بصدق العهد . فاعجب معى لقوم عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ثم نقضوا العهود ونكثوا العهود ، أما هؤلاء الأبطال الصناديد لقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وحسب الصدق شرفا أن يقول عنه رسول الله ـ ﷺ ـ كما جاء فى الصحيح « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وان البر يهدى إلى الجنة وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا واياكم والكذب فإن الكذب يهدى للفجور وان الفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا »[4] فالمؤمن إذا قال صدق ، واذا وعد وفى ، واذا ائتمن أدى والمنافق إذا وعد أخلف واذا حدث كذب واذا ائتمن خان ، وإذا عاهد غدر واذا خاصم فجر فشتان ثم شتان ما بين هؤلاء واولئك ، ان الفرق بين الفريقين كالفرق بين الأرض والسماء ، والثرى والثريا ومسابح الاسماك ومدارج الافلاك ، وعليين وسجين ان فريقا المؤمنين اظهر من السحابة فى سمائها وأنصع من ماء الغمام ، انهم النور الذى يهتدى بهم من ضل السبيل (انهم مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء) .

وجل جلال الله إذ يقول فى هؤلاء : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين ابتعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾[5] .

قوله تعالى : ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفورا رحيما ﴾ .

---

(١) سورة القصص الآية : ٢٠
(٢) سورة يس الآية : ٢٠
(٣) سورة غافر الآية : ٣٨
(٤) البخارى ـ كتاب الأدب ـ باب قول الله تعالى : يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ٨/٣٠
(٥) سورة التوبة الآية : ١٠٠

هذا حكم الله تعالى فى الفريقين والله ـ سبحانه وتعالى ـ اذ حكم عدل واذا قال صدق وإذا اراد فلا راد لما اراد واذا قضى فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب « ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ أى : إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب فيظهر امر هذا بالفعل وأمر هذا بالفعل مع انه تعالى يعلم الشىء قبل كونه ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم حتى يعلموا بما يعلمه منهم حتى قال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾[١] فهذا علم بالشىء بعد كونه وان كان العلم السابق حاصلا به قبل وجوده . وكذا قال الله تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾[٢] ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ ليجزى الله الصادقين بصدقهم ﴾ أى : يصبرهم على ما عاهدوا الله عليه وقيامهم به ومحافظتهم عليه ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله المخالفون لاوامره فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ولكن هم تحت المشيئة فى الدنيا ان شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه وان شاء تاب عليهم بان ارشدهم الى النزوع عن النفاق الى الايمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هى الغالبة لغضبه قال : ﴿ إن الله كان غفورا رحيما ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا ﴾

وهذا إخبار منه تعالى عما أنزله بالمشركين من الهوان والخزى العظيم فقد ردوا الى بلادهم خائبين خاسرين يجرون أذيال الندامة بغيظهم وحنقهم وحقدهم ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ وهذه نعمة من نعم الله على عباده ﴿ ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[٣] ﴿ وكان الله قويا ﴾ لا يضعف ﴿ عزيزا ﴾ لا يغلب ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾ وقال تعالى : ﴿ ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز ﴾[٥] وقال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز ﴾[٦].

وقال سبحانه : ﴿ وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[٧] فمن كان الله معه فمن عليه ! ومن وجد الله فماذا فقد ، كل شىء قائم به وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، وقوة كل ضعيف وغنى كل فقير ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم يسمع نطقه ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ومن مات فاليه منقلبه .

---

(١) سور محمد الآية : ٣١
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٧٩
(٣) سورة المائدة الآية : ١١
(٤) سورة المجادلة الآية : ٢١
(٥) سورة الحج الآية : ٤٠
(٦) سورة الحديد الآية : ٢٥
(٧) الذاريات الآيات : ٥٦ ـ ٥٨

قوله تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ .

لما قدمت جنود الاحزاب ونزلوا على المدينة نقض بنو قريظة ما كان بينهم وبين رسول الله ـ ﷺ ـ من العهد وكان ذلك بسفارة حيى بن أخطب النضرى لعنه الله فقد دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد وقال له فيما قال ويحك قد جئتك بعز الدهر اتيتك بقريش واحابيشها وغطفان واتباعها ، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، فقال له كعب : بل والله اتيتنى بذل الدهر ويحك ياحيى انك مشئوم فدعنا منك ، فلم يزل يفتل فى الذروة والغارب حتى اجابه واشترط له حيى إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شىء أن يدخل معهم فى الحصن فيكون له

اسوتهم ، فلما نقضت قريظة وبلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ ساءه وشق عليه وعلى المسلمين جدا فلما ايده الله تعالى ونصره وكبت الاعداء وردهم خائبين بأخسر صفقة ورجع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة مؤيدا منصورا ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله ـ ﷺ ـ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة فى بيت أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ اذ تبدى له جبريل ـ عليه السلام ـ معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يارسول الله ؟

قال ـ ﷺ ـ : (نعم .. قال : لكن الملائكة لم تضع أسلحتها وهذا الآن رجوعى من طلب القوم ، ثم قال : ان الله تبارك وتعالى يأمرك ان تنهض إلى بنى قريظة ، وفى رواية فقال له عذيرك من مقاتل اوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال لكنا لم نضع اسلحتنا بعد . انهض الى هؤلاء قال

ـ ﷺ ـ : وأمر الناس بالمسير إلى بنى قريظة وكانت على أميال من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال ـ ﷺ ـ : لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة فى الطريق فصلى بعضهم فى الطريق وقالوا لم يرد منا رسول الله ـ ﷺ ـ الا تعجيل المسيرة ، وقال آخرون لا نصليها الا فى بنى قريظة فلم يعنف واحدا من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ وقد استخلف على المدينة ابن

أم مكتوم ـ رضى الله عنه ـ وأعطى الراية لعلى بن ابى طالب ـ رضى الله عنه ـ ثم نازلهم رسول الله ـ ﷺ ـ وحاصرها خمسا وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس ـ رضى الله عنه ـ لانهم كانوا حلفاءهم فى الجاهلية واعتقدوا انه يحسب اليهم فى ذلك كما فعل عبد الله ابن ابى بن سلول فى مواليه بنى قينقاع حين استطلقهم رسول الله ـ ﷺ ـ فظن هؤلاء ان سعدا سيفعل

فيهم كما فعل ابن أبى فى اولئك ولم يعلموا ان سعدا ـ رضى الله عنه ـ كان قد اصابه سهم فى أكحله ايام الخندق فكواه رسول الله ـ ﷺ ـ فى أكحله وأنزله فى قبة فى المسجد ليعوده من قريب وقال سعد ـ رضى الله عنه ـ فيما دعا به: اللهم إن كنت ابقيت من حرب قريش شيئا فأبقنى لها ، وإن كنت وضعت الحرب

بيننا وبينهم فافجرها ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم ان نزلوا على حكمه باختيارهم طلبا من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله - ﷺ - من المدينة ليحكم فيهم ، فلما اقبل وهو راكب على حمار قد وطئوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون ياسعد إنهم مواليك فأحسن فيهم ويرفقونه عليهم ويعطفونه وهو ساكت لا يرد عليهم فلما أكثروا عليه قال - رضى الله عنه - ، لقد آن لسعد الا تأخذه فى الله لومة لائم . فعرفوا انه غير مستبقيهم فلما دنا من الخيمة التى فيها رسول الله - ﷺ - قال رسول الله - ﷺ - : (قوموا الى سيدكم) فقام اليه المسلمون فأنزلوه إعظاما وإكراما واحتراما له فى محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم فلما جلس قال له رسول الله - ﷺ - : إن هؤلاء - وأشار اليهم - قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت . . فقال - رضى الله عنه - وحكمى نافذ عليهم ، قال - ﷺ - « نعم » قال وعلى من فى هذه الخيمة ؟ قال « نعم » قال وعلى من ههنا وأشار إلى الجانب الذى فيه رسول الله - ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله - ﷺ - اجلالا وإكراما وإعظاما ، فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » فقال - رضى الله عنه - انى احكم ان تقتل مقاتلهم وتسبى ذريتهم وأموالهم فقال له رسول الله - ﷺ - « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة ارقعة)[(١)] وفى رواية (لقد حكمت بحكم الملك) ثم امر رسول الله ﷺ بالاخاديد فخدت فى الأرض وجىء بهم مكتفين فضرب اعناقهم وكانوا ما بين السبعمائة الى الثمانمائة وسبى من لم ينبت منهم مع النساء ولهذا قال تعالى : ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ اى عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعنى بنى قريظة من اليهود من بعض أسباط بنى اسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديما طمعا فى اتباع النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل .

﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾[(٢)] فعليهم لعنة الله ، وقوله تعالى : ﴿ من صياصيهم ﴾ يعنى حصونهم ﴿ وقذف فى قلوبهم الرعب ﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالأوا المشركين على حرب النبى - ﷺ - وليس من يعلم كمن لا يعلم وأخافوا المسلمين وراموا قتلهم ليخزوهم فى الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب اليهم القال انشمر المشركون ففازوا بصفقة المغبون . فكما راموا العز ذلوا ، وارادوا استئصال المسلمين فاستؤصلوا ، واضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة ان هذه هى الصفقة الخاسرة ولهذا قال تعالى : ﴿ فريقا تقتلون وتأسرون فريقا ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة والأسراء هم الأصغر والنساء .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أى : جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضا لم تطئوها ﴾ قيل : خيبر وقيل : مكة وقيل : فارس والروم . وقال ابن جرير : يجوز أن يكون المراد الجميع ﴿ وكان الله على كل شىء قديرا ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض فقد

(١) البخارى - كتاب المغازى - باب غزوة الخندق ٥/١٤٣
ومسلم - كتاب الجهاد - باب جواز قتال من نقض العهد ١٣٨٩/٣ رقم ١٧٦٩ ومسند احمد ١٤٧/٦

(٢) سورة البقرة الآية : ٨٩

هزم الاحزاب وحده ﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من اهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها ﴾ هؤلاء المؤمنون الذين ورثوا تلك الأرض والديار والأموال كانوا جديرين بهذا النصر لقد وقفوا عند قوله تعالى : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾(١) فقد اصطلحوا مع الله وكان تلك الآية معاهدة صلح استوفت كل الشروط ويوم نعود إلى الله ونعمل بما أمرنا به ونجتنب ما نهانا عنه يومها سنكون ممن قال الله فيهم : ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾(٢) وممن قال فيهم ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾(٣) .

قصة التخيير

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

معانى المفردات

زينة الدنيا : زخرفها ونعيمها

فتعالين : أى : أقبلن باختياركن واخترن أحد الأمرين .

أمتعكن : أعطكن المتعة وهى قميص وغطاء للرأس وملحفة ـ ملاءة ـ بحسب السعة والاقتار .

وأسرحكن : أى : أطلقكن

سراحا جميلا : أى : طلاقا من غير ضرار ولا مخاصمة ولا مشاجرة

بفاحشة : أى : فعله قبيحة كنشوز وسوء خلق واختيار الحياة الدنيا وزينتها على الله ورسوله .

مبينة : أى : ظاهرة القبح من قولهم : بين كذا بمعنى ظهر وتبين .

ضعفين : أى : ضعف عذاب غيرهن أى: مثليه .

يسيرا : أى : هينا لا يمنعه عنه كونهن نساء النبى بل هذا سبب له .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نصر الله تعالى نبيه ـ ﷺ ـ فرد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير ظن أزواجه

(١) سورة الحج الآية : ٤١
(٢) سورة الحج الآية : ٤٠
(٣) سورة الروم الآية : ٤٧

- رضى الله عنهن - أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن : يارسول الله : بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل والاماء والخول - الخدم والحشم - ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق وآلمن قلبه الشريف بمطالبهن من توسعة الحال ومعاملتهن معاملة نساء الملوك وابناء الدنيا من التمتع بزخرفها من المآكل والمشرب ، ونحو ذلك فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل فى شأنهن .

- روى احمد عن جابر - رضى الله عنه - قال : (أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن على رسول الله - ﷺ - والناس ببابه جلوس والنبى - ﷺ - جالس فلم يؤذن له ثم أقبل عمر - رضى الله عنه - فاستأذن فلم يؤذن له ثم أذن لأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فدخلا والنبى - ﷺ - جالس وحوله نساؤه وهو ساكت فقال عمر لأكلمن النبى - ﷺ - لعله يضحك ، قال : يارسول الله ! لو رأيت إبنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها . فضحك النبى - ﷺ - حتى بدت نواجذه وقال « هن حولى يسألننى النفقة » فقام ابو بكر إلى عائشة ليضربها وقام عمر إلى حفصة ، كلاهما يقول : تسألان النبى - ﷺ - ماليس عنده فنهاهما رسول الله فقلن : والله لا نسأل رسول الله - ﷺ - بعد هذا المجلس ما ليس عنده وأنزل الله - عز وجل - الخيار فبدأ بعائشة - رضى الله عنها - فقال لها إنى أذكر لك أمرا ما أحب ان تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك . قالت ما هو؟ فتلا عليها ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك ﴾ الآية : قالت عائشة - رضى الله عنها - : أفيك استأمر ابوى ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت فقال - ﷺ - (إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلا اخبرتها) رواه مسلم والنسائى.[1]

ثم وعظهن بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وخصهن بأحكام يجدر بمثلهن أن يستمسكن بها لما لهن من مركز ممتاز بين نساء المسلمين لأنهن أمهات المؤمنين ، وموضع التجلة والكرامة إلى أنهن فى بيت صاحب الدعوة الاسلامية وعنه انبعث نور الهدى والطهر والعفاف فأجدر بهن أن يكن المثل العليا فى ذلك ويكن قدوة يأتسى بهن نساء المؤمنين جميعا ويالها منقبة أوتيت لهن دون سعى ولا إيجاف منهن ، بل هى منحة أكرمهن الله بها ، فله الحمد فى الآخرة والأولى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ .

أى : يا أيها الرسول قل لأزواجك : اخترن لانفسكن إحدى خلتين : أولاهما ان تكن ممن يحببن لذات الدنيا ونعيمها والتمتع بزخرفها فليس لكن عندى مقام إذ ليس عندى شىء منها فأقبلن على أعطكن ما أوجب الله على الرجال للنساء من المتعة عند فراقهم إيا هن بالطلاق ، تطييبا لخاطرهن

---

(١) مسند احمد ٣٢٨/٣
ومسلم - كتاب الطلاق - باب بيان ان تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية ١١٠٣/٣ رقم ١٤٧٥

وتعويضا لهن عما لحقهن من ضرر بالطلاق وهى كسوة تختلف بحسب الغنى والفقر واليسار والاقتار كما قال تعالى : ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾[١] ثم أسرحكن وأطلقن على ما أذن الله به وأدب به عباده بقوله :

﴿ إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾[٢] وكان عند رسول الله - ﷺ - يومئذ تسع نسوة : خمس من قريش : عائشة ، وحفصة . وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة - رضى الله عنهن - ، وأربع من غير القرشياب . زينب بنت جحش الأسدية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وصفية بنت حيى بن اخطب النضيرية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية .

وحين نزلت هذه الآية عرض عليهم رسول الله - ﷺ - ذلك وبدأ بعائشة وكانت احب أهله إليه فخيرها وقرأ عليها القرآن فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ففرح رسول الله - ﷺ - ثم تابعها بقية نسائه .

ثم ذكر ثانية الخلتين فقال :

﴿ وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾ أى وإن كنتن تردن رضا الله ورضا رسوله وثواب الدار الآخرة فأطعنه فإن الله أعد للمحسنات منكن فى أعمالهن القولية والفعلية ثوابا عظيما تستحقر الدنيا وزينتها دونه كفاء احسانهن . والخلاصة - انتن بين أحد أمرين : أن تقمن مع الرسول وترضين بما قسم لكن وتطعن الله وأن يمنعكن ويفارقكن إن لم ترضين بذلك .

وبعد أن خيرهن واخترن الله ورسوله - أتبع ذلك بعظتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبى - ﷺ - وأوعدهن بمضاعفة العذاب فقال :

﴿ يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا ﴾ أى : من يعص منكن الرسول - ﷺ - ويطلب ما يشق عليه ويضق به ذرعا ويغتم لأجله - يضاعف لها العذاب يوم القيامة ضعفين ، أى تعذب ضعف عذاب غيرها لأن قبح المعصية منهن أشد ومن ثم كان ذم العقلاء للعالم العاصى أشهر منه للجاهل العاصى وكان ذلك سهلا يسيرا على الله الذي لا يحابى أحدا لأجل أحد إذ كونهن نساء رسوله ليس بمغن عنهن شيئا ، بل هو سبب لمضاعفة العذاب .

روى أن رجلا قال لزين العابدين - رضى الله عنه - إنكم أهل بيت مغفور لكم فغضب وقال : نحن أحرى أن يجرى فينا ما أجرى الله فى أزواج النبى - ﷺ - من أن نكون كما قلت إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر ولمسيئنا ضعفين من العذاب وقرأ هذه الآية والتى بعدها .

كلمة عن رسول الله وأزواجه

من قواعد الايمان الأساسية ان تحب رسول الله - ﷺ - حبا بينه نبى الله فى قوله الكريم « لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين »[٣]

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٦
(٢) سورة الطلاق الآية : ١
(٣) مسلم - كتاب الايمان - باب وجوب محبة رسول الله ﷺ - أكثر من الأهل والولد جـ ١ ص ٦٧

ورسول الله - ﷺ - جدير بهذا الحب . أليس هو النبى الذى رفع الله ذكره وأعلى قدره وقرن اسمه باسمه إذ يقول ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾(١) .

أليس هو الذى حذر الله من مخالفة أمره إذ يقول : ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة او يصيبهم عذاب أليم ﴾(٢) .

- أليس هو الذى قرن الله طاعته بطاعته فقال ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾(٣) .

أليس هو الذى سيندم العصاة على مخالفته ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ .

- أليس هو الذى قرن الله محبته باتباع هديه والسير وراءه فقال : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾(٤) .

أليس هو الذى أمر الله المؤمنين بالصلاة والسلام عليه وهو الذى يصلى عليه وملائكته ؟ ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ياأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

صلى عليك الله ياعلم الهدى ، ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

كل القلوب إلى الحبيب تميل ... ومعى بهذا شاهد ودليل
أما الدليل إذا ذكرت محمدا ... صارت دموع العارفين تسيل
هذا رسول الله هذا المصطفى ... هذا لرب العالمين رسول
ياسيد الكونين ياعلم الهدى ... هذا المتيم فى حماك نزيل

ماذا أقول عنك يارسول الله وقد أخذ الله من النبيين ميثاقهم فى مشهد ربانى رائع فقال : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما ءاتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم واخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾

هذا النبى الهاشمى محمد ... هذا لكل العالمين رسول
هذا الذى رد العيون بكفه ... لما بدت فوق الخدود تسيل
هذا الذى شرف الوجود بهديه ... منهاجه للسالكين سبيل
هذا الغمامة ظللته إذا مشى ... كانت تقيه اذا الحبيب يقيل
صلى عليك الله ياعلم الهدى ... مالاح برق فى السماء دليل

---

(١) سورة التوبة الآية : ٦٢
(٢) سورة النور الآية : ٦٣
(٣) سورة النساء الآية : ٨٠
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٣١ ، ٣٢ .
(٥) سورة آل عمران الآية : ٨١

إن مثلى ومثلك يارسول الله كمثل أعرابى ضل الطريق فى الصحراء ولما طلع عليه القمر اهتدى بنوره ، فقال ماذا أقول لك أيها القمر ؟ أأقول رفعك الله ، لقد رفعك .. أأقول نورك الله ؟ لقد نورك ، أأقول جملك الله ، لقد جملك وأنا ماذا أقول لك يا سيدى يا رسول الله ؟

أأقول رفعك الله ؟ لقد رفعك ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .

أأقول نورك الله ؟ لقد نورك ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾[1] .

أأقول جملك الله ؟ ﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾[2] .

يا سيدى يا رسول الله معذرة ... إذا كبافيك تبيانى وتعبيرى
ماذا أوفيك من حق وتكرمة ... وأنت تعلو على ظنى وتقديرى
أقبلت كالفجر وضاح الأسارير ... تدعو إلى الله فى يسر وتبشير
على جبينك نور الحق منبلجا ... وفى يديك لواء العدل والنور

لقد أحبتك القلوب المؤمنة وعرفت لك قدرك وأجلت فيك إخلاصك وصفاءك ونقاء سريرتك .

وهل ننسى يوم نزلت السوق فسمعت عبدا ينادى وسيده يعرضه للبيع والعبد يقول : من أراد شرائى فلا يمنعنى من الصلاة وراء رسول الله ـ ﷺ ـ فاشتراه أحد الناس وظل العبد يواظب على الصلاة وراءك ولا تفوته تكبيرة الاحرام فى فريضة . ولما بلغك أنه مريض ذهبت بنفسك لتعوده . ولما توفى صليت عليه لتكون صلاتك شفاعة له فى الآخرة .

أنت الذى أقمت ميزان العدالة ورفعت لواء الحق عندما قرأت على الوجود قول الله تعالىٰ ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[3] .

نعم لا ننسى يوم دخلت على ثوبان ، ذلك الغلام المتواضع الفقير فرأيته يبكى فسألته ما يبيكك يا ثوبان ؟ قال : يا رسول الله إنك إذا غبت عنى اشتقت إليك فتبكى عيناى فإذا تذكرت الآخرة وأننى لن أكون معك فى الجنة حيث أنت فى أعلى درجاتها ازداد بكائى عندئذ هبط الأمين جبريل بقول الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما ﴾[4] .

صلوا على من تدخلون بهديه ... دار السلام وتبلغون المطلبا

---

١ ـ الآية ١٥ من سورة المائدة

٢ ـ الآيتان ٤٥ ، ٤٦ من سورة الأحزاب

(٣) الآية ١٣ من سورة الحجرات

(٤) الآيتان ٦٩ ، ٧٠ من سورة النساء

صلوا عليه وسلموا وترحموا ترِدوا بها حوض الكرامة مشربا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما أوفاك دين المذنبين وأحسبا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما أحلاك ذكرا فى القلوب وأنسبا
صلى وسلم ذو الجلال عليك ما أزكاك فى الرسل الكرام وأطيبا .

وهذا مشهد تمتلىء له النفس روعة وجلالا لصدق الحب الذى امتلأت به قلوب أصحاب الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه .

روى الامام مسلم عن ربيعة بن مالك الأسلمى قال : قال لى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم (سل ، فقلت . أسألك مرافقتك فى الجنة . قال : أو غير ذلك ؟ قلت : هو ذاك ، قال : فأعنى على نفسك بكثرة السجود)[1] .

أسأل الله أن يجعلنا يوم القيامة تحت لوائك ، وأن يسقينا من كفك الشريف شربة ماء لا نظمأ بعدها أبدا .

* المثل الأعلى فى الأنبياء *

جاء فى كتاب (المثل الأعلى فى الأنبياء) :

لما اصطفى الله رسوله محمدا للنبوة كان أول ما نزل عليه فى غار حراء قوله تعالى:﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[2] .

رسالة خلت من كل نزعة شخصية أو قبلية . ولكنها بلغت غاية العظمة والجلال ، لأنها دستور عام يهدف إلى النهوض بالانسانية . ثم يمضى المؤلف قائلا :

إن محمدا ـ ﷺ ـ جاء برسالة تختلف فى صبغتها عما تقدمها من كل الوجوه . وتسمو على كافة الأغراض الشخصية والجنسية وتعتبر الناس جميعا أمة واحدة . وتتحدث عن الهدف الأسمى الذى أعد الله الانسان له ، وعن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذا الغرض الأعظم وهى رسالة تتحدث كثيرا عن القراءة والكتابة كما يفهم عن قوله تعالى : ﴿ الذى علم بالقلم ﴾[3] كما تتحدث عن تعلم العلوم والتى كان الناس يجهلونها وقت البعثة النبوية كما تدل عليه الآية ﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾، وهى رسالة ذات صبغة عالمية تنتظم فى سلكها الجنس البشرى كله .

ومعلوم أن الانسان هو أكمل الكائنات نشأة إذ يبلغ النمو الجسمى غاية كماله فى هيكله الجسمانى ومع ذلك فقد نشأ كله من علقة ، كما تشير الآيات المذكورة واقتضت إرادة الخالق سبحانه ـ وهو الذى

١ ـ الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب فضل السجود والحث عليه ـ جـ (١) ص ٣٥٣ رقم ٢٢٦
٢ ـ الآيات ١ إلى ٥ من سورة العلق
٣ ـ الآية ٤ من سورة العلق

أنشأ ذلك المخلوق العجيب من علقة أن يبلغ به غاية الكمال العقلى والخلقى والروحى .

فبلغ الانسان ـ عن طريق رسوله ـ هذا الغرض الأسمى وأبان له فى أول وحى نزل عليه الوسائل الكفيلة ببلوغ هذه الغاية .

ثم يتحدث المؤلف تحت عنوان (المثل الأعلى فى الأخلاق) فيقول : « نزل جبريل الأمين بالوحى على النبى ـ ﷺ ـ فى غار حراء فأخذته رعدة شديدة فرجع إلى خديجة ترجف بوادره فقال (زملونى . . زملونى) فزملوه ، حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : يا خديجة لقد خشيت على نفسى .

فقالت : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ، إنك تصدق الحديث ولا تجزى بالسيئة السيئة وتؤدى الأمانة وتصل الرحم وإن خلقك لكريم ولست بصخاب فى الأسواق) .

ثم يسوق المؤلف هذا المشهد فيقول :

ويروى أنه بينما كان رجالات قريش جلوسا يتحدثون عرضوا لذكر رسول الله ـ ﷺ ـ فأعترضهم النضر بن الحارث وكان أعلمهم بشئون الدنيا فقال مسفها لارائهم ، يا معشر قريش . انه قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . قد كان محمد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب و جاءكم به قلتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون لقد استمعت لما قاله محمد فلا والله ما هو بساحر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر ولا هو بمجنون ، يا معشر قريش ، فانظروا فى شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

وكان أبو جهل عدو الرسول يقول : إنا لانكذبك ولكن نكذب ما جئت به) انتهى كلامه .

أجل يارسول الله . . أعد على سمع الناس هذه العبارة النبوية الشفافة الطاهرة (لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)[١] .

والذى نفسى بيده يارسول الله إنك جدير بهذا الحب حقيق بهذا التقدير . أهل لهذه المحبة . لا يجحدك إلا كل ظلوم جهول ، ولا ينقص من قدرك إلا كل معتد أثيم .

وها نحن أولاء نذكر هذه الاشارات وتلك التنبيهات من حياتك الطاهرة بما تيسر من التقدير وتقدر من التيسير :ـ

لقد أصاب الشاعر إذ يقول :

لم يبق للبلغاء فضل بعد ما ... نطقت بك الآيات من رب السما

كلا ولو جعلوا القوافى أنجما ... أيروم مخلوق ثناءك بعد ما

أثنى على أخلاقك الخلاق

١ ـ الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب وجوب محبة رسول الله ـ ﷺ ـ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب وجوب محبة رسول الله ﷺ ـ أكثر من الأهل والولد ج ١ ص ٦٧ رقم ٦٩ .

* مكانة النبى ﷺ *

وها نحن أولاء نسوق هذه الآيات الكريمة بين يدى القارىء ليتبين مدى فضل رسول الله ومدى مكانته فى القرآن الكريم وكيف تربع على مناط الرفعة وسلك مدارج الفخار والعزة الاسلامية : يقول تبارك اسمه :

﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإن لك لأجرا غير ممنون . وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١] .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾[٢]

﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[٣] .

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾[٤] .

﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[٥] .

﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[٦] .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[٧].

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٨].

وبالاشارة إلى الآيتين الأخيرتين قال رسول الله ﷺ :

(أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى ، نصرت بالرعب من مسيرة شهر وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد

---

١ - الآيات ١ إلى ٤ من سورة القلم
٢ - الآيتان ١٢٨ ، ١٢٩ من سورة التوبة
٣ - الآيات ٤٥ إلى ٤٨ من سورة الأحزاب
٤ - الآية ٤٠ من سورة الأحزاب
٥ - الآية ١٥٨ من سورة الأعراف
٦ - الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة المائدة
٧ - الآية ٢٨ من سورة سبأ
٨ - الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)[١] .
ويرحم الله الامام البوصيرى حيث يقول :

كيف ترقى رقيك الأنبياء | ياسماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد | حال سنا منك دونهم وسناء
تتباهى بك العصور وتسمو | بك علياء فوقها علياء

نسبه صلى الله عليه وسلم

لقد اختار الله رسوله من أعظم القبائل شرفا ، وأعلاهم قدرا وحسبا ، فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن حكيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضربن كنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الذى ينتهى نسبه إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام . إن الله تعالى اصطفى من ولد اسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشا واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفى محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بنى هاشم فهو خيار من خيار ، عترته خير عترة وسيرته خير سيرة وشجرته خير شجرة نبتت فى حرم وبسقت فى كرم .

وأمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ السيدة آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن حكيم فهى تلتقى مع نسبه من أبيه فى جده حكيم وكل منهما ينتهى إلى إسماعيل بن إبراهيم وكأن الله ـ تعالى ـ قد أراد أن يلتقى كل منهما إلى أمر قد قدر .

فما أشرف نسبه وما أطهر مولده . ومازال ـ ﷺ ـ ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزاكية ، حتى استقر فى رحم آمنة .

أبان مولده عن طيب عنصره | ياطيب مبتدأ منه ومختتم
كالشمس تظهر للعينين من بعد | صغيرة وتكل الطرف من أمم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته | قوم نيام تسلوا عنه بالحلم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر | وأنه خير خلق الله كلهم .

* مولده الشريف *

سلام عليك يا رسول الله . أنت دعوة أبيك إبراهيم ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ جـ ١ ص ٣٧٠ رقم ٣

آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[١]
فكنت أنت هذه الدعوة ، وما أجملها وما أجلها !!
وأنت بشارة أخيك عيسى .
﴿ وإذ قال عيسى بن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوارة ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[٢] .
يا رسول الله كنت أنت هذه البشارة .

البدر دونك فى حسن وفى شرف ... والبحر دونك فى خير وفى كرم
أخوك عيسى دعا ميتا فقام له ... وأنت أحييت أجيالا من العدم

أنت رؤيا أمك آمنة
لقد رأت حين ولدتك كأن نورا سطع منها أضاء لها قصور الشام . فكنت أنت ذلك النور يارسول الله

أنت مصباح كل فضل فما تصدر ... إلا عن ضوئك الأضواء
لم تزل فى ضمائر الكون تختار ... لك الأمهات والآباء

فى ليلة صفت سماؤها ، ورق ماؤها ، وطاب هواؤها ، وضعت آمنة بنت وهب خير خلق الله ، وصفوة رسله ، محمداً (ﷺ) وأذاعت على الكون هذا النبأ السعيد .

تجلى مولد الهادى وعمت ... بشائره البوادى والقصابا
وأسدت للبرية بنت وهب ... يدا بيضاء طوقت الرقابا
لقد ولدته وهاجا منيرا ... كما تلد السموات الشهابا
فقام على سماء البيت نورا ... يضىء جبال مكة والنقابا
وضاعت يثرب الفيحاء مسكا ... وفاح القاع أرجا وطابا

ولما بشر جده عبد المطلب بمولده سماه (محمدا) .

---

١ ـ الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ جـ١ ص ٣٧٠ رقم ٣
وفى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ـ ذكر الخصال التى فضل ـ ﷺ ـ بها على غيره ـ جـ ٨ ص ١٠٤ رقم ٦٣٦٤ .
١ ـ الآية ١٢٩ من سورة البقرة
٢ ـ الآية ٦ من سورة الصف

يقول كتاب السيرة :

لما جاء عبد المطلب ليراه قيل له : ما سميت ابنك ؟ فقال : (محمدا) فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من أبنائك وقومك ؟

فقال : إنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

ولقد كان ذلك كذلك .

هذه ثويبة جارية عمه أبى لهب عبد العزى بن عبد المطلب تبشر سيدها بمولده . فيمتلىء فرحا وبهجة ، ويقول لها اذهبى فأنت حرة ، وتكون أول جرعة لبن تصل إلى جوفه الشريف بعد مولده من هذه الجارية ، فكان هذا تنبيها للعالم أجمع أن هذا المولود سيحرر العبيد ، ويجعل منهم سادة ، ومن المستضعفين قادة . والله تبارك وتعالى لن يضيع هذا العمل لأبى لهب . فإن العذاب يخفف عنه كل يوم اثنين إكراما لهذا . وقد نظم بعضهم هذا الموقف فى قوله :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه ... وتبت يداه فى الجحيم مخلدا
الا أنه فى يوم الأثنين دائما ... يخفف عنه للسرور بأحمدا
فما الظن بالعبد الذى كان عمره ... بأحمد مسرورا ومات موحدا

ولقد أخبر الرسول (ﷺ) عن نفسه فقال :

﴿ إن لى أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا العاقب الذى لا نبى بعدى ﴾[1] .

وفيما رواه الامام أحمد :

﴿ أنا محمد وأنا أحمد وأنا نبى الرحمة ، ونبى التوبة والحاشر والمقفى ، ونبى الملاحم ﴾[2]

لقد كان فى مولده عبرة لأولى الألباب .

هذا عبد المطلب يقدم لله نذرا إن رزقه الله بعشرة من الذكور أن يتقرب بذبح واحد منهم ، ويرزقه الله بهذا العدد ويأتى يوم الوفاء بالنذر ، ويجرى القرعة بين أولاده ، فتأتى القرعة على عبد الله ، ولكن عبد المطلب يجد فى داخل نفسه ما يمنعه من الأقدام على ذبحه ، فيعيد القداح مرة أخرى ، فتأتى على عبد الله ، ولكنه يجد نفس المانع ، وتعاد القداح فلم تجاوز عبد الله وهنا يشير القوم عليه ان يجرى القرعة بين عشرة من الأبل وبين عبد الله ، فكلما جاءت على عبد الله ذبح العشرة ، وأخد العدد يتزايد إلى أن بلغت الأبل مائة ، وبعدها فارقت القرعة عبد الله وذبح المائة ليأكل منها الانسان والحيوان والطير ، فكان فى هذا عبرة لمن يعتبر . من الذى منع عبد المطلب أن يقدم على ذبح عبد الله ولماذا ؟ .

إن الذى منعه هو الله الذى منع السكين أن تذبح إسماعيل بن إبراهيم كان الخليل يريد أن

---

١ ـ الحديث رواه الامام احمد ـ حديث جبير بن مطعم ـ جـ ٤ ص ٨٠

٢ ـ الحديث رواه الامام احمد ـ حديث حذيفة ابن اليمان ـ جـ ٥ ص ٤٠٥

يذبح ، ولكن الجليل أراد الا يذبح ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يابنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾[1] . كذلك حدث مع عبد الله بعد ما لزمته القداح ولما تفارقه ، ومن ثم يقول النبى (ﷺ) « أنا ابن الذبيحين »[2] .

لماذا منع الله عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله ؟ ، لأن فى صلب عبد الله خير خلق الله (عبدى : أنت تريد وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد ، وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد) .

* عبرة أخرى *

وتلك عبرة أخرى . بعد ما دخل عبد الله بآمنة قضى معها أياما قلائل ، ونادى المنادى للخروج إلى رحلة الشام صيفا ، فكان عبد الله من الذين خرجوا فى هذه القافلة وترك عروسه آمنة فى أيامها الأولى ، وتمر الأيام سراعا ، وتعود القافلة وشوق آمنة يزداد إلى عبد الله ، لتزف إليه البشرى بجنين يتحرك فى أحشائها ، ولكن أهل القافلة عادوا جميعا ما عدا واحدا هو الذى تأخر . لماذا ؟ من الذى حجزه ؟ لقد جاءه الموت فى يثرب فمات عند أخواله من بنى النجار ، ولقيت آمنة ما لقيت من عناء الفرقة وفداحة المصاب ، ولكن ماذا تفعل ؟ .

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض فليس يموت فى أرض سواها

وتمت مدة الحمل كما أراد الله .

﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾[3] .

وجاء هذا النبى إلى الكون يتيما حتى لا يقول : أبى أبى ، وإنما يقول : ربى ربى . وهل وجود الأبوين أو فقد أحدهما يغير من مقادير الله شيئا ؟ كلا . . هذا يوسف بن يعقوب عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام ، نشأ فى كنف أب أكن له الحبّ ، وأفعم قلبه بالعطف عليه ، ولكنه ذات يوم يتلفت الوالد حوله فلا يجد ابنه بين يديه ، وتقع الفرقة بينهما . فهل أغنت حياة يعقوب بالنسبة ليوسف شيئا ؟ .

---

١ ـ الآيات ١٠٢ إلى ١٠٧ من سورة الصافات
٢ ـ الحديث فى تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ـ ذكر ما كان من أمر إبراهيم عليه السلام بعد ذلك ـ ج٢ ص ١٥٠ ، وفى كشف الخفاء للعجلونى ج١ ص ٢٣٠ رقم ٦٠٦ .
(٣) سورة فاطر الآية : ١١

﴿ لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخلُ لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين . قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وأنا له لحافظون . قال إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون . قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين . وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ﴾(١) .

فانظر وتأمل هذا المشهد . لقد ولد الرسول محمد ـ ﷺ ـ فلم يجد أبا على قيد الحياة . وسارت المقادير فى مجراها كما أراد الله . وولد يوسف بن يعقوب ووجد نفسه فى كنف أب يحبوه بالعناية ، ولكن وقعت العزلة بينهما وأيضا سارت المقادير فى مجراها كما أراد الله .

دع المقادير تجرى فى أعنتها ... ولا تبيتن إلا خالى البال
ما بين طرفة عين وانتباهتها ... يغير الله من حال إلى حال

* كان مولده بشير نصر *

كما كان مولد النبى ـ ﷺ ـ بشيرا لتحرير العبيد ، وجعلهم سادة وأساتذة وقادة عندما ارتشف أول جرعة من ثدى جارية أبى لهب . كذلك كان مولده بشير نصر ، فقد ولد فى عام ٥٧١ ميلادية ، وهذا العام يعرف بعام الفيل ، وجدير بنا أن نركز على هذا المغزى ونؤكد هذا المعنى ، ماذا حدث هذا العام ،

قبل ميلاد الرسول ـ ﷺ ـ غزت الحبشة اليمن واستولت عليها ، وأصبح أبرهة الأشرم حاكما فيها ، له السلطة العليا ، والكلمة المسموعة ، والأمر المصحوب بالهيبة والقوة والنفاذ ، لكن أبرهة كان متعجرفا خسيسا ، فلم يرض لليمانيين أن ينقادوا إليه ، ويطيعوا أوامره ، ويتجنبوا نواهيه ، ولم يرض

لهم ان يفرض عليهم ضرائب باهظة ، وإتاوات فادحة ، مست الزرع والضرع ، وقضت على التجارة والصناعة وما يدخرون من أموال وأقوات ، ولم يرض لهم هذه السخرية الممضة المؤلمة ، التى كان ينوء بها أهل اليمن حينا بعد حين . لم يرض أبرهة بهذا كله ، ولم يقتنع به فراح يبغى أكثر ما يكون البغى ، ويفجر أشد ما يكون الفجور ، ويحاسب على الشبهة حسابا فادحا عسيرا ، ويعاقب بقسوة على الهنات وصغائر الأمور .

وفى يوم سأل أبرهة وألح فى السؤال ، سأل عما يشغل اليمانيين فى هذه الأيام شغلا دائبا مستمرا ، وسأل عن السر الكامن وراء هذه التجمعات والاستعدادات التى تفرض عليهم فرضا إلى جهة معينة ، ومكان قصى بعيد . وسأل عن نتيجة هذا السفر الذى جعل اليمانيين يقضون ليلهم ونهارهم فى تأهب واستعداد للرحيل .

وعلم أبرهة ـ ويا ويل ما علم ـ علم أن اليمانيين وغيرهم من سائر بلاد العرب يذهبون فى هذا الوقت بالذات إلى مكة لزيارة البيت العتيق ، والتمتع بالشعائر والمناسك التى ورثوها عن أبيهم إبراهيم وعلم أن العرب يهرعون إلى البيت من كل فج عميق ، وأنهم يأتونه مشاة وركبانا ، ويقتحمون المشقات والأهوال ، ويرونها هينة فى سبيل رؤية هذا الحرم الذى يقدسونه ويعظمونه ، لأنه يربطهم بعالم السماء . ويزيل عنهم مغبة الذنب وثقل الفحش ، وينقى قلوبهم من الدغل والمظالم والآثام .

وعلم أبرهة أن العرب فى هذه الأيام يكفون عن القتال ، ويضعون الأسلحة فى أغمادها ، فيلقى الخصم خصمه وذو الثأر قاتل أبيه أو أخيه فلا يشرع فى وجهه سيفا ، أو يصوب إليه نبلا ، لا لعجز أو خوف ، وإنما تعظيما لهذا البيت واحتراما لأوامر الله .

وعلم أبرهة أن العرب يمجدون مكة ولها عندهم شعارات خاصة ، وامتيازات لم يسمع بمثلها لأى بلد من البلدان .

سمع أبرهة هذا الحديث فتغيظ تغيظا أليما ، وكره أن يحظى هذا البيت بتلك المزايا ، وينال هذه المكانة القصوى ، ثم سأل بم بنى هذا الحرم ؟ فقيل له إنه بنى من الحجارة ، فأقسم بالمسيح ليبنين كنيسة أفخم منه منظرا ، وأعظم شأنا ، وأقسم ليجعلنها مثابة للعرب وأمنا ، وبذلك ينصرفون عن مكة وما ورثوه عن أبيهم إبراهيم .

وتذكر روايات التاريخ أن أبرهة بنى كنيسة من الرخام الملون ، ورصعها بالجواهر ، وجعل لها أبوابا صفائحها من الفضة ، ثم جعل عليها سدنة يطلقون فيها البخور الممزوج بالكافور ، ولكن الله خيب ظنه ، فلم يجد من العرب من يهجر البيت الحرام ويذهب إلى كنيسة أبرهة ، فازداد حنقا ، وأقسم ليهدمن الكعبة حجرا حجرا . ورفع أبرهة الأمر إلى قائده بالحبشة ، وطلب منه إمدادات حربية تعينه على غزو مكة ، فارسل إليه أسلحة وجندا وبما شاء له أن يرسل من مؤن وعتاد وأفيال ، وخرجت قوات أبرهة تنهب الأرض نهبا ، فأوغلت فى الجبال والوهاد والقفار ، غير عابئة بما تتحمله من مكاره الطريق وضراوة الصحراء .

ومضى أبرهة بجيشه الجرار إلى أن وصل أرض تهامة اليمينة ، وعندما وجد جموعا غزيرة من

العرب اعترضوا طريقه واستعدوا لقتاله ، هاجمهم هجوما عنيفا ، وبدد شملهم وأسر قائدهم .

وتقدم جيش أبرهة ، فلما اقترب من مكة ! استراح فى الطائف ، فجاء عظماء العرب وساداتها وعرضوا عليه مالا كثيرا فى سبيل أن يترك بيتهم فأبى إباء تاما ، وأظهر العزم والحزم على هدم الكعبة ، فتركوه وشأنه دون أن يمسوه بسوء أو أن يفعلوا معه شيئا مذكورا .

وفى الصباح أمر ابرهة بالاغارة على مكة ونهب ما يمكن نهبه من متاع ، فأبدى جيشه كل المساوىء من قرصنة وسلب ونهب ، وأخذ ما شاء له أن يأخذ من إبل وغنم وأبقار ، ومن بينها مائتان من الابل لعبد المطلب سيد قريش وزعيمها المطاع .

لم يقف أبرهة عند هذا الحد ، بل أعطى أهل مكة إنذارا نهائيا قال فيه : إننى ما جئت غازيا لبلدكم . ولا ناهبا لأموالكم ، ولا مزمعا إذلالكم ، وإنما جئت لأهدم الكعبة حجرا حجرا ، فإن رضيتم فبها ونعمت ، وإن لم ترضوا أجبرتم على الرضا ، وسلطت عليكم جندى وحل عليكم غضبى ، وقهرتكم قهرا لا شفاعة فيه ولا تسويف .

عندئذ اضطربت مكة اضطرابا ، ولفها حزن عميق قاتم ، وبان على أهلها قلق وهم مريران ، ورأى عبد المطلب أن يذهب إلى هذا الطاغية عسى أن يرده بالحكمة ويمنعه باللين ، ويعطيه ما سلبه جيشه من أنعام .

ودخل عبد المطلب سرادق الملك ، وحين رآه أبرهة رأى شيخا مهيبا عظيما فيه نداوة باسقة وملامح جليلة ، ووقار لم يره على رجل من قبل ، فسأل عنه فقيل له هذا شيخ قريش عبد المطلب بن هاشم أعز العرب جاها ، وأكثرهم يدا ، وأعظمهم سخاء ، يحمل على الجياد ، ويعطى الأموال ، ويطعم ما هبت الريح . فوقف له أبرهة إجلالا وحاول أن يجلسه بجواره ، لكنه خشى أن تنكر عليه الحبشة ذلك فنزل من على سريره ، وجلسا معا على البساط ، ثم سأله عن حاجته ، فقال عبد المطلب : أن ترد علىّ إبلى التى أخذتها طلائعك . قال أبرهة ـ مستهزئا ساخرا ـ لقد أعظمتك حين رأيتك ، أما الآن فإنك أصغر شأنا وأقل خطرا ، كيف تحدثنى أن أرد إليك مائتين من الابل ، ولم تحدثنى فى أمر البيت الذى هو دينك ودين آبائك ؟ قال عبد المطلب : أما الابل فهى لى ، وأما البيت فله رب يحميه .

فأمر أبرهة برد الابل ، فأخذها عبد المطلب وأرسلها هديا للبيت وقربى لله لكى يذود عنهم ويباعد بينهم وبين ما يخافون .

وأمر عبد المطلب المكيين أن يخرجوا من مكة ويتفرقوا فى الشعاب ، ويركبوا رءوس الجبال قبل أن يحيق بهم مكر الغزاة ، ويضربوهم من حيث لا يشعرون فأذعنت قريش للأمر ، وخرجت متحصنة بالمغارات والكهوف وما عسى أن يمنعها من هذا الأخطبوط اللعين . وقبل أن ينصرف عبد المطلب عن مكة ، ذهب إلى البيت وامسك بحلقة بابه ومعه عدد قليل من أبناء عمومته رافعى الأكف ، حاسرى الهامات ، داعين ربهم أن يحفظ أرض الحرم من الدمار ، ولا يعرض قبلتهم للهدم وسوء البلاء . ثم برز صوت عبد المطلب قائلا فى نشيد حزين مكروب :

لاهمّ إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم أبدا محالك

وزحف جيش العدو إلى البيت يريد هدمه حجرا حجرا كما أراد أبرهة ، وتقدم أمامه فيل لم يسمع بمثله قط ، ولم ير أضخم منه شكلا ولا أثقل وزنا ولا افظع منظرا ، بيد أن الفيل برك ولم يتقدم خطوة واحدة ، وكأنه أصيب بجاصب أثقله المشى والحركة والتوازن .

وكان أعجب من ذلك كله أن الفيل كان يمشى إلى أى جهة يريدها ساسته شرقا وغربا وجنوبا ماعدا جهة البيت فإنه يعجز تاما ، رغم الضرب الذى يضربونه له بالسياط ، ورغم الاستنهاض الذى يستنهضونه إياه بوسيلة أو أخرى .

وفجأة ومن غير مقدمات جد ما لم يكن فى الحسبان ، فأرعدت السماء ، واكفهر الجو ، وأظلمت الأرض ، وإذا بطير يحلق فوق جيش العدو وإذابه يسقط حجارة صغيرة ودقيقة ، لكنها لاذعة ومبيدة ، وما وقعت على رجل إلا طحنته طحنا ، وما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وما أصابت جسما إلا تركته حصيدا كأن لم يغن بالأمس .

فارتعب الجيش ، وأخذت أفراده يموج بعضها فى بعض ، والطير يلاحقها بالهجوم ، ويقذفها بالموت الزؤام ، حتى هلكت جميعا إلا من شاء الله .

أى قوة أصابت هذا الجيش المتمرد على الله وعلى بيته العتيق ، وعلى العرب ذوى الكرم والوفاء والسخاء ؟ .

وأى نجدة أطلت على العرب من عل فبدلت هزيمتهم نصرا ، وعسرهم يسرا وكربتهم فرجا ؟ .

إنها قوة الله ولاشىء غير الله تلك التى أطاحت بجيش العدو وجعلت أبرهة المتبجح المنفوخ يرجع القهقرى وفى رأسه داء يغلى ، وفى قلبه بركان أوشك على الانفجار .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ﴾[1] .

ودخل أبرهة صنعاء فى بقية صغيرة هزيلة لا حياة فيها ولا موت ، تئن من الهول ، وتتلوى من ثقل المرض ، وعلى الفور حمل أبرهة إلى داخل قصره وهو يصرخ صراخا ويهتز اهتزاز . وبعد لحظات انفجر قلبه، واندلقت أمعاؤه ، ولفظ أنفاسه الأخيرة ، فوورى إلى مثواه الأبدى مشيعا باللعنة والهزيمة والطرد من ملكوت الله ورحمته **﴿ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾**[2] .

وهكذا ولد الرسول فى هذا العام ، فكان مولده إيذانا بنصر هذا الحرم وبخاصة من أيدى الآثمين .

---

١ ـ الآيات ١ إلى ٥ من سورة الفيل
٢ ـ الآية ١٦٧ من سورة البقرة

سعدت بمولد أحمد الأزمان وتعطرت بعبيره الأكوان
والشرك أنذر بالنهاية عندما ولد البشير وأشرق الايمان
ولدته آمنة النقية مشرقا باهى المحيا صاغه المنان
تتلألأ الأنوار فى قسماته وأتم حسن صفاته الرحمن
وبدت لمولده الكريم بشائر قدسية وتزلزل الإيوان

* كان مولده إنذارا للظالمين *

ظهرت لمولد المصطفى أمارت وارهاصات كانت بمثابة انذار شديد للطغاة الظالمين ، والجبابرة المستبدين . انشق إيوان سرى الذى ملأ الأرض جورا وظلما . كان هناك استعباد واستبداد وظلم وفساد وشرك وإلحاد ، وأخمدت نار فارس ، وكانت تعبد من دون الله ، فكان هذا إعلانا وتنبيها إلى أن الدنيا

قد تشرفت بمولد هذا الانسان الكامل والمثل الأعلى الذى سيغير مجرى التاريخ سيّقود سفينة العالم الحائر إلى بر النجاة ، إلى طريق الله رب العالمين ، إنه سيد البشرية ، المبعوث رحمة للعالمين . سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ومحيا كالشمس منك مضيئا أسفرت عنه ليلة غراء
ليلة المولد الذى كان للدين سرور بيومه وازدهاء
وتوالت بشرى الهواتف أن قد ولد المصطفى وحق الهناء
وتداعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كان لنيرانهم بها إطفاء
مولد كان منه فى طالع الكفر وبال عليهم ووباء
فهنيئا به لآمنة الفضل الذى شرفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحمد أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب من فخار ما لم تنله النساء
وأتت قومها بأفضل مما حملت قبل مريم العذراء
شملته الأملاك إذ وضعته وشفتنا بقولها الشفاء
رافعا رأسه وفى ذلك الرفع إلى كل سؤود إيماء
رافعا طرفه السماء ومرمى عين من شأنه العلو العلاء

* كان مولده تكريما لليتامى *

هكذا قال رسول الله ﷺ : (خير البيوت عند الله بيت فيه يتيم مكرم)[١] .

وهكذا قال رسول الله ﷺ : (أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة)[٢] .

لقد أكرم الله هذه البشرية بمولد هذا اليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين وقد امتن الله عليه فقال له : ﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾[٣] .

ووضع الاسلام السلوك السوى فى معاملة اليتامى فقال تعالى : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ﴾[٤] .

وحذر من أكل أموالهم وتبديدها ، وعدم العناية بها ، بعد ما أمر بأن يؤتوا أموالهم كاملة ، فكان هذا أول أمر فى سورة النساء بعد الأمر بتقوى الله . قال عز من قائل : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا . وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴾[٥] .

وأمر تعالى باستثمار أموالهم فى طرق الحلال حتى لا ينفد رأس المال بالنفقة فقال عز من قائل : ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴾[٦] وهذا هو سر التعبير بقوله تعالى : ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ ولم يقل ﴿ وارزقوهم منها ﴾ حتى يكون الرزق من ربحها وثمرة العمل فيها ، فإذا ما بلغ اليتيم رشده فإن الله تعالى أمر بدفع ماله إليه كاملا غير منقوص قال عز من قائل ﴿ فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ﴾[٧] ووصى من يعمل فى مال اليتيم أن يستعفف عن أخذ الأجرة إن كان غنيا وأن يأكل بالمعروف إن كان فقيرا . قال سبحانه : ﴿ ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف ﴾[٨] .

وبين أن الاحسان فى معاملة اليتيم كنز مدخر لذرية المحسن بعد موته قال عز من قائل : ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴾[٩] .

وشدد الوعيد والانذار والتهديد لمن نزل فى جوفه مال اليتيم . قال تبارك اسمه : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾[١٠] .

---

١ ـ الحديث فى سنن ابن ماجه ـ كتاب الأدب ـ باب حق اليتيم ـ ج٢ ص ١٢١٣ رقم ٣٦٧٩ .
٢ ـ الحديث فى سنن أبى داود ـ كتاب الأدب ـ باب فى من ضم اليتيم ج٥ ص ٣٥٦ رقم ٥١٥٠
٣ ـ الآية ٦ من سورة الضحى
٤ ـ الآية ٢٢٠ من سورة البقرة
٥ ـ الآيتان ١ ، ٢ من سورة النساء
٦ ـ الآية ٥ من سورة النساء
٧ ـ الآية ٦ من سورة النساء
٨ ـ الآية ٦ من سورة النساء
٩ ـ الآية ٩ من سورة النساء
١٠ ـ الآية ١٠ من سورة النساء

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :ـ

ولد اليتيم لينقذ الأيتام من بؤس الحياة إذا رمى الحدثان
ولد الفقير لينقذ الفقراء من ظلم الغنى فيؤاد الحرمان
ولد المنشأ نشأة أمية فسما بنور كتابه العرفان
وتعلم الحكماء من نفحاته شتى المعارف وارتوى الظمآن
ولد المؤسس للعباد حضارة سجدت لها ما أسس الرومان
وبنى على الأخلاق أعظم دولة قانونها وعمادها القرآن
فازدانت الدنيا بأبهى حلة من نسجها وخيوطها العمران
والكون أضحى مشرقا من بعد ما عبدت به الأحجار والنيران
ولد ابن عبد الله أعظم مصلح وأجل من دانت له التيجان
فهو الأساس لكل ملك خالد لم يستقم من غيره سلطان
ياخير من قصد الحجيج رحابه وسعت إلى أعتابه الركبان
كيف السبيل إلى مديحك بعدما أطرى كريم خلالك الفرقان
والله أعلى فى المآذن ذكرك مع ذكره مادامت الأزمان

* رضاعتـــــه ﷺ *

جاءت المراضع إلى مكة تطلب المواليد ، لكن هذا اليتيم كان من حظه مرضعة تسمى حليمة السعدية . ولما أخبر عبد المطلب بذلك الشأن قال ستكون حلما وسعادة عليه . أخذته حليمة وذهبت به إلى ديار بنى سعد بن بكر .

ولقد سبقته العناية الالهية إلى ديار بنى سعد ، فكان هو بشير اليمن وحسن الطالع على أهلها ، فقد أجمع رواة السيرة أن بادية بنى سعد كانت تعانى إذ ذاك سنة مجدبة ، قد جف فيها الضرع ، ويبس الزرع ، فما هو إلا أن صار محمد بن عبد الله فى منزل حليمة ، واستكان إلى حجرها وثديها ، حتى عادت منازل حليمة من حول خبائها ممرعة خضراء ، فكانت أغنامها تروح منها عائدة إلى الدار شباعا ممتلئة الضرع .

وإذا سخر الاله إناسا لسعيد فإنهم سعداء

وهل هناك أسعد فى هذا الوجود من رسول الله ـ ﷺ ؟

لقد كان قدومه على بنى سعد خيرا وبركة حتى قال زوج حليمة لها . ما رأيت نسمة أعظم بركة

من هذا الغلام . وقد صدق فإن هذا المولود هو الذى سيربيه الله ليربى به العرب ، ويربى بالعرب العالم أجمع ، يدعوهم إلى رسالته ، ويبين لهم منهاجه وصراطه المستقيم .

لقد قضى رسول الله فى هذه الديار خمس سنوات ، يستظل بسمائها الصافية ، وأرضها الفسيحة ، وجبالها الشاهقة التى تربى فى النفس قوة وصلابة ، وهكذا كان العرب يذهبون بأولادهم إلى هذه العرصات الفساح ، يخرجون بهم من ضيق المساكن التى ينعكس أثرها على النفس .

وجاء الرسول بعد ذلك إلى أمه آمنة سالما عزيزا .

حادث شق الصدر

جاء فى كتاب تهذيب السيرة ص ٣٦ ، وسيرة ابن هاشم الجزء الأول ص ١٦٤ ، وفى صحيح مسلم الجزء الأول ص ١٠١ ، ١٠٢ ، أنه ﷺ أثناء وجوده فى ديار بنى سعد ، وقع حادث شق الصدر .

روى الامام مسلم :

(بينما هو يلعب مع الغلمان أتاه جبريل فأخذه فضجعه فشق قلبه فاستخرجه ، فاستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله فى طسط من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده إلى مكانه) .

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعنى مرضعته - قائلين إن محمدا قد قتل ، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون ، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريبا ، فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر .

فقد روى الامام أحمد وابن حبان والحاكم وابن عساكر عن أبى بن كعب أن أبا هريرة رضى الله عنه كان جريئا على أن يسأل رسول الله - ﷺ - عن أشياء لايسأل عنها غيره فقال : يارسول الله ماأول مارأيت فى أمر النبوة ؟ فاستوى رسول - ﷺ - جالسا وقال : (لقد سألت أبا هريرة) .

(إنى لفى صحراء ، ابن عشر سنين واشهر ، واذا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل : (أهو هو) ؟ قال : نعم .

(فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط ، فأقبلا إلىّ يمشيان حتى أخذ كل منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا ، فقال أحدهما لصاحبه : أضجعه فأضجعانى بلا قسر (اجبار) ولا هصر (ثنى العموم من رأسه ، والمعنى : لم يثنيا ظهرى ولم يكرهانى) .

وقال أحدهما لصاحبه :

أفلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدرى ، ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع ، فقال له : أخرج

الغل والحسد ، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ، ثم نبذها فطرحها .

فقال له :

أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ، ثم هزا ابهام رجلى اليمنى وقال : أغد واسلم .

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير .

إن حادث شق الصدر قد ينظر إليه الماديون نظرة إن دلت على شىء فإنما تدل على أنهم يقيسون الأمور بمقياس غير قادر عن ادراك الحقيقة ، فيثيرون ، الجدل العقيم ، ويستعملون فى ذلك شتى ضروب المراء الممقوت .

والقضية فى حقيقتها دلالة صادقة على عناية الاله القادر بهذا الرسول الكريم فإن هذا القلب وهذا الصدر ليس شيئا عاديا . إنه جهاز إرسال سيذيع على العالم أجمع برامج السماء فى شتى نواحى الحياة ، فلابد أن يكون ذلك الجهاز من القوة والصفاء والحكمة والرأفة والمحبة ، بحيث يؤدى ما أمر الله ، ويبلغ رسالات الله ، ويخشى الله ولا يخش أحدا إلا الله .

﴿ قل إنما بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾(١) .

فهو وإن كان بشرا إلا اننا يجب أن نراعى الحقيقة القائلة (يوحى الىّ) وهى قضية الوحى . فهو بشر يوحى إليه . وقضية الوحى تقتضى قوة فى القلب وحكمة وايمانا ورحمة .

وفى حادث شق الصدر ما يشير إلى ذلك ، وإذا فليس هناك مجال لعبث المادية فى هذه القضايا الالهية .

* وفـــاة أمـــــه *

وهكذا تتحرك بنا الأحداث سراعا متوالية ، فإن الرسول ﷺ بعد ما عاد إلى أمه ، وقد بلغ من العمر ست سنوات ، رأت أمه من باب الوفاء أن تأخذه وتزور به قبر أبيه بيثرب ، إذ أنه قد دفن عند أخواله من بنى عدى بن النجار .

وجلس اليتيم امام قبر أبيه الذى لم يره .

وبينما هما فى طريق العودة ، وكان معهما جارية تسمى (بركة الحبشية) وكينتها (أم أيمن) وعند قرية تسمى (الأبواء) بين مكة والمدينة وهى إلى المدينة أقرب ، شكت آمنة وجعا ألم بها ، ونظرت إلى ابنها محمد الذى كان وقتئذ فى عمر الزهور ، فنظرت إليه نظرة الأم الراحلة ، وتلفت الرسول حواليه على امتداد الصحراء المترامية الأطراف . الليل موحش والجبال ممتدة الرؤوس والرمال كثيفة وليس معه

---

(١) الآية ١١٠ من سورة الكهف

إلا أمه وجاريته ، لكن هذا الألم الذى شكت منه آمنة كان إيذانا بغروب شمس العمر .

أخذت تجذب محمدا إليها . هى لا تريد فراقه . لكن الموت أخذ يجذبها إليه .

وقالت له : يا محمد كن رجلا .

ولقد كان محمد كذلك . بل كان سيد الرجال .

كان رجلا فى طفولته ، فقد تقلب على بساط اليتم ، كلما أوشك البساط أن ينطوى امتد من جديد .

وكان رجلا فى صباه .

وكان رجلا فى شبابه .

وكان رجلا فى رجولته .

وكان رجلا فى شيخوخته .

ولحق بالرفيق الأعلى وهو سيد الأولين والآخرين .

نعم :

مشيناها خطى كتبت علينا ... ومن كتبت عليه خطى مشاها
ومن كانت منيته بأرض ... فليس يموت فى أرض سواها .

هذه حكمة الله .

يرجع محمد إلى مكة ، وقد أهيل التراب على أمه ، وهى الأم التى أنجبت أعظم مخلوق . . عاد مع أم أيمن ، وقد قال لها : (أنت أمى بعد أمى) .

سيدى يارسول الله :

ولدت بمولدك المكارم والندى ... والحلم عند الغيظ والاحسان
والرفق والصفح الجميل عن الأذى ... والعزة الشماء والغفران
فأقمت للخلق الكريم منارة ... وسما بعذب حديثك التبيان
فصل الخطاب لقد ملكت زمامه ... ونشرت مالم يستطعه لسان
وأتيت بالتوحيد صرفا خالصا ... لله لم يشرك به إنسان

* كفالة جده عبد المطلب]*

بعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب ، وإمتلأ قلبه لليتيم رقة ورحمة ، لم تسبق له فى ولده ، لقد

كان يرى فيه عوضا عن عبد الله ، ولو اطلع عبد المطلب على صفحة الغيب لعلم أن هذا اليتيم سيكون له شأن عظيم يملأ به الأرض نورا وبركة ، ويخاطبه هذا الخطاب الالهى العظيم **﴿ يا أيها النبىّ إن أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾**[١] .

* وفاة عبد المطلب *

لما بلغ رسول الله ثمانى سنوات توفى جده عبد المطلب ، وهكذا امتد بساط اليتم من جديد ، إن الموت فلسفة حارت فيها عقول المفكرين ، ووقفت واجمة حيالها عبقريات البارعين .

الموت لغز لا يحل وطلسم لا يفك ، لأنه متعلق بالروح **﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾**[٢] .

وقد أخفى الله صفحة الأجل عن خلقه ، واستأثر بعلمه .

ذكروا أن الامام مالك بن أنس - رضى الله عنه - إمام دار الهجرة ، رأى فى المنام ملك الموت فسأله : يا ملك الموت كم بقى من عمرى ؟ فأشار له الملك بأصابعه الخمس . فسأل الامام أخمس سنوات ، أم شهور أم أيام ؟ ولكن الملك لم يجبه . واستيقظ الامام من نومه ، وذهب إلى أحد العلماء الذين يعبرون الرؤيا ، وقصها عليه ، فقال له العالم : ليست الخمسة أعواما ولا شهورا ولا اياما ، ولكن ملك الموت يريد أن يقول لك : إن سؤالك هذا فى خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا الله : **﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام . وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾** .

فسبحان من له العزة القائمة والمملكة الدائمة **﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾**[٣] .

* كفالة عمه أبى طالب *

كان أبو طالب رجلا كثير العيال قليل المال ، لكنه بعد كفالته لابن أخيه محمد صار القليل فى يده كثيرا ، وشعر بتوسعة الله عليه فى رزقه ، ببركة هذا اليتيم ، الذى امتن به ربه عليه بقوله : **﴿ ألم يجدك يتيما فآوى ﴾**[٤] .

كان أبو طالب إذا وضع الطعام لا يقربه أحد قبل محمد ، فإذا جاءت أقداح اللبن فإن محمدا يكون أول من شرب .

---

١ - الآية ٤٥ من سورة الأحزاب
٢ - الآية ٨٥ من سورة الاسراء
٣- الأيتان ١ ، ٢ من سورة الملك
٤- الأية ٦ من سورة الضحى

وهكذا أحاطه الله بالعناية فى كفالة عمه أبى طالب .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

ياسيد السادات يامن قدره لا تستطيع له الورى إدراكا
ماذا يقول الناس فيك وربهم بأتم تربية له رباك
حلاك بالخلق العظيم ، وفضله الفضل العظيم عليك ما أعلاك
آواك من يتم واعطاك الغنى ولدينه الدين القويم هداك
شكرا لك اللهم أنت كفلته نعم الكفيل تقدست أسماك

سفره إلى الشام

لما بلغ الرسول - ﷺ - اثنتى عشرة سنة سافر عمه أبو طالب إلى الشام فى ركب للتجارة . فأخذه معه ولما نزل الركب مدينة (بصرى) مروا على راهب هناك يقال له (بحيرى) وكان عليما بالانجيل خبيرا بشئون النصرانية وهناك أبصر بحيرى النبى -ﷺ - فجعل يتأمله ويكلمه ثم التفت إلى أبى طالب وقال له ما هذا الغلام منك ؟

فقال : ابنى وكان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه - فقال له بحيرى : ما هو بابنك وما ينبغى أن يكون أبو هذا الغلام حيا .

فقال : هو ابن أخى

قال فما فعل أبوه ؟

قال مات وأمه حبلى به

قال بحيرى : صدقت فارجع به إلى بلده واحذر عليه يهود فو الله لئن رأوه هنا ليبلغنه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم .

فأسرع به أبو طالب عائدا إلى مكة

سيدى أبا القاسم يارسول الله

يا مبعث النور الذى عم الورى فسار على مشكاته الحيران
أفسحت للفكر الصحيح سبيله فسما الحجا واستعصم الوجدان
ودعوت للتفكير حتى أذعن العلماء والأحبار والرهبان

لم يكن الرسول - ﷺ - يريد الحياة عالة على غيره ، كذلك لم يردها عبثا على أحد . خرج يستقبل

الحياة ويأكل لقمة عيشه بكدِّ اليمين وعرق الجبين فاستقبل فترة شبابه بالسعى للرزق وراح يشتغل برعى الغنم وقال عن نفسه فيما بعد (كنت أرعى الغنم على قراريط لأهل مكة)[١] .

إن فى رعى الغنم حكمة بالغة فهى تعرس فى النفس صفات القيادة الحكيمة وما من نبى إلا ورعى الغنم ففى رعيها يتعلم الانسان الحكمة والحلم والصبر وبعد النظر إذ أن فيها الشاردة والواردة ، وكأن فى هذا العمل تدريبا عمليا على معاملة الناس والصبر على أذاهم والحلم مع سيئهم والحكمة مع سفهائهم .

إذا شئت ان تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئا فصنها وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتى هى أحسن

عناية الله به فى شبابه

أحاطه الله بعنايته وحماه برعايته فحفظه عن التلبس بما تنبو عنه الأذواق السليمة وتنفر منه الطباع المستقيمة .

فكان - ﷺ - فى شبابه نظيف السمع والبصر والقلب والثياب واليدين والقدمين .

قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن نفسه

(ما همت بشىء مما كانوا فى الجاهلية يعملونه غير مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبينه .

ثم ما هممت به حتى أكرمنى الله بالرسالة

قلت ليلة للغلام الذى يرعى معى بأعلى مكة لو أبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة وأسمر بها كما يسمر الشباب .

فقال : أفعل

فخرجت حتى إذا كنت عند أول دار بمكة سمعت عزفا فقلت : ما هذا ؟ فقالوا عرس فجلست أسمع فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى إلا حر الشمس فعدت إلى صاحبى فسألنى فأخبرته ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ودخلت مكة فأصابنى مثل أول ليلة ثم ماهممت بعده بسوء[٢]

---

١ - الحديث فى صحيح البخارى - باب فى الايجارة - ج٣ ص ١١٦

٢ - الحديث فى مجمع الزوائد - كتاب علامات النبوة - باب عصمته ﷺ - من الباطل - ج٨ ص ٢٢٦

سيدى أبا القاسم يارسول الله

يامن لحضرته الشفاعة واللوا — والحوض قد أعطاكها المنان
لولا كتابك فى البرية لم يقم — للحق قسطاس ولا ميزان
فلك التحيات الزكيات العلى — ما هيئت للعاملين جنان

تجارته فى مال خديجة

يروى ابن الأثير وابن هاشم أن السيدة خديجة كانت تاجرة وكانت ذات شرف ومال تستأجر الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه .

فلما بلغها عن رسول الله صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجرا وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ومعه غلامها ميسرة .

وقد قبل محمد بن عبد الله - ﷺ - هذا العرض فرحل إلى الشام عاملا فى مالها ومعه ميسرة فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيره وعاد !! خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم

شهادة ميسرة له

وجد ميسرة من خصائص النبى - ﷺ وعظيم أخلاقه ما ملأ قلبه دهشة له وإعجابا به .

رأى الصدق فى صورته الحقيقية ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته . رآه سمحا إذا باع سمحا إذا اشترى سمحا إذا قضى سمحا إذا اقتضى رأى فيه الأمانة فى أسمى معانيها وقد صدق أبو حامد الغزالى - رحمه الله تعالى - إذ يقول : إذا اثنى على الرجل جيرانه فى الحضر ورفقاؤه فى السفر ومعاملوه فى الأسواق فلا تشكوا فى دينه .

نعم ليس الاسلام خطبا رنانة ولا عبارات طنانة .

ولا فلسفات عقيمة .

إن الاسلام فى حقيقته عقيدة وعمل -

وقد صدق الرسول إذ يقول (انما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق)(١) .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة — وإنها لشهادة حق ومازاد
ميسرة على الحقيقة شيئا — فأنت يارسول الله أهل لذلك

(١) الحديث فى فيض القدير شرح الجامع الصغير ج ٢ ص ٥٧٢ رقم ٢٥٨٤

وأكثر من ذلك

القول فيك معطر الكلمات — يا صاحب الأخلاق والآيات
أيام مولدك الكريم مضيئة — فى كل ماض فى الزمان وآت
يوم أتى بك فى الوجود فإنه — تاج الزمان وغرة السنوات
تتعاقب الأيام فى دورانها — وترد كل جديدة لمرات
وضياك يسطع كل يوم نوره — ويزيد فى الاشراق والنفحات

قصة زواجه بالسيدة خديجة رضى الله عنها

أدلى ميسرة بهذه الشهادة البريئة إلى السيدة خديجة فوجدت فى نفسها قلبا طهورا طيبا فتمكنت من القلب كل تمكن لقد أعجبت بصدقه وأمانته وكفى بهما .. إنهما رأس مال ضخم ورصيد لا يلحق به ولا يشق له غبار .

الصدق أمانة والكذب خيانة وكل أمة تتصف بالصدق والأمانة فالسعد رائدها والتوفيق حليفها ويلبسها الله لباس العز والشرف وكل أمة تتصف بالكذب والخيانة فالذل رائدها والخذلان حليفها ويذيقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

لقد نالت خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه تخطبه لنفسها ورأى الرسول فى خديجة سيدة ذات خلق كريم وعقل راجح رغم فارق السن بينه وبينها كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة .

ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها ولا إلى حسبها وإنما نظر إلى عقلها وخلقها وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم — وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغيرها — وتصغر فى عين العظيم العظائم

كلم الرسول أعمامه فوافقوا على هذا الزواج فخطبوها له من عمها عمرو بن أسد فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين: الأول منهما (عتيق بن عائذ التميمى) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمى) واسمه (هند بن زرارة) وبعد موتهما طرق كثير من الرجال بابها لتكون لهم زوجا فلم تفتح لهم بابها ، لأنها رأت فيهم طلاب مال خديجة حتى إذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط كسماسرة الأسواق .

لكنها رأت فى محمد الانسان الصادق الأمين خطبته لنفسها ورأى فيها محمد السيدة العفيفة

الطاهرة فرضيها زوجا .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقى خطبة الزواج وقف يقول :

الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وجعل لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما وجعلنا الحكام على الناس . أما بعد/ فإن محمد بن عبد الله ابن أخى لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا وإن كان فى المال قلا فالمال ظل زائل وعارية مسترجعة وإن لمحمد رغبة فى خديجة ولها فيه مثل ذلك وما طلبتم من الصداق فعلى » .

دعـــوى باطلـــة

نعم إنها دعوى ، لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها ،وباطلة ، لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الاسلام ونبعت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء .

لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج رسول الله ـ ﷺ ـ بالسيدة خديجة رضى الله عنها أن نعقب بهذا البحث لنلجم ألسنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون ان يثيروا غبار الشبهات الباطلة على التعدد فى أزواج رسول الله ـ ﷺ ـ وهم بذلك يفضحون ما فى قلوبهم من زيغ .

فلو تحول الناس جميعا إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء فسيثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

ماضر شمس الضحى فى الأفق ساطعة   لا يرى نورها من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة وأبناء الغزو الثقافى إن الرسول لن يضيره أن تنبح عليه هذه الأصوات فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

وما ضر الورود وما عليها .   إذا المزكوم لم يطعم شذاهـا

نعم ثم نعم

هل عرفتم من هو ذلك الذى تحاولون أن توجهوا إليه هذه السهام الطائشة

إنه الرجل الذى بعثه الله شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

ما يضر البحر أمسى زاخـرا   أن رمى فيـه غـلام بحجـر

وما نحن أولاء نسلط مدفعية الاسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا فنذرها قاعا صفصفا

إن قصة زواجه ـ ﷺ ـ من خديجة ـ رضى الله عنها ـ كما ذكرنا توضح للإنسان وضوحا لا تلتبس معه الرؤية أن رسول الله ـ ﷺ ـ لم يكن فى اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها فلو كان مهتما بذلك كبقية أقرانه من الشباب لطمع فيمن هى أقل منه سنا أو فيمن ليشت أكبر منه على أقل تقدير .

ويتجلى لنا أنه ـ ﷺ ـ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل الزواج قائما حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاما وقد ناهز النبى ـ ﷺ ـ الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى .

وما بين العشرين والخمسين من عمر الانسان هو الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمدا ـ ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر بأن يضم إلى خديجة مثلها من الاناث : زوجة أو أمة ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الاماء دون أن يخرق بذلك عرفا أو يخرج على مألوف أو عرف بين الناس هذا فضلا عن انه تزوج خديجة وهى أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الاسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ينعقون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون إنهم يهرفون بما لا يعرفون ويحاولون أن يطاولوا السماء وان يمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

إنهم يمضغون الهواء ويفتلون من الرمال حبالا لقد ظنوا أنهم واجدون فى موضع زواج النبى ـ ﷺ ـ مقتلا يصاب منه الاسلام ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى . ﷺ ـ

وتخيلوا أنه بمقدورهم أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد العازف فى معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح حاشا لله يارسول الله .

والله ما علمنا عليك من سوء انها فرية ما فيها مرية

﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا ﴾(١) .

علمتنا سر الحياة وقدتنا ... للخير والتوفيق والبركات
جنبتنا الزلل الكبير وصنتنا ... من شهوة تطغى ومن نزوات
إن شرق القوم الكبار وغربوا ... فإليك حتما منتهى الخطوات
ضلت علومهم برغم نبوغهم ... وتعرضوا لمهالك خطرات
وتنكبوا سبل السلام واقبلوا ... يتشدقون بأجوف الكلمات
لو أحسنوا فهم السلام لأسلموا ... ما غير دينك سلم لنجاة

---

(١) الآية ٥ من سورة الكهف

ما ثمة أدنى شك فى ان المستشرقين والمبشرين هم الخصوم المحترفون للاسلام . يتخذون القدح فى هذا الدين صناعة يتفرغون لها ويتكسبون منها . كما هو معلوم .

أما الأغرار الذين يسيرون من ورائهم فأكثرهم يخاصمون الاسلام على السماع والتقليد ، ولا يعنيهم أن يفتحوا أذهانهم لبحث أو فهم ، إنما هو هواية التقليد والاتباع ، فخصامهم للاسلام ليس إلا من نوع الشارة التى قد يعلقها الرجل على صدره لمجرد أن يعرف بها بين الناس انتماؤه لجهة معينة . ومعلوم أن الشارة ليست أكثر من رمز فخصومة هؤلاء للاسلام ليست سوى الرمز الذى يعلنون به عن هويتهم بين الناس .

إنهم ليسوا من هذا التاريخ الاسلامى فى شىء ، وإن ولاءهم ، إنما هو لهذا الفكر الاستعمارى الذى يتمثل فيما يدعو إليه دعاة الاستعمار الفكرى من مبشرين ومستشرقين . فهذا هو اختيارهم من قبل أى بحث ودون محاولة أى فهم !!

أجل ، إن مخاصمتهم للاسلام ليست إلا مجرد شارة يسمون بها أنفسهم بين قومهم وبنى جلدتهم ، وليس عملا فكريا لقصد البحث أو الحجاج .

وإلا فموضوع زواج النبى (ﷺ) من أ هون ما يمكن أن يستدل منه المسلم المتبصر العارف بدينه والمطلع على سيرة نبيه على عكس ما يروجه خصوم هذا الدين تماما .

يريدون أن يلصقوا به (ﷺ) صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد !! .

وموضوع زواجه (ﷺ) هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماما . فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها عفيف النفس دون أن ينساق فى شىء من التيارات الفاسدة التى تموج من حوله . والرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقارب . ضعف عمره . ثم يعيش معها دون ان تمتد عينه الى شىء مما حوله وإن من حوله الكثير ، وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ، ثم الكهولة ، ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من عائشة ، ثم من غيرها ، فإن لكل منهم قصة ، ولكل زواج حكمة وسبب ، يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد (ﷺ) ورفعة شأنه وكمال أخلاقه .

أيا كانت الحكمة والسبب فإنه لا يمكن أن يكون مجرد قضاء الوطر واستجابة الرغبة الجنسية ، إذ لو كان كذلك لكان احرى به أن يستجيب للوطر والرغبة النفسية فى الوقت الطبيعى لهذه الرغبة وندائها خصوصا وقد كان إذ ذاك خالى الفكر ، ليس له من هموم الدعوة ومشاغلها ما يصرفه عن حاجته الفطرية والطبيعية . يقول بعض المحققين الباحثين فى الرد على هذه الفرية ما نصه . لقد طعن كثير من سفلة البشر من أراذل المحترفين لمهنة التبشير فى محمد عليه الصلاة والسلام ، واتخذوا من زواجه مذمة يعيبونه بها ومنقصة يلصقونها به ، وقالوا : إنه رجل شهوانى يميل إلى النساء **﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾**[1] . فى حين ان زواجه (ﷺ) يسمو بانسانيته إلى الحد الذى لا يجاريه

الآية ٥ من سورة الكهف

فيها إنسان ولا يباريه فيها بشر .

فلو أراد ان يضم فى بيته كرائم العقائل ونفائس الخدائد، لكان له ما يريد من أسمى بيوت العرب ، وأجمل الجوارى من سبايا فارس والروم ، يرفلن فى حلل الدمقس ، ويتحلين بأفخر الجواهر ، ولكان سماطه كسماط . قيصر وكسرى .

كيف لا وقد كانت تحمل إليه الأموال حتى يضيق بها مسجده فلا يقوم وفى كفه منها شيء .

وما شبع هو وآله من خبز الشعير ، وحاله من الغنى والجاه ما قدمنا وما وصفنا .

ولم يضم فى حريمه سوى المغتربات المكتهلات ، التى مات عنها زوجها ، فلم تجد مأوى ، والتى عز عليها العيش فى كنف غيره من الأزواج ، ولم تكن بينهن من فتاة عذراء سوى واحدة ، هى عائشة ابنة رفيقه وصديقه أبى بكر الصديق ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار ﴾[1] .

وعندما بلغت قسوة الحياة منتهاها ، وجاوزت الشدة مداها ، نزلت آية التخيير :

﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾[2] .

وقد أكرمهن الله تعالى بالتوفيق الى حسن الاختيار ، واخترن دار القرار وقلن جميعا : بل نريد الله ورسوله والدار الآخرة فتحت لهن بذلك السعادة ، وحزن الحسنى وزيادة .

وقد تزوج عليه الصلاة والسلام بالسيدة خديجة ـ رضى الله عنها ـ ولها أربعون سنة وهو ابن خمس وعشرين ، ولم يدفعه لزواجها سوى انها خطبته لنفسها بنفسها ، وكانت من أعف النساء وأعرقهن نسبا وحسبا ، ولها بعد ذلك فضل السابقة فى الاسلام ، فلم يتقدمها إليه رجل ولا إمرأة ، وماتت وسنها خمس وستون سنة ، وكانت مدة مقامها معه (ﷺ) خمسا وعشرين سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

ولم يكن وفاؤه لخديجة رضى الله عنها وفاء المتعة والحسن ، بل وفاء الروح والنفس ، فلقد فضلها بعد ذلك على عائشة وهى اصغر زوجاته واحبهن إليه .

فترى من هذا أنه (ﷺ) قضى عنفوان شبابه وزهرة حياته مع خديجة ولم يتزوج عليها وإنما تزوجها لعفافها وعقلها وطهرها ، ومعاونتها له ومناصرتها إياه .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل الى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة سودة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعة ـ رضى الله عنها ـ وكانت زوجا للسكران بن عمرو ، وكان قد أسلم قديما وهاجر إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ، ولو عادت إلى أهلها ـ بعد

---

١ ـ الآية ٤٠ من سورة التوبة

٢ ـ الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب

موت زوجها ـ لعذبوها وفتنوها فى دينها ، فكفلها (ﷺ) ، وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ، ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة رضى الله عنها فى السنة الأولى من الهجرة . فترى من هذا أنه (ﷺ) لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيرا من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فارا بعقيدته وتألفا لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته (ﷺ) فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة عائشة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما ، وكلنا يعلم من هو أبو بكر الصديق ، الذى كان معه ﴿ ثانى اثنين اذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾[1] ولم يتزوج بكرا غيرها .

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة علمنا أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما ، وقد كانت رضى الله عنها واسطة فى نقل شتى الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الاسلامية ، خصوصا ما يتعلق منها بالنساء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة حفصة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهما ـ وكانت زوجا لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر ، وتزوجها ـ ﷺ ـ مكافأة لها وحبا فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ، ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله ، وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة زينب بنت جحش رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته ، وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ، ويجعله أصلا لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقا لقوله تعالى : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] .

وقد تزوجها (ﷺ) بعد طلاقها من زيد بوحى من الله تعالى للتشريع ﴿ لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾[3] .

---

١ ـ الآية ٤٠ من سورة التوبة
٢ ـ الآية ١٣ من سورة الحجرات
٣ ـ ٣٧ من سورة الاحزاب

وقد كان زواجه إعفاء لها من إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها ، فيقصى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار ، فما بالك بمطلقات الأرقاء ؟
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا؟!

* زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة ، وكانت زوجا لعبد الله بن جحش رضى الله تعالى عنهما ، فقتل عنها يوم أحد فتزوجها (ﷺ) إيواء لها وجبرا لمصابها فى زوجها ، وحفظا لدينها .
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟! .

زواجه بالسيدة أم سلمة رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة أم سلمة (هند بنت أبى أمية) وكانت زوجا لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد ، وكانا أسلما قديما ، وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة ، وهاجرا إلى المدينة ، فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد . فتزوجها (ﷺ) .
ويروى عنها أنها سمعت رسول الله (ﷺ) يقول (ما من مسلم تصيبه مصيبة فيسترجع ويقول : اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلفنى خيرا منها إلا أخلفه الله خيرا منها) فلما مات أبو سلمة تذكرت قول الرسول عليه الصلاة والسلام وقالت فى نفسها : ومن خير من أبى سلمة ؟
رجل نال الصحبة ، وشهد المشاهد مع رسول الله (ﷺ) . ولكنها استرجعت وقالتها ، فأخلف الله تعالى لها رسول الله (ﷺ) فآواها وحفظها .
فترى من هذا أنه (ﷺ) تزوجها ليعوضها خيرا من زوجها الذى فقدته ، وكانت كثيرة الأولاد ، فأواها وآوى أولادها ، وقام بشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها .
فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

* زواجه بالسيدة أم حبيبة ـ رضى الله عنها *

وتزوج بالسيدة أم حبيبة « رملة بنت أبى سفيان » وكانت زوجا لعبيد الله بن جحش ، وقد هاجر إلى الحبشة ، الهجرة الثانية ، ثم تنصر زوجها ، ومات بالحبشة ، وثبتت هى على إسلامها ، وأبت أن تتنصر معه وخالفته ، واختارت الاسلام عليه ، فأتم الله تعالى لها : الاسلام والهجرة والصحبة ، وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .

ويروى أن أباها ـ أبا سفيان ـ قدم المدينة فدخل عليها ، فلما ذهب ليجلس على الفراش طوته دونه ، فقال : يابنية أرغبت بهذا الفراش عنى أم بى عنه ؟

فقالت : بل هو فراش رسول الله ـ ﷺ ـ وأنت امرؤ نجس .

فقال : لقد أصابك بعدى شر . قالت : بل خير .

وقد خطبها (ﷺ) من ملك الحبشة حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها ؟

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية
رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها ، وسنها رضى الله عنها زهاء خمسين سنة ، وقد تزوجها إيواء لها وتألفا لقومها . وقد أسلم بسبب هذا الزواج كثير من قومها منهم : ابن أختها : سيف الاسلام خالد بن الوليد فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث
رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار ، وكانت زوجا لمانع بن صفوان المصطلقى . وقد قتل كافرا يوم المريسيع . وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق . وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم . فأعتقها ـ ﷺ ـ وتزوجها ، فلما سمع المسلمون بذلك أعتقوا ما فى أيديهم من سبى بنى المصطلق ، وقالوا : هم اصهار رسول الله ـ ﷺ ـ فأسلم بسببها بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وحسُن أسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها ، وقد أنقذها من الأسر ، وأعتقها من الرق ، وأعزها من الذل .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب
رضى الله عنها

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير ، قتل أبوها مع بنى قريظة ، وكانت

زوجا لسلام بن مشكم القرظى ، ثم فارقها ، فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق ، وقتل عنها يوم خيبر ، فأخذت رضى الله عنها فى السبى ، فخيرت بين العودة إلى قومها ، وزواجها بالرسول ، فاختارت الخيرة ، فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها (اليهود) وقد أسلم كثير منهم .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

حكمـــــة راشـــــدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ـ ﷺ ـ لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ، ومقاصد أخروية ، لا تمت إلى الشهوة بسبب ، ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة .

هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم ، وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء ، والتى لا يستطيع تبليغها الرجال ، كالطهارة ، والغسل ، والحيض ، والنفاس ، والولادة ، والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء ـ على وجهها الأكمل ـ سوى النساء .

ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين ـ إمرأة واحدة ، بل عدة نساء من عدة قبائل . وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من اظهار نوره ، وبسط شرائعه .

وقد ثبت أنهن أذعن عنه ـ ﷺ ـ علما وفضلا وفقها ، ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريد سائر الملوك والأمراء ـ من التمتع واللذة ليس غير ، لا نتخب الحسان الأبكار ، والكواعب والأتراب ، ولم يتجه صوب هؤلاء الثيبات المكتهلات .

فهل بعد هذا لمبشر ـ غر سمج ، عتل زنيم أن يقول عنه ﷺ ـ إنه شهوانى يميل إلى النساء ؟!

فى حين أن فى دياناتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره ، وأقلامنا عن تدوينه ؟

فسبحان من هدانا لدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

وفضلا عن ذلك ، فلم تكن علاقاته ـ عليه أفضل الصلاة وأتم السلام ـ بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا ، بأى زوجة مهما علت !

فقد عاشرهن السنين الطوال ، فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية ، بل الكلمة الرفيقة ولم تبد على سماته النظرة القاسية ، بل النظرة الحانية .

وما من رجل ـ بالغ ما بلغ من المروءة والرقة وسعة الصدر ـ الا واستحال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدأ منه التذمر والتضجر إزاء تصرف ما وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما .

ولكن الرسول ـ ﷺ ـ الذى أوتى جماع الفضائل ، وبعث ليتمم مكارم الأخلاق . .

الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر . ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم : لم يكن آنذلك .

ولم يكن هذا منه ـ ﷺ ـ جبنا أو ضعفا ، بل كان كمالا وجلالا .

فإن الضعف الاختيارى : أقوى من سائر القوى ، وأكمل من سائر الكمالات ، وهو خير مقياس للعظمة الانسانية فى أجمل صورها وأرفع مراتبها . فإن من يقهر نفسه باختياره ليترفق بضعيف ، لا طاقة له باحتمال القهر ، ولا غنى له عن طلب اللين والرفق ، لهو الشجاع الباسل القوى وننتقل بعد ذلك إلى موقف اخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ ، وهو قصة التخيير ، فما هى تلك القصة ؟

قصـــة التخيـــر

قال تعالى :

﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾[1] .

إن رسول الله - ﷺ - لم يرد الحياة متعة فانية ، ولا زخارف براقة ، لأن قلبه كان مليئا بالقناعة والرضا ، والايمان والحكمة ، لقد خيره الله بين أن يكون نبيا عبدا أو نبيا ملكا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا ، وقال فى ذلك « أجوع يوما فأذكرك ، وأشبع يوما فأشكرك ، ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتنها ، ولو أرادها مملكة ونعيما وخدما وحشما وترفا . لكان له ذلك .

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شمم
وأكدت زهده فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصم
وكيف يدرك فى الدنيا حقيقته ... قوم نيام تسلوا عنه بالحلم

أيقال على هذا النبى الكريم إنه كان غارقا فى ملذات الحياة ، وكان شهوانيا إلى النساء ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

إن حياة هذا النبى كما أخبرت أم المؤمنين عائشة قالت : إن كنا لنمكث الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة بشهرين ولم يوقد فى بيت رسول الله - ﷺ - نار يطبخ عليها .

أعلمت كيف كانت حياة هذا الرسول فى بيته ؟

كان طعامهم فى معظم الأحيان التمر والماء ، ومع ذلك كانت العيشة راضية لا تسمع فيها لاغية .

إن السعادة مملكة قائمة بالنفس ، كما صورها السيد الجليل محمد ﷺ - فى هذه الكلمات[2] **« اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا ،**

---

١ - الأيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأحزاب

٢ - الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج٢ ص ٣١٠

وأحب لأخيك ما تحب لنفسك تكن مسلما ، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

ليست السعادة فى انتشاء الكئوس المترعة ، ولا فى الاستمتاع بالغيد الأماليد أنما السعادة فى رضاك عن الله ؟ وفى رضا الله عنك ، وفى تزكية النفس واشراق العقل وانتصار الذهن واستعلاء النفس على مطالب المادة ، وسيطرة القيم والمبادىء التى تحقق فى الانسان انسانيته . كيف يقال على هذا النبى إنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذى كان يمكث فى بيته شهرين ولم توقد فى بيته نار يطبخ عليها ؟

لله درك يارسول الله

الحق أنت وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقها تيها من الأهوال والظلمات

إن الله تعالى خاطب نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهاتين الآيتين فى أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا .

فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية ، وشهوة نسائية ، لوفر لهن هذه المطالب وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟

أسمع إلى العلامة ابن كثير ، يفسر هذا المشهد القرآنى بما تيسر من التقدير يقول رحمه الله تعالى :

« هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ـ ﷺ ـ ان يخير نساءه بين ان يفارقهن ، فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله تعالى فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ـ رضى الله عنهن وأرضاهن ـ الله ورسوله والدار الآخرة ـ فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها زوج النبى ـ ﷺ ـ أخبرته أن رسول الله ـ ﷺ ـ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت ، فبدأ بى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك ألا تستعجلى حتى تستأمرى ابويك ، وقد علم ان ابوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : إن الله تعالى قال ﴿ **يأيها النبى قل لازواجك** ﴾ . . إلى تمام الآيتين فقلت له : ففى أى هذا استأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وروى الامام أحمد بسنده عن جابر رضى الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضى الله عنه يستأذن رسول الله ـ ﷺ ـ والناس ببابه جلوس ، والنبى ـ ﷺ ـ جالس ، فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضى الله عنه ، فاستأذن ، فلم يؤذن له ، ثم اذن لأبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ فدخلا ، والنبى ـ ﷺ ـ جالس وحوله نساؤه ، وهو ـ ﷺ ـ ساكت ، فقال عمر رضى الله عنه : لأكلمن النبى ـ ﷺ ـ عله يضحك ، فقال عمر رضى الله عنه ـ يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد ـ امرأة عمر ـ سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها ؟ فضحك النبى ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه وقال « هن حولى يسألننى النفقة » فقام أبو بكر رضى الله عنها إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضى الله

عنه إلى حفصة - كلاهما يقولان : تسألان النبى ﷺ ما ليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله - ﷺ - فقلن والله لا نسأل رسول الله ﷺ - بعد هذا المجلس ما ليس عنده قال . وأنزل الله - عز وجل - الخيار ، فبدأ بعائشة رضى الله عنها فقال « انى ذاكرلك أمرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى أبويك » قالت : وما هو؟ قال : فتلا عليها (يا أيها النبى قل لأزواجك) الآية : قالت عائشة - رضى الله عنها -: أفيك أستأمر أبوى ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت . فقال ﷺ « إن الله تعالى لم يبعثنى معنفا ، لكن بعثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى أمرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها ، مسلم .

أرأيت يا أخا الاسلام لم كان التخيير وفيم كان ؟؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرن بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل ، وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى (أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا) أى أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الانسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟

سبحانك ربى ، لقد بعثته أسوة حسنة وقدوة طيبة . إن هذا البيت بيت النبوة لقد قال الله - تعالى - لنساء هذا البيت ﴿ وأذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾[1] .

بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة . بيت يتلقى الوحى من رب الماء . بيت قرآنى يفوح من أريج القرآن عطرا وريحانا .

إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[2] .

بحث قيم

جاء فى كتاب (الاسلام والعلم الحديث) للأستاذ عبد الرازق نوفل بحث قيم فى زواج النبى - ﷺ - وقد آثرنا ان نثبته ونحن بصدد الكلام عن هذا الموضوع . وها هو ذا نسوقه بنصه قال المؤلف : « لم تظهر حكمة زواج الرسول - ﷺ - بمن تزوجهن إلا عندما اتسع أفق الفكر فى العصر الحديث . فإذا ما استعرضنا زواج النبى - ﷺ - نجد أن كل زواج انما كان يحقق غرضا ساميا أو كسبا للدين ، أو

---

١ - الآية ٣٤ من سورة الأحزاب
٢ - الآية ٣٣ من سورة الأحزاب

عملا بتشريع جديد . وإن الرسول الأمين كان بعيدا كل البعد عن كل مرغبات الزواج من مال أو جاه أو شهوة أو مغنم .

فخديجة بنت خويلد سيدة بنى أسد ، كانت تزوجت عتيقا المخزومى ولما مات تزوجت أبا هالة التميمى فمات أيضا ، بذلك ورثت عنهما مالا وفيرا علاوة على ما كانت تملكه . وقد كانت ذات شهرة كبيرة بين قومها ، لما امتازت به من جاه وحسب ونسب ، علاوة على مالها ، ولكنها كانت ترد كل طالب ، فقد كانت عازفة عن الزواج ، وكانت ترسل الرجال على تجارتها ، فأرسلت نبى الله ليشرف على هذه التجارة لما سمعت عنه من أمانة واستقامة ، وعادت القافلة وقد حققت أرباحا لم تعهدها ، ورواجا لم تكن تتوقعه . فلما سألت غلامها ميسرة الذى صاحب الرسول - ﷺ - روى لها رقة شمائل محمد ، وجمال نفسه ، وصفاء قلبه ، وطهارة سريرته ، وحدثها مما شاهده من أمانته المطلقة . ونزاهته وعفته . . فأرسلت له صديقتها (نفيسة بنت منبه) تقترح عليه أن يتزوجها - وتزوجها الرسول وهو شاب فى ريعان شبابه ، إذ لم يكن تجاوز الخامسة والعشرين من عمره فى حين كانت السيدة خديجة قد بلغت الأربعين من عمرها .

فهل كان سيدنا محمد رجل متعة ؟ وهل كان كما يقول أعداء الاسلام شغوفا بالنساء ؟

وها هو ذا يتزوج من سيدة تزوجت قبله مرتين ، وتكبره بخمسة عشر عاما ؟

لقد شدت خديجة أزر الرسول بمالها ورجالها وعصبيتها ، حتى إنه عندما جاء الوحى وخشى منه ، سألت خديجة ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذى كان أول من بشر بنبوته ، وشجعه على إعلان الدعوة ، حيث قال له ، وقد قابله فى طواف الكعبة ، (والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الذى جاء به موسى ، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن ، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه » ثم قبله وشجع ذلك النبى على أن يدعو قريشا فيعلن لهم دعوة الله .

كما أن السيدة خديجة شاركت الرسول فى جهاده ، فكانت تهون عليه أمر إيذاء الكفار له وتدفعه إلى النضال والصبر - وعاشت معه خمسة وعشرين عاما أمضت منها خمس سنوات فى جهاد الدعوة ، تقاسمه ما يلقى من عنت وشدة حتى لقيت ربها ولها من العمر خمسة وستون عاما - وبعد موت خديجة ازدادت قريش فى اذاها للنبى - ﷺ - فخرج إلى الطائف يدعو إلى الاسلام فوجد من ثقيف التكذيب والاعراض ، وبعد عام من جهاده عاد إلى بيته بمكة فوجده قفرا . فلما أحس المسلمون بما شعر الرسول به من وحشة أو عزوا إلى خولة بنت حكيم حيث حدثته بأمر حاجته إلى من ترعاه ، وتقضى حاجة بيته ، وتقوم على شأنه ، فعرضت العذراء عائشة بنت أبى بكر أو سودة بنت زمعة التى آمنت به وأسلمت وهاجرت ، إلى الحبشة مع زوجها الذى مات وتركها وحيدة ، فقبل الرسول العزيز الزواج من الأخيرة التى كانت كبيرة السن ضامرة الجسد ، ليس فيها مشتهى للرجال ، ولكنها كانت مؤمنة مجاهدة من الصابرات .

هذا هو زواج الرسول - ﷺ - إذ أن ما تم بعد ذلك من زواج إنما كان يرمى إلى تحقيق هدف أو كسب للدين ، وقد أمكن أن يقف العلم الحديث على أسباب ماجد بعد ذلك من زواج .

فالمشاهد فى العصر الحديث أن قادة الأمم والزعماء يحاولون ان يرتبطوا مع وزرائهم وقوادهم

برباط المصاهرة ، بل إن قادة الأمم المختلفة يجعلون المصاهرة بينهم من وسائل التقريب بين الأمم بعضها ببعض ، وكان هذا الهدف من أول الأهداف التى سعى الرسول الكريم إلى تحقيقها .

فلربط رجال المسلمين الأول بعضهم ببعض تزوج الرسول ـ ﷺ ـ بعائشة بنت وزيره الأول أبى بكر ، ثم تزوج بحفصة بنت عمر عندما مات زوجها ، ولهذا السبب نفسه زوج بنته رقية لعثمان بن عفان فلما ماتت زوجه بعدها أختها أم كلثوم ، كما زوج ابنته فاطمة لعلى بن أبى طالب .

وهكذا جمعت المصاهرة سيدنا محمدا ـ ﷺ ـ برجاله الأوائل : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ـ أقوى الرجال فى الاسلام وأول من أسلموا .

ـ وهناك هدف آخر هدف إليه الرسول بزواجه ، فقد كان من عادة العرب إذا مات الرجل ذهب اخواته وأصدقاؤه إلى أرملته يواسونها ويعرض أقربهم إلى زوجها مرتبة أن يتزوجها إكراما لزوجها ، وذلك للاشراف على شئون بيته .

وقد أبلى من المسلمين فى الحروب رجال تحدث التاريخ عما قاموا به فى سبيل الله ورسوله . ومن هؤلاء المسلمين من لقى حتفه فى سبيل دين الله ، فتزوج الرسول من بعض نساء قتلى المسلمين . ممن تحدث التاريخ عن جليل أعمالهم ، ولم يجدن أزواجا لهن ، إما لكبر سنهن أو لكثرة أولادهن ، فزاد تلك من تعلق المسلمين برسولهم ، ورفع من روحهم المعنوية ، وأصبح المسلم يعرف أنه لو قتل فى سبيل الله لم يعدم رجلا يشرف على بيته ، ولم يعدم أبا يحنو على أولاده ، ولو لم يجد من المسلمين لوجد نبى الله نفسه ، بل حبب ذلك الاسلام لغير المسلمين فأسلموا .

ولذلك تزوج الرسول من زينب أم المساكين زوجة عبد الله بن جحش أحد امراء المسلمين الذى قتل فى وقعة أحد ، وكان على رأس أول سرية خرجت للغزو فى الاسلام .

كما تزوج للسبب نفسه هندا أم سلمة زوجة أبى سلمة أحد مهاجرى المسلمين إلى الحبشة ، الذى أبلى بلاء حسنا فى الدعوة ، فلما مات تقدم لخطبتها كبار العرب ، ومنهم أبو بكر وعمر ، فرفضت حيث قالت (إنى أمرأة مسنة وأم أيتام) وعز على الرسول ـ ﷺ ـ أن تظل السيدة حزينة وحيدة فتزوجها .

وهناك تشريع هدف إليه الاسلام فى زواج الرسول ـ ﷺ ـ يقول الله تعالى فى سورة الحجرات **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[1] وقد كان الرق منتشرا فى بلاد العرب . فدعا الاسلام إلى العتق وتحرير الرقيق وكان للسيدة خديجة زوجة النبى ـ عبد اسمه « زيد » وهبته لسيدنا محمد ، وكان زيد من أوائل الذين آمنوا بالدعوة وقربه الرسول إليه حتى كانوا يطلقون عليه اسم زيد بن محمد هذا العبد الذى تحرر .

هل من بين العرب من يجرؤ فيعتبره ندا له فيزوجه من قريبته مثلا ؟

لقد طلب زيد يوما من الرسول ـ ﷺ ـ أن يزوجه زينب بنت جحش ابنة عمة الرسول فوافق عليه الصلاة والسلام ، ولكن هذا الزواج وجد معارضة من زينب نفسها ومن ذويها . ولكن الله تعالى أمر

---

١ ـ الآية ١٣ من سورة الحجرات

بأتمام هذا الزواج حيث قال ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾[١] .

وتزوج العبد السابق من سيدة قريش سليلة المجد والحسب ، وكان ذلك تشريعا جديدا للمسلمين ، وعملا بقول الله تعالى فى سورة البقرة ﴿ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ﴾[٢] .

ولم يدم ذلك الزواج طويلا ، فطلب زيد الطلاق من زينب ، فكان رد النبى كما فى جاء فى سورة الأحزاب ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾[٣] . وأراد الله تعالى تشريعا جديدا ، إذ كانت التقاليد لا تجيز للمدعى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمن ادعاه ، كما لا تجيز للمتبنى أن يتزوج ممن كانت زوجا لمتبناه ، ولا للسيد أن يتزوج ممن كانت زوجة عبد .

فنهى عن ذلك الله تعالى إذ يقول فى سورة الأحزاب :

﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذالكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾[٤] .

لذلك أمر الله تعالى بأن يكون الرسول القدوة للناس فى ذلك ، وخشى فى نفسه - ﷺ - أن يقول عنه الناس : تزوج من كانت زوجا لدعيه ، وكان يخفى فى نفسه تنافر الزوجين وكراهيتهما بعضهما لبعض حتى لا يتزوجها ، ولكن الله مبدى هذا ﴿ وتخفى فى نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

هذه هى حكمة زواج الرسول من زينب بنت جحش ، وهى بعيدة كل البعد عما يرويه خصوم الاسلام من أن الرسول - ﷺ - كان قد ذهب لزيارة زوجها فاستهواه جمالها ، فطلب من زوجها ان يطلقها ليتزوجها .

وأين كان الرسول يوم أن كانت زينب عذراء وهى ابنة عمته ، والتى كانت يعرفها تماما ؟؟

أو لم تستهوه محاسنها وهى عذراء ؟ ولكنه الحقد على الاسلام ، ونبى الاسلام الذى يجعل الخصوم يفترون .

وهناك حكم من زواج الرسول . إذ حقق به أهدافا سياسية ، فعندما هزم المسلمون بنى قريظة بعد حصار طويل ، كانت ريحانة بنت عمرو زوجة الحكم احد كبار بنى قريظة من نصيب الرسول فى الغنائم ، فعرض الرسول عليها الاسلام ، فأسلمت وتزوجها ، وكان لزواجه منها أكبر الأثر فى نشر الدعوة الاسلامية بين قبائل اليهود الذين هدأت ثائرتهم ، وهز مشاعرهم إكرام الرسول لإحدى سيداتهم بزواجه منها .

---

١ - الآية ٣٦ من سورة الأحزاب
٢ - الآية ٢٢١ من سورة البقرة
٣ - الآية ٣٧ من سورة الأحزاب
٤ - الآية ٤ من سورة الأحزاب

وكذلك عندما انتصر المسلمون فى غزوة بنى المصطلق . كانت جويرية بنت الحارث بنت سيد قومها من نصيب ثابت بن قيس الذى طلب منها أن تفتدى نفسها فاستعانت بالرسول فى فك أسرها ، فعرض عليها الرسول الاسلام فأسلمت فتزوجها ، وكان لذلك أثره فى نفس بنى المصطلق الذين ارتبطوا بهذا الزواج مع الرسول ، فدخلوا جميعا فى الاسلام .

ـ ولما انتصر المسلمون على يهود خيبر ، كانت صفية بنت حيى بن أخطب ضمن الأسرى ، فأعتقها الرسول وتزوجها ، وهذا ما يفعله الفاتحون من ذوى الرحمة إذ يتزوجون من بنات الملوك والعظماء فى الدول المهزومة حفظا لكرامتهم ، وتخفيفا من وقع الهزيمة عليهم .

وبعد أن انتشر الاسلام فى جزيرة العرب ، أرسل الرسول إلى النجاشى ملك الحبشة الذى آوى المسلمين المهاجرين وأكرمهم ، ليكون النجاشى رسوله فى طلب الزواج من أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان بعد أن مات زوجها عبيد الله بن جحش الذى كان قد أسلم ثم ارتد ، وبقيت زوجته مسلمة صادقة العقيدة ، وكانت لفتة كريمة لسيدة مسلمة ارتد زوجها المسلم وتمسكت بدينها ، تحافظ عليه ، وتقيم شعائره فى دولة غريبة كما كانت سياسية بارعة ؟ إذ أن أم حبيبة بنت أبى سفيان عدو الرسول الألد ، وأكبر مهاجمى الاسلام ؟ وبزواجه منها انتصر على آخر معاقل الكفر والشرك فى قريش ، انتصارا دون إراقة دماء ، وبدون حرب أو اعتداء .

وعندما بدأ الرسول فى نشر الدعوة إلى الخارج ، أرسل رسله إلى الملوك والأمراء . منهم : هرقل ، وكسرى ، والمقوقس ، يدعوهم إلى الاسلام ، فكان من ضمن رد المقوقس عظيم القبط فى مصر أنه أرسل للرسول هدايا فيها جاريتان احداهما مارية القبطية التى تزوجها الرسول ، وسيرين التى اهداها إلى حسان بن ثابت .

ولما أحل للنبى الدخول إلى مكة وزيارة الكعبة الشريفة بعد صلح الحديبية دخل الرسول على رأس المسلمين فى عمرة القضاء وظلوا أياما ثلاثة هى ما اتفق عليه فى المعاهدة .

وكان المسلمون من الكثرة والقوة والخلق الكريم لا يشربون خمرا ، ولا يأتون معصية ، ولا يتقاتلون على شراب أو طعام ، ولا يعبدون أحجارا أو أوثانا وانما دعوتهم الله أكبر الله أكبر . زلزل ذلك عقائد أهل مكة من الكفار ، فأسلم ضمن من أسلم ميمونة بنت الحارث خالة خالد بن الوليد ، فخطبها الرسول وهو ينظر إلى أن زواجه منها تكريم لها وأى تكريم ، وفتح لعائلتها التى كانت ومازالت على الكفر ، وقد صحت فراسة الرسول ـ ﷺ ـ ، كما كانت تصح دائما ، فأسلم بعدها خالد بن الوليد الذى هدم العزى ، وقتل سدنتها ، وأسلم عمرو بن العاص الذى هدم سواعا . وكذلك أسلم عثمان ابن طلحة حارس الكعبة . وباسلامهم أسلم كثيرون من أهل مكة .

هذا هو زواج رسول الله ـ ﷺ ـ فهل منه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه النساء !؟

وهل فى أزواجه كلهن واحدة كان جمالها أو شبابها سببا فى زواجه منها ؟ وهذه هى الأهداف التى هدف إليها الرسول من زواجه لمصلحة الدعوة والدين .

لذلك فقد أحل الله له ما لم يحله لغيره ، ولما تحقق الهدف ، وانتفت الأسباب التى من أجلها

أحل الله لنبيه تعدد زوجاته نزل قول الله تعالى فى سورة الأحزاب : ﴿ لا يحل لك النسّاء من بعد ﴾ .

هذا هو زواج الرسول - ﷺ - فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج بأكثر من واحدة لحبه للنساء ؟

وهل كان بين كل هذه الزوجات عذراء سوى عائشة ؟

أو ليس قول الخصوم بعد ذلك افتراء على النبى - ﷺ - وعلى الحق أى افتراء ، ، انتهى ؟؟

***

وإلى هنا نكون قد أتينا على الحكمة البالغة التى من أجلها تعددت زوجات الرسول - ﷺ - سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

لما أراد الله جل جلاله ... ان ينقذ الدنيا من العثرات
أهداك ربك للورى ياسيدى ... فيضا من الأنوار والرحمات
يا صاحب الخلق الكبير عرفته ... وبسطته فى حكمة وأناة
وطلعت فى الليل البهيم مؤذنا ... بالحق والأنوار والصلوات
ودعوت للخيرات قوما ضللوا ... ما كان أبعدهم عن الخيرات
ودعوت حتى كنت أصبر من دعا ... وأقمت بين إساءة واذاة
فصبرت ثم رحلت ثم ضربت فى ... أعناقهم فى عزة وثبات
فحظيت بالنصر المبين مؤزرا ... وأقمت حقك خافق الرايات
وضربته مثلا لكل مكابر ... لا يستوى حق بغير حماة

الاسلام وتعدد الزوجات

رأينا من المناسب بعد الكلام عن أزواج سيدنا محمد - ﷺ - أن نعقب هنا بكلمة عن حكمة الاسلام البالغة فى إباحة تعدد الزوجات .

وقبل هذه السطور ، نود أن نبدأ بهذه القواعد التى تنبنى عليها دائما الحكم البالغة ، والأهداف السامية لتشريعات الله أحكم الحاكمين وأعدل العادلين .

عالمية الدعوة

القاعدة الأولى من تشريعات الاسلام أنه شريعه عالمية ، وليس حكما إقليميا قال سبحانه وتعالى ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾[1] .

١ ـ الآية ١ من سورة الفرقان

وقال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[١] وقال ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[٢].

وقال ﷺ - (كل نبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى كل أحمر وأسود)[٣].

وإذ قد تقرر ذلك فلابد أن يكون تشريع الاسلام شاملا لكل مقتضيات الزمن ومحيطا بكل نواحى الحياة .

عدالـــة الاســـلام

القاعدة الثانية أن الاسلام دين العدالة ، فهو فى كل ما شرع لا يعرف الجور ، ولا يتطرق الجور إلى أى مسألة من سائله . ولذلك فإن العدالة هى السمة الحقيقية فى تشريعات الله . فليس لمكابر أو مجادل أن يقول إن فى تعدد الزوجات أو غير ذلك من القضايا الاسلامية جورا أو ظلما لأن الله تعالى أحاط تشريعاته بالعدالة والمودة والرحمة .

قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] .

وقال ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٥] .

وقال سبحانه ﴿ يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ﴾[٦] .

وقال سبحانه ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾[٧] .

الاســـلام يخـــاطب العقـــل

القاعدة الثالثة: أن الاسلام فى تشريعاته منطقى وسديد ورشيد ، فهو لم يشرع ما تأباه العقول ، وتنبو عنه الأفهام ، وتمجه الأذواق ، بل جاء بشرع هو للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم .

جاء ليوحد العقائد لا ليفرق القواعد . وقد قيل لأعرابى : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأنه لم يأمر بشىء وقال العقل : ليته ما أمر ، ولم ينه عن شىء وقال العقل: ليته مانهى .

وقد صدق الله تعالى إذ يقول ﴿ فطرت الله التى فطر الناس عليها ﴾[٨] وإذ يقول ﴿ قل إننى

---

١ - الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء
٢ - الآية ٩ من سورة الصف
٣ - الحديث فى اتحاف السادة المتقين - صفة الشفاعة - ج ١٠ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨
٤ - الآية ٢١ من سورة الروم
٥ - الآية ٣ من سورة النساء
٦ - الآية ٨ من سورة المائدة
٧ - الآية ٢٣٧ من سورة البقرة
٨ - الآية ٣٠ من سورة الروم

هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا ومكان من المشركين ﴾[١] .

وإذ يقول ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[٢] .

وبناء على ما تقرر من قواعد كان كل تشريع إسلامى له حكمته البالغة وله هدفه الرفيع .

الاسلام : دين عالمى ، دين العدالة ، لايجافى العقل الرشيد ولا المنطق السديد .

وقد جاءت حكمة الاسلام بالغة فى تعدد الزوجات .

إن إباحة تعدد الزوجات دواء لابد من وجوده فى صيدلية الاسلام العالمية ، وإلا فما الذى يعالج مشاكل العالم إذا كان الدواء الذى يعالج به الداء ـ هو غير تعدد الزوجات ؟ .

إن أحداث الحياة لا تثبت على حال واحدة ، فلابد أن يعالج الاسلام جميع مشاكلها ، ويداوى بالحكمة جراحها .

والاسلام كما عهدناه فى علاجه كالنسيم الهادىء يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، وكالنار الهادئة تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

إن القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى على رسوله هدى وشفاء لم يدع شيئا لصالح البشرية إلا بينه ، ولا أمرا فيه صلاح الدنيا والآخرة إلا فصّله ، وقد كان أوائل هذه الأمة ـ رضى الله عنهم ـ حين يحزبهم أمر أو تعترضهم مشكلة يهرعون إلى كتاب ربهم ، فيطيعونه فيما أمر وينتهون عما نهى عنه وزجر .

ولن يرضى الله أن يؤول كتابه تأويلا يميل به إلى الهوى ، فإن هوى النفس شرداء تبتلى به المجتمعات .

فقد صرح القرآن أنه لا اختلاف فيه ولا مجال لأصحاب الهوى فى فهمه قال سبحانه ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[٣] .

الله جل جلاله أباح تعدد الزوجات بمقتضى قوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع[٤] .

وهذه الاباحة ليس فيها غموض : إذ الأمر فى هذه الآية دليل الاباحة كما فى قوله تعالى ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلال طيبا ﴾ .

فالأمر هنا لإباحة الفعل .

ولما أورد الله تعالى قيد العدل فى قوله تعالى ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[٥] علم أن هناك صنفين من التعدد : أحدهما تعدد مع العدل وثانيهما تعدد مع الظلم .

---

١ - الآية ١٦١ من سورة الأنعام
٢ - الآية ١٢٣ من سورة طه
٣ - الايه ٨٢ من سورة النساء
٤ - الآية ٣ من سورة النساء
٥ - الآية ٣ من سورة النساء

والصنف الأخير هو المنهى عنه من مفهوم الآية الكريمة . أما الذين زعموا أن التعدد غير جائز ، لأنه مبنى على العدل ، والعدل منفى كما جاء فى قوله تعالى ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾[١] فقد غاب عنهم أن هذا المعنى لو تحقق - كما فهموا - لكان تناقضا ولغوا ، والقرآن الكريم منزه عن ذلك تنزيها كاملا . ألم يقرأوا قوله تعالى :

﴿ وإنه لكتاب عزيز ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٢] .

ألم يقرأوا قوله تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[٣] .

إذ ليس من المعقول ، ولا من المستساغ ولا من المقبول ان يقول الله تعالى تزوجوا من تحبون متى تشاءون فى حدود الأربع ، فإن خفتم الجور فواحدة فحسب وبعد ذلك يقول : الجور محقق فى كل واحد من راغبى التعدد .

تعالى الله من ذلك علوا كبيرا .

وكان الأحرى والأجدر إذا كان هذا هو المعنى المقصود ألا يذكر العدد أصلا ، إباحة وحظرا .

أما وقد ذكر التعدد فى القرآن ، وأجمعت عليه الأمة الاسلامية فى شتى العصور بالقول والعمل ، فقد وجب فهم الآية القائلة بعدم استطاعة العدل وهى قوله تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) .

وجب فهمها بما فهمه أئمة التشريع وأساطين التفسير الذين قالوا : إن المقصود بالعدل غير المستطاع إنما هو العدل فى الميل القلبى والمحبة القلبية ، إذ أن قلوب بنى الانسان بين يدى الرحمن يصرفها ويقلبها كيف شاء . قال سبحانه ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾[٤] .

لذا كان - ﷺ - يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول (اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك) .

ولو أنهم قرأوا بقية الآية الكريم وهو قوله تعالى ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ [٥] . لعلموا أن العدل هنا قلبى . إذ أن الله لم يقل فلا تميلوا بعض الميل لأن بعض الميل قد يقع ، وإذن فالمنهى عنه هو الميل كله ، الذى يؤدى إلى كسر القلوب وعدم جبرها ، وإيجاد الجراح المؤلمة بها ولذلك عقب الله تعالى بعد ذلك بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة ﴾[٦] والمعلقة هى المرأة التى اساء زوجها معاشرتها فلا هى مزوجة ولا هى مطلقة .

وبناء على ما سبق فلا تناقض فى كتاب الله ولا اختلاف ، إذ أن العدل فى قوله تعالى ﴿ فإن خفتم

١ - لآية ١٢٩ من سورة النساء
٢ - لآية ٤١ ، ٤٢ من سورة فصلت
٣ - الآية ٨٢ من سورة النساء .
٤ - الآية ٢٤ من سورة الأنفال
٥ - الآية ١٢٩ من سورة النساء
٦ - الآية ١٢٩ من سورة النساء

الا تعدلوا فواحدة ﴾[١] المقصود به العدل فيما يملك الانسان من الأمور المادية المحسوسة . كالمساواة بين الزوجات فى المسكن والكسوة والنفقة والمبيت . أما العدل فى الآية الثانية وهو قوله جل شأنه ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ .

فالمراد منه العدل القلبى والمحبة القلبية وهذا عالجه القرآن بقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ وعلى هذا يستقيم الميزان فى الفهم وينتفى التناقض والاختلاف عن أحكام الله سبحانه وتعالى جلت حكمته وعظمت رأفته .

ونخلص مما تقدم إلى أن التعدد للزوجات مباح شرعا مادام ذلك قد شرعه الله وأباحه فى قوله ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ﴾[٢] .

وقد تأيد التعدد من سائر مصادر الشريعة فها هو ذا صريح القرآن وها هو ذا الاجماع .

فإذا ماذهبنا إلى السنة النبوية نستهديها وجدنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : (لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها ولا على ابنة أخيها ولا على ابنة أختها إنكم إن فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم)[٣] .

ومفهوم المخالفة يقتضى جواز الجمع بين من عداهن وقد جاء فى قوله تعالى ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾[٤] جواز الجمع بين من عداهما .

وقد أمر ﷺ غيلان الثقفى حين أسلم وله عشر نسوة أن يستبقى أربعا منهن هذا يدل دلالة قاطعة لا تقبل الشك أو الجدل .

أن التعدد من بديهات المباحات وأن التكلم فى منعه أو تحريمه يدخل تحت طائلة تحريم ما أحل الله وهو جريمة ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾[٥] .

ليس فى تعدد الزوجات أى مساس بمصلحة المرأة سواء كانت متزوجة على أخرى أو متزوجا عليها بأخرى فأما الحالة الأولى فلا يوجد عقد زواج إلا وأحد طرفيه امرأة تملك زمام أمرها بيدها ففى وسعها ألا تتزوج بمتزوج وإن كانت فى عسر من أمرها ولا تستطيع أن تقوم بأودها فقد فرج الله عليها بالزوج الذى يرفع عن كاهلها عبء الفاقة وذل العوز وغائلة الجوع وأما الحالة الثانية : التى تعتبر أن الزواج عليها فاجعة لها فلا بأس من طلبها الطلاق لأن الاسلام لا يرضى بالضرور وشريعتنا السمحة تأبى ذلك .

ومهما يكن من شيء فإن تعدد الزوجات لا يخلو من خير ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله

---

١ - الآية ٣ من سورة النساء

٢ - الآية ٣ من سورة النساء

٣ - الحديث رواه أبو داود - كتاب النكاح - ج٢ ص ٥٥٣ رقم ٢٠٦٥ وأخرجه البخارى تعليقا فى النكاح باب وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف - ج ٦ ص ٩٨ .
والترمذى فى باب النكاح حديث رقم ١١٢٦

٤ - الآية ٢٣ من سورة النساء

٥ - الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة يونس

ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾(١) .

فقل لهؤلاء المجادلين ﴿ ءأنتم أعلم أم الله ؟ ﴾(٢)

ثم قل لهم ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾(٣)

ويراعى الاسلام مراعاة دقيقة أن يكون التعدد بقصد الاستعفاف لا بقصد الاسفاف أو الاسراف إذ أن الاسلام لا يرضى بالضرر أو الضرار فقاعدته الأولى « لا ضرر ولا ضرار »(٤) .

وقد يكون فى التعدد ناحية انسانية أخلاقية قد تكون الزوجة مريضة مرضا لا يمكنها من أداء واجبها نحو زوجها من ناحية المباشرة أو القيام بخدمته فهل الأولى والأفضل ان يرميها بعيدا ويقطع ما بينه وبينها من علاقة أم يبقى عليها مع زوجة تؤدى له حقوقه الشرعية ؟

وقد تكون الزوجة عاقرا ولا تنجب والزوج يريد ولدا فهل الأفضل والأليق أن تطرد هذه الزوجة العاقر بعيدا عن كنفه بعد طول معاشرة أم يتزوج ويبقى على عشرتها فى حدود العدالة والمساواة الانسانية التى أمر الله بها فى قوله ﴿ وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفورا رحيما ﴾(٥) ما من شك فى أن جانب الانسانية يبدو واضحا فى التعدد الذى أباحه أحكم الحاكمين .

وأما ما يدعيه البعض من أن التعدد يؤدى إلى إفساد العلاقات بين الأخوة غير الأشقاء فهى دعوة فاسدة فكم رأينا شقيقين يقتتلان وأخوين لأب متصافيين متحابين .

هذا وقد غاب عن هؤلاء الطاغين أن البلدان التى حرمت التعدد نشأ فيها الفجور والمخادنة وملئت فيها الملاجىء بأبناء الزنا والبيوت بالابناء غير الشرعيين إن خالق الناس ومن هو أدرى بالناس من الناس قال بالتعدد فهل يجوز لانسان مهما أوتى من علم وفهم أن يأتى فيقول : لا . . إن التعدد نظام بغيض يقضى على المجتمع ويشتت شمل الأسرة ؟

هذا ولا يخفى ما فى تعدد الزوجات من مصلحة عظيمة وحكمة بالغة فإن الرجال فضلا عن زيادة عدد النساء عليهم معرضون لنقصان مستمر بسبب قيامهم بشاق الأعمال وبأعباء الحروب وغيرها وتعرضهم للمهالك وليس من الحكمة فى شىء أن ندع جانبا كبيرا من بناتنا بدون إحصان .

إن الأوربى يرفض تعدد الزوجات فى الوقت الذى يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات ويرى والد الفتاة مع ابنته عشيقها فيسر ويغتبط بل ويمد لهما جميع الوسائل وكافة السبل المؤدية لراحتهما وطمأنينتهما .

أما ديننا القيم وشريعتنا الغراء التى تحرم على الرجل النظر إلى المرأة وتحرم المرأة النظر إلى الرجل فقد كان من العدالة أن توجد توازنا لهذه القاعدة فجعلت الزواج مكان السفاح ووضعت الحلال مكان

---

١ - الآية ٣٦ من سورة الاحزاب
٢ - الآية ١٤٠ من سورة البقرة
٣ - الآية ٦٦ من سورة آل عمران ، ٢٣٢ من سورة البقرة
٤ - الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ج١ ص ٣١٣
٥ - الآية ١٢٩ من سورة النساء .

الحرام وإلا فمن للعوانس وربات الخدور ؟ ألهن العهر والفجر ولنا العفاف والطهر ؟ أم لهن الجحيم ولنا النعيم ؟

وهل من المستحسن أن يكن ضرائر أم يكن فواجر ؟

إن الاسلام شرع مبدأ تعدد الزوجات ليحمى المرأة من عدوان الرجل الظالم . فلم يقبل أن تكون فى علاقاتها معه إلا على حالة واحدة وهى أن تكون زوجة لها ولأولادها حقوق مقررة لايستطيع الرجل التنصل منها وفى الوقت نفسه حرم الزنا والمخادنة وجميع ما من شأنه الحط من مستوى المرأة وإنزالها من مرتبة الانسانية إلى مرتبة الحيوانية .

والآن يوجد أمامنا ضربان من السلوك أولهما يبيح تعدد الزوجات ويحرم ما وراء ذلك من العلاقات الآثمة ويضرب بيد من حديد على أيدى المتلاعبين بالأعراض الخائضين فى ضروب الفحشاء والفساد .

وثانيهما يحرم تعدد الزوجات ويبيح سائر العلاقات الآثمة ويجيز التلاعب بالأعراض والخوض فى ضروب الفحشاء .

بديهى أنه لا يوجد انسان عنده ذرة من عقل فيختار القسم الثانى ولا توجد نفس كريمة ترضى أن يكون حظ النساء منه كحظ البهائم العجماء وفى أى دين أو أى نظام أو أى عرف تكون الخليلة أفضل من الحليلة ؟

ويقولون أيضا : إن الرجل الذى يعقب أولادا من زوجتين يعتبر فى نظر المجتمع آثما ، لأنه يخلق العداوة بين نسائه والبغضاء بين ابنائه فهل معنى هذا أن الرجل الذى يعقب أولادا من امرأتين إحداهما شرعية والأخرى غير شرعية لا يعتبر آثما ولا يكون خالقا للعداوة بين نسائه وابنائه وقد صدق الله تعالى إذ يقول ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون[1] .

هذه شريعة الله شريعة الحق شريعة العدل وهذا منهاج الخالق البارىء المصور .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2] .

شهادات الخصوم لنبى الاسلام

لم تكن شهادات الخصوم لنبى الاسلام مقصورة على الفلاسفة أو المفكرين فى القرن العشرين أو ما قبله من القرون القريبة إنما سبقت ذلك شهادات له ـ ﷺ ـ من بنى قومه الذين لقبوه قبل بعثته

---

١ ـ الآيات ١ ـ ١١ من سورة المؤمنون
٢ ـ الآية ١٤ من سورة الملك

بالصادق الأمين لما رأوا فيه من كريم الخلق وحميد السجايا ورفيع الشمائل ونذكر هنا على وجه المثال لا الحصر هذا المشهد الذى شهد له فيه كبار القوم بالحكمة والذكاء والفطنة وسرعة البديهة وقوة الادراك ذلك المشهد هو اشتراكه - ﷺ - فى بناء الكعبة بعد ما تصدعت ووقوفه بعد ذلك لحل مشكلة استعصى علاجها بين قومه ألا وهى وضع الحجر الأسود من الذى ينال هذا الشرف ويفوز بتلك الرفعة ؟

لقد أوشكوا أن تفصل السيوف بينهم وما أدراك ما السيوف إذا كانت هى الحكم فى الخلاف إذن فلتسفك الدماء ولتفصل الرؤوس فما الذى حدث ؟

ها نحن أولاء نذكر نبذة عن الكعبة شرفها الله وأبقاها كريمة عزيزة طاهرة تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء

الكعبة أول بيت بنى على اسم الله ولعبادة الله وتوحيده فيه ، بناه أبو الانبياء ابراهيم عليه السلام بعد أن عانى من حرب الأصنام وهدم المعابد التى نصبت ، بناها بوحى من الله تعالى وأمره له بذلك ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا** ﴾[1] .

وقال سبحانه وتعالى ﴿ **وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[2] وقد تعرضت الكعبة بعد ذلك للعوادى التى أوهت بنيانها وصدعت جدرانها وكان من بين هذه العوادى سيل عرم جرف مكة قبل البعثة بسنوات قليلة حيث زاد ذلك من تصدع جدرانها وضعف بنيانها فلم تجد قريش بدا من إعادة تشييد الكعبة حرصا على ما لهذا البناء من حرمة وقداسة خالدة ولقد كان احترام الكعبة وتعظيمها بقية مما ظل محفوظا من شرعة ابراهيم عليه السلام بين العرب ولقد شارك الرسول ﷺ - قبل البعثة فى بناءا لكعبة وأعاد تشييدها مشاركة فعالة فلقد كان ينقل الحجارة على كتفه ما بينها وبينه إلا ازاره وكان له من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة فى الأصح .

ولقد كان له - ﷺ - أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى ابداه حلا للمشكلة علما منهم بأنه الأمين المحبوب من الجميع .

لقد كان لهذا الحكم الذى وفق الرسول له عظيم الأثر لقد اختلفت قريش أيهم له الفخار بوضع الحجر فى هذا المكان واستمر الخلاف حتى كادت الحرب الأهلية تنشب بسببه .

تحالف بنو عبد الدار وبنو عدى أن يحولوا بين أية قبيلة وهذا الشرف العظيم وأقسموا على ذلك جهد أيمانهم حتى قرب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما وأدخلوا أيديهم فيها توكيدا لأيمانهم ولذلك سموا (لعقة الدم)

فلما رأى أبو أمية بن المغيرة المخزومى ما صار إليه أمر القوم ، وكان أسنهم وكان فيهم شريفا مطاعا قال لهم : اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل من باب الصفا فلما رأوا محمدا أول من دخل

---

١ - الآية ٩٦ من سورة آل عمران
٢ - الآية ١٢٧ من سورة البقرة

قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه وقصوا عليه قصتهم وسمع هو لهم ورأى العداوة تبدو فى أعينهم ففكر قليلا ثم قال : هلم إلى ثوبا فأتى به فنشره وأخذ الحجر فوضعه بيده فيه ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب فحملوه جميعا إلى ما يحازى موضع الحجر من البناء ثم تناوله محمد من الثوب ووضعه فى موضعه وبذلك انحسم الخلاف وانفض الشر وأتمت قريش بناء الكعبة حتى جعلت ارتفاعها ثمانى عشرة ذراعا ورفعوا بها عن الأرض هكذا وقف الصادق الأمين موقفا شهد له التاريخ فيه بالحكمة وبعد النظر فقد كان صلوات الله وسلامه عليه ثاقب الفكر صائب الرأى عبقرى الفؤاد ذكى القلب .

شهادات الفلاسفة والمفكرين

تولستوى

قال تولستوى الفيلسوف الروسى تحت عنوان (من هو محمد) ؟

(إن محمدا ـ ﷺ ـ هو مؤسس ورسول الديانة الاسلامية التى يدين بها فى جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس (يعنى فى حساب وزمان تولستوى)

ثم قال : ولد النبى محمد ـ ﷺ ـ فى بلاد العرب سنة ٥٧١ بعد ميلاد المسيح عليه السلام من أبوين فقيرين وكان فى حداثة سنة راعيا يرعى الغنم وقد مال منذ صباه إلى الانفراد فى البرارى والأماكن الخالية حيث كان يتأمل فى الله وخدمته ـ أى طاعته ـ إن العرب المعاصرين له عبدوا أربابا كثيرة وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها فأقاموا لها أنواع التعبد وقدموا لها الضحايا المختلفة ومنها الضحايا البشرية ومع تقدم سن محمد كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب وأن ديانة قومه ديانة كاذبة وأن هناك إلها واحدا حقيقيا لجميع الشعوب .

وقد ازداد هذا الاعتقاد فى نفس محمد حتى اعتزم أن يدعو مواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الصحيح الراسخ فى فؤاده ثم دفعه إلى ذلك عامل داخلى وهو أن الله اصطفاه لارشاد أمته وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة وإنارة أبصارهم بنور الحق فأخذ من ذلك العهد ينادى باسم اعتقاده الراسخ .

وبعد ما وصف تولستوى الديانة الاسلامية وصفا صحيحا موجزا قال :

(وفى سنى دعوة محمد الأولى تحمل محمد كثيرا من الاضطهاد شأن كل نبى بعث قبله نادى أمته إلى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته مع أن محمدا لم يقل إنه النبى الوحيد بل جاء متمما للرسالات السابقة ودعا قومه إلى هذا الاعتقاد أيضا) .

ومما يذكر أن هذا الفيلسوف قد نال خطاب ثناء وشكر من الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية الأسبق .

(كارليل)

يقول الفيلسوف كارليل فى كتابه الأبطال: (وإنى لأحب محمدا لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا واعظاما وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله لقد كان فى هؤلاء

العرب جفاء وغلظة وكانوا حماة الأنوف وأباة الضمير فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى خضعوا له واستفادوا فذلكم وأيم الله بطل كبير ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا فى طاعتهم مقدار ما ناله فى ثوبه المرقع بيده فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال .

دائرة المعارف البريطانية

جاء فى دائرة المعارف البريطانية ما نصه :

(كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة وأكثرها نجاحا وتوفيقا) .

دينســـــون

يقول دينسون عنه - ﷺ - فى كتابه (الحركات كأساس للحضارة) .

(وفى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التى كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها وكان يبدو إذذاك أن المدنية الكبرى التى قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية .

إذ القبائل تتحارب وتتناحر لا قانون ولا نظام وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم بأجمعه) .

جيمـــس متشـــز

يقول عن رسول الله - ﷺ - :

(إن محمدا هذا الرجل الملهم الذى اقام الاسلام ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية فى قبيلة عربية تعبد الأصنام ولد يتيما محبا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبه الجزيرة العربية وفى الشرق كله فقد حطم الأصنام بيديه وأقام دينا يدعو إلى الله وحده وأرشد العالم إلى أنه بشر مثلهم أرسله الله بشيرا ونذيرا) .

البروفيسور جارسون دى تاس

قال فى كتابه (الاسلام) إن محمدا رسول الله - عليه الصلاة والسلام كان منذ نعومة أظفاره مجانبا للرذيلة محبا للفضيلة حتى أطلق عليه بنو قومه الصادق الأمين .

البروفيســور كــارادى فــو

(إن محمدا أتم طفولته فى الهدوء ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة وكان النبى والملهم والمؤسس ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا التى كان عليها ومع ذلك فإنه لم ينظر إلى نفسه كرجل من عنصر آخر أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين إن شعور المساواة والاخاء الذى أسسه محمد بين اعضاء الكتلة الاسلامية كان يطبق عمليا حتى على النبى نفسه) .

(رأى المستشرق الأمريكى إدوارد ورمسى)

رأى المستشرق الأمريكى ادوارد ورس

قال : (كانت بلاد العرب غارقة قبل نبوة محمد - ﷺ - فى أحط الدركات ، حتى يصعب علينا وصف تلك الخزعبلات التى كانت سائدة فى كل مكان ، فالفوضى العظيمة التى كان الناس منهمكين فيها فى ذلك العصر ، وجرائم الأطفال [يعنى قتلهم خشية الاملاق] ووأد البنات وهن أحياء والضحايا البشرية التى كانت تقدم باسم الدين ، والحروب الدائمة التى تنشب آنا بعد آن بين القبائل المختلفة ، والنقص المستديم فى نفوس أهل البلاد وعدم وجود حكومة قوية ، كل هذه كانت سببا فى سيادة الهمجية بين الناس ، وازدياد الجرائم وانتهاك الحرمات ، وهذه حقيقة يحملها التاريخ ولا يمكن إنكارها) .

ثم قال :

(كانت بلاد العرب فى حالة تشويش وبلبلة ، وفى فوضى منتشرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ أية أمة من الأمم ، حتى أن بيت الله الحرام الذى بناه ابراهيم الخليل - عليه السلام - لاقامة الشعائر الدينية فيه قد حول إلى معبد يحتوى على أربعمائة صنم لكل قبيلة صنم يعبدونه) .

ثم يقول :

(كان العرب يعيشون فى جو فاسد مملوء بالغبار والميكروبات الاجتماعية ، حتى أن مجرد ذكرى هاتيك الأيام تقشعر منها النفوس ، وهكذا كانت أحوال سكان شبه جزيرة العرب وتلك هى عاداتهم حينما جاء محمد - ﷺ - شارحا للعالم رسالة الواحد القهار حاملا بيده اليمنى الهدى والفرقان [يعنى القرآن] وبيده اليسرى نور المدينة الوضاء ، وإنما ذلك ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن (به - عز وجل -) .

ثم قال : (وهناك بزغ فجر عصر جديد كان يرى فى الأفق ، وبشرت الأيام بسطوع شمس العرفان وانقشاع سحب الجهالة المظلمة التى أخفت النور السماوى عن أبصار الناس زمنا طويلا ، وأتى اليوم الذى أعادت فيه يد المصلح العظيم محمد - ﷺ - ما فقد من العدل والحرية والتسامح والفضيلة ، أتى الوحى من عند الله إلى رسوله الكريم ، ففتحت حججه العقلية السديدة أعين أمة جاهلة فانتبه العرب وتحققوا أنهم كانوا نائمين فى أحضان الرذيلة المظلمة ، ولنتصور سكان البادية حينما رأوا أصنامهم تكسر على مرأى ومسمع منهم ، وهم المشهورون بالشجاعة والصلابة فى الرأى وعدم الخضوع للغير ، أفلا يثور ثائرهم ويهبون لقتل محمد - ﷺ - ؟ ولكنه كان يتكلم بكلام الله ربه فقد كانوا يشعرون بذلك حيث يجدون فى نبرات صوته هدى وتأثيرا كبيرا ، ولهذا لم يستطيعوا القيام ضد تيار الحق ولم يجدوا بدا من السلوك فى النقاء الجديد ، لأنه اجتاح كل الموانع والسدود كما يجتاح السيل الجارف كل شىء يقف فى طريقه ، وهكذا انتصرت الفضيلة على الرذيلة ، وأخمدت قوة الله هاتيك الشرور والآثام ، وحررت الانسانية من قبضة الوحشة) .

وفى الختام قال :

(وبالاجمال أتى الوحى من عند الله العلى القدير إلى رسوله ونبيه الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ففتحت حججه العقلية أعين تلك الأمة الغافلة) .

لويل توماس

وقال الكاتب الانجليزى الكبير لويل توماس : (قبل أن يكتشف كولمب أمريكا بألف سنة أبصرت عينا الطفل القرشى محمد بن عبد الله النور فى مكة ، فكأن الله اختار هذا الطفل ليغير به تاريخ العالم ، وكان فى طفولته يرعى الماعز والغنم فيقودها إلى أعالى الجبال التى تحيط بمكة إحاطة السوار بالمعصم ، ولما شب وأينع راح يذهب إلى سوريا فى تجارة بمال إحدى نساء قريش - يشير إلى السيدة خديجة - وسرعان ما يشعر بأن قومه الذين يعبدون الأوثان كانوا على ضلال يتمسكون بدين منبعث من الأوهام والأساطير ، فبعث بدين متسامح رضى أن يقبله الانسان بدون مشقة ، وقد علَّم أصحابه حب آدم وابراهيم وموسى وعيسى واعتبارهم أنبياء مرسلين) .

ثم قال توماس : (لقد كان محمد العربى القرشى النبى الهاشمى والرسول التهامى أول من وحد قبائل العرب المتنافرة فى تلك الجزيرة ، وأول من ألف قلوب شعوبها المتقاتلة ، وجمع كلمتها تحت راية واحدة جاء محمد وجمع كلمة العرب ووحد صفوف العرب ولكن لا باستعمال القوة والاعتماد على الشدة ، بل بكلام عذب حكيم ، أخذ منهم كل مأخذ ، فاتبعوه وآمنوا به وقد فاق فتى مكة جميع الرسل وقادة الرجال بصفات لم تكن معروفة لدى العرب ، فجمع بين القلوب المتفرقة وجعل منها قلبا واحدا .

ومات النبى محمد - ﷺ - وتدفقت بعده موجة فتوحات الاسلام فاجتازت الصحارى ودخلت المدن ، وذلك لتجعل ذكرا خالدا أبديا لذلك الرجل العظيم الذى انتجته وأنبتته صحراء قاحلة ، فأثمر ثمرا لم يحلم به العالم من قبل ، وامتدت هذه الموجة فعمت آسيا وافريقيا إلى أن استولت على أواسط أوربا ، تلك الموجة التى لم تلحق بها موجة الرومان فى إبان مجدهم وعهد عظمتهم) .

وفى الختام قال توماس :

(وفى ذلك العصر عصر الفتوحات الاسلامية قدم العرب للعالم أجمع أعلم رجال الاسلام وأكثرهم ثقافة ومعرفة وبذلك فإن الاسلام قد حل بالعالم وانتشر فى ربوعه بسرعة البرق .

ادوارد مونيته مدير جامعة جينيف

قال فى محاضراته التى ألقاها :

(ولقد انتشر الاسلام منذ نشأته بسرعة ، وقلما توجد ، بل لا توجد أبدا ديانات كانت تنتشر بمثل هذا الانتشار ، وإن ما صادفه الاسلام من أول عهده كان عظيما وباهرا ، حتى لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التى وطدت سلطة نبى الاسلام - ﷺ - وإصلاحه بعيدا عن حدود بلاد العرب ، لقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن أن نجاح العقيدة الاسلامية يرجع إلى العنف وإلى قوة السيف فى عهد محمد - ﷺ - وعهود خلفائه الأولين (يريد الخلفاء الأربعة) ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع ، فإن الفكرة لا تضع موضع الاعتبار العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها) .

وقال مونتيه فى محاضرة أخرى بجنيف ما ترجمته :

(الاسلام فى واقع الأمر ينتشر نوعا ما من تلقاء نفسه ، أريد أن أقول : (إنه ينتشر بواسطة المسلمين انفسهم لأن كل مسلم فى البلاد الوثنية رسول لدينه مبدئيا ، فالمسلم على وجه العموم مؤمن قوى العقيدة ، تلك خاصية من خاصيات الدين الاسلامى أن يستحوذ تماما على نفس المؤمن بكليته وجزئيته ، وأنه إن وجد عدد من المسلمين فاترى العزيمة أو من غير المبالين فإن الحمية من الصفات المميزة للدين الاسلامى ، وإننى اكرر أن المسلم غالبا يحمل فى جسمه أنسجة المبشر ، فالاسلام كما قلنا ينتشر من تلقاء نفسه ، فهو ينتشر بواسطة القوافل التى تذهب للتجارة إلى البلاد الوثنية ، أو الديار التى تعبد فيها الأصنام ، فرسل الاسلام تدفعهم الغيرة للتبشير إلى الالتجاء إلى الوسائل المختلفة الملائمة لكل حالة خاصة فى البلاد وفى الشعوب التى يقومون فيها بأداء عملهم الدينى ، وهنا نرى العامل الدينى يعمل عمله بجانب العاملين : الاجتماعى والاقتصادى ، فالاسلام فى البلاد الشاسعة التى ينتشر فيها ويمتد نفوذه ينم لنا عن حالة اجتماعية واقتصادية فى أرقى الحالات وتباعا يعتبر من أولى وسائل التقدم والرقى) .

الدكتور ليتز

يقول : (إننى لأجرؤ بكل أدب أن أقول : ان الله الذى هو مصدر ينابيع الخير والبركات كلها لو كان يوحى إلى عباده فدين محمد ـ ﷺ ـ هو دين الوحى ، ولو كانت آيات الإيثار والأمانة والاعتقاد الراسخ القوى ووسائل التمييز بين الخير والشر ودفع الباطل هى الشاهدة على الالهام فرسالة محمد هى هذا الالهام) .

البروفيسور بورسورث سميث

يقول : (عندما ألقى نظرة إجمالية أستعرض فيها صفات محمد وبطولته ، ما كان منها فى بدء نبوته ، وما حدث منها فيما بعد ، وعندما أرى أصحابه الذين نفخ فيهم روح الحياة ـ وكم من البطولات المعجزة أحدثوا ـ أجده أقدس الناس وأعلاهم مرتبة حتى إن الانسانية لم تعرف له مثيلا) .

توجيهات وآداب ربانية

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا
كَرِيمًا (٣١) يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ
ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ
ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ
مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ
وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ
وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ
وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٣٥) ﴾

معانى المفردات

(يقنت) القنوت : الطاعة فى سكون والعبادة فى خشوع .
(مرض) تطلع إلى الفسق والفجور .
(وقرن فى بيوتكن) يقال : قررت فى المكان أقر به إذا أقمت فيه .
(ولا تبرجن) التبرج : الظهور مع إظهار ما يجب ستره .
(الرجس) الدنس الحسى (والحكمة) هى حديث رسول الله - ﷺ - .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال ، مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ، ولا يخشين من أجله العقاب ، وفى الآخرة يرزقن مالا يحد ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

وبعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذا هن استقبلن أحدا حتى لا يطمع فيهن من فى قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار فى بيوتهن ، ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهم أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وطاعة الله

ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه سبحانه أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيرا ، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعنه من النبى (ﷺ) من السنة .

وبعد أن أمر سبحانه نساء نبيه (ﷺ) بأشياء ونهاهن عن أخرى ، ذكرهنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده فى الدار الآخرة ، روى أحمد عن عبد الرحمن بن شبية قال : « سمعت أم تسلمة زوج رسول الله (ﷺ) تقول : قلت للنبى (ﷺ) : مالنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر : يا أيها الناس : إن الله تعالى يقول فى كتابه (إ المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ـ إلى قوله تعالى : ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ [1] .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما ﴾ .

أى : من تطع منكن وتستجب لله ـ تعالى ـ ورسوله (ﷺ) وتعمل من الصالحات ، وتفعل الطيبات ، وتجتنب المنهيات نضاعف لها الأجر والثواب ، وأعتدنا لها رزقا كريما فى الدنيا والآخرة فإن أزواج النبى (ﷺ) أمهات المؤمنين وهن فى الآخرة مع رسول الله (ﷺ) فى الجنة وكفى بهذا شرفا وقدرا .

قوله تعالى :

﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا . واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ هذه آداب ربانية وتوجيهات إلهية حكيمة اشتملت على نصائح قيمة رفيعة ، خاطب الله بها نساء النبى ونساء الأمة تبعا لهن ، ومن ظن أنها مقصورة على نساء رسول الله محتجا بقوله تعالى : ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ﴾ فقد أعظم على الله الفرية ، فإن نساء الأمة مأمورات بما أمر الله به نساء نبيه (ﷺ) ولكن نساء النبى لسن كأحد من نساء الأمة فى العقوبة والمثوبة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا . ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن اتقيتن ﴾ أى : أن أتيتن بتقوى الله فليس هناك من يعد لكن من نساء الأمة إذ التقوى هى السلاح الأقوى .

ثم ساق الآداب والتوجيهات فقال : ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ قال السدى ـ رضى الله عنه ـ يعنى بذلك : ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ولهذا قال تعالى : ﴿ فيطمع الذى فى قلبه مرض ﴾ أى : دغل ومرض القلوب قد يكون مرض شبهة ، وقد يكون مرض شهوة كما فى هذه الآية .

---

(١) مسند الامام احمد جـ ٦ ص ٣٠١ فقد ورد الحديث عن عبدالرحمن بن شيبة .

أما مرض الشبهة فكما فى قوله جل شأنه : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ قوله تعالى: ﴿ وقلن قولا معروفا ﴾ .

قال ابن زيد : قولا حسنا جميلا معروفا فى الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أى : لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

قوله تعالى: ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾ أى الزمن بيوتكن . ففيها الوقار والسكينة لكن والاحترام والهيبة . فالمرأة فى بيتها مصباح مضىء وسراج منير ، ولا تخرجن إلا لحاجة . ومن الحوائج الشرعية : الصلاة فى المسجد بشرطه كما قال رسول الله (ﷺ) : (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله وليخرجن وهن تفلات) [1] وفى رواية : (وبيوتهن خير لهن) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : جاءت النساء إلى رسول الله (ﷺ) فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله ـ تعالى ـ فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله (ﷺ) : (من قعدت ـ أو كلمة نحوها ـ منكن فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله تعالى)[2] ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح ، وهو بصرى مشهور .

وقال البزار بسنده عن عبد الله رضى الله عنه عن النبى (ﷺ) قال : (إن المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان وأقرب ما تكون بروحة ربها وهى فى قعر بيتها)[3] .

وروى البزار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضا عن النبى (ﷺ) قال : (صلاة المرأة فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها وصلاتها فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها)[4] وهذا إسناد جيد .

قوله تعالى : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ لأئمة التفسير أقوال فيها . قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشى بين يدى الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ يقول : إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله عن ذلك . وقال مقاتل بن حيان : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ والتبرج أنها تلقى الخمار على رأسها ولا تشده ، فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها وذلك التبرج هو ثم عمت نساء المؤمنين فى التبرج .

قوله تعالى : ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ بعد أن نهاهن عن السوء

---

(١) انظر سنن أبى داود جـ ١ ص ٣٨١ ، ٣٨٢ « كتاب الصلاة » باب ماجاء فى خروج النساء إلى المساجد حديث رقم ٥٦٥ ، حديث رقم ٥٦٧ .

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار « كتاب النكاح » باب ثواب من أطاعت زوجها « جـ ٢ ص ١٨٢ حديث رقم ١٤٧٥ من رواية لأنس ، قال البزار ؛ لا نعلم من رواه عن ثابت الا روح وهو بصرى مشهور .

(٣) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب الرضاع) باب ١٨ حديث رقم ١١٨٣ فقد ورد الحديث عن رواية لعبد الله ابن عمر بلفظ : (المرأة عورة ، فإذا اخرجت استشرفها الشيطان) وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٤) انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب التشديد فى ذلك ٥٤ أى فى خروج النساء إلى المساجد حديث رقم ٥٧٠ برواية عن عبد الله بن مسعود بلفظ : (صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها ، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها) .

أمرهن بإقام الصلاة ففى الصلاة عصمة وأمان . قال تعالى ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾[١] وقال : ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾[٢] وقال : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه صلى ﴾[٣] وقال ﴿ واستعينو بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين . الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾[٤] ففى الصلاة طهرة للمصلى من اللغو والرفث ، كما أمرهن بعد ذلك بإيتاء الزكاة ففيها طهرة المال وطهرة القلوب من الشح . قال تعالى : ﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾[٥] وقد جاءت الزكاة مقترنة بالصلاة فى أساليب متنوعة وصيغ مختلفة جاءت بصيغة الماضى كما فى قوله تعالى ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾[٦] وجاءت بصيغة المضارع كما فى قوله تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله - إن الله عزيز حكيم ﴾[٧] وجاءت بصيغة الأمر كما فى قوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾[٨] .

وجاءت بصيغة الصفة كما فى قوله تعالى ﴿ لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾[٩] وجاءت بصيغة المصدر كما فى قوله تعالى ﴿ فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيهم اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال . رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[١٠] .

قوله تعالى : ﴿ وأطعن الله ورسوله ﴾ أى فى كل ما آمر به ونهى عنه وهو من باب عطف العام على الخاص .

قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ .

قال الامام ابن كثير هذا نص فى دخول أزواج النبى - ﷺ - فى أهل البيت ههنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولا واحدا ، إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادى فى السوق ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس

---

(١) سورة العنكبوت من الاية : ٤٥ .
(٢) سورة المؤمنون الآيتان : ١ - ٢ .
(٣) سورة الأعلى الآيتان : ١٤ - ١٥ .
(٤) سورة البقرة الآيتان : ٤٥ - ٤٦ .
(٥) سورة المؤمنون آية : ٤ .
(٦) سورة التوبة آية : ١٨ .
(٧) سورة التوبة آية : ٧١ .
(٨) سورة المزمل آية : ٢٠ .
(٩) سورة النساء آية : ١٦٢ .
(١٠) سورة النور الآيتان : ٣٦ - ٣٧ .

أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ نزلت فى نساء النبى (ﷺ) خاصة[1] وهكذا روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ﴾** قال نزلت فى نساء النبى (ﷺ) خاصة ، وقال عكرمة : من شاء باهلته إنها نزلت فى شأن نساء النبى (ﷺ) فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففى هذا نظر فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك .

قال الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله (ﷺ) كان يمر بباب فاطمة رضى الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : (الصلاة يا أهل البيت) **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾**[2] .

وقال الامام أحمد بسنده عن عطاء بن أبى رباح حدثنى من سمع أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ تذكر أن النبى ـ ﷺ ـ كان فى بيتها فأتته فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ببرمة فيها خزيرة فدخلت عليه بها فقال ـ ﷺ ـ لها : (ادعى زوجك وابنيك) قالت : فجاء على وحسن وحسين ـ رضى الله عنهم ـ فدخلوا عليه فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة له وكان تحته ـ ﷺ ـ كساء خيبرى قالت وأنا فى الحجرة أصلى فأنزل الله عز وجل هذه الآية **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾** قالت ـ رضى الله عنها ـ فأخذ ـ ﷺ ـ فضل الكساء فغطاهم به ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء ثم قال : (اللهم هؤلاء أهل بيتى وخاصتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) قالت : فأدخلت رأسى البيت فقلت : وأنا معكم يا رسول الله ؟ فقال ـ ﷺ ـ (إنك إلى خير إنك إلى خير)[3] .

قال ابن جرير بسنده عن حكيم بن سعد قال ذكرنا على بن أبى طالب رضى الله عنه عند أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ فقالت : فى بيتى نزلت **﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾** . قالت أم سلمة : جاء رسول الله (ﷺ) إلى بيتى فقال : (لا تأذنى لأحد) فجاءت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ فلم أستطع أن أحجبها عن أبيها ، ثم جاء الحسن ـ رضى الله عنه ـ فلم أستطع أن أمنعه أن يدخل على جده وأمه ، ثم جاء الحسين فلم أستطع أن أحجبه عن جده (ﷺ) وأمه ـ رضى الله عنها ـ ثم جاء على ـ رضى الله عنه ـ فلم أستطع أن أحجبه ، فاجتمعوا فجللهم رسول الله ـ ﷺ ـ بكساء كان عليه ثم قال : (هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) . فنزلت هذه الآية حين اجتمعوا على البساط قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا ؟ قالت فوالله ما أنعم

---

(١) انظر تفسير الطبرى : جـ ٢٢ ص ٧ : تفسير سورة الأحزاب فقد ورد الحديث عن علقمة قال : (كان عكرمة ينادى فى السوق .. الخ .

(٢) انظر تحفة الأحوذى بشرح الترمذى تفسير سورة الأحزاب جـ ٩ ص ٦٧ ـ ٦٨ حديث رقم ٣٢٥٩ فقد ورد الحديث بلفظة عن أنس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب قول الله تعالى **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين ﴾** جـ ٨ ص ٣٥ وانظر مسلم « كتاب البر » باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله جـ ٨ ص ٢٩ .
انظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٣٨٤ ، ٤٣٢ فقد ورد الحديث بهذا المعنى بروايتين مختلفتين : الأولى عن شقيق عن عبد الله ، والثانية عن أبى وائل عن عبد الله .

وقال : (إنك إلى خير)[١] .

وقال الامام أحمد بسنده عن عطية الطفاوى عن أبيه قال : إن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ حدثته قالت : بينما رسول الله فى بيتى يوما إذ قالت الخادم إن فاطمة وعليا ـ رضى الله عنهما ـ بالسدة قالت : فقال لى رسول الله (ﷺ) (قومى فتنحى عن أهل بيتى) قالت : فقمت فتنحيت فى البيت قريبا فدخل على وفاطمة ومعهما الحسن والحسين ـ رضى الله عنهم ـ وهما صبيان صغيران ، فأخذ الصبيين فوضعهما فى حجره فقبلهما واعتنق عليا ـ رضى الله عنه ـ بإحدى يديه وفاطمة ـ رضى الله عنها ـ باليد الأخرى ، وقبل فاطمة وقبل عليا وأغدق عليهم خميصة سوداء وقال : (اللهم إليك لا إلى النار أنا وأهل بيتى) قالت : فقلت وأنا يا رسول الله ؟ قال ـ ﷺ ـ : (وأنت)[٢] .

وقال ابن جرير بسنده عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ قالت : إن هذه الآية نزلت فى بيتى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾ . قالت : وأنا جالسة على باب البيت ، فقلت : يا رسول الله ، ألست من أهل البيت ؟ فقال ـ ﷺ ـ (إنك إلى خير ، أنت من أزواج النبى (ﷺ) قالت وفى البيت رسول الله ـ ﷺ ـ وعلى وفاطمة والحسن والحسين ـ رضى الله عنهم[٣] .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن محمد بن يزيد عن العوام يعنى ابن حوشب ـ رضى الله عنه ـ عن ابن عم له قال : دخلت مع أبى على عائشة ـ رضى الله عنها ـ فسألتها عن على ـ رضى الله عنه ـ فقالت ـ رضى الله عنها ـ : تسألنى عن رجل كان من أحب الناس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت تحته إبنته وأحب الناس إليه ؟ لقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ دعا عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ـ رضى الله عنهم ـ فألقى عليهم ثوبا فقال : (اللهم هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا) . قالت : فدنوت منهم فقلت يا رسول الله : وأنا من أهل بيتك ؟ فقال ـ ﷺ ـ : (تنحى فإنك على خير) .

وقال ابن جرير بسنده عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله (ﷺ) : (نزلت هذه الآية فى خمسة : فى ، وفى على ، وحسن ، وحسين ، وفاطمة) ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾[٤] .

وقال مسلم فى صحيحه : حدثنى زهير بن حرب وشجاع بن مخلد جميعا عن ابن علية قال زهير : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم ، حدثنى أبو حيان ، حدثنى يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمر بن مسمة إلى زيد بن أرقم ـ رضى الله عنه ـ فلما جلسنا إليه قال له حصين : لقد لقيت يازيد خيرا كثيرا رأيت رسول الله (ﷺ) وسمعت حديثه وغزوت معه وصليت خلفه لقد لقيت يا زيد خيرا كثيرا .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ـ تفسير سورة الأحزاب ـ جـ ٢٢ص ٦، ص ٧ فقد ورد الحديث عن حكيم بن سعد
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٦ ص ٢٩٢ و ٢٩٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى رباح وعن عطية الطفاوى عن أميه وانظر ص ٣٠٤ و ٣٠٥
(٣) انظر تفسير الطبرى (تفسير سورة الأحزاب) جـ ٢٢ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى سعيد عن أم سلمة .
(٤) انظر تفسير الطبرى (تفسير سورة الأحزاب . . جـ ٢٢ ص ٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى سعيد الخدرى) .

حدثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله (ﷺ) قال : يا ابن أخى والله لقد كبرت سنى وقدم عهدى ونسيت بعض الذى كنت أعى من رسول الله (ﷺ) فما حدثتكم فاقبلوا وما لا فلا تكلفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله (ﷺ) يوما خطيبا بماء يدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال : (أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتينى رسول ربى فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به) فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال : (وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيتى) ثلاثا . فقال له حصين ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال ومن هم ؟ قال هم آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس - رضى الله عنهم - قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال نعم[1] .

قال ابن كثير : والذى لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبى (ﷺ) داخلات فى قوله تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾ . فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ قال ابن جرير : واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آيات الله والحكمة . وهى السنة ، خبيرا بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

وقال قتادة : ﴿ واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ قال يمتن عليهن بذلك رواه ابن جرير .

وقال عطية العوفى فى قوله تعالى : ﴿ إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾ يعنى لطيفا باستخراجها خبيرا بمواضعها . رواه ابن أبى حاتم ثم قال وكذا روى عن الربيع بن أنس عن قتادة .

قوله تعالى ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

---

(١) انظر صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة جـ ٤ ص ١٨٧٣ حديث رقم ٣٦ - ٣٤٠٨ من رواية زيد بن أرقم وقد ورد الحديث بلفظه .
وانظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ٣٦٦ - ٣٦٧ حديث (زيد بن أرقم - رضى الله تعالى عنه -) فقد ورد الحديث بلفظه .

قال الامام أحمد بسنده عن عبدالرحمن بن شيبة قال : سمعت أم سلمة رضى الله عنها زوج النبى (ﷺ) تقول : قلت للنبى (ﷺ) ما لنا لا نذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت :. فلم يرعنى منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعرى ثم خرجت إلى حجرتى حجرة بيتى فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول عند المنبر : (يا أيها الناس إن الله يقول : إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) إلى آخر الآية(١) .

قوله تعالى : ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ يفيد أن الاسلام غير الايمان ، فالاسلام هو الامتثال الظاهرى والايمان هو التصدق القلبى . كما قال تعالى : ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم ﴾ .

وقال - ﷺ - : (لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن)(٢) ومعنى ذلك أن الايمان يسلب منه حين الزنا ولكن لا يسلب منه الاسلام . فهو ليس بكافر بإجماع المسلمين . والاسلام والايمان وإن كانا متغايرين مفهوما إلا أنهما قد يتحدان أفرادا . قال تعالى : ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾(٣) ومعلوم أن المقصود بهم هم الذين آمنوا بلوط - عليه السلام - وهم مسلمون فى نفس الوقت . وهم أهل بيته ولابد أن يتوافر للمرء لكى ينجو . الاقرار باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان .

قوله تعالى : ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ القنوت هو الطاعة فى سكون .
قال تعالى : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ﴾(٥) ﴿ يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾(٦) ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾(٧) فالاسلام بعده مرتبة يرتقى إليها وهو الايمان ثم القنوت ناشىء عنهما .

﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هذا فى الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ولهذا كان بعض الصحابة - رضى الله عنهم - لم تجرب عليه كذبة لا فى الجاهلية ولا فى الاسلام ، وهو علامة على الايمان كما أن الكذب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا ، عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر

---

(١) انظر مسند الامام احمد جـ ٦ ص ٣٠١ فقد ورد الحديث من رواية عبدالرحمن بن أبى شيبة .
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٣٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى الزبير من حديث طويل .
(٣) سورة الذاريات الآيتان : ٣٥ - ٣٦ .
(٤) سورة الزمر آية : ٩ .
(٥) سورة الروم آية : ٢٦ .
(٦) سورة آل عمران آية : ٤٣ .
(٧) سورة البقرة من الآية : ٢٣٨ .

يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا[١] ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا) والايمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك .

﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هذه سجية الاثبات وهى الصبر على المصائب والعلم بأن المقدر كائن لا محالة وتلقى ذلك بالصبر والثبات وإنما الصبر عند الصدمة الأولى ، أى أصعبه فى أول وهلة ثم ما بعده أسهل منه وهو صدق السجية وثباتها .

﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ .

الخشوع : السكون والطمأنينة والتؤدة والوقار والتواضع والحامل عليه الخوف من الله تعالى ومراقبته كما فى الحديث : (اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[٢] .

﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ .

الصدقة هى الاحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب . يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحسانا إلى خلقه وقد ثبت فى الصحيحين . قوله (ﷺ) (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : أمام عادل وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى . ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله . ورجل قلبه معلق بالمساجد . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع)[٣] وفى الحديث الآخر : (والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار)[٤] .

﴿ والصائمين والصائمات ﴾ : فى الحديث الذى رواه ابن ماجه : (الصوم زكاة البدن)[٥] أى يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعا وشرعا ، قال سعيد

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ جـ ٨ ص ٣٥ وانظر مسلم « كتاب البر » باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله جـ ٨ ص ٢٩ .
وانظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٣٨٤ ، ٤٣٢ فقد ورد الحديث بهذا المعنى بروايتين مختلفتين : الأولى عن شقيق عن عبد الله ، والثانية عن أبى وائل عن عبد الله .

(٢) انظر مجمع الزوائد (كتاب الصلاة) باب فى صلاة العشاء الآخرة والصبح فى جماعة جـ ٢ ص ٤٠ فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل لابى الدرداء .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب فضل إخفاء الصدقة حديث رقم ٩١ ـ ١٠٣١ فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة .
وانظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٤٣٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة من رواية أخرى .

(٤) انظر سنن ابن ماجه جـ ٢ كتاب الزهد (باب الحسد) حديث رقم ٤٢١٠ ص ١٤٠٨ وقد ورد أيضا من رواية لأنس فى كتاب الفتن (باب) كف اللسان فى الفتن جـ ٢ حديث رقم ٣٩٧٣ ص ١٣١٤ من رواية لمعاذ .
وانظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٣٩٩ فقد ورد الحديث عن جابر بن عبد الله .

(٥) انظر سنن ابن ماجه جـ ١ ص ٥٥٥ (كتاب الصيام) باب فى الصوم زكاة الجسد) حديث ١٧٤٥ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ (لكل شىء زكاة وزكاة الجسد الصوم) .

ابن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل فى قوله تعالى : ﴿ **والصائمين والصائمات** ﴾ والصوم من أكبر العون على كسر الشهوة قال رسول الله (ﷺ) : (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)(١).

﴿ **والحافظين فروجهم والحافظات** ﴾ أى عن المحارم والمآثم إلا عن المباح كما قال عز وجل : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾(٢) .

﴿ **والذاكرين الله كثيرا والذاكرات** ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : إن رسول (ﷺ) قال :

(إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا **والذاكرات** ﴾(٣)

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : قلت يا رسول الله : أى العباد أفضل درجة عند الله ـ تعالى يوم القيامة ؟ قال (ﷺ) (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) . قال : فقلت يا رسول الله ومن الغازى فى سبيل الله تعالى ؟ قال : (لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دما لكان الذاكرون الله تعالى أفضل منه)(٤).

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كان رسول الله (ﷺ) يسير فى طريق مكة فأتى على جمدان فقال : (هذا جمدان سيروا فقد سبق المفردون) قالوا : وما المفردون ؟ قال (ﷺ) : (الذاكرون الله كثيرا والذاكرات) ثم قال (ﷺ) : (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : والمقصرين قال (ﷺ) (اللهم اغفر للمحلقين) قالوا : والمقصرين . قال (والمقصرين)(٥) .

وقال الامام أحمد حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبدالعزيز بن أبى سلمة عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عباس بن أبى ربيعة قال : إنه بلغنى عن معاذ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : قال رسول (ﷺ) : (ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من تعاطى الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غدا فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟) قالوا : بلى يا رسول الله . قال (ﷺ) : (ذكر الله عز وجل)(٦) .

---

(١) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب النكاح) جـ ٤ ص ١٩٩ حديث ١٠٨٧ من رواية لعبد الله بن مسعود مع اختلاف فى ألفاظه .

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٥ ـ ٧ .

(٣) انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب (قيام الليل) جـ ٢ ص ٧٤ حديث ١٣٠٩ فقد ورد الحديث عن رواية أبى سعيد وأبى هريرة .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب (ما جاء فيمن أيقظ أهله الليل) جـ ١ ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ حديث رقم ١٣٣٥ من رواية أبى سعيد وأبى هريرة .

(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٧٥ فقد ورد الحديث لفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .

(٥) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٤١١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة من حديث طويل وانظر صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء) الخ باب (الحث على ذكر الله ـ تعالى ـ) جـ ٤ ص ٨٦٢ حديث ٢٦٧٦ عن أبى هريرة .

(٦) انظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لمعاذ .

وقال الامام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا زبان بن فايد عن سهل بن معاذ بن أنس الجعنى عن أبيه رضى الله عنه عن رسول الله (ﷺ) قال : إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) (أكثرهم لله تعالى ذكرا) قال فأى الصائمين أكثر أجرا ؟ قال (ﷺ) : (أكثرهم لله عز وجل ذكرا) ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة . كل ذلك يقول (رسول الله ﷺ) (اكثرهم لله ذكرا) فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله (ﷺ) (أجل)[1] .

﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أى : أن الله ـ تعالى ـ قد أعد لهم أى : هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم وأجرا عظيما وهو الجنة .

ومثل هذه الآية قوله تعالى . ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾[2] .

وقوله جل شأنه ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون الا على ازواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾[3] .

وقوله عز وجل: ﴿ الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم . والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . إن عذاب ربهم غير مأمون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك فى جنات مكرمون ﴾[4] .

قصة زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

(١) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٤٣٨ من رواية لمعاذ بن جبل .
(٢) سورة التوبة آية : ١١٢ .
(٣) سورة المؤمنون الآيات : ١ ـ ١١ .
(٤) سورة المعارج الآيات : ٢٢ ـ ٣٥ .

النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾
مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ
النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

معانى المفردات

(الخيرة) الاختيار (مبديه) مظهره (وطرا) الوطر كل حاجة للمرء له فيها همة والمراد : بلغ ما أراد من جاجته منها (حرج) ضيق وإثم .

وزيد بن حارثة بن شر حبيل كان عبدا لخديجة فوهبته للنبى (ﷺ) فأعتقه وتبناه فكان يدعى زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى : ﴿ **ادعوهم لآبائهم** ﴾ فقيل : زيد بن حارثة .

وزينب هذه بنت جحش ، وأخوها عبد الله بن جحش ، وأمها أميمة بنت عبدالمطلب عمة رسول الله (ﷺ) ، فهى من ذؤابة قريش .

روى : أن رسول الله خطب زينب بنت عمته فظنت أن الخطبة لنفسه ، فلما تبين أنه يريدها لزيد كرهت ذلك وامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها ومكانتها من قريش ، وأن زيدا كان بالأمس عبدا فلما نزل قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ رضيا وقال أخوها : مرنى بما شئت فزوجها رسول الله لزيد [1] .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخبر زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا ، وفهم من هذا أن الرسول (ﷺ) لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميله إلى شىء مكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره .

ـ ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الانسان فى كل شىء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها وهى ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع وما أراد النبى (ﷺ) فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا .

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ٩ فقد وردت روايات متعددة فى هذا المعنى .

وقد نزلت هذه الآيات فى زينب بنت جحش بنت عمة النبى (ﷺ) أميمة بنت عبدالمطلب ، وقد خطبها رسول الله (ﷺ) على مولاه زيد بن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش ، فنزل : ﴿ ومـا كان لمؤمن ولا مؤمنة . . ﴾الخ . فلما نزلت قال : رضينا يا رسول الله ، فأنحكها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما ، وخمارا ، وملحفة ، ودرعا ، وإزارا ، وخمسين مدا من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة فى هذا الزواج الذى لما يبال فيه النبى بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعده أصلا ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعى جميع حقوق الابن ويجرون عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب ـ فأراد الله محو ذلك بالاسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح ، ومن ثم قال فى أول السورة : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل . ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعى إلى من تبناه ، والا يكون للمتبنى إلا حق المولى والأخ فى الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ فى النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بارادة قوية تسخر بسلطانها . ولا تجعل لها حكما فى الأعمال إذا كانت المصلحة فى خلاف ذلك ، ومن ثم ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل ، كما ألغى بالقول فى أحد عتقاه . ومن ثم أرغم بنت عمته لتتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهى جديد . ذلك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله ـ (ﷺ) المرة بعد المرة وهو عليه السلام يغلبه الحياء فى تنفيذ حكم الله ويقول لزيد : أمسك عليك زوجك واتق الله ، الى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليمزق حجاب تلك العادة كما قال : ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ ثم أكد هذا بقوله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ الآية وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ انطلق ليخطب على فتاة زيد بن حارثة ـ رضى الله عنه ـ فدخل على زينب بنت جحش الأسدية ـ رضى الله الله عنها ـ فخطبها فقالت لست بناكحته فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (بلى فانكحيه) قالت : يا رسول الله ، أؤمر فى نفسى ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول

الله - ﷺ - قالت : قد رضيته يا رسول الله منكحا ؟ قال رسول الله - ﷺ - (نعم) قالت : إذ لا أعصى رسول الله - ﷺ - قد أنكحته نفسى [1] .

وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ هذه الآية عامة فى جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشىء فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ههنا ولا رأى ولا قول كما قال تبارك وتعالى : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾[2] وفى الحديث (والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به)[3] ولهذا شدد فى خلاف ذلك فقال : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ كقوله تعالى ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم ﴾[4] ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾[5] وكقوله تعالى ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا ﴾[6] .

وكقوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[7] وقوله جل شأنه ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم ﴾[8] .

قوله تعالى : ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

إنعام الله - تعالى - على زيد إنما يتجلى فى نعمة الاسلام والتوحيد والهدايا إلى الحق ، وإنعام النبى - ﷺ - عليه بفضل الله - تعالى - إنما هو بالعتق والتحرير .

روى الامام أحمد بسنده عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - قال كنت فى المسجد فأتانى العباس وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما - فقالا يا أسامة أستأذن لنا على رسول الله - ﷺ - فأتيت رسول الله - ﷺ - فأخبرته فقلت : على والعباس يستأذنان ، فقال - ﷺ - : (أتدرى ما حاجتهما ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال - ﷺ - : (لكننى أدرى) قال فأذن لهما ، قالا : يا رسول الله ، جئناك لتخبرنا أى : أهلك أحب أليك ؟ قال - ﷺ - : (أحب أهلى إلىّ فاطمة بنت محمد) قالا : يا رسول الله ، ما نسألك عن فاطمة ، قال - ﷺ - (فأسامة بن زيد بن حارثة الذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه)[9] وكان رسول الله - ﷺ - قد زوجه بابنة عمه زينب بنت جحش الأسدية - رضى الله عنها - وأمها أميمة

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٢ ص ٩
(٢) سورة النساء آية : ٦٥ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير تفسير سورة النساء - جـ ص ٢٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه .
(٤) سورة النور آية : ٦٣ .
(٥) سورة آل عمران آية : ٣٢ .
(٦) سورة النساء آية ٨٠
(٧) سورة الأنفال من الآية : ٢٤ .
(٨) سورة التوبة جزء الآية : ٦٢ والآية ٦٣ .
(٩) انظر تفسير ابن كثير جـ ٦ تفسير سورة الأحزاب ص ٤١٩ .

بنت بن المطلب وأصدقها عشرة دنانير وستين درهما وخمارا وملحفا ودرعا وخمسين مدّامن طعام وعشرة أمداد من تمر قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريبا من سنة أو فوقها ثم وقع بينها فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) .

قوله تعالى : ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ أى : تخفى فى نفسك الأمر الذى أعلمك الله به من أن زيدا سيطلق زينب وستكون زوجا لك ، وقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد غلبه الحياء فأخفى هذا الأمر ، كما أنه كان يخشى أن يقول الناس عنه إنه تزوج امرأة متبناه ، وقد روى البخارى أن هذه الآية ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه . . ﴾ نزلت فى شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة ـ رضى الله عنهما .

الحكمة من زواج زينب بزيد ثم من الرسول ـ ﷺ ـ

جاء فى كتاب (أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ) للدكتور ابراهيم شعوط ما نسوقه بنصه قال :

١ـ قصة زواج الرسول بزينب بنت جحش :

كانت تقاليد العرب فى الجاهلية تقضى ـ فى نظام الأسرة ـ بأمور :

أحدهما أن المرأة القرشية لا يمكن أن تتزوج مولى من الموالى مهما كانت ثقافته ومنزلته ، وتعتبر مثل هذا الزواج . خروجا على التقاليد والعادات . التى تحترم فروق الطبقات .

ثانيها : أنه إذا حدث أن تزوج المولى بامرأة من قريش وطلقها فإن منزلتها تهون بهوان زوجها . فلا يتزوجها شريف ولا محترم .

وثالثها : أن زوجة الابن المتبنى ، كانت تحرم على الوالد بالتبنى . كما تحرم زوجة الابن من الصلب فلما جاء الاسلام كان لابد له أن يغير من وضع هذا المجتمع ، كما ذكر القرآن الكريم ضمن المحرمات على الرجل قوله تعالى : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾[1] وذلك بخلاف الابناء عن طريق التبنى ويحطم نظام الطبقات ، كما يقضى على عادات الجاهلية الممقوته .

فأوحى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يزوج شريفة قرشية ، من أعلى سلالات قريش نسبا ـ يزوجها ـ من مولاه (زيد) الذى كان رقيقا وأعتقه رسول الله ـ ﷺ ـ ثم تبناه ، ليترتب على هذا الزواج الأمور الآتية :

أولا : أن تكون القرشية التى تقوم بهذا الدور ، هى بنت عمة الرسول ، ومن القمة فى قريش . لتكون تحت هذا المولى ، فتتحطم الفوارق بالأصل والحسب ، ويصبح التفاضل بمعايير أخرى جديدة . تقوم على المبدأ الإلهى الجديد وهو ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[2] ﴿ ولا فضل لعربى على عجمى

---

(١) سورة النساء من الآية : ٢٣ .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٣

إلا بالتقوى﴾[1] فيخطب رسول الله - ﷺ - بنت عمته زينب بنت جحش ، لمولاه أو ابنه المتبنى (زيد ابن حارثة) فيثور الكبرياء العربى فى نفس زينب وأخيها عبد الله بن جحش ، وتتمثل لهما المهانة كلها فى هذا الزواج لكن قرآنا ينزل فى شأن زينب وأخيها بالذات ، ليقطع عليهما طريق الجدل فيتلو عليهما رسول الله - ﷺ - فى أمره تعالى :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا ﴾ .

وخضع الرجل وخضعت المرأة المؤمنة للأمر الالهى ، فسلمت جسدها لزيد ، ولكنها لم تستطع أن تعطيه قلبها الذى تملكه عادات موروثة ويتحكم فيه العجز عن مجابهة الحقيقة الجديدة ، التى لم تسبقها تجربة قبل تطبيقها على زينب ، فتظل جامحة نافرة من قسوة التجربة وغرابة التطبيق ، فلا تستطيع أبدا أن تتصور أن هناك كفاءة بينها وبين زيد ، لأنه شتان بين نسبها ونسبه . وحسبها وحسبه .

وكان موقفها أمام الأمر الالهى ورغبة الرسول ، ينطبق عليه المثل الانجليزى الذى يقول : (فى وسعك أن تأتى بالجواد إلى شاطىء النهر ، ولكن ليس فى وسعك أن تحمله على الشرب وهو لا يريد) .

نعم ، إن زينب استجابت ببدنها وجسدها ، ولكنها تجد الغصة ، دائما فى حلقها ، وتحس التمرد فى قلبها ، كلما تذكرت أنها - وحدها - من بين الشريفات الحرائر ، يكتب عليها الزواج من إنسان كان - إلى عهد قريب - من ضمن العبيد الأرقاء . بينما نظيراتها - ومن هن أقل منها - يتزوجن من أكابر الأشراف والأحرار !!

وكان زيد ، يعانى من تلك العوامل النفسية عند زينب ، أشد ما يعانيه المعذبون فى حياتهم الزوجية .

كان هذا هو التخطيط الالهى لأنه سيترتب على فساد العشرة بين زيد وزينب ، أثر آخر لابد من تحقيقه فى المجتمع . ولكن موعد هذا الأمر لم يكن معروفا لرسول الله ، وإن كان يعلم أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها بعد زيد ، ليقضى على فكرة تحريم زواج الوالد من زوجة ابنه المتبنى إذا طلقها .

ولكن متى ذلك ؟ هذا هو الذى لم يعرفه رسول الله - ﷺ - ولذلك كان يقول لزيد - حينما يشكو له - : (أمسك عليك زوجك واتق الله) . وكان رسول الله - ﷺ - يدور فى خلده ، مقالة قريش فى الخروج على العادات والتقاليد ، كلما شكا له زيد من عجزه عن العيش مع زينب ومن أجل ذلك نزلت الآيات .

﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه : أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ .

وثانيا : كان من وراء هذا التدبير ، أن يطلق زيد زينب ، فيتزوجها رسول الله ليحقق غرضين :

---

(١)انظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٤١١ باب (حديث رجل من أصحاب النبى) فقد ورد الحديث عن فقرة من حديث طويل .

(١) أن يبطل ما كان تدين به العرب من مساواة الأدعياء - الأبناء بالتبنى - بالأبناء الحقيقيين فى كل شىء ، تنفيذا للأمرا الألهى فى الآية : ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ﴾(١) وكذلك النص على المحرمات من النساء لقوله : ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾(٢)

٢ - أن يضرب مثلا آخر لاتباعه فى المجتمع الجديد ، بإحقاله على زواج المرأة التى هانت منزلتها - بعيشها تحت عبد رقيق - لأنها لو تركت من غير ان يتزوجها رسول الله . لبقيت فى مهانة إلى الأبد : لا يقربها شريف من قومها ، ولا يرد لها اعتبارها .

فمن الذى يرفع قدرها ، ويشرح صدرها ، ويعيد إليها مكانتها بين أترابها ؟ من غير رسول الله - صلى الله عليه وسلم الذى أمرها ان تتزوج من مولاه ؟

فإذا كان أمر رسول الله هو سبب نزولها - فإن زواجها من رسول الله هو الذى يداوى جراحها ، ويرفع هامتها ، ويمدها بالعز والمجد والعظمة هذه هى صورة زواج رسول الله من زينب بنت جحش .

فهل رواها المفسرون والمؤرخون على هذا الوجه المنتزع من الحقيقة والواقع ومما ترتب عليها من التشريع الجديد الذى يعتبر مفخرة للاسلام ورسول الاسلام ؟ .

تعالى معى لنمحص على المؤرخين - والمفسرين المسلمين - غفلتهم وهم يمدون خصوم الاسلام بالأسلحة التى يطعنون بها معتقداتنا ، ومقدساتنا ، فذكروا رسول الله - وهو المعصوم - بأمر يطعنه فى خلقه ، وهو الذى أثنى عليه ربه من أجله فقال له : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾(٣) .

فهذا الطبرى ، وابن الأثير ، وهما من كبار المؤرخين المسلمين جاء فيما نقلاه عن زواج رسول الله بزينب : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج يريد زيدا وكان على باب زيد ستر من شعر ، فرفعه الريح فرأى زينب وهى حاسرة فأعجبته ، وكرهت الى زيد فلم يستطع ان يقربها .

وقال المفسرون : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مربببيت زيد ولم يكن فيه زيد ، فرأى زينب فبهره حسنها وقال : « سبحان مقلب القلوب » (راجع تفسير ابو السعود جـ ٤ تجد فيه ما لا يليق بمسلم ان يذكره عن رسول الله المعصوم) وقال آخرون : انه لما فتح باب زيد ، عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب ، فرآها فى قميصها ممددة - كما تقول المستشرقة التافهة مدام « ديكاميه » - فانقلب قلبه فجأة ونسى سودة ، وعائشة وحفصة ، وزينب بنت مخزوم ، وام سلمة ، نسى كذلك ذكرى خديجة .

ومن هؤلاء الدكتور طه حسين الذى يقول: (إن الله أراد أن يمتحن نبيه ويمتحن فى ذلك زيدا ، ويمتحن فى ذلك المؤمنين الصادقين جميعا فيلقى فى قلب النبى حب زينب زوج زيد ، ويلقى فى قلب زيد الانصراف عن زينب والنفور منها) .

والمؤسف فيما كتبه المؤرخون المسلمون ، أنهم أخذوا من المستشرقين الذين يهمهم تشويه سمعة الرسول وأصحابه .

---

(١) الأحزاب آية : ٤
(٢) النساء آية : ٢٣
(٣) القلم آية : ٤

ـ ومن الذين صوروا هذه القصة تصويرا لا يليق ، المستشرق جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) حيث يقول : ولم يخف محمد حبه للنساء فقد قال : (حبب إلى من دنياكم ثلاث ، الطيب والنساء ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة ولم يبال محمد بسن المرأة التى يتزوجها ، فتزوج عائشة وهى بنت عشر سنين ، وتزوج ميمونة وهى فى الحادية والخمسين ، وأطلق محمد العنان لهذا الحب . حتى انه رأى اتفاقا . زوجة ابنه بالتبنى وهى عارية ، فوقع فى قلبه شىء منها ، فسرحها بعلها ليتزوجها محمد فاغتم المسلمون فأوحى الله الى محمد بواسطة جبريل ، الذى كان يتصل به يوميا ، آيات تسوغ له ذلك ، وانقلب الانتقاد إلى سكوت

ومما يثير الأسي والحزن ويحدث الجراح الدامية فى عقيدة المسلمين . ما ذكره الزمخشرى وأبو السعود فى تفسير سورة الأحزاب عند ذكر زواج زينب .

اسمعوا يا شباب الاسلام واحذروا !

يقول الامام الزمخشرى فى الجزء الثانى من تفسيره وأبو السعود فى الجزء الرابع : (إن رسول الله ـ ﷺ ـ أبصر زينب بعد ما أنكحها إياه ، فوقعت فى نفسه فقال : (سبحان مقلب القلوبّ) وذلك أن نفسه كانت تجفو عنها قبل ذلك لا تريدها ، ولو أرادها لا ختطبها) .

ثم يقول الزمخشرى :

فإن قلت : ما الذى افضى فى نفسه ؟ قلت : تعلق قلبه بها . وقيل : مودة مفارقة زيد إياها .

ثم يقول الزمخشرى ايضا : (فإن قلت : كيف عاتبه الله على ما استهجن التصريح به ـ وما له لم يعاتبه فى نفس الأمر ، ولم يأمره بقمع الشهوة وكف النفس ـ أن تنزع إلى زينب وتتبعها ؟ قلت : كم من شىء يتحفظ منه الانسان ويستحى من اطلاع الناس عليه . وهو ـ فى نفسه ـ مباح متسع وحلال مطلبه ، لا مقال فيه ولا عيب عند الله) .

ثم يقول : (لأن طموح القلب إلى بعض مشتهياته من امرأة أو غيرها ، غير موصوف بالقبح فى العقل ، ولا فى الشريعة ، لأنه ليس بفعل الانسان ولا وجوده باختياره) !!

ثم يستطرد الزمخشرى فيقول : (فبالحرى أن يعاتب الله رسوله حيث كتمه ، وبالغ فى كتمه بقوله ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله ﴾ لا يرضى إلا اتحاد الضمير والظاهر . والثبات فى مواطن الحق . حتى يقتدى المؤمنون به ، فلا يستحيوا من المكافحة بالحق وان كان مرا .

هكذا قال الزمخشرى وأفاض . . وتبعه الطبرى فى تاريخه ، وأبو السعود والنسفى فى تفسيريهما ، وابن الأثير فى تاريخه ، ومن نقل عن كل هؤلاء حتى مكنوا للمستشرقين من الاطناب فى تخريج هذه الروايات واتخاذها بوقا ضخما يذيعون منه ما تجود به بغضاؤهم وأحقادهم على رسول الله ـ ﷺ ـ .

ونحن نقول : (عدو عاقل خير من صديق جاهل) يا مسلمون ؟ ان القصة تعتبر من مفاخر محمد ـ ﷺ ـ ، وتبرهن على تنفيذ ما أمر به من تشريع ، يراد به محو تقاليد الجاهلية وعاداتها ووجد فى ذلك عنتا شديدا ، من مخالفته عادات القوم وتقاليدهم ، حتى اضطر إلى إخفاء الخطة المرسومة بينه

وبين ربه إلى أن يجد الظروف المناسبة لاعلان ما أخفاه . وهذا واضح جدا فى قوله تعالى : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الـذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا . الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾ .

فكيف تؤخذ هذه القصة المأخذ الدنىء ؟ وكيف تصور تصوير قصص الغرام والوله ؟ وكيف يرويها رواة مسلمون فى كتب انتشرت فى كل أنحاء العالم من غير تدبر فيما تهدف إليه ، دون أن يدركوا أنه يكفى لتفنيدها أمور عدة : .

أولا : أن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها ليكلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ ففى الآية الكريمة ذكر صحيح صريح لسبب تزويج زينب من رسول الله ـ ﷺ ـ وهو إسقاط حرج المؤمنين من زواج نساء أولادهم بالتبنى ، بعد أن يكون هؤلاء الأولاد قد قضوا من أزواجهم كل غرض . ولم يكن فيما طوت الآية ولا ما صارحت به ما يدل ـ من قريب أو بعيد على أن رسول الله كان يهوى زينب أو وقعت من قلبه فى مكان عميق ، حتى يحوقل ، ثم يقول : (سبحان مقلب القلوب) كما قال السادة المفسرون والمؤرخون !

ثانيا : أن زينب ابنة عمة محمد ـ ﷺ ـ .

ثالثا : أنها ربيت بعينه وتحت رعايته ، فيعرف منها مفاتنها ومحاسنها قبل زواجها .

رابعا : أنه شاهدها تحبو من الطفولة إلى الصبا إلى الشباب فلو كان فى نفسه إعجاب بها ما زوجها لزيد ولآثرها لنفسه أولا .

خامسا : أنه هو الذى خطبها على مولاه زيد ، فلما امتنعت وأبى أخوها نزل القرآن فى شأنها وشأن أخيها ، يأمرهما بتنفيذ أمر رسول الله فكيف يقال ـ بعد كل هذه الأدلة والشواهد ـ فى حق رسول الله ـ ما يقال فى حق أى عربيد ، مع علمنا بأن زواجه عليه السلام من زينب هذه ، كان بالأمر الالهى ، ليبطل الحقوق التى كانت مقررة للتبنى والادعياء وليرفع من مقام زينب ويدفع عنها خسيستها ، بعدما تزوجت من مولى كان ـ الى عهد قريب ـ عبدا رقيقا ، ثم ليرفع من قدر زيد كذلك ، ولا يأنف الشرفاء أن يردوا موارد زيد وأمثاله ، وليذيب فوارق الحسب والنسب ، التى كانت دستورا للعرب فى الجاهلية ، لأن المؤمنين سواسية (كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى) .

سبحان مقلب القلوب

ماذا يراد بهذا العبارة التى صدرت من رسول الله ـ ﷺ ـ بعدما راجع زيدا مرارا ، وهو يقص عليه تعاظم زينب وإباءها وإصرارها على أن تنظر إلى زوجها من برجها العاجى ؟

أدرك الرسول أن هوى القلوب لا حيلة للمرء فيه ، ولا يأتمر بإرادة أو يذعن لعقل . فلما رآها رسول الله بادية الحزن ؟ كثيبة الخاطر ، أدرك أنه لا يستطيع أن يلزم زينب بالبقاء مع زيد لأن قلبها عصاها وأبى أن يهفو للفتى الذى يحبه رسول الله ، كما يحب لزينب أن تسعد فى زواجها به . فقال هذه العبارة من وحى ما رأى من تبرم زينب بزوجها زيد قال : (سبحان مقلب القلوب) .

وليس يفهم لهذا القول مدلول سوى هذا المدلول .

وبعد ، فلعل السر فى وقوع السادة المفسرين والمؤرخين فى هذا الخطأ هو ما قاله ابن خلدون فى هذه العبارة : (إنه كثيرا ما وقع للمؤرخين وأئمة النقل من المغالط فى الحكايات والوقائع لا عتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو ثمينا ، ولم يعرضوها على أصولها ، ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة ، والوقوف على طبائع الكائنات ، وتحكيم النظر والبصيرة ، فضلوا عن الحق ، وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط) ونحن ننقل ما رواه المفسرون والمحدثون فى هذه القضية .

موضوع زينب بنت جحش

فتح البارى بشرح البخارى لابن حجر جـ ١٠ ص ١٤٢ قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ أراد أن يزوجها من زيد بن حارثة مولاه . فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ـ ﷺ ـ فزوجها إياه ، ثم أعلم الله ـ عز وجل ـ بنبيه ـ ﷺ ـ بعد ، أنها من أزواجه . فكان يستحى أن يأمره بطلاقها وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا : تزوج امرأة ابنه ! وكان قد تبنى زيدا .

وفى رواية عن على قال : (ـ أعلم الله نبيه ـ ﷺ ـ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه قال له : (أمسك عليك زوجك واتق الله) قال الله : قد أخبرتك أنى مزوجكها ﴿ وتخفى فى نفسك ما الله مبديه ﴾ .

وقد أطنب الترمذى الحكيم ، فى تحسين هذه الرواية ، وقال (إنها من جواهر العلم المكنون) .

ثم يقول ابن حجر : (والحاصل أن الذى كان يخفيه النبى ـ ﷺ ـ هو اخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، والذى كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة الذى يدعى ابنه . ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم . وإنما وقع الخلط فى تأويل متعلق الخشية) واخرج الترمذى بسنده عن عائشة قالت (لو كان رسول الله ـ ﷺ ـ كاتما شيئا من الوحى ، لكتم هذه الآية) ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه . . . . ﴾ الآية .

وان رسول الله لما تزوجها ، قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ الآية .

حول عبارة (سبحان مقلب القلوب)

كتاب الكافى الشافى فى تخريج أحاديث الكشاف للحافظ ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ وعلى هامش تفسير الكشاف جـ ٤ ص ١٣٤ قال : (ذكر الثعلبى من غير سند وأخرج الطبرى معناه من رواية عبدالرحمن بن زيد بن أسلم قوله : وفى الصحيحين عن أنس قصة زينب مختصرة وليس فيه مما فى أوله أ . هـ .

تفسير الخازن جـ ٤ ص ٢٦٢ لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن توفى عام ٧٢٥ هـ يقول :

فإن قلت ما ذكروه فى تفسير هذه الآية وسبب نزولها ، من محبتها فى قلب النبى ـ ﷺ ـ كما رآها ،

وإرادته طلاق زيد لها ، فيه أعظم الحرج وما لا يليق بمنصبه - ﷺ - من مد عينيه لما نهى عنه من زهرة الحياة الدنيا : قلت : هذا إقدام عظيم من قائله وقلة معرفته بحق النبى - ﷺ - وفضله . وكيف يقال : رآها فأعجبته وهى بنت عمته هو ، ولم يزل يراها منذ ولدت ، ولا كان النساء يحتجبن منه - ﷺ - وهو يزوجها لزيد ، فلا يشك فى تنزيه النبى - ﷺ - عن أن يأمر زيدا بإمساكها وهو يحب تطليقه إياها ، كما ذكر عن جماعة المفسرين .

قال : وأصح ما فى هذا الباب .. أن الله عاتبه وقال : لم قلت : أمسك عليك زوجك وقد أعلمتك أنها ستكون من أزواجك ؟ وهذا هو الأولى والأليق بحال الأنبياء : وهو مطابق للتلاوة لأن الله - تعالى - أعلم نبيه أن يبدى ويظهر ما أخفاه ، ولم يظهر غير تزويجها منه فقال تعالى : ﴿ زوجناكها ﴾ فلو كان الذى أضمره الرسول - ﷺ - محبتها وإرادة تطليقها لكان ظهر ذلك ، لأنه لا يجوز أن يخبره أنه يظهره ثم يكتمه ولا يظهره . فدل ذلك على أنه إنما عوتب على إخفاء ما أعلمه الله أنها ستكون من زوجاته ، وإنما أخفى ذلك استحياء : أن يخبر زيدا أن التى تحتك وفى نكاحك ، ستكون زوجتى . وهذا قول حسن مرضى - الخ .

تفسير بقية المشهد .

قوله تعالى : ﴿ فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا ﴾ .

المقصود بالوطر : الحاجة والارب ، والمراد : أنه لما قضى زيد حاجته من زينب وتزوجها وعاش معها ثم طلقت (زوجناكها) وذلك لحكمة بالغة وهدف حكيم بينه الله فى قوله تعالى : ﴿ لكى لا يكون المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ﴾ لما فصل الله - تعالى - فى القضية وقال : ﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم فى الدين ومواليكم ﴾ فبعد إبطال الاسلام للتبنى صارت امرأة المتبنى بعد طلاقها ممن أحلهن الله للمتبنى إذا تزوجها ﴿ وكان أمر الله مفعولا ﴾ أى : نافذا فالله - تعالى - إذا حكم لا معقب لحكمه ، وإذا قضى فلا راد لقضائه ، وهو سريع الحساب قوله تعالى : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له ﴾ أى : فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب - رضى الله عنها - التى طلقها دعيه زيد بن حارثة - رضى الله عنه - وقوله تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾ أى : هذا حكم الله - تعالى - فى الأنبياء قبله لم يكن ليأمرهم بشىء وعليهم فى ذلك حرج وهذا رد على من توهم من المنافقين نقصا فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه . ﴿ وكان أمر الله قدرا مقدورا ﴾ أى وكان أمره الذى يقدره كائنا لا محالة وواقعا لا محيد عنه ، ولا معدل فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

قوله تعالى : ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله

حسيبا . ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ .

هذا مقام من أسمى المقامات ، وهدف من أعلى الأهداف إنه تبليغ رسالات الله بأمانة وصدق إلى عباده ، وهذا المقام يشمل أنبياء الله الذين قال الله فيهم ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾ .

إن الذى يبلغ رسالة الله قد امتلأ قلبه من خشيته والخوف منه وحده

﴿ قل لن يصبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وما لنا الا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ﴾(٢) .

لقد علموا أن سلطان الله باق لا يزول ، فلم يخشوا ذا سلطان ، ووثقوا أن الرزق بيد الله ، وأن خزائن الله لا تنفد أبدا فاعتمدوا على الله ، وعلموا ان من اعتصم بالله أدخله الجنة وكفاه كل مهمة ، ومن اعتصم بغيره أساخ الأرض من تحته ، وقطع الأسباب من فوقه ولا يبالى كيف أهلكه ، لقد علموا أن الناصر والحسيب والمعين هو الله فاعتمدوا عليه وسلموا الأمر اليه .

﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾(٣) .

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾(٤) .

﴿ كتب الله لا غلبن أنا ورسلى إن الله لقوى عزيز ﴾(٥) .

وعلى رأس هؤلاء جميعا ، أستاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، سيد الخلق ، وحبيب الحق ، مبعوث العناية الالهية وشمس الهداية الربانية محمد ـ ﷺ ـ الذى جعل من عباد الحجر قادة للبشر ، ومن رعاة الغنم زعماء للأمم ، كان كل نبى يبعث لقومه خاصة وبعث هو إلى كل أحمر وأسود ﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾(٦) ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾(٧) ﴿ ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون . قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾(٨) .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٥١ .
(٢) سورة ابراهيم من الآية : ١٢ .
(٣) سورة الحج آية : ٣٨ .
(٤) سورة غافر آية : ٥١ .
(٥) سورة المجادلة آية : ٢١ .
(٦) سورة الأنبياء من الآية : ١٠٧ .
(٧) سورة الفرقان آية : ١
(٨) سورة الأعراف الآيات : ١٥٦ : ١٥٨ .

نشهد يا رسول الله أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ونصحت الأمة ، ومحوت الظلمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين فجزاك الله عنا خيرا . خير ما جزاه نبيا عن أمته ، ورسولا عن قومه .

يا داعيـــا للواحـــد الديـــان ... يا هازما للبغى والطغيان
يا رافعا صوت العدالة عاليا ... ومؤذنا فى النـاس بالقرآن

لقد ورثت أمته مقام البلاغ بعده فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه - رضى الله عنهم - بلغوا عنه كما أمرهم به فى جميع أقواله وأفعاله وأحواله فى ليله ونهاره وحضره وسفره وسره وعلانيته فرضى الله عنهم أجمعين وأرضاهم ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى ان يرث الله الأرض ومن عليها . فبنورهم يقتدى المهتدون وعلى منهجهم يسلك الموفقون .

قال - ﷺ - (ما تزال طائفة من أمتى ظاهرين بالحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله ﴾[١]

وقال : (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[٣] .

روى الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقالا ثم لا يقوله فيقول الله : ما يمنعك أن تقول منه فيقول رب خشيت الناس فيقول فأنا أحق أن يخشى)[٤] .

قوله تعالى : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ نهى أن يقال بعد هذا زيد بن محمد أى : لم يكن أباه وإن كان قد تبناه فإنه - ﷺ - لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم ، فإنه - ﷺ - ولد له القاسم والطيب والطاهر من خديجة - رضى الله عنها - فماتوا صغارا ، وولد له - ﷺ - ابراهيم من مارية القبطية فمات أيضا رضيعا وكان له - ﷺ - من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة - رضى الله عنهم أجمعين - فمات فى حياته - ﷺ - ثلاث وتأخرت فاطمة - رضى الله عنها - حتى أصيبت به - ﷺ - ثم ماتت بعده لستة أشهر .

وقوله تعالى : ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما ﴾ كقوله تعالى : ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[٥] فهذه الآية نص فى أنه لانبى بعده وإذا كان لانبى بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى .

لقد توج الله رسالته بأربع بشريات ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون

---

(١) مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٢٧٨ فقد ورد الحديث بلفظه برواية لثوبان من حديث طويل .
(٢) انظر المستدرك للحاكم « كتاب الفتن والملاحم » جـ ٤ ص ٥٢٢ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة .
(٣) سورة الصافات الآيتان : ١٧١ - ١٧٣ .
(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٣٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد الخدرى .
(٥) سورة الانعام من الآية : ١٢٤ .

اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾[١] .

وإذا كان الله قد أكمل به الدين وأتم به النعمة فلا نبى بعده ، ومن ثم فلا رسول إذ الرسالة أخص من النبوة ، ومن ختم الأعم فقد ختم الأخص فلا نبوة بلا وحى ولا رسالة بلا نبوة ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾[٢] .

أحاديث فى ختم النبوة

قال الأمام أحمد بسنده عن أبى بن كعب عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة[٣] ورواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وقال الأمام أحمد عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى) قال : فشق ذلك على الناس فقال : ولكن المبشرات . . قالوا يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : رؤيا الرجل المسلم وهى جزء من أجزاء النبوة)[٤] .

وقال الأمام أحمد عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (مثلى ومثل النبيين من قبلى كمثل رجل بنى دارا فأتمها إلا لبنة واحدة فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة ﴾[٥] .

وقال ايضا بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول ـ ﷺ ـ : (إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل ابتنى بيوتا فأكملها وأحسنها وأجملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون الا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (فكنت أنا اللبنة)[٦]

وأخرج مسلم بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (فضلت على

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٣ .

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٩٣ ـ ٩٤ .

(٣) انظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ١٣٦ ، ١٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى بن كعب عن أبيه وانظر سنن الترمذى « أبواب المناقب » باب ٢٢ حديث ٣٦٩٢ من رواية أبى بن كعب عن أبيه .

(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٢٦٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك .

(٥) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى سيعد الخدرى .

(٦) انظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٣١٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون)[١] .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن العرباض بن سارية - رضى الله عنه - قال : قال لى النبى - ﷺ - : (إنى عبد الله لخاتم النبيين وإن آدم لمجندل فيطينته)[٢] .

٣وقال الزهرى أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه - رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إن لى أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله - تعالى - بى الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب الذى ليس بعدى نبى)[٣] فمن رحمة الله - تعالى - بالعباد إرسال محمد - ﷺ - إليهم ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به وإكمال الدين الحنيف له ، وقد أخبر الله - تبارك وتعالى - فى كتابه ورسوله - ﷺ - فى السنة المتواترة عنه أنه لا نبى بعده ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب ، أفاك ، دجال ، ضال ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات فكلها محال وضلال عند أولى الألباب ، كما أجرى الله - سبحانه وتعالى - على يد الأسود العنسى باليمن ومسليمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذى لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله - تعالى - معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله - تعالى - بخلقه فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون فى غاية الافك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم كما قال تعالى : ﴿ هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم ﴾[٤] الآية وهذا بخلاف حال الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ، ما ما يؤيدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائما مستمرا مادامت الأرض والسموات . (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) .

الأمر بذكر الله وفوائده

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » جـ ١ ص ٣٧١ حديث ٥ / ٥٢٣ من رواية لأبى هريرة .
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ١٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لعرباض بن سارية من حديث طويل .
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الفضائل » باب « فى أسمائه ﷺ » جـ ٤ ص ١٨٢٨ حديث رقم ١٢٤ ٢٣٥٤ من رواية لمحمد بن جبير بن مطعم عن أبيه ، وانظر الحديث رقم ١٢٥ ٢٣٥٤ .
(٤) سورة الشعراء الأيتان : ١٢٢ - ١٢٣ .

﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ
ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه النبى - ﷺ - مع ربه من تقواه وإخلاصه له فى السر والعلن ، أرشد عباده إلى تعظيمه - تعالى - وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلا ، فهو الذى يرحمهم ، وملائكته يستغفرون لهم ، كى يخرجهم من ظلمات الكفر والضلال إلى نور الايمان وكان بعباده المؤمنين رحيما .

وبعد أن ذكر - سبحانه - توجيهاته لنبيه فى أول السورة وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا . وسبحوه بكرة وأصيلا . هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما . تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما ﴾ يقول تعالى - آمرا - عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى المنعم عليهم بأنواع النعم وصنوف المنن لما لهم فى ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . قال الامام أحمد بسنده عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم) قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال (ﷺ) : (ذكر الله عز وجل)[1] .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه - قال : دعاء سمعته من رسول الله (ﷺ) لا أدعه : اللهم اجعلنى أعظم شكرك وأتبع نصيحتك وأكثر ذكرك وأحفظ وصيتك)[2]

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » « باب » فضل الذكر جـ ٢ ص ١٢٤٥ حديث ٣١٩٠ رواية لأبى الدرداء.
وانظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث عن رواية لمعاذ بن جبل .
وانظر اتحاف السادة المتقين جـ ٥ ص ٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى الدرداء .
وانظر كنز العمال جـ ١ ص ٤١٦ حديث رقم ١٧٦٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى الدرداء .
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٤٧٧ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة .

وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن بشر قال : جاء أعرابيان الى رسول الله (ﷺ) فقال أحدهما : يا رسول الله ، أى الناس خير قال - ﷺ - : (من طال عمره وحسن عمله) وقال الآخر : يا رسول الله إن شرائع الاسلام قد كثرت علينا فمرنى بأمر أتشبث به ، قال - ﷺ - (لا يزال لسانك رطبا بذكر الله تعالى)(١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه قال : إن رسول الله (ﷺ) قال : (أكثروا ذكر الله - تعالى - حتى يقولوا مجنون)(٢) وقال الطبرانى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله (ﷺ) : (اذكروا الله ذكرا ، حتى يقول المنافقون إنكم تراءون)(٣) وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله (ﷺ) : (ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة)(٤) .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ اذكروا الله ذكرا كثيرا ﴾ إن الله - تعالى - لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حدا معلوما ثم عذر أهلها فى حال العذر غير الذكر فإن الله تعالى لم يجعل لها حدا ينتهى إليه ، ولم يعذر أحدا فى تركه إلا مغلوبا على تركه فقال : ﴿ اذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم ﴾ بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، وفى السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال .

وقال عز وجل : ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته . ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ أى عند الصباح والمساء كقوله عز وجل : ﴿ فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ﴾(٥) وقوله تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ﴾ وهذا تهييج إلى الذكر أى أنه سبحانه وتعالى يذكركم فاذكروه أنتم كقوله عز وجل : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون . فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾(٦) .

وقال النبى (ﷺ) : (يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه)(٧) والصلاة من الله - تعالى - ثناؤه على العبد عند الملائكة هكذا قال البخارى بسنده عن الربيع بن أنس . وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس كقوله تبارك وتعالى : ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم

---

(١) أنظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ١٩٠ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن بشر .
(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ٧١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد الخدرى .
(٣) انظر حلية الأولياء للاصبهانى جـ ٣ ص ٨٠ - ٨١ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس بلفظ « اذكروا الله ذكرا يقول المنافقون إنكم تراءون » وقال : غريب من حديث أبى الجوزاء لم يوصله الا سعيد عن الحسن .
(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٢ ص ٢٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو
(٥) سورة الروم الآيتان : ١٧ - ١٨ .
(٦) سورة البقرة الآيتان : ١٥١ - ١٥٢ .
(٧) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر فى الذات والنعوت وأسامى الله جـ ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة من حديث طويل » .

ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أى بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيما ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فإنه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذى ضل عنه وحاد عنه من سواهم من الدعاة إلى الفكر أو البدعة وأتباعهم من الطغاة . وأما رحمته بهم فى الآخرة فأمنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار وماذاك إلا لمحبته لهم ورأفته بهم .

قال الامام أحمد بسنده عن أنس رضى الله عنه قال : مر سول الله (ﷺ) فى نفر من أصحابه - رضى الله عنهم - وصبى فى الطريق فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ فأقبلت تسعى وتقول : ابنى ، ابنى ، وسعت فأخذته . فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتلقى ابنها فى النار . قال : فخفضهم رسول الله (ﷺ) وقال : (لا ، والله لا يلقى حبيبه فى النار)[٢] .

وفى صحيح الامام البخارى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أن رسول الله (ﷺ) رأى امرأة من السبى قد أخذت صبيا لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته ، فقال رسول الله (ﷺ) : (أترون هذه تلقى ولدها فى النار وهى تقدر على ذلك ؟) قالوا : لا ، قال رسول الله (ﷺ) : (فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها)[٣] وقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ الظاهر أن المراد - والله أعلم - تحيتهم أى : من الله - تعالى - يوم يلقونه سلام أى : يوم يسلم عليهم كما قال عز وجل : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾[٤] وزعم قتادة أن المراد أنهم يحيى بعضهم بعضا بالسلام يوم يلقون الله فى الدار الآخرة . واختاره ابن جرير : وقد يستدل بقوله تعالى : ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ وأعد لهم أجرا كريما ﴾[٦] يعنى الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال الامام ابن القيم : فى الذكر نحو من مائة فائدة :

إحداها : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية : أنه يرضى الرحمن - عز وجل - .

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٧ - ٨ وجزء من الآية : ٩ .

(٢) انظر مسند الامام احمد جـ ٣ ص ١٠٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية انس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب « رحمة الولد » فقد ورد الحديث من رواية لعمر بن الخطاب .

(٤) سورة يس الآية : ٥٨ .

(٥) سورة يونس من الآية : ١٠ .

(٦) سورة الأحزاب من الآية : ٤٤ .

الثالثة : أنه يزيل الهم والغم من القلب .

الرابعة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الخامسة : أنه يقوى القلب والبدن .

السادسة : أنه ينور الوجه والقلب .

السابعة : أنه يجلب الرزق .

الثامنة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

التاسعة : أنه يورثه المحبة التى هى روح الاسلام ، وقطب رحى الدين ، ومدار السعادة والنجاة ، وقد جعل الله لكل شيء سببا ، وجعل سبب المحبة دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله ـ عز وجل ـ ، فليلهج بذكره ، فإنه الدرس والمذاكرة ، كما أنه باب العلم ، فالذكر باب المحبة ، وشارعها الأعظم ، وصراطها الأقوم .

العاشرة : أنه يورثه المراقبة حتى يدخله فى باب الاحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الاحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

الحادية عشرة : أنه يورثه الانابة ، وهى الرجوع إلى الله ـ عز وجل ـ فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره ، أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه فى كل أحواله ، فيبقى الله ـ عز وجل ـ مفزعه وملجأ ، وملاذه ومعاذه ، وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .

الثانية عشرة : أنه يورث القرب منه ، فعلى قدر ذكره لله عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه .

الثالثة عشرة : أنه يفتح له بابا عظيما من أبواب المعرفة ، وكلما اكثر من الذكر ازداد من المعرفة .

الرابعة عشرة : أنه يورثه الهيبة لربه ـ عز وجل ـ وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله ـ تعالى ـ بخلاف الغافل ، فإن حجاب الهيبة رقيق فى قلبه .

الخامسة عشرة : أنه يورثه ذكر الله ـ تعالى ـ له ، كما قال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ [البقرة : ١٥٢] ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفا .

وقال النبى (ﷺ) فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : (من ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه)(١) .

السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب ، وسمعت شيخ الاسلام ابن ـ تيمية ـ قدس الله تعالى روحه يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟ .

السابعة عشرة : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته .

وحضرت شيخ الاسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله ـ تعالى ـ إلى قريب من

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر فى الذات والنعوت وأسامى الله جـ ٨ ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

انتصاف النهار ، ثم التفت إلى وقال : هذه غدوتى ، ولو لم أتغد هذا الغداء لسقطت قوتى ، و كلاما قريبا من هذا . وقال لى مرة : لا أترك الذكر إلا بينه إجمام نفسى وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاما هذا معناه .

الثامنة عشرة : أنه يورث جلاء القلب من صدأه كما تقدم فى الحديث وكل شىء له صدأ ، وصدأ الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار .

التاسعة عشرة : أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

العشرون : أنه يزيل الوحشة بين العبد وربه - تبارك وتعالى - فإن الغافل بينه وبين الله - عز وجل - وحشة لا تزول إلا بالذكر .

الحادية والعشرون : أن ما يذكر به العبد ربه - عز وجل - من جلاله وتسبيحه وتحميده يذكر بصاحبه عند الشدة ، فقد روى الامام أحمد رضى الله عنه فى (المسند) عن النبى (ﷺ) أنه قال : (إن ما تذكرون من جلال الله - عز وجل - من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به ؟)[1] .

الثانية والعشرون : أن العبد إذا تعرف إلى الله - تعالى - بذكره فى الرخاء ، عرفه فى الشدة ، وقد جاء أثر معناه : أن العبد المطيع الذاكر لله - تعالى - إذا أصابته شدة أو سأل الله - تعالى - حاجة ، قالت الملائكة : يا رب صوت معروف ، من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله - عز وجل - إذا دعاه أو سأله ، قالت الملائكة : يا رب ، صوت منكر من عبد منكر .

الثالثة والعشرون : أنه ينجى من عذاب الله - تعالى - ، كما قال معاذ - رضى الله عنه - ويروى مرفوعا : (ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى)[2] .

الرابعة والعشرون : أنه سبب تنزيل السكينة ، وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبى (ﷺ) .

الخامسة والعشرون : أنه سبب إشغال اللسان عن الغيبة والنميمة ، والكذب ، والفحش ، والباطل ، فإن العبد لابد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله - تعالى - ، وذكر أوامره ، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، فلا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله - تعالى - والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ، فمن عود لسانه ذكر الله صان الله لسانه عن الباطل واللغو ، ومن يبس لسانه عن ذكر الله - تعالى - ، ترطب بكل باطل ولغو وفاحش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السادسة والعشرون : أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة - مجالس الشياطين ، فليتخير العبد أعجبها إليه ، وأولاهما به ، فهو مع أهله فى الدنيا والآخرة .

السابعة والعشرون : أنه يسعد الذاكر بذكره ، ويسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أين ما

---

(١) انظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ١٧١ فقد ورد الحديث عن النعمان بن بشير مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) انظر حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لمعاذ - رضى الله تعالى عنه -

كان .. والغافل واللاغى يشقى بلغوه وغفلته ، ويشقى به مجالسه .

الثامنة والعشرون : أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة ، فإن كل مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة .

التاسعة والعشرون : أنه مع البكاء فى الخلوة سبب لاظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر فى ظل عرشه ، والناس فى حر الشمس قد صهرتهم فى الموقف ، وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

الثلاثون : أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطى السائلين ، ففى الحديث عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله (ﷺ) : قال الله : (من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) .

الحادى والثلاثون : أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها ، فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من أعضاء الانسان فى اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

الثانية والثلاثون : أنه غراس الجنة ، فقد روى الترمذى فى جامعة من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله (ﷺ) : (لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم الخليل - عليه السلام - فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر)(١) .

وفى الترمذى من حديث أبى الزبير ، عن جابر عن النبى (ﷺ) قال : (من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة)(٢) .

الثالثة والثلاثون : أن العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان ، يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ، (٣) ومن قال سبحانه الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر)(٤) .

---

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ٦ جـ ٥ ص ١٧٣ حديث رقم ٣٥٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن مسعود ، وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه من حديث ابن مسعود .

(٢) سنن الترمذى أبواب الدعوات « باب ٦١ جـ ٥ ص ١٨٤ حديث رقم ٣٥٣١ ، ٣٥٣٢ فقد ورد الحديثان من رواية أبى الزبير عن جابر . وقال : هذا حديث ٣٥٣١ حسن غريب صحيح لا نعرفه إلا من حديث أبى الزبير عن جابر .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧١ حديث رقم ٢٨ / ٢٦٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الأدب) « باب » « فضل » لا إله إلا الله » جـ ٢ ص ١٢٤٨ حديث رقم ٣٧٩٨ .

(٤) المرجع السابق .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لأن أقول : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس)[١] .

وفى الترمذى من حديث أنس بن مالك ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال حين يصبح أو يمسى : اللهم إنى أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك ، وملائكتك ، وجميع خلقك ، أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن محمدا عبدك ورسولك ، أعتق الله ربعه من النار ، ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعا أعتقه الله من النار)[٢] .

وفيه عن ثوبان ، أن رسول الله (ﷺ) قال : (من قال حين يمسى وإذا أصبح : رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد (ﷺ) رسولا ، كان حقا على الله أن يرضيه)[٣] .

وفى الترمذى : (من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت ، وهو حى لا يموت بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة)[٤] .

الرابعة والثلاثون : أن ذكر الرب ـ تبارك وتعالى ـ يوجب الأمان من نسيانه الذى هو سبب شقاء العبد فى معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها ، قال تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون ﴾[٥] .

وإذا نسى العبد نفسه ، أعرض عن مصالحها ونسيها ، واشتغل عنها ، فهلكت وفسدت ولابد ، كمن له زرع أو بستان أو ما شية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه ، واشتغل عنه بغيره ، وضيع مصالحه ، فإنه يفسد ولابد هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ،

وعطل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ؟ فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان ، وهذا هو الذى صار أمره كله فرطا ، فانفرط عليه امره ، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك . ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به ، والا يزال اللسان رطبا به ، وأن ينزله منزلة حياته التى لا غنى له عنها ، ومنزلة غذائه الذى إذا فقده فسد جسمه وهلك ، وبمنزلة الماء ، عند شدة العطش ، وبمنزلة اللباس فى الحر والبرد ، وبمزلة السكن فى شدة الشتاء

---

(١) أنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩٤ « كتاب الذكر والدعاء » فضل سبحان الله حديث رقم ٨٥ ـ ٢٧٣١ وانظر مسند الامام احمد جـ ٥ ص ١٦١ من رواية أبى ذر .

(٢) انظر حلية الأولياء جـ ٥ ص ١٨٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنس بن مالك وانظر الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ « كتاب النوافل » « باب » الترغيب فى آيات وأذ كاد يقولها إذا أصبح وإذا أمسى حديث رقم ١١ من رواية لأنس .

(٣) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما جاء فى الدعاء إذا اصبح وإذا أمسى جـ ٥ ص ١٣٣ حديث ٣٤٤٩ من رواية لثوبان « لم يرد منها » وإذا أصبح وقال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما يقول إذا دخل السوق » جـ ٥ ص ١٥٥ حديث رقم ٣٤٨٨ من رواية لسالم ابن عبد الله بن عمر عن أبيه عن جده .

(٥) سورة الحشر آية : ١٩ .

والسموم فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم ، فأين هلاك الروح والقلب وفسادها من هلاك البدن وفساده ، هذا هلاك لابد منه ، وقد يعقبه صلاح الأبد ، وأما هلاك القلب والروح ، فهلاك لا يرجى معه صلاح وفلاح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ولو لم يكن فى فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها ، لكفى بها ، فمن نسى الله ـ تعالى ـ أنساه نفسه فى الدنيا ، ونسيه فى العذاب يوم القيامة .

قال الله تعالى : ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾(١) .

أى : تنسى فى العذاب كما نسيت آياتنا ، فلم تذكرها ولم تعمل بما فيها . وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذى أنزله ، وهو كتابه ، وهو المراد ويتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه ، وأسمائه وصفاته وأوامره ، وآلائه ، ونعمه ، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه ـ تعالى ـ ، فإن الذكر فى الآية إما مصدرا مضافا إلى معموله الذى هو المذكور وإما إسما مضافا إلى الفاعل ، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة ، أى من أعرض عن كتابى ولم يتله ، ولم يتدبره ولم يعمل به ، ولم يفهمه ، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيقة عليه منكدة معذبا فيها .

والضنك : الضيق والشدة والبلاء ، ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة ، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ ، والصحيح : أنها تتناول معيشته فى الدنيا وعذابه فى البرزخ ، فإنه يكون فى ضنك فى الدارين ، وهو شدة وجهد وضيق . وفى الآخرة ينسى فى العذاب . وهذا عكس أهل السعادة والفلاح ، فإن حياتهم فى الدنيا أطيب الحياة وفى البرزخ ، ولهم فى الآخرة أفضل الثواب .

قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾(٢) فهذا فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾(٣) هذا فى البرزخ والآخرة . وقال تعالى : ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ﴾ فهذا فى الدنيا ، ثم قال : ﴿ ويؤت كل ذى فضل فضله ﴾(٥) فهذا فى الآخرة .

وقال تعالى : ﴿ قل يا عبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾(٦) .

هذه أربعة مواضع ذكر الله ـ تعالى ـ فيها أنه يجزى المحسن بإحسانه جزاءين : جزاء فى الدنيا ، وجزاء فى الآخرة . فالاحسان له جزاء معجل ولابد ، والاساءة لها جزاء معجل ولابد ، ولو لم يكن إلا

---

(١) سورة طه الآيات : ١٢٤ ـ ١٢٦ .
(٢) سورة النحل من الآية : ٩٧ .
(٣) سورة النحل من الآية : ٩٧ .
(٤) سورة النحل الآية : ٤١ .
(٥) سورة هود من الآية : ٣ .
(٦) سورة الزمر آية : ١٠

ما يجازى به المحسن ، من انشراح صدره وانفساح قلبه وسروره ، ولذته بمعاملة ربه - عز وجل - ، وطاعته وذكره ، ويعم روحه بمحبته ، وذكره وفرحه بربه - سبحانه وتعالى - أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه .

وما يجازى به المسيء : من ضيق الصدر ، وقسوة القلب ، وتشتته وظلمته ، وحزازاته ، وغمه ، وهمه ، وحزنه ، وخوفه ، وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حسن وحياة يرتاب فيه ، بل الهموم والغموم والأحزان والضيق : عقوبات عاجلة ، ونار دينوية ، وجهنم حاضرة والاقبال على الله تعالى ، والانابة إليه ، والرضابه وعنه ، وامتلأ القلب من محبته ، واللهج بذكره ، والفرح والسرور بمعرفته : ثواب عاجل ، وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبتة وسمعت شيخ الاملام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة .

وقال لى مرة : ما يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، إن رحت فهى معى لا تفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .

وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بذلت لهم مثل هذه القلعة ذهبا ما عدل عندى شكر هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير ، ونحو هذا وكان يقول فى سجوده وهو محبوس : (اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه - تعالى - ، والمأسور من أسره هواه . ولما أدخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال : (فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)[1] وعلم الله ما رأيت أحدا أطيب عيشا منه قط - مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعيم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والارهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشا ، وأشرحهم صدرا ، وأقواهم قلبا ، وأسرهم نفسا ، تلوح نضرة النعيم على وجهه . وكنا إذا إشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب إنشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة ، فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل ، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها ، وكان بعض العارفين يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وماذاقوا أطيب ما فيها ؟ .

قيل : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله - تعالى - ومعرفته وذكره .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربا .

وقال آخر : إنه لتمر بى أوقات أ قول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

فمحبة الله تعالى ، ومعرفته ، ودوام ذكره ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه ، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة ، بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإرادته ،

---

(١) سورة الحديد من الآية : ١٣ .

هو جنة الدنيا والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ، وهو قرة عين المحبين ، وحياة العارفين .

وإنما تقر أعين الناس بهم على حسب قرة أعينهم بالله ـ عز وجل ـ فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

وإنما يصدق بهذه الأمور من كان فى قلبه حياة ، وأما ميت القلب ، فيوحشك ، ثم فاستأنس بغيبته ما أمكنك ، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عندك ، فإذا ابتليت به ، فأعطه ظاهرك ، وترحل عنه بقلبك ، وفارقه بسرك ، ولا تشتغل به عما هو أولى بك .

وأعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله ـ عز وجل ـ وإنقطاعك عنه ، وضياع وقتك عليه ، وشتات قلبك ، وضعف عزيمتك ، وتفرق همك . فإذا بليت بهذا ـ ولابد لك منه ـ فعامل الله ـ تعالى ـ فيه ، واحتسب عليه ما أمكنك ، وتقرب إلى الله ـ تعالى ـ بمرضاته فيه ، وإجعل اجتماعك به متجرا لك ، لا تجعله خسارة ، وكن معه كرجل سائر فى طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره ، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به ، فتحمله ولا يحملك ، فإن أبى ولم يكن فى سيره مطمع ، فلا تقف معه ، بل اركب الدرب ودعه ولا تلتفت إليه ، فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان ، فانج بقلبك ، وضن بيومك وليلتك ، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة ، فتؤخذ أو يطلع عليك الفجر ، وأنت فى المنزلة فتسير الرفاق فتصبح وحدك وأنى لك بلحاقهم .

الخامسة والثلاثون : أن الذكر يسير العبد وهو قاعد على فراشه ، وفى سوقه ، وفى حال صحته وسقمه ، وفى حال نعيمه ولذته ، ومعاشه وقيامه وقعوده واضطجاعه ، وسفره وإقامته ، فليس فى الأعمال شىء يعم الأوقات والأحوال مثله ، حتى إنه يسيرّ العبد وهو نائم على فراشه ، فسبيق القائم مع الغفلة ، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ، ويصبح ذلك القائم الغافل فى ساقة الركب ، وذلك فضل الله يؤيته من يشاء .

وحكى عن رجل من العُباد : أنه نزل برجل من العِباد ضيفا ، فقام العابد ليله يصلى ، وذلك الرجل مستلق على فراشه ، فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، فقال : ليس الشأن فيمن بات مسافرا وأصبح مع الركب ، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب ، وهذا ونحوه له محمل صحيح ، ومحمل فاسد ، فمن حمله على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت ، فهو باطل ، وإنما محمله أن هذا المستلقى على فراشه علق قلبه بربه ـ عز وجل ـ وألصق حبه قلبه بالعرش ، وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة ، قد غاب عن الدنيا وما فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برذ يمنعه القيام ، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه ، وفى قلبه ما الله ـ تعالى ـ به عليم .

وآخر قائم يصلى ويتلو ، وفى قلبه من الرياء والعجب ، وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ، ما الله به عليم ، أو قلبه فى واد وجسمه فى واد ، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة ، فالعمل على القلوب ، لا على الأبد ان ، والمعول على الساكن ، لا على الأطلال ،

والاعتبار بالمحرك الأول ، فالذكر يثير العزم الساكن ، ويهيج الحب المتوارى ، ويبعث الطلب المبيت .

السادسة والثلاثون : أن الذكر نور للذاكر فى الدنيا ، ونور له فى قبره ، ونور له فى معاده ، يسعى بين يديه على الصراط ، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله ـ تعالى ـ : قال الله تعالى : ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾(١) فالأول هو المؤمن استنار بالايمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره ، والآخر هو الغافل عن الله ـ تعالى ـ المعرض عن ذكره ومحبته ، والشأن كل الشأن ، والفلاح كل الفلاح ، فى النور ، والشقاء كل الشقاء فى فواته .

ولهذا كان النبى (ﷺ) يبالغ فى سؤال ربه ـ تبارك وتعالى ـ حين يسأله أن يجعله فى لحمه ، وعظامه ، وعصبه ، وشعره ، وبشره ، وسمعه ، وبصره ، ومن فوقه ، ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وخلفه ، وأمامه ، حتى يقول : (واجعلنى نورا) فسأل ربه ـ تبارك وتعالى ـ أن يجعل النور فى ذاته الظاهرة الباطنة ، وأن يجعله محيطا به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نورا .

فدين الله ـ عز وجل ـ نور ، وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التى أعدها لأوليائه نور يتلألأ ، وهو ـ تبارك وتعالى ـ نور السموات والأرض ، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه . وفى دعاء النبى (ﷺ) يوم الطائف : (أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل على غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) .

وقال ابن سعود رضى الله عنه : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والأرض من نور وجهه .

وقد قال تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾(٢) فإذا جاء ـ تبارك وتعالى ـ يوم القيامة للفصل بين عباده ، أشرقت بنوره الأرض ، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر ، فإن الشمس تكور ، والقمر يخسف ، ويذهب نورهما ، حجابه تبارك وتعالى النور .

قال أبو موسى الاشعرى : قام فينا رسول الله (ﷺ) بخمس كلمات فقال : (إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور ، لو كشف لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه)(٣) ثم قرأ : ﴿ أن بورك من فى النار ومن حولها ﴾(٤) فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ، ولولاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره . ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل ، وكشف من الحجاب شيئا يسيرا ، ساخ الجبل فى الأرض ، وتدكدك ، ولم يقم لربه تبارك وتعالى . وهذا معنى قول ابن

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢ .
(٢) سورة الزمر من الآية : ٦٩ .
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام : إن الله لا ينام ـ الخ جـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ حديث رقم ٢٩٣ ـ ١٧٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى موسى .
(٤) سورة النمل من الآية : ٨ .

عباس فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾[1] قال : ذلك الله - عز وجل - ، إذا تجلى بنوره لم يقم له شيء .

وهذا من بديع فهمه - رضى الله تعالى عنه - ، ودقيق فطنته ، وكيف لا وقد دعا له رسول الله (ﷺ) أن يعلمه التأويل ، فالرب - تبارك وتعالى - يرى يوم القيامة بالأبصار عيانا ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له ، وإن رأته فالادراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس - ولله المثل الأعلى - نراها ولا ندركها كما هى عليه ، ولا قريبا من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية واورد عليه ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ فقال : ألست ترى السماء ؟ قال : بلى ، قال : أفتدركها ؟ قال : لا ، قال : فالله - تعالى - أعظم وأجل .

وقد ضرب الله - سبحانه وتعالى - لنوره فى قلب عبده مثلا لا يعقله إلا العالمون ، فقال - سبحانه وتعالى - ﴿ الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾[1] [النور : ٣٥] .

قال أبى بن كعب : مثل نوره فى قلب المسلم . وهذا هو النور الذى أودعه فى قلبه من معرفته ومحبته والايمان به ، وذكره ، وهو نوره الذى أنزله اليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله فى قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتتزايد حتى تظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نورا على إبهام قدمه ، يضيىء مرة ، ويطفأ أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره فى الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عيانا ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا ، بل كان نوره ظاهرا ، لا باطنا ، أعطى نورا ظاهرا مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله - عز وجل - لهذا النور ، ومحله ، وحامله ، ومادته مثلا بالمشكاة ، وهى الكوة فى الحائط ، فهى مثل الصدر ، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه وصفائه ، وهى مثل القلب ، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافا هى فى قلب المؤمن ، وهى : الصفاء ، والرقة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ، وتحصل منه الرأفة والرحمة ، والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله - تعالى - ، ويغلظ عليهم ويشتد فى الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، فلا تبطل صفة من صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعدها وتعاضدها ، ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[1] وقال تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٣ .
(٢) سورة النور آية : ٣٥ .
(٣) سورة الفتح من الآية : ٢٩ .

حولك ﴾[1] [آل عمران : ١٥٩] وقال تعالى : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾[2] وفى أثر : (القلوب آنية الله - تعالى - فى أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها) .

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان فى طرفى نقيض . أحدهما : قلب حجرى قاس لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا بر ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل ، لا عالم بالحق ، ولا راحم بالخلق ، وبإزائه قلب ضعيف مائى ، لا قوة فيه ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير فى غيره ، وكل ما خالطه أثر فيه ، من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث ، وفى الزجاجة مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .

وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن ، هى من شجرة الوحى التى هى من أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ، لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولا انحراف اليهودية ، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شىء ، فهذه مادة مصباح الايمان فى قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضىء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت به إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نورا على نور . وهكذا المؤمن قلبه مضىء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحى ، فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فازداد نورا بالوحى على نوره الذى فطره الله - تعالى - عليه ، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة ، فصار نورا على نور ، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته ، فيكون نورا على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحى والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآيات العظيمة ، ومطابقتها لهذه المعانى الشريفة ، فذكر - سبحانه وتعالى - نوره فى السموات والأرض ، ونوره فى قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والنور الذى استنارت به البصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعش فيه آدمى ولا غيره ، لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور ، ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور لا يعيش فيها حيوان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولابد ، لا حياة له البتة ، كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه . والله - سبحانه وتعالى - يقرن بين الحياة والنور ، كما فى قوله - عز وجل - : ﴿ أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ﴾[3] وكذلك قوله - عز وجل - : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .
(٢) سورة التوبة من الآية : ٧٣ .
(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٢٢ .

الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا فهدى به من نشاء من عبادنا ﴾(١) .

وقد قيل : إن الضمير فى ﴿ جعلناه ﴾ عائد إلى الأمر ، وقيل : إلى الكتاب وقيل : إلى الايمان ، والصواب : أنه عائد إلى الروح ، أى : جعلنا ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نورا ، فسماه روحا لما يحصل به من الحياة ، وجعله نورا لما يحصل به من الاشراق والاضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ، وجدت الاضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والاضاءة ، وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل .

فلهذا ايضرب ـ سبحانه وتعالى ـ المثلين : المائى والنارى معا ، لما يحصل بالماء من الحياة ، وبالنار من الاشراق والنور ، كما ضرب ذلك فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون** ﴾(٢) وقال : ﴿ **ذهب الله بنورهم** ﴾ ولم يقل : بنارهم لأن النار فيها الاحراق والاشراق ، فذهب بما فيه الاضاءة والاشراق ، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والاحراق . وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم بالنفاق ، وبقى فى قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلى فى قلوبهم ، وقلوبهم قد صليت بحرها وأذاها وسمومها ووهجها فى الدنيا ، فأصلاهم الله ـ تعالى ـ إياها يوم القيامة نارا موقدة تطلع على الأفئدة ، فهذا مثل من لم يصحبه نور الايمان فى الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به ، وهو حال المنافق عرف ثم أنكر وأقر ثم جحد ، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى ، كما قال تعالى فى حق إخوانهم من الكفار : ﴿ **والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون** ﴾(٤) وشبه تعالى حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الاسلام ومناره ، قد شاهدوا الضوء ، ورأوا النور عيانا ، ولهذا قال تعالى فى حقهم : ﴿ **فهم لا يرجعون** ﴾(٥) إليه ، لأنهم فارقوا الاسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه . وقال تعالى فى حق الكفار : ﴿ **فهم لا يعقلون** ﴾ لأنهم لم يعقلوا الاسلام ، ولا دخلوا فيه ، ولا استناروا به ، بل لا يزالون فى ظلمات الكفر ، صم بكم عمى ، فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافيا ، وإلى الايمان وحقائقه مناديا ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعيا ، وإلى طريق الرشاد هاديا ، لقد أسمع منادى الايمان لو صادف آذانا واعية ، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت القلوب من غيها خالية ، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات فأطفأت مصابيحها

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٥٢ .
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧ .
(٣) سورة الأنعام من الآية : ٣٩ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٧١ .
(٥) سورة البقرة آية ١٨

وتمكنت منها أيدى الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدها ، وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغى وشبهات الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام . ولكن ماتت فى بحر الجهل والغفلة ، وأسر الهوى والشهوة ، و (ما لجرح بميت إيلام) .

والمثل الثانى المائى قوله تعالى : ﴿ **أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين** ﴾[1] .

الصيب : المطر الذى يصوب من السماء ، أى : ينزل منها بسرعة ، وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب ، كالمطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان ، فأدرك المؤمنون ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة التى لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات والمثلات التى حذر الله بها من خالف أمره ، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله (ﷺ) ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على اللأوى والأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها ، فهى كالظلمات والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس ذلك ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه لعمى قلبه ، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقا يكاد يخطف البصر ، ورعدا عظيما وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق ، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره لأن بصره أضعف من أن يثبت معه ، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى فى ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيرا لا يدرى أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض والنبات ، وحياته هو فى نفسه ، بل لا يدرك إلا رعدا ، وبرقا ، وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك ، فالوحشة لازمة له ، والرعب والفزع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيب وعلم ما يحصل بهمن الخيرات والحياة والنفع وعلم أنه لابد من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك عن أخذه نصيبه من الصيب . فهذا مثل مطابق للصيب الذى نزل به جبريل (ﷺ) من عند رب العالمين ـ تبارك وتعالى ـ على قلب رسول الله (ﷺ) ليحيى به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيب من الماء حكمة بالغة وأسباب منتظمة نظمها العزيز الحكيم . فكان حظ المنافق من ذلك الصيب سحابه ورعوده ، وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، ماستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به العالمون ، وشك فيما يتيقنه المبصرون العارفون ، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش فى نحر الظهيرة ، وسمعه فى المثل المائى كسمع من يموت من صوت الرعد .

---

(١) سورة البقرة آية : ١٩ .

وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من صوت الرعد ، وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ، جالت فيها وصالت ، وقامت فيها وقعدت ، واتسع فيها مجالها ، وكثر بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ، والأرض من دويانها ، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء ، والقابلين منهم والقائمين بدعوتهم ، والمحامين عن حوزتهم ، والمقاتلين تحت ألويتهم ، والمكثرين لسوادهم عدادا وما أقلهم عند الله وأوليائه قدرا .

ولعموم البلية بهم ، وضرر القلوب بكلامهم ، هتك الله أستارهم فى كتابه غاية الهتك ، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولم يزل عز وجل يقول : ﴿ ومنهم .. ومنهم .. ومنهم .. ﴾ حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم ، وظهرت أسرارهم . وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ، فذكر فى أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ، وفى أوصاف الكفار آيتين ، وفى أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجملة مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذى قد نابذ العدو ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى منابذته ومفارقته . ونظير هذين المثلين المثلان المذكوران فى سورة الرعد فى قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ﴾[1] فهذا المثل هو المثل المائى ، شبه سبحانه الوحى الذى أنزله بحياة القلوب ، بالماء الذى أنزله من السماء ، وشبه القلوب الحاملة له ، بالأودية الحاملة للسيل . فقلب كبير يسع علما عظيما ، كواد كبير يسع ماء كثيرا ، وقلب صغير كواد صغير يسع علما قليلا ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها كما سالت الأودية بقدرها . ولما كانت الأودية ومجارى السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل ، فيحصله السيل فيطفو على وجه الماء زبدا عاليا ، يمر عليه متراكبا ولكن تحته الماء الفرات الذى به حياة الأرض ، فيقذف الوادى ذلك الغثاء الى جنبتيه حتى لا يبقى منه شىء ، ويبقى الماء الذى تحت الغثاء يسقى الله - تعالى - به الأرض ، فيحيى به البلاد والعبادة والشجر والدواب ، والغثاء يذهب جفاء يجفى ، ويطرح على شفير الوادى .

فكذلك العلم والايمان الذى أنزله من السماء فى القلوب فاحتملته ، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة ، فطفا فى أعلاها ، استقر العلم والايمان والهدى فى جذر القلب وهو أصله ومستقره كما قال النبى (ﷺ) (نزل الايمان فى جذر قلوب الرجال)[2] رواه البخارى من حديث حذيفة .. فلا يزول كله ، ويبقى العلم النافع والايمان الخالص فى جذر القلب يرده الناس ، فيشربون ويسقون ويزرعون . وفى الصحيح من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى (ﷺ) قال : (مثل ما بعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة

---

(١) سورة الرعد من الآية : ١٧ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الفتن » « باب إذا بقى فى حثالة من الناس جـ ٩ ص ٦٦ فقد ورد الحديث من رواية حذيفة بلفظ » أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن .. الخ » .

وانظر حلية الأولياء جـ ١ ص ٢٧١ ، جـ ٨ ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث عن حذيفة بلفظ « أن الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال فعلموا من القرآن .... الخ .

طيبة ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، وانتفع بما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به)[١] فجعل النبى (ﷺ) الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوا إلى الله - عز وجل - ورسوله (ﷺ) ، فهؤلاء أتباع الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - حقا ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التى زكت ، فقبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير فزكت فى نفسها ، وزكا الناس بها . وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة فى الدين والقوة على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء (ﷺ) الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار** ﴾[٢] فالأيدى القوة فى أمر الله والأبصار البصائر فى دين الله عز وجل ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه ، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم والفقه فى الدين والبصر بالتأويل ، ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهما خاصا ، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وقد سئل : هل خصكم رسول الله (ﷺ) بشىء دون الناس ؟ فقال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهما يؤتيه الله عبدا فى كتابه .

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض ، وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية ، فإنها حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقوها منهم ، فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتجروا فيها ، وبذورها فى أرض قابلة للزرع والنبات فاستخرجوا غوامضها وأسرارها ، ووردوها كل بحسبه . ﴿ **قد علم كل أناس مشربهم** ﴾[٣] وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبى (ﷺ) : (نضر الله إمرأ سمع مقالتى فوعاها ، فأداها كما سمعها ، فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[٤] وهذا عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، مقدار ما سمع من النبى (ﷺ) لم يبلغ نحو العشرين حديثا الذى يقول فيه : سمعت ، ورأيت ، وسمع الكثير من الصحابة ، وبورك فى فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علما وفقها .

وقال أبو محمد بن حزم : وجمعت فتاويه فى سبعة أسفار كبار ، وهى بحسب ما بلغ جامعها ، والا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس ، وقد

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب العلم » باب فضل من علم وتعلم جـ ١ ص ٣٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى موسى الأشعرى .

(٢) سورة ص آية : ٤٥ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٦٠ .

(٤) انظر مسند الامام احمد جـ ٤ ص ٨٠ فقد ورد الحديث من رواية محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه . وانظر اتحاف السادة المتقين للزبيدى جـ ٨ ص ٤٦٣ ، ٤٦٤ فقد ورد الحديث بروايات مختلفة . وانظر مجمع الزوائد كتاب « العلم » باب فى سماع الحديث وتبليغه جـ ١ ص ١٣٧ ، ١٣٨ فقد ورد الحديث بروايات مختلفة .

سمع كما سمعوا ، وحفظ كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم : ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾(١) وأين تقع فتاوى ابن عباس ، وتفسيره واستنباطه ، من فتاوى أبى هريرة وتفسيره ، وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الاطلاق : يؤدى الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درسا ، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها وهكذا الناس بعده قسمان :

قسم حفاظ معتنون بالضبط ، والحفظ والأداء ، كما سمعوا ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه . وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص والتفقه فيها .

وأما الطائفة الثالثة : وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا ، فلا حفظ ولا فهم ولا رواية ولا دراية ولا رعاية فالطبقة الأولى أهل رواية ورعاية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراسة بل حظهم من الرواية أوفر .

والطبقة الثالثة : الأشقياء ، لا رواية ، ولا دراية ولا رعاية ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾(١) فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، إن همة أحدهم إلا بطنه وفرحه ، فإن ترقت همته فوق ذلك كان فى داره وبستانه ومركوبه ، فإن ترقت همته فوق ذلك ، كان همه فى الرياسة والانتصار للنفس الكلبية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الكلبية ، كان همه نصرة النفس السبعية ، وأما النفس الملكية فلم يعطها أحد من هؤلاء ؟ فإن النفوس ثلاثة : كلبية وسبعية وملكية .

فالكلبية : تقنع بالعظم ، والكسرة والجيفة والعذرة .

والسبعية : لا تقنع بذلك ، بل بقهر النفوس ، والاستعلاء عليها بالحق والباطل .

وأما الملكية : فقد ارتفعت عن ذلك ، وشمرت إلى الرفيق الأعلى ، فهمتها العلم والايمان ، ومحبة الله تعالى ، والإنابة إليه ، والطمأنينة به ، والسكون إليه ، وإيثار محبته ومرضاته ، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذه لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربها ووليها ، لا لتنقطع به عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم ضرب الله سبحانه وتعالى مثلا ثانيا ، وهو المثل النارى ، فقال : ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله** ﴾(٢) ، وهو الحديد والنحاس ، والفضة والذهب وغيرها ، فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث ، فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح ، ويبقى خالصها ، فهو الذى ينفع الناس .

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ، ذكر حكم من استجاب له ورفع به رأسا ، وحكم من لم يستجب له ولم يرفع بهداه رأسا : فقال : ﴿ **للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد** ﴾(٣)

(١) سورة الفرقان من الآية : ٤٤ .
(٢) الرعد آية رقم ١٧
(٣) الرعد آية رقم ١٨

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور ، والموت حيث الظلمة فحياة الموجودين الروحى والحس بالنور ، وهو مادة الحياة ، كما أنه مادة الاضاءة فلا حياة بدونه كما لا إضاءة بدونه ، وكما أنه به حياة القلب ، فيه انفساحه وانشراحه وسعته ، كما ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم : (إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح)

قالوا : وما علامة ذلك ؟

قال : (الانابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله)[1]

ونور العبد هو الذى يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى لايصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ومصدره عن النور ، ولا من العمل الا الصالح ولا من الأرواح الا الطيبة ، وهى أرواح المؤمنين التى استنارت بالنور الذى أنزله على رسوله ﷺ ، والملائكة : الذين خلقوا من نور كما فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : (خلقت الملائكة من نور وخلقت الشياطين من نار وخلق آدم مما وصف لكم)[2] .

فلما كانت مادة الملائكة من نور ، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى ، وكذلك أرواح المؤمنين هى التى تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها ، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فتوقف بين يدى الله عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه فى عليين ،

فلما كانت هذه الروح ، روحا زاكية طيبة نيرة مشرقة ، صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة ، وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة ، فإنها لاتفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها صرها ، لأنها أرضية سفلية ، والأولى علوية سماوية ، فرجعت كل روح إلى عنصرها ، وماهى منه ، وهذا مبين فى حديث البراء بن عازب الطويل الذى رواه الامام أحمد وأبو عوانة الاسفراييني فى صحيحه والحاكم وغيرهم وهو حديث صحيح[3] .

والمقصود : أن الله عز وجل لايصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح ، إلا ماكان منها نورا ، وأعظم الخلق نورا ، أقربهم إليه وأكرمهم عليه .

وفى المسند من حديث عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ (إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن اخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله تعالى)[4]

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الايمان ، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته والله تعالى الموفق .

وهذا النور الذى ألقاه عليهم سبحانه وتعالى ، هو الذى أحياهم وهداهم ، فأصابت العظمة منه

(١) اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٤٢٤

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٩٤ برقم ٦٠/ ٢٩٩٦ والامام أحمد ج ٦ ص ١٥٣

(٣) أخرجه الامام أحمد ج ٤ ص ٢٨٧

(٤) أخرجه الترمذى فى أبواب الايمان ج ٤ ص ١٣٥ برقم ٢٧٨٠ وقال هذا حديث حسن .

حظها ، ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله ، أكمله لهم وأتمه بالروح ، الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام ، والنور الذى أوحاه اليهم ، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق ، الذى حصل لها يوم إلقاء النور فانضاف نور الوحى والنبوة إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فأشرقت منه القلوب واستنارت به الوجوه ، وحييت به الأرواح واذعنت به الجوارح للطاعات طوعا واختيارا ، فازدادت به القلوب حياة إلى حياتها .

ثم دلها ذلك النور على نور آخر ، هو أعظم منه وأجل ، وهو نور الصفات العليا ، الذى يضمحل فيه كل نور سواه ، فشاهدته ببصائر الايمان ، مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المرئيات إلى العين ، وذلك لاستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الايمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزا ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به سبحانه وتعالى فى كتابه ، وكما أخبر به عنه رسول الله ﷺ يدبر أمر الممالك ، ويأمر وينهى ، ويخلق ويرزق ، ويميت ويحيى ، ويقضى وينفذ ، ويعز ويزل ، ويقلب الليل والنهار ، ويذل الأيام بين الناس ، ويقلب الدول فيذهب بدولة ويأتى بأخرى .

والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه بالأمر ونازل من عنده به ، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأوقات ، نافذة بحسب ارادته ومشيئته ، فما شاء كان كما شاء ، فى الوقت الذى يشاء ، على الوجه الذى يشاء ، من غير زيادة ولا نقصان ، ولاتقدم ولا تأخر ، وأمره وسلطانه نافذ فى السماوات والأرض وأقطارها ، وفى الأرض وما عليها وماتحتها ، وفى البحار والجو ، وفى سائر أجزاء العالم وذراته ، يقلبها ويصرفها ويحدث فيها مايشاء ، وقد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، ووسع كل شىء رحمة وحكمة ، ووسع سمعه الأصوات ، فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه ، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على تفنن حاجاتها ، فلا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بالحاح الملحين ذوى الحاجات ، وأحاط بصره بجميع المرئيات ، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، فالغيب عنده شهادة ، والسر عنده علانية يعلم السر وأخفى من السر .

فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد وخطر بقلبه ، ولم تتحرك به شفتاه ، وأخفى منه مالم يخطر بقلبه بعد ، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا

فى وقت كذا وكذا ، له الخلق والأمر ، وله الملك وله الحمد ، وله الدنيا والآخرة ، وله النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، وله الملك كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، شملت قدرته كل شىء ، ووسعت رحمته كل شىء ، وسعت نعمته إلى كل حى ﴿ **يسأله من فى السماوات والأرض كل يوم هو فى شأن** ﴾[1] : يغفر ذنبا ، ويفرج هما ، ويكشف كربا ، ويجبر كسيرا ، ويغنى فقيرا ، ويعلم جاهلا ، ويهدى ضالا ، ويرشد حيران ، ويغيث لهفان ، ويفك عانيا ، ويشبع جائعا ، ويكسو عاريا ، ويشفى مريضا ، ويعافى مبتلى ، ويقبل تائبا ، ويجزى محسنا ، وينصر مظلوما ، ويقصم جبارا ، ويقيل عثرة ، ويستر عورة ، ويؤمن روعة ويرفع أقواما ، ويضع آخرين ،

---

(١) الرحمن آية ٢٩

لاينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى اليه بصره من خلقه ، يمينه ملأى ، لاتغيضها نفقة ، سخاء الليل والنهار . أرأيتم ماأنفق منذ خلق الخلق ، فإنه لم يغض مافى يمينه ، قلوب العباد ونواصيهم بيده ، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول :

أنا الملك ، أنا الملك ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئا ، وأنا الذى أعيدها كما بدأتها ، لايتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا حاجة يسألها أن يعطيها ، لو أن أهل سمواته ، وأهل أرضه ، وأول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أتقى قلب رجل منهم ، مازاد ذلك فى ملكه شيئا ، ولو أن أول خلقه وآخرهم ، وانسهم وجنهم ، كانوا على أفجر قلب رجل منهم ، مانقص ذلك من ملكه شيئا ، ولو أن أهل سمواته وأهل أرضه ، وانسهم وجنهم ، وحيهم وميتهم ، ورطبهم ويابسهم قاموا فى صعيد واحد ، فسألوه فأعطى كلا منهم ماسأله ، مانقص ذلك مما عنده مثقال ذرة ، ولو أن أشجار الأرض كلها ـ من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا ـ أقلام ، والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مدادا . فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد ، لفنيت الأقلام ونفد المداد ، ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى . وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهى لابداية لها ولا نهاية ، والمخلوق له بداية ونهاية فهو أحق بالفناء والنفاد ؟ وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق ؟ هو الأول الذى ليس قبله شيء ، والآخر الذى ليس بعده شيء ، والظاهر الذى ليس فوقه شيء ، والباطن الذى ليس دونه شيء ، تبارك وتعالى ، أحق من ذكر ، وأحق من عبد ، وأحق من حمد ، وأولى من شكر ، وأنصر من أبتغى ، وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأعفى من قدر ، وأكرم من قصد ، وأعدل من انتقم ، حكمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن عزته ، ومنعه عن حكمته ، وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعى لديه ضائع
ان عذبوا فبعد له ـ أو نعموا ... فبفضله ، وهو الكريم الواسع

هو الملك الذى لاشريك له ، والفرد فلا ند له ، والغنى فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ، ولا صاحبة له ، والعلى فلا شبيه له ، ولا سمى له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، وكل ملك زائل إلا ملكه ، وكل ظل قالص إلا ظله ، وكل فضل منقطع إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته ، يطاع فيشكر ، ويعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نقمة منه عدل ، وكل نعمة منه فضل أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصى وسجل الآثار ، وكتب الآجال ، فالقلوب له منضية ، والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة ، عطاؤه كلام ، وعذابه كلام ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾(١) .

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات ، اضمحل عندها كل نور ، ووراء هذا مالا يخطر

(١) سورة يس آية رقم ٨٢

بالبال ، ولا تناله عبارة .

والمقصود : أن الذكر ينور القلب والوجه والأعضاء ، وهو نور العبد فى دنياه ، وفى البرزخ ، وفى يوم القيامة .

وعلى حسب نور الايمان فى قلب العبد ، تخرج أعماله وأقواله ، ولها نور وبرهان ، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله ، إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس ، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل ، وهكذا يكون نوره الساعى بين يديه على الصراط ، وهكذا يكون نور وجهه فى يوم القيامة والله تعالى المستعان وعليه التكلان .

السابعة والثلاثون : أن الذكر رأس الأمور ، وطريق عامة الطائفة ، ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليتطهر ، وليدخل على ربه عز وجل يجد عنده كل مايريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شىء ، وان فاته ربه عز وجل فقد فاته كل شىء .

الثامنة والثلاثون : أن فى القلب خلة وفاقه لايسدها شىء ألبته ، إلا ذكر الله عز وجل ، فإذا صار الذكر شعار القلب ، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ، واللسان تبع له ، فهذا هو الذكر الذى يسد الخلة ، ويغنى الفاقة ، فيكون صاحبه غنيا بلا مال ، عزيزا بلا عشيرة ، مهيبا بلا سلطان ، فإذا كان غافلا عن ذكر الله عز وجل ، فهو بضد ذلك ، فقير مع كثرة جدته ، ذليل مع سلطانه ، حقير مع كثرة عشيرته .

التاسعة والثلاثون : أن الذكر يجمع المتفرق ، ويفرق المتجمع ، ويقرب البعيد ، ويبعد القريب ، فيجمع ماتفرق على العبد من قلبه وارادته ، وهمومه وعزومه ، والعذاب كل العذاب فى تفرقتها وتشتتها عليه ، وانفراطها له ، والحياة كل الحياة والنعيم فى أجتماع قلبه وهمه ، وعزمه وارادته ، ويفرق مااجتمع عليه من الهموم ، والغموم والأحزان ، والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه ، ويفرق أيضا مااجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره ، حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل ، ويفرق أيضا ما اجتمع على حربه من جند الشيطان ، فإن ابليس لايزال يبعث له سرية بعد سرية ، وكلما كان أقوى طلبا لله سبحانه وتعالى ، وأشد تعلقا به وارادة له ، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة ، بحسب ماعند العبد من مواد الخير والارادة ، ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر ، وأما تقريبه البعيد فإنه يقرب إليه الآخرة التى يبعدها منه الشيطان والأمل ، فلايزال يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها ، فحينئذ تصغر فى عينه الدنيا ، وتعظم فى قلبه الآخرة ، ويبعد القريب اليه ، وفى الدنيا التى هى أدنى إليه من الآخرة ، متى قربت من قلبه بعدت عنه الدنيا ، كلما قرب من هذه مرحلة بعد من هذه مرحلة ، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر والله المستعان . .

الفائدة الأربعون : أن الذكر ينبه القلب من نومه ، ويوقظه من سنته ، والقلب إذا كان نائما فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران ، فإذا استيقظ وعلم مافاته فى نومته ، شد المئزر ، وأحيا بقية عمره ، واستدرك مافاته ، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر ، فإن الغفلة نوم ثقيل .

وحسبنا هذا القدر من فوائد الذكر سائلين الله تعالى أن يعلمنا ماينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا .

قوله تعالى :

﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا . ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

سيدى أبا القاسم يارسول الله :

صلت عليك ملائك الرحمن ... وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزودا ... يحمى الاله وراية القرآن

لقد مدحك الله تعالى بما منحك فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[1]

أرسلك للناس عامة ، ونصرك بالرعب بين يدى سيرة شهر ، وجعل لك ولأمتك الأرض مسجدا وطهورا ، وأحل لك الغنائم ولم تحل لأحد قبلك ، وأتاك جوامع الكلم ، وأعطاك الشفاعة العظمى .

إذا كان يوم العرض والحشر واللقا ... فلا أحد فى الرسل يشفع إلا هو
فيسجد تحت العرش لله سجدة ... ويسأله فصل القضاء فيعطاه

فسلام عليك فى الأولين ، وسلام عليك فى الآخرين ، وسلام عليك فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، وسلام عليك يوم يقوم الناس لرب العالمين .

قال البخارى فى البيوع وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام رضى الله عنه ، وقال وهب بن منبه : إن الله تعالى أوحى إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له شعياء : أن قم فى قومك بنى اسرائيل فإنى منطق لسانك بوحى وأبعث أميا من الأميين ، أبعثه ليس بفظ ولا غليظ ولا ضحاب فى الأسواق ، لو يمر إلى جنب سراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشى على القصب لم يسمع من تحت قدميه أبعثه مبشرا ونذيرا ، لايقول الخنا . أفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا ، أسدده بكل أمر جميل وأهب له كل خلق كريم وأجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والحق شريعته ، والعدل سيرته ، والهدى إمامه والاسلام ملته ، وأحمد اسمه أهدى به بعد الضلال ، وأعلم به بعد الجهالة ، وأرفع به بعد الخمالة ، وأعرف به بعد النكرة ، وأكثر به بعد القلة ، وأغنى به بعد العيلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلف به بين أمم متفرقة ، وقلوب مختلفة ، وأهواء مشتتة ، واستنقذ به فئاما من الناس عظيمة من الهلكة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، موحدين مؤمنين مخلصين ، مصدقين لما جاءت به رسلى ، ألهمهم التسبيح والتحميد ، والثناء والتكبير والتوحيد ، فى مساجدهم ومجالسهم ومضاجعهم ومنقلبهم ومثواهم ، يصلون لى قياما وقعودا ،

---

(١) سورة القلم آية ٤

ويقاتلون فى سبيل الله صفوفا وزحوفا ، ويخرجون من ديارهم ابتغاء مرضاتى ألوفا ، يطهرون الوجوه والأطراف ويشدون الثياب فى الأنصاف ، قربانهم دماؤهم ، وأناجيلهم فى صدورهم ، رهبان بالليل ليوث بالنهار ، وأجعل من أهل بيته وذريته السابقين والصديقين والشهداء والصالحين ، أمته من بعده يهدون بالحق وبه يعدلون ، وأعز من نصرهم وأؤيد من دعا لهم ، وأجعل دائرة السوء على من خالفهم أو بغى عليهم ، أو أراد أن ينتزع شيئا مما فى أيديهم ، أجعلهم ورثة لنبيهم ، والداعين إلى ربهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ويوفون بعهدهم ، أختم بهم الخير الذى بدأته بأولهم ، ذلك فضلى أوتيه من أشاء ، وأنا ذو الفضل العظيم .(١) .

لقد كمل الله نبيه ﷺ بالخلق الكريم فهو الداعية إلى الله على بصيره ، الشاهد لله بالتوحيد ، والشاهد على الأمم يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾(٢) وقال : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾(٣)

وقال سبحانه : ﴿ ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾(٤)

وقال : ﴿ وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾(٥)

وهو المبشر للمؤمنين بالجنة : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾(٦) وقال : ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات . أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبدا ﴾(٧) وقال سبحانه : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم ﴾(٨) .

وهو النذير من عذاب النار قال : ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾(٩) وقال : ﴿ وتنذر قوما لدا ﴾(١٠) وقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون ﴾(١١) وقال : ﴿ لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾(١٢)

وقال : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٤٩٦ ، ص ٤٩٧ ج ١ دار التراث
(٢) سورة البقرة آية ١٤٣
(٣) سورة النساء آية ٤١
(٤) سورة النحل آية ٨٩
(٥) سورة الحج آية ٧٨
(٦) سورة البقرة آية ٢٥
(٧) سورة الكهف آية ٢
(٨) سورة التوبة الآيتان ٢١ ، ٢٢
(٩) سورة الكهف آية ٤
(١٠) سورة مريم آية ٩٧
(١١) سورة مريم آية ٣٩
(١٢) سورة غافر الآيات ١٥ ـ ١٨

دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال ﴾[١] وقال : ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ماقدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾[٢]

وقال : ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾[٣]

وهو الداعى إلى الله على بصيرة ﴿ قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيره أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾[٤]

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾[٥] وهو السراج المنير والقمر الساطع بنوره ، الذى يبدد غياهب الظلمات ، ويحيى بدعوته الأرض والسموات ، وهو الذى بعثه الله تعالى ليملأ الأرض عدلا وقسطا ، بعد أن ملئت جورا وظلما ، وفرق بين السراج المنير ، والسراج الوهاج ، فالسراج المنير فيه نور وليس فيه حرارة تؤذى ، والسراج الوهاج فيه نور وحرارة كالشمس فإذا ماعقدت مقارنة بين السراجين ، السراج المنير ، وهو رسول الله ﷺ ، والسراج الوهاج وهو الشمس ، رأيت أن السراج الوهاج يطلع نهارا ويغيب ليلا ، أما نور دعوة رسول الله ﷺ فإنه لايغيب ليلا ونهارا ، الشمس قد تؤذيك بحرها صيفا ، ودعوة رسول الله ﷺ بما فيها من نور ، تدفئك شتاء ، وتنعشك صيفا ، والسراج الوهاج إذا اقتربت منه أو ذيت بحره ، أما سراج رسول الله ﷺ فكلما ازددت منه قربا ازددت من الله حبا ، لقد أمره الله ونهاه ، أمره بقوله : ﴿ وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ﴾ ونهاه بقوله : ﴿ ولاتطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ وأى فضل بعد رضوان الله عليهم ، وأى نعمة بعد الجنة ، كل نعيم دون الجنة حقير .

وكل بلاء دون النار عافية ؛ لقد نهاه الله تعالى فى أول هذه السورة عن طاعة الكافرين والمنافقين ، ويفيد ذلك النهى تثبيته على ماهو عليه ، وهنا أعاد الذهن مرة أخرى توكيدا وتقوية ، وأمره فى أول السورة بالتوكل على الله ، ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ وهنا أعاد الأمر بالتوكل لما فيه من زيادة التسليم والتفويض لله ، فالتوكل هو زاد الدعاة الذى لاينضب ، ورصيدهم الذى لاينفد ، من كان الله معه فمن عليه ، ومن وجد الله فماذا فقد ؟

﴿ ياأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾ .

كلمة عن التوكل

وهو يقال على وجهين : يقال : توكلت لفلان بمعنى توليت له . يقال : وكلته توكيلا ، فتوكل

(١) سورة ابراهيم آية ٤٤
(٢) سورة النبأ آية ٤٠
(٣) سورة سبأ آية ٤٦
(٤) سورة يوسف آية ١٠٨
(٥) سورة النحل آية ١٢٥

لى ، وتوكلت عليه بمعنى اعتمد عليه .

وقد أمر الله تعالى بالتوكل فى خمسة عشر موضعا من القرآن :

الأول : إن طلبتم النصر والفرج فتوكلوا علىَّ : ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ إلى قوله ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(١)

﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾(٢) .

الثانى : إذا أعرضت عن أعدائى فليكن رفيقك التوكل :

﴿ فأعرض عنهم وتوكل على الله ﴾(٣)

الثالث : إذا أعرض عنك الخلق فاعتمد على التوكل ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله لاإله إلا هو عليه توكلت ﴾(٤) .

الرابع : إذا تلى القرآن عليك ، أو تلوته ، فاستند على التوكل : ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾(٥) .

الخامس : إذا طلبت الصلح والاصلاح بين قوم لاتتوسل إلى ذلك إلا بالتوكل : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾(٦) .

السادس : إذا وصلت قوافل القضاء استقبلها بالتوكل : ﴿ قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾(٧)

السابع : إذا نصبت الأعداء حبالات المكر ادخل أنت فى أرض التوكل ﴿ قالوا ياهود ماجئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون إنى توكلت على الله ربى وربكم مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾(٨) وقال سبحانه : ﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وماكان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾(٩)

وقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمون ﴾(١٠).

الثامن : وإذا عرفت أن مرجع الكل إلينا ، وتقدير الكل منا ، وطن نفسك على فرش التوكل :

﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾(١١)

(١) سورة آل عمران آية ١٦٠
(٢) سورة المائدة آية ٢٣
(٣) سورة النساء آية ٨١
(٤) سورة التوبة آية ١٢٩
(٥) سورة الأنفال آية ٢
(٦) سورة الأنفال آية ٦١
(٧) سورة التوبة آية ٥١
(٨) سورة هود آيات ٥٣ - ٥٦
(٩) سورة ابراهيم الأيتان ١١ ، ١٢
(١٠) سورة يونس الآيات ٧١ ، ٧٢
(١١) سورة هود آية رقم ١٢٣

التاسع : إذا علمت أنى الواحد على الحقيقة ، فلايكن اتكالك إلا علينا ﴿ قل هو ربى لاإله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾[١]

العاشر : إذا عرفت أن هذه الهداية من عندى ، فلاقها بالشكر والتوكل : ﴿ ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾[٢] .

الحادى عشر : إذا خشيت بأس أعداء الله ، والشيطان الغدار فلا تلتجىء إلا إلى بابنا : ﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾[٣]

الثانى عشر : إن أردت أن أكون أنا وكيلك فى كل حال فتمسك بالتوكل فى كل حال : ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[٤]

الثالث عشر : إن أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل فى مقام التوكل ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ماظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٥]وقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴾[٦]

الرابع عشر : إن شئت النزول محل المحبة فاقصد أولا طريق التوكل : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين . إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[٧]

الخامس عشر : إن أردت أن أكون لك ، وتكون لى ، فاستقر على تخت التوكل : ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾[٨] ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾[٩] ﴿ وتوكل على الحى الذى لايموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا ﴾[١٠]

ثم أعلم أن التوكل نصف الدين ، والنصف الثانى الانابة . فإن الدين استعانة ، وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والأنابة هى العبادة . .

ومنزلة التوكل أوسع المنازل : لايزال معمورا بالنازلين لسعة متعلق التوكل وكثرة حوائج العاملين ، وعموم التوكل ، ووقوعه من المؤمنين والكفار ، والأبرار ، والفجار ، والطير ، والوحوش ، والبهائم ، وأهل السموات والأرض ، وأن المكلفين ، وغيرهم فى مقام التوكل سواء وإن تباين متعلق توكلهم .

فأولياؤه وخاصته متوكلون عليه فى حصول مايرضيه منهم ، وفى إقامته فى الخلق ، فيتوكلون عليه

---

(١) سورة الرعد آية ٣٠
(٢) سورة ابراهيم آية ٧٢
(٣) سورة النحل الآيتان ٩٩ ، ١٠٠
(٤) سورة النساء آية ١٣٢
(٥) سورة النحل الآيتان ٤١ ، ٤٢
(٦) سورة العنكبوت الآيتان ٥٨ ، ٥٩
(٧) سورة آل عمران الآيتان ١٥٩ ، ١٦٠
(٨) سورة الطلاق آية ٣
(٩) سورة النمل آية ٧٩
(١٠) سورة الفرقان آية ٥٨

فى الايمان ، ونصرة دينه ، وإعلاء كلماته ، وجهاد أعدائه ، وفى محابه ، وتنفيذ أوامره .

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى معلوم يناله : من رزق ، أو عافية أو نصر على عدو ، أو زوجة ، أو ولد ، ونحو ذلك .

ودون هؤلاء من يتوكل عليه فى حصول مالا يحبه الله ، ولا يرضاه : من الظلم والعدوان ، وحصول الاثم ، والفواحش ، فإن أصحاب هذه المطالب لاينالون غالبا إلا باستعانتهم ، وتوكلهم عليه ، بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات . ولهذا يلقون أنفسهم فى المهالك ، معتمدين على الله ـ تعالى ـ أن يشمهم ، ويظفرهم بمطالبهم .

ـ فأفضل التوكل فى الواجب : أعنى واجب الحق ، وواجب الخلق ، وواجب النفس ، وأوسعه وانفعه التوكل فى التأثير فى الخارج فى مصلحة دينه ، أو فى دفع مفسدة دينه . وهو توكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـ فى إقامة دين الله ، ودفع المفسدين فى الأرض ، وهذا توكل ورثتهم .

ثم الناس فى التوكل على حسب أغراضهم . فمن توكل على الله فى حصول الملك ، ومتوكل عليه فى حصول رغيف ، ومن صدق توكله على الله فى حصول شيء ناله . فإن كان محبوبا له مرضيا كانت له فيه العاقبة المحمودة . وأن كان مسخوطا مبغوضا كان ماحصل له بتوكله مضرة ، وان كان مباحا حصلت له مصلحة التوكل دون مصلحة ماتوكل فيه ، إن لم يستعن به على طاعة .

فإن قلت مامعنى التوكل ؟ قلت : قال الامام أحمد : التوكل : عمل القلب : يعنى ليس بقول ، ولا عمل جارحة ، ولا هو من باب العلوم والادراكات .

ومن الناس من يجعله من باب المعارف فيقول : هو علم القلب بكفاية العبد من الله . ومنهم من يقول : التوكل هو جمود حركة القلب ، واطراحه بين يد الله كاخراج الميت بين يدى الغاسل : يقلبه كيف يشاء ، وقيل التوكل : ترك الاختيار ، والاسترسال مع مجارى الأقدار ، ومنهم من يفسره بالرضا ، ومنهم من يفسره بالثقة بالله ، والطمأنينة إليه .

وقيل التوكل : ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة .

وقال أبو سعيد الخراز : هو اضطراب بلا سكون ، وسكون بلا اضطراب . وقال سهل : من طعن فى الحركة ، فقد طعن فى السنة ، ومن طعن فى التوكل فقد طعن فى الايمان ، فالتوكل حال النبى ﷺ ، والكسب سنته . فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته .

وحقيقة الأمر أن التوكل : حال مركب من مجموع أمور لايتم حقيقة التوكل الا بها ، وكل أشار إلى واحد من هذه الأمور ، أو اثنين أو أكثر ، فأول ذلك معرفة الرب وصفاته ، من قدرته ، وكفايته ، وفيوضه وانتهاء الأمور إلى علمه ، وصدورها من شيئته ، وقدرته وهذه المعرفة أولى درجة .

والثانية اثبات الأسباب والمسببات ، فإن من نفاها فتوكله مزح ، وهذا عكس مايظهر فى بادىء الرأى ، من أن إثبات الأسباب يقدح فى التوكل . ولكن الأمر بخلافه . فإن نُفاة الأسباب لايستقيم لهم توكل البتة . فإن التوكل أقوى الأسباب فى حصول المتوكل به ، فهو كالدعاء الذى جعله الله سببا فى حصول المدعو به .

الدرجة الثالثة : وسوخ القلب فى مقام التوحيد ، فإنه لايستقيم توكله حتى يصح توحيده .

الدرجة الرابعة : اعتماد القلب على الله تعالى ، واستناده عليه ، وسكونه إليه ، بحيث لايبقى فيه اضطراب من جهة الأسباب .

الخامسة : حسن الظن بالله ، فعلى قدر حسن ظنك به يكون توكلك عليه .

السادسة : استسلام القلب له ، وانجذاب دواعيه كلها إليه .

السابعة : التفويض ، وهو روح التوكل ، ولبه (حقيقته) فإذا وضع قدمه فى هذه الدرجة ، انتقل منها إلى درجة الرضا وهى ثمرة التوكل .

الرسول القدوة

إنه الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، والسراج المنير .

﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾[1] إنه الأمى الذى علم المتعلمين ، واليتيم الذى بعث الأمل فى قلوب اليائسين ، والمعصوم الذى قاد سفينة العالم الحائرة فى خضم المحيط ، ومعترك الأمواج ، إلى مرفأ الأمان ، وشاطىءَ الحق المبين . هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين أساتذة وقادة ، كان ينساب فى أخلاق أرق من النسيم وأنضر من صفحة الروض الوسيم ، ورحم الله أمير الشعراء إذ يقول فى أمير الأنبياء :

يامن له الأخلاق ماتهوى العلا ... منهـا ومايتعشـق الكبـراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويولع الكرماء

وهاك تلك الباقة العبقة التى جمعنا فيها من كل بستان زهرة ، ومن كل حديقة وردة من رياض الأخلاق المحمدية الكريمة .

تواضعه ﷺ . (من كتاب شمائل النبى للترمذى)

قال بعض العارفين : (لايبلغ العبد حقيقة التواضع إلا إذا دام تجلى الشهود فى قلبه ، لأنه يذيب النفس ويصفيها عن غشى الكبر والعجب فتلين وتطمئن ، ولاتنظر إلى قدرها)

والتواضع لغة : التذلل والخضوع .

وعرفا : خروج الانسان عن مقتضى جاهه ، وتنزله عن مرتبة أمثاله وعند المحققين : التواضع هو : ألا يرى العبد لنفسه مزية ، ويرى الحالة التى هو فيها أعظم من أن يستحقها وسئل أبو زيد : متى يكون العبد متواضعا ؟ فقال : إذا لم ير العبد لنفسه مقالا ولا حالا .

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٢١

(١) عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : لاتطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله .[١]

الشرح

والاطراء : هو مجاوزة الحد فى المدح ، والمدح المنهى عنه هو دعوى أن رسول الله ﷺ بلغ مرتبة الألوهية (كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم)

وقالوا إنه إله أو ابن إله .. وإلى هذا يشير البوصيرى حين يقول :

دع ماادعته النصارى فى نبيهم   واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

(٢) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت له : إن لى إليك حاجة . فقال أجلسى فى أى طريق المدينة شئت أجلس إليك .[٢]

الشرح

ويظهر أن الحاجة كانت تريد إخفاءها عن الذين حول النبى ﷺ وتجلى خلق النبى العظيم حين طلب منها أن تجلس فى أى مكان ليجلس إليها .

وهذا داخل فى تيسير حوائج المسلمين والعمل على تسهيل أمورهم .

ولايقال إن النبى ﷺ خلا بالمرأة ، فإن الجلوس كان بمكان عام وكان للضرورة وعلى قدرها !! والغالب أن المرأة كانت عجوزا أو أرملة ولذلك ذكر هذا الأمر فى باب تواضعه ﷺ .

٣ ـ وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يعود المرضى ويشهد الجنائز ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد . وكان يوم بنى قريظة على حمار مخطوم بحبل من ليف وعليه إكاف من ليف »[٣]

فقد كان ﷺ يزور المريض أيا كان عبدا أو حرا ، بل ورد أنه زار غلاما يهوديا وهو مريض ودعاه للأسلام فأسلم ، وكان يقول للمريض . كيف تجدك أو كيف أصبحت ، أو كيف أمسيت ، أو لابأس عليك ، طهور إن شاء الله ، أو كفارة وطهور ، وقد يضع يده على المكان الذى فيه الألم ثم يقول (بسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك الله يشفيك) .

وجاء فى مختصر السيرة للمحب الطبرى . أن رسول الله ﷺ ركب حمارا إلى قباء ، وكان معه أبو

---

(١) أخرجه ابن حبان ج ٨ ص ٤٦ برقم ٦٢٠٦ والبخارى ج ٤ ص ٢٠٤ طبع الشعب
(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٣ برقم ٧٦/ ٢٣٢٦
(٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد برقم ٤١٧٨ ج ٢

هريرة ، فقال : أحملك بها فقال ماشئت يارسول الله . فوثب ليركب ، فلم يقدر فاستمسك به ﷺ فوقعا جميعا .. وحاول أبو هريرة الركوب مرة أخرى فوقعا جميعا ..

وكان يجيب دعوة العبد فى طعام وغيره ، قرب المكان أو بعد .

وكان النبى ﷺ يركب .. حمارا مخطوما أى ذى خطام وهو الزمام بحبل من ليف (وعليه إكاف) هو كالسرج للفرس (من ليف) من بيانية وركوب الحمار مع هذا الانتصار على بنى قريظة . خلق لايقدر عليه إلا السيد المختار .

(٤) وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال كان النبى ﷺ يدعى إلى خبز الشعير والأهالة السنخة فيجيب . ولقد كان له درع عند يهودى فما وجد مايفكها حتى مات .(١)

الشرح والبيان

الاهالة السنخة : الدهن الذى تغيرت رائحته من طول المكث . وكان النبى (ﷺ) يجيب إلى ذلك ، تطيبا لخاطر الداعى . والدرع هى ذات الفضول . واسم اليهودى أبو الشحم . وكان الرهن فى ثلاثين أو عشرين لأجل سنة كما فى البخارى . وكان رهن النبى (ﷺ) عند اليهودى لبيان جواز ذلك .

(فما وجد مايفكها) إلخ . لأنه ﷺ مات فقيرا . وقد فكها من بعده أبو بكر ، وقيل الامام على . وهذه الحال مع ماكان عليه النبى (ﷺ) من مال خيبر وأرض فدك وغنائم الجهاد .

(٥)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : حج رسول الله (ﷺ) على رحل رث وعليه قطيفة لاتساوى أربعة دراهم ؛ فقال : اللهم اجعله حجا لارياء فيه ولا سمعة .(٢) .

الشرح والبيان

الرحل للجمل كالسرج للفرس ، والرث : البالى الخلق . وعلى الرحل قطيفة أى كساء . (لاتساوى أربعة دراهم) أى لبساطتها (اللهم اجعله حجا إلخ) أى خالصا لوجهك ، وافتقارا لربوبيتك ، وفى الحديث تشريع للأمة وحث على التواضع وخلوص النيات .

(٦)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله (ﷺ) قال : وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك

الشرح والبيان

كانت الصحابة تحب رسول الله أكثر من حبهم لأموالهم وأولادهم وأنفسهم وقد استفاضت الأخبار فى ذلك . !

---

(١) اتحاف السادة المتقين ج ٧ ص ١٠١ وكنز العمال ١٨٢٠٩

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٨٩٠ ، ج ٢ ص ٩٦٥ حلية ٣/ ٥٤

ولكنهم مع ذلك لايقومون له ، لأنه ﷺ كان يكره ذلك ، وقد اختلف العلماء فى القيام . فذهب أكثر العلماء إلى كراهته ، وذهب الأقل إلى جوازه .

عن الحسن بن على قال : سألت خالى هند بن أبى هالة ، وكان وصافا عن حلية رسول الله (ﷺ) وأنا أشتهى أن يصف لى منها شيئا .

فقال : كان رسول الله (ﷺ) فخما مفخما ، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، فذكر الحديث بطوله . قال الحسن : فكتمتها الحسين زمانا ، ثم حدثته فوجدته قد سبقنى إليه . فسأله عما سألته عنه ؛ ووجدته قد سأل أباه عن مدخله ومخرجه وشكله فلم يدع منه شيئا قال الحسين : فسألت أبى عن دخول رسول الله (ﷺ) فقال : كان إذا أوى إلى منزله جزأ دخوله ثلاثة أجزاء جزءا لله وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزأه بينه وبين الناس ، فيرد بالخاصة على العامة ، ولا يدخر عنهم شيئا ، وكان من سيرته فى جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه ، وقسمه على قدر فضلهم فى الدين ، فمنهم ذو الحاجة ، ومنهم ذو الحاجتين ، ومنهم ذو الحوائج ، فيشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مساءلتهم عنه وإخبارهم بالذى ينبغى لهم .. ويقول : ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، وأبلغونى حاجة من لايستطيع إبلاغها ، فإنه من أبلغ سلطانا حاجة من لايستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة ، لايذكر عنده إلا ذلك ولا يقبل من أحد غيره ، يدخلون روادا ولا يفترقون إلا عن ذواق ، ويخرجون أدلة يعنى على الخير ، قال فسألته عن مخرجه كيف كان يصنع فيه ؛ كان رسول الله (ﷺ) يخزن لسانه إلا فيما يعنيه ، ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم من غير أن يطوى

عن أحد منهم بشره وخلقه ، ويتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لايغفل مخافة أن يغفلوا أو يميلوا ، لكل حال عنده عتاد ، لايقصر عن الحق ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ؛ أفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ، ومؤازرة ، قال فسألته عن مجلسه ، فقال : كان رسول الله (ﷺ) لايقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطى كل جلسائه بنصيبه ، لايحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه فى حاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها أو بميسور من القول ، قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا وصاروا عنده فى الحق سواء ؛ مجلسه مجلس علم وحياء ، وأمانة وصبر ، لاترفع فيه الأصوات ولا تؤبن فيه الحرم ولا تنثى فلتاته ، متعادلين ؛ بل كانوا يتفاضلون فيه بالتقوى ؛ متواضعين ، يوقرون فيه الكبير ويرحمون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ويحفظون الغريب .

الشرح والبيان

قال الحسن : (فكتمتها) أى هذه الرواية أو هذه الحلية .

(زمانا) فيه احتمال أن هذا الكتمان فيه قصدا ، كما يحتمل أن يكون اتفاقا ولكن الحسين رضى الله عنه كان قد سبق فى السؤال عن أحوال النبى (ﷺ) فى مدخله ومخرجه ومجلسه وغير ذلك . والمراد بالشكل هنا أى طريقته فى أصحابه .

جاء فى كتب اللغة أن الشاكل والشكل : الطريقة والمذهب .

وليس المراد هنا الصفة والصورة . (فلم يدع) أى فلم يترك الامام على شيئا مما سأله عنه الحسين إلا وأجاب عنه .

قال الامام على :

(كان إذا أوى إلى منزله) أى استقر فيه ، وهو بالمد أو بالقصر .

(جزأ دخوله) : أى قسم زمانه (جزء الله) أى العبادة والتهجد .

(وجزءا لأهله) أى لمؤانستهن وعشرتهن ومراعاة حقوقهن ، فقد كان خير الناس لأهله (وجزءا لنفسه) وهذا الجزء لم يخلص لنفسه ، بل قسمه بين نفسه وبين الناس ، والمراد بالخواص : الخلفاء الأربعة وكبار الصحابة .

أى أن هؤلاء الخواص يبلغون عنه مايسمعون منه .

(ولا يدخر عنهم شيئا) بل يقدم النصح للجميع كاملا غير منقوص .

وكان من عادته (ﷺ) أن يؤثر أهل الفضل ويقدمهم بإذنه والمراد بأهل الفضل أهل الصلاح والتقوى .

وكان يبدأ بأصحاب الحاجات الذين يحبون أن يسألوا عن أمور دينهم .

(فيتشاغل بهم) أى بذوى الحاجات (ويشغلهم) بفتح الياء (فيما يصلحهم والأمة) أى فى الذى يعود عليهم وعلى الأمة بالصلاح والاصلاح ، وهذا إشراف تربوى من أدق المناهج ، فلا يدع الأصحاب ينشغلون بما لايعنيهم .

وكان (ﷺ) يتعهد كل واحد بما يناسبه .

وبعد تبليغهم وإفادتهم بأمرهم بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب ، ويقول لهم أوصلوا إلى حاجة الغائبين والمرضى والمستضعفين الذين لاتبلغنى حاجاتهم .

ورغب الرسول فى ذلك بتثبيت القدم على الصراط يوم القيامة . وهذا أمر يعرفه من يدرك أهوال هذا اليوم العظيم .

وقد كانت هذه عادة الرسول (ﷺ) فى مجلسه ، لايقبل الكلام اللغو ، ولا الدخول فيما لايعنى .

(يدخلون روادا) بتشديد الواو ، جمع رائد ، وهو فى الأصل من يتقدم القوم . والرواد هنا أكابر الصحابة .

(ولا يفترقون إلا عن ذواق) بفتح الواو . أى لايفترقون إلا بعد الاستفادة العلمية (ويخرجون من عنده أدلة) أى هداة للناس .

وهذه حال النبى (ﷺ) فى بيته .

فأما فى مخرجه فقال الامام على :

(كان يخزن لسانه . إلخ) أى لايتكلم إلا فى حاجة (ويؤلفهم) ويتحبب إليهم بحسن أخلاقه ، ولا ينفرهم . (ويكرم كريم كل قوم) لأن فى ذلك إكراما لقومه وجذبا لهم ، وقيل يحذر بفتح الياء ، وهو الأنسب هنا لقوله (ويحترس منهم) من غير أن يطوى عن أحد من الناس بشره ، أى طلاقة وجهه .

(ويتفقد أصحابه) أى يسأل عن حال الواحد منهم ولماذا غاب ، فإن كان مسافرا دعاله ، أو مريضا عاده ، أو ميتا استغفر له .

(ويسأل الناس عما فى الناس) ليعرف أصحاب الحوائج فيقضيها (ويحسن الحسن . إلخ) أى يمدحه (ويقبح القبيح ويوهيه) أى يظهر قبحه وينفر الناس منه (معتدل الأمر غير مختلف) أى أن أمره جميعا يجرى مع الوسط وهو خير الأمور (لايغفل) أى عن إرشادهم .

(مخافة أن يغفلوا) أى يتكاسلوا ويذهبوا عن الحق .

(لكل حال عنده عتاد) ، أى كان يعد لكل أمر ماينا سبه .

(كان لايقصر عن الحق) أو بيانه أو استيفائه (الذين يلونه إلخ) أى الأقربون منه هم الخيار ، وكان النبى يفضل من الناس من تكون نصيحته أعم ، ويعظم الذين يواسون الناس ويعاونوهم ، فالله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ثم قال الحسن راويا عن الحسين : فسألته عن مجلسه ، فقال الامام على :

(كان لايقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله) أى أن الذكر هو مبدأ جلوسه ومنتهاه . (وكان يجلس حيث ينتهى به المجلس ، ويدعو إلى ذلك ، لأن ذلك هو البساطة المحبوبة ، وكان يقدم لكل جليس مايستحقه من البشر والعناية دون أن يقصر فى أى إنسان ، حتى يحسب جليسه أنه أكرم الجالسين عنده . وهذا خلق لايطيقه إلا نبينا محمد (ﷺ) .

(من جالسه أو فاوضه) أى شاوره . (صابره) أى أن النبى (ﷺ) يجالسه ويشاوره حتى ينتهى أمر المشورة من غير أن يظهر سأما ولا مللا (ومن سأله . إلخ) واضح (قد وسع) أى عم الناس بسطه ، أى طلاقة وجهه ودوام بشره (فصار لهم أبا) فى الشفقة ، بل كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم .

(وصاروا عنده فى الحق سواء) أى متساوين فى الحق . (مجلسه إلخ) أى أن مجلسه كان كله صلحا وعلما وصبرا أو آدبا وأمانة وعدم رفع للأصوات وصفاء وسرور . (ولاتنثى فلتاته) أى لاتشاع ولا تذاع . والضمير للمجلس ، أى لاتشاع هفوات المجلس . (متعادلين) أى متساوين . فلا تفاخر ولا تكبر .

فقد كان أصحاب رسول الله كما وصفهم القرآن . ﴿ أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾[1] .

وبقية الأوصاف واضحة .

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٩

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لو أهدى إلى كراع لقبلت ولو دعيت عليه لأجبت)[١] .

الشرح والبيان

الكراع : بضم الكاف . مادون الكعب من الدواب .

وقيل : هو مستدق الساق من الغنم والبقر .

والجمع أكرع . ورسول الله (ﷺ) يؤكد قبوله الهدية ، أى ولو كانت كراعا . وكذا يعلن إجابة الدعوة !! وهذا هو الخلق الذى عرفنا عليه رسول الله (ﷺ) .

(٩)

عن جابر رضى الله عنه قال : جاءنى رسول الله (ﷺ) ليس براكب بغل ولا برذون) .

الشرح والبيان

البغل : معروف .

والبرذون : الفرس العجمى .

وهذا حديث يفيد أن رسول الله (ﷺ) يزور أصحابه ويعودهم ماشيا ، لما فى ذلك من كثرة الثواب ، وعظيم التواضع .

(١٠)

أنبأنا يحيى بن أبى الهيثم العطار قال : سمعت يوسف بن عبد الله بن سلام قال : سمانى : رسول الله (ﷺ) يوسف وأقعدنى فى حجرة ومسح على رأسى)[٢]

الشرح والبيان

الحجر : بكسر الحاء وفتحها وسكون الجيم . وهو طرف الثوب المقدم منه .

ويطلق على المنع من التصرف ، وعلى الاثنين من الخيل .

وذكر يوسف هذا الحديث ليثبت لنا . كيف كانت معاملة النبى (ﷺ) الرفيقة الرقيقة للصغار !! أجلسه فى حجره . وسماه ، ومسح بيده على رأسه زاد الطبرانى . ودعا لى بالبركة .

فما أجملنا بالتأسى بهذا الخلق فى معاملة الصبيان .

(١١)

عن أنس بن مالك أن رجلا خياطا دعا رسول الله (ﷺ) فقرب منه ثريدا عليه دبَّاء قال : فكان

---

(١) أخرجه : الامام احمد فى مسنده ج ٢ ص ٥١٢

(٢) أخرجه : مجمع الزوائد ج ٩ ص ٣٢٦ ، ص ٣٢٧

رسول الله (ﷺ) يأخذ الدباء وكان يحب الدباء . قال ثابت : فسمعت أنسا يقول : فما صنع لى طعام أقدر على أن يصنع فيه دبا إلا صنع[١] .

الشرح والبيان

ذكروا أن الخياط كان من مواليه : (فقرب منه) أى إليه . والثريد : الخبز المثرود بمرق اللحم . (وعليه دبا) بالقصر والمد وهو القرع !!

(١٢)

عن عمرة قالت : قيل لعائشة ماذا كان يعمل رسول الله ﷺ فى بيته ، قالت : (كان بشرا من البشر : يغلى ثوبه ويحلب شاته ويخدم نفسه)

الشرح والبيان

(كان بشرا من البشر) : هذا أعظم تعبير تمهد به السيدة عائشة للأحوال التى ستذكرها عن رسول الله (ﷺ) وهى تفيد ندرة هذه الأخلاق واستحالة وقوعها إلا من نبينا العظيم .

لقد كان له تسع زوجات وكلهن يتسابقن إلى خدمته ويتنافسن فى قضاء مصالحه ؛ ومع ذلك فقد كان كما قالت السيدة عائشة ، (يغلى ثوبه) أى يفتشه مما علق به ، (ويحلب شاته) ويخدم نفسه .

باب ماجاء فى خلق رسول الله (ﷺ)

الخلق بضم الخاء واللام هو الطبع والسجية ، وهو من الأوصاف الباطنية

قال الامام الغزالى : الخلق هيئة للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ، فإن كانت الهيئة جميلة ، سميت خلقا حسنا ؛ وإلا : سميت خلقا سيئا .

وهذه ترجمة لبعض أخلاق النبى وبعض سجاياه ، لا لجميعها ، بدليل أن التواضع مثلا من أخلاق النبى (ﷺ)

(١)

عن خارجة بن زيد بن ثابت قال : دخل نفر على زيد بن ثابت فقالوا له حدثنا أحاديث رسول الله (ﷺ) قال : ماذا أحدثكم ؟ كنت جاره فكان إذا نزل عليه الوحى بعث إلى فكتبته له ، فكنا إذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا ، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا ، فكل هذا أحدثكم عن رسول الله (ﷺ)[٢]

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦١٥ برقم ١٤٥/ ٢٠٤١

(٢) مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٧

الشرح والبيان

كان زيد هذا من كتاب الوحى ، وكتاب الوحى هم : زيد ، وعثمان ، وعلى ، وأبى ، ومعاوية ، وخالد بن سعيد ، وحنظلة بن الربيع ، والعلاء بن الحضرمى ، وأبان بن سعيد . والمراد بذكر الدنيا ، أى أمور الدنيا الأمور النافعة ، والمراد بذكر الآخرة : أى تفاصيل يوم القيامة وما يقع فيه .

والمراد بذكر الطعام : مايفيد منه وما لايفيد . ويدل هذا على التبسيط فى الحديث والمجالسة .

(٢)

عن عمرو بن العاص قال : كان رسول الله (ﷺ) يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم يتألفهم بذلك ، فكان يقبل بوجهه وحديثه على حتى ظننت أنى خير القوم ، فقلت : يارسول الله ، أنا خير أو أبو بكر ، قال : أبو بكر ، فقلت يارسول الله . أنا خير أو عمر فقال عمر ، فقلت يارسول الله : أنا خير أو عثمان قال عثمان ، فلما سألت رسول الله فصدقنى فلوددت أنى لم أكن سألته[1]

الشرح والبيان

(أشر القوم) إثبات الألف قليل ، والأكثر عدمها . وكان الرسول (ﷺ) يقبل على أشر القوم ليتألفه . قال (ﷺ) : (إنى أعطى الرجل وغيره أحب إلى منه ، خشية أن يكبه الله فى النار)[2] وكان إقبال رسول الله على عمرو لأنه كان حديث عهد بالاسلام فأراد أن يتألفه حتى يتمكن الأيمان فى قلبه ، ولقد تمكن الايمان فى قلب عمرو ، حتى أصبح صحابيا جليلا .

وقد أغرى إقبال النبى على عمرو حتى سأله هذه الأسئلة . ولكن إجابة النبوة الصريحة الصادقة ، جعلت ابن العاص يتصاغر أمام نفسه ، ويتمنى لو لم يكن قد سأل النبى (ﷺ) .

(٣)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : خدمت رسول الله (ﷺ) عشر سنين فما قال لى أف قط ؟ وما قال لى لشىء صنعته لما صنعته .

ولا لشىء تركته لم تركته . وكان رسول الله (ﷺ) من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله (ﷺ) ، ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق النبى (ﷺ)[3]

الشرح والبيان

كانت خدمة أنس للنبى (ﷺ) هذه المدة الطويلة فى السفر والحضر ، وهى مدة تكشف الخلق

---

(١) كنز العمال ج ٧ ص ١٦٠ برقم ١٨٥٢٢

(٢) أخرجه الامام احمد ج ١ ص ١٨٢ مسند سعد بن مالك عن أبيه .

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٤ برقم ٥١/ ٢٣٠٩ ، ص ١٨١٥ برقم ٨٢/ ٢٣٣٠

على طبيعته ، فقد يتكلف المرء معيشة أيام وطباع ليال ، ولكن لايدوم التكلف شهورا بل أعواما بحال من الأحوال « وأف » بتشديد الفاء مفتوحة ومكسورة ، وهى كلمة تبرم تقال لما يتضجر منه . « وقط » وهى ظرف بمعنى الزمن الماضى ، وقد يستعمل بمعنى دائما . ولم يكن النبى (ﷺ) يحاسب أنسا لاعتقاده أن الفاعل الحقيقى هو الله سبحانه . ولذلك كان يقول : قدر الله وماشاء فعل .

(وكان من أحسن الناس خلقا) لعل من زائدة . (ولا مسست) بكسر السين على الأفصح « خزا » ثوبا فيه حرير ، (ولا حريرا) أى خالصا .

(ولا شيئا) تعميم بعد تخصيص (ألين منه) ولين النبى (ﷺ) كان طبيعة فى الخلقة .

(ولا شممت) بكسر الميم وفتحها . (مسكا) وهو أطيب الطيب وأشهره وكان عرق النبى - بفتح الراء أطيب من المسك والعطر . لأن هذا مما تميز به النبى (ﷺ)

(٤)

عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أنه كان عنده رجل به أثر صفرة قال : وكان رسول الله (ﷺ) لايكاد يواجه أحدا بشىء يكرهه ، فلما قام قال للقوم : لو قلتم له يدع هذه الصفرة)[١]

الشرح والبيان

لعل الصفرة التى كانت على الرجل من أثر الزعفران . وكان النبى يكره هذه الصفرة ، ولكنه لم يكن يواجه أحدا بشىء يكرهه . فأوعز إلى من حوله أن يقولوا له : دع هذه الصفرة .

(ولو) هذه شرطية أو للتمنى . والظاهر أن هذا الرجل كان ممن يخشى منه مخالفة النبى (ﷺ) ، فأوعز إلى أحد الصحابة أن يكلموه .

(٥)

عن عائشة أنها قالت : لم يكن رسول الله (ﷺ) فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ؛ ولكن يعفو ويصفح)[٢]

الشرح والبيان

كان النبى ﷺ بعيدا عن الفحش كل البعد . وكذلك لم يكن (صخابا) . أى كثير الصياح ، ولا يقابل السيئة بالسيئة . بل كان يعفو ويصفح !! وبذلك كان يعفو بعد القدرة .

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا   لايستهين بعفوك الجهلاء .

---

(١) هامش المواهب اللدنية ص ١٧٣

(٢) أخرجه فى سنن الدارمى ج ١ ص ١٥ برقم ٨

(٦)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ماضرب رسول الله (ﷺ) بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا ضرب خادما ولا امرأة)[١]

الشرح والبيان

كان النبى (ﷺ) لايضرب مع وجود أسباب الضرب ، لأن الحلم كان طبيعته ، وكظم الغيظ كان سجيته ، (إلا أن يجاهد) فإن الدفاع عن النفس فى الجهاد من شيمة الأبطال . وقد قتل رسول الله ابن خلف فى غزوة أحد وكان جريحا مطعونا .

عن عائشة قالت : مارأيت رسول الله (ﷺ) منتصرا من مظلمة ظلمها قط مالم ينتهك من محارم الله شىء ، فإذا انتهك من محارم الله شىء كان من أشدهم فى ذلك غضبا ، وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن مأثما)[٢] .

الشرح والبيان

لم يكن النبى ﷺ ينتصر لنفسه ، مهما ظلمه الظالمون ، بل يعفو قادرا ويصفح . وقد عفا عمن قال له : (إن هذه القسمة ماأريد بها وجه الله) . وكثير وكثير ، (مالم ينتهك) بالبناء للمفعول . وعندئذ يغضب فلا يهدأ حتى يعود للحق نصابه ، ويؤدب المنتهك ، أو يقام عليه الحد ، لأنه أصبح من حقوق الله . وكان إذا خير بين أمرين من أمور الدنيا ، اختار أيسرهما وأسهلهما . ولذلك فينبغى أن يختار الانسان الأيسر من الأمور . (مالم يكن الأيسر مأثما) بفتح الميم ، أى مفضيا إلى الأثم وعندئذ فيكون الرسول بعيدا عن هذا الأيسر .

(٨)

عن عائشة رضى الله عنها قالت : استأذن رجل على رسول الله ﷺ وأنا عنده فقال : بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة ، ثم أذن له فلما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت يارسول الله قلت ماقلت ثم ألنت له القول فقال : ياعائشة إن من شر الناس من تركه الناس أو ودعه الناس اتقاء فحشه)[٣] .

الشرح والبيان

صرحت بعض الكتب باسم الرجل فقالت : إنه مخرمة بن نوفل . والأرجح من هذا أنه عيينة بن حصين الفزارى . وكان الأحمق المطاع فى قومه . ويظهر أنه كان فاجر الخصومة ، ولذلك قال فيه النبى

---

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٤ برقم ٧٩/ ٢٣٢٨

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨١٣ برقم ٧٧/ ٢٣٢٧

(٣) أخرجه مسلم ج ٤ ص ٢٠٠٢ برقم ٧٣/ ٢٥٩١

(ﷺ : بئس أخو العشيرة والعشيرة هى القبيلة . ولقد حدث بعد وفاة النبى ﷺ أن عيينة هذا ارتد عن الاسلام وجىء به أسيرا فى زمن الخليفة الأول أبى بكر فلما دخل المدينة صاح الصبيان : هذا هو الذى خرج من الدين ، فقال لهم : ومتى دخلت فيه حتى خرجت منه . ومن هذا يعلم سبب قول النبى فيه ولكن الروايات ذكرت أنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وقد اعتبر العلماء قول النبى ﷺ فيه وهو غائب والانته له وهو حاضر من باب المداراة والتألف . ولقد فرقوا بين المداراة والمداهنة فقالوا : إن المداراة بذل الدنيا للدين ، والمداهنة بذل الدين للدنيا .

ونبينا محمد ﷺ كان قادراً أن يكلم عينية بما يستحقه ولكنه كان يحب الرفق فى الأمور كلها .

(٩)

عن الحسن بن على قال : سألت أبى عن سيرة النبى (ﷺ) فى جلساته فقال : كان رسول الله ﷺ دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مشاح يتغافل عما لايشتهى ، ولا يؤيس منه راجيه ، ولا يخيب فيه ، قد ترك نفسه من ثلاث : المراء والاكثار وما لايعينه ، وترك الناس من ثلاث كان لايذم أحدا ولا يعيبه ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم إلا فيما رجا ثوابه وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، فإذا سكت تكلموا ، لايتنازعون عنده الحديث ، ومن تكلم عنده انصتوا له حتى يفرغ حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك مما يضحكون منه ويتعجب مما يتعجبون منه

ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقة ومسألته ، حتى إن كانوا أصحابه ليستجلبوهم ويقول : إذا رأيتم طالب بحاجة يطلبها فأرفدوه ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز فيطعه بنهى أو قيام .

الشرح والبيان

(دائم البشر) أى طلاقة الوجه (سهل الخلق) أى ليس بصعبه ولا خشنه (لين الجانب) أى سريع العطف ، كثير اللطف ، جميل الصفح ، مع الوقار والسكون (ليس بفظ ولا غليظ) أى ليس فيه جفاء ولا غلظة . ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[1] (ولا صخاب) وليس كثير الصخب ، أى الصياح : (ولا فحاش) أى لايعرف الفحش ولا يقع منه (ولا عياب) أى لايعيب غيره أبدا ، ولاعاب طعاما قط (ولا مشاح) اسم فاعل من المشاحة ، وهى عدم المساهلة مع التعقيد (يتغافل عما لايشتهى) أى يظهر الغفلة والاعراض عن الشىء الذى لايستحسنه . (ولا يؤيس) أى لايقطع رجاءه . بل يرد بالحاجة أو بميسور من القول ثم يستمر الامام على فى وصف الأخلاق النبوية فيقول : (قد ترك نفسه من ثلاث خصال مذمومة : (المراء) أى الجدال ولو بحق ، لحديث : من ترك المراء وهو محق ، بنى الله له بيتا فى ربض الجنة .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(والاكثار) من الكلام أو المال (ومالا يعنيه) أى لايتدخل فيما لايعنيه ، وهو القائل : (من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه) .

(وترك الناس من ثلاث) : (كان لايذم أحدا) أى مواجهة ولا غير مواجهة (ولايعيبه) فى نسخة : ولا (يعيره) من التعيير وهو التوبيخ (ولا يطلب عورته) أى لايتبع عورة المسلم .

(ولا يتكلم إلا فيما جاءوا به) أى فى الشيء النافع المطلوب (وإذا تكلم أطرق جلساؤه) أى أرخو أنظارهم إلى الأرض ، وأصغوا إليه ، كأنما على رءوسهم الطير) فإذا سكت تكلموا أى لايبتدرونه بالكلام ، ولا يتكلمون وهو يتكلم (لايتنازعون عنده الحديث) لأنه لاينبغى التنازع ولا التخاصم فى حضرته . (ومن تكلم عنده . إلخ) لأن هذا من آداب الحديث (حديثهم عنده حديث أولهم) أى يتحدث عنده من جاء أولا ثم من بعده على الترتيب .

(يضحك . إلخ) أى موافقة لهم وتطبيبا لخاطرهم . (ويصبر للغريب على الجفوة فى منطقه ومسألته) أى يسامح الغرباء إذا حدثت منهم غلظة وجفوة فإن للغريب لدهشة .

وقد ورد أن المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل ممن يعتزلهم ، حتى كان الصحابة رضوان الله عليهم يستجلبون الغرباء إلى مجلس النبى (ﷺ) ، ليتمكنوا من العلم والتبسط ، وليجدوا مالم يكونوا يجدونه إذا لم يوجد (الغرباء) (إذا رأيتم طالب حاجة فأرفدوه) أى أعينوه على طلب الحاجة حتى يصل إليها . (ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء) أى لايقبل مديحا إلا من إنسان أحسن إليه ، وماسوى ذلك أعرض عنه وأشاح بوجهه . (ولا يقطع عن أحد حديثه) أى لايقاطعه فى كلامه ، وإنما يستمع إليه حتى يفرغ منه . (حتى يجوز) أى يتجاوز الحد ، فيقطعه بنهى أو قيام .

(١٠)

عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : ماسئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا(١) .

الشرح والبيان

المعروف أن رسول الله ﷺ لايسأل عن شيء إلا كان يعطى سائله الحاجة المطلوبة ، أو يدعو له ، أو يعده بها ثم يوفى له ماوعد به .

(١١)

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود مايكون فى شهر رمضان حتى ينسلخ فيأتيه جبريل فيعرض عليه القرآن فإذا لقيه جبريل كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة (٢)

---

(١) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٥ برقم ٥٦/ ٢٣١١

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٣ برقم ٥٠/ ٢٣٠٨

الشرح والبيان

كانت مراتب جوده ﷺ ثلاثة :

(١) الجود العادى وهو فوق جود البشر .

(٢) جود أعلى منه وهو فى رمضان

(٣) جود أكثر وأكثر ، وكان عندما يلقى جبريل ويدارسه القرآن والجود فى المحسوسات والمعنويات . وقد استفاضت الأخبار فى أن الدنيا لم تسكن قلبه أبدا . لقد كان يعطى عطاء الملوك ، بل عطاء من لايخشى الفقر أبدا . (فلهو أجود بالخير من الريح المرسلة) أى بالمطر ، لأن الريح تتسبب فى السحاب الذى يتحول إلى الماء والانبات .

(١٢)

عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : كان النبى ﷺ لايدخر شيئا لغد)[١] .

الشرح والبيان

عدم الادخار يستلزم عظيم توكله على الله عز وجل . وهذا لاينافى ماورد من أنه كان يدخر قوت عام ، فلقد كان هذا المدخر يذهب غالبا إلى الصدقات والمساعدات ، ويفنى بعد قليل . فالصفة الغالبة على أحواله ﷺ هى عدم الادخار .

(١٣)

عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فسأله أن يعطيه فقال النبى ﷺ ماعندى شيء ولكن ابتع على فإذا جاء لى شيء قضيته ، فقال عمر : يارسول الله قد أعطيته فما كلفك الله مالاتقدر عليه ، فكره ﷺ قول عمر . فقال رجل من الأنصار : يارسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالا فتبسم رسول الله ﷺ وعرف فى وجهه البشر لقول الأنصارى ثم قال : بهذا أمرت)[٢] .

الشرح والبيان

(ابتع على) أى اشتر حاجتك دينا علىّ وأنا أوفى عنك وأقضى دينك ، وهذا لأنه لم يكن هناك شيء عند رسول الله ﷺ فى هذه الحال .

ويظهر أن سيدنا عمر أشفق على حال رسول الله فقال كلمته . وكراهية الرسول لكلام عمر ، لأن فيه نزولا على العادة من أحوال البشر ، ورسول الله ﷺ يحب دائما أن يسبق غيره ، (فقام رجل من الأنصار) .

---

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٤٦٧ ص ١٠ ج ٤

(٢) أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه ج ١١ برقم ٢٠٠٥٧ ص ١٠٩ فى وصية عمر بن الخطاب- رضى الله عنه- .

لم يذكروا اسمه ، ولكن يبدو أنه استدرك ، ليرضى رسول الله ، ويذهب هذه السحابة الخفيفة التى ارتسمت على جبينه الشريف ، (أنفق) ولو فوق طاقتك (ولا تخف من ذى العلاش إقلالا) والاقلال الافتقار والحرمان ـ فانفرجت أسارير المصطفى ﷺ ، وعرف البشر فى وجهه .

ـ ١٤ ـ

عن عائشة أن النبى ﷺ كان يقبل الهدية ويثيب عليها .(١)

الشرح والبيان

الاثابة على الهدية : إعطاء عوض عن الهدية للمهدى . فمن الخلق الحسن أن ندعو للذين أحسنوا إلينا ونكافئهم ، ونحفظ لهم جمائلهم .

* هذه الأحاديث تشرح بعض جوانب هذه النفس الرفيعة ، والاحاطة بهذه النفس التى لايمكن أن يلم بها واصف ، أو يحيط بها فقيه ولا عالم . إنه ﷺ قد جعل على أكمل الفضائل ، وأتم الصفات ، وأقوى المحاسن ، وأزكى الطباع . اللهم حسن خلقنا وخلقنا ؛ واهدنا لأحسن الأخلاق ، لايهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئها ؛ لايصرف عنا سيئها إلا أنت ؛ فإن أثقل شيء فى الميزان كما قال نبيك ﷺ : (خلق حسن)(٢) .

* باب ماجاء فى حياء رسول الله (ﷺ)

الحيا : بالقصر هو المطر . والحياء بالمد : هو خلق يبعث على اجتناب القبيح ، ويبعد بصاحبه عن كل مايشين بالمروءة . وقد ورد أن رسول الله ﷺ قال :

(الحياء خير كله)(٣) ولقد جمع هذا الحديث أقسام الحياء جميعا .

ولقد كان بعض الصالحين يستحى من نفسه ، حتى كأن نفسه نفسان لا نفس واحدة .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : كان ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها وكان إذا كره شيئا عرف فى وجهه .(٤) .

الشرح والبيان

العذراء هى البكر ، والخدر : بكسر الخاء وسكون الدال وهو ستر يجعل للبكر فى جانب البيت لتستتر به حتى عن بعض النساء .

---

(١) أخرجه الامام احمد ج ٦ ص ٩٠
(٢) أخرجه الترمذى ج ٣ ص ٢٤٤ ، ص ٢٤٥ برقم ٢٠٧٠ ، ٢٠٧١
(٣) أخرجه الامام مسلم ج ١ ص ٦٤ برقم ٦١/ ٣٧ وفى رواية (الحياء كله خير)
(٤) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٨٠٩ برقم ٦٧/ ٢٣٢٠

وكان حياء رسول الله ﷺ أشد من حياء هذه البكر المخدرة .

(وكان إذاكره شيئا عرفناه فى وجهه) فلا يصرح حياء ، وإنما يعرف أثر الكراهة فى وجهه ، لأنه صاف منير ، مشرق وضاء ، ومن المعروف بداهة أن الحياء الممدوح هو الذى لايضر بصاحبه ، أو هو الذى لا يتسبب فى انعزاله عن المجتمع ، أما غير ذلك فمذموم . قال رسول الله ﷺ : (نعم النساء نساء الأنصار ، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين)[1]

(٢)

عن مولى لعائشة قال : قالت عائشة : مانظرت إلى فرج رسول الله ﷺ : أو قالت : مارأيت فرج رسول الله ﷺ قط .

الشرح والبيان

يؤكد هذا الحديث ماجاء عن عائشة : (مارأيت منه ولا رأى منى) والحديث الآخر عنها أيضا : (ماأتى رسول الله ﷺ أحدا من نسائه إلا مقنعا ، يرخى الثوب عن رأسه)[2] أورده ابن الجوزى فى كتاب الوفاء .

* وفى الباب حديثان !!

لقد كان ﷺ إذا وعظ قال : مابال أقوام ، ولعل المقصود واحد وكان لايثبت بصره فى وجه أحد .

وكان خافض الطرف ؛ نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء .

لاعدة للمطلقة قبل الدخول بها

قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾

معانى المفردات

نكحتم : يطلق النكاح تارة (يراد به العقد . ويطلق تارة ويراد به الوطء . والمراد به هنا العقد باتفاق العلماء بدليل قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ (وأصل النكاح فى اللغة . الضم والجمع . قال القرطبى : النكاح حقيقة فى الوطء وتسمية العقد نكاحا لملابسته له من حيث أنه طريق إليه ، ونظيره تسميتهم الخمر إثما لأنها سبب فى اقتراف الاثم ، ولم يرد لفظ النكاح فى القرآن إلا فى معنى

---

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ٢٦١ رقم ٦١/ ٣٣٢

(٢) أخرجه أحمد ج ٦ ص ٦٣ ، ١٩٠

العقد ، لأنه فى معنى الوطء ، وهو من آداب القرآن الكناية عنه بلفظ (الملامسة . والمماسه . والقربان . والتغشى . والاتيان)

المؤمنات : فيه إشارة إلى أنه ينبغى أن يقع اختيار الأزواج على المؤمنات ، وليس لفظ الايمان فى قوله ﴿ المؤمنات ﴾ للقيد أو الشرط ، بل هو لمراعاة الغالب من حال المؤمنين أنهم لايتزوجون إلا بمؤمنات .

وهذا مما اتفق عليه الفقهاء ، ولو كان للقيد أو الشرط لكان حكم (الكتابيات) مختلفا عن حكم المؤمنات مع أن الحكم واحد .

تمسوهن : المراد بالمس هنا (الجماع) بإجماع الفقهاء . وقد اشتهرت الكناية به وبلفظ الملامسة والمماسة ونحوها فى لسان الشرع عند الجماع ، وهو كما أسلفنا من آداب القرآن ، لأن القرآن العظيم يتحاشى ذكر الألفاظ الفاحشة ، فيكنى عنها ، مثل قوله تعالى : ﴿ أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء ﴾[1] ولو كان المراد فى الآية حقيقة المس باليد ، وهى إلصاق اليد بالجسم ، للزمت العدة فيما لو طلقها بعد أن مسها بيده من غير جماع ولاخلوة ، ولم يقل بذلك أحد من الفقهاء .

عدة : العدة فى اللغة مأخوذة من العد لأن المرأة تعد الأيام التى تجلسها بعد طلاق زوجها لها أو وفاته . وهى شرعا : المدة التى تتربص فيها المرأة لمعرفة براءة رحمها . أو للتعبد .

تعتدونها : أى تعدونها عليهن . أو تستوفون عددها عليهن .

فمتعوهن : أى أعطوهن المتعة . والمتعة فى الأصل مايتمتع به من مال أو ثياب ، وقد حددها بعض الفقهاء بأنها (قميص وخمار وملحفة) والصحيح أن المتعة لاتختص بالكسوة بل هى فى لسان الشرع :

كل مايعطيه الزوج لمطلقته ارضاء لها وتخفيفا من شدة وقع الطلاق عليها . وسرحوهن : أى طلقوهن . قال القرطبى : التسريح إرسال الشىء ومنه تسريح الشعر ليخلص البعض من البعض ، وسرح الماشية : أرسلها . سراحا جميلا : أى طلاقا بالمعروف ، والسراح الجميل يكون بالتلطف مع المطلقة بالقول وترك أذاها . وعدم حرمانها مما وجب لها من حقوق .

المناسبة والمعنى الجملى

كان الحديث فى الآيات السابقة عن نساء النبى ﷺ وماينبغى أن يكن عليه من طاعة الله ورسوله . وزهد فى الدنيا وطهارة وكمال ، لأنهن لسن كبقية النساء ، والله تبارك وتعالى يريد لمن أن يحافظن على ذلك الشرف الرفيع ، وهو انتسابهن إلى رسول الله ، حيث أصبحن أمهات للمؤمنين ، وزوجات الرسول الطاهرات ، وقد أعقب ذلك بذكر قصة (زيد بن حارثة) وتطليقه (زينب) رضى الله عنها التى تزوجها الرسول بعد ذلك بأمر من الله سبحانه وتعالى ، وذلك لحكمة جليلة وهى إبطال

---

(١) سورة النساء ٤٣ والمائدة ٦

(بدعة التبنى) ثم جاء الخطاب هنا للمؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل المساس ، وكيف يجب على المؤمنين أن يفعلوا فيها إذا وقع منهم الطلاق قبل المعاشرة ، وما هى الأحكام الشرعية التى ينبغى عليهم أن يتمسكوا بها فى مثل هذه الأحوال ، فيقول سبحانه : ﴿ يأأيها الذين آمنوا إذا نكحتم ﴾ أى إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ، ثم طلقتموهن من قبل أن تقربوهن فليس لكم عليهن حق فى العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم طلقتموهن قبل المساس ، وهذا لايستلزم احتباس المرأة فى البيت وجلوسها فى العدة ، من أجل صيانة نسبكم ، لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل فالواجب عليكم أن تمتعوهن بدفع ماتطيب نفوسكم لهن . وتكرموهن بشىء من المال أو الكسوة تطيبا لخاطرهن وتخفيفا لشدة وقع الطلاق عليهن وأن تفارقوهن بالمعروف فلا تؤذوهن بقول أو عمل . ولا تحرموهن مما وجب لهن عليكم من حقوق . فإن ذلك من مقتضى ايمانكم وطاعتكم لله عز وجل والله تعالى أعلم .

لطائف التفسير : -

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ نكحتم المؤمنات) فيه إشارة إلى أن المؤمن ينبغى أن يتخير لنطفته ، وأن ينكح المؤمنة الطاهرة ، لأن إيمانها يجعلها تحافظ على عفتها ، ويحجزها عن الوقوع فى الفاحشة والشر ، فتصون عرض زوجها ، وتحفظه فى حضرته وغيبته وصدق الله ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾[1] .

اللطيفة الثانية : قوله ﴿ ثم طلقتموهن ﴾ التعبير (بثم) دون الفاء أو الواو والعطف بها يفيد (التراخى) للاشارة إلى أن الطلاق ينبغى أن يكون بعد تريث وتفكير طويل ، ولضرورة ملحة ، لأن الطلاق من الأمور التى يبغضها الله ، حيث فيه هدم وتحطيم للحياة الزوجية ، ولهذا قال بعض الفقهاء إن الآية ترشد إلى أن الأصل فى الطلاق الحظر ، وأنه لايباح إلا إذا فسدت الحياة الزوجية ، ولم تلفح وسائل الاصلاح بين الزوجين ، والحكم واحد لايختلف فيمن تزوج امرأة فطلقها على الفور ، أو طلقها على التراخى .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ كنى بالمس عن الجماع ، وهذا أدب من آداب القرآن ينبغى على المسلم أن يتأدب به فيكنى عن كل شىء قبيح أو فاحش .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ فمالكم عليهن من عدة ﴾ فى إسناد العدة إلى الرجال إشارة إلى أنها حق للمطلق ، فوجوب العدة على المرأة من أجل الحفاظ على نسب الانسان ، فإن الرجل يغار على ولده ، ويهمه ألا يسقى زرعه بماء غيره ، ولكنها على المشهور ليست حقا خالصا للعبد .

بل تعلق بها حق الشارع أيضا ، فإن منع الفساء باختلاط الانساب من حق الشارع . والصحيح أن وجوب العدة فيها (حق الله ، وحق العبد) ولهذا قال الفقهاء العدة تجب لحكم عديدة : لمعرفة (براءة الرحم ، وللتعبد ، أو التفجع) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢١

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يقع الطلاق قبل النكاح ؟

أجمع الفقهاء على أن الطلاق لايقع قبل النكاح ، استدلالا بقوله تعالى : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن** ﴾ فقد رتب الطلاق على النكاح وعطفه (بثم) التى تفيد الترتيب مع التراخى ، واستدلالا بقوله ﷺ ، (لا طلاق قبل النكاح) واختلفوا فيمن علق الطلاق مثل قول الرجل : (إن تزوجت فلانة فهى طالق) أو قوله : (كل امرأة أتزوجها فهى طالق) على مذهبين .

أ ـ مذهب الشافعى وأحمد : أنه لايقع الطلاق وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنه .

ب ـ مذهب أبى حنيفه ومالك : أنه يقع الطلاق بعد عقد الزواج وهو مروى عن (ابن مسعود) رضى الله عنه .

أدلة الشافعية والحنابلة :

أ ـ استدل الامامان الشافعى وأحمد رحمهما الله على أن التعليق مثل التنجيز طلاق قبل النكاح ، وإذا طلق الانسان امرأة ، لايملكها لايقع الطلاق ، لأن الطلاق لابد أن يعتمد على الملك ، وهو يشبه ما لوقال لأجنبية لايملكها (أنت طالق) فإنه لايقع باتفاق ، فكذاالمعلق من الطلاق لايقع به طلاق .

ب ـ واستدلوا بحديث (لانذر لابن آدم فيما لايملك ، ولا عتق له فيما لايملك ، ولا طلاق له فيما لايملك (الحديث رواه الترمذى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مرفوعا وقال الترمذى حديث حسن ، وهو أحسن شيء روى فى هذا الباب)[1]

وهذا الرأى ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين وقد عد البخارى منهم أربعة وعشرين فى باب (لاطلاق قبل النكاح) وهو منقول عن (ابن عباس) رحمه الله . فقد روى أنه سئل عن ذلك أى (عن الطلاق المعلق) فقال : هو ليس بشيء فقيل له إن (ابن سعود) يخالفك يقول : إذا طلق مالم ينكح فهو جائز . فقال رحم الله أبا عبد الرحمن ، لو كان كما قال لقال الله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا إذا طلقتم المؤمنات ثم نكحتموهن** ﴾ ولكن إنما قال : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن** ﴾

أدلة المالكية والحنفية :

واستدل الحنفية والمالكية بأن الطلاق يعتمد على الملك أو الاضافة إلى الملك ، لكنه فى حالة الاضافة إلى الملك ، يبقى معلقا ، حتى يحصل شرطه ، فإذا قال للأجنبية (إن تزوجتك فأنت طالق) كان هذا تعليقا صحيحا ، ولايقع الطلاق به الآن إنما يقع بعد أن يتزوجها . فهو مثل قولك : (إن دخلت الدار فأنت طالق) لايقع الطلاق إلا بعد الدخول ، فكذا هنا لايقع الطلاق إلا بعد أن يعقد عقد الزواج عليها ، فيكون الطلاق واقعا فى الملك بالضرورة ، فكأنه أوقعه عليها حينذاك ، وقالوا : الفرق واضح بين تنجيز الطلاق على الأجنبية ، وبين تعليق طلاقها على النكاح ، فإن قول الرجل

---

(١) أخرجه الترمذى برقم ١١٩٢ ج ٢ ص ٣٢٦

لأمرأة أجنبية (هى طالق) كلام لغو ، لأنها ليست زوجته وقد طلق مالم يملك فهو طلاق قبل النكاح لايقع أصلا ، أما قوله : (إن تزوجت فلانة فهى طالق) فهو معلق على الملك والفرق واضح بينهما .
وهذا القول قال به جمع غفير من العلماء منهم (ابن سعود) ودليله قوى وهو الأحوط كما نبه عليه (ابن العربى والجصاص)

والخلاصة : فإن الطلاق بعد النكاح يقع باتفاق الفقهاء ، والطلاق المنجز قبل النكاح لايقع بإتفاق ، والطلاق المعلق على النكاح يقع عند الحنفية والمالكية ، ولايقع عند الشافعية والحنابلة ، ولكل وجهة هو موليها والله أعلم .

الحكم الثانى : هل الخلوة الصحيحة توجب العدة والمهر ؟

ظاهر الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ الذى هو كناية عن الجماع أن الخلوة ولو كانت صحيحة لاتوجب مايوجبه الجماع من العدة والمهر ، وهذا مذهب الامام الشافعى رحمه الله تعالى ، ودليله : أن الله سبحانه وتعالى نفى وجوب العدة إذا طلقت قبل الجماع ، والخلوة ليست جماعا فلا يجب بها العدة ولا المهر .

وذهب الجمهور (المالكية والحنفية والحنابلة) إلى أن الخلوة كالجماع توجب المهر كاملا ، وتوجب العدة .

(١) واستدلوا بما رواه الدارقطنى عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال : (من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق دخل بها أو لم يدخل)[١]

(ب) وروى عن عمر أنه قال (إذا أغلق بابا وأرخى سترا ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث)[٢] .

(ج) وروى عن زرارة بن أبى أوفى أنه قال : (قضى الخلفاء الراشدون المهديون أنه إذا أرخى الستور ، وأغلق الباب ، فلها الصداق كاملا وعليها العدة دخل بها أو لم يدخل)

الترجيح : وأنت ترى أن أدلة الجمهور أقوى ، وحجتهم أظهر ، إذ يحتمل أن يبقى الرجل مع زوجته عاما كاملا ، يبيت معها فى فراش واحد ، ولكنه لم يجامعها طيلة هذه المدة ، فلابد أن نوجب عليه دفع المهر كاملا ، ونلزمها بالعدة ، وذلك اعتبارا بالخلوة الصحيحة ودفعا للنزاع والخلاف .

وقد اختلف القائلون بوجوب العدة بالخلوة الصحيحة فمنهم من يقول :

إنها واجبة (ديانة وقضاء) ومنهم من يقول بوجوبها قضاء لا ديانة لأنه القاضى إنما يحكم بالظاهر والرأى الأول أصح .

الحكم الثالث : ماهو حكم المطلقة رجعيا هل تستأنف العدة إذا راجعها زوجها ثم طلقها قبل المساس ؟

---

(١) أخرجه الدارقطنى ج ٣ ص ٣٠٧ برقم ٢٣٣ والبيهقى ج ٧ ص ٢٥٦
(٢) أخرجه الدارقطنى ج ٣ ص ٣٠٧ برقم ٢٣١

اختلف الفقهاء فى المرأة المطلقة رجعيا فيا إذا طلقها زوجها بعد المراجعة قبل أن يمسها على أقوال :

(١) مذهب الظاهرية : أنه لاعدة عليها جديدة والعدة الأولى قد بطلت بالطلاق الثانى ، فلا يجب عليها أن تكمل العدة الأولى (وهذا رأى ضعيف)

(ب) مذهب الشافعى : تبنى على عدة الطلاق الأول وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة .

(ج) مذهب مالك وأبى حنيفة : عليها أن تستأنف عدة جديدة .

قال القرطبى : وعلى هذا أكثر أهل العلم .

دليل الظاهرية : استدل داود الظاهرى ومن قال بقوله : أن المطلقة الرجعية إذا راجعها زوجها قبل أن تنقضى عدتها ثم فارقها قبل ان يمسها ، أنه ليس عليها أن تتم عدتها ولا عدة مستقبلة ، لأنها مطلقة قبل الدخول بها أخذا بظاهر الآية .

دليل الشافعى : استدل الشافعى رحمه الله بأن المطلقة تبنى على عدتها الأولى وليس عليها أن تستأنف عدة جديدة بأن الطلاق الثانى لاعدة له ، لأنه طلاق قبل المساس ، ولكن لاينبغى أن يبطل ماوجب بالطلاق الأول ، فإنه طلاق بعد دخول يجب أن تراعى فيه حكم الشارع فى إيجاب العدة ، فطلاقه لها قبل أن يمسها فى حكم من طلقها فى عدتها قبل أن يراجعها ، ومن طلق امرأته فى كل طهر مرة بنت ولم تستأنف .

دليل المالكية والحنفية : قالوا إن عليها أن تستأنف عدة جديدة ، لأن الطلاق الثانى وان كان لم يفصل بينه وبين الرجعة مس ولا خلوة ، لكنه لايصدق عليه أنه قد حصل قبل الدخول على الاطلاق ، إذ المفروض أن المرأة كان مدخولا بها من قبل ، فيجب عليها أن تستأنف عدة كاملة لأنها فى حكم الموطوءة .

قال القرطبى : نقلا عن الإمام مالك : إنها تنشىء عدة مستقبلة ، وقد ظلم زوجها نفسه وأخطأ إن كان ارتجعها ولا حاجة له بها .

وعلى هذا أكثر أهل العلم ، لأنها فى حكم الزوجات المدخول بهن فى النفقة والسكن وغير ذلك ، وهو قول جمهور فقهاء البصرة والكوفة ومكة والمدينة والشام .

الحكم الرابع : هل تجب المتعة لكل مطلقة ؟

ظاهر قوله تعالى : ﴿ فمتعوهن ﴾ إيجاب المتعة للمطلقة قبل الدخول ، سواء فرض لها مهرا ولم يفرض لها مهرا ، ويقوى هذا الظاهر قوله تعالى : ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين ﴾[1] فقد أوجبت لكل مطلقة (المتعة) وقد اختلف الفقهاء فى وجوب المتعة على أقوال :

(١) أنها واجبة لكل مطلقة ، فرض لها مهر أم لم يفرض لها مهر ، عملا بظاهر الآية . وهو مذهب (الحسن البصرى) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٤١

(ب) أن المتعة واجبة للمطلقة قبل الدخول التى لم يفرض لها مهر ، وهو مذهب (الحنفية والشافعية) . وبهذا قال (ابن عباس) رضى الله عنهما . وأما التى فرض لها مهر فتكون المتعة لها مستحبة .

(ج) ان المتعة مستحبة للجميع وليست واجبة لأحد من النساء وهو مذهب (المالكية)

وسبب الخلاف بين الفقهاء فى (وجوب المتعة) أو استحبابها هو أنه قد ورد فى القرآن الكريم آيات كريمة ظاهرها التعارض ، فمنها ما يوجب المتعة على الاطلاق ، ومنها مايوجب المتعة عند عدم ذكر المهر المفروض لها ، ومنها مالم ينص على المتعة أصلا فلهذا وقع الخلاف بين الفقهاء ، أما الآيات الكريمة فهى آية الأحزاب ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾[1] وآية البقرة ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين ﴾[2] وآية البقرة كذلك ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم ﴾[3] ـ الآية

فالآية الأولى مطلقة والثانية مقيدة بقيدين (عدم المس ، وعدم الفرض) وأول الآية هو قوله تعالى : ﴿ لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ، ومتعوهن ﴾ الآية .

والثالثة : أوجبت نصف المهر فقط ولم تذكر المتعة . فمن الفقهاء من جعل آية البقرة مخصصة لآية الأحزاب ويكون المعنى (فمتعوهن إن لم يكن مفروضا لهن المهر فى النكاح) وبهذا التفسير قال (ابن عباس) ويؤيده أن المتعة انما وجبت دفعا لايحاش الزوج لها بالطلاق ، فإذا وجب للمطلقة قبل الدخول نصف المهر كان ذلك جابرا للوحشة فلا تجب لها المتعة . .

الترجيح : ويظهر من الأدلة أن حجة الفريق الثانى وهم (الحنفية والشافعية) أقوى وأظهر وهو مذهب ابن عباس وفيه جمع بين الأدلة والله أعلم .

ماترشد إليه الآيات الكريمة

أولا ـ على الانسان أن يختار فى الزواج المرأة المؤمنة الطاهرة .
ثانيا : الطلاق هدم للحياة الزوجية فلا يصح أن يقع إلا فى الحالات الضرورية .
ثالثا : لاتجب العدة بالاجماع اذا طلقت المرأة قبل الدخول بها .
رابعا : على الزوج أن يجبر خاطر زوجته المطلقة بالمتعة .
خامسا : حرمة ايذاء المطلقة وتسريحها بالمعروف والاحسان .

حكمة التشريع

شرع الله تعالى الزواج لبقاء النوع الانسانى ، وعزز من روابطه واركانه وأحاط الأسرة بسياج

(١) سورة الأحزاب آية ٤٩
(٢) سورة البقرة آية ٢٣٦
(٣) سورة البقرة آية ٢٣٧

مقدس من التكريم والتقدير وأقام الحياة بين الزوجين على أساس التفاهم والتعاون ، والمحبة والمودة ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[1] .

وقد أباح الاسلام الطلاق فى ظروف استثنائية ضرورية ، وذلك ليخلص الانسان من شقاء محتم ، وينقذه من مشكلة قد تحرمه السعادة ، أو تكلفه حياته ، والطلاق فى الاسلام أبغض الحلال إلى الله ، لان فيه خراب البيوت ، وضياع الأسرة ، وتشريد الأولاد ، ولكنه ضرورة لابد منها عند اللزوم . فلابد أن تكون الأسباب فيه جلية . والدوافع قاهرة ، وألا يكون ثمة طريق إلى الخلاص من ذلك الشقاء إلا بالطلاق . وقد قيل فى الأمثال « أخر الدواء الكى »

وقد أرشد الاسلام إلى الاستعمال الحكيم لهذا العلاج ، بألا يقدم عليه الانسان إلا بعد درس وتمحيص وروية وبصيرة فإن الطلاق ماشرع إلا ليحقق الطمأنينة والسعادة للانسان ، ويدفع عنه مرارة العيش ، وقساوة الحياة ، واذا لم يستعمله المرء فى الطريق المأمون انقلب إلى اعصار مخرب مدمر ، فحرم الأسرة الأمن والاستقرار ، فهو إذن سلاح ذو حدين : فإما أن يستعمله الانسان فيما يجلب اليه الشقاء . أو يستعمله فيما يخلصه من الشقاء .

وقد حكم البارى جل وعلا بأن من طلق زوجه قبل المساس . فليس له عليها حق أن يمنعها من الزواج ، لأنها لاعدة عليها . والعدة إنما تجب لمعرفة براءة الرحم ، وصيانة لحق الزوج لئلا يختلط نسبه بنسب غيره ، ولما كان هذا الطلاق قبل المعاشرة والاتصال الزوجى ، إذن فلاعدة ولا سبيل له عليها . فيجب أن يحسن معاملتها ، ويخلى سبيلها ، ولايجمع لها بين الاساءتين : إساءة العشرة بسبب الفراق وإساءة المعاملة بمنعها من الزواج ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا ﴾ .

وبذلك صان المولى جل وعلا كرامة المرأة ودفع عنها عدوان الزوج وطغيانه ، وحفظ لكل حقه ، فلم يظل المرأة ولم يفرط فى حق الرجل ، وفسح المجال لكل من الزوجين فى الحياة السعيدة الكريمة .

فما اسمى تعاليم الاسلام ، وما أعدل نظمه وأحكامه !!

أحكام زواج النبى ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن

(١) سورة الروم آية ٢١

تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾

معاني المفردات

أحللنا : الاحلال معناه الاباحة ، وكل شيء أباحه الله فهو حلال ، وماحرمه فهو حرام ، قال فى لسان العرب : والحل والحلال والحليل . نقيض الحرام وأحله الله وحلله .

أجورهن : مهورهن والمراد فى الآية : الأزواج اللواتى تزوجهن عليه الصلاة والسلام بصداق ، وسمى المهر أجرا ، لأنه مقابل الاستمتاع بالمرأة فى الظاهر ، وأما فى الحقيقة فهو بذل وعطية ، لاظهار (حظر المحل) وشرفه ، كما قال تعالى : ﴿ وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ﴾[1] أى هبة وعطية عن طيب نفس ، فالمهر تكريم للمرأة وإيناس لها ، وتطيب لخاطرها ، وليس هو مقابل المنفعة أو الاستمتاع ، كما نبه عليه الفقهاء .

ملكت يمينك : يعنى الجوارى والاماء ، لأنهن يتملكن عن طريق الحرب والجهاد ، بالجهد والتضحية ، وبذل النفس والمال فى سبيل الله ، ولذلك أطلق عليهن (ملك اليمين) .

أفاء الله : أى مما غنمته منهن . ومما رده الله عليك من الكفار ، كصفية وجويرية : فإنه عليه السلام أعتقهما وتزوجهما ، وأصل الفىء : الرجوع ، وسمى هذا المال فيئا ، لأنه رجع إلى المسلمين من أموال الكفار بدون قتال ، فكأنه كان فى الأصل للمسلمين ، فرجع إليهم بدون حرب ولا قتال .

هاجرن معك : المراد بالهجرة هى هجرته ﷺ إلى المدينة المنورة ، والمعية هنا (معل) يراد بها الاشتراك فى الهجرة ، لا فى الصحبة ، فمن هاجرت حلت له ، سواء هاجرت فى صحبته أو لم تهاجر فى صحبته ، قال أبو حيان : تقول : دخل فلان معى ، وخرج معى أى كان عمله كعملى ، وان لم يقترنا فى الزمان ، وان قلت : فرجعنا معا اقتضى المعنيان : الاشتراك فى الفعل ، والأشتراك فى الزمان .

يستنكحها : الاستنكاح طلب النكاح ، لأن السين والتاء للطلب ، مثل استنصر طلب النصرة ، واستعجل طلب العجلة ، والمراد من قوله : (إن أراد النبى) أى إن رغب النبى فى نكاحها ، فالارادة هنا بمعنى الرغبة فى النكاح .

خالصة : أى خاصة لك لايشاركك فيها أحد ، يقال : هذا الشيء خالصة لك : أى خالص لك

---

(١) سورة النساء آية ٤

خاصة . قال ابن كثير : أى لاتحل الموهوبة لغيرك ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل ، لم تحل له حتى يعطيها شيئا ، وكذا قال مجاهد والشعبى .

مافرضنا عليهم : أى ماأوجبنا على المؤمنين من نفقة ، ومهر ، وشهود فى العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وماأبحنا لهم من ملك اليمين مع الأربع الحرائر من غير عدد محصور .

حرج : أى ضيق ومشقة ، ومعنى قوله تعالى : ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ أى لكيلا يكون عليك ضيق فى دينك ، حيث أختصصناك بما هو أولى وأفضل . وأحللنا لك أجناس المنكوحات توسعة لك . وتيسيرا عليك ، لتتفرغ لشئون الدعوة والرسالة .

ترجى : قال فى لسان العرب : ارجأ الأمر : أخره وترك الهمزة لغة والارجاء : التأخير ، قال ابن عباس فى معنى الآية : تطلق من تشاء من نسائك وتمسك من تشاء منهن لاحرج عليك . وقال مجاهد والضحاك : المعنى تقسم لمن شئت ، وتؤخر عنك من شئت ، وتقلل لمن شئت ، وتكثر لمن شئت . لاحرج عليك فى ذلك .

فإذا علمن أن هذا حكم الله وقضاؤه زالت الاحنة والغيرة عنهن ، ورضين وقرت أعينهن .

وتؤوى : أى تضم : يقال أوى وآوى بمعنى واحد قال تعالى :
﴿ آوى إليه أخاه ﴾[1] أى ضمه إليه وأنزله معه ، قال ابن الجوزى (وأكثر العلماء على أن هذه الآية نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ مصاحبة نسائه كيف يشاء ، من غير إيجاب القسمة عليه والتسوية بينهن . غير أنه كان يسوى بينهن)

تقر أعينهن : أى تطيب نفوسهن بتلك القسمة قال أبو السعود (ذلك أدنى أن تقر أعينهن) أى أقرب إلى قرة العيون ورضاهن جميعا لأنه حكم كلهن فيه سواء ، ثم إن سويت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك ، وإن رجحت بعضهن علمن أنه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن) .

عليما حليما : أى مبالغا فى العلم فيعلم كل ماتبدونه وتخفونه .

حليما لايعاجل بالعقوبة ، فلا تغتروا بتأخيرها ، فإنه تعالى يمهل ولا يهمل .

المناسبة والمعنى الاجمالى

أحل الله تعالى لنبيه ﷺ صنوفا من النساء ، صنفا يدفع له المهر (الممهورات) وصنفا يتمتع به بملك اليمين (المملوكات) ، وصنفا من أقاربه من نساء قريش ، ونساء بنى زهرة (المهاجرات) ، وصنفا رابعا ينكحه بدون مهر (الواهبات) أنفسهن وقد خص البارى جل وعلا رسوله فى أحكام الشريعة بخصائص لم يشاركه فيها أحد ، وذلك توسعة عليه ، وتيسيرا له فى نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ، فتزوجه ﷺ بأكثر من أربع ، واختصاصه بنكاح الواهبات أنفسهن بدون مهر ، وعدم وجوب

---

(١) سورة يوسف آية ٦٩

القسم عليه بين الأزواج ، كل ذلك خاص به صلوات الله وسلامه عليه ، تشريفا له وتكريما وإظهارا لمقامه السامى عند المولى عز وجل .

روى مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : (كنت أغار على اللاتى وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول : أما تستحى امرأة ان تهب نفسها لرجل ؟ ! حتى أنزل الله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ فقلت « ماأرى ربك إلا يسارع فى هواك »[1]

ومعنى الآيات الكريمة : يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى أعطيتهن مهورهن ، وأحللنا لك ماملكت يدك من السبى فى الحرب ، وأحللنا لك قريباتك من بنات عمك وبنات عماتك، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك ، وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات ، اللواتى وهبن أنفسهن ، حبا فى الله وفى رسوله ، ورغبة فى التقرب لك ، إن أرت أن تتزوج من شئت منهن ، بدون مهر خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا مافرضنا على المؤمنين فى زوجاتهم ورفيقاتهم من شرائط العقد ، ووجوب المهر فى غير المملوكات ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيرا لك لكيلا يكون عليك ضيق أو حرج ولك - أيها الرسول - أن تترك من زوجاتك من تشاء ، وتضم إليك من تشاء ، وتقسم لمن تشاء منهن ، وأن تراجع بعد الطلاق من تريد . ذلك أقرب أن ترتاح قلوبهن لعلمهن أنه بأمر الله وترخيصه لك ، فيرضين بكل ماتفعل ، ويقبلن به عن طيب نفس ، وكان الله عليما بما انطوت عليه القلوب ، حليما لايعاجل بالعقوبة لمن خالف أمره وعصاه .

وسبب نزول الآية ، أنه لما نزلت آية التخيير ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ﴾ .

أشفق نساء النبى ﷺ أن يطلقهن فقلن : يانبى الله أجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت ، ودعنا فى عصمتك ، فنزلت هذه الآية ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ الآية . (أخرجه ابن أبى شيبه من رواية رزين)[2] .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : الاحلال معناه الاباحة والحل . واسناده إلى الله عز وجل ﴿ أحللنا لك أزواجك ﴾ دال على أن التحليل والتحريم خاص به سبحانه ، والتشريع لله وحده ، والرسول ﷺ مبلغ عن الله ولا يملك أحد سلطة التشريع ﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾[3]

اللطيفة الثانية : فى وصفه تعالى النساء بقوله : ﴿ اللاتى آتيت أجورهن ﴾ تنبيه على أن الله عز وجل اختار لنبيه ﷺ الأفضل والأكمل ، فإن إيتاء المهر أولى وأفضل من تأخيره ، والتعجيل كان سنة السلف لايعرف منهم غيره ، وقد شكا بعض الصحابة عدم القدرة على التزوج ، فقال له عليه السلام (فأين درعك الحطمية ؟)

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووى ج ١٠ ص ٤٩
(٢) أخرجه ابن أبى شيبة ج ٤ ص ٣٠٤
(٣) سورة يوسف آية : ٤٠

وليس تأخير بعض المهر وتقسيمه إلى (معجل ومؤجل) إلا شيء استحدثه العرف ، واقتضاه التغالى بالمهور ، أو الحذر على مستقبل الفتاة من الطلاق بعد أن فسد حال الناس ، فذكر الأجور ليس للقيد أو الشرط وإنما هو لبيان الأفضل .

اللطيفة الثالثة : تخصيص ماملكت يمينه فى قوله تعالى : ﴿ مما أفاء الله عليك ﴾ للاشارة على أنها أحل وأطيب مما تشترى من الجلب . فما سبى من دار الحرب قيل فيه (سبى طيبة) وماكان عن طريق العهد قيل (سبى خبيثه) والله تعالى لايرغب نبيه إلا فى الطيب دون الخبيث (أفاده أبو حيان فى البحر المحيط) .

اللطيفة الرابعة : ذكر العم والخال مفردا ، وجمع العمات والخالات ، فى قوله تعالى : ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾

قال ابن العربى : والحكمة فى ذلك أن العم ، والخال فى الاطلاق (اسم جنس) كالشاعر ، وليس كذلك فى العمة والخالة ، وقد جاء الكلام عليه بغاية البيان ، على العرف الذى جرى عليه العرب .

اللطيفة الخامسة : العدول عن الخطاب إلى الغيبة فى قوله تعالى ﴿ إن أراد النبى ﴾ ثم الرجوع إلى الخطاب فى قوله ﴿ خالصة لك ﴾ وذكره ﷺ بعنوان (النبوة) للدلالة على أن الاختصاص كان من الله تعالى ، تكرمة له لأجل النبوة ، والتكرير للتفخيم من شأنه ﷺ ، وبيان استحقاقه الكرامة لنبوته .

قال الزجاج : وإنما قال : (إن وهبت نفسها للنبى) ولم يقل : لك . لأنه لوقال : لك . جاز أن يتوهم أن ذلك يجوز لغير رسول الله ﷺ كما جاز فى بنات العم وبنات العمات .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يجوز النكاح بلفظ الأجارة أو الهبة ؟

لاخلاف بين الفقهاء على أن عقد النكاح ينعقد باللفظ الصريح ، وهو لفظ (النكاح أو الزواج) وبكل لفظ مشتق من هذه الصيغة . إذا لم يقصد به الوعد لقوله تعالى : ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾[1] ولقوله ﷺ (إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ﴾[2] فصيغة النكاح والتزويج وردت فى الكتاب والسنة ، وهى من الصيغ الصريحة فى النكاح .

وقد اتفق الفقهاء أيضا على أن ألفاظ (الاباحة ، والاحلال ، والاعارة والرهن والتمتع) لايجوز بها عقد النكاح ومثلها لفظ (الاجارة) فلا يجوز به عقد النكاح عند جمهور الفقهاء .

وقال أبو الحسن الكرخى : يجوز بلفظ الاجارة لقوله تعالى : ﴿ اللاتى آتيت أجورهن ﴾[3] وحجته أن الله عز وجل سمى المهر أجرا ، والأجر يجب بعقد يتحقق بلفظ الأجارة فيصح به النكاح .

---

(١) سورة النساء آية . ٢٥

(٢) أخرجه الترمذى ج ٢ ص ٢٧٤ برقم ١٠٩٠ ، ١٠٩١

(٣) سورة الأحزاب ٥٠

الرد على الكرخى

والجواب : أن معنى (الإجارة) يتنافى مع عقد النكاح ، إذ النكاح مبنى على التأبيد ، والتوقيت يبطله ، وعقد الاجارة مبنى على التوقيت ، حتى لو أطلق كان مؤقتا ويتجدد ساعة فساعة ، فكيف يصح جعل ماهو موضوع على التوقيت دالا على مايبطله التوقيت

ومن جهة ثانية فإن الاجارة عقد على المنافع بعوض ، والمهر ليس مقابل العوض . بل هو عطية أوجبها الله تعالى إظهارا لخطر المحل ، ولذلك يصح النكاح مع عدم ذكر المهر ، ويجب مهر المثل بالدخول ، ولايصح النكاح بلفظ الاجارة ، حتى لايلتبس الأمر بعقد المتعة الباطل ، ولهذا لم يوافق أحد من فقهاء الحنفية الكرخى فيما ذهب إليه .

أما النكاح بلفظ الهبة فقد أجازه الحنفية ، ومنعه جمهور الفقهاء .

أستدل الحنفية على جواز عقد النكاح بلفظ الهبة بما يلى :

(أ) قوله تعالى : ﴿ إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها ﴾ ووجه الاستدلال أن الله عز وجل سمى العقد بلفظ الهبة نكاحا فقال : (أن يستنكحها) فدل على جواز النكاح بلفظ الهبة ، وإذا جاز هذا للنبى ﷺ فقد جاز لنا أيضا ، لأننا أمرنا باتباعه والاقتداء به .

(ب) وقالوا أيضا : إن النبى ﷺ وأمته فى عقد النكاح بلفظ (الهبة) سواء وخصوصيته التى أشارت إليها الأية الكريمة ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ إنما هى فى جواز النكاح بدون مهر ، بدليل قوله تعالى فى آخر الآية : ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ وذلك يشير إلى أن الخصوصية دفعت حرجا ، والحرج إنما يكون فى الزام المهر ، لأنه يلزم مشقة السعى فى تحصيل المال . وهو عليه السلام مشغول بشئون الرسالة ، وليس ثمة حرج فى أن يكون العقد بلفظ النكاح ، أو التزويج ، فتكون الخصوصية له عليه السلام فى النكاح بدون مهر .

ج ـ وقالوا : مما يؤيد هذا ماروى عن عائشة أنها كانت تعير النساء اللاتى وهبن أنفسهن للنبى ﷺ وتقول :

(الا تستحى أن تعرض نفسها بغير صداق !!) فلما نزل قوله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ﴾ إلى قوله ﴿ فلا جناح عليك ﴾ قالت : ماأرى ربك إلا يسارع فى هواك .. وقد تقدم الحديث .(١) .

(د) واستدلوا بحديث سهل بن سعد (إن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت يارسول الله : جئت لأهب نفسى لك وفيه (فقام رجل من الصحابة فقال يارسول الله . ان لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها ، وذكر الحديث إلى قوله : اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن)(٢) .

ففى هذا الحديث أنه عقد له النكاح بلفظ التمليك والهبة من ألفاظ التمليك . فوجب أن يجوز

---

(١) سبق تخريجه ص ٥٦

(٢) أخرجه البخارى ج ٧ ص ٢٦ كتاب النكاح

بها عقد النكاح فكل ماكان من ألفاظ . (الاباحة) لم ينعقد به عقد النكاح قياسا على المتعة ، وكل ماكان من ألفاظ (التمليك) ينعقد به عقد النكاح قياسا على سائر عقود التمليكات .

حجة الجمهور

واستدل الجمهور (المالكية والشافعية والحنابلة) على عدم جواز النكاح بلفظ الهبة بماياتى :

(١) أن الله تعالى خص رسوله بهذه الخصوصية . وهى جواز النكاح بلفظ الهبة بدون مهر فقال جل ثناؤه : ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ **إن وهبت نفسها للنبى** ﴾ وقوله : ﴿ **خالصة لك** ﴾ دليل على أن إحلال المرأة عن طريق الهبة إنما كان خاصا بالنبى (ﷺ) بدليل قوله تعالى : ﴿ **من دون المؤمنين** ﴾ فالخصوصية له عليه السلام كانت بالهبة (لفظا ومعنى) لأن اللفظ تابع للمعنى .

ب ـ وقالوا ماكان من خصوصياته عليه السلام . فلا يجوز أن يشاركه فيها أحد . والآية دلت على أن هذا خاص بالرسول ﷺ أى أن النكاح بدون مهر . وبلفظ الهبة معا . من خصائصه عليه السلام .

فمن أين لكم الخصوصية فى المعنى دون اللفظ ؟ ومن أين لكم أنه يجوز عقد النكاح لغير النبى (ﷺ) بلفظ الهبة مع إيجاد المهر ؟

ج ـ وأما استدلال الحنفية بحديث (سهل بن سعد) أن النبى عليه السلام زوج الصحابى بلفظ التمليك بقوله (اذهب فقد ملكتكها بما معك من القرآن)

فليس منه مايدل لهم . فقد جاء فى بعض الروايات (اذهب فقد زوجتكها)

وليس كل مايدل على التمليك ينعقد به النكاح . فلفظ الاجارة يدل على التمليك ومع ذلك لاينعقد به النكاح باتفاق .

الترجيح : أقول : أدلة الحنفية كما بسطها الامام (الجصاص) وإن كانت قوية إلا أن النص ورد بالخصوصية للرسول عليه السلام فى (نكاح الهبة) والظاهر أن المراد منه (اللفظ والمعنى) ، وحمله على المعنى دون اللفظ يحتاج إلى دليل ، وصيغ النكاح لايجرى فيها القياس ، فما ذهب إليه الجمهور هو الأرجح كما قال الامام مالك رحمه الله : إن الهبة لاتحل لأحد بعد النبى (ﷺ) إن كانت هبة نكاح ، والله أعلم .

الحكم الثانى : هل الهجرة شرط فى النكاح ؟

ظاهر الآية الكريمة يدل على أن من لم تهاجر معه من النساء لايحل له نكاحها لقوله تعالى : ﴿ **اللاتى هاجرن معك** ﴾ الآية . وإلى هذا الظاهر ذهب بعض العلماء قال القاضى أبو يعلى : وهذا يدل على أن من لم تهاجر معه من النساء لم يحل له نكاحها . قالت أم هانىء بنت أبى طالب : خطبنى رسول الله (ﷺ) فاعتذرت إليه فعذرنى ، ثم نزلت هذه الآية ﴿ **إنا أحللنا لك أزواجك** .. ﴾ إلى قوله : ﴿ **اللاتى هاجرن معك** ﴾ قالت : فلم أكن لأحل له . لأنى لم أهاجر معه . كنت من الطلقاء .

وجمهور المفسرين على أن الهجرة ليست بقيد ولا شرط . وإنما هى لبيان الأفضل كما فى قوله تعالى : ﴿ اللاتى آتيت أجورهن ﴾ فالآية ذكرت الأصناف التى يباح للرسول ﷺ أن يتزوج منها ، وبين ماهو أفضل له وأكمل ، فكما أن ذكر (الأجور) ليس للقيد وإنما هو لبيان الأفضل فكذا هنا .

قال أبو حيان : (والتخصيص باللاتى هاجرن معك . لأن من هاجر معه من قرابة غير المحارم أفضل من غير المهاجرات ، وقيل : شرط الهجرة فى التحليل منسوخ) .

وحكى الماوردى فى ذلك قولين : أحدهما : أن الهجرة شرط فى إحلال النساء له على الاطلاق .

والثانى : أنه شرط فى إحلال قراباته المذكورات فى الآية دون الأجنبيات .

الترجيح : والصحيح ماذهب إليه جمهور المفسرين أن تقييد القريبات بكونهن مهاجرات لبيان الأكمل والأفضل . .

الحكم الثالث : هل كان عند النبى امرأة موهوبة ؟

ذكر أكثر العلماء إلى أن الهبة وقعت من كثير من النساء ، وقد وردت روايات كثيرة منها القوى ومنها الضعيف فى أسماء الواهبات أنفسهن . منهن (أم شريك) و (خولة بنت حكيم) و (ليلى بنت الخطيم) . ولم يكن عند رسول الله (ﷺ) . منهن أحد ، وقيل (ميمونة بنت الحارث) و (زينب بنت خزيمة) كذلك من الواهبات أنفسهن والصحيح هو الأول .

قال أبو بكر بن العربى : (وروى عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالا : لم يكن عند النبى (ﷺ) امرأة موهوبة) .

قال ابن كثير : (اللاتى وهبن أنفسهن للنبى (ﷺ) كثير ، كما قال البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كنت أغار من اللاتى وهبن أنفسهن للنبى (ﷺ) وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما أنزل الله تعالى ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء . ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾

قلت : مارأى بك إلا يسارع فى هواك) .

الحكم الرابع : هل كان القسم واجبا على رسول الله ﷺ ؟

يرى بعض العلماء أن القسم كان واجبا على رسول الله (ﷺ) وأنه كان يقسم بينهن بالعدل ويقول : (اللهم هذا قسمى فيما أملك ، فلا تؤاخذنى فيما لاأملك)[1] يريد بقوله : (مالا أملك) ميل للقلب نحو بعض نسائه كعائشة رضى الله عنها .

واستدلوا بأن القسم كان واجبا عليه بأنه عليه السلام كان يستأذن بعض نسائه فيقول : أتأذن لى أن أبيت عند فلانة . وقد ورد فى ذلك أحاديث صحيحة .

وذهب أكثر العلماء على أن هذه الآية الكريمة نزلت مبيحة لرسول الله (ﷺ) معاشرة من شاء من نسائه دون أن يكون القسم عليه واجبا ، ومع ذلك فقد كان يعدل بينهن ويسوى فى القسمة .

قال الجصاص : « وهذه الآية تدل على أن القسم بينهن لم يكن واجبا على النبى (ﷺ) وأنه كان

(١) رواه الحاكم ٢/ ١٠٧ والبيهقى فى السنن ٧/ ٢٩٨ واتحاف السادة المتقين ٥/ ٣٦٨

مخيرا فى القسم لمن يشاء ، وترك من شاء منهن)

وقال ابن كثير : (وذهب طائفة من العلماء من الشافعية وغيرهم ، إلى أنه لم يكن القسم واجبا عليه ، ﷺ واحتجوا بهذه الآية الكريمة ، وقال البخارى عن معاذ عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كان النبى ﷺ يستأذننا فى يوم المرأة منا ، بعد أن نزلت هذه الآية :

﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ فقلت لها : ماكنت تقولين ؟ قالت : كنت أقول : إن كان ذلك إلى فإنى لأأرى يارسول الله أن أوثر عليك أحدا)(١)

والصحيح أن القسم لم يكن واجبا عليه وهو اختيار الجمهور ، قوله تعالى : ﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ، ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولايحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن والله يعلم مافى قلوبكم وكان الله عليما حليما ﴾

﴿ ترجى من تشاء منهن وتؤوى باليك من تشاء) أى تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولايجب عليك قسم بينهن ، بل الأمر فى ذلك إليك ، على أنه كان يقسم بينهن .

﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت فلاجناح عليك ﴾ أى ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك فى ذلك .

والخلاصة : أنه لاضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبى رزين قال : (لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن ، فقلن : يارسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ماشئت ، ودعنا كما نحن فنزلت هذه الآية . فأرجأ رسول الله ﷺ بعضهن ، وآوى إليه بعضهن . وكان ممن آوى إليه عائشة ، وحفصة ، وزينب ، وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمسا : أم حبيبة ، وميمونة ، وسودة ، وصفية ، وجويرية ، فكان لايقسم بينهن ماشاء ، ثم بين السبب فى الايواء والارجاء ، وأنه كان ذلك فى مصلحتهن ، فقال :

﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ ، أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم لاجناح عليك فى أى ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لهن اختيارا منك لاوجوبا عليك . ففرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن . وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك بينهن .

﴿ والله يعلم مافى قلوبكم ﴾ من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لايمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر له فى حقهن من تفويض الأمر إليه ﷺ .

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول : (اللهم هذا فعلى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك) . يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين مافى القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله له من ذلك ،

---

(١) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٦٠٢ برقم ٢١٣٦ كتاب النكاح

وفوضه إلى مشيئته ، وبعث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله ﷺ .

﴿ وكان الله عليما حليما ﴾ أى وكان الله عليما بالسرائر ، حليما فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة ، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .

قوله تعالى : ﴿ لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك ، وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ .

تتضمن الآية الكريمة حكمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(١) ﴿ لايحل لك النساء من بعد ﴾ أى لايحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتى فى عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن فى ذلك أخرج أبو داود فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال :

(لما خيرهن فاخترن الله ورسوله ﷺ قصره سبحانه عليهن) .

وروى عن ابن عباس أنه قال فى الآية : « حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهن عليه »

(٢) ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ماملكت يمينك ﴾ أى ولايحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن ، بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى مهما كانت بارعة فى الحسب والجمال إلا ماملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتسراها وأولدها إبراهيم ومات رضيعا .

وفى الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن النبى (ﷺ) قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل »[1] وعن المغيرة بن شعبة قال : (خطبت امرأة فقال لى النبى ﷺ : هل نظرت إليها ؟ قلت : لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما) .

﴿ وكان الله على كل شىء رقيبا ﴾ أى وكان الله حافظا ومطلعا على كل شىء ، عليما بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده ، وتخطى حلاله إلى حرامه .

آداب الاستئذان والوليمة والحجاب

قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ

(١). أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ برقم ٢٠٨٢

رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾
إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

معانى المفردات

يؤذن لكم : أى تدعوا إلى تناول الطعام ، والأصل أن يتعدى بـ (فى) تقول : أذنت لك فى الدخول ، ولا تقول أذنت لك إلى الدخول ، ولكن اللفظ لما ضمن معنى (الدعوة) عدى بـ (إلى) بدل (فى) ومعنى الآية .

لاتدخلوا بيوت النبى إلا إذا دعيتم إلى تناول الطعام .

قال الزمخشرى : ﴿ إلا أن يؤذن ﴾ فى معنى الظرف تقديره : وقت أن يؤذن لكم . ناظرين إناه : أى منتظرين نضجه ، قال فى اللسان : وإنى الشيء : بلوغه وإدراكه ، وفى التنزيل ﴿ **غير ناظرين إناه** ﴾ أى غير منتظرين نضجه وإدراكه وبلوغه ، تقول : أنى يأنى إذا نضج إنى أى نضجا ، والانى بكسر الهمزة والقصر : النضج فهو على هذا مصدر مضاف إلى الضمير .

ويرى بعض المفسرين أنه ظرف بمعنى (حين) وهو مقلوب (آن) بمعنى (حان) فعلى الأول يكون المعنى : غير منتظرين نضجه ، وعلى الثانى يكون المعنى : غير منتظرين وقته أى وقت إدراكه ونضجه ، وهما متقاربان .

فانتشروا : أى أخرجوا وتفرقوا ، يقال انتشر القوم : أى تفرقوا ومنه قوله تعالى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض** ﴾[1] أى تفرقوا فى الأرض لطلب الرزق والكسب .

مستأنسين لحديث : معنى الاستئناس : طلب الأنس بالحديث لأن السين والتاء للطلب تقول : أستأنس بالحديث : أى طلب الأنس والطمأنينة والسرور به . وتقول : مابالدار أنيس ، أى ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك ، وقد كان من عادة الناس أنهم يجلسون بعد الأكل فيتحدثون طويلا ، ويأنسون بحديث بعضهم بعضا فعلمهم الله الأدب ، وهو أن يتفرقوا بعد تناول الطعام . ولا يثقلوا على أهل البيت ، لأن المكث بعده فيه نوع من الاثقال .

إن ذلكم : اسم الاشارة راجع إلى الدخول بغير إذن . والمكث عقب الطعام للاستئناس بالحديث . وقيل : هو راجع إلى الأخير خاصة ، ومعنى الآية : إن انتظاركم واستئناسكم يؤذى النبى . ،

فيستحيى منكم : أى يستحى من اخراجكم من بيته ، والله لايستحى من بيان الحق فهو على حذف مضاف .

متاعا : المتاع : الغرض والحاجة كالماعون وغيره ، وهو فى اللغة : مايستمتع به حسيا كان كالثوب والقدر والماعون . أو معنويا كمعرفة الأحكام الشرعية والسؤال عنها ، وقد يأتى المتاع بمعنى

---

(١) سورة الجمعة آية ١٠

التمتع بالشىء والايقاع به كما قال تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾(١) وفى الحديث الشريف : (الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة)(٢) .

حجابها : أى ساتر يستره عن النظرة قال فى اللسان : حجب الشىء يحجبه أى ستره ، وقد احتجب وتحجب إذا اكتن من وراء حجاب . وامرأة محجوبة قد سترت بستر ، والحجاب : اسم مااحتجب به .

وكل ماحال بين شيئين فهو حجاب . قال تعالى : ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾(٣)

ومعنى الآية : إذا سألتموهن شيئا مما يستمتع به وينتفع فاسألوهن من وراء ستر وحجاب

أطهر : أى أسلم وأتقى . أفعل تفضيل من الطهارة بمعنى النزاهة والنقاء .

والمعنى : سؤالكم للسؤال من وراء حجاب ، أكثر نقاء وتنزيها لقلوبكم وقلوبهن من الهواجس والخواطر ، التى تتولد فيها عند اختلاط الرجال بالنساء ، وأبعد عن الريبة وسوء الظن .

أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يتأدبوا بالآداب الاسلامية الكريمة ، ويتمسكوا بما شرعه لهم من التوجيهات والارشادات الحكيمة ، التى بها صلاح دينهم ودنياهم ، وبخاصة مع النبى ﷺ ، فمقام النبوة لايعادله مقام ، وإيذاء النبى ﷺ - سواء كان بالقول أو الفعل - من أعظم الكبائر عند الله ، وقد ألزمنا الله سبحانه بتلك الآداب الفاضلة ، وأمرنا بالتمسك بها حتى يتحقق المجتمع الفاضل الذى ينشده الاسلام . وقد تضمنت هذه الآيات الكريمة أمرين هامين .

الأول : الأدب فى أمر الطعام والاستئذان ودخول البيوت (أدب الوليمه)

الثانى : الأدب فى مخاطبة النساء ، وعدم الاختلاط بهن أو الخلوة .

أدب (الحجاب الشرعى)

يقول الله جل ثناؤه مامعناه : ياأيها المؤمنون لاتدخلوا بيوت النبى إلا بعد الاذن ولا تترقبوا أوقات الطعام فتدخلوا عليه فيها ، أو تنتظروا إلى أن يحين وقت نضج الطعام فتستأذنوا عليه فى الدخول ، إلا إذا كنتم مدعوين إلى وليمة قد أعدها لكم رسول الله (ﷺ) . ومع ذلك إذا دعيتم وطعمتم فاخرجوا وتفرقوا ولا تثقلوا على الرسول الكريم بالجلوس بعد الطعام ، فإن حياءه يمنعه أن يأمركم بالانصراف . أو يظهر لكم الامتعاض من جلوسكم فى بيته ، فهو ذو الخلق الرفيع ، والقلب الرحيم ، لايصدر منه إلا مايسركم . فلا يليق بكم أن تثقلوا عليه ، أو تؤذوه فى نفسه أو أهله ، وإذا أردتم حاجة من أزواجه الطاهرات ، فاسألوهن من وراء حاجز وحجاب ، لأن ذلكم أزكى لقلوبكم وقلوبهن ، وأنفى للريبة ، وأبعد عن التهمة وأطهر لبيت النبوة .

ولا يليق بكم أيها المؤمنون أن تؤذوا رسولكم ، الذى هداكم الله به وأخرجكم من الظلمات إلى

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ الحديد آية ٢٠
(٢) أخرجه مسلم ج ٢ ص ١٠٩٠ برقم ٦٤/ ١٤٦٧
(٣) سورة فصلت آية ٥

النور ، فهو كالوالد لكم ، وأزواجه كالأمهات لكم ، وهل يصح لمؤمن أن يتزوج أمه ؟ فلا تؤذوه فى حياته ولا بعد مماته ، ولا تتزوجوا بأزواجه من بعده أبدا ، فإن إيذاء الرسول ، ونكاح أزواجه من بعد وفاته ، ذنب عظيم عند الله لايغفره الله لكم أبدا ، وهو عند الله بالغ الذنب والعقوبة .

سبب النزول

تعرضت الآية الكريمة لأمرين هامين هما : (آداب الدعوة) و (مشروعية الحجاب) ولكل منهما سبب نزول .

أما الأول : فقد روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله فصنعت (أم سليم) أمى حيسا فجعلته فى تور وقالت ياأنس : اذهب إلى رسول الله ﷺ فقل بعثت به إليك أمى ، وهى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا منا قليل يارسول الله !!!

قال : فذهبت به إلى رسول الله ﷺ وقلت له : إن أمى تقرئك السلام وتقول لك : إن هذا لك منا قليل يارسول الله . فقال : ضعه ثم قال : إذهب فادع لى فلانا وفلانا ، ومن لقيت وسمى رجالا ، فدعوت من سمى ومن لقيت ، قيل لأنس : عددكم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة .

قال أنس : فقال لى رسول الله ﷺ ياأنس هات التور ، قال فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة فقال رسول الله (ﷺ) ليتحلق عشرة عشرة وليأكل كل إنسان مما يليه . فأكلوا حتى شبعوا ، قال : فخرجت طائفة ، ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم .

فقال لى : ياأنس : ارفع ، فما أدرى حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت ؟ وجلس منهم طوائف يتحدثون فى بيت رسول الله ﷺ وهو جالس وزوجه مولية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله ﷺ فخرج فسلم على نسائه ثم رجع فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه فابتدروا الباب وخرجوا كلهم ، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل وأنا جالس فى الحجرة فلم يلبث إلا يسيرا حتى خرج على وأنزل الله هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى** ﴾ فخرج رسول الله ﷺ فقرأها على الناس .[1] .

ثانيا : وأما بالنسبة لمشروعية الحجاب فقد كان سبب النزول ماروى فى الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : قلت يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾ الآية . وهذه إحدى الموافقات الثلاثة التى نزل القرآن الكريم فيها موافقا لرأى عمر رضى الله عنه .

وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : (وافقت ربى فى ثلاث :

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، برقم ٩٠٥ والامام مسلم ج ٢ ص ١٠٥١ برقم ٩٤/ ١٤٢٨

قلت يارسول الله : لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؟ فنزل :
﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾[1] . وفى الحجاب : فنزلت آية الحجاب ، واجتمع نساء النبى (ﷺ) فى الغيرة فقلت : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن)[2] فنزلت كذلك .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ بيوت النبى ﴾ إضافة البيوت إلى النبى (ﷺ) إضافة تشريف ، مثل (ناقة الله) و (بيت الله) الاضافة فيها للتكريم والتشريف فلبيوت النبى (ﷺ) من الحرمة ماليس لغيرها من البيوت ، وهذه الأحكام المذكورة هنا خاصة ببيوت النبى (ﷺ) تكريما له عليه السلام وتشريفا .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام ﴾ فى الكلام باء محذوفة تسمى (باء المصاحبة) أى إلا بأن يؤذن لكم ، وتضمين (الاذن) معنى (الدعوة) للاشعار بأنه لاينبغى أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وإن وجد صريح الاذن بالدخول ، حتى لايكون الانسان (طفيليا) يحضر الوليمة بدون سابق دعوة .

ومما يدل على هذا التضمين قوله تعالى بعدها : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا ﴾ فإنها صريحة فى أن المراد بالاذن (الدعوة) فتنبه لهذا السر فإنه دقيق .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾

قال الامام الرازى : (فيه لطيفة وهى أن فى العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير إذن : لاتدخلها إلا بإذن ، يتأذى وينقطع بحيث لايدخلها أصلا ولا بالدعاء ، فقال : لاتفعلوا مثل مايفعله المستنكفون ، بل كونوا طائعين سامعين ، إذا قيل لكم : لاتدخلوا فلا تدخلوا ، وإذا قيل لكم : ادخلوا فادخلوا ، وهذا معنى لطيف .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ ولامستأنسين لحديث ﴾ فيه إشارة لطيفة إلى أن المكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الاطلاق . فالأمر أمر وليمة وقد انتهت .

ولم يبق إلا أن يفرغ أهل البيت لبعض شأنهم . والبقاء بعد ذلك فيه نوع من الاثقال غير محمود .

قال بعض العلماء : هذه الآية نزلت فى الثقلاء ، وقرأها بعضهم فقال :
(هذا أدب من الله تعالى أدب به الثقلاء) ويروى عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما : (حسبك فى الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم)

وأنشد بعض الفضلاء :

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٥
(٢) التحريم آية ٥

وثقيـل أشـد من ثقول الموت ومن شدة العذاب الأليم
لو عصت ربها الجحيم لما كان سـواه عقـوبة للجحيـم

وقال آخر :

ربما يثقـل الجليـس ولو كـان خفيفـا فى كفـة الميـزان
ولقد قلت حين وتد فى البيت ثقيـل أربى على سهـلان
كيـف لم تحمـل الأمـانة أرض حمـلت فوقها أبا سفيـان

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ فيستحيى منكم ، والله لايستحى من الحق ﴾ الاستحياء لايكون من الذات ، وإنما يكون من الأفعال ، بدليل قوله تعالى : ﴿ والله لايستحى من الحق ﴾ ولم يقل : والله لايستحى منكم والكلام فيه حذف تقديره : فيستحى من إخراجكم أو من أمركم بالانصراف والله لايستحى من بيان الحق ، وأطلق استحياء الله وأراد منه عدم السكوت عن بيانه ، فسمى السكوت عليه استحياء على (طريق المشاكلة) لوقوعه بجانب استحياء الرسول على حد قول القائل :

قالوا : اقترح شيئا نجد لك طبخه قلت اطبخوا لى جبة وقميصا .

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ فيه إشارة دقيقة إلى مابين العين والقلب من صلة وثيقة ، فالعين طريق الهوى والنظرة بريد الشهوة ، فإذا لم تر العين لايشتهى القلب ، وكما قال بعض الأدباء :

وما الحب إلا نظرة إثر نظرة تزيد نموا إن تزده لجاجا .

فالقلب عند عدم الرؤية أطهر ، وعدم الفتنة حينئذ أظهر .

اللطيفة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ إن ذلكم كان عند الله عظيما ﴾ الاشارة فى قوله (ذلكم) يعود إلى ماذكر من إيذائه عليه الصلاة والسلام ، ونكاح أزواجه من بعده ، وقد جاء التعبير بلفظ (ذلكم) ولم يأت بلفظ (هذا) للتهويل والتعظيم .

قال أبو السعود :

وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الشر والفساد ، وقوله : ﴿ كان عند الله عظيما ﴾ أى أمرا عظيما . وخطبا هائلا ، لايقادر قدره ، وفيه من تعظيمه تعالى بشأن رسوله ﷺ ، وايجاب حرمته حيا وميتا مالا يخفى ، ولذلك بالغ تعالى فى الوعيد .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل يجوز تناول الطعام بدون دعوة ؟ اتفق الفقهاء على أنه لايجوز دخول البيوت إلا بإذن ، ولا يجوز تناول طعام الانسان إلا بإذن صريح أو ضمنى ، لقول عليه السلام : (لايحل مال امرىء مسلم إلا عن طيب نفس)(١)

وقد دلت الآية الكريمة على حرمة دخول بيوت النبى ﷺ إلا بعد الاذن ، وعلى حرمة التطفل ، وهو أن يحضر إلى الوليمة بدون دعوة وفاعله يسمى بـ (الطفيلى) والحكم عام فى جميع البيوت ، فلا يجوز للانسان أن يدخل بيت أحد بدون إذنه ، ولا أن يتناول الطعام بدون رضا صاحبه .

وهذا أدب رفيع من الآداب الاجتماعية ، التى أرشد اليها الاسلام .

قال ابن عباس : كان ناس يتحينون طعامه عليه الصلاة والسلام ، فيدخلون عليه قبل الطعام ، وينتظرون الى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون ، فكان رسول الله ﷺ يتأذى بهم ، فنزلت هذه الآية .

وقال ابن كثير رحمه الله :

حظر الله تعالى على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن ، كما كانوا قبل ذلك يصنعون فى بيوتهم فى الجاهلية وابتداء الاسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى لهذه الأمة ومعنى الآية : أى لاترقبوا الطعام إذا طبخ ، حتى اذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فإن هذا مما يكرهه الله ويذمه ثم قال : وهذا دليل على تحريم التطفل وهو الذى تسميه العرب (الضيفن) .

الحكم الثانى : هل الجلوس بعد تناول طعام الوليمة حرام ؟

دل قوله تعالى : ﴿ **فإذا طعمتم فانتشروا** ﴾ على ضرورة الخروج بعد تناول الطعام ، وهذا من الآداب الاسلامية التى أدب الله بها المؤمنين .

فالمكث والجلوس بعد تناول الطعام ، ليس بحرام ولكنه مخالف لآداب الاسلام ، لما فيه من الاثقال على أهل المنزل ، سيما إذا كانت الدار ليس فيها سوى بيت واحد ، اللهم إلا اذا كان الجلوس بإذن صاحب الدار أو أمره ، أو كان جلوسا يسيرا تعارفه الناس ، لايصل إلى حد الأثقال المذموم

ومع ذلك فالأفضل الخروج ، ولهذا جاء التعبير بالفاء ، التى تفيد الترتيب والتعقيب (فانتشروا) فالمكث بعد الطعام غير مرغوب فيه على الاطلاق ، ولم يبق إلا أن يفرغ أهل البيت لبعض شأنهم ، والبقاء بعد ذلك نوع من الأثقال غير محمود ، ، يتنافى مع الأدب الرفيع ، والذوق السليم .

الحكم الثالث : هل الأمر بالحجاب خاص بأزواج النبى أو هو عام ؟

الآيات الكريمة وردت فى شأت بيوت النبى ﷺ خاصة ، تعظيما لرسول الله وتكريما لشأنه ، ولكن الأحكام التى فيها عامة ، تعم جميع المؤمنين ، لأنها آداب اجتماعية ، وإرشادات إلهية ، يستوى

---

(١) أخرجه الامام أحمد ج ٥ ص ٧٢

فيها جميع الناس ، فالأمر بعدم الاختلاط بالنساء وبسؤالهن من وراء حجاب ، ليس مقصورا على أزواج الرسول ﷺ ولكنه عام يشمل جميع نساء المؤمنين ، فإذا كان نساء الرسول ﷺ لايجوز الاختلاط بهن ، ولا النظر إليهن ، مع أنهن ﴿ أمهات المؤمنين ﴾ يحرم الزواج بهن ، ولا يجوز سؤالهن الا من وراء حجاب ، فلا شك أن الاختلاط بغيرهن من النساء ، أو التحدث إليهن بدون حجاب ، يكون حراما من باب أولى ، لأن الفتنة بالنساء متحققة .

ثم أن أمر الحجاب ليس خاصا بأزواج الرسول ﷺ ، بل هو عام لجميع نساء المؤمنين ، بدليل قوله تعالى فى آخر السورة : ﴿ يأأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾

فهل خرجت مؤمنة من هذا الخطاب ؟ وهل أمر الحجاب خاص بنساء الرسول حتى يزعم بعض المضلين ، أن الحجاب مفروض على نساء الرسول ﷺ خاصة دون سائر النساء ؟

الحكم الرابع : هل الطعام المقدم للضيف على وجه التمليك أو الاباحة ؟

أشارت الآية الكريمة وهى قوله تعالى : ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ الى أن الطعام الذى يقدم للضيف ، لايكون على وجه التمليك ، وإنماهو على وجه الاباحة ، فلو أراد الضيف ان يحمل معه الطعام الى بيته ، لايجوز له ذلك ، لأن المضيف إنما أباح له الأكل فقط ، دون التمليك له أو أخذه أو إعطائه لأحد .

قال العلامة القرطبى : (فى هذه الآية دليل على أن الضيف يأكل على ملك المضيف لا على ملك نفسه ، لأنه تعالى قال : ﴿ فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ فلم يجعل له أكثر من الأكل ، ولا أضاف إليه سواه ، وبقى الملك على أصلة

الحكم الخامس : هل زال النكاح عن أمهات المؤمنين بموت النبى ﷺ ؟

قال القرطبى : فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن : اختلف العلماء فى أزواج النبى ﷺ بعد موته ، هل بقين أزواجا أو زال النكاح بالموت ، وإذا زال النكاح بالموت ، فهل عليهن عدة أو لا ؟

فقيل : عليهن العدة ، لأنه توفى عنهن والعدة عبادة .

وقيل : لاعدة عليهن ، لأنها مدة تربص لاينتظر بها الأباحة .

والقول الثانى هو الصحيح لقوله عليه السلام (ماتركت بعد نفقة عيالى) وروى (أهلى)[(١)] وهذا اسم خاص بالزوجية فأبقى عليهن النفقة والسكنى مدة حياتهن ، لكونهن نساءه وحرمن على غيره ، وهذا هو معنى بقاء النكاح ، وإنما جعل الموت فى حقه عليه السلام بمنزلة المغيب فى حق غيره ، لكونهن أزواجا له فى الآخرة قطعا ، بخلاف سائر الناس ، لأن الرجل لايعلم كونه مع أهله فى دار واحدة ، فربما كان أحدهما فى الجنة والآخر فى النار ، فبهذا انقطع السبب فى حق الخلق ، وبقى فى حق النبى ﷺ ، وقد قال عليه السلام : (كل سبب ونسب ينقطع الاسببى ونسبى فإنه باق إلى يوم القيامة)[(٢)]

---

(١) القرطبى ج ٨ ص ١٧٨ ، ج ١٤ ص ٢٢٩

(٢) كنز العمال ج ١١ ص ٤٠٩ برقم ١٣٩١٤ .

فأما زوجاته عليه السلام اللائى فارقهن فى حياته ، مثل الكلبية وغيرها .

فهل كان يحل لغيره نكاحهن ؟ فيه خلاف ، والصحيح جواز ذلك ، لما روى أن الكلبية التى فارقها رسول الله ﷺ تزوجها (عكرمة بن ابى جهل)

وقيل إن الذى تزوجها (الاشعث بن ابى جهل)

قال القاضى أبو الطيب : الذى تزوجها (مهاجر بن ابى أمية) ولم ينكر ذلك أحد ، فدل على أنه إجماع .

ماترشد إليه الآيات الكريمة

(١) النهى عن دخول بيوت الرسول ﷺ بغير اذنه وبدون سابق دعوة .

(٢) لاينبغى الحضور قبل نضج الطعام ، ولا المكث بعد تناول الوليمة .

(٣) وجوب احترام الرسول ﷺ ، وتعظيمه ، وامتثال أوامره ، وتقديم طاعته . على كل شىء .

(٤) حرمة إيذاء الرسول ﷺ بالأقوال أو الأفعال ، والتأدب معه فى جميع الأقوال .

(٥) حرمة نكاح أمهات المؤمنين من بعد وفاته ، لأنهن أزواج رسول الله ﷺ .

(٦) خلق الرسول الرفيع يمنعه من أمر الناس بالخروج من منزله ، فينبغى عدم الاثقال عليه .

(٧) نساء الرسول ﷺ ، هن القدوة والاسوة الحسنة لسائر النساء ، فينبغى مخاطبتهن من وراء حجاب .

(٨) فى عدم الاختلاط بالنساء ، صفاء النفس ، وسلامة القلب ، ونقاء السريرة ، والبعد عن مظان التهم .

(ج) الآداب التى أرشد إليها القرآن ، ينبغى التمسك بها وتطبيقها تطبيقا كاملا .

حكمة التشريع

حرم الله تعالى على المؤمنين دخول بيوت النبى ﷺ بدون إذن ، تكريما لرسول الله عليه السلام وتعظيما لشأنه ، ومنع الناس من الاثقال على رسول الله ﷺ ، سواء بالدخول الى بيوته دون سابق دعوة ، أو المكث فيه بعد تناول طعام الوليمة ، لأن فى ذلك إثقالا على الرسول الكريم ، وإيذاء له والتطفل ، والاثقال على أهل الدار ، ليس من أوصاف المؤمنين ، وقد كان رسول الله ﷺ شديد الحياء ، وكان كما فى حديث ابى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه .

(أشد حياء من العذراء فى خدرها)[1] ولم يكن من خلقه الكريم ، ان يجابه أحدا بما يكره ، مهما

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ص ٦١١ برقم ١٤٩٩ من رواية أبى سعيد الخدرى ، زوائد البزار عن أنس ج ٣ ص ١٥٣

اصابه الأذى والضرر ، ولا من عادته أن يأمر الزائر بالانصراف ، مهما طال المكث والبقاء ، لأن هذا لايتفق مع خلق الداعية ، فكيف بخلق النبوة وأوصاف سيد المرسلين ﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[١] .

وكان بعض الناس ممن لم تتهذب أخلاقهم بعد ، يتحينون طعام النبى ﷺ ، فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، ويقعدون إلى أن ينضج ، ثم يأكلون ، ولا يخرجون ، فكان الناس بحاجة إلى ان يتعلموا الآداب الرفيعة ، وأن يكون عندهم (ذوق اجتماعى) وشعور رقيق ، يمنعهم عن ارتكاب النقائص ، وفعل مايخل بالمروءة .

لذلك أنزل الله تعالى هذه الآيات الكريمة تعليما للأمة ، وإرشادا لها الى سلوك الطريق القويم ، وقد قال اسماعيل بن ابى حكيم : (هذا أدب أدب الله به الثقلاء)

وقال آخر : هذه الآية نزلت فى الثقلاء وحسبك من الثقلاء أن الشرع لم يحتملهم .

ولقد كان هناك من بعض المنافقين إيذاء لرسول الله ﷺ بالفعل أو القول ، حتى قال رجل من المنافقين حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد وفاة زوجها أبى سلمة : مابال محمد يتزوج نساءنا ! والله لو قدمات ، لأجلنا السهام على نسائه يريد اقتسمناهن بالقرعة ، فنزلت الآية فى هذا ، فحرم الله نكاح أزواجه من بعده ، وجعل لهن حكم الأمهات تطييبا لخاطره الشريف ، وهذا من خصائصه عليه السلام تمييزا ، لشرفه ، وتنبيها على مرتبته ، وما كان لمؤمن أن يؤذيه فى نفسه ، أو أهليه ، لأنه عليه الصلاة والسلام أب للمؤمنين ، وهل يليق بالانسان أن يتزوج امرأة أبيه ، وهى أمه بنص القرآن الكريم وصدق الله .

﴿ وماكان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما ﴾

قوله تعالى : ﴿ ان تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما ﴾

هذه مبالغة فى الوعيد والتهديد . أى أن ماتكنه ضمائركم ، وتنطوى عليه سرائركم ، فالله يعلمه ، إذ لاتخفى عليه خافية ، ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[٢]

ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصى البادية والخافية ، والكلام ، وان كان عاما بظاهره ، فالمقصود مايتعلق بزوجاته عليه الصلاة والسلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب ، قال رجل : أننهى أن نكلم بنات أعمامنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لنتزوجن نساءه .

وأخرج جويبر عن ابن عباس (ان رجلا أتى بعض أزواج النبى فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبى ﷺ : لاتقومن هذا المقام بعد يومك هذا ، فقال يارسول الله إنها ابنة عمى ، والله ماقلت منكرا ، ولا قالت لى قال النبى ﷺ :

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) سورة غافر آية ١٩

قد عرفت ذلك : أنه ليس أحد أغير من الله تعالى - وانه ليس أحد أغير منى فمضى ثم قال : مايمنعنى من كلام ابنة عمى لأتزوجنها من بعده ، فأنزل الله الآية فأعتق الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة فى سبيل الله وحج ماشيا لأجل كلمته)

وروى ان بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد ابى سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : مابال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ان نساء النبى لا يكلمن إلا من وراء حجاب ، أردف ذلك استثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما فى الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيرا .

روى انه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يارسول الله نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت .

التفسير

لا إثم على أزواج النبى ﷺ فى ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع ، أو أبنائهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن ، أو أبناء إخوانهن ، أو أبناء أخواتهن ، أو النساء المسلمات القربى منهن والبعدى ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد ، لما فى الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

وأخشين الله فى السر والعلن ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة أن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملئكم فاتقوه فيما تأتون وما تذرون .

الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

معانى المفردات

يصلون : الصلاة فى اللغة معناها : الدعاء والاستغفار ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾[1] . أى ادع لهم بالمغفرة والرحمة ، قال الأعشى :

عليك مثل الذى صليت فاغتمضى ❊ نوما ، فإن لجنب المرء مضطجعا

أى لك من الدعاء مثل ما دعوت لى به .

وسميت الصلاة المفروضة صلاة ، لما فيها من الدعاء والاستغفار ، وتأتى الصلاة بمعنى الرحمة ، ومنه قوله (ﷺ) : (اللهم صل على آل أبى أوفى)[2] .

قال الأزهرى : هى بمعنى الرحمة . أى ارحم آل أبى أوفى ، وقال الشاعر :

صلى على عزة الرحمن وابنتها ❊ ليلى وصلى على جارتها الأخر

قال ابن عباس : (أراد أن الله تعالى يرحمه ، والملائكة يدعون له ويبركون وقال أبو العالية : « صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاتهم دعاؤهم له) .

النبى : قال الجوهرى : والنبى المخبر عن الله عز وجل ، لأنه أنبأ عنه وجمعه أنبياء ، وفى النهاية : يجوز فيه تحقيق الهمز وتخفيفه .

قال سيبويه : ليس أحد من العرب إلا ويقول : تنبأ مسيلمة بالهمز ، غير أنهم تركوا الهمز فى النبى ، كما تركوه فى الذرية والبرية ، إلا أهل مكة ، فإنهم يهمزون هذه الأحرف ، ثم قال : والهمز فى (النبى) لغة رديئة ، وإشتقاقه من نبأ وأنبأ أى أخبر .

وجمع النبىء : انبئاء ونبآء .

قال ابن مرادس :

ياخاتم النبآء إنك مرسل ❊ بالخير كل هدى السبيل هداكا
إن الإله أثنى عليك محبة ❊ فى خلقه ومحمدا أسماكا

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٣ .

(٢) أخرجه الامام مسلم ج٢ ص٢٥٦ برقم ١٠٧٨/١٧٦ كتاب الزكاة والامام أحمد ح٤ ص٣٥٣ .

أقول : كل ماورد فى القرآن من خطاب للنبى أو الرسول ، فإنما يقصد به محمد عليه الصلاة والسلام ، خاتم الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين يؤذون الله : إيذاء الله : وصفه بمالا يليق به جل وعلا كقول اليهود : ﴿ يد الله مغلولة ﴾[1] . ، و﴿ عزير ابن الله ﴾[2] ، وقول النصارى : ﴿ المسيح ابن الله ﴾[3] . ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾[4] . وقول كفار قريش : **الملائكة بنات الله** ، وسائر مالا يرضى الله عز وجل من الكفر والعصيان .

وإيذاء الرسول كقولهم عنه : مجنون ، شاعر ، ساحر ، كذاب ، أو إلحاق الأذى به ، كشج وجهه الشريف ، وكسر رباعيته فى أحد ، وأمثال ذلك من الأذى الحسى أو المعنوى ، الذى كان يلحقه به المنافقون والكفار . لعنهم الله : اللعن : الطرد والإبعاد من رحمة الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾[5] .

بهتانا : البهتان : الإفتراء والكذب الواضح ، وهو من البهت بمعنى التحير . قال فى اللسان : بهت الرجل يبهته بهتانا . وباهته استقبله بأمر يقذفه به وهو منه برىء . والبهتان : الباطل الذى يتحير من بطلانه . مبينا : بينا ظاهرا لأنه واضح الكذب والبهتان : تقول : بان الشىء ، وبان الأمر ، وبان الحق ، اذا ظهر جليا واتضح ، قال الشاعر :

فبان للعقل ان العلم سيده فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

وتسمى البينة بينة ، لأنها تكشف الحق وتظهره .

المعنى الإجمالى

يخبر المولى جل وعلا بما ناله الرسول الكريم ، من جاه عظيم ، ومنزلة سامية ، ومكانة رفيعة عند الله تعالى ، وماله من السيادة والمقام المحمود فى الملأ الأعلى ، وما خصه الله تعالى به من الثناء العاطر ، والذكر الحسن ، فيقول الله تعالى ما معناه : إن الله تعالى يرحم نبيه ، ويعظم شأنه ، ويرفع مقامه ، وملائكته الأبرار ، وجنده الأطهار ، يدعون للنبى عليه السلام ويستغفرون له ، ويطلبون من الله أن يبارك ويمجد عبده ونبيه محمدا (ﷺ) وينيله أعلى المراتب ، ويظهر دينه على جميع الأديان ، ويجزل له الأجر والثواب ، على ما قدم لأمته من خير عميم ، وفضل جسيم ، فيأيها المؤمنون : صلوا أنتم عليه ، وعظموا أمره ، واتبعوا شرفه ، وأكثروا من الصلاة عليه والتسليم ، فحقه عليكم عظيم ، ومهما فعلتم فلن تؤدوه حقه ، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى ، وبه أخرجكم الله من الظلمات إلى النور .

---

(١) سورة المائدة آية ٦٤
(٢) ، (٣) سورة التوبة آية ٣٠
(٤) سورة المائدة آية ٧٣
(٥) سورة الأحزاب آية ٦١

﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم ﴾[١] . فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف : اللهم صل على محمد وسلم تسليما كثيرا ، وادعوا الله أن يجزيه عنكم خير الجزاء ، ثم أخبر تعالى أن الذين يؤذون الله ورسوله قد استحقوا غضب الله ولعنته ، عليهم فى دنياهم وآخرتهم ، وأن الله أعد لهم عذابا شديدا لا يدرك كنهه ولا يعرف هوله ، وكذلك الذين آذوا المؤمنين والمؤمنات ، فنسبوا إليهم مالم يفعلوه ، واتهموهم بالكذب والزور والبهتان ، وتقولوا على ألسنتهم ، مالم يقولوه ، هؤلاء الذين فعلوا ذلك لهم أيضا عذاب أليم فى الدنيا والآخرة جزاء ما اقترفوا من سىء الأعمال .

وجه الارتباط بالآيات الكريمة السابقة

فى الآيات الكريمة السابقة ، كان الحديث عن حرمة دخول بيوت النبى ، وعن حرمة نكاح أزواجه الطاهرات ، وقد بين تعالى فيها أن شأن المؤمنين ألا تكون منهم أذية للرسول عليه الصلاة والسلام ، لما له عليهم من حق عظيم ، وفى هذا تكريم وإرشاد إلى تكريمه (ﷺ) وحياطة لمقامه الشريف ، وهنا بين تعالى أن الله يكرم نبيه ، ويرحمه ويعلى شأنه ، وملائكته كذلك ، فكيف لا يكرمه المؤمنون ، مع أن الله يصلى عليه ؟ وهو لا يستحق إلا كل تكريم وتمجيد ، فكأنه قيل لهم : لا ينبغى لكم أن تؤذوه ، فإن الله يصلى عليه وملائكته ، فهذا وجه الارتباط ، والله تعالى أعلم .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : قوله تعالى : ﴿ إن الله وملائكته يصلون ﴾ .

ورد ذكر الثناء على الرسول (ﷺ) بهذه الصيغة ، فجاء الخبر مؤكدا بـ (إن) اهتماما به ، وجىء بالجملة الاسمية لإفادة الدوام ، وكانت الجملة إسمية فى صدرها ، ﴿ إن الله ﴾ فعلية فى عجزها ﴿ يصلون ﴾ للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى ، والتمجيد الدائم يتجدد وقتا فوقتا على الدوام ، فتدبر هذا السر الدقيق .

اللطيفة الثانية : قد يقول قائل : اذا صلى الله وملائكته عليه فأى حاجة إلى صلاتنا عليه .

نقول : الصلاة عليه ليس لحاجة إليها ، وإلا فلا حاجة إلى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه ، وإنما هو لإظهار تعظيمه عليه السلام ليثيبنا الله تعالى عليه ،

ولهذا قال عليه السلام : (من صلى على مرة صلى الله عليه بها عشرا)[٢] . فصلوات ربى وسلامه عليه .

اللطيفة الثالثة : قال الإمام الفخر : الصلاة الدعاء ، يقال فى اللغة صلى عليه : أى دعا له ،

---

(١) سورة الحديد آية ٩

(٢) أخرجه النسائى ج٣ ص٤٣

اتحاف السادة المتقين ج٣ ص٢٨٨ الدارمى ٢/٣١٧

وهذا المعنى غير معقول فى حق الله تعالى ، فإنه لا يدعو له ، لأن الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث ، والجواب : أن اللفظ المشترك يجوز استعماله فى معنييه معا ، وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز فى لفظ جائز ، وهذا مذهب الشافعى رحمه الله ، فالصلاة من الله بمعنى الرحمة ، ومن الملائكة بمعنى الاستغفار ، وهما يشتركان فى العناية بحال المرحوم ، والمستغفر له . والمراد هو القدر المشترك .

اللطيفة الرابعة : أمرنا الله بالصلاة على نبيه المصطفى (ﷺ) وكان يكفى أن نقول صلينا عليه ، أو يقول الإنسان : أصلى عليه ، فلماذا نقول عند الصلاة عليه : اللهم صل على محمد ؟

والجواب : أن الله لما أمرنا بالصلاة عليه ، ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك ، أحلناه على الله تعالى ، وقلنا : اللهم صل أنت على محمد ، لأنك أعلم بما يليق به ، فنحن عاجزون عن توفيته حقه ، وقاصرون عن معرفة الثناء الذى يليق بقدره ، وقد أوكلنا القدر إليك فتدبر سر هذه الجملة : (اللهم صل على محمد) فإنه نفيس ودقيق .

اللطيفة الخامسة : قال بعض العلماء : معنى قولنا : اللهم صل على محمد أى عظّمه فى الدنيا بإعلاء ذكره ، وإظهار دعوته ، وإبقاء شريعته ، وفى الآخرة بتشفيعه فى أمته ، وتضعيف أجره ومثوبته ، وإعطائه المقام المحمود .

فضائل الصلاة على النبى (ﷺ)

١ ـ عن أبى طلحة رضى الله عنه أن النبى ﷺ : (جاء ذات يوم والسرور يرى فى وجهه ، فقلنا : إنا لنرى السرور فى وجهك !! فقال : إنه أتانى الملك فقال يامحمد : إن ربك يقول : أما يرضيك أنه لا يصلى عليك أحد إلا صليت عليه عشرا ، ولا يسلم عليك أحد إلا سلمت عليه عشرا)[١] .

٢ ـ وقال (ﷺ) : (إن أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاة)[٢] .

٣ ـ وقال ﷺ : (البخيل الذى من ذكرت عنده فلم يصل علىَّ)[٣] . اللهم اجعل صلواتك ، ورحمتك وبركاتك . على سيد المرسلين ، وإمام المتقين سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، إنك سميع مجيب الدعاء .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هى صيغة الصلاة والتسليم على النبى عليه السلام ؟

صيغة الصلاة على النبى (ﷺ) وردت فيها طرق كثيرة من السنة النبوية المطهرة ، وقد ذكرت فيها صور مختلفة عن كيفية الصلاة عليه من المؤمنين ، واختلافها يشعر بأن الغرض ليس تحديد (كيفية

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٣٣ ط النهضة الحديثة .

(٢) أخرجه الترمذى ج١ ص٣٠٢ برقم ٤٨٢ ، اتحاف السادة المتقين ج٥ ص٤٨

(٣) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٣٤ ط النهضة الحديثة .
الترمذى ج٥ ص٢١١ برقم ٣٦١٤ أبواب الدعوات احمد ج١ ص٢٠١ .

خاصة) وإنما هي ألوان من التعظيم والثناء له عليه السلام ، وسنقتصر على بعض ما صح من هذه الكيفيات ، لأن استيعابها يطول ، فنقول ومن الله نستمد العون .

أولا : روى الشيخان عن كعب بن عجرة رضى الله عنه قال : قال رجل : يارسول الله : أما السلام عليك فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك ؟ . قال : قل : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على ابراهيم إنك حميد مجيد . اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على ابراهيم إنك حميد مجيد)(١) .

ثانيا : وروى مالك وأحمد والشيخان عن أبى حميد الساعدى رضى الله عنه أنهم قالوا يارسول الله : كيف نصلى عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : قولوا : (اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ، كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد)(٢) .

ثالثا : وأخرج الجماعة عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه قال : قلنا : يارسول الله : هذا السلام عليك قد علمناه فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا : (اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم ، فى العالمين ، إنك حميد مجيد)(٣) .

رابعا : وروى مسلم والترمذى والنسائى عن أبى مسعود البدرى أنه قال : أتانا النبى (ﷺ) ونحن فى مجلس (سعد بن عبادة) فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلى عليك يارسول الله ، فكيف نصلى عليك ؟ فسكت حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال قولوا : (اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، والسلام كما علمتم) .

وفى بعض رواياته : (اللهم صل على محمد النبى الأمى وعلى آل محمد)(٤) .

وأما التسليم فصيغته معروفة وهى أن يقول المؤمنون : السلام عليك يارسول الله .

وفى التشهد يقول المصلى : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته ، ومعنى التسليم : الدعاء بالسلامة من جميع البلاى والآفات والأسقام ، وذهب ابن السائب إلى أن معنى التسليم : الانقياد وعدم المخالفة أى سلموا لما يأمركم به والله أعلم .

الحكم الثانى : ما معنى صلاة الله والملائكة على النبى عليه السلام ؟

تقدم معنا أن الصلاة فى اللغة تأتى بمعنى (الدعاء) وتأتى بمعنى (الرحمة) وتأتى بمعنى التمجيد والثناء ، ومن الأخير قوله تعالى : ﴿ أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾(٥) .

---

(١) أخرجه البخارى ج٨ ص٩٥ كتاب الدعوات/ ومسلم ج١ ص٣٠٥ برقم ٤٠٦/٦٦ والنسائى ج٣ ص٤٠ وابو داود ج١ ص٦٠٠ رقم ٩٨٠ .

(٢) أخرجه البخارى ج٤ ص١٧٨/ ومسلم ج١ ص٣٠٦ برقم ٤٠٧/٦٩ كتاب الصلاة وأحمد ج٥ ص٤٢٤/ وأبو داود ج١ ص٦٠٠ برقم ٩٧٩ .

(٣) أخرجه البخارى ج٦ ص١٥١ تفسير سورة الأحزاب . والنسائى ج٣ ص١٧٨ واحمد ج٣ ص٤٧ .

(٤) أخرجه النسائى ج٣ ص٣٨ ، ص٣٩

(٥) سورة البقرة آية ١٥٧ .

وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الصلاة من الله تعالى على نبيه معناها تمجيده والثناء عليه وإلى هذا ذهب البخارى وطائفة من العلماء وهو الأظهر .

وقال آخرون : المراد بالصلاة على النبى رحمته ومغفرته وإلى هذا ذهب الحسن البصرى وسعيد بن جبير ، وقيل : المراد بها البركة والكرامة . وأما صلاة الملائكة فمعناها : الدعاء له عليه السلام والاستغفار لأمته ، وعلى جميع الأقوال فالصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة .

ولما جاء اللفظ مجموعا مضافا إلى واو الجماعة (إن الله وملائكته يصلون على النبى) وكانت الصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة ، لذلك فقد اختلف المفسرون فى تأويل الآية على أقوال :

أ - فذهب بعضهم إلى أن فى الآية حذفا دل عليه السياق ، تقديره : إن الله يصلى على النبى ، وملائكته يصلون على النبى ، فتكون واو الجماعة راجعة إلى الملائكة خاصة ، ويؤيد هذا قراءة الرفع (وملائكته) وليس اللفظ مشتركا بين الله تعالى والملائكة .

ب - وذهب بعضهم إلى أنه من باب الجمع بين الحقيقة والمجاز وهو اختيار الفخر الرازى ومذهب الإمام الشافعى رحمه الله ، فعنده يجوز استعمال اللفظ المشترك فى معنييه معا ، كما يجوز الجمع بين الحقيقة والمجاز ، فيكون لفظ (يصلون) عائدا إلى الله وإلى الملائكة بالمعنيين معا ويصبح معنى الآية) ﴿ إن الله تعالى يرحم نبيه وملائكته يدعون له ﴾ .

ج - وذهب جماعة إلى القول بأنه من باب (عموم المجاز) لا من باب (الجمع بين الحقيقة والمجاز) فيقدرون معنى مجازيا عاما ، ينتظم أفرادا كثيرة يشملها هذا اللفظ ، وهذا المعنى العام هو مثلا (العناية بشأن النبى) (ﷺ) فالاعتناء يكون من الله تعالى على وجه ويكون من الملائكة على وجه آخر ، وهذا اختيار أبى السعود وأبى حيان والزمخشرى ، وغيرهم من مشاهير المفسرين .

قال أبو السعود : قوله تعالى : ﴿ يصلون على النبى ﴾ قيل : الصلاة من الله تعالى الرحمة ، ومن الملائكة الاستغفار ، وقال ابن عباس : أراد أن الله يرحمه ، والملائكة يدعون له . . فينبغى أن يراد فى ﴿ يصلون ﴾ معنى مجازى عام ، يكون كل واحد من المعانى المذكورة فردا حقيقيا له ، أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ، ويهتمون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه ، وذلك من الله سبحانه بالرحمة ، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار .

وقال أبو حيان فى البحر المحيط : (وصلاة الله غير صلاة الملائكة فكيف اشتركا ؟ والجواب : اشتركا فى قدر مشترك وهو إرادة وصول الخير إليهم ، فالله تعالى يريد برحمته إياهم وصول الخير إليهم ، والملائكة يريدون بالاستغفار ذلك)

الحكم الثالث : هل الصلاة على النبى (ﷺ) على سبيل الندب أو الفرض ؟ أمر الله سبحانه المؤمنين بالصلاة على نبيه الكريم ، وهذا الأمر للوجوب ، فتكون الصلاة على النبى (ﷺ) واجبة ، ويكاد العلماء يجمعون على وجوب الصلاة والتسليم عليه مرة فى العمر ، لقد حكى (القرطبى) الإجماع على ذلك ، عملا بما يقتضيه الأمر (صلوا) من الوجوب ، وتكون الصلاة والسلام فى ذلك كالتلفظ بكلمة التوحيد ، حيث لا يصح إسلام الإنسان إلا بالنطق بها .

وقد اختلف العلماء فى حكم الصلاة على النبى (ﷺ) هل تجب فى كل مجلس ، وكلما ذكر اسمه

الشريف ﷺ ؟ أم هى مندوبة ؟ وذلك بعد اتفاقهم على أنها واجبة فى العمر مرة واحدة .
أ - فقال بعضهم : إنها واجبة كلما ذكر اسم النبى عليه السلام .
ب - وقال آخرون : تجب فى المجلس مرة واحدة ولو تكرر ذكره عليه السلام فى ذلك المجلس عدة مرات .
ج - وقال آخرون : يجب الإكثار منها من غير تقييد بعدد أو مجلس ، ولا يكفى أن تكون فى العمر مرة .

وحجة القائلين بالوجوب فى المجلس ، أو كلما ذكر اسم الرسول عليه الصلاة والسلام ، أن الله عز وجل أمر بها ، والأمر يفيد التكرار ، ثم ما ورد من الوعيد الشديد لمن لم يصل على رسول الله عليه السلام ، .

كقوله : (البخيل الذى من ذكرت عنده فلم يصل علىَّ)[1] .

وقوله عليه السلام : (ما جلس قوم مجلسا لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة يوم القيامة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم)[2] .
* معنى ترة : حسرة وندامة .

وقول جبريل للنبى عليه السلام : (بعد من ذكرت عنده فلم يصل عليك فقلت آمين) .
فهذه تفيد الوجوب عندهم .

وذهب جمهور العلماء إلى أن الصلاة على النبى الله ، قربة وعبادة ، كالذكر والتسبيح والتحميد . وأنها واجبة فى العمر مرة ، ومندوبة ومسنونة فى كل وقت وحين ، وانه ينبغى الإكثار منها لما صح عنه (ﷺ) انه قال :
(من صلى على صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرا)[3] . وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الشهيرة فى فضل الصلاة على النبى عليه السلام . فهى مطلوبة ولكن لاعلى سبيل (الوجوب) بل على سبيل (الندب) والاستحباب .

قال العلامة أبو السعود : (والذى يقتضيه الاحتياط ويستدعيه : معرفة علو شأنه عليه الصلاة والسلام ، أن يصلى عليه كلما جرى ذكره الرفيع . وما ذهب اليه الجمهور هو الأصح والأرجح والله أعلم .

الحكم الرابع : هل تجب الصلاة على النبى عليه السلام فى الصلاة ؟

اختلف الفقهاء فى حكم الصلاة على النبى (ﷺ) فى الصلاة على مذهبين :
أ - مذهب الشافعى وأحمد : أنها واجبة فى الصلاة ولا تصح الصلاة بدونها .
ب - مذهب مالك وأبى حنيفة : أنها سنة مؤكدة فى الصلاة ، وتصح الصلاة بدونها مع الكراهة والإساءة .

---

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٣٤
(٢) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعوات ج٥ ص٢١١ برقم ٣٦١٤ وأحمد ج١ ص٢٠١ .
(٣) أخرجه النسائى ج٣ ص٤٣ اتحاف السادة المتقين ج٣ ص٢٨٨ احمد ج٣ ص٢٦١ .

ـ أدلة الشافعية والحنابلة :

استدل الشافعية والحنابلة على أن الصلاة على النبى (ﷺ) واجبة فى الصلاة بأدلة نوجزها فيما يلى :

أ ـ الأمر الوارد فى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا صلوا عليه** ﴾ والأمر يقتضى الوجوب ، ولا وجوب فى غير التشهد ، فتكون الصلاة على النبى واجبة فى الصلاة .

ب ـ حديث كعب بن عجرة (قلنا يارسول الله قد عرفنا التسليم عليك ، فكيف نصلى عليك ؟ فقال : قولوا : اللهم صلِ على محمد وعلى آل محمد)[١] . الحديث، قال ابن كثير رحمه الله : ذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه يجب على المصلى أن يصلى على رسول الله (ﷺ) فى التشهد الأخير ، فإن تركه لم تصح صلاته ، وهو ظاهر الآية ، ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، وهو مذهب الإمام أحمد ، واليه ذهب ابن مسعود وجابر بن عبد الله .

ـ أدلة المالكية والأحناف :

واستدل المالكية والأحناف على مذهبهم ببضعة أدلة نوجزها فيما يلى :

أ ـ **قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا صلوا عليه ﴾** قالوا : قد تضمنت هذه الآية الأمر بالصلاة على النبى (ﷺ) وظاهره يقتضى الوجوب ، فمتى فعلها الإنسان مرة واحدة فى صلاة أو غير صلاة ، فقد أدى فرضه ، وهو مثل كلمة التوحيد والتصديق بالنبى (ﷺ) متى فعله الإنسان مرة واحدة فى عمره ، فقد أدى فرضه ، والأمر يقتضى الوجوب لا التكرار .

ب ـ حديث ابن مسعود حين علمه ﷺ فقال : (اذا فعلت هذا ، أو قلت هذا ، فقد تمت صلاتك ، فإن شئت أن تقوم فقم ، ثم اختر من أطيب الكلام ما شئت) ولم يأمره بالصلاة على النبى عليه السلام .

ج ـ حديث معاوية السلمى وفيه أن النبى ﷺ قال : (إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هى التسبيح والتهليل وقراءة القرآن)[٢] . ولم يذكر الصلاة على النبى ﷺ .

د ـ ماروى عن كثير من الصحابة أنهم كانوا يكتفون بالتشهد فيالصلاة وهو : (السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته) ولا يوجبون الصلوات الإبراهيمية .

قال أبو بكر الرازى : (زعم الشافعى أن الصلاة على النبى (ﷺ) فرض فى الصلاة ، وهذا قول لم يسبقه اليه أحد من أهل العلم ـ فيما نعلمه ـ وهو خلاف الآثار الواردة عن النبى (ﷺ) لفرضها فى الصلاة) .

الحكم الخامس : هل تجوز الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ يرى بعض العلماء أن الصلاة تجوز على غير الأنبياء ، لأن الصلاة معناها الدعاء ، والدعاء يجوز للأنبياء ولغير الأنبياء .

---

(١) أخرجه : البخارى ج٤ ص١٧٨ الترمذى ج١ ص٣٨١ برقم ٤٨٢

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب المساجد ج١ ص٣٨١ ، ٣٨٢ برقم ٣٣/٥٣٧

واستدلوا بما ورد عنه ﷺ من قوله : (اللهم صل على آل أبي أوفى)[١] .

وذهب الأكثرون إلى أن الصلاة (شعار) وهى خاصة بالأنبياء ، فلا تجوز لغيرهم فلا يصح أن تقوف : اللهم صل على الشافعى مثلا أو على أبى حنيفة ، وإنما تترحم عليهما ، ويجوز الترضى عن الصحابة والتابعين ولا تجوز الصلاة عليهم لأنها شعار الأنبياء والمرسلين .

قال العلامة أبو السعود : (وأما الصلاة على غير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا ، وتكره استقلالا . لأنه فى العرف شعار ذكر الرسل . ولذلك لا يجوز أن يقال : (محمد عز وجل) مع كونه ﷺ عزيزا جليلا .

والمراد بقوله أن تقول مثلا : اللهم صل على محمد وآله وذريته وأتباعه المؤمنين فلا يصح أن تقول : اللهم صلى على ذرية محمد ، ولا اللهم صل على أزواج محمد ، وإنما اذا صليت على الرسول يجوز لك أن تضيف تبعا من شئت من عباد الله الصالحين . والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

(١) منصب النبوة منصب عظيم ، ومكانة الرسول مكانة عظيمة عند الله تعالى .
(٢) ثناء الله عز وجل على نبيه الكريم وثناء الملائكة الأطهار مظهر من مظاهر رفعة الرسالة .
(٣) احترام الرسول وتعظيم أمره واجب على المؤمنين ، لأنه من تعظيم أمر الله وطاعته جل وعلا .
(٤) الصلاة على الرسول ﷺ ينبغى أن تكون بالصيغة الشرعية : (اللهم صل على محمد) إلخ .
(٥) يندب للمسلم أن يصلى على الرسول (ﷺ) كلما ذكر اسمه الشريف ﷺ امتثالا للأمر الإلهى .
(٦) إيذاء الرسول ﷺ إيذاء لله تعالى ، وهو سبب لسخط الله وغضبه .
(٧) إيذاء المؤمنين واتهامهم بما ليس فيهم من الكبائر التى ينبغى أن يبتعد عنها المسلم .

خاتمة البحث :

مجد الله رسوله (ﷺ) وأثنى عليه الثناء العاطر ، ورفع مكانته على جميع الأنبياء والمرسلين ، وأحله المحل الرفيع الذى يليق بمنزلته السامية ، ومرتبته العالية ، وأمر المؤمنين بالتأدب مع الرسول الكريم ، وبتعظيم أمره ، وتمجيد شأنه ، وصلى عليه فى الملأ الأعلى مع الملائكة الأطهار ، وكل ذلك ليعلم المؤمنين مكانة هذا النبى العظيم ، ليجلوه ويحترموه ، ويطيعوا أمره ، لأنه سبب سعادتهم وفلاحهم فى الدنيا والآخرة ﴿ **لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾[٢] .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بالصلاة على الرسول الكريم ، وجعل ذلك فرضا لازما لا يتم إيمان بدونه ، وحرم إيذاءه بالقول أو بالفعل ، ونهى عن كل ما يمس مقامه الشريف من إساءة أو

---

(١) أخرجه مسلم ج٢ ص٧٥٦ برقم ١٠٧٨/١٧٦ . والامام احمد ج٤ ص٣٥٣ .

(٢) سورة الفتح آية ٩

عدوان ، وجعل ذلك إيذاء له تعالى ، لأن فى تكذيبه ﷺ تكذيبا لله تعالى ، وفى الاستهزاء بدعوته ، استهزاء بالله تعالى ، لأنه رسول رب العالمين ، فيجب أن يطاع فى كل أمر ، وأن يحترم قوله ، لأنه مبلغ من عند الله وصدق الله حيث يقول : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾(١) .

وقد حكم الله جل وعلا باللعنة والغضب على من آذى الرسول عليه السلام ، لأنه كفران للنعمة ، وجحود للفضل الذى أسداه الرسول ﷺ لأمته ، وكيف يليق بالمؤمن أن يؤذى رسول الله ، مع أنه صلوات الله عليه سبب لإنقاذنا من الضلالة ، وإخراجنا من الظلمات إلى النور ؟! وهو باب الرحمة الإلهية ، ومظهر الفضل والإحسان والجود ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾(٢) . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين . وصدق من قال :

إذا الله أثنى بالذى هو أهله ... عليه ، فما مقدار ما تمدح الورى ؟

حجاب المرأة المسلمة

قال الله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ﴾

معانى المفردات

أزواجك : المراد بكلمة الأزواج (أمهات المؤمنين) الطاهرات رضوان الله عليهن ، ولفظ الزوج فى اللغه يطلق على الذكر والأنثى ، قال تعالى : ﴿ اسكن أنت وزوجك الجنة ﴾(٣) . ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾(٤) . وإطلاق لفظ (الزوجة) صحيح ولكنه خلاف الأفصح وأنكر الأصمعى لفظ (زوجه) بالهاء .

وقال : هى زوج لا غير . واحتج بأنه لم يرد فى القرآن إلا بدون هاء ﴿ أمسك عليك زوجك ﴾(٥) . والصحيح أنه خلاف الأفصح وليس بخطأ قال الفرزدق :

وإن الذى يسعى يحرش زوجتى ... كساع الى أسد الثرى يستبيلها

وفى حديث عمار بن ياسر قوله عن السيدة عائشة : (والله انى لأعلم انها زوجة نبيكم فى الدنيا والآخرة ولكن الله ابتلاكم بها ليعلم أتطيعونه أم تطيعونها) .

---

(١) سورة النساء آية ٨٠
(٢) سورة التوبة آية ١٢٨
(٣) البقرة آية ٣٥ والأعراف آية ١٩
(٤) الاعراف آية ١٨٩
(٥) الأحزاب آية ٣٧

يدنين : أي يسدلن ويرخين . وأصل الإدناء التقريب .

يقال للمرأة اذا زُل الثوب عن وجهها أدن ثوبك على وجهك . والمراد فى الآية الكريمة يغطين وجوههن وأبدانهن ليميزن عن الإماء والقينات .

ولما كان متضمنا معنى الإرخاء والسدل عدى بعلى (يدنين عليهن) .

جلابيبهن : جمع جلباب وهو الثوب الذى يستر جميع البدن .

قال الشهاب هو ازار يلتحف به . وقيل هو الملحفة وكل ما يغطى سائر البدن . قال فى لسان العرب : الجلباب ثوب أوسع من الخمار دون الرداء ، تغطى به المرأة رأسها وصدرها ، وقيل هو الملحفة .

قالت امرأة من هذيل ترثى قتيلا لها :

تمشى النسور إليه وهى لاهية ... مشى العذارى عليهن الجلابيب

وقيل جلباب المرأة : ملاءتها التى تستمل بها واحدها جلباب والجماعة جلابيب وانشدوا . مجلبب من سواد الليل جلبابا .

وفى الجلالين : الجلابيب جمع جلباب ، وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة .

قال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلابيب ، إلا عينا واحدة ليعلم أنهن حرائر .

والخلاصة فإن الجلباب هو الذى يستر جميع بدن المرأة ، وهو يشبه الملحفة المعروفة فى زماننا نسأله تعالى الستر والسلامة .

أدنى : افعل تفضيل بمعنى أقرب من الدنو بمعنى القرب ، يقال أدنانى منه أى قربنى منه .

وقوله تعالى : ﴿ قطوفها دانية ﴾[1] . أى قريبة المنال وتأتى كلمة (أدنى) بمعنى أقل وقد جمع المعنيان فى قول الشاعر :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى الى شرف من الانسان

غفورا : أى ساترا للذنوب ، ماحيا للآثام ، يغفر لمن تاب وأناب ، ما فرط منه ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم إهتدى ﴾[2] .

رحيما يرحم عباده ويلطف بهم ومن رحمته تعالى انه لم يكلفهم مالا يطيقون .

المعنى الاجمالى :

يأمر الله تعالى نبيه الكريم ﷺ أن يوجه النداء إلى الأمة الاسلامية جمعاء ، بأن تعمل على

---

(١) سورة الحاقه ٢٣

(٢) سورة طه آية ٨٢

التمسك بآداب الاسلام ، وإرشاداته الفاضلة ، ونظمه الحكيمة ، التى بها صلاح الفرد ، وسعادة المجتمع ، وخاصة فى أمر اجتماعى هام ، يتعلق بالأسرة المسلمة ، ألا وهو (الحجاب الشرعى) الذى فرضه الله على المرأة المسلمة ، ليصون لها كرامتها ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النظرات الجارحة ، والكلمات اللاذعة ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النفوس المريضة ، والنوايا الخبيثة ، التى يكنها الفساق من الرجال للنساء غير المحتشمات ، فيقول الله تعالى ما معناه :

يأأيها النبى بلغ أوامر الله تعالى إلى عباده المؤمنين ، وابدأ بنفسك ، فمر زوجاتك أمهات المؤمنين الطاهرات ، وبناتك الفضليات الكريمات ، ان يرتدين الجلباب الشرعى ، وأن يحتجبن عن أنظار الرجال ، ليكن قدوة لسائر النساء فى التعفف والتستر والاحتشام ، حتى لا يطمع فيهن فاسق أو ينال من كرامتهن فاجر ، وأمر سائر نساء المؤمنين ، أن يلبسن الجلباب السابغ ، الذى يستر محاسنهن وزينتهن ، ويرفع عنهن ألسنة السوء ، وأمرهن كذلك أن يغطين وجوههن ، وأجسامهن بجلابيبهن ، ليميزن عن الاماء والقينات ، فلا يكن هدفا للمغرضين ، وليكن بعيدات عن التشبه بالفواجر ، فلا يتعرض لهن إنسان بسوء ، فذلك أقرب إلى أن يعرفن بالعفة والتصون ، فلا يطمع فيهن من فى قلبه مرض ﴿ وكان الله غفورا ﴾ يغفر لمن امتثل أمره ، رحيما بعباده حيث لا يشرع لهم إلا مافيه خيرهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة

سبب النزول

روى المفسرون فى سبب نزول هذه الآية الكريمة ، أن الحرة والأمة كانتا تخرجان ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان ، وبين النخيل من غير تمييز بين الحرائر والاماء ، وكان فى المدينة فساق لايزالون على عاداتهم فى الجاهلية ، يتعرضون للاماء ، وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا قيل لهم يقولون حسبناهن إماء ، فأمرت الحرائر أن يخالفن الاماء فى الزى ، فيتسترن ليحتشمن ، ويهبن فلا يطمع فيهن ذوو القلوب المريضة ، فأنزل الله ﴿ يأأيها النبى قل لأزواجك . . ﴾ الآية .

وقال ابن الجوزى : سبب نزولها أن الفساق كانوا يؤذون النساء اذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها ، وقالوا هذه حرة ، واذا رأوها بغير قناع قالوا : أمة فآذوها ، فنزلت هذه الآية . قاله السدى .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : بدأ الله تعالى بنساء النبى ﷺ وبناته فى الأمر بـ (الحجاب الشرعى) وذلك للاشارة الى أنهن قدوة لبقية النساء ، فعليهن التمسك بالآداب الشرعية ، ليقتدى بهن سائر النساء ، والدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعى بها فى نفسه وأهله ، ومن أحق من (بيت النبوة) بالتمسك بالآداب والفضائل ، وهذا هو السر فى تقديمهن فى الخطاب فى قوله تعالى : ﴿ قل لأزواجك وبناتك ﴾ .

اللطيفة الثانية : الأمر بالحجاب إنما جاء بعد أن استقر أمر الشريعة على وجوب (ستر العورة) فلابد ان يكون الستر المأمور به هنا زائدا على ما يجب من ستر العورة ، ولهذا اتفقت عبارات المفسرين على اختلاف ألفاظها ـ على أن المراد بالجلباب . الرداء الذى تستر به المرأة جميع بدنها فوق الثياب وهو ما يسمى فى زماننا بـ (الملاءة) أى المحلفة ، وليس المراد ستر العورة كما ظن بعض الناس .

اللطيفة الثالثة

فى هذا التفصيل والتوضيح ﴿ أزواجك .. بناتك .. نساء المؤمنين ﴾ رد صريح على الذين يزعمون أن الحجاب انما فرض على أزواج النبى ﷺ خاصة .

فإن قوله تعالى : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يدل دلالة قاطعة ، على أن جميع نساء المؤمنين مكلفات بالحجاب ، وأنهن داخلات فى هذا الخطاب العام الشامل ، فكيف يزعمون أن الحجاب لم يفرض على المرأة المسلمة ؟!

اللطيفة الرابعة :

أمر الحرائر بالتستر ، ليميزن عن الاماء ، قد يفهم منه ان الشارع أهمل أمر إماء ، ولم يبال بما ينالهن من الايذاء ، وتعرض الفساق لهن فكيل يتفق هذا مع حرص الاسلام على طهارة المجتمع ؟

الجواب :

ان الاماء بطبيعة عملهن يكثر خروجهن وترددهن فى الأسواق ، لقضاء الحاجات وخدمة سادتهن ، فاذا كلفن بلبس الحجاب السابغ كلما خرجن كان فى ذلك حرج ومشقة عليهن ، وليس كذلك الحرائر ، لأنهن مأمورات بالاستقرار فى البيوت ﴿ وقرن فى بيوتكن ﴾[1] . وعدم الخروج الا عند الحاجة ، فلم يكن عليهن من الحرج والمشقة فى التستر ما على الاماء ، وقد وردت الآية السابقة ﴿ ان الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ وهى تتوعد المؤذين بالعذاب الأليم ، وهذا يشمل الحرائر والإماء .

اللطيفة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ فيه ذكر للعله أى (الحكمة) التى فرض من أجلها الحجاب والاحكام الشرعية كلها مشروعة لحكمة وجمهور المفسرين على أن المراد من قوله تعالى : ﴿ أن يعرفن ﴾ أى يعرفن أنهن حرائر ويميزن عن الإماء ، وقد اختار (أبو حيان) وجها آخر غير الوجه الذى سلكه الجمهور ، فجعل الأمر بالحجاب موجها الى جميع النساء سواء منهن (الحرائر والاماء) .

وفسر قوله تعالى ﴿ أدنى أن يعرفن ﴾ أى يعرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد .

وإليك نص كلامه كما فى البحر المحيط :

والظاهر أن قوله تعالى : ﴿ ونساء المؤمنين ﴾ يشمل الحرائر والاماء ، والفتنة بالاماء أكثر ، لكثرة تصرفهن بخلاف الحرائر ، فيحتاج إخراجهن من عموم النساء إلى دليل واضح .

وقوله : ﴿ أدنى أن يعرفن ﴾ أى يعرفن لتسترهن بالعفة فلا يتعرض لهن ولا يلقين بما يكرهن ، لأن المرأة اذا كانت فى غاية التستر والانضمام لم يقدم عليها ، بخلاف المتبرجة فإنها مطموع فيها وهو رأى تبدو عليه مخايل الجودة والدقة فى الاستنباط .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٣

وما اختاره أبو حيان ، هو الذى نختاره لأنه يحقق غرض الاسلام فى التستر والصيانة . والله أعلم .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول :

هل يجب الحجاب على جميع النساء ؟

يدل ظاهر الآية الكريمة على أن الحجاب مفروض على جميع المؤمنات (المكلفات شرعا) وهن : (المسلمات . الحرائر . البالغات) لقوله تعالى :

﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين ﴾ الآية .

فلا يجب الحجاب على الكافرة ، لأنها لا تكلف بفروع الإسلام ، وقد امرنا ان نتركهم وما يدينون ، ولأن لحجاب عبادة ، لما فيه من امتثال أمر الله عز وجل ، إذا تركته تقلدا للمجتمع الفاسد مع اعتقادها بوجوبه فهى عاصية مخالفة لتعاليم القرآن ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[1]

وغير المسلمة ـ وان لم تؤمر بالحجاب ـ لكنها لا تترك تفسد فى المجتمع ، وتتعرى أمام الرجل وتخرج بهذه الميوعة والانحلال الذى نراه فى زماننا ، فإن هناك (آدابا اجتماعية) يجب ان تراعى وتطبق على الجميع ، وتستوى فيها المسلمة وغير المسلمة ، حماية للمجتمع ، وذلك من السياسات الشرعية التى تجب على الحاكم المسلم .

وأما الأول فقد عرفت مافيه من أقوال للعلماء ، وقد ترجح لديك رأى العلامة (أبى حيان) فى أن الأمر بالتستر عام ، يشمل الحرائر والاماء ، وهذا ما يتفق مع روح الشريعة فى صيانة الأعراض ، وحماية المجتمع من التفسخ والانحلال الخلقى ، وأما البلوغ فهو شرط التكليف . أقول : يطلب من المسلم أن يعود بناته منذ سن العاشرة ، على ارتداء الحجاب الشرعى ، حتى لا يصعب عليهن بعد ارتداؤه ، وإن لم يكن الأمر على وجه التكليف ، وانما هو على وجه التأديب ، قياسا على أمر الصلاة .

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر ، وفرقوا بينهم فى المضاجع)[2] .

الحكم الثانى : ما هى كيفية الحجاب ؟

أمر الله المؤمنات بالحجاب وإرتداء الجلباب ، صيانة لهن وحفظا ، وقد اختلف أهل التأويل فى كيفية هذا التستر على أقوال :

---

(١) الأحزاب آية ٣٣

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ج١ ص٣٣٤ برقم ٤٩٥

١ - فأخرج ابن جرير الطبرى عن ابن سيرين انه قال : سألت (عبيدة السلمانى) عن هذه الآية ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقنع بها ، وغطى رأسه كله ، حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه ، وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر .

٢ - وروى ابن جرير وأبو حيان عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : (تلوى الجلباب فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف وان ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه .

٣ - وروى عن السدى فى كيفيته انه قال : (تغطى إحدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين . قال أبو حيان وكذا عادة بلاد الأندلس ، لا يظهر من المرأة إلا عينها الواحدة .

٤ - واخرج عبد الرازق وجماعة عن أم سلمة رضى الله عنها أنها قالت :

(لما نزلت هذه الآية ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ خرج نساء الأنصار ، كأن على رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها)[1] .

الحكم الثالث : هل يجب على المرأة ستر وجهها ؟ تقدم معنا فى سورة النور ، أن المرأة منهية عن إبداء زينتها إلا للمحارم ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن ﴾ الآية .

ولما كان الوجه أصل الزينة ، ومصدر الجمال والفتنة ، لذلك كان ستره ضروريا عن الاجانب ، والذين قالوا ان الوجه ليس بعورة ، اشترطوا ألا يكون عليه شىء من الزينة ، كالأصباغ والمساحيق التى توضع عادة للتجمل ، وبشرط أمن الفتنة ، فاذا لم تؤمن الفتنة فيحرم كشفه .

ومما لاشك فيه أن الفتنة فى هذا الزمان غير مأمونة ، لذا نرى وجوب ستر الوجه حفاظا على كرامة المسلمة ، وقد ذكرنا بعض الحجج الشرعية على وجوب ستره فى بحث (بدعة كشف الوجه) . من سورة النور ، ونزيد هنا بعض أقوال المفسرين فى وجوب ستر الوجه .

(طائفة من أقوال المفسرين فى وجوب ستر الوجه) .

أولا : قال ابن الجوزى فى قوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ أى يغطين رءوسهن ووجوههن ليعلم أنهن حرائر ، والمراد بالجلابيب : الأردية قاله ابن قتيبة .

ثانيا : وقال ابو حيان فى البحر المحيط : وقوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ شامل لجميع أجسادهن ، أو المراد بقوله : ﴿ عليهن ﴾ أى على وجوههن لأن الذى كان يبدو منهن فى الجاهلية هو الوجه .

ثالثا : وقال ابو السعود : الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء ، تلويه المرأة على رأسها ، وتبقى منه ما ترسله على صدرها ، ومعنى الآية : أى يغطين بها وجوههن وأبدانهن ، إذا برزن لداعية من الدواعى .

وعن السدى : تغطى احدى عينيها وجبهتها والشق الآخر إلا العين .

رابعا : وقال أبو بكر الرازى وفى هذه الآية ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجنبية ، واظهار الستر والعفاف عند الخروج ، لئلا يطمع فيها أهل الريب .

(١) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٤١

خامسا : وفى تفسير الجلالين : الجلابيب جمع جلباب ، وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة ، قال ابن عباس : أمر نساء المؤمنين أن يغطين رءوسهن ووجوههن بالجلابيب إلا عينا واحدة ، ليعلم أنهن حرائر .

سادسا : وفى تفسير الطبرى : عن ابن سيرين انه قال : (سألت عبيدة السلمانى عن قوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ فرفع ملحفة كانت عليه ، فتقنع بها وغطى رأسه كله ، حتى بلغ الحاجبين ، وغطى وجهه . وأخرج عينه اليسرى من شق وجهه الأيسر . وروى مثل ذلك عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقد تقدم الحديث سابقا .

فهذا وأمثاله كثير من أقوال مشاهير المفسرين ، يدل دلالة واضحة على وجوب ستر الوجه وعدم كشفه أمام الأجانب ، اللهم إلا إذا كان الرجل خاطبا ، أو كانت المرأة فى حالة احرام بالحج ، فانه وقت عبادة والفتنة مأمونة ، فلا يقاس على هذه الحالة كما يفعل بعض الجهلة اليوم ، حيث يقولون : اذا جاز لها أن تكشف عن وجهها فى حالة الاحرام ، فمعناها انه يجوز لها ان تكشفه فى غيره من الأوقات ، لان الوجه ليس بعورة فهذا كلام من لم يفقه شريعة الاسلام .

ومن درس حياة السلف الصالح ، وما كان عليه النساء الفضليات ـ نساء الصحابة والتابعين ـ وما كان عليه المجتمع الاسلامى فى عصره الذهبى من التستر ، والتحفظ ، والصيانة ، عرف خطأ هذا الفريق من الناس الذين يزعمون ان الوجه لا يجب ستره ، بل يجب كشفه ، ويدعون المرأة المسلمة أن تسفر عن وجهها ، بحجة أنه ليس بعورة ، لأجل ان يتخلصوا من الاثم ـ بزعمهم ـ فى كتم العلم ، وما دروا انها مكيدة دبرها لهم أعداء الدين ، وفتنة من أجل التدرج بالمرأة المسلمة الى التخلص من الحجاب الشرعى ، الذى عمل له الاعداء زمنا طويلا ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الحكم الرابع : ماهى شروط الحجاب الشرعى ؟

يشترط فى الحجاب الشرعى بعض الشروط الضرورية وهى كالآتى : أولا : ان يكون الحجاب ساترا لجميع البدن ، لقوله تعالى : ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ وقد عرفت معنى (الجلباب) وهو الثوب السابغ الذى يستر البدن كله ، ومعنى (الادناء) وهو الارخاء والسدل ، فيكون الحجاب الشرعى ما ستر جميع البدن .

ثانيا : ان يكون كثيفا غير رقيق ، لأن الغرض من الحجاب الستر ، فإذا لم يكن ساترا لا يسمى حجابا ، لانه لا يمنع الرؤية ولا يحجب النظر ، وفى حديث عائشة أن (أسماء بنت أبى بكر) دخلت على رسول الله ﷺ (الحديث رواه ابو داود بسند مرسل)[1] .

ثالثا : ألا يكون زينة فى نفسه ، أو مبهرجا ذا ألوان جذابة ، يلفت الأنظار لقوله تعالى : ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ الآية ، ومعنى ﴿ ما ظهر منها ﴾ أى بدون قصد ولا تعمد ، فاذا كان فى ذاته زينة ، فلا يجوز ارتداؤه ، ولا يسمى (حجابا) لأن الحجاب هو الذى يمنع ظهور الزينة للأجانب .

رابعا : ان يكون فضفاضا غير ضيق ، ولا يشف عن البدن ، ولا يجسد العورة ، ولا يظهر أماكن

---

(١) أخرجه أبو داود ٢/١٨٢، ١٨٣، ترغيب ج٣ ص٩٥

الفتنة فى الجسم ، وفى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ انه قال (صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضرب بها الناس . ونساء كاسيات عاريات ، مميلات مائلات ، رءوسهن كأسنمة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وان ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا . .) وفى رواية أخرى : وان ريحها ليوجد من مسير خمسمائة عام)[١].

ومعنى قوله عليه السلام : (كاسيات عاريات) أى كاسيات فى الصورة ، عاريات فى الحقيقة ، لأنهن يلبسن ملابس لا تستر جسدا ، ولا تخفى عورة ، والغرض من اللباس الستر ، فإذا لم يستر اللباس كان صاحبه عاريا .

ومعنى قوله : (مميلات مائلات) أى مميلات لقلوب الرجال مائلات فى مشيتهن ، يتبخترن بقصد الفتنة والإغراء ، ومعنى قوله : (كأسنمة البخت) أى يصففن شعورهن فوق رءوسهن ، حتى تصبح مثل سنام الجمل ، وهذا من معجزاته عليه السلام .

خامسا : ألا يكون الثوب معطرا فيه إثارة للرجال ، لقوله عليه الصلاة والسلام (كل عين نظرت زانية ، وان المرأة اذا استعطرت فمرت بالمجلس فهى كذا وكذا يعنى زانية) (رواه أصحاب السنن وقال الترمذى حسن صحيح) .

وفى رواية أخرى (إن المرأة اذا استعطرت فمرت على القوم ليجدوا ريحها فهى زانية)[٢] .

وعن موسى بن يسار قال : (مرت بأبى هريرة امرأة وريحها تعصف ، فقال لها : أين تريدين يأمة الجبار ؟ قالت الى المسجد ، قال : وتطيبت ؟ قالت : نعم قال : فارجعى فاغتسلى فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لا يقبل الله من امرأة صلاة ، خرجت الى المسجد وريحها تعصف حتى ترجع الى بيتها فتغتسل)[٣] .

سادسا : ألا يكون الثوب فيه تشبه بالرجال ، أو مما يلبسه الرجال ، لحديث أبى هريرة : (لعن النبى ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة ، والمرأة تلبس لبسة الرجل)[٤] . وفى الحديث (لعن الله المخنثين من الرجال ، والمترجلات من النساء)[٥] . أى المتشبهات بالرجال فى أزيائهن وأشكالهن كبعض نساء هذا الزمان نسأله تعالى السلامة والحفظ .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

١ ـ الحجاب مفروض على جميع نساء المؤمنين ، وهو واجب شرعى محتم .
٢ ـ بنات الرسول ونساؤه الطاهرات ، هن الأسوة والقدوة لسائر النساء .
٣ ـ الجلباب الشرعى يجب أن يكون ساترا للزينة والثياب ولجميع البدن .

---

(١) أخرجه مسلم : ج٣ ص١٦٨٠ برقم ٢١٢٨/١٢٥ ترغيب ج٣ ص٩٥
(٢) أخرجه الترمذى ح٤ ص١٩٤ برقم ٢٦٣٧/ النسائى ٢/٢٨٣ أبو داود ٢/١٩٢ .
(٣) أخرجه البيهقى ٣/١٣٣ ، ٢٤٦ ترغيب ٣/٩٤ .
(٤) أخرجه أبو داود ٢/١٨٤/ ابن ماجه ١/٥٨٨/ احمد ٢/٣٢٥ .
(٥) أخرجه الترمذى ح٤ ص١٩٤ برقم ٢٩٣٥ .

٤ ـ الحجاب لم يفرض على المسلمة تضييقا عليها ، وإنما تشريفا لها وتكريما .
٥ ـ فى ارتداء الحجاب الشرعى صيانة للمرأة ، وحماية للمجتمع من ظهور الفساد ، وانتشار الفاحشة .
٦ ـ على المسلمة أن تتمسك بأوامر الله ، وتتأدب بالآداب الاجتماعية التى فرضها الاسلام .
٧ ـ الله رحيم بعباده ، يشرع لهم من الأحكام مافيه خيرهم وسعادتهم فى الدارين .

حكمة التشريع

قد يظن بعض الجهلة أن الحجاب لم يفرضه الاسلام على المرأة المسلمة ، وانه من العادات والتقاليد التى ظهرت فى العصر العباسى ، وهذا الظن ليس له نصيب من الصحة ، وهو وإن دل فإنما يدل على أحد أمرين .

أ ـ اما الجهل الفاضح بالاسلام وبكتاب الله المبين .
ب ـ واما الغرض الدفين فى قلوب أولئك المتحللين .

وأحب ان أكشف الستار ، لتوضيح الحقيقة ، حتى لا يلتبس الحق بالباطل ، ولا يختلط الخبيث بالطيب ، وحتى يظهر الصبح لذى عينين ، فما أكثر هؤلاء المضللين فى هذا الزمان ، الذين يزعمون انهم أرباب المدنية ودعاة التقدمية !! وما أشد خطرهم على الأخلاق والمجتمع ، لأنهم يفسدون باسم الاصلاح ، ويهدمون باسم البناء ، ويدجلون باسم الثقافة والعلم ، ويزعمون انهم مصلحون .

النصوص الواردة فى الحجاب

١ ـ يقول الله سبحانه : ﴿ وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾[1] .
٢ ـ ويقول تعالى : ﴿ وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ﴾[2] .
٣ ـ ويقول سبحانه مخاطبا نبيه العظيم ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما ﴾[3] . الآية .
٤ ـ ويقول سبحانه وتعالى أيضا : ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾[4] . الآية .

فمن هذه النصوص الكريمة ، نعلم أن الحجاب مفروض على المرأة المسلمة ، بنصوص فى كتاب الله قطعية الدلالة ، وليس كما يزعم المتحللون انه من العادات والتقاليد التى أوجدها العصر العباسى .. الخ فإن حبل الكذب قصير ..

---

(١) سورة الاحزاب آية ٣٣
(٢) سورة الاحزاب آية ٥٣
(٣) سورة الأحزاب آية ٥٩
(٤) سورة النور الآية ٣١

ومن خلال هذه الآيات الكريمة ، نلمح أن الاسلام ، إنما قصد من وراء فرض الحجاب ، أن يقطع طرق الشبهات ونزغات الشيطان أن تطوف بقلوب الرجال والنساء ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ وهدفه الأول انما هو صون (الشرف) والمحافظة على (العفة والكرامة) ولا ننسى ان هناك كثيرا من ضعفاء القلوب ومرضى الضمائر يتربصون بالمرأة السوء ، ليهتكوا عنها ستر الفضيلة والعفاف .

ولايشك عاقل ان تهتك النساء وخلاعتهن ، هو الذى أحدث ما يسمونه (أزمة الزواج) ذلك لأن كثيرا من الشباب قد أحجموا عن الزواج ، لأنهم أصبحوا يجدون الطريق معبدا لاشباع غرائزهم من غير تعب ولا نصب ، فهم فى غنى عن الزواج ، وهذا بلاشك يعرض البلاد الى الخراب والدمار ، وينذر بكارثة لا تبقى ولا تذر ، وليس انتشار الخيانات الزوجية وخراب البيوت إلا أثرا من آثار هذا التبرج الذميم .

يقول (الشيخ سيد سابق) فى كتابه فقه السنة :

(إن أهم ما يتميز به الانسان عن الحيوان اتخاذ الملابس ، وأدوات الزينة ، يقول الله تعالى : ﴿ يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ، ولباس التقوى ذلك خير ﴾[١] . الآية .

والملابس والزينة هما مظهران من مظاهر المدنية والحضارة ، والتجرد عنهما إنما هو ردة إلى الحيوانية ، وعودة الى الحياة البدائية ، وإن أعز ما تملكه المرأة الشرف ، والحياء ، والعفاف ، والمحافظة على هذه الفضائل محافظة على إنسانية المرأة فى أسمى صورها ، وليس من صالح المرأة ، ولا من صالح المجتمع أن تتخلى المرأة عن الصيانة والاحتشام ، ولاسيما وان الغريزة الجنسية هى أعنف الغرائز ، وأشدها على الاطلاق[٢] .

﴿ امنعوا الاختلاط .. وقيدوا حرية المرأة ﴾

وتحت هذا العنوان نشرت صحيفة (الجمهورية) بالقاهرة مقالا لصحفية أمريكية تدعى (هيلسيان متانسيرى) قالت هذه الكاتبة الأمريكية بعد أن مكثت شهرا فى جمهورية مصر العربية ما نصه : (ان المجتمع العربى مجتمع كامل وسليم ، ومن الخليق بهذا المجتمع ان يتمسك بتقاليده التى تقيد الفتاة والشاب فى حدود المعقول ، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوروبى والأمريكى ، فعندكم تقاليد موروثة تحتم تقييد المرأة ، وتحتم احترام الأب والأم ، وتحتم اكثر من ذلك عدم (الإباحية الغربية ، التى تهدد اليوم المجتمع والأسرة فى أوربا وأمريكا) .

ان القيود التى يفرضها المجتمع العربى على الفتاة صالحة ونافعة ، لهذا أنصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم ، وامنعوا الاختلاط ، وقيدوا حرية الفتاة ، بل ارجعوا الى عصر الحجاب ، فهذا خير لكم من إباحية وإنطلاق ومجون أوربا وأمريكا .

---

(١) سورة الاعراف آية ٢٦

(٢) فقه السنة ح٢

امنعوا الاختلاط ، فقد عانينا منه فى أمريكا الكثير ، لقد أصبح المجتمع الأمريكى مجتمعا معقدا ، مليئا بكل صور الإباحية والخلاعة ، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين ، يملأون السجون والأرصفة ، والبارات والبيوت السرية ، ان الحرية التى أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار ، قد جعلت منهم عصابات أحداث ، وعصابات (جيمس دين) وعصابات المخدرات والرقيق .

ان الاختلاط ، والإباحية ، والحرية فى المجتمع الأوربى والأمريكى ، هدد الأسر وزلزل القيم والأخلاق ، فالفتاة الصغيرة ـ تحت سن العشرين ـ فى المجتمع الحديث ، تخالط الشبان ، وترقص ، وتشرب الخمر ، وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والإباحية . وهى تلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها ، بل وتتحدى والديها ، ومدرسيها والمشرفين عليها .. تتحداهم باسم الحرية والاختلاط ، تتحداهم باسم الإباحية والانطلاق ، تتزوج فى دقائق ، وتطلق بعد ساعات ، ولا يكلفها أكثر من امضاء وعشرين قرشا . وعريس ليلة)[1] .

أقول : هذا رأى الكاتبة الأمريكية ، والفضل ما شهدت به الأعداء .. !

وصدق الله العظيم : ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ .

﴿ من كتاب تفسير آيات الأحكام ـ للصابونى ﴾ .

﴿ جزاء المنافقين وأحكام أخرى ﴾

قال تعالى : ﴿ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ
لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟
وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ
ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟
رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ
وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟
وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ

(١) جريدة الجمهورية ٩ من يونيو ١٩٦٢م

لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾
إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا
وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

معانى المفردات

مرض : المراد مرض الفسوق والعصيان ، المرجفون والرجفان الاضطراب الشديد ، والمراد الملتمسون الفتنة المشيعون للأكاذيب والأباطيل (لنغرينك بهم : لنسلطنك عليهم . الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أى وأى شيء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا جمع السيد وهو كبير قومه ، وكبراءنا : أى ذوى الاسنان أو العلماء ، ضعفين من العذاب : أى مثلى عذابنا ، لأنهم ضلوا وأضلوا .

الوجيه : هو ذو الجاه والمنزلة ، ومن يكون له من خصال الخير مابه يعرف ولا ينكر . القول السديد : القول الصادق الذى يراد به الوصول الى الحق ، من قولهم : سدد سهمه اذا وجهه للغرض المرمى ولم يعدل به عن سمته . العرض : هنا ، النظر الى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهى فى شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكاليف الدينية ، وسميت أمانة من قبل انها حقوق أوجبها الله على المكلفين وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد ، وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الاخلال بشيء منها .

فأبين : أى كن غير مستعدات لها ، وحملها الانسان : أى كان مستعدا لها ، انه كان ظلوما جهولا : أى كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور ، لما غلب عليه من القوة الشهوية .

المناسبة واجمال المعنى

روى انه لما كانت الحرائر والاماء فى المدينة ، يخرجن ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والاماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فاذا كلموا فى ذلك قالوا حسبناهن إماء ـ فطلب من رسوله ان يأمر الحرائر ان يخالفن الاماء فى الزى والتستر ، ليتمايزن ويهبن ، فلا يطمع فيهن الفساق وامراض القلوب ، وبعد ان ذكر حال هذه الفئات الثلاث فى الدنيا وهم : ١ ـ المنافقون الذين يؤذون الله سرا ، ٢ ـ ومن فى قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين باتباع نسائهم ، ٣ ـ والمرجفون الذين يؤذون الرسول بنحو قولهم : غلب محمد ، وسيخرج محمد من المدينة الى نحو ذلك مما يراد به اظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم ـ وانهم يلعنون ويهانون ويقتلون عطف على ذلك ذكر حالهم فى الآخرة ، فذكرهم بيوم القيامة ، وبين ما يكون لهم فى هذا اليوم .

وبعد ان بين سبحانه عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين والمؤمنات ، عقب على ذلك بذكر الذين آذوا موسى من بنى إسرائيل ، ونسبوا اليه ماليس فيه ، فبرأه الله منه ، لأنه ذو كرامة ومنزلة لدية ، فلا يلصق به ماهو نقص فيه . وبعد ان نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله ﷺ بقول أو فعل ، أرشدهم الى ما ينبغى ان يصدر منهم من الأقوال والأفعال التى تكون سببا فى الفوز : النجاة فى الدار الأخرة ، والقرب من الله ورسوله ، وان من يراعيها فله الفوز العظيم ، وأن من يتركها يستحق العذاب ، أردف ذلك عظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية ، وأن حصولها عزيز شاق على النفوس ، ثم بيان ان ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام انما يكون بلا جبر ولا التزام .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا ﴾ .

أى لئن لم يكف أهل النفاق الذين يسترون الكفر ويظهرون الايمان ، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم ، وركنوا الى الخلاعة والفجوز ، وأهل الأرجاف فى المدينة الذين ينشرون الاخبار الملفقة الكاذبة ، كاظهار عورات المؤمنين وابراز ما استكن من خفاياهم ، كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكراعهم ، ونحو ذلك مما فى اظهاره مصلحة للعدو وكسر لشوكة المسلمين - لنسلطنك عليهم ، وندعونك الى قتالهم واجلائهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها الا قليلا ، وتخلو المدينة منهم بالموت أو الاخراج ، ثم بين مآل أمرهم من خزى الدنيا وعذاب الأخرة ، فقال عز وجل : ﴿ ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا ﴾ ملعونين أى مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أى وجدوا ﴿ أخذوا ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وقتلوا تقتيلا ﴾ ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا ، هو شرعة الله فى أشباههم من قبل ، فهو ليس ببدع فيهم فقال تعالى : ﴿ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ﴾ أى هذه سنته فى المنافقين اذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم ، ان اهل الايمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ أى وسنة الله فى ذلك لا تبدل ولا تغير .

قوله تعالى : ﴿ يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ .

يقول تعالى فخرا لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، انه لا علم له بالساعة ، وان سأله الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها الى الله عز وجل ؛ كما قال تعالى فى سورة الأعراف وهى مكية ، وهذه مدنية فاستمر الحال فى رد علمها ، الى الذى يقيمها ، لكن أخبره انها قريبة بقوله : ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ﴾ كما قال تعالى : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ . وقال : ﴿ اقترب للناس

حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا . خالدين فيها أبدا . لا يجدون وليا ولا نصيرا . يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول . وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا . ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا ﴾ .

يقول سبحانه : ﴿ إن الله لعن الكافرين ﴾ أى أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم سعيرا ﴾ أى فى الدار الآخرة ﴿ خالدين فيها أبدا ﴾ أى ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ولا زوال لهم عنها . ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا . ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولاليهديهم طريقا الا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا ﴾[٣] . وقوله جل شأنه : ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وماهم بخارجين منها ولهم عذاب أليم ﴾[٤] . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾[٥] . وقوله تبارك اسمه : ﴿ ان جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لا بثين فيها أحقابا . لا يذقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا انهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شيء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾[٦] .

وقوله جل جلاله : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ لا يجدون وليا ولا نصيرا ﴾ أى وليس لهم مغيث ولا معين ، ينقذهم مما هم فيه . ثم قال تعالى : ﴿ يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ أى يسحبون فى النار على وجوههم كما قال تعالى : ﴿ إن المجرمين فى ضلال وسعر يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ﴾[٨] .

وكما قال جل شأنه : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[٩] . وتلوى وجوههم على جهنم ، يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا فى الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر عنهم فى حال العرضات بقوله تعالى : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن

---

(١) سورة الانبياء آية ١

(٢) سورة النحل آية ١ .

(٣) سورة النساء الآيات ١٦٧ ـ ١٦٩

(٤) سورة المائدة آية ٣٧

(٥) سورة الجن آية ٢٣

(٦) سورة النبأ الآيات ٢١ ـ ٣٠

(٧) سورة النساء آية ٥٦

(٨) القمر الآيتان ٤٧ ـ ٤٨

(٩) سورة غافر الآيتان ٧١ ـ ٧٢

الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾[٢] . وقال جل شأنه : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يالتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٣] .

وهكذا أخبر عنهم فى حالتهم هذه انهم يودون ان لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا الرسول فى الدنيا ﴿ وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ قال طاوس : سادتنا يعنى الاشراف وكبراءنا يعنى العلماء ـ رواه ابن ابى حاتم ـ اى اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل واعتقدنا ان عندهم شيئا وانهم على شىء فاذا هم ليسوا على شىء ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أى بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ والعنهم لعنا كبيرا ﴾ وهذا نحو قوله تعالى : ﴿ قالوا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾ .

قال البخارى فى أحاديث الأنبياء عن أبى هريرة رضى الله قال : قال رسول الله ﷺ (ان موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا لا يرى من جلده شىء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا ما يتستر هذا التستر إلا من عيب فى جلده إما برصى واما أدره واما آفة ، وان الله عز وجل أراد ان يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوما وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ اقبل على ثيابه ليأخذها وان الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبى حجر ثوبى حجر حتى انتهى الى ملأ من بنى اسرائيل فرأوه عريان أحسن ما خلق الله عز وجل وأبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه فوالله ان بالحجر لندبا من اثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا ـ قال ـ فذلك قوله تعالى ﴿ يأأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها ﴾[٥] .

وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله قال قسم : رسول الله ﷺ ذات يوم قسما ، فقال رجل من الأنصار ان هذه القسمة ما أريد بها وجه الله قال : فقلت ياعدو الله أما لأخبرن رسول الله ﷺ بما قلت ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فاحمر وجهه ثم قال : (رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر)[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيها ﴾ أى ذا وجاهة وجاه ، قال أئمة المفسرين ومنهم الحسن

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٢٨ ـ ٢٩
(٢) سورة الحجر آية ٢
(٣) سورة الأنعام الآيتان ٢٧ ـ ٢٨
(٤) سورة ص آية ٦١
(٥) اخرجه البخارى فى صحيحه كتاب الانبياء ج٤ ص١٩٠
(٦) أخرجه الامام احمد ج١ ص٣٨٠

البصرى ، كان مستجاب الدعوة عند الله ، وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئا إلا أعطاه ، وقال معضم : من وجاهته عند الله انه شفع فى أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله فى قوله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا ، وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾(١) . وكقوله تعالى : ﴿ وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا يصدقنى ، إنى أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ . قال ان ابى حاتم بسنده عن ابى موسى الأشعرى قال صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف أومأ الينا بيده فجلسنا فقال : ان الله تعالى أمرنى أن آمركم ان تتقوا الله وتقولوا قولا سديدا) ثم أتى النساء فقال : (ان الله أمرنى أن آمركن أن تتقين الله وتقلن قولا سديدا)(٣) . ورُوى عن ابن عباس موقوفا : من سره ان يكون اكرم الناس فليتق الله . قال عكرمة القول السديد . لا آله إلا الله ، وقال غيره : السديد الصدق ، وقال مجاهد هو السداد ، وقال غيره هو الصواب والكل حق ، فيقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بتقواه ، أن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وان يقولوا (قولا سديدا) أى مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم انهم اذا فعلوا ذلك ، أثابهم عليه بان يصلح لهم أعمالهم أى يوفقهم للأعمال الصالحة ، وان يغفر لهم الذنوب الماضية وما قد يقع منهم فى المستقبل ويلهمهم التوبة ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ وذلك انه يجار من نار الجحيم ويصير الى النعيم المقيم ..

والتقوى هى السلاح الأقوى ، ومصدر كل سعادة فى المعاش والمعاد ، قال تعالى : ﴿ ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾(٤) .

وقال : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله ﴾(٥) .

وقال : ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾(٦) .

وقال تعالى : ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون ياأولى الألباب ﴾(٧) .

وقال تعالى : ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾(٨) .

وقال تعالى : ﴿ وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا ﴾(٩) .

---

(١) سورة مريم الآيات ٥١ - ٥٣
(٢) سورة القصص الآيتان ٣٤ - ٣٥
(٣) تفسير ابن كثير ج٦ ص٤٧٦
(٤) سورة آل عمران آية ٢٠٠
(٥) سورة النساء آية ١٣١
(٦) سورة الأعراف آية ٢٦
(٧) سورة البقرة آية ١٩٧
(٨) سورة يوسف آية ١٩٧
(٩) سورة البقرة آية ٢٨٢

وقال : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾[١] .

وقال : ﴿ اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله ﴾[٢] .

وقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[٣] .

وقال : ﴿ اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾[٤] .

وقال : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ﴾[٥]

وقال : ﴿ ياعباد فاتقون ﴾[٦] .

وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٧] .

وقال ﷺ لمعاذ : (اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن)[٨] .

اذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا ولو كان كاسيا
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصيا

قوله تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما ﴾ .

جاء فى معنى الأمانة أقوال نوضحها فيما يلى :

قال العونى عن ابن عباس الأمانة : الطاعة ، عرضها عليهم قبل ان يعرضها على آدم ، فلم يطقنها فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال يارب وما فيها ؟ قال ان أحسنت جزيت ، وان أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ .

وقال ابن عباس أيضا : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، ان أدوها أثابهم ، وان ضيعوها عذبهم فكرهوا ذلك ، وأشفقوا عليه من غير معصية ، ولكن تعظيما لدين الله الا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم ، فقبلها بما فيها ، وهو قوله تعالى : ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾ يعنى غرا بأمر الله .

(١) سورة البقرة آية ٢٨٢
(٢) سورة الحشر آية ١٨
(٣) سورة النساء آية ١
(٤) سورة المائدة آية ٣٥
(٥) سورة الحج آية ١
(٦) سورة الزمر آية ١٦
(٧) سورة آل عمران آية ١٠٢
(٨) أخرجه الامام أحمد ج٥ ص١٥٣ ، ١٥٨ .

وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصرى وغير واحد : ان الأمانة هى الفرائض ، وقال آخرون : هى الطاعة ، قال ابى بن كعب من الامانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها ، وقال قتاده الامانة الدين والفرائض والحدود ، وكل هذه الأقوال لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة الى انها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها ، وهو انه ان قام بذلك أثيب ، وان تركها عوقب ، فقبلها الانسان على ضعفه وجهله وظلمه الا من وفق الله وبالله المستعان .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن زيد بن أسلم فى هذه الآية . قال الانسان بين أذنى وعاتقى ، فقال الله عز وجل : إنى معينك عليها ، إنى معينك على عينيك بطبقتين فاذا نازعاك الى ما أكره فأطبق ، ومعينك على لسانك بطبقتين فإذا نازعك الى ما أكره فأطبق ، ومعينك على فرجك بلباس فلا تكشفه الى ما أكره[1] .

وقال ابن جرير بسنده عن ابى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (خمس من جاء بهن يوم القيامة مع ايمان دخل الجنة . من حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن وأعطى الزكاة من ماله طيب النفس بها ـ وكان يقول ـ وأيم الله لا يفعل ذلك إلا مؤمن وأدى الأمانة) قالوا يأبا الدرداء وما اداء الامانة ؟ قال رضى الله عنه : الغسل من الجنابة فان الله تعالى لم يأمن ابن آدم على شىء من دينه غيره[2] .

وقال ابن جرير ايضا بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى ﷺ انه قال . . القتل فى سبيل الله يكفر الذنوب كلها . . أو قال يكفر كل شىء إلا الامانة يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له أد أمانتك فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له أد أمانتك . . فيقول أنى يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول اذهبوا به إلى أمه الهاوية فيذهب به الى الهاوية فيهوى فيها حتى ينتهى إلى قعرها فيجدها هنالك كهيئتها فيحملها فيضعها على عاتقه فيصعد بها الى شفير جهنم حتى اذا رأى انه قد خرج زلت قدمه فهوى فى أثرها أبد الأبدين . . قال : والأمانة فى الصلاة والأمانة فى الصوم والأمانة فى الوضوء والأمانة فى الحديث وأشد ذلك الودائع . . فلقيت البراء فقلت ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال صدق[3] .

وروى الامام أحمد بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت احدهما وأنا انتظر الآخر حدثنا ان الأمانة نزلت فى جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك تراه منتبرا وليس فيه شىء . . قال ثم أخذ حص فدحرجه على رجله قال . . فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدى الأمانة حتى يقال انه فى بنى فلان رجلا أمينا ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله وما فى قلبه حبة خردل من ايمان ، ولقد أتى على زمان وما أبالى أيكم ما بعت ان كان مسلما ليردنه على دينه ، وان كان نصرانيا أو يهوديا ليردنه على ساعيه فأما اليوم فما

---

(١) تفسير الطبرى ج٢٢ ص٥٥
(٢) حلية الأولياء ج٢ ص٢٣٤ ترجمة ابى الدرداء
(٣) تفسير ابن جرير الطبرى ج٢٢ ص٥٦ ط الحلبى

كنت أبايع منكم الا فلانا وفلانا ، واخرجاه فى الصحيحين[١] .

وروى البخارى بسنده عن أبى هريرة قال بينما النبى ﷺ فى مجلس يحدث القوم جاءه أعرابى فقال متى الساعة فمضى رسول الله ﷺ فى حديثه فقال بعض القوم سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم بل لم يسمع حتى اذا قضى حديثه قال أين أراه السائل عن الساعة ! قال ها أنا يارسول الله قال : فاذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف إضاعتها قال اذا وسد الأمر الى غير أهله فانتظر الساعة[٢] .

وروى الامام أحمد بسنده عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال (أربع اذا كن فيك فلا عليك مافاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمه)[٣] . وقد ورد النهى عن الحلف بالأمانة ، فقد ورد فى حديث مرفوع ، قال أبو داود بسنده .

عن أبى بريدة عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (من حلف بالأمانة فليس منا)[٤] .

وللأمام النسفى تفسير فى هذه الآية جديد بالذكر ، قال رحمه الله تعالى : (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال) وهو يريد بالأمانة الطاعة لله ، ويحمل الأمانة الخيانة ، يقال فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته ، اذ الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها ، وهو حاملها ، ولهذا يقال ركبته الديون ولى عليه حق ، فاذا أداها لم تبق راكبة له ولا هو حامل لها ، يعنى ان هذه الاجرام العظام من السموات والأرض والجبال قد انقادت لأمر الله انقياد مثلها ، وهو ما يتأتى من الجمادات وأطاعت له الطاعة التى تليق بها ، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته ، ايجادا وتكوينا وتسوية ، على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال سبحانه : ﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾[٥] . وأخبر ان الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب يسجدون لله ، وان من الحجارة لما يهبط من خشية الله ، واما الانسان فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعة ، ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه ، وهو العاقل الصالح للتكليف مثل حال تلك الجمادات ، فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع ، وهذا معنى قوله : ﴿ فأبين أن يحملها ﴾ أى ابين الخيانة فيها والا يؤدينها ﴿ وأشفقن منها ﴾ وخفن من الخيانة فيها ﴿ وحملها الانسان ﴾ أى خان فيها وأبى الا يؤديها . ﴿ انه كان ظلوما جهولا ﴾ لكونه تاركا لأداء الأمانة ﴿ جهولا ﴾ لاخطائه ، ما يسنده مع تمكنه منه وهو أداؤها قال الزجاج الكافر والمنافق حملا الامانة ، أى خانا ولم يطيعا ومن أطاع من الانبياء والمؤمنين فلا يقال ظلوما جهولا .

وقوله تعالى : ﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ﴾ أى إنما حمل ابن آدم الأمانة ، وهى التكليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الايمان خوفا من

(١) أخرجه البخارى ج٨ ص١٢٩ كتاب الرفاق/ واحمد ج٥ ص٣٨٣ ومسلم فى كتاب الايمان ج١ ص١٢٦ برقم ١٤٣/٢٣٠ .
(٢) أخرجه البخارى ج٢ ص٢٢٠ كتاب طواف الوداع .
(٣) أخرجه الامام احمد ج٢ ص١٧٧
(٤) تفسير ابن كثير ج٣ ص٥٤٧
(٥) سورة فصلت آية ١١

أهله ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة الرسل .

﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفورا رحيما ﴾ أى وكان الله ستارا لذنوب عباده ، كثير الرحمة بهم ، ومن ثم قبل توبة من أناب اليه ، ورجع الى حظيرة قدسه ، وأخلص له العمل ، وتلافى ما فرط منه من الزلات ، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم ان تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات وتثيبنا بالفوز العظيم ، انك سميع قريب مجيب الدعوات .

تفسير سورة سبأ

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، وعدد آياتها أربع وخمسون ، وكلماتها ثمانمائة وثمانون ، وحروفها أربعة آلاف وخمسمائة واثنا عشر . .

مقصود السورة : بيان حجة التوحيد ، وبرهان نبوة الرسول ﷺ ـ ومعجزات داود ، وسليمان ، ووفاتها وهلاك سبأ ، وشؤم الكفران ، وعدم الشكر ، وإلزام الحجة على عباد الأصنام ، ومناظرة سادة الضلال ، وسغلتهم ، ومعاملة الأمم الماضية مع النبيين ، ووعد المنفقين والمصدقين بالاخلاف والرجوع بإلزام الحجة على مفكرى النبوة ، وتمنى الكفار فى وقت الوفاة الرجوع الى الدنيا فى قوله : ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾ مرتين بتقديم السموات ، بخلاف يونس ، فإن فيها (مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ﴾ لان فى هذه السورة تقدم ذكر السموات فى أوائل السورة ﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ وقد سبق فى يونس .

قوله : ﴿ أفلم يروا ﴾ بالفاء ليس غيره . زيد الحرف ، لأن الاعتبار فيها بالمشاهدة على ماذكرنا ، وخصت بالفاء لشدة اتصالها بالأول لأن الضمير يعود الى الذين قسموا الكلام فى النبى ﷺ وقالو : محمد أما عاقل كاذب ، واما مجنون هاذ ، وهو قولهم ﴿ أفترى على الله كذبا أم به جنة ﴾ فقال الله : بل تركتم القسم الثالث وهو اما صحيح العقل صادق .

قوله : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ وفى الاسراء : ﴿ قل ادعو الذين زعمتم من دونه ﴾ ، لأن فى هذه السورة اتصلت بآية ليس فيها لفظ الله ، فكان التصريح أحسنُ ، وفى الاسراء اتصل بآيتين فيهما (بضعة عشر) مرة ذكر الله صريحا وكناية ، (وكانت) الكناية أولى وقد سبق .

قوله : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ وبعده ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ بالجمع ، لأن المراد بالأول : لآية على احياء الموتى ، فخصت بالتوحيد ، وفى قصة سبأ جمع ، لأنهم

صاروا اعتبارا يضرب فيهم المثل ، تفرقوا أيدى سبأ ، فرقوا كل مفرق ، وفرقوا كل ممزق ، فوقع بعضهم الى الشام ، وبعضهم الى يثرب ، وبعضهم الى عمان ، فختم بالجمع ، وخصت به لكثرتهم ، وكثرة من يعتبر بهن .

فقال : ﴿ لآيات لكل صبار شكور ﴾ على المحنة ﴿ شكور ﴾ على النعمة أى المؤمنين .

قوله : ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ وبعده : ﴿ لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ سبق . وخص هذه السورة بذكر الرب ، لانه تكرر فيها مرات كثيرة منها ﴿ بلدة طيبة ورب غفور ﴾ ﴿ ربنا باعد ﴾ ﴿ يجمع بيننا ربنا ﴾ ﴿ موقوفون عند ربهم ﴾ ولم يذكر مع الأول ﴿ من عباده ﴾ لأن المراد بهم الكفار ، وذكر مع الثانى ، لانهم المؤمنون . وزاد ﴿ له ﴾ وقد سبق بيانه .

قوله : ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير ﴾ ولم يقل : من قبلك ، ولا قبلك خصت السورة به ، لأن فى هذه السورة اخبارا مجردا ، وفى غيرها اخبار للنبى ﷺ ، وتسلية له ، فقال : ﴿ قبلك ﴾ قوله : ﴿ ولا تسأل عما تعملون ﴾ وفى غيرها ﴿ عما كنتم تعملون ﴾ .

لأن قول ﴿ أجرمنا ﴾ بلفظ الماضى ، أى قبل هذا ، ولم يقل : نجرم فيقع فى مقابلة ﴿ تعملون ﴾ لأن من شرط الايمان وصف المؤمن ان يعزم ألا يجرم .

وقوله : ﴿ تعملون ﴾ خطاب للكفار ، وكانوا مصرين على الكفر فى الماضى من الزمان والمستقبل ، فاستغنت به الآية عن قوله (كنتم) . قوله : ﴿ عذاب النار التى ﴾ وقد سبق .

صلتها بما قبلها .

(١) ان الصفات التى أجريت على الله فى مفتتحها ، تشاكل الصفات التى نسبت اليه فى مختم السورة السالفة .

(٢) انه فى السورة السابقة ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم انكارها صريحا ، وطعنهم على من يقول بالبعث ، وقال هنا مالم يقله هناك .

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا
وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ (٢) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ
ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ

وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ
وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ
﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ
ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ
بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

معانى المفردات

الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله .
الحكيم : الذى احكم أمر الدارين ودبره بحسب ما تقتضيه الحكمة .
الخبير : هو الذى يعلم بواطن الأمور وخوافيها .
يلج فى الأرض : أى يدخل فيها .
ويعرج : أى يصعد .
لا يعزب عنه : أى لا يفوته علمه .
مثقال ذرة : أى مقدار أصغر نملة .
والكتاب المبين : اللوح المحفوظ .
رزق كريم : أى حسن لا تعب فيه ولا من عليه .
معاجزين : أى مسابقين يظنون انهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم .
رجز : أى عذاب شديد .
العزيز : أى الذى يغلب ولا يغلب .
الحميد : اى المحمود فى جميع شئونه
وصراطه : هو التوحيد والتقوى
تمزيق الشىء : تقطيع أوصاله وجعله قطعا قطعا ، يقال ثوب مزيق وممزوق ومتمزق وممزق ومنه قوله :
اذا كنت مأكولا فكن خير آكل والا فأدركنى ولما أمزق

والافتراء : اختلاق الكذب
والجنة : الجنون وزوال العقل
كسفا : قطعا واحدها كسفة
منيب : أى راجع الى ربه مطيع له .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه ان له الحمد فى الآخرة على ما أسدى الى عباده من النعم ، أردف ذلك بيان أن كثيرا منهم ينكرها أشد الإنكار ، ويستهزىء بمن يثبتها ، ويعتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظنا منهم أن هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر ان مجيئها ضربة لازب ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا ببيان ان الناس فريقان ، مؤمن بآيات ربه ، يرى أنها الحق وأنها تهدى الى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى فى ابطالها . ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسى به نفسه من قبيح الخلال ، وبعد أن أبان سبحانه انهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا ، وأكده كل التأكيد ، ثم ذكر ما يكون اذ ذاك من جزاء المؤمن بالثواب العظيم ، على ما عمل من صالح الاعمال ، وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب فى الجحيم ، على ما دسى به نفسه من اجتراح المعاصى ، وفاسد المعتقدات ، أردف ذلك ذكر مقال للكافرين ذكروه تهكما واستهزاء . ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض ، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد ، لعلهم يرجعون عن عنادهم ، ويثوبون الى رشدهم .

التفسير

حمد الله تعالى ذاته ليلقن عباده كيف يحمدونه ، وقد سبق فى سورة الفاتحة قوله تعالى : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ وفى سورة الانعام قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ﴾ وفى سورة الكهف قوله تعالى : ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ﴾ .

وهنا يحمد الله تعالى ذاته لان له ما فى السموات وما فى الأرض فهو المالك المدبر ، والسيد المتصرف ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾[1] .

فهو جلت قدرته بيده ملكوت السموات والأرض ، وهو المحمود فى الدارين ، وهو صاحب العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، وهو الحكيم الذى تنزه عن العبث ، وتقدس عن النقائص ، فهو صاحب العظمة المطلقة ، والكمال المطلق ، الخبير العليم بدقائق الأشياء ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[2] .

---

(١) سورة القصص آية ٧٠

(٢) سورة الأنعام آية ٥٩

﴿ يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير ﴾[1] . ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾[2] .

لذا جاء تفسير الخبير فى الآية التى تليها قال تعالى : ﴿ يعلم ما يلج فى الأرض ﴾ أى ما يدخل فيها ، كما يعلم ما يخرج منها ، ويعلم ما ينزل من السماء ، كما يعلم ما يعرج فيها ويصعد اليها ، أحاط علمه بكل شىء كما أحصى كل شىء عددا ، وهو الرحيم ، الذى شملت رحمته هذا الملك العظيم ، الغفور الذى يستر الذنوب ﴿ ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ﴾[3] .

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾[4] .

وسبحان القائل : ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾[5] .

يامن يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما يرى ما دونها ... فى قاع بحر زاخر متجندل

وسبحان من علم ما كان ، وعلم ما يكون ، وعلم ما سيكون ، وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

بصيرة فى الحمد

قال صاحب البصائر :

الحمد : الثناء بالفضيلة وهو أخص من المدح وأعم من الشكر ، فان المدح يقال فيما يكون من الانسان باختياره ، ومما يكون منه وفيه بالتسخير ، فقد يمدح الانسان بطول قامته ، وصباحة وجهه ، كما يمدح ببذل ماله وشجاعته وعلمه ، والحمد يكون فى الثانى دون الأول ، والشكر لا يقال إلا فى مقابلة نعمة ، فكل شكر حمد ، وليس كل حمد شكرا ، وكل حمد مدح ، وليس كل مدح حمدا ، وفلان محمود اذا حمد ، ومحمد اذا كثرت خصاله المحمودة ، ومحمد كمكرم اذا وجد محمودا .

---

(١) سورة لقمان آية ١٦
(٢) سورة الملك آية ١٤
(٣) سورة الشورى اية ٢٥
(٤) سورة المجادلة آية ٧
(٥) سورة ق آية ٤

قوله تعالى : ﴿ إنه حميد مجيد ﴾[(١)] . يصح ان يكون فى معنى المحمود وان يكون فى معنى الحامد ، وحماداك ان تفعل كذا ، أى غايتك المحمودة .

وقوله تعالى : ﴿ ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾[(٢)] . فأحمد اشارة الى النبى ﷺ باسمه ، تنبيها على انه كما وجد احمد ، يوجد وهو محمود فى أخلاقه وأفعاله ، وخص بلفظ احمد فيما يبشر به عيسى عليه السلام ، تنبيها انه احمد منه ومن الذين قبله .

قوله تعالى : ﴿ محمّد رسول الله ﴾ محمد ههنا وان كان اسما له علما ، ففيه اشارة الى وصفه بذلك وتخصيصه بمعناه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى ﴾[(٤)] . على معنى الحياة .

بصيرة فى الشكر

وهو تصور النعمة وإظهارها ، وقيل : هو الثناء على المحسن بما أولى من المعروف ، ليقال : شكرته وشكرت له وتعديته باللام أفصح .

قال تعالى : ﴿ واشكروا لى ﴾[(٥)] . وقال جل ذكره : ﴿ أن اشكر لى ولوالديك ﴾[(٦)] .

وقوله تعالى : ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ﴾[(٧)] . يحتمل ان يكون مصدرا ، مثل قعد قعودا ، ويحتمل أن يكون جمعا ، مثل برد وبرود ، وكفر وكفور .

والشكران : خلاف الكفران ، والشكور : الشاكر والشكور من الدواب ، الذى يجترىء بالعلف القليل ، ويسمن عليه قال الأعشى : ولابد من غزوة فى الربيع .. رهب تكل الوقاح الشكورا

وقيل : الشكر مقلوب الكشر ، أى الكشف وقيل : أصله من عين شكرى ممتلئة ، والشكر على هذا : الامتلاء من ذكر المنعم .

والشكر على ثلاثة أضرب : شكر بالقلب ، وهو تصور النعمة ، وشكر باللسان وهو الثناء على النعم ، وشكر بسائر الجوارح ، وهو مكافأة النعمة بقدر استحقاقه .

﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ انتصابه على التمييز ومعناه : اعملوا ما تعملونه شكرا لله وقيل : شكرا مفعول لقوله : ﴿ اعملوا ﴾ ولم يقل : اشكروا ، لينبه على التزام الأنواع الثلاثة من الشكر بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، وقوله تعالى : ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ فيه تنبيه ان توفية شكر الله صعب ، ولذلك لم يثن بالشكر من أوليائه إلا على اثنين ، قال فى وصف ابراهيم عليه السلام :

---

(١) هود آية ٧٣
(٢) الصف آية ٦
(٣) الفتح آية ٢٩
(٤) مريم آية ٧
(٥) البقرة آية ١٥٢
(٦) لقمان آية ١٤
(٧) الانسان آية ٩

﴿ شاكرا لأنعمه ﴾[١] وقال فى نوح عليه السلام : ﴿ إنه كان عبدا شكورا ﴾[٢] . واذا وصف الله بالشكر فى قوله ﴿ والله شكور حليم ﴾[٣] فإنما يعنى به إنعامه على عباده ، وجزاؤه بما أقامه من العبادة .

واعلم ان الشكر أعلى منازل السالكين وفوق منزلة الرضا . فإنه يتضمن الرضا وزيادة ، والرضا مندرج فى الشكر ، اذ يستحيل وجود الشكر بدونه ، وهو نصف الايمان ، وقد أمر الله به ونهى عن ضده ، وأثنى على أهله ، ووصف به خواص خلقه ، وجعله غاية خلقه وأمره ، ووعد أهله بأحسن جزائه ، وجعله سببا للمزيد من فضله ، وحارسا وحافظا لنعمته ، وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته ، واشتق لهم اسما من أسمائه ، فإنه سبحانه هو الشكور ، وهو موصل الشاكر ، الى مشكوره ، بل يعيد الشاكر مشكورا ، وهو غاية رضا الرب عن عبده ، وأهله هم القليل من عباده قال تعالى : ﴿ واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون ﴾[٤] . وقال : ﴿ واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٥] .

وقال عن خليله ابراهيم : ﴿ شاكرا لأنعمه ﴾[٦] وعن نبيه نوح : ﴿ انه كان عبدا شكورا ﴾[٧] . وقال ﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[٨] .

وقال : ﴿ أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾[٩]

وقال : ﴿ وسيجزى الله الشاكرين ﴾[١٠]

وقال : ﴿ واذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾[١١] وقال ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾[١٢]

وسمى نفسه شاكرا وشكورا ، وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلا ، وأعاد به الشكر مشكورا ، كقوله : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾[١٣] . ورضا الرب عن عبده كقوله (وإن تشكروا يرضه لكم ﴾[١٤] . وقلة أهله فى العالمين على انهم من خواصه .

وفى الصحيح عن النبى ﷺ : (انه قام حتى تورمت قدماه فقيل له : تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : (أفلا أكون عبدا شكورا)[١٥] . وقال لمعاذ (يامعاذ إنى أحبك فلا تنس ان تقول فى دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[١٦] .

---

(١) النحل آية ١٢١
(٢) الاسراء آية ٣
(٣) التغابن آية ١٧
(٤) البقرة آية ١٧٢
(٥) البقرة آية ١٥٢
(٦) النحل آية ١٢١
(٧) الاسراء آية ٣
(٨) النحل آية ٧٨
(٩) البقرة آية ١٧٢
(١٠) آل عمران آية ١٤٤
(١١) ابراهيم آية ٧
(١٢) سبأ آية ١٩
(١٣) الانسان آية ٢٢
(١٤) الزمر آية ٧
(١٥) أخرجه الامام مسلم ج٤ ص٢١٧١ برقم ٢٨١٩/٧٩
(١٦) أخرجه فى الحلية ج١ ص٢٤١ ترجمة معاذ بن جبل

وفى الترمذى فى بعض دعائه المشهور : (رب اجعلنى لك شكارا لك ذكارا لك رهابا لك مطواعا لك مخبتا اليك أواها منيبا)(١) . وقال هذا حديث حسن صحيح .

والشكر مبنى على خمس قواعد : خضوع الشاكر للمشكور ، وحبه له ، واعترافه بنعمته ، والثناء عليه بها ، وألا يستعملها فيما يكره ، هذه الخمسة هى أساس الشكر وبناؤه عليها ، فمتى عدم منها واحدة اختلت قاعدة من قواعد الشكر ، وكل من تكلم فى الشكر فكلامه اليها يرجع وعلها يدور .

فقيل حده : إنه الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وقيل : الثناء على المحسن بذكر احسانه ، وقيل : هو عكوف القلب على محبة المنعم ، والجوارح على طاعته ، وجريان اللسان بذكره ، والثناء عليه ، وقيل : هو مشاهدة المنة وحفظ الحرمة .

وما ألطف ماقال حمدون القصار : شكر النعمة : ان ترى نفسك طفيليا ، وقال أبو عثمان : الشكر : معرفة العجز عن الشكر ، وقيل : الشكر إضافة النعم الى موليها . وقال الجنيد : الشكر : الا ترى نفسك أهلا للنعمة ، وهذا معنى قول حمدون : أن ترى نفسك فيها طفيليا ، وقال رويم : الشكر : استفراغ الطاقة يفنى فى الخدمة وقال الشبلى : الشكر : رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، ويحتمل كلامه أمرين : أحدهما ان يغنى برؤية المنعم عن رؤية النعمة ، الثانى ألا تحجبه رؤية النعمة ومشاهدتها عن رؤية المنعم بها وهذا أكمل ، والأول أقوى عندهم والكمال ان يشهد النعمة والمنعم ، لأن شكره بحسب شهوده للنعمة ، وكلما كان أتم ، كان الشكر أكمل ، والله يحب من عبده أن يشهد نعمه ، ويعترف بها ، ويثنى عليه بها ، ويحبه عليها ، لا أن يفنى عنها ، ويغيب عن شهودها ، وقيل : الشكر قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة ، وشكر العامة على المطعم والملبس ، وقوة الأبدان ، وشكر الخاصة على التوحيد والايمان وقوة القلوب ، وقال داود عليه السلام : يارب كيف أشكرك ، وشكرى نعمة علىّ من عندك تستوجب بها شكرا ؟ فقال : الآن شكرتنى ياداود .

وفى أثر اسرائيلى قال موسى : يارب خلقت آدم بيدك ، ونفخت فيه من روحك ، وأسجدت له ملائكتك ، وعلمته أسماء كل شيء ، وفعلت وفعلت ، فكيف أطاق شكرك ؟ فقال الله عز وجل : علم ان ذلك منى ، فكانت معرفته بذلك شكرا لى .

وقيل : التلذذ بثنائه على مالم يستوجب من عطائه وقال الجنيد : وقد سأله سرى عن الشكر وهو صبى بعد : الشكر ألا يستعان بشىء من نعم الله على معاصيه ، قال من أين لك هذا ؟ قال : من مجالستك . وقيل : من قصرت يداه عن المكافأة ، فليطل لسانه بالشكر ، والشكر مع المزيد أبدا لقوله تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾(٢) . فمتى لم تر حالك فى مزيد ، فاستقبل الشكر ، وفى أثر الهى يقول الله : أهل ذكرى أهل مجالستى وأهل شكرى أهل زيادتى وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى ، ان تابوا فأنا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليتهم بالمصائب لأطهرهم عن المعايب .

---

(١) اخرجه الترمذى ج٥ ص٢١٤ برقم ٣٦٢١

(٢) ابراهيم آية ٧

وقيل : من كتم النعمة ، فقد كفرها ، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها .
قال أبو تمام :

ومن الرزية ان شكرى صامت عما فعلت وان برك ناطق
أأرى الصنيعة منك ثم أسرها انى اذا لندى الكريم لسارق

وتكلم الناس فى الفرق بين الحمد والشكر ، وأيهما أفضل وفى الحديث : (الحمد رأس الشكر فمن لم يحمد الله لم يشكره) والفرق بينهما ان الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه ، وأخص من جهة متعلقاته فيه ،

والحمد أعمّ من جهة المتعلقات ، وأخص من جهة الأسباب ومعنى هذا ان الشكر ، يكون بالقلب خضوعا واستكانة ، وباللسان ثناء واعترافا ، وبالجوارح طاعة وانقيادا ، ومتعلقه النعم دون الأوصاف الذاتية ، فلا يقال : شكرنا الله على حياته وسمعه وبصره وعلمه وهو المحمود بها ، كما هو محمود على إحسانه وعدله ، والشكر يكون على الاحسان والنعم ، فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس ، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس ، فإن الشكر يقع بالجوارح والحمد باللسان .

إنكار الكافرين البعث

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ويهدى الى صراط العزيز الحميد ﴾ .

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ ، ان يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد ، لما أنكره من أنكره . من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس عليه السلام وهى قوله تعالى : ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾[1]

والثانية فى سورة التغابن قال تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾[2] والثالثة هذه : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ فقال تعالى : ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾ قال مجاهد وقتادة : لا يعزب عنه : لا يغيب عنه ، أى الجميع مندرج تحت علمه ، فلا يخفى عليه شىء ، فالعظام وان تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت ، وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فانه بكل شىء عليم ، ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة .

---

(١) سورة يونس آية : ٥٣

(٢) سورة التغابن : ٧

بقوله تعالى : ﴿ ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا فى آياتنا معاجزين ﴾ أى سعوا فى الصد عن سبيل الله تعالى وتكذيب رسله ﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أى لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال عز وجل : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل ، اذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار ، بالذى كانوا قد علموه من كتب الله تعالى فى الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضا ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾[3] . يقال ايضا ﴿ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾[4] . ﴿ لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فهذا يوم البعث ﴾[5] .

﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد ﴾ .

العزيز هو المنيع الجناب ، الذى لا يغالب ، ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء وغلبه ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله جل وعلا .

قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد . أفترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد . أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ .

وهذا انكار بعد إنكار للبعث بعد الموت فقد قالوا قبل ذلك : ﴿ لا تأتينا الساعة ﴾ فقال لهم المولى ملقنا رسوله الاجابة : ﴿ قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ وهنا قال بعضهم لبعض فى سخرية وتهكم واستهزاء : ﴿ هل ندلكم على رجل ﴾ يقصدون به محمدا ﷺ إمام الانبياء وخاتم الرسل : ﴿ ينبؤكم اذا مزقتم كل ممزق ﴾ وتفرقت أعضاؤكم تحت الثرى كما فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا أإذا ضللنا فى الأرض أإنا لفى خلق جديد . بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون . ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم . ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون . ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة

---

(١) الحشر آية ٢٠
(٢) ص آية ٢٨
(٣) الأعراف آية ٤٣
(٤) يس آية ٥٢
(٥) الروم آية ٥٦

والناس أجمعين . فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾(١) . وكما قال تعالى : ﴿ ويقول الانسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا . أولا يذكر الانسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا ﴾(٢) . وهنا يقولون : ﴿ هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ﴾ ثم يكيلون التهم جزافا ، فيقولون على أصدق الناس وأعقلهم ﴿ أفترى على الله كذبا ﴾ وهم الذين من قبل سموه الصادق الأمين ﴿ أم به جنة ﴾ أى أصابه جنون ، وهم الذين يعلمون انه أعقل العقلاء ، وأعظم خلق الله على الإطلاق ، فلم يعرف الكذب الى قلبه سبيلا ، كما لم يعرف الجنون الى عقله طريقا ، ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم . فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾(٣) .

ياسيد العقلاء ياخير الورى ... يامن أتيت إلى الحياة مبشرا
وبعثت بالقرآن فينا هاديا ... وطلعت فى الأكوان بدرا نيرا
والله ما خلق الإله ولا برى ... بشرا يرى كمحمد بين الورى

قال ابن عباس : والله ما خلق الله ولا برأ ولا ذرأ نسمة أفضل من رسول الله ﷺ ، وما أقسم الله بحياة أحد إلا بحياته فقال : ﴿ لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ﴾(٤) .

بلغ العلا بكماله ... كشف الدجى بجماله
عظمت جميع خصاله ... صلوا عليه وآله

قوله تعالى : ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد ﴾ لقد أنكروا البعث بعد الموت ، وجهلوا ان الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، فعاشوا فى أسباب العذاب . وضلوا بذلك ضلالا بعيدا ، ثم يأتى التحذير والوعيد والتهديد لهؤلاء كالصواعق والقواصف والرعود ، التى تنخلع لها الجبال الشم والرواسى الشامخات .

يقول تعالى : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أى أعموا وأصبحوا لا يرون أن أرض الله وسماءه ، محيطة بهم ، أينما كانوا وحيثما وجدوا . من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾(٥) . ولا أحد يملك هذا السلطان إلا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

---

(١) السجدة الآيات ١٠ ـ ١٤
(٢) مريم الآيتان ٦٦ ، ٦٧
(٣) القلم الآيات ١ ـ ٦
(٤) الحجر آية ٧٢
(٥) الرحمن آية ٣٣

قال تعالى : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض ﴾(١) . وقال الله تعالى : ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم فى تقلبهم فماهم بمعجزين ، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم ﴾(٢) . قال تعالى : ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون ﴾(٣) . وكما أن مشيئتنا صالحة لخسف الأرض ، فإنها صالحة لإسقاط قطع من السماء تمحقهم محقا . ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير ﴾(٤) . ثم يقول تعالى : ﴿ إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ فالمنيب هو التائب الراجع إلى ربه وهو الذى يعتبر بالآيات ، ويتعظ بها ، ويخاف مقام ربه ، وينهى النفس عن الهوى ، وهكذا أنكر الكفار البعث بعد الموت ، وكان القرآن لهم بالمرصاد ، كلما ساقوا حجة دحضها ، وكلما أثاروا شبهة سحقها ، وكلما قدموا دليلا هدمه ، ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وان الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٥) .

﴿ البعث حق ﴾

ما هو البعث :

﴿ ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حيا أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾(٦) .

البعث إحدى قضيتين من قضايا الإسلام ، دارت حولها العقيدة الراسخة ، التى أوجب الإسلام على أتباعه اعتقادها . .

فقضية الألوهية وقضية البعث ، هما القضيتان اللتان دارت حولهما رحى الإسلام .

فما هو العبث :

اتفقت كلمة علماء العقيدة على أن البعث ، هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من القبور يوم القيامة . . قال سبحانه وتعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٧) .

وقال الصادق الأمين ﷺ وهو يعلن هذه المبادىء بعدما أمره الله بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(٨) . نادى على قبائل العرب ـ بعدما صعد الصفا وقال

(١) سبا اية ٩
(٢) سورة النحل الآيات : ٤٥ ـ ٤٧
(٣) سورة الأعراف آية : ٩٩
(٤) سورة الملك الآيتان : ١٦ ، ١٧
(٥) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧
(٦) سورة مريم الآيات : ٦٦ ـ ٦٨
(٧) الحج الآيتان ٦ ، ٧
(٨) الحجر آية ٩٤

لهم : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذبا ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا ، وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا)[١] .

صدقت يا سيدى يارسول الله ! فقد أعطاك الله جوامع الكلم ، واختصر لك الكلام اختصارا :

ذكرت قضايا العقيدة بأسلوب بلاغى واضح ، فقد شبهت الموت بالنوم ، ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[٢] .

وشبهت البعث باليقظة : ﴿ **ونفخ فى الصور ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا ياويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾[٣] . ولخصت الحكمة من النشأة الآخرة ، فقلت وقولك الحق : (ولتحاسبن بما تعملون) .

إذن : فليست الدنيا دار جزاء ، وإنما هى دار امتحان وبلاء . . قد ترى فيها المؤمن مضيقا عليه ، بينما ترى الفاجر يرتع ويلعب فى جنباتها ويعربد على ظهرها .

إذن : فالحقيقة الكبرى ، هى الدار الباقية ، قال جل شأنه : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير فتنة ، وإلينا ترجعون** ﴾[٤] .

وقال جل شأنه : ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ، ولهم عذاب مهين** ﴾[٥] .

ولقد قال رسول الله (ﷺ) : (إذا رأيت الله ينعم على العبد وهو يعصيه فاعلم أنه مستدرج) ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين** ﴾[٦] .

ولخصت الحقيقة الرابعة فبينت وجه العدالة الإلهية حيث قلت ـ وقولك الصدق : (ولتجزون بالإحسان إحسانا ، وبالسوء سوءا) .

أجل ! ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجرا عظيما** ﴾[٧] . وقال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[٨] . وقال تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل آتينا بها ، وكفى بنا حاسبين** ﴾[٩] . وقال تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾[١٠] .

---

(١) أخرجه ابن عساكر ٣٩٩/٦/ مسانيد ٦٠٨/٢ الجامع الكبير .
(٢) الأنعام آية ٦٠
(٣) يس الآيات : ٥١ ـ ٥٣
(٤) الأنبياء آية ٣٥
(٥) آل عمران آية : ١٧٨
(٦) الاعراف الآيتان : ١٨٢ ـ ١٨٣
(٧) النساء اية : ٤٠
(٨) فصلت آية : ٤٦
(٩) الانبياء آية : ٤٧
(١٠) الزلزلة الآيتان : ٧ ـ ٨

تشاد المبانى والقبور دوارس ولا يمنع الأقدار باب وحارس
ومهما يكن ، فالله باق ودائم ويجنى الفتى - من بعد - ما كان يغرس

يا لله للمسلمين ! ويا لله للناس أجمعين ! ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم ﴾[١] .

تملك الناس الهوى والغرور وفتنة الغيد وسكنى القصور
ولو تزال الحجب بانت لهم زخارف الدنيا وعقبى الأمور

وصدقت ياسيدى يارسول الله حين بينت أن فى الآخرة دارا للمتقين وأخرى للفاسقين ، فقلت : (وإنها لجنة أبدا ، أو لنار أبدا) .

سبحانك ربى ! يا من قلت : ﴿ أفمن كان مؤمنا ، كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار : كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به يكذبون ﴾[٢] . ويا من قلت : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ مالكم ؟ كيف تحكمون ؟! ﴾[٣] .

وقررت هذا الجزاء العادل :

﴿ وأزلفت الجنة للمتقين . وبرزت الجحيم للغاوين ﴾[٤] .

القبر باب وكل الناس داخله ياليت شعرى ، بعد الموت : ما الدار
دار نعيم إن عملت بما يرضى الإله وإن خلفت فالنار
هما محلان ، ما للمرء غيرهما فانظر لنفسك : أى الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا وإن هفوا هفوة ، فالرب غفار

---

(١) الأنبياء الآيات : ١ - ٣
(٢) السجدة الآيات : ١٨ - ٢٠
(٣) القلم الآيتان : ٣٥ - ٣٦
(٤) ق الآيتان : ٣١ - ٣٢

تباركت ربنا وتعاليت !! يا من قلت وقولك الحق :

﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ، دعواهم فيها : سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العاملين ﴾[١] .

أخا الإسلام :

إن لله عبادا فطنا — طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها ، فلما علموا — أنها ليست لحى سكنا
جعلوها لجة واتخذوا — صالح الأعمال فيها سفنا .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾[٢] .

لا تركنن إلى القصور الفاخرة — واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل — يارب إن العيش عيش الآخرة .

﴿ ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم ﴾[٣] .

إلهى : لست للفردوس أهلا — ولا أقوى على نار الجحيم
فهب لى توبة واغفر ذنوبى — فإنك غافر الذنب العظيم

فما هو البعث :

هو إحياء الله الموتى ، وإخراجهم من القبور يوم القيامة .

---

(١) يونس الآيات : ٧ - ١٠
(٢) الكهف آية ٣٠
(٣) الصف الآيات : ١٠ - ١٢

البعث حق

﴿ قل لمن ما فى السموات والأرض؟ قل لله : كتب على نفسه الرحمة، ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ﴾[١] .

أمر الله رسوله (ﷺ) أن يقسم به جل شأنه فى ثلاثة مواضع من كتابه الكريم ، وهذه المواضع تدور حول قضية واحدة ؛ هى قضية البعث :

فقد جاء فى سورة يونس : ﴿ ويستنبئونك أحق هو؟ قل إى وربى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين ﴾[٢] .

وجاء فى سورة سبأ : ﴿ وقال الذين كفروا لاتأتينا الساعة ، قل بلى ، وربى لتأتينكم ، عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[٣] .

وجاء فى سورة التغابن : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ، قل بلى ، وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير ﴾[٤] .

ولكون « البعث » قضية تناولتها عقول الماديين بالانكار ، فقد تناولها الكتاب العزيز من جميع جوانبها تحليلا وتمحيصا ، حتى سمى اليوم الذى سنبعث فيه أسماء تدل على الثبوت والوقوع .

قال جل شأنه فى ذلك :

﴿ الحاقة . ما الحاقة . وماأدراك ما الحاقة ﴾[٥] .

وقال أيضا : ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . . خافضة رافعة ﴾[٦] .

ولكونه محقق الوقوع : عبر القرآن عنه بصيغة الواقع فعلا ، فقال سبحانه :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[٧] .

وعبر عنه بالقرب القريب فقال : ﴿ أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة ﴾[٨] .

وقال : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[٩] .

وقد تعددت أسماء هذا اليوم ، ونظرا إلى ضخامة شأنه ، وعلو قدره سماه الله تعالى بالساعة ، فقال : ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون . مالبثوا غير ساعة ، كذلك كانوا يؤفكون ﴾[١٠] .

وسماه بيوم البعث فقال : ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث ، فهذا يوم البعث ، ولكنكم كنتم لاتعلمون ﴾[١١] .

---

(١) الأنعام آية : ١٢
(٢) يونس آية ٥٣
(٣) سبأ آية ٣
(٤) التغابن آية ٧
(٥) الحاقة الآيتان ١ ، ٢
(٦) القمر الآيتان : ١ ، ٢
(٧) الروم الآية : ٥٥
(٨) الواقعة آية ١ ، ٢
(٩) النحل آية ١
(١٠) النجم الآيتان ٥٧ ، ٥٨
(١١) الروم آية : ٥٦

وسماه بيوم الحسرة فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لايؤمنون ﴾[١] .

وسماه باليوم الموعود فقال : ﴿ والسماء ذات البروج واليوم الموعود ﴾[٢] .

وسماه بيوم الآزفة فقال : ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾[٣] .

وسماه بيوم التلاق فقال : ﴿ لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون . لايخفى على الله منهم شىء ﴾[٤] .

وسماه بيوم التناد ، كما جاء فى القرآن الكريم ، حيث يقول جل شأنه :

﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾[٥] .

وسماه بالقارعة فقال تعالى : ﴿ القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة ﴾[٦] .

وسماه بالطامة الكبرى فقال : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى . يوم يتذكر الإنسان ماسعى ﴾[٧] .

وسماه بالصاخة فقال : ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٨] .

وسماه بيوم الدين فقال : ﴿ وماأدراك مايوم الدين . ثم ماأدراك ما يوم الدين ﴾[٩]

وسماه بيوم القيامة فقال : ﴿ لاأقسم بيوم القيامة ﴾[١٠]

وسماه باليوم الآخر فقال : ﴿ ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخرة ﴾[١١]

وفخم من شأنه بالصورة التى تليق به ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ يوم يأت لاتكلم نفس إلا بأذنه ، فمنهم شقى وسعيد ﴾[١٢]

وأورده فى كتابه العزيز بصيغة التنكير الذى يفيد التهويل والتعظيم ، فقال : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون ﴾[١٣] .

وقال : ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه ووفيت كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون ﴾[١٤] .

وقال : ﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود ﴾[١٥]

---

(١) مريم آية : ٣٩
(٢) البروج الآيتان : ١ ، ٢
(٣) غافر الآية : ١٨
(٤) غافر الآيتان ١٥ ، ١٦
(٥) غافر الآية : ٣٢
(٦) القارعة الآيات : ١ - ٣
(٧) النازعات الآيتان : ٣٤ ، ٣٥
(٨) عبس الآيات : ٣٣/ ٣٧
(٩) الانفطار الآيتان : ١٧ ، ١٨
(١٠) القيامة آية : ١
(١١) البقرة آية : ١٧٧
(١٢) هود آية : ١٠٥
(١٣) البقرة : آية ٢٨١
(١٤) آل عمران آية ٢٥
(١٥) هود آية ١٠٣

وقال : ﴿ يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[١] .

وقال : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾[٢] .

وقال : ﴿ إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ﴾[٣] .

وجعل لهذا اليوم مقدمات تنخلع لها القلوب ، وتنفطر منها الأفئدة ، فقال سبحانه : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم ، إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها . وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[٤] .

وفى هذه المقدمات للبعث ، تختل سنن الحياة ونواميسها ، كما قال سبحانه : ﴿ فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية . يومئذ تعرضون . لاتخفى منكم خافية ﴾[٥] .

وقال جل شأنه :

﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيرت . وإذا العشار عطلت . وإذا الوحوش حشرت . وإذا البحار سجرت . وإذا النفوس زوجت . وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت . وإذا الصحف نشرت . وإذا السماء كشطت . وإذا الجحيم سعرت . وإذا الجنة أزلفت . علمت نفس ماأحضرت ﴾[٦] .

وقال عز من قائل : ﴿ فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر . كلا ، لاوزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[٧] .

وقال عز من قائل : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال . وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾[٨] .

وقال تبارك اسمه : ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ماقدمت وأخرت ﴾[٩] .

البعث حقيقة واقعة

أخى القارىء الكريم : إن قضية البعث ثارت حولها اعتراضات وأفكار من قديم الزمن ، ولذلك اهتمت العقيدة الاسلامية بالتأكيد عليها ، والتركيز على معانيها وأدلتها .

---

(١) المزمل آية ١٧
(٢) الانسان آية ١٠
(٣) النور آية ٣٧
(٤) الحج الآيتان : ١ ، ٢
(٥) الحاقة الآيات : ١٣ - ١٨
(٦) التكوير الآيات : ١ - ١٤
(٧) القيامة الآيات : ٧ - ١٢
(٨) المزمل آية : ١٤
(٩) الانفطار الآيات : ١ - ٥

ونحن فى هذا الباب سنعرض للأدلة عرضا عقليا ، على أن البعث حق نخاطب فيه العقل الرشيد ، بالمنطق السديد ، دون ماتعسف أو تعصب إلا للحق ﴿ فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها ﴾(١) ، ﴿ الحق أحق أن يتبع ﴾(٢) ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ ﴾(٣)

ولكى نثبت أن البعث حق ، فلابد لذلك من مقدمات ثلاث .

المقدمة الأولى : قضية الألوهية .

المقدمة الثانية : القرآن الكريم حق .

المقدمة الثالثة : النبى (ﷺ) حق .

المقدمة الأولى :

قضية الألوهية

لقد أثبتت الحقائق العلمية أن هذا الكون وما يحتويه من أجزاء المخلوقات من أول الذرة إلى المجرة ، ومن أول الخلية إلى الانسان ، لابد أن يكون له مبدع خالق ومدبر حكيم ، وأن كلمة العلماء القدامى والمحدثين ، انعقدت على أن هذه المخلوقات لايمكن بحال ، أن تكون وليدة الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء . ومن قال بذلك فقد ألغى فكره ، وعطل عقله .

﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، كذلك الخروج ﴾(٤) .

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾(٥) .

وبعد بيان هذه الأدلة التى تخاطب العقل : تأتى النتيجة مسلما بها لاتحتاج إلى نقاش أو جدال

---

(١) الأنعام آية : ١٠٤
(٢) يونس آية : ٣٥
(٣) يونس آية : ٣٢
(٤) ق الآيات : ٦ - ١١
(٥) الأنعام الآيات : ٩٥ - ٩٩

فيقول جل شأنه : ﴿ ذلكم الله ربكم لاإله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل . لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[1] .

إذن : فكل الكائنات بما حوته من إبداع وإحكام وإتقان ونظام تنطق بلسان الحق وتشهد بمنطق الصدق : أن له خالقا لاتدركه الأبصار ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

المقدمة الثانية : ـ

القرآن الكريم حق

القرآن الكريم : هو ذلك الكتاب العربى المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى ، المنقول إلينا بطريق التواتر ، المتحدى بلفظه المتعبد بتلاوته .

ولكى نوضح أن القرآن الكريم حق ، يجب علينا أن نعلم أنه منقول إلينا بطريق التواتر ، وهو عبارة عن نقل جماعة عن جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب ، وهو طريق يفيد قطعية الثبوت ، كذلك يجب أن نعلم أن القرآن ليس كلاما عاديا ، بل هو كلام الله جل جلاله ، الذى أعجز الخلق ، وتحداهم أن يأتوا بمثله ، حيث يقول سبحانه : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾[2] .

بل تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله حيث قال : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعو من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لاإله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾[3] ؟

بل لقد تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله ، فقال سبحانه ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾[4] .

ولهذا نؤمن بهذا القرآن الكريم ونقول إنه كلام رب العالمين :

إن القرآن أعجز العرب جميعا ببلاغته وفصاحته وعلو طبقته ، وهم أهل البلاغة وأساطين الفصاحة ، ولذلك يلمح قارئه أنه ـ أى القرآن الكريم ـ يصدر كثيرا من سوره بالحروف العربية المقطعة :

فأحيانا بحرف واحد مثل : (صۤ ، نۤ ، قۤ)

وأحيانا بحرفين ، مثل : (حم ، وطس)

وأحيانا بثلاثة ، مثل : (الۤم ، طسۤم)

---

(١) الأنعام الآيتان ١٠٢ ، ١٠٣

(٢) الاسراء آية : ٨٨

(٣) هود الآيتان : ١٤ ، ١٥

(٤) البقرة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

وأحيانا بأربعة مثل : (المص ، المر)
وأحيانا بخمسة ، مثل (كهيعص ، حم عيسق)
وبعد ذكر هذه الحروف يرد ذكر الكتاب ، مثل : ﴿ الم . ذلك الكتاب لاريب فيه ﴾[1] .
ومثل : ﴿ المص . كتاب أنزل إليك فلايكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾[2]
ومثل : ﴿ المر . تلك آيات الكتاب ، والذى أنزل إليك من ربك الحق ﴾[3] .
ومثل : ﴿ ص . والقرآن ذى الذكر ﴾[4]
ومثل : ﴿ ق . والقرآن المجيد ﴾[5] .

إن فى ذكر هذه الحروف العربية المقطعة ، مقترنا بذكر القرآن الكريم والكتاب الحكيم ـ فى الأكثرية الساحقة من السور المفتتحة بتلك الحروف ـ إشارة قوية إلى أن القرآن نزل بتلك الحروف العربية .

فإن كنتم ياأرباب الفصاحة ، وياأساتذة البلاغة : فى ريب أو شك أو التباس فى أنه من عند الله ، فاتوا بكتاب مثله إن كنتم صادقين فأنتم عرب ولسانكم عربى .

وقد ثبت تاريخيا ـ بطريق موثوق به ـ أنهم عجزوا كل العجز ، ولم يقولوا فى هذا المجال شيئا يذكر ، وبذلك ثبت للقرآن أنه حق نزل به جبريل عليه السلام من قبل الحق ، على النبى الحق . صلوات الله وسلامه عليه .

لقد بهرت هذه البلاغة القرآنية عمر بن الخطاب رضى الله عنه جبار الجاهلية ، فانقلب فجأة بعد سماع صدر من سورة « طه » فتمثلت له الآيات كأنها ملائكة حملته على أجنحة النور إلى مافوق قبة الفلك ، فأصبح بعد ماكان جبار الجاهلية : عملاق الاسلام .

قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها   بفضل ربك حصنا من أعاديها

القرآن معجز :

اقرأ ياأخى بقلب مخلص هذه الآيات : ﴿ طه . ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى . إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا . الرحمن على العرش استوى . له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى . الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[6]

---

(١) البقرة الآيتان ١ ، ٢
(٢) الأعراف الآيتان ١ ، ٢
(٣) الرعد آية ١
(٤) ص آية ١
(٥) ق آية ١
(٦) طه الآيات : ١ ـ ٨

ثم أعد قراءتها ، واجعل عقلك يعيش فيها ، ويندمج فى أصواتها ، فإن فيها أسرارا لايلحق بها ولا يشق لها غبار .

إنه من الملاحظ أن آيات التحدى فى القرآن نزلت فى مكة ، وقد ظل النبى ﷺ بها ثلاثة عشر عاما ، فما استطاع أحدهم أن يأتى بسورة من مثل هذا القرآن ، بل كل ماقالوه : ﴿ لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين . وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم . وماكان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾[1] .

بل كانوا يأتون بما يندى له جبين الحياء خجلا :

كان النضر بن حارث يأتى بالأقاصيص والخرافات ، ليجعل منها مجالا ، يصرف به الناس عن سماع القرآن . . قال سبحانه : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم ﴾[2] .

بل لقد انحدروا إلى الدرك الأسفل ، فأتوا بأفعال صبيانية ، ليكون ذلك منهم حاجزا وحجابا عن وصول القرآن إلى الأسماع .

﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوافيه لعلكم تغلبون ﴾[3]

وبلغ الاستهتار ببعضهم أنه ظن أن القرآن صور متحركة ، يمكن تبديلها وتغييرها كأنه أمام خشبة المسرح : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا مايوحى إلى ﴾[4] .

بلغ لقد بلغ الحمق ببعضهم ، أنهم كادوا يعتدون على الذين يتلون القرآن ، قال سبحانه : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾[5] .

حصل هذا فى الوقت الذى كان البعض يذهب سرا ، ليستمع إلى القرآن الكريم من رسول الله ﷺ فى الليل .

كان أبو سفيان بن حرب ـ قبل أن يسلم ـ يذهب متخفيا ، ويجلس بجانب بيت الرسول ﷺ ، ويستمع إلى القرآن الكريم منه ، وهو يرتله ، وإذا به يجد أبا جهل قادما ، فيقول له : ياأبا حنظلة : ما الذى جاء بك إلى هنا فى هذا الوقت ؟ فيقول له : ياأبا الحكم جئت لأستمع إلى القرآن من محمد ، فما الذى جاء بك أنت ؟ فيقول أبو جهل : نفس الذى جاء بك ، وإذا برأس من رؤوس الكفر يأتى ـ هو الأخنس بن شريق ـ فيسألانه :

(١) الأنفال الآيتان : ٣١ ، ٣٢
(٢) لقمان الآيتان : ٦ ، ٧
(٣) فصلت آية : ٢٦
(٤) يونس آية : ١٥
(٥) الحج آية : ٧٢

ما الذى جاء بك ؟

فيقول نفس الذى جاء بكما . . ويعد أن يستمعوا ويهموا بالانصراف ، يعاهد بعضهم ألا يأتى أحد منهم ، خشية أن يتمكن القرآن من قلوبهم فيخضعوا لمحمد ويسيروا وراء لوائه !

ويظن كل منهم أنه لن يأتى أحد غيره ، فيتسلل أبو سفيان خفية ، ويأتى إلى القرآن مستمعا ، ويتسلل أبو جهل كذلك ، ويأتى الأخنس أيضا ، وكل منهم يظن أن أحدا من رفقائه لن يراه ، ثم يعيدون العهد . كل ذلك وحلاوة القرآن تجذبهم .

لو كان ذلك من كلام أحد من العرب ، فإن هؤلاء عرب يستطيعون أن يقولوا مثله ، ولكنه من كلام خالق الكون رب العالمين .

ويشهد الوليد بن المغيرة لهذا القرآن ، شهادة خالدة بعد أن استمع إليه ، وأدار أسلوبه فى نفسه ، فوجده يتقاطر نورا ورحمة غضا نديا ، لايذبل عوده ، ولا يجف ورقه . . تسرى فيه روح الحياة ، كما يسرى الماء فى العود الأخضر فيقول الوليد :

(لقد سمعت من محمد كلاما ماسمعت مثله فقط ، إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو من كلام البشر ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه) .

لقد اختار الله تعالى البلاغة وجعلها من معجزات القرآن لأن المعجزة أمر خارق للعادة ، يقصد به تحدى القوم ، وإنما يكون التحدى بصورة أقوى ، إذا جاء من جنس مابرع فيه القوم .

فقد كانت معجزة موسى عليه السلام : إبطالا للسحر ، فى عصر برع فيه السحرة .

ومعجزة عيسى عليه السلام : تحدى الطب البشرى ، فى عصر نبغ فيه الأطباء .

وجاء القرآن معجزة بلاغية ، فى عصر برع فيه البلغاء والفصحاء والأدباء ، فضلاً عن أنه اشتمل على جوانب أخرى من الإعجاز ، يتحدى بها العالم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

تنبؤات القرآن العظيم :-

ومن الأدلة القاطعة على أن القرآن حق ؛ أنه اشتمل على تنبؤات فى المستقبل تحققت وصدقت ، كما أخبر عنها ؟ ذلك : لأنه كلام علام الغيوب .

نذكر منها قوله تعالى :

﴿ الم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين . لله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لايخلف الله وعده ﴾[1] .

قال ترجمان القرآن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ :

---

(١) الروم الآيات : ١ - ٣

(أما إنهم سيغلبون) فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا فإن ظهرنا ، كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم ، كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : (ألا جعلتها إلى مادون العشر) قال سعيد بن جبير : البضع : مادون العشر ، ثم ظهرت الروم بعد ذلك .

وهو الذى قاله سعيد فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فى بضع سنين ﴾

ولقد حدث ماتنبأ به القرآن الكريم ، وانتصرت الروم على الفرس ، كما أخبر بذلك علام الغيوب .

كذلك من تنبؤات القرآن العظيم أنه أخبر عن أشخاص ؛ بأنهم سيدخلون النار ويموتون على الكفر .

من هؤلاء : الوليد بن المغيرة ، الذى منعه كبره ، وحجبه ظلمه عن الدخول فى الاسلام ، فقد قال الله تبارك وتعالى فى شأنه :

﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا ﴾[(١)] .

وقال جل شأنه فى حقه أيضا : ﴿ سأصليه سقر . وما أدراك ماسقر ؟ . لاتبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾[(٢)] .

ولقد سمع الوليد هذه الآيات فعلا ، وثبت ماأخبر به القرآن الكريم ، ومات الوليد على غير الاسلام .

ومن هؤلاء : أبو لهب بن عبد المطلب ـ عم الرسول ـ ﷺ ـ فقد أخبر تبارك وتعالى عنه بقوله : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب . سيصلى نارا ذات لهب . وامرأته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد ﴾[(٣)] .

وقد سمع أيضا أبو لهب وامرأته هذه الآيات وماتا على الكفر ، وصدقت فيهما أخبار القرآن الكريم .

ومن هؤلاء أيضا : النضر بن الحارث ـ الذى سبق الكلام عنه فى قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴾[(٤)] .

وقد سمع النضر هذه الآيات ومات على الكفر : ولو أن أحدا من هؤلاء الذين ذكرناهم ، مات على الاسلام ماصدقت النبوءة ، ولكنه إخبار الله الذى إذا قال صدق ، وإذا حكم عدل ، وهو أسرع الحاسبين .

---

(١) المدثر الآيات : ١١ ـ ١٧
(٢) المدثر الآيات : ٢٦ ـ ٣٠
(٣) سورة المسد كلها
(٤) لقمان آية : ٦

ومن جوانب النبوءة فى القرآن الكريم ، أنه أخبر عن هزيمة المشركين فى يوم بدر قبل وقوع الغزوة . . قال سبحانه وتعالى : **﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر . سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾**[١] .

كما أخبر عن أشخاص ، كانوا يستهزئون برسول الله ﷺ فقتلوا يوم بدر ، وفيهم يقول الله سبحانه : **﴿ إنا كفيناك المستهزئين ﴾**[٢]

وأخبر أنه ـ جل شأنه ـ سيحفظ هذا الكتاب الكريم ، وتحقق ذلك ، فقد مرت بالاسلام إحن طاحنة ، ومحن قاسية ، فلم تستطع يد آثمة أن تغير أو تبدل فى كتاب الله ، وظل هذا الكتاب الكريم فى حفظ ورعاية وصيانة : **﴿ إنا نحن أنزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾**[٣] .

كذلك من جوانب إعجاز القرآن ـ غير البلاغة والتنبؤات ـ ما اشتمل عليه من نظم صحيحة وصالحة لكل زمان ومكان ، لو فهمها الخلق وطبقوها تطبيقا سليما ، لمكن الله لهم فى الأرض وبدل خوفهم أمنا .

ومن هذه النظم السياسية التى جمع الله مبادئها فى آيات بينات : **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾**[٤] وقوله جل شأنه : **﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾**[٥] **﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾**[٦] .

وغير ذلك من القوانين والمعاهدات الدولية ، التى اشتملت عليها سور كثيرة من القرآن الكريم : كسورتى الأنفال ، والتوبة .

كما اشتمل على نظم إجتماعية ، أفاضت فى ذكرها سور النساء والنور والأحزاب ، كما اشتمل على النظم والقوانين المدأينة ، كما فى آية المداينة : **﴿ يأأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾**[٧] .

كما وضع نظاما للمال والاقتصاد وتدور عليه دواليب الحياة ، وقد أفاضت فى هذا الموضوع سورتا البقرة والنساء .

كما أشتمل على نظم الجهاد والنواحى العسكرية ، كما فى السور : آل عمران والتوبة والأحزاب . . إلى غير ذلك من جميع مايحتاج إليه العالم فى شتى النظم .

وصدق الله العظيم حيث يقول : **﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾**[٨] .

---

(١) القمر الآيتان : ٤٤ ، ٤٥
(٢) الحجر آية : ٩٥
(٣) الحجر آية : ٩
(٤) النحل آية : ٩٠
(٥) آل عمران ـ : ١٥٩
(٦) الشورى : ٣٨
(٧) البقرة : ٢٨٢
(٨) النحل آية : ٨٩

القرآن الكريم والعلم الحديث :

وننتقل بعد ذلك إلى جانب آخر ، نقطف من كل بستان زهرة ونتنشق من كل حديقة وردة . . ذلك الجانب هو ماشتمل عليه القرآن العظيم من الحقائق العلمية .

(وسوف نورد نماذج لحقائق علمية مختلفة ، سبق القرآن بها العلم)

الطب الحديث ، وتحريم الخمر فى القرآن :

يقول الطب عن الخمر : إن شربها ينتج عنه تليف فى المعدة ، والكبد ، والأعصاب ، والألياف التى تتكون فى الأنسجة ، تخنق الذرات النافعة فى المعدة والكبد والأعصاب ، فتضعف وظائفها الحيوية ، وهذه الحالة شفاؤها صعب ، ويمتد ضررها إلى الذرية البريئة .

صدقت يارب العزة ، إذ قلت عن الخمر : إنها ﴿ **رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** ﴾[1] .

الصحة الغذائية فى القرآن :

وهذه حقيقة علمية أخرى ذكرها العلم مخبرا عن وظائف الرضاعة وأهميتها ، يقول العلم فى هذا الصدد : إن الله لم يخلق الثديين للأنثى عبثا ، بل خلقهما لترضع منهما أطفالها ، فيجب عليها إذن : إرضاع طفلها المدة الكافية ، فإذا رفض الطفل أخذ ثديها ، أو أحست هى بقلة لبنها ، فعليها أن تستشير الطبيب ، ليعرف سبب هاتين الحالتين ، فتعالجه ليرجع الطفل إلى غذائه الطبيعى .

ويقول العلم : إن الأم التى ترضع طفلها يتحسن جسمها ، إذ أن المبيضين يفرزان أثناء الرضاعة مادة تقوى الجسم وتجمل شكله .

المقارنة بين لبن الأم ولبن الحيوان :

تحاول كثيرات من السيدات ، أن يرضعن أطفالهن بألبان البقر وغيرها ، ولكن الأفضل والأصح : هو لبن الأم ، ذلك لأن لبن الحيوان ، قد يكون ملوثا بميكروب الدرن - مثلا - أو تكون الأيدى التى حلبته غير نظيفة ، أو يكون الاناء كذلك ، أو يكون قد خلط بعناصر غريبة ، بالاضافة إلى أن التحليلات ، قد أثبت أن اللبن تتكاثر فيه الميكروبات بسرعة ، فأين هذا من لبن ثدى الأم ، الذى يدخل معدة الطفل معقما نظيفا . ، سبحانك ربى يامن قلت : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾[2] .

المقارنة بين لبن الأم والألبان الجافة : -

أما الرضاعة بطريق الألبان الجافة ، فقد اجتهدت بعض المصانع فى تركيب ألبان كلبن الأم ، ولكن سرعان ماعرف أن تعقيم اللبن ، يفقده مافيه من الفيتامينات ، كما اتضح أن فى لبن الأم ، مواد تقى الطفل من أمراض الجهاز الهضمى من قىء وإسهال ، كما تقيه من بعض الأمراض الأخرى ، ولاشىء من هذه الخواص فى اللبن الصناعى .

فمن الذى أثبت لنا هذه الحقائق فى الصحة الغذائية ، منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ؛

---

(١) المائدة آية : ٩٠

(٢) البقرة آية : ٢٣٣

إنه القرآن الكريم الذى يقول : ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾[١]

ولماذا التحديد بحولين ؟

إنما حددت مدة الرضاعة بحولين لا أكثر ، لأن الأبحاث الطبية ، تفيد أن الطفل إذا أرضع أكثر من حولين تقل قواه العقلية ، ويتعرض للاصابة بالأنيميا .

فسبحان من يعلم مصالح عباده ويرشدهم إليها !

إعجاز علمى آخر :

قال جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾[٢] .

ماذا يقول العلم فى قوله جل شأنه : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ﴾ ثم التعليل لذلك بقوله : ﴿ ليذوقوا العذاب ﴾ ؟

إن فى ذلك إعجازا علميا . . ذلك لأن الآية الكريمة حددت الشعور بألم الاحراق فى الجلد السطحى للجسم ، فلو احترق الجلد ، ووصل الكى إلى اللحم ، لما كان هناك شعور بالألم ، لأن الأعصاب التى تشعر بالكى : موجودة فى الجلد دون سواه !

إذن : فمن الذى أثبت هذه الحقيقة العلمية ، التى لم يكتشفها الطب إلا منذ قرنين فقط ؛ ومن الذى أخبر أن مراكز الاحساس ، هى فى الجلد دون غيره ؛ إنه كلام العليم الخبير !!

القرآن والطبيعة الجوية :

قال سبحانه : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ، فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾[٣] .

نظرة فى هذا النص الكريم تفيد أن إنزال الماء من السماء مبنى ومترتب على إرسال الرياح لواقح :

فما السر فى هذا ؟ وماذا يقول العلم وتنطق الحقيقة به فى هذا الصدد ؛ إن العلم يثبت أن الرياح تقوم بتلقيح السحب بنوى التكاثف أو بمعنى آخر : هو أن الرياح فى حالة صعودها المستمر بسبب إرسالها ، لتتجمع فى صعيد واحد ، إنما تمد السحاب ، أو تلقحه ببخار الماء اللازم لنزول المطر .

إن الانسان لم يتوصل إلى هذه الحقيقة ، إلا فى عصر النهضة العلمية ، بعد أن اخترع الأجهزة ، التى يقيس بها عناصر الجو : مثل الضغط الجوى ، ودرجة الحرارة ، ودرجة الرطوبة وسرعة الرياح واتجاهها ، وبعد أن درست طبيعة السحب الممطرة ، وظهرت فيها المؤلفات العديدة .

يقول العلم بعد ذلك : إن عمليات التكاثف داخل السحب ، إنما تحدث على جسيمات صغيرة جدا تحملها الرياح وتعرف باسم « نويات التكاثف » وأهم أنواع هذه النويات ـ « أو النوى » ـ هى مساحيق ملح الطعام وكلوريد الكالسيوم ، التى تتطاير من سطح الأرض والبحر من تيارات الهواء ، وكذلك ثانى أكسيد الكبريت الناتج عن عمليات الاحتراق .

(١) البقرة آية : ٢٣٣
(٢) النساء آية : ٥٦
(٣) سورة الحجر آية : ٢٢

ووظيفة هذه النوى ، تجميع جزئيات بخار الماء مع بعضها ، لتكون نقطا صغيرة من الماء ، أو جسيمات من بللورات الثلج ، والذى يغذى مناطق تولد السحب بهذه النوى هى الرياح الصاعدة والمحملة بأكداس منها ، فمن الذى أثبت ـ منذ أربعة عشر قرنا ـ هذه الحقيقة العلمية فى الطبيعة الجوية ، وهى أن الرياح تقوم بتلقيح السحب ، فيترتب على ذلك إنزال الماء ؟

إنه كتاب الله ـ عز وجل ـ أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض !

حقيقة تناقص الضغط الجوى والاكسچين مع الارتفاع :

قال سبحانه وتعالى : ﴿ **ومن يرد أن يضله ، يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** ﴾[١] .

إن العلم يقف عند هذه الآية موقف الاكبار والاجلال والإعظام ، مقرا بأن هذا الكلام ليس من كلام البشر ، إنما هو كلام خالق القوى والقدر .

لماذا يضيق الصدر عندما يصعد الانسان فى طبقات الجو ؟

إن وراء ذلك التعبير سرا علميا وحقيقة ثابتة .

فماذا يقول العلم والعلماء ؛

يقول العلم : إن الصدر عندما يرتفع الانسان فى طبقات الجو يحس بضيق ناشىء عن نقص الضغط الجوى وكميات الأكسچين التى تستقبلها الرئتان ، وهذه الحقيقة ، ليس من السهل تقريرها عمليا ، إلا إذا صعد الانسان فعلا فى الجو .

ثم يقول العلم : إن من عناية الله بسكان هذا الكوكب الأرضى أن جعل له غلافا هوائيا ، يقع تحت طائل قانون الجاذبية فى نفس الوقت ، الذى يخضع فيه لقانون الانتشار ، فهو يتمدد ، ولكن بدرجة لاتسمح له بالإفلات من قبضة الأرض ، والتلاشى فى خضم الفضاء الفسيح ، إلا بعد مئات الأميال من سطح الأرض .

ثم يستطرد العلم قائلا : كلما صعد الانسان قدما فى السماء ؛ صار الهواء قليل الضغط والكثافة . . والعكس صحيح .

وعلة ذلك أنه يستجيب للضغط الواقع عليه ، وبطبيعة الحال : تضغط كل طبقة على كل ماتحتها وعند سطح الأرض تبلغ مقادير هذا الضغط وزن كيلو جرام واحد على السنتيمتر المربع ؛ ومن ثم : فإنه قد ثبت أن الانسان ، إذا ارتفع نحو ستة كيلو مترات : فإن الضغط الجوى ، يعادل نحو نصف قيمته عند سطح الأرض ، بمعنى أن نصف كتلة الغلاف الجوى ، إنما تنحصر بين سطح الأرض وهذا الارتفاع ، ولقد بنى الله أجسامنا ، بحيث تتحمل على سطح الأرض هذا الضغط ، الناجم عن تراكم طبقات الهواء إلى قمة الغلاف الجوى ، وتكفى كميات الأكسچين العالقة فيه لتنقية الدم وبقائنا على قيد الحياة !

وعلى هذا فيستفاد من هذا التقرير العلمى ، أن الانسان كلما ارتفع إلى أعلى تناقص الضغط الجوى والأكسچين ، فيشعر بضيق فى الصدر .

(١) الأنعام آية : ١٢٥

وذلك ماأقرته تلك الآية الكريمة : ﴿ يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾(١) .

سبحانك ربى : أنت العليم الحكيم ، وأنت على كل شىء قدير !

القرآن حق :

فالقرآن الكريم فى بلاغته وأسلوبه معجز ، وفى نبوءاته معجز ، وفى حقائقه التى أكدها العلم فى أبحاثه معجز : ﴿ قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾(١) .

المقدمة الثالثة :

(النبى ﷺ حق)

كما ثبت بالأدلة القطعية أن الله حق ، وكما ثبت كذلك أن القرآن حق ، وحيث كان ذلك كذلك ، فإن النبى ﷺ الذى أوحى الله إليه هذا القرآن : حق .

لأنه ثبت بطريق التواتر القطعى ، أن النبى محمدا ﷺ كان أميا ، لم يذهب إلى أستاذ ، ولم يتلق العلم على يدى فيلسوف ؛ كما أنه لم يجلس أمام معلم ، إنما تلقى علمه بطريق الوحى من رافع السماء بلا عمد .

﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾(٢) ، ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾(٣) ، ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ومايجحد بآياتنا إلا الظالمون ﴾(٤) .

فمن الذى علم محمدا ﷺ هذه النواحى المعجزة فى القرآن العظيم ، وهو الأمى الذى لم يتلق علمه على يدى بشر ؟ .

من الذى علمه أخبار الأنبياء السابقين وأممهم السالفة ؟

إنه الحق جل جلاله ، الذى ختم له قصص الأنبياء بآيات تفيد أن المصدر الوحيد ، هو الله وحده .

فبعد أن حدثه عن قصة نبى الله نوح عليه السلام ، قال فى نهايتها :

﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك : ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين ﴾(٥)

وبعد ذكر قصة كليم الله موسى عليه السلام يقول له : ﴿ وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾(٦) . ويقول له أيضا : ﴿ وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾(٧) ويقول : له كذلك : ﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾(٨) .

---

(١) الفرقان آية : ٦
(٢) النمل آية : ٦
(٣) الشورى آية : ٣
(٤) العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩
(٥) هود آية : ٤٩
(٦) القصص آية : ٤٤
(٧) القصص آية : ٤٥
(٨) القصص آية : ٤٦

وبعد قصة الصديق يوسف عليه السلام يقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وماكنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾(١) .

وبعد قصة آل عمران يقول له : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون ﴾(٢) .

وبعد قصص الأنبياء يقول له : ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا ﴾(٣) ، ويقول : ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل مانثبت به فؤادك ﴾(٤) .

كل هذا وغيره يدل دلالة قاطعة على أن هذا النبى الأمى إنما أرسله الله بالهدى ودين الحق ، بعد ماأقسم بالنجم على تزكيته فى شتى نواحى شخصه :

زكى عقله : فقال : ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾(٥) .

وزكى لسانه ، فقال : ﴿ وما ينطق عن الهوى ! ﴾(٦)

وزكى شرعه فقال : ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ! ﴾(٧)

وزكى أستاذه وجليسه ؛ فقال : ﴿ علمه شديد القوى ﴾(٨)

وزكى فؤاده ، فقال : ﴿ ماكذب الفؤاد مارأى ! ﴾(٩)

وزكى بصره فقال : ﴿ مازاغ البصر ، وما طغى ! ﴾(١٠) .

وزكاه كله ، فقال : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ! ﴾(١١) .

صلى عليك الله ياعلم الهدى ، ورزقنا الله شفاعتك وشرف المرافقة ..

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا .

فى أى الجامعات تخرج هذا النبى الأمى ؛ وعلى أى الأساتذة تلقى علومه ، إنه تخرج فى جامعة الأنبياء ، التى يقول فيها الحق جل جلاله : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون ﴾(١٢).

وتلقى علومه من علام الغيوب الذى يقول .

﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ﴾(١٣).

وكان موضوع رسالته : القرآن .

وهو أعظم كتاب ، نزل به أعظم ملك ، على أعظم نبى فى خير ليلة فى أفضل شهر فى أكرم بلد !

قال تعالى فى حق القرآن العظيم : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾(١٤).

---

(١) يوسف آية : ١٠٢
(٢) آل عمران : ٤٤
(٣) طه آية : ٩٩
(٤) هود آية : ١٢٠
(٥) النجم آية : ٢
(٦) النجم آية : ٣
(٧) النجم آية : ٤
(٨) النجم آية : ٥
(٩) النجم آية : ١١
(١٠) النجم آية : ١٧
(١١) القلم آية : ٤
(١٢) الأنبياء آية : ٢٥
(١٣) النساء آية : ١١٣
(١٤) الزخرف آية : ٤

وفى حق الملك : ﴿ ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين ﴾[١]

وفى حق النبى ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾[٢] .

وفى حق الليلة : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾[٣] .

وقال فى حق الشهر الذى نزل فيه القرآن الكريم ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ﴾[٤] .

وقال فى حق البلد الذى بدأ فيه نزول القرآن : ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها ، وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن ﴾[٥] .

من علم محمدا هذه الحقائق الغيبية ؟

إنه ﴿ عالم الغيب ، فلا يظهر على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول ﴾[٦] .

ومن الذى علمه تلك الحقائق العلمية ، علم الأجنة وحقائق الأرحام ؛

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٧] !!

هل ذهب محمد ﷺ إلى المعامل ، وهل استعمل أنابيب الاختبار ، واستخدم التجربة ، واستعمل الآلات الدقيقة ، التى يستخدمها العلماء فى العصر الحديث .

بل من الذى علم محمدا ﷺ علوم البحر ؛

ذكروا أن المستر « براون » ـ أحد رجال البحرية البريطانية ـ درس القرآن ، فوقف عند قوله تعالى : ﴿ أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾[٨] .

قرأ المستر (براون) هذه الآية الكريمه ، وأعمل فكرة فيها ، فوجدها قد اشتملت على حقائق ثابتة فى علوم البحار ، فسأل أحد علماء الهند المسلمين وقال له :

« أركب محمد نبيكم البحر ؛ »

قال العالم : لا

قال : (فمن الذى أخبره بعلوم البحر ؛ أشهد بأن هذا الكلام ليس كلام محمد ، إنما هو وحى من رب محمد) .

---

(١) التكوير آية : ٢٠
(٢) الأنبياء آية : ١٠٧
(٣) القدر الآيات : ١ ـ ٣
(٤) البقرة آية : ١٨٥
(٥) النمل الآيتان : ٩١ ، ٩٢
(٦) الجن الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٧) المؤمنون الآيات : ١٢ ، ١٤
(٨) النور آية : ٤٠

وعندئذ نطق « براون » بالشهادتين ودخل الاسلام ، بسبب بحثه وإعمال فكره .

هذا هو الحق ينطق بلسان الصراحة والقوة ، عندما يتجرد العقل من الضلالة العمياء والجهالة الجهلاء .

وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه :

إن العقل البشرى فى مسيس الحاجة إلى رسالات السماء ، ولا يمكن أن يسلك طريق الحياة معتمدا على ذاته .

وفى هذا المعنى يقول الأستاذ العلامة رشيد رضا :

(إن حكمة الحكماء وعلومهم : آراء بشرية ناقصة ، وظنون لاتبلغ من عالم الغيب ، إلا أنه موجود مجهول ، وهى عرضة للتخطئة والخلاف ، ولا يفهمها إلا فئة مخصوصة من الناس ، وما كل من يفهمها يقبلها ، ولا كل من يقبلها ويعتقد صحتها يرجحها على هواه وشهواته ؛ إذ لاسلطان لها على وجدان العالم بها ، فلا يكون لها تأثير الايمان وإسلام الاذعان والتعبد ، لأن النوع البشرى يأبى طبعه وغريزته أن يدين ويخضع خضوع التعبد لمن هو مثله فى بشريته ، واتفاقه فى علمه وحكمته ، وإنما يدين لمن يعتقد أن له سلطانا غيبيا عليه ، بما يملكه من القدرة على النفع والضر بذاته ، دون الأسباب الطبيعية المبذولة لجميع الناس بحسب سنن الكون ونظامه ؛

ثم يستطرد الأستاذ العلامة فيقول :

وأضرب لهذا مثلا : إنه كان للفيلسوف الرئيس « ابن سينا » خادم متعلم ، فعجب بعلومه وفلسفته ، وكان يعجب منه : كيف يدين بملة محمد ﷺ ويتبعه ، وهو فى رأيه أعلم منه وأرقى ؟ .

وكان يكاشفه بذلك ، فيعرض عنه « ابن سينا » أو يوبخه ؛ فاتفق أن كانا فى مدينة « أصفهان » فى ليلة شديدة البرد ، كثيرة الثلج ، فأيقظ الرئيس « ابن سينا » خادمه فى وقت السحر ، وطلب منه ماء ليتوضأ به ؛ فاعتذر بشدة البرد وبقاء الليل ، ثم أيقظه الرئيس فى وقت أذان الصبح ، وطلب منه الماء ، فاعتذر بشدة البرد حتى إذا قال المؤذن :

أشهد أن محمدا رسول الله ، قال الرئيس لخادمه : (اسمع ماذا يقول المؤذن ؟ قال : إنه يقول : أشهد أن محمدا رسول الله ﷺ ، قال الرئيس : الآن قد آن لى أن ابين لك ضلالك القديم ، إنك خادمى ، لا هم لك غير خدمتى ، وإنك أشد الناس إعجابا بى وإجلالا وتعظيما لى ، حتى إنك تفضلنى على رسول الله ﷺ، وتنكر على أن أومن به وأتبعه ، وإنك على هذا كله تخالف أمرى فى أهون خدمة أطلبها منك فى داخل الدار ، معتذرا بشدة البرد ، وإن هذا المؤذن الفارسى يخرج من بيته قبل الفجر ، ويصعد هذه المنارة ، وهى أشد مكان فى البلد بردا ، حتى إذا لاح له الفجر ، أشاد فى أذانه بذكر محمد العربى ، بعد مرور أربعة قرون ونيف على بعثته ، إيمانا وإذعانا وتعبدا واحتسابا) ؟

فتأمل هذا وتدبره فى نفسك ، يظهر لك الفرق بين سلطان النبوة على الناس ، وسلطان العلم والفلسفة . « انتهى كلامه » .

من الذى أرشد رسول الله ﷺ ، إلى هذه النظم القويمة وتلك المناهج السليمة : سياسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا ، وأخلاقيا ، وعسكريا ، وعقائديا ؛

إنه الله الذى أقسم له قائلا : ﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم ﴾(١) .

* البعث حق *

بعد هذا الذى أسلفنا وثبت بالأدلة القطعية أن الله حق ، والقرآن حق ، والنبى ﷺ حق ، نقول إن كل ماجاءنا من الله ويلغه عنه رسوله ﷺ : فهو حق .

﴿ يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ﴾(٢) ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس ﴾(٣) .

ومن القضايا التى سجلها القرآن الكريم فى عديد من المواضع : أن هناك حياة مديدة وخالدة ، وأبدية ، ولا نهائية ، بعد مرحلة الدنيا وانتهائها ، إنها الحياة الآخرة !

لذلك أقسم الله فى عديد من آياته على أن البعث واقع وحق . . ، أقسم بالرياح الذاريات ، والسحب المثقلات ، والسفن الجاريات ، والملائكة المقسمات ، فقال ﴿ والذاريات ذروا . فالحاملات وقرا . فالجاريات يسرا . فالمقسمات أمرا . إن ماتوعدون لصادق . وإن الدين لواقع ﴾(٤) .

إذن : فجواب القسم هنا : هو صدق الوعد ووقع الجزاء ، حتى أن الله تعالى سمى البعث : بالنبأ العظيم ، وألقى باللائمة على الذين يختلفون فى شأنه : كيف يقع منهم ذلك ، وآيات الله البينات ناطقة بقدرته على ماهو أعظم منه شأنا وأبعد شأوا ؟

﴿ عم يتساءلون ؟ . عن النبأ العظيم . الذى هم فيه مختلفون ؟ . كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون ﴾(٥) .

ثم يعدد آيات قدرته فيقول : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال أوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا . لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا ؟ ! . إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾(٦) .

ولما ثبت تقرير هذه المسألة ـ مسألة البعث ـ فى القرآن العظيم وأصبح العلم بها ضروريا ، نجد أن مولانا تبارك وتعالى : يقسم فى بعض المواضع ، على أن هذا الأمر حق ، ولا يذكر جواب القسم ، لأن السياق والسباق واللحاق يدل عليه :

يقول سبحانه : ﴿ ق . والقرآن المجيد . بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون : هذا شىء عجيب . أئذا متنا وكنا ترابا ؛ ذلك رجع بعيد ﴾(٧) .

فالله سبحانه قد أقسم بالقرآن المجيد ، ولكن أين جواب القسم ؛ إنه من الظهور والوضوح

---

(١) يس الآيات : ١ ـ ٤
(٢) الأحزاب الآيتان : ٤٥ ، ٤٦
(٣) المائدة الآية : ٦٧
(٤) الذاريات الآيات : ١ ـ ٦
(٥) النبأ الآيات : ١ ـ ٥
(٦) النبأ الآيات : ٦ ـ ١٨
(٧) ق الآيات : ١ ـ ٣

بحيث لايحتاج المخاطب إلى ذكره ، لأن السياق يدل عليه : ﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾[١] ؟ إذن : فليعلم أن جواب القسم تقديره « ليبعثن » .

وإذن : فليكن التقدير هكذا : ﴿ والقرآن المجيد ﴾ ليبعثن

وفى موضوع آخر يقسم الله تبارك وتعالى قائلا : ﴿ والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا ﴾[٢].

على أى شىء يقسم الله بهذه الجماعات من الملائكة : التى تنزع الأرواح وتخرجها ، وتسبح بها ، وتسبق إلى تنفيذ أمر ربها ؟

إن جواب القسم معلوم الثبوت من قوله تعالى :

﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ؟ . أئذا كنا عظاما نخرة ؟! ﴾[٣] .

وإذن : فليكن جواب القسم تقديره : « لتبعثن »

كل هذا دليل على أن البعث حق لامرية فيه ولا جدال بعد ماثبت من القضايا التى قررناها وبيناها أن الله حق والقرآن حق والنبى ﷺ حق .

وإذن : فما حقيقة البعث ؛

البعث بالروح والجسد :

﴿ وعرضوا على ربك صفا : لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾[٤] .

أقوالهم فى البعث

ثار جدال حول هذه القضية :

فذهب بعضهم مذهبا باطلا وهم بعض الفلاسفة القدامى ، فقالوا :

إن البعث روحانى فقط ، وغفلوا عن أن قضية البعث ، لايكون العقل فيها هو المرجع فى ثبوت حقيقتها وكيفيتها وشكلها وجوهرها وموضوعها ، وإنما المرجع فى ذلك كله إلى الله وحده لاشريك له .

وقد تضافرت آيات الكتاب الكريم ، على أن البعث الانسانى : إنما هو بالروح والجسد . قال سبحانه وتعالى ـ فى حق المشركين : ﴿ يوم يدع الداع إلى شىء نكر . خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر . مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر ﴾[٥]

---

(١) ق الآية : ١٥

(٢) النازعات الآيات : ١ ـ ٥

(٣) النازعات الآيات : ٦ ـ ١١

(٤) الكهف آية : ٤٨

(٥) القمر الآيات : ٦ ـ ٨

وقال فى حق البشرية جمعاء : ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم : إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾(١)

وقال أيضا : ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾(٣) ، وقال : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ماكنتم تزعمون ﴾(٥) .

وقال سبحانه : ﴿ فإذا برق البصر . وخسف القمر . وجمع الشمس والقمر . يقول الانسان يومئذ : أين المفر ؟ ﴾(٦) . وقال أيضا : ﴿ وجىء يومئذ بجهنم . يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾(٧) .

ففى التعبير بلفظ « الانسان » فى الآية الكريمة ، دليل صريح على أن البعث روحانى وجسمانى ، قال سبحانه : ﴿ ونفخ فى الصور ، فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : ياويلنا ! من بعثنا من مرقدنا ؟ هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾(٨) .

يقول العلامة الأستاذ رشيد رضا فى هذا الصدد :

« البعث الانسانى : جسمانى روحانى » كما جاء فى القرآن : مخالفا لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء . . إن الانسان فى الحياة الأخرى ، يكون إنسانا كما كان فى الدنيا ، إلا أن أصحاب الأنفس الزكية ، والأرواح العالية ، يكونون أكمل أرواحا وأجسادا مما كانوا عليه ، وذلك بتزكية أنفسهم فى الدنيا ؛ وأصحاب الأنفس الخبيثة ، والأرواح السافلة ، يكونون أنقص وأخبث مما كانوا ، وذلك بتدسية أنفسهم فى الدنيا .

ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الغابرين ، أن الأديان القديمة ، كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد ، إلا أنهم ظنوا بعد رسلهم أن أجسادهم تبقى بعد موتهم ، فيبعثون بها عينها ، ولكن بين القرآن أن كل من على الأرض فان ، وأنها تكون بقيام هباء منبثا . وقال علماء العقائد من أهل السنة : إن بعث الأجساد يكون بعد العدم التام .

---

(١) الحج الآيتان : ١ ـ ٢
(٢) الأعراف آية : ٣٠
(٣) الأنبياء آية : ١٠٤
(٤) الحج الآيتان : ٦ ، ٧
(٥) الأنعام آية : ٩٤
(٦) القيامة الآيات : ٧ ـ ١٠
(٧) الفجر الآية : ٢٣
(٨) يس الآيتان : ٥١ ، ٥٢

قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لاتعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾[١] .

ولو كان البعث للأرواح وحدها ، لنقض من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق ، المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجسمانية ، ويتحقق حكم الله وأسرار صنعه فيهما معا ؛ : من حيث حرم الحيوان والنبات من الأولى ، والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحانى المجرد ، إلا لاحتقارهم اللذات الجسدية وتسميتها بالحيوانية ، مع شغف أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصا فى الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها ، حتى صرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان أو أضعفها .

وأصل هذا الافراط ـ أو التفريط ـ غلو الهند فى احتقار الجسد ، وجعلهم مدار تربية النفس على تعذيبه بالرياضيات الشاقة ، وتبعهم فيه نساك النصارى ، كما تبعوهم فى عقيدة الصلب والفداء والتثليث .

على أنهم نقلوا أن المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم فى الفصح ، وقال لهم : إنى من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا فى ملكوت ربى) (متى ٢٦ ـ ٢٩) .

وجرى اليهود على عكس ذلك .

وجاء الاسلام بالاعتدال ، فأعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملا فى إنسانيته ، مرجحا لروحانيته على حيوانيته ، متزودا من دنياه لآخرته .

ويؤخذ مما ورد فى الآيات والأحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ، أن القوى الروحية ، تكون هى الغالبة والمتصرفة فى الأجساد ، فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة ، وقطع المسافات البعيدة فى المدة القريبة والتخاطب بالكلام ، بين أهل الجنة وأهل النار ، وإن ترقى البشر فى علم الكيمياء ، وخواص الكهرباء والصناعات فى عصرنا ، قد قرب كل هذا من حس الانسان ، بعد أن كان الماديون الملحدون يعدونها من تخيلات سيدنا محمد ﷺ كما فى قوله تعالى : ﴿ ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ﴾[٢] .

وها نحن أولاء نخاطب من مصر أهل عواصم أوروبا بالمسرة ، ونسمع خطبهم بالمذياع ، ونراهم ويروننا بآلة التليفزيون أ . هـ وهكذا ينتهى بنا المطاف من هذا البحث ، إلى أن عقيدة المسلم الصحيحة فى قضية البعث ، أن الانسان سيبعث بروحه وجسده يوم القيامة .

قال سبحانه وتعالى فى أهل الجنة : ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا ﴾[٣] .

---

(١) الواقعة الآيات : ٦٠ ـ ٦٢

(٢) الأعراف آية : ٤٤

(٣) مريم آية : ٨٥

وقال فى أهل النار : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾[١] .

وقال فى أهل الجنة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾[٢] .

وقال فى أهل النار : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾[٣] .

فعليك ياأخا الاسلام أن تركز هذا المعنى فى قلبك ، وتعلم أنك ستخرج يوم القيامة من القبر بروحك وجسدك ، فاعتقد هذا لتلقى الله بعقيدة سليمة صحيحة ، تؤيد مانطق به القرآن الكريم ، المنزل على نبيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه .

الجزاء الأخروى

حسى ومعنوى

﴿ يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول : هاؤم اقرأوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول : ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه ياليتها كانت القاضية ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لايأكله إلا الخاطئون ﴾[٤] .

هذا المشهد القرآنى العظيم الرائع ، يبين لنا حقيقة القضية ، التى ترتبط ارتباطا وثيقا بقضية البعث : ألا وهى قضية الجزاء فى الآخرة ، والتى ينطق بها الكتاب الكريم حيث يقول : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها . وقال الإنسان : مالها ؟ يومئذ تحدث أخبارها . بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾[٥] .

ثم أن الجزاء فى الآخرة ، مظهر من مظاهر العدالة الالهية ، فقد شاءت حكمة الله العليا ، أن يلهم النفس فجورها وتقواها ، بعد مابين لنا طريق تزكيتها وتدسيتها ، وشاء جل شأنه ان يهدى الانسان السبيل :

إما شاكرا وإما كفورا ، بعد ماجعله سميعا بصيرا ، كما أراد سبحانه أن يهديه النجدين ، بعدما جعل له عينين ولسانا وشفتين .

ثم بين سبحانه وتعالى الحكمة فى جلاء ووضوح فقال :

---

(١) سورة الحاقة الآيات : ١٨ ـ ٣٧

(٢) سورة الزلزلة كاملة

(٣) مريم اية : ٨٦

(٤) القيامة الآيتان : ٢٢ ، ٢٣

(٥) القيامة الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

﴿ إن سعيكم لشتى . فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾[١] .

إذن : فالطريق واضحة المعالم قال تعالى : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾[٢] .

فالجزاء : عدالة إلهية : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ﴾[٣] .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ﴾[٤] .

والقضية التى نعرض لها فى هذا البحث : تدور حول حقيقة الجزاء والعقيدة ، التى يجب أن يعتقدها المسلم هى : أن الجزاء فى الآخرة حسى ومعنوى .

وفى هذه القضية تعثرت أقلام وزلت أقدام وانفلت خيال بعض الكلتبين ، الذين اتبعوا فى بحثهم هواهم ، ولم يتبعوا هدى الله . فقد ذكروا أن الجزاء الأخروى معنوى فقط ، لا دخل له بالأمور الحسية ، وكانوا فى ذلك بعيدين كل البعد عن المصادر الأساسية ، التى تستقى منها المعلومات اليقينية ألا وهى : (كتاب الله وسنة رسوله ﷺ) وظنوا أن قولهم بمعنوية الجزاء ، يعطيهم سموا فى التفكير ، أو رقة فى الطبع ، وغفلوا عن أن الجانب الحسى فى الجزاء ، له أثره ، وله قيمته ومكانته فى الآخرة ؛ ثوابا كان أو عقابا ، وأن القضية ليست موضع إجتهاد ، أو قول بالرأى بعد مادل على ذلك صدق الأدلة القرآنية كما ظنوا أن القول بمعنوية الجزاء ، أمر يدعو إلى الرأفة بالذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، وغفلوا عن أن الذى قرر هذا الجزاء : هو الله ، أرحم الراحمين ، الذى يبسط يده بالليل ، ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، ليتوب مسىء الليل والذى يقول فى الحديث القدسى الجليل : ﴿ أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى : فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ عنده ذكرته فى ملأ خير منهم وإن تقرب إلى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة ﴾[٥]

لما قال إبليس لرب العزة : لأغوينهم مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، قال الله له : « لأغفرن لهم ماداموا يستغفرونى » إذن : فأى داع يدعو إلى أن نقول بأن الجزاء معنوى فقط ، بعدما تبين لنا فى البحث السابق ، أن البعث روحانى وجسمانى ؛ فإذا كان الروح والجسد متعاونين فى الدنيا على الخير والشر ، فإن منطق العدالة ، يقضى أن يكون الجزاء مطابقا لحالهما ، فهما مرتبطان متعاونان ، فلم يقتصر الجزاء على جانب واحد ، وهو جانب المعنويات ، بعدما تضافرت الأدلة على ثبوت الجانبين فى الجزاء : ثوابا كان أو عقابا ؟ .

---

(١) الليل الآيات : ٤ - ١٠
(٢) فصلت آية : ٤٦
(٣) القلم آية : ٣٥
(٤) ص الآيتان : ٢٧ - ٢٨

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ح ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ من رواية لأبى هريرة (انظر الصفحة التالية)
(٦) أخرجه البخارى « كتاب التوحيد » ج ٩ ص ١٤٧ ، ١٤٨ من رواية لأبى هريرة .

وفى المشهد القرآنى الذى صدرنا به هذا البحث يلتقى الجزاء المعنوى بالجزاء الحسى ، بالنسبة لأهل الجنة وأهل النار :

فالجزاء المعنوى لأهل الجنة يتمثل فى قوله تعالى : ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾[١] .

والجزاء الحسى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾[٢] .

كما يتمثل الجزاء المعنوى لأهل النار فى قول كل منهم ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ماحسابيه ياليتها كانت القاضية ماأغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه ﴾[٣] .

ندامة وخزى وذل وانكسار !

كما يتمثل الجزاء الحسى فى العقوبة فى قوله جل شأنه : ﴿ خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾[٤] .

وهل هناك أوقع على النفس بالنسبة لأهل النار ـ من الجهة المعنوية ـ من قوله تعالى : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾[٥] ومن الجهة الحسية فى قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾[٦] .

والغسلين : هو مايسيل من أجساد أهل النار !

ثم ماذا يقول القائلون بمعنوية الجزاء فى قوله جل شأنه :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾[٧] .

أليست الجنات حسية والأنهار حسية والثمرات حسية والازواج حسية .

وماذا يقولون فى قوله جل شأنه : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[٨] .

أليست النار حسية ؟

أليس نضج الجلود حسيا ؟

اليس ذوق العذاب حسيا ؟

إن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل ، وإن اتباع الهدى أقوم سبيلا من غواية الهوى .

إننا كثيرا مانلمح آيات فى القرآن الكريم ، تجمع بين الجزاءين الحسى والمعنوى فى أسلوب رفيع وبلاغة معجزة .

---

(١) الحاقة آية : ٢١
(٢) الحاقة آية : ٢٤
(٣) الحاقة الآيات : ٢٨
(٤) الحاقة الآية : ٣٠ ـ ٣٢
(٥) الحاقة الآية : ٣٥
(٦) الحاقة الآية : ٣٦
(٧) البقرة الآية : ٢٥
(٨) النساء آية : ٥٦

منها قوله تعالى : ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جناتٍ عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾(١) .

وإننا نلمح الجزاء الحسى واضحا فى الجنات والأنهار والمساكن ، ونلمح الجزاء المعنوى جليا فى الخلود ورضوان الله ، ونلمح الخاتمة السعيدة متمثلة فى الفوز العظيم .

كما تمثل الجزاء بالنسبة لجانب العقوبة حسيا ومعنويا فى قوله تعالى : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾(٢) .

إنك ايها القارىء الكريم تلمح بوضوح الجزاء المعنوى متمثلا فى قوله جل شأنه : ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾

فلفظ (كلما) يفيد التكرار ولفظ : الغم يملأ جنبات النفس أسى ولوعة ، تكاد الكبد تنفطر منها ، والقلوب تنخلع من هولها .

وتلمح العذاب الحسى فى هذه الآية الكريمة متمثلا فى قوله جل شأنه : ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾

وتعال معى لترى الجزاء الأخروى متمثلا فى سورة الرحمن ، التى إذا قرأها المؤمن بتدبر وإعمال فكر ، ومر بآيات العذاب فيها : شعر بأن زفير جهنم بين أذنيه ، فإذا مر بآية تبشر بالجنة : بكى شوقا إليها .

أقرأ معى هذه الآيات فى جزاء المجرمين ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام . فبأى آلاء ربكما تكذبان هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم آن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾(٣) .

أرأيت وسمعت الى هذه الأهوال الجسام ؟

المجرمون لهم علامات تميزهم : فهم سود الوجوه زرق العيون تأخذهم الزبانية أخذا عنيفا من نواصيهم

ومقدم رؤوسهم ومن أقدامهم ليطوفوا بين جهنم وبين ماء حميم بلغت درجة غليانه النهاية القصوى يصهر به مافى بطونهم والجلود ﴿ وإن يستغيثوا : يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾(٤) .

صدقت يارسول الله يامن قلت وقولك الحق :

(اقرأوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ﴾(٥) .

---

(١) التوبة آية : ٧٢
(٢) الحج آية : ٢٢
(٣) الرحمن الآيات : ٤١ - ٤٤
(٤) الكهف آية : ٢٩
(٥) كنز العمال ج ١ ص ٦٠٩ برقم ٢٧٩٤ وحلية ج ٣ ص ١٠٣

ويامن قلت وقولك الصدق : ﴿ حركوا به القلوب وقفوا عند عجائبه ﴾

يرحم الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى سمع قارئا يقرأ من سورة الطور : ﴿ والطور وكتاب مسطور فى رق منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور ﴾ حتى إذا بلغ قوله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ﴾(١) خر عملاق الاسلام مغشيا عليه ، لسماعه تلك الآية ، حتى لقد ذكروا أنه ظل مريضا شهرا كاملا ! تعال معى ياأخا الاسلام ، لنطوف برياض الجنة ، وننعم بوارف ظلها ، ونمتع النفس بروحها وريحانها .

قال سبحانه : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . ذواتا أفنان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء تكذبان . كأنهن الياقوت والمرجان . فبأى الاء ربكما تكذبان . هل جزاء الإحسان إلا الإحسان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾(٢) .

هنيئا لكم يامن فزتم بهذه الدرجة العليا من درجات الجنان ، يقول ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :

« الجنتان : بستانان فى عرض الجنة » وكان لله حكمة أن يعطى المؤمن جنتين .

فقد قال بعض المفسرين : (إن فاكهة الدنيا قد يموت بعض الناس دون أن يأكلها ، فيخلقها له الله يوم القيامة فى جنة وفاكهة الآخرة : فى جنة)

والأفنان : هى الأغصان .

وإذا كانت بطائن الفرش من إستبرق ، وهو ماغلظ من الحرير ، فكيف تكون حال الظهارة .

والمراد بجنى الجنتين : ثمارها وقطوفها الدانية القريبة ، التى تنالها الأيدى دون عناء أو نصب .

وأما قاصرات الطرف : فالمراد بهن نساء الجنة .

والمراد أنهن حابسات العيون على أزواجهن ، لاينظرن إلى غيرهم ، وهؤلاء الأزواج المطهرة ، لم يفض بكارتهن إنس ولا جان ، وقد شبههن بالياقوت والمرجان : جمالا وصفاء ، هل جزاء الاحسان إلا الاحسان .

هذا منطق العدالة الالهية المطلقة .

اللهم إنا نسألك الفردوس يارب العالمين .

وتلك درجة عالية من درجات الجنة .

فتعال معى إلى درجة أخرى ينالها أقوام طبقا لأعمالهم :

قال سبحانه : ﴿ ومن دونهما جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ . مدهامتان . فبأى آلاء ربكما

---

(١) الطور الآيات : ١ ـ ٨

(٢) الرحمن الآيات : ٤٥ ـ ٦٠

تكذبان . فيهما عينان نضاختان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهما فاكهة ونخل ورمان فبأى آلاء ربكما تكذبان . فيهن خيرات حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . حور مقصورات فى الخيام . فبأى آلاء ربكما تكذبان . لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان . تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾[1] .

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة والمنزلة ، وذلك بنص القرآن الكريم قال تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾

ولعل القارىء إذا استعرض أوصاف الجنتين المتقدمين فى قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ واستعرض الجنتين المذكورتين فى قوله جل شأنه : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ لعله بعد هذا الاستعراض ، يجد أن كلا منهما اشتمل على الفاكهة والثمار ، والاتكاء على الأرائك ، والحور العين ، التى لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان .

ولعله بعد ذلك يسأل فيقول : فأين التفاضل إذن ، وقد اشتمل كل منهما على مااشتمل عليه الآخر ؟

والجواب على ذلك ، يظهر جليا فى ذلك الحديث الذى رواه البخارى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (جنتان من فضة : آنيتهما ومافيهما ، وجنتان من ذهب : آنيتهما وما فيهما ، ومابين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن)[2] . أخرجه الجماعة وورد فى الحديث أيضا فى قوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين .

(المراد بالورق : الفضة)

وهذه الآيات عامة فى الجن والانس ، إذ مبنى الجزاء على العمل وعلى العمل وحده .

وإذن فالتفاضل ، إنما هو فى المادة التى اشتملت عليها كل من هذه الجنان ، كذلك فى علو درجاتها ، وفى قرب أصحابها من الله تعالى قال سبحانه : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾[3] فقد ظهر التفاضل فى معادنها ومواد صنعها ، كما ورد فى الحديث الشريف .

أما معنى قوله تعالى : ﴿ مدهامتان ﴾ فإنهما شديدتا الخضرة من كثرة الرى ، حتى كأنهما تبدوان فى لون أسود .

أما العينان النضاختان ، فإنهما فوارتان ، تخرجان الماء بصورة بديعة ، ومنظر جميل .

ولعلك إذا قارنت الجنتين السابقتين بهاتين الجنتين :

تجد أن الله وصف الأولين بقوله : ﴿ ذواتا أفنان ﴾

---

(١) الرحمن الآيات : ٦١ - ٧٨

(٢) أخرجه البخارى : ج ٦ ص ١٨١/ أحمد ج ٤ ص ٤١١

(٣) الأنعام اية : ١٣٢

ووصف هاتين بقوله : ﴿ مدهامتان ﴾ والأول أعلى درجة ووصف الأولیین بقوله : ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾

ووصف هاتين بقوله : ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ والجرى أوقع فى النفس وأروع فى صوره .

ووصف الأوليين بقوله تعالى : ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾

ووصف هاتين بقوله : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾

وأنت خبير بالفرق بين لفظ (كل) وبين الآية الثانية ، وقد وفد وفد من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يامحمد : أفى الجنة فاكهة ؟ قال : نعم فيها فاكهة ونخل ورمان قالوا : أفيأكلون كما يأكلون فى الدنيا ؟ قال : نعم وأضعاف ذلك قالوا : أفيقضون الحوائج ؟ قال : لا ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب الله مافى بطونهم من أذى)[1] .

فسبحانك ربى أعددت لأهل الجنة مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ : الحور العين ، والحور : جمع حوراء ، وهى التى صفا بياض عينيها وسوادهما ، والعين : جمع عيناء ، وهى واسعة العينين ، وقد وصف الله الحور فى الآيات الأولى بقوله تعالى :

﴿ فيهن قاصرات الطرف ﴾ ووصفهن هنا بأنهن ﴿ مقصورات فى الخيام ﴾ والقاصرة : أفضل من المقصورة .

والمراد بقوله تعالى : ﴿ متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ﴾ الوسائد وهى جمع وسادة وهذا مارآه الحسن البصرى رضى الله عنه .

والمراد بالعبقرى الحسان : هى البسط التى بلغت من الحسن والجمال مبلغ الغرابة والعجب ، وهذا رأى الحسن ايضا

ويحسن أن يكون العبقرى من كل شيء : أعجبه وأغربه وذلك وصف ينطبق على كل مافى الجنة .

وقد وصف الله أصحاب الدرجات الأولى بقوله : ﴿ متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ﴾ وليس ثمة أدنى ريب أن الأرائك ، التى يضطجعون عليها ، تكون أروع وأوقع فى النفس ، إذا كانت بطائنها من حرير خالص .

وقد ختم الله تعالى هذه السورة بقوله : ﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام ﴾ : فقد عظمت بركته ، وعمت رحمته ، وبلغت حكمته ، وهو الحقيق بالاكرام ، والعظمة والجلال .

وقد تخللت الآيات الكريمة ، آية تخاطب الثقلين من الجن والانس ، وهى قوله تعالى : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾

والاستفهام هنا يفيد الانكار ، الذى يؤدى معنى النفى : أى ليس هناك آية ولا نعمة من آلاء الله

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٨٢

ونعمه ، يكذب بها ، فقد ظهرت واضحة جلية : فبأى آية وبأى نعمة تكذبان يامعشر الجن والانس ؟ !

وتكرار هذه الآية إحدى وثلاثين مرة فى تلك السورة ، التى اشتملت على ثمان وسبعين آية يدل على طبائع النفس البشرية ، التى انطوت على نسيان الجميل وجحود النعمة : ﴿ إن الانسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد ﴾(١)

فيا أخا الاسلام :

بادر بفعل الباقيات الصالحات ، لتكون من المقربين ، أو أصحاب اليمين ، الذين إذا دخلوا الجنة ، نادى مناد من قبل الله تعالى ، فقال ياأهل الجنة : ان لكم ان تصحوا فلا تسقموا أبدا ولكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ولكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا ولكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ﴾(٢) .. ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾(٣) .

لاتركنن إلى الدنيا وما فيها ... فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
واعمل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

ونخلص من هذا البحث وسابقه إلى أن عقيدة المسلم فى البعث :

أنه روحانى وجسمانى ، وعقيدته فى الجزاء أنه حسى ومعنوى ، بهذا نطق صريح الكتاب وصحيح السنة .

من مشاهد القيامة

اعلم ياأخا الاسلام أن الله أعد الجنة لكل طائع ، ولو كان عبدا حبشيا ، وأعد النار لكل عاص ، ولو كان حرا قرشيا .

﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوم ضالين . ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسأوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون . فتعالى الله الملك الحق لاإله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلها آخر لابرهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾(٤)

---

(١) العاديات الآيتين : ٦ - ٧

(٢) أخرجه الترمذى ج ٥ ص ٥١ برقم ٣٢٩٧/ احمد ج ٣ ص ٩٥ ومسلم ج ٤ ص ٢١٨٢ برقم ٢٢/ ٢٨٣٧

(٣) الأعراف آية : ٤٣

(٤) المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨

هذا مشهد من مشاهد القيامة ، تشيب له نواصى الأطفال ، وترتعد له العصبة أولو القوة ، وتخر من هوله الجبال هدا ، إنهم كانوا يتخذون من الناصحين محل سخرية واستهزاء ، يضحكون منهم ويسخرون بهم ، حتى اذًا ماذهبت السكرة وحلت الفكرة ، وذوى غصن الشباب ، وانفض السوق قالوا :

﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴾ .

ولكن علام الغيوب لاتنطلى عليه الحيلة ، ولا يخدع بهذه الأضاليل ، فقد قال لهم : ﴿ إخسأوا فيها ولا تكلمون ﴾

وهل رد إبليس من حظيرة القدس والرحمة ، إلا بسبب الاعجاب بنفسه والاستكبار على غيره ؟ .

واذا كان سر الكبرياء قسامة الوجه ، وفراهة الجسم ، وشدة الأسر ، فأرسلها نظرة خاطفة إلى مااحتواه الجوف .

تعرف أن الانسان يكذب الناس بجمال عنوانه ، ويخدعهم عن خبيث أوضاره وأدرانه .

ثم خبرنى : هل لهذا الحسن بقاء ، وفى كل يوم تتعاور سطوره بالمحو والفناء ؟

وما خطب قوتك التى اتعبت بها ألسنة الفخار ؟ .

أن وعكة من حمى : كفيلة ، ان تعفى على هذا السراب ، وتطوى صفحات ذلك الكتاب .

فلا قوة ولا جمال ولا شباب !

وهل أنا وأنت وهو ، إلا حفنات تراب تمشى فوق التراب !

تعال معى ياأخى ، لتسمع هذه الدرر الغوالى ، وتعى بقلبك هذه التوجيهات السامية ، التى وجهها سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه إلى الأمة فى لحظات حياته الأخيرة ، حيث دنا من الرفيق الأعلى :

رووا انه لما اشتد المرض على رسول الله ﷺ جزع المسلمون وأحاطوا بالمسجد ، فخرج إليهم رسول الله ﷺ متوكئا على العباس بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما وكان عليه الصلاة والسلام معصوب الرأس فجلس فى أسفل درجات المنبر وقال بعد أن حمدالله وأثنى عليه

(أيها الناس : بلغنى أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبى قبلى ممن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا أنى لاحق بربى وإنكم لاحقون بى .

فأوصيكم بالمهاجرين خيرا وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾

فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لايعجل بعجلة أحد .

وأوصيكم بالأنصار خيرا فإنهم الذين تبوأوا فى الدار والايمان من قبلكم ألم يشاطروكم الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الدار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم خصاصة . ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين ، فليقبل من محسنها وليعف عن مسيئها ألا وإنى سابق لكم وأنتم لاحقون بى ،

وإن موعدنا الحوض الا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفكف لسانه إلا فيما ينبغى)

سيدى ابا القاسم يارسول الله .

وأقمت بعدك للعباد شريعة لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده والناس تحت لوائها أكفاء
والدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء

لقد جئتنا ياأيها النور ، تحمل النور من مصدر النور ، لنقرأ فيك كتاب العجائب المنشور ، فأنت فينا يارسول الله ولن تزال على وجه الزمان ، آية الآيات مادامت الأرض والسموات ، ومتظل فينا تعاليمك السماوية المصونة المرغية ، التى نفديها بالأرواح والآباء والأمهات .

لقد حق فيك قول الله تعالى : ﴿ وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[1]

وكنت جديرا ، أن يجعل الله منك الأسوة الحسنة ، عندما خاطب الأمة فقال : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾[2] .

لقد بنيت بقوة الايمان نفوسا ، وأقمت على نور اليقين قلوبا ، عرفت الطريق إلى الله .

مع العمرين

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم .. إن التشبه بالرجال فلاح

وهذه كلمة عن رجلين أحدهما صحابى ، والأخر تابعى ، وكلاهما من النماذج التى يحتذى بها ، فهما قد حكما المسلمين حكما قام على العدل والحق والزهد والنظافة ، فمن سار على هديهما هدى إلى صراط مستقيم ، وكان ممن يقول الله فيهم :

﴿ إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[3]

إن الرجلين هما عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز

ومما يسرنى ويسعد قلبى ، أن أذكر هنا وصية لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ يقدمها هدية خالصة إلى المؤمنين ، الذين يريدون وجه الله وجواره فى الآخرة .

وقبل أن أكتب هذه الوصية الغالية ، فإننى أذكر نبذة مختصرة عن هذا الخليفة العابد الزاهد ، خامس الخلفاء الراشدين رضى الله عنه وأرضاه :

ـ نسبه رضى الله عنه :

بينما كان الفاروق عمر رضى الله عنه ، يجوب شوارع المدينة ليلا ـ على عادته فى عسسه ـ ينفض

---

(١) الشورى آية : ٥٢
(٢) الأحزاب آية : ٢١

الليل عن أهل الريبة ، وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، إذا بصوت يخترق حجب الليل ، فيرعيه الفاروق سمعه ، ليتبين هذا الحوار العجب .

أم تقول لابنتها : دونك يابنتى هذا اللبن ، فامزجيه بالماء ؛

فتجيب الفتاة أمها : أو ماعلمت ياأمى بما كان اليوم من عزمة أمير المؤمنين ؟

فتقول الأم : وما كان من عزمته يابنية ؟

فتجيبها : أنه أمر مناديه ، فنادى ألا يشاب اللبن بالماء .

فتقول الأم : امزجى يابنتى اللبن بالماء ، فإنك بموضع لايراك فيه عمر ولا منادى عمر !

فتقول البنت : والله ياأمى ماكنت أطيعه فى الملا ، وأعصيه فى الخلا ، وإن استطعت أن أستخفى من عمر ، فكيف أستخفى من رب عمر ؟ !!

سمع أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ذلك الحديث كله ، وكان معه رجل يدعى « أسلم » فقال : ياأسلم : اعلم المكان ، واعرف الموضع ، وما إن تنفس الصبح ، حتى ذهب « أسلم » فى الوجه الذى ابتعثه إليه « عمر » باحثا متقصيا ، ثم عاد فأخبره أنها فتاة تعيش مع أمها ؛ وكلتاهما أيم لا بعل لها .

فما تردد عمر رضى الله عنه أن اختار هذه الفتاة ، التى أعجب بها وبكلامها وبأمانتها وخلقها لابنه (عاصم) ، فولدت لعاصم بنتا هى :

(ليلى بنت عاصم) ، وولدت (ليلى بنت عاصم) : (عمر بن عبد العزيز) الخليفة الزاهد .

ولا عجب بعدما أختار الله له هذه الغصون الطاهرة ، أن ينزع إلى جده ابن الخطاب رضى الله عنه .

فقد أخبر الصادق الأمين صلوات الله وسلامه عليه (تخيروا لنطفكم ، فإن العرق دساس)[1] .

ولقد كان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، أشبه الناس بعمر بن الخطاب حزما ، وعزما ، وعدالة ، وورعا ، ووداعة ، وتواضعا ، وعزوفا عن الدنيا ومافيها من مفاتن ومتاع .

ولقد كان اتفاق كليهما فى الاسم من أعاجيب القدر ، فقد شاءت إرادة الله أن يسمى كل منهما « عمر »

وقد أراد الله أن تأتى الخلافة منقادة إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، تجر أذيالها ، وهو عنها راغب وعنها زاهد ، فكان مثالا يحتذى به فى النزاهة والعدل والرحمة والزهد .. رضى الله عنه وأرضاه .

وبعد أن قدمنا هذا الموجز المختصر عن نشأة الخليفة الزاهد ، نأتى إلى وصيته الغالية فنقول : خطب المسلمين عقب توليه الخلافة فقال ـ بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

(أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شىء ، وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإن من عمل لآخرته كفاه الله أمر دينه ، وإن هذه الأمة لم تختلف فى

---

(١) اتحاف المتقين ج ٥ ص ٣٤٨

ربها ، ولا فى نبيها ، ولا فى كتابها ، وإنما اختلفت فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لاأعطى أحدا باطلا ، ولا أمنع أحدى حقا) ؛

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس جميعا وقال : (ياأيها الناس من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له .. أطيعونى ماأطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم) .

وهكذا تكون الوصايا النافعة :

تبدأ أولا بتقوى الله ، فإن التقوى هى السلاح الأقوى . هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل !! ثم انظر إلى بعد النظر ، وإشراق القلب ، حيث يؤكد عمر جقيقة من الحقائق الواقعية ، إن هذه الأمة ربها واحد ، ونبيها واحد ، وكتابها واحد ، لااختلاف على شىء من هذه القضايا الثابتة ، فإذا وقع اختلاف فى صفوفها ، فلن يكون فى شىء من العقائد ، إنما سيكون الاختلاف على الدرهم ، والدينار ، والدنيا .

وقد سبق أن حذر المصطفى - ﷺ - من الدنيا حيث قال :

(إن هذه الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها : فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء)[1] .

وفى حديث آخر : (إن هذا المال خضر وحلو ، من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه باستشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع)[2] .

صدقت ياسيدى يارسول الله :

إن الغنى وإن تكلم بالخطأ قالوا أصبت ، وصدقوا ماقالا
وإذا الفقير أصاب ، قالوا كلهم أخطأت ياهذا ، وقلت ضلالا
إن الدراهم فى المجالس كلها تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتالا .

عبقريته رضى الله عنه :

وقد كان عمر بن عبد العزيز رجلا عبقريا عظيما ، إذ أنه طبق ماقاله تطبيقا عمليا ، فقد عمد فى اليوم الأول من خلافته إلى كل مظاهر الملك من مواكب مطهمة ، وسرادقات ضخمة ، وفرش فخمة ، فقال لمولاه « مزاحم » :

« يامزاحم : ضم هذا إلى بيت مال المسلمين » .

ودخل على زوجته فاطمة بنت عبد الملك فقال لها : (إن أردت صحبتى ، فردى مامعك من مال وحلى وجواهر إلى بيت مال المسلمين ، فإنه لهم .. فردته جميعه)

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الفتن ج ٢ ص ١٣٢٥ برقم ٤٠٠٠
(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٦ كتاب الرقاق

وفاطمة هذه : هى بنت أمير المؤمنين ، وأخت أمير المؤمنين ، وزوجة لأمير المؤمنين ، ولكن عمر أراد أن يكون معها ، كما قال بعض الحكماء :

ـ وقد حدد موقفه من الأغنياء فقال ـ : (يأكلون ونأكل ، ويلبسون ونلبس ، وعندهم فضل مال ينظرون إليه ، وهم فى القيامة محاسبون عليه ونحن منه براء) .

ذكروا أن هشام بن عبد الملك لما تولى الخلافة بعد أمير المؤمنين عمر ، عرض على أخته فاطمة زوجة عمر ، أن يرد عليها ماوضعه عمر فى بيت مال المسلمين ، من حليها وجواهرها وثيابها ، وقال لها : (قد مات عمر)

فقالت بلسان اليقين . ومنطق الحق المبين : (والله ماكنت لأرضيه وهو حى ، ثم أغضبه وهو ميت)

وأبت أن يرد عليها شىء من ذلك .

ولقد كان لعمر رضى الله عنه غلام اسمه « درهم » يحتطب له ، فسأله عمر يوما عما يقوله الناس ، فقال (درهم) : (وماذا عسى أن يقولوا ؟ الناس كلهم بخير ، وأنا وأنت بشر) .

فقال له عمر : « وكيف ذلك » ؟

قال : (إنى عهدتك قبل الخلافة عطرا ، لباسا ، فاره المركب ، طيب الطعام ، فلما وليت ، رجوت أن أستريح وأتخلص ، فزاد عملى شدة ، وصرت أنت فى بلاء) .

فقال عمر : (فأنت حر . اذهب عنى ودعنى وما أنا فيه) .

* فضل الله على داود وسليمان عليهما السلام *

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

معانى المفردات

فضلا : أى أمرا عظيما فضلناه به على غيره ، والمراد به النبوة والزبور ، وقيل : ماخصه الله تعالى به على سائر الأنبياء من النعم ، كتسخير الجبال ، والطير ، وإلانة الحديد ، وحسن الصوت ، وغير ذلك من النعم .

أوبى معه : أى سبحى معه ، ورجعى معه التسبيح قال تعالى : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق** ﴾(١) .

قال القرطبى : فكان إذا قرأ الزبور صوتت الجبال معه ، وأصغتْ إليه الطير ، فكأنها فعلت مافعل .

قال ابن قتيبه ! وأصل التأويب فى السير ، وهو أن يسير النهار كله وينزل ليلا ، فكأنه أراد : أو أبى النهار كله بالتسبيح معه إلى الليل . وقيل المعنى : سيرى معه حيث شاء ، من التأويب وهو السير .

سابغات : أى دروعا واسعات ، فذكر الصفة ، لأنها تدل على الموصوف والسابغات : الدروع الكوامل التى تغطى لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض .

وقدر فى السرد أى فى النسج ، والمراد اجعله على قدر الحاجة ، لاتجعل حلق الدرع صغيرة ، فتنفصم الحلقة ، ولا واسعة فلا تقى صاحبها السهم والرمح .

قال قتادة : كانت الدروع قبل داود صفائح فكانت ثقالا ، فأمر بأن يجمع بين الخفة والحصانة ، ويقال لصانع الدروع سراد وزراد بإبدال السين بالزاى . والسرد : إتباع الشيء بالشيء من جنسه .

قال القرطبى : وأصل ذلك فى سرد الدرع ، وهو أن يحكمها ويجعل نظام حلقها ولاء غير مختلف .

عين القطر : قال الزجاج : القطر الصفر وهو النحاس . أذيب لسليمان وكان قبل سليمان لايذوب لأحد .

قال المفسرون : اجرى الله لسليمان عين الصفر ، حتى صنع منها ماأراد من غير نار ، كما ألين لداود الحديد بغير نار ، فبقيت تجرى ثلاثة أيام ولياليهن كمجرى الماء ، وإنما يعمل الناس اليوم مما أعطى سليمان .

قال القرطبى : (وتخصيص الاسالة بثلاثة أيام لايدرى مأخذه ، ولعله وهم من الناقل ، والظاهر أنه جعل النحاس لسليمان فى معدنه عينا تسيل كعيون الماء ، دلالة على نبوته .

يزغ : أى يعدل عن أمرنا الذى أمرنا به من طاعة سليمان ، يقال : زاغ أى مال وانصرف .

محاريب : أى قصور عظيمة ، ومساكن حصينة ـ قال القرطبى : المحراب فى اللغة كل موضع مرتفع ، وقيل للذى يصلى فيه محراب ، لأنه يجب أن يرفع ويعظم .

وروى عن أبى عبيدة أنه قال : المحراب أشرف بيوت الدار ، وقيل : هو مايرقى إليه بالدرج كالغرفة الحسنة ، قال تعالى : ﴿ **إذ تسوروا المحراب** ﴾(٢) .

وقيل المراد بالمحاريب : المساجد ، ونقل عن قتادة أنها المساجد والقصور الشامخة ، وسمى القصر بالمحراب ، لأنه يحارب من أجله ، ومما يرجح هذا الرأى ، أن الله تعالى ذكر أنها من عمل الجن ، ولعل عمل القصور الضخمة الشامخة كان مما يستعصى على الناس فى ذلك الزمن ، لجهلهم بفن

---

(١) ص آية : ١٨

(٢) ص آية : ٢١

العمارة ؛ فكانت الجن مسخرة لسليمان لتعمل له تلك الأعمال التى يعجز عنها البشر .

وتماثيل : وهو فى اللغة : الصورة ، ومثل الشيء : صوره حتى كأنه ينظر إليه . قال فى اللسان : ومثل الشيء بالشيء سواه وشبهه به ، وجعله مثله وعلى مثاله ، والتمثال : اسم للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله ، وأصله من مثلت الشيء بالشيء : إذا قدرته على قدره ، ومثال الشيء مايماثله ويحكيه ، ولم يرد فى القرآن هذا الوزن (تفعال) إلا فى لفظين : (تلقاء ، وتبيان) .

وقال القرطبى : « التمثال : كل ماصور على مثل صورة من حيوان ، أو غير حيوان .

وجفان : جمع جفنة ، وهى القصعة الكبيرة

قال أبو عبيدة : كان لعبد الله بن جدعان جفنة يأكل منها القائم والراكب ، وذكر المدائنى أنه وقع فيها صبى فغرق .

كالجواب : جمع جابيه ، وهى الحوض الكبير يجبى فيه الماء . أى يجمع .

قال المفسرون : كان الجن يصنعون لسليمان القصاع كحياض الابل يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها .

راسيات : أى ثوابت ، يقال : رسا الشيء يرسو : إذا ثبت ، والمراد أنها لعظمها لاتنقل ، فهى ثابتة فى أماكنها ، ومنه قيل للجبال : رواسى قال تعالى : ﴿ **وجعلنا فيها رواسى شامخات** ﴾[1] .

دابة الأرض : هى حشرة تسمى (الأرضة) تأكل الخشب وتنخره .

منسأته : المنسأة : العصا ، وهى (مفعلة) من نسأت الدابة : إذا سقتها .

قال الزجاج : وإنما سميت منسأة لأنه ينسأبها : أى يطرد ويزجر .

خر : سقط على الأرض أى سقط ميتا .

العذاب المهين : المراد به التكاليف والأعمال الشاقة التى كلف سليمان عليه السلام بها الجن .

قال المفسرون : كانت الانس تقول : إن الجن يعلمون الغيب ، الذى يكون فى المستقبل ، فوقف سليمان عليه السلام فى محرابه يصلى متوكئا على عصاه ، فمات ومكث على ذلك حولا ، والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ، ولا تعلم بموته ، حتى أكلت الأرضة عصا سليمان ، فسقط على الأرض فعلموا موته . وعلم الانس أن الجن لاتعلم الغيب ، ولو علموا الغيب لما أقاموا هذه المدة الطويلة فى الأعمال الشاقة .

المناسبة وإجمال المعنى

يخبر المولى تعالى بما أنعم على عبده ورسوله (داود) عليه السلام ، من الفضل المبين ، والجاه العظيم ، حيث جمع له بين (النبوة والملك) والجنود ذوى الغدد والعدد ، وما منحه إياه من الصوت

(١) المرسلات آية: ٢٧

الرخيم ، الذى كان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات . وإذا قرأ الزبور تقف له الطيور السارحات والغاديات والرائحات ، تكف عن طيرانها ، ثم تردد معه الزبور مع التسبيح والتمجيد ، معجزة له عليه السلام ، وقد آلان الله تعالى له الحديد ، حتى كان بين يديه كالعجين ، يصنع منه الدروع السابغة ، التى تقى الانسان شر الحروب ، كما قال تعالى : ﴿ **وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾(١) .

وكما أنعم الله على (داود) أنعم على ولده (سليمان) عليهما الصلاة والسلام ، فسخر له الريح ، وسخر الجن ، وعلمه لغة الطير ، وأسأل له عين النحاس ، فكانت عينا جارية تسيل بقدرة الله ، وكانت الريح تقطع به المسافات الشاسعة الواسعة ، فى ساعات معدودات ، تحمله مع جنده ، فتنتقل به من بلد إلى بلد ، وتسير به مسيرة شهرين فى أقل من نهار واحد (غدوها شهر ورواحها شهر) أى تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر أخر ، وكأنها (طائرة نفاثة) تحمل ذلك الجيش العرمرم ، وتنتقل به فى ساعات محدودات ، تقطع به مسيرة شهرين ، كما سخر له الجن يعمل بين يديه بأمره وإرادته ، مايعجز عنه البشر من القصور الشاخة ، والتماثيل العجيبة ، والقصاع الضخمة ، التى تشبه الأحواض ، والقدور الراسيات ، التى لاتتحرك لكبرها وضخامتها ، وأمره أن يشكر الله على هذه النعم .

ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له فى الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكئا على عصاه نحو سنة ، وهو ميت ، والجن لاتعلم ذلك ، حتى أكلت الأرضة العصا فكسرت ، وسقط على الأرض ، فعلموا حينئذ موته ، ولو كانوا يعلمون الغيب ، مامكثوا هذه المدة الطويلة مسخرين فى الأعمال الشاقة ، التى كلفهم بها سليمان عليه السلام .

ومناسبة قصة (داود) وولده (سليمان) عليهما السلام لما سبق من الآيات الكريمة هى : أن الكفار لما أنكروا البعث والنشور لاستحالته فى نظرهم ، أخبرهم الله عز وجل بوقوع ماهو مستحيل فى العادة ، مما لايمكنهم إنكاره ، من تأويب الجبال والطير وإلانة الحديد ، حتى كان بين يديه كالشمع ، أو كالعجين ، مع أنه جرم صلب ، وكذلك تسخير الريح لسليمان تحمله مع جنده ، وإسالة النحاس له حتى كان يجرى بقدرة الله كمجرى الماء ، وتسخير الجن تعمل له ماشاء ، وكل هذا أثر من آثار قدرة الله عز وجل ، فلا استحالة إذن ، لأن الله على كل شيء قدير ، وهذه هى وجه المناسبة بين هذه الآيات الكريمة ، والآيات السابقة .

التفسير

لطائف التفسير :

اللطيفة الأولى : خص الله تعالى نبيه (داود) عليه السلام ببعض الخصوصيات فسخر له الجبال

---

(١) الأنبياء آية : ٨٠

والطير تسبح معه ، وألان له الحديد ، وجمع له بين (النبوة والملك) كما جمع ذلك لولده (سليمان) عليه السلام ، وذلك من الفضل الذى أعطيه آل داود .

قال ابن عباس : كانت الطير تسبح مع داود إذا سبح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته ، وبكت لبكائه .

وقال وهب بن منبه : كان يقول للجبال : سبحى ، وللطير ، أجيبى ، ثم يأخذ فى تلاوة الزبور بصوته الحسن ، فلا يرى الناس منظرا أحسن من ذلك ، ولا يسمعون شيئا أطيب من ذلك .

اللطيفة الثانية : التنكير فى قوله تعالى : ﴿ **فضلا** ﴾ للتفخيم أى فضلا عظيما خصصناه به من بين سائر الأنبياء ، وقوله : ﴿ **منا** ﴾ فيه إشارة إلى أن هذا الفضل هائل ، لأنه صادر من الله تعالى مباشرة ، تكريما لنبيه داود ، كما قال تعالى عن العبد الصالح : ﴿ **آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما** ﴾[(١)] .

قال أبو السعود : وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم ، والتشويق إلى المؤخر ، فإن ماحقه التقديم إذا أخر ، تبقى النفس مترقبة له ، فإذا ورد يتمكن عندها فضل تمكن .

اللطيفة الثالثة : ذكر سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم ست عشرة مرة ، ولم يجىء ذكره لتوفيه قصة بتمامها ، وإنما هو لتعداد آلاء الله على سليمان ، فمنها ذكاؤه وبصره النافذ فى الحكم والقضاء ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **ففهمناها سليمان** ﴾[(٢)] ومنها تعليمه منطق الطير ﴿ **وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير** ﴾[(٣)] ومنها تسخير الريح له تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ﴿ **ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾ ومنها إسالة عين القطر وهو النحاس المذاب ، وفى القرآن إشارة إلى عملية صهر المعادن الصلبة ﴿ **وأسلنا له عين القطر** ﴾ ومنها تسخير الجن يعملون له مايعجز عنه البشر ﴿ **والشياطين كل بناء وغواص** ﴾[(٤)] وقوله ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه** ﴾ وقد أعطاه الله الجاه الكبير ، والسلطان الواسع ، والملك العظيم الذى لم يعطه أحد بعده ﴿ **قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى** ﴾[(٥)] .

وكل هذا من الفضل الذى خص الله تبارك وتعالى به آل داود عله السلام

اللطيفة الرابعة : قال العلامة ابو السعود رحمه الله : قوله تعالى : ﴿ **ياجبال أوبى معه والطير** ﴾ « فى تنزيل الجبال والطير منزلة العقلاء المخاطبين المطيعين لأمره تعالى ، المذعنين لحكمه . المشعر بأنه مامن حيوان وجماد وصامت وناطق ، إلا وهو منقاد لمشيئته تعالى غير ممتنع على إرادته ، من الفخامة المعربة عن غاية عظمة شأنه تعالى ، وكمال كبرياء سلطانه مالايخفى على أولى الألباب » .

---

(١) الكهف آية : ٦٥
(٢) الأنبياء آية : ٧٩
(٣) النمل آية : ١٦
(٤) ص آية : ٣٧
(٥) ص آية : ٣٥

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أى مسيرة شهر ، فهو على حذف مضاف ، والتقدير غدوها مسيرة شهر ، ورواحها مسيرة شهر ، وإنما وجب هذا التقدير ، لأن الغدو والرواح ليسا بالشهر ، وإنما يكونان فيه ، فتنبه له فإنه دقيق .

قال قتادة : (كانت الريح تغدو مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وتروح مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فهى تسير فى اليوم الواحد مسيرة شهرين)

اللطيفة السادسة : قوله تعالى : ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه** ﴾ الآية فإن قيل : إن الاجتماع بالجن فيه مفسدة للانسان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطن وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾[1] فكيف سخرت الشياطين لسليمان عليه السلام ؟

فالجواب : أن ذلك الاجتماع والتسخير كان بأمر الله عز وجل وتسخيره ، بدليل قوله : ﴿ **بإذن ربه** ﴾ فلم يكن فيه مفسدة ، وإنما كان فيه مصلحة لسليمان عليه السلام ، ولفظ الرب ينبىء عن التربية والحفظ والرعاية ، فسليمان عليه السلام كان فى حفظ الله ورعايته ، فلذلك لم يصله ضرر من جهتهم .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى : ﴿ **ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير** ﴾ فى الآية الكريمة إشارة دقيقة ، إلى أن الجن الذين كانوا مسخرين لسليمان ، لم يكونوا من المؤمنين ، وإنما كانوا من المردة الكافرين ، لأن سليمان لايعذب المؤمنين ، ولايذيقهم أنواع العذاب ، لأن كل رسول يكون رحيما بأتباعه ، ودل على هذا المعنى ايضا قوله تعالى : ﴿ **مالبثوا فى العذاب المهين** ﴾ لأن المؤمن لايكون فى زمان النبى فى العذاب المهين .

اللطيفة الثامنة

قوله تعالى : ﴿ **وقليل من عبادى الشكور** ﴾ فيه إشارة إلى أن الشكر الوافر الكامل ، بالقلب واللسان والجوارح لايمكن أن يتحقق ، لأن التوفيق لشكر الله تعالى نعمة من الله ، تستدعى شكرا آخر لاإلى نهاية ، ولذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر ، وأما الشكر الذى يناسب نعم الله ، فلا قدرة لأحد عليه و ﴿ **لايكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾[2] ومع ذلك فإن الشكر بقدر الطاقة قليل فى الناس ، والكفران لنعم الله أكثر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : هل كانت التماثيل مباحه فى شريعة سليمان عليه السلام ؟ يدل ظاهر الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : ﴿ **يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب** ﴾ على حل اتخاذ التماثيل ، وعلى أنها كانت مباحه فى شريعة سليمان عليه السلام ، فالقرآن الكريم صريح فى امتنان الله تعالى على (سليمان) بأن سخر له الجن تعمل له مايشاء من (محاريب ، وتماثيل ، وجفان

---

(١) المؤمنون الآيتان : ٩٧ ، ٩٨

(٢) البقرة آية : ٢٨٦

كالجواب ، وقدور راسيات) وتخصيص هذه الأشياء بالذكر فى معرض الامتنان ، دليل على جوازها ، وإذن من الله تعالى باتخاذها ، وللعلماء فى هذه الآية الكريمة أقوال نجملها فيما يلى :

ا ـ إن التماثيل التى أشار اليها القرآن كانت مباحة فى شريعة سليمان ، وقد نسخت فى الشريعة الاسلامية ، ومن المعلوم أن شريعة ماقبلنا إنما تكون شريعة لنا إذا لم يرد ناسخ ، وقد وجد هذا الناسخ ، فيكون اتخاذ التماثيل محرما فى شريعتنا قطعا .

ب ـ إن التماثيل التى كانت فى عهد نبى الله سليمان عليه السلام ، لم تكن تماثيل لذى روح من إنسان أو طير أو حيوان ، وإنما كانت تماثيل لما لاروح فيه له ، كالأشجار والبحار والمناظر الطبيعية ، فتكون شريعته عليه السلام موافقة لشريعتنا ، كما نبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الحكم الثانى :

ماهو حكم التماثيل والصور فى الشريعة الاسلامية ؟

نعى القرآن الكريم على التماثيل وشنع على من كان يعكف عليها ﴿ **ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ؟** ﴾[1] ونلدد بمن يتخذ الأصنام والأوثان آلهة ﴿ **أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون** ﴾[2]

وفى القرآن الكريم من قصص إبراهيم عليه السلام فى تحطيم الأصنام ، ماهو معروف ، وقد ورد أن رسولنا الأعظم ﷺ ، حطم الأصنام ، التى كانت فى جوف الكعبة ، والتى كانت على الصفا والمروة .

والدين الاسلامى دين التوحيد ، وعدو الشرك ، وليس فى الاسلام ذنب أعظم من الشرك ، ولذلك فقد كانت حملته الشديدة على الوثنية وعبادة الأصنام ، وحرمت الشريعة الاسلامية (التماثيل) لأنها تؤدى إلى ذلك المنكر الفاحش .

والسنة المطهرة جاءت بالنعى على التصوير والمصورين ، والنهى عن اتخاذ الصور والتنفير منها ، ولذلك فإن من المقطوع به أن الاسلام حرم التماثيل والتصاوير تحريما قاطعا جازما .

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تدل على التحريم . حتى كادت تبلغ حد التواتر . وسنعرض إلى ذكر بعض هذه النصوص فنقول ومن الله نستمد العون .

الأدلة القاطعة على تحريم التصوير

النص الأول : روى البخارى ومسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)[3]

---

(١) الأنبياء آية : ٥٢

(٢) الصافات الآيتان : ٩٥ ، ٩٦

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب ومسلم فى كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٦٦٨ برقم ٢١٠٧/٩٢

النص الثانى : روى البخارى ومسلم وأصحاب السنن أن رسول الله ﷺ قال (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ماخلقتم)[١] .

النص الثالث : روى البخارى ومسلم وأحمد عن أبى زرعه قال : دخلت مع أبى هريرة دار مروان ابن الحكم . فرأى فيها تصاوير وهى تبنى فقال : (سمعت رسول الله ﷺ يقول قال الله عز وجل : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى ، فليخلقوا ذرة ، أو فليخلقوا حبة ، أو فليخلقوا شعيرة)[٢] .

النص الرابع : روى البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلا قال له : إنى أصور هذه الصور فأفتن فيها ، فقال له أدن منى فدنا ، ثم قال : أدن منى فدنا ، حتى وضع يده على رأسه وقال : أنبئك بما سمعت من رسول الله ﷺ سمعته يقول :

(كل مصور فى النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس فيعذبه فى جهنم)[٣] .

قال ابن عباس : (فإن كنت لابد فاعلا فصور الشجر ومالا روح فيه)

وفى رواية أخرى منه : سمعته يقول : (من صور صورة فإن الله يعذبه حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدا)[٤] ثم قال له ابن عباس : إن ابيت إلا أن تصنع ، فعليك بهذه الأشجار ، كل شىء ليس فيه روح)

النص الخامس : روى الشيخان وأصحاب السنن عن عائشة رضى الله عنها أنها اشترت نمرقة فيها تصاوير ، فلما رآها النبى ﷺ قام على الباب فلم يدخل ، قالت : فعرفت فى وجهه الكراهية ، فقلت يارسول الله ، أثوب إلى الله ورسوله ماذا أذنبت ؟ فقال : مابال هذه النمرقة ؟ قلت اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها فقال : إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، فيقال لهم : أحيوا ماخلقتم ، وقال : إن البيت الذى فيه الصور لاتدخله الملائكة)[٥] .

النص السادس : روى مسلم فى صحيحه عن أبى الهياج الأسدى قال :

قال لى على رضى الله عنه : (ألا أبعثك على مابعثنى عليه رسول الله ﷺ ألا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته)[٦] .

النص السابع : (روى الستة عن عائشة رضى الله عنها قالت :

خرج النبى ﷺ فى غزاة فأخذت نمطا فسترته على الباب ، فلما قدم ورأى النمط عرفت الكراهة فى وجهه ،

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس والزينة باب عذاب المصورين يوم القيامة ج ٧ ص ٢١٥ طبع الشعب وأخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٩٦/ ٢١٠٧

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب مسلم كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ١٠١/ ٢١١١

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٧٠ برقم ٩٩/ ٢١١٠

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب/ مسلم فى اللباس ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ١٠٠/ ٢١١٠

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب/ ومسلم فى اللباس ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٩٦/ ٢١٠٧

(٦) أخرجه أحمد ج ١ ص ٨٧/ ومسلم فى كتاب الجنائز ج ٢ ص ٦٦٦ برقم ٩٣/ ٩٦٩ .

فجذبه حتى هتكه وقال : (ان الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين !!
قالت عائشة : فقطعت منه وسادتين وحشوتهما ليفا ، فلم يعب ذلك على)[١] .
النص الثامن : روى الشيخان والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت :
لما اشتكى النبى ﷺ ذكر بعض نسائه كنيسة يقال لها (مارية) وكانت أم سلمة ، وأم حبيبة أتتا أرض الحبشة ، فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها فرفع ﷺ رأسه فقال : (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله)[٢]
أقول : هذه النصوص وأمثالها كثير ، تدل دلالة قاطعة على حرمة التصوير . وكل من درس الاسلام علم علم اليقين أن النبى ﷺ حرم التصوير ، واقتناء الصور وبيعها .
وكان يحطم مايجده منها ، وقد ورد تشديد الوعيد على المصورين ، واتفق الأئمة الأربعة على تحريم الصور ، لم يخالف فى ذلك أحد .
ولبعض العلماء استثناء شىء منها . سنذكره فيما بعد . كما نذكر علة التحريم ، ونعرج بعد ذلك على حكم التصوير الشمسى (الفوتوغرافى) وننقل آراء العلماء فيه على ضوء النصوص الكريمة .

« العلة فى تحريم التصوير »

يظهر لنا من النصوص النبوية السابقة ، أن العلة فى تحريم التماثيل والصور ، هى (المضاهاة) والمشابهة لخلق الله تعالى يدل على ذلك :
أ ـ حديث : (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)[٣]
ب ـ وحديث : (إن أصحاب هذه الصور يعذبون : ـ يقال لهم : أحيوا ماخلقتم)[٤] .
ج ـ وحديث (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى . . فليخلقوا حبه ، أو فليخلقوا شعيرة)
فالعلة هى إذن : التشبه بخلق الله ، والمضاهاة لصنعه جل وعلا كما أن الحكمة أيضا فى تحريم التصوير هى : البعد عن مظاهر الوثنية ، وحماية العقيدة من الشرك ، وعبادة الأصنام ، فما دخلت الوثنية إلى الأمم الغابرة إلا عن طريق (الصور والتماثيل) كما دل عليه حديث أم سلمة وأم حبيبة السابق ، وفيه قوله عليه الصلاة والسلام :
(أولئك كان اذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، ثم صوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار خلق الله يوم القيامة) .
وقد روى أن الأصنام التى عبدها قوم نوح (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا) التى ذكرت فى القرآن الكريم فى سورة نوح ـ كانت أسماء لأناس صالحين من قوم نوح ، فلما ماتوا اتخذ قومهم لهم صورا ، تذكيرا بهم وبأعمالهم ، ثم انتهى الحال آخر الأمر إلى عبادتهم .

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٧/ ٢١٠٧/ أحمد ج ٦ ص ٢٤٧
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب ٥٤ ج ١ ص ١١٨
(٣) سبق تخريجه ص ٦٧
(٤) سبق تخريجه ص ٦٧

ذكر الثعلبى عن ابن عباس : فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا لاتذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولاسواعا ولايغوث ويعوق ونسرا ﴾[1]

أنه قال : هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا ، أوحى الشيطان إلى قومهم ، أن أنصبوا فى مجالسهم ، التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم تذكروهم بها ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عبدت من دون الله .

قال ابو بكر ابن العربى : (والذى أوجب النهى فى شريعتنا ـ والله أعلم ـ ماكانت عليه العرب من عبادة الأوثان والأصنام ، فكانوا يصورون ويعبدون ، فقطع الله الذريعة وحمى الباب)

قال ابن العربى : (وقد شاهدت بثغر الاسكندرية . إذا مات ميت صوروه من خشب فى أحسن صورة ، وأجلسوه فى موضعه من بيته ، وكسوه بزيه ان كان رجلا ، وحليتها ان كانت امرأة واغلقوا عليه الباب ، فإذا أصاب واحدا منهم كرب أو تجدد له مكروه ، فتح الباب عليه ، وجلس عنده يبكى ويناجيه ، حتى يكسر صورة حزنه بأهراق دموعه ، ثم يغلق الباب عليه وينصرف ، وإن تمادى بهم الزمان تعبدوها من جملة الأصنام) (أحكام القرآن لابن العربى ج ٣)

« أنواع الصور »

قسم العلماء الصور إلى قسمين :

١ ـ الصور التى لها ظل وهى المصنوعة من جبس ، أو نحاس ، أو حجر أو غير ذلك وهذه تسمى (التماثيل) .

ب ـ الصور التى ليس لها ظل ، وهى المرسومة على الورق ، أو المنقوشة على الجدار ، أو المصورة على البساط والوسادة ونحوها ، وتسمى (الصور) .

فالتمثال : ماكان له ظل ، والصورة ، مالم يكن لها ظل ، فكل تمثال صورة ، وليس كل صورة تمثالا .

قال فى لسان العرب : « والتمثال : الصورة ، والجمع التماثيل ، وظل كل شىء تمثاله ، والتمثال : اسم للشىء المصنوع شبها بخلق الله من خلق الله . وأصله : من مثلت الشىء بالشىء إذا قدرته على قدره ، ويكون تمثيل الشىء بالشىء تشبيها به ، واسم ذلك الممثل تمثال » . .

وقال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ وتماثيل ﴾ جمع تمثال ، وهو كل ماصور على مثل صورة من حيوان أو غير حيوان . وقيل : كانت من زجاج ، ونحاس ، ورخام ، وذكر أنها صور الأنبياء والعلماء ، وكانت تصور فى المساجد ليراها الناس ، فيزدادوا عبادة واجتهادا . .

فإن قيل : كيف استجاز الصور المنهى عنها ؟

قلنا : كان ذلك جائزا فى شرعه . ونسخ ذلك بشرعنا .

---

(١) نوح آية : ٢٣

مايحرم من الصور والتماثيل

يحرم من الصور والتماثيل مايأتى :

أولا : التماثيل المجسمة ، إذا كانت لذى روح من إنسان ، أو حيوان ، تحرم بالاجماع للحديث الشريف ، (إن الملائكة لاتدخل بيتا فيه كلب ، ولا صورة ولا تماثيل ولا جنب)(١) .

ثانيا : الصورة المصورة باليد لذى روح حرام بالاتفاق لقوله ﷺ :

(إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم : أحيوا ماخلقتم)(٢) والحديث : (من صور صورة فى الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة وليس بنافخ)(٣) . « رواه أصحاب السنن »

ثالثا : الصورة إذا كانت كاملة الخلق ، بحيث لاينقصها إلا نفخ الروح ، حرام كذلك بالاتفاق لقوله عليه الصلاة والسلام فى الحديث السابق : (أمر أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) .

والحديث عائشة : (دخل على رسول الله ﷺ وأنا مستترة بقرام فيه صورة ، فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه ، ثم قال : إن من أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يشبهون خلق الله . قالت عائشة : فقطعته فجعلت منه وسادتين : فكان النبى ﷺ يرتفق بهما)(٤)

* معنى : (قرام) ستر رقيق .

فهتكه عليه السلام للستر يدل على التحريم ، وتقطيع عائشة له وجعله وسادتين ، بحيث انفصلت أجزاء الصورة ، ولم تعد صورة كاملة ، تدل على الجواز ، فمن هنا استنبط العلماء ، أن الصورة ، إذا لم تكن كاملة الأجزاء فيها .

رابعا : الصورة إذا كانت بارزة تشعر بالتعظيم ، ومعلقة بحيث يراها الداخل حرام أيضا بلا خلاف ، لحديث عائشة رضى الله عنها قالت : (كان له ستر فيه تمثال طائر ، وكان الداخل إذا دخل استقبله ، فقال رسول الله ﷺ : حولى عنى هذا ، فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا)(٥) . رواه مسلم والحديث أبى طلحة عن عائشة قالت : (خرج النبى ﷺ فى غزاة فأخذت نمطا فسترته على الباب ، فلما قدم ورأى النمط عرفت الكراهة فى وجهه ، فجذبه حتى هتكه وقال : إن الله لم يأمرنا أن نكسو الحجارة والطين ، قالت : فقطعت منه وسادتين وحشوتهما ليفا ، فلم يعب ذلك على)(٦) . (رواه الستة) .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٥ برقم ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٢١٠٦/٨٧ البخارى ج ٧ ص ٢١٦ ، ٢١٧ ط الشعب ، ترغيب ج ٤ ص ٧٤ رقم ١٤

(٢) سبق تخريجه ص ٦٧

(٣) أخرجه البخارى ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب ومسلم ج ٣ ص ١٦٧١ برقم ١٠٠/ ٢١١٠

(٤) أخرجه البخار فى كتاب اللباس ج ٧ ص ٢١٥ ط الشعب مسلم باب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٨ برقم ٩٢/ ٢١٠٦

(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٨/ ٢١٠٧ ط الشعب

(٦) أخرجه مسلم فى اللباس ج ٣ ص ١٦٦٦ برقم ٨٧/ ٢١٠٧ ط الشعب

« مايباح من الصور والتماثيل »

ويباح من الصور والتماثيل مايأتى :

أ ـ كل صورة أو تمثال ماليس بذى روح ، كتصوير الجمادات ، والأنهار والأشجار ، والمناظر الطبيعية التى ليست بذات روح ، فلا حرمة فى تصويرها ، لحديث ابن عباس السابق حين سأله الرجل إنى أصور هذه الصور فأفتنى فيها ؟ فأخبره بحديث رسول الله ﷺ ، ثم قال له ابن عباس : (إن كنت لابد فاعلا فصور الشجر ، وما لاروح له) .

ب ـ كل صورة ليست متصلة الهيئة ، كصورة اليد وحدها مثلا ، أو العين أو القدم ، فإنها لاتحرم ، لأنها ليست كاملة الخلق ، لحديث عائشة :

(فقطعتها فجعلت منها وسادتين فلم يعب ﷺ ذلك على) .

ج ـ ويستثنى من التحريم (لعب البنات) لما ثبت عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ تزوجها وهى بنت سبع سنين وزفت إليه وهى بنت تسع ولعبها معها ، ومات عنها وهى بنت ثمان عشرة سنة) . رواه مسلم .

وروى عنها أنها قالت : (كنت ألعب بالبنات عند النبى ﷺ ، وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل ينقمعن منه فيسربهن إلى فيلعبن معى)

* معنى (ينقمعن) أى يتغيبن من البيت حياء منه ﷺ .

ـ معنى : (يسربهن) أى يرسلهن ويبعثهن .

قال العلماء : وإنما أبيحت لعب البنات للضرورة إلى ذلك ، وحاجة البنات ، حتى يتدربن على تربية أولادهن ، ثم إنه لابقاء لذلك ، ومثله مايصنع من الحلاوة أو العجين لابقاء له ، فرخص فى ذلك والله أعلم .

* أقوال العلماء فى التصوير

قال القاضى ابن العربى : مقتضى الأحاديث يدل على أن الصور ممنوعة ، ثم جاء :(إلا ماكان رقما فى ثوب) فخص من جملة الصور ،

ثم ثبتت الكراهية فيه بقوله عليه السلام لعائشة فى الثوب المصدر : (أخريه عنى فإنى كلما رأيته ذكرت الدنيا)[1] .

ثم بهتكه الثوب المصور على عائشة منع منه ، ثم بقطعها له وسادتين تغيرت الصورة وخرجت عن هيئتها ، فإن جواز ذلك إذا لم تكن الصورة فيه متصلة الهيئة ، ولو كانت متصلة الهيئة لم يجز ، لقولها فى النمرقة المصورة : اشتريتها لك لتقعد عليها وتوسدها ، فمنع منه وتوعد عليه ، ثم نسخه المنع منه ، فهكذا استقر الأمر فيه .

---

(١) أخرجه البخارى باب اللباس ج ٧ ص ٢١٦

وقال أبو حيان : (والتصوير حرام فى شريعتنا ، وقد ورد تشديد الوعيد على المصورين ، ولبعض العلماء استثناء فى شيء منها ، وفى حديث (سهل بن حنيف) : لعن الله المصورين)(١)، ولم يستثن عليه السلام ، وحكى أن قوما أجازوه ، قال ابن عطيه : وما أحفظ من أئمة العلم من يجوزوه .

وقال الألوسى : (الحق أن حرمة تصوير الحيوان كاملا لم تكن فى شريعة سليمان عليه السلام ، وإنما هى فى شرعنا ، ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظل ، أو لاتكون كذلك كصورة الفرس المنقوشة على كاغد ، أو جدار مثلا ، وقد ورد فى شرعنا من تهديد الوعيد على المصورين ماورد ، فلا يلتفت إلى غيره ، ولا يصح الاحتجاج بالآية)

وقال القرطبى : (لعن رسول الله ﷺ المصورين ولم يستثن ، وقال : (إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ماخلقتم)(٢) .

وفى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

(يخرج عنق من النار يوم القيامة ، له عينان تبصران ، وأذنان تسمعان ، ولسان ينطق يقول : إنى وكلت بثلاثة : بكل جبار عنيد ، وبكل من دعا مع الله إلها آخر ، وبالمصورين)(٣) .

وفى البخارى : (أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون)(٤) يدل على المنع من تصوير أى شيء كان .

وقال الامام النووى : إن جواز اتخاذ الصور ، إنما هو إذا كانت لاظل لها ، وهى مع ذلك مما يوطأ ويداس ، أو يمتهن بالاستعمال كالوسائد .

وقال العلامة ابن حجر فى شرحه للبخارى : (حاصل ما فى اتخاذ الصور أنها إن كانت ذات أجسام حرم بالاجماع) وإن كانت رقما فى ثوب فأربعة أقوال :

الأول : يجوز مطلقا عملا بحديث إلا رقما فى ثوب .

الثانى : المنع مطلقا عملا بالعموم .

الثالث : إن كانت الصورة باقية بالهيئة ، قائمة الشكل حرم ، وإن كانت مقطوعة الرأس ، أو تفرقت الأجزاء جاز ، قال : وهذا هو الأصح .

الرابع : إن كانت مايمتهن جاز وإلا لم يجز ، واستثنى من ذلك لعب البنات .

« حكم التصوير الفوتوغرافى »

يرى بعض المتأخرين من الفقهاء ، أن التصوير الشمسى (الفوتوغرافى) لايدخل فى دائرة

---

(١) أخرجه البخارى فى باب اللباس ج ٧ ص ٢١٧ ط الشعب

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ج ٣ ص ١٦٦٩ برقم ٩٦/ ٢١٠٧

(٣) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ١٠٣ برقم ٢٧٠٠

(٤) أخرجه مسلم ج ٣ ص ١٦٧٠ كتاب اللباس برقم ٩٨/ ٢١٠٩

التحريم الذى يشمله التصوير باليد المحرم ، وأنه لاتتناوله النصوص النبوية الكريمة ، التى وردت فى تحريم التصوير ، إذ ليس فيه (مضاهاة) أو مشابهة لخلق الله ، وأن حكمه حكم الرقم فى الثوب المستثنى بالنص .

يقول فضيلة الشيخ السايس مانصه :(ولعلك تريد أن تعرف حكم مايسمى بالتصوير الشمسى ، فتقول : يمكنك أن تقول إن حكمها حكم الرقم فى الثوب ، وقد علمت استثناءه نصا ، ولك أن تقول : إن هذا ليس تصويرا . بل حبسا للصورة ، وما مثله إلا كمثل الصورة فى المرآة . لايمكنك أن تقول إن مافى المرآة صورة ، وإن أحدا صورها .

والذى تصنعه آلة التصوير هو صورة لما فى المرآة ، غاية الأمر أن المرآة (الفوتوغرافية) تثبت الظل الذى يقع عليها ، والمرآة ليست كذلك ، ثم توضع الصورة أو الخيال الثابت (العفريتة) فى حمض خاص فيخرج منها عدة صور .

وليس هذا بالحقيقة تصويرا ، فإنه إظهار واستدامة لصور موجودة . وحبس لها عن الزوال ، فإنهم يقولون : إن صور جميع الأشياء موجودة غير أنها قابلة للانتقال بفعل الشمس والضوء ، مالم يمنع من انتقالها مانع ،

والحمض هو ذلك المانع ، ومادام فى الشريعة فسحة بإباحة هذه الصورة كاستثناء الرقم فى الثوب ، فلا معنى لتحريمها ، خصوصا وقد ظهر أن الناس قد يكونون فى أشد الحاجة إليها .

أقول : إن التصوير الشمسى (الفوتوغرافى) لايخرج عن كونه نوعا من أنواع التصوير ، فما يخرج بالآلة يسمى (صورة) . والشخص الذى يحترف هذه الحرفة ، يسمى فى اللغة والعرف (مصورا) فهو وإن كان لايشمله النص الصريح ، لأنه ليس تصويرا باليد ، وليس فيه مضاهاة لخلق الله إلا أنه لايخرج عن كونه ضربا من ضروب التصوير ، فينبغى أن يقتصر فى الاباحة على (حد الضرورة) ، وما يتحقق به من المصلحة ، قد يكون إلى جانبها مفسدة عظيمة ، كما هو حال معظم المجلات اليوم ، التى تنفث سمومها فى شبابنا ، وقد تخصصت للفتنة والاغراء ، حيث تصور فيها المرأة بشكل يندى له الجبين ، بأوضاع وأشكال تفسد الدين والأخلاق .

فالصور العارية ، والمناظر المخزية ، والأشكال المثيرة للفتنة ، التى تظهر بها المجلات الخليعة ، وتملأ معظم صفحاتها بهذه الأنواع من المجون ، مما لايشك عاقل فى حرمته ، مع أنه ليس تصويرا باليد ولكنه فى الضرر والحرمة أشد من التصوير باليد .

ثم إن العلة فى التحريم ، ليست هى (المضاهاة) والمشابهة لخلق الله فحسب ، بل هناك نقطة جوهرية ينبغى التنبه لها وهى أن (الوثنية) مادخلت إلى الأمم السابقة إلا عن طريق (الصور) حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح ، صوروه تخليدا لذكراه ، واقتداء به ، ثم جاء مَنْ بعدهم فعبدوا تلك الصورة من دون الله ، فما يفعله بعض الناس من تعليق الصور الكبيرة المزخرفة فى صدر البيت ، ولو كانت للذكرى ، وليس تصويرا باليد ، مما لاتجيزه الشريعة الغراء ، لأنه قد يجر فى المستقبل إلى تعظيمها وعبادتها ، كما فعل أهل الكتاب بأنبيائهم وصلحائهم .

فإطلاق الاباحة فى التصوير الفوتوغرافى ، وانه ليس بتصوير ، وإنما هو حبس للظل ، مما لا ينبغى أن يقال ، بل يقتصر فيه على حد الضرورة ، كإثبات الشخصية ، وكل مافيه مصلحة دنيوية مما يحتاج الناس إليه والله تعالى أعلم .

الشبه الواردة على تحريم التصوير

يذهب بعض أدعياء العلم ، ممن تأثروا بالثقافة الغربية ، إلى إثارة بعض الشبه على تحريم التصوير ، بقصد التزلف إلى الحضارة الغربية ، والاندماج فيما خيل لهم أنه فن راق ، وذوق سليم ، أو بقصد التقرب إلى المترفين ومسايرتهم على أهوائهم ، لينالوا بعض المناصب .

الشبهة الأولى :

يزعمون أن ماورد من نصوص فى تحريم التصوير ، إنما هو إجراء موقت اقتضته ظروف الدعوة الاسلامية ، لمجابهة الشرك والوثنية ، وأن الغاية هى قطع الطريق على الوثنيّة ، فلما زال الخوف من عبادة الأوثان والأصنام زالت الحاجة إلى تحريم التصوير .

وللرد على هذه الشبهة سنكتفى بنقل كلام فضيلة الشيخ أحمد شاكر رحمه الله فى دحض هذه الشبهة ، حيث جاء فى تعليقه على الحديث آ ٧١٦٦/ من المسند مانصه :

(وكان من حجة أولئك ، أن تأولوا النصوص بعلة لم يذكرها الشارع ، ولم يجعلها مناط التحريم ، هى - فيما بلغنا - أن التحريم ، إنما كان أول الأمر لقرب عهد الفاس بالوثنية ، أما الآن وقد مضى على ذلك دهر طويل ، فقد ذهبت علة التحريم ، ولا يخشى على الناس أن يعودوا لعبادة الأوثان ، وقد نسى هؤلاء مابين أيديهم من مظاهر الوثنية الحقة ، بالتقريب إلى القبور وأصحابها ، واللجوء إليها عند الكروب والشدائد ، وأن الوثنية عادت إلى التغلغل فى القلوب دون أن يشعر بها أصحابها .

وكان من أثر هذه الفتاوى الجاهلة ، أن ملئت بلادنا بمظاهر الوثنية الكاملة ، فنصبت التماثيل ، وملئت بها البلاد ، تكريما لذكرى من نسبت إليه وتعظيما ، ثم يقولون لنا : إنها لم يقصد بها التعظيم . ثم صنعت الدولة - وهى تزعم أنها إسلامية فى أمة مسلمة - معهدا للفنون الجميلة . . معهدا للفجور الكامل الواضح . يدخله الشبان الماجنون ، من الذكور والاناث ، يقفن عرايا ، ويضطجعن عرايا ، وعلى كل وضع من الأوضاع الفاجرة ، لايستترون شيئا ، ثم يقولون لنا : هذا فن .

الشبهة الثانية : يقولون : إن الأحاديث الدالة على التحريم ، هى أحاديث آحاد ولاتفيد القطع ، وإنه لايمكن ان ننسب الى الاسلام تحريم (فن) من الفنون مالم يكن هناك نص قطعى بالحرمة .

وللرد على هذه الشبهة نقول : (هذا جهل فاضح بأحكام الشريعة الغراء ، فإن كل ماثبت عن النبى ﷺ من قول أو فعل أو عمل ، يجب الأخذ به سواء كان النقل بطريق التواتر ، أو بطريق الآحاد ، هذا متفق عليه بين العلماء ، ومن المعلوم بالضرورة أن أكثر الأحكام الفقهية الشرعية ، إنما ثبتت بخبر الآحاد ، فلو كانت أخبار الآحاد لاتفيد القطع - كما زعموا - لضاعت أكثر أحكام الشريعة

وهذا كلام لايصدر عن فقيه عالم ، إنما يصدر عن جاهل بأصول الشريعة الغراء ، وطرق استنباط الأحكام .

ومن المفارقات العجيبة أن الذين يحتجون بأمثال هذه الحجج الواهية ، يأخذون بأحاديث ـ لاثبات رأيهم ـ لاتصلح للاحتجاج لنكارتها ، وضعف سندها ـ وجهل رواتها ، ولكنها لما كانت موافقة لأهوائهم يتمسكون بها ، ويجادلون بشأنها ، شأن أهل الأهواء ، وقد ردَّ الأصوليون وفى مقدمتهم الامام الشافعى رحمه الله على هذه الشبهة ردا شافياً ، وبينوا أن خبر الآحاد يلزم العمل به إذا ثبت ، ولم يزل العلماء المسلمون يعملون بأخبار الآحاد ويحتجون بها ، لأن فى إبطالها إبطالا لأكثر أحكام الشريعة .

ومن جهة ثانية فإن النصوص الواردة فى تحريم التصوير بلغت حد التواتر ، وتناقلها المسلمون جيلا عن جيل فلا مجال للمتشككين ان يدخلوا من هذا الباب ، ونزيدك علما بأن الشعوب الاسلامية لم يوجد فيها تصوير اونحت بقدر كبير ، وأن الفنانين المسلمين انصرفوا عن التصوير ، وصنع التماثيل ، إلى استخدام النقش الهندسى ، والتزيين العربى ، والتشكيل النباتى وغيرها ، وكل ذلك بسبب ما يعلمون من تحريم الاسلام للتصوير . فلو لم يكن فى اعتقادهم محرما لما تركوه وانصرفوا إلى غيره ، ويكفى هذا للرد على أولئك الزاعمين .

الشبهة الثالثة :ـ

يستشهدون على إباحة التصوير بآيات من القرآن الكريم ، لا يصح الاحتجاج بها لأنها ليست من شريعتنا ، وإنما هى من الشرائع السابقة المنسوخة بشريعة الاسلام ، منها الآية الكريمة التى هى موضوع بحثنا وهى قوله تعالى : ﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل ، وجفان كالجواب ، وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور** ﴾..

فإن هذه الآية الكريمة ليس فيها ما يدل على حل التصوير ، لانها إخبار عما كان يعمله الجن لسليمان عليه السلام ، وليس فيها ما يدل على ان التماثيل كانت لذى روح ، ومع ذلك فإنها شريعة سابقة ، وقد نص العلماء على ان (شريعة من قبلنا شريعة لنا ما لم يرد ناسخ) وقد ورد الناسخ فى الشريعة الاسلامية فلا حجة فيها .

وهذه القاعدة متفق عليها بين علماء المسلمين ، فالسجود بقصد التحية لغير الله تعالى كان جائزا فى شريعة يوسف عليه السلام ، وقد حرمه شرعنا فلا يصح الاحتجاج بما ذكرهُ الله من سجود اخوة يوسف له على إباحة السجود لغير الله ، وشريعتنا ناسخة لما قبلها من الشرائع وقد حرمت التماثيل فلا يصح الاحتجاج بهذه الآية الكريمة والله أعلم .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولا : الفضل العظيم الذى خص الله تعالى به نبيه داود عليه السلام .

ثانيا : تسبيح الجبال والطير مع النبى (داود) كان معجزة له عليه السلام .

ثالثا : الصناعات والحرف لا تحط من قدر الانبياء ، فداود عليه السلام علمه الله صنع الدروع .

رابعا : سخر الله لسليمان الريح تجرى بأمره ، كما سخر لأبيه الجبال والطير تكريما له عليه السلام .

خامسا : الجن كانت تعمل لسليمان عليه السلام ما يعجز عنه البشر من الأعمال بأمر الله تعالى .

سادسا : صنع التماثيل كان مباحا فى شريعة النبى سليمان عليه السلام ثم نسخ فى الشريعة الاسلامية .

سابعا : منصب (النبوة) أعلى من منصب (الملك) وقد جمع الله لسليمان بين النبوة والملك .

ثامنا : فضل الله عظيم على عباده وخاصة منهم الأنبياء فعليهم ان يشكروا الله على نعمته .

تاسعا : الجن لا تعلم الغيب ولو كانت تعلمه لعرفت موت سليمان عليه السلام وما بقيت فى الأعمال الشاقة .

* خاتمة البحث

حكمة التشريع

جاءت الشريعة الاسلامية الغراء ، والناس فى وثنية غارقة ، قد تدهورت احوالهم ، وانحطت اوضاعهم ، حتى وصلوا إلى درجة عبادة (الأوثان والأصنام) وقد كان حول الكعبة المعظمة ثلاثمائة وستون صنما ـ بعدد أيام السنة ـ كلها آلهة تعبد من دون الله ، فلما فتح عليه الصلاة والسلام مكة حطمها بنفسه فلم يبق لها أثرا وهو يردد قوله تعالى : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ﴾[1] .

وقد دخلت هذه الوثنية إلى العرب ، عن طريق اهل الكتاب ، وبسبب التماثيل والتصاوير ، وانتشرت بينهم انتشار النار فى الهشيم ، حتى غدت الجزيرة العربية مهدا للوثنية ، ومركزا لعبادة الأوثان والاصنام ، فلما جاء الاسلام حرم الصور والتماثيل ، وكل ما يدعو إلى (الوثنية) من قريب أو بعيد ، وحمل حملة شعواء على المصورين ، فمنع من تصوير كل ذى روح . حماية للعقيدة وصيانة للأمة ،

(١) الآية : ٨١ من سورة الاسراء

وتطهيرا للمجتمع من لوثة الشرك وعبادة الأوثان ، وبذلك اقتلع الاسلام الوثنية من جذورها ، وقضى على الشرك فى مهده ، وطهر الجزيرة من كل مظاهر الوثنية والاشراك .

وقد يقول قائل : ان الوثنية قد انقضى زمانها بالتقدم الفكرى عند الانسان ، فلم يعد هناك من يعبد الأصنام والأوثان ، فلم إذن تبقى حرمة التصوير ؟

والجواب : ان العقل البشرى معرض للانتكاس فى كل حين وزمان ، ولا يستبعد ابدا ان يؤدى نصب التماثيل فى الشوارع العامة ، وانتشار الصور فى المحلات والبيوت إلى تعظيمها وعبادتها فى المستقبل ، كما فعل من سبقنا من الأمم حيث كانوا إذا مات فيهم الرجل الصالح صوروه ونصبوا هذه الصور فى أماكن بارزة ليتذكروا سيرته وأعماله ، ثم جاء من بعدهم فعظموها ثم جاء مَنْ بعدهم فعبدوها من دون الله .

وإذا كنا نجد فى هذا العصر بالذات من المتناقضات ما يطير له عقل الانسان فرقا ، حيث طغت الرذائل على الفضائل ، وتبدلت المفاهيم والقيم الاخلاقية ، وأصبحت مظاهر (الهمجية) من التكشف والعرى ، والخلاعة والمجون ، تعتبر فى هذا العصر من مظاهر (الرقى والتقدمية) ، فأى انسان لا يخاف على مستقبل البشرية وهو يرى هذه العجائب والغرائب ، تتمثل لعينيه والصور المضحكة المبكية .

ثم إننا لا نزال نرى فى هذا العصر الذى يسمونه ـ عصر النور ـ من لا يزال يعبد البقر ويتبرك بأرواثها ، فكيف نطمئن على العقلية البشرية من التردى نحو الهاوية ؟ إن الذى يعبد البقر لا يستبعد عليه ان يعبد الصور ؟ لذلك فإن التحريم شريعة الله وسيظل هذا التشريع فوق عقول البشر ؛ لانه شرع الله ودينه الخالد .

قصة سبأ

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ
بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ
ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا
ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ
سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ

صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن
سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿

معانى المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان والمراد به هنا القبيلة .

والمسكن : موضع السكن وهو مأرب (كمنزل) من بلاد اليمن بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام .

آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب .

جنتان : اى بستانان

فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم

والعَرِم : واحدها عَرِمة وهى الحجارة المركومة كخزان اسوان فى وادى النيل لحجز المياه جنوبى النيل وكانت له ثلاثة ابواب بعضها فوق بعض والمطر يجتمع امام ذلك السد فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل .

والأكل : الثمر

الخمط : كل شجرة مرة ذات شوك .

الأثل : الطرفاء وهو المعروف فى مصر (بالأتل) .

والسدر : شجر النبق .

القرى التى بارك فيها : هى قرى الشام .

قرى ظاهرة : أى مرتفعة على الآكام وهى أصح القرى .

وقدرنا فيها السير : أى كانت القرى على مقادير للراحل فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ومن سار من بعد الظهر وصل الى أخرى حين الغروب فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية و لايخاف من عدو ولا سبع .

آمنين : أى من كل ما يكرهون وظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بطروا النعمة .

والأحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب .

ومزقناهم كل ممزق : أى وفرقناهم كل تفريق

الصبار : كثير الصبر عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى شاق الطاعات .

والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

صدق عليهم ابليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقا لانهماكهم فى الشهوات واستفراغ الجهد فى اللذات .

سلطان : أى تسلط واستغواء بالوسوسة .
حفيظ : أى وكيل قائم على شئون خلقه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمه المنيبين اليه أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب موعظة لقريش وتحذيرا لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

وبعد أن حكى سبحانه ما أوتوا من النعم فى مساكنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار قص علينا ما أعطوه من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

وبعد أن ذكر جلت قدرته قصص سبأ وما كان من أمرهم فى اتباع الهوى والشيطان أردف ذلك الاخبار بأنهم صدقوا ظن ابليس فيهم وفى امثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لا سلطان للشيطان عليهم كما قال سبحانه : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾[1] .

التفسير

قال الامام احمد بسنده عن عبد الرحمن بن دعله قال سمعت ابن عباس يقول ان رجلا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال صلى الله عليه وسلم (بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام منهم أربعة فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والاشعريون وأنمار وحمير واما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان)[2] رواه عن عبد الحسن بن مرسى عن ابن لهيعة به وهذا اسناد حسن .

معلومة تاريخية

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها وكانت التبابعة منهم وبلقيس من جملتهم وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم وبعث الله تبارك وتعالى اليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ شذر مذر .

---

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر
(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند عبد الله بن عباس ح ١ ص ٣١٦

قال علماء النسب ـ منهم محمد بن اسحق ـ اسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان وانما سمى سبأ ، لأنه أول من سبأ فى العرب وكان يقال له الرائش ؛ لانه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه فسمى الرائش والعرب تسمى المال ريشا ورياشا وذكروا انه بشر برسول الله ﷺ فى زمانه المتقدم .

وقال فى ذلك شعرا :

سيملك بعدنا ملكا عظيما   نبى لا يرخص فى الحرام
ويملك بعده منهم ملوك   يدينون القياد بكل دامى
ويملك بعدهم منا ملوك   يصير الملك فينا باقتسام
ويملك بعد قحطان نبى   تقى مخبت خير الأنام
يسمى احمد ياليت أنى   أعمر بعد مبعثه بعام
فأعضده وأحبوه بنصرى   بكل مدجج ولكل رام
متى يظهر فكونوا ناصريه   ومن يلقه يبلغه سلامى

ومعنى قوله ﷺ (فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم اربعة) .

أى بعد ما ارسل الله تعالى عليهم سيل العرم منهم من اقام ببلادهم ومنهم من نزح عنها إلى غيرها .

وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدا عظيما محكما حتى ارتفع الماء وحكم على حافات ذينك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن كما ذكر غير واحد من السلف منهم قتادة : إن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ؟ وهو الذى تغترف فيه الثمار فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه اثه وكان هذا السد بمارب بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ويعرف بسد مأرب وذكر آخرون دهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ولا شىء من الهوام وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ليوحدوه ويعبدوه .

كما قال تبارك وتعالى ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ﴾

ثم فسرها بقوله ـ عز وجل ـ ﴿ جنتان عن يمين وشمال ﴾ أى من ناحيتى الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ أى غفور لكم ان استمررتم على التوحيد وقوله تعالى : ﴿ فأعرضوا ﴾ أى عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطن أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾[1] .

---

(١) الآيات ٢٢ إلى ٢٦ من سورة النمل

قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ وقد ورد فى تفسير العرم أقوال : قيل المراد به المياه وقيل الوادى وقيل الجرذ وقيل الماء الغزير فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته مثل مسجد الجامع .

وذلك غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله ـ عز وجل ـ لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم بعث على السد دابة من الأرض يقال لها الجرذ نقبته قال وهب بن منبه وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجرذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير وولجت إلى السد فنقبته فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره الجرذ نقبت أسافله حتى إذا ضعف ووهى وجاءت أيام السيول صدم الماء البناء فسقط فانساب الماء فى أسفل الوادى وضرب ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال فيبست وتحطمت وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة كما قال الله ـ تبارك وتعالى ـ ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطاء الخراسانى والحسن وقتادة والسدى وهو الأراك وأكلة البرر (وأثل) قال العوفى عن ابن عباس هو الطرفاء وقال غيره هو شجر يشبه الطرفاء وقيل هو السمر والله اعلم .

وقوله ﴿ وشىء من سدر قليل ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال : ﴿ وشىء من سدر قليل ﴾ فهذا الذى صار أمر تينك الجنتين اليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذى الشوك الكثير والثمر القليل وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى الا الكفور ﴾ أى عاقبناهم بكفرهم وللمفسرين فى هذه العبارة أقوال قال مجاهد ولا يعاقب إلا الكفور وقال ابن ابى حاتم عن هشام بن صالح التغلبى عن ابن خيره وكان من أصحاب على رضى الله عنه قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة والضيق فى المعيشة والتعسر فى اللذة قيل : وما التعسر فى اللذة قال لا يصادف لذة حلالا إلا جاءه من ينغصه إياها قوله تعالى ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين . فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ .

المراد بالقرى التى باركنا فيها إما أن تكون قرى بصنعاء كما قال وهب بن منبه وإما أن تكون قرى الشام كما قال ابو مالك ومجاهد والحسين وسعيد بن جبير ومالك عن زيد بن اسلم وقتادة والضحاك والسدى وابن زيد وغيرهم . ويعنون بذلك أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام فى قرى ظاهرة متواصلة وقال العوفى عن ابن عباس القرى التى باركنا فيها بيت المقدس وقال العوفى عنه أيضا هى قرى عربية بين المدينة والشام (قرى ظاهرة) أى بينة واضحة يعرفها المسافرون يقيلون فى واحدة ويبيتون فى أخرى .

---

(١) الأيات : ٢٢ إلى ٢٦ من سورة النحل

وهذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن هذا العيش الرغيد والحياة الرخية التى وصفها الله تعالى بقوله ﴿ سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾ فقد كانت لهم جنتان عن يمين وشمال فيها القطوف الدانية والثمار الناضجة والزروع والأشجار يبيتون ويقبلون بين أنهار جارية وجنات ذات بهجة وحدائق وثمار .

قوله تعالى ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾أى جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون اليه ﴿ سيروا فيها ليالى وأياما آمنين ﴾ أى الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا . والأمن نعمة عظمى من نعم الله تعالى على عباده لذا امتن الله بها على قريش فى قوله ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾[1] .

وقال جل شأنه مبينا مقدار هذه النعمة فى قوله : ﴿ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾[2] وقد امتن الله تعالى بتلك النعمة العظمى على المؤمنين فقال ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾[3]وقال فى حق اهل الجنة ﴿ ان المتقين فى مقام أمين ﴾[4] وقال تعالى :﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾[5]

وقال تعالى فى الحديث القدسى : ﴿ يابن آدم عندك ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك لا بقليل تقنع ولا من كثير تشبع اذا كنت معافا فى بدنك آمنا فى سربك عندك قوت يومك فعلى الدنيا العفاء)[6] .

قوله تعالى ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وهذا بطر منهم لنعمة الله كما قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحرور والمخاوف كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفولها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى من وسلوى ومايشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ولهذا قال لهم ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ﴾[7] وقال عز وجل ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾[8] وقال تعالى فى حق هؤلاء ﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ أى بكفرهم ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ أى جعلناهم حديثا للناس وسمرا يتحدثون به من خبرهم وكيف مكر الله بهم وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش تقول العرب فى

---

(١) الآيتان ٤ ، ٥ من سورة قريش
(٢) الآية ١١٢ من سورة النحل
(٣) الآية ٨٢ من سورة الأنعام
(٤) الآية ٥١ من سورة الدخان
(٥) الآية ٥٥ من سورة الدخان
(٦) الحديث بمعناه فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ ص ٧٤٧ ، ٧٤٨ وفى أحاديث ضعفاء الرجال من كتاب الكامل لابن عدى حـ ص ١٤٥٨
(٧) الآية ٦١ من سورة البقرة
(٨) الآية ٥٨ من سورة القصص .

القوم إذا تفرقوا ايدى سبا وأيادى سبا وتفرقوا شذر مذر وروى ابن ابى حاتم انه كان عكرمة يحدث بحديث أهل سبأ قال : ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ وكانت فيهم كهنة وكانت الشياطين يسترقون السمع فأخبروا الكهنة بشىء من أخبار السماء فكان فيهم رجل كاهن شريف كثير المال وأنه خبر أن زوال أمرهم قد دنا وأن العذاب قد أظلهم فلم يدر كيف يصنع ؛ لأنه كان له مال كثير من عقار فقال لرجل من بنيه وهو أعزهم أخوالا يابنى إذا كان غدا وامرتك بأمر فلا تفعله فإذا انتهرتك فانتهرنى فإذا لطمتك فالطمنى قال ياأبت لا تفعل إن هذا أمر عظيم وأمر شديد قال يابنى قد حدث أمر لابد منه فلم يزل به حتى وافاه على ذلك فلما اصبحوا واجتمع الناس قال يابنى افعل كذا وكذا فأبى فانتهره أبوه فأجابه فلم يزل ذلك بينهما حتى تناوله أبوه فلطمه فوثب على أبيه فلطمه فقال ابنى يلطمنى ؟ على بالشفرة قالوا ما تصنع بالشفرة قال اذبحه قالوا تريد أن تذبح ابنك : الطمه أو اصنع ما بدا لك قال فأبى قال فارسلوا إلى اخواله .

فأعلموهم ذلك فجاء أخواله فقالوا خذ منا مابدالك فأبى إلا أن يذبحه قالوا فلتموتن قبل أن تذبحه قال فإذا كان الحديث هكذا فإنى لا ارى أن أقيم ببلد يحال بينى وبين ابنى فيه اشتروا منى دورى اشتروا منى ارضى فلم يزل حتى باع دوره وارضه وعقاره فلما صار الثمن فى يده واحرزه قال : أى قوم ان العذاب قد أظلكم وزوال أمركم قد دنا فمن اراد منكم دارا جديدا وحمى شديدا وسفرا بعيدا فليلحق بعمان ومن اراد منكم الخمر والخمير والعصير فليلحق ببصرى ومن اراد الراسخات فى الوحل : المطعمات فى المحل المغمات فى القحل فليلحق بيثرب ذات نخل فأطاعه قومه فخرج اهل عمان الى عمان وخرجت غسان الى بصرى وخرجت الأوس والخزرج وبنو عثمان الى يثرب ذات النخيل قال فأتوا على بطن مر فقال بنو عثمان هذا مكان صالح لاينبغى به بدلا فأقاموا به فسموا لذلك خزاعة لأنهم انخزعوا من اصحابهم واستقامت الأوس والخزرج حتى نزلوا المدينة وتوجه اهل عمان إلى عمان وتوجهت غسان الى بصرى .

وهذا الكاهن هو عمرو بن عامر أحد رؤساء اليمن وكبراء سبأ وكهانهم وقد ذكر محمد بن اسحاق بن يسار فى أول السيرة ماكان من أمر عمرو بن عامر الذى كان اول من خرج من بلاد اليمن بسبب استشعاره بارسال العرم عليهم فقال : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن فيما حدثنى به أبو زيد الأنصارى انه راى جرذا يحفر فى سد مأرب الذى كان يحبس عنهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من ارضهم فعلم أنه لابقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن وكاد قومه فأمر أصغر ولده اذا اغلظ له ولطمه أن يقوم إليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا اقيم ببلد لطم وجهى فيها أصغر ولدى وعرض أمواله . فقال أشراف من أشراف اليمن اغتنموا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وانتقل هو فى ولده وولد ولده وقالت الأسد لانتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان فحاربتهم عك وكانت حربهم سجالا ففى ذلك يقول عباس بن

مرداس السلمى - رضى عنه - :

وعك بن عدنان الذين تلعبوا ∴ بغسان حتى طردوا كل مطرد

وهذا البيت من قصيدة له قال ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان فنزل آل جفنة بن عمرو بن عامر الشام ونزلت الأوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرا ونزلت ازد السراة السراة ونزلت ازد عمان ثم ارسل الله تعالى على السد السيل فهدمه وفى ذلك انزل الله عز وجل هذه الآيات .

وقوله تعالى ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أى إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ماارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم .

قال الامام احمد بسنده عن رسول الله ﷺ « عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر يؤجر المؤمن فى كل شىء حتى فى اللقمة ليرفعها الى فى امرأته »[١] وفى الصحيحين عن ابى هريرة رضى الله عنه « عجبا للمؤمن لايقضى الله تعالى له قضاء الا كان خيرا له إن اصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن اصابته ضراء صبر فكان خيرا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »[٢]

وقال قتادة ﴿ إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ قال كان مطرف يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى اذا اعطى شكر واذا ابتلى صبر .

قوله تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين . وماكان له عليهم من سلطانه إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره هذه الآية كقوله تعالى اخبارا عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ثم قال ﴿ أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا ﴾[٣] وقال ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولاتجد أكثرهم شاكرين ﴾[٤] ولما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان اخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع ابليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾

وقال الحسن البصرى لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ومعه حواء هبط إبليس فرحا بما أصاب منهما وقال إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف وكان ذلك ظنا من

---

(١) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده - مسند أبى إسحاق سعد بن أبى وقاص - ج ١ ص ١٧٣ وعبد بن حميد والبيهقى والضياء المقدس ، عن سعد بن أبى وقاص

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الزهد - باب المؤمن امره كله خير - ج ٤ ص ٢٢٩٥

(٣) الآية ٦٢ من سورة الاسراء

(٤) الآية ١٧ من سورة الأعراف

إبليس فأنزل الله عز وجل ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ فقال عند ذلك إبليس لا أفارق ابن آدم مادام فيه الروح أعده وأمنيه واخدعه فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا أحجب عنه التوبة مالم يغرغر بالموت ولايدعونى إلا أجبته ولايسألنى إلا أعطيته ولايستغفرنى إلا غفرت له رواه جبن ابى حاتم

ولقد حذر الله تعالى عباده من هذا الشيطان الرجيم فقال ﴿ يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لايؤمنون ﴾(١) وقال سبحانه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ﴾(٢) وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من اصحاب السعير ﴾(٣) وقال ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وان اعبدونى هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾(٤) قوله تعالى ﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾(٥) قال ابن عباس رضى الله عنهما - أى من حجة وقال الحسن البصرى والله ماضربهم بعصا ولاأكرههم على شىء وماكان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه

قال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وماكان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ماأنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب اليم ﴾(٦) وقال جل شأنه ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾(٧)

وقد امرنا الله تعالى ان نتبع هداه حتى لانضل ولا نشقى قال سبحانه ﴿ فإما يأيتنكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لما حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾(٨)

واذا كان الشيطان لاسلطان له على المؤمنين كما لاسلطان له على أحد إلا بالغواية والغرور والأمانى الكاذبة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ يعدهم ويمنيهم ومايعدهم الشيطان إلا غرورا ﴾(٩)

إذا كان ذلك كذلك فإنه فتنة يختبر الله عباده بها ليظهر مدلول علم الله القديم فيمن يؤمن

---

(١) الآية ٢٧ من سورة الأعراف
(٢) الآية ٢١ من سورة النور
(٣) الآية ٦ من سورة فاطر
(٤) الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ من سورة يس
(٥) الآية ٢١ من سورة سبأ
(٦) الآية ٢٢ من سورة إبراهيم
(٧) الآيتان ١٦ ، ١٧ من سورة الحشر
(٨) الآيات ١٢٣ الى ١٢٧ من سورة طه
(٩) الآية ١٢٠ من سورة النساء

بالاخرة وفيمن هو منها فى شك وريب ﴿ وربك على كل شىء حفيظ ﴾ فقد أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا والشيطان ابتلاء فعلى المؤمن أن يحذره حتى لايقع فى شراكه وشباكه ومكايده ومصايده .

وقد عقد الأمام ابن الجوزى باباً فى مكايد الشيطان عنونه بقوله :

فى التحذير من فتن إبليس ومكايده .

قال الشيخ ابو الفرج رحمة الله عليه : اعلم أن الآدمى لما خلق ركب فيه الهوى والشهوة ليجتلب بذلك ماينفعه ووضع فيه الغضب ليدفع به مايؤذيه وأعطى العقل كالمؤدب يأمره بالعدل فيما يجتلب ويجتنب وخلق الشيطان محرضا له على الاسراف فى اجتلابه واجتنابه فالواجب على العاقل أن يأخذ حذره من هذا العدو الذى قد أبان عداوته من زمن آدم عليه الصلاة والسلام وقد بذل عمره ونفسه فى فساد احوال بنى آدم

وقد أمر الله تعالى بالحذر منه فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾(١) وقال تعالى ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا ﴾(٣) وقال ﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾(٤)

وقال تعالى : ﴿ إنه عدو مضل مبين ﴾(٥)

وقال ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾(٦)

وقال تعالى ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾(٧)

وقال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم الا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾(٨)

وفى القرآن من هذا كثير .

قال الشيخ أبو الفرج رحمه الله : وينبغى أن تعلم أن ابليس الذى شغله التلبيس أول ماالتبس عليه الأمر فأعرض عن النص الصريح على السجود فأخذ يفاضل بين الأصول فقال : ﴿ خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾(٩) ثم أردف ذلك بالاعتراض على الملك الحكيم فقال : ﴿ أرأيتك هذا الذى كرمت على ﴾(١٠) والمعنى أخبرنى لم كرمته على عزز ذلك الاعتراض ان الذى فعلته ليس بحكمة ثم اتبع ذلك بالكبر فقال ﴿ أنا خيرمنه ﴾(١١) ثم امتنع عن السجود فأهان نفسه التى اراد تعظيمها باللعنة

---

(١) الآيتان ١٦٨ ، ١٦٩ من سورة البقرة
(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة
(٣) الآية ٦٠ من سورة النساء
(٤) الآية ٩١ من سورة المائدة
(٥) الآية ١٥ من سورة القصص
(٦) الآية ٦ من سورة فاطر
(٧) الآية ٣٣ من سورة لقمان ، ٥ من سورة فاطر
(٨) الآية ٦٠ من سورة يس
(٩) الآية ١٢ من سورة الأعراف ، ٧٦ من سورة ص
(١٠) الآية ٦٢ من سورة الاسراء
(١١) الآية ٧٦ من سورة ص

والعقاب .

فمتى سول للانسان أمرا فينبغى أن يحذر منه اشد الحذر وليقل له حين امره اياه بالسوء انما تريد بما تأمر به نصحى ببلوغى شهوتى وكيف يتضح صواب النصح للغير لمن لاينصح نفسه ثم كيف اثق بنصيحة عدو فانصرف فما فىَّ لقولك منفذ فلا يبقى الا انه يستعين بالنفس ، لأنه يحث على هواها فليستحضر العقل الى تثبيت الفكر فى عواقب الذنب لعل مدد توفيق يبعث جند عزيمته فيهزم عسكر الهوى والنفس ، عن عياض بن حماد قال : قال رسول الله ﷺ « يأيها الناس إن الله تعالى أمرنى ان اعلمكم ما جهلتم مما علمنى فى يومى هذا فإنه قال إن كل مال نحلته عبدى فهو له حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ماأحللت لهم . وأمرتهم الايشركوا بى مالم أنزل به سلطانا وان الله تعالى نظر الى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب . . الحديث »(١)

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة يجىء احدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول ماصنعت شيئا قال ثم يجىء أحدهم فيقول ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته قال فيدْنيه منه أو قال فيلتزمه ويقول نعم أنت »(٢)

وعن جابر بن عبد الله يرفعه قال « إن إبليس قد يئس أن يعبده المصلون ولكن فى التحريش بينهم »(٣)

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه يرفعه قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإن ذكر الله خنس وإن نسى الله التقم قلبه »(٤)

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « إن الشيطان طاف بأهل مجلس الذكر ليفتنهم فلم يستطع ان يفرق بينهم فأتى حلقة يذكرون الدنيا فأغرى بينهم حتى اقتتلوا فقام أهل الذكر فحجزوا بينهم فتفرقوا »

وعن قتادة رضى الله عنه قال : « ان لابليس شيطانا يقال له قبقب يجمه أربعين سنه ، فإذا دخل الغلام فى هذا الطريق قال له دونك إنما كنت أجمك لمثل هذا أجلب عليه وأفتنه » .

وعن ثابت البنانى رضى الله عنه قال : بلغنا أن إبليس ظهر ليحيى بن زكريا عليهما السلام فرأى عليه معاليق من كل شىء فقال يحيى : ياإبليس ماهذه المعاليق التى أرى عليك قال : هذه الشهوات التى أصيد بهن ابن آدم قال : فهل لى فيها من شىء قال : ربما شبعت فثقلناك عن الصلاة وثقلناك عن الذكر قال : فهل غير ذلك قال لا والله قال لله على ان لا أملأ بطنى من طعام ابدآ قال إبليس : ولله على الا أنصح مسلما أبدا .

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى باب (إن الله) ص ١٦٢ من رواية الطبرانى فى الكبير ، عن عياض بن حماد

(٢) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند جابر بن عبد الله ص ٣ ص ٣١٤

(٣) الحديث رواه الامام أحمد فى مسنده ـ مسند جابر بن عبد الله ص ٣ ص ٣٦٦

(٤) الحديث رواه ابن أبى الدنيا وابن شاهين فى الترغيب فى الذكر والبيهقى فى شعب الايمان ، عن أنس بن مالك (الجامع الكبير) وفى حلية الأولياء ص ٦ ص ٣٦٨

وعن الحارث بن قيس رضى الله عنه قال : اذا أتاك الشيطان وانت تصلى فقال انك مراءٍ فزدها طولا وعن النبى ﷺ يقول : « كان راهب فى بنى اسرائيل فأخذ الشيطان جارية فخنقها وألقى فى قلوب أهلها أن دواءها عند الراهب فأتوا بها الراهب فأبى أن يقبلها فما زالوا به حتى قبلها فكانت عنده فأتاه الشيطان فسول له إيقاع الفعل بها فأحبلها ثم أتاه فقال له الآن تفتضح يأتيك أهلها فاقتلها فإن اتوك فقل ماتت فقتلها ودفنها ، فأتى الشيطان أهلها فوسوس لهم وألقى فى قلوبهم انه احبلها ثم قتلها ودفنها فأتاه أهلها يسألونه عنها فقال : ماتت فأخذوه فأتاه الشيطان فقال : أنا الذى ضربتها وخنقتها وأنا الذى ألقيت فى قلوب أهلها وأنا الذى أوقعتك فى هذا فأطعنى تنج اسجد لى سجدتين فسجد له سجدتين فهو الذى قال عز وجل ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ﴾[1]

وقد روى هذا الحديث على صفة أخرى عن وهب بن منبه رضى الله عنه : أن عابدا كان فى بنى اسرائيل وكان من أعبد أهل زمانه وكان فى زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت وكانت بكرا ليس لهم أخت غيرها فخرج البعث على ثلاثتهم فلم يدروا عند من يخلفون اختهم ولا من يأمنون عليها ولاعند من يضعونها : قال : فأجمع رأيهم على ان يخلفوها عند عابد بنى اسرائيل وكان ثقة فى أنفسهم فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده فتكون فى كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم فأبى ذلك وتعوذ بالله عز وجل منهم ومن اختهم قال فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال أنزلوها فى بيت حذاء صومعتى قال : فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها فمكثت فى جوار ذلك العابد زمانا ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلق بابه ويصعد الى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ماوضع لها من الطعام قال : فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه فى الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارا ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها فلو مشيت بطعامها حتى تضعه على باب بيتها كان اعظم لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها قال فلبث على هذه الحالة زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والأجر وحضه عليه وقال : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظم .

لأجرك قال : فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه فى بيتها فلبث على ذلك زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير وحضه عليه فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة قال : فلم يزل به حتى حدثها زمانا يطلع إليها من فوق صومعته قال : ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هى على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها قال : فلبثا زمانا يتحدثان ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والثواب فيما يصنع بها وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريبا من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها فلم يزل به حتى فعل قال فلبثا زمانا ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير وفيما له عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ من حسن

(١) الحديث فى تفسير ابن كثير ـ ج ٨ ص ١٠١ ـ فى تفسير سورة الحشر عند قوله تعالى : ﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ... ﴾ وفى تفسير الطبرى ـ ج ٢٨ ص ٣٣

الثواب فيما يصنع بها وقال له : لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبثا ذلك حينا ثم جاءه إبليس فقال : لو دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك فلم يزل به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته قال ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها .

فلم يزل به إبليس يحسنها فى عينه ويسول له حتى وقع عليها فأحبلها فولدت له غلاما فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء اخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع لا آمن أن تفصح أو يفضحوك فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ماصنعت بها ففعل فقال له أتراها تكتم إخوتها ماصنعت بها وقتلت ابنها قال : خذها واذبحها وادفنها مع ابنها فلم يزل به حتى ذبحها والقاها فى الحفرة مع ابنها وأطبق عليها صخرة عظيمة وسوى عليها وصعد الى صومعته يتعبد فيها فمكث بذلك ماشاء الله أن يمكث حتى أقبل إخوتها من الغزو فجاءوا فسألوه عنها فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها وقال : كانت خير امرآة وهذا قبرها فانظروا إليه فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحموا عليهافأقاموا على قبرها أياما ثم انصرفوا الى أهاليهم فلما جن عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان فى النوم على صورة رجل مسافر فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها وكيف اراهم موضع قبرها فكذبه الشيطان وقال لم يصدقكم امر أختكم وانه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاما فذبحه وذبحها معه فزعا منكم وألقاهما فى حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فانكم ستجدونهما كما أخبرتكم هناك جميعا .

وأتى الأوسط فى منامه فقال له مثل ذلك ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم لقد رأيت الليلة عجبا فأخبر بعضهم بعضا بما رأى فقال كبيرهم هذا حلم ليس بشىء فامضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم والله لأمضى حتى آتى الى هذا المكان فأنظرا فيه

قال : فانطلقوا جميعا حتى أتوا البيت الذى كانت فيه أختهم ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيل فسألوا عنها العابد فصدق قول ابليس فيما صنع بها فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت اطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك وصورك خلصتك مما أنت فيه قال : فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه قال : ففيه نزلت هذه الآية : ﴿ كمثل الشيطان اذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك - إلى قوله - جزاء الظالمين ﴾[1]

وعن وهب بن منبه - رضى الله عنه - قال : كان راهب فى صومعته فى زمن المسيح عليه السلام

(١) سورة الحشر الآيتان : ١٦ ، ١٧

فأراده إبليس فلم يقدر عليه فأتاه بكل رائدة فلم يقدر عليه فأتاه متشبها بالمسيح فناداه : أيها الراهب أشرف على أكلمك قال : انطلق لشأنك فلست ارد مامضي من عمرى فقال : اشرف على فأنا المسيح فقال إن كنت المسيح فما لى اليك حاجة ألست قد أمرتنا بالعبادة ووعدتنا القيامة انطلق لشأنك فلا حاجة لى فيك فأنطلق اللعين عنه وتركه .

وعن عمرو بن دينار عن سالم بن عبد الله رضي الله عنه عن ابيه قال : لما ركب نوح عليه السلام فى السفينه رأى فيها شيخا لم يعرفه فقال له نوح ماأدخلك قال دخلت لأصيب قلوب أصحابك فتكون قلوبهم معى وأبدانهم معك فقال له نوح عليه السلام اخرج ياعدو الله فقال إبليس : خمس أهلك بهن الناس وسأحدثك منهن بثلاث ولا أحدثك باثنين فأوحى الله تبارك وتعالى الى نوح عليه الصلاة والسلام - انه لاحاجة لك إلى الثلاث مره يحدثك

بالاثنتين فقال بها أهلك الناس وهما لايكذبان : الحسد والحرص فبالحسد لعنت وجعلت شيطانا رجيما وبالحرص أبيح لآدم الجنة كلها فأصبت حاجتى منه فأخرج من الجنة قال ولقى إبليس موسى عليه السلام فقال : ياموسى انت الذى اصطفاك الله برسالته وكلمك تكليما وأنا من خلق الله تعالى أذنبت وأريد أن أتوب فاشفع لى الى ربى - عز وجل - أن يتوب على ، فدعا موسى ربه فقيل ياموسى قد قضيت حاجتك فلقى موسى إبليس فقال له قد أمرت أن تسجد لقبر آدم ويتاب عليك فاستكبر وغضب وقال : لم أسجد له حيا أأسجد له ميتا ثم قال إبليس : ياموسى ان لك حقا بما شفعت إلى ربك فاذكرنى عند ثلاث لاأهلك فيهن اذكرنى حين تغضب فأنا وحى فى قلبك وعينى فى عينك واجرى منك مجرى الدم واذكرنى حين تلقى الزحف فإنى آتى ابن آدم حين يلقى الزحف فأذكره ولده وزوجه وأهله حتى يولى وإياك ان تجالس امرأة ليست بذات محرم فانى رسولها اليك ورسولك اليها .

وعن سعيد بن المسيب رضى الله عنه قال : مابعث الله نبيا الا لم يأمن إبليس ان يهلكه بالنساء وعن الفضيل بن عياض قال حدثنى بعض أشياخنا أن ابليس لعنه الله جاء الى موسى عليه الصلاة والسلام وهو يناجى ربه تعالى فقال له الملك : ويلك ما ترجو منه وهو على هذه الحالة يناجى ربه قال : أرجو منه مارجوت من أبيه آدم وهو فى الجنة

عن عبد الرحمن بن زياد - رضى الله عنه - قال : بينما موسى عليه السلام جالس فى بعض مجالسه اذ أقبل إبليس وعليه برنس له يتلون فيه ألوانا فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه وقال له السلام عليك ياموسى : فقال له موسى - عليه السلام - من أنت : قال أنا إبليس قال فلا حياك الله ماجاء بك ؟ قال : جئت لأسلم عليك لمنزلتك عند الله تعالى ومكانك منه قال : فما الذى رأيته عليك قال : به اختطف قلوب بنى آدم قال : فما الذى اذا صنعه الانسان استحوذت عليه قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسى ذنوبه وأحذرك ثلاثا :

لاتخلون بامرأة لاتحل لك قط فإنه ماخلا رجل بامرأة لاتحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أفتنه بها .

ولاتعاهد الله عهدا إلا وفيت به فإنه ماعاهد الله أحد إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين الوفاء به .

ولاتخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ماأخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابى حتى أحول بينه وبين إخراجها ثم ولى وهو يقول : ياويله ثلاثا علم موسى مايحذر به بنى آدم .

وعن حسن بن صالح قال : سمعت أن الشيطان قال للمرأة أنت نصف جندى وأنت سهمى الذى ارمى به فلا أخطىء وأنت موضع سرى وأنت رسولى فى حاجتى .

قال وهب بن منبه : قال راهب للشيطان وقد بدا له أى أخلاق بنى آدم أعون لك عليهم قال الحدة إن العبد إذا كان حديدا قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة وعن سليمان بن المغيرة عن ثابت رضى الله عنه قال : لما بعث النبى ﷺ جعل ابليس لعنه الله يرسل شياطينه إلى أصحاب النبى ﷺ فيجيئون إليه بصحفهم ليس فيها شىء فيقول لهم مالكم لاتصيبون منهم شيئا فقالوا : ماصحبنا قوما مثل هؤلاء فقال رويدا بهم فعسى أن تفتح لهم الدنيا هنالك تصيبون حاجتكم منهم .

وعن ابى موسى الأشعرى قال : إذا أصبح إبليس بث جنوده فى الأرض فيقول من أضل مسلما ألبسته التاج فيقول له القائل لم أزل بفلان حتى طلق أمرأته قال يوشك أن يتزوج ويقول آخر لم أزل بفلان حتى عق قال يوشك أن يبر .

ويقول آخر لم أزل بفلان حتى زنى قال أنت ويقول آخر لم أزل بفلان حتى شرب الخمر قال أنت قال : ويقول آخر لم أزل بفلان حتى قتل فيقول : أنت أنت وعن الحسن قال : كانت شجرة تعبد من دون الله فجاء إليها رجل فقال لأقطعن هذه الشجرة فجاء ليقطعها غضبا لله فلقيه إبليس فى صورة إنسان فقال : ماتريد ؟ أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال لأقطعنها فقال له الشيطان هل لك فيماهو خير لك لاتقطعها ولك ديناران كل يوم اذا اصبحت عند وسادتك قال فمن أين لى ذلك قال أنا لك فرجع فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ثم أصبح بعد ذلك فلم يجد شيئا فقام غضبا ليقطعها فتمثل له الشيطان فى صورته وقال ماتريد ؟ قال أريد قطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله تعالى قال كذبت مالك الى ذلك من سبيل فذهب ليقطعها فضرب به الأرض وخنقه حتى كاد يقتله قال أتدرى من أنا ؟ أنا الشيطان جئت أول مرة غضبا فلم يكن لى عليك سبيل فخدعتك بالدينارين فتركتها فلما جئت غضبا للدينارين سلطت عليك .

وعن زيد بن مجاهد قال : لابليس خمسة من ولده قد جعل كل واحد منهم على شىء من أمره ثم سماهم : فذكر بثر والأعور ومسوط وداسم وزكنبور فأما بثر فهو صاحب المصيبات الذى يأمر بالثبور وشق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية

وأما الأعور فهو صاحب الزنا الذى يأمر به ويزينه وأما مسوط فهو صاحب الكذب الذى يسمع فيلقى الرجل فيخبره بالخبر فيذهب الرجل إلى القوم فيقول لهم قد رأيت رجلا أعرف وجهه ولا أدرى مااسمه حدثنى بكذا وكذا وأما داسم فهو الذى يدخل فى الرجل الى أهله يريه العيب فيهم ويغضبه عليهم وأما زكنبور فهو صاحب السوق الذى يركز رايته فى السوق .

وعن مخلد بن الحسين قال : ماندب الله العباد الى شىء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين مايبالى بأيهما ظفر : إما غلو فيه وإما تقصير عنه .

وعن عبد الله بن عمر قال : إن إبليس موثق فى الأرض السفلى فإذا هو تحرك كان كل شرفى الأرض بين اثنين فصاعدا من تحركه .

وفتن الشيطان ومكايده كثيرة ولكثرة فتن الشيطان وتشبثها بالقلوب عزت السلامة فإن من يدع الى مايحث عليه الطبع كمداد سفينه منحدرة فياسرعة انحدارها ولما ركب الهوى فى هاروت وماروت لم يستمسكا فإذا رأت الملائكة مؤمنا قد مات على الايمان تعجبت من سلامته وعن عبد العزيز بن رفيع قال : إذا عرج بروح المؤمن الى السماء قالت الملائكة سبحان الله الذى نجى هذا العبد من الشيطان ياويحه كيف نجا .

ذكر الإعلام بأن مع كل انسان شيطانا

عن عروة بن الزبير قال : ﴿ ان عائشة زوج النبى ﷺ حدثته أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا قالت : فغرت عليه فجاء فرأى ما أصنع فقال : مالك ياعائشة أغرت ؟ فقلت : ومالى لايغار مثلى على مثلك ؟ فقال : أوقد جاءك شيطانك ؟ قالت : يارسول الله أو معى شيطان ! قال نعم قلت : ومع كل إنسان قال نعم قلت : ومعك يارسول الله ؟ قال نعم ولكن ربى ـ عز وجل ـ أعاننى عليه حتى أسلم ﴾[1] انفرد به مسلم . ويجىء بلفظ آخر أعاننى عليه فأسلم : عامة الرواة يقولون : فأسلم على مذهب الفعل الماضى إلا سفيان بن عيينة فإنه يقول فأسلم من شره وكان يقول الشيطان لايسلم وقول ابن عيينه حسن وهو يظهر اثر المجاهدة لمخالفة الشيطان إلا أن حديث ابن مسعود كأنه يرد قول ابن عيينه وهو (مامنكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا : وإياك يارسول الله قال : وإياى ولكن الله ـ عز وجل ـ أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق وفى روايه فلا يأمرنى إلا بخير .

بيان أن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم

عن صفية بنت حيى زوج النبى قالت كان رسول الله ﷺ معتكفا فأتيته أزوره ليلا فحدثته ثم قمت لأنقلب فقام معى ليقلبنى (أى ليردنى إلى منزلى) وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا فقال النبى ـ ﷺ على رسلكما إنها صفية بنت حيى فقالا : سبحان الله يارسول الله قال : ﴿ إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكم شرا ـ أو قال شيئا ﴾[2] .

قال الخطابى : وفى هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الانسان من كل أمر من المكروه مما تجرى به الظنون ويخطر بالقلوب وأن يطلب السلامة من الناس بإظهار البراءة من الريب ويحكى فى

---

(١) الحديث رواه الامام مسلم ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ ج ٤ ص ٢١٦٨ رقم ٧٠

(٢) الحديث فى رياض الصالحين ص ٦٦٨ رقم ١٨٤٦ متفق عليه

هذا عن الشافعى ـ رضى الله عنه ـ انه قال : خاف النبى ـ ﷺ ان يقع فى قلوبهم شىء من أمر فيكفروا وإنما قاله ـ ﷺ ـ شفقة منه عليهما لاعلى نفسه .

ذكر التعوذ من الشيطان الرجيم

قد أمر الله تعالى ـ بالتعوذ من الشيطان الرجيم عند التلاوة فقال تعالى ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾[1]

وعند السحر فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾[2] الى آخر السورة .

فإذا أمر بالتحرز من شره فى هذين الأمرين فكيف فى غيرهما

قيل لعبد الرحمن بن حنيش : أدركت النبى ـ ﷺ قال : نعم قلت كيف صنع رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة كادته الشياطين ؟ فقال : إن الشياطين تحدرت تلك الليلة على رسول الله ـ ﷺ ـ من الأودية والشعاب وفيهم شيطان بيده شعلة نار

يريد أن يحرق بها وجه رسول الله ـ ﷺ ـ فهبط جبريل عليه السلام فقال : يامحمد قل : قال : ماأقول ؟ قال :

قل : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق وذرأ وبرأ ومن شر ماينزل من السماء ومن شر مايعرج فيها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يارحمن قال : فطفئت نارهم وهزمهم الله تعالى .

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ـ ﷺ ـ قال : ﴿ ان الشيطان يأتى احدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول الله ـ تبارك وتعالى ـ فيقول : فمن خلق الله فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه ﴾[3]

وعن ابن مسعود رضى الله عنه يرفعه قال : ﴿ ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان ثم قرأ ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾[4] وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ـ ﷺ ـ يعوذ الحسن والحسين فيقول : أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول هكذا

---

(١) الآية ٩٨ من سورة النحل

(٢) الآية ١ من سورة الفلق

(٣) الحديث رواه ابن أبى الدنيا فى مكايد الشيطان ، وابن السنى فى عمل يوم وليلة ، عن عائشة (الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٢٠٢

(٤) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٢ ص ١٧٩ رقم ٩٩٣

كان أبي ابراهيم - ﷺ يعوذ اسماعيل واسحاق »[1] أخرجاه فى الصحيحين . والهامة هى واحد الهوام ويقال هى كل نسمة تهم بسوء واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون ذلك أخف على اللسان .

قال مطرف : نظرت فإذا ابن آدم ملقى بين يدى الله - عز وجل - وبين إبليس فمن شاء أن يعصمه عصمه وإن تركه ذهب به إبليس .

وحكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : ماتصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا قال ؟ أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال أجاهده .

قال هذا يطول أرأيت إن مررت بغنم فنجك كلبها أو منعك من العبور ماتصنع ؟ قال أكابده وارده جهدى قال هذا يطول عليك ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك .

وأعلم أن مثل إبليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام فمر به كلب فقال له اخسأ فذهب فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أحساه لم يبرح فالأول مثل المتقي يمر به الشيطان فيكفيه فى طرده الذكر والثانى مثل المخلط لايفارقه الشيطان لمكان تخليطه . نعوذ بالله من الشيطان .

فى معنى التلبيس والغرور

التلبيس إظهار الباطل فى صورة الحق ، والغرور نوع جهل يوجب اعتقاد الفاسد صحيحا والرديء جيدا سببه وجود شبهه أو جبت ذلك وإنما يدخل إبليس على الناس بقدر مايمكنه ويزيد تمكنه منهم ويقل على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم . واعلم أن القلب كالحصن ، وعلى ذلك الحصن سور ، وللسور أبواب وفيه ثلم وساكنه العقل ، والملائكة تتردد إلى ذلك الحصن والى جانبه ربض فيه الهوى والشياطين تختلف الى ذلك الربض من غير مانع ، والحرب قائمة بين أهل الحصن واهل الربض ، والشياطين لاتزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم . فينبغى للحارس ان يعرف جميع ابواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع الثلم ، وأن لايفتر عن الحراسة لحظة . فإن العدو مايفتر .

قال رجل للحسن البصرى : أينام إبليس ؟ قال : لونام لوجدنا راحة ؟ وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالايمان .

وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور كل مايمر به ، فاول مايفعل الشيطان فى الربض اكثار الدخان فتسود حيطان الحصن ، وتصدأ المرآة وكمال الفكر يرد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة ، وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن ، فيكر عليه الحارس فيخرج ، وربما دخل فعاث وربما اقام لغفلة الحارس ، وربما ركدت الريح الطاردة فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولايدرى به ، وربما جرح الحارس لغفلته واسرو استخدم واقيم يستنبط الحيل فى موافقة الهوى ومساعدته ، وربما صار

---

(١) الحديث أخرجه البخارى - فى الانبياء - ج ٤ ص ١٧٩ ، والترمذى فى الطب حديث ٢٠٦١ وأحمد ج ١ ص ٢٣٦ ، وابن ماجه فى الطب حديث ٣٥٢٥

كالفقيه فى الشر قال بعض السلف : رأيت الشيطان فقال لى قد كنت ألقن الناس فأعلمهم فصرت ألقاهم فأتعلم منهم .

وربما هجم الشيطان على الذكى الفطن ومعه عروس الهوى قد جلاها فيتشاغل الفطن بالنظر اليها فيستأسره ، وأقوى القيد الذى يوثق به الأسرى الجهل ، وأوسطه فى القوة الهوى ، وأضعفه الغفلة ، ومادام درع الايمان على المؤمن ، فإن نبل العدو لايقع فى مقتل .

ويقول الحسن بن صالح ـ رحمه الله ـ يقول : إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين بابا من الخير يريد به بابا من الشر .

وعن حماد بن شعيب عن الأعمش قال : حدثنا رجل كان يكلم الجن قالوا : ليس علينا اشد ممن يتبع السنة ، وأما أصحاب الأهواء فإنا نلعب بهم لعبا .

نختم هذا البحث بتلك القاعدة النافعة التى ذكرها ابن القيم فى تفسيره للمعوذتين فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ، ويحترز به منه .

وذلك عشرة اسباب . (الحرز الأول)

الحرز الأول : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾[1] وفى موضع آخر ﴿ إنه سميع عليم ﴾[2] وقد تقدم : إن السمع المراد به ههنا سمع الاجابة لامجرد السمع العام وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة « هو » الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالألف واللام فى سورة حم لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه فى سورة الأعراف ، لاستغناء المقام عنه . فإن الأمر بالاستعاذة فى سورة حم وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس وهو مقابله إساءة المسىء بالاحسان إليه . وهذا أمر لايقدر عليه إلا الصابرون ، ولايلقاه الا ذو حظ عظيم . كما قال تعالى . ﴿ ولاتستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . ومايلقاها الا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[3] .

والشيطان لايدع العبد يفعل هذا بل يريه أن هذا ذل وعجز ، ويسلط عليه عدوه ، فيدعوه الى بالانتقام ، ويزينه له . فإن عجز عنه دعاه إلى الاعراض عنه والا يسىء إليه ولا يحسن فلا يؤثر الاحسان الى المسىء الا من خالقه وآثر الله وماعنده على حظه العاجل . فكان المقام مقام تأكيد وتحريض . فقال فيه ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ واما فى سورة الأعراف : فإنه أمره ان يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالاحسان ، بل الاعراض . وهذا سهل على النفوس ، غير مستعص عليها . فليس حرص الشيطان وسعيه فى دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالاحسان فقال ﴿ واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم ﴾

---

(١) الاية ٣٦ من سورة فصلت

(٢) الاية ٢٠٠ من سورة الأعراف

(٣) الأيتان ٣٤ ، ٣٥ من سورة فصلت

وفى صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن حرد قال « كنت جالسا مع النبى ﷺ ورجلان يستبان . فأحدهما احمر وجهه وانتفخت اوداجه . فقال النبى - ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه مايجد . لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه مايجد »[١] .

الحرز الثانى :

قراءة المعوذتين فإن لهما تأثيرا عجيبا فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه ولهذا قال النبى - ﷺ

﴿ ماتعوذ المتعوذون بمثلهما ﴾[٢] وقد كان يتعوذ بهما كله ليلة عند النوم ، وأمر (عقبة) أن يقرأ بهما دبر كل صلاة .

وقال ﷺ « إن من قرأهما مع سورة الاخلاص ثلاثا حين يمسى ، وثلاثا حين يصبح ، كفته من كل شىء »[٣] .

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسى . ففى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : « وكلنى رسول الله - ﷺ - بحفظ زكاة رمضان فأتى آت ، فجعل يحثو من الطعام . فأخذته فقلت إلا رفعتك الى رسول الله - ﷺ - فذكر الحديث ، الى أن قال - فقال : إذا أويت الى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ، ولايقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبى - ﷺ - : صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان ﴾[٤]

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة : ففى الصحيح من حديث سهل بن عبد الله عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « لاتجعلوا بيوتكم قبورا . وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لايدخله الشيطان »[٥]

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة . قد ثبت فى الصحيح من حديث ابى مسعود الأنصارى قال : قال رسول الله - ﷺ : (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه)[٦] وفى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى - ﷺ - قال « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق الخلق بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان »[٧]

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ج ٤ ص ١٥١

(٢) الحديث بمعناه فى سنن الترمذى - ج ٤ ص ٢٤٤ ، وفى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٤٩ تفسير سورتى المعوذتين وفى كنز ٢ ص ٣١٢ رقم ٤٠٨٩

(٣) الحديث بمعناه فى سنن الترمذى - ج ٤ ص ٢٤١ وفى تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٣٩ تفسير سورة الاخلاص وفى كنز العمال - ج ٢ ص ٣١١

(٤) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب فضائل القرآن - فضل البقرة - ج ٦ ص ٢٣٢

(٥) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافر - ج ١ ص ٥٣٩ رقم ٢١٢ وفى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٢ رقم ٣٠٣٧

(٦) الحديث فى صحيح مسلم - صلاة المسافر - ج ١ ص ٥٥٥ رقم ٢٥٦ وفى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٤ رقم ٣٠٤٣

(٧) الحديث فى سنن الترمذى - ابواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٥ رقم ٣٠٤٤

الحرز السادس : أول سورة حم المؤمن الى قوله (اليه المصير) مع آية الكرسى .

ففى الترمذى بسنده عن ابى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - « من قرأ حم المؤمن الى قوله (اليه المصير) وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح » (١) والحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسى وهو محتمل على غرابته .

الحرز السابع : لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

ففى الصحيحين من حديث ابى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لاشريك له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير على من يسره الله عليه »(٢)

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل . ففى الترمذى من حديث الحارث الأشعرى أن النبى - ﷺ - قال « ان الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها ، وانه كاد ان يبطىء بها فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى اسرائيل ان يعملوا بها . فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم . فقال يحيى : أخشى أن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب . فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلأ ، وقعدوا على الشرف . فقال : ان الله امرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم ان تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئا ، وأن مثل من اشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق فقال : هذه دارى ، وهذا عملى ، فاعمل وأد إلى فكان يعمل ويؤدى الى غير سيده . فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة . فإذا صليتم فلا تلتفتوا . فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته مالم يلتفت : وأمركم بالصيام : فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه

صبره فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها . وان ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك .

وأمركم بالصدقة . فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده الى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه . فقال : أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم .

وأمركم ان تذكروا الله . فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى اثره سراعا ، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم . كذلك العبد لايحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله قال النبى - ﷺ - وأنا أمركم بخمس الله أمرنى بهن ! السمع والطاعة . والجهاد . والهجرة ، والجماعة فإن من

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٢ رقم ٣٠٣٩

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء - ج ٤ ص ٢٠٧١ رقم ٢٨

فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه ، إلا أن يراجع . ومن أدعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم . فقال رجل : يارسول الله وان صلى وصام قال : وإن صلى وصام . فادعو بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله »(١)

(قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى الحارث الأشعرى له صحبه . وله غير هذا الحديث)

فقد أخبر النبى - ﷺ - فى هذا الحديث أن العبد لايحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله . وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس . ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس . والخناس الذى إذا ذكر العبد الله انخنس ، وتجمع وانقبض واذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى اليه الوساوس التى هى مبادىء الشر كله ، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة وهذا من أعظم مايتحرز به منه ، ولاسيما عند توارد قوة الغضب والشهوة . فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم . كما فى الترمذى من حديث ابى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ - أنه قال « ألا وان الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم الى حمرة عينيه وانتفاخ اوداجه ! فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض)(٢)

وفى أثر أخر « ان الشيطان خلق من نار ، وانما تطفأ النار بالماء » فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة فإنها نار والوضوء يطفئها ، والصلاة اذا وقعت بخشوعها والاقبال فيها على الله أذهبت أثر كله . وهذا أمر تجربته تغنى من إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر ، والكلام والطعام ، ومخالطة الناس : فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه : من هذه الأبواب الأربعة .

فإن فضول النظر يدعو الى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب ، والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به .

فمبدأ الفتنة من فضول النظر ، كما فى المسند عن النبى - ﷺ - انه قال : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه الى يوم يلقاه)(٣) أو كما قال ﷺ

فالحوادث العظام إنما هى كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لاحسرة ؟ كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر !

(١) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الأمثال - ج ٤ ص ٢٢٥ رقم ٣٠٢٣
(٢) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الفتن - ج ٣ ص ٣٢٧ رقم ٢٢٨٦
(٣) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى - باب النظرة - ص ٤٥٢
وفى كنز العمال ج ٥ ص ٣٢٩ رقم ١٣٠٧٥ وفى المستدرك للحاكم ح ٤ ص ٣١٤

وقال الآخر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما اتعبتك المناظر
رأيت الذى لاكله أنت قادر علَيه ، ولاعن بعضه انت صابر

ولى من ابيات :

ياراميا بسهام اللحظ مجتهدا انت القتيل بما ترمى ، فلاتصب
وباعث الطوف يرتاد الشفاء له ترفه ، انه يرتد بالعطب
ترجو الشفاء بأحداق بها مرض فهل سمعت ببرء جاء من عطب ؟
ومفنيا نفسه فى إثر أقبحهم وصفا للسطح حجال فيه مستلب
وواهبا عمره فى مثل ذا سفها لوكنت تعرف قدر العمر لم تهب
وبائعا طيب عيش ماله خطر بطيف عيش من الآلام منتهب
غبنت والله غبنا فاحشا فلو اسـ ـترجعت ذا القعد لم تغبن ولم تخب
وواردا صفو عيش كله كدر أمامك الورد صفوا ليس بالكذب
وحاطب الليل فى الظلماء منتصبا لكل داهية تدنى من العطب
شاب الصبا والتصابى بعد لم يشب وضاع وقتك بين اللهو واللعب
وشمس عمرك قد حان الغروب لها والضى فى الأفق الشرقى لم يغب
وفاز بالوصل من قد فاز وانقشعت عن أفقه ظلمات الليل والسحب
كم ذا التخلف والدنيا قد ارتحلت ورسل ربك قد وافتك فى الطلب
ماقى الديار وقد سارت ركائب من تهواه للصب من سكنى ولاأرب
فافرش الخد ذياك التراب ، وقل ماقاله صاحب الأشواق فى الحقب
ماربع مية محفوفا يطوف به عيلان أشهى له من ربعك الحزب
ولا الخدود وان أدمين من ضرج أشهى الى ناظرى من خدك الترب
منازل كان يهواها ويألفها أيام كان منال الوصل من كتب
فكلما جليت تلك الربوع له يهوى إليها هوى الماء فى حيب
أحياله الشوق تذكار العهود بها فلو دعا القلب للسلوان لم يجب
هذا وكم منزل فى الأرض يألفه وماله فى سواها الدهر من رغب
ماقى الخيام أخو وجد ريحك إن بثثته بعض شأن الحب ، فاغترب
وأسر فى غمرات الليل مهتديا بنفحة الطيب لا بالنار والحطب
وعاد كل أخى جبن ومعجزة وحارب النفس لاتلقيك فى الحرب
وخذ لنفسك نورا تستضىء به يوم اقتسام الورى بالأنوار بالرتب
فالجسر ذو ظلمات ليس يقطعه إلا بنور ينجى العبد فى الكرب

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد ابوابا من الشر كلها مداخل للشيطان ، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب جرتها كلمة واحدة . وقد قال النبي - ﷺ - لمعاذ « وهل يكب الناس على مفاخرهم فى النار الا حصائد السنتهم »[1] وفى الترمذى أن رجلا من الأنصار توفى فقال بعض الصحابة : طوبى له ، فقال النبى - ﷺ - « فما يدريك ؟ فلعله تكلم بما لايعنيه ، أو بخل بمالا ينقصه »[2]

وأكثر المعاصى : إنما يولدها فضول الكلام والنظر وهما اوسع مداخل الشيطان . فإن جارحيتهما لايملان ، ولايسأمان ، بخلاف شهوة البطن ، فإنه اذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الاطراف ، كثيرة الشعب ، عظيمة الآفات . وكان السلف يحذرون من فضول النظر ، كما يحذرون من فضول الكلام ، كانوا يقولون : ماشيء أحوج الى طول سجن من اللسان .

وأما فضول الطعام : فهو داع الى انواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح الى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات . وحسبك بهذين شرا . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام وكم من طاعة حال دونها ؟

فمن وقى شر بطنه وقى شرا عظيما .

والشيطان أعظم مايتحكم من الانسان اذا ملأ بطنه من الطعام . ولهذا جاء فى بعض الآثار ﴿ ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم ﴾ وقال النبى - ﷺ - « ماملأ آدمى وعاء شرا من بطن »[3]

ولو لم يكن فى الامتلاء من الطعام إلا انه يدعو الى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده ، ومناه وشهاه ، وهام به فى كل واد . فإن النفس اذا شبعت تحركت وجالت وطافت على ابواب الشهوات . واذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة :

فهى الداء العضال الجالب لكل شر . وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة . وكم زرعت من عداوة . وكم غرست فى القلب من حزازات تزيل الجبال الراسيات وهى فى القلوب لا تزول ، ففى فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة . وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة .

ويجعل الناس فيها اربعة اقسام : متى خلط أحد الاقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل الشر .

أحدها : من مخالطته كالغذاء لايستغنى عنه فى اليوم والليلة . فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم اذا احتاج اليه خالطه هكذا على الدوام . وهذا الضرب اعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وامره ، ومكايد عدوه ، وامراض القلوب وادويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه - فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كل الربح .

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه - كتاب الفتن - ج ٢ ص ١٣١٤ ، ١٣١٥ رقم ٣٩٧٣

(٢) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب الزهد - ج ٣ ص ٣٨٢ رقم ٢٤١٨

(٣) الحديث فى مسند أحمد - ج ٤ ص ١٣٢

القسم الثانى : مَنْ مخالطته كالدواء ، يحتاج اليه عند المرض فمادمت صحيحا فلا حاجه لك فى خلطته ، وهم من لايستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش ، وقيام ماأنت محتاج اليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من القسم الثالث : وهم من مخالطتهم كالداء على اختلاف مراتبه وانواعه وقوته وضعفه .

فمنهم من مخالطته كالداء العضال ، والمرض المزمن ، وهو من لاتربح عليه فى دين ولادنيا . ومع ذلك فلابد من أن تخسر عليه الدين والدنيا او احدهما .

فهذا اذا تمكنت منك مخالطته واتصلت ، فهى مرض الموت المخوف .

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك فإذا فارقك سكن الألم .

ومنهم من مخالطته حمى الروح ، وهو الثقيل البغيض العقل ، الذى لايحسن ان يتكلم فيفيدك ، ولايحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولايعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل ان تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع اعجابه بكلامه وفرحه به فهو يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن انه مسك يطيب به المجلس . وان سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التى لايطاق حملها ولاجرها على الأرض . ويذكر عن الشافعى ـ رحمه الله ـ أنه قال : ماجلس ثقيل الا وجدت الجانب الذى هو فيه انزل من الجانب الآخر .

ورأيت يوما عند شيخنا قدس الله روحه ـ ابن تيمية ـ رجلا من هذا الضرب والشيخ يحمله ، وقد ضعفت القوى عن حمله ، فالتفت الى وقال : مجالسة الثقيل حمى الربع . ثم قال . لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى ، فصارت لها عادة او كما قال .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى الروح ، فعرضية ولازمة ، ومن نكد الدنيا على العبد ان يتبلى بواحد من هذا الضرب . وليس له بد من من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم فإن اتفق لأكله ترياق ، وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وماأكثر هذا الضرب فى الناس لاكثرهم الله . وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله ـ ﷺ ـ الداعون الى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة ، والمعروف منكرا والمنكر معروفا .

ان جردت التوحيد بينهم قالوا : تنقصت جناب الأولياء والصالحين .

وان جردت المتابعة لرسول الله ـ ﷺ ـ قالوا : أهدرت الأئمة المتبوعين .

وان وصفت الله بما وصف به نفسه ، وبما وصف به رسوله من غير غلو ولاتقصير قالوا : أنت من المشبهين .

وان أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا : أنت من المفتنين .

وإن اتبعت السنه وتركت ماخالفها قالوا : أنت من أهل البدع المضلين .

وان انقطعت الى الله تعالى ، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا ، قالوا : انت من الملبسين .
وان تركت ماانت عليه واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين ، وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم ، التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم وأن لاتشتغل بأعتابهم ، ولاباستعتابهم ، ولاتبالى بذمهم ولابغضهم . فإنه عين كما لك كما قال :

وإذا اتتك مذمتى من ناقص .·. فهى الشهادة لى بأنى فاضل

فمن أيقظ بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التى هى اصل البلاء ، وهى فضول النظر ، والكلام ، والطعام ، والمخالطة واستعجل ماذكرناه من الاسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان فقد اخذ بنصيبه من التوفيق . وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها ابواب الرحمة ، وانغمر ظاهره وباطنه ويوشك ان يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء . فعند الممات يحمد القوم التقى . وفى الصباح يحمد القوم السرى والله الموفق لارب غيره ، ولا إله سواه .

مناقشة المشركين وإفحامهم

قال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ
عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ
وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ
لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ
يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ
شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل
لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

معانى المفردات

مثقال ذرة : وزن ذرة ـ ظهير : معين ، فزع عن قلوبهم : من التفزيع وهو إزالة الفزع والخوف عن قلوبهم ـ أجرمنا : أذنبنا من الجرم وهو الذنب ، يفتح : يحكم ، والفتاح الحاكم ، لأنه يفتح طريق الحق ويظهره . كلا : كلمة ردع لهم ، كافة : أى مانعالهم من الكف وهو المنع ، أو جامعا لهم مأخوذ من الكف بمعنى الجمع والتاء للمبالغة والمراد جامعا للناس فى الابلاغ .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر عزت قدرته ماآتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التى لاحصر لها ، ومافعله بسبأ حين بطرو النعمة وكذبوا الرسل ـ أعقب ذلك بأمر رسوله ـ ﷺ ـ أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم : ادعوا آلهتكم الذين زعمتوهم شركاء لله ، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام ، فإن لم يستطيعوا ذلك فأعلموا انهم مبطلون . ثم ذكر سبحانه أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعابد يخشى بطشه وسطوته ، وهؤلاء ليس لهم شىء من ذلك ، إذ لاتصرف لهم فى شىء فى السموات والأرض لااستقلالا ولاشركة ، ولاهم معينون للخالق فيهما ، ولاتنفع الشفاعة لديه فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذى علمتم من أمرهم . ثم أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرده بالخلق والرزق وانفراده بالالهية وان يخبروا بإن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجماد مبطل والأخر محق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ماأنتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لاتؤاخذون بما نعمل ولانؤاخذ بما تعلمون ، وان يقول لهم : ان ربنا هو الذى يحكم بيننا يوم القيامة وهو الحكيم العليم بجلائل الأمور ودقائقها ، وأن يقول لهم : أعلمونى عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخلقون وهل يرزقون ؟ كلا بل هو الله الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم فى كل مايفعل وبعد أن أقام سبحانه الأدلة على التوحيد ، وضرب لذلك الأمثال . شرع يذكر الرسالة ويبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن اكثر الناس لايعلمون غن الساعة استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

التفسير

قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لايملكون مثقال ذرةفى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ﴾

هذه الآية دليل قاطع وبرهان ساطع وحجة دامغه . . تصيح بأعلى صوتها ﴿ قل ادعو الذين زعمتم من دون الله ﴾ أى معبوداتكم التى اتخذتموها آلهه من دون الله ، أى شىء فيها من خصائص الألوهية ، إن هذه المعبودات باطلة ، انهم لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض اذا لاخالق ولا رزاق إلا الله .

﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذالكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير ، ياأيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وماذلك على الله بعزيز ﴾(١) .

ومااصدق قوله جل شأنه : ﴿ أيشركون مالايخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ام لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها ، قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . ان ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين والذين تدعون من دونه لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لايسمعوا وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون ﴾(٢)

وما اعظم قوله تبارك اسم ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا . واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا ﴾(٣) .

ومااجل قوله تبارك وتعالى : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور . الذى خلق سبع سموات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطورثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ﴾(٤) .

وأمر الله تعالى نبيه بالحمد على التوحيد فقال : ﴿ وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا ﴾(٥) .

قوله تعالى ﴿ ومالهم فيهما من شرك ﴾ أى ليس لهؤلاء الآلهة الذين اتخذتموهم أولياء من دون الله نصيب فى السموات ولا فى الأرض قوله تعالى ﴿ وماله منهم من ظهير ﴾ قال قتادة : من عون يعينه بشىء . فاسألوا انفسكم ايها المعاندون المجادلون بالباطل ﴿ أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون وإن تعدوا نعم الله لاتحصوها إن الله لغفور رحيم والله يعلم ماتسرون وماتعلنون والذين يدعون من

---

(١) الآيات ١٣ الى ١٧ من سورة فاطر
(٢) الآيات ١٩١ الى ١٩٨ من سورة الأعراف
(٣) الآيات ١ الى ٣ من سورة الفرقان
(٤) الآيات ١ الى ٤ من سورة الملك
(٥) الآية ١١١ من سورة الاسراء

دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون أموات غير أحياء ومايشعرون آيان يبعثون ، إلهكم إله واحد فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون لاجرم أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون إنه لايحب المستكبرين ﴾[١] .

قوله تعالى ﴿ ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلى الكبير ﴾ . ونحو ذلك قوله تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٣] ولهذا ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلهم أن يأتى ربهم لفصل القضاء قال « فأسجد لله تعالى فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ، ويفتح على بمحامد لاأحصيها الآن ثم يقال يامحمد ارفع رأسك وقل تسمع وسل تعطه واشفع تشفع ـ الحديث »[٤] .

وقوله تعالى ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة وهو أنه تعالى اذا تكلم بالوحى فسمع أهل السماوات كلامه ارعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى ، قاله ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ أى زال الفزع عنها قال ابن عباس وابن عمر وابو عبد الرحمن السلمى والشعبى وابراهيم النخعى والضحاك والحسن وقتادة فى قوله ـ عز وجل ـ ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ يقول خلى عن قلوبهم ، ﴿ قالوا الحق ﴾ أى أخبروا بما قال من غير زيادة ولانقصان .

وقال آخرون فى معنى قوله تعالى ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ يعنى المشركين عند الاحتضار ويوم القيامه اذا استيقظوا مما كانوا منه من الغفلة فى الدنيا ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامه قالوا ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا .

وقال مجاهد (حتى إذا فزع عن قلوبهم) كشف عنها الغطاء يوم القيامه . وقال الحسن (حتى إذا فزع عن قلوبهم) يعنى مافيها من الشك والتكذيب . ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق وهو العلى الكبير ﴾ قال وهذا فى بنى آدم هذا عند الموت أقروا حين لاينفعهم الاقرار وقد اختار ابن جرير أن الضمير عائد على الملائكة وهذا هو الحق الذى لامرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار . ولنذكر منها طرفا يدل على غيره قال البخارى بسنده عن ابى هريرة رضى الله عنه يقول ان نبى الله ـ ﷺ ـ قال) إذا قضى الله تعالى الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال الحق وهو العلى الكبير فيسمعها مسترق السمع ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها الى من تحته ، ثم يلقيها الآخر الى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر او الكاهن فربما أدركه الشهاب قبل ان يلقيها وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا ، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء)[٥] انفرد به البخارى

---

(١) سورة النحل الآيات : ١٧ ـ ٢٣
(٢) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة
(٣) الآية ٢٨ من سورة الأنبياء
(٤) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ج ١ وفى صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة البقرة ج ٦ ص ٢١ ، ٢٢ ط
(٥) الحديث فى صحيح البخارى ـ تفسير سورة الحجر ـ ج ٦ ص ١٠٠ ط

دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث سفيان بن عيينة .

وقال ابن ابى حاتم بسنده عن النواس بن سمعان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ (اذا اراد الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يوحى بأمره تكلم بالوحى ، فإذا تكلم أخذت السموات منه رجفة ـ أو قال رعدة . شديدة من خوف الله تبارك وتعالى فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه الصلاة والسلام فيكلمه الله من وحيه بما أراد فيمضى به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة كلما مر بسماء يسأله ملائكتها ماذا قال ربنا ياجبريل ، فيقول عليه السلام : قال الحق وهو العلى الكبير فيقولون كلهم مثل ماقال جبريل فينتهى جبريل بالوحى الى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض)[1] .

وقد روى ابن ابى حاتم من حديث العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وعن قتادة انهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله تعالى الى محمد ـ ﷺ ـ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام ، ولاشك ان هذا اولى مادخل فى هذه الآية .

قال الامام ابن القيم فى تفسير قوله تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما شرك وماله منهم من ظهير ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ﴾ .

قال رحمه الله تعالى : فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التى دخلوا منها الى الشرك وسدت بها عليهم الباب ابلغ سد واحكمه ؟ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه ، وإلا فلو كان لايرجو منفعة منه فلا يتعلق قلبه به ابدا ، وحينئذ فلابد ان يكون المعبود إما مالكا للأسباب التى ينتفع بها عابده ، أو شريكا لمالكها ، أو ظهيرا أو وزيرا أو معاونا له ، او وجيها ذا حرمة وقدر ، يشفع عنده ، فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه انتفت اسباب الشرك وانقطعت مواده .

فنفى سبحانه عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة فى السموات والأرض . فقد يقول المشرك : هى شريكة للمالك الحق . فنفى شركها له .

فيقول المشرك : قد تكون ظهيرا لو وزيرا ، أو معاونا . فقال سبحانه ﴿ وماله منهم من ظهير ﴾ .

ولم يبق الا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم ، وأخبر أنه لايشفع أحد عنده الا بإذنه فإن لم يأذن للشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه ، كما يكون فى حق المخلوقين . فإن المشفوع عنده يحتاج الى الشافع ومعاونته له فيقبل شفاعته ، وإن لم يأذن له منها . وأما من كل ماسواه ففقير اليه بذاته ، فهو الغنى بذاته عن كل ماسواه .

فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه ؟

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٧ من رواية ابن جرير وابن ابى حاتم وابى الشيخ فى العظمة وابن مردويه وفى الاسماء والصفات والطبرانى فى الكبير عن النواس بن سمعان

كلمة فى الشفاعة

تعريفها :

الشفاعة لغة : كمال قال ابن الأثير فى النهاية : قد تكرر ذكر الشفاعة فى الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة ، وهى السؤال فى التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم ، يقال : شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع ، والمشفع (بكسر الفاء) الذى يقبل الشفاعة ، والمشفع (بفتح الفاء) الذى تقبل شفاعته .

وفى القاموس وتاج العروس : والشفيع صاحب الشفاعة والجمع شفعاء ، وهو الطالب لغيره يتشفع به الى المطلوب .

وفيهما ايضا : وشفعته فيه تشفيعا حين شفع كمنع شفاعة اى قبلت شفاعته .

وفى حديث الحدود : (إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفع) (موقف على الزبير بن العوام)

وفى حديث ابن مسعود : (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق)(١) .

أى من اتبعه وعمل بما فيه فهو شافع مقبول الشفاعة من العفو عن فرطاته ، ومن ترك العمل به تم على إساءته وصدق عليه فيما يرفع من مساويه .

فالمشفع : الذى يقبل الشفاعة ، والمشفع (بفتح الفاء) الذى تقبل شفاعته ، ومنه حديث « اشفع تشفع »

والشفاعة فى الشرع موافقة للمعانى اللغوية . فمن الشفعاء من يشفع ابتداء ، ومنهم من يشفع بعد الطلب ، كما سيأتى إن شاء الله بيانه فى الأحاديث .

آيات خاصة بالشفاعة

ورد فى القرآن الكريم آيات تنفى الشفاعة ، وأخرى تثبتها وقد جمع العلماء بينهما ولنذكر الأيات التى تنفيها ثم نتبعها بالآيات التى تثبتها ثم نذكر ماقاله العلماء فى الجمع بينهما :-

الآيات الواردة فى نفى الشفاعة والشفيع

قال الله تعالى : ﴿ واتقوا يوما لاتجزى نفس عن نفس شيئا ، ولايقبل منها شفاعة ولايؤخذ منها عدل ولاهم ينصرون ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ ياأيها الذين امنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾(٣) .

وقال تعالى حاكيا عن بعض الصالحين ﴿ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغنى عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون ﴾(٤) ففى هذه الآيات نفى الشفاعة .

---

(١) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٦٧
(٢) الآية ٤٨ من سورة البقرة
(٣) الآية ٢٥٤ من سورة البقرة
(٤) الآية ٢٣ من سورة يس

وقال تعالى : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾(١) .

وقال تعالى ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت ليس لها من دون الله ولى ولاشفيع ، وإن تعدل كل عدل لايؤخذ منها أولئك الذين أبسلوا بماكسبوا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولاينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾(٣) .

وقال تعالى حاكيا عن أهل النار ﴿ فمالنا من شافعين ، ولاصديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ﴾(٤) .

وقال تعالى ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض ومابينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولاشفيع أفلا تتذكرون ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء ، قل أولو كانوا لايملكون شيئا ولايعقلون . قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون ﴾(٦) .

وقال تعالى ﴿ وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ماللظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾(٧) .

ففى هذه الآيات نفى الشفيع

الآيات فى إثبات الشفاعة والشفيع

قال الله تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه ﴾(٨)

وقال تعالى ﴿ مامن شفيع إلا من بعد إذنه ﴾(٩)

وقال تعالى ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، سبحانه بل عباد مكرمون لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾(١٠)

ففى هذه الآيات إثبات الشفيع بشروط .

وقال تعالى : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا : لاترى فيها عوجا ولا أمتا . يومئذ يتبعون الداعى لاعوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضى له قولا ﴾(١١) .

---

(١) الآية ٥١ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنعام
(٣) الآية ١٨ من سورة يونس
(٤) الآيات ١٠٠ الى ١٠٢ من سورة الشعراء
(٥) الآية ٤ من سورة السجدة
(٦) الآيتان ٤٣ ، ٤٤ من سورة الزمر
(٧) الآية ١٨ من سورة غافر
(٨) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة
(٩) الآية ٣ من سورة يونس
(١٠) الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ من سورة الأنبياء
(١١) الآيات ١٠٥ - ١٠٩ من سورة طة

وقال تعالى : ﴿ ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[١] .

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله ثم قال ﴿ ولايملك الذين يدعون من دونه ﴾ اى من الأصنام والأوثان (الشفاعة) اى لايقدرون على الشفاعة لهم (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون) هذا استثناء منقطع أى : لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له . أهـ .

وقال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾[٢] .

هذه الآيات تدل على الشفاعة المثبتة بشروط .

الجمع بين الآيات المثبتة والآيات النافية

يتحصل من هذا أن النفى مقصود به الشفاعة التى تطلب من غير الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ قل لله الشفاعة جميعا ﴾ والشفاعة المثبتة لاتقبل الا بشروط .

١ ـ قدرة الشافع على الشفاعة كما قال تعالى فى حق الشافع الذى يطلب منه وهو غير قادر على الشفاعة : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال تعالى : ﴿ ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ فعلم من هذا أن طلب الشفاعة من الأموات طلب ممن لايملكها قال تعالى : ﴿ والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير ، إن تدعوهم لايسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ماستجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولاينبئك مثل خبير ﴾ .

وقال تعالى ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ومالهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ، ولاتنفع الشفاعة عنده الا لمن أذن له ﴾ .

٢ ـ اسلام المشفوع له : قال تعالى : ﴿ ماللظالمين من حميم ولاشفيع يطاع ﴾ والمراد بالظالمين هنا ، الكافرون ، بدليل الأحاديث المتواترة فى الشفاعة لأهل الكبائر وستأتى إن شاء الله فى موضعها .

قال الحافظ البيهقى ـ رحمه الله ـ فالظالمون هاهنا هم الكافرون ، ويشهد لذلك مفتتح الآية إذهى فى ذكر الكافرين . اهـ .

وقال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية : أى ليس للذين ظلموا انفسهم بالشرك بالله من قريب منهم ينفعهم ، ولاشفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . اهـ .

٣ ـ الأذن للشافع ، كما قال تعالى ﴿ من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه ﴾ .

٤ ـ الرضا عن المشفوع له كما قال تعالى : ﴿ وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا يشفعون الا لمن ارتضى ﴾ .

---

(١) الآية ٨٦ من سورة الزخرف

(٢) الآية ٢٦ من سورة النجم

الشفاعة العظمى

قال البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله ﷺ بلحم ، فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال :

(أنا سيد الناس يوم القيامة ، وهل تدرون بم ذلك ؟ يجمع الناس - الأولين والآخرين - فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب مالا يطيقون ولايحتملون ، فيقول الناس : الا ترون ماقد بلغلكم ؟ الا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض : عليكم بآدم ، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له : أنت ابو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا الى ربك ، الا ترى الى مانحن فيه ؟ الا ترى الى ماقد بلغنا ؟ فيقول آدم : إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وانه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى نوح ، فيأتون نوحا ، فيقولون : يانوح انك انت اول الرسل الى اهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول : إن ربى وعز وجل - قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانه قد كانت لى دعوة ، دعوتها على قومى ، نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى ابراهيم ، فيأتون ابراهيم ، فيقولون ياابراهيم انت نبى الله وخليله من أهل الأرض ، اشفع لنا الى ربك الا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول لهم : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله ، وانى قد كنت كذبت ثلاث كذبات - فذكرهن ابو حيان فى الحديث نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى موسى ، فيأتون موسى فيقولون : ياموسى انت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس ، اشفع لنا الى ربك ، الا ترى الى مانحن فيه ؟ فيقول : ان ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله وإنى قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى عيسى ، فيأتون الى عيسى فيقولون : ياعيسى انت رسول الله وكلمته الى مريم وروح منه ، وكلمت الناس من المهد صبيا ، اشفع لنا ، الا ترى مانحن فيه ؟ فيقول عيسى . إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنبا - نفسى ، نفسى ، نفسى ، اذهبوا الى غيرى ، اذهبوا الى محمد - ﷺ - فيأتون محمدا ، فيقولون : يامحمد ، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء ، وقد غفر لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر ، اشفع لنا الى ربك ، ألا ترى مانحن فيه ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجدا لربى - عز وجل - ثم يفتح على من محامده ، وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ثم يقال : يامحمد ارفع رأسك سل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأس فأقول : أمتى يارب ، أمتى يارب ، فيقال : يامحمد ادخل من امتك من لاحساب عليهم من الباب الأيمن وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب - ثم قال - والذى نفسى بيده ان مابين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير . وكما بين مكة وبصرى)[1] .

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان ج ١ ص ١٨٤ رقم ٣٢٧
وفى مسند أحمد - ج ١ ص ٢٨١

الحديث أخرجه مسلم والترمذى وأحمد وابن خزيمة وابو عوانه وعندهم كلهم الا البخارى وابا عوانه (مابين مكة وهجر).

وأخرج البخارى أيضا بسنده عن أنس أن النبى - ﷺ - قال: يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك فيقولون: لو استشفعنا الى ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون ياآدم أما ترى الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء اشفع لنا الى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناك ويذكر لهم خطيئة التى أصاب ولكن ائتوا نوحاً فيأتون نوحاً فيقول: لست هاك ويذكر خطيئته التى أصاب ولكن ائتوا ابراهيم خليل الرحمن فيأتون ابراهيم فيقول:

فيأتون ابراهيم فيقول: لست هناكم ويذكر لهم خطاياه التى اصابها ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه تكليما فيأتون موسى فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التى أصابها ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمته وروحه فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم ولكن ائتوا محمدا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - عبدا غفر له ماتقدم من ذنبه ماتأخر فيأتوننى فأنطلق فأستأذن على ربى فيؤذن لى عليه فإذا رأيت ربى وقعت له ساجدا فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال لى: ارفع محمد وقل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم أشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ثم يقال: ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم اشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أرجع فإذا رأيت ربى وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ان يدعنى ثم يقال ارفع محمد قل يسمع وسل تعطه واشفع تشفع فأحمد ربى بمحامد علمنيها ثم اشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم ارجع فأقول: يارب مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود

فقال النبى - ﷺ -: (يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن شعيرة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه من الخير مايزن برة ثم يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وكان فى قلبه مايزن من الخير ذرة)[١]

شفاعة النبى ﷺ وكونه
أول شفيع

روى الامام مسلم بسنده عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ - (أنا أول الناس يشفع فى الجنة وانا اكثر الأنبياء تبعا)[٢]

عن انس بن مالك قال: قال رسول الله - ﷺ - وآله وسلم: (أنا أكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة وأنا اول من يقرع باب الجنة)[٣].

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى- كتاب التوحيد- ج ٩ ص ١٤٩، ١٥٠ ج ١ الشعب
(٢) الحديث فى صحيح مسلم- كتاب الايمان- ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٠
(٣) الحديث فى صحيح مسلم- كتاب الايمان- ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣١

وعن انس بن مالك قال : قال النبى - ﷺ - (أنا أول شفيع فى الجنة ولم يصدق بنى ماصدقت وإن من الأنبياء نبيآ مايصدقه من أمته إلا رجل واحد)(١) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله - ﷺ - (آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن : من أنت فأقول : محمد فيقول : بك أمرت لاأفتح لأحد قبلك)(٢) .

عن عبد الله بن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - (للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها - قال - ويبقى منبرى لاأجلس عليه ولا أقعد قائم بين يدى الله ربى مخافة أن يبعث بى إلى الجنة وتبقى أمتى بعدى فأقول : يارب أمتى فيقول الله عز وجل - : يامحمد ماتريد أن تصنع بأمتك فيقول : يارب عجل حسابهم فيدعى بهم فيحاسبون فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتى فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم إلى النار وحتى أن مالكا خازن النار يقول يامحمد ماتركت للنار لغضب ربك من نقمة)(٣) .

الحديث أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد غير أن الشيخين لم يحتجا بمحمد بن ثابت البنانى وهو فى مسند الحديث وهو قليل الحديث يجمع حديثه والحديث غريب فى أخبار الشفاعة فتعقبه الذهبى فقال : ضعفه غير واحد والحديث منكر .

روى ابن خزيمة بسنده عن سلمان الفارسى قال : (يأتون النبى ﷺ فيقولون : يانبى الله آنت الذى فتح الله بك وختم وغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وماتأخر فاشفع لنا إلى ربك فيقول : نعم أنا صاحبكم فيخرج بحوش النار حتى ينتهى إلى باب الجنة فيأخذ بحلقة فى الباب من ذهب فيقرع الباب فيقال : من هذا فيقال : محمد قال : فيفتح له قال : فيجىء حتى يقوم بين يدى الله فيستأذن فى السجود فيؤذن له قال : فيفتح الله له من الثناء والتحميد والتمجيد مالم يفتحه لأحد من الخلائق فينادى : يامحمد ارفع رأسك وسل تعطه وادع تجب قال : فيرفع رأسه فيقول : رب أمتى ثم يستأذن فى السجود فيؤذن له فيفتح له من الثناء والتحميد والتمجيد مالم يفتح لأحد من الخلائق فينادى : يامحمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع وادع تجب قال : يفعل ذلك مرتين أو ثلاثا فيشفع لمن كان فى قلبه حبة من حنطة أو مثقال شعيرة أو مثقال حبة من خردل من إيمان .

قال سلمان : فذلك المقام المحمود)

وعن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إنى لأول الناس تنشق الأرض عن جمجمته يوم القيامة ولافخر وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولافخر سآتى باب الجنة فيفتحون لى فأسجد لله تعالى فيقول : ارفع رأسك يامحمد وتكلم يسمع لك وقل يقبل منك واشفع تشفع فأرفع فأقول : أمتى يارب فيقول : اذهب إلى أمتك فمن وجدت فى قلبه مثقال حبة من شعير من إيمان فأدخله الجنة فأقبل بمن وجدت فى قلبه ذلك فأدخلهم الجنة وآتى الجبار وأسجد له فيقول : ارفع رأسك يامحمد وتكلم يسمع منك وقل يقبل قولك واشفع تشفع فأقول : أمتى أمتى فيقول : اذهب إلى أمتك

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٢
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الايمان - ج ١ ص ١٨٨ رقم ٣٣٣
(٣) الحديث فى المستدرك للحاكم - ج ١ - كتاب الايمان ص ٦٥

فمن وجدت فى قلبه مثقال نصف حبة من شعير من الايمان فأدخله الجنة ، فأذهب فمن وجدت فى قلبه مثقال ذلك فأدخله الجنة قال : فآتى الجبار فأسجد له فيقول : ارفع رأسك يامحمد وتكلم يسمع منك واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول : أمتى أمتى أى رب فيقول : إذهب فمن وجدت فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأدخله الجنة فأذهب فمن وجدت فى قلبه مثقال ذلك فأدخلهم الجنة وفرغ من الحساب حساب الناس . .

وتمام الحديث كما فى مسند الإمام أحمد ج ٣ : وأدخل من بقى من أمتى النار من أهل النار فيقول أهل النار ماأغنى عنكم إنكم كنتم تعبدون الله عز وجل لاتشركون به شيئا فيقول الجبار عز وجل : فبعزتى لأعتقهم من النار فيرسل إليهم فيخرجون وقد امتحشوا فيدخلون فى نهر الحياة فينبتون فيه كما تنبت الحبة فى غثاء السيل ويكتب بين أعينهم : هؤلاء عتقاء الجبار عز وجل)(١) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال (أنا أول من يدخل الجنة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع وأنا بيدى لواء الحمد يوم القيامة ولافخر وأنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولافخر وأول شخص يدخل علىَّ الجنة فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ومثلها فى هذه الأمة مثل مريم فى بنى اسرائيل)(٢) .

الشفاعة لأهل الكبائر

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة أنه قال : قيل يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله ﷺ (لقد ظننت ياأبا هريرة الا يسألنى عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه)(٣).

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : سألت رسول الله ﷺ : ماذا رد إليك ربك فى الشفاعة فقال : (والذى نفس محمد بيده لقد ظننت أنك أول من يسألنى عن ذلك من أمتى لما رأيت من حرصك على العلم والذى نفس محمد بيده مايهمنى من انقصافهم على أبواب الجنة أهم عندى من تمام شفاعتى وشفاعتى لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه)(٤) .

---

(١) الحديث فى مسند أحمد ـ مسند أنس بن مالك ج ٣ ص ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) الحديث بمعناه فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٤٠

وفى الجامع الكبير للسيوطى ج ١ ص ٣٣٩ حديث بلفظ : « أول شخص يدخل الجنة فاطمة بنت محمد ، ومثلها فى هذه الأمة مثل مريم فى بنى إسرائيل »

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ـ كتاب العلم ـ ج ١ ص ٣٥ ، ٣٦ ط الشعب

(٤) الحديث فى مسند أحمد ـ مسند أبى هريرة ج ٢ ص ٣٠٧

هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التى ليس فيها التصريح بالشفاعة لأهل الكبائر فمن قال لا إله إلا الله يشمل أهل الكبائر وغيرهم ممن لايشرك بالله شيئا .

وروى الإمام أحمد بسنده عن ابن دارة مولى عثمان قال : (بين أنا بالبقيع مع أبى هريرة إذ سمعناه يقول : أنا أعلم الناس بشفاعة محمد - ﷺ - قال : فتداك الناس عليه فقالوا : إيه يرحمك الله ؟ قال : يقول : اللهم اغفر لكل عبد مسلم لقيك مؤمن بى لايشرك بك) .

وروى البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : (لكل نبى دعوة مستجابة يدعو بها وأريد أن أختبىء دعوتى شفاعة لأمتى فى الآخرة)(١) .

وروى ابن ماجه بسنده عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - (خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتى الجنة فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى أترونها للمتقين ؟ لا ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين)(٢)

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى موسى أن النبى - ﷺ - كان يحرسه أصحابه فقمت ذات ليلة فلم أره فى منامه فأخذنى ماقدم وماحدث فذهبت أنظر فإذا أنا بمعاذ قد لقى مثل الذى لقيت فسمعنا صوتا مثل هزيز الرحا فوقفا على مكانهما فجاء النبى - ﷺ - من قبل الصوت فقال : (هل تدرون أين كنت ؟ وفيم كنت ؟ أتانى آت من ربى - عز وجل - فخيرنى بين أن يدخل نصف أمتى الجنة وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة فقالا : يارسول الله ادع الله أن يجعلنا فى شفاعتك فقال أنتم ومن مات لايشرك بالله شيئا فى شفاعتى)(٣)

شفاعته ﷺ وعلى آله وسلم
لأناس قد أمر بهم إلى النار

روى الحافظ بن أبى الدنيا بسنده عن عبد الله بن الحارث أن النبى - ﷺ - قال : (أمر بقوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار قال : فيقولون : يامحمد ننشدك الشفاعة قال : فآمر الملائكة أن يقفوا بهم قال : فأنطلق واستأذن على الرب - عز وجل - فيأذن لى فأسجد وأقول : يارب قوم من أمتى قد أمر بهم إلى النار قال : فيقول لى : انطلق فأخرج منهم قال : فانطلق وأخرج منهم من شاء الله أن أخرج ثم ينادى الباقون يامحمد ننشدك الشفاعة فأرجع إلى الرب فاستأذن فيؤذن لى فأسجد فيقال لى : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع فأثنى على الله بثناء لم يثن به عليه أحد ، وأقوم : ثم قوم من أمتى قد أمر بهم الى النار فيقول انطلق فأخرج منهم قال : فأقول يارب أخرج منهم من قال : لا إله إلا الله ومن كان فى قلبه حبة من إيمان قال : فيقول : لى يامحمد ليست تلك لك . . تلك لى قال فأنطلق وأخرج من

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب الدعوات - ج ٨ ص ٨٢ ط الشعب
(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه - كتاب الزهد - ج ٢ ص ١٤٤١ رقم ٤٣١١
(٣) الحديث فى مسند أحمد - حديث ابى موسى - ج ٤ ص ٤٠٤

شاء الله أن أخرج قال : ويبقى قوم فيدخلون النار فيعيرهم أهل النار فيقولون : انتم كنتم تعبدون الله ولاتشركون به ادخلكم النار قال : فيحزنون لذلك قال : فيبعث الله ملكا بكف من ماء فينضح بها فى النار ويغبطهم أهل النار ثم يخرجون ويدخلون الجنة فيقال : انطلقوا فتضيفوا الناس . فلو أنهم جميعهم نزلوا برجل واحد كان لهم عنده سعة ويسمون المحررين) .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا يقتضى تعداد هذه الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات ألا يدخلوها ويكون معنى قوله (أخرج) أى انقذ بدليل قوله بعد ذلك (ويبقى قوم فيدخلون النار) والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب ا . هـ

وروى الحافظ أبو نعيم فى الحلية : حدثنا محمد بن المظفر بن موسى الحافظ حدثنا أبو حفص أحمد ابن محمد بن عمر بن حفص الأوصابى حدثنا ابن حمير حدثنا الثورى حدثنا الأعمش عن شقيق عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله) قال : (أجورهم يدخلهم الجنة ويزيدهم من فضله الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليهم المعروف فى الدنيا)(١)

شفاعته ﷺ
لأناس يدخلون الجنة بغير حساب

روى الترمذى بسنده عن محمد بن زياد الألهانى قال : سمعت أبا أمامة يقول : سمعت رسول الله - ﷺ : يقول (وعدنى ربى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألفا لاحساب عليهم ولاعذاب مع كل ألف سبعون ألفا وثلاث حثيات من حثيات ربى)(٢)

شفاعته ﷺ فى رفع
درجات بعض من يدخل الجنة فوق
ماكان يقتضيه عمله

روى البخارى بسنده عن أبى موسى - رضى الله عنه - قال : لما فرغ النبى - ﷺ - من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أو طاس فلقى دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه قال أبو موسى : وبعثنى مع أبى عامر فرمى أبو عامر فى ركبته فانتهيت إليه فقلت : ياعم من رماك فأشار إلى أبى موسى فقال ذاك قاتلى الذى رمانى فقصدت له فلحقته فلما رآنى ولى فاتبعته وجعلت أقول له ألا تستحى ألا تثبت فكف فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته ثم قلت لأبى عامر : قتل الله صاحبك قال : فانزع ذا السهم فنزعته فنزا منه الماء قال : يابن أخى أقرىء النبى - ﷺ - السلام وقل له : استغفر لى واستخلفنى أبو عامر على الناس فمكث يسيرا ثم مات فرجعت فدخلت على النبى - ﷺ - فى بيته على

---

(١) الحديث فى حلية الأولياء ج ٤ ص ١٠٨
(٢) الحديث فى سنن الترمذى - باب ماجاء فى الشفاعة - ج ٤ ص ٤٥ رقم ٢٥٥٤

سرير مرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبه فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقال : قل له استغفر لى فدعا بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال : (اللهم اغفر لعبيد أبى عامر ورأيت بياض إبطيه ثم قال : (اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس فقلت : ولى فاستغفر فقال : اللهم اغفر لعبد الله ابن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلا كريما)[1]

قال أبو بردة : إحداهما لأبى عامر والأخرى لابى موسى .

وروى الإمام مسلم - رحمه الله - بسنده عن أم سلمة قالت : دخل رسول الله - ﷺ - على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال (إن الروح اذا قبض تبعه البصر فضج ناس من أهله فقال (لاتدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ثم قال :) اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين واخلفه فى عقبه فى الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافسح له فى قبره ونور له فيه)[2]

فى الشفاعة فى خروج الموحدين من النار

قال البخارى - رحمه الله - بسنده عن سعيد بن المسيب وعطاء بن يزيد الليثى أن أبا هريرة أخبرهما أن الناس قالوا : يارسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

قال (هل تمارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟

قالوا : لا يارسول الله

قال : (فهل تمارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟

قالوا : لا

قال : (فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول : من كان يعبد شيئا فليتبعه ، فمنهم من يتبع الشمس ومنهم من يتبع القمر ومنهم من يتبع الطواغيت وتبقى هذه الأمه فيها منافقوها فيأتيهم الله فيقول :

أنا ربكم فيقولون : هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه

فيأتيهم الله فيقول أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته ولايتكلم يومئذ أحد إلا الرسل

وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟

قالوا نعم قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لايعلم قدر عظمها إلا الله تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله فيخرجوهم ويعرفوهم بآثار السجود وحرم الله على النار أن تأكل أثر السجود فيخرجون من النار .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى - باب غزاة أوطاس - ج ٥ ص ١٩٧ ظ الشعب
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٣٤ رقم ٧

فكل ابن آدم تأكله النار إلا أثر السجود فيخرجون من النار قد امتحشوا ـ أى احترقوا ـ فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة فى حميل السيل ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد ويبقى رجل بين الجنة والنار وهو آخر أهل النار دخولا الجنة مقبل بوجهه قبل النار.

فيقول يارب اصرف وجهى عن النار قد قشبنى ريحها وأحرقنى ذكاؤها
فيقول هل عسيت إن فعل ذلك بك أن تسأل غير ذلك ؟

فيقول : لا وعزتك
فيعطى الله مايشاء من عهد وميثاق فيصرف الله وجهه عن النار
فإذا أقبل به على الجنة رأى بهجتها سكت ماشاء الله أن يسكت ثم قال :
يارب قدمنى عند باب الجنة

فيقول الله له : أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألاتسأل غير الذى كنت تسأل ؟ فيقول : يارب لااكون أشقى خلقك فيقول : فما عسيت أن أعطيت ذلك ألاتسأل غيره ؟
فيقول لا وعزتك لا أسأل غير ذلك فيعطى ربه ماشاء من عهد وميثاق فيقدمه إلى باب الجنة .

فإذا بلغ بابها فرأى زهرتها ومابها من النضرة والسرور فيسكت ماشاء الله أن يسكت
فيقول : يارب أدخلنى الجنة
فيقول الله :
ويحك ياابن آدم ماأعذرك أليس قد أعطيت العهود والميثاق ألاتسأل غير الذى أعطيت ؟
فيقول : يارب لاتجعلنى أشقى خلقك فيضحك الله ـ عز وجل ـ منه
ثم يأذن له فى دخول الجنة
فيقول : تمن فيتمنى حتى إذا انقطع أمنيته قال الله ـ عز وجل ـ
من كذا وكذا أقبل

يذكره ربه حتى إذا انتهت به الأمانى قال الله ـ تعالى ـ : لك ذلك ومثله معه قال أبو سعيد لأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ إن رسول الله ـ ﷺ ـ

قال : قال الله لك ذلك وعشرة أمثاله
قال أبو هريرة لم أحفظ من رسول الله ـ ﷺ ـ إلا قوله
لك ذلك ومثله معه
قال أبو سعيد إنى سمعته يقول :
ذلك لك وعشرة أمثاله
قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ كما فى موارد الظمآن بسنده عن صالح بن أبى ظريف ، قال : قلت لأبى

سعيد الخدرى : أسمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول فى هذه الآية : ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ ؟ فقال : نعم ، سمعته يقول : (يخرج الله أناسا من المؤمنين من النار بعد مايأخذ نقمته منهم ، قال : لما أدخلهم الله النار مع المشركين قال المشركون : أليس كنتم تزعمون فى الدنيا أنكم أولياؤه ؟ فمالكم معنا فى النار ؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن فى الشفاعة فتشفع لهم الملائكة والنبيون حتى يخرجوا بإذن الله ، فلما أخرجوا قالوا : ياليتنا كنا مثلهم فتدركنا الشفاعة فنخرج من النار ، فذلك قول الله (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) قال : فيسمون الجهنمين من أجل سواد فى وجوههم ، فيقولون : ربنا أذهب عنا هذا الاسم ، فيغتسلون فى نهر الجنة ، فيذهب ذلك منهم)[١]

فى طلب الشفاعة من المخلوق فيما يقدر عليه

عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : شكا الناس إلى رسول الله - ﷺ - قحوط المطر (احتباسه) فأمر بمنبر فوضع له بالمصلى ووعد الناس يوما يخرجون فيه ، فخرج حين بدا حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبر وحمد الله ثم قال (إنكم شكوتم جدب دياركم وقد أمركم الله أن تدعوه ووعدكم أن يستجيب لكم ثم قال (الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين لا إله إلا الله يفعل مايريد : اللهم لاإله إلا أنت ، أنت الغنى ونحن الفقراء ، أنزل علينا الغيث ، وأجعل ماأنزلت علينا قوة وبلاغا إلى حين) ثم رفع يديه فلم يزل (يدعو) حتى رئى بياض إبطيه ثم حول إلى الناس ظهره وقلب رداءه وهو رافع يديه ، ثم أقبل على الناس ونزل فصلى ركعتين فأنشأ الله تعالى سحابة فرعدت وبرقت ثم أمطرت بإذن الله تعالى فلم يأت مسجده حتى سالت السيول ، فلما رأى سرعتهم إلى الكن (البيت) ضحك حتى بدت نواجذه ، فقال « **أشهد أن الله على كل شىء قدير . وأنى عبد الله ورسوله** » [٢] (رواه الحاكم وصححه وابو داود وقال حديث غريب واسناده جيد) .

وأخرج الامام أحمد رحمه الله بسنده عن أنس قال : سألت النبى - ﷺ - أن يشفع لى يوم القيامة ، قال : قال (أنا فاعل بهم) قلت : (يارسول الله فأين اطلبك ؟ قال (اطلبنى أول ماتطلبنى على الصراط ، قال : قلت : فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال : فأنا عند الميزان قال : قلت : فإن لم ألقك عند الميزان . قال : (فأنا عند الحوض ، لاأخطىء هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة)[٣](أخرجه الترمذى وقال حديث حسن غريب) .

---

(١) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٩ ص ٢٦٢
(٢) الحديث فى المستدرك للحاكم ج ١ ص ٣٢٨ ، وفى سنن أبى داود - كتاب الصلاة - ج ١ ص ٦٩٢ رقم ١١٧٣
(٣) الحديث فى مسند أحمد - مسند أنس بن مالك - ج ٣ ص ١٧٨

فى شفاعة المؤمنين

أخرج الترمذى بسنده عن أبى سعيد أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن من أمتى من يشفع للفئام من الناس ، ومنهم من يشفع للقبيلة ، ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة)[1] (وقال هذا حديث حسن) .

فى شفاعة الأولاد لآبائهم

قال الإمام أحمد - رحمه الله - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن الله عز وجل ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول : يارب أنى لى هذه ؟ فيقال : باستغفار ولدك لك)[2] (الحديث رجاله رجال الصحيح)

وأخرج مسلم بسنده عن أبى حسان قال : قلت لأبى هريرة : أنه قد مات لى ابنان ، فما أنت محدثى عن رسول الله - ﷺ - بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا ؟ قال : قال : نعم (صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه - أو قال : أبويه فيأخذ بثوبه أو قال بيده - كما آخذ أنا بصنفه ثوبك هذا ، فلا يتناهى - أو قال : فلا ينتهى - حتى يدخله الله وأباه الجنة)[3]

وقال الأمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (مامن مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله وإياهم بفضل رحمته الجنة ، وقال : يقال لهم : ادخلوا الجنة ، قال : فيقولون : حتى يجىء أبوانا ، قال ثلاث مرات ، فيقولون مثل ذلك ، فيقال لهم : ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم)[4]

وقال الأمام أحمد بسنده عن معاوية بن قرة عن أبيه قال : إن رجلا كان يأتى النبى - ﷺ - ومعه ابن له ، فقال له النبى - ﷺ - (أتحبه ؟) فقال : يارسول الله أحبك الله كما أحبه ، ففقده النبى - ﷺ - فقال : (مافعل ابن فلان ؟ قالوا : يارسول الله مات : فقال النبى - ﷺ - لأبيه : (أما تحب ألا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك) .

فقال الرجل يارسول الله أله خاصة ، أو لكلنا ؟ قال (بل لكلكم)[5]

فى أسباب الشفاعة

شفاعة القرآن :

قال الترمذى بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال : (إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى (تبارك الذى بيده الملك)[6] . هذا حديث حسن .

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى - باب ماجاء فى الشفاعة - ج ٤ ص ٤٦ رقم ٢٥٥٦

(٢) الحديث فى مسند أحمد - مسند أبى هريرة - ج ٢ ص ٥٠٩

(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٢٩ رقم ١٥٤

(٤) الحديث فى مسند أحمد - مسند ابى هريرة - ج ٢ ص ٥١٠

(٥) الحديث فى مسند أحمد - حديث قرة المزنى - ج ٥ ص ٣٥

(٦) الحديث فى سنن الترمذى - أبواب فضائل القرآن - ج ٤ ص ٢٣٨ رقم ٣٠٥٣

وأخرج ابن حبان بسنده عن جابر عن النبى - ﷺ - قال (القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله أمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار)[1] الحديث حسن .

وقال مسلم - رحمه الله - بسنده عن أبى أمامة الباهلى قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (اقرأوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو كأنهما غياتيان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ، ولايستطيعها البطلة)[2].

من أسباب الشفاعة سكنى المدينة والموت بها

قال الامام مسلم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لايصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتى إلا كنت له شفيعا يوم القيامة أو شهيدا »[3]

وأخرج ابن حيان بسنده كما فى موارد الظمآن عن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عنبه عن الصحيتة امرأة من بنى ليث سمعها تحدث صفية بنت أبى عبيد أنها سمعت رسول الله ﷺ - يقول (من اسطاع منكم ألا يموت إلا بالمدينة فليمت بها فإنه من يمت بها يشفع له أو يشهد له)[4] .

(الحديث على شرط مسلم)

وقال الترمذى بسنده عن ابن عمر قال : قال النبى - ﷺ - (من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها فإنى أشفع لمن يموت بها)[5] . (هذا حديث حسن صحيح)

الصلاة على النبى ﷺ
وطلب الوسيلة له .

قال مسلم بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبى - ﷺ - يقول (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل مايقول ، ثم صلوا على ، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا

---

(١) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ١ ص ١٦٧
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين - ج ١ ص ٥٥٣ رقم ٢٥٢
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الحج - ج ٢ ص ١٠٠٤ رقم ٤٨٢
(٤) الحديث فى الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان - ج ٦ ص ٢١
(٥) الحديث فى سنن الترمذى - باب جاء فى فضل المدينة - ج ٥ ص ٣٧٧ رقم ٤٠٠٩

الله لى الوسيلة فإنها منزلة فى الجنة لاتنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ، فمن سأل لى الوسيلة حلت له الشفاعة)(١) .

وأخرج البخارى بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله - ﷺ - قال : (من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة)(٢) .

شفاعة المصلين على الميت الموحد

أخرج مسلم بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - عن النبى - ﷺ - (مامن ميت يصلى عليه أمة من المسلمين يبلغون مائة كلهم يشفعون له ، إلا شفعوا فيه)(٣) .

وأخرج مسلم أيضا بسنده عن كريب مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أنه مات ابن له بقديد أو بعسفان ، فقال : ياكريب انظر مااجتمع له من الناس ، قال : فخرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته ، فقال : تقول هم أربعون ؟ قال : نعم ، قال أخرجوه ، فإنى سمعت رسول الله - ﷺ يقول : (مامن رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلا لايشركون بالله شيئا إلا شفعهم فيه)(٤) .

أعمال متنوعة من أسباب الشفاعة

أخرج الإمام أحمد بسنده عن زياد بن أبى زياد مولى بن مخزوم عن خادم النبى - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - رجل أو امرأة قال : كان النبى - ﷺ - مما يقول للخادم : (ألك حاجة) قال (حتى كان ذات يوم فقال : يارسول الله حاجتى أن تشفع لى يوم القيامة ، قال (ومن دلك على هذا ؟ قال ربى ، قال : (أما لا فأعنى بكثرة السجود)(٥) .

المسلم الذى لاتقبل شفاعته

أخرج مسلم بسنده عن أم الدرداء عن أبى الدرداء سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إن اللعانين لايكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة)(٦) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الصلاة - ج ١ ص ٢٨٨ رقم ١١
(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب التفسير - سورة بنى إسرائيل - ج ٦ ص ١٠٨
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٥٤ رقم ٥٨
(٤) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الجنائز - ج ٢ ص ٦٥٥ رقم ٥٩
(٥) الحديث فى مسند أحمد - حديث خادم النبى - ﷺ - ج ٣ ص ٥٠٠
(٦) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - ج ٤ ص ٢٠٠٦ رقم ٨٦

الشفاعات الدنيوية

الشفاعات الدنيوية منها ماهو مشروع ، ومنها ماليس بمشروع قال الله سبحانه ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها ، وكان الله على كل شيء مقيتا** ﴾[1] .

قال ابن كثير : وقوله تعالى : ﴿ **من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها** ﴾ : أى من يسعى فى أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

﴿ **ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها** ﴾

أى يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذى ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ماشاء)[2]

وقد جاءت السنة المطهرة ببيان مايحل من الشفاعة ومايحرم .

أخرج البخارى بسنده عن أبى بردة بن أبى موسى عن أبيه ـ رضى الله عنه ـ قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا جاءه السائل أو طلبت إليه حاجة قال (اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيه ـ ﷺ ـ ماشاء) .

وأخرج البخارى بسنده عن ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له . مغيث ، كأنى أنظر اليه يطوف خلفها يبكى ودموعه تسيل على لحيته ، فقال النبى ـ ﷺ ـ لعباس : ياعباس : (ألا تعجب من حب مغيث بريرة ، ومن بغض بريرة مغيثا ؟ فقال النبى ـ ﷺ ـ (لو راجعته قالت : يارسول الله تأمرنى ؟ قال : إنما أشفع (قالت لاحاجة لى فيه)[3]

مالاتحل الشفاعة فيه

قال البخارى ـ رحمه الله ـ حدثنا قتيبة بن سعيد ، حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة ـ رضى الله ـ عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله ـ ﷺ ـ؟ ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ـ ﷺ ـ ، فكلمه أسامة فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : (أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب ثم قال : (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) (من كتاب الشفاعة لأبى عبد الرحمن مقبل بن هادى الوادعى) .

---

(١) الآية ٨٥ من سورة النساء
(٢) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ ج ٤ ص ٢٠٢٦ رقم ١٤٥
(٣) الحديث فى صحيح البخارى ـ كتاب الطلاق ـ ج ٧ ص ٦٢ ط الشعب

لايملك الرزق إلا الله

قوله تعالى ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنا أو أياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين . قل لاتسئلون عما أجرمنا ولانسئل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم . قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم** ﴾ .

يقول تعالى مقررا تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالالهية ايضا فكما كانوا يعترفون بأنهم لايرزقهم من السماء والأرض أى بما ينزل من المطر وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره ، وقوله تعالى ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض** ﴾ وفى سورة يونس ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض . . الآية** ﴾(١) .

قال الامام ابن القيم : فإن قيل : فهل يظهر فرق بين قوله تعالى فى سورة يونس ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض . . الآية** ﴾ وبين قوله فى سورة سبأ ﴿ **قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل الله** ﴾

قيل : هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها ، وألطفها فرقا ، فتدبر السياق تجده نقيضا لما وقع ، فإن الآيات التى فى سورة يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به ، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب تعالى هو رازقهم ، ومالك أسماعهم وأبصارهم . ومدبر أمورهم وغيرها ، ومخرج الحى من الميت والميت من الحى . فلما كانوا مقرين بهذا كله حين الاحتجاج به عليهم : أن فاعل هذا هو الله الذى لا إله غيره ، فكيف يعبدون معه غيره ويجعلون له شركاء لايملكون شيئا من هذا ، ولايستطيعون فعل شىء منه ولهذا قال بعد أن ذكر من شأنه تعالى (فسيقولون الله) أى لابد أنهم يقرون بذلك (ولايجحدونه . فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به . والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التى يشاهدونها بالحق ، ولم يكونوا مقرين ولاعالمين بنزول الرزق من سماء الى سماء حتى تنتهى اليهم ، ولم يصل علمهم الى هذا . فأفرد لفظ السماء هنا ، فإنهم لايمكنهم إنكار مجىء الرزق منها ، لاسيما والرزق ههنا هو المطر فمجيئهمن السماء التى هى السحاب ، فإنه يسمى سماء لعلوه .

وقد أخبر سبحانه أنه بسط السحاب فى السماء بقوله ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء** ﴾(٢) والسحاب إنما هو مبسوط فى حيز العلو ، لافى نفس الفلك وهذا معلوم بالحس ، فلا يلتفت الى غيره .

فلما انتظم هذا بذكر الاحتجاج عليهم لم يصلح فيه إلا إفراد السماء ، لأنهم لايقرون بما ينزل من فوق ذلك من الأرزاق العظيمة للقلوب والأرواح .

فلابد من الوحى الذى به الحياة الحقيقية الأبدية . وهو أولى باسم الرزق من المطر الذى به الحياة الفانية المنقضية . فما ينزل من فوق ذلك من الوحى والرحمة والألطاف والمواد الربانية ، والتنزلات

---

(١) الآية ٣١ من سورة يونس
(٢) الآية ٤٨ من سورة الروم

الآلهية ، ومابه قوام العالم العلوى والسفلى من أعظم أنواع الرزق ، ولكن القوم لم يكونوا مقرين به ، فخوطبوا بماهو أقرب الأشياء إليهم ، بحيث لايمكنهم انكاره أما الآية التى فى سبأ : فلم تنتظم ذكر إقرارهم بما ينزل من السموات ولهذا أمر رسوله بأن يتولى الجواب فيها ، ولم يذكر عنهم أنهم المجيبون المقرون فقال (قل : من يرزقكم من السموات والأرض ، قل الله) ولم يقل : سيقولون الله . فأمر تعالى نبيه - ﷺ - أن يجيب بأن ذلك هو الله وحده الذى ينزل رزقه على اختلاف أنواعه ومنافعه من السموات السبع . وأما الأرض فلم يدع السياق إلى جمعها فى واحدة من الاثنية . إذ يقربه كل أحد مؤمن وكافر وبر وفاجر .

وقوله تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ﴾ .

قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد - ﷺ - للمشركين والله مانحن وإياكم على أمر واحد إن أحد الفريقين لمهتد وقال عكرمة معناها : أنا نحن لعلى هدى وإنكم لفى ضلال مبين .

والمعنى أ أحد الفريقين منا معشر الذين يوحدون الرازق لمن فى السموات والأرض ، ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجاحد العاجز عن دفع الضر وجلب النفع - لعلى الهدى أو فى الضلال البين الذى لاشك فيه .

وهذا أسلوب من الكلام المنصف تستعمله العرب في محاورتها لارخاء العنان للمخاطب حتى اذا سمعه الموافق أو المخالف قال لمن خوطب به لقد أنصفك صاحبك .

ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق منى ومنك وإن أحدنا لكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله - ﷺ - قبل أن يسلم

أتهجوه ولست له بكفء . . فشركما لخيركما الفداء .

وفى ذكر هذا بعد ماتقدم من الحجج الظاهرة على التوحيد ، دلالة واضحة على تمييز المهتدى من الضال والإيحاء أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينى .

ثم زاد فى إنصافهم فى المخاصمة ، فأسند الأجرام إلى انفسهم والعمل للمخاطبين فقال : ﴿ قل لاتسألون عما أجرمنا ولانسأل عما تعملون ﴾ أى قل لهؤلاء المشركين .

أنتم لاتسألون عما اكتسبنا من الأثام وارتكبنا من الذنوب ونحن لانسأل عما تعملون من عمل - خيرا كان أو شرا ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ فإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء تعملون ﴾(١)

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم : ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ أى قل لهم : إن ربنا يوم القيامه يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهناك يجزى كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية .

---

(١) سورة يونس آية : ٤١

كما قال سبحانه : ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الأخرة فأولئك فى العذاب محضرون ﴾(١) .

ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة تبكيتا لهم فقال : ﴿ قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أى قل لهم : ماالذى غواكم ودخل فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، وبأى صفة ألحقتموهم به فى استحقاق العبادة ؟

ثم نبه إلى فاحش غلطهم ، وعظيم خطئهم بقوله :

﴿ كلا . بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ أى ليس الأمر كما وصفتم فلا نظير له تعالى ولاند ، بل هو الله الواحد ذو العزة التى بها قهر كل شىء ، وهو الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياتيه الأولى والأخرة .

قوله تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن عكرمة ، قال : سمعت ابن عباس رضى الله عنهما يقول : إن الله تعالى فضل محمدا ـ ﷺ ـ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا يا ابن عباس فيم فضله على الأنبياء ؟ قال ـ رضى الله عنه ـ إن الله تعالى قال ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾(٢) وقال للنبى ـ ﷺ ـ ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والانس . وهذا الذى قاله ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قد ثبت فى الصحيحين رفعه عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة . وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة)(٣) .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (بعثت إلى الأسود والأحمر)(٤) قال مجاهد يعنى الجن والإنس وقال غيره يعنى العرب والعجم والكل صحيح . وقال محمد بن كعب فى قوله تعالى . ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ يعنى إلى الناس عامة وقال قتادة فى هذه الآية أرسل الله تعالى محمدا ـ ﷺ ـ إلى العرب والعجم فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل . والآية الكريمة نص صريح فى عموم رسالته ـ ﷺ ـ ونحوها قوله تعالى ﴿ قل ياأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾(٥) وقوله جل شأنه ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾(٦) وقوله تبارك اسمه ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٧) وقوله جل شأنه ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق

(١) الآيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ من سورة الروم

(٢) سورة ابراهيم آية : ٤

(٣) الحديث فى صحيح البخارى جـ ١ ص ١١٩ كتاب الصلاة باب قول النبى جعلت لى الأرض مسجدا وطهورا . الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٣ ـ ٥٢١ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ كتاب المساجد رقم ٣ ـ ٥٢١ أنظر مسند احمد جـ ١ ص ٢٥٠ مسند ابن عباس .

(٥) سورة الأعراف آية ١٥٨ .

(٦) سورة الفرقان آية ١

(٧) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ﴾[١] قوله تعالى ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ كقوله جل شأنه . ﴿ ولكن اكثر الناس لا يؤمنون ﴾[٢] وقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾[٣] وقوله ﴿ وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾[٤] وقوله ﴿ لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾[٥] .

فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فأنت المبشر للطائعين بالجنة ، المنذر للعصاة من عذاب النار .

صلت عليك ملائكة الرحمن   وسرى الضياء بسائر الأكوان
لما طلعت على الوجود مزودا   بحمى الإله وراية القرآن

صلى الله عليك يا علم الهدى ، ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

قوله تعالى : ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ هذا سؤال تهكم وإنكار واستعجال ونحوه قوله تعالى ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم الا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾[٦] وقوله جل شأنه ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفي ضلال بعيد ﴾[٧] ولقد جاء الجواب حاسما وقاطعا بقوله تعالى ﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ وذلك مثل قوله تعالى ﴿ ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا ﴾[٨] وقوله جل جلاله ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾[٩] فياله من يوم ما أطوله ، وجبار ما أعد له ، وخطب ما أهوله . ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا ﴾[١٠] وإذا كان تأخيره محالا عند مجيئه فكذلك تقديمه ، وإذا كان ذلك كذلك فإن المبعوثين لا يستقدمون ولا يستأخرون .

﴿ .... ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾[١١] ﴿ يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا ﴾[١٢] ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا . وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾[١٣] .

---

(١) سورة الفتح آية رقم ٢٨ .
(٢) سورة هود نهاية الآية ١٧ .
(٣) سورة يوسف آية ١٠٣
(٤) سورة الأنعام آية ١١٦ .
(٥) سورة الزخرف آية ٧٨ .
(٦) سورة الأعراف : الأيتان ١٨٧ ، ١٨٨ .
(٧) سورة الشورى : آية ١٨ .
(٨) سورة النبأ آية : ٣٩
(٩) سورة هود الأيتان : ١٠٤ ، ١٠٥
(١٠) النبأ آية : ٤٠
(١١) سورة الكهف : جزء الآية ٩٩ .
(١٢) النبأ آية : ١٨
(١٣) الكهف آية : ٤٧ ، ٤٨

وقوله تعالى ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت الا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون . فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾[١] .

الظالمون فى ساحة الحساب

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

معانى المفردات :

موقوفون : محبوسون وممنوعون ، استضعفوا : هم المستضعفون (استكبروا) هم المستكبرون من الرؤساء والمقدمين ، مكر الليل والنهار : المكر : الاحتيال والخديعة والمراد مكركم بالليل والنهار ، اندادا : جمع ند وهو النظير والشبيه والمثل . (واسروا الندامة) أى أظهورها ، الأغلال : جمع غل وهو طوق من حديد يوضع فى العنق فلا يفلت صاحبه :

المناسبة وإجمال المعنى

لما ذكر سبحانه الأصول الثلاثة وهى التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا - ذكر شأن جماعة من المشركين جاهروا بإنكار القرآن وبكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء ، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين

---

(١) سورة يس الآيات : ٥١ - ٥٤

الضالين ومضليهم من الكفار ، وما يسرونه من الحسرة والندامة حين يرون العذاب ، ثم أعقبه بذكر ما سيحيق بهم من الاهانة بوضع الأغلال فى الأعناق ، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سيء الأعمال وما دسوا به أنفسهم من قبيح الخلال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه** ﴾ هذا إصرار منهم على الكفر والعناد والجحود مهما جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر فقد كفروا بكل ما أنزل الله من كتب ، كفروا بالقرآن الكريم ، كما كفروا بما تقدمه من الكتب التى نزلت على الأنبياء ، فيأتى بعد ذلك تهديد ووعيد من الله ، وبيان لحال هؤلاء فى ساحة الحساب ، وما يترد من حديث بين الضعفاء والمستكبرين . يصوره الكتاب العزيز تصويرا تنخلع له القلوب وتنفطر لهوله الأفئدة .

قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذا الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول** ﴾ ، أى يتردد الحديث بينهم ، ﴿ **يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين** ﴾ فيلقون بالتبعة على المستكبرين أى لولا أنتم صددتمونا عن طريق الله وآياته ورسوله لكنا مؤمنين بما أنزل الله ولكنا من الناجين اليوم من عذاب الله ، فماذا يقول المستكبرون لهم ؟ ﴿ **قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين** ﴾ وهذا منطق ابليس مع الغاوين .

قال تعالى : ﴿ **وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص . وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾[1] .

ومن ثم فقد رمى المستكبرون المستضعفين بالاجرام فقالوا لهم ﴿ **بل كنتم مجرمين** ﴾ فماذا قال لهم المستضعفون ﴿ **وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا** ﴾ أى أن مكركم بنا بالليل والنهار وتدبيركم لنا المكايد وأمركم إيانا ان نكفر بالله ونشرك به اندادا ، هو الذى أضلنا عن سواء السبيل ولكن جاء القول الفصل عندما فصل الواحد القهار بينهم ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ـ وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾[2] .

---

(١) سورة ابراهيم الآيتان : ٢١ ـ ٢٢

(٢) سورة الأعراف آية ٣٨ ، ٣٩ .

وقال تعالى ايضا : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين ، لهم من جهنم مهاد ومن خوفهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾(١) .

و قال تعالى أيضا ﴿ وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون ﴾ قال ابن ابى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن جهنم لما سيق إليها أهلها تلقاهم لهبها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب)(٥) .

قال ابن ابى حاتم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - (إن جهنم . لماسيق أهلها تلقاهم لهبها ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط على العرقوب)(٣)

وروى ايضا بسنده عن الحسن بن يحيى الخشنى قال ما فى جهنم دار ولا مغار ولا غل ولا قيد ولا سلسلة الا اسم صاحبها عليها مكتوب قال فحدثته ابا سليمان الدارانى رحمة الله عليه فبكى ثم قال ويحك فكيف به لو جمع هذا كله عليه فجعل القيد فى رجليه والغل فى يديه والسلسلة فى عنقه ثم أدخل النار وأدخل الحضار ؟ اللهم سلم)(٤) .

الرد على أهل الباطل :

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى

(١) سورة الأعراف الأيتان : ٤٠ - ٤١ (٢) سورة غافر الآيات : ٤٧ - ٥٠
(٣) الحديث فى حلية الأولياء ج ٤ ص ٣٦٣ فى ترجمة عبدالله بن أبى الهذيل ، وقال لم يرده مرفوعا مفصلا .
(٤) الحديث فى حلية الأولياء ج ٨ ص ٣١٨ فى ترجمة الحسين بن يحيى الحسنى .

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ، وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ، وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) ﴾

معانى المفردات : (مترفوها) : أغنياؤها وقادتها ، (يبسط الرزق) : يوسعه .

(زلفى) : زلفى وزلفة كقربى وقربة فى الوزن والمعنى .

(جزاء الضعف) : أى الجزاء المضاعف : (معاجزين) : مغالبين .

(يقدر له) : يقتر ويضيق ، (يخلفه) : يجعل له خلفا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قول المشركين لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه بعد ان طال به الأمد فى دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾ [١] سلاه على ما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه له وعدواتهم إياه بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فهو ليس بدعا من بينهم ، فما من نبى بعث فى قومه إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال : ﴿ **وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها** ﴾[٢] ثم ذكر محجتهم بأنهم لا حاجة لهم إلى الايمان به ، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله اياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره ، كما يكون للبر يكون للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه فى هذه الحياة ، فمن أحسن استعمالها استفاد منها ، ثم ذكر أن المتقين يتمتعون اذ ذاك بغرف الجنان وهم فى أمن ودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله فى نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم وعد المنفقين فى سبيل الله بالإخلاف وأوعد الممسكين بالإتلاف .

قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ يقول تعالى مسليا نبيه - ﷺ - وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه ما بعث نبيا فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤهم كما قال فى قوم نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ ... **أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾[٣] ، وقال الكبراء من قوم صالح ﴿ **للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون** ﴾[٤] .

---

(١) سورة الكهف آية رقم ٦ .
(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢ .
(٣) سورة الشعراء آية ١١١ .
(٤) سورة الأعراف جزء من الآية ٧٥ ، ٧٦ .

وقال عز وجل : ﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾[١] وقال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ﴾ وقال جل وعلا ﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾[٢] وقال جل وعلا ههنا ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير ﴾ اى نبى ورسول ، ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة ، قال قتادة هم جبابرتهم وقادتهم ورءوسهم فى الشر ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أى لا نؤمن به ولا نتبعه قال ابن ابى حاتم بسنده عن عاصم عن أبى رزين قال كان رجلان شريكان خرج أحدهما إلى الساحل وبقى الآخر فلما بعث النبى - ﷺ - كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ، فكتب إليه أنه لم يتبعه أحد من قريش إنما اتبعه اراذل الناس ومساكينهم قال فترك تجارته ثم أتى صاحبه فقال دلنى عليه وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب قال فأتى النبى - ﷺ - فقال : إلام تدعو ؟ قال (« أدعو إلى كذا وكذا) قال أشهد أنك رسول الله . قال - ﷺ - (وما حملك على ذلك قال إنه لم يبعث نبى إلا اتبعه أراذل الناس ومساكينهم قال فنزلت هذه الآية ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ الآية قال فأرسل إليه النبى - ﷺ - إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت)[٣] وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل قال فيها وسألتك أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت بل ضعفاؤهم ، وهم اتباع الرسل .

قوله تعالى ﴿ وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن المترفين المكذبين أنهم قالوا نحن أكثر اموالا واولادا وما نحن بمعذبين أى افتخروا بكثرة الأموال والاولاد واعتقدوا ان ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم واعتنائه بهم وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ثم يعذبهم فى الآخرة وهيهات لهم ذلك قال الله تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾[٤] وقال تبارك وتعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾[٥] وقال عز من قائل ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا - إنه كان لآياتنا عنيدا . سأرهقه صعودا ﴾[٦] وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينك الجنتين أنه كان ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئا بل سلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ولهذا قال عز وجل ههنا ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أى يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء وله الحكمة التامة البالغة والحجة القاطعة الدامغة .

---

(١) سورة الانعام آية ٥٣ .
(٢) سورة الاسراء آية ١٦ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٤٠ تفسير سورة سبأ .
(٤) سورة المؤمنون آية ٥٥ ، ٥٦ .
(٥) سورة التوبة آية ٥٥ .
(٦) سورة المدثر الآيات من ١١ : ١٧ .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى ﴾ اى ليست هذه دليلا على محبتنا لكم . قال الامام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال (إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)(١) .

وقوله تعالى ﴿ إلا من آمن وعمل صالحا ﴾ أى إنما يقربكم عندنا زلفى الايمان والعمل الصالح ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ اى تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ﴿ وهم فى الغرفات آمنون ﴾ أى فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن النعمان بن سعد عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (ان فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها) فقال أعرابى لمن هى ؟ قال ـ ﷺ ـ (لمن طيب الكلام ، واطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام)(٢) قوله تعالى ﴿ والذين يسعون فى آياتنا معاجزين ﴾ اى يسعون فى الصد عن سبيل الله واتباع رسله والتصديق بآياته ﴿ فأولئك فى العذاب محضرون ﴾ أى جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها يحسبهم ، وقوله تعالى ﴿ قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ أى بحسب ماله فى ذلك من الحكمة يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر على هذا رزقه جدا وله فى ذلك من الحكمة مالا يدركها غيره . كما قال تعالى ﴿ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ﴾ (٣) أى كما هم متفاوتون فى الدنيا هذا فقير مدقع وهذا غنى موسع عليه فكذلك هم فى الآخرة هذا فى الغرفات فى أعلى الدرجات وهذا فى الغمرات فى أسفل الدركات ، وأطيب الناس فى الدنيا كما قال ـ ﷺ ـ (قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنعه الله بما آتاه)(٤) رواه مسلم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

وقوله تعالى ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ﴾ أى مهما انفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم فى الدينا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب كما ثبت فى الحديث (يقول الله تعالى : (انفق انفق عليك)(٥) وفى الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما (اللهم أعط ممسكا تلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا)(٦) وقال رسول الله ـ ﷺ ـ (انفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا)(٧) وقال إن أبى حاتم بسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال : قال رسول

---

(١) الحديث فى مسند الامام أحمد جـ ٢ ص ٢٨٥ مسند أبى هريرة .
(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥٠٩ تفسير سورة سبأ (طبعة الشعب) .
(٣) سورة الاسراء الآية ٢١ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ، ص ٧٣٠ كتاب الزكاة باب فى الكفاف والقناعة رقم ١٢٥ ـ ١٠٥٤ .
ـ وانظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ٦ أبواب الزهد رقم ٢٤٥٢ .
(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٥٤١ تفسير سورة سبأ .
(٦) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة باب فى المنفق والممسك رقم ٥٧ ـ ١٠١٠ .
(٧) انظر تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥١٠ تفسير سورة سبأ (طبعة الشعب) .

الله - ﷺ - : (ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض يعض الموسر على ما فى يده حذار الانفاق) ثم تلا هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾[١] وروى (شرار الناس يبايعون كل مضطر إلا إن بيع المضطرين حرام ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله إن كان عندك معروف فعد به على أخيك وإلا فلا تزده هلاكا الى هلاكه)[٢] وقال مجاهد لا يتأولن أحدكم هذه الآية ﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم .

بعض مواقف الكفار فى الدنيا والآخرة

قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾
قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى
كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ ۖ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ
مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ
نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم
مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ
إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾
قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ
وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٦ ص ٥١٠ تفسير سورة سبأ (طبعة الشعب) .
(٢) انظر المرجع السابق .

وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾
وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

معانى المفردات

(يصدكم) : يمنعكم ، (إفك) : كذب ، (مفترى) : مختلق لا أساس له ، (يدرسونها) : يقرءونها ، (معشار) : المعشار والعشر سواء ، وقيل المعشار عشر العشر اى واحد فى المائة ، وقيل هو عشر العشير والعشير عشر العشر أى واحد فى الألف ، (نكير) : المراد فكيف كان عقابى وعذابى ، (مثنى وفرادى) : المراد وحدانا وجماعات ، (من جنة) : من جنون ، (يقذف بالحق) : المراد يبين الحجة ويرمى بها الباطل ، (فزعوا) : الفزع الخوف والاضطراب ، (فلا فوت) : أى فلا هروب ولا نجاة ، (التناوش التناول بسهولة ويسر ، (ويقذفون) • يرمون ، (بأشياعهم) : جمع شيع الذى هو جمع شعية وهى الجماعة المتشعية لمذهب أو رجل .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن حال النبى ﷺ مع قومه ليس بدعا من الرسل ، فحاله معهم كحال الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، فكلهم كذبوا وكلهم أوذوا فى سبيل الله ، ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لا صلة لها بمحبة الله ولا سخطه ـ أردف ذلك ما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتأنيب بسؤال الملائكة لمعبوداتهم أمامهم . هل هؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ فيجيبون بأنهم كانوا يعبدون الجن والشياطين بوسوستهم لهم ، ثم بين أنهم فى ذلك اليوم لا يقع لهم نفع ممن كانوا يرجون من الأوثان والأصنام ، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهكم ، ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ، ثم أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب وهو صدهم عن دعوة الرسول ﷺ بقولهم فى القرآن : إنه إفك مفترى وإنه سحر واضح لا شك فيه ، وقد كان فيما حل بالامم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ عزيز مقتدر ، ثم أنذرهم سوء عاقبة ما هم فيه ، وأوصاهم أن يشمروا عن ساعد الجد طلبا للحق متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكرون ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون ، بل هو نذير لهم يخوفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة ، وقد كان لهم من حاله ما يرغبهم فى دعوته ، فهو لا يطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، وإنما مثوبته عند ربه المطلع على كل شىء ، ثم أبان لهم أن الحق قد وضح ، وجاءت أعلام الشريعة كفلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور

الحق ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾[(١)] وبعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ـ هددهم بشديد العقاب إن هم اصروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول ، وأنى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك فى مكنتهم فى دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا من جزاء ما كانوا فيه من شك مريب فى الحياة الأولى ، وتلك سنة الله فى أشباههم من قبل .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون** ﴾ .

هذا مشهد من مشاهد القيامة يحشر الله فيه الذين عبدوا من دونه اولياء ثم يسأل الملائكة المكرمين أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون وهذا سؤال تقريع يراد به افحام المشركين كما فى قوله تبارك وتعالى : لعيسى ابن مريم : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسك ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد** ﴾[(٢)] وكما برىء عيسى من هؤلاء كذلك تبرأ الملائكة منهم حيث يقولون لرب العزة ﴿ **سبحانك انت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن** ﴾ أى شياطين الجن كما فى قوله تعالى ﴿ **إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾[(٣)] وكما جاء فى قوله تعالى ﴿ **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول** أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ماكان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من **أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا** ﴾[(٤)] .

وكما قال تعالى ﴿ **قل ادعو الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا** ﴾[(٥)] .

وهكذا أظهرت الملائكة براءتهم من عبادة هؤلاء وأقرت أنهم كانوا يعبدون الشياطين اكثرهم بهم مؤمنون لذلك يقول تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم انتم لها واردون لو كان**

---

(١) سورة الرعد جزء من الآية ١٧ .
(٢) سورة المائدة الآيتان ١١٦ ، ١١٧
(٣) سورة الأعراف جزء من الآية ٣٠ .
(٤) سورة الفرقان الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .
(٥) سورة الاسراء الآيتان ٥٦ ، ٥٧ .

هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾(١) ثم استثنى الله الملائكة والصالحين من عباده مثل المسيح والعُزير فقال : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذين كنتم توعدون ﴾(٢) ثم يأتى اليوم الفصل فى حق هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله أولياء فيقول تعالى ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ﴾ لانكم قد جئتم إلينا لا حول لكم ولا قوة فأنتم ومن استنصرتم بهم لا تملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض قال تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾(٣) .

ثم يأمر بالظالمين الى النار قال تعالى ﴿ ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ كما قال تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا . هذه النار التى كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا ام انتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾(٤) .

قوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آيتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير . وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير ﴾ لقد اقتضى منطق العدالة الالهية أن يحكم الله على هؤلاء بالعذاب جزاء ما قدمت أيديهم ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا الشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾(٥) وفى هذا المشهد إخبار من الله تعالى أن الكفار يستحقون منه العقوبة والأليم من العذاب لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غضة طرية من لسان رسوله ـ ﷺ ـ ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ قال تعالى : ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أى ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن وما أرسل إليهم نبيا قبل محمد ـ ﷺ ـ ، وقد كانوا يودون ذلك ، ويقولون لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه ، ثم قال تعالى ﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أى من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ وقد يطلق المعشار ويراد العشر اى ما يساوى واحدا فى المائة أو ما يساوى واحدا فى الألف .

قال ابن عباس رضى الله عنهما ، أى من القوة فى الدنيا وكذلك قال قتادة والسدى وابن زيد كما قال تعالى : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم

---

(١) سورة الأنبياء الآيات : ٩٨ ـ ١٠٠
(٢) سورة الانبياء الآيات : ١٠١ ـ ١٠٣
(٣) سورة الانعام اية : ٩٤
(٤) سورة الطور الايات ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦
(٥) سورة الصافات الايات : ٣٥ ـ ٣٩

سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ (١) أى وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ولهذا قال ﴿ فكذبوا رسلى فكيف كان نكير ﴾ اى فكيف كان عقابى ونكالى وانتصارى لرسلى .

قوله تعالى ﴿ قل إنما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ .

قال مجاهد ومحمد بن كعب والسدى وقتادة وغيرهم فى معنى هذه الآية قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين انك مجنون ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ أى إنما آمركم بواحدة وهى ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ أى تقوموا قياما خالصا لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا هل بمحمد من جنون ، فينصح بعضكم بعضا ﴿ ثم تتفكروا ﴾ اى ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد - ﷺ - ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ويتفكر فى ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ .

قوله تعالى ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾ قال البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ، أنه قال : صعد النبى - ﷺ - الصفا ذات يوم فقال (يا صباحاه) فاجتمعت إليه قريش فقالوا مالك ؟ فقال (أرأيتم لو أخبرتكم إن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى) قالوا بلى ؟ قال - ﷺ - (فإنى نذيركم بين يدى عذاب شديد) فقال أبو لهب تبا لك ألهذا جمعتنا ؟! فأنزل الله عز وجل ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾(٢) وقال الامام أحمد بسنده عن عبد الله بن بريدة عن أبيه - رضى الله عنه - قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال : (أيها الناس تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ قالوا : الله تعالى ورسوله أعلم قال - ﷺ - (إنما مثلى ومثلكم مثل قوم خافوا عدوا يأتيهم فبعثوا رجلا يتراءى لهم فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل ان ينذر قومه فأهوى بثوبه ، أيها الناس أوتيتم أيها الناس أوتيتم)(٣) ثلاث مرات وبهذا الاسناد قال : قال رسول الله - ﷺ - (بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى)(٤) تفرد به الامام أحمد فى مسنده .

قال الشيخ المراغى فى تفسير هذه الآية : أى قل لهم : إنى أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالتكذيب عنادا واستكبارا بل اتئدوا وتفكروا مليا فيما دعوتكم إليه ، وجدوا واجتهدوا فى طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين ، لعلكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل ، وتكونون قد انصفتم الحقيقة وأمطتم الحجب التى غشت أبصاركم ورانت على قلوبكم فلم تجعل للحق منفذا . وإنما طلب اليهم التفكر وهم متفرقون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا لأن فى الازدحام تهويش الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف وفيما يشاهد كل يوم من

---

(١) سورة الأحقاف آية ٢٦ .
(٢) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٨ ص ٧٣٧ تفسير سورة (تبت يدا أبى لهب) باب ٢
(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٣٤٨ مسند عبد الله بن بريدة عن أبيه .
(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد ص ٣٤٨ مسند عبد الله بن بريدة عن أبيه .

الاضطراب وتبلبل الأفكار فى الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة ما يؤيد صدق هذا ، ثم أبان لهم ان نتيجة الفكر ستؤدى بهم الى ان يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

﴿ ما بصاحبكم من جنة ﴾ إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذى فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم لا يتصدى لا دعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لا يبالى بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، وإما نبى مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه ، وإنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى فوجب عليكم ان تصدقوه فى دعوته ، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفى التعبير بصاحبكم ايماء الى أنه معروف لهم مشهور لديهم فهو قد نشأ بين ظهرانيهم وعلموا ماله من صفات الفضل والنبل وكرم الخلال مما لم يتهيأ لأحد من أترابه ولداته .

قوله تعالى ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد . قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب . قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد . قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب** ﴾ هذا أمر من الله تعالى لرسوله أن يقول للقوم : يا قوم لا اسألكم عليه اجرا ان اجرى الا على الله ولا اسألكم على تبليغ الرسالة والنصح والأمر بالتوحيد جعلا أو مكافأة ، إنما رسالة ربى فالأجر لكم ان اتبعتم أمرى ، فلكم سعادة الدنيا والآخرة ، وانا لا أبتغى إلا ثواب الله وقد كان ذلك على لسان الأنبياء السابقين قال تعالى على لسان نوح ﴿ **ويا قوم لا اسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون** ﴾ [1] وقال على لسان هود ﴿ **يا قوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون** ﴾[2] وقال على لسان صالح ﴿ **وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[3] كذلك قال على لسان لوط وشعيب فى سورة الشعراء وفى سورة سبأ يقول لرسوله ومصطفاه ﴿ **إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد** ﴾ أى هو العالم بما تكنه الصدور الرقيب الذى لا يغيب . ﴿ **قل إن ربى يقذف بالحق** ﴾ والقذف هو الرمى بشدة أى يقذف الباطل بالحق فإذا هو زاهق قال تعالى : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾[4] وقال ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا** ﴾[5] فهو علام الغيوب الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ولابد لهذا الدين ان ينتصر له دعوة الحق ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ اى لا يستطيع الباطل ان يبدىء شيئا أو يعيده إذ لا حياة فيه ، فقد اضمحل وزال وذهب ادراج الرياح .

الله اكبـر إن ديـن محـمـد ... وكتـابه أقـوى وأقـوم قيـلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

---

(1) سورة هود آية ٢٩ .
(2) سورة هود آية ٥١ .
(3) سورة الشعراء آية ١٤٥ .
(4) سورة الأنبياء آية ١٨ .
(5) سورة الاسراء آية ٨١ .

إن اهل الباطل لو اجتمعوا ليثيروا التراب على السماء فسوف يثيرونه على انفسهم وتبقى السماء هى السماء ضاحكة السن بسامة المحيا .

فكم زالت رياض من رباها ... وكم بادت نخيل فى الروابى
ولكن نخلة الاسلام تنمو ... على مر العواصف والعوادى
ومجدك فى حمى الاسلام باق ... ببقاء الشمس والسبع الشداد

قوله تعالى ﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى ﴾ أى الخير كله من عند الله وفيما أنزل الله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه كما قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - لما سئل عن تلك المسألة فى المفوضة أقول فيها برأيى فان يكن صوابا فمن الله وان يكن خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه .

وقوله تعالى ﴿ إنه سميع قريب ﴾ اى سميع لأقوال عباده قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى ههنا حديث أبى موسى الذى فى الصحيحين « انكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا »[1] .

قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب . وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد . وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ ولو ترى يا محمد إذ فزعوا من شدة أهوال يوم القيامة ، ومما سيلقونه من شدائد تجعل الولدان شيبا فلا فوت لهم ولا مهرب ولا ملجأ ﴿ يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[2] ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ قبل أن يمعنوا فى الهروب الذى ظنوا أنهم يستطيعونه . ولأئمة التفسير فى هذا النص أقوال : قال الحسن البصرى حين خرجوا من قبورهم وقال مجاهد وعطية العوفى وقتادة من تحت أقدامهم وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - والضحاك يعنى عذابهم فى الدنيا وقال عبدالرحمن بن زيد يعنى قتلهم يوم بدر والصحيح أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة الكبرى وإن كان ما ذكر متصل بذلك .

قوله تعالى ﴿ وقالوا آمنا به ﴾ اى إذا كان يوم القيامة قال الكافرون آمنا بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا كما فى قوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسو رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا إنا موقنون ﴾[3] ولهذا قال تعالى ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ اى وكيف لهم تعاطى الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ولكن بعد مصيرهم الى الدار الآخرة لا سبيل لهم

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء باب استحباب خفض الصوت بالذكر - رقم ٤٤ - ٢٧٠٤ .
(٢) سورة القيامة الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢
(٣) سورة السجدة آية ١٢ .

إلى قبول الايمان كما لا سبيل الى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد قال مجاهد ﴿ وأنى لهم التناوش ﴾ قال التناول لذلك . وقال الزهرى : التناوش تناولهم الايمان وهم فى الآخرة وقد انقطعت عنهم الدنيا .

وقال الحسن البصرى أما أنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال وتعاطوا الايمان من مكان بعيد وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه وليس بحين رجعة ولا توبة .

وقوله تعالى ﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أى كيف يتأتى لهم ذلك وكيف يخادعون أنفسهم بما قالوا وهم الذين كفروا فى الدنيا بكل ما آمنوا به فى الآخرة بعدما بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . قوله تعالى ﴿ ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ﴾ قال مالك عن زيد بن أسلم ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ قال بالظن ، فتارة يقولون عن الرسول - ﷺ - انه شاعر ، وتارة يقولون انه ساحر ، وأخرى يقولون أنه كاهن ، إلى غير ذلك من الأباطيل التى قالوها رجما بالغيب ويحسبون انهم على شيء الا انهم هم الكاذبون ﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[1] لقد كذبوا بالبعث والنشور والمعاد ﴿ إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾[2] قال قتادة ومجاهد يرجمون بالظن لا بعث ولا جنة ولا ناروقوله تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ لأئمة التفسير فى النص أقوال .

قال الحسن البصرى والضحاك وغيرهما يعنى الايمان وقال السدى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ وهى التوبة وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وقال مجاهد ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل . وروى نحوه عن ابن عمر وابن عباس والربيع بن انس - رضى الله عنهم - وهو قول البخارى وجماعة والصحيح انه لا منافاة بين القولين فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة فمنعوا منه .

قوله تعالى ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أى كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لما جاءهم بأس الله تمنوا ان لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ إنهم كانوا فى شك مريب ﴾ أى كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب : قال قتادة إياكم والشك والريبة فان من مات على شك بعث عليه ومن مات على يقين بعث عليه .

---

(١) سورة المجادلة الآيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٢) سورة الجاثية جزء من آخر الآية ٣٢
(٣) سورة غافر الآيتان ٨٤ ، ٨٥ .

سورة فاطر

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية اجماعا ، عدد آياتها خمس وأربعون عند الأكثرين ، وعند الشاميين ست وأربعون ، وكلماتها سبعمائة وسبعون ، وحروفها ثلاثة آلاف ومائة وثلاث وثلاثون .

معظم مقصود السورة :

بيان تخليق الملائكة ، وفتح أبواب الرحمة ، وتركيز النعمة ، والتحذير من الجن وعداوتهم ، وتسلية الرسول ، وإنشاء السحاب وإثارته وحوالة العزة إلى الله ، وصعود كلمة الشهادة ، وتحويل الانسان من حال إلى حال ، وذكر عجائب البحر ، واستخراج الحلية منه ، وتخليق الليل والنهار ، وعجز الاصنام عن الربوبية ، وصفة الخلائق بالفقر والفاقة ، واحتياج الخلق فى القيامة ، وإقامة البرهان والحجة ، وفضل القرآن ، وشرف التلاوة ، وأصناف الخلق فى ميراث القرآن ، ودخول الجنة من أهل الإيمان ، وخلود النار لأهل الكفر والطغيان ، وأن عاقبة الكفر الخسران ، والمنة على العباد بحفظ السماء والأرض عن تخلخل الأركان ، وأن العقوبة عاقبة المكر ، والإخبار بأنه لو عدل ربنا فى الخلق لم يسلم من عذابه أحد من الأنس والجان .

المتشابهات :

قوله : ﴿ والله الذى أرسل الرياح ﴾[١] بلفظ الماضى ، موافقة لأول السورة ﴿ الحمد لله فاطر السماوات والارض جاعل ﴾ لأنهما للماضى لا غير وقد سبق قوله ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾[٢] بتقديم (فيه) موافقة لتقدم ﴿ ومن كل تأكلون ﴾[٢] وقد سبق قوله : ﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب ﴾[٣] بزيادة الباءات قد سبق .

قوله : ﴿ مختلفا ألوانها ﴾ وبعده ﴿ ألوانها ﴾ ثم (ألوانه) لأن الأول يعود إلى ثمرات والثانى يعود إلى الجبال وقيل حمر والثالث يعود إلى بعض الدال عليه (من) لأنه ذكر (من) ولم يفسره كما فسره فى قوله ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر ﴾ فاختص الثالث بالتذكير .

قوله ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ بالتصريح وبزيادة اللام وفى الشورى ﴿ إنه بعباده خبير بصير ﴾ لأن الآية المتقدمة فى هذه السورة لم يكن فيها ذكر الله مصرح باسمه سبحانه وتعالى وفى الشورى متصل بقوله ﴿ ولو بسط الله ﴾ فخص بالكناية ودخل اللام فى الخبر موافقة لقوله ﴿ إن ربنا

---

(١) سورة فاطر آية ٩ .
(٢) سورة فاطر من آية ١٢ .
(٣) سورة فاطر آية ٢٥ .

لغفور شكور ﴾ وقوله ﴿ جعلكم خلائف فى الأرض ﴾ على الأصل قد سبق ﴿ أو لم يسيروا فى ﴾ سبق ﴿ على ظهرها ﴾ سبق .

قوله : ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾[1] كرر ، وقال فى الفتح : ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ وقال فى سبحان ﴿ ولا تجد لسنتنا تحويلا ﴾ التبديل تغيير الشىء عما كان عليه قبل مع بقاء مادة الأصل ، كقوله تعالى : ﴿ بدلناهم جلودا غيرها ﴾[2] وكذلك ﴿ تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾[3] .

والتحويل : نقل الشىء من مكان إلى مكان آخر ، وسنة الله لا تبدل ولا تحول فخص هذا الموضع بالجمع بين الوصفين لما وصف الكفار بوصفين وذكر لهم عرضين وهو قوله ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا ﴾[4] وقوله : ﴿ استكبارا فى الأرض ومكر السىء ﴾ .

وقيل : هما بدلان من قوله : ﴿ نفورا ﴾ فكما ثنى الأول والثانى ثنى الثالث ليكون الكلام كله على غرار واحد وقال فى الفتح ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فاقتصر على مرة واحدة لما لم يكن (التكرار موجبا) .

وخص سورة سبحان بقوله : ﴿ تحويلا ﴾ لأن قريشا قالوا لرسول الله - ﷺ - : (لو كنت نبيا لذهبت إلى الشام فانها أرض المبعث والمحشر فهم النبى - ﷺ - بالذهاب إليها فهيأ اسباب الرحيل والتحويل فنزل جبرائيل عليه السلام بهذه الآيات ، وهى : ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾[5] وختم الآيات بقوله ﴿ تحويلا ﴾ تطبيقا للمعنى .

مناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه فى آخر سابقتها هلاك المشركين وانزالهم منازل العذاب لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء فى قوله : ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾[6] .

قال تعالى : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

(١) سورة فاطر آية ٤٣ .
(٢) سورة النساء من الآية ٥٦ .
(٣) سورة ابراهيم من الآية ٤٨ .
(٤) سورة فاطر من الآية ٣٩ .
(٥) سورة الاسراء آية ٧٦ .
(٦) سورة الأنعام آية ٤٥ .

ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ
مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟
حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ
حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

معانى المفردات

(فاطر) : أصل الفطر الشق ، وقد شق العدم بإخراج السماء والأرض منه والمراد خلقهما ابتداء ، (أولى أجنحة) : أصحاب أجنحة ، مثنى وثلاث ورباع) : والمراد اثنين اثنين فعدل عن هذا التركيب إلى قوله مثنى ، وكذا ثلاث ورباع ، وهذا أسلوب معروف فى اللغة العربية . (ما يفتح) : المراد ما يرسل من رحمة ، (تؤفكون) : هذا اللفظ إن أخذ . الإفك بمعنى الصرف كان معناه : كيف تصرفون عن الايمان إلى الكفر ، وان قلنا مأخوذ من الإفك بمعنى الكذب كان المعنى من أين يقع لكم التكذيب بتوحيد الله ، (تغرنكم) : تلهينكم ، (الغرور) : الشيطان ، (حزبه) : أصحابه المتحزبين له المجتمعين حوله ، (سوء عمله) : المراد عمله السيء ، (حسنا) : صوابا ، (فلا تذهب نفسك) : فلا تتعاط أسباب ذهاب النفس أى هلاكها ، (حسرات) : جمع حسرة وهى هم النفس على فوات أمر بمعنى التلهف الشديد على الشيء الغائب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

لأئمة التفسير فى قوله تعالى فاطر السموات والأرض أقوال : قال سفيان بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : قال كنت لا أدرى ما فاطر السموات والأرض حتى أتانى أعرابيان يختصمان فى بئر فقال أحدهما لصاحبه أنا فطرتها أى بدأتها وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - أيضا : **﴿ فاطر السموات**

والأرض ﴾ اى بديع السموات والأرض ، وقال الضحاك كل شىء فى القرآن فاطر السموات والأرض فهو خالق السموات والأرض .

وقد حمد الله ذاته فهو خالق السموات والأرض ومبدعها على غير نظام سابق ، كما حمد ذاته لانه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، كما حمد ذاته فى أول سورة الانعام لأنه الذى خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ، كما حمد ذاته فى أول سورة الكهف على نعمة إنزال الكتاب الذى لم يجعل له عوجا ، كما حمد ذاته لانه مالك السموات والأرض فى سورة سبأ ﴿ **الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير** ﴾ .

وهنا يحمد ذاته لأنه فاطر السموات والأرض ، وجاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء ﴿ **إن الله على شىء قدير** ﴾ .

والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملأ أو تملآن ما بين السماء والأرض فاللهم لك الحمد أنت قيوم السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والساعة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك خاصمت وبك حاكمت وعليك توكلت وإليك أنبت فاغفر لى ماقدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى ولا إله إلا أنت) .

ولك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، أحمدك على حلمك بعد علمك وعلى عفوك بعد قدرتك ،فياالله عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك ، وعاملنا بإحسانك لا بميزانك واستر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، إنك نعم المولى ونعم النصير ، وبالاجابة جدير قوله تعالى : ﴿ **جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾ .

﴿ **جاعل الملائكة رسلا** ﴾ أى بينه وبين أنبيائه ، ﴿ **أولى أجنحة** ﴾ أى يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعا ﴿ **مثنى وثلاث ورباع** ﴾ أى منهم من له أكثر من ذلك . كما جاء فى الحديث أن رسول الله ـ ﷺ ـ (رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب)[1] ولهذا قال جل وعلا ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾ قال السدى : يزيد فى الأجنحة وخلقهم ما يشاء ، وقال الزهرى وابن جريج فى قوله تعالى ﴿ **يزيد فى الخلق ما يشاء** ﴾ يعنى حسن الصوت .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٤٠ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .
الحديث فى مسند احمد جـ ١ ص ٤٦٠ مسند ابن مسعود .

بحث فى الملائكة

الصفات الخلقية وما يتعلق بها

فى مادة الخلق

قال رسول الله - ﷺ - فى الحديث الذى ترويه السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنها - . (خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم)[١] رواه مسلم .

فبين - ﷺ - أن المادة التى خلقوا منها هى النور .

متى خلقوا ؟

لا ندرى متى خلقوا فالله سبحانه لم يخبرنا بذلك ، ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أب البشر ، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه سيجعل فى الأرض خليفة ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾[٢] والمراد بالخليفة آدم - عليه السلام - وأمرهم بالسجود له حين خلقه . ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[٣] .

عظيم خلقهم

قال الله تعالى فى ملائكة النار : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[٤] .

عظم خلق جبريل (أمين الوحى)

روى الأمام احمد فى مسنده عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله - ﷺ - جبريل فى صورته وله ستمائة جناح كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه التهاويل (الأشياء المختلفة الألوان من الدرواليواقيت)[٥] قال ابن كثير فى هذا الحديث : إسناده جيد .

وقال سبحانه فى وصف أمين الوحى جبريل : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين** ﴾[٦] والمراد بالرسول الكريم هنا جبريل ، وذى العرش : رب العزة سبحانه وتعالى .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب فى أحاديث متفرقة رقم ٦٠ - ٢٩٩٦ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٣) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٤) سورة التحريم اية ٦ .

(٥) الحديث فى مسند أحمد جـ ١ ص ٤٦٠ مسند ابن مسعود . انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٤٠ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٦) سورة التكوير الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ .

عظم خلق حملة العرش

روى أبو داود عن جابر عن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (أذن لى أن أحدث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام)[١].

ورواه ابن ابى حاتم وقال (تخفق الطير) قال محقق المصابيح إسناده صحيح . وذكره الألبانى فى سلسلة الاحاديث الصحيحة .

للملائكة أجنحة :

كما أخبرنا سبحانه ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك قال تعالى ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾ وقد سبق ذكر الحديث التى يخبر فيها الرسول ـ ﷺ ـ أن لجبريل ستمائة جناح .

جمالهم

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى فى جبريل : ﴿ **علمه شديد القوى . ذو مرة فاستوى** ﴾[٢] قال ابن عباس ذو مرة : ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن ، وقيل ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوى وحسن المنظر .

وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك قال تعالى فى قصة يوسف ﴿ **فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم** ﴾[٣] .

تفاوتهم فى الخلق والمقدار

الملائكة ليسوا على درجة واحدة فى الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان وبعضهم له ثلاثة وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوته معلومة . ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾[٤] سورة الصافات .

وقال فى جبريل ﴿ **إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين** ﴾[٥] أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله . وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ففى صحيح البخارى عن رفاعة بن رافع : أن جبريل جاء النبى ـ ﷺ ـ فقال (ما تعدون من شهد بدرا فيكم ؟ قلت . خيارنا ، قال . وكذلك من شهد بدرا من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة)[٦] .

(١) الحديث فى سنن أبى داود جـ ٥ ص ٩٦ كتاب السنة رقم ٤٧٢٧ ..
(٢) سورة النجم الآيتان ٥ ، ٦ .
(٣) سورة يوسف آية ٣١ .
(٤) سورة الصافات آية ١٦٤ .
(٥) سورة التكوير الآيتان ١٩ ، ٢٠ .
(٦) الحديث فى مسند احمد جـ ٣ ص ٤٦٥ مسند رافع بين خديج . انظر صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٠٣ باب قصة غزوة بدر باب شهود الملائكة بدرا .

لا يوصفون بالذكورة والأنوثة

ولقد ضل فى هذا المجال مشركو العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث ، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم واكبر ، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله .

قال تعالى وهو يحكى هذه الخرافة ويناقش أصحابها ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون ، أصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ﴾[١] سورة الصافات وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾[٢] سورة الزخرف .

لا يأكلون ولا يشربون

فقد أخبر سبحانه أن الملائكة جاءوا إبراهيم فى صورة بشر فقدم لهم الطعام فلم تمتد أيديهم إليه فأوجس منهم خيفة ، فكشفوا له عن حقيقتهم فزال خوفه واستغرابه . قال تعالى ﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون ، فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾[٣] سورة الذاريات . وفى آية أخرى قال سبحانه ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴾[٤] سورة هود .

لا يملون ولا يتعبون

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى فى وصف ملائكته : ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[٥] سورة الانبياء .

ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفى الآية الأخرى : ﴿ ... فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾[٦] تقول العرب : سئم الشىء : أى مله .

---

(١) سورة الصافات الآيات من ١٤٩ ـ ١٥٦ .
(٢) سورة الزخرف آية ١٩ .
(٣) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ ـ ٢٨ .
(٤) سورة هود الآية رقم ٧٠ .
(٥) سورة الأنبياء الآية رقم ٢٠ .
(٦) سورة فصلت آية : ٣٨ .

منازلهم :

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم** ﴾(١) .

وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : ﴿ **فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيطت بهم ، ووكلت إليهم ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾(٢) ويكثر نزولهم فى مناسبات خاصة كليلة القدر ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر . تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر** ﴾(٣) .

عددهم :

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم الا الذى خلقهم ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾(٤) سورة المدثر .

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فاسمع ما قاله - ﷺ - فى البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : (**فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم**)(٥) رواه البخارى ومسلم .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله قال : قال رسول الله - ﷺ - (**يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون الف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك**)(٦) فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك .

وإذا تأملت النصوص الواردة فى الملائكة التى تقوم على الإنسان علمت مدى كثرتهم - فهناك ملك موكل بالنطفة ، وملكان لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكى لهدايته وإرشاده .

اسماؤهم :

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل واليك الآيات والأحاديث النبوية التى ورد فيها أسماء بعض الملائكة .

---

(١) سورة الشورى آية ٥ .

(٢) سورة مريم آية رقم ٦٤ .

(٣) سورة القدر آية رقم ٣ ، ٤ .

(٤) سورة المدثر جزء من الآية ٣١ .

(٥) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٩ كتاب الايمان باب الاسراء برسول الله رقم ٢٦٤ ١٦٤ .
- انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٤ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فى شدة حر جهنم رقم ٢٩ - ٢٨٤٢ .

١ ، ٢ جبريل وميكائيل : قال تعالى ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾[١] .

٣ - اسرافيل

ومن الملائكة اسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل وميكائيل واسرافيل هم الذين يذكرهم الرسول - ﷺ - فى دعائه كلما استيقظ من الليل (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم)[٢] .

٤ - مالك

ومنهم مالك خازن النار ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ﴾[٣] .

٥ - رضوان :

قال ابن كثير : (وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحا به فى بعض الأحاديث) .

٦ ، ٧ - منكر ونكير

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول - ﷺ - منكر ونكير ، وقد استفاض فى الأحاديث ذكرهما فى سؤال القبر .

٨ ، ٩ هاروت وماورت :

ومنهم ملكان سماهما الله باسم (هاروت وماورت) قال تعالى ﴿ وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾[٤] .

ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس فى فترة من الفترات ، وقد نسجت حولهما فى كتب التفسير أساطير كثيرة لم يثبت شىء منها فى الكتاب والسنة ، فيكتفى فى معرفة أمرهما . بما دلت عليه الآية .

عزرائيل

جاء فى بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ولا يوجد فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم (قاله ابن كثير فى البداية والنهاية) .

رقيب وعتيد :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد استدلالا بقوله تعالى ﴿ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾[٥] وما ذكروه غير

(١) سورة البقرة الآيتان ٩٧ ، ٩٨ .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه . رقم ٢٠٠ - ٧٧٠ .
(٣) سورة الزخرف آية ٧٧ .
(٤) سورة البقرة من الآية ١٠٢ .
(٥) سورة ق الآيتان : ١٧ ، ١٨ .

صحيح ، فالرقيب والعتيد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعتيد أى ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد وليس المراد أنهما اسمان للملكين .

هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾(١) قال ابن كثير هذه هى النفخة الثانية ، وهى نفخة الصعق وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا فى حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت . وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقى آخرا بالديمومة والبقاء ، ويقول سبحانه لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ **لله الواحد القهار** ﴾(٢) .

ومما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى : ﴿ **كل شىء هالك إلا وجهه** ﴾(٣) وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور ؟ هذا مالا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

الصفات الخُلُقية

الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة ﴿ **بأيدى سفرة . كرام بررة** ﴾(٤) أى القرآن بأيدى سفرة : أى الملائكة لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه قال البخارى : (سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم) . وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله ـ تعالى ـ وتأديته كالسفير الذى يصلح بين القوم ، وقد وصفهم بأنهم ﴿ **كرام بررة** ﴾ أى خلقهم كريم حسن شريف وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

روى الامام أحمد بسنده عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة والذى يقرأه . هو عليه شاق له أجران)(٥) .

استحياء الملائكة

من أخلاق الملائكة التى أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ بها : الحياء ففى الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه بسنده عن عائشة أن الرسول ـ ﷺ ـ كان مضجعا فى بيتها كاشفا عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على تلك الحال فتحدث . ثم أستأذن عمر فأذن له وهو كذلك ، فتحدث

---

(١) سورة الزمر آية ٦٨ .
(٢) سورة غافر من الآية ١٦ .
(٣) سورة القصص من الآية ٨٨ .
(٤) سورة عبس آية ١٥ ، ١٦ .
(٥) الحديث فى مسند احمد جـ ٦ ص ٤٨ مسند عائشة (رضى الله عنها) .

ثم استأذن عثمان فجلس الرسول - ﷺ - وسوى عليه ثيابه ، فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة : دخل ابو بكر فلم تهتش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك - فقال : (ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة)[١] .

قدراتهم

قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم فقد أرسل الله جبريل إلى مريم فى صورة بشر ﴿ **واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا . فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا** ﴾[٢] .

وابراهيم - عليه السلام - جاءته الملائكة فى صورة بشر ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم .

وجاءوا إلى لوط فى صورة شباب حسان الوجوه ، يقول ابن كثير : تبدى لهم الملائكة فى صورة شباب حسان الوجوه امتحانا واختبارا حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وقد كان جبريل يأتى الرسول - ﷺ - فى صفات متعددة ، فتارة يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى ، (صحابى كان جميل الصورة) وتارة فى صورة أعرابى . وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتى كذلك ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى رسول - ﷺ - وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد اخبرنى عن الاسلام ، وفى الحديث أنه سأله عن الايمان والاحسان والساعة وأماراتها .

وقد أخبر الرسول ﷺ فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم[٣] .

ورأت عائشة الرسول - ﷺ - واضعا يده على معرفة فرس دحية الكلبى يكلمه فلما سألته عن ذلك قال - ﷺ - (ذاك جبريل وهو يقرئك السلام)[٤] أخرجه أحمد فى مسنده وابن سعد فى الطبقات بإسناد حسن .

وقد حدثنا الرسول - ﷺ - عن الرجل الذى قتل تسعة وتسعين نفسا ، (أنه لما هاجر تائبا جاءه الموت فى منتصف الطريق إلى الأرض التى هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكموا فيه ملكا جاءهم فى صورة آدمى يقول عليه الصلاة والسلام (فجاءهم ملك فى

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٦٦ كتاب فضائل عثمان بن عفان رضى الله عنه رقم ٣٦ - ٢٠٤١ .
(٢) سورة مريم الآيات ١٦ - ١٩ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ كتاب الايمان باب بيان الايمان والاسلام رقم ١ - ٨ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٩٥ كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رضى الله عنها رقم ٩٠ - ٢٤٤٧ .
- انظر مسند احمد جـ ٦ ص ١٤٦ مسند عائشة (رضى الله عنها) .

صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له)[١] ولابد أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك فى صورة آدمى والقصة فى صحيح مسلم باب التوبة .

عظم سرعتهم :

أعظم سرعة يعرفها البشر هى سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة (١٨٩) ألف ميل فى الثانية الواحدة . أما سرعة الملائكة فهى فوق ذلك ، وهى سرعة لا تقاس بمقاييس البشر ، كان السائل يأتى إلى الرسول ـ ﷺ ـ فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة ـ سبحانه وتعالى ـ واليوم لو وجدت المراكب التى تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة فى آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

علمهم

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه ولكن ليس عندهم القدرة التى أعطيت للانسان فى التعرف على الاشياء ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾[٢] فالانسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشاف سنن الكون والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى ولكن الذى علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الانسان ومن العلم الذى أعطوه علم الكتابة ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون** ﴾[٣] .

اختصام الملأ الأعلى :

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها ففى سنن الترمذى ومسند أحمد عن ابن عباس أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (أتانى الليلة ربى ـ تبارك وتعالى ـ فى أحسن صورة فقال : يا محمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفى حتى وجدت بردها بين ثديى فعلمت ما فى السموات وما فى الارض فقال : يا محمد هل تدرى فيم يختص الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم فى الكفارات والدرجات)

والكفارات : المكث فى المساجد بعد الصلوات والمشى على الاقدام إلى الجماعات واسباغ الوضوء فى المكاره .

قال : صدقت يا محمد ! ومن فعل ذلك عاش بخير ومات بخير وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .

وقال : يا محمد إذا صليت فقل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإن تغفر لى وترحمنى وتتوب على وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١١٨ كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله . رقم ٤٦ ـ ٢٧٦٦ .
(٢) سورة البقرة الأيتان ٣١ ، ٣٢ .
(٣) سورة الانفطار اية ١٠ ، ١١ ، ١٢

والدرجات : إفشاء السلام واطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام)(١) .

قال ابن كثير فى هذا الحديث : (هذا حديث المنام المشهور ومن جعله يقظة فقد غلط وهو فى السنن من طرق وهذا الحديث رواه الترمذى من حديث جهضم بن عبد الله اليمامى وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن فى قوله : ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى الى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾(٢) .

فإن الاختصام المذكور فى الحديث قد فسره الرسول ـ ﷺ ـ والاختصام المذكور فى القرآن فسرته الآيات بعده ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . . ﴾(٣) الآيات .

فالاختصام المذكور فى القرآن كان فى شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه .

منظمون فى كل شئونهم :

الملائكة منظمون فى عبادتهم وقد حثنا الرسول ـ ﷺ ـ على الاقتداء بهم فى ذلك فقال : (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها) ؟ قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال : (يكملون الصف الأول فالاول يتراصون فى الصف)(٤) وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) .

وفى يوم القيامة يأتون صفوفا منتظمة ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ ويقفون صفوفا بين يدى الله تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾(٥) والروح جبريل .

وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر فى صحيح مسلم ومسند أحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى ـ ﷺ ـ قال : (آتى باب الجنة فاستفتح فيقول الخازن : من أنت فأقول : محمد . فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك)(٦) .

---

(١) الحديث فى مسند احمد جـ ١ ص ٣٦٨ مسند ابن عباس .
(٢) سورة ص الأيتان ٦٩ ، ٧٠ .
(٣) سورة ص الأيتان ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ .
(٤) الحديث فى مسند احمد جـ ٥ ص ١٠١ مسند جابر بن سمرة .
(٥) سورة النبأ آية ٣٨ .
(٦) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ١٨٨ كتاب الايمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . رقم ٣٣٣ ـ ١٩٧ . ـ انظر مسند احمد جـ ٣ ص ١٣٦ مسند انس بن مالك .

عبادة الملائكة

نظرة فى طبيعة الملائكة :

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ليس لديهم القدرة على العصيان ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[(١)] فتركهم للمعصية وفعلهم للطاعة جبلة لا يكلفهم أدنى مجاهدة لأنه لا شهوة لهم . ولعل هذا هو السبب الذى دعا فريقا من العلماء الى القول بأن الملائكة ليسوا بمكلفين وأنهم ليسوا بداخلين فى الوعد والوعيد .

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسوا بمكلفين بنفس التكاليف التى كلف بها أبناء آدم أما القول بعدم تكليفهم مطلقا فهو قول مردود فهم مأمورون بالعبادة والطاعة . ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[(٢)] وفى الآية إنهم يخافون ربهم والخوف نوع من التكاليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية ، كما قال فيهم ﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾[(٣)].

مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة أنهم عباد الله ، ولكنهم عباد مكرمون قال تعالى ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** ﴾[(٤)] .

الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم محيط لايستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون وعلى احتمال ان بعضهم تعدى طوره فإن الله يعذبه جزاء تمرده ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدى ربهم مقترحين ولا يعترضون على أمر من أوامره بل هم عاملون بأمره مسارعون مجيبون ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾ وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم ففى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول ـ ﷺ ـ لجبريل (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟) قال : فنزلت : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا** ﴾[(٥)] .

---

(١) سورة التحريم آخر الآية ٦ .
(٢) سورة النحل آية ٥٠ .
(٣) سورة الأنبياء آخر آية ٢٨ .
(٤) سورة الأنبياء الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ .
(٥) انظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣٧٧ رقم ٥١٦٧ . انظر مسند احمد جـ ١ ص ٢٣٤ مسند ابن عباس .

نماذج من عبادتهم :

الملائكة عباد الله مكلفون بطاعته وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة وسنورد هنا بعض العبادات التى حدثنا الله أو رسوله - ﷺ - أنهم يقومون بها .

التسبيح :

الملائكة يذكرون الله تعالى وأعظم ذكرهم التسبيح يسبحه تعالى حملة عرشه ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم** ﴾[١] . كما يسبحه عموم الملائكة : ﴿ **والملائكة يسبحون بحمد ربهم** ﴾[٢] وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا فى الليل ولا فى النهار ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[٣] ولكثرة تسبيحهم فإنهم هم المسبحون فى الحقيقة . وحق لهم أن يفخروا بذلك ﴿ **وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون** ﴾[٤] وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر . عن أبى ذر قال : سئل رسول الله - ﷺ - : أى الذكر أفضل ؟ قال : (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده)[٥] .

صلاتهم :

عن رسول الله - ﷺ - قال (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها) قالوا : وكيف يصفون عند ربهم قال (يكملون الصف الأول فالأول يتراصون فى الصف)[٦] وفى القرآن عن الملائكة ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾[٧] وهم يقومون ويركعون ويسجدون ففى مشكل الآثار للطحاوى والطبرانى فى المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال : (بينما رسول الله - ﷺ - فى أصحابه إذ قال لهم : أتسمعون ما أسمع قالوا : ما نسمع من شىء قال : إنى لأسمع أطيط السماء وما تلام ان تئط وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم)[٨] .

حجهم :

وللملائكة كعبة فى السماء السابعة يحجون إليها هذه الكعبة هى التى أسماها الله تعالى : البيت المعمور وأقسم به فى سورة الطور ﴿ **والبيت المعمور** ﴾[٩] .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ فى حديث الاسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : (ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون الفا لا

---

(١) سورة غافر آية ٧ .
(٢) سورة الشورى جزء من الآية ٥ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٢٠ .
(٤) سورة الصافات الأيتان ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٥) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله . رقم ٨٤ - ٢٧٣١ .
(٦) الحديث فى مسند احمد جـ ٥ ص ١٠١ مسند جابر بن سمرة .
(٧) سورة الصافات آية ١٦٥ .
(٨) الحديث فى سنن ابن ماجة - ٢ ص ١٤٠٢ كتاب الزهد رقم ٤١٩٠ .
(٩) سورة الطور آية ٤ .

يعودون إليه آخر ما عليهم)[١] يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ولهذا وجد ابراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ مسندا ظهره الى البيت المعمور لأنه بانى الكعبة الأرضية والجزاء من جنس العمل) وذكر ابن كثير ان البيت المعمور بحيال الكعبة أى فوقها لو وقع لو قع عليها وذكر أن فى كل سماء بيتا يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذى فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة وهذا الذى ذكره ابن كثير من ان البيت المعمور بحيال الكعبة مروى عن على بن أبى طالب أخرج بن جرير من طريق خالد بن عرعرة أن رجلا قال لعلى رضى الله عنه ما البيت المعمور ؟ قال (بيت فى السماء يقال له الضراح وهو بحيال الكعبة من فوقها حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض يصلى فيه كل يوم سبعون الفا من الملائكة ولا يعودون فيه أبدا ﴾[٢].

قال فيه الشيخ ناصر الدين الألبانى (الأحاديث الصحيحة) ورجاله ثقات غير خالد بن عرعرة وهو مستور ثم ذكر أن له شاهدا مرسلا صحيحا عن الرسول ـ ﷺ ـ عن رواية قتادة قال : ذكر لنا أن النبى ـ ﷺ ـ قال يوما لأصحابه (هل تدرون ما البيت المعمور ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : فإنه مسجد فى السماء تحته الكعبة لوخر لخر عليهم)[٣].

ثم قال المحقق (الألبانى) وجملة القول ان هذه الزيادة (حيال الكعبة) ثابتة بمجموع طرقها .

خوفهم من الله وخشيتهم له :

ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة كان تعظيمهم له وخشيتهم له عظيمة قال الله فيهم : ﴿ **وهم من خشيته مشفقون** ﴾[٤] .

يبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النواس بن سمعان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إذا أراد الله أن يوحى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة وقال رعدة شديدة خوفا من الله عز وجل فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجدا فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ـ عليه السلام ـ فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد)[٥] وفى معجم الطبرانى الاوسط بإسناد حسن عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (مررت ليلة أسرى بى بالملأ الأعلى وجبريل كالحلس البالى من خشية الله تعالى)[٦] والحلس : كساء يبسط فى أرض البيت) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ كتاب الايمان باب الاسراء والمعراج رقم ٢٥٩ ـ ١٦٢ .
(٢) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ٩ ، ١٠ تفسير سورة الطور .
(٣) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ ص ١٠ تفسير سورة الطور قوله تعالى ﴿ **والبيت المعمور** ﴾ .
(٤) سورة الأنبياء آخر آية ٢٨ .
(٥) انظر تفسير ابن كثير ـ سورة سبأ جـ ٣ ص ٥٣٧ .
(٦) انظر تفسير ابن كثير جـ ٣ ص ٥ تفسير سورة الاسراء .

الملائكة والإنسان

الملائكة وآدم

سؤالهم عن الحكمة من خلق الإنسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم أعلم ملائكته بمراده فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك لأنهم علموا أنه سيقع من بنى آدم إفساد وسفك دماء وعصيان وكفر فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكما لا يعلمونها ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون ﴾[١] .

سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم حين يتم خلقه وتنفخ فيه الروح ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾[٢] وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس ﴿ فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ﴾[٣] .

توجيه الملائكة لآدم :

عن ابى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعا فلما خلقه قال : اذهب فسلم على أولئك النفر وهم نفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فذهب فقال السلام عليكم فقالوا : السلام عليك ورحمة الله) قال (فزادوه ورحمة الله)[٤] متفق عليه .

غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفى آدم لم يعرف أولاده كيف يفعلون به فأعلمتهم الملائكة .

ففى مستدرك الحاكم ومعجم الطبرانى الأوسط بإسناد صحيح عن ابىّ ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ (لما توفى آدم غسلته الملائكة بالماء وترا وألحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم فى ولده)[٥]

وقد ثبت فى صحاح الأحاديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمة هو حنظلة بن أبى عامر الذى استشهد فى معركة أحد فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ لأصحابه بعد مقتل حنظلة (إن صاحبكم تغسله الملائكة ، يعنى حنظلة) فسأل الصحابة زوجته فقالت : إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب فقال رسول الله ـ ﷺ ـ (لذلك غسلته الملائكة)[٦] رواه الحاكم .

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .
(٢) سورة ص الأيتان ٧٠ ، ٧١ .
(٣) سورة ص آية ٧٢ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٣ ـ ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفتها باب يدخل الجنة اقوام رقم ٢٨ ـ ٢٨٤١ .
(٥) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم ص ٥٤٥ كتاب التاريخ باب ذكر آدم عليه السلام .
(٦) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب معرفة الصحابة جـ ٣ ص ٢٠٤ باب ذكر مناقب حنظلة ابن عبد الله .

الملائكة وبنو آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة فهم يقومون عليه عند خلقه ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ويأتونه بالوحى من الله ويراقبون أعماله وتصرفاته وينزعون روحه إذا جاء أجله وسنتناول ذلك بشىء من التفصيل .

دورهم فى تكوين الإنسان

روى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله تعالى اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك)(١) .

وفى صحيحى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله - ﷺ - وهو الصادق المصدوق (إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح . ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد)(٢) .

وفى الصحيحين أيضا عن أنس بن مالك عن النبى - ﷺ - قال : (وكل الله تعالى بالرحم ملكا فيقول : (أى رب : نطفة : اى رب : علقة ، اى رب : مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أو سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل فيكتب كذلك فى بطن أمه)(٣) .

حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾(٤) .

وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس أن المعقبات من الله هم الملائكة جعلهم الله ليحفظوا الإنسان من أمامه ومن ورائه فإذا جاء قدر الله الذى قدر أن يصل إليه - خلوا عنه .

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شىء يأتيه إلا قال له الملك وراءك إلا شىء أذن الله فيه فيصيبه وقال رجل لعلى ابن أبى طالب : إن نفرا من مراد يريدون قتلك فقال (اى على) : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه إن الأجل جنة حصينة) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٧ كتاب القدر . باب كيفية الخلق الآدمى رقم ٣ - ٢٦٤٥ .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٦ كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمى رقم ١ - ٢٦٤٣ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٨ كتاب القدر باب كيفية خلق ابن آدم رقم ٥ - ٢٦٤٦ .
(٤) سورة الرعد الآيتان ١٠ ، ١١

والمعقبات المذكورة فى آية الرعد هى المرادة بالآية الأخرى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾(١) فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتى أجله المقدر له .

يبلغون وحى الله إلى رسله وأنبيائه :

وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة ﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه)(٢) .

قال ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾(٣) وقد يأتى بالوحى غير جبريل - وهذا قليل - كما فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : (بينما جبريل قاعد عند النبى - ﷺ - سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك فقال هذا ملك أنزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)(٤) .

وفى التاريخ لابن عساكر بإسناد صحيح عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال (أتانى ملك فسلم على نزل من السماء لم ينزل قبلها فبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة)(٥) وفى المسند وسنن الترمذى بإسناد صحيح عن أُبى بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : (أتانى جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يمينى ، وميكائيل عن يسارى فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل استزده ، فقلت زدنى ، فقال اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل استزده ، فقلت : زدنى كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف كلها شاف كاف)(٦) .

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبى :

ليس كل من جاءه ملك يعتبر رسولا أو نبيا فهذا وهم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم كما أرسله إلى أم اسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها ورأى الصحابة جبريل فى صورة أعرابى ، وأرسل الله ملكا إلى ذلك الرجل الذى زار أخا له فى الله يبشره بأن الله يحبه لحبه لأخيه وهذا كثير وإنما المراد التنبيه .

كيف كان يأتى الوحى الرسول - ﷺ - :

سأل الحارث بن هشام - رضى الله عنه - الرسول - ﷺ - فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟

---

(١) سورة الانعام اية ٦١ .
(٢) سورة البقرة آية ٩٧ .
(٣) سورة الشعراء الأيتان ١٩٣ ، ١٩٤ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٥٤ كتاب صلاة المسافرين باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٢٥٤ - ٨٠٦ .
(٥) الحديث فى تهذيب تاريخ دمشق الكبير جـ ٤ ص ٩٨ مسند حذيفة بن اليمان
(٦) الحديث فى مسند أحمد جـ ٥ ص ١٢٢ مسند أنس بن مالك عن أبى بن كعب .

فقال الرسول ـ ﷺ ـ : (أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قاله وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول)[١] .

فجبريل كان يأتى الرسول ـ ﷺ ـ ويتصل به وهو فى حالته الملكية وهذه شديدة على الرسول ـ ﷺ ـ والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية الى البشرية وهذه أخف على الرسول ـ ﷺ ـ وقد رأى الرسول ـ ﷺ ـ جبريل على صورته التى خلقه الله عليها مرتين مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (بينما أنا امشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى) والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء وهاتان المرتان مذكورتان فى سورة النجم : **﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونه على ما يرى ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى ﴾** [٢] .

لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحى :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحى من الله تعالى فقد كان يأتيه فى كل عام فى رمضان فى كل ليلة من لياليه فيدارسه القرآن) والحديث صحيح أورده البخارى فى صحيحه[٣] .

إمامته للرسول

وقد أم جبريل الرسول ـ ﷺ ـ كى يعلمه الصلاة كما يريدها الله تعالى :

ففى صحيح البخارى أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (نزل جبريل فأمنى فصليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه ثم صليت معه يحسب بأصابعه خمس مرات)[٤] .

وعن ابن عباس أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (أمنى جبريل عند البيت مرتين ، فصلى بى حين زالت الشمس وكانت قدر الشراك ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشىء مثله ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بى العشاء حين غاب الشفق ، وصلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، فلما كان الغد صلى بى الظهر حين كان ظل الشىء مثله ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشىء مثليه وصل بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصل بى العشاء الى ثلث الليل ، وصل بى الفجر فأسفر ثم التفت إلى وقال : يامحمد هذا وقت الأنبياء من قبلك والوقت ما بين هذين الوقتين)[٥] رواه

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٦ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة والحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨١٦ ، ١٨١٧ كتاب الفضائل باب عرق النبى رقم ٨٧ـ ٢٣٣٣ .

(٢) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٨ ص ٦٠٤ تفسير سورة النجم .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٧ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٧ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٥) الحديث فى مسند احمد جـ ١ ص ٣٣٣ مسند ابن عباس .
انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ١ ص ١٩٣ كتاب الصلاة باب أوقات الصلاة .

الامام أحمد ولم يعلمه كيفية الصلاة عمليا وأوقاتها فحسب بل علمه الوضوء ففى مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن زيد بن حارثة ان الرسول ـ ﷺ ـ قال (أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلى فعلمنى الوضوء والصلاة فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه)(١) .

رقيته للرسول ﷺ

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه وغيرهما عن أبى سعيد قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ (أتانى جبريل فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قلت : نعم قال : بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك من شر كل ذى نفس وعين حاسد . . بسم الله أرقيك والله يشفيك)(٢) .

أعمال أخرى

ومن ذلك انه حارب مع الرسول ـ ﷺ ـ فى بدر والخندق وصحب الرسول ـ ﷺ ـ فى الاسراء وغير ذلك .

تحريك بواعث الخير فى نفوس العباد :

وكل الله بكل انسان قرينا من الملائكة وقرينا من الجن ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة) قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياى ولكن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير)(٣) ولعل هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله قيضه الله له ليهديه ويرشده وقرين الانسان من الملائكة وقرينه من الجن يتعاوران الانسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه ، وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم** ﴾(٤) .

قال ابن كثير بعد سوقه لهذا الحديث : هكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننهما جميعا .

ويقول رسول الله ـ ﷺ ـ (إذا آوى الانسان الى فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك : اختم بخير ويقول الشيطان : اختم بشر ، فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه (يعنى النوم) طرد الملك الشيطان

---

(١) الحديث فى المستدرك للحاكم جـ ٣ ص ٢١٧ كتاب معرفة الصحابة باب ذكر مناقب زيد الحب بن حارثة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٧١٨ كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى رقم ٣٩ ـ ٢١٨٥ .
ـ الحديث فى مسند احمد جـ ٢ ص ٥٨ مسند أبى سعيد الخدرى انظر سنن الترمذى جـ ٢ ص ٢٢٣ كتاب الجنائز باب ما جاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٩ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٦٧ ، ٢١٦٨ كتاب صفات المنافقين واحكامهم رقم ٦٩ ـ ٢٨١٤ .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٢ ص ٢٨٨ كتاب التفسير ـ تفسير سورة البقرة رقم ٤٠٧٣ .

وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ! ويقول الشيطان افتح بشر ! فإن قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعدما أماتها ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض ان تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله يمسك السماء أن تقع على الارض الا بإذنه طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه)[1] ذكره الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر .

هذه الأحاديث توجهنا الى الاكثار من الأعمال الخيرة التى تصلح نفوسنا وتقرب الملائكة منا ففى قرب الملائكة منا خير عظيم فقد كان رسول الله - ﷺ - أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن فلرسول الله - ﷺ - أجود بالخير من الريح المرسلة)

حفظ اعمال ابن آدم

الملائكة موكلون بحفظ أعمال بنى آدم من خير وشر ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ما تفعلون** ﴾[2] وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين لا يفارقانه يحصيان عليه أعماله وأقواله ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[3] ومعنى قعيد أى مترصد ورقيب عتيد : اى مراقب معد لذلك لا يترك كلمة تفلت .

والظاهر أن الملائكة الوكلة بالانسان ، تكتب كل ما يصدر عن الانسان من أفعال وأقوال لا يتركون شيئا لقوله تعالى ﴿ **ما يلفظ من قول** ﴾ ولذلك فإن الانسان يجد كتابه قد حوى كل شىء صدر منه ولذلك فإن الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين ﴿ **يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾[4] وفى مسند الإمام أحمد عن بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله - ﷺ - : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن إن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه) فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث)[5] .

وذكر ابن كثير فى تفسيره عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية ﴿ **عن اليمن وعن الشمال قعيد** ﴾ ثم قال : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ

---

(١) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ١ ص ٥٤٨ كتاب الدعاء . باب الذكر عند الاضطجاع والدعاء عند اليقظة .

(٢) سورة الانفطار الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) سورة ق الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ .

(٤) سورة الكهف آية ٤٩ .

(٥) الحديث فى مسند احمد جـ ٣ ص ٤٦٩ مسند باب بن الحارث الحزنى .

السيئات ، فاعمل ما شئت أقلل أو اكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾[١] .

ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك . وذكر ابن كثير أيضا عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ قال : يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت . . شربت ذهبت . . جئت رأيت . . حتى إذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ما كان فيه من خير أو شر والقى سائره) وذلك قوله تعالى ﴿ **يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** ﴾ وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه فبلغه عن طاوس انه قال : يكتب الملك كل شىء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات رحمه الله .

صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات :

فى معجم الطبرانى الكبير بإسناد حسن عن أبى أمامة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء فإن ندم واستغفر الله منها القاها والا كتبت واحدة)[٢] .

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟

استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى ﴿ **يعلمون ما تفعلون** ﴾ فالآية شاملة للأفعال الظاهرة والباطنة .

واستدل أيضا بالحديث المتفق عليه بقول الرسول ـ ﷺ ـ : (قال الله عز وجل : إذا هم عبدى بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة فإن عملها فاكتبوها عشرا)[٣] وفى الحديث الآخر المتفق عليه أيضا (قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة[وهو أبصر به] فقال : ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها . وإن تركها فاكتبوها له حسنة . إنما تركها من جرائى)[٤] .

شبهة :

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الانسان وقصده مع قوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾[٥] فالجواب : إن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى فهو وإن خفى عن البشر فلا يعلم أحدهم ما فى ضمير أخيه فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة وقد يقال إن الملائكة تعلم بعض ما فى الصدور وهو الارادة والقصد أما بقية الأمور كالاعتقادات فلا دليل على كونها تعلمها .

---

(١) سورة الاسراء الأيتان ١٣ ، ١٤ .
(٢) انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ ٨ ص ٢١٨ رقم ٧٧٦٥ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ٢٠٣ ـ ١٢٨ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت . وإذا هم بسيئة لم تكتب رقم ٢٠٥ ـ ١٢٩ .
(٥) سورة غافر آية ١٩ .

دعوة العباد إلى فعل الخير :

فى صحيح البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى قال : (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا)(١) .

وذكر ابن حجر فى شرحه للحديث رواية أخرى عن أبى الدرداء وفيها (وما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين يا أيها الناس هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا غربت شمسه الا وبجنبتها ملكان يناديان)(٢) فذكر مثل حديث أبى هريرة السابق .

ابتلاء بنى آدم :

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بنى آدم واختبارهم ففى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ انه سمع النبى ـ ﷺ ـ يقول : (إن ثلاثة من بنى اسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى أراد الله ان يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتى الأبرص فقال أى شىء أحب إليك ؟ فقال : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لونا حسنا وجلدا حسنا قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الابل أو قال البقر فأعطى ناقة عشراء (أى حامل) فقال : بارك الله لك فيها فأتى الأقرع : فقال اى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرا حسنا قال : فأى المال أحب إليك قال البقر فأعطى بقرة حاملا وقال : بارك الله لك فيها فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب إليك قال أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر الناس فمسحه فرد الله إليه بصره قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال الغنم فأعطى شاة والدا فأنتج هذا وولد هذا فكان لهذا واد من الإبل ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم .

ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيرا أتبلغ به فى سفرى .

فقال : الحقوق كثيرة فقال : كأنى أعرفك ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر .

فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا ورد عليه مثل ما رد هذا فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم الا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى فقال قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم بشىء أخذته لله عز وجل

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة باب الممسك والمنفق رقم ٥٧ ـ ١٠١٠ .
(٢) انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٦٦ ، ٧٧ باب الترغيب فى الانفاق فى وجوه الخير .. الخ

فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك)(١) .

الملائكة تنزع روح الانسان :

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد عندما تنتهى آجالهم التى قدرها الله لهم قال تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾(٢) والذين يقبضون الارواح اكثر من ملك ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾(٣) وينزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين نزعا شديدا عنيفا بلا رفق ولا هوادة ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾(٤) وقال ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾(٥) وقال : ﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾(٦) أما المؤمنون فإن الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رفيقا .

تبشيرهم المؤمنين عند النزع :

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن فإن الملائكة تتنزل عليه تبشره وتثبته ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾(٧) وهى تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾(٨) .

موسى يفقأ عين ملك الموت :

روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران فقال له : أجب ربك قال : (فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها قال : (فرجع الملك إلى الله فقال : إنك أرسلتنى الى عبد لك لا يريد الموت وقد فقأ عينى قال : (فرد الله إليه عينه وقال : ارجع إلى عبدى فقل : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور فما توارت يدك من شعرة فإنك تعيش بها سنة (وفى البخارى : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة) قال : ثم مه ؟ قال ثم تموت قال فالآن من قريب)(٩) .

---

(١) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى جـ ٦ ص ٥٠٠ باب (٥١) باب حديث ابرص أوعمى وأقرع فى بنى اسرائيل .

ـ انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٧٥ ، ٠٠٧٦ ، ٠٠٧٧ كتاب الزهد والرقائق رقم ١٠ ـ ٢٩٦٤ .

(٢) سورة السجدة آية ١١ .

(٣) سورة الأنعام آية ٦١ .

(٤) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٣ .

(٥) سورة الأنفال آية ٥٠ .

(٦) سورة محمد آية ٢٧ .

(٧) سورة فصلت الآية ٣٠ ، ٣١ .

(٨) سورة الأنعام جزء من الآية ٩٣ .

(٩) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٤٣ كتاب الفضائل باب فضائل موسى عليه السلام رقم ١٥٨ ـ ٢٣٧٢ .

وملك الموت إنما جاء موسى فى صورة انسان كما فى رواية صحيحة فى المسند وهذا الذى فعله موسى لأن الأنبياء يخيرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ما عند الله وقد يبادر بعض الناس إلى التكذيب بمثل هذه الرواية لأن عقولهم لا تستسيغها وقد نسوا أن أول صفات المتقين أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك فى مطلع سورة البقرة فإذا صح الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ﴾[١] .

سؤالهم العبد فى القبر وما يكون منهم فى المحشر والجنة والنار :

فهناك منكر ونكير اللذان يسألان العبد فى قبره عن ربه ورسوله ودينه ، ومنهم ملائكة ينعمون العباد فى قبورهم ، وآخرون يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين فى يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل فى الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار فى النار . وسلامهم على المؤمنين .

محبتهم للمؤمنين

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض)[٢] .

تسديد المؤمن :

روى الترمذى وابن ماجه أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (من سأل القضاء وكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكا فيسدده)[٣] .

صلاتهم على المؤمنين

قال تعالى ﴿ إن الله وملائكته يصلون على النبى ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾[٥] والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاه البخارى عن أبى العالية وقال غيره : الصلاة من الله عز وجل الرحمة ولا منافاة بين القولين . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم .

نماذج الأعمال التى تصلى الملائكة على صاحبها

معلم الناس الخير !

روى الطبرانى والترمذى بإسناد صحيح عن أبى أمامة أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (إن الله

(١) سورة آل عمران اية ٧ .

(٢) انظر صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٧٣ ، ١٧٤ كتاب التوحيد . الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٣٠ كتاب البر والصلة باب اذا أحب الله عبدا رقم ١٥٧ ـ ٢٦٣٧ .

(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ٧٧٤ كتاب الأحكام باب ذكر القضاة رقم ٣٢٠٩ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٥٦ .

(٥) سورة الأحزاب آية ٤٣ .

وملائكته ، حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير)(١) (صحيح الجامع)

الذين يؤمون المساجد للصلاة :

فى صحيح مسلم (أن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد للصلاة فتقول : اللهم صل عليه ، واللهم ارحمه ، ما لم يؤذ فيه ، مالم يحدث فيه)(٢) .

الذين يصلون فى الصف الأول :

فى سنن أبى دواد وابن ماجة وسنن الأمام احمد عن البراء - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول)(٣) .

الذين يمكثون فى مصلاهم بعد الصلاة :

روى أبو داود فى سننه والنسائى بإسناد صحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : (الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى صلى فيه ، ما لم يحدث ، أو يقم : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه)(٤) .

الذين يسدون الفرج بين الصفوف

فى سنن ابن ماجة وسند احمد ومستدرك الحاكم باسناد حسن عن عائشة أن الرسول - ﷺ - قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة)(٥) (صحيح الجامع) .

الذين يتسحرون

وفى صحيح ابن حبان ومعجم الطبرانى فى الأوسط باسناد حسن عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على المتسحرين)(٦) (صحيح الجامع) .

الذين يصلون على النبى

روى أحمد فى سنده ، والضياء فى المختارة عن عامر بن ربيعة باسناد حسن أن رسول الله - ﷺ -

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٤ ص ١٥٤ أبواب العلم رقم ٢٨٢٦ .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٤٥٩ كتاب المساجد ومواقع الصلاة باب فضل صلاة الجماعة رقم ٢٧٢ - ٦٤٩ .
(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ١ ص ٣١٨ رقم ٩٩٧ كتاب إقامة الصلاة . انظر مسند احمد جـ ٤ ص ٢٦٩ مسند النعمان بن بشير .
(٤) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٢ ص ٤٣ كتاب الصلاة باب الترغيب فى الجلوس فى المسجد وانتظار الصلاة .
(٥) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ١ ص ٣١٨ رقم ٩٩٥ كتاب إقامة الصلاة .
(٦) الحديث فى صحيح ابن حبان جـ ٥ ص ١٩٤ رقم ٣٤٥٨ .

قال : (ما من عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى علىَّ فليقلّ العبد من ذلك أو يكثر)[١] (صحيح الجامع) .

الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان فى صحيحه باسناد صحيح عن على أن رسول الله - ﷺ - قال : (ما من امرىء مسلم يعود مسلما إلا ابتعث الله سبعين الف ملك يصلون عليه فى أى ساعات النهار كان ، حتى يمسى ، وأى ساعات الليل كان ، حتى يصبح)[٢] (صحيح الجامع) .

التأمين على دعاء المؤمنين

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الاجابة . ففى سنن ابن ماجة عن أبى الدرداء عن النبى - ﷺ - قال . (دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب عند رأسه ملك يؤمن على دعائه . كلما دعا له بخير قال : آمين ولك بمثله)[٣] ولما كان الدعاء المؤمن عليه حريا بالاجابة فإنه لا ينبغى للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر .

ففى صحيح مسلم عن ام سلمة قالت : (لاتدعو على أنفسكم إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون)[٤] .

استغفارهم للمؤمنين:

قال تعالى : ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾[٥] .

قال سبحانه ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾[٦] .

شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم:

ففى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : (إن الله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تعالى - تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا . . . . الحديث)[٧] .

---

(١) الحديث فى مسند احمد جـ ٣ ص ٤٤٥ مسند عامر بن ربيعة عن أبيه .
(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان جـ ٤ ص ٢٦٨ باب ذكر استغفار الملائكة لعائد المريض . رقم ٢٩٤٧ .
(٣) الحديث فى سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ٩٦٦ رقم ٢٨٩٥ .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٢ ص ٦٣٤ كتاب الجنائز باب فى إغماض الميت والدعاء له إذا حضر رقم ٧ - ٩٢٠ .
(٥) سورة الشورى آية ٥ .
(٦) سورة غافر الأيتان ٧ ، ٩ .
(٧) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٦٩ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل مجالس الذكر رقم ٢٥ - ٢٦٨٩ .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (وما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)(١) .

وفى مسند الامام أحمد والسنن عن أبى الدرداء مرفوعا (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)(٢) أى تتواضع له .

فالأعمال الصالحة تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد فى حالة عالية من السمو الروحى لوصلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ومصافحتهم كما فى الحديث الذى يرويه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ (لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال الذى تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة)(٣) (صحيح الجامع) .

تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين يؤمون الجمع الأول فالأول ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول فإذا جلس الامام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر)(٤) .

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، ففى صحيح البخارى عن رفاعة بن رافع الزرقى قال (كنا يوما نصلى وراء النبى ـ ﷺ ـ فلما رفع رأسه من الركعة ، قال (سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه فلما انصرف : قال من المتكلم ؟ قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها)(٥) فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين اللذين يسجلان صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لكونهم بضعة وثلاثين ملكا .

تعاقب الملائكة فينا

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ويشهدون الجمع والجماعات يتعاقبون فينا فطائفة تأتى ، وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٤ كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر رقم ٣٨ ـ ٢٦٩٩ .
(٢) الحديث فى مسند احمد جـ ٤ ص ٢٦٩ مسند صفوان بن عسال .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٠٧ كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر رقم ١٢ ، ١٣ ـ ٢٧٥٠ .
(٤) انظر مسند احمد جـ ٣ ص ٨١ مسند ابى سعيد الخدرى .
(٥) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ١٤٩ ـ ٦٠٠ .

فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، فيقول كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون)[١] .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ، لأن الملائكة تشهدها قال : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ﴾[٢] وقرآن الفجر أى صلاة الفجر كما قال المفسرون .

تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من يتنزل من السماء حين يُقرأ القرآن ، فعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن أسيد ابن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مربده (الجرن) إذ جالت (وثبت) فرسه ، فقرأ ثم جالت أخرى ، فقرأ ، ثم جالت أيضا قال أسيد : فخشيت ان تطأ يحيى (ابنه) فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأس فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فقال ، فغدوت على رسول الله - ﷺ - فقلت : يا رسول الله بينما أنا البارحة من جوف الليل اقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله - ﷺ - : (اقرأ يا ابن حفير) قال : فقرأت ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله - ﷺ - (اقرأ يا ابن حضير) قال فقرأت ، ثم جالت أيضا ، فقال رسول الله - ﷺ - : (اقرأ يا ابن حضير) قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها امثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها فقال رسول الله - ﷺ - (تلك الملائكة كانت تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستر منهم)[٣] (رواه البخارى ومسلم) .

يبلغون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائى عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام)[٤] .

تبشيرهم المؤمنين

فقد حملوا البشرى إلى ابراهيم بأنه سيرزق بذرية صاحلة قال تعالى ﴿ **هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون . فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم** ﴾[٥] .

وبشرت زكريا ﴿ **فنادته الملائكة وهم قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى** ﴾[٦] .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٩ ص ١٧٤ كتاب التوحيد .
الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٤٣٩ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما . رقم ٢١٠ - ٦٣٢ .

(٢) سورة الاسراء آية ٧٨ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٤٨ ، ٥٤٩ كتاب صلاة المسافرين وقصرها . رقم ٢٤٢ - ٧٩٦ .

(٤) الحديث فى مسند احمد جـ ١ ص ٤٥٢ مسند عبد الله بن مسعود .

(٥) سورة الذاريات الآيات من ٢٤ - ٢٨ .

(٦) سورة آل عمران آية ٣٩ .

وليس هذا مقصورا على الأنبياء والمرسلين ، بل قد تبشر المؤمنين ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال (زار رجل أخا له فى قرية أخرى فأرصد الله على مدرجته (طريق) ملكا ، فلما أتى عليه ، قال أين تريد ؟ قال : أريد أخالى فى هذه القرية ، قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا ، غير أنى أحببته فى الله عز وجل قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)(١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ - (أتانى جبريل ، فقال ، يا رسول الله أهذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هى قد أتتك ، فاقرأ عليها السلام من ربها ومنى ، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيها ولا نصب)(٢) .

الملائكة والرؤيا فى المنام :

روى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما قال : (كان الرجل فى حياة النبى - ﷺ - إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله - ﷺ - فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله - ﷺ - ، وكنت غلاما شابا ، وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله - ﷺ - فرأيت فى النوم كأن ملكين اخذانى فذهبا بى إلى النار . فإذا هى مطوية كطى البئر ، وإذا لها قرنان ، وإذا فيها أناس قد عرفتهم ، فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار ، قال فلقينا ملك آخر فقال لى : لا ترع) (أى لا تخف)(٣) .

٢ **يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم فى حروبهم**

قال تعالى ﴿ **إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين** ﴾(٤) وقال تعالى ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر وانتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾(٥) .

وروى البخارى بسنده أن رسول الله - ﷺ - قال فى يوم بدر (هذا جبريل آخذ برأس فرسه ، عليه أداة الحرب)(٦) وقد بين سبحانه الحكمة والغاية من هذا الاعداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقتال أعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾(٧) وقال

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٨٨ كتاب البر والصلة باب فضل الحب فى الله . رقم ٣٨ - ٢٥٦٧ .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٨٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضل خديجة أم المؤمنين - رضى الله عنها - رقم ٧١ - ٢٤٣٢ .
(٣) انظر صحيح البخارى جـ ٥ ص ٣٠ باب فضائل اصحاب النبى - ﷺ - باب مناقب عبد الله بن عمر .
(٤) سورة الأنفال آية ٩ .
(٥) سورة آل عمران الآيات ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٦) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٠٣ كتاب المغازى باب شهود الملائكة بدر . وكذلك غزوة أحد ص ١٢٠ جـ ٥ أيضا .
(٧) سورة الأنفال آية ١٢ .

تعالى ﴿ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾[١] (آل عمران) وقد حاربت الملائكة فى مواقع أخرى ، ففى غزوة الخندق أرسل الله ملائكته . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ﴾[٢] والجنود التى لم يروها هى الملائكة وبين فى الصحاح وفى غيرها أن جبريل جاء الرسول - ﷺ - يغتسل ، فقال للرسول - ﷺ - وعلى ثنايا جبريل النقع (الغبار) (أوضعتم سلاحكم ، فإنا لم نضع سلاحنا بعد ، فقال إلى أين فأشار إلى بنى قريظة)[٣] .

حمايتهم للرسول ﷺ

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، قال : فقيل نعم ، فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه فى التراب ، قال : فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلى يزعم ليطأ على رقبته . قال فما جاءهم إلا وهو ينكص على عقبه ويتقى بيديه ، قال فقيل له مالك ، فقال إن بينى وبينه لخندقا من نار وهولا واجنحة فقال رسول الله - ﷺ - (لو دنا منى لا ختطفته الملائكة عضوا عضوا)[٤] .

حمايتهم ونصرهم لصالحى العباد وتفريج كربهم

ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب المجابين فى الدعاء عن الحسن قال كان رجل من أصحاب النبى - ﷺ - من الأنصار يكنى أبا معلق وكان تاجرا يتجر بمال له.ولغيره يضرب به فى الآفاق وكان ناسكا ورعا فخرج مرة فلقيه لص مقنع فى السلاح فقال له ضع ما معك فإنى قاتلك قال فما تريد من دمى ؟ فشأنك والمال قال أما مالك فلى ولست أريد الا دمك قال أما إذا أبيت فذرنى اصلى أربع ركعات فكان من دعائه فى آخر سجدة أن قال يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعال لما تريد ، اسألك بعزك الذى لا يرام وبملكك الذى لا يضام وبنورك الذى ملأ أركان عرشك ان تكفينى شر هذا اللص ، يا مغيث اغثنى ، يا مغيث اغثنى ، يا مغيث اغثنى - ثلاث مرات - فإذا هو بفارس أقبل بيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه فقتله ثم أقبل إليه فقال قم فقال من أنت بأبى أنت وأمى ، فقد أغاثنى الله بك اليوم فقال أنا ملك من أهل السماء الرابعة دعوت فسمعت لأبواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى دعاء مكروب فسألت الله

---

(١) سورة آل عمران آية ١٢٦ .
(٢) سورة الأحزاب آية ٩ .
(٣) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٥ ص ١٤٢ كتاب المغازى باب مرجع النبى - ﷺ - من الأحزاب ومخرجه الى بنى قريظة .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٥٤ كتاب صفات المنافقين واحكامهم باب قوله إن الانسان ليطغى . رقم ٣٨ - ٢٧٩٧ .

أن يولينى قتله قال الحسن فمن توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أو غير مكروب)[١] .

شهود الملائكة لجنازة الصالحين

قال الرسول - ﷺ - فى سعد بن معاذ (هذا الذى تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه) رواه النسائى عن ابن عمر بإسناد صحيح[٢] .

اظلالها للشهيد بأجنحتها

فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله قال : لما قتل أبى جعلت اكشف الثوب عن وجهه وابكى ، وينهوننى ، والنبى - ﷺ - لا ينهانى فجعلت عمتى فاطمة تبكى ، فقال النبى - ﷺ - : (تبكين أو لا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه)[٣] .

حمايتهم للمدينة ومكة من الدجال

ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : (على أنقاب المدينة ملائكة ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال)[٤] وفيه أيضا ليس من بلد الا سيطؤه الدجال ، إلا مكة والمدينة ، ليس له من نقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها ، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافر ومنافق)[٥] .

نزول النبى عيسى بصحبة ملكين :

(ينزل النبى عيسى بن مريم فى آخر الزمان عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين (المهرودتان : ثوبان مصبوغان بورس وزعفران) واضعا كفيه على أجنحة ملكين) (رواه مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه)[٦] .

---

(١) ابن ابى الدنيا كتاب المجانين فى الدعاء .
(٢) الحديث فى سنن النسائى فى جـ ٢ ص ٨٢ كتاب الجنائز باب ضمة القبر .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٢ ص ٩١ باب فى الجنائز .
(٤) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٣ باب حرم المدينة . باب لا يدخل المدينة الدجال ص ٢٨ .
(٥) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٣ ص ٢٨ باب حرم المدينة .
(٦) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة بمعناه جـ ٤ ص ٢٢٢١ رقم ٢٨٩٧ .
- الحديث فى سنن الترمذى بمعناه جـ ٣ ص ٣٤٤ ابواب القدر باب ما جاء فى نزول عيسى ابن مريم .

واجب المؤمن تجاه الملائكة

الملائكة عباد الله اختارهم واصطفاهم ولهم مكانة عند ربهم ، والمؤمن الذى يعبد الله ويتبع رضوانه لا مناص له من أن يتولى الملائكة بالحب والتوقير ، ويتجنب كل ما من شأنه أن يسىء اليهم ويؤذيهم .

البعد عن الذنوب والمعاصى

أعظم ما يؤذى الملائكة الذنوب والمعاصى والكفر والشرك ، ولذا فإن أعظم ما يهدى للملائكة ويرضيهم أن يخلص المرء دينه لربه ، ويتجنب كل ما يغضبه .

ولذا فإن الملائكة لا تدخل الأماكن والبيوت التى يعصى فيها الله تعالى أو التى يوجد فيها ما يكرهه الله ويبغضه ، كالأنصاب والتماثيل والصور ولا تقرب من تلبس بمعصية كالسكران .

روى البزار باسناد صحيح عن بريدة - رضى الله عنه - أن الرسول - ﷺ - قال : (ثلاثة لا تقربهم الملائكة : السكران والمتضمخ بالزعفران ، والجنب)[1] .

وقال ابن كثير فى البداية ثبت فى الحديث المروى فى الصحاح والمسانيد والسنن من حديث جماعة من الصحابة عن رسول الله - ﷺ - انه قال : (لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة ولا كلب ولا جنب) وفى رواية (لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب أو جرس)[2] (البداية والنهاية) .

الملائكة تتأذى مما يتأذى منه ابن آدم

ثبت فى الأحاديث الصحيحة إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم ، فهم يتأذون من الرائحة الكريهة ، والأقذار والأوساخ روى البخارى ومسلم أن رسول الله - ﷺ - قال : (من أكل الثوم والبصل والكرات فلا يقترب من مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم)[3] .

وقد بلغ الأمر بالرسول - ﷺ - أن آمر بالذى جاء إلى المسجد ورائحة الثوم أو البصل تنبغث منه - أن يخرج إلى البقيع (وهذا ثابت فى صحيح مسلم)[4] .

النهى عن البصق عن اليمين فى الصلاة

عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : (إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق عن أمامه فإنه إنما

---

(١) الحديق فى زوائد البزار جـ ٣ ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ رقم ٢٩٢٩ وقال البزار : لا نعلمه يروى عن بريدة الا من هذا الوجه ولا نعلم رواه عن يوسف الا عبد الله .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٧ ص ٢١٥ باب التصاوير .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٩٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب نهى من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا ونحوه رقم ٧٤ - ٥٦٤ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٣٩٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب من أكل ثوما أو بصلا أو كراثا أو نحوها . رقم ٧٨ - ٥٦٧ .

يناجى الله مادام فى مصلاه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا ، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها)[١] .

موقف الملائكة من الكفار والفساق

وضحنا فيما سبق موقف الملائكة من المؤمنين وقد اتضح من خلال ذلك موقفهم من الكفرة ، فهم لا يحبون الكفرة الظالمين المجرمين ، بل يعادونهم ويحاربونهم ، ويزلزلون قلوبهم كما حدث فى معركة بدر ، والاحزاب .

انزال العذاب بالكفار

عندما كان يكذب الرسول ويصر قومه على التكذيب كان الله ينزل فى كثير من الأحيان بهم عذابه ، وكان الذى يقوم بالتعذيب أحيانا الملائكة .

اهلاكهم قوم لوط

قال تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[٢] روى ابن كثير فى تفسيره عن مجاهد قال : أخذ جبريل قوم لوط من سرحهم ودورهم حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ، ثم كفأها ، وكان حملهم على خوافى جناحه الأيمن)[٣] .

لعن الكفرة

قال تعالى ﴿ إن الذين كفروا وماتواوهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ﴾[٤] ولا تلعن الملائكة الكفرة فحسب بل قد تلعن من فعلوا ذنوبا معينة ومن هؤلاء .

لعن الملائكة المرأة التى لا تستجيب لزوجها

فى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إذا دعا الرجل امرأته الى فراشه فأبت فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح)[٥] .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى جـ ١ ص ١١٣ كتاب الصلاة باستقبال القبلة .
(٢) سورة هود آية ٨٢ ، ٨٣ .
(٣) الحديث فى تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٢ تفسير سورة هود ـ طبعة الشعب ـ .
(٤) سورة البقرة آية ١٦١ .
(٥) الحديث فى صحيح البخارى جـ ٧ ص ٣٩ كتاب النكاح باب اذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها .

لعنهم الذى يشير إلى أخيه بحديدة

روى مسلم عن أبى هريرة قال قال أبو القاسم (من أشار الى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، وان كان أخاه لأبيه وأمه)(١) (لما فيه من ترويع لأخيه) .

لعنهم من سب أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ

أخرج الطبرانى عن ابن عباس بإسناد حسن أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : (من سب أصحابى فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)(٢) .

لعنهم الذين يحولون دون تنفيذ شرع الله

فى سنن النسائى عن ابن عباس أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (من قتل عمدا فقود يديه ، فمن حال بينه وبينه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين)(٣) فالذى يحول دون تنفيذ حكم الله فى قتل القاتل عمدا فعليه هذه اللعنة فكيف بالذى يحول دون تنفيذ الشريعة كلها ؟ !

رؤية الملائكة

لا يستطيع بنو آدم أن يروا الملائكة ، لأن الله لم يعط أبصارهم القدرة على رؤيتهم .
ولم ير الملائكة فى صورهم الحقيقية من هذه الأمة إلا الرسول ـ ﷺ ـ فإنه رأى جبريل مرتين فى صورته التى خلقه الله عليها كما سبق ، ولا يستطيع البشر رؤيتهم إلا إذا تمثل الملك فى صورة بشر .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٢٠ كتاب البر والصلة والاداب . باب النهى عن الاشارة بالسلاح الى مسلم رقم ١٢٥ ـ ٢٦١٦ .

(٢) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى جـ ١٢ ص ١٤٢ رقم ١٢٧٠٩ .

(٣) الحديث فى سنن النسائى كتاب الحدود باب من قتل بحجر او سوط جـ ٨ ص ٣٥ .

(لماذا لا يرسل الله رسله من الملائكة)

والله لا يرسل رسله من الملائكة لأن طبيعة الملائكة مخالفة لطبيعة البشر ، فاتصالهم بالملائكة ليس سهلاً ميسوراً .

قال تعالى : ﴿ **قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً** ﴾(١) .

فلو كان سكان الأرض ملائكة لأنزل الله إليهم ملكاً رسولاً .

وعلى فرض أن الله اختار رسله إلى عموم البشر من الملائكة فإنه لا ينزلهم بصورهم الملائكية ، بل يجعلهم يتمثلون في صفة رجال يلبسون ما يلبس الرجال كي يتمكن الناس من الأخذ عنهم .

﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكاً لقضى الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون** ﴾(٢) .

وقد أخبر تعالى أن طلب الكفرة رؤية الملائكة ومجيء رسول من الملائكة إنما هو تعنت وليس طلباً للهداية ، وعلى احتمال حدوثه فإنهم لن يؤمنوا قال تعالى : ﴿ **ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون** ﴾(٣).

الملائكة وبقية المخلوقات :

حملة العرش

العرش أعظم المخلوقات محيط بالسموات وفوقها ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾(٤) ، ويحمله من الملائكة ثمانية ﴿ **ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾(٥) .

ملك الجبال :

وللجبال ملائكة . وقد أرسل الله ملك الجبال إلى عبده ورسوله محمد - ﷺ - يستأمره في إهلاك أهل مكة كما ورد في صحيح البخاري ومسلم . عن عائشة أنها قالت للنبي : (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟) .

---

(١) سورة الإسراء آية : ٩٥

(٢) سورة الأنعام الآيتان : ٨ - ٩

(٣) سورة الأنعام آية ١١١

(٤) سورة طه آية : ٥

(٥) سورة الحاقة من الآية : ١٧

قال : (لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال ، فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (موضع قرب مكة) فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا منها جبريل . فناداني فقال : إن الله - عز وجل - قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فناداني ملك الجبال فسلم على ، ثم قال : يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فقال ذلك فيما شئت ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (جبلا مكة أبو قبيس والأحمر وجبلا متى) فقال النبي - ﷺ - (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً)(١) .

الموكلون بالقطر والنبات والأرزاق

يقول ابن كثير : (في البداية والنهاية) وميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الدار ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه ، يصرفون الرياح والسحاب كما يشاء الرب - جل جلاله - .

والملائكة موكلون بالسموات والأرض ، فكل حركة في العالم فهى ناشئة عن الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ **والصافات صفا * فالزاجرات زجرا * فالتاليات ذكرا** ﴾(٢) .

﴿ **والنازعات غرقاً * والناشطات نشطا * والسابحات سبحا * فالسابقات سبقا * فالمدبرات أمرا** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **والذاريات ذروا * فالحاملات وقرا * فالجاريات يسرا * فالمقسمات أمرا** ﴾(٤) .

فكل هذه الآيات حديث عن الملائكة حال قيامها بتدبير شؤون السموات والأرض .

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب بدء الخلق » باب : « إذا قال أحدكم آمين » ج ٤ ص ١٣٩ - ١٤٠ فقد ورد الحديث بلفظه ، وانظر صحيح مسلم « كتاب الجهاد والسير » باب : « مالقى النبي - ﷺ - من أذى المشركين والمنافقين » ج ٣ ص : ١٤٢٠ - ١٤٢١ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة حديث رقم ١٧٩٥/١١١ غير أنه ورد فيه بعد قول ملك الجبال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك .. الخ .

(٢) سورة الصافات الآيات : ١ - ٢ - ٣ .

(٣) سورة النازعات : ١ - ٤ .

(٤) سورة الذاريات : ١ - ٤ .

المفاضلة بين الملائكة والبشر

قال الإمام ابن تيمية (شيخ الإسلام) : أن صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى ، وسكنوا الدرجات العلا ، وحياهم الرحمن وخصهم بمزيد قربه ، وتجلى لهم ، يستمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم .

والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الملأ الأعلى ، منزهون عما يلابسه بنو آدم ، مستغرقون في عبادة الرب ، ولا ريب أن هذه الأحوال الآن أكمل من أحوال البشر .

قال ابن القيم : (وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل) .

(من كتاب عالم الملائكة الأبرار - عمر سليمان الأشقر) .

الأمر كله لله

قال تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

على كل مؤمن أن يعلم علم اليقين بل عين اليقين ، أنه لا تهب في هذا الكون نسمة هواء ، ولا تطرف طرفة عين ، ولا يحدث فيه حدث صغير أو كبير إلا بإذنه - جل جلاله - فما شاء الله كان ، ومالم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، قال الإمام أحمد بسنده عن المغيرة بن شعبة قال : إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة اكتب لي بما سمعت من رسول الله - ﷺ - فدعاني المغيرة فكتبت إليه إني سمعت رسول الله - ﷺ - يقول إذا انصرف من الصلاة : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[1] .

وسمعته ينهى عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات :

وثبت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال :

إن رسول الله - ﷺ - كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول : (سمع الله لمن حمده اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض ، وملء ما شئت من شيء بعد ، اللهم أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد)[2] .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن المغيرة ، وانظر ص ٢٥٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع ، ج ١ ص ٣٤٧ حديث رقم ٤٧٧/٢٠٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبي سعيد الخدري . وانظر أحاديث الباب .

وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾[(١)] .

وقال الإمام مالك رحمة الله عليه قال أبو هريرة – رضي الله عنه – (إذا مطروا يقول مطرنا بنوء الفتح ثم يقرأ هذه الآية :

﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾[(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾ .

هذا خطاب علوى من الله العلى الأعلى إلى البشرية جمعاء وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها يقول الله فيه لعباده : ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾ والله – تعالى – لا يريد بالاستفهام طلب الفهم فهو العليم بكل شيء لكن وراء الاستفهام من المعانى ما وراءه ، فالله – تعالى – ينكر على هؤلاء أن يعبدوا غيره وهو صاحب الخلق والرزق ، والاستفهام الانكارى يفيد النفى أى : لا خالق ولا رازق إلا الله فكيف تعبدون غيره ، وكيف تنصرفون عن عبادته ، وهو المالك المتصرف صاحب الخلق والأمر لا ينقصه نائل ، ولا يشغله سائل ، الوجود ملكه والقضاء حكمته وكل الكائنات طوع إرادته .

ثم يخاطب الله – تعالى – نبيه ومصطفاه مخففاً عنه ما يلاقيه من تكذيب هؤلاء الجاحدين وهو الصادق الأمين فيقول :

﴿ **وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون . ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين . وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين . إنما يستجيب الذين يسمعون** ﴾[(٣)] .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿ **ما يقال لك إلا ماقد قيل للرسل من قبلك** ﴾[(٤)]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى واعلم أن مرجع الأمر كله لله يحكم بينهم ولله عاقبة الأمور وإليه المصير والمآب .

---

(١) سورة يونس من الآية : ١٠٧ .

(٢) سورة فاطر من الآية : ٢ .

(٣) سورة الأنعام الآيات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ومن الآية : ٣٦

(٤) سورة فصلت من الآية : ٤٣ .

قال تعالى : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم ﴾(1) . وقال تعالى : ﴿ فالحكم لله العلي الكبير . هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب . فادعو الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفي على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾(2) .

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

وهذا خطاب آخر من خالق الناس ورب الناس وملك الناس وإله الناس إلى الناس يخبرهم سبحانه فيه :

أن كل ما وعد به عباده على لسان أنبيائه هو حق اليقين وعين اليقين ، فالله حق ولقاؤه ووعده حق وقوله الحق والساعة حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق وقوله الحق : ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ في الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾(3) وإذا كان ذلك فأعدوا الزاد لليلة صبحها يوم القيامة ولاتغرنكم الحياة الدنيا بزخارفها ولعبها ولهوها ، فالدنيا إذا حلت أوحلت وإذا جلت أوجلت وإذا كست أوكست وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا مات ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾(4) .

كما لا يغرنكم الشيطان بغروره لكي يوقعكم في شباكه وشراكه ومصايده ومكايده ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ تلك حقيقة يقررها خالق الأكوان ومبدع الإنسان ﴿ ألم أعهد إليكم يابنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾(5) ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾(6) .

---

(١) سورة الحج من الآية : ٥٦ .

(٢) سورة غافر من الآية : ١٢ والآيات : ١٣ — ١٧ .

(٣) سورة الأنعام من الآيه : ٧٣ .

(٤) سورة المنافقون الآيات : ٩ — ١١ .

(٥) سورة يس الآيات : ٦٠ — ٦١ .

(٦) سورة الأعراف الآية : ٢٧ .

فلتكن عداوته لكم معلومة لديكم فله حزب وللرحمن حزب .

قال تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا أن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين . كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز** ﴾(١) .

وقال جل شأنه : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾(٣) .

وقد اقتضى منطق العدالة الإلهية أن يكون للكافرين عذاب شديد وأن يكون للمؤمنين مغفرة وأجر كبير قال تعالى : ﴿ **الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ .

مغفرة لذنوبهم وأجر كبير لما قدموا من الصالحات .

﴿ **إن للمتقين مفازاً . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا** ﴾(٤).

أما جزاء الكافرين فنار تلظى ﴿ **إن جهنم كانت مرصاداً . للطاغين مآباً . لابثين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا . إلا حميماً وغساقا . جزاء وفاقا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾(٥) .

---

(١) سورة المجادلة الآيات : ١٩ ٢١ .

(٢) سورة المجادلة الآية : ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآيات : ٥٤ - ٥٦

(٤) سورة النبأ الآيات : ٣١ - ٣٦ .

(٥) سورة النبأ الآيات : ٢١ - ٣٠ .

قوله تعالى : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون** ﴾ .

أي : من كان هكذا كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً أى أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ **فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ أي : بقدره كان ذلك ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ أى . لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره إنما يضل من يضل ، ويهدى من يهدى ، لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن الله عليم بما يصنعون** ﴾ .

روى ابن حاتم بسنده عن عبد الله بن الديلمي قال :

أتيت عبد الله بن عمرو – رضي الله عنه – وهو في حائط بالطائف يقال له الوهط قال : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : (إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ فقد اهتدى ، ومن أخطأه منه ضل فلذلك أقول جف القلم على ما علم الله – عز وجل –)[1] .

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٧٦ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعبد الله بن عمرو .

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾
إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ *

معاني المفردات

﴿ **فتثير سحابا** ﴾ : فتزعجه وتحركه .
﴿ **العزة** ﴾ : المراد العز والجاه .
﴿ **يصعد** ﴾ : صعود الكلم الطيب فيه تجوز والمراد : قبول الله له أو علمه به .
﴿ **يبور** ﴾ : يهلك ويضيع .
﴿ **وما يعمر من معمر** ﴾ : أي يزاد في عمره .
﴿ **فرات** ﴾ : شديد العذوبة يقال : فرت الماء فروتة عذب .
﴿ **أجاج** ﴾ : شديد الملوحة يقال : أج الماء أجوجا إذا اشتدت ملوحته
﴿ **حيلة** ﴾ : ما يتحلى به من سوار أو خاتم .
﴿ **مواخر** ﴾ : تمخر الماء أي : تشقه شقاً في إقبالها وإدبارها .
﴿ **قطمير** ﴾ : هو لفافة النواة أي : القشرة الرقيقة التي تكون على النواة .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم ، في ذلك اليوم أردف ذلك بيان أن هذا اليوم لاريب فيه وضرب المثل الذي يدل على تحققه لا محالة ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا** ﴾[1] .

وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد في الآفاق من دلائل القدرة ذكر دليلاً عليه بما يرى في الأنفس من اختلاف أطوارها فقد كانت ترابا ، ثم نطفة ثم وضعت في الأرحام ، إلى أن صارت بشراً سوياً ، ومنها ما يمد في عمرها ، ومنها ما يختر قبل ذلك كما تدل عليه المشاهدة وكل ذلك يسير على الله .

---

(١) سورة مريم آية : ٨١ .

وبعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة في الجنس المختلفة في المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجرى في الأقاليم والأمصار والبراري والقفار يسقى منه الإنسان والحيوان ، وينبت النبات الذي فيه غذاء لهما ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ، ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لحماً طرياً فيه لذة للآكلين ، وهذان ليل ونهار ضياء وظلام يدخل أحدهما في الآخر ، فيأخذ هذا من طول ذاك ، ويزيد هذا في قصر ذاك فيعتدلان ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ، وسخر الشمس والقمر ، والنجوم الثوابت والسيارات ، كل يجري بمقدار معين ، وعلى نهج ثابت لا يتغير وكل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شروى نقير ولا يسمعون لكم دعاء ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتموهم واستشفعتم بهم ولا ينبئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾** .

هذا دليل على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم ، فكما أن الله – تعالى – أرسل الرياح فسيرت السحب فساق تلك السحب إلى الأرض الموات وأحياها بالمطر وصيرها جنة خضراء ، كذلك يحيى الله موات الأجسام بعدما رمت وبليت .

قال أبو رزين : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال – ﷺ – : « يا أبا رزين أما مررت بوادي قومك ممحلا ثم مررت به يهتز خضرا » قلت بلى ، قال – ﷺ – (كذلك يحيى الله الموتى)[1]

ونحو الآية قوله – جل شأنه – : **﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾**[2] .

وقوله تعالى : **﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل**

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ١١ فقد ورد الحديث بعدة روايات لأبي رزين .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٧ .

زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور ﴾[١] .

وقوله تبارك اسمه : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى أنه على كل شيء قدير ﴾[٢] .

وقوله جل شأنه : ﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعا إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور . والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

يخبر الله تعالى : أن من كان يريد العزة في الدنيا والآخرة فليطع الله ورسوله فإن العز كل العز في طاعة الله ورسوله ، والذل كل الذل في مخالفة ما أمر به الله ورسوله ، قال تعالى : ﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾[٤] .

وقال – جل شأنه – : ﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً هو السميع العليم ﴾[٥] .

وقال تبارك اسمه حكاية عن المنافقين :

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾[٦] .

وللأئمة – رحمهم الله تعالى – في هذا النص أقوال :

قال مجاهد : (من كان يريد العزة) بعبادة الأوثان فإن العزة لله جميعاً . وقال قتادة : (من كان يريد العزة فإن العزة لله جميعاً) أي : فليتعزز بطاعة الله – عز وجل – .

---

(١) سورة الحج الآيات : ٥ – ٧ .

(٢) سورة فصلت الآية : ٣٩ .

(٣) سورة ق الآيات : ٧ – ١١ .

(٤) سورة النساء الآيتان : ١٣٨ – ١٣٩ .

(٥) سورة يونس الآية : ٦٥ .

(٦) سورة المنافقين آية : ٨ .

وقيل : من كان يريد علم العزة لمن هي (فإن العزة لله جميعاً) وحكاه ابن جرير .

وقوله – تبارك وتعالى – : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ يعني : الذكر والتلاوة والدعاء .

قال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن المخارق عن أبيه المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله – هو ابن مسعود رضي الله عنه – : إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله – تعالى – إن العبد المسلم إذا قال : سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يحيى بهن وجه الرحمن – عز وجل – ثم قرأ عبد الله – رضى الله عنه – : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)(1) .

أما قوله تعالى : ﴿ **والعمل الصالح يرفعه** ﴾ فقد روى في تفسير هذا النص أقوال للأئمة الأبرار :

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس – رضي الله عنهما – : الكلم الطيب ذكر الله – تعالى – يصعد به إلى الله – عز وجل – والعمل الصالح أداء الفريضة فمن ذكر الله – تعالى – في أداء فرائضه حمل عمله ذكر الله – تعالى – يصعد به إلى الله – عز وجل – ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه رد كلامه على عمله فكان أولى به ، وكذا قال مجاهد :

العمل الصالح يرفع الكلام الطيب ، وكذا قال أو العالية :

وقال إياس بن معاوية القاضي : لولا العمل الصالح لم يرفع الكلام . وقال الحسن وقتادة : لا يقبل قول إلا بعمل قوله تعالى : ﴿ **والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور** ﴾ .

قد يكون المراد بهؤلاء الذين يمكرون بالناس مكر السيىء فيظهرون لهم خلاف ما يبطنون ، ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر كما أنه قد يكون المراد بهم المشركين ، والمعنى يعم هؤلاء وأولئك ، وقد حكم الله – تعالى – عليهم بالعذاب الشديد وأن مكرهم يبور فإنما يمكرون بأنفسهم ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ، ومكرهم هذا يظهر أمام الناس زيفهم وفسادهم .

قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ قال ابن كثير أى : ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ **ثم جعلكم أزواجاً** ﴾ أى : ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة أن جعل لكم أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها . ﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أي : هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء بل

---

(1) انظر جامع البيان في تفسير القرآن لابن جرير الطبرى جـ ٢٢ ص ٨٠ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن المخارق عن أبيه .

﴿ ما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾[١] .

(وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب) لأئمة التفسير فيها أقوال : قال ابن كثير : أى : ما يعطى بعض النطف من العمر الطويل ، وهو عنده في الكتاب الأول (وما ينقص من عمره) الضمير عائد على الجنس لا على العين ، لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله - تعالى - لا ينقص من عمره وإنما عاد الضمير على الجنس .

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : (وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير) يقول ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهى إلى الكتاب الذي كتبت له - فذلك قوله تعالى :

﴿ ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ يقول كل ذلك في كتاب عنده وهكذا قال الثمال بن مزاحم ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : ﴿ وما ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ قال : ما لفظت الأرحام من الأولاد من غير تمام . وقال مجاهد : ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ أي في بطن أمه يكتب له ذلك لم يخلق الخلق على عمر واحد بل لهذا عمر ولهذا عمر هو أنقص من عمره ، فكل ذلك مكتوب لصاحبه بالغاً ما بلغ .

وقال بعضهم : بل معناه ﴿ وما يعمر من معمر ﴾ أي : ما يكتب من الأجل . ﴿ ولا ينقص من عمره ﴾ وهو ذهابه قليلاً قليلاً الجميع معلوم عند الله - تعالى - سنة بعد سنة وشهراً بعد شهر ، وجمعة بعد جمعة ، ويوماً بعد يوم ، وساعة بعد ساعة ، الجميع مكتوب عند الله - تعالى - في كتابه .

قال النسائي بسنده عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : (من سره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه) رواه البخاري ومسلم[٢] .

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : ذكرنا عند رسول الله - ﷺ - فقال : (إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٥٩ .

(٢) انظر صحيح البخاري « كتاب البر والصلة » باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم ج ٨ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة وأخرى لأنس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والأداب » باب « صلة الرحم وتحريم قطيعتها » ج ٤ ص ١٩٨٢ حديث رقم ٢٥٥٧/٢٠ ، ٢٥٥٧/٢١ عن أنس مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

وانظر سنن أبي داود « كتاب الزكاة » باب « صلة الرحم » ج ٢ ص ٣٢١ حديث رقم ١٦٩٣ عن رواية لأنس مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ .

يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر)[١] وقوله عز وجل ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أي : سهل عليه يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته فإن علمه شامل للجميع لا يخفى عليه شيء منها .

وقال الشيخ في تفسير هذه الآية :

﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً** ﴾ أي : والله خلق الناس من النطفة ، والنطفة من الغذاء ، والغذاء ينتهي آخراً إلى الماء والتراب ، منهم من تراب صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافاً ذكراناً وإناثاً بقدر معلوم ، بحيث يكاد الفريقان يستويان عدداً ، ولو لم يكن كذلك لفنى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لا يتم إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى :

﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أي : ولا تحمل من أنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لا يخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هي صاحبة السلطان في هذا العالم لم يتم التوازن في العدد بين الزوجين ، فيفنى الإنسان والحيوان ونحو الآية قوله : ﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار . عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال** ﴾[٢] .

﴿ **وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب** ﴾ أي : لا أحد يقضي له بطول العمر إلا وهو بالغ ما قدر له ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له في الكتاب الذي كتب له ، وذلك لحفظ الموازين في الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل ، وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار في جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت ، والوباء والحرب . ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أي : أن ذلك النظام البديع للعالم – هين على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شيء عليه .

قوله تعالى : ﴿ **وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ .

أى : ما يعتدل البحران فيستويان : أحدهما : عذب سائغ شرابه يجري في الأنهار السارية بين

---

(١) انظر كنز العمال « كتاب النكاح » ج ١١ ص ٤٩٢ حديث رقم ٤٥٦٠٨ فقد ورد الحديث من رواية ابن عمر (طب – عن أبي الدرداء) .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٨ – ٩ .

الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، وثانيهما : ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار .

﴿ **ومن كل تأكلون لحماً طرياً** ﴾ أي : ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطري ، فضلاً من الله ومنه .

﴿ **وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ وتستخرجون الدر والمرجان من الملح الأجاج ، ومن العذب الفرات ، وتجرى السفن في كل منهما تشقه شقا بحيازيمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم من بلد إلى آخر ، فتدفع عنكم المخمصة وتسد العوز .

﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ لعلكم تشكرونه – سبحانه – على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك في البحر والشمس والقمر في مدارهما مناسبة ، فإن كلا منهما سارح في تلك العوالم الشاسعة – أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر ، فقال تعالى :

﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى** ﴾ .

﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾ أي : يدخل الليل في النهار فيكون النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار في الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

﴿ **وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى** ﴾ أي : وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا في الليل وتبتغوا فضلاً منه في النهار ، ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم ، لا يقصران دونه ، ولا يتعديانه ، وهو يوم القيامة .

﴿ **ذلكم الله ربكم له الملك** ﴾ أي : ذلكم الذي يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذي لا تصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم ، له الملك التام ، والسلطان المطلق ، والقهر والجبروت ، وكل من في السموات والأرض فهو عبد له وتحت قبضته وبطشه .

﴿ **والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير** ﴾ أي : والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئاً ولو كان حقيراً ، بل هم ملك لخالق القوى والقدر .

ثم أكد ما سلف مبيناً حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله تعالى :

﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشركم ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ .

هذه الآية دليل على إبطال عبادة غير الله ، فلا يملك الضر والنفع إلا الله .

ولا يجيب المضطر إذا دعاه ولا يكشف السوء عما ناداه إلا الله ، ولا يقبض ولا يبسط إلا

الله ، ولا يحيى ويميت إلا الله ، ولا يعز ويذل إلا الله ؛ أما ما دونه فلا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا .

ومن ثم فإن القرآن يتحدى المشركين فيقول لهم : ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ يعني : الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع دعاءكم لأنها جماد لا أرواح فيها ، ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي : لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي : يتبرءون منكم كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾[1]. وكقوله تعالى: ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا ﴾[2] .

وكقوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾[3] وكقوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بورا . فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيرا ﴾[4].

وكقوله تعالى : ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون . قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون . وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون . ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين . فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴾[5] .

وكقوله تعالى : ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ، فاليوم لا يملك بعضكم

---

(١) سورة الأحقاف الآيتان : ٥ – ٦ .
(٢) سورة مريم الآيتان : ٨١ – ٨٢ .
(٣) سورة البقرة الآيات : ١٦٥ – ١٦٧ .
(٤) سورة الفرقان الآيات : ١٧ – ١٩ .
(٥) سورة القصص الآيات : ٦٢ – ٦٦ .

لبعض نفعاً ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أي : ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها قال قتادة يعني نفسه تبارك وتعالى فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

الله هو الغني الحميد

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ
وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن
تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ
رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ
ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا
ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ
أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾

---

(١) سورة سبأ الآيات : ٤٠ - ٤٢ .

معـاني المفـردات

﴿ **الفقراء** ﴾ : المحتاجون إلى الله ، ﴿ **لا تزر وازرة** ﴾ : المراد لا تحمل نفس وزرة أي : آثمة ﴿ **وزر أخرى** ﴾ : حمل أخرى ، ﴿ **تزكى** ﴾ : تطهر ، ﴿ **أمة** ﴾ : الأمة الجماعة الكثيرة ، ﴿ **وبالزبر** ﴾ : الكتب المكتوبة ، ﴿ **نكير** ﴾ أي : عقابي على أعمالهم .

المناسبة وإجمـالي المعـنى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه من الأصنام والأوثان لا يملك شيئاً ولا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، أعقب هذا بما هو فذلكة لما تقدم وكالنتيجة ، بأنه لا افتقار إلا إليه ولا إتكال إلا عليه ، فهو الذي تجب عبادته وحده ، لأنه النفع والضر بيده لا شريك له ، ثم بين أنه يوم القيامة لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، ولا تستطيع دفع ضرها ولو كانت ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والانذار إنما تجدى نفعاً لدى من يخشى الله ويخاف عقابه وأن من يتزكى فنفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردها إليه . ثم ذكر أن الهداية بيده – سبحانه – يمنحها من يشاء ، وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ، وأن الله لم يترك أمة سدى ، بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعي ونجا ، ومنهم من استكبر وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال في الدنيا والنار في العقبى .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ .

يخبر – سبحانه وتعالى – بغنائه عما سواه وبافتقار المخلوقات كلها إليه ، وتذللها يديه ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله** ﴾ أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات وهو – تعالى – الغني عنهم بالذات ، ولهذا قال – عز وجل – : ﴿ **والله هو الغني الحميد** ﴾ أي : هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه .

﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** ﴾ أي : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما ذلك على الله العزيز** ﴾ ويشرح هذه الآيات هذا الحديث القدسي الذي رواه الحبيب المصطفى محمد – ﷺ – عن رب العزة .

عن أبي ذر الغفاري – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – فيما يرويه عن ربه – عز وجل – أنه قال : (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادي إنما هي أعمالكم ، أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه)[١] (رواه مسلم) .

قال ابن رجب الحنبلي في تفسير هذا الحديث الجليل :

(يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما) يعنى : أنه منع نفسه سبحانه – من الظلم لعباده كما قال – عز وجل – : ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾[٢] ، وقال : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾[٣] ، وقال سبحانه : ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون** ﴾[٤] .

وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا يعنى : أنه – تعالى – حرم الظلم على عباده ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم ، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره وثبت في الصحيح قول النبي – ﷺ – : (إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)[٥] .

وفي الصحيحين عن ابن عمر عن النبي – ﷺ – أنه قال : (إن الظلم ظلمات يوم القيامة)[٦] .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٤ حديث رقم ٢٥٧٧/٥٥ فقد ورد الحديث برواية عن أبي ذر .

(٢) سورة ق من الآية : ٢٩ .

(٣) سورة فصلت من الآية : ٤٦ .

(٤) سورة يونس من الآية : ٤٤ .

(٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الحج » الخطبة أيام منى ج ٢ ص ٢١٥ من رواية لابن عباس من خطبة الرسول – ﷺ – يوم النحر .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب) باب « تحريم الظلم » ج ٤ ص ١٩٩٦ حديث رقم ٢٥٧٨/٥٦ من رواية عن جابر .

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي - ﷺ - قال : (من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلل منها ، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم ، من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته ، فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه)[١] .

وقوله : ﴿ **يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم** ﴾ .

هذا يقتضي أن جميع الخلق مفتقرون إلى الله - تعالى - في جلب مصالحهم ودفع مضارهم في أمور دينهم ودنياهم ، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم شيئاً من ذلك كله . وأن من لم يتفضل الله عليه بالهدى والرزق فإنه يحرمهما في الدنيا ، ومن لم يتفضل عليه بمغفرة ذنوبه أوبقته في الآخرة ، قال تعالى : ﴿ **ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[٤] .

وقد استدل إبراهيم الخليل عليه السلام بتفرد الله بهذه الأمور على أنه لا إله غيره ، وأن كل ما أشرك معه باطل فقال لقومه :

﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لي إلا رب العالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين . رب هب لي حكماً وألحقني بالصالحين** ﴾[٥] .

فإن من تفرد بخلق العبد وبهدايته وبرزقه وإحيائه وإماتته في الدنيا وبمغفرة ذنوبه في الآخرة مستحق أن يفرد بالالهية والعبادة والسؤال والتضرع والتذلل والاستكانة له .

وفي الحديث دليل على أن الله يحب أن يسأله العباد جميع مصالحهم دينهم ودنياهم من الطعام والشراب والكسوة وغير ذلك كما يسألونه الهداية والمغفرة لأنه هو الغني وهم الفقراء المحتاجون إليه - سبحانه .

وقوله : ﴿ **يا عبادي أنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني** ﴾

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب المظالم والغصب » باب « من كانت له مظلمة » ج ٣ ص ١٧٠ من رواية لأبي هريرة مع اختلاف في الألفاظ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ١٧ .

(٣) سورة فاطر آية : ٢ .

(٤) سورة هود من الآية : ٦ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٧٥ - ٨٣ .

يعني أن العباد لا يقدرون أن يوصلوا إلى الله نفعاً ولا ضراً ، فإن الله – تعالى – في نفسه غني حميد لا حاجة له بطاعات العباد ولا يعود نفعها إليه ، وإنما هم ينتفعون بها ولا يتضرر بمعاصيهم وإنما هم يتضررون بها قال الله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً** ﴾(١). وقال تعالى : ﴿ **ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً** ﴾(٢). وكان النبي – ﷺ – يقول في خطبته : (ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ، ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً) قال الله – عز وجل – ﴿ **وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً** ﴾(٣) ، وقال حاكياً عن موسى : ﴿ **وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد** ﴾(٤) وقال : ﴿ **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين** ﴾(٥) ، وقال سبحانه : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾(٦) . والمعنى أنه – تعالى – يحب من عباده أن يتقوه ويطيعوه كما أنه يكره منهم أن يعصوه ولهذا يفرح بتوبة التائبين أشد من فرح من ضلت راحلته التي عليها طعامه وشرابه بفلاة من الأرض وطلبها حتى أعي وأيس منها واستسلم للموت وأيس من الحياة ثم غلبته عينه فنام واستيقظ وهي قائمة عنده وهذا أعلى ما يتصوره المخلوق من الفرح ، هذا كله مع غناه عن طاعات عباده وتوباتهم إليه وأنه إنما يعود نفعها إليهم دونه ولكن هذا من كمال جوده وإحسانه إلى عباده ومحبته لنفعهم ودفع الضر عنهم فهو يحب من عباده أن يعرفوه ويحبوه ويخافوه ويتقوه ويطيعوه ويتقربوا إليه ويحب أن يعلموا أنه لا يغفر الذنوب غيره وأنه قادر على مغفرة ذنوب عباده .

قال الفضيل بن عياض – رضي الله عنه – مامن ليلة اختلط ظلامها وأرخى الليل سربال سترها إلا نادى الجليل – جل جلاله – : من أعظم مني جوداً والخلائق لى عاصون وأنا لهم مراقب أكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوني وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصي وأتفضل على المسيء ، من ذا الذي دعاني فلم استجب إليه ، أم من ذا الذي سألني فلم أعطه ، أم من ذا الذي أناخ ببابي فنحيته أنا الفضل ومني الفضل ، أنا الجواد ومني الجود ، وأنا الكريم ومني الكرم ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطى العبد ما يسألني وأعطيه مالم يسألني ، ومن كرمي أن أعطي التائب كأنه لم يعصني ، فأين إلى غيره يهرب الخلائق وأين عن بابه يلتجيء العاصون) ؟ (اخرجه أبو نعيم)(٧) .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٧٦ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٤٤ .

(٣) سورة النساء من الآية : ١٣١ .

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٨ .

(٥) سورة آل عمران من الآية : ٩٧ .

(٦) سورة الحج من الآية : ٣٧ .

(٧) انظر حلية الأولياء ج ٨ ص ٩٢ ، ٩٣ فقد ورد الحديث .. ثنا هناد بن السرى قال : سمعت الفضيل بن عياض يقول : . . . الحديث .

وقوله بعد هذا (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً) هو إشارة إلى أنه - سبحانه - ملكه لا يزيد بطاعة الخلق ولو كانوا كلهم بررة أتقياء قلوبهم على أتقى قلب رجل منهم ولا ينقص ملكه بمعصية العاصين ولو كان والجن والإنس كلهم عصاة فجرة قلوبهم على قلب أفجر رجل منهم فإنه - سبحانه وتعالى - الغني بذاته عمن سواه وله الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله فملكه ملك كامل لا نقص فيه بوجه من الوجوه على أي وجه كان - وقوله : (لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) .

فالمراد بهذا ذكر كمال قدرته - سبحانه - وكمال ملكه وإن ملكه وخزائنه لا تنفد ولا تنقص بالعطاء ولو أعطى الأولين والآخرين من الجن والإنس جميع ما سألوه في مقام واحد وفي ذلك حث الخلق على سؤاله وإنزال حوائجهم به ، وفي الصحيحين عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ - قال : (يد الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أفرأيتم ما أنفق ربكم منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه)[1] .

وقوله : (لم ينقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا ادخل البحر) لتحقيق أن ما عنده لا ينقص ألبتة كما قال تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ فإن البحر إذا غمس فيه إبرة ثم أخرجت لم تنقص من البحر بذلك شيئاً ، وكذلك لو فرض أنه شرب منه عصفور مثلاً فإنه لا ينقص البحر ألبتة .

وهكذا طعام الجنة وما فيها فإنه لا ينقص كما قال تعالى : ﴿ **وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾

وقد جاء : كلما نزعت ثمرة عاد مكانها مثلها وروى مثلاها فهى لا تنقص أبداً ويشهد بذلك قول النبي - ﷺ - في خطبة الكسوف « ورأيت الجنة فتناولت منها عنقوداً ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا)[2] . (خرجاه في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما) .

وقوله : ﴿ **يا عبادي . إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها** ﴾ يعنى أن سبحانه

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « ما يذكر في الذات والنعوت وأسامي الله » ج ٩ ص ١٥٠ فقد ورد الحديث في رواية لأبي هريرة .

(٢) انظر صحيح البخاري باب الصلاة في كسوف الشمس، باب صلاة الكسوف جماعة ج ٢ ص ٤٦ ، فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعبد الله بن عباس .

وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٥٨ ، ص ٣٥٩ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لعبد الله ابن مسعود .

يحصى أعمال عباده ثم يوفيهم إياها بالجزاء عليها ، وهذا كقوله سبحانه : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[١]

وقوله : ﴿ **فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** ﴾ إشارة إلى أن الخير كله فضل من الله على عبده من غير استحقاق له ، والشر كله من عند ابن آدم من اتباع هوى نفسه ، فالله سبحانه إذا أراد توفيق عبد وهدايته أعانه ووفقه لطاعته ، وكان ذلك فضلاً منه ورحمة وإذا أراد خذلان عبد وكله إلى نفسه وخلى بينه وبينها فأغواه الشيطان لغفلته عن ذكر الله واتبع هواه وكان أمره فرطاً ، وكان ذلك عدلاً منه ، فإن الحجة قائمة على العبد بإنزال الكتاب وإرسال الرسول فما بقى لأحد من الناس على الله حجة بعد الرسل .

وللإمام ابن القيم رحمه الله كلاماً قيماً في قوله الله - عز وجل - ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد** ﴾ .

فصل في أن الله هو الغني المطلق والخلق فقراء محتاجون إليه : قال رحمه الله : بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له ، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه ، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل ذاتي للفقير . فحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجبت غناه . كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

« والفقر لي وصف ذات لازم أبدا كما الغنى أبدا وصف له ذاتي فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة ، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك ، إذ ما بالذات لا يعلل ، فالفقير بذاته محتاج إلى الغنى بذاته » .

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إلية سبحانه ، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد ، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هى ، والغنى المطلق من كل وجه ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هى ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً ، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنياً ، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب إلا رباً .

الفقر فقران :

إذا عرف هذا الفقر فقران : فقر اضطراري ، وهو عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً ومصنوعاً . .

والفقر الثاني : فقر اختياري وهو نتيجة علمين شريفين أحدهما : معرفة العبد بربه ، والثاني معرفته بنفسه ، فمتى حصلت له هاتان المعرفتان انتجتا فقراً هو عين غناه وعنوان سعادته وفلاحه .

---

(١) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ - ٨ .

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين ، فمن عرف ربه بالغنى المطلق ، عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام ، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة ، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل ، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً ولا يقدر على شيء ولا يملك شيئاً ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة ، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمراً مشهوراً محسوساً لكل أحد ، ومعلوم أنه هذا له من لوازم ذاته ، وما بالذات دائم بدوامها ، وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى ، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلى بارئه وفاطره .

فلما أسبغ عليه نعمته ، وأفاض عليه رحمته ، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً ، وخلع عليه ملابس إنعامه وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ومكنه من استخدام بني جنسه ، وسخر له الخيل والإبل وسلطه على دواب الماء ، واستنزال الطير من الهواء وقهر الوحش العادية ، وحفر الأنهار ، وغرس الأشجار ، وشق الأرض ، وتعلية البناء والتحيل على مصالحه ، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه ، ظن المسكين أن له نصيباً من الملك وادعى لنفسه ملكاً مع الله سبحانه ، ورأى نفسه لغير تلك العين الأولى ، ونسي ما كان فيه من حالة الاعدام والفقر والحاجة ، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج ، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره ، كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله - ﷺ - بصق في كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : قال الله تعالى : ﴿ **ياابن آدم أني تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد (صوت) فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق ، وأني أوان الصدقة** ﴾[1] ومن هاهنا خذل من خذل ووفق من وفق . فحجب المخذول عن حقيقته ونسي نفسه فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه ، فطغى وعتا فحقت عليه الشقوة . قال تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى** ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى** ﴾[3] فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهوداً لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ولهذا كان من دعائه - ﷺ - : (أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفه عين ولا إلى أحد من خلقك) .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ حديث يسر بن جحاش عن النبي - ﷺ - فقد ورد الحديث بلفظه وجاء فيه بلفظ (بني آدم » بدلاً من « يا بن آدم » .

(٢) سورة العلق الآيتان : ٦ - ٧ .

(٣) سورة الليل الآيات : ٨ - ٩ .

وكان يدعو : (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك) يعلم - ﷺ - أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئاً ، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء ، كيف وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ **ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً** ﴾[1] فضرورته - ﷺ - إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به ، وحسب قربه منه ، ومنزلته عنده . وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الدعاء ، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاهاً وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه - ﷺ - (من كتاب طريق الهجرتين وباب السعادتين) ، وقال رحمه الله في كتابه مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد وإياك نستعين .

ومن منازل : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾[2] منزلة « الفقر » هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم وأعلاها وأرفعها ، بل هي روح كل منزلة وسرها ولبها وغايتها .

وحقيقة « الفقر » وكماله كما قال بعضهم - وقد سئل : متى يستحق الفقير اسم : الفقير ؟ - فقال : إذا لم يبق عليه بقية منه ، فقيل له : وكيف ذاك ؟ فقال : إذا كان له فليس له . وإذا لمن يكن له فهو له .

وهذه من أحسن العبارات عن معنى « الفقر » الذي يشير إليه القوم . وهو أن يصير كله لله - عز وجل - لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول .

- ثم فسر ذلك بقوله : « إذا كان له فليس له ، أي : إذا كان لنفسه فليس لله ، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله .

فحقيقة الفقر لا تكون لنفسك ، ولا يكون لها منك شيء ، بحيث تكون كلك لله ، وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر .

وهذا « الفقر » الذي يشيرون إليه ! لا تنافيه الجدة ولا الأملاك فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جدتهم وملكهم كإبراهيم الخليل - عليه السلام - كان أبا الضيفان . وكانت له الأموال والمواشي .

وكذلك سليمان وداود - عليهما السلام - وكذلك كان نبينا محمد - ﷺ - كما قال الله تعالى : ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾[3] . فكانوا أغنياء في فقرهم . فقراء في غناهم .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٤ .
(٢) سورة الفاتحة آية : ٥ .
(٣) سورة الضحى آية : ٨ .

فالفقر الحقيقي : دوام الافتقار إلى الله في كل حال وأن يشهد العبد - في كل ذرة من ذراته - الظاهرة والباطنة - فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه .

فالفقر ذاتي للعبد ، وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالاً ، وإلا فهو حقيقة .

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها كقول بعضهم : الفقير لا تسبق همته خطوته .

يريد أنه ابن حاله ووقته . فهمته مقصورة على وقته لا تتعداه .

وقيل : أركان الفقر أربعة : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه .

وقال الشبلي : حقيقة الفقر ألا يستغنى بشيء دون الله .

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه .

وقيل بعضهم : أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله : دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال ، وملازمته السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .

والفقر له بداية ونهاية ، وظاهر وباطن فبدايته : الذل ، ونهايته : العز . وظاهره : العدم ، وباطنه : الغنى كما قال رجل لآخر : فقر وذل ؟ فقال : لا ، بل فقر وعز . فقال : فقر وثراء ؟ قال : لا بل فقر وعرش ، وكلاهما مصيب .

واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله -مع التخليط - خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب مع أنه لا صفاء معهما .

وإذا عرفت معنى « الفقر » علمت أنه عين الغنى بالله ، فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه .

درجـــات الفقـــر

الدرجة الأولى : فقر الزهاد : وهو قبض اليد على الدنيا ضبطاً أو طلباً . وإسكات اللسان عنها مدحاً أو ذماً . والسلامة منها طلباً أو تركاً . وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه .

قوله :(**قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا**)يعني : يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت له ، فإذا قبض يده عن الإمساك جاد بها ، وإن كانت غير حاصلة له كف يده عن طلبها ، فلا يطلب معدومها . ولا يبخل بموجودها .

وأما « تعطيلها عن اللسان » فهو لا يمدحها ولا يذمها . فإن اشتغاله بمدحها أو ذمها دليل على محبتها ورغبته فيها ، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره ، وإنما اشتغل بذمها حيث فاتته .

وأما (تعطيل القلب منها) فبالسلامة من آفات طلبها وتركها . فإن لتركها آفات ولطلبها آفات . والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة ، لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها .

ومن آفات الترك : تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه ، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك .

ومن آفات تركها ، وعدم أخذها : ما يداخله من الكبر والعجب والزهو ، وهذا يقابل الزهد فنها وتركها ، كما أن كسرة الأخذ وذلته وتواضعه : يقابل الأخذ التارك . ففي الأخذ آفات ، وفي الترك آفات .

فالفقر الصحيح : السلامة من آفات الأخذ والترك وهو لا يحصل إلا بفقه في الفقر .

وقوله رحمه الله .. (فهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه) يعنى تكلم فيه أرباب السلوك وفضلوه ومدحوه .

قال : « الدرجة الثانية » الرجوع إلى السبق بمطالعة الفضل ، وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال . ويقطع شهور الأحوال ويمحص من أدناس مطالعة المقامات .

يريد بالرجوع إلى السبق : الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنة وجوده ، وأن العبد - وكل مافيه من خير - فهو محض وجود الله وإحسانه ، وليس للعبد من ذاته سوى العدم ، وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه ، فإذا شهد هذا وأحضره قلبه ، وتحقق به ؛ خلصه من رؤية الأعمال فإنه لا يراها إلا من ا لله وبالله . وليست منه هو ولا به .

واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله . ويخلصه منها : شهود السبق ، ومطالعة الفضل .

وقوله : (ويقطع شهود الأحوال) .

لأنه إذا طالع سبق فضل الله : علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره ، فهو محض جوده . فلا يشهد له حالاً مع الله ولا مقاماً ، كما لم يشهد لهُ عملاً . فقد جعل عدته للقاء ربه : فقره من أعماله وأحواله .

وكذلك قوله : « يمحص من أدناس مطالعة المقامات » هو من جنس التخلص من رؤية الأعمال ، والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال ومطالعة المقامات : فمطالعة الفضل يتمحص من هذا الدنس .

والفرق بين الحال والمقام : أن « الحال » معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له ، ولا اكتساب ، ولا تعمد . و « المقام » يتوصل إليه بنوع كسب وطلب . فالمقام يحصل ببذل المجهود ، وأما الحال : فمن عين الجود .

قال : « والدرجة الثالثة : الاضطرار . والوقوع في يد التقطع الوجداني أو الاحتباس في بيداء قيد التجريد . وهذا فقر الصوفية » .

« الاضطرار » شهود كمال الضرورة والفاقة علماً وحالاً .

ويريد بالوقوع في يد التقطع الوجداني : حضرة الجمع التي ليس عندها أغيار . فهي منقطعة عن الأغيار ، وحدانية في نفسها والوقوع في يدها : الاستسلام والاذعان لها . والدخول في رقها .

« وأما الاحتباس في بيداء قيد التجريد »

فهو تجريد الفردانية أن يشهد معها غيرها ، وهو الغناء عن شهود السوى . وسمى ذلك « احتباساً » لأنه منع نفسه عن شهود الأغيار . وجعل للتجريد قيداً . وهو التقيد بشهود الحقيقة .

وجعل القيد بيداء لوجهين ،

أحدهما : أن الأغيار تبيد فيه وتنعدم . ولا يكون معه سواه .

والثاني : لسعته وفضائه . فصاحب شهده : في بيداء واسعة ، وإن احتبس في قيد شهوده .

وقوله : وهذا فقر الصوفية .. قد يفهم منه : أن التصوف أعلى عنده من الفقر . فإن هذه الدرجة الثالثة — التي هى أعلى درجات الفقر عنده هى من بعض مقامات الصوفية .. انتهى .

في تقسيم الغنى إلى عال وسافل
والله هو الغني الحميد

ولما كان الفقر إلى الله — سبحانه — هو عين الغنى به ، فأفقر الناس إلى الله أغناهم به ، وأذلهم له أعزهم ، وأضعفهم بين يديه أقواهم ، وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله ، وامقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله ، كان ذكر الغني بالله مع الفقر إلا إليه متلازمين متناسبين .

واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغنى بذاته عن كل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو مرسوم بسمة الخلق والصنع وغنى العبد أمر نسبي إضافي عارض له ، فإنه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته ، فهو غنى به فقير إليه ، ولا يوصف بالغنى على الاطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته ، فهو الغنى بذاته عما سواه وهو الأحد الصمد الغنى الحميد .

والغنى قسمان :

غنى سافل ، وغنى عال . فالغنى السافل الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . وهذا أضعف الغنى ، فإنه غنى بظل زائل ، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها ، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها ، وكأن الغنى بها كان حلماً

فانقضى ولا همة أضعف من همة من رضي بهذا الغنى الذي هو ظل زائل وهذا غنى أرباب الدنيا الذي فيه يتنافسون ، وإياه يطلبون وحوله يحومون ، ولا أحب إلى الشيطان وأبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده .

وهذا الغنى محفوف بفقرين : فقر قبله ، وفقر بعده وهو كالغفوة بينهما . فحقيق بمن نصح نفسه ألا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه ، بل إذا حصل له جعله سبباً لغناه الأكبر ووسيلة إليه ، ويجعله خادماً من خدمه لا مخدوماً له ، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبدها لغير مولاه الحق ، أو يجعلها خادمة لغيره .

الغنى العالي :

أما الغنى العالي فقال شيخ الإسلام : (هو على ثلاث درجات) :

الدرجة الأولى : غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم ، وخلاصته من الخصومة .

الدرجة الثانية : غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب . وسلامتها من الحظوظ وبراءتها من المراءاة .

والدرجة الثالثة : الغنى بالحق وهو ثلاث مراتب :

الأولى : شهود ذكره إياك .

والثانية : دوام مطالعة أوليته .

والثالثة : الفوز بوجوده .

وإنما قدم شيخ الإسلام الكلام على غنى القلب على الكلام على غنى النفس ؛ لأن كمال صلاح النفس غناها بالاستقامة من جميع الوجوه ، وبلوغها إلى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب ، وصلاح النفس متقدم على إصلاحها . هكذا قيل ؛ وفيه ما فيه ، لأن صلاح كل واحد منهما مقارن لصلاح الآخر .

ولكن لما كان القلب هو الملك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم . وقد قال النبي - ﷺ - : (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد وإذا فسدت فسد الجسد ألا وهي القلب)[1] والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية خلع على الأمراء والرعية خلعاً تناسبها ، فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والاخبات .

وخلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار ، وعلى الوجه خلعة المهابة والنور والبهاء ، وعلى اللسان خلعة الصدق والقول السديد والحكمة النافعة ، وعلى العين خلعة الاعتبار في النظر والغض عن

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب المساقاة » باب « أخذ الحلال وترك الشبهات » ج ٣ ص ١٢١٩ ، ١٢٢٠ حديث رقم ١٠٧/ ١٥٩٩ ، فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل عن النعمان بن بشير .

المحارم ، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد في معاشه ومعاده ، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش في الطاعات أين كانت بقوة وأيد . وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ ، فغدا العبد وراح يرفل في هذه الخلع ويجر لها في الناس أذيالاً وأرداناً . فغنى النفس مشتق من غنى القلب وفرع عليه . فإذا استغنى سرى الغنى منه إلى النفس .

فقوله في الدرجة الأولى وهى غنى القلب : (إنه سلامته من السبب) أي : من الفقر إلى السبب وشهوده والاعتماد عليه والركون إليه والثقة به ، فمن كان معتمداً على سبب غناه واثقابه لم يطلق عليه اسم الغنى ، لأنه فقير إلى الوسائط ، بل لا يسمى صاحبه غنياً إلا إذا سلم من علة السبب استغناء بالمسبب ، بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره .. فبذلك يصير صاحبه غنياً بتدبير الله – سبحانه – . فمن كملت له السلامة من علة الأسباب ومن علة المنازعة للحكم بالاستسلام له والمسألة – أي : بالانقياد لحكمه – حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته .

ولا يتم الغنى بتدبير الله – سبحانه – لعبده إلا بالمسألة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه

فإن منازعة الخلق دليل على فقره إلى الأمر الذي وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة ، ومن كان فقيراً إلى حظ من الحظوظ – يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه – لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه إلى وليه وقيومه ومتولى تدبيره ، فمتى سلم العبد من علة فقره إلى السبب ، ومن علة منازعته لأحكام الله – سبحانه – ، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ استحق أن يكون غنياً بتدبير مولاه مفوضاً إليه لا يفتقر إلى غيره ، ولا يسخط شيئاً من أحكامه ولا يخاصم عباده إلا في حقوق ربه ، فتكون مخاصمته لله وبالله ، ومحاكمته إلى الله كما كان – ﷺ – يقول في استفتاح صلاة الليل :

(اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت وبك خاصمت ، وإليك حاكمت) . فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه ومحاكمته خصمه إلى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه ، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه وقد قالت السيدة عائشة : (ما انتقم رسول الله – ﷺ – لنفسه قط) وهذا لتكميل عبوديته . ومن حاكم خصمه إلى غير الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت ، وقد أمر أن يكفر به ، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك في نفس الأمر .

وقال تعالى : ﴿ وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾[١] . ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ .

أي : وإن طلبت نفسي مثقلة بالأوزار والذنوب – إن طلبت – غيرها ليحمل بعض ما عليها فلن يكون ذلك فهي التي تحمل أوزارها وحدها .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

وهذه الآية تشبيه بالأم التي حملت وأثقلت وأخذت تشعر بآلام الحمل فإن غيرها لا يستطيع أن يحمل عنها بعض آلامها ولو كان ذا قربى ولو كان أباها أو ابنها كل مشغول بنفسه وحاله .

قال عكرمه في قوله – تعالى – : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب ، سل هذا لم كان يغلق بابه دونى . وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة فيقول له : يا مؤمن ، إن لي عندك يداً قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا وقد احتجت إليك اليوم فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يرده إلى منزل دون منزله وهو في النار .

وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بنى ، أي والد كنت لك فيثنى خيراً فيقول له : يا بنى ، إني قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها فما ترى. ، فيقول له ولده : يا أبت ، ما أيسر ما طلبت ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة – أو يا هذه ، أى زوج كنتُ لك فتثنى خيراً فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لى لعلي أنجو بها مما ترين .

قال : فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوف مثل الذي تتخوف .

يقول الله – تعالى – : ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ الآية . ويقول تبارك وتعالى : ﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾[٢] .

ويقول تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾[٣] . رواه ابن ابي حاتم رحمه الله عن أبي عبد الله الزهراني عن حفص بن عمر عن

---

(١) سورة العنكبوت من الآية : ١٢ .
(٢) سورة لقمان من الآية : ٣٣ .
(٣) سورة عبس الآيات : ٣٤ – ٣٧ .

فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء ، ولا وصل إلى قلبك ذرة مما وصل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه فهذه كلها آثار ذكره لك . ثم إنه - سبحانه - ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس ، فله عليك في كل طرفة عين ونفس نعم عديدة ذكرك بها قبل وجودك وتعرف بها إليك وتحبب بها إليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء ، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده .

فإذا شهد العبد ذكر ربه - تعالى - له ووصل شاهده إلى قلبه شغله ذلك عما سواه ، وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه شيء . فهو يحصل له بشعوره بذكره إسناده له - غنى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنية له ، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد وقد قال - ﷺ - فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : ﴿ **إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم** ﴾[1] فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذي ذكره له حتى جعله ذاكراً ، وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائد على إنعام ربه عليه وعطاياه له .

والمقصود أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغني قلبه ويسد فاقته ، وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم ، فإن الفقر من كل خير حاصل لهم ، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم .

والدرجة الثانية من درجات الغنى بالله - عز وجل - : شهود أوليته - سبحانه - ، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى مما قبله ، والغنى به أتم من الغنى المذكور لأنه من مبادىء الغنى بالحقيقة ، لأن العبد إذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شيء غيره ، وهو الاله الحق الكامل في أسمائه وصفاته ، الغنى بذاته عما سواه ، الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده ، فهو معبود محمود حي قيوم له الملك وله الحمد في الأزل والأبد . لم يزل موصوفاً بصفات الجلال . منعوتاً بنعوت الكمال ، وكل شيء سواه فإنما كان به ، وهو سبحانه بنفسه ليس بغيره ، فهو القيوم الذي قيام كل شيء به ، ولا حاجة به في قيومته إلى غيره بوجه من الوجوه . فإذا شهد العبد سبقه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق وغاب بهذا عما سواه من المحدثات فنى في وجوده من لم يكن ، وبقى من لم يزل ، وأضمحلت الممكنا في وجوده الأزلى الدائم بحيث صارت كالظلال التي يبسطها ويمدها ويقبضها فيستغني العبد بهذا المشهد العظيم ويتغذى به عن فاقاته وحاجاته .

وإنما كان هذا عندهم أفضل مما قبله لأن الشهود الذي قبله فيه شائبة مشيرة إلى وجود العبد ، وهذا الشهود الثاني سائر الموجودات كلها سوى الأول - تعالى - قد اضمحلت وفنيت فيه

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « الحث على ذكر الله - تعالى - ج ٤ ص ٢٠٦١ حديث رقم ٢٦٧٥/٢ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة .

- وصارت كأوليتها وهو العدم - فأفنتها أولية الحق - سبحانه - . فبقى العبد محواً صرفاً وعدماً محضاً ، وإذا كانت أنيته (الأنا) مشخصة مشاراً إليها ، لكنها لم نسبت إلى أولية الحق - عز وجل - اضمحلت وفنيت وبقى الواحد الحق الذي لم يزل باقياً ، فاضمحل ما دون الحق - تعالى - في شهود العبد كما هو مضمحل في نفسه ، وشهد العبد حينئذ أن كل شيء ما سواه باطل ، وأن الحق المبين هو الله وحده ، ولاريب أن الغنى بهذا الشهود أتم من الغنى بالذي قبله ، وليس هذا مختصاً بشهود أوليته - تعالى - فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب - سبحانه - يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها . فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستوائه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق ، وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب إليه مناجياً له مطرقاً واقفاً بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدي الملك العزيز ، فيشعر بأن كلمة وعمله صاعد إليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه ، فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك ويشهد نزول الأمر والمراسيم الألهية إلى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والمصرف من الأمانة والاحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس - إلى غير ذلك من التصرفات في المملكة التي لا يتصرف فيها سواه ، فمراسمه نافذة كما يشاء ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾[1] .

فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به .

وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السموات ولا في قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال ، بل أحاط بذلك علمه علماً تفصيلياً ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من فراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفى عليه منها شيء . وكذلك إذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها ، وسواء عنده من أسر القول ومن جهر به لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر .

ولا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هي عنده كلها كصوت واحد ، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة . وكذلك إذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذي يرى دبيب النملة السوداء على الصخراء الصماء في الليلة الظلماء . ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخهال وعروقها ولحمها وحركتها ويرى مد البعوضة جناحها في ظلمة الليل ، وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية يحرس حركاتها وسكناتها ويتقن أنها بمرأى منه - سبحانه - ومشاهدة لا يغيب عنه شيء .

---

(١) سورة السجدة آية: ٥

وكذلك إذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس ، وأنه – تعالى – هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن إليه وجزاء المسيء إليه ، وأنه بكمال قيومته لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين وهو شهادة أن لا إله لا هو ، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال .

فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ويصلي له ويسجد ، ويستحق نهاية الحب مع نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله فهو المطاع وحده على الحقيقة ، والمألوه وحده وله الحكم وحده . فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال . وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها ، وكل غنى لغيره فقر وفاقة ، وكل عز لغيره ذل وصغار ، فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء وهو مشهد جامع للأسماء والصفات وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله – جل جلاله – فإن هذا الاسم هو الجامع ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها إليه ، فيقال : الرحمن ، الرحيم ، العزيز ، الغفار ، من أسماء الله ، قال تعالى :

﴿ **ولله الأسماء الحسنى** ﴾[1]، فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها ، وكل مشهد سواه فإنما هو مشهد لصفة من صفاته ، فمن اتسع قلبه لمشهد الألهية وقام بحقه من التعبد الذي هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية فقد تم له غناه بالإله الحق ، وصار من أغنى العباد .

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب – سبحانه – : الفوز بوجوده ، هذا الغنى أعلى درجات الغنى ، لأن الغنى الأول والثاني كانا من آثار ذكر الله والتوجه إليه ، ففاض على القلب من صدق التوجه أنوار الصفات المقدسة ، واستغنى القلب بذلك ، وجعل له أيضاً أنوار الشعور بكفالته وكفايته لعبده وحسن وكالته وقيوميته بتدبيره وحسن تدبيره فاستغنت النفس بذلك أيضاً . وأما هذا الغنى الثالث الذي هو الغني بالحق – فهو من آثار وجود الحقيقة ، وهو إنما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذات ، وإنما يكون هذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجر التوحيد ، فهذا أوله وكماله عند طلوع شمسه فينقطع ضباب الوجود الفاني وتشرق شمس الوجود الباقي فينقطع لها كل ضباب ، وهذا عبارة عن نور يقذف في القلب يكشف له بذلك النور على عظمة الذات كما كشف له بالنور الذي قبله عن عظمة الصفات

(١) سورة الأعراف من الآية : ١٨٠ .

صفات الذات :

فإذا كل أثر من آثار صفات الذات أو صفات الأفعال يغنى القلب والنفس ، فما ظنك بما تكاشف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والإكرام ، فهذا غنى لا يناله الوصف ولا يدخل تحت الشرح فيستغنى العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم ، فياله من فقر ينقضى ومن غنى يدوم ومن عيش ألذ من المنى ، فلا تستعجز نفسك عن البلوغ إلى هذا المقام فبينك وبينه صدق الطلب ، وإنما هي عزمة صادقة ونهضة حر ممن لنفسه عنده قدر وقيمة يغار عليها أن يبيعها بالدون .

وقد جاء في أثر إلهي يقول الله - عز وجل - :

﴿ **ابن آدم خلقتك لنفسى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن آدم اطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء** ﴾ فمن طلب الله بصدق وجده ومن وجده أغناه وجوده عن كل شيء ، فأصبح حراً في غنى ومهابة على وجهه أنواره وضياؤه .

وإن فاته مولاه - جل جلاله - تباعد ما يرجو وطال عناؤه ، ومن وصل إلى هذا الغنى قرت به كل عين لأنه قد قرت عينه بالله والفوز بوجوده ، ومن لم يصل إليه انقطعت نفسه عن الدنيا حسرات وقد قال - ﷺ - : (من أصبح والدنيا أكبر همه جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن أصبح والآخرة أكبر همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، وكان الله بكل خير إليه أسرع)[1] ، فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقى ، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله - سبحانه - أكبر همه ، فهذا من باب التنبيه والأولى - انتهى .

المسئولية الفردية

قوله تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى وأن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾ .

هذا حكم قضى به الله - سبحانه وتعالى - وفيه يتجلى منطق العدالة الإلهية فليس هناك نفس تحمل وزر نفس أخرى ، بل من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .

(١) انظر اتحاف المتقين جـ ٦ ص ٣٩٠ وانظر جـ ١٠ ص ٨ فقد وردت فيهما عدة روايات لهذا المعنى عن أنس وابن عباس وعبد الله بن عمرو وزيد بن ثابت وأقربها إلى الحديث الذي معنا ما رواه الطبراني في الكبير من حديث ابن عباس ، وماجاء في الترمذي أيضاً

غـنى النفـس :

قوله في غنى النفس : (إنه استقامتها على المرغوب وسلامتها من الحظوظ ، وبراءتها من المراءاة) يريد استقامتها على الأمر الديني الذي يحبه الله ويرضاه ، وتجنبها لمناهيه التي يسخطها ويبغضها وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيماً لله – سبحانه – وأمره وإيماناً به واحتساباً لثوابه ، وخشية من عقابه . لا طلباً لتعظيم المخلوقين له ومدحهم ، وهرباً من ذمهم ، وطلب للجاه والمنزلة عندهم فإن هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد عنه وأنه أفقر شيء إلى المخلوق . فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها . لأنها إذا أذعنت منقادة لأمر الله طوعاً واختباراً ومحبة وإيماناً واحتساباً ، بحيث تصير لذاتها وراحتها ونعيمها وسرورها في القيام بعبوديته كما كان النبي – ﷺ – يقول : (يا بلال أرحنا بالصلاة)[1] ، وقال : (حبب إلى من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة)[2] ، فقُرة العين فوق المحبة : فجعل النساء والطيب مما يحبه . وأخبر أن قرة العين التي يطمئن القلب بالوصول إليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو في الصلاة التي هي صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه ، فكيف لا تكون قرة العين ، وكيف تقر عين المحب بسواها . فإذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فأي فقر يخشى معه ، وأي غنى فاتها حتى تلتفت إليه ؟ .

فيما يغـنى القـلب ويسـد الفـاقة

وهذه الاستقامة : ترقيها إلى الدرجة الثالثة من الغنى ، وهو الغنى بالحق – تبارك وتعالى – عن كل ما سواه ، وهي أعلى درجات الغنى . فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله – عز وجل – إياك قبل ذكرك له ، وأنه – تعالى – ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداء قبل وجودك وطاعتك وذكرك ، فقدر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئاً البتة وذكرك – تعالى – بالإسلام فوفقك له واختارك له دون من خذله ، قال تعالى : ﴿ **هو سماكم المسلمين من قبل** ﴾[3] فجعلك أهلاً لما لم تكن أهلاً له قط . وإنما هو الذي أهلك بسابق ذكره ، فلولا ذكره لك بكل جميل أولاكه لم يكن إليه سبيل ، ومن الذي ذكرك باليقظة حتى استيقظت وغيرك في رقدة الغفلة مع النوم ؟ ومن لذي ذكرك سواه بالتوبة حتى وفقك لها ، وأوقعها في قلبك ، وبعث دواعيك وأحيى عزماتك الصادقة عليها ، حتى تبت إليه وأقبلت عليه ، فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذتها ؟ .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٣٦٤ ، فقد ورد الحديث بلفظه عن سالم بن أبي الجعد عن رجل من أسلم .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٢٨ ، فقد ورد الحديث بروايتين عن أنس بلفظ : « حبب إلى من الدنيا النساء والطيب وجعل قرة عيني في الصلاة » .

(٣) سورة الحج من الآية : ٧٨ .

الحكم بن إبان عن عكرمة . ثم قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة** ﴾ أي : إنما يتعظ بما جئت به أولو البصائر والنهى الخائفون من ربهم الفاعلون ما أمرهم به ﴿ **ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه** ﴾ أي : ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ **وإلى الله المصير** ﴾ أي : وإليه المرجع والمآب وهو سريع الحساب وسيجزى كل عامل بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

قوله تعالى :

﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير . وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير . ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير** ﴾ .

هذا مثل ضربه الله – تعالى – لذوي البصائر المؤمنين كما ضربه للذين في قلوبهم أكنة وعلى أبصارهم غشاوة من الكافرين . كما في قوله تعالى : ﴿ **مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون** ﴾[1] وكما في قوله – جل شأنه – : ﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون** ﴾[2] .

وكما في قوله جل شأنه :

﴿ **أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾[3] .

فالمؤمن هو البصير الحي ، والكافر هو الأعمى الميت وبين هؤلاء وأولئك بون شاسع لا يستويان ولا يجتمعان .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يسمع من يشاء** ﴾ أى : يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها . ﴿ **وما أنت بمسمع من في القبور** ﴾ أى : كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها ، كذلك هؤلاء المشركون الذين كتبت عليهم الشقاوة لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم ﴿ **إن أنت إلا نذير** ﴾ أي : إنما عليك البلاغ والإنذار والله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً** ﴾ أي : بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين . ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ أي : وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله – تعالى –

---

(١) سورة هود الآية : ٢٤ .

(٢) سورة غافر الآية : ٥٨ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٢٢ .

إليهم النذر وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : ﴿ **إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾[١] .

وكما قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾[٢] الآية والآيات في هذا كثيرة .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ وهى المعجزات الباهرات والأدلة القاطعات .

﴿ **وبالزبر** ﴾ وهى الكتب .

﴿ **وبالكتاب المنير** ﴾ أي : الواضح البين .

﴿ **ثم أخذت الذين كفروا** ﴾ أي : ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاءوهم به فأخذتهم أى : بالعقاب والنكال .

﴿ **فكيف كان نكير** ﴾ أي : فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً .. والله أعلم .

من دلائل التوحيد

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

معاني المفردات

﴿ **جدد** ﴾ : جمع جدة وهى الطرائق المختلفة الألوان .

﴿ **وغرابيب سود** ﴾ : أصل اللفظ وسود غرابيب ، والعرب تقول للشديد السواد الذي لونه كلون الغراب أسود غربيب .

﴿ **لن تبور** ﴾ : لن تغنى ولن تضيع .

---

(١) سورة الرعد من الآية : ٧ .

(٢) سورة النحل من الآية : ٣٦ .

المناسبة وإجمالي المعنى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التي أعرض عنها المشركون عناداً واستكباراً ، أردف ذلك ذكر ما يرونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان ، لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود . ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور** ﴾ .

إن اختلاف المخلوق دليل على إجادة الخالق ، إذ أن ما الطبيعة لا يختلف ولا يتخلف فلو كانت الحياة التي نعيشها على ظهر هذا الكوكب صدرت عما يسمى بالطبيعة كما يدعى الذين في قلوبهم مرض الالحاد لكانت وجهاً واحداً لا يختلف عن غيره ولكن لما كان هذا الكون قد صدر عن إله عليم مريد قادر فقد اختلف في أشكاله وألوانه وأنواعه ، قال تعالى :

﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾[1] .

وقال عز من قائل : ﴿ **وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون** ﴾[2] .

وقال جل جلاله : ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[3] .

فانظر إلى الرياض والحدائق والحقول كيف تنوعت أنواع الأزهار وروائحها واسأل نفسك من الذي وزع هذه الألوان عليها ، ثم انظر إلى الحدائق وما اشتملت عليه من أشجار الفواكه ، من الذي

---

(١) سورة الروم الآية : ٢٢ .

(٢) سورة النحل الآية : ١٢ .

(٣) سورة الرعد الآية : ٤ .

سقاها ذلك السكر السائل ، وانظر إلى الحقول وما اشتملت عليه من الحبوب من الذي منحها خصائصها ومن الذي جعل النبات الحريف بجانب الفاكهة الحلوة بحيث لا يبغى هذا على ذاك ، ثم تأمل بعد ذلك عظمة الخالق في قوله :

﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها** ﴾[١] نعم اختلفت ألوانها وطعومها وروائحها مع أن الأرض واحدة والماء واحد والهواء واحد إنها الحجة الدامغة والبرهان الساطع على علم الخالق وإرادته وقدرته ، وكما وقع الاختلاف في الثمرات كذلك وقع في عالم الجبال ، قال تعالى : ﴿ **ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود** ﴾ أي : خلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق وهى الجدد جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً .

ومنها غرابيب سود . قال عكرمة : الغرابيب الجبال الطوال السود . وكذلك وقع الاختلاف في الانسان والحيوان ، ﴿ **ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك** ﴾ أي : كذلك الحيوانات من الأناسي والدواب وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام كذلك هى مختلفة أيضاً ، فالناس منهم بربر وحبوش في غاية السواد ، وصقالية وروم في غاية البياض ، والعرب بين ذلك والهنود دون ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ **واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾ .

وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون فتبارك الله أحسن الخالقين . ولهذا قال بعد هذا ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال الذين **يعلمون** أن الله على كل شيء قدير .

وروى أيضاً عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً ، وأحل حلاله وحرم حرامه وحفظ وصيته وأيقن أنه ملاقيه ومحاسب بعمله .

وقال سعيد بن جبير : الخشية هى التي تحول بينك وبين معصية الله – عز وجل – .

وقال الحسن البصري : العالم من خشى الرحمن بالغيب ورغب فيما رغب الله فيه وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الحسن : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾ .

---

(١) سورة فاطر من الآية : ٢٧ .

وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية..

وقال الإمام مالك : إن العلم ليس بكثرة الرواية وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد إبن صالح المصري معناه :أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية وأما العلم الذي فرض الله – عز وجل – أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة – رضي الله عنهم – ومن بعدهم من أئمة المسلمين – فهذا لا يدرك إلا بالرواية ويكون تأويل قوله : (نور) يريد به منهم العلم ومعرفة معانيه .

وقال سفيان الثوري عن أبي حيان عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله ، عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله . وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله – تعالى – ويعلم الحدود والفرائض . والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض ، والعالم بأمر الله وليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله – عز وجل – .

وكفى العلماء فخراً وشرفاً أنهم شهدوا لله بالوحدانية فسلكهم الله في مصاف الملائكة قال سبحانه : **﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾**[1] .

كما وصفهم برقة القلوب وخشوع البصائر لله قال تعالى :

﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذ يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾[2] .

وقوله تعالى : **﴿ إن الله عزيز غفور ﴾** عزيز لا يغلب بل **﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾**[3] .

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله .. ﴾[4] . **﴿ وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم . قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ﴾**[5] .

﴿ غفور ﴾ عظيم المغفرة فهو غافر الذنب لمن يتوب ، قابل التوب لمن يؤوب ، شديد العقاب إذا اسودت القلوب . ربنا اغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨ .

(٢) سورة الإسراء الآية : ١٠٧ والآيتان : ١٠٨ – ١٠٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٦١ .

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٨٨ وجزء الآية : ٨٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢ وجزء الآية : ١٣ .

كلمة عن العلم والعلماء

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾

فضيلة العلم :

شواهدها من القرآن قوله – عز وجل – : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾[١] فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً وجلاء ونبلاً . وقال تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[٢] قال ابن عباس – رضي الله عنهما – للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة مابين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام .

وقال عز وجل : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[٤].

وقال عز وجل : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً** ﴾[٥] ، بين سبحانه أن أعظم قدر الآخرة يعلم بالعلم .

وقال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[٦] .

وقال تعالى : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾[٧] . رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم والحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله سبحانه .

وقال تعالى في معرض الامتنان : ﴿ **خلق الإنسان . علمه البيان** ﴾[٨] .

وأما الأخبار عن رسول الله – ﷺ – فقد قال :

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٨ .
(٢) سورة المجادلة من الآية : ١١ .
(٣) سورة الزمر من الآية : ٩ .
(٤) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .
(٥) سورة القصص من الآية : ٨٠ .
(٦) سورة العنكبوت من الآية : ٤٣ .
(٧) سورة النساء من الآية : ٨٣ .
(٨) سورة الرحمن الآيتان : ٣ – ٤ .

(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[١] ، وقال - ﷺ - (العلماء ورثة الأنبياء)[٢] ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة .

وقال - ﷺ - : (يستغفر للعالم ما في السموات والأرض)[٣]، وأي منصب يزيد على منصب من تشتغل الملائكة بالاستغفار له فهو مشغول بنفسه وهم مشغولون بالاستغفار له .

وقال - ﷺ - : (فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي)[٤] (الترمذي وقال حسن صحيح) . فانظر كيف جعل العالم مقارناً لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها ولولاه لم تكن عبادة .

وروى عنه - ﷺ - أنه قال : (يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء)[٥].

وأما الآثار فقد قال علي بن أبي طالب لكميل : يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالانفاق .

وقال علي أيضاً : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف عنه .

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه ... والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبدا ... الناس موتى وأهل العلم أحياء

وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء ، قيل : فمن الملوك ؟ قال الزهاد ، قيل : فمن

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « من يرد الله به خير يفقهه في الدين » فقد ورد الحديث بلفظه عن يونس عن ابن شهاب ج ١ ص ٢٧ وانظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس ، وانظر ج ٢ ص ٢٣٤ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي هريرة .
وانظر سنن الترمذي « أبواب العلم » باب « إذا أراد الله بعد خيراً فقهه في الدين ج ٤ ص ١٣٧ حديث رقم ٢٧٨٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .
وانظر مجمع الزوائد كتاب العلم « باب العلم بالتعلم » ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب فضل الفقه على العبادة من ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ ، فقد ورد هذا من حديث طويل لأبي الدرداء .
وانظر مجمع الزوائد « كتاب العلم » باب في فضل العلماء ومجالستهم .. ج ١ ص ١٢٦ فقد ورد الحديث .

(٣) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ ، فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل لأبي الدرداء .

(٤) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٠٤ حديث ٢٨٢٦ ، فقد ورد الحديث عن أبي أمامة غير أنه جاء بلفظ « أدناكم » بدلاً من « أدنى رجل من أصحابي » .

(٥) انظر سنن ابن ماجة « كتاب الزهد » باب « ذكر الشفاعة » ج ٢ ص ١٤٤٣ حديث رقم ٤٣١٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عثمان بن عفان .

السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين ، ولم يجعل ابن المبارك غير العالم من الناس لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم .

فضيلة العلم

أما الآيات في ذلك :

قال تعالى : ﴿ **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[٢] .

وأما الأخبار فقوله - ﷺ - : (من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة)[٣] . (البخاري) .

وقال - ﷺ - : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)[٤] . (أخرجه الترمذي) .

وقال - ﷺ - : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)[٥] .

وأما الآثار : فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - : ذللت طالباً فعززت مطلوباً . وقال الحسن البصري : (باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها) (ابن عبد البر) .

وقال ابن المبارك : (عجبت لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة) وقال أبو الدرداء : (لأن أتعلم مسئلة أحب إلى من قيام ليلة ، وقال أيضاً : العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير منهم ، وقال أيضاً كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك .

---

(١) سورة التوبة آية : ١٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « العلم قبل القول والعمل » .
وانظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » حديث ص ٢٨٢٣ ج ٤ ص ١٥٣ ، فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبي الدرداء وفيه لفظة « يبتغي » بدلاً من « يطلب » وانظر : ج ١٣٧ باب « فضل طلب العلم » فقد ورد الحديث من رواية لأبي هريرة .

(٤) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٣ حديث ٢٨٢٣ فقد ورد هذا من حديث طويل لأبي الدرداء .

(٥) انظر مجمع الزوائد « كتاب العلم » باب « في طلب العلم » ج ١ ص ١٢٠ فقد ورد الحديث عن روايات لأبي سعيد الخدري ، وفيه يحيى بن هشام السمسار كذاب ، ولابن عباس وفيه عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد ضعيف جداً ، وللحسين بن علي وفيه عبد العزيز بن أبي ثابت ضعيف جداً .

وقال عمر : موت ألف عابد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعي : (العلم أفضل من النافلة) .

فضيلة التعليم

أما الآيات فقوله تعالى : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾[1] والمراد هو التعليم والإرشاد .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لبينته للناس ولا تكتمونه ﴾[2] وهو إيجاب للتعليم .

وقوله : ﴿ وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[3] وهو تحريم لكتمان العلم .

كما قال تعالى في الشهادة : ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾[4]

وأما الأخبار فقوله – ﷺ – : لعلي بن أبي طالب :

(لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم)[5] (الصحيحين) .

وقال – ﷺ – : (إن الله – عز وجل – لا ينتزع العلم انتزاعاً من الناس بعد أن يؤتيهم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب عالم ذهب بما معه من العلم حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالاً إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون . (متفق عليه)[6] .

وقال – ﷺ – : (من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار)[7] (أبو داود)

---

(١) سورة التوبة من الآية : ١٢٢ .

(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٨٧ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٤٦ .

(٤) سورة البقرة من الآية : ٢٨٣ .

(٥) انظر صحيح البخاري « كتاب الجهاد » باب « دعاء النبي إلى الإسلام » ج ٤ ص ٥٨ عن رواية لسهل بن سعد – رضي الله عنه – من حديث طويل .

(٦) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « كيف يقبض العلم » ج ١ ص ٣٦ فقد ورد الحديث برواية عبد الله بن عمرو ابن العاص مع اختلاف في ألفاظه .

وانظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « ما جاء في ذهاب العلم) فقد ورد الحديث برقم ٢٧٩٠ ج ٤ ص ١٣٩ برواية لعبد الله بن عمرو بن العاص مع اختلاف في بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب العلم » باب « رفع العلم وقبضه » ج ٤ ص ٢٠٢٨ ، فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله ابن عمرو بن العاص : ٢٦٧٣/١٣ .

(٧) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « ما جاء في كتمان العلم » ج ٤ ص ١٣٨ حديث رقم ٢٧٨٧ برواية عن أبي هريرة مع اختلاف يسير في بعض ألفاظه .

وقال - ﷺ - : (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً أو متعلماً)[١] (الترمذي) .

وقال - ﷺ - : (إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير)[٢] (الترمذي وقال حسن صحيح) .

وقال - ﷺ - : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث علم ينتفع به ..)[٣] (مسلم) .

وقال - ﷺ - : (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير)[٤] (متفق عليه) .

وقال - ﷺ - : (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)[٥] (مسلم) .

وأما الآثار : قال ابن عباس : (معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر) ، وقال بعض العلماء :

العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل .

وقال الحسن البصري : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمة إلى حد الإنسانية .

وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل : وماهو ؟ قال : أن تضعه فيمن يحسن حمله ولا يضيعه .

وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد - ﷺ - من آبائهم وأمهاتهم قيل : وكيف ذلك قال : لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة .

---

(١) انظر سنن الترمذي « أبواب الزهد » باب « ما جاء في هوان الدنيا على الله ، ج ٣ ص ٣٨٤ حديث رقم ٢٤٢٤ من رواية لأبي هريرة ، وقال هذا حديث حسن غريب .

(٢) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « في فضل الفقه على العبادة » ج ٤ ص ١٥٤ حديث ٢٨٢٦ ، فقد ورد هذا الحديث عن أبي أمامة الباهلي . ثم قال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب « ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته » ج ٣ ص ١٢٥٥ ، فقد ورد الحديث ١٦٣١/١٤ من رواية لأبي هريرة بلفظ « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وانظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ص ٣٧٢ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة برواية مسلم .

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب العلم » باب « الاغتباط في العلم والحكمة » ج ١ ص ٢٨. ، فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله ابن مسعود .

وانظر صحيح مسلم كتاب « صلاة المسافرين » ج ١ ص ٥٥٩ ، فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن مسعود حديث ٨١٦/٢٦٨ .

(٥) انظر سنن الترمذي « كتاب العلم » باب « إن الدال على الخير كفاعله » ج ٤ ص ١٤٨ حديث ٢٨١٠ ، فقد ورد الحديث بلفظه برواية عن أبي مسعود البدري (عقبة بن عمرو) .

وقيل : أول العلم الصمت ، ثم الاستماع ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم نشره .

وقال معاذ : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قربة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والوزير عند الإخلاء ، والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها) .

لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الإبصار من الظلم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى والتفكر فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام ، به يطاع الله - عز وجل - وبه يعبد ، وبه يوعد ، وبه يوحد ، وبه يمجد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء . نسأل الله حسن التوفيق .

في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى :

تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ، إذاً العلم عبادة القلب ، وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله - تعالى - وكما قال لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر من الأحداث والأنجاس ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن ، وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن جنائب الأخلاق وأنجاس الأوصاف .

والقلب بيت هو منزل الملائكة ، ومهبط أثرهم ، ومحل استقرارهم ، والصفات الرديئة مثل : الغضب ، والشهوة ، والحقد ، والحسد ، والكبر ، والعجب وأخواتها كلاب نابحة فأنى تدخله الملائكة وهو مشحون بالكلاب ، ونور العلم لا يقذفه الله - تعالى - في القلب إلا بواسطة الملائكة . وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوي البصائر والأبصار .

فإن قلت : كم من طالب رديء الأخلاق حصل العلوم ؟ فهيهات ما أبعده عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة ، الجالب للسعادة ، فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي سموم قاتلة مهلكة ، وهل رأيت من يتناول سماً مع علمه بكونه سماً قاتلاً ، إنما الذي تسمعه من المترسمين حديث يلفقونه بألسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء . فإنما العلم الخشية .

الوظيفة الثانية :

أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شاغلة وصارفة .

الوظيفة الثالثة :

ألا يتكبر على العلم ولا يتآمر على المعلم ، بل يلقى إليه زمام أمره بالكلية في كل تفضيل ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبى : (صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنها ياابن عم رسول الله - ﷺ - فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكُبراء ، فقبل زيد بن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا - ﷺ - (الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم)[1] .

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبر على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهرباً من سبع ضار يفترسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الهرب إلا مشهور أو خامل ، وضرواة سباع النار بالجهال بالله - تعالى - أشد من ضراوة كل سبع ، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان .

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[2] .

الوظيفة الرابعة :

أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الاصغاء إلى اختلاف الناس سواء ما كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ، ويحير ذهنه ، ويفتر رأيه ، ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذه .

الوظيفة الخامسة :

ألا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً يطلع على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحر فيه ، وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في الحال بالانفكاك عن عداوة وذلك

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب معرفة الصحابة » ذكر مناقب زيد بن ثابت ج ٣ ص ٤٢٣ فقد ورد الحديث عن ابن عباس ، وقال : صحيح الاسناد على شرط مسلم .

(٢) سورة ق الآية : ٣٧ .

العلم بسبب جهله ، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى : ﴿ **وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾[1] .

وقال الشاعر :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله – تعالى – أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظة كحفاظ الرباطات والثغور ولكل واحد رتبة ، وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله – تعالى – .

الوظيفة السادسة :

ألا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ، ويبتدىء بالأهم ، فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفي منه بشمة ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة .

الوظيفة السابعة :

ألا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ، فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج .

الوظيفة الثامنة :

أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان : أحدهما : شرف الثمرة ، والثاني : وثاقة الدليل وقوته وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمرة الآخرة الحياة الفانية ، فيكون علم الدين أشرف ، ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة الدليل وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته ، والحساب أشرف باعتبار أدلته ، وملاحظته الثمرة الأولى ، ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتخمين .

وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله – عز وجل – وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فإياك أن ترغب إلا فيه وأن تحرص إلا عليه .

الوظيفة التاسعة :

أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة وفي المآل القرب من الله – سبحانه وتعالى – والترقي إلى جوار الملأ الأعلى ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران .

---

(١) سورة الأحقاف من الآية : ١١ .

الوظيفة العاشرة :

أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ، ومعنى المهم ما يهمك ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة ، وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجرى مجرى العيان ، فالأهم ما يبقى أبد الآباد ، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً ، والبدن مركباً ، والأعمال سعياً إلى المقصد ، ولا مقصد إلا لقاء الله – تعالى – ففيه النعيم كله .

بيـان وظـائف المرشـد المعـلم

الوظيفة الأولى :

الشفقة على المتعلمين وأن يجريهم مجرى بنيه قال رسول الله – ﷺ – : (إنما أن لكم مثل الوالد لولده)[1] (أبو داود والنسائي) بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من انقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ، فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية ، وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب .

فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه . ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سعة في سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم ، والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾[2] وداخلون في قوله تعالى : ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[3] .

الوظيفة الثانية :

أن يقتدي بصاحب الشرع – صلوات الله عليه وسلامه – فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاءاً ولا شكراً ، بل يعلم لوجه الله – تعالى – وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منة عليهم ، وإن كانت المنة لازمة عليهم ، بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم ، لأن التقرب إلى الله

---

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الطهارة » باب « كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة » ج ١ ص ١٨ حديث رقم ٨ عن أبي هريرة بلفظ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم .. الخ » .

(٢) سورة الحجرات من الآية : ١٠ .

(٣) سورة الزخرف الآية : ٦٧ .

– تعالى – بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منه وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله ، ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل : ﴿ **وياقوم لا أسألكم عليه مالاً إن أجري إلا على الله** ﴾[1].

الوظيفة الثالثة :

ألا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خفي قبل الفراغ من الجلي ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله – تعالى – دون الرياسة والمباهاة والمنافسة . وقد رؤي سفيان الثوري – رحمه الله – حزيناً فقيل له : مالك ؟ فقال : صرنا متجراً لأبناء الدنيا ، يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضياً أو عاملاً أو قهرماناً .

الوظيفة الرابعة :

وهي من دقائق صناعة التعليم : أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، وينبهك على هذا قصة آدم وحواء – عليهما السلام – وما نهيا عنه فما ذكرت القصة لتكون سمراً ، بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ، ولأن التعريض أيضاً يميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه ، فيفيد مزج التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

الوظيفة الخامسة :

أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي ألا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراءه ؛ كمعلم اللغة إذ عادته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وإن ذلك مجرد سماع ونقل وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه .. فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب ، بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

الوظيفة السادسة :

أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه ، فلا يلقى إليه مالاً يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله ، اقتداء في ذلك بسيد العلماء وإمام الأتقياء بسيد البشر – ﷺ – حيث يقول : (نحن معاشر الأنبياء

(١) سورة هود من الآية : ٢٩ .

أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم)[١] (أبو داود) وروى أنه قال - ﷺ - : (ما أحد يحدث قوماً بحديث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم)[٢] .

الوظيفة السابعة :

إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ، ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ، فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق فما من أحد إلا وهو راض عن الله - سبحانه - في كمال عقله ، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله ، وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريرته ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده ، بل ينبغي أن يخلى وحرفته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ، ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مريداً يهلك نفسه وغيره بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن الكريم ولا يحرك عليهم شبهة ، فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليها جلها فيشقى ويهلك ، وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

الوظيفة الثامنة :

أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سهم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به ، ومثل المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش على الطين ، والظل من العود ، فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ، ومتى استوى الظل والعود أعوج ، ولذلك قيل في المعنى :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

---

(١) انظر سنن أبي داود « كتاب الأدب » باب « في تنزيل الناس منازلهم » ج ٥ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظ « أنزلوا الناس منازلهم .. وهو من رواية يحيى بن اليمان ، قال أبو داود : حديث يحيى مختصر .

وانظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ج ١ ص ٣٤٢ فقد ورد الحديث بلفظ : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، ونكلم الناس على قدر عقولهم » .

قال العراقي : حديث أبي داود ، وحديث الأتحاف هما حديثان مستقلان وليسا حديثاً واحداً .. الخ (انظر الاتحاف ج ١ ص ٣٤٢) .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

وقال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾[١] ولذلك كل وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل ، إذ يزل بزلته عالم كثير ويتقدون به ، ومن سن سنة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، ولذلك قال علي – رضي الله عنه – قصم ظهري رجلان :

عالم متهتك ، وجاهل متنسك ، فالجاهل يغر الناس بتنسكه ، والعالم يغرهم بتهتكه ، والله أعلم .

علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ما ورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة ، فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ، وقصدي بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعيم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها .

قال – ﷺ – : (إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه)[٢] .

وعن جابر – رضي الله عنه – عن النبي – ﷺ – قال : (لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولتماروا به السفهاء ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار)[٣] . (ابن ماجة بإسناد صحيح) .

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي ذر – بإسناد جيد – عن النبي – ﷺ – قال : (لأنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال فقيل وما ذلك ؟ فقال من الأئمة المضلين)[٤] .

وفي الحديث المتفق عليه عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله – ﷺ – : (يؤتي بالعالم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه وأنهي عن الشر وآتيه)[٥] .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٤٤ .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » الباب السادس في آفات العلم : ج ١ ص ٣٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن رواية لأبي هريرة .

(٣) انظر سنن ابن ماجة « المقدمة » باب « الانتفاع بالعلم والعمل به » ج ١ ص ٩٣ حديث رقم ٢٥٤ فقد ورد الحديث عن جابر مع اختلاف في ألفاظه .

وانظر الحديث ٢٥٩ (المرجع نفسه) فقد ورد الحديث من رواية لحذيفة وهو أقرب للحديث الذي معنا حيث الاختلاف يسير .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ١٤٥ فقد ورد الحديث من روايتين عن أبي تميم الجيشاني لأبي ذر أتى مع اختلاف يسير في الألفاظ .

وانظر اتحاف السادة المتقين ج ١ ص ٣٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الزهد والدقائق » باب « عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله .. الخ » ج ٤ ص ٢٢٩٠ – ٢٢٩١ حديث رقم ٥١/٢٩٨٩ ، فقد ورد الحديث عن أسامة بن زيد مع اختلاف في بعض الألفاظ .

وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصى عن علم ولذلك قال الله – عز وجل – : ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار** ﴾[١] لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شراً من النصارى مع أنهم ما جعلوا الله – سبحانه – ولداً ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله : ﴿ **يعرفونه كما يعرفون أبناءهم** ﴾[٢] : ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾[٣] .

وقال تعالى في قصة بلعام بن باعوراء : ﴿ **واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾[٤] .

فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوتي كتاب الله – تعالى – فأخلد إلى الشهوات فشبه بالكلب أي : سواء أوتي الحكمة أو لم يؤت فهو يلهث بالشهوات .

قال عيسى بن مريم : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع .

والآثار تبين أن العالم الذي هو من أبناء الدنيا أحسن حالاً ، وأشد عذاباً من الجاهل ، وأن الفائزين المقربين هم علماء الآخرة الذين قال الله فيهم : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[٥] .

ولهم علامات ومن علاماتهم :

ألا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العلم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها ، وعظم الآخرة ودوامها ، وصفاء نعيمها ، وجلالة ملكها ، ويعلم أنهمامتضادتان وأنهما كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفف الأخرى .

قال عمر – رضي الله عنه – إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب .

وقال مالك بن دينار : قرأت في الكتب السالفة أن الله – تعالى – يقول : إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه .

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٤٥ .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٢٠ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٨٩ .

(٤) سورة الأعراف الآيتان : ١٧٥ – ١٧٦ .

(٥) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .

وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم .

وكان يحيى بن معاذ الرازي – رحمه الله – يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم ، قصوركم قيصرية ، وبيوتكم كسروية ، وأثوابكم ظاهرية ، وأخفافكم جالوتية ، ومراكبكم قارونية ، وأوانيكم فرعونية ، ومآثمكم جاهلية ، ومذاهبكم شيطانية ، فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها ... فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقد وصف الله – سبحانه وتعالى – علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ، ووصف علماء الآخرة بالخشوع والزهد فقال – عز وجل – في علماء الدنيا : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون** ﴾[١] .

وقال تعالى في علماء الآخرة : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك هم أجرهم عند ربهم ..** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾[٣] .

وقال تعالى في قصة قارون : ﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون** ﴾[٤] فعرف أهل العلم بإيثار الآخرة على الدنيا .

ومن علامات علماء الآخرة

ألا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء مالم يكن هو أول عامل به قال تعالى : ﴿ **أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم** ﴾[٥] .

وقال تعالى : ﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** ﴾[٦] .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٧ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٩ .
(٣) سورة الإسراء الآيات : ١٠٧ – ١٠٩ .
(٤) سورة القصص الآيتان : ٧٩ – ٨٠ .
(٥) سورة البقرة من الآية : ٤٤ .
(٦) سورة الصف آية : ٣ .

وقال تعالى في قصة شعيب : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله .. ﴾ [١].

وقال تعالى : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ [٢] . ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾ [٣].

وقال رسول الله - ﷺ - : (مررت ليلة أسرى بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من أنتم : فقالوا كنا نأمر بالخير ولا نأتيه وننهى عن الشر ونأتيه) [٤] (أخرجه ابن حبان عن أنس) .

وقال الفضيل بن عياض : بلغنى أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عباد الأوثان .

وقال حاتم الأصم - رحمه الله - : ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علماً فعملوا به ولم يعمل هو به ففازوا بسببه وهلك هو . وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
أصبحت تفصحهم بالوعظ مجتهداً فالموبقات لعمرى أنت جانيها
تعيب دنيا وناساً راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

وقال آخر :

لاتنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

فمن علامات علماء الآخرة أنهم يقولون ما يفعلون .

ومن علامتهم : أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدال والقيل والقال .

ومن علاقتهم : أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل ألبتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين ، والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة ، ويجب على كل متدين الإنكار عليهم ، وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتقبيح فعلهم فالداخل عليهم إما أن

---

(١) سورة هود من الآية : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة من الآية : ٢٨٢ .

(٣) سورة المائدة من الآية : ١٠٨ .

(٤) انظر صحيح ابن حبان « كتاب الإسراء » باب « ذكر وصف الخطباء .. الخ » ج ١ ص ١٣٥ حديث رقم ٣٥ من رواية لأنس بن مالك بلفظ « رأيت ليلة أسرى بي رجالاً تقرض شفاههم بمقارض من نار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ فقال : الخطباء من أمتك ، يأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون) .
وانظر ص ٣٦٩ من المرجع نفسه فقد ورد الحديث بلفظه .

يلتفت إلى تجملهم فيزدرى نعمة الله عليه ، أو يسكت عن الإنكار عليهم فيكون مداهناً لهم ، أو بتكلف في كلامه كلاماً لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح ، أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السّحت ، وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – عن النبي – ﷺ – قال : (إن أناساً من أمتي سيتفقهون في الدين ويقرأون القرآن ويقولون : نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ونعتزلهم بديننا ، ولا يكون ذلك كما لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك لا يجتنى من قربهم إلا الخطايا)[1] (رواه ابن ماجه ورجاله ثقات) .

وقال سعيد ابن المسيب – رحمه الله – : إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحترزوا منه فإنه لص . وقال أبو ذر لسلمة : يا سلمة ، لا تغشى أبواب السلاطين ، فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقى إليه أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ثم إذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين وكان يقال العلماء إذا علموا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا .

فعلماء الآخرة لا يدخلون على السلاطين ولا يخالطوهم

ومن علاماتهم : ألا يكون سارعاً إلى الفتيا بل يكون متوقعاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى أفتى ، وإن سئل عما لا يشك فيه قال لا أدري وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[2] .

ولما سئل رسول الله – ﷺ – عن خير البقاع في الأرض وشرها : قال : (لا أدري حتى نزل عليه جبريل – عليه السلام – فسأله فقال : (لا أدري إلى أن أعلمه الله – عز وجل – (إن خير

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » باب « الانتفاع بالعلم والعمل به » ج ١ ص ٩٣ ، ٩٤ حديث رقم ٢٥٥ عن رواية لابن عباس فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) سورة الإسراء آية : ٣٦ .

البقاع المساجد وشرها الأسواق)[١] (أخرجه أحمد والبزار والحاكم وصححه من حديث ابن عمر) .

وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع ، وكان ابن عباس – رضي الله عنهما – يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة ، وكان في الفقهاء من يقول : لا أدري أكثر ممن يقول أدري ، منهم : سفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وأحمد بن حنبل ، والفضل بن عياض . وقد كان ابن عينيه يقول : أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً باختلاف العلماء ، وكان ابن عباس – رضي الله عنهما – إذا سئل يقول : سلوا حارثة بن زيد ، وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – يقول : سلوا سعيد بن المسيب .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ، ومراقبة القلب ، ومعرفة طريق الآخرة ، وسلوكه ، وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة ، فإن المجاهدة تفضى إلى المشاهدة ودقائق علوم القلب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، فإن اليقين هو رأس مال الدين ، عن ابن مسعود قال :

قال رسول الله – ﷺ – : (اليقين الإيمان كله)[٢] (البيهقي بإسناد حسن) .

وقد قال – سبحانه وتعالى – عن أئمة الدين : ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[٣] فوصف علماء الآخرة وأئمة الدين بالصبر واليقين .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته ، لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً لله – تعالى – وكانت صورته دليلاً على عمله فالجواد عينه مرآته وعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والذلة والتواضع وقد قيل : ماألبس الله عبداً لبسه أحسن من خشوع في سكينة ، فهي لبسة الأنبياء وسيما الصالحين والصديقين والعلماء ، وأما التهافت في الكلام والتشدق والاستغراق في الضحك والحدة في الحركة والنطق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله – تعالى – وشديد سخطه ، وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العنماء ثلاثة : كما قال سهل التستري – رحمه الله – : عالم بأمر الله – تعالى – لا بأيام الله وهم المفتون في الحلال والحرام ، وهذا العلم لا يورث الخشية ، وعالم بالله – تعالى – لا بأمر الله ولا بأيام الله وهم

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب العلم » باب « خير البقاع المساجد وشر البقاع الأسواق » ج ١ ص ٩٠ فقد ورد عن ابن عمر الحديث بلفظه .

(٢) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصفهاني ج ٥ ص ٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله .

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٧٣ .

عموم المؤمنين ، وعالم بالله - تعالى - وبأمر الله تعالى وبأيام الله - تعالى - ، وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم .

وأراد بأيام الله أنواع عقوباته الغامضة ، ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة ، فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه ، وقال عمر - رضي الله عنه - تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، وليتواضع لكم من يتعلم منكم ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم .

وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا للرياسة .

وقال ابن عمر - رضي الله عنهما - :

لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتي الإيمان قبل القرآن ، وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها ، وأوامرها وزواجرها ، وما ينبغي أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجالاً يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ مابين فاتحة الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما آمره وما زاجره ، وما ينبغي أن يقف عنده ينثره نثر الدقل .

وقيل خمس من الأخلاق هى من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله - عز وجل - : الخشية ، والخشوع ، والتواضع ، وحسن الخلق ، وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد .

فأما الخشية فمن قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[(١)] وأما الخشوع فمن قوله تعالى : ﴿ **خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً** ﴾[(٢)] .

وأما التواضع فمن قوله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾[(٣)] ، وأما حسن الخلق فمن قوله تعالى :

﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم** ﴾[(٤)] ، وأما الزهد فمن قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً** ﴾[(٥)] .

ولما تلا رسول الله - ﷺ - قوله تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾

---

(١) سورة فاطر من الآية : ٢٨ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١٩٩ .
(٣) سورة الحجر من الآية : ٨٨ .
(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٥٩ .
(٥) سورة القصص من الآية : ٨٠ .

فقيل له : ما هذا الشرح ؟ فقال : (إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح . قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال - ﷺ - نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله)[1] (أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن سعود) .

ومن علامات علماء الآخرة : أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسرها . ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويثير الشر ، فإن أصل الدين التوقي من الشر .

ولأن الأعمال الفعلية قريبة ، وأقصاها بل أعلاها المواظبة على ذكر الله - تعالى - بالقلب واللسان ، وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها ، وهذا مما تكثر شعبه ويطول تفريعه ، وكل ذلك مما يغلب مسيس الحاجة إليه ، وتعم به البلوى في سلوك طريق الآخرة .

وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريعات في الحكومات والأقضية ، ويتبعون في وضع صور تنقض الدهور ولا تقع أبداً وإن وقعت لغيرهم لا لهم ، وإذا وقعت كان في القائمين بها كثرة ، ويتركون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خواطرهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن السعادة من باع منهم نفسه اللازم بمهم غيره النادر إيثاراً للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله - سبحانه - ، وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلاً محققاً عالماً بالدقائق وجزاؤه من الله ألا ينتفع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلساً متحسراً على ما يشاهده من ربح العاملين وفوز المقربين . وذلك هو الخسران المبين ، ولقد كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وأقربهم هدياً من الصحابة - رضي الله عنهم - اتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووساوس النفوس ، والصفات الخفية الغامضة في شهوات النفس ، وقد قيل : يا أبا سعيد ، إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فمن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن اليمان ، وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فمن أين أخذته ؟ قال : خصني به رسول الله - ﷺ - كانوا يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه ، وقال مرة : فعلمت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وكان حذيفة - رضي الله عنه - أيضاً قد خص بعلم المنافقين ، وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة - رضي الله عنهم - يسألونه عن الفتن العامة والخاصة وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر - رضي الله عنه - إذا دعى إلى جنازة ليصلي عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا ترك ، وكان يسمى صاحب السر ، فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب علماء الآخرة ؛ لأن القلب هو الساعي إلى قرب الله - تعالى - .

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين « كتاب العلم » ص ٤٢٤ فقد ورد الحديث بلفظه .

وقد صار هذا الفن غريباً مندرساً وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد .

وعلى الجملة ، فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق ، فإن الحق مر ، والوقوف عليه صعب ، وإدراكه شديد ، وطريقه مستوعر ، ولاسيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة ، فإن ذلك نزع للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء ، وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه ، فهو يقاسي الشدائد ليكون فطرة عند الموت .

ومن علامات الآخرة : أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور ، فلا يغرنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة – رضي الله عنهم – وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم ، وما كان فيه أكثر همهم ، أكان في التدريس والتصنيف ، والمناظرة ، والقضاء ، والولاية ، وتولى الأوقاف ، والوصايا ، وأكل مال الأيتام ، ومخالفة السلاطين ، ومجاملتهم في العشرة ، أم كان في الخوف والحزن والتفكر والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الأثم وجليله ، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن .

وأعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق أشبههم بالصحابة ، وأعرفهم بطريق السلف فمنهم أخذ الدين . وفي الحديث المشهور (من أحدث في ديننا ماليس منه فهو رد)[1] (متفق عليه) . وقال ابن عباس : الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها قال تعالى : ﴿ **وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً** ﴾[3] فكل ما أحدث بعد الصحابة – رضي الله عنهم – مما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللهو .

فهذه علامات علماء الآخرة : ألا يطلب الدنيا بعلمه ، وألا يخالف فعله قوله ، وأن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع ، وأن يبتعد عن مخالطة السلاطين والأمراء ، وألا يكون مسارعاً إلى الفتيا ، وأن يكون اهتمامه بمراقبة القلب ، وأن يكون شديد العناية بتقوية اليقين ، وأن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ، وأن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور . فهذه علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة فيها جملة من أخلاق علماء السلف ، فكن أحد رجلين : إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الاقرار به ، وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الأقضية » باب « نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور » ج ٣ ص ١٣٤٣ حديث رقم ١٧١٨/١٧ من رواية عن عائشة غير أنه ورد بلفظ « في أمرنا » بدلاً من « في ديننا » .

(٢) سورة الأنعام من الآية : ٧٠ .

(٣) سورة فاطر من الآية : ٨ .

بدلت آلة الدنيا بالدين وتشبه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراسخين ، فنسأل الله – تعالى – أن يجعلنا ممن لا تغره الحياة الدنيا ، ولا يغره بالله الغرور .

(مختصر من كتاب إحياء علوم الدين ، باب العلم ، للإمام الغزالي) .

تجارة لن تبور

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور** ﴾ .

هذه سوق من أسواق الآخرة إنها تجارة لن تبور ، لأنها مع الله ومثلها قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار . ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾[١] .

ومثل هذه التجارة أيضاً قوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾[٢] .

وهناك أسواق خاسرة نعوذ بالله منها قال الله – تعالى – في شأنها :

﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وماكانوا مهتدين** ﴾[٣] وقال : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون** ﴾[٤] .

وقال : ﴿ **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار** ﴾[٥] .

---

(١) سورة الصف الآيات : ١٠ – ١٣ .

(٢) سورة التوبة الآيات : ١١١ – ١١٢ .

(٣) سورة البقرة الآية : ١٦ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٨٦ .

(٥) سورة البقرة الآية : ١٧٥ .

ما أعظم التجارة إذا كانت مع الله ، وما أعظم مصيرها وشأنها لأن ذلك المصير هو الخلود في الجنة ، والتجارة مع الله من وجوه كثيرة .

منها : تلاوة كتاب الله ، وإقام الصلاة ، والإنفاق سراً وعلناً ، إلى غير ذلك من وجوه لا تحصى ومقامات لا تستقصى ، فمن عاش فيها سلك مدارج الأنوار ، ووقف على حقائق الأسرار ، وعاش في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إن هذه تجارة ضمن الله لها الربح وعدم البوار قال تعالى : ﴿ **ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله** ﴾ أي : ثوابهم في الآخرة ويزيدهم فوق الثواب من فضله ، فهو صاحب النعم والآلاء ، فقد كانوا في الدنيا رجالاً لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، حافظوا على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، ذلك لأنهم كانوا يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ، فجزاهم الله أحسن ما عملوا وزادهم من فضله ﴿ **إنه غفور شكور** ﴾ غفور واسع المغفرة يستر العيوب ويفرج الكروب ﴿ **شكور** ﴾ عظيم الشكر يعطى الجزيل ويهب الكثير ويجبر القلب الكسير ، ويغفر الزلات ، ويقول : هل من تائب مستغفر ، أو سائل أقضي له الحاجات .

قال قتادة : كان مطرف – رحمه الله – إذا قرأ هذه الآية يقول :
هذه آية القراء .

في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

فضيلة القرآن :

قال تعالى : ﴿ **ورتل القرآن ترتيلا** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[2].

وفي الصحيح عن أبي أمامة قال : قال رسول الله – ﷺ – :
(أقرءوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه)[3].

---

(١) سورة المزمل من الآية : ٤ .

(٢) سورة ص من الآية : ٢٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب « فضل قراءة القرآن وسورة البقرة فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل لأبي أمامة يقول : سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « أقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، أقرأوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران .. الخ .

وعن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله – ﷺ – : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)[١] (البخاري) .

وعن أنس قال : قال رسول الله – ﷺ – : (أهل القرآن أهل الله وخاصته)[٢] (أخرجه الحاكم) .

وأما الآثار : قال أبو أمامة الباهلي : أقرءوا القرآن ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن .

وقال ابن مسعود : أقرءوا القرآن فإنكم تؤجرون عليه كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول : الم حرف ولكن الألف حرف واللام حرف والميم حرف .

وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم . وقال أيضاً : من قرأ القرآن أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه .

وقال أبو هريرة : « إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثر خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه الشياطين ، وإن البيت الذي لا يتلى فيه القرآن ضاق بأهله وقل خيره وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين .

وقال الفضيل بن عياض : ينبغي لحامل القرآن ألا يكون له أحد حاجة إلا إلى الخلفاء ممن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه .

وقال أيضاً : حامل القرآن حامل راية الإسلام ، فلا ينبغي أن يلهو مع من يلهو ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو تعظيماً لحق القرآن . وقال سفيان الثوري : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك بين عينيه . وقال الحسن : والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة .

(في ذم تلاوة الغافلين)

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلعنه ، وقال ميسرة : الغريب هو القرآن في جوف الفاجر . وقال ابن مسعود : ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون ، وبنهاره إذا

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ج ٦ ص ٢٣٦ فقد ورد الحديث من رواية لعثمان – رضي الله عنه – فقد ورد بلفظه .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٥٦ ، فقد ورد الحديث عن أنس بلفظ : قال : قال رسول الله – ﷺ – : إن لله أهلين من الناس ، قالوا : من هم يا رسول الله ، قال : أهل القرآن هم أهل الله وخاصته » وقال قد روى هذا الحديث عن أنس من ثلاثة أوجه هذا أمثلها.

الناس يفرطون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون ، وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً ولا ينبغي له أن يكون جافياً ولا ممارياً ولا صياحاً ولا صخاباً ولا حديداً .

وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول : ألا لعنة الله على الظالمين ، وهو ظالم لنفسه ، ألا لعنة الله على الكاذبين ، وهو منهم .

آداب التلاوة :

آداب ظاهرة وهى عشرة :

الأول : في حال القاريء : وهو أن يكون على الوضوء ، واقفاً على هيئة الأدب والسكون ، إما قائماً وإما جالساً ، مستقبل القبلة مطرقاً رأسه ، غير متربع ولا متكيء ولا جالس على هيئة التكبر ، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه .

وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائماً وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال ، فإن قرأ على غير وضوء وكان مضجعاً في الفراش فله أيضاً ولكنه دون ذلك في الأجر . قال الله تعالى : ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض** ﴾[1] فأثنى على الكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضجعاً .

الثاني : في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار : فمنهم من يختم القرآن في اليوم والليلة مرة ، وبعضهم مرتين ، ومنهم من يختم في الشهر مرة ، وأولى ما يرجع إليه في التقديرات قول الرسول - ﷺ - : (من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه)[2] (أصحاب السنن) .

وذلك لأن الزيادة عليه تمنعه الترتيل ، وقد قالت عائشة - رضي الله عنها - لما سمعت رجلاً يهذر القرآن هذراً : إن هذا ما قرأ القرآن ولا سكت ، وأمر النبي - ﷺ - عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : (أن يختم القرآن في كل سبع)[3] (متفق عليه) .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٩١ .

(٢) انظر سنن الترمذي « أبواب القراءات » ج ٤ ص ٢٢٦ حديث رقم ٤٠١٦ من رواية لعبد الله بن عمرو بلفظ : « لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث » بتقديم لفظه « لم يفقه » .
وانظر الحديث ٤٠٢٠ نفس المرجع ص ٢٦٧ .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « في كم يقرأ القرآن » ج ٦ ص ٢٤٣ ، فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وكذلك كان جماعة من الصحابة – رضي الله عنهم – يختمون القرآن في كل جمعة كعثمان ، وزيد بن ثابت ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب – رضي الله عنهم – .

الثالث : في وجه القسمة : أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب ، فقد حزب الصحابة – رضي الله عنهم – القرآن أحزاباً . فروى أن عثمان بن عفان كان يفتتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم ، وليلة الإثنين بطه إلى طسم موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن الرحيم ويختم ليلة الخميس .

الرابع : في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحمرة وغيرها فإنها تزيين وتبيين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه .

الخامس : الترتيل : هو المستحب في هيئة القرآن ، فالمقصود من القراءة التفكر ، والترتيل معين عليه ، ولذلك نعتت أم سلمة – رضي الله عنها – .

قراءة رسول الله – ﷺ – فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً[1] (الترمذي حسن صحيح) .

وقال ابن عباس : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله هذرمة .

وأعلم أن الترتيل مستحب لا لمجرد التدبر ، فإن العجمي الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة ، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذرمة والاستعجال .

السادس : البكاء : البكاء مستحب مع القراءة ، فعن سعد ابن أبي وقاص قال :

قال رسول الله – ﷺ –: (اتلو القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا)[2] (إسناده جيد)

وقال – ﷺ – : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[3] (البخاري) .

---

(١) انظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » ج ٤ ص ٢٥٤ باب « ما جاء كيف كانت قراءة النبي – ﷺ – » فقد ورد الحديث رقم ٣٠٩١ من رواية يعلى بن مملك : « أنه سأل أم سلمة زوج النبي – ﷺ – عن قراءة النبي – ﷺ – وصلاته .. الخ » وقال هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث ليث بن سعد عن أبي مكيلة عن يعلى بن مملك عن أم سلمة .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمنذري باب الترغيب في تعاهد القرآن وتحسين الصوت به ج ٢ ص ٦١٠ ، ٦١١ فقد ورد الحديث عن سعد بن أبي وقاص بلفظ « إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فإن لم تبكوا فتباكوا وتغنوا به فمن ليتغنن بالقرآن فليس منا » .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « قول الله تعالى وأسروا قولكم أو اجهروا به » ج ٩ ص ١٨٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبي هريرة .. وزاد غيره ويجهر به .

ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن والبكاء ، فإن ذلك أعظم المصائب .

السابع : أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية سجدة سجد ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد ، ويشترط في سجود التلاوة شروط الصلاة في ستر العورة ، واستقبال القبلة ، وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث .

الثامن : أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم .

قال تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾[1] .

وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر ، وإذا مر بمرجو سأل ، وإن مر بمخوف استعاذ ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه ، فيقول : سبحان الله ، استغفر الله ، نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا ، اللهم ارحمنا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله - ﷺ - : كان لايمر بآية عذاب إلا تعوذ ، ولا بآية رحمة إلا سأل ، ولا بآية تنزيه إلا سبح)[2] (مسلم) .

التاسع : في الجهر بالقراءة : ولاشك في أنه لابد أن يجهر له إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولابد من صوت فأقله ما يسمع نفسه ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته ، فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجه ، ومكروه على وجه آخر ويدل على استحباب الأسرار ما روى أنه - ﷺ - قال : (فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية)[3] (أبو داود وابن ماجة والترمذي وحسنه) .

وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله - ﷺ - عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته وكان حسن الصوت فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلى فمره أن يخفض من صوته ، فقال الغلام إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلى إن كنت تريد الله - عز وجل - بصلاتك فاخفض صوتك ، وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغنوا

---

(١) سورة النحل الآية : ٩٨ .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين كتاب « آداب تلاوة القرآن » ج ٤ ص ٤٩١ فقد ورد الحديث عن حذيفة بلفظ « صليت مع رسول الله - ﷺ - فكان لا يمر بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية رحمة إلا سأل ولا بآية تنزيه إلا سبح » .

انظر سنن الترمذي « أبواب فضائل القرآن » باب ٢٠ ج ٤ ص ٢٥٢ حديث ٣٠٨٦ ، فقد ورد الحديث عن عقبة بن عامر بلفظ قال ؛ سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « الجاهر بالقرآن كالجهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » وقال : هذا حديث حسن غريب .

عنك من الله شيئاً ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركعته ، فلما سلم أخذ نعليه وانصرف ، وهو يومئذ أمير المدينة .

ويدل على استحباب الجهر ما روي في الصحيحين من حديث عائشة : أن رجلاً قام من الليل فقرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله – ﷺ – (رحم الله فلاناً .. الحديث)[1].

فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإسرار أبعد عن الرياء والتصنع ، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه ، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته – أيضاً – تتعلق بغيره ، فالخير المتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارىء ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ويصرف إليه مسمعه ، ولأنه يطرد النوم في رفع الصوت ، ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله . ولهذا نقول : قراءة القرآن في المصاحف أفضل ، إذ يزيد في العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فيزيد الأجر بسببه .

العاشر : تحسين القراءة وترتيلها : بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة .

قال – ﷺ – : (زينوا القرآن بأصواتكم)[2] (أبو داود) .

وقال عليه الصلاة والسلام : (ما أذن الله لشيء أذنه لحسن الصوت بالقرآن)[3]. متفق عليه .

وقال : (ليس منا من لم يتغن بالقرآن)[4].

وقال – ﷺ – : (من أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن آم عبد)[5] أي عبد الله بن مسعود (أخرجه أحمد) .

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين كتاب « آداب تلاوة القرآن » باب « في ظاهر آداب التلاوة » ج ٤ ص ٤٩٣ ، فقد ورد الحديث من رواية عن عائشة .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب « فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٧١ ، فقد ورد الحديث بلفظه من البراء بن عازب بعدة روايات .

(٣) انظر صحيح البخاري كتاب « التوحيد » باب قول النبي – ﷺ – الماهر بالقرآن مع الكرام البررة وزينوا القرآن بأصواتكم » ج ٨ ص ١٩٣ ، فقد ورد الحديث عن رواية لأبي هريرة مع اختلاف في بعض ألفاظه » .

(٤) انظر صحيح البخاري « كتاب التوحيد » باب « قول الله تعالى : ﴿ وأسروا قولكم .. الخ ﴾ فقد ورد الحديث في ج ٨ ص ١٨٨ من رواية لأبي هريرة . وزاد غيره « ويجهر به » .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٤٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بلفظ « أحب » بدلاً من « أراد » ولم يرد فيه لفظ « طريا » .

واستمع - ﷺ - إلى قراءة أبي موسى فقال : (لقد أوتي هذا من مزامير آل داود)[1] فبلغ ذلك أبا موسى فقال :

(يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبرته لك تحبيراً) (متفق عليه) .

وقد كان عمر يقول لأبي موسى - رضي الله عنهما - : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال : يا أمير المؤمنين ، الصلاة الصلاة فيقول : أولسنا في صلاة .

في أعمال الباطن في التلاوة

وهي عشرة : فهم أصل الكلام ، ثم التعظيم ، ثم حضور القلب ، ثم التدبر ، ثم التفهم ، ثم التخلي عن موانع الفهم ، ثم التخصيص ، ثم التأثر ، ثم الترقي ، ثم التبرى .

فالأول : فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله - سبحانه وتعالى - ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه .

الثاني : **التعظيم للمتكلم** : فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأن في تلاوة كلام الله - عز وجل - غاية الخطر فإنه تعالى قال : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾[2]. وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل رجس ، ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير ، وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولا لنيل معانيه كل قلب ، ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة ابن أبي جهل إذا نشر المصحف غشي عليه ، ويقول : هو كلام ربي هو كلام ربي ، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم . ولن تحضره عظمة المتكلم مالم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته ، وبين نقمته وسطوته ، أن أنعم فبفضله ، وإن عاقب فبعدله ، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، وهذا غاية العظمة والتعالي فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام .

---

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب التفسير » باب « حسن الصوت بالقراءة » ج ٦ ص ٢٤١ ، فقد ورد الحديث عن أبي موسى بلفظ : عن أبي موسى أن النبي - ﷺ - قال له : يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود.
وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٤٦ حديث ٢٣٦ فقد ورد الحديث برواية لأبي موسى .

(٤) سورة الواقعة الآية : ٧٩ .

الثالث : حضور القلب وترك حديث النفس وقيل في تفسير قول الله : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾[١] أي : بجد واجتهاد ، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم فإن معظم الكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له ، فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره ، وهو متنزه ومتفرج ، والذي يتفرج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها ، فقد قيل : إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير ورياضاً .

الرابع : التدبر . قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾[٢] .

فالتدبر وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن عن نفسه وهو لا يتدبره ، والمقصود من القراءة التدبر ، ولذلك سن فيه الترتيل ، لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن ، قال علي – رضي الله عنه – : لا خير في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها .

إذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام .

عن أبي ذر قال : (قام رسول الله – ﷺ – بنا ليلة فقام بآية يرددها وهي (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)[٣] .

وقام تميم الداري ليلة بهذه الآية : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾[٤] .

الخامس : التفهم :

وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله – عز وجل – وذكر أفعاله وذكر أحوال الأنبياء وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره وذكر الجنة والنار . أما صفات الله – عز وجل – كقوله تعالى : ﴿ **الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ..** ﴾[٥] فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فتحتها معان مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين .

---

(١) سورة مريم من الآية : ١٢ .
(٢) سورة ص الآية : ٢٩ .
(٣) مسند أحمد ١٤٩/٥ .
(٤) سورة الجاثية الآية : ٢١ .
(٥) سورة الحشر الآية : ٢٣ .

وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات الله – عز وجل – إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته فإذا قرأ : ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ . ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ . ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون ﴾ . ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمنى بل يتأمل فى المنى وهو نطفة متشابهة الأجزاء ، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ثم ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والكذب والمجادلة كما قال تعالى : ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم .. ﴾[٢].

وأما أحوال الأنبياء فإذا منها أنهم كيف كذبوا وضربوا فليفهم منه صفة الاستغناء لله – عز وجل – فلو أنه أهلك جمعهم لم يؤثر فى ملكه شيئا وإذا سمع نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله – عز وجل – وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين : كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهم منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية .

وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما فى القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منها لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين .

السادس : التخلى عن موانع الفهم .

فإن أكثر الناس منعوا عن فهم لأسباب وحجب اسدلها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب القرآن .

وحجب الفهم أربعة : أولها أن يكون الهم منصرف إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معانى القرآن فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف يخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصورا على مخارج الحروف .

ثانيا : أن يكون مقلدا لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت فى نفسه التعصب له بمجرد

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥٨ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٧١ .

(٢) سورة يس الآيتان ٧٧ ، ٧٨ .

الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصره ومشاهده فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفا على مسموعه فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعانى التى تباين مسموعه حمل عليه الشيطان التقليد حملة وقال : كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد شيوخك وآبائك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله .

ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب أو متصفا بكبر أو مبتلى فى الجملة بهوى فى الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداه وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب للقلب وبه حجب الاكثرون وكلما كانت الشهوات أشد تراكما كانت معانى الكلام أشد احتجابا ، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تحلى المعنى فيه ، فالقلب مثل المرآة والشهوة مثل الصداء ومعانى القرآن مثل الصور تتراءى فى المرآة ، والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة .

رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا وأعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل وحسب وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضا من الحجب العظيمة .

السابع : التخصيص .

وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب فى القرآن فإن سمع أمرا أو نهيا قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعدا أو وعيدا فكمثل ذلك وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود أن يعتبر به . ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾[1].

وكان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن فى قلوبكم يا أهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض .

وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى : ﴿ **هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا** ﴾[2].

الثامن : التأثر . وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا

(١) سورة يوسف الآية : ١١١

(٢) سورة الاسراء الآية : ٨٢

مقرونا بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله تعالى : ﴿ وإنى لغفار ﴾ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط - ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾[2]. ذكر أربعة شروط حيث أقتصر ذكر شرطا خاصا فقال تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[3]. فالاحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره ومن فهم ذلك فجدير بأن يكون حالة الخشية والحزن ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقل فرحه وكثر بكاؤه وقل ضحكه ، وكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته .

ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود اقرأ على قال : فافتتحت بسورة النساء فلما بلغت ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾[4] رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لى : حسبك الآن ، وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية .

التاسع : الترق

وأعنى به أن يترق إلى أن يسمع الكلام من الله – عز وجل – لا من نفسه ، فدرجات القراءة ثلاث أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله – عز وجل – واقفا بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال . الثانية أن يشهد بقلبه كأن الله – عز وجل – يراه ويخاطبه بالطافة ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم .

الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم وفى الكلمات الصفات فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى تعلق الأنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصورا الهم على المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مُستغرق بمشاهدة المتكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره .

وهذه درجة المقربيين وقبلها درجة أصحاب اليمين ، وما خرج عن هذه الدرجات فهو درجات الغافلين .

العاشر : التبرى : وأعنى به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله – عز وجل – بهم . وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفا واشفاقا .

(مختصر من إحياء علوم الدين باب فصل قراءة القرآن وأدابه الظاهرة والباطنة)

---

(١) سورة طه الآية : ٨٢

(٢) سورة العصر الآيات : ١ – ٣

(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٦

(٤) صحيح البخارى – فضائل القرآن : ٦ / ٢٤١

وعد وعيد

قال تعالى :

وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ
لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم
مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ
مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ
لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ
يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم
مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾

تفسير المفردات

﴿ **أورثنا الكتاب** ﴾ اعطيناه بلا تعب ولا مشقة كما يعطى الميراث ، ﴿ **اصطفينا** ﴾ : اخترنا واشتقاقه من الصفو وهو الخلوص من شوائب الكدر ، ﴿ **ظالم لنفسه** ﴾ الظلم تجاوز الحد ، ﴿ **مقتصد** ﴾ : متوسط ، ﴿ **سابق بالخيرات** ﴾ سبق غيره وبده يعمل الخير ، ﴿ **أساور** ﴾ : جمع اسورة وهى حلية تلبس في اليد ، ﴿ **كفور** ﴾ : كثير الكفر ، ﴿ **يصطرخون** ﴾ : يستغيثون في النار بصوت عال ، والصراخ الصوت العالي والصارخ والمستغيث والمصرخ المغيث ، ﴿ **نعمركم** ﴾ : نجعلكم تعمرون .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم - أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لما بين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساماً ثلاثة : ظالم لنفسه ، مقتصد ، سابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين وأنهم يدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وأنهم يحلون فيها من أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير ويقولون حينئذ ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور** ﴾ ، ويقولون إنه أحلنا داراً لا نصب فيها ولا تعب ، وبعد أن بين مالعباده الذين أورثوا الكتاب من النعم في دار السرور التي قال في مثلها القائل :

علياء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسها هجر مسته سراء

أردف ذلك ذكر ما لأضدادهم من النقمة زيادة في سرورهم بما قاسوا في الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائل وجور لا يدوم .

وبعد أن ذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويرفع العذاب عنهم أردف ذلك بيان أنه محيط بالأشياء علما فلو كان لهم نصير فى وقت ما لعلمه .

إلا أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار وكان ذلك مظنة أن يقال كيف يخلدون فى العذاب وقد ظلموا فى أيام معدودات أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم وأنهم صمموا على ما هم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والذى أوحينا إليك من الكتاب** ﴾ المقصود بالذى أوحينا إليك هو القرآن العظيم والخطاب هنا موجه إلى الرسول الكريم ﷺ هو الحق مصدقا لما بين يديه وذلك لقوله تعالى : ﴿ **الله لا اله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان** ﴾[١] .

وكقوله جل شأنه : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه** ﴾[٢] .

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ٢ - ٤ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨

والقرآن حق مطلق وصدق مطلق قال تعالى : ﴿ **وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا** ﴾[١].

وقال تعالى : ﴿ **وكذب به قومك وهو الحق** ﴾[٢].

وقال جل شأنه : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ .

أى : عالم بدقائق الأشياء بصير مطلع على ماتكنه الصدور فقد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ .

فى هذه الآية إخبار منه – عز وجل – عن القائمين بهذا الكتاب الذين شرفهم الله – تعالى – بحمل الرسالة حيث قال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ .

وكفى باصطفاء الله لهم شرفا وقدرا ومجدا ونبلا وبرا وفضلا .

ثم قسمهم تعالى إلى ثلاثة أقسام حيث قال : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾[٤]. قال : هم أمة – محمد ﷺ – ورثهم الله – تعالى كل كتاب أنزله فظالمهم يغفر له ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

وروى أبو القاسم الطبرانى بسنده عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم : ﴿ **شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى** ﴾[٥].

قال ابن عباس – رضى الله عنهما : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ .

---

(١) سورة الاسراء الآية : ١٠٥
(٢) سورة الأنعام الآية : ٦٦
(٣) سورة الزمر الآيتان : ١ ، ٢
(٤) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٨
(٥) المعجم الكبير للطبرانى ١١ / ١٨٩ رقم ١١٤٥٤

﴿ **مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون فى طول المحشر ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿ **الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذى أحلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولايمسنا فيها لغوب** ﴾[(١)].

وروى الحافظ أبو القاسم بسنده عن أسامة بن زيد - رضى الله عنهما - (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) الآية

قال : قال رسول الله ﷺ (كلهم من هذه الأمة)[(٢)]

وروى ابن جرير بسنده عن أبى مسعود - رضى الله عنه - قال : إن هذه الأمة ثلاث أثلاث يوم القيامة ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول الله - عز وجل : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم - تبارك وتعالى - فتقول الملائكة هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك شيئا فيقول الرب عز وجل أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي وتلا عبد الله - رضى الله عنه - هذه الآية ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾[(٣)].

وروى أبو داود الطيالسى عن عقبة بن صهبان الهنائى قال : سألت عائشة - رضى الله عنها - اعن قول الله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذى اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه الآية** ﴾ فقالت لى : يابنى هؤلاء فى الجنة أما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ شهد له رسول الله ﷺ بالحياة والرزق وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق به وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلكم قال فجعلت نفسها معنا وهذا منها - رضى الله عنها - من باب الهضم والتواضع وإلا فهى من أكبر السابقين بالخيرات لأن فضلها فى النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

وقال أبو الجارود : سألت محمد بن على يعنى الباقر - رضى الله عنهما - عن قول الله تعالى : ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ فقال : هو الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة فى جميع الأقسام فى هذه الأمة فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة وأولى الناس بهذه الرحمة فإنهم كما قال الإمام أحمد - رحمه الله - حدثنا محمد بن يزيد حدثنا عاصم بن رجاء بن حيوة عن قيس بن كثير قال : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبى الدرداء - رضى الله عنه -

---

(١) مسند احمد ٥ / ١٩٨

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ١ / ١٣١ رقم ٤١٠

(٣) تفسير الطبرى ٢٢ / ٨٨

(٤) مسند أبو داود الطيالس ٦ / ٢٠٩ رقم ١٤٨٩

وهو بدمشق فقال : ما أقدمك أى أخى قال حديث بلغنى أنك تحدث به عن رسول الله ﷺ قال : أما قدمت لتجارة ؟ قال : لا قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال لا قال : أما قدمت إلا فى طلب هذا الحديث ؟ قال : نعم قال رضى الله عنه فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : (من سلك طريقا يطلب فيها علما سلك الله تعالى به طريقا إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وأنه ليستغفر للعالم من فى السماوات والأرض حتى الحيتان فى الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر[1]، وقد تقدم فى أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ .

قال : ﴿ يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء : إنى لم أضع علمى وحكمتى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان ولا أبالى ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿ ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ أى : ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم لا يقدر قدره .

وبعد ذلك جاء بيان ذلك الفضل مفصلا فى قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن يدخلونها** ﴾ المقصود بعدن الإقامة يدخلونها يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين .. ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا** ﴾ كما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال (تبلغ الحلية من المؤمن من حيث يبلغ الوضوء) ، وذلك كما فى قول تعالى : ﴿ **إن الذين أمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا** ﴾[3].

قوله تعالى : ﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ لأنهم امتثلوا لأمر الله فى الدنيا فلم يلبسوه لأنه كان محظورا عليهم فالبسهم الله تعالى إياه فى الجنة وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (من لبس

---

(١) مسند أحمد ٥ / ١٩٦

(٢) سنن أبى داود - كتاب العلم - باب الحث على طلب العلم ، وتحفه الأحوذى كتاب العلم أيضا - باب فى فضل الفقه على العبادة ٤٥٠/٧ رقم ٢٨٢٢ وسنن أبى ماجة المقدمة - باب فى فضل العلماء والحث على طلب العلم ٨١/١ رقم ٢٢٣

(٣) سورة الكهف الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

الحرير فى الدنيا فلن يلبسه فى الآخرة وقال هى لهم فى الدنيا ولكم فى الآخرة) . قال تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾(١).

لا تركنــن إلى الــقصور الفاخــرة وإذكــر عظــامك حين تمسى ناخــرة
وإذا رأيت زخــارف الدُنيــا فقــل يارب إن العـــــيش عيش الآخرة

روى ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : إن أبا أمامة - رضى الله عنه - حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم وذكر حلى أهل الجنة فقال : « مسورون بالذهب والفضة مكللة بالدر وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة وعليهم تاج كتاج الملوك شباب جرد مرد مكحولون »(٢).

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن** ﴾ أى ماكنا نحذره من الهموم والخوف وما من شك فى أن هذه نعمة ما تدانيها نعم بعد الإيمان بالله ورسوله قال تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتاهم من عملهم من شىء ، كل أمرىء بما كسب رهين وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾(٣) وقد قالوا أيضا فى موضع آخر : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين** ﴾(٤) وإنما جاء الحق هنا وفى هذا المقام بالذات لأن فيه القضاء يقتضى الحمد لذا جاءت سورة الأنعام بعد سورة المائدة لأن فى آخر المائدة فصل القضاء وفى أول الأنعام الحمد قال تعالى : ﴿ **هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شىء قدير** ﴾(٥) ثم قال تعالى فى أول سورة الأنعام : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض** ﴾(٦) وهنا حمدوا الله الذى أذهب عنهم الحزن وقضى لهم بالجنة ونعيمها .

---

(١) سورة الحج الايتان ٢٣ ، ٢٤

(٢) الدر المنثور للسيوطى ٢٦/٧ طبعة دار الفكر

(٣) سورة الطور الآيات : ١٧ - ٢٨

(٤) سورة الزمر الآية : ٧٤

(٥) سورة المائدة الآيتان : ١١٩ ، ١٢٠

(٦) سورة الأنعام الآية : ١

وفى سورة الأعراف يقول تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار** ﴾[(١)]

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبى عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ (ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم ويقولون الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن)[(٢)].

قوله تعالى : ﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾ قال ابن عباس وغيره غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات .

قوله تعالى : ﴿ **الذى أحلنا دارا لمقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب** ﴾ .

وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد لله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ملء السموات والأرض وملء ما فيهما وملء ما شاء من شىء بعد لقد أدخلهم دار المقامة الدائمة من فضله لا بأعمالهم فإن الأعمال مهما عظمت وكثرت فإن نعمة الجنة والإقامة فيها نعمة لا تدانيها الأعمال وكثرتها ولذلك فإنهم يدخلونها بفضل الله ويتقاسمون درجاتها بأعمالهم قال تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾[(٣)] .

جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : (لن يدخل أحدا منكم عمله الجنة) قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال (ولا أنا أن يتغمدنى الله تعالى برحمة منه وفضل) ومن نعم الله تعالى عليهم فى دار الخلد أنهم لا يمسهم فيها نصب أى إعياء ولا لغوب أى تعب والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم أى لا يمسنا فيها أى نصب ولا أى لغوب قليلا كان أم كثيرا ، لقد ولت الدنيا بهمومها وكربها وهم الآن فى دار السلام ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ۞ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم** ﴾[(٥)].

﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾[(٦)] .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٢ ، ٤٣
(٢) الكامل لابن عدس ١٥٨٢/٤
(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٩
(٤) البخارى - كتاب الرقاق - باب القصد والمداومة على العمل ١٢٣/٨
ومسلم - كتاب صفة القيامة والجنة والنار - باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ١٣٩/٨ رقم ١٤٠
(٥) سورة يس الآيات :
(٦) سورة البقرة الآية : ٢٥

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها فالموت لاشك يفنينا ويفنيها
طوأعمل لدار غدا رضوان خازنها والجار أحمد والرحمن ناشيها
قصورها ذهب والمسك طينتها والزعفران حشيش نابت فيها

قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور * وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ .

هذا وعيد يأتى بعد الوعد وفيه بيان الحال الأشتياق ﴿ **الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار وجعلوا لله أندادا ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار** ﴾(١) .

وجاء فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ وقال : ﴿ **أما أهل النار الذى هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون** ﴾(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ **ونادوا يا مالك ليقضى علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾(٣) فهم فى حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ولكن لا سبيل إلى ذلك قال الله تعالى : ﴿ **لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ كما قال : تعالى ﴿ **إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون * لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون * وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾(٤) وقال سبحانه : ﴿ **كلما خبت زدناهم سعيرا** ﴾(٥) وقال : ﴿ **إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾(٦) .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك نجزى كل كفور** ﴾ هذا منطق العدالة الإلهية أى : نجزى هذا الجزاء كل كفور جحود فالناس مجزيون بأعمالهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر ﴿ **إن الله لا يظلم الناس شيئا**

---

(١) سورة إبراهيم الآيات : ٢٨ - ٣٠

(٢) صحيح مسلم - كتاب الايمان - باب اثبات الشفاعة واخراج الموحدين من النار ١٧٢/١ رقم ١٨٥ وابن ماجه فى الزهد - باب ذكر الشفاعة ١٤٤٠/٢ رقم ٤٣٠٩

(٣) سورة الزخرف الآيتان : ٧٧ ، ٧٨

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٧٤ - ٧٦

(٥) سورة الاسراء الآية : ٩٧

(٦) سورة هم الآيات : ٢١ - ٣٠

ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾(١) ﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴾(٢) ﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾(٣) ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾(٤) ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾(٥). ثم يبين الله حالهم فى النار فقال تعالى : ﴿ إنا اعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾(٦) إنهم يستغيثون يقولون : ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل ﴾ ولكن هيهات لقد كنتم فى الدنيا لاهين عابثين وكانت الدنيا دار عمل ولا حساب أما الآخرة فدار حساب ولا عمل قال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون * قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾(٧).

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون * وقالوا إن هى الا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذقوا العذاب بما كنتم تكفرون * قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة

---

(١) سورة يونس الآية : ٤٤
(٢) سورة النحل الآية : ١١١
(٣) سورة آل عمران الآية : ٢٥
(٤) سورة آل عمران الآية : ٣٠
(٥) سورة الزخرف الآية : ٧٦
(٦) سورة الكهف الآية : ٢٩
(٧) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ - ١١٨

بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴾[١].

وقال جل شأنه : ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾[٣].

وهنا يقول لهم مولانا تبارك اسمه : ﴿ أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ﴾ أى لقد أعطيناكم العمر فى الدنيا بحيث من أراد أن يتذكر كان له ذلك ولكنكم اتخذتم الدنيا لهوا ولعبا وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ ﴿ وجاءكم النذير ﴾ وقد جاءكم النذير وأرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم وأنزلنا إليكم كتابا يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم فذوقوا جزاء ما قدمت أيديكم فما للظالمين من نصير ولا معين ﴿ هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير ﴾[٤].

ثم يثبت الله تعالى علمه الشامل المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض فيقول سبحانه : ﴿ إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾ . فلا أحد يعلم الغيب إلا الله : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾[٥] فقد علم ماكان وعلم مايكون وعلم ماسيكون وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون .

قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين وهو الذى

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٢٧ - ٣١

(٢) سورة الحج الآيات : ١٩ - ٢٢

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٠

(٤) سورة غافر الآيات : ١٣ - ٢٠

(٥) سورة النمل الآية : ٦٥

يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعلمون ﴾[١] .

بل إن علمه قد بلغ ما هو أدق وأعمق أنه عليم بذات الصدور وما تنطوى عليه النفوس ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ وقد علم ما انطوت عليه صدور هؤلاء من الجحود والكفر لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا .

﴿ قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم وأستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ثم إنى دعوتهم جهارا ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا ﴾[٢] .

مواقف وعبر :

قال تعالى :

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۚ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ

(١) سورة الأنعام الآيتان : ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) سورة نوح الآيات ٥ – ٩ .

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

معانى المفردات :

﴿ **خلائف** ﴾ : جمع خليفة . ﴿ **مقتا** ﴾ : غضبا شديدا . ﴿ **شرك** ﴾ : شركة . ﴿ **غرورا** ﴾ : باطلا . ﴿ **نزولا** ﴾ : من الزوال أى يمنعهما منه . ﴿ **جهد أيمانهم** ﴾ : طاقتها وغايتها . ﴿ **نفورا** ﴾ : أعراضا وتباعدا عن الهدى . ﴿ **يحيق** ﴾ : يحيط . ﴿ **ينظرون** ﴾ : ينتظرون . ﴿ **ليعجزه** ﴾ : ليسبقه ويفوته .

المناسبة وإجمال المعنى :

بعد ما بين – سبحانه – أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ماهو فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم . أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض ﴿ **فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا** ﴾ ثم أكد هذا بأمره ﷺ أن يقول لهم ما يضطرهم إلى الإعتراف بوحدانيته وعدم اشراك غيره معه ، وبعد أن ذكر – سبحانه – تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام ، وبكتهم على هذا أشد التبكيت ، وضرب لهم الأمثال ، ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم ، أردف ذلك ذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ، ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضا فقالت اليهود : ليست النصارى على شيء وقالت النصارى : ليست اليهود على شيء ، ثم هددهم بان عاقبتهم ستكون الهلاك الذى لا محيص عنه ، وتلك سنة الله فى الأولين من قبلهم وسنته لا تبديل فيها ولا تحويل ثم نبههم إلى ذلك بما يشاهدونه من أثارهم فى رحلاتهم للتجارة فى الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منازلهم وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العدد والعدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لا يعجزه شيء إذا أراده .

ثم ذكر حلمه بعباده وإنه لو آخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

التفســير :

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض** ﴾ أى يخلف قوم لآخرين قبلهم وجيل لجيل قبليهم كما قال تعالى : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾[١].

وقوله تعالى : ﴿ **فمن كفر فعليه كفره** ﴾ أى فإنما يعود وبال ذلك على نفسه دون غيره ولن يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئا .

﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا** ﴾ أى : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم واهليهم يوم القيامة ﴿ **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾[٢].

وهذا بخلاف المؤمنين فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته فى الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارؤه رب العالمين .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينت منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا** ﴾ .

يقول تعالى لرسوله أن يقول للمشركين : ﴿ **أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله** ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ **أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات** ﴾ أى ليس لهم شىء من ذلك ما يملكون من قطمير كما قال تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين * ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾[٣]. وكقوله تعالى : ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم * هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[٤]. وكقوله تعالى فى أول هذه السورة التى بين أيدينا ﴿ **والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب إن ذلك على الله يسير * وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس**

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٦٥

(٢) سورة الأحقاف الآيات : ٤ - ٦

(٣) سورة الأحقاف الآيات : ٤ - ٦

والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **أم آتيناهم كتابا فهم على بينت منه** ﴾ أى : أم أنزلنا عليهم كتابا بما يقولونه من الشرك والكفر ؟

كما قال تعالى ﴿ **أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** ﴾[٢]. ﴿ **بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا** ﴾ أى : بل إنما اتبعوا فى ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التى تمنوها لأنفسهم وهى غرور وباطل وزور .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا** ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته العظيمة التى بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة والماسكة لهما فقال : ﴿ **إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا** ﴾ أى : أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عز وجل : ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾[٣]. وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ **ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾ أى ما أمسكهما من أحد من بعده ، لايقدر على دوامهما وابقائهما الا هو . وهو مع ذلك حليم غفور أى : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ويستر آخرين ويغفر ، ولهذا قال : ﴿ **إنه كان حليما غفوراً** ﴾ وذلك كقوله تعالى : ﴿ **أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾[٥].

وقد جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[٦].

---

(١) سورة لقمان الآيتان : ١٠ ، ١١

(٢) سورة الصافات الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧

(٣) سورة الحج الآية : ٦٥

(٤) سورة الروم الآية : ٢٥

(٥) سورة سبأ الآية : ٩

(٦) مسلم – كتاب الايمان – باب قوله عليه السلام :
« إن الله لاينام .. ١٦/١ رقم ١٧٩ وقد أخرجه ابن ماجه فى المقدمة – باب انكرت الجهمية ٧١/١ رقم ١٩٦ والامام أحمد فى مسنده ٤٠٠/٤ – ٤٠١

قوله تعالى : ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير مازادهم إلا نفورا استكبارا فى الأرض ومكر السىء ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب بما كانوا يصدفون * هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا أقل انتظروا إنا منتظرون * إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾[1] .

ومثله قوله تعالى : ﴿ وإن كانوا ليقولون لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون ﴾[2] وفى الآية إخبار منه سبحانه وتعالى عن هؤلاء الجاحدين المعاندين الذين أقسموا بالله طاقة الأيمان وأغلظها إن جاءهم نذير وبعث فيهم نبى ليكونن أهدى من أى أمة بعث فيها نبى فلما جاءهم نذير وهو محمد ﷺ برسالته الخاتمة ما زادهم ذلك إلا نفورا وشرودا عن الحق ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ وقالوا لن نؤمن من لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولم نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٥٦ - ١٥٩

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٦٧ - ١٧٠

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٣١ - ٣٨

كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا ﴾[١] تلك مواقفهم وهذا عنادهم كما قال تعالى : ﴿ **استكبارا فى الأرض ومكر السيء** ﴾ استكبارا عن قبول الحق : إنهم يغمطون الناس ويبطرون الحق ويمكرون بالمؤمنين مكر السوء ﴿ **ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين** ﴾[٢] ﴿ **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ **وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ أى وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

قال محمد بن كعب القرطبى : ثلاث من فعلهن لم ينجح حتى ينزل به من مكر أو بغى . أو نكث وتصديقها فى كتاب الله تعالى ﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾ ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾[٤] ﴿ **ومن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾[٥].

وقوله عز وجل : ﴿ **فهل ينظرون إلا سنة الأولين** ﴾ يعنى عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره كما قال تعالى : ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون * قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[٦].

قوله تعالى : ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ أى : لا تغير ولا تبدل بل هى جارية فى كل مكذب ﴿ **ولن تجد لسنة الله تحويلا** ﴾ أى : تحولا ولا يكتشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد كما قال تعالى : ﴿ **وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال** ﴾[٧]. وكما قال تعالى : ﴿ **قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون قل هو القادر على أن يبعث عليكم**

---

(١) سورة الاسراء الآيات : ٩٠ – ٩٣

(٢) سورة النمل الآيتان : ٥٠ ، ٥١

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤٦

(٤) يونس الآية : ٢٣

(٥) القمح الآية : ١٠ .

(٦) سورة الأنعام الآيتان : ١٠ – ١١ .

(٧) سورة الرعد الآية : ١١

عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أويلبسكم شيعا * ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ .

ومثل هذه الآية قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها * فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور ﴾[٢] وقوله تعالى فى سورة الروم : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجآءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون ﴾[٣].

وقوله تعالى فى سورة غافر : ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وماكان لهم من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب ﴾[٤].

قوله تعالى : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[٥].

وقوله تعالى فى سورة الأحقاف : ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٦٣ – ٦٥

(٢) سورة الحج الآية : ٤٦

(٣) سورة الروم الآيتان : ٩ ، ١٠

(٤) سورة غافر الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(٥) سورة غافر الآيات : ٨٢ – ٨٥

يرجعون * فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴾[١].

وقوله تعالى فى سورة محمد : ﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾[٢].

فقل لهؤلاء يا محمد أولا تأخذون عبرة من الأمم السابقة وإنكم تمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون اقعدوا ولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم .

﴿ أكفاركم خير من أولائكم أم لكم براءة فى الزبر * أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾[٣].

لقد دمر الله عليهم وما كان الله ليعجزه من شىء أى شىء واللام هنا لام الجحود لأنها مسبوقة بكون منفى وهذا يفيد أن الله تعالى صاحب السلطان الأعلى هو القاهر فوق عباده ﴿ إنه كان عليما قديرا ﴾ لا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض إذ هو خالقهما لا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم ، علم كل شىء وهو القادر على كل شىء .

قوله تعالى : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ على هذا منطق العدل ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا ﴾ هذا منطق الفضل فإن يعاقب فبمحض العدل وإن يثب فبمحض الفضل إن الله لا يعجل كعجلة أحدكم . (إن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)[٤].

ومثل الآية قوله تعالى فى سورة النحل : ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾[٥].

فاللهم عاملنا بفضلك ولا تعاملنا بعدلك بإحسانك ولا تعاملنا بميزانك وعاملنا بما أنت أهله فأنت أهل التقوى وأهل المغفرة ولا تعاملنا بما نحن أهله فكل ابن آدم خطاء .

---

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢٦

(٢) سورة محمد الآيتان : ١٠ ، ١١

(٣) سورة القمر الآيات : ٤٣ - ٤٦

(٤) البخارى - كتاب التفسير - سورة هود - باب وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ٩٤/٦ ومسلم - كتاب البر والصلة - باب تحريم الظلم ١٩٩٧/٤ رقم ٢٥٨٣

(٥) سورة النحل الآية : ٦١

سورة يس

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاجماع عدد آياتها ثمانون وثلاث آيات عند الكوفيين وكلماتها سبعمائة وتسع وعشرون ... وحروفها ثلاثة آلاف .

وللسورة اسمان : سورة يس لافتتاحها وسورة حبيب النجار لاشتمالها على قصته .

مقصود السورة :

تأكيد أمر القرآن والرسالة وإلزام الحجة على أهل الضلالة وضرب المثل فى أهل أنطاكية وذكر حبيب النجار وبيان البراهين المختلفة فى إحياء الأرض الميتة وإبداء الليل والنهار وسير الكواكب ودور الأفلاك وجرى الجوارى المنشآت فى البحار وذلة الكفار عند الموت وحيرتهم ساعة البعث وسعد المؤمنين المطيعين وشغلهم فى الجنة وميز المؤمن من الكافر فى القيامة وشهادة الجوارح على أهل المعاصى بمعاصيهم والمنة على الرسول ﷺ بصيانته من الشعر ونظمه وإقامة البرهان على البعث ونفاذ أمر الحق فى كن فيكون وكمال ملك ذى الجلال على كل حال فى قوله : ﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى** ﴾ سبق فى سورة القصص .

قوله ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ مرتين ليس بتكرار لأن الأولى هى النفخة التى يموت بها الخلق ، والثانية التى يحيا بها الخلق .

قوله : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة** ﴾ وكذلك فى مريم ولم يقل : ﴿ **من دونه** ﴾ كما فى الفرقان بل صرح كيلا يؤدى إلى مخالفة الضمير قبله فإنه فى السورتين بلفظ الجمع تعظيما وقد سبق فى الفرقان .

قوله : ﴿ **فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون** ﴾ وفى يونس : ﴿ **ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا** ﴾ تشابها فى الوقف على (قولهم) فى السورتين لأن الوقوف عليه لازم (وإن) فيها مكسور الابتداء بالحكاية ومحكى القول محذوف ولا يجوز الوصل لأن النبى ﷺ منزه من أن يخاطب بذلك .

قوله : ﴿ **وصدق المرسلون** ﴾ وفى الصافات . ﴿ **وصدق المرسلين** ﴾ ذكر فى المتشابه وما يتعلق بالإعراب لايعد من المتشابه .

وجه اتصالها بما قبلها :

وذلك من وجوه .

١ – لما جاء فى السورة السالفة قوله : ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾ وقوله : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير** ﴾ وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم .

٢ – أنه قال فيما قبلها : ﴿ **وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى** ﴾ وقال فى هذه : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها** ﴾ وقال : ﴿ **والقمر قدرناه منازل** ﴾ .

٣ – ورد فى كلتا السورتين ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار ففى سورة فاطر ﴿ **ذلك هو الفضل الكبير جنات عدن يدخلونها** ﴾ وفى سورة يس : ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون** ﴾ . **وفى سورة فاطر يقول تعالى** : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا** ﴾ . وفى سورة يس : ﴿ **هذه جهنم التى كنتم توعدون اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون** ﴾ .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ
ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم
مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ
لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا
تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾

معانى المفردات :

﴿ **يس** ﴾ يرى كثير من المفسرين أنها من الحروف الهجائية التى افتتح الله بها بعض سور القرآن الكريم ، وروى عن أبى عباس – رضى الله عنهما – وعكرمة والضحاك والحسن وسفيان بن عنينة ان

يس بمعنى يا إنسان . ﴿ والحكيم ﴾ أى : ذى الحكمة ، ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أى : طريق قويم ، من عقائد صحيحه ، وشرائع حقه ، ﴿ حق ﴾ أى : ثبت ووجب ، ﴿ الأغلال ﴾ واحدها غل ، وهو ما تشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، ﴿ والمقمح ﴾ الذى يرفع رأسه ويغض بصره .

قال أبو عبيدة : يقال قمح البعير : إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب . ﴿ من بين أيديهم ﴾ أى : من أمامهم ، ﴿ فاغشيناهم ﴾ أى : فغطينا أبصارهم ، ﴿ والذكر ﴾ القرآن ، ﴿ خشى الرحمن ﴾ أى : خشى عقابه ، ﴿ بالغيب ﴾ أى : قبل حلوله ومعاينة أهواله ، ماقدموا : أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة ،وآثارهم : أى : ما أبقوه بعدهم من الحسنات كعلم علموه ، أو كتاب ألفوه ، أو بناء فى سبيل الله بنوه ، أو من السيئات كغرس بذور الضلالات بين الناس ، ﴿ فى إمام مبين ﴾ أى : فى أصل يؤتم به .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين ﴾ هذا قسم منه – سبحانه عز وجل – بالقرآن الحكيم ولله تعالى أن يقسم بما شاء لكن لا يجوز للعبد أن يحلف إلا بالله ، وله إذا أقسم بالله – تعالى – أن يكون صادقا فى قسمه وألا يقسم إلا إذا دعت الضرورة لذلك ، والله تعالى يقسم بالقرآن الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، وعلى أى شىء يقسم مولانا ؟ يأتى جواب القسم فى قوله تعالى : ﴿ إنك لمن المرسلين ﴾ هكذا مؤكدا بـ ﴿ إن ﴾ و ﴿ اللام ﴾ وفى القسم وجوابه رد على كل كفار أثيم ، ورد على المنكرين لنبوة خير الأنام ﷺ والذى قال له ربه فى التوارة كما قال له فى القرآن : (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر)

ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح بها أعينا عميا وآذانا صما ، وقلوبا غلفا .

قوله تعالى : ﴿ على صراط مستقيم ﴾ كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ وكما جاء فى قوله – عز وجل : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر

(١) سورة الأنعام الآية : ١٥٣

وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ أى : هذا الصراط والمنهج والدين الذى جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ **حم - تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون** ﴾[٢]. وكما قال سبحانه : ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴿ صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ **لتنذر قوما ما آنذر آباؤهم فهم غافلون** ﴾ يعنى بهم العرب فإنه ما آتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفى من عدائهم لقوله سبحانه : ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾[٤] ولقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٥].

قوله تعالى : ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم** ﴾ قال ابن جرير : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد سجل عليهم فى أم الكتاب أنهم لا يؤمنون (فهم لا يؤمنون) بالله ولا يصدقون رسله .

قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ﴿ وجعلنا من أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾

قال العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون** ﴾ قال هو كقوله عز وجل : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك** ﴾[٦] يعنى بذلك أن أيديهم موثقة إلى أعناقهم لا يستطيعون أن يبسطوها بخير .

وقال مجاهد : ﴿ **فهم مقمحون** ﴾ قال رافعى رءوسهم وأيديهم موضوعة على أفواههم فهم مغلولون عن كل خير .

قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سدا** ﴾ قال مجاهد عن الحق ﴿ **ومن خلفهم سدا** ﴾ قال مجاهد : عن الحق فهم يترددون وقال قتادة : فى الضلالات .

---

(١) الأنعام الآيات : ١٦٣ - ١٦٥

(٢) سورة فصلت الآيات : ١ ، ٢ ، ٣

(٣) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٥٨

(٥) سورة الأنبياء الآية ١٠٧

(٦) سورة سراء الآية : ٢٩

وقوله تعالى : ﴿ **فأغشيناهم** ﴾ أى أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ **فهم لا يبصرون** ﴾ أى : لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ! جعل الله تعالى هذا السد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه وقرأ : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾(١) ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع وقال عكرمة : قال أبو جهل : لئن رأيت محمدا لأفعلن ولأفعلن فأنزلت : ﴿ **إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا – إلى قوله – فهم لا يبصرون** ﴾ قال وكانوا يقولون هذا محمد فيقول أين هو ؟ لايبصره ، وروى أنه – ﷺ – خرج من داره مهاجرا وفى يده حفنة من تراب وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يدرها على رءوسهم ويقرأ (يس والقرآن الحكيم حتى انتهى إلى قوله تعالى وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك من الدار فقال مالكم ؟ قالوا : ننتظر محمدا قال : قد خرج عليكم فما بقى منكم من رجل الا وضع على رأسه ترابا ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب .

قوله تعالى : ﴿ **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ أى : قد ختم الله عنيهم بالضلالة فما يفيد فيهم الانذار ولا يتأثرون به كما قال سبحانه : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر** ﴾ أى : إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر وهو القرآن العظيم ﴿ **وخشى الرحمن بالغيب** ﴾ أى : حيث لا يراه أحد إلا الله – تبارك وتعالى – يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل كما قال تعالى : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾(٣) قوله تعالى : ﴿ **فبشره بمغفرة** ﴾ أى لذنوبه ، ﴿ **وأجر كريم** ﴾ أى : كثير واسع .

كما قال تعالى : ﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾(٤) وكما فى قوله سبحانه : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن**

---

(١) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٦ ، ٧

(٣) سورة فاطر الآية : ١٨

(٤) سورة الملك الآية : ١٢

بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾[١].

ثم قال سبحانه : ﴿ **إنا نحن الموتى** ﴾ أى : يوم القيامة ، وفيه اشارة إلى أن الله تعالى يحيى قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب فى سورة الحديد : ﴿ **اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ **ونكتب ما قدموا** ﴾ أى : من الأعمال ، وفى قوله تعالى ﴿ **وآثارهم** ﴾ قولان (أحدهما) نكتب أعمالهم التى بأشروها بأنفسهم وآثارهم التى اثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضا إن خيرا فخير وإن شرا فشر كقوله ﷺ (من سن فى الاسلام سنة حسنة كان له اجرها واجر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن فى الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير ان ينقص من اوزاهم شيئا . رواه مسلم[٣]

وروى مسلم أيضا عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث . علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية من بعده)[٤].

(والقول الثانى) ان المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية قال مجاهد : (ما قدموا) أعمالهم ﴿ **وآثارهم** ﴾ قال خطاهم بأرجلهم وكذلك قال الحسن وقتاة .

وقد وردت فى هذه المعنى أحاديث منها .

أخرج الأمام أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : إنه بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد) قالوا نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك فقال – ﷺ – يابنى سلمة (دياركم تكتب اثاركم دياركم تكتب اثاركم)[٥] رواه مسلم أى : الزموا دياركم تكتب آثاركم .

وأخرج الأمام أحمد بسنده عن عبد الله عمرو – رضى الله عنهما – قال : توفى رجل بالمدينة فصلى عليه النبى ﷺ وقال « ياليته مات فى غير مولده فقاا. رجل من الناس ، ولم يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ « إن الرجل إذا توفى فى غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره فى الجنة »[٦].

---

(١) سورة ق الآيات : ٣١ – ٣٥

(٢) الحديد الآية : ١٧

(٣) مسلم – كتاب الزكاة – باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وإنها حجاب من النار ٣ – ٧٠٥ رقم ١٠١٧

(٤) مسلم – كتاب الوصية – باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد وفاته ١٢٥٥/٣ رقم ١٦٣١

(٥) مسند الامام أحمد ٣ / ٣٣٢

(٦) مسند الامام أحمد ٧٧/٢ ورواه النسائى – كتاب الجنائز

وهذا القول لاتنافى بينه وبين الأول بل فى هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأخرى فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلان تكتب تلك التى فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين** ﴾ أى وجميع الكائنات مكتوب فى كتاب مسطور مضبوط فى لوح محفوظ (والأمام المبين) قال مجاهد وقتادة وغيرهما : هو أم الكتاب قال تعالى : ﴿ **وكل شىء فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر** ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ماعملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ **ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ۝ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾[2] .

أصحاب القرية مع رسلهم

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ
لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟
لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ
قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟
مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ
مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا
لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ *

(١) سورة القمر الآيتان : ٥٢ – ٥٣
(٢) سورة الكهف الآية : ٤٩
(٣) سورة التحريم الآية : ١٠
(٤) سورة الجاثية الآيات : ٢٧ – ٢٩

معانى المفردات :

﴿ **ضرب المثل** ﴾ : يستعمل تارة تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما فى قوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا للذين كفروا إمرأة نوح** ﴾ الآية ويستعمل أخرى فى ذكر حال غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : ﴿ **وضربنا لكم الأمثال** ﴾ أى وبينا لكم أحوالا غاية فى الغرابة كالأمثال والقرية : قيل أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة . ﴿ **فعززنا** ﴾ أى : فقوينا وشددنا ، ﴿ **البلاغ المبين** ﴾ أى : التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ، ﴿ **تطيرنا** ﴾ أى : تشاء منا ، ﴿ **لنرجمنكم** ﴾ : أى : لنرميكم بالحجارة ، ﴿ **طائركم** ﴾ : أى : سبب شؤمكم ﴿ **مسرفون** ﴾ : أى يجاوزون الحد فى العصيان ، ﴿ **أقصى المدينة** ﴾ أى : أبعد مواضعها ، ﴿ **يسعى** ﴾ : أى : يعدو ويسرع ، ﴿ **لاتغن** ﴾ : أى : لاتنفع ، ﴿ **ولا ينقذون** ﴾ : أى : لا يخلصونى . ﴿ **من جند من السماء** ﴾ جند السماء ملائكة الوحى أو ملائكة تنزل بالعذاب ﴿ **خامدون** ﴾ : ميتون وهامدون كالرماد الخامد .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لا يؤمنون – اردف ذلك ذكر مثل لقوم حالهم كحالهم فى الغلو فى الكفر والاصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل وصم الآذان عن سماع الوعظ والارشاد ، وهو أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام ، فقد كان قصصهم مع رسل الله كقصص قومك معك ، فى العناد والاستكبار والعتو والطغيان .

التفسـير :

قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون** ﴾ يقول تعالى : واضرب لهم يا محمد أى لقومك الذين كذبوك وجادلوك اضرب لهم مثلا وهو شأن أصحاب القرية وحالهم العجيبة مع رسلهم الذين أرسلوا إليهم والذين جاء تفصيلهم فى قوله تعالى : ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث** ﴾ أى : قويناهما بثالث فلما ذهب الثلاثة إليهم قالوا : إنا إليكم مرسلون والمقصود بالقصة مغزاها ومعناها ومرواها لذا فإن القرآن لا يعول على الأسماء ، حتى يكون هناك تركيز على المغزى والمعنى . فماذا قال له أصحاب القرية ؟ ﴿ **قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ وتلك كلمة جاءت على السنة المكذبين من قبلهم فقد قيل فى شأن نوح : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾[1] وجاء فى شأن هود وصالح مع عاد وثمود قوله تعالى : ﴿ **فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾[2] .

(١) سورة المؤمنون الآيات : ٢٣ – ٢٥
(٢) سورة فصلت الآيتان : ١٣ ، ١٤

وجاء فى شأن غيرهم من الأنبياء قوله تعالى فى سورة إبراهيم : ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم ﴾ .

﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ، قالت رسلهم أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى وقالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين ، قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[١].

وجاء فى سورة المؤمنون قوله تعالى : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾[٢].

وجاء فى شأن خاتم الأنبياء ﷺ ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ﴾[٣].

وقوله : ﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا * أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾[٤] فانظر كيف اتحدت كلمة الباطل على ألسنتهم مع بعد الزمان أو المكان . ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ولذا قال تعالى : ﴿ أتواصوا به بل هم قوم طاغون * فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾[٥] وكأن البشرية أصبحت تهمة توجه إلى الأنبياء ، ألم يعلم هؤلاء المكذبون أن الله تعالى جعل الأنبياء بشرا حتى يكونوا على دراية بأحوال البشر ، وحتى يقفوا من مشاكل البشرية موقف الاصلاح فى نور الوحي يأكلون ويشربون ويتزوجون ويتناسلون ويعملون وينامون ويمرضون ولو كانوا ملائكة لكانوا بمعزل عن طباع البشر لذا قال تعالى : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا * قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم إنه كان بعباده خبيرا بصيرا ﴾[٧].

---

(١) سورة إبراهيم الآيات : ٩ – ١١
(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٣١ – ٣٧
(٣) سورة الاسراء الآية : ٩٤
(٤) سورة الفرقان الآيات : ٧ – ٩
(٥) سورة فصلت الآية : ٤٣
(٦) سورة الذرايات : ٥٣ – ٥٥
(٧) سورة الاسراء الآيتان : ٩٥ ، ٩٦

وقال ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ولو جعلناه ملكا لجعلنا رجلا وللبسنا عليهم مايلبسون ولقد استهزى برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(١)

وهؤلاء القوم الذين هم أصحاب القرية تمادوا فى عنادهم حتى قالوا لرسل الله : ﴿ وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم ألا تكذبون ﴾ لقد انكروا الرسالة من أصلها ورموا صدق البشر بالكذب والكذب رذيلة من أحط الرذائل إذ هى أصل كل ذنب .

فماذا قال الرسل ، زادوا الأمر توكيدا : ﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ فأسندوا إرسالهم إلى علم الله ، وعلم الله لا يقبل الجدل ، فعلمه حقيقة وحقائق الأشياء ثابتة والعلم بها متحقق خلافا للسوفسطائية ، كذلك أكدوا الأسلوب بـ (إن) و (اللام) المؤكدة ﴿ إنا إليكم لمرسلون ﴾ ثم بينوا لهم مهمة الرسل فقالوا : ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ماتبدون وما تكتمون ﴾(٢) وكما قال سبحانه ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ماحملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ ﴾(٣) فماذا قال القوم لرسلهم بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ، قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ .

قال قتادة المقصود بذلك : إنا اصابنا شر فإنما هو من أجلكم وقال مجاهد يقولون : لم يدخل مثلكم إلى قرية إلا عذب أهلها ، وكما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾(٤).

ثم أوعدوا الرسل وهددوهم قائلين : ﴿ لئن لم تنتهوا ﴾ أى : تكفوا عن قولكم هذا ﴿ لنرجمنكم ﴾ أى : بالحجارة ﴿ وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ وهذا شرح للرجم كما قال قوم شعيب له ﴿ يا شعيب مانفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾(٥) وكما قال آزر لأبنه إبراهيم : ﴿ أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ﴾(٦).

فماذا قال الرسل ؟ لقد قالوا لهم بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : ﴿ طائركم معكم ﴾ أى : مردود عليكم ولسنا سببا فى هذا التشاؤم لأننا مؤمنون بأن كل شىء بقضاء الله وقدره .

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ٨ - ١١
(٢) سورة النور الآية : ٥٤
(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣١
(٤) سورة هود الآية : ٩١
(٥) سورة مريم الآية : ٤٦

وقوله تعالى : ﴿ **أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ أى : أئن ذكرتم بتوحيد الله والايمان به وبرسله أعرضتم ورميتمونا بما ليس فينا بل أنتم قوم مسرفون على أنفسكم بالذنوب والخطايا .

قوله تعالى : ﴿ وجاء من أقصا المدينة رجل يسعى قال ياقوم اتبعوا المرسلين * إتبعوا من لايسألكم أجرا وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، أأتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لاتغنى عنى شفاعتهم شيئا ولاينقذون إنى إذا لفى ضلال مبين إنى آمنت بربكم فاسمعون ﴾ .

قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – وكعب الأحبار ووهب بن منبه : إن أهل القرية هموا بقتل رسلهم فجاءهم رجل من أقصى المدينة قال قتادة : كان يتعبد فى غار هناك جاءهم يسعى أى : لينصرهم من قومه .

﴿ **قال ياقوم اتبعوا المرسلين** ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم ﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجراوهم مهتدون** ﴾ أى : إبلاغ الرسالة ، وتلك رسالات الأنبياء جميعا لا يسألون الناس على تبليغها أجرا ، إقرا معى ما جاء فى سورة الشعراء : ﴿ **كذبت قوم نوح المرسلين * إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين** ﴾[١].

وهكذا جاء على لسان هود وصالح ولوط وشعيب وفى شأن المرسلين يقول تعالى فى سورة سبأ ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو كل شىء شهيد** ﴾[٢] وهذا دليل من أدلة صدق النبوة لا يسألون الناس على التبليغ أجرا إنما يسألون الأجر والمثوبة من العلى العظيم .

ثم يقول ذلك الرجل الصالح : ﴿ **وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون** ﴾ كما جاء على لسان الخليل إبراهيم فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية فى عقبة لعلهم يرجعون** ﴾[٣].

ثم يقول ذلك العبد الصالح : ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة** ﴾ هذا سؤال تسيل له النفس مرارة والكبد لوعة أهناك آلهة غير الله ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين * ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين**

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ١٠٥ – ١٠٩

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٧

(٣) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ – ٢٨

يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون * إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾(١) ومثل الآية قوله تعالى: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون ﴾**(٢).

لذا أكد ذلك العبد الصالح هذا المعنى قائلا ﴿ **إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون** ﴾.

إذ هم لا يملكون الشفاعة قال تعالى: ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض وما لهم فيهما من شرك وماله منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾(٣) وقال: ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لايستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾(٤).

أنهم كما لا يملكون الشفاعة، لايستطيعون أن ينقذوا أحدا من عذاب الله لأنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يستطيعون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾. ثم قال العبد الصالح: ﴿ **إنى إذا لفى ضلال مبين** ﴾ أى إن اتخذت آلهة غير الله وعبدت غيره فإنى فى ضلال مبين واضح، ثم بعد هذا التسلسل يصل إلى تقرير الحقيقة العليا التى لايجادل فيها إلا كل ختار كفور فيقول:

﴿ **إنى آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ كما جاءت هذه الحقيقة على لسان خليل الرحمن إبراهيم فى قوله تعالى: ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون * قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون * قال أفرأيتم ماكنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين، والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين** *

---

(١) سورة الأعراف الآيات: ١٩٤ - ١٩٧

(٢) سورة الزمر الآية: ٣٨

(٣) سورة سبأ الآيتان: ٢٢، ٢٣

(٤) سورة الأحقاف الآيتان: ٥، ٦

(٥) سورة الأنعام الآيتان: ١٧، ١٨

والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين * رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين * واجعل لى لسان صدق فى الآخرين * واجعلنى من ورثة جنة النعيم * وأغفر لأبى إنه كان من الضالين * ولا تخزنى يوم يبعثون * يوم لا ينفع مال ولا بنون * إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[1].

قوله ﴿ **فاسمعون** ﴾ قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – يقول لقومه : ﴿ **إنى آمنت بربكم** ﴾ الذى كفرتم به ﴿ **فاسمعون** ﴾ أى : فاسمعوا قولى ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله : ﴿ **إنى آمنت بربكم** ﴾ أى : الذى أرسلكم ، ﴿ **فاسمعون** ﴾ أى : فاشهدوا لى بذلك عنده كما حكاه ابن جرير عن بعض العلماء .

قوله تعالى : ﴿ **قيل ادخل الجنة قال ياليت قومى يعلمون ، بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ .

قال محمد بن اسحاق بسند .. عن ابن مسعود أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج مسعاؤه من دبره ، وقال الله له : ﴿ **ادخل الجنة** ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ﴿ **قال ياليت قومى يعلمون * بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ . قال ابن عباس : نصح قومه فى حياته بقوله : ﴿ **يا قوم اتبعوا المرسلين** ﴾ وبعد مماته فى قوله : ﴿ **ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ وعن أبى مجلز ﴿ **بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ بإيمانى بربى وتصديقى المرسلين والمقصود أنهم لو أطلعوا على ما حصل له من هذا الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل فرحمه الله ورضى عنه فقد كان حريصا على هداية قومه .

قال إن أبى حاتم بسنده عن عروة بن مسعود الثقفى – رضى الله عنه أنه قال : للنبى ﷺ ابعثنى إلى قومى أدعوهم إلى الإسلام فقال رسول الله ﷺ (إنى أخاف أن يقتلوك) فقال : لو وجدونى نائما ما أيقظونى فقال له رسول الله ﷺ : (انطلق) فانطلق فمر على اللات والعزى فقال لاصبحنك غدا بما يسوءك فغضبت ثقيف فقال : : يا معشر إن الات لالات وان العزى لا عزى أسلموا تسلموا قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله فبلغ رسول الله ﷺ فقال . (هذا مثله كمثل صاحب يس) ﴿ **قال ياليت قومى يعلمون بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين** ﴾ .

---

(١) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ – ٨٩

قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ (٢٩) يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾

يخبر سبحانه وتعالى ما أنزل على قوم هذا العبد المؤمن الذى قتلوه لتبليغه إياهم كلمة التوحيد ما أنزل من السماء ملائكة للانتقام وانزال العذاب بل لقد كان أكبر من هذا وأهون قال تعالى : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون** ﴾ أى قد ذهبت منهم حرارة الحياة فأصبحوا أجسادا هامدة لا ترى فيها حركة فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .

﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾ [١]

يقول جل شأنه فى شأن الظالمين : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون** ﴾ [٢] ويقول : ﴿ **ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ [٣]

ويقول : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ [٤]

وقد تكون الصيحة من جبريل كما قد تكون من صوت العذاب النازل من السماء .

قوله تعالى : ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون** ﴾ قال على بن أبى طالب : عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ **يا حسرة على العباد** ﴾ أى يا ويل العباد ، وقال قتادة : ﴿ **يا حسرة على العباد** ﴾ أى : يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعت من أمر الله وفرطت فى جنب الله .

فعلى كل عاقل أن يحذر موقف الندم حيث لا ينفع الندم قال تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا**

---

(١) سوره هود آية ١٠٢

(٢) سورة هود آية ١١٧

(٣) سورة يونس آية ١٣

(٤) سورة هود آية ٨٢ — ٨٣

لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾[٢].

ويقول تبارك اسمه : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾[٣].

قوله تعالى : ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون ﴾ لقد اتفقت كلمة الباطل على الاستهزاء برسل الله ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلّا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾[٤].

قال تعالى : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون ﴾[٥] وقال : ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾[٦] وقال جل جلاله : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٧] إن هؤلاء المكذبين لم يأخذوا العبرة من الأمم السابقة ومن أهل القرون السالفة ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾[٨]

وهؤلاء الظالمون لما أهلكهم الله لم يرجعوا إلى الدنيا مرة أخرى ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾[٩]

---

(١) سورة الأنعام الآيتان : ٢٧ ، ٢٨

(٢) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ ــ ٢٩

(٣) سورة الزمر الآيات : ٥٤ ــ ٥٩

(٤) سورة الذاريات الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

(٥) سورة الأنعام الآية : ١٠

(٦) سورة الرعد الآية : ٣٢

(٧) سورة الأنعام الآية : ٣٤

(٨) سورة الأنعام الآية ٦

(٩) سوره الحاقة آية ٤ — ١٠

﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتيه سخرها عليم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ، وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾[1] أنهم لم يرجعوا إلى الدنيا لأن لهم موعدا يبعثون فيه يوم القيامة قال تعالى : ﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾[2] كقوله جل شأنه : ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ﴾[3] وقال جل شأنه : ﴿ ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴾ وقال جل جلاله : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ وقال : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعدا ﴾[4].

﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾.

من دلائل التوحيد والقدرة

قال تعالى :

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ
مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ
لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ
﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن
مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً

(١) سورة الكهف آية ٤٧
(٢) سورة الكهف آية ٤٩
(٣) سورة الأنعام آية ٩٤
(٤) سورة الكهف آية ٤٨ — ٤٩

مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

تفسير المفردات

﴿ **الميتة** ﴾ المراد التى لا نبات فيها ، ﴿ **جنات** ﴾ بساتين من شجر النخيل والأعناب ، ﴿ **فجرنا** ﴾ شققنا وانبعنا فيها عيونا كثيرة ، ﴿ **سبحان** ﴾ تنزيها لله عما لا يليق به ، ﴿ **الأزواج** ﴾ الأصناف والأنواع المختلفة ، ﴿ **نسلخ** ﴾ نفصل منه النهار ونزيله عنه ، ﴿ **قدرناه منازل** ﴾ الأصل قدرنا له منازل ثم حذفت اللام فقيل قدرناه منازل والمراد جعلنا له منازل ، والمنازل جمع منزل والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة ، وهى فى حسابهم ٢٧ منزلا ، ﴿ **كالعرجون القديم** ﴾ العرجون عود العذق ــ القنو ــ ما بين الشماريخ إلى منبته من النخلة ، ﴿ **فى فلك** ﴾ والفلك هو المدار الذى يدور فيه الكوكب سمى به لاستدارته كفلكة المغزل ،﴿ **يسبحون** ﴾ يسيرون بانبساط وسهولة ، ﴿ **المشحون** ﴾ المملوء ، ﴿ **فلا صريخ** ﴾ فلا مغيث .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدموا من عمل ــ أردف ذلك ما يدل على أن البعث يمكن وليس بمستحيل ، وآية ذلك الأرض الميتة إذا نزل عليها المطر تحيا وتنبت من كل زوج بهيج ، ثم ذكر أنه كان يجب عليهم شكران هذه النعم بعبادة خالقها وترك عبادة غيره مما لا يجديهم نفعا ولا يدفع عنهم ضراً .

ثم أردف ذلك ذكر أحوال الأزمنة من اختلاف الليل والنهار وجريان الشمس والقمر والأجرام السماوية ، وهى مخلوقات عظيمة واقعة تحت قبضته ، يتصرف فيها بعظيم سلطانه ثم ذكر سبحانه نعمة أخرى على الإنسان ، وهى أنه جعل له طريقا يتخذه فى البحر ويسير فيه كما يسير فى البر جلبا لأرزاقه وتحصيلا لأقواته ، من أقاصى البلاد فى أنحاء المعمورة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون * سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ .

وهذه آيات بينات وحجج ساطعات وبراهين واضحات على الوحدانية والبعث والقدرة ، إحياء الأرض بعد موتها بالنبات ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾[1] ويقول سبحانه : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها**

(١) سورة فصلت الآية : ٣٩

الماء اهتزت وربت * وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(١)

ويقول جل شأنه : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد * والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** ﴾(٢) ويقول جل شأنه : ﴿ **أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾(٣).

وقوله تعالى : ﴿ **وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون** ﴾ هذان هما المبدءان اللذان يعتمد عليهما الاقتصاد : مبدأ الإنتاج وهو متمثل فى قوله تعالى : ﴿ **وأخرجنا منها حبا** ﴾ وثانيهما مبدأ الاستهلاك متمثلا فى قوله تعالى : ﴿ **فمنه يأكلون** ﴾ كذلك جاء المبدءان فى قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون** ﴾ هذا مبدأ الإنتاج وقوله تعالى : ﴿ **ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون** ﴾ هذا مبدأ الاستهلاك .

لقد أحيا الله هذه الأرض وأمدها بالماء وأخرج منها الحب وحوّلها إلى جنات من نخيل وأعناب ، وفجر فيها العيون ليأكل العباد من تلك الثمار التى صنعها الله بقدرته وما عملت أيديهم شيئا من هذا ، وكان عليهم أن يشكروا المنعم فإن شكر المنعم واجب ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾(٤).

ويقول جل شأنه : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾(٥)

ويقول جلت قدرته : ﴿ **وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾(٦).

ويقول تبارك وتعالى : ﴿ **أمّن خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات**

---

(١) سورة الحج الآيتان : ٥ - ٦ - ٧

(٢) سورة ق الآيات : ٧ - ١١

(٣) سورة السجدة الآية : ٢٧

(٤) سورة النحل الآيتان : ١٠ - ١١

(٥) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٦) سورة الأنعام الآية : ١٤١

بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا ، وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١)

﴿ يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ (٢)

﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ (٣)

وجل جلال الله إذ يقول : **﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون ، فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ﴾** (٤) وإذ يقول : **﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حباً وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا لكم ولأنعامكم ﴾** (٥) فسبحان من أحسن كل شىء خلقه وسبحان الذى خلق الأزواج كلها والأنواع جميعها مهما اختلفت طعومها وروائحها وأشكالها من نبات وأنفس ومما يعلمه الله ولا نعلمه نحن **﴿ الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأنبتنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ﴾** (٦).

كلمة علمية عن النبات

من كتاب قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر يدور هذا الحديث الممتع الجذاب بين الشيخ وتلميذه .

قال الشيخ : وهذه النباتات ، يا حيران ، التى أتى على ذكرها القرآن فى آيات كثيرة ، وكرر ذكر اختلافها فى الألوان والثمرات ما هو خط المصادفة فى تكوينها ، بأنواعها وأشكالها وطعومها وروائحها وخواصها ومنافعها وهى تنبت فى تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ؟

يقول القرآن الكريم :

﴿ وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء

---

(١) سورة النمل الآيتان : ٦٠ – ٦١

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢١ – ٢٢

(٣) سورة فصلت الآيتان : ٩ – ١٠

(٤) سورة المؤمنون الآيات : ٢٤ – ٣٢ – ١٨ – ٢٠

(٥) سورة عبس الآيتان : ٢٤ – ٣٢

(٦) سورة طه الآيتان : ٥٣ – ٥٤

واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[١].

﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[٢].

﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ﴾[٣].

﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾[٤].

﴿ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد ﴾[٥].

﴿ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾[٦].

فأنظر كيف يسوق القرآن الحجة البالغة على وجود الله وقدرته بمختلف الآيات الدالة على أن هذا التكوين أثر من آثار القصد والإرادة والحكمة ، لا من أثر المصادفة العمياء .

إن العلم نفسه يقف مدهوشا أمام هذه القدرة التى جعلت الأرض الواحدة تنبت أنواعا مختلفة من النبات فيقول العلماء إن العناصر التى تتألف منها النبات معلومة وكلها تمتص غذائها من الأرض من تراب واحد ، وتسقى بماء واحد ، وتتنفس من هواء واحد ، وتصنع غذاءها من كربون واحد فالأقرب إلى المصادفة أن تنبت كلها نوعاً واحداً . فما هو السر الذى يجعلها تختلف بعضها عن بعض فى الثمرات والأكل ، كما قال القرآن حتى لو زرعنا فى مساحة لا تزيد على ذراع مربع من الأرض الحلو والحامض والمر والسام ، وسقيناها بماء واحد نجد أن كل صنف يخرج ثماره المختلفة المتميزة من دون أقل اختلاط أو إمتزاج .. ؟

(١) سورة الرعد الآية : ٤

(٢) سورة الأنعام الآية : ٩٩

(٣) سورة فاطر الآية : ٢٧

(٤) سورة النحل الآيتان : ١٠ — ١١

(٥) سورة ق الآيات : ٧ — ١١

(٦) سورة المؤمنون الآيات : ١٨ — ٢٠

لقد عرف العلم اليوم ، أن الله جلت قدرته جعل فى بذور النبات كما فى بيوض الحيوانات عناصر التخطيط النووى للخلية ، حسب نوع النبات ، وبهذا التخطيط يتبع سيره فى تكوين الثمرات والأكل على اختلاف ألوانها وثمراتها ، فهل كان هذا التخطيط النووى العجيب أثراً من آثار المصادفة يا حيران ؟

ثم أنظر كيف اختار القرآن من أنواع النبات التى تبلغ الملايين الحب والزيتون والنخيل والأعناب والرمان ، خصها بالذكر من بين كل الثمرات التى تنفع الناس ، ليشير إلى وجود القصد و(العناية) فى الخلق . فأنت تعلم أن الأغذية التى نحتاج إليها تتألف ، من المواد النشوية ، السكرية الكربونية ، والمواد الدهنية ، أما البروتينية فيأتيك بيان القرآن لمنابعها عند ذكر الأنعام وأما الثلاثة الأولى ، فالنشوية منها نستخرجها من الحبوب على اختلافها ، والسكرية الكربونية نستخرجها من الأعناب والنخيل والرمان ، وأما الدهنية فنستخرجها من الزيت ـ فتأمل يا حيران ـ تلميذه ـ فى أسرار الخطاب إنه خاطب العرب ، إذ خاطبهم بأشياء يعرفونها ، ووجه المنّ بها ظاهر لهم ، وخاطب من ورائهم أقواما علم الله أنهم سوف يأتون بعد أكثر من ألف سنة ، ليفهموا من ذكر هذه الأنواع ، ما ينطوى تحتها من عناصر التغذية الأولية الضرورية للإنسان ، فضلا عن الحيوان الذى خصه بذكر الأعشاب .

حيران : أرى القرآن يكثر من ذكر الزيتون ، ويصف شجرته بأنها مباركة ، وقد أدخلها فى ضرب المثل عن نور الله .

الشيخ : الزيتون شجرة مباركة ومقدسة عند جميع الأمم التى غمرت حوض البحر المتوسط من قديم الزمان ، وكانت عندهم رمز (الحكمة) (والخصب) (والمجد) ، وهى أكثر ما تنبت فى هذه البقعة المتوسطة التى هى ، كما وصفها الله (لا شرقية ولا غربية) وفى ما جاورها من الأرض المقدسة ، مهد المدنيات ، ومهد الديانات السماوية كلها ...

وكيف لا تكون مباركة وقد باركها الله ، حين جعلها فى عالم النبات من أعجب آيات خلقه ، الدالة على قدرته ، وحكمته ، وعنايته ، بما أكمن لنا فيها من غذاء ودفء ونار ونور ، ما كنا نرجو ولا نتوقع ولا يخطر ببالنا ، أن يكون كامنا كله فى هذه الشجرة ذات الورق الدائم الخضرة ، التى نستخرج منها الدهن غذاء أصيلا لأبداننا ، وصبغا لطعامنا .. ودفئا لأجوافنا ، ونستخرج النار ، والنور ، من زيتها هذا ، الذى يكاد يضىء ولو لم تمسسه نار ... ﴿ **نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء** ﴾ **يا حيران** ...

حديث عن الأرض

أمُّنا الحنواء

قال الشيخ : والآن دعنا ننزل إلى الأرض يا حيران ، لنرى على ضوء القرآن والعلم ما فى خلقها وتكوينها من آيات النظام والإحكام والاتزان والاتقان والحكمة والنعمة ، ثم نتساءل عن حظ المصادفة العمياء الهوجاء

فى تكوين هذا الخلق العجيب العظيم .

يقول الله تعالى : ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم** ﴾ .

﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون** ﴾

﴿ **الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى** ﴾

﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا** ﴾

﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شىء موزون** ﴾

﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾

والأرض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾

﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا * وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾

﴿ **أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾

﴿ **أو لم يروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون** ﴾

﴿ **وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب** ﴾

﴿ **إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين** ﴾

إلى غير ذلك من الآيات التى ورد فيها خلق الأرض وجعلها صالحة للحياة .

فتعال ننظر كما أمرنا الله وعلى ضوء العلم كيف ولماذا كانت الأرض هى السيارة الوحيدة التى أتيح لها أن تكون صالحة للحياة بما خصها الله به من كثافة وجاذبية وحركة وهواء وماء وغير ذلك من أسباب الحياة وهل كان ذلك أثر المصادفة أم هو أثر من أثار القصد والعناية والتنظيم والإحكام نحن أمام سبع سيارات كبار أخرى منها ما هو أقرب إلى الشمس من أرضنا ، ومنها ما هو أبعد ، ومنها ما هو أكبر من أرضنا ، ومنها ما هو أصغر ، ومنها ما هو أسرع من أرضنا دورانا حول الشمس وحول محوره ومنها ما هو أبطأ وكلها بحسب تقدير العلم الذى أرجح أن يكون صحيحا منفتقه عن السماء كما يقول القرآن أو منفصلة عن الشمس كما يقول العلم والمعنى واحد فلماذا كانت أرضنا وحدها صالحة للحياة دون السيارات الأخرى .

فعطارد يدور كالأرض حول نفسه وحول الشمس ولكنه يتم دورته حول نفسه فى مرة ٨٨ يوماً وهى المدة التى

يدور بها حول الشمس أى أنه كالقمر مع الأرض ، أحد وجهيه موجه دائما نحو الشمس فنصفه شمس ونصفه زمهرير وكثافته تقارب نصف كثافة الأرض فالجاذبية فيه قليلة وليس فيه هواء فهو لهذه الأسباب لا يصلح للحياة .

والزهرة التى قيل أن مدة دورانها على نفسها هى مدة دورانها حول الشمس وهى ٢٢٥ يوماً تتجه بأحد وجهيها نحو الشمس دائما مثل القمر وجهها المتجه حرارته ٩٠ درجة والوجه الثانى ٢٠ درجة تحت الصفر وليس فيها هواء ولا ماء بل فيها بخار سميك فمن البديهى أنها لا تصلح للحياة .

والمريخ الذى توهم بعض الباحثين أن فيه حياة يدور حول نفسه كل ٢٤ ساعة مرة مثل الأرض ولكن دورته حول الشمس تتم فى مدة ٦٨٧ يوما وبعده عن الشمس ١٤٢ مليون ميل ـ وحرارته فى النهار بضع درجات فوق الصفر ولكنها فى الليل تنزل إلى ٧٠ درجة تحت الصفر وسطحه بر لا بحر فيه ، ولا ماء على الرأى الراجح وهواؤه مؤلف من غاز الأكسجين وجاذبيته ثلث جاذبية الأرض فلا تكفى لحفظ الأكسجين فى هوائه فهو لهذه الأسباب لا يصلح للحياة أبداً وهذا هو رأى المحققين من العلماء .

والمشترى يتم دورته حول الشمس فى ١٢ سنة ويدور على محوره مرة فى كل عشر ساعات وبعده عن الشمس ٤٨٤ مليون ميل ودرجة الحرارة فيه ١٣٠ تحت الصفر وكثافته ربع كثافة الأرض ويرجحون أنه كرة من النار والمواد الذائبه . فمن البديهى أنه لايصلح للحياة .

وزحل يتم دورته حول الشمس فى ٢٩ سنة ونصف سنة تقريبا ودورته علىأ محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ٨٨٧ مليون ميل ، فيصل إليه من حرارة الشمس جزء مما يصل إلى الأرض . وكثافة أقل من ربع كثافته الأرض ويظهر للعلماء أن مادة مسطحة مائعة متحركة ، فمن البديهى أنه لا يصلح للحياة .

أما أورانوس ونبتون وبلوتو فعدم صلاحها للحياة أظهر لأسباب كثيرة ولا سيما أن الأول يتم دورته حول الشمس فى ٤٨ سنة و٧ أيام ويدور على محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ١٧٨٢ مليون ميل والثانى يتم دورته حول الشمس فى ١٦٩ سنة تقريبا ويدور على محوره فى عشر ساعات وبعده عن الشمس ٢٧٩٢ مليون ميل . وبلوتو يتم دورته حول الشمس فى ٢٤٧ سنة وبعده عنها ٣٦٧٠ مليون ميل فما رأيك يا حيران فى الحياة على سيار الشتاء فيه ٤٢ أو ٨٤ أو ١٢٣ سنة والصيف فيه كذلك ونهاره خمس ساعات وليله خمس ساعات .

فأرضنا التى منّ علينا الله فى آيات كثيرة وذكرنا فى هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة والنظام هى السيار الوحيد الذى جعله الله صالحاً للحياة فقربها من الشمس معتدل والحرارة التى تصل إليها معتدلة وكثافتها تفوق كثافة كل السيارات حتى الشمس وجاذبيتها معتدلة ودورتها اليومية معتدلة وكافية لأحداث نهار

وليل معتدلين صالحين للسعى والراحة ودورتها السنوية معقولة وكافية لاحداث فصول معتدلة صالحة لأرواء الزروع وانضاجها وهى تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة .

فهل كان اجتماع كل هذه الأسباب الصالحة للحياة أثرا من آثار المصادفة يا حيران ؟

حيران ـ سبحان الخلاق العظيم ولكن مولاى الشيخ أشار إلى سبع مزايا جعلت الأرض صالحة للحياة والقرآن أقتصر على ذكر الحكمة فى خلق الأرض وصلاحها للحياة إجمالا ولم يذكر القرب والحرارة والكثافة والجاذبية والدورتين .

الشيخ : وإن المزايا التى ذكّرتك بها يا حيران إنما هى المزايا الرئيسية وسوف أذكّرك بما ينطوى تحتها من مزايا وخواص أما المزايا السبع فقد ذكرها القرآن بكلام يفهم العالم بواطنه ويفهم الجاهل ظواهره فالقرب المعتدل والحرارة المعتدلة مشار إليهما ضمناً بما هى عليه الأرض من صلاح للحياة والزرع .

والكثافة والجاذبية مشار إليهما بوضوح بقوله تعالى : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قراراً** ﴾ فلولا الجاذبية ما كان لنا ولا لشىء على الأرض قرار أبداً والدورة اليومية مشار إليها بوضوح بذكر الليل والنهار وبذكر مرور الجبال مر السحاب وبذكر الظل وقبضه بغياب الشمس والدورة السنوية مشار إليها بوضوح بذكر الأمطار فهل تريد من العليم الحكيم أن يفصّل ناموس الكثافة والجاذبية ويشرح الدورة السنوية وشكل المدار وميل الأرض فى عصر لم يكن للإنسانية به علم بهذه الأمور وفى خطاب قوم لم يسمعوا بها فضلا عن أن يدركوا معانيها ؟

وهذه الاشارات إلى ذكر الدورة اليومية وحصول الليل والنهار بسببها كثيرة فى القرآن ولا سيما الآيات الآتية :

﴿ **إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾

﴿ **إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾

﴿ **ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾

﴿ **يكّور الليل على النهار ويكّور النهار على الليل** ﴾

﴿ **يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا** ﴾

﴿ **وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون** ﴾

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ﴾

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مرّ السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء ﴾

﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتا وجعل النهار نشوراً ﴾

﴿ والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ﴾

﴿ الم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾

﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾

﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾

﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾

إلى غير ذلك من الآيات التى منّ الله بها على عباده بذكر الليل والنهار واختلافهما فتعال ننظر كما أمرنا الله وعلى ضوء العلم ما فى خلق الليل والنهار من نظام وحكمة وما هو حظ المصادفة فى هذا الخلق والتنظيم ؟

أنت تعلم يا حيران أن حجم الأرض أصغر من الشمس بمليون و٣٠٠ ألف مرة وأن كتلتها أى وزنها أقل من الشمس بـ (٣٣٢) ألف مرة تقريبا .

وأنها أكثف السيارات جميعا بل أكثف من الشمس لأن كثافة الشمس هى ربع كثافة الأرض فالثقل النوعى لكل جسم فى الشمس أخف من الثقل النوعى للجسم نفسه وهو على الأرض وأن بعدها عن الشمس (٩٣) مليون ميل وأن دورتها اليومية تتم فى ٢٤ ساعة وأن دورتها السنوية حول الشمس تتم فى مدة ٣٦٥ يوماً ونحو ربع يوم وأن شكل مدارها حول الشمس اهليلجى وأن سرعة دوراتها حول نفسها (١٠٠٠) ميل فى الساعة وأن سرعة دوراتها حول الشمس بمعدل (١٨) ميل فى الثانية أى نحو ٦٥ ألف ميل فى الساعة وأن وضعها على مدارها مسائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة .

ويقول العلم لو كان حجم الأرض أكبر مما هو أو أصغر أو كان ثقلها وكثافتها أقل أو أكثر لاختل أمر الحياة أو تغير أو تشوه لأن حجمها متناسب مع سرعتها وقع دورتها وثقلها متناسب مع قوة جذبها فلو زاد

الحجم أو نقص لتغيرت السرعة والمدة ولو قل جذبها لأفلت الأوكسجين منها ولولا الدورة اليومية لما كان لنا ليل ونهار دائبان ثابتان ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل فى الساعة أو قلّت كما هو الحال فى بقية السيارات فكانت مثلا (١٠٠) ميل فى الساعة لأصبح طول النهار (١٢٠) ساعة واحترقت زروعنا فى لهيب النار وذوت فى زمهرير الليل ولاختل ميزان العمل فى النهار والرّاحة والنوم فى الليل .

ولكن هذه السرعة ثابته لم يطرأ عليها تبديل فى ثانية واحدة منذ ملايين السنين ولولا الجاذبية التى تربطنا بالأرض لطرنا عن ظهرها وانتثرنا انتثاراً نحن وبيوتنا ولولا التعادل العجيب بين الجاذبية التى تلصقنا بالأرض وقوة (البعد عن المركز) التى تطردنا عن سطحها لطرنا وطارت بيوتنا وزحلت بحارنا من وسط الأرض إلى القطبين .

فهل يكون هذا الصنع العظيم والاتقان العجيب والاتزان الدقيق أثراً من آثار المصادفة ؟

حيران ـ سبحان الله العظيم .

الشيخ : ولو تأملت يا حيران فى الآيات التى ورد فيها ذكر : **التكوير وإيلاج الليل فى النهار والنهار فى الليل وطلب كل منهما للآخر حثيثا ومرور الجبال مر السحاب .**

لرأيت فيها البيان الصريح منذ أربعة عشر قرناً لكروية الأرض وحركتها اليومية اللتين يتم بهما إختلاف الليل والنهار .

فإن التكوير لا يكتمل معناه إلا مع كروية الأرض وحركتها اليومية .

إذ لا يكون معنى التكوير واضحا لو نحن تصورنا الأرض مبسوطة تطلع الشمس عليها وتغيب عنها كما كان رأى الأقدمين لأن قوله تعالى : ﴿ **يكوّر الليل على النهار ويكوّر النهار على الليل** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً** ﴾ يتجلى فيها كلها معنى التلاحق وأن تكوير كل منهما على الآخر يجرى فى آن واحد فكلما لفّ الليل على النهار فى جزء من الأرض لفّ مثله النهار على الليل فى الجزء الذى يليه ولا يتصوّر هذا المعنى مع تصوّر الأرض مبسوطة ساكنة لأن الشمس إذا طلعت عليها أنارتها من أولها إلى آخرها دفعة واحدة وإذا غابت عنها أظلمت دفعة واحدة أما مرور الجبال مر السحاب فانه نص صريح فى دورة الأرض اليومية على محورها فتأمل يا حيران ـ زدنى يا مولاى زدنى

الشيخ : أما الدورة السنوية العجيبة وما ينشأ عنها من اختلاف الفصول الأربعة فمشار إليها عند الذين يعلمون ويعقلون بتكرار ذكر المطر فى آيات كثيرة سيأتيك ذكرها فلولا هذه الدورة السنوية ما كانت الفصول ولا الأمطار ولا الحياة .

فتعال ننظر يا حيران على ضوء العلم ما وراء إنزال الأمطار من نظام وترتيب فيما يتعلق بشكل الأرض

ودورتها ووضعها لنرى ما هو خط المصادفة فى خلق هذا النظام وتكوينه ؟

يقول العلم أن سرعة الأرض فى دورتها حول الشمس هى ١٨ ميلا فى الثانية لو زادت أو نقصت ثانية واحدة فى كل سنة بل فى مئة سنة لاختل هذا النظام لأن الدورة بمرور الملايين من السنين ستطول كثيرا أو تقصر كثيرا فيختل نظام الفصول الأربعة على الأرض باختلال مددها المحكمة ويختل نظام المطر العجيب .

ولو كان الفلك الذى تدور به الأرض حول الشمس لم يكن أهليلجياً لاختل نظام الفصول الأربعة .

ولو أن الأرض لم تكن (حنواء) أى لو أن وضع الأرض على مدارها غير مائل بزاوية قدرها ٢٣ درجة لاختل نظام الفصول الأربعة المتنقلة على الأرض ولأصبح وسط الأرض صحراء تحترق فى صيف دائم وأصبح شمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام من الثلج .

ولو أن درجة هذا الميل زادت عما هى عليه لأصبحت المنطقتان المعتدلتان كالقطبين إمّا فى ليل طويل وشتاء طويل أو ف ينهار طويل وصيف طويل فهذه الدرجة من الميل هى الدرجة المحكمة اللازمة لهذا التنظيم العجيب.

وباجتماع هذه الأسباب كلها من السرعة إلى المسافة إلى المدة إلى شكل الأرض وشكل المدار إلى الميل إلى غير ذلك ويتم الاعتدالان ويحصل التبخر فى مياه الأرض وتحمل الرياح الأبخرة على متن الغبار الذى تثيره وتسوقها إلى الأجواء الباردة ليتم تكاثفها وتتكون هبات المطر ويجلجل الرعد ويومض البرق وتسقط الأمطار التى تحى الأرض بعد موتها .

أفكل هذا النظام والترتيب والأحكام أثر من آثار المصادفة يا حيران .

حيران ــ سبحان الله العظيم حقا إن أمنا الأرض جدباء حنواء فسبحان من (حناها) لنا لتحنو علينا وسبحان من (احدبها) لتحدب علينا وعلى كل حيى

عالم الفلك

قوله تعالى :

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ
مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا
وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ **وآية الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾ أى : ومن آيات قدرته الدالة على إمكان البعث والحشر ، وعلى قدرته على فعل كل ما يشاء : الليل ينزع عنه النهار فتأتى الظلمة ، ويذهب النهار ، فإذا الخلق قد صاروا فى ظلمة بمجىء الليل الذى كان الضياء ساتراً له ، وفى الضياء سرور ولذة وراحة للنفس ، وسعى على الرزق ، وفى حالة زواله وحشة وانقباض تشعر بألمه النفوس ، كما أن فيه تركا للعمل الذى به قوام الحياة ، ومن ثم جعل الآية ظهور الليل ولم يجعلها مجىء النهار ، والآية تحصل بكل منهما .

فإن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة من أكبر الأدلة على قدرة المولى سبحانه ، وفيه عبرة لمن يعى ويفهم ، وأن البعث والنشور من أيسر الأمور عليه سبحانه .

قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ أى : والشمس تجرى حول مركز مدارها الثابت الذى تسير حوله بحسب وضعها النجمى ، فقد ثبت أن لها حركة رَحَوِيَّة حول هذا المركز تقدر بمائتى ميل فى الثانية ، وهذا الوَضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده ، القابض على زمام مخلوقاته ، العليم بأحوالها الذى لا تخفى عليه خافية من أمرها .

قال تعالى : ﴿ **فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾

أى : وجعلنا لسير القمر منازل ، وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل فى كل واحد منها كل ليلة ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، فإذا كان فى آخر منازله دق ونفوس ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ أى : بسير فى منازله إلى آخرها حتى دق وتقوس ويصفّر ويكون كالعود الذى عليه الشماريخ إذا أتى عليه الحول . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ **كالعرجون القديم** ﴾ وهو أصل العذق . وقال مجاهد : العرجون القديم أى العذق اليابس ، يعنى ابن عباس – رضى الله عنهما – أصل العنقود من الرطب إذا عتق ويبس وانحنى .

وقوله تعالى : ﴿ **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار** ﴾ أى لا يصح للشمس ولا يسهل عليها أن تدرك القمر فى سرعة سيره ، لأن الشمس تجرى مقدار درجة فى اليوم ، والقمر يسير

مقدار ١٣ درجة فى اليوم ، ولأن لكل منهما مدارا خاصا لا يجتمع مع الآخر فيه .

﴿ **ولا الليل سابق النهار** ﴾ أى : ولا تسبق آية الليل وهى القمر ، آية النهار وهى الشمس فيحل سلطانه محلها إذ أنهما يجريان بحساب منتظم لا يتغير ولا يتبدل .

قوله تعالى : ﴿ **وكل فى فلك يسبحون** ﴾ أى : وكل من : الأرض والشمس والقمر يسبح فى فلكه كما يسبح السمك فى الماء ، فالشمس تجرى فى مدارها ، والأرض تجرى حول الشمس فى سنة وحول نفسها فى يوم وليلة ، والقمر يجرى حول الأرض كل شهر .

وعلماء الفلك قديما جعلوا الكواكب مركوزة فى الأفلاك على ما نراه فى كتبهم فليس للكوكب أن يسبح من تلقاء نفسه ، بل لابد له من حامل يحمله وهو الذى يدور به ، وكيف يسبح ما لا حرية له ولا قدرة له على السير بل هو محمول على غيره ؟ هكذا كان الرأى عندهم . ولكن رأى علماء الفلك المحدثين : أن جميع الكواكب تسير فى مدارات فى عالم الأثير ، فهى إذاً كأنها سمك فى بحر لجّى .

فاعجب أيها القارىء للقرآن العظيم كيف أثبت ما دل على صمته الكشف الحديث ، ودحض تلك الآراء التى كانت شائعة عصر التنزيل لدى علماء الفلك من اليونان والهند والصين .

(من كتاب قصة الإيمان للشيخ نديم الجسر تحت عنوان : أخونا الصغير يدور هذا الحديث بين الشيخ وتلميذه) أخونا الصغير

الشيخ : وهذا القمر ، أخونا الصغير ، الحلو الظريف الغرير ، الذى ما زلنا نقاربه ، حتى كدنا نتاكبه ، ثم أخذنا نلقلقه ، وبالصواريخ نرشقه ... هذا القمر يا حيران ماذا عرف الإنسان ذو النفس الطُّلعة من أسراره ، وإختلاف أطواره ، فى منازله وأقداره ، وظلماته وأنواره ... ؟

يقول القرآن الكريم : ﴿ **ألم تر كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا** ﴾[1] .

﴿ **تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا** ﴾[2] .

﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر وأسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[3] .

---

(١)سورة نوح الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٢)سورة الفرقان الآية : ٦١

(٣)سورة فصلت الآية : ٣٧

﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾[1] .

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾[2] .

﴿ والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها ﴾[3] .

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[4] .

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾[5] .

﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾

﴿ وهو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[6] .

هذا بعض ما يقوله القرآن عن القمر ، وقد جاء أولئك الذين يعلمون ، فكشفوا عما وراء هذه الإشارات من أسرار فعرفوا : أن هذا القمر جرم غير منير بذاته ولكن يستمد نوره بالانعكاس من الشمس المضيئة بذاتها ، ليعكسه بدوره إلى الأرض كما صرح القرآن . وعرفوا أنه تابع للأرض ، يسايرها ويدور معها ومثلها من الغرب إلى الشرق . وأن له دورتين ، دورة حول نفسه ودورة حول الأرض . ولكن حكمة الله سبحانه قضت أن يتم الدورتين فى وقت واحد ، وأن يبقى متجها بأحد وجهيه إلى الأرض فلا نرى وجهه الثانى أبداً . ذلك أن الأرض تتم دورتها حول نفسها فى يوم كامل وتتم دورتها حول الشمس فى سنة كاملة تدور فيها على نفسها ٣٦٥ دورة . أما القمر فيتم دورته حول نفسه وحول الأرض معاً فى مدة شهر قمرى واحد أى : أنه فى المدة التى يدور بها حول الأرض لا يدور على نفسه إلا مرة واحدة يتجه دائما بوجه واحد نحو أمة الأرض لا يوليها ظهره أبداً وعرفوا من بدائع صنع الخلاق الحكيم ، أن القمر فى دورته الشهرية هذه يقطع كل يوم ١٣ درجة ، ويتأخر كل يوم ٤٩ دقيقة نحو الشرق ليكشف لنا عن جانبه المنير كشفاً متدرجاً يبدأ به هلالا ثم بدرا ثم يرجع كالعرجون القديم حتى يختفى ويطلع بعد ٢٩ يوما و٨ ساعات هلالا جديدا نعرف به عدد السنين والحساب .

وعرفوا أيضا أن القمر أقرب أجرام السماء إلى الأرض فلا يبعد عنها سوى ٢٤٠ ألف ميل تقريبا ، وأن كتلته هى جزء من كتلة الأرض .

---

(١) سورة لقمان الآية : ٢٩

(٢) سورة ابراهيم الآية : ٣٣

(٣) سورة الشمس الآيات : ١ – ٤

(٤) سورة الأنعام : الآية : ٩٦

(٥) سورة الرحمن الآية : ٥

(٦) سورة يونس الآية : ٥

وعرفوا أن للكواكب الأخرى أقمارا منها الصغير الصغير الذى لا يزيد قطره على بضعة أميال ، ومنها الكبير الكبير الذى يتم دورته حول كوكبه فى ست ساعات ، ومنها البطىء البطىء الذى لا يتم دورته إلا فى سنتين . وعرفوا أنه ما من قمر يتم دورته فى شهر واحد إلا قمر هذه الأرض التى جعل الله سنتها بفصولها الأربعة اثنى عشر شهرا .. عرفوا كل هذه الأسرار التى أشار إليها القرآن ، وأدركوا ما فى هذا النظام والإحكام من حكمة ونعمة فقالوا : لو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الأرض فى آن واحد ، ولولم يكن يقطع فى دورته كل يوم ١٣ درجة ويتأخر نحو ٤٩ دقيقة لما كان ينتقل فى منازله المختلفة لنرى وجوهه المتغيرة ، ولما كان يتم الدورة فى شهر واحد ليستأنف شهرا جديداً نعرف به عدد الشهور والسنين والحساب . ولو كانت المسافة بين القمر والأرض أقل مما هى أو أكثر أو كان حجمه أكبر مما هو أو أصغر ، أو كانت دورته أطول أو أقصر لاختل هذا النظام كله ، بل ربما زال القمر كله ، لأنه لو قرب من الأرض لزاد جذبه فأصبح المد على الأرض طاغيا يغمر اليابسة كلها ، وإن تزايد هذا القرب جذبته الأرض فوقع عليها . ولو بعد عن الأرض لتعطل عمل المد والجزر بقلة الجذب ، وإن زاد البعد جذب القمر كوكب آخر إليه وحرمنا من نعمه .

ولو كبر حجمه لزادت قوة جذبه ، ولو صغر لقلّت ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع الأقمار قصيرة قصيرة فى ساعات ، أو طويلة طويلة فى سنين لاختل هذا النظام الذى جعل الله لنا به القمر حسبانا ، وعاد شهرنا القمرى أسبوعا أو سنتين ...

فهل كل هذا النظام والإحكام الذى خص الله به القمر فى حركاته المحسوبة ودوراته المكتوبة ، ومنازله المقدرة وأقداره المسخرة ، وأنواره المكتسبة وأطواره المرتقبة ، أثر من آثار المصادفة العمياء يا حيران .. ؟

حيران : سبحان الخلاق العظيم . والله إن هذا كله لا يجتمع بالمصادفة ولكنى فهمت من كلام الشيخ أنه يوشك أن يكون كالساخر من عمل العلماء الساعين للوصول إلى القمر .

الشيخ : كيف فهمت هذا ؟ وكيف تظن بى انى أسخر من العلم والعلماء وأنا أدلك على الله بما قاله العلم والعلماء ؟ ولكنى إذا كنت ساخرا فإنما ساخر من أولئك الذين تأخذهم كبرياء العلم ؟ من غير العلماء ، فيظنون أن إرسال صاروخ إلى القمر أو إنسان إلى الفلك ضرب من مشاركة الله فى كبريائه وجبروته ، والتصرف فى ملكوته ... وهم لو عقلوا لأدركوا أن الكبرياء لذلك الذى خلق الإنسان فسواه ، وبنور العقل هداه ، وخلق هذا القمر يشدون إليه الرحال ، ويعقدون على بلوغه الآمال ، ومتى شاء سبحانه شقه ونثره ، ومع النجوم بعثره ، وطمس أثره يومئذ يعلم هذا الإنسان قدْره وقدَره .

قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون * إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون * وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ أى : ومن آيات قدرته الدالة على رحمته بعباده أن سخر البحر ليحمل السفن فمن ذلك بل أوله سفينة نوح —

عليه الصلاة والسلام ـ التى أنجاه الله تعالى فيها بمن معه من المؤمنين الذين لم يبق على وجه الأرض من ذرية آدم عليه الصلاة والسلام ـ غيرهم ولهذا قال عز وجل : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم** ﴾ أى : أباءهم ﴿ **فى الفلك المشحون** ﴾ أى : فى السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التى أمره الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين . قال ابن عباس : وهى سفينة نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ وكذا قال سعيد بن جبير والشعبى وقتادة :

وقوله تعالى : ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ قال العوفى عن ابن عباس ، رضى الله عنهما : يعنى بذلك الإبل فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها وكذا قال عكرمة ومجاهد والحسن وغيرهم : وقال السدى هى الأنعام ، وقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : أتدرون ما قوله تعالى ﴿**وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ ؟ قلنا لا ، قال : هى السفن جعلت من بعد سفينة نوح ـ عليه مثلها ، وكذا قال مالك والضحك وقتادة والسدى أيضاً : المراد بقوله تعالى : ﴿ **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ أى : السفن قال ابن كثير فى تفسيره : ويقوى هذا المذهب فى المعنى قوله جل وعلا ﴿ **إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية** ﴾[1] .

هذا وقد أمرنا سبحانه بشكر هذه النعمة كما فى قوله تعالى : ﴿ **والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾[2] .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ **الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[3] . وكما فى قوله تعالى : ﴿ **وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾[4] . وكما فى قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون**﴾[5] . ﴿ **وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام * فبأى آلاء ربك تكذبان** ﴾[6] .

قوله تعالى : ﴿ **وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون ، إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾

---

(١) سورة الحاقة الآيتان : ١١ — ١٢

(٢) سورة الزخرف الآيات : ١٢ — ١٤

(٣) سورة الجاثية الآية : ١٢

(٤) سورة فاطر : الآية : ١٢

(٥) سورة الروم الآية : ٤٦

(٦) سورة الرحمن الآيتان : ٢٤ — ٢٥

﴿ **وإن نشأ نغرقهم** ﴾ يعني الذين في السفن ﴿ **فلا صريخ لهم** ﴾ أي فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ **ولا هم ينقذون** ﴾ أي : مما أصابهم من الغرق ﴿ **إلا رحمة منا** ﴾ هذا استثناء منقطع تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ونسلمكم إلى أجل مسمى ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومتاعاً إلى حين** ﴾ أي : إلى وقت معلوم عند الله عز وجل ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر * حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم * متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[(١)] .

وكقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير** ﴾[(٢)] .

وكقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات** لكل صبار شكور **وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم** مقتصد **وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور** ﴾[(٣)] .

من مواقفهم العنادية

قوله تعالى :

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ
ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ
قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ
مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ
﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ

(١) سورة يونس الآيتان : ٢٢ - ٢٣
(٢) سورة الشورى الآيات : ٣٢ - ٣٤
(٣) سورة لقمان الآيتان : ٣١ - ٣٢

بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى
ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن
رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾

تفسير المفردات

﴿ **متى هذا الوعد** ﴾ : أى : متى يتحقق ويجىء ما وعد به ؟ ﴿ **ينظرون** ﴾ : أى : ينتظرون ﴿ **صيحة واحدة** ﴾ : هى النفخة الأولى فى الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعا . ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ : أى : النفخة الثانية . ﴿ **الأجداث** ﴾ : واحدها جَدَث (بفتحتين) القبر . ﴿ **ينسلون** ﴾ : أى : يسرعون . ﴿ **والويل** ﴾ : الهلاك . ﴿ **من مرقدنا** ﴾ : أى : موتتنا ﴿ **محضرون** ﴾ : أى : الحساب والجزاء . ﴿ **الشغل** ﴾ : الشأن الذى يصد المرء ويشغله عما سواه من شؤونه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصّل مسرة كاملةو أو مساءة عظيمة . ﴿ **الفاكه** ﴾ : الطيب النفس الضحوك قاله أبو زيد . ﴿ **الظلال** ﴾ : واحدها ظل وهو ضد الضحّ (ما تصيبه الشمس) . ﴿ **والأرائك** ﴾ : واحدها أريكة ، وهى سرير منجدّ مزين فى قبة أو فى بيت . ﴿ **يدّعون** ﴾ : أى : يطلبون .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم أعرضوا عن النظر فى الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق ــ أردف هذا ذكر إعراضهم عن الآيات المنزلة من عند ربهم مما فيه تحذيرهم بأن يحل بهم من المثلات ما حل بمن قبلهم ، ثم أعقبه بذمهم على ترك الشفقة على خلق الله ، إذ قيل لهم أنفقوا فلم يفعلوا ثم أعقب هذا بذكر إنكارهم ليوم البعث ، واستعجالهم له ، استهزاء به وسخرية منه ، ثم أتبعه ببيان أنه حق لا شك فيه ، أنه سيأتيهم بغتة من حيث لا يشعرون ، وإذا ذاك يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ثم ينادون بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، حين يرون العذاب ويقولون : من أخرجنا من قبورنا ؟ فيجابون بأن ربكم هو الذى قدّر هذا ووعدكم به على ألسنة رسله وسيوفى كل عامل جزاء عمله ثم أردف ذلك ببيان ما أعده للمحسن والمسىء فى هذا اليوم من ثواب وعقاب ، ليكون فى ذلك ترغيب فى صالح الأعمال ، وترهيب من فعل الفجور واجتراح السيئات .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون** ﴾ أى : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بما نزل الله من الآيات : احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله ومثلاته التى حلت بمن قبلكم من الأمم ، وخافوا أن يحل بكم مثلها من جراء شرككم وتكذيبكم لرسوله ــ وما خلفكم أى وما بعد هلاككم مما أنتم قادمون عليه إن متم على كفركم الذى أنتم عليه لعل ربكم يرحمكم ويغفر لكم ما اجترحتم من السيئات ــ أعرضوا ونأوا ونكصوا على أعقابهم مستكبرين .

ثم بين أن الإعراض ديدنهم ، وليس يبدع منهم فقال : ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ أى : وما تجيء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله الدالة على توحيده وتصديق رسوله إلا بادروا بتكذيبها وأعرضوا عنها وتركوا النظر الصحيح المؤدى إلى الإيمان به ، ومعرفة صدق رسله ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين . فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون** ﴾[1] . ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ، ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون** ﴾[2] . ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ، ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغن النذر** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين** ﴾ أى : وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين قالوا لمن طلب منهم ذلك : لو شاء الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم .

وفى قوله : مما رزقكم الله ، ترغيب فى الانفاق على نهج قوله : ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾[4] ، وتنبيه إلى عظيم جرمهم فى ترك الإمتثال للأمر ، وذم لهم على ترك الشفقة على عباد الله وإجمال ذلك ــ إنهم لم يعظّموا الخالق ، ولم يشفقوا على المخلوق ثم ذكر أنهم على شحهم وبخلهم عابوا الآمر على الإنفاق ووصفوه بالضلال المبين فقال : ﴿ **إن أنتم إلا فى ضلال مبين** ﴾ أى : ما أنتم أيها القوم فى قيلكم لنا أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم ــ إلا فى جوز بيِّن وبعد عن سبيل الرشاد لمن تأمل وتدبر .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان : ٥ ــ ٦

(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ١ ــ ٣

(٣) سورة القمر الآيات : ١ ــ ٥

(٤) سورة القصص الآية : ٧٧

وهذا معذرة البخلاء فى كل عصر ومصر ، إذ تراهم دائماً يقولون : لا نعطى من حرمه الله ، وتلك فرية منهم ، لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضا ، ابتلاء منه لعباده ، ولأسباب نحن لا نعلمها لا بخلا منه سبحانه وشحا ، وأمره الأغنياء بالإنفاق على الفقراء ليس لحاجة منه إلى ما لهم ، بل ليبلوهم ويرى أيمتثلون الأمر ويؤدون الواجب أم ينكصون على أعقابهم ويولون مدبرين ؟ ولا ينبغى لأحد أن يعترض على مشيئة ربه ؛ لأنه يجهل أسباب ما يشاهدون ويرى فى الكون .

قوله تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ۞ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون ۞ فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ .

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة فى قولهم : ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد** ﴾(١) . ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ۞ قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون** ﴾(٢) .

وهنا أجابهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ .

أخرج البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة والرجل يليط حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن نعجته فلا يُطعَمهُ ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فمه فلا يطعمها »(٣) .

﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ أى : ما ينتظرون بحلول العذاب إلا نفخة واحدة فى الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعا تأخذهم وهم يتنازعون فى أمور معايشهم لا يخطر ببالهم مجيئها ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **فأخذتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ ثم بين سبحانه سرعة حدوثها وأنها كلمح البصر أو هى أقرب فقال : ﴿ **فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ أى : فلا يستطيعون أن يوصوا فى أموالهم أحداً ، إذ لا يمهلون بذلك ، ولا يستطيع من كان منهم خارجا من أهله أن يرجع إليهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا ويرجعون إلى ربهم .

---

(١) سورة الشورى الآية : ١٨

(٢) سورة النمل الآيتان : ٧١ – ٧٢

(٣) البخارى ـ كتاب الفتن ـ باب خروج النار ٩ – ٩٤

ثم بين أنهم بعد أن يموتوا ينفخ فى الصور النفخة الثانية نفخة البعث من القبور فقال سبحانه :
﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا * هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدنيا محضرون * فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾(١) . ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون * فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون * ربنا آمنا فاغفر لنا وأرحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ، قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فسئل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون . فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم . ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لايفلح الكافرون * وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾(٢) .

وكقوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون * وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴾(٣) . وقوله : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم * لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب * وأنذرهم يوم الآزفه إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾(٤) . كقوله تعالى : ﴿ فتول عنهم * يوم يدع الداع إلى شىء نكر * خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٩٩

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ١٠١ – ١١٨

(٣) سورة الزمر الآيات : ٦٨ – ٧٠

(٤) سورة غافر الآيات : ١٥ – ١٨

وهنا يقول سبحانه : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون * قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون .

قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ النسلان هو المشى السريع . ﴿ **قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا** ﴾ يعنون من قبورهم التى كانوا يعتقدون فى الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها فلما عاينوا ما كذبوا به فى محشرهم ﴿ **قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا** ﴾ قال أبى بن كعب ـ رضى الله عنه ـ ومجاهد والحسن وقتادة ينامون نومة قبل البعث قال قتادة وذلك بين النفختين فلذلك يقولون من بعثنا من مرقدنا ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ، قاله غير واحد من السلف ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ وقال الحسن : إنما يجيبهم الملائكة ، ولا منافاة إذ الجمع ممكن والله سبحانه أعلم .

وذلك كقوله تعالى : ﴿ **وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون** ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة** ﴾ (٢) . وقال جلت عظمته : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب** ﴾ (٣) . أى إنما نأمرهم أمراً واحداً فإذا الجميع محضرون .

﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئا** ﴾ أى : من عملها ﴿ **ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ (٤) . كقوله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم** ﴾ (٥) .

فى هذا المشهد الكريم : يذكر الكتاب العزيز الوعد بالجنة ، كما يذكر بعد ذلك الوعيد بالنار ، فيخبرنا

---

(١) سورة الصافات الآيتان : ٢٠ ، ٢١

(٢) سورة النازعات الآيتان : ١٣ ، ١٤

(٣) سورة النحل الآية : ٧٧

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٤٧

(٥) سورة ياسين الآيات : ٥٥ — ٥٨

سبحانه وتعالى : إن أصحاب الجنة الذين دخلوها بفضل الله وتقاسموا درجاتها بأعمالهم ، يخبرنا أنهم فى شغل فاكهون قال الحسن البصرى : (فى شغل فاكهون) فى شغل عما فيه أهل النار من العذاب ، وقال مجاهد : (فى شغل فاكهون) أى : فى نعيم معجبون أى : به . وكذا قال قتادة : وابن عباس – رضى الله عنهما : (فاكهون) أى : فرحون .

نعم إنهم مشغولون بنعيم الجنة ، فهم فى روضات يانعة فى الأشجار على شواطىء الأنهار يقطفون الثمار وينعمون بالحور العين الأبكار ، اقرأ معى قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيرات حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام** ﴾[1]

ثم إقرأ قوله تعالى : فى سورة الواقعة :

﴿ **والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون ، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاما سلاما ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، فى سدر مخضود ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكارا عربا أترابا ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين وثلة من الآخرين** ﴾[2]

---

(١) سورة الرحمن الآيات : ٤٦ – ٧٨

(٢) سورة الواقعة الآيات : ١٠ – ٤٠

ثم إقرأ قوله تعالى : فى سورة الإنسان :

﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ، يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا ﴾ (١)

ثم إقرأ قوله تعالى :

﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين ، وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون ، يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم ، ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ (٢)

ثم إقرأ قوله تعالى :

﴿ إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأسا دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاءاً من ربك عطاء حسابا ﴾ (٣)

وجل جلال الله إذ يقول :

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما

---

(١) سورة الإنسان الآيات : ٥ — ٢٢

(٢) سورة الطور الآيات : ١٧ — ٢٨

(٣) سورة النبأ الآيات : ٣١ — ٣٦

كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أو رثتموها بما كنتم تعملون ﴾[١]

وتبارك اسم ربنا إذ يقول :

﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾[٢]

وإذ يقول :

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[٣]

وتبارك اسم ربنا إذ يقول :

﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه ، فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه ، إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية ، فى جنة عالية قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾[٥] . لقد كانت أعمالهم فى الدنيا مبنية على الصواب والإخلاص ، فجزاهم ربهم بأعمالهم خيرا ، **﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾**[٥]

إنهم ورثة الفردوس الذين قال الله فيهم :

﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ٤٢ — ٤٣

(٢) سورة الحشر الآيات : ٢٠

(٣) سورة الرعد الآيات ١٩ — ٢٤

(٤) سورة الحاقة الآيات : ١٨ — ٢٤

(٥) سورة الذاريات الآيات : ١٥ — ١٩

ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾(١)

إنهم الصفوة الطاهرة الذين استثناهم الله ـ تعالى ـ فى قوله :

﴿ إن الإنسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا ، إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دايمون والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك فى جنات مكرمون ﴾(٢) .

قوله تعالى :

﴿ هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون ﴾

﴿ هم وأزواجهم ﴾ أى : حلائلهم ، وكذلك الحور العين ، وذلك ليجمع الله الشمل فيكون فى ذلك تمام النعمة ، **﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون ﴾**(٣) .

والظلال هنا ظلال الأشجار ، والمراد : (بالأرائك) السرر تحت الحجال (الناموسيات) .

قوله تعالى : **﴿ لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴾** لقد أعد الله لهم ما لا أذن سمعت ولا لعين رأت ولا خطر على قلب بشر ، وحسبك أن تقرأ قوله تعالى : **﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾** .

لا تركنــــن إلى الدنيـــا ومـــا فيها ... فالموت لا شك يفنينـــا ويفـــنيها
واعمـــل لدار غدا رضوان خازنها ... والجار أحمد والـــرحمن ناشيها
قصورهـــا ذهب والمسك طيـــنتها ... والزعفـــران حشيش نابت فيها

---

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١ - ١١

(٢) سورة المعارج الآيات : ١٩ - ٣٥

(٣) سورة البقرة الآيات ٢٥

﴿ ولهم فيها ما يدعون ﴾ أى : ما يطلبون .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم ، دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾(١) .

﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾ هذه تحية من عند الله مباركة طيبة ، يقال قولا : من رب متصف بالبر والرحمة والإنعام والكرم ، ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاما سلاما ﴾(٣) . ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾(٤) .

« الوعيد »

قوله تعالى :

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا

(١) سورة يونس الآيتان : ٩ — ١٠
(٢) سورة فاطر الآيتان : ٣٤ — ٣٥
(٣) سورة الواقعة الآيتان : ٢٥ — ٢٦
(٤) سورة الرعد من الآية : ٢٣ — ٢٤

وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا
يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا
يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ
وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **امتازوا** ﴾ أى : انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين ، ﴿ **العهد** ﴾ : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة ، وعبادة الشيطان : يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى الشيطان لأنه الآمر بها والمزين لها ، ﴿ **والجبل** ﴾ : الجماعة العظيمة ، ﴿ **اصلوها** ﴾ أى : قاسوا حرها .

والختم على الأفواه : يراد به المنع من الكلام ، والطمس : إزالة الأثر بالمحو ، فاستبقوا الصراط : أى ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ، فأنى يبصرون : أى فكيف يبصرون الحق ، ويهتدون إليه ؟ والمسخ : تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة ، على مكانتهم : أى فى أماكنهم حيث يجترحون القبائح ، ونعمره : أى نطل عمره ، ننكسه فى الخلق : أى نقلبه فيه فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانتقاص بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه فى بدء أمره حتى يرد إلى أرذل العمر .

﴿ **وما ينبغى له** ﴾ : أى لا يليق به ولا يصلح له ، ﴿ **ذكر** ﴾ : أى عظة من الله وإرشاد للثقلين ، ﴿ **حيا** ﴾ : أى حى القلب مستنير البصيرة ، ﴿ **يحق القول** ﴾ : أى يجب العذاب ، ﴿ **مالكون** ﴾ : ضابطون قاهرون ، ﴿ **وذللناها لهم** ﴾ : سخرناها لهم ﴿ **محضرون** ﴾ : يدفعون عنهم ويغضبون لهم .

« المناسبة وإجمال المعنى »

بعد أن ذكر ما للمحسنين من نعيم واجتماع بالمحبين والإخوان والأزواج فى الجنات ـ أعقبه بذكر حال

المجرمين ، وأنهم فى ذلك اليوم يطلب منهم التفرق وابتعاد بعضهم من بعض ، فيكون لهم عذابان : عذاب النار وعذاب الوحدة ، ولا عذاب فوق هذا ، ثم أردف هذا أنه قد كان لهم مندوحة من كل هذا بما أرسل اليهم من الرسل الذين بلغوهم أوامر ربهم ونواهيه ، ومنها نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان وعن اتباعه فيما يوسوس به ، ثم ذكر أنه كان لهم فيمن قبلهم من العظات ما فيه مزدجر لهم أو تذكروا ، لكنهم اتبعوا وساوسه ، فحل بهم من النكال والوبال ما رأوا آثاره بأعينهم فى الدنيا ، وفيه دليل على ما سيكون لهم فى العقبى ، ثم ذكر مآل أمرهم وأنهم سيصلون نار جهنم خالدين فيها أبدا بما اكتسبت أيديهم ، وهم فى هذا اليوم لا ينطقون ببنت شفه ، ولا تقبل منهم معذرة ، بل تتكلم أيديهم بما عملت ، وتشهد أرجلهم بما اكتسبت ، ثم ذكر أنه رحمة منه بعباده لم يشأ أن يعاقبهم فى الدنيا بشديد العقوبات ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم حتى لو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه ما قدروا ولا أنصروا ، ولم يشأ أن يمسخ صورهم ، ويجعلهم كالقردة والخنازير حتى لو أرادوا الذهاب إلى مقاصدهم ما استطاعوا ، ولو أرادوا الرجوع ما قدروا ، ثم دفع معذرة أخرى ربما أحتجوا بها وهى أن ما عمروه قليل ، ولو طال عمرهم لأحسنوا العمل ، واهتدوا إلى الحق ، فرد ذلك عليهم بأنهم كلما عمروا فى السن ضعفوا عن العمل ، وقد عمروا مقدار ما يتمكنون به من البحث والإدراك كما قال : ﴿ **أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ ولكن ذلك ما كفاهم ، فهم مهما طالت أعمارهم لا يجديهم ذلك فتيلا ولا قطميرا .

وبعد أن ذكر أمر الوحدانية فى قوله تعالى : ﴿ **وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم** ﴾ وذكرى أمر البعث فى قوله : ﴿ **اصلوها اليوم** ﴾ ذكرهما الأصل الثالث وهو الرسالة فى هاتين الآيتين ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين** ﴾ .

وبعد ذلك أعاد سبحانه الكلام فى الوحدانية ، وذكر بعض دلائلها ، ثم ذكر سبحانه أنهم كفروا بأنعم الله عليهم ، وأنكروها وزادوا فى ضلالهم ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال تعالى : حاكيا عنهم : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم** ﴾[1] . والحقيقة أنها لا هى ناصرة ولا منصورة .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ، ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون ﴾ .

(١) سورة الأنبياء الآية : ٦٨

قوله تعالى : ﴿ **وإمتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ : أى تميزوا عن المؤمنين ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم** ﴾[(١)] . وقوله ــ عز وجل : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾[(٢)] . وقوله ــ عز وجل ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون ، من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون** ﴾[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ .

هذا تبكيت منه سبحانه وتعالى : للمخالفين الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون المؤمنين ويحسبون أنهم مهتدون ، ألم يعهد الله إليهم ، ألم تصلهم وصيته بأن لا يعبدوا الشيطان ، ألم يقل لهم إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ، ألم يقل لهم : ﴿ **يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾[(٤)]

ألم يقل لهم : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم** ﴾[(٥)]

ألم يقل لهم : ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾[(٦)]

ألم يقل لهم : ﴿ **يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾[(٧)] .

ألم يقل لهم : ﴿ **وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ، لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ، ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا**

(١) سورة يونس من الآية : ٢٨
(٢) سورة الروم الآية : ١٤
(٣) سورة الروم الآيتان : ٤٣ – ٤٤
(٤) سورة البقرة الآيتان : ١٦٨ – ١٦٩
(٥) سورة البقرة الآية : ٢٦٨
(٦) سورة المجادلة من الآية : ١٩
(٧) سورة الأعراف الآية : ٢٧

من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا ﴾[١] .

ألم يعلموا أن الشيطان قال لرب العزه : ﴿ فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾[٢] .

ألم يعلموا قوله تعالى :

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا ﴾[٥] .

ألم يقرأوا قوله ــ عز وجل : ﴿ قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[٦] .

ولقد أخذ الله العهد على كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، أنه هو الله لذى لا إله إلا هو الذى لا معبود سواه وأشهدهم على أنفسهم وشهدوا بذلك ، قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾[٧] .

لقد ولدوا على الفطرة والتوحيد ، ولكن الشياطين نزغت بينهم ، فانحرفوا عن طريق الجادة ، قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه

---

(١) سورة النساء الآيات : ١١٧ - ١٢١

(٢) سورة الأعراف الآيات : ١٦ - ١٧

(٣) سورة الحشر الآيات : ١٦ - ١٧

(٤) سورة إبراهيم الآية : ٢٢

(٥) سورة الإسراء الآية : ٥٣

(٦) سورة (ص) الآيتان : ٨٢ - ٨٣

سورة الأعراف الآيات : ١٧٢ - ١٧٤

بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾(١) .

لقد أمرنا الله ــ تعالى ــ وأرشدنا ماذا نصنع إذا شعرنا بنزغ الشيطان ؟ فقال : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ، إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾(٢) .

وقال : ﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾(٣) . إن الشيطان لبنى آدم كالذئب للغنم ، إن عداوته بينة لا تخفى على أحد ، وقد بين الله ــ تعالى ــ إن الصراط المستقيم فى عبادته وحده لا شريك له ، ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ، قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾(٤) .

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى وإلى علاك عنى الجبين الساجد

استمع إلى وصية الله ــ تعالى ــ لعباده : ﴿ وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾ ثم استمع إلى تلك الحقيقة التى يقررها القرآن الكريم فى قوله ــ جل شأنه :

﴿ ولقد أضل منكم جبلا كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾(٥) .

واعلم أن الشيطان لا يكف عن إضلال العباد ، ﴿ ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا ﴾(٥) ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾(٦) .

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٧٥ – ١٧٧
(٢) سورة الأعراف الآيتان : ٢٠٠ – ٢٠١
(٣) سورة المؤمنون الآيتان : ٩٧ – ٩٨
(٤) سورة الأنعام الآيات : ١٦١ – ١٦٤
(٥) سورة النساء من الآية : ٣٨
(٦) سورة الفرقان من الآية : ٢٩

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾[(١)] . ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾[(٢)] .

لقد استطاع الشيطان بوساوسه وشباكه وشراكه ، ومصايده ومكايده ، أن يضل جبلا كثيرا أى : جمعا كثيرا ، أجننتم أيها العقلاء ؟ أفلم تكونوا تعقلون عندما اتبعتموه ،

﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ، وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك وربك على كل شىء حفيظ ﴾[(٣)].

قوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التى كنتم توعدون ، اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ، اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ، ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون ﴾ .

هذه جهنم التى كنتم توعدون ، هذا جزاء المكذبين الذين كذبوا بآيات ربهم وجحدوا بها ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴾[(٤)] .

واقرأ معى قوله تعالى : ﴿ هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾[(٥)] وقوله ـ جل شأنه : ﴿ إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط وكذلك نجزى المجرمين لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزى الظالمين ﴾[(٦)] .

وقال سبحانه : ﴿ قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾[(٧)] .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير ﴾[(٨)] .

---

(١) سورة المجادلة من الآية : ١٩
(٢) سورة المجادلة من الآية : ٢٠
(٣) سورة سبأ الآيتان : ٢٠ — ٢١
(٤) سورة النساء الآية : ٥٦
(٥) سورة الرحمن الآية ٤٣ — ٤٤
(٦) سورة الأعراف الآيتان : ٤٠ — ٤١
(٧) سورة الحج من الآية : ٧٢
(٨) سورة الحديد الآيات : ١٢ — ١٤ — ١٥

وقوله تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون قل إن الأولين والآخرين ، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعلمون ﴾(٢) .

وقوله ــ جل شأنه : ﴿ إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾(٣) .

وقوله ــ جل شأنه : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا ، جزاء وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ : أى ادخلوها بسبب كفركم وذلك كقوله ــ جل شأنه : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

هذه حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه فى الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت . قال ابن أبى حاتم : بسنده عن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه : كنا عند النبى ــ ﷺ ــ فضحك حتى بدت نواجزه ثم قال ــ ﷺ : (أتدرون مم أضحك ، قلنا : الله ورسوله أعلم ــ قال ــ ﷺ : (من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول ربى ألم تجرنى من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول لا أجيز على إلا شاهدا من نفسى ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ،

(١) سورة الواقعة الايات : ٤١ — ٥٦

(٢) سورة الطور آية ١٣ — ١٦

(٣) سورة الدخان الآيات : ٤٣ — ٥٠

(٤) سورة النبأ الآيات : ٢١ — ٣٠

(٥) سورة الحاقة الآيات ٢٥ — ٣٧

وبالكرام الكاتبين شهودا ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى فتنطق بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدا لكن وسحقا فعنكن كنت أناضل)(١).

وقال سفيان بن عيينه : عن سهيل ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ فى حديث القيامة الطويل : قال فيه : (ثم يلقى الثالث ، فيقول : ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك آمنت بك ، وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ، ويثنى بخير ما استطاع ـ قال : فيقال له : ألا نبعث عليك شاهدنا ؟ قال : فيفكر فى نفسه ، من الذى يشهد عليه ، فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : (انطقى) ـ قال : فتنطق فخذه ، ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك الذى يسخط الله ـ تعالى عليه)(٢).

وقال ابن جرير : بسنده عن أن موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه : يدعى المؤمن للحساب يوم القيامة ، فيعرض عليه ربه عمله فيما بينه وبينه ، فيعترف فيقول : نعم أى رب عملت عملت عملت ، قال : فيغفر الله تعالى له ذنوبه ويستره منها ، قال : فما على الأرض خليقة ترى من تلك الذنوب شيئا ، وتبدوا حسناته فور أنّ الناس كلهم يرونها ، ويدعى الكافر والمنافق للحساب ، فيعرض عليه ربه عمله فيجحد ، ويقول : أى رب وعزتك ، لقد كتب على هذا الملك مالم أعمل ، فيقول له الملك : أما عملت كذا فى يوم كذا فى مكان كذا ؟ فيقول : لا وعزتك أى رب ما عملته ، فإذا فعل ذلك ختم الله تعالى على فيه ، قال أبو موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه : فإنى أحسب أول ما ينطق منه الفخذ اليمنى ، ثم تلا (اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون)(٣).

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم . ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين ، فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ، وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ﴾(٤) . وقوله تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم و أرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾(٥) .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد : ٨ ـ ٢١٧

(٢) رواه مسلم فى كتاب الزهد أيضا : ٨ ـ ٢١٦

(٣) الحديث أورده ابن كثير فى تفسير سورة (يس) آية ٦٥ قال :
أخرجه ابن جرير وهو حديث موقوف على أبى موسى الأشعرى .. رضى الله عنه : وأورده فى التفسير الطبرى : ١٧/٢٣ .

(٤) سورة فصلت الآيات : ١٩ ـ ٢٤

(٥) سورة النور الآيتان : ٢٤ ـ ٢٥

قوله تعالى : ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ، ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون** ﴾ .

هى الآية فيها تتجلى قدرة الله تعالى : إذ لو شاء أن يطمس على أعينهم ، فيصيبهم بالعمى لفعل ، فليس هناك عقبة أمام المشيئة ، وما تشاؤن إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ، ولو أعماهم فاستبقوا الصراط : أى الطريق وساروا فيه فكيف يبصرون إنهم لا يبصرون بعد العمى ، وقد يكون العمى هنا بمعنى الضلال والبعد عن الحق ، فهو عمى فى القلوب : أى لو شاء الله إضلالهم لأضلهم عن طريق الحق ، ولكنه أرسل إليهم رسولا ، وأنزل إليهم كتابا ، وزودهم بالعقل قال تعالى : ﴿ **رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما** ﴾.[(١)] ،

لقد انقطعت المعاذير ، فلا حجة لمعتذر بعد الإرسال والبيان .

قوله تعالى : ﴿ **ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيا ولا يرجعون** ﴾ للأئمة فى تفسير هذه الآية أقوال : قال ابن عباس رضى الله عنهما : أهلكناهم ، وقال السدى : لغيرنا خلقهم ، وقال أبو صالح ، لجعلناهم حجارة ، وقال الحسن البصرى ، وقتادة : لأقعدهم على أرجلهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فما استطاعوا مضيا** ﴾ أى إلى أمام ﴿ **ولا يرجعون** ﴾ إلى وراء ، بل يلزمون حالا واحدا لا يتقدمون ولا يتأخرون .

قوله تعالى : ﴿ **ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ، وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا إن الله عليم قدير** ﴾[(٢)] . وقوله جل شأنه : ﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾[(٣)] .

وقد اقتضت سنة الله تعالى : إنه من يعش طويلا فى الحياة يرد على حالته الأولى من الضعف ، وخفة العقل إلى غير ذلك مما كان عليه أيام الطفولة ، فعلى العاقل أن يغتنم خمسا قبل خمس ، شبابه قبل هرمه ، وصحته قبل سقمه ، وغناه قبل فقره ، وفراغه قبل شغله ، وحياته قبل موته .

نموت وأيامنـــــا تذهب ... ونلـعب والموت لا يلـعب
عجبت لذى لعب قد لهى ... عجبت ومالى لا أعـجب
أيلهـو ويلـعب من نفسه ... تموت ومنزلـه يخرب

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٥
(٢) سورة الحج آية : ٥
(٣) سورة الروم آية : ٥٤

أرى الليـــل يطلبنـــا والنهار ولم أدر أيهمـــا أطـــلب
أحـاط الجديدان جمعا بنـــا وليس لنا منهمـا مهـرب
وكل له مدة تنـــــقضى وكل له أثـــر يكـتـب

فبادروا أيها العقلاء بالأعمال الصالحة ، هل تنتظرون الا فقرا منسيا ، أو غنى مطغيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر .

دنيـاك ساعـات سراع الزوال وانما العقبـى خلـود المآل
فهـل تبيع الخلـد ياعاقـلا وتشترى دنيا المنى والضلال

إن التنكيس : هو جعل أعلى الشىء أسفله ، وهكذا يرد الإنسان بعد أن يطعن فى السن إلى حالة الطفولة ، والعاقل من يأخذ من أحداث التاريخ عبرة (ألا يعقلون) أى أجنوا ، فصاروا لا يعقلون .

هذه الأحكام ، لا تسوف فإن الموت يأتى بغته ، وإذا فات الأوان فالندم لا ينفع ..

عجـوز تمنت أن تكـون صبيــة وقد انحنى الجنبان واحـدودب الظهـر
فسارت إلى العطار تبغـى شبـابها وهـل يصلح العطار ما أفسد الدهـر

قوله تعالى : ﴿ **وما علمناه الشعر وما ينبغى له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين** ﴾ .

هذا إخبار منه سبحانه وتعالى : عن نبيه ومصطفاه ، إنه ما علمه الشعر ﴿ **وما ينبغى** ﴾ أى ما هو ف طبعه ، فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلته ، ولهذا ورد أنه ـ ﷺ ـ كان لا يحفظ بيتا وزن منتظم ، بل إن أنشده زحفه أو لم يتمه(١) .

وقال الامام أحمد بسنده : عن عائشة ـ رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ ـ إذا استراب الخبر تمثل فيه بيت طرفة : (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح(٢) .

أنـــا النبــى لا كذب أنـــا ابـن عبـد المطـلب

قال العلماء : هذا وقع اتفاقا من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه .

وقال أبو داود : بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ : (لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا) انفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه(٣) .

---

(١) ذكره ابن عساكر عن الشعبى فى ترجمة (عتبة بن أبى لهب انظر ابن كثير تفسير يس آية ٦٩
(٢)أخرجه الامام أحمد فى سنده ــ مسند عائشة ح ٦ ص ٣١ ، ١٤٦ ، ٢٨٩
وأخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة رقم ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ وأخرجه الترمزى وقال هذا حديث حسن صحيح ، أبواب الأدب ما جاء فى إنشاد الشعر رقم ٣٠٠٦ ـ ٨ / ١٤٠ ، ١٤١ تحفة الأحوذى .
(٣) اخرجه أبو داود (فى كتاب الأدب) باب : ما جاء فى الشعر ح ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣

والمقصود الشعر الذى فيه الهجاء .. والغزل ، والنفاق ، وفى الشعر ما هو مشروع ، كهجاء المشركين الذى كان يتعطاه شعراء الاسلام كحسان بن ثابت – رضى الله عنه – وكعب بن مالك – وعبد الله بن رواحه ، وأمثالهم واضرابهم – رضى الله عنهم أجمعين – ومنه ما فيه حكم ومواعظ وآداب ، كما يوجد فى شعر جماعة من الجاهلية ، ومنهم أمية بن أبى الصلت الذى قال فيه رسول الله ﷺ (آمن شعره وكفر قلبه)(١).

وقد روى أبو داود من حديث أبى بن كعب ، عن عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ – قال : (إن من البيان سحرا وإن من الشعر حكما)(٢).

وما أعظم قول الله تعالى : ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾(٣) . ثم استثنى أهل الصلاح بقوله : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ أى : ما هذا الذى علمناه ﴿ **إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ أى : بين واضح جلى لمن تأمله وتدبره ولهذا قال تعالى : ﴿ **لينذر من كان حيا** ﴾ أى : لينذر هنا القرآن المبين كل حى على وجه الأرض ، كقوله : ﴿ **ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده** ﴾ وإنما ينتفع بنذارته من هو حى القلب ، مستنير البصيرة كما قال قتادة : حى القلب ، حى البصر ، وقال الضحاك : يعنى عاقلا (ويحق القول على الكافرين) أى : هو رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين .

قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون** ﴾ .

يذكر تعالى : ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التى سخرها لهم ، ﴿ **فهم لها مالكون** ﴾ قال قتادة : مطيقون . أى جعلهم يقهرونها وهى ذليلة لهم ، لا تمتنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه ، وذاك ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير ، وقوله تعالى : ﴿ **منها ركوبهم ومنها يأكلون** ﴾ أى : منها ما يركبون فى الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ، ﴿ **ومنها يأكلون** ﴾ اذا شاءوا نحروا واحتيزوا .

واسمع معى الى قوله تعالى : ﴿ **ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ، نبئونى بعلم إن كنتم صادقين ، ومن الإبل اثنين ومن البقر**

(١) انظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة يس) آية : ٦٩

(٢) اخرجه أبو داود من حديث أبى بن كعب وابن عباس رضى الله عنهم – (فى كتاب الأدب) باب : ما جاء فى الشعر ج ٤ ص ٣٠٣

(٣) سورة الشعراء الآيات : ٢٢٤ – ٢٢٦

(٤) سورة الشعراء الآية : ٢٢٧

اثنين ، قل آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(١) .

واسمع الى قوله تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾(٢) .

واقرأ معى قوله تعالى : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون ، وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾(٤)

وقوله تعالى : ﴿ خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج .. ﴾(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ، ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾(٧) .

قوله تعالى : ﴿ ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ ﴿ ولهم فيها منافع ﴾ قال تعالى : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾(٨) . ﴿ ومشارب ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين ﴾ ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أى أيجحدون فلا يعرفون للمنعم فضلا ولا يشكرون على آلائه لقد بدلوا نعمة الله كفرا

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٤٢ — ١٤٤

(٢) سورة النحل الآيات : ٥ — ٩

(٣) سورة النحل الآية : ٦٦

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٢١

(٥) سورة الزمر الآية : ٦

(٦) سورة غافر الآيات : ٧٩ — ٨١

(٧) سورة الزخرف الآيات : ١٢ — ١٤

(٨) سورة النحل الآية : ٨٠

وأحلوا قومهم دار البوار قال تعالى : ﴿ **فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ، يعرفون نعمت الله ثم ينكـرونها وأكثرهم الكافرون** ﴾(١)

وقال جل شأنه : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾(٢).

إن خلق الأنعام آية من آيات الله دعى القرآن الكريم إلى النظر فيها بعين الاعتبار والتفكر ، قال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاما فهم لها مالكون** ﴾

وقال تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** ﴾(٣)

ودلائل التوحيد مبثوثة فى الأنفس والآفاق وليس مقصورة على خلق الإنسان أو الحيوان ، بل إنك لتراها فى أقل المخلوقات ، كالبعوضة والذبابة التى قال الله فى شأنها :

﴿ **وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه** ﴾(٤). وتراها كذلك فى الجراد

فواعجبـــا كيـــف يعصى — أم كيـف يجحـده الجاحـــد
وفى كل شىء له آيـــــة — تدل على أنــــه الواحــــد

يقول العلامة ابن القيم : فى كتابه (مفتاح دار السعادة) .

(ثم تأمل الحكمة البالغة فى إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام : الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها ، إذ لو كانت عمياء أو صماء ، لم يتمكن من الانتفاع بها ، ثم سلبها العقول على كبر خلقها التى للإنسان ، ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ، ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لا امتنعت من طاعته واستعصت عليه ، ولم تكن مسخره له ، فأعطيت من التمييز والادراك ما يتم به مصلحتها ومصلحة من ذللت له ، وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان ، وليظهر أيضا فضيلة التمييز والإختصاص .

ثم تأمل كيف قادها وذللها على كبر أجسامها ، ولم يكن يطيقها لولا تسخيره . قال الله تعالى :

﴿ **وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون ، لتستوا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخرلنا هذا .وما كنا له مقرنين ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾(٥) ﴿ **وما كنا له مقرنين** ﴾ : أى : مطيقين ضابطين . وقال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ، وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون** ﴾ .

(١) سورة النحل الآيات : ٨٢ – ٨٣
(٢) سورة ابراهيم الآية : ٢٤
(٣) سورة الغاشية الآية : ١٧
(٤) سورة الحج من الآية : ٧٣
(٥) سورة الزخرف من الآية : ١٢ – ١٤

فنرى البعير على عظم خلقته يقوده الصبى الصغير ذليلا منقادا ، ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ، ولفصله عضوا عضوا فسل المعطل (فرقة المعطلة التى عطلت صفات الله) من الذى ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات ، وفرغ بذلك التسخير النوع الإنسانى ، لمصالح معاشه ومعاده ، فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحمال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال ، لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناس يحملون أثقاله وحمله ، ويعجزون عن ذلك ، وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع مالهم فيها من المنافع التى لا يحصيها إلا الله من الغذاء والشراب والدواء واللباس والأمتعة والآلات والأوانى والركوب والحرث والمنافع الكثيرة والجمال .

ثم تأمل الحكمة فى خلق آلات البطش فى الحيوانات من الإنسان وغيره ، فالإنسان لما خلق مهيئا لمثل هذه الصناعات من البناء والخياطة والكتابة وغيرها ، خلق له كف مستدير منبسط وأصابع يتمكن بها من القبض والبسط والطى والنشر والجمع والتفريق ، وضم الشىء إلى مثله ، والحيوان إليهم لما لم يتهيأ لتلك الصنائع لم يخلق له تلك الأكف والأصابع ، بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع ، خلق له أكف لطاف مدمجة ذوات بداثن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ، ولا تصلح للصناعات ، هذا كله من آكلة اللحم من الحيوان ، وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها ، خلق لبعضها أظلافا تقيها خشونة الأرض إذا جالت فى طلبها المرعى ، ولبعضها حوافر ململمة مفعرة كأخمص القدم لتنطبق على الأرض ، وتتهيأ للركوب والحمولة ، ولم يخلق براثن ولا أنيابا لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك .

ثم تأمل الحكمة فى خلقه الحيوان الذى يأكل اللحم من البهائم ، ثم كيف جعلت له أسنان حداد ، وبراثين شداد ، وأفواه واسعة ، وأغنيت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد ، والأكل ، ولذلك تجد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب ، كالكلايب ولهذا حرم النبى - ﷺ - كل ذى ناب من السباع ومخلب من الطير ، لضرره وعداوته وشره ، والمغتذى عليه شبيه بالغازى ، فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدواتها وشرها ما يشابهها ، فحرم على الأمة أكلها ، ولم يحرم عليهم الضباع ، وإن كان ذا ناب ، فإنه ليس من السباع عند أحد من الأمم ، والتحريم إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب ، وأن يكون من السباع ، ولا يقال هذا ينتقض بالسبع إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبدا ، فصلوات الله وسلامه عليه ، على من أوتى جوامع الكلم ، فأوضح الأحكام ، وبين الحلال والحرام .

فانظر حكمة الله - عز وجل فى خلقه وأمره فيما خلقه ، وفيما شرعه ، تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التى لا يختل نظامها ولا ينخرم أبدا ، ولا يختل أصلا ، ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة الحكمة الأمر الأعظم من مشاهدة حكمة الحق ، وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ، ودينه وعرفوا حكمته ، فيما أحكمه وشهدت فطنتهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة وإحسان ، ومصلحة أريدت بالعباد فى معاشهم ومعادهم .

ثم تأمل أولا ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها ، فلا تحتاج إلى الحمل

والتربية ، كما يحتاج إليه أولاد الإنس ، فمن أجل أنه ليس عند أمهات البشر من التربية والملاطفه والرفق والآلات المتصلة والمنفصلة ، أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة ، ولذلك ترى أفراخ كثير من الطير كالدجاج والدراج والفتخ ، يدرج ويلقط حين يخرج من البضة ، وما كان منها ضعيف النهوض ، كفراخ الحمام واليمام ، أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعن فى أفواه الفراخ من حواصلها ، فتخبأه فى أعز مكان فيها ، ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ، ولا تزال كذلك حتى ينهض الفرخ ، ويستقل بنفسه ، وذلك كله من حظها وقسمها الذى وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى قوائم الحيوان كيف اقتضت أن تكون زوجا لأفردا ، أما اثنين ، وإما أربعا ، ليتهيأ له المشى والسعى ، وتتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فردا لم يصلح لذلك ، لأن الماشى ينتقل ببعض قوائمه ، ويعتمد على بعض ، فذو القائمتين ينقل واحدة ، ويعتمد على الأخرى ، وذو الأربع ينقل اثنين ، ويعتمد على اثنين ، وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتيه من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ، ولكان مشيه نقرا كنقر الطائر ، وذلك مما يؤذيه ويتعبه لنقل بدنه بخلاف الطائر .

ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلا أجهده وشق عليه ، بخلاف مشيه الطبيعى الذى هو له فاقتضت الحكمة تقديم نقل من يديه مع اليسرى من رجلين ، واقرار يسرى اليدين ويمين الرجلين ثم الأخريين كذلك ، وهذا أسهل ما يكون من المشى وأخفه على الحيوان .

ثم تأمل الحكمة البالغة فى أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم ، ليتهيأ ركوبها وتستقر الحمولة ، ثم خولف هذا فى الإبل فجعل ظهورها مسنمة معقودة كالقبو لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله ، والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف ، حتى قيل أن عقد الأقباء أنما أخذ من ظهور اتلابل .

وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعى من قيام ، فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه ، وليكون أيضا طول عنقه موازنا للحمل على ظهره إذا استقل به ، كما ترى طول قصبة القبان حتى قيل أن القبان إنما عمل من خلقه الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ، ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل لكأنه يوازنه موازنة .

ثم تأمل الحكمة فى كون فرج الدابة جعل بارزا من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها ، ولو جعل فى أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذى تجامع به المرأة ، وقد ذكر فى كتب الحيوان أن فروج الفيلة فى أسفل بطنها ، فإذا كانت وقت الضراب ارتفع ونشر وبرز للفحل ، فيتمكن من ضرابها ، فلما جعل فى الفيلة على خلاف ما هو فى سائر البهائم ، خصت بهذه الخاصية عنها ليتهيأ الأمر الذى به دوام النسل .

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمى هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف ، وكسيت الطيور بالريش .

وكسى بعض الدواب من الجلد ما هو فى غاية الصلابة والقوة ، كالسلحفاة ، وبعضها من الريش ما هو كالأسنة ، كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذى يريد أذاها ، فإنها لم كن لها سبيل إلى أتخاذ الملابس واصطناع الكسوة والآت الحرب ، أعينت بالملابس وكسوة لا تفارقها ، والآت وأسلحة تدفع بها عن نفسها ، وأعينت بأظلاف وأخفاف وحوافر لما عدمت الأحذية والنعال فمعها حذاؤها وسقاؤها ، وخص الفرس والبغل والحمار بالحوافر لما خلق للركض والشد والجرى ، وجعل لها ذلك أيضا سلاحا عند انتصافها من خصمها عوضا عن الصياحى والمخالب والأنياب والبراثن ، فتأمل هذا اللطف والحكمة ، فإنها لما كانت البهائم خرصا لا عقول لها ، ولا أكف ولا أصابع مهيأة للانتفاع والدفاع ، ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من النسيج والغزل ولطف الحيلة ، جعلت كسوتها من خلقها باقية عليها ما بقيت ، لا تحتاج إلى الاستبدال بها ، وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لتتم الحكمة التى أريدت بها ومنها ، وأما الانسان فإنه ذو حيلة ، وكف مهيئة للعمل ، فهى تغزل وتنسج ، ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالا بعد حال ، وله فى ذلك صلاح من جهات عديدة ، منها أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء ، ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة ، ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروبا من الكسوة للصيف وضروبا للشتاء ، فإن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء ، وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف ، فيتخذ لنفسه فى كل فصل كسوة موافقة ، ومنها أنه يجعلها تابعة لشهواته وإرادته ، ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس ، كما يتلذذ بأنواع المطاعم ، فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره ، كما جعلت مطاعمه كذلك ، فهو يكتسى ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من النبات تارة كالقطن والكتان ، ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة ، كالحرير والابريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة ، فجعلت كسوته متنوعة لتتم لذته وسروره وابتهاجه وزينته ، ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم ، كما هو فى الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان ، فدل على ذلك أكمل وأجل وأبلغ فى النعمة ، ومنها أرادة تمييزه عن الحيوان فى ملبسه كما ميزه عنه فى مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وفهمه ، ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائعه وحربه وسلمه وطعنه وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته ، فلكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصها لا تليق إلا بها ، فلم يجعل كسوته فى هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل إلى الاستبدال بها ، فهذا من تكريمه وتفضيله على سائر الحيوان .

ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع ـ والدواب على كثرتها لا يرى منها شىء وليست شيئا قليلا ، فتخفى لقلتها بل قد قيل ، أنها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه فى الصحارى من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب ، والنمور وضروب الهوام على اختلافها ، وسائر دواب الأرض ، وأنواع الطيور التى هى أضعاف بنى آدم لا تكاد ترى منها شيئا ميتا لا فى كناسة ولا فى أوكاره ولا فى مساقطه ولا فى مراعيه بطرقة ومواردة ومناهله ومعاقله ومعاصمه إلا ماعدا عليه عاد إما افترسه سبع ، أو رماه صائد ، أو

عدا عليه عاد أشغله واشتغل فى جنسه عن احراز جسمه وأخفاء جيفته ، فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على أنفسها كمنت حين لا يول إلى أجسامها ، وقبرت جيفتها قبل نزول البين بها ، ولولا ذلك لامتلأت الصحارى بجيفتها ، وأفسدت الهواء بروائحها ، فعاد ضرر ذلك بالناس ، وكان سبيلا إلى وقوع الوباء ، وقد دل على هذا قوله تعالى ، فى قصة ابن آدم ،

﴿ فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين ﴾(1) .

وأما ما جعل عيشه بين الناس كالانعام والدواب ، فلقدرة الانسان على نقله واحتياله فى دفع أذيته ، منع مما جعل فى الوحوش كالسباع فتأمل هذا الذى حار فيه بنو ادم وفيه وفيما يفعلون به ، كيف جعل طبعا فى البهائم ؟ وكيف تعلموه من الطير ؟

ثم تأمل الحكمة الباهرة فى وجه الدابة كيف هو فإنك ترى العينين فيه ساطعتين أمامها لتبصر ما بين يديها أتم من بصر غيرها ، لانها تحرس نفسها وراكبها ، فتتقى أن تصدم حائطا ، أو تتردى فى حفرة .

فجعلت عيناها كعينى المنتصب للقامة لأنها طليعة وجعل فوها مشقوقا فى أسفل الخطم ، لتتمكن من العض والقبض على العلف إذالو كان فوهها فى مقدم الخطم كما أنه من الانسان فى مقدم الذقن ، لما استطاع أن تتناول به شيئا من الأرض ، ألا ترى الإنسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده ، فلما لم تكن الدابة تتناول طعامها بيدها جعل خطمها مشقوقا من أسفله لتضعه على العلف ، ثم تقضمه وأعينت بالجحفلة وهى لها كالشفة للإنسان ، لتلتقم بها ما قرب منها وما بعد ، وقد أشكلت منفعة الذنب على بعض الناس ، ولم يهتد إليها وفيه منافع عديدة ، فمنها أنه بمنزلة الطبق على الدبر ، والغطاء على حياها ، يواريهما ويسترهما ، ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وخر يجتمع عليه الذباب والبعوض ، فيؤذى الدابة ، فجعل أذنابها كالمذاب لها والمراوح تطرد وتستريح إلى تحريكه وتصريفه يمنة ويسرة ، فإنه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلت قدماها بحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها فى تحريك الذنب راحة ، وعسى أن يكون فيها حكم آخر تقصر عنها أفهام الخلق ، ويزدريها السامع إذا عرضت عليه ، فإنه لا يعرف موقعها إلا فى وقت الحاجة فمن ذلك أن الدابة تربض فى الوحل فلا يكون شىء أعون على رفعها من الأخذ بذنبها .

ثم تأمل شفر (الفيل) وما فيه من الحكم الباهرة فإنه يقوم له مقام اليد فى تناول العلف والماء وإيرادهما إلى جوفه ، ولولا ذلك مااستطاع أن يتناول شيئا من الأشياء من الأرض ، لأنه ليست له عنق يمدها كسائر الأنعام ، فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخرطوم الطويل ، ليسد مسده ، وجعل قادرا على سدله ورفعه وثنيه والتصرف به كيف شاء ، وجعل وعاء أجوف لين الملمس ، فهو يتناول به حاجته ، ويحمله ما أراد إلى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به ، إذا شاء ، ويعطى ويتناول إذا أراد ، فمن الذى عوضه ؟ ومن أخلف عليه مكان العضو الذى منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الرءوف الرحيم بخلقه المتكفل بمصالحهم ،

(1) سورة المائدة الآية : ٣١

اللطيف بهم وكيف يتأتى ذلك مع الإهمال وخلو العالم عن قيمه ، وبارئه ومبدعه وفاطره ،لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، (فإن قلت ، فما باله لم يخلق له عنق كسائر الأنعام ، وما الحكمة فى ذلك ؟ قيل ، والله أعلم بحكمته فى مصنوعاته ، لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم ، وحمل ثقيل ، فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ، ووهنت بحمله ، فجعل رأسه ملصقا بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة ، وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاؤه ، ولما طالت عنق البعير للحكمة فى ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جثته لئلا يؤذيه ثقله ، ويوهن عنقه ، فسبحان من فاتت حكمه عد العادين وحصر الحاصرين .

ثم تأمل خلق (الزرافة) واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان ، فرأسها رأس فرس ، وعنقها عنق بعير ، وأظلافها أظلاف بقرة ، وجلدها جلد نمر حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وما أرى هذا القائل إلا كاذبا عليها وعلى الخلقة إذ ليس في الحيوان صنف يلقح صنف اخر وأنما يقع هذا نادرا .

فالزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ، ووضع بديع من خلق الله الذى أبدعه آيه ، ودلالة على قدرته ، وحكمته التى لا يعجزها شيء ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء ، وفى أى لون شاء ، فمنها المتشابه المتناسب الأعضاء ، ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة ، كما يرى عباده قدرته التامة فى خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على أنه مخلوق بقدرته ومشيئته تابع لها ، فمنه ما خلق من غير أب ولا أم ، وهو أبو النوع الانسانى (آدم) ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى ، وهى أمهم التى خلقت من ضلع آدم ، ومنه ما خلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم ، ومنه ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الانسانى فيرى عباده آياته ويتعرف إليهم بالآيه وقدرته ، وأنه اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وأما طول عنق الزرافة وما لها فيه من المصلحة ، فلأن منشأها كما ذكر المعتنون بحالها وساكنها فى غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولا ، فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذى هناك وثمارها ، وهذا ما وصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه .

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من الفطنة والحيلة فى جمع القوت وادخاره ، وحفظه ودفع الآفة عنه ، فإنك ترى فى ذلك عبرا وآيات .

فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز القوت خرجت من أسرابها طالبة له ، فإذا ظفرت به أخذت طريقا من أسرابها إليه ، وشرعت فى نقله ، فتراها رفقتين ، رفقة حاملة تحمله إلى بيوتها سربا ذاهبا ، ورفقة خارجة من بيوتها إليه لا تخالط تلك فى طريقها ، بل هما كالخيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين فى طريق ، والجماعة الراجعين من جانبهم ، فإذا ثقل عليهم حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل ، وتساعدت على حمله بمنزلة الخشبة والحجر الذى تتساعد الفئة من الناس عليه فإذا كان الذى ظفر به منهن واحدة

ساعدن عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه ، وإن كان الذى صادفه جماعة تساعدها عليه ، ثم تقاسمته على باب المبيت ومن عجيب أمر الفطنة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرته لئلا ينبت ، فإن كان مما ينبت الفلقتان منه كسرته أربعا ، فإذا أصابه ندا وبلل وخافت عليه الفساد أخرجته للشمس ثم ترده إلى بيوتها ، ولهذا ترى فى بعض الأحيان حبا كثيرا على أبواب مساكنها مكسرا ، ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ، ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشز من الأرض لئلا يفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل فى بطن واد ، ولكن فى أعلاه وما ارتفع على السيل منه — ويكفى فى فطنتها ما نص الله — عز وجل — فى كتابه من قولها لجماعة النمل ، وقد رأت سليمان — عليه السلام — وجنوده ، فقالت :

﴿ يأأيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾[(١)] .

فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب فى هذه النصيحة ، النداء والتنبيه والتسمية والأمر والنص والتحذير والتخصيص والتفهيم والتعميم والاعذار فاشتملت نصيحتها مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة ولذلك أعجب سليمان قولها ، وتبسم ضاحكا منه ، وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ، ولا تستبعد هذه الفطنة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها ، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ — قال ، نزل نبى من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ، ثم أحرق قرية النمل ، فأوحى الله إليه (من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح ، فهلا نملة واحدة)[(٢)].

ومن عجب الفطنة فى الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيدا تماوت ونفخ بطنه حتى يحسبه الطير ميتا ، فيقع عليه ليأكل منه ، فيثب عليه الثعلب فيأخذه ، ومن عجيب حيل العنكبوت أن ينسج تلك الشبكة شركا للصيد ، ثم يكمن فى جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتص دمه ومن عجيب الفطنة فى هذه الذبابة الكبيرة التى تسمى أسد الذباب ، فإنك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريبا منه يسكن مليا ، حتى كأنه موات لا حراك فيه ، فإذا رأى الذباب قد اطمأن وعقل عنه دب دبيبا رفيقا حتى يكون منه بحيث يناله ، ثم يثب عليه فيأخذه ، ولا تزدرين العبرة بالشىء الحقير من الذرة والبعوض ، فان المعنى النفيس يقتبس من الشىء الحقير ، والازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم حزب الله تعالى ، فى كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار ، فأنزل الله تعالى ،

﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ﴾[(٣)] .

(فما أغزر الحكم وأكثرها فى هذه الحيوانات التى تزدريها وتحتقرها ، وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته فى حكمته) .

فسل المعطل من ألهمها هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة ، فأغناها ما أعطاها من الحيلة

---

(١) سورة النحل من الآية : ١٨

(٢) أخرجة مسلم فى صحيحة عن أبى هريرة مرفوعا فى (كتاب الجهاد) باب : النهى عن قتل النمل : ٧ — ٤٣

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٦

عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير .

ثم تأمل جسم الطائر وخلقته ، فإنه حين قدر بأن يكون طائرا فى الجو خفف جسمه وأدمج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنين ، ومن الأصابع الخمس على أربع ، ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعا ، ثم خلق ذا جؤجؤ محدود لبسهل عليه اختراق الهول كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة ، وتنفذ فيه وجعل فى جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران ، وكسى جسمه كله بالريش لتتداخله الهواء فيحمله ، ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعا بلا مضغ نقص من خلقتهالإنسان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا ينفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ، ولما عدم الانسان وكان يزدرد الحب صحيحا واللحم غريفا أعين بفضل حرارة فى الجوف تطحن الحب .

وتطبخ اللحم ، فاستغنى عن المضغ والذى يدلك على قوة الحرارة التى أعين بها ، إنك ترى حجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحا ، وينطبخ فى جوف الطائر حتى لا يرى له أثر .

ثم اقتضت حكمته سبحانه : أن جعله يبيض بيضا ، ولا يلد ولادة ، لئلا يثقل عن الطيران فإنه لو كان ما يحمل ويمكث حمله فى جوفه حتى يستحكم ، ويثقل لأثقله وأعاقه عن النهوض والطيران . وتأمل الحكمة فى كون الطائر المرسل السائح فى الجو سيلهم نفسه أسبوعا أو أسبوعين باختياره قاعدا على بيضه حاضنا له ، ويحتمل مشقة الحبس ، ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب فى حويصلته ، ويزق فراخه ، وليس بذى رؤية ولا فكرة فى عاقبة أمره ، ولا يؤمل فى فراخه ، ما يؤمل الإنسان فى ولده من العون والرفد ، وبقاء الذكر فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعله لا يعلمها هو ، ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه .

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والوشى التى تراها فى كثير من الطير ، كالطاووس والدراج وغيرهما التى لو خطت بدقيق الأقلام ، ووشيت بالأيدى لم يكن هذا ، فمن أين فى الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطسط والتلوين والصبغ العجيب البسيط ، والمركب الذى لو اجتمعت الخليقة على أن يحاكوه لتعذر عليهم ..

ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار ، فلا هي تفقده ولا هى تجده مجموعا معدا بل تناله بالحركة والطلب فى الجهات والنواحي ، فسبحان الذى قدره ويسره ، كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ، ويفوتها إذا قعدت عنه ، وجعلها قادرة عليه فى كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران ، والأسطحة والسقوف تناوله بالهوينا من السعى ، فلا يشاركها فيه غير بنى جنسها من الطير ، ولو كان ما تقتات به يوجد معدا مجموعا كله ، كانت الطير تشاركها فيه ، وتغلبها عليه ، وكذلك لو وجدته معدا مجموعا ما كبت عليه بحرص ورغبة ، فلا تقلع عنه ، وإن شبعت حتى تبشم وتهلك ، وكذلك الناس لو جعل طعامهم معدا لهم بغير سعى ولا تعب أدى ذلك إلى الشرة والبطنه ، ولكثر الفساد وعمت

الفواحش والبغى فى الأرض ، فسبحان : اللطيف الخبير الذى لم يخلق شيئا سدى ولا عبثا .

(وانظر) فى هذه الطيور التى لا تخرج إلا بالليل ، كالبوم والهام والخفاش ، فإن أقواتها هيئت لها فى الجو لا من الحب ولا من اللحم ، بل من البعوض والفراش وأشباههما بما تلتقطه من الجو فتأخذ منه بقدر الحاجة ، ثم تأوى إلى بيوتها فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل ، وذلك إن هذه الضروب من البعوض والفراش وأمثالهما مبثوثة فى الجو لا يكاد يخلو منها موضع منه ، واعتبر ذلك بأن تضع سراجا بالليل فى سطح أو عرضة الدار ، فيجتمع عليه من هذا الضرب شيء كثير ، وهذا الضرب من الفراش نحوها ناقص الفطنة ضعيف الحيلة ليس فى الطير أضعف منه ، ولا أجهل ، وفيم يرى من تهافته فى النار وأنت تطرده عنها حتي يحرق نفسه دليل على ذلك ، فجعل معاش هذه الطيور التى تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه ، فإذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها ، فالليل لها بمنزله النهار لغيرها من الطير ، ونهارها بمنزلة ليل غيرها ، ومع ذلك فساق لها الذى تكفل بأرزاق الخلق رزقها ، وخلقه لها فى الجو ولم يدعها بلا رزق من ضعفها وعجزها ، وهذه إحدي الحكم والفوائد فى خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض ، لكم فيها من رزق لأمة تسبح بحمد ربها ؛ ولولا ذلك لا نتشرت وكثرت حتى اضطرت بالناس ومنعتهم القرار فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدبيره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته .

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات ، فانظر إليها وإلى اجتهادها فى صنعه العسل ، وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة واحكمها صنعا ، فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن فيها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ، ولا آلة ولا بيكار ، وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها ، كما قال تعالى : ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾(١) .

فتأمل كيف طاعتها وحسن أئتمارها لأمر ربها ، اتخذت بيوتا فى هذه الأمكنة الثلاثة ، فى الجبال وفى الشجر وفى بيوت الناس حيث يعرشون أي : يبنون العروش وهي البيوت ، فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة ، وتأمل كيف كثر بيوتها فى الجبال والشقفان وهو البيت المقدم فى الآية ، ثم فى الأشجار وهى من أكثر بيوتها ، ومما يعرش الناس .

وأقل بيوتها فيهم حيث يعرشون ، وأما فى الجبال والشجر فبيوت عظيمة ، يؤخذ منها من العسل الكثير جدا ، وتأمل كيف أواها حسن الامتثال إلى أن اتخذت البيوت أولا ، فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت أولا ، ثم بالأكل بعد ذلك ، ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مذللة لا يستوعذ عليها شيء ترعى ثم تعود ، ومن عجيب شأنها أن لها أميرا يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به ، فهى مؤتمرة لأمره ، سامعة له مطيعة ، وله عليها تكليف وأمر ونهى ، وهى رعية له منقادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها

(١) سورة النحل الآيات : ٦٨ - ٦٩

كما يدبر الملك أمر رعيته ، ثم إنها إذا آوت إلى بيوتها وقف على باب البيت فلا يدع واحدة بعد واحدة تزاحم الأخرى ، ولا تتقدم عليها فى العبور ، بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تزاحم ولا تصادم ولا تراكم ، كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق ، لا يجوزه إلا واحد واحد ، ومن نذير أحوالها وسياستها ، واجتماع شملها ، وانتظام أمرها وتدبير ملكها ، وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتعجب منها كل العجب ، ويعلم أن هذا ليس فى مقدورها ولا هو من ذاتها ، فإن هذه أعمال حكمة متقنة فى غاية الإتقان والإحكام ، فإذا نظرت إلى العامل رأيته من أضعف خلق الله ، وأجهله بنفسه وبحاله ، وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة ، ومن عجيب أمرها أن فيها أميران لا يجتمعان فى بيت واحد ، ولا يتآمران على جمع واحد ، بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحد الأميرين وقطعوه ، واتفقوا على أمير واحد من غير معاداة بينهم ، ولا أذى من بعضهم بل يصيرون يدا واحدة ، ومن أعجب أمرها ما لا يهتدى له أكثر الناس ولا يعرفونه ، وهى النتايج الذى يكون لها ، هل هو على وجه الولادة والتولد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك ، أو يفطن له ، وليس نتاجها على واحد من هذين الوجهين ، وإنما نتاجها بأمر من أعجب العجيب ، فإنها اذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التى على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهى الكل فتمصها ، وذلك مادة العسل ، ثم انها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة ، وتعقدها على رجلها كالعدسة فتملأ بها المسدسات الفارغة من العسل ، ثم يقوم ويعسوبها على بيته مبتدئا منه ، فينفخ فيه ، ثم يطوف على تلك البيوت بيتا بيتا ، وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بإذن الله — عز وجل — فتتحرك وتخرج طيورا بإذن الله وتلك إحدى الآيات والعجائب التى قل من يتفطن لها ، وهذا كله من ثمرة ذلك الوحى الإلهى أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والنتاج ، فسل المعطل : من الذى أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل فى طباعها ، ومن الذى سهل لها سبله ذللا منقادة لا تستعصى عليها ، ولا تستوعرها ، ولا تضل عنها على بعدها ، ومن الذى هداها لشأنها ، ومن الذى أنزل لها من الطل ما إذا خبته ردته عسلا صافيا مختلفا ألوانه فى غاية الحلاوة واللذاذة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته فى المرآة وسمه لى من جاء به وقال : هذا أفخر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه ، فإذا طعمه ألذ شىء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود ، وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها .

وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ، ودخوله إلى غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور فى كتبهم أصلا ، وإنما كان الذى يستعملونه فى الأدوية هو العسل ، وهو المذكور فى كتب القوم ، ولعمر الله ، إنه لا نفع من السكر وأجدى وأجلى للأخلاط وأقمع لها ، وأذهب لضررها ، وأقوى للمعدة ، وأشد تفريحا للنفس ، وتقوية للأرواح ، وتنفيذا للدواء ، وإعانة له على استخراج الدواء من أعماق البدن ، ولهذا لم يجىء فى شىء من الحديث قط ذكر السكر ، ولا كانوا يعرفونه أصلا ، ولو عدم من العالم لما احتاج اليه ، ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه ، وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل ، واستطابوه عليه ، ورأوه أقل حدة وحرارة منه ، ولم يعلموا أن من منافع العسل ما فيه من

الحدة والحرارة ، فإذا لم يوافق من يستعمله كسرها بمقابلها ، فيصير أنفع له من السكر ومتى رأيت السكر يجلو بلغها ، ويذيب خلطا ، أو يشفى من داء ، وإنما غايته بعض التنفيذ للدواء الى العروق للطافته وحلاوته .. ولم يصف الله فى كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل ، فهما الشفاءان هذا : شفاء القلوب من أمراض غيها وضلالها ، وأدواء شبهاتها وشهواتها . وهذا شفاء للأبدان من كثير من أسقامها ، وأخلاطها ، وآفاتها ، ولقد أصابنى أيام مقامى بمكة أسقام مختلفة ، ولا طبيب هناك ولا أدوية كما فى غيرها من المدن ، فكنت استشفى بالعسل وماء زمزم ، ورأيت فيهما من الشفاء أمرا عجيبا ، وتأمل إخباره سبحانه وتعالى : عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال : عن العسل ﴿ **فيه شفاء للناس** ﴾[1] . وما كان نفسه شفاء أبلغ مما جعل ، وليس موضع استقصاء فوائد العسل ومنافعه .

ثم تأمل العبرة التى ذكرها الله ــ عز وجل ــ فى الأنعام وما سقانا من بطونها من اللبن الخالص السائغ الهنىء المرىء الخارج من بين الفرث والدم ، فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة ، فينقلب بعضه دما بإذن الله ، وما يسرى فى عروقها ، وأعضائها ، وشعورها ، ولحومها ، فإذا أرسلته العروق فى مجاريها إلى جملة الأجزاء قلبه كل عضو ، أو عصب ، وغضروف ، وشعر ، وظفر ، وحافر إلى طبيعته ، ثم يبقى الدم فى تلك الخزائن التى له ، إذ به قوام الحيوان ، ثم ينصب ثقله إلى الكرش ، فيصير بلا ، ثم ينقلب باقيه لبنا صافيا أبيض سائغا للشاربين ، فيخرج من بين الفرث والدم ، حتى اذا أنهكت الشاة أو غيرها حلبا خرج الدم مشوبا بحمرة فصفى الله سبحانه الألطف من الثقل بالطبخ الأول فانفصل إلى الكبد وصار دما ، وكان مخلوطا بالأخلاط الأربعة ، فأذهب الله ــ عز وجل ــ كل خلط إلى مقره ، وخزانته المهيئة له من المرارة ، والطحال ، والكلية ، وباقى الدم الخالص يدخل فى أوردة الكبد ، فينصب من تلك العروق إلى الضرع ، فيقلبه الله ــ تبارك وتعالى ــ من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه ، فاستخرج من الفرث والدم . فسل المعطل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير ؟ وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ، ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير .

ثم تأمل العبرة فى السمك وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذى قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشى إذا كان مسكنه الماء ، ولم يخلق له رئه لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتج إليه ، لأنه ينغمس فى الماء ، وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جانبيه كما يقذف صاحب المركب بالمقاديف من جانبى السفينة ، وكسى جلده قشورا متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف ، والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فيقصده وقد ذكر فى بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ ، فهو يصب الماء فيها بفيه ، ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك ، كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ، ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحرى كالهواء للحيوان البرى ، فهما بحران أحدهما ألطف من الآخر : بحر هواء يسبح فيه حيوان البر ، وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر ، فلو فارق كل من

(١) سورة النحل من الآية : ٦٩

الصنفين بحره الى البحر الآخر مات ، فكما يختنق الحيوان البرى فى الماء يختنق الحيوان البحرى فى الهواء فسبحان : من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد ، بل إن علموا فيها وجها جهلوا منها أوجها ، فتأمل الحكمة البالغة فى كون السمك اكثر الحيوان نسلا ، ولهذا نرى فى جوف السمكة الواحدة من البيض مالا يحصى كثرة (وحكمة ذلك) : أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان ، فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع ، لأنها فى حافات الآجام جاثمة تعكف على الماء الصافى ، فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك ، فاختطفته ، فلما كانت السباع تأكل السمك ، والطير تأكله والناس تأكله والسماك الكبار تأكله ، ودواب البر تأكله ، وقد جعله الله — سبحانه — غذاء لهذه الأصناف ، اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة ، ولو رأى العبد ما فى البحر من ضروب الحيوانات ، والجواهر والأصناف التى لا يحصيها إلا الله ، ولا يعرف الناس منها إلا الشىء القليل الذى لا شبه له أصلا إلى ما غاب عنهم لرأى العجب ، ولعلم سعة ملك الله ، وكثرة جنوده التى لا يعلمها إلا الله .

وهذا (الجراد) نثرة حوت من حيتان البحر ينثره من منخريه ، وهو جند من جنود الله ، ضعيف الخلقة ، عجيب التركيب فيه خلق سبع حيوانات ، فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندا لا مرد له ، ولا يحصى منه عدد ولا عدة ، فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك ، فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل ، فيغشى السهل والجبل والبدو ، والحضر ، حتى يستر نور الشمس بكثرته ، ويسد وجه السماء بأجنحته ، ويبلغ من الجو الى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه ، فسل المعطل الجاحد من الذى بعث هذا الجند الضعيف الذى لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة ، والكثرة ، والعدد ، والحيلة ، فلا يقدرون ، بأجمعهم على دفعه ، بل ينظرون اليه يستبد بأقواتهم دونهم ، ويمزقها كل ممزق ، ويذر الأرض قفرا منها ، وهم لا يستطيعون أن يردوه ، ولا يحولوا بينه وبينها ، وهذا من حكمته سبحانه : أن يسلط الضعيف من خلقه الذى لا مؤنة له على القوى ، فينقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك ردا ، ولا صرفا .. فسبحان من له فى كل شىء حكمة بالغة ، وآية باهرة . انتهى .

قوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ، لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون** ﴾ .

يقول تعالى : منكرا على المشركين فى اتخاذهم الأنداد آلهة يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة ، وترزقهم ، وتقربهم إلى الله زلفى ، قال تعالى : ﴿ **لا يستطيعون نصرهم** ﴾ أى : لا تقدر هذه الآلهة على نصر عابديها ، بل هى أضعف من ذلك ، وأقل وأذل وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل ، قال تعالى :

﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، إن الذين تدعون من دون الله عباد**

أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم اذان يسمعون بها قل أدعو شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾[١]

وقوله تعالى : ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ قال مجاهد : يعنى عند الحساب يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ، ليكون ذلك أبلغ فى حزنهم ، وأدل عليهم فى إقامة الحجة عليهم ، قال تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾[٢]

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ **المشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا وهى لا تسوق اليهم خيرا ، ولا تدفع عنهم شرا ، إنما هى أصنام قال ابن كثير : وهذا القول حسن وهو اختيار ابن جرير .**

قوله تعالى : ﴿ **فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أى لا يحزنك تكذيبهم لك ، وكفرهم بالله ﴿ **إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون** ﴾ أى نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلا ولا حقيرا ، ولا صغيرا ولا كبيرا ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديما وحديثا . ومثله قوله تعالى : ﴿ **ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا يريد الله ألا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم ، إن الذين أشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب أليم** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **ياأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** ﴾[٤] .

« البعث حق »

قال تعالى :

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٩١ — ١٩٥ .

(٢) سورة الاحقاق الآية : ٥ — ٦

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٧٦ — ١٧٧

(٤) سورة المائدة الآية : ٤١

خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾
إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ
مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

« تفسير المفردات »

أولم ير : أى أولم يعلم ، والخصيم : المبالغ فى الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية .. ضرب لنا مثلا : أى وأورد فى شأننا قصة عجيبة هى فى غرابتها كالمثل ، إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة ، الرميم : كالرمة والرفات ، بلى : كلمة جواب كنعم ، تأتى بعد كلام منفى ، أمره : أى شأنه فى الايجاد ، الملكوت : الملك التام .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف الدلائل على عظيم قدرته ، ووجوب عبادته ، وبطلان إشراكهم ، بعد أن عاينوا فيما بين أيديهم ما يوجب التوحيد والإقرار بالبعث ـ أردف ذلك ذكر حجة من أنفسهم دالة على قدرته تعالى : ومبطلة لإنكارهم له ، ثم ذكر أن بعض خلقه استبعدوا البعث ونسوا بدء أمرهم وكيف خلقوا ، وقالوا : كيف ترجع الحياة الى هذه العظام النخرة ؟ فأجابهم عن شبهتهم بأن الذى أنشأها أول مرة من العدم ، هو الذى يحييها ، وهو العليم بتفاصيل أجزائها مهما وزعت وتفرقت ، ثم ذكر لهم دليلا آخر يرفع هذا الاستبعاد ، وهو أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء ، قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غضا طريا ، ثم يبس وبلى ، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان ، وفيه الدليل على قدرته ، وهو خلق السموات والأرض ، ثم أعقب ذلك بما هو كالنتيجة لما سبق ، وفيه بطلان لإنكارهم ، فأبان أن كل شىء هين عليه ، فما هو إلا بقول ﴿ **كن فيكون** ﴾ تنزه ربنا ذو الملكوت عن كل ما يقول المشركون ، فإليه يرجع جميع الخلق للحساب والجزاء .

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .(١)

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ — ١١٦

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة : (جاء أبي بن خلف إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفى يده عظم رميم وهو يفته بيده ، ويذروه فى الهواء ، ويقول : أتزعم يا محمد أن الله يبعث هذا ؟ قال ـ ﷺ ـ : (نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار ، ونزلت هذه الآيات من سورة يس ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾ الآيات .

« التفسير »

قوله تعالى : **﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ﴾** ؟

تلك هى القضية التى أقام القرآن الأدلة القطعية على ثبوتها ووقوعها ، فأقام خمسة أدلة .

١ ـ **﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾** .

٢ ـ **﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾** .

٣ ـ **﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾** .

٤ ـ **﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له : كن فيكون ﴾** .

٥ ـ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ﴾** .

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآيات كلاما جليلا وجميلا يقول ـ رحمه الله تعالى :

قال مجاهد وعكرمة عروة بن الزبير والسدى وقتادة : (جاء أبى بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وفى يده عظم رميم ، وهو يذروه فى الهواء ، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ـ ﷺ ـ تعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار .. ونزلت هذه الآيات من آخر يس **﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة .. الآيات ﴾** والألف واللام فى الإنسان للجنس يعم كل منكر للبعث .

قوله تعالى : **﴿ أنا خلقناه من نطفة فإذا هم خصيم مبين ﴾** أى : أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقة من شىء حقير ضعيف معين ، كما قال ـ عز وجل ـ : **﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ﴾**(١) .

وقال تعالى : **﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج ﴾**(٢) .

أى : من نطفة من أخلاط متفرقة ، فالذى من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ، كما قال الامام أحمد فى سنده : عن بشر بن جحاش قال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ بصق يوما فى كفه

(١) سورة المرسلات الآيتان : ٢٠ ـ ٢٢

(٢) سورة الانسان الآية : ٢

فوضع عليها إصبعه ، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ وقال الله تعالى : ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك (ثيابك) وللأرض منك وئيد (صوت) ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟)[١] .

قوله تعالى : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ﴾ أى : أنه ـ أى الإنسان الكافر ـ استبعد إعادة الله تعالى ذى القدرة العظيمة التى خلقت السماوات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه ، وأن الله تعالى : خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده .

ولهذا قال عز وجل : ﴿ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أى يعلم العظام فى سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت وأين تفرقت وتمزقت .

قال الإمام أحمد بسنده عن ربعى قال : قال عقبة بن عمرو لحذيفة ـ رضى الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ـ ﷺ : فقال : سمعته ـ ﷺ ـ يقول : (إن رجلا حضره الموت فلما أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنامت فاجمعوا لى حطبا كثيرا جزلا ، ثم أوقدوا فيه نارا ، حتى إذا أكلت لحمى وخلصت إلى عظمى ، فامتحشت ، فخذوها فذقوها ، فذروها فى اليم ، ففعلوا ، فجمعه الله تعالى إليه ، ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال : من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له)[٢] .

فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته ﷺ يقول ذلك وكان نباشا .

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظ كثيرة منها : أنه أمر بنيه أن يحرقوه ، ثم يسحقوه ، ثم يذروا نصفه فى البر ، ونصفه فى البحر فى يوم رائح ، أى كثير الهواء ، ففعلوا ذلك ، فأمر الله تعالى : البحر فجمع ما فيه وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن فإذا هو رجل قائم ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم . فما تلافاه أن غفر له .

وقوله تعالى : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أى : الذى بدأ خلق هذا الشجر من ماء ، حتى صار خضرا نضرا ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شىء .

قال قتادة فى قوله : ﴿ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ﴾ يقول : الذى أخرج هذه النار من هذا الشجر ، قادر على أن يبعثه .

وقيل : المراد بذلك شجر المرخ والغفار ينبت فى أرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد ، فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما . كالزناد سواء .

---

(١) أخرجة الامام أحمد فى مسند ٤٥ — ٢١٠ ورواه ابن ماجه فى سننه فى كتاب الوصايا) باب : النهى عن الامساك فى الحياة والتبرير عن الموت ص ٢ — ٩٠٣ رقم ٢٧٠٧

(٢) أخرجه الامام أحمد فى مسنده : ٥ — ٣٩٥

« كلمة العلم فى إثبات البعث »

وللعلم فى هذا المقام كلمة نسجلها هنا لإظهار العظمة والجلال الإلهى .

يقول المهندس عثمان حلمى فى كتابه : (من آيات الله فى الكون) تحت عنوان (النار من الشجر الأخضر) .

(فى عالم النبات معجزات كثيرة تحار العقول فى إدراكها ، وتعليل كيفية حدوثها ، لاننا فى الواقع لا نرى إلا المرحلة النهائية للعمليات المختلفة التى تابعها النبات إلى أن وصل لهذه النتيجة ، فمن الظواهر التى استرعت اهتمام الباحثين من علماء الحياة ، مسألة تكوين الخشب فى جسم النبات الأخضر ومن هذا الخشب توقد النار التى هى .. مصدر للطاقة لا غنى لنا عنها فى حياتنا اليومية .. وفى القرآن آيات تشير إلى ذلك ، وتذكر الناس بقدرة الخلاق العظيم لعلهم يهتدون ، كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **أفرأيتم النار التى تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون** ﴾ .

وعندما نتدبر معنى : هذه الآية الكريمة نجد أنها تشير إلى أصول البحث فى علوم مختلفة مثل الكيمياء ، والنبات ، والأحياء ، والطبيعة وغيرها .

وإن من إعجاز القرآن تنبيه الناس إلى ضرورة دراسة العلوم لكى يتيسر لهم تفسيره تفسيرا صحيحا يفيدون منه ، ويتحقق بذلك رسالة القرآن الإلهية ، وصلتها بحياة الإنسان وما خلق الله فى السماوات والأرض .

وسنعالج فيما يلى تفسير هذه الآية بقدر ما يتسع له هذا المقام ، ونتبين كيف تتمشى العلوم الحديثة من آيات القرآن الحكيم .

فالله سبحانه وتعالى : خلق خلايا النبات التى تبنى منها أنسجته وأعضاؤه وسواها ، وقدرها ، ثم هداها لبناء الخشب الذى توقد منه النار بتوجيه تهيمن عليه حيوية تلك الخلايا ، ومن ثم الإعجاز المذهل الذى يكمن فى هذه الظاهرة .

وفيما يلى شرح مختصر للخطوات التى سلكها النبات لتكوين الخشب : دأب الإنسان منذ القدم على أن يتخذ من الشجر وقودا ، ثم تدرج إلى صناعة الفحم النباتى منه ، وادخاره ليوقده عند الحاجة . وما الفحم الحجرى الذى يستخرج من المناجم الغائرة فى بطن الأرض إلا بقايا أشجار خضراء طمرت فى الأرض ، وطرأ عليها فى غضونها تغييرات مختلفة ، فتكربنت ، أى تفحمت وأصبحت ذلك الفحم المعروف .

والفحم يكاد يتكون كله من الكربون ، وهو عنصر يحترق باتحاده مع أكسجين الهواء ، ويدخل فى تركيب كل مادة عضوية . فالفحم أصله الخشب الذى كونه النبات وبناه فى جسمه . ومن عجب أن هذه

الكتل من الخشب ، وما نتج عنها الفحم إنما بناها النبات من غاز ثانى أكسيد الكربون ، الذى يوجد فى الهواء مختلطا مع غازات أخرى ، ولم تعرف هذه الحقيقة إلا فى نهاية القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر .

قد أوحى الله إلى النبات ، وقدر له أن يقوم باستخلاص عنصر الكربون من غاز ثانى أكسيد الكربون الجوى ، ويمثله فى درجة الحرارة العادية ، دون عناء ملحوظ ، ولا أعراض ظاهرة فى حين أن فصل الكربون عن ثانى أكسيد الكربون يتطلب من الكيميائى درجة حرارة مرتفعة وأجهزة يستخدمها فى المعمل لهذا الغرض . والله سبحانه وتعالى : أمد النبات بالطاقة والوسائل التى يستعين بها على أداء عملية تمثيل الكربون وفصله عن غاز ثانى أكسيد الكربون . ومن هذه الوسائل وجود المادة الخضراء المعروفة بالخضير أو الكلوروفيل ، ولذا فان الشجر الأخضر ـ والأخضر دون سواه ـ هو الذى يستطيع أن يمثل الكربون ، وهو أصل الخشب الذى توقد منه النار ، فقد ثبت أن هذه المادة الخضراء لها خاصة امتصاص حزم معينة من ضوء الشمس ، وهى الحمراء والبرتقالية ، وبهذا المجهود الضوئى تستعين المادة الحية التى فى خلايا النبات على استخلاص الكربون من ثانى أكسيد الكربون .

ومتى تم فصل الكربون تقوم الخلية المنوط بها عملية تمثيل الكربون باتحاد الكربون مع عنصرى الماء وهما : الأيدروجين والأكسجين ويسفر هذا الاتحاد عن تكوين مادة بدائية سائلة من فصيلة السكر . على أنه لم يتضح للآن كيفية حدوث هذا الاتحاد ولتفسير ذلك نظريات مختلفة فى علم الذرة الحديث لا يتسع له هذا المقام .

ومتى تم تكوين هذا المحلول السكرى ، من خلية لأخرى حتى يصل إلى الأوعيه التى يتكون فيها الخشب ، فيخزن فيها ، ثم يتركز تدريجيا ، ويضاف إليه مواد أخرى تكسبه الصلابة ، مثل اللجنين والسوبرين ، فتستقر فى موضع التخزين ، وتصبح مادة صلبة هى الخشب المعروف .

ومن عجب أن هذه الخلايا النباتية التى اشتركت فى تكوين الخشب ، لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة ، فلا يزيد قطر الواحدة منها عن ١٠٠٠ / ١ من الملليمتر ، ككثير من الخلايا التى سبق ذكرها فى مناسبات مختلفة ، ومع ذلك فقد أودع الله الحياة فى تلك الخلايا ، وسخر لها الامكانيات ، فقامت بعملها المعجز . وبعد فهل إذا أتيح للإنسان الحصول على ثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة الكلوروفيل ، أن ينهض بتكوين الخشب كما كونه النبات ؟ كلا لأن هذه الإمكانات ينقصها العامل الهام الفعال ، وهو التى أودعها الله الخالق سبحانه وتعالى : فى مادة الخلية ، وهداها لأداء هذه المهمة بعد أن خلقها وقدرها ، فهو الذى قدر فهدى ، وهو الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وأنى للانسان أن يدرك سر حياة هذه الخلية ، وقد جعل الله لعقله أفقا محدودة ، ولم يؤته من العلم إلا قليلا ، فإذا طعن فى السن وبلغ من العمر أرذله نكسه الله فى الخلق ، لكى لا يعلم من بعد علم شيئا ،

تحقيقا لقوله تعالى : ﴿ **ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا** ﴾[١] .

هذا للانسان الذى يفخر اليوم بقهره الذرة وتحطيمها ، ويصنع منها قنابل ذرية ، وصواريخ يرسلها على بنى جنسه وبالا ودمارا ، يهلك حرثهم ، ويفنى نسلهم ، قد نسى خلقه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، وراح يضرب لخالقه مثالا فقال : ﴿ **من يحيى العظام وهى رميم** ﴾ .

فأنزل الله تعالى : فى القرآن الكريم على نبيه ﷺ ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ ليبين لهذا الانسان أن الذى خلق العظام من العدم ، لا يعجزه أن يعيد خلقها مرة أخرى .

وشاء الله كذلك أن يعلم الإنسان مالم يعلمه ، ويعظه . ويظهر له قلة حيلته ، إلى جانب قدرته تعالى ، التى لا تحد فقال ، إن الذى أنشأ العظام أول مرة ، ثم يحييها ، هو الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون .

ومن إعجاز القرآن فى هذه الآية الكريمة ، أن الخشب لا يتكون إلا من الشجر الأخضر بالتخصيص لاحتوائه على مادة الكلوروفيل كما أسلفنا ، وكما هو ثابت فى بحوث علم النبات .

وهكذا رأينا من قصة تكوين الخشب التى سقناها أن النبات الأخضر الصامت الذى يبدو جامدا فى موضعه ، وقد استطاع أن يصنعه من الهواء والماء والضوء ، وفشل الإنسان فى هذا المضمار الضيق ، وتفوقت عليه تلك الخلية ، ونجحت فى تكوين الخشب وهى من أصغر مخلوقات الله حجما ، كذلك يضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتفكرون ، ويعرفون قدر أنفسهم فيقول : ﴿ **ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب** ﴾[٢] .

فانظر كيف ضعف الانسان وآلهته التى كان يشرك بها عن خلق ذبابة حقيرة ، بل وعن استرداد ما تسلبه منه .

ألا فكم تكون ضآلة قدرة الانسان الذى قهرته الخلية الضئيلة والذبابة الدنيئة أزاء خلق السموات والأرض اللتين هما أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

والقرآن حثنا على النظر إلى الكائنات المختلفة التى حولنا ، وفى أنحاء الكون ، ونبهنا إلى التمعن والتفكير كيف خلقها الله تعالى بهذا الكمال البديع الذى يسبح بقدرة خالقها العظيم ، فاستمع لقوله تعال :

---

(١) سورة الحج من الآية ٥

(٢) سورة الحج الآية : ٧٣

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت ﴾(١) .

وتأمل بلاغة القرآن فى هذه الآيات الموجزة المعجزة وهى تنبهنا على التوالى لدراسة علوم الحيوان والفلك والجيولوجيا !

علم طبقات الأرض والجغرافيا ، ويلاحظ أن الاستفهام الإنكارى الوارد فى بدء الآية الكريمة لا يقصد به طلب معرفة السبب ، ولكنه تبكيت وتقريع للذين يلقون نظرة عابرة على مخلوقات الله ثم يغضون أبصارهم ويكتفون بنحو قولهم ، سبحان الخلاق العظيم دون أن يعملوا بأمر الله إذ كلفهم بالإنابة والتمعن فى الكيفية التى أنشئت بها هذه المخلوقات .

« عود على بدء »

وبعد ما استمعنا إلى كلمة العلم فى الشجر الأخضر ، نعود إلى كلام العلامة ابن كثير فى تفسير الآيات السابقة .

يقول تعالى ، مخبرا منبها عن قدرته العظيمة فى خلق السموات السبع ، بما فيها من الكواكب السيارة الثوابت ، والأراضين السبع ، وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار ، وما بين ذلك ، ومرشدا إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة ، كقوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٢) .

وقال عز وجل : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾ أى : مثل البشر ، فيعيدهم كما بدأهم وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ أى : أنما يأمر بالشىء أمرا واحدا ، لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد إذا ما أراد الله أمرا فإنما يقول له كن قوله : ﴿ فيكون ﴾ أى ، يوجد دون ما تراخ .

قال الامام أحمد بسنده عن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : إن رسول الله – ﷺ – قال ، (إن الله

(١) سورة الغاشية الآيات : ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

(٢) سورة غافر الآية : ٥٧

(٣) سورة الاحقاف الآية : ٣٣

تعالى يقول : ﴿ **ياعبادى كلكم مذنب ألا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إنى جواد ماجد واحد أفعل ما أشاء ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إذا أردت شيئا فإنما أقول له** ﴿ **كن فيكون** ﴾[(١)].

وقوله تعالى : ﴿ سبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ أى ، تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحى القيوم الذى بيده مقاليد السماوات والأرض ، وإليه الأمر وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد للمعاد ، فيجازى كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ومعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء** ﴾ كقوله عز وجل ، ﴿ **قل من بيده ملكوت كل شيء** ﴾[(٢)] وبقوله تعالى : ﴿**تبارك الذى بيده الملك**﴾[(٣)] فالملك والكلكوت واحد فى المعنى ، كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت .

ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجساد ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول ، وهو الذى عليه الجمهور من المفسرين ، قال الامام أحمد بسنده عن حذيفة وهو ابن اليمان – رضى الله عنه – قال : (قمت مع رسول الله – ﷺ – ذات ليلة فقرأ السبع الطوال فى ركعات ، وكان – ﷺ – إذا رفع رأسه من الركوع قال : سمع الله لمن حمده ، ثم قال : الحمد لله ذى الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة ، وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فانصرفت وقد كادت تنكسر رجلاى .[(٤)]

سبحـــانك اللهـــم أنت الواحـــــد ... كل الوجـــود على وجـــودك شاهـــد
ياحــــــى ياقيـــــوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنـــا الجبين الساجــــد
يامــــن له عنت الوجـــوه بأسرهـــا ... رهبـــا ، وكل الكائنـــات توحـــد
أنت الآله الواحـــد الحق الـــــذى ... كل القلـــوب له تقـــر وتشهـــد

لا يسعنا بعد هذا إلا أن نردد مع الكون كله ، من سمائه إلى أرضه ، من عرشه إلى فرشه ، قوله جل جلاله : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ، ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات**

(١) اخرجه الامام احمد فى مسند أبى ذر مرفوعا .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٨٨

(٣) سورة الملك الآية : ١

(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده ح ٥ ص ٣٨٨ ورواه أو داود والترمذى والنسائى بنحوه أبو داود – كتاب الصلاة – باب : ما يقول فى ركوعه وسجوده فى ٨ – ٢٣١ حديث رقم ٨٧٤ والنسائى (كتاب الافتتاح) باب : ما يقول فى قيامة : ٢ – ١٩٩ – ٢٠٠ وباب : الدعاء بين السجدتين : ٢ – ٢٣١

والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ، وله من فى السموات والأرض كل له قانتون ، وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[1].

والقرآن الكريم فى عظمة وجلال قد قطع المعاذير بعدما أقام الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة والحجج الباهرة على أن البعث حق لا يمارى فى ذلك إلا كل كفار أثيم .

« شبه المنكرين ودحضها »

يقول الأستاذ عبد الله سراج الدين تحت عنوان ، (شبه المنكرين الإعادة وبطلانها).

لقد أزال الله تعالى ، شبه المنكرين وأبطلها كلها ، وذلك أن شبه المنكرين للاعادة ترجع إلى ثلاثة أمور .

الأول ، اختلاط أجزاء الأموات بأجزاء الأرض ، واختلاطها بأجزاء أخرى ، فكيف يحصل التمييز بينهما ؟

الثانى ، أن القدرة لا تتعلق بذلك فى زعم المنكرين ، وأن ذلك غير ممكن فى زعمهم .

الثالث ، زعم المنكرين أن الإعادة لا فائدة منها ، وأن الحكمة تقتضى دوام هذا النوع الانسانى جيلا بعد جيل هكذا أبدا على وجه البقاء .

فجاءت براهين القرآن المثبتة للمعاد مبنية على ثلاثة أصول ، بها أزاح الله تعالى ، شبهات المنكرين ومزاعمهم الباطلة .

أولا : تقرير القرآن الكريم سعة علم رب العالمين ، وأحاطته بكل شيء ، وأنه لا يخفى عليه شيء ، ولا يلتبس عليه شيء فقال تعالى : **﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ ﴾**[2] أى : فلا يلتبس علينا شيء ، ولا يغيب عنا جزء ، بل نحن جزء عالمون ، وله حافظون فى علم عندنا ، فتلك الأجزاء وإن غابت عن أبصارهم فهى لا تغيب عنا ، بل هى محفوظة لدينا .

ثانيا : تقرير القرآن الكريم كمال قدرة رب العالمين ، وأنه لا يعجزه شيء قال تعالى : **﴿ أوليس الذى خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾** أى : فالذى خلق ما هو أكبر من الإنسان ، لأن إعادته ليست أكبر من بدايته ، ولئن فرض أنها أعظم من البدء ، فلقد خلق ما هو

---

(١) سورة الروم الآيات : ١٧ — ٢٧

(٢) سورة ق الآية : ٤

أعظم وأكبر من الإنسان وهو السماوات والأرض المشهودة بالعيان .

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾ .

ثم أنه أرانا أمورا واقعية مشهودة فى الانسان والحيوان والطيور أماتها وفرق أجزاءها ، ثم أعادها وأحياها ، فذكر لنا قصة الذين أماتهم ، ثم أحياهم ، وقصة السبعين رجلا الذين أخذتهم الصاعقه، وقصة العزير ــ عليه السلام ــ ونحوها كما تقدم ، ليكون ذلك حجة مشهودة ، دالة على قدرته سبحانه ، على إحياء الموتى .

ثالثا : تقرير القرآن الكريم كمال حكمة رب العالمين ، وأن من مقتضى حكمته أن يعيد الخلق ويجمعهم ليوم لا ريب فيه ، ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى وليميزالله الخبيث من الطيب ، وليأخذ الحق من الظالم للمظلوم ، ومن الباغى لمن بغى عليه ، وهذا مقتضى العدل والحكمة بلا ريب فهو سبحانه ، لم يخلق العالم عبثا ، بل خلق العالم بالحق ، ولا بد أن ينتهى أمر العالم للحق .

قال تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٤] .

يعنى ، إن الحكم بالتساوى بين المتناقضين هو حكم سيء مردود عند أهل الحكمة المخلوقة الجزئية ، فكيف عند حكمة الخالق التى لا تتناهى ؟ فكما أنه لا يتساوى ظلام الليل مع ضياء النهار ، فلا يتساوى الأعمى والبصير ، ولا الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، فلا يتساوى المسيئون مع المحسنين ، ولا الطالح مع الصالح ، بل لابد من التمييز بينهما فى عالم آخر تظهر فيه النتائج ، وتبرز فيه الدقائق ، وتحق فيه الحقائق وهو يوم الحاقة وما أدراك ما الحاقة ؟

قال تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة ﴾[٥]

---

(١) سورة المؤمنون الأيتان : ١١٥ – ١١٦

(٢) سورة الانبياء الآية : ١٦

(٣) سورة ص الآية : ٢٧ – ٢٨ – ٢٩

(٤) سورة الجاثية الآية : ٢١ – ٢٢

(٥) سورة الحاقة الآية : ١ – ٢

« النفخ فى الصور »

ماذا بعد الكلام عن البعث والأدلة الناطقة بوقوعه ؟

يتحدث العلماء المحققون عن كيفيته ، فيقولون .

إن عدد النفخات فى الصور مختلف فيها .

ذهب كثير من العلماء إلى أن النفخات ثلاث ، نفخة فزع وهى السابقة على غيرها ، ونفخة صعق أى إماته ، ونفخة إحياء .

فعند نفخة الفزع ، يفزع أهل السماوات والأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ نفخة الصعق أى ، الإماته فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعد ذلك بمدة طويلة ينفخ نفخة الإحياء فإذا هم قيام ينظرون ، وذهب قسم من العلماء ، إلى أن هناك نفختين ، نفخة إماته ، ونفخة إحياء ، أما الذين استثناهم الله تعالى ، من الفزع والصعق حين ينفخ فى الصور ، فقد اختلف فيهم ، فقيل هم ، جبريل ، وإسرافيل ، وميكائيل ، وملك الموت ، على نبينا وعليهم ، الصلاة والسلام .

وقيل ، هم الأنبياء ، وإلى ذلك جنح البيهقى كما فى الفتح .

وقيل ، هم الشهداء ، أى ومن باب أولى وأجدر استثناء الأنبياء عليهم ـ الصلاة والسلام .

وقيل ، هم الحور العين ، وخزنة الجنة ، وخزنة النار ، وعلى كل من الأقوال فالواجب اعتقاد أن هناك من استثناهم الله تعالى .

أما المدة فيما بين النفختين ، الإماته والإحياء ، وكيفية إحياء الموتى ، فقد جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ (ما بين النفختين أربعون)(١) .

قالوا لأبى هريرة ، أربعون يوما ؟ قال (أبيت) أى (لا أجزم بذلك) .

قالوا ، أربعين شهرا ؟ قال (أبيت) قالوا ، أربعين سنة ؟

قال (أبيت)

ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، قال ـ ﷺ ـ (وليس شىء من الإنسان إلا يبلى إلا عظما واحدا ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة) .

فى هذه الرواية لم يجزم أبو هريرة الأربعين ماهى ، ولكن جاء فى رواية لأبى دواد أنها أربعون سنة .

« عجب الذنب »

روى مسلم بسنده عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال ، إن فى الانسان عظما لا تأكله الأرض أبدا ، منه

---

(١) البخارى ، تفسير سورة الزمر : ٦ — ١٥٨

يركب الخلق يوم القيامة ، قالوا ، أى عظم هو يا رسول الله ؟ قال ، عجب الذنب .[١]

وفى رواية مالك وأبى داود والنسائى (كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب)[٢] .

وعجب الذنب هو كما قال الامام النووى بفتح العين، وسكون الجيم ، العظم اللطيف الذى هو فى أسفل الصلب ، وهو رأس العصعص ، ويقال له ، عجم باليم ، وهو أول ما يخلق من الأرض فى ابن آدم ، وهو الذى يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ، كما أوضحه النووى – رضى الله عنه – وفى الحديث الشريف بيان لكيفية إعادة الله تعالى الخلائق بعد موتها ، وبعثها من قبورها ، وذلك أن الله تعالى ينزل من السماء ماء على ذلك الجزء الباقى من ابن آدم وهو عجب الذنب ، ويجمع الله تعالى – ما تفرق من تراب ذلك الجسم ، وتربو أجسامهم حتى تصير مستعدة لتلبس الروح فيها ، ثم إن الله تعالى ، يأمر الملك فينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فهنالك تتطاير كل روح إلى جسمها الذى كانت تعمره (فإذا هم قيام ينظرون) .

قال تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيد كم فيها ويخرجكم إخراجا** ﴾[٣] .
وقال تعالى : ﴿ **إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾[٤] .

فالبعث عبارة عن إخراج ذلك الدفين فى خبايا الأرض ، وبث الروح فيه ومن هنا ترى أن الله تعالى – يشبه أمر البعث والإعاده بانباته الزروع والأشجار ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها .

وقال تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[٥] .
وقال تعالى : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[٦] .

وهذا الماء الذى يحيى به الله تعالى ، الأجسام البشرية بعد موتها ، هو ماء الحياة المشتمل على جميع

---

(١) مسلم – كتاب الفتن وأشراط الساعة : باب : ما بين النفختين ح ٤ ص ٢٢٧١ رقم ١٤٣
(٢) أخرجه أبو داود (فى كتاب السنة) باب : فى ذكر البعث والصور ح ٥ ص ١٠٨ رقم ٤٧٤٣
وأخرجه النسائى (فى الجنائز) باب : أرواح المؤمنين رقم ٤٠٧٩ وأخرجه مسلم فى الفتن ، والبخارى فى التفسير ٦ – ١٥٨ سورة الزمر وابن ماجه (فى الزهد) باب : ذكر القبر والبلى رقم ٤٢٦٦
(٣) سورة نوح الآيات : ١٧ – ١٨
(٤) سورة ق الآيات : ٤٣ – ٤٤
(٥) سورة الأعراف الآية : ٥٧
(٦) سورة الحج من الآية : ٥ – ٦ – ٧

العناصر الوجودية الأربعة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون** ﴾[١] .

فكانت السموات والأرض رتقا أى ، جملة فى الماء ، ففتقهما سبحانه أى ، فصل وجودهما الى مرحلة تبخير الماء وتكثيفه ، فمن بخار الماء اللطيف خلق السموات ، ومن كثيف الماء خلق الأرض والأجرام ، ثم فصلهما إلى سبع سماوات وسبع أراضين ، ثم أمطر السماء وأنبت الأرض .

قال تعالى : ﴿ **وجعلنا من الماء كل شيء حى** ﴾[٢] أى : الماء الذى كانت السموات والأرض رتقا فيه ، جعلنا من ذلك الماء كل شيء حى ﴿ **أفلا يؤمنون** ﴾ .

ومما يدل على ذلك ، ويبين المقصود من ذلك الماء الوارد فى الآية الكريمة ، الحديث الذى رواه الإمام أحمد وغيره عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قالت : يارسول الله أنى رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأخبرنى عن كل شيء فقال : (ياأبا هريرة ، كل شيء خلق من ماء)[٣] .

وجاء فى الصحيحين من حديث الشفاعة ، أن العصاة (عصاة المؤمنين ، حين يخرجون من جهنم يلقون فى نهر الحياة فينبتون نبات الحبة من حميل السيل ـ الحديث)[٤] .

« حديث عن الصور »

أما الصور فهو كما قال الجمهور من العلماء العارفين ، هو عالم عظيم من عوالم الله تعالى ، تجتمع فيه الأرواح بعد مفارقتها للأجسام ، وتختلف فى منازلها على حسب اختلاف مراتبها ودرجاتها .

وقد ورد أن شكل عالم الصور يشبه القرن فى ضيق أعلاه وسعة أسفله ، فهو ليس كروى الشكل كالأرض ونحوها ، بل قرنى الشكل .

قال الامام الترمذى فى سننه ، باب ما جاء فى شأن الصور ، ثم أسند إلى عبد الله بن عمر وقال ، (جاء أعرابى إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : ما الصور يارسول الله ؟ فقال : ﷺ (قرن ينفخ فيه)[٥] .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال ﷺ ، (كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن ـ القرن ، وحنى جبهته ، وأصغي سمعه ينتظر أن يؤمر فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى ـ ﷺ ـ

(١) سورة الأنبياء من الآية : ٣٠

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٣٠

(٣) مسند الامام أحمد ح ٢ ص ٢٩٥

(٤) أهذا جزء من حديث طويل فى فتح البارى لشرح صحيح البخارى (فى كتاب التوحيد) باب : قول الله تعالى : وجوه يومئذ ناضره إلى ربها ناظره ح ١٣ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ رقم ٧٤٣٧

(٥) الحديث فى سنن الترمذى فى (كتاب صفة القيامة) باب : ما جاء فى شأن الصور ح ٤ ص ٦٢٠ رقم ٢٤٣٠ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .

فقالوا ، كيف نفعل أو كيف نقول ؟ فقال ـ ﷺ ، قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[١]

وأما صاحب القرن ، أى الصور الذى ينفخ فيه ، فهو إسرافيل عليه السلام ، كما جاء مصرحا به فى جملة الأحاديث .

قال فى الفتح ، اشتهر أن صاحب الصور هو إسرافيل ـ عليه السلام ـ ونقل فيه الحليمى الإجماع .

فبعد ما يثبت الله تعالى ، هذه الأجسام ، ويجعلها قابلة للروح ، يأمر الملك أن ينفخ فى الصور نفخة الإحياء ، فتتصل كل روح بجسمها ، ولا تخطئه ، فما أشبه ، الإعاده بالبداءة .

قال تعالى : ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا** ﴾[٤] .

هذا هو البعث وكيفيته .

« ما هو الحشر »

أما الحشر فإنه فى لغة العرب معناه الجمع .

يقول العلماء المراد بالحشر جمع الخلائق كلهم إلى الموقف بعد بعثهم وإخراجهم من بطن الأرض قال تعالى : ﴿ **ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا** ﴾[٥]

قال العلامة الفخر الرازى ـ رحمة الله تعالى ، أن الله تعالى ذكر أحوال الجبال بوجوه مختلفه ـ أى يوم القيامة ـ ويمكن الجمع بينهما بأن نقول ، أول أحوالها الاندكاك ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** ﴾[٦] أى : مسحت الأرض وجبالها ودق بعضها بعضا .

والحالة الثانية : أنها تصير كالعهن المنفوش ، وهو قوله تعالى :

﴿ **وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾[٧] أى تصير بعد أن كانت صلبا تصير كالصوف المندوف .

---

(١) انظر سنن الترمذى فى (كتاب صفة القيامة) باب : ما جاء فى شأن الصور ح ٤ ص ٦٢٠ رقم ٢٤٣١ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن .

(٢) سورة الأنبياء من الآية : ١٠٤

(٣) سورة طه الآية : ٥٥

(٤) سورة نوح الآيتان : ١٧ — ١٨

(٥) سورة الكهف الآية : ٤٧

(٦) سورة الحاقة الآية : ١٤

(٧) سورة القارعة الآية : ٥

والحالة الثالثة : أن تصير كالهباء المنبث فى الهواء ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وبست الجبال بسا ، فكانت هباء منبثا** ﴾[١] أى فتتت حتى صارت كالدقيق المبسوس أى المبلول .

والحالة الرابعة : أن تنسفها الرياح عن وجه الأرض فتطيرها فى الهواء ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا** ﴾[٢] .

والحالة الخامسة : أن تصيرها سرابا ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سرابا** ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ **واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾[٤] .

وهذا المنادى ، هو إسرافيل ـ عليه السلام ـ فإنه ينادى بالأموات عن أمر من الله تعالى ، من مكان قريب من ذاتهم ، وجميع ذواتهم قائلا : يأيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله تعالى ، يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وفى هذا يقول سبحانه : ﴿ **فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شىء نكر ، خشعا أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر** ﴾[٥] أى : يخرجون من قبورهم كأنهم جراد منتشر .

﴿ **مهطعين إلى الداع** ﴾ أى : مسرعين إلى الداع ﴿ **يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾

ثم قال سبحانه : ﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج** ﴾[٦] وتلك هى النفخة الثانية التى يكون بها الاحياء . ﴿ **ذلك يوم الخروج** ﴾ **من القبور** ﴿ **إنا نحن نحيى ونميت** ﴾ أى لا شريك لنا فى ذلك ﴿ **وإلينا المصير** ﴾ مصير العالم ورجوع الخلائق إلينا لأجل الحساب والجزاء ﴿ **يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾ .

والمعنى أنهم يخرجون من القبور مسرعين إلى المحشر .

أول من تنشق عنه الأرض :

وأول من تنشق عنه الأرض هو السيد الأكرم ، محمدا ـ ﷺ ـ الذى خص بالأوليات فى جميع العوالم .

روى مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (أنا سيد ولد آدم يوم

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ٥ ـ ٦

(٢) سورة طه الآية : ١٠٥

(٣) سورة النبأ الآية : ٢٠

(٤) سورة ق الآيتان : ٤٣ ـ ٤٤

(٥) سورة القمر الآيتان : ٦ ـ ٧

(٦) سورة ق الآية : ٤٢

القيامة ، وأنا أول من ينشق عنه القبر ، وأنا أول شافع وأول مشفع)[١] .

وإنما ذكر الرسول ــ ﷺ ــ سيادته يوم القيامة مع أنه هو سيد ولد آدم فى كل العوالم ، ذلك لأن يوم القيامة هو يوم مجموع له الناس ، فتظهر فيه سيادته لكل امرىء عيانا فلا إنكار منكر ، فلا ينافى أن سيادته ــ ﷺ ــ ثابتة فى الدنيا وفى جميع العوالم وأطلق فى الوصف بذلك ، أى : بسيادته ــ ﷺ ــ ولد آدم لإفادة العموم لأولى العزم وغيرهم من الأنبياء والمرسلين ، وتخصيص ولد آدم ليس للاحتراز ، إذ هو ــ ﷺ ــ أفضل حتى من خواص الملائكة إجماعا ، كما أوضح ذلك المحققون من العلماء .

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من بنى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى ، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر)[٢] أى : هو يقول ذلك ــ ﷺ ــ مشكرا ولا فخرا بل شكر الله ــ تعالى ــ وتحدثا بنعمته وإعلاما للأمة أنه مما يجب تبليغه ليعتقدوا فضله على من سواه ــ ﷺ .

وعن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ (أنا أول من تنشق عنه الأرض ، ثم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم آتى أهل البقيع فيحشرون ، ثم انتظر أهل مكة حتى أحشر بين الحرمين) رواه الترمذى وقال حسن صحيح[٣] .

« سورة الصافات »

السورة مكية بالاتفاق عدد آياتها مائة وثمانون وآيتان وكلماتها ثمانمائة واثنتان وستون وحروفها ثلاثة الآف وثمانمائة وست وعشرون .

مقصود السورة :

الإخبار عن صف الملائكة والمصلين للعبادة ، ودلائل الوحدانية ، ورجم الشياطين ، وذل الظالمين ، وعز المطيعين فى الجنان ، وقهر المجرمين فى النيران ، ومعجزة نوح ، وحديث إبراهيم وفداء إسماعيل فى جزاء الانقياد ، وبشارة إبراهيم بإسحاق ، والمنة على موسى وهارون بإيتاء الكتاب ، وحكاية الناس فى حال الدعوة ، وهلاك قوم لوط ، وحبس يونس فى بطن الحوت ، وبيان فساد عقيدة المشركين فى إثبات النسبة ــ أى فى اعتقاد نسب نبيه سبحانه وبين الجنة والملائكة فى قولهم الملائكة بنات الله ــ ودرجات الملائكة فى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيح (فى كتاب الفضائل (باب : تفضيل نبينا ــ ﷺ ــ على جميع الخلائق ص ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٣

(٢) انظر سنن الترمذى :.(كتاب المناقب (باب : فى فضل النبى ــ ﷺ ــ ص ٥ ص ٥٨٧ رقم ٣٦١٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى (فى كتاب المناقب) باب : مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ــ ص ٥ ص ٦٢٢ رقم ٣٦٩٢ قال أبو عيسى : هذا حديث غريب .

مقام العبادة ، وما منح الله الأنبياء من النصرة والتأييد ، وتنزيه حضرة الجلال عن الضد والنديد فى قوله : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين** ﴾ .

« المتشابهات »

قوله تعالى : ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون** ﴾ وبعده : ﴿ **إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** ﴾ .

لأن الأول : حكاية كلام الكافرين ، وهم ينكرون البعث ، والثانى : قول أحد القرينين لصاحبه عند وقوع الحساب والجزاء ، وحصوله فيه : كان لى قرين ينكر الجزاء ، وما نحن فيه ، فهل أنتم تطلعوننى عليه ، فاطلع فرآه فى سواءالجحيم، قال : تالله إن كدت لتردين . قيل : كانا أخوين ، وقيل : كانا شريكين ، وقيل : هما بطروس الكافر ويهوذا المسلم . وقيل : القرين هو إبليس .

قوله : ﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ وبعده ﴿ **فأقبل** ﴾ بالفاء . وكذلك فى ﴿ **ن والقلم** ﴾ لأن الأول : لعطف جملة على جملة فحسب ، والثانى : لعطف جملة على جملة بينهما مناسبة والتئام ، لأنه حكى أحوال أهل الجنة ومذاكرتهم فيها ما كان يجرى فى الدنيا بينهم وبين أصدقائهم . وهو قوله : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون ، فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾

أى : يتذاكرون ، وكذلك فى ﴿ **ن والقلم** ﴾ هو من كلام أصحاب الجنة بصنعاء ، لما رأوها كالصريم ندموا على ما كان منهم ، وجعلوا يقولون ﴿ **سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** ﴾ بعد أن ذكرهم التسبيح أوسطهم ، ثم قال : ﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون** ﴾ أى : تركهم الاستثناء ومخالفتهم أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين قوله : ﴿ **إنا كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾ **لأن فى هذه السورة حيل بين الضمير وبين** ﴿ **كذلك** ﴾ بقوله : ﴿ **فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون** ﴾ فأعاده وفى المرسلات متصل بالأول ، وهو قوله : ﴿ **ثم نتبعهم الآخرين كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾ فلم يحتج إلى إعادة الضمير .

قوله : ﴿ **إذا قيل لهم لا إله إلا الله** ﴾ وفى القتال ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ بزيادة (أنه) وليس لهما فى القرآن ثالث ؟ لان ما فى هذه وقع بعد القول فحكى ، وفى القتال وقع بعد العلم فزيد قبله (أنه) ليصير مفعول العلم ، ثم يتصل به ما بعده .

قوله : ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين سلام على نوح فى العالمين** ﴾ وبعده ﴿ **سلام على ابراهيم** ﴾ ، ثم ﴿ **سلام على آل ياسين** ﴾ فيمن جعله لغة فى إلياس ولم يَقُل فى قصة لوط ، ولا يونس ، ولا إلياس : سلام ، لأنه لما قال : ﴿ **وإن لوطا لمن المرسلين** ﴾ ، ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ ، وكذلك ، ﴿ **وإن الياس لمن المرسلين** ﴾ فقد قال : سلام على كل واحد منهم ، لقوله آخر السورة ﴿ **وسلام على المرسلين** ﴾ .

قوله : ﴿ وإنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ ، وفى قصة إبراهيم كذلك نجزى المحسنين ﴾ ، ولم يقل : ﴿ إنا ﴾ ، لانه تقدم فى قصته ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ وقد بقى من قصته شيء ، وفى سائرها وقع بعد الفراغ ، ولم يقل فى قصتى لوط ويونس : ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ ، لانه لما اقتصر من التسليم على ما سبق ذكره اكتفى بذلك .

قوله : ﴿ بغلام حليم ﴾ ، وفى الذاريات ﴿ عليم ﴾ وكذلك فى الحجر ، لأن التقدير : بغلام حليم فى صباه ، عليم فى كبره ، وخصت هذه السورة بحليم ، لأنه ــ عليه السلام ــ حلم فانقاد وأطاع ، وقال : ﴿ يأبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ﴾ ، والأظهر أن الحليم إسماعيل ، والعليم اسحاق ، لقوله : ﴿ فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها ﴾ قال مجاهد : الحليم والعليم اسماعيل ، قوله : ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ ، ثم قال : ﴿ وأبصر فسوف يبصرون ﴾ . كرر وحذف الضمير من الثانى لأنه لما نزل ﴿ وأبصرهم ﴾ قالوا : متى هذا الذى توعدنا به ؟ فأنزل الله ﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ ثم كرر تاكيدا . وقيل : الأولى فى الدنيا والثانية فى العقبى ، والتقدير : أبصر ما ينالهم ، وسوف يبصرون ذلك . وقيل : أبصر حالهم بقلبك فسوف يبصرون معانيه ، وقيل : أبصر ما ضيعوا من أمرنا فسوف يبصرون ما ﴿ يحل بهم ﴾ ، وحذف الضمير من الثانى اكتفاء بالأول . وقيل : التقدير : ترى اليوم ﴿ غيرهم إلى ذل ﴾ وترى بعد اليوم ما تحتقر ما شاهدتهم فيه من عذاب الدنيا . وذكر فى المتشابه : ﴿فقال ألا تأكلون﴾ بالفاء، وفى الذاريات ﴿قال ألا تأكلون﴾ بغير فاء، لأن ما فى هذه السورة (جملة اتصلت) بخمس جمل كلها مبدوءة بالفاء على التوالى وهى : ﴿ فما ظنكم ﴾ الآيات ، والخطاب للأوثان تقريعا لمن زعم أنها تأكل وتشرب ، وفى الذاريات متصل بضمير تقديره : فقربه إليهم ، فلم يأكلوا فلما رآهم لا يأكلون ﴿ قال ألا تأكلون ﴾ والخطاب للملائكة ، فجاء فى كل موضع بما يلائمه .

« وجه المناسبة »

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إن فيها تفصيل أحوال القرون الغابرة التى أشير إليها اجمالا فى السورة السابقة فى قوله : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون ﴾ .

(٢) إن فيها تفصيل أحوال المؤمنين وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة مما أشير إليه إجمالا فى السورة قبلها

(٣) المشاكلة بين أولها وآخر سابقتها ، ذاك أنه ذكر فيما قبلها قدرته تعالى : على المعاد وإحياء الموتى ، وعَلل ذلك بأنه منشئهم وأنه إذا تعلّقت إرادته بشيء كان ، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك ، وهو وحدانيته تعالى ، إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجادا واعداما إلا إذا كان المريد واحدا ، كما يشير إلى ذلك قوله : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا (١) فَالزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ
(٤) رَّبُّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَٰرِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا
بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ
وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ
شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (١١)
بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)
وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦)
أَوَءَابَآؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ
يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِۦ
تُكَذِّبُونَ (٢١) * احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ
فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ
الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ
الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا
طَٰغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ (٣٢)
فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا
قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦) بَلْ
جَآءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **الصافات** ﴾ : هم جماعة الملائكة يقفون صفوفا لكل واحد منهم مرتبة معينة فى الشرف والفضيلة ، وقيل : ﴿ **الصافات صفا** ﴾ الصف أن يجعل الشيء على خط مستقيم : قال صففت القوم فاصطفوا إذا أقمتهم على خط مستقيم لأجل الصلاة أو الحرب مثلا .

﴿ **الزاجرات زجرا** ﴾ : أصل الزجر الدفع عن الشيء بتسلط وصياح ، ثم استعمل فى السوق والحث على الشيء ، وفى المنع والنهى ، والمراد هنا : الملائكة ، لأن لهم تأثيرا فى قلوب بنى آدم بزجرهم عن المعاصى وإلهامهم فعل الخير ، ﴿ **والتاليات ذكرا** ﴾ : هم الملائكة يجيئون بالكتب من عند الله إلى أنبيائه ، ﴿ **المشارق** ﴾ هى مشارق الشمس بعدد أيام السنة . فهى فى كل يوم تشرق من مشرق وتغرب من مغرب ، ﴿ **والمغارب** ﴾ : كذلك متعددة تعدد المشارق ﴿ **الدنيا** ﴾ مؤنثة الأدنى ، أى : أقرب السموات من أهل الأرض ﴿ **والمارد** ﴾ المريد المتعرى من الخير من قولهم : مشجر أمرد : إذا تعرى من الورق ﴿ **يستمعون** ﴾ : أى يتسمعون .

أى لا يتسمعون مصغين إلى الملأ الأعلى من الملائكة . ﴿ **الملأ** ﴾ : الجماعة يجتمعون على رأى ، والمراد بهم هنا الملائكة ، ﴿ **يقذفون** ﴾ : يرجمون ، ﴿ **الدحور** ﴾ : الطرد والإبعاد ، ﴿ **واصب** ﴾ : أى دائم ، ﴿ **خطف** ﴾ : الخطفة : الاختلاس والأخذ بسرعة على غرة ، ﴿ **الشهاب** ﴾ : الشعلة الساطعة من النار الموقدة ، ﴿ **الثاقب** ﴾ : المضيء أو يثقب ما ينزل عليه . ﴿ **فاستفتهم** ﴾ : أى فاستخبر مشركى مكة من قولهم . استفتى فلانا إذا استخبره وسأله عن أمر يريد علمه ﴿ **أشد خلقا** ﴾ : أى أصعب خلقا وأشق ايجارا ، ﴿ **لازب** ﴾ : أى ملتصق بعضه ببعض . ﴿ **يسخرون** ﴾ : أى يستهزئون ﴿ **وإذا ذكروا لا يذكرون** ﴾ : أى وإذا وعظوا لا يتعظون ، ﴿ **آية** ﴾ أى معجزة ، ﴿ **يستسخرون** ﴾ : أى يبالغون فى السخرية والاستهزاء ﴿ **وقالوا ياويلنا** ﴾ الويل : قال الزجاج : الويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، ﴿ **الدين** ﴾ : الجزاء - ﴿ **الفصل** ﴾ الفرق بين المحسن والمسيء وتمييز كل منهما عن الآخر . ﴿ **احشروا** ﴾ : أى اجمعوا ، ﴿ **وأزواجهم** ﴾ : أى أمثالهم واشباههم ، فيحشر أصحاب الخمر معا ، واصحاب الزنا كذلك ﴿ **إهدوهم** ﴾ : أى دلوهمعليها ، ﴿ **الصراط** ﴾ : الطريق ، ﴿ **الجحيم** ﴾ : النار ، ﴿ **وقفوهم** ﴾ : أى إحبسوهم فى الموقف ، مسئولون : أى عن عقائدهم وأعمالهم ، لا تناصرون : أى لا ينصر بعضكم بعضا ، مستسلمون : أى منقادون ، وأصل الاستسلام ، طلب السلامة ويلزمه الانقياد عرفا ، ﴿ **عن اليمين** ﴾ : أى من جهة الخير وناحيته فتنهوننا عنه ، ﴿ **من**

سلطان ﴾ : أى من قهر وتسلط عليكم ، ﴿ **طاغين** ﴾ : أى مجاوزين الحد فى العصيان ، فحق علينا : أى وجب علينا ، ﴿ **فأغويناكم** ﴾ أى دعوناكم إلى الغى والضلال ، ﴿ **المخلصين** ﴾ : هم الذين أخلصهم الله لعبادته ، واصطفاهم لدينه وطاعته ، وهم المخلصون الذى أخلصوا لله فى العبادة .

« المناسبة والمعنى الجملى »

افتتح سبحانه : هذه السورة بإثبات وجود الخالق ووحدانيته ، وعلمه وقدرته ، بذكر خلق السموات والأرض وما بينهما ، وخلق المشارق والمغارب ـ وبعد ذلك تحدث عن المنكرين للبعث ثم أثبت الحشر والنشر وقيام الساعة ببيان أن من خلق هذه العوالم التى هى أصعب فى الخلق منكم ، فهو قادر على إعادة الحياة منكم بالأولى ، كما جاء فى السورة السابقة ﴿ **أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ وجاء فى قوله : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس** ﴾[1] .

وبعد أن ذكر سبحانه إنكارهم للبعث فى الدنيا وشديد إصرارهم على عدم حدوثه أردف هذا بيان أنهم يوم القيامة يرجعون على أنفسهم بالملامة إذا عاينوا أهوال هذا اليوم ، ويعترفون بأنهم كانوا فى ضلال مبين ، ويندمون على ما فرطوا فى جنب الله ولات ساعة مندم ، ويتلاومون فيما بينهم حينئذ ، ويتخاصم الأتباع والرؤساء ، فيلقى الأولون تبعة ضلالهم على الآخرين فيجيبونهم بأن التبعة عليكم أنفسكم دوننا ، إذ كنتم قوما ضالين بطبيعة حالكم ، وما ألزمناكم بشىء مما كنتم تعبدون أو تعتقدون ، بل تمنينا لكم من الخير ما تمنينا لأنفسنا فاتبعتمونا دون قسر ولا جبر منا لكم ، ثم أعقبه بذكر ما أوقعهم فى هذا الذل والهوان ، فبين أنهم قد كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد أعرضوا عنها استكبارا ، وقالوا : أنترك دين آبائنا اتباعا لقول شاعر مجنون ، ثم رد عليهم مقالهم بأنه ليس بالمجنون ولا هو بالشاعر ، بل جاء بما هو الحق الذى لا محيص عن تصديقه ، وهو التوحيد الذى جاء به المرسلون كافة ، ثم بين سبحانه أن لا فائدة من مثل هذا الخصام والجدل ، فإن العذاب واقع بكم لا محالة جزاء ما قدمتم من عمل ، ثم أردفه ما يلقاه عباده المخلصون من النعيم المقيم .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **والصافات صفا ، فالزاجرات زجرا ، فالتاليات ذكرا إن إلاهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق** ﴾ .

هذا يقسم به المولى ـ تبارك وتعالى : وجوابه ﴿ **إن إلاهكم لواحد** ﴾ ولله تعالى : أن يقسم بما شاء من

---

(١) سورة غافر من الآية ٥٧

مخلوقاته ، فقد أقسم بالشمس والقمر والليل والنهار والنفس ، كما أقسم بالتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين ، كما أقسم بحياة حبيبه محمد – ﷺ – فى قوله : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ إلى غير ذلك من أساليب القسم أما العبد فليس له أن يقسم إلا بالله وحده ومن حلف بغير الله فقد كفر ، وإذا أقسم فعلية أن يكون صادقا لأن اليمين الغموس : أى الفاجرة والكاذبة تغمس صاحبها فى النار ، وإذا أقسم ، فإنما يقسم للضرورة هذه مسائل يجب مراعتها فى القسم قال تعالى : ﴿ **واحفظوا أيمانكم** ﴾(١) وقال جل شأنه :

﴿ **ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم ، لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم** ﴾(٢)

ولأئمة التفسير فى آيات الصافات أقوال : نذكرها فيما يلى :

قال سفيان الثورى : بسنده عن عبد الله مسعود – رضى الله عنه – أنه قال : ﴿ **والصافات صفا** ﴾ : هى الملائكة ، ﴿ **فالزاجرات زجرا** ﴾ : هى الملائكة ﴿ **فالتاليات ذكرا** ﴾ : هى الملائكة ، وكذا قال ابن عباس – رضى الله عنهما : وغيره ، وقال قتادة : الملائكة صفوف فى السماء ، وقال تعالى : على لسانهم ﴿ **وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون** ﴾ .

قال مسلم بسنده : عن حذيفة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – (فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجدا ، وجعل لنا ترابها طهورا إذا لم نجد الماء)(٣)

وروى مسلم أيضا عن جابر بن سمرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال : ﷺ – (يتمون الصفوف المتقدمة ، يتراجعون فى الصف)(٤) .

وقال السدى وغيره : معنى قوله تعالى : ﴿ **فالزاجرات زجرا** ﴾ انها تزجر السحاب ، وقال الربيع انس : ﴿ **فالزاجرات زجرا** ﴾ ما زجر الله – تعالى – عنه فى القرآن . ﴿ **فالتاليات ذكرا** ﴾ : قال السدى : الملائكة يجيئون بالكتاب والقران من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **فالملقيات ذكرا ، عذرا أو نذرا** ﴾ . وقوله عز وجل : ﴿ **إن إلاهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب**

---

(١) سورة المائدة من الآية ٨٩

(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢٢٤ ، ٢٢٥

(٣) أخرجه مسلم (فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة) باب : ح ١ ص ٣٧١ رقم ٤

(٤) أخرجه مسلم فى صحيح (فى كتاب الصلاة) باب : الأمر بالسكون فى الصلاة – إتمام الصفوف ح ١ ص ٣٢٢ رقم ١١٩ .

المشارق ﴾ : هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو رب السموات والأرض ﴿ **وما بينهما** ﴾ : أى من المخلوقات ﴿ **ورب المشارق** ﴾ : أى هو المالك المتصرف فى الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق ، وتغرب من المغرب ، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه ، وقد صرح بذلك فى قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون .. الآية** ﴾ : وقال تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ يعنى فى الشتاء والصيف للشمس والقمر .

تأمل فى الوجود بعين فكر ترى الدنيا الدنية كالخيال
فكل الكائنات غدا ستفنى ويبقى وجه ربك ذو الجلال

﴿ **فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾[(١)].

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإلاهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾[(٢)]

لقد أقام القرآن الكريم الأدلة فى الآفاق والأنفس ناطقة بلسان الحال والمقال بأن الله واحد . اقرأ معى قوله تعالى : ﴿ **سنريهم إياتنا فى الأفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ، ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط** ﴾[(٣)].

واقرأ هذه الآيات البينات من سورة الأنعام : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون ، فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الأيات لقوم يعلمون ، وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الأيات لقوم يفقهون ، وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لأيات لقوم يؤمنون ، وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبه وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم**

(١) سورة يونس الآية : ٣٢

(٢) سورة البقرة الآيتان : ١٦٣ — ١٦٤

(٣) سورة فصلت الآيتان : ٥٣ — ٥٤

لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾(١).

واقرأ هذه الآيات البينات من سورة النحل :

﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون ، ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ، خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لأيات لقوم يعقلون ، وماذرألكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لأية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلهم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ، والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ، والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون ، إلاهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالأخرة قلوبهم منكره وهم مستكبرون ﴾(٢).

واقرأ قوله تعالى من سورة النمل :

﴿ قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أءله مع الله تعالى الله عما

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٩٥ - ١٠٤

(٢) سورة النحل الآيات : ١ - ٢٢

يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقهم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعثون ﴾[١]

سبحانك اللهم أنت الواحد كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى والى علاك عنى الجبين الساجد
مافى الوجود سواك رب يعبد كلا . ولا مولى هناك فيقصد
يامن له عنت الوجوه بأسرها رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى كل القلوب له تقر. وتشهد

قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ قوله تعالى : ﴿ إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ﴾[٢] يخبر تعالى : انه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب يتمتعون بالنظر إليها ويهتدون بنورها ، قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾[٣] .

وقال سبحانه ﴿ وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وحفظا من كل شيطان مارد ﴾ : أى وللحفظ من كل شيطان عات متمرد ، خارج عن طاعة الله قال قتادة : خلقت النجوم لثلاث : رجوما للشياطين ، ونورا يهتدى بها ، وزينة للسماء الدنيا ، وخص سبحانه : السماء الدنيا بالذكر لأنها هى التى تشاهد بالأبصار وفيها وحدها يكون الحفظ من الشياطين : قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾[٤] وقال عز وجل : ﴿ ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . الا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب ﴾ فالشيطان المتمرد العاتى إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ لا يسمعون إلى الملأ

(١) سورة النمل الآيات : ٥٩ — ٦٥
(٢) سورة الصافات الآية : ٦
(٣) سورة ق الآية : ٦
(٤) سورة الملك الآية : ٥
(٥) سورة الحجر الآيات ١٦ — ١٨

الأعلى ﴾ : أى لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى وهى السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى : مما يقوله من مشرعه وقدره ولهذا قال : ﴿ **ويقذفون** ﴾ أى يرمون ﴿ **من كل جانب** ﴾ : أى من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿ **دحورا** ﴾ : أى رجما يدحرون به ، ويزجرون ويمنعون من الوصول الى ذلك يرجمون : ﴿ **ولهم عذاب واصب** ﴾ : أى فى الدار الآخرة لهم عذاب دائم مبستمر ، كما قال : جلت عظمته ﴿ **وأعتدنا لهم عذاب السعير** ﴾ : وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إلا من خطف الخطفة** ﴾ : أى إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهى الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذى تحته ويلقيها الآخر إلى الذى تحته فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى : قبل أن يأتيه الشهاب ، فيحرقه فيذهب بها الآخر إلى الكاهن . قال ابن جرير : بسنده عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : كان للشياطين مقاعد فى السماء ، قال : فكانوا يستمعون الوحى قال : كانت النجوم لا تجرى ، وكانت الشياطين لا ترمى ، قال : فإذا سمعوا الوحى نزلوا إلى الأرض ، فزادوا فى الكلمة تسعا ، قال : فلما بعث رسول الله ــ ﷺ ــ جعل الشيطان إذا قعد مقعده جاءه شهاب فلم يخطئه حتى يحرقه ، قال : فشكوا ذلك الى إبليس لعنه الله فقال : ما هو إلا من أمر حدث ، قال : فبعث جنوده ، فإذا رسول الله ــ ﷺ ــ قائم يصلى بين جبلى نخلة ــ قال وكيع : يعنى بطن نخلة قال : فرجعوا إلى إبليس فخبروه ، فقال : هذا الذى حدث . ولقد أخبر الله ــ سبحانه ــ عن الجن أنهم قالوا :

﴿ **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا ، وأنا كنا نقعد منها مقعد للسمع فمن يستمع الان يجد له شهابا رصدا** ﴾[(١)] .

قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب ، بل عجبت ويسخرون ، وإذا ذكروا لا يذكرون ، وإذا رأوا آية يستسخرون ، وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ، أءذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أءنا لمبعوثون ، أو أباؤنا الأولون ، قل نعم وأنتم داخرون ، فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا** ﴾ .

أى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقا هم أم السموات والأرض ، وما بينهما ، فإنهم يقرون أن هذه المخلوقات أشد خلقا منهم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلم ينكرون البعث ، وهم يشاهدون ما هو أعظم مما أنكروا كما فى قوله ـ عز وجل ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون ﴾ وكما فى قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير** ﴾[(٢)] ثم يبين سبحانه أنهم خلقوا من شىء ضعيف ، فقال سبحانه : ﴿ **إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾ : قال الطبرى وصف باللزوب ، لانه تراب مخلوط بماء ، وكذلك خلق آدم من تراب وماء ، ونار وهواء

---

(١) سورة الجن الآية : ٨ ــ ٩

(٢) سورة الاحقاف الآية : ٣٣

والتراب إذا خلط بماء صار طينا لازبا . والغرض من الآية إقامة البرهان على إعادة الإنسان ، ونحو الآية قوله تعالى :

﴿ قتل الإنسان ما أكفره ، من أى شيء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فماله من قوة ولا ناصر ﴾(٢) . وقوله تعالى : ﴿ وخلق الإنسان ضعيفا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ أى بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى : من الأمر العجيب ، وهو أعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم : من ذلك .

قال قتادة : عجب محمد ـ ﷺ ـ وسخر ضلال بنى آدم ، ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أى دلالة على ذلك ﴿ يستسخرون ﴾ ؛ قال مجاهد وقتادة : ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أى أن هذا الذى جئت به إلا سحر مبين ، ﴿ أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو اباؤنا الأولون ﴾ يستبعدون ذلك ويكذبون به ، ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ﴾(٣) .

﴿وقال الذين كفروا أءذا كنا ترابا وءآباؤنا أءنا لمخرجون ، لقد وعدنا هذا نحن وءآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾(٤) ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾ .

﴿ وان تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال فى أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٥) .

﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا ألا سحر مبين ﴾(٦) ﴿ وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾(٧) .

قوله تعالى : ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ أى قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة بعد ما تصيرون ترابا وعظاما ، وأنتم داخرون : أى حقيرون كما قال سبحانه : ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ ، وقال : ﴿ إن

---

(١) سورة عبس الآيات : ١٧ — ٢٣

(٢) سورة الطارق الآيات : ٥ — ١٠

(٣) سورة سبأ الآية : ٧

(٤) سورة النمل الآيتان : ٦٧ — ٦٨

(٥) سورة الرعد الآية : ٥

(٦) سورة هود الآية : ٧

(٧) سورة الجاثية الآية : ٢٤ — ٢٧

الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ، ثم قال جلت عظمته ، **﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾** ، أى فإنما هو أمر واحد من الله ـ عز وجل ـ يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال سبحانه :

﴿ ومن آيته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾(١) .

وقال : **﴿ يقولون أءنالمردودون فى الحافرة ، أءذا كنا عظاما نخرة ، قالوا تلك إذا كرة خاسرة ، فإنما هى زجرة واحدة ، فإذا هم بالساهرة ﴾**(٢) .

قوله تعالى : **﴿ وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ، أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون ، من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، مالكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ﴾** .

يخبر تعالى ، عن قول الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم فى الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ، **﴿ وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين ﴾** فتقول لهم الملائكة والمؤمنون **﴿ هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾** وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله سبحانه الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين فى الموقف فى محشرهم ومنشرهم ، ولهذا قال تعالى : **﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾** ، قال النعمان بن بشير ، يعنى بأزواجهم أشباههم وأمثالهم ، وكذا قال عمر بن الخطاب ، فى قوله تعالى : **﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾** قال ، أشباههم ، قال ، يجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، وهكذا وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير : **﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾** أى من الأصنام والأنداد تحشر معهم فى أماكنهم ، قال تعالى : **﴿ واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ياويلنا قد كنا فى غفلة من هذا بل كنا ظالمين ، إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون ، لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون ﴾**(٣) وهنا يقول سبحانه : **﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾** أى أرشدوهم إلى طريق جهنم كما قال :

﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بأياتنا وقالوا أءذا كنا عظاما ورفاتا أءنا لمبعوثون خلقا جديدا ﴾(٤) **﴿ وقفوهم أنهم مسئولون ﴾**

أى قفوهم حتى يسئلوا عن أعمالهم وأقوالهم التى صدرت عنهم فى الدار الدنيا ، وقال ابن عباس ، يعنى

---

(١) سورة الروم الآية : ٢٥

(٢) سورة النازعات الآيات : ١٠ – ١٤

(٣) سورة الأنبياء الآية : ٩٧ – ١٠٠

(٤) سورة الاسراء الآية : ٩٧ – ٩٨

احبسوهم إنهم محاسَبون ، قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ ويقول لهم سبحانه : ﴿ ألم تكن أياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾

قوله تعالى : ﴿ وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم أيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولاكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ، قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ (١).

ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ : ﴿ مالكم لا تناصرون ﴾ ، أى كما زعمتم فى الدنيا ، كنتم تزعمون أنكم تتناصرون ، فقد روى أن أبا جهل قال يوم بدر (نحن جميع منتصر) وأخر سؤالهم إلى ذلك الحين ، إذ كان الوقت وقت تنجيز العذاب ، وشدة الحاجة إلى النصير والمعين ، وقد انقطع الرجاء منه ، فالتقريع حينئذ أشد وقعا ، وأعظم أثرا قال تعالى : ﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ ثم ذكر سبحانه : أنهم لا ينازعون فى الوقوف ولا فى غيره ، بل ينقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه ، إذ قد سدت أمامهم وجوه الحيل ، وعجزوا عن الوصول الى السلام من أى طريق يلتمسونها ، فلا فائدة فى المنازعة ، ولا سبيل إلى الجدل والمخاصمة ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ﴾ (٢).

وقال تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون ، فأغويناكم إنا كنا غاوين ، فإنهم يؤمئذ فى العذاب مشتركون ، إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا إلهتنا لشاعر مجنون ، بل جاء بالحق وصدق المرسلين ، إنكم لذائقوا العذاب الأليم ، وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ، إلا عباد الله المخلصين ﴾ (٣).

يذكر تعالى : أن الكفار يتلاومون فى عرصات القيامة كما يتخاصمون فى دركات النار كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ ويتخاصمون فى النار ﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ وقال سبحانه عنهم : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ قال ابن

(١) سورة الزمر الآية : ٧١

(٢) سورة طه الآية : ١١١

(٣) سورة سبأ من الآية : ٣١ – ٣٢ – ٣٣

عباس : يقولون كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا لأنا كنا أذلاء وكنتم أعزاء ، وقال قتادة : تقول الإنس للجن إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين : أى من قبل الخير فتنهونا عنه ، وتبطئونا عنه وقال السدى : تأتوننا من قبل الحق وتزينوا لنا الباطل وتصدونا عن الحق ، وقال ابن زيد : معناه تحولون بيننا وبين الخير ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذى أمرنا به وقال عكرمة : ﴿ **إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ قال : من حيث نأمنكم ، وقوله تعالى : ﴿ **قالوا بل لم تكونوا مؤمنين** ﴾ : تقول القادة من الجن والإنس للأتباع ما الأمر كما تزعمون بل كانت قلوبكم منكرة للايمان قابلة للكفر والعصيان ، وما كان لنا عليكم من سلطان) أى من حجة على حجة ما دعوناكم إليه ، ﴿ **بل كنتم قوما طاغين** ﴾ ، أى بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ، فلهذا استجبتم لنا وتركتم الحق الذى جاءتكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاءوكم به فخالفتموهم ، ﴿ **فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين** ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين العذاب يوم القيامة ﴿ **فأغويناكم** ﴾ أى دعوناكم إلى الضلالة ، ﴿ **إنا كنا غاوين** ﴾ أى فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا أنكم كنتم قوما فاسقين .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ **قال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾[1].

قال تبارك وتعالى : ﴿ **فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون** ﴾ : أى الجميع فى النار كل بحسبه كما قال سبحانه : ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولاكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾[2].

قوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نفعل بالمجرمين إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ : أى إن مثل ذلك الجزاء العظيم بالمشركين واستكبارهم وفاقا لما تقتضيه الحكمة ويوجبه العدل ، وهذا العذاب بسبب شركهم واستكبارهم وانكارهم لكلمة التوحيد ، ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ : أى يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون ، ويعملوا بمقتضاها ، قال تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا الشىء يراد ما سمعنا بهذا فى الملة**

---

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٢

(٢) سورة الأعراف الآيتان : ٣٨ – ٣٩

الاخرة إن هذا اختلاق ﴾[١] . وقال سبحانه : ﴿ **واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾[٢] .

ثم ذكر السبب الذى لأجله امتنعوا من استجابة دعوته ـ ﷺ ـ ﴿ **ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾ : أى أنترك عبادة الآلهة التى ورثناها عن آبائنا كابرا عن كابر ، ونستمع لقول شاعر يخلط ويهذى ؟ وقد جمعوا فى كلامهم بين إنكار الوحدانية ، وانكار الرسالة ، فإنكار الأولى : فى استكبارهم حين سماع كلمة التوحيد ، وإنكار الثانية : فى قولهم : ﴿ **أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾ .

ثم كذبهم سبحانه فيما قالوا فقال سبحانه :

﴿ **بل جاء بالحق وصدق المرسلين** ﴾ : أى أنه ـ ﷺ ـ جاء بالحق الذى لا شك فيه ، وهو التوحيد الذى يثبته العقل ويؤيده البرهان ، وبمثله جاء الأنبياء السابقون ، فهو لم يكن بدعا من الرسل ، بل سار على شاكلتهم واتبع نهجهم فكيف يكون من هذا حاله شاعرا أو مجنونا ؟ .

قوله تعالى : ﴿ **إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ : أى إنكم أيها الكفار المجرمون لتذوقون العذاب الأليم الذى لا تنفك أوجاعه عنكم ، وما هو أبدا بمزايلكم ثم بين العلة فى لحوقه بهم فقال : ﴿ **وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ أى وما ينالكم من العذاب إنما هو نتيجة ما قدمتم من عمل ، وأسلفتم من معصية وما ربك بظلام للعبيد .

وبعد أن أبان حال المجرمين ، ذكر حال عباد الله المؤمنين العاملين ، وما يلاقونه من الجزاء والنعيم فقال تعالى : ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى لكن عباد الله الذين أخلصوا له العمل وأنابوا إليه أولئك لهم الأمن وهم مهتدون أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

« مع أصحاب الجنة »

قال تعالى :

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى

(١) سورة ص الآيات : ٤ – ٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٤٥

جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ
لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ
﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ
إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا
لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ
لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا
ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾
أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ
أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا
ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ
أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **بكأس** ﴾ : أى خمر ، ﴿ **من معين** ﴾ : أى من نهر ظاهر للعيون جار على وجه الأرض ﴿ **لذة** ﴾ : أى ذات لذة ، ﴿ **غول** ﴾ : أى صداع ، ﴿ **ينزفون** ﴾ : أى لا تذهب عقولهم بالسكر كما ينزف الرجل ماء البئر وينزعه ، ﴿ **قاصرات الطرف** ﴾ : أى قصرت أبصارهن على أزواجهن لا يمدون طرفا إلى غيرهم ، ﴿ **عين** ﴾ : واحدتهن عنياء : أى واسعة العيون فى جمال . ﴿ **المكنون** ﴾ : المستور الذى لا تمسه الأيدى ولا يصاب بالغبار . ﴿ **قرين** ﴾ : أى خليل وصاحب ﴿ **لمدينون** ﴾ : أى لمجزيون ،

﴿ **مطلعون** ﴾ : أى مشرفون فناظرون الى أهل النار ، ﴿ **سواء الجحيم** ﴾ : أى وسط النار للعذاب . ﴿ **النزل** ﴾ : ما يعد للضيف وغيره من الطعام والشراب ﴿ **الزقوم** ﴾ : شجرة صغيرة الورق كريهة الرائحة ، سميت بها الشجرة الموصوفة فى الآية ، فتنه : أى محنة وعذابا فى الآخرة ، وابتلاء فى الدنيا ، ﴿ **أصل الجحيم** ﴾ : أى قعر الجحيم ، ﴿ **طلعها** ﴾ : أى ثمرها ، ﴿ **رءوس الشياطين** ﴾ : أى فى قبح المنظر ونهاية البشاعة ، والعرب تشبه قبيح العورة بالملك ﴿ **الملء** ﴾ : حشو الوعاء بما لا يحتمل الزيادة عليه ، ﴿ **الشوب** ﴾ : الخلط ، ﴿ **الحميم** ﴾ : الماء الشديد الحرارة ، ﴿ **مرجعهم** ﴾ : أى مصيرهم ﴿ **ألفوا** ﴾ : أى وجدوا ﴿ **يهرعون** ﴾ : أى يسرعون إسراعا شديدا .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف حوار الأتباع والرؤساء من أهل وإلقاء كل منهما تبعة ما وقعوا فيه من الهلاك على الآخرين ـ بين هنا أن لا فائدة من مثل هذا الخصام والجدل ، فإن العذاب واقع بكم لا محالة جزاء ما قدمتم من عمل ، ثم أردفه ما يلقاه عباده المخلصين من النعيم المقيم ، واللذات التى قصها علينا فى تلك الآية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ثم بين سبحانه : أنهم لخلو بالهم من المشاغل ، وطيب نفوسهم يسمر بعضهم مع بعض ، ويتحادثون فيما كانوا فيه فى الدنيا مع أخلائهم من شتى الشئون ، مع اختلاف الأهواء ، حتى ليقص بعضهم على بعض إن خليله كاد يوقعه فى الهلاك لولا لطف ربه به ، وقد كان ماله أن صار فى سواء الجحيم ، ثم ذكر نعمة ربه عليه بسبب ما كان يدين به فى الدنيا .

وبعد أن وصف سبحانه : ثواب أهل الجنة ، وذكر ما يتمتعون به من مآكل ، ووصف الجنة ورغب فيها بقوله ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ ، أتبع ذلك بذكر جزاء أهل النار وما يلاقونه فيها من العذاب اللازب الذى لا يجدون عنه محيصا ، وهو عذاب فى مآكلهم ومشاربهم وأماكنهم جزاء ما دسّوا به أنفسهم من سيء الأعمال ، وما قلدوا فيه آباءهم بلا حجة ولا برهان ، من الكفر بالله وعباده الأصنام والأوثان .

وذكر سبحانه : بأن كثيرا من الأمم قبلهم ، قد أرسل إليهم الرسل ، فكذبوا بهم ، وكانت عاقبتهم الدمار والهلاك ، ونجى الله عباده المؤمنين المخلصين ، فليكن لك يا محمد فيهم اسوة ، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات إن عليك إلا البلاغ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إلا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون ﴾ : أى ليسوا يذوقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون فى الحساب بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها .

إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله تعالى : من التضعيف ، وقوله سبحانه : ﴿ **أولئك لهم رزق معلوم** ﴾ قال قتادة : يعنى الجنة ، ثم فسره بقوله تعالى : ﴿ **فواكه** ﴾ : أى متنوعة ﴿ **وهم مكرمون** ﴾ : أى يخدمون ويرفهون وينعمون ، ﴿ **فى جنات النعيم على سرر متقابلين** ﴾ قال مجاهد : لا ينظر بعضهم الى قفا بعض ، وقوله تعالى : ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾ كما قال عز وجل : فى الآية الأخرى ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾[(١)] . نزه الله سبحانه وتعالى :

خمر الجنة عن الآفات التى فى خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن وهو الغول ، وذهابها بالفعل جملة ، فقال تعالى : ههنا ﴿ **يطاف عليهم بكأس من معين** ﴾ : أى بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها ، قال مالك : عن زيد بن أسلم : خمر جارية بيضاء : أى لونها مشرق حسن بهى لا كخمر الدنيا فى منظرها البشع الردىء من حمرة أو سواد أو اصفرار أو كدورة ، إلى غير ذلك مما ينفر الطبع السليم ، قال تعالى : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم ..... الآية** ﴾[(٢)] . قوله تعالى : ﴿ **لذة للشاربين** ﴾ : أى طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا فى جميع ذلك ، وقوله تعالى : ﴿ **لا فيها غول** ﴾ : يعنى لا تؤثر فيهم غولا وهو وجع البطن قاله ابن عباس : رضى الله عنهما ـ وقيل المراد بالغول هنا : صداع الرأس قال قتادة : ووجع البطن ، وقال السدى ، لا تغتال عقولهم : قال ابن كثير : والصحيح قول مجاهد أنه وجع البطن .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ قال مجاهد : لا تذهب عقولهم وكذا قال ابن عباس والحسن والسدى وغيرهم : قال الضحاك عن ابن عباس : فى الخمر أربع خصال : السكر والصداع والقىء والبول فذكر الله تعالى : خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

---

(١) سورة الواقعة الآيات : ١٧ ــ ١٩

(٢) سورة محمد الآية : ١٥

قوله تعالى : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف عين** ﴾ : قاصرات الطرف : أى عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن كما قال سبحانه : ﴿ **فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾[1]. وقال تعالى ﴿ **حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾[2] : أى لم يطأهن أحد قبل أزواجهن أبكار عرب أتراب .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **عين** ﴾ : أى حسان الأعين . فوصف سبحانه عيونهن بالحسن والعفه .

وقوله جل جلاله : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ : وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ، قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس - رضى الله عنهما - ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ : يقول اللؤلؤ المكنون وهذا الوصف جاء فى قوله تعالى : ﴿ **وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ .

وقال السدى : البيض فى عشه .

قال ابو القاسم الطبرانى : بسنده عن الحسن ، عن أمه ، عن أم سلمة ، قالت : قلت : يارسول الله أخبرنى عن قول الله تعالى : ﴿ **حور عين** ﴾ قال : حور بيض عين ختام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسور .. قلت : أخبرنى عن قول الله تعالى ﴿ كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ : قال : صفاؤهن صفاء الدر الذى فى الأصداف الذى لم تمسه الأيدى .. قلت : أخبرنى عن قوله : ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه .. قلت : أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ قال : رقتهن كرقة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشرة وهو الغرقىء قلت : يارسول الله أخبرنى عن قوله : ﴿ **عربا أترابا** ﴾ قال : هن اللواتى قبضن فى الدار الدنيا عجائز رمصا شمطا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عربا متعشقات محببات أترابا على ميلاد واحد ، قلت : يارسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة .. قلت : يارسول الله وبم ذلك ؟ قال (بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله - عز وجل - ألبس الله وجوههن النور ، وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان ، خضر الثياب صفر الحلى ، مجامرهن الدر ، وأمشاطهن الذهب يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نيأس أبدا ، ونحن المقيمات ، فلا نظعن أبدا ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدا ، طوبى لمن كنا له ، وكان لنا) قلت : يارسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ قال : (يا أم سلمة إنها تخير ، فتختار أحسنهم خلقا فتقول يارب إن هذا كان أحسن خلقا معى فزوجنيه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة)[3].

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٥٦ - ٥٧ - ٥٨

(٢) سورة الرحمن الآية : ٧٢ - ٧٣ - ٧٤

(٣) سورة الحديث فى مجمع الزوائد فى تفسير سورة الواقعة ح ٧ ص ١١٩

وقال الهيثمى : رواه الطبرانى وفيه سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وابن عدى .

وفى حديث الصور الطويل المشهور أن رسول الله — ﷺ — يشفع للمؤمنين كلهم فى دخول الجنة فيقول الله تعالى : قد شفعتك وأذنت لهم فى دخولها وقال رسول الله — ﷺ — (والذى بعثنى بالحق ما أنتم فى الدنيا بأعرف بأزواجكم ومساكنكم من أهل الجنة بأزواجهم ومساكنهم ، فيدخل الرجل منهم على ثنتين وسبعين زوجة مما ينشىء الله) وثنتين من ولد آدم لهما فضل على من أنشأ الله بعبادتهما الله فى الدنيا ، يدخل على الأولى : منهما فى غرفة من ياقوته على سرير من ذهب ، مكلل باللؤلؤ عليه سبعون زوجا من سندس واستبرق ، وإنه ليضع يده بين كتفيها ، ثم ينظر إلى يده من صدرها من وراء ثيابها وجلدها ولحمها ، وانه لينظر الى مخ ساقها ، كما ينظر أحدكم الى السلك فى قصبة الياقوت كبده لها مرآه يعنى وكبدها له مرآة ، فبينما هو عندها لا يملها ولا تمله ، ولا يأتيها من مرة إلا وجدها عذراء ما يفتر ذكره ، ولا يشتكى قبلها إلا أنه لا منى ولا منية : فبينما هو كذلك إذ نودى إنا قد عرفنا أنك لا تمل ولا تمل إلا أن لك أزواجا غيرها ، فيخرج فيأتيهن واحدة واحدة كلما جاء واحدة ، قالت : والله ما فى الجنة شىء أحسن منك ، وما فى الجنة شىء أحب إلى منك) .

وقال الطبرانى : بسنده عن أبى سعيد قال : قال رسول الله — ﷺ — (إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارا)[1] .

وقال أبو داود الطيالسى : بسنده عن أنس قال : قال رسول الله — ﷺ — (يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا من الجماع ، قيل : يارسول الله أو يطيق ذلك ، قال : يعطى قوة مائة .. ورواه الترمذى وقال صحيح غريب)[2] .

وقال الحافظ أبو يعلى : بسنده عن أنس أن رسول الله — ﷺ — قال : (إن الحور العين ليغنين فى الجنة يقلن نحن خيرات حسان خبئنا لأزواج كرام)[3] .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — (أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة : لا يبولون ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يتمخطون . أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة — على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا فى السماء ، متفق عليه)[4] .

---

(١) الحديث فى المعجم الصغير للطبرانى ح ١ ص ٩١ وقال : لم يروه عن عاصم إلا شريك تفرد بة يعلى بن عبد الرحمن وانظر فى ابن كثير تفسير سورة الواقعة وقال المحقق : اخرجه الطبرانى من حديث ابى سعيد الخدرى مرفوعا .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (فى كتاب صفة الجنة) باب : ما جاء فى صفة جماع اهل الجنة ج ٤ ص ٦٧٧ رقم ٢٥٣٦ قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح غريب .

انظر تفسير ابن كثير — تفسير سورة الواقعة اية : رقم ٣٧ وقال المحقق : أخرجه الحافظ أبو يعلى .

(٣) وأخرجه الهيثمى : فى مجمع الزوائد فى كتاب أهل الجنة) باب : ما جاء فى نساء اهل الجنة من الحور العين وغيرهن ح ١٠ ص ٤١٩ وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله وثقوا .

(٤) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأصلها) باب : أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم رقم ١٨٠٥ وقال المحقق : أخرجه البخارى فى (كتاب الأنبياء باب : خلق آدم .

وفى رواية للبخارى ومسلم : آنيتهم فيها الذهب ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ، ولا تباغض : قلوبهم قلب واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا(١)

وعن أبى موسى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : (إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلا . للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا) متفق عليه(٢) .

وعن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال : شهدت من النبى ـ ﷺ ـ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : فى آخر حديثه (فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر) ، ثم قرأ ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾(٣) رواه البخارى .

قوله تعالى : ﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم إنى كان لى قرين ، يقول أئنك لمن المصدقين ، أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون ، قال هل أنتم مطلعون ، فاطلع فرآه فى سواء الجحيم ، قال تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ، إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ . قوله تعالى : ﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون : أى عن أحوالهم وكيف كانوا فى الدنيا : وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم فى تناولهم ومعاشرتهم فى مجالسهم ، وهم جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال العوفى : عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **قال قائل منهم إنى كان لى قرين** ﴾ قال : هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الايمان فى الدنيا . ﴿ **يقول أئنك لمن المصدقين** ﴾ : يقول المشرك للمؤمن أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء : يعنى يقول : ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد ، والكفر والعناد ، ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** ﴾ قال مجاهد والسدى : لمحاسبون ، قال تعالى : ﴿ **قال هل أنتم مطلعون** ﴾ أى مشرفون ، يقول المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ، ﴿ **فاطلع فرآه فى سوء الجحيم** ﴾ : فاطلع فرآه فى وسط الجحيم .

قال الحسن البصرى : فى وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد ، وقال قتادة : ذكر لنا أنه اطلع فرأى

(١) جزء من حديث أورد فتح البارى بشرح صحيح البخارى فى كتاب بدء الخلق ج ٦ ص ٣١٨ رقم ٣٢٤٥

(٢) انظره فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب : صفة خيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الاهلين رقم ١٨٠٦ قال المحقق : اخرجه البخارى فى (كتاب بدء الخلق باب : ما جاء فى صفة اهل الجنة وانها مخلوقة .

(٣) سورة السجدة الآيتان : ١٦ ـ ١٧

جماجم القوم تغلى ، وذكر لنا كعب الأحبار قال فى الجنة كوى إذا أراد أحد من أهلها أن ينظر الى عدوه فى النار اطلع فيها ، فازداد شكرا ، ﴿ **قال تالله إن كدت لتردين** ﴾ : يقول المؤمن مخاطبا للكافر : والله إن كدت لتهلكنى لو أطعتك ﴿ **ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين** ﴾ : أى ولولا فضل الله على لكنت مثلك فى سواء الجحيم حيث أنت محضر معك فى العذاب ، ولكنه تفضل على ورحمنى ، فهدانى للإيمان ، وأرشدنى الى توحيده ﴿ **وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله** ﴾ : وقوله تعالى : ﴿ **أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين** ﴾ : هذا من كلام المؤمن مغتبطا نفسه بما أعطاه الله تعالى : من الخلد فى الجنة ، والاقامة فى ادار الكرامة بلا موت فيها ولا عذاب ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ **إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ : وقال الحسن البصرى : علموا أن كل نعيم فإن الموت يقطعه فقالوا : ﴿ **أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين** ﴾ : قيل لا ، قالوا ﴿ **إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ . وقوله جل جلاله : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ .

قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير : هو من كلام الله ــ تعالى ــ ةمعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون فى الدنيا ليصيروا إليه فى الآخرة .

قال العلامة ابن كثير : وقد ذكروا قصة رجلين كانا شريكين فى بنى إسرائيل تدخل فى ضمن عموم هذه الآية الكريمة ، قال أبو جعفر بسنده عن فرات بن ثعلبة النهرانى فى قوله : ﴿ **إنى كان لى قرين** ﴾ قال : إن رجلين كانا شريكين فاجتمع لهما ثمانية آلاف دينار ، وكان أحدهما له حرفة والآخر ليس له حرفة ، فقال الذى له حرفة للآخر : ليس عندك حرفة ما أرانى إلا مفارقك ومقاسمك فقاسمه وفارقه ، ثم إن الرجل اشترى دارا بألف دينار كانت لملك مات ، فدعا صاحبه فأراه فقال : كيف ترى هذه الدار ؟ ابتعتها ــ أى : اشتريتها ــ بألف دينار ؟ قال : ما أحسنها ، فلما خرج قال : اللهم إن صاحبى هذا قد ابتاع هذه الدار بألف دينار ، وإنى أسألك دارا من دور الجنة ، فتصدق بألف دينار ، ثم مكث ما شاء الله ــ تعالى ــ أن يمكث ، ثم إنه تزوج بامرأة بألف دينار فدعاه وصنع له طعاما ، فلما أتاه قال : إنى تزوجت هذه المرأة بألف دينار ، قال : ما أحسن هذا ، فلما انصرف قال : يارب إن صاحبى تزوج امرأة بألف دينار وإنى أسألك امرأة من الحور العين ، فتصدق بألف دينار ، ثم أنه مكث ما شاء الله ــ تعالى ــ أن يمكث ثم اشترى بستانين بألفى دينار ثم دعاه فأراه فقال : إنى ابتعت هذين البستانين بألفى دينار ، فقال : ما أحسن هذا ، فلما خرج قال : يارب إن صاحبى قد اشترى بستانين بألفى دينار ، وأنا أسألك بستانين فى الجنة ، فتصدق بألفى دينار .

وفى الرواية الأخرى عند أبى حاتم ... قال : فبقى المؤمن ليس عنده شىء ، قال : فلبس قميصا من قطن وكساء من صوف ثم أخذ مرا . فجعله على رقبته يعمل الشىء ويحفر الشىء بقوته ، قال : فجاءه رجل فقال : يا عبد الله ، أتؤاجرنى نفسك مشاهرة شهرا بشهر ، تقوم على ذواب لى تعلفها وتكنس سرقينها ؟

قال : أفعل ، قال : فواجره نفسه مشاهرة شهرا بشهر يقوم على دوابه ، وقال : وكان صاحب الدواب يغدو كل يوم ينظر إلى دوابه فإذا رأى منها دابة ضامرة أخذ برأسه فوجأ عنقه ثم يقول له : سرقت شعير هذه البارحة ، قال : فلما رأى المؤمن هذه الشدة قال : لآتين شريكى الكافر فلأعملن فى أرضه فليطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم ، ويكسونى هذين الثوبين إذا بليا ، قال : فانطلق يريده فانتهى إلى بابه وهو ممس ، فإذا قصر مشيد فى السماء ، وإذا حوله البوابون ، فقال لهم : استأذنوا لى على صاحب هذا القصر ، فإنكم إذا فعلتم سرة ذلك ، فقالوا له : انطلق ـ إن كنت صادقا ـ فنم فى ناحية فإذا أصبحت فتعرض له ، قال : فانطلق المؤمن فألقى نصف كسائه تحته ونصفه فوقه ثم نام ، فلمّا أصبح أتى شريكه فتعرض له ، فخرج شريكه الكافر وهو راكب ، فلما رآه عرفه ، فوقف عليه وسلم عليه وصافحه ثم قال له : ألم تأخذ من المال مثل ما أخذت ؟ قال : بلى . قال : وهذه حالى وهذه حالك ؟ قال : بلى ، قال : فأخبرنى ما صنعت فى مالك ؟ قال لا تسألنى عنه ، قال : فما جاء بك ؟ قال : جئت أعمل فى أرضك هذه فتطعمنى هذه الكسرة يوما بيوم ، وتكسونى هذين الثوبين إذا بليا ، قال لا ولكن أصنع بك ما هو خيرا من هذا ، ولكن لا ترى منى خيرا حتى تخبرنى ما صنعت فى مالك ، قال : اقرضته ، قال : من ؟ قال : الملئ الوفى ، قال : من ؟ قال : الله ربى ، قال : وهو مصافحه فانتزع يده من يده ثم قال : ﴿ **أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** ﴾ .

قال السدى : محاسبون . قال : فانطلق الكافر وتركه ، قال : فلما رآه المؤمن وليس يلوى عليه رجع وتركه ، يعيش المؤمن فى شدة من الزمان ويعيش الكافر فى رخاء من الزمان ، قال : فإذا كان يوم القيامة وأدخل الله ـــ تعالى ـــ المؤمن الجنة يمر فإذا هو بأرض ونخل وثمار وأنهار ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هذا لك .

فيقول : سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا ؟ قال : ثم يمر فإذا هو برقيق لا تحصى عدتهم ، فيقول : لمن هذا ؟ فيقال : هؤلاء لك ، فيقول : (سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا ؟ قال : ثم يمر فإذا هو بقبة من ياقوتة حمراء مجوفة ، فيها حوراء عيناء ، فيقول : لمن هذه ؟ فيقال : هذه لك . فيقول : يا سبحان الله !! أو بلغ من فضل عملى أن أثاب بمثل هذا ؟ قال : ثم يذكر المؤمن شريكه الكافر ، فيقول : ﴿ **إنى كان لى قرين يقول أئنك لمن المصدقين أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون** ﴾ قال : فالجنة عالية ، والنار هاوية قال فيريه الله ـــ تعالى ـــ شريكه فى وسط الجحيم من بين أهل النار ، فإذا رآه المؤمن عرفه فيقول : ﴿ **تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين ، أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم . لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ بمثل ما قد من عليه ، قال : فيتذكر المؤمن ما مر عليه فى الدنيا من الشدة فلا يذكر مما مر عليه فى الدنيا من الشدة أشد عليه من الموت ، لذا قال : ﴿ **أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين . إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ .

اعلم أن من أسمى مراتب الايمان الحب فى الله ، والبغض فى الله ، فمن أحب لله وأبغض لله ، وأعطى لله ومنع لله ، فقد استكمل الايمان ، واعلم بأن كل صداقة تقوم على معصية الله فى الدنيا عداوة يوم القيامه ، قال ـ تعالى ـ ﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾(١) .

الحث على صحبة الأخيار والزجر عن عشرة الأشرار .

قال ـ تعالى ـ ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾(٢) .

وقال ـ تعالى ـ ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾(٤)

روى فى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ (مثل جليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك أما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما تجد ريحا خبيثة) (٥)

هذا حديث متفق عليه ، وقوله أن يحذيك .. أى : يعطيك .

وأخرج الامام أحمد وأبو داود والترمزى عن أبى سعيد ـ أنه سمع النبى ﷺ ـ يقول : (لا تصاحب إلا مؤمنا ، ولا يأكل طعامك إلا تقى)(٦) حديث حسن .

قال أبو سلمان الخطابى فى تعليقه على هذا الحديث : هذا إنما جاء فى طعام الدعوة دون طعام الحاجة ، وإنما حذر من صحبة من ليس تقى ، وزجر عن مخالطته ، ومؤاكلته ، لأن المطاعمة توقع الألفة والمودة فى القلوب .

---

(١) الآية : ٦٧ من سورة الزخرف .

(٢) الآيات : ٥٥ — ٨٥ من سورة المائدة .

(٣) الآيات : ٢٧ — ٢٩ من سورة الفرقان .

(٤) الآية ٦٧ من سورة الزخرف .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيهما اتفق عليه الشيخان (كتاب البحر والصلة والآداب) باب : استحباب مجالسة الصالحين ، ومجانبة قرناء السوء ص ٧١١ رقم ١٦٨٧ وأورده أبو داود بمعناه ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٢٩ جزءا من حديث .

(٦) سند أبى داود (كتاب الأدب) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل)[١] .

وقال عمر بن الخطاب : عليكم بإخوان الصدق ، فإنهم زين فى الرخاء ، وعدة عند البلاء . وقال أيضا : (لا تعترض فيما لا يعنيك ، واعتزل عدوك ، واحتفظ من خليلك إلا الأمين ، فإن الأمين من القوم لا يعادله شيء ، ولا تصحب الفاجر ، فليعلمك من فجوره ، ولا تفشى إليه سرك ، واستشر فى أمرك الذين يخشون الله عز وجل) . رواه ابو نعيم فى الحلية .

وقال رضى الله عنه : (جالسوا التوابين ، فإنهم أرق شيء أفئدة) (أبو نعيم) ، وقال مالك بن دينـار : (إنك ان تنقل الأحجار مع الأبرار خير لك من أن تأكل الخبيص مع الفجار) الخبيص : خلواء تعمل من التمر والسمن ، وقال علقمة بن قيس النخعي ــ رضى الله عنه : (اصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة عانك ، وإن قلت سدد مقالك ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن بدت منك ثلمة ــ عيب ــ سدها ، وإن سألته أعطاك ، وإن نزلت بك مهمة ــ حزن ــ واساك وأدناهم من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختلف عليك منه الطرائق .

آداب الأخوة فى الله والحب والبعض فيه سبحانه وتعالى

للشيخ أبى بكر الرازى والمسلم بحكم ايمانه بالله ــ تعالى ــ لا يحب إذا أحب إلا فى الله ، ولا يبغض إذا أبغض إلا فى الله ، لأنه لا يحب إلا ما يحب الله ورسوله يحب ، وببغضهما يبغض ، ودليلة فى هذا قول الرسول ﷺ : (من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى لله ، ومنع لله فقد استكمل الايمان)[٢] (ابو داود) وبناء على هذا فجميع عباد الله الصالحين يحبهم المسلم ويواليهم ، وجميع عباد الله الفاسقين عن أمر الله ورسوله يبغضهم ويعاديهم ، بيد أن هذا غير مانع للمسلم أن يتخذ إخوانا أصدقاء فى الله ــ تعالى ــ يخصهم بمزيد محبة ووداد ، إذا رغب الرسول ﷺ ــ فى اتخاذ مثل هؤلاء الاخوان والأصدقاء بقوله : (المؤمن الف مألوف ولا خير من لا يألف ولا يؤلف)[٣] (أحمد والحاكم وصححيه) .

وقوله : (ان حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ، ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء) فقالوا : يا رسول الله : صفهم لنا ، فقال : المتحابون فى الله ،

---

(١) انظر سنن أبى داوْد (كتاب الأدب) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ إلا أنه قال : « الرجل على دين خليله ..... الحديث » .

(٢) الحديث رواه أبو داود فى سننه (فى كتاب السنة) باب الدليل على زيادة الايمان ونقصانه ج ٥ ص ٦٠ رقم ٤٦٨١

(٣) انظر مسند الامام أحمد (مسند أبى هريرة) ج ٢ ص ٤٠٠

وانظر المستدرك للحاكم (كتاب الايمان) باب المؤمن يألف ويؤلف ج ١ ص ٢٣

وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولا أعلم له علة ، ولم يخرجاه .. وتعقبه الذهبى فقال : قلت : علة انقطاعه ، فإن أبا حازم هذا هو المدينى ، ولا الأشجعى ، ولم يلق أبو صخر الأشجعى ولا المدينى لقى أبا هريرة .

والمتجالسون فى الله ، والمتزاورون فى الله (النسائى صحيح)[١] .

وقوله ـ ﷺ ـ (ان الله ـ تعالى ـ يقول : حقت محبتى للذين يتزاورون من أجلى وحقت محبتى للذين يتناصرون من أجلى) (أحمد والحاكم وصحيحه)[٢] .

وقوله ﷺ : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجل قلبه معلق بالمساجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله فاجتمعا على ذلك ، وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال : إنى أخاف الله تعالى ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه) (البخارى)[٣] .

وقوله ﷺ : (ان رجلا زار أخا له فى الله فأرصد الله له ملكا ، فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخى فلانا ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : فيم ؟ قال أحبه فى الله ، قال : فإن الله أرسلنى إليك أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه ، وقد أوجب لك الجنة)[٤] .

وشروط هذه الأخوة أن تكون لله وفى الله بحيث تخلو من شوائب الدنيا وعلائقها المادية ، بالكلية ، يكون الباعث عليها الإيمان بالله لا غير .

وأما آدابها فهى أن يكون المتخذ أخا :

١ - عاقلا : لأنه لا خير فى أخوة الأحمق وصحبته ، إذ قد يضر الأحمق الجاهل من حيث يريد النفع .

٢ - حسن الخلق : إذ سيء الخلق وإن كان عاقلا فقد تغلبه الشهوة أو يتحكم فيه ، غضب فيسيء إلى صاحبه .

٣ - تقيا : لأن الفاسق خارج عن طاعة ربه لا يؤمن جانبه ، إذ قد يرتكب ضد صاحبه جريمة لا يبالى معها بأخوة أو غيرها ، لأن من لا يخاف الله ـ تعالى ـ لا يخاف غيره بحال من الأحوال .

٤ - ملازما للكتاب والسنة بعيدا عن الخرافة والبدعة : إذ المبتدع قد ينال صديقه من شؤم بدعته ، ولأن المبتدع وصاحب الهوى هجرتهما متعينة ، ومقاطعتهما لازمة ، فكيف تمكن خلتهما وصداقتهما ؟

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ٦ / ١٧٤ كتاب آداب الأخوة والصحبة) باب فضيلة الأخوة والصحبة . وقال الزبيدى : قال العراقى : رواه النسائى فى سننه الكبرى ورجاله ثقات .

(٢) مسند أحمد (حديث عمر بن عيسة ـ رضى الله عنه) ج ٤ ص ٣٨٦ وانظر المستدرك للحاكم (كتاب البر والصلة) باب : لله عباد يغبطهم النبيون ..... الخ ج ٤ ص ١٧٠ من رواية عبادة بن الصامت .

(٣) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم : انظر اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (كتاب الزكاة) باب : فضل اخفاء الصدقة ج ١ ص ٢١٦ رقم ٦١٠ من رواية أبى هريرة ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الزهد) باب : ما جاء فى الحب فى الله ج ٤ ص ٥٩٨ رقم ٢٣٩١

(٤) انظره فى مسلم فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب الحب فى الله ج ٤ ص ١٩٨٨ رقم ٣٨ / ٢٥٦٧ وأحمد ٢ ٤٦٢ والخطيب (١ / ٧٦ ، ١٢ / ٣٧٦ ص ١٤ / ٣١ والاتحاف ٦ / ١٧٦ .

وقد أوجز هذه الآداب فى اختيار الأصحاب أحد الصالحين فقال يوصى ابنه : يا بنى إذا عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فأصحب من إذا خدمته صانك ، وإن صحبته زانك ، وإن قعدت بك مؤونة عانك ، أصحب من إذا مددن يدك بخير مدها ، وان رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى سيئة سدها ، أصحب من إذا سألته أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك . اصحب من إذا قلت صدق قولك ، وان حاولتما أمرا أمرك ، وان تنازعتما شيئا أثرك .

حقوق الأخوة فى الله

ومن حقوق هذه الأخوة ما يلى :

١ - المواساه بالمال : فيواسى كل منهما أخاه بماله إن احتاج إليه ، كما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه - إذ أتاه رجل فقال : إنى أريد أؤاخيك فى الله ، قال : أتدرى ما حق الاخاء ؟ قال : عرفنى ، قال : لا تكون أحق بدينارك ودرهمك منى : قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ، قال : فاذهب عنى .

٢ - أن يكون كل منهما عونا لصاحبه : يقضى حاجته ويقدمها على نفسه ، يتفقد أحواله كما يتفقد أحوال نفسه ، ويؤثر على نفسه ، وأهله وأولاده ، يسأل عنه بعد كل ثلاث ، فإن كان مريضا عادة ، وان كان مشغولا أعانه ، وإن كان نائيا ذكره ، يرحب به إذا دنا ، ويوسع له إذا جلس ، ويصغى إليه إذا حدث .

٣ - أن يكف عنه لسانه إلا بخير - فلا يذكر له عيبا فى غيبته أو خبايا نفسه ، وإذا رآه فى طريقه لحاجة من حاجات نفسه فلا يفاتحه ذكرها ، ولا يحاول التعرف إلى مصدرها أو موردها يتلطف فى أمره بالمعروف ، أو نهيه عن المنكر ، لا يماريه فى الكلام ولا يجادله بحق أو بباطل ، لا يعاتبه فى شىء ولا يعقب عليه آخر .

٤ - أن يعطيه من لسانه ما يحبه منه ، فيدعوه بأحب أسمائه إليه ، ويذكره بالخير فى الغيبة والحضور ، يبلغه ثناء الناس عليه ، مظهرا اغتباطه بذلك ، وفرحه به ، لا يسترسل فى نصحه فيقلقه ، ولا ينصحه أمام الناس فيفضحه ، كما قال الامام الشافعى - رحمه الله - من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه ، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشأنه .

٥ - يعفو عن زلاته ، ويتغاضى عن هفواته ، يستر عيوبه ويحسن به ظنونه ، وإن ارتكب معصية سرا أو علانية فلا يقطع مودته ، ولا يهمل أخوته ، بل ينتظر توبته أو أوبته ، فإن أصر فله صرمه وقطعه ، أو الإبقاء على أخوته مع إسداء النصيحة ، ومواصلة المواعظ ، ورجاء أن يتوب ، فيتوب الله عليه . قال أبو الدرداء - رضى الله عنه - إذا تغير أخوك ، وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يموج ويستقيم أخرى .

٦ - أن يفى له فى الأخوة فيثبت عليها ويدرع عهدها ، لأن قطعها محبط لأجرها ، وإن مات نقل المودة

إلى أولاده ، من والاه من أصدقائه ، محافظة على الأخوة ووفاء لصاحبها . فقد أكرم رسول الله ﷺ — عجوزا دخلت عليه ، فقيل له فى ذلك ، فقال : (إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين)[1] (الحاكم وصحيحه) .

ومن الوفاء أن لا يصادق عدد صديقه ، إذا قال الشافعى — رحمة الله — إذا أطاع صديقك عدوك ، فقد اشترك فى عداوتك .

٧ – أن لا يكلفه ما يشق عليه ، وأن لا يحمله مالا يرتاح معه ، فلا يحاول أن يستمد منه شيئا من جاه ، أو مال ، أو يلزمه بالقيام بأعمال : إذ أصل الأخوة كانت فى الله ، فلا ينبغى أن تحول إلى غيره من جلب منافع الدنيا ، أو دفع المضار ، وكما لا يكلفه لا يجعله يتكلف له ، إذ كلاهما فجعل بالأخوة مؤثر فيها ، منقص من أجرها المقصود ، فعليه أن يطوى معه بساط التزمت والتكلف والتحفظ ، إذ بهذه تحصل الوحشة المنافية للألفة .

وآية سقوط الكلفة الموجب للأنس ، والمذهبة للوحشة أن يفعل الأخ فى بيت أخيه أربع خصال : أن يأكل فى بيته ، ويدخل الخلاء عنده، ويصلى وينام معه ، فإذا فعل هذه فقد تم الاخاء ، وارتفعت الحشمة الموجبة للوحشة ، ووجد الأنس وتأكد الانبساط .

٨ – أن يدعو له ولأولاده ، ومن يتعلق به بخير ما يدعو به لنفسه وأولاده ومن يتعلق به ، أذ لا فرق بين أحدهما والآخر بحكم الأخوة التى جمعت بينهما ، فيدعو له حيا وميتا وحاضرا وغائبا . قال — عليه الصلاة والسلام : (إذا دعا الرجل لأخيه فى ظهر الغيب قال الملك : ولك فعل ذلك)[1] (رواه مسلم) .

وقال أحد الصالحين : أين فعل الأخ الصالح ؟ أن أهل الرجل إذا مات يقسمون ميراثه ، ويتمتعون بما خلف ، والأخ الصالح ينفرد بالحزن ، ومهتما بما قدم أخوه عليه ، وما صار إليه ، يدعو له فى ظلمة الليل ، ويستغفر له وهو تحت أطباق الثرى .

قوله تعالى : ﴿ أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه رءوس الشياطين . فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون، ثم إن لهم عليها

---

(١) ورد فى الحاكم حديث فى اكرام فى (كتاب البر والصلة) باب : صلة النبى الى صدائق خديجة ج ٤ ص ١٧٥
أحدهما مد رواية أنس بن مالك ، ولفظه : أكان النبى — ﷺ — إذا أتى بشيء يقول : أذهبوا به إلى فلانه فإنها كانت صديقه خديجة . اذهبوا به إلى فلانه فإنها كانت تحب خديجة) .
والثانى من رواية عائشة ، ولفظة : (أن النبى — ﷺ — كان يذبح الشاة فيتتبع بها صدائق خديجة بنت خويلد — رضى الله عنها .

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الذكر والدعاء .. إلخ) باب : فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ج ١٧ ص ٤٩ ، ٥٠ فقد أورده بروايتين عن أم الدرداء عن أبى الدرداء : الأولى من طريق طلحة بن عبد الله بن كريز ، ولفظهما : (ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك : ولك بمثل) وله رواية أخرى بلفظ : (من دعاء لأخيه بظهر الغيب ... الحديص) .
والثانية عن طريق صفوان بن عبد الله بن صفوان ، ولفظهما : (دعوة المرء المسلم لأخيه الغيب مستجابه ، عند رأسه ملك موكل ، كلما دعا لأخيه بخير قال الملك الموكل به : آمين ، ولك بمثل) .

لشوبا من حميم . ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم . إنهم ألفوا آباءهم ضالين . فهم على آثارهم يهرعون . ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين . ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم** ﴾ .

يقول الله تعالى : أهذا الذى ذكره من الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء (أم شجرة الزقوم) أى التى فى جهنم يأكل منها أهل النار ؟!! .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا جعلناها فتنة للظالمين** ﴾ قال مجاهد : قال أبو جهل ، لعنه الله : إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه ، فأنزل الله ــ سبحانه ــ هذه الآية : ﴿ **إنا جعلناها فتنة للظالمين** ﴾ كقوله ــ تعالى : ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا** ﴾[(١)] والمراد بالشجرة الملعونة هى شجرة الزقوم ، فحينما أخبرهم الرسول ﷺ ــ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم فكذبوا بذلك ، حتى قال أبو جهل ــ عليه لعنة الله : هاتوا لنا تمرا وزبدا ، وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقموا. فلا نعلم الزقوم إلا هذا . حكى ذلك ابن عباس ومسروق وأبو مالك والحسن وغير واحد .

وقوله تعالى : ﴿ **إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم** ﴾ أى : أصل منبتها فى قرار النار (طلعها كأنه رؤوس الشياطين) وكأنه رؤوس الشياطين : تبشيع لها وتكريه لذكرها . وإنما شبهها برؤوس الشياطين ــ وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين ــ لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر . وقوله تعالى : ﴿ **فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون** ﴾ ذكر ــ تعالى ــ أنهم يأكلون من هذه الشجرة منها التى لا أبشع منها ولا أقبح منها منظرها مع ماهب عليه من سوء الطعم والريح والطبع فانهم ليضطرون إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا أياها وما هو فى معناها ، كما فى قوله ــ تعالى ــ ﴿ **ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع** ﴾[(٢)] .

روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : (اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه) ؟ .

ورواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح[(٣)] .

---

(١) من الآية : ٦٠ من سورة الاسراء .

(٢) الآيتان : ٦ ــ ٧ من سورة الغاشية .

(٣) انظر سنن الترمذى (كتاب صفة جهنم) باب : ما جاء فى صفة شراب أهل النار ج ٤ ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ رقم ٢٥٨٥ إلا أن لفظه : عن ابن عباس أن رسول الله ــ ﷺ ــ قرأ هذه الآية : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ قال رسول الله ﷺ : (لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟!!!) .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقوله ــ تعالى : ﴿ **ثم إن لهم عليها لشوبا من حميم** ﴾ .

قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ يعنى شرب الحميم على الزقوم .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى أمامه الباهلى ــ رضى الله عنه ــ عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه كان يقول : (يقرب ــ يعنى إلى أهل النار ــ ماء فيتكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ، ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعائه حتى تخرج من دبره)[١] وقال بسنده .

عن سعيد بن جبير ، قال : (إذا جاع أهل النار استعانوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم ، فلو أن مارا مر بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها ، ثم يطيب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، وهو الذى قد انتهى حره ، فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التى قد سقطت عنها الجلود ، ويصهر ما فى بطونهم فيمشون تسيل أمعاؤهم ، وتتساقط جلودهم ، ثم يضربون بمقامع من حديد ، فيسقط كل عضو على حياله ، يدعون بالثبور .

وقوله تعالى : ﴿ **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾ أى : ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج ، وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة فى هذا ، وتارة فى هذا ، كما قال ــ سبحانه : ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾[٢] قال ابن كثير : هكـذا تلا قتـادة هذه الآية ، وهـو تفسير حسن هذه الآيات كقولـه ــ تعالى ــ فى سورة الدخان : ﴿ **إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، ذق إنك العزيز الكريم . إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾[٣] .

وكقوله ــ تعالى ــ فى سورة الواقعة : ﴿ **ثم إنكم أيها الضالون المكذبون ، لآكلون من شجر من زقوم ، فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين** ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **إنهم ألفوا آباءهم ضالين** ﴾ أى : إنما جازيتهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان ، ولهذا قال ــ تعالى : ﴿ **فهم على آثارهم يهرعون** ﴾ . أى : يسرعون . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولوا كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾[٥] وكقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله**

---

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب صفة جهنم) باب : ما جاء فى صفة شراب أهل النار ج ٤ ص ٧٠٥ رقم ٢٥٨٣ قال الترمذى : هذا حديث غريب

(٢) الآية : ٤٤ من سورة الرحمن

(٣) الآيات : ٤٣ – ٥٠ من سورة الدخان .

(٤) الآيات : ٥١ – ٥٦ من سورة الواقعة .

(٥) الآية : ٢١ من سورة لقمان .

قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ﴾[١] .

وكقوله تعالى : ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ، ولقد أرسلنا فيهم منذرين . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين . إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

يخبر ــ تعالى ــ عن الأمم الماضية أن أكثرهم ضالون يجعلون مع الله آلهة أخرى ويتبعون فى ذلك آباءهم ، ولقد أرسل الله فيهم الرسل منذرين ينذرون بأس الله ويحذرونهم سطوته ونقمته ، ممن كفر به وعبد غيره ، ولكنهم تمادوا ولجوا فى طغيانهم يعمهون ، وكذبوا الرسل ، فأهلكهم الله وأنجى الذين آمنوا وكانوا يتقون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

قصة نوح عليه السلام

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

« تفسير المفردات »

(نادنا) المراد من النداء : الاستغاثة (الكرب) : الغم الشديد .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر ــ سبحانه ــ على سبيل الإجمال ضلال كثير من الأمم السالفة شرع يفصل ذلك ، فذكر نوحا ــ عليه السلام ــ وما لقيه من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل من طول مدة لبثه فيهم ، فلما اشتدوا واشتطوا فى العناد دعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، فغضب الله لغضبه ، وأغرق قومه المكذبين ، ونجاه وأهله أجمعين .

---

(١) الآية : ١٧٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات : ٢٣ ــ ٢٥ من سورة الزخرف .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ ولقد نادانا نوح ﴾ أى دعانا مستغيثا بنا ، لما أشتد عليه أذى قومه ، قال تعالى : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ﴾[١] ﴿ فلنعم المجيبون ﴾ أى : نحن ، وهنا تتجلى عظمة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ فى قوله : ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها أية فهل من مدكر ﴾[٢] .

قال تعالى : ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ والمقصود بأهله هم المؤمنون ، كما قال تعالى : ﴿ فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ﴾[٣] فى هذا المعنى أقوال : قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يقول : لم تبق إلا ذرية نوح ـ عليه السلام ـ وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ قال : الناس كلهم ذرية نوح ـ عليه السلام .

وقد روى الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم عن سمرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (سام أبو العرب وحام أبو الحبش ويافت أبو الروم)[٤] .

قوله تعالى : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين ﴾ قال ابن عباس : المقصود أنه يذكر بخير ، وقال مجاهد : يعنى لسان صدق للأنبياء كلهم . وقال قتادة والسدى : أبقى الله عليه الثناء الحسن فى الآخرين .

وأما قوله تعالى : ﴿ سلام على نوح فى العالمين ﴾ فإن هذه الجملة جاءت تفسيرا لما قبلها مما قصد به الثناء والحسن ، ولقد دعا ابراهيم ربه فقال : (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين)[٥] ولقد استجاب الله له فقال ـ سبحانه : ﴿ سلام على ابراهيم ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ كقوله ـ جل شأنه : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[٧] وكقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾[٨] وكقوله : ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾[٩] ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ المصدقين الموقنين الذين ملأ نور الايمان جنبات قلوبهم ، فالايمان ما وقر فى القلب وصدقة العمل ، كما أنه تصديق بالجنان ، وعمل بالأركان ، ونطق باللسان ، وهو

---

(١) سورة القمر الآية : ١٠

(٢) الآيات : ١١ – ١٥ من سورة القمر

(٣) الآية : ١١٩ من سورة الشعراء .

(٤) انظر سنن الترمذى (كتاب تفسير القرآن) باب : ومن سورة الصافات ج ٥ ص ٣٦٥ رقم ٣٢٣١

(٥) الآية : ٨٤ من سورة الشعراء .

(٦) الآية : ١٠٩ من سورة الصافات .

(٧) من الآية : ٢٦ من سورة يونس .

(٨) من الآية : ٣٠ من سورة النحل . ومن الآية ١٠ من سورة الزخرف .

(٩) الآية : ٦٠ من سورة الرحمن .

شكر فى الرخاء ، وصبر فى البلاء ، ورضا بالقضاء .

واضافة العباد إلى ضمير العظمة فى قوله تعالى : ﴿ **من عبادنا** ﴾ إضافة تشريف وتكريم .

ومما زادنى شرفـــا وقـــــدرا وكـــدت بأخمص أطـــأ الثريـــا

دخـــولى تحت قولك يا عبـــادى وأن صيرت أحمد لى نبيـــا

إن العبودية لله عزة ، وأما العبودية لغيره فذل وهوان ، فإذا سألت فاسأل الله ، وإذا توكلت فتوكل على الله ، واعلم أن ما كان لفكيك أن تمضغاه فلا بد أن تمضغاه ، فامضغه بعزة .

قوله تعالى : ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ أى : أهلكناهم فلم تبق لهم عين تطرف ، ولا ذكر ، ولا عين ، ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

قال تعالى : ﴿ **وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما** ﴾[1] .

أضـواء كاشفـة

(لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)[2] .

لما كان قصص الأنبياء قد اشتمل على الدروس والعبر والتربية الرفيعة العالية رأينا من باب تتمه الفائدة أن نفصله تفصيلا يؤدى الغرض منه ، وقد جاء ذلك مبينا على خير وجه فيما ذكره الحافظ : ابن كثير فى كتابه (قصص الأنبياء) فلنستمع فى خشوع وإنصات وتدبر إلى تلك الدروس الغاليه ، عسى الله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما علمنا .

قال ـــ رحمه الله تعالى ـــ عن نوح عليه السلام :

(هو نوح بن لاحك بن توشلخ بن خنوخ ـــ وهو ادريس ـــ بن يرد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم أبى البشر ـــ عليه السلام وكان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة ، فيما ذكره ابن جرير وغيره .

وعلى تاريخ أهل الكتاب المتقدم يكون بين مولد نوح وموت آدم مائة وست وأربعون سنة ، وكان بينهما عشرة قرون كما قال الحافظ أبو حاتم بن حيان فى صخيحه : حدثنا محمد بن عمر بن يوسف ، حدثنا محمد بن عبد الملك بن زنجويه ، حدثنا أبو تعربة ، حدثنا معادية ابن سلام ، عن أخيه زيد بن سلام ، سمعت أبا سلام ، سمعت أبـا أمامـة : أن رجـلا قال : يا رسول الله ء أبنـى كان آدم ؟ قال : (نعـم . قال فكـم

(١) الآية : ٣٧ من سورة الفرقان .

(٢) الآية : ١١١ من سورة يوسف .

كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون) .

قلت : وهذا وعلى شرط مسلم ولم يخرجه .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس قال : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام .

فإن كان المراد بالقرن مائة سنة ــ كما هو المتبادر عند كثير من الناس ــ فبينهما ألف سنة لا محالة ، لكن لا ينفى أن يكون أكثر باعتبار ما قيد به ابن عباس بالاسلام ، إذ قد يكون بينهما قرون أخر متأخرة لم يكونوا على الاسلام ، لكن حديث أبى أمامه يدل على الحصر فى عشرة قرون ، وزادنا ابن عباس أنهم كلهم كانوا على الاسلام .

وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب : أن قابيل وبنيه عبدوا النار . والله أعلم .

وإن كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما فى قوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح** ﴾(١) وقوله : ﴿ **ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **وقرونا بين ذلك كثيرا** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن** ﴾(٤) وكقوله ــ عليه الصلاة والسلام : (خير القرون قرنى ....)(٥) الحديث . فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة ، فعلى هذا يكون بين آدم ونوح ألوف من السنين . والله أعلم .

وبالجملة فنوح ــ عليه السلام ــ إنما بعثه الله ــ تعالى ــ لما عبدت الأصنام والطواغيت ، وشرع الناس فى الضلالة والكفر ، فبعثه الله رحمة للعباد ، فكان أول رسول إلى أهل الأرض ، كما يقول أهل الموقف يوم القيامة .

وكان قومه يقال لهم بنوراسب فكما ذكره ابن حبير وغيره .

واختلفوا فى مقدار سنه يوم بعث ، فقيل : كان ابن خمسين سنة ، وقيل : ابن ثلثمائة وخمسين سنة ، وقيل : ابن أربعمائه وثمانين سنة : حكاها ابن جرير ، وعزا الثالثة منها إلى ابن عباس .

وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه ، وما أنزل فيمن كفر به من العذاب بالطوفان ، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة ، فى غير ما موضع من كتابه العزيز ، ففى الأعراف ويونس وهود والأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت والصافات واقتربت ، وأنزل فيه سورة كاملة ، فقال فى سورة الأعراف :

---

(١) من الآية : ١٧ من سورة الاسراء .

(٢) الآية : ٣١ من سورة المؤمنون .

(٣) من الآية : ٣٨ من سورة الفرقان .

(٤) من الآية : ٩٨ من سورة مريم .

(٥) انظر صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة) باب فضل الصحابة ثم يلونهم ثم الذين يلونهم ج ٤ ص ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ، ١٩٦٤ أرقام ٢١٠ / ٢٥٢٣ ، ٢١١ / ٢٥٣٣ ، ٢١٢ / ٢٥٣٣ .

﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ، أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ، فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بأياتنا إنهم كانوا قوما عمين ﴾(١) .

وقال تعالى : فى سورة يونس :

﴿ واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ، فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ، فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بأياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾(٢) .

وقال تعالى : فى سورة هود :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ، أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال ياقوم أرءيتم إن كنت على بينة من ربى وءاتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، وياقوم لا أسئلكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين أمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ، وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ، قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ، ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ، أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعلى إجرامى وأنا برىء مما تجرمون ، وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قدءا من فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ، حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ، وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع

(١) الآيات : ٥٩ – ٦٤ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات : ٧١ – ٧٣ من سورة يونس .

الكافرين ، قال سئاوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل يأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين ، ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألنى ماليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ، قال رب إنى أعوذ بك أن أسئلك ماليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين ، قيل يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ، تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾(١) .

وقال الله تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين ﴾(٢) .

وقال تعالى فى سورة (المؤمنون) :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ياقوم اعبدو الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين . إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين . قال رب انصرنى بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين . إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين ﴾(٣)

وقال تعالى فى سورة (الشعراء) :

﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون . قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين . قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين . قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون . ثم أغرقنا بعد الباقين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٤) .

(١) الآيات : ٢٥ — ٤٩ من سورة هود .

(٢) الآيتان : ٧٦ — ٧٧ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان : ٢٣ — ٣٠ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات : ١٠٥ — ١٢٢ من سورة الشعراء .

وقال تعالى فى سورة (العنكبوت) :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنه إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة (الصافات) :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم . وجعلنا ذريته هم الباقين ، وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين . إنا كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . ثم أغرقنا الآخرين ﴾[٢] .

وقال تعالى فى سورة (القمر) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر . ولقد تركناها آية فهل من مدكر . فكيف كان عذابى ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٣] .

وقال تعالى فى سورة (نوح) : بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إنى لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون. يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا . وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا . قال نوح رب إنهم عصونى واتبعو من لم يزده ماله وولده إلا خسارا . ومكروا مكرا كبارا . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا . وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا . مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك

---

(١) الآيتان : ١٤ — ١٥ من سورة العنكبوت .

(٢) الآيات : ٧٥ — ٨٢ من سورة الصافات .

(٣) الآيات : ٩ — ١٧ من سورة القمر .

ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا . رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾[١] .

وقد تكلمنا عن كل موضع من هذه فى التفسير ، ونذكر مضمون القصة مجموعا من هذه الأماكن المتفرقة ، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار ، وقد جرى ذكره أيضا فى مواضع متفرقة من القرآن فيها مدحه ، وذم من خالفه .

فقال تعالى فى سورة (النساء) :

﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما . رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ﴾[٢] .

وقال تعالى فى سورة (الأنعام) :

﴿ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم . ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين . وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴾[٣] .

وتقدمت قصته فى الأعراف ، وقال فى سورة (براءة) :

﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٤] .

وقال تعالى فى سورة (ابراهيم) :

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ، والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾[٥] .

وقال تعالى فى سورة سبحان (الاسراء) :

---

(١) سورة نوح ــ عليه السلام ــ آية ٢٨

(٢) الآيات : ١٦٣ - ١٦٥ من سورة النساء

(٣) الآيات : ٨٣ - ٨٧ من سورة الأنعام .

(٤) الآية : ٧٠ من سورة التوبة .

(٥) الآية : ٩ من سورة ابراهيم

﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا ﴾[١] وقال فيها أيضا : ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا ﴾[٢]. وتقدمت قصته فى الأنبياء والمؤمنون والشعراء والعنكبوت ، وقال فى سورة الأحزاب : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴾[٣].

وقال فى سورة (ص) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد . وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾[٤].

وقال فى سورة (غافر) :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم . ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾[٥].

وقال تعالى فى سورة (الشورى) :

﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ﴾[٦].

وقال ـ تعالى ـ فى سورة ق :

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾[٧].

وقال سبحانه فى سورة (الذاريات) :

﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾[٨].

وقال سبحانه فى سورة (النجم) :

﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾[٩].

(١) الآية : ٣ من سورة الاسراء .
(٢) الآية : ١٧ من سورة الاسراء .
(٣) الآية : ٨ من سورة الأحزاب .
(٤) الآيات : ١٢ — ١٤ من سورة ص .
(٥) الآيتان : ٥ — ٦ من سورة غافر .
(٦) الآية : ١٣ من سورة الشورى .
(٧) الآيات : ١٢ — ١٤ من سورة ق .
(٨) الآية : ٤٦ من سورة الذاريات .
(٩) الآية : ٥ من سورة النجم .

وتقدمت قصته فى سورة (اقتربت الساعة) وقال تعالى فى سورة (الحديد) :

﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾(١) .

قال تعالى فى سورة (التحريم) :

﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار من الداخلين ﴾(٢) .

وأما مضمون ما جرى له مع قومه مأخوذ من الكتاب والسنة والآثار فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الاسلام رواه البخارى .

بداية الشرك :

وذكرنا أن المراد بالقرن : الجيل ، أو المدة على ما سلف . ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور أقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام ، وكان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى : **﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾**(٣) قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ، فلم تعبد ، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت .

قال ابن عباس : وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد . وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد ابن اسحاق.

وقال ابن جرير فى تفسيره : حدثنا ابن حميد ، حدثنا مهران ، عن سفيان ، عن موسى ، عن محمد بن قيس قال : كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين ذكرناهم فطوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم . وروى ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير أنه قال : ود ويغوث ويعوق وسواع ونسر أولاد آدم ، وكان ود أكبرهم وأبرهم به .

وقال ابن أبى المطهر قال : ذكروا عند أبى جعفر ـ هو الباقر ـ وهو قائم يصلى يزيد بن المهلب قال : فلما انفتل من صلاته قال : ذكرتم يزيد بن المهلب أما إنه قتل فى أرض عُبد فيها غير الله . قال : ذكر ودا رجلا صالحا وكان محببا فى قومه ، فلما مات عكفوا حول قبرة فى أرض بابل وجزعوا عليه ، فلما رأى

(١) الآية : ٢٦ من سورة الحديد .

(٢) الآية : ١٠ من سورة التحريم .

(٣) الآية : ٢٣ من سورة نوح .

إبليس جزعهم عليه تشبه فى صورة انسان ثم قال : إنى أرى جزعكم على هذا الرجل فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه ؟ قالوا : نعم . فصور لهم مثله . قال : ووضعوه فى ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له فى بيته فتذكرونه قالوا : نعم قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به ، قال : وتناسلوا ودرس أثر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم ، فكان أول ما عبد غير الله ودا : الصنم الذى سموه ودا .

ومقتضى هذا السياق أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس .

وقد ذكر أنه لما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسده ليكون أثبت لهم ، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله — عز جل — ولهم فى عبادتها مسالك كثيرة جدا قد ذكرناها فى مواضعها من كتابنا التفسير ، ولله الحمد والمنة .

وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله — ﷺ — أنه لما ذكرت عنده أم سلمة وأم حبيبة تلك الكنيسة التى رأينها بأرض الحبشة يقال لها (مارية) فذكرتا من حسنها وتصاوير فيها ، قال : (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه تلك الصورة ، أولئك شر الخلق عند الله عز وجل)[١] .

أول رسل الله

والمقصود أن الفساد لما انتشر فى الأرض وعم البلاء بعباد الأصنام فيها بعث الله عبده ورسوله نوحا — عليه السلام — يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهى عن عبادة ما سواه ، فكان أول رسول بعثه الملك إلى أهل الأرض ، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حيان عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — فى حديث الشفاعة قال : فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، واسكنك الجنه — ألا تشفع لنا إلى ربك ؟! ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربى قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، ونهانى عن الشجرة فعصيت ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى ، اذهبوا إلى نوح . فيأتون نوحا فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وسماك الله عبدا شكورا ألا ترى إلى ما نحن فيه ؟ ألا ترى إلى ما بلغنا ؟ ألا تشفع لنا إلى ربك — عز وجل — فيقول : ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولا يغضب بعده مثله ، نفسى نفسى . وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخارى فى قصة نوح[٢] .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها باب : النهى عن بناء المساجد على القبور ج ١ ص ١٠٦ رقم ٣٠٥ فقد أورده عن عائشة — رضى الله عنها .

(٢) انظر حديث أبى هريرة فى الشفاعة بطولة فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الايمان) باب : أوتى أهل الجنة منزلة فيها ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ رقم ١٢٠ .

نوح يدعو إلى التوحيد الخالص ويحذر من عبادة الأصنام

فلما بعث الله نوحا ـ عليه السلام ـ دعاهم إلى افراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن لا يعبدون معه صنما ولا تمثالا ولا طاغوتا ، وأن يعترفوا بوحدانيته وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، كما أمر الله ـ تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته . كما قال ـ تعالى : ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾(١) وقال فيه وفى إبراهيم : ﴿ **وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب** ﴾(٢) أى : كل نبى من بعد نوح فمن ذريته ، وكذلك ابراهيم ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **واسئل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾(٥) .

ولهذا قال نوح لقومه : ﴿ **اعبدوا الله مالكم من إله غيره إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾(٦) وقال : ﴿ **ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم** ﴾(٧) وقال : ﴿ **يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون** ﴾(٨) وقال : ﴿ **يا قوم انى لكم نذير مبين .. أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون . قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا . فلم يزدهم دعائى إلا فرارا . وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا . ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا . فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا . مالكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم أطوارا** ﴾(٩) الآيات الكريمات .

استعلاء الكفار

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة فى الليل والنهار والسر والإجهار ، بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، وكل هذا لم ينجح فيهم بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام والأوثان ، ونصبوا له العداوة فى كل وقت وأوان ، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوهم بالرجم والإخراج ، ونالوا منهم وبالغوا منهم وبالغوا فى أمرهم (قال الملأ من قومه ، أى الساده الكبراء منهم ، أنا لنراك فى ضلال مبين قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين) أى : لست كما تزعمون من أنى ضال ، بل على الهدى المستقيم ،

---

(١) سورة الصافات الآية : ٧٧
(٢) سورة الحديد الآية : ٢٦
(٣) سورة النحل الآية : ٣٦
(٤) سورة الزخرف الآية : ٤٥
(٥) سورة الانبياء الآية : ٢٥
(٦) سورة الأعراف الآية : ٥٩
(٧) سورة هود الآية : ٢٦
(٨) سورة المؤمنون الآية : ٢٣
(٩) سورة نوح الآيات : ٢ ـ ١٤

رسول من رب العالمين ، أى : الذى يقول للشيء كن فيكون (أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون) وهذا شأن الرسول أن يكون بلبغاً أى : فصيحا ناصحا أعلم الناس بالله — عز وجل — وقالوا له فما قالوا : ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، تعجبوا أن يكون بشرا رسولا وتنقصوا بمن اتبعه ورأوهم أراذلهم .

وقد قيل : إنهم كانوا من أقتاد الناس وهم ضعفاؤهم ، كما قال هرقل : وهم أتباع الرسل . وماذاك إلا لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق . وقولهم : (بادى الرأى) أى : بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر ولا روية ، وهذا الذى رموهم به هو عين ما يمدحون بسببه رضى الله عنهم — فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية ولا فكر ولا نظر ، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر . ولهذا قال الله — ﷺ — مادحا للصديق : (ما دعوت أحدا إلى الاسلام إلا كانت له كبوة غير أبى بكر ، فإنه لم يتلعثم)[1] ولهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضا سريعة من غير نظر ولا روية ، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة — رضى الله عنهم — ولهذا قال رسول الله — ﷺ — لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته فتركه ، وقال : يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر) رضى الله عنه .

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به : (وما نرى لكم علينا من فضل) أى : لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا (بل نظنكم كاذبين) .

نوح يتابع دعوته برفق ولين .

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ﴾ .

وهذا تلطف فى الخطاب معهم ، وترفق بهم فى الدعوى إلى الحق ، كما قال تعالى : **﴿ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾**[2] وقال تعالى : **﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾**[3] . وهذا منه يقول لهم : **﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وأتانى رحمة من عنده ﴾** أى : النبوة والرسالة (فعميت عليكم) أى : فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها (أنلزمكموها) أى : أنغصبكم بها ونجبركم عليها (وأنتم لها كارهون) أى لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم وأخراكم ، وأن أطلب ذلك إلا من الله الذى ثوابه خير لى وأبقى مما تعطوننى أنتم .

وقوله : **﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقوا ربهم ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ : كانوا طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه ، ووعده أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك ، فأبى عليهم وقال : (إنهم ملاقوا ربهم)**

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٥٠

(٢) الآية : ٤٤ من سورة طه .

(٣) من الآية : ١٢٥ من سورة النحل .

أى : فأخاف إن طردتهم أن يشكونى إلى الله ـ عز وجل ـ ولهذا قال : ﴿ وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ﴾ ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله ـ ﷺ ـ أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار وصهيب وبلال وخباب وأشباههم نهاه الله عن ذلك كما بيناه فى سورتى الأنعام والكهف ﴿ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك ﴾ أى : بل أنا عبد ورسول ، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمنى به ، ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه ، ولا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله .

(ولا أقول للذين تزدرى أعينكم) يعنى من أتباعه ﴿ لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذا لمن الظالمين ﴾ أى : لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة ، الله أعلم بهم وسيجازيهم على ما فى نفوسهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، كما قالوا فى المواضع الأخرى : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمى بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربى لو تشعرون . وما أنا بطارد المؤمنين . إن أنا إلا نذير مبين ﴾(١) .

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى : ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾(٢) . أى : ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم وكانوا كلما انقرض جيل وصلوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه به ومحاربته ومخالفته ، وكان الوالد إذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبين أن لا يؤمن بنوح أبداً ما عاش ، ودائماً ما بقى ، وكانت سجاياهم تأتى الإيمان وأتباع الحق ، ولهذا قال : ﴿ ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾(٣)

العنـاد القاتـل :

ولهذا قالوا : ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾أى: إنما يقدر على ذلك الله ـ عز وجل ـ فإنه الذى لا يعجزه شىء ، إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون : أى من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته ، هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد ، وهو العزيز الحكيم بمن يستحق الهداية ومن يستحق الغواية ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة .

الشكوى إلى الله :

(وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) تسلية له عما كان منهم إليه (فلا تبتئس بما كانوا يفعلون) .

---

(١) الآيات : ١١١ – ١١٥ من سورة الشعراء .

(٢) من الآية : ١٤ من سورة العنكبوت .

(٣) من الآية : ٢٧ من سورة نوح .

وهذه تعزية لنوح ـ عليه السلام ـ فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن ، أى : لا يسوءك ما جرى ، فإن النصر قريب ، والنبأ عجيب . (واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون) وذلك أن نوحا ـ عليه السلام ـ لما يئس من صلاحهم وفلاحهم ، ورأى أنهم لا خير فيهم ، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق من فعال ومقال دعا عليهم دعوة غضب ، فلبى الله دعوته أوجاب طلبه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون . ونجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾[1] .

وقال تعالى : ﴿ **ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم** ﴾[2] وقال : ﴿ **قال رب إن قومى كذبون . فافتح بينى وبينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **قال رب انصرنى بما كذبون** ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾[6] فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم .

صنع السفينة :

ودعوة نبيهم عليهم ، فعند ذلك أمره الله تعالى ـ أن يصنع الفلك ، وهى السفينة العظيمة التى لم يكن لها نظير قبلها ، ولا يكون بعدها مثلها . وقدم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره وحل بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه ، فإن لعله قد تدركه رقة على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم ، فإنه ليس الخبر كالمعاينة ، ولهذا قال : ﴿ **ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه** ﴾ أى يستهزئون استبعادا لوقوع ما توعدهم به ﴿ **قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون** ﴾ أى : نحن الذين نسخر منكم ونتعجب منكم فى استمراركم على كفركم وعنادكم الذى يقتضى وقوع العذاب بكم وحلوله عليكم . (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ فى الدنيا ، وهكذا فى الآخرة . فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول .

أمة النبى محمد تشهد يوم القيامة بأن نوحا بلغ الرسالة :

كما قال البخارى : حدثنا عبد الواحد بن زياد ، حدثنا الأعمش عن أبى صالح ، عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : (يجىء نوح ، عليه السلام ـ وأمته فيقول الله ـ عز وجل ـ هل بلغت ؟

---

(١) الآيتان ٧٥ - ٧٦ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٧٦ من سورة الأنبياء .

(٣) الآيتان ١١٧ - ١٨ من سورة الشعراء .

(٤) الآية ١٠ من سورة القمر .

(٥) الآية ٢٦ من سورة المؤمنون .

(٦) الآيات ٢٥ - ٢٧ من سورة نوح .

فيقول : نعم أى رب . فيقول لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبى . فيقول لنوح : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فنشهد أنه قد بلغ)(١) وهو قوله : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾(٢) .

والوسط : العدل

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق أمته على أكمل الوجوه وأتمها ، ولم يدع شيئا مما ينفعهم فى دينهم إلا وقد أمرهم به ، ولا شيئا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه .

وهكذا شأن جميع الرسل ، حتى حذر قومه المسيح الدجال ، وإن كان لا يتوقع ، كما قال البخارى : حدثنا عبدان ، حدثنا عبد الله عن يونس ، عن الزهرى قال سالم :

وقال ابن عمر - رضى الله عنهما - قام رسول الله ﷺ فى الناس فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم ذكر الدجال فقال : (إنى لأنذركموه ، وما من نبى إلا وقد أنذره قومه : لقد أنذره نوح قومه ، ولكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه ، تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور)(٣)

وهذا الحديث فى الصحيحين أيضا من حديث نيبان عن عبد الرحمن ، عن يحى ابن أبى كثير ، عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبى هريرة - رضى الله عنه قال : (ألا أحدثكم عن الدجال حديثا ما حدث به نبى قومه ؟ إنه أعور ، وأنه يجىء معه بمثال الجنة والنار ، والتى يقول عليها الجنة هى النار ، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه) لفظ البخارى(٤) .

وصف السفينة :

وقد قال بعض علماء السلف : لما استجاب الله له أمره أن يغرس شجرا ليعمل منه السفينة ، فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره فى مائة أخرى ، وقيل : فى أربعين سنة . والله أعلم . وقيل : من الصنوبر . وهى نص التوراة . قال النووى : وأمره أن يجعل طولها ثمانين ذراعا ، وعرضها خمسين ذراعا ، وأن يطلى ظاهرها وباطنها بالقار ، وأن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء . وقال قتادة : كان طولها ستمائة ذراع . وقيل: كانت طولها ألفى ذراع وعرضها مائة ذراع . قالوا كلهم : وكان ارتفاعها ثلاثين ذراعا ، وكانت ثلاث طبقات ، وكل واحدة عشرة أذرع ، وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها . قال الله تعالى : ﴿ **قال رب انصرنى بما كذبون ، فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا** ﴾(٣) . أى : بأمرنا لك

---

(١) رواه البخارى فى صحيحة بشرح الشيخ زروق فى (كتاب أحاديث الأنبياء) باب : نوح - عليه السلام - ج ٦ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ رقم ١٤ .

(٢) من الآية ١٤٣ من سورة البقرة .

(٣) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب أحاديث الأنبياء) : نوح - عليه السلام - ج ٦ ص ٣٣٨ رقم ١٢

(٤) انظر فى صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق فى (كتاب أحاديث الأنبياء) ج ٦ ص ٣٣٨ رقم ١٣ .

والحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الفتن وأشراط الساعة) باب ذكر الرجال وصفته وما معه ص ٨٢٠ رقم ١٨٥٧ .

(٥) الآيتان : ٢٦ - ٢٧ من سورة المؤمنون .

وبمرأى منا لصنعتك لها ، ومشاهدتنا لذلك ، لنرشدك إلى الصواب فى صنعتك ﴿ **فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾[1] . فتقدم إليه بأمره العظيم العالى أنه إذا جاء أمره وحل بأسه أن يحمل فى هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها ، وأن يحمل معه أهله ، أى : أهل بيته إلا من سبق عليه القول منهم ، أى : إلا من كان كافرا فإنه قد نفذت فيه الدعوة التى لا ترد ، ووجب عليه حلول البأس الذى لا يرد ، وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم الذى قد حتمه عليهم الفعال لما يريد ، كما قدمنا بيانه قبل .

والمراد بالتنور عند الجمهور وجه الأرض ، أى : نبعث الأرض من سائر أرجائها حتى نبعث التنانير التى هى محال النار . وعن ابن عباس : التنور : عين فى الهند . وعن الشعبى : بالكوفه ، وعن قتادة : بالجزيرة ، وقال على بن أبى طالب : المراد بالتنور : فلق الصبح وتنوير الفجر ، أى : إشراقه وصفاؤه ، أى : عند ذلك فاحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وهذا قول غريب . وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل** ﴾ . هذا أمر عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، وفى كتاب أهل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يأكل سبعة أزواج ومما لا يأكل زوجين ذكر وأنثى . وهذا مغاير لمفهوم قوله تعالى : فى كتابنا الحق : ﴿ **اثنين** ﴾ إذ جعلنا ذلك مفعولا به ، وأما إن جعلناه توكيدا لزوجين ، والمفعول به محذوف ، فلا ينافى . والله أعلم .

وذكر بعضهم – ويروى عن ابن عباس – أن أول ما دخل من الطيور (الدرة) وآخر ما دخل من الحيوانات (الحمار) ودخل إبليس متعلقا بذنب الحمار . وقال ان أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عبد الله بن صالح ، حدثنى الليث ، حدثنى هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : (لما حمل نوح من كل زوجين اثنين قال أصحابه : وكيف تطمئن المواشى ومعنا الأسد ؟ فسلط الله عليه الحمى فكانت أول حمى نزلت فى الأرض ، ثم شكوا الفأرة فقالوا : الفويسقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد فعطس ، فخرجت الهرة منه فتخبأت الفأرة منها) . هذا مرسل .

وقوله : ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القول** ﴾ أى : استجيبت فيه الدعوة النافذة ممن كفر . فكان منهم ابنه (يام) الذى غرق كما سيأتى بيانه ﴿ **ومن آمن** ﴾ أى : واحمل فيها من آمن بك من أمتك . قال الله تعالى : ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾ هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ودعوتهم الأكيدة ليلا ونهارا ، بضروب المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة ، والترغيب والوعد أخرى . قد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السفينة ، فعن ابن عباس : كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفسا ، وقيل : كانوا عشرة ، وقيل : إنما كانوا نوحا وبنيه الثلاثة وكنائنه الأربع

---

(٤) من الآية : ٢٧ من سورة المؤمنون .

بامرأة (يام) الذى انخذل وانعزل ، وسلك عن طريق النجاه ، فما عدل إذ عدل .

وهذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية بل هى نص فى أنه قد ركب معه (من) غير أهله طائفة ممن آمن به ، كما قال : ﴿ ونجنى ومن معى من المؤمنين ﴾(١) . وقيل : كانوا سبعة ، وأما امرأة نوح وهى أم أولاده كلهم ، وهم حام وسام ويافث ويام ، ويسميه أهل الكتاب (كنعان) وهو الذى قد غرق ، وعابر فقد ماتت قبل الطوفان وقيل : إنها غرقت مع من غرق ، وكانت ممن سبق عليها القول لكفرها .

وعند أهل الكتاب أنها كانت فى السفينة ، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك ، أو أنها أنظرت ليوم القيامة ، والظاهر الأول لقوله تعالى : ﴿ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾(٢) .

قال الله تعالى :

« نجاة نوح والمؤمنين »

﴿ فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب انزلنى منزلاً مباركا وأنت خير المنزلين ﴾(٣) . أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة فنجاه بها ، وفتح بينه وبين قومه ، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه كما قال تعالى : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾(٤) . وهكذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور : أن يكون على الخير والبركة ، وأن تكون عاقبتها محمودة ، كما قال تعالى لرسوله — ﷺ — حين هاجر : ﴿ وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا ﴾(٥) . وقد امتثل نوح — عليه السلام — هذه الوصية وقال : ﴿ اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم ﴾ أى على اسم الله ، وذو عقاب أليم مع كونه غفورا رحيما لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره . قال الله تعالى : ﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ﴾ وذلك أن الله تعالى — أرسل من السماء مطرا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده ، كان كأفواه القرب ، كما قال تعالى : ﴿ فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾(٦) . والدسر : المسامير . ﴿ تجرى بأعيننا ﴾ أى : بحفظنا وكلاءتنا ، وحراستنا ومشاهدتنا لها ﴿ جزاء لمن كان

---

(١) من الآية : ١١٨ من سورة الشعراء .

(٢) من الآية : ٢٦ من سورة نوح

(٣) الآيتان : ٢٨ — ٢٩ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات : ١٢ — ١٤ من سورة الزخرف .

(٥) الآية : ٨٠ من سورة الاسراء .

(٦) الآيات : ١٠ — ١٣ من سورة القمر .

كفر ﴾ وقال ابن جرير وغيره: أن الطوفان كان فى ثالث عشر من شهر آب فى حساب القبط. وقال تعالى: ﴿ **إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية** ﴾[١]. أى السفينة ﴿ **لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعيه** ﴾[٢] قال جماعة من المفسرين: ارتفع الماء على أعلى جبل فى الأرض خمسة عشر ذراعا، وعم جميع الأرض طولها والعرض، سهلها وحرتها وجبالها وقفارها ورمالها، ولم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف ولا صغير ولا كبير.

قال الامام مالك عن زيد بن أسلم: كان أهل ذلك الزمان قد ملأوا السهل والجبل. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لم تكن بقعة فى الأرض إلا ولها مالك وحائز. رواهما ابن أبى حاتم. ﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين** ﴾.

وهذا الابن هو (يام) أخو (سام وحام ويافث) وقيل: اسمه كنعان، وكان كافرا عمل عملا غير صالح مخالف أباه فى دينه ومذهبه فهلك مع من هلك، هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب لما كانوا موافقين فى الدين والمذهب. ﴿ **وقيل يا أرض أبلعى ماءك ويا سماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ أى: لما فرغ من أهل الأرض ولم يبق منها أحد ممن عبد غير الله — عز وجل — أمر الله الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع، أى: تمسك عن المطر. ﴿ **وغيض الماء** ﴾ أى: نقص عما كان ﴿ **وقضى الامر** ﴾ أى: وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه وقدره من إحلاله بهم ما حل بهم. ﴿ **وقيل بعدا للقوم الظالمين** ﴾ أى: نودى عليهم بلسان القدوة: بعدا لهم من الرحمة والمغفرة، كما قال تعالى: ﴿ **فكذبوه فأنجيناه والذين معه فى الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين** ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ **فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿ **ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين** ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿ **فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون. ثم أغرقنا بعد الباقين. إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[٦]. وقال تعالى: ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين** ﴾[٧]. وقال تعالى: ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾[٨] وقال: ﴿ **ولقد تركناها آية فهل من مدكر. فكيف كان عذابى ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾[٩] ﴿ **فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله**

(١) سورة الحاقة الآية: ١١

(٢) سورة الحاقة الآية: ١٢

(٣) سورة الأعراف الآية: ٦٤

(٤) سورة يونس الآية: ٧٣

(٥) سورة الأنبياء الآية: ٧٧

(٦) سورة الشعراء الآية: ١١٩ — ١٢٢

(٧) سورة العنكبوت الآية: ١٥

(٨) سورة الشعراء الآية: ٦٦

(٩) سورة القمر الآيات: ١٥ — ١٧

أنصارا . وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾[١] .

وقد استجاب الله ـــ تعالى وله الحمد والمنة ـــ دعوته فلم يبق منهم عين تطرف .

وقد روى الامامان أبو جعفر بن جرير ، وأبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيرهما من طريق يعقوب بن محمد الزهرى ، عن قائد ـ مولى عبد الله بن أبى رافع ـ أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته أن رسول الله ﷺ ، قال : (أفلو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبى) قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ (مكث نوح ـــ عليه السلام ـــ فى قومه ألف سنة (يعنى إلا خمسين عاما) وغرس مائة سنة الشجر ، فعظمت وذهبت كل مذهب ، ثم جعلها سفينة ، ويمرون عليها ويسخرون منه ويقولون : تعمل سفينة فى البر ؟ كيف تجرى ؟ قال : سوف تعلمون . فلما فرغ ونبع الماء وصار فى الشكك خشيت أم الصبى عليه ، وكانت تحبه حبا شديدا ، خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه ، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل ، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها فغرقا ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم أم الصبى ، وهذا حديث غريب . وقد روى عن كعب الأحبار ومجاهد وغير واحد شبيه لهذه القصة . وأحرى بهذا الحديث أن يكون موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار . والله أعلم .

والمقصود أن الله لم يبق من الكافرين ديارا ، فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج بن عنق ، وقال : ابن عناق ، كان موجودا من قبل نوح إلى زمان موسى ، ويقولون : كان كافرا متمردا جبارا عنيدا ، ويقولون : كان لغير رشدة بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنى ، وأنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار ويشويه فى عين الشمس ، وأنه كان يقول لنوح وهو فى السفينة : ما هذه القصيعة التى لك ؟! ويستهزىء به . ويذكرون أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاث مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا ، إلى غير ذلك من الهذيات التى لولا أنها مسطرة فى كثير من كتب التفاسير وغيرها من التواريخ وأيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها وركاكتها ، ثم إنها مخالفة للمعقول والمنقول .

أما المعقول : فكيف يسوغ فيه أن يهلك الله ولد نوح لكفره ، وأبوه نبى الأمة وزعيم أهل الايمان ، ولا يهلك عوج بن عنق ويقال عناق ، وهو أظلم وأطغى على ما ذكروا ؟! وكيف لا يرحم الله منهم أحدا ولا أم الصبى ولا الصبى ويترك هذا الدعى الجبار الفاخر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا ؟! .

وأما المنقول فقد قال الله تعالى : ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ . وقال : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾ . ثم هذا الطول الذى ذكروه مخالف لما فى الصحيح عن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : (إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن)[٢] .

---

(١) الآيات : ٢٥ — ٢٧ من سورة نوح .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب : يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير ص ٧٩٧ ، ٧٩٨ رقم ١٨٠٧ . وانظر صحيح البخارى بشرح الشيخ / زروق (كتاب أحاديث الأنبياء) آدم عليه السلام ح ص ٣٣١ ، ٣٣٢ .

فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن ، أى : لم يزل الناس فى نقصان فى طولهم من آدم إلى يوم إخباره بذلك ، وهلم جرا إلى يوم القيامة .

وهذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه ، فكيف يترك هذا ويذهل عنه ويصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب الله المنزله وحرفوها وأولوها ووضعوها على غير مواضعها ؟ فما ظنك بما هم يستقلون بنقله أو يؤتمنون عليه ؟ وما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقا من بعض زنادقتهم وفجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء ، والله أعلم .

مناشدة نوح ربه :

ثم ذكر الله تعالى ــ مناشدة نوح ربه فى ولده وسؤاله له عن غرقه على وجه الاستعلام والاستكشاف ، ووجه السؤال أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى وهو منهم ، وقد غرق ، فأجيب بأنه ليس من أهلك ، أى : الذين وعدت بنجاتهم ، أى : أما قلنا لك : ﴿ **وأهلك إلا من سبق عليه القوم منهم** ﴾ فكان هذا ممن سبق عليه القوم منهم بأن سيغرق بكفره ، ولهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الايمان فغرق مع حزبه أهل الكفر والطغيان .

استقرار السفينة :

ثم قال الله : ﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾. هذا أمر لنوح ــ عليه السلام ــ لما نضب الماء على وجه الأرض وأمكن السعى فيها والاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التى كانت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى . وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور وقد قدمنا ذكره عند خلق الجبال ﴿ **بسلام منا وبركات** ﴾ . **أى : اهبط سالما مباركا عليك وعلى أمم ممن سيولد بعد ، أى : من أولادك ، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا ولا عقبا سوى نوح ــ عليه السلام ــ قال تعالى :** ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم (سام وحام ويافث) .

قال الامام أحمد : حدثنا عبد الوهاب عن سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : (سام أبو العرب ، وحام أبو الحبشى ويافث أبو الروم) .

ورواه الترمذى عن بشر بن معاذ العقدى عن يزيد بن زريع عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة مرفوعا نحوه[1] .

وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر : وقد روى عن عمران بن حصين عن النبى ﷺ مثله . قال : والمراد

---

(١) انظر مسند الامام أحمد (حديث سمرة بن جندب) ح ٥ ص ٩ ، ص ١١ .

بالروم هنا الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومى بن لبطى بن يونان بن يافث بن نوح ـ عليه السلام ـ ثم روى من حديث إسماعيل بن عباس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه قال : (ولد نوح ثلاثة : سام ويافث وحام ، وولد كل واحد من هذه الثلاثة ثلاثة ، فولد سام العرب ، وفارس والروم . وولد يافث الترك والسقالبة ، وبأجوج ومأجوج ، وولد حام القبط والسودان والبربر) قلت : وقد قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا إبراهيم بن هانىء وأحمد بن حسين بن عباد أبو العباس قالا : حدثنا محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى ، حدثنى أبى ، عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ : (ولد نوح سام وحام ويافث ، فولد لسام العرب وفارس والروم والخير فيهم . وولد ليافث بأجوج ومأجوج والترك والسقالبة ولا خير فيهم . وولد لحام القبط والبربر والسودان) ثم قال لا نعلم يروى مرفوعا إلا من هذا الوجه . تفرد به محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه وقد حدث عنه جماعة من أهل العلم واحتملوا حديثه . ورواه غيره عن يحيى بن سعيد مرسلا ولم يسنده وإنما جعله من قول سعيد . قلت : وهذا الذى ذكره أبو عمر هو المحفوظ عن سعيد قوله . وهكذا روى عن وهب بن عقبة مثله . والله أعلم . ويزيد بن سنان أبو فروة الرهاوى ضعيف بمرة لا يعتمد عليه[1] . وقد قيل : إن نوحا ـ عليه السلام ـ لم يولد له هؤلاء الثلاثة الأولاد إلا بعد الطوفان ، وإنما ولد له قبل السفينة (كنعان) الذى غرق ، و(عابر) مات قبل الطوفان .

والصحيح أن الأولاد الثلاثة كانوا معه فى السفينة هم ونساؤهم وأمهم وهو نص التوراة . وقد ذكر أن حاما واقع امرأته فى السفينة فدعا عليه نوح أن تشوه خلقة نطفته ، فولد له ولد أسود ، هو كنعان بن حام جد السودان . وقيل : بل رأى أباه نائما وقد بدت عورته فلم يسترها ، سترها أخواه ، فلهذا دعا عليه أن تغير نطفته وأن يكون أولاده عبيدا لاخوته .

وذكر الامام أبو جعفر بن جرير من طريق على بن زيد بن جدعان ، عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال : (قال الحواريون لعيسى بن مريم لو بعثت لنا رجلا شهد السفينة فحدثنا عنها . قال : فانطلق بهم حتى أتى إلى كثيب من تراب فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه ، قال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : هذا كعب حام بن نوح . قال : وضرب الكثيب بعصاه وقال : قم بأذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب من رأسه قد شاب ، فقال له عيسى ـ عليه السلام ـ هكذا هلكت ؟ قال : لا ، ولكن مت وأنا شاب ، ولكنى ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت . قال : حدثنا عن سفينة نوح . قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحش ، وطبقة فيها الانس ، وطبقة فيها الطير . فلما كثر أرواث الدواب أوصى الله ـ عز وجل ـ إلى نوح ـ عليه السلام ـ أن اغمز ذنب الفيل ، فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ، ولما وقع

(١) انظر الزوائد (كتاب العلم) بابه : فى علم النسب ح ١ ص ١٩٣ وقال الهيثمى : رواه البزاز ، وفيه محمد بن يزيد بن سنان الرهاوى ، عن أبيه ، فمن وثقه ابن حبان . وقال أبو حاتم : صدوق . وضعفه يحيى بن معين والبخارى . ويزيد بنسنان : وثقه أبو حاتم ، وقال : محله الصدق . وقال البخارى : مقارب الحديث . وضعفه يحيى وجماعة .

الفأر يخزر السفينة بقرضه أوحى الله ـ عز وجل ـ إلى نوح ـ عليه السلام ـ أن اضرب بين عينى الأسد فخرج من منخره سنور وسنورة ، فأقبلا على الفأر . فقال له عيسى : كيف علم نوح ـ عليه السلام ـ أن البلاد قد غرقت ؟ قال : بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت . قال : ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجلها ، فعلم أن البلاد قد غرقت ، فطوقها الخضرة التي فى عنقها ودعا لها أن تكون فى أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت . قال : يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال : كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال : فقال له : عد بإذن الله فعاد ترابا) وهذا أثر غريب جدا .

وروى غلباء بن أحمر عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مع نوح فى السفينة ثمانون رجلا معهم أهلوهم ، وإنهم كانوا فى السفينة مائة وخمسين يوما ، وإن الله وجه السفينة إلى مكة فدارت بالبيت أربعين يوما ثم وجهها إلى الجودى فاستقرت عليه ، فبعث نوح ـ عليه السلام ـ الغراب ليأتيه بخبر الأرض فذهب فوقع على الجيف فأبطأ عليه ، فبعث الحمامة فأتته بورق الزيتون ولطخن رجليها بالطين ، فعرف نوح أن الماء قد نضب ، فهبط إلى أسفل الجودى فابتنى قرية وسماها ثمانين ، فأصبحوا ذات يوم وقد تبلبلت ألسنتهم على ثمانين لغة إحداها العربية ، وكان بعضهم لا يفقه كلام بعض ، فكان نوح ـ عليه السلام ـ يعبر عنهم .

وقال قتادة وغيره : ركبوا فى السفينة فى اليوم العاشر من شهر رجب فساروا مائة وخمسين يوما واستقرت بهم على الجودى شهرا ، وكان خروجهم من السفينة يوم عاشوراء من المحرم .

وقد روى ابن جرير خبرا مرفوعا يوافق هذا وأنهم صاموا يومهم ذلك .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو جعفر ، حدثنا عبد الصمد بن حبيب الأزدى عن أبيه حبيب بن عبد الله ، عن شبل ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : (مر النبى ـ ﷺ ـ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال : ما هذا الصوم ؟ فقالوا : هذا اليوم الذى نجا الله فيه موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون ، وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى ، فصام نوح وموسى ـ عليهما السلام ـ شكرا لله ـ عز وجل ـ فقال النبى ـ ﷺ ـ (أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم ، وقال لأصحابه : من كان منكم أصبح صائما فليتم صومه ، ومن كان منكم قد أصاب من غد أهله فليتم بقية يومه)[(١)] .

وهذا الحديث له شاهد فى الصحيح من وجه آخر ، والمستغرب ذكر نوح أيضا . والله أعلم .

وأما ما يذكره كثير من الجهلة أنهم أكلوا من فضول أزوادهم ومن حبوب كانت معهم قد استصحبوها وطحنوا الحبوب يومئذ ، وأكتحلوا بالاثمد لتقوية أبصارهم لما انهارت من الضياء بعد ما كانوا فى ظلمة السفينة فكل هذا لا يصح فيه شىء وانما يذكر فيه آثار منقطعة عن بن إسرائيل لا يعتمد عليها ولا يقتدى بها . والله أعلم .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد (مسند أبى هريرة ـ رضى الله عنه) ح ٢ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠

وقال محمد بن إسحاق : لما أراد الله أن يكف الطوفان أرسل ريحا على وجه الأرض فسكن الماء وانسدت ينابيع الأرض ، فجعل الماء ينقض ويدبر ، وكان استواء الفلك فيما يزعم أهل التوراة فى الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه ، وفى أول يوم من الشهر العاشر رؤيت رؤوس الجبال ، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوما فتح نوح كوة الفلك التى صنع فيها ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء ، فلم يرجع إليه ، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعا ، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها ، ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء . فلم ترجع ، فرجعت حين أمست وفى فيها ورق زيتونة ، فعلم نوح أن الماء قد قل عن وجه الأرض ، ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه ، فعلم نوح أن الأرض قد برزت ، فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض ، وظهر البر ، وكشف نوح غطاء الفلك .

وهذا الذى ذكره ابن إسحاق هو بعينه مضمون سياق التوراة التى بايدى أهل الكتاب .

وقال ابن إسحاق : وفى الشهر الثانى من سنة اثنين فى ست وعشرين ليلة منه (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) وفيما ذكر أهل الكتاب أن الله كلم نوحا قائلا له : اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك وجميع الدواب التى معك ولينموا وليكثروا فى الأرض ، فخرجوا وابتنى نوح مذبحا لله ـ عز وجل ـ وأخذ من جميع الدواب الحلال والطير الحلال فذبحها قربانا إلى الله ـ عز وجل ـ وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض ، وجعل تذكارا لميثاقه إليه القوس الذى فى الغمام وهو قوس قزح الذى قدمنا عن ابن عباس أنه أمان من الغرق ، قال بعضهم : فيه إشارة إلى أنه قوس بلا وتر ، أى : أن هذا الغمام لا يوجد منه طوفان كأول مرة . وقد أنكرت طائفة من جهلة الفرس وأهل الهند وقوع الطوفان ، واعترف به آخرون منهم وقالوا : إنما كان بأرض بابل ولم يصل إلينا . قالوا : ولم نزل نتوارث الملك كابرا عن كابر من لدن كيومرث ـ يعنون ـ آدم إلى زماننا هذا . وهذا قاله من قاله من زنادقة المجوس عباد النيران وأتباع الشيطان . وهذه سفسطة منهم وكفر فظيع وجهل بليغ ومكابرة للمحسوسات وتكذيب لرب الأرض والسموات .

وقد أجمع أهل الأديان الناقلون عن رسل الرحمن ما تواتر عند الناس فى سائر الأزمان على وقوع الطوفان ، وأنه عم جميع البلاد ولم يبق الله أحدا من كفرة العباد استجابة لدعوة نبيه المؤيد المعصوم وتنفيذا لما سبق فى القدر المحتوم .

ذكر شىء من أخبار نوح نفسه عليه السلام :

قال الله تعالى : ﴿ **إنه كان عبدا شكورا** ﴾[1] . قيل : إنه كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله .

---

(١) من الآية ٣ من سورة الاسراء .

وقال الامام أحمد : حدثنا أسامة ، حدثنا زكريا بن أبى زائدة ، عن سعيد بن أبى بردة ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها)(١) . وكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى من حديث أبى أسامة .

والظاهر أن الشكور هو الذى يعمل بجميع الطاعات القلبية والقولية والعملية ، فإن الشكر يكون بهذا وبهذا كما قال الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا .

« ذكر صومه عليه السلام »

وقال ابن ماجه (باب صيام نوح عليه السلام) : حدثنا سهل بن أبى سهل ، حدثنا سعيد بن أبى مريم ، عن ابن لهيعة ، عن جعفر بن ربيعة عن أبى فراس ، أنه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (صام نوح الدهر إلا يوم عيد الفطر ويوم عيد الأضحى)(٢) .

وهكذا رواه ابن ماجه عن طريق عبد الله بن لهيعة بإسناده ولفظه .

وقد قال الطبرانى : حدثنا أبو الزنباع روح بن فرج ، حدثنا عمر بن خالد الحرانى ، حدثنا ابن لهيعة عن أبى قتادة ، عن يزيد بن رباح أبى فراس انه سمع عبد الله بن عمرو يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (صام نوح الدهر إلا يوم الفطر والأضحى) وصام داود نصف الدهر ، وصام إبراهيم ثلاثة أيام من كل شهر ، صام الدهر وأفطر الدهر)(٣) .

« ذكر حجه عليه السلام »

وقال الحافظ أبو يعلى : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا أبى عند زمعة (هو ابن أبى صالح) عن سلمة بم دهران ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : حج رسول الله ـ ﷺ ـ فلما أتى وادى عسفان قال : (يا أبا بكر أى واد هذا ؟ قال : هذا وادى عسفان . قال : لقد مر بهذا نوح وهود وإبراهيم على بكرات لهم حمر خطهم الليف ، أزرهم العباء وأرديتهم النمار ، يحجون البيت العتيق)(٤) . فيه غرابة .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد (مسند أنس بن مالك) ح ٣ ص ١٠٠ – ١١٧ط .

(٢) انظره فى سنن ابن ماجه فى (كتاب الصيام) باب : ما جاء فى صيام نوح عليه السلام ـ جـ ١ص ٥٤٧ رقم ١٧١٤ .

فى الزوائد : فى إسناده ابن الهيعة ، وهو ضعيف .

(٣) روى مسند هذا الحديث ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الصيام) باب ما جاء فى صيام نوح ـ عليه السلام ـ جـ ١ ص ٥٤٧ رقم ١٧١٤ إلى قوله : « إلا يوم الفطر ويوم الأضحى » .

ورواه ابن عساكر فى تاريخ دمشق فى (ما ذكر من إبراهيم ـ عليه السلام) جـ ٢ ص ١٥٥ بتمامه .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد (مسند ابن عباس ـ رضى الله عنهما) جـ ١ ص ٢٣٢ .

وانظر مجمع الزوائد جـ ٣ ص ٢٢٠ .

« ذكر وصيته لولده عليه السلام »

٣١١ م ٨١ قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن حرب ، حدثنا حما بن زيد ، عن الصقعب بن زهير ، عن زيد بن أسلم ، قال حماد : أظنه عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو قال : كنا عند رسول الله — ﷺ — فجاء رجل من أهل البادية عليه جبة سيحان مزرورة بالديباج فقال : ألا إن صاحبكم هذا قد وضع كل فارس ابن فارس — أو قال : يريد أن يضع كل فارس ابن فارس — ورفع كل راع ابن راع) قال : فأخذ رسول الله — ﷺ — بمجامع جبته ، وقال : (ألا أرى عليك لباس من لا يعقل !) ثم قال : (إن نبى الله نوحا — عليه السلام — لما حضرته الوفاة قال لابنه : إنى قاص عليك وصية : آمرك باثنين وأنهاك عن اثنين : آمرك بلا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت فى كفة ووضعت لا إله إلا الله فى كفة رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة ضمتهن لا إله إلا الله . وبسبحان الله وبحمده ، فإن بها صلات كل شىء ، وبها يرزق الخلق . وأنهاك عن الشرك والكبر) قال : قلت — أو قيل : يا رسول الله هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر ؟ أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟ قال : (لا) قال : هو أن يكون لأحدنا حلة يلبسها ؟ قال : (لأن قال : هو أن يكون لأحدنا دابة يركبها ؟ قال : (لا قال : هو أن يكون لأحدنا أصحاب يجلسون إليه ؟ قال : (لا قلت — أو قيل : يا رسول الله فما الكبر ؟ قال : (سفه الحق وغمط الناس)[1] . وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه .

ورواه أبو القاسم الطبرانى من حديث عبد الرحيم بن سليمان ، عن محمد ابن اسحق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمرو ، أن رسول الله — ﷺ — قال : (كان فى وصية نوح لابنه : أوصيك بخصلتين وأنهاك عن خصلتين) فذكر نحوه .

وقد رواه أبو بكر البزار عن ابراهيم بن سعيد ، عن أبى معاوية الضرير ، عن محمد ابن إسحق ، عن عمرو بن دينار ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن النبى — ﷺ — بنحوه . والظاهر أنه عن عبد الله بن عمرو ابن العاص ، كما رواه أحمد والطبرانى . والله أعلم .

ويزعم أهل الكتاب أن نوحا — عليه السلام — لما ركب السفينة كان عمره ستمائة سنة . وقدمنا عن ابن عباس مثله ، وزاد : وعاش بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين سنة ، وفى هذا القول نظر ، ثم إن لم يمكن الجمع بينه وبين دلالة القرآن فهو خطأ محض ؟ فإن القرآن يقتضى أن نوحا مكث وهم ظالمون . ثم الله أعلم كم عاش بعد ذلك ؟

فإن كان ما ذكر محفوظا عن ابن عباس — من أنه بعث وله أربعمائة وثمانون سنة ، وأنه عاش بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة — فيكون قد عاش على هذا ألف سنة وسبعمائة وثمانين سنة .

---

(١) رواه احمد فى مسنده (عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما) ج ٢ ص ١٧٠ .

وأما قبره ـ عليه السلام ـ فروى ابن جرير والأزرقى عن الرحمن ابن سابط أو غيره من التابعين مرسلا ، ان قبر نوح ـ عليه السلام ـ بالمسجد الحرام .

وهذا أقوى وأثبت من الذى يذكره كثير من المتأخرين من أنه ببلده بالبقاع تعرف اليوم بكرك نوح ، وهناك جامع قد بنى بسبب ذلك فيما ذكر ، والله أعلم .

قصة إبراهيم خليل الرحمن

* وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا
تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً
فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾
قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا
فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ
رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ
ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ
مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟
ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾
كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ

ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **من شيعته** ﴾ أى : ممن سار على دينه ومنهاجه . ﴿ **سليم** ﴾ أى : سالم من جميع العلل والآفات النفسية كالحسد والغل وغيرهما من النيات السيئة ، ﴿ **وإفك** ﴾ : الكذب . ﴿ **سقيم** ﴾ أى : مريض ﴿ **فراغ** ﴾ أى : فذهب إلى أصنامهم ، وأصل الروغ والروغان : الميل . ﴿ **باليمين** ﴾ أى : بيده اليمنى .

﴿ **يزفون** ﴾ أى : يسرعون ، من زف النعام ، أى : أسرع . ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى : فلما بلغ السن التى تساعده على أن يسعى معه فى أعماله وحاجات المعيشة . ﴿ **أسلما** ﴾ أى : استسلما وانقادا لأمر الله . ﴿ **تله** ﴾ أى : كبه على وجهه . ﴿ **صدقت الرؤيا** ﴾ أى : حققت ما طلب منك .

﴿ **البلاء المبين** ﴾ أى : الاختبار البين الذى يتميز به المخلص من غيره . ﴿ **بذبح** ﴾ أى : حيوان يذبح . ﴿ **باركنا عليه** ﴾ أى : أفضنا عليه البركات .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد ما ذكر ـ سبحانه ـ قصة نوح على سبيل إجمالى ، ذكر ـ سبحانه ـ قصة إبراهيم ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ أى : وإن ممن سار على نهج نوح وسار على طريقه فى اعتقاد التوحيد والبعث ، والتقلب فى دين الله ومصابرة الكاذبين ـ إبراهيم خليل الرحمن ـ صلوات الله عليه .

ولما أورد عليهم إبراهيم الحجج القوية التى لم يستطيعوا دفعها عدلوا عن الحجاج إلى الإيذاء واستعمال القوة ، وأوقدوا النيران وقذفوه فيها ، فجعلها الله عليه بردا وسلاما ، وأنجاه الله من النار ، وترك بلاد الكفر ، وهاجر من وطنه وطلب من الله الولد ﴿ **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين** ﴾ أى : رب هب لى أولادا مطيعين يعينونى على الدعوة ، ويؤنسوننى فى الغربة ، ويكونون عوضا من قومى وعشيرتى الذين فارقتهم ، فاستجاب ربه دعاءه ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ وبعد أن قال ـ سبحانه : ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ أتبعه بما يدل على حصول ما بشر به وبلوغه سن المراهقة بقوله : ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ إذ هو لا يقدر على الكد والعمل إلا بعد بلوغ هذه السن ، ثم أتبعه بقص الرؤيا عليه وإطاعته فى تنفيذ ما أمر به ، وصبره عليه ، ولما حان موعد التنفيذ كبه على وجهه للذبح ، فأوصى إليه ربه أنه فداه بذبح عظيم ، ثم بشره بإسحاق نبيا من الصالحين ، وبارك عليه وعلى إسحاق ، وأنه سيكون من ذريتهما من

هو محسن فاعل للخيرات ، ومنهم من هو ظالم لنفسه مجترح للسيئات .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس - رضى الله عنهما : ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ يقول : من أصل دينه ، وقال مجاهد : على منهاجه وسنته . فالرسل كلهم رسالتهم .

واحدة ، كما قال - سبحانه : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[1] وقال سبحانه : ﴿ **يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم** ﴾[2] .

ولقد صبروا وأوذوا فى سبيل الله ، كما قال - سبحانه : ﴿ **ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : يعنى شهادة أن لا إله إلا الله .

وروى ابن أبى حاتم مسنده عن عوف ، قلت لمحمد بن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور . وقال الحسن : سليم من الشرك .

قال ابن القيم : (اختلفت عبارات الناس فى بعض القلب السليم ، والأمر الجامع لذلك : أنه الذى قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبرة ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله . فسلم فى محبة الله مع تحكيمه لرسوله ، فى خوفه ورجائه والتوكيل عليه ، والانابة إليه ، والذى له ، وإيثار مرضاه فى كل حال ، والتباعد من سخطه بكل طريق . وهذا هو حقيقة العبودية التى لا تصلح إلا لله وحده .

فالقلب السليم : هو الذى سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما بل قد خلصت عبوديته لله تعالى : إرادة ومحبة ، وتوكلا ، وإنابة أحب فى الله ، وإن أبغض أبغض فى الله ، وإن أعطى أعطى لله ، وإن منع منع لله ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله - ﷺ - فيعتقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمان والاقتداء به وحده - دون كل أحد - فى الأموال والأعمال من أقوال القلب ،

---

(١) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٢) الآية : ٥١ من سورة المؤمنون .

(٣) الآية : ٣٤ من سورة الأنعام .

وهى العقائد ، وأقوال اللسان ، وهى الخبر عما فى القلب ، وأعمال القلب . وهى الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها ، وأعمال الجوارح ، فيكون الحاكم عليه فى ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ **﴿ يا أيها الذين أمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾**(١) أى : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر .

قال بعض السلف : ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ .فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس ، أوخوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب ـ سبحانه وتعالى ـ وانتقاء إليه ؟ .

ومحل هذا السؤال أنه : هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ؟ أم فعلته لحظك وهواك ؟

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى ذلك التعبد ، أى : هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولى ؟ أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه ؟ .

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى عن المتابعة ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لا يقبل عملا إلا بهما .

فطريق التخلص من السؤال الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثانى : بتحقيق المتابعة ، وسلامة القلب من إرادة تعارض الاخلاص ، وهوى يعارض الاتباع . فهذه حقيقة سلامة القلب الذى ضمنت له النجاة والسعادة **﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾**(٢) .

قوله تعالى : **﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾** .

قوله تعالى : ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ : أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ، ولهذا قال عز وجل : **﴿ إئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ قال قتادة : يعنى ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لا قيتموه وقد عبدتم معه غيره ؟!** .

قوله تعالى : ﴿ فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) .

قال ابن كثير : إنما قال إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقومه ذلك ليقيم فى البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأجب أن يختلى بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاما

(١) سورة الحجرات الآية : ١

(٢) سورة الشعراء الآيتان : ٨٨ – ٨٩

هو حق فى نفس الأمر فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدونه (فتولوا عنه مدبرين) قال قتادة : والعرب تقول لمن تفكر : نظر فى النجوم ، يعنى قتادة أنه نظر إلى السماء متفكرا فيما يليهم به فقال : (إنى سقيم) أى : ضعيف ، فأما الحديث الذى رواه ابن جرير ههنا : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو أسامة ، حدثنى هشام ، عن محمد ، عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ غير ثلاث كذبات : ثنتين فى ذات الله تعالى قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله : ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله فى سارة : هى اختى فهو حديث مخرج فى الصحاح والسنن من طرق ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقى الذى يذم فاعله ، حاشا وكلا ولما ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزا ، وإنما هو من المعاريض فى الكلام لمقصد شرعى دينى كما جاء فى الحديث (إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب)[1] وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا ابن أبى عمر ، حدثنا سفيان ، عن على بن زيد بن جدعان ، عن أبى نضرة ، عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ فى كلمات إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ الثلاث التى قال : (ما فيها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله تعالى ، (فقال إنى سقيم) وقال : (بل فعله كبيرهم هذا) وقال للملك حين أراد امرأته : هى أختى ، قال سفيان فى قوله : (إنى سقيم) يعنى : طعين ، وكانوا يفرون من المطعون ، فأراد أن يخلو بآلهتهم ، وكذا قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : (فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم) فقالوا له وهو فى بيت آلهتهم : اخرج ، فقال إنى مطعون ، فتركوه مخافة الطاعون .

وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : رأى نجما طلع فقال : (إنى سقيم) كابد نبى الله عن دينه (فقال إنى سقيم) وقال آخرون : (فقال إنى سقيم) أى : مريض القلب من عبادتكم الأوثان من دون الله وقال الحسن البصرى : خرج قوم إبراهيم إلى عيدهم فأرادوه على الخروج فاضطجع على ظهره وقال : (إنى سقيم) وجعل ينظر فى السماء ، فلما خرجوا أقبل إلى آلهتهم فكسرها . ولهذا قال تعالى : (فتولوا عنه مدبرين) أى : ذهب إليها بعد ما خرجوا فى سرعة واختفاء . (فقال ألا تأكلون) وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاما قربانا لتبرك لهم فيه .

قال السدى : دخل إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى بيت الآلهة ، فإذا هم فى بهو عظيم وإذا مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه ، بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو ، وإذا هم قد جعلوا طعاما ووضعوه بين أيدى الآلهة وقالوا : إذا كان حين نرجع وقد بركت الآلهة فى طعامنا أكلناه ، فلما نظر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى ما بين أيديهم من الطعام قال : (ألا تأكلون ـ مالكم لا تنطقون) .

وقوله تعالى : (فراغ عليهم ضربا باليمين) قال الفراء : معناه : مال عليهم ضربا باليمين لأنها أشد وأنكى ، ولهذا تركهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون كما تقدم فى سورة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى (كتاب الشهادات) باب : المعاريض فيها مفروض عن الكتاب ح ١٠ ص ١٩٩ عن عمران بن حصين ص ٤٢ بالأصل

تفسير ذلك . وقوله تعالى : ههنا : (فأقبلوا إليه يزفون) قال مجاهد وغير واحد : أى يسرعون . وهذه القصة ههنا مختصرة ، وفى سورة الأنبياء مبسوطة ، فإنهم لما رجعوا ما عرفوا من أول وهلة من فعل ذلك حتى كشفوا واستعلموا فعرفوا أن إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو الذى فعل ذلك ، فلما جاءوا ليعاتبوه أخذ فى تأنيبهم وعيبهم فقال : (أتعبدون ما تنحتون) أى : أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم (والله خلقكم وما تعملون) : يحتمل أن تكون(ما) مصدرية : فيكون تقدير الكلام : خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذى ، تقديره : والله خلقكم والذى تعملونه ، وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر ، لما رواه البخارى فى (كتاب أفعال العباد) عن على بن المدينى ، عن مروان بن معاوية ، عن أبى مالك ، عن ربعى ابن حراش ، عن حذيفة ـ رضى الله عنه ـ مرفوعا قال : (إن الله تعالى ، يصنع كل صانع وصنعته)[1] وقرأ بعضهم (والله خلقكم وما تعملون) فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذوه باليد والقهر فقالوا : (ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم) وكان من أمرهم ما تقدم بيانه فى سورة الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ونجاه الله من النار وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين . رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى . قال يا بنى أنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على ابراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين** ﴾ : هذا إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ عن خليله إبراهيم ، فقد قال هذه الكلمة بعدما بذل الجهد واستفرغ الوسع فى دعوة قومه إلى الله ، وأقام لهم الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، فلم يجد على نارهم هدى ، ولم يسمع لصوته صدى ، ﴿ **قال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين** ﴾ فهو الهادى إلى طريق الحق وسبيل الرشاد ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[2] ثم سأل الله تعالى ـ الولد الصالح قال : ﴿ **رب هب لى من الصالحين** ﴾ ليكون فى ذلك عوض عن قومه الذين قلبوا له ظهر المجن ، ولبسوا له جلد النمر ، وناصبوه العداء ، والولد إن لم يكن صالحا لا خير فيه ، لذا قال زكريا لربه : ﴿ **واجعله رب رضيا** ﴾[3] ونعوذ بالله

(١) رواه السيوطى فى الدر المنثور ٥ — ٢٧٩ من رواية البخارى ، والحاكم ، والبيهقى .

(٢) الآية : ٥٦ من سورة القصص .

(٣) من الآية : ٦ من سورة مريم .

من ولد يكون علينا سيدا ، واستجاب الله دعوة الخليل قال : ﴿ **فبشرناه بغلام حليم** ﴾ وهذا الغلام هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ فإنه أول ولد بشر به إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو أكبر من إسحاق وعمر إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ تسع وتسعون سنة ، وعندهم : أن الله ـ تبارك وتعالى ـ أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفى نسخة أخرى : بكره ، فأقحموا ههنا كذبا وبهتانا إسحاق ، ولا يجوز هذا ، لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا ﴿ **وحيدك** ﴾ بمعنى الذى ليس عندك غيره ، فإنه إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ، فإنه لا يقال : وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضا فإن أول ولد له معزة ما ليس لمن بعده من الأولاد ، فالأمر بذبحه أبلغ فى الابتلاء والاختبار . وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾ ولما بشرت الملائكة إبراهيم بإسحاق قالوا : ﴿ **إنا نبشرك بغلام عليم** ﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾(٢) أى : يولد له فى حياتهما ولد يسمى يعقوب فيكون من ذريته عقب ونسل ، وقد قدمنا هناك أنه لا يجوز بعد هذا أن يؤمر بذبحه وهو صغير ، لأن الله تعالى ـ قد وعدهما بأنه سيعقب ويكون له نسل ، فكيف يمكن بعد هذا أن يؤمر بذبحه صغيرا ، وإسماعيل وصف ههنا بالحليم ، لأنه مناسب لهذا الختام .

وقوله تعالى : ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى : كبر وترعرع وصار يذهب مع ابيه ويمشى معه ، وكان إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتردد على هاجر وابنها فى مكة حيث أسكنهما هناك ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾ قال عبيد بن عمر : رؤيا الأنبياء وحى ، ثم تلا هذه الآية ﴿ **قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾ وإنما أخبر إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل بذلك ليكون فيه عون وتحمل وصبر على قضاء الله ، وليظهر فضل إسماعيل فى الطاعة والسمع والتسليم والاذعان لأمر الله ، إذ قال لأبيه : ﴿ **يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ ولو أن إسماعيل قال غير ذلك لما ظهر فضله فى هذا المقام الذى ترتعد فيه الأوصال وقد تنزل فيه أقدام ، لكنه علم أن قضاء الله لا يقابل بغير التسليم ، وليس له عدة سوى الصبر الجميل ، فامتثل وأذعن ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾(٤) وإنما قال إبراهيم لابنه : ﴿ **إنى أرى فى المنام أنى أذبحك** ﴾ ولم يقل : إنى رأيت فى المنام .

(١) من الآية : ٥٣ من سورة الحجر .
(٢) من الآية : ٧١ من سورة هود .
(٣) الآية : ٣٧ من سورة ابراهيم .
(٤) الآية : ٥١ من سورة التوبة .

عبر بالحاضر عن الماضى لاستحضار الصورة كأنها ماثلة أمامه ، وقد يعبر عن المستقبل بالماضى كما فى قوله تعالى : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾[1] لتحقق الوقوع ، فوعد الله لا يتخلف أبدا ، ثم قال له : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله من الصابرين** ﴾ فعلق الأمر على مشيئة الله ، إذ كل شىء خاشع له وقائم به ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وقال : ﴿ **من الصابرين** ﴾ لأن المقام مقام ابتلاء وشدة ، ويناسب ذلك الصبر الجميل . وأسلم .

إبراهيم وإسماعيل أوهما إلى الله ، وألقى إسماعيل على جبينه ليذبحه من قفاه ، وشحذ السكين ، وهم بتنفيذ أمر الله ، ولكن السكين لم تؤثر ، فالخليل يريد أن يذبح ، والجليل يريد ألا يذبح : (عبدى أنت تريد ، وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لى فيما أريد اتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد) .

قال الحافظ ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين** ﴾ أى : فلما تشهدا وذكرا الله تعالى - إبراهيم على الذبح ، والولد شهادة الموت ، وقيل : أسلما : يعنى استسلما وانقادا ، إبراهيم امتثل أمر الله تعالى - وإسماعيل طاعة لله ولأبيه ، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدى وابن إسحاق وغيرهم ، ومعنى ﴿ **تله للجبين** ﴾ أى : صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه ، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه . قال ابن عباس - رضى الله عنهما - ومجاهد وسعيد بن والضحاك وقتادة : ﴿ **وتله للجبين** ﴾ اكبه على وجهه .

وقال الامام أحمد : حدثنا شريح ويونس قالا : حدثنا حماد بن سلمة عن أبى عاصم الفتوى عن أبى الطفيل عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : (لما أمر إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - بالمناسك عرض له الشيطان عند السعى فاسبقه ، فسبقه إبراهيم - عليه الصلاة والسلام ثم ذهب به جبريل . عليه الصلاة والسلام - إلى جمرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تله للجبين وعلى إسماعيل - عليه الصلاة والسلام - قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لى ثوب تكفننى فيه غيره ، فاخلعه حتى تكفننى فيه . فعالجه ليخلعه ، فنودى من خلفه : (أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا) فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ، قال ابن عباس : لقد رأيتنا أن تتبع ذلك الضرب من الكباش)[2] وذكر هشام الحديث فى المناسك بطولة .

وقوله تعالى : ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾ أى : قد حصل المقصود من رؤياك باضجاعك ولدك للذبح . وذكر السدى وغيره أنه أمر السكين على رقبته فلم تقطع شيئا حال بينها وبينه صنحة من نحاس ، ونودى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - عند ذلك : (قد صدقت الرؤيا) وقوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين** ﴾ أى : هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجا ومخرجا ، كقوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل**

---

(١) من الآية الأولى من سورة النحل .

(٢) انظر مسند الامام احمد (وابن عباس - رضى الله عنهما) ج ١ ص ٢٩٧ .

على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾[١].

وقد استدل بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النسخ قبل التمكن من الفعل خلافا لطائفة من المعتزلة ـ والدلالة من هذه ظاهرة ، لأن الله تعالى ـ شرع لابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ذبح ولده ثم نسخه عنه وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولا إثابة الخليل على الصبر على ذبح ولده وعزمه على ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ أى : الاختبار الواضح الجلى ، حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلما لأمر الله تعالى ، منقادا لطاعته ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإبراهيم الذى وفى** ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ قال سفيان النورى عن على قال : بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة ، قال أبو الطفيل : وجدوه مربوطا بسمرة فى ثبير .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : الصخرة التى بمنى بأصل ثبير هى الصخرة التى ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه ، هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه ، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدى به إسماعيل .

وقوله تعالى : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين** ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبح وهو إسماعيل عقب بذكر البشارة بأخيه إسحاق . (نبيا) حال مقدرة ، أى سيصبر منه نبى صالح . قال تعالى ـ فى سورة هود : ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب . قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[٣].

وقال تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار . إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا . ووهبنا لهم من رحمتنا وجعلنا لهم لسان صدق عليا** ﴾[٥].

---

(١) سورة الطلاق الآية : ٢ ـ ٣

(٢) سورة النجم الآية : ٣٧

(٣) سورة هود الآيات : ٦٩ ـ ٧٣

(٤) سورة ص الآيات : ٤٥ ـ ٤٧

(٥) سورة مريم الآيات : ٤٩ ـ ٥٠

﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ قال ابن عباس : بشر به حين ولد

وقوله تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ كقوله تعالى : ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم من معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾(١) .

ولما كنا بصدد الحديث عن الذبيح ناسب ذلك أن نبين أحكام الأضحية التى ذكرها الفقهاء ، وذلك لقوله ــ ﷺ ــ : (ضحوا فإنها سنة أبيكم إبراهيم)(٢) . ولقوله : (من وجد سعة ولم يضح فلا يقربن مصلانا)(٣) .

الأضحيـــة :

تعريفها : الأضحية والضحية : اسم لما يذبح من الابل والبقر والغنم يوم النحر وأيام التشريق تقربا إلى الله تعالى .

مشروعيتها : وقد شرع الله الأضحية بقوله ــ سبحانه :

﴿ إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير ﴾(٥) . والنحر هنا : هو ذبح الأضحية .

وثبت أن النبى ــ ﷺ ــ ضحى ، وضحى المسلمون ، وأجمعوا على ذلك .

فضلها : روى الترمذى عن عائشة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : (ما عمل آدمى من عمل يوم النحر أحب إلى الله من إهراق الدم ، إنها لتأتى يوم القيامة بقرونها وأشعارها وأظلافها ، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسا)(٦) .

---

(١) الآية : ٤٨ من سورة هود

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الأضاحى) باب : ثواب الأضحية ج ٢ ص ١٠٤٥ من رواية زيد بن أرقم قال فى الزوائد : فى إسناده أبو داود ، واسمه : نضيع بن الحارث ، وهو متروك ، وانهم بوضح الحديث .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الأضاحى) باب : الأضاحى واجبة هى أم لا ؟ ج ص ١٠٤٤ رقم ٣١٢٣ من رواية ابى هريرة ــ رضى الله عنه .

فى الزوائد : فى إسناده عبد الله بن عياش ، وهو ــ وإن روى له مسلم فإنما أخرج له فى والشواهد وقد ضعفه ابو داود والنسائى . وقال أبو حاتم : صدوق . وقال ابن يونس : منكر الحديث . وذكر ابن حبان فى الثقات .

(٤) سورة الكوثر .

(٥) من الأية ٣٦ من سورة الحج .

(٦) انظر سنن الترمزى (كتاب الأضاحى باب : ما جاء فى فضل الأضحية ج ٤ ص ٨٣ رقم ١٤٩٣ وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه من حديث هشام بن عروة إلا م هذا الوجه .

حكمها : الأضحية سنة مؤكدة ، ويكره تركها مع القدرة عليها لحديث أنس الذى رواه البخارى ومسلم أن النبى — ﷺ — ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر (١) .

الأملح : ما يخالط بياضه سواد . (أقرنين) : ماله قرن .

وروى مسلم عن أم سلمة أن النبى — ﷺ — قال : (إذا رأيتم هلال ذى الحجة وأراد أحدكم أن يضحى فليمسك عن شعره وأظافره)(٢) فقوله : ﴿ **أراد أن يضحى**) . دليل على السنة لا على الوجوب .

وروى عن أبى بكر وعمر أنهما كانا لا يضحيان عن أهلهما ، مخافة أن يرى ذلك واجبا . متى تجب ؟ : ولا تجب إلا بأحد أمرين :

١ — أن ينذرها ، لقول الرسول — ﷺ — (من نذر أن يطيع الله فليطعه)(٣) . وحتى لو مات الناذر فإنه تجوز النيابة فيما عينه بنذره قبل موته .

٢ — أن يقول : هذه لله ، أو هذه أضحية . وعند مالك : إذا أشتراها بنية الأضحية وجبت .

حكمتها : والأضحية شرعها الله إحياء لذكرى إبراهيم ، وتوسعة على الناس يوم العيد ، كما قال الرسول — ﷺ — (إنما هى أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل)(٤).

مم تكون ؟ : ولا تكون إلا من الابل والبقر والغنم ، ولا تجزىء من غير هذه الثلاثة بقول الله — سبحانه : ﴿ **ليذكروا أسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام** ﴾(٥) . ويجزىء من الضأن ماله نصف سنة ، ومن المعز ماله سنة ، ومن البقر ماله سنتان ، ومن الابل ماله خمس سنين ، يستوى فى ذلك الذكر والأنثى .

١ — روى أحمد والترمذى عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : (نعمت الأضحية الجذع من الضأن)(٦). (الجذع ماله ستة أشهر عند الحنفية ، وماله سنة فى الأصح عند الشافعية) .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الأضاحى) باب : استحباب الضحية وذبحها مباشرة بلا توكيل ، والتسمية والتكبير ج ٣ ص ٥١٢ رقم ١٢٨٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الأضاحى) باب : نهى مريد التضحية ان يأخذ من شعره وأظفاره شيئا ج ١٣ ص ١٣٩ .

(٣) رواه الترمذى فى سننه فى (كتاب النذور والايمان) باب : من نذر أن يطيع الله فليطعه ح ٤ ص ١٠٤ رقم ١٥٢٦ من رواية السيدة عائشة — رضى الله عنها — رواه ابن ماجة فى سننه فى (كتاب الكفارات) باب : النذر فى المعصية ح ١ ص ٦٨٧ رقم ٢١٢٦ .

(٤) انظر سنن الترمذى (كتاب الصيام) باب : فى كراهية الصوم فى أيام التشريق ح ٣ ص ١٣٤ رقم ٧٧٣ عن عقبة بن عامر . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح . ورواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الصيام) باب : صيام أيام التشريق ح ٢ ص ٣٢٠ رقم ٢٤١٩ . ورواه النسائى أيضا فى سننه فى (كتاب المناسك) باب : النهى عن صوم يوم عرفة ح ٣ ص ٢٥٢ .

(٥) من الآية : ٣٤ من سورة الحج .

(٦) الحديث فى سنن الترمذى فى (كتاب الأضاحى) باب : ما جاء فى الجذع من الضأن فى الأضاحى ح ٤ ص ٨٧ رقم ١٤٩٩ . قال أبو عيسى : حديث أبى هريرة حسن غريب .

٢ – وقال عقبة بن عامر : قلت : يا رسول الله : أصابنى جذع قال : (ضح به)[1]. رواه البخارى ومسلم .

٣ – وروى مسلم عن جابر أن الرسول – ﷺ – قال : (لا تذبحوا إلا مسنة ، فإن تعسر عليكم فاذبحوا جذعة من الضأن)[2]. والمسنة : الكبيرة ، هى من الابل مالها خمس سنين ، ومن البقر ماله سنتان . ومن المعز ماله سنة ، ومن الضأن ماله سنة أو ستة أشهر ، على الخلاف المذكور من الأئمة . وتسمى المسنة بالثنية .

الأضحية بالخصى :

ولا بأس بالأضحية بالخصى . روى أحمد عن أبى رافع قال : ضحى رسول الله – ﷺ – بكبشين أملحين موجوءين خصيين[3] ولأن لحمه أطيب وألذ . مالا يجوز أن يضحى به :

ومن شروط الأضحية السلامة من العيوب ، فلا تجوز الأضحية بالمعيبة مثل :

١ – المريضة البين مرضها

٢ – العوراء البين عورها .

٣ – العرجاء البين ظلعها .

٤ – العجفاء التى لا تنقى .

٥ – العضباء التى ذهب أكثر أذنها أو قرنها .

ويلحق بهذه الهتماء ، والعصماء ، والعمياء ، والتولاء والجرباء التى كثر جربها . (العجفاء : التى ذهب مخها من شدة الهزال ، الهتماء : هى التى ذهب ثناياها من أصلها ، العصماء : ما انكسر غلاف قرنها ، التولاء : التى تدور فى المرعى ولا ترعى) .

يقول الرسول – ﷺ – (أربعة لا تجزىء فى الأضاحى : العوراء البين عورها ، والمريضة البين مرضها ، والعرجاء البين ظلعها ، والعجفاء التى لا تنقى)[4] رواه الترمذى : وقال : حسن صحيح .

ولا بأس بالعجماء ، والتبراء ، والحامل ، وما خلق بغير أذن ، أو ذهب نصف أذنه ، أو أليته . والأصح عند الشافعية : لا تجزىء مقطوعة الألية والضرع لفوات جزء مأكول ، وكذا مقطوعة الذنب .

قال الشافعى : لا تحفظ عن النبى – ﷺ – فى الأسنان شيئا .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الأضاحى) ح ٣ ص ٥١٢ رقم ١٢٨٣ وانظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٨٨ رقم ١٥٠٠ وانظر صحيح مسلم بشرح النووى ح ١٣ ص ١١٩ .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الأضاحى) باب : سن الأضحية ح ١٣ ص ١١٧ .

(٣) انظر مسند الامام أحمد (حديث أبى رافع) ح ٦ ص ٨ إلا أنه قال : (موجبين) مكان (موجوءين) ولعل ما فى أحمد خطأ مطبعيا .

(٤) انظر سنن الترمذى (كتاب الأضاحى) باب : مالا يجوز من الأضاحى ح ٤ ص ٨٦ . رقم ١٤٩٧ فقد رواه عن البراء بن عازب مرفوعا . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقت الذبح :

ويشترط فى الأضحية ألا تذبح إلا بعد طلوع الشمس من يوم العيد ويمر من الوقت قدر ما يصلى العيد ، ويصح ذبحها بعد ذلك فى أى يوم من الأيام الثلاثة فى ليل أو نهار ، ويخرج الوقت بإنقضاء هذه الأيام .

فعن البراء ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : (إن أول ما نبدأ به فى يومنا هذا أن نصلى ثم نرجع فننحر ، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ، ومن ذبح قبل فإنما هو لحم قدمه لأهله ، ليس من النسك فى شىء)(١).

وقال أبو برد : خطبنا رسول الله ــ ﷺ ــ يوم النحر فقال : (من صلى صلاتنا ، ووجه قبلتنا ، ونسك نسكنا ، فلا يذبح حتى يصلى)(٢) روى الشيخان عن الرسول ــ ﷺ ــ (ومن ذبح بعد الصلاة والخطبتين فقد أتم نسكه وأصاب سنة المسلمين)(٣).

كفاية أضحية واحدة عن البيت الواحد :

إذا ضحى الانسان بشاة من الضأن أو المعز أجزأت عنه وعن أهل بيته ، فقد كان الرجل من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ يضحى بالشاة عن نفسه وعن أهل بيته فهى سنة كفاية .

روى ابن ماجة والترمذى وصححه أن أبا أيوب قال : (كان الرجل فى عهد رسول الله ــ ﷺ ــ يضحى بالشاة عنه وعن أهل بيته فيأكلون ويطعمون حتى تباهى الناس فصار كما ترى)(٤).

جواز المشاركة فى الأضحية :

تجوز فى الأضحية إذا كانت من الابل أو البقر ، وتجزىء البقرة أو الحمل عن سبعة أشخاص إذا كانوا قاصدين الأضحية والتقرب إلى الله ، فعن جابر قال : (نحرنا مع النبى ــ ﷺ ــ بالحديبية البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة)(٥) رواه مسلم وابو داود والترمذى .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الأضاحى) باب : وقت الأضاحى ج ١٣ ص ١١٤ .

(٢) الحديث رواه مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الأضاحى) باب : وقت الأضاحى ج ١٣ ص ١١٤ من حديث البراء بن عازب ــ رضى الله عنه .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان ج ٣ ص ٥١٢ رقم ١٢٨١ فقدروه عن البراء بن عازب ، مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

(٤) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الأضاحى) باب : من ضحى بشاه عن أهله ج ص ١٠٥١ رقم ٣١٤٧ رواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الأضاحى) باب : ما جاء أن الشاه الواحدة تجزى عن أهل البيت ج ٤ ص ٩١ رقم ١٥٠٥ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الحج) باب إجزاء البداية والبقرة عن سبعة ج ٩ ص ٦٦ ، ٦٧ (صحيح مسلم بشرح النووى ــ طبع المطبعة المصرية) .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الأضاحى) باب : عن كم تجزىء البدنة والبرقة ج ٢ ص ١٠٤٧ رقم ٣١٣٢ ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الأضاحى) باب : ما جاء فى الاشتراك فى الأضحية ج ٤ ص ٨٩ رقم ١٥٠٢ قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

توزيع لحم الأضحية :

يسن للمضحى ان يأكل من أضحيته ويهدى الأقارب ويتصدق منها على الفقراء ، قال رسول الله — ﷺ — (كلوا وأطعموا وادخروا)[١] .

وقد قال العلماء : الأفضل أن يأكل الثلث ويتصدق بالثلث ويدخر الثلث . ويجوز نقلها ولو إلى بلد آخر ولا يجوز بيعها ولا بيع جلدها .

(ولا يعطى الجزار من لحمها شيئا كأجر ، وله أن يكافئه نظير عمله) وإنما يتصدق به المضحى أو يتخذ منه ما ينتفع به . وعند أبى حنيفة أنه يجوز بيع جلدها ويتصدق بثمنه وأن يشترى بعينه ما ينتفع به فى البيت .

المضحى يذبح بنفسه :

يسن لمن يحسن الذبح أن يذبح أضحيته بيده ويقول : بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عن فلان — ويسمى نفسه — فإن رسول الله — ﷺ — ذبح كبشا وقال : (بسم الله والله أكبر ، اللهم هذا عنى وعن من لم يضح من أمتى)[٢] رواه أبو داود والترمذى .

فإن كان لا يحسن الذبح فليشهده ويحضره ، فإن النبى — ﷺ — قال لفاطمة : (يا فاطمة قومى فاشهدى أضحيتك ، فإنه يغفر لك عند أول قطرة من دمها كل ذنب عملته ، وقولى : (أن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له) .

وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين — فقال أحد الصحابة : يارسول الله هذا لك ولأهل بيتك خاصة ؟ أو للمسلمين عامة ؟ قال رسول الله ﷺ : بل للمسلمين عامة[٣] (من كتاب فقه السنة الجزء ١٣) .

العقيقة

(من رسالة : العقيقة سنة لن تموت ، إبراهيم بن محمد)

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الأضاحى) باب : ما كان من النهى عن أكل لحوم الأضاحى بعد ثلاث فى أول الاسلام وبيان نسخة واباحته إلى من شاء ح ٣ ص ٥١٥ ، ٤١٦ رقم ١٢٩٠ وهو جزء حديث رواه مسلمة بن الأكوع — رضى الله عنه — رواه الترمذى فى (كتاب الأضاحى) باب : ما جاء فى الرخصة فى أكلها بعد ثلاث ح ٤ ص ٩٤ ، ٩٥ رقم ١٥١٠ من طريق سليمان بن بريدة عن أبيه . وقال ابو عيسى : حديث بريدة حديث حسن صحيح .

وروى ابن ماجه نحوه من حديثة نبيشة : انظر (كتاب الأضاحى) باب : ادخار لحوم الأضاحى ح ٢ ص ١٠٥٥ رقم ٣١٦٠

(٢) انظر سنن أبى داود (كتاب الأضاحى) باب : فى الشاة يضحى بها عن جماعة ح ٣ ص ٩٩ رقم ٢٨١٠ فقد رواه عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه .

وانظر سنن الترمذى (كتاب الأضاحى) باب : العقيقة بشاه ح ٤ ص ١٠٠ رقم ١٥٢١ وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

(٣) الحديث رواه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الضحايا) باب : ما يستحب للمرء ان يتولى ذبح نسكه أو يشهده ح ٩ ص ٢٨٣ من رواية عمران بن حصين .

وانظر مجمع الزوائد (كتاب الأضاحى) باب : فضل الأضحية وشهود ذبحها ح ٤ ص ١٧ وقال الهيثمى : رواه الطبرانى فى الكبير والاوسط ، وفيه ابو حمزة الشمالى ، وهو ضعيف .

العقيقة لغة : قال الامام أحمد : العق : معناه القطع ، ومنه : عق والديه إذا قطعهما .

والعقيقة فقها : عق عن ولده يعق عقا ، إذا ذبح يوم أسبوعه ، أى : عن المولود .

الأحاديث التى وردت عن رسول الله ﷺ فى العقيقة

١ – عن سلمان بن عامر الضبى قال : قال رسول الله – ﷺ – (مع الغلام عقيقة ، فأهريقوا عنه دما ، وأميطوا عنه الأذى)[١]. رواه البخارى .

٢ – عن سمة قال : قال رسول الله – ﷺ – (كل غلام رهينة بعقيقة تذبح عنه يوم سابعه، ويسمى فيه ويحلق رأسه)[٢]. رواه أصحاب السنن كلهم وقال الترمذى : حسن صحيح .

٣ – عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله – ﷺ – (عن الغلام شاتان متكافئتان ، وعن الجارية شاة)[٣]. وفى لفظ : أمرنا رسول الله – ﷺ – أن نعق : عن الجارية شاة وعن الغلام شاتان .. رواه أحمد فى مسنده .

٤ – وعن أم كرز الكعبية : أنها سألت رسول الله – ﷺ – عن العقيقة ؟ قال : (عن الغلام شاتان ، وعن الأنثى واحدة ، ولا يضركم ذكرانا أو إناثا) أى : (الذبائح)[٤]. رواه أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه .

٥ – عن ابن عباس أن رسول الله – ﷺ – عق عن الحسن والحسين كبشا كبشا[٥].

٦ – أمر رسول الله – ﷺ – لفاطمة – رضى الله عنها – حين عقت عن الحسن والحسين : أن ابعثوا إلى القابلة منها برجل وكلوا وأطعموا ، ولا تكسروا منها عظما .

الحكمة من العقيقة :

١ – سنة ، والعمل بالنسبة من أفضل القربان إلى الله .

(١) الحديث فى صحيح البخارى بحاشية السندى طبع المطبعة العثمانية المصرية فى (كتاب العقيقة) باب : إحاطة الأذى عن الصبى فى العقيقة ج ٣ ص ٢٠١ .

وانظر سنن أبى داود ح ٣ ص ١٦ رقم ٢٨٣٩ وسنن الترمذى ح ٤ ص ٩٨ رقم ١٥١٥ وابن ماجه ح ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٤

(٢) الحديث رواه ابو داود فى سننه فى (كتاب العقيقة) ج ٣ ص ١٦ رقم ٢٨٣٨ وانظر سنن الترمذى (باب من العقيقة) ج ٤ ص ١٠١ رقم ١٥٢٢ وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الذابح) باب العقيقة ج ٢ ص ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ رقم ٣١٦٥ والنسائى فى سننه فى (كتاب العقيقة) باب : متى يعق ؟ ح ٧ ص ١٦٦ .

(٣) انظر سنن الترمذى ح ٤ ص ٩٦ ، ٩٧ رقم ١٥١٣ وسنن ابى داود ح ٣ ص ١٠٥ رقم ٢٨٣٤ وسنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٣ واللفظ له : مع تقديم وتأخير .

(٤) سنن الترمذى ح ٤ ص ٩٨ رقم ١٥١٦ وسنن ابن ماجه ح ٢ ص ١٠٥٦ رقم ٣١٦٢ إلى قوله : (وعن الجارية شاة) وفى سنن أبى داود ح ٣ ص ١٠٥ رقم ١٨٣٥ وسنن النسائى ح ٧ ص ١٦٥ .

(٥) سنن ابى داود ح ٧ ص ١٠٧ رقم ٢٨٤١ والنسائى ح ٧ ص ١٦٦ الا أنه قال : بكبشين كبشين .

٢ – لأنها سبب تجدد النعمة من الله على الوالدين ، وإظهار للفرح والسرور بخروج نسمة مؤمنة يكاثر بها رسول الله – ﷺ – الأمم يوم القيامة .

٣ – وفيها سر بديع موروث عن فداء إسماعيل – عليه السلام – بالكبش الذى ذبح عنه وفداه الله به ، فصارت سنة فى أولاده بعده بأن يفدى أحدهم عند ولادته بذبح يذبح عنه ، ولا يستنكر أن يكون هذا حرزا له من الشيطان بعد ولادته ، وأسرار الشرع أعظم من ذلك .

٤ – فدية يفدى بها المولود من المصائب والآفات .

٥ – فكاك لرهان المولود فى الشفاعة لوالديه .

٦ – جعل الله – سبحانه – اليوم السابع من الأسبوع عيدا لهم يجتمعون فيه مظهرين شكره وذكره .

٧ – تقوية لروابط الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع ، لاجتماعهم على موائد الطعام ابتهاجا بقدوم المولود الجديد .

الأحكام العامة التى تتعلق بالعقيقة

١ – قال أبو عبد الله : عدم كسر عظم الذبيحة سواء حين الذبح أو عند الأكل ولكن يقطع كل عظم من مفصله ، فلا تكسر العظام لقول رسول الله – ﷺ – فى العقيقة التى عقتها فاطمة عن الحسن والحسين : (أن ابعثوا إلى القابلة منها برجل ، وكلوا وأطعموا ، ولا تكسروا منها عظما) رواه الامام أبو داود (فى كتاب الراسيل) عن جعفر بن محمد عن أبيه) والحكمة من ذلك : إظهار شرف الطعام ، وهو من الجود . وتفاؤلا بسلامة أعضاء المولود وصحتها . ولكن قال ابن شهاب : لا بأس بكسر عظامها ، فقد جرت العادة بذلك لما فى ذلك من مصلحة أكله وتمام الانتفاع به .

٢ – قال ابن المنذر والامام الشافعى : العقيقة سنة واجبة . ويتقى فيها من العيوب ما يتقى من الضحايا ، ولا يباع إهابها ولا يكسر عظامها ويأكل أهلها منها ويتصدقون ، ولا يمس الصبى بشىء من دمها .

٣ – يأكل أهلها منها ويتصدقون ويهدى ولا يباع منها ولا جلدها ولا رأسها ولا سقطها ، وهذا قول الامام أحمد .. وكره الحسن أن يعطى جلدها فى أجرة الجازر أو الطباخ .

٤ – لا يمس الصبى شىء من دمها .

٥ – التسمية عند الذبح : (بسم الله ، لك وإليك ، هذه عقيقة فلان) قل ابن المنذر : وهذا حسن ، وإن نوى العقيقة ولم يتكلم به أجزأه إن شاء الله .

٦ – يستحب طبخها دون إخراج لحمها نيا . قال بذلك الخلال فى جامعة ، وأبو عبد الله ، وهو زيادة فى إحسان وفى شكر النعمة وتمتع المساكين بها هنيئة مكفية المؤنة .

وعند الشافعية : يستحب طبخ لحمها والتصدق به وبمرقها على المساكين بالبعث إليهم أفضل من الدعاء

إليها ، ولو دعا إليها قوما جاز ، ولو فرق بعضها ودعا ناسا إلى بعضها جلز ، ويستحب أن يأكل منها ويتصدق ويهدى كما فى الأضحية ..

٧ – والسنة : هى العق بالغنم دون غيره .. وهو قول جماعة ، منهم عائشة – رضى الله عنها – والإمام مالك .

٨ – يسن لمن يأكل منها أن يدعو بهذا الدعاء : (اللهم اغفر لهم وارحمهم وبارك لهم فيما رزقتهم) .

٩ – (شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويمنعها الفقراء)[١] . (رواه البخارى ومسلم) .

مسألة : هل التصدق بثمن العقيقة أفضل ولو بالزيادة ؟

قال أبو عبد الله : العقيقة أفضل – وكذا قال الإمام الشافعى : إن ، إراقة الدم وتنفيذ السنة مقصودة ، فإنها عبادة مقرونة بالصلاة ، كما قال تعالى : ﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾[٢] . وقال سبحانه : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين** ﴾[٣] . ففى كل ملة صلاة ونسيكة لا يقوم غيرها مقامها .

مسألة : هل يحق الاستقراض لها ؟

قال صالح لأبيه عبد الله : الرجل يولد وليس عنده ما يعق : أحب إليك أن يستقرض ويعق عنه ؟ أم يؤخر ذلك حتى يوسر ؟ قال : أشد ما سمعنا فى العقيقة حديث الحسن عن سمرة عن النبى – ﷺ – (كل غلام رهينة بعقيقة)[٤] . وإنى لأرجو إن استقرض أن يعجل الله الخلف ، لأنه أحيا سنة وابتع ما جاء عنه – ﷺ – (تحفة المودود لابن قيم الجوزية) .

مسألة : فى حكم اجتماع العقيقة والأضحية :

سئل الإمام أحمد ، فقال : لا أدرى . ثم قال : (غير واحد يقول به) أى : جواز أن يضحى مكان العقيقة .

وقال فى موضع آخر : أرجو أن تجزىء الضحية عن العقيقة إن شاء الله .

وقال بن القيم : ووجه اجزاء حصول المقصود منها بالذبح واحد ، فإن الأضحية عن المولود مشروعة كالعقيقة عنه . فإذا ضحى ونوى أن تكون عقيقة وأضحية وقع ذلك عنهما ، كما لو صلى ركعتين ينوى بهما تحية المسجد وسنة مكتوبة .

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب النكاح) باب الأمر بإجابة الداعى إلى دعوة ص ٣٣٥ رقم ٩٠٧ فقد روى الحديث عن أبى هريرة .

(٢) الآية : ٢ من سورة الكوثر .

(٣) الآية : ١٦٢ من سورة الأنعام .

(٤) سبق تخريجه .

حكم من لم يعق عنه :

أبواه هل يعق عن نفسه إذا بلغ ؟

قال الرافعي : فإن أفر حتى بلغ سقط حكمها في حق غير المولود . وهو مخير في العقيقة عن نفسه ، قال : واستحسن القفال والشاشي أن يفعلها ، للحديث المروى أن النبي ـ ﷺ ـ (عق عن نفسه بعد النبوة) قال النووي : (وأما) الحديث الذي ذكره في عق النبي ـ ﷺ ـ عن نفسه فرواه البيهقي بإسناده عن عبد الله بن محرر ، عن قتادة ، عن أنس أن النبي ـ ﷺ ـ (عق عن نفسه بعد النبوة) وهذا حديث باطل قال البيهقي : هو حديث منكر ـ عبد الله بن محرر ـ متفق على ضعفه ، ولكن قال عنه حبيب الأعظمي في تخريجه على مصنف عبد الرزاق : أخرجه البزار والطبراني في الأوسط ، ورجاله ثقات كما في مجمع الزوائد للهيثمي . ٤ / ٥٩ انتهى ، المصنف ٣٢٩٤ .

وقتها :

تستحب في اليوم السابع ، للأحاديث السابقة ، وقد ذهب في ذلك إلى :

يقول الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾(١) . ويقول أيضا : ﴿ **وما جعل عليكم في الدين من حرج** ﴾(٢) .

وتقول أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ ففي (سبعة أيام ، أربعة عشر ، ولأحد وعشرين) وقال به أبو صالح بن أحمد ، وأبو عبد الله .

وقال الامام مالك : الظاهر أن التقييد باليوم السابع إنما هو على وجه الاستحباب ، وإلا فلو ذبح عنه في الرابع أو الثامن أو العاشر أو ما بعده أجزأت ، والاعتبار بالذبح لا بيوم الطبخ والأكل . (تحفه المودود) .

البشرى والتهنئة بالمولود ، قال تعالى : ﴿ **وبشروه بغلام عليم** ﴾(١) وتهنئة الإسلام بالمولود قول الحسن البصري : (بورك في الموهوب شكرت الواهب ، وبلغ أشده ، ورزقت بره) .

« أضواء كاشفة »

فإن تاريخ الأمم هو تراثها الماضي الذي تستمد منه الإلهام والثقة في حاضرها ، وتستشرف به مستقبلها مقتفية الأثر ، متجنبة الزلل ، آخذة بالمثل العليا ، والأنبياء هم أعظم العظماء ، بهم استنارات القلوب والعقول ، بلغوا رسالات السماء ، وأخرجوا الإنسانية من ظلمات الجهل والجاهلية وأرسوا أسس حضارات متميزة ، مجلوا الفضيلة ، وكانوا حربا على الرذيلة ، ونادوا بارتقاء الإنسانية على الحيوانية ، ورسموا لهم أسس حياة إنسانية راقية .

---

(١) من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٧٨ من سورة الحج .

(٣) من الآية : ٢٨ من سورة الذاريات .

ولما كان قصص الأنبياء قد اشتمل على الدروس والصبر والتربية الرفيعة العالية رأينا من باب تتمه الفائدة أن نفصله تفصيلا يؤدى الغرض فيه ، وقد جاء ذلك مبينا على خير وجه فيما ذكره الحافظ ابن كثير فى كتابه قصص الأنبياء .

قال ـ رحمه الله ـ عن إبراهيم خليل الرحمن :

هو إبراهيم بن تسارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ هذا نص أهل الكتاب فى كتابهم .

وروى ابن عساكر من غير وجه عن عكرمة أنه قال : كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يكنى أبا الضيفان ، قالوا : ولما كان عمر تارخ خمسا وسبعين سنة ولد له إبراهيم ـ عليه السلام ـ وناحور وهاران ، وولد لهاران لوط .

وعندهم أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو الأوسط ، وأن هاران مات فى حياة أبيه فى أرضه التى ولد فيها ، وهى أرض الكلدانيين ، يعنون أرض بابل .

وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار وصحيح ذلك ابن عساكر بسنده عن ابن عباس قال : ولد إبراهيم بغوطة دمشق فى قرية يقال لها : برزة ، فى جبل يقال له : قاسيون . ثم قال : والصحيح أنه ولد ببابل . وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه إذ جاء معينا للوط ـ عليه السلام ـ قالوا : فتزوج إبراهيم سارة ، وناحور ملكا ابنة هاران ، يعنون بابنة أخيه . قالوا : وكانت سارة عاقرا لا تلد : قالوا : وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة وابن أخيه ابن هاران فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، وهى بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهى أرض الكشدانيين فى ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضا وكانوا يعبدون الكواكب السبعة ، والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين : يستقبلون القطب الشمالى ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال .

ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب ، ويعملون لها أعيادا وقرابين . وهكذا كان أهل حران يعبدون الكواكب والأصنام ، وكل من كان على وجه الأرض كانوا كفارا سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط ـ عليهم السلام ـ وكان الخليل ـ عليه السلام ـ هو الذى أزال به تلك الشرور وأبطل به ذاك الضلال ، فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ آتاه رشده فى صغره ، وابتعثه رسولا ، واتخذه خليلا فى كبره ، قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنابه عالمين** ﴾[1] . أى : كان أهلا لذلك ، وقال تعالى : ﴿ **وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون . وإن تكذبوا فقد كذب أمم من**

(١) الآية : ٥١ من سورة الأنبياء .

قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين . أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير . يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون . وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير . والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضهم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين . فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾(١) .

ثم ذكر – تعالى – مناظرته لأبيه وقومه كما سنذكره – إن شاء الله – وكان أول دعوته لأبيه ، وكان أبوه ممن يعبد الأصنام ، لأنه أحق الناس بإخلاص النصيحة له ، كما قال – تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا** ﴾(٢) فذكر – تعالى : ما كان بينه وبين أبيه من المحاورة والمجادلة وكيف دعا أباه إلى الحق بألطف عبارة ، وأحسن إشارة : بين له بطلان ما هو عليه من عبادة الأوثان التى لا تسمع دعاء عابدها ولا تبصر مكانه ، فكيف تغنى عنه شيئا ، أو تفعل به خيرا من رزق أو نصر . ثم قال منبها على ما أعطاه الله من الهدى والعلم النافع وإن كان أصغر منه سنا من أبيه : ﴿ **يا أبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا** ﴾ أى : مستقيما واضحا سهلا حنيفا يفضى بك إلى الخير فى دنياك وأخراك ، فلما عرض هذا الرشد عليه وأهدى هذه النصيحة إليه لم يقبلها منه ، ولا أخذها عنه ، بل تهدده وتوعده ، قال : ﴿ **أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك** ﴾ قيل : بالمقال ، وقيل : بالفعال ﴿ **واهجرنى مليا** ﴾ أى : واقطعنى وأطل هجرانى ، فعندها قال له إبراهيم ﴿ **سلام عليك** ﴾ أى : لا يصلك منى مكروه ، ولا ينالك منى أذى بل أنت سالم من ناحيتى ، وزاده خيرا فقال : ﴿ **سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا** ﴾ قال ابن عباس وغيره : أى لطيفا ، يعنى : فى أن هدانى لعبادته والاخلاص له ، ولهذا قال : ﴿ **وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا** ﴾ . وقد استغفر له إبراهيم – عليه السلام – كما وعده فى أدعيته . فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، كما قال تعالى : ﴿ **وما كان استغفار**

(١) الآيات : ١٦ – ٢٧ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيات : ٤١ – ٤٨ من سورة مريم .

إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾[١] .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة : عن النبى — ﷺ — قال : (يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه حُزى قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك : لا تعصنى . فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب إنك وعدتنى أن لا تخزنى يوم يبعثون ، وأى خزى أخزى من أبى الأبعد ؟! فيقول الله : إنى حرمت الجنه على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر ، فإذا هو بذبح متلطخ ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار) هكذا رواه فى قصة إبراهيم منفردا[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهه إنى أراك وقومك فى ضلال مبين** ﴾[٣] هذا يدل على أن اسم أبى إبراهيم آزر ، وجمهور أهل النسب — منهم ابن عباس — على أن اسم أبيه تارح وأهل الكتاب يقولون تارخ — بالخاء المعجمة — فقيل : إنه لقب بصنم كان يعبده اسمه آزر . وقال ابن جرير : والصواب أن اسمه آزر ، ولعل له اسمين علمين أو أحداهما لقب والآخر علم . وهذا الذى قال محتمل . والله أعلم .

مناظرته لقومه

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجة قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون . وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾[٤] .

وهذا المقام مقام مناظرة لقومه ، وبيان لهم أن هذه الأجرام المشاهدة من الكواكب النيرة لا تصلح للألوهية ، ولا أن تعبد مع الله — عز وجل — لأنها مخلوقة مربوبة مصنوعة مدبرة منسخرة ، تطلع تارة وتأفل أخرى ، فتغيب عن هذا العالم ، والرب — تعالى — لا يغيب عنه شىء ولا تخفى عليه خافية ، بل هو الدائم الباقى بلا زوال ، لا إله إلا هو ولا رب سواه ، فبين لهم أولا عدم صلاحية الكواكب — قيل : هو الزهرة —

---

(١) الآية : ١٤ من سورة التوبة .

(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق فى (كتاب أحاديث الأنبياء) إبراهيم — عليه السلام — ح ٦ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ رقم ٣٠

(٣) الآية : ٧٤ من سورة الأنعام .

(٤) الآيات : ٧٥ — ٨٣ من سورة الأنعام .

لذلك ، ثم ترقى منها إلى القمر الذى هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ، ثم ترقى إلى الشمس التى هى أشد الأجرام المشاهدة ضياء وسناء وبهاء ، فبين أنها مسخرة مقدرة مربوبة كما قال تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[1] ولهذا قال : ﴿ **فلما رأى الشمس بازغة** ﴾ أى : طالعة : (وقال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين . وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا) أى : لست أبالى بهذه الآلهة التى تعبدونها من دون الله فانها لا تنفع شيئا ولا تسمع ولا تعقل بل هى مربوبة مسخرة كالكواكب ونحوها ، أو مصنوعة منحوتة منجورة .

والظاهر أن موعظته فى الكواكب لأهل (حران) فإنهم كانوا يعبدونها ، وهذا يرد قول من زعم أنه قال هذا حين خرج من السرب لما كان صغيرا كما ذكره ابن إسحق وغيره ، وهو مستند إلى أخبار إسرائيلية لا يوثق بها ولا سيما إذا خالفت الحق .

وأما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، وهم الذين ناظرهم فى عبادتها وكسرها عليهم وأهانها وبين بطلانها ، كما قال تعالى : ﴿ **وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين** ﴾ وقال فى سورة الأنبياء : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون . قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين . قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين . قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين . وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون . قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين : قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون . قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون . فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون . ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون . قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم . أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون . قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾[2] .

وقال فى سورة (الشعراء) :

﴿ **واتل عليهم نبأ ابراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال**

(١) الآية : ٣٧ من سورة فصلت .

(٢) الآيات : ٥١ — ٧٠ من سورة الأنبياء .

أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين . رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين ﴾[1] .

وقال تعالى فى سورة (الصافات) :

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم . إذ جاء ربه بقلب سليم . إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين . فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم . فتولوا عنه مدبرين . فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين . فأقبلوا إليه يزفون . قال أتعبدون ما تنحتون . والله خلقكم وما تعملون . قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين ﴾[2] يخبر الله تعالى ـ عن إبراهيم خليله ـ عليه السلام ـ أنه أنكر على قومه عبادة الأوثان ، وحقرها عندهم وصغرهم وتنقصها فقال : (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون)

أى : يعتكفون عندها وخاضعون لها ؟ قالوا : (وجدنا آباءنا لها عابدين) ما كان حجتهم إلا صنيع الآباء والأجداد ، وما كانوا عليه من عبادة الأنداد (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين) . كما قال تعالى : **﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون . أئفكا آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾** قال قتادة : فما ظنكم به أنه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم غيره ؟ وقال لهم : (هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) سلموا له أنها لا تسمع داعيا ، ولا تنفع ولا تضر شيئا ، وإنما الحامل لهم على عبادتها الاقتداء بأسلافهم ومن هو مثلهم فى الضلال من الآباء الجهال ، ولهذا قال لهم : **﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾** وهذا برهان قاطع على بطلان آلهية ما ادعوه من الأصنام ، لأنه تبرأ منها وتنقص بها ، فلو كانت تضر لضرته ، أو تؤثر لأثرن فيه (قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) يقولون : هذا الكلام الذى تقوله لنا ، وتتنقص به آلهتنا ، وتطعن بسببه فى آبائنا ، تقوله محقا جادا فيه أم لاعبا ؟ (قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) يعنى : بل أقول لكم ذلك جادا محقا ، وإنما الهكم الله الذى لا إله إلا هو ربكم ورب كل شىء ، فاطر السموات والأرض ، الخالق لهما على غير مثال سبق ، فهو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وأنا على ذلكم من الشاهدين . وقوله (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين) : أقسم ليكيدن هذه الأصنام التى يعبدونها بعد أن تولوا مدبرين إلى عيدهم . قيل : انه قال هذه خفية فى نفسه وقال ابن مسعود : سمعه بعضهم وكان لهم عيد يذهبون إليه فى كل عام مرة إلى ظاهر البلد ، فدعاه ليحضره ، فقال : إنى سقيم . كما قال تعالى : **﴿ فنظر نظرة فى النجوم . فقال إنى سقيم ﴾** عرض لهم فى الكلام حتى توصل إلى مقصوده من إهانة أصنامهم ، ونصرة دين الله الحق فى بطلان

---

(١) الآيات : ٦٩ — ٨٣ من سورة الشعراء .

(٢) الآيات : ٨٣ — ٩٨ من سورة الصافات .

ماهم عليه من عبادة الأصنام التى تستحق أن تكسر وأن تهان غاية الاهانة ، فلما خرجوا إلى عيدهم واستقر هو فى بلدهم (راغ إلى آلهتهم) أى : ذهب إليها مسرعا مستخفيا فوجدها فى بهو عظيم ، وقد وضعوا بين أيديها أنواعا من الأطعمة قربانا لها فقال : لها على سبيل التهكم والازدراء : (ألا تأكلون . مالكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضربا باليمين) لانها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر فكسرها بقدوم فى يده ، كما قال تعالى : ﴿ **فجعلهم جذاذا** ﴾ أى : حطاما ، كسرها كلها (إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون) قيل : إنه وضع القدوم فى يد الكبير إشارة إلى أنه غار أن تعبد معه هذه الصغار ، فلما رجعوا من عيدهم ووجدوا ما حل بمعبودهم (قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) وهذا فيه دليل ظاهر لهم لو كانوا يعقلون وهو ما حل بآلهتهم التى كانوا يعبدونها ، فلو كانت آلهة لدفعت عن أنفسها من أرادها بسوء ، لكنهم قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم : (من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) أى : يذكرها بالعيب والتنقص لها والازدراء بها فهو المقيم عليها والكاسر لها ، وعلى قول ابن مسعود أى : يذكرهم بقوله : تعالى لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) أى : فى الملأ الأكبر على رءوس الاشهاد لعلهم يشهدون فعالته ، ويسمعون كلامه ، ويعانيون ما يحل به من الاقتصاص منه ، وكان هذا أكبر مقاصد الخليل ــ عليه السلام ــ أن يجتمع الناس كلهم فيقيم على جميع عباد الأصنام الحجة على بطلان ما هم عليه ، كما قال موسى ــ عليه السلام ــ لفرعون : ﴿ **موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى** ﴾[1] فلما اجتمعوا وجاءوا به كما ذكروا (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم . قال بل فعله كبيرهم هذا) قيل : هو الحامل لى على تكسيرها ، وإنما عرض لهم فى القول (فسئلوهم إن كانوا ينطقون) وإنما أراد بقوله هذا أن يبادروا إلى القول بأن هذه لا تنطق ، فيعترفوا بأنها جماد (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) أى : فعادوا على أنفسهم بالملامة فقالوا : إنكم أنتم الظالمون ، أى فى تركها لا حافظ لها ولا حارس عندها (ثم نكسوا على رءوسهم) قال السدى : أى : ثم رجعوا إلى الفتنة ، فعلى هذا يكون قوله : إنكم أنتم الظالمون ، أى : فى عبادتها . وقال قتادة : أدركت القوم حيرة سوء ، أى : فأطرقوا ثم قالوا : (لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) أى : لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق ، فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ فعند ذلك قال لهم الخليل ــ عليه السلام ــ (أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) كما قال تعالى : (فأقبلوا إليه يزفون) أى : يسرعون . (قال أتعبدون ما تنحتون) أى : كيف تعبدون أصناما أنتم تنحتونها من الخشب والحجارة ، وتصورونها وتشكلونها كما تريدون ؟! (والله خلقكم وما تعملون) وسواء كانت (ما) مصدرية أو بمعنى (الذى) فمقتضى الكلام أنكم مخلوقون وهذه الأصنام مخلوقة ، فكيف يعبد مخلوق مخلوقا مثله ، فإنه ليس عبادتكم لها بأولى من عبادتها لكم ، وهذا باطل ، فالآخر باطل للتحكم ، إذ ليست العبادة تصلح ولا تجب إلا للخالق وحده لا شريك له (قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجة ولا شبهة

---

(١) من الآية : ٥٩ من سورة طه .

ـ إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم ، فكادهم الرب ـ جل جلاله ـ وأعلى كلمته ودينه وبرهانه ، كما قال تعالى : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم . وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبا من جميع ما يمكنهم من الأماكن ، فمكثوا مدة يجمعون له حتى أن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبا لحريق إبراهيم ، ثم عمدوا إلى حوبة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلاها شرر لم ير مثله قط .

ثم وضعوا ابراهيم ـ عليه السلام ـ فى كفة منجنيق صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له (هزن) وكان أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ، ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول : لا إله إلا أنت سبحانك ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك ، فلما وضع الخليل ـ عليه السلام ـ فى كفة المنجنيق مقيدا مكتوفا ثم ألقوه منه إلى النار قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، كما روى البخارى عن ابن عباس أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل . قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد حين قيل له : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء** ﴾ الآية[1] .

وقال أبو يعلى عن أبى هريرة قال : قال ـ ﷺ ـ (لما ألقى إبراهيم فى النار قال : اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك .

وذكر بعض السلف أن جبريل عرض له فى الهواء فقال : ألك حاجة ؟ فقال : أما إليك فلا . ويروى عن ابن عباس وسعيد بين جبير أنه قال : جعل ملك المطر يقول : أومر فأرسل المطر ، فكان أمر الله أسرع ، قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم) قال على بن أبى طالب : أى : لا تضربه . وقال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله ـ تعالى ـ قال : وسلاما على إبراهيم لآذى إبراهيم بردها .

وقال كعب الأحبار : لم ينتفع أهل الأرض يومئذ بنار ، ولم يحرق منه سوى وثاقه . وقال الضحاك : يروى أن جبريل ـ عليه السلام ـ كان معه يمسح العرق عن وجهه ، ولم يصبه منها شىء غيره . وقال السدى : كان معه أيضا ملك الظل . وصار إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى ميل الحوبة حوله النار وهو روضه خضراء والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول إليه ، ولا هو يخرج اليهم ، فعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لما أرى ولده على تلك الحال : نعم الرب ربك يا إبراهيم وروى ابن عسكر من عكرمة أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها ـ عليه السلام ـ فنادته : يا بنى إنى أريد أن أجىء اليك ، فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك . فقال : نعم . فأقبلت إليه لا يمسها شىء من حر

---

(١) الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

والحديث رواه البخارى فى (كتاب تفسير القرآن) باب : إن الناس قد جمعوا لكم .. الآية ج ٣ ص ٧٥ (صحيح البخارى بحاشية السندى ـ طبع المطبعة العثمانية المصرية سنة ١٩٣٢) .

النار . فلما وصلت اليه اعتنقته وقبلته ثم عادت .

وعن المنهال بن عمرو أنه قال : أخبرت أن إبراهيم مكث هناك إما أربعين وإما خمسين يوما ، وإنه قال : ما كنت أياما وليالى أطيب عيشا إذ كنت فيها ، ووددت أن أعيش وحياتى كلها مثل إذ كنت فيها — صلوات الله وسلامه عليه — فأرادوا أن ينتصروا فخذلوا ، وأرادوا أن يرتفعوا فاتضعوا ، وأرادوا أن يغلبوا فغلبوا . قال الله تعالى : ﴿ **وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ وفى الآية الأخرى : ﴿ **الأسفلين** ﴾ ففازوا بالخسارة والسفال ، وهذا فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فإن نارهم لا تكون عليهم بردا ولا سلاما ، ولا يلقون فيها تحية ولا سلاما ، بل هى كما قال تعالى : ﴿ **إنها ساءت مستقرا ومقاما** ﴾[١] .

قال البخارى : عن أم شريك أن — ﷺ — أمر بقتل الوزغ ، وقال : كان ينفخ على إبراهيم[٢] وقال أحمد : إن نافع مولى ابن عمر أخبره أن عائشة أخبرته أن — ﷺ — قال : (اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم[٣] قال : فكانت عائشة تقتلهن . وقال أحمد : عن نافع أن إمرأة دخلت على عائشة فإذا رمح منصوب ، فقالت : ما هذا الرمح ؟ فقالت نقتل به الأوزاغ ، ثم حدثت عن — ﷺ — أن إبراهيم لما ألقى فى النار جعلت الدواب تطفى عنه إلا الوزغ ، فإنه جعل ينفخها عليه . تفرد به أحمد من هذين الوجهين[٤] .

ذكر مناظرة إبراهيم الخليل مع من ادعى الربوبية وهو أحد العبيد الضعفاء

قال الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت ، قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[٥] يذكر — تعالى — مناظرة خليله من هذا الملك الجبار المتمرد الذى ادعى لنفسه الربوبية ، فأبطل الخليل — عليه السلام — دليله ، وبين كثرة جهله وقلة عقله ، وألجمه الحجة ، وأوضح له طريق الحجة .

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار أوهذا الملك هو ملك بابل ، واسمه النمرود ابن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، قاله مجاهد وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه قد ملك الدنيا — فيما ذكروا — أربعة : مؤمنان وكافران . فالمؤمنان : ذو القرنين وسليمان ، والكافران : النمرودوبختنصر . وذكروا أن نمرود هذا استمر فى ملكه أربعمائة سنة ، وكان قد طغى وبغى وتجبر وعتا ، وآثر الحياة الدنيا .

---

(١) الآية : ٦٦ من سورة الفرقان .
(٢) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ رزوق (كتاب أحاديث الأنبياء) باب قوله تعالى : بل فعله كبيرهم هذا ج ٦ ص ٣٥٨ رقم ٣٩
(٣) سند احمد (مسند عائشة رضى الله عنها) ج ٦ ص ٢٠٠
(٤) انظر مسند احمد (مسند عائشة) ج ٦ ص ٨٣ ، ص ١٠٩ ، ص ٢١٧
(٥) الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع ، فحاج إبراهيم الخليل فى ذلك وادعى لنفسه الربوبية . فلما قال الخليل : ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت .

قال قتادة والسدى ومحمد بن إسحق : يعنى أنه إذا أوتى بالرجلين قد تحتم قتلهما ، فإذا أمر بقتل أحدهما وعفا عن الآخر فكأنه قد أحيا هذا وأمات هذا ، وهذا ليس بمعارضة للخليل بل هو كلام خارجى عن مقام المناظرة ، ليس بمنع ولا بمعارضة بل هو تشغيب محض ، وهو انقطاع فى الحقيقة ، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها على وجود فاعل ذلك الذى لابد من استنادها إلى وجوده : ضرورة عدم قيامها بنفسها ، ولابد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر ، خلق هذه الحيوانات التى توجد مشاهدة ثم إماتتها ، ولهذا ﴿**قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت**﴾[1] فقول هذا الملك الجاهل : أنا أحيى وأميت إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند ، وإن عنى ما ذكره قتادة والسدى ومحمد بن إسحاق فلم يقل شيئا يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل .

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم ذكر دليلا آخر بين وجود الصانع وبطلان ماادعاه النمرود وانقطاعه جهرة ﴿**قال فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب**﴾[2] أى : هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء . فإن كنت كما زعمت من أنك الذى تحيى وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب ، فإن الذى يحيى ويميت هو الذى يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب ، بل قد قهر كل شىء ودان له كل شىء ، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا ، فإن لم تفعله فلست كما زعمت وأنت تعلم وكل أحد أنك لا تقدر على شىء من هذا ، أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها . فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما أدعاه وبطلان ما سلكه وسكت ، ولهذا قال ﴿ **فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[3] .

وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود يوم خرج من النار ، ولم يكن اجتمع به يومئذ ، فكانت بينهما هذه المناظرة .

وقد روى عبد الرزاق بن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم فى حجلة من وفد للميرة ، فكان بينهما هذه المناظرة ، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس ، بل خرج وليس معه شىء من الطعام ، فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه ، وقال : أشغل أهلى إذا قدمت عليهم ، فلما قدم وضع رحاله وجاء فنام ، فقامت امرأته سارة

(١) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٣) من الآية : ٢٥٨ من سورة البقرة .

إلى العدلين .فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت منه طعاما ، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه ، فقال : أنى لكم هذا ؟ قالت من الذى جئت به ، فعرف أنه رزقهموه الله — عز وجل — قال زيد بن أسلم : وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالايمان بالله فأبى عليه ، ثم دعاه الثانية فأبى عليه ، ثم الثالثة فأبى عليه ، وقال : أجمع جموعك ، وأجمع جموعى ، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس ، فأرسل الله عليه بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس ، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ، ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمائة سنة عذبه الله تعالى بها ، فكان يضرب رأسه بالمرزاب فى هذه المدة كلها حتى أهلكه الله — عز وجل — بها .

هجرة الخليل إلى بلاد الشام ثم الديار المصرية واستقراره فى الأرض المقدسة

قال الله : ﴿ **فآمن له لوط ، وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين . ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين . وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين** ﴾[2] .

لما هجر قومه فى الله وهاجر من بين أظهرهم ، وكانت إمرأته عاقرا لا يولد لها ، ولم يكن له من الولد أحد ، بل معه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر ، وهبه الله تعالى — بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل فى ذريته النبوة والكتاب ، فكل نبى بعث بعده فهو من ذريته ، وكل كتاب نزل من السماء على نبى من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه ، خلعة من الله وكرامة له حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيها من عبادة ربه — عز وجل — ودعوة الخلق إليه ، والأرض التى قصدها بالهجرة أرض الشام ، وهى التى قال الله — عز وجل : ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾ قال أبى بن كعب وأبو العالية وقتادة وغيرهم . وروى العوفى عن ابن عباس قوله : ﴿ **إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين** ﴾ مكة ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين** ﴾[3] .

ثم المشهور أن إبراهيم — عليه السلام — لما هاجر من بابل خرج بسارة مهاجرا من بلاده كما تقدم ، والله أعلم . وذكر أهل الكتاب أنه لما قدم الشام أوحى الله إليه : إنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك ، فابتنى إبراهيم مذبحا لله شكرا على هذه النعمة ، وضرب قبته شرق بيت المقدس ، ثم انطلق مرتحلا إلى

(١) الآيتان : ٢٦ — ٢٧ من سورة العنكبوت

(٢) الآيتان : ٧١ — ٧٣ من سورة الأنبياء

(٣) الآية : ٩٦ من سورة آل عمران .

التيمن ، وأنه كان جوع ، أى : قحط وشدة وغلاء ، فارتحلوا إلى مصر ، وذكروا قصة سارة مع ملكها وأن إبراهيم قال لها : قولى : أنا أخته ، وذكروا إخدام الملك إياها هاجر . ثم أخرجهم منها فرجعوا إلى بلاد التيمن ، يعنى : أرض بيت المقدس وما والاها ومعه دواب وعبيد وأموال .

وقد قال البخارى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات اثنتان منهن فى ذات الله ، قوله : ﴿ إنى سقيم ﴾ وقوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم** ﴾ وقال : بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له : ههنا رجل معه إمرأة من أحسن الناس فأرسل إليه وسأله عنها ، فقال : من هذه . قال : أختى فأتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، وإن هذا سألنى فأخبرته أنك أختى ، فلا تكذبينى ، فأرسل إليها ، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فأخذ . فقال : ادعى الله ولا أضرك ، فدعت الله فأطلق . ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها ، أو أشد ، فقال : ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعا بعض صحبته فقال : إنكم لم تأتو لى بإنسان ، وإنما أتيتمونى بشيطان ، فاخدمها هاجر ، فأتته وهو قائم يصلى فأومأ بيده : مهيم ، فقالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره واخدم هاجر . قال ابو هريرة : فتلك أمكم يا بنى ماء السماء)[1] تفرد به من هذا الوجه موقوفا .

وقال الامام أحمد : عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال رسول الله ــ ﷺ ــ (لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال : (إنى سقيم) وقوله : (بل فعله كبيرهم هذا) وقوله لسارة : (إنها أختى) قال : ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك ... أو جبار من الجبابرة ــ فقيل : دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال : فأرسل إليه الملك ــ أو جبار من الجبابرة ــ فقيل : قال : أختى ، قال : فأرسل بها ، قال : فأرسل بها إليه وقال : لا تكذبى قولى ، فإنى قد أخبرته أنك أختى ، ليس على الأرض مؤمن غيرى وغيرك ، فلما دخلت عليه قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر) قال : فغط حتى ركض برجله . قال أبو الزناد : قال أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة : إنها قالت : اللهم إن يمت يقال هى قتلته ، قال : فأرسل ، ، قال : ثم قام إليها ، قال : فقال فى الثالثة أو الرابعة : ما أرسلتم إلى إلا شيطانا ، ارجعوها إلى إبراهيم وأعطوها هاجر ، قال : فرجعت ، فقالت لابراهيم : أشعرت أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة ؟)[2] تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط الصحيح .

وقال ابن أبى حاتم : عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ فى كلمات إبراهيم الثلاث التى قال : (ما منها كلمة إلا ما حل بها عن دين الله ، فقال : (إنى سقيم) وقال : (بل فعله كبيرهم هذا) وقال للملك حين أراد امرأته : هى أختى .

فقوله فى الحديث : هى أختى ، أى : فى دين الله ، وقوله لها : إنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى

(١) انظر صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب أحاديث الأنبياء) ح ٦ ص ٣٣٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ رقم ٣٨ .

(٢) مسند الامام أحمد (مسند أبى هريرة) ح ٢ ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ .

وغيرك يعنى زوجين مؤمنين غيرى وغيرك ، ويتعين حمله على هذا ، لأن لوطا كان معهم وهو نبى ـ عليه السلام ـ وقوله لها لما رجعت : مهيم : معناه : ما الخبر ؟ فقالت : إن الله رد كيد الكافرين .. وفى رواية (الفاجر) وهو الملك وأخدم جارية .

وكان إبراهيم ـ عليه السلام ـ من وقت ذهب بها إلى الملك قام يصلى لله ـ عز وجل ـ ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء ، وهكذا فعلت هى أيضا ، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمرا قامت إلى وضوئها وصلاتها.ودعت الله ـ عز وجل ـ بما تقدم من الدعاء العظيم ، ولهذا قال ـ تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[1] فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم ـ عليه السلام .

وقد ذهب بعض العلماءُ إلى نبوة ثلاث نسوة : سارة ، وأم موسى ، ومريم ـ عليهن السلام ـ والذى عليه الجمهور أنهن صديقات ـ رضى الله عنهن وأرضاهن ـ ورأيت فى بعض الآثار أن الله ـ عز وجل ـ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وبينها ، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه ، وكان مشاهدا لها وهى عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه ، وأقرب لعينه ، وأشد لطمأنينته ، فإنه كان يحبها حبا شديدا لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر ، فإنه قد قيل : إنه لم تكن إمرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها ـ رضى الله عنها ـ ولله الحمد والمنة .

ثم إن الخليل عليه السلام ـ رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن ، وهى الأرض المقدسة التى كان فيها ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية ، ثم إن لوطا ـ عليه السلام ـ نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك إلى أرض الغور المعروف بغور زغر ، فنزل بمدينة سدوم وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان ، وكان أهلها أشرارا كفاراً فجارا ، وأوحى الله تعالى ـ إلى إبراهيم الخليل فأمره أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى الدهر ، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض . وهذه البشارة اتصلت بهذه الأمة بل ما كملت ولا كانت أعظم منها فى هذه الأمة المحمدية .

يؤيد ذلك قول رسول الله ـ ﷺ ـ (إن الله زوى لى الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها)[2] قالوا : ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط ـ عليه السلام ـ فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه ، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشر رجلا ، فاستنقذ لوطا ـ عليه السلام ـ واسترجع أمواله ، وقتل من أعداء الله ورسوله خلقا كثيرا ، وهزمهم وساق فى آثارهم حتى

(١) من الآية : ٤٥ من سورة البقرة .

(٢) هذا جزء حديث رواه أحمد فى مسنده (ثوبان) ح ٥ ص ٢٧٨ ، ٢٨٤ وفى ح ٥ ص ١٢٣ ومسند شداد بن أوس . وانظر صحيح مسلم (كتاب الفتن) باب : هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ح ٤ ص ٢٢١٥ رقم ١٩ / ٢٨٨٩ ورواه أبو داود فى سننه ح ٤ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ رقم ٤٢٥٢ ورواه ابن ماجة فى سننه فى (الفتن) ح ٢ ص ١٣٠ رقم ٣٩٥٢ وانظر سنن الترمذى (الفتن) ح ٣ ص ٣١٩ رقم ٢٢٦٧ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وصل إلى شرق دمشق ، وعسكر بظاهرها عند برزة ، وأظن مقام إبراهيم إنما سمى لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم .

ثم رجع مؤيدا منصورا إلى بلاده ، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له ، مكرمين خاضعين ، واستقر ببلاده ــ صلوات الله وسلامه عليه .

ذكر مولد إسماعيل ــ عليه السلام ــ من هاجر

قال أهل الكتاب : إن إبراهيم سأل الله ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك ، وأنه لما كان لابراهيم ببلاد المقدس عشرون سنة قالت سارة لابراهيم ــ عليه السلام ــ إن الرب قد أحرمنى الولد ، فادخل على أمتى هذه لعل الله يرزقنى منها ولدا .

فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم ــ عليه السلام ــ فحين دخل بها حملت منه ، قالوا : فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها ، فغارت منها سارة ، فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها : افعلى بها ما شئت فخافت هاجر فهربت ، فنزلت عند عيث هناك ، فقال لها ملك من الملائكة : لا تخافى ، فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيرا ، وأمرها بالرجوع وبشرها أنها ستلد ابنا وتسميه إسماعيل ، ويكون وحش الناس ، يده على الكل ، ويد الكل به ، ويملك جميع بلاد إخوته ، فشكرت الله ــ عز وجل ــ على ذلك .

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فإنه الذى سادت به العرب وملكت جميع البلاد غربا وشرقا ، وآتاها الله من العلم النافع والعمل الصالح مالم تؤت أمة من الأمم قبلهم ، وماذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل ، وبركة رسالته ، ويمن بشارته ، وكماله فيما جاء به ، وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر وضعت إسماعيل ــ عليه السلام ــ قالوا : وولدته ولابراهيم من العمر ستة وثمانون سنة ، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة ، ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره باسحق من سارة ، فخر لله ساجدا ، وقال له : قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته جدا كثيرا ، ويولد له أثنا عشر عظيما ، وأجعله رئيسا لشعب عظيم .

وهذه أيضا بشارة بهذه الأمة العظيمة ، وهؤلاء الاثنا عشر عظيما هم الخلفاء الراشدون الاثنا عشر فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة عن النبى ــ ﷺ ــ قال : (يكون اثنا عشر أميرا) ثم قال كلمة لم أفهمها ، فسألت أبى : ما قال ؟ قال : (كلهم من قريش)[1] أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية : لا يزال هذا الأمر قائما . وفى رواية : عزيزا حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش .

---

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (كتاب الأحكام) باب بأن فى الاستخلاف ح ٤ ص ١٦٨ وانظر صحيح مسلم (كتاب الامارة) ح ٣ ص ١٤٥٣ رقم ٩ – ١٨٢١ ، ٦ ، ٧ ، ٨ – ١٨٢١ وانظر الترمذى (كتاب القدر) باب : ما جاء فى الخلفاء ح ٣ ص ٢٤٠ رقم ٢٣٢٣ .

فهؤلاء منهم الأئمة الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، ومنهم عمر بن عبد العزيز أيضا ، ومنهم بعض بنى العباس ، وليس المراد أنهم يكونون اثنى عشر نسقا بل لابد من وجودهم .

وليس المراد الأئمة الاثنى عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة ، الذى أولهم على بن أبى طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامرا ، وهو محمد ابن الحسن العسكرى ــ فيما يزعمون ــ فإن أولئك لم يكن فيهم أنفع من على وابنه الحسن بن على حين ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية وأخمد نار الفتنة ، وسكن رحى الحروب بين المسلمين ، والباقون من حجلة الرعايا لم يكن لهم حكم على الأمة فى أمر من الأمور .

وأما ما يعتقدونه بسرداب سامرا فذاك هو فى الرفوس ، وهذيان فى النفوس ، لا حقيقة له ولا عين ولا أثر .

والمقصود أن هاجر ــ عليها السلام ــ لما ولد لها إسماعيل اشتدت غيرة سارة منها وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها ، فسار بهما حتى وضعها حيث مكة اليوم ، ويقال ان ولدها كان إذ ذاك رضيعا ، فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر ، وتعلقت بثيابه ، وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ههنا وليس معنا ما يكفينا فلم يجبها ، فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها ، قالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت : فإذا لا يضيعنا .

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن زيد ــ رحمة الله ــ فى كتاب (النوادر) أن سارة تغضبت على هاجر ، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها ، فأمر الخليل أن تثقب أذنيها وأن تخفضها فتبر قسمها . قال السهلين : فكانت أول من اختتن من النساء ، وأول من ثقبت أذنها منهن ، وأول من طولت ذيلها .

ذكر مهاجرة إبراهيم بابنه إسماعيل وأم هاجر
إلى جبال فاران وهى أرض مكة وبناء البيت العتيق

قال البخارى عن ابن عباس قال : أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ، ثم قض إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به إنس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم قالت : إذا لا يضيعنا . ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عن الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال : ﴿ **ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** ﴾[1] وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ــ أو قال : يتلبط ــ

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة إبراهيم .

فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود ، حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ — فلذلك سعي الناس بينهما . فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : حية — تريد نفسها — ثم تسمعت فسمعت أيضا — فقالت : قد أسمعت ، إن كان عندك غواث ؟ فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه .. أو قال : بجناحة — حتي ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهى تفور بعد ما تغرف . قال ابن عباس : قال النبى — ﷺ — (يرحم الله أم إسماعيل ، لو تركت زمزم — أو قال : لو لم تغرف الماء — لكانت زمزم عينا معينا) فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبواه وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائقا ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : تأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ .

قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا ، قالوا : نعم . قال عبد الله بن عباس : قال النبى — ﷺ — فألغى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم ، فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه إمرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل فسأل إمرأته ؟ فقالت : خرج يبتغى لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بشر ، فى حنيق وشدة وشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك اقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول لك : غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وأمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج منهم أخرى ، ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على إمرأته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا . قال : كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء قال النبى — ﷺ — ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه (وعن الثعلبى : فلو جاءت يومئذ بخبز أو بر أو شعير أو تمر لكانت مكة أكثر أرض الله برا وشعيرا وتمرا) .

قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومر به يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم

من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى ، وأمرنى أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاله تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد . ثم قال : يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك به ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعنيك ، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[1] قال وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[2] .

ثم قال : عن ابن عباس قال : لما كان إبراهيم وأهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء . وذكر تمامه بنحو ما تقدم ، وهذا الحديث من كلام ابن عباس وموشح برفع بعضه وفى بعضه غرابة ، وكأنه مما تلقاه ابن عباس عن الاسرائيليات وفيه أن إسماعيل كان رضيعا إذ ذاك . وعند أهل التوراة أن إبراهيم أمره الله بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره ، فيكون عمر إسماعيل يومئذ ثلاث عشرة سنة ، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل وفى أهله ، فيدل على أنه فعله على وجه الوجوب ، ولهذا كان الصحيح من أقوال العلماء أنه واجب على الرجال كما هو مقرر فى موضعه .

وقد ثبت فى الحديث الذى رواه البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبى ـ ﷺ ـ (اختتن إبراهيم النبى ـ عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم)[3] والقدوم : هو الآلة ، وقيل : موضع .

قصة الذبيح

قال الله تعالى : ﴿ **وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين رب هب لى من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت أفعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا إبراهيم . قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم . وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزى المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين . وبشرناه باسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾ .

---

(١) من الآية : ١٣٧ من سورة البقرة .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق فى (كتاب أحاديث الأنبياء) ح ٦ ص ٣٦٠ - ٣٦٨ رقم ٤٤ وانظر رقم ٤٥ من نفس المصدر ص ٣٦٨ - ٣٧١ .

(٣) انظره فى صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق فى (كتاب أحاديث الأنبياء) ح ٦ ص ٣٥٤ رقم ٣٦ .

يذكر ـ تعالى ـ عن خليله إبراهيم أنه لما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا ، فبشره الله تعالى ـ بغلام حليم هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل ، وهذا مالا خلاف فيه بين أهل الملل ، لأنه أول ولد وبكره ، وقوله : ﴿ **فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى : شب وصار يسعى فى مصالحه كأبيه ، قال مجاهد : ﴿ (**فلما بلغ معه السعى** ﴾ أى : شب وارتحل وأطاق ما يفعله أبوه من السعى والعمل ، فلما كان هذا رأى إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا ، وفى الحديث عن ابن عباس مرفوعا : (رؤيا الأنبياء وحى) [1] قال عبيد ابن عمير : وهذا اختيار من الله ـ عز وجل ـ لخليله فى أن يذبح الولد العزيز الذى جاءه على كبر وقد طعن فى السن ، بعد ما أمر بأن يسكنه هو وأمه فى بلاد قفر وواد ليس به جليس ولا أنيس ولا خرع ، فامتثل أمر الله فى ذلك وتركهما هناك ثقة بالله وتوكلا عليه ، فجعل الله لهما فرجا ومخرجا ورزقهما من حيث لا يحتسبان . ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده الذى قد أفرده عن أمر ربه وهو بكره ووحيده الذى ليس له غيره أجاب ربه وامتثل أمره وسارع إلى طاعته ، ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا (قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى) . فبادر الغلام الحليم سر والده الخليل إبراهيم فقال : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد ، قال الله تعالى : ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين** ﴾ قيل : أسلما ، أى : استسلما لأمر الله وعزما على ذلك . وقيل : هذا من المقدم والمؤخر ، والمعنى : للجبين ، أى : ألقاه على وجهه . قيل : أراد أن يذبحه من قفاه لئلا يشاهده حال ذبحه ، قاله ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وقيل : بل أضجعه كما تضجع الذبائح وبقى طرف جبينه لاحقا بالأرض ، وأسلما ، أى : سمى إبراهيم وكبر ، وتشهد الولد للموت . قال السدى وغيره : أمر السكين على حلقه فلم تقطع شيئا ، ويقال : جعل بينها وبين حلقه صفيحة من نحاس . والله أعلم .

فعند ذلك نودى من الله ـ عز وجل ـ ﴿ **أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾ أى : قد حصل المقصود من اختيارك وطاعتك ومبادرتك إلى ربك ، وبذلت ولدك للقربان كما سمحت ببدنك للنيران ، وكما مالك مبذول للضيفان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن هذا لهو البلاء المبين** ﴾ أى : الاختيار الظاهر البين . وقوله : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ أى : وجعلناه فداء ذبح ولده ما يسره الله تعالى ـ له من الفوضى عنه ، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعين أقرن رآه مربوطا بسمرة فى ثبير . قال الثورى : عن ابن عباس قال : كبش قد رعى فى الجنة أربعين خريفا . وقال سعيد بن جبير : كان يرفع فى الجنة حتى تشقق عنه ثبير ، وكان عليه عهن أحمر . وعن ابن عباس : هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء ، فذبحه ، وهو الكبش الذى قربه ابن آدم فتقبل منه . رواه ابن أبى حاتم .

قال مجاهد : فذبحه بمنى . وقال عبيد بن عمير : ذبحه بالمقام . فأما ما روى عن ابن عباس أنه كان وعلا ، وعن الحسن أنه كان يتسأ من الأروى ، واسمه جرير فلا يكاد يصح عنهما . ثم غالب ما ههنا من

(١) أنظر المستدرك ح ٤ ص ٣٩٦

الآثار مأخوذ من الاسرائيليات . وفى القرآن كفاية عما جرى من الأمر العظيم ، والاختبار الباهر ، وأنه فدى بذبح عظيم . وقد ورد فى الحديث أنه كان كبشا .

قال الامام أحمد : عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا قالت : أرسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى عثمان بن طلحة ، وقال مرة : إنها سألت عثمان : لم دعاك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك آن تخمرها ، فخمرهما ، فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى . قلل سعفان : لم تزل قرنا الكبش فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا[1] وهذا روى عن ابن عباس أن رأس الكبش لم يزل معلقا عند ميزاب الكعبة قد يبس . وهذا وحده دليل على أن الذبيح اسماعيل ، لأنه كان هو المقيم بمكة . وإسحق لا نعلم أنه قدمها فى حال صغره . والله أعلم .

وهذا هو الظاهر من القرآن ، بل كأنه نص على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده : (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين) ومن جعله (حالا) فقد تكلف ، ومستنده أنه إسحق إنما هو إسرائيليات ، وكتابهم فيه تحريف ولا سيما ههنا قطعا لا محيد عنه ، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده ، وفى نسخة من المعربة : بكره (إسحق) فلفظة (إسحق) ههنا مقحمة مكذوبة مفتراة ، لأنه ليس هو الوحيد ولا البكر . ذاك إسماعيل . وإنما حملهم على هذا حسد العرب ، فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإسحق والد يعقوب وزادوا فيه ، وهم قوم بهت ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء .

وقال عبد الله بن الامام أحمد عن أبيه : هو إسماعيل . وقال ابن أبى حاتم : سألت أبى عن الذبيح ، فقال : الصحيح أنه إسماعيل — عليه السلام — قال ابن أبى حاتم : وروى عن على وابن عمر وأبى هريرة وأبى الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد ابن جبير ، والحسن ومجاهد والشعبى ومحمد بن كعب وأبى جعفر محمد بن على وأبى صالح : أنهم قالوا : الذبيح هو إسماعيل — عليه السلام — وحكاه النبوى أيضا عن الربيع بن أنس والكلبى وأبى عمرو بن العلاء . قلت : وروى عن معاوية ، وجاء عنه أن رجلا قال لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — يا ابن الذبيحين ، فضحك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإليه ذهب عمر بن عبد العزيز ومحمد بن إسحق بن يسار ، وكان الحسن البصرى يقول : لا شك فى هذا .

وقال محمد بن إسحق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمى عن محمد بن كعب أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز وهو خليفة إذ كان معه بالشام ، يعنى استدلاله بقوله بعد العصمة : (فبشرناه بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب) فقال له عمر : إن هذا الشىء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت ، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم ، قال : فسأله عمر بن عبد العزيز : أى ابنى إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل — والله — يا أمير المؤمنين ، وإن

(١) انظر مسند أحمد (حديث صفية بنت شيبة : إمرأة من بنى سليم) ح ٤ ص ٦٨ وانظر ح ٥ ص ٣٨٠ .

اليهود لتعلّم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذى كان من أمر الله فيه والفضل الذى ذكره الله منه لصبره لما أمر به ، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحق : لأن إسحق أبوهم . وقد ذكرنا هذه المسألة متقصاة بأدلتها واثارها فى كتابنا التفسير . ولله الحمد والمنة .

(مولد إسحاق)

قال الله تعالى : ﴿ **وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين . وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾[1] وقد كانت البشارة به من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهم مجتازين ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم – كما سيأتى بيانه فى موطنه إن شاء الله تعالى – قال الله تعالى : ﴿ **ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث ان جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ، وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ، قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم . قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين ، فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾[4] .

يذكر تعالى أن الملائكة قالوا وكانوا ثلاثة جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل لما وردوا على الخليل حسبهم أضيافا فعاملهم معاملة الضيوف شوى لهم عجلا سمينا من خيار بقره فلما قربه إليهم وعرض عليهم لم ير لهم همة إلى الأكل بالكلية وذلك لأن الملائكة ليس فيهم قوة الحاجة إلى الطعام (فنكرهم) إبراهيم ﴿ **وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾[5] أى : لندمر عليهم ، فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم وكانت قائمة على رؤس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم فلما ضحكت استبشارا بذل قال الله تعالى : ﴿ **فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب** ﴾[6] أى : بشرتها الملائكة

---

(١) الآيتان رقم ١١٢ – ١١٣ من سورة الصافات .

(٢) الآيات ٦٩ – ٧٠ – ٧١ – ٧٢ – ٧٣ من سورة هود .

(٣) الآيات ٥١ – ٥٢ – ٥٣ – ٥٤ – ٥٥ – ٥٦ من سورة الحجر .

(٤) الآيات ٢٤ – ٢٥ – ٢٦ – ٢٧ – ٢٨ – ٢٩ – ٣٠ من سورة الذاريات .

(٥) جزء من الآية رقم ٧٠ من سورة هود .

(٦) من الآية رقم ٧١ من سورة هود .

بذلك ﴿ فاقبلت امرأته فى صرة ﴾[١] أى : فى صرخة ﴿ فصكت وجهها ﴾[٢] أى : كما يفعل النساء عند التعجب ﴿ وقالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ﴾[٣] أى : كيف يلد مثلى وأنا كبيرة وعقيم أيضا وهذا بعلى : زوجى شيخا ، تعجبت من وجود ولد والحالة هذه ، ولهذا قالت : ﴿ إن هذا لشىء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾[٤] وكذلك تعجب إبراهيم عليه السلام استبشارا بهذه البشارة وتثبيتا لها وفرحا بها ﴿ قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون . قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾[٥] أكدوا الخبر بهذه البشارة ، وقرروه معه فبشروهما ﴿ بغلام عليم ﴾[٦] وهو إسحق وأخوه إسماعيل غلام حليم مناسب لمقامه وصبره ، وهكذا وصفه ربه بصدق الوعد والصبر . وقال : فى الآية الأخرى : ﴿ فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾[٧] وهذا مما استدل به محمد بن كعب القرظى وغيره على أن الذبيح هو إسماعيل وان إسحق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب المشتق من العقب من بعده .

فقوله تعالى : ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب ﴾[٨] دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إسحق ثم من بعده بولد ولده يعقوب أى : يولد فى حياتهما لتقر أعينهما به كما قرت بولده ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إسحق فائدة ولما عين بالذكر دل على أنهما يتمتعان به ويسران بولده كما بمولد أبيه من قبله وقال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ﴾[٩] وقال تعالى : ﴿ فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب ﴾[١٠] وهذا إن شاء الله ظاهر قوى ويؤيده ما ثبت فى الصحيحين من حديث سليمان بن مهران الأعمشى عن إبراهيم بن زيد التيمى عن أبيه عن أبى ذر قال : قلت : يا رسول الله ، أى : مسجد وضع أول ؟ قال : (المسجد الحرام قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت كم بينها قال : أربعون سنة قلت ثم أى ؟ قال : ثم حيث أدركت الصلاة فصل فكلها مسجد)[١١] وعند أهل الكتاب أن يعقوب عليه السلام هو الذى أسس المسجد الأقصى وهو مسجد ايليا بيت المقدس شرفه الله . وهذا متجه ويشهد له ما ذكرناه من الحديث فعلى هذا يكون بناء يعقوب وهو إسرائيل عليه السلام بعد بناء الخليل وابنه إسماعيل المسجد الحرام بأربعين

---

(١) من الآية رقم ٢٩ من سورة الذاريات .

(٢) من الآية رقم ٢٩ من سورة الذاريات .

(٣) من الآية رقم ٧٢ من سورة هود .

(٤) من الآية رقم ٧٢ — ٧٣ من سورة هود .

(٥) الآيتان ٥٤ — ٥٥ من سورة الحجر .

(٦) من الآية ٥٣ من سورة الحجر .

(٧) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٨) من الآية ٧١ من سورة هود .

(٩) من الآية ٨٤ من سورة الأنعام .

(١٠) من الآية ٤٩ من سورة مريم .

(١١) انظر صحيح مسلم ج ١ كتاب المساجد ص ٣٧٠ رقم ٥٢٠ .

سنة سواء وقد كان بناؤهما ذلك بعد وجود إسحق لان إبراهيم عليه السلام لما دعا قال : فى دعائه كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ، ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفى وما نعلن وما يخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾(١) . وما جاء فى الحديث ان سليمان بن دواد عليهما السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثا كما ذكرناه عند قوله : ﴿ قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾(٢) وكما سنورده فى قصته فالمراد من ذلك والله أعلم أنه جدد بناءه كما تقدم من أن بينهما أربعين سنة ولم يقل أحد إن بين سليمان وإبراهيم أربعين سنه سوى ابن حبان فى تقاسيمه وأنواعه وهذا القول لم يوافق عليه ولا سبق إليه .

قال الله تعالى : ﴿ وإذ بوءنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ، وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين . فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا ، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا . ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين ، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وآمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير ، وإذا يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾(٥).

يذكر تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء عليه أفضل صلات وتسليم أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه وبوأه الله مكانه أى : أرشده إليه

---

(١) الآيات ٣٥ — ٤١ من سورة إبراهيم .

(٢) من الآية ٣٥ من سورة ص .

(٣) الآيتان ٢٦ — ٢٧ من سورة الحج .

(٤) الآيتان ٩٦ — ٩٧ من سورة آل عمران .

(٥) الآيتان ١٢٤ — ١٢٩ من سورة البقرة .

بوحى من الله ــ عز وجل ــ وقد قدمنا فى صفة خلق السموات أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث أنه لو سقط لسقط عليها وكذلك معابد السموات السبع كما قال : بعض السلف أن فى كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء وهو فيها كالكعبة لأهل الأرض ، فأمر الله تعالى إبراهيم ــ عليه السلام ــ أن يبنى له بيتا يكون لأهل الأرض كتلك المعابد لملائكة السموات وأرشده الله إلى مكان البيت المهيأ له المعين لذلك منذ خلق السموات والأرض كما ثبت فى الصحيحين أن هذا البلد حرمة الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ولم يجىء فى خبر صحيح عن المعصوم أن البيت كان مبينا قبل الخليل ــ عليه السلام ــ ومن تمسك فى هذا بقوله مكان البيت فليس بناهض ولا ظاهر لأن المراد مكان المقدر فى علم الله المقرر فى قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم . وقد ذكرنا أن آدم نصب عليه قبة وأن الملائكة قالوا له قد طفنا قبلك بهذا البيت وأن السفينة طافت به أربعين يوما أو نحو ذلك ولكن كل هذه الأخبار عن بنى إسرائيل . وقد قررنا أنها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها فأما إن ردها الحق وقد قال الله : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين** ﴾[١] أى : أول بيت وضع لعموم الناس للبركة والهدى البيت الذى ببكة .

قيل : مكة وقيل : محل الكعبة ﴿ **فيه آيات بينات** ﴾[٢] أى : على أنه بناء الخليل والد الأنبياء من بعده وإمام الحنفاء من ولده الذين يقتدون به ويتمسكون بسنته ولهذا قال : ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾[٣] أى : الحجر الذى كان يقف عليه قائما لما ارتفع البناء عن قامته فوضع له ولده هذا الحجر المشهور ليرتفع عليه لما تعالى البناء وعظم الفناء كما تقدم فى حديث ابن عباس الطويل . وقد كان هذا الحجر ملصقا بحائط الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فأخره عن البيت قليلا لئلا يشغل المصلين عند الطائفين بالبيت واتبع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا فإنه قد وافقه ربه فى اشياء منها قوله لرسوله ــ ﷺ ــ لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فأنزل ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾[٤] وقد كانت اثار قدمى الخليل باقية فى الصخرة إلى أول الإسلام وقد قال أبو طالب فى قصيدته اللامية المشهورة .

وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه ... وراق لبر فى حراء ونازل
وبالبيت حق البيت من بطن مكة ... وبالله إن ليس بغافل
وبالحجر السور إذ يمحسونه ... اذ اكتنفوه بالضحى والأحائل
وموطىء إبراهيم فى الصخر رطبة ... على قدميه حافيا غير ناعل

يعنى إن رجله الكريم غاصت فى الصخرة فصارت على قدر قدمه حافية لا منتعلة ولهذا قال تعالى :

---

(١) الآية ٩٦ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .

(٤) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة .

﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ﴾[١] أى : فى حال قولهما : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[٢] فهما فى غاية الإخلاص والطاعة لله ـ عز جل ـ وهما يسألان من الله السميع العليم أن يتقبل منهما ما هما فيه من الطاعة العظيمة والسعى المشكور ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ﴾[٣] .

والمقصود : أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع فى واد غير ذى زرع ودعا لأهلها بالبركة وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة الماء وعدم الأشجار والزروع والثمار وأن يجعله حرما وآمنا محتما فاستجاب الله وله الحمد له سأله ولبى دعوته وأتاه طلبته فقال تعالى : ﴿ أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ﴾[٥] وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم أى : من جنسهم وعلى لغتهم الفصيحة البليغة الفصيحة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية سعادة الأولى والأخرى . وقد استجاب الله له فبعث فيهم رسولا ، وأى رسول ، ختم به أنبياءه ورسله وأكمل له من الدين ما لم يؤت أحدا قبله وعم بدعوته أهل الأرض على اختلاف اجناسهم ولغاتهم وحفلتهم فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة . كان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء لشرفه فى نفسه وكما أرسل به وشرف بقعته وفصاحة لغته وكمال شفقته على امته ولطفه ورحمته ، وكريم ، وعظيم مولده ، وطيب مصدره ، ومورده ، ولهذا استحق إبراهيم الخليل عليه السلام اذ كان بانى الكعبة لأهل الأرض أن يكون منصبه وموضعه فى منازل السموات ورفيع الدرجات عند البيت المعمور الذى هو كعبة أهل السماء السابعة المبارك المبرور الذى يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة يتعبدون فيه ثم لا يعودون إليه إلى يوم البعث والنشور وقد ذكرنا فى التفسير من سورة البقرة صفة بناية البيت وما ورد فى ذلك من الأخبار والآثار بما فيه كفاية فمن أراده فليراجعه تم والحمد لله .

فمن ذلك ما قال السدى لما أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يبنيا البيت ثم لم يدرك أين مكانه حتى بعث الله ريحا يقال له الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكنست لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس وذلك حين يقول تعالى : ﴿ وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ﴾[٦] فلما بلغا القواعد بينا الركن قال : ابراهيم لإسماعيل يا بنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند وكان أبيض ياقوته بيضاء مثل النعامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن . فقال : يا أبت من جاءك بهذا قال جاء به من هو أنشط منك ، فبنيا وهما

---

(١) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ١٢٨ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٦٧ من سورة العنكبوت .
(٥) من الآية : ٥٧ من سورة القصص .
(٦) من الآية : ٢٦ من سورة الحج .

يدعوان الله ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[١] وذكر ابى حاتم انه بناه من خمسة أجبل وأن ذو القرنين وكان ملك الأرض إذ ذاك مر بهما وهما يبنيانه فقال : من أمر كما بهذا فقال : إبراهيم الله امرنا به فقال وما يدريني بما تقول فشهدت خمسة اكبش أنه أمره بذلك فآمن وصدق . وذكر الأزرقى أنه طاف مع الخليل بالبيت وقد كانت على بناء الخليل مدة طويلة ثم بعد ذلك بنتها قريش فقصرت بها عن قواعد إبراهيم من جهة الشمال مما يلي الشمال على ما هى عليه اليوم .

وفى الصحيحين من حديث مالك عن ابن شهاب عن سالم أن عبد الله ابن محمد أبى بكر أخبر ابن عمر عن عائشة أن ـــ ﷺ ـــ قال : (ألم تر : إلى قومك حين بنوا الكعبة أقتصروا عن قواعد إبراهيم فقلت : يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم فقال : لولا حدثان قومك وفى رواية لولا أن قومك حديث عهدٍ بجاهلية أو قال : بكفر لأنفقت كنز الكعبة فى سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر)[٢] .

وقد بناها ابن الزبير ـ رحمة الله على ما أشار إليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ حسبما أخبرته خالته عائشة أم المؤمنين عنه فلما قتله الحجاج فى سنة ٧٣ هـ كتب إلى عبد الملك بن مروان الخليفة إذ ذاك فاعتقدوا أن ابن الزبير انما صنع ذلك من تلقاء نفسه فأمر بردها إلى ما كانت عليه ، فنقضوا الحائط الشامى وأخرجوا منها الحجر ثم سدوا الحائط وردموا الأحجار فى جوف الكعبة فارتفع بابها الشرقى وسدوا الغربى بالكلية . كما هو مشاهد إلى اليوم ثم لما بلغهم أن ابن الزبير إنما فعل هذا لما أخبرته عائشة أم المؤمنين ندموا على ما فعلوا وتأسفوا أن لو كانوا تركوه وما تولى من ذلك .

ثم لما كان فى زمن المهدى بن المنصور استشار الامام مالك فى ردها على الصفة التى بناها ابن الزبير فق" له : إنى أخشى أن يتخذها الملوك لعبة يعنى كلما جاء ملك بناها على الصفة التى يريد فاستقر الأمر على ما هى عليه اليوم .

ذكر ثناء الله ـ ورسوله الكريم ـ على عبده وخليله ابراهيم

قال الله : ﴿ **واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾[٣] ولما وفى ما أمره ربه به من التكاليف العظيمة جعله للناس اماما يقتدون به ويأتمون بهديه ، وسأل الله أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية فى نسبه وخالده فى عقبه فأجيب إلى ما سأل ورام . وسلمت إليه الامامة بزمام واستثنى من نيلها الظالمون ، واختص بها من ذريته العلماء العاملون ، كما قال تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وأتيناه أجره فى الدنيا وإنه**

---

(١) من الآية ١٢٧ من سورة البقرة .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٢ كتاب الحج باب فضل مكة ص ١٧٩ وانظر صحيح مسلم كتاب الحج ج ٢ ص ٩٦٩ رقم ٣٩٩ .

(٣) الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

في الآخرة لمن الصالحين ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ، وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين ، ومن أبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم** ﴾[2] .

فالضمير في قوله ومن ذريته عائد على إبراهيم على المشهور ، ولوط وإن كان ابن أخيه إلا أنه دخل فى الذرية تغليبا وهذا هو الحامل للقائل الأخر إن الضمير على نوح كما قدمنا فى قصته والله أعلم .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب** ﴾[3] الآية .

فكل كتاب أنزل من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته . وهذه خلعة سنية لا تضاهى ، ومرتبة عليه لا تباهى . وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان إسماعيل من هاجر ثم إسحق من سارة وولد لهذا يعقوب وهو إسرائيل الذى ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة وكثروا جدا بحيث لا يعلم عددهم الا الذى بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة حتى ختموا بعيسى بن مريم من بنى اسرائيل ، وإما اسماعيل ــ عليه السلام ــ فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها كما سنبينه فيما بعد إن شاء الله تعالى ولم يوجد من سلالته من الأنبياء سوى خاتمهم على الاطلاق وسيدهم وفخر بنى آدم فى الدنيا والآخرة محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى المكى ثم المدنى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فلم يوجد من هذا الفرع الشريف والغصن المنيف سوى هذه الجوهرة الباهرة والدرة الزاهرة وواسطة العقد الفاخرة وهو السيد الذى يفتخر به أهل الجمع ويغبطه الأولون والآخرون يوم القيامة . وقد ثبت عنه فى صحيح مسلم كما سنورده أنه قال : (سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم)[4] مدح إبراهيم أباه مدحة عظيمة فى هذا السياق ودل كلامه على أنه أفضل الخلائق بعده عند الخلاق فى هذه الحياة الدنيا ويوم يكشف عن ساق .

وقال البخارى : عن ابن عباس قال : كان رسول الله ــ ﷺ ــ (يعوذ الحسن والحسين ويقول : إن اباكما كان يعوذ بهما إسماعيل واسحق . أعوذ بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة)[5] وراه أهل السنن من حديث منصور به وقال تعالى : ﴿ **وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ، قال فخذ اربعة من الطير فصرهن إليه ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا وأعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾[6] .

(١) الآية ٢٧ من سورة العنكبوت .
(٢) الآيات ٨٤ – ٨٧ من سورة الأنعام .
(٣) من الآية ٢٦ من سورة الحديد .
(٤) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٥٦٢ رقم ٢٧٣ .
(٥) أنظر البخارى ج ٢ ص ١٧٨ – ١٧٩ طبعة الشعب .
(٦) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة .

ذكر المفسرون لهذا السؤال أسبابا بسطناها فى التفسير . وقررناها بأتم تقرير . والحاصل : ان الله عز وجل أجابه إلى ما سأل فامره أن يعمد إلى أربعة من الطيور واختلفوا فى تعينها على أقوال ، والمقصود حاصل على كل تقدير فأمره ان يمزق لحومهن وريشهن ويخلط ذلك بعضه فى بعض قم يقسمه قسما ويجعل على كل جبل منهن جزأ ففعل ما أمر به ثم أمر أن يدعوهن بإذن ربهن ، فلما دعاهن جعل كل عضو يطير إلى جناحيه وكل ريشه تأتى إلى اختها حتى اجتمع بدون كل طائر على ما كان عليه وهو ينظر إلى قدره الذى يقول : للشىء كن فيكون فأتين إليه سعيا ليكون أبين له وأوضح لمشاهدته من أن يأتين طيرانا ، ويقال : إنه أمر أن يأخذ رؤسهن فى يده فجعل كل طائر يأتى فيلقى رأسه فيتركب على جثته كما كان فلا إله إلا الله ، وقد كان إبراهيم عليه السلام يعلم قدرة الله تعالى على إحياء الموتى علما يقينا لا يحتمل النقيض ولكن أحب أن يشاهد ذلك عيانا ويترق من علم اليقين إلى عين اليقين فاجابه الله إلى سؤاله واعطاه غاية مؤمولة .

وقال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلما تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين** ﴾[١] ينكر تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى فى دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم وطريقتهم ، فبرأه الله منه وبين كثرة جهلهم وقلة عقلهم فى قوله سبحانه : ﴿ **وما أنزلت التوراة والأنجيل إلا من بعده** ﴾[٢] .

أى : فكيف يكون على دينكم وأنتم إنما شرع لكم ما شرع بعده ، بمدد متطاولة ولهذا قال : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين** ﴾ فبين أنه كان على دين الله الحنيف وهو القصد إلى الأخلاص والانحراف عمدا عن الباطل إلى الحق الذى هو مخالف لليهودية والنصرانية والمشركية ، كما قال تعالى : ﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلها واحدا ونحن له مسلمون ، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ، وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له**

---

(١) الآيات ٦٥ – ٦٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية ٦٥ من سورة آل عمران .

مسلمون ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم . صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون . قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون . أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما بغافل عما تعملون ﴾(١) .

فنزه الله ـ عز وجل ـ خليله عليه السلام من أن يكون يهوديا أو نصرانيا وبين أنه إنما كان حنيفا مسلما ولم يكن من المشركين ولهذا قال تعالى : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾(٢) يعنى : الذين كانوا على ملته من أتباعه فى زمانه ومن تمسك بدينه من بعدهم ﴿ وهذا النبى ﴾ يعنى محمدا ـ ﷺ ـ فإن الله شرع له الدين الحنيف الذى شرعه للخليل وكمله الله تعالى له وأعطاه ما لم يعط نبيا ولا رسولا قبله كما قال تعالى : ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه . اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾(٤) .

وقال البخارى : عن ابن عباس أن النبى ـ ﷺ ـ لما رأى الصور فى البيت لم يدخل حتى أمر بها فمحيت ورأى إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله ، والله لم يستقسما بالأزلام قط .(٥) وفى بعض الفاظ البخارى (قاتلهم الله لقد علموا أن شيخنا لم يستقسم بها قط) .

فقوله ﴿ أمة ﴾ أى قدوة وإماما مهتديا داعيا إلى الخير يقتدى به فيه ، ﴿ قانتا لله ﴾ أى : خاشعا له فى جميع حالاته وحركاته وسكناته ﴿ حنيفا ﴾ أى : مخلصا على بصيرة ﴿ ولم يك من المشركين . شاكرا لأنعمه ﴾ أى : قائما يشكر ربه بجميع جوارحه من قلبه ولسانه وأعماله ، ﴿ اجتباه ﴾ أى : اختاره الله لنفسه ، واصطفاه لرسالته واتخذه خليلا وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾(٦) ويرغب تعالى فى اتباع إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم وقد قام بجميع ما أمره به ربه ومدحه تعالى بذلك فقال : ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾(٧) ولهذا اتخذه الله خليلا ، والخلة هى غاية المحبة . كما

---

(١) الآيات ١٣٠ – ١٤٠ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٦٨ من سورة آل عمران .

(٣) الآيات ١٦١ – ١٦٣ من سورة الانعام .

(٤) الآيات ١٢٠ – ١٢٣ من سورة النحل .

(٥) الحديث فى صحيح البخارى ج ٣ ص ١٨٤ كتاب الحج باب من كبر فى نواحى الكعبة .

(٦) الآية : ١٢٥ من سورة النساء .

(٧) الآية ٣٧ من سورة النجم .

قال بعضهم :

قد تخللت مسلك الروح منـى وبـذا سمى الخليـل خليـلا

وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث جندب البجلى وعبد الله بن عمرو وابن مسعود عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : (أيها الناس إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا)[١] وقال : أيضا فى آخر خطبة خطبها أيها الناس لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله .

وقال ابن ابى حاتم بسنده عن إسحاق بن بشارة قال : (لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى فى قلبه الوجل حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد كما يسمع خفقان الطير فى الهواء) .

وقال : عبيد بن عمير كان إبراهيم ـ عليه السلام ـ يضيف الناس فخرج يوما يلتمس انسانا يضيفه فلم يجد أحداً يضيفه فرجع إلى داره فوجد فيها رجلا قائما فقال : يا عبد الله ما ادخلك دارى بغير إذنى قال : دخلتها بإذن ربها . قال : ومن أنت قال : أنا ملك الموت أرسلنى ربى إلى عبد من عباده أبشره بأن الله قد اتخذه خليلا قال : من هو فوالله إن أخبرتنى به ثم كان باقصى البلاد لاتينه ثم لا ابرح له جارا حتى يفرق بيننا الموت قال : ذلك العبد أنت قال : أنا قال : نعم قال : فيم اتخذنى ربى خليلا قال : بأنك تعطى الناس ولا تسألهم رواه ابن ابى حاتم) وقد ذكره الله تعالى فى القرآن كثيرا فى غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له فقيل : إنه مذكور فى خمسة وثلاثين موضعا منها خمس عشر فى البقرة وحدها . وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الانبياء فى آيتى الأحزاب والشورى وهما قوله تعالى : ﴿ **وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا** ﴾[٢] وقوله ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾[٣] الآية . ثم هو أشرف أولى العزم بعد محمد ـ ﷺ ـ وهو الذى وجده ـ عليه السلام ـ فى السماء السابعة مسندا ظهره بالبيت المعمور الذى يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة ثم لا يعدون إليه آخر ما عليهم وقال أحمد : عن أبى هريرة قال : قال : رسول الله ـ ﷺ ـ (إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم خليل الرحمن . تفرد به أحمد)[٤] .

---

(١) انظر كنز العمال الفصل الثانى فى فضل الخلفاء الأربعة ج ١١ ص ٥٤٨ رقم ٣٢٥٧١ ورد الحديث عن ابى امامه بزيادة (وان خليلى ابو بكر) وانظر صحيح مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب النهى عن بناء المساجد على القبور ج ١ ص ١٧٩ رقم ٢٣ - ٥٣٢ بلفظ الحديث .

(٢) الآية ٧ من سورة الاحزاب .

(٣) من الآية ١٣ من سورة الشورى .

(٤) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٣٢ .

ثم مما يدل على أن إبراهيم أفضل من موسى الحديث الذى قال : فيه (وأخرت الثالثة ليوم يرغب إلى الخلق كلهم حتى إبراهيم)(١) رواه مسلم وهذا هو المقام المحمود الذى أخبر عنه ، ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بقوله : (أنا سيد آدم يوم القيامة ولا فخر)(٢) .

وقال : أحمد عن أبى هريرة : قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله)(٣) تفرد به أحمد ، فأما الحديث الذى رواه الامام احمد عن ابن عباس عن النبى ـ ﷺ ـ (يحشر الناس حفاة عراه فأول من يكسى إبراهيم ـ عليه السلام)(٤) ثم قرأ ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده** ﴾ فاخرجاه فى الصحيحين عن ابن عباس . وهذه الفضيلة المعنية لا تقتضى الأفضلية بالنسبة إلى ما قابلها مما ثبت لصاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون ـ وأما الحديث الأخر الذى قال : الأمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال : رجل للنبى ـ ﷺ ـ (يا خير البرية فقال : ذاك إبراهيم)(٥) فقد رواه مسلم وقال : الترمذى حسن صحيح . وهذا من باب الهضم والتواضع مع والده الخليل ـ عليه السلام ـ كما قال : لا تفضلونى على الأنبياء وقال : لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فاجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور)(٦) وهذا كله لا ينافى ما ثبت بالتواتر عنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من (أنه سيد ولد آدم يوم القيامة) .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أفضل الرسل وأولى العزم بعد محمد ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ أمر المصلى أن يقول : فى تشهده ما ثبت فى الصحيحين من حديث كعب بن حجرة وغيره قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك قد عرفناه فكيف الصلاة عليك قال : (قولوا : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد)(٧) وقال تعالى : ﴿ **وابراهيم الذى وفى** ﴾(٨) قالوا : وفى جميع ما أمر به وقام بجميع خصال الإيمان وشعبه وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل ولا ينسبه القيام بأعباء المصالح الكبار عن الصغار .

---

(١) أنظر صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ج ١ ص ١٨٠ – ١٨١ عن روياة رقم ٣٢٢ – ١٩٣ أنس بن مالك وروى الحديث بمعناه .

(٢) الحديث فى مسند الأمام أحمد ج ١ ص ٢٨١ مسند ابن عباس ـ وفى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٧٨٢ ـ كتاب الفضائل ـ باب تفضيل نبينا ـ ﷺ ـ على جميع الخلائق رقم ٢٢٧٨ .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٣٢ ص .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٢٢٣ ـ انظر البخارى ص ١٢٢ ج ٦ فى تفسير سورة الانبياء .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٨٤ ـ وصحيح ملسم ج ٤ ص ١٨٣٩ رقم ١٥٠ – ٢٣٦٩ .

(٦) انظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٤٤ ـ كتاب الفضائل ـ باب ـ من فضائل موسى عليه السلام برقم ٢٣٧٣ . ومسند الامام احمد ج ٣ ص ٤٠ – ٤١ بمعناه .

(٧) الحديث الامام مسلم فى صحيحه ج ١ ص ٣٠٥ رقم ٦٦ – ٤٠٦ باب الصلاة على النبى ـ ﷺ ـ كتاب الصلاة .

(٨) الآية ٣٧ من سورة النجم .

قال : عبد الرزاق انبأنا معمر عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن ابن عباس ، ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ﴾[١] قال : ابتلاه الله بالطهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد . فى الرأس : قص الشارب ، والمضمضة ، والسواك ، والاستنشاق ، وفرق الرأس . وفى الجسد ، تقليم الأظفار ، وحلق العانة ، والختان ، ونتف الابط ، وغسل أثر الغائط والبول بالماء . رواه ابن ابى حاتم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (الفطرة خمس الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الابط)[٢] .

وفى صحيح مسلم وأهل السنة عن عائشة : رضى الله عنها ـ قالت : قال : رسول الله ـ ﷺ ـ (عشر من الفطرة قص الشارب واعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الاظفار وغسل البراجم ونتف الابط وحلق العانة وانتقاص الماء يعنى الاستنجاء)[٣] والمقصود أنه عليه الصلاة والسلام ـ كان لا يشغله القيام بالإخلاص لله ـ عز وجل ـ وخشوع العبادة العظيمة عن مراعاة مصلحة بدنه وإعطاء كل عضو ما يستحقه من الإصلاح والتحسين وإزالة ما يشين من زيادة شعر أو ظفر أو وجود قلح أو وسخ فهذا من جملة قوله تعالى : فى حقه من المدح العظيم ﴿ وإبراهيم الذى وفى ﴾

قصره فى الجنة .

قال : الحافظ أبو بكر البزاز عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ إن فى الجنة قصرا أحسبه قال : من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهى أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا[٤] ثم قال : وهذا الحديث لا نعلم رواه عن حماد بن سلمة فاسنده إلا يزيد بن هارون والنضر بن شميل وغيرهما يرويه موقوفا قلت لولا هذه العلة لكان على شرط الصحيح ولم يخرجوه .

صفة إبراهيم عليه السلام .

قال أحمد : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (رأيت عيسى بن مريم وموسى وإبراهيم فأما عيسى فاحمر جعد عريض الصدر . وأما موسى فآدم جسيم . قالوا له : فإبراهيم قالوا : انظروا إلى صاحبكم يعنى نفسه)[٥] .

ذكر ابن جرير فى تاريخه أن مولده كان فى زمن النمرود بن كنعان وهو فيما قيل : الضحاك الملك المشهور الذى يقال إنه ملك الف سنة وكان فى غاية الغشم والظلم . وذكر بعضهم أنه من بنى راسب الذين بعث إليهم نوح ـ عليه السلام ـ وأنه كان إذ ذاك ملك الدنيا . وذكروا أنه طلع نجم اخفى ضوء الشمس والقمر

---

(١) من الآية ١٢٤ من سورة البقرة .

(٢) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٢٢ رقم ٢٥٧ - ٥٠ كتاب الطهارة بلفظ الحديث .

(٣) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٢٢٣ رقم ٥٦ - ٢٦١ (كتاب الايمان بلفظ الحديث .

(٤) انظر زوائد البزار ج ٣ ص ١٠٢ رقم ٢٣٤٦ (ذكر ابراهيم الخليل) .

(٥) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ص ٣٧٤ .

فهال ذلك أهل ذلك الزمان وفزع النمرود فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يديه . فامر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء وأن يقتل المولودون من ذلك الحين فكان مولد إبراهيم الخليل فى ذلك الحين فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار وشب شبابا باهرا وانبته الله نباتا حسنا حتى كان من أمره ما تقدم وكان مولده بالسوس وقيل : ببابل وقيل : بالسواد من ناحية كوفى (بالعراق) وتقدم عن ابن عباس أنه ولد ببرزة شرقى دمشق ، فلما أهلك الله نمرود على يديه وهاجر إلى حران ثم إلى أرض الشام وأقام ببلاد ايليا كما ذكرنا وولد له إسماعيل وإسحق وماتت سارة قبله بقرية حبرون التى فى أرض كنعان ولها من العمر مائة وسبع وعشرون سنة فيما ذكر أهل الكتاب فحزن عليها إبراهيم ــ عليه السلام ــ ورثاها رحمها الله واشترى من رجل من بنى جيث يقال له عفرون بن صبخر مغارة بأربع مائة مثقال ودفن فيها سارة هنالك قالوا : ثم خطب إبراهيم على أبنه إسحق فزوجه بنت بتوئيل بن ناحور بن تارح وبعث مولاه فحملها من بلادها ومعها مرضعتها وجوارها على الأبل قالوا : ثم تزوج إبراهيم ــ عليه السلام ــ قنطورا فولدت له زمران ويقشان ومادان ومدين وشياق وشوح . وذكروا ماولد كل واحد من هؤلاء أولاد قنطورا .

وقد روى ابن عساكر من غير واحد من السلف عن أخبار أهل الكتاب فى صفة مجيء ملك الموت إلى إبراهيم ــ عليه السلام ــ أخبارا كثيرة الله اعلم بصحتها . وقد قيل إنه مات فجأة وكذا داود وسليمان ، والذى ذكره أهل الكتاب وغيرهم خلاف ذلك . قالوا : ثم مرض إبراهيم ــ عليه السلام ــ ومات عن مائة وخمس وسبعين وقيل وتسعين سنة ودفن فى المغارة المذكورة التى كانت بحبرون الحيثى عند إمراته سارة التى فى مزرعة عفرون الحيثى وتولى دفنه إسماعيل وإسحق ــ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ــ وقد ورد ما يدل على أنه عاش مائتى سنة كما قال ابن الكلبى .

وقال مالك : عن يحيى بن سعيد ، عن سعيد بن المسيب قال : (كان إبراهيم أول من أضاف الضيف وأول الناس أختتن وأول الناس قص شاربه وأول الناس رأى الشيب فقال : يارب ما هذا فقال الله : وقار) فقال يا رب : زدنى وقارا وزاد غيرهما وأول من قص شاربه وأول من استنحد وأول من لبس السراويل) فقبرو وقبر ولده إسحق وقبر ولد ولده يعقوب فى الربعة التى بناها سليمان بن دواد ــ عليه السلام ــ ببلد حبرون وهو البلد المعروف بالخليل إلى اليوم وهذا تلقى بالتواتر أمة بعد أمة ، وجيل بعد جيل من زمن بنى إسرائيل وإلى زماتنا هذا أن قبرة بالمربعة تحقيقا . فأما تعينه منها فليس فيه خبر صحيح عن معصوم فينبغى أن تراعى تلك المحلة وأن تحترم احترام مثلها أن تبجل وأن تجل أن يداس فى أرجائها خشية أن يكون قبر الخليل أو أحد من أولاده الأنبياء ــ عليهم السلام ــ تحتها . وروى ابن عساكر بسنده أن وهب بن منبه قال : (وجد عند قبر إبراهيم الخليل على حجر كتابة خلقة) .

ألحق جهـــــولا أملــــــه … يموت من جا أجلــــــه
ومـــن دنـــا من حتفـــه … لم تغـــن عنــــه حيلـــه
وكيـــف يبقــــى أخـــر … من مات عنــــه أولــــه

والمرء لا يصحبـــه في الـــقبر إلا عملــه

قصص موسى وهارون عليهما سلام :

قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾
وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ
ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾﴾

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **ولقد مننا على موسى وهارون ، ونجيناهما من الكرب العظيم ، ونصرناهم فكانوا هم الغالبين** ﴾ يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاه بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه وما كان يعتمد فى حقهم من الإساءة العظيمة من قتل الابناء واستحياء النساء واستعمالهم فى أخس الأشياء ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم وأقرأ عينهم منهم فغلبوهم وأخذوا أرضهم وأموالهم وما كانوا جمعوه طول حياتهم ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلى المستبين وهو التوراه كما قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين** ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا التوراه فيها هدى ونور** ﴾(٢).

وقال عز وجل : ههنا ﴿ **وآتيناهما الكتاب المستبين** ﴾ أى : وأعطيناهما الكتاب الجلى الواضح لما يحتاج إليه البشر من مصالح الدين والدنيا .

وقوله تعالى : ﴿ **وهديناهما الصراط المستقيم** ﴾ أى : ودللناهما على طريق الحق وأمددناهما بالتوفيق والعصمة .

وقوله تعالى : ﴿ **وتركنا عليهما فى الآخرين** ﴾ أى : وأبقينا ليحيا الذكر الحسن والثناء الجميل فيمن بعدهم ، وهذا ما تصبوا إليه النفوس قال الشاعر :

---

(١) الآية ٤٨ من سورة الانبياء .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة المائدة .

وإنما المرء حديث بعـــــــــده فكـــن حديثـا حسنـــا لمن وعـــى

وقال الآخر : الذكر للانسان عمر ثان قوله تعالى : ﴿ **سلام على موسى وهارون** ﴾ أى : وجعلنا الملائكة والإنس والجن يسلمون عليهما أبد الدهر ، ولا شيء أدى إلى سعادة الحياة من الطمأنينة وهدوء البال كما ورد فى الحديث (من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) ثم ذكر سبحانه سبب هذه النعم فقال تعالى : ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين** ﴾ أى : إنهما كانا فى زمرة المحسنين فجازيناهما بالإحسان إليهما ﴿ **وهل جزاء الاحسان إلا الإحسان** ﴾ .

قصص إلياس ـ عليه السلام :

قال تعالى :

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

تفسير المفردات :

(تدعون بعلا) أتعبدون الصنم المسمى بعلا ، (لمحضرون) تحضرهم الزبانية فى النار ، (إلياسين) يعنى إلياس وأهل دينه ، قال العلماء : يجوز أن يكون إلياس والياسين بمعنى واحد كما يقال ميكال وميكائيل .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **وإن إلياس لمن المرسلين** ﴾ قال قتادة : ومحمد بن إسحاق يقال الياس هو إدريس ، وقال ابن أبى حاتم عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه قال : إلياس هو إدريس . وقال وهب بن منبه : هو إلياس بن نسى ، ابن فنحاص ، بن العيزار ، بن هارون ، بن عمران بعثه الله تعالى فى بنى إسرائيل بعد حزقيل ـ عليهما السلام ـ وكانوا قد عبدوا صنما يقال له : بعل فدعاهم إلى الله تعالى ونهاهم عن عبادة ما سواه ، وكان قد آمن به ملكهم ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم ولم يؤمن به منهم أحد فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنيين ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ووعدوه بالايمان به إن هم أصابهم المطر ، فدعا الله لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الفكر فسأل الله أن يقضبه إليه ، وكان قد نشأ على يديه اليسه بن أخطوب ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فأمر الياس أن يذهب إلى مكان كذا وكذا فمهما

جاءه فليركبه ولا يهبه فجاءته فرس من نار فركب فالبسه الله تعالى النور وكساه الريش ، وكان يطير مع الملائكة ملكا انسيا سماويا أرضيا . هكذا مكان وهب بن منبه عن أهل الكتاب . قال ابن كثير : والله أعلم بصحبته .

قوله تعالى : ﴿ **إذ قال لقومه ألا تتقون** ﴾ أى : ألا تخافون الله ـ عز وجل ـ فى عبادتكم غيره ﴿ **أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين** ﴾ قال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة والسدى بعلا يعنى رباً . قال عكرمة : وقتادة وهى لغة أهل اليمن . وقال ابن إسحاق أخبرنى بعض أهل العلم انهم كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبن هواسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق .

وقوله تعالى : ﴿ **أتدعون بعلا** ﴾ أى : أتعبدون صنما ﴿ **وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى : هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، قال تعالى : ﴿ **فكذبوه فإنهم لمحضرون** ﴾ أى : للعذاب يوم الحساب . ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى : الموحدين منهم وهذا استثناء منقطع ثبت .

وقوله تعالى : ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين** ﴾ أى : ثناء جميلا ﴿ **سلام على الياسين** ﴾ يعنى الياسين وأهل دينه . ﴿ **إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ تقدم تفسيره .

أضواء كاشفة :

قال الحافظ : العلامة ابن كثير فى كتابه : قصص الأنبياء) عن النبى إلياس : وأما الياس عليه السلام .

فقال الله تعالى : بعد قصة موسى وهارون من سورة الصافات ﴿ **وإن إلياس لمن المرسلين ، إذ قال لقومه ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب أبائكم الأولين فكذبوه فإنهم لمحضرون إلا عباد الله المخلصين . وتركنا عليه فى الآخرين سلام على إلياسين إنا كذلك نجزى المحسنين إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ قال علماء النسب : هو إلياس التشبى . ويقال : ابن ياسين بن فنحاص ابن العيزار بن هارون . وقيل : الياس بن العازر بن العيزار بن هارون بن عمران قالوا : وكان إرساله إلى أهل بعلبك غربى دمشق فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ وأن يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلا . وقيل كانت امرأة اسمها بعل والأول أصح . ولهذا قال لهم : ﴿ **ألا تتقون . أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب أبائكم الأولين** ﴾ فكذبوه وخالفوه وأرادوا قتله فيقال إنه هرب منهم واختفى عنهم .

وقال ابن أبى الدنيا : عن سعيد بن عبد الغزيز عن بعض شيخة دمشق قال : أقام إلياس ـ عليه السلام ـ هاربا من قومه فى كهف جبل عشرين ليلة أو قال : أربعين ليلة تأتيه الغربان برزقه .

وما ذكره وهب بن منبه وغيره أنه لما دعا ربه ـ عز وجل ـ أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه فجاءته دابة لونها لون المار فركبها وجعل الله له ريشا وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكيا بشريا سماويا أرضيا وأوصى الى اليسع بن أخطوب ففى هذا نظر وهو من الاسرائيليات التى لا تصدق ولا تكذب بل الظاهر أن صحتها بعيدة والله أعلم . ﴿ **فكذبوه فإنهم لمحضرون** ﴾ **أى : للعذاب إما فى الدنيا والآخرة أو في الآخرة والأول أظهر على ما ذكره المفسرون والمؤرخون وقوله** ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ أى : إلا من آمن منهم وقوله : ﴿ **وتركنا عليه فى الآخرين** ﴾ أى : أبقينا بعده ذكرا حسنا له فى العاملين فلا يذكر إلا بخير ولهذا قال : ﴿ **سلام على إلياسين** ﴾ أى : على إلياس والعرب تلحق النون فى أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها كما قالوا : إسماعيل وإسماعين ، وإسرائيل إسرائين ، وإلياس وإلياسين . ومن قرأ سلام على آل ياسين أى : على آل محمد وقرأ ابن سعود وغيره سلام على إدراسين . ونقل عنه من طريق إسحاق عن عبيدة بن ربيعة عن ابن مسعود انه قال : الياس هو إدريس وإليه ذهب الضحاك بن فراصم وحكاه قتادة ومحمد بن إسحاق والصحيح أنه غيره كما تقدم والله أعلم .

قصص لوط ـ عليه السلام :

قال تعالى :

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ
دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

« تفسير المفردات »

(فى الغابرين) فى الباقين فى العذاب ، (دمرنا الآخرين) أهلكناهم ، (مصبحين) داخلين فى وقت الصباح .

« المعنى الاجمالى »

يخبرنا الله تعالى عن عبده ورسوله لوط أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنه قبيحة المنظر والطعم والريح وجعلها بسبيل مقيم يمر بها المسافرون ليلا ونهارا ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ أى : أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها ونجد الآيات قوله تعالى : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتاتون الفاحشة وأنتم تبصرون ، إئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ، فما كان جواب قومه إلا أن**

قالوا أخرجوه آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسبيل مقيم ، إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾[٢] وقوله ﴿ **ولقد أتوا على القرية التى أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا** ﴾[٣] .

أضواء كاشفة :

قال الحافظ ابن كثير : فى كتابه : (قصص الأنبياء) عن قصة النبى لوط مع قومه قال : ومما وقع فى حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط ـ عليه السلام ـ وما حل بهم من النقمة والغميمة وذلك أن لوطا بن هاران بن تاح وهو آزر كما تقدم ولوط ابن اخى إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور اخوة كما قدمنا ويقال : إن هاران هذا هو الذى بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدى أهل الكتاب والله أعلم .

وكان لوط قد نزح عن محلة الخليل عليهما السلام بإمره له وأذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر وكانت أم تلك المحلة ولها أرفى ومعتملات وقرى مضافة إليها ولها أهل من أفجر الناس واكفرهم واسوأهم طوية وأرداهم سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ، ويأتون فى ناديهم المنكر ولا ينتاهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى ايتان الذكران من العالمين وترك ما خلق من النسوان لعباده الصالحين فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل المستحقات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم واستمروا فى فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذى لا يرد ما لم يكن فى خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثله فى العالمين وعبرة يتعظ بها من العالمين ولهذا ذكر الله تعالى : قصتهم فى غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين** ﴾[٤] وقال تعالى فى سورة هود : ﴿ **ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جاء بعجل حنيذ . فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط . وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب . قالت ياويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب ، قالوا أتعجبين من أمر**

(١) الآيات ٥٤ - ٥٨ من سورة النمل .

(٢) الآيات ٧٣ - ٧٧ من سورة الحجر .

(٣) الآية ٤٠ من سورة الفرقان .

(٤) الآيات ٨٠ - ٨٤ من سورة الأعراف .

الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود . ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب ، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة الحجر : ﴿ ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم قال أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ، قال فما خطبكم أيها المرسلون قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ، فلما جاء آل لوط المرسلون قال إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وأتيناك بالحق وإنا لصادقون فأسر بأهلك بقطع من الليل واتبع أدبارهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وجاء أهل المدينة يستبشرون ، قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون ، قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين ، لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون ، فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسبيل مقيم إن فى ذلك لآية للمؤمنين ﴾[٢] .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إنى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون ، وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزوجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ، قال إنى لعملكم من القالين ، رب نجنى وأهلى مما يعملون ، فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين , وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٣] .

وقال تعالى فى سورة النمل : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون

(١) الآيات ٦٩ — ٨٣ من سورة هود .

(٢) الآيات ٥١ — ٧٧ من سورة الحجر .

(٣) الآيات : ١٦٠ — ١٧٥ من سورة الشعراء .

الرجال من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم أنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾[(١)]. وقال تعالى فى سورة العنكبوت : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين ، ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ، إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ، ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون ﴾[(٢)] وقال تعالى فى سورة الصافات : ﴿ وإن لوطا لمن المرسلين ، إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾[(٣)] .

وقال تعالى : فى الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ، وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾[(٤)] . وقال فى سورة القمر : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا أرسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مذكر ﴾[(٥)] وقد تكلمنا على هذه القصص فى أماكنها من هذه السور فى التفسير وقد ذكر الله لوطا وقومه فى مواضع أخر من القرآن الكريم تقدم ذكرها مع قوم نوح وعاد وثمود . والمقصود الآن ايراد ما كان من أمرهم وما أحل الله بهم مجموعا من الآيات والآثار والله المستعان .

وذلك أن لوطا ـ عليه السلام ـ لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن تعاطى ما ذكر الله عنهم من الفواحش فلم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم ولم يتركوا ما عنه نهوا بل استمروا على حالهم ولم يرتدعوا عن غيهم وضلالهم وهموا باخراج رسولهم من بين ظهرانيهم وما كان حاصل

(١) الآيات ٥٤ — ٥٨ من سورة النمل .

(٢) الآيات ٢٨ — ٣٥ من سورة العنكبوت .

(٣) الآيات ١٣٣ — ١٣٨ من سورة الصافات .

(٤) الآيات : ٣١ — ٣٧ من سورة الذاريات .

(٥) الآيات ٣٣ — ٤٠ من سورة القمر .

صوابهم عن خطابهم إذا كانوا لا يعقلون إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فجعلوا غاية المدح ما يقتضى الإخراج وما حملهم على مقالتهم هذه الا العناد واللحاح فنظره الله وأهله إلا امرأته وأخرجهم منها أحسن اخراج وتركهم فى محلتهم خالدين لكن بعد ما صيرهم عليهم بحيرة فتنة ذات أمواج لكنها عليهم فى الحقيقة نار تأجج ، وحر يتوهج ، وماؤها ملح أجاج ، وما كان هذا جوابهم الا لما نهاهم عن الطاعة العظمى ، والفاحشة الكبرى ، التى لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ، ويأتون فى ناديهم وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال ، والأفعال على اختلاف أصنافه حتى قيل إنهم كانوا فى مجالسهم ولا يستحون من مجالسهم وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ولا يستنكفون ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل وكانوا فى ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلا ، ولم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر ولا ندموا على ما سلف من الماضى ولا راموا فى المستقبل تحويلا فأخذهم الله أخذا وبيلا وقالوا له : فيما قالوا : ﴿ **أأتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم وحلول البأس العظيم فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين فغار الله لغيرته وغضب لغضبته واستجاب لدعوته واجابه إلى طلبته وبعث رسله الكرام وملائكته العظام فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم وأخبروه بما جاؤا له من الأمر الجسيم والخطب العميم .

قال فما خطبكم أيها المرسلون . قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين ﴾ وقال : ﴿ **ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط** ﴾ وذلك إنه كان يرجو أن ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا . ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن إبراهيم لحليم أواه منيب . يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** ﴾ أى : اعرض عن هذا وتكلم فى غيره فإنه قد ختم أمرهم ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ﴿ **إنه قد جاء أمر ربك** ﴾ أى : قد أمر به من لا يرد أمره ولا يرد بأسه ولا معقب لحكمه ﴿ **وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** ﴾ .

وذكر سعيد بن جبير والسُدى وقتادة ومحمد بن إسحق أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول (أتهلكون قرية فيها ثلثمائة مؤمن قالوا : لا ، قال : فمائتا مؤمن قالوا : لا ، قال فاربعون مؤمنا قالوا : لا ، قال : فاربعة عشر مؤمنا قالوا : لا) قال ابن إسحق إلى أن قال : (أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد قالوا : لا . ﴿ **قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها** ﴾ الآية وعند أهل الكتاب أنه قال : يارب أتهلكهم وفيهم خمسون رجلا صالحا قال : لا أهلهكم وفيهم خمسون صالحا ثم تنازل إلى عشرة فقال الله ﴿ **لا أهلكهم وفيهم عشرة صالحون** ﴾ قال الله تعالى : ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب** ﴾ .

قال المفسرون لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل اقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صور شبان حسان اختبارا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم فاستضافوا لوطا ـ عليه السلام ـ وذلك عند غروب الشمس فخشى إن لم يضفهم غيره وحسبهم بشرا من الناس ، وسيء بهم وضاق بهم ذرعا ﴿ **وقال هذا يوم عصيب** ﴾ قال ابن عباس : ومجاهد ، وقتادة ومحمد بن اسحق ، شديد بلاؤه وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم كما كان يصنع بهم فى غيرهم وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا ولكن رأى من لا يمكن المحيد عنه . وذكر قتادة أنهم وردوا عليه وهو فى أرض له يعمل فيها فتضيفوا فاستحيى منهم وانطلق امامهم وجعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلوا فى غيرها فقال لهم : فيما قال : يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال : وكانوا قد امروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك وقال السدى : خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنه لوط تستقى من الماء لأهلها وكانت له ابنتان اسم الكبرى ريثا والصغرى ذعرتا ، فقالوا لها يا جارية هل من منزل فقالت لهم : مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم فرقت عليهم من قومها فاتت أباها فقالت : يا أبتاه أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم ، لا يأخذهم قومك فيفضحوهم وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا فجاءتهم فلم يعلم أحد إلا أهل البيت فخرجت امرأته فاخبرت قومها فقالت ان فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط فجاءه قومه يهرعون إليه . وقوله ﴿ **ومن قبل كانوا يعملون السيئات** ﴾ . أى : هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة . ﴿ **قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم** ﴾ يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعا لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد كما ورد فى الحديث وكما قال تعالى : ﴿ **النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم** ﴾(١) وفى قول بعض الصحابة والسلف وهو أب لهم . وهذا كقوله ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** ﴾ وهذا هو الذى نص عليه مجاهد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد ابن اسحق وهو الصواب .

والقول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب وقد عليهم ، كما أخطأوا فى قولهم إن الملائكة كانوا إثنين وانهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب فى هذه القصه تخبيطا .

وقوله ﴿ **فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد** ﴾ نهى لهم عن تعاطى مالا يليق من الفاحشة وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة ولا فيه خير بل الجميع سفهاء . فجرة أقوياء . كفرة أغبياء . وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه . فقال قومه عليهم لعنة الله الحميد المجيد . مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد ﴿ **لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وانك لتعلم ما نريد** ﴾ يقولون عليهم لعائن الله لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا فى نسائنا وانك لتعلم مرادنا وغرضنا ، واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم ولم يخافوا سطوة العظيم ذى العذاب الأليم . ولهذا

(١) من الآية ٦ من سورة الأحزاب .

قال : عليه السلام ـ (لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد) ود أن لو كان بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب .

وقد قال الزهرى عن سعيد بن المسيب وأبى هريرة رضى الله عنهما مرفوعا (نحن أحق بالشك من إبراهيم ، ويرحم الله لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد ، ولو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى . وقال محمد بن عمرو : من علقمة عن أبى سلمة : عن : أبى هريرة : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد يعنى الله ـ عز وجل ـ فما بعث الله من بعده من نبى الا فى من قومه)[1] وقال تعالى : ﴿ **وجاء أهل المدينة يستبشرون قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون . واتقوا الله ولا تخزون . قالوا أو لم ننهك عن العالمين قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين** ﴾ فأمرهم بقربان نسائهم وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيأتهم هذا وهم فى ذلك لا ينتهون ولا يرعون بل كلما يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرضون ولم يعلموا ما صم به القدر مما هم إليه صائرون ، وصبيحة ليلتهم منتقلون ، ولهذا قال تعالى : مقسما بحياة نبيه محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** ﴾ ذكر المفسرون وغيرهم أن نبى الله لوطا ـ عليه السلام ـ جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق وهم يرومون فتحه وولوجه وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب وكل ماهم فى ، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد لأحل بكم النكال . قالت الملائكة : ﴿ **يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك** ﴾ وذكروا أن جبريل ـ عليه السلام ـ خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه فطمست أعينهم حتى قيل إنها غارت بالكلية ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر فرجعوا يتحسسون مع الحيطان . ويتوعدون رسول الرحمن . ويقولون : إذا كان الغد كان لنا وله شان قال الله تعالى : ﴿ **ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** ﴾ فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط ـ عليه السلام ـ آمرين له بأن يسرى هو وأهله من آخر الليل ﴿ **ولا يلتفت منكم أحد** ﴾ يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه وأمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساق لهم . وقوله ﴿ **إلا امرأتك** ﴾ على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله ﴿ **فأسر بأهلك** ﴾ كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها . ويحتمل أن يكون من قوله ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك أى : فأنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم . ويقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع ولكن الأول اظهر فى المعنى والله أعلم .

قال السهيلى : واسم امرأة لوط والهة ، اسم امرأة نوح والغة وقالوا له : مبشرين بهلال هؤلاء البغاة العناة الملعونين النظراء والأشباه الذين جعلهم الله سلفا لكل خائن مريب ﴿ **إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب** ﴾ فلما خرج لوط ـ عليه السلام ـ بأهله وهم ابنتاه ولم يتبعه منهم رجل واحد ، ويقال : ان امرأته

---

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى تفسير سورة يوسف ج ٨ ص ٥٤١،٥٤٠ من رواية عبده وعبد الرحيم عن محمد بن عمر عن أبى هريرة .

خرجت معه فالله أعلم . فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس عند شروقها جاءهم من أمر الله مالا يرد . ومن البأس الشديد مالا يمكن أن يصد . وعند أهل الكتاب أن الملائكة امروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده وسأل منهم أن يذهب الى قرية قريبه منهم فقالوا : اذهب فإنها ننتظرك حتى تصير إليها وتستقر فيها ثم نحل بهم العذاب فذكروا أنه ذهب الى قرية صغر التى يقول الناس : غور زغر ، فلما اشرقت الشمس نزل بهم العذاب قال الله تعالى : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ قالوا : اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قراهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم فقالوا : إنهم كانوا أربع مائة نسمة وقيل أربعة آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات ما يتبع تلك المدن من الأراضى والأماكن فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها . قال مجاهد : فكان أول ما سقط منها شرفاتها ﴿ **وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾ والسجيل : هو الشديد الصلب القوى ﴿ **منضود** ﴾ أى : يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم من السماء ﴿ **مسومه** ﴾ أى : معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه كما قال : ﴿ **مسومة عند ربك للمسرفين** ﴾ وكما قال تعالى : ﴿ **وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **والمؤتفكة أهوى . فغشاها ما غشى** ﴾[1] يعنى : قلبها فأهوى بها منكسة عاليها وسافلها وغشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

ويقال إن امرأة لوط مكثت مع قومها ويقال : إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة والتفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديما وحديثا ، وقالت واقوماه فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها إذ كانت على دينهم وكانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان كما قال تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين** ﴾[2] أى : فخانتاهما فى الدين فلم يتبعاهما فيه . وليس المراد : أنهما كانتا على فاحشة حاشا وكلا ولما . فإن الله لا يقدر على نبى أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس : وغيره : من أئمة السلف والخلف ما بغت امرأة نبى قط . ومن قال : خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرا .

وقوله ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ أى : وما هذه العقوبة ببعيدة ممن اشبههم فى فعلهم . ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا نص عليه الشافعى وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة واحتجوا أيضا بما رواه الامام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس أن رسول الله ـــ

(٢) الآيتان ٥٣ — ٤٥ من سورة النجم .

(٢) الآية ١٠ من سورة التحريم .

ﷺ ـ قال : (من وجدتموه يعمل بعمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به)[(١)] وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط لقوله تعالى : ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها لردائتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله واتبع هواه وعصى مولاه . ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين فى انجائه إياهم من المهلكات . وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات كما قال تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن فى ذلك لآيات للمتوسمين ، وإنها لسبيل مقيم . إن فى ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ أى : من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم كيف غير الله تلك البلاد وأهلها وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة . هالكة غامرة كما روى الترمذى وغيره مرفوعا (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ثم قرأ ﴿ **إن فى ذلك لآيات للمتوسمين** ﴾ وقوله ﴿ **وانها لبسبيل مقيم** ﴾ أى : الطريق مهيء مسلوك إلى الآن كما قال : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولقد تركناها آية بينة لقوم يعقلون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الآليم** ﴾ أى : تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة وخشى الرحمن بالغيب وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه وخاف إن يشابه قوم لوط (ومن تشبه بقوم فهو منهم) وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه كما قال بعضهم : فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد : فالعاقل اللبيب الخائف من ربه ، الفاهم ، يمتثل ما أمره الله به ـ عز وجل ـ ويقبل ما أرشد إليه رسول الله من إيتان ما خلق له من الزوجات الحلال . والجوارى من السرارى ذوات الجمال . وإياه أن يتبع كل شيطان مريد . فيحق عليه الوعيد . ويدخل فى قوله تعالى ﴿ **وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾ .

قصص يونس عليه السلام :

قال تعالى :

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرحا مع الترمذى ج ٥ ص ٢١ رقم ١٤٨١ (أبواب الحدود) وفى سنن ابن ماجة ـ كتاب الحدود (باب) من عمل قو لوط ج ٢ ص ٨٥٦ رقم ٢٥٦١ .

لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِا۟ئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

« تفسير المفردات »

أصل الاباق : هرب العبد من سيده ، والمراد : هنا أنه هاجر بغير إذن ربه ، (المشحون) : المملوء ، (فساهم) أى : فقارع من فى الفلك ، أى : عمل قرعة . (المدحضين) أى : المغلوبين بالقرعة ، (فالتقمه) أى : فابتلعه ، (مليم) : أى أن ما يستحق عليه اللوم ، (بالعراء) أى : بالمكان الخالى ، (يقطين) أى : ذباء (القرع العسلى المعروف الآن) وقيل : الموز .

قوله تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ أى : وإن يونس لرسول من ربه إلى قومه أهل نينوى بالموصل ، ﴿ **إذ أبق إلى الفلك المشحون** ﴾ أى : هرب إلى الفلك المملوء بالأمتعة قاله ابن عباس : ﴿ **فساهم** ﴾ أى : قارع ، ﴿ **فكان من المدحضين** ﴾ أى : المغلوبين ، وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى فى البحر لتخف بهم السفينة فوقعت القرعة على نبى الله يونس عليه السلام ثلاث مرات وهم يضنون به أن يلقى من بينهم فتجرد من ثيابه ليلقى نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتا من البحر الأخضر ان يشق البحار وأن يلتقم يونس – عليه السلام – فلا يهشم له لحما ولا يكسر له عظما فجاء ذلك الحوت وألقى يونس – عليه السلام – نفسه فالتقمه الحوت وذهب به فطاف به البحار كلها . ولما استقر يونس فى بطن الحوت حسب أنه قد مات ثم حرك رأسه ورجليه وأطرافه فإذا هو حى فقام فصلى فى بطن الحوت وكان من جملة دعائه يارب اتخذت لك مسجدا فى موضع لم يبلغه أحد من الناس ، واختلفوا فى مقدار ما لبث فى بطن الحوت فقيل ثلاثة أيام قاله قتادة : وقيل سبعة . قاله جعفر الصادق – رضى الله عنه – ويقال : أربعين يوما قاله أبو مالك وقال مجالد عن الشعبى ، التقمه ضحى ولفظه غشية ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك ، فى ذلك يقول أميه أبى الصلف : (١)

وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى أضعاف حوت لياليـــا

﴿ **فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ أى : فالتقمة الحوت وهو فاعل ما يلام عليه من الهجرة بغير إذن ربه ، وقد كان عليه أن يصبر على أذى قومه . ثم ذكر سبحانه أنه أنجاه لما كان له من عمل صالح فقال : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين ، للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ قيل : لولا ما تقدم له من العمل فى الرخاء ، وفى الحديث (تعرف إلى الله فى الرخا يعرفك فى الشدة) . وقال ابن عباس : رضى الله عنهما – وسعيد ابن حبير ، والضحاك ، وعطاء ، بن السائب والسدى ، والسحن ، وقتادة ، ﴿ **فلولا أنه كان من**

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٨ ص ٥٥٥ رقم ٥١٣٣ .

المسبحين﴾ يعنى المصلين . وقيل المراد : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين** ﴾ هو قوله ـ عز وجل ـ حكاية عنه كما فى سورة الأنبياء ﴿ **فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾(١) وقال إبن ابى حاتم عن أنس بن مالك عن رسول الله ـ ﷺ ـ حين بداله أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة بالعرش قالت الملائكة : يارب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيده غريبة فقال الله تعالى : اما تعرفون ذلك ، فقالوا : يارب ومن هو ؟ قال : عز وجل عبدى يونس قالوا : عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ؟ قالوا : يارب أو لا ترحم ما كان يصنع فى الرخاء فتنجيه فى البلاء ؟ قال : بلى فأمر الحوت فطرحه بالعراء(٢) ولهذا قال تعالى : ﴿ **فنبذناه بالعراء وهو سقيم** ﴾ أى : ألقيناه ﴿ **بالعراء** ﴾ **قال ابن عباس أرض ليس بها نبت ولا بناء** ﴿ **وهو سقيم** ﴾ أى : ضعيف البدن ﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قال : غير واحد من السلف : هو القرع . وذكر بعضهم فى القرع فوائد منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته وأنه لا يقربها الذباب وجودة تغذية ثمرة ، وأنه يؤكل نيأ ومطبوخا وقشرة أيضا . وقد ثبت أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يحب الدباء ويتتبعه من نواحى الصحفة .

وقوله تعالى : ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ قال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ إنما كانت رسالة يونس ـ عليه السلام ـ بعدما نبذه الحوت . وعن مجاهد : أنه أرسل إليهم قبل أن يلتقمه الحوت (قال ابن كثير) ولا مانع أن يكون الذى أرسل أليهم أولا أمر بالعود إليهم بعد خروجه من الحوت فصدقوه كلهم وآمنوا به . وحكى البنوى أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون . وقوله تعالى ﴿ **أو يزيدون** ﴾ قال ابن عباس : معناها : بل يزيدون فالمراد : ليس أنقص من ذلك بل أزيد . وقوله تعالى ﴿ **فآمنوا** ﴾ أى : فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل إليهم يونس ـ عليه السلام ـ جميعهم ﴿ **فمتعناهم إلى حين** ﴾ أى : إلى وقت آجالهم كقوله تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾ .

قال : العلامة الحافظ ابن كثير فى كتابة قصص الأنبياء عن النبى يونس : قال الله تعالى فى سورة يونس ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين** ﴾(٣) .

وقال تعالى فى سورة الأنبياء ﴿ **وذا النون إذ مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾(٤) .

(١) من الآية ٨٧ ، الآية ٨٨ من سورة الأنبياء .
(٢) أنظر الطبرى ج ٢٣ ص ٦٤ المطبعة الايدية .
(٣) الآية ٩٨ من سورة يونس .
(٤) الآيتان ٨٧ – ٨٨ من سورة الأنبياء .

وقال تعالى فى سورة الصافات : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين إذا أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم ، فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون فنبذناه بالعراء وهو سقيم ، وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون فآمنوا فمتعناهم إلى حين** ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة ن ﴿ **فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين** ﴾[٢] .

قال أهل التفسير : بعث الله يونس ـ عليه السلام ـ إلى أهل نينوى من أرض الموصل فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ فكذبوه وتمردوا على كفرهم وعنادهم فلما طال ذلك ، عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم ووعدهم حلول العذاب بهم بعد ثلاث .

قال ابن مسعود : ومجاهد ، وسعيد بن حبيد ، وقتادة ، وغير واحد من السلف فلما خرج من بين ظهرانيهم وتحققوا نزول العذاب بهم قدف الله فى قلوبهم التوبة والانابة وندموا على ما كان منهم إلى نبيهم فلبسوا المسوح وفرقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عادوا إلى الله ـ عز وجل ـ وصرخوا ، وتضرعوا إليه وتمسكنوا لديه ، وبكى الرجال ، والنساء ، والبنون والبنات ، والأمهات وجأرت الأنعام ، والدواب ، والمواش ، فرغت الأبل ، وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وحملانها ، وكانت ساعة عظيمة هائلة فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذى كان قد اتصل بهم بسببه ودار على رؤسهم كقطع الليل المظلم ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها** ﴾ أى : هلا وجدت فيما سلف من القرون قرية آمنت بكمالها فدل على أنه لم يقع ذلك بل كما قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ وقوله ﴿ **إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين** ﴾ أى : آمنوا بكمالهم .

وقد اختلف المفسرون هل ينفعهم هذا الايمان فى الدار الآخر فينقذهم من العذاب الأخروى كما أنقذهم من العذاب الدينوى على قولين الأظهر من السياق نعم والله أعلم .

وقد كانوا مائة الف لا محالة واختلفوا فى الزيادة فعن محكول عشرة آلاف وروى الترمذى عن أبى بن كعب أنه سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن قوله ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ قال يزيدون عشرين الفا[٣] فلولا هذا الرجل المبهم لكان هذا الحديث فاصلا فى هذا الباب قال ابن عباس مائة الف

---

(١) الآيات ١٣٩ – ١٤٨ من سورة الصافات .

(٢) الآيات ٤٨ – ٥٠ من سورة القلم .

(٣) الحديث فى تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٦ ص ٦٧ رقم ٣٢٨٢ وقال : هذا حديث غريب ـ وفى تفسير الطبرى ج ٢٢ ص ٦٧ فى سورة الصافات .

وثلاثين الفا)[١] وقال : سعيد بن جبَير : (كانوا مائة ألف وسبعين الفا)[٢]
واختلفوا هل كان أرساله فيهم قبل الحوت أو بعده أو هما أمتان على ثلاثة أقوال هى مبسوطة فى التفسير . والمقصود : أنه ـ عليه السلام ـ لما ذهب مغاضبا بسبب قومه ركب السفينة فى البحر فلجت بهم واضطربت وماجت بهم وثقلت بما فيها وكادوا يغرقون على ما ذكره المفسرون قالوا فاشتوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة القوه من السفينة ليتحفظوا منه . فلما اقترعوا وقعت القرعة على نبى الله يونس فلم يسمحوا به فاعادوها ثانية فوقعت عليه أيضا ، فشمر ليخلع ثيابه ويلقى بنفسه فأبوا عليه ذلك . ثم أعادوا القرعة ثالثة فوقعت عليه أيضا لما يريد الله به من الأمر العظيم . قال الله تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم** ﴾ وذلك أنه لما وقعت عليه القرعة القى فى البحر وبعث الله عز وجل حوتا عظيما من البحر الأخضر فالتقمه وأمره الله تعالى ان لا يأكل له لحما ولا يهشم له عظما فليس لك برزق ، فأخذه فطاف به البحار كلها وقيل إنه ابتلع ذلك الحوت حوت اخر اكبر منه . قالوا ولما استقر فى جوف الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فتحركت فإذا هو حى فخر لله ساجدا وقال : يارب اتخذت لك مسجدا لم يعبدك أحد فى مثله .

وقد اختلفوا فى مقدار لبثه فى بطنه . فقال مجالد : عن الشعبى التقمة ضحى ولفظه عشية . وقال قتادة : مكث فيه ثلاثا وقال جعفر الصادق : سبعة أيام ويشهد له شعر أمية بن ابى الصلت .

وأنت بفضل منك نجيت يونسا وقد بات فى أضعاف حوت لياليا

وقال : سعيد بن أبى الحسن ، وأبو مالك مكث فى جوفه أربعين يوما والله أعلم كم مقدار ما لبث فيه .

والمقصود : أنه لما جعل الحوت يطوف به فى قرار البحار اللجية ويقتحم به لجج الموج الأجاجى فسمع تسبيح الحتيان للرحمن وحتى سمع تسبيح الحصى لفالق الحب والنوى ، ورب السموات السبع والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى . فعند ذلك وهنالك قال : ما قال : بلسان الحال والمقال كما أخبر عنه ذو العزة والجلال الذى يعلم السر ، والنجوى ، ويكشف الضر والبلوى ، سامع الأصوات وإن ضعفت ، وعالم الخفيات وإن دقت ، ومجيب الدعوات ، وإن عظمت حيث قال : فى كتابه المبين ، المنزل على رسوله الأمين ، وهو أصدق القائلين ، ورب العالمين وإله المرسلين ﴿ **وذا النون إذ ذهب** ﴾ إلى أهله ﴿ **مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ ﴿ **فظن أن لن نقدر عليه** ﴾ أى : نضيق ، وقيل معناه نقدر من التقدير ﴿ **فنادى فى الظلمات** ﴾ قال ابن مسعود : وابن عباس وسعيد بن حبير وغيرهم ظلمة الحوت ، وظلمة البحر وظلمة الليل . وقال سالم بن أبى الحجر ابتلع الحوت حوت آخر فصار ظلمة الحوتين مع ظلمة البحر . وقوله تعالى : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه الى يوم يبعثون** ﴾ قيل

(١) انظر ابن كثير ج ٧ ص ٣٥ فى تفسير سورة الصافات .

(٢) وانظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٣٥ فى تفسير صورة الصافات .

معناه : لولا أنه سبح الله هنالك وقال : ما قال : من التهليل والتسبيح والاعتراف لله بالخضوع والتوبة إليه والرجوع إليه . للبث هنالك إلى يوم القيامة . ولبعث من جوف ذلك الحوت . وقيل معناه ﴿ **فلولا أنه كان** ﴾ من قبل أخذ الحوت له ﴿ **من المسبحين** ﴾ أى : المطيعين المصلين الذاكرين لله كثيرا ، قاله الضماك بن ميس ، وابن عباس ، وأبو العالية وغيرهم واختاره ابن جرير ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد وبعض أهل السنن عن ابن عباس : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لى : (يا غلام إنى معلمك كلمات احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة)[١] رواه ابن جرير والحبزار فى سنده عن أبى هريرة يقول : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لما أراد الله حبس يونس فى بطن الحوت أوحى الله إلى الحوت أن خذ ولا تخدشن لحما ولا تكسرن عظما فلما انتهى به إلى أسفل البحر سمع يونس حسا فقال : فى نفسه ما هذا ؟ فأوحى الله إليه وهو فى بطن الحوت إن هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح وهو فى بطن الحوت ، فسمعت الملائكة تسبيحه ، فقالوا : (يا ربنا نسمع صوتا بأرض غريبة) قال : ذلك عبدى يونس ، عصانى فحبسته فى بطن الحوت فى البحر قالوا : العبد الصالح الذى كان يصعد إليك منه فى كل يوم وليلة عمل صالح قال : نعم ، قال فشفعوا له عند ذلك فأمر الحوت فقذفه فى الساحل كما قال الله : ﴿ **وهو سقيم** ﴾[٢] .

وقد قال ابن أبى حاتم عن أنس (أن يونس النبى ـ عليه السلام ـ حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو فى بطن الحوت قال : (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) فاقبلت الدعوة تحن بالعرش فقالت الملائكة : يارب صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة فقال : أما تعرفون ذاك قالوا : يارب ومن هو قال : عبدى يونس قالوا عبدك يونس الذى لم يزل يرفع له عملا متقبلا ودعوة مجابة قالوا : يا ربنا أو لا ترحم ما كان يصنعه فى الرخاء فتنجيه فى البلاء قال : بلى فامر الحوت فطرحه فى العراء)[٣] وروى ابن جرير عن أبى هريرة أنه قال : (طرح بالعراء وأنبت الله عليه اليقطينة قلنا يا أبا هريرة : وما اليقطينة : قال : شجرة الدباء قال : أبو هريرة هيأ الله له أروية وحشية تأكل من خشاش الأرض أو قال هشاش الأرض : قال : فتنفشح عليه فترويه من لبنها كل عشية وبكرة حتى نبت)[٤] وقال أمية ابن أبى الصلف فى ذلك بيتا من شجرة .

فأنبت يقطينا عليه برحمة　　　من الله لولا الله أصبح ضاويا

وقد قال الله تعالى : ﴿ **فنبذناه** ﴾ أى : ألقيناه ﴿ **بالعراء** ﴾ وهو المكان القفر الذى ليس فيه شىء من الأشجار بل هو عار منها ﴿ **وهو سقيم** ﴾ أى : البدن . ﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قال غير واحد من المفسرين : هو القرع . قال بعض العلماء فى انبات القرع عليه حكم جمة . منها أن ورقة فى

(١) هذا جزء حديث رواه أحمد فى مسنده (مسند ابى عباس) ج ١ ص ٣٠٧ .

(٢) أنظر كشف الأستار عن روائد البزار ج ٣ ص ٦٧ – ٦٨ رقم ٢٢٥٤ ، وانظر الطبرى ج ٧ ص ٦٥ بلفظه .

(٣) انظر الطبرى ج ٢٣ ص ٦٤ المطبعة الاميرية .

(٤) انظر الطبرى ج ٢٣ ص ٦٦ المطبعة الاميرية .

غاية النعومة وكثير وظليل ولا يقربه ذباب ، ويؤكل ثمرة من أول طلوعه إلى آخره نيا ومطبوخا وبقشرة وببذره أيضا ، وفيه نفع كثير وتقوية للدماغ وغير ذلك وتقدم كلام أبي هريرة فى تسخير الله تعالى له تلك الإردية التى كانت ترصفه لبنها وترعى فى البرية وتأتيه بكرة وعشية .

وهذا من رحمة الله به ، ونعمته عليه وإحسانه إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ **فاستجبنا له فنجيناه من الغم** ﴾ أى : الكرب والضيق الذى كان فيه ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ أى : وهذا صنيعنا بكل من دعانا واستجار بنا .

قال ابن جرير : عن سعد بن أبى وقاص يقول : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول (اسم الله الذى إذا ادعى به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى قال : فقلت : يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال : هى ليونس خاصة وللمؤمنين عامة إذا دعوا بها)[1] ألم تسمع قول الله تعالى ﴿ **فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ فهو شرط من الله لمن دعاه به وقال ابن أبى حاتم عن سعد قال قال رسول الله — ﷺ — (من دعا بدعاء يونس أستجيب له) قال : أبو سعيد الأشج يريد به ﴿ **وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾ وهذان طريقان عن سعد . وثالث أحسن منهما قال الأمام أحمد : عن سعد بن أبى وقاص (مررت بعثمان بن عفان فى السمجد فسلمت عليه فملأ عينيه منى ثم لم يردد على السلام فأتيت عمر بن الخطاب فقلت : يا أمير المؤمنين هل حدث فى السلام شىء قال : لا : وماذاك قلت : لا إلا أنى مررت بعثمان آنفا فى المسجد فسلمتْ عليه فملأ عينيه منى ثم لم يردد على السلام . قال : فأرسل عمر إلى عثمان فقال : ما منعك أن لا تكون رددت على أخيك السلام . قال : ما فعلت . قال سعد : قلت : بلى حتى حلفت وحلفت . قال : ثم إن عثمان ذكر فقال : بلى واستغفر الله وأتوب إليه إنك مررت بى آنفا وأنا أحدث نفسى بكلمة سمعتها من رسول الله — ﷺ — لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى بصرى وقلبى غشاوة قال سعد فأنا أنبئك بها أن رسول الله — ﷺ — ذكر لنا أول دعوة ثم جاء أعرابى فشغله حتى قام رسول الله — ﷺ — فلما اشفقت أن يسبقنى إلى منزله ضربت بقدمى الأرض فالتفت إلى رسول الله — ﷺ — فقال : من هذا . أبو اسحق قال : قلت : نعم . يا رسول الله قال : فمه قلت : لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة . ثم جاء هذا الأعرابى فشغلك . قال : نعم دعوة ذى النون إذ هو فى بطن الحوت)[2] ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه فى شىء قط إلا استجاب له . ورواه الترمذى والنسائى من حديث ابراهيم بن محمد بن سعد .

فضل يونس :

قال الله تعالى : ﴿ **وإن يونس لمن المرسلين** ﴾ وذكره تعالى فى جملة الأنبياء الكرام فى سورتى النساء

---

(١) انظر الطبرى ج ٧ ص ٦٥ بلفظه .

(٢) الحديث فى سنن أحمد ج ١ ص ١٧٠ بلفظه .

والأنعام عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام وقال الأمام احمد : عن : أبي وائل عن : عبد الله ، قال : رسول الله ـ ﷺ ـ (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى ﴾[1] وقال البخارى : عن أبي هريرة عن النبى ، ـ ﷺ ـ قال : (لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)[2] وكذا رواه مسلم كما ورد فى بعض الأحاديث لا تفضلونى على الأنبياء ولا على يونس بن متى . وهذا من باب الهضم والتواضع منه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وعلى سائر أنبياء الله والمرسلين .

افتراء على الله .

قال تعالى :

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَا
إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾
مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ
لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا
تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ
مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾
لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ
جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا

---

(١) أنظر مسند أحمد (مسند عبد الله بن مسعود) ج ص ٢٩٠ .

(٢) أنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٤ ج ١ الشعب ـ كتاب بدء الخلق ـ باب قوله تعالى : ﴿ **وان يونس لمن المرسلين** ﴾ وأنظر صحيح مسلم ج ٤ ص ١٨٤٦ رقم ٢٣٧٦ الفضائل باب فى ذكر يونس ـ عليه السلام ـ وقول النبى ـ ﷺ ـ (لا ينبغى لعبد) .

يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ
﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **إفكهم** ﴾ كذبهم على الله ، ﴿ **أصطفى** ﴾ ؟ أختار ؟ استفهام توبيخ ، ﴿ **سلطان** ﴾ حجة وبرهان ، ﴿ **الجنة** ﴾ الملائكة . أو الجن ، ﴿ **إنهم لمحضرون** ﴾ إن الكفار لمحضرون للنار ، ﴿ **بفاتنين** ﴾ أى : بمضلين من قولهم فتن فلان على فلان امرأته إذا افسدا عليه ، ﴿ **صال الجحيم** ﴾ أى : داخل فى النار ومعذب فيها ، ﴿ **الصافون** ﴾ أى : صافوا أنفسهم للعبادة ، ﴿ **ذكر** ﴾ أى : كتابا ، ﴿ **كلمتنا** ﴾ : وعدنا ، ﴿ **المنصورون** ﴾ أى : الغالبون فى الحرب وغيرها ، ﴿ **جندنا** ﴾ أى : اتباع رسلنا ، ﴿ **الساحة** ﴾ المكان والواسع .

« المناسبة والمعنى الجملى »

أمر الله رسوله فى صدر هذه السورة بتبكيت قريش وتوبيخهم على إنكارهم للبعث مع قيام الأدلة وتظاهرها على وجوده ، ثم ساق الكثير منها مما لا يمكن رده ولا جحده ، ثم أعقبه بذكر ما سيلقونه من العذاب حينئذ ، واستثنى منهم عباد الله المخلصين ، وبين ما يلقونه من النعيم ، ثم عطف على هذا انه قد ضل قبلهم أكثر الأولين ، وأنه أرسل إليهم منذرين ، ثم أورد قصص بعض الأنبياء تفصيلا متضمنا وصفهم بالفضل والعبودية له عز وجل ، وهنا أمره بالتنديد عليهم ثانيا بطريق الاستفتاء عن وجه القسمة الجائزة التى عملوها وهى جعل البنات لله وجعل البنين لأنفسهم بقولهم : الملائكة بنات الله ، ثم بالتقريع ثالثا على استهانتهم بالملائكة بجعلهم إناثا ، ثم أبطل كلا من هذين بالحجة التى لا يجد العاقل محيصا عن التصديق بها والإذعان لها ، وأتبع ذلك بما نبه به إلى أن هؤلاء المشركين لا يقدرون على حمل أحد على الضلال إلا إذا كان مستعد له ، وقد سبق فى حكم الله أنه من أهل النار وأنه لا محالة واقع فيهم ، ثم حكى اعتراف الملائكة بالعبودية تنبيها إلى فساد قول من ادعى أنهم أولاد الله . ثم هدد سبحانه المشركين بقوله ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ وأردف ذلك ما يقوى قلب : رسوله — صلى الله عليه وسلم — بوعده بالنصر والتأييد . كما جاء فى آية أخرى ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ وختمت السورة بهذا الختام الرائع ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين** ﴾ .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون اصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ، فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون ، سبحان الله عما يصفون ، إلا عباد الله المخلصين** ﴾ .

من قبائح هؤلاء المشركين ، أنهم نسبوا لله تعالى الملائكة وقالوا إنهم بنات الله قال تعالى : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾[1] ﴿ **فاستفتهم** ﴾ فى هذا الأمر ﴿ **ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ كيف يكون ذلك كذلك وهم يكرهون الإناث ، ﴿ **وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون أم يدسه فى التراب إن ساء ما يحكمون للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى ، وهو العزيز الحكيم** ﴾ ثم يقول الى : ﴿ **ويجعلون لله ما يكرهون وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون** ﴾[2] ثم تأمل معى كيف يجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون قال تعالى : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين** ﴾[3] ثم يقول سبحانه : ﴿ **أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون** ﴾ أوم هنا بمعنى بل والهمزة أى : بل أخلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون كما قال تعالى : ﴿ **أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ إن الملائكة عباد مكرمون ، لا يوصفون بذكورة أو أنوثة إنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يستحسرون ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، ثم يقول سبحانه مخبرا عن افتراء هؤلاء العصاة ﴿ **ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وإنهم لكاذبون** ﴾ قال تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[4] .

وقال جل شأنه ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله** ﴾[5] وقال سبحانه : ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ، ذلكم الله ربكم لا**

---

(١) الآية ١٩ من سورة الزخرف .

(٢) الآيات من ٥٨ — ٦٠ من سورة النحل . والآية ٦٢ من نفس السورة .

(٣) الآيات ١٧ — ١٨ من سورة الزخرف .

(٤) الآيات ١ — ٤ من سورة الاخلاص .

(٥) من الآية ٩١ من سورة المؤمنون .

إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾[١] وقال جل شأنه : ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾[٢] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ **اصطفى البنات على البنين** ﴾ إستفهام توبيخى فيه تبكيت وتقريع لهؤلاء الجاحدين لعظمة الله تعالى هل يصطفى ويختار البنات على البنين يا من تكرهون البنات وتأدونهم ﴿ **ما لكم كيف تحكمون** ﴾ أى : خبل تلبستم به ، كيف تحكمون هذا الحكم ، ﴿ **أفلا تذكرون** ﴾ ﴿ **فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين** ﴾ إن كان لكم سلطان مبين ، وحجة واضحة فأتوا بهذا الكتاب الذى يثبت هذا الحجة ويبين هذا البرهان . ثم يستطرد النظم الكريم فى بيان قبائح هؤلاء فيقول ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون** ﴾ قال مجاهد : قال المشركون الملائكة بنات الله تعالى فقال أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ فمن أمهاتهن ، قالوا بنات سروات الجن . وكذا قال قتادة : وابن زيد ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ **ولقد علمت الجنة** ﴾ أى : الذين نسبوا إليهم ذلك ﴿ **إنهم لمحضرون** ﴾ أى : إن الذين قالوا ذلك لمحضرون فى العذاب يوم الحساب لكذبهم فى ذلك وافترائهم وقولهم الباطل بلا علم ، ثم ينزه الله ذاته المقدسة تنزيها مطلقا ، فيقول ﴿ **سبحان الله عما يصفون** ﴾ كما قال فى آخر السورة : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون** ﴾ . وقوله تعالى ﴿ **إلا عباد الله المخلصين** ﴾ استثناء منقطع بمعنى لكن عباد الله المخلصين ، فإنهم لا يصفون الله إلا بكل كمال يليق بذاته ، وينزهونه عن كل نقص . قوله تعالى : ﴿ **فإنكم وما تعبدون ، ما أنتم عليه عليه بفاتنين ، إلا من هو صال الجحيم ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون ، وان كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين . فكفروا به فسوف يعلمون** ﴾ . هذا اخبار منه تبارك وتعالى وخطاب يتوجه به إلى أهل الضلال الذين أضلوا عباد الله وفتنوهم يقول لهم سبحانه : فإنكم يا أهل الضلال وما تعبدون من دون الله لا تستطيعون فتنة أحد ، إلا إذا كان من أهل النار وسيصلى سعيرا ويدخل جحيما . قال سبحانه وتعالى : ﴿ **قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا** ﴾[٣] وقال سبحانه ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾[٤] قوله تعالى : ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون** ﴾ . هذا إخبار منه سبحانه وتعالى عن الملائكة المكرمين فما منهم من أحد إلا له مقام معلوم ومكانة فى السماء فإنهم المسبحون الذين جعلت صفوفنا فى الصلاة كصفوفهم فى السماء قال ابن عساكر فى ترجمة : لمحمد بن خالد بسنده : إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد ، عن أبيه وكان محمد بايع يوم الفتح أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوما لجلسائه

(١) الآيتان ١٠١ ـ ١٠٢ من سورة الأنعام .

(٢) الآية ٤ من سورة الزمر .

(٣) من الآية ٦٣ من سورة القصص .

(٤) من الآية ٢٧ من سورة الاعراف .

أطت السماء وحق لها أن تئط ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد)[١] ثم قرأ ـ ﷺ ـ ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون** ﴾ وقال الضحاك فى تفسيره ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ قال : كان مسروق يروى عن عائشة : رضى الله عنها ـ أنها قالت : قال : رسول الله ـ ﷺ ـ (ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم) فذلك قوله تعالى : ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ .

ومعنى ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ أى : نقف صفوفا فى الطاعة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **والصافات صفا** ﴾ قال أبو نضرة كان عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ثم قال : أقيموا صفوفكم استووا قياما يريد الله بكم هدى الملائكة ثم : يقول : ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ تأخر يا فلان تقدم يا فلان ثم : يتقدم فيكبر)[٢] رواه ابن ابى حاتم وابن جرير .

وفى صحيح مسلم عن : حذيفة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجدا ، وتربتها طهورا)[٣] قوله تعالى : ﴿ **وإنا لنحن المسبحون** ﴾ أى : نصطف فنسبح الرب ونمجده ونقدسه وننزهه عن النقائص فنحن عبيد له ، فقراء إليه خاضعون لديه .

وقال ابن عباس : رضى الله عنه ـ ومجاهد ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ الملائكة ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ الملائكة ﴿ **وإنا لنحن المسبحون** ﴾ الملائكة نسبح الله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ **وإن كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكرا من الأولين لكنا عباد الله المخلصين فكفروا به فسوف يعلمون** ﴾ وقد كان ذلك قبل مبعثه ـ ﷺ ـ ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾[٤] وذلك كما فى قوله جل شأنه : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيء ، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنت الله تبديلا ، ولن تجد لسنت الله تحويلا ، أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليما قديرا ، ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا** ﴾[٥] لقد تمنوا أن يكونوا عباد الله المخلصين ، ولكن وما نيل المطالب بالتمنى ، وليس الإيمان بالتمنى

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة بمعناه ج ٢ ص ١٤٠٢ رقم ٤١٩٠ .
أنظر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٨ تفسير سورة الصافات .
(٢) انظر الطبر ج ٢٣ ص ٧١ بلفظه .
(٣) انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٧١ رقم ٥٥٢ (كتاب المساجد ومواضع الصلاة بلفظ الحديث .
(٤) من الآية ٨٩ من سورة البقرة .
(٥) الآيات ٤٢ ـ ٤٥ من سورة فاطر .

ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل لذلك ذهب تمنيهم أدراج الرياح واظهر الله تعالى ما فى قلوبهم لقد كفروا به وبكتابه وبرسوله . ﴿ **فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ، ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون** ﴾[١] وفى قوله تعالى ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ وعيد تنخلع له الأفئدة وتنفطر من هوله مرائر النمور ، وتسبل له الأكباد مرارة ولوعة .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ، فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون ، أفبعذابنا يستعجلون ، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون** ﴾ .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ﴾ أى : تقدم فى الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾[٢] وقال عز وجل ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾[٣] ولهذا قال جل جلاله ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون** ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة كما تقدم بيان نصرتهم على قومهم ممن كذبهم وخالفهم كيف أهلك الله الكافرين ونجى عباده المؤمنين . ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ أى : تكون لهم العاقبة . وقوله جل جلاله ﴿ **فتول عنهم حتى حين** ﴾ أى : اصبر على أذاهم لك وانتظر إلى وقت مؤجل فانا سنجعل لك العاقبة والنصر والظفر ، ولهذا قال بعضهم : ذلك إلى يوم بدر وما بعدها أيضا فى معناها . وقوله جلت عظمته ﴿ **وأبصرهم فسوف يبصرون** ﴾ أى : أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ولهذا قال تعالى : على وجه التهديد والوعيد ، ﴿ **فسوف يبصرون** ﴾ ثم : قال — عز وجل — ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ أى : هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك فإن الله تعالى يغضب عليهم بذلك ويعجل لهم العقوبة ومع هذا أيضا كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة قال الله تعالى ﴿ **فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين** ﴾ أى : فإذا نزل العذاب بجلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم باهلاكهم ودمارهم وقال السدى : ﴿ **فإذا نزل بساحتهم** ﴾ يعنى بدارهم ، ﴿ **فساء صباح المنذرين** ﴾ أى : بئس الصباح صباحهم . ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أنس : رضى الله عنه — قال : صبح رسول الله — ﷺ — خيبر فلما خرجوا بفؤوسهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون محمد والله والخميس فقال النبى : — ﷺ — (الله أكبر خرجت

---

(١) الآيات ٤٨ — ٥١ من سورة القصص .

(٢) الآية ٢١ من سورة المجادلة .

(٣) الآية ٥١ من سورة غافر .

خبير إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون** ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك فى قوله تعالى ﴿ **فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم فسوف يبصرون** ﴾ ويختم الله تعالى هذه السورة المباركة بقوله : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين** ﴾ ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون والمكذبون المعتدون تعالى وتنزه وتقدس عن قولهم علوا كبيرا ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ **سبحان ربك رب العزة** ﴾ أى ذى العزة التى لا ترام ﴿ **عما يصفون** ﴾ أى : عن قول هؤلاء المعتدين المغترين ﴿ **وسلام على المرسلين** ﴾ أى : سلام الله عليهم فى الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه فى ربهم وصحته وحقيته وجهادهم فى سبيل أعلاء كلمة التوحيد ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾ أى : له الحمد فى الأولى والآخرة فى كل حال ، ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ويستلزم إثبات الكمال كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص قرن بينهما فى هذا الوضع وفى مواضع كثيرة من القرآن ولهذا قال : تبارك وتعالى ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين** ﴾ وقال سعيد . بن أبى عروبة : عن : قتادة : قال : قال : رسول الله ــ ﷺ ــ (إذا سلمتم على فسلموا على المرسلين فإنما أنا رسول من المرسلين)[٢] هكذا رواه ابن جرير وابن ابى حاتم .

سـورة (ص)

قال صاحب البصائر : السورة مكية إجماعا . وآياتها ثمان وثمانون فى عد الكوفة ، وست فى عد الحجاز ، والشام ، والبصرة ، وخمس فى عد أيوب بن المتوكل وحده .

وكلماتها : سبعمائة واثنتان وثلاثون . وحروفها . ثلاثة آلاف وسبع وستون . وكلماتها : سبعمائة واثنتان وثلاثون . **وحروفها** : ثلاثة آلاف وسبع وستون .

مجموع فواصل آياتها : ﴿ **حد قطرب من لج** ﴾ ولها اسمان : سورة صاد ، لافتتاحها بها،وسورة داود ، لاشتمالها على مقصد قصته فى قوله ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان تعجب الكفار من نبوة المصطفى ﷺ ، ووصف المنكرين رسول الله ــ ﷺ ــ بالأختلاف والافتراء ، واختصاص الحق تعالى بملك الأرض والسماء ، وظهور أحوال يوم القضاء ، وعنجائب حديث داود وأوريا ، وقصة سليمان فى حديث الملك ، على سبيل المنة والعطاء ، وذكر أيوب فى

---

(١) انظر صحيح مسلم ج ٣ ص ١٤٢٦ رقم ١٢٠ – ١٣٦٥ (كتاب الجهاد والسير) .
وأنظر البخارى ، كتاب المغارى ، باب غزوة خيبر ج ٥ ص ١٦٧

(٢) انظر الطبرى ج ٢٣ ص ٧٤ بلفظه .

الشقاء ، والابتلاء وتخصيص إبراهيم وأولاده من الأنبياء ، وحكاية أحوال ساكنى جنة المأوى ، وحجز حال الاشقياء فى سقر ولظى ، وواقعة ابليس مع آدم وحواء وتهديد الكفار على تكذيبهم للنبى المجتبى فى قوله ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ .

المتشابهات فى سورة .

قوله تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون** ﴾ **بالواو ، وفى ق** : ﴿ **فقال** ﴾ بالفاء ، لأن اتصاله بما قبله فى هذه السورة معنوى ، وهو أنهم عجبوا من مجىء المنذر وقالوا : هذا المنذر ساحر كذاب . واتصاله فى ﴿ **ق** ﴾ معنوى ولفظى ، وهو أنهم عجبوا ، فقالوا : هذا شىء عجيب . فراعى المطابقة بالعجز والصدر ، وختم بما بدأ به ، وهو النهاية فى البلاغة .

قوله : ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ وفى القمر ﴿ **أألقى** ﴾[1] لأن ما فى هذه السورة حكاية عن كفار قريش يجيبون محمدا – ﷺ – حين قرأ عليهم ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾[2] فقالوا : أأنزل عليه الذكر ومثله ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** ﴾[3] ﴿ **وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده** ﴾[4] .

وهو كثير ، وما فى القمر حكاية عن قوم صالح . وكان يأتى الأنبياء يومئذ صحف مكتوبة وألواح مسطورة ، كما جاء إبراهيم وموسى . فلهذا قالوا : ﴿ **أألقى الذكر عليه** ﴾[5] مع أن لفظ الإلقاء يستعمل لما يستعمل له الإنزال .

قوله : ﴿ **ومثلهم معهم رحمة منا** ﴾[6] وفى الأنبياء ﴿ **من عندنا** ﴾ لأن الله تعالى – ميز أيوب بحسن صبره على بلائه ، من بين أنبيائه ، فحيث قال لهن : من عندنا قال له : منا ، وحيث لم يقل لهم : من عندنا قال له : من عندنا . فخصت هذه السورة بقوله : منا لما تقدم فى حقهم ﴿ **من عندنا** ﴾ **فى مواضع ، وخصت سورة الأنبياء بقوله** ﴿ **من عندنا** ﴾ لتفرده بذلك .

قوله ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد** ﴾[7] وفى ق : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس** ﴾[8] إلى قوله ﴿ **فحق وعيد** ﴾ .

---

(١) من الآية ٢٥ من سورة القمر .
(٢) من الآية ٤٤ من سورة النحل .
(٣) من الآية ١ من سورة الكهف .
(٤) من الآية ١ من سورة الفرقان .
(٥) من الآية ٢٥ من سورة القمر .
(٦) من الآية ٤٣ من سورة (ص) .
(٧) الآية ١٢ من سورة (ص) .
(٨) الآيات ١٢ – ١٤ من سورة ق .

قال الامام : سورة ص بنيت فواصلها على ردف أواخرها بالالف ، وسورة : ق على ردف أواخرها بالياء والواو . فقال فى هذه السورة : الأحزاب ، عقاب ، وجاء بإزاء ذلك فى ق : ثمود ، وعيد ، ومثله فى الصافات : ﴿ **قاصرات الطرف عين** ﴾[1] وفى ص ﴿ **قاصرات الطرف أتراب** ﴾ فالقصد إلى التوفيق بين الألفاظ مع وضوح المعانى . قوله فى قصة آدم ﴿ **إنى خالق بشرا من طين** ﴾[2] قد سبق .

مناسبتها لما قبلها :

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها جاءت كالمتممة لها وذلك من وجهين :

١ - إنه ذكر فيها من قصص الأنبياء ما لم يذكر فى تلك كداود وسليمان .

٢ - إنه بعد أن حكى فيما قبلها عن الكفار أنهم قالوا : لو أن عندنا ذكرا من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين . وأنهم كفروا بالذكر لما جاءهم وبدأ عز اسمه هذه السورة بالقرآن ذى الذكر وفصل ما أجمله هناك من كفرهم :

قال تعالى :

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم
مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ
هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ
مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ
ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل
لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ
ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ

(١) الآية ٤٨ من سورة الصافات .

(٢) الآية ٧١ من سورة (ص) .

وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُولَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ
هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ
﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ . . .

« تفسير المفردات »

﴿ **الذكر** ﴾ : الشرف كما قال : ﴿ **وانه لذكر لك ولقومك** ﴾ ﴿ **الذين كفروا** ﴾ هم رؤساء قريش وأشياعهم ﴿ **فى عزة** ﴾ أى : فى استكبار عن اتباع الحق ومتابعة غيرهم فيه ، والعزة أيضا الغلبة والقهر . ﴿ **شقاق** ﴾ أى : مخالفة من قولهم : فلان فى شق غير شق صاحبه ، ﴿ **فنادوا** ﴾ أى : استغاثوا ، ﴿ **لات** ﴾ أى : ليس الحين ﴿ **مناص** ﴾ أى : خيرا وهرب ، ﴿ **عجاب** ﴾ أى : بالغ فى العجب ﴿ **الملة الآخرة** ﴾ هى ملة النصارى ، ﴿ **إختلاف** ﴾ أى : كذب وافتراء ، ﴿ **فليرتقوا** ﴾ أى : فليصعدوا ، ﴿ **فى الأسباب** ﴾ أى : فى المعارج والطرق التى يتوصل بها إلى الاستيلاء على العرش ، قاله مجاهد وقتادة : ﴿ **جند ما** ﴾ أى : جند كثير عظيم ، ﴿ **مهزوم** ﴾ أى : مغلوب ، ﴿ **الأحزاب** ﴾ أى : المجتمعين لايذاء محمد وكسر شوكته وابطال دينه . ﴿ **القط** ﴾ النصيب والحظ ، والكتاب بالجوائز والجمع القطوطة .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ ص والقرآن ذى الذكر ، بل الذين كفروا فى عزة وشقاق كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص ﴾ .

﴿ **ص** ﴾ هذا مما استأثر الله بعلمه ، ﴿ **والقرآن ذى الذكر** ﴾ أى : والقرآن ذى الشرف قاله ابن عباس : أى : الشأن والمكانة كقوله تعالى ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **حم . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾[3] وقال الضحاك : فى قوله تعالى ﴿ **ذى الذكر** ﴾ أى : تذكير كم وكذا قال قتادة : واختاره ابن

---

(١) الآية ٢٠ من سورة الأنبياء .

(٢) الآيتان ٢١ – ٤٢ من سورة فصلت .

(٣) الآيات ١ – ٤ من سورة الزخرف .

جرير : ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والاعذار والانذار .

وقال المراغى فى تفسيره : ﴿ **والقرآن ذى الذكر** ﴾ أى : أقسم بالقرآن ذى الشرف والرفعة إنه لمعجز ، وإن محمدا لصادق فيما يدعيه من النبوة ، وإنه مرسل من ربه إلى الأسود والأحمر ، وإن كتابه لمنزل من عنده : ثم بين السبب الحقيقى فى كفرهم فقال ! ﴿ **بل الذين كفروا فى عزة وشقاق** ﴾ أى : إن فى هذا القرآن لمن يتذكر وعبرة لمن يعتبر ، وإنما لم ينتفع به الكافرون لأنهم ﴿ **فى عزة** ﴾ أى : استكبارا عنه وحمية ﴿ **وشقاق** ﴾ أى : ومخالفة له ومعاندة ومفارقة كما حكى عنهم سبحانه فى موضع آخر ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾[1] ثم حذرهم وخوفهم ما أهلك به الأمم قبلهم حين كذبوا رسلهم فقال تعالى : ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص** ﴾ أى : وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم فاستغاثوا حين حل بهم العذاب ، فلم يغنى ذلك عنهم شيئا ، فقد فات الأوان وحل اليأس ، فليس الوقت وقت فرار وهرب من العقاب ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده ، وخسر هنالك الكافرون** ﴾[2] ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون لا تجئروا اليوم إنكم منا لا تنصرون** ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ **ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأخذوا من مكان قريب ، وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ، وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب** ﴾[4]

قوله تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب** ﴾ يقول تعالى مخبرا عن المشركين فى تعجبهم من بعثة رسول الله ــ ﷺ ــ بشيرا ونذيرا كما قال عز وجل : ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين** ﴾[5] وقال جل وعلا ههنا ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم** ﴾ أى : بشر مثلهم ﴿ **وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا** ﴾ أى : أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون بالله فإنهم قد تلقوا عن ابائهم عبادة الأوثان وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ــ ﷺ ــ إلى خلع ذلك من قلوبهم وإفراد الاله بالوحدانية ، أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا : ﴿ **أجعل الألهة إلها واحدا إن هذا لشىء عجاب ، وانطلق الملأ منهم** ﴾ وهم سادتهم وكبراؤهم قائلين ﴿ **امشوا** ﴾ أى : استمروا على دينكم ﴿ **واصبروا على آلهتكم** ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد ــ

---

(١) الآية ٢٦ من سورة فصلت .

(٢) الآيتان ٨٤ – ٨٥ من سورة غافر .

(٣) الآيتان ٦٤ – ٦٥ من سورة المؤمنون .

(٤) الآيات ٥١ – ٥٤ من سورة سبأ .

(٥) الآية ٢ من سورة يونس .

ﷺ ـ من التوحيد ، قوله تعالى : ﴿ **إن هذا لشىء يراد** ﴾ قال ابن جرير : إن هذا الذى يدعونا إليه ـ ﷺ ـ من التوحيد لشىء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه .

قال ابن كثير : (ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات) .

قال السدى إن ناسا من قريش أجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام ، والعاصى بن وائل ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث فى نفر من مشيخة قريش ، فقال بعضه : لبعض انطلقوا بنا إلى أبى طالب فلنكلمه فيه فلينصفنا منه فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذى يعبده ،فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شىء فتعيرنا به العرب يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه فبعثوا رجلا منهم يقال له : المطلب فاستأذن لهم على أبى طالب فقال : هؤلاء شيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا ندعه وإلهه ، قال : فبعث إليه أبو طالب فلما دخل عليه رسوا الله ـ ﷺ ـ قال : يا ابن أخى هؤلاء شيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك قال : ﷺ ـ (يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ قال : وإلام تدعوهم ؟ قال ـ ﷺ ـ (ادعوهم أن يتكلموا بكلمة تدين لهم بها العرب ويملكون بها العجم) فقال أبو جهل : لعنه الله من بين القوم ما هى وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها قال ـ ﷺ ـ (تقولون لا إله إلا الله) فنفروا وقالوا : سلنا غيرها قال ـ ﷺ ـ (لو جئتمونى بالشمس حتى تضعوها فى يدى ما سألتكم غيرها)(١) فقاموا من عنده غضابا وقالوا : والله لنشتمنك وإلهك الذى أمرك بهذا ﴿ **وانطلق الملأ منهم أن أمشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشىء يراد** ﴾ .

ورواه ابن ابى حاتم وابن جرير وزاد فلما خرجوا دعا رسول الله ـ ﷺ ـ عنه إلى قول لا إله إلا الله فأبى وقال : بل على دين الأشياخ ونزلت ﴿ **إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾(٢) .

وقولهم ﴿ **ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة** ﴾ أى : ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة يعنى النصرانية قالوا لو كان هذا القرآن حقا لأخبرتنا به النصارى ﴿ **إن هذا إلا اختلاق** ﴾ قال مجاهد : وقتادة كذب وقولهم ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ يعنى : أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم كما قال : فى الآية الأخرى ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمت ربك خير مما يجمعون** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾(٤) ولهذا لما

---

(٩) انظر تفسير ابن كثير فى تفسير (ص) ج ٧ ص ٤٦ وتفسير الطبرى ج ٢٣ ص ٧٢ .

(١) من الآية ٥٦ من سورة القصص .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

(٣) من الآية ١٢٤ من سورة الأنعام .

قالوا هذا الذى دل على جهلهم وقلة عقلهم فى استبعادهم إنزال القرآن على الرسول من بينهم قال الله تعالى : ﴿ **بل لما يذوقوا عذاب** ﴾ أى : انما يقولون هذا لانهم ماذاقوا إلى حين قولهم ذلك عذاب الله تعالى ونقمته سيعلمون غب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، ثم قال تعالى مبينا أنه المتصرف فى ملكه الفعال لما يشاء الذى يعطى من يشاء ما يشاء ويضر من يشاء ويذل من يشاء ويهدى من يشاء وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ويختم على قلب من يشاء فلا يهديه أحد من بعد الله ، وإن العباد لا يملكون شيئا من الأمر وليس إليهم من التصرف فى الملك ولا مثقال ذرة وما يملكون من قطمير ، ولهذا قال تعالى : منكرا عليهم ﴿ **أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب** ﴾ أى : العزيز الذى لا يرام جنابه ، الوهاب الذى يعطى ما يريد لمن يريد ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيرا ، أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكا عظيما ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيرا** ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الانفاق ، وكان الإنسان قتورا** ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ **أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون** ﴾[٣] . وقوله تعالى ﴿ **أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا فى الأسباب** ﴾[٤] أى : ان لهم ذلك فليصعدوا فى الأسباب ، قال ابن عباس : رضى الله عنهما ــ ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم يعنى طرق السماء . وقال الضحاك : فليصعدوا إلى السماء السابعة . وقد قال تعالى : فى موضع آخر ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون ، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ، أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون** ﴾[٥] .

ثم قال عز وجل : ﴿ **جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب** ﴾ أى : هؤلاء الجند المكذبون الذين هم فى عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين وهذه الآية كقوله جلت عظمته ﴿ **أم يقولون نحن جميع منتصر ، سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾[٦] وقوله ﴿ **قل للذين**

---

(١) الآيات ٥٣ ــ ٥٥ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٠٠ من سورة الأسراء .

(٣) الآية ٣٧ من سورة الصور .

(٤) الآية ١٠ من سورة الصافات .

(٥) الآيات ٢٩ ــ ٤٣ من سورة الطور .

(٦) الآيتان ٤٤ ــ ٤٥ من سورة القمر

كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ، إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة مالها من فواق وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب أصبر علىٰ ما يقولون** ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن هؤلاء القرون الماضية وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات فى مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقوله تعالى ﴿ **أولئك الأحزاب** ﴾ أى : كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالا وأولادا فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ولهذا قال عز وجل : ﴿ **إن كل الا كذب الرسل فحق عقاب** ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد** ﴾

وقوله تعالى ﴿ **وما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق** ﴾ قال ملك : عن زيد بن أسلم : أى : ليس لها مثنوية أى : ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء اشراطها أى : فقد اقتربت ودنت وأزفت وهذه الصيحة هى نفخة الفزع التى يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله ــ عز وجل ــ وقوله جل جلاله : ﴿ **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب** ﴾ هذا إنكار من الله تعالى على المشركين فى دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب فإن القط هو الكتاب وقيل هو الحظ والنصيب قال ابن عباس : رضى الله عنهما ومجاهد والضحاك والحسن وغير واحد سألوا تعجيل العذاب زاد قتادة كما قالوا : واذ قالوا ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم** ﴾(٢) ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمي لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون ، يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون** ﴾(٣) .

وقال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير أو الشر فى الدنيا ، وقال ابن كثير وهذا الذى قاله جيد وعليه يدور كلام الضحاك وإسماعيل بن أبى خالد والله أعلم .

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد . قال الله تعالى لرسوله ــ ﷺ ــ آمرا له بالصبر على أذاهم ومبشرا له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر ــ كما قال له سبحانه فى مواقع أخرى من القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ **فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما**

---

(١) الآية ١٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الانفال .

(٣) الآيات ٥٣ - ٥٥ من سورة العنكبوت .

يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾[١] وكقوله تعالى ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[٤] وقوله ﴿ وأصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٣] وقوله سبحانه ﴿ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾[٤] وقوله ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾[٥].

قصص داود عليه السلام :

قال تعالى :

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ * وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الاحقاف .
(٢) من الآية ٤٩ من سورة هود .
(٣) الآيتان ١٢٧ – ١٢٨ من سورة النحل .
(٤) الآية ١١٥ من سورة هود .
(٥) الآية ٣٤ من سورة الأنعام .

وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ
ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ
ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ
كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ
لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **الأيد** ﴾ والآد : القوة فى العبادة وكان يصوم يوما ويفطر يوما ، ﴿ **أواب** ﴾ : أى : رجاع إلى الله وإلى طاعته من قولهم آب الرجل إذا رجع ـ ﴿ **والاشراق** ﴾ : أى : وقت الأشراق ، يقال : أشرقت الشمس : أضاءت ، وشرقت : طعلت . ﴿ **محشورة** ﴾ أى : محبوسة فى الهواء ، ﴿ **أواب** ﴾ : أى : نقاد يسبح تبعا له ، ﴿ **شددنا ملكه** ﴾ أى : قويناه بالهيبة والنصر ، ﴿ **والحكمة** ﴾ هى إصابة الصواب فى القول والعمل ، ﴿ **الفصل** ﴾ : الحاجز بين الشيئين ، ﴿ **وفصل الخطاب** ﴾ الكلام الذى يفصل بين الحق والباطل ، ﴿ **هل** ﴾ هنا كلمة يراد منها التعجيب والتشويق إلى سماع ما ير بعدها ، ﴿ **والخصم** ﴾ جماعة المخاصمين ويستعمل للمفرد والجمع مذكرا ومؤنثا . ﴿ **تسوروا** ﴾ أى : أتوه من أعلى السور ودخلوا إلى المنزل ، ﴿ **والمحراب** ﴾ : الغرفة التى كان يتعبد فيها ويشتغل بطاعة ربه ، ﴿ **والفزع** ﴾ : انقباض ونفار يعترى الانسان من شيء مخيف ، ﴿ **بغى** ﴾ أى : جار وظلم ، ﴿ **لا تشطط** ﴾ أى : لا تبعد عن الحق ولا تجر فى الحكومة ، ﴿ **سواء الصراط** ﴾ أى : وسط الطريق ، ﴿ **النعجة** ﴾ أنثى الضأن ، ﴿ **أكفلينها** ﴾ أى : ملكينها ، ﴿ **وعزنى** ﴾[1] أي : غلبنى ، ﴿ **فى الخطاب** ﴾ أى : فى مخاطبته إياى ومحاجته ، إذ أتى بحجاج لم استطع رده ، ﴿ **والخلطاء** ﴾ هم المعارف أو الأعوان من بينهم ملابسه شديدة وأمتزاج : واحدهم خليط ، ﴿ **فتناه** ﴾ أى : أبتليناه ، ﴿ **خر** ﴾ أى : سقط ، ﴿ **راكعا** ﴾ ساجدا ، وقد يعبر بالركوع عن السجود . ﴿ **أناب** ﴾ أى : رجع إلى ربه ، ﴿ **الزلفى** ﴾ القرب من الله ، ﴿ **والمآب** ﴾ المرجع ، ﴿ **باطلا** ﴾ أى : عبثا ولعبا ، ﴿ **ويل** ﴾ أى : هلاك ، ﴿ **مبارك** ﴾ أى : كثير

المنافع الدينية والدنيوية ، ﴿ **ليدبروا** ﴾ أى : ليتفكروا ، ﴿ **ليتذكر** ﴾ أى : ليتعظ ، ﴿ **الألباب** ﴾ واحدها لب ، وهو العقل .

« المناسبة والمعنى الإجمالى »

بعد أن أمر الله تعالى رسوله بالصبر على أذى المشركين ـ أردف ذلك ذكر قصص بعض الأنبياء الذين حدث لهم من المشاق والأذى مثل ما حدث له فصبروا حتى فرج الله تعالى عنهم وأحسن عاقبتهم ترغيبا له فى الصبر ، وإيذانا ببلوغه ما يريد كما كان ذلك عاقبة من قبله .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ، إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ . يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود ـ عليه السلام ـ أنه كان ذا أيد والأيد : القوة فى العلم والعمل . قال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ الأيد : القوة وقال قتادة : أعطى داود عليه ـ الصلاة والسلام ـ قوة فى العبادةوفقهافى الاسلام ، وثبت فى الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : (أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى ، وإنه كان أوابا)[1] وهو الرجاع إلى الله ـ عز وجل ـ فى جميع أموره وشئوونه .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والاشراق** ﴾ وكذلك كانت الطير تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيعه إذ مرّ به الطير وهو سابح فى الهواء فسمعه وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب بل يقف فى الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعا له بالعشى والاشراق .

أخرج ابن جرير عن عبد الله بن الحارث أن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ كان لا يصلى الضحى قال : فأدخلته على أم هانىء ـ رضى الله عنها ـ فقلت : أخبرى هذا ما أخبرتنى فقالت : (دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الفتح فى بيتى ثم أمر بماء صب فى قصعة ثم أمر بثوب فأخذ بينى وبينه فاغتسل ثم رش ناحية البيت فصلى ثمان ركعات وذلك من الضحى قيامهن وركوعهن وسجودهن وجلوسهن سواء قريب بعضهن من بعض فخرج ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الصيام ـ ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٩٠ .
وأنظر صحيح البخارى ج ٢ ص ٥٢ – ٥٣ باب صوم داود عليه السلام .

صلاة الضحى إلا الآن)[1] . ﴿ **يسبحن بالعشى والاشراق** ﴾ وكنت أقول اين صلاة الإشراق وكان بعد يقول : صلاة الإشراق . ولهذا قال عز وجل : ﴿ **والطير محشورة** ﴾ أى : محبوسة فى الهواء ﴿ **كل له أواب** ﴾ أى : مطيع ، يسبح تبعا له ، قال سعيد بن جبير ، وقتادة : ومالك ، وعن زيد ، بن أسلم وابن زيد ، ﴿ **كل له أواب** ﴾ أى : مطيع .

وقوله تعالى : ﴿ **وشددنا ملكه** ﴾ أى : جعلنا له ملكا عظيما كاملا من جميع ما يحتاج إليه الملوك ، قال ابن ابى نجحيح : قال مجاهد : كان أشد أهل الدنيا سلطانا ، وقال السُدى : كان يحرسه كل يوم أربعة آلاف ، فمعنى شددنا ملكه أى : قوينا ملكه بكثرة الجند ، وبسطة الثراء والهيبة ونفوذ الكلمة والنصر على الأعداء .

وقوله تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكمة** ﴾ قال مجاهد : يعنى : الفهم والعقل والفطنة ، وقال مرة : الحكمة والعدل ، وقال مرة : الصواب ، وقال قتادة : كتاب الله واتباع ما فيه ، وقال السدى : الحكمة والنبوة .

وقوله تعالى : ﴿ **وفصل الخطاب** ﴾ قال شريح القاضى والشعبى : فصل الخطاب : الشهود والأيمان ، وقال قتادة : شاهدات على المدعى أو يمين المدعى عليه هو فصل الخطاب الذى فصل به الأنبياء والرسل أو قال المؤمنون والصالحون ، وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وقال مجاهد : والسدى : هو : اصابة القضاء وفهم ذلك ، وقال مجاهد أيضا : هو العقل فى الكلام وفى الحكم وهذا يشمل هذا كله وهو المراد : واختاره ابن جرير . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابى موسى – رضى الله عنه – قال : أول من قال أما بعد داود عليه السلام وهو فصل الخطاب وكذا قال الشعبى فصل الخطاب أما بعد .

قوله تعالى : ﴿ **وهل آتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال اكفلنيها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : ذكر المفسرون ههنا قصة اكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ولكن روى ابن ابى حاتم حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس رضى الله عنه ، ويزيد وان كان من الصالحين لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة فالأولى : أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمن فهو حق أيضا . وقوله تعالى : ﴿ **ففزع منهم** ﴾ إنما كان ذلك لأنه كان فى محرابه وهو أشرف مكان فى داره وكان قد أمر أن لا

---

(١) وانظر تفسير الطبرى فى تفسير سورة (ص) ج ٢٣ ص ٧٨ .

يدخل عليه أحد ذلك اليوم فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب أى : احتاطابه ، يسألونه عن شأنهما .

وقوله عز وجل : ﴿ **وعزنى فى الخطاب** ﴾ أى : غلبنى يقال عز يعز إذا قهر وغلب ، وقوله تعالى ﴿ **وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرراكعاوأناب** ﴾ قال ابن عباس : أى : اختبرناه وقوله تعالى ﴿ **وخر راكعا** ﴾ أى : ساجدا ﴿ **وأناب** ﴾ وقد ذكر أنه استمر ساجدا أربعين صباحا ﴿ **فغفرنا له ذلك** ﴾ أى : ما كان منه مما يقال فيه : إن حسنات الابرار سيئات المقربين .

وقد اختلف الأئمة فى سجدة ﴿ **ص** ﴾ هل هى من عزائم السجود ؟ على قولين الجديد من مذهب الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أنها ليست من عزائم السجود هى سجدة شكر والدليل على ذلك : ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : فى السجدة فى ص ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ يسجد فيها ورواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى فى تفسيره من حديث أيوب به وقال الترمذى : حسن صحيح . وقال النسائى : أيضا عند تفسير هذه الآية بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : إن النبى ـ ﷺ ـ سجد فى ص وقال : (سجدها داود عليه الصلاة والسلام توبة ونسجدها شكرا)[1] تفرد بروايته النسائى ورجال اسناده كلهم ثقات .

وعن ابن عباس : رضى الله عنهما ـ قال : جاء رجل إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله (إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول وهى ساجدة : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا ، واجعلها لى عندك ذخرا ، وضع بها عنى وزرا ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود ، قال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ فرأيت النبى ـ ﷺ ـ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول : وهو ساجد كما حكى الرجل من كلام الشجرة)[2] رواه الترمذى وقال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وقال البخارى : عند تفسيرها أيضا عن العوام قال : سألت مجاهدا عن سجدة ص فقال : سألت ابن عباس ـ رضى الله عنهما من اين سجدت فقال : أو ما تقرأ ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان** ﴾ ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ فكان داود عليه ـ الصلاة والسلام ـ من أمر نبيكم ـ ﷺ ـ أن يقتدى به فسجدها داود ـ عليه الصلاة والسلام ـ فسجدها رسول الله ـ ﷺ ـ .

---

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى على بشرح الترمذى ج ٣ ص ١٧٦ رقم ٥٧٤ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
والحديث فى صحيح البخارى ج ٢ ص ٥٠ باب ما جاء فى سجود القرآن وسنتها .
وانظر ابو داود فى سنة كتاب الصلاة باب السجود فى (ص) ج ٢ ص ١٢٣ رقم ١٤٠٩ وقال أبو داود : انظر النسائى فى الافتتاح باب السجود فى صورة (ص) حديث ٩٥٨ .
وفى النسائى فى سننه ج ٢ ص ١٥٩ كتاب الافتتاح باب سجود القران السجود فى (ص) .

(٢) الحدث فى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى ج ٩ ص ٣٨٣ رقم ٣٤٨٤ باب ـ ما جاء ما يقول فى سجود القرآن .
وفى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٥٥ فى تفسير سورة (ص) .

وقال الإمام أحمد : عن بكر هو ابن عبد الله المزنى أنه أخبره أن أبا سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ رأى رؤيا أنه يكتب ــ ص ــ فلما بلغ إلى الآية التى يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شىء بحضرته انقلب ساجدا قال فقصها على النبى ــ ﷺ ــ فلم يزل يسجد بها بعد)[1] ، تفرد به أحمد .

وقال أبو داود : عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ قال : (قرأ رسول الله ــ ﷺ ــ وهو على المنبر (ص) فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود فقال ــ ﷺ ــ (إنما هى توبة نبى ولكنى رأيتكم تشرفتم)[2] فنزل وسجد وتفرد به أبو داود واسناده على شرط الصحيح .

وقوله تعالى ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ أى : وإن له يوم القيامة لقربه يقربه الله ــ عز وجل ــ بها وحسن مرجع وهو الدرجات العالية فى الجنة لتوبته وعدله التام فى ملكه كما جاء فى الصحيح (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهليهم وما ولوا) .

قوله تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ هذه وصية من الله ــ عز وجل ــ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده ــ تبارك وتعالى ــ ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد .

قال ابن أبى حاتم : بسنده عن إبراهيم أبو زرعة كان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيحاسب الخليفة فإنك قد قرأت الكتاب الأول وقرأت القرآن وفقهت ، فقلت يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل فى أمان الله ، قلت : أنت أكرم على الله أو داود ــ عليه الصلاة والسلام ــ إن الله تعالى : جمع له النبوة والخلافة ثم توعده فى كتابه فقال تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ الآية . لقد أمر الله نبيه بما أمر به المرسلين من قبل فقال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ... الآية** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيرا من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾[5] وقال

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٧٨ .

(٢) انظر سنن ابو داود كتاب الصلاة باب السجود فى (ص) ج ٢ ص ١٢٤ رقم ١٤١٠ وذكر أبو داود فى قوله تشرن الناس معناه : قلفنا الناس وفى تفسير ابن كثير معناه : التأهب والتهيؤ للشىء والاستعداد له .

(٣) من الآية ٤٨ من سورة المائدة .

(٤) الآيتان ٤٩ — ٥٠ من سورة المائدة .

(٥) من الآية ٤٢ من سورة المائدة .

تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين** ﴾ (١)

وعن أبى هريرة : رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فاخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)(٢) متفق عليه ، وفى الصحيحين (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهليهم وحكمهم وما ولوا)(٣) .

وأخرج الترمذى عن أبى هريرة : رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (ثلاثة لا ترد دعوتهم ، الصائم حتى يفطر ، والإمام العادل ، ودعوة المظلوم ، يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزتى لأنصرنك ولو بعد حين) قال الترمذى حديث حسن وحذر ـ ﷺ ـ من الظلم والحكم بالهوى فقال ـ ﷺ ـ كما أخرج الطبرانى عن أبى أمامة عن رسول الله ـ ﷺ ـ (صنفان من أمتى لن تنالهما شفاعتى إمام ظلوم ، وكل غال مارق) (واخرجه الهيثمى وقال رواه الطبرانى فى الكثير والأوسط ورجال الكبير ثقات) وأخرج الترمذى ، وأحمد والبيهقى ، من أن سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عامة ، يركز لواؤه عند إسته)(٤) قال الترمذى : حسن صحيح .

وأخرج مسلم عن معقل بن يسار : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة)(٥) وعن أبى سعيد الخدرى : أنه ـ ﷺ ـ قال : **أشد الناس عذابا يوم القيامة إمام جائر**)(٦) رواه أبو يعلى والطبرانى وأبو نعيم (فى الحليه وهو حديث حسن لغيره وقوله تعالى ﴿ **إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ أى : ان الذين يتركون الحق ويضلون عن سبيل معالمه لهم من الله العذاب الشديد يوم الحساب لنسيانهم ما فى ذلك اليوم من الأهوال ، وأن الله سيحاسب كل نفس بما كسبت ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فمن دس نفسه وسلك بها سبيل المعاصى فقد حق عليه العذاب الذى كتبه على العاصين جزاء

(١) الآيتان ١٨ – ١٩ من سورة الجاثية .

(٢) انظر فيض القدير بشرح جامع الضعير ج ٤ ص ٨٨ رقم ٤٥ – ٤٦ .

وانظر الامام احمد فى سنده ج ٢ ص ٤٣١ عن ابى هريرة .

(٣) وانظر سند الامام أحمد ج ٢ ص ١٦٠ .

وفى صحيح مسلم كتاب الامارة باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر ج ٣ ص ١٤٥٨ رقم ١٨ – ١٨٢٧ بلفظ حديث زهير .

(٤) وانظر الطبرانى ج ٨ ص ٣٣٧ رقم ٨٠٧٩ .

(٥) انظر صحيح مسلم باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية ج ٣ ص ١٤٦٠ رقم .

(٦) انظر الحلية ج ١ ص ١١٤ رقم ٢٢ .

وفاقا على أعمالهم التى كسبوها بأيديهم . قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ .

يخبر تعالى أنه ما خلق عبثا وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذب الكافر ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا** ﴾ أى : الذين لا يرون بعثا ولا معادا وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ **فويل للذين كفروا من النار** ﴾ أى : ويل لهم يوم القيامة ، يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم . ثم بين سبحانه وتعالى أنه ـ عز وجل ـ من عدله وحكمته لا يساوى بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾ أى : لا نفعل ذلك ولا يستوون عند الله وإذا كان الأمر كذلك فلابد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ويعاقب فيها هذا الفاجر وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطرة المستقيمة على أنه لابد من معاد وجزاء فإنا نرى الظالم الباغى يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت . كذلك ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده فلابد فى حكمه الحكيم العليم العادل الذى لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا فى هذه الدار فتعين أن هناك دارا أخرى لهذا الجزاء والمواساة ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾(١) . وقوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين** ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾(٣) .

ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ، وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ أى : أنزلنا إليك هذا الكتاب النافع للناس ، المرشد لهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، فى دينهم ودنياهم ، الجامع لوجوه المصالح ، ليتدبرها أولو الحجا الذين قد أنار الله بصائرهم ، فاهتدوا بهديه ، وسلكوا فى أعمالهم ما أرشد إليه ، وتذكروا مواعظه وزواجره ، واعتبروا بمن قبلهم فارعووا عن مخالفته ، حتى لا يحل بهم مثل ما حل بالغابرين ويستأصلهم كما استأصل السابقين ، ممن بغوا فى الأرض فسادا وما تدبره بحسن تلاوته وجودة ترتيله ، بل بالعمل بما فيه ، واتباع أوامره ونواهيه ، ومن ثم قال الحسن البصرى : قد قرأ القرآن عبيد وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضيعوا

(١) الآيتان ٢١ – ٢٢ من سورة الجاثية .
(٢) الآيتان ٢٨ – ٢٩ من سورة النحل .
(٣) للآيات ١١٥ – ١١٨ من سورة المؤمنون .

حدوده حتى أن أحدهم ليقول : والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا ، وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر فى خلق ولا عمل ، والله ما هو بحفظ حروفه واضاعة حدودة ، والله ما هؤلاء بالحكماء ولا الوزعة ، لا أكثر الله فى الناس من مثل هؤلاء .

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه : (قصص الأنبياء) عن النبى داود : هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن فحشون بن عويناذب بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن اسحق ابن ابراهيم الخليل عبد الله ونبيه وخليفته فى أرض بيت المقدس .

قال محمد بن اسحق : عن بعض أهل العلم عن وهب بن منبه كان داود عليه السلام — قصيرا أزرق العينين ، قليل الشعر طاهر القلب ونقيه ، تقدم أنه لما قتل جالوت وكان قتله له فيما ذكر ابن عساكر عند قصد أم حكيم بقرب مرج الصفر فأحبته بنو إسرائيل ومالوا إليه وإلى ملكه عليهم فكان من أمر طالوت ما كان ، وصار الملك إلى داود — عليه السلام — وجمع الله له بين الملك والنبوة ، بين خير الدنيا والآخرة وكان الملك يكون فى سبط والنبوة فى آخر فأجتمع فى داود هذا وهذا كما قال تعالى : ﴿ **وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾[1] أى : لولا إقامة الملوك حكاما على الناس لأكل قوى الناس ضعيفهم . ولهذا جاء فى بعض الآثار (السلطان ظل الله فى أرضه) . وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان : (إن الله ليزغ بالسلطان مالا يزغ بالقرآن) وقد ذكر ابن جرير فى تاريخه : أن جالوت لما بارز طالوت فقال له : أخرج إلى واخرج إليك فندب طالوت الناس فانتدب داود فقتل جالوت . قال وهب بن منبه : فمال الناس إلى داود حتى لم يكن لطالوت ذكر وخلعوا طالوت وولوا عليهم داود .

وقال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد ، أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾[3] أعانه الله على عمل الدروع من الحديد ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعتها وكيفيتها فقال : ﴿ **فقدر فى السرد** ﴾ أى : لا تدق المسمار فيغلق ولا تغلظه فيفصم قاله مجاهد : وقتادة والحكم ، وعكرمة . قال الحسن البصرى : وقتادة ، والأعشى ، كان الله قد آلان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة . قال قتادة : فكان أول من عمل الدروع من زرد وإنما كانت قبل ذلك من صفائح قال ابن شوذب : كان يعمل كل يوم درعا يبيعها بستة آلاف درهم وقد ثبت فى الحديث (إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده) .

---

(١) الآية ٢٥١ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ١٠ — ١١ من سورة سبأ .

(٣) سورة الأنبياء من الآية ٧٩ — ٨٠ .

وقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب ، وشددنا ملكه وأتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ قال ابن عباس : ومجاهد الايد القوة فى الطاعة يعنى : ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح ، قال قتادة : اعطى قوة فى العبادة وفقها فى الاسلام ، قال : وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفتر إذ لاقى)[١] وقوله : ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب** ﴾ كما قال : ﴿ **يا جبال أوبى معه والطير** ﴾ أى : سبحى معه قاله ابن عباس : ومجاهد وغير واحد فى تفسير هذه الآية ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق** ﴾ أى : عند آخر النهار وأوله وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يعطه أحد بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقال الأوزاعى : حدثنى ، عبد الله بن عامر : قال : أعطى داود من حسن الصوت ما لم يعط أحد قط حتى إن كان الطير والوحش ينكعف حوله حتى يموت عطشا وجوعا وحتى أن الانهار لتقف .

وقال الامام أحمد : عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمع رسول الله ـ ﷺ ـ صوت أبى موسى الأشعرى وهو يقرأ فقال : لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود)[٢] وهذا من شرط الشيخين ولم يخرجاه من هذا الوجه ، وقد كان مع هذا الصوت الرخيم سريع القراءة لكتابة الزبور كما قال الامام أحمد : عن أبى هريرة قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ (خفف على داود القراءة فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرأ الزبور من قبل أن تسرج دابته وكان لا يأكل إلا من عمل يديه)[٣] وكذلك رواه البخارى : منفردا به عن عبد الله بن محمد عن عبد الله الرزاق به ولفظه (خففه على داود القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل ان تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يديه)[٤] .

والمراد بالقرآن هنا : الزبور الذى أنزله عليه وأوحاه إليه وذكر رواية أشبه أن يكون محفوظا فإنه كان ملكا له اتباع فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغنى به على وجه التخشع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وقد قال الله تعالى : ﴿ **وآتينا داود زبورا** ﴾ **والزبور : كتاب مشهور وذكرنا فى التفسير الحديث الذى رواه أحمد وغيره أنه أنزل فى شهر رمضان وفيه من المواعظ والحكم ما هو معروف لمن نظر فيه . وقوله** ﴿ **وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ أى : أعطيناه ملكا عظيما وحكما نافذا .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الصيام ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٩٠ .
وانظر البخارى ج ٢ ص ٥٢ – ٥٣ (باب) صوم داود عليه السلام .

(٢) الحديث فى سند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٧ .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣١٤ والبخارى ج ٤ ص ١٩٤ .

(٤) أنظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٤ – ١٩٥ كتاب بدء الخلق .

روى ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنّ رجلين تداعيا إلى داود ـ عليه السلام ـ فى بقر أدعى أحدهما على الأخر أنه أغتصبهما منه فانكر المدعى عليه فأرجا أمرهما إلى الليل فلما كان الليل أوحى الله إليه أن أقتل المدعى فلما أصبح قال له داود : إن الله أوحى إلى أن أقتلك فإنى فاتلك لا محالة فما خبرك فيما ادعيته على هذا قال : والله يا نبى الله إنى لمحق فيما ادعيت عليه ولكنى كنت اغتلت أباه قبل هذا فأمر به داود فقتل فعظم أمر داود فى بنى إسرائيل جدا وخضعوا له خضوعا عظيما ، قال ابن عباس وهو قوله تعالى : ﴿ **وشددنا ملكه** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ ﴿ **الحكمة** ﴾ النبوة ، ﴿ **فصل الخطاب** ﴾ قال شريح والشعبى ، وقتادة ، وأبو عبد الرحمن السلمى ، وغيرهم ، ﴿ **فصل الخطاب** ﴾ الشهود والأيمان يعنون بذلك البينة على المدعى واليمين على من أنكر . وقال مجاهد ، والسدى ، هو إصابة القضاء وتهمه ، وقال مجاهد : هو الفصل فى الكلام وفى الحكم واختاره ابن جرير ، وهذا لا ينافى ما روى عن أبى موسى أنه قال (أما بعد) وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل أعطى داود سلسلة لفصل القضاء فكانت مدورة من السماء إلى صخرة بيت المقدس وكانت من ذهب فإذا تشاجر الرجلان فى حق فأيهما كان محقا نالها والآخر لا يصل إليها فلم تزل كذلك حتى أودع رجلا لؤلؤة فجحدها منه واتخذ عكازا وأودعها فيه فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى فلما قيل للآخر خذها بيدك عمد إلى العكاز فأعطاه وفيه تلك اللؤلؤة وقال : اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه ثم تناول السلسلة فنالها فأشكل أمرها على بنى إسرائيل . ثم رفعت سريعا من بينهم . ذكره بمعناه غير واحد من العشرين وقد رواه إسحق بن بشر عن إدريس بن سنان عن وهب به بمعناه ﴿ **وهل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزنى فى الخطاب قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيرا من الخلطاء ليبغىَ بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

وقد ذكر كثير من المفسرين من السلف والخلف ههنا قصصا وأخبارا اكثرها إسرائيليات ومنها ما هو مكذوب لا محالة تركنا ايرادها فى كتابنا قصدا اكتفاء واقتصارا على مجرد تلاوة القصة من القرآن العظيم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . وقد اختلف الأئمة فى سجدة ص هل هى من عزائم السجود أو إنما هى سجدة شكر ليست من عزائم السجود على قولين . قال البخارى : عن العوام قال : سألت مجاهدا عن سجدة (ص) فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت قال : أو ما تقرأ ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان** ﴾ ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ فكان داود ممن أمر نبيكم ـــ ﷺ ـــ أن يقتدى به فسجدها داود عليه السلام فسجدها رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال الإمام أحمد : عن عكرمة : عن ابن عباس أنه قال : فى السجود فى (ص) ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ـــ ﷺ

يسجد فيها)[١] وقال النسائى : عن ابن عباس أن النبى ــ ﷺ ــ سجد فى (ص) وقال : سجدها داود توبه ونسجدها شكرا تفرد به أحمد ورجاله ثقات .

وروى الترمذى وابن ماجة : عن ابن عباس . قال : جاء رجل إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال : يا رسول الله إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة فقرأت السجدة فسجدت الشجرة بسجودى فسمعتها تقول : وهى ساجدة (اللهم اكتب لى بها عندك أجرا واجعلها لى عندك ذخرا وضع عنى بها وزرا واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود وقال ابن عباس : فرأيت النبى ــ ﷺ ــ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول : وهو ساجد كما حكى الرجل عن الكلام الشجرة)[٢] ثم قال الترمذى : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وقد ذكر بعض المفسرين أنه ــ عليه السلام ــ مكث ساجدا أربعين يوما وقاله مجاهد : والحسن ، وغيرهما ، وورد فى ذلك حديث مرفوع لكنه من رواية يزيد الرقاشى وهو ضعيف متروك الرواية .

قال الله تعالى : ﴿ **فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ أى : إن له يوم القيامة لزلفى . وهى : القربة التى يقربه الله بها ويدينه من حظيرة قدسه يسيعها كما ثبت فى حديث (المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون فى أهلهم وحكمهم وماولوا)[٣] وقال الإمام أحمد : عن أبى سعيد الخدرى . قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ (إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منى مجلسا إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابا إمام جائر)[٤] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن مالك بن دينار فى قوله ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ قال : يقوم داود عليه السلام ــ يوم القيامة عند ساق العرش فيقول الله : يا داود مجدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذى كنت تمجدنى فى الدنيا فيقول : وكيف وقد سلبته فيقول : إنى أرده عليك اليوم قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان . ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ هذا خطاب من الله تعالى مع داود ، والمراد : ولاة الأمور وحطام الناس وأمرهم بالعدل وابقاع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الأراء الأهواء وتوعد من سلك غير ذلك وحكم بغير ذلك وقد كان داود ــ عليه السلام ــ هو المقتدى به فى ذلك الوقت فى العدل وكثرة العبادة وأنواع القربان حتى إنه كان لا يمضى ساعة من أناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته فى عبادة ليلا ونهارا كما قال تعالى : ﴿ **اعملوا آل**

---

(١) الحديث فى تحفة الأحوذى بشرح الترمذى ج ٣ ص ١٧٦ رقم ٥٧٤ وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .
وانظر سنن النسائى ج ٢ ص ١٥٩ كتاب الافتتاح ــ باب سجود القرآن ــ السجود فى سورة (ص) .
(٢) الحديث فى تحفة الأحوذى جامع الترمذى ج ٩ ص ٣٨٣ رقم ٣٤٨٤ باب ــ ما جاء ــ ما يقول فى سجود القرآن .
(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الامارة ــ باب فضيلة الامام العادل وعقوبة الجائر ... الخ ج ٢ ص ١٤٥٨ رقم ١٨٢٧ - ١٨ بلفظ حديث زهير .
وسند الامام أحمد ج ٢ ص ١٦٠ .
(٤) انظر سند الامام أحمد ج ٣ ص ٢٢ عن أبى سعيد الخدرى .

داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾(١) قال أبو بكر بن أبى الدنيا عن ، أبى الجلد قال : قرأت فى مسألة داود ــ عليه السلام ــ أنه قال : يارب كيف لى أن اشكرك وأنا لا أصل إلى شكرك إلا بنعمتك قال : فأتاه الوحى (أن يا داود ألست تعلم أن الذى بك من النعم منى قال : بلى يارب قال : فإنى أرضى بذلك منك) .

وقال البيهقى : عن ابن شهاب قال : قال : داود (الحمد لله كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ، فأوحى الله إليه إنك أتعبت الحفظة يا داود) .

وقال عبد الله بن المبارك : عن وهب بن منبه : قال : إن فى حكمة آل داود حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلى بينه وبين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويحمل فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، واجمام القلوب وحق على العاقل أن يعرف زمانه ويحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه . وحق على العاقل أن لا يظعن إلا فى إحدى ثلاث زاد لمعاده ، ومرمة لمعاشة ، ولذة فى غير محرم .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة داود ــ عليه السلام ــ أشياء كثيرة مليحه منها قوله : (كن ليتيم كالأب الرحيم ، وأعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد ، وروى بسند غريب مضوعاً قال داود : يا زراع السيئات أنت تحصد شوكها وحسكها ، وعن داود ــ عليه السلام ــ أنه قال : مثل الخطيب الأحمق فى نادى القوم كمثل المغنى عند رأس الميت ، وقال أيضا ، ما أقبح الفقر بعد الغنى ، وأقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى ، وقال : انظر ما تكره أن يذكر عنك فى نادى القوم فلا تفعله إذا خلوت . وقال لا تعدن أخاك بمالا تنجزه له فإن ذلك عداوة ما بينك وبينه وقال محمد بن سعد : أنبأنا محمد بن عمر ، الواقدى حدثنى ، هشام بن سعد ، عن عمر مولى عفرة ، قال : قالت : يهود لما رأيت رسول الله ــ ﷺ ــ يتزوج النساء انظروا إلى هذا الذى لا يشبع من الطعام ولا والله ماله همة إلا فى النساء ، حسدوه لكثرة نسائه وعابوه بذلك فقالوا لو كان نبيا مارغب فى النساء ، وكان أشدهم فى ذلك حيى بن أخطب فاكذبهم الله وأخبرهم بفضل الله وسعته على نبيه ــ صلوات الله عليه ــ وسلامه ــ فقال : **﴿ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾**(٢) يعنى : بالناس رسول الله ــ ﷺ ــ **﴿ فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وأتيناهم ملكا عظيما ﴾**(٣) يعنى : ما أتى الله سبحانه ابن داود كانت له ألف امرأة سبعمائة مهرية وثلثمائة سرية وكانت لداود ــ عليه السلام ــ مائة امرأة منهن امرأة ، أوريا أم سليمان ابن داود التى تزوجها بعد الفتنة هذا اكثر مما لمحمد ــ ﷺ ــ .

(١) سورة سبأ من الآية ١٣ .

(٢) سورة النساء من الآية ٥٤ وانظر تفسير الطبرى ج ٥ ص ٨٧ – ٨٨ .

(٣) سورة النساء من الآية ٥٤ .

كمية حياته وكيفية وفاته عليه السلام :

قد تقدم فى ذكر الأحاديث الواردة فى خلق آدم أن الله لما استخرج ذريته من ظهره فرأى فيهم الأنبياء عليهم السلام ـ فرأى فيهم رجلا يزتقر فقال : أى رب من هذا قال : هذا ابنك داود قال : أى : رب كم عمره قال : ستون عاما قال : أى ربى زد فى عمره قال : لا : إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف عام فزاده أربعين عاما فلما انقض عمر آدم جاءه ملك الموت فقال : بقى من عمرى أربعون سنه ونسى آدم ما كان وهبه لولده داود فاتمها الله لآدم ألف سنة ولداود مائة سنة)[1] رواه أحمد عن ابن عباس والترمذى وصححه عن أبى هريرة وابن خزيم وابن حبان . وقال الحاكم على شرط مسلم .

وأما وفاته ـ عليه السلام ـ فقال الأمام أحمد فى سنده : عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (كان داود عليه السلامَ فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع قال : فخرج ذات يوم وغلقت الدار فاقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار فقالت : لمن فى البيت من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة والله لتفضحن بداود ، فجاء داود فإذا الرجل قائم فى وسط الدار فقال له . داود : من أنت فقال : أنا الذى لا أهاب الملوك ولا أمنع الحجاب فقال داود : أنت والله إذن ملك الموت مرحبا بأمر الله ثم مكث حتى قبضت روحه ، فما غسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس فقال : سليمان للطير أظلى على داود فاظلته الطير حتى اظلمت عليه الأرض فقال : سليمان للطير اقبض جناحا قال : قال : أبو هريرة فطفق رسول الله ـ ﷺ ـ يرينا كيف فعلت الطير وقبض رسول الله ـ ﷺ ـ بيده وغلبت عليه يومئذ المضرحية)[2] انفرد باخراجه أحمد وأسناده جيد قوى رجاله ثقات . ومعنى قوله وغلبت عليهن يومئذ المضرحية ، أى وغلبت على التظليل عليه الصقور الطوال الأجنحة واحدها مضرحى . قال الجوهرى وهو الصقر الطويل الجناح .

وقال السدى : عن ابن مالك عن ابن عباس قال : مات داود عليه السلام فجأة وكان بسبت وكانت الطير تظله .

وقال أبو السكنى الهجرى مات إبراهيم ـ عليه السلام ـ فجأة وداود فجأة وابنه سليمان فجأة ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أجمعين رواه ابن عساكر وروى عن بعضهم أن ملك الموت جاءه وهو نازل من محرابه فقال له : دعنى أنزل أو أصعد فقال : يا نبى الله قد نفدت السنون والشهور والآثار والارزاق . قال فخر ساجدا على مرقاة من تلك المراقى فقبضه وهو ساجد .

وإتماما للفائدة نذكر مقالا هاما ذكره الشيخ محمد مصطفى الشاطر فى كتابه (القول السديد فى حكم ترجمة القرآن المجيد) عن قصة داود ورد فيها من إسرائيليات .

---

(١) الحديث فى سند الامام أحمد ج ١ ص ٢٥١ - ١٥٢ عن رواية ابن عباس .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤١٩ عن أبى هريرة .

قال ما نصه : نسب الكاذبون من اليهود والنصارى فى كتبهم إلى سيدنا داود ـ عليه السلام ـ ما تتألم له النفس وينضر منه السمع فتارة يرمونه بالزنا ، وطورا يرمونه بالغدر والمكر والاحتيال ليستولى على امرأة قائده لانه رآها فى محرابه فأعجبته وشغف بها إلى آخر ما دنسوا به الكتب ، تلقف بعض القصاص هذا الروايات ولم يفحصوا مصدرها وأخذوا يلقونها للعامة فلما علم الامام على ـ كرّم الله وجهه ـ بذلك أعلن بأن من حدث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين وهو حد الفرية على الأنبياء فأخذ بعضهم يعدل فيها ، ويلطفوا منها ويقولوا إن شريعة داود كانت تجيز لرجل أن يسأل الأخر عن النزول عن امرأته ليتزوجها إذا أعجبته ، وأن داود فعل ذلك وإنه خطبها منه أو من أبيها ولا أدرى من أين جاء لهؤلاء إن هذا كان جائزا فى شريعة داود عليه السلام .

وقد اندفع مدير مجلة الأزهر فى ملحقة ص ٣٧ وراء هؤلاء فقال : إن داود كان يريد أن يضيف امرأة أحد أتباعه إلى نسائه التسع والتسعين فطلب إلى زوجها أن يتنازل له عنها . وإنى أنصح كل مسلم أن لا يهجم على مقام الأنبياء فينسب إليهم ما يعد ذنبا ، أو هفوة فإنه من أكبر البهتان بل يجب عليه أن ينفيه نفيا باتا إلا إذا كان منصوصا عليه بنص صريح لا يحتمل التأويل ، إنه لا يوجد نص صريح لا من كتاب ولا سنة على أن سيدنا داود ـ عليه السلام ـ كان متزوجا بتسع وتسعين امرأة بل روى عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ أنه نفى ذلك بتاتا (انظر الينسابورى) .

وإذا علمت أنه لا يوجد نص من كتاب ولا حديث فى تفسير هذه الآيات وليست غامضة المعنى حتى يقال إنها من المتشابهات ، كان لنا أن نفسرها بما ينطبق على اللغة العربية وعادة العرب وما يسيغه لعقل ويشير إليه القرآن الكريم ، هذه الآيات لم تكن مسوقة لبيان ذنب وإنما هى مسوقة للعظة والاعتبار ولبيان ما فيها من قواعد عمرانية واجتماعية ونظامية فاسمع أيها الأخ ما أفهمه إن هذه القصة ، ان هذه القصةُ مبنية على أمور ثلاث .

الأول : هل العزلة أفضل أم الاجتماع .

الثانى : هل للمالك أن يتصرف فى ملكه كيف يشاء ولو مكان مضر بملكه فلا يملك أحد أن يشاركة فى هذا التصرف ولو كان فيه المنفعة .

الثالث : ما هى الصفات التى يجب أن يتصف بها الحاكم والخليفة لينتظم الملك ويتم العدل . مقدمة .

إذا قرأت سورة (ص) وجدت أن الله تعالى قد ذكر قبل القصة المذكورة بعضا من صفات داود ـ عليه السلام ـ وشيئا من النعم التى أنعم بها عليه فقال تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ .

وصفه بالعبودية بقوله تعالى : ﴿ **عبدنا** ﴾ والاضافة هنا للتشريف وهى أشرف أوصاف المخلوقين

ولذلك وصف بها سيدنا محمد — ﷺ — بقوله ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾[١] وعن أبى الدرداء — رضى الله عنه — قال : كان النبى — ﷺ — إذا ذكر داود تحدث عنه بقوله : كان اعبد البشر) (تيسير الوصول ص ٨٦ ج ٢) لقد كان يعبد الله تعالى أحب العبادة إليه يدل على ذلك ما جاء عن نبينا محمد — ﷺ — فى البخارى (أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ويصوم يوما ويفطر يوما)[٢] وقوله : ﴿ **ذا الأيد** ﴾ وصف ثان أى : القوة فى العبادة والصلابة فى الحق والدين والشدة على الباغين ، والغلبة على المفسدين اقرأ قصته فى سورة البقرة ، والنمل وسبأ أيضا وانظر تفسير الطبرى .

وقوله ﴿ **إنه أواب** ﴾ وصف ثالث أى : رجاع فى الأمور كلها إلى مرضاة الله تعالى ، لاجىء إليه فى جميع أحواله مستعين به فى جميع شئونه لا يرى لنفسه ولا غيره حولا ولا قوة ولا نصرا ولا نجاة إلا بالله تعالى وهذا أعلى مقام المتوكلين .

وفى المفردات للأصفهانى ، الأواب : هو الرجاع إلى الله تعالى بترك المعاصى وفعل الطاعات — وقال بعضهم : الأواب : المسبح وهو تفسير له ببعض أنواعه فإن التسبيح من ضمن أنواع الرجوع إلى ما يرضى الله تعالى ويحبه ، وقال قتادة : كان داود مطيعا لله تعالى ، كثير الصلاة ، (انظر تفسير الطبرى) .

هذه الأوصاف الثلاثة منتهى ما يطلب من العبد للرب ، فإذا أفاض الله عليه بعد ذلك بالوصفين الآخرين وهما الحكمة والعلم فقد بلغ المرتبة العليا والمكان الأسمى ، والدرجة التى لا مطمع للبشر إليها ، ولقد أوتى داود عليه السلام العلم والحكمة أما الحكمة فثابتة فى هذه الآية وهو النبوة وأما العلم : ففى قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين** ﴾[٣] فهل من كان متصفا بهذه الصفات كثير الصلاة والصيام ، يقوم أكثر الليل ، ويصوم يوما ويفطر يوما ويسبح الله يوم صباح ومساءا قد استغرق أوقاته بعبادة الله تعالى يتفرغ لتسع وتسعين امرأة ثم لم يكفه ذلك فيمد عينه إلى زوجة غيره فيحبها ويحتل على زوجها ليستولى عليها أو يطلبها منه ليكمل زوجاته مائة ، حاشا وكلا وألف كلا . أخبرنا الله — سبحانه وتعالى — أن أنعم عليه بتسخير الجبال له والطير وحشرها إليه وبقتوية ملكه بقوله ﴿ **إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب وشددنا ملكه** ﴾ (الآية) أما كيفية تسخير الجبال والطير له فلم يعرف للآن ، ولكن الآية الكريمة تدلنا على نوع من أنواع هذا التسخير وهو تسبيحها معه بالعشى (من وقت العصر إلى الليل) والاشراق : (وهو الغداة أو وقت الضحى) .

كان داود — عليه السلام — يسبح الله فى هذين الوقتين وكان إذا سبح سبحت معه الجبال واجتمعت إليه

---

(١) الآية ١ من سورة الاسراء .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٥ باب احب الصلاة الى الله صلاة داود .

(٣) الآية ١٥ سورة النمل .

الطير فسبحن معه ولذلك قال اكثر المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد أتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير** ﴾[١] إن معنى . أوبى : رجعى معه التسبيح ، ولا غرابة فى ذلك فإن الله يقول : ﴿ **وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ... الآية** ﴾[٢] ويقول حكاية عن سليمان وداود ـ عليهما السلام ـ أو عن الأول فقط على اختلاف بين المفسرين فى ذلك ﴿ **علمنا منطق الطير** ﴾[٣] وإن من معجزات نبينا محمد ـ ﷺ ـ تسبيح الحصى فى كفه الشريفة (انظر حديث انس فى الشفاء للقاضى عياض) .

وقوله تعالى : ﴿ **كل له اواب** ﴾ يدل على أن الجميع رجاع إلى طاعاته واوامره ، وقال بعضهم : إن المراد بأواب : هنا هو : المسبح كقوله تعالى : ﴿ **أوبى معه** ﴾ أقول إن التسبيح نوع من أنواع الطاعة ثم أخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه أنعم عليه بنعمة (اجتماعية) جليلة وهى فصل الخطاب بقوله تعالى ﴿ **وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ أى : فصل المخاصمات وعلم القضاء . وإن من مقتضى هذه النعمة العظيمة أن يبرز للناس ليفصل فى منازعتهم وليفض خصوماتهم . إلا لحبه عبادة ربه حبا شديدا (كما تقدم) جعلت نفسه تميل إلى الخلوة (بربه) فى المحراب ليقضى فيه بعضا من الأيام بعيدا عما يشغله عن العبادة ـ أن العبادة إذا تمكنت من القلب فإنه لا يعد لها فى الدنيا لذة ولا حلاوة ولا سرور ولا ملك . قال : عليه الصلاة والسلام ـ (جعلت قرة عينى فى الصلاة)[٤] وقال بعض العباد لو علم الملوك ما نحن فيه من لذة لقاتلونا عليه بالسيوف (انظر الاحياء للغزالى) ـ ولذلك ترى كثيرا من العباد المخلصين يفرحون بدخول الليل وبالخلوة وبالبعد عن الناس ليتفرغوا للعبادة وليحظوا بلذة المناجاة ولتنشرح صدورهم وتقر عيونهم فيما يتجلى عليهم من الأنوار ـ والاطمئنان والتجليات . كذلك كان سيدنا داود ـ عليه السلام ـ مالت نفسه إلى الخلوة لعبادة ربه فدخل محرابه وأغلق عليه بابه وانشغل بعبادة الخالق عن النظر فى مصالح الخلق فبينما هو فى محرابه اذ تسوره الخصوم .

« شرح الآيات »

قال تعالى : ﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب** ﴾ الخصم : يطلق على الواحد والاثنين والجمع والتعبير بواو الجمع يدل على أنهم كانوا أكثر من إثنين . قال بعض المفسرين : إن المراد بالخصمين ملكان ويرد عليهم بأنها لو كانا ملكين فما الداعى الى تسورهما المحراب ولو كانا ملكين لكانا كاذبين فى أخبارهما بقولهما ﴿ **خصمان بغى بعضنا على بعض** ﴾ والملائكة لا يكذبون ، ولو قيل : بأن القصة تمثلية فلا يكون فيها كذب قلنا : هذا غير مسلم به واذا كان الغرض تفهيمه الصواب فإنه يكفى نزول ملك واحد لتفهيمه ، فالخصمان من الرجال بلا شك . أما كونهم أكثر من أثنين فلانه من المحتمل أن يكون معهما

(١) الآية ١٠ من سورة سبأ .

(٢) من الآية ٤٤ من سورة الاسراء .

(٣) سورة النمل من الآية ١٦

(٤) الحديث فى كنز العمال ج ٧ ص ٢٨٧ رقم ١٨٩١٢ .

شهودهما ليكون القضاء أمامهم فلا يحصل نزاع فى المستقبل .

وقوله تعالى : ﴿ **تسوروا المحراب** ﴾ أشارة إلى أن داود ـ عليه السلام ـ قد ملكه حب التفرغ لعبادة ربه حتى أغلق عليه محرابه وترك الناس بلا قضاء مدة طويله حتى اضطروا إلى التسور ليقضى بينهم فى خصوماتهم . ﴿ **إذ دخلوا على داود ففزع منهم** ﴾ فزع داود كما يفزع الشخص المقيم فى بيته ممن يقتحمون منزله بغير علمه فلما رأوا فزعه ، طمأنوه وقالوا : ﴿ **لا تخف** ﴾ أى : نحن لا نريد شيئا يخيفك ولكنا نريد أن تحكم بيننا وتفصل فى خصومتنا بما من الله عليك من فصل الخطاب ثم شرعوا يقصون عليه خصومتهم فقالوا : ﴿ **خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق** ﴾ أى : بما أوحاه الله إليك لأنه هو الحق الذى لا شك فيه ﴿ **ولا تشطط** ﴾ أى : فإن لم يوجد نص من وحى فاحكم بيننا بما لا يبعد عما فى كتاب الله وهو ما يؤديك إليه اجتهادك واقتباسك من وحى الله . واهدنا إلى سواء السبيل . أى : إن لم يوجد نص فى الحكم أو ما تستنبط منه الحكم فاهدنا إلى الصواب . إما بالصلح أو بالأرشاد إلى ما تراه صوابا وهذا هو الواجب على الحاكم الذى نصب للفصل بين الناس ، عليه أولا أن ينظر إلى نص الشارع ويحكم به ، فإن لم يوجد نص نظر إلى أقرب المقاصد للشارع فلا يتجاوزه فى حكمه . فإن لم يوجد ولم يتوصل إلى أقرب المقاصد لا يقطع بالحكم بل يرشد الخصمين إلى ما يراه صوابا ويصلح بينهما إصلاحا .

ثم أخذوا يشرحون قضيتهم فقال أحدهما : ﴿ **إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة فقال : اكفلنيها وعزنى فى الخطاب** ﴾ النعمة : واحدة النعاج وهى معروفة ، والكفالة : الضم مع بقاء الملكية أما لو زالت الملكية عن الشىء فلا يكون الضم كفالة بل يكون تملكا . والتعبير بلفظ الكفالة : ينافى زعمهم من أن هذه القصة ضرب مثل لسيدنا داود لأنه تزوج امرأة الغير يزيل ما كان لذلك الغير فيها من حق . والكفالة ليست كذلك الخطاب هنا المخاطبة والحجة ومما يدلك على هذا ـ أن ذلك اللفظ ذكر قبل نفس السورة دالا على هذا المعنى ﴿ **وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب** ﴾ فقول من قال : إن المراد به : الخطبة قول بعيد ومعنى عزنى فى الخطاب اغلبنى فى الحجة . فالمدعى يعترف بأن حجة المدعى عليه غلبت حجته ولكنه غير مسلم له بأن يضم نعجته إلى نعاجه لأنه مالكها وهو حر فى التصرف فيها فعرضا أمرهما على داود ليفصل بينهما ـ لم يبين الله تعالى لنا تلك الحجة نصا وترك بيانها لأفهام القارئين ، يفهمونها حسب ما تصل إليه عقولهم وعلومهم فيصح أن نفهم أن من ضمن الحجة أن وجودها مع النعاج الكثيرة خير له ولنعجته فإنها إذا كانت مع نعاج كثيرة فإنها تأتنس بها ويكثر درها وتأتى بنتاج كثير ، أما اذا كانت وحدها فإنها تسأم ويقل خيرها وتعدم نتاجها . فلما شرحا له دعواهما قضى لمن له النعجة الواحدة بقوله ﴿ **لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه** ﴾ باينا هذا الحكم على ما هو معروف من إحدى النظريات التشريعية من أن مالك الشىء له أن يتصرف فى ملكه كيف شاء ولا يجبر على إعطائه لغيره ولو كان فى ذلك الإعطاء إنماء لملكه أو رفع ضرر عنه ، وإنما اختار هذه النظرية دون النظرية الأخرى القاضية بأن المصلحة العامة تقضى بتقييد حرية المالك فى التصرف فى ملكه ـ لكثرة الباغين من الشركاء بعضهم على بعض إلا القليل إذ لا يصح بناء قواعد الأحكام على ذلك القليل بل ينظر فيها إلى الكثير ـ وأن التعبير بلفظ (الخلطاء) يدل

على أن موضوع النزاع بينهما هو طلب الشركة فى النعاج ولو كان المراد بالقصة : ضرب مثل لسيدنا داود لما كان للفظ (الخلطاء) هنا موضع لأن ضم امرأة الغير إلى نفسه لا يسمى شركة بينه وبين ذلك الغير ، وأيضا فإن البقعة التى كان فيها سيدنا داود كانت مشهورة بكثرة الغنم ورعيها والشركة فيها ولا زالت كذلك للآن .

ثم قال تعالى : ﴿ **وظن داود أنما فتناه** ﴾ الفتنة : التمحيص أو الابتلاء ــ لم يبين الله لنا ما هى الفتنة التى ظن داود ــ عليه السلام ــ أن الله فتنه بها . ولكن المتأمل فى القصة يتبين له أن هذه الفتنة هو حبه الخلوة للعبادة والعزلة عن الخلق حتى انصرف عنهم فدخل محرابه وأغلقه عليه طويلا حتى اضطروا إلى تسورة ليفض نزاعهم ويحل مشاكلهم أو أنه استلذ بالعبادة حتى انشغل بها عن العباد وهم فى حاجة إليه لما أوتى من فصل الخطاب ــ إن الأنبياء ــ عليهم السلام ــ ليعتبرون بالحوادث أكثر من غيرهم .

وهذه القضية وإن كانت حقيقة (لا ضرب مثل) إلا أن ذهنه الثابت استنبط منها مالا يستنبطه غيره فاستنتج منها أن اختلاط الشخص بالناس مستوجب للمنفعة العامة والخير الكثير بخلاف العزلة واستنتج منها أن المنفعة العامة راجحة على المنفعة الخاصة وأكثر منها ثوابا ، وأن شغفه بالعبادة ﴿ **مع ما آتاه الله من فصل الخطاب** ﴾ كان ابتلاء ومفوتا لهذه الفوائد التى يجنيها المجتمع منه ، واستنتج أيضا من تسور الخصوم للمحراب اضطرار الناس إلى التقاضى وفق الخصومات الكثيرة بينهم وأنه كان الأولى به أن يكون بابه مفتوحا لهم غير محتجب عنهم حتى لا تلجئهم المنازعات إلى تسور الحيطان أو التمادى فى الشقاق والنزاع . واستنتج أيضا أن كثرة الخصومات تستدعى الجلوس طويلا من الزمان ظاهرا بين الناس .

كل هذا يصح أن يكون سببا لظن داود أن الله ابتلاه بحب العزلة للعبادة وأن هذه الحادثة كانت وسيلة لتمحيص حالته وبيان ما هو الأولى والأليق بمن جعله الله خليفة فى الأرض . ﴿ **فاستغفر ربه** ﴾ مما ظنه فتنه وهو فعله ما يخالف الأولى به ، ﴿ **وخر راكعا** ﴾ تقربا الى الله تعالى وشكرا إذا أرشده ونبهه بهذه الحادثة إلى ما هو الأولى به وإنما قلنا شكرا لأن العادة أن الإنسان إنما يسجد للشكر والتقرب ــ وأناب ــ أى : رجع إلى ما هو الأجدر بمقامه فجازاه الله على الاستغفار بالغفران وعلى الشكر بالزلفى وعلى الرجوع إلى الأولى بمقامه بحسن العاقبة والمآب بقوله تعالى : ﴿ **فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض** ﴾ أى : ومن شأن الخليفة أن يباشر مصالح الناس وحوائجهم وأقضيتهم لا أن يتركهم ويدخل المحراب .

ثم وصاه بأن يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى إتباع الهوى مضل عن سبيل الله بقوله تعالى : ﴿ **فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ وهذه الوصية تشابه وصية الله سبحانه وتعالى لنبينا محمد ــ ﷺ ــ بقوله ﴿ **وإن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾[1] فهى توصية تثبيت وارشاد وتهييج وتنبيه

(١) الآية ٤٩ من سورة المائدة .

(ليس غير) . إلى بيان أن يكون عليه الحاكم مطلقا وهو ما يأتى :

أولا : أن يحكم بالحق وهو ما شرعه الله .

ثانيا : والا يتبع الهوى سواء كان هواه أو هوى الناس بل يتبع الصواب وما يقتضيه روح الدين عند تطبيق الحوادث على النص أو معاملة الخصوم .

ثالثا : أن يعلم الحاكم أن هناك يوما للحساب وأن يتذكر دائما وهو يحكم أن الله سيحاسبه على حكمه فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ولا صاحب ولا شفيع .

بهذا ينتظم الملك ويستتب الأمن وتعمر البلدان ، فإنه العدل أساس الملك فظهر أن هذه القصة ليست مسوقة لوقوع ذنب من نبى (حاشا) وإنما سيقت لبيان هذه الحكم الجليلة والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

« قصص سليمان ـ عليه السلام »

قال تعالى :

وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ
﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ
مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ
رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ
ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ
لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **الصافنات**﴾ : الصافن من الخيل : الذى يرفع إحدى يديه أو رجليه ويقف على مقدم حافرها ،

﴿ والجياد ﴾ : واحدها جواد ، وهو : السريع العدو ، كما أن الجواد من الناس السريع البذل قاله المبرد : ﴿ والخير ﴾ هنا : الخيل ﴿ توارت ﴾ أى : غيبت عن البصر ، ﴿ طفق ﴾ : شرع : ﴿ المسح ﴾ : امرار اليد على الجسم . ﴿ لا ينبغى لأحد من بعدى ﴾ أى : لا ينتقل منى إلى غيرى ، ﴿ رخاء ﴾ أى : لينة ، ﴿ أصاب ﴾ أى : قصد وأراد ، ﴿ مقرنين ﴾ أى : مربوطين ، ﴿ الأصفاد ﴾ واحدها : صفد ﴿ بالتحريك ﴾ وهو : الغل الذى يجمع اليدين إلى العنق ، ﴿ والزلفى ﴾ الكرامة ، ﴿ المآب ﴾ : المرجع .

« المعنى الاجمالى »

قوله تعالى : ﴿ **ووهبنا لداود سليمان** ﴾ أى : وآتينا داود ابنا يسمى سليمان ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وورث سليمان داود** ﴾ . ثم مدحه سبحانه وأثنى عليه فقال : ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ أى : ما أحقه بالمدح والثناء لأنه كان كثير الطاعة والعبادة والانابة إلى ربه فى أكثر الأوقات ، وفى كثير من المهمات ، أعتقادا منه بأن كل شىء من الخير لا يتم إلا باعانته وتوفيقه .

ثم ذكر حالا من أحواله تستحق الاطراء والثناء فقال : ﴿ **إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد** ﴾ أى : امدحه حين عرضت عليه الجياد الصافنات من العصر حتى آخر النهار لينظر إليها ويتعرف أحوالها ، ومقدار صلاحيتها للقيام بالمهام التى توكل إليها حين الغزو وغيره . وقد وصفها بالصفوف والجودة ليجمع لها بين وصفين مملوحين واقفة وجارية ، فإذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراعا خفافا فى جريها ، وقيل وصفها : بالصفون لأنه لا يكون فى الهجن ، بل يكون فى العراب الخلص .

قوله تعالى : ﴿ **فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى** ﴾ قد يحب الإنسان شيئا وهو يتمنى ألا يحبه ، كالمريض الذى يشتهى ما يزيل مرضه ، الوالد الذى يحب ولده السىء والسيرة والخلق ، وقد يحب شيئا وهو يرى أن من المصلحة أن يحبه ، ومن الخير أن يزداد شغفه به ، وتلك هى غاية المحبة ، فسليمان ــ عليه السلام ــ يقول : إنى أحب حبى لهذه الخيل وتلك المحبة إنما حصلت عن ذكر ربى وأمره لا عن الشهوة والهوى . وقوله تعالى : ﴿ **حتى توارت بالحجاب** ﴾ أى : حتى غابت عنى بسبب العثير المتطاير من سنابكها . فالمراد : أنه حين وقع بصره عليها حال جريها كان يقول هذه الكلمة ﴿ **إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى** ﴾ ومازال يرددها حتى غابت عن عينيه بسبب الغبار من جهه ، ولبعد المسافة من جهة أخرى . وبعد أن اطمأن الى حالها ، وحمد جميل أمرها قال : ﴿ **ردوها على** ﴾ فقد كفى ما قامت به من حضر دلت به على نجابتها وفراصتها ، وأنها أهل لأن تقوم بما يطلب منها حين الملمات ، وفيها

الكفاية وفوق الكفاية حين حلول الأزمات من غزو وغيره .

ولما أرتاح إليها وسر بما بذلته من جهد ، وما ينتظر منها إذا جد ـ أظهر استحسانه لها ولفرسانها . ﴿ **فطفق مسحا بالسوق والأعناق** ﴾ أى : فجعل يمسح سوقها وأعناقها إظهارا لكرامتها لديه ، إذ هى أعظم الأعوان ، فى دفع العدوان ، ولا سيما وقد بلاها وخبر أمرها وعلم قوة أسرها ، وأنها خلو من الأمراض التى قد تعوقها من عملها حين البأساء .

والخلاصة : أن سليمان احتياطا للغزو أراد أن يعرف قوة خيوله التى تتكون منها قوة الفرسان ، فجلس وأمر باحضارها واجرائها أمامه ، وقال : إنى ما احببتها للدنيا ، وإنما احببتها لأمر الله وتقوية دينه ، حتى إذا ما أجريت وغابت عن بصره أمر راكضيها بأن يردوها إليه ، فلما عادت طفق يمسح سوقها وأعناقها ، سرورا بها وامتحانا لأجزاء أجسامها ليعرف ما ربما يكون فيها من عيوب قد تخفى .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

يراعى الشيخ المراغى ـ رحمه الله تعالى ـ فى هذه القصة أن الفتنة كانت بسبب مرض عضال فى جسده صار ملقى على كرسيه ، لشدة وطأته عليه (والعرب تقول فى الضعيف : إنه لحم على وضم ، وجسم بلا روح) ثم رجع بعد ، إلى حالة الأولى ، واستقامت له الأمور كما كان .

﴿ **قال رب اغفر لى** ﴾ طلب المغفرة من ربه ، لأنه قد يترك الأفضل والأولى فاحتاج إلى طلب المغفرة من ربه ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ولأن هذا فى مقام التذلل والخضوع كما قال عليه السلام (إنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة)[1] .

وما روى من قصص الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان ، فذلك من أباطيل اليهود دسوها على المسلمين ، وأبى قبولها العلماء الراسخون .

ومن ثم قال الحافظ ابن كثير : وقد رويت هذه القصة مطولة عن جماعة من السلف رضى الله عنهم كسعيد بن المسيب وزيد بن أسلم وجماعة أخرين ، وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب أ هـ .

ويقول صاحب التفسير الواضح رحمه الله تعالى ـ فى هذه القصة ﴿ **ولقد فتنا سليمان** ﴾ فتنة الله أعلم بها ، وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب ، وهذه الفتنة تكلم فيها القصاص والاسرائيليون كثيرا ، والذى نختاره

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٥٧ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٤١ — ٢٧٠٢

ما ذكره أئمة التفسير المحققون من أمثال أبى السعود والفخر والألوسى وغيرهم من أفاضل العلماء ، وكان مرجع أرائهم إلى القول بعصمة الأنبياء ، ومنع تمثل الشيطان بهم ، وغلق باب زعزعة الناس فى معتقداتهم ، وأظهر ما قيل فى فتنة سليمان عليه السلام ماروى مرفوعا إلى النبى — ﷺ — أنه قال (لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله ، ولم يقل (إن شاء الله) فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعين)[1] .

وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين البخارى ومسلم ، تلك هى فتنة سليمان كما وردت فى الحديث ، وأما إلقاؤه على كرسيه جسدا فلأنه حين الفتنة كان يجلس على كرسى الحكم جسدا لاروح فيه لأنه لما لم يقل : إن شاء الله ، كأنه ارتكب ذنبا فصار جسدا ثم تاب وأناب .

وأما قوله سليمان ﴿ **رب اغفر لى** ﴾ فليس يصح أن يكون هذا دليلا على صدور الزلة منه كما قال القصاص مستندين إلى أن طلب المغفرة يدل على سبق الذنب .

فالانسان ولو كان نبيا لاينفك عن ترك الأفضل والأولى ، وحينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ألم تر إلى قول النبى — ﷺ — (إنى لاستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة)[2] .

وانظر إلى سليمان ، وقد طلب المغفرة من الله قبل طلبه الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده فهذا دليل على أن طلب المغفرة والرجوع إلى الله سبيل وطريق إلى السعادة فى الدنيا والأخرة ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[3] .

ولقد طلب سليمان ملكا لا ينبغى لأحد من بعده فسخر له ربه الريح حالة كونها جارية بأمره ، لينة لا تعب معها ، وإن كانت فى الأصل عاصفة قوية فهى رخاء لينة تجرى بأمره حيث أراد . وسخر الشياطين له تعمل تحت أمره من كل بناء وغواص تغوص فى البحار لاستخراج الدر منها والأصداف ، وآخرين منهم مقرنين فى الأصفاد والقيود خاضعين لأمره ، عاملين تحت إذنه .

هذا — والأشارة إلى ما تقدم من إعطاء المُلك الواسع ، والتسليط على الرياح والجن والشياطين — عطاؤنا الخاص بك فاعط من تشاء ، وامنع ممن تشاء غير محاسب على ذلك يوم القيامة .

وإن لسليمان عند ربه لزلفى وقربة وكرامة وحسنى ، وله حسن مآب ومرجع فى الجنة ، وأن ختام القصة

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى ووهبنا لداود سليمان .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٤١ — ٢٧٠٢ .

(٣) سورة نوح الآيات ١٠ — ١١ — ١٢ .

بهذا الدليل على أن كل ما قيل عن سليمان مما هو ثابت فى كتب أهل الكتاب أو عند قصاص الأخبار من المسلمين خرافة و أكاذيب لا تليق بمركز النبوة والله أعلم .

« تعقيب على دعوة سليمان »

دعا سليمان ربه فقال ﴿ **رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب** ﴾ أى لا ينبغى لأحد من البشر يأتى من بعدى ، وقد جاءت الأحاديث مصرحة بذلك .

روى البخارى ـ رضى الله عنه ـ لسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال (إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ـ أو كلمة نحوها ـ ليقطع على الصلاة فأمكننى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ **رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾[1] قال روح فرده خاسئا وكذا رواه مسلم والنسائى من حديث شعبه به .

وقال مسلم فى صحيحه بسنده عن أبى الرداء ـ رضى الله عنه ـ قال قام رسول الله ـ ﷺ ـ يصلى فسمعناه يقول (أعوذ بالله منك ـ ثم قال ـ ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال ـ ﷺ ـ إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أن أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به صبيان أهل المدينة)[2] .

وقال أحمد بسنده عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قام يصلى صلاة الصبح وهو خلفه فقرأ فالتبست عليه القراءة فلما فرغ من صلاته قال (لو رأيتمونى وإبليس فأهويت بيدى فما زلت أخنقه حتى ، وجدت برد لعابه بين أصبعى هاتين الابهام والتى تليها ـ ولولا دعوة أخى سليمان لأصبح مربوطا بسارية من سوارى المسجد يتلاعب به صبيان المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل)[3].

قوله تعالى : ﴿ **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب** ﴾ أى سهلة الأنقياد ، حيث أراد من البلاد ، ﴿ **والشياطين كل بناء وغواص** ﴾ أى منهم ما هو مستعمل فى الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التى لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون فى البحار يستخرجون ما فيها من اللآلى والجواهر والأشياء النفيسة التى لا توجد إلا فيها .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى : ووهبنا لداود سليمان .

الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٤ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة رقم ٣٩ — ٥٤١ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى أثناء الصلاة . رقم ٤٠ — ٥٤٢ .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٨١ ، ٨٢ مسند أبو سعيد الخدرى

﴿ **وأخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ أى موثوقون فى الأغلال والأكبال ممن قد تمردوعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء فى ضيق واعتدى .

وقوله عز وجل ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾ .

أى هذا الذى أعطيناك من الملك التام ، والسلطان الكامل كما سألتنا فأعط من شئت واحرم من شئت ، لا حساب عليك . أى مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ لما خير بين أن يكون عبدا رسولا ـ وهو الذى يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم بين الناس كما أمره الله ـ تعالى به ـ وبين أن يكون نبيا ملكا يعطى من يشاء ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح أختار المنزلة الأولى بعدما استشار جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال له تواضع فاختار المنزلة الأولى لأنها أرفع قدرا عند الله عز وجل وأعلى منزلة فى المعاد . وإن كانت المنزلة الثانية وهى النبوة مع الملك عظيمة أيضا فى الدنيا والآخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى الدنيا نبه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضا فقال تعالى ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ أى فى الدار الأخرة .

اضواء كاشفة »

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه (قصص الأنبياء) عن النبى سليمان :

قال الحافظ بن عساكر : هو سليمان بن داود ، بن ايشا بن عويد ، بن عابر ، ابن سلمون ، بن نحشون ، بن عمنيا بن رام بن حصرون بن فارص بن يهوذا ابن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم أبى الربيع نبى الله من نبى الله .

قال الله تعالى : ﴿ **وورث سليمان داود ، وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شىء إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾[١] .

أى ورثة فى النبوة والملك وليس المراد ورثة فى المال لأنه قد كان له بنون غيره فما كان ليخص بالمال دونهم ولأنه قد ثبت فى الصحاح من غير وجه عن جماعة من الصحابة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال (لا تورث ما تركناه فهو صدقة)[٢] فأخبر الصادق المصدوق أن الأنبياء لا تورث أموالهم عنهم كما يورث غيرهم بل يكون أموالهم صدقة من بعدهم على الفقراء والمحاويج لا يخصون بها أقرباؤهم لأن الدنيا كانت أهون عليهم وأحقر عندهم من ذلك كما هى عند الذى أرسلهم واصطفاهم وفضلهم .

---

(١) سورة النمل آية ١٦ .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٥ ص ٢٥ باب فضائل الصحابة باب مناقب قرابة الرسول .
الحديث فى صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٧٧ - ١٣٧٨ كتاب الجهاد والسير .
باب حكم الفيىء . قرم ٤٩ - ١٧٥٧ .

وقال ﴿ **يأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ يعني أنه عليه السلام كان يعرف ما يتخاطب به الطيور بلغاتها ويعبر للناس عن مقاصدها وارادتها .

﴿ **وأوتينا من كل شيء** ﴾ أي من كل ما يحتاج الملك إليه من العدد والآلات والجنود والجيوش والجماعات من الجن والإنس والطيور والوحوش والشياطين السارحات ، والعلوم والفهوم والتعبير عن ضمائر المخلوقات من الناطقات والصامتات ، ثم قال ﴿ **إن هذا لهو الفضل المبين** ﴾ أي من بارىء البريات وخالق الأرض والسموات كما قال تعالى ﴿ **وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل أدخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾[1] .

يخبر تعالى عن عبده ونبيه وابن نبيه سليمان بن داود عليهما السلام أنه ركب يوما في جيشه جمعية من الجن والإنس والطير يسير ون معه ، والطير سائرة معه تظله بأجنحتها من الحر وغيره ، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة أي نقباء يردون أوله على آخره ، فلا يتقدم أحد من موضعه الذى يسير فيه ، ولا يتأخر عنه قال الله تعالى : ﴿ **حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون** ﴾ .

فأمرت وحذرت واعتذرت عن سليمان وجنوده بعدم الشعور .

والمقصود أن سليمان عليه السلام فهم ما خاطبت به تلك النملة لأمتها بالرأى السديد والأمر الحميد وتبسم من ذلك على وجه الاستبشار ، والفرح والسرور بما أطلعه الله عليه دون غيره وليس كما يقول بعض الجهلة من أن الدواب كانت تنطق قبل سليمان وتخاطب الناس حتى أخذ عليهم سليمان بن داود العهد وألجمها فلم تتكلم مع الناس بعد ذلك فإن هذا لا يقوله إلا الذين لا يعلمون ، ولو كان هذا هكذا لم يكن لسليمان في فهم لغاتها مزية على غيره ، إذ قد كان الناس كلهم يفهمون ذلك ، ولو كان قد أخذ عليها العهد أن لا تتكلم مع غيره وكان هو يفهمها لم يكن في هذا أيضا فائدة يعول عليها ، ولهذا قال ﴿ **رب أوزعني** ﴾ أي ألهمني وأرشدني ﴿ **أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وادخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾[2] .

فطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه وعلى ما خصه به من المزية على غيره وأن ييسر له العمل الصالح ، وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين ، وقد استجاب الله تعالى له .

والمراد بوالديه داود ـ عليه السلام ـ وأمه وكانت من العابدات الصالحات . كما قال سنيد بن داود عن

(١) سورة النمل الآيات ١٧ - ١٨ - ١٩ .

(٢) سورة النمل آية ١٩ .

يوسف بن محمد بن المنكدر عن أبيه عن جابر عن النبى ـ ﷺ ـ قال (قالت أم سليمان بن داود يا بنى لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تدع العبد فقيرا يوم القيامة)[١].

رواه ابن ماجه عن أربعة من مشايخه عنه به نحوه .

وقال عبد الرازق عن معمر عن الزهدى أن سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ خرج وهو وأصحابه يستسقون فرأى نملة قائمة رافعة إحدى قوائمها تستسقى فقال لأصحابه ارجعوا فقد سقيتم إن هذه النملة استسقت فاستجيب لها)[٢].

وقال السدى أصاب الناس قحط على عهد سليمان ـ عليه السلام ـ فأمر الناس فخرجوا فإذا نملة قائمة على رجليها باسطة يديها وهى تقول (اللهم إنا خلق من خلقك ولاغنا بنا عن فضلك) قال فصب الله عليهم المطر .

قال تعالى : ﴿ **وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين . فمكث غير بعد بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابى هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون . قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . أن لا تعلوا على وأتونى مسلمين . قالت يأيها الملأ افتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ؟ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لاقبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾[٣].

يذكر تعالى ما كان من أمر سليمان والهدهد وذلك أن الطيور كان على كل صنف منها مقدمون يقدمون بما يطلب منهم ويحضرون عنده بالنوبة كما هى عادة الجنود مع الملوك وكانت وظيفة الهدهد على ما ذكره ابن عباس وغيره أنهم كانوا إذا أعوزوا الماء فى القفار فى حال الأسفار يجىء فينظر لهم هل هذه البقاع من ماء وفيه من القوة التى أودعها الله تعالى فيه أن ينظر إلى الماء تحت تخوم الأرض فإذا دلهم عليه حفروا عنه واستنبطوه وأخرجوه واستعملوه لحاجتهم ، فلما تطلبه سليمان ـ عليه السلام ـ ذات يوم فقده ولم يجده فى

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٢٢ كتاب إقامة الصلاة رقم ١٣٣٢ . باب ما جاء فى قيام الليل .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٥٩ تفسير سورة النمل . (تفسير قوله تعالى : حتى إذا أتوا على وادى النمل...) الآية .

(٣) سورة النمل الآيات ٢١ – ٣٧

موضعه من محل خدمته ﴿ **فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين** ﴾ أى ماله مفقود من ههنا أو قد غاب عن بصرى فلا أراه بحضرتى ﴿ **لأعذبنه عذابا شديدا** ﴾ توعده بنوع من العذاب ﴿ **أو لأذبحنه ، أو ليأتينى بسلطان مبين** ﴾ أى بحجة تنجيه من هذه الورطة .

قال الله تعالى ﴿ **فمكث غير بعيد** ﴾ أى فغاب الهدهد غيبه .. ليست بطويلة ثم قدم منها (فقال) لسليمان ﴿ **أحطت بما لم تحط به** ﴾ أى اطلعت على مالم تطلع عليه ﴿ **وجئتك من سبأ بنبأ يقين** ﴾ أى بخبر صادق ﴿ **إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم** ﴾ يذكر ما كان عليه ملوك سبأ فى بلاد اليمن من المملكة العظيمة والتبابعة المتوجين . وكان الملك قد آل فى ذلك الزمان إلى امرأة منهم ابنة ملكهم لم يخلف غيرها فملكوها عليهم .

وقد ثبت فى صحيح البخارى عن أبى بكرة أن رسول الله — ﷺ — لما بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم ابنة كسرى قال (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)[1] رواه الترمذى والنسائى وقال الترمذى حسن صحيح ﴿ **وأوتيت من كل شيء** ﴾ أى مما من شأنه أن تؤتاه الملوك ، ﴿ **ولها عرش عظيم** ﴾ يعنى سرير مملكتها كان مزخرفا بأنواع الجواهر واللآلى والذهب والحلى الباهر ثم ذكر كفرهم بالله وعبادتهم الشمس من دون الله ، واضلال الشيطان لهم وصده إياهم عن عبادة الله وحده لا شريك له الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما يخفون وما يعلنون أى يعلم السرائر والظواهر من المحسوسات والمعنويات ﴿ **الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم** ﴾[2] أى له العرش العظيم الذى لا أعظم منه فى المخلوقات .

فعند ذلك أرسل معه سليمان عليه السلام كتابه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة رسلوله والانابة والاذعان إلى الدخول فى الخضوع لملكه وسلطانه ، ولهذا قال لهم ﴿ **ألا تعلوا على** ﴾ أى لا تستكبروا عن طاعتى وامتثال أوامرى ﴿ **وأتونى مسلمين** ﴾ أى أقدموا على سامعين مطيعين بلا معاودة ولا مراودة ، فلما جاءها الكتاب مع الطير ، ومن ثم اتخذ الناس البطائق ولكن أين الثريا من الثرى تلك كانت مع طائر سامع مطيع ، فاهم ، عالم بما يقول له ، فذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن الهدهد حمل الكتاب وجاء إلى قصرها فألقاه إليها وهى فى خلوة لها ، ثم وقف ناحية ينتظر ما يكون من جوابها عن كتابها فجمعت أمراءها ووزراءها وأكابر دولتها إلى مشورتها ﴿ **قالت يأيها الملأ إنى ألقى إلى كتاب كريم** ﴾ ثم قرأت عليهم عنوانه أولا : ﴿ **إنه من سليمان** ﴾ ثم قرأته ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين** ﴾ نعم شاورتهم فى أمرها وما قد حل بها وتأدبت معهم وخاطبتهم وهم يستمعون ﴿ **قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون** ﴾ تعنى ما كنت لأبت أمرا إلا وأنتم حاضرون ﴿ **قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد** ﴾ يعنون لنا قوة وقدرة على الجلاء والقتال ومقاومة الأبطال ، فإن أردت منا ذلك فإنا عليه من القادرين ومع هذا ﴿ **الأمر إليك فانظرى ماذا تأمرين** ﴾ فبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٠ باب كتاب النبى — ﷺ — إلى كسرى وقيصر .

(٢) سورة النمل الآية ٢٦

عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها فى ذلك الأمر لترى فيه ما هو الأرشد لها ولهم .

فكان رأيها أتم وأسد من رأيهم وعلمت أن صاحب هذا الكتاب لا يغالب ، ولا يمانع ، ولا يخالف ، ولا يخادع . ﴿ **قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون** ﴾ تقول رأيها السديد ان هذا الملك لو قد غلب على هذه المملكة لم يخلص الأمر من بينكم إلا إلى ، ولم تكن الحدة والشدة والسطوة البليغة إلا على . ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ أرادت أن تصانع عن نفسها وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحف تبعثها ولم تعلم أن سليمان ــ عليه السلام ــ لا يقبل منهم ، والحالة هذه ، صرفا ولا عدلا ــ ﷺ ــ لأنهم كافرون ، وهو وجنوده عليهم قادرون ، ولهذا ﴿ **لما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون** ﴾ هذا وقد كانت تلك الهدايا مشتملة على أمور عظيمة ، كما ذكره المفسرون ، ثم قال لرسولها إليه ووافدها الذى قدم عليه والناس حاضرون يسمعون ﴿ **ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون** ﴾ يقول ارجع بهديتك التى قدمت بها إلى من قدمن بها فإن عندى مما قد أنعم الله على واسداه إلى من الأموال والتحف والرجال ما هو أضعاف هذا وخير من هذا الذى أنتم تفرحون به وتفخرون على أبناء جنسكم بسببه ﴿ **فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها** ﴾ أى فلأبعثن إليهم بجنود لا يستطيعون دفاعهم ولا نزالهم ولا مما نعتهم ولا قتالهم ولأخرجنهم من بلدهم وحوزتهم ومعاملتهم ودولتهم أذلة . ﴿ **وهم صاغرون** ﴾ عليهم الصغار والعار والدمار ،فلما بلغهم ذلك عن نبى الله لم يكن لهم بد من السمع والطاعة ، فبادروا إلى إجابته فى تلك الساعة ، وأقبلوا صحبة الملكة أجمعين سامعين مطيعين خاضعين ، فلما سمع بقدومهم إليه ووفودهم إليه قال لمن بين يديه ممن هو مسخر من الجان ما قصه الله عنه فى القرآن ﴿ **قال يأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين . قال عفريت من الجن أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين . وقال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم . قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين . قيل لها أدخلى الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾[1] .

لما طلب سليمان من الجان أن يحضروا له عرش بلقيس وهو سرير مملكتها التى تجلس عليه وقت حكمها قبل قدومها عليه ﴿ **قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك** ﴾ يعنى قبل أن ينقض مجلس حكمك ، وكان فيما يقال من أول النهار إلى قريب من الزوال يتصدى لمهمات بنى إسرائيل وما لهم من الأشغال ﴿ **وإنى عليه لقوى أمين** ﴾ أى وإنى لذو قدرة على احضارى إليك وأمانة على ما فيه من الجواهر النفيسه لديك ﴿ **قال الذى عنده علم من الكتاب** ﴾ المشهور أنه أصف بن برخيا وهو ابن خالة

(١) سورة النمل الآيات من ٣٨ – ٤٤ .

سليمان . وقيل هو رجل من مؤمنى الجان كان فيما يقال يحفظ الاسم الأعظم . وقيل رجل من بنى إسرائيل ، من علمائهم ، وقيل إنه سليمان ـ وهذا غريب جدا ـ وضعفه السهيلى بأنه لا يصح فى سياق الكلام ، قال . وقد قيل فيه قول رابع وهو جبريل ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك** ﴾ قيل معناه قبل أن تبعث رسولا إلى أقصى ما ينتهى إليه طرفك من الأرض ثم يعود إليك ، وقيل معناه قبل أن يصل إليك أبعد من تراه من الناس ، وقيل قبل أن يكل طرفك إذا أدمت النظر به قبل أن تطبق جفنك ، وقيل قبل أن يرجع إليك طرفك إذا نظرت به إلى أبعد غاية منك ثم أغمضته وهذا أقرب ما قيل . ﴿ **فلما رآه مستقرا عنده** ﴾ أى فلما رأى عرش بلقيس مستقرا عنده فى هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس فى طرفة عين ﴿ **قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾ أى هذا من فضل الله على وفضله على عبيده ليختبرهم على الشكر أو خلافه ﴿ **ومن شكر فإنما يشكر لنفسه** ﴾ أى أنما يعود نفع ذلك عليه ﴿ **ومن كفر فإن ربى غنى كريم** ﴾ أى غنى عن شكر الشاكر ، وتضرر بكفر الكافرين ، ثم أمر سليمان ـ عليه السلام ـ أن يغير حلى هذا العرش وينكر لها ليختبر فهمها وعقلها ، ولهذا قال ﴿ **ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون . فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو** ﴾ وهذا من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها .

لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ، ولم تكن تعلم أن أحدا يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب ، قال الله تعالى اخبارا عن سليمان وقومه ﴿ **وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين** ﴾ أى ومنعها عبادة الشمس التى كانت تسجد لها هى وقومها من دون الله اتباعا لدين آبائهم وأسلافهم لا لدليل قادهم إلى ذلك ولا حداهم على ذلك ، وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل فى ممره ماء وجعل عليه سقفا من زجاج وجعل فيه من السمك وغيرها من دواب الماء ، وأمرت بدخول الصرح وسليمان جالس على سريره فيه ﴿ **فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربى إنى ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾ .

وقد قال تعالى فى سورة (ص) ﴿ **ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب إذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد . فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب . ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق ، ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب . قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب . فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص : وآخرين مقرنين فى الأصفاد . هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

يذكر تعالى أنه وهب لداود سليمان ـ عليهما السلام ـ ثم أثنى الله عليه تعالى فقال ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ أى رجاع مطيع لله .

ثم ذكر ما كان من أمره فى الخيل الصافنات وهى التى تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة . والجياد : وهى المعتمرة السراع ﴿ **فقال إنى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب** ﴾ يعنى الشمس . وقيل الخيل على ما سنذكره من القولين .

﴿ **ردوها على فطفق مسحا بالسوق والأعناق** ﴾ قيل مسح عراقيبها وأعناقها بالسيوف ، وقيل مسح عنها العرق لما أجراها وسابق بينها وبين يديه على القول الأخر . وهذا القول اختاره ابن جرير بأنه ما كان ليعذب الحيوان بالعرقبة ويهلك مالا بلا سبب ولا ذنب لها ، وهذا الذى قاله فيه نظر لأنه قد يكون هذا سائغا فى ملتهم .

وقوله تعالى ﴿ **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب** ﴾ ذكر ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما من المفسرين ههنا أثارا كثيرة عن جماعة من السلف وأكثرها أو كلها متلقاة من الاسرائيليات وفى كثير منها نكارة شديدة وقد نبهنا على ذلك فى كتابنا التفسير ، واقتصرنا ههنا على مجرد التلاوة .

وقوله تعالى : ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان ، وكلا آتينا حكما وعلما** ﴾ .

وقد ذكر القاضى وغير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كان لهم (كرم) فنفشت فيه غنم قوم آخرين . أى رعته بالليل فأكلت شجرة بالكلية ، فتحاكموا إلى داود عليه السلام فحكم لأصحاب الكرم ـ العنب ـ بقيمته فلما خرجوا على سليمان . قال : بما حكم لكم نبى الله ؟ فقالوا بكذا وكذا : فقال أما لو كنت أنا لما حكمت إلا بتسليم الغنم إلى أصحاب الكرم فيستغلونها نتاجا ودرا حتى يصلح أصحاب الغنم كرم أولئك ويردوه الى ما كان عليه ثم يتسلموا غنمهم ، فبلغ داود ـ عليه السلام ـ ذلك فحكم به وقريب من هذا ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال :

قال رسول الله ـ ﷺ ـ (بينما امرأتان معهما ابناهما إذ عدا الذئب فأخذ ابن إحداهما فتنازعتا فى الأمر . فقالت الكبرى إنما ذهب بابنك ، وقالت الصغرى بل إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داود ، فحكم به للكبرى فخرجتا على سليمان قال أئتونى بالسكين أشقه نصفين لكل واحدة منكما نصفه ، فقالت الصغرى لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به لها)(١) ولعل كلا من الحكمين كان سائغا فى شريعتهم . ولكن ما قاله سليمان أرجح ولهذا أثنى الله عليه بما ألهمه أياه ، ومدح بعد ذلك أباه فقال ﴿ **وكلا آتينا حكما وعلما . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين . وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون** ﴾ .

ثم قال لسليمان ﴿ **ولسليمان الريح عاصفة** ﴾ أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة ﴿ **تجرى بأمره إلى**

الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٩ كتاب بدء الخلق باب ووهبنا لداود سليمان .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٣ ص ١٣٤٤ - ١٣٤٥ كتاب الأقضية باب اختلاف المجتهدين رقم ٢٠ - ١٧٢٠ .

الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين . ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين ﴾[١] .

وقال فى سورة (ص) **﴿ فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب . والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد هذا عطاؤنا فأمنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾** .

لما ترك الخيل ابتغاء وجه الله عوضه الله منها الريح التى هى أسرع سيرا ، وأقول وأعظم ، ولا كلفة عليه لها ، تجرى بأمره رخاء **﴿ حيث أصاب ﴾** أى حيث أراد من أى البلاد . كان له بساط مركب من أخشاب بحيث أنه يسع جميع ما يحتاج إليه من الدور المبنية والقصور والخيام والأمتعة ، والخيول والجمال والأثقال والرجال من الإنس والجان ، وغير ذلك من الحيوانات ، والطيور ، فإذا أراد سفرا أو مستترها أو قتال ملك أو أعداء من أى بلاد الله مشاء ، فإذا حمل هذه الأمور المذكورة على البساط أمر الريح فدخلت تحته فرفعته ، فإذا استقل بين السماء والأرض أمر الرخاء فسارت به ، فإن أراد أسرع من ذلك أمر العاصفة فحملته أسرع ما يكون فوضعته فى أى مكان شاء ، بحيث أنه كان يرتحل فى أول النهار من بيت المقدس فتغدو به الريح فتضعه باصطخر ، مسيرة شهر ، فيقيم هناك إلى آخر النهار . ثم يروح من آخره فترده إلى بيت المقدس . كما قال تعالى : **﴿ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . أعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور ﴾**[٢] .

قال الحسن البصرى كان يغدو من دمشق فينزل باصطخر فيتغذى بها ويذهب رائحا منها فيبيت بكابل وبين دمشق وبين اصطخر مسيرة شهر ، وبين اصطخر وكابل مسيرة شهر ، قلت تذكر المتكلمون على العمران والبلدان أن اصطخر بنتها الجان لسليمان وكان فيها قرار مملكة الترك قديما ، وكذلك غيرها من بلدان شتى كتدمر ، وبيت المقدس ، وباب جبرون ، وباب البريد اللذان بدمشق على أحد الأقوال .

وأما (يقطر) قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وغير واحد هو النحاس قال قتادة وكان باليمن انبعها الله له ، قال السدى ثلاث أيام فقط أخذ منها جميع ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها .

وقوله **﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ﴾** أى وسخر الله له من الجن عما لا يعملون له ما يشاء لا يفترون ولا يخرجون عن طاعته ومن خرج منهم عن الأمر عذبه ونكل به .

---

(١) سورة الأنبياء الآيتان ٨١ — ٨٢ .

(٢) سورة سبأ الآيتان ١٢ — ١٣ .

﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب** ﴾ وهى الأماكن الحسنة وصدور المجالس ﴿ **وتماثيل** ﴾ وهى الصور فى الجدران وكان هذا سائغا فى شريعتهم وملتهم . ﴿ **وجفان كالجواب** ﴾ قال ابن عباس الجفنة كالجوبة من الأرض وعنه كالحياض ، وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم ، وعلى هذه الرواية يكون الجواب جمع جابية وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء كما قال الأعشى :

تروح على آل المحلـــق جفنـــة   كجابيـــة الشيـــخ العـــراق يفهـــق

وأما القدور الراسيات فقال عكرمة أثافيها منها يعنى أنهن ثوابت لا يزلن عن أماكنهن وهكذا قال مجاهد وغير واحد ولما كان هذا بصدد إطعام الطعام والإحسان إلى الخلق من إنسان وجان قال تعالى ﴿ **اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **والشياطين كل بناء وغواص وأخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ يعنى أن منهم من قد سخره فى البناء ، ومنهم من يأمره بالغوص فى الماء لا ستخراج ما هنالك من الجواهر واللآلى وغير ذلك مما لا يوجد إلا هنالك . وقوله ﴿ **وآخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ أى قد قد عصوا فقيدوا مقرنين اثنين اثنين فى الأصفاد وهى القيود .

هذا كله من جملة ما هيأه الله وسخر له من الأشياء التى هى من تمام الملك الذى لا ينبغى لأحد من بعده ، ولم يكن أيضا لمن كان قبله .

وقد قال البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال (إن عفريتا من الجن تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تنظروا إليه كلكم فذكرت دعوة أخى سليمان ﴿ **رب أغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾[1] فرددته خاسئا وكذا رواه مسلم والنسائى عن أبى الدرداء قال قام رسول الله ـ ﷺ ـ فصلى فسمعناه يقول (أعوذ بالله منك ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئا فلما فرغ من الصلاة قلنا يا رسول الله سمعناك تقول فى الصلاة شيئا لم نسمعك تقوله قبل ذلك ورأيناك بسطت يدك قال إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات . ثم أردت أخذه والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة)[2] .

وقد ذكر غير واحد من السلف أنه كانت لسليمان من النساء ألف امرأة ، سبعمائة بمهور ، وثلثمائة سرارى . وقيل بالعكس ثلثمائة حرائر وسبعمائة من الاماء . وقد كان يطيق من التمتع بالنساء أمرا ، عظيما جدا قال البخارى عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ قال (قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب ووهبنا لداود سليمان .

انظر صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٤ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان فى الصلاة.رقم ٣٩ – ٥٤١ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٨٥ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن شيطان . رقم ٤٠ – ٥٤٢

سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارسا يجاهد في سبيل الله . فقال له صاحبه ، إن شاء الله ، فلم يقل فلم تحمل شيئا إلا واحدا ساقطا أحد شقيه فقال النبي — ﷺ — لو قالها لجاهدوا فى سبيل الله) تفرد به البخارى من هذا الوجه[١] .

وقال أحمد عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة تلد كل واحدة منهن غلاما يقاتل فى سبيل الله ولم يستثن فما ولدت الا واحدة منهن بشق انسان . قال — قال : رسول الله — ﷺ — لو استثنى لولد له مائة غلام كلهم يقاتل فى سبيل الله — عز وجل — تفرد به أحمد أيضا[٢] .

وقد كان له — عليه السلام — من أمور الملك واتساع الدولة وكثرة الجنود وتنوعها مالم يكن لأحد قبله ولا يعطيه الله أحدا بعده كما قال ﴿ **وأوتينا من كل شيء** ﴾ وقال ﴿ **رب اغفر لى وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب** ﴾ وقد أعطاه الله ذلك بنص الصادق المصدوق . ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليه وأسداه من النعم الكاملة العظيمة إليه قال ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾ أى أعط من شئت واحرم من شئت فلا حساب عليك ، أى تصرف فى المال كيف شئت فإن الله قد سوغ لك كل ما تفعله من ذلك ، ولا يحاسبك على ذلك ، وهذا شأن النبى الملك بخلاف العبد الرسول فإن من شأنه أن لا يعطى أحدا ولا يمنع أحدا إلا بإذن الله له فى ذلك ، وقد خير نبينا محمد — صلوات الله وسلامه عليه — بين هذين المقامين فاختار أن يكون عبدا رسولا .

وفى بعض الروايات إنه استشار جبريل فى ذلك فأشار عليه أن تواضع ، فاختار أن يكون عبدا رسولا صلوات الله وسلامه عليه ، وقد جعل الله الخلافة والملك من بعده فى أمته إلى يوم القيامة فلا تزال طائفة من أمته ظاهرين حتى تقوم الساعة فالله الحمد والمنة .

ولما تعالى ما وهبه لنبيه سليمان عليه السلام من خير الدنيا نبه على ما أعده له فى الآخرة من الثواب الجزيل ، والأجر الجميل ، والقربة التى تقربه إليه والفوز العظيم ، والإكرام بين يديه وذلك يوم المعاد والحساب حيث يقول الله ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ .

« وفاته ومدة ملكه وحياته »

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين** ﴾[٣] .

قال أبو داود فى كتاب القدر عن خيثمة قال : قال سليمان بن داود — عليهما السلام — لملك الموت إذا

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٩٧ كتاب بدء الخلق باب ووهبنا لداود سليمان .

(٢) الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٢٢٩ مسند أبى هريرة .

(١) سورة سبأ آية ١٤

أردت أن تقبض روحى فأعلمنى . قال : ما أنا أعلم بذاك منك إنما هى كتب يلقى إلى فيها تسمية من يموت وقال اصبغ بن الفرج وعبد الله بن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قال سليمان لملك الموت إذا أمرت بى فأعلمنى فأتاه فقال يا سليمان قد أمرتِ بك قد بقيت لك سويعة فدعا الشياطين فبنوا عليه صرحا من قوارير ليس له باب فقام يصلى فاتكأ على عصاه قال فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه وهو متوك على عصاه ولم يصنع ذلك فرارا من ملك الموت قال والجن تعمل بين يديه وينظرون إليه يحسبون أنه حى ، قال فبعث الله دابة الأرض يعنى إلى منسأته فأكلتها حتى إذا أكلت جوف العصا ضعفت وثقل عليها فخر فلما رأت الجن ذلك إنفضوا وذهبوا فذلك قوله ﴿ **مادهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين** ﴾[(١)] قال اصبع وبلغنى من غيره أنها مكثت سنة تأكل فى منسأته حتى خر ، وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف وغيرهم والله أعلم .

قال اسحق بن بشر عن محمد ابن اسحق عن الزهرى وغيره أن سليمان عليه السلام عاش ثنتين وخمسين سنة ، وكان ملكه أربعين سنة ، وقال اسحق أنبأنا أبو ورق عن عكرمة عن ابن عباس أن ملكه كان عشرين سنة والله أعلم . وقال ابن جرير فكان جميع عمر سليمان بن داود عليهما السلام نيفا وخمسين سنة وفى سنة أربع من ملكه ابتدأ ببناء بيت المقدس فيما ذكر ملك بعده ابنه مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير وقال ثم تفرقت بعده مملكة بنى إسرائيل . أ . هـ .

« قصص أيوب عليه السلام »

قال تعالى :

وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾

---

(١) سورة سبأ آية رقم ١٤ .

النصب

« تفسير المفردات »

(أيوب) : هو أيوب بن أموص بن أردم بن عيص بن إسحاق عليه السلام ، فهو من بنى إسرائيل قال بن جرير . (النقب) (بضم فسكون) والنقب (بفتحتين) : كالرشد والرشد : المشقة والتعب ، (عذاب) : أى ألم مضر كما جاء فى قوله : ﴿ أنى مسنى الضر ﴾ ، ﴿ أركض برجلك ﴾ : أى أضرب بها على الأرض ، ﴿ مغتسل ﴾ : أى ماء تغتسل به وتشرب منه ، ﴿ الضغث ﴾ : الحزمة الصغيرة من الكلأ والريحان ، (ويقال حنث فى يمينه) إذا لم يفعل مات حلف به .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ .

قال الشيخ المراغى فى تفسير هذه القصة : أى واذكر لقومك صبر أيوب حين نادى ربه وقال : رب إنى أصبت بالمرض ، وتفرق الأهل وضاع الولد . ومن حديث مس الشيطان له ماروى ـ إن الشيطان وسوس إليه فأعجب بكثرة ماله وولده ووافر صحته ، فابتلاه الله بالأمراض والأسقام ، وأضاع ماله وتفرق ولده فى أنحاء البلاد ، وهلك منهم من هلك ، فصبر على ما أصابه من أذى وما ناله من ألم ممضى ، وحسرة تقطع نياط القلب .

ولا نعلم على وجه التحقيق قدر الزمن الذى لحقه فيه الضر ، ولا نوع هذا الضر إذ القرآن لم يصرح بهذا ، ولكننا نعلم على وجه لا يقبل الشك أنه لم يصب بأذى ينفر الناس منه ، ويمنعهم من لقائه والجلوس معه لأن ذلك شرط من شروط النبوة ، كما أنا نعلم من وصف الدواء الآتى الذى أوحى الله به إليه أنه من الأمراض الجلدية التى تشفيها المياه المعدنية أو الكبريتية كما أشار إلى ذلك بقوله واصفا له الدواء .

اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ أى حرك الأرض برجلك واضربها يخرج ينبوع من الماء تغتسل منه وتشرب ، فتبرأ مما أنت فيه من المرض . وفى هذا إيماء إلى نوع المرض الذى كان به ، وأنه من الأمراض الجلدية غير المعدية كالاكزيما والحكة ونحوهما مما يتعب الجسم ويؤذيه أشد الإيذاء لكنه ليس بقتال وكلما تقدم الطب أمكن الطبيب أن يبين نوع هذا المرض على وجه التقريب لا على وجه التحديد ، كما أن فى ذلك إيماء إلى أن الماء كان من المياه الكبريتية ذات الفائدة الناجحة فى تلك الأمراض ، وهى كما تفيد بالاستعمال الظاهرى ، تفيد بالشرب أيضا كما ترى فى العيون التى فى البلاد التى أنشئت فيها الحمامات فى أوروبا ومصر وغيرها واستعملت مشاتى ومصحات للأمراض الجلدية والأمراض الباطنية كمياه فيشى ، وسويسرا ، وحلوان .

وقد أراد بمس الشيطان إياه بالنصب والعذاب ـ ما كان يوسوس به إليه فى مرضه من تعظيم ما نزل به من البلاء والقنوط من الرحمة ويغريه على الكراهة والجزع ، فالتجأ إلى الله أن يكفيه ذلك بكشف البلاء أو بالتوفيق لدفعه ورده بالصبر الجميل .

وكما دفع عنه سبحانه الضر إجابة لدعائه ، أجاب دعاءه فى أهله وولده فقال :

﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ أى وجمعنا له أهله بعد التفرق والتشتت وأكثرنا نسلهم حتى صاروا ضعف ما كانوا عليه ، رحمة منا وتذكرة لأولى العقول السليمة لتعتبر وتعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مع العسر يسرا ، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة .

ثم ذكر أنه رخص له سبحانه فى تحلة يمينه فقال :

﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ أى وخذ حزمة من ريحان أو كلأ فاضرب بها ـ فيكون ذلك تحله ليمينك التى حلفتها والكتاب لم يبين لما علام حلف ؟ وعلى من حلف ؟ ويذكر الرواه أنه حلف على زوجه (رحمه بنت إفرائيم) وقد كانت ذهبت لحاجة فأبطأت ، فحلف ليضربها إن برىء مائة ضربة ، فرخص له ربه أن يأخذ حزمة صغيرة ويضربها بها ، وبذا يتحقق البر فى يمينه رحمة به وبها ، لحسن خدمتها له وقيامها بواجباته المنزلية أثناء مرضه .

وفى هذا مخرج وفرج لمن اتقى الله وأناب إليه ، ولهذا قال عز اسمه :

﴿ **إنا وجدناه صابرا ، نعم العبد إنه أواب** ﴾ أى أنا وجدنا أيوب صابرا على ما أصابه فى النفس والأهل والمال من أذى ، فجازيناه بما فرج كربته ، وأذهب لوعته ، وليس فى الشكوى إلى الله إخلال بالصبر ، وليس فيه شىء من الجزع ، فهو كتمنى العافية وطلب الشفاء .

وقد روى أنه كان يقول كلما أصابته مصيبة : اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت ، وكان يقول فى مناجاته : إلهى قد علمت أنه لم يخالف لسانى قلبى ، ولم يتبع قلبى بصرى ولم يلهنى ما ملكت يمينى ، ولم أكل إلا ومعى يتيم ، ولم أبت شبعان ولا كاسيا ومعى جائع أو عريان .

ويقول العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآيات :

يذكر تبارك وتعالى عبده ورسوله أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ وما كان ابتلاه به من الضر فى جسده وماله وولده حتى لم يبق من جسده مغرز إبرة سليم سوى قلبه ، ولم يبق من الدنيا شىء يستعين به على مرضه وما هو فيه غير أن زوجته حفظت وده لإيمانها بالله تعالى ورسوله . فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدمه نحوا من ثمانى عشرة سنة ، وقد كان قبل ذلك فى مال جزيل وأولاد وسعة طائلة من الدنيا ، فسلب جميع ذلك فقال كما حكى ربنا تبارك اسمه : ﴿ **إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾ .

وفى هذه الآية الكريمة قال : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ قيل بنصب فى بدنى وعذاب فى مالى وولدى فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين وأمره أن يقوم من مقامه وأن يركض الأرض برجله ، ففعل ، فأنبع الله تعالى عينا وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت جميع ما كان فى بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض فى مكان آخر فأنبع له عينا أخرى وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان فى باطنه من السوء وتكاملت العافية ظاهرا وباطنا ، ولهذا قال تبارك وتعالى :

﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ .

وقال الامام أحمد عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحثو فى ثوبه فناداه ربه عز وجل يا أيوب ألم اكن غنيتك عما ترى قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ بلى ، يارب ولكن لاغنى بى عن بركتك)[1] إنفرد باخراجه البخارى من حديث عبد الرازق به ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ قال حسن وقتادة أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم وقوله عز وجل ﴿ **رحمة منا** ﴾ أى به على صبره وثباته وتواضعه ، واستكانته . ﴿ **وذكرى لأولى الألباب** ﴾ أى لذوى العقول ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

وقوله جلت عظمته ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ وذلك أن أيوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ كان قد غضب على زوجته ووجد عليها فى أمر فعلته ، قبل باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنها مائة جلدة وقيل لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤهما مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثا وهو الشمراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة وقد برت يمينه وخرج من حنثه ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[2] .

ولهذا قال جل جلاله ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ .

أثنى الله تعالى عليه ومدحه بأنه ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ أى رجاع منيب . واستدل كثير من الفقهاء بهذه الآية ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ .

على سائل فى الأيمان وغيرها ، وقد أخذوها بمقتضاها والله أعلم بالصواب .

أضواء كاشفة

يقول العلامة ابن كثير فى كتابه (قصص الأنبياء) عن النبى أيوب :

قال ابن اسحق كان رجلا من الروم وهو أيوب بن موصى بن زراح بن العيص ابن اسحق بن ابراهيم الخليل . وقال غيره هو أيوب بن موص بن رعويل ابن العيص بن اسحق بن يعقوب وقيل غير ذلك فى نسبه .

وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوط ـ عليه السلام ـ وقيل كان أبوه ممن آمن بإبراهيم ـ عليه السلام ـ يوم ألقى فى النار فلم تحرقه والمشهور لأنه من ذرية ابراهيم كما قررنا عند قوله تعالى ﴿ **ومن ذريته داود**

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى : وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر .

(٢) سورة الطلاق الآيتان ٢ ـ ٣ .

وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ﴾ الآيات من الصحيح الضمير عائد إلى إبراهيم دون نوح عليه السلام وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وأيوب ﴾[1] الآية فهو من الأنبياء المنصوص على الايحاء اليهم .

فالصحيح أنه من سلالة العيص بن اسحق وامرأته قبل اسمها ليا بنت يعقوب ، وقيل رحمة بنت أفرائيم وقيل منشا بن يوسف ابن يعقوب وهذا أشهر فلهذا ذكرناه هاهنا ثم نعطف بذكر أنبياء بنى اسرائيل بعد قصته إن شاء الله . قال الله تعالى : ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين . فاستجبنا له فكشفنا مابه من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾[2] .

وقال تعالى فى سورة (ص) :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم كان أيوب رجلا كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشى والأراضى المتسعة بأرض البثينة من أرض حدران .

وحكى ابن عساكر أنها كلها كانت له وكان له أولاد وأهلون كثير فسلب من ذلك جميعه ، وابتلى فى جسده بأنواع البلاء ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه . يذكر الله تعالى عز وجل بها وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليلة ونهاره وصباحه ومسائه .. ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها ، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته وتقوم بمصلحته وضعف حالها ، وقل مالها ، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وتقوم بأموره ــ رضى الله عنها وأرضاها ــ وهى صابرة على ما حل بها من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد ، وخدمة الناس بعد السعادة والنعمة والخدمة والحرمة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : (أشد الناس بلاء الأنبياء . ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه)[3] ولم يزد هذا كله أيوب ــ عليه السلام ــ إلا صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا حتى أن المثل ليضرب بصبره ــ عليه السلام ــ ويضرب المثل بما حصل له من أنواع البلايا .

وقال ابن ابى حاتم وابن جرير عن أنس بن مالك أن النبى ــ ﷺ ــ قال (إن نبى الله أيوب لبث به

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٣

(٢) سورة الأنبياء آية : ٨٣ - ٨٤

(٣) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١٠ ص ١١١ باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل .

بلاؤه ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من أخوانه كانا من أخص أخواته له كان يغدوان إليه ويروحان فقال أحدهما لصاحبه يعلم الله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه وماذاك قال منذ ثمانى عشر سنة لم يرحمه ربه فيكشف مابه . فلما راحا إليه فلم يصبر الرجل حتى ذكر له ، قال أيوب لا أدرى ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله إلا فى حق . قال وكان يخرج فى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يرجع فلما كان ذات يوم ابطأت عليه فأوحى الله إلى أيوب فى مكانه ﴿ **أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ فاستبطأته فتلقته تنظر وأقبل عليها قد أذهب الله مابه من البلاء .

وهو على أحسن ما كان فلما رأته قالت أى بارك الله فيك هل رأيت نبى الله هذا المبتلى فو الله على ذلك ما رأيت رجلا أشبه به منك اذ كان صحيحا قال فإنى أنا هو قال وكان له اندران ، اندر للقمح واندر للشعير ، فبعث الله سحابتين فلما كانت احداهما على اندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وافرغت الأخرى فى اندر الشعير الورق حتى فاض)[1] هذا لفظ ابن جرير وهكذا رواه بتمامة ابن حبان فى صحيحه عن محمد بن الحسن بن قتيبه عن حرملة عن ابن وهب به . وهذا غريب رفعه جدا . والأشبه أن يكون موقوفا .

قال ابن عباس ورد الله عليه ماله وولده بأعيانهم ومثلهم معهم . وقال وهب بن منبه . أوحى الله إليه قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك وقرب عن صحابتك قربانا واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك رواه ابن أبى حاتم . وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ لما عافى الله أيوب ــ عليه السلام ــ أمطر عليه جرادا من ذهب فجعل يأخذ بيده ويجعل فى ثوبه قال فقيل له يا أيوب أما تشبع . قال يارب ومن يشبع من رحمتك .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال قال رسول الله ــ ﷺ ــ (بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب يحثى فى ثوبه فناداه ربه عز وجل ﴿ **يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى . قال بلى يارب ولكن لاغنى لى عن بركتك** ﴾ .

رواه البخارى من حديث عبد الرازق به[2] .

وقوله ﴿ **أركض برجلك** ﴾ أى اضرب الأرض برجلك فامتثل ما أمر به فأنبع الله له عينا باردة الماء وأمر أن يغتسل فيها ويشرب منها فأذهب الله عنه ما كان بجسده من الألم والأذى والسقم والمرض الذى كان فى جسده ظاهرا وباطنا وأبدله الله بعد ذلك كله صحة ظاهرة وباطنة وجمالا تاما ومالا كثيرا حتى صب له المال صبا مطرا عظيما جرادا من ذهب وأخلف الله له أهله كما قال تعالى ﴿ **وأتيناه أهله ومثلهم معهم** ﴾

---

(١) أنظر تفسير ابن جرير الطبرى ج ٢٣ ص ٩٦ تفسير سورة ص .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى وأيوب إذا نادى ربه .

الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٣١٤ مسند أبى هريرة .

فقيل أحياهم الله بأعيانهم . وقيل أجره فيمن سلف وعوضه عنهم فى الدنيا بدلهم ورحمه له شمله بكلهم فى الدار الأخرة . وقوله تعالى ﴿ **رحمة من عندنا** ﴾ أى رفعنا عنه شدته ﴿ **وكشفنا مابه من ضر** ﴾ رحمة منا به ورأفة وإحسانا ﴿ **وذكرى للعابدين** ﴾ أى تذكرة لمن ابتلى فى جسده أو ماله أو ولده فله أسوة بنبى الله أيوب حيث ابتلاه الله بما هو أعظم من ذلك فصبر واحتسب حتى فرج الله عنه .

وقوله ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ هذه رخصة من الله تعالى لعبده ورسوله أيوب ـ عليه السلام ـ فيما كان من حلفه ليضربن امرأته مائة سوط فقيل حلفه ذلك لبيعها ضفائرها ، وقيل لأنه عرضها الشيطان فى صورة طبيب يصف لها دواء لأيوب فأتته فاخبرته فعرف أنه الشيطان فحلف ليضربها مائة سوط . فلما عافاه الله عز وجل أفتاه أن يأخذ ضغثا وهو كالعنكال الذى يجمع الشماريخ فيجمعها كلها ويضربها به ضربة واحدة ويكون هذا منزلا منزلة الضرب بمائة سوط ويبر ولا يحنث . وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما فى حق امرأته الصابرة المحتسبة المكابدة الصديقة البارة الراشدة ـ رضى الله عنها ـ ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها ﴿ **إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب** ﴾ وقد أستعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة فى باب الأيمان والنذور وتوسع أخرون فيها حتى وضعوا كتاب الحيل فى الخلاص من الأيمان وصدوره بهذه الآية الكريمة . وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب . وسنذكر طرفا من ذلك فى كتاب الأحكام عند الوصول إليه إن شاء الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير وغيره من علماء التاريخ أن أيوب عليه السلام لما توفى كان عمره ثلاثا وتسعين سنة . وقيل إنه عاش أكثر من ذلك .

وقد روى لبث عن مجاهد مامعناه أن الله يحتج يوم القيامة بسليمان ـ عليه السلام ـ على الأغنياء ، وبيوسف ـ عليه السلام ـ على الأرقاء ، وبأيوب ـ عليه السلام ـ على أهل البلاء . رواه ابن عساكر بمعناه وأنه أوصى إلى ولده حومل وقام بالأمر بعده ولده بشر بن أيوب وهو الذى يزعم كثير من الناس أنه ذو الكفل فالله أعلم . ومات إبنه هذا وكان نبيا فيما يزعمون وكان عمره من الستين خمسا وسبعين . أنتهى .

وإتماما للفائدة نذكر ما قاله صاحب كتاب (روائع البيان) .

بشأن هذه القصة تحت عنوان « موقف الشريعة من الجبل » .

قال الله تعالى :

﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

« التحليل اللفظى »

(نصب) النصب : بضم النون وسكون العباد بمعنى التعب كالنصب .

قال الفراء : هما كالرشد والرشد . والحزن والحزن معناها واحد .

وقال فى اللسان : والنصب ، والنصب والنصب : الداء والبلاء والشر ، والنصب : الإعياء من العناء ، وفى التنزيل (لا يمسهم فيها نصب) أى تعب .

وقال أبو عبيدة : النصب : الشر والبلاء ، والنصب : التعب والاعياء . والمراد فى الآية : مرض أيوب وما كان يقاسيه من أنواع البلاء فى جسده (الركض) الركض : الدفع بالرجل : يقال ركض الدابة إذا ضربها برجله لتعدو ، وقال المبرد : الركض التحريك والضرب ، ولهذا قال الأصمعى : يقال ركضت الدابة ، ولا يقال ركضت هى ، لأن الركض إنما هو تحريك راكبها رجليه ولا فعل لها فى ذلك .

والمراد فى الأية : أضرب الأرض برجلك ينبع الماء فتغتسل وتشرب منه .

(مغتسل) المغتسل الماء الذى يغتسل به ، وقيل : الموضع الذى يغتسل فيه ، والصحيح الأول .

(ضغثا) الضغث فى أصل اللغة : الشيء المختلط ومنه (أضغاث أحلام) للرؤيا المختلطة .

قال فى اللسان : الضغث : قبضة من قضبان مختلفة يجمعها أصل واحد مثل الأسل والكراث .

وقيل : هى الحزمة من الحشيش ، مختلطة الرطب باليآس .

وقال ابن عباس : هو عثكال النخل الجامع بشماريخه . أى عنقود النخل المتفرع الأغصان .

والمعنى : أمره الله أن يأخذ حزمة من العيدان فيها مائة عود ، ويضربها ضربة ، ليبر فى يمينه ولا يحنث فيها .

(تحنث) : الحنث : الخلف فى اليمين ، يقال حنث فى يمينه ، يحنث اذا لم يبر بها .

قال فى اللسان : الحنث فى اليمين : نقضها والنكث فيها ، وهو من الحنث بمعنى الاثم وفى الحديث (اليمين حنث أو مندمة)[1] .

ومعناه : إما أن يندم على ما حلف عليه ، أو يحنث فتلزمه الكفارة .

والحنث : الذنب العظيم ، وفى التنزيل ﴿ **وكانوا يصرون على الحنث العظيم** ﴾[2] .

﴿ **أواب** ﴾ : الأواب : الرجوع ، والأواب : التواب . الرجاع ، الذى يرجع إلى التوبة والطاعة ، ويرجع إلى الله فى جميع أموره وهى صيغ المبالغة مثل (ظلام) (قتال) .

« المعنى الجملى »

اذكر يا محمد لقومك قصة عبدنا (أيوب) إذ نادى ربه مستغيثا به ، ضارعا إليه . فيما نزل به من

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ١ ص ٦٨٠ باب اليمن حنث أو ندم رقم ٢١٠٣ .

(٢) سورة الواقعة آية ٤٦ .

البلاء . راجيا أن يكشف الله عنه الضر حيث قال : رب إنى أصبت ببلاء وشدة وتعب وضنى وأنت أرحم الراحمين ، ورب المستضعفين ... فاستجاب الله الحليم الكريم دعاءه ــ وكشف عنه شدته . فأذهب عنه الآلام والأسقام . وأمره أن يضرب برجله الأرض ، حتى تنبع له عين ماء يكون فيها شفاؤه . وقلنا له : هذا مغتسل بارد وشراب تغتسل منه وتشرب فتشفى بإذن الله ، فلما ضرب الأرض نبعت له عين ماء ، فاغتسل منها فذهب الداء من ظاهره ، ثم شرب منها فذهب الداء من باطنه ، فعادت إليه الحياة الطبيعية التى كان يعيشها وشعر بأهله وأولاده ، ونعم بأسرته التى كانت بالنسبة إليه كالمفقودة ومتعه الله بصحته وقواه حتى كثر نسله وتضاعف عدد أولاده ورزقه من الأموال فضلا منه ونعمة ، وأكراما لعبده الصالح الطائع وتذكيرا لعباد الله بفضل الله وإكرامه لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وهو أفضل أهل زمانه ــ وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا ومصائبها ، واللجوء إلى الله عز وجل فيما يحيق بهم كما لجأ أيوب ليفعل الله بهم ما فعل به من حسن العاقبة وعظيم الإكرام .

وما كان الله ــ جلت حكمته ــ ليكرمه ويدع زوجتهالتى أحسنت إليه وأعانته فى بلائه ومحنته .

وكان قد حلف لأمر فعلته ليضربها مائة جلدة ، فجزاها الله بحسن صبرها أن أفتاه فى ضربها تسهيلا عليه وعليها فأمره أن يجمع لها (مائة عود) ويضربها ضربة واحدة ولا يحنث فى يمينه .

ثم شهد الله تعالى لأيوب عليه السلام شهادة تبقى على مر الأزمان مظهرة أنه كان فى بلائه صابرا ، لا تحمله الشدة على الخروج عن طاعة ربه ، والدخول فى معصيته ، فكان من خيرة خلق الله وعباده ، مقبلا على طاعته ، رجاعا إلى رضاه ، فلم يكن دعاؤه عن تذمر وشكوى ، وإنما كان لجوء إلى الله العلى القدير الذى بيده مقاليد السموات والأرض .

« الغرض من القصة »

المقصود من ذكر قصة (أيوب) عليه السلام ، وما قبلها من قصص الأنبياء الإعتبار بما يقع فى هذه الحياة . كأن الله تعالى يقول : يامحمد ، اصبر على سفاهة قومك ، وشدتهم فى معاملتك ، ومقابلة دعوتك بالصدود والإعراض ، فإنه ما كان فى الدنيا أكثر نعمة ومالا وجاها من (داود)و(سليمان) ــ عليهما السلام ــ وما كان أكثر بلاء ومحنة من أيوب ــ عليه السلام ــ فتأمل فى أحوال هؤلاء لتعرف أن أحوال الدنيا لا تنتظم لأحد . وأن العاقل لابد له من الصبر على المكاره .

« لطائف التفسير »

اللطيفة الأولى :

فى قصة أيوب ــ عليه السلام ــ كان قد حصل له نوعان من البلاء (المشقة الشديدة) بسبب زوال النعم والخيرات ، وحصول المكروه (والألم الشديد) فى الجسم . ولما كان كل منهما قد لحق به وأصابه الضر بسببه . أحدهما مادى . والأخر جسدى . ذكر الله تعالى فى الآية الكريمة لفظين (النصب) و

(العذاب) ليقابل بذلك الضر الذى أصابه . فالنصب الضر فى الجسد ، والعذاب البلاء فى الأهل والمال .

اللطيفه الثانية :

وصف الله تعالى نبيه أيوب ـ عليه السلام ـ بالصبر . وأثنى عليه بقوله ﴿ **إنا وجدناه صابرا** ﴾ مع أن أيوب كان قد اشتكى إلى ربه من الضر الذى أصابه فقال ﴿ **مسنى الضر** ﴾ فى سورة الأنبياء ، وقال هنا ﴿ **مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ فدل ذلك على أن الشكوى إلى الله تعالى لا تنافى الصبر ، وقد قال يعقوب ـ عليه السلام ـ ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون** ﴾[1] ولهذا مدحه الله بقوله ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ ولو كانت الشكوى إلى الله تنافى الصبر لما استحق هذا الثناء .

اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **أنى مسنى الشيطان** ﴾ أسند الضر الذى أصابه فى جسمه وأهله ، وماله إلى الشيطان أدبا مع الله تعالى ، مع أن الفاعل الحقيقى هو الله رب العالمين ، فالخير والشر ، والنفع والضر ، بيد الله جل وعلا ، ولكن لا ينسب الشر إلى الله وانما ينسب إلى النفس أو الشيطان ، ولهذا راعى ـ عليه السلام ـ الأدب فى ذلك فنسبه إلى الشيطان ، وهو على حد قول ابراهيم ـ عليه السلام ـ ﴿ **والذى هو يطعمنى ويسقين ، واذا مرضت فهو يشفين** ﴾[2] حيث نسب الأحكام إلى الله ونسب المرض إلى نفسه أدبا .

قال الزمخشرى : لما كانت وسوسته إليه ، وطاعته له فيما وسوس سببا فيما مسه الله به من النصب والعذاب نسبه إليه ، وقد راعى الأدب فى ذلك حيث لم ينسبه إلى الله فى دعائه ، مع أنه فاعله ولا يقدر عليه إلا هو .

اللطيفة الرابعة :

سئل سفيان عن عبدين ابتلى أحدهما فصبر ، وأنعم على الأخر فشكر ، فقال : كلاهما سواء ، لأن الله تعالى أثنى على عبدين أحدهما صابر ، والأخر شاكر ثناء واحدا فقال فى وصف أيوب ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ ، وقال فى وصف سليمان ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾ وفضل بعض العلماء : الغنى الشاكر ، على الفقير الصابر ، لأن الغنى ابتلاء وفتنة ، والشاكر من عباد الله قليل ﴿ **وقليل من عبادى الشكور** ﴾ بخلاف الصابر فإنه كثير والمسألة فيها نظر .

(قال الامام ابن تيميه أفضلهما أتقاهما) .

---

(١) سورة يوسف آية ٨٦

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٧٩ – ٨٠

اللطيفة الخامسة :

يضرب المثل بصبر أيوب ـ عليه السلام ـ فيقال : (صبر كصبر أيوب) وقد صبر على البلاء فى جسمه وأهله ، وولده مدة ثمان عشرة سنة على المرجح من الأقوال ، ويروى أن زوجه لما طلبت منه ان يدعو الله أن يشفيه سألها :

كم مكثنا فى الرخاء ؟ قالت سبعين عاما ، فقال لها : ويحك كنا فى النعيم سبعين عاما ، فاصبرى حتى نكون فى الضر سبعين عاما .

ويروى أنه قال لها : إنى لأستحيى من الله أن أسأله أن يشفينى وما قضيت فى بلائى ما قضيته فى رخائى .

ولهذا يضرب به المثل فى الصبر .

اللطيفة السادسة :

روى البخارى والنسائى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (بينما أيوب يغتسل عريانا خر عليه رجل جراد من ذهب ، فجعل يحثى فى ثوبه ، فناداه ربه ياأيوب : ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال : بلى يارب ، ولكن لاغنى لى عن بركتك)(١) (رجل جراد : قال فى اللسان الرجل الطائفة من الشىء) .

قال بعض العلماء : حين صبر أيوب أكرمه الله بالمال الوفير ، والأجر الجزيل ، وعوضه عن الأهل والولد ، بضعفهم وبارك فيهم ، كما قال تعالى ﴿ **فكشفنا مابه من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب** ﴾ .

« الأحكام الشرعية »

الحكم الأول : ماهو سبب حلف أيوب ـ عليه السلام ـ بضرب أهله ؟ دل ظاهر قوله تعالى ﴿ **وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث** ﴾ على أن أيوب عليه السلام كان قد صدر منه يمين على ضرب أهله ، ويقول المفسرون إنه حلف لئن شفاه الله ليجلدن زوجته مائة جلدة ، فأمره الله أن يأخذ قبضة من حشيش أو حزمة من الخلال والعيدان ، فيضرب بها ليبر بيمينه ولا يحنث ، ولم تذكر الآية سبب هذا الحلف ، وقد ذكر بعض المفسرين كلاما طويلا فى سبب هذا اليمين ، فقيل : إن امرأة أيوب كانت تخدمه وضجرت من طول مرضه ، فتمثل لها الشيطان بصورة طبيب وجلس فى طريقها فقالت له : ياعبد الله ههنا إنسان مبتلى ، فهل لك أن تداويه ؟ قال : نعم إن شاء شفيته ، على أن يقول إذا برأ : أنت شفيتنى فجاءت إلى أيوب فأخبرته فقال : ذاك الشيطان ، لله على إن شفانى الله أن أجلدك مائة جلدة .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٨٤ كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى وأيوب إذ نادى ربه .

وزعم بعضهم أن إبليس لقى زوجة أيوب فقال لها : أنا الذى فعلت بأيوب ما فعلت ، وأنا إله الأرض ، ولو سجدت لي سجدة واحدة لرددت عليه أهله وماله ، فجاءت فأخبرت أيوبَ فأقسم أن يضربها إن عافاه الله .

وكتاب الله تعالى لم يأت فيه تفصيل للقصة ، ولهذا انطلقت الخيالات تنسج قصصا فى سبب بلائه وفى سبب حلفه على زوجه منها مّا هو باطل لا يصح اعتقاده ومنها ما هو ضعيف واهن .

يقول أبو بكر ابن العربى : (ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكان فى السماء السابعة ، وأنه طلب من ربه أن يسلطه على أيوب فقال له : قد سلطتك على أهله وماله .. الخ إن هذا قول باطل لأن ابليس أهبط منها بلعنة الله وسخطه ، فكيف يرقى إلى محل الرضا ، ويجول فى مقامات الأنبياء ، ويخترق السموات العلى !! إن هذا لخطبٌ منَ الجهالة عظيم .

وأما قولهم : إن الله تعالى قاله له : هل قدرت من عبدى أيوب على شيء ؟ فباطل قطعا ، لأن الله عز وجل لا يكلم الكفار الذين هم من جند إبليس اللعين ، فكيف يكلم من تولى إضلالهم ؟!

وأما قولهم : إن الله قال قد سلطتك على ماله وولده ، فذلك ممكن فى القدرة ، ولكنه بعيد فى هذه القصة ، وكذلك قولهم :

إنه نفخ فى جسده حين سلطه عليه فهو أبعد ، والبارى سبحانه قادر على أن يخلق ذلك كله من غير أن يكون للشيطان كسب فيه حتى تقر له ـ لعنة الله عليه ـ عين بالتمكن من الأنبياء فى أموالهم وأهليهم وأنفسهم .

وأما قولهم : إنه قال لزوجته أنا إله الأرض ، ولو تركت ذكر الله وسجدت لى لعافيته .. فاعلموا أنه لو عرض لأحدكم وبه ألم وقال هذا الكلام ، ما جاز عنده أن يكون إلها فى الأرض ، وأنه يسجد له ، وأنه يعانى من البلاء ، فكيف أن تستريب زوجة نبى ؟ ولو كانت زوجة سوارى أو قدم بدبرى ما ساغ ذلك عندها) .

ثم قال : (ولم يصح عن أيوب فى أمره إلا ما أخبرنا الله عنه فى كتابه فى آيتين : الأولى قوله تعالى : ﴿ **وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر** ﴾ والثانية فرص ﴿ **أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ وأما النبى ـ ﷺ ـ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد إلا قوله (بينا أيوب يغتسل إذ خر عليه رجل من جراد من ذهب ـ الحديث) وقد تقدم .

وإذا لم يصح عنه فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه ، فمن الذى يوصل السامع إلى أيوب خبره ، أم على لسان سمعه ؟ ، والاسرائيليات مرفوضة عند العلماء على الثبات . فأعرض عن سطورها بصرك .

وأصم عن سمعها أذنيك ، فإنها لا تعطى فكرك إلا خيالا ، ولا تزيد فؤادك إلا خبالا . أ هـ أقول :

(ليس بلازم ثبوت صبر أيوب اعتقاد أمثال هذه القصص الاسرائيلية التى حشابها بعض المفسرين كتبهم ، ولا أمثال هذه الغرائب التى لا يصح سندها ولا نسبتها إلى الأنبياء الكرام لأنها تنافى « العصمة »

ولا تتفق مع المناصب الرفيعة للأنبياء الكرام ، صلوات الله وسلامه عليهم ـ ويكفى أن نقتصر على ماذكره الله تعالى فى كتابه ، ونعرض عن مثل هذه الخرافات والأباطيل ، كزعم بعضهم أن أيوب تساقط لحمه من شدة المرض ، وأصبح الدود يخرج من جسمه حتى استقذره القريب والبعيد ، ومله الصديق والغريب ولم يصبر عليه إلا أمرأته ، وأنه عظم بلاؤه حتى أخرج من بيته وألقى على كناسه (مزبله) .. إلى آخر ما هنالك من حكايات مكذوبة وقصص إسرائيلية تلقفها بعض القصاص ، ودخلت إلى بعض كتب التفسير وهى مماتنا فى عصمة الأنبياء .

والذى ينبغى أن يقتصر عليه المسلم أن ما أصاب (أيوب) من ضر إنما كان مرضا من الأمراض المستعصية ، التى ينوء بحملها الناس عادة ، ويضجرون من ثقلها ، وخصوصا إذا امتد الزمن بها ، وأن هذا المرض لم يصل إلى حد الاستقذار والنفرة ، وأنه غضب على زوجه لأمر من الأمور فحلف أن يضربها مائة جلدة ، فجعل الله له من أمره فرجا ومخرجا ، وسهل عليه الأمر ، فجمع لها (مائة عود) فضربها بها ضربة واحدة ولم يحنث فى يمينه ، وكشف الله عنه ضره وبلاءه) .

الحكم الثانى : هل يباح للرجل ضرب امرأته تأديبا ؟

أستدل بعض العلماء بالآية الكريمة على جواز ضرب الرجل أمرأته تأديبا . وذلك لأن امرأة أيوب أخطأت فى حق زوجها فحلف ليضربنها مائة جلدة ، فأمر الله تعالى أن يضربها بعثكول من عثاكيل النخل أو بحزمة من العيدان وذلك ليبر فى يمينه ولا يحنث ولو كان الضرب غير جائز لما أقره القرآن عليه ودله على ما هو أرحم .

وفى الآية أشارة إلى أنه لا يجوز ضرب المرأة فوق حدود الأدب ، ولهذا قال ـ عليه السلام ـ فى حجة الوداع (واضربوهن ضربا غير مبرح) والجواز لا ينافى الكراهة فقد ورد عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال (لا تضربوا إماء الله) فجاء عمر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : ذأرن ـ اجترأن ـ النساء على أزواجهن ، فرخص فى ضربهن ، فأطاف بآل النبى ـ ﷺ ـ نساء كثير يشكون أزواجهن ، فقال ـ ﷺ ـ لقد طاف بآل محمد نساء يشكون أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم (رواه أبو داود والنسائى والبخارى فى التاريخ)

قال الجصاص (والذى ذكره الله فى القرآن وأباحه من ضرب النساء إذا كانت ناشزا بقوله ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن** ﴾ إلى قوله ﴿ **واضربوهن** ﴾[1] . وقد دلت قصة أيوب على أن له ضربها تأديبا لغير نشوز وقوله تعالى ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ فما روى من القصة فيه يدل على مثل دلالة قصة أيوب ، لأنه روى أن رجلا لطم امرأته على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فأراد أهلها القصاص فأنزل الله ﴿ **الرجال قوامون على النساء** ﴾ .

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٢ ص ٦٠٨ كتاب النكاح باب فى ضرب النساء رقم ٢١٤٦

الحكم الثالث : هل الحكم خاص بأيوب أم هو عام لجميع الناس ؟ .

أختلف العلماء فى هذا الحكم الذى أرشد الله تعالى إليه نبيه (أيوب) عليه السلام هل هو خاص أم عام لجميع الناس ؟

فذهب (مجاهد) إلى أنه خاص بأيوب عليه السلام ، وهو منقول عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وهو مذهب (مالك ، وأحمد بن حنبل) . رحمهما الله .

وذهب عطاء بن أبى رباح ، وابن أبى لعلى إلى أن الحكم عام ، وأن هذه الرخصة لجميع الناس فضلا من الله تعالى وكرما ، وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفه رحمهما الله تعالى .

الحكم الرابع : هل يشترط فى الضرب أن يكون مفرقا ؟ .

وبناء على ما سبق فقد اختلف الفقهاء فيمن حلف أن يضرب عبده عشرة أسواط ، فجمعها كلها وضربه بها ضربة واحدة ، هل يكفى ذلك أم لابد فى الضرب أن يكون مفرقا ؟ .

فقال مالك وأحمد : لا يبر بيمينه حتى يفرق الضرب .

وقال أبو حنيفة والشافعى : إذا أصابه واحد منها فقد بر فى يمينه ولا يشترط التفريق .

« حجة المذهب الأول »

١ – إن هذا الأمر خاص بأيوب وزوجه لأن الله تعالى قال ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾[١] ولأن زوجة أيوب لم تفعل أمرا تستحق معه مائة جلدة . فجعل الله سبحانه لأيوب فرجا ومخرجا بذلك .

٢ – ولأنه إذا أقسم بالضرب إنما أراد الايلام ، وليس فى الضرب بالجميع إيلام .

٣ – الأيمان مبناها على النية ، فإن لم توجد فعلى اللغة والعرف ، واللغة لا تجعل الضارب مرة بسوط ذى شعب ضاربا مرات بعدد الشعب ، وكذا العرف فوجب أن تجرى على ما هو الحكم عندنا بموجب العرف واللغة .

« حجة المذهب الثانى »

١ – عموم قصة أيوب ـ عليه السلام ـ وشرع من قبلنا شرع لنا مالم يأت ناسخ ، وقد جاء فى الشرع ما يؤيدها ، ولم يثبت الناسخ .

٢ – واستدلوا بحديث أبى أمامة عن بعض الصحابة من الأنصار : أنه اشتكى رجل منهم فعاد جلدة على عظم ، فدخلت عليه جارية لبعضهم فهى لها ، فوقع عليها ، فلما دخل عليه رجال من قومه يعودنه أخبرهم بذلك ، وقال استفتوا لى رسول الله ـ ﷺ ـ فذكروا له ذلك ، وقالوا : ما رأينا بأحد من الضر

(١) سورة المائدة جزء من الآية ٤٨

مثل مابه ، ولو حملناه لك لتفخست عظامه ، ما هو إلا جلد على عظم فأمر ـ ﷺ ـ أن يأخذوا له مائة شمراخ فيضربوه بها ضربة واحدة (الحديث رواه أبو داود وسكت عنه المنذرى ، وقال القرطبى وقد تكلم فى اسناده)[1].

ودلالة الآية ظاهرة على صحة هذا القول :

وذلك لأن فاعل ذلك يسمى ضاربا لما شرط من العدد ، وذلك يقتضى البر فى يمينه .

٣ - وقالوا : أن القرآن حكم بأنه لا يحنث بفعله لقوله تعالى ﴿ **فاضرب به ولا تحنث** ﴾ ولكن يجب أن لا يطبق ذلك فى الحدود إلا مقيدا بما ورد الحديث به فتكون ذلك حد المريض الذى وصل من المرض إلى الحد الذى وصف فى الحديث الشريف .

الحكم الخامس : هل تجوز الحيلة فى الشريعة الاسلامية ؟

قال الحصاص فى تفسيره أحكام القرآن : (وفى الآية دليل على جواز الحيلة فى التوصل إلى ما يجوز فعله ، ودفع المكروه بها عن نفسه وعن غيره ، لأن الله تعالى أمره بضربها بالضغث ليخرج به عن اليمين ولا يصل إليها كثير حذر) .

أقول : هذا هو الحد المقبول من الحيل الشرعية التى توصل إلى ما يجوز فعله وتدفع المكروه عن نفسه وغيره ، أما الحيل التى يتوصل بها إلى الهرب من فرايض الله ، والتخلص مما أوجبه الله على الإنسان ، فهذه لا يقبلها ذو قلب سليم ، ولا يقرها مسلم عاقل لأن فرائض الله إنما فرضت لتؤدى ، والواجبات إنما شرعت لتقام على وجه الأرض لا لتكون طريقا للتلاعب فى أحكام الله .

وقد استدل بعض العلماء على جواز الحيلة مطلقا بهذه الآية ويقول الله تعالى فى قصة يوسف ﴿ **فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه** ﴾[2] وليس الأمر كما زعموا فإن ذلك كان بإذن الله ليظهر فضله على سائر إخوانه بدليل قوله تعالى ﴿ **كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله** ﴾[3].

قال الألوسى : وعندى أن كل حيلة أوجبت إبطال حكمة شرعية لا تقبل كحيلة سقوط الزكاة وحيلة سقوط الاستبراء وهذا كالتوسط فى المسألة فإن من العلماء من يجوز الحيلة مطلقا ، ومنهم من لا يجوزها مطلقا .

الحكم السادس :

هل أفعال الاله جل وعلا ، تابعة للمصالح ؟

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٤ ص ٦١٥ كتاب الحدود باب إقامة الحد على المريض . رقم ٤٤٧٢ .

(٢) سورة يوسف آية ٧٠

(٣) سورة يوسف جزء من الآية : ٧٦

قال الامام الفخر ـ رحمه الله ـ وفى قصة أيوب ـ عليه السلام ـ دلالة على أن أفعال ذى الجلال والاكرام منزهة عن التعليل للمصالح والمفاسد ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾[1] . وذلك لأن أيوب لم يقترف ذنبا حتى يكون ابتلائه فى مقابلة ذلك الجرم ، وإن كان البلاء ليجزل له الثواب فإن الله تعالى قادر على إيصال كل خير ومنفعة إليه من غير توسط تلك الألام والأسقام ، وحينئذ فى تلك الأمراض والآفات فائدة وهذه كلمات ظاهرة جلية والحق الصريح أنه لا يسأل عما يفعل .

الحكم السابع :

هل البر فى اليمين أفضل أم الكفارة عن اليمين ؟

فى الآية الكريمة دليل على أن البر باليمين مالم يكن فى إثم أفضل من الكفارة وقد قال ابن تميه « رحمه الله » إن الكفارة لم تكن مشروعة فى زمنه ، وإلا أمره الله تعالى بها ، وذكره ابن العربى قبله .

قال القرطبى : قوله إنه لم يكن فى شرعهم كفارة ليس بصحيح فإن أيوب ـ عليه السلام ـ لما بقى فى البلاء ثمان عشرة سنة كما فى حديث ابن شهاب قال له صاحباه لقد أذنبت ذنبا ما أظن أحدا بلغه فقال أيوب ـ ﷺ ـ ما أدرى ما تقولان غير أن ربى عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان فكل يحلف بالله ، أو على النفر يتزاعمون فأنقلب إلى أهلى فأكفر عن أيمانهم ارادة ألا يأثم أحد يذكره ولا يذكره إلا بحق ﴿ فنادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ وذكر الحديث .

فقد أفادك هذا الحديث أن الكفارة كانت من شرع أيوب وأن من كفر عن غيره بغير إذنه قام بالواجب عنه ، وسقطت عنه الكفارة .

ما ترشد إليه الآيات الكريمه .

أولا : ابتلاء الله تعالى لنبيه أيوب ـ عليه السلام ـ كان امتحانا لإيمانه ورفعا لمقامه .

ثانيا : الانسان يبتلى فى هذه الحياة على قدر إيمانه ولهذا كان الأنبياء أعظم الناس ابتلاء .

ثالثا : التضرع إلى الله والشكوى إليه سبحانه لا ينافى مقام الصبر المملوح .

رابعا : كما يبتلى الله سبحانه وتعالى بالفقر فيبتلى بالغنى والمؤمن من يشكر الله فى السراء والضراء .

خامسا : إذا اتقى الإنسان ربه جعل الله له من أمره فرجا ومخرجا كما صنع بأيوب عليه السلام .

سادسا : زوجة أيوب جازاها الله بحسن صبرها فأفتاه فى ضربها بمائة عود جملة واحدة .

سابعا : إتخاذ الحيلة جائزة إذا لم يكن فيها إبطال حق أو هدم أمر من أمور الشرع الحنيف .

ثامنا : على الإنسان أن يبر فى يمينه أو يكفر عنها إذا كان ثمة وكان الحنث أفضل من البر .

« حكمة التشريع »

لقد نزل الاسلام بتشريعاته وتعاليمه ليحكم المجتمع البشرى فى كل ظروفه وأحواله ، فلهذا أعطى لكل أمر

(١) سورة الأنبياء آية ٢٣

حكما وراعى المصالح فى أحكامه وتشريعاته ، كما راعى اختلاف أطباع الأنسانية فعندما جاز الشارع ضرب المرء زوجه إنما أجازه أولا وقبل كل شيء فى حدود . وألا يكون الضرب مبرحا ولا يتعدى حدود التأديب والتهذيب ومع ذلك فقد اعتبر ضرب الأزواج غير ممدوح فاعله ، وتبدو حكمة الترخيص بالقرب جلية فى نساء مخصوصات تعودن عليه ، ونشأن فى ظلاله فلم يعد من الممكن تأديبهن إلا بهذه الطريق فأجازها الشارع لذلك .

يقول شهيد الاسلام سيد قطب فى كتابه « فى ظلال القرآن » مانصه : وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة ومشهورة وهى تضرب مثلا للابتلاء والصبر ولكنها مشوبة باسرائيليات تطغى عليها ، والحد المأمون فى هذه القصة هو أن أيوب ـ عليه السلام ـ كان كما جاء فى القرآن عبدا صالحا أوابا ، وقد ابتلاه الله فصبر صبر جميلا ، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعا ولكنه ظل على صلته بربه وثقته به ورضاه بما قسم له ، وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ومنهم زوجته بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه فى نفس أشد ما يؤذيه الضر والبلاء . .

فلما حدثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عددا عينه ، قيل مائة ، وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ومداخله إلى نفوس خلصائه ووقع هذا الايذاء فى نفسه ﴿ أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ﴾ فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ونفوره من محاولات الشيطان وتأذيه بها أدركه برحمته وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته ، إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ .

ويقول القرآن الكريم ﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ﴾ .

وتقول بعض الروايات : أن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم وليس فى النص ما يحتم أنه أحيا له من مات وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد أسترد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة فى الإنعام والرحمة والرعاية مما يصلح ذكرى لذوى العقول والإدراك .

والمهم فى معرض القصص هنا هو تصوير رحمة الله وفضله على عباده الذين يبتليهم فيصبرون على بلائه وترضى نفوسهم بقضائه .

فأما قسمه ليضربن زوجه فرحمة من الله وبزوجه التى قامت على رعايته وصبرت على بلائه وبلا نهاية . أمره الله أن يأخذ مجموعة من العيدان بالعدد التى حدده فيضربها به ضربة واحدة تجزىء عن يمينه فلا يحنث فيها ﴿ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ﴾ هذا التيسر وذلك الانعام كان جزاء على ما علمه الله من عبده أيوب من الصبر على البلاء وحسن الطاعة والالتجاء ﴿ إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب ﴾ .

« نور الوعد »

قال تعالى :

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ * وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

« تفسير المفردات »

﴿ الأيدى ﴾ : أى القوى فى طاعة الله ، ﴿ والأبصار ﴾ : واحدها بصرها ويراد به هنا البصيرة والفقه فى الدين ومعرفة أسراره ، ﴿ أخلصناهم ﴾ : أى جعلناهم خالصين لنا ، ﴿ بخالصة ﴾ : أى بخلصة خالصة لا شوب فيها ، هى تذكرة الدار الآخرة والعمل لها ، ﴿ المصطفين ﴾ : أى المختارين من أبناء جنسهم ، ﴿ والأخيار ﴾ : واحدهم خير هو المطبوع على فعل الخير ، ﴿ هذا ذكر ﴾ : أى هذا المذكور من الآيات فضل من الذكر وهو القرآن . الطاغى : المتجاوز للجد فى ترك الأوامر الغل النواهى ، ﴿ جنات عدن ﴾ : أى جنات استقرار وثبات من قولهم ، عدن بالمكان أي أقام به ، ﴿ متكئين فيها ﴾ : أى متكئين فيها على الأرائك كما جاء فى الآية الأخرى ، ﴿ أتراب ﴾ : أى لذات متساوون فى السن حتى لا تحصل الغيرة بينهن ، ﴿ نفاذ ﴾ : أى انقطاع .

« المعنى الجملى »

لما حكى عن كفار قريش سفاهتهم على النبى — صلى الله عليه وسلم — فوصفوه بأنه ساحر كذاب ، وقالوا استهزاء : ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب — أمره بالصبر على أذاهم لوجهين :

١ — إن المتقين من الأنبياء قبله صبروا على كثير من المكاره فعليه أن يقتدى بهم ويجعلهم أسوة له .

٢ — ما ذكره فى هذه الآيات والتى بعدها من أن من أطاع الله كان له من الثواب كذا وكذا ، ومن خالفه كان له من العقاب كذا وكذا ، وكل ذلك مما يوجب الصبر على الأذى حين تبليغ الرسالة وعلى ما يلاقيه من المكاره .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ، واذكر إسماعيل ، واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار . هذا ذكر** ﴾ .

يقول تبارك وتعالى مخبرا عن فضائل عباده المرسلين وأنبيائه العابدين . ﴿ **واذكر عبادنا ابراهيم وإسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار** ﴾ يعنى بذلك العمل الصالح والعلم النافع والقوة فى العبادة والبصيرة النافذة . قال على بن طلحة عن ابن عباس – رضى الله عنهما – ﴿ **أولى الأيدى** ﴾ يقول أولى القوة (والأبصار) يقول الفقه فى الدين . وقال مجاهد ﴿ **أولى الأيدى** ﴾ يعنى القوة فى طاعة الله تعالى ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ قال مجاهد أى جعلناهم يعملون للأخرة ليس لهم هم غيرها . وهناك أقوال أخرى فى هذه الآية نذكرها فيما يلى : قال مالك بن دينار : نزع الله تعالى من قلوبهم حب الدنيا وذكرها وأخلصهم بحب الأخرة وذكرها .

وقال سعيد بن جبير يعنى بالدار الجنة يقول أخلصناها لهم بذكرهم لها ، وقال ابن زيد جعل لهم خاصة أفضل شيء فى الدار الأخرة .

وقوله تعالى : ﴿ **وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار** ﴾ أى لمن المختارين المجتبين الأخيار منهم أخيار مختارون قال تعالى ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ أى وأذكر لقومك من هؤلاء الأنبياء الذين تحملوا الشدائد فى دين الله وعبدوا ربهم حتى أتاهم اليقين . ﴿ **وكل من الأخيار** ﴾ أى وكل منهم ممن أختاره الله للنبوة ، واصطفاه من خلقه . ﴿ **هذا ذكر** ﴾ قال السدى يعنى القرآن العظيم ، فيه ذكر لمن يتذكر . وقال ابن كثير : أى هذا فضل فيه ذكر لمن يتذكر .

وقال المراغى : (هذا ذكر) أى هذه الآيات الناطقة بمحاسنهم شرف لهم يذكر بين الناس ، وهذا اسلوب يذكر للأنتقال من كلام إلى آخر ، وعلى هذا جاء قوله ﴿ **هذا وإن للطاغين لشر مآب** ﴾ كما سيأتى بعد .

« اضواء كاشفة »

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « قصص الأنبياء » عن النبى (اليسع) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٣ – ٣٤

(٢) سورة النمل آية ٥٩ .

وقد ذكره الله تعالى مع الأنبياء وفى سورة الأنعام فى قوله :

﴿ **وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين** ﴾ .

وقال تعالى فى سورة ص ، ﴿ **واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ .

قال ابن اسحق بسنده عن الحسن ، قال كان بعد الياس ـ **عليهما السلام ـ فمكث ما شاء الله أن** يمكث يدعوهم إلى الله مستمسكا بمنهاج إلياس وشريعته حتى قبضه الله عز وجل إليه ثم خلف فيهم الخلوف وعظمت فيهم الأحداث والخطايا وكثرت الجبابرة وقتلوا الأنبياء ، وكان فيهم ملك طاغ ويقال إنه الذى تكفل له ذو الكفل إذ هو تاب ورجع دخل الجنة فسمى ذا الكفل .

قال محمد بن اسحق هو اليسع بن أخطوب .

وقال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى حرف الياء من تاريخه :

اليسع وهو الأسباط بن عدى بن شوقلم بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم الخليل . ويقال هو ابن عم إلياس النبى ـ عليهما السلام ـ ويقال كان مستخف معه بجبل قاسيون من ملك بعلبك ثم ذهب معه إليهما فلما رفع الياس خلفه اليسع فى قومه ونبأه الله بعده .

« أضواء كاشفة : على النبى ذى الكفل »

قال ابن كثير :

قال الله تعالى بعد قصة أيوب فى سورة الأنبياء : ﴿ **واسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين ، وأدخلناهم فى رحمتنا إنهم من الصالحين** ﴾ .

وقال تعالى بعد قصة أيوب أيضا فى سورة (ص) ﴿ **واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار ، إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار . واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ .

فالظاهر من ذكره فى القرآن العظيم بالثناء عليه مقرونا مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبى ، ـ عليه من ربه الصلاة والسلام ـ وهذا هو المشهور . وقد زعم آخرون أنه لم يكن نبيا ، وإنما كان رجلا صالحا وحكما مقسطا وتوقف ابن جرير فالله أعلم .

وروى ابن جرير وأبو نجيح عن مجاهد : أنه لم يكن نبيا وإنما كان رجلا صالحا .

وكان قد تكفل لبنى قومه أن يكفيهم أمرهم ، ويقضى بينهم بالعدل فسمى ذا الكفل .

قوله تعالى : ﴿ **هذا ذكر ، وإن للمتقين لحسن مآب ، جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرات الطرف أتراب ، هذا ما توعدون ليوم**

الحساب . إن هذا لرزقنا ماله من نفاد ﴾ .

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم فى الدار الأخرة لحسن مآب وهو المرجع والمنقلب كما قال تعالى ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب** ﴾[١] وقال تعالى ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ، الصابرين ، والصادقين والقانتين والمنفقين ، والمستغفرين بالأسحار** ﴾[٢] .

ثم بين سبحانه ــ هنا ــ المآب الحسن بقوله ﴿ **جنات عدن مفتحة لهم الأبواب ، متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب . وعندهم قاصرات الطرف أتراب . هذا ماتوعدون ليوم الحساب إن هذا لرزقنا ماله من نفاد** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **جنات عدن مفتحة لهم الأبواب** ﴾ أى هو جنات استقرار وإقامة ، أبوابها فتحت إكراما لهم ، وفى هذا إيماء إلى وصفها بالسعة وقرة العيون فيها ، ومشاهدة أحوالها التى تسر الناظرين ففيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى ﴿ **وسبق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾[٣] .

وقال الامام ابن القيم فى هذه الآية :

تأمل قوله ، كيف تجد تحته معنى بديعا ؟ وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم ، بل تبقى مفتحة كما هى . وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليها أبوابها . كما قال تعالى : ﴿ **إنها عليهم مؤصدة** ﴾[٤] أى مطبقة مغلقة ومنه سمى الباب وصيدا .

وهى مؤصدة فى عمد ممددة قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذى يجعل خلف الباب .

قال مقاتل : يعنى أبوابها عليهم مطبقة . فلا يفتح لها باب ، ولا يخرج منها غم . ولا يدخل فيها روح

(١) سورة الرعد آية ٢٩

(٢) سورة آل عمران الآيات ١٤ — ١٥ — ١٦ — ١٧

(٣) سورة الزمر الآيات ٧١ — ٧٥

(٤) سورة الهمزة آية ٨

آخر الأبد .

وأيضا فإن تفتيح الأبواب لهم إشارة إلى تصرفهم وذهابهم وإيابهم وتبوئهم فى الجنة حيث شاءوا ، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم ، ودخول ما يسترهم عليهم كل وقت .

وأيضا فيه إشارة إلى أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلى غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلى ذلك فى الدنيا .

وقد اختلف أهل العربية فى الضمير العائد من الصفة على الموصوف فى هذه الجملة . فقال الكوفيون : التقدير مفتحة لهم أبوابها .

والعرب تعاقب بين الألف واللام والاضافة فيقولون : مررت برجل حسن العين ، أى عينه . ومنه قوله تعالى ﴿ **فإن الجحيم هى المأوى** ﴾ أى مأواه . وقال بعض البصريين : التقدير مفتحة لهم الأبواب منها .

مختلف الضمير وما اتصل به . قال : وهذا التقدير فى العربية أجود من أن أجعل الألف واللام بدلا من الهاء والألف لأن معنى الألف واللام ليس من معنى الهاء والألف فى شىء لأن الهاء والألف اسم ؟ والألف واللام دخلتا للتعريف فلا يبدل حرف من اسم ، ولا ينوب عنه .

قالوا : وأيضا لو كانت الألف واللام بدلا من الضمير لوجب أن يكون فى « مفتحة » ضمير الجنات ، ويكون المعنى : مفتحة هى ، ثم أبدل منها الأبواب وكان كذلك لوجب نصب الأبواب ، لكون « مفتحة » قد ضمير الفاعل فلا يجوز أن يرفع به اسم آخر ، لا متناع ارتفاع فاعلين بفعل واحد . فلما ارتفع « الأبواب » دل على أن « مفتحة » حال من ضمير و « الأبواب » مرتفعة به .

وإذا كان فى الصفة ضمير تعين نصب الثانى ، كما تقول مررت برجل حسن الوجه . ولو رفعت الوجه ونونت « حسنا » لم يجز فالألف واللام إذا : للتعريف ليس إلا ، فلابد من ضمير يعود على الموصوف الذى هو « جنات عدن » ولا ضمير فى اللفظ ، فهو محذوف ، تقديره : الأبواب منها .

وعندى أن هذا غير مبطل لقول الكوفيين ، فإنهم لم يريدوا بالبدل إلا أن الألف واللام خلف وعوض عن الضمير تغنى عنه . وإجماع العرب على قولهم : حسن الوجه ، وحسن وجهه : شاهد بذلك . وقد قالوا : إن التنوين بدل من الألف واللام بمعنى أنهما لا يجتمعان ، وكذلك المضاف إليه يكون بدلا من التنوين والتنوين بدلا من الاضافة بمعنى التعامت والتوارد ولا يريدون بقولهم : هذا بدل عن هذا : أن معنى البدل معنى المبدل منه : بل قد يكون فى كل منهما معنى لا يكون فى الأخر .

فالكوفيون أرادوا أن الألف واللام فى « الأبواب » أغنت عن الضمير لو قيل : أبوابها ، وهذا صحيح . فإن المقصود الربط بين الصفة والموصوف بأمر يجعلها له ، لا مستقلة . فلما كان الضمير عائدا على الموصوف ففى توهم الاستقلال . وكذلك لام التعريف فإن كلا من الضمير واللام يعين صاحبه ، هذا يعين مفسره وهذا يعين ما دخل عليه ، وقد قالوا فى زيد نعم الرجل : أن الألف واللام أغنت عن الضمير . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب** ﴾ أى يدعون فيها بألوان كثيرة من الفاكهة والشراب وهم متكئون على الأرائك . وإنما خص الشراب والفاكهة من بين ما يتنعم به فيها ، لأن بلاد العرب قليلة الفواكه والاشربه ، فالنفس اليها أشوق ، وفى ذكرها أرغب وهذا كقوله تعالى : ﴿ **والسابقون السابقون . أولئك المقربون . فى جنات النعيم . ثلة من الأولين . وقليل من الأخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين . يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون . وفاكهة ممايتخيرون . ولحم طير مما يشتهون . وحور عين . كأمثال اللؤلؤ المكنون . جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[١] .

وهذا سبحانه بعد أن وصف المسكن والمشرب وصف الأزواج فقال : ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف أتراب** ﴾ أى من غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ **أتراب** ﴾ أى متساويات فى السن والعمر .

وهنا كقوله تعالى ﴿ **فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان . فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **هذا ما توعدون ليوم الحساب** ﴾ أى هذا الذى ذكرنا من صفة الجنة هى التى وعدها لعباده المتقين التى يصيرون اليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار . ثم أخبر تبارك اسمه عن الجنة لأنه لافراغ لها ولا زوال ولا انقضاء .

ولا انتهاء فقال تعالى : ﴿ **إن هذا لرزقنا ماله من نفاد** ﴾ أى إن هذا النعيم وتلك الكرامة لعطاء دائم غير محذوذ ولا منقطع كما قال تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾[٣]

أى غير مقطوع وكقوله تعالى ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا** ﴾[٤] والآيات فى هذا النص كثيرا جدا .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ :

قال الله تعالى : ﴿ **أعددت لعبادى الصالحين ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤوا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[٥]

---

(١) سورة الواقعة الآيات ١٠ – ٢٤

(٢) سورة الرحمن الآيات ٥٦ – ٦١

(٣) سورة هود آية ١٠٨

(٤) سورة ق الآيات ٣١ – ٣٥

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٤٣ كتاب بدء الخلق باصفة الجبشة .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٣١٧٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم ٢ / ٢٨٢٤ .

متفق عليه وعنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (لقاب قوس فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس أو تغرب) متفق عليه[١] .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إذا دخل أهل الجنة ينادى مناد أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا ، وان لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدا)[٢]. رواه مسلم .

« نار الوعيد »

قال تعالى :

هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ
حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا
بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا
كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ
ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ
ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ
أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٧﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٨﴾ إِن يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

(١) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٤ كتاب بدء الخلق باب صفة الجنة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج/ ٤ ص ٢١٨٢ كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب دوام تعليم أهل الجنة رقم ٢٢ / ٢٨٢٧

« تفسير المفردات »

﴿ **الطاغين** ﴾ : هم الكفار الذين تجاوزوا حدود الله وكذبوا رسله ﴿ **يصلونها** ﴾ أى يدخلونها ويقاسون حرها ﴿ **المهاد** ﴾ كالفراش لفظا ومعنى ، ﴿ **الحميم** ﴾ الماء الشديد الحرارة ، ﴿ **الغساق** ﴾ شديد البرودة يغسق من صديد أهل النار يقال غسقت العين : أى سأل دمعها ﴿ **من شكله** ﴾ أى من مثل المذوق فى شدة والفضاعة ، ﴿ **أزواج** ﴾ أى أجناس ، ﴿ **فوج** ﴾ أى جمع الكثير من أتباعكم فى الضلال ، ﴿ **والاقتحام** ﴾ ركوب الشدة والدخول فيها . ﴿ **لا مرحبا بهم** ﴾ قال ابو عبيدة : العرب تقول لا مرحبا بك : أى لارحبت عليك الأرض ولا اتسعت ، ﴿ **من الأشرار** ﴾ **أى الأرازل الذى لا خير فيهم ، يريدون بذلك المؤمنين** ﴿ **زاغت عنهم** ﴾ أى مالت عنهم ، ﴿ **التخاصم** ﴾ مخاصمة بعضهم بعضا ومدافعة كل منهم الأخر .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن وصف سبحانه ثواب المتقين ـ أردفه بوصف عقاب الطاغين ، ليكون ذلك متمما له ، فيأتى الوعيد عقب الوعد والترهيب إثر الترغيب ، فيكون المرء بين رجاء فى الثواب وخوف من العقاب ، فيزداد فى الطاعة وينأى عن المعصية ، وتلك وسيلة التهذيب والتأديب التى ترقى بها النفوس إلى سبيل الكمال فى دنياها وأخرتها . ثم تحدث سبحانه عن المطالب التى ذكرها أول السورة وهى تقرير التوحيد والنبوة والبعث .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **هذا ، وأن للطاغين لشر مآب ، جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج** ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم عن دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل ﴿ **هذا وإن للطاغين** ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل المخالفون لرسل الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

﴿ **لشر مآب** ﴾ أى لسوء منقلب ومرجع ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿ **جهنم يصلونها** ﴾ أى يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ **فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق** ﴾ أما الحميم فهو الحار الذى قد أنتهى حره ، وأما الغساق فهو ضده وهو البارد الذى لا يستطاع من شدة برده المؤلم . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وأخر من شكله أزواج** ﴾ أى وأشياء من هذا القبيل : الشى وضده يعاقبون فيها .

وعن ابن سعود ـ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف

زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجدونها)[١] . أخرجه مسلم .

وعن مجاهد عن ابن عباس قال : (أتدرى مايعة جهنم ؟ قلت لا ، قال أجل والله ما تدرى ، إن بين شحمة أذنى أحدهم وبين عاتقه مسيرة سبعين خريفا تجرى فيها أودية القبح والدم . قلت لها : أنهار ؟ قال : لا بل أودية ، ثم قال : أتدرى ما سعة جهنم ؟ قلت : لا أدرى ، قال : أجل والله ما تدرى ، حدثتنى عائشة أنها سألت رسول الله — ﷺ — عن قوله (الأرض جميعا قبضته يوم القيامة) قالت : قلت : فأين الناس يومئذ ؟ قال على جسر جهنم)[٢] أخرجه بن المبارك والترمذى وصححه . ورواه أحمد ورجال رجال الصحيح .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : (نار ابن آدم التى يوقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم فقالوا : يا رسول الله وإن كانت لكافية قال فإنها فضلت بتسعة وستين جزءا)[٣] أخرجه مالك ومسلم .

وعن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال :

قال رسول الله — ﷺ — (يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ماهم فيه من العذاب ، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت مافى بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون :

(أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ قالوابلى! قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال) قال : فيقولون : ادعوا مالكا ، فيقولون : (يا مالك ليقضى علينا ربك ؟) قال فيجيبهم (إنكم ماكثون) قال الأعمش : نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون : ادعوا ربكم ، فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون : ﴿ **ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾ قال فيجيبهم ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ قال فعند ذلك يئسوا من كل خير وعند ذلك يأخذون فى الزفير والحسرة والويل)[٤] أخرجه الترمذى .

قوله تعالى : ﴿ **هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم**

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ١٠٣ أبواب صفة جهنم باب ما جاء فى صفة النار رقم ٢٦٩٨ وقال الترمذى : قال عبد الله بن عبد الرحمن والثورى لا يرفعه .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٥ ص ٥١ أبواب التفسير — تفسير سورة الزمر — رقم ٣٢٩٨

(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فى شدة حر جهنم . رقم ٣٠ / ٢٨٤٣ أنظر سنن الترمذى ج ٤ ص ١١٠ رقم ٢٧١٥ . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ١٠٨ أبواب صفة جهنم باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار رقم ٢٧١٢ .

أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار ، وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ .

هذا إخبار حق من المولى سبحانه وتعالى عن تخاصم أهل النار يوم القيامة ، فبعد أن وصف سبحانه مساكنهم ومشاربهم حكى ما يتناجون به ويقوله بعضهم لبعض .

﴿ **هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم** ﴾ أى هم يتلاعنون ويتكاذبون فتقول الطائفة التى تدخل قبل الأخرى حين تقبل التى بعدها مع الخزنة والزبانية : هذا جمع كثيف داخل معكم ، فلا مرحبا بهم .

قال ابن عباس فى تفسير هذه الآية : إن القادة إذا دخلوا النار ثم دخل بعدهم الأتباع تقول الخزنة للقادة : هذا فوج داخل النار معكم ، فيقول السادة : لا مرحبا بهم ، والمراد بذلك الدعاء عليهم . ﴿ **إنهم صالوا النار** ﴾ أى إنهم ذائقو حر النار مثلكم . وهذا كلام من المبتوعين والرؤساء الذين أغووهم وأدخلوهم فى الكفر ، وحينئذ يرد عليهم الداخلون من الأتباع ويقولون لهم . ﴿ **بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار** ﴾ أى قال الأتباع وهم الفوج المقتحم للنار لأولئك الرؤساء : بل أنتم أحق منا بما قلتم (لا مرحبا بكم) فإنكم أغويتمونا ودعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ، وبئس النار المنزل والمستقر .

وهذا كلام يراد به التشفى ، لأنه مشترك بينهم ، يذكر سبحانه مقالة أخرى للأتباع ذما لهم أيضا فقال : ﴿ **ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابا ضعفا فى النار** ﴾ .

أى قال الأتباع دعاء على رؤساء الضلال . ربنا آت من قدم لنا هذا العذاب عذابا مضاعفا فى النار ، عذابا للضلال وعذابا للاضلال .

ونحو هذا الآيات قوله تعالى ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا أداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب ، قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول**

(١) سورة الأعراف الآيتان ٣٨ - ٣٩

(٢) سورة غافر الآيات ٤٧ - ٥٠

يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداوأسرواالندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقالوا مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ، أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ .

ثم قال المشركون بعضهم لبعض على سبيل التعجب والتحسر إذا افتقدوا المؤمنين ولم يجدوهم فى النار : مابالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم فى الدنيا أشرار لا خير فيهم ؟

قال ابن عباس : يريدون أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول أبو جهل : أين بلال ؟ وأين صهيب ؟ أين عمار ؟ أولئك فى الفردوس ، واعجبا لأبى جهل : مسكين أسلم ابنه عكرمة وابنته جويرية ، وأسلمت أمه ، وأسلم أخوه وكفر هو .

ثم سألوا عن السبب فى عدم رؤيتهم فقالوا : ﴿ **أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار** ﴾ أى ألاجل أنا قد اتخذناهم سخريا ولم يكونوا كذلك لم يدخلوا النار ، أم هم معنا ولكن لم تقع عليهم أبصارنا ؟ .

وفى هذا إنكار على أنفسهم وتأنيب لها على استسخارهم منهم فى الدنيا .

والخلاصة ــ أن الكفار حين دخلوا ونظروا فى جوانبها ولم يروا المؤمنين الذين كانوا يسخرون منهم فى الدنيا فتناجوا وقالوا : ما بالنا لا نرى الذين كنا نتخذهم فى الدنيا سخريا ؟ ألم يدخلوا النار معنا ، أم دخلوها ولكن زاغت عنهم الأبصار ؟ .

ثم بين أن هذا التناجى يوم القيامة حق لا مرية فيه فقال سبحانه : ﴿ **إن ذلك لحق تخاصم أهل النار** ﴾ أى أن هذا الذى حدثناك عنه أيها الرسول من تخاصم أهل النار بعضهم لبعض ، ولعن بعضهم بعضا حق لا مرية فيه .

قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ، ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين** ﴾ .

يقول تعالى آمرا رسوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله ﴿ **إنما أنا منذر** ﴾ لست كما تزعمون بأنى ساحر أو شاعر ! إنما أنا نذير مرسل من ربى لأحذركم مخالفة أوامره حتى لا يحل بكم من العقاب مثل ما حل بالأمم قبلكم كعاد وثمود .

(١) سورة سبأ الآيات ٣١ – ٣٣

وبعد أن ذكر وظيفة الرسول ذكر ما يبلغه للناس فقال :

﴿ **وما من إله إلا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** ﴾ أى إنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وهو الذى قهر كل شيء وغلبه بعزته وجبروته ، وهو مالك السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى يغلب ولا يغلب ويغفر الذنوب لمن يشاء من عباده إذا تاب ، جلت أو حقرت ثم تودهم على مخالفته وترك العمل به وأمر رسوله أن يجلى لهم حقيقة وظيفته ليرعووا عن غيهم ويثوبوا إلى رشدهم فقال :

﴿ **قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون** ﴾ أى قل لهم : إن ما أنبأتكم به من كونى رسولا منذر ، ومن أن الله واحد لا شريك له ـ خبر عظيم الفائدة لكم فهو ينقذكم مما أنتم فيه من الضلال ، لكنكم معرضون عنه ، لا تفكرون فيه لتماديكم فى الغفلة ، وفى هذا تنبيه إلى ماهم فيه من الخطأ ، علهم يرجعون عن غيهم .

قال مجاهد وشريح القاضى والسدى فى قوله عز وجل ﴿ **قل هو نبأ عظيم** ﴾ يعنى القرآن وقوله تعالى ﴿ **ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون** ﴾ .

أى لولا الوحى من أين كنت أدرى باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعنى فى شأن آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وامتناع إبليس من السجود له ومحاجته ربه فى تفضيله عليه وهو ما ذكره بعد .

ثم أكد نبوته بقوله تعالى :

إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾ أى ما يوحى إلى إلا للأنذار لا لأن أكون جبارا ولا مسيطرا .

« قصص آدم عليه السلام »

قال تعالى :

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ

فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي
إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ
فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ
أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ
وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

تفسير المفردات »

﴿ **فقعوا له** ﴾ أى سجدوا له ، ﴿ **مامنعك** ﴾ أى ما صرفك وصدك ، ﴿ **من العالمين** ﴾ أى المستحقين للترفع عن طاعة الله المتعالين عن ذلك ﴿ **رجيم** ﴾ أى مرجوم ومطرود من كل خير ﴿ **لعنتى** ﴾ أى طردى ، ﴿ **أنظرنى** ﴾ أى أمهلنى ، ﴿ **من المنظرين** ﴾ أى المهلين ، ﴿ **لأغوينهم** ﴾ أى لأضلنهم ، ﴿ **المخلصين** ﴾ أى الذين أخلصتهم للعبادة ﴿ **من المتكلفين** ﴾ أى المدعين معرفة ماليس عندهم ﴿ **نبأ** ﴾ أى ما أنبأ به من وعد ووعيد ، ﴿ **بعد حين** ﴾ أى بعد الموت .

« المناسبة والمعنى الجملى »

قد سلف ذكر هذه القصة فى سورة البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والاسراء ، والكهف ، وطه ، كما ذكرت هنا ، والعبرة منها النهى عن الحسد والكبر ، لأن ابليس إنما وقع فيما وقع فيه بسببهما ، والكفار إنما نازعوا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسببهما ، وكرر ذكرها ليكون زجرا لهم عنهما ، والمواعظ والنصائح من أبواب التكرير للمبالغة فى النصح والارشاد .

« التفسير »

قال ابن كثير :

خلاصة هذه القصة : أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم ـ عليه السلام ـ بأنه سيخلق بشرا من صلصال من حمأ مسنون وتقدم إليهم بالأمر : حتى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراما وإعظاما واحتراما وامتثالا لأمر الله عز وجل ، فامتثل الملائكة كلهم سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنسا ، كان من الجن فخانه طبعه وجبلته أحوج إليه فاستنكف عن السجود لآدم وخاصم ربه عز وجل فيه وادعى

أنه خير من آدم فإنه مخلوق من نار وآدم خلق من طين والنار خير من الطين فى زعمه ، وقد أخطأ فى ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه وطرده من باب رحمته ، ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلاما له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموما مدحورا إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ﴿ **قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾ فانظره الحليم الذى لا يعجل على من عصاه ﴿ **قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾

فلما آمن الهلال إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ كما قال عز وجل .

﴿ **أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ وهؤلاء هم المستثنون فى الآية الأخرى فى قوله تعالى ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا** ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى ﴿ **قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾ قال السدى هو قسم أقسم الله به .

وهذا كقوله تعالى ﴿ **قال هذا صراط على مستقيم ، إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ، وإن جهنم لموعدهم أجمعين. لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم** ﴾[1] وكقوله عز وجل ﴿ **ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾[2] .

فائدة لابن القيم فى قول الله عز وجل ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ .

قال ما نصه : إن لفظ اليد جاء فى القرآن الكريم على ثلاثة أنواع :

مفردا ، ومثنى ، ومجموعا . كقوله ﴿ **بيده الملك** ﴾ والمثنى كقوله ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ والمجموع كقوله ﴿ **عملت أيدينا** ﴾ فحيث ذكر اليد مثناة . أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد ، وعدل بالفعل بالياء إليهما . وقال ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ .

وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها ، ولم يعد الفعل بالباء فهذه ثلاثة فروق . فلا يحتمل ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿ **عملت أيدينا** ﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله ﴿ **عملت أيدينا** ﴾ ما يفهمه من قوله عملنا ، وخلقنا ، كما يفهم من قوله ﴿ **بما كسبت أيديكم** ﴾ وأما قوله ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء ؟ فكيف إذا ثنيت ؟

وسر الفرق : أن الفعل قد يضاف إلى يد ذى اليد ، والمراد الإضافة إليه ، كقوله ﴿ **بما قدمت يداك** ﴾

---

(١) سورة الحجر الآيات ٤١ — ٤٤

(٢) سورة السجدة آية ١٣

﴿ وبما كسبت أيديكم ﴾ وأما إذا أضيف إليه الفعل ، ثم عدى بالياء إلى اليد مفردة أو مثناه ، فهو مما باشرته يده ، ولهذا قال عبد الله بن عمر وإن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثا : خلق آدم بيده ، وغرس جنة الفردوس بيده ، وكتب التوراة بيده (فلو كانت اليد هى القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك ، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة . وقد أخبر النبى ـ ﷺ ـ أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة ، فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده وكذلك قال آدم لموسى فى محاجته له (اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك الألواح بيده)[1] .

وفى لفظ آخر (كتب لك التوراة بيده ، وهو من أصح الأحاديث وكذلك الحديث المشهور (أن الملائكة قالوا : يارب خلقت بنى آدم يأكلون ويشربون ، وينكحون ، ويركبون ، فاجعل لهم الدنيا ولنا الأخرى ، فقال الله تعالى : لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى ونفخت فيه من روحى ، كمن قلت له : كن فكان)[2] .

وهذا التخصيص إنما منهم من قوله ﴿ **خلقت بيدى** ﴾ فلو كان مثل قوله ﴿ **ما عملت أيدينا** ﴾ لكان هو والأنعام فى ذلك سواء . فلما فهم المسلمون أن قوله ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى** ﴾ يوجب له تخصيصا وتفضيلا بكونه مخلوقا باليدين على من أمر أن يسجد له ، وفيهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه : كانت التسوية بينه وبين قوله ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما** ﴾ خطأ محصنا أ . هـ (من كتاب الصواعق المرسلة ج ١١ ص ٣٨) .

قوله تعالى ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ، ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين ما اسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجرا تعطونيه من عرض الحياة الدنيا كقوله عز وجل ﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله وهو على كل شيء شهيد** ﴾[3] .

وقوله عز وجل ﴿ **وما أنا من المتكلفين** ﴾ أى وما أريد على ما أرسلنى الله تعالى به ولا أبتغى زيادة عليه بل ما أمرت به أديته لا أزيد عليه ، ولا أنقص منه ، وإنما ابتغى بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة .

قال سفيان الثورى عن مسروق قال : أتينا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال ياأيها الناس من علم شيئا فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم فإن من العلم أن يقول الرجل لمالا يعلم الله أعلم فإن الله عز وجل قال لنبيكم ـ ﷺ ـ ﴿ **قل ماأسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين** ﴾ أخرجاه من حديث الأعمش به .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ كتاب القدر باب جماع آدم وموسى رقم ١٥ / ٢٦٥٢

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد ج ١٢ ص ١٩١ - ١٩٢ رقم ٣٤٦١٨ - ١٩

(٣) سورة سبأ آية ٤٧

وقوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ يعنى القرآن الكريم ذكر لجميع لجميع . كقوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا** ﴾(١) .

وكقوله جل فى علاه : ﴿ **إن هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولتعملن نبأه بعد حين** ﴾ أى خبره وصدقه ﴿ **بعد حين** ﴾ أى عن قريب قال قتادة بعد الموت ، وقال عكرمة يعنى يوم القيامة ، منافاة بين القولين فإن من مات فقد دخل فى حكم القيامة ، وقال قتادة فى قوله تعالى ﴿ **ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾ قال الحسن ياابن آدم عند الموت يأتيك الخبر اليقين .

أضواء كاشفة
على قصة آدم

قال العلامة ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية) (باب خلق آدم عليه السلام) قال الله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة . وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(٣) .

وقال تعالى :

﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾(٤) .

---

(١) سورة الفرقان آية رقم ١

(٢) سورة التكوير آية ٢٧ – ٢٨

(٣) سورة البقرة الآيات من ٣٠ – ٣٩

(٤) سورة آل عمران آية ٥٩

وقال تعالى :

يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾[١] كما قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[٢] .

وقال تعالى :

﴿ هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾[٣] الآية .

وقال تعالى :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال مامنعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين . قال أنظرنى إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين ، قال فيما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويآدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوأتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما أن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾[٤] كما قال فى الآية الأخرى ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[٥] .

وقال تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم . وإذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من

---

(١) سورة النساء آية ١

(٢) سورة الحجرا آية ١٣

(٣) سورة الأعراف الآية ١٨٩

(٤) سورة الأعراف الآيات ١١ — ٢٥

(٥) سورة طه آية ٥٥

روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم . قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال هذا صراط علىّ مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس قال أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه، أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾[3] .

وقال تعالى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما . وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى ، فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى . إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى . فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى . ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى . قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[4] .

(١) سورة الحجر الآيات من ٢٦ – ٤٤

(٢) سورة الاسراء الآيات ٦١ – ٦٥

(٣) سورة الكهف آية ٥٠

(٤) سورة طه الآيات ١١٥ – ١٢٦ .

وقال تعالى : ﴿ **قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون . ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون . إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين . إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين . قال ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم . قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . قل ما أسئلكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾[1] .

فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن . وقد تكلمنا على ذلك كله فى التفسير .

ولنذكر ههنا مضمون مادلت عليه هذه الآيات الكريمات وما يتعلق بها من الأحاديث الواردة فى ذلك عن رسول الله ـ ﷺ ـ والله المستعان .

فأخبر تعالى أنه خاطب الملائكة قائلا لهم ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ أعلم بما يريد أن يخلق آدم وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا كما قال ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾ فأخبرهم بذلك على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، فقالت الملائكة سائلين على وجه الاستكشاف والاستعلام عن وجه الحكمة لا على وجه الاعتراض والتنقص لبنى آدم والحسد لهم كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين .

﴿ **قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ قيل علموا أن ذلك كائن بما رأوا ممن كان قبل آدم من الجن قال قتادة . وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل آدم بألفى عام فسفكوا الدماء فبعث الله إليهم جندا من الملائكة فطردوهم إلى جزائر البحور . وعن ابن عباس نحوه ، وعن الحسن ألهموا ذلك ، وقيل لأنهم علموا أن الأرض لايخلق منها إلا من يكون بهذه المثابة غالبا .

﴿ **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ أى نعبدك دائما لا يعصيك منا أحد .

فإن كان المراد بخلق هؤلاء أن يعبدوك فيها نحن لا نفتر ليلا ولا نهارا ﴿ **قال إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾ أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هؤلاء مالا تعلمون ، أى سيوجد فيهم الأنبياء والمرسلون والصديقون والشهداء ، ثم بين شرف آدم عليهم فى العلم فقال ﴿ **وعلم آدم الأسماء كلها** ﴾ قال ابن عباس : هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس ، إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

---

(١) صورة ص الآيات : من ٦٧ ـ ٨٨

وذكر البخارى هنا ما رواه هو ومسلم عن أنس بن مالك عن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : (يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء)[1] وذكر تمام الحديث . ﴿ **ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين** ﴾ قال الحسن البصرى (لما أراد الله خلق آدم قالت الملائكة لا يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه فابتلوا بهذا وذلك قوله ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ وقيل غير ذلك كما بسطناه فى التفسير ، ﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ أى سبحانك أن يحيط أحد بشيء من علمك من غير تعليمك ، كما قال ﴿ **ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء** ﴾ ﴿ **قال يآدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون** ﴾ أى أعلم السر كما أعلم العلانية . وقيل إن المراد بقوله وأعلم ما تبدون ، ما قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، وبقوله وما كنتم تكتمون : المراد بهذا الكلام إبليس حين أسر الكبر والتخيرة على آدم ــ عليه السلام ــ قاله سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى واختاره ابن جرير . وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ﴿ **وما كنتم تكتمون** ﴾ قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه .

« امتناع ابليس عن السجود لآدم »

قوله ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى وأستكبر** ﴾ هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم حين خلقه بيده ونفخ فيه من روحه كما قال ﴿ **فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾ **فهذه اربع تشريفات خلقه له بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه . وأمره الملائكة بالسجود له وتعليمه أسماء الأشياء ، وقال فى الآية الأخرى** ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال مامنعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين** ﴾ قال الحسن البصرى قاس إبليس وهو أول من قاس ــ يريد أنه استخدم القياس الخاطيء ــ وقال محمد بن سيرين أول من قاس إبليس وماعبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس رواهما ابن جرير ومعنى هذا أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم فرأى نفسه أشرف من آدم فامتنع عن السجود له مع وجود الأمر له ولسائر الملائكة بالسجود . والقياس إذا كان مقابلا بالنص كان فاسد الاعتبار . ثم هو فاسد فى نفسه فإن الطين أنفع وخير من النار فإن الطين فيه الرزانة والحلم والأناة والنمو ، والنار فيها الطيش والخفة والسرعة والاحراق . ثم آدم شرفه الله بخلقه له بيده ، ونفخه من روحه . ولهذا أمر الملائكة بالسجود له كما قال سبحانه ﴿ **إذا قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا**

---

[1] الحديث فى صحيح البخارى ج ٩ ص ١٤٩ كتاب التوحيد باب ما يذكر فى الذات والنعوت انظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٠ كتاب الايمان باب أدنى أهل الجنة رقم ٣٢٢ – ١٩٣ .

إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين . قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون .. قال فأخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ﴾ استحق هذا من الله تعالى لأنه استلزم تنقصه لآدم وازدراؤه به ، ترفعه عليه ، مخالفة الأمر الآلهى ومعاندة الحق فى النص على آدم على التعيين ، وشرع فى الأعتذار بما لا يجدى عنه شيئا ـ وكان اعتذاره أشد من ذنبه كما قال تعالى فى سورة سبحان ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ، قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتنى إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا . قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم فى الأموال والأولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا ﴾ .

وقال فى سورة الكهف ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق من أمر ربه ﴾ .

أى خرج عن طاعة الله عمدا وعنادا واستكبار عن امتثال أمره ، وماذاك إلا لأنه خانه طبعه ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها ، فإنه مخلوق من نار كما قال قدمنا . فى صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ـ ﷺ ـ (خلق الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم)[1] .

قال الحسن البصرى . لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط . وقال شهر بن حوشب . كان من الجن فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جندا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك . فلما أمرت الملائكة بالسجود سجدوا وامتنع إبليس .

وقال فى سورة (ص) ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين قال ياإبليس مامنعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين . قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين . قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين . قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ .

وقال فى سورة الأعراف :

﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ أى بسبب إغوائك إياى لأقعدن لهم كل مرصد ولآتينهم من كل

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب فى أحاديث متفرقة رقم ٦٠ – ٢٩٩٦

جهة منهم . فالسعيد من خالفه والشقى من اتبعه .

قال الأمام أحمد عن أبى الفاكه . قال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول (إن الشيطان يقعد لأبن آدم بأطرقه الحديث)(١) .

وقوله تعالى لإبليس ﴿ **اهبط منها** ﴾ ﴿ **واخرج منها** ﴾ دليل على أنه كان فى السماء فأمر بالهبوط منها والخروج من المنزلة والمكانة التى كان قد نالها بعبادته وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة ، ثم سلب ذلك بكبره وحسده ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذؤما مدحورا . وأمر الله آدم ـ عليه السلام ـ أن يسكن هو وزوجته الجنة فقال ﴿ **وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ وقال فى الأعراف ﴿ **قال اخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا ياآدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾ وسياق هذه الآيات يقتضى أن خلق آدم كان قبل دخول آدم الجنة لقوله ﴿ **ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ وهذا قد صرح به اسحق ابن بشار وهو ظاهر هذه الآيات . ولكن حكى السدى عن أبى صالح وأبى مالك عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أنهم قالوا أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يتمشى فيها وحشى ليس له فيها زوج يسكن إليها فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة . خلقها الله من ضلعه . فسألها من أنت قالت امرأة ، قال ولما خلقت قالت لتسكن إلى فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه (ما أسمها ياآدم) قال حواء . قالوا ولم كانت حواء ؟ قال لأنها خلقت من شىء حى .

وذكر محمد بن اسحق عن ابن عباس أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم . ولأم مكانه لحما ومصداق هذا فى قوله تعالى :

﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجهاوبث منهما رجالا كثيرا ونساء** ﴾ الآية . وفى قوله تعالى ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به** ﴾ الآية وسنتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى ..

وفى الصحيحين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (استوصوا بالنساء خيرا ـ فإن المرأة خلقت من ضلع أعوج وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيرا)(٢) لفظ البخارى .

(١) الحديث فى مسند أحمد ج ٣ ص ٣٨٤ مسند سيرة بن أبى فاكهة .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٣٤ كتاب النكاح باب الوصاة بالنساء .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء رقم ٦٠ – ١٤٦٨

وقد أختلف المفسرون فى قوله تعالى ﴿ **ولا تقربا هذه الشجرة** ﴾ .. وهذا الخلاف قريب . وقد أبهم الله ذكرها وتعيينها . ولو كان فى ذكرها مصلحة تعود إلينا لعينها لنا كما فى غيرها من المحال التى تبهم فى القرآن .

وإنما الخلاف الذى ذكروه فى أن الجنة التى دخلها آدم هل فى السماء أو فى الأرض ؟! هو الخلاف الذى ينبغى فصله والخروج منه ، والجمهور على أنها هى التى فى السماء وهى جنة المأوى لظاهر الآيات والأحاديث كقوله تعالى ﴿ **وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ والألف واللام ليست للعموم ولا لمعهود لفظى ، وإنما تعود على معهود ذهنى ، وهو المستقر شرعا من جنة المأوى . وكقول موسى ــ عليه السلام ــ لآدم ــ عليه السلام ــ (علام أخرجتنا ونفسك من الجنة) الحديث كما سيأتى الكلام عليه . وروى مسلم عن رجفى عن حذيفة قالا . قال رسول الله ــ ﷺ ــ (يجمع الله الناس فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة فيأتون فيقولون ياأبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم)[١] وذكر الحديث بطوله . وهذا فيه قوة جيدة ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى وليس تخلو عن نظر .

وقال آخرون بل الجنة التى اسكنها آدم لم تكن جنة الخلد لأنه كلف فيها أن لا يأكل من تلك الشجرة ولأنه نام فيها وأخرج منها ودخل عليه إبليس فيها ، وهذا مما ينافى أن تكون جنه المأوى . وهذا القول محكى عن أبى بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، ووهب بن منبه ، وسفيان بن عيينه ، ابن قتيبة فى المعارف ، والقاضى منذر بن سعيد البلوطى فى تفسيره وأفرد له مصنفا على حدة . وحكاه عن أبى حنيفة الامام وأصحابه رحمهم الله .

ونقله القرطبى عن المعتزله والقدرية . وهذا القول هو نص التوراة التى بأيدى أهل الكتاب . وممن حكى الخلاف فى هذه المسألة أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل، وأبو محمد بن عطيه فى تفسيره . وأبو عيسى الرمان فى تفسيره . وحكى عن الجمهور الأول . وأبو القاسم الراغب والقاضى الماوردى فى تفسيره فقال واختلف فى الجنة التى أسكنها يعنى آدم وحواء على قولين . أحدهما أنها جنة الخلد ، والثانى جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التى جعلها دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا على قولين . أحدهما أنها فى السماء لأنه اهبطهما منها وهذا قول الحسن .

والثانى أنها فى الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار . وهكذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر ابليس بالسجود لآدم والله أعلم بالصواب من ذلك .

هذا كلامه . فقد تضمن كلامه حكاية أقوال ثلاثة وأشعر كلامه أنه متوقف فى مسألة . ولقد حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره فى هذه المسألة أربعة أقوال هذه الثلاثة التى أوردها الماوردى . ورابعها الوقف .

وقوله تعالى : ﴿ **فأزلهما الشيطان عنها** ﴾ أى عن الجنة ﴿ **فأخرجهما مما كانا فيه** ﴾ أى من النعيم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ١٨٦ ، ١٨٧ كتاب الايمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . رقم ٣٢٩ – ١٩٥

والنضرة والسرور إلى دار التعب والكد والنكد وذلك بما وسوس لهما وزينه فى صدورهما كما قال تعالى ﴿ **فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووری عنهما من سوآتهما وقال مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ يقول مانهاكما عن أكل هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين أى ولو أكلتما منها لصرتما كذلك ، ﴿ **وقاسمهما** ﴾ أى حلف لهما على ذلك ﴿ **إنى لكما لمن الناصحين** ﴾ كما قال فى الآية الأخرى ﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾ أى هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم وأستمررت فى ملك لا يبيد ولا ينقضى وهذا من التغرير والتزوير والإخبار بخلاف الواقع .

والمقصود أن قوله شجرة الخلد التى إذا أكلت منها خلدت وقد تكون هى الشجرة الذى قال الامام أحمد عن أبى الضحاك سمعت أبا هريرة يقول قال رسول الله ﷺ (إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها ، شجرة الخلد (تفرد به أحمد)[1]

وقوله ﴿ **فدلاهما بغرور فلماذا ذاقا الشجرة بدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾ كما قال فى (طه) ﴿ **فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة** ﴾[2] وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهى التى حدته على أكلها والله أعلم .

﴿ **وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[3] .

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة وتذلل وخضوع واستكانة وافتقار إليه تعالى فى الساعة الراهنة وهذا السر ما سرى فى أحد من ذريته إلا كانت عاقبته إلى خيره فى دنياه وأخراه ﴿ **قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[4] .

وهذا خطاب لآدم وحواء وابليس ، أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين وقوله فى سورة طه .

﴿ **قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو** ﴾[5] هو أمر لآدم وابليس واستتبع آدم وحواء وابليس ، وقيل هو أمر لهم بصيغة التثنية كما فى قوله تعالى ﴿ **وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾[6].

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٤٤ كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة .
الحديث فى مسند أحمد ج ٢ ص ٤٣٨ مسند أبى هريرة .
(٢) سوره طه أية ١٢١
(٣) سورة الأعراف الآيتان ٢٢ — ٢٣
(٤) سورة الأعراف أية ٢٤
(٥) سورة طه أية ١٢٣
(٦) سورة الانبياء آية ٧٨

والصحيح أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم الا بين اثنين مدع ، ومدعى عليه قال ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾ وأمر تكريره الاهباط فى سورة البقرة ﴿ **وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ، قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[١] .

فقال بعض المفسرين المراد بالاهباط الأول الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا ، وبالتالى من السماء الدنيا إلى الأرض ، وهذا ضعيف لقوله فى الأول ﴿ **وقلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ فدل على أنهم اهبطوا إلى الأرض بالأهباط الأول والله أعلم .

والصحيح أن كرره لفظا وإن كان واحدا وناط مع كل مرة حكما فناط بالأول عداوتهم فيما بينهم ، وبالثانى الأشتراط عليهم ان من تبع هداه الذى ينزله عليهم بعد ذلك فهو السعيد ومن خالفه فهو الشقى وهذا الأسلوب فى الكلام له نظائر فى القرآن الكريم .

وروى الحافظ ابن عساكر عن مجاهد قال أمر الله ملكين أن يخرجا آدم وحواء من جواره فنزع جبريل التاج عن رأسه ، وحل ميكائيل الأكليل عن جبينه وتغلق به غصن فظن آدم أنه قد عوجل بالعقوبة فنكس رأسه يقول العفو العفو ، فقال الله فرارا منى جل حياء منك يا سيدى .

وقوله تعالى : ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ قيل هى قوله ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾[٢] روى هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب وخالدين معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم .

وقال ابن ابى حاتم بسنده عن الحسن بن أبى كعب قال . قال رسول الله — ﷺ — (قال آدم عليه السلام أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة قال نعم)[٣] فذلك قوله ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه** ﴾ وهذا غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال الكلمات (اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب على إنك أنت التواب الرحيم) .

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى** ﴾[٤] .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٣٦ — ٣٩

(٢) سورة الأعراف آية ٢٣

(٣) الحديث فى تفسير ابن كثير ج ١ ص ٨١ تفسير سورة البقرة (فتلقى آدم من ربه كلمات) وقال هذا حديث غريب وفيه انقطاع .

(٤) سورة طه آية ١٢١

« احتجاج آدم وموسى عليهما السلام »

قال البخارى عن أبى هريرة عن النبى ــ ﷺ ــ قال : (حاج موسى آدم عليهما السلام فقال له أنت الذى أخرجت الناس بذنبك من الجنة وأشقيتهم ، قال آدم ياموسى أنت الذى اصطفاك الله برسالته وبكلامه أتلومنى على أمر قد كتبه الله على قبل أن يخلقنى أو قدره على قبل أن يخلصنى ، قال رسول الله ــ ﷺ ــ فحج آدم موسى)(١) .

وقد رواه مسلم عن عمرو الناقد والنسائى عن محمد بن عبد الله بن يزيد عن أيوب بن النجار به .

وقال الأمام أحمد عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال قال رسول الله ــ ﷺ (احتج آدم وموسى فقال له موسى أنت آدم الذى أخرجتك خطيئتك من الجنة فقالآدم وأنت موسى الذى اصطفاك الله برسالاته وبكلامه تلومنى على ما أمر قدر على من قبل أن أخلق قال رسول الله ــ ﷺ ــ (فحج آدم موسى فحج آدم موسى)(٢) مرتين . قلت وقد روى هذا الحديث البخارى ومسلم من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن ابى هريرة عن النبى ــ ﷺ ــ نحوه .

وقال أحمد عن ابى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ (لقى آدم موسى فقال أنت آدم الذى خلقك الله بيده واسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ثم صنعت ما صنعت . قال آدم يا موسى أنت الذى كلمه الله وأنزل عليه التوراة . قال نعم : قال فهل تجده مكتوبا على قبل أن أخلق . قال نعم . قال (فحج آدم موسى فحج آدم موسى)(٣) .

وقد اختلف مسالك الناس فى هذا الحديث فرده قوم من القدرية كما تضمن من إثبات القدر السابق . واحتج به قوم من الجبرية وهو ظاهر لهم بادىء الرأى حيث قال فحج آدم موسى لما احتج عليه بتقديم كتابه وسيأتى الجواب عن هذا ، وقال آخرون إنما حجه لأنه لامه على ذنب قد تاب منه ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وقيل لأنهما فى شريعتين متغايرتين .. والتحقيق أن هذا الحديث روى بألفاظ كثيرة بعضها مروى بالمعنى وفيه نظر .. ومدار معظمها فى الصحيحين وغيرهما على أنه لامه على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فقال له آدم أنا لم أخرجكم وإنما أخرجكم الذى رتب الاخراج على أكلى من الشجرة والذى رتب ذلك وقدره وكتبه قبل أن أخلق هو الله عز وجل ، فأنت تلومنى على أمر ليس له نسبة إلى أكثر ما أنى نهيت عن الأكل من الشجرة فأكلت منها وكون الاخراج مترتبا على ذلك ليس من فعلى فأنا لم أخرجكم ولا نفسى من الجنة وإنما كان هذا من قدرة الله وصنعه وله الحكمة فى ذلك فلهذا حج آدم موسى .

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ١٢١ تفسير سورة طه .

الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٣ كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم ١٥ – ٢٦٥٢

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٠٤٢ – ٢٠٤٣ كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام رقم ١٣ – ٢٦٥٢ انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٢٦٤ مسند أبى هريرة .

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٩٢ مسند أبى هريرة .

ومن كذب بهذا الحديث فمعاند لأنه متواتر عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وناهيك به عدالة وحفظا وإتقانا . ثم هو مروى عن غيره من الصحابة كما ذكرنا . ومن تأوله بتلك التأويلات المذكورة آنفا فهو بعيد من اللفظ والمعنى ، وما فيهم من هو أقوى أقوى مسلكا من الجبرية ، وفيما قالوه نظر من وجوه (أحدها) أن موسى ـ عليه السلام ـ لا يلوم على أمر قد تاب منه فاعله (الثانى) أنه قد قتل نفسا لم يؤمر بقتلها وقد سأل الله من ذلك بقوله ﴿ **رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له** ﴾ **الآية**[1] (الثالث) أنه لو كان الجواب عن اللوم على الذنب بالقدر المتقدم كتابته على العبد لانفتح هذا لكل من ليم على أمر قد فعله فيحتج بالقدر السابق فينسد باب القصاص والحدود ولو كان القدر حجة لا حتج به كل أحد على الأمر الذى ارتكبه فى الأمور الكبار والصغار وهذا يفضى إلى لوازم فظيعة . فلهذا قال من قال من العلماء باب جواب آدم إنما كان احتجاجا بالقدر على المصيبة لا المعصية والله تعالى أعلم .

« الأحاديث الواردة فى خلق آدم »

قال الامام أحمد عن أبى موسى عن النبى ـ ﷺ ـ (إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك والخبيث والطيب والسهل والحزن وبين ذلك)[2] .

وقد ذكر السدى عن ابن عباس وعن مرة عن ابن سعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا : (فبعث الله عز وجل جبريل فى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض أعوذ بالله منك ان تنقص منى أو تشيننى فرجع ولم يأخذ وقال رب أنها عاذت بك أعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فاعاذها فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة بيضاء وحمراء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبل التراب حتى عاد طينا لازب) .

واللازب هو الذى يلزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة ﴿ **إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[3] فخلقه الله بيده لئلا يتكبر ابليس عنه فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوا وكان أشدهم منه فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول ﴿ **من صلصال كالفخار** ﴾ ويقول لأمر ما خلقت ودخل من فيه وخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه

---

(١) سورة القصص آية ١٦ .

(٢) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٤٠٠ مسند أبى موسى .

(٣) سورة ص آية ٧١ – ٧٢

فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال له الله رحمك ربك فلما دخل الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخلت الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة وذلك حين يقول الله تعالى ﴿ **خلق الانسان من عجل** ﴾ ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين** ﴾[1] وذكر تمام القصة ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث وأن كان كثير منه متلقى من الاسرائيليات . وقال ابن حيان فى صحيحه عن أنس بن مالك أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال (لما نفخ فى آدم فبلغ الروح رأسه عطس فقال الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى يرحمك الله)[2].

وقال الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ (لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا من نور ثم عرضهم على آدم فقال أى رب من هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فرأى رجلا منهم فأعجبه وبيض ما بين عينيه فقال أى رب من هذا قال هذا رجل من أخر الأمم من ذريتك يقال له داود قال رب وكم جعلت عمره قال ستين سنة قال أى رب زده من عمرى أربعين سنة ، فلما انقض عمر آدم جاءه ملك الموت قال أو لم يبق من عمرى أربعون سنة قال أو لم تعطها ابنك داود . قال فجحد ذريته ونسى آدم فنسيت ذريته وخطىء آدم فخطئت ذريته)[3] ثم قال الترمذى حديث حسن صحيح وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ـ ﷺ ـ ورواه الحاكم فى متدركه من حديث أبى نعيم الفضل بن دكين وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وقد قال البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعا . ثم قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة واستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك فقال السلام عليكم ، فقالوا السلام عليكم ورحمة الله ، فزادوه ، ورحمة الله ، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الأن)[4].

وقال الامام مالك بن أنس فى موطئه عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿ **وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا الآية** ﴾ فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يسأل عنها فقال (إن الله خلق آدم ـ عليه السلام ـ ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية قال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يارسول الله ففيم العمل قال رسول الله ـ ﷺ ـ اذا خلق الله العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى

---

(١) سورة ص آية ٧٣ – ٧٤

(٢) الحديث فى صحيح ابن حبان ج ٨ ص ١٤ – ١٥ رقم ٦١٣٤

(٣) الحديث فى المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ٥٨٦ كتاب التاريخ باب ذكر نبئ الله داود .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى ج ٤ ص ١٥٩ كتاب بدء الخلق باب وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة .

يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل به الجنة وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخل به النار)[١] وهكذا رواه الأمام أحمد وابو داول والترمذى والنسائى وابن جرير وابن ابى حاتم وابو حاتم بن حبان فى صحيحه من طرق عن الامام مالك به . وقال الترمذى هذا حديث حسن ومسلم بن يسار لم يسمع عمر . وكذا قال أبو حاتم وأبو زرعة زاد أبو حاتم وبينهما نعيم بن ربيعة . وقد رواه أبو داود عن محمد بن مصفى عن بقية عن عمر بن جثعم عن زيد ابن ابى أنيسه عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد ابن الخطاب عن سلم بن يسار عن نعيم بن ربيعة قال كنت عند عمر بن الخطاب وقد سئل عن هذه الآية فذكر الحديث . قال الحافظ الدارقطنى وقد تابع عمر بن جثعم أبو فروة بن يزيد بن سنان الرهاوى عن زيد بن أبى أنيسه قال وقولهما أولى بالصواب من قول مالك رحمه الله .

وهذه الأحاديث كلها دلة على إستخراجه تعالى ذرية آدم من ظهره كالذر وقسمتهم أهل اليمين وأهل الشمال وقال هؤلاء للجنة ولا أبالى ، هؤلاء للنار ولا أبالى . فأما الاشهاد عليهم واستنطاقهم بالأقرار بالوحدانية فلم يجيء فى الأحاديث التالية وتفسير الآية فى سورة الأعراف ، وحملها على هذا فيه نظر كما بيناه هناك . وذكرنا الأحاديث والأثار مستقصاه بأسانيدها وألفاظ متونها فمن أراد تحريره فليراجعه . ثم والله أعلم .

فأما الحديث الذى رواه أحمد عن ابن عباس عن النبى — ﷺ — قال : (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم — عليه السلام — بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرها بين يديه . ثم كلمهم قبلا قال ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا** ﴾ إلى قوله ﴿ **المبطلون** ﴾[٢] فهو بإسناد جيد قوى على شرط مسلم .

وهكذا روى عن عبد الله بن عمر موقوفا ومرفوعا والموقوف أصح ، واستأنس القائلون بهذا القول وهو أخذ الميثاق على الذرية ، وهم الجمهور بما قال الأمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبى — ﷺ — قال : (يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنت مفتديا به قال فيقول نعم ، فيقول قد أردت منك ما هو أهون من ذلك قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا فأبيت إلا أن تشرك بى)[٣] أخرجاه من حديث شعبه به .

ورواه الأئمة عبد الله بن أحمد وابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه فى تفاسيرهم من طريق أبى جعفر .

وروى عن مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن البصرى وقتادة والسدى وغير واحد من علماء السلف بسياقات توافق هذه الأحاديث وتقدم أنه تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لأدم امتثلوا كلهم الأمر الألهى

(١) الحديث فى مسند أحمد ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ مسند عمر بن الخطاب .
(٢) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ١ ص ٢٧٢ مسند ابن عباس .
(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٢٧ مسند أنس .

وامتنع ابليس من السجود له حسدا وعداوة له فطرده الله وأبعده وأخرجه من الحضرة الألهية ونفاه عنها وأهبطه إلى الأرض طريدا ملعونا شيطانا رجيما .

وقد قال الامام أحمد عن أبى هريرة قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكى . يقول : ياويله . أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فعصيت فلى النار)[1] . ورواه مسلم .

ثم لما اسكن آدم الجنة التى اسكنها حواء ـ عليهما السلام ـ يأكلان منها رغدا حيث شاأ فلما أكلا من الشجرة التى نهيا عنها سلبا ما كانا فيه من اللباس وأهبطا إلى الأرض . وقد ذكرنا الاختلاف فى مواضع هبوطه منها . واختلفوا فى مقدار مقامه فى الجنة فقيل بعض يوم من أيام الدنيا ، وقد قدمنا مارواه مسلم عن ابى هريرة مرفوعا وخلق آدم فى آخر ساعة من سعات الجمعة وتقدم أيضا حديثه عنه وفيه يوم الجمعة خلق آدم وفيه أخرج منها فإن كان اليوم الذى خلق فيه أخرج وقلنا إن الأيام الستة كهذه الأيام فقد لبث بعض يوم من هذه .

وفى هذا نظر وإن كان أخراجه فى غير اليوم الذى خلق فيه أو قلنا بأن تلك الأيام مقدارها ستة آلاف منه كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد والضحاك واختاره ابن جرير هناك مدة طويلة .

قال ابن جرير ومعلوم أنه خلق فى أخر ساعة من يوم الجمعة والساعة منه ثلاث وثمانون سنة وأربعة أشهر فمكث مصورا طينا قبل أن ينفخ فيه الروح أربعين سنة وأقام فى الجنة قبل أن يهبط ثلاثا وأربعين سنة وأربعة أشهر والله تعالى أعلم .

وقد ذكر أهل التاريخ أن آدم عليه السلام لم يمت حتى رأى من ذريته من أولاده وأولاد أولاده أربعمائة ألف نسمة والله أعلم .

« الحكمة فى إهباط آدم من الجنة إلى الأرض »

(قال ابن القيم) فإن الله سبحانه لما اهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له فى ذلك من الحكم التى تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها فكان إهباطه منها عين كاله ليعود إليها على أحسن أحواله ، فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصبُ الدنيا وعمومها ولوصا بها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم اليها فى الدار الأخرة فإن الضند يظهر حسنه ولو تربوا فى دار النعيم لم يعرفوا قدرها . وإيضا فإنه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختيارهم وليست الجنة دار تكليف فأهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذى لم يكن لينال بدون الأمر والنهى .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٨٧ كتاب الأيمان باب بيان اطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة رقم ١٣٣ - ٨١ انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٤٤٣ مسند أبى هريرة .
انظر صحيح ابن حبان ج ٤ ص ١٨٧ باب سجود التلاوة رقم ٢٧٤٨ .

وأيضا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ أنبياء ورسلا وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه فخلى بينهم وبين أعدائه وامتحنهم بهم فلما آثروه وبذلوا نفوسهم وأموالهم فى مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه مالم يكن لينال بدون ذلك أصلا فدرجة الرسالة والنبوه والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه عنده أفضل الدرجات ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذى قدره وقضاه من إهباطه إلى الأرض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها . وأيضا فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى فمن اسمائه الغفور الرحيم العفو الحليم الخافض الرافع المعز المذل المحى المميت الوارث الصبور ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء فاقتضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته دارا يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى فيغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وينتقم ممن يشاء ويعطى ويمنع ويبسط إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته . وأيضا : فإنه سبحانه الملك الحق المبين والملك هو الذى يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويذل فاقتضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته دارا تجرى عليهم فيها أحكام الملك ثم ينقلهم إلى دار يتم عليهم فيها ذلك . وايضا : فإنه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب والإيمان بالغيب هو الإيمان النافع أما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفسا إلا إيمانها فى الدنيا .

فلو خلقوا فى دار النعيم لم ينالوا درجة الايمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونه بل كان الحاصل لهم فى دار النعيم لذة وكرامة غير هذه . وأيضا فإن الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، والأرض فيها الطيب والخبيث والسهل والحزن والكريم واللئيم فعلم سبحانه أن فى ظهره من لا يصلح لمساكنته فى داره فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته فى داره وجعل الخبيث أهل دار الشقاء دار الخبثاء . قال الله تعالى : ﴿ **يميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾[1] فلما علم سبحانه أن فى ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم دارا استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التى هم لها أهل ، حكمة بالغة ، ومشيئه نافذة ذلك تقدير العزيز العليم . وأيضا فإنه سبحانه لما قال للملائكة ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾ أجابهم بقوله ﴿ **إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾[2] ثم أظهر سبحانه علمه لعباده ولملائكته بما جعله فى الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبيائه وأوليائه ومن يتقرب إليه ويبذل نفسه فى محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيترك محبوباته تقربا الى ويترك شهواته ابتغاء مرضاتى ويبذل دمه ونفسه فى محبتى واخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدى آناء الليل واطراف النهار ويعبدونى مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعد إذ تعبدونى أنتم من غير معارض يعارضكم ولا شهوة تعتريكم ولا عدو اسلطه عليكم بل عبادتكم لى بمنزلة النفس لأحدهم . وتم أيده فيدا للملائكة من علمه مالم يكونوا يعلمون . وأيضا فإنه

(١) سورة الأنفال آية ٣٧

(٢) سورة البقرة آية ٣٠

سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه دارا يأتون فيها بهذه الصفات التى ينالون بها أعلى الكرامات من محبته فكان إنزالهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم ﴿ **والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[١] .

وإيضا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويودهم ويحبهم ويحبونه فمحبتهم له هى غاية كمالهم ونهاية شرفهم ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنية إلا بموافقة رضاه واتباع أمره وترك أرادات النفس وشهواتها التى يكرهها محبوبهم فأنزلهم دارا أمرهم فيها ونهاهم فقاموا بأمره ونهيه فنالوا درجة محبتهم له فأنالهم درجة حبه إياهم وهذا من تمام حكمته وتمام رحمته وهو البر الرحيم .

وأيضا : فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطوارا وأصنافا وسبق فى حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته أفضل درجاتهم أعنى العبودية الأختيارية التى يأتون بها طوعا واختيارا لاكرها واضطرارا . وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريل إلى النبى — ﷺ — يخبره بين أن يكون ملكا نبيا أو عبدا نبيا فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأشار إليه أن تواضع فقال بل أن أكون عبدا نبيا فذكره سبحانه باسم عبوديته فى اشرف مقاماته فى مقام الاسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى فقال فى مقام الاسراء ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا** ﴾ وقال فى مقام الدعوة ﴿ **وإنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ وقال فى مقام التحدى ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله** ﴾ وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بمحابه وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم واحسانه إليهم .

وأيضا : فإنه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكرا وأعظم التذاذا بما أعطاهم من النعيم فأراهم سبحانه فعله بأعدائه وما أعد لهم من العذاب وأنواع الألام وأشهدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكمل غبطتهم ويعظم فرحتهم وتتم لذتهم وكان ذلك من إتمام الإنعام عليهم ومحبتهم ولم يكن بد فى ذلك من إنزلهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم .

رحمة منه وفضلا وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلا وهو العليم الحكيم ولا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه ومحبوبه الذى هو أحب الأشياء إليه فى أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب فى أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سرورا وعظمت لذته وكملت نعمته قال تعالى :

﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[٢] ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل

---

(١) سورة البقرة آية ١٠٥ .

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦

فى دار النعيم والبقاء إنما يحصل فى دار المحنة والابتلاء وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم لادار ابتلاء وامتحان وتكليف .

وأيضا فإنه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعى الشهوة والفتنة وداعى العقل والعلم فإنه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليتم مراده ويظهر لعبادة عزته فى حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه فى سلطانه وملكه فاقتضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرفه ما يجنى عواقب اجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذرا فيها ، وأشد هروبا وهذا كحال رجل سائر على طريق كمنت الأعداء فى جنباته وخلفه وأمامه وهو لا يشعر فإذا أصيب منها مرة بمصيبة استعد فى سيره وأخذ أهبة عدوه وأعد له ما يدفعه ولولا أنه ذاق ألم إغارة عدوه عليه وتبييته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العدة ، فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا اهبتهم .

فإن قيل كان من الممكن أن لا يسلط عليهم العدو .. قيل قد تقدم أنه سبحانه خلق آدم وذريته على بنيه وتركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذى هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق إليهم ولكن لو خلقوا هكذا لكانوا خلقا آخر غير بنى آدم فإن بنى آدم قد ركبوا على العقل والشهوة .

وايضا لما كانت محبة الله وحده هى غاية كمال العبد وسعادته التى لاكمال له ولا سعادة بدونها أصلا وكانت المحبة الصادقة إنما يتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق فى طاعته ومرضاته فبهذا تتحقق المحبة ويعلم ثبوتها فى القلب اقتضت حكمته سبحانه إخراجهم إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحاب النفوس التى بإيثار الحق عليها والاعراض عنها يتحقق حبهم له وإيثارهم إياه على غيره ولذلك بتحمل المشاق الشديدة وركوب الأخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعى الغى والضلال ومجاهدتها يقوى سلطان المحبة وتنبت شجرتها فى القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فإن المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوارف هى المحبة الحقيقة النافعة وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحب من محبوبة فليست محبة صادقة ولا ثبات لها عند المعارضات والموانع فإن المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ودك لأمر ولى عند انقضائه ، وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبده على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء .

وايضا فإن الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذى لا نهاية بعده وكان ظهور الأسباب التى يحمد عليها من مقتضى كونه محمودا وهى من لوازم حمده تعالى وهى نوعان ، فضل وعدل إذ هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلابد من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمياتها ليترتب عليها كمال الحمد الذى هو أهله فكما أنه سبحانه محمود على إحسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه وعقابه إذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا فيه سبحانه على هذا كثيرا كما فى سورة الشعراء حيث يذكر فى أخر كل

قصة من قصص الرسل وأممهم ﴿ إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[١] .

فأخبر سبحانه أن ذلك صادر عن عزته المتضمنة كمال قدرته وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضعه الأشياء مواضعها اللائقة بها فما وضع نعمته ونجاته لرسله ولأتباعهم ، ونقمته واهلاكه لاعدائهم إلا فى محلها اللائق بها لكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة .

ومصير كل منهم إلى ديارهم التى لا يليق بهم غيرها ولا تقتضى حكمته سواها ﴿ وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾[٢] .

وايضا : فإنه سبحانه اقتضت حكمته وحمده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وأبينه ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف أنه قد حبى بالأنعام وخص دون غيره بالإكرام ولو تساووا جميعهم فى النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحدا إلا فى مثل حالة ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجا له من العبد أن يرى غيره فى ضد حاله الذى هو عليها من الكمال والفلاح وفى الأثر المشهور أن الله سبحانه لما رأى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يارب هلا سويت بين عبادك قال إنى أحب أن أشكر فاقتضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الأسباب التى يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد . وأيضا فإنه سبحانه لا شىء أحب إليه من العبد من تذلله بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه ، ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التى تتوقف عليها وحصول هذه الأسباب فى دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يمتنع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين وأيضافإنه سبحانه له الخلق والأمر ، والأمر هو شرعه وأمره ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجرى عليهم فيها أحكام التكليف ولوازمها وإنما هى دار نعيم ولذة واقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته إلى دار تجرى عليهم فيها أحكام دينه وأمره ليظهر فيهم مقتضى الأمر ولوازمه فإن الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقه من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وقد أرشد سبحانه إلى هذا المعنى فى غير موضع من كتابه فقال تعالى ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾[٣] أى مهملا معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا مناف لكمال حكمته وأن ربوبيته وعزته وحكمته تأبى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الانكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر فى الفطر والعقول وقبح تركه سدا معطلا أيضا مستقر فى الفطر فكيف ينسب إلى الرب ما قبحه مستقر فى فطركم وعقولكم ، وقال

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سورة الزمر آية ٧٥

(٣) سورة القيامة آية ٣٦

تعالى ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾(١) .

نزه نفسه سبحانه عن هذا الحسبان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يليق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا فى القرآن كثيرة .

وأيضا فإنه سبحانه يحب من عبادة أمورا يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل إلا فى دار الابتلاء والامتحان فإنه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ويحب التوابين ويحب المتطهرين ولا ريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها ممتنع كامتناع حصول الملزوم بدون لازمة والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى أرض دوية مهلكة اذا وجدها كما ثبت فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : (لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكه معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى ادركه العطش ثم قال أرجع إلى المكان الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فوجد راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته)(٢) .

والمقصود أن هذا الفرح المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب فالتوبة والذنب لا زمان لهذا الفرج ولا يوجد الملزوم بدون لازمه وإذا كان هذا الفرح المذكور إنما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب فحصوله فى دار النعيم التى لا ذنب فيها ولا مختلفة ممتنع ولما كان هذا الفرح أحب إلى الرب ـ سبحانه ـ من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المفضية اليه ليترتب عليها المسبب الذى هو محبوب له وأيضا فإن الله ـ سبحانه ـ جعل الجنة دار جزاء وثواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له فى ذلك من الحكمة التى اقتضتها اسماؤه وصفاته فإن الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما فى صحيح عن النبى ﷺ أنه قال : (إن الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض)(٣) وحكمة الرب ـ سبحانه ـ مقتضية لعمارة هذه الدرجات كلها وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضله ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم وعلى هذا حمل غير واحد ما جاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى : ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾(٤) وقوله تعالى : ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾(٥) قالوا : وأما نفى دخولها بالأعمال كما فى قوله ﷺ (لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ ـ ١١٦

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٠٣ كتابة التوبة باب الحصن على التوبة والفرح بها ـ رقم ٣ ـ ٢٧٤٤

(٣) سنن الترمذى ـ كتاب صفة الجن ـ باب ما جاء فى صفات الجن ٤ / ٦٧٥ رقم ٢٥٣٠ .

(٤) سورة الزخرف الآية : ٧٢ .

(٥) سورة النحل الآية : ٣٢ .

يارسول الله قال ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته)[1] فالمراد نفى أصل الدخول ، وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التى نفى معها الدخول فالمقتضية هى باء السببية الدالة على الأعمال سبب للدخول مقتضية له كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها ، والباء التى نفى بها الدخول هى باء المعارضة والمقابلة التى فى نحو قولهم : اشتريت هذا بهذا فأخبر النبى ـ ﷺ ـ ان دخول الجنة ليس فى مقابلة عمل أحد وأنه لولا تغمد الله ـ سبحانه ـ لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وإن تناهى موجبا بمجردة لدخول الجنة ولا عوضا له فإن أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذى يحبه الله ويرضاه فهى لا تقاوم نعمة الله التى أنعم بها عليه فى دار الدنيا ، ولا تعاداها بل لو حاسبه لوقعت أعماله كلها فى مقابلة اليسير من نعمة وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه فى هذه الحالة لعذبه هو غير ظالم له ، ولو رحمه لكانت رحمته خيرا له من عمله . والمقصود أن حكمته ـ سبحانه ـ لقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارتها بآدم وذريته وإبراهيم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة .

وأيضا فإنه ـ سبحانه ـ خلق آدم وذريته ليستخلفهم فى الأرض كما أخبر ـ سبحانه ـ فى كتابه بقوله : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾[2] وقوله : ﴿ **وهو الذى جعلكم خلائف الأرض** ﴾[3] وقول : ﴿ **ويستخلفكم** ﴾[4] فأراد ـ سبحانه ـ أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى ثوريته جنة الخلد وعلم ـ سبحانه ـ بسابق علمه أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الخسيس على الآجل النفيس ، فإن النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل وكونه خلق عجولا فعلم ـ سبحانه ـ ما فى طبيعته من الضعف والخور فاقتضت حكمته أن أدخله الجنة ليعرف النعيم الذى أعد له عيانا فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلبا فإن محبة الشيء وطلبه والشوهد إليه من لوازم تصوره فمن باشر طيبه ولذته وتذوق به لم يكد يصبر عنه وهذا لأن النفس ذواقه تواقه فإذا ذاقت تاقت . ولهذا ذاق العبد لهم حلاوة الايمان وخالطت بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئا أبدا .

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ المرفوع (إن الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول ما يسألنى عبادى فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يارب فيقول كيف لو رواها فيقولون لو رأوها لكانوا أشد لها طلبا)[5] فاقتضت حكمته أن أراها أياهم وأسكنه إياهم ثم قص على نبيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خلق لها وخلقت له وسارع إليها فلم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو فيراها وطنه الأول فهو دائم

---

(١) البخارى ـ كتاب الرقاق ـ باب القصد والمداومة على العمل ٨ / ١٢٣ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٦٥

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٢٩

(٥) مسلم ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب فضل مجالس الذكر ٤ ـ ٢٠٦٩ رقم ٢٦٨٩

الحنين إلى وطنه ولا يقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل :

نقــل فؤادك حيث شئت من الهوى ومــا الحب الا للحبـيب الأول
كم منــزل فى الأرض يألفــه الفتــى وحنينــه ابــدا لأول منــزل

ولى من أبيات تلم بهذا المعنى :

وحــى على جنــات عدن فإنها منـــــازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننــا سبــى العــدو فهــل ترى نعــود إلى أوطاننــا ونسلــم

فكان إسكان آدم وذريته هذه الدار ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من إتمام إنعامه عليهم وسرها .

وأيضا : فإنه ـ سبحانه ـ جعل الرسالة والنبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ونهايات كما لهم فأنزل لهم دارا ، أخرج منهم الأنبياء وبعث فيهم الرسل واتخذ منهم من اتخذ خليلا ، وكلم موسى تكليما ، واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيدا وخاصة يحبهم ويحبونه ، وكان إنزالهم إلى الأرض من تمام الإنعام والإحسان ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة فى الأرض ورأى آثارها علم تمام حكمته فى إسكان آدم وذريته فى هذه الدار إلى أجل معلوم فالله ـ سبحانه ـ إنما خلق الجنة لآدم وذريته وجعل الملائكة فيها خدما لهم ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم دارا يتزودون منها إلى الدار التى خلقت لهم وأنهم لا ينالونها إلا بالزاد كما قال تعالى فى هذه الدار : ﴿ **وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغية إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم** ﴾(١) فهذا شأن الانتقال فى الدنيا من بلد إلى بلد فكيف الانتقال من الدنيا إلى دار القرار . وقال تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى** ﴾(٢) فباع المغبونون منازلهم منها بأنجس الحظ وانقص الثمن وباع الموفقون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها ثمنا للجنة فربحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم . قال الله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾(٣) . فهو ـ سبحانه ـ ما أخرج آدم منها إلا وهو يريد أن يعيده إليها أكمل إعادة كما قيل على لسان القدر : ياآدم لا تجزع من قولى لك إخرج منها فلك خلقتها فإنى أنا الغنى عنها وعن كل شىء وأنا الجواد الكريم وأنا لا اتمتع فيها فإنى أطعم ولا أطعم وأنا الغنى الحميد ولكن إنزل إلى دار البذر فإذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه وصار حصيدا فحينئذ فتعالى فاستوفه أحوج ما أنت إليه الحبة بعشر امثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة فإنى أعلم بمصلحتك منك وأنا العلى الحكيم (فإن قيل : ماذكرتموه من هذه الوجوه وأمثالها إنما يتم إذا قيل إن الجنة التى أسكنها آدم وأهبط منها جنة الخلد التى أعدت للمتقين والمؤمنين يوم القيامة وحينئذ يظهر سر إهباطه وإخراجه منها) ولكن قالت طائفة منهم أبو سلم . منذر بن سعيد البلوطى . وغيرهما إنها إما كانت

---

(١) سورة النحل الآية : ٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ١٩٧ .

(٣) سورة التوبة الآية : ١١١ .

جنة فى الأرض فى موضع عال منها إنها جنة المأوى التى اعدها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة ، وذكر منذر بن سعيد هذا القول فى تفسيره عن جماعة فقال : وأما قوله لآدم : ﴿ **أسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾[(١)] فقالت طائفة : أسكن الله تعالى آدم ﷺ جنة الخلد التى يدخلها المؤمنون يوم القيامة ، وقال آخرون : هى جنة غيرها جعلها له الله وأسكنه إياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول تكثر عليه الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به لأن الجنة التى تدخل بعد القيامة هى من خير الآخرة وفى اليوم الآخر تدخل ولم يأت بعد وقت وصفها الله تعالى لنا فى كتابه بصفاتها ومحال أن يصف الله شيئا بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التى وصفها به والقول بهذا دافع لما أخبر الله به . قالوا : وجدنا الله ـ تبارك وتعالى ـ وصف الجنة التى أعدت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المقامة ولم يقم آدم فيها ، ووصفها بأنها جنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ، ووصفها دار جزاء ولم يقل إنها دار ابتلاء ، وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بأنها ليس فيها حزن وأن الداخلين إليهايقولون : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) وقد حزن فيها آدم ووجدناه سماها دار السلام ولم يسلم فيها آدم ، وقال فيمن يدخلها (وما هم منها بمخرجين) وقد أخرج منها آدم بمعصيته وقال : (لا يمسهم فيها نصب) وقد ند آدم فيها هاربا فارا عند إصابته المعصية وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه وهذا النصب يعينه الذى نفاه الله عنها وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم فيها آدم وأسمع فيها ما هو أكبر من اللغو وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كذب وقد أسمعه فيها إبليس الكذب وغره وقاسمه عليه أيضا بعد أن أسمعه إياه وقد شرب آدم من شرابها الذى سماه فى كتابه شرابا طهورا أى مطهرا من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يظهر من تلك الآفات . وسماها الله تعالى ـ مقعد صدق وقد كذب إبليس فيها آدم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون ولم يكن فيه استحالة قط ولا تبديل ولا يكون باجماع المصلين والجنة فى أعلى عليين والله تعالى إنما قال : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾[(٢)] ولم يقل إنى جاعل فى جنة المأوى ، فقالت الملائكة : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾[(٣)] والملائكة اتقى لله من أن تقول مالا تعلم وهم القائلون : ﴿ **لا علم لنا إلا ما علمتنا** ﴾[(٤)] وفى هذا دلالة على أن الله قد أعلمهم أن بنى آدم سيفسدون فى الأرض .

وإلا فكيف كانوا يقولون مالا يعلمون والله تعالى يقول وقوله الحق : ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾[(٥)] والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير . قال تعالى ﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[(٦)] والله تعالى ـ أخبرنا أن إبليس قال لآدم : ﴿ **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[(٧)] فإن كان قد

(١) سورة البقرة الآية : ٣٥

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٠

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٣٠

(٥) سورة الأنبياء الآية : ٢٧

(٦) سورة النحل الآية : ٥٠

(٧) سورة طه الآية : ١٢٠

أسكن الله جنة الخلد والملك الذى لا يبلى فكيف لم يرد عليه نصيحته ويكذبه فى قوله فيقول : وكيف تدلنى على شيء أنا فيه قد أعطيته واخترته بل كيف لم يحث التراب فى وجهه ويسبه لان إبليس لئن كان يكون بهذا الكلام مغويا له إنما كان يكون زاريا عليه لأنه إنما وعده على معصية ربه كان فيه لا زائدا عليه . ومثل هذا لا يخاطب به إلا المجانين الذين لا يعقلون لأن العوض الذى وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه وهو الخلد والملك الذى لا يبلى ولم يخبر الله آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن إلى قول إبليس ولا قبل نصيحته ولكنه لما كان فى غير دار خلود غره بما أطمعه فيه من الخلد فقبل منه ولو أخبر الله آدم أنه فى دار الخلد ثم شك فى خبر ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا ، لأن من شك فى خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ما أمر الله به وهو معتقد لله لتصديق بخبر ربه فهو عاص . وإنما سمى الله آدم عاصيا ولم يسمه كافرا . قالوا : فإن كان آدم اسكن جنة الخلد وهى دار القدس التى لا يدخلها إلا طاهر مقدس فيكف توصل إليها إبليس فاسق قد فسّق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولا يدخلها فاسق البتة إنما هى دار المتقين ، وإبليس غير تقى فبعد أن قيل له : ﴿ **إهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾ له أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والأبعاد له بالعتو والاستكبار هذا مضاد لقوله تعالى ﴿ **فإهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾[(١)] فإن كانت مخاطبته آدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تكبرا فليس تعقل العرب التى أنزل القرآن بلسانها ما التكبر ولعل من ضعفت رويته وقصر بحثه أن يقول إن إبليس لم يصل إليها ولكن وسوسته وصلت . فهذا قول يشبه قائله ويشاكل معتقده وقول الله تعالى ـ حكم بيننا وبينه وقوله تعالى : ﴿ **وقاسمهما** ﴾ يرد ما قال لان المقاسمة ليست وسوسة ولكنها مخاطبة ومشافهه ولا تكون إلا من اثنين شاهدين غير غائبين ولا إحدهما ومما يدل على أن وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالى : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان قال ياآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[(٢)]

فأخبر أنه قال له ودل ذلك على أنه إنما وسوس إليه مخاطبا لا أنه أوقع ذلك فى نفسه بلا مقاومة ، فمن أدعى على الظاهر تأويلا ولم يقم عليه دليلا لم يجب قبول قوله وعلى أن الوسوسة قد تكون كلاما مسموعا أو صوتا قال رؤبة : وسوس يدعو مخلصا رب الفلق .

وقال الأعشى : تسمع للحلى وسواسا إذا أنصرفت .

كما استعان بريح عشرق زجل .

قالوا : وفى قول إبليس لهما ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة ، ولما كان آدم خارجا من الجنة وغير ساكن فيها قال الله : ﴿ **ألم انهكما عن تلكما الشجرة** ﴾[(٣)] ولم يقل عن هذه الشجرة كما قال إبليس لأن آدم لم يكن حينئذ فى الجنة ولا مشاهدا للشجرة مع قوله عز وجل : ﴿ **إليه**

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٣

(٢) سورة طه الآية : ١٢٠

(٣) سورة الأعراف الآية : ٢٢

يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[1] فقد أخبر سبحانه خبرا محكما غير مشتبه إنه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح وهذا مما قدمنا ذكره أنه لا يلج لمقدس المطهر إلا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله أن تكون وسوسة إبليس مقدسة أو طاهرة أو خيرا بل هى شر كلها وظلمة وخبث ورجس تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وكما أن أعمال الكافرين لا تلج القدس الطاهر ولا تصل إليه لأنها خبيثة غير طيبة كذلك لا تصل ولم تصل وسوسة إبليس ولا ولجت القدس . قال تعالى : ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفى سجين** ﴾[2] وقد روى عن النبى ﷺ أن آدم نام فى جنته وجنة الخلد لا نوم فيها بإجماع من المسلمين لان النوم وفاة وقد نطق به القرآن والوفاة تقلب حال ودار والسلام مسلمة من تقلب الأحوال والنائم ميت أو كالميت قالوا : وقد روى عنه ــ ﷺ ــ أنه قال لأم حارثة لما قالت له : يارسول الله إن حارثة قتل معك فإن كان صار إلى الجنة صبرت واحتسبت وإن كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله ــ ﷺ ــ (أو جنة واحدة إنما هى جنات كثيرة)[3] فأخبر ﷺ ان لله جنات كثيرة فلعل آدم اسكنه الله جنة من جناته ليست هى جنة الخلد قالوا : وقد جاء فى بعض الأخبار إن جنة آدم كانت بأرض الهند وهذا

وإن كان لا يصممه رواة الأخبار ونقلة الآثار فالذى تقبله الألباب ويشهد له ظاهر الكتاب أن جنة آدم ليست جنة الخلد ولا دار البقاء وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قائل للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ثم يسكنه دار الخلود ، ودار الخلود لا يدخلها إلا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالأسماء التى تقدم ذكرنا لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها فإذا قيل للجنة دار الخلد لم يجز أن ينقص مسمى هذا الأسم بمال فهذا بعض ما احتج به القائلون بهذا المذهب وعلم هذا فإسكان آدم وذريته فى هذه الجنة لا ينافى كونهم فى دار الابتلاء والأئتمان وحينئذ كانت تلك الوجوه والفوائد التى ذكرتموها ممكنة الحصول فى الجنة (فالجواب) أن يقال : هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين ونبين ثبوت الوجوه التى ذكرناها وأمثالها على كلا القولين ونذكر أولا قول من قال : إنها جنة الخلد التى وعدها الله المتقين وما احتجوا به وما نقضوا به حجج من قال : إنها غيرها ثم نتبعها مقالة الآخرين وما احتجوا به وما أجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وإبطال الاخر إذ ليس عرضنا ذلك وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لاخراج آدم من الجنة وإسكانه فى الأرض فى دار الابتلاء والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة الله ــ سبحانه ــ تأبى إدخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذى أخرج منها به وأنه أى فائدة فى ذلك والرد على من أبطل أن يكون له فى ذلك حكمة وإنما هو صادر عن محض المشيئة التى لا حكمة وراءها ولما كان المقصود حاصلا على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد أو غيرها بنينا الكلام على التقديرين ورأينا أن الرد على هؤلاء بدبوس السلاق ــ كنى به عن اللسان ــ لا يحصل غرضا ولا يزيل مرضا فسلكنا هذا السبيل ليكون قولهم

---

(١) سورة فاطر الآية : ١٠

(٢) سورة المطففين الآية : ٧

(٣) البخارى ــ كتاب الرقاق ــ باب صفة الجنة ٨ / ١٤١

مردودا على كل قول من أقوال الأمة وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله فنقول : أما ما ذكرتموه من كون الجنة التى أهبط منها آدم ليست جنة الخلد وإنما هى جنة غيرها فهذا مما قد أختلف فيه الناس والأشهر عند الخاصة والعامة لا يخطر بقلوبهم سواه أنها جنة الخلد التى أعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة وابو مالك عن ربعى بن خراش عن حذيفة قالا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (يجمع الله ـ عز وجل ـ الناس حتى يزلف لهم الجنة فيأتون آدم ـ عليه السلام ـ فيقولون يأبانا ستفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم آدم وذكر الحديث)[١] قالوا : فهذا يدل على ان الجنة التى أخرج منها آدم هى بعينها التى يطلب منه أن يستفتحها لهم قالوا : ويدل عليه أن الله سبحانه ﴿ **قال ياآدم أسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[٢] عقيب قوله : اهبطوا فدل على أنهم لم يكونوا أولا فى الأرض ، وأيضا فإنه سبحانه وصف الجنة التى أسكنها آدم بصفات لا تكون فى الجنة الدنيوية فقال تعالى : ﴿ **إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى** ﴾[٣] وهذا لا يكون فى الدنيا أصلا ولو كان الرجل فى أطيب منازلها فلابد أن يعرض له الجوع والظمأ والعر والضحى والشمس وأيضا : فإنها لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى ، وأيضا فإن قصة آدم فى سورة البقرة ظاهرة جدا فى أن الجنة التى أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا ياآدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه . وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾[٤] فهذا إهباط آدم وحواء ، وإبليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقيل : إنه خطاب لهم وللحية وهذا يحتاج إلى نقل ثابت إذ لا ذكر للحية فى شىء من قصة آدم وإبليس . وقيل : خطاب لآدم وحواء وأتى فيه بلفظ الجمع كقوله : ﴿ **وكنا لحكمهم شاهدين** ﴾[٥] قيل : لآدم وحواء وذريتهما . وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول لأنها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل ظاهر الخطاب على خلافه فثبت أن إبليس داخل فى هذا الخطاب وأنه من المهبطين من الجنة ثم قال : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[٦]

وهذا الاهباط الثانى لابد أن يكون غير الأول وهو إهباطه من السماء إلى الأرض وحينئذ فتكون الجنة التى

---

(١) مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ١ / ١٨٧ رقم ٣٢٩

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٤

(٣) سورة طه الآية : ١١٨

(٤) سورة البقرة الآيات : ٣٤ ـ ٣٧

(٥) سورة الأنبياء الآية : ٧٨

(٦) سورة البقرة الآية : ٣٨

أهبطوا منها أولا فوق السماء وهى جنة الخلد وقد ذهبت طائفة منهم الزمخشرى إلى أن قوله : أهبطوا منها جميعا خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما . وقال : الدليل عليه قوله تعالى : ﴿ **قال إهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى** ﴾[1] وقال : يدل على ذلك قوله ﴿ **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** ﴾ وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم ويعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادى والتباغض وتضليل بعضهم لبعض . وهذا الذى اختاره أضعف الأقوال فى الآية ، فإن العداوة التى ذكرها الله إنما هى بين آدم وإبليس وذرياتهما كما قال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[2] وأما آدم وزوجه فإن الله ــ سبحانه ــ أخبر فى كتابه أنه خلقها منه ليسكن إليها وقال سبحانه ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾[3] فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه وجعل العداوة بين آدم وإبليس وذرياتهما ويدل عليه أيضا عود الضمير إليهم بلفظ الجمع . وقد تقدم ذكر آدم وزوجة وإبليس فى قولهم : فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما ، فهؤلاء ثلاثة آدم وحواء وإبليس فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام ولا يعود على جميع المذكور مع أنه وجه الكلام . فإن قيل : فما تصنعون بقوله فى سورة طه : ﴿ **قال إهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو** ﴾[4] وهذا خطاب لآدم وحواء . وقد اخبر بعداوة بعضهم بعضا قيل : إما أن يكون الضمير فى قوله : إهبطا راجعا إلى آدم وزوجه أو يكون راجعا إلى آدم وإبليس ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له ، وعلى الثانى فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالاهباط وهما آدم وإبليس وعلى الأول تكون الآية قد اشتملت على امرين . أحدهما مرة لآدم وزوجه بالهبوط . والثانى جعله العداوة بين آدم وزوجه وإبليس ولابد أن يكون إبليس داخلا فى حكم هذه العداوة قطعا كما قال تعالى : ﴿ **إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى** ﴾[5] وقال لذريته : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[6] وتأمل كيف اتفقت المواضع التى فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنية وإما ذكر الإهباط ، فتارة يأتى بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنية ، وتارة بلفظ الأفراد لإبليس وحده كقوله تعالى : ﴿ **قال ما منعك أن لا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾[7] فهذا الاهباط لإبليس وحده والضمير فى قوله منها قيل : إنه عائد إلى الجنة ، وقيل : عائد إلى السماء وحيث أتى بصيغه الجمع كان لآدم وزوجه وإبليس إذ مدار القصة عليهم ، وحيث أتى بلفظ التثنية فإما أن يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة وأقدما على

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٣

(٢) سورة فاطر الآية : ٦

(٣) سورة الروم الآية : ٢١

(٤) سورة طه الآية : ١٢٣

(٥) سورة طه الآية : ١١٧

(٦) سورة فاطر الآية : ٦

(٧) سورة الأعراف الآيتان : ١٢ — ١٣

المعصية وإما أن يكون لآدم وإبليس إذهما أبو الثقلين فذكر حالهما وما آل إليه أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما . والقولان محكيان فى ذلك وحيث أتى بلفظ الافراد فهو لابليس وحده . وأيضا فالذى يوضح أن الضمير فى قوله : اهبطا منها جميعا لآدم وإبليس أن الله — سبحانه — لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال : ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا** ﴾[١] وهذا يدل على أن المخاطب بالاهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعا وهذا لأن المقصود إخبار الله — تعالى — لعبادة المكلفين من الجن والانس بما جرى على ابويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر لئلا يقتدوا بهما فى ذلك فذكر أبو الثقلين أبلغ فى حصول هذا المعنى من ذكر ابوى الانس فقط وقد أخبر سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكله فعلم أن هذا اقتضاء حكم الزوجية أنها صارت إلى ما صار إليه آدم فكان تجريد العناية إلى ذكر الأبوين اللذين هما أصل الذرية أولى من تجريدها إلى ذكر أبى الانس وأمهم والله أعلم وبالجملة فقوله : ﴿ **اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾[٢] ظاهر فى الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين فى قوله اهبطا .

قالوا : وأما قولكم إنه كيف وسوس له بعد إهباطه منها ومحال أن يصعد إليها بعد قوله تعالى : اهبط . فجوابه من وجوه : احدها : أنه أخرج منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها دارا فمن أين لكم أنه منع من دخولها على وجه الابتلاء والامتحان لآدم وزوجه ويكون هذا دخولا عارضا كما يدخل الشرط دار من أمروا بابتلائه ومحنته وإن لم يكونوا إلا لسكنى تلك الدار . الثانى : أنه كان يدنو من السماء فيكلمهما ولا يدخل عليهما دارهما . الثالث : أنه لعله قام على الباب فناداهما وقاسمهما ولم يلج الجنة . الرابع : أنه قد روى أنه قد أراد الدخول عليهما فمنعته الخزنة فدخل فى فم الحية حتى دخلت به عليهما ولا يشعر الخزنة بذلك . قالوا : ومما يدل على أنها جنة الخلد بعينيها أنها جاءت معرفة بلام التعريف فى جميع المواضع كقوله : ﴿ **اسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾[٣] ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها .

إلا جنة الخلد التى وعد الرحمن عبادة بالغيب ، فقد صار هذا الاسم علما عليها بالغلبة وإن كان فى أصل الوضع عبادة عن البستان ذى الثمار والفواكة وهذا كالمدينة لطيبة والنجم للثريا ونظائرها فحيث ورد اللفظ معرفا بالألف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة فى قلوب المؤمنين . وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجىء منكرة كقوله : ﴿ **جنتين من أعناب** ﴾[٤] أو مقيدة بالاضافة كقوله : ﴿ **ولولا إذ دخلت جنتك** ﴾[٥] أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة فى الأرض كقوله : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين** ﴾[٦] الآيات فهذه السياق والتقييد يدل على أنها بستان فى

(١) سورة طه الآيتان : ١٢١ — ١٢٢

(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٤

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٥

(٤) سورة الكهف الآية : ٣٢

(٥) سورة الكهف الآية : ٣٩

(٦) سورة القلم الآية : ١٧

الأرض . قالوا : وأيضا فإنه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وقد تواترت الأحاديث عن النبى ـ ﷺ ـ بذلك كما فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : (إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعدة بالغداه والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة) (١) وفى الصحيحين من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ـ ﷺ ـ قال :(اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالى لا يدخلنى إلا الجبارون والمتكبرون فقال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء وقال للنار عذابى أعذب بك من أشاء)(٢) الحديث وفى السنن عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال أذهب فانظر إليها وإلى ما أعدت لأهلها قال فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها ـ الحديث)(٣) وفى حديث الاسراء (ثم رفعت لى سدرة المنتهى فإذا ورقها مثل أذان الفيلة وإذا نبقها مثل قلال هجر وإذا اربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذا يا جبريل قال : أما النهران الظاهران فالنيل والفرات وأما الباطنان فنهران فى الجنة ـ وفيه ايضا (ثم أدخلت الجنة فإذا جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك)(٤) وفى صحيح البخارى عن أنس عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (بينا أنا أسير فى الجنة إذا أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قال : فإذا طينه مسك أذخر)(٥) وفى صحيح مسلم فى حديث الكسوف أن النبى ـ ﷺ ـ (جعل يتقدم ويتأخر فى الصلاة ثم أقبل على أصحابه فقال إنه عرضت لى الجنة والنار فقربت منى الجنة حتى لو تناولت منها قطفا لأخذته فلو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا)(٦) وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾(٧) أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك أطلاعة فقال هل تشتهون شيئا فقالوا أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث .... والآثار فى هذا الباب أكثر من أن تذكر وأما القول بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد . فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزله ومن قال بقولهم وهم الذين يقولون : إن الجنة التى اهبط منها آدم إنما

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه صفحة ٨٠٤ رقم ١٨٢٢ طبعة الكويت .

(٢) اللؤلؤ والمرجان ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب النار يدخلها الجبارون يدخلها الضعفاء ص ٧٩٨ رقم ١٨٠٩ طبعة الكويت .

(٣) سنن ابى داود ـ كتاب السنة ـ باب خلق الجنة والنار ٥ / ١٠٨ رقم ٤٧٤

وسنن الترمذى ـ كتاب صفة الجنة ـ باب جفت الجنة بالمكارة ٤ / ٦٩٣ رقم ٢٥٦٠ وسنن النسائى ـ كتاب الايمان والنذور ـ باب الحلف بعزة الله ٧ / ٣

(٤) البخارى ـ كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ٤ / ١٣٣ ومسلم ـ كتاب الايمان ـ باب الأسراء بالرسول إلى السموات وفرض الصلوات ١ / ١٤٥ رقم ٢٥٩

(٥) صحيح البخارى ـ كتاب الرقاق ـ باب فى الحوض ٨ / ١٤٩

(٦) مسلم ـ كتاب الكسوف ـ باب ما عرض على النبى ـ ﷺ ـ فى صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار ٢ / ٦٢٢ رقم ٩٠٤

(٧) سورة آل عمران الآية : ١١٩

كانت جنة بشر فى الأرض وهذه الأحداث وأمثالها ترد قولهم . قالوا : وأما احتجاجكم سائر الوجوه ذكرتموها فى الجنة وأنها منتفية فى الجنة التى أسكنها آدم منَ اللغو والكذب والنصب والعرق وغير ذلك فهذا كله حق لا ننكره نحن ولا أحد من أهل الاسلام ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمن يوم القيامة كما يدل عليه سياق الكلام ، وهذا لا ينهض أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله ـ عز وجل ـ من الامتحان والابتلاء ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله به ـ عز وجل ـ فلا تنافى بين الأمرين . قالوا : وأما قولكم إن الجنة دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله ـ سبحانه ـ آدم فيها بالنهى عن الشجرة فجوابه من وجهين احدهما : أنه إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمن يوم القيامة فحينئذ ينقطع التكليف ، وأما امتناع وقوع التكليف فيها فى دار الدنيا فلا دليل عليه . الثانى : ان التكليف فيها لم يكن بالأعمال التى يكلف بها الناس فى الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وإنما كان حجرا عليه فى شجرة من جملة أشجارها وهذا لا يمتنع وقوعه فى جنة الخلد كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها فإن اردتم بأن الجنة ليست دار تكليف إمتناع وقوع مثل هذا فيها فى وقت من الأوقات فلا دليل لكم عليه وإن أردتم أغالب التكاليف التى تكون فى الدنيا منتفية فيها فهو حق ولكن لا يدل على مطلوبكم قالوا : وهذا كما أنه موجب الأدلة وقول سلف الأمة فلا يعرف بقولكم قائل من أئمة العلم ولا يعرج عليه ولا يلتفت إليه . قال الأولون الجواب عما ذكرتم من وجهين مجمل ومفصل . أما المجمل فإنكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير اليه لا من قرآن ولا من سنة ولا أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ ولا التابعين لا سندا ولا مقطوعا ونحن نواجهكم بمن قال بقولنا . هذا أحد أئمة الإسلام سفيان ابن عيينة قال فى قوله عز وجل : ﴿ **إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى** ﴾[1] .

قال : معين فى الأرض وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال فى معارفه بعد أن ذكر خلق الله لآدم وزوجه ، إن الله سبحانه ـ اخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التى منها أخذ وهذا أبى قد حكى الحسن عنه أن آدم لما احتضر اشتهى قطفا من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقيتهم الملائكة فقالوا : أين تريدون ياابن آدم قالوا : إن أبانا اشتهى قطفا من قطف الجنة فقالوا لهم : ارجعوا فقد كفيتموه فانتهوا إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا : هذه سنتكم فى موتاكم .

وهذا ابو صالح قد نقل عن ابن عباس فى قوله : اهبطوا منها قال : هو كما يقال : هبط فلان فى أرض كذا وكذا . وهذا وهب بن منبه يذكر أن آدم خلق فى الأرض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس وأنه كان بعدن وأن سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذى وسط الجنة وهو الذى كان يسقيها وهذا منذر بن سعيد البلطى اختاره فى تفسيره ونصره بما حكيناه عنه وحكاه فى غير التفسير عن أبى حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله فى هذه المسئلة . وهذا أبو مسلم الأصبهانى صاحب التفسير وغيره احد الفضلاء المشهورين قال بهذا وانتصر له واحتج عليه فيما هو معروف فى كتابه ، وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطيه

(١) سورة طه الآية ١١٨

ذكر القولين فى تفسير قصة آدم فى البقرة ، وهذا أبو محمد بن حزم ذكر القولين فى كتاب الملل والنحل له .. وممن ذكر الخلاف فى المسألة ابو عبد الله بن الخطيب الرازى فى تفسيره فذكر هذين القولين وقولا ثالثا وهو التوقف قال : لا مكان الجميع وعدم الوصول إلى القطع كما سيأتى حكاية كلامه ، ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول وهو انها لم تكن جنة الخلد إنما كانت حيث شاء الله من الأرض ، وقالوا كانت تطلع فيها الشمس والقمر وكان إبليس فيها ثم اخرج قال : ولو كانت جنة الخلد لما أخرج منها . وممن ذكر القولين ايضا ابو الحسن الماوردى فقال فى تفسيره : واختلف فى الجنة التى أسكناها على قولين أحدهما : إنها جنة الخلد . الثانى أنها جنة أعدها الله لهما وجعلها دار ابتلاء وليست جنة الخلد التى جعلها الله دار جزاء ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين : أحدهما فى السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن ، والثانى أنها فى الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم والله أعلم بصواب ذلك هذا كلامه وقال ابن الخطيب فى تفسيره : اختلفوا فى أن الجنة المذكورة فى هذه الآية هل كانت فى الأرض أو فى السماء وبتقدير أنها كانت فى السماء فهل هى الجنة التى هى دار الثواب وجنة الخلد أو جنة أخرى فقال ابو القاسم البلخى ، وأبو مسلم الأصبهانى فى هذه الجنة فى الأرض وحملا الإهباط على الإنتقال من بقعة إلى بقعة كما فى قوله تعالى : (اهبطوا مصرا) ، القول الثانى وهو قول الجبائى أن تلك كانت فى السماء السابعة قال : والدليل عليه قوله : ﴿ اهبطوا ﴾ ثم إن الاهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى ، والاهباط الثانى كان من السماء إلى الأرض والقول الثالث وهو قول الجمهور أصحابنا ان هذه الجنة هى دار الثواب والدليل عليه هو أن الألف واللام فى لفظ الجنة لا يفيد العموم لأن سكنى آدم جميع الجنان محال فلابد من صرفها إلى المعهود السابق والجنة المعهودة المعلومة بين المسلمين هى دار الثواب فوجب صرف اللفظ اليها قال : والقول الرابع : أن الكل ممكن والأدلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع . قالوا : ونحن لا نقلد هؤلاء ولا نقلد على ما حكى عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين قالوا : وقد ذكرنا على هذا القول ما فيه الكفاية .

وأما الجواب المفصل فنحن نتكلم على ما ذكرتم من الحجج لينكشف وجه الصواب فنقول وبالله التوفيق :

أما استدلالكم بحديث أبى هريرة وحذيفة حين يقول الناس لآدم استفتح لنا الجنة فيقول : وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم . فهذا الحديث لا يدل على أن الجنة التى طلبوا منه أن يستفتحها لهم هى التى أخرج منها بعينها فإن الجنة اسم جنس فكل بستان يسمى جنة كما قال تعالى : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب** ﴾[٢] .

---

(٢) سورة القلم الآية : ١٧

(٣) سورة الاسراء الآيتان : ٩٠ — ٩١

وقال تعالى : ﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل ﴾ إلى قوله : ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ﴾(٢).

فإن الجنة اسم جنس فهم لما طلبوا من آدم أن يستفتح لهم جنة الخلد أخبرهم بأنه لا يحسن منه أن يقدم على ذلك وقد أخرج نفسه وذريته من الجنة التى أسكنه الله إياها بذنبه وخطيئته هذا الذى دل عليه الحديث . وأما كون الجنة التى أخرج منها هى بعينها التى طلبوا منه أن يستفتحها لهم فلا يدل الحديث عليه بشىء من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير إلى مدلول الحديث وامتنع القول بمخالفته وهل مدارنا إلا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدق ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ. قالوا : اما استدلالكم بالهبوط وأنه نزول من علو إلى سفل .. فجوابه من وجهين : أحدهما أن الهبوط قد استعمل فى النقلة من أرض إلى أرض كما يقال : هبط فلان بلد كذا وكذا وقال تعالى : ﴿ اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم ﴾(٣) وهذا كثير فى نظم العرب ونثرها قال :

إن تهبطين بلاد قوم يرتعون من الطلاح .

الثانى أنا لا ننازعكم فى أن الهبوط حقيقة ما ذكرتموه ولكن من أين يلزم أن تكون الجنة التى منها الهبوط فوق السموات فإذا كانت فى أعلى الأرض أما يصح أن يقال : هبط منها كما يهبط الحجر من أعلى الجبل إلى أسفله ونحوه وأما قوله تعالى : ﴿ ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾(٤) فهذا يدل على أن الأرض التى أهبطوا إليها لهم فيها مستقر ومتاع إلى حين ولا يدل على أنهم لم يكونوا فى جنة عالية أعلى من الأرض التى أهبطوا إليها تخالف الأرض فى صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها فالله ـ سبحانه ـ فاوت بين بقاع الأرض أعظم تفاوت وهذا مشهور بالحس فمن أين لكم أن تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الأرض بما لا يكون إلا فيها ثم اهبطوا منها إلى الأرض التى هى محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان وهذا بعينه هو جواب عن استدلالكم بقوله تعالى : ﴿ إن لك إلا تجوع فيها ولا تعرى ﴾(٥) إلى آخر ما ذكرتموه مع أن هذا حكم معلق بشرط والشرط لم يحصل فإنه ـ سبحانه ـ انما قال ذلك عقيب قوله : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وقوله ﴿ إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ وهو صيغة وعد مرتبطة بما قبلها ، والمعنى ان اجتنبت الشجرة التى نهيتك عنها ولم تقربها كان لك هذا الوعد والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما أكل من الشجرة زال استحقاقه لهذا الوعد .

قال : وأما قولكم : إنه لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب إبليس فى قوله : ﴿ هل أدلك على

(١) سورة البقرة الآية : ٢٦٥
(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٣٩
(٣) سورة البقرة الآية : ٦١
(٤) سورة البقرة الآية : ٣٦
(٥) سورة طه الآية : ١١٨

شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾[١] إلى آخره فدعوى لا دليل عليها لأنه لا دليل لكم على أن الله سبحانه وتعالى ــ كان قد أعلم آدم حين خلقه أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير أن يكون آدم حينئذ قد أعلم ذلك نقول إبليس هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل على أنه أراد بالخلد مالا يتناهى فإن الخلد فى لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم : قيد مخلد وحبس مخلد وقد قال تعالى لثمود : **﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾**[٢] **﴿ وملك لا يبلى ﴾** يراد به الملك الطويل الثابت : وأيضا فلا وجه للاعتذار عن قول إبليس مع تحقيق كذبه ومقاسمته آدم وحواء على الكذب والله سبحانه قد اخبر أنه قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على أنهما اغترا بقوله فغرهما بأن اطمعهما فى خلد الأبد والملك الذى لا يبلى وبالجملة فالاستدلال بهذا على كون الجنة التى سكنها آدم هى جنة الخلد التى وعدها المتقون غير بين ، ثم نقول : لو كانت الجنة هى جنة الخلد التى لا يزول ملكها لكانت جميع أشجارها شجر الخلد فلا يكن للشجرة اختصاص من بين سائر الشجر بكونها شجرة الخلد وكان آدم يسخر من إبليس إذ قد علم أن الجنة دار الخلد فإن قلتم لعل آدم لم يعلم حينئذ ذلك فغره الخبيث وخدعه بان هذه الشجرة وحدها هى الشجرة الخلد . قلنا : فاقتنعوا منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة فى الدنيا لعلم آدم كذب إبليس فى ذلك لأن قوله كان خداعا وغرورا محضا على كل تقدير ما نقلب دليلكم حجة عليكم وبالله التوفيق ، (قالوا : وأما قولكم : إن قصة آدم فى البقرة ظاهرة جدا فى أن جنة آدم كانت فوق السماء فنحن نطالبكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم إلى إيتانه ، قولكم : إنه كرر فيه ذكر الهبوط مرتين ولابد أن يفيد الثانى غير ما أفاد الأول فيكون الهبوط الأول من الجنة والثانى من السماء والهبوط الأول إلى الأرض وهو آخر الهبوطين فى الوقوع وإن كان أولهما فى الذكر وقالت طائفة أتى به على وجهه التغليظ والتأكيد كما تقول للرجل أخرج أخرج وهذه الأقوال ضعيفة فأما القول الأول فيظهر ضعفه من وجوه احدها أنه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ، ولا من خبر يجب المصير إليه وما كان من هذا لا يحمل القرآن عليه . الثانى : أن الله ــ سبحانه ــ قد اهبط إبليس لما امتنع من السجود لآدم إهباطا كونيا قدريا لا سبيل له إلى التخلف عنه فقال تعالى : **﴿ اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ﴾**[٣] .

وسواء كان الضمير فى قوله (منها) راجعا إلى السماء أو إلى الجنة فهذا صريح فى إهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد إليها بعد إهباط الله له . وأما الوجوه الأربعة التى ذكرتموها من صعوده للوسوسة فهى مع أمر الله تعالى ــ بالهبوط مطلقا وطرده ولعنه ودحوره لا دليل عليها لا من اللفظ ولا من الخبر الذى يجب المصير إليه وما هى إلا احتمالات مجردة وتقديرات لا دليل عليها . الثالث : أن سياق إهباط الله تعالى ــ لابليس ظاهرة فى أنه إهباط إلى الأرض من وجوه .

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٠

(٢) سورة الشعراء الآية : ١٢٨

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣

احدها : أنه سبحانه فيه على حكمة إهباطه بما قام به من التكبر المقتضى غاية طله وطرده ومعاملته بنقيض قصده وهو إهباطه من فوق السموات إلى قرار الأرض ولا تقتضى الحكمة أن يكون فوق السماء مع كبره ومنافاة حاله لحال الملائكة الأكرمين . الثانى : أنه قال : ﴿ **فاخرج منها فإنك رجيم وأن عليك لعنتى إلى يوم الدين** ﴾[١] وكونه رحيما ملعونا ينفى أن يكون فى السماء بين المقربين المطهرين . وأما القول الثانى : فهو القول الأول بعينه مع زيادة ما لا يدل عليه السياق بحال من تقديم ما هو مؤخر فى الواقع وتأخير ما هو مقدم فيه فيرد بما رد به القول الذى قبله .

وأما القول الثالث : وهو أنه للتأكيد فإن أريد التأكيد اللفظى المجرد فهذا لا يقع فى القرآن ، وإن أريد أنه استلزم للتغليظ والتأكيد مع ما يشتمل عليه من الفائدة فصحيح فالصواب أن يقال أعيد الإهباط مرة ثانية لأنه علق الأول عداوة بعضهم بعضا فقال : ﴿ **اهبطوا بعضكم لبعض عدو** ﴾[٢] وهذه جملة حالية وهى اسمية بالضمير وحده عند الأكثرين والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثانى حكمين آخرين أحدهما هبوطهم جميعا والثانى قوله : ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[٣] فكأنه قيل : اهبطوا بهذا الشرط مأخوذا عليكم والعهد . ففى الاهباط الأول إيذان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة ، وفى الاهباط الثانى روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداى ومصيره إلى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسرهم بالاحباط الأول وجبر .

وجبر من اتبع هداه بالاهباط الثانى على عادته ــ سبحانه ــ ولطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالاخراج من الجنة وجبره بالكلمات التى تلقاها منه فتاب عليه وهداه ومن تدبر حكمته ــ سبحانه ــ ولطفه وبره بعباده وأهل طاعته فى كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب ويدله به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسره بأنواع المصائب والمحن ثم يجبره بالعاقبة والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبته .

قالوا : وإذا علم أن إبليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإبائه من السجود لآدم ثبت ان وسوسته له ولزوجه كانت فى غير المحل الذى أهبط منه والله أعلم .

قالوا : وأما قولكم : إن الجنة إنما جاءت معضرة بلالام وهى تنصرف إلى الجنة التى لا يعهد بنو آدم سواها فلا ريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع فى خطاب الله تعالى ــ آدم اسكنها بقوله : ﴿ **أسكن أنت وزوجك الجنة** ﴾[٤] فهى كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه ــ عنها معرفا لها بلام التعريف فانصرف العرف بها إلى تلك الجنة المعهودة فى الذهن وهى التى سكنها آدم ثم أخرج منها فمن أين فى هذا

---

(١) سورة ص الآيتان : ٧٧ - ٧٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٦

(٣) سورة البقرة الآية : ٣٨

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٥

ما يدل على محلها وموضعها بنفى أو إثبات . وأما مجىء جنة الخلد معرفة باللام فلأنها الجنة التى أخبرت بها الرسل لأممهم ووعدها الرحمن عبادة بالغيب فحيث ذكرت الذهن إليها دون غيرها ، وقد جاءت الجنة فى القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان فى بقعة من الأرض كقوله : ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين** ﴾[(١)] فهذا لا ينصرف الذهن فيها إلى جنة الخلد ولا إلى جنة آدم بحال .

قال : وأما قولكم إنه قد أتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وأنه لم ينازع فى ذلك إلا أهل البدع والضلال واستدلالكم على وجود الجنة الآن فحق لاننازعكم فيه وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ما ذكرتم ولكن أى تلازم يبين أن تكون هى جنة آدم بعينها فكأنكم تزعمون أن كل من قال إن جنة آدم هى جنة فى الأرض فلابد أن يقول : إن الجنة والنار لم يخلقا بعد وهذا غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تخلق بعد فإنه يقول : إن جنة آدم هى فى الأرض وكذلك بالعكس أن كل من قال : إن جنة آدم فى الأرض فيقول : إن الجنة لم تخلق فأما الأول فلا ريب فيه ، وأما الثانى .

فوهم لا تلازم بينهما لا فى المذهب ولا فى الدليل فأنتم نصبتم دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على إنكار قولهم ورده وابطاله ولكن لا يلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث وهذا واضح قالوا : وأما قولكم : إن جميع ما نفاه الله سبحانه ـ عن الجنة من اللغو والعذاب وسائر الآفات التى وجد بعضها من إبليس عدو الله فهذا إنما يكون بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق . فجوابه من وجهين احدهما : أن ظاهر الخبر يقتضى نفيه مطلقا لقوله تعالى : ﴿ **لا لغو فيها ولا تأثيم** ﴾[(٢)] ولقوله تعالى : ﴿ **لا تسمع فيها لاغية** ﴾[(٣)] فهذا نفى عام لا يجوز تخصيصه الا بمخصص بين ، والله سبحانه ـ قد حكم دار الخلد حكما مطلقا فلا يدخلها إلا خالد فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر . الثانى : أن ما ذكرتم إنما يصار إليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض القادم انها جنة الخلد بعينها وحينئذ يتعين المصير إلى ما ذكرتم فأما إذا لم يقم دليل سالم على ذلك ولم تجمع الأمة عليه فلا يسوغ مخالفة مادلت عليه النصوص البينة بغير موجب والله أعلم .

قالوا ومما يدل على أنها ليست جنة الخلد التى وعدها الله المتقون أن الله سبحانه ـ لما خلق آدم أعلمه أن لعمره اجلا ينتهى إليه وأنه لم يخلق للبقاء .. فإن قيل : فإذا آدم كان قد علم أن له عمرا ينتهى إليه وأنه ليس من الخالدين فكيف لم يكذب إبليس ويعلم بطلان قوله حيث قال له : ﴿ **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[(٤)] بل جوز ذلك وأكل من الشجرة طمعا فى الخلد فالجواب ما تقدم من الوجهين أما أن يكون المراد بالخلد المكث الطويل لأبد أن يكون عدوه إبليس لما قسمه وزوجه وغرهما واطمعهما بدوامهما فى الجنة نسى ما قدر له من عمره قالوا والمعول عليه فى ذلك قوله تعالى للملائكة : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض**

---

(١) سورة القلم الآية : ١٧

(٢) سورة الطور الآية : ٢٣

(٣) سورة الغاشية الآية : ١١

(٤) سورة طه الآية : ١٢٠

خليفة ﴾(١) وهذا الخليفة هو آدم بإتقان الناس ولما عجبت الملائكة من ذلك وقالوا : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾(٢) عرفهم سبحانه أن هذا الخليفة الذى هو جاعله فى الأرض ليس حاله كما توهمتم من الفساد بل أعلمه من علمى مالا تعلمونه فأظهر من فضله وشرفه بأن علمه الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها ﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا أنك أنت العليم الحكيم** ﴾(٣)وهذا يدل على أن الخليفة الذى سبق به اخبار الرب ـ تبارك وتعالى ـ فضله وشرفه وأعلمه بما لا تعلمه الملائكة وهو خليفة مجعول فى الأرض لا فوق السماء.فإن قيل قوله تعالى : ﴿ **إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾(٤) إنما هو بمعنى سأجعله فى الأرض فهى مآله ومصيره وهذا لا ينافى أن يكون فى جنة الخلد فوق السماء أولا ثم يصير إلى الأرض للخلافة التى جعلها الله له ، واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال . ولهذا انتصب عنه المفعول ، فالجواب أن الله سبحانه ـ أعلم ملائكته بأن يخلقه لخلافة الأرض لا لسكنى جنة الخلد وخبره الصدق وقوله الحق ، وقد علمت الملائكة أنه هو آدم فلو كان قد أسكنه دار الخلد فوق السماء لم يظهر الملائكة وقوع المخبر ولم يحتاجوا إلى أن يبين لهم فضله وشرفه وعلمه المتضمن رد قوله لهم ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾(٥) فإنهم إنما سألوا هذا السؤال فى حق الخليفة المجعول فى الأرض فأما من هو فى دار الخلد فوق السماء فلم تتوهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد فى الأرض ولا كان إظهار فضله وشرفه وعلمه وهو فوق السماء رادا لقولهم وجوابا لسؤالهم . بل الذى يحصل به جوابهم ضد ما توهموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه وهو هناك الا ضدها من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تأمله ، وأما اسم الفاعل هو جاعل وإن كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى ـ فى المستقبل من جعله الخليفة فى الأرض وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به وهذا ظاهر فى أنه من أول الأمر جعله خليفة فى الأرض ، وأما جعله فى السماء أولا ثم جعله خليفة فى الأرض ثانيا وإن كان مما لا ينافى الإستخلاف المذكور مما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل يقتضى ظاهره خلافه فلا يصار إليه إلا بدليل يوجب المصير إليه وحوله .

وأيضا من المعلوم الذى لا يخالف فيه مسلم أن الله سبحانه ـ خلق آدم من تراب وهو تراب هذه الأرض بلا ريب .. ولم يخبر سبحانه أنه رفعه من الأرض إلى فوق السموات لا قبل التخليق ولا بعده وإنما اخبر عن إسجاد الملائكة له وعن إدخاله الجنة وما جرى له مع إبليس بعد خلقه .. قالوا وقد قال تعالى : ﴿ **وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾(٦)

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٠ .
(٢) سورة البقرة الآية : ٣٠
(٣) سورة البقرة الآية : ٣٢
(٤) سورة البقرة الآية : ٣٠
(٥) سورة البقرة الآية : ٣٠
(٦) سورة هود الآية : ١٠٨

فأخبر سبحانه أن هذا العطاء فى جنة الخلد غير مقطوع وما أعطيه آدم فقد انقطع فلم تكن تلك الجنة جنة الخلد ...

قالوا : وأيضا فإنه — سبحانه — قد أخبر فى كتابه أنه لم يخلق عباده عبثا ولا سدى وانكر على من زعم ذلك فدل على أن هذا مناف لحكمته ولو كانتا جنة آدم هى جنة الخلد لكانوا قد خلقوا فى ذار لا يؤمرون فيها ولا ينهون وهذا باطل بقول : ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾[1] قال الشافعى وغيره : معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾[2] فهو تعالى لم يخلقهم عبثا ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها .

قالوا : وأيضا فإنه خلقها جزاء للعاملين بقوله تعالى : ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ فلم يكن ليسكنها من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من الحور والولدان وبالجملة فحكمته — تعالى — اقتضت أنها لا تنال إلا بعد الابتلاء والإمتحان والصبر والجهاد وأنواع الطاعات وإذا كان هذا مقتضى حكمته فإنه — سبحانه — لا يفعل إلا ما هو مطابق لها . قالوا : فإذا جمع ما أخبر الله — عز وجل — به من أنه خلقه من الأرض وجعله خليفة فى الأرض وأن إبليس وسوس له فى مكانه الذى أسكنه فيه بعد أن أهبط إبليس من السماء ، وأنه أخبر ملائكته أنه جاعل فى الأرض خليفة ، وأن دار الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم ، وأن من دخلها لا يخرج منها أبدا ، وأن من دخلها ينعم لا ييؤس وأنه لا يخاف ولا يحزن ، فمحال أن يدخلها أصلا لا دول عبور ولا دخول قرار وأنها دار نعيم لاداء ابتلاء وامتحان إلى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف جنة الخلد للجنة التى أسكنها آدم إذا جمع ذلك بعضه إلى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصرة المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان .

قال الآخرون : بل الجنة التى اسكنها آدم عند حلف الأمة وأئمتها وأهل السنة والجماعة هى جنة الخلد ومن قال إنها كانت جنة فى الأرض بأرض الهند أو بأرض جده أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملحدين والمنتزلة أو من إخوانهم المتكلمين المبتدعين فإن هذا يقوله من المتفلسفة والمنتزلة والكتاب يرد هذا القول وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول قال تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وقلنا ياآدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضهم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[3] فقد أخبر — سبحانه — أنه أمرهم بالهبوط وأن بعضهم لبعض عدو ثم قال : ﴿ **ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[4] وهذا بين أنهم لم يكونوا فى الأرض وإنما أهبطوا منها إلى الأرض فإنهم لو كانوا فى الأرض وانتقلوا منها إلى أرض أخرى كما

---

(١) سورة القيامة الآية : ٣٦

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١١٥

(٣) سورة البقرة الآيات : ٣٤ — ٣٦

(٤) سورة البقرة الآية : ٣٦ .

انتقل قوم موسى من أرض كان مستقرهم إلى حين فى الأرض قبل الهبوط كما بعده وهذا باطل .

قالوا : وقد قال تعالى فى سورة الاعراف لما قال إبليس : ﴿ **أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إنك من الصاغرين** ﴾(١) بين اختصاص الجنة التى فى السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الأرض فإن إبليس كان غير ممنوع من التكبر فيها والضمير فى قوله : (فيها) عائد إلى معلوم وإن كان غير مذكور فى اللفظ لأن العلم به أغنى عن ذكره . قالوا هذا بخلاف قوله : ﴿ **إهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم** ﴾(٢) فإنه ذكر مدأ هبوطه وهو الجنة والهبوط يكون من علو إلى سفل وبنو إسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على مصر الذى يهبطون إليه ومن هبط من جبل إلى واد قيل له اهبط . وقال تعالى عقب قوله : ﴿ **إهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾(٣) فهذا دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك فى مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون والقرآن صريح فى أنهم إنما صاروا إليه بعد الإهباط . قالوا : ولو لم يكن فى هذه الا قصة آدم وموسى لكانت كافية فإن موسى — ﷺ — إنما لام آدم — عليه السلام — لما حصل له وذريته من الخروج من الجنة من النكد والمشقة فلو كانت بستانا فى الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض عنه وموسى أعظم قدرا من أن يلومه على أن أخرج نفسه وذريته من بستان فى الأرض قالوا : وكذلك قول آدم يوم القيامة لما يرغب إليه الناس أن يستفتح لهم باب الجنة فيقول : وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم فإن ظهور هذا فى كونها جنة الخلد وأنه اعتذر لهم بأنه لا يحسن منه أن يستفتح وقد أخرج منها بخطيئتهم من أظهر الأدلة .

قال الأولون : أما قولكم أن من قال إنها جنة فى الأرض فهو من المتفلسفة والملحدين والمعتزلة أو من إخوانهم فقد أوجدناكم من قال بهذا وليس من أحد من هؤلاء ومشاركة أهل الباطل للمحق فى المسألة لا يدل على بطلانها ولا تكون إضافتها لهم موجبة لبطلانها مالم يختص بها فإن اردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء فليس كذلك ، وإن أردتم أن هؤلاء من جملة القائلين بهذا لم يفدكم شيئا . قالوا : وأما قولكم وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول فنحن نطالبكم بنقل صحيح عن واحد من الصحابة ومن بعدهم أئمة السلف فضلا عن اتفاقهم . قالوا : ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع تابع خبر يصح موصولا ولا شاذا ولا مشهورا أن النبى — ﷺ — قال : إن الله تعالى أسكن آدم جنة الخلد التى هى دار المتقين يوم المعاد قالوا : وهذا القاضى منذر بن سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف انها ليست جنة الخلد قالوا : ونحن نوجدكم أن أبا حنيفة فقيه العراق ومن قال بقوله قد قالوا : إن جنة آدم التى خلقها الله ليست جنة الخلد وليسوا عند أحد من العالمين من الشاذلين بل من رؤساء المخالفين وهذه الدواوين مشحونة من علومهم وقد ذكرنا قول ابن عيينة وقد ذكر ابن مزين فى تفسيره قال : سألت ابن نافع عن الجنة أمخلوقة قال :

(١) سورة الأعراف الآيتان : ١٢ — ١٣

(٢) سورة البقرة الآية : ٦١

(٣) سورة الأعراف الآية : ٢٤

السكوت عن هذا أفضل . قالوا : فلو كان عند ابن نافع أن الجنة التى أسكنها آدم هى جنة الخلد لم يشك أنها مخلوقة ولم يتوقف فى ذلك وقال ابن قتيبة فى كتابه غريب القرآن فى قوله تعالى : ﴿ **قلنا اهبطوا منها** ﴾[(١)] قال ابن عباس – رضى الله عنهما – فى رواية أبى صالح : هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا ولم يذكر فى كتابه غيره فأين إجماع سلف الأمة وأئمتها .

قالوا : وأما احتجاجكم بقوله تعالى : ﴿ **ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾[(٢)] عقيب قوله اهبطوا فهذا لا يدل على أنهم كانوا فى جنة الخلد فإن أحد الأقوال فى المسألة أنها كانت جنة فى السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردى فى تفسيره وقد تقدم .

وأما قوله تعالى لابليس : ﴿ **اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها** ﴾[(٣)] وقولكم : إن هذا إنما هو الجنة التى فى السماء وإلا فجنة الأرض لم يمنع إبليس من التكبر فيها فهو دليل لنا فى المسألة فإن جنة الخلد لا سبيل لابليس إلى دخولها والتكبر فيها أصلا ....

قالوا : وأما قولكم أن بنى اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على الأرض التى يهبطوا وهم كأنوا يسيرون ويرحلون فلذلك قيل لهم : اهبطوا فهذا حق لا ننازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فإن الهبوط يدل على أن تلك الجنة كانت أعلا من الأرض التى إهبطوا إليها وأما كونها جنة الخلد فلا . قالوا : والفرق بين قوله : ﴿ **إهبطوا مصرا** ﴾ وقوله ﴿ **إهبطوا منها** ﴾ لا تأثير له فيما نحن فيه فإن هبط من كذا إلى كذا يتضمن معنى الانتقال من مكان عال إلى مكان سافل فأى تأثير لابتداء الغاية ونهايتها فى تعيين محل الهبوط بأنه جنة الخلد . وقولكم لا يظن بموسى أنه يلوم آدم على إخراجه نفسه وذريته من بستان فى الأرض تشنيع لا يفيد شيئا أفترى كان ذلك بستانا مثل آدم هذه البساتين المقطوعة التى هى عرضة للآفات والتعب والنصب والظمأ والحرق والسقى والتلقيح وسائر وجوه النصب الذى يلحق هذه البساتين ولا ريب أن موسى – عليه الصلاة والسلام – أعلم وأجل من أن يلوم آدم على خروجه وإخراج بنيه من بستان هذا شأنه ، ولكن من قال بهذا ، وإنما كانت جنة لا يلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور أنهارها ولا يجوع سكانها ولا يظمأ للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها التعب والنصب والشفاء ومثل هذه الجنة يحسن لوم الإنسان على التسبب فى خروجه منها .

قالوا : وأما اعتذار آدم – عليه الصلاة والسلام – يوم القيامة لأهل الموقف بأن خطيئته هى التى أخرجته من الجنة فلا يحسن أن يستفتحها لهم فهذا لا يستلزم أن تكون هى بعينها التى أخرج منها بل إذا كانت غيرها كان أبلغ فى الإعتذار فإنه إذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها ثم خرج من غيرها بخطيئة . فهذا موقف نظر الفريقين ونهاية أقدام

---

(١) سورة البقرة الآية : ٣٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٣٦

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٣

الطائفين فمن كان له فضل علم فى هذه المسئلة فليجد به فهذا وقت الحاجة إليه ومن علم منتهى خطوته ومقدار بضاعته فليكل الأمر إلى عالمه ولا يرضى لنفسه بالتنقيص والازراء عليه وليكن من أهل التلول الذين هم نظارة الحرب إذا لم يكن من أهل الكر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت الأقران وضاق بهم المجال فى حلبة هذا الميدان .

هذه معاقد حجج الطائفين مجتازة ببابك وإليك تساق وهذه بضائع تجار العلماء ينادى عليها فى سوق وسعة وبذل جهده منه التصويت والمندرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطتين وأنجس الحظين جهل الحق وأسبابه ومعاداة أهله وطلابه وإذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العليم فارحل بهمتك من بين الأموات وعليك بمعلم إبراهيم فقد ذكرنا فى هذه المسألة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعله لا يوجد فى شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله ـ سبحانه ـ الاستمداد وعليه التوكل وإليه الاستناد فإنه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض أمره إليه وهو حسبنا ونعم الوكيل. هـ.

بهذه الكلمات ينتهى البحث الجليل الذى قدمه لنا العالم الجليل ابن القيم فى كتابه (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة) .

تفسير سورة الزمر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة عن السورة

قال صاحب البصائر : (السورة مكية إلا ثلاث آيات : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وأنتم تشعرون** ﴾ عدد آياتها : خمس وسبعون فى عد الكوفى وثلاث فى عد الشامى ، والباقين .

كلماتها : ألف ومائة وسبعون .

وحروفها : أربعة آلاف وسبعمائة وثمان .

وللسورة اسمان : سورة الزمر ، لقوله تعالى : ﴿ **إلى الجنة زمرا** ﴾ وسورة الغرف ، لقوله : ﴿ **لهم غرف من فوقها غرف** ﴾ قال وهب : من أراد أن يعرف قضاء الله فى خلقه فليقرأ سورة الغرف .

مقصود السورة :

بيان تنزيل القرآن ، والاخلاص فى الدين ، والإيمان ، وباطل عذر الكفار فى عبادة الأوثان ، وتنزيه الحق تعالى عن الولد بكلمة (سبحانه) وعجائب صنع الله فى الكواكب والأفلاك بلا عمد وأركان ، والمنة على العباد بإنزال الإنعام من السماء فى كل آوان ، وحفظ الأولاد فى أرحام الأمهات بلا أنصار وأعوان ، وجزاء الخلق على الشكر والكفران ، وذكر شرف المتهجدين فى الدياجر بعبادة الرحمن ، وبيان أجر الصابرين وذل

أصحاب الخسران ، وبشارة المؤمنين فى استماع القرآن بإحسان ، وإضافة غرف الجنان لأهل الاخلاص والعرفان ، وشرح صدر المؤمنين بنور التوحيد والإيمان ، وبيان أحوال آيات الفرقان ، وعجائب القرآن ، وتمثيل أحوال أهل الكفر وأهل الإيمان ، والخطاب مع المصطفى بالموت والفناء ، وتحلل الأبدان ، وبشارة أهل الصدق بحسن الجزاء والغفران والوعد بالكفاية والكلاءة للعبدان ، وبيان العجز من العون والنصرة للأصنام والأوثان ، وعجائب الصنع فى الرؤيا ، والنوم وما له من غريب الشأن ، ونضرة الكفار من سماع ذكر الواحد الفرد الديان ، والبشارة بالرحمة لأهل الايمان ، وإظهار الحسرة والندامة يوم القيامة من أهل العصيان ، تأسفهم فى تقصيرهم فى طاعة زمان الإمكان ، وإضافة الملك إلى قبضة قدرة الرحمن ، ونفخ الصور على سبيل الهيبة ، والسياسة ، وإشراف بنور العدل ، وعظمة السلطان ، وسوق الكفار بالذل والخزى إلى دار العقوبة والهوان ، وتفريح المؤمنين بالسلام عليهم فى دار الكرامة ، وغرف الجنان ، وحكم الحق بين الخلق بالعدل وختمه بالفضل والإحسان فى قوله : ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ .

المتشابهات :

قوله ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق** ﴾ وفى هذه السورة أيضا ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق** ﴾ الفرق بين ﴿ **أنزلنا إليك الكتاب** ﴾ و ﴿ **أنزلنا عليك** ﴾ قد سبق فى البقرة . ويزيده وضوحا أن كل موضع خاطب (فيه) النبى — ﷺ — بقوله : إنا أنزلنا إليك الكتاب ففيه تكليف ، وإذا خاطبه بقوله : إنا أنزلنا عليك ففيه تخفيف : اعتبر بما فى هذه السورة . فالذى فى أول السورة (إليك) فكلفه الاخلاص فى العبادة ، والذى فى آخرها ﴿ **عليك** ﴾ فختم الآية بقوله ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى لست بمسئول عنهم ، فخفف عنه ذلك .

قوله : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ زاد مع الثانى لاما ، لأن المفعول مع الثانى محذوف ، تقديره : وأمرت أن أعبد الله لأن أكون ، فاكتفى بالأول ﴿ **مخلصا له الدين** ﴾ لأن قوله : ﴿ **الله أعبد** ﴾ إخبار عن المتكلم ، فاقتضى الاضافة إلى المتكلم ، وقوله ﴿ **أمرت أن أعبد الله** ﴾ ليس بإخبار عن المتكلم ، وإنما الاخبار ﴿ **أمرت** ﴾ ، وما بعده فضلة ومفعول .

وقوله : ﴿ **ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ وفى سورة النحل ﴿ **وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

وكان حقه أن يذكر هناك . خصت هذه السورة بـ (الذى) ليوافق ما قبله . وهو ﴿ **أسوأ الذى** ﴾ ، وقبله ﴿ **والذى جاء بالصدق** ﴾ وخصت النحل بـ (ما) للموافقة أيضا وهو ﴿ **إنما عند الله هو خير لكم** ﴾ ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ فتلاءم اللفظان فى السورتين قوله : ﴿ **وبداهم سيئات ما كسبوا** ﴾ وفى سورة الجاثية ﴿ **وبداهم سيئات ما عملوا** ﴾ علته مثل علة الأولى ؟ لأن ﴿ **ما كسبوا** ﴾ فى هذه السورة وقع بين ألفاظ الكسب ، وهو قوله : ﴿ **ذوقوا ما كنتم تكسبون** ﴾ وفى الجاثية وقع بين ألفاظه العمل وهو : ﴿ **ما كنتم تعملون** ﴾ ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ وبعده ﴿ **سيئات ما عملوا** ﴾

فخصت كل سورة بما اقتضاه طرفاه .

قوله : ﴿ **ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يجعله حطاما** ﴾ وفى سورة الحديد ﴿ **ثم يكون حطاما** ﴾ ، لأن الفعل الواقع قبل قوله ﴿ **ثم يهيج** ﴾ فى هذه السورة مسند إلى الله تعالى ، وهو قوله : ﴿ **ثم يخرج به زرعا** ﴾ فكذلك الفعل بعده : ﴿ **ثم يجعله** ﴾ وأما الفعل قبله فى الحديد فمسند إلى الثبات وهو ﴿ **أعجب الكفار بناته** ﴾ فكذلك ما بعده وهو ﴿ **ثم يكون** ﴾ ليوافق فى السورتين ما قبل وما بعد .

قوله : ﴿ **فتحت أبوابها** ﴾ وبعده ﴿ **وفتحت** ﴾ بالواو للحال ، أى جاءوها وقد فتحت أبوابها . وقيل الواو فى ﴿ **وقال لهم خزنتها** ﴾ زيادة ، وهو الجواب . وقيل : الواو واو الثمانية . وقد سبق فى الكهف .

قوله : ﴿ **فمن اهتدى فلنفسه** ﴾ وفى غيرها : ﴿ **فإنما يهتدى لنفسه لأن هذه السورة متأخرة عن تلك السورة ، فاكتفى بذكره فيها .**

فضل السورة

عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل ـ سورة الاسراء ـ والزمر ، (رواه والنسائى) .

وجه اتصالها بما قبلها :

١ ـ إنه وصف القرآن فى آخر سورة ص بقوله : ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ ووصفه هنا بقوله : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ .

٢ ـ إنه ذكر فى (ص) أحوال الخلق من المبدأ إلى المعاد ، وذكر هنا مثله ـ إلى نحو ذلك من وجوه للربط تظهر بالتأمل .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ
مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ
إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ

هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

« تفسير المفردات »

مخلصا له الدين : أى : فاعبد الله وحده لا شريك له .

زلفى : قربة ، سبحانه : تنزيها له عن اتخاذ الولد .

« التفسير »

قوله تعالى : **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن العظيم من عنده ـ تبارك وتعالى ـ فهو الحق الذى لا مريه فيه ولا شك كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **أ . ل . م تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين** ﴾ وقال تبارك اسمه : ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قبلك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون وقال جل وعلا** : ﴿ **حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم** ﴾ وقال تبارك اسمه ﴿ **تنزيل العزيز الحكيم** ﴾ وقال جل وعلا ههنا : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز** ﴾ أى المنيع الجناب ﴿ **الحكيم** ﴾ أى : أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

وبعد أن بين سبحانه شأن المنزل وأنه من عند الله العزيز الحكيم ـ ذكر ما اشتمل عليه ذلك المنزل من الحق والعدل والتوحيد الخالص .

فقال تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ، فاعبد الله مخلصا له الدين** ﴾ أى : فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ قال قتادة فى قوله ـ تبارك وتعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله . أى : لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد فإياى فارهبون ، وله مافى السموات والأرض وله الدين واصبا أفغير الله تتقون** ﴾[1] ومعنى له الدين واصبا كما قال مجاهد أى خالصا . أى له العبادة وحده ممن فى السموات والأرض وكقوله ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾[2] وكقوله تعالى فى هذه السورة : ﴿ **قل إنى أمرت ان**

(١) سورة النحل الآية : ٥١

(٢) سورة آل عمران الآية : ٨٣

أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾[١] وكقوله تبارك اسمه : ﴿ **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾[٢] .

وقال سبحانه : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ قال الفضيل ابن عياض : هو أخلصه وأصوبه . قالوا : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصا ، ولم يكن صوابا . لم يقبل . وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا : لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا . ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن** ﴾[٤] الآية فإسلام الوجه : إخلاص القصد والعمل لله ، والإحسان فيه : متابعة رسوله ـ ﷺ ـ وسنته . وقال ـ ﷺ ـ فى الحديث المتفق عليه عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[٥] وسئل ـ ﷺ ـ عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة ويقاتل حمية: أى ذلك فى سبيل الله؟ فقال: (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) (متفق عليه)[٦] واخبر ـ ﷺ ـ عن أول ثلاثة تسعر بهم النار : قارىء القرآن والمجاهد والمتصدق بماله ، ولم تكن أعمالهم خالصة لله .

وفى الحديث الصحيح الإلهى يقول الله تعالى (**أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه غيرى فهو للذى أشرك به . وأنا منه برىء**)[٧] وفى أثر آخر : يقول له يوم القيامة : ﴿ **اذهب فخذ أجرك ممن عملت له . لا أجر لك عندنا** ﴾ .

ولقد ذكر ابن القيم أقوال العلماء فى تعريف الإخلاص فقال : قيل : الإخلاص : هى إفراد الحق ـ سبحانه ـ بالقصد فى الطاعة .

وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

وقيل : من شهد فى إخلاصه الإخلاص ، احتاج إخلاصه إلى إخلاص . فنقصان كل مخلص فى

---

(١) سورة الزمر الآيتان : ١١ ـ ١٢

(٢) سورة الانعام الآيتان : ١٦٢ ـ ١٦٣

(٣) سورة الكهف الآية : ١١٠

(٤) سورة النساء الآية : ١٢٥

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الامارة ـ باب إنما الأعمال بالنية ص ٤٩٦ رقم ١٢٤٥ طبعة الكويت .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الامارة ـ باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ص ٤٩٦ رقم ١٢٤٣ طبعة الكويت .

(٧) صحيح مسلم ـ كتاب بالزهد والرقاق ـ باب من أشرك فى عمله غير الله ٤ / ٢٢٨٩ رقم ٢٩٨٥ وسنن ابن ماجة ـ كتاب الزهد ـ باب الرياء والسمعة ٢ / ١٤٠٥ رقم ٤٢٠٢ .

إخلاصه : بقدر رؤية إخلاصه ، فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص ، صار مخلصا مخلصا .

وقيل : الاخلاص استواء أعمال العبد فى الظاهر والباطن ، والرياء : أن يكون ظاهرة خيرا من باطنه . والصدق فى الاخلاص : أن يكون باطنه أعمر من ظاهرة .

ومن كلام الفضيل : ترك العمل من أجل الناس : رياء . والعمل من أجل الناس : شرك . والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وقال الجنيد : الإخلاص سر بين الله وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده . ولا هوى فيميله .

وقال بعضهم : الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدا غير الله ، ولا مجازيا سواه . وبعد أن أبان سبحانه أو رأس العبادة الإخلاص لله – اعقب ذلك بذم طريق المشركين فقال تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا من دون الله أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ أى : والذين اتخذوا من دون الله أولياء يعبدونهم ، يقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا عند الله منزلة ويشفعوا لنا عنده فى حاجتنا ومن حديث عبادتهم للأصنام أنهم جعلوا تماثيل للكواكب ، والملائكة ، والأنبياء ، والصالحين الذين مضوا ، وعبدوها باعتبار أنها رمز اليها ، وقالوا : إن الإله الأعظم أجل من أن يعبده البشر مباشرة ، فنحن نعبد هذه الآلهة وهى تعبد الاله الأعظم .

قال قتادة والسدى ومالك : عن زيد بن أسلم وابن زيد إلا ليقربوا إلى الله زلفى أن : ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون .

فى قديم الدهر وحديثه ، وجاءتهم الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – أجمعين بردها والنهى عنها والدعوة إلى إفراد العبادة لله وحده لا شريك له وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه ، ولارضى به ، بل أبغضه ونهى عنه قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[1] ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[2] وأخبر أن الملائكة التى فى السموات من الملائكة المقربين وغيرهم كلهم عبيد خاضعون لله لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ﴿ **فلا تضربوا لله الأمثال** ﴾ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقوله عز وجل : ﴿ **إن الله يحكم بينهم** ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ **فيما هم يختلفون** ﴾ أى سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ويجزى كل عامل بعمله ﴿ **ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا**

---

(١) سورة النحل الآية : ٣٦

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٢٥

يعبدون ؟ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون فاليوم لا يملك بعضهم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون ﴾ ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ، قالوا سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ، فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولا نصرا . ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ﴾(٢)

وقوله عز وجل : ﴿ **إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار** ﴾ أى لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله ـ تعالى ـ وقلبه كافر بآياته وحججه وبراهينه قال تعالى : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم . إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون** ﴾(٣)

ثم فصل سبحانه ما كذبوا فيه فقال : ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾ .

بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين فى الملائكة والمعاندون من اليهود والنصارى فى العزير وعيسى فقال تبارك وتعالى : ﴿ **لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾ .

أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه بل هو محال وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال سبحانه : ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ، سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ، فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ﴾(٤) وقال سبحانه : ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدًّا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا . أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا** ﴾(٥)

قوله تعالى : ﴿ **سبحانه هو الله الواحد القهار** ﴾ أى : تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد فإنه

(١) سورة سبأ الآيات : ٤٠ — ٤٢

(٢) سورة الفرقان الآيات : ١٧ — ١٩

(٣) سورة النحل الآيات : ١٠٤ — ١٠٥

(٤) سورة الزخرف الآيات : ٨١ — ٨٥ .

(٥) سورة مريم الآيات : ٨٨ — ٩٥

الواحد الأحد الفرد الصمد الذى كل شىء لديه فقير إليه . وهو الغنى عما سواه ، الذى قهر الأشياء فدانت له وذلت وخضعت تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا . قال عز من قائل : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على كل شىء قدير** ﴾[1] . فسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا** ﴾[2]

« من الآيات الدالة على وحدانية الله »

قوله تعالى :

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

« تفسير المفردات »

التكوير : فى الأصل اللف واللى من كار العمامة على رأسه وكورها : والمراد يذهب الليل ويغشى مكانه النهار ، والعكس بالعكس ، وسخر الشمس والقمر جعلهما منقادين له ، والأجل المسمى : يوم القيامة والظلمات الثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، تصرفون : أى معدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره .

---

(١) سورة المائدة الآية : ١٧

(٢) سورة الأسراء الآية : ١١١

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أبان سبحانه أنه متنزه عن الولد بكونه إلها قادرا قهارا وأن كل المخلوقات فى قبضته وسلطانه ـ أردف ذلك ما يدل على كمال قدرته بآياته التى أوجدها فى الأكوان ، وفى خلق الإنسان ، فبسط سلطانه على الشمس والقمر وذللهما ، وجعلهما يجريان فى ذلك الملكوت الذى لا يعلم مداه إلا هو كما خلق الإنسان الأول وجعل له زوجا من جنسه ، وخلق ثمانية أزواج من الحيوان ذكر وانثى فكانت نواة التناسل فى هذه الأنواع ، فهل بعد هذا يجد العاقل معدلا عن الاعتراف بربوبيته ، وعظيم قدرته .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أى : خلق هذا العالم العلوى على ما فيه من بديع الصنع من شموس وأقمار ، تكون الليل والنهار العالم السفلى المشتمل على المواليد الثلاثة من حيوان ونبات وجماد ، وسخر كل ما فيه ظاهرا وباطنا لانتفاع الإنسان فى سبل معايشة إذا استعمل عقله ، واستخدم فكره فى استنباط مرافقة ـ خلقهما على أكمل وجه ، وأبدع نظام ، قائمين على الحق والصواب ، والحكم والصالح . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ، وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم** ﴾[(١)] وقوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾[(٢)] وقوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾[(٣)].

وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾[(٤)].

وبعد أن أبان سبحانه أنه خلقهما ذكر سبيل تصرفه فيهما فقال :

﴿ **يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل** ﴾ أى : يغشى كلا منهما الآخر كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس ، أو يجعلها فى تتابعا أشبه بتتابع أكوار العمامة بعضها على بعض ، ألا ترى إلى الأرض وقد دارت حول نفسها وهى مكورة فأخذ النهار الحادث من مقابلتها للشمس يسير من الشرق إلى الغرب ويلف حولها طاويا الليل ، والليل من الجهة الأخرى يلتف حولها طاويا النهار ، فالأرض كالرأس والظلام والضياء يتتابعان تتابع أكوار كروية الأرض أولا ، وإلى دوراتها حول نفسها ثانيا ، فتكوير الأرض ظاهر الآية ، ودورانها أتى تابعا بالرمز والإشارة .. يقول صاحب الملك : ﴿ **قل اللهم مالك الملك نؤتى الملك**

---

(١) سورة الحجر الآيتان : ٨٥ ـ ٨٦ .

(٢) سورة ص الآية : ٢٧

(٣) سورة الأنبياء الآية : ١٦

(٤) سورة الأنعام الآية : ٧٣

من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ يقلب الله الليل والنهار إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ﴾ .

أى : وجعل الشمس والقمر وهما وسيلتا الليل والنهار منقادين له ـ وأكثر مصالح العالم مرتبطة بهما ـ يجريان لمنتهى دورتهما ، ومنقطع حركتهما ، وهو يوم القيامة ، ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ﴾[٦] ومن آياته التشجير قوله تعالى : ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها ، إن الانسان لظلوم كفار ﴾[٧] وقوله تعالى : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ، والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[٨] وقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾[٩] وقوله تعالى : ﴿ يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ﴾[١٠] وقوله تعالى : ﴿ ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى وأن الله بما

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ – ٢٧
(٢) سورة الأنعام الآية : ٩٦
(٣) سورة الاسراء الآية : ١٢
(٤) سورة النور الآية : ٤٤
(٥) سورة القصص الآيتان : ٧٢ – ٧٣
(٦) سررة الأنبياء الآية : ١٠٤
(٧) سورة إبراهيم الآيات : ٣٢ – ٣٤
(٨) سورة النحل الآية : ١٢
(٩) سورة العنكبوت الآية : ٦١
(١٠) سورة فاطر الآية : ١٣

تعلمون خبير ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** ﴾[٢] .

ثم ذيل ـ سبحانه ـ الكلام بقوله تعالى : ﴿ **ألا هو العزيز الغفار** ﴾ ترغيبا فى طلب المغفرة بالعبادة والإخلاص له ، والتحذير من الكفر والمعاصى ، فقوله سبحانه : ﴿ **ألا هو العزيز الغفار** ﴾ أى : ألا إن الله الذى فعل هذه الأفعال ، وأنعم على خلقه بهذه النعم ـ هو القادر على الإنتقام ممن عاداه الغفار لذنوب عباده التائبين ، ولا يخفى مافى هذا من الدلالة على كمال قدرته ، وكمال رحمته ، فهو القهار ذو القوة المتين ، الغفار لذنوب التائبين ومثله قوله تعالى ـ فى قصة نوح ـ وهو يدعو قومه : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ، ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ، ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا والله جعل لكم الأرض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا** ﴾[٣] .

وبعد أن ذكر الدلائل التى بثها فى العالم العلوى ـ أردفها ذكر الدلائل التى أودعها فى العالم السفلى ، وبدأها بخلق الإنسان لأنه أعجب ما فيه ، لما فيه من العقل وقبوله الأمانة الالهية ولله در من قال :

دواؤك فيك ومـــــا تبصر	وداؤك منك ومـــــا تشعـــر
وأنت الكتـــاب المبين الـــذى	بأجرفـــه يظهـــر المضمـــر
وتزعــــــم أنك جرم صغير	وفـــيك انطـــوى العـــالم الأكبر

قال تعالى : ﴿ **خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها** ﴾ أى : خلقكم على اختلاف ألسنتكم وألوانكم ـ من نفس واحدة وهى آدم ثم جعل من جنسها زوجها وهى حواء . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس أتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام . إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها** ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة** ﴾[٦] . وقوله تعالى: ﴿**ومن آياته أن خلق لكم من**

---

(١) سورة لقمان الآية : ٢٩

(٢) سورة يس الآيات : ٣٧ – ٤٠

(٣) سورة نوح الآيات : ١٠ – ٢٠

(٤) سورة النساء الآية : ١

(٥) سورة الأعراف الآية : ١٨٩

(٦) سورة النحل الآية : ٧٢

أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾[٣] .

ثم ثنى بخلق الحيوان فقال تعالى : ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ أى : وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج وهى التى ذكرها فى سورة الأنعام (ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين ﴾ .. أى : ذكر وأنثى لكل منهما .

ثم ذكر سبيل خلق ما ذكر من الأناس والأنعام فقال : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ أى يبتدىء خلقكم أيها الناس فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فيكون أحدكم أولا نطفة ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة ثم يكون لحما وعظما وعصبا وينفخ فيه الروح فيصير خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . قال تعالى : ﴿ يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[٤]وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقا آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ فى ظلمات ثلاث ﴾ أى : فى ظلمات أغشية ثلاثة جعلها المولى سبحانه وقاية للولد وحفظا له من التعفن ، قال الدكتور عبد العزيز باشا اسماعيل فى كتابه (الاسلام والطب الحديث) : يعلمنا القرآن أن الجنين له ثلاثة أغشية سماها ظلمات : هى الغشاء المنبارى ، والخربون ، والغشاء اللفائفى وهى لا تظهر إلا بالتشريح الدقيق ، وتظهر كأنها غشاء واحد بالعين المجردة أ هـ . قال الدكتور محمد على البار فى كتابه (خلق الانسان بين الطب والقرآن) تحت عنوان وقفة مع الآية الكريمة .

---

(١) سورة الروم الآية : ٢١

(٢) سورة فاطر الآية : ١١

(٣) سورة النجم الآية : ٤٥ — ٤٦

(٤) سورة الحج الآيات : ٥ — ٧

(٥) سورة المؤمنون الآيات : ١٢ — ١٤

« الظلمات الثلاث »

قوله تعالى : ﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ صدق الله العظيم .

قال بعض المفسرين رحمهم الله :

أن الظلمات الثلاث هى ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . فلجدار البطن ظلمة ، ثم تليها ظلمة جدار الرحم . ثم تليها ظلمة الأغشية المحيطة بالجنين ، وإذا دققنا النظر فى الأغشية المحيطة بالجنين وجدناها ثلاثة .

١ – غشاء السلى أو الأمنيون ويحيط بالجنين نفسه .
٢ – غشاء الكوريون (الغشاء المشيمى) .
٣ – الغشاء الساقط .

ولنتحدث عن كل واحد من هذه الأغشية بشىء من التفصيل :

غشاء السلى أو الأمنيون :

ويدعى أيضا الرهل كما يعرف بالغشاء الباطن لأنه يحيط بالجنين من كل جانب . وهو عبارة عن كيس غشائى رقيق . ومقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة وبه سائل يزداد مع نمو الجنين حتى يبلغ أوجه فى الشهر السابع حيث يبلغ حجمه لترا ونصف لتر ووزنه كذلك كيلو جرام ونصف ولكنه يقل بعد ذلك تدريجيا حتى يبلغ حجمه لترا واحدا فقط قبل الولادة إلا فى بعض الحالات الخاصة التى يزداد فيها السائل الأمنيونى زيادة مفرطة كالتوائم والبول السكرى وغيره من الحالات المرضية وللسائل الأمنيونى فوائد جمه لا يمكن الاستفادة عنها فى تكوين الجنين ونموه فى الرحم ونجملها فيما يلى :

١ – تغذية الجنين : يحتوى السائل على مواد زلالية وسكرية وأملاح غير عضوية يمتصها الجنين مما يساعد على تغذيته ونموه .

٢ – حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات العنيفة والسقطات التى تتعرض لها الأم .
٣ – يسمح للجنين بالحركة الكاملة داخل الرحم .
٤ – يحتفظ للجنين بحرارة ثابتة تقريبا فهو مكيف جيدا بحيث لا تزيد الحرارة ولا تقل إلا فى حدود ضئيلة جدا .
٥ – يمنع السائل الأمنيونى غشاء الأمنيون من الالتصاق بالجنين وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل الهامة فى حدوث التشوهات الخلقية . فوجود السائل عامل مهم فى تجنب هذه التشوهات الخلقية .

وهذه وظائفه أثناء الحمل أما وظائفه أثناء الولادة فلا تقل أهمية عن ذلك . إذ أن السائل الأمنيونى يكون

جيب المياه الذى يوسع عنق الرحم الذى لا يتسع حتى للخنصر ، فإذا به يتسع للوليد بكامله . (أكثر من خمسة أصابع) وفى نفس الوقت يقى الجنين من أن ينحشر وينضغط بين جدران عنق الرحم أثناء الولادة وما يكون فيها من ضغط عالى جدا .

ولولا لطف الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثم جيب المياه هذا لتهشم رأس الجنين أثناء الولادة . ولا يكتفى السائل الأمنيونى بكل هذا ولكنه يكون بتمهيد وتعقيم الطريق للجنين عندما ينفجر جيب المياه فيقتل الميكروبات الموجودة فى المهبل قبيل الولادة مباشرة حتى يضمن للجنين طريقا ممهدا ومعقما فى نفس الوقت .

٢ – الغشاء المشيمى (غشاء الكربون) :

وهو الثانى من الأغشية التى تحيط بالجنين ويتوسط بين غشاء الساقط من الخارج والغشاء الأمنيونى من الداخل .

ويتركب هذا الغشاء من ورقتين هما :

١ – خارجيه : وبها زغابات وخملات كثيرة تنتقل بواسطتها الأغذية والاكسجين من الأم إلى الجنين كما ينتقل غاز ثانى أكسيد الكربون والبولنياه من الجنين إلى دم الأم .

٢ – داخليه : تغطى كيس المح أو السفار وتشمل فيما تشمل مبدأ ظهور الأوعية الجنينية الخارجية .

وغشاء الكوريون يتكون بادىء ذى بدء عند تكون النطفة الأمشاج بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوى وتنقسم البويضة الملقحة وتصبح مثل الكرة أو ثمرة القوت وتسمى التوته ، وتتكون هذه الكرة من طبقات من الخلايا ، فالطبقة الداخلية يتكون منها الجنين أما الطبقة الخارجية فتتميز إلى مجموعة من الخلايا الآكلة التى تنشب وتعلق بجدار الرحم . هذه الطبقة الخارجية التى تعلق وتنغرز فى الرحم هى التى تتحول إلى غشاء الكوريون الذى نتحدث عنه .

وتكون هذه العلقة العالقة بجدار الرحم محاطة بالدم الغليظ وتتفرع من الطبقة الخارجية خملات وزغابات عديدة وخلاياها تقضم فى جدار الرحم حتى تتمكن البويضة الملقحة من الانغراز فى جدار الرحم . وتقوم بتغذية اللوح الجنينى الذى يخلق الله سبحانه وتعالى منه الجنين بما تمتصه مباشرة من البرك الدموية المحيطة بها .

وهذه الطبقة من البويضة الملحقة أو القوته هى الجزء الغير مخلق من الجنين أما الجزء الداخلى فمنه يخلق الجنين . وهو الذى تتحدث عنه الآية الكريمة فى سورة الحج حيث يقول تعالى : ﴿ **يأأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء** ﴾[1] كما أن الجنين قد يدخل فى دور التخليق أو تقذفه الأرحام دما وهو

---

(١) سورة الحج الآية : ٥

السقط أو الإجهاض وخاصة فى المراحل الأولى لتكون الجنين .

وينمو غشاء الكوريون والخملات مع نمو الجنين ولا يكتفى بامتصاص الغذاء من البرك الدموية المحيطة به وإنما تبدأ دورة دموية فى غشاء الرحم وتقابلها دورة دموية فى غشاء الجنين المشيمى . وعن طريق الخملات التى يمرق جدارها يوما بعد يوم مع تقدم الحمل ينتقل الغذاء والهواء (الأكسجين وثانى أوكسيد الكربون) كما تنتقل المضادات للأجسام الغريبة من الأم إلى الجنين لتكون للجنين جهاز مناعته وفى نفس الوقت تمنع عنه أنتقال السموم والميكروبات .

ومع ذلك تقبل الأم ما يخرجه الجنين من إفرازات وسموم ناتجة عن عمليات البناء والهدم المستمرة مثل البولينا وثانى أكسيد الكربون فتتقبلها وتأخذها فى دورتها الدموية الرحمية أولا ثم إلى دورتها الدموية حيث تفرزها بواسطة الكلى عن طريق البول . وهكذا ترى أن ثخانة الخملات تختلف من يوم إلى آخر وتتغير بحسب نمو الجنين ومتطلباته .

وكلما كبر الجنين رقد الجدار الفاصل بين دورة الدم الرحمية ودورة الدم فى الجنين حتى يسهل عبور المواد الهامة النافعة من الأم إلى الجنين ويتم أخراج المواد الضارة من الجنين إلى الأم (البولينا وثانى أوكسيد الكربون) .

٣ - الغشاء الساقط : وهو ثالث الأغشية التى تحيط بالجنين من جميع جوانبه . وهو مكون من الغشاء المخاطى المبطن للرحم ؟ وهو رقيق ، وينمو نموا هائلا بتأثير هرمون الحمل (البروجستون) فتزيد ثخانته من نصف مليمتر عند بدء الطهر من الحيض إلى ثمانية ملليمترات آخر الدورة الشهرية وقبيل المحيض . فإذا ما تم الحمل زادت ثخانته أضعافا مضاعفة وتزداد فيه الغدد والأوعية الدموية زيادة عظيمة ويتغير تركيبه حتى يصبح اسفنجى القوام . وقد سمى بالغشاء الساقط لأنه يسقط ويخرج مع دم الحيض أو مع دم النفاس إذا كان هناك حمل .

المشيمه :

يساهم فى تكوين المشيمة كل من الجنين والأم . والمشيمة تتكون من قرصين متلاصقين ، فأما الجزء الرحمى (الأم) فهو الغشاء الساقط القاعدى ، وأما الجزء الجنينى فهو (الكوريون) الجنينى الذى سبق أن وصفناه .

وتتخذ المشيمة شكل قرصى يتفاوت قطره ما بين ١٦ ، إلى ٢٠ سنتيمتى وثخانته بسنتيمترات تقريبا ووزنه خمسمائة جرام (نصف كيلو جرام) وسطح المشيمة المتصل بأغشية الجنين فى وسطها فى العادة وقد يتصل بأحد جوانبها . ويغطى هذا السطح الغشاء الأمنيوسى (الغشاء السلّى أو الرهلى) .

أما الجزء الرحمى فخشن ومكون من خمسة عشر إلى عشرين فصا ويتوسط بين جزئى المشيمة الجنينى والرحمى غشام هام يسمى الغشاء المشيمى ويفصل هذا الغشاء بين الدورة الدموية الرحمية والدورة الدموية

الجنينية . وقد وهب الله لهذا الغشاء القدرة على تنظيم تغذية الجنين ووقايته من كل ما قد يضره ، ولا يوصل إليه من الغذاء إلا ما ينفعه . ويسميه البعض « الغشاء الحيوى المشيمى » .

الدورة الدموية فى المشيمة :

فى المشيمة دورتان دمويتان يفصل بينهما الغشاء المشيمى الحيوى ، ورغم قربهما قربا شديدا من بعضهما حتى أنه لا يفصل بينهما الا جدار رقيق من خلايا الخملات ، إلا أنهما لا يتصلان بحيث يندفع الدم من واحدة إلى أخرى . ومع ذلك فاتصالهما وثيق : ينتقل الغذاء المنتقى والمختار بعناية فائقة من دماء الأم فى الرحم إلى أوعية الجنين الدموية . وينتقل معه الأوكسجين ومواد المناعة للأمراض والأوبئة . وينتقل من الجنين إلى الأم كل المواد السامة التى نتجت عن عمليات البناء والهدم المستمرة فى خلايا الجنين مثل ثانى أكسيد الكربون والبولينا وتنتقل إلى الأم لتحملها راضية إلى أجهزة إفرازها كما يمنع الغشاء الحيوى المشيمى أنتقال ما قد يكون ضارا بالجنين من مواد موجودة فى دم الأم ، كما يمنع عن الجنين الميكروبات والأمراض الا فيما ندر .

إن المقدرة الهائله التى وهبها الله — عز وجل — لهذا الغشاء معجزة كامله ، غشاء رقيق يفصل بين دماء الأم ودماء الجنين ومع هذا فهو يختار للجنين ما يصلحه ويبقيه وينميه ، ويدفع عنه كل ما يؤذيه ، ويسمح لهذه المادة أن تمر ، ويقف حجر عثرة لتلك المادة المشابهة ويقول لها : قفى هنا لا حاجة بنا إليك ، ويختار المواد النافعة من دماء الأم فيقول لها : أدخلى بسلام ويمنع المواد الضارة ويختار المواد الضارة الموجودة فى الجنين ويقول لها : اخرجى من هنا إلى دماء الأم .

بواب عجيب حكيم ، يقف وقفة صارمة حازمة طوال الليل والنهار لا يكل ولا ينى ، يختار للجنين ما يصلحه ويطرد عنه ما يضره وهو بعد ذلك غشاء مكون من مجموعة من الخلايا البسيطة التركيب فسبحان من أودع فيه هذه القدرة الهائلة على التميز وجعله فى صف الجنين دائما وابدا .

وتقوم المشيمة بوظائف عدة أجهزة فى الجسم هى :

١ – الجهاز التنفسى : إذ تقوم بإعطاء الجنين الأكسجين وتأخذ عنه ثانى أكسيد الكربون .

٢ – الجهاز الهضمى : تعطى الجنين الغذاء المهضوم بالقدر المعلوم وتنوع غذائه حسب حاجاته يوما بعد يوم فيختلف غذاء الجنين فى شهرة الأول أو الثانى عن غذائه فى الشهر الثامن أو التاسع يختلف نوعا وكما .

٣ – الجهاز البولى : تقوم المشيمة بإخراج المواد الضارة بالجنين والتى تخلفت عن عمليات البناء والهدم المستمرة مثل البولينا وتدفعها إلى دماء الأم ، ولا تكتفى المشيمة بهذه العجائب كلها ، ولكنها ترسل هرمونات يثبت الجنين فى الرحم وينمى الثديين استعدادا لافراز اللبن منهما عندما يخرج الجنين إلى الدنيا ليجد غذاءه جاهزا ، ومن المقرر علميا وطبيا أن سلامة الحمل متوقفة على سلامة المشيمة ، وإن أكثر حالات الاجهاض إنما ترجع إلى خلل فى المشيمة .

فسبحان من خلق فسوى ، وسبحان من قدر فهدى خلق الجنين وسواه ، وقدر ظهور أعضائه ، وهداه إلى وظائفهما وخلق المشيمة وسواها وقدر محتوياتها وتركيبها وأوجد غشاءها العجيب وهداه إلى وظائفة العديدة المعجزة . أ هـ .

« وعيد وتهديد »

قال تعالى :

إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) * وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨)

« تفسير المفردات »

﴿ منيبا ﴾ أى : راجعا إليه مطيعا ، (خوله) : ملكه .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أقام الأدلة على وحدانيته تعالى وذكر أن المشركين عبدة الأصنام لا دليل لهم على عبادتها — أعقب ذلك ببيان أنه هو الغنى عما سواه من المخلوقات . فهو لا يريد بعبادته جر منفعة ، ولا دفع مضرة ، ولكنه لا يرضى الكفر لعباده ، بل يرضى الشكر ، وأن كل نفس مطالبة بما عملت وبعدئذ ترد إلى عالم الغيب والشهادة فيجازيها بما كسبت ، ثم أتبعه بذكر تناقض المشركين فيما يفعلون فإذا أصابهم الضر رجعوا فى طلب دفعه إلى الله ، وإذا ذهب عنهم عادوا إلى عبادة الأوثان ، وقد كان العقل يقضى بأنهم وقد علموا أنه لا يدفع الضر سواه . أن يعبده فى جميع الحالات ثم أمر رسوله أن يقول لهم متهكما مونجا : تمتعوا بكفركم قليلا ثم مصيركم إلى النار وبئس القرار .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ، ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ يقول تبارك وتعالى مخبرا عن ذاته المقدسة ـ تبارك وتعالى : أنه الغنىّ عما سواه من المخلوقات كما أخبر سبحانه فى كتابه : ﴿ **ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ، وما ذلك على الله بعزيز** ﴾(١) وكما قال موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لقوله : ﴿ **إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد** ﴾(٢) فإنه ـ سبحانه ـ لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ، ولكنه ـ سبحانه ـ خلقنا بمحض جوده وكرمه ، بمحض فضله ومنته قال تعالى فى الحديث القدسى الذى رواه الحبيب المصطفى ـ ﷺ ـ والذى فيه « ياعبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ياعبادى لو أن أولكم وأخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، ياعبادى لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ﴾(٣) فسبحان من لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية . فالطاعة تنفعنا نحن والمعصية تضرنا نحن قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يرضى لعباده الكفر** ﴾ أى : لا يحبه ولا يأمر به ، ﴿ **وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ أى : يحبه لكم ويزدكم من فضله ، كما قال تعالى : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما** ﴾(٥) وكقوله تعالى : ﴿ **وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم ، لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد** ﴾(٦) .

ثم ذكر أن كل إنسان يوم القيامة يجازى بما قدم من عمل ، ولا يضيره عمل سواه فقال تعالى : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أى : ولا تحمل أى نفس أوزار نفس أخرى بل كل مطالب بعمل نفسه خيرا كان أو شرا . .

ثم بين أن جزاء المرء فى الآخرة وفق ما عمل فى الدنيا فقال تعالى : ﴿ **ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ أى : ثم مصيركم يوم القيامة إلى خالقكم البصير بأمركم ، العليم بالسر والنجوى ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا ، إذ لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، ثم يجازى المحسن منكم باحسانه

---

(١) سورة فاطر الآيات : ١٥ – ١٧

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٨

(٣) ملسم ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧

(٤) سورة فصلت الآية : ٤٦

(٥) سورة النساء الآية : ١٤٧

(٦) سورة إبراهيم الآية : ٧

والمسيء بإساءته ، فاحذروا أن تلقوا ربكم وقد عملتم فى الدنيا مالا يرضاه فتهلكوا .

ثم بين أن هذه المجازاة ليست بالعسيرة عليه ـ سبحانه ـ فقال : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أى : إنه تعالى محص جميع أعمالكم حتى ما تضمره صدوركم مما لا تدركه اعينكم فيكف بما رأته العيون وادركته الأبصار ؟ .

ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى** ﴾[1] .

ثم بين سبحانه شأن الكافر بالنسبة إلى ربه فقال :

﴿ **وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيبا إليه ، ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله** ﴾ أى : وإذا أصاب الكافر بلاء فى جسده أو شدة فى معيشته ، أو خوف على حياته ـ استغاث بربه الذى خلقه ورغب إليه فى كشف ما نزل به ، تائبا إليه مما كان عليه من قبل ذلك من الكفر به وإشراك الألهة والأوثان فى عبادته ، ثم إذا منحه منه فأزال ما به من ضر ، وأبدله بالسقم صحة ، وبالشدة رخاء ـ ترك دعاءه الذى كان يدعوه من قبل أن يكشف ما كان به من ضر ، فجعل لله شركاء ما ضل الناس ومنعهم من توحيده والإقرار به والدخول فى الاسلام له . ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** ﴾[3] .

ثم أوعده وهدده على ما فعل فقال تعالى : ﴿ **قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار** ﴾ أى قل ياأيها الرسول لمن فعل ذلك . تمتع بما أنت فيه من زخرف الدنيا ولذاتها ، منصرفا عن النظر إلى أدلة التوحيد التى أوجدها الله فى الأكوان ، وجعلها فى نفس الإنسان ، زمنا قليلا إلى أن تستوفى أجلك وتأتيك منيتك ، ثم أنت بعد ذلك من أصحاب النار وبئس القرار : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ، قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا ، كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ، أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾[4] .

---

(١) سورة النجم الآيات : ٣٦ — ٤٢

(٢) سورة الاسراء الآية : ٦٧

(٣) سورة يونس الآية : ١٢

(٤) سورة غافر الآيات : ٧١ — ٧٦

« الوعد الحق »

قال تعالى :

أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ
يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَـٰعِبَادِ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا
يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾
وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ
مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟
ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ
عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ
مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **قانت** ﴾ القانت : القائم بما يجب عليه من الطاعة ، ﴿ **أناء الليل** ﴾ : ساعاته واحدها آن ﴿ **يحذر الآخرة** ﴾ أى : يخشى عذابها . ﴿ **بغير حساب** ﴾ بلا نهاية لما يعطى أو بتوسعه ، ﴿ **ظلل من**

النار ﴾ أطباق منها ، كثيرة متراكمة ﴿ **اجتنبوا الطاغوت** ﴾ الأوثان والمعبودات الباطلة : ﴿ **أنابوا إلى الله** ﴾ رجعوا إلى عبادته وحده ، ﴿ **لهم غرف** ﴾ منازل رفيعة عالية فى الجنة .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن أبان – سبحانه – صفات المشركين الضالين ، وذكر تقلقهم واضطرابهم فى العبادة إذ يرجعون إليه فى وقت الشدة ويعودون إلى الأوثان حين الرخاء – ردفة ذكر صفات المؤمنين القانتين الأتقياء الذى لا يعتمدون إلا على ربهم ويرجون رحمته ويخافون عذابه . وبعد ذلك أمر رسوله أن ينصح المؤمنين بجملة نصائح .

١ – تقوى الله وطاعته .

٢ – عبادة الله وحده مخلصا له الدين .

٣ – إنه امره أن يقول : إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم وفى ذلك إيماء إلى زجر غيره عن المعاصى .

٤ – إنه أمر أن يذكر لهم أن الخاسر هو الذى يخسر نفسه ويخسر أهله لأنهم إن كانوا من أهل النار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم ، وإن كانوا من أهل الجنة فقد ذهبوا عنهم ذهابا لا رجوع بعده .

٥ – وصف النار وأنها تحيط بهم من كل جانب ، وهذا من أفظع أنواع العذاب التى يخوف بها عباده وهذا وعيده لعبده الأصنام ثم ذكر وعد من اجتنبوا عبادتها وبعدوا عن الشرك ، ليكون الوعد مقترنا بالوعيد ويحصل بذلك كمال الترهيب والترغيب .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ .

يقول الله عز وجل : أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أندادا ؟ لا يستوون عند الله كما قال تعالى : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾[1] وقال تبارك وتعالى، ههنا : ﴿ **أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما** ﴾ أى : فى حال سجوده وفى حال قيامه ولهذا استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة وقال ابن مسعود (القانت المطيع لله – عز وجل – ولرسوله – ﷺ – وقال ابن عباس – رضى الله عنهما : ﴿ **آناء الليل** ﴾ جوف الليل

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٣

وقال الحسن وقتادة : ﴿ آناء الليل ﴾ أوله وأوسطه وآخره . وقوله تعالى : ﴿ **يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ أى : فى حال عبادته خائف راج ولابد فى العبادة من هذا وهذا وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب ولهذا قال تعالى : ﴿ **يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه** ﴾ فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . ومثل ذلك قوله تعالى وهو يصف حال الأنبياء : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين** ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[٢] .

وفى الحديث الذى أخرجه الترمذى عن معاذ بن جبل والذى فيه يقول ـ ﷺ ـ (ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ حتى بلغ ﴿ **يعلمون** ﴾[٣] الحديث . يعنى أن النبى ـ ﷺ ـ تلا هاتين الآيتين من سورة السجدة عند ذكره فضل صلاة الليل ليبين بذلك فضل صلاة الليل . وأخرج الترمذى من حديث عمرو بن عنبة قال : سمعت النبى ـ ﷺ ـ يقول : (أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر . فإن استطعت أن تكون مما يذكر الله تلك الساعة فكن)[٤] .

وقال الامام أحمد عن تميم الدارى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (من قرأ بمائة آية فى ليلة كتب له قنوت ليلة)[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ **قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾ أى هل يستوى هذا والذى قبله ممن جعل لله أندادا ليضل عن سبيله ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ أى : إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل والله أعلم . وهذا كقوله تعالى : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ، ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ، وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، أن الله يسمع من يشاء وماأنت**

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٩٠

(٢) سورة السجدة الآيتان : ١٦ ـ ١٧

(٣) سنن الترمذى ـ كتاب الإيمان ـ باب ما جاء فى حرمة الصلاة ٤ / ١٢٤ رقم ٢٧٤٩ وابن ماجه ـ كتاب الفتن ـ باب كف اللسان فى الفتنة ٢ / ٢٣١٤ رقم ٣٩٧٣

(٤) سنن الترمذى ـ كتاب الدعوات ـ باب دعاء الضيف ٥ / ٥٧٠ رقم ٣٥٧٩

(٥) مسند أحمد ٤ / ١٠٣

يسمع من فى القبور ﴾[١] وكقوله تعالى : **﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون ﴾**[٢] وكقوله : **﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ، أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون ، وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾**[٣] .

« فضل قيام الليل »

قال الأمام العالم العلامة الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلى رحمه الله فى كتابه (لطائف المعارف) فى فضل قيام الليل ما نصه : وقد دل حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه أفضل الصلاة بعد المكتوبة وقال ابن مسعود : فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية . وإنما فضلت صلاة الليل على صلاة النهار لأنها أبلغ فى الإسرار وأقرب إلى الإخلاص كان السلف يجتهدون على إخفاء تهجدهم قال الحسن : كان الرجل يكون عنده زواره فيقوم من الليل يصلى لا يعلم به زواره ، وكانوا يجتهدون فى الدعاء ولا يسمع لهم صوت . وكان الرجل ينام مع امرأته على وسادة فيبكى طول ليلته وهى لا تشعر ولأن صلاة الليل أشق على النفوس ، فإن الليل محل النوم والراحة من التعب بالنهار ، فترك النوم مع ميل النفس إليه مجاهدة عظيمة . قال بعضهم : أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس ، ولأن القراءة فى صلاة الليل أقرب إلى التدبر فإنه تنقطع الشواغل بالليل ويحضر القلب ويتواطأ هو واللسان على الفهم . كما قال تعالى : **﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا ﴾**[٤] ولهذا المعنى أمر بترتيل القرآن فى قيام الليل ترتيلا ، ولأن وقت التهجد من الليل أفضل أوقات التطوع بالصلاة وأقرب ما يكون العبد من ربه ، وهو وقت فتح أبواب السماء واستجابه الدعاء وأستعراض حوائج السائلين وقد مدح الله المستيقظين بالليل لذكره ودعائه واستغفاره ومناجاته فقال الله تعالى : **﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾**[٥] قال الحسن : أخفوا العمل فأخفى الله لهم الجزاء . وقال تعالى : **﴿ والمستغفرين بالاسحار ﴾**[٦] وقال تعالى : **﴿ كانوا قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون ﴾**[٧] وقال الله تعالى : **﴿ أمن هو قانت أناء الليل ساجدا وقائما**

---

(١) سورة فاطر الآيات : ١٨ — ٢٢

(٢) سورة هود الآية : ٢٤

(٣) سورة السجدة الآيات : ١٨ — ٢٠

(٤) سورة المزمل الآية : ٦

(٥) سورة السجدة الآيتان : ١٥ — ١٦

(٦) سورة آل عمران الآية : ١٧

(٧) سورة الذاريات الآيتان : ١٧ — ١٨

يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه قل هو يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ **من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾(١) وقال لنبيه ـ ﷺ ـ ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلا** ﴾(٣) وقال تعالى ﴿ **يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو أنقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا** ﴾(٤) .

قالت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ لرجل لا تدع قيام الليل فإن رسول الله ـ ﷺ ـ كان لا يدعه وكان إذا مرض أو قالت كسل صلى قاعدا ، وفى رواية أخرى عنها قالت : بلغنى عن قوم يقولون إن أدينا الفرائض لم ينال أن لا تزداد ولعمرى لا يسألهم الله إلا عما اقترض عليهم ولكنهم قوم يخطئون بالليل والنهار ، وما أنتم إلا من نبيكم ، وما نبيكم إلا منكم والله ما ترك رسول الله ـ ﷺ ـ قيام الليل . فأشارت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى أن قيام الليل فيه (فائدتان عظيمتان) الاقتداء بسنة رسول الله ـ ﷺ ـ والتأسى به وقد قال الله عز وجل : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** ﴾(٥) وتكفير الذنوب والخطايا ، فإن بنى آدم يخطئون بالليل والنهار فيحتاجون إلى الاستكثار من مكفرات الخطايا وقيام الليل من أعظم مكفرات الذنوب كما قال النبى ـ ﷺ ـ لمعاذ بن جبل (قيام العبد فى جوف الليل يكفر الخطيئة ثم تلا (تتجافى جنوبهم عن المضاجع)(٦) أخرجه الأمام أحمد .

وقد روى أن المتهجدين يدخلون الجنة بغير حساب وروى عن شهر بن جوشب عن أسماء بنت يزيد عن النبى ـ ﷺ ـ قال : (إذا جمع الأولين والأخرين يوم القيامة جاء مناد ينادى بصوت يسمعه الخلائق سيعلم الخلائق اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، فيقومون وهم قليل ، ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل ثم يحاسب سائر الناس)(٧) .

قال بعض السلف : قيام الليل يهون طول القيامة يوم القيامة وفى حديث أبى أمامه وبلال المرفوع (عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى وتكفير للميئات ومنهاة عن الاثم ومطردة للداء عن الجسد)(٨) أخرجه الترمذى . ففى هذا الحديث : أن قيام الليل يوجب صحة الجسد

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٣
(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٩
(٣) سورة الانسان الآية : ٢٦
(٤) سورة المزمل الآيات : ١ ـ ٤
(٥) سورة الأحزاب الآية : ٢١
(٦) مسند أحمد ٥ / ٢٣٧
(٧) أخرجه السيوطى فى الدر المنثور ، والبيهقى فى شعب الايمان ٥ / ٢٥
(٨) سنن الترمذى ـ كتاب الدعوات ـ باب دعاء النبى ﷺ ٥ / ٥٥٢ رقم ٣٥٤٩

ويطرد عنه الداء .. وكما أن قيام الليل يكفر السيئات فهو يرفع الدرجات وقد ذكرنا أن أهله من السابقين إلى الجنة بغير حساب وفى حديث المنام المشهور الذى أخرجه الامام أحمد والترمذى (أن الملأ الأعلى يختصمون فى الدرجات والكفارات وفيه أن الدرجات أطعام الطعام ، وإفشاء السلام . والصلاة بالليل والناس نيام)(١).

وفى المسند والترمذى من وجوه عن النبى — ﷺ — أن فى الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، وأنها لأهل هذه الخصال الثلاثة (أطعام) الطعام وإفشاء السلام ، والصلاة بالليل والناس نيام)(٢).

ومن فضائل التهجد أن الله تعالى — يحب أهله ويباهى بهم الملائكة ويستجيب دعاءهم .

وفى المسند وصحيح ابن حبان عن عقبة بن عامر عن النبى — ﷺ — قال : (رجلان من أمتى يقوم أحدهما من الليل يعالج نفسه إلى الطهور وعليه عقد فيتوضأ فإذا وضأ يديه أنحلت عقدة وإذا وضأ وجهه أنحلت عقدة وإذا مسح رأسه أنحلت عقدة وإذا وضأ رجلين أنحلت عقدة فيقول الرب — عز وجل للذين وراء الحجاب أنظروا إلى عبدى هذا يعالج نفسه ما سألنى عبدى هذا فهو له)(٣).

وفى الصحيحين أن النبى — ﷺ — قال : (نعم الرجل عبد الله — يعنى ابن عمر — لو كان يصلى من الليل فكان عبد الله لا ينام بعد ذلك من الليل إلا قليلا)(٤).

كان أبو ذر — رضى الله عنه — يقول للناس : أرأيتم لو أن أحدكم أراد سفرا أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه ويبلغه قالوا : بلى قال : فسفر طريق القيامة أبعد فخذوا له ما يصلحكم ، حجوا حجة لعظائم الأمور ، صوموا يوما شديدا حره لحر يوم النشور ، صلوا ركعتين فى ظلمة الليل ، لظلمة القبور ، تصدقوا بصدقة بشر يوم عسير ، أين رجال الليل أين الحسن وسفيان وفضيل .

يارجـــــال جـــدوا   رب داع لا يـــــــرد
مــــا يقـــوم الليـــل إلا   مـــن لـــد عـــزم وجـــد

أخرج النسائى عن أبى ذر قال : سألت رسول الله — ﷺ — أى الليل خير قال : (جوفه)(٥) وفى رواية لأحمد قال — ﷺ — جوف الليل الغابر أو نصف الليل وقليل فاعله)(٦) كان أبو سليمان يقول : أهل الليل فى ليلهم الذ من أهل اللهو فى لهوهم ولولا الليل ما أجببت البقاء فى الدنيا وسط الليل للمحبين للخلوة بمناجاة حبيبهم ، والسحر للمذنبين للاستغفار من ذنوبهم فوسط الليل خاص لخلوة الخواص ،

---

(١) سنن الترمذى — كتاب تفسير القرآن — باب سورة ص ٥ / ٣٣٦ ومسند أحمد ٥ / ٢٤٣

(٢) سنن الترمذى — كتاب صفة الجنة — باب صفة غرف الجنة ٤ / ٦٧ رقم ٢٥٢٧ ومسند أحمد ١ / ١٥٥

(٣) مسند أحمد ٤ / ٢٠١ وابن حبان — كتاب الصلاة — باب قيام الليل ٤ / ١١٣ رقم ٢٥٤٦

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب فضائل الصحابة — باب فضائل عبد الله بن عمر ص ٦٧٠ رقم ١٦١١ طبعة الكويت .

(٥) سنن النسائى — كتاب المواقيت — باب إباحة الصلاة إلى أن يصلى الصبح ١ / ٢٨٣ وابن ماجه — كتاب الفتن — باب كف اللسان فى الفتنة ٢ / ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣

(٦) مسند أحمد ٥ / ١٧٩

والسحر عام لرفع قصص الجميع وبروز التواقيع لأهلها بقضاء الحوائج فمن عجز عن مسابقة المحبين فى ميدان مضمارهم فلا يعجز عن مشاركة المذنبين فى استغفارهم وأعتذارهم ، صحائف التائبين خدودهم ومدادهم دموعهم . لا تزال القصص تستعرض ويوقع بقضاء حوائج أهلها إلى أن يطلع الفجر ؟ ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول : (**هل من تائب فأتوب عليه ، هل من مستغفر فأغفر له ، هل من داع فأجيب دعوته إلى أن ينفجر الفجر**)(١) فلذلك كانوا يفضلون صلاة آخر الليل على أوله .

كان بعض الصالحين يقوم الليل فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته ياأيها الركب المعرسون أكل هذا الليل ترقدون ، ألا تقومون فترحلون فإذا سمع الناس صوته وثبوا من فراشهم فيسمع من هنا باك ومن هنا داع ، ومن هنا تال ، ومن هنا متوضىء ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى .

يانفس قومى فقد نام الورى ... أن تصنعى الخير فذو العرش يرى
وأنت ياعين دعى عنك الكرى ... عند الصباح يحمد القوم السرى

ياقوم الليل اشفعوا فى النوم ، ياأحياء القلوب ترحموا على الأموات قيل لابن مسعود - رضى الله عنه - ما نستطيع قيام الليل قال أقعدتكم ذنوبكم ، وقيل للحسن : قد أعجز قيام الليل قال قيدكم خطاياكم وقال الفضى بن عياش : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم كبلتك خطيئتك . قال الحسن : إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل ، قال بعض السلف : أذنبت ذنبا فحرمت به قيام الليل ستة أشهر . ما يؤهل الملوك للخلوة بهم إلا من أخلص فى ودهم ومعاملتهم فأما من كان من أهل المخالفة فلا يؤهلونه .

ياحسنهم والليل قد جنهم ... ونورهم يفوق نور الأنجم
ترنموا بالذكر فى ليلهم ... فعيشهم قد طاب فى الترنم
قلوبهم للذكر قد تفرغت ... دموعهم كاللؤلؤ منظم
أسحارهم بهم لهم قد أشرقت ... وخلع الغفران خير القسم

قيل للنبى - ﷺ - إن فلانا نام حتى أصبح فقال : (بال الشيطان فى أذنه)(٢) كان سرى يقول : رأيت الفوائد ترد فى ظلمه الليل ، ماذا فات من فاته خير الليل حصل أهل الغفلة والنوم على الحرمان والويل ، كان بعض السلف يقوم الليل فقام ليله فأتاه آت فى منامه فقال له : قم فصل ثم قال له أما علمت أن مفاتح الجنة مع أصحاب الليل هم خزانها ، هم خزانها .

كان النبى - ﷺ - يطرق باب فاطمة وعلى ويقول : (ألا تصلون)(٣) وفى الحديث : (إذا استيقظ

(١) صحيح مسلم - كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الترغيب فى الدعاء والذكر فى آخر الليل ١ / ٥٢١ رقم ٧٥٨

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٦٠

(٣) مسند أحمد ١ / ٧٧

الرجل وايقظ أهله فصليا ركعتين كتبا من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات)[١] كانت أمرأة صهيب توقظه بالليل وتقول ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزادنا قليل وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا ونحن قد بقينا .

ياراقـــد الليـــل كم ترقـــد — قم ياحبيبـي قد دنـا الموعـــد
وخـــذ من الليـــل وأوقاتـــه — وردا إذا ما هج الرقـــــــد
من نام حتـــى ينـــقضى ليلـــه — لم يبلـــغ المنـــزل أو يجهـــد
قل لأولى الألبـاب أهـل التقـــى — قنطـرة العـرض لكـم موعـــد

قوله تعالى : ﴿ **قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون من المسلمين** ﴾ يقول تعالى : آمرا عبادة المؤمنين بالاستمرار على طاعة الله وتقواه وهذه وصية الله للأولين والآخرين كما قال تعالى : ﴿ **ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله** ﴾[٢] وأمرنا ــ سبحانه ــ بالاستمرار على طاعته وتقواه حتى الموت فقال سبحانه : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٣] ﴿ **ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٤].

وقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة** ﴾[٥] كقوله تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾[٧] وقوله تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلكم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا** ﴾ الآية[٨] ولقد أحسن أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ فأحسن الله إليهم فى الدنيا والآخرة قال تعالى : ﴿ **الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور** ﴾[٩] وقال سبحانه : ﴿ **والسابقون**

(١) ابو داود ــ كتاب الصلاة ــ باب الحث على قيام الليل ٢ / ١٤٧ رقم ١٤٥١ وابن ماجه كتاب الصلاة ــ باب إقامة الصلاة رقم ١٣٣٥
(٢) سورة النساء الآية : ١٣١
(٣) سورة آل عمران الآية : ١٠٢
(٤) سورة البقرة الآية : ١٣٢
(٥) سورة النحل الآية : ٣٠
(٦) سورة الرحمن الآية : ٦٠
(٧) سورة النحل الآية : ٩٧
(٨) سورة النور الآية : ٥٥
(٩) سورة الحج الآية : ٤١

الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها ابدا ، ذلك الفوز العظيم ﴾ (١).

وقوله تعالى : **﴿ وأرض الله واسعة ﴾ قال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان . وقال عطاء فى قوله تعالى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾** وقال : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ : **﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا غفورا ﴾** .

وقال الشيخ المراغى فى قوله تعالى : ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ أى : إنكم إذا لم تتمكنوا من التوفى على الإحسان والتقوى وصرف الهمم إلى العبادة فى البلد الذى أنتم فيه فتحولوا عنه إلى بلاد تستطيعون فيها ذلك ، واجعلوا أسوتكم الأنبياء والصالحين . فلقد هاجر النبى ـ ﷺ ـ وأصحابه وفارقوا الأهل والأوطان كل هذا فى سبيل الله فكانت العاقبة لهم ، والعاقبة للمتقين .

ثم ذكر سبحانه ما لهم من رفيع المنزلة وعظيم الأجر على ذلك فقال : **﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾** أى : ولهم على صبرهم أجر عظيم عند ربهم لا يقدر قدره وهذا كقوله تعالى : **﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾** (٢) قال ابن القيم : الصبر . حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونحوه . فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام بالعبد كما ينبغى أنقلبت المحنة فى حقه منحة ، واستحالت البلية عطية وصار المكروه محبوبا فإن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته .

فإن لله تعالى ـ على العبد عبودية فى الضراء ، كما له عبودية فى السراء ، وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون . والشأن فى إعطاء العبودية فى المكاره ، ففيه تفاوت مراتب العباد ، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى . قال رسول الله ـ ﷺ ـ (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن أن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له) (٣) رواه مسلم .

وقال ـ ﷺ ـ (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ـ الحديث) (٤) وخطب عمر بن عبد العزيز فى الناس قائلا : ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه فعاضه من ذلك الصبر إلا كان ما عاضه الله أفضل مما

---

(١) سورة التوبة الآية : ١٠٠

(٢) سورة يوسف الآية : ٩٠

(٣) مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ـ باب المؤمن أمره كله خير ٤ / ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩

(٤) الترمذى ـ كتاب الزهد ـ باب فى الصبر على البلاء ٤ / ٢٧ رقم ٢٥٠٧ وشرح السنة الأمام البقرى كتاب الجنائز ـ باب شدة المرض ٥ / ٢٤٥ رقم ١٤٣٥

أنتزع منه ثم قرأ ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ أى قل أيها الرسول لمشركى قومك : إن الله أمرنى أن أعبده مفردا له الطاعة دون كل ما تدعون من دونه من الآلهة والأنداد . ﴿ **وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾ أى وأمرت أن أكون أول المسلمين ومسابقهم فى إخلاص التوحيد لله ، وأخلاص العبادة له ، والبراءة من كل ما دونه من الآلهة .

﴿ **قل إنى أخاف أن عصيت ربى عذاب يوم عظيم** ﴾ أى : قل لهم : أنى أخاف إن عصيت ربى بترك الإخلاص له أو أفراده بالربوبية عذاب يوم القيامة الكثير الأهوال والآلام .

وفى هذا من التعريض بهم مالا يخفى .

ثم كرر الأمر مرة أخرى بالاخلاص فى الطاعة للتهديد والوعيد فقال : ﴿ **قل الله أعبد مخلصا له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه** ﴾ أى قل لهم : الله أعبد لا غيره لا استقلالا ولا أشتراكا ، مخلصا له عبادتى مبتعدا من الشرك والرياء ، فاعبدوا ما شئتم أن تعبدوه من دونه من الأوثان والأصنام ، وستعلمون وبال عاقبتكم حينما تلقون ربكم .

ثم أمر رسوله أن يذكر للمشركين حالهم يوم القيامة فقال ــ جل فى علاه ــ ﴿ **قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ أى : قل لهم أيها الرسول : إن الخسران الذى لا خسران بعده ــ هو خسران النفس وإضاعتها بالضلال ، وخسران الأتباع الذين أضلوهم وأوقعوهم فى العذاب الأبدى يوم القيامة إذا أوقعوهم فى هلكه ما بعدها هلكة . ﴿ **ألا ذلك هو الخسران المبين** ﴾ أى : هذا هو الخسران المبين الظاهر لكمال هوله وفظاعة شأنه ثم فصل ــ سبحانه ــ ذلك الخسران وبين بعد إبهامه تهويلا وتعظيما لأمره فقال ــ عز وجل : ﴿ **لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل** ﴾ أى : لهم أطباق متراكمة من النار بعضها فوق بعض كأنها ظلل ، ومن تحتهم مثلها ، والمراد من ذلك أن النار محيطة بهم من كل جانب ونحو الآن قوله تعالى : ﴿ **يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾[1] وقوله : ﴿ **لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش** ﴾[2] وقوله : ﴿ **نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة** ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك يخوف الله به عباده ، ياعبادفاتقون** ﴾ أى : إنما نقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم . ﴿ **ياعبادفاتقون** ﴾ أى : أخشو بأسى وسطوتى وعذابى ونقمتى وهذا كقوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا أعد الله لهم عذابا شديدا فاتقوا الله**

(١) سورة العنكبوت الآية : ٥٥

(٢) سورة الأعراف الآية : ٤١

(٣) سورة الهمزة الآيات : ٦ ــ ٩

ياأولى الألباب الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا ، رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا ﴾(١) .

قوله تعالى : **﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ﴾** .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه **﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت ﴾** نزلت فى زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى ذر ، وسلمان الفارس ـ رضى الله تعالى عنهم ـ والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمن فهؤلاء هم الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم قال ـ عز وجل ـ **﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾** أى : يفهمونه ويعملون بما فيه ، كقوله ـ تبارك وتعالى ـ لموسى ـ عليه السلام ـ حين آتاه التوراة **﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾** وقوله تعالى : **﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾** أى : المتصفون بهذه الصفات ، عبادة الله وحدة لا شريك له والبراءة مما يخالف دين الاسلام ، والانابة والاخبات والخضوع له سبحانه ، والسمع والطاعة أولئك الذين هداهم الله **﴿ وأولئك هم أولوا الألباب ﴾** أى : ذرو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة .

وقوله تعالى : **﴿ أفمن حق عليه العذاب أفأنت تنقذ من فى النار ، لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾** .

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقى أتقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أى : لا يهديه أحد من بعد الله لأنه من يضلل الله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن عباده السعداء أن لهم غرفا فى الجنة وهى القصور أى : الشاهقة (من فوقها غرف) طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات (مبنية تجرى من تحتها الأنهار) .

قال الأمام أحمد : عن النعمان بن سعد عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (إن فى الجنة لغرفا يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها فقال أعرابى : لمن هى يارسول الله ؟ قال ـ ﷺ ـ (لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام)(٢) رواه الترمذى وقال حسن غريب .

وقال الأمام أحمد : عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : (إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى أفق السماء)(٣) . أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية له

(١) سورة الطلاق الآيات : ٨ - ١١
(٢) سنن الترمذى ـ كتاب صفة الجنة ـ باب ما جاء فى صفة غرف الجنة ٤ / ٦٧٣ رقم ٣٢٥٢٧ ومسند أحمد ٥ / ٣٤٣
(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الجنة ونعيمها ـ باب ترائى أهل الجنة الغرف ص ٧٩٦ رقم ١٨٠٤ طبعة الكويت .

عن ابى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (إن أهل الجنة ليتراءون فى الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الذرى الغارب فى الأفق الطالع فى تفاضل أهل الدرجات فقالوا : يارسول الله أولئك النبيون ؟ فقال ـ ﷺ ـ (بلى والذى نفسى بيده وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل)[١] رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وقال الأمام أحمد بسنده : عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ يقول : قلنا يارسول الله إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة فإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد قال ـ ﷺ ـ (لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التى أنتم عليها عندى لصافحتكم الملائكة ولو لم تذنبوا لجاء الله ـ عز وجل ـ بقوم يذنبون كى يغفر لهم ـ قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة ، ما انباؤها ؟ قال ـ ﷺ ـ لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك الأزفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفتى شبابه الحديث ..)[٢] وقوله تعالى : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى تسلك الأنهار بين خلال ذلك كما يشاءوا وأين أرادوا ﴿ **وعد الله** ﴾ أى هذا الذى ذكرناه وعد وعده الله عباده المؤمنين ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ .

من دلائل التوحيد :

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب صفة الجنة ـ ما جاء فى خلود أهل الجنة وأهل النار ٤ / ٦٩٠ رقم ٢٥٥٦ وقال : حديث حسن صحيح .
(٢) مسند أحمد ٢ / ٣٠٤

لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ
يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **فسلكه** ﴾ أى : فأدخله ، ﴿ **ينابيع** ﴾ أى : عيونا ومجارى ، ﴿ **ألوانه** ﴾ أى : أنواعه وأصنافه ، ﴿ **يهيج** ﴾ أى : يجف ﴿ **حطاما** ﴾ أى : فتاتا منكسرا ﴿ **شرح الله صدره للاسلام** ﴾ شرح الصدر للاسلام الفرح به والطمئنينة إليه ﴿ **النور** ﴾ البصيرة والهدى ، ﴿ **القسوة** ﴾ جمود وصلابة فى القلب ، يقال قلب قاس : أى : لا يرق ولا يلين ﴿ **أحسن الحديث** ﴾ هو القرآن ﴿ **متشابها** ﴾ أى : يشبه بعضه بعضا فى الحسن والأحكام ﴿ **مثانى** ﴾ واحدها مثنى من التثنية أى : التكرير ، ﴿ **تقشعر** ﴾ أى : تضطرب وتتحرك ﴿ **تلين** ﴾ تسكن وتطمئن ﴿ **الخزى** ﴾ الذل والهوان .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أو وصف جلت قدرته الآخرة بصفات توجب الرغبة فيها ومزيد الشوق إليها ـ أعقب ذلك بذكر صفات للدنيا توجب النفرة منها كسرعة زوالها وتقضيها وشيكا ، تحذيرا من الاغترار بزهرتها والركون إلى لذتها ، فمثل حالها بحال نبات يسقى بماء المطر فيخرج به زرع مختلف الأصناف والأنواع ، وبعد قليل تراه يجف ويصير فتاتا منكسرا ، فما أسرع زواله ، وأيسر تقضيه ! ثم أردف ذلك بيان أنه لا ينتفع بمواعظة إلا من شرح الله صدره ونور قلبه وأشعر نفسه حب العمل به ، ثم أعقبه بذكر أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن من يتقى بيديه المخاوف صيانة لوجهه عن النار ليس حاله كحال من هو آمن لا يفكر فى مآل أمره وعاقبة عمله ، وبعدئذ ذكر أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا فى الأمم ، فلقد كذب كثير قبلهم ، فأتاهم العذاب بغتة من حيث لا يشعرون فأصيبوا فى الدنيا بالذل والصغار والقتل والخسف ولعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا .

« التفسير »

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يجعله حطاما ، إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ يخبر سبحانه أن أصل الماء فى الأرض من السماء كما قال سبحانه : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض** ﴾[1] وهنا

(١) سورة المؤمنون الآية : ١٨

يقول جلت قدرته : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع فى الأرض** ﴾ أى : يصرفه سبحانه فى أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيونا ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها . وقوله تعالى : ﴿ **ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه** ﴾ أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعا مختلفا ألوانه أى : أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ **ثم يهيج** ﴾ أى : بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفرا قد خالطه اليبس ﴿ **ثم يجعله حطاما** ﴾ أى : ثم يعود يابسا يتحطم ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ أى : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزا شوهاء . والشاب يعود شيخا هرما كبيرا ضعيفا وبعد ذلك كله الموت .

الموت فى كل جبـــن ينشر الكفنـــا ... ونحن فى غفلـــة عمـــا يداوينـــا
لا تطمئـــن إلى الدنيـــا وبهجتها ... وإن توشحت من أثـــوابها الحسنـــا
أيـــن الأحبـــة والجيران ما فعلـــوا ... اين الذيـــن هموا كانـــوا لنـــا سكنـــا
سقاهـــم الموت كأسا غير صافيـــة ... فصيرهـــم لأطبـــاق الثرى رهنـــا
فإن كانت الدنيـــا تحب فإنها ... سحابـــة صيـــف عن قريب تقشع
إذا أبـــقت الدنيـــا على المرء دينـــه ... فمـــا فاتـــه منها فلـــيس بضائـــر
فلـــن تعـــدل الدنيا جنـــاح بعـــوضة ... ولا وزن زف من جنـــاح لطائـــر

فالسعيد من أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن وآثر ما يبقى على ما يفنى ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب** ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ أى : هل يستوى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد عن الحق كقوله عز وجل : ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[1] ولهذا قال تعالى : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله** ﴾ أى : فلا تلين عند ذكره ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة لا خير فيها .

قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب وما غضب الله تعالى على قوم إلا نزع منهم الرحمة . وأخرج الترمذى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ (لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى)[2] وقوله : ﴿ **أولئك فى ضلال مبين** ﴾ أى : أولئك القساة القلوب الذين أعمى الله أبصارهم فى غواية ظاهرة لكل أحد لا تحتاج إلى عناء فى تفهم حقيقتها ومعرفة كنهها .

---

(١) سورة الأنعام الاية : ١٢٢

(٢) سنن الترمذى ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى حفظ اللسان ٤ / ٦٠٧ رقم ٢٤١١ وقال : حديث حسن غريب .

قال الأمام ابن القيم فى كتابه (زاد المعاد) :

(فصل فى أسباب شرح الصدر وحصولها على الكمال له ـ ﷺ ـ) فأعظم أسباب شرح الصدر التوحيد على حسب كماله وقوته وزيادته يكون بإنشراح صدر صاحبه قال الله تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** ﴾[1] فالهدى والتوحيد من أعظم أسباب شرح الصدر ، والشرك والضلال من أعظم أسباب ضيق الصدر وأنحرافه .

ومنها النور الذى يقذفه الله فى قلب العبد ، وهو نور الإيمان فإه يشرح الصدر ويوسعه ويفرح القلب ، فإذا فقد هذا النور من قلب العبد ضاق وحرج وصار فى أضيق سجن وأصعبه .

وقد روى الحاكم فى المستدرك عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : (إذا دخل النور القلب انفسح ، قالوا وما علامة ذلك يارسول الله قال الانابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله)[2] فنصيب العبد من أنشراح صدره بحسب نصيبه من هذا النور الحسى ، والظلمة الحسية هذه تشرح الصدر ، وهذه تضيقه .

ومنها العلم فإنه يشرح الصدر ويوسعه حتى يكون أوسع من الدنيا ، والجهل يورثه الضيق والحصر والحبس ، فكلما اتسع علم العبد أنشرح صدره واتسع وليس هذا لكل علم بل العلم المورث عن الرسول ـ ﷺ ـ وهو العلم النافع ، فأهله أشرح الناس صدرا وأوسعهم قلوبا ، وأحسنهم أخلاقا وأطيبهم عيشا ، ومنها الانابة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ ومحبته بكل القلب ، والتنعم بعبادته فلا شيء أشرح لصدر العبد من ذلك حتى أنه ليقول أحيانا : إنى إذا كنت فى الجنة فى مثل هذه الحالة فإنى إذا فى عيش طيب ، وللمحبة تأثير عجيب فى إنشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلب لا يعرفه إلا من أحس به ، وكلما كانت المحبة أقوى وأشد كان الصدر أفسح وأشرح ، ولا يضيق إلا عند رؤية البطالين الفارغين من هذا الشأن فرؤيتهم قذى عينة ومخالطتهم حمى روحه . ومن أعظم أسباب ضيق الصدر الإعراض عن الله تعالى وتعلق القلب بغيره والغفلة عن ذكره ومحبة سواه ، فإن من أحب شيئا غير الله عذب به ، وسجن قلبه فى محبة ذلك الغير فما فى الأرض أشقى منه ، ولا أكثف بالا ، ولا أنكد عيشا ولا أتعب قلبا ، فهما محبتان ، محبة هى جنة الدنيا وسرور النفس ولذه القلب ونعيم الروح وغذاؤها وداؤها بل حياتها وقرة عينها وهى محبة الله وحده بكل القلب وانجذاب قوى الميل والارادة والمحبة كلها إليه ، ومحبة هى عذاب الروح رغم النفس وسجن القلب ، وضيق الصدر وهى سبب الألم والنكد والعناء وهى محبة ما سواه سبحانه .

ومن أسباب شرح الصدر دوام ذكره على كل حال وفى كل موطن فللذكر تأثير عجيب فى انشراح .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢٥

(٢) الحاكم فى المستدرك ـ كتاب الرقاق ٤ / ٣١١

الصدر ونعيم القلب وللغفلة تأثير عجيب فى ضيقه وحبسه وعذابه .

ومنها الاحسان إلى الخلق ونفعهم بما يمكنه من المال والجاه والنفع بالبدن وأنواع الاحسان ، فإن الكريم المحسن أشرح الناس صدرا وأطيبهم نفسا وأنعمهم قلبا ، والبخيل الذى ليس فيه إحسان أضيق الناس صدرا ، وأنكدهم عيشا وأعظمهم هما وغما وقد ضرب رسول الله ـ ﷺ ـ مثلا للبخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد كلماهم المتصدق بصدقه اتسعت عليه وانبسطت حتى يجر ثيابه ويعفى أثره ، وكلما هم البخيل بالصدقة لزمت كل حلقة مكانها ولم تتسع عليه فهذا مثل انشراح صدر المؤمن المتصدق وانفساح قلبه ، ومثل ضيق صدر البخيل وانحصار قلبه .

ومنها الشجاعة فإن الشجاع منشرح الصدر ، واسع البطان متسع القلب ، والجبان أضيق الناس صدرا وأحصرهم قلبا لا فرحه له ولا سرور ولا لذه له ولا نعيم الا من جنس ما للحيوان البهيمى ، وأما سرور الروح ولذتها ونعيمها وابتهاجها فمحرم على كلِ جبان كما هو محرم على كل بخيل وعلى كل معرض عن الله ـ سبحانه ـ غافل عن ذكره جاهل به وبأسمائه ـ تعالى ـ وصفاته ودينه متعلق القلب بغيره وأن هذا النعيم والسرور يصير فى القبر رياضا وجنة وذلك الضيق والحصر ينقلب فى القبر عذابا وسجنا فحال العبد فى القبر كحال القلب فى الصدر نعيما وعذابا وسجنا وإطلاقا ولا عبرة بانشراح صدر هذا العارض ولا يضيق صدر هذا العارض فإن العوارض تزول بزوال أسبابها وإنما المعول على الصفة التى قامت بالقلب توجب أنشراحه وحبسه فهى الميزان والله المستعان .

ومنها بل من أعظمها إخراج دغل القلب من الصفات المذمومة التى توجب ضيقه وعذابه وتحول بينه وبين حصول البر فإن الانسان إذا أتى الأسباب التى تشرح صدره ولم يخرج تلك الأوصاف المذمومة من قلبه لم يحظ من أنشراح صدره بطائل ، وغايته أن يكون له مادتان تعتوران على قلبه وهو للمادة الغالبة عليه منها ، ومنها ترك فضول النظر والكلام والاستماع والمخالطة والأكل والنوم فإن هذه الفضول تستحيل آلاما وغموما وهموما فى القلب تحصره وتحبسه وتضيقه ويتعذب بها ، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها فلا إله إلا الله ما أضيق صدر من ضرب فى كل آفة من هذه الآفات بسهم ، وما أنكد عيشه وما أسوأ حاله وما أشد حصر قلبه ، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش وما أسوأ حاله وما أشد حصر قلبه ، ولا إله إلا الله ما أنعم عيش من ضرب فى كل خصله من تلك الخصال المحمودة بسهم وكانت همته دائرة عليها حائمة حولها فلهذا نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم** ﴾[1] ولذلك نصيب وافر من قوله تعالى : ﴿ **وإن الفجار لفى جحيم** ﴾[2] وبينهما مراتب متفاوته لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى . والمقصود أن رسول الله ـ ﷺ ـ أكمل الخلق فى كل صفة يحصل بها أنشراح الصدر واتساع القلب وقرة العين وحياة الروح فهو أكمل الخلق فى هذا الشرح والحياة وقرة العين مع ما خص به من الشرح الحسى وأكمل الخلق متابعة له أكملهم أنشراحا

---

(١) سورة الأنفطار الآية : ١٣

(٢) سورة الانفطار الآية : ١٤

ولذة وقرة عين علي حسب متابعته ينال العبد من أنشراح صدره وقرة عينه ولذة روحه ما ينال . فهو فى ذروة الكمال من شرح الصدر ورفع الذكر ووضع الوزر ولأتباعه من ذلك بحسب نصيبهم من أتباعه والله المستعان وهكذا فمستقل ومستكثر فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ .

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآية :

هذا مدح من الله ـ عز وجل ـ لكتابه القرآن الكريم العظيم المنزل على رسوله الكريم . قال الله تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى** ﴾ قال قتادة : الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف ، وقال الضحاك : مثانى ترديد القول ليفهموا عن ربهم ـ تبارك وتعالى ـ وقال عكرمة والحسن : ثنى الله فيه القضاء . وقال ابن عباس : رضى الله عنهما ﴿ **مثانى** ﴾ قال القرآن يشبه بعضه بعضا ويرد بعضه على بعض .

وقال بعض العلماء : ويروى عن سفيان بن عينيه : معنى قوله تعالى : ﴿ **متشابها مثانى** ﴾ أن سياقات القرآن تارة تكون فى معنى واحد فهذان من المتشابة ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده كذكر المؤمنين ثم الكافرين وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا من المثانى كقوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم** ﴾[1] وكقوله تعالى ـ عز وجل ـ ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفى سجين** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين** ﴾[2] وكقوله ﴿ **هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب** ﴾ إلى أن قال : ﴿ **هذا وإن للطاغين لشر مآب** ﴾ ونحو هذا من السياقات فهذا كله من المثانى أى : فى معنيين أثنيين ، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا فهو المتشابه ، وليس هذا من المتشابه المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات** ﴾[3] ذاك معنى آخر . وقوله تعالى : ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ أى : هذه صفة الأبرار عند سماع كلام الجبار ، المهيمن العزيز ، الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف ، والتهديد تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ لما يرجون ويؤملون من رحمته ولطفه ﴿ **ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[4] فهم مخالفون لغيرهم من الفجار من وجوه (أحدها) أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات ، وسماع أولئك نغمات الأبيات من أصوات

(١) سورة الانفطار الآيتان : ١٣ – ١٤

(٢) سورة المطففين الآيات : ٧ – ١٨

(٣) سورة آل عمران الآية : ٧

(٤) سورة الرعد الآية : ٢٨

القينات (الثانى) أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا بأدب وخشية ورجاء ومحبة وفهم وعلم كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ، الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم** ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ **والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا** ﴾(٢) أى : لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها بل مصغين إليها فاهمين بصيرين بمعانيها فلهذا إنما يعملون بها ويسجدون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم . (الثالث) أنهم يلزمون الأدب عند سماعها كما كان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ عند سماعهم كلام الله تعالى من تلاوة رسول الله ـ ﷺ ـ تقشعر جلودهم ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله ، لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلفون بما ليس فيهم بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد فى ذلك ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى فى الدنيا والآخرة .

قال عبد الرازق : حدثنا معمر قال تلا قتادة ـ رحمه الله ـ ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ قال : هذا نعت أولياء الله ، نعتهم الله : عز وجل ـ بأن تقشعر جلودهم وتبكى أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم إنما هذا فى أهل البدع ، وهذا من الشيطان .

وقال السدى : ﴿ **ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ أى : إلى وعد الله ، وقوله : ﴿ **ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده** ﴾ أى : هذه صفة من هداه الله ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله لذا قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ **ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ، كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة** ﴾ أى : فمن يجعل وجهه وقاية من عذاب جهنم الشديد ، وخبره محذوف كمن هو آمن من العذاب ؟ كما قال عز وجل : ﴿ **أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾(٣) وقال ـ جلا وعلا ـ ﴿ **يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر** ﴾(٤) قال المفسرون : الوجه أشرف الأعضاء فإذا وقع الإنسان فى شىء من المخاوف فإنه يجعل يده وقاية لوجهه ، وأيدى الكفار مغلولة يوم القيامة فإذا ألقوا فى النار لم يجدوا شيئا يتقونها به إلا وجوههم .

---

(١) سورة الأنفال الآيات : ٢ - ٤

(٢) سورة الفرقان الآية : ٧٣

(٣) سورة فصلت الآية : ٤٠

(٤) سورة القمر الآية : ٤٨

وقوله جلت عظمته : ﴿ **وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون** ﴾ أى : وقيل تهكما واستهزاء لمن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصى – ذوقوا وبال ما كسبتم فى الدنيا ، ودستم به أنفسكم حتى أوقعتموها فى الهاوية النار الحامية .

ثم ذكر سبحانه ما أصاب بعض الكفرة من العذاب الدنيوى إثر بيان ما يصيب الجميع من العذاب الأخروى فقال تعالى : ﴿ **كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون** ﴾ أى : إن بعض الأمم الماضية التى كذبت رسلها أتاها العذاب بغتة من حيث لا يشعرون فلحقها الذل والصغار فى الحياة الدنيا ، وأن عذاب الآخرة لأنكى عاقبة وأشد أثرا لو علموا ذلك واعتبروا به . كقوله تعالى : ﴿ **وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وابقى** ﴾[1] .

« الأمثال فى القرآن »

قال تعالى :

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

« تفسير المفردات »

﴿ **يتذكرون** ﴾ أى : يتعظون ، ﴿ **غير ذى عوج** ﴾ أى : لا اختلاف فيه بوجه من الوجوه ﴿ **ضرب المثل** ﴾ تشبيه حال عجيبه بأخرى وجعلها مثلا لها ، ﴿ **متشاكسون** ﴾ أى : مختلفون يتنازعون لسوء طباعهم وشكاسة اخلاقهم ، ﴿ **سلما لرجل** ﴾ أى : خالصا لسيد واحد ، ﴿ **تختصمون** ﴾ تحتكمون للقضاء .

« المناسبة والمعنى الجملى »

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين ليسوا بدعا فى الأمم ، فلقد كذب كثير قبلهم فأتاهم العذاب

(١) سورة طه الآية : ١٢٧

من حيث لا يشعرون فأصيبوا فى الدنيا بالذل والصغار والخسف والغرق ولعذاب الآخرة أشد نكالا ووبالا ذكر سبحانه أن القرآن الكريم قد ضرب الامثال للناس بلسان عربى مبين لعلهم يرعوون ويزدجرون تيسيرا مه سبحانه ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾[١] وضرب الأمثال للناس للعظة والذكرى ثم أردف ذلك ذكر مثل يرشد إلى فساد مذهب المشركين وقبح طريقتهم ووضوح بطلانها ثم أعقبه ببيان أن الناس جميعا سيموتون ثم يعرضون على ربهم وهناك يستبين المحق ، والضال والمهتدى فلا داعى إلى الجدل والخلاف بينك وبينهم .

« التفسير »

يقول تعالى : ﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل** ﴾ أى : بينا للناس فيه بضرب الأمثال ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **ضرب لكم مثلا من أنفسكم** ﴾[٢] أى : تعلمونه من أنفسكم ، وقال عز وجل : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[٣] وقال عز وجل : ﴿ **ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له** ﴾[٤] وقوله جل وعلا : ﴿ **قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون** ﴾ .

أى : هو قرآن بلسان عربى مبين لا أعوجاج فيه ولا أنحراف ولا لبس بل هو بيان ووضوح وبرهان كقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعلمون الصالحات أن لهم أجرا حسنا** ﴾[٥] وقوله تعالى : ﴿ **لعلهم يتقون** ﴾ كقوله جل فى علاه : ﴿ **وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا** ﴾[٦] أى : لعلهم يحذرون ما فيه من الوعيد ويعملون بما فيه من الوعد .

قوله تعالى : ﴿ **ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكون ورجلا سلما لرجل ، هل يستويان مثلا** ﴾ أى : ضرب الله مثلا لقومك وقال لهم : ماذا تقولون فى عبد مملوك قد أمتلكه شركاء ، بينهم أختلاف وتنازع ، فهم يتجاذبونه فى حاجاتهم وهو حائر فى أمره إذا هو أرضى أحدهم أغضب الباقين ، وإذا احتاج فى مهم رده كل منهم إلى الآخرين ، فهو فى عذاب دائم وتعب مقيم ، ومملوك آخر له مخدوم واحد يخدمه مخلصا وهو يعينه على مهماته ، ويقضى له سائر حاجاته ، فأى العبدين أحسن حالا وأحمد شأنا ؟ — الجواب لا يحتاج إلى بيان — هكذا حال المشرك الذى يعبد آلهة شتى يبقى ضالا حائرا لا يدرى أى تلك الألهة يعبد ؟ ولا على أيهم يعتمد ؟ وممن يطلب رزقه ؟ وممن يلتمس رفده ؟ أما من لم يثبت إلا إلها واحدا

(١) سورة القمر الآية : ١٧
(٢) سورة الروم الآية : ٢٨
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٤٣
(٤) سورة الحج الآية : ٧٣
(٥) سورة الكهف الآيتان : ١ — ٢
(٦) سورة طه الآية : ١١٣

محتويات المجلد الخامس

الجزء الحادى والعشرون
سورة العنكبوت (٥٠ ـ ٦٩) ، سورة الروم (١ ـ ٦٠)
سورة لقمان (١ ـ ٣٤) ، سورة السجدة (١ ـ ٣٠)
وسورة الأحزاب (١ ـ ٣٠)

* سورة العنكبوت

* سورة الروم

* سورة لقمان

* سورة السجدة

* سورة الأحزاب

الجزء الثانى والعشرون

سورة الأحزاب (٣١ ـ ٧٣)، سورة سبأ (١ ـ ٥٤)، سورة فاطر (١ ـ ٤٥)، وسورة يس (١ ـ ٨٣)

* سورة سبأ

* سورة فاطر

* سورة يس

الجزء الثالث والعشرون

سورة يس (٢٨ - ٨٣)، سورة الصافات (١ - ١٨٢)، سورة ص (١ - ٨٨)، سورة الزمر (١ - ٣١)

* سورة الصافات

* سـورة ص

* سـورة الزمر

انتهى المجلد الخامس ويليه المجلد السادس
بإذن الله تعالى

فهو قائم بما كلفه ، عارف ما يرضيه وما يسخطه ـ لا شك أن البون بين حاليهما شاسع . وقوله تعالى : ﴿ **هل يستويان مثلا** ﴾ أى : هل تستوى صفتاهما وحالاهما ؟

﴿ **الحمد لله** ﴾ أى بعد أن بطل القول بإثبات الشركاء والأنداد ، وثبت أن لا إله إلا هو .. ثبت أن الحمد لله لا لغيره .

﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى : بل أكثر الناس لا يعلمون أن الحمد له لا لغيره فيشركون به سواه . كقوله تعالى : ﴿ **قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آالله خير أما يشركون** ﴾[1] الله خيرا . ولما لم يلتفت المشركون إلى الحق ، ولم ينتفعوا بضرب المثل ، أخبر سبحانه بأن مصير الجميع إلى الله وأنهم يختصمون يوم القيامة بين يديه وهو الحكم العدل ، وهناك يتميز المحق من المبطل فقال سبحانه .

﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون ، ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ أى : أنك ستموت وهم سيموتون ، ثم تختصمون عند ربكم ، فتحتج أنت عليهم بأنك قد بلغت فكذبوا ، ويعتذرون هم بما لا طائل تحته ، وبما لا يدفع عنهم لوما ولا تقريعا ويقول التابعون للرؤساء : أطعناكم فأضللتمونا ، ويقول السادة : أغوانا الشيطان وآباؤنا الأولون . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : ﴿ **ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ يقول يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدى الضال ، والضعيف المستكبر . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا** ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا** ﴾[3] .

« الأمثال القرآنية »

دراسة تحليلية :

قال الدكتور محمد بكر اسماعيل فى كتابه الأمثال القرآنية دراسة تحليلية ما نصه :

(مفهوم المثل فى أصل اللغة ، ومفهومة فى القرآن الكريم : قال ابن فارس (الميم ، والتاء ، واللام ، أصل صحيح يدل على مناظرة الشيء ، وهذا مثل هذا أى نظيره .

والمثل والمثال فى معنى واحد ، وربما قالوا مثيل كشبيه .

قال الفيروز أبادى فى البصائر (المثل ، والمثل ، والمثيل كالشبه ، والشبه والسبيه لفظا ومعنى والجمع أمثال .

(١) سورة النحل الآية : ٥٩

(٢) سورة الفرقان الآية : ٣٠

(٣) سورة النساء الآيتان : ٤١ ـ ٤٢

وقد يستعمل المثل ـ بكسر الميم ـ عبارة عن المشابه لغيره فى معنى من المعانى ، أى معنى كان .

وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة ، وذلك أن الند يقال فيما يشاركه فى الجوهرية فقط ، والشكل يقال فيما يشاركه فى الكيفية فقط ، والمادى يقال فيماه يشاركة فى الكمية فقط ، والمثل عام فى جميع ذلك ، ولهذا لما أراد الله نفى التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال تعالى : ﴿ **لبس كمثله شىء** ﴾ .

أى ليس مثل صفته شىء من أوصاف الخلق ، فالكاف بمعنى مثل ، والمثل بمعنى الصفة ، وفى الآية تأويلات أخرى أهمها هذا التأويل والله أعلم .

والمثل ـ بفتح الميم والتاء ـ يستعمل غالبا فى الأمور المعنوية ، لهذا قال تعالى : ﴿ **للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم** ﴾ (النحل ٦٠) .

وقال جل شأنه : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ (الروم ٢٧) .

هذا وقد فرق الامام الفخر الرازى ـ من جهة أخرى ـ بين المثل والمثل فقال (المثل بالكسر هو الذى يكون مساويا للشىء فى تمام الماهية ، والمثل بالفتح هو الذى يكون مساويا له فى بعض الصفات الخارجة عن الماهية .

(وقيل المكسور بمعنى شبه ، والمفتوح بمعنى الوصف) .

وابن منظور فى لسان العرب لا يفرق بين المثل بالكسر ، والمثل بالفتح بل يجعلهما بمعنى واحد فيقول (مثل كلمة تسوية) يقال هذا مثله ، ومثله كما يقال : شبهه وشبهة بمعنى) .

قال الراغب فى مفرداته : (أصل المثول : الانتصاب والمثل المصور على مقال غيره ، يقال : مَثل الشىء أى أنتصب وتصور ومنه قوله ـ ﷺ ـ (من أحب أن يمثل له الرجال قياما فليتبوا مقعده من النار) (١)

والتمثال الشىء المصور ، وتمثل كذا تصور ، قال تعالى ﴿ **فتمثل لها بشرا سويا** ﴾ (مريم ١٧) .

والمثل عبارة عن قول فى شىء يشبه قولا فى شىء آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويصوره نحو قولهم : الصيف ضيعنت اللبن فإن هذا القول يشبه قولك أهملت وقت الا مكان أمرك وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال فقال : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها** ﴾ وفى أخرى : ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .

والمثال مقابلة شىء بشىء هو نظيره ، أو وضع شىء ما ليحتذى به فيما يفعل .

والمثله : نقمة تنزل بالانسان فيجعل مثالا يرتدع به غيره وذلك كالنكال ، وجمعه : مثلات . قال

(١) سنن أبى داود ـ كتاب الأدب ـ باب الرجل يقول : فلان يقرئك السلام ٥ / ٣٩٧ رقم ٥٢٢٩ .
وسنن الترمذى ـ كتاب الأدب ـ باب كراهة قيام للرجل ٥ / ٩ رقم ٢٧٥٥ وقال : حديث حسن .

تعالى : فى سورة الرعد : ﴿ **وقد خلت من قبلهم المثلات** ﴾[1] .

قال : وقد أمثل السلطات فلانا إذا نكل به ، والأمثل يعبر به عن الأشبه بالأفضل ، والأقرب للخير ، وأماثل القوم كناية عن خيارهم . وعلى هذا قوله تعالى : ﴿ **إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما** ﴾[2] .

وقال ﴿ **ويذهبا بطريقتكم المثلى** ﴾ (طه ٦٣) أى : الأشبه بالفضيلة وهى تأنيث الأمثل . أ هـ .

هذا ويأتى لفظ المثل بمعنى الصفة كقوله تعالى : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ (الرعد ٣٥) .

ويأتى بمعنى الحال كقوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا** ﴾[3] والفرق بين الحال والصفة أن الأول متغير ، والثانى ثابت أو شبه ثابت ، ويأتى لفظ المثل بمعنى القصة والحكاية .

وقال صاحب المصبح المنير : والمثل يستعمل على ثلاثة أوجه :

الأول : بمعنى الشبيه .

الثانى : بمعنى نفس الشىء وذاته .

الثالث : يكون زائد المعنى بلاغى .

ويوصف به المذكر والمؤنث ، والجمع . فيقال : هو ، وهى ، وهما وهم ، وهن مثله . وفى التنزيل : ﴿ **أنؤمن لبشرين مثلنا** ﴾ (المؤمنون ٤٧) .

ومثال استعماله زائدا قولهم : (مثلك لا يعرف كذا) أى : أنت لا تعرف كذا ، وحملوا عليه قوله تعالى : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾ (الأنعام ١٢٢) أى كمن هو فى الظلمات وقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا** ﴾ أى : فإن آمنوا بما آمنتم به .

قال ابن جنى فى الخصائص : قولهم (مثلك) لا يفعل كذا قالوا مثل زائدة ، والمعنى أنت لا تفعل كذا قال : وإن كان المعنى كذلك إلا أنه على غير هذا **التأويل** الذى رأوه من زيادة (مثل) وإنما تأويله : أنت من جماعة شأنهم كذا ، ليكون أثبت للأمر إذا كان له فيه أشباه وأضراب ، ولو انفرد هوبه لكان انتقاله عنه غير مأمون وإذا كان له فيه أشباه كان أحرى بالثبوت والدوام وعليه قوله : **ومثلى لا تنبو عليك مضاربه** . أ هـ .

هذا وقد يطلق المثال فى اللغة على معان أخر غير التى ذكرناها ، فقد ـ سمى الفراش مثالا ، والقصاص مثالا ، والحجة مثالا ، كما جاء فى بعض المعاجم كلسان العرب ومقاييس اللغة .

ويأتى المثال بعنى المقدار ، ويكون بمعنى العبرة .

(١) سورة الرعد الآية : ٦

(٢) سورة طه الآية : ١٠٤

(٣) سورة البقرة الآية : ١٧

ومنه قوله عز وجل : ﴿ **فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين** ﴾ (الزخرف ٥٦) . ويكون المثل بمعنى الآية .

قال الله ـ عز وجل ـ فى صفة عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ ﴿ **وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل** ﴾ أى آية تدل على نبوته . (الزخرف ٥٩) **وجميع المعانى التى ذكرناها للمثل تصاريفه المختلفة ترد إلى معنى المشابهة على نحو ما .**

وضرب المثل فى الكلام أن يذكر لحال ما يناسبها فيظهر من حسنها ، أو قبحها ما كان خفيا ، وهو مأخوذ من ضرب الدراهم ، وهو إحداث أثر خاص فيها ، كأن ضارب المثل يقرع به أذن السامع قرعا ينفذ أثره إلى قلبه ، ولا يظهر التأثير فى النفس بتحقير شىء وتقبيحه الا بتشبيهه بما جرى العرف بتحقيره ونفور النفوس منه (تفسير المراغى ح ١ ص . ٧٠ ط الحلبى) .

وقد يكون ضرب المثل مشتقا من قولك : (ضرب فى الأرض) أى : سار فيها ، فمعنى ضرب المثل جعله ينتشر وينبع ويسير فى البلاد . وإلى هذا ما ذهب إليه أبو هلال فى مقدمة كتابه .

وقد يكون معنى (ضرب المثل) نصبه للناس بإشهاره لتستدل عليه خواطرهم كما تستدل عيونهم على الأشياء المنصوبة . واشتقاقه حينئذ من قولهم : (ضربت الخباء) إذا نصبته وأثبت طنبه .

فمثلا قوله تعالى : ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ (الرعد ١٧) .

معناه : ينصب منارهما ويوضح أعلامهما ليعرف المكلفون الحق بعلاماته فيقصدوه . ويعرفوا الباطل فيجتنبوه ، كما قال الشريف الرضى فى كتابه (تلخيص البيان فى مجازات القرآن) .

وقد يكون معنى الضرب : إبقاء شىء على شىء ، فكأن المثل مطابق للحالة أى للصفة التى جاء لايضاحها .

وأما المثل عند علماء البيان فمفهومه أخص من مفهومه فى أصل اللغة فهو عندهم : استعارة تمثيلية شاع استعمالها مذكرا أو مؤنثا من غير تغيير فى العبارة الواردة .

فإذا فشت الاستعارة التمثيلية ، وشاع استعمالها وظلت باقية على هيئتها ، واستساغها العقلاء لما فيها من دقة التصوير ، أضحت مثلا يضرب .

كقوله : **الصيف ضيعت اللبن** بكسر تاء الفاعل فقد ورد فى امرأة فرطت فى أمر ، ثم طلبته بعد فوات فرصته ، ثم شاع استعماله وذاع ، حتى صار مثلا لكل من طلب أمرا ، بعد التفريط فيه ، وبعد فوات الأوان .

وكقولهم : (تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن) لمن يعرض له أمر لا يشتهيه ، تشبيها له بربان السفينة تزجيها الرياح إلى غير الوجهة التى يريدها .

وهكذا يقال فى جميع الأمثال السائرة نثرا ونظما .

والاستعارة التمثيلية : هى اللفظ المركب المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة ما من إرادة المعنى الأصلى . (وتشبيه التمثيل هو ما كان وجه الشبه فيه هيئة منتزعة من عدة أمور اثنين فما فوق ـ حسيا كان ذلك الوجه أو غير حسى) .

وإذا أطلق لفظ التمثيل انصرف إلى الاستعارة التمثيلية فإذا أريد التشبيه ذو الوجه المركب قيل تشبيه التمثيل ، أو تشبيه تمثيلى .

قال الجرجانى : التشبيه عام ، والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه ، وليس كل تشبيه تمثيلا .

هذا هو مفهوم المثل عند علماء البلاغة ، وهو موافق للمفهوم اللغوى فى أكثر استعمالاته ، بل هو المعول عليه فى مفهوم اللفظ عندهم .

فإن قيل : (محمد مثل الأسد) فمعناه أنه يشبهه فى صفة من صفاته وهى الشجاعة ، ولكن لا يكون هذا التشبيه تمثيلا إلا إذا كان هيئة مركبة منتزعة من عدة أوصاف ، أو أحوال يحتاج الذهن فى إدراكها ، ومنهم جوانبها المختلفة ، وتذوق بلاغتها إلى تأمل وأنعام نظر .

فالتشبيه الذى يعد من قبيل المثل ، أو يقال إنه تشبيه تمثيلى هو مالا يقدر على صياغته إلا البليغ .

ولهذا وجدنا الجرجانى قسم التشبيه فى كتابه (أسرار البلاغة) إلى نوعين فيقول :

اعلم أن الشيئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين :

أحدها : أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأويل .

والآخر : أن يكون المشبه محصلا بضرب من التأول والمراد بالتأول إرجاع وجه الشبه إلى معنى يكون متحققا فى الطرفين بوجه من التلطف والحيلة والذكاء .

وأكثر أمثال القرآن الكريم نجد وجه الشبه فيها منتزعا من هيئة مركبة فيها الصوت واللون والحركة ويحتاج البليغ فى إدراكه إلى إعمال فكر وإمعان نظر فإذا استطاع أن يدرك وجه الشبه بين الطرفين نوع إدراك ملك عليه التمثيل مشاعره ، وبهره ما فيه من جمال التعبير ، ودقة التصوير ، وروعة البيان .

والحق عندى أن المثل فى اللغة أعم مما ذكره علماء البيان فليس هو محصورا فى الاستعارة التمثيلية والتشبيه التمثيلى ، والكناية ، وإنما هو قول محكى بليغ يصور المعنى المراد تصويرا دقيقا ، لا يتأتى فى غيره من الأساليب .

وما سمى المثل مثلا إلا أنه ماثل فى الذهن ، منطبع فى الخيال .

قال الآلوسى فى تفسيره : (والأمثال تضرب للكشف والبيان والمثل ـ بفتحتين ـ كالمثل بكسر فسكون ـ والمثيل فى الأصل النظير والشبيه ثم أطلق على الكلام البليغ الشائع الحسن ، المشتمل أما على تشبيه بلا تشبيه أو استعارة رائعة تمثيلية وغيرها . أو حكمة وموعظة نافعة ، أو كناية بديعة ، أو نظم من جوامع

الكلم الموجز ولا يشترط فيه أن يكون استعارة مركبة خلافا لمن وهم ، بل لا يشترط أن يكون مجازا إلى آخر ما قال) أ . هـ .

ولهذا نستطيع أن نقرر أن أصدق تعريف للمثل وأشمل أن يقال هو (إبراز المعنى فى صورة حسية تكسبه روعة وجمالا ، وتجعله أكثر إمتاعا للعقل وإمتاعا للأذن . بغض النظر عن مضربه ومورده بل لا يشترط أن يكون له مورد ، وإنما يجرى مجرى الحكم التى يتناقلها الناس فيما بينهم على سبيل الاحتجاج أو النصح ، أو الاتعاظ ، أو التفكه والتندر وما إلى ذلك من أغراض المثل التى سيأتى ذكرها .

وبهذا التعريف تدخل أمثال القرآن الكريم فهى تمثيل حال أمر بحال أمر آخر ، سواء ورد هذا التمثيل بطريق الاستعارة أم بطريق التشبيه ، أم بطريق الكناية فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوى الذى هو الشبيه والنظير ، ولا يستقيم حملها ما يذكر فى كتب الأدب من تشبيه المضرب بالمورد ولا يشترط أن يكون فيه غرابة أو طرافة ولكنها صور مختلفة لمعانى ترد للعبرة والاتعاظ ، وتقريب ما يستعصى على العقول فهمه من الأمور الغيبية ، كصفة الجنة ، وكيفية زوال الدنيا ، وغير ذلك ، سواء صرح فيه بلفظ المثل أم لم يصرح به بأن أرسل إرسالا فاتخذه الناس مثلا يحتجون به ويعتبرون بما فيه . فالأمثال القرآنية مقاييس عقلية تخلو من التكلف والاعتاف ، وقواعد كلية للمبادىء الخلقية الصالحة لكل زمان ومكان .

والأصل فى المثل كما عرفنا أنه يقوم على تشبيه شىء بشىء لوجود عنصر تشابه بينهما أو أكثر .

وفى هذا الوجود الكبير أشباه ونظائر لا يحصيها إلا الله تعالى : إن الملاحظة الذكية تستطيع أن تتصيد للشىء الواحد عدة أشباه ونظائر من هذا الوجود الكبير .

ولا يشترط فى التشبيه أن يكون مطابقا من كل الوجوه ، بل يكفى فيه أن يلمح منه جانب فيه شبه ما صالح لتحقيق غرض من أغراض التشبيه أو التمثيل .

والمثل القرآنى أسلوب بيانى يجمع فى طياته نماذج حية مستمدة من الواقع المشاهد لتكون هذه النماذج أقيسة عامة للحقائق المجردة ، أو الأعمال المجربة ، أو الأمور التى لا تقع تحت الحس والادراك فى الدنيا والتى يترتب عليها أحكام شمولية ، ويبنى عليها صلاح أمر الناس فى الدنيا والآخرة وبهذا الاطلاق العام لمعنى المثل فى القرآن الكريم نفهم معنى قوله تعالى فى سورة الاسراء (٨٩) .

﴿ **ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾ وقوله تعالى فى سورة الزمر (٢٧)

﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون** ﴾ وقوله تعالى فى سورة الروم (٥٨)

﴿ **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون** ﴾ .

فهذا التعميم الموجود فى هذه الآيات إنما ينطبق على ذكر النماذج لكل نوع ليقاس عليها الأفراد المشابهة بغية الوصول إلى فهم أمور الدين والدنيا جميعا وما جاء فى القرآن من بيان قصص الأولين ، وما جرى لهم من أحداث ، وما أجرى الله عليهم من عقاب أو ثواب يعد من قبيل الأمثال ، فالقصة مهما طالت يصح أن نطلق عليها لفظ المثل لما فيها من العظات والعبر ، والمقاييس التى يعرف بها الخير والشر ، ويدرك بواسطتها ما هو طيب وما هو خبيث قال تعالى : ﴿ **ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين** ﴾ (النور ٣٤) .

وقد سماها الله أمثالا ، لأنها نماذج من حكمته فى إقامة عدله ، وقطع دابر الفساد المنتشر فى الأرض .

ولقد أشارت هذه الآية إلى ثلاثة أمور أنزلها الله تعالى لصلاح أمر عباده فى الدنيا والآخرة .

الأول : آيات **مبينات** لقواعد العقيدة ، وأحكام الشريعة وبعض الحقائق الكونية .

الثانى : **قصص** الذين خلوا من قبلنا ، وسماها الله مثلا ، لأن الغرض من ذكرها التنبيه على سنة الله وحكمته فى مجازاة عباده . وأبان الله هذا المعنى بقوله فى سورة الفتح : **(٢٣)**

﴿ **سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ وبقوله فى سورة الأحزاب ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل . ولن تجد لسنة الله تبديلا** ﴾ **(٦٢)** .

ونظير ذلك قول الله تعالى فى سورة فاطر (٤٣ ، ٤٤) .

﴿ **فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ، ولن تجد لسنت الله تحويلا أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليما قديرا** ﴾ .

وقوله الله تعالى فى سورة (الأنفال ٣٨) .

﴿ **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين** ﴾ أى : فإنه يأتيهم ما أتى للأولين من عذاب وهلاك لأن ذلك من سنة الله فى عباده فليقيسوا أحوالهم وأعمالهم على أحوال وأعمال من سبقوهم من الكافرين ، وليعلموا أن سنة الله لها صفة الثبات وأن عقاب الله سينزل بهم كما نزل بالذين من قبلهم إذا استمروا على ما هم عليه من كفر ومقاومة لدعوة الحق .

ومن ذلك أيضا قول الله تعالى — فى سورة (غافر) :

﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كان يكسبون ، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم**

ما كانوا به يستهزئون ، فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ، ﴾ (٨٢ ـ ٨٥ .

وقوله تعالى فى سورة (محمد ١٠) .

﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾ .

الأمر الثالث الذى تضمنته سورة (النور) فى الآية : ٣٤ هى :

المواعظ التى يرتقى بها المتقون إلى مراتب الأبرار والمقربين والمواعظ نوعان :

منها ما كان من قبيل الأمثال وهى أبلغ فى تقويم الأخلاق والسلوك ، وأعظم تأثيرا فى تخليص القلوب من شوائب الشرك ونزعات الشيطان ، ونزوات الهوى .

ومنها ما هو من قبيل النصح المجرد عن المشابهة ، والمماثلة ، وهى ما يسمى بالوعظ المباشر .

كما فى قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (**١٩٩ - الأعراف**)

« أنواع المثل فى القرآن الكريم »

يرى بعض الباحثين أن الأمثال القرآنية تنقسم من حيث هى إلى ثلاثة أقسام :

الأول : الأمثال المصرحة أو القياسية .

وهى التى صرح فيها بلفظ المثل أو ما يقوم مقامه كقوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذى استوقد نارا** ﴾ (البقرة ١٧) .

﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون** ﴾ (الرعد ٣٥) .

﴿ **مثل نوره كمشكاة فيها مصباح** ﴾ (النور ٣٥)

﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة** ﴾ النور ج ٣)

﴿ **أو كظلمات فى بحر لجى** ﴾ (النور ٤٠) .

والثانى ـ ما يسمى بالأمثلة المرسلة ، وهى جمل قد أرسلت إرسالا من غير تصريح بلفظ التشبيه وكثر التمثيل بها لما فيها من العظة والعبرة والاقناع .

وقد اكتسبت صفة المثلية بعد نزول القرآن الكريم وشيوعها فى المسلمين ، ولم تكن فى وقت نزوله ، وهى فى جملتها مبادىء خلقية ودينية مركزة مثل قوله تعالى :

﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ (آل عمران ٩٢) .

﴿ **ليس لها من دون الله كاشفة** ﴾ (النجم ٥٨) .

﴿ الآن حصحص الحق ﴾ (يوسف ٥١) .
﴿ وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ﴾ (يس ٧٨) .
﴿ قضى الأمر الذى فيه تستفتيان ﴾ (يوسف ٤١) .
﴿ أليس الصبح بقريب ﴾ (هود ٨١) .
﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ (سبأ ٥٤) .
﴿ لكل نبأ مستقر ﴾ (الانعام ٦١)
﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ﴾ (فاطر ٤٣)
﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ (الاسراء ٨٤) .
﴿ وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ﴾ (البقرة ٢١٦) .
﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ (المدثر ٣٨) .
﴿ ما على الرسول إلا البلاغ ﴾ (المائدة ٩١) .
﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ (التوبة ٩١) .
﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ (الرحمن ٦٠) .
﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ (البقرة ٢٤٩) .
﴿ الآن وقد عصيت قبل ﴾ (يونس ٩١) .
﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ﴾ (الحشر ١٤) .
﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (فاطر ١٤) .
﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ (الروم ٣٢) .
﴿ ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ﴾ (سبأ ١٣) .
﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾ (سبأ ٢٣) .
﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ (البقرة ٢٨٦) .
﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ﴾ (المائدة ١٠٠) .
﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر ﴾ (الروم ٤١) .
﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ (الحج ٧٣) .
﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ (الصافات ٦١) .
﴿ وقليل ما هم ﴾ (ص ٢٤) .
﴿ فاعتبروا ياأولى الأبصار ﴾ (الحشر ٢) .

الثالث : ما يسمى بالأمثال الكامنة ، وهى لم تضرب لبيان حال خاصة ، ولا لصفة معينة ، ولا لتخليص حادثة وقعت فى زمن من الأزمان ، ولم يصرح فيها بالتمثيل من قريب ولا من بعيد ، ولكن يدل

مضمونها على معنى يشبه مثلا من أمثال العرب المعروفة أى أنها أمثال **بمعانيها** لا بألفاظها ، فالتمثيل فيها كامن غير ظاهر ، لهذا اسموها بالأمثال الكامنة .

قال الماوردى : سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول : سمعت أبى يقول : سألت الحسين بن الفضل فقلت إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن ، فهل تجد فى كتاب الله : ﴿ **خير الأمور أوساطها** ﴾ ؟ .

قال : نعم فى أربعة مواضع : قوله تعالى :

١ - ﴿ **لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك** ﴾ (البقرة ٦٨) .

٢ - ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾ (الفرقان ٦٧) .

٣ - ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا** ﴾ (الاسراء ٢٩) .

٤ - ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ (الاسراء ١١٠) .

قلت : **فهل** تجد فى كتاب الله ، (من جهل شيئا عاداه) .

قال : نعم ، فى موضعين : قوله تعالى : ﴿ **بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه** ﴾ (يونس ٣٩) .

وقوله : ﴿ **وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ (الأحقاف ١١) .

قلت : فهل تجد فى كتاب الله (احذر شر من أحسنت إليه) .

قال : نعم قوله تعالى : ﴿ **وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله** ﴾ (التوبة ٧٤) .

قلت : فهل تجد فى كتاب الله (ليس الخبر كالعيان) .

قالق : فى قوله تعالى : ﴿ **قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾ (البقرة ٢٦٠) .

قلت : فهل تجد (فى الحركات البركات) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** ﴾ (النساء ١٠٠) .

قلت : فهل تجد (كما تدين تدان) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **من يعمل سوءا يجزبه** ﴾ (النساء ١٢٣) .

قلت : فهل تجد فيه قولهم : (حين تقلى تدرى) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا** ﴾ (الفرقان ٤٢) .

قلت : فهل تجد فيه (لا يلدغ المؤمن من حجر مرتين) .

قال : ﴿ **هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل** ﴾ (يوسف ٦٤) .

قلت : فهل تجد فيه (من أعان ظالما سلط عليه) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾ (الحج ٤) .

قلت : فهل تجد فيه (لا تلد الحية إلا حية) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا** ﴾ (نوح ٢٧) .

قلت : فهل تجد فيه (للحيطان آذان) .

قال : فى قوله تعالى : ﴿ **وفيكم سماعون لهم** ﴾ (التوبة ٤٧) .

إلى غير ذلك مما نقله السيوطى فى الاتقان (الجزء الرابع) .

وأرى أن النوع الثالث ليس داخلا فى الأمثال على أى صورة من الصور ، لخلوه من وجه المشابهة بين الممثل والممثل له .

وهو مخالف فى حقيقته المثل ومفهومه فى اللغة ، وما ذكره السيوطى وغيره عن الحسين بن الفضل ضرب من تدريب القريحة على استخراج النظائر القرآنية لبعض ما تمثل به العرب فى عصورهم المختلفة من الأقوال الحكيمة التى أوجزت حادثة من الحوادث ، أو دلت على معنى من المعانى المعقولة .

أحكام صادقة لا مرية فيها

قال تعالى :

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ (٣٢)
وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٤) لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ (٣٥) أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٦)
وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ (٣٧) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ
هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٩) مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠) إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٤١) ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ
حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢) أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ
قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾

معانى المفردات

(مثوى) : مُقاماً ـ من ثوى بالمكان يثوى ثُويًّا وثواءً : إذا أقام به . (والذى جاء بالصدق) : هو الرسول ﷺ (وصدق به) : هم أتباعه . (أسوأ الذى عملوا) أى : ما عملوه من المعاصى قبل الإسلام ، (ويجزيهم أجرهم) أى : يثيبهم على الطاعات التى فعلوها فى الدنيا (بكاف عبده) أى : يكفيه وعيد المشركين وكيدهم ، (الذين من دونه) : هم الأصنام . (ذى انتقام) أى : مما عاداه وعادى رسوله . (يحل عليه) : يجب عليه (يتوفى الأنفس) : يقبضها عن الأبدان . (لله الشفاعة جميعاً) : لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه (اشمأزت) : نفرت وانقبضت عن التوحيد (فاطر) : مبدع : أى : خلقهما سبحانه على غير مثال سبق .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ فيما سلف بعض هنات المشركين ، وبعض مقابحهم وأعقبه بمثل يشرح حالهم ـ أردف ذلك نوعا آخر منها وهو أنهم يَكْذِبُونَ فيثبتون لله ولدا ويثبتون له شركاء . ويكذّبون القائل المحق ، فيكذبون محمداً ﷺ بعد قيام الأدلة القاطعة على صدقه ، وبعد أن ذكر وعيد هؤلاء أعقبه بوعد الذى جاء بالصدق ووعد المصدقين له فبشرهم بالجنة والرضوان والغفران هذا فى الآخرة ، وفى الدنيا بالنصر فيكفيهم فى الدنيا ما أهمهم ، ولايضيرهم ما يخوفونهم به من غضب الأوثان والأصنام ، فإن الأمور كلها بيده ـ تعالى ـ فمن يضلله فلا هادى له ، ومن يهده فلا مضل له ، وهو ذو العزة المنتقم الجبار .

ثم ذكر أن قول المشركين يخالف فعلهم : فحين تسألهم من خلق السموات والأرض ؟ يقولون : الله : وهم مع ذلك يعبدون غيره ، ثم سألهم سؤال تعجيز : هل ما تعبدونه من وثن أو صنم يستطيع أن يكشف ضراً أراده الله بأحد ، أو يمنع خيراً قدره الله لأحد ؟ إذاً فالله حسبى وعليه أتوكل .

ثم أمره ـ سبحانه ـ أن يقول لهم : اعملوا كما تشاءون وسوف تعلمون من يحل عليه عذاب مقيم يوم القيامة .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ أنه أنزل على رسوله الكريم القرآن الكريم بالحق وأنه ليس عليه إلا إبلاغه ،

فمن اهتدى فنفع ذلك عائد إليه ومن ضل ضلاله عليه ، وما وُكل عليهم ليجبرهم على الهدى .

ثم ذكر أنه ـ تعالى ـ يقبض الأرواح حين انقضاء آجالها ويقطع صلتها بها ظاهراً وباطناً ، وظاهراً فقط حين النوم ، فيمسك الأولى ولا يردها إلى البدن ، ويرسل الثانية إلى البدن حين اليقظة ، وفى ذلك دلائل على القدرة لمن يتفكر ويتدبر . ثم أبان ـ سبحانه ـ أن هذه الأصنام التى اتخذت شفعاء لا تملك لنفسها شيئا ولا تعقل شيئا ، فكيف تشفع ؟ وبعدئذ ذكر مقابحهم ومعايبهم وأنه إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ظهرت آثار النفرة فى وجوههم ، وإذا ذكرت الأصنام ظهرت علامات الفرح والسرور فيها ، وهذا منتهى الجهل والحمق الشديد .

وبعد أن ذكر عن المشركين حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد ـ أمر رسوله بالالتجاء إليه لما قاساه فى أمر دعوتهم من شديد مكابرتهم وعنادهم تسلية له ، وبيانا لأن سعيه مشكور ، وتعليما لعباده أن يلجئوا إليه حين الشدة ، ويدعوه بأسمائه الحسنى . ﴿ **قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فى ما كانوا فيه يختلفون** ﴾[1] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس فى جهنم مثوى للكافرين * والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون** ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : يقول ـ عز وجل ـ مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولداً ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على ألسنة رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ ولهذا قال عز وجل : ﴿ **فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه** ﴾ أى : لا أحد أظلم من هذا لأنه جمع بين طرفى الباطل ، كذب على الله وكذب رسول الله ﷺ قالوا الباطل وردوا الحق ، ولهذا قال جلت عظمته متوعداً لهم : ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للكافرين** ﴾ وهم الجاحدون المكذبون ثم قال جل وعلا : ﴿ **والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون** ﴾ .

قال مجاهد وقتادة والربيع بن أنس وابن زيد : الذى جاء بالصدق هو رسول الله ﷺ وقال السدى : هو جبريل ـ عليه السلام ـ (وصدق به) يعنى محمداً ﷺ وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد : (والذى جاء بالصدق وصدق به) قال : أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة

---

(١) سورة الزمر الآية : ٤٦

فيقولون : هذا ما أعطيتمونا فعملنا فيه بما أمرتمونا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (والذى جاء بالصدق) هو رسول الله ﷺ (وصدق به) قال : المسلمون . وقوله تعالى : ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : اتقوا الشرك . ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ يعنى : الجنة مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾ كما قال ـ عز وجل ـ فى الآية الأخرى : ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾(1) .

وفى ذكر تكفير الأسوأ إشارة إلى استعظامهم للمعصية مطلقا لشدة خوفهم من الله ، وإلى أن الحسن الذى يعملونه هو الأحسن عند الله لحسن إخلاصهم فيه .

قوله تعالى : ﴿ أليسَ الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام * ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل فسوف تعلمون * من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ يعنى : أنه تعالى يكفى من عَبَده وتَوكل عليه ، فهو وحده ـ سبحانه ـ الذى يدفع عن عباده الآفات ، ويزيل عنهم المصائب والويلات ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم : وأتى بالكلام على طريق الأسلوب الإنكارى للإشارة إلى كفايته ـ تعالى ـ على أبلغ وجه ، كأنها من الظهور بحيث لا يتيسر لأحد أن ينكرها ، فمن كان عبداً لله ، قائماً بحقه فى المكروه والمحبوب فذلك الذى تناوله قوله تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ؟ ، فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان ، قال تعالى : ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾(2) فلم يجعل لعدوه سلطاناً على عباده المؤمنين ، فإنهم فى حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه .

وقوله تعالى : (ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ يعنى : المشركين يخوفون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التى يدعونها من دون الله جهلا منهم وضلالا ، ولهذا قال ـ عز وجل ـ : ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ ؟ أى : ومن يضلله الله لتدنيسه نفسه وحبه للإثم والفسوق ومعصية الرسول ، فما له من هاد يهديه إلى الرشاد ويخلصه من الضلال . ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ أى : ومن يوفقه الله إلى أسباب السعادة بتزكية نفسه وتحبيبها إلى العمل الصالح ، فلا مضل له يصرفه عن مقصده أو يصيبه سوء يغير سلوكه ، إذ لاراد

---

(1) سورة الأحقاف آية : ١٦
(2) سورة الحجر من الآية :٤٢

لفضله ، ولا معارض لإرادته ، وإلى ذلك أشار بقوله : ﴿ أليس الله بعزيز ذى انتقام ﴾ أى : الله عزيز لا يغالب منيع لا ينازع ولا يمانع ، وذو انتقام من أعدائه لأوليائه ، فهو الذى لا يضام من استند إلى جنابه أو لجأ إلى بابه .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ يعنى المشركين كانوا يعترفون أن الله ـ عز وجل ـ هو الخالق للأشياء كلها ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ، إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ أى : لا تستطيع شيئا من الأمر وهذا كقوله تعالى : ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم)[٢] وكقوله تعالى : ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير * وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير)[٣] . وفى الحديث الصحيح عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : كنت خلف النبى ﷺ يوما ، فقال : « يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »[٤] . رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ قل حسبى الله ﴾ أى : الله الكافى وهو سبحانه نعم المولى ونعم النصير . ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ وهذا كما قال هود ـ عليه السلام ـ لقومه حين قال له قومه : (إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم)[٥] وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما فى يد الله عز وجل أوثق منه بما فى يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل »[٦] .

---

(١) سورة فاطر الآية : ٢
(٢) سورة يونس الآية : ١٠٧
(٣) سورة الأنعام الآيتان : ١٧ ـ ١٨
(٤) انظر سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة » جـ ٤ ص ٧٦ حديث ٢٦٣٥ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .
(٥) سورة هود الآيات : ٥٤ ـ ٥٦ .
(٦) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب الأدب » جـ ٤ ص ٢٧٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مع اختلاف فى ترتيب جمله .
وانظر الحلية جـ٣ ص٢١٨ فقد ورد الحدث من رواية ابن عباس .

وقوله تعالى : ﴿ **قل يا قوم اعملوا على مكانتكم** ﴾ أى : على طريقتكم وهذا تهديد ووعيد ﴿ **إنى عامل** ﴾ أى : على طريقتى ومنهجى ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أى : ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أى : فى الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أى : دائم مستمر لا محيد عنه ، وذلك يوم القيامة - أعاذنا الله منها .

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل * الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ : ﴿ **إنا أنزلنا عليك الكتاب** ﴾ يعنى : القرآن الكريم ﴿ **للناس بالحق** ﴾ أى : لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿ **فمن اهتدى فلنفسه** ﴾ أى : فإنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ﴿ **ومن ضل فإنما يضل عليها** ﴾ أى : إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ، ﴿ **وما أنت عليهم بوكيل** ﴾ أى : بموكل أن يهتدوا . كقوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[2] ، وكقوله تعالى : ﴿ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ .

ذكر سبحانه بعد ذلك نوعاً من أنواع قدرته البالغة ، وصفته العجيبة فقال - جل فى علاه - : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾ أى : هو الذى يقبض الأنفس حين انقضاء آجالها بالموت ، ويقطع تعلقها بالأجساد تعلق المتصرف فيه . ﴿ **والتى لم تمت فى منامها** ﴾ أى : ويتوفى الأنفس التى لم يحضر أجلها ، فيقبضها عن التصرف فى الأجساد مع بقاء الأرواح متصلة بها ﴿ **فيمسك التى قضى عليها الموت** ﴾ أى : فيمسك التى قضى عليها الموت فلا يردها إلى الأجساد ، ﴿ **ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** ﴾ أى : ويرسل النائمة إلى الأجساد حين اليقظة إلى أجل مسمى وهو وقت الموت . لذا كان الحبيب المصطفى ﷺ حينما يتيقظ من نومه يقول : « الحمد لله الذى رد على روحى ، وعافانى فى جسدى ، وأذن لى بذكره »[4] (رواه ابن السنى بإسناد صحيح عن أبى هريرة) .

وأخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفضه بداخلة إزاره (طرفه الذى يلى الجسد ويلى الجانب الأيمن) فإنه لا يدرى ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربى وضعت جنبى ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسى فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »[5] وهذا الحديث شرح للآية الكريمة ، والمؤمن فى تدبره للآية

---

(١) سورة يونس الآية : ١٠٨ . (٢) سورة الأنعام الآية : ١٠٤ . (٣) سورة الأسراء ، الآية : ١٠٥

(٤) انظر ابن السنى « باب ما يقول إذا استيقظ من منامه » جـ٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

(٥) انظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » جـ٨ ص٨٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

والحديث معاً يشعر أن روحه فى يد الله ، وأنه يستمد محياه لحظة بعد أخرى هبة من رب العالمين ، قد يضع جنبه فلا ينهض إلا يوم النشور ، فإن كان ذلك فهو يرجو الرحمة . وإن قام ليبدأ نهاراً آخر فهو يرجو أن يحيا فى ضمان الله وحفظه .

وعن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل : اللهم أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ونبيك الذى أرسلت : فإن مت مِت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تقول »[1] (رواه البخارى) ، وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ أى : إن فيما ذكر لآيات عظيمة دالة على كمال قدرته وحكمته لمن يتفكر فى طريق تعلق الأنفس بالأبدان وتوفيها منها بانقطاع تصرفها حين الموت مع بقائها فى عالم آخر إلى أن يعيد الله الخلق ، وفى قطع تصرفها فى الظاهر فقط فى حال النوم . ثم إرسالها حال اليقظة إلى انقضاء آجالها . ومثل هذه الآية قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجلٌ مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموتُ توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لايملكون شيئا ولا يعقلون * قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون * وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون * قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ .

يقول ـ تعالى ـ ذاماً للمشركين فى اتخاذهم شفعاء من دون الله وهم الأصنام والأنداد التى اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان وهى لا تملك شيئاً من الأمر ، بل وليس لها عقل تعقل به ولا سمع تسمع به ولا بصر تبصر به ، بل هى جمادات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير ، ثم قال : **قل** ، أى : يا محمد لهؤلاء الزاعمين إن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له فمرجعها كلها إليه ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾[3] .

﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ أى : هو المتصرف فى جميع ذلك ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ أى : يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ويجزى كلا بعمله . كقوله تعالى : ﴿ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة واليه ترجعون * ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾[4] . ثم قال ـ تعالى ـ ذامّا للمشركين أيضاً : ﴿ **وإذا ذكر الله وحده** ﴾ أى : إذا قيل : لا إله إلا الله وحده ﴿ **اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ قال مجاهد : اشمأزت :

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب إذا بات طاهرا جـ ٨ ص ٨٤ ـ ٨٥ فقد ورد الحديث عن البراء بن عازب .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع جـ ٤ ص ٢٠٨١ ، ٢٠٨٢ حديث رقم ٥٦/٢٧١٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن البراء بن عازب .

(٢) سورة الأنعام الآيات : ٦٠ ـ ٦٢ (٣) سورة البقرة من الآية : ٢٥٥ (٤) سورة الزخرف الآيتان : ٨٥ ـ ٨٦ .

انقبضت ، وقال السدى : نفرت ، وقال قتادة : كفرت واستكبرت . كما قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾[١] أى : عن المتابعة والانقياد فقلوبهم لا تقبل الخير ومن لم يقبل على الخير يقبل على الشر ، ولذلك قال تعالى : **﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ . أى : من الأصنام والأنداد ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾** أى : يفرحون ويسرون .

وقوله تعالى : **﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾** . أى : ادع ـ أنت يا محمد ـ الله وحده لا شريك له الذى خلق السموات والأرض وفطرها أى : جعلها على غير مثال سابق **﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾** أى : السر والعلانية **﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾** أى : فى دنياهم ، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم .

قال مسلم فى صحيحه عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال : سألت عائشة ـ رضى الله عنها ـ بأى شىء كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يفتتح صلاته ؟ قالت ـ رضى الله عنها ـ : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[٢] .

وقال الإمام أحمد بسنده : عن أبى عبد الرحمن قال : أخرج لنا عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ قرطاساً وقال : كان رسول الله ﷺ يعلمنا نقول : اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة أنت رب كل شىء وإله كل شىء . أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك والملائكة يشهدون ، أعوذ بك من الشيطان وشركه ، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما أو أجره إلى مسلم »[٣] قال أبو عبد الرحمن ـ رضى الله عنه ـ : كان رسول الله ﷺ يعلمه عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن يقول ذلك حين يريد أن ينام . تفرد به أحمد .

عاقبة الظالمين

قال تعالى :

وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ

---

(١) سورة الصافات الآية : ٣٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » جـ١ ص ٥٣٤ حديث ٧٧/٢٠٠ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الرحمن ابن عوف .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ٢ ص ١٧١ فقد ورد الحديث فى رواية لعبد الله ابن عمرو .

ٱلْقِيَٰمَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ
عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ
سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

(يحتسبون) : يظنونه ويتوقعونه ، (حاق بهم) : نزل أو أحاط بهم . (خولناه نعمة) : أعطيناه إياها . (هى فتنة) : تلك النعمة امتحان وابتلاء . (بمعجزين) : بفائتين من العذاب بالهرب . (يقدر) يضيقه على من يشاء بحكمته .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد ما ذكر ـ سبحانه ـ عن المشركين حبهم للشرك ونفرتهم من التوحيد وأمر رسوله بالالتجاء إليه وحده وتفويض الأمر إليه فهو ـ سبحانه ـ الحاكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون ، ذكر أحوال هؤلاء المشركين يوم القيامة حين يرون الشدائد والأهوال وما ينتظرهم من العذاب ، ثم حكى عنهم أنهم حين الوقوع فى الضر من فقر ومرض يفزعون إلى الله ويلجئون إليه علما منهم أنه لا دافع له إلا هو ، وإذا نالتهم بعض النعم من فضله زعموا أن ذلك بكسبهم ، وحسن صنيعهم ، وجميل تدبيرهم ، والحقيقة أن ما أوتوه إنما هو فتنة لهم واختبار لحالهم ، ليعلم أيشكرون أم يكفرون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون وما هذه المقالة ببدع منهم ، بل قالها كثير قبلهم فلم ينفعهم ذلك شيئا ، ثم ذكر سبحانه أن بسط الرزق وتقتيره بيد الله يبسطه تارة ، ويقبضه أخرى ، وليس ذلك لسعة الحيلة وحسن التدبير وحدهما ، فإنا نرى كثيرا من العقلاء وأرباب التدبير للمال وحسن تصريفه فى ضيق شديد ، وكثيرا من الجهلاء والحمقى فى بحبوحة من العيش ورغد عظيم منه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولو أن للذين ظلموا ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون * وبدا لهم سيئات ماكسبوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون ﴾ .

أخرج الإمام مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل النار

فيقال له : يا ابن آدم كيف وجدت مضجعك ؟ فيقول : شر مضجع ، فيقال : هل تفتدى بقراب الأرض ذهبا ؟ قال : فيقول : نعم يا رب ، فيقول الله تعالى : (كذبت لقد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل . فيؤمر به إلى النار)[١] .

فقوله ـ عز وجل ـ ﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ وهم المشركون ﴿ ما فى الأرض جميعا ومثله معه ﴾ أى : ولو أن جميع ما فى الأرض وضعفه معه لهم ﴿ لا فتدوا به من سوء العذاب ﴾ أى : الذى أوجبه الله تعالى عليهم يوم القيامة ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ . . والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم مافى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم * يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أى : وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم . ﴿ وبدا لهم سيئات ماكسبوا ﴾ أى : وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم . ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أى : وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا كقوله تعالى : ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾[٥] .

قوله تعـالى : ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون * قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون * فأصابهم سيئات ماكسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ماكسبوا وماهم بمعجزين * أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

يقول ـ تبارك وتعالى ـ مخبرا عن الإنسان أنه فى حالة الضراء يتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ وينيب إليه ويدعوه وإذا خوله نعمة منه بغى وطغى وقال : ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ أى : لمـا يعلم الله تعالى من استحقاقى له ، ولولا أنى عند الله خصيص لمـا خولنى هذا قال الله عز وجل : ﴿ بل هى فتنة ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصى مع علمنا المتقدم بذلك فهى فتنة أى : اختبار ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ويدعون ما يدعون ﴿ قد قالها الذين من قبلهم ﴾ أى : قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أى : فما صح قولهم ولا نفعهم

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ٣ ص٢٠٧ ـ ٢٠٨ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بلفظ « منزلك » بدلا من « مضجعك » .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٩١ .
(٣) سورة الرعد من الآية : ١٨ .
(٤) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧ .
(٥) سورة العنكبوت الآيات : ٥٣ ـ ٥٥ .

جمعهم وما كانوا يكسبون ﴿ **فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء** ﴾ أى : من المخاطبين ﴿ **سيصيبهم سيئات ما كسبوا** ﴾ أى : كما أصاب أولئك ﴿ **وما هم بمعجزين** ﴾ كما قال تبارك وتعالى مخبرا عن قارون أنه قال له قومه : ﴿ لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم * قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟** ﴾ أى : أو لم ير هؤلاء أن الله هو الذى يبسط الرزق لمن يشاء تارة ، ويضيق على من يريد أخرى ، كما يشاهد من اختلاف الناس فى سعة الرزق وضيقه ، وليس ذلك لجهل فى الكاسب أو علم لديه ، فربما كان العاقل القادر ضيق الرزق والجاهل أو المريض ذا سعة وبسطة فى المال ، والدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة لذا يعطى الكافر ، كما يعطى المؤمن قال تعالى : ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ أى : إن فى هذا لدلالات لقوم يؤمنون بالله ويقرون بوحدانيته ، وهم الذين يعلمون أن الذى يفعل ذلك هو الله ولا سواه وأنه سبحانه يفعل ما يريد .

رحمة وتوجيه

قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ
جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ
ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً
وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ
ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى
ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ
وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ
مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾

(١) سورة القصص الآيات : ٧٦ - ٨١ (٢) سورة الإسراء الآيتان : ١٩ ، ٢٠ .

معانى المفردات

﴿ **أسرفوا** ﴾ الإسراف : تجاوز الحد فى كل ما يفعله المرء ، وكثر استعماله فى إنفاق المال وتبذيره ، والمراد هنا الإفراط فى المعاصى .

﴿ **لا تقنطوا** ﴾ أى : لا تيأسوا ﴿ **وأنيبوا** ﴾ الإنابة : الرجوع ﴿ **وأسلموا له** ﴾ الإسلام لله : الاخلاص له ﴿ **أحسن ما أنزل إليكم من ربكم** ﴾ : هو القرآن ، ﴿ **بغتة** ﴾ : فجأة ﴿ **يا حسرتا** ﴾ أى : يا حسرتى وندمى ﴿ **فرطت** ﴾ أى : قصرت ، ﴿ **فى جنب الله** ﴾ أى : فى عبادته وطاعته ﴿ **لمن الساخرين** ﴾ أى : المستهزئين ، ﴿ **كرة** ﴾ أى : رجعة ﴿ **وجوههم مسودة** ﴾ أى : لما يظهر عليها من آثار الذل والحسرة ﴿ **مثوى** ﴾ : مقام الظفر بالبغية على أتم وجه .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أوعد الكافرين ـ فيما سلف ـ أردفه ـ سبحانه ـ ذكر رحمته وفضله على عباده المؤمنين **بغفران ذنوبهم** إذا هم تابوا وأنابوا إليه وأخلصوا له العمل ، ليكون فى ذلك مطمع لهؤلاء الضالين ومنبه لهم من ضلالهم . أخرج البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[1] . ثم ذكر سبحانه ما سيكون للمشركين من أهوال يوم القيامة ، ووعد المتقين بما يمنحهم من الفوز والنعيم فى ذلك اليوم .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ الآيات. قال البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لمـا عملنا كفارة فنزل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ .

وهذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب التفسير » تفسير « سورة الزمر » جـ٦ ص ١٥٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس . وانظر فتح البارى بشرح البخارى فى « كتاب التفسير » تفسير « سورة الزمر » جـ ٨ ص ٥٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية ابن عباس . وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب كون الإسلام يهدم ما قبله جـ ١ ص ١١٣ حديث رقم ١٢٢/١٩٣ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

البحر ، ولا يصح حمل هذه على غير توبة لأن الشرك لا يغفر لمن يتب منه ، ومثل هذه الآية قول المولى عز وجل فى سورة النساء : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم ، والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾(١)

وقوله تعالى : ﴿إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ﴾(٢) . وقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾(٤) وقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما ﴾(٥) وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ﴾(٦) وقوله تعالى : ﴿ إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً ﴾(٧) ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ﴾(٨) .

وقوله : ﴿ والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً * إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾(٩) .

وقوله تعالى : ﴿ حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب ﴾(١٠) وقوله جل شأنه : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ﴾(١١) وقوله جل شأنه : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾(١٢) وقوله : ﴿ ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾(١٣) .

حديث قدسى جليل

أخرج الإمام مسلم :

عن أبى ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه ـ عز وجل ـ أنه قال : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال

(١) سورة النساء الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ .
(٢) سورة النساء الآية : ٤٠ .
(٣) سورة النساء الآية ٣١ .
(٤) سورة النساء الآية : ٤٨ .
(٥) سورة النساء من الآية : ٦٤ .
(٦) سورة النساء الآية : ١١٠ .
(٧) سورة النساء الآية : ١١٦ .
(٨) سورة الحجر الآية : ٤٩ .
(٩) سورة الفرقان الآيات : ٦٨ ـ ٧١ .
(١٠) سورة غافر الآيات : ١ ـ ٣ .
(١١) سورة القصص الآية : ٦٧ .
(١٢) سورة النور من الآية : ٣١ .
(١٣) سورة التحريم الآية ٨ .

إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1] .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ حديث الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً ثم ندم وسأل عابداً من عباد بنى إسرائيل هل له من توبة ، فقال : لا : فقتله وأكمل به مائة ثم سأل عالما من علمائهم هل له من توبة ؟ فقال : ومن يحول بينك وبين التوبة ، ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها فقصدها فأتاه الموت فى أثناء الطريق فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأمر الله عز وجل أن يقيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أقرب فهو منها ، فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشبر فقبضته ملائكة الرحمة[2] .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله عز وجل : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ قال : قد دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ، ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ، ومن زعم أن عزيرا ابن الله ومن زعم أن الله فقير ، ومن زعم أن يد الله مغلولة ، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى لهؤلاء : ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ . ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولا من هؤلاء ، من قال ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ وقال : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى** ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله تعالى عنهما ـ : من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عز وجل ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه .

وروى الطبرانى من طريق الشعبى عن سنيد بن شكل أنه قال : سمعت ابن مسعود يقول : إن أعظم آية فى كتاب الله ﴿ **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾[3] وإن أجمع آية فى القرآن بخير وشر ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[4] وإن أكثر آية فى القرآن فرحا فى سورة الزمر ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله** ﴾[5] وإن أشد آية فى كتاب الله تفويضاً ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لايحتسب** ﴾[6] فقال له مسروق : صدقت .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم الظلم » جـ ٤ ص ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ حديث رقم ٥٥/٢٥٧٧ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله جـ ٤ ص ٢١١٨ ـ ٢١١٩ حديث رقم ٤٦ ، ٤٧/٢٧٦٦ .

(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٥٥ . (٤) سورة النحل من الآية : ٩٠ . (٥) سورة الزمر من الآية : ٥٣ .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب « فضل سورة الكهف وآية الكرسى » جـ ١ ص ٥٥٦ حديث رقم ٢٥٨/٨١٠ فقد ورد الحديث من رواية أبى بن كعب فى فضل آية الكرسى .

وانظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٥٠ تفسير « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى بن كعب .

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله تعالى لغفر لكم ، والذى نفس محمد ﷺ بيده لو لم تخطئوا لجاء الله عز وجل بقوم يخطئون ثم يستغفرون الله فيغفر لهم » تفرد به أحمد[1] .

قوله تعالى : ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾ .

بعد أن وعد سبحانه بالمغفرة ، أمر بشيئين :

١ ـ الإنابة إليه بقوله تعالى : ﴿ **وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون** ﴾ أى : أيها الناس ، أنيبوا إلى ربكم بالتوبة ، وارجعوا إليه بالطاعة ، واستجيبوا إلى ما دعاكم إليه من توحيده وإفراد الألوهية قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تجدوا نصيراً ولا معيناً من عذابه النازل بكم .

٢ ـ اتباع الأحسن بقوله : ﴿ **واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لاتشعرون** ﴾ أى : واتبعوا ما أمركم به ربكم فى تنزيله ، واجتنبوا ما نهاكم عنه فيه ، فإن هذا القرآن حبل الله المتين ، والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يَعْوَجُّ فَيُقَوَّم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد ، وهو سبب طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبداً . فاتبعوه ﴿ **من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون** ﴾ من قبل أن يأتيكم العذاب فجأة وأنتم لا تعلمون به حتى يغشاكم . ولا يخفى ما فى هذا من تهديد ووعيد .

فالواجب على المؤمن المبادرة بالأعمال الصالحة قبل أن لا يقدر عليها ويحال بينها وبينه إما بمرض أو موت أو ظهور علامات الساعة الكبرى التى لا يقبل معها عمل ، ومتى حيل بين الإنسان والعمل لم يبق له إلا الحسرة والأسف عليه ، ويتمنى الرجوع إلى حال يتمكن فيها من العمل فلا تنفعه الأمنية لذا يقول سبحانه : ﴿ **أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين** ﴾ أى يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط فى التوبة والإنابة ويود لو كان من المحسنين المخلصين لله عز وجل ، وقوله عز وجل : ﴿ **وإن كنت لمن الساخرين** ﴾ أى : إنما كان عملى فى الدنيا عمل ساخر مستهزىء غير موقن مصدق ﴿ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكوّن من المحسنين ﴾ أى تود لو أعيدت إلى الدنيا لتحسن العمل .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : أخبر الله تعالى ما العباد قائلون قبل أن يقولوه ، وعملهم قبل أن يعملوه . وقال تعالى : ﴿ **ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ ﴿ **أن تقول نفس ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين** ﴾ . فأخبر سبحانه أن لو ردوا لما قدروا

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ٣ ص٢٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أنس بن مالك .

على الهدى فقال تعالى : ﴿ **ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾[١] وقد قال الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هدانى ، فتكون عليه حسرة ، قال : وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار فيقول : لولا أن الله هدانى . قال فيكون له الشكر »[٢] ولما تمنى أهل الجرائم العود إلى الدنيا وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ **بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين** ﴾ أى : قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتى فى الدار الدنيا ، وقامت حججى عليك فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها . .

وقوله تعالى : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين * وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولا هم يحزنون** ﴾ .

يخبر تعالى عن يوم القيامة : أنه تسود فيه وجوه ، وتبيض وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة كما قال تعالى : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجو يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة * أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾[٤] وكقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون * والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[٥] .

وقال تعالى ههنا : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة** ﴾ . وجوههم مسودة بسبب كذبهم وافترائهم . ﴿ **أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾ أليست جهنم كافية لهم سجنا وموئلا ، لهم فيها الخزى والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

قال ابن أبى حاتم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:« **إن المتكبرين يحشرون يوم القيامة أشباه الذر فى صور الناس ، يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجنا من النار فى واد يقال له بولس من نار الأنيار ويسقون من عصارة أهل النار ومن طينة الخبال** »[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ **وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولا هم يحزنون** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون * لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون * لايحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون** ﴾[٧] وكقوله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً** ﴾[٨] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٢٨ .
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ٢ ص٥١٢: فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .
(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٠٦ ، ١٠٧ . (٤) سورة عبس الآيات : ٣٩ ، ٤٣ (٥) سورة يونس الآيتان :٢٦ ، ٢٧ .
(٦) انظر تفسير ابن كثير جـ٧ ص١٠٢ تفسير قوله تعالى : « أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين » فقد ورد الحديث بلفظه .
(٧) سورة الأنبياء الآيات : ١٠١ - ١٠٣ (٨) سورة مريم الآيتان ٧١ ، ٧٢ .

أحكام عصاة المؤمنين

هذا البحث عبارة عن مجموعة من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية قام بجمعها وتقديمها فى كتاب الأستاذ/ مروان كجك ، ويحدثنا الأستاذ مروان كجك عن أهمية هذه الفتاوى فيقول ما نصه :

اقتضى الواقع الإسلامى اليوم ضرورة الرجوع إلى منهاج سلفنا الصالح والتحصن فى قلاع الحق ، فلا ندع مكاناً لرأى خارج عن الشريعة يعمل فى صفوف المسلمين ليصرفهم عن الغاية التى أرسل الرسل من أجلها .

ومع ابن تيمية نسير فى صراط مستقيم ـ إن شاء الله ـ واضعين التصور الإسلامى منهجا ينظر من خلاله إلى الأشخاص والأوضاع والأحوال غير آبهين بمسميات يستغل بريقها على ساحة العمل الإسلامى اليوم ، ولا يخفى المراد منها إلا على النعام أو الأطفال .

ويجدر بنا فى وقت كثر فيه الكلام عن التفسيق ، والتكفير ، واللعن والتخليد فى النار ، أن نصغى إلى كلمة الحق ، فننزل الناس منازلهم التى أنزلهم إياها الشرع . فلا نبارك الاستهانة بأمر الدين ، ولا نغلو فى الأحكام غلواً يفوتنا فيه الحق ، فلا نربى فينا مستخفاً متهاوناً ، ولا ندفع أحداً إلى قنوط أو يأس ، ولا نساهم فى بناء إنسان لا يرى الآخرين إلا كفارا ، أو فساقاً ، أو آبقين ، كذلك ولا ننشىء فى أحد تصوراً يرى من خلاله الناس كلهم صالحين وأمرهم موكول إلى ربهم . .

وتأتى مسألة التكفير فى طليعة ما يعانى منه الشباب اليوم من عدم وضوح الرؤية وسلامة النظرة . وهنا لابد من وضع الأمر فى نصابه وتجليته تماماً أمام الباحثين عن الحقيقة . وفى هذا يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فيما يكفر به الشخص عند أهل السنة والجماعة :

« إنه تقرر من مذهب أهل السنة والجماعة ما دل عليه الكتاب والسنة أنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب ، ولا يخرجونه من الإسلام بعمل إذا كان فعلا منهياً عنه ، مثل الزنا ، والسرقة ، وشرب الخمر ، ما لم يتضمن ترك الإيمان ، وأما إن تضمن ترك ما أمر الله بالإيمان به مثل الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت ، فإنه يكفر به ، وكذلك يكفر بعدم اعتقاد وجوب الواجبات الظاهرة المتواترة ، وعدم تحريم المحرمات الظاهرة المتواترة » . ويقول فى موضع آخر : « من جحد مبانى الإسلام فهو كافر بالاتفاق » . حتى ولو اقتنى أشرطة تسجيل القرآن المرتل والمجوّد ، أو زين خطبه وكلماته بآيات الله البينات أو ادعى كذباً وبهتاناً أنه لا يريد إلا خير الإسلام والمسلمين .

أما فساق أهل الملة فيقول رحمه الله فى حقهم : « يؤمن أهل السنة والجماعة بأن فساق المسلمين معهم بعض الإيمان وأصله وليس معهم جميع الإيمان الواجب الذى يستوجبون به الجنة ، وأنهم لا يخلدون فى النار ، بل يخرج منها من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال خردلة من إيمان ، وأن النبى ﷺ ادخر شفاعته لأهل الكبائر من أمته .

وفى موضع آخر ينبه إلى صنف آخر من الذين يكفرون ولو قالوا : (لا إله إلا الله) وهم مما لا يخلو منهم عصر ممن لم يحتمل العيش فى الظل ، فأطل برأسه غروراً وتيهاً لما لم يجد من لم

يسفع ناصيته الخاطئة الكاذبة أولئك الذين يكذبون الرسول ﷺ وهل رفض السنة إلا التكذيب الفاضح للرسول ﷺ الموصوف من ربه :

﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى ﴾[١] يقول رحمه الله : « من قال بلسانه : لا إله إلا الله ، وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين » .

ومع ذلك فلا يجوز الإسراع فى إصدار الأحكام على الناس بغير علم ، أو تكفير المسلمين تبعا لهوى فى أنفسنا أو تبعا لتفسير لا يحتمل معه كفر محض ، بل لابد من الرجوع فى ذلك إلى أهل الذكر ، ومعرفة ما تنازع فيه المسلمون حتى لا نطلق الأحكام جزافاً ، فنضع فى اللوحة المضيئة من نضع ، ونخص بالقائمة السوداء من نخص . وفى هذا المعنى يقول رحمه الله : « لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التى تنازع فيها أهل القبلة » .

وليس الكفر ضرورة لازمة للكافر لا يمكنه الانعتاق منه ، بل باستطاعته أن يؤمن بالله ورسوله ويتبع سبيل المؤمنين . وقد أمر الله نبيه أن يُبلغ الكافرين بأنهم إن انتهوا من كفرهم يغفر الله لهم ما قد سلف قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ﴾[٢] .

وفى ذلك يقول ﷺ لعمرو بن العاص - رضى الله عنه - :

« يا عمرو إن الاسلام يجب ما قبله »[٣] وهذا ما أشار إليه ابن تيمية فى قوله : « تقبل توبة الداعى إلى الكفر وتوبة من فتن الناس عن دينهم » .

والتوبة باب واسع من أبواب رحمة الله بعباده ، وهى واجبة على كل عبد ، يقول : « إن التوبة واجبة على كل عبد فى كل حال ، لأنه دائما يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما اعتدى فيه من فعل محظور ، فعليه أن يتوب دائما » .

وليس هناك ذنب لا يغفر للمستغفرين الصادقين فى استغفارهم المشفقين من عذاب الله « إن الله يغفر كل ذنب : الشرك والقتل والزنا ، وغير ذلك من حيث الجملة ، فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص » فرحمة الله وسعت كل شيء ولا غرابة فى ذلك أليس الله سبحانه هو القائل فى كتابه المجيد : ﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ﴾ . أى : لمن تاب رغم أنف الذين يحتكرون حق توزيع المغفرة على من يشاءون ، وحجزها عمن يشاءون . . .

ولا يخلد فى النار موحد مات على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قال ابن تيمية : « من مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار » .

« وإن كان من أهل الكبائر فأمره موكول إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر له » « فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتداً كان فى النار » . « فالسيئات تحبطها التوبة ، والحسنات تحبطها الردة » .

(١) سورة النجم الآيتان : ٣ ، ٤ . (٢) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٩٨ - ١٩٩ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعمرو بن العاص . وانظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث من روايات لعمرو بن العاص .

« ومن غفر له لم يعذب ومن لم يغفر له عذب ، وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة » « ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

ولابد قبل ذلك كله من معرفة الحق والفقه فى دين الله لتطابق الأحكام الأحوال ، فلا نظلم أحدا . ولا نفرط فى حق أحد فحكم أئمة الناس غير حكم عامتهم ، وفى ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله : « فالمتأول والجاهل والمعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر ، بل قد جعل الله لكل شىء قدراً » معتمداً فى ذلك الرأى على قوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾[1] .

وقول النبى ﷺ فى الصحيحين : « ما أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين »[2] ويعلن ابن تيمية رأيه صراحة فى أمور التكفير ، والتفسيق ، والعصيان ، فيقول : « إنى من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين إلى تكفير ، وتفسيق ، ومعصية إلا إذا قد علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التى من خالفها كان كافرا تارة ، وفاسقا تارة وعاصيا تارة ، وإنى أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها وذلك يعم الخطأ فى المسائل الخيرية القولية والمسائل » .

فعلى دعاة الإسلام وشبابه أن يعوا هذه الحقائق والأحكام ، وهم أكثر الناس حاجة لمعرفتها والإحاطة بمراميها والأخذ بها بكل حكمة وروية ، وأن ينظروا إليها مجتمعة غير مجزأة فمن اجتزأ من الاسلام أحكاما وأضرب عن أحكام لم يسر إلا فى طريق ملتوية تقود إلى تجارب مخفقة كتلك التجارب التى تبرز بين الحين والآخر على الساحة الإسلامية ، فيتخذها المعاندون فى الأرض ذريعة لضرب الحركة الإسلامية والتنكيل بأهلها تشريداً وتعذيباً وقتلا .

ولا يذهبن بنا الغرور إن عرفنا طرفا من العلم أن ذلك يكفينا ، وينير لنا السبيل ولكن لنعلم أنه لابد من الأخذ عن أهل العلم والمعرفة المخلصين الواعين الذين ينظرون بمنظار الشريعة ، ويبصرون ببصائر الحق ، ولا نحكم بغير علم وروية . فللعلم عدته ، وللتتلمذ مدته ، ولا تستساغ الثمار إلا ناضجة ، ولا يجتنى الزرع إلا إذا استحصد ، ولنعد تلامذة فى مدرسة الإسلام فنتلقى للعمل ، ونعد للحركة ، ولا تنحرف بنا الآمال والأحلام عن نسيان الواقع ، لنحسن التعامل معه على الوجه الأمثل الذى رسمه الإسلام ، وخطته الشريفة وفهمه الأوائل وطبقه السلف الصالح رضوان الله عليهم » وإنى لأرجو الله سبحانه وتعالى أن تؤدى هذه الرسالة المجموعة من خلال كتب ابن تيمية الغرض المبتغى منها ، فيسترشد بها الشباب ، وتكون تبصرة لأولى الألباب ممن يريد أن يعمل على تبليغ الدعوة ويود لو استطاع حمل الأمانة بجدارة تساوى ثقل المهمة الملقاة على عاتق هذا الجيل من المسلمين . والله أسأل أن ينفعنى بها والمسلمين والمثوبة لا ترجى إلا من الله الذى أطمع أن يجعلها لى مغفرة لخطيئتى يوم الدين . اللهم آمين .

---

(١) سورة الإسراء من الآية ١٥ .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب « غيرة الله ـ تعالى ـ وتحريم الفواحش » جـ ٤ ص ٢١١٤ حديث رقم ٣٥ / ٢٧٦٠ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعبد الله بن مسعود « وليس أحد أحب إليه العذر من الله ؛ من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل »

الوعـد والوعيد

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله :

وأما قول القائل : من قال : لا إله إلا الله دخل الجنة ، واحتجاجه بالحديث المذكور .

فيقال له : لا ريب أن الكتاب والسنة فيهما وعد ووعيد وقد قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾(١) وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما * ومن يفعل ذلك عدوانا وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾(٢) .

ومثل هذا كثير من الكتاب والسنة ، والعبد عليه أن يصدق بهذا وبهذا ، لا يؤمن ببعض ويكفر ببعض ، فهؤلاء المشركون أرادوا أن يصدقوا بالوعد ويكذبوا بالوعيد .

« والحرورية والمعتزلة » أرادوا أن يصدقوا بالوعيد دون الوعد ، وكلاهما أخطأ ، والذى عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بالوعد والوعيد فكما أن ما توعد الله به العبد من العقاب . قد بين سبحانه أنه بشروط : بأن لا يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، وبأن لا يكون له حسنات تمحو ذنوبه ، فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وبأن لا يشاء الله أن يغفر له ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾(٣) فهكذا الوعد له تفسير وبيان . فمن قال بلسانه : لا إله إلا الله وكذب الرسول فهو كافر باتفاق المسلمين ، وكذلك إن جحد شيئاً مما أنزل الله .

فلابد من الإيمان بكل ما جاء به الرسول ﷺ ، ثم إن كان من أهل الكبائر فأمره إلى الله إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له فإن ارتد عن الإسلام ومات مرتداً كان فى النار ، فالسيئات تحبطها التوبة ، والحسنات تحبطها الردة ، ومن كان له حسنات وسيئات فإن الله لا يظلمه ، بل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره . والله تعالى قد يتفضل عليه ويحسن إليه بمغفرته ورحمته .

ومن مات على الإيمان فإنه لا يخلد فى النار . فالزانى والسارق لا يخلد فى النار ، بل لابد أن يدخل الجنة . فإن النار يخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، وهؤلاء المسئول عنهم يسمون القدرية المباحية المشركين . وقد جاء فى ذمهم من الآثار ما يضيق عنه هذا المكان والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(مجموع الفتاوى ج ٨ ص ٢٧٠)

---

(١) سورة النساء آية : ١٠ .

(٢) سورة النساء الآيتان : ٢٩ ، ٣٠

(٣) سورة النساء من الآية : ٤٨

النار الكبرى

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وقوله تعالى : ﴿ ويتجنبها الأشقى * الذى يصلى النار الكبرى * ثم لايموت فيها ولايحيى ﴾[(١)] وقد ذكر فى سورة الليل : ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى ﴾[(٢)] .

وهذا الصلْى قد فسره النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذى أخرجه مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم - أو قال بخطاياهم - فأماتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجىء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ثم قيل : يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون فى حميل السيل »[(٣)] فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية .

وفى رواية ذكرها ابن أبى حاتم فقال : « ذكر عن عبد الصمد بن عبد الوارث ثنا أبى ثنا سليمان التيمى عند أبى هريرة عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ خطب فأتى على هذه : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ فقال النبى ﷺ : أما أهلها الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، وأما الذين ليسوا من أهل النار فإن النار تميتهم ثم يقوم الشفعاء فيشفعون فيأتى بهم إلى نهر يقال له الحياة أو الحيوان فينبتون كما تنبت الحبة الغثاء فى حميل السيل »

وهذا المعنى مستفيض عن النبى ﷺ - بل متواتر - فى أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى سعيد وأبى هريرة وغيرهما .

وفيها الرد على طائفتين : على الخوارج ، والمعتزلة الذين يقولون « إن أهل التوحيد يخلدون فيها » وهذه الآية حجة عليهم . وعلى من حكى عنه من غلاة المرجئة » « أنه لا يدخل النار من أهل التوحيد أحد » .

فإن إخباره بأن أهل التوحيد يخرجون منها بعد دخولها تكذيب لهؤلاء وهؤلاء .

والقول بـ « أن أحداً لا يدخلها من أهل التوحيد » ما أعلمه ثابتاً عن شخص معين فأحكيه عنه . لكن حكى عن مقاتل بن سليمان وقال : احتج من قال ذلك بهذه الآية .

وقد أجيبوا بجوابين :

أحدهما : جواب طائفة ، منهم الزجاج ، قالوا : هذه نار مخصوصة لكن قوله بعدها : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ لا يبقى فيه كبير وعد ، فإنه إذا جنب تلك النار جاز أن يدخل غيرها .

---

(١) سورة الأعلى الآيات : ١١ - ١٣ .

(٢) سورة الليل الآيات : ١٤ - ١٦ .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « إثبات الشفاعة وإخراج الموحدين من النار » جـ ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ حديث رقم ١٨٥/٣٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .

وجواب آخرين قالوا : لا يصلونها صلى خلود . وهذا أقرب . وتحقيقه أن الصلى هنا هو الصلى المطلق ، وهو المكث فيها والخلود على وجه يصل العذاب إليهم دائما .

فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلى ، ليس هو الصلى المطلق لا سيما إذا كان قد مات فيها والنار لم تأكله ، فإنه قد ثبت أنها لا تأكل مواضع السجود . والله أعلم .

(مجموع الفتاوى ج ١٦ ص ١٩٤)

الرد على الوعيدية والواقفية .

قال شيخ الإسلام تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحرانى قدس الله روحه .

فصل : فى قوله تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له . . .** ﴾

وقد ذكرنا فى غير موضع أن هذه الآية فى حق التائبين ، وأما آيتا النساء قوله : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء** ﴾ .

فلا يجوز أن تكون فى حق التائبين ، كما يقوله من يقوله من المعتزلة فإن التائب من الشرك يغفر له الشرك أيضا بنصوص القرآن واتفاق المسلمين . وهذه الآية فيها تخصيص وتقييد ، وتلك الآية فيها تعميم وإطلاق عنده خص فيها الشرك بأنه لا يغفر ، وما عداه لم يجزم بمغفرته ، بل علقه بالمشيئة فقال سبحانه : ﴿ ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ﴾ .

وقد ذكرنا فى غير موضع أن هذه كما ترد على الوعيدية من الخوارج والمعتزلة ، فهى ترد أيضا على المرجئة الواقفية الذين يقولون « يجوز أن يعذب كل فاسق فلا يغفر لأحد ، ويجوز أن يغفر للجميع فإنه قد قال : (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فأثبت أن ما دون ذلك هو مغفور لكن لمن يشاء ، فلو كان لا يغفره لأحد بطل قوله : ﴿ ويغفر ما دون ذلك ﴾ ولو كان يغفره لكل أحد بطل قوله : (لمن يشاء) فلما أثبت أنه يغفر ما دون ذلك وأن المغفرة هى لمن يشاء دل ذلك على وقوع المغفرة العامة مما دون الشرك ، لكنها لبعض الناس .

وحينئذ فمن غفر له لم يعذب ، ومن لم يغفر له عذب وهذا مذهب الصحابة والسلف والأئمة ، وهو القطع بأن بعض عصاة الأمة يدخل النار وبعضه يغفر له ، لكن هل ذلك على وجه الموازنة والحكمة أو لا اعتبار بالموازنة ؟ فيه قولان للمنتسبين إلى السنة من أصحابنا وغيرهم ، بناء على أصل الأفعال الإلهية هل يعتبر فيها الحكمة والعدل . وأيضا فمسألة الجزاء فيها نصوص كثيرة دلت على الموازنة ، كما بسط فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن قوله : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا** ﴾ فيه نهى عن القنوط من رحمة الله وإن عظمت الذنوب وكثرت ، فلا يحل لأحد أن يقنط من رحمة الله وإن عظمت ذنوبه ، ولا أن يقنط الناس من رحمة الله . قال بعض السلف : إن الفقيه كل الفقيه الذى لا ييئس الناس من رحمة الله ، ولا يجرئهم على معاصى الله . والقنوط يكون بأن

يعتقد أن الله لا يغفر له . إما لكونه إذا تاب لا يقبل الله توبته ويغفر ذنوبه . وإما بأن يقول : نفسه لا تطاوعه على التوبة ، بل هو مغلوب معها ، والشيطان قد استحوذ عليه ، فهو ييأس من توبة نفسه : وإن كان يعلم أنه إذا تاب غفر الله له ، وهذا يعترى كثيراً من الناس . والقنوط يحصل بهذا تارة وبهذا تارة : فالأول : كالراهب الذى أفتى قاتل تسعة وتسعين أن الله لا يغفر له فقتله وكمل به المائة . ثم دل على عالم فأتاه فسأله فأفتاه بأن الله يقبل توبته والحديث فى الصحيحين .

والثانى : كالذى يرى للتوبة شروطاً كثيرة ، ويقال له لها شروط كثيرة يتعذر عليه فعلها فييأس من أن يتوب .

وقد تنازع الناس فى العبد هل يصير فى حال تمتنع منه التوبة إذا أرادها ؟ والصواب الذى عليه أهل السنة والجمهور أن التوبة من كل ذنب . وممكن أن الله يغفره . .

والمقصود أنه لا يجوز أن يقنط أحد ، ولا يقنّط أحداً من رحمة الله فإن الله نهى عن ذلك ، وأخبر أنه يغفر الذنوب جميعاً . فإن قيل : ﴿ إن الله يغفر الذنوب جميعا ﴾ معه عموم على وجه الإخبار ، فدل على أن الله يغفر كل ذنب ؟ ومعلوم أنه لم يرد أن من أذنب من كافر وغيره فإنه يغفر له ، ولا يعذبه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة والتواتر والقرآن والإجماع . إذ كان الله أهلك أمما كثيرة بذنوبها ، ومن هذه الأمة من عذب إما قدرا وإما شرعا فى الدنيا قبل الآخرة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ من يعمل سوءاً يجز به ﴾[1] وقال : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾[2] فهذا يقتضى أن هذه الآية ليست على ظاهرها ، بل المراد أن الله قد يغفر الذنوب جميعا ، أى : ذلك مما قد يفعله ، أو أنه يغفره لكل تائب . لكن يقال : فلم أتى بصيغة الجزم والإطلاق ، موضع التردد والتقييد ؟ قيل : بل الآية على مقتضاها فإن الله أخبر أنه يغفر جميع الذنوب ، فقال : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾[3] .

وقال فى حق المنافقين : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾[4] . لكن هذا اللفظ العام فى الذنوب هو مطلق فى المذنبين . فالمذنب لم يتعرض له بنفى ولا إثبات ، لكن يجوز أن يكون مغفورا له ، ويجوز أن لا يكون مغفورا له . إن أتى بما يوجب المغفرة غفر له وإن أصر على ما يناقضها لم يغفر له .

وأما جنس الذنب فإن الله يغفره فى الجملة : الكفر والشرك وغيرهما ، يغفرها لمن تاب منها ، ليس فى الوجود ذنب لا يغفره الله تعالى بل ما من ذنب إلا والله تعالى يغفره فى الجملة .

وهذه آية عظيمة جامعة من أعظم الآيات نفعاً ، وفيها رد على طوائف ، رد على من يقول : إن الداعى إلى البدعة لا تقبل توبته ويحتجون بحديث إسرائيلى ، فيه : « أنه قيل لذلك الداعية فكيف بمن أضللت ؟ » وهذا يقوله طائفة ممن ينتسب إلى السنة والحديث وليس من العلماء بذلك ، كأبى على

(١) سورة النساء من الآية : ١٢٣ .
(٢) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ ، ٨ .
(٣) سورة محمد الآية : ٣٤ .
(٤) سورة المنافقون من الآية : ٦ .

الأهوازى وأمثاله ممن لا يميزون بين الأحاديث الصحيحة والموضوعة ، وما يحتج به وما لا يحتج به . بل يروون كلماً فى الباب محتجين به .

وقد حكى هذا طائفة قولا فى مذهب أحمد أو رواية عنه ، وظاهر مذهبه مع سائر أئمة المسلمين أنه تقبل توبة الداعى إلى الكفر ، وتوبة من فتن الناس عن دينهم .

وقد تاب قادة الأحزاب : مثل أبى سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وصفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وغيرهم بعد أن قتل على الكفر بدعائهم من قتل ، وكانوا من أحسن الناس إسلاما ، وغفر الله لهم . قال تعالى : (قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف)[1] وعمرو بن العاص كان من أعظم الدعاة إلى الكفر والإيذاء للمسلمين ، وقد قال النبى ﷺ لما أسلم : « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يجب ما قبله ؟ »[2] (أخرجه مسلم) وفى صحيح البخارى عن ابن مسعود فى قوله : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب)[3] قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم[4] . ففى هذا أنه لم يضر الذين أسلموا عبادة غيرهم بعد الإسلام لهم ، وإن كانوا هم أضلوهم أولاً .

وأيضا فالداعى إلى الكفر والبدعة وإن كان أضل غيره فذلك الغير يعاقب على ذنبه ؟ لكونه قبل من هذا واتبعه ، هذا عليه وزره ووزر من اتبعه إلى يوم القيامة مع بقاء أوزار أولئك عليهم ، فإذا تاب من ذنبه لم يبق عليه وزره ، ولا ما حمله هو لأجل إضلالهم ، وأما هم فسواء تاب أم لم يتب حالهم واحد ، ولكن توبته قبل هذا تحتاج إلى ضد ما كان عليه من الدعاء إلى الهدى ، كما تاب كثير من الكفار وأهل البدع ، وصاروا دعاة إلى الاسلام والسنة ، وسحرة فرعون كانوا أئمة فى الكفر ثم أسلموا وختم الله لهم بخير .

توبة قاتل النفس

ومن ذلك توبة قاتل النفس . والجمهور على أنها مقبولة ، وقال ابن عباس : لا تقبل ، وعن أحمد روايتان . وحديث قاتل التسعة والتسعين فى الصحيحين دليل على قبول توبته . وهذه الآية تدل على ذلك ، وآية النساء إنما فيها وعيد فى القرآن كقوله : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً)[5] ومع هذا فهذا إذا لم يتب . وكل وعيد فى القرآن فهو

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٩٨ ، ١٩٩ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل لعمرو بن العاص . وانظر أيضاً ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعمرو بن العاص أيضا . (٣) سورة الإسراء من الآية : ٥٧ .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب التفسير » تفسير سورة بنى إسرائيل جـ ٦ ص ١٠٧ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن مسعود بلفظ « قال كان ناس من الإنس يعبدون ناسا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم »

وفى رواية أخرى لعبد الله بن مسعود فى قوله تعالى : (.. الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) قال : ناس من الجن يعبدون فأسلموا .

وانظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب فى قوله تعالى : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة » . جـ ٤ ص ٢٣٢١ فقد وردت الأحاديث ٢٨/٣٠٣٠ ، ٢٩ ، ٣٠ من روايات مختلفة لعبد الله بن مسعود تدور فى إطار هذا المعنى .

(٥) سورة النساء آية : ١٠ .

مشروط بعدم التوبة باتفاق الناس ، فبأى وجه يكون القاتل لاحقا به وإن تاب ؟ هذا فى غاية الضعف ، ولكن قد يقال لا تقبل توبته بمعنى أنه لا يسقط حق المظلوم بالقتل ، بل التوبة تسقط حق الله ، والمقتول مطالبه بحقه ، وهذا صحيح فى جميع حقوق الآدميين حتى الدّيْن ، فإنه فى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال « الشهيد يغفر له كل شىء إلا الدّين »[1] ولكن حق الآدمى يعطاه من حسنات القاتل . فمن تمام التوبة أن يستكثر من الحسنات حتى يكون له ما يقابل حق المقتول ، ولعل ابن عباس رأى أن القتل أعظم الذنوب بعد الكفر فلا يكون لصاحبه حسنات تقابل حق المقتول ، فلابد أن يبقى له سيئات يعذب بها ، وهذا الذى قاله قد يقع من بعض الناس .

فيبقى الكلام : من تاب وأخلص ، وعجُزَ عن حسنات تعادل حق المظلوم ، هل يجعل عليه من سيئات المقتول ما يعذب به ؟

وهذا موضع دقيق على مثله يحمل حديث ابن عباس ، لكن هذا كله لا ينافى موجب الآية ، وهو أن الله تعالى يغفر كل ذنب : الشرك والقتل والزنا ، وغير ذلك مُن حيث الجملة ، فهى عامة فى الأفعال مطلقة فى الأشخاص .

ومثل هذا قوله : (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم)[2] عام فى الأشخاص مطلق فى أحوال الأرجل ، إذ قد تكون مستورة بالخف واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله تعالى : (يوصيكم الله في أولادكم)[3] عام فى الأولاد عام فى الأحوال ، إذ قد يكون الولد موافقا فى الدين ومخالفا وحراً وعبداً . واللفظ لم يتعرض إلى الأحوال .

وكذلك قوله (يغفر الذنوب) عام فى الذنوب مطلق فى أحوالها فإن الذنب قد يكون صاحبه تائبا منه ، وقد يكون مصراً واللفظ لم يتعرض لذلك ، بل الكلام يبين أن الذنب يغفر فى حال دون حال ، فإن الله أمر بفعل ما تغفر به الذنوب ونهى عما به يحصل العذاب يوم القيامة بلا مغفرة فقال :

﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ . فهذا إخبار أنه يوم القيامة يعذب نفوساً لم يغفر لها ، كالتى كذبت بآياته واستكبرت وكانت من الكافرين ، ومثل هذه الذنوب غفرها الله لآخرين لأنهم تابوا منها .

فإن قيل فقد قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾[5] .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الإمارة » باب من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه إلا الدين : جـ٣ ص١٥٠٢ حديث ١١٩/١٨٨٦ من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص بلفظ « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين » .

(٢) سورة التوبة من الآية : ٥ .

(٣) سورة النساء من الآية : ١١

(٤) سورة آل عمران الآية : ٩٠ .

(٥) سورة النساء الآية : ١٣٧ .

قيل : إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام فى غير موضع ، كقوله تعالى : ﴿ **كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾[1] .

وقوله : (كيف يهدى الله ؟) أى : أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين ، ولهذا قال : (والله لا يهدى القوم الظالمين) فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالا ، لا يحصل له الهدى إلى أى دين ارتد .

وكذلك قال فى قوله : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ﴾[2] ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد ، قال : ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾[3] .

وهو سبحانه فى آل عمران ذكر التائبين منهم ، ثم ذكر من لا تقبل توبته ومن مات كافرا : فقال : ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين** ﴾[4] وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالاً :

قيل : لنفاقهم ، وقيل : لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه ، وقيل : لن تقبل توبتهم بعد الموت ، وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والسدى : لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت فيكون كقوله تعالى : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾[5] .

وكذلك قوله : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾[6] قال مجاهد وغيره من المفسرين : (ازدادوا كفرا) ثبتوا عليه حتى ماتوا .

قلت : وذلك لأن التائب راجع عن الكفر ، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفراً بعد كفر ، فقوله : (ثم ازدادوا) بمنزلة قول القائل : ثم أصروا على الكفر ، واستمروا على الكفر ، وداموا على الكفر ، فهم كفروا بعد إسلامهم ثم زاد كفرهم ما نقص ، فهؤلاء لا تقبل توبتهم وهى التوبة عند حضور الموت ، لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب ورجع عن كفره ، فلم يزدد بل نقص ، بخلاف المصر إلى حين المعاينة ، فما بقى له زمان يتسع لنقص كفره فضلا عن هدمه .

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ٨٦ - ٨٩ .
(٢) سورة النحل من الآية : ١٠٦ .
(٣) سورة النحل الآية : ١١٠ .
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .
(٥) سورة النساء الآية : ١٨
(٦) سورة النساء الآية : ١٣٧ .

وفى الآية الأخرى قال : (لم يكن الله ليغفر لهم) وذكر أنهم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً ، قيل : لأن المرتد إذا تاب غفر له كفره ، فإذا كفر بعد ذلك ومات كافرا حبط إيمانه ، فعوقب بالكفر الأول والثانى ، كما ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود قال : قيل يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر »[1] (متفق عليه) . فلو قال : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم » كان هؤلاء الذين ذكرهم فى آل عمران فقال : (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) بل ذكر أنهم آمنوا ثم كفرو بعد ذلك وهو المرتد التائب فهذا إذا كفر وازداد كفرا لم يغفر له كفره السابق أيضا ، فلو آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا لم يكونوا قد ازدادوا كفرا فلا يدخلون فى الآية . والفقهاء إذا تنازعوا فى قبول توبة من تكررت ردته أو قبول توبة الزنديق فذاك إنما هو فى الحكم الظاهر ، لأنه لا يوثق بتوبته أما إذا قدر أنه أخلص التوبة لله فى الباطن فإنه يدخل فى قوله : **﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾** .

ونحن حقيقة قولنا : إن التائب لا يعذب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لا شرعا ولا قدرا ، والعقوبات التى تقام من حدّ أو تعزير إما أن يثبت سببها بالبينة مثل قيام البينة بأن زنا أو سرق أو شرب فهذا إذا أظهر التوبة لم يوثق بها ولو درىء من الحد بإظهار هذا لم يقم حد ، فإن كل من تقام عليه البينة يقول قد تبت ، وإن كان تائبا فى الباطن كان الحد مكفرا وكان مأجورا على صبره ، وأما إذا جاء هو بنفسه فاعترف وجاء تائبا ، فهذا لا يجب أن يقام عليه الحد فى ظاهر مذهب أحمد ، نص عليه فى غير موضع ، وهى من مسائل التعليق ، واحتج عليها القاضى بعدة أحاديث ، وحديث الذى قال : « أصبت حدا فأقمه على فأقيمت الصلاة » يدخل فى هذا لأنه جاء تائباً ، وإن شهد على نفسه كما شهد به ماعز والغامدية ، واختار إقامة الحد أقيم عليه وإلا فلا ، كما فى حديث ماعز « فهلا تركتموه ؟ » والغامدية ردها مرة بعد مرة .

فالإمام والناس ليس عليهم إقامة الحد على مثل هذا ، ولكن هو إذا طلب ذلك أقيم عليه كالذى يذنب سرا ، وليس على أحد أن يقيم عليه حدا ، لكن اختار هو أن يعترف ويقام عليه الحد أقيم وإن لم يكن تائبا ، وهذا كقتل الذى ينغمس فى العدو هو مما يرفع الله به درجته ، كما قال النبى ﷺ : « لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له[2] ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ؟! .

(مجموع الفتاوى ص ١٨ ج ١٦)

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب « استتابة المرتدين » .. الخ » جـ٨ ص١٧ ، ١٨ فقد ورد الحديث بلفظه رواية ابن مسعود .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية » جـ١ ص ١١١ حديث رقم ١٢٠/١٩٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن مسعود .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الحدود » باب من اعترف على نفسه بالزنى جـ٣ ص ١٣٢٣ - ١٣٢٤ فقد ورد الحديث رقم ١٦٩٥/٣٣ من رواية لابن بريدة .

النهى عن لعن من يحب الله ورسوله

كثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد ، وقد يكون ما تركه من المأمور الذى يجب لله عليه فى باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه من فعله من بعض الفواحش ، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التى بها يصير العبد من المؤمنين حقا أعظم نفعاً من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة كحب الله ورسوله ، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت فى الصحيح « أنه كان على عهد النبى ﷺ رجل يدعى حمارا ، وكان يشرب الخمر ، وكان كلما أتى به إلى النبى ﷺ جلده الحد ، فلما كثر ذلك منه أتى به مرة فأمر بجلده فلعنه رجل فقال النبى ﷺ : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله »[1] (رواه البخارى) .

فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله مع أنه ﷺ لعن فى الخمر عشرة « لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها وساقيها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وآكل ثمنها »[2] (أبو داود) .

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذى قام به ما يمنع لحوق اللعنة له . (مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٣٢٩) .

لا يجوز لعن المعين

وبعد حديث عن معاوية رضى الله عنه وأنه جاهد مع النبى ﷺ وكان أمينا عنده يكتب له الوحى قال :

بل « يزيد » ابنه مع ما أحدث من الأحداث ، من قال فيه : إنه كافر مرتد ، فقد افترى عليه . بل كان ملكا من ملوك المسلمين كسائر ملوك المسلمين ، وأكثر الملوك لهم حسنات ولهم سيئات ، وحسناتهم عظيمة ، وسيئاتهم عظيمة ، فالطاعن فى واحد منهم دون نظرائه إما جاهل ، وإما ظالم .

وهؤلاء لهم ما لسائر المسلمين ، منهم من تكون حسناته أكثر من سيئاته ، ومنهم من قد تاب من سيئاته ، ومنهم من كفّر الله عنه ومنهم من قد يدخله الجنة ، ومنهم من قد يعاقبه لسيئاته ، ومنهم من قد يتقبل الله فيه شفاعة نبى أو غيره من الشفعاء ، فالشهادة لواحد من هؤلاء بالنار هو من أقوال أهل البدع والضلال .

كما أنا نقول ما قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً ﴾[3] فلا ينبغى لأحد أن يشهد لواحد بعينه أنه من أهل النار ، لإمكان أن يتوب أو يغفر له الله بحسنات ماحية ، أو مصائب مكفرة ، أو شفاعة مقبولة ، أو يعفو الله عنه ، أو غير ذلك . فهكذا الواحد

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحدود وما يحذر من الحدود » باب « ما يكره من لعن شارب الخمر » جـ ٨ ص ٦٩٧ فقد ورد الحديث من رواية عن عمر بن الخطاب مع اختلاف فى ترتيب جمله وألفاظه .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الأشربة » باب العنب يعصر للخمر . جـ ٤ ص ٨٢/٨١ حديث رقم ٣٦٧٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٣) سورة النساء من الآية : ١٠ .

من الملوك أو غير الملوك . وإن كان صدر منه ما هو ظلم فإن ذلك لا يوجب أن نلعنه ونشهد له بالنار ، ومن دخل فى ذلك كان من أهل البدع والضلال ، فكيف إذا كان للرجل حسنات عظيمة يرجى له بها المغفرة مع ظلمه ! كما ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « أول جيش يغزو قسطنطينية مغفور له »[1] وأول جيش غزاها كان أميرهم « يزيد بن معاوية » . وكان معه فى الغزاة أبو أيوب الأنصارى وتوفى هناك ، وقبره إلى الآن . ولهذا كان المقتصدون من أئمة السلف يقولون فى يزيد وأمثاله : إنا لا نسبهم ولا نحبهم ، أى : لا نحب ما صدر منهم من ظلم ، والشخص الواحد يجتمع فيه حسنات وسيئات ، وطاعات ومعاص ، وبر وجوْر وشر فيثيبه الله على حسناته ، ويعاقبه على سيئاته إن شاء أو يغفر له ، ويحب ما فعله من الخير ويبغض ما فعله من الشر . (مجموع الفتاوى ج ١٠ ص ٣٢٩) .

تعزير من لعن أحداً من المسلمين

قال رحمه الله : رأيت فى فتاوى الفقيه أبى محمد فتوى طويلة فيها أشياء حسنة قد سئل بها عن مسائل متعددة قال فيها : « ومن لعن أحداً من المسلمين عزر على ذلك تعزيراً بليغاً . والمؤمن لا يكون لعاناً ، وما أقربه من عود اللعنة عليه ، قال : وأما لعن العلماء لأئمة الأشعرية فمن لعنهم عزر وعادت اللعنة عليه فمن لعن من ليس أهلا للعنة ، وقعت اللعنة عليه . .

فالفقيه أبو محمد أيضا إنما منع اللعن ، وأمر بتعزير اللاعن ، وهو ما ذكرناه من موافقة القرآن والسنة والحديث ، والرد على من خالف القرآن والسنة والحديث . (مجموع الفتاوى ج ٤ ص ١٥ - ١٧) .

التكفير والتفسيق

قال رحمه الله : ومن أصول أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل : قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

ومع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر ، كما يفعله الخوارج بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصى ، كما قال سبحانه وتعالى فى آية القصاص : ﴿ فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف ﴾[2]

وقال : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾[3]

---

(١) انظر صحيح البخارى . . « كتاب الجهاد والسير » باب ما قيل فى قتال الروم جـ ٤ ص ٥١ فقد ورد الحديث عن عمير بن الأسود العنسّى عن أم حرام بلفظ : « أول جيش من أمتى يغزون البحر قد أوجبوا ، قالت أم حرام : قلت يا رسول الله : أنا فيهم ، قال : أنت فيهم ثم قال النبى ﷺ - وأول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر مغفور لهم . قلت : أنا فيهم يا رسول الله ، قال : لا » .

(٢) سورة البقرة من الآية : ١٧٨ .

(٣) سورة الحجرات الآية : ٩ ومن الآية : ١٠ .

ولا يسلبون الفاسق الملّى اسم الإيمان بالكلية ، ولا يخلدونه فى النار كما تقوله المعتزلة ، بل الفاسق يدخل فى اسم الإيمان فى مثل قوله تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾[1] وقد لايدخل فى اسم الإيمان المطلق كما فى قوله تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ﴾[2] وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن »[3] (متفق عليه) .

ويقولون : هو مؤمن ناقص الإيمان ، أومؤمن بإيمانه ، فاسق بكبيرته ؟ فلا يعطى الاسم المطلق ، ولا يسلب مطلق الاسم . (مجموع الفتاوى ج ٣ ص ١٥١) .

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه :
عن العبد المؤمن هل يكفر بالمعصية أم لا ؟

فأجاب :

لا يكفر بمجرد الذنب ، فإنه ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف أن الزانى غير المحصن يجلد ولا يقتل ، والشارب يجلد ، والقاذف يجلد ، والسارق يقطع .

ولو كانوا كفارا لكانوا مرتدين ووجب قتلهم . وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف .

لا يكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة :

وحقيقة الأمر فى ذلك : أن القول قد يكون كفرا ، فيطلق الأمر بتكفير صاحبه ، ويقال : من قال كذا فهو كافر ، لكن الشخص المعين الذى قاله لا يحكم بكفره ، حتى تقوم عليه الحجة التى يكفر تاركها . وهذا كما فى نصوص الوعيد فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾[4] فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق ، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد ، فلا يشهد لمعين من أهل القبلة بالنار لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرط ، أو ثبوت مانع فقد لا يكون التحريم بلغه ، وقد يتوب من فعل المحرم ، وقد تكون له صفات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم ، وقد يبتلى بمصائب تكفر عنه وقد يشفع فيه شفيع مطاع .

وهكذا الأقوال التى يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من فهمها ، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها ، فمن كان من المؤمنين مجتهدا فى طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان ، سواء كان فى المسائل النظرية ، أو العملية ، هذا الذى عليه أصحاب النبى ﷺ ، وجماهير أئمة الإسلام (مجموع الفتاوى ج ٢٣ ص ٣٤٥) .

---

(١) سورة النساء من الآية : ٩٢ .
(٢) سورة الأنفال من الآية : ٢ .
(٣) أنظر صحيح البخارى « كتاب الحدود » باب « لا يشرب الخمر » جـ ٨ ص ١٩٥ ـ ١٩٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن أبى هريرة .
(٤) سورة النساء الآية : ١٠ .

لا أساس لتقسيم المسائل إلى أصول وفروع

وما قسموا المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها ، ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها :

فأما التفريق بين نوع وتسميته مسائل الأصول وبين نوع وتسميته مسائل الفروع فهذا الفرق ليس له أصل لا عن الصحابة ، ولا عن التابعين لهم بإحسان ، ولا أئمة الإسلام ، وإنما هو مأخوذ من المعتزلة وأمثالهم من أهل البدع . . وعنهم تلقاه من ذكره من الفقهاء فى كتبهم ، وهو تفريق متناقض ، فإنه يقال لمن فرق بين النوعين : ما حد مسائل الأصول التى يكفر بها المخطىء ؟ وما الفاصل بينها وبين مسائل الفروع ، فإن قال : مسائل الأصول هى مسائل الاعتقاد ومسائل الفروع هى مسائل العمل . قيل له : فتنازع الناس فى محمد ﷺ هل رأى ربه أم لا ؟ وفى أن عثمان أفضل من على ، أو على أفضل ؟ وفى كثير من معانى القرآن وتصحيح بعض الأحاديث هى من المسائل الاعتقادية العلمية ، ولا كفر فيها بالاتفاق ، ووجوب الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وتحريم الفواحش والخمر هى مسائل عملية ، والمنكر لها يكفر بالاتفاق .

وإن قال : الأصول هى المسائل القطعية ، قيل له : كثير من مسائل العمل قطعية ، وكثير من مسائل العلم ليست قطعية ، وكون المسألة قطعية أو ظنية هو من الأمور الإضافية ، وقد تكون المسألة عند رجل قطعية لظهور الدليل القاطع له ، كمن سمع النص من رسول الله ﷺ وتيقن مراده منه .

وعند رجل لا تكون ظنية ، فضلا عن أن تكون قطعية لعدم بلوغ النص إياه ، أو لعدم ثبوته عنده ، أو لعدم تمكنه من العلم بدلالته .

وقد ثبت فى الصحاح عن النبى ﷺ حديث الذى قال لأهله : « إذا أنا مت فأحرقونى ، ثم اسحقونى ، ثم ذرونى فى اليم ، فوالله لئن قدر الله علىّ ليعذبنى عذابا ما عذبه أحدا من العالمين . فأمر الله البرَّ بردَّ ما أخذ منه ، والبحر برد ما أخذ منه ، وقال : ما حملك على ما صنعت ؟ قال : خشيتك يا رب ! فغفر له[1] (متفق عليه) فهذا شك فى قدرة الله وفى المعاد ، بل ظن أنه لن يعود ، وأنه لا يقدر الله عليه إذا فعل ذلك ، وغفر الله له .

ولكن المقصود هنا أن مذاهب الأئمة مبنية على هذا التفصيل بين النوع والعين . ولهذا حكى طائفة عنهم الخلاف فى ذلك ، ولم يفهموا غور قولهم ، فطائفة تحكى عن أحمد فى تكفير أهل البدع روايتين مطلقا ، حتى تجعل الخلاف فى تكفير المرجئة والشيعة المفضلة لعلى ، وربما رجحت التكفير والتخليد فى النار ، وليس هذا مذهب أحمد ، ولا غيره من أئمة المسلمين ، بل لا يختلف قوله إنه لا يكفر المرجئة الذين يقولون : الإيمان قول بلا عمل ، ولا يكفر من يفضل عليا على عثمان ، بل نصوصه صريحة بالامتناع من تكفير الخوارج والقدرية وغيرهم وإنما يكفر الجهمية المنكرين لأسماء الله وصفاته ، لأن مناقضة أقوالهم لما جاء به الرسول ﷺ ظاهرة بينة ، ولأن حقيقة قولهم تعطيل الخالق ،

(١) وانظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » باب « فى سعة رحمة الله » جـ ٤ ص ٢١٠٩ - ٢١١٠ حديث رقم ٢٤ ، ٢٥/٢٧٥٦ فقد ورد حديثان لأبى هريرة مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

وكان قد ابتلى بهم حتى عرف حقيقة أمرهم وأنه يدور على التعطيل ، وتكفير الجهمية مشهور عن السلف والأئمة . لكن ما كان يكفر أعيانهم ، فإن الذى يدعو إلى القول أعظم من الذى يقول به ، والذى يعاقب مخالفه أعظم من الذى يدعو فقط ، والذى يكفر مخالفه أعظم من الذى يعاقبه ، ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وإن الله لا يُرى فى الآخرة وغير ذلك ، ويدعون الناس إلى ذلك ، ويمتحنونهم ويعاقبونهم إذا لم يجيبوهم ويكفرون من لم يجبهم ، حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية : إن القرآن مخلوق ، وغير ذلك ، ولا يولون متوليا ولا يعطون رزقاً من بيت المال إلا لمن يقول ذلك ، ومع هذا فالإمام أحمد ـ رحمه الله ـ ترحم عليهم واستغفر لهم ، لعلمه بأنه لم يبن لهم أنهم مكذبون للرسول ، ولا جاحدون لما جاء به ، ولكن تأولوا فأخطأوا وقلدوا من قال لهم ذلك .

وكذلك قال مالك رحمه الله ، والشافعى ، وأحمد ، فى القدرى : إن جحد علم الله كفر ، ولفظ بعضهم : ناظروا القدرية بالعلم ، فإن أقروا به خصموا ، وإن جحدوه كفروا . وسئل أحمد عن القدرى : هل يكفر ؟ فقال : إن جحد العلم كفر . وحينئذ فجاحد العلم هو من جنس الجهمية . وأما قتل الداعية إلى البدع فقد يقتل لكف ضرره عن الناس ، كما يقتل المحارب ، وإن لم يكن فى نفس الأمر كافرا ، فليس كل من أمر بقتله يكون قتله لردته ، وعلى هذا قتل غيلان القدرى وغيره قد يكون على هذا الوجه . (ج ٢٣ ص ٣٤٦) .

لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله :

ولا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه ، كالمسائل التى تنازع فيها أهل القبلة ، فإن الله تعالى قال :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾(١) .

وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى أجاب هذا الدعاء وغفر للمؤمنين خطأهم .

والخوارج المارقون الذين أمر النبى ﷺ بقتالهم ، قاتلهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب أحد الخلفاء الراشدين . واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين من بعدهم . ولم يكفرهم على ابن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وغيرهما من الصحابة ، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم ، ولم يقاتلهم على حتى سفكوا الدم الحرام وأغاروا على أموال المسلمين ، فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم لا لأنهم كفار .

ولهذا لم يسب حريمهم ولم يغنم أموالهم .

وإذا كان هؤلاء الذين ثبت ضلالهم بالنص والإجماع لم يكفروا مع أمر الله ورسوله ﷺ بقتالهم ، فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق فى مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم ؟ فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن تكفر الأخرى ، ولا تستحل دمها ومالها ، وإن كانت فيها بدعة محققة ،

(١) سورة البقرة الآية : ٢٨٥ .

فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضا ؟ وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ ، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ والغالب أنهم جميعاً جهال بحقائق ما يختلفون فيه .

والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله . قال النبى ﷺ لما خطبهم فى حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا »[1] (متفق عليه) .

وقال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[2] (رواه مسلم) .

وقال ﷺ : « من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله »[3] (رواه البخارى) .

وقال : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » قيل : يا رسول الله هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه أراد قتل صاحبه »[4] . (متفق عليه) .

وقال ﷺ : « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض »[5] (متفق عليه) .

وقال : « إذا قال المسلم لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما »[6] البخارى .

وهذه الأحاديث كلها فى الصحاح .

وإذا كان المسلم متأولا فى القتال أو التكفير لم يكفر بذلك كما قال عمر بن الخطاب لحاطب ابن أبى بلتعة : يا رسول الله دعنى : أضرب عنق هذا المنافق فقال النبى ﷺ : « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك أن الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[7] (رواه مسلم) .

وهذا فى الصحيحين . وفيهما أيضا : من حديث الإفك : أن أسيد بن الحضير قال لسعد ابن عبادة : إنك منافق تجادل عن المنافقين ، واختصم الفريقان فأصلح النبى ﷺ بينهم . فهؤلاء

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحج » باب « الخطبة أيام منى » جـ ٢ ص ٢١٥ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس من حديث طويل « خطبة يوم النحر » ومن رواية لأبى بكرة أيضا .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « البر والصلة والآداب » باب « تحريم ظلم المسلم ... الخ » جـ ٤ ص ١٩٨٦ حديث رقم ٣٥٦٤/٣٢ فقد ورد الحديث ضمن طويل من رواية لأبى هريرة .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الفتن » جـ ٢ ص ١٢٩٨ حديث رقم ٣٩٣٣ فقد ورد الحديث بلفظه لأبى هريرة .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « استقبال القبلة » جـ ١ ص ١٠٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الفتن » باب « إذا التقى المسلمان بسيفهما » جـ ٨ ص ٦٤ فقد ورد الحديث من رواية لأبى بكرة . وانظر مسند أحمد جـ ٥ ص ٥١ .

(٥) انظر صحيح البخارى « كتاب الفتن » باب قول النبى ﷺ لا ترجعوا بعدى كفارا جـ ٨ ص ٦٣ فقد ورد الحديث من رواية عن ابن عمر .

وانظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٨١ ـ ٨٢ « كتاب الإيمان » باب معنى قول النبى لا ترجعوا بعدى كفارا .. الخ حديث ٦٥/١١٨ ، ٦٦/١١٨ فقد ورد الأول عن جرير والثانى عن ابن عمر .

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر جـ ١ ص ٧٩ حديث ١٠٠/١١١ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن دينار بلفظ « أيما امرىء قال لأخيه يا كافر فقد باء بأحدهما .

(٧) انظر صحيح البخارى « كتاب استتابة المرتدين .. الخ » جـ ٩ ص ٢٣ ـ ٢٤ فقد ورد الحديث عن حصين عن فلان .

البدريون،فيهم من قال لآخر منهم : إنك منافق ، ولم يكفر النبى ﷺ لا هذا ولا هذا ، بل شهد للجميع بالجنة .

وكذلك ثبت فى الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه قتل رجلا بعدما قال : لا إله إلا الله وعظم النبى ﷺ لمَا أخبره وقال : « يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ »[١] وكرر ذلك عليه حتى قال أسامة : تمنيت أنى لم أكن أسلمت إلا يومئذ . ومع هذا لم يوجب عليه قوداً ، ولا دية ، ولا كفارة ، لأنه كان متأولاً ظن جواز قتل ذلك القائل لظنه أنه قالها تعوذاً . فهكذا السلف قاتل بعضهم بعضا من أهل الجمل وصفين ونحوهم وكلهم مسلمون مؤمنون كما قال تعالى :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[٢] فقد بين سبحانه أنهم مع اقتتالهم وبغى بعضهم على بعض إخوة مؤمنون ، وأمر بالإصلاح بينهم بالعدل .

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالى بعضهم بعضا موالاة الدين ، لا يعادون كمعاداة الكفار ، فيقبل بعضهم شهادة بعض ، ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون معاملة المسلمين بعضهم مع بعض ، مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك .

وقد ثبت فى الصحيحين أن النبى ﷺ سأل ربه : « أن لا يهلك أمته بسنة عامة فأعطاه ذلك ، وسأله : ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم فأعطاه ذلك ، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فلم يعط ذلك »[٣] (أخرجه مسلم) . وأخبر أن الله لا يسلط عليهم عدوا من غيرهم يغلبهم كلهم حتى يكون بعضهم يقتل بعضا وبعضهم يسبى بعضا .

وثبت فى الصحيحين لما نزل قوله تعالى : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم** ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ﴾[٤] .
قال : « هاتان أهون »[٥] . (رواه البخارى فى تفسير سورة الأنعام) .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « تحريم قتل الكافر . . . الخ » ٩٦ ـ ٩٧ فقد ورد الحديث ٩٦/١٥٨ من حديث ابن أبى شيبة ، ٩٦/١٥٩ من حديث أبى ظبيان .
(٢) سورة الحجرات آية : ٩ .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢١٥ « كتاب الفتن وأشراط الساعة » باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض فقد ورد الحديث ٢٨٨٩/١٩ من حديث طويل عن ثوبان .
وانظر فتح البارى بشرح البخارى جـ ٨ ص ٢٩١/٢٩٢/٢٩٣ « كتاب التفسير » باب « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » فقد ورد الحديث عن ثوبان .
(٤) سورة الأنعام من الآية : ٦٥ .
(٥) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى « كتاب التفسير » باب « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » جـ ٨ ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ فقد ورد الحديث من رواية عن جابر بلفظ « هذا أهون أو أيسر » .. ووقع فى الاعتصام « هاتان أهون أو أيسر » .

هذا مع أن الله أمر بالجماعة والائتلاف ، ونهى عن البدعة والاختلاف وقال : ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شيء ﴾[١] وقال النبى ﷺ : « عليكم بالجماعة فإن يد الله مع الجماعة »[٢] (أخرجه أحمد) . وقال : « الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم والذئب إنما يأخذ القاصية والنائية من الغنم »[٣] (رواه مسلم) ، فالواجب على المسلم إذا صار فى مدينة من مدائن المسلمين أن يصلى معهم الجمعة والجماعة ويوالى المؤمنين ولا يعاديهم وإن رأى بعضهم ضالا أو غاويا وأمكن أن يهديه ويرشده فعل ذلك ، وإلا فلا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، وإذا كان قادراً على أن يولى فى إمامة المسلمين الأفضل ولاه ، وإن قدر أن يمنع من يُظهِر البدع والفجور منعه . وإن لم يقدر على ذلك فالصلاة خلف الأعلم بكتاب الله وسنة نبيه الأسبق إلى طاعة الله ورسوله أفضل ، كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا فى القرآن سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا فى السنة سوٰاء فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا فى الهجرة سواء فأقدمهم سناً »[٤] (رواه مسلم) . وإن كان فى هجره لمُظهِر البدعة والفجور مصلحة راجحة هجره ، كما هجر النبى ﷺ الثلاثة الذين خلفوا حتى تاب الله عليهم ، وأما إذا ولى غيره بغير إذنه وليس فى ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية كان تفويت هذه الجمعة والجماعة جهلاً وضلالاً ، وكان قد ردّ بدعة ببدعة .

حتى إن المصلى الجمعة خلف الفاجر اختلف الناس فى إعادته الصلاة وكرهها أكثرهم ، حتى قال أحمد بن حنبل فى رواية عبدوس : من أعادها فهو مبتدع . وهذا أظهر القولين ، لأن الصحابة لم يكونوا يعيدون الصلاة إذا صلوا خلف أهل الفجور والبدع ، ولم يأمر الله تعالى قط أحدا إذا صلى كما أمر بحسب استطاعته أن يعيد الصلاة . . ولهذا كان أصح قول العلماء أن من صلى بحسب استطاعته أن لا يعيد حتى المتيمم لخشية البرد ، ومن عدم الماء والتراب ، إذا صلى بحسب حاله ، والمحبوس وذوو الأعذار النادرة والمعتادة والمتصلة ، والمنقطعة ، لا يجب على أحد منهم أن يعيد الصلاة إذا صلى الأولى بحسب استطاعته .

وقد ثبت فى الصحيح أن الصحابة صلوا بغير ماء ولا تيمم لما فقدت عائشة عقدها ولم يأمرهم النبى ﷺ بالإعادة بل أبلغ من ذلك أن من كان يترك الصلاة جهلا بوجوبها لم يأمره بالقضاء ، فعمرو ، وعمار لمّا أجنبا وعمرو لم يصل وعمار تمرغ كما تتمرغ الدابة لم يأمرهما بالقضاء ، وأبو ذر لما كان يجنب ولا يصلى لمْ يأمره بالقضاء ، والمستحاضة لما استحاضت حيضة شديدة منكرة منعتها الصلاة والصوم لم يأمرها بالقضاء . .

فالمتأول والجاهل والمعذور ليس حكمه حكم المعاند والفاجر ، بل جعل الله لكل شيء قدراً . (مجموع الفتاوى ج ٣ ص ٢٨٢) .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٥٩ .

(٢) انظر تاريخ ابن عساكر جـ ٦ ص ٦٢ باب « ذكر من اسمه السائب » فقد ورد الحديث من حديث طويل فى خطبة عمر لما دخل الشام بلفظ « عليكم بالجماعة فإن يد الله على الجماعة »

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ٥ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣ فقد ورد الحديث عن معاذ بن جبل بلفظ « إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد » .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد » باب من أحق بالإمامة جـ ١ ص ٤٦٥ فقد ورد الحديث ٢٩٠/٦٧٣ من رواية لابن مسعود .

الكبر المباين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة

سئل رحمه الله عن معنى قوله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[١] هل هذا الحديث مخصوص بالمؤمنين أم بالكفار ؟ فإن قلنا مخصوص بالمؤمنين فقولنا ليس بشىء ؛ لأن المؤمنين يدخلون الجنة بالإيمان . وإن قلنا مخصوص بالكافرين فما فائدة الحديث .

فأجاب :

لفظ الحديث فى الصحيح : « لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان » فالكبر المباين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة كما فى قوله : ﴿ **إن الذين يستكبرون من عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ . ومن هذا كبر إبليس ، وكبر فرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للإيمان ، وكذلك كبر اليهود ، والذين أخبر الله عنهم بقوله : ﴿ **أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون** ﴾[٢]

والكبر كله مباين للإيمان الواجب فمن فى قلبه مثقال ذرة من كبر لا يفعل ما أوجب الله عليه ويترك ما حرم عليه ، بل كبره يوجب له جحد الحق ، واحتقار الخلق ، وهذا هو الكبر الذى فسره النبى ﷺ : حيث سئل فى تمام الحديث ، فقيل : يا رسول الله ! الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً ، فمن الكبر ذاك ؟ فقال : لا إنّ الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »[٣] (أخرجه مسلم) . وبطر الحق : جحده ودفعه ، وغمط الناس : ازدراؤهم واحتقارهم ؛ فمن فى قلبه مثقال ذرة من هذا يوجب له أن يجحد الحق الذى يجب عليه أن يقر به ، وأن يحتقر الناس فيكون ظالماً معتدياً عليهم ، فمن كان مضيعاً الواجب ؛ ظالماً للخلق لم يكن من أهل الجنة ، ولا مستحقا لها ، بل يكون من أهل الوعيد .

فقوله : « لا يدخل الجنة » متضمن لكونه ليس من أهلها ، ولا مستحقا لها ، لكن إذا تاب ، أو كانت له حسنات ماحية لذنبه أو ابتلاه الله بمصائب كفر بها خطاياه ، ونحو ذلك ، زال ثمرة هذا الكبر المانع له من الجنة ، فيدخلها ، أو غفر الله له بفضل رحمته من ذلك الكبر نفسه ، فلا يدخلها ومعه شىء من الكبر ، ولهذا قال : من قال فى هذا الحديث وغيره : إن المنفى هو الدخول المطلق الذى لا يكون معه عذاب ، لا الدخول المقيد الذى يحصل لمن دخل النار ثم دخل الجنة ، فإنه إذا أطلق فى الحديث : فلان فى الجنة ، أو فلان من أهل الجنة كان المفهوم أنه يدخل الجنة ولا يدخل النار .

فإذا تبين هذا كان معناه أن من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ليس هو من أهل الجنة ، ولا يدخلها بلا عذاب ، بل هو مستحق للعذاب لكبره ، كما يستحقها غيره من أهل الكبائر ، ولكن قد يعذب فى النار ما شاء الله ، فإنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « تحريم الكبر وبيانه » جـ ١ ص ٩٣ حديث رقم ٩١/١٤٩ من رواية لابن مسعود .
(٢) سورة البقرة آية : ٨٧ .
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « تحريم الكبر وبيانه » جـ ١ ص ٩٣ حديث رقم ٩١/١٤٧ من رواية لابن مسعود .

وهنا كقوله ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطع رحم »[١] (رواه البخارى) .

وقوله : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »[٢] (رواه مسلم) . وأمثال هذا من أحاديث الوعيد وعلى هذا فالحديث عام فى الكفار وفى المسلمين .

وقول القائل : إن المسلمين يدخلون الجنة بإسلامهم ، فيقال له : ليس كل المسلمين يدخلون الجنة بلا عذاب ، بل أهل الوعيد يدخلون النار ، ويمكثون فيها ما شاء الله ، مع كونهم ليسوا كفاراً ، فالرجل الذى معه شىء من الإيمان ، وله كبائر قد يدخل النار ، ثم يخرج منها : إما بشفاعة النبى ﷺ ، وإما بغير ذلك ، كما قال ﷺ : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى »[٣] (رواه أبو داود) .

وكما فى الصحيح أنه قال : « أخرج من النار من فى قلبه مثقال ذرة من إيمان »[٤] . وهكذا الوعيد فى قاتل النفس والزانى وشارب الخمر وآكل مال اليتيم وشاهد الزور ، وغير هؤلاء من أهل الكبائر ، فإن هؤلاء ـ وإن لم يكونوا كفاراً ـ لكنهم ليسوا من المستحقين للجنة الموعودين بها بلا عقاب .

ومذهب أهل السنة والجماعة : أن فساق أهل الملة ليسوا مخلدين فى النار كما قالت الخوارج والمعتزلة ، وليسوا كاملين فى الدين والإيمان والطاعة ، بل لهم حسنات وسيئات يستحقون بهذا العقاب ، وبهذا الثواب . (مجموع الفتاوى ج ٧ ص ٦٧٧) .

الحسنات يذهبن السيئات

إن الحسنات التى هى فعل المأمور به تذهب بعقوبة الذنوب ، والسيئات التى هى فعل المنهى عنه ، فإن فاعل المنهى يذهب إثمه بالتوبة ، وهى حسنة مأمور بها ، وبالأعمال الصالحة المقاومة وهى حسنات مأمور بها ، بدعاء النبى ﷺ وشفاعته ، ودعاء المؤمنين وشفاعتهم ، وبالأعمال الصالحة التى تهدى إليه ، وكل ذلك من الحسنات المأمور بها .

فما من سيئة هى فعل منهى عنه إلا لها حسنة تذهبها هى فعل مأمور به حتى الكفر ، سواء كان وجوديا أو عدميّاً ، فإن حسنة الإيمان تذهبه ، كما قال تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب « أثم القاطع » جـ ٨ ص ٦ فقد ورد الحديث عن رواية لجبير بن مطعم بلفظ « لا يدخل الجنة قاطع » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « صلة الرحم وتحريم قطعها » جـ ٤ ص ١٩٨١ حديث رقم ٢٥٥٦/١٩ عن رواية لجبير بن مطعم فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح مسلم« كتاب الإيمان » باب « بيان أن لا يدخل الجنة إلا المؤمنون . . . الخ جـ ١ ص ٧٤ حديث رقم ٥٤/٩٣ من رواية لأبى هريرة .

(٣) انظر سنن أبى داود « كتاب السنة » باب فى الشفاعة جـ ٥ ص ١٠٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس بن مالك .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب قول الله تعالى وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة جـ ٩ ص ١٦٠ فقد ورد هذا من حديث طويل من رواية لأبى سعيد الخدرى بلفظ « . . . فيقول أذهبوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه فيخرجون من عرفوا . . » .

ماقد سلف ﴾(١) وقال النبى ﷺ : « الإسلام يجبُّ ما قبله »(٢) وفى رواية « يهدم ما كان قبله »(٣) (رواه مسلم) .

وأما الحسنات فلا تذهب ثوابها السيئات مطلقا ، فإن حسنة الإيمان لا تذهب إلا بنقيضها وهو الكفر ، لأن الكفر ينافى الإيمان فلا يصير الكافر مؤمنا ، فلو زال الإيمان زال ثوابه . لا لوجود السيئة ، ولهذا كان كل سيئة لا تذهب بعمل لا يزول ثوابه ، وهذا متفق عليه بين المسلمين حتى المبتدعة من الخوارج والمعتزلة ، فإن الخوارج يرون الكبيرة موجبة للكفر المنافى للإيمان ، والمعتزلة يرونها مخرجة له من الإيمان وإن لم يدخل بها فى الكفر ، وأهل السنة والجماعة يرون أصل إيمانه باقيا ، فقد اتفقت الطوائف على أنه مع وجود إيمانه لايزول ثوابه بشىء من السيئات والكفر ، وإن كانوا متفقين على أنه مع وجوده لايزول عقابه بشىء من الحسنات ، فذلك لأن الكفر يكفى فيه عدم الإيمان ولا يجب أن يكون أمرا موجودا كما تقدم ، فعقوبة الكفر هى ترك الإيمان ، وإن انضم إليها عقوبات على مافعله من الكفر الوجودى أيضا .

وكذلك فقد روى فى بعض ثواب الطاعات المأمور بها مايدفع ويرفع عقوبة المعاصى المنهى عنها ، فإذا كان جنس ثواب الحسنات المأمور بها يدفع عقوبة كل معصية ، وليس جنس عقوبات السيئات المنهى عنها يدفع ثواب كل حسنة : ثبت رجحان الحسنات المأمور بها على ترك السيئات المنهى عنها . وفى هذا المعنى ما ورد فى فضل لا إله إلا الله ، وأنها تطفىء نار السيئات ؛ مثل حديث البطاقة وغيره(٤) (مجموع الفتاوى ج ٢٠)

حكم تارك مبانى الإسلام

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ إن مبانى الإسلام الخمسة المأمور بها وإن كان ضرر تركها لايتعدى صاحبها فإنه يقتل بتركها فى الجملة عند جماهير العلماء ، ويكفر أيضا عند كثير منهم أو أكثر السلف ، وأما فعل المنهى عنه الذى لايتعدى ضرره صاحبه فإنه لايقتل به عند أحد من الأئمة ، ولايكفر به إلا اذا ناقض الإيمان ، لفوات الإيمان وكونه مرتدّاً أو زنديقاً .

وذلك أن من الأئمة من يقتله ويكفره بترك كل واحدة من الخمس لأن الإسلام بنى عليها ، وهو قول طائفة من السلف ورواية عن أحمد اختارها بعض أصحابه .

---

(١) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ فقد ورد الحديث من حديث طويل لعمرو بن العاص ، وانظر ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ فقد ورد الحديث ـ أيضاً ـ من حديث طويل من روايات لعمرو بن العاص .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « كون الإسلام يهدم ما قبله » جـ ١ ص ١١٢ حديث رقم ١٢١/١٩٢ من حديث طويل لابن شماس المهرى تضمن الحديث الذى معنا .

(٤) انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤١٦ الترغيب فى قول : لا إله إلا الله وما جاء فى فضلها ، فعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد قال : لا إله إلا الله فى ساعة من ليل أو نهار إلا طمست ما فى الصحيفة من السيئات حتى تسكن إلى مثلها من الحسنات » رواه أبو يعلى .

ومنهم من لا يقتله ولا يكفره إلا بترك الصلاة والزكاة ، وهى رواية أخرى عن أحمد ، كما دل عليه ظاهر القرآن فى (براءة) وحديث ابن عمر وغيره ، ولأنهما منتظمان لحق الحق وحق الخلق ، كانتظام الشهادتين للربوبية والرسالة ولابد لهما من غيرجنسهما ، بخلاف الصيام والحج .

ومنهم من يقتله بهما ويكفره بالصلاة والزكاة إذا قاتل الإمام عليها كرواية عن أحمد .

ومنهم من يقتله بهما ولا يكفره إلا بالصلاة ، كرواية عن أحمد .

ومنهم من يقتله بهما ولا يكفره ، كرواية عن أحمد ، ومنهم من لا يقتله إلا بالصلاة ولا يكفره ، كالمشهور من مذهب الشافعى ، لإمكان الاستيفاء منه .

وتكفير تارك الصلاة هو المشهور المأثور عن جمهور السلف من الصحابة والتابعين .

ومورد النزاع هو فيمن أقر بوجوبها والتزام فعلها ولم يفعلها ، وأما من لم يقر بوجوبها فهو كافر باتفاقهم ، وليس الأمر كما يفهم من إطلاق بعض الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم : أنه إن جحد وجوبها كفر ، وإن لم يجحد وجوبها فهو مورد النزاع ، بل هنا ثلاثة أقسام :

أحدها : إن جحد وجوبها فهو كافر بالاتفاق .

والثانى : أنّ لا يجحد وجوبها ، لكنه ممتنع من التزام فعلها كبراً أوحسدا ، أوبغضا لله ورسوله ، فيقول : أعلم أن الله أوجبها على المسلمين ، والرسول صادق فى تبليغ القرآن ، ولكنه ممتنع عن التزام الفعل استكبارا أوحسدا للرسول ، أوعصبية لدينه ، أوبغضا لما جاء به الرسول ، فهذا أيضا كافر بالاتفاق ، فإن إبليس لما ترك السجود المأمور به لم يكن جاحدا للإيجاب فإن الله تعالى باشره بالخطاب ، وإنما أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وكذلك أبو طالب كان مصدقا للرسول فيما بلغه لكنه ترك اتباعه حمية لدينه ، وخوفا من عار الانقياد ، واستكبارا عن أن تعلو أمته رأسه فهذا ينبغى أن يتفطّن له .

ومن أطلق من الفقهاء أنه لا يكفر إلا من يجحد وجوبها فيكون الجحد عنده متناولا للتكذيب بالإيجاب ، متناولا للامتناع عن الإقرار والالتزام كما قال تعالى : ﴿ فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[2]

وإلا فمتى لم يقر ويلتزم فعلها قتل وكفر بالاتفاق .

والثالث : أن يكون مقرّاً ملتزماً ، لكن تركها كسلا وتهاوناً ، أو اشتغالاً بأغراض له عنها ، فهذا مورد النزاع ، كمن عليه دين وهو مقر بوجوبه ملتزم لأدائه ، لكنه يمطل بخلا أو تهاوناً .

وهنا قسم رابع : وهو أن يتركها ولا يقر بوجوبها ، ولا يجحد بوجوبها لكنه مقر بالإسلام من حيث الجملة . فهل هذا من موارد النزاع ، أو من موارد الإجماع ؟ ولعل كلام كثير من السلف متناول لهذا ،

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٣ .

(٢) سورة النمل الآية : ١٤ .

وهو المعرض عنها لا مقرا ولا منكرا ، وإنما هو متكلم بالإسلام فهذا فيه نظر ، فإن قلنا يكفر بالاتفاق ، فيكون اعتقاد بوجوب هذه الواجبات على التعيين من الإيمان لا يكفى فيها الاعتقاد العام ، كما فى الخبريات من أحوال الجنة والنار ، والفرق بينهما : أن الأفعال المأمور بها المطلوب فيها الفعل لا يكفى فيها الاعتقاد العام ، بل لابد من اعتقاد خاص ، بخلاف الأمور الخبرية ، فإن الإيمان المجمل بما جاء به الرسول من صفات الرب ، وأمر المعاد يكفى فيه مالم ينقض الجملة بالتفصيل ، ولهذا اكتفوا فى هذه العقائد بالجمل وكرهوا فيها التفصيل المفضى إلى القتال والفتنة بخلاف الشرائع المأمور بها ، فإنه لا يكتفى فيها بالجمل ، بل لابد من تفصيلها علما وعملاً .

وأما القاتل والزانى والمحارب فهؤلاء إنما يقتلون لعدوانهم على الخلق لما فى ذلك من الفساد المعنوى ، ومن تاب قبل القدرة عليه سقط عنه حد الله ولا يكفر أحد منهم .

وأيضا فالمرتد يقتل لكفره بعد إيمانه ، وإن لم يكن محارباً .

فثبت أن الكفر والقتل لترك المأمور به أعظم منه لفعل المنهى عنه وهذا الوجه قوى على مذهب الثلاثة : مالك ، والشافعى ، وأحمد ، وجمهور السلف ، ودلائله من الكتاب والسنة متنوعة ، وأما على مذهب أبى حنيفة فقد يعارض بما قد يقال : إنه لا يوجب قتل أحد على ترك واجب أصلا حتى الإيمان ، فإنه لا يقتل إلا المحارب لوجود الحراب منه وهو فعل المنهى عنه ويسوى بين الكفر الأصلى والطارىء فلا يقتل المرتد لعدم الحراب منه ، ولا يقتل من ترك الصلاة أو الزكاة إلا إذا كان فى طائفة ممتنعة ، فيقاتلهم لوجود الحراب كما يقاتل البغاة ، وأما المنهى عنه فيقتل القاتل والزانى المحصن والمحارب إذا قتل ، فيكون الجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الاعتبار عند النزاع بالرد إلى الله وإلى الرسول ، والكتاب والسنة دال على ما ذكرناه ، من أن المرتد يقتل بالاتفاق وإن لم يكن من أهل القتال : إذا كان أعمى أو زمنا أو راهبا ، والأسير يجوز قتله بعد أسره وإن كان حرابه قد انقضى .

الثانى : إن ما وجب فيه القتل إنما وجب على سبيل القصاص الذى يعتبر فيه المماثلة ، فإن النفس بالنفس ، كما تجب المقاصّة فى الأموال ، فجزاء سيئة سيئة مثلها فى النفوس والأموال والأعراض والأبشار ، لكن إن لم يضر إلا المقتول كان قتله صائرا إلى أولياء المقتول ، لأن الحق لهم كحق المظلوم فى المال . وإن قتله لأخذ المال كان قتله واجبا ، لأن المصلحة العامة التى هى حد الله ، كما يجب قطع يد السارق لأجل حفظ الأموال ، ورد المال المسروق لحق صاحبه ، إن شاء أخذه وإن شاء تركه ، فخرجت هذه الصور عن النقض ، لم يبق ما يوجب القتل عنده بلا مماثلة إلا الزنا ، وهو نوع من العدوان أيضا ووقوع القتل به نادر لخفائه وصعوبة الحجة عليه .

الثالث : أن العقوبة فى الدنيا لا تدل على كبر الذنب وصغره ؛ فإن الدنيا ليست دار الجزاء ، وإنما دار الجزاء هى الآخرة ، ولكن شرع من العقوبات فى الدنيا ما يمنع الفساد والعدوان ، كما قال تعالى : ﴿ من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ﴾[1] وقالت الملائكة :

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٣٢ .

﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾[1] فهذان السببان اللذان ذكرتهما الملائكة هما اللذان كتب الله على بنى إسرائيل القتل بهما ، ولهذا يقر كفار أهل الذمة بالجزية ، مع أن ذنبهم فى ترك الإيمان أعظم باتفاق المسلمين من ذنب من نقتله من زان وقاتل .

وقد وافقه على ذلك مالك وأحمد فى أحد قوليه ، ومع هذا يجوز القتل تعزيرا وسياسة فى مواضع .

وأما الشافعى فعنده نفس الكفر هو المبيح للدم ، إلا أن النساء والصبيان تركوا لكونهم مالاً للمسلمين ، فيقتل المرتد لوجود الكفر ، وامتناع سببها عنده من الكفر فلا منفعة .

وأما أحمد فالمبيح عنده أنواع ، أما الكافر الأصلى فالمبيح عنده هو وجود الضرر منه ، أو عدم النفع فيه ، أما الأول فالمحاربة بيد أو لسان ، فلا يقتل من لا محاربة فيه بحال من النساء والصبيان ، والرهبان والعميان ، والزمنى ونحوهم ، كما هو مذهب الجمهور . وأما المرتد فالمبيح عنده هو الكفر بعد الإيمان ، وهو نوع خاص من الكفر ، فإنه لو لم يقتل ذلك لكان الداخل فى الدين يخرج منه ، فقتله حفظ لأهل الدين وللدين ، فإن ذلك يمنع من النقض ويمنعهم الخروج عنه .

بخلاف من لم يدخل فيه ، فإنه إن كان كتابيا أو شبها له فقد وجب إحدى غايتى القتال فى حقه ، ومتى لم يكن استرقاقه ولا أخذ الجزية منه بقى كافرا لا منفعه فى حياته لنفسه لأنه يزداد إثما ـ ولا للمؤمنين ، فيكون قتله خيرا من إبقائه . وأما تارك الصلاة والزكاة ، فإذا قتل كان عنده من قسم المرتدين لأنه بالإسلام ملتزم لهذه الأفعال ، فإذا لم يفعلها فقد ترك ما التزمه ، أو لأنها عنده من الغاية التى يمتد القتال إليها كالشهادتين فإنه لو تكلم بإحداهما وترك الأخرى لقتل ،

ويفرق فى المرتد بين الردة المجردة فيقتل إلا أن يتوب ، وبين الردة المغلظة فيقتل بلا استتابة .

فهذه مآخذ فقهية نبهنا بها على بعض أسباب القتل ، وقد تبين أنهم لا يتنازعون أن ترك المأمور به فى الآخرة ، وأما فى الدنيا فقد ذكرنا ما تقدم . (مجموع الفتاوى جزء ٢٠)

هجر أهل البدع .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن داعية أهل البدع يهجر فلا يستشهد ولا يروى عنه ، ولا يستفتى ولا يصلى خلفه ، قد يكون من هذا الباب ، فإن هجره تعزير له وعقوبة له جزاء لمنع الناس من ذلك الذنب الذى هو بدعة أو غيرها ، وإن كان فى نفس الأمر تائبا أو معذوراً ، إذ الهجرة مقصودها أحد شيئين :

إما ترك الذنوب المهجورة وأصحابها ، وإما عقوبة فاعلها ونكاله .

ومن هذا الباب هجر الإمام أحمد للذين أجابوا فى المحنة قبل القيد ولمن تاب بعد الإجابة ، ولمن فعل بدعة ما ، مع أن فيهم أئمة فى الحديث والفقه والتصوف والعبادة ، فإن هجره لهم

(١) سورة البقرة من الآية : ٣٠ .

والمسلمين معه لا يمنع معرفة قدر فضلهم ، كما أن الثلاثة الذين خلفوا لما أمر النبى ﷺ بهجرهم لم يمنع ذلك ما كان لهم من السوابق . حتى قيل إن اثنين منهما شهدا بدراً ، وقد قال الله لأهل بدر « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » وأحدهم كعب بن مالك شاعر النبى ﷺ وأحد أهل العقبة ، فهذا « أصل عظيم » أن عقوبة الدنيا المشروعة من الهجران إلى القتل لا يمنع أن يكون المعاقب عدلاً أو رجلا صالحاً كما بينت من الفرق بين عقوبة الدنيا المشروعة والمقدورة ، وبين عقوبة الآخرة والله سبحانه أعلم .

(ص ٣٧٦ ج ١٠ مجموع الفتاوى)

التوبة من الذنوب

ذهب طائفة من أهل الكلام كأبى هاشم إلى أن التوبة لا تصح من قبيح مع الإصرار على الآخر - قالوا : لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبة صحيحة ، والخشية مانعة من جميع الذنوب لا من بعضها ، وحكى القاضى أبو يعلى وابن عقيل هذا رواية عن أحمد ، لأن المروزى نقل عنه أنه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال : لو مرضت لم أعد لكن لا يدع النظر ، فقال أحمد : أى توبة ذه ؟! قال جرير بن عبد الله : سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال : « اصرف بصرك »[1] (رواه مسلم) . .

والمعروف عن أحمد وسائر الأئمة هو القول بصحة التوبة ، وأحمد فى هذه المسألة إنما أراد أن هذه ليست توبة عامة يحصل بسببها من التائبين توبة مطلقا لم يرد أن ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر ، فإن نصوصه المتواترة عنه وأقواله الثابتة تنافى ذلك . وحَمْلُ كلام الإمام على ما يصدق بعضه بعضا أولى من حمله على التناقض ، لا سيما إذا كان القول الآخر مبتدعا لم يعرف عن أحد من السلف ، وأحمد يقول : إياك أن تتكلم فى مسألة ليس لك فيها فهم ، وكان فى المحنة يقول : كيف أقول مالم يقل . واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته فى ذلك وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة .

وما ذكروه من أن الخشية توجب العموم .

فجوابه : أنه قد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه فى أحدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك ، كمن أدى بعض الواجبات دون بعض ، فإن ذلك يقبل منه .

ولكن المعتزلة لهم أصل فاسد وافقوا فيه الخوارج فى الحكم وإن خالفوهم فى الاسم ، فقالوا : إن أصحاب الكبائر يخلدون فى النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها ، وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه ، ولهذا يقولون بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة .

---

(١) أنظر صحيح مسلم « كتاب الآداب » باب تحريم النظر فى بيت غيره جـ ٣ ص ١٦٩٩ « باب نظر الفجاءة » حديث ٤٥/٢١٥٩ فقد ورد الحديث عن جرير بن عبد الله قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن نظر الفجاءة فأمرنى أن أصرف بصرى »

وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم وأن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات ولكن قد تحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة . ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر . كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة ، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغى بها رضا الله أثابه الله على ذلك ، وإن كان مستحقا للعقوبة على كبيرته .

وكتاب الله عز وجل يفرق بين حكم السارق والزانى وقتال المؤمنين بعضهم بعضا وبين حكم الكفار فى « الأسماء والأحكام » والسنة المتواترة عن النبى ﷺ وإجماع الصحابة يدل على ذلك . كما هو مبسوط فى غير هذا الموضع .

التوبة من بعض الذنوب

وعلى هذا تنازع الناس فى قوله : (إنما يتقبل الله من المتقين)[١] فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنة إلا ممن اتقاه مطلقا فلم يأت كبيرة ، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك . فجعلوا أهل الكبائر داخلين فى اسم « المتقين » وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصا لله موافقا لأمر الله فمن اتقاه فى عمله تقبله منه ، وإن كان عاصيا فى غيره . ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعاً فى غيره .

والتوبة من بعض الذنوب دون بعض كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعض إذا لم يكن المتروك شرطا فى صحة المفعول كالإيمان المشروط فى غيره من الأعمال ، كما قال تعالى : ﴿ وَمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾[٣] وقال : ﴿ ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والاخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٤] إن من له ذنوب فتاب من بعضها دون بعض فإن التوبة إنما تقتضى مغفرة ما تاب منه ، أما مالم يتب منه فهو باق فيه على حكم من لم يتب ، لا على حكم من تاب ، وما علمت فى هذا نزاعاً إلا فى الكافر إذا أسلم ، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذى تاب منه ، وهل تغفر له الذنوب التى فعلها فى حال الكفر ولم يتب منها فى الإسلام ؟هذا فيه قولان معروفان :

أحدهما : يغفر له الجميع ؛ لإطلاق قوله ﷺ : « الإسلام يهدم ما كان قبله »[٥] رواه مسلم مع قوله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ﴾[٦]

---

(١) سورة المائدة من الآية : ٢٧ .
(٢) سورة الإسراء الآية : ١٩
(٣) سورة النحل من الآية : ٩٧ .
(٤) سورة البقرة من الآية : ٢١٧ .
(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب كون الإسلام يهدم ما قبله .. الخ جـ١ ص ١١٢ فقد ورد الحديث رقم ١٢١/١٩٢ وهو حديث طويل من رواية لابن شماسة المهرى وقد تضمن هذا الحديث .
(٦) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

القول الثانى :

أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه ، فإذا أسلم وهو مصرٌّ على كبائر دون الكفر فحكمه فى ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر ، وهذا القول هو الذى تدل عليه الأصول والنصوص ؛ فإن فى الصحيحين أن النبى ﷺ :« **قال له حكيم بن حزام : يا رسول الله أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية ؟ فقال : من أحسن منكم فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر** »[١] فقد دل هذا النص على أنه إنما ترتفع المؤاخذة بالأعمال التى فعلت فى حال الجاهلية عمن أحسن لا عمن يحسن ، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر ، ومن لم يتب منها فلم يحسن .

وقوله تعالى : ﴿ قل للذينَ كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ﴾[٢] .

يدل على أن المنتهى عن شىء يغفر له ما قد سلف منه ، لا يدل على أن المنتهى عن شىء يغفر له ما سلف من غيره ، وذلك لأن قول القائل لغيره : إن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم منه ، وإذا انتهيت عن شىء غفر لك ما تقدم منه ، كما يفهم مثل ذلك فى قوله :« إن تبت » لا يفهم منه أنك بالانتهاء عن ذنب يغفر لك ما تقدم من غيره .

وأما قول النبى ﷺ : « الإسلام يهدم ما قبله » وفى رواية « يجب ما كان قبله » فهذا قاله لما أسلم عمرو بن العاص وطلب أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له : « يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم قبله ، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها »[٣] ومعلوم أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه ، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب .

إن الإنسان قد يستحضر ذنوبا فيتوب منها ، وقد يتوب توبة مطلقة لا يستحضر معها ذنوبه ، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهى تتناول كل ما يراه ذنبا ، لأن التوبة العامة تتضمن عزما بفعل المأمور وترك المحظور وكذلك تتضمن ندماً عامّاً على كل محظور . (ص ٣٢٠ ج ١٠ مجموع الفتاوى) . ا هـ .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب إستتابة المرتدين » .. الخ جـ ٨ ص ١٧ ـ ١٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية ابن مسعود .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب « هل يؤاخذ بأعمال الجاهلية » جـ ١ ص ١١١ حديث رقم ١٩٠/١٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن مسعود . .

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٣٨ .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٢٠٥ فقد ورد الحديث فى رواية عن ابن شماسة المهرى . . وانظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان » باب كون الإسلام يهدم ما قبله جـ ١ ص ١١٢ حديث ١٩٢/١٢١ وهو حديث طويل من رواية ابن شماسة المهرى وقد تضمن الحديث الذى معنا .

من مشاهد القيامة فى القرآن الكريم

قال تعالى :

ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ
أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾
بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ
فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ
بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾
وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ
أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ
قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾
وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ

أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ
وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

معانى المفردات

(وكيل) : أى : قيم بالحفظ والرعاية فيتولى التصرف بحسب الحكمة والمصلحة .

(مقاليد) أى : مفاتيح (ليحبطن عملك) أى : ليذهبن هباء ولا يكون له أثر .

(وما قدروا الله حق قدره) أى : ما عظموه حق التعظيم على الوجه الذى يليق به .

(الصور) : القرن الذى ينفخ فيه ، (صعق) أى : غشى عليه ، (ينظرون) أى : ينتظرون ماذا يفعل بهم ؟ (أشرقت) أى : أشرقت الشمس : أضاءت وشرقت : طلعت (ووضع الكتاب) أى : ووضعت صحائف الأعمال بأيدى العاملين ، (بالحق) أى : بالعدل ، (ما عملت) أى : جزاء ما عملت (وسيق) السوق : الحث على السير بعنف وإزعاج علاوة على الإهانة والاحتقار . وهذا فى حق الكافرين . (زمرا) الزمر : الأفواج المتفرقة بعضها فى إثر بعض . (خزنتها) الخزنة : واحدهم خازن .

(ينذرونكم) أى : يخوفونكم . (حقت) : وجبت .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن بسط سبحانه الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك ـ عاد إلى ذكر دلائل الألوهية والوحدانية ، ثم انتقل إلى النعى على الكافرين فى أمرهم لرسوله بعبادة الأوثان والأصنام ، ثم بين أن الأنبياء جميعا أوحى إليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده ، وألا يشركوا به شيئا ، وأنهم إن فعلوا ذلك حبطت أعمالهم ، ثم كرر النعى عليهم مرة أخرى بأنهم لم يعرفوا الله حق معرفته ، إذ لو عرفوه لما جعلوا هذه المخلوقات الخسيسة مشاركة له فى العبودية . ثم أردف ذلك ذكر دلائل أخرى تدل على كمال قدرته وعظيم سلطانه . فيذكر مقدمات يوم القيامة من نفخ الصور النفخة الأولى التى يموت بها أهل الأرض جميعا ثم النفخة الثانية التى يقوم بها الناس جميعا من قبورهم ، ثم الفصل بينهم للجزاء والحساب ، فتوفى كل نفس جزاء ما عملت من خير أو شر وهو سبحانه العليم بأفعالهم جميعا ، ثم فصّل ذلك فذكر ما يحل بالأشقياء من الأهوال وما يلقونه من التأنيب والتوبيخ ، وذكر سبحانه بعد ذلك أحوال السعداء ، وما يلاقونه من النعيم ، وما يقال لهم وما يقولون (وقيل الحمد لله رب العالمين) .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل * له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون * قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين * بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها وربها ومليكها والمتصرف فيها وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته . كقوله عز وجل : ﴿ بديع السموات والأرض أنَّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل * لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ قال مجاهد : المقاليد : المفاتيح وقال السدى : (له مقاليد السموات والأرض) أى : خزائن السموات والأرض ، والمعنى على كلا القولين أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . ونحو هذا قوله تعالى : ﴿ فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير * له مقاليد السموات والأرض ، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم ﴾[2] .

وقوله عز وجل : ﴿ **والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون** ﴾ أى : **والذين كفروا بحججه وبراهينه فأولئك هم الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآيات الله يظلمون** .

وقوله تعالى : ﴿ **قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ؟** ﴾

ذكروا فى سبب نزولها ما رواه ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم ويعبدون معه إلهه فنزلت (**قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين**) **وهذه كقوله تعالى** : ﴿ **ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ **بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ أى : أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك .

قوله تعالى : ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ .

يقول ابن كثير :

يقول تبارك وتعالى : (**وما قدروا الله حق قدره**) أى : **ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره وهو العظيم الذى لا أعظم منه القادر على كل شىء ، المالك لكل شىء ، وكل شىء تحت قهره وقدرته** .

---

(١) سورة الأنعام الآيات : ١٠١ - ١٠٣ .

(٢) سورة الشورى الآيتان : ١١ - ١٢ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : (وما قدروا الله حق قدره) : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم ، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره ، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره ، وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة والطريق فيها وفى أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف .

قال البخارى : قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره) عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، إنا نجد أن الله ـ عز وجل ـ يجعل السموات والأرض على أصبع والأرضين على أصبع ، والشجر على أصبع ، والماء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ثم قرأ رسول الله ﷺ : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) الآية ورواه البخارى أيضا فى غير هذا الموضع من صحيحه والإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى فى التفسير عن ابن مسعود رضى الله عنه بنحوه .(١)

وقال البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يقبض الله تعالى الأرض ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض» تفرد به من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر(٢)

وقال البخارى : عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تبارك وتعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على أصبع وتكون السموات بيمينه ثم يقول : أنا الملك » تفرد به أيضا من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر(٣)

وأخرج الشيخان والنسائى وابن ماجه فى جماعةآخرين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر : (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) وهو يقول هكذا بيده يحركها يقبل بها ويدبر يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرُجِف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا ليخرَّنَّ به »(٤) .

قوله جل فى علاه : (سبحانه وتعالى عما يشركون) به من المعبودات التى يجعلونها شركاء له مع القدرة العظيمة والحكمة الباهرة . (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا) .

﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » ص ١٥١ فقد ورد الحديث من رواية عن عبد الله .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب « قول الله تعالى مالك الناس » جـ ٩ ص ١٤٢ فقد ورد الحديث من رواية عن أبى هريرة . وانظر جـ ٨ ص ١٣٥ باب يقبض الله الأرض .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب التوحيد » ص ١٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٤) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٦٢ ، ٦٣ ط/دار الفكر فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمر .

قوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون (٦٨) وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجاىء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون (٦٩) ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون (٧٠) ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة فقوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله** ﴾ هذه النفخة هى الثانية ،وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض ، إلا من شاء الله ـ كما جاء به مفسراً فى حديث الصور المشهور ـ ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً ، وهو الباقى آخراً وهو الأول والآخر ، الحى الذى لا يموت ، يقول سبحانه : ﴿ لمن الملك اليوم ﴾[١] ثلاث مرات ثم يجيب نفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾[٢] ﴿ ويوم يقول كن فيكون قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾[٣] ، ثم يحيى أول من يحيى إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى ، وهى النفخة الثالثة ، نفخة البعث قال الله عز وجل : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ أى : أحياء بعدما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾[٤] وكقوله تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة * فإذا هم بالساهرة ﴾[٥] . وكقوله عز وجل : ﴿ ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين * وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون * من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم فى النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾[٦] . وعن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنا الجبهة ، وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر فينفخ ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل على

---

(١) غافر آية : ١٦
(٢) غافر آية : ١٦
(٣) الأنعام الآية : ٧٣
(٤) يس آية : ٥١
(٥) النازعات الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٦) النمل الآيات : ٨٧ - ٩٠

الله توكلنا »[١] . (صحيح الجامع الصغير) والمعنى : كيف أطيب عيشاً وقد قرب أمر الساعة ؟

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى أمتى فيمكث فيهم أربعين لا أدرى أربعين يوما أو أربعين شهراً أو أربعين عاما أو أربعين ليلة فيبعث الله تعالى عيسى ابن مريم عليهما الصلاة والسلام كأنه عروة بن مسعود الثقفى فيظهر فيهلكه الله تعالى ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة ثم يرسل الله تعالى ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى أحد فى قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى أن لو كان أحدهم كان فى كبد جبل لدخلت عليه . قال : سمعتها من رسول الله ﷺ « ويبقى شرار الناس فى خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا . قال : فيتمثل لهم الشيطان فيقول ، ألا تستجيبون ؟ فيأمرهم بعبادة الأوثان فيعبدونها وهم فى ذلك دارَّة أرزاقهم ، حسن عيشهم ، ثم ينفخ فى الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ، ورفع ليتا ، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه فيصعق ثم لا يبقى أحد إلا صعق ثم يرسل الله تعالى أو ينزل الله عز وجل مطراً كأنه الظل ـ أو الطل شك الراوى ـ فينبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس هلموا إلى ربكم ﴿ وقفوهم إنهم مسئولون ﴾[٢] وقال البخارى بسنده عن أبى صالح قال : سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يحدث عن النبى ﷺ قال : « بين النفختين أربعون . قالوا : يا أبا هريرة أربعون يوما ؟ قال رضى الله عنه : أبيت ، قالوا أربعون سنة ؟ قال : أبيت ، قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت ، ويبلى كل شىء من الإنسان إلا عَجْب الذَّنَب فيه يركب الخلق »[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **وأشرقت الأرض بنور ربها** ﴾ أى : أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء . (ووضع الكتاب) قال قتادة : كتاب الأعمال (وجىء بالنبيين) قال ابن عباس رضى الله عنهما : يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم (والشهداء) أى : الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ **وقضى بينهم بالحق** ﴾ أى : بالعدل ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[٤] . وقال جل وعلا : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ﴾[٥] ولهذا قال عز وجل : ﴿ **ووفيت كل نفس ما عملت** ﴾ أى : من خير أو شر ﴿ **وهو أعلم بما يفعلون** ﴾ فى الدنيا دون حاجة إلى كاتب ولا حاسب ، فلا يفوته من أعمالهم شىء ، ومن ثم يكون حكمه بينهم بالقسطاس المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ولكن**

---

(١) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٢ أبواب صفة القيامة برقم ٢٥٤٨ وقال : هذا حديث حسن .

(٢) أخرجه الإمام أحمد جـ ٢ ص ١٦٦ / والحاكم جـ ٤ ص ٥٥٠ ، ص ٥٥١ وقال : حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٣) أخرجه البخارى جـ ٦ ص ١٥٨

(٤) الأنبياء آية : ٤٧

(٥) النساء آية : ٤٠

حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ .

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار ، كيف يساقون إلى النار ، وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد ، كما قال عز وجل : ﴿ يوم يُدَعُّونَ إلى نار جهنم دعا ﴾[1] أى : يدفعون إليها دفعاً ، وكما قال عز وجل : ﴿ إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[2] وهم فى تلك الحال صم وبكم وعمي منهم من يمشى على وجهه قال تعالى : ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصمّاً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها** ﴾ أى : بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا لتعجل لهم العقوبة .

﴿ وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ .

يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق ، شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل : ﴿ **ألم يأتكم رسل منكم ؟** ﴾ أى : من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ **يتلون عليكم آيات ربكم** ﴾ أى : يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ **وينذرونكم لقاء يومكم هذا** ﴾ أى : ويحذرونكم من شر هذا اليوم ؟ فيقول الكفار لهم : (بلى) أى : قد جاءونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ **ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾ أى : ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التى كنا نستحقها ، حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، كما قال عز وجل مخبرا عنهم فى الآية الأخرى : ﴿ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾[4] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ أى : كل من رآهم وعلم حالهم ، يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ، ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم ، بأنهم يستحقون ما هم فيه ، بما حكم العدل الخبير عليهم به ، ولهذا قال جل وعلا : ﴿ **قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها** ﴾ أى : ماكثين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ﴿ **فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ أى : فبئس المصير ، وبئس المقيل لكم ، بسبب تكبركم فى الدنيا ، وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبئس الحال وبئس المآل .

قوله تعالى : **﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً ، حتىٰ إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض**

---

(١) الطور آية : ١٣
(٢) غافر الآيتان : ٧١ ، ٧٢
(٣) الإسراء اية : ٩٧
(٤) الملك الآيات : ٨ ـ ١١

نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

وهذا إخبار عن حال السعداء ، حين يساقون على النجائب وفداً إلى الجنة (زمراً) جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع الصديقين ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضا **﴿ حتى إذا جاءوها ﴾** أى : وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط ، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقتص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم فى دخول الجنة ، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة ، تشاوروا فيمن يستأذن لهم فى الدخول ، فيقصدون آدم ، ثم نوحا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم محمدا ﷺ وعليهم أجمعين ، كما فعلوا فى العرصات ، عند استشفاعهم إلى الله عز وجل أن يأتى لفصل القضاء ، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها ، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول شفيع فى الجنة » وفى لفظ مسلم : « وأنا أول من يقرع باب الجنة »(١) .

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آتى باب الجنة يوم القيامة أستفتح فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ـ قال ـ فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك »(٢) .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون فيها ولا يتغوطون فيها ، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة ومجامرهم الألوة ورشحهم المسك ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض . قلوبهم على قلب رجل واحد يسبحون الله تعالى بكرة وعشياً »(٣) ورواه البخارى ولمسلم بنحوه . وقال الحافظ أبو يعلى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى فى السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة ، وأزواجهم الحور العين أخلاقهم على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء »(٤) وأخرجاه أيضاً من حديث جرير .

وقوله تعالى : **﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾** لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره : حتى إذا جاءوها ، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم

(١) أخرجه الإمام مسلم جـ ١ ص ١٨٨ برقم ٣٣٠ ، ١٩٦/٣٣١ كتاب الإيمان

(٢) أخرجه الإمام أحمد جـ ٣ ص ١٣٦ ومسلم جـ١ ص ١٨٨ برقم ١٩٧/٣٣٣ كتاب الإيمان

(٣) أخرجه البخارى جـ ٤ ص ١٤٣ كتاب بدء الخلق/أحمد جـ ٢ ص ٣١٦ ، ٣١٧ والترمذى جـ ٤ ص ٨٥ برقم ٢٦٦٠ أبواب صفة الجنة ومسلم جـ ٤ ص ٢١٨٠ برقم ٢٨٣٤/١٧ .

(٤) أخرجه البخارى جـ ٤ ص ١٤٣ كتاب بدء الخلق/ أحمد جـ ٢ ص ٢٥٣ مسلم جـ ٤ ص ٢١٧٩ برقم ١٥ ، ٢٨٣٤/١٦ كتاب الجنة وصفة نعيمها

إكراماً وتعظيماً ، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء ، فتقديره إذا كان هذا : سعدوا وطابوا وسروا وفرحوا بقدر ما يكون لهم فيه نعيم ، وإذا حذف الجواب ههنا ، ذهب الذهن كل مذهب فى الرجاء والأمل .

ويقول الإمام ابن القيم : ما السر فى حذف الجواب فى آية أهل الجنة ، وذكره فى آية أهل النار ؟

فيقال : هذا أبلغ فى الموضعين ، فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها ، وأبوابها مغلقة ، حتى إذا وصلوا إليها ، فتحت فى وجوههم ، فيفجؤهم العذاب بغتة ، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة ، فإن هذا شأن الجزاء المرتب على الشرط : أن يكون عقيبه ، والنار دار الإهانة والخزى ، فلم يستأذن لهم فى دخولها ، ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول ، وأما الجنة فإنها دار الله ، ودار كرامته ، ومحل خواصه وأوليائه ، فإذا انتهوا إليها ، صادفوا أبوابها مغلقة ، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتتحها ، ويستشفعون إليه بأولى العزم من رسله ، وكلهم يتأخر عن ذلك ، حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم ، فيقول : ﴿ أنا ﴾ فيأتى إلى تحت العرش ، ويخر ساجدا لربه ، فيدعه ربه ساجداً ما شاء أن يدعه ، ثم يأذن له فى رفع رأسه ، وأن يسأل حاجته ، فيشفع إليه سبحانه فى فتح أبوابها ، فيشفعه ، ويفتحها تعظيماً لخاطره ، وإظهاراً لمنزلة رسوله وكرامته عليه ، وأن مثل هذه الدار ، التى هى دار ملك الملوك ورب العالمين ، إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة ، التى أولها من حين عقل العبد فى هذه الدار إلى أن انتهى إليها ، وما ركبه من الأطباق طبقا بعد طبق ، وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة ، حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله ، وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه فى فتحها لهم . وهذا أبلغ وأعظم فى تمام النعمة ، وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك ، لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذى يدخله من شاء ، فجنة الله غالية ، وبين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار ما لا تنال إلا به . فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى ولهذه الدار؟ فليبعد عنها إلى ما هو أولى به . وقد خلق له وهىء له .

وتأمل ما فى سوق الفريقين إلى الدارين زمراً : من فرحة هؤلاء بإخوانهم ، وسيرهم معهم كل زمرة على حدة ، كمشتركين فى عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم ، مستبشرين أقوياء القلوب ، كما كانوا فى الدنيا وقت اجتماعهم على الخير ، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً ، ويفرح بعضهم ببعض ، وكذلك أصحاب الدار الأخرى ، النار يساقون إليها زمراً ، يلعن بعضهم بعضاً ، ويتأذى بعضهم ببعض ، وذلك أبلغ فى الخزى والفضيحة من أن يساقوا واحداً واحداً .

فلا تهمل ، وتدبر قوله : ﴿ **زمراً** ﴾ ، وقول خزنة الجنة لأهلها : ﴿ **سلام عليكم** ﴾ فبدأوهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه ، أى : سلمتم ، فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون ، ثم قالوا لهم : ﴿ **طبتم فادخلوها خالدين** ﴾ أى : سلامتكم ودخولكم الجنة يطيبكم ، فإن الله حرمها إلا على الطيبين ، فبشروهم بالسلامة والطيب والدخول والخلود .

أما أهل النار فإنهم حين انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن ، فتحت لهم أبوابها ، فوقفوا عليها ، وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم : ﴿ **ألم يأتكم رسل**

منكم يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ فاعترفوا وقالوا : ﴿ بلى ﴾ فبشروهم بدخول النار ، والخلود فيها ، وأنها بئس المثوى والمآب لهم .

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها : ﴿ ادخلوها ﴾ وقول خزنة النار لأهلها : ﴿ ادخلوا أبواب جهنم ﴾ تجد تحته سرّاً لطيفاً ، ومعنى بديعاً ، لا يخفي على المتأمل ، وهو أنه لما كانت النار دار العقوبة وأبوابها أفظع شيء ، وأشده حرّاً ، وأعظمه غمّاً ، يستقبل الداخل فيها من العذاب ما هو أشد منها ، ويدنو من الغم والخزى والحزن والكرب بدخول الأبواب . فقيل : ادخلوا أبواب جهنم صغاراً لهم وإذلالا وخزياً ، ثم قيل لهم : لا يقتصر بكم العذاب على مجرد دخول الأبواب الفظيعة ، ولكن وراءها الخلود فى النار .

وأما الجنة : فهى دار الكرامة والمنزل الذى أعده الله لأوليائه ، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى الأرائك والمنازل والخلود فيها .

قوله تعالى : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ﴾ .

أى : وقال المؤمنون إذ عاينوا ذلك النعيم المقيم ، والعطاء العظيم فى الجنة : الحمد لله الذى صدقنا ما وعدنا به على ألسنة رسله الكرام ، كما دعوا بذلك فى الدنيا وقالوا : ﴿ ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ﴾(١) وقال الحق تبارك اسمه : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلا ﴾(٢) .

وهم كذلك يحمدون الله على نعمة الإيمان والهداية فيقولون : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء ﴾ أى : وجعلنا نتصرف فى أرض الجنة تصرف الوارث فيما يرث ، فنتخذ منها مباءة وسكناً حيث شئنا ﴿ فنعم أجر العاملين ﴾ أى : فنعم الأجر أجرنا على عملنا ، وثوابنا الذى أعطيتنا . وقوله تعالى : ﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق ، وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

لما ذكر تعالى الحكمة فى أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلا فى المحل الذى يليق به ، ويصلح له ، وهو العادل فى ذلك الذى لا يجور ، أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد ، يسبحون بحمد ربهم ، ويمجدونه ، ويعظمونه ، ويقدسونه ، وينزهونه عن النقائص والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل ، ولهذا قال عز وجل : ﴿ وقضى بينهم ﴾ أى : بين الخلائق (بالحق) ثم قال : ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ أى : نطق الكون أجمعه لله رب

(١) آل عمران آية : ١٩٤ (٢) النساء آية : ١٢٢ (٣) الأعراف آية : ٤٣

العالمين بالحمد فى حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد .

قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد فى قوله : ﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض ﴾[1] .

واختتم بالحمد فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين** ﴾ لذا يقول سبحانه : ﴿ له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾[2] وقال سبحانه في فاتحة الكتاب : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ . فالحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً ، طيباً ، مباركاً فيه ، ملء السموات وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شىء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد .

(١) الأنعام آية : ١
(٢) القصص آية : ٧٠

تفسير سورة غافر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق . عدد آياتها خمس وثمانون فى عدّ الكوفة والشام . . . .
وكلماتها ، ألف ومائة وتسع وتسعون .
وحروفها : أربعة آلاف وتسعمائة وستون .
ولها ثلاثة أسماء : سورة المؤمن ، لاشتمالها على حديث مؤمن آل فرعون فى قوله تعالى : **﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه . . الآية ﴾** وسورة الطَّوْل لقوله تعالى : **﴿ ذى الطول ﴾** والثالث : حمّ الأولى ؛ لأنها أولى ذوات حمّ .

معظم مقصود السورة

المِنَّة على الخلق بالغفران ، وقبول التوبة ، وخطبة التوحيد على جلال الحق ، وتقلب الكفار بالكسب والتجارة ، وبيان وظيفة حملة العرش ، وتضرع الكفار فى قعر الجحيم ، وإظهار أنوار العدل فى القيامة ، وذكر إهلاك القرون الماضية ، وإنكار فرعون على موسى وهارون ، ومناظرة مؤمن آل فرعون لقوم فرعون نائباً عن موسى ، وعرض أرواح الكفار على العقوبة ، ووعد النصر للرسل ، وإقامة أنواع الحجة والبرهان على أهل الكفر والضلال ، والوعد بإجابة دعاء المؤمنين ، وإظهار أنواع العجائب من صنع الله ، وعجز المشركين فى العذاب ، وأن الإيمان عند اليأس غير نافع ، والحكم بخسران الكافرين والمبطلين فى قوله تعالى : **﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾**(١) .

المتشابهات :

قوله تعالى : **﴿ أولم يسيروا فى الأرض ﴾** وبعده **﴿ أفلم يسيروا ﴾** ما يتعلق بذكرهما سبق .

قوله : **﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم ﴾** وفى التغابن : **﴿ بأنه كانت ﴾** لأن هاء الكناية إنما زيدت لامتناع (أن) عن الدخول على (كان) فخصت هذه السورة بكناية المتقدم ذكرهم ، موافقة لقوله : **﴿ كانوا هم أشد منهم قوة ﴾** وخصت سورة التغابن بضمير الأمر والشأن توصلا إلى (كان) .

قوله : **﴿ فلما جاءهم الحق ﴾** فى هذه السورة فحسب ، لأن الفعل لموسى وفى سائر القرآن الفعل للحق .

قوله : **﴿ إن الساعة لآتية ﴾** وفى طه **﴿ آتية ﴾** لأن اللام ، إنما تزاد لتأكيد الخبر ، وتأكيد الخبر ، إنما يحتاج إليه إذا كان المخبر به شاكا فى الخبر ، والمخاطبون فى هذه السورة هم الكفار ، فأكّد ، وكذلك أكدَ **﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾** (وافق ما قبله) فى هذه السورة باللام .

---

(١) غافر آية : ٨٥

قوله : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ وفى سورة يونس ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ ـ وقد سبق ـ لأنه وافق ما قبله فى هذه السورة : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وبعده ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ ثم قال : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

قوله فى الآية الأولى : ﴿ لا يعلمون ﴾ أى : لا يعلمون أن خلق الأصغر أسهل من خلق الأكبر ، ثم قال : ﴿ لا يؤمنون ﴾ أى : لا يؤمنون بالبعث . ثم قال : ﴿ لا يشكرون ﴾ أى : لا يشكرون الله على فضله ، فختم كل آية بما اقتضاه . قوله : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ مدح نفسه سبحانه ، وختم ثلاث آيات على التوالى بقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ وليس له فى القرآن نظير .

قوله : ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ وختم السورة بقوله : ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ لأن الأول متصل بقوله ﴿ قضى بالحق ﴾ ونقيض الحق الباطل ، والثانى متصل بإيمان غير مُجْد ، ونقيض الإيمان الكفر .

مناسبتها لما قبلها

١ ـ إنه ذكر فى سابقتها ما يئول إليه حال الكافر وحال المؤمن ، وذكر هنا أنه غافر الذنب ، ليكون ذلك استدعاء للكافر إلى الإيمان والإقلاع عن الكفر .

٢ ـ إنه ذكر فى كل منهما أحوال يوم القيامة وأحوال الكفار فيه وهم فى المحشر وهم فى النار .

قال تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ
ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ
تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ
بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾
وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

معانى المفردات

(الجدل) : شدة اللدَد فى الخصومة . (تقلبهم) أى : تصرفهم فيها للتجارة وطلب المعاش ، (الأحزاب) : الجماعات الذين تحزبوا واجتمعوا على معاداة الرسل ، (وهمت) أى : عزمت ، (ليأخذوه) أى : ليقتلوه ويعذبوه ، (ليدحضوا) أى : ليزيلوا ، (حقت) أى : وجبت ، (كلمة ربك) أى : حكمه بالإهلاك .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ قال عامر الشعبى وسفيان الثورى ، وجماعة من المحدثين فى الحروف التى فى أوائل السور : هى سر الله فى القرآن ، ولله في كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى انفرد الله تعالى بعلمه . ولا يجوز أن نتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ونقرأ كما جاءت ، وقد ورد هذا القول عن أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين ، حكاه القرطبى فى تفسيره ، وقال بعض السلف : مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى ـ أ ، ل ، م ، ص ، ر ، ك ، هـ ، ى ، ع ، ط ، س ، ح ، ق ، ن ـ يجمعها هذا القول : نص حكيم قاطع له سر .

وقوله تعالى : ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ أى : تنزيل هذا الكتاب ، وهو القرآن من الله ذى العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ولا يخفى عليه الذر وإن تكاثف حجابه .

وقوله تعالى : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أى : يغفر ما سلف من الذنب ويقبل التوبة فى المستقبل ، لمن تاب إليه ، وخضع لديه ، كقوله تعالى : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[١] وكقوله سبحانه : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك لهم مغفرة من ربهم وجنات

(١) طه آية : ٨٢
(٢) التوبه آية : ١٠٤
(٣) النساء آيه : ١١٠

تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾[١] ويقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[٢] رواه مسلم . وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[٣] . رواه الترمذى وقال : حديث حسن (والغرغرة : المراد سكرات الموت) .

وقوله جل وعلا : ﴿ شديد العقاب ﴾ أى : لمن تمرد ، وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله وبغى ، وقد ذكر سبحانه أنه : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ لترغيب عباده العاصين ، وذكر ﴿ شديد العقاب ﴾ لترهيبهم ، وفى مجموع هذا : الحث على فعل المراد من تنزيل الكتاب ، وهو التوحيد ، والإيمان ، والبعث ، والإخلاص لله فى العمل ، والإقبال عليه ، وقد جمع القرآن هذين الوصفين ، فى مواضع كثيرة منه كقوله تعالى : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[٤] وكقوله تعالى : ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾[٥] ، وكقوله تعالى : ﴿ اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم ﴾[٦] وكقوله جل فى علاه : ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾[٧] فلا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه ، ففروا إلى الله ، الغفور الرحيم ، التواب الرحيم ، الكريم الحنان ، واحذروا غضبه وعقابه ، وكان الحبيب المصطفى ﷺ يدعو ربه : « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[٨] .

وقوله تعالى : ﴿ ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ .

قال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ذى الطول ﴾ يعنى السعة والغنى ، وهكذا قال مجاهد وقتادة ، وقال عكرمة : (ذى الطول) ذى المنّ ، والمعنى أنه المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المنن والإنعام التى لا يطيقون بشكر واحدة منها ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[٩] الآية .

وقوله جلت عظمته ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أى : لا معبود بحق إلا الله .

﴿ إليه المصير ﴾ أى : المرجع والمآب ، فيجازى كل عامل بعمله (وهو سريع الحساب) وقال أبو بكر بن عياش : سمعت أبا إسحاق السبيعى يقول : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال يا أمير المؤمنين : إنى قتلت ، فهل لى من توبة ؟ فقرأ عمر رضى الله عنه : ﴿ حمٓ . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ وقال : اعمل ولا تيأس . رواه ابن أبى حاتم .

(١) آل عمران الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦
(٢) أخرجه مسلم جـ٤ ص٢١١٣ برقم ٢٧٥٩/٣١ كتاب التوبة
(٣) أخرجه الترمذى فى باب الدعوات جـ٥ ص٢٥٧ برقم ٣٦٠٣
(٤) الحجر الآيتان : ٤٩ ، ٥٠
(٥) الرعد آية : ٦
(٦) المائدة آية : ٩٨
(٧) الذاريات آية : ٥٠
(٨) أخرجه الإمام أحمد جـ١ ص٩٦/ابن ماجه جـ٢ ص١٢٦٣ برقم ٣٨٤١
(٩) إبراهيم الآية : ٣٤ والنحل الآية : ١٨

قوله تعالى : ﴿ ما يجادل فى آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمةٍ برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمةُ ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ .

يقول تعالى : ما يدفع الحق ويجادل فيه بعد البيان ، وظهور البرهان ﴿ إلا الذين كفروا ﴾ أى الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه .

﴿ فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ﴾ أى : فلا يغررك ما يفعلونه من التجارة النافعة فى البلاد ، وما يحصلون عليه من المكاسب ، فإنهم معاقبون عما قليل ، وهم إن أمهلوا فإنهم لا يهملون ، قال الزجاج : لا يغررك سلامتهم بعد كفرهم ، فإن عاقبتهم الهلاك ، كما قال عز وجل : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾(١) وكقوله تعالى : ﴿ أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾(٢) وكقوله تعالى : ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾(٣) ثم قال تعالى مسليا نبيه محمدا ﷺ ، فى تكذيب من كذبه من قومه ، بأن له أسوة من سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم قد كذبهم أممهم وخالفوهم ، وما آمن بهم إلا قليل فقال سبحانه : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ، ينهى عن عبادة الأوثان (والأحزاب من بعدهم) أى : من كل أمة ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ أى : حرصوا على قتله بكل ممكن ، ومنهم من قتل رسوله ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أى : ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلى . كقولهم : (ما أنتم إلا بشر مثلنا) ليبطلوا به الحق الذى جاء به من عند الله ، وليطفئوا النور الذى أوتيه ، قال يحيى بن سلام : جادلوا الأنبياء بالشرك ليبطلوا الإيمان . ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان عقاب ﴾ أى : أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام ﴿ فكيف كان عقاب ﴾ أى فكيف بلغك عذابى لهم ، ونكالى بهم ، قد كان شديداً موجعاً مؤلماً ، قال قتادة : كان شديداً والله . وهذا كقوله تعالى : ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قريةٍ أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾(٤) وكقوله تعالى : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(٥) .

قوله تعالى : ﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ قال ابن كثير : أى كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة ، كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء ، الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريق الأولى والأحرى ، لأن من كذبك ، فلا وثوق له بتصديق غيرك . والله أعلم .

(١) آل عمران الآيتان : ١٩٦ ، ١٩٧
(٢) الشعراء الآيات : ٢٠٥ - ٢٠٧
(٣) لقمان آية : ٢٤
(٤) الحج الآيات : ٤٢ - ٤٥
(٥) العنكبوت آية : ٤٠

منزلة المؤمنين عند الله تعالى

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ
ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ
عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ
وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾

معانى المفردات

(العرش) : مركز تدبير العالم ، وندع أمر وصفه إلى عالم الغيب ، فهو العليم بعرشه .
(سبيلك) : طريق الهدى (دين الإسلام) . (وقهم) أى : احفظهم ، من وقيته كذا ، أى : حفظته ،
(السيئات) : أى الجزاء المرتب عليها .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أبان ـ سبحانه ـ ما أظهره المشركون للمؤمنين من العداوة ، ومجادلتهم للرسل بالباطل ، لإطفاء نور دعوتهم ، أردف ذلك بيان أن أشرف المخلوقات ، وهم الملائكة ، الذين يحملون العرش والحافون حول العرش ـ يحبون المؤمنين ، ويطلبون لهم ولآبائهم وأزواجهم وذرياتهم المغفرة من ربهم ، فلا تبال أيها الرسول بهؤلاء المشركين ولا تقم لهم وزناً ، وكفاك نصرة حملة العرش والحافين حوله .

(التفسير)

هذا المشهد القرآنى العظيم ، فيه إخبار منه سبحانه وتعالى عن الذين يحملون العرش العظيم ، والذين حوله ، ما شأنهم ؛ إنهم ينزهون الله تبارك اسمه ، تنزيها مقترنا بالحمد ، فيقولون : سبحان الله وبحمده ، والملائكة أجسام نورانية ، تتشكل بالأشكال الحسنة ، لا يأكلون ولا يشربون ، ولا ينامون ، ولا يتزوجون ، ولا يتناسلون ﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[1] ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ﴾[2] ، التسبيح عندهم كالتنفس عندنا ، فإنهم لا يسأمون ، وهم عباد مكرمون ، لا يسبقون بالقول ، وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ما من موضع قدم فى السماء ، إلا وفيه ملك قائم ، أو راكع ، أو ساجد لله ، ﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ، ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾[3] فاللهم لك الحمد ، فأنت فاطر السموات والأرض ، ولك الحمد ، أنت جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة ، مثنى وثلاث ورباع ، تزيد فى الخلق ما تشاء ، إنك على كل شىء قدير ، إنهم لا يقتصرون على التسبيح والتحميد ، بل يجمعون بين ذلك ، وبين الاستغفار

(١) الأنبياء آية : ٢٠ (٢) الأنبياء آية : ١٩ (٣) الشورى آية : ٥

للمؤمنين إنهم يقولون : كما روى شهر بن حوشب رضى الله عنه : (حملة العرش ثمانية : أربعة منهم يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك ، وأربعة يقولون : سبحانك اللهم وبحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك)[١] ولهذا يقولون إذا استغفروا للذين آمنوا : ﴿ **ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما** ﴾ أى : رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم ﴿ **فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** ﴾ أى : يا ربنا ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الحول والطول ، يا ذا الجاه والغنى ، يا صاحب العظمة المطلقة والكمال المطلق ، يا صاحب العزة القائمة ، والحكمة الدائمة ، اصفح عن عبادك المؤمنين ، واعف عنهم ، وتجاوز عن سيئاتهم ، فإنهم تابوا واتبعوا سبيل الهدى ، وقهم عذاب الجحيم يوم لقائك .

ما هذه الروعة ، وما هذا الإكرام للمؤمنين ، حملة العرش يدعون لهم بظهر الغيب ، جل جلالك ربنا إذ تقول : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** ﴾ وبعد التخلية من العذاب ، تأتى التحلية بدخول الجنة ، إنهم يضيفون إلى تلك الدعوات المباركة ، دعوة طيبة أخرى ، يضيفون فيها إلى المؤمنين من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنهم يدعون بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين قائلين : ﴿ **ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم** ﴾ وسبحان من عمت رحمته ، وبلغت حكمته وجلت قدرته ، وتعالت عظمته ، إذ يقول : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء كل امرىء بما كسب رهين * وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنّا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾[٢] . وإذ يقول : ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[٣] .

وإذ يقول : (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون * هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون * سلام قولا من رب رحيم)[٤] . قال سعيد بن جبير : إن المؤمن إذا دخل الجنة سأل عن أبيه وابنه وأخيه أين هم ؟ فيقال : إنهم لم يبلغوا طبقتك فى العمل ، فيقول : إنى إنما عملت لى ولهم ، فيلحقون به فى الدرجة ، ثم تلا سعيد بن جبير هذه الآية : ﴿ ربنا

(١) تفسير ابن كثير ج ٧ ص ١٢١ ط . الشعب
(٢) الطور الآيات : ١٧ ـ ٢٨
(٣) الرعد الآيات : ١٩ ـ ٢٤
(٤) يس الآيات : ٥٥ ـ ٥٨

وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ الآية . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : أنصح عباد الله للمؤمنين الملائكة ، ثم تلا هذه الآية : (ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم) الآية .

أما قوله تعالى : ﴿ إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ فإنه تذييل حكيم ، فالذى يملك المغفرة والرحمة ، والعفو والصفح الجميل ، هو العزيز الذى لا يغلب ـ القاهر فوق عباده ، الذى بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه الحكيم هو المنزه عن العبث الذى يضع الأمور فى نصابها ، فيرحم من يستحق الرحمة ، ﴿ قال عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون * قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾[(١)] ثم تضيف الملائكة إلى دعواتها دعوة أخرى ، فتقول : ﴿ وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . أى : اجعل بينهم وبين فعل السيئات حجاباً مستوراً ، وحصناً حصيناً ، وحجابا مكينا (ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته) أى : يوم القيامة ، لأنه أتاك بقلب سليم قال تعالى : ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[(٢)] وقال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم * وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾[(٤)] وجل جناب الحق إذ يقول : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾[(٥)] لا فوز أعظم من هذا ، فكل بلاء دون النار عافية ، وكل نعيم دون الجنة حقير ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[(٦)] لذا عبر القرآن الكريم عن هذا الفوز بأسلوب الحصر والقصر ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ فتعريف الطرفين المسند والمسند إليه ﴿ ذلك ﴾ ﴿ الفوز ﴾ والإتيان بضمير الفصل بينهما (هو) طريقان من طرق القصر .

---

(١) الأعراف الآيات : ١٥٦ ـ ١٥٨
(٢) النحل آية : ٩٧
(٣) التوبة الآيتان : ٧١ ، ٧٢
(٤) الأعراف آيتان : ٤٢ ـ ٤٣
(٥) الفتح آيتان : ٤ ، ٥
(٦) آل عمران الآية : ١٨٥

لا تركنن إلى القصور الفاخرة — واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل — يا رب إن العيش عيش الآخرة
أزف الرحيل إلى ديار الآخرة — فاجعل إلهى خير عمرى آخره
فلئن رحمت لأنت أكرم راحم — وبحار جودك يا إلهى زاخرة
آنس مبيتى فى القبور ووحشتى — وارحم عظامى حين تمسى ناخرة

* * *

أحكام تخشع لها القلوب

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾
ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ
﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾
فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى
ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ
ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ
مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ

يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ *
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

معانى المفردات

(**المقت**) أشد البغض ، (الروح) : الوحى ، (**يوم التلاق**) يوم القيامة وسمى بذلك لالتقاء الخالق بالمخلوق ، (**بارزون**) أى ظاهرون لا يسترهم جبل ولا أكمة ولا نحوهما . (**يوم الآزفة**) يوم القيامة وسميت بذلك لقربها ، يقال أزف السفر : أى قرب . (**الحناجر**) واحدها حنجرة أو حنجور كحلقوم لفظا ومعنى وهى لحمة بين الرأس والعنق (**كاظمين**) أى ممسكين أنفسهم على قلوبهم لئلا تخرج (**الحميم**) : القريب (**خائنة الأعين**) يراد بها النظر إلى ما لايحل ، (**ما تخفى الصدور**) أى ما تكتمه الضمائر .

المناسبة والمعنى الاجمالى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أحوال المشركين المجادلين فى آيات الله ، أردف ذلك بيان أنهم يوم القيامة ، يعترفون بذنوبهم ، وباستحقاقهم ما سيحل بهم من النكال والوبال ، ويسألون الرجوع إلى الدنيا ليتلافوا ما فرط منهم .

وبعد أن هددهم ، أعقب ذلك بما يدل على كمال قدرته وحكمته ، بإظهاره للآيات ، وإنزاله للأرزاق ، وأنه أرفع الموجودات ، لأنه مستغن عن كل ما سواه ، وكل ما سواه محتاج إليه ، وأنه ينزل الوحى على من يشاء من عباده ، لينذر بالعذاب يوم الحساب والجزاء ، ثم ذكر جل فى علاه أوصاف هائلة تصطك منها المسامع ، وتشيب من هولها الولدان ، لهذا اليوم المهيب ، وبعد أن بالغ سبحانه فى تخويف الكفار بعذاب الآخرة ، أردفه تخويفهم بعذاب الدنيا ، فطلب إليهم أن ينظروا إلى من قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، إذ كذبوا رسلهم حين جاءوهم بالبينات .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون ، قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ، ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير ، هو الذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب ، فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون** ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة ، وهم فى غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا مر عذاب الله تعالى ما لاقبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض ، بسبب ما أسلفوه من الأعمال السيئة ، التى كانت سبب دخولهم إلى النار ، فأخبرتهم الملائكة عند ذلك إخبارا عاليا ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم فى الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون ، أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم فى هذه الحالة .

قال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون** ﴾ يقول لمقت الله أهل الضلالة ، حين عرض عليهم الإيمان فى الدنيا ، فتركوه وأبوا أن يقبلوه ، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة ، وهكذا قال الحسن البصرى ومجاهد والسدى وغيرهم . وقوله تعالى : ﴿ **قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين** ﴾ قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾[١] وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك وهو الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية .

والمقصود أن الكفار يسألون الرجعة ، وهم وقوف بين يدى الله ، عز وجل فى عرصات القيامة ، كما قال عز وجل : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾[٢] فلا يجابون ثم إذا رأوا النار وعاينوها ووقفوا عليها ، ونظروا إلى ما فيها من العذاب والنكال ، سألوا الرجعة أشد مما سألوا أول مرة ، فلا يجابون قال الله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[٣] فإذا دخلوا النار وذاقوا مسها وحسيسها ومقامعها وأغلالها ، كان سؤالهم للرجعة أشد وأعظم ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٤] ﴿ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾[٥]

(١) البقرة آية : ٢٨
(٢) السجدة آية : ١٢
(٣) الأنعام الآيتان : ٢٧ ، ٢٨
(٤) فاطر الآية : ٣٧
(٥) المؤمنون الآيتان : ١٠٧ ، ١٠٨

وفي هذه الآية الكريمة تلطفوا في السؤال ، وقدموا بين يدى كلامهم مقدمة وهى قولهم : ﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ أى قدرتك عظيمة فإنك أحييتنا بعد ما كنا أمواتاً ، ثم أمتنا ، ثم أحييتنا ، فأنت قادر على ما تشاء ، وقد إعترفنا بذنوبنا ، وإننا كنا ظالمين لأنفسنا فى الدار الدنيا (فهل إلى خروج من سبيل) أى فهل أنت مجيبنا إلى أن تعيدنا إلى الدار الدنيا ، فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذى كنا نعمل ، فإن عدنا إلى ما كنا فيه ، فإنا ظالمون ، فأجيبوا أن لا سبيل إلى عودكم ومرجعكم إلى الدار الدنيا ، ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ولا تقتضيه ، بل تمجه وتنفيه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا ﴾ أى أنتم هكذا تكونون . وإن رددتم إلى الدار الدنيا كما قال عز وجل : ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[(١)] .

وقوله جل وعلا : ﴿ **فالحكم لله العلى الكبير** ﴾ أى هو الحاكم فى خلقه ، العادل الذى لا يجوز ، فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، لا إله إلا هو ، وقوله جل جلاله : (هو الذى يريكم آياته) أى يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه ، فى خلقه العلوى والسفلى ، من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها (وينزل لكم من السماء رزقا) وهو المطر الذى يخرج به من الزروع والثمار ، ما هو مشاهد بالحس من اختلاف ألوانه ، وطعومه ، وروائحه ، وأشكاله ، وألوانه ، وهو ماء واحد ، فبالقدرة العظيمة ، فاوت بين هذه الأشياء .

(وما يتذكر إلا من ينيب) كقوله تعالى :
﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[(٢)] وكقوله تعالى : ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾[(٣)] فلا يعتبر ويتفكر فى هذه الأشياء ، ويستدل بها على عظمة خالقها ، إلا من هو بصير منيب إلى الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ **فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون** ﴾ . أى فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين فى مسلكهم ومذهبهم روى مسلم عن عبد الله بن الزبير قال : « كان رسول الله ﷺ يقول دبر كل صلاة لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لاحول ولا قوة إلا بالله لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون »[(٤)] .

وقال ابن أبى حاتم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ادعوا الله تبارك وتعالى وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله تعالى لا يستجيب دعاء قلب غافل لاهٍ »[(٥)] .

قوله تعالى : ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ، اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾[(٦)] .

---

(١) الأنعام آية : ٢٨ (٢) ق آية : ٣٧ (٣) آل عمران آية : ٧
(٤) أخرجه مسلم جـ١ ص٤١٥ ، ص٤١٦ برقم ٥٩٤/١٣٩ كتاب المساجد
(٥) أخرجه الترمذى جـ٥ ص١٧٩ ، ١٨٠ برقم ٣٥٤٥ أبواب الدعوات
(٦) غافر : آية : ١٦ ، ١٧

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه ، وارتفاع عرشه العالى على جميع مخلوقاته كالسقف لها كما قال تعالى : ﴿ من الله ذى المعارج تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾[١] .

فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة ، ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة ، فهو الواحد الأحد ، الذى ليس له شبيه من خلقه ، ولا نِدَّ له ، ولا مثيل له ، ولا كفء له ، سبحانه وتعالى ، فمنزلته وعظمته وجلاله ، لا يدانيها أحد من خلقه جل وعلا ، بل جميع الخلق عبيده ، وفى قبضته ، وقهره ، وتحت سلطانه ، لا خروج لأحد من قهره وسلطانه أبداً ، ولا علم لأحد من خلقه إلا بما شاء ، ولا رحمة إلا ما يرسلها ، ولا يمسك لرحمته عن من يشاء ، بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى ، خضعت له الرقاب وتطأطأت له الرؤوس ، وسجدت لهيبته الجباه ، واطمأنت بذكره القلوب ، وسبحت بحمده الأفواه : (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)[٢] .

وهو سبحانه وتعالى فوق خلقه ، مستوٍ على عرشه ، إليه يصعد الكلم الطيب ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، ويتنزل الأمر من عنده ، ولقد مدح الله سبحانه وتعالى نفسه فى سبع آيات من كتابه ، باستوائه على العرش ، والعرش كما قال السلف الصالح : مخلوق حسى ، وأنه أعظم من السماوات والأرض ، كما قال ﷺ : « والعرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل »[٣] . وأن هذا العرش الذى وصفه الله بأنه عرش كريم ، كما قال تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾[٥] وقال سبحانه : ﴿ وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ﴾[٥] فعلى جر « المجيد » يكون صفة للعرش وعلى الرفع يكون « المجيد » اسم الله تبارك وتعالى .

والله سبحانه فوق عرشه سبحانه وتعالى على الوجه الذى يليق به ، دون تشبيه له بخلقه ، بل هو الذى ليس كمثله شىء سبحانه وتعالى ، فعلوه وارتفاعه واستواؤه ، كل ذلك ثابت له على الوجه الذى يليق بجلاله ، وكماله سبحانه وتعالى ، واعلم أيها المؤمن أنه سبحانه مع علوه هذا سبحانه وتعالى ، فإنه معك دائماً بعلمه ، فلا يغيب عنه مثقال ذرة فى السماوات ولا فى الأرض ، بل ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ، فهو سبحانه مع كل أحد بعلمه سبحانه ، وأما هو بذاته فوق عرشه وجل جلال الله إذ يقول : ﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين ﴾[٧] وإذ يقول سبحانه : ﴿ وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾[٨] .

---

(١) المعارج الآيتان : ٣ ، ٤
(٢) الجاثية الآيتان : ٣٦ ، ٣٧
(٣) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٢١ ط . النهضة الحديثة
(٤) المؤمنون آية : ١١٦
(٥) التوبة آية : ١٢٩
(٦) البروج الآيتان : ١٤ ، ١٥
(٧) المؤمنون آية : ١٧
(٨) يونس آية : ٦١

وقوله تعالى : ﴿ يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ كقوله جلت عظمته : ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين علىَ قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين ﴾[٢] .

ولهذا قال عز وجل (لينذر يوم التلاق) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يوم التلاق ، اسم من أسماء يوم القيامة ، حذر الله منه عباده ، وسمى بذلك ، لالتقاء الخالق بالمخلوق ، قال ﷺ فى الحديث الصحيح « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يجد إلا ماقدم وينظر أشأم منه فلا يجد إلا ماقدم ، وينظر قدامه فلا يجد إلا النار تلقاء وجهه فاتقوا النار ولو بشق تمرة »[٣] .

وقوله جل جلاله : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ﴾ أى ظاهرون بادون كلهم ، لا شىء يكنهم ، ولا يظلهم ، ولا يسترهم ، كما قال جل فى علاه : ﴿ فإذا برق البصر ، وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ، يُنبؤُ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾[٤] وكقوله سبحانه : ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً ، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ، يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له ، وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾[٥] وكقوله سبحانه : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾[٦] .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾ .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ، ثم يقول ، أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ »[٧] والمقصود إظهار إنفراده تعالى بالملك ، عند انقطاع دعوى المدعين ، وانتساب المنتسبين ، إذ قد ذهب كل ملك وملكه ، وكل جبار ومتكبر وملكه ، وانقطعت نسبتهم ودعاويهم ، وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما أنه تعالى يطوى السموات والأرض بيده ثم يقول : أنا الملك أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أين ملوك الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ »[٨] وفى حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ثم يجيب نفسه قائلا : (لله الواحد القهار)[٩] أى الذى هو وحده قد قهر كل شىء وغلبه .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وله الملك يوم ينفخ فى الصور عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾[١٠] .

---

(١) النحل آية : ٢ (٢) الشعراء الآيات : ١٩٢ ـ ١٩٥
(٣) أخرجه مسلم جـ٢ ص٧٠٣ ، ٧٠٤ برقم ١٠١٦/٦٧ كتاب الزكاة
(٤) القيامة الآيات : ٧ ـ ١٣ (٥) طه الآيات : ١٠٥ ـ ١٠٨
(٦) الحاقة آية : ١٨ (٧) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٤٨ برقم ٢٧٨٧/٢٣ البخارى جـ ٩ ص ١٤٢ كتاب التوحيد
(٨) أخرجه مسلم جـ٤ ص٢١٤٨ برقم ٢٧٨٨/٢٤
(٩) تفسير ابن كثير حديث الصور ص٢٧٦ الى ص ٢٨٢ ط . الشعب (١٠) الأنعام آية : ٧٣

وقوله سبحانه فى فاتحة الكتاب : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ فسبحان الملك الحق المبين ، صاحب العزة والملكوت .

وقوله جلت عظمته : ﴿ **اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴾ يخبر تعالى عن عدله فى حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا شر ، بل يجزى بالحسنة عشر أمثالها ، وبالسيئة واحدة ، كقوله عز وجل : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[(١)] وثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « **ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا - إلى أن قال فى آخر الحديث القدسى - ياعبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** »[(٢)] .

وقوله عز وجل : ﴿ **إن الله سريع الحساب** ﴾ أى يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة ، كما قال سبحانه : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾[(٣)] وقال جل جلاله : ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[(٤)] .

قوله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والله يقضى بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشىء إن الله هو السميع البصير** ﴾ .

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة وسميت بذلك لاقترابها كما قال سبحانه : ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾[(٥)] وكقوله سبحانه : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾[(٦)] . أى وأنذر أيها الرسول مشركى قومك يوم القيامة ، ليقلعوا عن قبيح أعمالهم ، وذميم معتقداتهم ، التى يستحقون عليها شديد العذاب ، ذلك اليوم الذى يعظم فيه الخوف ، حتى ليخيل أن القلوب قد شخصت من الصدور ، وتعلقت بالحلوق ، فيرومون ردها إلى مواضعها من صدورهم ، فلا هى ترجع ، ولا هى تخرج من أبدانهم فيموتوا . ﴿ **إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين** ﴾ قال قتادة : وقفت القلوب فى الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ، ولا تعود إلى أماكنها .

ومعنى كاظمين أى ساكتين لا يتكلم أحد إلا بإذنه ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾[(٧)] . ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾[(٨)] .

وقوله سبحانه : ﴿ **ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع** ﴾ أى ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله من قريب، منهم ينفعهم ، ولا شفيع يشفع فيهم ، بل قد تقطعت بهم الأسباب من كل خير . كقوله

---

(١) الأنبياء آية : ٤٧
(٢) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ برقم ٢٥٧٧/٥٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم
(٣) لقمان آية : ٢٨
(٤) القمر آية : ٥٠
(٥) النجم الآيتان : ٥٧ ، ٥٨
(٦) القمر آية : ١
(٧) النبأ آية : ٣٨
(٨) طه آية : ١٠٨

جل وعلا : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى من بعده ، وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ، وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم . وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ، ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ يخبر تعالى عن علمه التام المحيط بجميع الأشياء ، جليلها وحقيرها ، صغيرها وكبيرها ، دقيقها ولطيفها ، ليحذر الناس علمه فيهم ، فيستحيوا من الله تعالى حق الحياء ، ويتقوه حق تقواه ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنه يراه ، وأنه عز وجل يعلم العين الخائنة ، وإن أبدت أمانة ، ويعلم ما تنطوى عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء أو تمر به وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا لحظ إليها ، فإذا فطنوا غض بصره ، فإذا غفلوا لحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله على قلبه أنه ودَّ أن لو اطلع على فرجها ، وكذا قال مجاهد وقتادة : يعلم الله تعالى من العين فى نظرها هل تريد الخيانة أم لا ؟ . وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ **وما تخفى الصدور** ﴾ يعلم إذا أنت قدرت عليها ، هل تزنى بها أم لا ؟ وقال السدى ﴿ وما تخفى الصدور ﴾ أى من الوسوسة .

وقوله عز وجل : ﴿ **والله يقضى بالحق** ﴾ أى يحكم بالعدل ، وقال ابن عباس قادر على أن يجزى بالحسنة الحسنة ، والسيئة السيئة ، وهذا الذى فسره ابن عباس كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى** ﴾[٢] .

وقوله جل وعلا : ﴿ **والذين يدعون من دونه** ﴾ أى من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ **لا يقضون بشىء** ﴾ أى لا يملكون شيئا ولا يحكمون بشىء . ﴿ ان الله هو السميع البصير ﴾ أى سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم فيهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل فى جميع ذلك .

قوله تعالى : ﴿ **أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوى شديد العقاب** ﴾ .

حذر الله سبحانه هؤلاء المشركين ، مما حل بمن قبلهم من الأمم ، التى كانت أقوى منهم وأعظم آثارا ، كعاد وثمود ، فقال واعظاً ومذكراً : أولم يسر هؤلاء المشركون فى البلاد ، فيروا عاقبة الذين كانوا من قبلهم من الأمم ، ممن سلكوا سبيلهم فى الكفر وتكذيب الرسل ، وقد كانوا أشد منهم بطشاً ، وأبقى فى الأرض آثارا ، فلم تنفعهم شدة قواهم ، ولا عظيم آثارهم إذ جاء أمر الله ، فأخذوا بما أجرموا من المعاصى ، واكتسبوا من الآثام فأبيدوا جميعا ، وصارت مساكنهم خاوية بما ظلموا ، وما كان لهم من عذاب الله من حافظ يدفعه عنهم ؟ ونحو هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم**

(١) الشورى الآيات : ٤٤ - ٤٦ (٢) النجم آية : ٣١

بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا ، أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ، ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(١) .

وكقوله سبحانه : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾(٢) .

قصص موسى عليه السلام مع فرعون

قال تعالى :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ
كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ
وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ
إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ
فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن
يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ
مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ
إِن جَآءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ
ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

(١) التوبة الآيتان ٦٩ ـ ٧٠
(٢) السجدة آية : ٢٦

وَالَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾
يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ
يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنۢ
بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ
جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ابْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ الْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ السَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ
إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾
يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ الْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ
إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ
فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ * وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى
لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا
تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلَا فِى الْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ
أَصْحَٰبُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾
فَوَقَىٰهُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا
وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى النَّارِ
فَيَقُولُ الضُّعَفَٰٓؤُا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ
﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوٓا إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ
لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ
رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۚ قَالُوا فَادْعُوا ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا الْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾

معانى المفردات

﴿ السلطان ﴾ : الحجة والبرهان ، ﴿ فرعون ﴾ : ملك القبط بالديار المصرية ، ﴿ وهامان ﴾ : وزيره ، ﴿ وقارون ﴾ : كان أكثر الناس فى زمانه تجارة ومالاً ، ﴿عذت ﴾ : التجأت وتحصنت ، ﴿ متكبر ﴾ أى مستكبر عن اتباع الحق . ﴿ البينات ﴾ : هى الشواهد الدالة على صدقه ، ﴿ المسرف ﴾ : المقيم على المعاصى المستكثر منها ، ﴿ الكذاب ﴾ : المفترى ، ﴿ ظاهرين ﴾ : أى غالبين عالين على بنى إسرائيل ، ما أريكم إلا ما أرى : أى ما أعلمكم إلا ما أعلم من الصواب . ﴿ الأحزاب ﴾ أى الأقوام الذين تحزبوا على أنبيائهم وكذبوهم ، ﴿ والدأب) : العادة ، ﴿ يوم التناد ﴾ يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الناس ينادى فيه بعضهم بعضا للاستغاثة . ﴿ عاصم ﴾ أى مانع ، ﴿ مرتاب ﴾ أى شاك فى دينه ، ﴿ يوسف ﴾ هو النبى يوسف بن يعقوب عليه السلام . ﴿ السلطان ﴾ الحجة ، ﴿ المقت ﴾ أشد الغضب ﴿ الصرح ﴾ القصر الشامخ المنيف ، ﴿ الأسباب ﴾ واحدها سبب ، وهو ما يتوصل به إلى شىء من حبل أو سلم وطريق ، والمراد هنا الأبواب . ﴿ التباب ﴾ الخسران والهلاك . ﴿ الرشاد ﴾ ضد الغى والضلال ، ﴿ متاع ﴾ أى يستمتع به أياما قليلة ثم ينقطع ويزول ، ﴿ دار القرار ﴾ أى دار البقاء والدوام ، ﴿ إلى النجاة ﴾ أى إلى الإيمان بالله الذى ثمرته وعاقبته النجاة ، ﴿ إلى النار ﴾ أى إلى اتخاذ الأنداد والأوثان الذى عاقبته النار ﴿ ما ليس به علم ﴾ أى مالا وجود له ولم يقم عليه دليل ولا برهان . ﴿ لا جرم ﴾ أى حقاً ، ﴿ دعوة ﴾ أى استجابة دعوة لمن يدعو إليه ، ﴿ مردنا ﴾ أى مرجعنا ﴿ وأن المسرفين ﴾ أى الذين يغلب شرهم على خيرهم ، ﴿ فستذكرون ﴾ أى فسيذكر بعضكم بعضا حين معاينة العذاب ﴿ وقاه ﴾ حفظه ، ﴿ يعرضون عليها ﴾ أى تعرض أرواحهم عليها .

﴿ المحاجة ﴾ المجادلة والخصام بين اثنين فأكثر ، ﴿ الضعفاء ﴾ الأتباع والمرءوسون والمستكبرون : السادة أولو الرأى فيهم ، ﴿ التبع ﴾ واحدهم تابع ، ﴿ مغنون ﴾ أى دافعون ، ﴿ نصيبا ﴾ أى قسطا وجزءا . ﴿ حكم ﴾ قضى ، ﴿ الخزنة ﴾ واحدهم خازن وهم القوّام بتعذيب أهل النار ، ﴿ ضلال ﴾ أى فى ضياع وخسار .

المناسبة والمعنى الإجمالى

لما سلى رسوله بذكر عاقبة الكفار ، الذين كذبوا بالأنبياء قبله بمشاهدة آثارهم ، سلاه أيضاً بذكر قصص موسى مع فرعون ، مع ما أوتى من الحجج الباهرة ، كذبه فرعون وقومه وأمروا بقتل أبناء بنى إسرائيل ، وأمر فرعون بقتل موسى ، خوفا أن يبدل دينهم ، أو يعيث فى الأرض فساداً ، فتعوذ موسى بربه ورب بنى إسرائيل ، من كل جبار متكبر لا يؤمن بالجزاء والحساب ، ثم أردف ذلك بيان أن الله قيّض له من يدافع عنه من آل فرعون أنفسهم ، ويذب عنه على أكمل الوجوه وأحسنها ، ويبالغ فى تسكين تلك الفتنة ، ويجتهد فى إزالة ذلك الشر، وبعد أن سمع ذلك المؤمن ، رأى فرعون فى موسى وتصميمه على قتله ، وإقامة البراهين على صحة رأيه ، وأنه لا سبيل إلى العدول عن ذلك ـ أعاد النصح مرة أخرى

لقومه ، فذكرهم بأس الله وسنته فى المكذبين للرسل ، ثم أعقب ذلك بتذكيرهم بما فعل آباؤهم الأولون مع يوسف من قبل من تكذيبهم برسالته ورسالة من بعده ، فأحل الله بهم من البأس ما صاروا به مثلا فى الآخرين ، وكأن لسان حاله يقول : هأنذا قد أسمعت ، ونصحت فما قصرت ، والأمر إليكم فيما تفعلون ثم بين سبحانه أن فرعون ، بلغ من عتوه وتمرده وافترائه فى تكذيب موسى ، أن أمر وزيره هامان ، أن يبنى له قصراً شامخاً من الآجر ، ليصعد به إلى السماء ، ليطلع إلى إله موسى ومقصده من ذلك الاستهزاء به ، ونفى رسالته ثم أرشد سبحانه إلى أن هذا وأمثاله صنيع المكذبين الضالين ، وأن عاقبة تكذيبهم الهلاك والخسران ، ثم أعاد الرجل المؤمن إليهم النصح مرة أخرى ، فدعاهم أولا إلى قبول هذا الدين ، الذى هو سبيل الخير والرشاد ، ثم بين لهم حقارة الدنيا وعظيم شأن الآخرة ، وأنها هى الدار التى لا زوال لها ، ثم ذكر أنه يدعوهم إلى الايمان بالله الذى يوجب النجاة والدخول فى الجنات ، وهم يدعونه إلى الكفر الذى يوجب الدخول فى النار ، ثم أردف هذا بيان أن الأصنام لا تستجاب لها دعوة ، فلا فائدة فى عبادتها ، ومرد الناس جميعا إلى الله العليم بكل الأشياء ، وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت ، وأن المسرفين فى المعاصى هم أصحاب النار ، ثم ختم نصحه بتحذيرهم من بأس الله ، وتفويض أمره إلى الله ، الذى يدفع عنه كل سوء يراد به ، ثم أخبر سبحانه بأنه استجاب دعاءه ، فوقاه السوء الذى دبروه له ، وحفظه مما أرادوه من اغتياله ، وأحاط آل فرعون سوء العذاب ، فغرقوا فى البحر ، ويوم القيامة يكون لهم أشد العذاب فى النار .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو يظهر فى الأرض الفساد ، وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ (غافر ٢٣ : ٢٧)

قال العلامة ابن كثير فى تفسير هذه الآيات .

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشرا له بأن العاقبة والنصرة له فى الدنيا والآخرة ، كما جرى لموسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات **﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ﴾** والسلطان هو الحجة والبرهان **﴿ إلى فرعون ﴾** وهو ملك القبط بالديار المصرية **﴿ وهامان ﴾** وهو وزيره فى مملكته ، **﴿ وقارون ﴾** وكان أكثر الناس فى زمانه مالاً وتجارة **﴿ فقالوا ساحر كذاب ﴾** أى كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً ، مموها كذاباً فى أن الله أرسله وهذه كقوله تعالى : **﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾**[1] . وقوله تعالى : **﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾** أى بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله إليهم **﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾** وهذا أمر ثان من فرعون بقتل ذكور بنى إسرائيل ، أما الأول فكان لأجل الاحتراز من

(١) الذاريات الآيتان : ٥٢ - ٥٣

وجود موسى ، أو لإذلال هذا الشعب ، وتقليل عددهم أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثانى ، فللعلة الثانية ، ولإهانة هذا الشعب ، ولكى يتشاءموا بموسى عليه السلام ، ولهذا : ﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[1] قال قتادة : هذا أمر بعد أمر ، قال الله عز وجل ﴿ **وما كيد الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى وما مكرهم وقصدهم ، الذى هو تقليل عدد بنى إسرائيل لئلا ينصروا عليهم ، إلا ذاهب وهالك فى ضلال .

﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله على قتل موسى عليه الصلاة والسلام ، أى قال لقومه : دعونى حتى أقتل لكم هذا ﴿ وليدع ربه ﴾ أى لا أبالى منه ، وهذا فى غاية الجحد والتجهرم والعناد وقوله قبحه الله : ﴿ إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ يعنى موسى ، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ، ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما فى المثل : صار فرعون مذكرا ، يعنى واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه السلام . وقوله تعالى ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾ أى لما بلغه قول فرعون ﴿ ذرونى أقتل موسى ﴾ قال موسى عليه السلام : استجرت بالله وعذت به من شره وشر أمثاله ، ولهذا قال : ﴿ إنى عذت بربى وربكم ﴾ أيها المخاطبون ﴿ من كل متكبر ﴾ أى عن الحق مجرم ﴿ لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندرأ بك فى نحورهم »[2] .

قوله تعالى :

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم أن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . (غافر ٢٨ : ٢٩)

المشهور أن هذا الرجل ، كان قبطياً من آل فرعون ، قال السدى : كان ابن عم فرعون ، وقال ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما : لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل ، وامرأة فرعون ، والذى قال : (ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلونك)[1] رواه ابن أبى حاتم .

وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر إلا هذا اليوم حين قال فرعون : (ذرونى أقتل موسى) فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل ، وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ، كما ثبت بذلك فى الصحيح . ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون وهى قوله ﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ﴾ اللهم إلا ما رواه البخارى فى صحيحه عن عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنهما قال : قلت لعبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أخبرنى بأشد شىء صنعه المشركون برسول الله ﷺ قال بينا رسول الله ﷺ يصلى بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبوبكر الصديق فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبى ﷺ ثم قال : (أتقتلون رجلا أن

---

(١) الأعراف آية : ١٢٩ — (٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط جـ ٩ ص ٨٤

(٣) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٨٤ ط النهضة الحديثة

يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[١] وقوله تعالى ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أى كيف تقتلون رجلا لكونه يقول : ربى الله ، وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟ ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال : (وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم) يعنى إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ، فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه ، فلا تؤذوه فإن يك كاذبا ، فإن الله سبحانه وتعالى سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ، وإن يك صادقا وقد آذيتموه ، يصيبكم بعض الذى يعدكم ، فإنه يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب فى الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا فينبغى على هذا أن لا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه . وهكذا أخبر الله عز وجل عن موسى عليه السلام أنه طلب من فرعون وقومه الموادعة فى قوله تعالى : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون . وجاءهم رسول كريم . أن أدوا إلىّ عباد الله إنى لكم رسول أمين . وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين ، وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون ، وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون ﴾[٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ﴾ أى لو كان هذا الذى يزعم أن الله تعالى أرسله إليكم كاذبا ، كما تزعمون لكان أمره بيناً ، يظهر لكل أحد فى أقواله وأفعاله ، فكانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين ، لما هداه الله وأرشده إلى ما ترون من انتظام أمره وفعله ، ثم قال المؤمن محذرا قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم : ﴿ ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ﴾ أى قد أنعم الله عليكم بهذا الملك ، والظهور فى الأرض ، بالكلمة النافذة ، والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة ، بشكر الله تعالى ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أى لا تغنى عنكم هذه الجنود ، وهذه العساكر ، ولا ترد عنا شيئا من بأس الله ، إن أردنا بسوء . (قال فرعون) لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح ، البار الراشد ، الذى كان أحق بالملك من فرعون ، (ما أريكم إلا ما أرى) أى ما أقول لكم وأشير عليكم ، إلا ما أراه لنفسى ، وقد كذب فرعون ـ لعنه الله ـ فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام ، فيما جاء به من الرسالة ، كما قال تعالى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾[٤] فقوله ﴿ ما أريكم إلا ما أرى ﴾ كذب فيه وافترى وخان الله ورسوله ورعيته ، فغشهم وما نصحهم ، وكذا قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ أى وما أدعوكم إلا الى طريق الحق والصدق والرشد ، وقد كذب أيضا فى ذلك ، وان كان قومه أطاعوه واتبعوه ، قال تبارك وتعالى ﴿ فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد)[٥] وقال جلت عظمته ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾[٦] وفى الحديث الصحيح : « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام »[٧] والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

---

(١) أخرجه البخارى فى جـ ٦ ص ١٥٩ تفسير سورة المؤمنون
(٢) الدخان الآيات : ١٧ ـ ٢١
(٣) الأسراء آية : ١٠٢
(٤) النمل آية : ١٤
(٥) هود آية : ٩٧
(٦) طه آية : ٧٩
(٧) أخرجه الإمام مسلم جـ٣ ص ١٤٦٠ جـ ١ ص ١٢٦ برقم ١٤٢/٢١ كتاب الإيمان

قوله تعالى :

﴿ وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ، مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ، وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ، يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ .

• هذا إخبار من الله عز وجل عن الرجل الصالح مؤمن آل فرعون ، أنه حذر قومه بأس الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿ ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أى الذين كذبوا رسل الله فى قديم الدهر ، كقوم نوح وعاد وثمود ﴿ والذين من بعدهم ﴾ من الأمم المكذبة كيف حل بهم بأس الله ، وما رده عنهم راد ، ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾ أى إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره ، فأنفذ فيهم قدره ، كما قال تعالى : ﴿ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد ، وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[1] .

ثم قال لهم : ﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾ بعد أن خوفهم العذاب الدنيوى ، خوفهم العذاب الآخروى ، فقال : ﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعنى يوم القيامة ، وسمى بذلك ، قال بعضهم : لما جاء فى حديث الصور إن الأرض إذا زلزلت وانشقت من قطر إلى قطر وماجت وارتجت ، فنظر الناس إلى ذلك ، ذهبوا هاربين ، ينادى بعضهم بعضا ، وقال آخرون : ينادى كل قوم بأعمالهم ، ينادى أهل الجنة ، أهل الجنة ، وأهل النار ، أهل النار ، وقيل سمى بذلك : لمناداة أهل الجنة ، أهل النار : ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا قالوا نعم ﴾[2] ومناداة أهل النار ، أهل الجنة : ﴿ ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين ﴾[3] ولمناداة أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار ، كما هو مذكور فى سورة الأعراف ، واختار البغوى وغيره : أنه سمى بذلك لمجموع ذلك وهو قول حسن جيد والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أى ذاهبين هاربين ﴿ مالكم من الله من عاصم ﴾ أى مالكم من مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فماله من هاد ﴾ أى من أضله الله فلا هادى له غيره .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعنى أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولا من قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولا يدعو إلى الله تعالى أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة ، إلا لمجرد الوزارة والجاه الدنيوى ، ولهذا

---

(١) هود الآيات : ١٠٠ - ١٠٢ (٢) الأعراف آية : ٤٤ (٣) الأعراف آية : ٥٠

قال تعالى : ﴿ فمازلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أى يئستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أى كحالكم هذا ، يكون حال من يضله الله لإسرافه فى أفعاله وارتياب قلبه ، ثم قال عز وجل : ﴿ الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أى الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت على ذلك أشد المقت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أى والمؤمنون أيضا ، يبغضون من تكون هذه صفته ، فإن من كانت هذه صفته ، يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفا ، ولا ينكر منكرا ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أى على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ روى ابن أبى حاتم عن عكرمة والشعبى أنهما قالا : لا يكون الإنسان جبارا حتى يقتل نفسين(١) ، وقال قتادة : آية الجبابرة القتل بغير حق والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ .

يقول تعالى : مخبرا عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه فى تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام : أنه أمر وزيره هامان ، أن يبنى له صرحا ، وهو القصر العالى المنيف الشاهق ، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوى ، كما قال تعالى ﴿ فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا ﴾(٢) . . . ﴿ لعلى أبلغ الأسباب أسباب السموات ﴾ قال سعيد بن جبير : اى طرق السموات ﴿ فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا ﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام فى أن الله عز وجل أرسله إليه ، وقد قال هذا تمويها وتلبيسا على قومه ، توصلا بذلك إلى بقائهم على الكفر ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾(٣) .

ثم بين سبحانه السبب الذى دعاه إلى ما صنع ، فقال جل فى علاه :

﴿ **وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل** ﴾ وهكذا زين الشيطان لفرعون هذا العمل السيء الماكر ، فانهمك فى غيه ، واستمر فى طغيانه ، وصد عن سبيل الرشاد بأمثال هذه التمويهات والشبهات ، وما كان ذلك إلا لسوء استعداده وقدسيته نفسه ، والسير بها قدما فى شهواتها دون أن يكون لها وازع يصدها عن غيها ، ويثوب بها إلى رشدها .

ثم ذكر عاقبة مكره وتدليسه ، وأنه ذاهب سدى ، وأن الله ناصر أولياءه ومهلك أعداءه ، وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿ **وما كيد فرعون إلا فى تباب** ﴾ أى وما احتياله الذى يحتال به ، ليطلع على إله موسى إلا فى خسار وذهاب مال ، لأنها نفقة تذهب باطلا سدى دون أن يصل إلى شىء مما أراد من القضاء على دعوة موسى ، فالنصر فى العاقبة له « والعاقبة للمتقين »(٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير ص١٣٣ ط الشعب
(٢) القصص آية : ٣٨
(٣) الزخرف آية : ٥٤
(٤) القصص آية : ٨٣ والأعراف آية : ١٢٨

قوله تعالى :

﴿ وقال الذي آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ، ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ .

يقول المؤمن لقومه ممن تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيا ، ونسى الجبار الأعلى فقال لهم : ﴿ ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ لا كما كذب فرعون فى قوله : ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

ثم زهدهم فى الدنيا التى قد آثروها على الآخرة ، فصدوا عن التصديق برسول الله فقال : ﴿ ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ﴾ أى ياقوم ما هذا النعيم الذى يُعجَل لكم فى هذه الحياة الدنيا إلا قليل المدى ، تستمتعون به إلى أجل أنتم بالغوه ثم تموتون ، وإن الآخرة هى دار الاستقرار التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا ظعن عنها إلى غيرها ، وفيها إما نعيم مقيم ، وإما عذاب أليم .

ثم بين كيف تحصل المجازاة فى الآخرة ، وأشار إلى أن جانب الرحمة فيها غالب على جانب العقاب فقال : ﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أى من عمل فى دار الدنيا معصية من المعاصى كائنة ما كانت ، فلا يعذب إلا بقدرها من غير مضاعفة للعقاب ، ومن عمل بطاعة الله وائتمر بأمره ، وانتهى عما نهى عنه ، ذكراً كان أو أنثى ، وهو مؤمن بربه ، مصدق بأنبيائه ورسله ، فأولئك يدخلون الجنة ويمتعون فيها بنعيمها بلا تقدير ولا موازنة للعمل بل يجازون أضعافا مضاعفة بلا انقضاء ولا نفاد .

ثم كرر ذلك المؤمن دعاءهم إلى الله ، وصرح بإيمانه ، ولم يسلك المسالك المتقدمة ، من إيهامه لهم أنه منهم ، وأنه إنما تصدى لتذكيرهم ، كراهة أن يصيبهم بعض ما توعدهم به موسى ، كما يقول الرجل المحب لقومه تحذيرا لهم من الوقوع فيما يخاف عليهم من مواضع الهلكة فقال تعالى حاكيا عنه :

﴿ وياقوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ، لاجرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

يقول لهم المؤمن : ما بالى أدعوكم إلى النجاة ، وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتصديق رسوله ﷺ الذى بعثه ﴿ وتدعوننى إلى النار ؟ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم ﴾ أى على جهل بلا دليل ﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ أى هو فى عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب إليه كما قال سبحانه : ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين ﴾[(1)] .

وقوله تعالى : ﴿ لا جرم أنما تدعوننى إليه ﴾ قال السدى وابن جريج معنى قوله ، ﴿ لا جرم ﴾ :

---

(1) الأنفال آية : ٣٨

أى حقا ، وقال ابن عباس : يقول بلى إن الذى تدعوننى إليه من الأصنام والأنداد ﴿ **ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة** ﴾ قال قتادة : يعنى الوثن لا ينفع ولا يضر ، وقال السدى : لا يجيب داعيه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾(١) .

وقوله : ﴿ **وأن مردنا إلى الله** ﴾ أى فى الدار الآخرة فيجازى كل بعمله ، ولهذا قال : ﴿ **وأن المسرفين هم أصحاب النار** ﴾ أى خالدين فيها بإسرافهم ، وهو شركهم بالله عز وجل ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم** ﴾ أى سوف تعلمون صدق ما أمرتكم ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم ، وتتذكرونه وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ **وأفوض أمرى إلى الله** ﴾ أى وأتوكل على الله وأستعينه وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ **إن الله بصير بالعباد** ﴾ أى هو بصير بهم تعالى وتقدس ، فيهدى من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الإضلال ، وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا** ﴾ أى فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام ، وأما فى الآخرة فبالجنة ﴿ **وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾ وهو الغرق فى اليم ، ثم النقلة منه إلى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحا ومساء إلى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار ولهذا قال عز وجل : ﴿ **ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ أى أشده ألما وأعظمه نكالا ، وهذه الآية أصل كبير فى استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ فى القبور ، وهى قوله تعالى : ﴿ **النار يعرضون عليها غدوا وعشيا** ﴾ .

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن يهودية دخلت عليها فقالت نعوذ بالله من عذاب القبر فسألت عائشة رضى الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر فقال ﷺ : « نعم عذاب القبر حق » قالت عائشة رضى الله عنها . فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر(٢) وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **غدواً وعشيا** ﴾ صباحا ومساء ما بقيت الدنيا ، يقال لهم يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغارا لهم ، وقال ابن زيد : هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة . وفى حديث الإسراء من رواية أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال فيه « ثم انطلق بى إلى خلق كثير من خلق الله ، رجال كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم مصفدون على سابلة آل فرعون ، وآل فرعون يعرضون على النار غدوا وعشيا ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾(٣) .

قال الإمام أحمد عن ابن عمر رضى الله عنهما قال . قال رسول الله ﷺ « أن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل إليه يوم القيامة »(٤) فاللهم نعوذ بك من عذاب جهنم

---

(١) الأحقاف الآيتان : ٥ ، ٦
(٢) أخرجه البخارى جـ٢ ص١٢٣ ط الشعب كتاب عذاب القبر وأحمد جـ٦ ص ١٧٤
(٣) تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٤١ وما بعدها ط النهضة الحديثة
(٤) أخرجه أحمد جـ٢ ص٥١ ومسلم جـ٤ ص ٢١٩٩ برقم ٢٨٦٦/٦٥

ونعوذ بك من عذاب القبر ، ونعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات .

قوله تعالى : ﴿ **وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاءُ للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ، وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ، قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ .

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار فى النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم فيقول الضعفاء ، وهم الأتباع للذين استكبروا ، وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ **إنا كنا لكم تبعاً** ﴾ أى أطعناكم فيما دعوتمونا إليه فى الدنيا من الكفر والضلال ﴿ **فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار** ﴾ أى قسطا تتحملونه عنا ﴿ **قال الذين استكبروا إنا كل فيها** ﴾ أى لا نتحمل عنكم شيئا كفى بنا ما عندنا وما حملنا من العذاب والنكال ﴿ **إن الله قد حكم بين العباد** ﴾ أى قسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا ، كما قال تعالى : ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب** ﴾ لما علموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ولا يستمع لدعائهم ، بل قد قال سبحانه : ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾(٢) . سألوا الخزنة ، وهم كالسجانين لأهل النار ، أن يدعوا لهم الله تعالى فى أن يخفف عن الكافرين ولو يوماً واحدا من العذاب ، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم « أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟ » أى أو ماقامت عليكم الحجج فى الدنيا على ألسنة الرسل (قالوا بلى قالوا فادعوا) أى أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعو لكم ، ولا نسمع منكم ، ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم براء ، ثم نخبركم أنه سواء دعوتم أو لم تدعوا ، لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾ أى إلا فى ذهاب لا يقبل ولا يستجاب .

أضـواء كاشفة
على قصـة النبى موسى

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » : قصة موسى الكليم وهو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليهم السلام .

قال تعالى : ﴿ **واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا : ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا** ﴾(٣) **وقد ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة ، متفرقة من القرآن ، وذكر قصته فى مواضع متعددة ، مبسوطة ، ومطولة وغير مطولة ، وقد تكلمنا على ذلك كله فى مواضعه من التفسير وسنورد مسيرته ههنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنة ، وما ورد فى الآثار المنقولة من الإسرائيليات ، التى ذكرها السلف وغيرهم إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان . قال الله تعالى : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم طسٓمٓ تلك آيات الكتاب المبين نتلو عليك من نبأ**

(١) الأعراف آية : ٣٨ (٢) المؤمنون آية : ١٠٨ (٣) مريم الآيات : ٥١ - ٥٣

موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين ، ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾(١) .

يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق أى بالصدق . الذى كان سامعه شاهد للأمر معاين له ﴿ إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا ﴾ أى تجبر وعتا وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعا أى قسم رعيته إلى أقسام وفرق وأنواع ، يستضعف طائفة منهم وهم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحق بن إبراهيم خليل الله ، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض ، وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر ، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحرف وأرداها وأدناها ومع هذا ﴿ يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين(٢) وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام ، يكون هلاك ملك مصر على يديه وذلك والله أعلم حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها ، وكانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل فتحدث بها القبط فيما بينهم ، ووصلت إلى فرعون ، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته وهم يسمرون عنده ، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل ، حذرا من وجود هذا الغلام ، ولن يغنى حذر من قدر .

وذكر السدى عن ابن عباس وغيره من الصحابة : أن فرعون رأى فى منامه كأن ناراً قد أقبلت من نحو بيت المقدس ، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضر بنى إسرائيل . فلما استيقظ هاله ذلك ، فجمع الكهنة والسحرة وسألهم عن ذلك ، فقالوا هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه ، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾(٣) أى سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قادرا والذليل عزيزا ، وقد جرى هذا كله لبنى إسرائيل ، كما قال تعالى : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا . . ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى اسرائيل ﴾(٥) وسيأتى تفصيل ذلك فى موضعه إن شاء الله ، والمقصود أن فرعون احترز كل الاحتراز ، أن لا يوجد موسى ، حتى جعل رجالا وقوابل يدورون على الحبالى ، ويعلمون ميقات وضعهن ، فلا تلد امرأة ذكراً ، إلا ذبحه ، أولئك الذباحون من ساعته .

---

(١) القصص الآيات : ١ - ٦
(٢) القصص آية : ٤
(٣) القصص الآيات : ٥ - ٦
(٤) الأعراف آية : ١٣٧
(٥) الشعراء الآيات : ٥٧ - ٥٩

هذا والقدر يقول : يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده ، وسلطة بأسه ، واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم ، الذى لا يغالب ، ولا يمانع ، ولا يخالف أقداره ، أن هذا المولود الذى تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لايعد ولا يحصى ، لا يكون مرباه إلا فى دارك ، وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك فى منزلك ، وأنت الذى تتبناه وتربيه وتتعداه ، ولا تطلع على سر معناه ، ثم يكون هلاكك فى دنياك وأخراك على يديه ، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحى إليه ، لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السموات والأرض ، هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم ، والحول والقوة ، والمشيئة التى لا مرد لها .

وقد ذكر غير واحد من المفسرين ، أن القبط شكو إلى فرعون قلة بنى إسرائيل ، بسبب قتل ولدانهم الذكور ، وخشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار ، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو اسرائيل يعالجون ، فأمر فرعون بقتل الابناء عاما ، وأن يتركوا عاما ، فذكروا أن هارون عليه السلام ، ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء ، وأن موسى عليه السلام ، ولد فى عام قتلهم ، فضاقت أمه به ذرعاً ، واحترزت من أول ما حبلت ، ولم يكن يظهر عليها مخاتيل الحبل ، فلما وضعت ، ألهمت أن اتخذت له تابوتا ، فربطته فى حبل البحر ، وأمسكت طرف الحبل عندها ، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به . قال الله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ﴾[١] هذا الوحى إلهام وإرشاد ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ـ الآية ﴾[٢] وليس هو بوحى نبوة ، كما زعمه ابن حزم ، بل والصحيح الأول ، كما حكاه الحسن الأشعرى من أهل السنة والجماعة .

والمقصود أنها أرشدت إلى هذا الذى ذكرناه ، وألقى فى خلدها وروعها ألا تخافى ولا تحزنى ، فإنه إن ذهب فإن الله سيرده إليك ، وإن الله سيجعله نبيا مرسلا ، يعلى كلمته فى الدنيا والآخرة ، فكانت تصنع ما أمرت به ، فأرسلته ذات يوم وذهلت أن تربط طرف الحبل عندها ، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون (فالتقطه آل فرعون)[٣] قال الله تعالى : ﴿ ليكون لهم عدوا وحزنا ﴾[٤] قال بعضهم : هذه لام العاقبة ، وهو ظاهر إن كان متعلقا بقوله فالتقطه ، وأما إن جعل متعلقا بمضمون الكلام ، وهو أن آل فرعون قبضوا لا لتقاطه ، ليكون لهم عدوا وحزنا ، صارت اللام معللة كغيرها ، والله أعلم ويقوى هذا التقدير الثانى قوله : ﴿ إن فرعون وهامان ﴾[٥] وهو الوزير السوء ، ﴿ وجنودهما ﴾[٦] المتابعين لهما ، ﴿ كانوا خاطئين ﴾[٧] أى كانوا على خلاف الصواب ، فاستحقوا هذه العقوبة والحسرة .

---

(١) القصص الآيات : ٧ ـ ١١
(٢) النحل الآيتان : ٦٨ ـ ٦٩
(٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) القصص آية : ٨

وذكر المفسرون أن الجوارى التقطنه من البحر فى تابوت مغلق عليه ، فلم يتجاسرن على فتحه ، حتى وضعته بين يدى امرأة فرعون ـ آسيه بنت مزاحم ـ وسيأتى مدحها والثناء عليها فى قصة مريم بنت عمران ، وأنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول الله ﷺ فى الجنة .

فلما فتحت الباب ، وكشفت الحجاب ، رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية ، والجلالة الموسوية ، فلما رأته ووقع نظرها عليه ، أحبته حبا شديدا .

فلما جاء فرعون قال ما هذا وأمر بذبحه ، فاستوهبته منه ودفعت عنه ﴿ وقالت قرة عين لى ولك ﴾[1] فقال لها فرعون أمالك فنعم ، وأما لى فلا ، أى لا حاجة لى به . « والبلاء موكل بالمنطق » وقولها ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾[2] وقد أنا لها الله ما رجت من النفع ، أما فى الدنيا فهداها الله به ، وأما فى الآخرة ، فأسكنها جنته بسببه ﴿ أو نتخذه ولدا ﴾[3] وذلك أنهما تبنياه ، لأنه لم يكن يولد لهما ولد . قال الله تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾[4] أى لا يدرون ماذا يريد الله بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون وجنوده ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون ، وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[5] قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ﴾ أى من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى ﴿ إن كادت لتبدى به ﴾ أى لتظهر أمره وتسأل عنه جهرة ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ أى صبرناها وثبتناها ﴿ لتكون من المؤمنين ﴾ . ﴿ وقالت لأخته ﴾ وهى ابنتها الكبيرة ﴿ قصيه ﴾ أى اتبعى أثره ، واطلبى له خبره ، ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ قال مجاهد عن بعد ، وقال قتادة جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ وذلك لأن موسى عليه السلام لما استقر بدار فرعون ، أرادوا أن يغذوه برضاعة ، فلم يقبل ثديا ولا أخذ طعاما ، فحاروا فى أمره واجتهدوا على تغذيته بكل ممكن ، فلم يفعل كما قال تعالى : ﴿ **وحرمنا عليه المراضع من قبل** ﴾ فأرسلوه مع القوابل والنساء إلى السوق ، لعل يجدون من يوافق رضاعته ، فبينما هم وقوف به والناس عكوف عليه ، إذ بصرت به أخته ، فلم تظهر أنها تعرفه ، بل قالت : ﴿ **هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له نصحون** ﴾ قال ابن عباس : لما قالت ذلك ، قالوا لها ما يدريك بنصحهم وشفقتهم عليه ، فقالت رغبة فى صهر الملك ورجاء منفعته ، فأطلقوها وذهبوا معها إلى منزلهم ، فأخذته أمه ، فلما أرضعته التقم ثديها ، وأخذ يمتصه ويرتضعه ، ففرحوا بذلك فرحا شديدا ، وذهب البشير إلى آسية ، يعلمها بذلك ، فاسدعتها إلى منزلها ، وعرضت عليها أن تكون عندها ، وأن تحسن إليها فأبت عليها ، وقالت إن لى بعلا وأولادا ، ولست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معى ، فأرسلته معها ، ورتبت لها رواتب ، وأجرت عليها النفقات والكساوى والهبات ، فرجعت تحوزه إلى رحلها وقد جمع الله شمله بشملها ، قال الله تعالى : ﴿ **فرددناه إلى أمه كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق** ﴾ أى كما وعدناها برده ، ورسالته ، فهذا رده ، وهو دليل على صدق البشارة

(١ ، ٢) القصص آية : ٩

(٣ ، ٤) القصص آية : ٩

(٥) القصص الآيات : ١٠ - ١٣

برسالته ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ وقد امتن الله على موسى بهذا ليلة كلمه ، فقال له فيما قال له : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقيه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له ، وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى ﴾[١] قال قتادة وغير واحد من السلف أى تطعم وترفه وتغذى بأطيب المآكل ، وتلبس أحسن الملابس ، بمرأى منى ، وذلك كله بحفظى وكلائتى لك فيما صنعت بك لك ، وقدرته من الأمور التى لا يقدر عليها غيرى ﴿ إذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كى تقر عينها ولا تحزن ، وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا ﴾[٢] .

﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين . ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه ، قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ، قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم . قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ﴾[٣] لما ذكر سبحانه وتعالى أنه أنعم على أمه برده لها ، وإحسانه بذلك ، وامتنانه عليها ، شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى ، وهو احتكام الخلق والخلق ، وهو سن الأربعين فى قول الأكثرين ، آتاه الله حكما وعلما ، وهو النبوة والرسالة ، التى كان بشر بها أمه حين قال : ﴿ إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾[٤] ثم شرع فى ذكر سبب خروجه من بلاد مصر ، وذهابه إلى أرض مدين ، وإقامته هنالك ، حتى كمل الأجل ، وانقضى الأمد ، وكان ما كان من كلام الله وإكرامه بما أكرمه به كما سيأتى .

قال تعالى : ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾[٥] قال ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمه وقتادة والسدى : وذلك نصف النهار ، وعن ابن عباس بين العشائيه ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾[٦] أى يتضاربان ويتهاوشان ﴿ هذا من شيعته ﴾[٧] أى إسرائيل ﴿ وهذا من عدوه ﴾[٨] أى قبطى ، قاله ابن عباس وقتادة والسدى ﴿ فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام ، كانت له بديار مصر صولة ، بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له وتربيته فى بيته ، وكانت بنو إسرائيل قد عزوا وصارت لهم وجاهة وارتفعت رؤوسهم بسبب أنهم أرضعوه . وهم أخواله أى من الرضاعة ، فلما استغاث ذلك الإسرائيلى بموسى عليه السلام على ذلك القبطى ، أقبل إليه موسى (فوكزه) قال مجاهد : أى طعنه بجُمع كفه ، وقال قتادة : بعصا كانت معه (فقضى عليه) أى فمات منها ، وقد كان ذلك القبطى كافرا مشركا بالله العظيم ، ولم يرد موسى قتله بالكلية ، وإنما أراد زجره وردعه ، ومع هذا (قال) موسى (هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) قال رب إنى ظلمت نفس فاغفر لى فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ، قال رب بما أنعمت على) أى من العز والجاه ، (فلن أكون ظهيرا للمجرمين . فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى **إنك لغوى مبين** . فلما أراد أن يبطش بالذى هو عدو **لهما قال** يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ

(١) طه الآيتان : ٣٧ - ٣٩
(٢) طه آية : ٤٠
(٣) القصص الآيات : ١٤ - ١٧
(٤) القصص آية : ٧
(٥ - ٨) القصص آية : ١٥

يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين)[١] . يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائفا ، أى من فرعون وملائه أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليه أمره ، إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل ، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم ، ويترتب على ذلك أمر عظيم ، فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم ﴿ خائفا يترقب ﴾ أى يلتفت ، فبينما هو كذلك ، إذ بذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس يستصرخه ، أى يصرخ به ويستغيثه على آخر قد قاتله ، فعنفه موسى ولامه على كثرة شره ، ومخاصمته ، قال له إنك لغوى مبين ، ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى الذى هو عدو لموسى وللإسرائيلى ، فيردعه عنه ، ويخلصه منه ، فلما عزم على ذلك ، وأقبل على القبطى ﴿ **قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا فى الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين** ﴾ قال بعضهم : إنما قال هذا الكلام الإسرائيلى الذى اطلع على ما كان منع موسى بالأمس ، وكأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطى ، اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله إنك لغوى مبين ، فقال ما قال لموسى ، وأظهر الأمر الذى وقع بالأمس ، فذهب القبطى فاستعدى موسى إلى فرعون ، وهذا الذى لم يذكر كثير من الناس سواه ، ويحتمل أن قائل هذا هو القبطى ، وأنه لما رآه مقبلا إليه خافه ، ورأى من سجيته انتصارا جيدا للإسرائيلى ، فقال ما قال ، من باب الظن والفراسة ، إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس ، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلى حين استصرخه عليه ما دله على هذا والله أعلم .

والمقصود أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس ، فأرسل فى طلبه ، وسبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب ﴿ **وجاء من أقصى المدينة** ﴾ ساعيا إليه مشفقاً عليه فقال ﴿ **ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج** ﴾ أى من هذه البلدة ، ﴿ **إنى لك من الناصحين** ﴾ أى فيما أقوله لك . قال الله تعالى ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أى فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه ، لا يهتدى إلى طريق ولا يعرفه قائلا : ﴿ رب نجنى من القوم الظالمين . ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل ، ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تزودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾[٢] . يخبر تعالى عن خروج عبده ورسوله وكليمه من مصر خائفا يترقب أى يتلفت ، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون ، وهو لا يدرى أين يتوجه ، ولا إلى أين يذهب ، وذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها (ولما توجه تلقاء مدين) أى اتجه له طريق يذهب فيه (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) أى عسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود . وكذا وقع . أوصلته إلى مقصود وأى مقصود (ولما ورد ماء مدين) وكانت بئراً يستقون منها . ومدين هى المدينة ، التى أهلك الله فيها أصحاب الأيكة ، وهم قوم شعيب ، وقد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السلام فى أحد قولى العلماء ﴿ لما ورد ماء مدين﴾ **المذكور** ﴿ وجد عليها أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين **تزودان** ﴾ أى تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس . (قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير) أى لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء ، لضعفنا وسبب مباشرتنا هذه الرعية ، ضعف أبينا وكبره قال تعالى : ﴿ **فسقى لهما** ﴾ .

(١) القصص الآيات : ١٧ - ٢١ (٢) القصص الآيات : ٢١ - ٢٤

ذكر المفسرون وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة ، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس ، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى ، فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر كما كان ، قال أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب : وكان لا يرفعه إلا عشرة ، وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما ، ثم تولى إلى الظل قالوا ، وكان ظل شجرة من السمر . ﴿ فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾ ﴿ فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾(١) .

لما جلس موسى عليه السلام فى الظل ﴿ فقال رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ﴾ سمعته المرأتان فيما قيل ، فذهبتا إلى أبيهما ، فيقال إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان ، من أمر موسى عليه السلام ، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه ، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، أى مشى الحراير ، قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، صرحت له بهذا لئلا يوهم كلامها ريبة ، وهذا من تمام حيائها وصيانتها ، فلما جاءه وقص عليه القصص وأخبره خبره ، وما كان من أمره فى خروجه من بلاد مصر فرارا من فرعونها (قال له) ذلك الشيخ : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ أى خرجت من سلطانهم فلست فى دولتهم .

وقد اختلفوا فى هذا الشيخ من هو ؟ فقيل هو شعيب عليه السلام . وهذا هو المشهور عند كثيرين ، وممن نص عليه الحسن البصرى ومالك بن أنس ، وجاء مصرحا به فى حديث ولكن فى إسناده نظر ، وصرح طائفة بأن شعيبا عليه السلام ، عاش عمرا طويلا بعد هلاك قومه ، حتى أدركه موسى عليه السلام ، وتزوج بابنته ، وروى ابن أبى حاتم وغيره عن الحسن البصرى أن صاحب موسى عليه السلام هذا اسمه شعيب ، وكان سيد الماء ولكن ليس بالنبى صاحب مدين ، وقيل إنه ابن أخى شعيب ، وقيل ابن عمه . وقيل رجل مؤمن من قوم شعيب ، وقيل رجل اسمه يثرون هكذا ، هو فى كتب أهل الكتاب يثرون كاهن مدين أى كبيرها وعالمها ، قال ابن عباس وأبوعبيدة بن عبدالله : اسمه يثرون ، زاد أبوعبيدة وهو ابن أخى شعيب زاد ابن عباس صاحب مدين .

والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه ، وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا ، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها : ياأبت استأجره ، أى لرعى غنمك ، ثم مدحته بأنه قوى أمين ، قال عمر وابن عباس وشريح القاضى وغير واحد : لما قالت ذلك ، قال لها أبوها : وما علمك بهذا ، فقالت : إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة ، وأنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال كونى من ورائى ، فإذا اختلف الطريق ، فاحذفى لى بحصاه ، أعلم بها كيف الطريق .

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة ، صاحب يوسف حين قال لامرأته : أكرمى مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت : ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، وأبو بكر حين استخلف عمر ابن الخطاب ﴿ قالت إحداها ياأبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، قال إنى أريد أن

(١) القصص الآيتان : ٢٤ - ٢٥ .

أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ والله على ما نقول وكيل ﴾[١] . يقول تعالى إن موسى قال لصهره الأمر على ما قلت ، فأيهما قضيت فلا عدوان علىّ ، والله على مقالتنا سامع وشاهد ووكيل على وعليك ، ومع هذا فلم يقض موسى إلا أكمل الأجلين وأتمهما وهو العشر سنين كوامل تامة .

قال البخارى عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة أى الأجلين قضى موسى ، فقلت لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب . فأسأله ، فقدمت فسألت ابن عباس فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل ، وقد رواه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ ، قال : سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى قال : أتمهما وأكملهما ﴿ فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين . وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين . اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء **واضمم إليك جناحك من الرهب فذٰنك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[٢]** .

تقدم أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأكملهما ، وقد يؤخذ هذا من قوله : ﴿ **فلما قضى موسى الأجل** ﴾ وقوله : ﴿ **وسار بأهله** ﴾ أى من عند صهره ذاهبا فيما ذكره غير واحد من المفسرين وغيرهم ، أنه اشتاق إلى أهله ، فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه ، قالوا : واتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة ، وتاهوا فى طريقهم ، فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف ، وجعل يورى زناده ، فلا يورى شيئا ، واشتد الظلام والبرد ، فبينما هو كذلك ، إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج فى جانب الطور ، وهو الجبل الغربى منه عن يمينه ، فقال لأهله : امكثوا إنى آنست نارا ، وكأنه والله أعلم رآها دونهم لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ، ولا يصلح رؤيتها لكل أحد ﴿ لعلى آتيكم منها بخبر ﴾ أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق . ﴿ أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة ومظلمة ، وقوله فى الآية الأخرى : ﴿ وهل أتاك حديث موسى إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ﴾[٣] فدل على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق ، وجمع الكل فى سورة النمل فى قوله : ﴿ **إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا سآتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون** ﴾[٤] وقد أتاهم منها بخبر ، وأى خبر ، ووجد عندها هدى ، وأى هدى ، واقتبس منها نورا ، وأى نور ، قال الله تعالى : ﴿ **فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن ياموسى إنى أنا الله رب العالمين** ﴾ فقال فى سورة النمل : ﴿ فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ﴾[٥] أى سبحان الله الذى يفعل ما يشاء ويحكم مايريد . ﴿ ياموسى إنه أنا الله العزيز

---

(١) القصص الآيات ٢٦ ـ ٢٨ .
(٢) القصص الآيات : ٢٩ ـ ٣٢ .
(٣) طه الايتان : ٩ ، ١٠ .
(٤) النمل آية : ٧ .
(٥) النمل آية : ٨ .

الحكيم ﴾[١] وقال فى سورة طه : ﴿ فلما أتاها نودى ياموسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى ، إن الساعة اتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾[٢] قال غير واحد من المفسرين من السلف والخلف : لما قصد موسى إلى تلك النار ، التى رآها ، فانتهى إليها ، وجدها تأجج فى شجرة خضراء من العوسج ، وكل ما لتلك النار فى اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد ، فوقف متعجبا ، وكانت تلك الشجرة فى كحف جبل غربى منه عن يمينه ، كما قال تعالى : ﴿ وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ﴾[٣] وكان موسى فى واد اسمه طوى ، فكان موسى مستقبل القبلة ، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب ، فناداه ربه بالواد المقدس طوى فأمر أولا بخلع نعليه ، تعظيما وتكريما وتوقيرا ، لتلك البقعة المباركة ، ولاسيما فى تلك الليلة المباركة .

وعند أهل الكتاب ، أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور ، مهابة له ، وخوفا على بصره ، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له : ﴿ **إنى أنا الله رب العالمين** ﴾ ﴿ **إننىأنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى** ﴾ أى أنا رب العالمين الذى لا إله إلا هو ، الذى لا تصلح العبادة وإقامة الصلاة إلا له ، ثم أخبره أن هذه الدنيا ، ليست بدار قرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة ، التى لابد من كونها ووجودها . (لتجزى كل نفس بما تسعى) أى من خير وشر ، وحضه وحثه على العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها ، ممن عصى مولاه ، واتبع هواه ، ثم قال له مخاطبا ومؤانسا ومبينا له إنه القادر على كل شىء الذى يقول للشىء كن فيكون : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى)[٤] أى أما هذه عصاك التى تعرفها منذ صحبتها ﴿ قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ﴾[٥] أى بل هذه عصاى التى أعرفها وأتحققها ﴿ قال ألقها ياموسى فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾[٦] . وهذا خارق عظيم ، وبرهان قاطع على أن الذى يكلمه ، يقول للشىء كن فيكون ، وأنه الفعال بالاختيار .

وعند أهل الكتاب ، أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر ، فقال له الرب عز وجل : ما هذه التى فى يدك ، قال : عصاى ، قال : ألقها إلى الأرض ﴿ فألقاها فإذا هى حية تسعى ﴾ فهرب موسى من قدامها ، فأمره الرب عز وجل ، أن يبسط يده ويأخذها بذنبها ، فلما استمكن منها ، ارتدت عصا فى يده ، وقد قال الله تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **وأن ألق عصاك ، فلما رأها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب** ﴾ أى قد صارت حية عظيمة ، لها ضخامة هائلة ، وأنياب تصك ، وهى مع ذلك فى سرعة حركة الجان ، وهو ضرب من الحيات ، فلما عاينها موسى عليه السلام ﴿ ولى مدبرا ﴾ أى هاربا منها ، لأن طبيعة البشر ، تقتضى ذلك (ولم يعقب) أى ولم يلتفت فناداه ربه قائلا له ﴿ ياموسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ فلما رجع ، أمره الله تعالى أن يمسكها ﴿ قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها

---

(١) النمل آية : ٩ .
(٢) طه الآيات : ١١ ـ ١٦
(٣) القصص آية : ٤٤
(٤) طه آية : ١٧
(٥) طه آية : ١٨
(٦) طه الآيتان : ١٩ ، ٢٠

الأولى ﴾(١) . فيقال إنه هابها شديداً ، فوضع يده فى كم مدرعته ، ثم وضع يده فى وسط فمها ، وعند أهل الكتاب بذنبها ، فلما استمكن منها ، إذا هى قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين ، فسبحان القدير العظيم ، رب المشرقين والمغربين ، ثم أمره تعالى بإدخال يده فى جيبه ، ثم أمره بنزعها ، فإذا هى تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء ، أى من غير برص ولا بهق ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ، واضمم إليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ وقال فى سورة النمل : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فى تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾(٢) أى هاتان الآيتان وهما العصا واليد وهما البرهانان المشار إليهما فى قوله تعالى : ﴿ فذانك برهانان من ربك إلى فرعون وملائه إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ مضافا إليها سبع آيات بينات كما جاء فى آخر سورة الإسراء ، حيث يقول تعالى : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك ياموسى مسحورا ، قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾(٣) وهى المبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾(٤) كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، وهذه التسع غير العشر الكلمات ، فإن التسع من كلمات الله القدرية ، والعشر من كلماته الشرعية ، وإنما نبهنا على هذا ، لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة ، فظن أن هذه هى هذه ، كما قررنا ذلك فى تفسير آخر سورة سبحان ، والمقصود أن الله سبحانه ، لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب إلى فرعون ﴿ قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون . قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾(٥) .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وكليمه موسى عليه السلام ، فى جوابه لربه عز وجل ، حين أمره بالذهاب إلى عدوه ، الذى خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه ، حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى ، ولهذا (قال رب إنى قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون ، وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى إنى أخاف أن يكذبون) . أى اجعله معى معيناً وردءاً ووزيرا ، يساعدنى ويعيننى على أداء رسالتك إليهم ، فإنه أفصح منى لساناً ، وأبلغ بياناً ، قال الله تعالى مجيباً له إلى سؤاله : ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا ﴾ أى برهانا (فلا يصلون إليكما) أى فلا ينالون مكروها بسبب قيامكما بآياتنا ، وقيل ببركة آياتنا (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) وقال فى سورة طه : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى . قال رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى

(١) طه آية : ٢١ .
(٢) النمل آية : ١٢ .
(٣) الأسراء الآيتان : ١٠١ - ١٠٢ .
(٤) الأعراف الآيات : : ١٣٠ - ١٣٣
(٥) القصص الآيات : ٣٣ - ٣٥

واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى اشدد به أزرى وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ، ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيراً . قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ﴾[١] .

أى قد أجبناك إلى جميع ما سألت ، وأعطيناك الذى طلبت ، وهذا من وجاهته عند ربه عز وجل ، حين شفع أن يوحى الله إلى أخيه ، فأوحى إليه ، وهذا جاه عظيم قال تعالى : ﴿ وكان عند الله وجيها)[٢] وقال تعالى : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾[٣] وقد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلا يقول : (أى أخ أمنُّ على أخيه) فسكت القوم فقالت عائشة لمن حول هودجها : هو موسى بن عمران حين شفع فيه أخيه هارون .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون ، قال رب إنى أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون . قال كلا فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون . فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ، أن أرسل معنا بنى إسرائيل ، قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين ، وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾[٤] تقدير الكلام : فأتياه فقالا له ذلك ، وبلّغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن يفك أسارى بنى إسرائيل ، من قبضته ، وقهره وسطوته ، وتركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا ، لتوحيده ودعائه ، والتضرع لديه ، فتكبر فرعون فى نفسه وعتى وطغى ، ونظر إلى موسى بعين الازدراء والتنقص ، قائلاً له : (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين) أى أما أنت الذى ربيناه فى منزلنا ، وأحسنا إليه ، وأنعمنا عليه مدة من الدهر ، وهذا يدل على أن فرعون ، الذى بعث إليه ، هو الذى فر منه ، خلافاً لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذى فرّ منه ، مات فى مدة مقامه بمدين ، وأن الذى بعث إليه فرعون آخر ، وقوله : ﴿ وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين ﴾ أى وقتلت الرجل القبطى ، وفررت منا وجحدت نعمتنا ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾[٥] أى قبل أن يوحى إلى وينزل على ﴿ ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين ﴾[٦] ثم قال مجيبا لفرعون عما امتن به من التربية ، والإحسان إليه : ﴿ وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل ﴾[٧] أى وهذه النعمة التى ذكرت من أنك أحسنت إلى وأنا رجل واحد من بنى إسرائيل ، تقابل ما استخدمت هذا الشعب بكماله ، واستعبدتهم فى أعمالك وخدمك وأشغالك . ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ، قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله ألا تستمعون . قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾[٨] .

يذكر تعالى ما كان بين فرعون وموسى ، من المقاولة والمحاجة والمناظرة ، وما أقامه الكليم على فرعون اللئيم ، من الحجة العقلية المعنوية ، ثم الحسية ، وذلك أن فرعون قبحه الله ، أظهر جحد

---

(١) طه الآيات : ٢٤ ـ ٣٦ .
(٢) الأحزاب آية : ٦٩ .
(٣) مريم آية : ٥٣ .
(٤) الشعراء الآيات : ١٠ ـ ١٩ .
(٥) الشعراء آية : ٢٠ .
(٦) الشعراء آية : ٢١ .
(٧) الشعراء آية : ٢٢ .
(٨) الشعراء الآيات : ٢٣ ـ ٢٨ .

الصانع ، تبارك وتعالى ، وزعم أنه الإله : ﴿ فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى ﴾[١] ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى ﴾[٢] وهو فى هذه المقالة معاند ، يعلم أنه عبد مربوب ، وأن الله هو الخالق البارئ المصور ، الإله الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلواً ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[٣] ولهذا قال لموسى عليه السلام ، على سبيل الإنكار لرسالته ، والإظهار أنه ما ثم رب أرسله : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ لأنهما قالا له : ﴿ **إنا رسول رب العالمين** ﴾ فكأنه يقول لهما : ومن رب العالمين ، الذى تزعمان أنه أرسلكما وأبعثكما ، فأجابه موسى قائلا : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ يعنى رب العالمين ، خالق هذه السموات والأرض المشاهدة ، وما بينهما من المخلوقات المتجددة من السحاب ، والرياح ، والمطر ، والنبات ، والحيوانات ، التى يعلم كل مؤمن ، أنها لم تحدث بأنفسها ولابد لها من موجد ومحدث وخالق ، وهو الله الذى لا إله إلا هو رب العالمين .

(قال) أى فرعون : (لمن حوله) من امرأته ومرازتيه ووزرائه ، على سبيل التهكم والتنقص لما قرره موسى عليه السلام ﴿ **ألا تستمعون** ﴾ يعنى كلامه هذا ، قال موسى مخاطبا له وهم : ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى هو الذى خلقكم والذين من قبلكم من الآباء ، والأجداد ، والقرون السالفة فى الآباء ، فإن كل واحد يعلم أنه لم يخلق نفسه ، ولا أبواه ولا أمه ، ولم يحدث غير محدث ، وإنما أوجده وخلقه رب العالمين . وهذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾[٤] ومع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته ، ولا نزع عن ضلالته ، بل استمر فى طغيانه وعناده وكفرانه ﴿ قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ أى هو المسخر لهذه الكواكب الزاهرة ، المسير للأفلاك الدائرة ، خالق الظلام والضياء ، ورب الأرض والسماء ، رب الأولين والآخرين ، خالق الشمس والقمر ، والكواكب السائرة ، والثوابت الحائرة ، خالق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، والكل تحت قهره وتسخيره وتسييره سائرون ، وفلك يسبحون ، يتعاقبون فى سائر الأوقات ويدورون ، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء ، فلما قامت الحجج على فرعون ، وإنقطعت شبهه ولم يبق له قول سوى العناد ، عدل إلى استعمال سلطانه وجاهه وسطوته (قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين . قال أو لو جئتك بشيء مبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين)[٥] وهذان هما البرهانان ، اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد ، وذلك مقام أظهر الله فيه الخارق العظيم الذى بهر به العقول والأبصار ، حين ألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، أى عظيم الشكل بديع فى الفخامة والهول ، والمنظر العظيم الفظيع ، الباهر ، حتى قيل إن فرعون لما شاهد ذلك وعاينه ، أخذه رهب شديد ، وخوف عظيم ، بحيث أنه حصل له إسهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى يوم ، وكان قبل ذلك لا يتبرز فى كل أربعين يوما إلا مرة واحدة فانعكس الحال عليه ، وهكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه ، واستخرجها ، أخرجها وهى كفلقة القمر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صنعتها الأولى ، ومع هذا كله لم ينتفع فرعون لعنه الله بشيء من ذلك ، بل استمر على

(١) النازعات آية : ٢٤
(٢) القصص آية : ٣٨
(٣) النمل آية : ١٤
(٤) فصلت آية : ٥٣
(٥) الشعراء الآيات : : ٢٩ - ٣٣

ما هو عليه ، وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة ، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن فى رعيته وتمت قهره ودولته ، كما سيأتى بسطه وبيانه فى موضعه ، من إظهار الله الحق المبين ، والحجة الباهرة القاطعة ، على فرعون وملائه ، وأهل دولته وملته ، ولله الحمد والمنة ، وقال تعالى فى سورة طه : ﴿ فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى ، إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ﴾(١) .

يقول تعالى مخاطبا لموسى فيما كلمه به ، ليلة أوحى إليه ، وأنعم عليه وكلمه منه إليه ، قد كنت مشاهدا لك وأنت فى دار فرعون ، وأنت تحت كنفى وحفظى ولطفى ، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين ، بمشيئتى وقدرى وتدبيرى ، فلبث فيها سنين . ﴿ **ثم جئت على قدر يا موسى** ﴾ أى منى لذلك فوافق ذلك تقديرى وتسييرى . ﴿ **واصطنعتك لنفسى** ﴾ أى اصطنعتك لنفسى برسالتى وبكلامى ﴿ **إذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيافى ذكرى** ﴾ يعنى ولا تفترا فى ذكرى إذ قدمتما عليه ، ووفدتما إليه ، فان ذلك عون لكما على مخاطبته ومجاوبته ، وإهداء النصيحة إليه ، وإقامة الحجة عليه : وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا . . الآية ﴾(٢) ثم قال تعالى : ﴿ اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ﴾(٣) وهذا من حلمه تعالى وكرمه ، ورأفته ورحمته بخلقه ، مع علمه بكفر فرعون وعتوه وتجبره ، وهو إذ ذاك أردى خلقه ، وقد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان ، ومع هذا يقول لهما ويأمرهما ، أن يدعواه إليه بالتى هى أحسن برفق ولين ، ويعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى ، كما قال لرسوله : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ـ الآية ﴾(٥) قال الحسن البصرى (فقولا له قولا لينا) أعذر إليه قولا إن لك رباً ولك معادا ، وأن بين يديك جنة وناراً .

وقال وهب بن منبه : قولا له : إنى إلى العفو والمغفرة أقرب منى إلى الغضب والعقوبة ، قال يزيد الرقاشى عند هذه الآية : يا من يتحبب إلى من يعاديه ، فكيف بمن يتولاه ويناديه . ﴿ **قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى** ﴾ وذلك أن فرعون كان جباراً عنيداً ، وشيطاناً مريداً ، له سلطان فى بلاد مصر طويل عريض ، وجاه وجنود وعساكر وسطوة ، فهاباه من حيث البشرية ، وخافا أن يسطو عليهما فى بادىء الأمر ، فثبتهما تعالى ، وهو العلى الأعلى فقال : ﴿ **لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى** ﴾ قال فى الآية الأخرى : ﴿ إنا معكم مستمعون ﴾(٦) وكما قال : ﴿ فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى . إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾(٧) .

---

(١) طه الآيات : ٤٠ ـ ٤٦
(٢) الأنفال آية : ٤٥
(٣) طه الآيتان : ٤٣ ، ٤٤
(٤) النحل آية : ١٢٥
(٥) العنكبوت آية : ٤٦
(٦) الشعراء آية : ١٥
(٧) طه الآيتان : ٤٧ ، ٤٨

يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون ، فيدعواه إلى الله تعالى أن يعبده وحده ، لا شريك له ، وأن يرسل معهم بنى إسرائيل ، ويطلقهم من أسره وقهره ، ولا يعذبهم ﴿ **قد جئناك بآية من ربك** ﴾ وهو البرهان العظيم فى العصا واليد ﴿ **والسلام على من اتبع الهدى** ﴾ تقيد مفيد بليغ عظيم . ثم تهدداه وتواعداه على التكذيب فقالا : ﴿ **إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى** ﴾ أى كذب بالحق بقلبه ، وتولى من العمل بقالبه .

وقال تعالى مخبرا عن فرعون : ﴿ قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نباتٍ شتى ، كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى ، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾[١] .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون ، إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا : ﴿ **فمن ربكما يا موسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى** ﴾ أى هو الذى خلق الخلق ، وقدر لهم أعمالا وأرزاقا وآجالا ، وكتب ذلك عنده فى كتابه ، اللوح المحفوظ ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له ، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره ، وعلمه لكمال علمه وقدرته ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾[٢] أى قدر قدرا وهدى الخلائق إليه ﴿ **قال فما بال القرون الأولى** ﴾ يقول فرعون لموسى ، فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره ، وهو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه ، فلم عبد الأولون غيره ، وأشركوا به من الكواكب والأنداد ما قد علمت ، فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى ﴿ قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى ﴾ أى هم وإن عبدوا غيره ، فليس ذلك بحجة لك ، ولا يدل على خلاف ما أقول ، لأنهم جهلة مثلك ، كل شىء فعلوه مستطر عليهم فى الزبر ، من صغير وكبير ، وسيجزيهم على ذلك ربى عز وجل ، ولا يظلم أحدا مثقال ذرة ، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده ، فى كتاب لا يضل عنه شىء ، ولا ينس ربى شيئا ، ثم ذكر له عظمة الرب ، وقدرته على خلق الأشياء ، وجعله الأرض مهادا ، والسماء سقفا محفوظا ، وتسخيره السحاب والأمطار ، لرزق العباد ، ودوابهم وأنعامهم ، كما قال : ﴿ **كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى** ﴾ أى لذوى العقول الصحيحة المستقيمة ، والفطر القويمة غير السقيمة ، فهو تعالى الخالق الرازق ، وكما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾[٣] ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبه به على المعاد فقال : (منها) أى من الأرض (خلقناكم) (وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) كما قال تعالى : ﴿ **كما بدأكم تعودون** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٥] ثم قال تعالى : ﴿ ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سُوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحىً ﴾[٦] .

---

(١) طه الآيات : ٤٩ ـ ٥٥
(٢) الأعلى الآيات : ١ ـ ٣
(٣) البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢
(٤) الأعراف آية : ٢٩
(٥) الروم آية : ٢٧
(٦) طه الآيات : ٥٦ ـ ٥٩

يخبر تعالى عن شقاء فرعون وكثرة جهله وقلة عقله فى تكذيبه بايات الله ، واستكباره عن اتباعها . وقوله لموسى إن هذا الذى جئت به سحر ، ونحن نعارضك بمثله ، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ، ومكان معلوم ، وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام ، أن يظهر أيات الله وحججه وبراهينه ، جهرة بحضرة الناس ، ولهذا قال : ﴿ **موعدكم يوم الزينة** ﴾ وكان يوم عيد من أعيادهم ، ومجتمع لهم ﴿ **وأن يحشر الناس ضحى** ﴾ أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس ، فيكون الحق أظهر وأجلى ، ولم يطلب أن يكون ذلك ليلاً فى ظلام ، كما يروج عليهم محالا وباطلا ، بل طلب أن يكون نهاراً جهرة لأنه على بصيرة من ربه ، ويقين أن الله سيظهر كلمته ودينه ، وإن رغمت أنوف القبط . قال الله تعالى : ﴿ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفاً وقد أفلح اليوم من استعلى ﴾(١) .

يخبر تعالى عن فرعون ، أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة ، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة ، فضلاء فى فنهم غاية ، فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان ، فاجتمع منهم خلق كثير ، وجم غفير ، وحضر فرعون وأمراؤه ، وأهل دولته ، وأهل بلده عن بكرة أبيهم ، وذلك أن فرعون نادى فيهم ، أن يحضروا هذا الموقف العظيم ، فخرجوا وهم يقولون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين ، وتقدم موسى عليه السلام فوعظهم وزجرهم عن تعاطى السحر الباطل ، الذى فيه معارضة لآيات الله وحججه ، فقال : ﴿ **ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم** ﴾ قيل معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم ، فقائل يقول : هذا كلام نبى وليس بساحر ، وقائل منهم يقول : بل هو ساحر ، فالله أعلم . وأسروا التناجى بهذا وغيره « قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما » يقولون : أن هذا وأخاه هارون ، ساحران عظيمان مطبقان متقنان لهذه الصنعة ، ومرادهم أن يجتمع ما عندهم من المكيدة والمكر والخديعة والسحر والبهتان ، وهيهات كذبت والله الظنون ، وأخطأت الآراء ، أنى يعارض البهتان والسحر والهذيان ، خوارق العادات ، التى أجراها الديان ، على يدى عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيد بالبرهان ، الذى يبهر الأبصار ، وتحار فيه العقول والأذهان . وقولهم ﴿ فأجمعوا كيدكم ﴾ أى جميع ما عندكم ﴿ ثم ائتوا صفا ﴾ أى جملة واحدة ، ثم حضوا بعضهم بعضا على التقدم فى هذا المقام ، لأن فرعون كان قد وعدهم ومناهم ، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا . ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون أول من ألقى ، قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾(٢) .

لما اصطف السحرة ، ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم ، قالوا له : إما أن تلقى وإما أن نلقى قبلك (قال بل ألقوا) أنتم وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصى ، فأودعوها الزئبق وغيره من

(١) طه الآيات : ٦٠ - ٦٤

(٢) طه الآيات ٦٥ - ٦٩

الآلات التى تضطرب بسببها تلك الحبال والعصى اضطرابا ، يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها ، وإنما تتحرك بسبب ذلك ، فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم ، وألقوا حبالهم وعصيهم ، وهم يقولون بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . قال الله تعالى : ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ **قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى** ﴾ أى خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم ومحا لهم ، قبل أن يلقى ما فى يده ، فإنه لا يضع شيئا قبل أن يؤمر ، فأوحى الله إليه فى الساعة الراهنة ﴿ **لا تخف إنك أنت الأعلى ، وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ فعند ذلك ألقى موسى عصاه ، وقال ما جئتم به من السحر ، إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون .

وقال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾[٢] .

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم ، (فيما ذكره غير واحد من علماء السلف) وعنق عظيم ، وشكل هائل مزعج ، بحيث أن الناس انحازوا منها ، وهربوا سراعاً ، وتأخروا عن مكانها ، وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى ، فجعلت تلقفه واحداً واحداً فى أسرع ما يكون من الحركة ، والناس ينظرون إليها ، ويتعجبون منها ، وأما السحرة فإنهم رأوا ماهالهم ، وحيرهم فى أمرهم ، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ، ولا يدخل تحت صناعتهم واحتفالهم ، فعند ذلك تحققوا بما عندهم من العلم ، إن هذا ليس بسحر ولا بشعوذة ولا خيال ، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال ، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق الذى ابتعث هذا المؤيد به بالحق ، وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى ، وأزاح عنها القسوة ، وأنابوا إلى ربهم ، وخروا له ساجدين ، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى ﴿ **آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون** ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ فألقى السحرة سجداً ، قالوا آمنا برب هارون وموسى ، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيا . ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾[٣] .

قال سعيد بن جبير وعكرمة والقاسم بن أبى بردة والأوزاعى وغيرهم :

لما سجد السحرة ، رأوا منازلهم ، وقصورهم فى الجنة ، تهيأ لهم وتزخرف لقدومهم ، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده ، وذلك لأن فرعون لما رأى السحرة ، قد أسلموا وأشهروا ذكروا موسى وهارون فى الناس على هذه الصفة الجميلة ، أفزعه ذلك ، ورأى أمراً بهره ، وأعمى

(١) الأعراف آية : ١١٦ (٢) الأعراف الآيات : ١١٧ - ١٣٢ (٣) طه الآيات : ٧٠ - ٧٦

بصيرته وبصره ، وكان فيه كيد ومكر وخداع وصنعة بليغة فى الصد عن سبيل الله ، فقال مخاطبا بحضرة الناس : ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ أى هلا شاورتمونى فيما صنعتم من الأمر الفظيع بحضرة رعيتى ، ثم تهدد وتوعد وأبرق وأرعد وكذب فأبعد قائلا : ﴿ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ﴾ وقال فى الآية الأخرى : ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾(١) . وهذا الذى قاله من البهتان ، يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والهذيان ، بل لا يروج مثله على الصبيان ، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم ، يعلمون أن موسى لم ير هؤلاء يوما من الدهر ، فكيف يكون كبيرهم الذى علمهم السحر ، ثم هو لم يجمعهم ولا علم اجتماعهم ، حتى كان فرعون هو الذى استدعاهم واجتباهم من كل فج عميق ، وواد سحيق ، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف ، ومن المدن والأرياف ، قال الله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين . وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ، قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ، ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ، قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين ، يأتوك بكل ساحر عليم ، وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين قال نعم وإنكم لمن المقربين قالوا يا موسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين . قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين ، وألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ، قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين ﴾(٢) .

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين . قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ، قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء فى الأرض وما نحن لكما بمؤمنين . وقال فرعون ائتونى بكل ساحر عليم ، فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾(٣) .

وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشىء مبين ، قال فأت به إن كنت من الصادقين ، فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين ، قال للملأ حوله إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحّار عليم ، فجمع السحرة

---

(١) الأعراف آية : ١٢٣ (٢) الأعراف الآيات : ١٠٣ - ١٢٦ (٣) يونس الآيات : ٧٥ - ٨٢

لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون ، لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ، قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين ، قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون . إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ﴾[1] .

والمقصود أن فرعون كذب وافترى ، وكفر غاية الكفر فى قوله : إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، وأتى ببهتان يعلمه العالمون ، بل العالمون فى قوله : ﴿ **إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون** ﴾ وقوله : ﴿ **لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف** ﴾ يعنى قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو عكسه ﴿ **ولأصلبنكم أجمعين** ﴾ أى ليجعلهم مثله ونكالا ، لئلا ليقتدى بهم أحد من رعيته ، وأهل ملته ، ولهذا قال : ﴿ **ولأصلبنكم فى جذوع النخل** ﴾ أى على جذوع النخل لأنها أعلى وأشهر ﴿ **ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى** ﴾ يعنى فى الدنيا ، ﴿ **قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات** ﴾ أى لن نطيعك ونترك ما وقر فى قلوبنا من البينات والدلائل القاطعات ﴿ **والذى فطرنا** ﴾ قيل معطوف وقيل قسم ، ﴿ **فاقض ما أنت قاض** ﴾ أى افعل ما قدرت عليه ﴿ **إنما تقضى هذه الحياة الدنيا** ﴾ أى إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة ، صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له واتبعنا رسله ﴿ **إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** ﴾ أى وثوابه خير بما وعدتنا به من التقريب والترغيب ﴿ **وأبقى** ﴾ أى وأدوم من هذه الدار الفانية ، وفى الآية الأخرى ﴿ **قالوا لا ضير إنا إلى ربنا منقلبون إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا** ﴾ أى ما اجترمناه من المآثم والمحارم إن كنا أول المؤمنين . أى من القبط بموسى وهارون عليهما السلام .

وقالوا أيضا : ﴿ **وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا** ﴾ أى ليس لنا عندك ذنب ، إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا واتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا ﴿ **ربنا افرغ علينا صبراً** ﴾ أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد ، والسلطان الشديد ، بل الشيطان المريد ﴿ **وتوفنا مسلمين** ﴾ وقالوا أيضا يعظونه ويخوفونه بأس ربه العظيم : ﴿ **إنه من يأت ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحى** ﴾ يقولون له : فإياك أن تكون منهم فكان منهم ﴿ **ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى** ﴾ أى المنازل العالية ﴿ **جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى** ﴾ فاحرص أن تكون منهم فحالت بينه وبين ذلك الأقدار التى لا تغالب ولا تمانع ، وحكم العلى العظيم بأن فرعون لعنه الله من أهل الجحيم ، ليباشر العذاب الأليم ، يصب من فوق رأسه الحميم ، ويقال له على وجه التقريع والتوبيخ ، وهو المقبوح المنبوح ، والذميم اللئيم ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾[2] . والظاهر من هذه السياقات ، أن فرعون لعنه الله صلبهم وعذبهم ، رضى الله

(١) الشعراء الآيات : ٢٩ ـ ٥١ (٢) الدخان آية : ٤٩

عنهم ، قال عبد الله بن عباس وعبيد بن عمير : كانوا من أول النهار سحرة ، فصاروا من آخره شهداء بررة ، ويؤيد هذا قولهم ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾ .

ولما وقع من الأمر العظيم ، وهو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل ، وأسلم السحرة الذين استنصروا ربهم ، لم يزدهم ذلك إلا كفراً وعناداً ، وبعداً عن الحق . قال الله تعالى بعد قصص ما تقدم فى سورة الأعراف : ﴿ وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ، قال سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ، قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾[1] .

يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء ، أنهم حرضوا ملكهم فرعون ، على أذية نبى الله موسى عليه السلام ، ومقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر والرد والأذى قالوا: ﴿ **أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك** ﴾ يعنون قبحهم الله أن دعوته إلى عبادة الله وحده ، لا شريك له ، والنهى عن عبادة ما سواه فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط . ﴿ **قال سنقتل أبناءهم ونستحى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون** ﴾ أى غالبون ﴿ **وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ أى إذا هموا هم بأذيتكم ، والفتك بكم ، فاستعينوا أنتم بربكم ، واصبروا على بليتكم ﴿ **إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين** ﴾ أى فكونوا أنتم المتقين ، لتكون لكم العاقبة ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **وقال موسى ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين** ﴾[2] .

وقولهم : ﴿ **قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا** ﴾ أى قد كانت الأبناء ، تقتل قبل مجيئك ، وبعد مجيئك إلينا ﴿ **قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون** ﴾ وقال الله تعالى فى سورة حم المؤمن : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾[3] وكان فرعون الملك وهامان الوزير من فراعنة مصر ، وكان قارون إسرائيلياً من قوم موسى ، إلا أنه كان على دين فرعون وملائه ، وكان ذا مال جزيل جداً ، كما ستأتى قصته فيما بعد إن شاء الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ﴾[4] وهذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى ، إنما كان على وجه الإهانة والإذلال والتقليل لملأ بنى إسرائيل ، لئلا يكون لهم شوكة ، يمتنعون بها ، ويصولون على القبط فهم يحذرون ، فلم ينفعهم ذلك ، ولم يرد عنهم قدر الذى يقول للشىء كن فيكون . ﴿ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾[5] ولهذا يقول الناس على سبيل التهكم « صار فرعون مذكرا » وهذا منه ، فإن فرعون فى زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام . ﴿ وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾[6] إنى عذت بالله ، ولجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون وغيره علىّ

(١) الأعراف الآيات : ١٢٧ ـ ١٢٩
(٢) يونس الآيات : ٨٤ ـ ٨٦
(٣) غافر الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٤) غافر آية : ٢٥
(٥) غافر آية : ٢٦
(٦) غافر آية : ٢٧

بسوء . وقوله : ﴿ من كل متكبر ﴾ أى جبار عنيد لا يرعوى ، ولا ينتهى ، ولا يخاف عذاب الله وعقابه ، لأنه لا يعتقد معادا ولا جزاء ، ولهذا قال : ﴿ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب ، يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ، قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾(١) وهذا الرجل هو ابن عم فرعون ، وكان يكتم إيمانه من قومه ، خوفا منهم على نفسه ، فلما همَّ فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام ، وعزم على ذلك ، وشاور ملأه فيه ، خاف هذا المؤمن على موسى ، فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب ، فقال على وجه المشورة والرأى ، وقد ثبت فى الحديث عن رسول الله ﷺ :

« إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »(٢) ، وهذا من أعلى مراتب هذا المقام ، فإن فرعون لأشد جورا منه ، وهذا الكلام لا أعدل منه ، لأن فيه عصمة نبى ، قال : (أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله) أى من أجل أنه قال ربى الله ، فمثل هذا لا يقابل بهذا ، بل بالإكرام والاحترام ، والموادعة وترك الانتقام ، يعنى لأنه ﴿ قد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أى بالخوارق ، التى دلت على صدقه فيما جاء به عمن أرسله ، فهذا إن وادعتموه كنتم فى سلامة ، لأنه (إن يك كاذباً فعليه كذبه) ولا يضركم ذلك (وإن يك صادقاً) وقد تعرضتم له (يصبيكم بعض الذى يعدكم) أى وأنتم تشفقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به ، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم .

وهذا الكلام فى هذا المقام أعلى مقامات التلطف والاحتراز والعقل التام .

وقوله : (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض) يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز فإنه ما تعرض الدول للدين إلا سلبوا ملكهم وذلوا بعد عزهم وكذا وقع لآل فرعون ، ما زالوا فى شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم موسى به ، حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور والنعمة والحبور ، ثم حولوا إلى البحر مهانين ، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل السافلين ، ولهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق ، الناصح لقوم الكامل العقل (يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا) أى لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد والعدة والقوة والشدة ، لما نفعنا ذلك ولا رد عنا بأس مالك الملك (قال فرعون) أى فى جواب هذا كله : (ما أريكم إلا ما أرى) أى ما أقول لكم إلا ما عندى ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ .

وكذب فى كل من هذين القولين ، وهاتين الحقدتين ، فإنه كان يتحقق فى باطنه وفى نفسه أن هذا الذى جاء به موسى من عند الله لا محالة ، وإنما كان يظهر خلافه بغياً وعدواناً ، وعتواً وكفراناً ، قال الله تعالى إخباراً عن موسى : ﴿ قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر

---

(١) غافر الآيات : ٢٧ - ٢٩
(٢) أخرجه ابن ماجه جـ٢ ص١٣٢٩ برقم ٤٠١١

وإنى لأظنك يا فرعون مثبوراً فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا ﴾[(١)] وقال تعالى : ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ، وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾[(٢)] .

وأما قوله : ﴿ **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ . فقد كذب أيضا ، فإنه لم يكن على رشاد من الأمر ، بل كان على سفه وضلال ، وخبل وخيال ، فكان أولاً ممن يعبد الأصنام والأمثال ، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه وطاوعوه وصدقوه ، فيما زعم من الكفر المحال فى دعواه أنه رب ، تعالى الله ذو الجلال . قال الله تعالى : ﴿ ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾[(٣)] .

وقال تعالى : ﴿ فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[(٤)] وقال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملائه . فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد ، يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود . واتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾[(٥)] .

والمقصود بيان كذبه فى قوله : ﴿ **ما أريكم إلا ما أرى** ﴾ وفى قوله : ﴿ **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** ﴾ ، ﴿ **وقال الذى آمن يا قوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ، ويا قوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم ومن يضلل الله فما له من هاد ، ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ .

يحذرهم ولى الله إن كذبوا برسول الله موسى ، أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات والمثلات ، مما تواتر عندهم وعند غيرهم ما حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم إلى زمانهم ذلك ، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة فى صدق ما جاءت به الأنبياء ، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء ، وما أنجى الله من اتبعهم من الأولياء وخوفهم يوم القيامة ، وهو يوم التناد أى حين ينادى الناس بعضهم بعضاً ، حين يولون إن قدروا على ذلك ولا إلى ذلك سبيل ﴿ يقول الإنسان يومئذ أين المفر كلا لا وزر إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[(٦)] وقال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾[(٧)] .

---

(١) الاسراء الآيتان : ١٠٢ ـ ١٠٣
(٢) النمل الآيتان : ١٣ ـ ١٤
(٣) الزخرف الآيتان : ٥١ ـ ٥٦
(٤) النازعات الآيات : ٢٠ ـ ٢٦
(٥) هود الآيات : ٩٦ ـ ٩٩
(٦) القيامة الآيات : ١٠ ـ ١٢
(٧) الرحمن الآيات : ٣٣ ـ ٣٦

ثم أخبرهم عن نبوة يوسف فى بلاد مصر ، وما كان منه من الإحسان إلى الخلق فى دنياهم وأخراهم ، وهذا من سلالته وذريته ، ويدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته ، وأن لا يشركوا به أحداً من بريته ، وأخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمان ، أى من سجيتهم التكذيب بالحق ومخالفة الرسل ، ولهذا قال : ﴿ **فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعد رسولاً** ﴾ أى وكذبتم فى هذا ، ولهذا قال : ﴿ **كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم** ﴾ أى يردون حجج الله وبراهينه ودلائل توحيده بلا حجة ولا دليل عندهم من الله ، فإن هذا أمر يمقته الله غاية المقت ، أى يبغض من تلبس به من الناس ، ومن اتصف به من الخلق ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾ أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق ، ولا تخالفه بلا برهان ، فإن الله يطبع عليها أى يختم عليها .

﴿ وقال فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات **فأطلع إلى إله موسى** وإنى لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه ، أن الله أرسله ، وزعم فرعون لقومه ما كذبه وافتراه فى قوله لهم : ﴿ **ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحاً لعلى أطلع إلى إله موسى** وإنى لأظنه من الكاذبين ﴾[1] وقال ههنا ﴿ **لعلى أبلغ الأسباب. أسباب السموات** ﴾ أى طرقها ومسالكها ﴿ **فأطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه كاذبا** ﴾ ويحتمل هذا معنيين ، أحدهما وإنى لأظنه كاذبا فى قوله : إن للعالم رباً غيرى ، والثانى فى دعواه ان الله أرسله .

وإنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام ، وأن يحثهم على تكذيبه ، قال الله تعالى : ﴿ **وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا فى تباب** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد يقول : إلا فى خسار ، أى باطل ، لا يحصل له شىء من مقصوده ، الذى رامه ، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبداً ، أعنى السماء الدنيا ، فكيف بما بعدها من السموت العلى وما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا الله عز وجل

قال الله تعالى : ﴿ **وقال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هى دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب** ﴾ يدعوهم - رضى الله عنه - إلى طريق الرشاد والحق ، وهى متابعة نبى الله موسى ، وتصديقه فيما جاء به من ربه ، ثم زهدهم فى الدنيا الدنيه الفانية ، المنقضية لا محالة ، ورغبتهم فى طلب الثواب عند الله الذى لا يضيع عمل عامل لديه ، القدير الذى ملكوت كل شىء بيديه ، الذى يعطى على القليل كثيرا ، ومن عدله لا يجازى على السيئة إلا مثلها ، وأخبرهم أن الآخرة هى دار القرار ، التى من وافاها مؤمنا قد عمل الصالحات ، فلهم الجنات العاليات ، والغرف الآمنات ، والخيرات الكثيرة الفائقات ، والأرزاق الدائمة التى لا تبيد ، والخير الذى كل مالهم منه فى مزيد .

---

(١) القصص آية : ٣٨

ثم شرع فى إبطال ماهم عليه ، وتخويفهم مما يصيرون إليه ، فقال : ﴿ **ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أن ما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وإن مردنا إلى الله وإن المسرفين هم أصحاب النار ، فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ، فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ، النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾ . وقد تكلمنا على دلالة هذه الآيات فى التفسير ولله الحمد .

والمقصود أن الله تعالى لم يهلكهم إلا بعد إقامة الحجج عليهم ، وإرسال الرسول إليهم ، وإزاحة الشبه عنهم ، وأخذ الحجة عليهم منهم ، فبالترهيب تارة والترغيب أخرى ، كما قال تعالى : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ﴾[1] .

يخبر تعالى أنه ابتلى آل فرعون ، وهم قومه من القبط **بالسنين** ، وهى أعوام الجدب ، التى لا يستغل فيها زرع ، ولا ينتفع بضرع ، وقوله : ﴿ **ونقص من الثمرات** ﴾ وهى قلة الثمار من الأشجار ﴿ **لعلهم يذكرون** ﴾ أى فلم ينتفعوا ولم يرعوا بل تمردوا واستمروا على كفرهم وعنادهم . ﴿ **فإذا جاءتهم الحسنة** ﴾ والخصب ونحوه ﴿ **قالوا لنا هذه** ﴾أى هذا الذى نستحقه ، وهذا الذى يليق بنا ﴿ **وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه** ﴾ أى يقولون هذا بشؤمهم أصابنا هذا ولا يقولون فى الأول أنه بركتهم ، وحسن مجاورتهم ، ولكن قلوبهم مستنكرة نافرة عن الحق ، إذا جاء الشر أسندوه إليه ، وإن رأوا خيرا ادعوه لأنفسهم ، قال الله تعالى : ﴿ **ألا إنما طائرهم عند الله** ﴾ أى الله يجزيهم على هذا أوفر الجزاء ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون ، وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين** ﴾ أى مهما جئتنا من الآيات ، وهى الخوارق للعادات ، فلسنا نؤمن بك ، ولا نتبعك ، ولا نطيعك ، ولو جئتنا بكل آية ، وهكذا أخبر الله عنهم فى قوله : ﴿ **إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾[2] قال الله تعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات ، فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين** ﴾ أما الطوفان فعن ابن عباس هو كثرة الأمطار المتلفة للزرع والثمار ، وأما الجراد فمعروف ، وقد روى أبو داود عن سلمان الفارسى قال سئل رسول الله ﷺ عن الجراد فقال : ﴿ أكثر جنود الله لا آكله ولا أحرمه ﴾[3] . والمقصود أنه استاق خضراءهم فلم يترك لهم زرعا ولاثمارا ، ولا سبدا ولا لبدا ، وأما القمل ، فعن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وعنه أن الجراد الصغار ، الذى لا أجنحة له ، وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة . وقال سعيد ابن جبير : هو دواب سود صغار ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هى البراغيث . . فدخل معهم البيوت والفرش ، فلم يقر لهم قرار ، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش ، وأما الضفادع ، فمعروفه ،

---

(١) الأعراف الآيات : ١٣٠ - ١٣٣

(٢) يونس الآيتان : ٩٦ - ٩٧

(٣) أخرجه أبو داود جـ ٤ ص ١٦٥ برقم ٣٨١٣

لبستهم حتى كانت تسقط فى طعامهم وأوانيهم ، وأما الدم ، فكان قد خرج ماؤهم كله به ، فلا يستقون من النيل إلا وجدوه دما عبيطا ولا من نهر ، ولا بئر ولا شيء إلا كان دماً فى الساعة الراهنة ، هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شيء بالكلية ، وهذا من تمام المعجزة الباهرة والحجة القاطعة ، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام ، فينالهم عن أخرهم ، ولا يحصل هذا لاحد من بنى إسرائيل ، وفى هذا دليل . قال محمد بن إسحق : فرجع عدو الله فرعون حين آمنت السحرة مغلوباً مغلولا ، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشر ، فتابع الله عليه بالآيات ، فأخذه بالسنين ، فأرسل عليه الطوفان ، ثم الجراد ، ثم القمل ، ثم الضفادع ، ثم الدم آيات مفصلات ، فأرسل الطوفان ، وهو الماء ففاض على وجه الأرض ثم ركد ، لا يقدرون على أن يخرجوا ، ولا أن يعملوا شيئا ، حتى جهدوا ، فلما بلغهم ذلك ﴿ قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل ﴾[1] فدعا موسى ربه فكشف عنهم ، فلما لم يفوا بشيء ، فأرسل الله عليهم الجراد ، فأكل الشجر فيما بلغنى حتى أن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد ، حتى تقع دورهم ومساكنهم فقالوا مثل ما قالوا ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم القمل ، فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب ، حتى يضربه بعصاه ، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم ، فضربه بها فانثال عليهم قملا ، حتى غلب على البيوت والأطعمة ، ومنعهم النوم والقرار ، فلما جهدهم ، قالوا له مثل ما قالوا له ، فدعا ربه ، فكشف عنهم ، فلما لم يفوا له بشيء مما قالوا ، أرسل الله عليهم الضفادع ، فملأت البيوت والآنية ، فلم يكشف أحد ثوبا ولا طعاما إلا وجد فيه الضفادع قد غلب عليه ، فلما جهدهم ذلك ، قالوا له مثل ما قالوا ، فدعا ربه ، فكشف عنهم فلم يفوا بشيء مما قالوا ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دما ، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً عبيطا ، قال الله تعالى : ﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولترسلن معك بنى إسرائيل * فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون * فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾[2] .

يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم ، واستمرارهم على الضلال والجهل والاستكبار ، عن اتباع آيات الله وتصديق رسوله ، مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة والحجج البليغة القاهرة ، التى أراهم الله إياها عيانا ، وجعلها عليهم دليلا وبرهانا ، وكلما شاهدوا آية وعاينوها وجهدهم وأضنكهم حلفوا وعاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به ، وليرسلن معه مَن هو من حزبه ، فكلما رفعت عنهم تلك الآية ، تمادوا إلى شر مما كانوا عليه ، وأعرضوا عما جاءهم به من الحق ، ولم يلتفتوا إليه ، فيرسل الله عليهم آية أخرى هى أشد مما كانت قبلها ، وأقوى ، فيقولون فيكذبون ، ويعدون ولا يفون ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمننَّ لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل** ﴾ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل ، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل ، هذا والعظيم الحليم القدير ينظرهم ولا يعجل عليهم ، ويؤخرهم ويتقدم بالوعيد إليهم ، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم ، والإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر ، فجعلهم عبرة ونكالاً وسلفا لمن أشبههم من الكافرين ، ومثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين ، كما قال تبارك وتعالى وهو

(١) الأعراف آية : ١٣٤
(٢) الأعراف الآيتان : ١٣٤ - ١٣٥

أصدق القائلين فى سورة حمٓ والكتاب المبين (الزخرف) : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين * فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون * وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر أدع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون * فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون * ونادى فرعون فى قومه قال ياقوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون * أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين * فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين * فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين * فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾[1] .

يذكر تعالى : رسالة عبده الكليم الكريم إلى فرعون الخسيس اللئيم ، وأنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات ، تستحق أن تقابل بالتعظيم والتصديق ، وأن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر ، ويرجعوا إلى الحق والصراط المستقيم ، فإذا هم يضحكون ، وبها يستهزئون ، وعن سبيل الله يعرضون ، وعن الحق يصدون ، فأرسل الله عليهم الآيات تترى ، يتبع بعضها بعضا ، وكل آية أكبر من أختها ﴿ **وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون * وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون** ﴾ لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصا ولا عيبا ، لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم السحرة ، ولهذا خاطبوه به فى حال احتياجهم إليه ، وضراعتهم لديه ، قال الله تعالى : ﴿ **فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون** ﴾ ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه ، وعظمة بلده وحسنها وتخرق الأنهار فيها ، وهى الخلجانات التى يكسرونها أمام زيادة النيل ، ثم تبجح بنفسه وحليته ، وأخذ ينتقص رسول الله موسى عليه السلام ويزدريه بكونه (**لا يكاد يبين**) يعنى كلامه بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة التى هى شرف له وكمال وجمال ، ولم تكن مانعة له أن كلمه الله تعالى وأوحى إليه وأنزل بعد ذلك التوراة عليه ، وتنقصه فرعون لعنه الله بكونه لا أساور فى بدنه ، ولا زينة عليه ، وإنما ذلك من حلية النساء ، لا يليق بشهامة الرجال ، فكيف بالرسل ، الذين هم أكمل عقلا ، وأتم معرفة ، وأعلى همة ، وأزهد فى الدنيا ، وأعلم بما أعد الله لأوليائه فى الأخرى . وقوله : ﴿ **أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة ، فالملائكة يعظمونه ويتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير ، كما جاء فى الحديث « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع »[2] فكيف يكون تواضعهم وتعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة والسلام والتسليم والتكريم ، وإن كان المراد شهادتهم له بالرسالة ، فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوى الألباب ، ولمن قصد إلى الحق والصواب ، ويعمى عما جاء به من البينات ، والحجج الواضحات من نظر إلى القشور وترك لب اللباب ، وطبع على قلبه رب الأرباب ، وختم عليه بما فيه من الشك والارتياب ، كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب قال الله تعالى : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه** ﴾ أى : استخف عقولهم ، ودرجهم من حال إلى حال ، إلى أن صدقوه فى دعواه الربوبية لعنه الله وقبحهم ﴿ **إنهم كانوا قوما فاسقين** ﴾ . ﴿ **فلما آسفونا** ﴾ أى : أغضبونا (**انتقمنا منهم**) أى : بالغرق والإهانه ، وسلب العز والتبدل بالذل وبالعذاب بعد النعمة ، والهوان بعد الرفاهية ، والنار بعد طيب

---

(١) الزخرف الآيات : ٤٦ - ٥٦

(٢) اخرجه الإمام أحمد جـ ٤ ص ٢٣٩

العيش ، عياذا بالله العظيم ، وسلطانه القديم عن ذلك - (فَجَعَلْنَاهُمْ سلفا) أى : لمن اتبعهم فى الصفات (ومثلا) أى لمن اتعظ بهم وخاف من وبيل مصرعهم ، ممن بلغه حلية خيرهم ، وما كان من أمرهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين * وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون * وقال فرعون يأيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى يا هامان على الطين فجعل لى صرحا لعلى أطلع إلى إله موسى وإنى لأظنه من الكاذبين * واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا انهم إلينا لا يرجعون * فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون * وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾[١] يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق ، وادعى ملكهم الباطل ، ووافقوه عليه وأطاعوه فيه ، اشتد غضب الرب القدير العزيز ، الذى لا يغالب ولا يمانع عليهم ، فانتقم منهم أشد الانتقام ، وأغرقه هو وجنوده فى صبيحة واحدة ، فلم يفلت منهم أحد ، ولم يبق منهم ديار ، بل كل قد غرق فدخل النار ، وأتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين ، ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ، يوم القيامة هم من المقبوحين .

هلاك فرعون وجنوده

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم ، متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبى الله ورسوله موسى بن عمران عليه السلام ، وأقام الله على أهل مصر الحجج الباهرة العظيمة القاهرة ، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار ، وحير العقول ، وهم مع ذلك لا يرعون ولا ينتهون ولا ينزعون ولا يرجعون ، ولم يؤمن منهم إلا القليل ، قيل : ثلاثة ، وهم امرأة فرعون - ولا علم لأهل الكتاب بخبرها ، ومؤمن آل فرعون ، الذى تقدم حكاية موعظته ومشورته وحجته عليهم ، والرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة ، فقال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين قال ابن عباس ، فيما رواه ابن ابى حاتم عنه[٢] ، ومراده غير السحرة فإنهم كانوا من القبط . وقيل بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون ، والسحرة كلهم ، وجميع شعب بنى إسرائيل . ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملائهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين ﴾[٣] فالضمير فى قوله (إلا ذرية من قومه) عائد على فرعون ، لأن السياق يدل عليه . وقيل على موسى ، لقربه ، والأول أظهر ، كما هو مقرر فى التفسير ، وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته ، وجبروته وسلطته ، ومن ملائهم أن ينموا عليهم إليه ، فيفتنهم عن دينهم ، قال الله تعالى مخبراً عن فرعون وكفى بالله شهيدا : (وإن فرعون لعال فى الأرض) أى جبار عنيد مستعل بغير الحق (وإنه لمن المسرفين) أى فى جميع أموره وشئونه وأحواله ، ولكنه جرثومة قد حان انجعامها ، وثمرة خبيثة قد آن قطافها ، ومهجة ملعونة قد حتم إتلافها ، وعند ذلك قال موسى : ﴿ ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾[٤]

(١) القصص الآيات : ٣٦ - ٤٢
(٢) تفسير ابن كثير جـ٢ ص٤٥٨ ط النهضة الحديثة .
(٣) يونس آية : ٨٣
(٤) يونس الآيات : ٨٤ - ٨٦

يأمرهم بالتوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه ، فأتمروا بذلك ، فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجا ومخرجاً ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾[١] أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام ، أن يتخذوا لقومهما بمصر بيوتا ، متميزه فيما بينهم عن بيوت القبط ، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به ، ليعرف بعضهم بيوت بعض ، وقوله : (واجعلوا بيوتكم قبله) قيل مساجد ، وقيل : معناه كثرة الصلاة ، ومعناه على هذا الاستعانه على ما هم فيه من الضر والشدة والضيق بكثرة الصلاة كما قال تعالى : (واستعينوا بالصبر والصلاة)[٢] وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى[٣] .

وقيل : معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم ومعابدهم فامروا أن يصلُّوا فى بيوتهم عوضاً عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق فى ذلك الزمان الذى اقتضى حالهم إخفاءه خوفاً من فرعون وملائه . والمعنى الأول أقوى لقوله : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وإن كان لا ينافى الثانى والله أعلم .

﴿ وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروُا العذاب الأليم ● قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾[٤] قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب : استأذن بنو اسرائيل فرعون في الخروج إلى عيد لهم فأذن لهم وهو كاره ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له وإنما كان فى نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم ، وأمرهم الله تعالى فيما ذكره أهل الكتاب أن يستعيروا حلياً منهم فأعاروهم شيئاً كثيراً فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام ، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق واشتد غضبه عليهم وشرع فى استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم . قال الله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون * فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين * إن هؤلاء لشرذمة قليلون * وإنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بنى إسرائيل * فأتبعوهم مشرقين * فلما تراءَ الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معى ربى سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٥] .

قال علماء التفسير : لما ركب فرعون فى جنوده طالباً بنى اسرائيل أن يقفوا أثرهم كان فى جيش كثيف عرمرم حتى قيل : كان فى خيوله مائة ألف فحل أدهم وكانت عدة جنوده تزيد على ألف ألف وستمائة ألف والله أعلم . وقيل : إن بنى اسرائيل كانوا نحوا من ستمائة ألف مقاتل غير الذرية وكان بين خروجهم من مصر صحبة موسى ـ عليه السلام ـ ودخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة وستاً وعشرين سنة شمسية .

---

(١) يونس آية : ٨٧

(٢) البقرة آية : ٤٥ والآية رقم : ١٥٣

(٣) تفسير ابن كثير جـ١ ص٨٩ ط النهضة الحديثة .

(٤) سورة يونس الآيتان : ٨٨ ، ٨٩ .

(٥) سورة الشعراء الآيات : ٥٢ : ٦٨ .

والمقصود أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس وتراء الجمعان ولم يبق ثم ريب ولا لبس وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون : إنا لمدركون ، وذلك لأنهم اضطروا فى طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه . وهذا مالا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهى شاهقة منيفة وفرعون قد غالقهم وواجههم وعاينوه فى جنوده وجيوشه وعَدده وعُدده وهم منه فى غاية الخوف والذعر لما قاسوا فى سلطانه من الإهانة والمنكر فشكوا إلى نبى الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه فقال لهم الرسول الصادق المصدوق : (كلا إن معى ربى سيهدين) وكان فى الساقة فتقدم إلى المقدمة ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه ، ويتزايد زبد أجاجه وهو يقول : ههنا أمرت ومعه أخوه هارون ويوشع بن نون وهو يومئذ من سادات بنى إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار وقد أوحى الله إليه وجعله نبياً بعد موسى وهارون - عليهما السلام - كما سنذكره فيما بعد - إن شاء الله - ومعهم أيضا رجل آل فرعون وهم وقوف وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف . ويقال : إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارا فى البحر هل يمكن سلوكه فلا يمكن ويقول لموسى - عليه السلام - يانبى الله أههنا أمرت . فيقول : نعم . فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر واقترب فرعون وجنوده فى جدهم وحدهم وحديدهم وغضبهم وحنقهم وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم : (أن اضرب بعصاك) فلما ضربه يقال : إنه قال له : انفلق بإذن الله ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾[1] ويقال : إنه انفلق اثنتى عشرة طريقاً لكل سبط طريق يسيرون فيه ، وهكذا كان ماء البحر قائما مثل الجبال مكنوفاً بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشىء كن فيكون ، وأمر الله الريح فلفحت حال البحر فأذهبته حتى صار يابساً لا يعلق فى سنابك الخيول والدواب قال الله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى * فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾[2] .

والمقصود أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال أمر موسى - عليه السلام - أن يجوزه ببنى إسرائيل فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين ويهدى قلوب المؤمنين ، فلما جاوزه وخرج آخرهم منه وانفصلوا عنه كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه ووفودهم عليه فأراد موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه . ولا سبيل عليه فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال كما قال وهو الصادق فى المقال : ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم * أن أدوا إلىَّ عباد الله إنى لكم رسول أمين ، وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين . وإنى عُذت بربى وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون . فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون . فأسر بعبادى ليلا إنكم متبعون * واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون * كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٦٣ .

(٢) سورة طه الآيات : ٧٧ - ٧٩

منظرين * ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين * ولقد اخترناهم على علم على العالمين * وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴾[١] . فقوله تعالى : ﴿ **واترك البحر رهواً** ﴾ أى ساكناً على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة . فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون فرأى ما رأى وعاين ما عاين هاله هذا المنظر العظيم وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك من أن هذا من فعل رب العرش الكريم فأحجم ولم يتقدم وندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم لكنه أظهر لجنوده تجلداً وعاملهم معاملة العدا وحملته النفس الكافرة والسجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه وعلى باطله تابعوه أنظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الآبقين من يدى الخارجين عن طاعتى وبلدى وجعل يورّى فى نفسه أن يذهب خلفهم ويرجو أن ينجو وهيهات ويقدم تارة ويحجم تارات ، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموه وراءه مسرعين فحصلوا فى البحر أجمعين أكتعين أبصعين حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانطم عليهم البحر فلم ينج منهم إنسان . قال الله تعالى : ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين * إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٢] أى فى إنجائه أولياءه ، فلم يغرق منهم أحد ، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة والمناهج المستقيمة وقال تعالى : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين * الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين * فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[٣] يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم ليكون أقر لأعين بنى إسرائيل وأشفى لنفوسهم ، فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به وباشر سكرات الموت أناب حيئنذ وتاب وآمن حين لا ينفع نفساً إيمانها كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾[٥] .

وهكذا دعا موسى على فرعون وملائه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، أى حين لا ينفعهم ذلك ويكون حسرة عليهم وقد قال تعالى أى لموسى وهارون حين دعوا بهذا : (قد أجيبت دعوتكما) فهذا من إجابة الله دعوة كليمه وأخيه هارون ـ عليهما السلام ـ .

وقوله تعالى : ﴿ ءالآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾[٦] استفهام إنكار ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك لأنه والله أعلم لو رُدَّ إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه كما أخبر تعالى عن الكفار إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون : ﴿ ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾[٧]

---

(١) سورة الدخان الآيات : ١٧ ـ ٣٣ .

(٢) سورة الشعراء الآيات : ٦٥ ـ ٦٨ .

(٣) سورة يونس الآيات : ٩٠ ـ ٩٢ .

(٤) سورة يونس الآيتان : ٩٦ ، ٩٧ .

(٥) سورة غافر الآيتان : ٨٤ ـ ٨٥ .

(٦) سورة يونس الآية : ٩١ .

(٧) سورة الأنعام الآية : ٢٧ .

قال الله : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾[٢] قال ابن عباس وغير واحد : شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون حتى قال بعضهم : إنه لا يموت فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع . قيل : على وجه الماء وقيل : على فجوة من الأرض وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه ويعلموا قدرة الله عليه . ولهذا قال : (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية) أى : مصاحباً درعك المعروفة بك (لتكون) أى أنت آية (لمن خلفك) أى من بنى إسرائيل دليلا على قدرة الله الذى أهلكه . وقد كان هلاكه وجنوده يوم عاشوراء كما قال الإمام البخارى فى صحيحه عن ابن عباس قال : قدم النبى ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء فقالوا هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون قال النبى ﷺ : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموا »[٣] . وأصل هذا الحديث فى الصحيحين وغيرهما والله أعلم .

أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

قال الله تعالى : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين * وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون * وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون * قال أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين * وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾[٤] .

يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون وجنوده فى غرقهم وكيف سلبهم عزهم ومالهم وأنفسهم وأورث بنى إسرائيل جميع أموالهم وأملاكهم : (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون) أى أهلك ذلك جميعه وسلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا وهلك الملك وحاشيته وأمراؤه وجنوده ولم يبق ببلد مصر سوى العامة والرعايا . .

﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون * إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ قالوا هذا الجهل والضلال وقد عاينوا من آيات الله وقدرته مادلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال والإكرام وذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناما . قيل : كانت على صور البقر فكأنهم سألوهم لم يعبدونها فزعموا لهم أنها تنفعهم وتضرهم ويسترزقون بها عند الضرورات فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك فسألوا

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٢٨ .
(٢) سورة يونس الآية : ٩٢ .
(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الصيام ـ باب صوم عاشوراء ص ٢٥١ رقم ٦٩٢ .
(٤) سورة الأعراف الآيات : ١٣٦ ـ ١٤١ .

نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة كما لأولئك آلهة فقال لهم مبيناً لهم أنهم لا يعقلون ولا يهتدون إن هؤلاء متبر ما هم فيه باطل ما كانوا يعملون . ثم ذكرهم نعمة الله عليهم فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم والشرع والرسول الذى بين أظهرهم وما أحسن به إليهم وما امتن به عليهم من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد وإهلاكه إياه وهم ينظرون وتوريثه إياهم ما كان فرعون وملاه يجمعونه من الأموال والسعادة وما كانوا يعرشون * وبين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا لله وحده لا شريك له لأنه الخالق الرازق القهار وليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس فى قوله : ﴿ وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ﴾ أى : قال بعضهم والذين زعموا هذا ، بعض الناس لا كلهم وقد قال الامام أحمد عن أبى واقد الليثى قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ، وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها فقال النبى ﷺ الله أكبر قلتم كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم »[1] والمقصود أن موسى ـ عليه السلام ـ لما انفصل من بلاد مصر وواجه بلاد بيت المقدس وجد فيها قوماً من الجبارين من الحيثانيين والفزاريين والكنعانيين وغيرهم فأمرهم موسى ـ عليه السلام ـ بالدخول عليهم ومقاتلتهم وإجلائهم إياهم من بيت المقدس فإن الله كتبه لهم ووعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل وموسى الكليم فأبوا ونكلوا عن الجهاد فسلط الله عليهم الخوف وألقاهم فى التيه يسيرون ويحلون ويرتحلون ويذهبون ويجيئون فى مدة من السنين طويلة هى من العدد أربعون كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يؤت أحداً من العالمين * ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين * قالوا ياموسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون * قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين * قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون * قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين * قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾[2] . يذكرهم نبى الله ، نعمة الله عليهم وإحسانه عليهم بالنعم الدينية والدنيوية ويأمرهم بالجهاد فى سبيل الله ومقاتلة أعدائه فقال : (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم) أى لا تنكصوا على أعقابكم وتنكلوا على قتال أعدائكم (فتنقلبوا خاسرين) أى : فتخسروا بعد الربح وتنقصوا بعد الكمال (قالوا ياموسى إن فيها قوما جبارين) أى : عتاة كفرة متمردين و (إنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا فإنا داخلون) خافوا من هؤلاء الجبارين وقد عاينوا هلاك فرعون وهو أجبر من هؤلاء وأشد بأسا وأكثر جمعا وأعظم جندا وهذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة ومذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء ومقاومة المردة الأشقياء .

---

(١) مسند أحمد ٢١٨/٥ .

(٢) سورة المائدة الآيات : ٢٠ ـ ٢٦ .

وقد ذكر كثير من المفسرين ههنا آثاراً فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل والنقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالاً هائلة ضخاما جداً . .

(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما) أى : يخافون الله ، أنعم الله عليهما بالإسلام والإيمان ، والطاعة والشجاعة . (ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) أى : إذا توكلتم على الله واستعنتم به ولجأتم إليه نصركم على عدوكم وأيدكم عليهم وأظفركم بهم (قالوا ياموسى إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد ووقع أمر عظيم ووهن كبير . ويقال : إن موسى وهارون سجدا إعظاما لهذا الكلام وغضبا لله - عز وجل - وشفقة عليهم من وبيل هذه المقالة.(قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) قال ابن عباس : أى « اقض بينى وبينهم » . (قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين) عوقبوا على نكولهم بالتيهان فى الأرض يسيرون إلى غير مقصد ليلا ونهاراً وصباحاً ومساء ويقال : إنه لم يخرج واحد من التيه ممن دخله بل ماتوا كلهم فى مدة أربعين سنة ولم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع بن نون وكالب - عليهما السلام - لكن أصحاب محمد ﷺ لم يقولوا كما قال قوم موسى لموسى بل لما استشارهم ﷺ فى الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن ، وغيره من المهاجرين ، ثم جعل يقول : أشيروا علىَّ حتى قال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنا يارسول الله فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله فسُر رسول الله ﷺ - بقول سعد وبسطه ذلك »[١] وقال الإمام أحمد عن طارق هو ابن شهاب إن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر : يارسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون . (وهذا إسناد جيد من هذا الوجه وله طرق أخرى)[٢] وفى رواية أخرى له « لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك فرأيت وجه رسول الله ﷺ - يشرق لذلك وسُر بذلك »[٣] .

دخول بنى إسرائيل التيه وما فيه من الأمور العجيبة

قال الله تعالى : ﴿ يابنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى * وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ﴾[٤] .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير - فى غزوة بدر ٢٦٢/٣ وقال : هكذا رواه ابن إسحاق وله شواهد من وجوه كثيرة .
(٢) البخارى - كتاب المغازى - باب قصة غزوة بدر ٩٣/٥ (ومسند أحمد ٣٩٠/١) .
(٣) مسند أحمد ٤٢٨/١ .
(٤) سورة طه الآيات : ٨٠ - ٨٢ .

يذكر تعالى منته وإحسانه إلى بنى إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخلصهم من الضيق والحرج وإنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن أى منهم لينزل عليه أحكاما عظيمة فيها مصلحة لهم فى دنياهم وأخراهم وأنه تعالى أنزل عليهم فى حال شدتهم وضرورتهم فى سفرهم فى الأرض التى ليس فيها زرع ولا ضرع مناً من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم فيأخذون منه قدر حاجتهم فى ذلك اليوم إلى مثله من الغد ومن ادخر منه لأكثر من ذلك فسد ، ومن أخذ منه قليلاً كفاه أو كثيراً لم يفضل عنه فيصنعون منه مثل الخبز وهو فى غاية البياض والحلاوة فإذا كان من آخر النهار غشيهم طير السلوى فيقتنصون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشاهم وإذا كان فصل الصيف ظلل الله عليهم الغمام وهو السحاب الذى يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون ﴾(1) إلى أن قال سبحانه : ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون * وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون * وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(2) إلى أن قال سبحانه : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم * كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾(3) .

فذكر سبحانه وتعالى إنعامه عليهم وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى طعامين شهيين بلا كلفة ولا سعى لهم فيه بل ينزل الله المن باكراً ويرسل عليهم طير السلوى عشياً وأنبع الماء لهم بضرب موسى - عليه السلام - حجراً كانوا يحملونه معهم بالعصا فتفجر منه اثنتا عشرة عينا لكل سبط عين منه تنبجس . ثم تتفجر ماءاً زلالا فيستقون ويسقون دوابهم ويدخرون كفايتهم وظلل عليهم الغمام من الحر . وهذه نعم من الله عظيمة وعطيات جسيمة فما رعوها حق رعايتها ولا قاموا بشكرها وحق عبادتها ثم ضجر كثير منها وتبرموا بها وسألوا أن يستبدلوا منها ببدلها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها . فقرعهم الكليم ووبخهم وأنبهم على هذه المقالة وعنفهم قائلا : ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾(4) أى : هذا الذى تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعم التى

---

(1) سورة البقرة الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .
(2) سورة البقرة الآيات : ٤٩ - ٥٧ .
(3) سورة البقرة الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .
(4) سورة البقرة من الآية : ٦١ .

أنتم فيها حاصل لأهل الأمصار الصغار والكبار موجود بها وإذا هبطتم إليها أى ونزلتم عن هذه المرتبة التى لا تصلحون لمنصبها تجدوا بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية ولكنى لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى وكل هذه الصفات المذكورة عنهم الصادرة منهم تدل على أنهم لم ينتهوا عما نهوا عنه كما قال تعالى : ﴿ ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى ﴾[١] أى : فقد هلك وحق له والله الهلاك والدمار وقد حل عليه غضب الملك الجبار ولكنه تعالى مزج هذا الوعيد الشديد بالرجاء لمن أناب وتاب ولم يستمر على متابعة الشيطان المريد فقال سبحانه : ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[٢] .

سؤال الرؤية

قال تعالى : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين * ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين * قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين * وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظةً وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين * سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآيتنا وكانوا عنها غافلين * والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[٣] .

قال جماعة من السلف منهم ابن عباس ومسروق ومجاهد : الثلاثون ليلة هى شهر ذى القعدة بكماله وأتمت أربعين ليلة بعشر ذى الحجة فعلى هذا يكون كلام الله له يوم عيد النحر وفى مثله أكمل الله ـ عز وجل ـ لمحمد ـ ﷺ ـ دينه وأقام حجته وبراهينه . والمقصود أن موسى ـ عليه السلام ـ لما استكمل الميقات وكان فيه صائما يقال : إنه لم يستطعم الطعام فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغه ليطيب ريح فمه فأمر الله أن يمسك عشراً أخرى فصارت أربعين ليلة ولهذا ثبت فى الحديث « أن خُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »[٤] فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بن إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل وهو ابن أمه وأبيه ووزيره فى الدعوة إلى مصطفيه فوصاه وأمره وليس فى هذا لعلو منزلته فى نبوته منافاة . قال الله تعالى : ﴿ **ولما جاء موسى لميقاتنا** ﴾ أى : فى الوقت الذى أمر بالمجىء فيه (**وكلمه ربه**) أى كلمه الله من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه وناجاه وقربه وأدناه وهذا مقام رفيع ومعقل منيع ومنصب شريف ومنزل منيف فصلوات الله عليه تترى وسلامه عليه فى الدنيا والآخرة . ولما أعطى هذه المنزلة العلية والمرتبة السنية وسمع الخطاب سأل رفع الحجاب فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان : ﴿ **رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى** ﴾ ثم يبين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك وتعالى لأن

(١) سورة طه من الآية : ٨١ .
(٢) سورة طه الآية : ٨٢ .
(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٤٢ ـ ١٤٧ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الصيام ـ باب فضل الصيام ص ٢٥٥ رقم ٧٠٧ .

الجبل الذى هو أقوى وأكبر ذاتا وأشد ثباتاً من الإنسان لا يثبت عند التجلى من الرحمان ولهذا قال : ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى** ﴾ وفى الصحيح عن أبى موسى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : حجابه النور وفى رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[1] وقال ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ ذاك نوره الذى هو نوره إذا تجلى لشىء لا يقوم له شىء ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين** ﴾ قال مجاهد : ﴿ **ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى** ﴾ فإنه أكبر منك وأشد خلقا فلما تجلى ربه للجبل فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله ورأى موسى ما يصنع الجبل فخر صعقا . ﴿ **فلما أفاق** ﴾ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشى ﴿ **قال سبحانك** ﴾ تنزيه وتعظيم وإجلال أن يراه بعظمته أحد ﴿ **تبت إليك** ﴾ أى : فلست أسأل بعد هذه الرؤية ﴿ **وأنا أول المؤمنين** ﴾ أنه لا يراك حى إلا مات ولا يابس إلا تدهده . وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لا تخيرونى من بين الأنبياء فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أفاق قبلى أوجوزى بصعقة الطور » وهذا من باب الهضم والتواضع أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب والعصبية أو ليس هذا إليكم بل الله هو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات وليس ينال هذا بمجرد الرأى بل بالتوقيف .

ولا شك أن صلوات الله وسلامه عليه أفضل البشر بل الخليقة قال الله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ وما كملوا إلا بشرف نبيهم وثبت بالتواتر عنه صلوات الله وسلامه عليه إنه قال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر »[2] ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون والآخرون والذى تحيد عنه الأنبياء والمرسلون حتى أولو العزم الأكملون نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم . وقوله ـ ﷺ ـ « فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش » أى آخذاً بها ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور »[3] دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامة حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده فيصعقون من شدة الهيبة والعظمة والجلال فيكون أولهم إفاقة محمد خاتم الأنبياء ومصطفى رب الأرض والسماء على سائر الأنبياء فيجد موسى باطشا بقائمة العرش قال الصادق المصدوق : « لا أدرى أصعق قبلى فأفاق قبلى » أى : كانت صعقته خفيفة لأنه قد ناله بهذا السبب فى الدنيا صعق أوجوزى بصعقة الطور يعنى فلم يصعق بالكلية ولهذا نبه رسول الله ـ ﷺ ـ على شرفه وفضليته بهذه الصفة بقوله تعالى : ﴿ **قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى** ﴾[4] أى : فى ذلك الزمان لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه كما تقدم بيان ذلك فى قصة إبراهيم ولا ما بعده لأن محمداً ـ ﷺ ـ أفضل منهما كما ظهر شرفه ليلة الإسراء على جميع المرسلين والأنبياء . وقوله

---

(١) مسند أحمد ٤٠١/٤
ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب قوله عليه السلام إن الله لا ينام ١٦٢/١ رقم ١٧٩ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ص ٦٢٦ رقم ١٥٣٥ .

(٣) سنن الترمذى ـ كتاب المناقب ـ باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ ٢٤٧/٥ رقم ٣٦٩٣ وسنن ابن ماجه ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر الشفاعة ١٤٤٠/٢ رقم ٤٣٠٨ .

(٤) سورة الأعراف من الآية : ١٤٤ .

تعالى : ﴿ فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[١] أى : فخذ ما أعطيتك من الرسالة والكلام ولا تسأل زيادة عليه ، وكن من الشاكرين على ذلك . قال تعالى : ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ﴾[٢] وكانت الألواح من جوهر نفيس ففى الصحيح « أن الله كتب له التوراة بيده وفيها مواعظ عن الآثام وتفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال والحرام » ﴿ فخذها بقوة ﴾ أى : بعزم ونية صادقة قوية : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ أى يضعوها على أحسن وجوهها وأجمل مجاملها . ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ أى : سترون عاقبة الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى المكذبين لرسلى . ﴿ سأصرف عن آياتى ﴾ عن فهمها وتدبرها وتعقل معناها الذى أريد منها ودل عليه مقتضاها : ﴿ الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾[٣] أى : ولو شاهدوا ، مهما شاهدوا من الخوارق والمعجزات لا ينقادوا لاتباعها ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ﴾[٤] أى لا يسلكوه ولا يتبعوه . ﴿ وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾[٥] أى : صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا وتغافلهم عنها ، وإعراضهم عن التصديق بها والتفكير فى معناها وترك العمل بمقتضاها ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾[٦] .

قصة عبادتهم العجل فى غيبة موسى

قال الله تعالى : ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين * ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين * قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين * والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾[٧] وقال تعالى : ﴿ وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى * قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى * فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً * ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا *

(١ ، ٢) سورة الأعراف الآيتان : ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٣ - ٦) سورة الأعراف الآيتان : ١٤٦ - ١٤٧ .

(٧) سورة الأعراف الآيات : ١٤٨ - ١٥٤ .

ألا تتبعنِ أفعصيت أمرى * قال يَبْنَؤُمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ولم ترقب قولى * قال فما خطبك يا سامرى * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى * قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعداً لن تخلفه وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً * إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شيء علما ﴾(١) .

يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل حين ذهب موسى ـ عليه السلام ـ إلى ميقات ربه فمكث على الطور يناجيه ربه ويسأله موسى ـ عليه السلام ـ عن أشياء كثيرة وهو تعالى يجيبه عنها فعمد رجل منهم يقال له هارون السامرى فأخذ ما كان استعاره من الحلى فصاغ منه عجلا وألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق الله فرعون على يديه فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى . ويقال إنه استحال عجلا جسداً أى لحما ودماً حياً يخور . قاله قتادة وغيره وقيل : بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة فيرقصون حوله ويفرحون ﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى ﴾ أى : فنسى موسى ربه عندما ذهب يتطلبه وهو ههنا تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وتقدست أسماؤه وصفاته وتضاعفت آلاؤه وعداته . قال الله تعالى مبيناً بطلان ما ذهبوا إليه وما عولوا عليه من آلهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيواناً بهيما وشيطاناً رجيما : ﴿ أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضَرًّا ولا نفعا ﴾ وقال : ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ . فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم ولا يرد جوابا ولا يملك ضراً ولا نفعا ولا يهدى إلى رشد اتخذوه وهم ظالمون لأنفسهم عالمون فى أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل والضلال ﴿ ولما سقط فى أيديهم ﴾ أى ندموا على ما صنعوا ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾ ولما رجع موسى ـ عليه السلام ـ إليهم ورأى ما هم عليه من عبادة العجل ومعه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها حين عاين ما عاين ، ولم يتأثر بمجرد الخبر من الله تعالى عن عبادة العجل فأمره بمعاينة ذلك . ولهذا جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ . « ليس الخبر كالمعاينة »(٢) ؛ ثم أقبل عليهم فعنفهم ووبخهم وهجنهم فى صنيعهم هذا القبيح فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا ﴿ حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى ﴾ تحرجوا من تملك حلى آل فرعون وهو أهل حرب وقد أمرهم الله بأخذه وأباحه لهم ولم يتحرجوا بجهلهم وقلة علمهم وعقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار . ثم أقبل على أخيه هارون ـ عليهما السلام ـ قائلا له : ﴿ يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألَّا تتبعنِ ﴾ أى : هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتنى فأعلمتنى بما فعلوا فقال : ﴿ إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل ﴾ أى تركتهم وجئتنى وأنت قد استخلفتنى فيهم وقد كان هارون ـ عليه السلام ـ نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهى وزجرهم عنه أتم الزجر قال الله تعالى : ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى ﴾ أى إنما قدر الله أمر هذا العجل وجعله يخور فتنة واختباراً لكم ،

---

(١) سورة طه الآيات : ٨٣ ـ ٩٨ .

(٢) مسند أحمد ٢١٥/١ .

﴿ وإن ربكم الرحمن ﴾ أى لا هذا ﴿ فاتبعونى ﴾ أى فيما أقول لكم ﴿ وأطيعوا أمرى ﴾ ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى ﴾ يشهد الله لهارون ـ عليه السلام ـ وكفى بالله شهيدا . أنه نهاهم وزجرهم عن ذلك فلم يطيعوا ولم يتبعوه ثم أقبل موسى على السامرى : ﴿ قال فما خطبك يا سامرى ﴾ أى : ما حملك على ما صنعت ﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أى رأيت جبريل وهو راكب فرساً ﴿ فقبضت قبضة من أثر الرسول ﴾ أى : من أثر فرس جبريل . وقد ذكر بعضهم أنه رآه وكلما وطئت بحوافرها على موضع اخضر وأعشب فأخذ من أثر حافرها فلما ألقاها فى هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان ولهذا قال : ﴿ فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى * قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس ﴾ وهذا دعاء عليه بأن لا يمس أحداً معاقبة له على مسه ما لم يكن له مسه . هذا معاقبة له فى الدنيا ثم توعده فى الآخرة فقال : ﴿ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴾ ﴿ وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً ﴾ قال فعمد موسى ـ عليه السلام ـ إلى هذا العجل فحرقه بالنار ثم ذراه فى البحر وأمر بنى إسرائيل فشربوا فمن كان من عابديه علق على شفاههم من ذلك الرماد منه ما يدل عليه وقيل : بل اصفرت ألوانهم ثم قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لهم : ﴿ إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين ﴾ مسجلة لكل صاحب بدعة إلى يوم القيامة . ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبيده فى قبوله توبة من تاب إليه بتوبته فقال : ﴿ والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ . لكن لم يقبل الله توبة عابدى العجل إلا بالقتل كما قال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذالكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾(١) . فيقال : إنهم أصبحوا يوما وقد أخذ من لم يعبد العجل فى ايديهم السيوف وألقى الله عليهم ضباباً حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه ، ثم مالوا على عابديه فقتلوهم وحصدوهم فيقال : إنهم قتلوا فى صبيحة واحدة سبعين ألفا ثم قال تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾(٢) .

ثم ذهب موسى يستغفر لهم فغفر لهم بشرط أن يدخلوا الأرض المقدسة ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾(٣) .

(١) سورة البقرة الآية : ٥٤ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ١٥٤ .
(٣) سورة الأعراف الآيات : ١٥٥ ـ ١٥٧ .

قال محمد بن اسحق : اختار موسى من بنى اسرائيل سبعين رجلا الخير فالخير وقالوا : انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام الله فقال أفعل فلما دنا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل . فلما فرغ الله من أمره وانكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فالتقت أرواحهم فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول : ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ﴾ أى : لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا فإنا برءاء مما عملوا . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن جريج : إنما أخذتهم الرجفة لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل . وقوله : ﴿ **إن هى إلا فتنتك** ﴾ أى اختبارك وابتلاؤك وامتحانك . ﴿ **تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء** ﴾ أى من شئت أضللته باختبارك اياه ومن شئت هديته . لك الحكم والمشيئة ولا مانع ولا راد لما حكمت وقضيت ﴿ **أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين * واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنا هدنا إليك** ﴾ أى تبنا إليك ورجعنا وأنبنا .

﴿ **قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ أى : أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها وأقدرها ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ كما ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش أن رحمتى تغلب غضبى »(١) ﴿ **فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون** ﴾ أى فسأوجبها حتما لمن يتصف بهذه الصفات ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبى الأمى** ﴾ الآية : وهذا تنويه بذكر محمد - ﷺ - وأمته من الله لموسى - عليه السلام - فى جملة ما ناجاه به وأعلمه وأطلعه عليه . وقد تكلمنا عن هذه الآية وما بعدها فى التفسير ولله الحمد والمنة .

قصة بقرة بنى إسرائيل

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون * وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربو ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾(٢) .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب التوبة - باب سعة رحمة الله وأنها سبقت غضبه ص٧٤٧ رقم ١٧٤٩ .
(٢) سورة البقرة الآيات : ٦٧ - ٧٣ .

قال ابن عباس وعبيدة السلمانى وأبو العالية ومجاهد والسدى وغير واحد من السلف : كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه فعمد أحدهم فقتله من الليل وطرحه فى مجمع الطرق . ويقال على باب رجل منهم فلما أصبح الناس اختصموا فيه وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ ويتظلم فقالوا : ما لكم تختصمون ولا تأتون نبى الله فجاء ابن أخيه فشكى أمر عمه إلى رسول الله موسى - ﷺ - فقال موسى - عليه السلام : أنشد الله رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به فلم يكن عند أحد منهم علم منه وسألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه - عز وجل - فسأل ربه - عز وجل - فى ذلك فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة فقال : ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً ﴾ يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل وأنت تقول هذا قال : ﴿ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ أى : أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحى لى . وهذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى عنه أن أسأله فيه . قال ابن عباس وعبيدة ومجاهد وعكرمة والسدى وغير واحد : فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها ولكنهم شددوا فشدد عليهم . فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها فأجيبوا بما عز وجوده عليهم وقد ذكرنا فى تفسير ذلك كله فى التفسير . والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عوان وهى الوسط بين النصف الفارض وهى الكبيرة والبكر وهى الصغيرة . ثم شددوا وضيقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها فأمروا بصفراء فاقع لونها أى مشرب بحمرة تسر الناظرين . وهذا اللون عزيز ثم شددوا أيضا : ﴿ قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون . قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث مسلمة لاشية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ وهذه الصفات أضيق مما تقدم حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهى المذللة بالحراثة وسقى الأرض بالسانية مسلمة وهى الصحيحة التى لا عيب فيها قاله أبو العالية وقتادة وقوله : ﴿ لاشية فيها ﴾ أى : ليس فيها لون يخالف لونها بل هى مسلمة من العيوب ومن مخالطة سائر الألوان غير لونها فلما حددها بهذه الصفات وحصرها بهذه النعوت والأوصاف . ﴿ قالوا الآن جئت بالحق ﴾ ويقال إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان باراً بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم ، فرغبوه فى ثمنها حتى أعطوه فيما ذكر السدى بوزنها ذهباً فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها لهم فأمرهم نبى الله موسى بذبحها : ﴿ فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾ أى : وهم يترددون فى أمرها . ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها ، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى فقام وهو يشخب أدراجه فسأله نبى الله من قتلك قال قتلنى ابن أخى . ثم عاد ميتاً كما كان ، قال الله تعالى : ﴿ كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ أى : كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر الله له كذلك أمره فى سائر الموتى إذا شاء أحياهم فى ساعة واحدة كما قال عز وجل : ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير ﴾[1] .

(١) سورة لقمان الآية : ٢٨ .

قصة موسى والخضر عليهما السلام

قال الله تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقباً * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا * قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنِ مما علمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معى صبراً * وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً * قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً * قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً * قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسراً * فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً * قال إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذراً * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً * قال هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً * أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً * وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾[1] ..

قال البخارى : عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى اسرائيل ، قال ابن عباس : كذب عدو الله . حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « إن موسى قام خطيباً فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه بأن لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى يا رب وكيف لى به . قال تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم . فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت فى المكتل فخرج منه فسقط فى البحر واتخذ سبيله فى البحر سربا . وأمسك الله عن الحوت جريه الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد ﴿ **قال موسى لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا** ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به (قال) له فتاه ﴿ **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله فى البحر عجباً** ﴾ قال فكان للحوت سربا ولموسى ولفتاه عجبا (قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصا) قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وأنى بأرضك السلام قال : أنا موسى

(١) سورة الكهف الآيات : ٦٠ - ٨٢ .

قال : موسى بنى إسرائيل قال : نعم أتيتك لتعلمنى مما علمت رشداً ﴿ **قال إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه أنت ، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه ، فقال : ﴿ **ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً** ﴾ قال له الخضر : (فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) (فانطلقا) يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول . فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى : قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ **لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا** ﴾ (قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبراً * قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) قال . وقال رسول الله - ﷺ - وكانت الأولى من موسى نسيانا قال : وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر . ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله فقال له موسى : ﴿ **أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً * قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معى صبراً** ﴾ قال : وهذه أشد من الأولى ، قال : (إن سألتك عن شىء بعدها فلا تصاحبنى قد بلغت من لدنى عذرا * فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض) قال : مائل فقال الخضر بيده : (فأقامه) فقال موسى : قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا (لو شئت لاتخذت عليه أجرا . قال : (هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا) قال رسول الله - ﷺ - وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما قال سعيد بن جبير فكان ابن عباس يقرأ وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا ، وكان يقرأ وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين »[١] .

وقوله : ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة** ﴾ قال السهيلى : وهما أصرم وصريم ابنا كاشح ﴿ **وكان تحته كنز لهما** ﴾ قيل : كان ذهبا ، قاله عكرمة وقوله : ﴿ **وكان أبوهما صالحا** ﴾ وقد قيل : إنه كان الأب السابع وقيل : العاشر وعلى كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته والله المستعان . وقوله : ﴿ **رحمة من ربك** ﴾ دليل على أنه كان نبيا وأنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه بل بأمر ربه فهو نبى وقيل : رسول وقيل : ولى . والذى عليه جمهور أهل الكتاب أنه كان فى زمن أفريدون ، ويقال : إنه كان على مقدمة ذى القرنين الذى قيل إنه كان أفريدون وذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل ، وزعموا أنه شرب من ماء الحياة فخلد وهو باق إلى الآن . وقد قال الله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم ﴾ الآية[٢] فأخذ الله ميثاق كل نبى على أن يؤمن بمن يجىء بعده من الأنبياء وينصره فلو كان الخضر حيا فى زمانه لما وسعه إلا اتباعه والاجتماع به والقيام بنصره ولكان من جملة من تحت لوائه يوم بدر كما كان تحتها جبريل وسادات من الملائكة ، وقصارى الخضر - عليه السلام - أن يكون نبيا وهو الحق أو رسولا كما قيل أو ملكا فيما ذكر وأيا ما كان فجبريل رئيس الملائكة وموسى أشرف من الخضر ولو كان حيا لوجب عليه

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب حديث الخضر مع موسى ١٨٨/٤ .
(٢) سورة آل عمران الآية : ٨١ .

الإيمان بمحمد - ﷺ - ونصرته فكيف إن كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون فأولى أن يدخل فى عموم البعثة وأحرى ، ولم ينقل فى حديث حسن بل ولا ضعيف يعتمد أنه جاء يوما واحدا إلى رسول الله - ﷺ - ولا اجتمع به وما ذكر من حديث التعزية فيه وإن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف والله أعلم .

قصة قارون مع موسى - عليه السلام -

قال تعالى : ﴿ إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوأ بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين * قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون * فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم * وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون * فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين * وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون * تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾[1] قال الأعمش بسنده عن ابن عباس قال كان **قارون ابن عم موسى** ، قال ابن جريج وهذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى .

وقد ذكر الله تعالى كثرة كنوزه حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على القيام من الرجال الشداد وقد قيل : إنها كانت من الجلود وإنها كانت تحمل على ستين بغلا ، والله أعلم ، وقد وعظه النصحاء من قومه قائلين لا تفرح . أى لا تبطر بما أعطيت وتفخر على غيرك ﴿ **إن الله لا يحب الفرحين * وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾ يقولون : لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب الله فى الدار الآخرة فإنه خير وأبقى ومع هذا ﴿ **لا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ أى : وتناول منها بمالك ما أحل الله لك فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال ﴿ **وأحسن كما أحسن الله إليك** ﴾ أى : وأحسن إلى خلق الله كما أحسن الله خالقهم وبارئهم إليك ﴿ **ولا تبغ الفساد فى الأرض** ﴾ فما كان جواب قومه . لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن : ﴿ **قال إنما أوتيته على علم عندى** ﴾ يعنى أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم ولا إلى ما إليه أشرتم فإن الله إنما أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه وأنى أهل له ، ولولا أنى حبيب إليه وحظى عنده لما أعطانى ما أعطانى ، قال الله تعالى رداً على ما ذهب إليه : ﴿ **أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون** ﴾ أى : قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم وخطاياهم من هو أشد من قارون قوة وأكثر أموالا وأولاداً فلو كان ما قال صحيحاً لم نعاقب أحداً ممن كان أكثر مالاً منه ولم يكن ماله دليلاً على محبتنا له واعتنائنا به كما قال تعالى : ﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾[2] وقال تعالى :

(١) سورة القصص الآيات : ٧٦ - ٨٣ .

(٢) سورة سبأ الآية : ٣٧ .

﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾(١) وهذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله : ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله فى جمع الأموال فليس بصحيح .

قال الله تعالى : ﴿ فخرج على قومه فى زينته ﴾ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج فى تجمل عظيم من ملابس ومراكب وخدم وحشم فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله وغبطوه بما عليه وله فلما سمع مقالتهم العلماء ذووا الفهم الصحيح ، الزهاد الألباء قالوا لهم : ﴿ ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ أى : ثواب الله فى الدار الآخرة خير وأبقى وأجل وأعلى ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ أى : وما يلقى هذه النصيحة وهذه المقالة وهذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى الله قلبه وثبت فؤاده وأيد لبه وحقق مراده وما أحسن ما قال بعض السلف إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند حلول الشهوات . قال الله تعالى : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ لما ذكر تعالى خروجه فى زينته واختياله فيها وفخره على قومه بها قال جل فى علاه : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ كما روى البخارى عن سالم عن أبيه عن النبى ﷺ قال : (بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة)(٢) .

وقد ذكر ابن عباس والسدى أن قارون أعطى امرأة بغياً مالاً على أن تقول لموسى - عليه السلام - وهو فى ملأ من الناس إنك فعلت بى كذا وكذا فيقال إنها قالت له : ذلك فأرعد من الفرق وصلى ركعتين . ثم أقبل عليها فاستحلفها من دلك على ذلك وما حملك عليه فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك واستغفرت الله وتابت إليه فعند ذلك خر موسى لله ساجداً ودعا الله على قارون فأوحى الله إليه إنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره فكان ذلك فالله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾(٣) لم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره كما قال : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾(٤) ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال وخراب الدار وإهلاك النفس والأهل والعقار ندم من كان تمنى مثل ما أوتى وشكروا الله تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون ولهذا قال : ﴿ لولا أن منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ ثم أخبر سبحانه : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً ﴾ الدار الآخرة وهى دار القرار وهى الدار التى يغبط من أعطيها ويعزى من حرمها إنما هى مسعدة للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً . فالعلو هو التكبر ، والفخر والأشر

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥٥ .
(٢) البخارى - كتاب الباس - باب من جر ثوبه من الخيلاء ١٨٣/٧ .
(٣) سورة القصص الآية : ٨١ .
(٤) سورة الطارق الآية : ١٠ .

والبطر ، والفساد هو عمل المعاصى اللازمة والمتعدية من أخذ أموال الناس وإفساد معايشهم والإساءة إليهم وعدم النصح لهم ثم قال تعالى : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ . وقصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر لقوله : ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ ، فإن الدار ظاهرة فى البنيان ، وقد تكون بعد ذلك فى التيه وتكون الدار عبارة عن المحلة التى تضرب فيها الخيام . والله أعلم .

وقد ذكر الله تعالى مذمة قارون فى غير ما آية من القرآن . قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب ﴾[١] وقال تعالى فى سورة العنكبوت بعد ذكر عاد وثمود : ﴿ وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين * فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾[٢] فالذى خسف به الأرض قارون كما تقدم والذى أغرق فرعون وهامان وجنودهما إنهم كانوا خاطئين .

باب فضائل موسى ـ عليه السلام ـ وشمائله ووفاته

قال الله تعالى : ﴿ واذكر فى الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين ﴾[٤] .

وتقدم فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تفضلونى على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور »[٥] . وقد قدمنا أنه من رسول الله ﷺ من باب الهضم والتواضع وإلا فهو صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة قطعاً جزماً لا يحتمل النقيض .

وقال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ إلى أن قال : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ﴾[٦] . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾[٧] قال الإمام أبو عبد الله البخارى[٨] : عن أبى هريرة

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) سورة مريم الآيتان : ٥١ ، ٥٢ .

(٤) سورة الأعراف الآية : ١٤٤ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ص ٦٢٦ رقم ١٥٣٥ .

(٦) سورة النساء الآيتان : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٧) سورة الأحزاب الآية : ٦٩ .

(٨) البخارى ـ كتاب بدء الخلق ١٩٠/٤ واللؤلؤ والمرجان ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ص ٦٢٥ رقم ١٥٣٢ ومسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ١٨٤٢/٤ رقم ١٥٦ وأحمد ٥١٥/٢ .

قال : قال رسول الله ﷺ « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يرى جلده شيء استحياء منه فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل فقالوا ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص أو أُدْرَةٍ وإما آفة وأن الله عز وجل أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر . ثم اغتسل فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وأن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول ثوبى حجر ، ثوبى حجر حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله وبرأه مما يقولون وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً قال فذلك قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ وقد رواه الإمام أحمد ، ورواه مسلم .

قال بعض السلف : كان من وجاهته أنه شفع فى أخيه عند الله وطلب منه أن يكون معه وزيراً فأجابه الله إلى سؤاله وأعطاه طلبته وجعله نبياً كما قال : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ ثم قال البخارى بسنده عن الأعمش قال : سألت أبا وائل قال : سمعت عبد الله قال : « قسم رسول الله ﷺ قسماً فقال رجل إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأتيت النبى ﷺ فغضب حتى رأيت الغضب فى وجهه ثم قال يرحم الله موسى قد أوذى بأكثر من هذا فصبر »[١] .

وقد ثبت فى الصحيح فى أحاديث الإسراء أن رسول الله ﷺ مر بموسى وهو قائم يصلى فى قبره[٢] . وفى الصحيحين من رواية قتادة عن أنس بن مالك بن صعصعة عن النبى ﷺ أنه مر ليلة أسرى به بموسى فى السماء السادسة فقال له جبريل هذا موسى فسلم عليه قال : فسلمت عليه فقال : مرحباً بالنبى الصالح والأخ الصالح فلما تجاوزت بكى قيل ما يبكيك ؟ قال أبكى لأن غلاماً بعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتى . وذكر ابراهيم فى السماء السابعة[٣] . . الحديث » .

واتفقت الروايات كلها على أن الله تعالى لما فرض على محمد ﷺ خمسين صلاة فى اليوم والليلة فمر بموسى قال ارجع إلى ربك فسله التخفيف لأمتك فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة وأن أمتك أضعف أسماعاً وأبصاراً وأفئدة فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل ويخفف عنه فى كل مرة حتى صارت خمس صلوات فى اليوم والليلة وقال الله تعالى : هى خمس وهى خمسون أى بالمضاعفة فجزى الله عنا محمداً ﷺ خيراً وجزى الله عنا موسى عليه السلام خيراً .

وقال البخارى عن ابن عباس قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « عرضت علىّ الأمم ورأيت سواداً كثيراً سد الأفق فقيل هذا موسى فى قومه »[٤] ، رواه البخارى مختصراً ، ورواه الإمام أحمد مطولاً عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « عرضت علىّ الأمم فرأيت النبى ومعه الرهط والنبى ومعه الرجل والرجلان ، والنبى وليس معه أحد إذ رُفع لى سواد عظيم فقلت هذه أمتى فقيل هذا موسى

---

(١) البخارى ـ كتاب الأدب ـ باب الصبر على الأذى ٨/٣١ و٤/١٩١ .

(٢) مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ٤ ـ ١٨٤٥ رقم ٢٣٧٥ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيا اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الإيمان ـ باب حديث الإسراء ص٣٦ رقم ١٠٣ .

(٤) البخارى فتح البارى ـ كتاب الأنبياء باب وفاة موسى وذكره بعد ٦/٤٤١ .

وقومه ولكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم ، ثم قيل انظر إلى هذا الجانب فإذا سواد عظيم فقيل هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب[1] ـ الحديث » .

وقد ذكر الله تعالى موسى ـ عليه السلام ـ فى القرآن كثيراً وأثنى عليه وأورد قصته فى كتابه العزيز مراراً وكررها كثيراً مطولة ومبسوطة ومختصر وأثنى عليه بليغاً . وكثيراً ما يقرنه الله ويذكره ويذكر كتابه مع محمد ﷺ كما قال فى سورة البقرة : ﴿ ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ آلم * الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ﴾[3] ، وقال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ﴾[4] . فأثنى تعالى على التوراة ثم مدح القرآن العظيم مدحاً عظيماً . وقال تعالى فى آخرها : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب تماماً على الذى أحسن وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون * وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون ﴾[5] . وقال فى سورة المائدة : ﴿ **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ إلى أن قال : ﴿ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون * وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ﴾ . الآية[6] ، فجعل القرآن حاكماً على سائر الكتب غيره وجعله مصدقاً لها ومبيناً ما وقع فيها من التحريف والتبديل فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب فلم يقدروا على حفظها ولا على ضبطها وصونها فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم وتبديلهم لسوء مفهومهم وقصورهم فى علومهم ورداءة تصورهم وخيانتهم لمعبودهم ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ولهذا يوجد فى كتبهم من الخطأ البين على الله وعلى رسوله مالا يحد ولا يوصف ومالا مثله ولا يعرف . وقال تعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين * الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون * وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون ﴾[7] .

وقال تعالى فى سورة القصص : ﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون ، قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾[8] ، فأثنى الله على الكتابين وعلى الرسولين عليهما السلام . وقال الجن لقومهم : ﴿ إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾[9] .

---

(١) مسند أحمد ٢٧١/١ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٠١ .
(٣) سورة آل عمران الآيات : ١ ـ ٤ .
(٤) سورة الأنعام الآيتان : ٩١ ، ٩٢ .
(٥) سورة الأنعام الآيتان : ١٥٤ ، ١٥٥ .
(٦) سورة المائدة الآيات : ٤٤ ـ ٤٨ .
(٧) سورة الأنبياء الآيات : ٤٨ ـ ٥٠ .
(٨) سورة القصص الآيتان : ٤٨ ، ٤٩ .
(٩) سورة الأحقاف الآية : ٣٠ .

وقال ورقة بن نوفل لما قص عليه رسول الله ﷺ خبر ما رأى من الوحى وتلا عليه : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾ قال : سبوح سبوح هذا الناموس الذى أنزل على موسى بن عمران(١) .

وبالجملة فشريعة موسى ـ عليه السلام ـ كانت عظيمة وأمته كانت أمة كثيرة ووجد فيها أنبياء وعلماء وعباد وزهاد وأولياء وملوك وأمراء وسادات وكبراء . لكنهم كانوا فبادوا وتبدلوا كما بدلت شريعتهم ، ومسخوا قردة وخنازير ، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم وجرت عليهم خطوب وأمور يطول ذكرها ولكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان .

حجته عليه السلام إلى البيت العتيق

قال الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ مر بوادى الأزرق فقال : أى واد هذا ؟ قالوا وادى الأزرق . قال : كأنى أنظر إلى موسى وهو هابط من الثنية وله جؤار إلى الله عز وجل بالتلبية حتى أتى على ثنية هرشاء فقال : أى ثنية هذه ؟ قالوا : هذه ثنية هرشاء قال : كأنى أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء عليه جبة من صوف خطام ناقته خلبة . قال هشيم يعنى ليفاً وهو يلبى . أخرجه مسلم من حديث داود بن أبى هند به .

ذكر وفاته عليه السلام

قال البخارى فى صحيحه (وفاة موسى عليه السلام) عن أبى هريرة قال : أرسل ملك الموت إلى موسى ـ عليه السلام ـ فلما جاءه صكه فرجع إلى ربه عز وجل فقال أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت قال ارجع إليه فقل له يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال : أى رب ثم ماذا قال ثم الموت قال فالآن . قال فسأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة . رمية بحجر . قال أبو هريرة : فقال رسول الله ﷺ « فلو كنت ثم لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر »(٢) .

وكأنه لم يعرفه فى تلك الصورة ولم يحمل قوله هذا على أنه مطابق إذ لم يتحقق فى الساعة الراهنة أنه ملك كريم لأنه كان يرجو أموراً كثيرة كان يحب وقوعها فى حياته من خروجه من التيه ودخولهم الأرض المقدسة وكان قد سبق فى قدرة الله أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هارون أخيه كما سنبينه إن شاء الله تعالى وقد زعم بعضهم أن موسى هو الذى خرج بهم من التيه ودخل بهم الأرض المقدسة . وهذا خلاف ما عليه أهل الكتاب وجمهور المسلمين . ومما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت : رب أدننى إلى الأرض المقدسة رمية حجر . ولو كان قد دخلها لم يسأل ذلك ولكن لما كان مع قومه بالتيه وحانت وفاته عليه السلام أحب أن يتقرب إلى الأرض التى هاجر إليها وحث قومه عليها ولكن حال بينهم وبينها القدر رمية بحجر ولهذا قال سيد البشر ورسول الله إلى أهل الوبر والمدر ، فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر . وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لما أسرى بى مررت بموسى وهو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر »(٣) رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الإيمان ـ باب بدء الوحى ص٣٣ رقم ٩٩ .
مسند أحمد ٢١٥/١ ومسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب الإسراء برسول الله ١٥٢/١ رقم ١٦٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ص٦٢٥ رقم ١٥٣٣ .

(٣) مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب فضائل موسى ١٨٤٥/١ رقم ٢٣٧٥ ومسند أحمد ١٢٠/٣

وذكر أهل الكتاب وغيرهم أنه مات وعمره مائة وعشرون سنة .

وقد قال الإمام أحمد عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال يونس : رفع هذا الحديث إلى النبى ﷺ قال : كان ملك الموت يأتى الناس عيانا قال فأتى موسى عليه السلام فلطمه ففقأ عينه فأتى ربه فقال يا رب عبدك موسى فقأ عينى ولولا كرامته عليك لعتبت عليه قال يونس لشفقت عليه . قال له اذهب إلى عبدى . فقل له فليضع يده على جلد أو مسك ثور فله بكل شعرة دارت يده سنة فأتاه فقال له : فقال : ما بعد هذا قال : الموت قال : فالآن قال : فشمه شمة فقبض روحه ، قال يونس : فرد الله عليه عينه وكان يأتى الناس خفية[1] . أ. هـ .

الوعـــد الحق

إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ الْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى الْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَلَا الْمُسِىٓءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾

معانى المفردات

(يوم يقوم الأشهاد) : هو يوم القيامة ، (والأشهاد) : واحدهم شهيد بمعنى شاهد ، (والهدى) : ما يهتدى به من المعجزات والصحف والشرائع ، (والإبكار) : أول النهار إلى نصفه ، (العشى) : النصف إلى آخر النهار . (السلطان) : الحجة ، (داخرين) أى : صاغرين أذلاء .

---

(١) مسند أحمد ٢/٥٣٣ ومسلم كتاب الفضائل - باب فضائل موسى ٤/١٨٤٣ رقم ٢٣٧٢ .

المناسبة والمعنى الاجمالى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ فى أول السورة أنه لا يجادل فى آيات الله إلا القوم الكافرون ، ثم رد على أولئك المبطلين المجادلين تسلية لرسوله وتصبيراً له على تحمل أذى قومه ـ أردف ذلك وعده له بالنصرة على أعدائه فى الدنيا والآخرة وتلك سنة الله ، فهو ينصر الأنبياء والرسل ، ويقيض لهم من ينصرهم على أعدائهم ؛ ويملأ قلوبهم بنور اليقين ويلهمهم أن النصرة لهم آخراً مهما تقلبت بهم الأمور . وبعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنهم يجادلون فى آيات بغير سلطا ن، وكان من جدلهم أنهم ينكرون البعث ، ذكر برهاناً يؤ يد إمكان حدوثه ويبعد عن أذهانهم استحالته ، وهو خلقه للسموات والأرض ابتداء على عظم أجرامهما ومن قدر على ذلك فهو قادر على إعادتكم كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾[1] وبعد أن أثبت أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لا ينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع له ، وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ، لا جرم أمر الله تعالى بها .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾** .

يقول العلامة ابن كثير فى شرح هاتين الآيتين :

قد أورد أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى عند قوله : **﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾** سؤالا ، فقال : قد علم أن بعض الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيبا ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما إلى السماء كعيسى فأين النصرة فى الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين (أحدهما) أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض قال وهذا سائغ فى اللغة (الثانى) أن يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم وسواء كان ذلك بحضرتهم أو فى غيبتهم أو بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيى وزكريا وشعيبا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم وقد ذكر أن النمروذ أخذه الله تعالى أخذ عزيز مقتدر ، وأما الذين راموا صلب المسيح ـ عليه السلام ـ من اليهود فسلط الله عليهم الروم فأهانوهم وأذلوهم وأظهرهم الله تعالى عليهم ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى ابن مريم ـ عليه الصلاة والسلام ـ إماما عادلا وحكما مقسطا فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ، ويضع الجزية فلا يقبل إلا الإسلام وهذه نصرة عظيمة وهذه سنة الله تعالى فى خلقه فى قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين فى الدنيا ويقر أعينهم ممن آذاهم .

ولقد قال جل فى علاه لنبيه محمد ﷺ مبيناً له أنه سبحانه لابد أن ينتقم من المشركين إما حال حياته أو بعد موته **﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون * فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ﴾**[2] .

---

(١) سورة ياسين الآية : ٨١ .

(٢) سورة الزخرف الآيات : ٤١ ـ ٤٣ .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله - تبارك وتعالى - من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالحرب »[1] وفى الحديث الآخر « إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب » ولهذا أهلك الله - عز وجل - قوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط ، وأهل مدين وأشباههم وأحزابهم ممن كذب الرسل وخالف الحق وأنجى الله تعالى - من بينهم المؤمنين فلم يهلك منهم أحداً وعذب الكافرين فلم يفلت منهم أحداً .

وقال السدى لم يبعث الله - عز وجل - رسولا قط إلى قوم فيقتلونه أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله - تبارك وتعالى - لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك به فى الدنيا قال : فكانت الأنبياء والمؤمنون يقتلون فى الدنيا وهم منصورون فيها وهكذا نصر الله نبيه محمدا - ﷺ - وأصحابه على من خالفه وناوأه وكذبه وعاداه فجعل كلمته هى العليا ودينه هو الظاهر على سائر الأديان ، وأمره بالهجرة من بين ظهرانى قومه إلى المدينة النبوية وجعل له فيها أنصار وأعواناً ، ثم منحه أكتاف المشركين يوم بدر فنصره عليهم ، وخذلهم وقتل صناديدهم ، وأسر سراتهم فاستاقهم ، مقرنيين فى الأصفاد ، ثم منَّ عليهم بأخذه الفداء منهم ، ثم بعد مدة قريبة فتح عليه مكة فقرت عينه ببلده وهو البلد الحرام المشرف المعظم فأنقذه الله - تعالى - به مما كان فيه من الكفر والشرك وفتح له اليمن ، ودانت له الجزيرة العربية ، بكمالها ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ثم قبضه الله تعالى إليه لماله عنده من الكرامة العظيمة فأقام الله - تبارك وتعالى - أصحابه خلفاء بعده فبلغوا عنه دين الله - عز وجل - ودعوا عباد الله - تعالى - إلى الله - جل وعلا - وفتحوا البلاد والأقاليم ، والمدائن والقرى والقلوب حتى انتشرت الدعوة المحمدية فى مشارق الأرض ومغاربها ، ثم لايزال هذا الدين قائما منصورا ظاهراً إلى يوم القيامة ولهذا قال تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾ أى : يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل قال مجاهد : الأشهاد : الملائكة .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم** ﴾ وهم المشركون لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ **ولهم اللعنة** ﴾ أى : الإبعاد والطرد من الرحمة ، (ولهم سوء الدار) وهى النار قاله السدى : بئس المنزل والمقيل .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى اسرائيل الكتاب * هدى وذكرى لأولى الألباب** ﴾ .

أى : ولقد أعطينا موسى من المعجزات والشرائع ما يهتدى به الناس فى الدنيا والآخرة ، وأنزلنا عليه التوراة هدى لقومه ، فتوارثوها خلفا عن سلف وصارت هداية لهم وتذكرة لأولى العقول السليمة التى بعدت من شوائب التقليد والوهم .

وقوله تعالى : ﴿ **فاصبروا إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار * إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو**

---

(١) صحيح البخارى - كتاب الرقاق - باب التواضع ١٣١/٨ .

السميع البصير ﴾ بعد أن بين سبحانه أنه ينصر رسله والمؤمنين وضرب لذلك مثلاً بحال موسى خاطب نبيه محمدا - ﷺ - بقوله : (فاصبر ان وعد الله حق) أى : فاصبر أيها الرسول لأمر ربك ، وبلغ قومك ومن أمرت بإبلاغه ما أنزل إليك وأيقن بأن الله منجزه وعده ، وناصرك وناصر من صدقك وآمن بك ، على من كذبك وأنكر ما جئت به من عند ربك . (واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشى والإبكار) وسل ربك غفران ذنبك وعفوه عنك وصلِّ شكرا له طرفى النهار . وهذا كقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾(١) وكقوله تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾(٢) .

ولما ابتدأ - عز اسمه - بالرد على الذين يجادلون فى آيات الله واتصل الكلام بعضه ببعض على النسق المتقدم ، نبه هنا إلى السبب الذى يحملهم على تلك المجادلة فقال : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه** ﴾ أى : إن الذين يخاصمونك أيها الرسول فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات بغير حجة - ما يحملهم على هذا الجدل إلا كِبرٌ فى صدورهم يمنعهم عن اتباعك وعن قبول الحق الذى جئتهم به ، إذ لو سلموا بنبوتك لزمهم أن يكونوا تحت لوائك وطوع أمرك ونهيك ، لأن النبوة ملك ورياسة وهم فى صدورهم كبر لا يرضون معه أن يكونوا فى خدمتك ، وما هم ببالغى موجب الكبر وهو دفع الرياسة والنبوة عنك ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء وليس ذلك بالذى يدرك بالأمانى . ثم أمر رسوله أن يستعيذ من هؤلاء المجادلين المتكبرين ، فيقيه من أذاهم وشرهم ويكلؤه ويحفظه منهم فقال : ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ أى : فالتجىء إلى الله - تعالى - فى دفع كيد من يشنؤك ويبغى عليك فهو السميع لأقوالهم ، البصير بأفعالهم ، لا يخفى عليه شىء منها .

قوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون * وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما تتذكرون * إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ .

﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ أى : لخلق السموات والأرض ابتداء من غير سبق مادة - أعظم فى النفوس وأجل فى الصدور ، من خلق الناس لكبر أجرامها ، واستقرارهما من غير عمد ، وجريان الأفلاك بالكواكب بلا سبب ، وقد جرت العادة فى مزاولة الأفعال أن علاج الشىء الكبير العظيم أشق من علاج الشىء الصغير ، فمن قدر على ذلك قدر على ما دونه كما قال - عز وجل - ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شىء قدير ﴾(٣) ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعا

---

(١) سورة ق الآيتان : ٣٩ ، ٤٠ .
(٢) سورة طه الآية : ١٣٠ .
(٣) سورة الأحقاف الآية : ٣٣ .

لكم ولأنعامكم ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج * تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾[٢]

قوله تعالى : ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعادا وكفرا وعنادا وقد اعترفوا بما هو أولى بما أنكروا . ثم قال تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلا ما تتذكرون ﴾ أى : كما لا يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئا والبصير الذى يرى ما انتهى إليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار والكفرة الفجار . (قليلا ماتتذكرون) أى : ما أقل ما يتذكر كثير من الناس ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾[٣] وكقوله تعالى فى سورة هود بعد ماتحدث عن الكافرين والمؤمنين ﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾[٤] . وكقوله تعالى : ﴿ وما خلقنا السماء والأض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾[٥] وكقوله جل فى علاه : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[٦] وكقوله عز وجل : ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون * أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون * وأما الذين كفروا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ﴾[٧] .

قوله تعالى : ﴿ إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾[٨] أى : أن يوم القيامة الذى يحيى فيه الله الموتى للثواب والعقاب لآت لاشك فيه ، فأيقنوا بمجيه ، وأنكم مبعوثون من بعد مماتكم ، ومجازون بأعمالكم ، فتوبوا إلى ربكم واشكروا له جزيل إنعامه ، ليدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أى : ولكن أكثر الناس لا يصدقون بمجيئه ومن ثم ركبوا رءوسهم وعاثوا فى الأرض فسادا ، واجترحوا السيئات دون خوف الرقيب الحسيب . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[٩] .

قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[١٠]

(١) سورة النازعات الآيات : ٢٧ ـ ٣٣ .
(٢) سورة ق الآيات : ٦ ـ ٨ .
(٣) سورة فاطر الآيات : ١٩ ـ ٢٢ .
(٤) سورة هود الآية : ٢٤ .
(٥) سورة ص الآيات : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٦) سورة الجاثية الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٧) سورة السجدة الآيات : ١٨ ـ ٢٠ .
(٨) سورة غافر الآية : ٥٩ .
(٩) سورة الحج الآيتان : ٦ ، ٧ .
(١٠) سورة غافر الآية : ٦٠ .

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة . قال الإمام أحمد عن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ ـ « إن الدعاء هو العبادة » ثم قرأ ﴿ ادعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[١] وهكذا رواه أصحاب السنن وقال الترمذى . حسن صحيح .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم يسأل الله يغضب عليه »[٢] .

وقال : الحافظ أبو الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزى بسنده عن محمد بن سعيد قال : لما مات محمد ابن سلمة الأنصارى وجدنا فى ذؤابة سيفه كتابا بسم الله الرحمن الرحيم سمعت رسول الله ﷺ ـ يقول : « إن لربكم فى بقية أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها »[٣] لعل دعوة أن توافق رحمة فيسعد بها صاحبها سعادة لا يخسر بعدها أبداً .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾[٤] وقال بعض السلف : ان الله تعالى يجيب كل الدعاء ، فإما أن يعجل الإجابة فى الدنيا ، وإما أن يكفر عن الداعى وإما أن يدّخر له فى الآخرة ، لما رواه أبو سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطعية رحم إلا أعطاه الله بها ثلاثاً : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخّر له ثوابها ، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها »[٥] .

واعلم أن إجابة الدعاء لابد لها من شروط ، فشرط الداعى أن يكون عالماً بأن لا قادر إلا الله ، وأن الوسائط فى قبضته ومسخرة بتسخيره ، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب ، فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه ، وأن يكون متجنباً لأكل الحرام ، ولا يمل من الدعاء .

ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً كما قال عليه الصلاة والسلام « ما لم يدع بإثم ، أو قطعية رحم »[٦] فيدخل فى الإثم كل ما يأثم به من الذنوب ، ويدخل فى الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم » .

قال ابن عطاء الله : إن للدعاء أركانا ، وأجنحة ، وأسبابا ، وأوقاتا ، فإن وافق أركانه قوى ، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء ، وإن وافق مواقيته فاز ، وإن وافق أسبابه نجح ، فأركانه حضور القلب والخشوع ، وأجنحته الصدق ، ومواقيته الأسحار ، وأسبابه الصلاة على النبى ﷺ .

---

(١) مسند أحمد ٢٧١/٤ والترمذى ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب سورة البقرة ٢١١/٥ رقم ٢٩٦٩ وابن ماجه كتاب الدعاء ـ باب فضل الدعاء رقم ٣٨٢٨ وقال الترمذى : حسن صيحح .

(٢) مسند أحمد ٤٤٢/٢ .

(٣) أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول والطبرانى فى الأوسط من حديث محمد بن مسلمة وابن أبى الدنيا فى كتاب الفرج من حديث أبى هريرة واختلف فى إسناده .

(٤) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

(٥) مسند أحمد : ١٨/٣ .

(٦) مسند أحمد : ٣٢٩/٥ والترمذى ـ كتاب الدعاء ـ باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ١٣٠/٥ رقم ٣٤٤١ .

ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعى مستقبلا القبلة ، ويرفع يديه لما روى عن رسول الله - ﷺ - قال : « إن الله ربكم حى كريم ليستحى من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرا »[١] وأن يخفض صوته بالدعاء لقوله تعالى : ﴿ ادعو ربكم تضرعا وخفية ﴾ وعن أبى عبدالرحمن الهمدانى قال : صليت مع أبى إسحاق الفداة فسمع رجلا يجهر فى الدعاء فقال : كن كزكريا إذ نادى ربه نداء خفيا . وينبغى للداعى أن لا يتكلف ، وأن يأتى بالكلام المطبوع غير المسجوع . وقيل : ادعو بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعو بلسان الفصاحة والانطلاق . ويبدأ الدعاء بالثناء على المولى سبحانه وتعالى - ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ ويثنى بالصلاة على النبى محمد - ﷺ - وينبغى للمؤمن أن يجتهد فى الدعاء ، وأن يكون على رجاء من الإجابة ، ولا يقنط من رحمة الله لأنه يدعو كريماً عظيما قديرا ، وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة وذلك وقت السحر ، ووقت الفطر ، وما بين الأذان والإقامة ، وما بعد عصر الجمعة ، وعند نزول الغيث ، وعند التقاء الجيش فى الجهاد فى سبيل الله ، وفى الثلث الأخير من الليل ، وفى حالة السجود ، وأوقات الاضطرار وحالة السفر والمرضى هذا كله جاءت به الآثار والأخبار عن الحبيب المختار ، ﷺ .

إلهى

يامن يرى مافى الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يامن يرجّى للشدائد كلها ... يامن إليه المشتكى والمفزع
يامن خزائن رزقه فى قول كن ... امنن فإن الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقرى أدفع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة ... فلئن رددت فأى باب أقرع
ومن ذا الذى أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا لجودك أن تقنط عاصيا ... الفضل أجزل والمواهب أوسع
ثم الصلاة على النبى وآله ... خير الأنام ومن به يتشفع

إلهى

ياخالق الخلق يارب العباد ومن ... قد قال فى محكم التنزيل ادعونى
إنى دعوتك مضطرا فخذ بيدى ... ياجاعل الأمر بين الكاف والنون
نجيت أيوب من بلواه حين دعا ... بصبر أيوب ياذا اللطف نجينى
واطلق سراحى وامنن بالخلاص كما ... نجيت من ظلمات البحر ذا النون

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[٢] أى : إن الذين يستكبرون عن دعائى وتوحيدى سيدخلون جهنم دآخرين أى : صاغرين حقيرين كما قال الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى - ﷺ - قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجناً فى جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار »[٣] .

(١) سنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب الدعاء ٢/١٦٥ رقم ١٤٨٨ وسنن الترمذى - كتاب الدعاء - باب فى كرم الله تعالى ٥/٥٥٦ رقم ٣٥٥٦ وابن ماجه - كتاب الدعاء - باب رفع اليدين فى الدعاء رقم ٣٨٦٥ .

(٢) سورة غافر الآية : ٦٠ . (٣) مسند أحمد ٢/١٧٩ .

بحث فى الدعاء
للأمام ابن القيم

يحدثنا الامام ابن القيم فى كتابه الفوائد [الجزء الثالث] عن الدعاء وأنواعه فيقول رحمه الله ما نصه : قوله عز وجل : ﴿ ادعو ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين * ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[1] .

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعى الدعاء : دعاء العبادة ودعاء المسألة ، فإن الدعاء فى القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان ، فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعى وطلب كشف ما يضره أو دفعه ، وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا ، والمعبود لابد وأن يكون مالكا للنفع والضر ، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه مالا يملك ضرا ولا نفعا ، وذلك كثير فى القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ قل أتعبدون من دون الله مالا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ قال أفتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرون ﴾[6] وقوله تعالى : ﴿ واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا ﴾[8] .

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدى فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم . وهذا فى القرآن كثير بين أن المعبود لابد أن يكون مالكا للنفع والضر ، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ، ويدعى خوفا ورجاء دعاء عبادة . فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة . وعلى هذا فقول تعالى ﴿ وإذاسألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾[9] يتناول نوعى الدعاء وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألنى ، وقيل : أثيبه إذا عبدنى ، والقولان متلازمان وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك فى معنييه كليهما ، أو استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه ، بل هذا استعمال له فى حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً ، فتأمله فإنه موضع عظيم النفع قل من يفطن له وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً هى من هذا القبيل .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٥٥ ، ٥٦ .
(٢) سورة يونس الآية : ١٨ .
(٣) سورة يونس الآية : ١٠٦ .
(٤) سورة المائدة الآية : ٧٦ .
(٥) سورة الأنبياء الآيتان : ٦٦ ، ٦٧ .
(٦) سورة الشعراء الآيات : ٦٩ - ٧٣ .
(٧) سورة الفرقان الآية : ٣ .
(٨) سورة الفرقان الآية : ٥٥ .(٩) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم ﴾ قيل : لولا دعاؤكم إياه ، وقيل : دعاؤه إياكم إلى عبادته ، فيكون المصدر مضافا إلى المفعول وعلى الأول مضافا إلى الفاعل ، وهو الأرجح من القولين . وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء ، وهو فى دعاء العبادة أظهر ، أى : ما يعبأ بكم ربى لولا أنكم تعبدونه ، وعبادته تستلزم مسألته . فالنوعان داخلان فيه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وقال ربكم ادعونى أستجب لكم ﴾ فالدعاء يتضمن النوعين ، وهو فى دعاء العبادة أظهر ، ولهذا عقبه بقوله : ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[٢] فسر الدعاء فى الآية بهذا وهذا .

وقد روى سفيان عن منصور عن ذر عن فسيح الكندى عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : على المنبر « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (ادعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح[٣] وأما قوله تعالى : ﴿ ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ﴾[٤] وقوله : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا ﴾[٥] وقوله : ﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾[٦] وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم وآلهتهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة فهو فى دعاء العبادة أظهر لوجوه ثلاثة :

أحدها : أنهم قالوا : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[٧] فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم هو عبادتهم لهم .

الثانى : أن الله تعالى فسر هذا الدعاء فى مواضع آخر بأنه العبادة كقوله : ﴿ وقيل لهم أينما كنتم تعبدون * من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾[٨] وقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾[٩] وقوله ﴿ قل ياأيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون ﴾[١٠] وهو كثير فى القرآن ، فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم لها .

الثالث : أنهم إنما كانوا يعبدونها ويتقربون بها إلى الله ، فإذا جاءتهم الحاجات والكربات الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ، ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها ، وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة .

وقوله تعالى : ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ﴾[١١] هو دعاء العبادة والمعنى اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٧٧ . (٢) سورة غافر الآية : ٦٠ .
(٣) سنن الترمذى ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب سورة البقرة ٥/٢١١ رقم ٢٩٦٩ .
(٤) سورة الحج الآية : ٧٣ . (٨) سورة الشعراء الآية : ٩٢ .
(٥) سورة النساء الآية : ١١٧ . (٩) سورة الأنبياء الآية : ٩٨ .
(٦) سورة فصلت الآية : ٤٨ . (١٠) سورة الكافرون الآيتان : ١ ، ٢ .
(٧) سورة الزمر الآية : ٣ . (١١) سورة غافر الآية : ١٤ .

وأما قول ابراهيم الخليل - ﷺ - : ﴿ إن ربى لسميع الدعاء ﴾[(١)] فالمراد بالسمع هنا السمع الخاص وهو سمع الإجابة والقبول لا السمع العام ، لأنه سميع لكل مسموع . وإن كان كذلك فالدعاء هنا يتناول دعاء الثناء ودعاء الطلب ، وسمع الرب تبارك وتعالى له إثابته على الثناء وإجابته للطلب فهو سميع لهذا وهذا .

وأما قول زكريا : ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقيا ﴾[(٢)] فقد قيل إنه دعاء المسألة والمعنى : إنك عودتنى إجابتك وإسعافك ، ولم تشقنى بالرد والحرمان . فهو توسل إليه تعالى بما سلف من إجابته وإحسانه . كما حكى أن رجلا سأل رجلا وقال أنا الذى أحسنت إلىَّ وقت كذا وكذا ، فقال : مرحبا بمن توسل إلينا بنا ، وقضى حاجته . وهذا ظاهر هنا .

ويدل عليه أنه قدم ذلك أمام طلبه الولد وجعله وسيلة إلى ربه ، فطلب منه أن يجاريه على عادته التى عوده من قضاء حوائجه وإجابته إلى ما سأله .

وأما قوله تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا مَّا تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[(٣)] فهذا الدعاء المشهور وأنه دعاء المسألة وهو سبب النزول .

قالوا كان النبى ﷺ يدعو ربه فيقول مرة : يا الله ، ومرة يا رحمن ، فظن الجاهلون من المشركين أنه يدعو إلهين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال ابن عباس : سمع المشركون النبى ﷺ يدعو فى سجوده يا رحمن يا رحيم فقالوا هذا يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو مثنى مثنى ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾[(٤)] .

وقيل : إن الدعاء هنا بمعنى التسمية ، كقولهم دعوت ولدى سعيدا وأدعه بعبد الله ونحوه . والمعنى سموا الله أو سموا الرحمن . فالدعاء ههنا بمعنى التسمية ، وهذا قول الزمخشرى . والذى حمله على هذا قوله تعالى : ﴿ أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ فإن المراد بتعدده معنى أى وعمومها ههنا تعدد الأسماء ليس إلا . والمعنى أى اسم سميتوه به من أسماء الله تعالى ، إما الله وإما الرحمن فله الأسماء الحسنى ، أى فللمسمى سبحانه الأسماء الحسنى ، والضمير فى (له) يعود إلى المسمى فهذا الذى أوجب له أن يحمل الدعاء فى هذه الآية على التسمية . وهذا الذى قاله هو من لوازم المعنى المراد بالدعاء فى الآية وليس هو عين المراد ، بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد فى القرآن وهو دعاء السؤال ودعاء الثناء ولكنه متضمن معنى التسمية فليس المراد مجرد التسمية الخالية عن العبادة والطلب ، بل التسمية الواقعة فى دعاء الثناء والطلب . فعلى هذا يصح أن يكون فى تدعو معنى تسمو فتأمله . والمعنى أيا ماتسمو فى ثنائكم ودعائكم وسؤالكم . والله أعلم .

وأما قوله تعالى : ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾[(٥)] فهذا دعاء العبادة المتضمن

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٣٩ .
(٢) سورة مريم الآية : ٤ .
(٣) سورة الإسراء الآية : ١١٠ .
(٤) تفسير الطبرى ١٢١/١٥ .
(٥) سورة الطور الآية : ٢٨ .

للسؤال رغبة ورهبة . والمعنى إنا كنا من قبل نخلص له العبادة ، وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم ، لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجى وغيره . فإن الله سبحانه يسأله من فى السموات ومن فى الأرض ، والفوز والنجاة إنما هى بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب .

وكذلك قول الفتية أصحاب الكهف ﴿ ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً ﴾[1] أى لن نعبد غيره .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾[2] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴾[3] فهذا من دعاء المسألة يباكتهم الله عز وجل ويخزيهم يوم القيامة بإرادتهم ، أن شركاءهم لا يستجيبون لدعوتهم ، وليس المراد اعبدوهم . وهو نظير قوله تعالى : ﴿ ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾[4] .

وهذا التقرير نافع فى مسألة الصلاة ، وأنها نقلت عن مسماها فى اللغة فصارت حقيقة شرعية منقولة أو استعملت فى هذه العبارة مجازا للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوى ، أو هى باقية على الوضع اللغوى وضم إليها أركان وشرائط . وعلى ما قررناه لا حاجة إلى شىء من ذلك ، فإن المصلى من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء ، إما دعاء عبادة وثناء ، أو دعاء طلب ومسألة ، وهو فى الحالين داع . فما خرجت الصلاة عن حقيقة الدعاء فتأمله . إذا عرف هذا فقوله تعالى : ﴿ ادعوا ربكم تضرعا وخفية ﴾[5] يتناول نوعى الدعاء ، لكنه ظاهر فى دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة ، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره قال الحسن : بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفا . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ وأن الله ذكر عبدا صالحا ورضى بفعله فقال : ﴿ إذ نادى ربه نداء خفيا ﴾[6] .

وفى إخفاء الدعاء فوائد عديدة :

أحدها : أنه أعظم إيمانا ، لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع دعاءه الخفى وليس كالذى قال إن الله يسمع إن جهرنا ولا يسمع إن أخفينا .

وثانيها : أنه أعظم فى الأدب والتعظيم ، ولهذا لا تخاطب الملوك ولا تسأل برفع الأصوات ، وإنما تخفض عندهم الأصوات ، ويخف عندهم الكلام بمقدار ما يسمعونه . ومن رفع صوته لديهم مقتوه . ولله المثل الأعلى فإذا كان يسمع الدعاء الخفى فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به .

وثالثها : أنه أبلغ فى التضرع والخشوع الذى هو روح الدعاء ولبه ومقصوده فإن الخاشع الذليل الضارع إنما يسأل مسألة مسكين ذليل ، قد انكسر قلبه ، وذلت جوارحه ، وخشع صوته ، حتى أنه ليكاد

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٤ .
(٢) سورة الصافات الآية : ١٢٥ .
(٣) سورة القصص الآية : ٦٤ .
(٤) سورة الكهف الآية : ٥٢ .
(٥) سورة الأعراف الآية : ٥٥ .
(٦) سورة مريم الآية : ٣ .

تبلغ به ذلته ومسكنته وكسره وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق ، فقلبه سائل طالب مبتهل ، ولسانه لشدة ذله وضراعته ومسكنته ساكت ، وهذه الحالة لا يتأتى معها رفع الصوت بالدعاء أصلا .

ورابعها : أنه أبلغ فى الإخلاص .

وخامسها : أنه أبلغ فى جمعية القلب على الله فى الدعاء ، فإن رفع الصوت يفرقه ويشتته ، فكلما خفض صوته كان أبلغ فى حمده وتجريد همته وقصده للمدعو سبحانه وتعالى :

وسادسها : وهو من النكت السرية البديعة جداً ، أنه دال على قرب صاحبه من الله ، وأنه لا قترابه منه وشدة حضوره يسأله مسألة أقرب شىء إليه فيسأله مسألة مناجاة القريب للقريب ، لا مسألة نداء البعيد للبعيد ، ولهذا أثنى سبحانه على عبده زكريا بقوله : ﴿ **إذ نادى ربه نداء خفياً** ﴾ .

فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه ، وأنه أقرب إليه من كل قريب وتصور ذلك ، أخفى دعاءه ما أمكنه ، ولم يتأت له رفع الصوت به ، بل يراه غير مستحسن ، كما أن من خاطب جليسا له يسمع خفى كلامه فبالغ فى رفع الصوت استهجن ذلك منه ، ولله المثل الأعلى .

وقد أشار النبى ﷺ إلى هذا المعنى بعينه بقوله فى الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه فى السفر فقال : « أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾[(١)] وقد جاء أن سبب نزولها أن الصحابة قالوا : يا رسول الله ، ربنا قريب فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل : (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان)[(٢)] .

وهذا يدل على إرشادهم للمناجاة فى الدعاء لا للنداء الذى هو رفع الصوت فإنهم عن هذا سألوا فأجيبوا بأن ربهم تبارك وتعالى قريب لا يحتاج فى دعائه وسؤاله إلى النداء ، وإنما يسأل مسألة القريب المناجى لا مسألة البعيد المنادى ، وهذا القرب من الداعى هو قرب خاص ليس قربا عاما من كل أحد ، فهو قريب من داعيه ، وقريب من عابده ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وهو أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة الذى لم يثبت أكثر المتكلمين سواه ، بل هو قرب خاص من الداعى والعابد كما قال النبى ﷺ راوياً عن ربه تبارك وتعالى : « من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً » فهذا قربه من عابده .

وأما قربه من داعيه وسائله فكما قال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾ وقوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعاً وخفية** ﴾ فيه الإشارة والإعلام بهذا القرب .

وأما قربه تبارك وتعالى من محبه فنوع آخر ، وبناء آخر ، وشأن آخر كما ذكرناه فى كتاب التحفة المكية ، على أن العبارة تنبو عنه ، ولا تحصل فى القلب حقيقة معناه أبداً ، لكن بحسب قوة المحبة وضعفها

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٦ .

(٢) أنظر ابن كثير طبعة الشعب ٣١٣/١ .

يكون تصديق العبد بهذا القرب . وإياك ثم إياك أن تعبر عنه بغير العبارة النبوية ، أو يقع فى قلبك غير معناها ومرادها . فتزل قدم بعد ثبوتها .

وقد ضعف تمييز خلائق فى هذا المقام وساء تعبيرهم ، فوقعوا فى أنواع من الطامات والشطح ، وقابلهم من غلظ حجابه فأنكر محبة العبد لربه جملة وقربه منه ، وأعاد ذلك إلى مجرد الثواب المخلوف ، فهو عنده المحبوب القريب ليس إلا .

وقد ذكرنا من طرق الرد على هؤلاء وهؤلاء ، فى كتاب التحفه أكثر من مائة طريق والمقصود هنا الكلام على هذه الآية .

وسابعها : أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال ، فإن اللسان لا يمل والجوارح لا تتعب بخلاف ما إذا رفع صوته ، فإنه قد يكل لسانه وتضعف بعض قواه . وهذا نظير من يقرأ و يكرر رافعاً صوته فإنه لا يطول له ذلك بخلاف من يخفض صوته .

وثامنها : أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات والمضعفات ، فإن الداعى إذا أخفى دعاءه لم يدر به أحد ، فلا يحصل هناك تشويش ولا غيره ، وإذا جهر به تفطنت له الأرواح الشريرة والخبيثة من الجن والانس فشوشت عليه ولابد ، وما نعته وعارضته . ولو لم يكن إلا أن تعلقها به يفرق عليه همته فيضعف أثر الدعاء لكفى . ومن له تجربة يعرف هذا . فإذا أسر الدعاء وأخفاه أمن هذه المفسدة .

وتاسعها : أن أعظم النعم الإقبال على الله ، والتعبد له ، والانقطاع إليه ، والتبتل إليه ، ولكل نعمة حاسد على قدرها ، دقت أو جلت ، ولا نعمة أعظم من هذه النعمة . فأنفس الحاسدين المنقطعين متعلقة بها ، وليس للمحسود أسلم من إخفاء نعمته عن الحاسد ، وأن لا يقصد إظهارها له . وقد قال يعقوب ليوسف : ﴿ لا تقصص رؤ ياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين ﴾[1] وكم من صاحب قلب وجمعية وحال مع الله قد تحدث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيار ، فأصبح يقلب كفيه . ولهذا يوصى العارفون والشيوخ بحفظ السر مع الله ، وأن لا يطلعوا عليه أحداً ، ويتكتمون غاية التكتم . كما أنشد بعضهم فى ذلك :

من سارروه فأبدى السر مجتهدا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لايأمنون مذيعا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذلكم حاشا

والقوم أعظم شىء كتماناً لأحوالهم مع الله وما وهب الله لهم من محبته والأنس به وجمعية القلب عليه ، ولا سيما للمبتدى والسالك فإذا تمكن أحدهم وقوى وثبتت أصول تلك الشجرة الطيبة التى أصلها ثابت وفرعها فى السماء فى قلبه ، بحيث لا يخشى عليه من العواصف فإنه إذا أبدى حاله وشأنه مع الله ليقتدى به ويؤتم به لم يبال ، وهذا باب عظيم النفع وإنما يعرفه أهله .

---

(١) سورة يوسف الآية : ٥ .

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبال على الله فهو من أعظم الكنوز التى هى أحق بالإخفاء والستر عن أعين الحاسدين وهذه فائدة شريفة نافعة .

وعاشرها : أن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه ، متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وأوصافه ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمى دعاء ، لتضمنه الطلب ، كما قال النبى ﷺ : « أفضل الدعاء الحمد لله »[١] فسمى « الحمد لله » دعاء وهو ثناء محض ، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء ، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب ، فالحامد طالب لمحبوبه ، فهو أحق أن يسمى داعيا من السائل الطالب من ربه حاجة ما . فتأمل هذا الموضع ولا تحتاج إلى ما قيل إن الذاكر متعرض للنوال ، وإن لم يكن مصرحاً بالسؤال فهو داع بما تضمه ثناؤه من التعرض ، كما قال أميه بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى حباؤك أن شيمتك الحياء
إذا أثنى عليك المرء يوما كفاه من تعرضه الثناء

وعلى هذه الطريقة التى ذكرناها فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب وهو طلب المحب ، فهو دعاء حقيقة ، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذى هو دونه .

والمقصود أن كل واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه . وقد قال الله تعالى : ﴿ واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول ﴾[٢] فأمر تعالى نبيه أن يذكره فى نفسه . قال مجاهد وابن جريج : أمر أن يذكره فى الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت أو الصياح .

وتأمل كيف قال فى آية الذكر : ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة** ﴾ وفى آية الدعاء : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ فذكر التضرع فيهما معاً وهو التذلل والتمسكن والانكسار وهو روح الذكر والدعاء ، وخص الدعاء بالخفية لما ذكرناه من الحكم وغيرها ، وخص الذكر بالخفية لحاجة الذاكر إلى الخوف . فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولابد فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته . والمحبة ما لم تقرب بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل قد تضره ، لأنها توجب الإدلال والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات وقالوا المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب ، وإقباله على الله ومحبته له وتألهه له ، فإذا حصل المقصود فالاشتغال بالوسيلة باطل . ولقد حدثنى رجل أنه أنكر على رجل من هؤلاء خلوه له ترك فيها حضور الجمعة ، فقال له الشيخ : أليس الفقهاء يقولون إذا خاف على شىء من ماله فإن الجمعة تسقط عنه ؟ فقال له بلى ، فقال له : فقلب المريد أعز عليه من ضياع عشرة دراهم أو كما قال ، وهو إذا خرج ضاع قلبه فحفظه لقلبه عذر مسقط للجمعة فى حقه ، فقال له : هذا غرور بل الواجب عليه الخروج إلى أمر الله وحفظ قلبه مع الله . فالشيخ المربى العارف يأمر المريد بأن يخرج إلى الأمر ويراعى حفظ قلبه أو كما قال .

فتأمل هذا الغرور العظيم كيف آل بهؤلاء إلى الانسلاخ عن الإسلام جملة . فان من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحية من قشرها ، وهو يظن أنه من خاصته الخاصة . وسبب

(١) سنن الترمذى ـ أبواب الدعوات ـ باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة ١٣٠/٥ رقم ٣٤٤٣ وابن ماجة ـ كتاب الأدب ـ باب فضل الحامدين ١٢٤٩/٢ رقم ٣٨٠٠ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ٢٠٥ .

هذا عدم اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته ولهذا قال بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء ، ومن عبده بالخوف والحب والرجاء فهو مؤمن ، وهذه المقامات الثلاث فى قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾[1] . فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه ، ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف ، فهذه طريقة عباده وأوليائه . وربما آل الأمر بمن عبده بالحب المجرد إلى استحلال المحرمات ويقول المحب لا يضره ذنب . . والمقصود أن تجريد الحب والذكر عن الخوف يوقع فى هذه المعاطب ، فإذا اقترن بالخوف جمعه على الطريق ورده إليها كلما شرد ، فكأن الخوف سوط يضرب به مطيته لئلا تخرج عن الدرب ـ والرجاء حاد يحدوها يطيب لها السير ، والحب قائدها وزمامها الذى يسوقها . فإذا لم يكن للمطية سوط ولا عصى يردها إذا حادت عن الطريق وتركت تركب التعاسيف خرجت عن الطريق وضلت عنها . فما حفظت حدود الله ومحارمه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته فمتى خلا القلب عن هذه الثلاثة فسد فسادا لا يرضى صلاحه أبداً ، ومتى ضعف فيه شىء من هذه ضعف إيمانه بحسبه .

فتأمل أسرار القرآن وحكمته فى اقتران الخفية بالذكر والخفية فى الدعاء مع دلالته على اقتران الخيفة بالدعاء والخفية بالذكر أيضا . فإنه قال ﴿ **واذكر ربك فى نفسك** ﴾ فلم يحتج بعدها أن يقول خفية ، وقال فى الدعاء ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾[2] فلم يحتج أن يقول فى الأول ادعوا ربكم تضرعا وخفية . فانتظمت كل واحدة من الآيتين للخفية والخفية والتضرع أحسن إنتظام ودلت على ذلك أكمل دلالة .

وذكر الطمع الذى هو الرجاء فى آية الدعاء لأن الدعاء مبنى عليه ، فإن الداعى ما لم يطمع فى سؤله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه ، إذ طلب ما لاطمع فيه ممتنع . وذكر الخوف فى آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه كما تقدم ، فذكر فى كل آية ما هو اللائق بها والأولى بها من الخوف والطمع فتبارك من أنزل كلامه شفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

وقوله تعالى : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ قيل المراد : أنه لا يحب المعتدين فى الدعاء كالذى يطلب ما لايليق به من منازل الأنبياء وغير ذلك .

وقد روى أبو داود فى سننه أن عبد الله بن مغفل سمع ابنه يقول : « اللهم إنى أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال يا بنى سل الله الجنة وتعوذ به من النار . فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون فى هذه الأمة قوم يعتدون فى الطهور والدعاء »[3] .

وعلى هذا فالاعتداء فى الدعاء تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة على المحرمات وتارة بأن يسأله ما لايفعله الا الله ، مثل أن يسأله تخليده إلى يوم القيامة أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجه إلى الطعام والشراب ، أو يسأله أن يطلعه على غيبه ، أو يسأله أن يجعله من المعصومين ونحو ذلك

(١) سورة الإسراء الآية : ٥٧ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٦ .

(٣) سنن أبى داود ـ كتاب الطهارة ـ باب الإسراف فى الماء ١/٧٣ رقم ٩٦ .

مما سؤاله اعتداء ، فكل سؤال يناقض حكمة الله ، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره ، أو يتضمن خلاف ما أخبر به ، فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله .

وفسر الاعتداء برفع الصوت أيضا فى الدعاء ، قال ابن جريج : من الاعتداء رفع الصوت فى الدعاء والنداء فى الدعاء والصياح .

وبعد ، فالآية أعم من ذلك كله ، وإن كان الاعتداء فى الدعاء مراراً بها فهو من جملة المراد . والله لا يحب المعتدين فى كل شىء دعاء كان أو غيره كما قال : ﴿ ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين ﴾[1] وعلى هذا فيكون قد أمر بدعائه وعبادته ، وأخبر أنه لا يحب أهل العدوان ، وهم الذين يدعون معه غيره فهؤلاء أعظم المعتدين عدوانا ، فإن أعظم العدوان الشرك وهو وضع العبادة فى غير موضعها . فهذا العدوان لابد أن يكون داخلا فى قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ .

ومن العدوان أن يدعوه غير متضرع - بل دعاء مُدل كالمستغنى بما عنده ، المدل على ربه به ، وهذا من أعظم الاعتداء المنافى لدعاء الضارع الذليل الفقير المسكين من كل جهة فى مجموع حالاته ، فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف فهو معتد .

ومن الاعتداء أن تعبده بما لم يشرعه ، وتثنى عليه بما لم يثن به على نفسه ولا أذن فيه ، فإن هذا الاعتداء فى دعاء الثناء والعبادة ، وهو نظير إعتداء فى دعاء المسألة والطلب .

وعلى هذا فتكون الآية دالة على شيئين : أحدهما محبوب للرب تبارك وتعالى مرضى له وهو الدعاء تضرعاً وخفية . والثانى مكروه له مبغوض مسخوط وهو الاعتداء . فأمر بما يحبه وندب إليه ، وحذر مما يبغضه وزجر عنه بما هو أبلغ طرق الزجر والتحذير . وهو أنه لا يحب فاعله ، ومن لم يحبه الله فأى خير ناله . وفى قوله : ﴿ **إنه لا يحب المعتدين** ﴾ عقب قوله : ﴿ **ادعوا ربكم تضرعا وخفية** ﴾ دليل على أن من لم يدعه تضرعا وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم . فقسمت الآية الناس قسمين : داع لله متضرعاً وخفية ومعتد بترك ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾[2] قال أكثر المفسرين : لا تفسدوا فيها بالمعاصى والدعاء إلى غير طاعة الله ، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل ، وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله ، فإن عبادة غير الله ، والدعوة إلى غيره ، والشرك به هو أعظم فساد فى الأرض ، بل فساد الأرض فى الحقيقة إنما هو الشرك به ومخالفة أمره قال تعالى : ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ﴾[3] .

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح فى الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله ، وكل شر فى العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة رسوله والدعوة إلى غير الله ورسوله ومن تدبر هذا حق القدير ، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وجد هذا الأمر كذلك فى خاصة نفسه وفى حق غيره عموما وخصوصا . ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٥ .
(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٦ .
(٣) سورة الروم الآية : ٤١ .

وقوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ إنما كرر الأمر بالدعاء لما ذكره معه من الخوف والطمع . فأمر أولاً بدعائه تضرعاً وخفية ، ثم أمر بأن يكون الدعاء أيضاً خوفاً وطمعاً ، وفصل بين الجملتين بجملتين ، إحداهما خبرية ومتضمنة للنهى وهى قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ والثانية طلبية وهى قوله : ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ والجملتان مقررتان مقويتان للجملة الأولى ، مؤكدتان لمضمونها . ثم لما تم تقريرها . وبيان ما يضادها ويناقضها أمر بدعائه خوفاً وطمعاً . ثم قرر ذلك وأكد مضمونه بجملة خبرية وهى قوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[1] فتعلق هذه الجملة بقوله ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ كتعلق قوله : ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ بقوله : ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ .

ولما كان قوله تعالى : ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ مشتملا على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهى الحب والخوف والرجاء ، عقبها بقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ أى إنما ينال من دعاه خوفاً وطمعاً فهو المحسن والرحمة قريب منه ، لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة .

وقوله تعالى : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ فيه تنبيه ظاهر على فعل هذا المأمور به هو الإحسان المطلوب منكم ، ومطلوبكم أنتم من الله هو رحمته ، ورحمته قريب من المحسنين الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه خوفاً وطمعاً ، فقرب مطلوبكم منكم وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه منكم وهو الإحسان الذى هو فى الحقيقة إحسان إلى أنفسكم ، فإن الله هو الغنى الحميد ، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم . وقوله : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ له دلالة بمنطوقه ، ودلالة بإيمائه وتعليله ، ودلالة بمفهومه . فدلالته بمنطوقه على قرب الرحمة من أهل الإحسان ، ودلالته بتعليله وإيمائه على أن هذا القرب مستحق بالإحسان فهو السبب فى قرب الرحمة منهم ، ودلالته بمفهومه على بعد الرحمة من غير المحسنين . فهذه ثلاث دلالات لهذه الجملة . وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة منهم لأنها إحسان من الله أرحم الراحمين ، وإحسانه تعالى إنما يكون لأهل الإحسان ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته ، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة بعداً ببعد وقرباً بقرب ، والله سبحانه يحب المحسنين ، ويبغض من ليس من المحسنين ، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شىء منه ، ومن أبغضه فرحمته أبعد شىء منه .

والإحسان ههنا هو فعل المأمور به ، سواء كان إحسانا إلى الناس أو إلى نفسه ، فأعظم الإحسان الإيمان والتوحيد ، والإنابة إلى الله ، والإقبال عليه ، والتوكل عليه ، وأن يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة وحياء ومحبة وخشية ، فهذا هو مقام الإحسان ، كما قال النبى ﷺ وقد سأله جبريل عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » وإذا كان هذا هو الإحسان فرحمة ا لله قريب من صاحبه ، فإن الله إنما يرحم أهل توحيده المؤمنين به ، وإنما كتب رحمته للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون والذين يتبعون الرسول ، فهؤلاء هم أهل الرحمة ، كما أنهم هم المحسنون ، وكما أحسنوا جوزوا

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٦ .

بالإحسان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان يعنى هل جزاء من أحسن عبادة ربه إلا أنه يحسن ربه إليه . قال ابن عباس : هل جزاء من قال لا إله إلا الله وعمل بما جاء به محمد ﷺ إلا الجنة .

وقد ذكر ابن أبى شيبة وغيره من حديث الزبير بن عدى عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله - ﷺ - : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » ثم قال : « هل تدرون ما قال ربكم ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة »[1] .

(أ. هـ .)

قال تعالى :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ * قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

معانى المفردات

(لتسكنوا فيه) : أى لتستريحوا فيه ، (مبصراً) : أى يُبصر فيه ، (تؤفكون) تصرفون ، (قراراً) أى استقرار ، (بناء) : أى قبة (فتبارك) أى تقدس وتنزه ، (الدين) الطاعة .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٤٨٠/٧ .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أثبت سبحانه أن يوم القيامة حق ، وكان المرء لا ينتفع فيه إلا بطاعة الله والتضرع إليه وأشرف أنواع الطاعات الدعاء أى العبادة ولما كانت العبادة لا تنفع إلا إذا أقيمت الأدلة على وجود المعبود ، ذكر من ذلك تعاقب الليل والنهار وخلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان فى أحسن صورة ورزقه من الطيبات ، وبعد ذلك أمر رسوله ﷺ أن يخبرهم بأنه نهى عن عبادة غيره ، وأورد ذلك بألين قول وألطفه ، ليصرفهم عن عبادة الأوثان ، ثم بين أن سبب النهى هو البينات التى جاءته ، إذ قد ثبت بصريح العقل أن إله العالم الذى تجب عبادته هو الموصوف بصفات العظمة ، لا الأحجار المنصوبة والخشب المصورة ، ثم ذكر أنه بعد أن نهى عن عبادة غيره أمر بعبادته تعالى ، وقد ذكر من الأدلة على وجوده خلق الأنفس على أحسن الصور ورزقها من الطيبات ، ثم تكوين الجسم من ابتداء كونه نطفة وجنينا إلى الشيخوخة ثم الموت .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون * ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون * كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون * الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءاً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين * هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ .

يقول تعالى : ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذى يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم فى المعايش بالنهار وجعل النهار مبصراً أى مضيئاً ليتصرفوا فيه بالأسفار وقطع الأقطار والتمكن من الصناعات كقوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتا وجعل النهار نشوراً ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾[٥] .

ويقول جل فى علاه : ﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير

(١) سورة يونس الآية : ٦٧ .
(٢) سورة الإسراء الآية : ١٢ .
(٣) سورة النمل الآية : ٨٦ .
(٤) سورة الفرقان الآية : ٤٧ .
(٥) سورة الفرقان الآية : ٦٢ .

الله يأتيكم بليلٍ تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾(١) .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أى : لا يقومون بشكر نعم الله عليهم ، ثم قال عز وجل : ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو ﴾(٣) أى الذى فعل هذه الأشياء ، الذى قلب الليل والنهار هو الواحد القهار ، خالق كل شىء الذى لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ **فأنى تؤفكون** ﴾ أى فكيف تعبدون غيره من الأصنام والأنداد التى لا تخلق شيئاً بل هى مخلوقة منحوتة .

وقوله عز وجل : ﴿ **كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون** ﴾ أى كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله ، كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى ، وجحدوا حجج الله وآياته .

وقوله تعالى : ﴿ **الله الذى جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء** ﴾ أى : جعل الأرض مستقرا بساطا مهادا تعيشون عليها وتتصرفون فيها وتمشون فى مناكبها وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم ﴿ **والسماء بناء** ﴾ أى سقفاً للعالم محفوظا كقوله جل فى علاه : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾(٢) وكقوله سبحانه : ﴿ أمّن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون * أم مّن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم منْ الطيبات** ﴾ أى : فخلقكم فى أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ أى : من المآكل والمشارب فى الدنيا فذكر أنه خلق الدار والمكان والأرزاق فهو الخالق الرازق كما قال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾(٤) وقال ههنا بعد خلق هذه الأشياء : ﴿ **ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين** ﴾ أى فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم ، ثم قال سبحانه : ﴿ **هو الحى لا إله إلا هو** ﴾ أى : هو الحى أزلاً وأبداً ، لم يزل ولا يزال وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ لا معبود بحق إلا هو

(١) سورة القصص الآيات : ٧١ - ٧٣ .
(٢) سورة فصلت الآيات : ٩ - ١٢ .
(٣) سورة النمل الآيتان : ٦٠ ، ٦١ .
(٤) سورة البقرة الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ أى : موحدين له مقريين بأنه لا إله إلا هو ، ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ ، أى : احمدوه سبحانه فهو مالك جميع أصناف الخلق من ملك وإنس وجن ، لا الآلهة التى تعبدونها ، ولا تملك لنفسها نفعا ولا ضراً فضلا عن نفع غيرها وضره ، وعن ابن عباس أنه قال « من قال لا إله إلا الله فليقل على إثرها : الحمدلله رب العالمين » وذلك قوله : ﴿ فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ . وكان الحبيب المصطفى - ﷺ - حين يصبح يقول : « اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك فلك الحمد ولك الشكر »(١) ، ويقول ذلك أيضا فى المساء .

قال تعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ لا إله غيره ولا رب سواه .

أخرج الإمام أحمد بسنده كان عبد الله بن الزبير يقول دبر كل صلاة حين يسلِّم : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل وله الثناء والحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » قال وكان رسول الله - ﷺ - يهل بهن دبر كل صلاة »(٢) . ورواه مسلم وابن داود والنسائى .

وقوله تعالى : ﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ .

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنداد والأوثان ، وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه لذا يقول سبحانه : ﴿ وأمرت أن أسلم لرب العالمين ﴾ . أى : وأمرت أن أنقاد له تعالى وأخلص له دينى ، لا إله إلا هو رب السموات ورب الأرض رب العالمين .

ثم ذكر سبحانه الدلائل على وجوده تعالى تكوين الإنسان من ابتداء النطفة إلى وقت الشيخوخة فقال سبحانه :

﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ .

أى هو الذى خلقكم من التراب ، إذ كل انسان مخلوق من المنى ، والمنى مخلوق من الدم والدم يتولد من الأغذية ، والأغذية تنتهى إلى النبات ، والنبات يتكون من التراب والماء - ثم ذلك التراب يصير نطفة ثم علقة إلى مراتب كثيرة حتى ينفصل الجنين من بطن الأم وقد رتب سبحانه عمر الإنسان ثلاث مراتب :

---

(١) سنن أبى داود - كتاب الأدب - باب ما يقول إذا أصبح ٣١٤/٥ رقم ٥٠٧٣ .

(٢) مسند أحمد ٥/٤ ومسلم - كتاب المسلم ومواضع الصلاة ٤١٥/١ رقم ٥٩٤ وأبو داود - كتاب الصلاة ١٧٣/٢ رقم ١٥٠٦ والنسائى - كتاب الافتتاح - باب التهليل بعد التسليم ٦٩/٣ .

الطفولة ـ بلوغ الأشد ـ الشيخوخة ، ومن الناس من يتوفى قبل المرتبة الأخيرة ، وهو يفعل ذلك لتبلغوا الأجل المسمى وهو يوم القيامة ولتعقلوا ما فى التنقل فى هذه الأطوار المختلفة من فنون العبر والحكم .

وكما استدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر ـ استدل على ذلك بانتقال الإنسان من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة فقال سبحانه : ﴿ **هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾ أى قل لهم أيها الرسول : هو الذى يحيى من يشاء بعد مماته ، ويميت من يشاء من الأحياء ، وإذا أراد كون أمر من الأمور التى يريد تكوينها ، فإنما يقول له ﴿ **كن فيكون** ﴾ بلا معاناة ولا كلفة كقوله تعالى : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ فالحمد لله الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون ؟ وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون .

حال أهل النار

قال تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ
وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾
فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟
ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ
تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ
فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ
أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ
وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ

ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا
وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ
تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم
مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ
هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

معانى المفردات

(الكتاب) القرآن ، (يسحبون) أى يجرّون ، (الحميم) . الماء الحار ، (يسجرون) أى يحرقون ، يقال سجر التنور إذا ملأه بالوقود ، (ضلوا عنا) أى غابوا ، (تفرحون) أى تبطرون (تمرحون) تختالون أشراً وبطراً .

(مثوى الكافرين) مأواهم ومقامهم ، (حاجة فى صدوركم) أمراً ذا بال تهتمون به ، (حاق بهم) أحاط بهم ، (رأوا بأسنا) عاينوا شدة عذابنا فى الدنيا .

(خلت) مضت .

المناسبة والمعنى الإجمالى

عود على بدء بالتعجب من أحوال المجادلين الشنيعة وآرائهم الفاسدة والتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بالقرآن وسائر الكتب والشرائع ، وترتيب الوعيد على ذلك . ثم أمر رسوله ﷺ بالصبر على أذاهم وتكذيبهم ، فإن الله سينجز له ما وعده من النصر والظفر على قومه ، ويجعل العاقبة له ولمن اتبعه من المؤمنين فى الدنيا والآخرة ثم عاد سبحانه إلى ذكر الدلائل على وجوده ووحدانيته بذكر نعمة من نعمه التى لا تحصى ، ثم لفت أنظارهم إلى ما يحيط بهم من أدلة هم عنها معرضون ، ثم ختم سبحانه هذه السورة بتهديد الذين يجادلون فى آياته ، طلبا للرياسة والجاه والحصول على المال ، وكسب حظوظ الدنيا ، وأبان أن هذه الدنيا فانية ذاهبة ، فما فيها من مال وجاه ظل زائل ، لا يغنى عنهم من الله شيئا وقد ضرب لهم المثل بمن كانوا قبلهم ممن كانوا أكثر عددا وأشد قوة وآثارا فى الأرض فلم ينفعهم

شيء من ذلك حين حل بهم بأس الله ، ثم ذكر أن المكذبين حين رأوا البأس تركوا الشرك وآمنوا بالله وحده ، وأنى لهم ذلك ؟ وهيهات وهيهات .

فذلك لا يجديهم فتيلاً ولا قطميراً ، سنة الله فى عباده ، ألا ينفع الإيمان حين حلول العذاب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون * الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون * إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون * ثم قيل لهم أين ماكنتم تشركون * من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين * ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون * ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ .

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون فى الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى إلى الضلال ﴿ **الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا** ﴾ أى من الهدى والبيان ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ هذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال سبحانه ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ وكما قال سبحانه ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد * كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾ وكقوله سبحانه ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق * ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾[١] .

وههنا يقول عز وجل : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل** ﴾ أى متصلة الأغلال بأيدى الزبانية يسحبون على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم ولهذا قال تعالى ﴿ **يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون** ﴾ كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾[٢] وقال تعالى : بعد ذكر أكلهم الزقوم وشربهم الحميم : ﴿ **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾ .

وقال عز وجل : ﴿ **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إئنا لمبعثون * أوآباؤ نا الأولون * قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين** ﴾[٣] . وقال عز وجل : ﴿ **إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم * كالمهل يغلى فى البطون * كغلى الحميم * خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم * ثم**

---

(١) سورة الحج الآيات : ٨ - ١٠ .
(٢) سورة الرحمن الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .
(٣) سورة الواقعة الآيات : ٤١ - ٥٦ .

صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم * إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾[١] . أى يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء بهم .

وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ « لو أن رُضاضة مثل هذه - وأشار إلى مثل الجمجمة - أرسلت من السماء إلى الأرض وهى مسيرة خمسائة سنة ، لبلغت الأرض قبل الليل ، ولو أنها أرسلت من رأس السلسلة لسارت أربعين خريفا الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها »[٢] . أخرجه الترمذى وقال حديث إسناده صحيح .

وقال ابن زيد : ويقال : إن حلقة من غل أهل جهنم لو ألقيت على أعظم جبل فى الدنيا لهدته . قال ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ يقمعون بها هؤلاء ، فإذا قال : خذوه فيأخذه كذا وكذا ألف ملك ، فلا يضعون أيديهم على شىء من عظامه ، إلا صارت تحت أيديهم رفاتا ، قال : فتجمع أيديهم وأرجلهم ورقابهم فى الأغلال ، قال : فيلقون فى النار مصفودين ، قال : فليس لهم شىء يتقون به إلا الوجوه ، وهم مصفودين ، قد ذهبت الأبصار فهم عمى ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله ﴾ أى قيل لهم : أين الأصنام والأنداد التى كنتم تعبدونها من دون الله ، هل ينصروكم اليوم ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أى ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بل لم نكن ندعو من قبل شيئا ﴾ أى جحدوا عبادتهم كقوله جلت عظمته : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ولهذا قال عز وجل : ﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ .

وقوله : ﴿ ذالكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ﴾ أى تقول لهم الملائكة هذا الذى أنتم فيه جزاء على فرحكم فى الدنيا بغير الحق ومرحكم وأشركم وبطركم . ﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أى فبئس المنزل والمقيل الذى فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون * ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنالك المبطلون ﴾ .

يقول تعالى : آمراً رسوله - ﷺ - بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك ويجعل العاقبة لك ولمن اتبعك فى الدنيا والآخرة ﴿ فإما نرينك بعض الذى نعدهم ﴾ أى فى الدنيا وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم : أبيدوا يوم بدر ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب فى حياته ﷺ وقوله عز وجل ﴿ أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ أى فنذيقهم العذاب الشديد فى الآخرة ، وهذه الآية مثل قوله تعالى فى سورة الزخرف : ﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون * أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون * فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم ﴾[٤] .

---

(١) سورة الدخان الآيات : ٤٣ - ٥٠ .

(٢) سنن الترمذى - أبواب صفة جهنم - باب ما جاء فى صفة طعام أهل النار ٤/١٠٩ رقم ٢٧١٤ .

(٣) سورة الزمر الآية : ٢٤ . (٤) سورة الزخرف الآيات : ٤١ - ٤٣ .

ثم قال تعالى مسلياً رسوله ﷺ : ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ كما قال جل فى علاه : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾[١] الآية . أى منهم من أوحينا إليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة : ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف وقد اختلف فى عدد الأنبياء والمرسلين والمشهور فى ذلك حديث أبى ذر الطويل والذى فيه أنهم « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا » والله أعلم قاله ابن كثير .

وقوله تعالى : ﴿ وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله ﴾ أى ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتى قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له فى ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به . ﴿ فإذا جاء أمر الله ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قضى بالحق ﴾ فينجى المؤمنين ويهلك الكافرين ولهذا قال عز وجل : ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويريكم آياته فأى آيات الله تنكرون ﴾ .

يقول تعالى : ممتنًا على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال فى الأسفار والرحال إلى البلاد النائية ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ويشرب لبنها ويحرث عليها الأرض ، والغنم تؤكل ويشرب لبنها ، والجميع تجز أصوافها وأشعارها وأوبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة كما فصل وبيَّن سبحانه فى أماكن أخرى من القرآن الكريم قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ ومن الأنعام حمولة وفرشاً كلوا مما رزقكم الله . . ﴾ الآية[٢] وقال سبحانه فى سورة النحل : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ﴾[٣] .

وقال جل فى علاه : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴾[٤] وقال سبحانه : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾[٥] .

وقال سبحانه فى سورة المؤمنون : ﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون * وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[٦] .

وقال سبحانه فى سورة الزخرف : ﴿ والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾[٧] وههنا يقول سبحانه : ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾ .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٦٤ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٤٢ .
(٣) سورة النحل الآيات : ٥ - ٨ .
(٤) سورة النحل الآية : ٨٠ .
(٥) سورة النحل الآية : ٦٦ .
(٦) سورة المؤمنون الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .
(٧) سورة الزخرف الآيات : ١٢ - ١٤ .

وقوله جل وعلا : ﴿ ويريكم اياته ﴾ اى حججه وبراهينه فى الآفاق وفى أنفسكم ﴿ **فأى آيات الله تنكرون** ﴾ أى لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا كما قال سبحانه بعد أن عدد النعم على العباد فى سورة النحل قال بعد ذلك : ﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون** ﴾ .

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة فى قديم الدهر وماذا أحل بهم من العذاب مع شدة قواهم وما آثروه فى الأرض وجمعوه من الأموال فما أغنى عنهم ذلك شيئا ولا رد عنهم ذرة من بأس الله وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدافعات ، لم يلتفتوا إليهم ولا أقبلوا عليهم واستغنوا بما عندهم من العلم فى زعمهم عما جاءتهم به الرسل .

قال مجاهد : قالوا نحن أعلم منهم لن نبعث ولن نعذب ، وقال السدى : فرحوا بما عندهم من العلم بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به ﴿ **وحاق بهم** ﴾ أى أحاط بهم ﴿ **ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى يكذبون ويستبعدون وقوعه . ﴿ **فلما رأوا بأسنا** ﴾ أى عاينوا وقوع العذاب بهم ﴿ **قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين** ﴾ . أى وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ولكن حيث لا تقال العثرات ولا تنفع المعذرة وهذا كما قال فرعون حين أدركه الغرق ﴿ حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾[٢] قال الله تبارك وتعالى : ﴿ الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾[٣]فلم يقبل الله منه ﴿ **فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده** ﴾ أى هذا حكم الله فى جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ولهذا جاء فى الحديث الصحيح « إن الله تعالى يقبل توبة العبد مالم يغرغر » أى فإذا غرغر وبلغت الروح الحنجرة وعاين الملك فلا توبة حينئذ ولهذا قال تعالى ﴿ **وخسر هنالك الكافرون** ﴾ . أ . هـ

(١) سورة النحل الآية : ٨٣ .

(٢ ، ٣) سورة يونس الآيتان : ٩٠ ، ٩١ .

تفسير سورة فصلت

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، عدد آياتها أربع وخمسون فى عد الكوفة ، وكلماتها سبعمائة وست وتسعون وحروفها : ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسون . مجموع فواصل آياتها : ﴿ ظن طب حرم صد ﴾

وللسورة اسمان : حم السجدة ، لاشتمالها على السجدة ، وسورة المصابيح ، لقوله تعالى ﴿ زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرف القرآن ، وإعراض الكفار من قبوله ، وكيفية تخليق الأرض والسماء ، والإشارة إلى إهلاك عاد وثمود ، وشهادة الجوارح على العاصين فى القيامة ، وعجز الكفار فى سجن جهنم ، وبشارة المؤمنين بالخلود فى الجنان ، وشرف المؤذنين بالأذان ، والاحتراز من نزغات الشيطان ، والحجة والبرهان على وحدانية الرحمن ، وبيان شرف القرآن ، والنفع والضر ، والإساءة والإحسام ، وجزع الكفار عند الابتلاء والامتحان ، وإظهار الآيات الدالة على الذات والصفات الحسان ، وإحاطة علم الله بكل شىء من الأسرار والإعلان بقوله ﴿ ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى ﴿ فى أربعة أيام ﴾ أى مع اليومين اللذين تقدما فى قوله : ﴿ خلق الأرض فى يومين ﴾ كيلا يزيد العدد على ستة أيام ، فيتطرق إليه كلام المعترض ، وإنما جمع بينهما ولم يذكر اليومين على الانفراد بعدهما : لدقيقة لا يهتدى إليها إلا كل فطن خِرِّيت ـ الحاذق ـ وهى أن قوله ﴿ خلق الأرض فى يومين ﴾ صلة ﴿ الذى ﴾ و ﴿ وتجعلون له أندادا ﴾ عطف على ﴿ لتكفرون ﴾ ﴿ وجعل فيها رواسى ﴾ عطف على قوله ﴿ خلق الأرض ﴾ وهذا ممتنع فى الإعراب لا يجوز فى الكلام ، وهو فى الشعر من أقبح الضرورات ، لا يجوز أن يقال : جاءنى الذى يكتب وجلس ، ويقرأ : لأنه لا يحال بين صلة الموصول وما يعطف عليه بأجنبى من الصلة ، فإذا امتنع هذا لم يكن بد من إضمار فعل يصح الكلام به ومعه ، فيضمر ﴿ خلق الأرض ﴾ بعد قوله ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ فيصير التقدير ذلك رب العالمين ، خلق الأرض ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، ليقع هذا كله فى أربعة أيام فسقط الاعتراض والسؤال ، وفيه معجزة وبرهان .

قوله (حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم) وفى الزخرف وغيره (حتى إذا جاءوها) بغير (ما) ، لأن (حتى) ههنا التى تجرى مجرى واو العطف فى نحو قولك ، أكلت السمكة حتى رأسها أى ورأسها . وتقدير الآية منهم يوزعون ، وإذا ما جاءوها و (ما) هى التى تزاد مع الشرط ، نحو أينما وحيثما . وحتى فى غيرها من السورة للغاية .

قوله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم ﴾ ومثله فى الأعراف ، لكنه ختم بقوله (سميع عليم) : الآية فى هذه السورة متصلة بقوله (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) وكان مؤكدا بالتكرار ، وبالنفى والإثبات ، فبالغ فى قوله ﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ بزيادة (هو) وبالألف

واللام ، ولم يكن فى الأعراف هذا النوع من الاتصال ، فأتى على القياس : المخبر عنه معرفة ، والخبر نكرة .

قوله : ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ﴾ وفى عسق (الشورى) بزيادة قوله (إلى أجل مسمى) وزاد فيها أيضا : (بغيا بينهم) : لأن المعنى تفرق قول اليهود فى التوراة ، وتفرق قول الكافرين فى القرآن ، ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخير العذاب إلى يوم الجزاء ، لقضى بينهم بإنزال العذاب عليهم . وخصت عسق بزيادة قوله تعالى (إلى أجل مسمى) لأنه ذكر البداية فى أول الآية وهو (وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم) وهو مبدأ كفرهم ، فحسن ذكر النهاية التى أمهلوا إليها ، ليكون محدودا من الطرفين . قوله ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ﴾ بزيادة من ، وفى هود ﴿ ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ﴾ ، لأن فى هذه السورة بين جهة الرحمة ، وبالكلام حاجة إلى ذكرها ، وحذف فى هود ، اكتفاء بما قبله ، وهو قوله ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ﴾ ، وزاد فى هذه السورة (من) لأنه لما حد الرحمة والجهة الواقعة منها ، حد الطَّرف الذى بعدها فتشاكلا فى التحقيق ، وفى هود لما أهمل الأول أهمل الثانى . قوله ﴿ أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به ﴾ وفى الأحقاف ﴿ وكفرتم به ﴾ بالواو ، لأن معناه فى هذه السورة كان عاقبة أمركم بعد الإمهال للنظر والتدبر والكفر ، فحسن دخول ثم ، وفى الأحقاف عطف عليه (وشهد شاهد) فلم يكن عاقبة أمرهم فكان من مواضع الواو .

مناسبة السورة لما قبلها

(١) إنهما اشتركتا فى تهديد قريش وتقريعهم ، فقد توعدهم فى السورة السابقة بقوله (أفلم يسيروا فى الأرض ـ الآية) وهددهم هنا بقوله (فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود) .

(٢) إن كلتيهما بدأت بوصف الكتاب الكريم .

قال تعالى :

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا
تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ *

تفسير المفردات

﴿ **لا يسمعون** ﴾ أى لا يقبلون ولا يطيعون ، من قولهم : تشفعت إلى فلان فلم يسمع قولى . أى لم يقبله ولم يعمل به فكأنه لم يسمعه ، ﴿ **والأكنة** ﴾ واحدها كنان : وهى خريطة السهام ، والمراد إنها فى أغطية متكاثفة . ﴿ **والوقر** ﴾ الثقل فى السمع . ﴿ **فاستقيموا إليه** ﴾ أى فأخلصوا له العبادة ، ﴿ **ويل** ﴾ أى هلاك ، ﴿ **لا يؤتون الزكاة** ﴾ أى لا يتصدقون بجزء من مالهم للسائل والمحروم ، ﴿ **ممنون** ﴾ : أى مقطوع من قولهم مننت الحبل إذا قطعته .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيراً ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون** ﴾ .

قال محمد بن إسحاق بن يسار فى كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظى قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيداً قال يوما وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده ، يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟ ، وذلك حين أسلم حمزة ـ رضى الله عنه ـ ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون ، فقالوا بلى ياأبا الوليد فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : ياابن أخى ، إنك منا حيث علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال فقال له رسول الله ﷺ : « قل ياأبا الوليد أسمع » قال : ياابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال « أفرغت ياأبا الوليد ؟ قال نعم . قال « فاستمع منى » قال : افعل . قال (بسم الله الرحمن الرحيم حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون) ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤ ها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يستمع منه حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال « قد سمعت ياأبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك ياأبا الوليد ؟ قال ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى واجعلوها لى ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فاعتزلوه فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به . قالوا سحرك والله ياأبا الوليد بلسانه ؟ قال هذا رأيى فيه فاصنعوا مابدا لكم »[1] .

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ـ ٢٩٤ .

يقول تعالى ﴿ حمٓ * تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾ يعنى القرآن الكريم منزل من الرحمن الرحيم كقوله تعالى ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين ﴾ . وقوله تعالى ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ وكقوله سبحانه ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾وكقول جل فى علاه ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ وكقوله ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ .

وقوله تبارك اسمه : (كتاب فصلت آياته) أى بينت معانيه وأحكمت أحكامه (قرآنا عربيا) أى فى حال كونه عربيا بيناً واضحاً فمعانيه مفصلة وألفاظه واضحة غير مشكلة كقوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾[١] أى هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أى إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الرساخون ، أصحاب العقول النيرة والقلوب السليمة .

وقوله (بشيرا ونذيرا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾[٣] وكقوله سبحانه ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ﴾[٤] وكقوله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدقٍ عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾[٥] وكقوله جل وعلا ﴿ الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ أى : فاستكبر أكثر المشركين عن الإصغاء إليه ، ولم يقبلوه ولم يطيعوا ما فيه من أوامر ونواه ، إعراضا عن الحق . ثم صرحوا بنضرتهم منه ، وتباعدهم عنه ، وذكروا لذلك ثلاثة أسباب ، تعللاً واحتقارا لدعوته .

(١) (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) أى إن قلوبنا فى أغطية متكاثفة مما تدعونا إليه من الإيمان بالله وحده ، وترك ما ألفينا عليه آباءنا ، فهى لا تفقه ما تقول من التوحيد ، ولا يصل إليها قولك .

(٢) (وفى آذاننا وقر) أى وفى آذاننا صمم يمنعها من استماع قولك .

(٣) (ومن بيننا وبينك حجاب) أى ومن بيننا وبينك ستر يمنعنا عن إجابتك . روى أن أباجهل استغشى على رأسه ثوباً وقال : يامحمد بيننا وبينك حجاب ، وقصارى ما يقولون . إن قلوبهم نابية عن إدراك ماجئت به من الحق وتقبله واعتقاده ، كأنها فى غُلُف وأغطية تمنع من نفوذه فيها ، وأسماعهم لا يدخل إليها شىء منه ، كأن بها صمما ، ولتباعد الدينين وتباعد الطريقتين كان بينهم وبين رسول الله ﷺ حجاب كثيف ، وحاجز منيع .

---

(١) سورة هود الآية : ١ .
(٢) سورة فصلت الآية : ٤٢ .
(٣) سورة الأحقاف الآية : ١٢ .
(٤) سورة هود الآيتان : ١ ، ٢ .
(٥) سورة يونس الآية : ٢ .
(٦) سورة الكهف الآيات : ١ ـ ٣ .

ثم بارزوه بالخلاف وشن الغارات الجدلية بما لم يبق بعده ـ مجال للوفاق فقالوا : (فاعمل إننا عاملون) أى فاعمل فى إبطال أمرنا جهد طاقتك ، ونحن نعمل جاهدين فى فض الناس من حولك وتشتيت شمل من آمن بك حتى تبطل دعوتك .

قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ .

يقول تعالى : قل يامحمد لهؤلاء المكذبين المشركين : (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهاكم إله واحد ﴾ لا كما تعبدون من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين إنما الله إله واحد ، (فاستقيموا إليه﴾ أى : أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على ألسنة الرسل (واستغفروه) أى : لسالف الذنوب (وويل للمشركين) أى : دمار لهم وهلاك عليهم (الذين لا يؤتون الزكاة) قال ابن عباس يعنى الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله وكذا قال عكرمة وهذا كقوله تعالى : (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) وكقوله جلت عظمته ﴿ **قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ **فقل هل لك إلى أن تزكى** ﴾ فالمراد بالزكاة هنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام وتكون سببا لزيادته وبركته وكثرة نفعه ، وتوفيقا إلى استعمال الطاعات . وقال السدى (وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة) أى لا يدينون بالزكاة ، وقال قتادة : يمنعون زكاة أموالهم وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين واختاره ابن جرير ، يقول العلامة ابن كثير : وفيه نظر ، لأن إيجاب الزكاة إنما كان فى السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال لا يبعد أن يكون أهل الصدقة والزكاة كان مأمورا به فى ابتداء البعثة كقوله تعالى ؛ ﴿ **وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ ، فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما بين أمرها بالمدينة ويكون هذا جمعا بين القولين . كما أن أصل الصلاة كان واجبا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فى ابتداء البعثة فلما كان ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ونصف فرض الله تعالى على رسوله ﷺ الصلوات الخمس وفصل شروطها وأركانها وما يتعلق بها بعد ذلك شيئا فشيئا ، وقصارى ذلك ـ دمار وهلاك لمن أشرك بربه ولم يطهر نفسه من دنس الرذائل التى من أهمها البخل بالمال ، وأنكر البعث والجزاء .

ثم قال جل جلاله : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾ قال مجاهد وغير : غير مقطوع كقوله تعالى ﴿ ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾[2] .

---

(١) سورة الكهف الآيتان : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة هود الآية : ١٠٨ .

من آيات التوحيد

قال تعالى

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢) ﴾

معانى المفردات

﴿ **فى يومين** ﴾ أى فى نوبتين ﴿ **الرواسى** ﴾ : الجبال الثوابت ، ﴿ **أقواتها** ﴾ أى : أقوات أهلها ﴿ **سواء** ﴾ أى كاملة لا نقصان فيها ولا زيادة ، ﴿ **للسائلين** ﴾ أى لطالبى الأقوات المحتاجين إليها ، ﴿ **استوى** ﴾ الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، فهو استواء يليق بعظمة ربنا سبحانه وتعالى ﴿ **دخان** ﴾ أى مادة غازية أشبه بالدخان ﴿ **فقضاهن** ﴾ أى : فرغ من تسويتهن ، ﴿ **أمرها** ﴾ أى : شأنها ﴿ **بمصابيح** ﴾ أى : بكواكب ونجوم . ﴿ **وحفظا** ﴾ حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى .

المناسبة والمعنى الإجمالى

بعد أن أمر رسوله ﷺ بأن يقول للمشركين : إن ما تلقيته بالوحى أن **إلاهكم** إله واحد ، فأخلصوا له العبادة ـ أردف هذا ما يدل على كمال قدرته وحكمته فى خلق السموات والأرض على أطوار مختلفة متعاقبة وأكمل لكل منها ما هى مستعدة له ، وزين السماء بالنجوم والكواكب الثوابت والسيارات ولا محجب فذلك تقدير العزيز الغالب على أمره ، العليم بكل ما فيهما ، لا يخفى عليه شىء منهما ، فكيف يسوغ لكم أن تجعلوا الأوثان والأصنام شركاء له ، وليس لها شىء فى خلقهما وتقديرهما ، تعالى الله عن ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب

العالمين ﴾(١) . أى : قل أيها الرسول لمشركى قومك توبيخاً وتقريعاً . كيف تكفرون بالذى خلق الأرض التى تقلكم فى يومين ؟ فتقولون إنه لا يقدر على حشر الموتى من قبورهم ، وتنسبون إليه الأولاد وتقولون إنه لم يبعث أنبياء ـ أى : كيف تقولون هذا ، مع أنه خلق الأرض فى يومين .

﴿ **وتجعلون له أنداداً** ﴾ أى : وتجعلون له أنداداً وأمثالا من الملائكة والجن والأصنام والأوثان . ثم شدد عليهم فى الإنكار وبين أن مثل هذا لا ينبغى أن يكون فقال سبحانه : ﴿ **ذلك رب العالمين** ﴾ أى : ذلك الذى خلق الأرض فى نوبتين ، نوبة جعلها جامدة بعد أن كانت كرة غازية ، ومرة جعلها ستاً وعشرين طبقة فى ستة أطوار كما بين ذلك علماء طبقات الأرض ـ هو رب العالمين لا ربها وحدها ، فهو مربى المخلوقات جميعاً ، فإن رباها فى نوبتين فقد ربى غيرها فى نوبات يعلم سبحانه عددها فكيف يكون شىء منها نداً له وضريباً ؟

ثم بين إحكام ذلك الخلق وحسن تدبيره فقال جل فى علاه :

﴿ **وجعل فيها رواسى من فوقها** ﴾ أى : وجعل فيها جبالا ثوابت مرتفعة عليها ، أسُسُها فى الأرض وهى الطبقة الصوانية ، وهذه الطبقة : هى التى برزت فيها الجبال ، فالجبال أساسها بعيدة الغور ، ضاربة فى جميع الطبقات ، واصلة إلى أول طبقة ، وهى الطبقة الصوانية التى لولاها لم تكن الأرض أرضا ولم نستقر عليها ؟ فأرضنا كرة من النار غطيت بطبقة صَوَّانية فوقها طبقات ألطف منها تكوّن فيها الحيوان والنبات على مدى الزمان ، والجبال نتوءات نتأت من تلك الطبقة ، وارتفعت فوقها عشرات آلاف الكيلومترات ، وصارت مخازن للمياه والمعادن وهداية للطرق وحافظة للهواء والسحاب ، ﴿ صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **وبارك فيها** ﴾ أى : وجعلها مباركة كثيرة الخيرات بما خلق فيها من المنافع فجعل جبالها مبدأ لجريان الأنهار ، ومخزناً للمعادن كالذهب والفضة والحديد والنحاس وغير ذلك . ﴿ **وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾ أى : قدر لأهلها من الأقوات ما يناسب حال كل إقليم من مطاعم وملابس ونبات ، ليكون بعض الناس محتاجاً إلى بعض ، فتروج المتاجر بينهم وتنتقل المحصولات من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر . وفى هذا عمار للأرض وانتظام أمور العالم .

ثم ذكر سبحانه فذلكة لما تقدم فقال : ﴿ **فى أربعة أيام** ﴾ أى :
إن خلق الأرض وجعل الرواسى فيها فى نوبتين ، وإكثار خيراتها وتقدير أقواتها فى نوبتين فيكون ذلك فى أربع نوبات ، كما يقول القائل خرجت من البصرة إلى بغداد فى عشرة أيام وإلى الكوفة فى خمسة عشر يوماً : أى : فى تتمة خمسة عشر يوماً . وقصارى ذلك ـ إن حصول جميع ما تقدم من خلق الأرض وخلق الجبال الرواسى فيها وتقدير الأقوات فى أربعة أيام .

---

(١) سورة فصلت الآية ٩
(٢) سورة النمل من الآية ٨٨

﴿ سواء للسائلين ﴾ أى : فى أربعة أيام كاملة وفق مراد طالب القوت ومن له حاجة إليه وهو كل حيوان على وجه الأرض كما قال سبحانه : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض ﴾[1] فالناس والحيوان كلهم سائلون ربهم ما يحتاجون إليه من طعام وشراب ولباس ورداء ـ سؤالاً طبيعياً مغروساً فى جبلتهم . ولما كان الإنسان يهتم بحال ما حوله من الأرض قدّم ذكرها ، وبين أنها هى وما عليها قد كونها سبحانه فى أربعة نوبات ، فنوبة لتجمد المادة الأرضية بعد أن كانت غازا ، ونوبة لتكميل بقية طبقاتها ، ويدخل فى ذلك معادنها ، ومرة للنبات وأخرى للحيوان .

ولما انتهى سبحانه من الكلام فى الأرض أخذ يذكر السماء ، فالترتيب فى الذكر فحسب فقال تعالى :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان ﴾ أى : ثم دعا داعى الحكمة إلى خلق السماء وهى مادة غازية أشبه بالدخان أو بالسحاب أو بالسديم ، وتسمى فى العلم الحديث (عالم السديم) وقد شاهدوا من تلك العوالم اليوم عوالم كثيرة فى عالم السديم آخذة فى البروز كما برزت شمسنا ، وسياراتها ، وأرضها ، وكانت فى الأصل دخاناً . وعلى الجملة فالتكوين لم يكن فى لحظة واحدة ـ وهو قادر سبحانه على ذلك وهو على كل شىء قدير ـ بل كان وفق الحكمة والنظام فى غير نوبة ، ثم ذكر سبحانه ما كان من شأنهما بعد خلقهما فقال سبحانه :

﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين ﴾ .

أى : فقال لتلك العوالم السماوية وللأرض التى دارت حولها : ائتيا كيف شئتما طائعتين أو كارهتين ، فأجابتا ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾ . قال ابن عباس : قال الله تعالى للسموات : أطلعى شمسك وقمرك وكواكبك ، وأجرى رياحك وسحابك ، وقال للأرض شقى أنهارك ، وأخرجى شجرك وثمارك ، طائعتين أو كارهتين ﴿ قالتا أتينا طائعين ﴾[2] .

وفى هذا دلالة على الحركة المستمرة المعبر عن سببها بالجاذبية ، فهى حركة تجرى جرى طاعة لا جرى قسر ، فإنا نشاهد أنا نرمى الحجر إلى أعلى قسراً فيأبى إلا أن ينزل إلى الأرض بطريق الجاذبية إلى جسم أكبر منه وهى الأرض ، وهكذا الأرض مجذوبة إلى الشمس التى هى أصلها بحركة دورية دائمة طوعاً لا قسراً ، لأن القسرية كرمى الحجر إلى أعلى سريعة الزوال ، أما حركة الطاعة فهى دائمة ما دام المطيع متخلقاً بخلقه الذى هو فيه .

﴿ فقضاهن سبع سموات فى يومين ﴾ أى : فأتم خلقهن خلقاً إبداعياً وأتقن أمرهن فى نوبتين سوى الأربعة الأيام التى خلق فيها الأرض ، فوقع خلق السموات والأرض فى ستة أيام كما قال سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض فى ستة أيام ﴾ على ما اقتضته الحكمة وحسن النظام سبحانه وتعالى :

---

(١) سورة الرحمن من الآية ٢٩

(٢) سورة فصلت من الآية ١١

وقوله تعالى : ﴿ وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾ أى : وخلق فى كل منها ما استعدت له ، واقتضت الحكمة أن يكون فيها من بحار وبرد وثلج إلى نحو أولئك مما لا يعلمه إلا الله ، قاله السدى وقتادة :

﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ أى : بكواكب مضيئة متلألئة عليها كتلألؤ المصابيح ، وهى وإن تفاوتت ارتفاعاً وانخفاضاً فكلها ترى متلألئة . ﴿ وحفظاً ﴾ أى : وحرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملإ الأعلى . كقوله تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾[1] والضمير فى قوله ﴿ وجعلناها ﴾ عاد على جنس المصابيح لاعلى عينها لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم قاله ابن كثير .

﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أى : إن ذلك الذى تقدم هو تقدير العزيز الذى قد عز كل شىء فغلبه وقهره ، العليم بحركات مخلوقاته وسكناتها سرها ونجواها ، ظاهرها وباطنها ، كقوله تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[2] .

قصص عاد وثمود

قال تعالى :

فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ
أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ
يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ
وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ
ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾

(١) سورة الملك من الآية ٥
(٢) سورة الأنعام آية ٩٦

معانى المفردات

﴿ **صاعقة** ﴾ أى : عذاباً شديد الوقع كأنه صاعقة . قال المبرد : الصاعقة : المرة المهلكة لأى شىء كان ، وهى فى الأصل : الصيحة التى يحصل بها الهلاك ، أو قطعة نار تنزل من السماء معها رعد شديد ، ﴿ **من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ أى : من كل ناحية ﴿ **صرصراً** ﴾ أى : باردة تهلك بشدة بردها . ﴿ **نحسات** ﴾ وأحدها نحسه (بكسر الحاء) أى : نكدات مشئومات . ﴿ **الهون** ﴾ الذل .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أنكر سبحانه عليهم عبادة الأوثان والأنداد ، وطلب إليهم ألا يعبدوا إلا الله الذى خلق السموات والأرض ، وزين السماء الدنيا بالمصابيح وأوجد فى الأرض جبالا رواسى أن تميد بهم ، ثم أعرضوا عن كل ذلك لم يبق حينئذ طريق للعلاج . ومن ثم أمر رسوله أن ينذرهم بحلول شديد النقم بهم إن هم أصروا على عنادهم كما نزل بعاد وثمود من قبلهم .

التفسير

يقول تعالى : قل : يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإنى أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿ **صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود** ﴾ أى : ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما ﴿ **إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم** ﴾ أى : فى القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين ، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أولياءه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا بل كذبوا وجحدوا وقالوا ﴿ **لو شاء ربنا لأنزل ملائكة** ﴾ أى : لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿ **فإنا بما أرسلتم به** ﴾ أى : أيها البشر ﴿ **كافرون** ﴾ أى : لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا ، قال الله تعالى : ﴿ **فأما عاد فاستكبروا فى الأرض** ﴾ أى : بغوا وعقوا وعصوا ﴿ **وقالوا من أشد منا قوة** ﴾ ؟ حتى يستطيع قهرنا وإذلالنا وقد كانوا قوماً طوال القامة شديدى الأسر ، كما قال تعالى : حاكيا عن نبيه هود وهو يعظهم ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[1] .

فرد الله عليهم موبخاً ، بقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة** ﴾ ؟ أى : أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ، فإنه العظيم الذى خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وأن بطشه شديد ، كما قال عز وجل : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾[2] فبارزوا الجبار بالعداوة وجحدوا بآياته ، وعصوا رسله ، فحاسبها الله حساباً شديداً وعذبها عذاباً نكراً ، فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرها ، يقول تعالى : ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً** ﴾ ريحا شديدة قوية

---

(١) سورة الأعراف الآية ٦٩
(٢) سورة الذاريات الآية ٤٧

لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم وكانت باردة شديدة البرد جداً كقوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾(١) . وهنا يقول سبحانه : ﴿ **فى أيام نحسات** ﴾ أى : متتابعات كقوله ﴿ **سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ وكقوله : ﴿ **فى يوم نحس مستمر** ﴾(٢) . أى : ابتدأوا بهذا العذاب فى يوم نحس عليهم واستمر بهم هذا النحس ﴿ **سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾ حتى أبادهم عن آخرهم واتصل بهم خزى الدنيا بعذاب الآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ **لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى** ﴾أى : أشد خزياً لهم ﴿ **وهم لا ينصرون** ﴾أى : فى الأخرى كما لم ينصروا فى الدنيا وما كان لهم من الله من واحد يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال .

وقوله عز وجل : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ أى : بصرناهم وبينا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح - عليه الصلاة والسلام - فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله تعالى التى جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم ﴿ **فأخذتهم صاعقة العذاب الهون** ﴾ أى : بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿ **بما كانوا يكسبون** ﴾ أى : من التكذيب والجحود . ﴿ **ونجينا الذين آمنوا** ﴾ أى : من بين أظهرهم لم يمسهم سوء ولا نالهم من ذلك ضرر بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح - عليه الصلاة والسلام - بإيمانهم وتقواهم لله - عز وجل - والعاقبة للمتقين .

أضواء كاشفة
على قصة عاد

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » ما نصه : (قصة هود - عليه السلام -) وهو هود ابن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح - عليه السلام - . وكان من قبيلة يقال لهم : عاد بن عوص بن سام بن نوح ، كانوا عرباً يسكنون الأحقاف : وهى جبال الرمل وكانت باليمن من عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر واسم واديهم مغيث ، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد ﴾(٣) أى عاد إرم وهم عاد الأولى . وأما عاد الثانية فمتأخرة - كما سيأتى - بيان ذلك فى موضعه إن شاء الله ، وأما عاد الأولى منهم عاد ﴿ **إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾ أى : مثل القبيلة . وقيل : مثل العمد والصحيح الأول كما بيناه فى التفسير . ومن زعم أن إرم مدينة تدور فى الأرض ، فتارة فى الشام ، وتارة فى اليمن ، وتارة فى الحجاز وتارة فى غيرها فقد أبعد النجعة وقال : ما لا دليل عليه ولا برهان يعول عليه ولا مستند يركن إليه . وفى صحيح ابن حبان عن أبى ذر فى حديثه الطويل فى ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه منهم أربعة من العرب هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر .

ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل - عليه السلام - العرب العاربة وهم : قبائل كثيرة منهم عاد ، وثمود ، وجرهم ، وطسم ، وجديس . وأميم . ومدين ، وعملاق ، وعبيل ، وجاسم ، وقحطان . وأما العرب المستعربة منهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم الخليل . وكان إسماعيل بن

---

(١) سورة الحاقة لآيات ٦ - ٨ (٢) سورة القمر من الآية ١٩ (٣) سورة الفجر الآيتان ٦ - ٧

إبراهيم ـ عليهما السلام ـ أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة . وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم ، كما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى ولكن أنطقه الله بها فى غاية الفصاحة ، والبيان وكذلك كان يتلفظ بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والمقصود : أن عاداً وهم عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان . وكان أصنامهم ثلاثة : صدا ، وصمودا ، ونقرا . فبعث الله فيهم أخاهم هوداً ـ عليه السلام ـ فدعاهم إلى الله تعالى بعد ذكر قوم نوح وما كان من أمرهم فى سورة الأعراف : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين * قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤ نا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾[(١)] وقال تعالى : بعد ذكر قصة نوح فى سورة هود : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون * يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على لذى فطرنى أفلا تعقلون * ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين * قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون * إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ويستخلف ربى قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً إن ربى على كل شىء حفيظ * ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عاداً كفروا ربهم ألا بعداً لعاد قوم هود ﴾[(٢)] .

وقال تعالى فى سورة قد أفلح المؤمنون ـ بعد قصة قوم نوح : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين * قال رب انصرنى بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين ﴾[(٣)] وقال تعالى فى سورة الشعراء : بعد قصة قوم نوح أيضاً : ﴿ كذبت عاد المرسلين * إذ قال لهم أخوهم

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٦٥ ـ ٧٢
(٢) سورة هود الآيات ٥٠ ـ ٦٠
(٣) سورة المؤمنون الآيات ٣١ ـ ٤١

هود ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(١) . وقال تعالى : فى سورة حم فصلت ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة * أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون * فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً فى أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ﴾(٢) وقال تعالى فى سورة الأحقاف : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم * قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوماً تجهلون * فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾(٣) .

وقال تعالى فى الذاريات : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم * ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾(٤) وقال تعالى فى النجم : ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى * وثمود فما أبقى * وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى * والمؤتفكة أهوى * فغشاها ما غشى * فبأى آلاء ربك تتمارى ﴾(٥) وقال تعالى فى سورة اقتربت : ﴿ كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾(٦) وقال فى الحاقة : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية * فهل ترى لهم من باقية ﴾(٧) وقال فى سورة الفجر : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد * وثمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذى الأوتاد * الذين طغوا فى البلاد * فأكثروا فيها الفساد * فصب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد ﴾(٨) وقد تكلمنا على كل من هذه القصص فى أماكنها من كتابنا التفسير ولله الحمد والمنة .

وقد جرى ذكر عاد فى سورة براءة ، وابراهيم ، والفرقان ، والعنكبوت ، وفى سورة (ص) وفى سورة (ق) ولنذكر مضمون القصة مجموعاً من هذه البيانات مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار . وقد قدمنا أنهم أول الأمم عبدوا الأصنام بعد الطوفان ، وذلك تبين فى قوله لهم ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٣ ـ ١٤٠
(٢) سورة فصلت الآيات ١٥ ـ ١٦
(٣) سورة الاحقاف الآيات ٢١ ـ ٢٥
(٤) سورة الذاريات الآيتان ٤١ ـ ٤٢
(٥) سورة النجم الآيات ٥٠ ـ ٥٥
(٦) سورة القمر الآيات ١٨ ـ ٢٢
(٧) سورة الحاقة الآيات ٦ ـ ٨
(٨) سورة الفجر الآيات ٦ ـ ١٤

من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بصطة ﴾[١] أى : جعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش . وقال فى المؤمنون ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ﴾ وهم قوم هود على الصحيح .

والمقصود : أن عادا كانوا عربا جفاة كافرين عتاه متمردين فى عبادة الأصنام فأرسل الله فيهم رجلا منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له فكذبوه وخالفوه وتنقصوه فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة ﴾[٢] أى : هذا الأمر الذى تدعونا إليه سفه بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التى يرتجى منها النصر والرزق ومع هذا نظن أنك تكذب فى دعواك أن الله أرسلك ﴿ قال يا قوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين ﴾[٣] أى : ليس الأمر كما تظنون ولا ما تعتقدون ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾[٤] والبلاغ : يستلزم عدم الكذب فى أصل المبلغ ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه ، ويستلزم إبلاغه بعبارة فصيحة وجيزة جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب ، وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة فى غاية النصح لقومه والشفقة عليهم ، والحرص على هدايتهم لا يبتغى منهم أجراً ولا يطلب منهم جعلا بل هو مخلص لله - عز وجل - فى الدعوة إليه والنصح لخلقه لا يطلب أجره إلا من الذى أرسله فإن خير الدنيا والآخرة كله فى يديه وأمره إليه ولهذا ﴿ يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ﴾[٥] أى : مالكم عقل تميزون به وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين الذى تشهد به فطرتكم التى خلقتم عليها وهو دين الحق الذى بعث الله به نوحا وأهلك من خالفه من الخلق ، وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرا عليه بل أبتغى ذلك عند الله مالك الضر والنفع ولهذا قال : مؤمن (يس) .

﴿ قال ياقوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون * ومالى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ﴾[٦] وقال : قوم هود له فيما قالوا :

﴿ قالوا ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾[٧] يقولون : ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ما جئت به وما نحن بالذين نترك عبادة أصناما عن مجرد قولك بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته * وما نظن إلا أنك مجنون فيما نزعمه ، وعندنا إنما أصابك هذا أن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك فى عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك وهو قولهم : ﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون * من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون ﴾ وهذا تحدّ منه لهم وتبرٍّ من آلهتهم ، وتنقص منه لها ، وبيان أنها لا تنفع شيئا ولا تضر ، وأنها جماد حكمها حكمه وفعلها فعله . فإن كانت كما تزعمون من أنها تضر وتنفع فهاأنا برىء منها لاعن لها (فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون) أنتم جميعا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه ولا تؤخرونى ساعة واحدة ولا طرفة عين فإنى لا أبالى ولا أفكر فيكم ولا أنظر إليكم (إنى توكلت على الله

(١) سورة الأعراف من الآية ٦٩
(٢) سورة الأعراف من الآية ٦٦
(٣) سورة الأعراف من الآية ٦٧
(٤) سورة الأعراف من الآية ٦٨
(٥) سورة هود الآية ٥١
(٦) سورة يس الآيات ٢٠ - ٢٢
(٧) سورة هود الآية ٥٣ ومن الآية ٥٤

ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ أي : أنا متوكل على الله ومتأيد به ، وواثق بجنابه الذى لا يضيع من لاذ به واستند إليه فلست أبالى مخلوقا سواه ولست أتوكل إلا عليه ، ولا أعبد إلا إياه . وهذا وحده برهان قاطع على أن هودا عبدالله ورسوله وأنهم على جهل وضلال فى عبادتهم غير الله ، لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروها فدل على صدقه فيما جاءهم به وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه . وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح ـ عليه السلام ـ ﴿ ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾[١] . وهكذا قال الخليل عليه السلام ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون * وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون ﴾[٣] استبعدوا أن يبعث الله رسولا بشريا وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديماً وحديثاً كما قال تعالى : ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا * قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[٤] ولهذا قال لهم هود : عليه السلام ـ ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾[٥] أى : ليس هذا بعجيب فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقوله : ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين * قال ربى انصرنى ﴾[٦] استبعدوا المعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابا وعظاما ، وقالوا : هيهات هيهات ، أى : بعيد بعيد هذا الوعد إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين .

أى : يموت قوم ويحيى آخرون . وهذا هو اعتقاد الدهرية كما يقول : بعض الجهلة من الزنادقة أرحام تدفع وأرض تبلع . وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل يستميل عقل الفجرة الكفرة من بنى آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون كما قال تعالى : ﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾[٧] وقال لهم فيما وعظهم به ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾[٨] يقول لهم : أتبنون بكل مكان مرتفع بناء

(١) سورة يونس من الآية ٧١
(٢) سورة الأنعام الآيات ٨٠ ـ ٨٣
(٣) سورة المؤمنون ٣٣ ـ ٣٤
(٤) سورة الإسراء الآيتان ٩٤ ـ ٩٥
(٥) سورة الأعراف من الآية ٦٩
(٦) سورة المؤمنون ٣٥ ـ ٣٩
(٧) سورة الأنعام ١١٣
(٨) سورة الشعراء ١٢٨ ، ١٢٩

عظيما هائلا كالقصور ونحوها تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه وماذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام كما قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ .

فعاد إرم هم عاد الأولى الذين كانوا يسكنون الأعمدة التى تحمل الخيام . وقوله ﴿ **وتتخذون مصانع** ﴾ قيل هى : القصور . وقيل : بروج الحمام ، وقيل : مآخذ الماء ﴿ **لعلكم تخلدون** ﴾ أى : رجاء منكم أن تعمروا فى هذه الدار أعمارا طويلة ﴿ **وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكن بما تعلمون أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ وقالوا له : مما قالوا : ﴿ **أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ أى : أجئتنا لنعبد الله وحده ونخالف أباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه . فإن كنت صادقا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك كما قالوا : ﴿ **سواء علينا أو عظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين * وما نحن بمعذبين** ﴾ .

قال : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين ﴾(١) أى : قد استحقيتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم اصطلحتم عليها أنتم وأباؤكم ﴿ **ما نزل الله بها من سلطان** ﴾ أى : لم ينزل على ما ذهبتم إليه دليلا ولا برهانا ، وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم فى الباطل وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم وبأسه الذى لا يرد ونكاله الذى لا يصد وقال تعالى : ﴿ قال رب انصرنى بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين * قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون * فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين ﴾(٣) وقد ذكر الله تعالى : خبر إهلاكهم فى غير ما آية كما تقدم مجملاً ومفصلا كقوله تعالى : ﴿ فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾(٤) وكقوله : ﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ * وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود ﴾(٥) وكقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين ﴾(٦) وقال تعالى : ﴿ فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾(٧) .

وأما تفصيل إهلاكهم فكما قال تعالى : ﴿ فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾(٨) .

(١) سورة الأعراف الآية ٧١
(٢) سورة المؤمنون الآيات ٣٩ ـ ٤١
(٣) سورة الأحقاف الآيات ٢١ ـ ٢٥
(٤) سورة الأعراف الآية ٧٢
(٥) سورة هود الآيات ٥٨ ـ ٦٠
(٦) سورة المؤمنون الآية ٤١
(٧) سورة الشعراء الآيتان ١٣٩ ـ ١٤٠
(٨) سورة الأحقاف الآية ٢٤

كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب أنهم كانوا ممحلين مسنتين فطلبوا السقيا فرأوا عارضا فى السماء وظنوه سقيا رحمة فإذا هو سقيا عذاب ولهذا قال تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به** ﴾ أى : من وقوع العذاب وهو قولهم ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾ ومثلها فى الأعراف : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾ فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ؟ والحسوم : الدائمة فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك قال الإمام محمد بن اسحق : واعتزل هود ـ عليه السلام ـ فيما ذكر لى فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود ويلتذ الأنفس وإنها لتمر على عاد بالطعن فيما بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة . وقد قال ابن مسعود وابن عباس ، وغير واحد من أئمة التابعين : فى قوله تعالى : ﴿ **ريح فيها عذاب أليم * تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾ قالوا : هى الباردة ، والعاتية الشديدة الهبوب . ﴿ سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾[(١)] أى : كوامل متتابعات . قيل كان أولها الجمعة وقيل الأربعاء ﴿ **فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية** ﴾ شبههم بأعجاز النخل ، التى لا رؤس لها وذلك لأن الريح كانت تجىء إلى أحدهم فتحمله فترفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس كما قال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر** ﴾ أى : فى يوم نحس عليهم مستمر عذابه عليهم ﴿ **تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ ومن قال : إن اليوم النحس المستمر هو : يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم فقد أخطأ وخالف القرآن فإنه قال فى الآية الأخرى . ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى أيام نحسات** ﴾ ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات فلو كانت نحسات فى أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها شؤمة وهذا لا يقوله أحد ، وإنما المراد فى أيام نحسات أى : عليهم . وقال تعالى : ﴿ **وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم** ﴾[(٢)] أى : التى لا تنتج خيرا فإن الريح المفردة لا تنثر سحابا ، ولا تلقح شجرا بل هى عقيم لا نتيجة خير لها ، ولهذا قال ﴿ **ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾ أى : كالشىء البالى الفانى الذى لا ينتفع به بالكلية .

وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « **نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور** »[(٣)] وأما قوله تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ فالظاهر : أن عاداً هذه هى : عاد الأولى فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى . ويحتمل أن يكون المذكورون فى هذه القصة هم : عاد الثانية ، ويدل عليه ما ذكرنا وما سيأتى من الحديث عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ . وأما قوله : ﴿ **فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا** ﴾ فإن عادا لما رأوا هذا العارض وهو الناشىء فى الجو كالسحاب ظنوه سحاب مطر فإذا هو سحاب عذاب ، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة ، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر قال الله تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم** ﴾ يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب التى استمرت سبع ليال بأيامها

---

(١) سورة الحاقة من الآية ٧ (٢) سورة الذاريات الآية ٤١

(٣) انظر صحيح مسلم فى كتاب ـ صلاة الاستسقاء ـ باب ريح الصبا والديور جـ ٢ ص ٦١٧ رقم ٩٠٠/١٧ .
وفى صحيح البخارى : ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١ كتاب الاستسقاء ـ باب ـ قول النبى ﷺ (نصرت بالصبا) عن ابن عباس .

الثمانية فلم تبق منهم أحدا بل تتبعتهم حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال والغيران فتلفهم وتخرجهم وتهلكهم وتدمر عليهم البيوت المحكمة والقصور المشيدة فكما منوا بقوتهم وشدتهم وقالوا من أشد منا قوة ، سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة وأقدر عليهم وهو : الريح العقيم . ويحتمل أن هذه الريح أثارت فى آخر الأمر سحابة ظن من بقى منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقى منهم فأرسلها الله عليهم شررا ونارا كما ذكره غير واحد ، ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة مع الصيحة التى ذكرها فى سورة قد أفلح المؤمنون والله أعلم .

روى مسلم فى صحيحه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به قالت : وإذا تخيلت السماء تغير لونه وخرج ودخل وأقبل وأدبر فإذا أمطرت سرِّى عنه ، فعرفت ذلك عائشة فسألته فقال : لعله يا عائشة كما قال : قوم عاد : فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا »[1] رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث ابن جريج .

طريق أخرى . قال الإمام أحمد : عن عائشة : ـ رضى الله عنها ـ قالت : ما رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ مستجمعاً ضاحكا قط حتى أرى منه لهواته إنما كان يبتسم . وقالت : كان إذا رأى غيماً ـ أو ريحاً ـ عُرف ذلك فى وجهه ، قالت : يا رسول الله ، (الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف من وجهك الكراهية ؟ فقال : يا عائشة : ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، قد عذب قوم نوح بالريح . وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا)[2] فهذا الحديث كالصريح فى تغاير القصتين كما أشرنا إليه أولاً . فعلى هذا تكون القصة المذكورة فى سورة الأحقاف خبراً عن قوم عاد الثانية . وتكون بقية السياقات فى القرآن خبرا عن عاد الأولى والله أعلم بالصواب ا.هـ .

أضواء كاشفة
على قصة ثمود

قال العلامة ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية » (قصة صالح نبى ثمود ـ عليه السلام) وهم : قبيلة مشهورة يقال : ثمود باسم جدهم ثمود أخى جريس وهما أبناء عابر بن إرم بن سام بن نوح ، وكانوا عربا من العاربة يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك . وقد مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين كما سيأتى بيانه ، وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك فبعث الله فيهم رجلاً منهم وهو : عبد الله ورسوله صالح بن عبد الله ماشخ ، بن عبيد ، بن حاجر ، بن ثمود ، ابن عابر ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح . فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئا ، فآمنت به طائفة منهم وكفر جمهورهم ونالوا منه بالمقال والفعال وهموا

---

(١) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه جـ ٢ ص ٦١٦ كتاب صلاة الاستسقاء رقم ٨٩٩/١٥ عن عائشة .

(٢) انظر صحيح مسلم ـ صلاة الاستسقاء جـ ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ رقم ٨٩٩/١٦ وانظر سند الإمام أحمد جـ ٦ ص ٦٦ عن عائشة . وفى صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٦٧ فى تفسير سورة الاحقاف .

بقتله وقتلوا الناقة التى جعلها الله حجة عليهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾[١] ، وقال تعالى فى سورة هود : ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤ نا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير * ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب * فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز * وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾[٢] . وقال تعالى فى سورة الحجر : ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين * وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾[٣] وقال سبحانه وتعالى فى سورة الإسراء : ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾[٤] . وقال تعالى فى سورة الشعراء : ﴿ كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فى ما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأتِ بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين * فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾[٥] وقال تعالى فى سورة النمل : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون * قال يا قوم لِمَ تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون * قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم

(١) سورة الأعراف الآيات ٧٣ - ٧٩
(٢) سورة هود الآيات ٦١ - ٦٨
(٣) سورة الحجر الآيات ٨٠ - ٨٤
(٤) سورة الإسراء آية ٥٩
(٥) سورة الشعراء الآيات ١٤١ - ١٥٩

تفتنون * وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون * قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون * ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[١] .

وقال تعالى فى سورة فصلت ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون * ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾[٢] وقال تعالى فى سورة القمر : ﴿ كذبت ثمود بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفى ضلال وسعر * أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر * سيعلمون غداً من الكذاب الأشر * إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر * ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر * فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها * إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾[٤] . وكثيرا ما يقرن الله فى كتابه بين ذكر عاد وثمود كما فى سورة براءة ، وإبراهيم ، والفرقان ، وسورة ، (ص) ، وسورة (ق) ، والذاريات ، والنجم ، والفجر ، . ويقال إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب وليس لهما ذكر فى كتابهم التوراة ولكن فى القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما كما قال تعالى : فى سورة إبراهيم : ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾[٥] الآية . الظاهر : أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدا ولا اعتنوا بحفظه وإن كان خبرهما كان مشهوراً فى زمان موسى ـ عليه السلام ـ وقد تكلمنا على هذا كله فى التفسير متقصيا ولله الحمد والمنة .

والمقصود : الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم وكيف نجى الله نبيه صالحاً ـ عليه السلام ـ ومن آمن به ، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم ومخالفتهم رسولهم ـ عليه السلام ـ قد قدمنا أنهم كانوا عربا وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم . ولهذا قال لهم نبيهم ـ عليه السلام ـ ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾[٦] أى : إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم وتعملوا بخلاف عملهم وأباح لكم هذه الأرض تبنون فى سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين أى : حاذقين فى صنعتها وإتقانها وإحكامها ، فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح والعبادة له وحده لا شريك له

(١) سورة النمل الآيات ٤٥ ـ ٥٣
(٢) سورة فصلت الآيتان ١٧ ـ ١٨
(٣) سورة القمر الآيات ٢٣ ـ ٣٢
(٤) سورة الشمس الآيات ١١ ـ ١٥
(٥) سورة إبراهيم الآيات ٨ ـ ٩
(٦) سورة الأعراف من الآية ٧٢ ـ ٧٤

وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته فإن عاقبة ذلك وخيمة ولهذا وعظهم بقوله : ﴿ أتتركون فى ما هاهنا آمنين * فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيمٌ ﴾[1] أى : متراكم كثير حسن بهى ناضج ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ﴾[2] وقال لهم أيضاً ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾[3] أى : هو الذى خلقكم فأنشأكم من الأرض وجعلكم عمارها ، أى : أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرزاق فهو الذى يستحق العبادة وحده لا سواه ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ أى : أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ﴿ إن ربى قريب مجيب * قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ﴾ أى : قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملا قبل هذه المقالة وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة وترك ما كنا نعبده من الأنداد والعدول عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا : ﴿ أتنهانا أن نترك ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته فما تزيدوننى غير تخسير ﴾ . وهذا تلطف منه لهم فى العبادة ولين الجانب وحسن تأت فى الدعوة لهم إلى الخير أى : فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه ماذا عذركم عند الله وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون منى أن أترك دعاءكم إلى طاعته وأنا لا يمكننى هذا لأنه واجب على ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرنى منه ولا ينصرنى فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له حتى يحكم الله بينى وبينكم . وقالوا له أيضا : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ أى : من المسحورين يعنون مسحوراً لا تدرى ما تقول فى دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الأنداد وهذا القول عليه الجمهور . إن المراد بالمسحرين ! المسحورين وقولهم : ﴿ فأت بآية إن كنت من الصادقين ﴾ سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم * ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ وقال : ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ﴾ وقال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ .

وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوما فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم فقالوا : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ، ناقة من صفتها كيت وكيت وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا فقال لهم : النبى صالح ـ عليه السلام ـ أرأيتم أن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به ، قالوا نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك ثم قام إلى ـ صلاة لله ـ عز وجل ـ ما قدر له ثم دعا ربه ـ عز وجل ـ أن يجيبهم إلى ما طلبوا فأمر الله ـ عز وجل ـ تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوا ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمراً عظيماً ومنظراً هائلا وقدرة باهرة ودليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً ، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ولهذا قال تعالى : ﴿ فظلموا بها ﴾ أى : جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها أى : أكثرهم .

(١) سورة الشعراء الآيات ١٤٦ ـ ١٤٨ (٢) سورة الشعراء الآيات ١٤٩ ـ ١٥٢ (٣) سورة هود من الآية ٦١

ولهذا قال لهم صالح ـ عليه السلام ـ (هذه ناقة الله لكم آية) أضافها لله سبحانه وتعالى : إضافة تشريف وتعظيم كقوله : بيت الله وعبد الله ، ﴿ لكم آية ﴾ أى : دليلاً على صدق ما جئتكم به ﴿ فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوماً بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم ويقال : إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم ولهذا ، قال : ﴿ لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ﴾ أى : اختبارا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون ، والله أعلم بما يفعلون ﴿ فارتقبهم ﴾ أى : انتظر ما يكون من أمرهم ، ﴿ واصطبر ﴾ على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ﴾ فلما طال عليهم الحال هذا اجتمع ملؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم ، قال الله تعالى : ﴿ فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ . وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم قدار بن سالف بن جندع ، وكان يقال : إنه ولد زانية ولد على فراش سالف وهو : ابن رجل يقال له : صبيان ، وكان فعله ذلك باتفاق جميعهم فلهذا نسب الفعل إلى جميعهم كلهم ، قال الله تعالى : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر * فكيف كان عذابى ونذر ﴾ وقال تعالى : ﴿ إذ انبعث أشقاها * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ﴾ أى : احذروها ﴿ فكذبوه فعقروها * فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها ﴾ . وقال تعالى : فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ﴾ فجمعوا فى كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه . منها أنهم خالفوا الله ورسوله فى ارتكابهم النهى الأكيد فى عقر الناقة التى جعلها الله لهم آية : وفيها أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين ، أحدهما : الشرط عليهم فى قوله : ﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب ﴾ . وفى آية عظيم ، وفى الأخرى أليم والكل حق . والثانى : استعجالهم على ذلك ، وفيها أنهم كذبوا الرسول الذى قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه وهم يعلمون ذلك علما جازماً ، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم قال الله تعالى : ﴿ فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ وذكروا أنهم لما عقروا الناقة كان أول من سطا عليها قدار بن سالف ـ لعنه الله ـ فعرقبها فسقطت إلى الأرض ثم ابتدروها بأسيافهم يقطعونها ، فلما عاين ذلك سقبها وهو ولدها شرد عنهم فعلا أعلى الجبل هناك ورغا ثلاث مرات فلهذا قال لهم صالح : ﴿ تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ﴾ أى : غير يومهم ذلك فلم يصدقوه أيضا فى هذا الوعد الأكيد بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا فيما يزعمون أن يلحقوه بالناقة (قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله) أى : لنكبسنه فى داره مع أهله فلنقتلنه ثم نجحدن قتله وننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه . ولهذا قالوا : ﴿ ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون ﴾ قال الله تعالى : ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين * فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن فى ذلك لآية لقوم يعلمون * وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ وذلك أن الله تعالى : أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم سلفا وتعجيلا قبل قومهم وأصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ، ووجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح ـ عليه السلام ـ ، فلما أمسوا نادوا

بأجمعهم ، ألا قد مضى يوم من الأجل ، ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل . وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة ، فلما أمسوا نادوا إلا قد مضى يومان من الأجل . ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت ووجوههم مسودة فلما أمسوا نادوا ألا قد مضى الأجل فلما كان صبيحة يوم الأحد تحفظوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنقمة لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أى جهة يأتيهم العذاب فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الأصوات وحقت الحقائق **﴿ فأصبحوا فى دارهم جاثمين ﴾** لا أرواح فيها ولا حراك بها ، قال تعالى : **﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾** أى : لم يقيموا فيها فى سعة ورزق وغناء **﴿ ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود ﴾** أى : نادى عليهم لسان القدر بهذا .

وقوله تعالى : **﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾** إخبار عن صالح أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقد أخذ فى الذهاب عن محلتهم إلى غيرها قائلا لهم : (يا قوم لقد أبلغتم رسالة ربى ونصحت لكم) أى : جهدت فى هدايتكم بكل ما أمكننى وحرصت على ذلك بقولى وفعلى ونيتى (ولكن لا تحبون الناصحين) أى : لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم المتصل إلى الأبد وليس لى فيكم حيلة ولا لى بالدفع عنكم يدان والذى وجب علىّ من أداء الرسالة والنصح لكم قد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد ، وهكذا خاطب النبى ﷺ ـ أهل قليب بدر بعد ثلاث ليال وقف عليهم وقد ركب راحلته وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال : « يا أهل القليب هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً ، وقال لهم : فيما قال : بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس ، فبئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم فقال له عمر : يا رسول الله تخاطب أقواما قد جيفوا فقال : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . ولكنهم لا يجيبون)[1] . وسيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ويقال إن صالحاً ـ عليه السلام ـ انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

قال الإمام أحمد : عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما مر النبى ـ ﷺ ـ بوادى عسفان حين حج قال : يا أبا بكر (أى واد هذا قال : وادى عسفان قال : لقد مر به هود وصالح ـ عليهما السلام ـ على بكرات خطمها الليف ، أزرهم العباء وأرديتهم النمار ، يلبون ، يحجون البيت العتيق[2] . إسناد حسن . وقد تقدم فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ من رواية الطبرانى ، وفيه نوح ، وهود ، وإبراهيم .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٠٣ رقم ٢٨٧٤/٧٧ ـ كتاب صفات الجنة باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ، وإثبات عذاب القبر ، والتعوذ منه عن أنس بن مالك .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٢٣٢ مسند ابن عباس

مرور النبى بوادى الحجر
من أرض ثمود عام تبوك

قال الإمام أحمد : عن ابن عمر قال : لما نزل رسول الله - ﷺ - بالناس على تبوك نزل بهم الحجر ، عند بيوت ثمود فاستقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور فأمرهم رسول الله - ﷺ - فأهراقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذبوا (إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم)[1] . وقال أحمد أيضا : عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - وهو بالحجر : « لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم »[2] وفى بعض الروايات إنه - عليه السلام - لما مر بمنازلهم قنع رأسه وأسرع راحلته ونهى عن دخول منازلهم إلا أن تكونوا باكين وفى رواية فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم مثل ما أصابهم - صلوات الله وسلامه عليه - (وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين) . أ . هـ

أحوال أعداء الله وتوجيهات
إلى أولياء الله

قال تعالى :

وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ
وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن
يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا
تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟

(١) انظر مسند الإمام جـ ٢ ص ١١٧ عن ابن عمر
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ ص ٩ عن عبدالله بن عمر

فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ * وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا
بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ
كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ
تَغۡلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾
ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٢٨﴾
وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا
مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ
وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ
وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ
أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ
وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾
وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ
نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

معانى المفردات

(يوزعون) أى : يحبس أولهم ليلحق آخرهم لكثرتهم . (جلودهم) أى : جوارحهم (أرداكم) أى : أهلكهم ، (مثوى) أى : مُقام ، (وأن يستعتبوا) أى : يطلبوا العتبى والرضا (من المعتبين) أى : المجابين إلى ما يطلبون . (وقيضنا) أى : ويسرنا وهيأنا (قرناء) واحدهم قرين : أى : أخدانا وأصحابا من غواة الجن والإنس (والغوا فيه) أى : عارضوه باللغو والباطل حين يقرأ لتهوشوا عليه (دار الخلد) أى : دار الإقامة المستمرة ، (تحت أقدامنا) أى : ندوسهما بهما انتقاما منهما ، (استقاموا) أى : ثبتوا على الإيمان والصراط المستقيم (أولياؤكم) أى : أعوانكم فى شئونكم ، (تدعون) أى : تتمنون وتطلبون ، (النزل) ما يهيأ للضيف ليأكله حين نزوله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه كيف عاقب أولئك الجاحدين فى الدنيا وأذاقهم عذاب الهون بما كانوا يكسبون ـ أردف ذلك ذكر عقابهم فى الآخرة ، ليكون ذلك أتم للزجر ، وأكثر فى الاعتبار لمن اعتبر ، ولما ذكر سبحانه الوعيد الشديد فى الدنيا والآخرة على الكفر والمعاصى أردف ذلك ذكر السبب الذى من أجله وقعوا فى الكفر ، ثم حكى عنهم جناية أخرى وهى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن أعملوا الحيلة فى عدم إسماع الناس له حتى لا يتدبروا معناه ، فتشاغلوا حين قراءته ، ثم ذكر أنهم حين يقعون فى العذاب الشديد ، يطلبون أن يروا من كان السبب فى وقوعهم فى الضلال من الجن والانس ليدوسهم تحت أقدامهم انتقاما منهم على أن صيروهم فى هذه الهاوية . ثم أعقب هذا الوعد الشريف للمؤمنين كما هى سنة القرآن من اتباع أحدهما بالآخر كما جاء فى قوله : ﴿ نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم ﴾[1] ، فبعد أن ذكر أن قرناء السوء يدعون إلى المعاصى ـ أردف ذلك ذكر حال أضدادهم ، السعداء الذين يدعون الناس إلى توحيد ربهم وطاعته باللين والرفق والموعظة الحسنى .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا * قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين * فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾** .

يقول تعالى : **﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾** أى : اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون إلى النار **﴿ يوزعون ﴾** أى : تجمع الزبانية أولهم على آخرهم كما قال تبارك وتعالى : ﴿ ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا ﴾[2] وكقوله تعالى : ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾[3] .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا ما جاءوها ﴾[4] أى : وقفوا عليها **﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾** أى : بأعمالهم مما قدموه وأخروه لا يكتم منه حرف . كقوله تعالى : ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق **ويعلمون** أن الله هو الحق المبين ﴾[5] .

---

(١) سورة الحجر الآيتان ٤٩ ـ ٥٠
(٢) سورة مريم الآية ٨٦
(٣) سورة النمل الآية ٨٣
(٤) سورة النمل من الآية ٨٤
(٥) سورة النور الآيتان ٢٤ ـ ٢٥

وقوله : ﴿ **وقالوا لجلودهم لِمَ شهدتم علينا** ﴾ ؟ أى : لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ **قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة** ﴾ قال الحافظ أبو بكر البزّار : عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : ضحك رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم أو تبسم فقال : ﷺ ـ « ألا تسألونى عن أى شىء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله : من أى شىء ضحكت ؟ قال ـ ﷺ ـ « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة يقول أى رب أليس وعدتنى أن لا تظلمنى ؟ قال بلى فيقول فإنى لا أقبل علىّ شاهدا إلا من نفسى فيقول الله تبارك وتعالى : أوليس كفى بى شهيدا والملائكة الكرام الكاتبين ؟ قال : فيردد هذا الكلام مرارا قال : فيختم على فيه وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول بعدا لكنَّ وسحقاً ، عنكنَّ كنت أجادل »[١] وقد أخرجه أيضا مسلم والنسائى .

وقال ابن أبى حاتم : عن أبى موسى : ويدعى الكافر والمنافق للحساب فيعرض عليه ربه ـ عز وجل ـ عمله فيجحد ويقول : أى رب وعزتك لقد كتب علىّ هنا الملك مالم أعمل . فيقول له الملك أما عملت كذا فى يوم كذا فى مكان كذا ؟ فيقول لا . وعزتك أى رب ما عملته . قال : فإذا فعل ذلك ختم على فيه .

قال أبو موسى الأشعرى : ـ رضى الله عنه ـ فإنى لأحسب أول ما ينطق منه فخذه اليمنى .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ أى : تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تكتمون منا الذى كنتم تفعلونه بل وكنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصى ولا تبالون منه فى زعمكم لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه لا يعلم جميع أفعالكم ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم** ﴾ أى : هذا الظن الفاسد وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون هو الذى أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ **فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ أى : فى مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم .

قال الإمام أحمد : عن عمار ، عن عبد الرحمن ، بن يزيد ، عن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت مستترا بأستار الكعبة : (فجاء ثلاثة نفر قرشى وختناه ثقفيان ـ أو ثقفى وختناه قرشيان ـ كثير شحم بطونهم ، قليل فقه قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهما : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه وإذا لم نرفعه لم يسمعه ، فقال الآخر : إن سمع منه شيئا سمعه كله ـ قال ـ فذكرت ذلك للنبى ـ ﷺ ـ)[٢] فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **من الخاسرين** ﴾ وكذلك رواه البخارى ومسلم والترمذى .

قال معمر : تلا الحسن ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ ثم قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : قال الله تعالى : (أنا مع عبدى عند ظنه بى ، وأنا معه إذا دعانى)[٣] ثم

---

(١) انظر صحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق جـ ٤ ص ٢٢٨٠ ، ٢٢٨١ رقم ٢٩٦٩/١٧ وانظر المستدرك على الصحيحين جـ ٤ ص ٦٠١ .
(٢) انظر صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ جـ ٤ ص ٢١٤١ رقم ٢٧٧٥/٥
ـ وفى صحيح البخارى جـ ٦ ص ١٦١ فى تفسير سورة حم السجدة .
ـ وفى تحفة الاحوذى بشرح جامع الترمذى فى تفسير سورة حم السجدة جـ ٩ رقم ٣٣٠١ وقال : هذا حديث حسن صحيح .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٠٢ رقم ٢٦٧٥/١ كتاب التوبة ـ باب فى الحض على التوبة والفرح بها عن ابى هريرة .

افتنر الحسن ينظر فى هذا فقال : ألا إنما عمل الناس على قدر ظنهم بربهم ، فأما المؤمن فأحسن الظن بالله ، فأحسن العمل ، وأما الكافر والمنافق فأساءا الظن بالله فأساءا العمل ثم قال : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ . الآية .

وقوله تعالى : ﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ أى : سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا هم فى النار لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها ، وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذارا فما لهم أعذار ولا تقال لهم عثرات كما قال سبحانه : ﴿ وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾[(1)] . وكقوله تعالى : إخبارا عنهم ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾[(2)] .

قوله تعالى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ يذكر تعالى : أنه هو الذى أضل المشركين وأن ذلك بمشيئته وكونه وقدرته وهو الحكيم فى أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿ **فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ أى : حسنوا لهم أعمالهم فى الماضى وبالنسبة إلى المستقبل فلم يروا أنفسهم إلا محسنين كما قال تعالى : ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين * وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ﴾[(3)] وقال تعالى : ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾[(4)] ، وقوله تعالى : ﴿ **وحق عليهم القول** ﴾ أى : كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿ **إنهم كانوا خاسرين** ﴾ أى : استووا هم وإياهم فى الخسار والدمار .

كقوله تعالى : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾[(5)] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون * فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون * ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون * وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ .

أى : وقال الذين كفروا بالله ورسوله : لا تنصتوا لسماع هذا القرآن وعارضوه باللغو والباطل بإنشاء الشعر والأراجيز والمكاء والصفير حتى تهوّشوا على القارىء لعلكم تغلبون على قراءته وتميتون ذكره . قال

(1) سورة الجاثية الآيتان ٣٤ ـ ٣٥
(2) سورة المؤمنون الآيات ١٠٦ ـ ١٠٨ .
(3) سورة الزخرف الآيتان ٣٦ ، ٣٧
(4) سورة مريم من الآية ٧٥
(5) سورة الأعراف الآية ١٧٩

ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول : وهذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن الكريم وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين بخلاف ذلك فقال تعالى : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾(١) .

ثم قال سبحانه : منتصرا للقرآن منتقماً ممن عاداه من أهل الكفر ﴿ **فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذى كان يعملون** ﴾ أى : فلنذيقن الكافرين عذاباً لا يحاط بوصفه ، ولنجازينهم بأسوأ أعمالهم ، لأن أعمالهم الحسنة كصلة الأرحام وإكرام الضيف قد أحبطها الكفر ، ولم يبق لهم إلا القبيح ومن ثم لما يجازوا إلا على السيئات . ﴿ **ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾ أى : ذلك الجزاء المعد لأعداء الله هو النار مخلدون فيها أبداً ، لا انقطاع لعذابها ، ولا انتقال منها جزاء لهم على جحودهم بآياتنا واستكبارهم عن سماعها .

ثم بين سبحانه أنهم حين وقوعهم فى العذاب الشديد يطلبون الانتقام ممن أضلوهم من شياطين الإنس والجن فقال :

﴿ **وقال الذين كفروا ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين** ﴾ قال سفيان الثورى : عن على - رضى الله عنه - فى قوله تعالى : ﴿ **اللذين أضلانا** ﴾ قال إبليس : وابن آدم الذى قتل أخاه ، وفى الحديث (ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها)(٢) لأنه أول من سن القتل . وقولهم : (نجعلهما تحت أقدامنا) أى : أسفل منا فى العذاب ليكونا أشد عذابا منا ولهذا قالوا (ليكونا من الأسفلين) أى : فى الدرك الأسفل من النار وهذا كقوله تعالى فى سورة الأعراف : ﴿ قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفا من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون)(٣) أى : أنه سبحانه قد أعطى كلا منهم ما يستحقه من العذاب والنكال بحسب عمله وإفساده . كما قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا يفسدون)(٤) .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾ .

قال ابن جرير : عن سعيد ، بن عمران قال : قرأت عند أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - هذه الآية ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ قال : هم الذين لم يشركوا بالله شيئاً ، وكذا قال ابن عباس : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ على شهادة أن لا إله إلا الله . وقال الزهرى :

---

(١) سورة الأعراف ٢٠٤

(٢) الحديث فى مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٣٨٣ عن عبدالله بن مسعود .

(٣) سورة الأعراف الآيتان ٣٨ - ٣٩

(٤) سورة النحل الآية ٨٨

تلا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية على المنبر ثم قال : استقاموا والله لله بطاعته ولم يروغوا روغان الثعلب وقال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ﴿ قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ على أداء فرائضه ، وكان الحسن البصرى يقول : « اللهم أنت ربنا فارزقنا الاستقامة وقال أبو العالية : ﴿ ثم استقاموا ﴾ أخلصوا له الدين والعمل ، وقال ابن تيمية : استقاموا على محبته فلم يلتفتوا يمنة ولا يسرة ، وقال الإمام أحمد : عن عبد الله بن سفيان الثقفى ، عن أبيه ، أن رجلاً قال : يا رسول الله مرنى بأمر فى الإسلام لا أسأل عنه أحدا بعدك قال ـ ﷺ ـ (قل آمنت بالله ثم استقم ، قلت : فما أتقى ؟ فأومأ إلى لسانه)[1] وقد أخرجه مسلم فى صحيحه والنسائى أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ أى : عند الموت ﴿ أن لا تخافوا ﴾ أى : مما تقدمون عليه من عمل الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال ، أو دين ، فإنا نخلفكم فيه ﴿ وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر وحصول الخير ، وهذا كما جاء فى حديث البراء ـ رضى الله عنه ـ قال : (إن الملائكة تقول لروح المؤمن : اخرجى أيتها الروح الطيبة فى الجسد الطيب كنت تعمرينه ، اخرجى إلى روح ، وريحان ، ورب غير غضبان)[2] وقيل : إن الملائكة تتنزل عليهم يوم خروجهم من قبورهم)[3] حكاه ابن جرير عن ابن عباس والسدى .

وقال ابن أبى حاتم : بسنده حدثنا جعفر بن سليمان ، قال : سمعت ثابتا قرأ سورة حمَ السجدة حتى بلغ ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ﴾ فوقف فقال : بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه فى الدنيا فيقولان له لا تخف ، ولا تحزن ﴿ وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ﴾ قال فيؤمن الله تعالى خوفه ، ويقر عينه ، فما عظيمة يخشى الناس يوم القيامة إلا هى للمؤمن قرة عين لما هداه الله تبارك وتعالى ، ولما كان يعمل له فى الدنيا ، وقال زيد ابن أسلم : يبشرونه عند موته ، وفى قبره وحين يبعث رواه ابن أبى حاتم ، قال العلامة ابن كثير : وهذا القول يجمع الأقوال كلها ، وهو حسن جدا ، وهو الواقع .

وقوله تعالى : ﴿ نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾ أى : تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا أولياؤكم أى : قرناؤكم فى الحياة الدنيا نسددكم ، ونوفقكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة نؤنس منكم الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزكم الصراط المستقيم ، ونوصلكم إلى جنات النعيم كما قال تعالى : ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ﴾ كقوله جل شأنه : ﴿ ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى سنده جـ ٤ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ عن عبدالله بن سفيان .
ـ وأخرجه مسلم فى صحيحه ـ كتاب الايمان ـ باب جامع أوصاف الإسلام جـ ١ ص ٦٥ رقم ٣٨/٦٢ وفى تحفة الأحوذى جـ ٧ ص ٩١ فى كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى حفظ اللسان رقم ٢٥٢٢ .

(٢) أنظر تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الأنعام من أول قوله وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار جـ ٣ ص ٢٦٢ عن حديث أبى هريرة . ـ وآخر ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ رقم ٤٢٦٢ ـ كتاب الزهد ـ باب ذكر الموت والاستعداد له وأخرجه الإمام أحمد فى سنده جـ٢ ص ٣٦٤ ٣٦٥

(٣) انظر تفسير الطبرى جـ ٢٤ ص ٧٤ فى تفسير سورة فصلت .

(٤) سورة الرعد من الآية ٢٣ ، ٢٤ .

الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾(١) وكقوله عز وجل : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون * هم وأزواجهم فى ظلال على الآرائك متكئون * لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون * سلام قولاً من رب رحيم ﴾(٢) .

وكقوله سبحانه : ﴿ جنات عدن مفتحة لهم الأبواب * متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصرات الطرف أتراب * هذا ما توعدون ليوم الحساب * إن هذا لرزقنا ماله من نفاذ ﴾(٣) وكقوله تعالى : ﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فى جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين * على سرر موضونة * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين * لا يصدعون عنها ولا ينزفون * وفاكهة مما يتخيرون * ولحم طير مما يشتهون * وحور عين * كأمثال اللؤلؤ المكنون * جزاء بما كانوا يعملون * لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلاً سلاماً سلاماً * وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * فى سدر مخضود * وطلح منضود * وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة * وفرش مرفوعة * إنا أنشأناهن إنشاء * فجعلناهن أبكارا * عربا أترابا * لأصحاب اليمين * ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين ﴾(٤) . وقال الحبيب المصطفى - ﷺ - « فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »(٥) ، وقوله تعالى : ﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ أى : ضيافة ، وعطاء ، وإنعاماً من غفور لذنوبكم ، رحيم بكم رؤوف ، حيث غفر ، وستر ، ورحم ، ولطف .

قوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين * ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين** ﴾ أى : لا أحد أحسن قولاً ممن جمع بين خصال ثلاث :

١ - الدعاء إلى توحيد الله وطاعته ، قال ابن سيرين ، والسدى ، وابن زيد ، والحسن : والداعى : هو : رسول الله - ﷺ - ، وكان الحسن إذا تلا هذه الآية يقول : هذا رسول الله ، هذا حبيب الله ، هذا ولى الله ، هذا صفوة الله ، هذا خيرة الله ، هذا والله أحب أهل الأرض إلى الله ، أجاب الله فى دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب إليه .

٢ - العمل الصالح بفعل الطاعات ، واجتناب المحرمات .

٣ - أن يتخذ الإسلام دينا ، ويخلص إلى ربه ، ويعلم أن العز كل العز فى طاعة الله وفى إسلام الوجه والقلب له سبحانه وتعالى .

(١) سورة الزخرف الايات ٧٠ - ٧٣
(٢) سورة (يس) الآيات ٥٥ - ٥٨
(٣) سورة (ص) الآيات ٥٠ - ٥٤
(٤) سورة الواقعة الآيات ١٠ - ٤٠
(٥) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٧٤ رقم ٣٣٤٦ فى تفسر سورة الواقعة عن أبى هريرة وانظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٧٤ رقم ٢ ، ٢٨٢٤/٣ عن أبى هريرة كتاب الجنة وصفة نعيمها .

وقيل المراد بها : المؤذنون الصلحاء كما ثبت فى صحيح مسلم ﴿ المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة ﴾(١) .

وقالت السيدة عائشة فى قوله تعالى : ﴿ **ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين** ﴾ قالت : فهو المؤذن إذا قال : حى على الصلاة فقد دعا إلى الله وهكذا قال ابن عمر - رضى الله عنهما - وعكرمة : أنها نزلت فى المؤذنين ، قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة فى المؤذنين وفى غيرهم ، فأما حال نزول الآية فإنه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية لأنها مكية والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة كما فى الصحيح . إذن : إنها عامة .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة** ﴾ أى : فرق عظيم بين هذه وتلك ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾ أى : من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر - رضى الله عنه - : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه .

وقوله عز وجل : ﴿ **فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾ أى : إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولى حميم أى : قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك ثم قال عز وجل : ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا** ﴾ أى : وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك فإنه يشق على النفوس كقوله تعالى : ﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾(٢) وقوله : ﴿ يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾(٣) وقوله : ﴿ **وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ أى : ذو نصيب وافر من السعادة فى الدنيا والآخرة . قال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس ، فى تفسير هذه الآية : أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الإساءة فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولى حميم . وقوله تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله** ﴾ أى : إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الحق فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا للاستعاذة بخالقه الذى سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده كما قال تعالى : ﴿ وقل ربى أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾(٤) وقد كان - ﷺ - إذا قام إلى الصلاة يقول : « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه »(٥) وهذه الآيات كقوله تعالى فى آخر سورة الأعراف : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾(٦) وفى سورة المؤمنون عند قوله : ﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون * وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين * وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾(٧) .

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ١ ص ٢٩٠ رقم ١٤/٣٨٧ عن طلحة بن يحيى كتاب الصلاة باب - الآذان وهرب الشيطان عند سماعه .
(٢) سورة الشورى الآية ٤٣ (٣) سورة لقمان الآية ١٧
(٤) سورة المؤمنون الآيتان ٩٧ ، ٩٨
(٥) الحديث فى سند الإمام أحمد جـ ٣ ص ٥٠ عن أبى سعيد الخدرى
(٦) سورة الأعراف الآيتان ١٩٩ - ٢٠٠
(٧) سورة المؤمنون الآيات ٩٦ - ٩٨

رسالة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر)

إلى دعاة الإســـلام

فإن بين يديك - أيها القارىء الكريم - رسالة « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله - ولا ريب أنها رسالة قيمة يحتاج إليها كل مسلم يدعو إلى الله على هدى وبصيرة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو الذى أنزل الله به كتبه . وأرسل به رسله وهو من الدين .

فإن رسالة الله : إما إخبار ، وإما إنشاء . فالإخبار : عن نفسه ، وعن خلقه مثل التوحيد ، والقصص الذى يندرج فيه الوعد والوعيد . والإنشاء : الأمر والنهى والإباحة .

وهذا كما ذكر فى الحديث أن « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن »(١) لتضمنها الثلث الذى هو : التوحيد . إذ القرآن ، قصص ، وتوحيد ، وأمر .

وقوله سبحانه وتعالى فى صفة نبينا - ﷺ - ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾(٢) هو بيان لكمال رسالته . فإنه - ﷺ - هو الذى أمر الله على لسانه بكل معروف . ونهى عن كل منكر وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث .

ولهذا روى عنه - ﷺ - أنه قال : ﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾(٣) وقال فى الحديث المتفق عليه : « إنما مثلى ومثل الأنبياء : كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة ، فكان الناس يطوفون بها ، ويعجبون من حسنها ويقولون : لولا موضع اللبنة ؟ فأنا تلك اللبنة »(٤) .

فبه أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف ، والنهى عن كل منكر ، وإحلال كل طيب ، وتحريم كل خبيث .

وتحريم الخبائث : يندرج فى معنى النهى عن المنكر ، كما أن إحلال الطيبات : يندرج فى الأمر بالمعروف ، لأن تحريم الطيبات مما نهى الله عنه ، وكذلك الأمر بجميع المعروف ، والنهى عن كل منكر : مما لم يتم إلا لرسول الله الذى تمم الله به مكارم الأخلاق المندرجة فى المعروف . وقد قال الله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾(٥) . فقد أكمل الله لنا الدين ، وأتم علينا النعمة . ورضى لنا الإسلام دينا .

وكذلك وصف الأمة بما وصف به نبيها ، حيث قال : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٢٢ عن أبى مسعود .

(٢) سورة الأعراف من الآية ١٥٧

(٣) انظر سنن البيهقى (كتاب الشهادات) بيان مكارم الأخلاق - الخ ص ١٠ ص ١٩٢ من حديث أبى هريرة .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٤ ص ٢٢٥ رقم ٣٠٢٢ عن جابر بن عبد الله - أبواب الأمثال - باب ما جاء مَثَلُ النبى والأنبياء وفى الباب عن أبى هريرة وأبى كعب . هذا حديث حسن غريب صحيح من هذا الوجه .

(٥) سورة المائدة من الآية ٣

بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾[٢] ولهذا قال أبو هريرة : ـ رضى الله عنه ـ « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأتون بهم فى القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة »[٣] (رواه البخارى موقوفا على أبى هريرة) .

فبين الله سبحانه : أن هذه الأمة خير الأمم للناس . فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحسانا إليهم . لأنهم كملوا كل خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر من جهة الصفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ، ونهوا عن كل منكر لكل أحد ، وأقاموا ذلك بالجهاد فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم وهذا كمال النفع للخلق .

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة ، لأن الله تعالى قد أخبر : أنهم يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر . فلو اتفقوا على إباحة محرم ، أو إسقاط واجب ، أو تحريم حلال ، أو إخبار عن الله تعالى ، أو خلقه بباطل : كانوا متصفين بالأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، والأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ليس من الكلم الطيب والعمل الصالح . بل الآية تقتضى : أن ما لم تأمر به الأمة : فليس من المعروف وما لم تنه عنه : فليس من المنكر . إذ كانت آمرة بكل معروف ، ناهية عن كل منكر . فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر ، أو تنهى كلها عن معروف ؟

والله سبحانه وتعالى : كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ـ فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾[٤] .

وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها ، لم يكن من شرط ذلك : أن يصل أمر الآمر ، ونهى الناهى منها إلى كل مكلف فى العالم . إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة . فكيف يشترط فيما هو من توابعها ؟ بل الشرط : أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم . ثم إذا فرَّطوا فلم يسعوا فى وصوله إليهم ـ مع قيام فاعله بما يجب عليه ـ كان التفريط منهم لا منه .

وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يجب على كل أحد بعينه ، بل هو على الكفاية ، كما دل عليه القرآن .

ولما كان الجهاد من تمام ذلك : كان الجهاد أيضا كذلك . فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه : أثم كل قادر بحسب قدرته . إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته كما قال النبى ـ ﷺ ـ « من رأى منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه . . وذلك أضعف الإيمان » رواه (م)[٥] وإذا كان كذلك فمعلوم : أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإتمامه بالجهاد . هو من أعظم الذى أمرنا به . ولهذا قيل : وليكن أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر غير منكر » .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠
(٢) سورة التوبة من الآية ٧١
(٣) انظر البخارى كتاب التفسير جـ ٦ ص ٤٧ عن أبى هريرة .
(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٤
(٥) انظر صحيح مسلم جـ ١ ص ٦٩ رقم ٤٩/٧٨ ـ كتاب الايمان .

الأمر بالمعروف لا يكون إلا بالمعروف

وإذا كان : هو من أعظم الواجبات أو المستحبات . فالواجبات والمستحبات لابد أن تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة . إذ بهذا بعثت الرسل ، ونزلت والله لا يحب الفساد ، بل كل ما أمر الله به فهو صلاح . وقد أثنى الله على الصلاح والمصلحين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات . وذم الفساد والمفسدين فى غير موضع .

فحيث كانت مفسدة الأمر والنهى أعظم من مصلحته : لم يكن مما أمر الله به ، وإن كان قد ترك واجب وفعل محرم . إذ المؤمن عليه أن يتقى الله فى عباد الله وليس عليه هداهم .

وهذا من معنى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾[١] والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب .

فإذا قام المسلم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - كما قام بغيره من الواجبات - لم يضره ضلال الضال .

وذلك يكون تارة بالقلب ، وتارة باللسان ، وتارة باليد .

فأما القلب : فيجب على كل حال ، إذ لا ضرر فى فعله . ومن لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال : النبى - ﷺ - « وذلك أدنى - أو أضعف الإيمان »[٢] وقال : « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[٣] (م) وقيل لابن مسعود : - رضى الله عنه - « من ميت الأحياء ؟ فقال : الذى لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكراً » وهذا هو المفتون الموصوف بأن قلبه « كالكوزمجخيا » (والكوز المجخى - بفتح الجيم وكسر الخاء مشددا - المائل عن الاستقامة والاعتدال شبه القلب الذى لا يعى الخير بالكوز المائل الذى لا يثبت فيه شىء) - فى حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما - فى الصحيحين « تعرض الفتن على القلوب عرض الحصير . . » الحديث[٤]

من هم الآمرون بالمعروف ؟

وهنا يغلط فريقان من الناس . .

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهى ، تأويلا لهذه الآية كما قال أبوبكر الصديق - رضى الله عنه - فى خطبته : (يأيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)[٥] وإنكم تضعونها على غير موضعها . وإنى سمعت النبى - ﷺ - يقول : إن الناس إذا رأوا

---

(١) سورة المائدة من الآية : ١٠٥ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ١ ص٦٩ رقم ٤٩/٧٨ كتاب الإيمان وفى النسائى جـ٨ ص١٠١ - ١٠٢ كتاب تفاضل الإيمان .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ١ ص ٧٠ رقم ٥٠/٨٠ كتاب الإيمان .
(٤) انظر صحيح مسلم جـ١ ص١٢٨ رقم ١٤٤/٢٣١ كتاب الإيمان عن حذيفة .
(٥) سورة المائدة من الآية : ١٠٥ .

المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[١] رواه الإمام أحمد وإسناده صحيح .

والفريق الثانى : من يريد أن يأمر وينهى ـ إما بلسانه ، وإما بيده ـ مطلقا من غير فقه ، ولا حلم ولا صبر ، ولا نظر فيما يصلح من ذلك ومالا يصلح وما يقدر عليه ومالا يقدر ، كما فى حديث إلى ثعلبة الخشنى سألت عنها ـ يعنى الآية ـ رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، ورأيت أمرا لا يدان لك به ، فعليك بنفسك ، ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائك أيام الصبر . الصبر فيهن مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهن كأجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله)[٢] (رواه أبوداود والترمذى وأخرجه ابن كثير فى تفسيره (٢٠٨/٣) ط الشعب) .

فيأتى بالأمر والنهى معتقداً أنه مطيع لله ولرسوله . وهو معتد فى حدوده ، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهى ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما أتاه من الأمر والفحص والجهاد على ذلك وكان فساده أعظم من صلاحه .

ولهذا أمر النبى ـ ﷺ ـ بالصبر على جور الأئمة ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة ، وقال (أدوا إليهم حقوقهم ، وسلوا الله حقوكم)[٣] (رواه البخارى ومسلم) وقد بسطنا القول فى ذلك فى غير هذا الموضع .

لزوم السنة والجماعة

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة : لزوم الجماعة ، وترك قتال الأئمة ، وترك القتال فى الفتنة .

وأما أهل الأهواء ـ كالمعتزلة ـ فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم وقد تكلمت على قتال الأئمة فى غير هذا الوضع .

وجماع ذلك : داخل فى القاعدة العامة ، فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيئات ، أو تزاحمت . فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد ، وتعارضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهى ـ وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ، ودفع مفسدة ـ فينظر فى المعارض له . فإن كان الذى يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد أكثر . لم يكن مأمورا به . بل يكون محرما ، إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته . الاعتبار بالمصالح والمفاسد .

لكن اعتبارُ المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة .

(١) انظر مسند أحمد فى جـ١ ص ٩ مسند أبى بكر ـ رضى الله عنه .

(٢) انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ ٨ ص ٤٢٤ فى تفسير سورة المائدة وقال الترمذى ، هذا حديث حسن غريب صحيح وفى سنن الترمذى جـ ٤ ص ٣٣٢ رقم ٥٠٥١ باب تفسير سورة المائدة ـ وفى سنن أبى داود جـ ٤ ص ٥١٢ ، رقم ٤٣٤١ كتاب الملاحم باب الأمر والنهى .

(٣) انظر صحيح البخارى جـ ٩ ص ٥٩ كتاب الفتن عن عبد الله
وانظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٧٢ رقم ١٨٤٣/٤٥ ـ كتاب الامارة .

فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص . لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر . وقل أن تعوزَ النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام .

وعلى هذا : إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرقون بينهما ، بل إما يفعلوهما جميعا ، أو يتركوهما جميعا لم يجز أن يؤمروا بمعروف . ولا أن ينهوا عن منكر ، بل ينظر . فإن كان المعروف أكثر أمر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تفويت معروف أعظم منه ، بل يكون النهى حينئذ من باب الصد عن سبيل الله ، والسعى فى زوال طاعته وطاعة رسوله ـ ﷺ ـ وزوال فعل الحسنات . وإن كان المنكر أغلب : نهى عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ويكون الأمر بذلك المعروف ، المستلزم للمنكر الزائد عليه : أمراً بمنكر ، وسعياً فى معصية الله ورسوله .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان : لم يأمر بهما ، ولم ينه عنهما ، فتارة يصلح الأمر ، وتارة يصلح النهى ، وتارة لا يصلح لا أمر ولا نهى ، حيث كان المعروف والمنكر متلازمين ، وذلك فى الأمور المعنية الواقعة . وأما من جهة النوع . فيؤمر بالمعروف مطلقا ، وينهى عن المنكر مطلقا . وفى الفاعل الواحد والطائفة الواحدة : يؤمر بمعروفها ، وينهى عن منكرها ويحمد محمودها . ويذم مذمومها ، بحيث لا يتضمن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكر فوقه . ولا يتضمن النهى عن المنكر حصول ما هو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمر استبان المؤمن ، حتى يتبين له الحق . **فلا يقدم على الطاعة إلا بعلم ونية** . وإذا تركها كان عاصيا . فترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى عنه من الأمر معصية ، وهذا باب واسع ولا حول ولا قوة إلا بالله .

هدى رسول الله ﷺ
فى
الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

ومن هذا الباب : ترك النبى ـ ﷺ ـ لعبد الله بن أبي سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور ، لما لهم من أعوان . فإزالة منكره بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحميتهم ، وبنفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله ـ ﷺ ـ يقتل أصحابه . ولهذا لما خطب الناس فى قضية الإفك بما خطبهم به ، واعتذر عنه ، وقال له سعد بن معاذ قوله الذى أحسن فيه ، حمى له سعد بن عبادة ـ مع حسن إيمانه وصدقه ـ وتعصب لكل منهم قبيلة حتى كادت تكون فتنة .

وأصل هذا : أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه ، وإرادته لهذا وكراهته لهذا : موافقا لحب الله وبغضه ، وإرادته وكراهته الشرعيين . وأن يكون فعله للمحبوب ، ودفعه للمكروه ، بحسب قوته وقدرته . فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها وقد قال : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[1] .

---

(١) سورة التغابن من الآية : ١٦ .

الموالاة والمعاداة القلبية

فأما حب القلب وبغضه ، وإرادته وكراهته : فينبغى أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان . وأما فعل البدن : فهو بحسب قدرته . ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة ، وفعل العبد معها بحسب قدرته ، فإنه يعطى ثواب الفاعل الكامل ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع . فإن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله ، وبغض الله ورسوله . وهذا من نوع الهوى . فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ؟ ﴾[1] فإن أصل الهوى : هو محبة النفس ويتبع ذلك بعضها .

حقيقة الهوى

وأصل الهوى : وهو الحب والبغض الذى فى النفس - لا يلام العبد عليه . فإن ذلك قد لا يملكه . وإنما يلام على اتباعه ، كما قال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ وقال النبى : - ﷺ - « ثلاث منجيات : خشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الفقر والغنى ، وكلمة الحق فى الغضب والرضى ، وثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه »[2] (رواه الطبرانى فى الأوسط عن أنس وإسناده حسن) .

والحب والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغوض ، ووجد وإرادة وغير ذلك . فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله : فهو ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . بل قد يتمادى به الأمر إلى أن يتخذ إلهه هواه .

واتباع الأهواء فى الديانات أعظم من اتباع الأهواء فى المشتهيات . فإن الأول : حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين كما قال تعالى : ﴿ فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ قل ياأهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير ﴾[6] وقال فى الآية الأخرى ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾[8] .

---

(١) سورة القصص من الآية : ٥٠ .

(٢) انظر حلية الأولياء جـ ٢ ص ٣٤٣ وقد ورد الحديث بلفظه عن أنس ثم قال : هذا حديث غريب من حديث قتادة . ورواه عكرمة بن إبراهيم عن هشام بن يحيى بن أبى كثير عن قتادة عن أنس - رضى الله عنه -
- وانظر كنز العمال جـ ١٦ ص ٤٤ رقم ٤٣٨٦٧ .

(٣) سورة القصص الآية : ٥٠ .

(٤) سورة الأنعام : ١١٩ .

(٥) سورة المائدة الآية : ٧٧ .

(٦) سورة البقرة الآية : ١٢٠ .

(٧) سورة البقرة من الآية : ١٤٥

(٨) سورة المائدة من آية : ٤٩ .

ولهذا كان من خرج عن موجب الكتاب والسنة - من المنسوبين إلى العلماء والعباد يجعل من أهل الأهواء ، كما كان السلف - رحمهم الله يسمونهم « أهل الأهواء » وذلك : أن كل من لم يتبع العلم فقد اتبع هواه . والعلم بالدين لا يكون إلا بهدى الله الذى بعث به رسوله - ﷺ -. ولهذا قال تعالى : فى موضع ﴿ وإن كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ﴾(١) وقال فى موضع آخر ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ ؟ .

فالواجب على العبد : أن ينظر إلى نفسه إلى حبه وبغضه ، ومقدار حبه وبغضه هل موافق لأمر الله ورسوله ؟ وهو هدى الله الذى أنزله على رسوله - ﷺ - بحيث يكون مأمورا بذلك الحب والبغض . لا يكون متقدما فيه بين يدى الله ورسوله فإن الله تعالى قد قال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾(٢) .

ومن أحب أو أبغض قبل أن يأمره الله ورسوله : ففيه نوع من التقدم بين يدى الله ورسوله . ومجرد الحب والبغض هوى . لكن المحرم منه : اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله . ولهذا قال لنبيه داود ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد ﴾(٣) .

فأخبر : أن من اتبع هواه . . أضله ذلك عن سبيل الله . وسبيل الله هو هداه الذى بعث به رسوله ، وهو السبيل إليه .

الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل . (وهو شرط فى الآمر الناهى) وتحقيق ذلك : إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : هو من أوجب الأعمال وأفضلها وأحسنها . وقد قال تعالى : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾(٤) . وهو كما قال : الفضيل بن عياض رحمه الله : أخلصه وأصوبه . فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صوابا ، لم يقبل ، وإذا كان صوابا ، ولم يكن خالصا ، لم يقبل ، حتى يكون خالصا صوابا . والخالص : أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة . فالعمل الصالح : لابد أن يراد به وجه الله تعالى . فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده . كما فى الحديث الصحيح عن أبى هريرة : عن النبى - ﷺ - قال : يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برىء ، وهو كله للذى أشرك »(٥) (رواه مسلم) .

وهذا هو التوحيد الذى هو أصل الأسلام : وهو دين الله الذى بعث به جميع رسله وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا . ولابد - مع ذلك - أن يكون العمل صالحا ، وهو ما أمر الله به ورسوله ، وهو الطاعة ، فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة . وهو العمل المشروع المسنون إذ العمل المشروع المسنون هو المأمور به أمر إيجاب أو استحباب ، وهو العمل الصالح

---

(١) سورة الانعام من الآية : ١١٩ .

(٢) سورة الحجرات الآية : ١ .

(٣) سورة (ص) من الآية : ٢٦ .

(٤) سورة الملك من الآية : ٢ .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٨٩ رقم ٢٨٨٥/٤٦ - كتاب الزهد .

وهو الحسن وهو البر . وهو الخير . وضده : المعصية والعمل الفاسد ، والسيئة والفجور والظلم .

والعمل المحمود : هو الصالح ، وهو المأمور به . ولهذا كان عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه - يقول فى دعائه « اللهم اجعل عملى كله صالحا ، ولوجهك الكريم خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئا » .

وإذا كان هذا حد كل عمل صالح ، فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يجب أن يكون كذلك هذا فى حق الآمر الناهى نفسه .

العلم والفقه شرط فى الآمر الناهى

ولا يكون عمله صالحا إن لم يكن بعلم وفقه كما قال عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه : - « من عبد الله بغير علم . كان ما يفسد أكثر مما يصلح » كما فى حديث معاذ بن جبل - رضى الله عنه - « العلم أمام العمل ، والعمل تابعه » وهذا ظاهر . فإن القصد والعمل : إن لم يكن بعلم كان جهلا وضلالا . واتباعا للهوى ، كما تقدم وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الإسلام . فلابد من العلم بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما . ولابد من العلم بحال المأمور وحال المنهى .

الرفق والحلم والصبر (شروط فى الآمر الناهى)

ومن الصلاح : أن يأتى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الصراط المستقيم . والصراط المستقيم : أقرب الطرق الموصلة الى حصول المقصود .

ولابد فى ذلك من الرفق كما قال النبى - ﷺ - : (ما كان الرفق فى شىء إلا زانه . ولا كان العنف فى شىء إلا شانه »[1] (رواه مسلم) ولابد أيضا أن يكون حليما ، صبورا على الأذى ، فإنه لابد أن يحصل له أذى . فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، كما قال لقمان لابنه : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[2] .

ولهذا أمر الله الرسل - وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر - بالصبر كقوله لخاتم الرسل - ﷺ - بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة فإنه أول ما أرسل أنزلت عليه سورة (يأيها المدثر) بعد أن أنزلت عليه سورة ﴿ أقرأ ﴾ التى بها نبِّىء فقال الله تعالى : ﴿ يأيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر ﴾[3] فافتتح آيات الإرسال إلى الخلق بالأمر بالنذارة . وختمها بالأمر بالصبر ونفس الإنذار أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . فعُلم أنه يجب بعد ذلك الصبر . وقال تعالى ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾[4] وقال تعالى : ﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾[5] وقال : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[6] وقال : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾[7] وقال : ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾[8] وقال : ﴿ واصبر فإن الله

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٠٤ رقم ٢٥٩٤/٧٨ - كتاب البر والصلة .
(٢) سورة لقمان الآية : ١٧ .
(٣) سورة المدثر الآيات : ١ - ٧ .
(٤) سورة الطور من الآية : ٤٨ .
(٥) سورة المزمل الآية : ١٠ .
(٦) سورة الأحقاف من الآية : ٣٥ .
(٧) سورة القلم من الآية : ٤٨ .
(٨) سورة النحل من الآية : ١٢٧ .

لا يضيع أجر المحسنين ﴾(١) فلابد من هذه الثلاثة : العلم ، الرفق ، الصبر . العلم قبل الأمر والنهى ، والرفق معه ، والصبر بعده .

وهذا كما جاء فى الأثر عن بعض السلف ـ ورووه مرفوعا ـ ذكره القاضى أبو يعلى فى المعتمد « لا يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر : إلا من كان فقيها فيما يأمر . فقيها فيما ينهى . رفيقاً فيما يأمر رفيقاً فيما ينهى عنه . حليما فيما يأمر . حليماً فيما ينهى عنه » .

لا ينبغى ترك الأمر بالمعروف لصعوبته

وليعلم أن الأمر بهذه الخصال فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر : مما يوجب صعوبته على كثير من النفوس . فيظن أنه بذلك يسقط عنه فيدعه . وذلك مما يضره أكثر مما يضره الأمر بدون هذه الخصال ، أو أقل . فإن ترك الأمر الواجب معصية وفعل ما نهى الله عنه فى الأمر معصية . فالمنتقل من معصية إلى معصية أكبر منها كالمستجير من الرمضاء بالنار . والمنتقل من معصية إلى معصية كالمنتقل من دين باطل إلى دين باطل . قد يكون الثانى شراً من الأول . وقد يكون دونه وقد يكونان سواء . فهكذا تجد المقصر فى الأمر والنهى ، والمعتدى فيه ، قد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكونان سواء .

سبب المصائب : السيئات ، وسبب النعم : الطاعة

ومن المعلوم ـ بما أرانا الله من آياته فى الآفاق ، وفى أنفسنا ، وبما شهد به فى كتابه : أن المعاصى سبب المصائب . فسيئات المصائب والجزاء : من سيئات الأعمال . وأن الطاعة سبب النعمة . فإحسان العبد العمل سبب لإحسان الله قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾(٣)

وقال تعالى : ﴿ أو لمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾(٤) .

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيئات من الأمم ـ كقوم نوح وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدين ، وقوم فرعون ـ فى الدنيا وأخبر بما سيعاقبهم به فى الآخرة . قال تعالى : ﴿ كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر ﴾(٥) وقال : ﴿ سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾(٦) .

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان ، فقد يذنب الرجل والطائفة ، ويسكت آخرون عن الأمر والنهى . فيكون ذلك من ذنوبهم وينكر عليهم آخرون إنكارا منهيا عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم ، فيحصل التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشرور قديما وحديثا .

---

(١) سورة هود الآية : ١١٥ .
(٢) سورة الشورى الآية : ٣٠ .
(٣) سورة النساء من الآية : ٧٩ .
(٤) سورة آل عمران من الآية : ١٦٥ .
(٥) سورة القلم من الآية : ٣٣ .
(٦) سورة التوبة من الآية : ١٠١ .

إذ الإنسان ظلوم جهول . والظلم والجهل أنواع . فيكون ظلم الأول وجهله من نوع وظلم كل من الثانى والثالث وجهلهما من نوع آخر وآخر .

أسباب الفتن

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك ، ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ، ومن دخل فى ذلك من ملوكها ومشايخها ، ومن تبعهم من العامة من الفتن هذا أصلها . ويدخل فى ذلك أسباب الضلال والغى : الأهواء الدينية والشهوانية . والبدع فى الدين ، والفجور فى الدنيا . وذلك أن أسباب الضلال والغى ، التى هى البدع فى الدين والفجور فى الدنيا مشتركة تعم بنى آدم ، لما فيهم من الظلم والجهل . فيذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره ـ بفعل الزنا أو التلوط أو غيره ، أو بشرب خمر ، أو ظلم فى المال بخيانة أو سرقة أو غصب ونحو ذلك .

ومعلوم أن هذه المعاصى ـ وإن كانت مستقبحة مذمومة فى العقل والدين ـ فهى مشتهاة فى الطباع أيضا . ومن شأن النفوس : أنها لا تحب اختصاص غيرها بشىء وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له . وهذا هو الغبطة التى هى أدنى نوعى الحسد . فهى تريد الاستعلاء على الغير والاستئثار دونه ، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما يتقاضاها : أن تختص عن غيرها بالشهوات . فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك ، واختص به دونها ؟ فالمعتدل منهم فى ذلك : الذى يحب الاشتراك والتساوى وأما الآخر : فظلوم حسود .

وهذان يقعان فى الأمور المباحة والأمور المحرمة لحق الله .

فما كان جنسه مباحا : من أكل وشرب ، ونكاح ، ولباس ، وركوب ، وأموال ـ إذا وقع فيها الاختصاص : حصل بسببه الظلم والبخل والحسد .

وأصلها الشح . كما فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم . أمرهم بالبخل فبخلوا . وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا »[1] (رواه مسلم) ولهذا قال تعالى فى وصف الأنصار : ﴿ والذين تبوءُوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾[2] أى : من قبل المهاجرين ﴿ **يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ أى : لا يجدون الحسد مما أوتى إخوانهم من المهاجرين ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ . ثم قال : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[3] .

وسُمع عبد الرحمن بن عوف وهو يطوف بالبيت يقول : « رب قنى شح نفسى ، رب قنى شح نفسى » فقيل له فى ذلك . فقال « إذا وقيت شح نفسى فقد وقيت البخل والظلم والقطيعة » أو كما قال :

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩٩٦ رقم ٢٥٧٨/٥٦ كتاب البر والصلة ولفظه : عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) .
(٢ ، ٣) سورة الحشر الآية : ٩ .

فهذا الشح ـ الذى هو شدة حرص النفس ـ يوجب البخل بمنع ما عليه ، والظلم بأخذ مال الغير ، ويوجب قطيعة الرحم . ويوجب الحسد وهو كراهة ما اختص به الغير وتمنى زواله ، والحسد فيه بخل ، وظلم . فإنه بخل بما أعطيه عن غيره . وظلم بطلب زوال ذلك عنه . فإذا كان هذا فى جنس الشهوات المباحة ، فكيف بالمحرمة ، كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك ؟ وإذا وقع فيها اختصاص ، فإنه يصير فيها نوعان :

أحدهما : بغضها لما فى ذلك من الاختصاص والظلم ، كما يقع فى الأمور المباحة الجنس .

والثانى : بغضها لما فى ذلك من حق الله .

الذنوب ثلاثة أقسام

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام :

أحدها : ما فيه ظلم للناس ، كالظلم بأخذ الأموال ، ومنع الحقوق والحسد ونحو ذلك .

والثانى : ما فيه ظلم للنفس فقط ، كشرب الخمر والزنا ، إذا لم يتعد ضررهما .

والثالث : ما يجتمع فيه الأمران . مثل أن يأخذ المتولى أموال الناس ليزنى بها ويشرب بها الخمر .

إنما تستقيم أمور الناس بالعدل .

وأمور الناس إنما تستقيم فى الدنيا مع العدل الذى قد يكون فيه الاشتراك فى بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم فى الحقوق ، وإن لم تشترك فى إثم . ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة ، وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة ، وإن كانت مسلمة .

وقد قال النبى ـ ﷺ ـ (ليس ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم)[1] (رواه أبو داود وإسناده حسن وقال الترمذى حديث صحيح) فالباغى يصُرع فى الدنيا ، وإن كان مغفورا له مرحوماً فى الآخرة .

وذلك : أن العدل نظام كل شىء ، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها فى الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم . وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به فى الآخرة .

طبيعة النفس حب العلو

فالنفس فيها داعى الظلم لغيرها بالعلو عليه ، والحسد له ، والتعدى عليه فى حقه ، وفيها داعى الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة ـ كالزنا وأكل الخبائث فهى قد لا تظلم من لا يظلمها . وتؤثر هذه

---

(١) انظر سنن أبو داود جـ ٥ ص ٢٠٨ رقم ٤٩٠٢ ـ كتاب الأدب
وانظر الترمذى جـ ٤ ص ٧٤ رقم ٢٦٢٩ ـ باب صفة القيامة .

الشهوات ، وإن لم يفعلها غيرها فإذا رأت نظراءها قد ظلموا ، أو تناولوا هذه الشهوات : صار داعى هذه الشهوات والظلم فيها أعظم بكثير .

وقد يصير ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده ، وطلب عقابه وزوال الخير عنه ، ما لم يكن فيها قبل ذلك ، ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين ، يكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين . وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر والجهاد على ذلك من الدين .

والناس هنا ثلاثة أقسام : قوم لا يقومون إلا فى أهواء نفوسهم . فلا يرضون إلا بما يعطونه . ولا يغضبون إلا لما يحرمونه ، فإذا أعطى أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال ، أو الحرام : زال غضبه . وحصل رضاه . وصار الأمر الذى كان عنده منكرا ـ ينهى عنه ويعاقب عليه ، ويذم صاحبه ، ويغضب عليه ـ صار فاعلا له وشريكا فيه ، ومعاونا ومعاديا لمن ينهى عنه وينكر عليه .

وهذا غالب فى بنى آدم : ترى الإنسان يسمع من ذلك ما لا يحصيه إلا الله . وسببه : أن الإنسان ظلوم جهول ، فلذلك لا يعدل ، بل ربما كان ظالما فى الحالين . يرى قوما ينكرون على المتولى ظلمه لرعيته ، واعتداءه عليهم . فيُرضى أولئك المنكرين ببعض الشىء ، فينقلبون أعوانا له . وأحسن أحوالهم : أن يسكتوا عن الإنكار عليه وكذلك تراهم على من يشرب الخمر ويزنى ، ويسمع الملاهى ، حتى يدخلوا أحدهم معهم فى ذلك ، أو يرضوه ببعض ذلك . فتراه حينئذ قد صار عوناً لهم .

وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم إلى أقبح من الحال التى كانوا عليها . وقد يعودون إلى ما هو دون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون فى ذلك مخلصين لله ، مصلحين فيما عملوه ، ويستقيم لهم ذلك ، حتى يصبروا على ما أوذوا . فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وهم من خير أمة أخرجت للناس ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا . وهم من غالب المؤمنين .

فمن فيه دين وله شهوة يجتمع فى قلبه إرادة الطاعة ، وإرادة المعصية . وربما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاث : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة .

فالأولون : هم أهل النفس الأمارة التى تأمر بالسوء .

والوسط : هم أهل النفس المطمئنة التى يقال لها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * أرجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى ﴾[1] .

(القسم الثالث) وهؤلاء هم أهل النفس اللوامة ، التى تفعل الذنب ثم تلوم عليه . وتتلون تارة كذا وتارة كذا . وتخلط عملاً صالحا وآخر سيئا .

---

(١) سورة الفجر الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

ولهذا لما كان الناس فى زمن أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ وهما اللذين أُمر المسلمون بالاقتداء بهما ـ كما قال النبى ـ ﷺ ـ (اقتدوا باللذين من بعدى : أبى بكر وعمر)[١] (رواه الترمذى وقال : حسن صحيح) لما كان الناس أقرب عهدا بالرسالة ، وأعظم إيمانا وصلاحا ، وأئمتهم أقوم بالواجب ، وأثبت فى الطمأنينة : لم تقع فتنة . إذ كانوا فى حكم القسم الوسط .

ولما كان فى آخر خلافة عثمان ، وفى خلافة على ـ رضى الله عنهما ـ كثر القسم الثالث فصار فيهم شهوة وشبهة ، مع الإيمان والدين . قد صار ذلك فى بعض الولاة وبعض الرعايا . ثم كثر بعد ذلك . فنشأت الفتنة التى سببها ما تقدم ـ من عدم تمحيص التقوى والطاعة فى الطرفين ، واختلاطهما بنوع من الهوى والمعصية فى الطرفين ـ وكل منهما متأول : أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق والعدل ، ومع هذا التأويل نوع من الهدى ، ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى بالحق من الأخرى .

فلهذا يجب على المؤمن : أن يستعين بالله ، ويتوكل عليه فى أن يعمر قلبه بالإيمان والتقوى ، ولا يزيغه ، ويثبته على الهدى والتقوى ، ولا يتبع الهوى ، كما قال تعالى : ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم ﴾[٢] .

وهذا أيضا حال الأمة فيما تفرقت فيه ، واختلفت فى المقالات والعبادات وهذه الأمور مما تعظم بها المحنة على المؤمنين . فإنهم محتاجون إلى شيئين : إلى دفع الفتنة التى ابتلى بها نظراؤهم ـ من فتنة الدين والدنيا ـ عن نفوسهم ، مع قيام المقتضى لها . فإن معهم نفوسا وشياطين ، كما مع غيرهم . فمع وجود ذلك من نظائرهم يقوى المقتضى عندهم . كما هو الواقع . فيبقى الداعى فى نفس الشيطان وشيطانه ، ودواعى الخير كذلك ، وما يحصل من الداعى بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس من لم يرد خيرا ولا شرا ، حتى رأى غيره ـ لا سيما إن كان نظيره ـ يفعله ففعله . فإن الناس كأسراب القطا ، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض .

ولهذا كان المبتدىء بالخير وبالشر له من الأجر والوزر مثل من تبعه ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا)[٣] (رواه مسلم) وذلك لاشتراكهم فى الحقيقة . وأن حكم الشىء حكم نظيره . وشبيه الشىء منجذب إليه .

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ٥ ص ٢٧١ رقم ٣٧٤٢ ـ أبواب المناقب وقال : حديث حسن .

(٢) سورة الشورى من الآية : ١٥ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص ٧٠٤ ـ ٧٠٥ رقم ١٠٠٧/٦٩ كتاب الزكاة وأيضاً جـ٤ ص ٢٠٥٩ رقم ١٠١٧/١٥ كتاب العلم .

دواعى الخير والشر

فإذا كان هذان داعيين قويين ، فكيف إذا انضم اليهما داعيان آخران . وذلك : أن كثيرا من أهل المنكر يحبون من يوافقهم على ما هم فيه ، ويبغضون من لا يوافقهم ، وهذا ظاهر فى الديانات الفاسدة : من موالاة كل قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفيهم . وكذلك فى أمور الدنيا والشهوات : كثيرا ما يختار أهلها ويؤثرون من يشاركهم فى أمورهم وشهواتهم ، إما للمعاونة على ذلك ، كما فى المتغلبين من أهل الرياسات وقطاع الطرق ونحو ذلك . وإما لتلذذهم بالموافقة ، كما فى المجتمعين على شرب الخمر ـ مثلاً ـ فإنهم يحبون أن يشرب كل من حضر عندهم وإما لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير : إما حسدا له على ذلك ، وإما لئلا يعلو عليهم بذلك ، ويحمده الناس دونهم . وإما لئلا يكون له عليهم حجة وإما لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه ، أو بمن يرفع ذلك إليهم ، أو لئلا يكونوا تحت منته وخطره ونحو ذلك من الأسباب قال الله تعالى : ﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾[1] وقال تعالى فى المنافقين : ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾[2] وقال عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ « ودت الزانية لو زنى النساء كلهن » والمشاركة ، قد يختارونها فى نفس الفجور ، كالاشتراك فى الشرب ، والكذب والاعتقاد الفاسد ، وقد يختارونها فى النوع ، كالزانى الذى يود أن يزنى غيره ، والسارق الذى يود أن يسرق غيره أيضا ، لكن فى غير العين التى زنى بها والتى سرقها .

وأما الداعى الثانى : فقد يأمرون الشخص بمشاركتهم فيما هم عليه من المنكر فإن شاركهم وإلا عادوه ، وآذوه على وجه قد ينتهى إلى حد الإكراه أو لا ينتهى إلى حد الاكراه .

ثم إن هؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم فى قبيح فعلهم ، أو يأمرونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه . فإنهم متى شاركهم وعاونهم وأطاعهم انتقصوه واستخفوا به ، وجعلوا ذلك حجة عليه فى أمور أخرى .

وإن لم يشاركهم عادوه وآذوه . وهذه حال غالب الظالمين القادرين .

وهذا الموجود فى المنكر نظيره موجود فى المعروف ، وأبلغ منه ، كما قال تعالى : ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾[3] فإن داعى الخير أقوى ، فإن الإنسان فيه داع يدعوه إلى الإيمان والعلم والصدق والعدل ، وأداء الأمانة . فإذا وجد من يعمل ذلك مثله : صار له داع آخر ـ لاسيما ـ إذا كان نظيره . لا سيما مع المنافسة . وهذا محمود حسن .

فإن وجد من يحب موافقته على ذلك ، ومشاركته له من المؤمنين والصالحين ، ومن يبغضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داع ثالث .

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه : صار له داع رابع .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٠٩ .
(٢) سورة النساء من الآية : ٨٩ .
(٣) سورة البقرة من الآية . ١٦٥ .

مقابلة السيئات والحسنات

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يقابلوا السيئات بضدها من الحسنات ، كما يقابل الطبيب المرضى بضده فيؤمر المؤمن بأن يصلح نفسه وذلك بشيئين : بفعل الحسنات ، وترك السيئات مع وجود ما ينفى الحسنات ، ويقتضى السيئات ، وهذه أربعة أنواع .

ويؤمر أيضا بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة ، بحسب قدرته وإمكانه .

قال تعالى : ﴿ والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾(١) روى عن الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « لو فكر الناس كلهم فى سورة العصر لكفتهم » وهو كما قال : فإن الله تعالى أخبر فيها : أن جميع الناس خاسرون إلا من كان فى نفسه : مؤمنا صالحا ، ومع غيره موصياً بالحق ، موصيا بالصبر .

وإذا عظمت المحنة كان ذلك للمؤمن الصالح سببا لعلو الدرجة ، وعظيم الأجر . كما سئل النبى ـ ﷺ ـ (أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء . ثم الصالحون . ثم الأمثل فالأمثل . يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة . زيد فى بلائه . وإن كان فى دينه رقة خفف ، وما يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشى على وجه الأرض وليس عليه خطيئة)(٢) رواه الترمذى وقال حسن صحيح . وحينئذ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره . وذلك هو سبب الإمامة فى الدين ، كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾(٣) فلابد من الصبر على فعل الحسن المأمور به ، وعلى ترك السيء المحظور المنهى عنه .

الصبر على الأذى

ويدخل فى ذلك : الصبر على الأذى ، وعلى ما يقال . والصبر على ما يصيبه من المكاره ، والصبر عن البَطَر عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر .

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ، ويتنعم به ، ويتغذى به وهو اليقين كما فى الحديث الذى رواه أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « أيها الناس ، سلوا الله اليقين والعافية ، فإنه لم يعط أحد ـ بعد اليقين ـ خيرا من العافية . فسلوهما الله »(٤) .

(رواه أحمد فى مسنده وقال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح) .

وكذلك إذا أمر غيره بحسن ، أو أحب موافقته له على ذلك ، أو نهى غيره عن سيء : فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحسانا يحصل به مقصوده من حصول المحبوب ، واندفاع المكروه . فإن النفوس

---

(١) سورة العصر الآيات : ١ ـ ٣ .
(٢) أنظر سنن الترمذى جـ ٤ ص ٢٨ رقم ٢٥٠٩ ـ باب الزهد .
(٣) سورة السجدة الآية : ٢٤ .
(٤) انظر مسند الإمام أحمد جـ ١ ص ٨ .

لا تصبر على المر إلا بنوع من الحلو لا يمكن غير ذلك . ولهذا أمر الله ـ تعالى ـ بتأليف القلوب ، حتى جعل للمؤلفة قلوبهم نصيباً من الصدقات وقال تعالى لنبيه : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾(٢) فلابد أن يصبر وأن يرحم . وهذا هو الشجاعة والكرم .

ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة ، وهى الإحسان إلى الخلق ، وبينها وبين الصبر تارة .

ولابد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . لا تقوم مصلحة المؤمنين إلا بذلك فى صلاح نفوسهم ، وإصلاح غيرهم ـ لا سيما ـ كلما قويت الفتنة والمحنة فإن الحاجة إلى ذلك تكون أشد .

الصبر صبران

والصبر صبران : صبر عند الغضب ، وصبر عند المصيبة ، كما قال الحسن رحمه الله : « ماتجرع عبدٌ جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب ، وجرعة صبر عند المصيبة » وذلك لأن أصل ذلك : هو الصبر على المؤلم وهذا هو الشجاع الشديد الذى يصبر على المؤلم .

والمؤلم : إن كان مما يمكن **دفعه** : أثار الغضب ، وإن كان مما **لايمكن دفعه** : أثار الحزن ، ولهذا يحمر الوجه عند الغضب ، لثوران الدم عند استشعار القدرة ويصفر عند الحزن ، لفور الدم عند استشعار العجز .

ولهذا جمع بينهما النبى ﷺ ـ فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال النبى ـ ﷺ ـ : « ما تعدون الرَّقوب فيكم ؟ قالوا : الرقوب الذى لا يولد له . قال : ليس ذاك بالرَّقوب ولكن الرقوب الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا ، ثم قال : ما تعدون الصرعة فيكم ؟ قلنا الذى لا يصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك . ولكن الصرعة : هو الذى يملك نفسه عند الغضب »(٣) .

فذكر ما يتضمن الصبر عند المصيبة ، والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى : ﴿ وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ الآية(٤) .

وقال تعالى فى الغضب : ﴿ **وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم** ﴾ وهذا الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر الغضب ، نظير الجمع بين صبر المصيبة ، وصبر النعمة كما فى قوله تعالى : ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور * ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور * إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾(٥) وقال : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾(٦) .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .
(٢) سورة البلد من الآية : ١٧ .
(٣) أنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠١٤ ـ كتاب البر والصلة ـ رقم ٢٦٠٨/١٠٦
(٤) سورة البقرة من الآية : ١٥٥ ، والآية ١٥٦
(٥) سورة هود الآيات : ٩ ـ ١١ .
(٦) سورة الحديد من الآية : ٢٢ .

ما يدعو إلى تعدى الحدود

ولما كان الشيطان يدعو الناس ـ عند هذين النوعين ـ إلى تعدى الحدود بقلوبهم وأصواتهم، وأيديهم. نهى النبى ـ ﷺ ـ عن ذلك. فقال لما قيل له ـ وقد بكى لما رأى ابراهيم عند النزع ـ « أتبكى، وأنت تنهى عن البكاء ؟ فقال : إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين ـ صوت عند نغمة لهو ولعب، ومزامير شيطان، وصوت عند مصيبة : لطم خدود، وشق جيوب، ودعاء بدعوى الجاهلية »[١] فجمع بين الصوتين [الحديث إسناده حسن قال الهيثمى فى مجمع الزوائد].

وأما نهيه عن ذلك فى المصائب فمثل قوله ـ ﷺ ـ « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»[٢]

وقال « أنا برىء من الحالقة والصالقة والشاقة »[٣] (خ).

وقال فى القتِلة والمصائب والفرح : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته »[٤] (رواه م).

وقال : « لاتمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليدا »[٥] رواه (م).

إلى غير ذلك مما أمر ـ ﷺ ـ به فى الجهاد : من العدل، وترك العدوان، اتباعا لقوله تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾[٦].

ولقوله تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[٧].

ونهى عن لباس الحرير، والتختم بالذهب، والشرب فى آنية الذهب والفضة، وإطالة الثياب إلى غير ذلك من أنواع السرف، والخيلاء فى النعم.

وذم الذين يستحلون الخز [ثوب من حرير] والحِرَ [الزنا]، والحرير، والخمر، والمعازف وجعل فيهم الخسف والمسخ، إن هم ارتكبوا ذلك.

وقد قال تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً ﴾[٨] وقال عن قارون : ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾[٩].

---

(١) انظر مجمع الزوائد جـ٣ ص ١٧ ـ باب ما جاء فى البكاء وانظر شرح السنه للبغوى جـ ٥ ص ٤٣١ ـ وانظر الجامع الصحيح جـ ٢ ص ٢٣٧ رقم ١٠١١ وقال أبوعيسى : هذا حديث صحيح.

(٢) انظر صحيح البخارى جـ٢ ص ١٠٤ ـ باب ليس منا من ضرب الخدود ـ كتاب الجنائز.

(٣) انظر البخارى جـ ٢ ص١٠٣ ـ باب ما ينهى من الحلق عند المصيبة ـ كتاب الجنائز.

(٤) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٤٨ رقم ١٩٥٥/٥٧ كتاب الصيد والذبائح ـ باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفره.

(٥) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٣٥٧ رقم ١٧٣١/٣ ـ باب الجهاد وباب ـ تأمير الإمام لأمراء على البعوث ووصيته إياهم بأداب العزو وغيرها.

(٦) سورة المائدة من الآية : ٨.

(٧) سورة البقرة الآية : ١٩٠.

(٨) سورة النساء من الآية : ٣٦.

(٩) سورة القصص من الآية : ٧٦.

وهذه الأمور الثلاثة ـ مع الصبر عن الاعتداء فى الشهوة ـ هى جوامع هذا الباب وذلك : إن الإنسان بين ما يحبه ويشتهيه ، وبين ما يبغضه ويكرهه ، فهو يطلب الأول بمحبته وشهوته ، ويدفع الثانى يبغضه ونفرته ، وإذا حصل الأول أو اندفع الثانى : أوجب له فرحا وسرورا . وإن حصل الثانى أو اندفع الأول حصل له حزن ـ فهو محتاج ـ عند المحبة والشهوة ـ أن يصبر على عدوانها ، وعند الغضب والنفرة : أن يصبر عن عدوانهما ، وعند الفرح : أن يصبر عن عدوانه ، وعند المصيبة أن يصبر عن الجزع منها .

فالنبى ـ ﷺ ـ ذكر الصوتين الأحمقين الفاجرين : الصوت الذى يوجب الاعتداء فى الفرح ، حتى يصير الإنسان فرحا فخورا . والصوت الذى يوجب الجزع عند الحزن ، حتى يصير الإنسان هلوعا جزوعاً .

وأما الصوت الذى يثير الغضب لله : فكالأصوات التى تقال فى الجهاد من الأشعار المنشدة . فتلك لم تكن بآلات . وكذلك أصوات الشهوة فى الفرح . فرخص منها فيما وردت به السنة . من الضرب بالدف فى العرس ، والأفراح للنساء والصبيان وعامة الأشعار التى تنشد بالأصوات لتحريك النفوس . هى من هذه الأقسام الأربعة وهى التشبيب وأشعار الغضب والحمية وهى الحماسة والهجاء . وأشعار المصائب كالمراثى ، وأشعار النعم والفرح وهى المدائح .

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾ ولهذا أخبر : أنهم يتبعهم الغاوون ، والغاوى : هو الذى يتبع هواه بغير علم . وهذا هو الغى . وهو خلاف الراشد ، كما أن الضال هو الذى لا يعلم مصلحته . هو خلاف المهتدى قال سبحانه : ﴿ والنجم إذا هوى * ماضل صاحبكم وما غوى ﴾[1] ولهذا قال : رسول الله ـ ﷺ ـ « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى »[2] .

ما يحتاج إليه المؤمن

فهذه الأخلاق والأعمال يحتاج إليها المؤمن عموما . وخصوصا فى أوقات المحن والفتن الشديدة . فإنهم يحتاجون إلى صلاح نفوسهم ، ودفع الذنوب والمصائب عن نفوسهم عند المقتضى للفتنة عندهم .

وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه ، وإن كان يسيرا على من يسره الله عليه .

وهذا لأن الله أمر المؤمنين بالإيمان والعمل الصالح . وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الإيمان والعمل الصالح . ولكنهم كما قال تعالى : ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة

---

(١) سورة النجم الآيتان : ١ ـ ٢ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ١٢٧ (حديث العرباض بن سارية عن النبى ﷺ .

الأمور ﴾[١] وكما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين امنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾[٢] وكما قال : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[٣] وكما قال : ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[٤] .

ولما كان فى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والجهاد فى سبيل الله من الابتلاء والمحن ما يتعرض به المرء للفتنة صار فى الناس من يتعلل لترك ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة كما قال تعالى : عن المنافقين ﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾[٥] .

وقد ذكروا فى التفسير : أنها نزلت فى الجد بن قيس لما أمره النبى - ﷺ - بالتجهيز لغزو الروم ، وأظن رسول الله - ﷺ - قال له : « هل لك فى نساء بنى الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، إنى رجل لا أصبر على النساء . وإنى أخاف الفتنة بنساء بنى الأصفر فائذن لى ، ولا تفتنى »[٦] .

وهذا الجد : هو الذى تخلف عن بيعة الرضوان تحت الشجرة : واستتر بجمل أحمر . وجاء فيه الحديث : « إن كلهم مغفور له إلا صاحب الجمل الأحمر »[٧] فأنزل الله فيه « ومنهم من يقول : ائذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا » .

يقول : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتتن بهن . فيحتاج إلى الاحتراز من المحظور ، ومجاهدة نفسه عنه ، فيتعذب بذلك ، أو يواقعه فيأثم . فإن من رأى الصور الجميلة وأحبها . فإن لم يتمكن منها - إما لتحريم الشارع وإما للعجز عنها - يعذب قلبه . وإن قدر عليها وفعل المحظور : هلك . وفى الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء .

فهذا وجه قوله : (ولا تفتنى) قال الله تعالى : ﴿ **ألا فى الفتنة سقطوا** ﴾ يقول : إن نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ، ونكوله عنه ، وضعف إيمانه ومرض قلبه الذى زين له ترك الجهاد : فتنة عظيمة قد سقط فيها .

فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تصبه ، بوقوعه فى فتنة عظيمة قد أصابته ؟
والله تعالى يقول : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾[٨]
فمن ترك القتال الذى أمر الله به لئلا تكون فتنة : فهو فى الفتنة ساقط ، بما وقع فيه من ريب قلبه ، ومرضى فؤاده ، وترك ما أمره الله به من الجهاد . فتدبر هذا . فإن هذا مقام خطر . فإن الناس هنا ثلاثة أقسام :

قسم يأمرون ، وينهون ، ويقاتلون ، طلبا لإزالة الفتنة - زعموا - ويكون فعلهم ذلك أعظم فتنة كالمقاتلين فى الفتن الواقعة بين الأمة . مثل الخوارج .

---

(١) سورة الحج من الآية : ٤٠ والآية ٤١ . (٢) سورة غافر الآية : ٥١ . (٣) سورة المجادلة الآية : ٢١ .
(٤) سورة الصافات الآية ١٧٣ . (٥) سورة التوبة : ٤٩ .
(٦) أنظر تفسير ابن كثير فى تفسير قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى . . . . » الخ جـ ٤ ص ١٠١ .
(٧) انظر صحيح مسلم كتاب صفات المنافقين - باب صفات المنافقين واحكامهم جـ ٤ ص ٢١٤٥ رقم ١٢/٢٨٨٠ .
(٨) سورة الأنفال من الآية : ٣٩ .

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهى والقتال الذى يكون به الدين كله لله . وتكون كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتنوا ، وهم قد سقطوا فى الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة فى سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة . فإنها سبب نزول الآية . وهذه حال كثير من المتدينة ، يتركون ما يجب عليهم من أمر ونهى وجهاد ، يكون به الدين كله لله . وتكون به كلمة الله هى العليا ، لئلا يفتتنوا بجنس الشهوات . وهم قد وقعوا فى الفتنة التى هى أعظم مما زعموا أنهم فروا منها .

وإنما الواجب عليهم : القيام بالواجب من الأمر والنهى ، وترك المحظور ، والقيام بالواجب وترك المحظور متلازم ، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلا على فعلهما جميعا ، أو تركهما جميعا ، مثل كثير ممن يحب الرياسة ، أو المال أو شهوات الغى ، فإذا فعل ما وجب عليه : من أمر ، ونهى وجهاد ، وإمارة ونحو ذلك ، فلابد أن يفعل معها شيئا من المحظورات .

فالواجب عليه حينئذ : أن ينظر أغلب الأمرين ، فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور . لم يترك ذلك ، لما يخاف من أن يقترن به ما هو دونه من المفسدة وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً . لم يفوت ذلك برجاء ثواب فعل واجب يكون دون ذلك . فذلك يكون بما يجتمع له من الأمرين : من الحسنات والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك يطول .

الأمر والنهى فى كل شىء

كل بشر على وجه الأرض : فلابد له من أمر ونهى ، ولابد أن يؤمر وينهى . حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها . إما بمعروف ، وإما بمنكر . كما قال تعالى : ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾[١] .

فإن الأمر : هو طلب الفعل وإرادته . والنهى : طلب الترك وإرادته . ولابد لكل حى من إرادة وطلب فى نفسه ، فإن الإنسان حى يتحرك بإرادته . وبنو آدم لا يعيشون إلا بإجتماع بعضهم مع بعض .

وإذا اجتمع اثنان فصاعدا ، فلابد أن يكون بينهما ائتمار بأمر ، وتناه عن أمر ولهذا كان أقل الجماعة فى الصلاة : اثنان كما قيل « الاثنان فما فوقهما جماعة » لكن لما كان ذلك اشتراكا فى مجرد الصلاة : حصل باثنين ، أحدهما : إمام والآخر مأموم وأما فى الأمور العادية ، ففى السنن ، أن رسول الله - ﷺ - قال : (لا يحل لثلاثة يكونون فى سفر إلا أمروا عليهم أحدهم)[٢] [رواه أبو داود وصححه الألبانى فى صحيح الجامع].

---

(١) سورة يوسف من الاية : ٥٣ .

(٢) الحديث فى مجمع الزوائد كتاب الخلافة - باب الأمير فى السفر جـ ٥ ص ٢٤٩ رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح .

الأمر بالمعروف من لوازم بنى آدم

وإذا كان الأمر والنهى من لوازم وجود بنى آدم . فمن لم يأمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله . وينهى عن المنكر ، الذى نهى الله عنه ورسوله . ويؤمر بالمعروف الذى أمر الله به ورسوله ، ويُنهى عن المنكر الذى نهى الله عنه ورسوله . وإلا فلا بد أن يأمر وينهى ، ويُؤمر ويُنهى . إما بما يضاد ذلك . وإما بما يشترك فيه الحق الذى أنزله الله ، بالباطل الذى لم ينزله الله .

وإذا اتخذ ذلك ديناً : كان ديناً مبتدعاً ضالاً باطلاً . وهذا كما أن كل بشر فإنه حى متحرك بإرادته ، همام حارث . فمن لم تكن نيته وعمله عملا صالحاً لوجه الله . وإلا كان عمله عملا فاسداً ، أو لغير وجه الله . وهو الباطل كما قال تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾[١] .

وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار . قال تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾[٢] وقال : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾[٣] .

وقد أمر الله تعالى فى كتابه بطاعته وطاعة رسوله ، وطاعة أولى الأمر من المؤمنين . كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾[٤] .

﴿ **وأولو الأمر** ﴾ أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام .

فلهذا كان ﴿ **أولو الأمر** ﴾ صنفين : العلماء ، والأمراء . فإذا صلحوا : صلح الناس ، وإذا فسدوا . فسد الناس : كما قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - للأحمسية لما سألته : « ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح ؟ قال : ما استقامت لكم أئمتكم » .

ويدخل فيهم : الملوك ، والمشايخ ، وأهل الديوان . وكل من كان متبوعاً : فهو من أولى الأمر .

وعلى كل واحد من هؤلاء : أن يأمر بما أمر الله به ، وينهى عما نهى الله عنه . وعلى كل واحد ممن عليه طاعته . أن يطيعه فى طاعة الله ، ولا يطيعه فى معصية الله . كما قال أبو بكر الصديق فى خطبته : « أيها الناس ، القوى فيكم : الضعيف عندى ، حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم : القوى عندى ، حتى آخذ له الحق . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم »

(رواه ابن كثير فى البداية والنهاية وقال هذا إسناد صحيح)

---

(١) سورة الليل الآية : ٤ .
(٢) سورة محمد الآية : ١ .
(٣) سورة الفرقان الآية : ٢٣ .
(٤) سورة النساء الآية : ٥٩ .

من آيات التوحيد

قال تعالى :

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟
لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ
بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾ ۩ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ
أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن
يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ
لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ
حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ
وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ
قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ
فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

معاني المفردات

﴿ **يلحدون** ﴾ يقال : ألحد الحافر فى الأرض : إذا مال عن الاستقامة فحفر شق منها ، والمراد

بالملحدين : ، المنحرفون فى تأويل الآيات بحملها على المحامل الباطلة ﴿ **الذكر** ﴾القرآن ﴿ **من بين يديه ومن خلفه** ﴾ أى : من جميع جهاته ﴿ **حكيم** ﴾ أى : فى جميع أفعاله ﴿ **حميد** ﴾ أى : محمود إلى جميع خلقه بكثرة نعمه عليهم .

﴿ **الساعة** ﴾ يوم القيامة : ﴿ **الأكمام** ﴾ واحدها كِمْ (**بكسر الكاف**) : **وعاء الثمرة ، وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره** ، ﴿ **آذناك** ﴾ أى : أعلمناك .

﴿ **ضل عنهم** ﴾ أى غاب وزال ، ﴿ **ظنوا** ﴾ أى : أيقنوا وعلموا ﴿ **محيص** ﴾ أى مهرب : يقال حاص يحيص حيصا : إذا هرب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه وتعالى أن الدعوة إلى دين الله أسمى المقاصد ، وأنها إنما تحصل بذكر دلائل التوحيد وصحة البعث يوم القيامة ـ أعقب هذا بتهديد من ينازع فى تلك الدلائل بإلقاء الشبهات ، ثم هددهم بضروب من التهديد فهددهم بقوله : ﴿ **لا يخفون علينا** ﴾ وبقوله : ﴿ **اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير** ﴾وبقوله : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر . . ﴾ الآية وبعد ذلك سلّى رسوله على ما يصيبه من أذى المشركين وطعنهم فى كتابه ، وحثه على الصبر ، وألا يضيق صدره بما حكاه عنهم من نحو قولهم : ﴿ **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه** ﴾ فما قاله أولئك الكفار فى شأنه وشأن ما أنزل إليه من القرآن لا يعدو شأن ما قاله أمثالهم من الأمم السابقة ، ثم أجاب عن شبهة قالوها ، وهى هلا نزل القرآن بلغة العجم ـ بأنه لو نزل كما يريدون لأنكروا أيضا وقالوا ما لنا ولهذا ؟ ثم ذكر أن القرآن هداية وشفاء للمؤمنين ، والذين لا يؤمنون به فى آذانهم صمم عن سماعه ، ثم ذكر أن الاختلاف فى شأن الكتب عادة قديمة للأمم ، فقومك ليسوا ببدع بين الأمم ، ثم أبان أن المرء وما عمل ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، ولا يظلم ربك أحداً . ثم ذكر ـ سبحانه ـ يوم القيامه وأن هذا اليوم لا سبيل للخلق إلى معرفته ، فلا يعلمه إلا هو ، وأن علم الحوادث المقبلة فى أوقاتها المعنية بأوصافها المعنية استأثر الله به ، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمر من الأكمام ، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع . ثم ذكر سبحانه أن يوم ينادى المشركين تهكما وتقريعا لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ فيجيبون : الآن لا نشهد لأحد منهم بالشركة فى الألوهية ، وقد غابوا عنا فلا يرجون منهم نفعاً ، ولا يفيدونهم خيراً ، وأيقنوا حينئذ أن لا مهرب لهم من العذاب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون * ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾ .

يقول تعالى : منبهاً على قدرته العظيمة وأنه الذى لا نظير له وأنه على ما يشاء قادر ﴿ **ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر** ﴾ أى : أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه وهما متعقبان لا يفتران ، والشمس ونورها وإشراقها و تمر وضياؤه وتقدير منازله فى فلكه واختلاف سيره فى سمائه ليعرف باختلاف سيره وسير الشمس مقادير الليل والنهار والجمع والشهور والأعوام كقوله تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلاً ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾[٢] وكقوله سبحانه : ﴿ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[٣] وكقوله جلت قدرته : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون * والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ﴾[٤] .

ثم لما كان الشمس والقمر أحسن الأجرام المشاهدة فى العالم العلوى نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره وتسخيره فقال : ﴿ **لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ أى : ولا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به وكيف يسجدون للشمس والقمر ، والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس يسجدون للكبير المتعالى : كما قال ـ عز وجل ـ ﴿ ألم ترَ أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ ـ الآية[٥] فحق العذاب على الذين يستكبرون عن عبادة الله ، وهنا يقول سبحانه : ﴿ **فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ أى : فإن استكبر هؤلاء المشركون الذين يعبدون الكواكب وأبوا إلا أن يسجدوا لها وحدها دون الله ـ فالله لا يعبأ بهم ، فالملائكة الذين فى حضرة قدسه وهم خير منهم لا يستكبرون عن عبادته ، بل يسبحون له ويصلون ليلا ونهاراً ، وهم لا يفترون عن ذلك ولا يملون ، كقوله تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[٦] وقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾ .

لما ذكر ـ سبحانه ـ الدلائل الفلكيه أتبعها بذكر الدلائل الأرضية ، أى : ومن الدلائل على قدرته ـ تعالى ـ على البعث ، وإحياء الموتى بعد بلاها ، وإعادتها لهيئتها كما كانت من بعد فنائها ـ أنك ترى الأرض يابسة غبراء لا نبات بها ولا زرع ، فإذا نزل عليها الغيث من السماء تحركت بالنبات ،

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١٢ .
(٢) سورة يونس الآية : ٥ .
(٣) سورة النحل الآية : ١٢ .
(٤) سورة يس الآيات : ٣٧ ـ ٤٠ .
(٥) سورة الحج الآية : ١٨ .
(٦) سورة الأنبياء الآيتان : ١٨ ، ١٩ .

وانتفخت ، وأخرجت ألوان الزرع والثمار ، كما يشاهد من ارتفاع الأرض وانتفاخها ، ثم تصدعها وتشققها إذا جان ظهور النبات منها ، وتراه يسمو فى الجو ويغطى قشرتها ، ثم تتشعب عروقه ، وتغلظ سُوقه ﴿ **إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير** ﴾ أى : إن الذى أحيا هذه الأرض الدارسة ، وأخرج منها النبات ، وجعلها تهتز بالزرع - قادر على أن يحيى أموات بنى آدم بعد مماتهم وهو القدير على كل شىء ، لا يعجزه شىء كائناً ما كان كقوله تعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج * ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير * وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(١) .

وكقوله تعالى : ﴿ الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون * وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾(٢) وكقوله جلت قدرته : ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير * إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد * ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم** ﴾ .

قوله تبارك وتعالى : ﴿ **إن الذين يلحدون فى آيتنا** ﴾ قال ابن عباس : الإلحاد : وضع الكلام على غير مواضعه ، وقال قتادة وغيره : هو الكفر والعناد ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾(٤) . وقوله عز وجل : ﴿ **لا يخفون علينا** ﴾ فيه تهديد شديد ووعيد أكيد أى : أنه تعالى عالم بمن يلحد فى آياته وأسمائه وصفاته وسيجزيه على ذلك بالعقوبة ، والنكال ولهذا قال تعالى : ﴿ **أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾ أى : أيستوى هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال عز وجل : تهديداً للكفرة ﴿ **اعملوا ما شئتم** ﴾ إنه عالم بكم وبصير بأعمالكم ولهذا قال : ﴿ **إنه بما تعملون بصير** ﴾ .

ثم قال جل جلاله : ﴿ **إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم** ﴾ قال الضحاك وقتادة : وهو القرآن . ﴿ **وإنه لكتاب عزيز** ﴾ أى : منيع الجناب لا يرام أن يأتى أحد بمثله ﴿ **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه** ﴾ أى : ليس للبطلان إليه سبيل لأنه منزل من رب العالمين كما قال سبحانه وتعالى :

---

(١) سورة الحج من الآية : ٥ - ٧ .
(٢) سورة الروم الآيتان : ٤٨ - ٥٠ .
(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٧ .
(٤) سورة الأعراف الآية : ١٨٠ .

﴿ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾(١) ولهذا قال سبحانه : ههنا ﴿ **تنزيل من حكيم حميد** ﴾ أي : حكيم في أقواله وأفعاله حميد : بمعنى محمود أي : في جميع ما يأمر به وينهى عنه الجميع محمودة عواقبه وغاياته .

وروى الحاكم عن ابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (إن هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم ، إن القرآن حبل الله والنور المبين ، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ، لا يزيغ فَيُستعتب ، ولا يعوجُ فيتقوّم ، ولا تنقضي عجائبه ، ولا يخلُقُ من كثرة الرد ، اتلوه فإن الله يأمركم على تلاوته ، كل حرف عشر حسنات ، أما إني لا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف)(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم** ﴾ فكما كذبت كُذبوا وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك كقوله تعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **إن ربك لذو مغفرة** ﴾أي : لمن تاب إليه ﴿ **وذو عقاب أليم** ﴾ أي : لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته .

قوله تعالى : ﴿ **ولو جعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى : القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال سبحانه : ﴿ **ولو نزلناه على بعض الأعجمين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين** ﴾ وكذلك لو أنزل القرآن كله بلغة العجم لقالوا على وجه التعنت والعناد ﴿ **لولا فصلت آياته أعجمي وعربي** ﴾ أي : لقالوا هلا أنزل مفصلا بلغة العرب ، ولأ نكروا ذلك فقالوا أعجمي وعربي أي : كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟ هكذا روى هذا المعنى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمه وغيرهم .

ثم قال عز وجل : ﴿ **قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء** ﴾ أي : قل يا محمد هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ **والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر** ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿ **وهو عليهم عمى** ﴾ أي : لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾(٤) .

---

(١) سورة النساء الآية : ٨٢ .

(٢) الحديث في كنز العمال جـ١ ص ٥٥٦ رقم ٢٣٥٦ ـ باب في تلاوة القرآن وفضائله وفي مجمع الزوائد جـ٧ ص ١٦٤ عن ابن مسعود قال الهيثمي : رواه الطبراني وفيه مسلم بن إبراهيم الهجري وهو متروك .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٣٤ .

(٤) سورة الإسراء الآية : ٨٢ .

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك ينادون من مكان بعيد** ﴾ قال مجاهد : يعنى بعيد عن قلوبهم . وقال ابن جرير : معناه كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول قال ابن كثير : وهذا كقوله تعالى : ﴿ ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ﴾[(١)] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد * إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أُنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد * وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه** ﴾ أى : ولقد أرسلنا موسى وآتيناه التوراة ، فاختلفوا فيها ، فمن مصدِّق بها ومن مكذب ، وهكذا شأن قومك معك فمن مصدق بكتابك ومن مكذب به ، فلا تأس على ما فعلوا معك ، واسلك سبيل أولى العزم من الرسل ـ صلوات الله عليهم أجمعين .

ثم أخبر سبحانه أنه أخر عذابهم إلى حين ولم يعاجلهم بالعقاب على ما اجترحوا من تكذيب الرسول وجحدهم بكتابه فقال : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم** ﴾ أى : ولولا ما سبق من قضاء الله وحكمه فيهم من تأخير عذابهم إلى القيامة لعجل الفصل بينهم فيما اختلفوا فيه بإهلاك المكذبين كما فعل بمكذبى الأمم السالفة .

ثم بين سبحانه ما يقتضى إهلاكهم فقال سبحانه : ﴿ **وإنهم لفى شك منه مريب** ﴾ أى : وإن قومك لفى شك من أمر القرآن موجب لقلقهم واضطرابهم ، فما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم حين قالوا : ما قالوا : بل كانوا شاكين غير محققين لشىء مما كانوا فيه من عنادك ومقاومة دعوتك .

ثم بين سبحانه : أن الجزاء من جنس العمل وأنه لا يظلم ربك أحداً فقال سبحانه : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[(٢)] وكان النبى ـ ﷺ ـ يقول فى خطبته : « ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا »[(٣)] .

وقوله تعالى : ﴿ **وما ربك بظلام للعبيد** ﴾ أى : لا يعاقب أحدا إلا بذنبه ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه .

وقوله تعالى : ﴿ **إليه يرد علم الساعة** ﴾ أى : إذا سئل عنها أحد رد علمها إليه تعالى ، فإنه لا يعلم متى قيامها سواه ، وقد جاء فى الحديث الصحيح (أن جبريل ـ عليه السلام ـ سأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الساعة فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . . الحديث »[(٤)] .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧١ . (٢) سورة الإسراء الآية : ١٥ .

(٣) انظر اتحاف السادة المتقين جـ٧ ص ٥٧٥ وأنظر سنن أبى داود وكتاب النكاح ـ باب خطبة النكاح جـ٢ ص ٥٩٢ .

(٤) انظر صحيح البخارى كتاب التفسير ـ تفسير سورة لقمان جـ٦ ص ١٤٤ ، وفى صحيح مسلم كتاب الإيمان جـ١ ص ٣٩ رقم ٩/٥ ، وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى جـ٧ ص ٣٤٧ رقم ٢٧٣٨ وفى النسائى كتاب الإيمان باب نعت الإسلام جـ٨ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

وبعد أن ذكر سبحانه أنه استأثر بعلم الساعة مبين أنه اختص أيضاً بعلم الغيب ومعرفة ما سيحدث من مستأنف الأزمنة فقال سبحانه : ﴿ **وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أى : وما تبرز الثمرة من وعائها الذى هى مغلّقه به ، وما تحمل أُنثى ولا تضع ولدها إلا بعلم من الله ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ونحو الآن قوله تعالى : ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أُنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار * عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾[٢]

وكقوله تعالى : ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾[٣]

ثم ذكر سبحانه : بعض ما يحدث فى هذا اليوم فقال تعالى : ﴿ **ويوم يناديهم أين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد** ﴾ أى : واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى سبحانه عباده المشركين على رءوس الأشهاد تهكما بهم ، واستهزاء بأمرهم - أين شركائى الذين عبدتموهم معى ؟ فيقولون : أعلمناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ونفى الشهادة يراد به التبرؤ منهم : لأن الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله كما حكى عنهم أنهم قالوا : ﴿ **والله ربنا ما كنا مشركين** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل** ﴾ أى : وغابت عنهم آلهتهم التى كانوا يعبدونها فى الدنيا ، فأخذ بها طريق غير طريقهم فلم تنفعهم ، ولم تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله الذى حل بهم . ﴿ **وظنوا ما لهم من محيص** ﴾ أى : وأيقنوا حينئذ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله .

---

(١) سورة الرعد الآية : ٨ ، ٩ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .
(٣) سورة لقمان الآية : ٣٤ .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الخامس والعشرون

اخر سورة فصلت
وسورة الشورى

المكتب المصري الحديث

من أحوال الإنسان

قوله تعالى : ﴿ * إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا
تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا
آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ
وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ
الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا
لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى
الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾
سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ
أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾

معاني المفردات

(لا يسأم) أى : لا يملّ ، (والخير) المال والصحة والعزة والسلطان ونحو ذلك (والشر) الفقر ، والمرض ، ونحوهما ، (واليأس) انقطاع الرجاء من حصول الخير ، (والقَنوط) بفتح القاف من اتصف بالقنوط (وبالضم) وهو ظهور أثر اليأس على الإنسان من المذلة والانكسار . (والرحمة) هنا : الصحة وسعة العيش (والضراء) المرض وضيق العيش ونحوهما (هذا لى) أى : هذا ما استحقه لما لى من الفضل والعمل (والحسنى) الكرامة (الغليظ) هنا الكثير (نأى بجانبه) أى : تكبر واختال

(عريض) أى : كثير مستمر ، وأعرض فى الدعاء : إذا أكثر . (أرأيتم) أى : أخبرونى (أضل) أى : أكثر ضلالا وبعدا عن الحق (الشقاق) الخلاف ، (والآفاق) النواحى من المشارق والمغارب ، واحدها (أفق) . (شهيد) أى : شاهد على كل ما يفعله خلقه ، (مرية) أى شك ، (من لقاء ربهم) أى : من البعث بعد الممات ، (محيط) أى : عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أبان سبحانه حال الكافرين فى الآخرة ، وذكر أنهم حينئذ يتبرءون من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم فى الدنيا ـ أردف ذلك بيان أن الإنسان متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحس بخير وقدرة انتفخت أوداجه وصعّر خديه ومشى الخيلاء ، وإن أصابته محنة وبلاء تطامن واستكان ويئس من الفرج ، وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع ، وشدة جزعه من الفقد ، إلى ماضيه من طيش يتولد عنه إعجابه واستكباره حين النعمة ، وتطامنه حين زوالهما ، وذلك مما يومىء بشغله بالنعمة عن المنعم فى حالى وجودها وفقدها أما فى حال وجودها فواضح ، وأما فى حال فقدها فلأن التفرع جزعاً إنما كان على الفقد الدال على الشغل عن المنعم بالنعمة . ثم أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين فى بنوة محمد ﷺ إلى التأمل والتفكر فيما بين أيديهم من الدلائل ، ليدعوا عماهم فيه من الغى والضلال ، ويقروا بها لتظاهر الأدلة عليها ، وعلى أن القرآن منزل من عند الله حقاً ، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور وأنه سبحانه هو العلى الكبير .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لا يسأم الإنسان من دعاء الخير ﴾ أى : لا يمل من دعائه بالخير . والخير : هنا المال والصحة والسلطان والعز . قال السدى : والإنسان ها هنا يراد به الكافر . ﴿ وإن مسه الشر ﴾ الفقر والمرض (فيؤوس) من روح الله (قنوط) من رحمته . وقيل (يؤوس) من إجابة الدعاء ، (قنوط) بسوء الظن بربه .

وقوله تعالى : ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا ﴾ عافية ورضاء وغنى (من بعد ضراء مسته) ضر وسقم وشدة وفقر (ليقولن هذا لى) أى : هذا شىء استحقه على الله لرضاه بعملى ، فيرى النعمة حتماً واجباً

على الله - تعالى - ولم يعلم أنه ابتلاه بالنعمة والمحنة ، ليتبين شكره وصبره (وما أظن الساعة قائمة) أى : يكفر بقيام الساعة أى : لأجل أنه خول نعمة يبطر ويكفر كما قال تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾[١] ﴿ **ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى** ﴾ أى : ولئن كان ثَم معاد فليحسننَ إلىّ كما أحسن إلىّ فى هذا الدار ، يتمنى على الله - عز وجل - مع إساءته العمل وعدم اليقين . قال الله تعالى : ﴿ **فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقهم من عذاب غليظ** ﴾ يتهدد تعالى من كان هذا عمله ، واعتقاده بالعقاب ، والنكال . ثم قال تعالى : ﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه** ﴾ أى : أعرض عن الطاعة واستكبر عن الانقياد لأوامر الله - عز وجل - (وإذا مسه الشر) أى : الشدة (فذو دعاء عريض) أى : كثير .

ونحو هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا** عنه ضره مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مَسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته** ليقولن ذهب السيئاتُ عنى إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ **إذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار** ﴾[٤] وكقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب** على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . يدعوا من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ، يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾[٥] .

فالكافر يعرف ربه فى البلاء ، ولا يعرفه فى الرخاء ، أما المؤمن فهو عابد لله سبحانه على الحالين ، لهذا جاء فى وصية النبى ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - (تعرَّف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة)[٦] ، قال رجل لأبى الدرداء : - رضى الله عنه - أوصنى : فقال : أذكر الله فى السراء يذكرك فى الضراء ، فإن العبد إذا ذكر الله فى السراء ، فنزلت به ضراء فدعا الله - عز وجل -، قالت الملائكة : صوت معروف ، فشفعوا له ، وإذا كان ليس بدعّاء فى السراء ، فنزلت به ضراء فدعا الله - عز وجل - قالت الملائكة : صوت ليس بمعروف فلا يشفعون له .

وقوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ، سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ، ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط** ﴾ .

---

(١) سورة العلق الآيات ٦ - ٧ (٢) سورة يونس الآية ١٢ (٣) سورة هود من ٨ - ١١
(٤) سورة الزمر الآية ٨ (٥) سورة الحج الآيات ١١ - ١٣
(٦) أنظر كنز العمال جـ ٢ رقم ٣٢٢١ - فى آداب الدعاء - وانظر مسند الأمام أحمد جـ ١ ص ٣٠٧ عن ابن عباس وانظر كشف الخفاء جـ ١ ص ٣٦٦ رقم ٩٩٣ (عن ابن عباس)

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ، أرأيتم إن كان هذا القرآن من عند الله ، ثم كفرتم به ؟ أى : كيف ترون حالكم عند الذى أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال ـ عز وجل ـ : ﴿ من أضل ممن هو فى شقاق بعيد ﴾ أى : فى كفر وعناد ومشاقة للحق ومسلك بعيد من الهدى .

وقوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق ﴾ أى : سنريهم علامات وحدانيتنا وقدرتنا (فى الآفاق) قال ابن زيد : (فى الآفاق) آيات السماء (وفى أنفسهم) حوادث الأرض . وقال مجاهد : (فى الآفاق) فى آفاق الدنيا خصوصاً من الفتوح التى لم يتيسر أمثالها لأحد من خلفاء الأرض قبلهم ، ومن الإظهار على الجبابرة والأكاسرة وتغليب قليلهم على كثيرهم ، وفى أنفسهم فتح مكة وهذا اختيار الطبرى . وقال عطاء وابن زيد أيضاً : (سنريهم آياتنا فى الآفاق) يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق ، والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها (وفى أنفسهم) من لطيف الصنعة وبديع الحكمة حتى سبيل الغائط والبول ، فإن الرجل يشرب ويأكل من مكان واحد ويتميز ذلك من مكانين ، وبديع : صنعه وحكمته فى عينيه اللتين هما قطرة ماء ينظر بهما من السماء إلى الأرض مسيرة خمسمائة عام ، وفى أذنيه اللتين يفرق بهما بين الأصوات المختلفة وغير ذلك من بديع حكمة الله فيه . (ذكره القرطبى) .

وقوله تعالى : ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ قيل الإسلام الذى جاء به الرسول ـ ﷺ ـ وقيل : القرآن ، وقيل : إن محمداً ـ ﷺ ـ هو : الرسول الحق . والأقوال كلها صحيحة . فسيتبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ، ومن ثم نصر حامليه ، وأظهرهم على أعدائهم فى قليل من الزمان ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[1] .

وقوله تعالى :

﴿ أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ؟ ﴾ أى : كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم وهو يشهد بأن محمداً صادق فيا أخبر به عنه كما قال سبحانه : ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا ﴾[2] .

وقصارى القول ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى أوضحها سبحانه فى هذه السورة وفى كل سور القرآن ، وفيها البيان الكافى لإثبات وحدانية الله وتنزيهه عن كل نقص ، وإثبات النبوة والبعث .

وبعد أن أقام الأدلة ، وأوضح الحجج ـ حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت ولا جاحد ـ بين سبب عنادهم واستكبارهم فقال سبحانه :

﴿ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ﴾ أى : إنهم فى شك من البعث والجزاء ، واستبعادهم إحياء الموتى بعد تفرق أجزائهم ، وتبدد أعضائهم ، ومن ثم لا يلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم عند لقائه كالتفكر فى صدق نبوة محمد ﷺ وأن القرآن حق لا شك فيه .

---

(١) سورة الصف الآية ٩ ، سورة التوبة الآية ٣٣

(٢) سورة النساء الآية ١٦٦

وقوله تعالى : ﴿ ألا إنه بكل شىء محيط ﴾ أى : إنه تعالى عليم بمجمل الأشياء وتفاصيلها مقتدر عليها لا يفوته شىء منها ، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام ويقدر على إعادتها إلى أمكنتها ، ثم بعثها وحسابها ، لتستوفى جزاءها على ما قدمت من عمل . كقوله تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ، وكان الله بكل شىء محيطاً ﴾[(1)] ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾[(2)] .

تفسير سورة الشورى

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعاً ، عدد آياتها ثلاث وخمسون فى الكوفى .

كلماتها : ثمانمائة وست وستون وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وثمان وثمانون . ومجموع فواصل آياتها (زر لصب قدم) .

ولها اسمان : عسق ، لافتتاحها بها ، وسورة الشورى لقوله تعالى : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

معظم مقصود السور . .

بيان حجة التوحيد ، وتقرير نبوة الرسول ، وتأكيد شريعة الإسلام والتهديد بظهور آثار القيامة ، وبيان ثواب العاملين دنيا وأخرى ، وذل الظالمين فى عرضات القيامة ، واستدعاء الرسول ﷺ من الأمة محبة أهل البيت العترة الطاهرة ، ووعد التائبين بالقبول وبيان الحكمة فى تقدير الأرزاق ، وقسمتها ، والإخبار عن شؤم الآثام والذنوب ، والمدح والثناء على العافين من الناس ذنوب المجرمين . وذل الكفار فى مقام الحساب ، والمنّة على الخلق بما مُنحوا : من الأولاد وبيان كيفية نزول الوحى على الأنبياء ، والمنة على الرسول بعطية الإيمان والقرآن ، وبيان أن مرجع الأمور إلى الله الديان فى قوله تعالى : ﴿ إلى الله تصير الأمور ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ وفى لقمان (من عزم الأمور) ؛ لأن الصبر على وجهين : صبر على مكروه ينال الإنسان ظلماً كمن قُتل بعض أعزته ، وصبر على مكروه ليس يظلم ؛ كمن مات بعض أعزته . فالصبر على الأول أشد ، والعزم عليه أوكد ، وكان ما فى هذه السورة من الجنس الأول لقوله ﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ فأكد الخبر باللام وما فى لقمان من الجنس الثانى فلم يؤكده .

(1) سورة النساء ١٢٦ (2) سورة الطلاق الآية ١٢

قوله : ﴿ ومن يضلل الله فما له من ولى ﴾ وبعده ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ ليس بتكرار ، لأن المعنى ، ليس له من هاد ولا ملجأ .

قوله ﴿ عَلِىٌّ حكيم ﴾ ليس له نظير . والمعنى : تعالى عن أن يكلم شفاها حكيم فى تقسيم وجوه التكليم .

قوله : ﴿ لعل الساعة قريب ﴾ وفى الأحزاب (تكون قريباً) زيد معه (تكون) مراعاة للفواصل . وقد سبق .

ومناسبتها لما قبلها :

اشتمال كل منهما على ذكر القرآن ، ودفع مطاعن الكفار ، فيه تسلية النبى ﷺ على ذلك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى
ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ
حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى
ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن
يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ
أَوْلِيَآءَ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ
فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

معانى المفردات

(يتفطرن) يتشققن ، (يسبحون) أى : ينزهون الله عما لا يليق به ، (والأولياء) الشركاء والأنداد (حفيظ) أى : رقيب على أحوالهم وأعمالهم (بوكيل) أى : بموكول إليك أمورهم حتى تؤاخذهم بها ولا وكل إليك هدايتهم ، وإنما عليك البلاغ فحسب . (الإنذار) التخويف (وأم القرى) مكة ويوم الجمع يوم القيامة : سمى بذلك لاجتماع الخلائق فيه كما قال تعالى : ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع** ﴾[1] (الفريق) الجماعة ، (السعير) النار المستعرة الموقدة . (الولى) الناصر والمعين ، (أنيب) أى : أرجع ، ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أى : مبدعهما لأعلى مثال سابق ، (من أنفسكم) أى : من جنسكم (يذرؤكم) أى : يكثركم يقال ذرأ الله الخلق ، بثهم وكثرهم ، (مقاليد) وأحدها مقلاد ، أو مقليد ، أو إقليد ، وهو : المفتاح (يبسط) أى : يوسع (يقدر) أى : يقتر ويضيق .

المناسبة وإجمال المعنى

بين سبحانه : أن ما جاء فى هذه السورة موافق لما فى تضاعيف الكتب المنزلة على سائر الرسل ، من الدعوة إلى التوحيد ، والإيمان باليوم الآخر ، والتزهيد فى جمع حطام الدنيا ، والترغيب فيما عند الله ، ثم ذكر أن ما فى السموات والأرض فهو ملكه وتحت قبضته ، وله التصرف فيه إيجاداً وإعداماً وتكويناً وإبطالاً ، وأن السموات والأرض على عظمهما تكاد تتشقق فرقا من هيبته وجلاله سبحانه ، وأن الملائكة ينزهونه عما لا يليق به من صفات النقص ، ويطلبون المغفرة لعباده المؤمنين ، ثم أردف هذا تسلية رسوله ﷺ بأنه ليس بالرقيب على عبدة الأصنام والأوثان يستطيع أن يردهم إلى سواء السبيل ، بل ليس عليه إلا البلاغ وعلينا حسابهم ، فلا يبخع نفسه عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون ، ثم بين سبحانه أنه أنزل كتابه بلغة العرب ليفهمه قومه من أهل مكة وما حولها كما قال : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** ﴾[2] وينذرهم بأن يوم القيامة آت لا شك فيه ، وأن الناس إذ ذاك فريقان : فريق يدخل الجنة بما قدم من صالح الأعمال وفريق يدخل النار بما دنّس به نفسه من سيىء الفعال ، ثم ذكر أن حكمته اقتضت أن يكون الإيمان بالتكليف اختياراً ولم يشأ أن يكون قسرا وجبراً ، ولو شاء أن يكون كذلك لفعل ، فمن أخبت الله وأناب وعمل صالحاً أفلح وفاز بالسعادة ، ومن

---

(١) سورة التغابن الآية ٩ (٢) سورة إبراهيم من الآية ٤

عاث فى الأرض فساداً ، واتجهت همته إلى ارتكاب الشرور والآثام خسر وباء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المهاد ، ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً . ثم طلب إليه أن يدع الاهتمام بأمرهم ، ويقطع الطمع فى إيمانهم ، مبيناً أنهم اتخذوا من دون الله أولياء ، وهو سبحانه الولى حقاً ، القادر على كل شىء ، فقد عدلوا عنه إلى مالا نسبه بينه وبينهم بحال .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ حم . عسق ﴾ مثلها مثل أخواتها من فواتح السور وهى : دالة على إعجاز هذا الكتاب العزيز بما تحمله من تحدى المعاندين والمكابرين .

قال تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما أنزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾(١) وقال جل شأنه : ﴿ أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾(٢) ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله ﴾ وقال جل شأنه : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾(٣) ثم أفحمهم وألجمهم وألزمهم الحجة عندما يبين لهم نهاية التحدى فى قوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم ﴾ .

أى : مثل ما أوحينا إليك من الآيات والذكر الحكيم ، أوحينا إلى الأنبياء من قبلك فأنزلنا عليهم كتباً اشتملت على الأمر بالتوحيد والإيمان بالمعاد ، والأمر بمكارم الأخلاق ، وقد جمع الله ذلك كله فى الوصايا العشر التى جاءت فى قوله تعالى :و﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾(٥)

الموحى إليك وإلى الذين من قبلك هو ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾(٦) .

وما أجمل قوله تعالى : ﴿ العزيز الحكيم ﴾ فهو الغالب الذى يجير ولا يجار عليه فإذا ما أنزل الوحى على أنبيائه فإن أحداً لا يقوى على منع ذلك الوحى من النزول ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره

(١) سورة البقرة الآية ٢٣ — (٢) سورة هود الآية ١٣ — (٣) سورة يونس من الآية ٣٩
(٤) سورة الاسراء الآيتان ٨٨ ـ ٨٩ — (٥) سورة الأنعام الآيات ١٥١ ـ ١٥٣ — (٦) سورة البقرة الآية ٢٥٥

على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾[١] فانظر كيف سمى الوحى روحاً لأن فيه حياة الموات وانظر كيف سماه نوراً فى قوله : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور ﴾[٢] فقد سماه نوراً لأنه يبدد غياهب الظلمات ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴾[٣] .

وهو الحكيم الذى تنزهت ذاته عن العبث ، وتنزه فعله عن اللغو ، وتنزهت صفاته عن المشابهة ، يضع الأمور فى نصابها والنقاط على حروفها ، ويسمى الأشياء بأسمائها .

وهو الذى أوحى إلى الأنبياء كما أوحى إلى نبيه وخاتم أنبيائه ورسله ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وكان الله عزيزاً حكيماً . لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيد ﴾[٤] وقال جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾[٥] وقال جل شأنه : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[٦] وقال جل شأنه : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾[٧] وقال تبارك اسمه : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾[٨] وقال عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وجل جلال الله إذ يخبر أنه حفظ الوحى من اختراق الشياطين فيقول : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً ﴾ .

فكل الأنبياء قد أوحى الله ـ تعالى ـ إليهم فلا نبوة بلا وحى وكل الرسل قد أمرهم الله بالتبليغ فكما أنه لانبوة بلا وحى كذلك لا رسالة بلا نبوة وسبحان من أكمل دينه وأتم نعمته ورضى لنا الإسلام دينا ، فجعل خاتم النبيين خاتماً للمرسلين فلا نبوة بعد رسول الله ﷺ ، وحيث لا نبوة بعده فلا رسالة بعد رسالته ، وإنما العلماء ورثة الأنبياء فى تبليغ ما أمر الله به الأنبياء وسبحان من قال : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً ﴾[٩] فختم النبوة ختم للرسالة إذ النبوة أعم من الرسالة فمن ختم الأعم فقد ختم الأخص من باب أولى وقد كذب كل من قال : إنه رسول بعد رسول الله فقد رضى الله لنا الإسلام ديناً ، ولا إسلام بعد إسلام رسول الله الذى أمرنا الله ـ تعالى ـ باتباعه .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلا

(١) سورة النحل الآية ٢ (٢) سورة الشورى الآيتان ٥٢ ، ٥٣ (٣) سورة إبراهيم الآية ١
(٤) سورة النساء ١٦٣ ـ ١٦٦ (٥) سورة آل عمران الآية ٤٤ (٦) سورة هود الآية ٤٩
(٧) سورة الانبياء الآية ٢٥ (٨) سورة الجن الآيات : ٢٦ ـ ٢٨ (٩) سورة االأحزاب اية : ٤٠

أحاديث نبوية فى الوحى

قال الإمام مالك ــ رحمه الله ــ عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : إن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىّ فيفصم عنى وقد وَعَيْتُ عنه ما قال ، وأحياناً يأتينى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ فلقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ ليتفصد عرقاً . أخرجاه فى الصحيحين ولفظه للبخارى .(١)

وقد رواه الطبرانى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ عن الحارث بن هشام ،أنه سأل رسول الله ﷺ كيف ينزل الوحى ؟ فقال ﷺ : « فى مثل صلصلة الجرس فيفصم عنى وقد وعيت ما قال : ــ وقال ــ وهو أشده علىّ ــ قال : وأحيانا يأتينى الملك فيتمثل لى فيكلمنى فأعى ما يقول » .(٢)

وقال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو ــ رضى الله عنهما ــ قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت يا رسول الله هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله ﷺ « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى إلى إلا ظننت أن نفسى تقبض » تفرد به أحمد .(٣)

مبحث فى الوحى

ما هو ؟ .

الوحى بمعناه الشرعى حقيقة يشترك فيها الأنبياء جميعاً ، وهو إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه .

وقد يطلق أيضا على كلام الله المنزل على النبى ﷺ .

وجاء فى تعريف الوحى أيضا عند بعض العلماء أنه عرفان يجده الشخص فى نفسه مع اليقين بأنه من عند الله بواسطة وبغير واسطة .

(١) الحديث فى صحيحه البخارى فى (كتاب بدء الوحى) باب : كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ جـ ١ صـ ٢ ، ٣ وأخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الفضائل) باب : عرق النبى ﷺ فى البرد وحين يأتيه الوحى جـ ٤ صـ ١٨١٦ ، ١٨١٧ رقم ٢٣٣٣/٨٧

(٢) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير فيما رواه الحارث بن هشام المخزومى جـ ٣ صـ ٢٩٣ رقم ٣٣٤٣ ، ٣٣٤٤ ، ٣٣٤٥

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ــ مسند عبد الله بن عمرو جـ ٢ صـ ٢٢٢

قال الله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسلَ رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ، وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[1] .

ويقطع هذا النص بأنه ليس من شأن انسان أن يكلمه الله إلا وحيا وإنما يتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث :

١ ــ إما أن يكون وحياً ، بمعنى أنه يلقى الله فى النفس مباشرة فتعرف أنه من الله .

٢ ــ وإما أن يكون من وراء حجاب ، كما كلم الله موسى ــ عليه السلام ــ حين طلب الرؤية ولم يجب إليها ، ولم يطق تجلى الله على الجبل ﴿ **وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين** ﴾[2] .

٣ ــ وإما أن يرسل رسولاً ، وهو الملك ﴿ **فيوحىّ بإذنه ما يشاء** ﴾ .

صور الوحى التى وردت
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

الأولى : ما كان يلقيه الملك فى روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال ﷺ : « أن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله واجملوا فى الطلب »[3] .

والثانية : أنه كان يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أشده عليه ، حتى أن جبينه ليتفصد عرقاً فى اليوم الشديد البرد ، وحتى أن راحلته لتبرك به إلى الأرض إن كان راكبها . ولقد جاء الوحى مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت تردها .

---

(١) سورة الشورى الآيات : ٥١ ــ ٥٣

(٢) من الآية : ١٤٣ من سورة الأعراف .

(٣) الحديث فى كشف الخفاء ج ١ صـ ٢٦٨ رقم ٧٠٧ وقال : رواه فى مسند الفردوس عن جابر ، ورواه أبو نعيم والطبرانى عن أبى أمامة والبزار عن حذيفة ، وأخرجه الحاكم وصححه عن ابن مسعود كذا فى فتح البارى .
وفى تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الشورى جـ ١ صـ ٢٠٤ كما جاء فى صحيح ابن حيان .
وفى الحلية لأبى نعيم فى ترجمة أحمد بن أبى الحوارى جـ ١٠ صـ ٢٧

والرابعة : أنه يرى الملك فى صورته التى خلق عليها فيوحى إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين ، كما ذكر الله ذلك فى سورة النجم ﴿ **علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى** ﴾[1] .

هذه صور الوحى وطرق الاتصال ﴿ **إنه عليم حكيم** ﴾ يوحى من علو ، ويوحى بحكمة إلى من يختار .

قال بعض المحققين : إنه ما من مرة وقفت أمام آية تذكر الوحى ، أو حديث يتكلم عنه ، لأتأمل هذا الاتصال ، إلا أحسست له رجفة فى أوصالى . كيف .. كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله الأولى الأبدى الذى ليس له حيز فى المكان ، ولا حيز فى الزمان المحيط بكل شيء والذى ليس كمثله شيء . كيف يكون هذا الاتصال بين ذات الله العلى ، وذات الإنسان المتحيزة فى المكان والزمان ، المحدودة بحدود المخلوقات من أبناء الفناء ؟!

ثم كيف يتمثل هذا الاتصال معانى وكلمات وعبارات ؟ وكيف تطيق ذات محدودة فانية أن تتلقى كلام الله الأولى الأبدى ، الذى لا حيز له ولا حدود ، ولا شكل له معهود ، وكيف ؟ وكيف ؟ ولكنى أعود فأقول : ومالك تسأل عن كيف ؟ وأنت لا تملك أن تتصور إلا فى حدود ذاتك المتحيزة القاصرة الفانية ؟!

لقد وقعت هذه الحقيقة وتمثلت فى صورة وصار لها وجود . هو الذى تكلم أن تدركه من وجود . ولكن الوهلة والرجفة والروعة لا تزال ! إن النبوة هذه أمر عظيم حقا . وإن لحظة التلقى هذه لعظيمة حقا . تلقى الذات الإنسانية لوحى من الذات العلوية .

أخى الذى تقرأ هذه الكلمات .. أأنت معى فى هذا التصور ؟! أأنت معى تحاول أن تتصور ؟! هذا الوحى الصادر من هناك . أأقول (هناك) ؟! كلا . إنه ليس هناك (هناك) الصادر من غير مكان ولا زمان ولا حيز ولا حد ولا وجهة ولا ظرف . الصادر من النهائى الأزلى الأبدى ... الصادر عن الله ذى الجلال ... إلى انسان ... انسان .. مهما يكن نبيا رسولا . فإنه هو هذا الانسان ذو الحدود

---

(١) سورة النجم : الآيات : من ٥ ــ ١٥

والقيود هذا الوحى . هذا الاتصال العجيب المعجز الذى لا يملك إلا الله أن يجعله وقعة تتحقق ، ولا يعرف إلا الله كيف يقع ويتحقق .

أخى الذى تقرأ هذه الكلمات ، هل تحس ما أحس من وراء هذه العبارات المتقطعة التى أحاول أن أنقل بها ما يخالج كيانى كله ؟ إنى لا أعرف ماذا أقول عما يخالج كيانى كله من الروعة والرجفة ، وأنا أحاول لأن أتصور ذلك الحديث العظيم العجيب الخارج فى طبيعته ، والخارق فى صورته ، الذى حدث مرات ومرات ، وأحس بحدوثه ناس رأوا مظاهره رأى العين على عهد رسول الله ﷺ .

وهذه عائشة — رضى الله عنها — تشهد من هذه اللحظات العجيبة فى تاريخ البشرية ،فتروى عن واحدة منها فتقول : قال رسول الله ﷺ « يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام . قلت : وعليه السلام ورحمة الله قالت : وهو يرى ما لا نرى » أخرجه البخارى .(١)

وهذا زيد بن ثابت — رضى الله عنه — يشهد مثل هذه اللحظة ، وفخذ رسول الله ﷺ على فخذه ، وقد جاءه الوحى ، فثقلت حتى كادت ترض فخذه .

وهؤلاء هم الصحابة — رضوان الله عليهم — فى مرات كثيرة يشهدون فيدعونه للوحى ، حتى يسر عنه فيعود إليهم ويعودون إليه . ثم .. أية طبيعة . طبيعة هذه النفس التى تتلقى ذلك الاتصال العلوى الكريم ؟ .

أى : جوهر من جواهر الأرواح ذلك الذى يتصل بهذا الوحى — ويختلط بذلك العنصر ويتصل مع طبيعته وفحواه ؟

إنها هى الأخرى مسألة ! إنها حقيقة . ولكنها تتراءى هنالك بعيدا عن أفق عال ومرتقى صاعد ، لا تكاد المدارك تتملاه ! روح هذا النبى ﷺ روح هذا الانسان ، كيف يا ترى كانت تحس بهذه الصلة وهذا التلقى ؟

---

(١) أخرجه البخارى — باب : فضائل أصحاب النبى ﷺ باب : فضل عائشة — — رضى الله عنها — جـ د صـ ٣٦ ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب : فضل عائشة جـ ٤ صـ ١٨٩٥ رقم ٢٤٤٧/٩٠

كيف كانت تتفتح ؟ كيف كان ينساب فيها ذلك الفيض ؟ كيف كانت تجسد الوجود فى هذه اللحظات العجيبة التى يتجلى فيها الله على الوجود ، والتى تتجاوب جنباته بكلمات الله ؟

ثم : أية رعاية ؟ وأية رحمة ؟ وأية مكرمة ؟ والله العلى الكبير يتلطف فيعنى بهذه الخليقة الضئيلة المسماة الإنسان ، فيوحى إليها لإصلاح أمرها وإنارة طريقها ، ورد شاردها ، وهى أهون عليه من البعوضة على الإنسان ، حين تقاس إلى ملكه الواسع العريض ؟!

إنها حقيقة ، ولكنها أعلى وأرفع من أن يتصورها الإنسان إلا مطلعا إلى الأفق السامى الوضاء .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾[1] .

يريد الله ــ تبارك وتعالى ــ أن يقول لصفوة خلقه : ومثل الوحى الذى أوحيناه إلى الأنبياء السابقين عليك ، أوحينا إليك روحا من أمرنا ، فيه حياة يبث الحياة ويدفعها ، ويحركها وينميها فى القلوب ، وفى الواقع العملى المشهود ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ والمقصود بهذا النص هو اشتمال قلب الحبيب محمد ﷺ على هذه الحقيقة ، حقيقة الكتاب والإيمان ، والشعور بها والتأثر بوجودها فى الضمير ، وهذا ما لم يكن قبل هذا الروح من أمر الذى لابس قلب محمد ﷺ ﴿ **ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ .

وهذه طبيعته الخالصة ، طبيعة هذا الوحى هذا الروح ، هذا الكتاب إنه نور ، نور تخالط بشاشته القلوب التى يشاء لها الله أن تهتدى به ، بما يعلمه من حقيقتها ، ومن مخالطة هذا النور لها ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ .

هذا توكيد على تخصيص هذه المسألة ، مسألة الهدى بمشيئة الله ــ جل شأنه ــ وتجريدها من كل ملابسة ، وتعليقا بالله وحده ، يقدرها لمن يشاء بعلمه الخاص ، الذى لا يعرفه سواه ، والرسول ﷺ واسطة لتحقيق مشيئة الله ، فهو لا ينشىء الهدى فى القلوب ، ولكنه يبلغ الرسالة ، فتقع مشيئة الله ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فهى

(١) سورة الشورى الآيتان : ٥٢ ، ٥٣

الهداية إلى طريق الله الذى تلتقى عنده المسالك ، لأن الطريق إلى المالك ﴿ **الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فالذى يهتدى إلى طريقه يهتدى إلى ناموس السموات والأرض ، وقوى السموات والأرض ، إلى مالكها العظيم ، الذى إليه تتجه ، والذى إليه تصير ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾

فكلها تنتهى إليه ، وتلتقى عنده ، وهو يقضى فيها بأمره ، وهذا النور يهدى إلى طريقه ، الذى اختار للعباد أن يسيروا فيه ، ليصيروا إليه فى النهاية مهتدين طائعين .

ومن الجدير بالذكر أن هذه السورة التى ختمت بآيات الوحى قد بدأت بالحديث عن الوحى ، إنها سورة الشورى ، التى بدأها الله تعالى بقوله : ﴿ **حم عسق . كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم** ﴾ لقد كان الوحى محورها الرئيسى ، وقد عالجت قصة الوحى منذ النبوات الأولى لتقرر وحدة الدين ووحدة المنهج ، ووحدة الطريق ، ولتعلن القيادة الجديدة للبشرية ، ممثلة فى رسالة سيدنا محمد ﷺ وفى العصبة المؤمنة بهذه الرسالة ، ولتلقى على عاتق هذه العصبة أمانة القيادة إلى صراط مستقيم صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ولتبين خصائص هذه العصبة وطابعها المميز الذي تصلح به القيادة ، وتحمل به هذه الأمانة ، الأمانة التى تنزلت من السماء إلى الأرض ، عن ذلك الطريق العجيب العظيم .

بشائر النبوة

بعد الفراغ من تعريف الوحى ، وأنه حقيقة واقعة ، يشترك فيها جميع الأنبياء فإن للوحى بشائر قبل نزوله ، تبعث الأمن والطمأنينة فى قلب النبى الذى يوحى إليه ألا وهى الرؤيا الصالحة .

عن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : أول ما يؤتى به الأنبياء فى المنام حتى تهدأ قلوبهم ثم ينزل الوحى بعد فى اليقظة .

قد روت عائشة ــ رضى الله عنها ــ فى حديث بدء الوحى أنه أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .[1]

(١) أخرجه البخارى فى كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ جـ ١ صـ ٣

شبهات باطلة

ركز المستشرقون جهودهم حول قضية الوحى ، لأنها الأساس الأول فى الإسلام فأخذوا ينفثون سمومهم ، ويثيرون غبار الشبهات حول إثبات الوحى لكى يسلم ما تهواه نفوسهم الرخيصة ، وقلوبهم السقيمة ، ولكن الحق أقوى مما يتصورون وأكبر مما يظنون ، ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾[١] ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾[٢].

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه الشبهة والرد عليها ، فإننا نضع بين يدى القارىء الكريم صورة مفصلة عن بدء الوحى ، كما جاء فى كتب السنة الصحيحة ، حتى يكون للقارىء علم يبدأ به هذه القضية التى تعتبر الدعامة الأولى فى صرح العقيدة .

روى الإمام البخارى بصحيحه عن عروة بن الزبير أن عائشة زوج النبى ﷺ أخبرته أنها قالت : « كان أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحى الرؤيا الصادقة فى النوم . فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد ـ قبل أن يرجع إلى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فاجأه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : إقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال : زملونى ، زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ثم قال لخديجة : أى خديجة مالى ؟ فأخبرها الخبر ، قال لقد خشيت على نفسى . قالت له خديجة : كلا ، أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، والله ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى (وهو ابن عم خديجة) وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربى ، ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب . وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : أى ابن عم : اسمع من ابن أخيك ، قال ورقة بن نوفل : يا ابن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه ،

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ١٨

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٩

فقال له ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على موسى ــ عليه السلام ــ يا ليتنى فيها جزعاً . يا ليتنى أكون حياً حين يخرجك قومك . قال رسول الله ﷺ : أومخرجى هم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .(١)

وهذا الحديث اشتمل على الخطوات التى مر بها رسول الله ﷺ عندما أراد الله ــ تبارك وتعالى ــ أن يبعثه إلى العالمين بشيراً ونذيراً **﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾**(٢) **﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾**.(٣)

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾.(٤)

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ، محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾(٥)

نعم لقد اتصل نور السماء بأرض الصحراء .. وكانت أول خطوة فى الطريق (الرؤيا الصادقة فى المنام) ، فكان ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح جلية واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض ، ولا مراء ولا خفاء ، وظلت هذه الحالة ستة أشهر ، ولذلك فإن الرؤيا الصادقة مع رسول الله ﷺ تعدل جزءاً من ستة وأربعين جزءاً .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى فى كتاب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ جـ ١ صـ ٣ ، ٤

(٢) سورة الفرقان الآيتان : ١ ، ٢

(٣) سورة الأعراف الآية : ١٥٨

(٤) سورة سبأ الآية : ٢٨

(٥) سورة الفتح الآيتان : ٢٨ ، ٢٩

بيان ذلك أن الرسول ﷺ استمر ثلاثاً وعشرين سنة يوحى إليه ، فتكون الأشهر الستة تساوى بالنسبة لهذه المدة جزءاً من ستة وأربعين ، ثم انتقل الوحى إلى اللقاء المباشر بين الملك الموكل به وهو الأمين جبريل الذى بيَّن الله وصفه فى قوله : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين** ﴾[1] وفى قوله : ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين** ﴾[2] .

وفى قوله تعالى : ﴿ **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين** ﴾[3] .

وكان اللقاء الأول بين سفير الأنبياء وكبير أمناء وحى السماء ، وبين المبعوث رحمة للعالمين فى غار حراء ، الذى كان الرسول يخلو فيه متأملا فى رحاب الكون ، مقلبا طرفه فى أرجاء العالم بكواكبه ونجومه ، وأرضه وجباله ونباته وجماده ، وشمسه وقمره ، وليله ونهاره ، هاتفاً بخالقه ، مردداً آيات الحمد والثناء لرافع السماء بلا عمد ، سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون .

وكان الأمر بالقراءة ، وكان الرسول يقول : ما أنا بقارىء ، وقال له : أمين الوحى (اقرأ باسم ربك الذى خلق)[4] وانطلق الرسول بهذه الآيات يرجف فؤاده من هول ما رأى .

إن هناك طائفة ملائكية شديدة الجذب ، كان جبريل يضمه إليه حتى يبلغ منه الجهد ثم يرسله ويأمره بالقراءة ، وهكذا ، دخل الأمين محمد ﷺ على زوجه الوفية خديجة بنت خويلد يقول لها : زملونى زملونى ، فتبعث إلى قلبه ما يشرح الصدر ، وتريش بجناحها جناحه ، وتقسم له بالله أن الله لا يخزيه أبداً ، وتنطلق به إلى ابن عمها ورقة الرجل الذى قرأ الكتاب الذى أنزل على عيسى ، ورأى فيه البشارات الصادقات ببعثة محمد بن عبد الله ﷺ فيخبر رسول الله أن هذا الملك الذى أنزل عليه هو الذى نزل على موسى قبل ذلك ، وينبئه بأمور ستقع ، فيقول له : ليتنى أكون حياً ! إذ يخرجك قومك ، يقصد هجرته من مكة إلى المدينة ، يسأل الرسول متعجباً « أومخرجى هم ؟ » فيقول له ورقة :

---

(١) سورة التكوير الآيات : ١٩ ــ ٢١
(٢) سورة الشعراء الآيات : ١٩٣ ــ ١٩٥
(٣) سورة البقرة الآية : ٩٧
(٤) سورة العلق الآية : ١

نعم ، ثم يبين له السبب وهو أنه ما من أحد يأتى قومه بمثل ما أتى به محمد ﷺ إلا عاداه الناس ، إنه يحمل لواء الحق فلابد أن يصطدم بأصحاب الباطل ، ويتمنى ورقة بن نوفل أن يكون حياً وقت أن يخرجه قومه حتى ينصر النبى ﷺ نصراً عزيزاً مؤزراً .

وهكذا يثبت لنا هذا الحديث الشريف الخطوات الكاملة التى خطاها رسول الله ﷺ على طريق الوحى .

ونستنتج من هذا قاعدة فى العقيدة لابد لكل مسلم أن يعلمها . هذه القاعدة تثبت أنه لا نبوة بلا وحى ، ولا رسالة بدون نبوة ، بهذا نطق القرآن العظيم فى قوله جل شأنه : ﴿ **إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا . ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً . لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً** ﴾(١) .

ففى هذه الآيات أثبت الله أنه قد أوحى إلى نبيه محمد كما أوحى إلى النبيين من قبله ، وبناء عليه فليس هناك نبوة بدون وحى ، ثم أثبت القرآن أن هناك رسلاً من هؤلاء الأنبياء جاءوا مبشرين ومنذرين ، ليقطع المعاذير والحجج ، فإذا كان ذلك كذلك فإن النبوة أوسع من دائرة الرسالة ، فكل رسول لابد أن يكون نبياً ، وإذا كان الحبيب محمد قد ختم النبوة ، وهى الأعم فإنه يلزم على ذلك لزوماً حتمياً أن يختم الرسالة وهى الأخص ، ولذا فإنه لا أساس من الصحة لقول من قال : إن هناك رسالة بعد رسول الله ﷺ ، لأن الوحى لم ينزل على أحد بعده ، وحيث لا وحى فلا نبوة وحيث لا نبوة فلا رسالة .

وإذا كان ﷺ رسول الله وخاتم النبيين ، فهو رسول الله وخاتم المرسلين أيضا ، لأن دائرة المرسلين مندرجة تحت دائرة النبيين فلا نبوة بلا وحى ، ولا رسالة بلا نبوة ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ، وكان الله بكل شىء عليماً** ﴾(٢)

---

(١) سورة النساء الآيات : ١٦٣ — ١٦٦ .

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٤٠

ماذا قالوا عن الوحى ؟

والآن نبدأ فى عرض شبه المبطلين الذين هاجت صدورهم بعقارب البغضاء فنقول لهم : إن الرسول ﷺ نبى ثبتت نبوته ثبوتاً قطعياً ، وتضافرت على ذلك الأدلة التى لا مراء فيها ، وعلى رأسها الكتاب الخالد الذى تعهد الله بحفظه فى قوله : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[١] .

فهو الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يذهب إلى أستاذ ، ولم يجلس أمام فيلسوف ، فنزول هذا الكتاب عليه بما اشتمله من قصص السابقين فى القرون الأولى ، ومن الوعد والوعيد والأنباء بالغيب ، والنظم الفريدة التى اشتملت الحياة كلها من شتى نواحيها ، والدعوة الخالصة لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهو الأمى ، دليل قاطع على أنه الصادق الأمين قال تعالى : ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ، بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون** ﴾[٢] .

لما لم يجد أعداء الرسول فى حياته ، ولا فى أخلاقه ، ما يمكنهم من الطعن فيه ، جندوا أقلامهم ، وجمعوا صحفهم ، ليفتروا على الله ورسوله الكذب ، فيقولون : كان قسًّا رومانيا غضب لأنه لم ينتخب لكرسى البابوية ، وأنه وهو الفيلسوف الحكيم ، عز عليه ذلك ، ولم يشأ أن يصبح شيخاً لقبيلته ، أو رئيساً لأمته ، إنما أراد أن يكون إلهاً أو فى مصاف الآلهة !!!

ومما يثبت كذب هذا الافتراء أن محمداً جاء برسالته فى وقت تناحرت فيه الفرق الدينية ، وتشعبت المعتقدات ، وتناول البعض الرسالات الدينية السابقة بالتحريف والتغيير ، وبلغ الأمر إلى الارتفاع بالأنبياء إلى مقام الألوهية ، فلو كان محمداً يرجو مجداً دنيوياً لوجد البيئة الصالحة لذلك ، ولكنه كان يتلوا عليهم قرآن الله الذى يقول :

﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ إنما إلٰهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[٣] .

﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ إنما إلٰهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين** ﴾[٤] .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩
(٢) سورة العنكبوت الآيتان : ٤٨ ، ٤٩
(٣) سورة الكهف الآية : ١١٠
(٤) سورة فصلت الآية : ٨

ويحسم الرسول الأمين الأمر حسماً فيقول فى حديثه الشريف : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح بن مريم ، فإنما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا عبد الله ورسوله »[٣] .

فهل بعد ذلك يستقيم قول قائل : إنه كان يريد مجداً أو كان يريد أن ينصب نفسه إلهاً ؟

تهمة باطلة

ويتمادى أعداء الله فى غيهم وبهتانهم فيزعمون أن رسول الله ﷺ كان مريضاً بالصرع ، وأن ظواهر الوحى التى كانت تعتريه ما هى إلا نوبات الصرع ، ثم يزيدون افتراءهم بهتاناً وإثماً مبيناً ، فيقولون : إنه كان يسمع كلاماً أثناء نوبات الصرع ، سمى بعد ذلك قرآناً .

هذه فرية فيها ما فيها :

إن ما قالوه : كلام سخيف لا أساس له من الصحة ، وهراء باطل لا نصيب له من الحقيقة العلمية ، ولذلك فإننا عندما نوجه شمس الحقيقة على هذه الخرافات ، فإنها ستبدد ظلماءها الداكنة ، لتبدو الحقيقة جلية واضحة لا يعتريها لبس ، ولا يعتريها غموض ولا شك .

يرد الدكتور (يحيى طاهر) أخصائى وأستاذ الأمراض العصبية بكلية طب ومستشفى قصر العينى بجامعة القاهرة على الفرية فيقول :

« لقد أراد بعض الناس أن يطعنوا الدين الإسلامى فى شخص الرسول ﷺ فقالوا : إن النبى محمداً كان مريضاً بالصرع ، وإن الوحى الذى كان ينزل على الرسول بالقرآن ما هو إلا نوبات صرعية كان يسمع أثناءها كلاماً ردده ليصبح قرآناً .

والذى يدرس الصرع من أى ناحية من نواحيه الطبية ، أو العلمية ، أو الفسيولوجية يتبين له جسامة هذا الافتراء ، إذ أن النوبات الصرعية ليست نوبات نفسية كما يتبادر إلى الذهن ، ولكنها ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية فى المخ بدليل أنه أمكن تسجيل تغيرات كهربائية فى المخ أثناء تلك النوبات الصرعية مهما كان مظهرها الخارجى .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب بدء الخلق) باب : واذكر فى الكتاب مريم جـ ٤ صـ ٢٠٤ .

ومن المعروف أن هناك مظاهر خارجية عديدة ومختلفة للنوبات الصرعية ، وذلك تبعا لمراكز المخ التى تبدأ فيها التغيرات الكهربائية ، وطريقة وسرعة انتشارها ، فإذا بدأت فى مراكز الحركة كانت النوبة على شكل تقلصات أو تشنجات عضلية ، وإذا بدأت فى مراكز الإحساس كانت النوبة على شكل إحساسات مختلفة ، وإذا بدأت فى مراكز الإبصار كانت النوبة على شكل ذكريات أو أحلام وهكذا . ويكفى أن نشرح نوعاً واحداً من النوبات الصرعية الذى يشتبه أن يكون هو النوع الذى قيل عنه أن النبى ﷺ كان مصاباً به ، ألا وهو النوبات الصرعية النفسية .

ففى هذه النوبات الصرعية يكون التغير العقلى هو المظهر الأساسى للنوبة ولا يفقد المريض شعوره تماماً ، كما فى الأنواع الأخرى من النوبات ، ويمكنه إلى حد ما تذكر التجارب النفسية التى حدثت له أثناء النوبة بعد انتهائها ، وتكون هذه التجارب النفسية التى تمر بالمريض أثناء النوبة إما على شكل انفعالات مثل الخوف ، أو على شكل تفكير فى اتجاه معين كأن يردد المريض فى ذهنه « يجب أن أقول لفلان كذا وكذا » ، أو على شكل خيالات أو هلاوس ، وفى هذه الحالة تمر بذهن المريض ذكريات أو أحلام مرتبة ، أو سمعية ، أو الاثنان معاً ، ومن أمثلة الهلاوس المرئية ما قالته مريضة : أنها ترى أثناء النوبة شبحاً أسود يهددها ، ولا يمكنها أن تتبين ملامحه وصورته ، وتتكرر بنفس الشكل فى جميع النوبات .

ومن أمثلة الهلاوس السمعية ما قالته مريضة : إنها تسمع أصواتاً قادمة من الجهة اليمنى ، ولكنها ليست أصوات أطفالها ، كما أنها تسمع فى نوبات أخرى : قطعة موسيقية تظن أنها قادمة من المذياع الموضوع فى حجرة الجلوس ... من ذلك نرى أن الأحلام والهلاوس التى تمر بذهن المريض فى أثناء النوبة الصرعية ما هى إلا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالإنسان ، أو فكر فيها ، ثم حفظت فى ثنايا المخ ، وقد ثبت ذلك علمياً بأن نبهت مراكز المخ المصابة بتيار كهربائى من الخارج فشعر المريض بنفس الهلاوس التى تنتابه أثناء النوبة الصرعية ، كما نرى من الأمثلة التى ذكرت أن الهلاوس تتكرر بنفس الشكل بتكرار النوبات ، وقد يكون هناك أكثر من نوع واحد من الهلاوس فى المريض الواحد ، ولكنها تتكرر وكلها أو بعضها بالشكل نفسه ، كذلك نرى : أن المريض يتذكر التجارب النفسية التى مرت به أثناء النوبة عامة ، ولا يمكنه أن يتذكر التفاصيل ، أو أن يصف ما مر به فى أثناء النوبة وصفاً دقيقاً » .

ثم يستطرد الدكتور يحيى طاهر قائلاً : « إنه بتطبيق ما وصلنا إليه من هذا العرض السريع للصرع على الافتراء الذى يفتريه خصوم الإسلام على الوحى الذى أنزل على سيدنا محمد ﷺ نجد أن الهلاوس والأحلام التى تمر بذهن المريض بالصرع ما هى إلا أجزاء من ذكريات قديمة نبهتها النوبة ، ولا يمكن

للمريض بالصرع أن يؤلف أثناء النوبة شيئا ، فكيف بالقوانين والآداب والقصص ، والعلوم وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم ؟

كذلك لا يمكن أن تتحسن لغة المريض بالصرع أثناء النوبة أو بعدها ، لأن هذا التحسن يحتاج إلى تعليم ، أما الصرع فهو ارتباك مفاجىء فى كهرباء المخ ووظيفته ، وقد نزل القرآن بلغة عربية فصحى لم يتعلمها النبى ﷺ قبل الرسالة .

فهل يمكن أن يقال ، بعد هذا العرض العلمى البحت : أن القرآن ما هو إلا هلاوس رجل مصروع ؟!! سبحانك هذا بهتان عظيم ، وقد كذبوا ورب الكعبة ﴿ **كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً** ﴾[1] .

أما بعد .. فقد تبين لنا بالعلم الصحيح ، والحقائق الثابتة أن هذه الشبهة التى وجهوها إلى الوحى قد اجتثت من أصلها ، كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

سبحانك ربى يا من قلت : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا** ﴾[2] .

ويا من قلت لحبيبك محمد ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** ﴾[3] .

ويا من قلت له : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾[4] .

ويا من تحديت العالم أجمع فقلت : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[5] .

وقلت للمعاندين : ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾[6] .

---

(١) سورة الكهف من الآية : ٥
(٢) سورة الإسراء الآيتان : ٨٨ ، ٨٩
(٣) سورة الشعراء الآيات : ١٩٢ ــ ١٩٥
(٤) سورة النمل الآية : ٦
(٥) سورة الطور الآية : ٣٤
(٦) سورة البقرة الآية : ٢٣

كيف يتفق هذا التحدى مع الفرية القائلة إنه هلوسة مصروع ؟ وهل تقوى الهلاوس والخرافات أن تنزل ميدان التحدى الصارخ ؟ والله إنها الأباطيل والأكاذيب ، لا حياة لها ولا قرار ، أمام صولة الحق ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾[١] .

وينتقل بنا الحديث بعد ذلك فى هذا الصدد إلى أستاذ أوروبى هو ر . ر . ف بودلى فى كتابه : حياة الرسول محمد : يقول فى هذا الشأن : « يذكر الأطباء أن المصاب بالصرع لا يفيق منه ، وقد زخر عقله بأفكار لامعة ، وإنه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها محمد ، حتى قبل مماته بأسبوع واحد ، وما كان الصرع ليجعل من أحد نبياً أو مشرعاً ، وما رفع الصرع أحداً إلى مراكز التقدير والسلطان يوماً ، وكان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنوناً ، أو به مس من الجن ، ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو محمد » .

ونخلص مما تقدم : إلى ما قاله الدكتور يحيى طاهر : من حقائق عن الصرع على ما كان يعترى سيدنا رسول الله ﷺ نجده يختلف أصلاً وظاهراً عنه ، ويقرر بشكل قاطع أن ما كان يعترى الرسول إنما هو وحى الله ــ جل شأنه ــ ، فإن الحقائق العلمية الطبية تثبت أن الهلاوس التى يراها أو يسمعها المريض أثناء نوبته ، لابد أن يكون قد رآها أو سمعها فى طفولته أو شبابه ، أو قبل مرضه ، فهل كان الرسول ﷺ قد رأى الأقوام قبل عصر الإسلام ، وعاش بينهم واستمع إلى أحاديث الرسل والأنبياء السابقين ، فردد مثل آيات القرآن الكريم التى بلغت قمة السمو ، وعلو الطبقة فى الإعجاز المطلق ، مثل قوله تعالى حاكياً عن نبى الله نوح : ﴿ **ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم** ﴾[٢] إلى أن تنتهى هذه المشاهد بشأن نوح فى قوله تعالى : ﴿ **قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم** ﴾[٣] .

هل كان رسول الله ﷺ مع نبى الله نوح وعاصره وخالطه ، ثم ردد هذه الوقائع والذكريات فى نوبات الصرع ! كلا .. وألف لا ، إنه الوحى كما قال تعالى فى نهاية قصة نوح : ﴿ **تلك من أنباء**

---

(١) سورة سبأ الآية : ٤٩
(٢) سورة هود الآيتان : ٣٨ ، ٣٩
(٣) سورة هود الآية : ٤٨

الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[١] .

وهل كان صلوات الله وسلامه عليه مع يوسف وإخوته ، وما دار فى هذه القصة من أحداث ووقائع من أول قوله تعالى : ﴿ **إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** ﴾[٢] إلى أن تنتهى القصة بقوله جل شأنه على لسان يوسف ﴿ **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين** ﴾[٣] .

هل كان رسول الله ﷺ مع يوسف وإخوته حتى ردد هذه الذكريات فى نوبة من نوبات الصرع ؟ كلا .. ثم كلا .. إنه الوحى الذى قال فيه مولانا تعقيبا على قصة يوسف — عليه السلام — موجها الخطاب للرسول الكريم : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾[٣] .

وهل كان ﷺ مع آل عمران وما جرى فى هذه القصة من أحداث ووقائع ، بدأت بقوله تعالى : ﴿ **إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً فتقبل منى إنك أنت السميع العليم** ﴾[٤] إلى أن انتهت القصة بقوله تعالى : ﴿ **يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** ﴾[٥] .

هل كان الرسول الكريم معاصراً لتلك الأحداث ، حتى ظهرت هذه الذكريات عليه فى حالة من نوبات الصرع ؟ كلا .. ثم كلا .. إنه الوحى كما قال تعالى تعقيبا على قصة آل عمران : ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾[٦] من الذى علم هذا الأمى أخبار السابقين وقصص الأنبياء المكرمين وهو الذى لم يختلف إلى أستاذ ، ولم يذهب إلى جامعة ؟ وإذا كان الصرع ترديداً لذكريات مضت تنتاب المريض

---

(١) سورة هود الآية : ٤٩
(٢) سورة يوسف الآية : ٤
(٣) سورة يوسف الآية : ١٠١ والآية : ١٠٢
(٤) سورة آل عمران الآية : ٣٥
(٥) سورة آل عمران الآية : ٤٣
(٦) سورة آل عمران الآية : ٤٤

فى نوبة من نوباته ، فهل يتفق هذا مع الإنباء بما سيحدث فى المستقبل فى مثل قوله جل شأنه : ﴿ **آلم غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾[1] .

وهل يتفق هذا مع الإخبار بما سيقع من مشاهد القيامة من بعث وجزاء وحساب ونعيم وعذاب ؟ أين نوبات الصرع من هذا الوحى الذى نزل به الروح الأمين جبريل ؟ صدقت يا رب العزة إذ تقول وقولك الحق : ﴿ **والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾[2] .

هذا المشهد القرآنى الرائع البديع ، يثبت حقيقة الوحى ثبوتاً لا مراء فيه ، ولا لبس ولا جدال ولا غموض ، وينفى أى ضلال ، أو غواية ، أو زيغ أو بهتان . عن المعصوم صاحب الرسالة الطاهرة ، ويثبت أنه قد رأى الأمين جبريل مرتين ، وهو على صورته الملائكية ، يقول فى المرة الأولى : (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى) .

فهذه أوصاف لأمين الوحى ، وسفير الأنبياء جبريل ، فهو شديد القوى ، شديد البأس ، ينتقم الله به من أعدائه ، فيزلزل الأرض تحت أقدامهم ، فتأخذهم الرجفة ، وإذا هم أعجاز نخل خاوية ، وجبريل ذو مرة أى ذو هيئة جميلة ، وذو قوة متينة ، استوى فى الأفق الأعلى بهيئته الملائكية الجليلة ، ولما استقر فى الآفاق ، دنا وقرب وتدلى هابطا ، حتى ازداد قربا من رسول الله ﷺ ، وصارت المسافة بينه وبين الحبيب المصطفى ﷺ أقل من مقدار قوسين ، وأوحى إلى رسول الله ﷺ ما أوحاه الله ، وأمر بتبليغه إياه . هذه كانت المرة الأولى من المرتين اللتين رأى الرسول ﷺ فيهما جبريل بهيئته الملائكية .

وكانت المرة الثانية : ليلة المعراج عند سدرة المنتهى ، وفيها يقول تعالى : ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾ أى : مرة أخرى ﴿ **عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى** ﴾ وذلك فى العالم العلوى ،

---

(١) سورة الروم الآيات : ١ ــ ٥

(٢) سورة سورة النجم الآيات : ١ ــ ١٨

والملأ الملائكى ﴿ **إذ يغشى السدرة ما يغشى** ﴾ من النور والبهاء والجلال ، كان الرسول ثابت البصر ، ملتزما الحدود التى رسمها الله له ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ إنها آيات الجلال والكمال والعظمة والقدرة الباهرة .

وهكذا أثبتت هذه الآيات الكريمة المشهدين اللذين ظهر فيهما كبير أمناء وحى السماء ، وسفير الأنبياء ، فى صورته الملائكية الجليلة .

لقاء آخر مع جبريل

ونرى من تمام الفائدة أن نسجل هذا المشهد الذى يتم فيه لقاء كريم بين جبريل الأمين ، والسيد الجليل محمد ﷺ وكان ذلك على مرأى ومسمع من عدد من صحابة رسول الله ﷺ وقد دخل جبريل فى صورة بشر ، جميل الهيئة ، بديع الرؤية ، والصحابة حول رسول الله ﷺ يحيطون به إحاطة الكواكب الدرية بصاحب الرسالة ، ومبعوث العناية الإلهية . وها نحن أولاء نستمع إلى الإمام مسلم رضى الله عنه وهو يروى لنا هذا الحديث الجليل القدر ، العظيم الأثر ، الذى وقف الأمين جبريل فيه موقف السائل ، ووقف سيدنا محمد ﷺ موقف الأستاذ المجيب :

عن عبد الله بن عمر قال : حدثنى أبى عمر بن الخطاب ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، قال يا محمد : أخبرنى عن الإسلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : صدقت ، قال : فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرنى عن الإيمان ، قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : صدقت . قال : فأخبرنى عن الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . قال : فأخبرنى عن أماراتها ؟ قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاة يتطاولون فى البنيان . قال : ثم انطلق فلبثت مليا ، ثم قال لى : يا عمر أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم .. قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى (كتاب الإيمان) باب : بين الإيمان والإسلام والاحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى .. جـ ١ صـ ٣٧ ، ٣٨

هذا نص صريح وحديث صحيح ، يدل دلالة قاطعة على أن الوحى حقيقة ، شهد بها الجمع الغفير الذى رأى الأمين جبريل رؤية لا يعتريها شك ، ولا يطرأ عليها لبس ، رأوه فى أى صورة ؟ فى صورة بشرية جميلة ، عبر عنها عملاق الإسلام عمر بن الخطاب يقول : « طلع علينا » وفى التعبير « بطلع » إشارة إلى أن ذلك الذى رأوه يشبه فى جماله الكواكب النيرة ، كالشمس والقمر ، ثم بعد ذلك وصفه بقوله : « شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر » فهذه المواصفات تدل على ثقة الرائى للمرئى رؤية واضحة ، وضوح الشمس فى كبد السماء ، إنها الحقائق الثابتة التى لا يجادل فيها إلا مكابر لم يصل نور الإيمان إلى قلبه ، ولم يشرح للإسلام صدره .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يوحى إليك النور فى ظلمائه ... متتابعا تجلى به الظلماء
والآى تترى والخوارق جمة ... جبريل رواح بها غداء
دين يشيد آية فى آية ... لبناته السورات والأضواء
الحق هو الأساس وكيف لا ... والله جل جلاله البناء

رؤيا الأنبياء وحى

من الأشياء التى يجب على المؤمن أن يعتقدها أن رؤيا الأنبياء فى منامهم وحى من الله إليهم ، ولقد ذكر القرآن العظيم نماذج من هذه الرؤيا فها هو خليل الرحمن إبراهيم يبشر بغلام حليم ، ثم يرى فى المنام أنه يذبحه بعد ما بلغ معه السعى ، فيصحبه لينفذ أمر الله فيه ، فلو لم تكن الرؤيا وحيا ما عزم إبراهيم على تنفيذ الأمر .

وهذا هو المشهد القرآنى ينطق بالجلال ويفيض بالرحمة .

﴿ وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين ، رب هب لى من الصالحين ، فبشرناه بغلام حليم ، فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم ﴾[1] .

نموذج آخر :

---

(١) سورة الصافات الآيات : ٩٩ ــ ١٠٧

ويحدثنا القرآن عن رؤيا رآها سيدنا محمد ﷺ ونفذها ، رأى فى المنام أنه يزور بيت الله الحرام معتمراً ، وأعلن ذلك فى صفوف أصحابه فخرجوا معه ولبوا نداءه ؟ وطافوا بالبيت الحرام ، وفى هذا يقول تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ . أ . هـ[1]
(من كتابنا : صور من عظمة الاسلام) .

بيان أن القرآن لا يمكن أن يكون إيحاء ذاتياً من نفس محمد ﷺ

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز : فى كتابه القيم (النبأ العظيم) .

إن صاحب هذا الخلق العظيم وصاحب تلك المواقف المتواضعة بإزاء القرآن ، ما كان ينبغى لأحد أن يمترى فى صدقه حينما أعلن عن نفسه أنه ليس هو واضع ذلك الكتاب ، وأن منزلته منه منزلة المتعلم المستفيد بل كان يجب أن نسجل من هذا الاعتراف البرىء دليلاً آخر على صراحته وتواضعه .

على أن الأمر أمامنا أوضح من أن يحتاج إلى سماع هذا الاعتراف القولى منه أو يتوقف على دراسة تلك الناحية الخلقية من تاريخه .

أليس يكفى للحكم ببراءة الإنسان من تحمل من الأعمال أن يقوم من طبيعته شاهد بعجزه المادى عن انتاج ذلك العمل ؟

فلينظر العاقل : هل كان هذا النبى الأمى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ أهلاً بمقتضى وسائله العلمية لأن يجيش نفسه بتلك المعانى القرآنية ؟

سيقول الجهلاء من الملحدين : نعم ، فقد كان له من ذكائه الفطرى وبصيرته النافذة ما يؤهله لإدراك الحق والباطل من الآراء ، والحسن والقبيح من الأخلاق ، والخير والشر من الأفعال ، حتى لو أن شيئا فى السماء تناله الفِراسة أو تلهمه الفطرة أو توحى به الفكرة لتناوله محمد بفطرته السليمة وعقله الكامل وتأملاته الصادقة .

(١) سورة سورة الفتح الآية : ٢٧

طبيعة المعانى القرآنية ليست مما يدرك بالذكاء وصدق الفراسة .

ونحن قد نؤمن بأكثر مما وصفوا من شمائله . ولكننا نسأل هل كان ما فى القرآن مما يستنبطه العقل والتفكير ، ومما يدركه الوجدان والشعور ؟ اللهم كلا ، ففى القرآن جانب كبير من المعانى النقلية البحتة التى لا مجال فيها للذكاء والاستنباط ، ولا سبيل إلى علمها لمن غاب عنها إلا بالدراسة والتلقى والعلم . ماذا يقولون فيما **قصه علينا القرآن من أنباء ما قد سبق ، ومافصله من تلك الأنباء على وجهه** الصحيح كما وقع ؟ أيقولون إن التاريخ يمكن وضعه أيضا بإعمال الفكر ودقة الفراسة ؟ أم يخرجون إلى المكابرة العظمى فيقولون : إن محمداً قد عاصر تلك الأمم الخالية ، وتنقل فيها **قروناً** فشهد هذه الوقائع مع أهلها شهادة عيان ، أو أنه ورث كتب الأولين وعكف على دراستها حتى أصبح من الراسخين فى علم دقائقها ؟ إنهم لا يسعهم أن يقولوا هذا ولا ذاك لأنهم معترفون مع العالم كله بأنه عليه السلام لم يكن من أولئك ولا من هؤلاء ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم** ﴾[1] سورة آل عمران ﴿ **وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾[2] سورة يوسف ﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر** ﴾[3] الآيات من سورة القصص ﴿ **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾[4] سورة العنكبوت ، ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** ﴾[5] سورة هود ، ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾[6] سورة يوسف . لا نقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير فى ديار عاد وثمود ، وطوفان نوح ، وأشباه ذلك لم يصل قط إلى الأميين ، فإن هذه النتف اليسيرة قلما تغرب عن أحد من أهل البدو أو الحضر ، لأنها مما توارثته الأجيال وسارت به الأفعال ، وإنما الشأن فى تلك التفاصيل الدقيقة ، والكنوز المدفونة فى بطون الكتب فذلك هو العلم النفيس الذى لم تنله يد الأميين و لم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين . وإنك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً فى القرآن . حتى الأرقام طبق الأرقام ، فترى مثلاً فى قصة نوح ــ عليه السلام ــ فى القرآن أنه لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(١) سورة آل عمران من الآية : ٤٤
(٢) سورة سورة يوسف من الآية : ١٠٢
(٣) سورة القصص من الآية : ٤٤
(٤) سورة سورة العنكبوت الآية : ٤٨
(٥) سورة هود من الآية : ٤٩
(٦) سورة يوسف الآية : ٣

وترى فى قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب إنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية ، وفى القرآن أنهم لبثوا فى كهفهم ﴿ **ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً** ﴾ وهذه السنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية . قاله الزجاج يعنى بتكميل الكسر . فانظر إلى هذا الحساب الدقيق فى أمة أمية لا تكتب ولا تحسب

كفاك بالعلم فى الأمى معجزة   فى الجاهلية والتأديب فى اليتم

نعم إنها لعجيبة حقاً : رجل أمى بين أظهر قوم أميين . يحضر مشاهدهم فى غير الباطل والفجور — ويعيش معيشتهم مشغولا برزق نفسه وزوجه وأولاده راعيا بالأجر ، أو تاجراً بالأجر ، لا صلة له بالعلم والعلماء ، يقضى فى هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره ، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها ، فيكلمنا بما لا عهد له به فى سالف حياته وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه من قبل ذلك ، ويبدى لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم فى دفاترهم وقماطرهم . أفى مثل هذا يقول الجاهلون إنه استوحى عقله واستلهم ضميره ؟ أىّ منطق يسوغ أن يكون هذا الطور الجديد العلمى نتيجة طبيعية لتلك الحياة الماضية الأمية ؟ إنه لا مناص فى قضية العقل من أن يكون هذا الانتقال الطفرى سر آخر يُلتمس خارجا عن حدود النفس ، وعن دائرة المعلومات القديمة ، وأن ملاحدة الجاهلية وهم أحلاف الأعراب فى البادية كانوا فى الجملة أصدق تعليلا لهذه الظاهرة ، وأقرب فهما لهذا السر من ملاحدة هذا العصر . إذ لم يقولوا كما قال هؤلاء : إنه استقى هذه الأخبار من وحى نفسه ، بل قالوا : إنه لابد أن تكون قد أمليت عليه منذ يومئذ علوم جديدة ، فدرس منها ما لم يكن قد درس ، وتعلم ما لم يكن يعلم . ﴿ **وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست** ﴾[1] سورة الأنعام ﴿ **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا** ﴾[2] سورة الفرقان .

ولقد صدقوا ، فإنه درسها ، ولكن على أستاذه الروح الأمين . واكتتبها ،ولكن من صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة كرام بررة ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون** ﴾[3] سورة يونس .

ذلك شأن ما فى القرآن من الأنباء التاريخية ، لا جدال فى أن سبيلها النقل لا العقل ، وأنها تجىء من خارج النفس لا من داخلها .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٠٥
(٢) سورة الفرقان الآية : ٥
(٣) سورة يونس الآية : ١٦

فأما سائر العلوم القرآنية فقد يقال : إنها من نوع ما يدرك بالعقل ، فيمكن أن ينالها الذكى بالفِرَاسَةِ ، أو بالرؤية . وهذا كلام قد يلوح حقاً فى بادىء الأمر ، ولكنه لا يلبث أن ينهار أمام الاختيار .

ذلك أن العقول البشرية لها فى إدراك الأشياء طريق معين تسلكه ، وحدّ محدود تقف عنده ، ولا تتجاوزه ، فكل شىء لم يقع تحت الحس الظاهر أو الباطن مباشرة ولم يكن مركوزاً فى غريزة النفس إنما يكون إدراك العقول إياه عن طريق مقدمات معلومة توصل إلى ذلك المجهول ، إما بسرعة كما فى الحدْس وإما ببطء كما فى الاستدلال والاستنباط والمقايسة ، وكل ما لم تمهد له هذه الوسائل والمقدمات ، لا يمكن أن تناله يد العاقل بحال ، وإنما سبيله الإلهام أو النقل عمن جاءه ذلك الإلهام .

فهل ما فى القرآن من المعانى غير التاريخية كانت حاضرة الوسائل والمقدمات فى نظر العقل ؟ ذلك ما سيأتيك نبؤه بعد حين . ولكننا نعجِّل لك الآن بمثالين من تلك المعانى نكتفى بذكرهما هنا عن إعادتهما بعد :

« أحدهما » : قسم العقائد الدينية « والثانى » قسم النبوءات الغيبية

الحقائق الدينية الغيبية لا سبيل للعقل إليها

فأما أمر الدين فإن غاية ما يجتنيه العقل من عمرات بحثه المستقل فيه ، بعد معاونة الفطرة السليمة له ، هو أن يعلم أن فوق هذا العالم إلٰهاً قاهراً دبره ، وأنه لم يخلقه باطلا ، بل وضعه على مقتضى الحكمة والعدالة . فلابد أن يعيده كرة أخرى لينال كل عامل جزاء عمله إن خيراً وإن شراً . هذا هو كل ما يناله العقل الكامل من أمر الدين ، ولكن القرآن لا يقف فى جانبه عند هذه المرحلة بل نراه يشرح لنا حدود الإيمان مفصلة ، ويصف لنا بدء الخلق ونهايته ، ويصف الجنة وأنواع نعيمها ، والنار وألوان عذابها ، كأنهما رأى عين ،حتى أنه ليحصى عدة الأبواب ، وعدة الملائكة الموكلة بتلك الأبواب ، فعلى أى نظرية عقلية بينت تلك المعلومات الحسابية ، وتلك الأوصاف التحديدية ؟ إن ذلك ما لا يوحى به العقل البتة ، بل هو إما باطل فيكون من وحى الخيال والتخمين ، وإما حق ، فلا ينال إلا بالتعليم والتلقين ، لكنه الحق الذى شهدت به الكتب واستيقنه أهلها ﴿ **وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً** ﴾[1] ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾[2]

---

(١) سورة المدثر من الآية : ٣١

(٢) سورة الشورى من الآية : ٥٢

﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ﴾(١) ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾(٢)

أنباء المستقبل لا سبيل فيها لليقين إلا بالوحى الصادق

وأما النبوءات الغيبية :

فهل تعرف كيف يحكم فيها ذو العقل الكامل ؟ إنه يتخذ من تجاربه الماضية مصباحاً يكشف على ضوئه بضع خطوات من مجرى الحوادث المقبلة ، جاعلاً الشاهد من هذه مقياساً للغائب من تلك ، ثم يصدر فيها حكمه محاطا بكل تحفظ وحذر ، قائلاً : « ذلك ما تقضى به طبيعة الحوادث لو سارت الأمور على طبيعتها ، ولايقع ما ليس فى الحسبان » .

أما أن يبت الحكم بتاً ويحدده تحديداً حتى فيما لا تدل عليه مقدمة من المقدمات العلمية ولا تلوح منه أمارة من الأمارات الظنية العادية ، فذلك ما لا يفعله إلا أحد رجلين : إما رجل مجازف لا يبالى أن يقول الناس فيه صدق أو كذب ، وذلك هو رأى جهلاء المتنبئين من العرّافين والمنجّمين ، وإما رجل اتخذ عند الله عهداً فلن يُخلف الله عهده ، وتلك هى سنة الأنبياء والمرسلين ، ولا ثالث لهما إلا رجلاً روى أخباره عن واحد منهما . فأى الرجلين تراه فى صاحب هذا القرآن حينما يجىء على لسانه الخبر الجازم بما سيقع بعد عام وما سيقع فى أعوام ، وما سيكون أبد الدهر ، وما لن يكون أبد الدهر ؟ ذلك وهو لم يتعاط علم المعرفة والتنجيم ، ولا كانت أخلاقه كأخلاقهم تمثل الدعوى والتقحم ، ولا كانت أخباره كأخبارهم خليطا من الصدق والكذب ، والصواب والخطأ ، بل كان مع براءته من علم الغيب وقعوده عن طلبه وتكلفه ، يجيئه عفواً ما تعجز صروف الدهر وتقلباته فى الأحقاب المتطاولة أن تنقص حرفاً واحداً مما ينبىء به ﴿ وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾(٣)

---

(١) سورة ص الآية : ٦٩

(٢) سورة يونس الآية : ٣٧

(٣) سورة فصلت الآية : ٤١ والآية : ٤٢

أمثلة من النبوءة القرآنية

ولنسرد لك ها هنا بعض النبوءات القرآنية مع بيان شيء من ملابستها التاريخية ، لترى هل كانت مقدماتها القريبة أو البعيدة حاضرة فتكون تلك النبوءات من جنس ما توحى به الفراسة والألمعية ؟ وسنحصر الكلام فى ثلاثة أنواع :

١ ـ ما يتعلق بمستقبل الإسلام فى نفسه أو فى شخص كتابه ونبيه .

٢ ، ٣ ـ ما يتعلق بمستقبل الحزبين : حزب الله وحزب الشيطان .

(**مثال النوع الأول**) ما جاء فى بيان أن هذا الدين قد كتب الله له البقاء والخلود ، وأن هذا القرآن قد ضمن الله حفظه وصيانته .

﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾[١] **﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴾**[٢] **﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾**[٣] تعلم متى وأن صدرت هذه البشارات المؤكدة ، بل العهود الوثيقة ؟ .

إنها آيات مكية من سور مكية ، وأنت قد تعرف ما أمر الدعوة المحمدية فى مكة ثلاث عشرة سنة كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه ، وصد لغزوهم عن الإصغاء له ، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التى آمنت به ، ثم مقاطعة له ولعشيرته ، ومحاصرته مدة غير يسيرة فى شعب من شعاب مكة ، ثم مؤامرات سرية ، أو علنية على قتله أو نفيه .

فهل للمرء أن يلمح فى ثنايا هذا الليل الحالك الذى طوله ثلاث عشرة سنة، شعاعا ولو ضئيلاً من الرجاء أن يتنفس صبحه عن الإذن لهؤلاء المظلومين ، برفع صوتهم وإعلان دعوتهم ؟ **ولو شاء المصلح** تلك البارقة من الأمل فى جوانب نفسه من طبيعة دعوته ، لا فى أفق الحوادث ، **فهل يتفق له فى مثل** هذه الظروف أن يربو فى نفسه الأمل حتى يصير حكماً قاطعاً ؟ وهبه امتلأ رجاء بظهور دعوته فى

(١) سورة الرعد الآية : ١٧

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٢٤

(٣) سورة الحجر الآية : ٩

حياته مادام يتعهدها بنفسه ، فمن يتكفل له بعد موته ببقاء هذه الدعوة وحمايتها وسط أمواج المستقبل العاتية ؟ وكيف يجيئه اليقين فى ذلك وهو يعلم من عبر الزمان ما يفت فى عضد هذا اليقين ؟ فكم من مصلح صرخ بصيحات الإصلاح فما لبثت أصواته أن ذهبت أدراج الرياح . وكم من مدينة قامت فى التاريخ ثم عفت ودرست آثارها ، وكم من نبى قتل . وكم من كتاب فقد ، أو انتُقص أو بُدل .

وهل كان محمد ﷺ ممن تستخفه الآمال فيجرى مع الخيال ؟ إنه ما كان قبل نبوته يطمع فى أن يكون نبيا يوحى إليه ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك** ﴾[(١)] . ولا كان بعد نبوته يضمن لنفسه أن يبقى هذا الوحى محفوظاً لديه ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا إلا رحمة من ربك. إن فضله كان عليك كبيراً** ﴾[(٢)] . فلابد إذاً من كفيل بهذا الحفظ من خارج نفسه . ومن ذا الذى يملك هذا الضمان على الدهر المنقلب المملوء بالمفاجآت ؟ إلا رب الدهر الذى بيده زمام الحوادث كلها ، والذى قدر مبدأها ومنتهاها ، وأحاط علماً بمجراها ومرساها فلولا فضل الله ورحمته الموعود بهما فى الآية الآنفة لما استطاع القرآن أن يقاوم تلك الحروب العنيفة التى أقيمت ولا تزال تقام عليه بين آن وآن .

سل التاريخ ؟

كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام ، وتسلط الفجار على المسلمين ، فأثخنوا فيهم القتل ، وأكرهوا أمماً على الكفر ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا المساجد وصنعوا ما كان يكفى القليل منه لضياع هذا القرآن كلاً أو بعضاً ، كما فُعل بالكتب قبله ، لولا أن يد العناية تحرسه فبقى فى وسط هذه المعامع رافعاً راياته وأعلامه . حافظاً آياته وأحكامه . بل اسأل صحف الأخبار اليومية كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق فى كل عام لمحو هذا القرآن ، وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان ، والخداع والإغراء ، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون** ﴾[(٣)] .

ذلك بأن الذى يمسكه أن يزول هو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا .

ذلك بأن الله ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾[(٤)] .

(١) سورة القصص من الآية : ٨٦
(٢) سورة الإسراء الآيتان : ٨٦ ، ٨٧
(٣) سورة سورة الأنفال من الآية : ٣٦
(٤) سورة سورة الصف الآية : ٩

والله بالغ أمره ، ومتم نوره ، فظهر وسيبقى ظاهراً لا يضره من خالفه حتى يأتى أمر الله .

(**مثال آخر**) ما جاء فى التحدى بهذا القرآن وتعجيز العالم كله عن الإتيان بمثله . **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾**[(١)] . **﴿ فإن لم تفعلوا ﴾** سورة البقرة . فانظر هذا النفى المؤكد ، بل الحكم المؤبد هل يستطيع عربى يدرى ما يقول أن يصدر هذا الحكم وهو يعلم أن مجال المساجلات بين العرب مفتوح على مصراعيه ؟ وأن الناقد المتأخر متى أعمل الروية فى تعقب قول القائل المتقدم لا يُعييه أن يجد فيه فائتا ليستدرك ؟ أو ناقصا ليكمل ؟ أو كاملاً ليزداد كمالاً ؟ ألم يكن يخشى بهذا التحدى أن يثير حميتهم الأدبية فيهبوا لمناقشته وهم جميع حذرون ؟ وماذا عساه يصنع لو أن جماعة من بلغائهم تعاقدوا على أن يضع أحدهم صيغة المعارضة ثم يتناولها سائرهم بالإصلاح والتهذيب ، كما كانوا يصنعون فى نقد الشعر فيكمل ثانيهم ما نقصه أولهم ، وهكذا ، حتى يخرجوا كلاماً له نفسه أن يصدر هذا الحكم على أهل عصره ، فكيف يصدره على الأجيال القادمة إلى يوم القيامة ، بل على الإنس والجن ؟ إن هذه مغامرة لا يتقدم إليها إلا رجل يعرف قدر نفسه إلا وهو مالىء يديه من تصاريف القضاء ، وخبر السماء ، وهكذا رماها بين أظهر العالم ، فكانت هى القضاء المبرم سلطٌ على العقول والأفواه ، فلم يهم بمعارضته إلا باء بالعجز الواضح ، والفشل الفاضح ، على مر العصور والدهور .

(**ومثال ثالث**)

تلك الآية التى يضمن الله بها لنبيه حماية شخصه والأمن على حياته حتى يبلغ رسالات ربه : **﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾**[(٢)] إن هذا وأيم الله ضمان لا يملكه بشر ، ولو كان ملكاً محجباً تسير الحفظة من بين يديه ومن خلفه . فكم رأينا ورأى الناس من الملوك والعظماء من اختطفتهم يد الغيلة وهم فى مواكبهم تحيط بهم الجنود والأعوان ، ولكن انظر مبلغ ثقة الرسول بهذا الوعد الحق . روى الترمذى والحاكم عن عائشة ، وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال : « كان النبى يُحرَس بالليل . فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله »[(٣)].

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٨

(٢) سورة المائدة من الآية : ٦٧

(٣) أخرجه الترمذى فى (كتاب أبواب التفسير) تفسير سورة المائدة . وانظر تحفة الأحوذى : ٨ / ٤١٠ ، ٤١١ .
وأخرجه الحاكم فى المستدرك : فى (كتاب التفسير) ٢٠ / ٣١٣ وانظر تفسير الطبرى الأثر ١٢٢٧٤ : ١٠ / ٤٦٩
وانظر الحديث الذى أخرجه الطبرانى وابن مروان عن أبى سعيد فى الدر المنثور فى تفسير المأثور ــ تفسير سورة المائدة جـ ٣ صـ ١١٨

وحقاً لقد عصمه الله فى مواطن كثيرة ، كان خطر الموت فيها أقرب إليه من شراك نعله ، ولم يكن له فيها عاصم إلا الله وحده .

من ذلك ما رواه ابن حبان فى صحيحه عن أبى هريرة ، ورواه مسلم فى صحيحه عن جابر قال : « كنا إذا أتينا فى سفرنا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله ﷺ فلما كنا بذات الرّقاع نزل نبى الله تحت شجرة وعلّق سيفه فيها . فجاء رجل من المشركين فأخذ السيف فاخترطه وقال للنبى ﷺ : أتخافنى ؟ قال : لا ، قال : فمن يمنعك منى ؟ قال : الله يمنعنى منك . ضع السيف « فوضعه » . وحسبك أن تعلم أن هذا الأمن كان فى الغزوة التى شرعت فيها صلاة الخوف[١] .

ومن أعظم الوقائع تصديقاً لهذا النبأ الحق ذلك الموقف المدهش الذى وقفه النبى فى غزوة حنين ، منفردا بين الأعداء ، وقد انكشف المسلمون وولوا مدبرين ، فطفق هو يركض بغلته إلى جهة العدو ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بلجامها يكفها إرادة ألا تسرع فأقبل المشركون إلى رسول الله ﷺ فلما غشوه لم يفر ولم ينكص بل نزل عن بغلته كأنما يمكنهم من نفسه ، وجعل يقول :« أنا النبى لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » كأنما يتحداهم ويدلهم على مكانه ، فوالله ما نالوا منه نيلاً ، بل أيده الله بجنده وكف عنه أيديهم بيده . الحديث رواه الشيخان عن البراء بن عازب ورواه مسلم عن العباس وسلمة بن الأكوع ، ورواه أحمد وأصحاب السنن عن غيرهم هم أيضاً[٢] .

وهكذا أمتع الله به أمته ، فلم يقبضه إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى أنزل عليه قوله : **﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾**[٣] .

(وإليك مثالاً من النوع الثانى) .

كان القرآن فى مكة يقص على المسلمين من أنباء الرسل ما يثبت فؤادهم ويعدهم الأمن والنصر الذى كان لمن قبلهم **﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا هم**

---

(١) انظر مسلم فى صحيحه جـ ٤ صـ ٧٨٦ رقم ١٣ / ٨٤٣ فضائل الرسول ﷺ وأخرجه فى الدر المنثور فى تفسير المأثور تفسير سورة المائدة جـ ٣ صـ ١١٩ وقال : وأخرجه ابن حبان وابن مروان عن أبى هريرة وذكر الحديث .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (فى كتاب الجهاد والسير) باب : فى غزوة حنين جـ ٣ صـ ١٣٩٨ ــ ١٤٠٢ رقم ٧٨ / ١٧٧٦ وأخرجه البخارى فى (غزوات النبى ﷺ) باب : قول الله تعالى : ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم جـ ٥ صـ ١٩٥

(٤) سورة سورة المائدة من الآية : ٣

الغالبون ﴾(١) . ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾(٢)

فلما هاجروا إلى المدينة فراراً بدينهم من الفتنة ظنوا أنهم قد وجدوا مأمنهم فى مهاجرهم ، ولكنهم ما لبثوا أن هاجمتهم الحروب المسلحة من كل جانب ، فانتقلوا من خوف إلى خوف أشد ، وأصبحت كل أمنيتهم أن يجىء يوم يضعون فيه أسلحتهم ، وفى هذه الأوقات العصيبة ينبئهم القرآن بما سيكون لهم من الخلافة والملك ، علاوة على الأمن والطمأنينة ، فما هذا ؟ أأحلام وأمانى ؟ لا ، بل وعد مؤكد بالقسم ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا** ﴾(٣) .

روى الحاكم وصححه عن أبى بن كعب قال : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحد ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه فقالوا : أترون أنا نعيش حيث نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزلت الآية(٤) .

فانظر كيف جاء تأويلها على أوسع معانيها فى عصر الصحابة أنفسهم الذين وقع لهم خطاب المشافهة فى قوله : ﴿ **منكم** ﴾ فبُدلوا من بعد خوفهم أمنا لا خوف فيه واستُخلفوا فى أقطار الأرض فورثوا مشارقها ومغاربها .

وتأمل قوله : فى هذه الآية ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ وقوله : فى الآية الأخرى ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر** ﴾(٥) تجد فيها نبأ آخر عن سر ما يبتلى به المؤمنون أحيانا من انتقاص أرضهم وتسلط أعدائهم عليهم ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم** ﴾(٦)

﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾(٧) .

---

(١) سورة الصافات الآيات : ١٧١ ـــ ١٧٣ .
(٢) سورة غافر الآية : ٥١
(٣) سورة النور من الآية : ٥٥
(٤) الحديث أخرجه الدر المنثور فى التفسير المأثور ـــ تفسير سورة النور ج ٧ صـ ١١٦ وقال : وأخرجه ابن المنذر والطبرانى فى الأوسط والحاكم وصححه وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل والضياء فى المختارة .
(٥) سورة الحج من الآية : ٤٠ ، ٤١
(٦) سورة آل عمران الآية : ١٦٥
(٧) سورة الأنفال من الآية : ٥٣

ومثالاً آخر

مُنع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية ، واشترطت عليهم قريش إذا جاءوها فى العام المقبل أن يدخلوها عُزلاً من كل سلاح إلا السيوف فى القرب . فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود ، وقطع الأرحام ، وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غداً ؟ على أنهم لو صدقوا فى تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ، ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ ؟ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف فى القراب ، وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوا بأيديهم ورماحهم ، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ، ويناهم فى هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة ، الدخول والأمن ، وقضاء الشعيرة ، ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون** ﴾[1] . فدخلوها فى عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم وقضوا مناسكهم .. الحديث أخرجه الشيخان .[2]

(ومثالاً ثالثاً)

كان المشركون يجادلون المسلمين فى مكة قبل الهجرة يقولون لهم : إن الروم يشهدون أنهم أهل كتاب ، وقد غلبتهم المجوس ، وأنتم تزعمون أنكم ستغلبوننا بالكتاب الذى أنزل عليكم ، فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآية : ﴿ **ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين** ﴾ أول سورة الروم .

لقد كان الإخبار بهذا النصر وبأنه كائن فى وقت معين إخباراً بأمرين كل منهما خارج عن متناول الظنون . ذلك أن دولة الروم كانت قد بلغت من الضعف حداً يكفى من دلائله أنها غزيت فى عُقر دارها وهزمت فى بلادها كما قال تعالى : ﴿ **فى أدنى الأرض** ﴾ ، فلم يكن أحد يظن أنها تقوم بعد ذلك قائمة ، فضلا عن أن يحدد الوقت الذى سيكون لها فيه النصر . ولذلك كذب به المشركون وتراهنوا على تكذيبه على أن القرآن لم يكتف بهذين الوعدين ، بل عززهما بثالث ، حيث يقول : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله** ﴾ إشارة إلى أن اليوم الذى يكونه النصر هناك للروم على الفرس سيقع فيه هاهنا نصر للمسلمين على المشركين وإن كان كل واحد من النصرين فى حد ذاته مستبعداً عند الناس

(١) سورة الفتح من الآية : ٢٧

(٢) الحديث أخرجه البخارى (فى كتاب الحج) باب : الحلق والتقصير ٢/٢١٣ ومسلم باب : تفضيل الحلق على التقصير ، وجواز التقصير : ج ٤ / ٨٠ ، ٨١

أشد الاستبعاد ، فكيف الظن بوقوعهما مقترنين فى يوم ؟ لذلك أكد أعظم التأكيد بقوله : ﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .[١]

ولقد صدق الله وعده ، فتمت للروم الغلبة على الفرس ، باجماع المؤرخين فى أقل من تسع سنين وكان يوم نصرها هو اليوم الذى وقع فيه النصر للمسلمين على المشركين فى غزوة بدر ، كما رواه الترمذى عن أبى سعيد ، ورواه الطبرانى عن ابن عباس وغيره .[٢]

وهذه أمثلة من النوع الثالث (ما يتعلق بحزب الله وحزب الشيطان) .

استعصى أهل مكة على النبى ﷺ فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف . فانظر ما قاله القرآن فى جوانب هذا الدعاء ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين ، يغشى الناس هذا عذاب أليم** ﴾[٣]

فماذا جرى ؟ أصابهم القحط حتى أكلوا العظام وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد . رواه البخارى عن ابن مسعود[٤] ثم انظر قوله : بعد ذلك ﴿ **إنا كاشفوا العذاب قليلاً ، إنكم عائدون يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾[٥] تر فيها ثلاث نبوءات أخرى : كشف البؤس عنهم ، ثم عودتهم إلى مكرهم الشىء ، ثم الإنتقام منهم بعد ذلك . وقد كان ذلك كله كما بينه الحديث الصحيح المذكور ، فإنهم لما جاءوا إلى رسول الله ﷺ يستسقون وتضرعوا إلى الله ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾[٦] سقاهم الله فأخصبوا ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عتوهم واستكبارهم ، فبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم بدر ، حيث قتل من صناديدهم سبعون ، وأسر سبعون .

وقد تكرر فى القرآن المكى إنباؤهم بهذا الانتقام على صور شتى : فتارة يأتى مجملاً كما فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد**

---

(١) سورة الروم الآية : ٦

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه وقال صحيح غريب : انظر تحفة الأحوذى تفسير سورة الروم الحديث ٣٢٤٥ : جـ ٩ صـ ٥١ ، ٥٢

(٣) سورة الدخان الآيتان : ١٠ ، ١١

(٤) أخرجه البخارى فى تفسير سورة الدخان جـ ٦ صـ ١٦٤ فى قوله : يغشى الناس هذا عذاب أليم .

(٥) سورة **الدخان** من الآية : ١٥ — ١٦

(٦) سورة **الدخان** الآية : ١٢

الله ﴾[١] سورة الرعد . وقوله : ﴿ **فتول عنهم حتى حين ، وأبصرهم ، فسوف يبصرون** ﴾[٢]

وتارة يعين نوعا من العذاب بأنه الهزيمة الحربية كما فى قوله تعالى : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾[٣] . وهذا كما ترى من عجيب الأنباء فى مكة . حيث لا مجال لأصل فكرة الحرب والتقاء الجموع ، فضلا عن توقع قرارها وهزيمتها ، حتى أن عمر — رضى الله عنه — لما نزلت هذه الآية جعل يقول : « أى جمع هذا ؟ » قال : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يقولها . رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه . والجزء الأخير فى الصحيحين[٤] وتارة ينص على حوادث جزئية محددة منه — وهذا أعجب وأغرب — كما فى قوله تعالى : فى شأن الرجل الزنيم (والمشهور بأنه هو الوليد بن المغيرة) الذى كان يقول فى القرآن إنه أساطير الأولين ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾[٥] . فأصيب بالسيف فى أنفه يوم بدر ، وكان ذلك علامة له يعيَّر بها ما عاش . رواه الطبرى وغيره[٦] وتطير هذه الأنباء فى كفار قريش ما ورد فى كفار اليهود . انظر كيف يقول فيهم : ﴿ **لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾[٧] . وقد فعل ، ثم يقول : ﴿ **ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس** ﴾[٨] ويقول : ﴿ **وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب** ﴾[٩]

فيا عجبا لهذه الآيات ! هل كانت مؤلفة من حروف وكلمات ؟ أم كانت أغلالاً وضعت فى أعناقهم إلى الأبد ، وأصفاداً شدت بها أيديهم فلا فكاك ؟ ألا تراهم منذ صدرت عليهم هذه الأحكام أشتاتاً فى كل واد ، أذلاء فى كل ناد ، لم تقم لهم فى عصر من العصور دولة ، ولم تجمعهم قط بلدة . وهم اليوم على الرغم من تضخم ثروتهم المالية إلى ما يقرب من نصف الثروة العالمية لا يزالون مشردين ممزقين عاجزين عن أن يقيموا لأنفسهم دويلة كأصغر الدويلات ، بل تراهم فى بلاد الغرب المسيحية يسامون أنواع الخسف والنكال ، ثم تكون عاقبتهم الجلاء عنها مطرودين . وبلاد الإسلام التى هى أرحب أرض الله صدراً — إنما تقبلهم رعية محكومين لا سادة حاكمين .

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة الرعد

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٧٤ ، ١٧٥

(٣) سورة القمر الآية : ٤٥

(٤) انظر تفسير ابن كثير — تفسير سورة القمر

(٥) سورة ن الآية : ١٦ ج ٧ صـ ٤٥٧ وقال : رواه ابن أبى حاتم

(٦) انظر تفسير الطبرى : ج ٢٩ صـ ١٨ ، ١٩

(٧) سورة ال عمران الاية : ١١١

(٨) سورة آل عمران من الآية : ١١٢

(٩) سورة الأعراف الآية : ١٦٧

وهل أتاك آخر أخبارهم ؟

لقد زينت الآن لهم أحلامهم أن يتخذوا من « الأرض المقدسة » وطناً قومياً تأوى إليه جالياتهم من أقطار الأرض ، حتى إذا ما تألف منهم هنالك شعب ملتئم الشمل وطال عليهم الأمد فلم يزعجهم أحد ، سعوا إلى دفع هذا العار التاريخى عنهم بإعادة ملكهم القديم فى تلك البلاد ، وعلى برق هذا الأمل أخذ أفواج منهم يهاجرون إليها ، وينزلون بها خفافاً أو أثقالاً — فهل استطاعوا أن يتقدموا هذه الخطوة الأولى — أو لعلها الأولى والأخيرة — مستندين إلى قوتهم الذاتية ؟ كلا . ولكن مستندين إلى (حبل من الناس !!) فماذا تقول ؟ قل صدق الله ، ومن أصدق من الله حديثا .

أما ظنهم الذى يظنون وهو أنهم بمزاحمتهم للسكان فى أرضهم وديارهم يمهدون لما يحملون به من مزاحمتهم بعد فى ملكهم وسلطانهم ، فذلك ما دونه خرط القتاد . يريدون أن يبدلوا كلام الله ، ولا مبدل لكلماته ﴿ **أم لهم نصيب من الملك ، فإذاً لا يؤتون الناس نقيرا** ﴾[١] . والله من ورائهم محيط .

انظر إلى عجيب شأن النبوءات القرآنية كيف تقتحم حجب المستقبل قريباً وبعيداً ، وتتحكم فى طبيعة الحوادث توقيتاً وتأبيداً ، وكيف يكون الدهر مصداقاً لها فيما قل وكثر ، وفيما قرب وبعد ؟

ثم اسأل نفسك بعد ذلك « أترين هذا الرجل الأمى (ﷺ) جاء بهذا الحديث من عند نفسه ؟ » .

تسمع منها جواب البديهة الذى لا تردد فيه « إنه لابد أن يكون قد استقى هذه الأنباء من مصدر علمى وثيق واعتمد فيها على اطلاع واسع ودرس دقيق ، ولا يمكن أن تكون تلك الأنباء كلها وليدة عقله وثمرة ذكائه وعبقريته ، وإلا فأين هذا الذكى أو العبقرى الذى أعطاه الدهر عهداً بأن يكون عاصماً لظنونه كلها من الخطأ فى كشف وقائع الماضى مهما قدُم وأنباء المستقبل مهما بعد ؟ ..

﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً** ﴾[٢] .

---

(١) سورة النساء الآية : ٥٣

(٢) سورة النساء من الآية : ٨٢

بيان أن محمداً لابد أن يكون أخذ القرآن عن معلم

لا مناص إذاً للباحث عن مصدر القرآن من توسيع دائرة بحثه فإذ لم يظفر بمطلبه عند صاحب القرآن فى ناحية عقله وفراسته ، وجب أن يلتمسه — وأن يظفر به حتماً — فى ناحية تعليمه ودراسته ، لأن المتكلم بكلام ما لا يعدو أن يكون قائلاً له أو ناقلاً . ولا ثالث لهما .

نعم إن صاحب القرآن لم يكن ممن يرجع بنفسه إلى كتب العلم ودواوينه ، لأنه باعتراف الخصوم كما ولد أمياً نشأ أمياً وعاش أمياً فما كان يوماً من الأيام يتلو كتاباً فى قرطاس ولا يخطه بيمينه ، فلابد له من معلم يكون قد وقفه على هذه المعانى لا بطريق الكتابة والتدوين ، بل بطريق الإملاء والتلقين هذا هو حكم المنطق .

ستقول : فمن هو ذلك المعلم ؟

نقول : هذا هو الشطر الثانى من مسألة القرآن .

وأنت إذا تأملت فيما سقناه لك من البراهين على الشطر الأول وجدت بجانب كل منها برهاناً آخر على هذا الشرط الثانى ، وعرفت من هو ذلك المعلم غير أننا نحب أن نزيدك به معرفة حتى تقول معنا فيه ما هذا بشراً ، إن هذا إلا ملك كريم ، مبلغ عن رب العالمين .

أما أن محمداً ﷺ لم يكن له معلم من قومه الأميين فذلك ما لا شبهة فيه لأحد ، ولا نحسب أحداً فى حاجة إلى الاستدلال عليه بأكثر من اسم « الأمية » الذى يشهد عليهم بأنهم كانوا خرجوا من بطون أمهاتهم لا يعلمون من أمر الدين شيئاً ، وكذلك اسم « الجاهلية » الذى كان أخص الألقاب بعصر العرب قبل الإسلام . فهؤلاء الذين فقدوا أساس هذا العلم فى أنفسهم حتى اشتق لهم من الجهل اسم ، كيف يحملون وسام هذا التعليم فيه لغيرهم ، بل التعليم لمعلمهم الذى وسمهم بالجهل غير مرة فى كتابه ، وسرد جهالاتهم فى غير سورة من هذا الكتاب ، حتى قيل : إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما بعد المائة من سورة الأنعام .

وأما أنه لم يكن له معلم من غيرهم فحسب الباحث فيه أن نحيله على التاريخ وندعه يقلب صفحات القديم منه والحديث والإسلامى منه والعالمى ، ثم نسأله هل قرأ فيه سطراً واحداً يقول : إن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب لقى قبل إعلان نبوته فلانا من العلماء فجلس إليه يستمع من حديثه عن علوم الدين من قصصه عن الأولين والآخرين .

ليس علينا نحن أن نقيم برهاناً أكثر من هذا التحدى لإثبات أن ذلك لم يكن ، وإنما على الذين يزعمون غير ذلك أن يثبتوا أن ذلك قد كان ، فإن كان عندهم علم فليخرجوه إن كانوا صادقين .

لا نقول أنه عليه السلام لم يلق ولم ير بعينه أحداً من علماء هذا الشأن لا قبل دعوى النبوة ولا بعدها . فنحن قد نعرف أنه رأى فى طفولته راهباً اسمه بحيرا فى قُرى بُصَرى بالشام ، وأنه رأى فى مكة نفسها عالما اسمه ورقة بن نوفل ، وكان هذا على أثر مجيء الوحى العلنى ، وقبل إعلان نبوته بثلاثين شهراً . كما نعرف أنه لقى بعد إعلان نبوته كثيراً من علماء اليهود والنصارى فى المدينة ، ولكننا ندعى دعوى محدودة ، نقول : إنه لم يتلق عن أحد من هؤلاء العلماء لا قبل ولا بعد ، وإنه قبل نبوته لم يسمع منهم شيئا من هذه الأحاديث البتة .

أما الذين لقوه بعد النبوة فقد سمع منهم وسمعوا منه ، ولكنهم كانوا له سائلين وعنه آخذين ، وكان هو لهم معلماً وواعظاً ومنذراً ومبشراً . وأما الذين رآهم قبل ، فإن أمر لقائه إياهم لم يكن سراً مستوراً ، بل كان معه فى كل مرة شاهد : فكان عمه أبو طالب رفيقاً له حين رأى راهب الشام ، وكانت زوجه خديجة رفيقة له حين رأى ورقة ، فماذا سمعه هذا الرفيقان من علوم الأستاذين ؟ هلا حدثنا التاريخ بخبر ما جرى ؟ وما له لا يحدثنا هذا الحديث العجب الذى جمع فى تلك اللحظة القصيرة علوم القرآن وتفاصيل أخباره فيما بين بداية العالم ونهايته !! ولماذا لم يتخذ خصومه من هذه الحجة الواضحة سلاحاً قاطعاً لحجته مع شدة سعيهم فى هدم دعواه ، والتجائهم لأوهن الشبهات فى تكذيبه ، وقد كان هذا السلاح أقرب إليهم ، وكان وحده أمضى فى إبطال أمره من كل ما لجئوا إليه من مهاترة ومكابرة .

إن سكوت التاريخ عن ذلك كله حجة كافية على عدم وجوده ، لأنه ليس من الهينات التى يتغاضى عنها الناس الواقفون لهذا الأمر بالمرصاد . على أن التاريخ لم يسكت ، بل نبأنا بما كان من أمر الرجلين : فقد حدثنا عن راهب الشام أنه لما شاهد هذا الغلام رأى فيه من سيما النبوة الأخيرة ، وحليتها فى الكتب الماضية ما أنطقه بتبشير عمه قائلاً : إن هذا الغلام سيكون له شأن عظيم . وحدثنا عن ورقة أنه لما سمع ما قصه عليه النبى من صفة الوحى وجد فيها من خصائص الناموس الذى نزل على موسى ما جعله يعترف بنبوته ، ويتمنى أن يعيش حتى يكون من أنصاره .

على أننا نعود فنسأل : هل كان من العلماء يومئذ من يصلح أن تكون له على محمد وقرآنه تلك اليد العلمية ؟

يقول الملحدون أنفسهم : « إن القرآن هو الأثر التاريخى الوحيد الذى يمثل روح عصره أصدق تمثيل » وهذه كلمة حق فى حدود معناها الصحيح فنحن نأخذهم باعترافهم وندعوهم إلى استجلاء تلك الصورة التى حفظها القرآن فى مرآته الناصعة مثالاً واضحاً لعلماء عصره . فليقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران وما فيهما من المحاورة لعلماء اليهود والنصارى فى العقائد والتواريخ والأحكام ، أو ليقرءوا ما شاءوا من السور المدنية أو المكية التى فيها ذكر أهل الكتاب ، ولينظروا بأى لسان يتكلم عنهم القرآن ، وكيف يصور لهم علومهم بأنها الجهالات ، وعقائدهم بأنها الضلالات والخرافات ، وأعمالهم بأنها الجرائم والمنكرات .

انظر إلى هذه الآيات من سورتى النحل والنمل المكيتين : كيف جعلتا من مقاصد القرآن الأساسية بيان ما اختلف فيه أهل الكتاب ، بل جعلته أول تلك المقاصد حيث بدأت به ، وثنت بالهدى والرحمة للمؤمنين . ﴿ **إن هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون** ﴾[1]
﴿ **تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ، ولهم عذاب أليم وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه** ﴾[2] .

ونعود للمرة الثالثة فنقول لمن يزعم أن محمداً كان يعلمه بشر : قل ما اسم هذا المعلم ! ومن ذا الذى رآه وسمعه ؟ وماذا سمع منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟ فإن كلمة « البشرية » تصف لنا هذا العالم الذين يمشون على الأرض مطمئنين ، ويراهم الناس غادين ورائحين ، فلا تسمع دعواها بدون تحديد وتعيين ، بل يكون مثل مدعيها كمثل الذين يخلقون لله شركاء لا وجود لهم إلا فى الخيال والوهم ، فيقال له : كما قيل لهم : ﴿ **قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول** ﴾[3] .

بل نقول : هل ولد هذا النبى فى المريخ ؟ أو نشأ فى مكان قصىّ عن العالم فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ، ثم كانوا بعد ذلك لا يرونه إلا لماماً ؟ ألم يولد فى جحورهم ؟ ألم يكن يمشى بين أظهرهم يصبحهم ويمسيهم ؟ ألم يكونوا يرونه بأعينهم فى حله ورحيله ؟ ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون** ﴾[4] .

---

(١) سورة النمل الآية : ٧٦
(٢) سورة النحل الآيتان : ٦٣ ، ٦٤
(٣) سورة الرعد من الآية : ٣٣
(٤) سورة المؤمنون الآية : ٦٩

نعم إن قومه قد طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه الكلمة ﴿ **إنما يعلمه بشر** ﴾ سورة النحل ، ولكن هل تراهم كانوا فى هذه الكلمة جادين ، وكانوا يشيرون بها إلى بشر حقيقى عرفوا له تلك المنزلة العلمية ؟ كلا انهم ما كان يعنيهم أن يكونوا جادين محقين . وإنما كان همهم أن يدرءوا عن أنفسهم سعرة السكوت والإفحام بأى صورة تتفق لهم من صور الكلام : بالصدق أو بالكذب ، بالجد أو باللعب . وما أدراك من هو ذلك البشر الذى قالوا إنه يعلمه ؟

أتحسب أنهم اجترءوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم ؟ كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلّموا رجلاً جاءهم بما لم يعرفوا هم ولا آباؤهم .

أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة من علماء الدين والتاريخ فى عهد البعثة المحمدية عمدوا إلى رجل من أولئك العلماء فى المدينة ، أو فى الشام ، أو غيرهما فنسبوا ذلك التعليم إليه ؟ كلا إن ألسنتهم لم تطاوعهم على النطق بهذه الكلمة أيضاً .

فمن ذا ، إمّا لا ... ؟

لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصاً يتحقق فيه شرطان :

أحدهما : أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملى عليه بكرة وأصيلا .

وثانيهما : أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ، ليمكن أن يقال : إن عنده علم ما لم يعلموا ، وقد التمسوا هذه الأوصاف ، أتدرى أين وجدوها ؟ فى حدّاد رومى !! نعم وجدوا فى مكة غلاماً تعرفه الحوانيت والأسواق ، ولا تعرفه تلك العلوم فى قليل ولا كثير . غير أنه لم يكن أمياً ولا وثنياً مثلهم ، بل كان نصرانياً يقرأ ويكتب . فكان من أجل ذلك خليقاً فى زعمهم أن يكون أستاذاً لمحمد ، وبالتالى أستاذاً لعلماء اليهود والنصارى والعالم أجمعين ، ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغاً لدراسة الكتب وتمحيص أصلها ... لعرفت أنه كان حداداً منهمكاً فى مطرقته وسندانه ، وأنه كان عامّى الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أمانىّ ، أعجمى اللسان لا تعدو قراءته ، أو تكون رطانة لا يعرفها محمد ، ولا أحد من قومه ، لكن ذلك كله لم يكن يحول بينه وبين لقب الأستاذية الذى منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين .

وهكذا أمعنوا فى هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثل من يقول : إن العلم يستقى من الجهل ، وإن الانسان يتعلم كلامه من الببغاء ! وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى . وهذا لسان عربى مبين** ﴾[1] .

---

(١) سورة النحل من الآية : ١٠٣

هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس على خصومته ، وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته ، وأحصاهم لحركاته وسكناته ، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم فى عصره .

فما للملحدين اليوم وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً انقضت فيها سوق الحوادث ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف ، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة من قمامات التاريخ ، وفى الناحية التى أنف قومه أن ينبشوها ؟ ألا فليريحوا أنفسهم من عناء البحث ، فقد كفتهم قريش مؤونته ، وليشتغلوا بغير هذه الناحية التى قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل . فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام فى وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبيناته .

حيرة المعاندين واضطرابهم فى الجدل قديماً وحديثاً

ومن تتبع أنواع المجادلات التى حكاها القرآن عن الطاعنين فيه رأى أن نسبتهم القرآن إلى تعليم البشر كانت هى أقل الكلمات دوراناً على ألسنتهم ، وأن أكثرها وروداً فى جدلهم هى نسبته إلى نفس صاحبه على اضطرابهم فى تحديد تلك الحال النفسية التى صدر عنها القرآن : أشعر هى ؟ أم جنون ؟ أو أضغاث أحلام ؟ فانظر : كم قلبوا من وجوه الرأى فى هذه المسألة حتى إنهم لم يقفوا عند الحدود التى يمكن افتراضها فى كلام رصين كالقرآن » وفى عقل رصين كعقل صاحبه ، بل ذهبوا إلى أبعد الأحوال النفسية التى يمكن أن يصدر عنها كلام العقلاء والمجانين .. إن ذلك لمن أوضح الأدلة على أنهم لم يكونوا يشيرون بهذا الوجه أو ذاك إلى تهمة محققة لها مثار فى الخارج أو فى اعتقادهم ، وإنما أرادوا أن يدلوا بكل الفروض والتقارير مغمضين على ما فيها من محال ونابٍ ونافر ، ليثيروا بها غباراً من الأوهام فى عيون المتطلعين إلى ضوء الحقيقة ، وليلقوا بها أشواكاً من الشك فى طريق السائرين إلى روض اليقين .

فإن شئت أن تطلع على هذه الصور المضحكة من البلبلة الجدلية فاقرأ وصفهافى القرآن ﴿ **بل قالوا أضغاث أحلام ، بل افتراه ، بل هو شاعر** ﴾[1] سورة الأنبياء فهذه الجملة القصيرة تمثل لك بما فيها من توالى حروف الإضراب مقدار ما أصابهم من الحيرة والاضطراب فى رأيهم ، وتريك من خلالها صورة شاهد الزور إذا شعر بحرج موقفه . كيف يتقلب ذات اليمين وذات الشمال ؟ وكيف تتفرق به السبل فى تصحيح ما يحاوله من محال ؟ ﴿ **انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا** ﴾[2] سورة الإسراء وسورة الفرقان .

---

(١) سورة الأنبياء من الآية : ٥

(٢) سورة الإسراء الآية ٤٨ والفرقان الآية : ٩

ظاهرة الوحى وتحليل عوارضها

لا تحسبن أننا فى هذه المرحلة الثالثة سنضرب فى بيداء تيهاء ، أو أننا سيترامى بنا السير إلى شقة بعيدة وسفر غير قاصد . كلا ، فلن نخرج ببحثنا عن دائرة محدودة نراها مظنة للسير الذى نطلبه ، وذلك بدراسة الأحوال المباشرة التى كان يظهر فيها القرآن على لسان محمد بن عبدالله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ وعلى آله .

وكلنا نعرف تلك الظاهرة العجيبة التى كانت تبدو على وجهه الكريم فى كل مرة حين ينزل عليه القرآن ، وكان أمرها لا يخفى على أحد ممن ينظر إليه ، فكانوا يرونه قد احمرَّ وجهه فجأة ، وأخذته البُرحَاء حتى يتفصد جبينه عرقاً ، وثقُل جسمه حتى يكاد يُرضُ فخذه وفخذ الجالس إلى جانبه ، وحتى لو كان راكباً لبركت به راحلته ، وكانوا مع ذلك يسمعون عند وجهه أصواتاً مختلطة تشبه دوىَّ النحل .. ثم لا يلبث أن تُسرَّى عنه تلك الشدة ، فإذا هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً مُحدثاً . (هذه الأوصاف كلها ثابتة فى الأحاديث الصحيحة عند الشيخين وأبى داود والترمذى وغيرهم) .

فمن شاء أن يبحث عن مصدر هذا القرآن فهاهنا أقرب مظانه ، ففيها فليحصر الباحثون بحوثهم ، ولينشد طلاب الحق ضالتهم ، وأين تُلتمس الأسباب الصحيحة لأثر ما إن تلتمس حيث يظهر ذلك الأثر ، وحيث يدور وجوده وعدمه ؟

فلننظر الآن فى هذه الظاهرة : هل كانت شيئاً متكلَّفاً مصنوعاً وطريقة تحضيرية يستجمع بها الفكر والروية ؟ أم كانت أمراً لا دخل فيه للاختيار ؟ وإذا كانت أمراً غير اختيارى فهل كان لها فى داخل النفس منشأ من الأسباب الطبيعية العادية ، كباغتة النوم ، أو من الأسباب الطبيعية الشاذة ، كاختلال القوى العصبية ؟ أم كانت انفعالاً بسبب خارجى منفصل عن قوى النفس ؟

وإن نظرة واحدة نلقيها على عناصر هذه الظاهرة لتهدينا إلى أنها لا يمكن أن تكون صناعة وتكلفاً ، وبخاصة لو تأملت تلك الأصوات المختلطة التى كانت تسمع عن الوجه النبوى الشريف ، وأيضا لو كانت صناعة وتكلفا لكانت طوع يمينه فكان لا يشاء يوماً أن يأتى بقرآن جديد إلا جاء به من هذا الطريق الذى اعتاده فى تحضيره ، وقد علمت أنه كثيراً ما التمسه فى أشد أوقات الحاجة إليه وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله . ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾[1] فهى إذن حال غير اختيارية .

---

(١) سورة مريم من الآية : ٦٤

ثم إننا نرجع البصر كرة أخرى فنرى البعد شاسعاً بينها وبين عارض السبات الطبيعى الذى يعترى المرء فى وقت حاجته إلى النوم ، فإنها كانت تعروه قائماً أو قاعداً ، وسائراً أو راكباً ، وبكرة أو عشياً ، وفى أثناء حديثه مع أصحابه أو أعدائه ، وكانت تعروه فجأة وتزول عنه فجأة ، وتنقضى فى لحظات يسيرة ، لا بالتدريج الذى يعرض للوسنان وكانت تصاحبها الأصوات الغريبة التى لا تسمع منه ولا من غيره عند النوم ، وبالإجمال كانت حالاً تباين حال النائم فى أوضاعها ، وأوقاتها ، وأشكالها ، وجملة مظاهرها . فهى إذاً عارض غير عادى .

ثم نرى المباينة التامة والمناقضة الكلية بينها وبين تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التى تصفر فيها الوجوه ، وتبرد الأطراف ، وتصطك الأسنان وتتكشف العورات ، ويحتجب نور العقل ، ويخيم ظلال الجهل ، لأنها كما علمت مبعث نمو فى قوة البدن ، وإشراق فى اللون ، وارتفاع فى درجة الحرارة ، وكانت إلى جانب ذلك مبعث نور لا ظلمة ، ومصدر علم لا جهالة ، بل كان يجىء معها من العلم والنور ما تخضع العقول لحكمته وتتضاءل الأنوار عند طلعته .

ها نحن أولاء قد كدنا نصل .. فلتقف بنا وقفة يسيرة لنرى مبعث هذا الضوء الذى كان يبدو حينا ، ويختفى أحياناً من حيث لا يد لصاحبه فى ظهوره ولا فى اختفائه : هل عسى أن يكون منبعثاً من طبيعة هذه النفس المحمدية ؟ إذاً والله لكان خليقاً أن ينبعث منها أبداً ، ولكان أحق بأن ينبعث منها فى حال اليقظة العادية ، والرويَّة الفكرية أكثر مما ينبعث منها فى تلك اللحظات اليسيرة حينما تغشيها هذه السحابة الرقيقة التى قد تشبه السنة أو الإغماء .. فلابد إذاً أن يكون وراء هذه السحابة مصدر نورانى يمد هذه النفس المحمدية بين آن وآن ، فيسمو بها عن أفق شعرها المحدود ، ويزودها بما شاء الله من العلوم ، ثم يرسلها إلينا محمَّلة بهذه الشحنة العلمية إلى أن يلاقيها مرة أخرى . وكما آمن الناس بأن نور القمر ليس مستضاءاً من ذاته ، وإنما مستضاء من ضياء الشمس ، لأنهم رأوا اختلاف نوره تابعا أبداً لاختلاف مواقعه منها قرباً وبعداً ، فكذلك فليؤمنوا بأن نور هذا القمر النبوى إنما كان شعاعاً منعكساً من ضوء تلك الشمس التى يرون آثارها ، وإن كانوا لا يرونها . نعم إنهم لم يروها بأعينهم طالعةً فى رابعة النهار ، ولم يسمعوا أصواتها بآذانهم جرساً مفهوماً ، وكلاماً يفقهه الناس ، ولكنهم كانوا يرونه قبساً منها فى الجبين ، وكانوا يسمعون حسيسها حول الوجه الكريم ، وإن فى ذلك لهدى للمهتدين .

هى إذاً قوة خارجية ، لأنها لا تتصل بهذه النفس المحمدية إلا حينا بعد حين ، وهى لا محالة قوة عالمة ، لأنها توحى إليه علماً .

وهى قوة أعلى من قوته ، لأنها تحدث فى نفسه وفى بدنه تلك الآثار العظيمة ﴿ **علمه شديد القوى ، ذو مرة** ﴾[١] .

وهى قوة خيِّرة معصومة ، لأنها لا توحى إلا الحق ولا تأمر إلا بالرشد فلا جرم أنها لا تكون قوة طائشة شريرة كقوة الجن والشياطين ، إذ ما للجن وعلم الغيب ، ولقد ﴿ **تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾[٢] ،وما للشياطين وخبر السماء وهى محفوظة من كل شيطان رجيم ﴿ **وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾[٣] .

فماذا عسى أن تكون هذه القوة إن لم تكن قوة ملك كريم ؟

ذلك هو مبلغ العلم فى وصف هذه القوة الغيبية حسبما يهدى إليه البحث العقلى المستقيم .

فأما الذى يؤمن بالغيب فسيؤمن بهذا الحديث عنه ، وإن لم يره ، لأنه رأى أثره ، ولأنه يؤمن بمن أخبره . وأما الجاهلون الذين أوتوا قليلاً من علم ظاهر الحياة فظنوا أنهم أحاطوا بكل شيء علما ، فإنهم سيكذبون بكل مالم يحيطوا بعلمه ، وسيقولون لك : لعله اضطراب فى أعصاب البصر خُيِّل إليه أنه يرى شيئاً من لا شيء ! وأنت فاستعذ بالله من عمى القلوب والعيون وقل : كلا ، ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى** ﴾[٤] . أو يقولون : لعله اضطراب فى قوى الفكر صوَّر له المعانى أشباحاً ماثلة ، والأحلام حقائق مجسمة ! فابرأ إلى الله من هذا الجنون ، وقل : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى** ﴾ .

استئناس بما كشفه العلم فى العصور الحاضرة

ولعمرى لنحن أحق أن نعجب من هذا العجب ، فإننا نفهم أنه لو ساغ مثله فى عصور الجاهلية الأولى ما كان ليسوغ اليوم ، وقد ملئت الأرض بالآيات العلمية التى تفسر لعقولنا تلك الحقائق الغيبية .

---

(١) سورة النجم الآية : ٥ ومن الآية : ٦
(٢) سورة سبأ من الآية : ١٤
(٣) سورة الشعراء الآيات : ٢١٠ ــ ٢١٢
(٤) سورة النجم الآية : ١٧

وإن من أقرب هذه الآيات إلى متناول الجمهور آية الهاتف « التليفون » فقد أصبح الرجلان يكون أحدهما فى أقصى المشرق ، والآخر فى أقصى المغرب ، ثم يتخاطبان ويتراءان ، من حيث لا يرى الجالسون فى مجلس التخاطب شيئاً ولا يسمعون إلا أزيزاً كدوى النحل الذى فى صفة الوحى .

فإن كانوا يريدون آية علمية أوضح من هذه تمثل لهم الوحى تمثيلاً ، وتريهم عن طريق التجارب — التى لا يؤمنون إلا بها — إن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها قد يُحدث فيها ظاهرة من جنس هذه الظاهرة ، وينقش فيها معلومات لم تكن مخزونة فى العقل ولا فى الحس قبل ذلك ، فها قد أراهم الله تلك الآية العجيبة فى « أعجوبة التنويم المغناطيسى » فقد أصبح الرجل القوى الإرادة يستطيع أن يتسلط بقوة إرادته على من هو أضعف منه حتى يجعله ينام بأمره نوماً عميقاً لا يشعر فيه بوخز الإبر .

وهنالك يكون رهين إشارته ، وتنمحى ارادته من ارادته فلو شاء أن يمحو من صدره اسم نفسه ويلقنه اسماً آخر يقنعه بأنه هو اسمه لما وجد منه إلا إيماناً وتسليماً ، ولأصبح اسمه الحقيقى نسياً منسياً ، ولبقى هذا الإسم المصنوع منقوشاً على قلبه ولسانه بعد أن يستيقظ إلى ما شاء الله . فإذا كان فعل هذا الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟

فذلك مَثل حامل الوحى ومتلقيه عليهما السلام : هذا بشر مطواع ذو روح صاف يقبل انطباع العلوم فيه ، وذاك ملك شديد القوى ذو مرة يحمل إليه رسالته ويقرئها إياه ، فلا ينس إلا ما شاء بَيْدَ أن بُعداً شاسعاً بين هذا الوحى النبوى ، ووحى الناس بعضهم لبعض ، فالناس كما عرفت قد يوحون زخرف القول غروراً ، وكثيراً ما يترك وحيهم فى نفس متلقّية أعراضاً عقلية أو بدنية يصعب علاجها . فأين هذا من الوحى بين رسولين مؤيدين اصطفاهما الله لرسالته : رسول من الملائكة ، ورسول من الناس ؟ فأما الرسول الملائكى فإنه كما علمت لا يوحى إلا الحق ، ولا يأمر إلا بالخير ، وأما الرسول البشرى فإنه لا يزال من بعد كما كان من قبل ، ثابت الفؤاد ، كامل العقل ، قوى النفس والبدن ، ﴿ **الله يعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[1] . أ ﻫ .

قوله تعالى : ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم** ﴾[2] أى : الجميع عبيد له ، وملك له ، تحت قهره وسلطانه وتصريفه ، ﴿ **وهو العلى العظيم** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **الكبير المتعال** ﴾[3] ﴿ **وهو العلى الكبير** ﴾[4] وكقوله جل فى علاه : ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب**

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٢٤
(٢) سورة الشورى الآية : ٤
(٣) سورة الرعد الآية : ٩
(٤) سورة سبأ الآية : ٢٣

الأرض رب العالمين وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[١] وكقوله سبحانه : **﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾**[٢] .

وقوله : ــ عز وجل ــ **﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾**[٣] قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ وقتادة والسدى : أى فرقاً من العظمة .

وعن أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنى أرى ما لا ترون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى » رواه الترمذى[٤] .

قوله تعالى : **﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ﴾**[٥] هو كقوله تعالى : **﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم ﴾**[٦] .

قوله تعالى : **﴿ ألا ان الله هو الغفور الرحيم ﴾** ألا هنا أداة استفتاح وما بعدها تقرير وتثبيت لمغفرته ورحمته فهو عظيم المغفرة ، كثير الرحمة قال تعالى : **﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾**[٧] ، وقال عز من قائل : **﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾**[٨] كان أحد الصالحين يقول فى دعائه ومناجاته لربه : « يارب ان لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك ، فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى فأنت القائل : **﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾** وأنا شىء فلتسعنى رحمتك » .

---

(١) سورة الجاثية الآيتان : ٣٦ ، ٣٧

(٢) سورة سبأ الآية : ١

(٣) سورة الشورى من الآية : ٥

(٤) الحديث فى سنن الترمذى (فى كتاب الزهد) باب : لو تعلمون ما أعلم جـ ٤ صـ ٥٥٦ رقم ٢٣١٢ وقال : حديث حسن غريب .

(٥) من الآية : ٥ من سورة الشورى

(٦) سورة غافر الآيات : ٧ ــ ٩

(٧) سورة الزمر الآية : ٥٣

(٨) سورة الأعراف من الآية : ١٥٦

سبحانك ربى :

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

يا إلهى :

فَعلنا خطايانا وسترك سابل وليس لشىء أنت ساتره كشف
إذا نحن لم نخطىء وتعفو تكرما فمن غيرنا يهفو ومن غيرك يعفو

إلهى :

أصبحت ضيف الله فى دار الرضا وعلى الكريم كرامة الضيفان
تعفو الملوك عن النزيل بساحتهم كيف النزول بساحة الرحمن
يا من إذا وقف المسىء ببابه ستر القبيح وجاد بالإحسان
وأنا المسىء وقد دعوتك سيدى تعفو وتصفح للعُبيد الجانى
يا من يجيب العبد قبل سؤاله ويجود للعاصين بالغفران
وإذا أتاه الطالبون لعفوه ستر القبيح وجاد بالإحسان

يا أخا الإسلام

قف بالخشوع وناجى ربك يا أخى فهو القريب يجيب من ناداه
أطلب بطاعته رضاه فإنه بالجود يعطى السائلين رضاه
هو أول ، هو أخر هو ظاهر هو باطن ليس العيون تراه

قال ﷺ :

« يأيها الناس توبوا إلى الله وأستغفروه فإنى أتوب إليه فى اليوم الواحد مائة مرة » رواه مسلم[١] .

وقال ﷺ :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاه ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها ، وقد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك اخطأ من شدة الفرح » رواه مسلم[٢] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب : استحباب الاستغفار والاستكثار فيه ج ٤ صـ ٢٠٧٥ ، ٢٠٧٦ رقم ٤٢/٢٧٠٢

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب التوبة) باب : فى الحض على التوبة والفرح بها جـ ٤ صـ ٢١٠٤ رقم ٧/٢٧٤٧

وعن أبى موسى الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »(١) رواه مسلم .

« وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : « إن الله ــ عز وجل ــ يقبل توبة العبد **مالم يغرغر »(٢) « مالم يغرغر : أى تصل روحه حلقومه ، من الغرغرة » وهى فعل الشراب فى الفم ،** ثم يديره إلى أصل حلقومه فلا يبلعه ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن** ﴾(٣) **وفسر ابن عباس حضوره بمعاينة ملك الموت .** (٤)

وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن نبى الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : « لا » فقتله فكمّل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله ــ تعالى ــ فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ــ تعالى ــ ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم : أى : حكماً فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة » متفق عليه .

وفى رواية فى الصحيح : « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى . وقال : قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب التوبة) باب : قبول التوبة من الذنب .. جـ ٤ صـ ٢١١٣ رقم ٢٧٥٩/٣١

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ــ مسند ابن عمر جـ ٢ صـ ١٥٣ وأخرجه الترمذى فى الدعوات وابن ماجة الزهد والحاكم فى المستدرك وقال الترمذى حسن غريب

(٣) سورة النساء من الآية : ١٨

(٤) الحديث أخرجه مسلم (فى كتاب التوبة) باب : قبول توبة القاتل وإن كثر قتله وأخرجه البخارى فى (كتاب الأنبياء) باب : حدثنا أبو اليمان فى كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٧٦٠ صـ ٧٥٢

وعن عمر بن الحصين ــ رضى الله عنهما ــ إن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهى حُبلى من الزنى فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقمه علىّ ، فدعا نبى الله ﷺ وليها فقال : أحسن إليها ، فإذا وضعت فأتنى بها ، ففعل ، فأمر بها نبى الله ﷺ فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ فقال : لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل »[1] رواه مسلم .

وعن ابن عباس وأنس بن مالك ــ رضى الله عنهم ــ أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ جوفه إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب »[2] متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل** ﴾[3] أى : والمشركون الذين اتخذوا آلهة من الأوثان يعبدونها ــ الله هو المراقب لأعمالهم ، المحصى لأفعالهم وأقوالهم ، المجازى لهم يوم القيامة على ما كانوا يعملون ، ولست أيها الرسول بالحفيظ عليهم ، إنما أنت نذير تبلغهم ما أرسلت به إليهم ، ﴿ **إن عليك إلا البلاغ** ﴾[4] فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنك لست بمدرك ما تريد من هدايتهم إلا إذا شاء ربك .

قوله تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير** ﴾[5] .

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ **أوحينا إليك قرآناً عربياً** ﴾ أى : واضحاً جلياً بيناً ﴿ **لتنذر أم القرى** ﴾ وهى مكة ﴿ **ومن حولها** ﴾ من سائر البلاد شرقا وغربا ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾[6]

---

(٢) أخرجه مسلم فى (كتاب الحدود) باب : من اعترف على نفسه بالزنى جـ ٣ صـ ١٣٢٤ رقم ١٦٩٦/٢٤
(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٢ وقال : أخرجه مسلم فى (كتاب الزكاة) باب : لو أن لابن آدم وادين لابتغى ثالثاً . وأخرجه البخارى (فى كتاب الرقاق) باب : ما يتقى من فتنة المال .
(٣) سورة الشورى الآية : ٦ — (٥) سورة الشورى الآيتان : ٧ ، ٨
(١) سورة الشورى من الآية : ٤٨ — (٦) سورة الأنعام الآية : ٩٢

الآية . وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لقول رسول الله ﷺ فى الحديث الذى أخرجه الإمام أحمد فى مسنده « والله إنك لخير أرض الله ، وأحب أرض الله إلىّ ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » وهكذا رواه الترمذى وقال الترمذى حسن صحيح[١] .

وقوله عز وجل : ﴿ **وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه** ﴾ أى : لا شك فى وقوعه وأنه كائن لا محالة كقوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد** ﴾[٢] وقوله ــ جل وعلا ــ : ﴿ **فريق فى الجنة وفريق فى السعير** ﴾[٣] أى : إنهم بعد جمعهم وعرضهم للحساب يفرقون ، فريق منهم يدخل الجنة لإيمانه بالله ورسوله وبما أحسن من عمل فى دنياه استحق به الكرامة عند ربه ، والنعيم المقيم فى جنته ، وفريق منهم فى نار الله الموقدة المسعورة على أهلها ، وهم الذين كفروا بالله ورسله واتخذوا من دونه أولياء .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، ومانؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ، فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها شهيق وزفير خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ** ﴾[٤]

وكقوله تعالى : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون ، وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون** ﴾[٥] .

ثم سلى رسول الله ﷺ على ما كان يناله من الغم والهم بتولى قومه عنه وعدم استجابة دعوته ، وأعلمه أن أمور عباده بيده ، وأنه الهادى إلى الحق من يشاء ، والمفضل من أراد فقال تعالى :

﴿ **ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمون ما لهم من ولى ولا نصير** ﴾[٦] أى : لو شاء الله لجعل الجميع مؤمنين كما تريد وتحرص عليه ولكن حكمته اقتضت

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ــ عن حديث عبد الله بنعدى .. ج ٤ صـ٣٠٥ وأخرجه الترمذي في (أبواب المناخب) باب : فضل مكة جـ ٥ صـ ٣٨٠ رقم ٤٠١٧

(٢) سورة سبأ الآية : ٤٦

(٣) سورة الشورى من الآية : ٧

(٤) سورة هود الآيات : ١٠٣ ــ ١٠٨

(٥) سورة الروم الآيات : ١٤ ــ ١٦

(٦) سورة الشورى الآية : ٨

أن يكون بعضهم مؤمنين كما تحب ، وبعضهم كفاراً وهم الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، لأنه سبحانه شاء أن يكون الإيمان مبنياً على التكليف والاختيار ، يدخل فيه المرء بمحض الرضا والتأمل فى الأدلة الموصلة إلى الهدى ، وبذلك يتم الفوز والسعادة فى الدارين ، وينفلت منه من دنَّس نفسه بأدران الشرك ، وركب رأسه وأطاع هواه فكان من الخاسرين ، ولو شاء سبحانه لجعل الإيمان بالقسر والإلجاء ، فكان الناس جميعاً أمة واحدة ، ولكن له الحجة البالغة ، والمثل الأعلى ، لم يشأ ذلك ، فلا تأس على عدم إيمان قومك ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات وقد جاء هذا المعنى فى غير آية سلف كثير منها كقوله تعالى : ﴿ **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** ﴾[١] وكقوله : ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ﴾[٢] وكقوله : ﴿ **ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ، إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾[٣] .

وكقوله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ، يدخل من يشاء فى رحمته ، والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولى وهو يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ، وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب ، فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، إنه بكل شىء عليم** ﴾[٥] .

يقول تعالى : منكراً على المشركين فى اتخاذهم آلهة من دون الله ومخبراً أنه هو الولى الحق الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده فإنه هو القادر على إحياء الموتى وهو على كل شىء قدير كقوله تعالى : ﴿ **الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ، ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾[٦] .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ٣٥
(٢) سورة السجدة من الآية : ١٣
(٣) سورة هود الآيتان : ١١٨ ، ١١٩
(٤) سورة الإنسان الآيتان : ٣٠ ، ٣١
(٥) سورة الشورى الآيات : ٩ — ١٢
(٦) سورة السجدة الآيات : ٤ — ٩

ثم قال عز وجل : ﴿ **وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله** ﴾[(١)] أى مهما اختلفتم فيه من الأمور وهذا عام فى جميع الأشياء ﴿ **فحكمه إلى الله** ﴾ أى : هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ كقوله تعالى : ﴿ **فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول** ﴾[(٢)] وكقوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق** ﴾[(٣)] الآية وكقوله سبحانه : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾[(٤)] الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلكم الله ربى عليه توكلت وإليه أنيب** ﴾[(٥)] أى : ذلكم الموصوف بهذه الكلمات الصفات ، من الإحياء والإماتة ، والحكم بين المختلفين هو ربى وحده ، لا آلهتكم التى تدعون من دونه ، ﴿ **عليه توكلت** ﴾ فى دفع كيد الأعداء وفى جميع شئونى ﴿ **وإليه أنيب** ﴾ وإليه أرجع فى كل شيء .

وكان ﷺ حينما يستفتح الصلاة يقول أحياناً هذا الدعاء : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك حق ، وقولك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أنت ربنا وإليك المصير ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، أنت إلهى ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله » (البخارى ومسلم وأبو داود وأبو عوانه)[(٦)] .

وقوله تعالى : ﴿ **فاطر السموات والأرض ، جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[(٧)] ﴿ **فاطر السموات والأرض** ﴾ أى : خالقهما

---

(١) سورة الشورى من الآية : ١٠

(٢) سورة النساء الآية : ٥٩

(٣) سورة المائدة الآية : ٤٨

(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٩

(٥) سورة الشورى من الآية : ١٠

(٦) أخرجه البخارى فى (كتاب التوحيد) باب : قول الله أنا الرازق جـ ٩ ص ١٤٣ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب صلاة المسافرين) باب : الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ج ١ ص ٥٣٢ ، ٥٣٣ رقم ٧٦٩/١١٩

(٧) سورة الشورى آية ١١ .

ومبدعهما لا على مثال سابق ، فهو الجدير بأن يعتمد عليه ، ويستعان به ، لأنه خالق العوالم جميعها ، علويها وسفليها ، على عظمتها التى ترونها ، لا آلهتكم التى لا تستطيع أن تخلق شيئاً .

ثم يبين سبحانه بعض ما خلقه وأنعم به فقال جل وعلا : ﴿ **جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، ومن الأنعام أزواجاً يذرؤكم فيه** ﴾ أى : ومن حكمته لبقاء العمران فى هذه الحياة إلى الأجل الذى حدده فى علمه ـ أن خلق لكم من جنسكم زوجات ، لتتوالدوا ، ويكثر النسل ويستمر بقاء هذا النوع كقوله سبحانه : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾(٢) الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن الأنعام أزواجاً** ﴾ أى : وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج وقوله تعالى : ﴿ **يذرؤكم فيه** ﴾ أى : يخلقكم فيه أى : فى ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق ، وجيلاً بعد جيل ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام .

وقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ أى : ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذى لا نظير له ﴿ **وهو السميع البصير** ﴾ لا كسمع ولا بصر أحد من الورى ، القائل لموسى وهارون ﴿ **إننى معكما أسمع وأرى** ﴾(٣) فمن نفى عن الله ما وصف به نفسه أو شبه صفاته بصفات خلقه فقد افترى على الله كذباً وقد خاب من افترى ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **له مقاليد السموات والأرض** ﴾ أى : له تعالى مفاتيح خزائن السموات والأرض ، فبيده مقاليد الخير والشر ، فما يفتح من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك منها فلا مرسل له من بعده وقد بين هذا بقوله تعالى : ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء** ﴾(٥) أى : يوسع رزقه وفضله على من يشاء من خلقه ويقتر على من يريد ، ثم ذكر سبب هذا فقال سبحانه : ﴿ **إنه بكل شيء عليم** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾(٦) .

---

(١) سورة الروم الآية : ١١
(٢) سورة النحل من الآية : ٧٢
(٣) سورة طه من الآية : ٤٦
(٤) سورة الأنعام الآية : ١٠٣
(٥) سورة سبأ من الآية : ٣٦
(٦) سورة الإسراء الآية : ٣٠

الأنبياء دعوتهم واحدة

قال تعالى :

* شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ
وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِىٓ
إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ الْعِلْمُ
بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا۟
الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ
أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾
وَالَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِىٓ أَنزَلَ الْكِتَٰبَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ
قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ
أَلَآ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ
وَهُوَ الْقَوِىُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ
حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى الْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ الدِّينِ
مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى
الظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ

ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ وَمَن
يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى
ٱللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ
﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾

معانى المفردات

﴿ **أقيموا الدين** ﴾ : أى : حافظواعليه والمراد بالدين : دين الإسلام ، وهو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله واليوم الآخر ، وسائر ما يكون به العبد مؤمناً .

﴿ **ولا تتفرقوا فيه** ﴾ : أى : لا تختلفوا فيه ، ﴿ **كَبُرَ** ﴾ : أى عظم وشق عليهم ، ﴿ **يجتبى** ﴾ : أى يصطفى ، ﴿ **ينيب** ﴾ : أى يرجع ﴿ **البغى** ﴾ : الظلم ومجاوزة الحد فى كل شيء ﴿ **لقضى بينهم** ﴾ : أى باستئصال المبطلين حين تفرقوا ، ﴿ **ادع** ﴾ : أى إلى الائتلاف والاتفاق ، ﴿ **واستقم** ﴾ : أى اثبت على الدعاء كما أوحى إليك ، ﴿ **آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ : أى صدقت بجميع الكتب المنزلة ، ﴿ **لا حجة** ﴾ : أى لا احتجاج ولا خصومة ، ﴿ **يحاجون فى الله** ﴾ : أى يخاصمون فى دينه ، ﴿ **استجيب له** ﴾ : أى استجاب الناس لدينه ودخلوا فيه لوضوح حجته ، ﴿ **داحضة** ﴾ : أى زائفة باطلة ، ﴿ **الميزان** ﴾ : أى العدل بين الناس ، ﴿ **يدريك** ﴾ : يعلمك ﴿ **الساعة** ﴾ : القيامة ، ﴿ **مشفقون** ﴾ : خائفون منها حذرون من مجيئها ، ﴿ **الحق** ﴾ : أى الأمر المحقق الكائن لا محالة ، ﴿ **يمارون** ﴾ : أى يجادلون ، ﴿ **لطيف بعباده** ﴾ : أى هو بر بهم يفيض عليهم من جوده وإحسانه ، ﴿ **حرث الآخرة** ﴾ : ثمرات أعمالها تشبيهاً لها بالغلة الحاصلة من البذور ،

﴿ **حرث الدنيا** ﴾ : لذاتها وطيباتها ، ﴿ **شركاء** ﴾ : أى فى الكفر وهم الشياطين ، ﴿ **شرعوا لهم** ﴾ : أى زينوا لهم ، ﴿ **ما لم يأذن به الله** ﴾ : أى كالشرك وإنكار البعث والعمل للدنيا فحسب ، ﴿ **كلمة الفصل** ﴾ : هى القضاء والحكم السابق منه بالنظرة إلى يوم القيامة ، ﴿ **روضات الجنات** ﴾ : الروضة : مستنقع الماء والخضرة ، وروضات الجنات : أطيب بقاعها وأنزهها ، ﴿ **القربى** ﴾ : التقرب ، ﴿ **يقترف** ﴾ : أى يكتسب ، ﴿ **يختم على قلبك** ﴾ : أى يجعل قلبك من المختوم عليهم حتى تجترىء على الافتراء ، ﴿ **يمحو** ﴾ : أى يزيل ، ﴿ **يحق** ﴾ : يثبت ، ﴿ **كلماته** ﴾ : هى حججه وأدلته ، ﴿ **يستجيب الذين آمنوا** ﴾ : أى يقبل دعاءهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عظم وحيه إلى رسوله ﷺ وأبان ماله من كبير الخطر حين نسبه إليه تعالى ، وأنه صادر من عزيز حكيم لا يوحى إلا بما فيه مصلحة البشر ومنفعتهم فى دينهم ودنياهم ـــ ذكر هنا تفصيل هذا الوحى ، وأرشد إلى أنه هو الدين الذى وصى به أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة ، وأردف ذلك أن المشركين يشق عليهم دعوتهم إلى التوحيد وترك الأوثان ، وأن الله يهدى من يشاء من عباده لهدى دينه ، وأنهم ما خالفوا الحق إلا بعد إبلاغه إليهم ، وقيام الحجة عليهم ، وأنه ما حملهم على ذلك إلا البغى والعدوان والحسد ، وأنه لولا الكلمة السابقة من الله بإنذار المشركين باقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة فى الدنيا ، وأن من اعتنقوا الأديان من بعد الأجيال الأولى ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم بلا دليل ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك مريب ، وشقاق بعيد ، ثم أمر رسوله بالدعوة إلى الاتفاق على الملة الحنيفية والثبات عليها ، والدعوة إليها ، وألا يتبع أهواءهم الباطلة ، ثم أمر بالإيمان بجميع الكتب السماوية ، وبالعدل بين الناس ، ثم أردف ذلك ببيان أن إلٰههم جميعاً واحد ، وأن كل امرىء مسئول عن عمله ، وأن الله يجمع الناس يوم القيامة ويجازيهم بأعمالهم ، ثم يبين سبحانه : أن الذين يخاصمون فى دين الله من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا فيه أفواجاً ، حجتهم فى الصرف عنه زائفة لا ينبغى النظر إليها ، وعليهم غضب من ربهم لمكابرتهم للحق بعد ظهوره ، ولهم عذاب شديد يوم القيامة ، ثم أردف ذلك تخويفهم بيوم القيامة حتى يستعدوا له ويتركوا المماراة بالباطل ، ثم ذكر أن المشركين يستعجلون به استهزاء وإنكاراً لوجوده ، والمؤمنون خائفون منه ، لعلمهم بالجزاء حينئذ ، ثم أعقب ذلك بذكر أن المماراة فى الساعة ضلال بين لتظاهر الأدلة على حصولها لا محالة .

ثم بين سبحانه : أن من يعمل للآخرة ويرجو ثوابها يضاعف له فيها الجزاء ، ومن يعمل للدنيا وجلب لذاتها يؤته ما يريد ، وليس له فى الآخرة نصيب من نعيمها ، ثم أعقب هذا بذكر ما وسوست

به الشياطين للمشركين ، وزينت لهم به من الشرك بالله وإنكار البعث إلى نحو ذلك ، ثم بين أنهم كانوا يستحقون العذاب العاجل على ذلك ، لكنه أجله لما سبق من علمه من إنظارهم إلى يوم معلوم ، ثم ذكر مآل كل من الكافرين والمؤمنين يوم القيامة .

ثم أعقب هذا بأن أمر رسوله أن يقول لهم : إنه لا يسألهم على هذا البلاغ والنصر أمراً ، وإنما **يطلب منهم التقرب الى الله بحسن طاعته ، ثم رد عليهم قولهم « إن القرآن مفترى » بأنه لايفترى الكذب على الله إلا من كان مختوماً على قلبه ، ومن سنن الله إبطال الباطل ، ونصرة الحق ، فلو كان محمد كذاباً مفترياً** لفضحه وكشف باطله ، ولكن أيده بالنصر والقوة ، ثم ندبهم إلى التوبة ووعد المؤمنين بأنه يجيب دعاءهم إذا دعوه ، ويزيدهم من نعمه ، وأوعد الكافرين بشديد العقاب جزاء وفاقا .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ، إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب ، وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به ، إبراهيم وموسى وعيسى** ﴾ : أى شرع لكم من الدين ما شرع لنوح ومَن بعده من أرباب الشرائع وأولى العزم من الرسل ، وأمرهم به أمراً مؤكداً ، وتخصيص هؤلاء الأنبياء بالذكر لعلو شأنهم وعظيم شهرتهم ، ولاستمالة الكفار إلى اتباعهم لاتفاق كلمة أكثرهم على نبوتهم ، واختصاص اليهود بموسى — عليه السلام — ، والنصارى بعيسى — عليه السلام — وإلا فكل نبى مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام وهو التوحيد ، وأصول الشرائع والأحكام ، مما لا يختلف باختلاف الأعصار كالإيمان بالله واليوم الآخر ، والملائكة واكتساب مكارم الأخلاق وفاضل الصفات .

والإسلام دين المرسلين والنبيين معاً ، من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التى بها ختم الله الرسالات .

فذكر سبحانه على لسان نوح قوله : ﴿ **وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾[١] وعلى لسان إبراهيم وإسماعيل ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** ﴾[٢] ﴿ **إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٣] وفى وصية يعقوب لأولاده ﴿ **أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون** ﴾[٤] وذكر سبحانه عن موسى أنه قال لقومه : ﴿ **فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[٥] وعن سحرة فرعون الذين آمنوا بالله وصدقوا برسالة موسى قالوا : ﴿ **ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين** ﴾[٦] وفى معرض الحديث عن التوراة يقول سبحانه : ﴿ **يحكم بها النبيون الذين أسلموا** ﴾[٧] وعن حوارى عيسى ابن مريم أنهم قالوا : ﴿ **آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون** ﴾[٨] وقد ورد فى الحديث الصحيح الذى أخرجه الشيخان البخارى ومسلم « الأنبياء أخوة أبناء علات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»[٩] . وقال الله تعالى يجمل هذا كله : ﴿ **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه** ﴾ .

يقول الشيخ محمد الغزالى : فإن جميع النبوات قبل الرسالة الخاتمة كانت نبوات محلية محدودة الزمان والمكان تستغرق جزءاً من الزمن لا تتجاوزه وجزءاً من المكان لا تتعداه يستوى فى ذلك المرسلون كلهم بدءاً من نوح عليه السلام إلى عيسى عليه السلام كلا منهم كان موضوعيا محدود الزمان والمكان .

يقول الله فى رسالة نوح : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه إن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم** ﴾[١٠] ويقول فى شأن عيسى : ﴿ **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيل أنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعد اسمه أحمد** ﴾[١١] الآية .

---

(١) سورة يونس من الآية : ٧٢
وفى سورة النمل من الآية : ٩١
(٢) سورة البقرة من الآية : ١٢٨
(٣) سورة البقرة الآيتان : ١٣١ ، ١٣٢
(٤) سورة البقرة الآية : ١٣٣
(٥) سورة يونس من الآية : ٨٤
(٦) سورة الأعراف الآية : ١٢٦
(٧) سورة المائدة من الآية : ٤٤
(٨) سورة آل عمران من الآية : ٥٢
(٩) أخرجه البخارى (فى كتاب بدء الوحى) باب : واذكر فى الكتاب مريم جـ ٤ صـ ٢٠٣
وأخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الفضائل) باب : فضائل عيسى عليه السلام ــ جـ ٤ صـ ١٨٣٧ رقم ٢٣٦٥/١٤٥
(١٠) سورة نوح الآية : ١
(١١) سورة الصف من الآية : ٦

أما الرسالة الخاتمة فجاءت على غير ذلك ، خالفت جميع الرسالات السابقة من ناحية الأبعاد الثلاثة طولاً ، ايستغرقت الزمن كله ، عرضاً ، استغرقت البشر جميعاً علىّ كل شبر من القارات الخمس ، عمقاً تناولت ما يحتاج إليه البشر من عقائد وعبادات ومعاملات وأخلاق ، ووضعت القواعد العامة والمبادىء المنيرة التى توجه الناس إلى الصالح فى معاشهم ومعادهم على السواء .

وبذلك أصبحت هذه الرسالة ، لا معقب عليها ، وأصبح نبيها مسك الختام ، فلا وحى بعد ذلك ، ولن يجىء من عند الله هدى جديد يحمله بشر آخر .

اكتفت الحكمة العليا بهذا القرآن الكريم مع النبى الخاتم — عليه الصلاة والسلام — ولما كان الإسلام دين الإنسانية منذ بدأت بمعنى : أن العقائد الركنية فيه هو ما بُعث به المرسلون السابقون ، أما الشرائع المنظمة فلها أطوار أخرى شرحها القرآن وفصلتها السنن ، فإن الإسلام بوضعه الجديد يعتبر دين السموات والأرض ، دين الأزل والأبد ، وليس وراء ذلك شىء له قيمة ﴿ **فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾(١) ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾(٢) ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ، قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ، ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** ﴾ : أى اجعلوا هذا الدين وهو دين التوحيد والإخلاص لله قائماً دائماً مستمراً ، واحفظوه من أن يقع فيه زيغ أو اضطراب ، ولا تتفرقوا فيه ، بأن تأتوا ببعض وتتركوا بعضاً والنهى **إنما هو** عن التفرق فى أصول الشرائع ، أما التفاصيل فلم يتحد فيها الأنبياء كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً** ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **كبر على المشركين ما تدعوهم إليه** ﴾ : أى شق على المشركين دعوتهم إلى التوحيد ، وترك عبادة الأصنام والأوثان ، ثم قال جل جلاله : ﴿ **الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب** ﴾(٥) : أى هو سبحانه الذى يقدر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على

---

(١) سورة يونس الآية : ٣٢
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٩
(٣) سورة آل عمران الآيات : ٨٣ — ٨٥
(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٨
(٥) سورة الشورى الآية : ١٣

طريق الرشد ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما تَفَرَّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم** ﴾ أى إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغى والعناد والمشاقة ثم قال عز وجل : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى** ﴾ : أى لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل عليهم العقوبة فى الدنيا سريعاً . ثم ذكر سبحانه أن تفرقهم فى الدين باق فى أعقابهم مضافاً إليه الشك من كتابهم مع انتسابهم إليه فقال تعالى : ﴿ **وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب** ﴾ : أى وإن أهل الكتاب الذين كانوا على عهده ﷺ ورثوا التوراة والإنجيل من السابقين لهم فى شك من كتابهم إذ لم يؤمنوا به حق الإيمان ، فهم مقلدون أسلافهم بلا حجة ولا برهان ، وهم فى حيرة من أمرهم ، وشك أقضَّ مضاجعهم ، وأوقعهم فى اضطراب وقلق .

وقصارى القول ـــ أنهم تفرقوا بعد العلم الذى حصل من النبى المبعوث إليهم المصدق لكتابهم ، لأنهم شكوا فى كتابكم فلم يؤمنوا به ولم يعملوا بما فيه من أمر ونهى .

قوله تعالى : ﴿ **فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير** ﴾ .

يقول العلامة ابن كثير :

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات كل منها منفصلة عن التى قبلها ، حكم برأسها قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسى فإنها أيضا عشر فصول كهذه الآية الكريمة .

وقوله عز وجل : ﴿ **فلذلك فادع** ﴾ : أى فالذى أوحينا إليك من الدين الذى وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولى العزم وغيرهم فادع الناس إليه .

وقوله عز وجل : ﴿ **واستقم كما أمرت** ﴾ : أى واستقم أنت ومن اتبعك على عبادة الله ـــ تعالى ـــ كما أمركم الله ـــ عز وجل ـــ ومثل الآية قوله سبحانه : ﴿ **فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير** ﴾[1] .

---

(١) سورة هود الآية : ١١٢

وقوله عز وجل : ﴿ **ولا تتبع أهواءهم** ﴾ كقوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾(١) وكقوله عز وجل : ﴿ **قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير** ﴾(٢) .

وقوله ــ عز وجل ــ ﴿ **وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب** ﴾ : أى صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء كما فى الآية الأخرى ﴿ **قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **وأمرت لأعدل بينكم** ﴾ : أى فى الحكم كما أمرنى الله ــ عز وجل ــ ﴿ **وأن أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم** ﴾(٤) ﴿ **وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين** ﴾(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ **الله ربنا وربكم** ﴾ : أى هو المعبود لا إله غيره فنحن نقر بذلك اختياراً أو أنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من فى العالمين طوعاً وإجباراً .

وقوله تعالى : ﴿ **لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾ : أى نحن براء منكم كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾ : قال مجاهد : أى لا خصومة . قال السدى وذلك قبل نزول آية السيف ، وهذا متجه لأن هذه الآية مكية وآية السيف بعد الهجرة وقال الشيخ المراغى : أى لا خصومة بيننا ولا احتجاج ، فإن الحق قد وضح ، وليس للمحاجة مجال ، فما المخالف إلا معاند أو مكابر ، وسيأتى الوقت الذى يستبين فيه الحق ، ويتضح سبيل الرشاد ، وإلى ذلك أشار بقوله ﴿ **الله يجمع بيننا** ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ **الله يجمع بيننا** ﴾ : أى يوم القيامة كقوله سبحانه : ﴿ **قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم** ﴾(٧) .

(١) سورة الجاثية آية ١٨ .
(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٠
(٣) سورة آل عمران الآية : ٨٤
(٤) سورة المائدة من الآية : ٤٩
(٥) سورة المائدة من الآية : ٤٢
(٦) سورة يونس الآية : ٤١
(٧) سورة سبأ الآية : ٢٦

وقوله عز وجل ﴿ **وإليه المصير** ﴾ : أى المرجع والمآب يوم الحساب .

وقوله عز وجل : ﴿ **والذين يحاجون فى الله من بعد ما استُجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ، الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ، وما يدريك لعل الساعة قريب ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد** ﴾ .

يقول تعالى : متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ **والذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له** ﴾ : أى يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ، ﴿ **حجتهم داحضة عند ربهم** ﴾ : أى باطلة عند الله ﴿ **وعليهم غضب** ﴾ : أى منه ﴿ **ولهم عذاب شديد** ﴾ : أى يوم القيامة .

قال ابن عباس — رضى الله عنه — ومجاهد : جادلوا المؤمنين بعدما استجابوا لله ولرسوله ليصدوهم عن الهدى ، وطمعوا أنَ تعود الجاهلية ، وقال قتادة : هم اليهود والنصارى قالوا لهم : ديننا خير من دينكم ، ونبينا قبل نبيكم ، ونحن خير منكم وأولى بالله منكم ، وقد كذبوا فى ذلك . يقول الله — عز وجل — : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾(٢) وكقوله سبحانه : ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾(٣) .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وما يدريك لعل الساعة قريب** ﴾ : فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها وتزهيد فى الدنيا . وقوله — عزل وجل — ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها** ﴾ : أى يقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً . ﴿ **والذين آمنوا مشفقون منها** ﴾ : أى خائفون وجلون من وقوعها ، كما أخبر الله عنهم فى قوله تعالى : ﴿ **أمن هو**

(١) سورة البقرة الآيتان : ١١١ ، ١١٢
(٢) سورة الحديد من الآية : ٢٥
(٣) سورة الرحمن الآيات : ٧ — ٩

قانت أناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[٤] .

وقوله — عز وجل — : ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ : أى كائنة لا محالة منهم مستعدون لها عاملون من أجلها كما أخبر سبحانه عنهم ﴿ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ﴾ . وبين حالهم أيضاً فى قوله تعالى : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما ، إنها ساءت مستقراً ومقاما ﴾[١] وفى قوله تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾[٢] وفى قوله تعالى : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾[٣] .

وفى سنن أبى داود عن حفصة — رضى الله عنها — أن النبى ﷺ كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده ثم يقول : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث عبادك » ثلاث مرات ، قال الترمذى حديث حسن[٥] .

وقوله تعالى : ﴿ ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال مبين ﴾ : أى يجادلون فى وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ لفى ضلال مبين ﴾ : أى فى جهل بين لأن الذى خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى كما قال تعالى : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾[٦] وكقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾[٧] .

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٩١ — ١٩٣

(٢) سورة الفرقان الآيات : ٦٤ — ٦٦

(٣) سورة السجدة الآية : ١٦

(٤) سورة المؤمنون الآية : ٦٠

(٥) أخرجه الترمذى فى (كتاب الدعوات) باب : ما جاء فى الدعاء إذا آوى إلى الفراش جـ ٥ صـ ٤٧١ رقم ٣٣٩٨ ، ٣٣٩٩ .

(٦) سورة القيامة الآيات : ٣٦ — ٤٠

(٧) سورة الروم الآية : ٢٧

قوله تعالى : ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ، من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب ، أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم ، ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير** ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عن لطفه بخلقه فى رزقه إياهم عن آخرهم لا ينسى أحداً منهم سواء فى رزقه البر والفاجر ، كقوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين** ﴾[1] وكقوله سبحانه : ﴿ **ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ﴾[2] الآية ﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾[3] . وقوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **يرزق من يشاء** ﴾ : أى يوسع على من يشاء. ﴿ **وهو القوى العزيز** ﴾ : أى لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى : ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده .

وقوله تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة** ﴾ : أى عمل الآخرة . ﴿ **نزد له فى حرثه** ﴾ : أى نقويه ونعينه على ما هو بصدده ، ونكثر نماءه ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما يشاء الله . ﴿ **ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب** ﴾ : أى ومن كان سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له فى الآخرة هم البتة بالكلية ، حرمه الله الآخرة والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه ، وفاز الساعى بهذه النية بالصفقة الخاسرة فى الدنيا والآخرة ، والدليل على هذا أن هذه الآية ههنا : مقيدة بالآية التى فى « الإسراء » وهى قوله تبارك اسمه ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا** ﴾[4] .

---

(١) سورة هود الآية : ٦

(٢) سورة لقمان من الآية : ٢٠

(٣) سورة فاطر الآية : ٣

(٤) سورة الإسراء الآيات : ١٨ ــ ٢١

عن أبى كبشة الأنمارى قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر : رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه فى ماله ينفقه فى حقه ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً وهو يقول : لو كان لى مثل هذا عملت فيه بمثل الذى يعمل ، قال رسول الله ﷺ : فهما فى الأجر سواء ، ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً فهو يخبط فى ماله ينفقه فى غير حقه ، ورجل لم يؤته الله علماً ولا مالاً فهو يقول لو كان لى مثل هذا عملت فيه مثل الذى يعمل . قال رسول الله ﷺ : فهما فى الوزر سواء »[1] أخرجه الترمذى فى أثناء حديث وصححه وأحمد وابن ماجة واللفظ له .

وقال الثورى عن معمر عن أبى العالية عن أبى بن كعب ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « بشر هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين فى الأرض ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له فى الآخرة نصيب » (ذكره ابن كثير فى التفسير)[2] .

وقوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله** ﴾ : أى هم ما ابتغوا ما شرع الله من الدين القويم ، بل اتبعوا ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس ، فحرموا عليهم ما حرموا من البحيرة والسائبة والوصيلة ، وحللوا لهم أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو أولئك من الضلالات والجهالات التى كانوا قد اخترعوها فى الجاهلية ، قال تعالى : ﴿ **قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون** ﴾[3] .

قصارى ذلك ــ أن الشيطان زين لهم الشرك والمعاصى والشرائع المضلة وإنكار البعث والعمل للدنيا .

ثم بين أنه رحمة بعباده أخر عذاب المشركين ليوم معلوم ، ولم يعجله لهم فقال سبحانه : ﴿ **ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم** ﴾ : أى ولولا القضاء السابق منه تعالى بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لعوجلوا بالعذاب .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن الظالمين لهم عذاب أليم** ﴾ : أى وإن الظالمين أنفسهم بشرع مالم يأذن به الله مما ابتدعوه من التحليل والتحريم ــ لهم عذاب شديد الإيلام فى جهنم وبئس المصير .

---

(١) انظر سنن الترمذى : (كتاب الزهد) باب : ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر رقم ٢٣٢٥ جـ ٤ صـ ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ــ حديث أبى بن كعب جـ ٥ صـ ١٣٤

(٣) سورة الأنعام الآية : ١٥٠

ثم ذكر سبحانه : أحوال أهل العقاب وأهل الثواب يوم القيامة مبتدئاً بالأولين فقال سبحانه : ﴿ **ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم** ﴾ : أى ترى الظالمين خائفين أشد الخوف مما كسبوا من السيئات ، وهو واقع بهم لا محالة أشفقوا أو لم يشفقوا ، كقوله تعالى : ﴿ **وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى** ﴾[1] الآية .. هذا حالهم يوم القيامة وهم فى هذا الخوف والوجل ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاءون عند ربهم** ﴾ : فأين هذا من هذا ؟ أى : أين من هو فى العرصات من الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ، ممن هو فى روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟

عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله — عز وجل — يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أُحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[2] متفق عليه .

وعن صهيب — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله — تبارك وتعالى — : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم »[3] رواه مسلم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **ذلك هو الفوز الكبير** ﴾ : أى الفوز العظيم والنعمة التامة السابقة الشاملة العامة ..

قوله تعالى : ﴿ ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا إن الله غفور شكور ، أم يقولون

---

(١) سورة الشورى من الآية : ٤٥

(٢) أخرجه صاحب كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها حديث رقم ١٨٠٢ وقال : أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق — باب : صفة الجنة والنار .

(٣) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الإيمان) باب : اثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه جـ ١ ص ١٦٣ رقم ١٨١/٢٩٧ .

افترى على الله كذباً ، فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور .

يقول تعالى : لما ذكر روضات الجنات ، لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ : أى هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله ـ تعالى ـ لهم به .

وقوله ـ عزل وجل ـ : **﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى ﴾** : أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم ما لا تعطونيه ، وإنما أطلب **منكم أن تكفوا شركم عنى ، وتذروني أبلغ رسالات ربى إن لم تنصرونى ، فلا تؤذونى بما بينى وبينكم من القرابة .**

قال البخارى : عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه سئل عن قوله تعالى : **﴿ إلا المودة فى القربى ﴾** ؟ فقال سعيد بن حبير : قربى آل محمد فقال ابن عباس :/**علمت** إن النبى ـ صلى الله وآله وسلم ـ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بينى وبينكم من القرابة .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ﷺ قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن توادوا الله تعالى : وأن تقربوا إليه بطاعته »[1] وهكذا روى قتادة : عن الحسن البصرى مثله ، قال ابن كثير : وهذا كأنه تفسير بقول ثان كأنه يقول : إلا المودة فى القربى : أى إلا أن تعملوا بالطاعة التى تقربكم عند الله زلفى .

وقوله تعالى : **﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا ﴾** : أى ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسنا : أى أجراً وثواباً كقوله تعالى : **﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما ﴾**[2] وكقوله تعالى : **﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾**[3] وقوله تعالى : **﴿ إن الله غفور شكور ﴾** : أى يغفر الكثير من السيئات ويكثر **القليل من الحسنات فيستر ويغفر** ويضاعف فيشكر .

---

(١) انظر مسند أحمد ـ مسند ابن عباس جـ ١ ص ٢٨٦

(٢) سورة النساء من الآية : ٤٠

(٣) سورة الأنعام من الآية : ١٦٠

وقوله ـ عز وجل ـ : ﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ : أى فإن يشأ الله خذلانك يختم على قلبك لتجترىء بالإفتراء عليه ، فإنه لا يفعل مثل هذا إلا من كان فى مثل حالهم قد ختم الله على قلبه وأعمى بصيرته .

وما أجمل هذا التعريض بأنهم مفترون ، وأنهم فى نسبة الإفتراء إليه مفترون أيضاً ، ثم أكد استبعاد الإفتراء منه ، وزاده إيضاحاً فقال : ﴿ ويمحوا الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ : أى كيف يكون من الافتراء على الله ، وقد جرت سنته تعالى أن يمحو الباطل ويمحقه ، ويثبت الحق وينشره بين الناس ، وها هو إذ يزداد ما أوتيه من وحى كل يوم قوة وانتشاراً ، فلو كان مفترياً كما تدّعون لكشف افتراءه ومحقه ، وقذف بالحق على باطله فدمغه .

وقد يكون المعنى : ـ إن هذه عدةٌ من الله لرسوله بالنصر ويكون المراد : ـ يمحو الله باطلهم وما بهتوك به ، ويثبت الحق الذى أنت عليه بقضائه الذى لا مرد له ، فيكون هذا كلاماً معترضاً بين ما قبله وما بعده مؤكداً لما سبق من الكلام من كونهم مبطلين فى نسبة الإفتراء إلى من هو أصدق من الناس حديثاً .

﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ : فيعلم ما تكنّه الضمائر ، وتنطوى عليه السرائر ، وتجرى الأمور بحسب علمه الواسع المحيط بكل شىء .

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون ، ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ .

يقول تعالى : ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ورجعوا إليه إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ، ويستر ويغفر ، ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ : أى يقبل التوبة فى المستقبل ويعفو عن السيئات فى الماضى ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ : أى هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب على من تاب .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾[3] وقوله تعالى : فى قصة كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ، يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[4] .

وتأمل معى قول الغفور الرحيم : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ﴾[5] . وبعد ذلك تأمل وتدبر قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما ، يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾[6] .

وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقد تضمن هذا الحديث أن هذه الأسباب الثلاثة يحصل بها المغفرة : **أحدهما** : الدعاء مع الرجاء ، **والسبب الثانى** : للمغفرة الاستغفار ، **والسبب الثالث** : من أسباب المغفرة التوحيد ، وهو السبب الأعظم ، فمن فقده فقد المغفرة ، ومن جاء به فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة ولقد تاب النبى يونس لربه بهذا الدعاء العظيم (لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين) .

---

(١) سورة غافر الآيات : ١ ــ ٣

(٢) سورة النساء الآية : ١١٠

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٥ ، ١٣٦

(٤) سورة التوبة الآيتان : ١١٨ ، ١١٩

(٥) سورة البقرة الآية : ٣٧

(٦) سورة النساء الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

فى أحكام التوبة

التوبة هى الندم على ما مضى ، والعزم على عدم العودة ، والإقلاع عن الذنوب .

وقال عبد الله بن المبارك : « التوبة : الندم على ما مضى من الذنوب والعزم على ألا يعود ، وأن يؤدى التائب كل فرض ضيعه ، ويؤدى إلى كل ذى حق حقه من المظالم ، ويذيب البدن الذى زينه بالسحت والحرام بالهموم والأحزان ، حتى يلصق الجلد بالعظم ، ثم ينشأ بينهما لحم طيب ، ويذيق البدن ألم الطاعة ، كما أذاقه لذة المعصية » .

فهذا التعريف للعالم الربانى عبد الله بن المبارك : جامع لكل خصال التوبة المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، والتى هى التوبة النصوح .

ومن شروط التوبة الصحيحة : أن يهجر التائب الذنوب لأنها معاصى يغضب منها الله ورسوله ، لا لسبب آخر ، فإن أقلع عن الذنب لأنه ضار بصحته أو ماله فليس ذلك بتوبة ، وإنما هو عمل يهوى النفس لا لوجه الله ، قال الله تعالى ﴿ **توبوا إلى الله توبة نصوحاً** ﴾[٢] . ولم يقل : توبوا حفظاً لصحتكم ولا لأموالكم ، فمراعاة الصحة والمال ليس هدفاً رئيسيا للتوبة ، وإنما هو أمر ثانوى لا يجوز أن تتجه إليه نية التوبة .

وعلى كل عضو من أعضاء الانسان توبة ، فتوبة العين : كفها عن النظر إلى المحارم ، وتوبة السمع : كفه عن سماع المحرم ، وتوبة اليد : كفها عن تناول المحرم ، وتوبة القدمين : كفهما عن السعى إلى المحرم ، وتوبة الفرج : كفه عن الزنا ، وهكذا جميع الجوارح ، حتى العقل له توبة ، وهى كفه عن التفكير فى المحرم ، واللسان يتوب فلا يدعو إلى مكروه عند الله ورسوله .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه فى (كتاب الدعوات) باب : فى فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله لعباده جـ ٥ صـ ٥٣٨ رقم ٣٥٤٠ .

وقال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

(٢) سورة التحريم من الآية : ٨

التوبة والعمل الصالح

كثير من الناس يظنون أن العمل الصالح مع البقاء على الذنوب ينفع الانسان عند الله ويقولون : إن هذا فى جانب السيئات ، وهذا فى جانب الحسنات ، ولعل ميزان الحسنات يرجح على ميزان السيئات فيفلح العبد غداً عند الله .

وقد عنى الحارث المحاسبى بهذه القضية أشد العناية ، وفصل القول فيها فى كتابه المخطوط ، « آداب النفوس » وخلاصة ما قاله :

إن تطهير النفس من السيئات بالتوبة أفضل وأولى بالعبد من عمل النوافل وأعمال البر الأخرى ، وهو يقيم على المعاصى للأسباب الآتية :

١ ــ أن قبول الله لأعمال البر من عبد مقيم على المعصية غير محقق ، لأن النفس المشغولة بلذة المعاصى قلما تخلص عمل الخير ، فضلا عن أن محل النية وهو القلب ملوث بالشهوات ، فيستحيل أن يخلص العمل الصالح إذا كثر عليه الران من تتابع الذنوب وتشبعه بها .

٢ ــ إن الإنسان مطالب بترك الشر كله . وليس مطالباً بفعل الخير كله ، وعلى هذا أصبح ترك الشر فى المنزلة الأولى الواجبة على الانسان .

٣ ــ إن ترك الشر يوقع الإنسان فى الخير من تلقاء نفسه ، فالتائب عن الزنا : يصبح عفيفاً ، والتائب عن الكبر : يصبح متواضعاً ، والتائب عن البخل : يصبح كريماً ، والتائب عن الكذب : يصبح صادقًا وهكذا جميع السيئات ، يتوب منها فاعلها ، فيقع فى أضدادها وهى فضائل صالحة .

٤ ــ لا خير فى عمل من أعمال البر خالطه الشر فى قلب واحد ، فعمل البر إذا خالطه الشر أصبح شراً ، والشر شر كله .

وعلى هذا فهو يرى أن إقامة العبد على خصلة واحدة من الشر يفرغ نفسه للتوبة منها ، ويتقن هذه التوبة ، ويجاهد لاقتلاع جذورها من القلب ويشغل نفسه بها ليل نهار ، مع القيام بالفرائض وحدها ، خير ألف مرة من عمل البر وهو مقيم على تلك الخصلة من الشر ، فإذا تاب من هذه الخصلة اتجه إلى غيرها ، وهكذا حتى يقتلع جميع الجذور الشريرة من قلبه ، فيصبح قلبه خالصاً صافياً ، تصدر عنه أعمال الخير بنية صالحة مقبولة عند الله ، وهذا هو معنى الآية الكريمة ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** ﴾[1] . فقدم الله تعالى التوبة ، وهى اقتلاع جذور

(١) سورة الفرقان من الآية : ٧٠

الشر والمعصية من القلب أولاً . ثم أتبعها بالايمان ، وكأن العاصى يحتاج إلى تحقيق أمنه إلى جوار الله بدلا من أمنه فى جوار الشهوات التى أفسدت عقيدته فى الله ، وأتبع ذلك بالعمل الصالح ، وهو آخر ما يجب على التائب ، فالعمل الصالح حينئذ يصدر عن قلب تائب مؤمن ، وحينئذ تحل الصفات المضادة لخصال الشر محل خصال الشر كما قلنا ، وتلك هى الحسنات مكان السيئات كما جاء فى الآية الكريمة .

الإصرار على الذنب ، توبة الكذابين

معنى الإصرار : أن تبقى فى القلب حلاوة المعصية ، وتمنى مقارفتها ما وجد السبيل إليها ، فالشعور بالرغبة النفسية فى المعصية ، وعقد القلب على حبها إصرار عليها ، وعلى هذا فالتوبة منها مع بقاء هذه اللذة فى القلب ، وتمنى ارتكابها إن وجد إليها السبيل ، وحديث النفس الدائم بلذتها ، هذه التوبة تسمى توبة الكذابين ، وهى التى وصف أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ صاحبها بأنه كالمستهزىء بربه . **فهى** توبة غير مقبولة ، فضلاً عن إثم المخادعة لله الذى يرتكبه هذا التائب .

ولكن ، ماذا يصنع الذى انعقد قلبه على حب المعاصى ، فانغمس فيها ؟ لا طريق له إلا طريق الجهاد الشاق للنفس .. ، وعليه قبل ذلك أن يهجر أماكن السوء ، وأصدقاء المعصية ، وأن يحافظ على ورد من القرآن كل يوم ، وأن يقرأ تواريخ الصحابة والتابعين والصالحين ، وأن يدمن الدعاء فى أوقات الاجابة ، ولا سيما فى جوف الليل : أن يرزقه الله التوبة النصوح ، فإن الله تعالى : مجيب من دعاه ويغيث من اضطر إليه ، غافر الذنب ، قابل التوب ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون** ﴾ .

(من كتاب التوبة للحارث المحاسبى تحقيق الشيخ / عبد القادر أحمد عطا) .

قوله تعالى : ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ، والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ .

قال ابن جرير : معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم فهو سبحانه يجيب الذين آمنوا إذا دعوه ، ويزيدهم من فضله على ما طلبوه بالدعاء ، وقال قتادة : عن ابراهيم النخعى فى قوله عز وجل : ﴿ **ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ قال يشفعون فى إخوانهم ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ : قال : يشفعون فى إخوان إخوانهم .

وقوله عز وجل : ﴿ **والكافرون لهم عذاب شديد** ﴾ : لما ذكر سبحانه المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ، ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم :

أحكام وعبر

* وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ
خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ
﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ
قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم
بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ
فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ
فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾

معانى المفردات

(البسط) : السعة ، (البغى) : الظلم ومجاوزة الحد ، (بقدر) : أى بتقدير (الغيث) : المطر (قنط) : يئس ، (ورحمته) : هى منافع الغيث وآثاره التى تعم الحيوان والنبات والسهل والجبل . (الولى) : هو الذى يتولى عباده بالإحسان ، (الحميد) : أى المستحق للحمد على نعمه ، (بث) : نشر وفرّق ، (والدابة) : كل ماله دبيب وحركة ، (على جمعهم) : أى حين الحشر والحساب . (بمعجزين) : أى بجاعلين الله — تعالى — عاجزاً بالهرب منه ، (الجوارى) : أى السفن الجارية ، (الأعلام) : واحدها علم : وهو الجبل . (يسكن الريح) : أى يجعلها ساكنة لا تموج ، (رواكد) : أى ثوابت ، (الصبار) : كثير الصبر ، (الشكور) : أى كثير الشكر للنعم ، (يوبقهن) : أى يهلكهن . (محيص) : أى مهرب ومخلص .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه : فيما سلف أن يجيب دعاء المؤمنين إذا هم أنابوا إليه وأخبتوا ، ذكر هنا أنه لا يعطيهم كل ما يطلبون من الأرزاق ، بل ينزلها بقدر بحسب ما يعلم من مصلحتهم ، فإن كثرة الرزق تجعل الناس يتجبرون ويتكبرون ، والله هو الخبير بما يصلح حالهم من فقر وغنى ، ثم أعقب هذا بأنهم إذا احتاجوا إلى الرزق لا يمنعه منهم وهو المتولى أمورهم بإحسانه المحمود على ما يوصل للخلق من صنوف الرحمة ، ثم أقام الأدلة على ألوهيته بخلقه للسموات والأرض وما فيهما من الحيوان ، ثم جمعهم للحساب يوم القيامة ، ثم ذكر أن مايصيب الانسان من نكبات الدنيا من الأمراض والأسقام والفقر والغنى فبكسب الانسان واختياره ، كما دلت على صدق ذلك التجارب ، ثم أعقب ذلك بآية أخرى على ألوهيته وهى جريان السفن فى البحار ، فتارة : يجعل الريح ساكنة فتظل السفن على سطحها ، وأخرى تعصف الرياح فتفرقها ، أو تنجو بحسب تقديره تعالى : ــ

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير** ﴾ :

أى أنه تعالى خبير بما يصلح عباده من توسيع الرزق وتضييقه ، فيقدر لكل منهم ما يصلحه ، فيبسط ويقبض ، ويعطى ويمنع . ولو أغناهم جميعاً لبغوا ولو أفقرهم جميعاً لهلكوا . قال قتادة : يقال خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك . وفى الأثر : « إن من عبادى من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادى من لا يصلحه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه »[١] ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً** ﴾[٢] ، وكقوله تعالى : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد** ﴾ : أى وهو الذى ينزل المطر من السماء فيغيثهم به من بعد يأسهم من نزوله حين حاجتهم إليه ، وينشر بركات الغيث ومنافعه وما يحصل به من الخصب ، وهو الذى يتولى عباده بإحسانه ويحمد على ما يوصله

---

(١) انظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة الشورى) آية : ٢٧ جـ ٧ صـ ١٩٤ .
(٢) سورة الإسراء الآية : ٣٠
(٣) سورة العنكبوت الآية : ٦٢

إليهم من رحمته . قال قتادة : ذكر لنا أن رجلا قال لعمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ محط المطر وقنط الناس يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : مُطِرتم ثم قرأ : ﴿ **وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد** ﴾ .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾ [١] . وكقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ، لنحى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسىَّ كثيراً** ﴾[٢]، وكقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته** ﴾[٦] الآية وكقوله تعالى : ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ، وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ، فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شىء قدير ولئن أرسلنا ريحاً فرأوه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة ، وسلطانه القاهر ﴿ **خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة** ﴾ : أى ذرأن فيهما أى فى السموات والأرض ﴿ **من دابة** ﴾ : وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرّقهم فى أرجاء أقطار السموات والأرض ، ﴿ **وهو** ﴾ سبحانه : مع هذا كله ﴿ **على جمعهم إذا يشاء قدير** ﴾ : أى يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق فى صعيد واحد يسمعهم الداعى ، وينفذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق ، ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾[٥] وكقوله تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . إن الله سميع بصير** ﴾[٦] وكقوله تعالى : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾[٧]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٥٧

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٤٨ ، ٤٩

(٣) سورة الروم الآية : ٤٦

(٤) سورة الروم من الآية : ٤٨ ـــ ٥١

(٥) سورة الأنعام الآية : ٣٨

(٦) سورة لقمان الآية : ٢٨

(٧) سورة (يس) الآية ٥٣

وكقوله جلت قدرته : ﴿ **إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير** ﴾[١] . وكقوله عز وجل : ﴿ **ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين ، وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم** ﴾[٢] .

وقوله عز وجل : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾ : أى مهما أصابكم أيها الناس من المصائب فإنما من سيئات تقدمت لكم ، ﴿ **ويعفو عن كثير** ﴾ : أى من السيئات فلا يجازيكم عليها بل يعفو عنها ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة** ﴾[٣] ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة** ﴾[٤] وفى الحديث الصحيح « والذى نفسى بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا وكفَّر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها »[٥] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن على ـــ رضى الله عنه ـــ قال : « ألا أخبركم بأفضل آية فى كتاب الله ـــ عز وجل ـــ وحدثنا به رسول الله ﷺ ؟ قال « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير »[٦] وسأفسرها لك يا على . ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء فى الدنيا فبما كسبت أيديكم والله تعالى أحلم من أن يثنى عليه العقوبة فى الآخرة ، وما عفا الله عنه فى الدنيا ، فالله ـــ تعالى ـــ أكرم من أن يعود بعد عفوه » ، وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى بردة عن معاوية : هو ابن أبى سفيان ـــ رضى الله عنهما ـــ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من شىء يصيب المؤمن فى جسده يؤذيه ، إلا كفر الله ـــ تعالى ـــ عنه به من سيئاته »[٧] وقال الإمام أحمد أيضاً : عن مجاهد عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها ابتلاه الله تعالى بالحزن ليكفرها »[٨] .

وروى ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال : فى قوله تعالى : ﴿ **وما أصابَكُمْ من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ قال : لما نزلت قال رسول الله ﷺ : « والذى نفس محمد بيده ما من خدش عود ولا اختلاج عرق ولا عثرة قدم إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر »[٩]

(١) سورة (ق) الآيتان : ٤٣ ، ٤٤
(٢) سورة الحجر الآيتان : ٢٤ ، ٢٥
(٣) سورة النحل من الآية : ٦١
(٤) سورة فاطر من الآية : ٤٥
(٥) أخرجه البخارى فى (كتاب المرضى) باب : ما جاء فى كفارة المرض جـ ٦ صـ ١٤٨ ، ١٤٩ ، ومسلم فى (كتاب البر) باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض جـ ٨ صـ ١٥
(٦) انظر تفسير سورة الشورى آية ٣٠ جـ ٧ صـ ١٩٥ وقال : رواه ابن أبى حاتم عن على .
(٧) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ـــ من رواية أبى سفيان جـ ٤ صـ ٩٨
(٨) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ـــ مسند عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ جـ ٦ صـ ١٥٧
(٩) انظر تفسير ابن كثير جـ ٧ صـ ١٩٥ ، ١٩٦ تفسير سورة الشورى وقال : أخرجه ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى .

وقال أيضا : بسنده عن الضحاك قال : ما نعلم أحداً حفظ القرآن ثم نسيه إلا بذنب . ثم قرأ الضحاك : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير** ﴾ ، ثم يقول الضحاك : وأى مصيبة أعظم من نسيان القرآن . وقوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين فى الأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير** ﴾ : أى إن ما قضاه الله عليكم واقع بكم لا محالة ولا مفر منه وما لكم من دون الله ولى يليكم بالدفاع عنكم ، ولا لكم نصير ينصركم إذا هو عاقبكم فينتصر لكم .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير ، ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ماهم من محيص** ﴾ .

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة ، وسلطانه وتسخيره البحر لتجرى فيه الفلك بأمره ، وهى الجوارى فى البحر كالأعلام : أى كالجبال ﴿ **إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره** ﴾ : أى التى تسير فى البحر بالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن بل تبقى راكدة لا تجىء ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره : أى على وجه الماء .

﴿ **إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ : أى (هباء) فى الشدائد ﴿ **شكور** ﴾ : أى فى الرخاء .

قال الإمام ابن القيم فى شكر النعمة والصبر على المحنة : الشكر : مبنى على ثلاثة أركان : الاعتراف بها باطناً ، والتحدث بها ظاهراً ، وتصريفها فى مرضاة وليها ومسديها ومعطيها ، فإذا فعل ذلك فقد شكرها ــ أى النعمة ــ مع تقصيره فى شكرها . والصبر : حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية . كاللطم ، وشق الثياب ، ونتف الشعر ونحوه ، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام به العبد كما ينبغى انقلبت المحنة فى حقه منحة ، وتحولت البلية عطية ، وصار المكروه محبوباً ، فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن لله ــ تعالى ــ على العبد عبودية فى الضراء ، كما له عبودية فى السراء ، وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون ، والشأن فى إعطاء العبودية فى المكاره ، ففيه تفاوت مراتب العباد ، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى .

وقوله عز وجل : ﴿ **أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير** ﴾ : أى لو شاء سبحانه لأرسل الريح قوية عاتية فأخذت السفن وأحالتها عن سيرها المستقيم ، فصرفتها ذات اليمين أو ذات الشمال ،

آبقة لا تسير على طريق ، ولا إلى جهة مقصد ، وأغرقها بذنوب أهلها الذين هم راكبون فيها . ﴿ **ويعف عن كثير** ﴾ : أى من ذنوبهم ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر . ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ **ربكم الذى يُزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما ، وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ، أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ، أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا** ﴾(١) وكقوله تعالى : ﴿ **ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمت الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ، وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور** ﴾(٢) .

وكقوله تعالى : ﴿ **هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون** ﴾(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **ويعلم الذين يجادلون فى آياتنا ما هم من محيص** ﴾ : أى وليعلم الذين ينازعون فى آياتنا على جهة التكذيب لها أنه لا مخلص لهم إذا وقفت السفن ، أو إذا عصفت الريح ، فيصير ذلك سبباً لاعترافهم بأن النافع الضار ليس إلا الله ــ تعالى ــ ، ولا محيد لهم عن بأس الله ونقمته ، فإنهم مقهورون بقدرته سبحانه وتعالى .

---

(١) سورة الإسراء الآيات : ٦٦ ــ ٦٩

(٢) سورة لقمان الآيات : ٣١ ، ٣٢

(٣) سورة يونس من الآية : ٢٣

الزهد والشورى والعفو

قال تعالى :

فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ
فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ
﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾

معانى المفردات

(آتاه الشيء) : أعطاه إياه ، (والمتاع) : ما ينتفع ويتمتع به من رياش وأثاث ونحوهما . (يتوكلون) : يفوضون إليه أمورهم ، (كبائر الإثم) : هى كل ما يوجب حداً ، (الفواحش) : هى ما فحش وعظم قبحه كالزنا والقتل ونحوهما ، (استجابوا) : أى أجابوا داعى الله ، فأدوا فرائضه وتركوا نواهيه ، (الشورى) : الشورى والمشاورة : المراجعة فى الآراء ليتبين الصواب منها ، (البغى) : الظلم ، (ينتصرون) : أى ينتقمون ، (السيئة) : مأخوذة من السوء ، وهو القبيح ، (انتصر) : أى سعى فى نصر نفسه بجهده : (من سبيل) : أى من عقاب ولا عقاب ، (لمن عزم الأمور) : أى : لمن الأمور المشكورة والأفعال التى ندب إليها عباده ، ولم يرخص بالتهاون فيها .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل توحيده ، وعظيم قدرته وسلطانه ــ أردف التنفير من الدنيا وزخرفها ، لأن المانع من النظر فى الأدلة إنما هو الرغبة فيها طلبا للرياسة والجاه ، ثم أبان أن ما عند الله خير وأبقى لمن

آمن به ، وتوكل عليه ، واجتنب كبائر الذنوب والفواحش ، وكان منقادا له مطيعا لأوامره تاركا لنواهيه ، وأقام الصلاة وأتى الزكاة ، ولم يبرم أمراً إلا بعد مشورة وانتصر لنفسه ممن ظلمه ، وذكر سبحانه أن ذلك الإنتصار مقيد بالمثل ، لأن النقصان حيف ، والزيادة ظلم ، والتساوى هو العدل ، ثم ندب إلى العفو ، ثم ذكر أنه لا مؤاخذة على من ينتصر لنفسه ، وإنما المؤاخذة على من يظلم الناس ، ويبغى فى الأرض بغير الحق ، وأن العفو وغفران السيئة مما حث عليه الدين ، وأجزل ثواب فاعله .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين أمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ .

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهرة والنعيم الفانى بقوله تعالى ﴿ **فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا** ﴾ أى مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به فإنما هو متاع الحياة الدنيا وهى دار دنيئة فانية زائلة لا محالة ﴿ **وما عند الله خير وأبقى** ﴾ أى ثواب الله تعالى خير من الدنيا وهو باق سرمدى فلا تقدموا الفانى على الباقى ولهذا قال سبحانه ﴿ **للذين آمنوا** ﴾ أى للذين صبروا على ترك الملاذ فى الدنيا ﴿ **وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ أى ليعينهم على الصبر فى أداء الواجبات وترك المحرمات . ومثل الآية قوله تعالى : ﴿ **وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون** ﴾[1] فالدنيا دار من لا دار له ولها يجمع من لا عقل له .

وقد قال الإمام النووى فى مقدمة كتابه رياض الصالحين : قال الله تعالى ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾[2] وهذا تصريح بأنهم خلقوا للعبادة ، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له ، والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة ، فإنها دار نفاد لا محل إخلاد ، ومركب عبور لا منزل حُبُور ، ومَشرَعُ انفصام لا موطن دوام ، فلهذا كان الأيقاظ من أهلها هم العبَّاد ، وأعقل الناس فيها هم الزهاد ، قال تعالى ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا**

---

(١) سورة القصص آية ٦٠

(٢) سورة الذاريات آية ٥٦ ، ٥٧

ليلاً أونهاراً فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾[١] والآيات فى هذا المعنى كثيرة ولقد أحسن القائل :

إن لله عبـــاداً فطنـــا   طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظـروا فيها فلمـا علمـوا   أنها لـيست لحى وطنـا
جعلوهــــا لجة واتخذوا   صالح الأعمال فيها سفنـا

فإذا كان حالها ما وصفته ، وحالنا وما خلقنا له ما قدمته ، فحق على المكلف أن يذهب بنفسه مذهب الأخيار ، ويسلك سلك أولى النهى والأبصار ، ويتأهب لما أشرت إليه ، ويهتم بما نبهت عليه . وأصوب طريق له فى ذلك وأرشد ما يسلكه من المسالك : التأدب بما صح عن نبينا سيد الأولين والآخرين ، وأكرم السابقين واللاحقين ، ـــ صلوات الله عليه وعلى سائر النبين ـــ أ هـ

فضل الزهد فى الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر

عن أبى سعيد الخدرى ـــ رضى الله عنه ـــ قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال . « إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يُنتج عليكم من زهرة الدنيا وزينتها »[٢] متفق عليه .

وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها . فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء »[٣] رواه مسلم .

عن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ﷺ قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »[٤] متفق عليه .

---

(١) سورة يونس آية ٢٤

(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٧٢٨ ، ٧٢٩ كتاب الزكاة باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا رقم ١٢٣ / ١٠٥٢ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٠٩٨ كتاب الذكر والدعاء . باب أكثر أهل الجنة الفقراء ، وأكثر أهل النار النساء ، وبيان الفتنة بالنساء . رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٥ صـ ٤٢ كتاب فضائل الصحابة باب دعاء النبى ﷺ أصلح الأنصار والمهاجرة الحديث صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٣١ كتاب الجهاد والسير . باب غزوة الأحزاب

وعنه عن رسول الله ﷺ قال : « يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله : فيرجع اثنان ، ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله »(١) متفق عليه .

وعنه قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيصبغ فى النار صبغة ، ثم يقال : ياابن آدم هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا والله يارب ، ويؤتى بأشد الناس بؤساً فى الدنيا ، من أهل الجنة ، فيصبغ فى الجنة ، فيقال له : ياابن آدم هلى رأيت بؤسا قط ؟ ولا رأيت شدة قط فيقول : لا والله يارب : ما مر بى بؤس قط . ولا رأيت شدة قط »(٢) رواه مسلم .

وعن المستورد بن شداد ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه فى اليم ، فينظر بم يرجع ؟ »(٣) رواه مسلم .

وعن جابر ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ مر بالسوق ، والناس كنفتيه ، فمر بجدى أسك ميت ، فتناوله ، فأخذ بأذنه ، ثم قال « أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ » فقالوا : ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟ ثم قال « أتحبون أنه لكم ؟ قالوا : والله لو كان حياً كان عيباً ، لأنه أسك . فكيف وهو ميت ؟ فقال « فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم »(٤) رواه مسلم . (كنفتيه : جانبيه ، الأسك : الصغير الأذن)

وعن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : أخذ رسول الله ﷺ بمنكبى فقال : « كن فى الدنيا كأنك غريب ، أو عابر سبيل »(٥)

وكان ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ يقول : إذا أمسيت ، فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك »(٦) رواه البخارى

قالوا فى شرح هذا الحديث معناه : لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنا ولا تُحدث نفسك بطول البقاء فيها ، ولا بالاعتناء بها ، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب فى غير وطنه ــ ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذى يريد الذهاب إلى أهله . وبالله التوفيق .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرقائق رقم ٢٩٦٠/٥ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٦٢ . كتاب صفات المنافقين وأحكامهم . باب منبع نعم أهل الدنيا فى النار رقم ٢٨٠٧/٥٥
(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢١٩٣ كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب فناء الدنيا رقم ٥٥ / ٢٨٥٨
(٤) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٧٢ كتاب الزهد والرقائق رقم ٢ /٢٩٥٦
(٥) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ١١٠ كتاب الرقاق باب كن فى الدنيا كأنك غريب
الحديث فى كشف الخفاء حـ ٢ ١٩٤ــ رقم ٢٠٢٣ .
(٦) الحديث فى صحيح البخارى . حـ ٨ صـ ١١٠ كتاب الرقاق . باب كن فى الدنيا كأنك غريب .

وعن النعمان بن بشير ــ رضى الله عنهما ــ قال : ذكر عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ ما أصاب الناس من الدنيا ، فقال : لقد رأيت رسول الله ﷺ ، يظل اليوم يلتوى ما يجد من الدَّقل ما يملأ به بطنه »[1] رواه مسلم

(الدقَل : بفتح الدال المهملة والقاف : ردىء التمر)

وعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : تُوفى رسول الله ﷺ وما فى بيتى من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رفٍ لى ، فأكلت منه ، حتى طال علىّ ، فكلته ففنى »[2] متفق عليه .

(شطير شعير : أى شىء من شعير ، كذا فسره الترمذى)

وعن سهل بن سعد الساعدى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافراً منها شربة ماء »[3] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى وما والَاه ، وعالماً ومتعلماً »[4] رواه الترمذى وقال حديث حسن .

وعن عبد الله بن الشِّخِّير « بكسر الشين والخاء المشددة المعجمتين » ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يقرأ ﴿ **أهاكم التكاثر** ﴾ قال : « يقول ابن آدم مالى ، مالى ، وهل لك يابن آدم من مالك ، إلا ماأكلت ، فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أوِ تصدقت فأمضيت ؟ »[5] رواه مسلم .

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثر فى جنبه ، قلنا : يارسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال « مالى وللدنيا ؟ ماأنا فى الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها »[6] رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٨٤ كتاب الزهد والرقائق رقم ٣٤ / ٢٩٧٧ ، ٣٦ /٢٩٧٨ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٨٢ ، ٢٢٨٣ كتاب الزهد والرقائق رقم ٢٧ /٢٩٧٣

(٣) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٣ صـ ٣٨٣ أبواب الزهد . باب ما جاء فى هوان الدنيا على الناس . رقم ٢٤٢٢ وقال : هذا حديث صحيح غريب .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٣ صـ ٣٨٤ أبواب الزهد . باب ما جاء فى هوان الدنيا على الناس . رقم ٢٤٢٤ . وقال : هذا حديث حسن غريب .

(٥) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٧٣ كتاب الزهد والرقائق رقم ٣ /٢٩٨ .

ــ انظر سنن الترمذى حـ ٤ أبواب الزهد . رقم ٢٤٤٥ .

(٦) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٤ صـ ١٧ أبواب الزهد . رقم ٢٤٨٣ .

وعن ابن عباس وعوان بن الحصين — رضى الله عنهم — عن النبى ﷺ قال : « اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء »[1] متفق عليه .

[النووى : رياض الصالحين]

وقال بعض السلف « الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها »

وذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقال على : الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها . مهبط وحيِ الله ، ومصلّى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومَتجُر أوليائه رَبحوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ترغيبا وترهيبا .

قال المأمون : لو سئلت الدنيا عن نفسها ما أحسنت أن تصف نفسها صفة أبى نواس فى هذا البيت :

إذا اختبر الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق .

قوله تعالى ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون** ﴾

أى وهؤلاء المؤمنون هم الذين يجتنبون كبائر الذنوب كالشرك والقتل وعقوق الوالدين ويجتنبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن قال السدى (الفواحش) يعنى الزنا . قال الحافظ الذهبى : الكبائر ما نهى الله ورسوله عنه فى الكتاب والسنة والأثر عن السلف الصالحين ، وقد ضمن الله تعالى فى كتابه العزيز لمن اجتنب الكبائر والمحرمات أن يكفر عنه الصغائر من السيئات لقوله تعالى ﴿ **إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريما** ﴾[2] فقد تكفل الله تعالى بهذا النص لمن اجتنب الكبائر أن يدخله الجنة ، وقال تعالى ﴿ **والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾

وقال تعالى : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة** ﴾[3] .

وقال رسول الله ﷺ « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان

(١) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٠٩٦ كتاب الذكر والدعاء رقم ٩٤ / ٢٧٣٧
(٢) سورة النساء آية ٣١
(٣) سورة النجم آية ٣٢

مكفرات لما بينهن إذا اجتنب الكبائر ﴾[1] . فتعّين علينا الفحص عن الكبائر ، ما هى ؟ لكى يجتنبها المسلمون ، فوجدنا العلماء رحمهم الله تعالى قد اختلفوا فيها ، فقيل هى سبع واحتجوا بقول النبى ﷺ : « اجتنبوا السبع الموبقات ﴾[2] فذكر منها : الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل مال اليتيم ، وأكل الربا والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات . وقال ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ : (هى إلى السبعين أقرب منها إلى السبع ، وصدق والله ابن عباس . وأما الحديث فما فيه حصر الكبائر ، والذى يتجه ويقوم عليه الدليل أن من ارتكب شيئاً من هذه العظائم مما فيه حد فى الدنيا كالقتل والزنا والسرقة ، أو جاء فيه وعيد فى الآخرة من عذاب أو غضب أو تهديد ، أو لُعن فاعله على لسان نبينا محمد ﷺ فإنه كبيرة ولابد من تسليم أن بعض الكبائر أكبر من بعض . ألا ترى أنه ﷺ عدَّ الشرك بالله من الكبائر ، مع أن مرتكبه مخلد فى النار ولا يغفر له أبداً قال الله تعالى ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[3] أ هـ

هذا وقد ذكر الامام الذهبى فى كتابه سبعين كبيرة :

(١) الشرك بالله ، (٢) قتل النفس (٣) السحر (٤) ترك الصلاة (٥) منع الزكاة (٦) إفطار يوم من رمضان بلا عذر (٧) ترك الحج مع القدرة عليه (٨) عقوق الوالدين (٩) هجر الأقارب (١٠) الزنى (١١) اللواط (١٢) الربا (١٣) أكل مال اليتيم وظلمه (١٤) الكذب على الله وعلى رسوله (١٥) الفرار من الزحف (١٦) غش الامام الرعية وظلمه لهم (١٧) الكبر (١٨) شهادة الزور (١٩) شرب الخمر (٢٠) القمار (٢١) قذف المحصنات الغافلات المؤمنات (٢٢) الغلول من الغنيمة (٢٣)السرقة (٢٤) قطع الطريق (٢٥) اليمين الغموس (٢٦) الظلم (٢٧) المكاس (٢٨) أكل الحرام (٢٩) الانتحار (٣٠) الكذب فى غالب أقواله (٣١) القاضى بالسوء (٣٢) أخذ الرشوة على الحكم (٣٣) تشبه النساء بالرجال وتشبه الرجال بالنساء (٣٤) الديوث المستحسن على أهله والقواد الساعى بين الاثنين بالفساد (٣٥) المحِلل والمحلَل له (٣٦) عدم التنزه من البول (٣٧) الرياء (٣٨) التعلم للدنيا وكتمان العلم (٣٩) الخيانة (٤٠) المنَّان (٤١) التكذيب بالقدر (٤٢) التَّسمع على الناس (٤٣) النَّمام (٤٤) اللَّعان (٤٥) الغدر وعدم الوفاء بالعهد (٤٦) تصديق الكاهن والمنجم (٤٧) نشوز المرأة على زوجها (٤٨) التصوير (٤٩) اللطم والنياحة وشق الثوب وحلق الرأس ونتفه والدعاء بالويل والثبور عند المصيبة (٥٠) البغى (٥١) الاستطالة على الضعيف والمملوك والجارية والزوجة والدابة (٥٢) أذى الجار (٥٣) أذى المسلمين وشتمهم (٥٤) أذية عباد الله والتطول عليهم (٥٥) إسبال الإزرار والثوب واللباس والسراويل تعززاً وعجباً وفخراً وخيلاء (٥٦) لبس الحرير والذهب للرجال (٥٧) إباق

---

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ٢ صـ ٤٠٠ مسند أبى هريرة .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ١ صـ ٩٢ كتاب الإيمان . باب بيان الكبائر وأكبرها رقم ١٤٥ /٨٩ .
(٣) سورة النساء آية ١١٦

العبد (٥٨) الذبح لغير الله عز وجل — (٥٩) فيمن ادعى إلى غير أبيه وهو يعلم (٦٠) الجدال والمراء واللدد (٦١) منع فضل الماء (٦٢) نقص المكيال والميزان (٦٣) الأمن من مكر الله (٦٤) الإياس من روح الله (٦٥) تارك الجماعة فيصلى وحده من غير عذر (٦٦) الإصرار على ترك الجمعة والجماعة من غير عذر (٦٧) الإضرار فى الوصية (٦٨) المكر والخديعة (٦٩) من حّبس على المسلمين ودل على عورتهم (٧٠) سب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم .

قوله تعالى ﴿ **وإذا ما غضبوا هم يغفرون** ﴾ مازال الحديث عن صفات أبناء الآخرة الذين يخشون ربهم ويخافون سوء العذاب ، فمن محاسن أخلاقهم أنهم يشفقون على ظالمهم ويصفحون لمن جهل عليهم ، يطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه ، لقوله تعالى ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[١]

وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله[٢] .

صور من أخلاق الرسول الكريم

وروى أن النبى ﷺ لما كسرت رباعيته وشُج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقا شديدا وقالوا لو دعوت عليهم فقال « إنى لم أبعث لعاناً ، ولكنى بعثت داعيا ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون »[٣] قال القاضى أبو الفضل رحمه الله : انظر ما فى هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم ، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال اغفر أو اهد ، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله لقومى ، ثم أعتذر عنهم بجهلهم فقال فإنهم لا يعلمون ، ولما قال له الرجل أعدل فإن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله لم يزده فى جوابه أن بيّن له ما جهله ووعظ نفسه وذكّرها بما قال له : [فقال : ويحك ! !

(١) سورة آل عمران آية ١٣٤

(٢) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٤ صـ ٢٣٠ كتاب المناقب باب صفحة النبى ﷺ انظر صحيح مسلم حـ ٤ صـ ١٨١٣ كتاب الفضائل . باب مباعدته ﷺ من الآثام . رقم ٧٧ / ٢٣٢٧ .
— وانظر سنن أبى داود حـ ٥ صـ ١٤٢ كتاب الأدب . باب التجاوز فى الأمر رقم ٤٧٨٥ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٠٠٧ كتاب البر والصلة . باب النهى عن لعن الدواب . رقم ٨٧ / ٢٥٩٩ .

فمن يعدل إن لم أعدل ؟ خبت وخسرت إن لم أعدل][1] . ونهى من أراد من أصحابه قتله ، ولمَّا تصدى له غورث بن الحارث ليفتك به ورسول الله ﷺ جالس تحت شجرة وحده قائلاً والناس قائلون فى غزاة فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف مسلول فى يده فقال من يمنعك منى ؟ فقال : [الله ، فسقط السيف من يده ، فأخذه النبى ﷺ وقال من يمنعك منى ؟ قال كن خير آخذ ، فتركه وعفا عنه فجاء إلى قومه فقال جئتكم من عند خير الناس »[2]

وعن أنس — رضى الله عنه — كنت مع النبى ﷺ وعليه بُرد غليظ الحاشية فجبذه أعرابى بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البُرد فى صفحة عاتقه ثم قال يا محمد أحمل لى على بعيرى هذين من مال الله الذى عندك فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك ، فسكت النبى ﷺ ثم قال : « المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى ، قال ، لا ، قال « لم » ؟ قال لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة فضحك النبى ﷺ ثم أمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى الآخر تمر »[3] قالت عائشة — رضى الله عنها — (ما رأيت رسول الله ﷺ منتصرا من مظلمة ظلمها قط ما لم تكن حُرمة من محارم الله وما ضرب بيده شيئا قط إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما ضرب خادما ولا امرأة)[4] والحديث عن حلمه ﷺ وصبره وعفوه عند المقدرة أكثر من أن نأتى عليه وحسبك صبره على قسوة قريش ! وأذى أهل الجاهلية ، فلما نصره الله عليهم وحكّمه فيهم قال : (يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا . أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء أقول كما قال أخى يوسف (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم . وهو أرحم الراحمين)[5]

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها ، وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يُغْرَى بهن ويولع الكرماء

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٤ صـ ٢٤٣ كتاب علامات النبوة فى الإسلام بلفظ ويلك ...... الخ
— انظر صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٧٤٤ كتاب الزكاه . باب ذكر الخوارج وصفاتهم رقم ١٤٢ — ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ بلفظ ويلك ..... الخ .
(٢) الحديث فى الدار المنشور فى تفسير المأثور (تفسير سورة المائدة) حـ ٣ صـ ١١٩ انظر مسند الإمام أحمد حـ ٣ صـ ٣٩٠ مسند جابر
(٣) الحديث فى سنن النسائى حـ ٨ صـ ٣٣ ، ٣٤ كتاب القسامة . باب القود من الجبذة .
— انظر صحيح البخارى حـ ٧ صـ ١٨٩ كتاب اللباس . وكذلك حـ ٨ صـ ٢٩ كتاب الأدب .
— وانظر صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٧٣٠ ، ٧٣١ كتاب الزكاة . باب إعطاء من سأل بفحش . رقم ١٢٨ /١٠٥٧
(٤) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ٦ صـ ٣١ ، ٣٢ مسند عائشة
(٥) الحديث فى فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ٨ صـ ١٨ باب دخول النبى من أعلى مكة وانظر اتحاف السادة المتقين حـ ٨ صـ ٤١ .

قوله تعالى ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

والاستجابة لله معناها إجابة أمره ، وامتثال ماأوجب ، واجتناب مانهى ، فإن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها كما أنه تعالى حد حدودا فلاتعتدوها وحرم حرمات فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلاتسألوا عنها . وقد قيل لأعرابي لم آمنت بمحمد ؟ فقال بلسان اليقين ، ومنطق الحق المبين ، لأنه لم يأمر بشيء وقال العقل ليته ماأمر ولم ينه عن شيء وقال العقل ليته مانهى .

نعم إنه النبي الذي بعث لتوحيد العقائد لا لتفريق القواعد وجاء بشرع كان للشعوب البدائية كالأب الرحيم ، وللشعوب المتحضرة كالأستاذ العظيم ،

﴿ **يا أيها الذين أمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[1]

﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾[2]

﴿ **ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا** ﴾[3] .

﴿ **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولاتموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولاتفرقوا وأذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بماكنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وماالله يريد ظلما للعالمين ، ولله مافي السموات ومافي الأرض وإلى الله ترجع الأمور ، كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[4] . ﴿ **يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا ، يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ، ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** ﴾[5] .

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٤

(٢) سورة الأنفال آية ٢٧

(٣) سورة النساء آية ١

(٤) سورة آل عمران الآيات من ١٠٢ — ١١٠

(٥) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠ ، ٧١

ما أعظم هذا الدين ، وما أحل قواعده

دين يشيد آية فى آية لبناته السورات والأضواء
الحق فيه هو الأساس وكيف لا والله جل جلاله البنّاء

ما أعظمك يارسول الله عندما تشخص الداء وما أروعك عندما تصف الدواء . لقد كانت المعرفة رأس مالك ، والعقل أصل دينك ، والحب أساسك ، والشوق مركبك ، وذكر الله أنيسك ، والثقة كنزك ، والحزن رفيقك ، والعلم سلاحك ، والصبر رداءك ، والرضا غنيتك ، والفقر إلى الله فخرك ، والزهد حرفتك ، واليقين قوتك ، والصدق شفيعك ، والطاعة حسبك ، والجهاد خلقك وجعلت قرة عينك فى الصلاة .

أشرق النور فى العوالم لما بشرتها بأحمد الأنباء
جاء للناس والسرائر فوضى لم يؤلف شتاتهن لواء
وحمى الله مستباح وشرعه والحق والصواب وراء
تلك آياى الفرقان أرسلها الله يهدى بها من يشاء
ولجبريل جيئة وذهاب وهبوط إلى الثرى وارتقاء
نسخت سنة النبين والرسل كما ينسخ الضياء الضياء

ومن وجوه الاستجابة لله أنهم أقاموا الصلاة ، والصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين لو لم تكن رأس العبادات ، لعُدت من صالحة العادات ، رياضة أبدان وطهارة أردان وتهذيب وجدان ، وشتى فضائل يشب عليها الجوارى والولدان ، أصحابها هم الصابرون والمثابرون ، وعلى الواجب هم القادرون ، عودتهم البكور ، وهو مفتاح باب الرزق ، وخير ما يعالج به العبد مناجاة الرازق ، وأفضل ما يرود به المخلوق التوجه إلى الخالق ، انظر جلال الجمع وتأمل أثرها فى المجتمع ، وكيف ساوت العلية بالزمع مست الأرض الجباه ، فالناس أكفاء وأشباه ، الرعية والولاة سواء فى عتبة الله ، خر الجمع للمناخر ، فالصف الأول كالآخر ، لم يرفع المتقدم تقدمُه ، ولم يضع المتأخر تأخُره فالكل عند الله من آدم وآدم من تراب .

كانت أمنا عائشة ــ رضى الله عنه ــ تقول : (كان رسول الله ﷺ يكلمنا ونكلمه ويحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لا يعرفنا ولا نعرفه) وكان الحسن ــ رضى الله عنه ــ يقول : « من أراد أن يكلم الله فليدخل الصلاة ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن » .

وقيل لحاتم الأصم – رضى الله عنه – كيف أنت إذ دخلت الصلاة فقال إذا دخلت الصلاة جعلت الكعبة أمامى ، والموت ورائى ، والجنة عن يمينى والنار عن شمالى والصراط تحت قدمى معتقدا أن الله مطلع علىّ ، ثم أتم ركوعها وسجودها ، فإذا سلمت لا أدرى أقبلها الله أم ردّها علىّ .

وبلغ من أهمية الصلاة وعلو مكانها ومكانتها أن جعلها العلامة ابن القيم من أسباب تفريج الهم والكرب والحزن فقد عقد رحمه الله فصلاً تحت عنوان (فى هدية ﷺ فى علاج الكرب والهم والغم والحزن) قال فيه :

أخرج فى الصحيحين من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش الكريم »(١)

وفى جامع الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ إذا حز به أمر قال : « ياحى ياقيوم برحمتك استغيث »(٢)

وفى سنن أبى داود عن أبى بكر أن رسول الله ﷺ قال دعوات المكروب ، اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله ، لا إله إلا أنت »(٣)

وفى مسند الإمام أحمد « عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « ما أصاب عبداً هم ولا حزن فقال : اللهم إنى عبدك ، ابن عبدك ابن أمتك ناصيتى بيدك ، ماض فى حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو انزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى وذهاب همى ، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحاً »(٤)

وفى الترمذى عن سعد بن أبى وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ « دعوة ذى النون ، إذ دعا ربه وهو فى بطن الحوت : لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ، لم يدع بها رجل مسلم فى شىء قط إلا استجيب له »(٥) .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ٩٣ كتاب الدعوات . باب الدعاء عند الكرب
– انظر صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء . باب دعاء الكرب . رقم ٨٣ / ٢٧٣٠.
(٢) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٥ صـ ٢٠١ أبواب الدعوات رقم ٣٥٩٣ . وقال : هذا حديث غريب .
(٣) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٥ صـ ٣٢٥ ، ٣٢٦ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح . رقم ٥٠٩٠ وقال محققه ، ونسبه المنذرى للنسائى .
(٤) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ١ صـ ٣٩١ مسند عبد الله
(٥) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٥ صـ ١٩١ أبواب الدعوات رقم ٣٥٧٢ .

وفى سنن أبى دواد عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ « من لزم الاستغفار ، جعل الله له من كل هم فرجا ، ومن كل ضيق مخرجا ورزقه من حيث لا يحتسب »[١] .

وفى المسند أن النبى ﷺ **كان إذا حَزَبَهُ** أمر ، فزع إلى الصلاة وقد قال تعالى ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾[٢] .. ويقول ، : وأما الصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة ودفع مفاسد الدنيا والآخرة ، وهى منهاة عن الإثم ، ودافعة لأدواء القلوب ومطردة للداء عن الجسد ، ومنورة للقلب ومبيضة للوجه ، ومنشطة للجوارح والنفس ، وجالبة للرزق ودافعة للظلم ، وناصرة للمظلوم ، وقامعة لأخلاط الشهوات وحافظة للنعمة ، ودافعة للنقمة ، ومنزلة للرحمة ، وكاشفة للغمة ، ونافعة من كثير من أوجاع البطن .

فإن لم ينشرح صدر زنديق الأطباء بهذا العلاج ، فيخاطب بصناعة الطب ، ويقال له : الصلاة رياضة النفس والبدن جميعا ، إذا كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب ، والركوع ، والسجود ، والتورك والانتقالات وغيرها من الأوضاع التى يتحرك معها أكثر المفاصل ، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة كالمعدة ، والأمعاء ، وسائر آلات النفس ، والغذاء ، فما ينكر أن يكون فى هذه الحركات تقوية وتحليل للمواد ، ولا سيما بواسطة قوة النفس وانشراحها فى الصلاة ، فتقوى الطبيعة ، فيندفع الألم ، ولكن داء الزندقة والإعراض عما جاءت به الرسل ، والتعوض عنه بالإلحاد داء ليس له دواء إلا نار تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذَّب وتولَّى .

مبحث فى الشورى

وصف الله المؤمنين الصادقين بصفات كريمة ، وشمائل رفيعة ، فهم ينسابون فى أخلاق أرق من النسيم ، وأنضر من صفحة الروض الوسيم ، إنهم الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، وهمُ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون . وهم الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، وهم الذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون .

إنهم تلك الكواكب الدرية ، والنجوم الزاهرة العلوية .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٢ صـ ١٧٨ ، ١٧٩ كتاب الصلاة رقم ١٥١٨ . وقال **محققه أخرجه النسائى . وابن ماجة** فى الأدب . باب الاستغفار رقم ٣٨١٩ . وأحمد فى مسند وإسناده صحيح والحكم بن **مصعب** ذكره ابن حبان **فى الثقات وترجمه البخارى** فى الكبير ١ ــ ٢ ــ ٣٣٦ فلم يذكر فيه جرحا .

ــ انظر حلية الأولياء حـ ٣ صـ ٢١١ ترجمة على بن عبد الله بن العباس . وقال محققه : **هذا حديث غريب من حديث محمد** بن على عن أبيه عن جده تفرد به عنه الحكم بن مصعب .

(٢) الحديث فى مسند أحمد حـ ٥ صـ ٣٨٨ مسند حذيفة

﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة وانفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار[١]. الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾[٢] .

ولما وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين بقوله ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ وجدنا لزاما علينا أن نفصل القول فى الشورى إذ هى مبدأ أصيل وركن ركين وحصن مكين وسياج منيع لحماية الأمة ، وهى أيضا حجر الزاوية ومحور الارتكاز والعنصر الفعال فى نظام الحكم فى الاسلام ، وقد جاء فى كتاب (فى النظام السياسى للدولة الاسلامية للدكتور محمد سليم العّوا) تحت عنوان

فى أهم المبادىء الدستورية الإسلامية

جاء ما نصه :

نناقش فى هذا المبحث أهم المبادىء السياسية (أو الدستورية) الإسلامية وهى ــ فى نظرنا ــ الشورى والعدل والحرية والمساواة ومدى جواز مساءلة الحاكم .

أولاً : الشورى

يعد مبدأ الشورى من أهم المبادىء الدستورية الإسلامية ، وتكاد المصادر الإسلامية التى عنيت ببحث المسائل المتعلقة بنظام الحكم فى الدولة الإسلامية أن تجمع على أهمية الشورى وتصدرها مبادىء الاسلام السياسية ، ويتناول بحثنا فى موضوع الشورى أدلة حجيتها ومدى وجوبها ، ونطاقها ، ومدى إلزام الرأى الذى تنتهى إليه الشورى (وهو البحث المعروف بعنوان هل الشورى ملزمة أم معلمة) .

أدلة محجيه الشورى فى القرآن الكريم .

يستدل على حجية الشورى بالقرآن والسنة . أما القرآن الكريم فقد وردت فيه آيتان صريحتان ذكرت فيهما الشورى : كأمر واجب فى إحداهما ، وكوصف يمدح فاعلوه المتصفون به فى الثانية . ففى الآية الأولى

(١) سورة الرعد الآيات من ١٩ ــ ٢٤

(٢) سورة الرعد آية ٢٨ ، ٢٩

يخاطب القرآن الكريم رسول الله ﷺ فيقول له : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر** ﴾[١] وقد نزلت هذه الآية عقب غزوة أحد التى خرج إليها الرسول ﷺ وكان رأيه أن يبقوا فى المدينة ويدافعوا عنها من داخلها — وبينت الأحداث التى مرت بالمسلمين فى أثناء هذه الغزوة أن رأى الرسول ﷺ كان هو الأصوب والأصح — ومع ذلك فقد أمر الله نبيه بعد هذه الأحداث بأن يستغفر لأصحابه . وبأن يشاورهم فى كل ما يحتاج إلى مشاورة . والنص بهذه الصورة وفى هذه الظروف ، نص قاطع لا يدع مجالا للشك فى أن الشورى مبدأ أساسى من مبادىء النظام السياسى الإسلامى ، وقيمته غليا يجب على الأمة المسلمة أن تتمسك بها دائما وتحت جميع الظروف .

أما الآية الثانية : فهى قول الله تعالى فى سورة الشورى ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٢] وهذه الآية مكية (نزلت فى مكة) ومن ثم فإن وصف المؤمنين بأن (أمرهم شورى) يفيد أن الشورى من خصائص الإسلام التى يجب أن يتحلى بها المؤمنون سواء أكانوا يشكلون جماعة لم تقم لها دولة بعد (وذلك كان هو حال المسلمين فى مكة) أو كانوا يشكلون دولة قائمة بالفعل كما كان حال المسلمين فى المدينة .

الشورى فى السنة النبوية :

أما السنة النبوية فإنها زاخرة بالأمثلة العملية لاستشارة الرسول ﷺ لأصحابه حتى قال أبو هريرة — رضى الله عنه — « مارأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ ومن ذلك استشارة الرسول ﷺ لأصحابه فى الخروج يوم بدر ، وفى المنزل الذى ينزله عندها وفى الخروج أو البقاء فى المدينة يوم أحد ، وفى مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة ، وغير ذلك كثير . (انظر سيرة ابن هشام) . ومن هذه السنة العملية لرسول الله ﷺ تستفاد قاعدة عامة مؤداها أن الحاكم أو الأمام يستشير الأمة — أو أولى الرأى فيها — فيما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى تبادل الآراء .

وذلك فى شأن الرسول ﷺ قاصر على الأمور التى لم يكن فيها وحى بفعل أمر معين أو تركه ، فإن ما كان محلا لوحى فلا مجال للمشاورة فيه ، أما بعد عصر الرسالة فإن الشورى قد تمتد حتى تغطى تلك المسائل المنصوص على أحكامها إذا كانت المناقشة خلال الشورى ترمى إلى الوصول إلى اتفاق على فهم ملائم — لظروف الوقائع أو الزمان أو المكان — لتطبيق النصوص بالإضافة إلى شمول الشورى — بطبيعة الحال — لتلك الأمور التى لم يرد فيها نص معين ، أى : الأمور التى تركت للاجتهاد .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) سورة الشورى آية ٣٨

وجوب الشورى :

والرأى الراجح بين الفقهاء هو أنه يجب على الحاكم مشاورة الأمة فى الأمور العامة بحيث اذا تركها الحاكم كان للأمة أن تطالبه بها ، وأن تبدى رأيها — ولو لم يطلب منها فيما قد يكون لها فيه رأى .

وهذا الوجوب مستفاد من الآيتين الكريمتين اللتين قدمنا ذكرهما فى أدلة حجية الشورى ففى الآية الأولى جاء الأمر إلى الرسول ﷺ بأن يشاور أصحابه ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ وإذا كانت المشاورة واجبة على رسول الله ﷺ وهو يحكم دولة الإسلام — فإنها تجب كذلك — من باب أولى — على كل حاكم لدولة إسلامية بعده .

ويبدو ذلك واضحا إذا تذكرنا أن الرسول ﷺ كان فى واقع الأمر — مستغنياً عن المشاورة ، إذ يأتيه الوحى بحل ما قد يبدو مشكلاً من الأمور . بينما لا سبيل أمام من بعده من الحكّام إلا أن يستفيدوا من خبرات وآراء أولى الرأى فى الأمة .

وأما الآية الثانية فقد جعلت الشورى وصفا لازماً للمؤمنين يحفها من يمينها فى النص القرآنى — وصف المؤمنين بالاستجابة لله ، وأقام الصلاة ، ومن يسارها وصفهم بالانفاق مما رزقهم الله تعالى . وذلك كله من فرائض الاسلام وواسطة عقد هذه الآية الكريمة هى الشورى التى مدح بها المؤمنون ، وكأن وصف الإيمان الكامل لا يتحقق بغيرها .

ومع أن القول بالوجوب — فى شأن الشورى — هو الأرجح عند الفقهاء المسلمين ، فقد ذهب البعض إلى أن الأمر الوارد بالشورى إنما هو للندب لا للوجوب . وأن المقصود بهذا « الندب » هو « تطيب قلوب الصحابة» والواقع أن هذا لا يعدو أن يكون فهماً فى معنى الآية الكريمة وسبب نزولها ، وليس ثمة ما يمنع من القول بأن « تطيب القلوب » هو أحد أسباب الأمر بالشورى ولكنه ليس هو السبب الوحيد وليس أدل على ذلك من فعل الرسول ﷺ نفسه فى كثرة مشاورته لأصحابه . وقد فطن الفقهاء المسلمون إلى هذه المعانى كلها ، فقرروا أن الشورى من عزائم الأحكام التى لابد من نفاذها (والعزائم : الواجبات التى لا يجوز تركها) ورتبوا على ذلك أن من ترك الشورى من الحكام فعزله واجب دون خلاف (انظر تفسير القرطبى — والتفسير الكبير للفخر الرازى) .

نطاق الشورى

أما نطاق الشورى ، أى المسائل التى يمكن أن تكون محالها ، فبذلك مالا نجد له فى النصوص المقررة لوجوب الشورى تحديداً قاطعاً . فقد ورد الأمر بالشورى فى القرآن الكريم واصفا إياها بأنها الشورى فى (الأمر) . وفى هذه الكلمة من العموم والإطلاق ما يجعلها تشمل كل شئون الجماعة المسلمة فى كل نواحى

حياتها غير أن مثل هذا الإطلاق — فى الواقع — لا يمكن أن يكون مراداً من النصوص التى تأمر بالشورى . ذلك أنه يوجد قيدان يجب التقيد بهما فى هذا الخصوص .

أولهما أن الشورى لا تكون فى أى مسألة ورد فيهما نص فى القرآن الكريم أو السنة التى تعد تشريعا عاما . فهذه الأمور خارجة بالضرورة عن نطاق الشورى ، ولا يمكن — بعد ورود النص — أن تكون محلاً لها ، اللهم إلا إذا كان موضوع الشورى هو تفسير النص أو تنفيذه ، ولا يكون ذلك — بداهة — إلا فيما بعد عصر الرسالة من عصور إذ يختص الرسول بذلك التفسير والتنفيذ خلال حياته ﷺ .

والقيد الثانى هو أنه حين تعرض مسأله ما على الشورى فإنه لا يجوز أن ينتهى رأى المشيرين ، أو المستشارين ، إلى نتيجة تخالف نصاً من النصوص التشريعية الواردة فى القرآن الكريم أو السنة النبوية ، إن مثل هذه المخالفة تمنع الأخذ بالرأى الذى تنتهى إليه الشورى ، وتجعلها من ثم لا قيمة لها .

أما خارج دائرة هذين القيدين (للذين يمكن اعتبارهما شقين لقيد واحد ، هو التزام النصوص فى الموضوعات التى تعرض للشورى وفى النتيجة التى تنتهى إليها) فإن كل أمر مما لم يرد فيه نص يمكن أن يكون محلا للشورى ما دام يتعلق بمسألة تعد من الشئون العامة للأمة .

المرونة فى تحديد نطاق الشورى

والواقع أن عدم تحديد وتعيين الموضوعات التى تعرض للشورى تحديداً قاطعا هو الأليق بمنهج الإسلام فى التشريع ، من تقرير الكليات والقواعد العامة ، وترك الجزئيات والتفصيلات ليوائم المسلمون بصددها بين النصوص وبين متطلبات الأزمات والأمكنة التى تطبق فيها شريعة الإسلام .

وبديهى أن الأمور التى سوف تعرض للشورى سوف تكون دائما من الأمور ذات الدقة والخطر مما يحتاج الوصول إلى قرار بشأنه إلى روية وإعمال نظر . أما أمور « الإدارة اليومية » التى تشغل الأجهزة التنفيذية والإدارية للدولة فإنها — بطبيعتها وبحكم حاجتها إلى حسم يقترن بالسرعة — لا تتحمل العرض على الشورى اللهم إلا إذا تعلق بعضها ببعض الخطير من الأمور أو المشاكل التى تمس مجموع الأفراد المتعاملين مع هذه الأجهزة .

ويستوى بعد ذلك — فى تقديرنا — أن تكون تلك الأمور ذات الدقة والخطر من الأمور التنفيذية أو من الأمور التشريعية (مما ليس فيه نص قطعى) فقد عرض عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عدة مسائل تشريعية على أهل شوراه من بينها مسألة عقوبة شارب الخمر ، ومسألة سواد العراق (أى أرضه التى فتحت فى عهده) على أنه إذا كانت المسألة المعروضة للشورى من المسائل التشريعية (أى التى يحتمل أن يصدر بشأنها قرار يكون أثره عاما مجردا) فإنه يتعين أن يكون من بين من تعرض عليهم للشورى من يعدون

من المجتهدين ، إذ أن الرأى فى مثل هذه المسائل لا يكون متكاملا إلا إذا ضمت هيئة الشورى المجتهدين — أو بعضهم — للأسباب المفصلة فى موضعها من كتب أصول الفقه وفلسفة التشريع .

مدى الزام الشورى :

وإذا كانت الشورى مقررة بنصوص القرآن والسنة ، وكان اتباع هذه النصوص واجبا على الحكام ، وكان نطاق الشورى يشمل ما أشرنا إليه فى الفقرات السابقة من مسائل ، فإنه يبقى علينا أن نبحث مدى إلزام الرأى الذى تنتهى إليه الشورى أو ما يعرف بمسألة هل الشورى ملزمة أم معلمة ؟

وفى هذا الخصوص نجد أننا أمام رأيين متعارضين ،

أحدهما : يقول أصحابه أن الشورى ملزمة للحاكم بحيث اذا استقر رأى أهلها — أو غالبيتهم — على شيء وجب عليه اتباعه .

أما الرأى الثانى ، فيرى أصحابه أنه لا يجب على الحاكم أن يفعل ما انتهى إليه أكثرية المشيرين ، وإنما يكفى أن يشاورهم ثم يمضى بعد ذلك فينفذ ما يراه راجحاً عنده خالف ذلك رأى أهل الشورى أو وافقه .

ويستدل أصحاب هذا الرأى الأخير بتفسير بعض المفسرين لقول الله تعالى ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾[1] إذ يذهب هؤلاء إلى أن معنى هذا النص أن للرسول أن يأخذ بما انتهت إليه الشورى أو يدعه .

كما يستدلون ببعض مواقف للرسول ﷺ ولصاحبيه أبى بكر وعمر يرون فيها أن الشورى لم تكن ملزمة فيما انتهت إليه . ومن أهم هذه المواقف موقف الرسول ﷺ فى قضية صلح الحديبية حيث أمضاه ﷺ رغم معارضة بعض أصحابه فى ذلك . وموقف أبى بكر الصديق فى انفاذ جيش أسامة رغم عدم موافقة بقية الصحابة على ذلك . وموقفه من حروب الردة التى خالفه فيها أصحابه ، وكذلك موقف عمر فى تقسيم أرض العراق .

ويذهب أصحاب الرأى الأول من القائلين بأن الشورى ملزمة إلى أن الآية المشار إليها إنما تدل على

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

لزوم نتيجة الشورى ، إذ لا يكون العزم إلا بعد الشورى . ولذلك قال فى تفسيرها القرطبى نقلا عن قتادة : إن العزم هو الأمر المروى المنقح ، وليس ركوب الرأى دون روية عزما .
ولا ينقض ذلك ما يقال من أن معنى (وتوكل على الله) أن لا يتوكل على مشاورتهم ، ذلك أن التوكل هو طلب التأييد والتسديد ، وذلك لا يكون إلا من الله سبحانه وتعالى الذى بيده مقاليد كل شىء . أما دور المشاورة فمحصور فى بيان أقرب الآراء إلى الصواب وأحراها بالاتباع .

ويمكننا تأييد هذا الرأى أيضا بما ذكره الطبرى فى تفسيره من أن العزم والتوكل على الله إنما يكون فى الأمر الذى يصدر فيه الرسول عن وحى الله تعالى إليه ، وأمره إياه بفعل شىء معين . فعند ذلك لا يجوز للرسول ﷺ أن ينظر إلى رأى أهل شوراه ، وعليه أن ينفذ ما أمر به ، وافق ذلك رأيهم أو لم يوافقه . وفى ذلك يقول الطبرى « فإذا صح عزمك بتثبيتنا إياك ، وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك ، فامضى لما أمرناك به على ما أمرناك به وافق ذلك أراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفه » « انظر تفسير الطبرى » .

وواضح من هذا النص أنه ينبغى العزم على كل ما جاء به الوحى دون نظر — فيه — إلى الشورى ونتيجتها ، أما ما لم يكن فيه وحى فلا دلالة لهذا النص عليه ويبقى على الأصل من التزام الشورى فيه .

أدلة القائلين بعدم إلزام الشورى : (ومناقشتها)

أما المواقف التى استند إليها النافون لكون الشورى ملزمة فيبدو أنهم قد جانبهم التوفيق فى تفسيرها وتأويلها . بل وأحيانا فى روايتها أيضا ، وبيان ذلك كما يلى :

صلح الحديبية :

إن موضوع صلح الحديبية لم يكن — فى أى مرحلة من مراحله — محلا للشورى . وإنما صدر فيه الرسول ﷺ عن الوحى من أوله إلى آخره . وكل ما حدث أن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قد سأل الرسول ﷺ : لم يقبل المسلمون الصلح ؟ فكان جواب الرسول له : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى ، بل إن رسول الله ﷺ قد بين قبل ذلك أى قبل المناقشة مع عمر — أن الأمر مرجعه إلى الوحى — فحين توقفت ناقة رسول الله ﷺ قال لأصحابه : « حبسها حابس

الفيل عن مكة ، لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها »[(١)] ومن ثم فإنه لا علاقة لما حدث فى صلح الحديبيه بموضوع الشورى من قريب أو بعيد ، ولا دليل فيه على لزومها أو عدمه .

وإذا تبين أن صلح الحديبيه كان مرجع عقده بين رسول ﷺ وبين مشركى قريش هو الوحى ، فإنه يتبين أيضا ، بالإضافة إلى ما تقدم من عدم صحة الاستدلال به فى موضوع الزام الشورى ، خطأ استدلال بعض العلماء الرسميين من المعاصرين بموقف النبى ﷺ فى عقده هذا الصلح على صحة عقد المعاهدات مع أعداء الدولة الإسلامية . وخطأ هذا الاستدلال يبدو أكثر وضوحاً إذا استصحبنا الحقائق التالية :

١ ـــ أن الله سبحانه وتعالى قد نسب صلح الحديبيه إلى نفسه وسماه فى محكم كتابه فتحا مبينا ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما . وينصرك الله نصرا عزيزا** ﴾[(٢)] فأنى لأى حاكم فى أية دولة إسلامية ، بعد الرسول ﷺ أن يضمن أن ما يعقده من معاهدات يؤيده فيه من الله عز وجل نصره وهدايته وتمام نعمته ؟ ومن هنا فإننا لا نرى القياس على صلح الحديبية أصلا . ذلك أن صلح الحديبية لم يكن ليتم لولا وحى الله إلى نبيه بقبول ما قبله فيه . وما كان كذلك لا يعد قاعدة عامة يجوز القياس عليها . بل هو مما صح فيه قول الفقهاء عن الوقائع النبوية التى لا يقاس عليها : « قضية عين لا محموم لها » .

٢ ـــ إن صحة المعاهدة وجواز عقدها لا يتوقف على قياس أو استدلال بسابقة لأن الأصل فى عقد المعاهدات هو تحقيق مصلحة الأمة المسلمة والدولة المسلمة . والمرجع فى ذلك هو القواعد المقررة فى أصول الفقه تحت عنوان « المصالح المرسلة » وفى أبواب الضرورة وما إليها .

فما حقق مصلحة الأمة الإسلامية من المعاهدات فإمضاؤه جائز بلا خلاف ، ولا يحتاج إلى فتيا بصحة الإقدام عليه . وما كان مهدرا لمصلحة الأمة أو مضيعا لها فإمضاؤه غير جائز بلا خلاف ـــ كذلك ـــ وإذا وافق عليه بعض المسلمين فهو لا يلزم غيرهم ممن لم يوافق عليه . لأن أحدا لا يملك إهدار حقوق المسلمين أو التنازل عنها . فإن فعل ففعله مردود عليه ولا يحتج به على غيره .

٣ ـــ إن حقن دماء المسلمين ، وحفظ حياة الشباب ، وتجنب الدولة الإسلامية ويلات الحرب ، كل ذلك لا يجوز أن يكون سببا لتبرير عقد دولة إسلامية معاهدة صلح أو سلام مع دولة غير إسلامية .

فالمسلمون لا يعتبرون حياة أبنائهم ودماءهم أغلى من أن تراق فى سبيل الله أو فى سبيل الوطن

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى حـ ٩ صـ ٢١٨ ، ٢١٩ باب المهادنة على النظر للمسلمين .
(٢) سورة الفتح الآيات ١ ، ٢ ، ٣

الإسلامى . لأن ﴿ **إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقا فى التوارة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به : وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[1]

٤ ــ إن الإسلام يجيز أن تعقد الدولة الاسلامية معاهدة صلح أو سلام مع دولة غير إسلامية بشرط أن يجنح الأعداء للسلم ، ومعنى الجنوح للسلم ــ على ما قرر أئمة التفسير ــ هو أن يتخلى أعداء الدولة الإسلامية عن عدوانهم ، وأن يردوا إلى المسلمين ما يكونوا قد اغتصبوه منهم من أموالهم وأرضهم وذلك هو معنى قوله تعالى ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾[2]

وتحقق شروط مثل هذه المعاهدة . أو توافر مبررات عقدها أمر تقديرى متروك تقريره لأولى الأمر فى الدولة الإسلامية . وهو يخضع لظروف وأمور لا يحصرها عد ، ولا يتوفر الإلمام بها على كثرتها وتشعبها للأفراد العاديين ...

ونعود بعد ذلك إلى ما بدأنا بتقريره ، فنكرر أن الاستدلال بقضية صلح الحديبية على عدم إلزام الشورى ، أو على إلزامها ، استدلال غير صحيح . وأن الاستدلال بالقضية ذاتها على جواز عقد المعاهدات بين دولة إسلامية ودولة غير إسلامية ، استدلال فى غير محلة . فلا صلح الحديبية كان محلا للشورى . ولا الحكام بعد النبى ﷺ يجدون مثل ما كان يجد من تأييد الوحى وتسديده . فليس أمام هؤلاء إلا الأمة يستشيرونها وينزلون عنه رأى أولى الرأى فيها . وقد أغنى الله نبيه عن ذلك . فكما أنزل عليه فى حروبه ملائكته ، أيده بروح منه ، وسدد الوحى قوله وفعله .

بعث جيش أسامة

أما موقف أبى بكر من بعث جيش أسامة فالواقع أن أبا بكر إنما كان ينفذ فى ذلك وصية رسول الله ﷺ وقد كان ــ عليه الصلاة والسلام ــ هو الذى جهز جيش أسامة وأشرف على ذلك بنفسه ثم منعه من الخروج مرض رسول الله ﷺ فكل ما فعله أبو بكر فى هذا الشأن إنما هو تنفيذ أمر رسول الله الذى خرج الجيش قبل موته من المدينة فعلا ، ثم رأى قائده أن يقيم ــ حين اشتد مرض رسول الله ﷺ على مقربة منها ليروا ما يكون من أمر هذا المرض . فلما تولى أبو بكر الخلافة أمر أسامة أن يخرج لما كلفه به الرسول ﷺ وقد كان جواب أبى بكر فى ذلك لمعارض خروج الجيش حاسما فى تقرير ما قدمنا ، إذ قال لهم ، « ما كنت لأمنع بعثاً أنفذه رسول الله ﷺ

أو يوافقها وإنما كان أمراً نبوياً ينفذه فحسب .

---

(١) سورة التوبة آية ١١١

(٢) سورة الأنفال آية ٦١

حروب الردة

ومن المعروف أن أبا بكر — رضى الله عنه — قد رأى — قبل غيره من الصحابه — وجوب قتال من ارتد من العرب بعد وفاة الرسول ومن منع الزكاة منهم — غير أن هذا الرأى لم يعد فى النهاية رأى أبى بكر وحده . وإنما وافقه عليه المعارضون لذلك من الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فقد روى البخارى ومسلم عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فى هذا الشأن « فوالله ما هو إلا أن رأيت الله عز وجل شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » وليس من شك فى أن للإمام أو الحاكم أن يبدى رأيه فى الشورى ، وأن يقدم الأدلة التى تقنع الناس به وذلك ما فعله أبو بكر إذ استدل بحديث الرسول ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا ا لله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله »[1] وبين وجه الاستدلال بهذا الحديث بقوله : « فإن الزكاة حق المال » ومن ثم فقد وافقه على الدليل والاستدلال به مخالفوه أول الأمر وفى مقدمتهم عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — . وإذا صح ذلك — وهو صحيح لا ريب فيه — فإن أبا بكر لم يخالف أهل الشورى فيما انتهوا إليه ، وإنما هم الذين وافقوه فيما بدأ به .. ولم يكن — كما يقول بعض الباحثين — « يخالف الرأى الذى أشار به المسلمون بما يقرب من الإجماع » .

تقسيم أرض العراق

وأما موقف عمر بن الخطاب من تقسيم أرض العراق بعد فتحها ، فإنه أيضا دليل على أخذه بما تنتهى إليه الشورى وليس دليلا على إهداره إياها . ذلك أن المروى بأسانيد صحيحه أن عمر قد استشار فى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ فأشار عليه عامتهم بقسمتها كما قسمت خيبر حين فتحها رسول الله ﷺ وأشار عليه على بن أبى طالب ومعاذ بن جبل بعدم قسمتها حتى تبقى موردا للمسلمين فى أجيالهم المتعاقبة . فاقتنع عمر برأيهما وبدأ يشاور فى المسألة المسلمين حتى أقنعهم برأيه واستجابوا له فلم يقسم أرض العراق .

الصحيح هو التزام الحاكم بتنفيذ ما تنتهى إليه الشورى :

وإذا تبين هذا فإنه يصبح ، بينما أن الحاكم — وقد وجبت عليه الشورى — يجب عليه أن يلتزم نتيجتها التى ينتهى إليها رأى أكثر المشيرين وأنه لا دليل يصح الاستناد إليه فى تأييد من ذهب إلى أن الشورى معلمة وليست ملزمة .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ١٣٨ باب قول النبى ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شىء .
وانظر صحيح منسلم حـ ١ صـ ٥١ ، ٥٢ كتاب الإيمان . باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . رقم ٣٢ / ٢٠ / ، ٣٣ / ٢١ .

وإنما الذى تدل عليه الأدلة جميعا — من فعل الرسول وصاحبيه — أن الشورى متى انتهت إلى رأى وجب على الإمام أو الحاكم تنفيذه . ومن الجدير بالإشارة أن فعل رسول الله ﷺ فى الخروج فى غزوة أحد لقتال المشركين خارج المدينة واضح الدلالة على هذه القاعدة ، وعلى قاعدة التزام رأى الأكثرية ولو خالف رأى الحاكم أو رأى غيره من أولى الرأى .

والواقع أن الشورى لن يكون لها معنى إذا لم يؤخذ برأى الأكثرية ، ووجوب الشورى على الأمة الإسلامية يقتضى التزام رأى الأكثرية .. على الأقلية التى لم يؤخذ برأيها أن تكون أول من يسارع إلى تنفيذ رأى الأكثرية وأن تنفذه بإخلاص باعتباره الرأى الذى يجب اتباعه ولا يصح اتباع غيره .. وليس للأقلية أن تناقش من جديد رأيا اجتاز دور المناقشة ، أو تناقش فى رأى وضع موضع التنفيذ . وتلك سنة رسول الله ﷺ التى سنها للناس ، والتى يجب على كل مسلم اتباعها .

وقد بين صحة هذا الرأى فى إيجاز بليغ الأستاذ الإمام محمد عبده بقوله « إن الجمهور أبعد عن الخطأ من الفرد فى الأكثر . والخطر على الأمة فى تفويض أمرها إلى الرجل الواحد أشد وأكبر .. فكان ﷺ وهو المعصوم عن الخطأ — يستشير أصحابه .. ويرجع عن رأيه إلى رأيهم » وقال الأستاذ محمد رشيد رضا « وليس عندى عن الأستاذ فى هذه المسألة غير هذا » .

من ذلك كله يتبين أن الشورى قاعدة من قواعد الإسلام الأساسية فى المجال السياسى — أو مجال الشئون الدستورية — ثبت حجيتها بدلالة نصوص آيات القرآن الكريم ، وبأحاديث الرسول ﷺ وسنته العملية وأن تشريع الإسلام فى معالجته إياها قد جاء من العموم والمرونة بحيث يسمح للأمة الإسلامية أن تختار للقيام بواجب الشورى الشكل الذى يلائم الأوضاع المختلفة فى الأزمنة والأمكنة المختلفة . وخارج نطاق الأمور الأساسية التى سبق لنا بيانها فإن بقية المسائل بمشورة المختصين فيها ، بحيث يحققون المصالح والغايات التى يجب على هذه الدولة تحقيقها .

ثانيا : العدل

لعل المكانة التى جعلها الإسلام فى تشريعه للعدل لم تجعلها له أيه شريعة سابقة ، ولم يبلغ مثلها مكان العدل فى أى نظام قانونى قديم أو حديث . وليس أدل على ذلك من آيات القرآن الكثيرة التى تحض على العدل وتأمر به : أمراً مجملاً شاملا للشئون كلها — فى العديد من الآيات — وأمراً مفصلاً خاصاً ببعض الأمور التى يتوقع فيها الحيف والظلم — فى بعض الآيات الأخرى — فمن آيات القرآن التى جاء فيها الأمر بالعدل على وجه العموم والإطلاق — قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى**

وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به** ﴾[٢] وقد يبدو للبعض أن هذه الآية الكريمة يقتصر نطاقها على التطبيق فى مجال القضاء ، والحكم فى المنازعات ، وبناء عليها ــ وفق قواعد العدالة . غير أن هذا الفهم لا يتفق وما ذهب إليه جماهير المفسرين لكتاب الله إذ يقررون أن « المراد من الحكم فى هذه الآية هو ما كان عن ولاية عامة أو خاصة » .

وكما فرض القرآن فيما بين المؤمنين بعضهم بعضاً ، فرضه أيضا فيما بينهم وبين أعدائهم ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[٣] وقد يحمل الحب ــ كما يحمل الكره ــ بعض القلوب على الحيف والجور تحقيقاً لما يظنونه مصلحة لمن يحبون . ولذلك يحذر القرآن من مثل هذا الحيف فيخاطب المؤمنين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين** ﴾[٤] والقسط هو العدل .

وليس المفروض بنصوص القرآن الكريم هو العدل فى الحكم والفعل فحسب ، بل كذلك حتى فى القول ﴿ **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** ﴾[٥] .

وقد نص القرآن الكريم على وجوب فرض العدل على الناس ولو بالقوة . قال تعالى ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب** ﴾[٦] .

وفى فهم هذه الآية الكريمة قال ابن تيمية « فالمقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، أن يقوم الناس بالقسط فى حقوق الله وحقوق خلقه .. فمن عدل عن الكتاب قوم بالحديد » .

تحريم الظلم

وكما أمر القرآن الكريم بالعدل وحض عليه ورغّب فيه ، نهى عن الظلم وكره فيه وحذر منه ، وبين عاقبة الظالمين فيقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم** ﴾[٥] وجعل من وظائف الرسول ، وأسباب نزول القرآن الكريم التحذير من الظلم فقال تعالى : ﴿ **لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾[٦] ولم يبح القرآن للمسلم أن يجهر بالسوء

---

(١) سورة النحل آية ٩٠
(٢) سورة النساء آية ٥٨
(٣) سورة المائدة آية ٨
(٤) سورة النساء آية ١٣٥
(٥) سورة الأنعام آية ١٥٢
(٦) سورة الحديد آية ٢٥
(٧) سورة الشورى آية ٤٢
(٨) سورة الأحقاف آية ١٢

من القول إلا فى حالة ظلمه قال تعالى ﴿ **لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم** ﴾(١) بل لقد جعل القتال مباحا فى حالة الظلم ﴿ **أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾(٢) وبين سبحانه عاقبة الظلم والظالمين فى آيات عديدة ، منها قوله تعالى ﴿ **وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا** ﴾(٣) وقوله تعالى : ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾(٤)

وقد عنى الرسول ﷺ فى أحاديث كثيرة بالأمر بالعدل والنهى عن الظلم . وبين عاقبة العدل فى حق الحكام فجعل أول السبعة الذى يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله « الإمام العادل » وحذر ﷺ من الظلم فى أى شأن كان فقال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة »(٥) .

ومن مجموع هذه الآيات والأحاديث استخرج الفقهاء قواعد إيجاب العدل وتحريم الظلم حتى قال ابن تيمية إن « الظالم يستحق العقوبة والتعزير وهو أصل متفق عليه .. وقد نص على ذلك الفقهاء .. ولا أعلم فيه خلافا » وقرر تلميذه ابن قيم الجوزية أن العدل هو المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل ، وإن السياسة العادلة جزء من الدين ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأى طريق كان : فثم شرع الله ودينه ...

ثالثاً : الحرية

السلطة والحرية .

تعد مشكلة الصراع بين السلطة والحرية من أعقد المشكلات التى تواجه الباحثين فى تاريخ وأصول الأنظمة السياسية والدستورية . وعلى الرغم من اتفاق المفكرين من رجال القانون والسياسة ومن علماء الاجتماع فى مختلف لأمم ، وفى كافة العصور على أن الحرية هى الغاية السامية التى تتطلع إليها الأنظمة الحاكمة ، والنظريات السياسية ، والقوانين الموضوعة لتنظيم العلاقات الاجتماعية ــ على الرغم من ذلك ــ فإن الحرية كانت ، ولا تزال ، بعيدة عن أن يحدد لها معنى معين يقبله الجميع أو أن يتفق بصدد ممارستها على طريقة معينة . وحتى فى المجال السياسى حيث يبدو أن للحرية معناها الواضح وهو « عدم استبداد الحاكمين بالمحكومين » فإنه يندر أن يبقى هذا المعنى على هذه الدرجة من الوضوح وخاصة حين تتفاوت الأطراف

---

(١) سورة النساء آية ١٤٨

(٢) سورة الحج آية ٣٩

(٣) سورة الكهف آية ٥٩

(٤) سورة الشعراء آية ٢٢٧

(٥) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٣ صـ ١٦٩ بلفظ (الظلم ظلمات يوم القيامة) كتاب المظالم . باب الظلم ظلمات يوم القيامة . وانظر الحديث بلفظه فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ١٩٩٦ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم . رقم ٥٦ / ٢٥٧٨ .

المتصارعة فى تحديد معنى الحرية . ويقسم الباحثون فى الفقه الدستورى الحديث ، الحرية إلى شعب عديدة ، فهناك حرية الرأى ، وحرية العقيدة ، وحرية التعليم ، وحرية الملكية ، والحرية الشخصية .. ولعل حرية الرأى هى الأصل فى هذه الشعب والأقسام جميعا وهى على أى حال ألصق هذه الحريات بالنظام السياسى للدولة . ولذلك فسوف نكتفى هنا ببيان مدى كفالة الإسلام لحرية الرأى ــ بل أمره بها ــ واعتباره إياها حقا أساسياً للإنسان لا يجوز الاخلال به .

كفالة الاسلام لحرية الرأى .

وليس من شك ــ عندى ــ فى أن التشريع الإسلامى يذهب فى اعتباره لهذه الحرية واحتفائه بها إلى مدى ندر أن تصل إليه المذاهب السياسية أو النظم الدستورية الوضعية ومرد ذلك فيما أرى إلى اعتبار الإسلام ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، تتضمن « حقهم فى الاختيار » فى اختيار الرأى ، واختيار الفعل أو الموقف الذى يترتب على هذا الرأى . وليس أوضح فى الدلالة على هذا المعنى مما يقرره القرآن الكريم فى قصة آدم وزوجه . فقد بين القرآن كيف نهاهما الله عن الأكل من إحدى شجرات الجنة . ثم كيف خالفا هذا النهى ﴿ **فأكلا منها** ﴾ ﴿ **وعصى آدم ربه فغوى** ﴾[١] **وترتب على هذه المعصية خروجهما من الجنة مع قول الله تعالى لهما** ﴿ **فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا** ﴾[٢]

فتعبير هذه الآيات عن فعل آدم وزوجه بالأكل والمعصية ثم التعبير باتباع الهدى أو الإعراض عنه ، هذه التعبيرات مجتمعة تبين بوضوح دلالة هذه الحادثة من تاريخ البشرية على أن « الحق فى الاختيار » قدرة فطر الإنسان عليها ، ومارسها منذ كان .

وقد مضى الإنسان يمارس حقه فى هذا الاختيار منذ أن وجد على الأرض حتى قال القرآن الكريم ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب** ﴾[٣] فمخلوقات الله جميعا تسجد له إلا بنى الإنسان ، فإن منهم الساجدين ومنهم الكافرين أو منهم المطيع ومنهم العاصى . وهذا اختيار محض .

وإذا كان ما قدمنا صحيحا ــ وهو عندى صحيح لا ريب فيه ــ فإنه يكون صحيحا من وجهة نظر إسلامية ، ذلك التصور الذى يقول أنه من حق ا لإنسان أن يمارس دائما حريته أو حقه أو الاختيار وأن الحرية فى هذا التصور قدرة لدى الإنسان ، أو فطرة فطر عليها ، ليس لأحد ــ كائنا من كان ــ أن يمنعه إياها أو يحرمه ممارستها ...

---

(١) سورة طه آية ١٢١

(٢) سورة طه الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤

(٣) سورة الحج الآية ١٨ .

سيرة الرسل جميعا تؤكد حرية الرأى

وحياة رسل الله جميعا ــ يحكيها القرآن ــ كانت كلها بيانات بالحجة ، وجدالا بالبرهان الذى يقبله العقل ، ويخضع له الفكر ، قبل أن يسلم به القلب ، وتستجيب له عاطفة الإيمان . فها هو نوح بعد أن لبث فى قومه ألف سنه إلا خمسين عاما يقول له قومه : ﴿ **يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا** ﴾[1] وها هو هود يقول لقومه ﴿ **أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم واباؤكم** ﴾[2] وليس أدل من هذه المجادلات التى يحكيها القرآن بين رسل الله وأقوامهم على مدى إقرار الإسلام ــ دين الله منذ كان الإنسان ــ بحق الناس فى حرية التفكير وحرية الرأى . فمن البين أن الجدال يقتضى الأخذ والرد ، أى : يقتضى إلقاء الأنبياء بحججهم إلى الناس وسماع ردود الناس على هذه الحجج ، وليس أبعد مدى من تلك الحرية .

القرآن والسنة يقرران حرية الرأى .

ولقد بين القرآن لرسول الله ﷺ كيف تكون دعوته إلى ربه ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[3] بل إن القرآن ليبين لرسول الله أنه لا سبيل إلى الحجر على حرية الناس فى التفكير أو الاعتقاد وأن الأمر فى ذلك إليهم يختار كل منهم لنفسه ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين** ﴾[4] بل إن القرآن ليقرر فى ذلك تقرير الحقيقة الواقعة ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾[5] وسبيل التعامل مع هؤلاء الذين لا يؤمنون هو ما أمر القرآن به الرسول ﷺ ﴿ **قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾[6].

وليس أعظم كفالة لحرية الرأى ، حتى للمخالفين فيه ، من هذه السبيل ... وإذا كانت هذه هى أحكام القرآن الكريم ــ مصدر تشريع الاسلام الأول ــ فى شأن مسألة العقيدة والإيمان ــ وهى أعظم مسائل الدين على لإطلاق ، فهل يجوز بعد ذلك أن يقال أن تعاليم هذا الدين تحجر على الناس آراءهم فى النواحى الأخرى لحياتهم الاجتماعية أو السياسية ؟ لا شك أن ذلك مما تأباه نصوص القرآن وروحه ومنهم المسلمين وعملهم فى مختلف العصور . ولن يستطيع أحد أن يأتى على مثل هذا القول بدليل من تشريع الإسلام أو

---

(١) سورة هود آية ٣٢
(٢) سورة الأعراف آية ٧١
(٣) سورة النحل آية ١٢٥
(٤) سورة يونس آية ٩٩
(٥) سورة يوسف آية ١٠٣
(٦) سورة الأنبياء آية ٢٤

تاريخ رسوله ، أو تاريخ الراشدين ممن حكموا به . ويكفينا تدليلا على ذلك أن نذكر حديث رسول الله ﷺ الذى يقول فيه لأصحابه : « لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت »[١] ... رواه الترمذى .

الجهر بالرأى واجب وليس مجرد حق أو رخصة

ولا يفوتنا هنا أن نذكر ما سبق أن أشرنا إليه من إيجاب شريعة الإسلام على المسلمين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر . والواقع أن تقرير واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعتبر سبقا تميزت به شريعة الاسلام فى مجال الحرية . ولم تصل إلى مثله بعد أية شريعة من الشرائع الوضعية ..

العلماء المسلمون وحرية الرأى السياسى .

ولم يكن المسلمون فى ذلك إلا متبعين لسنة رسول الله ﷺ مهتدين بمثل قوله ــ عليه الصلاة والسلام ــ : « الدين النصيحة » قلنا لمن ؟ قال « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم »[٢] وقوله ﷺ : « إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »[٣] . وقد توالت عصور الإسلام وعلماؤه العاملون لا يكتمون حقا ولا ينصرون باطلا ولا يهابون ذا سلطان بل يجهرون بآرائهم فى شئون السياسة والحكم ذاكرين قول جابر ــ رضى الله عنه ــ : أمرنا رسول الله ﷺ أن نضرب بهذا ــ يعنى السيف ــ من عدل عن هذا ــ يعنى المصحف » (ذكره ابن تيمية فى السياسة الشرعية) ولا يعنى ذلك أن علماء الإسلام فهموا من شريعته أن يخرجوا محاربين لكل حاكم يميل أدنى ميل من أحكام شريعة الله ولو كان متأولا وآخذاً بقول ظاهر الضعف لمصلحة يراها وإنما كانوا فى هذه الحالات يكتفون بالقول والنصح والإرشاد والبيان . وادخروا الأخرى للحالات التى لا يجدى علاجها سواها . عاملين بحديث رسول الله ﷺ فى النهى عن الخروج عن الحاكم المسلم « إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان »[٤] (رواه البخارى) .

وفيما دون ذلك اكتفوا كما قلنا بالجهر بالحق والأمر بالمعروف بلا خوف من حاكم أو غيره ، إذ كانت قلوبهم خالصة العبودية لله متحررة من سلطان كل سلطان سواه ، حتى قال قائلهم « الحريةُ حرية القلب ،

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٣ صـ ٢٤٦ أبواب البر . رقم ٢٠٧٥

(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ١ صـ ٧٤ كتاب الإيمان . باب بيان أن الدين النصيحة . رقم ٩٥ / ٥٥

(٣) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٣ صـ ٣١٨ أبواب الفتن . باب أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر رقم ٢٢٦٥ .
ــ انظر مجمع الزوائد حـ ٣ صـ ٦٧ رقم ٥٥١٤ .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ٥٩ كتاب الفتن . باب سترون بعدى أموراً تستنكرونها .
ــ انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٠ كتاب الإمارة باب وجوب طاعة الأفراد فى غير معصية . رقم ٤٢ / ١٧٠٩

والعبودية عبودية القلب » . أى من كان موصول القلب بالله تعالى ، كامل الطاعة له ، مستيقنا من قدرته وقهره ونفاذ إرادته وأمره . هو الحر حقا أما غير هؤلاء ممن تعلقت قلوبهم بالدنيا وأصحابها وطمعوا فيما عند الناس ونسوا ما عند الله فهم غير أحرار ولو كانوا بين الناس من ذوى المكانة والجاه أو كانوا عند ذوى السلطان من المقربين المكرمين .

بمثل هذا الفهم عاش علماء الإسلام حياتهم ، يعلمون الناس دينهم ، ويبنون لهم أحكام شريعتهم ، ويقولون رأيهم فى سلوك حكامهم . رأيهم المعبر عما فهموه من أصول الإسلام وقواعده ، وما استنبطوه من شريعته التى أمرهم مبلغها عن الله — عز وجل — ألا يخافوا فى الحق لومة لائم ....

ويروى التاريخ من مواقفهم فى ذلك ما لايحيط به الحصر ، فمن ذلك ما يرون مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى ، من أن عبد الملك بن مروان ، الخليفة الأموى ، بعث إلى عامله بالمدينة ليأخذ العهد على الناس بأن يبايعوا من بعده بالخلافة ولديه الوليد وسليمان . فامتنع من ذلك سعيد بن المسيب — رضى الله عنه — وخوطب كثيرا ليعدل عن امتناعه فلم يقبل وصمم عليه حتى ضرب فى ذلك ستين سوطا وما بايع . ودعى سعيد بن المسيب إلى ثلاثين ألفاً ليأخذها — هدية من الوالى — فقال « لا حاجة لى فيها ولا فى بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم بينى وبينهم » ..

وهذا أبو جعفر المنصور ، ثانى خلفاء بنى العباس ، يدعو سفيان الثورى فيقول له عظنى أبا عبد الله ، فيجيبه سفيان . وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت حتى أعظك فيما جهلت ؟ فيقول المنصور : ما يمنعك أن تأتينا ؟ فيقول سفيان . قال الله تعالى : ﴿ **ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار** ﴾[(١)] . فهو يقول له رأيه فيه بجرأة لا يعرفها إلا من وصل بالله قلبه ، ويعلن له أنه من الذين ظلموا ، ومن الذين لا يعملون بما علموا ، ولذلك يأبى أن يأتى إليه أو يخاطبه . حتى يقول المنصور فيه « ألقينا الحب إلى العلماء فالتقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا مرارا » .

ولقى هارون الرشيد ، فضيل بن عياض — وكان من العباد الزاهدين — فسلم عليه وقال له — يالها من كف — ما ألينها إن نجت من عذاب الله — عز وجل — ووعظه وعظاً شديدا فكان من قوله له « إياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك فإن رسول الله ﷺ قال « من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة »[(٢)]

ولم يكن ذلك مسلك العلماء المسلمين فى العصور الأولى للإسلام فحسب حين كان العهد قريبا بزمان النبوة ، والاستشراف قويا إلى سيرة الصحابة — رضوان الله عليهم — بل ظلت تلك سيرة العلماء فى كل

---

(١) سورة هود آية ١١٣

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٦ كتاب الإمارة .

عصور الإسلام على امتدادها الطويل ، فالتاريخ يحكى لنا عن النووى ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ، وكثيرين غيرهم من المتأخرين مثل هذه المواقف التى قدمناها وأشد مع غلبة الظلم فى عصور هؤلاء وتفشى الجور والبعد عن الحق ، وقد كانوا يلاقون فى سبيل الحق الذى يصدعون به التعذيب والسجن والقتل أحيانا . وهم ثابتون على الحق لا يداهنون ، ولا يشترون رضاء المخلوقين بسخط الخالق ولعل ذلك كله ليس إلا مصداق قول رسول الله ﷺ . « لا تزال طائفة من أمتى قائمون بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون »[1] .

وبعد . فأين مما قدمنا قول القائلين « لا علاقة بين الاسلام والسياسة » ؟ ولم كانت هذه المواقف من علماء الإسلام إذن ؟ أكانت طلبا للدنيا وسعيا وراء الجاه ؟ .. كلا فالذى لا مراء فيه أن الدنيا كانت تسعى إليهم ويفرون منها ، والمناصب تعرض عليهم فيرفضونها ..

فلم تكن مواقفهم تلك إلا صادرة عن علمهم بهذه الشريعة التى أخلصوا لها وحدة واحدة . وأنه لا يجزى عن العالم فيها علمه ما لم يكن مقرونا بالعمل . وأن خير العمل ما كان نصحا للأمة ، وأمرا بالمعروف وصدعا بالحق . فأين من ذلك كله علماؤنا اليوم ؟

وبقدر ما تعتبر هذه المواقف تطبيقا صحيحا لتعاليم الإسلام ، وتاريخا مجيدا لعلمائه ، فإنها تعتبر شهادة عدل وخير للحكام المسلمين الذين لم تغرهم الدنيا بجاهها ، ولا الحكم بسلطانه كى يقهروا الرأى الحر والنصيحة المخلصة . وإن التاريخ لينبىء بصدق أن الحاكم العادل هو الذى تزدهر الحرية فى عهده . حتى أنه لا يخطىء من يقول أن عدل الحاكم وحرية الرعية يتلازمان دائما . وأن ظلم الحاكم وجوره يقترن أبدا باختفاء الرأى الحر والكلمة الصادقة فى المجتمع الذى يسوده الظلم والقهر .

رابعاً : المساواة

معنى المساواة

يعد مبدأ المساواة من أهم المبادىء الدستورية التى تستند إليها الأنظمة السياسية الحديثة والمعاصرة . وقد بدأ تقرير هذا المبدأ فى العصر الحديث فى « إعلان الحقوق الفرنسى » الصادر فى سنة ١٧٨٩ والذى يعد أكثر إعلانات الحقوق شهرة لأنه أحرز قيمة عالمية بتبنى معظم دساتير العالم لمبادئه وتضمنها نصوصا تدل بوضوح على التأثر به .

والمقصود بمبدأ المساواه هو أن يكون الأفراد المكونين لمجتمع ما متساوين فى الحقوق والحريات والتكاليف

(١) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ٤ صـ ١٠١ مسند معاوية بن أبى سفيان .

والواجبات العامة . وألا يكون هناك تمييز فى التمتع فيما بينهم بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو العقيدة .

غير أن هذه المساواة هى مساواة قانونية وليست مساواة فعلية . مساواة قانونية بحيث يخضع الأفراد الذين تتماثل ظروفهم لذات القواعد التى تحدد الحريات والحقوق العامة . وليست مساواة فعلية بحيث تطبق القواعد ذاتها على جميع الأفراد مهما تباينت الظروف التى يخضع لها كل منهم أو دون نظر إلى مدى اختلاف هذه الظروف ، اذ كما تخل التفرقة بين المتماثلين بمبدأ المساواة فإن التسوية بين غير المتماثلين تتضمن إخلالا أكبر وأخطر بهذا المبدأ ، ولذلك يسمى هذا المبدأ بمبدأ المساواة أمام القانون . وقد ترتب على الأخذ بمبدأ المساواة أمام القانون زوال امتيازات النبلاء والأشراف فى فرنسا عقب الثورة الفرنسية . وكذلك ترتب على تقرير هذا المبدأ القضاء على تبعية الإنسان للأرض وخضوعه لأصحابها من الإقطاعيين ، كما كان الحال فى العصور الوسطى . ويعتبر مبدأ المساواة أمام القانون حجر الزاوية فى تنظيم وتقرير الحريات العامة التى لا يقوم تقريرها ويستمر إلا باحترام مبدأ المساواة أمام القانون فإذا أهمل هذا المبدأ انهار تنظيم الحريات العامة ، أو أصبح غير ذى قيمة فى الواقع العملى .

ويعالج فقهاء القانون الدستورى الوضعى ، والباحثون فى النظم السياسية ، عدة مظاهر لتطبيق هذا المبدأ يجعلون لها أهمية خاصة ، من بينها المساواة أمام القضاء ، والمساواة فى تولى الوظائف العامة والمساواة أمام المصالح العامة وغيرها . إلا أنهم مع ذلك يتفقون على أن المساواة أمام القانون تتضمن فى جوهرها كل مظاهر المساواة الأخرى التى تمثل بدورها مضمون هذا المبدأ فى صورته الكاملة . ومن ثم فإنه يكفى تقرير المبدأ ذاته لتقرير هذه المظاهر كلها أى لتقرير مضمونه .

ومع وجود هذا الاتفاق على تقرير مبدأ المساواة أمام القانون ، فإن الباحثين يختلفون حول الأصل الذى يمكن إرجاع هذا المبدأ إليه . فيرى بعضهم ذلك الأصل فى فكرة العقد الاجتماعى التى يفسرون بها أصل فى نشأة الدولة بينما يرى آخرون أن نظرية القانون الطبيعى ـــ الذى يعتبرونه اسمى وأولى بالاحترام من القانون الوضعى ـــ هى التى يمكن أن يرد إليها هذا المبدأ .

المساواة فى شريعة الإسلام

فإذا انتقلنا إلى الشريعة الإسلامية فإننا نجد فيها لمبدأ المساواة مكانا مرموقاً بين قيمها الأساسية التى تقررها مصادر هذه الشريعة والتى طبقها رسول الله ﷺ وأصحابه . وقد كان تقرير هذا المبدأ فى القرآن الكريم وفى سنة الرسول ﷺ ، عند ظهور الإسلام وانتشاره ، سبقا لشريعته فى زمانها ومكانها يشكل فى واقع العرب انقلابا أساسيا فى مفاهيمهم عن أسس التفاضل بين الناس وأسباب الفخر التى تحوزها بعض القبائل أو البيوت دون بعض ..

وبينما كان العرب تسيطر على حياتهم هذه المفاهيم نزل القرآن الكريم يقرر : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[١] . ووقف فى المسلمين رسول الله ﷺ يقول : « إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالأباء مؤمن تقى ، أو فاجر شقى . أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب »[٢] (رواه ابو داود بسند صحيح) .

وخطب رسول الله ﷺ فى حجة الوداع فكان مما قال للمسلمين بل للناس أجمعين : « يا أيها الناس : ألا إن ربكم عز وجل واحد . إلا وإن أباكم واحد . ألا لا فضل لعربى على أعجمى ألا لا فضل لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا قد بلغت ؟ قالوا : نعم قال : ليبلغ الشاهد الغائب »[٣] (رواه الأمام أحمد فى مسنده)

لا استثناء على مبدأ المساواة فى الإسلام

وإذا كانت نظرية المساواة أو أحكامها فى التشريعات الوضعية تعرف بعض الاستثناءات التى يتمتع بها بعض الأفراد كالحكام وأعضاء الهيئات التشريعية فإن مبدأ المساواة الذى تقرره الشريعة الإسلامية لا تنطبق فى ظله مثل تلك الاستثناءات . ذلك أن أساس هذا المبدأ(أو علته) هى وحدة الأصل الإنسانى ﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ و﴿ **كلكم لآدم وآدم من تراب** ﴾ أما التقوى التى تشير النصوص السابقة إلى تفاضل الناس بها فلا تأثير لها على تطبيق مبدأ المساواة فى حياة الناس . ذلك أن محل التفاضل بالتقوى فى الآخرة لا فى الدنيا ، أمام الله لا بين الناس .. وليس أدل على ذلك من حادثة المرأة التى اتهمت بالسرقة ، فحاول بعض الصحابة أن يشفع لها ، فغضب لذلك رسول الله ﷺ وخطب الناس فقال : « وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[٤] وعلى أساس من هذا الفهم كانت أول خطبة خطبها أبو بكر — رضى الله عنه — بعد توليه الخلافة تتضمن إقرارا صريحا بعزمه على تطبيق مبدأ المساواة أمام القانون فقال « والضعيف فيكم قوى عندى حتى أخذ له حقه ، والقوى ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه » .

ومن هذا أيضا ، كان رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقيدون عامة الناس من أنفسهم .

(١) سورة الحجرات آية ١٣

(٢) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٥ صـ ٣٣٩ ، ٣٤٠ كتاب الأدب . باب فى التفاخر بالأحساب . رقم ٥١١٦ .

(٣) الحديث فى مسند الإمام حـ ٥ صـ ٤١١ مسند (حديث رجل من أصحاب النبى — ﷺ —) .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٣١٥ كتاب الحدود . باب قطع السارق الشريف وغيره ، والنهى عن الشفاعة فى الحدود رقم ٨٠ / ١٦٨٨ .

وكما تسوى بينهم فى القضاء الذى يمثلون أمامه . فالقضاء فى الشريعة الإسلامية واحد للناس جميعا . ولا تعرف مبادىء هذه الشريعة ، كما لم يعرف تطبيقها على امتداد القرون ــ نظام المحاكم الخاصة فى تشكيلها ، أو الخاصة فى إجراءاتها كما تعرفه القوانين الوضعية .. ولذلك كان الخلفاء ورعاياهم من المسلمين أو غير المسلمين يمثلون أمام القاضى الذى يمثل أمامه عامة الناس . ويتبع فى إجراءات التقاضى ما ينطبق على هؤلاء كما ينطبق على غيرهم . وليس من شك أن هذا يعد أحد نتائج الأخذ بمبدأ المساواة الذى قررته النصوص سالفة الذكر .

فإن تقرير هذا المبدأ فى الشريعة الإسلامية كان جزء من أحكام هذه الشريعة ذاتها . ومن ثم فإنه ينبغى أن يفهم ويحكم هذا المبدأ ــ وغيره من مبادئها ــ فى إطار التشريع الإسلامى لا فى إطار غيره من التشريعات . وفى المجتمع الاسلامى وليس فى سواه من المجتمعات .

خامساً : جواز مساءلة رئيس الدولة ومدى وجوب الطاعة

تختلف الأحكام الخاصة بجواز مساءلة رئيس الدولة فى أنظمة الحكم الحديثة والمعاصرة من دولة إلى أخرى . فبعض الدول تقرر دساتيرها أن رئيس الدولة ليس محلا للمؤاخذة عن تصرفاته وأعماله . ولو بلغت التصرفات حد خرق القوانين أو الاعتداء عليها . كما كان يقرر دستور سنة ١٩٢٣ م فى مصر (م /٣٣) والذى كان يتضمن نصاً على أن ذات الملك مصونة لا تمس . وتقرر بعض الدساتير جواز مساءلة رئيس الدولة عن بعض الأعمال التى يأتيها فى حالات خاصة ، أو إذا شكلت هذه الأعمال خطورة معينة . وإلى ذلك ذهب الدستور الفرنسى ، والدستور المصرى الصادر سنة ١٩٦٤ (م /١١٢) الذى تضمن النص على جواز مساءلة رئيس الدولة عن الأفعال التى تعد خيانة عظمى ، أو التى تمثل عدم ولاء للنظام الجمهورى . وقد تقرر فى نصوص بعض الدساتير الأخرى جواز مساءلة رئيس الدولة فى نطاق أوسع من هذا النطاق ، حيث يسأل رئيس الدولة عن جرائم الخيانة العظمى والجرائم العادية أيضا . وتشترط هذه الدساتير ــ عادة ــ أغلبية برلمانية معينة لإصدار قرار اتهام رئيس الدولة بإحدى هذه الجرائم . وقد أخذ بهذا المذهب الدستور اللبنانى (م / ٦٠) والدستور المصرى الصادر فى سبتمبر ١٩٧١ (م /٨٥) ومما تقدم يتضح أن الإتجاه الذى تسير نحوه الدساتير الحديثة هو توسيع نطاق جواز مساءلة رئيس الدولة بشموله للجرائم العادية (أى المنصوص عليها فى القوانين الجزائية للدولة) بالإضافة إلى جرائم الخيانة العظمى وما فى حكمها . وهذا المبدأ هو المبدأ المقرر أصلا فى الشريعة الاسلامية . فوفقاً لأحكامها ليس ثمة تمييز بين رئيس الدولة وغيره من الأفراد فى خصوص مساءلته عن مخالفة القوانين . فضلا عن تقرير مبادىء الشريعة الإسلامية جواز مساءلة رئيس الدولة عن تصرفاته فى شئون الحكم . فكما قررت الشريعة الإسلامية لرئيس الدولة ــ متى قام بواجباته ــ حق الطاعة والنصرة على المحكومين ، واعتبرت الخروج عليه من هذه الحالة « بغيا » يجب أن يكف ــ ولو بالقوة ــ فاعله . فإنها جعلت للأمة حق مساءلته حين يقصر فى أداء واجباته أو ينحرف بسلطاته .

حق الأمة فى محاسبة الحاكم

ويستدل على حق الأمة فى مساءلة رئيس الدولة بما يجب على أفرادها من القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبمالها من حق الشورى ، فلولا أن الأمة رقيبة على رئيس الدولة لما لزمه أن يستشيرها ، وقد قدمنا الكلام عن هذين الأصلين من أصول الأحكام الإسلامية المتعلقة بالحياة السياسية . وكذلك يستدل على حق الأمة فى مساءلة الدولة بالنصوص القرآنية التى تصف بأوصاف الذم بعض أفعال بعض الحكام ، ومن هذه النصوص قول الله تعالى ﴿ **فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾[١] ، وقوله تعالى : ﴿ **وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل ، والله لا يحب الفساد** ﴾[٢] فمن يأتى من الحكام فعلاً يعتبر إفساداً فى الأرض ، أو اتباعاً للهوى ، يجب على الأمة أن تأمره بالكف عن مثل هذه الأفعال وإلا كانت مقصرة فى واجبها فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وإن لم يستجيب وجب عليها أن تحاسبه على ذلك وتسائله عنه .

وكذلك ورد فى السنة النبوية العديد من الأحاديث التى تقرر جواز مساءلة رئيس الدولة عما يأتيه فى مباشرته لعمله من مخالفة لأحكام الشريعة . فقد قال رسول الله ﷺ : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »[٣] وقال — عليه الصلاة والسلام — : « ما من عبد يسترعيه الله رعية ، يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته ، إلا حرم الله عليه الجنة »[٤] (مسلم) وكذلك أمر الرسول ﷺ بالطاعة للحاكم فى غير معصية فقال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة »[٥] (رواه مسلم) . وقال ﷺ . « إنما الطاعة فى المعروف »[٦] (رواه مسلم) . فهذه الأحاديث تقرر قاعدة الطاعة للحكام فى المعروف ، وتدل بذلك على وجوب عدم الطاعة فى غير المعروف أو فى المعصية . وهى تقرر كذلك مبدأ جواز مساءلة الحكام عن أفعالهم ، وبديهى أن المساءلة واردة على نفس الأفعال التى أبيح فيها — أو فى مثلها من أوامر الحكام — عدم الطاعة باعتبارها معاصى لا يجوز إتيانها .

وبناء على فهم هذه النصوص من القرآن والسنة ، كان مما قاله أبو بكر — رضى الله عنه — فى أول خطبه خطبها بعد توليه الخلافة « إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينونى . وإن أسأت

(١) سورة ص آية ٢٦

(٢) سورة البقرة آية ٢٠٤

فقوموني » وقال عمر بن الخطاب « أنه لم يبلغ حق ذى حق أن يطاع فى معصية الله » وكذلك كان هذا الفهم هو الدافع الذى حدا بعدد غير قليل من الفقهاء فى مختلف المذاهب إلى تقرير جواز عزل رئيس الدولة عن ولايته إذا أتى ما يعتبر إخلالاً بواجباته أو وظيفته . أو إذا ظهر منه ما يعد فسقاً أو جوراً أو مخالفة لكتاب الله وسنة الرسول ... ﷺ . وليس أدل من مثل هذا الفهم على مدى أخذ شريعة الإسلام وفقهه بقاعدة جواز مساءلة رئيس الدولة بكل ما تستتبعه هذه المساءلة من نتائج ـــ أهـ .

ويقول الدكتور : محمد عزة دروزه فى كتابه (الدستور القرآنى والسنة النبوية فى شئون الحياة) تحت عنوان : **الشورى فى الدولة** :

لقد جاء أولاً فى سورة الشورى المكية هذه الآية : ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(١) حيث تقرر أن الشورى بين المسلمين صفة لازمة من صفاتهم . بحيث أنهم لا يقدمون على أمر ولا يعملون عملا إلا بعد التشاور ، ونتيجة لما يتقرر بينهم به . وهذا التقرير يتضمن تلقينا مطلقا بحيث يتناول المسلمين أفرادا وجماعات . ويدخل ضمن ذلك الأمور العامة المشتركة ولا سيما ما هو متصل بشئون الدولة بطبيعة الحال . بل إن صيغة الآية وروحها تلهمان أن الشئون المشتركة العامة هى المقصودة فيها . ثم نزلت آية آل عمران المدنية هذه :

﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾(٢) فكانت حاسمة وتشريعية فى وجوب مشاورة أولى الأمر المسلمين فى الشئون العامة . وليس فى القرآن تحديد لكيفيه المشاورة وظروفها . شأنه فى كثير من الأمور ، ولم يثبت عن النبى ﷺ ... تحديد تشريعى لذلك أيضا وكل ما أثر أنه كان يستشير خاصة أصحابه أو بعض فئات وزعماء بأعيانهم فى الأمور الملحة والعزائم الهامة . فليس من التجوز أن يقال : أن لرئيس الدولة فى الإسلام وأولى الأمر والحل والعقد والعلم فيها أن يعينوا الكيفية التى يرونها صالحة وكافلة للغرض من الشورى ، وإن من الجائز أن تتعدل هذه الكيفية وتتبدل من حين لآخر وفقا لمقتضيات الظروف والأحوال وتطورها . ولقد قيل : أن المقصود بأولى الأمر فى آيتى النساء ٥٩ /٨٣ اللتين نقلناهما قبل قليل ، وورد فيهما إيجاب طاعتهم ورد الأمور إليهم بالإضافة إلى طاعة الله ورسوله ، وإن أهل الحل والعقد المأمور بمشاورتهم فى آيه آل عمران ـــ هم العلماء . وهذه الكلمة تنصرف منذ ألف سنه ، حينما تطلق إلى علماء الدين .

ومع أنه ليس من محل للجدل فى أن علماء الشريعة ممن يجب أن يكونوا فى عداد أهل الرأى والحل والعقد والمشورة ، فإنهم ليسوا جميع من تجب مشاورتهم ، ولا جميع من يجب اعتبارهم أهل الرأى والحل والعقد والشأن أيضا ، كما أنه من التجوز الكبير أن يصرف تعبير ﴿ **أولى الأمر** ﴾ الوارد فى آيتى النساء إليهم ، لأنه

(١) سورة الشورى آية ٣٨

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩

لم يكن فى عهد النبى ﷺ وفى ظروف نزول هذه الآيات ، طبقة علماء الشريعة الاسلامية بالمعنى الذى عرف فيما بعد . ولأن من الثابت أن النبى ﷺ كان يولى بعض أصحابه بعض مهام الدولة كالقيادة وأمانه المال والصدقات ورآسة البعوث السياسية والتبشيرية وقد ولى شابا حديث السن ولاية مكة عقب الفتح . فمن الطبيعى أن يصرف هذا التعبير إلى هؤلاء وأفعالهم فى عهد النبى ﷺ وبعده ، أى العلماء والنابهين والزعماء والخبراء فى مختلف الشؤون بصورة عامة ..

ومشاورة ولى أمر المؤمنين للمؤمنين وتشاور المؤمنين فيما بينهم إنما يكون فيما ليس فيه نص صريح محكم لم ينسخ فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أما ما كان فيه نص مثل ذلك فلا تصح المشاورة والتشاور والاجتهاد فيه ..

ويتبادر لنا أن لآية النساء هذه :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾[1] صلة ما بهذا البحث فاتباع غير سبيل المؤمنين جملة عامة مستمرة المدى بل وجملة **﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ﴾** يمكن أن يكون لها قوة الاستمرار بعد النبى ﷺ بمخالفة كتاب الله وسنة رسوله أو مناوأتهما . ومعنى اتباع غير سبيل المؤمنين ، الشذوذ عما عليه جمهور المسلمين .

وسبيل المؤمنين التى توجب الآية اتباعها وتنذر الذين يشذون عنها إما أن تكون من مقتضيات ما فى كتاب الله وسنة رسوله من نصوص وأحكام صريحة أو ما فيهما من توجيهات وتلقينات ومباديء وخطوط عامة . والثانية تقرر بتدبر العلماء وأولى الحل والعقد والخبرة من المؤمنين بطريق الشورى وما يتقرر فى ذلك يكون سبيل المؤمنين الواجب اتباعه ويكون الانحراف عن الأولى أو الثانية أو كلتيهما اتباعا لغير سبيل المؤمنين ومحلا لإنذار الله تعالى . وإذا خرج الإنحراف عن نطاق الفكر إلى حيز العمل والإفساد والإرجاف والتأليب فيكون محل عقوبة السلطان أيضا إذا لم يرتدع ويتب لأنه يدخل فى نطاق آيات سورة المائدة هذه : **﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾**[2]

---

(١) سورة النساء آية ١١٥

(٢) سورة المائدة الآيتان ٣٣ ، ٣٤

وآيات سورة الأحزاب هذه

﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[1]

وهناك أحاديث نبوية عديدة وردت فى الكتب الصحيحة قد تدعم ذلك ، منها حديث رواه أبو داود عن أبى ذر عن النبى ﷺ قال : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام »[2] وحديث رواه مسلم عن عرفجة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهى جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان »[3] وعن أسامة بن شريك عن رسول الله ﷺ قال « يد الله ــ عز وجل ــ على الجماعة فإذا شذ الشاذ منهم اختطفه الشيطان كما يختطف الذئب الشاة من الغنم »[4] ومن تحصيل الحاصل أن نقول أن أية جماعة أو مجتمع من المسلمين خرجوا عن أحكام كتاب الله وسنة رسوله نصاً وتوجيهاً لا يكونون على سبيل المؤمنين الحق الذى تنذر الآية من يتبع غيره .. والله تعالى أعلم . أ .هـ

ونرى تتمة للفائدة أن نسجل هذا البحث الذى كتبه الاستاذ / محمد السعدى فى مجلة الفكر الإسلامى . حتى يكون القارىء على بينة من الأمر . كتب تحت عنوان : العنف السياسى فى الحركات الاسلامية المعاصرة . « موضوع العنف السياسى من أدق المواضيع وأكثرها إشكالية وإثارة للجدل فى عالمنا المعاصرر لأنه يمس أهم المؤسسات فى المجتمع وهى مؤسسة الحكم والدولة ويتناول العلاقة بين المجتمع والنظام الحاكم والموقف الذى يجب على المجتمع أن يتخذه تجاه السلطة .

والحق أن سبيل هذه الدراسة شائك وعر لأنها تتصدى لموضوع حساس اختلفت فيه الآراء ، وتشعبت فيه الاجتهادات ، والتبس فيه فهم النصوص القرآنية والحديثية ، المتغيرة . وهذا كله يفرض على الدارس الحيطة والحذر ، والرؤية والاستقصاء وهو يعالج النصوص وأقواال الفقهاء المفسرين ، ويحاول التصحيح والترجيح ، ويطلق الأحكام ويستخلص الأسباب والنتائج .

---

(١) سورة الأحزاب الآيات ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢

(٢) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٥ صـ ١١٨ كتاب السنة . باب فى قتل الخوارج . رقم ٤٧٥٨ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٩ . كتاب الإمارة . باب حكم من فرق أمر المسلمين . رقم ٥٩ / ١٨٥٢ .

(٤) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى حـ ١ صـ ١٥٣ رقم ٤٨٩ . وقال محققه . وفى سنده ابن أبى المساور . قال فى المجمع (٥ /٢١٨) وهو ضعيف . قلت بل متروك وكذبه ابن معين كما فى التقريب .

وما دام الأمر يتعلق بموقف الدين من مسألة العنف السياسى ، والحركات الإسلامية فعلى الباحث أن يلتزم الصدق ويجتهد فى طلب الحق ويستبعد نوازع العصبية والهوى ما استطاع إلى ذلك سبيلا **﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾**[1]

وهذه الدراسة لا تتعرض لموضوع العنف السياسى ضد المستعمرين والمعتدين المحاربين فهذا أمر لا خلاف على جوازه ــ بل وجوبه عند مختلف المذاهب والمدارس الاسلامية ، وإنما تعالج مسألة اللجوء إلى العنف ضد السلطة الحاكمة الظالمة التى تخرج على تعاليم الإسلام .

أولاً : الجذور التاريخية للعنف السياسى .

كان مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٤٧ ق . هـ ــ ٣٥ هـ) ــ رضىَ الله عنه ــ أول حادث عنف سياسى فى تاريخ الدولة الإسلامية بحيث قتله البغاة بحجة ضعفه ولينه فى سياسة الناس ، وإيثاره أقرباءه بالمناصب والمغانم ، ولقد فتح هذا الحادث باب فتنة دموية عانت منها الدولة الإسلامية أشد العناء وما زالت تعانى إلى يومنا هذا ، ومهد الطريق لظهور الأحزاب السياسية والفرق والمذاهب المختلفة وزرع الفرقة والإنقسام فى صفوف الأمة الإسلامية . وكان ذلك الحادث سابقة جعلت الخروج على الدولة والسلطة الحاكمة أمراً شائعاً خلال مختلف العهود الإسلامية .

وما أن تولى الخلافة على بن أبى طالب (٢٣ ق .هـ ــ ٤٠ هـ) ــ رضى الله عنه ــ حتى ثار عليه جند الشام بقيادة معاوية بن أبى سفيان (٢٠ ق . هـ ــ ٦٠ هـ) ورفضوا مبايعته بحجة أنه فرط فى دم عثمان و لم يعاقب قتلته . كما ثارت عليه السيدة عائشة وطلحة الزبير واصطدموا معه فى موقعة الجمل ، للسبب ذاته . وسرعان ما ثار ضده فريق ثالث هم الخوارج الذين خرجوا عن على ــ رضى الله عنه ــ (٣٧ هـ) وحاربوه بسبب قبوله للتحكيم فى النزاع بينه وبين معاوية وكفروه لذلك ، كما كفَّروا الأمويين وحاربوهم قرابة قرن من الزمان بسبب اغتصابهم للحكم ، واستئثارهم بالسلطة ، وأموال الأمة مما أدى إلى انهاك الدولة الأموية والمسارعة فى انهيارها تحت ضربات الثورة العباسية عام (١٣٢ هـ) .

وفى عام (٦١ هـ) ثار الإمام الحسين ــ رضى الله عنه ــ (٤ ــ ٦١ هـ) على الأمويين فى خلافة يزيد بن معاوية بسبب جور بنى أمية واستئثارهم بالحكم وانتهت ثورته بمأساة كربلاء التى راح ضحيتها الحسين وجميع أنصاره .

---

(١) سورة المائدة آية ٨

وفى عام (٦٣٠ هـ) ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية بسبب ظلمه وانتهت ثورتهم باستباحة الأمويين للمدينة ثلاثة أيام وقتل العديد من صحابة رسول الله ﷺ .
وفى العام ذاته ثار عبد الله ضد الأمويين فى عهد يزيد أخذ البيعة لنفسه فى مكة ولكنه قتل وهزم اتباعه وآلت ثورته إلى الفشل عام (٧٢ هـ) فى عهد عبد الملك بن مروان .
وفى عام (٦٥ هـ) قامت ثورة التوابين الشيعية بقيادة سليمان بن صرد ضد الأمويين انتقاما لمقتل الحسين ، وانتهت الثورة بمقتل سليمان وهزيمة اتباعة .
وشهد عام (٦٦ هـ) ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى على الأمويين ثأراً لآل البيت وفشلت كسابقتها .
وفى عام (٨٣ هـ) ثار عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث على الدولة الأموية وشاركه فى هذه الثورة أكابر التابعين كسعيد بن جبير والشعبى ومجاهد وعطاء وغيرهم بسبب جور الأمويين فى الحكم وتجبرهم فى الدين واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة كما قال سعيد بن جبير رحمه الله . ولم يكتب لتلك الثورة النجاح وانتهت بمقتل ابن الأشعث وسعيد بن جبير .

وشهد عام (١٢٢ هـ) ثورة فاشلة ضد الحكم الأموى بقيادة زيد بن على بن الحسين (٧٩ — ١٢٢ هـ) الذى كان يرى أنه أحق بالخلافة من البيت الأموى . وفى العهد العباسى قامت ثورات كثيرة نذكر منها ثورة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن الذى ثار بالمدينة ضد المنصور سنة ١٤٥ هـ وثورة أخيه إبراهيم فى البصرة فى نفس العام بحجة أحقية آل البيت بالحكم وبسبب فساد الحكم العباسى . وكان الفشل مصيرا للثورتين . وفى عام (٢٤٩ هـ) قاد على بن محمد ثورة ا لزنج ضد الدولة العباسية وقد قامت تلك الثورة بسبب الظلم الاجتماعى الذى مورس ضد الزنوج وفقراء العرب حيث أساء السادة الأغنياء والإقطاعيون معاملتهم واستغلوهم أبشع استغلال ، وحرموهم أبسط الحقوق الإنسانية . وظلت هذه الثورة تهدد الدولة العباسية قرابة عشرين سنة .

وفى العصر الحديث يمكن أن نشير إلى بعض الثورات والحركات التى لجأت إلى العنف كالحركة الوهابية التى ظهرت عام ١٧٤٥م فى نجد بقيادة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ — ١٧٩٢) الذى دعا إلى تطهير الدين مما شابه من البدع والخرافات والشركيات ، ولجأ إلى القوة لتغيير الواقع المخالف للإسلام وقال « من لم يجب بالحجة والبرهان قتلناه بالسيف والسنان » وانطلق من قوله تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾[1] .

وفى عام ١٩١٦ قامت الثورة العربية ضد الأتراك بسبب سياسة التتريك وفساد الحكم العثمانى واستبداده

وفى عام ١٩٤٨م شهدت مصر اغتيال رئيس الوزراء المصرى محمود فهمى النقراشى من قبل جماعة

---

(١) سورة الأنفال آية ٣٩

الأخوان المسلمين رداً على حظر الجماعة . وفى ٢٦ أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٥٤م وقعت محاولة اغتيال الرئيس جمال عبد الناصر فى الاسكندرية من قبل تنظيم الإخوان أيضا الذى تعرض لضربة انتقامية قاصمة من الرئيس جمال عبد الناصر ، لم يستطع الإخوان بعدها أن يستردوا قوتهم ونفوذهم إلى يومنا هذا وفى عام ١٩٦٥م تعرض بقايا الأخوان فى مصر لضربة عنيفة أخرى من قبل عبد الناصر بعد اتهامهم بالإعداد لانقلاب عسكرى ضد ثورة يوليو /تموز . وأعدم سيد قطب الذى كان يرأس جماعة الإخوان آنذاك .

وفى عام ١٩٧٤ قامت جماعة إسلامية يقودها الدكتور الفلسطينى صالح سرية بالهجوم على الكلية الفنية العسكرية فى مصر ضمن خطة لقلب نظام حكم أنور السادات والاستيلاء على السلطة .

وشهد عام ١٩٧٦ حادث قتل الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف المصرى على يد جماعة التكفير والهجرة .

وفى عام ١٩٧٩ قامت الثورة الإسلامية فى إيران وأطاحت بغرش الشاة المستبد رغم الحماية الإستعمارية ورغم الجيش الذى قالوا عنه أنه خامس قوة عسكرية فى العالم . وفى السادس من أكتوبر تشرين الأول ١٩٨١م أنهت رصاصات خالد الإسلامبولى حياة الرئيس أنور السادات بسبب اعترافه بالعدوان الصهيونى وعدم العمل بأحكام الشريعة الإسلامية .

ومن السرد التاريخى الموجز السابق نستخلص أن العنف السياسى ضد السلطة فى العالم الاسلامى قديم يعود إلى القرن الهجرى الأول ولم ينقطع فى عهد من العهود .

والحركات الإسلامية التى استخدمت العنف قادها رجال يتمتعون بمكانة دينية مرموقة فقد كان بينهم صحابة مثل طلحة والزبير ومعاوية والحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، وكان بينهم رجال من كبار التابعين كسعيد بن جبير والشعبى وزيد بن على بن الحسين . وفى العصر الحديث يمكن أن نذكر حسن البنا ، وسيد قطب فى مصر ، ومحمد بن عبد الوهاب فى الحجاز ، ومحمد باقر الصدر فى العراق ، ومصطفى السباعى فى سوريا .

والحركات التى انتهجت العنف والثورة منها ما كان سليم المنطلقات كحركة الحسين وابن الزبير وابن الأشعث ، ومنها ما ضل السبيل كحركة الخوارج والقرامطة وإخوان الصفا وجماعة التكفير والهجرة .

ومن هذه الحركات ما حظى بقاعدة جماهيرية واسعة كمعركة معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الله بن الزبير ، وعلى بن محمد قائد الزنج ، ومنها ما فشل فى استقطاب التأييد الشعبى كالخوارج والقرامطة وجماعة التكفير والهجرة .

ومن هذه الحركات ما تمتع باحترام وعطف جماهير المسلمين كحركتي الحسين وعبد الله بن الزبير ومنها ما نال الاستنكار والإدانة كحركة الزنج والقرامطة والتكفير والهجرة . وهذه الحركات منها ما حارب السلطة بدعوى كفرها كالخوارج والتكفير والهجرة ، ومنها ــ وهو الغالبية ــ ما حارب السلطة بدعوى ظلمها وجورها .

ثانيا : أسباب العنف السياسى

لا شك أن السبب الرئيسى للعنف السياسى هو ذلك التناقض بين تعاليم الإسلام وسياسات السلطة السياسية التى تفرضها على جماهير المسلمين بالقهر والإكراه . إنه التناقض بين القول والعمل ، بين النظرية والممارسة بين الأمانى والواقع .

يقول الدكتور يوسف القرضاوى فى كتابه (الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف) . يجب أن نكون شجعاناً ونعترف بأن كثيرا من تصرفاتنا هى التى دفعت هذا الشباب دفعا إلى ما نسميه التطرف ، فنحن ندعى الإسلام ولا نعمل به ونقرأ القرآن ولا نطبق أحكامه . ونزعم حب الرسول ﷺ ولا نتبع سنته ، ونسجل فى دساتيرنا أن دين الدولة هو الإسلام ولكنا لا نعطيه حقه فى الحكم والتشريع والتوجيه .

ولا ريب أن الاستبداد السياسى ومصادرة الحريات وحرمان المواطن من حرية التعبير والمعارضة والنقد ضمن سلطة القانون يدفع الراغبين بالتغيير والإصلاح إلى العمل السرى واللجوء إلى العنف والقوة للوصول إلى الأهداف المطلوبة حيث لا يبدو أمامهم أى سبيل آخر .

والظلم الاجتماعى ، وعدم تكافؤ الفرص ، والتفاوت الطبقى واستئثار القلة المترفة بثروات المجتمع ، وحالة الفقر والضنك التى تعيشها الغالبية المسحوقة دوافع قوية للعنف .

وهذا ما بدا واضحا من خلال ثورة الزنج فى العصر العباسى ، وانتفاضة ١٨ ــ ١٩ / كانون الثانى ١٩٧٧م ، وحركة قوى الأمن عام ١٩٨٦م فى مصر وثورة الخبز فى تونس ١٩٨٤م .

والتفريط فى الحقوق القومية ، وموالاة أعداء الدين ، وخيانة الحكام ، من أشد حوافز العنف . فالأمة لا تتسامح مع الخونة والعملاء أبداً ، ولا تغفر لهم مطلقا . وقد يختلف الناس فى مشروعية الثورة على الحاكم المستبد الظالم ولكنهم قلما يختلفون فى مشروعيتها ضد الحاكم الخائن . ومن هنا فقد رأينا العالم الإسلامى كله يتعاطف مع تنظيم الجهاد الذى تولى تصنيعه السادات ويرفع الرجال الذين تولوا هذا العمل إلى مصاف الأبطال . ولا ننس أيضا أن الملك عبد الله قد اغتيل عام ١٩٥١م لنفس السبب .

ولجوء السلطة إلى البطش واستخدام العنف والتعذيب البدنى والنفسى ضد المصلحين والمعارضين يربى الحقد والمرارة فى نفوسهم ، ويدفعهم إلى التطرف الفكرى والنزوع إلى العنف ، والقسوة تولد القسوة والعنف يستدعى العنف وشدة الضغط تؤدى إلى الانفجار . ومن المعروف أن الجماعات المتطرفة كجماعة التكفير والهجرة نبتت أفكارها فى السجون ، ونمت أشواكها وراء القضبان . وشعور الشباب بالإحباط ويأسهم من حصول التغيير عن طريق النصح والارشاد ومسالمة الحكام خاصة بعد دراستهم لتاريخ الحركات الإسلامية مع الحكام ، وحماسهم وتعجلهم ورغبتهم فى التغيير السريع ، كل ذلك يوجههم نحو ميدان العنف .

وهناك نوع من العنف السياسى ينشأ بسبب الجهل بأحكام الدين والتطرف العقيدى كذلك الذى وجدناه عند الخوارج والقرامطة والتكفير والهجرة . ومن الملاحظ أن العنف السياسى يزداد حين يتصاعد البطش والإرهاب والاستبداد ، وتتصاعد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية . والذين يظنون أن قسوة الانتقام وجحيم التنكيل والتعذيب كفيل بإنهاء المعارضة وكم الأفواه وشل حركة التغيير واهمون ، فقد تهدأ الحركة حينا ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة .

ومن الملاحظ كذلك أن العنف السياسى يكون محدودا فى المجتمعات المرفهة اجتماعيا واقتصاديا والتى تتمتع بالاستقرار السياسى . كما أن ظاهرة العنف محدودة فى البيئات المتخلفة ثقافيا .

ثالثاً : فلسفة العنف السياسى .

تختلف فلسفة العنف السياسى باختلاف المبادىء والمنطلقات التى تحكم الفرق الإسلامية والحركات التى اتخذت العنف والقوة المسلحة سبيلا لتغيير النظام الحاكم الجائر . وسنعرض هنا مواقف بعض الجماعات والفرق الإسلامية فى هذه المسألة :

١ ــ موقف فقهاء أهل السنة :

معظم فقهاء أهل السنة يمنعون الثورة المسلحة ضد الحاكم الظالم ولا يجيزونها إلا فى حلة الكفر البواح أى الصريح الواضح الظاهر الذى لا يحتمل التأويل . ويعنى هذا بلغة الفقهاء إنكار معلوم من الدين بالضرورة كإنكار اليوم الآخر أو ربانية القرآن أو فرضية الزكاة أو حرمة الزنا والربا . ويرى هؤلاء الفقهاء أن الأمة يجب أن تصبر على الحكام الجائرين مهما اشتد جورهم ، وتبذل لهم النصيحة ، ولا تطيعهم إن أمروا بمعصية ويحتجون لموقفهم هذا بأحاديث منها :

« من رأى من أميره شيئا فليصبر ، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات مات ميتة جاهلية » (البخارى)[١] .

« من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه » (رواه مسلم)[٢]

« خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم قلنا يارسول الله أفلا ننابذهم عند ذلك ؟ قال لا . ما أقاموا فيكم الصلاة ، وإذا رأيتم من ولاتكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ، ولا تنزعوا يداً من طاعة (رواه مسلم)[٣] .

عن عبادة بن الصامت قال : دعانا النبى ﷺ فبايعناه على السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا ، وأثرة علينا ، وألا ننازع الأمر أهله ، إلا أن تروا كفرا بواحاً عندكم من الله فيه برهان[٤] (البخارى ومسلم) . « السمع والطاعة على المرء المسلم فى ما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة (الشيخان)[٥]

عن حذيفة قال « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى . فقلت يارسول الله ، أنا كنا فى جاهلية وشر ، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم قلت وهل بعد هذا الشر من خير ؟ قال نعم ، وفيه دخن . قلت : وما دخنه يارسول الله ؟ قال : قوم يستنون بغير سنتى ويهدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر ، فقلت : فهل بعد ذلك الخير من شر ؟ قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها . قلت : يارسول الله ، فما ترى إن أدركنى ذلك ؟ قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت : فإن لم يكن لهم إمام ولا جماعة ؟ قال : فاعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك[٦] (متفق عليه) . يكون من بعدى

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ٥٩ كتاب الفتن . باب سترون بعدى أمورا تنكرونها .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٨٠ كتاب الإمارة . باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع . رقم ٦٠ / ١٨٥٢ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٨١ كتاب الإمارة باب خيار الأئمة وشرارهم . رقم ٦٥ / ١٨٥٥
(٤) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ٦٩ ، ٦٠ كتاب الفتن باب قول النبى سترون بعدى أمور تنكرونها .
ـــ انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٠ كتاب الإمارة . باب وجوب طاعة الأمراء فى غير معصية . رقم ٤٢ / ١٧٠٩
(٥) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ٧٨ كتاب الأحكام باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية .
ـــ انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٦٩ كتاب الإمارة . باب وجوب طاعة الأمراء إلا فى المعصية . رقم ٣٨ / ١٨٣٩
(٦) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٩ صـ ٦٥ كتاب الفتن باب الأمر إذا لم تكن جماعة .
ـــ انظر صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ كتاب الإمارة . باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن . رقم ٥١ / ١٧٤٨ .

أئمة لا يهتدون بهدايتى ، ولا يستنون بسنتى ، وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين فى جثمان إنس قال قلت يارسول الله كيف أصنع إن أدركت ذلك ؟ قال تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك تسمع وتطيع[1] (مسلم) .

واعتمد هؤلاء الفقهاء فى وجهة نظرهم على المنطق والواقع وعلى قاعدة ارتكاب أخف الضررين ، وتفويت أدنى المصلحتين ، فقالوا : أن الخروج على الإمام الفاسق الفاجر يؤدى إلى الفتن وسفك الدماء وبث الفساد واضطراب البلاد وتوهين الأمر ، ويؤدى إلى فساد أكبر من فساد الصبر على ظلمه وجوره .

والجدير بالذكر أن الفقهاء يرون أن الإمامة تنعقد بالتغلب والقهر . فمن استولى على السلطة بالقوة وسيطر على البلاد ، وجبت طاعته براً كان أو فاجرا فهو أمير المؤمنين .

يقول الامام أحمد بن حنبل : « ومن غلب بالسيف حتى صار خليفة سمى أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما عليه براً كان أو فاجرا فهو أمير المؤمنين » .

يقول الأشعرى فى (مقالات الإسلاميين) . إن أهل الحديث اتفقوا على أن السيف باطل ولو قتلت الرجال وسبيت الذرية ، وإن الإمام قد يكون عادلا ويكون غير عادل وليس لنا إزالته وإن كان فاسقا وأنكروا الخروج على السلطان ولم يروه » .

ويقول ابن تيمية (٦٦١ ــ ٧٢٨ هـ) فى منهاج السنة : إن المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم لأنه فساد فى القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى ويكتب ابن القيم (٦٩١ ــ ٧٥١ هـ) فى « إعلام الموقعين » أن الواجب شىء والواقع شىء . والفقيه من يطبق بين الواقع والواجب ، وينفذ الواجب بحسب استطاعته لا من يلقى العداوة بين الواجب والواقع .
فلكل زمان حكم والناس بزمانهم أشبه منه بآبائهم وإذا عم الفسوق وغلب أهل الأرض فلو منعت إمامة الفساق وشهاداتهم وأحكامهم وفتاويهم وولاياتهم لعطلت الأحكام وفسد نظام الخلق وبطلت أكثر الحقوق .
فأمام الضرورة والغلبة بالباطل ليس إلا الاصطبار والقيام بأضعف مراتب الإنكار ويكتب النووى فى شرح مسلم (٢ / ٢٢٩) : وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقه ظالمين . وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته ، وأجمع أهل السنة أنه لا ينعزل السلطان بالفسق . وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين . فتكون المفسدة فى عزله أكثر منها فى بقائه » .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٣ صـ ١٤٧٦ كتاب الإمارة : باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ــ رقم ٥٢ / ١٨٤٧ .

ويكتب شارح العقيدة الطحاوية ، ص ٤٣٠ ما يلى :

« وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج عن طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم ، بل فى الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور ، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا . والجزاء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد فى الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل .

وهناك قلة من فقهاء السنة أجازت وأوجبت الخروج على الحاكم الفاسق المتمادى فى الجور والظلم بشرط امتلاك القدرة على ذلك . ومن هؤلاء ابن حزم الذى أفتى بجواز الخروج على الحاكم الظالم لأن الأحاديث المجيزة للخروج على الفاسق الظالم ناسخة فى رأية للأحاديث الآمرة بالصبر التى وردت فى مبدأ الإسلام ، ولقوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾[1]

ولأنه يجب على المسلم إزالة المنكر ، ولا طاعة فى معصية . ومن قتل دون ماله أو دينه أو مظلمته فهو شهيد (الفقه الاسلامى وأدلته ، ج٦ ص ٧٠٩) . ومن هؤلاء أيضا الإمام الغزالى الذى يقول فى كتابه (الاقتصاد فى الاعتقاد) والذى نراه ونقطع به أنه يجب خلعه إن قدر على أن يستبدل عنه من هو موصوف بجميع الشروط من غير فتنة ولا تهيج قتال ، وإن لم يكن ذلك إلا بتحريك قتال وجبت طاعته ، وحكم بإمامته ، فإن السلطان الظالم الجاهل متى ساعدته الشوكة وعسر خلعه وكان فى الاستبدال به فتنة ثائرة لا تطاق وجب تركه ووجبت الطاعة له ومن هذا الفريق أيضا إمام الحرمين الجوينى (٢١٩ — ٤٧٨ هـ) صاحب كتاب (غيات الأمم فى النيات الظلم) الذى يطرح رأيا يبدو من أسلم الآراء وأكثرها منطقية وواقعية وانسجاما مع روح الشريعة الإسلامية إذ يقول « إن المتصدى للإمامة إذا عظمت جنايته ، وكثرت عاديته ، وفشى احتكامه واهتضامه ، وبدت فصاحته ، وتتابعت عثراته وخيف بسبب ضياع البيضة وتبدد دعائم الإسلام ، ولم يجد من ينصب للإمامة حتى ينهض لدفعه حسب ما يدفع البغاة فلا يطلق للآحاد فى أطراف البلاد أن يثوروا فإنهم لو فعلوا ذلك لأبيدوا وكان ذلك سببا فى ازدياد المحن وإثارة الفتن ولكن إن اتفق رجل مطاع ذو اتباع وأشياع ويقوم محتسباً آمراً بالمعروف وناهيا عن المنكر وانتصب بكفاية المسلمين فليمض فى ذلك قدما والله نصيره » ص ٨٨ — ٨٩ .

ومن آراء العلماء المحدثين نثبت هنا رأى الدكتور عبد الكريم زيدان الذى ورد فى كتابه (الفرد والدولة فى الشريعة الإسلامية) ص ٥٠ — ٥٢ حيث يقول : أن المركز القانونى لرئيس الدولة هو مركز الوكيل بالنسبة للأمة فمن البديهى أن يكون من حقها عزله إذا خرج عن حدود وكالته أو لم يقم بمهام الوكالة عجزاً أو تقصيرا ولأن من يملك التعيين يملك العزل . يقول ابن حزم « فهو الإمام الواجب طاعته ما قادنا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . فإذا زاغ عن شىء منهما منع من ذلك وأقيم عليه الحد والحق فإن لم يؤمن

(١) سورة الحجرات آية ٩

أذاه ألا يخلعه خلع وولى غيره »

وإذا كان للأمة عزل رئيس الدولة فلها أن تباشره بواسطة ممثليها وهم أهل الحل والعقد بأن يسحبوا ثقتهم منه ويقرروا عزله ولكن قد لا يستجيب رئيس الدولة لهذا القرار وفى هذه الحالة يجوز للأمة استعمال القوة لتنحيته من منصبه إذا وجد المبرر الشرعى لذلك مثل خروجه السافر على نهج الإسلام وأحكامه . ولكن اللجوء إلى القوة مشروط بتوافر قواعد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن لا يكون العمل على إزالة المنكر مستلزما منكرا أعظم .

٢ ــ موقف المعتزلة

قال المعتزلة بجواز الثورة على الحاكم الظالم والخروج عليه ، واشترطوا لذلك أن يكون الثوار جماعة وأن يكون لهم إمام ، وأن يكون النصر محتملا لهم . واستدلوا لذلك بقوله تعالى ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾[1] وقوله عز وجل : ﴿ **فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾[2] (الحجرات : ٩) ، وقوله سبحانه ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين** ﴾[3] يقول القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمزانى فى كتابه (تثبيت دلائل النبوة) : « لا يحل لمسلم أن يخلى أئمة الضلالة وولاة الجور اذا وجد أعوانا وغلب على ظنه أنه يتمكن من منعهم من الجور كما فعل الحسن والحسين وكما فعل القراء حين أعانوا ابن الأشعث فى الخروج على عبد الملك بن مروان وكما فعل أهل المدينة فى وقعة الحرة ، وكما فعل أهل مكة مع ابن الزبير حين مات معاوية ، وكما فعل عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد فى ما أنكروه من المنكر » .

٣ ــ موقف الخوارج

يعتقد الخوارج أنهم الفئة المؤمنة الناجية وأن من عداهم كفار خارجون عن الدين ، ويعتقدون كفر مرتكب الكبيرة إلا إذا تاب . وقال الخوارج ببطلان الأحاديث التى تحصر ولاية أمور المسلمين فى قريش وقرروا أن منصب رئاسة الدولة من حق كل مسلم تتوافر فيه شروط الإمامة بغض النظر عن نسبه وجنسه ولونه . وقالوا إن الإمام يختار بالبيعة لا بالتعيين وأوجب الخوارج الثورة على الإمام الفاسق الجائر ، وسلكوا سبيل الثورة المسلمة لنشر أفكارهم وإسقاط السلطة الحاكمة . ومن هذه المنطلقات جميعا حاربوا الإمام عليا ــ رضى الله عنه ــ لأنه قبل التحكيم وخالف القرآن فى رأيهم ، وهذا ذنب مكفر عندهم ، وحاربوا الأمويين لأنهم بغاة كفرة من جهة ومغتصبون للسلطة من جهة أخرى .

---

(١) سورة المائدة آية ٢

(٢) سورة الحجرات آية ٩

(٣) سورة البقرة آية ١٢٤

٤ ــ موقف الشيعة .

يرى الشيعة الاثنا عشرية أن الإمامة أصل من أصول الدين وهى واجبة وجوبا عقليا لأنها من دواعى العدل الإلهى ورعاية الخالق للمخلوقين . ويعتقدون أن الأئمة معينون من قبل الله وأنهم معصومون لا يخطئون ولذلك فهم يعتبرون الخروج على الإمام كالشرك بالله ، وكذلك الخروج على نائب الإمام الفقيه المجتهد . وما عدا هؤلاء من الحكام فهم بغاة مغتصبون للسلطة ، ولهذا رأينا الشيعة يحاربون الأمويين والعباسيين ويبدو أنهم توقفوا عن استعمال القوة ضد الحكومات المختلفة فى فترة من الزمان بسبب المآسى التى تعرضوا لها والفشل الذريع الى آلت إليه ثوراتهم وانتفاضاتهم . وقصروا ولاية الفقيه على أمور الدين وأوكلوا أمور الجهاد والسياسة إلى الإمام الثانى عشر الغائب محمد بن الحسن المهدى (٢٥٦ هـ) ولكن نظرا لطول غيبته ، وتعرض المسلمون لجور الحكام ، وعدوان الاستعمار رأى فقهاء الشيعة أنه لابد أن تكون ولاية الفقيه عامة تشمل أمور السياسة والجهاد من أجل مصلحة المسلمين ، وبدأوا يعلنون ذلك منذ القرن الثانى عشر الهجرى . وقد قامت الثورة الإيرانية نتيجة لهذا التغيير فى فكر الشيعة . كما ظهر نتيجة للفكر الجديد حزب الدعوة الإسلامية الذى أنشأه آية الله محمد باقر الصدر فى العراق، فى أواخر ١٩٥٨ منتهجا السرية فى نشاطاته وتحركاته . وبعد مدة لجأ الحزب إلى العنف والقوة ضد الحكم العراقى فى السبعينات وأصدر فتوى أباح فيها دم رجال السلطة وكل المتعاونين معهم ودعا الشعب العراقى للثورة ، مما حدا بالحكم العراقى إلى إصدار قرار بإعدام الصدر يوم ١٩٨٠/٤/٨ م .

٥ ــ موقف الإخوان المسلمين :

يرى الإخوان المسلمون أن إقامة الدولة الاسلامية التى تحكم طبقا للشريعة الإسلامية واجب على كافة المسلمين ، وهم آثمون إن لم يعملوا على إقامتها وحجتهم فى ذلك أن إقامة الحدود ، وإعلان الجهاد الإسلامى ، وتنفيذ أحكام الإسلام فى شتى مجالات الحياة واجب ، وهذا كله لايتم إلا بوجود الدولة الإسلامية . فإقامتها إذاً واجبة لأن ما لايتم الواجب إلا به فهو واجب ، ويرى الإخوان كذلك أن إقامة الدولة تستدعى وجود جماعة منظمة ترسم الطريق وتنظم الجهود وتحدد المراحل والوسائل ويرون كذلك أن إقامة الدولة تكون بإيجاد المجتمع المسلم وتأمين القاعدة الجماهيرية الواسعة ولا يعتبر الإخوان أنفسهم جماعة المسلمين الوحيدة بل يعدون أنفسهم فصيلا من فصائل الحركة الإسلامية الشاملة .

ويرى حسن البنا (١٩٠٦ ــ ١٩٤٩) مؤسس الجماعة أن دولة الإسلام لا تقوم بالوعظ والإرشاد فقط بل بالسيطرة على السلطة التنفيذية حيث يقول فى رسالة المؤتمر الخامس ، ص ٣٩ : « قد يكون مفهوما أن يقنع المصلحون الاسلاميون برتبة الواعظ والإرشاد إذا وجدوا من أهل التنفيذ إصغاء لأوامر الله وتنفيذا لأحكامه .. وأما والحال كما نرى : التشريع الإسلامى فى واد والتشريع الفعلى والتنفيذى فى واد آخر فإن قعود المصلحين الإسلاميين عن المطالبة بالحكم جريمة إسلامية لا يكفرها إلا النهوض بأحكام الإسلام الحنيف

وعلى هذا فالإخوان المسلمون لا يطلبون الحكم لأنفسهم . فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة والحكم بمنهاج إسلامى قرآنى فهم جنوده وأنصاره وأعوانه ، وإن لم يجدوا فالحكم من مناهجهم وسيعملون لاستخلاصه من أيدى كل حكومة لا تنفذ أمر الله » .

ولكن الإخوان يرون أن استلام الحكم يجب أن يسبقه نشر الوعى والفكر الإسلامى بين الناس . يقول حسن البنا : « وعلى هذا فالإخوان أعقل وأحزم من أن يتقدموا لمهمة الحكم . ونفوس الأمة على هذا الحال فلابد من فترة تنتشر فيها مبادىء الإخوان وتسود ويتعلم فيها الشعب كيف يؤثر المصلحة العامة على المصلحة الخاصة (رسالة المؤتمر الخامس ، ص ٤٠) والأخوان يرون أن استعمال القوة فى سبيل إسقاط النظام لا يكون إلا بعد استنفاذ جميع الوسائل السلمية ، يقول البنا فى رسالة المؤتمر الخامس ص ٣٨ « إن الإخوان المسلمين سيستخدمون القوة العملية حيث لا يجدى غيرها وحيث يثقون أنهم قد استكملوا عدة الإيمان والوحدة .

وقد عبر فقيه الإخوان الدكتور يوسف القرضاوى عن موقفهم من استخدام القوة فقال فى كتابه « الحل الإسلامى فريضة وضرورة » ص ١٥٩ :

« اتفق فقهاء المسلمين على أن إزالة المنكر باليد تشريع لمن يملك القدرة على التغيير ، ويشرط ألا يترتب على إزالة المنكر منكر أكبر منه ، فالواجب هو التغيير باللسان والقلب حسب الاستطاعة حين تحين الفرصة » .

وبناء على ما سبق فإن التيار التقليدى المحافظ فى جماعة الإخوان المسلمين يعارض عمليات الإغتيال والأعمال الفردية المشهورة ، ويعتبرها توريطا للجماعة ، ومبررا لمحاربتها والقضاء عليها من قبل الحكام المعادين لحكم الشريعة الإسلامية وينكر الإخوان صلتهم بأعمال الإغتيال والإرهاب التى نسبت إليهم ويدعون أن كل ما نسب إليهم من هذا القبيل دبرته السلطة للقضاء عليهم .

والتيار التقليدى الذى تمثله قيادات الإخوان التاريخية لا يكفر الحكام ولا الناس إلا فى حالة الكفر البواح . أى : إنكار المعلوم من الدين بالضرورة . ومن هنا فإن هذا التيار لا ينطلق فى محاربة الحكام ، واستعمال العنف ضد الأنظمة التى لا تطبق الشريعة من منطلق الاعتقاد بكفرها ،بل من منطلق الاعتقاد بظلمها وجورها !

يرى سيد قطب أن الحكام الذين لا يضعون أحكام الشريعة موضع التطبيق كفار خارجون عن الإسلام وأن كل من يطيعهم ويعترف بحقهم فى التشريع والحكم بغير ما أنزل الله كافر أيضا .

يقول سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن) (المجلد الرابع ، ص ١٩٩١) : « إن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله حكما معلوما من الدين بالضرورة ، لأنها تخرجه من عبادة الله وحده . وهذا هو الشرك الذي يخرج من دين الله قطعا وكذلك الذين يقرون المنازع على إدعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله ، فكلهم سواء فى ميزان الله » .

ويقول فى نفس المجلد ص ١٩٩٠ وهو يفسر قوله تعالى ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] « أن الحكم من خصائص الألوهية .. من ادعى الحق فيها فقد نازع الله أولى خصائص ألوهيته .. ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحا يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى بحكم هذا النص وحده . وإدعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هى التى تخرج المدعى من دائرة الدين القيم . . فليس من الضرورى أن يقول : ما علمت لكم من إله غيرى ، أو يقول أنا ربكم الأعلى كما قالها فرعون جهرة ، ولكنه يدعى هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحى شريعة الله عن الحاكمية ، ويستمد القوانين من مصدر آخر » .

وكلام سيد قطب هنا يعنى بكل وضوح كفر كل الحكام الذين لا يحكمون بشريعة الإسلام سواء أنكروا وجوب الحكم بها أو لم ينكروا . وهو بذلك يرفض بحزم الفكر التقليدى الذى يفرق بين الكفر العملى والكفر العقيدى ، ويزداد الأمر وضوحا فيما نطالع تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[2] حيث يقول « وإنه إما أن يكون الحكام قائمين على شريعة الله كاملة ، فهم فى نطاق الإيمان ، وإما أن يكونوا قائمين على شريعة أخرى مما لم يأذن به الله ، فهم الكافرون الظالمون الفاسقون » (فى ظلال القرآن ، جـ ٢ ، ص ٨٨٨) .

ويطلق سيد قطب على المجتمعات الإسلامية اسم المجتمعات الجاهلية لأنها لا تدين بحاكمية الله ولا تلتزم بأحكام الدين ، ويبين أنه لا تفاهم ولا مصالحة ولا تعايش مع المجتمع الجاهلى بل لابد من الحسم والمفاصلة ولابد من الثورة على النظام الجاهلى واستبداله بالنظام الإسلامى يقول فى كتابه (معالم فى الطريق) لا إله إلا الله ثورة على سلطان الأرض الذى يغتصب أولى خصائص الألوهية ، وثورة على الأوضاع التى تقوم على قاعدة من هذا الاغتصاب ، وخروج على السلطات التى تحكم بشريعة من عندها لم يأذن بها الله » ص ٢٦ . ويقول فى نفس الكتاب « مهمتنا هى تغيير هذا الواقع الجاهلى من أساسه ، هذا الواقع الذى يصطدم اصطداما أساسيا بالمنهج الإسلامى والتصور الإسلامى ، والذى يحرمنا بالقهر والضغط أن نعيش كما يريد لنا المنهج الإلهى أن نعيش » (ص ٢٢) .

٦ ـــ موقف جماعة الجهاد :

إن فكر جماعة الجهاد قريب جدا من فكر الإخوان المسلمين ، ومن فكر سيد قطب على وجه الخصوص . وتبدو هذه الجماعة وكأنها فصيل متحمس مستعجل متوثب من فصائل الإخوان المسلمين . فالجماعة ترى أن إقامة الدولة فرض دينى لأن الأحكام والفرائض لا تتم إلا بإقامتها ، وهذه الدولة تكون

---

(١) سورة يوسف آية ٤٠

(٢) سورة المائدة آية ٤٤

نواة للخلافة الإسلامية ، ولا سبيل إلى إقامة هذه الدولة إلا قتال الحكام الظالمين والطواغيت المستبدين . والحكام — فى رأى الجهاد — كفار مرتدون بدأت ردتهم منذ سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٤م وسبب ردتهم أنهم لا يحكمون بما أنزل الله . وهؤلاء الحكام لا يمكن التخلص منهم إلا بالسيف . وليس لهم حق السمع والطاعة لأنهم عطلوا أحكام الإسلام . وقتال الطواغيت الكفرة فرض كالصوم والصلاة » ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم** ﴾[1]

ولا تكفر هذه الجماعة جماهير المسلمين بل الحكام فقط . ولكنها توجب على المسلمين أن يغيروا الواقع المخالف لتعاليم الإسلام بالجهاد ، وترى أن ترك الجهاد هو السبب فى ما يعيش فيه المسلمون اليوم من ذل ومهانة . وترفض جماعة الجهاد فكرة العمل وفق الشريعة التى حددها الحكام الكفرة بتكوين حزب إسلامى علنى يشارك فى البرلمان لأنها غير مجدية ولا تؤدى إلى إقامة الدولة المنشودة . فالنظام الحاكم لا يمكن أن يسمح للحزب الإسلامى أن يتجاوز حدوده ويستولى على السلطة . وترى الجماعة أن إقامة حزب إسلامى وفقا للقوانين السائدة أو المشاركة فى البرلمان نوع من المساهمة فى بناء دولة الكفر ، ونوع من الإعتراف بشرعية هذه الدولة . وهذا هو رأى سيد قطب الذى يرى أن الجماعة المسلمة يجب أن تهدم النظام الجاهلى لا أن تقويه وتدعمه بالمشاركة فى مؤسساته ، وتعارض الجماعة أيضا فكرة جماعة التكفير والهجرة التى ترى اعتزال المجتمع والهجرة منه على أمل تحصيل القوة ثم العودة لتدمير النظام الكافر ، وتقول أن هؤلاء يجب عليهم توفير الجهد على أنفسهم وإقامة دولة الإسلام ببلدهم ، ثم الإنطلاق إلى الخارج .

وتعارض الجماعة أيضا الفصائل الإسلامية الأخرى التى تقعد عن الجهاد خوفا من الفشل لأنها لا تنفذ أمر الله بإقامة الدولة ولا تدرك أن الإسلام حين يحكم سيجد الترحاب حتى ممن لا يعرف الإسلام . ومن جهه أخرى فالجماعة ليست مسؤولة عن النتائج وهم بهذا يقصدون التيار التقليدى فى جماعة الإخوان المسلمين .

وترفض جماعة الجهاد وجهة النظر القائلة : أين الطاقات والجهود ؟ يجب أن تتوجه لتحرير المقدسات والأراضى المحتلة من الصهيونية والإستعمار وترى أن الطريق السليم هو تحرير البلاد من الحكم الكافر ، لأن الحكام الكفرة هم أساس وجود الإستعمار فى بلاد الإسلام ثم بعد ذلك يتم الإنطلاق تحت قيادة إسلامية لتحرير المقدسات وهم بهذا يتفقون مع وجهة نظر حزب التحرير الإسلامى .

والخلاصة أن جماعة الجهاد تبدأ من حيث ينتهى الإخوان المسلمون . فإذا كان الإخوان يقولون : إن آخر الدواء الكى ، فإن جماعة الجهاد تقول ليس هناك إلا دواء واحد أولاً وأخيرا ألا وهو الكى — ويبدو أيضا أن جماعة الجهاد لا تؤمن بهذا النفس الطويل فى التربية والإعداد الذى يعتمده الإخوان المسلمون لأنها

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦

رأت من خلال التجارب والمحن التى تعرضت لها الحركة الإسلامية أن هذا الطريق كان ينتهى بالفشل والإخفاق المرير حيث كانت الحركات الإسلامية تقمع بعنف كلما اقتربت من قطف ثمار الصبر والإعداد .

ويظهر واضحا أن هذه الجماعة كانت متأثرة جدا بالتجارب التاريخية للحركات الإسلامية .

ولقد وضعت هذه الحركة فكرها موضع التطبيق حين قامت باغتيال السادات عام ١٩٨١م بعد أن أهدرت دمه وكفرته خاصة بعد أن أعلن أنه لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين . وخططت لإشعال ثورة شعبية تغير النظام ، كانت تأمل الحركة قيامها ونجاحها ، ولكن نجح الجزء الأول من الخطة وهو الإغتيال لتوفر الإمكانات والظروف ودقة التخطيط وجرأة المنفذين . وفشل الجزء الآخر لأن الحركة لم تكن تتمتع بالقاعدة الجماهيرية الواسعة .

٧ ـــ موقف جماعة التكفير والهجرة :

تعتبر هذه الجماعة أكثر الجماعات الإسلامية تطرفا وانغلاقا فى العصر الحاضر . فهى تعتقد أن كل المسلمين كفرة مرتدون منذ القرن الرابع الهجرى لأنهم عصاة . وتعتقد أن كل عاص كافر . وهى تنحو نحو الخوارج فى هذا الاعتقاد . وتعتبر جميع الحكام كفرة مرتدين . وتعتبر كل من لا ينضم إليها كافرا . وكل من ينشق عنها بعد الإنضمام كافرا مرتدا يستحق القتل ولا تعتد هذه الجماعة بالتاريخ الإسلامى لأنها تعتقد أن وقائعه غير ثابته ، وترفض هذه الجماعة أقوال الأئمة والإجماع والقياس ، وتركز على الإحتجاج بالقرآن فقط . ويستطيع المرء أن يقول أن هذه الجماعة هى فئة قليلة من الناس تعيش فى محيط بشرى متلاطم يعج بالكفر والردة .

وفكر هذه الجماعة كان إفرازا للمعاناة الجسدية والنفسية التى تعرض لها قياديوها فى سجون مصر فى الستينيات ! فقد كان شكرى أحمد مصطفى زعيم ومؤسس الحركة أحد عناصر الإخوان المسلمين وقد تعرض للسجن والتعذيب . لقد نبت فكر الجماعة وراء القضبان وشب وترعرع تحت لسع السياط .

ويبين لنا عبد الرحمن أبو الخير أحد قياديى الجماعة فى كتابة : (ذكرياتى مع الإخوان المسلمين) أن نظام السادات استطاع اختراق هذه الحركة ودفعها إلى ممارسة العنف ضد فصائل إسلامية أخرى ، لم تقبل التعاون مع أجهزة النظام كى يحقق هدفه فى ضرب فصائل الحركة الإسلامية بعضها ببعض . وهذا ما أسموه فى حركة التكفير والهجرة : « العمل من خلال خطة العدو » الذى يقوم على تكتيك يتم من خلال التعاون بينهم وبين السلطة لتحقيق أهداف مشتركة .

يقول عبد الرحمن أبو الخير ، ص ٢٠ : « إنه بقولنا إن الأخ شكرى هو صائغ أكبر مأساة فى تاريخ الحركة الإسلامية ، لا نعنى سوى أنه قد بنى حركته على مبدأ حركى فاسد ، هو العمل من خلال خطة

العدو وهو مبدأ أساسى قد وظف الجماعة المسلمة لمصلحة الطاغوت بحيث لا يدرى إمامها ولا أفرادها فلقى الجميع الضربة القاصمة » .

ويبين عبد الرحمن أبو الخير أيضا أن الحركة كانت مبنية على الطاعة العمياء والفردية المطلقة ، وكان الأفراد ينفذون الأوامر دون نقاش . وكان شكرى أحمد مصطفى ينفذ بعد مشاورة أفراد قليلين ما يريده هو . كما يبين أن عنف التعامل والشدة والغلظة كانت ميزة من ميزات تلك الجماعة .

لقد أقدمت الجماعة على ارتكاب خطأ قاتل حين قام بعض أفرادها بالاعتداء على بعض زملائهم المنشقين ، وحين قاموا باختطاف واغتيال الدكتور محمد حسين الذهبى وزير الأوقاف المصرية عام ١٩٧٦م بسبب إدانته لأفكارهم ، مما أدى إلى تصفية الجماعة وإعدام مؤسسها شكرى أحمد مصطفى عام ١٩٧٧م .

قوله تعالى ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ومن صفات المؤمنين الكريمة أنهم ينفقون مما آتاهم ربهم فى سبل الخير ، والبذل فيما فيه منفعة للفرد والمجتمع ، ورفعة الأمة وعلو شأنها وعزها .

وهناك أحاديث نبوية عديدة فيها حث على الإنفاق فى سبيل الله .

عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « قال الله تعالى ياابن آدم أنفق انفق عليك »[١] (رواه الشيخان)

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال ، قلت يارسول الله أى الصدقة أفضل : قال : « جهد المقل وابدأ بمن تعول »[٢] (رواه أبو داود والحاكم وصححه)

وعن أنس – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « إن الصدقة لتطفىء غضب الرب وتدفع الميتة السوء »[٣] (رواه الترمذى)

وعن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : « أيما مسلم كسا مسلما ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة . وأيما مسلم أطعم مسلما على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة وأيما مسلم سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله عز وجل من رحيق الجنة »[٤] (رواه أبو داود) .

وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « سبق درهم مائة ألف درهم قالوا يارسول الله وكيف ؟ قال رجل له درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به ورجل له مال كثير فأخذ من عرض ماله مائة ألف فتصدق بها »[٥] (رواه النسائى) .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٢ صـ ٦٩٠ ز ٦٩١ كتاب الزكاة . باب الحث على الصدقة وتبشير المنفق بالخلف . رقم ٣٦ / ٩٩٣ .
(٢) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٢ صـ ٣١٢ كتاب الزكاة رقم ١٦٧٧
– انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ١ صـ ٤١٤ كتاب الزكاة . باب أفضل الصدقة جهد المقل .
(٣) الحديث فى سنن الترمذى حـ ٢ صـ ٨٦ أبواب الزكاة . رقم ٦٥٨ .
(٤) الحديث فى سنن أبى داود حـ ٢ صـ ٣١٤ كتاب الزكاة . باب فى فضل سقى الماء . رقم ١٦٨٢ .
(٥) الحديث فى سنن النسائى حـ ٥ صـ ٥٩
– انظر كنز العمال حـ ٦ صـ ٥٨٢ رقم ١٧٠١١
– كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ١ صـ ٤١٦

(*) تم حذف خمس صفحات بناءاً على تعليمات الأزهر وسوف يتم نشرهم عندما تسمح الظروف بذلك .

وكان صلى الله عليه وسلم كثير النفقات والصدقات ، لا يدخر مالا ولامتاعا ، وكثير ما يستدين لينفق على بعض ذوى الحاجات وهو يعطى عطاء من لا يخشى الفقر أبدا ، وقد توفى ﷺ وليس عنده درهم ولا دينار ، وقد أوقف كل أرض كانت قد صارت إليه من الغنائم ، وفى ذلك يقول الحديث المشهور الذى خفى على بعض الطوائف روعته ، ودلالته على صدق نبوته وإخلاصه فى رسالته « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقه »[1] .

جاءه مرة مال كثير فأنفقه ، إلا بضع دريهمات استبقاها ، إذ لم يجد لها طالبا ، فما عرف تلك الليلة النوم ، قلقا مما بقى عنده ، وما كاد يصبح الصباح حتى سارع إلى انفاقها . وهكذا صح فيه قول صحابته الكرام « كان أجود من الرياح المرسلة » .

فالرسول ﷺ كان أسخى من السحاب المثقل بالمطر ، وأجرى بالخير من الريح المرسلة . ما سئل عن شيء فقال لا ، ولا أعرض عن طالب . وقد قال له ورقة بن نوفل : إنك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم .

وصدق القائل :

وإذا سخوت بلغت بالجود المدى ... وفعلت ما لاتفعل الأنـواء .
والبر عندك ذمة وفـريضة ... لامنـة ممنونـة وجبـاء
جاءت فوجدت الزكاة سبيله . ... حتى التقى الكرماء والبخلاء
انصفت أهل الفقر من أهل الغنى ... فالكل فى حق الحياة سواء .

قوله تعالى ﴿ **والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون** ﴾ أى فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى عليهم ليسوا بالعاجزين ولا الأذلين بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا كما قال يوسف ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ لأخوته ﴿ **لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم** ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم إليه ، وكما عفا رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن أولئك النفر الثمانين الذين قصدوه عام الحديبية ونزلوا جبل التنعيم ، فلما قدر عليهم مَنَّ عليهم مع قدرته على الانتقام والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً .

قوله تعالى ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ، ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ .

(١) انظر شرح السنة للإمام البغوى حـ ٨ صـ ٢٨٣ كتاب الزكاة . باب جهد المقل .

قال ابن كثير : قوله تبارك وتعالى ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ كقوله تعالى ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** ﴾[١] وكقوله تعالى ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به** ﴾[٢] الآية فشرع العدل وهو القصاص وندب إلى الفضل وهو العفو كقوله تعالى ﴿ **والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له** ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ **فمن عفا وأصلح فأجره على الله** ﴾ أى لا يضيع ذلك عند الله كما صح ذلك فى الحديث ، وما زاد الله تعالى عبداً بعفو إلا عزا وقوله تعالى ﴿ **إنه لا يحب الظالمين** ﴾ أى المعتدين وهو المبتدىء بالسيئة .

وقوله تعالى ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل** ﴾ أى ليس عليهم جناح فى الانتصار ممن ظلمهم . ومن أخذ حقه ممن وجب له عليه ولم يتعد ــ لم يظلم ــ فلا سبيل لأحد عليه .

ولما نفى سبحانه السبيل على من انتصر بعد ظلمه بين من عليه السبيل فقال : ﴿ **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق** ﴾ أى : إنما الحرج والإثم على الذين يبدءون الناس بالظلم ، أو يزيدون فى الانتقام ويتجاوزون ماحُد لهم ، أو يتكبرون فى الأرض تجبرا وفسادا . ﴿ **أولئك لهم عذاب أليم** ﴾ أى هؤلاء لهم عذاب مؤلم بسبب بغيهم وظلمهم ثم رغب سبحانه فى الصبر والعفو فقال تعالى : ﴿ **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ . أى : صبر على الأذى وستر السيئة ﴿ **فإن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ . قال سعيد بن جبير يعنى لمن حق الأمور التى أمر الله تعالى بها أى لمن الأمور المشكورة والأفعال الحميدة التى عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الصمد بن يزيد خادم الفضيل بن عياض قال سمعت الفضيل بن عياض يقول إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلا فقل ياأخى اعف عنه فإن العفو أقرب للتقوى ، فإن قال لا يحتمل قلبى العفو ، ولكن انتصر كما أمرنى الله عز وجل ، فقل له إن كنت تحسن أن تنتصر وإلا فارجع إلى باب العفو فإنه باب واسع فإن من عفا وأصلح فأجره على الله ، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل ، وصاحب الانتصار يقلب الأمور .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال إن رجلا شتم أباب بكر ـ رضى الله عنه ـ والنبى ﷺ جالس فجعل النبى ﷺ يعجب ويبتسم فلما أكثر رد عليه بعض قوله فغضب النبى ﷺ وقام فلحقه أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ فقال يارسول الله إنه كان يشتمنى وأنت جالس فلما رددت عليه بعض قوله غضبت وقمت ، قال « إنه كان معك ملك يرد عنك ، فلما رددت عليه بعض قوله حضر الشيطان فلم أكن لأقعد مع الشيطان ـ ثم قال ـ ياأبابكر ثلاث كلهن حق ، مامن عبد ظُلم بمظلمة فيقضى عنها لله إلا أعزه الله تعالى بها ونصره ، ومافتح رجل باب عطية يريد بها صلة إلا زاده بها كثرة ، ومافتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله عز وجل بها قلة[٣] . قال ابن كثير هذا الحديث فى غاية الحسن فى المعنى وهو مناسب للصديق ـ رضى الله عنه ـ .

---

(١) سورة البقرة آية ١٩٤

(٢) سورة النحل الآية ١٢٦

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد حـ ٢ صـ ٤٣٦ مسند أبى هريرة .

« من مشاهد القيامة »

قال تعالى :

وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ
إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ
خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ
الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۗ وَمَن
يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦) اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم
مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ (٤٧) فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ
عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ (٤٨) لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ
يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ
مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)

تفسير المفردات

(خاشعين) : خاضعين متضائلين ، (ينظرون من طرف خفى) : يُسارقون النظر من شدة الخوف . (نكير) : إنكار لذنوبكم أو منكر لعذابكم . (فرح بها) : بطر لأجلها . (رحمة) أى : نعمة من صحة وغنى ، (سيئة) أى : بلاء من فقر ومرض وخوف . (كفور) : نسَّاء للنعمة ذكَّار للبلية . (يزوجهم) . أى : يجعلهم جامعين بين البنين والبنات . (عقيما) أى : لا يولد له .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق لهم عذاب أليم على مااجترحوا من البغى والعدوان بغير الحق ـــ أردف ذلك بيان أن من أضله الله فلا هادى له ، وأن الكافرين حين يرون العذاب يوم القيامة يطلبون الرجوع إلى الدنيا ، وأنهم يعرضون على النار وهم خاشعون ، أذلاء ، ينظرون من طرف خفى ، وأن الذين آمنوا يقولون ، إن الكافرين لفى خسران فقد أضاعوا النفس والأهل ، ولا يجدون لهم ناصرا يخلصهم مما هم فيه من العذاب فلا ملجأ يقيهم من عذاب الله ولا ينكرون ما اقترفوه ، لأنه مكتوب فى صحائف أعمالهم ، ثم أرشد رسوله إلى أنهم إن أعرضوا عن دعوتك ، فلا تأبه بهم ، ولا تهتم بشأنهم ، ثم أعقب هذا بذكر طبيعة الإنسان ، وإنه يفرح حين النعمة ، ويجحد نعم ربه حين الشدة ، ثم قسم هبته لعباده فى النسل أربعة أقسام ، فمنهم من وهب الإناث ، ومنهم من وهب الذكران ، ومنهم من أعطى الصنفين ، ومنهم العقيم الذى لا نسل له . ولا معقب لحكمه فهو **مالك الملك** . يفعل ما يشاء ولا يكون إلا ما يريد .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **ومن يضلل الله فماله من ولى من بعده ، وترى الظالمين لمارأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل** ﴾

يقول تعالى مخبرا عن نفسه الكريمة إنه ما شاء كان ولا راد له ، وما لم يشأ لم يكن فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له كما قال تعالى ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا** ﴾ ثم قال عز وجل مخبرا عن الظالمين وهم المشركون بالله . ﴿ **وترى الظالمين لما رأوا العذاب** ﴾ أى يوم القيامة تمنوا الرجعة إلى الدنيا ﴿ **يقولون هل إلى مرد من سبيل ؟** ﴾ كما قال جل وعلا ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنانرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون** ﴾

وكقوله تعالى ﴿ **وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال . وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال . وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ـــ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام** ﴾[1]

(١) سورة إبراهيم من الآية ٤٤ ـــ ٤٧

وقوله تعالى ﴿ **وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم** ﴾ أى وتراهم أيضا فى ذلك اليوم يعرضون على النار وهم خاشعون أذلاء ـ لأنهم عرفوا ذنوبهم وتكشفت لهم عظمة من عصوه يسارقون النظر إليها خوفا منها ، وحذرا من الوقوع فيها ، كما ينظر من قدم للقتل إلى السيف ، فلا يقدر أن يملأ عينيه منه ، وإنما ينظر ببعضها . ولما وصف حال الكفار حكى ما يقوله المؤمنون فيهم فقال ﴿ **وقال الذين أمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة** ﴾ أى ويقول المؤمنون يوم القيامة : إن المغبونين غبنا لاغبن بعده ـ هم الذين خسروا أنفسهم ، فدخلوا فى النار ، وحرموا نعيم الأبد ، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وذوى قراباتهم . ثم صدقهم ربهم فيما قالوا فقال :

﴿ **ألا إن الظالمين فى عذاب مقيم** ﴾ أى ألا إن الكافرين لفى عذاب سرمدى لا مهرب لهم منه ولا خلاص ، ثم أيأسهم من الفكاك منه بأى سبيل فقال سبحانه :

﴿ **وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله** ﴾ أى ولا يجدون لهم أعوانا وأنصارا ينقذونهم مما حل بهم من العذاب ، فأصنامهم التى كانوا يعبدونها**لاتشفع**لهم لا تستطيع أن تتقدم إليهم بشفاعة ﴿ **ومن يضلل الله فماله من سبيل** ﴾ أى ومن يضلله الله لما علم من استعداده للشر والفساد وارتكاب الشرور والآثام فلا سبيل له إلى الوصول إلى الحق فى الدنيا ولا إلى الجنة فى الآخرة .

قوله تعالى ﴿ **استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير ، فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا ، إن عليك إلا البلاغ ، وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور** ﴾ .

لما ذكر تعالى ما يكون فى يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال جل فى علاه ﴿ **استجيبوا لربكم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله** ﴾ أى أجيبوا داعى الله وهو رسوله ـ ﷺ ـ وآمنوا به ، واتبعوه فيما جاءكم به من عند الله ، من قبل أن يأتى يوم لا يستطيع أحد أن يرده إذا جاء به الله . ﴿ **مالكم من ملجأ يومئذ ومالكم نكير** ﴾ أى ليس لكم حصن تتحصنون فيه ، ولا تستطيعون إنكارما اجترحتموه من السيئات ، لأنه قد كتب فى صحفكم وتشهد به ألسنتكم وجوارحكم . ونحو الآية قولة تعالى ﴿ **فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله**

يومئذ يصدعون . من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾[١] وكقوله تعالى ﴿ يقول الانسان يومئذ أين المفر . كلا لا وزر . إلى ربك يومئذ المستقر ﴾[٢]

وقوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ﴾ كقوله تعالى ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر ﴾[٣] وكقوله تعالى ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ﴾[٤] وكقوله تعالى ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾[٥] أى فإن أعرض هؤلاء المشركون عما أتيتهم به من الحق ، ولم يستجيبوا لك فدعهم وشأنهم ، فإنا لم نرسلك رقيباً عليهم تحفظ أعمالهم وتحصيها ، فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم ، فإذا أنت بلغته فقد أديت ما كلفت به .

وبعد ذكر طبيعة الإنسان وغريزته فى هذه الحياة فقال سبحانه :

﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴾

أى : وإنا إذا أغنينا ابن آدم فأعطيناه من لدنا سعة فى الرزق أو فى الصحة أو فى الأمن سُر بما آتيناه ، وإن أصابته فاقة أو مرض بما أسلف من معصية ربه جحد نعمتنا وأيس من الخير ، والإنسان من طبعه الجحد والكفران بالنعم حين الشدة .

فهذه طبيعته إن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن ابتلى بمحنة يئس وقنط كقوله تعالى ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور ﴾[٦] ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كريم ﴾[٧] إلا المؤمن الشاكر الصابر كما قال صلى الله عليه وسلم « إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن »[٨]

قوله تعالى ﴿ لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء ، يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ، ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير ﴾ .

---

(١) سورة الروم الآيتان ٤٣ ، ٤٤
(٢) سورة القيامة الآيات ١٠ ، ١١ ، ١٢ .
(٣) سورة الغاشية الآيتان ٢١ ، ٢٢
(٤) سورة البقرة آية ٢٧٢
(٥) سورة الرعد آية ٤٠
(٦) سورة هود آية ٩ ، ١٠
(٧) سورة هود آية ١١
(٨) الحديث فى صحيح مسلم حـ ٤ صـ ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرقائق . باب المؤمن أمره كله خير . ٦٤ / ٢٩٩٩

يخبر تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكها والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطى من يشاء و يمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ، ﴿ **يهب لمن يشاء إناثا** ﴾ أى يرزقه البنات فقط قال البغوى ومنهم لوط ـــ عليه السلام ـــ ، ﴿ **ويهب لمن يشاء الذكور** ﴾ أى يرزقه البنين فقط قال البغوى كإبراهيم الخليل ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ لم يولد له أنثى ، ﴿ **أو يزوجهم ذكرانا وإناثا** ﴾ أى ويعطى لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى أى من هذا وهذا ، قال البغوى كمحمد ﷺ . ﴿ **ويجعل من يشاء عقيما** ﴾ أى لا يولد له قال البغوى كيحيى وعيسى ـــ عليهما السلام ـــ فجعل سبحانه الناس أربعة أقسام منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه من النوعين ذكورا وإناثا ، ومنهم من يمنعه هذا وهذا ، فيجعله عقيما لا نسل له ولا ولد له . ﴿ **إنه عليم قدير** ﴾ أى إنه عليم بمن يستحق كل نوع من هذه الأنواع ، قدير على ما يريد أن يخلق ، فيفعل ما يفعل بحكمة وعلم .

قال العلامة ابن كثير وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾[1] أى دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس حيث خلق الخلق على أربعة أقسام فآدم ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ مخلوق من تراب لا من ذكر ولا أنثى ، وحواء ـــ عليها السلام ـــ مخلوقة من ذكر بلا أنثى ، وسائر الخلق سوى عيسى ـــ عليه السلام ـــ من ذكر وأنثى ، وعيسى ـــ عليه السلام ـــ من أنثى بلا ذكر ، فتمت الدلالة بخلق عيسى ابن مريم ـــ عليهما الصلاة والسلام . ولهذا قال تعالى ﴿ **ولنجعله آية للناس** ﴾ فهذا المقام فى الآباء والمقام الأول فى الأبناء وكل منهما أربعة أقسام فسبحان العليم القدير .

من صور الوحى

قال تعالى

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

(١) سورة مريم آية ٢١ .

معانى المفردات

(روحا) : قرآنا ، (الإيمان) : الشرائع التفصيلية التى لا تعلم إلا بالوحى ، (صراط مستقيم) : دين قويم (دين الإسلام) .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه تقسيم النعم الجسمانية التى يهبها لعباده ــ أردفها تقسيم النعم الروحية ، وأبان أن الناس محجوبون عن ربهم ، لأنهم فى عالم المادة وهو منزه عنها ولكن من رق حجابه ، وخلصت نفسه ، وأصبح فى مقدوره أن يتصل بالملأ الأعلى يستطيع أن يكلم ربه على أحد أوجه ثلاثة :

(١) أن يحس بمعان تلقى فى قلبه ، أو يرى رؤيا منامية كرؤيا الخليل إبراهيم ــ عليه السلام ــ ذبح ولده .

(٢) أن يسمع كلاما من وراء الحجاب كما سمع موسى ــ عليه السلام ــ من غير أن يبصر من يكلمه ، فهو قد سمع كلاما ولم ير المتكلم .

(٣) أن يرسل إليه ملك فيوحى ذلك الملك مايشاء إلى النبى ﷺ ثم ذكر أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبله أوحى إليه القرآن ، وما كان قبله يعلم ما فى القرآن وما الشرائع التى بها هداية البشر وصلاحهم فى الدارين .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم** ﴾

هذه مقامات الوحى بالنسبة إلى جنب الله عز وجل . وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف فى روع النبى ﷺ شيئا لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل كما جاء فى صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »(١)

(١) الحديث فى حلبه الأولياء حـ ١٠ صـ ٢٧

ــ انظر كشف الخفاء حـ ١ صـ ٢٦٨ . وقال محققه . رواه أبو نعيم والطبرانى وصححه الحاكم عن ابن مسعود وكذا فى فتح البارى حـ ١ / ٢٧

وقوله تعالى ﴿ **أو من وراء حجاب** ﴾ كما كلم موسى ــ عليه الصلاة والسلام ــ فإنه سأل الرؤية بعد التكلم فحجب عنها .

وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ « ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب وإنه كلم أباك كفاحا »[1] أى مواجهة ، وكان قد قتل يوم أحد ولكن هذا فى عالم البرزخ . والآية إنما هى فى الدار الدنيا .

وقوله عز وجل ﴿ **أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء** ﴾ كما ينزل أمين الوحى جبريل ــ عليه الصلاة والسلام ــ على الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ ﴿ **إنه على حكيم** ﴾ فهو على عليم ، خبير حكيم .

وقوله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾

قوله تعالى ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا** ﴾ أى وكما أوحينا إلى سائر رسلنا أوحينا إليك هذا القرآن رحمة من عندنا .

ثم بين حال نبيه قبل نزول الوحى بقوله تعالى

﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾ أى ما كنت قبل الأربعين وأنت بين ظهرانى قومك تعرف ما القرآن ولا تفاصيل الشرائع ومعالمها على النهج الذى أوحينا به إليك . كقوله تعالى ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك** ﴾[2]

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة حـ ١ صـ ٦٨ رقم ١٩٠ . وقال السندى : هذا الحديث ليس من أفراد ابن ماجة ، لامتنا ولا سندا وأخرجه الترمذى فى التفسير .
ــ انظر سنن الترمذى حـ ٤ صـ ٢٩٨ كتاب التفسير (سورة آل عمران) رقم ٤٠٩٧ . وقال . هذا حديث حسن غريب .
ــ انظر تفسير ابن كثير حـ ٢ صـ ١٤١ . تفسير سورة آل عمران (طبعة الشعب)

(٢) سورة القصص آية ٨٦

وقوله تعالى ﴿ **ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا** ﴾ أى : ولكن جعلنا هذا القرآن نورا عظيما نهدى به من نشاء هدايته من عبادنا ، ونرشده إلى الدين الحق . فهذا القرآن العظيم سماه روحاً لما يحصل به من الحياة ، وجعله نورا لما يحصل به من الإشراق والإضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح وجدت الإضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل قال تعالى ﴿ **أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[1] فأن ا لقرآن نور للمؤمن فى الدنيا ، ونور له فى قبره ، ونور له فى معاده يسعى بين يديه على الصراط فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى .

وقوله تعالى ﴿ **وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم** ﴾ أى وإنك لتهدى بذلك النور من نشاء هدايته إلى الحق القويم . ثم فسر هذا الصراط بقوله تعالى .

﴿ **صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ والمتصرف فيها ، والحاكم الذى لا معقب لحكمه ، ﴿ **ألا إلى الله تصير الأمور** ﴾ أى ألا أن أمور الخلائق يوم القيامة تصير إلى الله لا إلى غيره ، فيضع كلا منهم فى موضعه الذى يستحقه من نعيم أو جحيم . وفى هذا وعد للمهتدين إلى الصراط المستقيم ، ووعيد للظالمين .

---

(١) سورة الأنعام آية ١٢٢

القرآن والوحى

يقول الشيخ محمد رشيد رضا فى كتابه الوحى المحمدى ما نصه : (ملخصاً)

تعريف الوحى لغة وشرعاً :

قال فى الأساس : أوحى إليه وأومن إليه بمعنى ، ووحيت إليه وأوحيت إذا كلمته بما تخفيه عن غيره . وأوحى الله إلى أنبيائه ﴿ **وأوحى ربك إلى النحل** ﴾[1] .

وقال الراغب : أصل الوحى الإشارة السريعة ، ولتضمن السرعة قبل « أمروحى » وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض ، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب ، وبإشارة ببعض الجوارح وبالكتابة ، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا ﴿ **فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** ﴾ الخ . أى أشار إليهم و لم يتكلم . والوحىّ بتشديد الياء السريع .. فالقول الجامع فى معنى الوحى اللغوى أنه الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره ومنه الإلهام الغريزى كالوحى إلى النحل ، وإلهام الخواطر بما يلقيه الله فى روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحى إلى أم موسى ، ومنه ضده وهو وسوسة الشيطان قال تعالى : ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾[3] .

ووحى الله تعالى إلى أنبيائه قد روعى فيه المعنيان الأصليان لهذه المادة وهما الخفاء والسرعة . فهذا معنى المصدر ، ويطلق على متعلقه وهو ما وقع به الوحى اسم المفعول ، وهو ما أنزله تعالى على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع والحكم ، ومنهم من أعطاه كتاباً أى تشريعاً يكتب ومنهم من لم يعطه . والله تعالى يوحى إلى ملائكته ما يأمرهم بفعله كقوله : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا** ﴾[4] ويوحى إلى ملك الوحى ما يوحيه الملك إلى الرسول كقوله : ﴿ **فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾[5] أى إلى عبده جبريل عليه السلام ما أوحى جبريل إلى محمد ﷺ .

(١) الآية ٦٨ من سورة النحل
(٢) الآية ١٢١ من سورة الأنعام
(٣) الآية ١١٢ من سورة الأنعام
(٤) الآية ١٢ من سورة الأنفال
(٥) الآية ١٠ من سورة النجم

وقال شيخنا الأستاذ الإمام فى رسالة التوحيد بعد تعريف الوحى لغة « وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبى من أنبيائه بحكم شرعى ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى . وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور » .

هذا التعريف يشمل أنواع الوحى الثلاثة الواردة فى قول الله ــ عز وجل ــ ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم** ﴾[1] .

فالوحى هنا إلقاء المعنى فى القلب ، وقد يعبر عنه بالنفث فى الرُّوع ــ وهو بالضم ، القلب والخَلَد والخاطر ــ والكلام من وراء الحجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما سمع موسى عليه السلام النداء من وراء الشجرة وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحى المرسل من الله إلى رسول الله فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل ويسمعه منه أو يعيه بقلبه .

وتعبيره يشمل (قبل التفرقة بينه وبين الإلهام) ما يسميه بعضهم بالوحى النفسى وهو الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية ، وقد أثبته بعض علماء الأفرنج لنبينا ﷺ ، فقالوا إن محمداً يستحيل أن يكون كاذباً فيما دعا إليه من الدين القويم والشرع العادل والأدب السامى ، وصوره من لا يؤمنون بعالم الغيب منهم أو باتصال عالم الشهادة به ، بأن معلوماته وأفكاره وآماله ولدت له إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية الروحانية العالية ، على مخيلته السامية ، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك ماثلاً له ، وعلى سمعه فوعى ما حدثه الملك به .

فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء فى كون الوحى الشرعى من خارج نفس النبى نازلاً عليها من السماء كانعتقد ، لا من داخلها فائضاً منها كما تظنون ، وفى وجود ملك روحانى مستقل نزل من عند الله عليه ﷺ كما قال سبحانه ﴿ **وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين** ﴾[2] وفى تخيل الملك بزعمهم ؛ وسنشرح هذا الزعم ونبسط شبهاته ونبطلها ، ونثبت أن هذا القرآن وحى من الله تعالى نزل من فوق السموات العلى ، لا يمكن أن يكون فائضاً فى هذه الأرض من نفس محمد ﷺ وهو موضوع كتابنا .

---

(١) الآية ٥١ من سورة الشورى

(٢) الآيات من ١٩٢ : ١٩٥ من سورة الشعراء

فى إقامة الحجة على مثبتى الوحى المطلق
فى إثبات نبوة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ)

إن من اطلع على الكتب المقدسة عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى المعبر عنها بكتب العهدين القديم والجديد ، وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية ، من أحرار الفكر ومستقلى العقل ـ علم علماً عقلياً وجدانياً أنه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك الكُتُب وحى من الله ، وإن الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحى من الله ، وأن محمداً نبى معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبى حنيفة والشافعى ، ولا نحوى أن يجحد نحو سيبويه وابن جنى ، ولا شاعر أن ينفى شاعرية الرخى والبحترى وقل مثل ذلك فى الطبيب والفيلسوف والرياضى والفلكى ـ كل منهم مع أئمة علمه ، وفى كل انسان صحيح الحواس فى المدركات الحسية ، فالبصير لا يستطيع أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، ولله در البوصيرى حيث قال :

الله أكبر إن دين محمد ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فاطفىء القنديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الإفرنج الذين نشأوا فى النصرانية ، وأحاطوا بها علماً وخبراً ، ثم عرفوا الإسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة ، كتب الأستاذ إدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية فى مدرسة جنيف الجامعة فى مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبياً صادقاً كما كان أنبياء بنى اسرائيل فى القديم ، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى إليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الألوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين فى أولئك الأنبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الإلهام النفسى ، وهذا التضاعف فى الشخصية ، اللذين يحدثان فى العقل البشرى المرئى والتجليات والوحى والأحوال الروحية التى من بابها « أهـ » فهذا العالم الأوربى المستقل الفكر يقول : إن كل ما كان به أنبياء بنى إسرائيل أنبياء كان ثابتاً لمحمد . ونحن نقول : إن جميع خصائص النبوة التى كانت فيه هى أكمل شكلاً وموضوعاً وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه ، وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذى يعلل به الماديون الوحى المطلق وسنتكلم عليه فى الفصل الثالث .

ولخص هذا العالم خصائص نزول الوحى على محمد ﷺ من كتب إسلامية مذعنا لصحة روايتها . وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسى إميل درمنغام فى كتابه (حياة محمد) مذعنا لصحة الرواية

ولموضوعها . شارحاً لتأثير نبوته فى إصلاح البشر متمنياً الاتفاق بين المسلمين والنصارى ، آسفاً للشقاق بينهم ...

آية نبوة محمد العقلية العلمية وسائر آياته الكونية

إن ما رواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة والمرسلة أخرى من الآيات الكونية التى أكرم الله تعالى بها رسوله محمد ﷺ هى أكثر من كل ما رواه الإنجيليون وأبعد عن التأويل ، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس ، ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل فى ثبوتها وفى موضوعها ، لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها فى سن الرشد والاستقلال النوعى الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف فى سنن الكون ، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم العقلى مع هذا الخضوع ، بل هو من موانعه ، فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته ، وهو كتابه المعجز بهدايته وبعلومه وبإعجازه اللفظى والمعنوى وبأنباء الغيب الماضية والحاضرة والآتية فيه ليربى البشر على الترقى من هذا الاستقلال ، إلى ما هم مستعدون له من الكمال .

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية ، والنبوة العامة الباقية قد عبر عنه النبى ﷺ بقوله : « ما من الأنبياء من نبى إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة »(١) متفق عليه ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقص الله تعالى علينا فى كتابه إن المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله ، فاحتج عليهم بالقرآن فى جملته وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التى لم يكن يعلمها هو ولا قومه ، وبهدايته وبعلومه وبإعجازه ، وعدم استطاعة أحد ولا جماعة ولا العالم كله على الإتيان بمثله . ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾(٢) وسيأتى تفصيله .

وأما ما أكرمه الله به من الآيات الكونية فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه فى الشدائد ، كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عددا

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ــ كتاب الاعتصام بالكتب والسنة جـ ٩ صـ ١١٣ ط الشعب .

(٢) الآية ٨٨ من سورة الإسراء .

وعددا واستعدادا بالسلاح والطعام ، وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها ، ثم بغزوة الأحزاب إذ تألب المشركون واليهود على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال .

من تلك الآيات شفاء المرضى ، وإبصار الأعمى ، وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل فى غزوة الأحزاب وفى غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنها تسخير الله السحاب لإسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التى كانت تسيخ فى الرمل ببدر ، ولم يصب المشركين من غيثها شىء . ومثل ذلك فى غزوة تبوك إذ نفد ماء الجيش فى الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم ، على قلة الرواجل معهم ، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شرباً ، فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله عودك فى الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ما ملأوا ما معهم من الرّوايا ولم تتجاوز عسكرهم .

ثبوت نبوة محمد بنفسها وإثباتها لغيرها

وجملة القول أن نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أى بالبرهان العلمى والعقلى الذى لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية ، وأن هذا البرهان قائم ماثل للعقول والحواس فى كل زمان ، وأنه لا يمكن اثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ وهذا القرآن الذى جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها فى هذا الطور العلمى الاستقلالى من أطوار النوع البشرى هو شهادته لها . فإن الكتب التى نقلها لا يمكن إثبات عزوها إلى من عزيت إليهم إذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التى كتبوها بها لا تواترا ولا آحاداً ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه ، وتناقضه ، وتعارضه ، ولا إثبات صحة التراجم التى نقلت بها ، كما قلنا آنفا وبيناه بالتفصيل مراراً .

إن الكتاب الإلهى الوحيد الذى نقل بنصه الحرفى تواتراً عمن جاء به بطريقتى الحفظ والكتابة معاً هو القرآن الكريم وإن النبى الوحيد الذى نقل تاريخه بالروايات المتصلة الأسانيد حفظاً وكتابة هو محمد ﷺ .
فالدين الوحيد الذى يمكن أن يعقله العلماء المستقلون فى الفهم والرأى وبينوا عليه حكمهم هو الإسلام .
وأما خلاصة ما يمكن الإعتراف به من الأديان السابقة لثبوت قضاياه الإجمالية بالتواتر المعنوى فهو إنه وجد فى جميع أمم الحضارة القديمة دعاة إلى عبادة الله تعالى وحده ، وإلى العمل الصالح ، وإلى ترك الشرور والرذائل منهم أنبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين ، كما أنه وجد فيهم حكماء يبنون إرشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة — ووجد فى جميع ما نقلُ عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس ، وأمور خاصة بأقوالهم وبزمانهم ، وخرافات ينكرها العقل وينقصها العلم .

بسط ما يصورون به الوحى النفسى لمحمد صلى الله عليه وسلم

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحى قد نبع من نفس محمد وأفكاره ، بتأثير ذلك كله فى وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله فى تقريبه إلى العقل ، ثم أقضى عليه بما ينقضه من أساسه بأدلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول :

يقولون (**أولاً**) إن عقل محمد الهيولانى ـــ أو ما يسمونه فى عصرنا بالعقل الباطن ـــ قد أدرك بنوره الذاتى بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام ، كما أدرك ذلك أفراد آخرون من الأقوام ، ونقول آمنا وصدقنا .

(**ثانياً**) إن فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الأموال بالربا والقمار ، ونقول : آمنا وصدقنا .

(**ثالثاً**) إن فقره وفقر عمه (أبى طالب) الذى كفله صغيرا قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات من السكر والتسرى وعزف القيان ، ونقول : الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه .

(**رابعاً**) إنه طال تفكره فى انقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات . ونقول : لا مانع من ذلك .

(**خامساً**) إنه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفى مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله من بنى إسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور . نقول : إن هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا .

(**سادساً**) إن تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة فى عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيه من البدع . ونقول : هذا مبنى على ما قبله فهو معقول غير منقول .

(**سابعاً**) إنه قد سمع أن الله سيبعث نبيا مثل أولئك الأنبياء من العرب فى الحجاز قد بشر به عيسى

المسيح وغيره من الأنبياء ، وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بأن يكون هو ذلك النبى الذى آن أوانه ونقول : إن هذا استنباط لهم مما قبله غير صحيح وسيأتى ما فيه .

(ثامناً) وهو نتيجة ما تقدم : إنه توسل إلى ذلك بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه فى خلوته بغار حراء فقوى هنالك إيمانه ، وسما وجدانه ، فاتسع محيط تفكره وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات البينات فى ملكوت السموات والأرض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام السارى فى كل موجود ، بما صار به أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، ومازال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتململ ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن أنه هو النبى المنتظر الذى يبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد فى الرؤى المناسبة ثم قوى حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحى فى اليقظة .

وأما المعلومات التى جاءته فى هذا الوحى فهى مستمدة الأصل من تلك الينابيع التى ذكرناها ، ومما هداه إليه عقله وتفكره فى التميز بين ما يصح منها وما لا يصح ، ولكنها لا تتجلى له نازلة من السماء ، وإنها خطاب الخالق ــ عز وجل ــ بوساطة الناموس الأكبر ملك الوحى جبريل روح القدس عليه السلام الذى كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام .

وقال أحد ملاحدة المصريين : إن سولون الحكيم اليونانى وضع قانوناً وشريعة لقومه فليس بدعاً من العقل أن يضع محمد شريعة أيضاً وسأبين فساد هذا الرأى أيضاً .

تفنيد تصويرهم للوحى النفسى
(وإبطاله من وجوه)

(**الوجه الأول**) أن أكثر المقدمات التى أخذوا منها هذه النتيجة هى آراء متخيلة ، أو دعاوى باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل لزوم النتيجة لها . مثال ذلك زعمه أن محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم ــ ليوهموا الناس أن ما جاء فى أول سورة الروم من الإنباء بالمسألة وبأن الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل . فأما التاريخ فإنه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان فى سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الأخيرة إلى الشام بأربع عشرة سنة وقبل بدء الوحى بسنة ثم إن التاريخ أنبأنا أن دولة الروم كانت مختلة معتلة فى ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو أن تعود لها الكرة والغلب على الفرس حتى إن أهل مكة أنفسهم هزءوا بالخبر وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبى ﷺ فربح الرهان .

وأما العقل فإنه يحكم بأن مثل محمد فى سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بأن الغلب سيعود للروم على الفرس فى مدة بضع سنين — لا من قبل الرأى ولا من الوحى النفسى المستمد من الأخبار غير الموثوق بها . وقد صح أن انتصار الروم وقع فى سنة ٦٢٢ م وكان وحى التبليغ للنبى ﷺ سنة ٦١٤ م فإذا فرضنا أن سورة الروم نزلت فى هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمان سنين ، وإن كان فى السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد فى التفسير . والبضع يطلق ما بين الثلاث إلى التسع .

والحكمة فى التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى : ﴿ **غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد الله لايخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لايعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾(١) ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً وهى إفادة أن الغلب يكون فى الحرب الممتدة فى هذه المدة . وأنباء الوحى والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذى يحدد الوقائع بالسنين ، وليس فى وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة فى بابها .

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ فى رحلته إلى الشام بأرض مدين وحديثه مع أهلها ، الذى أرادوا به أن يجعلوه أصلاً لما جاء فى القرآن من أخبارها ، والخبر باطل كما أشرنا إليه عند نقلنا إياه فى المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يعتمد محمد على ما سمعه فى الطريق من أناس مجهولين لا يوثق بمعرفتهم ولا يصدقهم فيجعله أصلاً للوحى الذى جاءه فى قصة موسى وفى قصة شعيب عليهما السلام .

(**الوجه الثانى**)

لو كان النبى ﷺ تلقى عن علماء النصارى فى الشام شيئا أو عاشرهم لنقل ذلك أتباعه الذين لم يتركوا شيئاً علم عنه أو قيل فيه ولو لم يثبت إلا ودونوه ووكلوا أمر صحته أو عدمها إلى إسناده وما علم من سيرة رواته .

(**الوجه الثالث**)

لو وقع ما ذكر لاتخذ أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على أن ما يدعيه من الوحى قد تعلمه فى الشام من النصارى ، فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة ، وهو أنه

(١) الآيات ٢ : ٧ من سورة الروم

كان فى مكة مَين (حداد) رومى يصنع السيوف وغيرها فكان النبى ﷺ يقف عنده أحياناً يشاهد صنعته فاتهموه بأنه تعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله ﴿ **ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾[1] .

(الوجه الرابع)

نصوص القرآن صريحة فى أنه ﷺ لم يكن يعرف شيئاً من أخبار الرسل وقصصهم قبل الوحى ، وهم متفقون على أنه ﷺ لم يكن يكذب على أحد فضلا عن الكذب على الله ـــ عز وجل ـــ كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل ، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله ـــ عز وجل ـــ ويقينه بكل ما أوحاه إليه .

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى فى مدين وما بعدها من سورة القصص ﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين** ﴾[2] وقوله تعالى عقب قصة نوح من سورة هود ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾[3] ونحوه فى أواخر سورة يوسف بعد قصته ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** ﴾[4] .

ومن الشواهد التى لم يكن يعرفها أحد من أهل الكتاب قوله تعالى بعد قصة زكريا وولادة مريم وكفالته لها ، فيتوهم أنه مأخوذ عنهم ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم ، وما كنت لديهم إذ يختصمون** ﴾[5] .

الأقلام جمع قلم تطلق على الأزلام والأقداح التى كانوا يلقونها لضرب القرعة لإزالة الخلاف فيما يتنازعون فيه ، وعلى أقلام الكتابة ، وتكون القرعة بأقلام تخط بها كما هو المعهود فى عصرنا والمعنى أنهم اختصموا وتنازعوا فى كفالة مريم وتربيتها عناية بأمرها فأصابت القرعة زكريا عليه السلام ، كما قال تعالى فى أول قصتهما فى سورة آل عمران الآية ٣٧ .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة النحل

(٢) الآيتان ٤٤ ، ٤٥ من سورة القصص

(٣) الآية ٤٩ من سورة هود

(٤) الآية ١٢٠ من سورة يوسف

(٥) الآية ٤٤ من سورة آل عمران

(الوجه الخامس)

إنه لم يرد فى الأخبار الصحيحة والمرفوعة أن محمداً ﷺ كان يرجو أن يكون هو النبى المنتظر الذى كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روى عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون ، لأنهم ما تركوا شيئا بلغهم عنه ﷺ إلا ودونوه ، كما رووا مثله عن أمية بن أبى الصلت ، بل صرح القرآن المجيد بأنه لم يكن يرجو هذا ولا يؤمله قال تعالى : ﴿ **وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك** ﴾[١] أى لكن ألقى إليك رحمة من ربك بك وبالناس كلهم ، لا كسب لك فيه بعلم ولا عمل ، ولا رجاء ولا أمل فهذا تأكيد وتكميل للشاهد الأول من الوجه الرابع .

(الوجه السادس)

إن حديث بدء الوحى الذى أثبته الشيخان فى الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح فى أنه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هى عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذى كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى .

(الوجه السابع)

لو كان النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده فى الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعداده ، تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوى عليه نفسه الوثابة ، وفكرته الوقادة ، فى سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ، فى بيان أصول الإيمان ، وتوحيد الديان ، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الأوثان وتشريع الأحبار والرهبان ، واتخاذ الولد للرحمن ، وإنذار رءوس الكفر والطغيان ، ما سيلقون فى الدنيا من الخزى والنكال وفى الآخرةمن عذاب النار ، كسور المفصل ولاسيما (ق والقرآن المجيد) والذاريات والطور والنجم والقمر ثم الحاقة والنبأ ، أو فى سورة أو أكثر من السور الوسطى التى تقرعهم بالجحيم ، وتأخذهم بالعبر ، وتضرب لهم المثل بسنن الله فى الرسل ، كسور الأنبياء والحج والمؤمنون .

---

(١) الآية ٨٦ من سورة القصص

ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ، ولم يدعهم إلى شيء ولا تحدث إلى أهل بيته ولا أصدقائه بمسألة من مسائل الإصلاح الدينى الذى توجهت إليه بزعمهم نفسه ، ولا من ذم خرافات الشرك الذى ضاق به ذرعه ، إذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه ، وناهيك بألصق الناس به : خديجة وعلى وزيد ابن حارثة فى بيته ، وأبى بكر الصديق الذى عاشره طول عمره . فهذا السكوت وحده فى فترة الوحى برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحى الذاتى الذى زعموه ، واستمداده لعلومه من التلقى الذى اختلقوه ، والاختبار الذى توهموه .

(الوجه الثامن)

إن ما نقل من ترتيب نزول الوحى بعد هذه الفترة الطويلة جاء موافقاً لما كان يتجدد من الوقائع والحوادث الطارئة دون ما زعموا من الأمور السابقة ، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر رداً على قول الوليد بن المغيرة المخزومى الذى قاله فى القرآن .. قال هذا سحر يؤثر بأثره على غيره فنزلت الآيات ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا** ﴾ إلى الآية ٣٠ رواه الحاكم عن ابن عباس بإسناد صحيح على شرط البخارى .

وقد نزلت سورة اقرأ فسورة ن والقلم فسورة المزمل قبل سورة المدثر ، ونزل بعدها أكثر من ثلاثين سورة من قصار المفصل وأوساطه ليس فيها شيء مما زعموا أنه تبقاه أو شاهده فى الأسفار ، ولا مما وصفوا من أفكاره فى الغار ، فليراجع ترتيب نزول السور فى كتاب الاتقان من شاء .

(الوجه التاسع)

إن هذه المعلومات المحمدية التى تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحى قليلة المواد ، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحى القرآن .

وإن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الأرض ويهودها ، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبى ﷺ بالطريق إلى الشام أو حضرهم .

وإن القرآن نزل مصدقاً لكتب أهل الكتاب من حيث كونها فى الأصل من وحى الله إلى موسى وعيسى وداوود وسليمان وغيرهم — ونزل أيضا مهيمنا عليه ، أى رقيبا وحاكما كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (الخامسة) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى أنهم ﴿ **أوتوا نصيباً من**

الكتاب ﴾[1] أى لا كله ، « ونسوا حظاً مما ذكروا به »[2] وأنهم حرفوا كلمه عن مواضعه[3] وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والأحكام والأخبار ومثل هذه الأحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان ، أفاضوها على محمد فى رحلته التجارية إلى الشام سواء أكان عند بعضهم بقية من التوحيد الموسوى والعيسوى الذى كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا ؟ وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الأناجيل التى حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (أبوكريف) كانجيل طفولة المسيح وانجيل برنابا أم لا ؟ فمحمد لم يعقد فى الشام ولا فى مكة مجمعا مسيحيا كمجامع الكنيسة للترجيح بين الأناجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض .

إن وقوع مثل هذا منه فى تلك الرحلة مما يعلم واضعوا هذه الأخبار ببداهة العقل مع عدم النقل أنه محال عادة ، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الأناجيل وتلك المذاهب برأيه فى تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن حكمه الخطأ ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه فى شأن أهل الكتاب « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم »[4] يعنى فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا أو يكون ما صدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا .

(**الوجه العاشر**)

إن فى القرآن ما هو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم إلى الآن أن أحداً من اليهود والنصارى قال به ، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون ، وفى القرآن أنها امرأته وفيما فيه من عزو صنع العجل الذى عبده بنو اسرائيل إلى هارون عليه السلام بعزوه إياه إلى السامرى وإثباته لانكارها هارون عليهم فيه ، وغير ذلك .

بل ما جاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما فى الكتب الالهية ما صح منها وما لم يصح كما سنبينه .

رويدكم أيها المفتاتون الذين يقولون ما لا يعلمون ، إن وحى القرآن أعلى مما تزعمون ، وأكبر مما تتصورون وتصورون ، وإن محمداً أقل علماً كسبيا مما تدعون وأكمل استعداداً لتلقى كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون .

---

(١) الآية ٤٤ ،٥١ من سورة النساء
(٢) الآية ١٣ من سورة المائدة
(٣) ارجع إلى الآية ٧٥ من سورة البقرة ، ٤٦ من سورة النساء ، ١٣ ، ١٤ من سورة المائدة
(٤) الحديث فى صحيح البخارى ــ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة جـ ٩ صـ ١٣٦ ط الشعب

وإذا كان وحى القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله ، لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليونانى الذى شبه محمداً به أحد ملاحدة عصرنا من مصرنا ، مع بعد الشبه بين أمى نشأ بين الأميين ، وفيلسوف نشأ فى أمة حكمة وتشريع ودولة وسياسة ، ودخل فى كل لأمور الأمة والدولة كسولون هذا .

الأمثال النورانية
لفطرة محمد ﷺ وروحه ووحيه ، وكتاب الله ودينه

لقد كان محمد ﷺ فى فطرته السليمة ، وروحه الشريفة ، وما نزل عليها من المعارف العالية وما أشرق فيها من نور الله ــ عز وجل ــ الذى تلوته عليك آنفا من آخر سورة الشورى هو مضرب المثل فى قوله تعالى من سورة النور ﴿ **الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾ .

فمصباح الروح المحمدية ، فى زجاجة فطرته الزكية ، المتلألئة كالكواكب الدرية ، يوقد من شجرة مباركة قدوسية زيتونة لا شرقية ولا غربية ، لا يهودية ولا نصرانية ، بل هى إلهية علوية ، أشبه بما عرف الناس فى عصرنا بالكهربائية ، يكاد زيت كمالها الفطرى يضىء بذاته ولو لم تمسسه نار ، فمسه نور الله بما أوحاه إليه فاشتعل بما عم العالم من الأنوار ، ولا غرو فقد جعل الله محمداً نوراً ، وجعل كتابه الذى أنزل عليه نوراً ، وجعل دينه نوراً .

قال تعالى : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين** ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا** ﴾(٤) . وقال فى خطاب المؤمنين بالله ورسله السابقين لمحمد ﷺ من أهل الكتاب ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم** ﴾(٥) وقال فيمن استجاب لهذه الدعوة ﴿ **فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون** ﴾(٦) .

---

(١) الآية ١٥ من سورة المائدة
(٢) الآية ١٧٤ من سورة النساء
(٣) الآية ٢٢ من سورة الزمر
(٤) الآية ٨ من سورة التغابن
(٥) الآية ٢٨ من سورة الحديد
(٦) الآية ١٥٧ من سورة الأعراف

ومما كان يدعو به محمد ﷺ بعد نبوته استمداداً للنور من ربه « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى لسانى نوراً ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن يسارى نورا ، ومن فوقى نورا ومن تحتى نورا ، ومن أمامى نورا ، ومن خلفى نورا ، واجعل لى فى نفسى نورا ، وأعظم لى نورا »[١] رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس .

فيا مسيو درمنغام ! إنك قد أبصرت قبساً من هذا النور الوهاج ، فلا تحسبن أن محمداً اقتبسه من أعراب مدين ويهود يثرب ونصارى الشام ، استخلصه من تفكره فى أمور الكون والناس ، فالأمر أعظم من ذلك ، فنور الكهرباء أعظم من أن يكون مقتبساً من نار حطب البادية ، وقناديل الكنائس اليهودية والنصرانية ، أو من نور ما بقى عندهم من كتب أنبيائهم الأصلية إنما هو فائض من نور الله الأعظم على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ ، هو كما قال البوصيرى :

الله أكبر إن دين محمد ... أقوى وأقوم قيلا
لا تذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فأطفىء القنديلا

وكما قال فى أول همزيته :

كيف ترقى رقيك الأنبياء ... يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك فى علاك وقد حا ... ل سنًى منك دونهم وسناء
إنما مثَّلوا صفاتك للنا ... س كما مثَّل النجوم الماء
أنت مصباح كل فضل فما تصد ... ر إلا عن ضوئك الأضواء

أفرأيت من أنزل الله عليه تلك الآيات ، التى أشرقت بنورها الأرض والسموات ، وألهمه هذا الدعاء الفياض بنور الله ، أيعقل أن يستمد النور ممن كانوا يعيشون فى ظلمة الوثنية الهالكة ، وفى ظلمات التقاليد الكهنوتية الحالكة الذين ضرب لهم الله المثل بعد مثل النور الذى اقتبسناه من سورة النور بقوله : ﴿ **والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور** ﴾[٢]

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ــ كتاب صلاة المسافرين ــ جـ ١ صـ ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠
وفى مسند أحمد جـ ١ صـ ٣٤٣ ، ٣٥٢ ، ٣٧٣
وفى صحيح البخارى ــ كتاب الدعوات ــ جـ ٨ صـ ٨٦ ط الشعب

(٢) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة النور

فارجع أيها الناظر المنصف إلى وجدانك ، وتأمل هذه الأمثال الإلهية ، وما تراه فى سائر هذا الكتاب ، لعل الله يتم نور إنصافك ، فتكتب كتاباً آخر تثبت به الوحى الإلهى المعصوم ، لمحمد خاتم النبيين ، ببلاغتك الفرنسية وتدعو قومك إلى الإهتداء بكتابه القويم ، ومعالجة مفاسد إلحادهم وخياناتهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم باتباع صراطه المستقيم .

فى مقاصد القرآن ، فى تربية نوع الإنسان وحكمة ما فيه من التكرار فى الهداية وإعجازه بالبيان

إن مقاصد القرآن من إصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم ، وإدخالهم فى طور الرشد ، وتحقيق أخوتهم الإنسانية ووحدتهم ، وترقية عقولهم ، وتزكية أنفسهم ، منها ما يكفى بيانه لهم فى الكتاب مرة أو مرتين أو مراراً قليلة ، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مراراً كثيرة ، لأجل أن يجتث من أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويغرس فى مكانها أضدادها ، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتى أكله ، ويبدو صلاحه ، وينع ثمره ، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة ، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج ، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا فى المستقبل ، فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفى فيه الفحوى والكناية .

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط ، فلا يكفى أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود فى متون الفنون وكتب القوانين وقد بين الله تعالى ذلك بقوله فى موضوع البعثة المحمدية ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ، هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾[1] فآياته المتلوة هى سور القرآن ، المرشدة إلى سننه فى الأكوان ، والتزكية هى التربية بالعمل وحسن الأسوة ، والكتاب هو الكتابة التى تخرج العرب من أميتهم ، والحكمة هى العلوم النافعة الباعثة على الأعمال الصالحة ، وما يسمى فى عرف شعوب الحضارة بالفلسفة ، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة .

وإننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ما جاء به محمد ﷺ أعلى وأكمل مما جاء به من قبله من جميع الأنبياء والحكماء والحكام . فهو برهان علمى على أنه من عند الله تعالى ، لا من فيض

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الجمعة

استعداده الشخصى ، وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ، ونبين حكمة القرآن وما امتاز به فى كل نوع منهما بالإجمال ، لأن التفصيل لا يتم إلا إذا يسر الله لنا انجاز ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها فى أبواب فبين فى كل باب منها وجه حاجة البشر إلى ذلك المقصد ، وكون القرآن وفَّى بهذه الحاجة بما نأتى من جمله آياته فيه ، وإنما هذا الفصل نموذج منه .

المقصد الأول من مقاصد القرآن الكريم
فى بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة
التى دعا إليها الرسل وضل فيها أتباعهم

إن أركان الدين الأساسية التى بعث الله تعالى بها جميع رسله ، وناط بها سعادة البشر هى الثلاثة المبينة بقوله ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عندربهم ولا خوف عليه ولا هم يحزنون** ﴾[1] وهاك الكلام على كل واحد منها بالإيجاز ، لأن المراد هنا أن ما جاء به القرآن منها هو أتم وأكمل من المعروف فى سائر الأديان ، وفيه صلاح لما أفسد أهل الملل من دين الأنبياء ، بما طرأ على كتبهم من الضياع والتحريف ، وما ابتدعوا فيه من الأهواء والتقاليد ، وليس المراد بيانها فى ذاتها بالتفصيل الذى يتوقف عليه العمل ، حتى إذا ثبت ما نقصده من نبوة محمد ﷺ وكون هذا القرآن كلام الله — عز وجل — أوحاه إليه ، علم منه أنه يجب على المؤمن به أن يتعلم جميع ما فرضه عليه .

وهذه الأركان الثلاثة تدل عليها آثار الملل القديمة البائدة كالمصريين والكلدانيين ، وبقايا كتب أممها الباقية كالهنود والمجوس والصينيين ، وغرضنا من هذا الكتاب أن نبين لجميع الشعوب المتدينة أن ما هم عليه من الدين ليس هو عين ما أوحاه الله إلى رسله الذين ظهروا فى أسلافهم ، ولا هو بالمصلح لهم فى أنفسهم وأعمالهم وأن الإسلام هو الدين الحق الثابت عقلا ونقلا ، المبين لكل ما يحتاجون إليه من الهداية . وبهذا الاعتبار جعلناها مقصداً واحداً لا ثلاثة ، وجعلنا المقصد التالى له فى موضوع الرسل والرسالة .

الركن الأول للدين
الإيمان بالله تعالى

إن الركن الأول والأعظم من هذه الأركان — وهو الإيمان بالله تعالى — قد ضل فيه جميع الأقوام والأمم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود على حفظهم لأصل عقيدة التوحيد ، قد غلب عليهم التشبيه

(١) الآية ٦٢ من سورة البقرة

وغاب عنهم أن يجمعوا بين النصوص المتشابهة فى صفات الله وبين عقيدة التنزيه . فقد جعلوا الله كالإنسان يتعب ويندم على ما فعل كخلقه الإنسان ، لأنه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله أو مثل الآلهة وزعموا أنه كان يظهر على شكل الإنسان حتى إنه صارع اسرائيل ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه وعبدوا بعلا وغيره من الأصنام .

والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، واتخذوا المسيح ربا وإلهاً وعبدوا القديسين وصورهم ، حتى صارت كنائس النصارى كهياكل الوثنية الأولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء التى جعلوها أساس الدين ، بل الدين كله ــ هى عقيدة الهنود فى كرشنه وثالثوثة فى جملتها وتفصيلها ، وهى مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة ، وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقياصرة ، وتبذل فى سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربَّى عليه الأحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهاناً ، فغمر الشرك بالله هذه الأرض بطوفانه ، وطغت الوثنية على أهلها .

هدم القرآن معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة فى الأفكار والقلوب ، وما كان ليتم هذا بإقامة برهان عقلى أو عدة براهين على توحيد الله ــ عز وجل ــ ، بل لابد فيه من دحض الشبهات ، وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والمواعظ الخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الأمثال ، لذلك كان أكثر المسائل تكراراً فى القرآن مسألة توحيد الله ــ عز وجل ــ فى ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء فى كونهم ملكا وعبيدا له ، لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد ولا لأنفسهم إلا فيما سخره من الأسباب المشتركة بين الخلق .

وأما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الدنيى ، فليس لاقناع المعطلين والمشركين بربوبيته تعالى فقط ، بل أكثره لإقامة الحجة به على بطلان الأولياء وابتغاء شفاعتهم عنده ، فشر الشرك وأوغله فى افساد عقائد المؤمنين بالله من ضعفاء العقول ، وحملهم على التدين بالأوهام والخرافات المخالفة لما أثبتته التجارب من سنن الله فى المخلوقات إنما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة إليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الأسباب ، فقد ذكر الدعاء فى القرآن أكثر من سبعين مرة بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لأنه روح العبادة ومخها ، بل هو العبادة التى هى دين الفطرة كله ...

وثم أنواع أخرى من آيات الإيمان بالله تعالى تغذى التوحيد وتصعد بأهله درجات متفاوتة فى السمو بمعرفته تعالى والتأله والتولية فى حبه ، من التنزيه والتقديس والتسبيح له ، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الأحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والإرث والأموال ، وبحِكَمِه فى الخلق والتدبير لأمور العالم ، وسننه فى طباع البشر وفى شئونهم الاجتماعية ووضع كل اسم منها فى الموضع المناسب له من علم

وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة ورحمة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن الأمر بالتوكل عليه والخوف منه لإجلاله أو لعدله ، والرجاء من رحمته وفضله وناهيك بما سرد منها سرداً لجذب الأرواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها فى شهوده عن شهودها ، بَلَه أهواءها وشَهواتها ، كما تراه فى فاتحة سورة الحديد .

﴿ سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير . هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم . هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير. له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾[1] وفى آخر سورة الحشر **﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم. هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾**[2] .

فهذه الأسماء الإلهية هى ينابيع الحياة الروحية فى القلوب ومشرق أنوار المعارف الإلهية على العقول ، ومنها استمر الأولياء العارفون والأئمة الربانيون تلك الحكم السامية ، والكتب العالية فى معرفته تعالى وأسرار خلقه ، والأدعية والقصائد فى حبه ومناجاته ، بعد أن تربوا بكثرة ذكره وتلاوة كتابه .

وهذا هو الغرض الأول من أمر القرآن المؤمنين بذكر الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم ، ليكون الله تعالى غالباً على أمرهم ، كما قال فى وصف يوسف عليه السلام **﴿ والله غالب على أمره ﴾**[3] فيمقتون الباطل والشر ، ويكون كل حظهم من الحياة الحب والخير ، لما يثمره الذكر لهم من صلاة الله عليهم وملائكته ليخرجهم من الظلمات إلى النور كما قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلا ، هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾**[4] .

بهذا التكرار الذى جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول ، طهر الله عقول العرب وقلوبهم من كل رجس الشرك وخرافات الوثنية ، وزكاها بالأخلاق العالية والفضائل السامية ، وكذا غير العرب ممن

---

(١) الآيات من ١ : ٦ من سورة الحديد
(٢) الآيات ٢٢ : ٢٤ من سورة الحشر
(٣) الآية ٢١ من سورة يوسف .
(٤) الآيات ٤١ : ٤٣ من سورة الأحزاب

آمن بالله وأتقن لغة كتابه ، وصار يرتله فى عبادته ويتدبر آياته ، حتى إذا دب فى الشعوب الإسلامية دبيب الجهل بلغة القرآن ، وقل تدبره فرضه الله عليهم ، واعتمد المسلمون فى فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ، وفى أعمال عبادتهم على كتب الفقه الجافة ، وفى تزكية أنفسهم على الأوراد البشرية المؤلفة ، ضعف التوحيد فى قلوب الكثيرين ، وشابته شوائب الشرك الأصغر ثم الأكبر ، واتبعوا سنن من قبلهم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، اعتقادا وعملا ، وتأولاً وجدلاً . فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة فى التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم وتقاليدهم المبتدعة وهجروا القرآن هجراً غير جميل ، وعاقبهم الله بما أوعدهم كما هو شاهد ومعلوم ..

قد كان توحيد المسلمين الأولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذى أزكى أنفسهم ، وأعلى هممهم ، وكملهم بعزة النفس ، وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الأمم وإعتاقها من رق الكهنة والأحبار والرهبان والبوذات والموباذانات الروحى والعقلى وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من أمم الأرض ،حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعى الشهير فى كتابه (تطور الأمم) « إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا فى ثلاثة أجيال : **أولها** : جيل التقليد ، **وثانيها** : جيل الخضرمة ، **وثالثها** : جيل الاستقلال والاختصاص . قال :إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون فى الجيل الأول الذى بدءوا فيه بمزاولتها .

وأقول : إن سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد الأصم الأعمى ، وتوطين أنفسهم على اقامة البشر وقيادتها فى أمور الدين والدنيا معاً ، وقد خفى كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة الإسلامية وزوال النهضة العربية ، وتحول السلطان إلى الأعاجم الذين لم يكن لهم من الإسلام إلا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن .

الركن الثانى للدين
عقيدة البعث والجزاء

الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال هو الركن الثانى للدين الذى بعث الله به الرسل عليهم السلام ، وبه يكمل الإيمان بالله تعالى ويكون باعثاً على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغى والعدوان ، وكان جل مشركى العرب ينكرونه أشد الإنكار ، وأما أهل الكتاب وغيرهم من الملل ــ التى كان لها كتب وتشريع دينى ومدنى ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليها الوثنية ــ فكلهم يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء يختلفون فى صفتهما لا فى أصلهما ، ولكن إيمانهم هذا قد

شابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجل فائدته فى إصلاح الناس ، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين ، وخلائف النصارى المتبعين لدين القيصر قسطنطين ، هو وجود المخلص الفادى الذى يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الأقنوم الثانى من الثالوث الإلهى الذى هو عين الأول والثالث ، وكل واحد منهما عين الآخر ، وكل ما تقوله النصارى فى فداء المسيح للبشر وغير ذلك من ولادته إلى رفعه فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود فى كرشنه وبوذا فى اللفظ والفحوى كما تقدم ، قلما يختلفان إلا فى الاسمين كرشنه ويسوع .

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب إسرائيل ،وادعاء محاباه الله تعالى لهم على سائر الشعوب فى الدنيا والأخرة ، ويسمونه إله إسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين ، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان فساد الإيمان بهذا الركن من أركان الدين تابعا لفساد الركن الأول وهو الإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجا إلى الإصلاح مثله .

جاء القرآن للبشر بهذا الإصلاح فقد أعاد دين النبيين فى الجزاء إلى أصله المعتدل وهو ما كرم الله تعالى به الإنسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بإيمانه وعمله ، اللذين هما من كسبه وسعيه ، لا من إيمان غيره وعمله ، وإن الجزاء على الكفر والظلم والنساد فى الارض ، يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب ، والجزاء على الإيمان والأعمال انصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة .

وقد نص القرآن على أن ما جاء به من هذا الاصلاح هو ما أوحاه إلى إبراهيم أبى الأنبياء الذين كانوا من بعده على شرعه فقال ﴿ **أعنده علم الغيب فهو يرى أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾[1] أى أن أصل دين الله لجميع رسله أنه لا تحمل نفس وازرة أى خاطئة خطيئة نفس أخرى بفداء ولا غيره ، وأنه ليس للإنسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره ، وقد يدخل فى عموم عمله ما يكون سببا له كالذى يعمله ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه ، وما يسنه من سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بهما من بعد .

فإذا علمت ما كان من إنكار مشركى العرب للبعث والجزاء ، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل فى هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكملة للإيمان بالله تعالى ، وأن تذكرها هو الذى يقوى الوازع النفسى

(١) الآيات ٣٥ : ٤١ من سورة النجم

الذى يصد الإنسان عن الباطل والشر والظلم والبغى ويرغبه فى التزام الحق والخير وعمل البر ــ علمت أن إصلاحها ما فعل فعله العاجل فى شعب كبير إلا بتكرار التذكير بها فى القرآن بالأساليب العجيبة التى فيه من حسن البيان ، وتقريب البعيد من الاذهان تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الأمثال ، وقد تكرر فى آيات بينات لعلها تبلغ المئات ، ومن إعجازه أنها لاتمل وتسأم ، بل لا يكاد يشعر قارئها بتكرار معانيها ، وإن تقارب جنسها ونوعها وترادفت سورها . فتأمل ذلك فى سور المفصل ترى تكرار الكلام على البعث والنشور والجزاء بما لا يخطر على بال بشر من اختلاف الأسلوب فى النظم والفواصل ولا سيما المتناسبة المتصلة كالمرسلات مع النبأ ، والنازعات مع عبس ، والتكوير مع الانفطار ، والمطففين مع الانشقاق وغيرهن .

قلنا الإيمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثانى فى جميع الأديان ، من لوازم الركن الأول وهو الإيمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العبث فى أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله تعالى بعد ذكر البعث وجزاء الكافرين فى آخر سورة المؤمنون ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾(1) . وقوله تعالى فى آخر سورة القيامة ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟** ﴾ فكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الإيمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله فى خلقه ، وكفره بنعمته بخلقه فى أحسن تقويم ...

الركن الثالث للدين العمل الصالح

الركن الثالث من مقاصد الرسل ــ هو العمل الصالح ــ أثر لازم للإيمان بالله والحساب والجزاء فى الآخرة وثمرة له ، وهو يمده ويستمد منه ، فكل من الإيمان والعمل يغذى الآخر ويقويه ، ويتوقف كمال كل منهما على الآخر ، فمن فسد إيمانه فسد عمله وكان رياء ونفاقاً وتقليداً صورياً ، فلا يكون العمل صالحا مصلحا لعامله إلا بجعله على الوجه الذى شرعه الله لأجله وهذا مكرر فى القرآن فى سور كثيرة لإصلاح ما أفسده البشر فيه بجعله تقليديا غير مزك للنفس ولا مصلح لشئون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذى هو الأصل الذى يتبعه غيره ، على أنه يقرنه به ولولا الحاجة إلى هذا التكرار فى التذكير والتأثير لكانت سورة العصر وحدها كافية فى الإصلاح العلمى العملى على قصرها ، كسورة الإخلاص فى الركن الأول الاعتقادى ، وكل منهما تكتب فى سطر واحد فهما من معجزات إيجاز القرآن وهدايته ، وكسورة الزلزلة فى الركن الثانى وهى تكتب فى ثلاثة أسطر .

---

(١) الآيتان ١١٥ ، ١١٦ من سورة المؤمنون

(٢) الآية ٣٦ من سورة القيامة

إنما كان العمل الصالح من لوازم الإيمان بالله فى الدرجة الأولى ، لأن من عرف الله تعالى عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الإيمان بالجزاء على الأعمال فى الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء فى الثواب فالأركان الثلاثة يمد بعضها بعضا بمقتضى هداية الأنبياء الموافقة للنظرة الإنسانية دون تقليد الوثنية التى لا شأن فيها لعلم الانسان ولا عمله فى سعادته ، لأن مدارها على إيمانه بوجود الفادى الشفيع ، أو على إقراره به وإن كان لا يعقله ، بل ينكره عقله وتأباه فطرته ، وقد أبطل القرآن عقيدة النداء والشفاعة الوثنية فى آيات عديدة .

ويدخل فى الأعمال الصالحة العبادات المفروضة التى يتقرب بها إلى الله تعالى وسائر أعمال البر التى ترضيه بما لها من التأثير فى صلاح البشر كبر الوالدين ، وصلة الرحم وإكرام اليتامى والمساكين .. وتأمل آيات الوصايا فى سورة الأنعام ، وآية البر فى سورة البقرة وغير ذلك من آيات الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصى ...

المقصد الثانى من مقاصد القرآن
بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل

كانت العرب تنكر الوحى والرسالة إلا أفراداً من بقايا الحنفاء فى الحجاز وغيره ، ومن دخل فى اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها ، وكانت شبهة مشركى العرب وغيرهم على الوحى استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون فى الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله — تعالى — بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة فى شعب إسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته ، وارتكاب كبائر المعاصى كما تقدم ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح وغيرهم من البابوات والعباد ، وعبدوهم أيضا ، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكارهم إياه فى وقت الشدة ، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه وأنه لعن أكبرهم وسماه شيطانا ، وأنه قال لهم : « كلكم تشكون فىّ فى هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقساوسهم أربابا من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الدينى من وضع العبادات والتحليل والتحريم ، وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله وعموم رحمته وفضله ، ومن مفسدات نوع الانسان ، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ﷺ .

(١) بعثة الرسل فى جميع الأمم ووظائفهم

قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة** ﴾[1] وقال : ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾[2] وكرم الله الإنسان بجعل التشريع الدينى من حقوقه وحده ، وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الأقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته ، فقد أبطل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع ، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحى والعقلى الذى منيت به الأمم المتدينة ولا سيما البوذيين والنصارى ، ولضلال جميع أهل الملل والنحل فى ذلك كرر هذا الموضوع فى كثير من السور بالتصريح بأن الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى إليهم ، وأنهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى إليهم . قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم فى خاتمة سورة الكهف ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ إنما إلٰهكم إله واحد** ﴾[3]. وقال فى جملتهم من وسطها ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين** ﴾[4] ومثلهما فى سورة الأنعام (٦ : ٤٨) وفى معناهما آيات أخر .

بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل ، لا متصرفين فى الكون بالنفع والضر بأنفسهم ولا بتأثيرهم فى إرادته تعالى .

(٢) أطوار النصارى وما انتهوا إليه فى الدين

ومن عجيب أمر النصارى أن وثنيى أوربا غلبوهم على دينهم لضعفهم وتفرقهم بعدم وجود نظام يجمع أمرهم بقوة حاكمة فتصدى لجمعهم الملك قسطنطين فانتزعهم من دين التوحيد الذى كان عليه إبراهيم وموسى وعيسى وسائر النبيين ، وأسس لهم كنائس كهياكل قومه الوثنيين ، ورياسة دينية رومانية تناوىء اليهود أو الساميين ، إلا فلسفة بولس عدو المسيح والمسيحيين ، ثم وضع لهم الأحبار والأساقفة من اليونان والروم عقائد وعبادات وشرائع وشعائر كثيرة ، لم يبن شىء منها على أساس التوراة التى هى ناموس موسى عليه السلام ونقلوا عن المسيح أنه قال وقوله الحق أنه ما جاء لينقض الناموس وإنما جاء ليتممه ، ولكن هؤلاء الأوربيين نقضوه ووضعوا لأنفسهم نواميس أخرى مخالفة له ولما تممه به المسيح من الزهد وترك عبادة المال والشهوات والرياء وحب الرياسة والبغى والعدوان وعادوا أتباعه اليهود فى كل شىء .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة النحل

(٢) الآية ٢٤ من سورة فاطر

(٣) الآية ١١٠ من سورة الكهف

(٤) الآية ٥٦ من سورة الكهف

ولما بعث خاتم النبيين الذى بشر به موسى وعيسى والنبيون عليه وعليهم الصلاة والسلام ، وبين للفريقين ــ اليهود والنصارى ــ ما اختلفوا فيه من أمر الدين ، ورأوا اليهود والنصارى يتبعونه لعلمهم بأنه جدد لهم دين أنبيائهم عادوه وحاربوه كما تقدم ، ولكنهم استفادوا من نوره ﷺ ما حملهم على إصلاح كبير فى دينهم قاتل عليه بعضهم بعضا حتى صارت أوربا فريقين متكافئين فى القوة ، وكل ذلك معروف بالتفصيل فى العالم كله .

ثم حدث بعد ذلك أن حزب دين الإصلاح (البروتستنت) مازال يتدرج فيما خالف فيه دين الكاثوليك والأرثوذكس وهو حرية البحث فى الدين حتى صار الملايين من أتباعه لا يؤمنون بعصمة كتب العهد القديم ولا العهد الجديد ، ثم عقدوا مجامع ومناظرات قرروا فيها بطلان القول بألوهية المسيح .

ثم حدث فى هذا العام أن جاهر الجمهور الأعظم فى الممالك الجرمانية بوجوب بناء دين الأمة على قواعد جنسها الآرى وهدم قواعد الجنس السامى الدينية وأنبيائه من بنى اسرائيل ، فبرز البابا يناهضهم ويصرح بأنهم يعودون إلى الوثنية القديمة ، فعلم من هذا الحدث الجديد أن الديانة النصرانية التى هدمها الشيوعيون فى شرق أوربا وآسيا (الروسية) وطفقوا يبثون الدعوة بهدمها هى وسائر الأديان ، والتى تلاهم الفاشيون من الجرمان بهدمها فى قلب أوربا ليست بالديانة التى تثبت فى عواصف هذه الفتن الجديدة ، وإنما الذى يقوى على ذلك دين الإسلام وحده ، فلا سبيل إلى إنقاذ أوربا وسائر العالم من فوضى كفر التعطيل والإباحة إلا به .

(٣) مسألة الشفاعة

وأما مسألة الشفاعة التى كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم فى الدنيا ، وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم فى الدنيا والآخرة ، فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعا وإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿ **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** ﴾[١] .. وقد قرر هذه المسألة فى بضع وعشرين آية من السور المكية والمدنية فأنت ترى أن القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التى ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء أهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على أقوامهم ؟ أم هو نابع من نفسه وهو يقتضى أن ما ينبع منها أعلى من وحى الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا إنما هى من وحى الله تعالى له .

(١) الآيتان ٢٨ ، ٢٩ من سورة الأنبياء

(٤) الإيمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما بينه القرآن فى مسألة الأنبياء والرسل أنه يجب الإيمان بجميع رسل الله ـــ تعالى ـــ وعدم التفرقة بينهم فى الإيمان ، وأن الإيمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم ، لأن إضافتهم إلى الله تعالى واحدة ، ووظيفتهم فى إرشاد المكلفين وتبليغ رسالته وشرعه واحدة . قال تعالى فى خواتيم سورة البقرة : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله** ﴾ .

وبين فى سورة النساء أن التفرقة بينهم فى الإيمان هو الكفر حق الكفر ، وأن الإيمان بالجميع بغير تفرقة هو الإيمان حق الإيمان .. ، قال تعالى : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقاً وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ، والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفورا رحيما** ﴾[1] .

وهذا مبنى على الإيمان بأن دين الله تعالى الذى أرسل به جميع رسله واحد فى أصوله ومقاصده من هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة ، وإنما كانت تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقوام ، ومقتضيات الزمان والمكان ، حتى بعث الرسول العام بالأصول الموافقة لكل زمان ومكان ، مع الإذن بالاجتهاد فى المصالح التى تختلف باختلاف الأطوار والأحوال ، فالإيمان ببعضهم دون بعض فى رسالتهم الإلهية ، اتباع للهوى فى الإيمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به ، لأنه عين الكفر ..

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

إكمال نفس الإنسان من الأفراد والجماعات والأقوام بجعل الإسلام دين الفطرة السليم ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة والبرهان ، والحجة ، والضمير ، والحرية ، والاستقلال

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كُلف البشر مقاومة فطرتهم بها ، وتعذيب أنفسهم ومكابرة عقولهم وبصائرهم خضوعا للرؤساء الذين يلقنونهم إياها فإن انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين ، وإن خالفوهم سرا أو جهرا كانوا من الهالكين ، والحق الواقع أنهم كانوا بهذا الخضوع والخنوع من الخاسرين ، ولكن عجز عقلاؤهم وحكماؤهم عن إنتشالهم

(١) الآيات ١٥٠ : ١٥٢ من سورة النساء

من مهاوى التهلكة ، وإخراجهم من ظلمات الشرك والظلم والاستبداد ، إلى نور التوحيد والحرية والعدل والاستقلال . حتى إذا بعث الله رسوله محمداً خاتم النبيين ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — كان هو الذى أخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبين لهم أن دين الله الإسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر والعلم والحكمة والبرهان والحجة والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال . وأن لا سيطرة على روح الإنسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وإنما رسل الله هداة مرشدون مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه فى المقصد الذى قبل هذا . ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

(١) الإسلام دين الفطرة

قال الله تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[١] .

الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة وعن الضلالة إلى الهدى ، وعن الباطل إلى الحق ، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق إلى الباطل إلخ ، وفطرة الله التى فطر الناس عليها هى الجبلة الإنسانية الجامعة بين الحياتين : الجسمانية الحيوانية ، والروحانية الملكية ، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما وما أروع فيها (أى الجبلة) من غريزة الدين المطلق الذى هو الشعور الوجدانى بسلطان غيبى فوق قوى الكون والسنن والأسباب التى قام بها نظام كل شىء فى العالم . فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والأرض وما فيهما ، والمصدر الذاتى للنفع والضر المحركين لشعور العبادة الفطرى الوجدانى ، إلى هذا الرب الغيبى ، فى كل ما يعجز الإنسان عنه من نفع يحتاج إليه ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضر يمسه أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله وقوته ، وفى كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته ، والوصول إليه مما لا نهاية له ، وأعنى بالإنسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه يعده من مقدوره ، ويعد مساعدة غيره له عليه من جنس كسبه ، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر : فتعظيم الفقير للغنى بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوى لاستنجاده واستعدائه على أعدائه لا يسمى شىء من ذلك عبادة فى عرف أمة من الأمم ولا ملة من الملل وإنما روح العبادة الفطرية ومخها هو دعاء ذى السلطان العلوى والقدرة الغيبية التى هى فوق ما يعرفه الإنسان ويعقله فى عالم الأسباب ولا سيما

(١) الآية ٣٠ من سورة الروم

الدعاء عند العجز وفى الشدائد قال ﷺ : « الدعاء هو العبادة »[١] وكل تعظيم وتقرب قولى أو عملى لصاحب هذه القدرة والسلطان الغيبى فهو عبادة له ..

(٢) الإسلام دين العقل والفكر

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة (العقل) ولا ما فى معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التى فضل الإنسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحى كاللب والنُهى ، لا لأن هذه المادة لم تذكر فى كتب العهدين مطلقا ، بل لأنها لم ترد فيها أساسا لفهم الدين ودلائله والاعتبار به ، ولا أن الخطاب بالدين موجه إليه ، وقائم به وعليه ، وكذلك أسماء التفكير والتدبر والنظر فى العالم التى هى أعظم وظائف العقل ، أما ذكر العقل باسمه وأفعاله فى القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة . وأما ذكر أولى الألباب أى العقول ففى بضع عشرة مرة ، وأما كلمة النهى (جمع نُهيه بالضم كغُرفة) أى العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه .

أكثر ما ذكر فعل العقل فى القرآن قد جاء فى الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم **العقلاء** ويراد بهذه الآيات فى الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون** ﴾[٢] .

ويلى ذلك فى الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله فى تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الأنعام ﴿ **ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون** ﴾[٣] وكرر قوله ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أكثر من عشر مرات كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله : ﴿ **فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون** ﴾[٤] وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله فى أهل النار من سورة الملك

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد وابن أبى شيبة والبخارى فى الأدب وأبى داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى شعب الإيمان عن النعمان بن بشير (الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ صـ ٤١٢)
وفى الترمذى ـــ كتاب الدعوات جـ ٥ صـ١٢٥

(٢) الآية ١٦٤ من سورة البقرة

(٣) الآية ١٥١ من سورة الأنعام

(٤) الآية ١٦ من سورة يونس

﴿ **وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾[(١)] وفى معناه قوله تعالى من سورة الأعراف ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾[(٢)].

وقوله فى سورة الحج : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾[(٣)].

كذلك آيات النظر العقلى والتفكر كثيرة فى الكتاب العزيز ، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظَّ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التى لا تزكى الأنفس ولا تثقف العقول ، ولا تصعد بها فى معارج الكمال بعرفان ذى الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا** ﴾[(٤)] وقوله : ﴿ **أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** ﴾[(٥)] . وقوله فى صفات العقلاء أولى الألباب ﴿ **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾[(٦)] وقوله بعد نفى علم الغيب والتصرف فى خزائن الأرض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته فى اتباع الوحى ﴿ **قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون** ﴾[(٧)] .

وقد صرح بعض حكماء الغرب بما لا يختلف فيه عاقلان فى الأرض من أن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر ، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل على البشر ، حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية أمم الغرب من المسلمين ، ثم نكس هؤلاء المسلمين على رءوسهم فحرموها على أنفسهم إلا قليلا منهم ، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم وقد اعترف علماء الغرب لعلماء سلفنا بسبقهم وإمامتهم لهم فيها وفى ثمراتها ، ونقل شيخنا الأستاذ الإمام طائفة من أقوالهم فى كتاب الإسلام والنصرانية .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الملك
(٢) الآية ١٧٩ من سورة الأعراف
(٣) الآية ٤٦ من سورة الحج
(٤) الآية ٤٦ من سورة سبأ
(٥) الآية ٨ من سورة الروم
(٦) الآية ١٩١ من سورة آل عمران
(٧) الآية ٥٠ من سورة الأنعام

(٣) الإسلام دين العلم والحكمة والفقه

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة فى عشرات من آيات القرآن الحكيم يناهز المئة ، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك ، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها ، فمن العلم المطلق قوله تعالى فى وصايا سورة الإسراء ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾(١) .

أى لا تتبع ما ليس لك به علم يثبت عندك بالرؤية البصرية أو بالروايات السمعية أو بالبراهين القطعية ، فإن الله يسألك عما أعطاك من آلات هذا العلم الثلاث . قال الراغب فى تفسير « لا تقف » أى لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوى ما ملخصه : ولا تتبع ما لم يتعلق به علمك تقليدا أو رجماً بالغيب ومنه قوله تعالى فى العلم المأثور فى التاريخ ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا أو آثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾(٢) ومنه قوله تعالى فى علوم البشر المادية ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون . يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾(٣) وقوله تعالى فى العلم الروحى ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾(٤)

وهاتان الآيتان فى بيان ضعف علم البشر وقلته حتى الدنيوى منه لايزال يعترف العلماء أيهم أوسع علما بمضمونهما ، وأن علمهم لا يتجاوز الظواهر ، وقد صرح بعض فحول الغرب بأنهم كلما ازدادوا علما علموا من حاجتهم إلى تحقيق ما سبق والزيادة عليه ما لم يكونوا يعلمون . كما قال الإمام الشافعى :

كلما أدبنى الدهـــــر أرانى نقص عقلى
وإذا ما ازددت علما زادنى علماً بجهلى

وقوله تعالى فى العلم العقلى ﴿ **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾(٥) الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظرى بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين والوحى . وقوله فى العلم الطبيعى ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾(٦) بكسر اللام أى علماء الكون .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الإسراء
(٢) الآية ٤ من سورة الأحقاف
(٣) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الروم
(٤) الآية ٨٥ من سورة الإسراء
(٥) الآية ٨ من سورة الحج
(٦) الآية ٢٢ من سورة الروم

ومثله قوله بعد ذكر إخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق فى الجبال وألوان الناس والدواب ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾(١) الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأطواره وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها هو يشمل أكثر العلوم والفنون أو جميعها ، وفى معناها آيات فى سور أخرى .

عظم القرآن شأن العلم تعظيما لا تعلوه عظمة أخرى بقوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾(٢) .

فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته ، وجعل أولى العلم فى المرتبة الثالثة ، ويدخل فيها الأنبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات فى قوله ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾(٣) وأمر أكبر رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله ﴿ **وقل رب زدنى علما** ﴾(٤).

ويؤيد الآيات المنزلة فى مدح العلم والحث عليه ما ورد فى ذم اتباع الظن كقوله تعالى : ﴿ **وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً** ﴾(٥) وقوله فى قول النصارى بصلب المسيح ﴿ **ما هم به من علم إلا اتباع الظن** ﴾(٦).

الحكمة الفقه

وأما الحكمة فقد قال تعالى فى تعظيم شأنها المطلق ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾(٧) . وقال تعالى فى بيان مراده من بعثه محمد خاتم النبيين ﴿ **هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾(٨) .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة فاطر
(٢) الآية ١٨ من سورة آل عمران
(٣) الآية ١١ من سورة المجادلة
(٤) الآية ١١٤ من سورة طه
(٥) الآية ٣٦ من سورة يونس
(٦) الآية ١٥٧ من سورة النساء
(٧) الآية ٢٦٩ من سورة البقرة
(٨) الآية ٢ من سورة الجمعة

وقال لرسوله ممتنا عليه : ﴿ **وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما** ﴾(١) .

وقال له : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾(٢) . وقال له فى خاتمة الوصايا بأمهات الفضائل والنهى عن كبار الرذائل ، مع بيان عللها وما لها من العواقب ﴿ **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾(٣) وقال لنساء النبى رضى الله عنهن ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾(٤) .. فالحكمة أخص من العلم ، هى العلم بالشىء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل ، فهى بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والأخلاق وأسرار الخلق وسنن الاجتماع ، ويدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الإسراء التى نقلناها آنفا ﴿ **ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة** ﴾(٥) .

ويكثر فى القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق للحقائق الذى يكون به العالم حكيما عاملا مثقفا ، فراجع منها فى سورة الأنعام ٦ : ٢٥ ، ٦٥ ، ٩٨ وفى سورة الأعراف ٧ : ١٧٨ وفى سورة الأنفال ٨ : ٦٥ وفى سورة التوبة ٩ : ٨٢ ، ٨٨ : ١٢٣ ، وحسبك ما فى هذه السور الأربع تعريفا بالفقه وإنه هو الحكمة لا علم ظواهر الأحكام من الطهارة والبيع والإعارة الخ . فإن تسمية هذا بالفقه اصطلاحية لا قرآنية ، ومنه ما هو ضد فقه القرآن كالحيل التى تعلم الناس التقصى من حكمة القرآن .

(٤) الإسلام دين الحجة والبرهان :

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينا** ﴾(٦) وقال : ﴿ **ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون** ﴾(٧) قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان ، وذلك أنه تعالى يبعث الأمم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال تعالى : ﴿ **ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون** ﴾(٨) .

وأقام البرهان العقلى على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والأرض من سورة الأنبياء ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾(٩) ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال تعالى : ﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم** ﴾(١٠) الآية ..

---

(١) الآية ١١٣ من سورة النساء
(٢) الآية ١٢٥ من سورة النحل
(٣) الآية ٣٩ من سورة الإسراء .
(٤) الآية ٣٤ من سورة الأحزاب
(٥) الآية ٣٩ من سورة الإسراء
(٦) الآية ١٧٤ من سورة النساء
(٧) الآية ١١٧ من سورة المؤمنون
(٨) الآية ٧٥ من سورة القصص
(٩) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء
(١٠) الآية ٢٤ من سورة الأنبياء

وقال فى سياق محاجة إبراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان شركهم ﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا ؟ فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾[1] ثم قال فى آخره : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم** ﴾[2] فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلى فى العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم فى الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه ..

٥ ــ الإسلام دين القلب والوجدان والضمير :

قال الفيومى فى المصباح : ضمير الإنسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر . وقال والقلب من الفؤاد معروف ــ يعنى أنه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل أ هـ .

وقد ذكر القلب فى القرآن الكريم فى مائة آية وبضع عشرة آية . منها قوله تعالى فى سورة ق ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[3] وقوله تعالى فى سورة الشعراء ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾[4] . ومنها مدحه لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله : ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾[5] وقوله حكاية عنه ﴿ **ولكن ليطمئن قلبى** ﴾[6] . وقوله فى صفة المؤمنين ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[7].

ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والإخبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ ، وعبر عن فقدها للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها . أى إنها كالمختوم عليها فلا يدخله شىء جديد أو كالمعدن أحاط به وغلب عليه الرين وهو الصدأ أو الدنس فلا تقبل الصدأ والجلاء .

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والأجداد .

كل ما نزل من الآيات فى مدح العلم وفضله واليقين فيه واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان ، والمطالبة بالبرهان ، وذم اتباع الظن والحرص فيما يطلب فيه الإيمان والعلم ــ يدل على ذم التقليد ، وقد

(١) الآية ٨١ من سورة الأنعام
(٢) الآية ٨٣ من سورة الأنعام
(٣) الآية ٣٧ من سورة ق
(٤) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة الشعراء
(٥) الآية ٨٤ من سورة الصافات
(٦) الآية ٢٦٠ من سورة البقرة
(٧) الآية ٢٨ من سورة الرعد .

ورد فى ذمه والنعى على أهله آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** ﴾[١] . وقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون** ﴾[٢] . ذمهم من ناحيتين (**إحداهما**) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقى فى العلم والعمل ، وليس هذا من شأن الإنسان الحى العاقل ، فإن الحياة تقتضى النمو والتوليد ، (**والثانية**) أنهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر فى التمييز بين الحق والباطل والخير والشر ، والحسن والقبيح ، بطريق العقل والعلم وطريق الاهتداء فى العمل ويؤيده قوله تعالى : ﴿ **وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[٣] وقال تعالى فى عبادة العرب للملائكة ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[٤] وتراجع الشهود على هذا فى قصة إبراهيم مع قومه فى سور الأنبياء والشعراء والصافات .

فالقرآن قد جاء يهدى جميع متبعى الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول إلى العلم والهدى والاطمئنان فى الدين ، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك ، فإن هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر والقلب التى امتاز بها البشر ، وبهذا العلم والهدى امتاز الإسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الأمم أفواجا ، ثم نكس المسلمون على رءوسهم إلا قليلاً منهم ، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم فى التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به ، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم التى وكل دعوتها إليهم وصاروا حجة على دينهم ، فكيف يدعون إليها وحجته القرآن وهم يحرمون الإهتداء به . حتى أن أدعياء العلم الرسمى فيهم ينكرون أشد الإنكار على من يدعونهم إلى اتباع كتاب الله وهدى رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم فى بلاء وعناء ، نقاسى منهم ما شاء الجهل والجمود من استهزاء وطعن وبذاء وتهكم .. ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الإسلام فى صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون فى العقل والعلم فيه أفواجا حتى يعم الدنيا ، لأن التعليم العصرى فى جميع مدارس الأرض يجرى على طريقة الاستقلال فى الفهم واتباع الدليل فى جميع بلاد الأفرنج والبلاد المقلدة لهم ، ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الأديان تقليدية ، ويعتدونها نظما أدبية واجتماعية للأمم ، فلهذا يرون الأولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدى ،

---

(١) الآية ١٧٠ من سورة البقرة
(٢) الآية ١٠٤ من سورة المائدة
(٣) الآية ٢٨ من سورة الأعراف
(٤) الآيات ٢٠ : ٢٣ من سورة الزخرف

وبهذا يعسر علينا أم نقنعهم بامتياز الإسلام على دينهم ، لأنه يقل فينا من يقدر على إظهار الإسلام فى صورته التى خصه بها القرآن ، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين ، رضوان الله عليهم أجمعين .

٧ – الحرية الشخصية فى الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الإسلام هى نتيجة المزايا التى بينها بها كونه دين الفطرة . فأما منع الإكراه فيه وعليه فالأصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة ﴿ **ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين .. وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾[١] .

علم الله رسوله بهذه الآيات أن من سننه فى البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم فى فهم الدين ، وتتفاوت أنظارهم فى الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى فى اختلاف استعداد الناس للإيمان ، وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم فى آيات الله فى خلقه والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر . ثم قال تعالى له عندما أراد أصحابه أخذ من كان عند بنى النضير من أولادهم عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[٢] الآية . فأمرهم ﷺ أن يخيروهم فمن اختار اليهودية أجلى مع اليهود ولا يكره على الإسلام ، ومن اختار الإسلام بقى مع المسلمين .

وأما منع الفتنة وهى اضطهاد الناس لأجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الأول لشريعة القتال فى الإسلام وسيأتى بيانه فى المقصد الثامن من هذا الكتاب .

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى ففيها آيات مبينة فى القرآن ، وأحاديث صريحة فى السنة وهى معلومة بالضرورة من سيرة النبى ﷺ وخلفائه الراشدين وحسبك منها قوله تعالى : ﴿ **فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر** ﴾[٣] .

---

(١) الآيات ٩٩ : ١٠١ من سورة يونس
(٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة
(٣) الآية ٢١ من سورة الغاشية

المقصد الرابع من مقاصد القرآن
الإصلاح الإنسانى الاجتماعى السياسى الوطنى بالوحدات الثمان

وحدة الأمة ـــ وحدة الجنس البشرى ـــ وحدة الدين ـــ وحدة التشريع بالمساواة فى العدل ـــ وحدة الأخوة الروحية والمساواة فى التعبد ـــ وحدة الجنسية السياسية الدولية ـــ وحدة القضاء ـــ وحدة اللغة .

جاء الإسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعادون فى الأنساب والألوان ، واللغات والأوطان والأديان ، والمذاهب والمشارب والشعوب والقبائل ، والحكومات والسياسات ، يقاتل كل فريق منهم مخالفه فى شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه فى البعض الآخر . فصاح الإسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الإنسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ، ونهاهم عن التفرقة والتعادى وحرمه عليهم ، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية ، وبيان أصول الكتاب الإلهى وسنة خاتم النبيين فى الجامعة الانسانية لا يمكن بسطهما إلا بمصنف كبير ، فنكتفى فى هذا المقصد من إثبات الوحى المحمدى بسرد الأصول الجامعة فى هذا الإصلاح الانسانى الداعى إلى جعل الناس على ملة واحدة ، ودين واحد ، وشرع واحد ، وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما أن جنسهم واحد ، وربهم واحد .

الأصل الأول للجامعة الإسلامية الانسانية وحدة الأمة

قال الله تعالى فى سورة الأنبياء مخاطباً أمة الإسلام بعد ذكر خلاصة قصصهم ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾(١) .

ثم بين لها فى سورة « المؤمنون » أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للأمة فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾(٢) .

ولكن كان لكل نبى أمة من الناس هم قومه . وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس وقد فرض الله عليهم الإيمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم فالإيمان بخاتمهم كالإيمان بأولهم .. قال تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون** ﴾(٣) .

(١) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء
(٢) الآيتان ٥١ ، ٥٢ من سورة المؤمنون
(٣) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف

الأصل الثانى

الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر ، وشاهده قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[٣] .

وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف وإلى ترك التعادى بالتحالف .

الأصل الثالث

وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى الذى جاء به غيره من الرسل ، وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر وشاهده الأعم قوله تعالى : ﴿ **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾ الآية .

ولما كان الإسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[٣] .

الأصل الرابع

وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر والملك ، والغنى والفقير ، والقوى والضعيف ، وسنذكر بعض شواهده فى إصلاح التشريع من المقصد السادس .

الأصل الخامس

الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين فى أخوته الروحية وعباداته وفى **الاجتماع** للاجتماع منها كالصلاة (والصيام) ومناسك الحج فملوك المسلمين وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام فى صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفة ، وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الإفرنج المنتسبين إلى النصرانية ولا رجال الدين من غيرهم يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الإسلام بالضرورة

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات
(٤) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف
(٥) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة

للعمل بها من أول الإسلام إلى اليوم ، قال تعالى : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون اخوة** ﴾[٢] .

الأصل السادس

وحدة الجنسية السياسية الدولية بأن تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الإسلامى متساوية فى الحقوق العامة كحماية أهلها والدفاع عنهم إلا حق الإقامة فى الجزيرة العربية ولاسيما الحجاز خاص بالمسلمين ، لأن للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الإسلام فى معابد الملل الداخلة فى ذمته أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها ، لا يجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم فى هذا سواء .

الأصل السابع

وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة ، إلا أنه يستثنى منه الأحكام الشخصية الدينية ، فإن الإسلام يراعى فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه فى ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين فى أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى رؤساء ملتهم ، وهذا ضرب من المساواة ليس له فى غير الإسلام ضريب ، لأنه إشراك فى الحكم والتشريع وأما إذا تحاكموا إلينا فإننا نحكم بينهم بالعدل بشريعتنا الناسخة لشرائعهم ، والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ **فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين** ﴾[٣] وقوله بعد آيات ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك** ﴾[٤] الآية .

الأصل الثامن

وحدة اللغة ، ووجهها أنه لا يمكن أن يتم الاتحاد والإخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة ومازال الحكماء الباحثون فى مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة مشتركة ، يتعاونون بها على التعارف والتآلف ، ومناهج التعليم والآداب ، والاشتراك فى العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية . وهذه الأمنية قد حققها الإسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما

---

(١) الآية ١١ من سورة التوبة

(٢) الآية ١٠ من سورة الحجرات

(٣) الآية ٤٢ من سورة المائدة

(٤) الآية ٤٩ من سورة المائدة

والتعبد بهما ، والاتحاد بإخوانهم فيهما ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر فى القرآن الكريم بيان كونه كتاباً عربياً ، وحكماً عربياً ، وكرر الأمر بتدبيره والتفقه فيه والاتعاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذى يخضعون لحكمه ، والحكومة التى يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هى عادة البشر فى ذلك وكذلك كان الأمر فى الفتوحات الإسلامية العربية كلها .

وقد فصلت فى المنار والتفسير مسألة وجوب تعليم اللغة العربية فى دين الإسلام وكونه مجمعاً عليه بين المسلمين كما قرره الإمام الشافعى فى رسالته ، وهو الذى جرى عليه العمل فى عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ، ثم خلفاء الأمويين والعباسيين ، إلى أن كثر الأعاجم ، وقل العلم ، وغلب الجهل ، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه الله فى العبادات من القرآن والأذكار .

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

« تقرير مزايا الإسلام العامة فى التكاليف الشخصية من الواجبات والمحظورات »

(ونلخص أهمها بالإجمال فى عشر جمل أو قواعد)

(الأولى)

كونه وسطاً جامعاً لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة . وهو نص قوله تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطا** ﴾[1] إن المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود ، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى ، وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم .

(الثانية)

كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالإيمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال ، ولا بالشفاعات وخوارق العادات .

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة البقرة

(الثالثة)

كون الغرض منه التعارف والتآلف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف كما يزعم أعداء الأديان وتقدمت شواهده فى كونه عاماً مكملاً ومتمماً لدين الله على ألسنة رسله فى الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ .

(الرابعة)

كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا ارهاق ولا اعنات ، قال الله عز وجل ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾[1] وقال جلت حكمته ﴿ **ولو شاء الله لأعنتكم** ﴾[2] وقال عظمت رأفته ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾[3] وقال جلت منته ﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾[4] وقال عمت رحمته ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** ﴾[5] .

(الخامسة)

منع الغلو فى الدين وإبطال جعله تعذيباً للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون اسراف ولا كبرياء قال تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلو فى دينكم** ﴾[6] وهو فى (١٥ : ١٧) و (٦ : ٧٧) وفى هذا النهى اعتبار للمسلمين ، لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر والأحاديث الصحيحة فى نهى المسلمين عن الغلو فى العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء ، مبينة لهذه الآيات وهى مصداق تسمية النبى ﷺ لملته بالحنيفية السمحة .

(السادسة)

قلة تكاليف وسهولة فهمها ، وقد كان الأعرابى يجىء النبى ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه فى مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول « أفلح الأعرابى إن صدق »[7] وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له .

---

(١) الآية ٢٨٦ من سورة البقرة
(٢) الآية ٢٢٠ من سورة البقرة
(٣) الآية ١٧٥ من سورة البقرة
(٤) الآية ٧٨ من سورة المؤمنون
(٥) الآية ٦ من سورة المائدة
(٦) الآية ١٧١ من سورة النساء
(٧) الحديث فى صحيح البخارى ـــ كتاب الصوم جـ ٣ صـ ٣١ ط الشعب

ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسرا ، والعمل بها كلها متعذراً ، ولا يعترض على هذه المزية بالصلوات الخمس فى كل يوم وليلة فإن أقل ما تجزىء به كل صلاة منها يمكن أن يؤدى فى خمس دقائق ،ومنها صلاة عقب القيام من النوم فى الصباح وصلاة قبل النوم فى فى الليل ، فهل يشق على المرء أن يؤدى فى سائر يومه ثلاث صلوات متفرقة فى ربع ساعة منه ؟ ..

(السابعة)

انقسام التكاليف إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص ، وابن عمر يرجح العزائم ، والناس درجات فى التقصير والتشمير والاعتدال ، فهو يوافق البدوى الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات قال الله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير**﴾[1].

(الثامنة)

نصوص الكتاب وهدى السنة مراعى فيهما درجات تفاوت البشر فى العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها ، فالقطعى منها هو العام ، وغير القطعى تتفاوت فيه الأفهام ، فيأخذ كل أحد منه بما أداه إليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعلت عندما نزلت آية البقرة فى الخمر والميسر الدالة على تحريمهما دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض ، وأقر كلا على اجتهاده إلى أ نزلت آية المائدة بالتحريم القطعى . قال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[2] . وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه ، والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعى يفهمه كل أحد ، والأول مذهب الحنفية ، وأما الثانى وهو التحرير فهو مذهب جمهور السلف أيضا ، وأما الآيات الظنية الدلالة وأحاديث الآحاد الظنية الرواية أو الدلالة ، فهى موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده فى العبادات والأعمال الشخصية ، وإلى اجتهاد أولى الأمر فى الأحكام القضائية والأمور السياسية ..

(التاسعة)

معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله ــ تعالى ــ فليس لأحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً على ما يعتقد أو يضمر فى قلبه ، وأنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم ..

---

(١) الآية ٣٢ من سورة فاطر

(٢) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت

(العاشرة)

مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبى ﷺ فى الظاهر فليس لأحد فيها رأى شخصى ولا رياسة ، ومدارها فى الباطن على الإخلاص لله — تعالى — وصحة النية والآيات والأحاديث فى الأمرين كثيرة .

المقصد السادس من مقاصد القرآن

بيان حكم الإسلام السياسى الدولى

نوعه وأساسه وأصوله العامة

الإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحُكم ، لأن ما جاء به من إصلاح البشر فى جميع شئونهم الدينية ، ومصالحهم الاجتماعية والقضائية ، يتوقف على السيادة والقوة ، والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة ، وفيه أصول وقواعد .

القاعدة الأساسية الأولى للحكم الإسلامى

الحكم فى الإسلام للأمة ، وشكله شورى ، ورئيسه الإمام أو (الخليفة) منفذ لشرعه ، والأمة هى التى تملك نصبه وعزله ، فإن الله تعالى فى المؤمنين قال : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[1] وقال لرسوله ﷺ ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾[2] وكان ﷺ يشاور أصحابه فى المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه من كتاب الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾[3] .

وأولو الأمر أهل الحل والعقد والرأى الحصيف فى مصالحها الذين تثق بهم الأمة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من السورة نفسها ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** ﴾[4] .

---

(١) الآية ٣٨ من سورة الشورى

(٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران

(٣) الآية ٥٩ من سورة النساء

(٤) الآية ٨٣ من سورة النساء

فأولو الأمر الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وكان الأمر يرد إليه وإليهم فى الأمور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به من علاقة عامة ويعمل برأى الأكثر وإن خالف رأيه ، كاستشارتهم فى غزوة أحد ، وفى أسرى بدر ... وقد بينت فى تفسير الآية الأولى (٥ : ٥٨) ما تدل عليه من قواعد الحكم الإسلامى وكونه أفضل من الحكم النيابى الذى عليه دول هذا العصر . ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائى والسياسى هو حق الأمة المعبر عنها فى الحديث بالجماعة إن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين فى هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة فى سائر الأحكام العامة كقوله : ﴿ **براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله** ﴾[1] الآية . وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما فى معناها من سور الأنفال والبقرة وآل عمران ..

وقد صرح كبار النظار من علماء الأصول بأن السلطة فى الإسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم إذا اقتضت المصلحة عزلهم .

فهذه القاعدة الأساسية لدولة الإسلام أعظم إصلاح سياسى للبشر قررها القرآن فى عصر كانت فيه جميع الأمم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها فى أمور دينها ودنياها ، وكان أول منقذ لها رسول الله ﷺ فلم يكن يقطع أمراً من أمور السياسة والإدارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأى والمكانة فى الأمة ، ليكون قدوة لمن بعده .. وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الإسلام أدنى من حكم ملكة سبأ فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك فى أمم أخرى ، وامتاز الإسلام بجعله ديناً ثابتاً بقول الله وسنة رسوله العملية وسيرة الخلفاء الراشدين وإجماع الأمة ، وإن جهل ذلك من جهله من الفقهاء فجعلوها فضيلة مندوبة لا واجبة لإرضاء الملوك والأمراء .

ذلك بأن ملوك المسلمين زاغوا عن الصراط المستقيم إلا قليلاً منهم وشايعهم علماء الرسوم المنافقون وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الأساسية لحكومة دينهم وكان من حسن حظ الإفرنج فى حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذى نصره الله عليهم يقتفى فى حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز بقدر علمه ـــ وهو صلاح الدين الأيوبى ـــ رحمه الله ـــ الذى قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه « ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته فالحق يقضى

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة التوبة

لك أو عليك » ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذاً لحكم الشرع ــ كالشحنة وهو صاحب الشرطة ــ وأن القضاة مستقلون بالحكم ، لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوى بين الناس . وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ، ثم درسوا تاريخ الإسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين ، حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الأمة التى جاء بها الإسلام ، وصاروا يدعونها لأنفسهم ويعيبون الحكومات الإسلامية باستبدادها ، ثم يجعل الإسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصى وصار المسلمون الجاهلون المتأخرون بدينهم يصدقونهم ، ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم أنه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم ، فكان هذا من أسباب ضياع أعظم مزايا الإسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه ..

المقصد السابع من مقاصد القرآن

« الإرشاد إلى الإصلاح المالى »

بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه فى إصلاح البشر من طريق التدين والإيمان والعمل والإذعان ، ومن طريق العقل والبرهان ، والفكر والوجدان ، ومن طريق الحكم العادل والسلطان ، ومن طريق إكمال نوع الإنسان ما يتعلق منه بالأفراد وما يتعلق منه بوحدة الجماعات والأجناس ، وبقى ما يتعلق بفقهه فى إصلاح المفاسد الاجتماعية الكبرى التى يتوقف عليها كماله على ما تقدم كله وهى :

١ ــ طغيان الثروة ودولتها ٢ ــ عدوان الحرب وقسوتها ٣ ــ ظلم المرأة واستباحتها

٤ ــ ظلم الضعفة والأسرى وسلب حريتهما ، وهو الرق المطلق ــ ذلك بأن جميع حظوظ الدنيا منوطة بذلك ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل ، والعلم والحكمة والحكم ، وإننا نتكلم عليها بالإجمال ، مبتدئين بإشادة فى مسألة المال ، والآيات فيها تدور على سبعة أقطاب ، وهاك البيان .

القطب الأول

القاعدة العامة فى المال كونه فتنة واختبار فى الخير والشر

القاعدة الأساسية للقرآن فى المال أنه فتنة ، أى : اختبار وامتحان للبشر فى حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح ، إذ هو الوسيلة إلى الإصلاح والإفساد ، والخير والشر ، وهو مثار التنازع والتنافر فى كسبه وانفاقه ، وكنزه واحتقاره ، وجعله دُلة بين الأغنياء وتداوله فى المصالح والمنافع بين الناس .

وقد كان ومازال مثيرا للعداوات بين الأفراد والجماعات من الأقوام والدول ، وحلَّال المشكلات وشفاء المعضلات فيها ، حتى ذهب بعض علماء الاجتماع إلى جعله هو السبب لجميع الانقلابات السياسية والاجتماعية ، وكذا الدينية حتى الإسلامية ...

وقد قصر علماء الفقه والأدب والتربية من أمتنا فى إعطاء المال حقه من المباحث المختلفة المناحى والمقاصد التى دونت فى هذا العصر فى عدة علوم ، ولكن هذه العلوم ما زادت البشر إلا فساداً ولا يجدون علاجاً لهذا الفساد إلا فى القرآن .

قال الله تعالى : ﴿ **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم** ﴾[١] .

وقال تعالى حكاية عن نبيه سليمان حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده ﴿ **هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر** ﴾[٢] الآية .

وقال تعالى : ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا** ﴾[٣] الآية .

وقال تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾[٥] الآية
وقال تعالى : ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم** ﴾[٦] ومثلها فى سورة التغابن (٦٤ : ١٥) ويليها الترغيب فى الانفاق وقصر الفلاح على الوقاية من شح النفس .
وقال تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾[٧] انظر هذا مع قوله تعالى فى أول السورة وهى الكهف ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا** ﴾[٨] ، والمراد من العمل ما يتعلق بما على الأرض من العمران ، وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه له بشكره ، ثم ما ضربه فيها من المثل بصاحبى الجنتين ، والمثل للحياة الدنيا بنبات الأرض ..

وقال تعالى فى تقسيمه للفىء بين مستحقيه ﴿ **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾[٩] والدُولة بضم الدال ، المال المتداول أى لئلا يكون المال محصورا فى الأغنياء متداولا بينهم وحدهم (وهذا ما يسمونه اليوم بالرأسمالية) .

---

(١) الآية ١٨٦ من سورة آل عمران
(٢) الآية ٤٠ من سورة النمل
(٣) الآية ٣٧ من سورة سبأ
(٤) الآية ٣٩ من سورة الروم
(٥) الآية ١٤ من سورة آل عمران
(٦) الآية ٢٨ من سورة الأنفال
(٧) الآية ٤٦ من سورة الكهف
(٨) الآية ٧ من سورة الكهف
(٩) الآية ٧ من سورة الحشر

والشواهد فى فتنة المال فى القرآن كثيرة ...

فمن الآيات فى ارتباط السعادة والفلاح بإنفاق المال ، والشقاوة بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب فى قوله : ﴿ **وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾[1] الآية . أى أن منع انفاق المال فى سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال فى الترغيب ﴿ **وأحسنوا إنَّ الله يحب المحسنين** ﴾[2] وكذا قوله تعالى من سورة الليل ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى وما يغنى عنه ماله إذا تردى** ﴾[1] .

هذا كله تفصيل لقوله تعالى قبله ﴿ **إن سعيكم لشتى** ﴾ ومعناه بالإجمال والإيجاز أن سعيكم فى الكسب والانفاق مختلف مبدأ وصفة وغاية وثمرة ﴿ **فأما من أعطى** ﴾ ما عليه من الحقوق الشخصية والقومية والمصالح الواجبة والمندوبة ﴿ **واتقى** ﴾ سوء عاقبة منعها وضرره فى الأفراد فى الأمة ﴿ **وصدق بالحسنى** ﴾ وهى ما وعد الله من جزاء على الإحسان بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب وهو شامل لجزاء الدنيا والآخرة ﴿ **فسنيسره** ﴾ بمقتضى سنتنا فى تأثير صفات النفس فى الأعمال ، وتأثير الأعمال فى الأحوال الخاصة والعامة ﴿ **لليسرى** ﴾ أى : الطريقة الفضلى فى اليسر والسهولة والمنفعة له وللناس فيحبه الله ويحبه الناس . ﴿ **وأما من بخل** ﴾ بما عليه من هذه الحقوق ، ﴿ **واستغنى** ﴾ بما له عن حب الناس وحمدهم ، وعن حب الله ومثوبته ﴿ **وكذب بالحسنى** ﴾ التى بيناها آنفا بعدم طلبها وتحريها بالإعطاء والإنفاق وإن اعترف بها باللسان ﴿ **فسنيسره** ﴾ بمقتضى سنتنا المبينة آنفا ﴿ **للعسرى** ﴾ فيكون سببا لعسر البشر وعدوا لهم ولربهم ، ويكون له شر الجزاء منهم ومنه عز وجل فى الدارين .

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثانى من آيات المال وهى :

القطب الثانى

ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير

قال تعالى فى سورة العلق ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى إن إلى ربك الرجعى** ﴾[4] أى : حقاً إن الإنسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنيا بالمال مستغنيا بعينه وكنزه أو قصره

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة
(٢) الآية ١٩٥ من سورة البقرة
(٣) الآيات ٥ : ١١ من سورة الليل
(٤) الآيات ٦ : ٨ من سورة العلق

على شهواته عما فى إنفاقه من نفع الناس ومرضاة الله تعالى وثوابه فى الآخرة ، وقد نزلت هذه الآية وما بعدها فى أبى جهل أشد أعداء النبى ﷺ والإسلام من أول ظهوره وهى أول ما أنزل فى ذلك . ومثلها فى سورة المسد ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب** ﴾[(١)] الآيات .. ومثلها فى سورة الهمزة ﴿ **ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخلده** ﴾[(٢)] نزلت فى الوليد وأمية بن خلف وكذا قوله تعالى : ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا سأرهقه صعودا** ﴾[(٣)] الآيات . وقد نزلت فى الوليد بن المغيرة ... وكذا آيات سورة (ن ٦٨) من قوله : ﴿ **ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾[(٤)] .

وكان هؤلاء أغنى زعماء قريش الذين عادوا النبى ﷺ واستكبروا عن اتباعه بغناهم من أول عهده بتبليغ الدعوة ثم قال الله تعالى فيهم إذ كان يجمع المال منهم أبو سفيان لقتاله يوم بدر ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾[(٥)] .

ومن الآيات العامة فى غريزة البشر قوله تعالى : ﴿ **وأحضرت الأنفس الشح** ﴾[(٦)] وقوله من سورة المعارج ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا** ﴾[(٧)] الخير : المال الكثير وأكثر الأغنياء مناعون للمال إلا من استثنى الله بعد هذه الآيات بقوله تعالى : ﴿ **إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم** ﴾[(٨)] الآيات .

بمثل هذه الآيات ينفر الوعاظ الناس ويزهدونهم فى المال والدنيا فيبالغون وإنما المذموم الغرور والطغيان والبطر والاستكبار عن الحق افتتانا بالمال ، ولذلك قرنه فى بعض الآيات بالأولاد ، وكذا البخل به والشح وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت ، وشواهده فى آيات القطب الثالث وهى :

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة المسد
(٢) الآيات ١ : ٣ من سورة الهمزة
(٣) الآيات ١١ : ١٧ من سورة المدثر
(٤) الآيات ١٠ : ١٥ من سورة ن
(٥) الآية ٣٦ من سورة الأنفال
(٦) الآية ١٢٨ من سورة النساء
(٧) الآيات ١٩ : ٢١ من سورة المعارج
(٨) الآيات ٢٢ : ٢٤ من سورة المعارج

القطب الثالث
ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء فى انفاقه

قال تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾[١] وقال فى سياق الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله من طيبات الكسب والاخلاص فيه والنهى عن الرياء والمن والأذى فيه ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء** ﴾[٢] الآية وفسروا بالبخل أى الشيطان يصدكم عن الإنفاق فى سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذى فحش شره وحذره ، وقال بعد الأمر بالإحسان بالوالدين وبذى القربى واليتامى والمساكين والجيران ﴿ **إنَّ الله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾[٤] .

القطب الرابع
مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الإيمان والعمل الصالح

قال تعالى فى سورة نوح عليه السلام حكاية عنه ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** ﴾[٥] .

وفى معناه ما حكاه عن هود عليه السلام فى سورة هود (١١ : ٥٢) بل قال تعالى فى بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين فى آخر قصته من سورة طه ﴿ **قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ، فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾[٦] الآيات .

---

(١) الآية ١٨٠ من سورة آل عمران
(٢) الآية ٢٦٨ من سورة البقرة
(٣) الآيتان ٣٦ ، ٣٧ من سورة النساء
(٤) الآية ٣٨ من سورة محمد
(٥) الآيات ١٠ : ١٢ من سورة نوح
(٦) الآيتان ١٢٣ ، ١٢٤ من سورة طه

فجزاء اتباع هداية الدين الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها .

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التى غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفا على الأمر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام ﴿ **وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء** ﴾[1] أى : وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون فى موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالإسلام وفتوحاته وغنائمه . وكذا قوله تعالى للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر ﴿ **إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم** ﴾[2] وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء بالإسلام فجعلهم أغنى الأمم والأقوام ..

والمؤمنون والكافرون يشتركون فى أسباب سعة الرزق وكسب المال من زراعة وصناعة وتجارة ، لأن هذه الأسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الأديان كما قال تعالى ﴿ **كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا** ﴾[3] أى ما كان ممنوعا عمن يريد به لذات العاجلة ، ولا عمن يريد به سعادة الآخرة ، وإنما يفضل بعضهم بعضا فى استعمال المال ، فاستعماله فى الفسق والشر والظلم والسرف والخيلاء كفر للنعمة وسبب لمحق بركتها ، واستعماله فى البر والخير سبب للمزيد فيها . ومنه قوله تعالى فى الزينة والطيبات من الرزق ﴿ **قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾[4] أى : هى لهم فى الدنيا بالاستحقاق ، ويشاركهم فيها غيرهم بمقتضى الأسباب ، ولكنها تكون فى الآخرة خالصة لهم ، لأنهم يتوسلون بالشكر لله عليها إلى سعادتها الكاملة الدائمة ، ولولا ذلك لجعل زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال تعالى : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ، وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾[5] . أى ولولا كراهة أن يكون الناس كلهم كفارا بجعل نعيم الدنيا وزينتها للكافرين وحدهم لجعلنا لبيوتهم سقفا وأبوابا من فضة وسلالم من فضة يصعدون عليه إلى غرفات قصورهم ، وجعلنا لهم فيها سررا كذلك وزخرفا أى : ذهبا ، وما كل ذلك إلا متاع الدنيا وهو قليل زائل ، بالنسبة إلى نعيم الآخرة الدائم . ولكن الإنسان يفتتن بالحاضر المشاهد ، ولذلك جعل الله سعة الدنيا وزينتها بالأسباب الكسبية المشتركة ، وجعل المؤمنين أحق بها وأكثر انتفاعا لشكره تعالى عليها بالاعتدال والقصد فى أنفسهم ، والتوسعة على غيرهم .. ويؤيده ما فى القطب الخامس من إرشاد القرآن إلى حفظ المال والاقتصاد فيه .

---

(١) الآية ٢٨ من سورة التوبة

(٢) الآية ٧٠ من سورة الأنفال

(٣) الآية ٢٠ من سورة الإسراء

(٤) الآية ٣٢ من سورة الأعراف

(٥) الآيات ٣٣ : ٣٥ من سورة الزخرف

القطب الخامس
ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع بالإسراف والاقتصاد فيه

قال تعالى : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما** ﴾[١] قيام الشىء وقوامه (بالكسر والفتح) ما يستقيم به ويحفظ ويثبت أى جعل قوام معايشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم . ﴿ **وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم** ﴾[٢] الآية : الابتلاء التجربة والاختبار ، أمر باختبارهم وألا تدفع إليهم أموالهم إلا بعد ظهور الرشد فى أعمالهم ، وهو الصلاح والاستقامة فى معاملاتهم ، لئلا يضيعوا الأموال فيما يضر أو فيما لا ينفع .

وقال تعالى فى صفات المؤمنين ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** ﴾[٣] الإسراف التبذير ، والاقتار ، الإقلال والتضييق فى النفقة ، وقال تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله** ﴾[٤] وهذا نزل على النفقة فى المرأة المطلقة فى العدة ، وهو إرشاد عام والقاعدة فى الأصول أن العبرة بدلالة العموم ، لا يقيد بخصوص سبب النزول ، وقال فى النفقات العامة ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٥] و « من » للتبغيض فكل من الغنى ذى السعة والفقير ذى العسرة ، مأمور بأن ينفق مما آتاه الله لا كل ما آتاه الله ، وهذا أعظم أصول الاقتصاد . فمن أنفق بعض ما يكتسب قلما يفتقر .

وفى وصايا سورة الإسراء الحكيمة . ذكر آيات النهى عن التبذير والمبالغة فى بسط اليد والمبالغة فى قبضها ، وما لكل منهما من سوء العاقبة ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا** ﴾[٦] .

ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها لما سميت حكمة ، ألا ترى أنه عقب النهى عن التبذير ﴿ **إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين** ﴾[٧] لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم ، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها فى مواضعها بالاعتدال ، ولذلك قال عَقِبه ﴿ **وكان الشيطان لربه كفورا** ﴾[٨] ثم قال تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما**

---

(١) الآية ٥ من سورة النساء
(٢) الآية ٦ من سورة النساء
(٣) الآية ٦٧ من سورة الفرقان
(٤) الآية ٧ من سورة الطلاق
(٥) الآية ٣ من سورة البقرة
(٦) الآية ٢٦ من سورة الإسراء
(٧) الآية ٢٧ من سورة الإسراء
(٨) الآية ٢٧ من سورة الإسراء

محسورا ﴾[(١)] فعلل الإسراف فى الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ، ومحسوراً فى نفسه ، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى ، ويطلق على من انحسرت قوته ، وانكشف عن عجزه ، والمحسور المغموم أيضا ، وكل هذه المعانى تصح فى وصف المسرف فى النفقة ، ولو أن المسلمون تدبروا هذه الآيات الحكيمة فى الاقتصاد واهتدوا بها لاستغنوا بارشادها عن جميع الكتب والوصايا فى حفظ ثروتهم ، ولندر أن يوجد فيهم فقير .

القطب السادس
انفاق المال فى سبيل الله آية الايمان
والوسيلة لحياة الأمة وعزة الدولة وسعادة الانسان

هذا هو القطب التهذيبى الأعظم من أقطاب الآيات المنزلة فى المال وأكثرها فيه ، وما ذكر قبله فهو وسائل ، وما يذكر بعده فهو بيان للعمل به ، وأظهر الشواهد فيه أن الله تعالى جعله هو الفصل بين الإسلام الصحيح المقترن بالإذعان ، المبنى على أساس الإيمان وجعل دعوى الايمان بدون شهادته باطلة ، وإن كانت دعوى الإسلام تقبل مطلقا ، لأن أحكامه العملية تبنى على الظواهر .

والأصل فى هذه المسألة قوله تعالى ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا إن الله غفور رحيم . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾[(٢)] ، فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس فى تحقيق صحة الإيمان وصدق مدعيه ..

وتجد الذروة العليا من تفضيل حب الله ورسوله على المال وغيره من متاع الدنيا قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾[(٣)] .

---

(١) الآية ٢٩ من سورة الإسراء

(٢) الآيتان ١٤ ، ١٥ من سورة الحجرات

(٣) الآية ٢٤ من سورة التوبة

ومن الآيات فى تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيماً درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما** ﴾[١] ..

ومن الآيات البليغة فى الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه وبيان آدابه : عشرون آية من أواخر سورة البقرة هى من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ ـــ ٢٨١ .. ومن البلاء المبين أن نرى الشعوب الإسلامية فى هذه القرون الأخيرة قد قصرت عن جميع الشعوب القوية فى بذل المال للجهاد فى سبيل الله الذى يحفظ استقلالهم ، ويعتز به ملكهم ، وتعلو به كلمة الله تعالى فيهم ، ثم فى غيرهم ، وفى طرق البر التى ترتقى بها أمتهم وتكون حجة على سائر الأمم فى تفضيل دينهم على سائر الأديان وحاجة الأمم إليه لإنقاذ الحضارة من جشع عباد المال واستذلالهم للملايين من البشر به ، وما أفضى إليه من فوضى الشيوعية الدينية والأدبية المشار إليها فيما يلى :

المقصد السابع
فى الحقوق المفروضة والمندوبة فى المال والإصلاح المالى فى الإسلام

قد عقد لتفسير قوله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾[٢] فصلاً فى فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والإصلاح المالى للبشر وامتياز الإسلام بذلك على جميع الأديان . بينت فيه مكانة المال من حياة الناس ، وما له من التأثيرات فى الثروات والحروب والسياسة والعمران ، وغلو بعض الجماعات فى جمعه وادخاره وأنظمته واستغلاله ، واستعباد الألوف وألوف الألوف من البشر به ، ويدعون فى عرف هذا العصر بالرأسماليين ، وقيام جماعات أخرى بالدعوة إلى إبطال النظام الدولى العام فى المال ، ووضع نظام آخر لاشتراك جميع الناس فيه ويلقبون بالبلشفيين والشيوعيين وما بين هذين الفريقين من الجماعات من التعادى والخصام .

ثم بينت أن هذه الفتن وما تنذر العالم به من الخراب والدمار لا علاج لها إلا اتباع هداية الإسلام فى الإصلاح المالى ، ولخصت هذا الإصلاح فى أربعة عشر أصلاً هى :

(١) إقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل .

(٢) تحريم الربا والقمار .

---

(١) الآيتان ٩٥ ، ٩٦ من سورة النساء

(٢) الآية ١٠٣ من سورة التوبة

(٣) منع جعل المال دولة بين الأغنياء .
(٤) الحجر على السفهاء فى أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم .
(٥) فرض الزكاة فى أول الإسلام وجعلها اشتراكية مطلقة باعثها الوجدان لا إكراه الحكام ، وإنما تكون كذلك حيث لا حكومة ولا دولة للإسلام .
(٦) نسخها بعد وجود الدولة والحكومة بالزكاة المحدودة بربع العشر فى النقدين والتجارة فى كل عام ما دام النصاب تاماً ، وبالعشر ونصف العشر فى غلات الزراعة التى عليها مدار الأقوات أو مطلقاً . وزكاة الأنعام المعروفة ، وفاتنى هنالك ـــ أى فى تفسير المنار ـــ ذكر الخمس فى الركاز وهو ما ينبش من المال المكنوز القديم والمعدن .
(٧) فرض نفقة الزوجين والقرابة .
(٨) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين وضيافة الغرباء .
(٩) بذل المال فى كفارات بعض الذنوب .
(١٠) ندب صدقات التطوع للمحتاجين .
(١١) ذم الإسراف والتبذير والبخل والتقتير .
(١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرطهما لتوقف ترقى الصناعة والحضارة عليها .
(١٣) مدح القصد والاعتدال بل إيجابه .
(١٤) تفضيل الغنى الشاكر على الفقير الصابر ا هـ . باختصار ، وكنت قد شرحت قبله مصارف الزكاة فى تفسير آيتها ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾[1] .

ثم عقدت فصلاً آخر فى خلاصة السورة ، وهى سورة التوبة ، والمشتملة على هذه الآيات فى أحكام الأموال فى الإسلام يدخل فى ثلاثة أقسام :
(١) المسائل الدينية والاجتماعية فى الأموال .
(٢) أنواع الأموال ومصارفها .
(٣) فوائد إصلاح الإسلام المالى للبشر فالرجوع إلى هذه المباحث فى ذلك الجزء من التفسير يغنينا عن إعادتها هنا .

وخلاصة القول فى هذه القواعد العلمية فى إصلاح ثروة البشر وجعلها خيراً عامًا كما سماها الله تعالى فى كتابه ، واتقاء شرور التنازع عليها . بالوازع الدينى ، والتشريع الدولى ، إنها هى التى يصلح بها أمر البشر

(١) الآية ٦٠ من سورة التوبة

على اختلاف أحوالهم واستعدادهم ، فيكونون سعداء فى دنياهم وفى دينهم ، ولن تجد مثلها فى دين من الأديان ، ولا شىء من كتب القوانين والحكمة البشرية ، وإن البشر لعلى خطر عظيم مما سقطوا فيه من التعادى على المال حتى أعيتهم الحيل ، وسبيل النجاة ممهدة معبَّدة أمامهم وهم لا يبصرونها وهى الإسلام وهداية القرآن ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾[1].

المقصد الثامن من مقاصد القرآن

إصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر

أهم قواعد الحرب والسلام فى دين الإسلام ، وشواهد من القرآن

(القاعدة الأولى)

فى الحرب المفروضة على الأعيان

ورد الأمر بقتال المعتدين لكفّ عدوانهم ، ولما سيأتى من درء المفاسد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهى عن قتال الاعتداء والبغى والظلم ، والشاهد عليه قوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾[2]. وتعليل النهى عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقاً ..

•

وقد اُشتبه على الغافلين الأمر بما كان فى بعض الغزوات والسرايا من بدء المسلمين بها ذاهلين عن حالة الحرب بينهم وبين المشركين باعتداء المشركين الأول واستمراره ، فالدفاع لا يشترط أن يكون فى كل معركة وكل حركة .

وهذا الذى كان فى آخر أحكام القتال معهم يؤيد ما نزل فى أول الإذن للمسلمين بالقتال وهو قوله تعالى فى سورة الحج ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾[3].

ولما نقضوا العهد الذى عقده النبى ﷺ معهم فى الحديبية فى أواخر سنة ست للهجرة وعزم على

---

(١) الآية ٢٥١ من سورة البقرة

(٢) الآية ١٩٠ من سورة البقرة

(٣) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج

فتح مكة سنة ثمان نزلت سورة الممتحنة (٦٠) فى النهى عن ولاية المشركين ، وفيها التصريح بأن النهى خاص بالذين قاتلوا المؤمنين وأخرجوهم من وطنهم لأجل دينهم ، فهو نهى عن موالاتهم ومودتهم دون البر والعدل إلى كل مشرك . فتأمل الآيات ٧ ، ٨ ، ٩ منها .

(القاعدة الثانية)

فى الغرض من الحرب ونتيجتها .

هى أن تكون الغاية الإيجابية من القتال ــ بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن ــ حماية الأديان كلها من الاضطهاد فيها أو الإكراه عليها ، وعبادة المسلمين لله وحده وإعلاءهم كلمته ، وتأمين دعوته ، وتنفيذ شريعته ، وهى فى مصلحة البشر كلهم ، وإسداء الخير إليهم ، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم . والشاهد الأول قوله تعالى بعد ذلك الإذن لهم بالقتال الذى تلوناه آنفا ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز * الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[1] ذكر ــ تعالى ــ إذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (**أولها**) كونهم مظلومين معتدى عليهم فى أنفسهم ، ومخرجين نفيا من أوطانهم وأموالهم لأجل دينهم وإيمانهم وهذا سبب خاص بهم .

وقد جعلنا هذه الغاية للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الأنفال معبرين عنها « بحرية الدين ومنع فتون أحد واضطهاده لإرجاعه عن دينه » واستدللنا عليها بقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾[2] .

وقد كان المشركون يضطهدون المسلمين بكل ما قدروا عليه من الإيذاء والتعذيب لأجل ردهم عن دينهم ، وأما المسلمون فلم يفعلوا ذلك فى الصدر الأول ومن عساه شذ عن ذلك قليلا بعده فقد خالف حكم الإسلام الذى حرم الفتنة والاضطهاد والإكراه فى الدين وشرع فيه الاختيار بل جعله شرطا لصحته .

(**ثانيها**) إنه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التى يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الأنبياء وكصوامع العباد وبيع النصارى ومساجد المسلمين ــ بظلم عباد الأصنام ، ومنكرى البعث والجزاء وهذا سبب دينى عام صريح فى حرية الأديان فى الإسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها وكذلك كان .

---

(١) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج

(٢) الآية ٣٩ من سورة الأنفال

(**ثالثها**) أن يكون غرضهم من التمكن فى الأرض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للأنفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى ، والمربية للأنفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته ــ وإيتاء الزكاة المصلحة للأمور الاجتماعية والاقتصادية والأمر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع الناس ــ والنهى عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس .

(**القاعدة الثالثة**)

إيثار السلم على الحرب

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها إذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد ، وأن السلم هى الأصل التى يجب أن يكون عليها الناس ، فلهذا أمرنا الله بإيثارها على الحرب إذا جنح العدو لها ، ورضى بها ، والشاهد عليه قوله تعالى ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾[1] .

(**القاعدة الرابعة**)

الاستعداد التام للحرب لأجل الإرهاب المانع منها

إن الذى يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الأمة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ... وذلك قوله عز وجل ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** ﴾[2] .

(**القاعدة الخامسة**)

الرحمة فى الحرب

إذا كان الغلب والرجحان فى القتال للمسلمين المعبر عنه بالإثخان فى الأعداء ، وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم ، فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل ويكتفوا بالأسر ، ثم يخيرهم فى الأسارى إما بالمن عليهم بإطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم وذلك نص قوله تعالى فى سورة محمد ﷺ ﴿ **فإذا**

---

(١) الآية ٦١ من سورة الأنفال

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال

لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾[١] الآية .

(القاعدة السادسة)

وجوب الوفاء بالعهود فى الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سرّاً أو جهراً ، كتحريم الخيانة فى كل أمانة مادية أو معنوية منها قوله تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها** ﴾[٢] الآية . جمع بين الأمر بالإيفاء بها والنهى عن نقضها ثم أكد ذلك بالمثل البليغ فى قوله : ﴿ **ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة** ﴾[٣] والمعنى أن تكونوا فى نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التى تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث « وهو جمع نِكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى » حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم والدخل (بالتحريك) الفساد والغش الخفى الذى يدخل فى الشىء وما هو منه ، لأجل أن تكون أمةٌ أربى وأزيد رجالاً ، وأكثر ربحاً ومالاً ، وأقوى أسنة ونصالاً ، من أمة أخرى .

والمراد أن معاهدات الصلح والاتفاق بين الأمم يجب أن يقصد بها الإصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الإخلاص دون الدخل الذى يقصد به أن تكون أمة هى أربى نفعاً وأكثر عدداً وجمعاً من الأمة الأخرى وهو ما عليه الدول فى جميع معاهداتها ...

(القاعدة السابعة)

الجزية وكونها غاية للقتال لا علة

قلت فى تفسير قوله تعالى فى قتال أهل الكتاب من آية الجزية ﴿ **حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾[٤] ما نصه : هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهى بها إذا كان الغلب لنا ، أى : قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال ، كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم وحرية دعوتكم ، كما فعل الروم فكان سببا لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية فى الحالتين اللتين قيدت بهما . فالقيد الأول لهم وهو أن تكون صادرة عن يد أى : قدرة

---

(١) الآية ٤ من سورة محمد
(٢) الآية ٩١ من سورة النحل
(٣) الآية ٩٢ من سورة النحل
(٤) الآية ٢٩ من سورة التوبة

وسعة فلا يظلمون ولا يرهقون ، والثانى لكم وهو الصغار والمراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم ، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم التى يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم ..

حكمة الجزية وسببها وما تسقط بها

هذا وإن الجزية فى الإسلام لم تكن كالضرائب التى يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلا عن المغارم التى يرهقونهم بها ، وإنما هى جزاء قليل على ما تلتزمه الحكومة الإسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذى يمنعهم ، أى : يحميهم ممن يعتدى عليهم .

والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها فى تفسير الآية بعد ما تقدم آنفا .

« منها » ما كتبه خالد بن الوليد ـــ رضى الله عنه ـــ لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وهو « هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا ، وكُتب سنة اثنى عشرة فى صفر » ا هـ . وهو صريح فى أن الجزية جزاء على المنعة والحماية تدوم بدوامها وتمتنع بزوالها .

ويؤيده بالعمل ما ذكره البلاذرى فى فتوح البلدان والأزدى فى فتوح الشام ، من رد الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا إلى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبى عبيدة رضى الله عنه ، وقد صرحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة ، فعجب أهل حمص نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم إليهم ودعوا لهم بالنصر على الروم .

فظهر بما ذكرنا أن الإسلام حرم حرب الاعتداء والظلم ، وقصر حرب الدفاع على دفع المفاسد وتقرير المصالح العامة للبشر فجعلها ضرورة تقدر بقدرها ، وأن السلام الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الإسلام ، ووضع قوانين الحرب على قواعده .

المقصد التاسع من مقاصد القرآن
إعطاء النساء جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية

١ ـــ كان بعض البشر من الإفرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الأعجم أو من الشياطين لا من نوع الإنسان وبعضهم يشك فى ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم أمثال قوله تعالى : ﴿ **يأيها الناس إنا خلقناكم**

من ذكر وأنثى ﴾[١] الآية : وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء** ﴾[٢] .

٢ ـــ كان بعض البشر فى أوربا وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسميا فجاء الإسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بلقب المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات والآيات معروفة ..

٣ ـــ كان بعض البشر يزعمون أن المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين فى جنة النعيم فى الآخرة ـــ وهذا الزعم أصل لعدم تدينها ـــ فنزل القرآن يقول : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** ﴾[٣] ويقول : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لاأضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾[٤] الآية .

٤ ـــ كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال فى المعابد الدينية ، والمحافل الأدبية ، ولا فى غيرهما من الأمور الاجتماعية والسياسية والإرشادات الإصلاحية ، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[٥] ..

٥ ـــ كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره ، وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الإسلام هذا الظلم ، وأثبتت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن فى دائرة الشرع ، قال الله تعالى : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً** ﴾[٦] .

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الأمريكية لم تمنح النساء حق التمليك والتصرف إلا من عهد قريب فى عصرنا هذا ، وأن المرأة الفرنسية لاتزال مقيدة بإرادة زوجها فى التصرفات المالية والعقود القضائية ، وقد مُنحت المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن .

---

(١) الآية ١٣ من سورة الحجرات
(٢) الآية ١ من سورة النساء
(٣) الآيتان : ١٢٣ ، ١٢٤ .
(٤) الآية ١٩٥ آل عمران .
(٥) الآية ٧١ من سورة التوبة
(٦) الآية ٧ من سورة النساء

٦ ـــ كان الزواج فى قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الإسلام عقدا دينيا مدنيا لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسى بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والألفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الإنسانية وانتشارها من الوالدين إلى الأولاد ، على ما أرشد إليه قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[1]

٧ ـــ القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل ، لأنه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل فى الزوجات ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة** ﴾[2] وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾[3] فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والأولاد ، لا تكلف الزوجة منه شيئا ولو كانت أغنى منه ، وزادها المهر ، فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلاً مفروضا عليه بمقتضى العقد حتى إذا لم يذكر فيه لزمه مهر مثلها فى الهيئة الاجتماعية ، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضى على حين نرى بقية الأمم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل .

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره أو يعضلونها بالمنع منه مطلقا وإن كان زوجها وطلقها . فحرم الإسلام ذلك ، والنصوص فى هذا معروفة فى كلام الله وكلام رسوله وسنته .

٨ ـــ كان الرجال من العرب وبنى إسرائيل وغيرهم من الأمم يتخذون من الأزواج ما شاءوا غير مقيدين بعدد ، ولا مشترط عليهم فيه العدل ، فقيدهم الإسلام بأن لا يزيدوا على أربع ، وأن من خاف على نفسه ألا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة . وإنما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والإحصان ، لأنها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع فى أحوال .

٩ ـــ الطلاق قد يكون ضرورة من ضرورات الحياة الزوجية إذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الإحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف وكان مشروعا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الإسلام فيه بالإصلاح الذى لم يسبقه إليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون وكان الإفرنج يحرمونه ويعيبون الإسلام به ، ثم اضطروا إلى إباحته ، فأسرفوا فيه إسرافا منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الأسرة والعشيرة ومما نقلته الصحف

---

(١) الآية ٢١ من سورة الروم
(٢) الآية ٢٢٨ من سورة البقرة
(٣) الآية ٣٤ من سورة النساء

من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل فى إرساله أو قصه أو حلقه ، وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعته للكتب أو الصحف فى الدار ، وشكواها من نتن رائحته لعدم استحمامه ، وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمسرة (التليفون) ومثله كثير .

جعل الإسلام عقدة النكاح بين الرجال ويتبعه حق الطلاق ، لأنهم أحرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات فى عقدها وحلها وكونهم أثبت من النساء جأشاً وأشد صبراً على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى فوق هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسائهم فقال : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيرا** ﴾[1] وأعطت الشريعة المرأة حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضى إذا وجد سببه من العيوب الخلقية أو المرضية كالرجل ، وكذا إذا عجز الزوج عن النفقة ، وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التى لا يحل لها فيها الزواج ، وذم النبى ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه — إلى غير ذلك من الأحكام التى بيناها فى تفسير الآيات المنزلة فيها وفى كتابنا الجديد فى حقوق النساء فى الإسلام .

١٠ — بالغ الإسلام فى الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى ، وأكد النبى ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب ثم بالغ فى الوصية بتربية البنات وكفالة الأخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الأرحام ، بل جعل لكل امرأة قيما شرعيا يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولى من أقاربها وجب على أولى الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها .

وجملة القول أنه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون فى أمة من الأمم أعطى النساء ما أعطاهن الإسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحى الله العليم الحكيم الرحيم ، إلى محمد النبى الأمى المبعوث فى الأميين ؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين والحمد لله رب العالمين .

المقصد العاشر من مقاصد القرآن الكريم
(تحرير الرقبة)

إن استرقاق الأقوياء للضعفاء قديم فى شعوب البشر ، بل هو معهود فى الحشرات التى تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضا كالنمل ، فإذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فإنها تأسر ما سلم من القتال وتستعبده فى خدمة الظافر من البناء وجمع المئونة وخزنها فى مخازنها وغير ذلك .

---

(١) الآية ١٩ من سورة النساء

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه فى أشق الأعمال ، وتعاملة بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرق مشروعاً عند الإفرنج إلى آن حررت الولايات المتحدة الأمريكية رقيقها فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى ، وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله فى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر العامة ، فإن لهم فيها مصالح خاصة ، ولا جنوحاً للمساواة بينهم ، فإن الأولى لا تزال تفضل الجنس الأبيض الأوربى المتغلب على الجنس الأحمر الوطنى الأصل .. ، كما أن انكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ، ولكن النهضة الهندية فى هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ... فلما ظهر الإسلام ، وأشرق نوره الماحى لكل ظلام ، كان مما أصلحه من فساد الأمم إبطال ظلمهم الرقيق وإرهاقه ، ووضع الأحكام الممهدة لزوال الرق بالتدريج الممكن بغير ضرر ولا ضرار ، ولا بغى ولا استكبار ، إذ كان إبطاله دفعة واحدة متعذرا فى نظام الاجتماع البشرى من الناحيتين : ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الأرقاء المستعبدين .

فإن الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب فى الأرض يلتمس وسيلة للرزق فلا يجد مايحسنه أو يقدر عليه فيرجع إلى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان . فهذا برهان حى شاهد على أن إبطال الرق ــ الذى كان عامّاً فى البشر ــ بتشريع دين يتعبد الله تعالى به من أول يوم لم يكن من الحكمة ولا من مصلحة البشر الممكن تنفيذها ، والإسلام تشريع عملى لا هوادة فيه فما شرعه فى الرقيق كان أعلى مراتب الحكمة ، الجامع بين المصلحة العامة والرحمة . وقد شرع الله تعالى لإبطال الرق بطريقتين :

١ ــ تحديد تجديد الاسترقاق فى المستقبل أو تقييده .

٢ ــ وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذى لا ضرر ولا ضرار فيه ..

أضف إلى ما تقدم كله وصايا الله ورسوله بالمماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك فى العقوبات نصف حد الحر ، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والأقربين ، ونهى النبى ﷺ عن قول السيد « عبدى وأمتى » وأمره أن يقول « فناى وفتاتى وغلامى » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون ، ويعينوهم على خدمتهم إن كلفوهم ما يغلبهم كما فى حديث أبى ذر فى الصحيحين وغيرهما قال ﷺ : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[1] ..

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى سننه عن أبى ذر (الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ صـ ٢٨) وفى صحيح البخارى ــ كتاب الإيمان ــ جـ ١ صـ ١٥ ط الشعب .

ولهذا كان المسلمون فى الصدر الأول يبالغون فى تكريم الرقيق ومعاملتهم حتى صاروا يقصرون فى الخدمة ونعمر الحق إن العبد المملوك فى حكم الإسلام الأول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الأحرار الذين ابتلوا فى هذه العصور بحكم دول الإفرنج من غيرهم أو نفوذهم .

خلاصة البحث

فى تحرير الدلالة على إثبات الوحى ، وحجة الله به على جميع الخلق

راجع ما تقدم من الكلام على الوحى والنبوة وآيات الأنبياء عندنا وعند النصارى ومن الكلام فى تفنيد شبهة الوحى النفسى ، والكلام فى إعجاز القرآن اللغوى والعلمى ، وما أحدثه من الثورة العالمية والانقلاب الإنسانى من كل وجه ، ثم أضف إليها تلك العشرة الأنواع من مقاصد القرآن .. مع العلم القطعى من تاريخ محمد ﷺ أنه كان أميا يؤثر بطبعه عيشة العزلة ، فلم يتفق له الاطلاع على كتب الأنبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين ، وأنه لم يعرف عنه أنه كان يبحث فى شىء من العلوم ، ولا أنه نطق بشىء من مسائلهم ، ولا أنه عرف بالبلاغة والفصاحة ، أو عنى بالشعر أو الرجز أو الخطابة ، والعلم القطعى بأنه إنما جاء بها فى هذا القرآن بعد استكمال سن الأربعين وهى سن لم يعرف فى استعداد نفس البشر ومدركات عقولهم ولا فى تاريخهم أن صاحبها يأتنف مثلها ائتنافا لم يسبق له البدء بشىء منه فى أنف عمره ، وآنفة شبابه وشرخه .

راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطرا إلى الجزم بأن هذا فى جملته وتفصيله فوق استعداد بشر أمى أو متعلم ، وأنه لا يعقل إلا أن يكون وحيا من الله تعالى اختصه به ..

« رضيت بالله ربًا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً »

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأنه خاتم النبيين ، ورحمته العامة للعالمين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين » . ا هـ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الزخرف

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعا . عدد آياتها تسع وثمانون .

وكلماتها : ثمانمائة وثلاث وثلاثون .

وحروفها : ثلاثة آلاف وأربعمائة .

مقصود السورة

بيان إثبات القرآن فى اللوح المحفوظ ، وإثبات الحجة والبرهان على وجود الصانع ، والرد على عباد الأصنام الذين قالوا : الملائكة بنات الله ، والمنة على الخليل ﷺ بإبقاء كلمة التوحيد فى عقبه ، وبيان قسمة الأرزاق ، والإخبار عن حسرة الكفار وندامتهم يوم القيامة ، ومناظرة فرعون وموسى ، ومجادلة المؤمنين مع ابن الزِّبَعْرى بحديث عيسى ، وبيان شرف الموحدين فى القيامة ، وعجز الكفار فى جهنم ، وإثبات إلٰهية الحق فى السماء والأرض ، وأمر الرسول بالإعراض عن مكافأة الكفار فى قوله : ﴿ **فاصفح عنهم وقل سلام** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** ﴾ وفى الجاثية : ﴿ **إن هم إلا يظنون** ﴾[1] لأنه فى هذه السورة متصل بقوله ﴿ **وجعلوا الملائكة** ﴾ الآية . والمعنى : أنهم قالوا : الملائكة بنات الله ، وإن الله قد شاء منا عبادتنا إياهم ، وهذا جهل منهم وكذب . فقال ــ سبحانه ــ : ﴿ **مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** ﴾ أى : يكذبون . وفى الجاثية خلطوا الصدق بالكذب فإن قولهم : ﴿ **نموت ونحيا** ﴾[1] صدق ، فإن المعنى ، يموت السلف ويحيا الخلف ، وهو كذلك إلى أن تقوم الساعة ، وكذبوا فى إنكارهم البعث ، وقولهم : ﴿ **ما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ ولهذا قال : ﴿ **إن هم إلا يظنون** ﴾ أى : هم شاكون فيما يقولون .

(١) من الآية : ٢٤ من سورة الجاثية

قوله تعالى : ﴿ **وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ وبعده : (مقتدون) خص الأول بالاهتداء ، لأنه كلام العرب فى محاجتهم رسول الله ﷺ وادعائهم أن آباءهم كانوا مهتدين ، فنحن مهتدون ولهذا قال عقيبه : ﴿ **قل أو لو جئتكم بأهدى** ﴾ . والثانى حكاية عمَّن كان قبلهم من الكفار . وأدعوا الاقتداء بالآباء دون الاهتداء فاقتضت كل آية ما ختمت به .

قوله : ﴿ **وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ وفى الشعراء : ﴿ **إنا إلى ربنا منقلبون** ﴾[1] لأن ما فى هذه السورة عام لمن ركب سفينة أو دابة وقيل معناه : ﴿ **إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ على مركب آخر ، وهو الجنازة ، فحسن إدخال اللام على الخبر للعموم . وما فى الشعراء كلام السحرة حين آمنوا ولم يكن فيه عموم .

ووجه مناسبتها لما قبلها أن مفتتح هذه السورة يشاكل مختتم تلك السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَالْكِتَٰبِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ
الْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ
أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم
بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ
الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾
وَالَّذِى نَزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِى خَلَقَ
الْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟
نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ
رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ الْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا

(١) من الآية : ٥٠ من سورة الشعراء

يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ
مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَٰٓئِكَةَ
الَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ الرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَآءَ
الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ
فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا إِنَّا
بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

معانى المفردات

﴿ **الكتاب** ﴾ : هو القرآن . ﴿ **المبين** ﴾ : أى الموضح لطريق الهدى ، المبعد من الضلالات . ﴿ **لعلكم تعقلون** ﴾ : أى لكى تفهموه وتحيطوا بما فيه . ﴿ **أم الكتاب** ﴾ : هو علم الله الأزلى . ﴿ **حكيم** ﴾ أى : ذو حكمة بالغة . ﴿ **أفنضرب عنكم** ﴾ يقال : ضربت عنه ، وأضربت عنه ، أى : تركته . ﴿ **الذكر** ﴾ أى : القرآن . ﴿ **صفحا** ﴾ أى : إعراضا . ﴿ **مسرفين** ﴾ أى : منهمكين فى كفركم وتوليكم عن الحق . ﴿ **بطشاً** ﴾ أى : قوة وجلداً ﴿ **مضى** ﴾ أى : سلف . و ﴿ **المثل** ﴾ : الصفة ، ﴿ **مهداً** ﴾ أى : فراشاً ، وأصله : موضع فراش الصبى . ﴿ **سبلاً** ﴾ واحدها سبيل ، وهى الطريق ﴿ **بقدر** ﴾ أى : بمقدار تقتضيه الحكمة والمصلحة . ﴿ **فأنشرنا** ﴾ أى : أحيينا . ﴿ **ميتاً** ﴾ أى : خالية من النبات . ﴿ **الأزواج** ﴾ : أصناف المخلوقات . ﴿ **لتستووا على ظهوره** ﴾ أى : لتستقروا عليها . ﴿ **سخر** ﴾ : ذلّل . ﴿ **مقرنين** ﴾ أى : مطيقين . ﴿ **جزءاً** ﴾ أى : ولداً ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله ، وعبر عن الولد بالجزء ، لأنه بضعة ممن ولد منه . ﴿ **مبين** ﴾ أى : ظاهر الكفر . ﴿ **أصفاكم** ﴾ أى : اختار لكم ﴿ **ضرب** ﴾ أى : جعل . ﴿ **مثلا** ﴾ أى : شبها ، أى : متشابها بنسبة البنات إليه ، لأن الولد يشبه الوالد . ﴿ **كظيم** ﴾ أى : ممتلىء غيظاً وغمّاً . ﴿ **ينشأ** ﴾ أى : يربى . ﴿ **فى الحلية** ﴾ أى : فى الزينة . ﴿ **الخصام** ﴾ أى : الجدل . ﴿ **غير مبين** ﴾ أى : غير مظهر حجته لعجزه عن الجدل . ﴿ **يخرصون** ﴾

أى : يكذبون. ﴿ **مستمسكون** ﴾ أى : متمسكون ومعولون . ﴿ **على أمة** ﴾ أى : على طريقة خاصة .
﴿ **مترفوها** ﴾ أى : أهل الترف والنعمة فيها الذين أبطرتهم الشهوات ، فلا ينظرون إلى ما يوصلهم إلى الحق ..
﴿ **مقتدون** ﴾ أى : سالكون طريقهم .

المناسبة وإجمال المعنى

أقسم ــ سبحانه ــ بكتابه المبين لطريق الهدى إنه جعل هذا القرآن بلغة العرب ، لغة قومك ليفقهوا معناه ،ويحيطوا به خبرا ، وإنه محفوظ فى علمه ــ تعالى ــ فليس هو من عند محمد كما تدعون ، وإننا لن نترك تذكيركم به لأجل إعراضكم عنه ، وإنهماككم فى الكفر به ، رحمة منا ولطفا بكم ، ثم حذرهم وأنذرهم بأن كثيرا من الأمم قبلهم ممن كانوا أشد منهم قوة كذبوا رسلهم فكان عاقبتهم ما رأيتم وحل بهم ما تشاهدون آثاره ، وبعد أن ذكر ــ سبحانه ــ ذلك أبان أن أفعالهم تخالف أقوالهم ، فإن سألتهم عن الخالق لهذا الكون من سمائه وأرضه ليقولن : الله ، وهم مع اعترافهم به يعبدون الأوثان والأصنام ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ جليل أوصافه ، فأرشد إلى أنه هو الذى جعل الأرض فراشا ، وجعل فيها طرقا ، لتهتدوا بها فى سيركم ، ونزل من السماء ماء بقدر الحاجة يكفى زرع النبات وسقى الحيوان ، وخلق أصناف المخلوقات جميعا من حيوان ونبات ، وسخر لكم السفن والدواب لتركبوها ، وتشكروا الله على ما آتاكم ، وتقولوا : لولا لطف الله بنا ماكنا لذلك بمطيقين ، وإنا يوم القيامة إلى ربنا راجعون ، فيجازى كل نفس بما كسبت ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ أكاذيبهم ، إذ جعلوا الملائكة بنات له ، ولا غرو ، فالإنسان من طبعه الكفران وجحود الحق ، ومن عجيب أمرهم أنهم أعطوه أخسَّ صنفى الأولاد عندهم ، وما لو بشر أحدهم به اسود وجهاً وامتلأ غيظا ، ومن يتربى فى الزينة وهو لا يكاد يبين حين الجدل ، واختاروا لأنفسهم الذكران ، ثم أعقبه بالنعى عليهم فى جعلهم الملائكة إناثا ، وزاد فى الإنكار عليهم ببيان أن مثل هذا الحكم لا يكون إلا عن مشاهدة ، فهل هم شهدوا ذلك ؟ ثم توعدهم على هذه المقالة ، وإنه يوم القيامة يجازيهم بها . ثم حكى عنهم شُبَهًا أخرى ، قالوا : لو شاء الله ألا نعبد الملائكة ما عبدناها ، لكنه شاء عبادتها لأنها هى المتحققة فعلا فتكون حسنة ، ويمتنع النهى عنها ، ثم رد مقالهم بأنهم كاذبون ، لأنه ــ سبحانه ــ لا يرضى لعبادة الكفر ، وبعد أن أبطل استدلالهم العقلى نفى أن يكون لهم دليل نقلى على صحة ما يدعون ، ثم أبان أن ما فعلوه إنماهو بمحض التقليد عن الآباء دون حجة ولا برهان وهم ككثير من الأمم قبلهم قالوا مثل مقالهم ، فكان عاقبة أمرهم أن حل بهم العذاب كما يشاهدون ويرون من آثارهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ حمٓ . والكتاب المبين ﴾ أى : البين والواضح والجلى المعانى والألفاظ لأنه نزل بلغة العرب التى هى أنصح اللغات للتخاطب بين الناس ، ولهذا قال ــ تعالى ــ : ﴿ إنا جعلناه ﴾ أى : أنزلناه ﴿ قرآنا عربيا ﴾ أى : بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى : تفهمونه وتتدبرونه ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين ﴾[1] .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ يعنى القرآن فى اللوح المحفوظ ﴿ لدينا ﴾ عندنا ﴿ لعلى حكيم ﴾ أى : رفيع محكم لا يوجد فيه اختلاف ولا تناقض ، كقوله ــ تعالى ــ ﴿ إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون ﴾[2] وكقوله ــ سبحانه ــ ﴿ بل هو قرآن مجيد . فى لوح محفوظ ﴾[3] فبين ــ سبحانه ــ شرف القرآن فى الملأ الأعلى . ليشرفه ويعظمه أهل الأرض .

قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ معنى ﴿ صفحا ﴾ : إعراضا ، وقد ضربت عنه صفحا : إذا أُعرضت عنه وتركته . وللمفسرين فى معنى هذه الآية أقاويل ، قال ابن عباس : المعنى : أفحسبتم أن نصفح عنكم العذاب ولما تفعلوا ما أمرتم به ؟ وعنه أيضا أن المعنى : أتكذبون بالقرآن ولا نعاقبكم ؟ . وقال السدى : المعنى : أفنترككم سدى فلا نأمركم ولا ننهاكم ؟ وقال قتادة : والله لو كان هذاالقرآن رُفع حين ردّدته أوائل هذه الأمة لهلكوا ، ولكن الله ردّده وكرره عليهم برحمته .

قال العلامة ابن كثير : وقول قتادة لطيف المعنى جدّاً ، وحاصله : أنه يقول فى معناه إنه ــ تعالى ــ من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير ليهتدى من قدر هدايته ، وتقوم الحجة على من كتب عليه شقاوته .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وكم أرسلنا من نبى فى الأولين . وما يأتيهم من نبى إلا كانوا به يستهزئون . فأهلكنا أشد منهم بطشا ومضى مثل الأولين ﴾ . أى : وكثيرا ما أرسلنا فى الأمم الغابرة رسلا قبلك كما أرسلناك إلى قومك من قريش ، وكلما أتى نبى أمته يدعوهم إلى الهدى استهزأوا به وسخروا منه ، فأهلكنا المكذبين بالرسل و لم يقدروا على رفع بأسنا إذ أتاهم ، ومضت سنتنا فى المكذبين لرسلهم من قبلكم ، ورأيتم ما حل

---

(١) الآيات : ١٩٢ ــ ١٩٥ من سورة الشعراء

(٢) الآيتان : ٧٧ ، ٧٨ من سورة الواقعة .

(٣) الآيتان : ٢١ ، ٢٢ من سورة البروج .

بهم ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم . ونحو الآيات قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون * قل سيروا فى الأرض ثمَّ انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[١] وكقوله ـــ جلت عظمته ـــ : ﴿ **سنة الله التى قد خلت فى عباده** ﴾[٢] .

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون * والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون * والذى خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ .

يقول ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ يعنى المشركين ﴿ **من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ العزيز فى سلطانه ، العليم بهن وما فيهن ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء . فأقروا له بالخلق والإيجاد ثم عبدوا معه غيره جهلا منهم ، كما حكى الله عنهم بقوله ـــ تعالى ـــ ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فى ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدى من هو كاذب كفار** ﴾[٣] .

ثم دل على نفسه ـــ سبحانه ـــ بذكر مصنوعاته وآلائه قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ **والذى جعل لكم الأرض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون** ﴾ أى : والعزيز العليم هو الذى مهد لكم الأرض وجعلها لكم وطئة تطئونها بأقدامكم ، وتمشون عليها بأرجلكم ، وجعل لكم فيها طرقاً تنتقلون من بلد إلى آخر ، لمعاشكم ومتاجركم وابتغاء رزقكم .

﴿ **والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً كذلك تخرجون** ﴾ أى : وهو الذى ينزل من السماء ماء بقدر الحاجة فلا يجعله كثيرا ، حتى لا يكون عذابا كالطوفان الذى أنزل على قوم نوح ، ولا قليلا لا يكفى النبات والزرع ، لئلا تهلكوا جوعا ، فتحيا به الأقاليم التى كانت خالية من النبات والشجر ، وكما أحيينا الأرض بعد موتها بالماء نحييكم ونخرجكم من قبوركم أحياء ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة**

---

(١) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة الأنعام .
(٢) من الآية : ٨٥ من سورة غافر .
(٣) من الآية : ٣ من سورة الزمر .

فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾[١] .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **والذى خلق الأزواج كلها** ﴾ أى : وهو الذى خلق سائر الأصناف مما تنبت الأرض من نبات وأشجار وأزاهير ، ومن الحيوان ، على اختلاف الأزواج كلها ﴿ **مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾[٢] .

وكقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾[٣] أى : لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ، حىّ قيوم قائم بنفسه ــ سبحانه وتعالى ــ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

قوله ــ تعالى ــ ﴿ **وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون** ﴾أى : وهو الذى جعل لكم من السفن ما تركبون فى البحار إلى حيث تقصدون لمعايشكم ومتاجركم ، ومن الأنعام ما تركبونه فى البر كالخيل والبغال والحمير ، ومما سيجد من وسائل المواصلات وطرق النُّقلة برّا وبحراً ، كما جاء فى سورة النحل من قوله ــ تعالى ــ ﴿ **والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون** ﴾[٤] .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ .

أى : لكى تستووا على ظهور ما تركبون من الفلك والأنعام ثم تذكروا نعمة ربكم الذى أنعم به عليكم ، فتعظمونه وتمجدونه ، وتقولوا ــ تنزيها له عما يصفه المشركون ــ : سبحان الذى سخر لنا هذا الذى ركبناه ، وما كنا ــ لولا تسخيره وتذليله ــ بمطيقين ذلك ، فالأنعام مع قوتها ذللها للإنسان ينتفع بها حيث شاء وكيفما أراد ، ولولا ذلك ما استطاع الانتفاع بها .

واعلم أنه ــ سبحانه ــ عيّن ذكراً خاصا حين ركوب السفينة ، وهو قوله : ﴿ **بسم الله مجريها ومرساها** ﴾[٥] وذكراً آخر حين ركوب الأنعام وهو قوله : ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ وذكراً ثالثا حين دخول المنازل وهو قوله : ﴿ **رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين** ﴾[٦] .

---

(١) الآية : ٣٩ من سورة فصلت

(٢) الآية : ٣٦ من سورة يس

(٣) الآية : ٤٩ من سورة الذاريات .

(٤) الآية : ٨ من سورة النحل

(٥) من الآية : ٤١ من سورة هود

(٦) من الآية : ٢٩ من سورة المؤمنون

قال القرطبى : علّمنا ـــ سبحانه وتعالى ـــ ما نقول إذا ركبنا الدواب ، وعرفنا فى آية أخرى على لسان نوح ـــ عليه السلام ـــ ما نقول إذا ركبنا السفن ، فكم من راكب دابة عثرت به ، أو شمست ، أو تقحّمت ، أو طاح عن ظهرها فهلك ، وكم من راكب سفينة انكسرت به فغرق . فلما كان الركوب مباشرة أمر محظور ، واتصالا بسبب من أسباب التلف أمر أن لا ينسى عند اتصاله به موته وأنه هالك لا محالة ، فمنقلب إلى الله ـــ عز وجل ـــ غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعدًّا للقاء الله ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته فى علم الله وهو غافل عنه . ا هـ .

وقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ أى : لصائرون إليه بعد مماتنا ، وإليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سيرة الآخرة .

هديه ﷺ فى ركوب الدابة والذكر عنده

قال الإمام أحمد : عن على بن ربيعة قال : رأيت عليا ـــ رضى الله عنه ـــ أتى بدابة فلما وضع رجله فى الركاب قال : بسم الله ، فلما استوى عليها قال : الحمد لله ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين* وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ ثم حمد الله ثلاثاً ، وكبّر ثلاثاً ، ثم قال : سبحانك لا إله إلا أنت قد ظلمت نفسى فاغفر لى ، ثم ضحك ، فقلت : مم ضحكت يا أمير المؤمنين ؟ فقال ـــ رضى الله عنه ـــ : رأيت رسول الله ﷺ فعل مثل ما فعلت ثم ضحك ، فقلت : مِمَّ ضحكت يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « يعجب الرب ـــ تبارك وتعالى ـــ من عبده إذا قال : رب اغفر لى ، ويقول : علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى » . وهكذا رواه أبو داود والترمذى والنسائى[1] .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثاً ثم قال : ﴿ **سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون** ﴾ اللهم إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى . اللهم هوّن علينا سفرنا هذا ،واطو عنا بعده ، أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى المال والأهل » وإذا رجع قالهن وزاد فيهن : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون »[2] .

وفى وجه آخر : وكان رسول الله ﷺ وأصحابه ـــ رضى الله عنهم ـــ إذا علوا الثنايا كبروا ، وإذا هبطوا سبحوا .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (مسند على بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ) جـ ١ صـ ٩٧
والترمذى (أبواب الدعوات) باب : ما يقول إذا ركب دابة جـ ٥ صـ ١٦٤ ، ١٦٥ رقم ٣٥١١
وانظر سنن أبى داود (كتاب الجهاد) باب : ما يقول الرجل إذا ركب جـ ١ ص ٧٧ رقم ٢٦٠٢
(٢) انظر صحيح مسلم (كتاب الحج) باب : ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره جـ ٢ صـ ٩٧٨ رقم ١٣٤٢/٤٢٥

فى الذكر على الدابة إذا استصعبت

قال يونس بن عبيد : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقول فى أذنها : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾[1] إلا وقفت بإذن الله تعالى . قال الإمام ابن القيم . قال شيخنا ابن تيمية ـــ قدس الله روحه ـــ : وقد فعلنا ذلك فكان كذلك .

(من كتاب الوابل الصيب من الكلم الطيب) .

قوله ـــ تعالى ـــ ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ۝ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ۝ وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسودًّا وهو كظيم ۝ أو من ينشَّأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين ۝ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون ۝ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون** ﴾ .

بعد ما ذكر ـــ سبحانه وتعالى ـــ الآيات الدالة على توحيده ورحمته بعباده ولطفه بهم، ذكر ـــ جل فى علاه ـــ أنهم قابلوا الإحسان بالإساءة وجعلوا له شريكا أو ولدا ﴿ **وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين** ﴾ ومعنى ﴿ **من عباده جزءاً** ﴾ أن قالوا : الملائكة بنات الله ، فجعلوهم جزءًا له وبعضاً ، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءاً له ﴿ **إن الإنسان** ﴾ أى : الكافر ﴿ **لكفور مبين** ﴾ قال الحسن : يعد المصائب وينسى النعم ﴿ **مبين** ﴾ مظهر الكفر .

وهذه الآية كقوله ـــ تعالى ـــ فى سورة الأنعام بعد أن تحدث ـــ سبحانه ـــ عن الآيات الدالة على توحيده قال بعد ذلك : ﴿ **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون ۝ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ۝ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ۝ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾[2]

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين** ﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار ، كقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً** ﴾[3] ثم زاد فى التوبيخ والإنكار بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودّاً وهو كظيم** ﴾[4] أى : وإذا بشر أحد هؤلاء بما نسبوه لله من البنات أنف وتملكته الكآبة والحزن من سوء ما بشر به وتوارى من القوم خجلا .

---

(١) الآية : ٨٣ من سورة آل عمران .

(٢) الآيات : ١٠٠ ـــ ١٠٣ من سورة الأنعام

(٣) الآية : ٤٠ من سورة الإسراء .

(٤) الآية : ١٧ من سورة الزخرف .

ثم كرر الإنكار وأكده بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين** ﴾ أى : أو قد جعلوا لله الأنثى التى تتزين فى الزينة ، وإذا خوصمت لا تقدر على إقامة حجة ولا تقرير دعوى . لنقصان عقلها وضعف رأيها ؟ وما كان ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا** ﴾ أى : سموهم وحكموا لهم بذلك ، وفى هذا كفر من وجوه ثلاثة : أنهم نسبوا إلى الله الولد ، أنهم أعطوه أخس النصيبين ، أنهم استخفوا بالملائكة بجعلهم إناثا ، وقد رد الله عليهم مقالهم فقال ـ سبحانه ـ : ﴿ **أشهدوا خلقهم** ﴾ أى : أحضروا خلق الله لهم ، فشاهدوهم بنات حتى يحكموا بأنوثتهم ؟ ونحو الآية قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * مالكم كيف تحكمون** ﴾[1] .

ثم توعدهم ـ سبحانه ـ على مقالهم فقال :

﴿ **سنكتب شهادتهم ويسألون** ﴾ أى : ستكتب هذه الشهادة التى شهدوا بها فى الدنيا فى ديوان أعمالهم ، ويسألون عنها يوم القيامة ؛ ليأتوا ببرهان على صحتها ، ولن يجدوا لذلك سبيلا .

ثم حكى عنهم فنًّا آخر من فنون كفرهم بالله جاءوا به للاستهزاء والسخرية فقال : ﴿ **وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم** ﴾ أى : وقالوا : لو شاء الله لحال بيننا وبين عبادة الأصنام التى هى على صورة الملائكة ، فإنه ـ تعالى ـ عالم بذلك ، وهو قد أقرنا عليه ، فرد عليهم مقالهم بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ **ماهم بذلك من علم** ﴾ أى : مالهم على ما قالوا دليل ولا برهان يستندون إليه فى تأييد دعواهم ﴿ **إن هم إلا يخرصون** ﴾ أى : ماهم إلا كاذبون فيما قالوا ، متقوّلون على الله ما لم يقله ، فإن الله ـ سبحانه ـ أمر العباد بتوحيده ، ونهاهم عن عبادة سواه ، كما قال ـ سبحانه ـ : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[2] .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون . فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ .

---

(١) الآيات : ١٥٠ ــ ١٥٤ من سورة الصافات .

(٢) الآية : ٣٦ من سورة النحل .

بعد أن بين ـــ سبحانه ـــ بطلان قولهم بالفعل أتبعه ببطلانه بالنقل فقال ـــ سبحانه ـــ: ﴿ **أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون** ﴾ وهذا معادل لقوله ـــ تعالى ـــ: ﴿ **أشهدوا خلقهم** ﴾ والمعنى : أحضروا خلقهم أم آتيناهم كتاباً من قبله ، أى : من قبل القرآن بما ادعوه ، فهم به مستمسكون يعملون بما فيه .

والجواب : إنه لا كتاب لهم بذلك .

ولما بين ـــ سبحانه ـــ أنه لا حجة لهم على ذلك من عقل ولا نقل ـــ ذكر أن الحامل لهم على ما صاروا إليه إنما هو التقليد فقال ـــ سبحانه ـــ : ﴿ **بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾ أى : ليس لهم مستند على ماهم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد ، وقد قالوا : إنهم أرجح منا أحلاماً وأصح أفهاما ، ونحن سائرون على طريقتهم وسالكون منهجهم ، ولم نأت بشىء من عند أنفسنا ، ولم نغلط فى الاتباع واقتفاء الآثار .

ثم بين ـــ سبحانه ـــ : أن مقال هؤلاء قد سبقهم إلى مثله أشباههم نظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل فقال : ﴿ **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ أى : ومثل هذا المقال المتناهى فى الشناعة قالت الأمم الماضية لإخوانك الأنبياء ، فلم نرسل قبلك فى قرية رسولا إلا قال رؤساؤها وكبراؤها : إنا وجدنا آباءنا على ملة ودين ، وإنا على منهاجهم سائرون ، نفعل مثل ما فعلوا ، ونعبد ما كانوا يعبدون : وفى هذا دليل على إبطال التقليد ، لذمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول ﷺ .

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ . أى : قل ـــ يا محمد لقومك ـــ : أوليس قد جئتكم من عند الله ﴿ **بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ يعنى بكل ما أرسل به الرسل . فالخطاب للنبى ﷺ ولفظه لفظ الجمع ، لأن تكذيبه تكذيب لمن سواه .

وحينئذ لم يبق لهم عذر ، ومن ثم قال ـــ تعالى :ـــ ﴿ **فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ أى : فانتقمنا من هؤلاء المكذبين لرسلهم ، الجاحدين بربهم ، فانظر ـــ أيها الرسول ـــ كيف كان عاقبة أمرهم حين كذبوا بآياتنا ؟ ألم نهلكهم ونجعلهم عبرة لغيرهم ؟! ونحو الآيات قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **إنهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون * ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذرين** ﴾[1] .

(١) الآيات : ٦٩ ـــ ٧٣ من سورة الصافات

إبراهيم والوحدانية

قال — تعالى — :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ
ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا
نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا
بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا
سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن
يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا
عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ
ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ
ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾
أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

معـانى المفـردات

﴿ لأبيه ﴾ أى آزر . ﴿ براء ﴾ : قال علماء اللغة : هذه الكلمة لاتثنى ولا تجمع تقول : أنا منك براء ، ونحن منك براء فإن قلت : برىء ثنيت وجمعت ﴿ فطرنى ﴾ : خلقنى ، ﴿ كلمة ﴾ : هى كلمة التوحيد ، ﴿ فى عقبه ﴾ أى : فى ذريته . ﴿ مبين ﴾ أى : ظاهر الرسالة بماله من المعجزات الباهرة ، ﴿ من القريتين ﴾ أى : من إحدى القريتين : مكة والطائف ، والرجل الذى من مكة : هو الوليد بن المغيرة المخزومى وكان يسمى ريحانة قريش ، والذى من الطائف هو عروة بن مسعود الثقفى . ﴿ رحمة ربك ﴾ أى : هى النبوة . ﴿ السخرى ﴾ : هو الذى يقهر على العمل ، ﴿ والسقُف ﴾ بضمتين : واحدها سقف . ﴿ والمعارج ﴾ : واحدها مِعرَج . ﴿ يظهرون ﴾ أى : يرتقون . ﴿ زخرفا ﴾ : ذهبا ﴿ يعش عن ذكر الرحمن ﴾: يتعامى عن ذكر الله . ﴿ نقيض له ﴾ أى : نهىء له ونضم إليه . ﴿ قريناً ﴾ القرين : الرفيق الذى لا يفارق ﴿ المشرقين ﴾ أى : المشرق والمغرب ، وكثيرا ما تسمى العرب الشيئين المتقابلين باسم أحدهما .

قال الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكُمُ لنا قمراها والنجوم الطوالع

يريد بقوله : قمراها : الشمس والقمر . ﴿ بعد المشرقين ﴾ أى :بعد أحدهما من الآخر . ﴿ فإما نذهبن بك ﴾ أى : فإن قبضناك وأمتناك . ﴿ لذكر ﴾ أى : لشرف عظيم . ﴿ تسألون ﴾ أى : عن قيامكم بما أوجبه القرآن عليكم من التكاليف من أمر ونهى .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكرَ ــ سبحانه ــ : فى الآية السالفة أن الذى دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائفة هو تقليد الآباء والأجداد وبين أنه طريق باطل ، وأن الرجوع إلى الدليل أولى بالتقليد ــ أردف هذا أن ذكر لهم أن أشرف آبائهم وهو إبراهيم ــ عليه السلام ــ ترك دين الآباء وحكم بأن اتباع الدليل أولى من متابعتهم ، فيجب عليكم إتباعه ، وحين عدل عن طريق آبائه جعل الله دينه باقيا فى عقبه إلى يوم القيامة .

ثم ذكر أن قريشا وآباءهم مدَّ لهم فى العمر والنعمة فاغتروا بذلك وأعرضوا عن توحيد الله وشكره على آلائه ، حتى جاءهم الرسول مذكراً بالنظر إلى من فطرهم وفطر السموات والأرض ، فكذبوه وقالوا : ساحر كذاب ثم حكى عنهم أنهم قالوا : هلا نُزل هذا القرآن على رجل عظيم الجاه كثير المال من إحدى القريتين مكة والطائف ، فرد عليهم مقالهم بأنه قسم الحظوظ الدنيوية بين عباده فجعل منهم الفقير والغنى ، السيد

والمسود . الأقوياء والضعفاء ، ولم يغير أحد ما حكم به أحوال دنياهم على حقارتها ، فكيف يعترضون على حكمه فيما هو أرفع درجة ، وأشرف غاية ، وأعظم مرتبة وهو منصب النبوة ؟ ثم ذكر ــ سبحانه ــ أن متاع الدنيا قليل زائل والآخرة هى الباقية ، وهى لمن يتقى الله ، ويجتنب الكفر والمعاصى . ثم ذكر ــ سبحانه ــ أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله ، وصار من جلساء الشياطين الضالين المضلين الذين يصدون عن السبيل القويم ، ويظن أنه مهتد ، ثم ذكر أنه إذا جاء يوم القيامة تبرأ الكافر من الشيطان قرينه وقال له : يا ليت بينى وبينك بعد ما بين المشرقين .

ثم ذكر لرسوله أن دعوته لا تؤثر فى قلوبهم ، وقلما تجديهم المواعظ ، فإذا أسمعتهم القرآن كانوا كالصم ، وإذا أريتهم معجزاتك كانوا كالعمى ، وإنما كانوا كذلك لضلالهم المبين ، ثم سلى رسوله وبين له أنه لابد أن ينتقم منهم إما حال حياته أو بعد موته ، ثم أمره أن يستمسك بما أمره الله به ، فيعمل بموجبه ، فإنه الصراط المستقيم ، النافع فى الدين والدنيا ، وفيه الشرف العظيم له ولقومه ، ولسوف يسألون عما قاموا به من التكاليف التى أمرهم بها ، ثم أرشد إلى أن بغض الأصنام وبغض عبادتها جاء على لسان كل نبى فمحمد ﷺ ليس بدعا من بينهم فى الإنكار عليها حتى يعارض ويبغض .

التفسير

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون** ﴾ أى : واذكر لقومك المكبين على التقليد : كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام ؟ قال لهم : إنى براء مما تعبدون إلا من عبادة الله الذى خلقنى وخلق الناس جميعا ، وإنه سيهدينى إلى سبيل الرشاد ، ويوفقنى إلى اتباع الحق ، وقد جزم بذلك لثقته بربه ولقوة يقينه .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وجعلها كلمة باقية فى عقبه** ﴾ قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسُّدى وغيرهم فى قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **وجعلها كلمة باقية فى عقبه** ﴾ يعنى لا إله إلا الله ، لا يزال فى ذريته من يقولها . وقال قتاده : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة . وقال ابن العربى : إنما كانت لإبراهيم فى الأعقاب ، موصولة بالأحقاب . بدعوتيه المجابتين : إحداهما قوله ﴿ **إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين** ﴾(١) فقد قال إلا من ظلم منهم فلا عهد له . ثانيتهما قوله : ﴿ **واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام** ﴾(٢) .

---

(١) من الآية : ١٢٤ من سورة البقرة .
(٢) من الآية : ٣٥ من سورة إبراهيم .

فهذه الكلمة : وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وترك ما سواه من الأوثان وهى لا إله إلا الله جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله ــ تعالى ــ : من ذرية إبراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أى : إليها

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين * ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾ . أى : ولكنى متعت هؤلاء المشركين وآباءهم من قبل ، ومددت أعمارهم وأكثرت نعمهم فشغلتهم النعم والترف والشهوات ، فأطاعوا الشيطان ونسوا كلمة التوحيد ، فجريت على سنتى أن أجعل فى بنى إبراهيم من يوحد الله ويدعو من كفر منهم إلى الإيمان ، فاخترت محمداً وأنزلت معه الكتاب ليدعو هؤلاء إلى ما فيه صلاحهم فى دنياهم ودينهم ، ثم وبخهم على إعراضهم عما جاء به من الحق وعدم النظر فيه فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون** ﴾ أى : ولما جاءهم القرآن والرسول الصادق بما معه من المعجزات قالوا : إن ما جاءنا به سحر وليس بوحى من عند الله ، وإنا به جاحدون ، فضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ يخبر ــ تعالى ــ : عن المشركين أنهم قالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أى : هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف وقد ذكر غير واحد من المفسرين منهم قتاده أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة من مكة . وعروة بن مسعود الثقفى ــ من الطائف ــ قال ابن كثير : والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان ، قال ــ تعالى ــ رادا عليهم فى هذا الاعتراض : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك ؟** ﴾ أى : ليس الأمر مردودا إليهم بل إلى الله عز وجل ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، فإن لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا ، وأشرفهم بيتا وأطهرهم أصلا .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا** ﴾ : بين ــ سبحانه ــ أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والأفهام ، فإذا لم يكن أمر الدنيا إليهم فكيف يفوض أمر النبوة إليهم ؟!

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات** ﴾ أى : إننا فى هذه الحياة فضلنا بعض العباد على بعض فى الغنى والفقر ، والقوة والضعف ، والعلم والجهل ، لأنه لو سوّينا بينهم فيها لم يخدم بعضهم بعضا ، ولم يسخّر أحد غيره ، وذلك ممايفضى إلى خراب العالم وفساد الدنيا .

وإذا كانوا قد عجزوا عن ذلك فى أحوال الدنيا فكيف يعترضون علينا فى منصب الرسالة ؟

وقصارى القول : إنا قسمنا بينهم أرزاقهم ، أفلا يقنعون بقسمتنا فى أمر النبوة وتفويضها إلى من نشاء من خلقنا ؟

ثم علل ما سلف بقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾ أى : ورحمة ربك وفضله بالنبوة وما يتبعها من وحى وكتاب ينزل ، خير مما يجمعون من حطام الدنيا ، فالدنيا على شفا جرف هار ، ومظاهرها فانية لا قيمة لها . قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[(١)] .

ثم يبين ـــ سبحانه ـــ : حقارة الدنيا وخستها بقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسررا عليهايتكئون وزخرفاً** ﴾

قال الحسن : المعنى : لولا أن يكفر الناس جميعا بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركهم الآخرة لأعطيناهم فى الدنيا ما وصفناه ، لهوان الدنيا عند الله ـــ عز وجل ـــ وعلى هذا أكثر المفسرين : ابن عباس والسدى وغيرهم . ومعنى ﴿ **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج** ﴾ : لجعلنا لبيوتهم سقفا من فضة ، وسلالم ودرجاً من فضة ﴿ **عليها يظهرون** ﴾ أى : يصعدون ﴿ **ولبيوتهم أبواباً** ﴾ أى : أغلاقاً على أبوابهم ﴿ **وسررا عليها يتكئون** ﴾ أى : جميع ذلك يكون فضة ﴿ **وزخرفا** ﴾ أى : وذهباً . قاله ابن عباس قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها ، ومافعل ذلك ، فكيف لو فعل ؟!

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين** ﴾ أى : وما كل ذلك إلا متاع قصير زائل ، والآخرة بما فيها من ضروب النعيم التى لا يحيط بها عدّ ولا إحصاء ، أعدها الله لمن اتقى الشرك والمعاصى ، وعمل بطاعته ، وآثر الآخرة على الدنيا ، آثر النفيس الآجل على الخسيس العاجل .

ونحو الآية قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة**

---

(١) الآيتان : ٥٧ ـــ ٥٨ من سورة يونس .

الدنيا فى الآخر إلا متاع ﴾[١]وقوله ــ تعالى ــ : **﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾**[٢] وقوله ــ تعالى ــ : **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾**[٣] .

وفى مسلم وصحيح الترمذى عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[٤] وعن سهيل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء »[٥] رواه الترمذى وقال : حديق حسن الصحيح .

وعن أبى هريرة أيضا قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا أن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله ــ تعالى ــ وما والاه ، وعالماً ومتعلماً »[٦] رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ قال : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل »[٧] ــ متفق عليه ــ

قال الشاعر :

تمتع من الأيام إن كنت حازما ... فإنك فيها بين ناه وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته فيها فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن رَقٍّ من جناح لطائر
فلم يرضى بالدنيا ثواباً لمحسن ... ولا رضى الدنيا عقابا لكافر

وقال آخر :

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن ... إذاً لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ... وقد شبعت فيها بطونُ البهائم

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة الرعد .
(٢) من الآية : ٧٧ من سورة النساء .
(٣) الآية : ٨٣ من سورة القصص .
(٤) صحيح مسلم (كتاب الزهد والرقائق) ح ٤ ص ٢٢٧٢ رقم ٢٩٥٦/١
وانظر سنن الترمذى (كتاب الزهد) باب : الدنيا سجن المؤمن .. الخ ح ٣ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ رقم ٢٤٢٦ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .
(٥) انظر سنن الترمذى (كتاب الزهد) باب ما جاء فى هوان الدنيا على الله ح ٣ ص ٣٨٣ رقم ٢٤٢٢
(٦) الترمذى (كتاب الزهد) باب : هوان الدنيا على الله ح ٣ ص ٣٨٤ رقم ٢٤٢٤ نلفظ : « إن الدنيا ملعونة .. » .
(٧) انظر صحيح البخارى (كتاب الرقاق) ح ٨ ص ١٢٧ باب : الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك .
وانظر صحيح مسلم (كتاب الشعر) ح ٤ رقم ٢٢٥٦/٢ ص ١٧٦٨ وانظر أرقام ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ومن يعشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين . ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم إنكم فى العذاب مشتركون** ﴾ .

أخبر ــ سبحانه وتعالى ــ : أن من عشا عن ذكره ، أى : تعامى عن ذكره ، وهو كتابه الذى أنزله على رسوله ، فأعرض عنه ، وعَمِى عنه ، وعشت بصريته عن فهمه وتدبره ومعرفته مراد الله منه ، قيض الله له شيطانا ، عقوبة له بإعراضه عن كتابه ، فهو قرينه الذى لا يفارقه فى الإقامة ولا فى المسير ، ومولاه وعشيره الذى هو بئس المولى وبئس العشير ، يمنعه من الحلال ، ويبعثه على الحرام ، وينهاه عن الطاعة ، ويأمره بالمعصية .

﴿ **وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ أن الشيطان يصد قرينه ووليه عن سبيله الموصل إليه وإلى جنته ، ويحسب هذا الضال المصدود أنه على طريق هدى . كما قال ــ تعالى ــ : ﴿**وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون**﴾[1] وكما قال ــ سبحانه ــ : ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا . الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزواً** ﴾[2] .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾. أى : حتى إذا جاء القرينان يوم القيامة يقول أحدهما للآخر : ياليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين كنت لى فى الدنيا ، أضللتنى عن الهدى بعد إذ جاءنى ، وصددتنى عن الحق وأغويتنى ، حتى هلكت ، وبئس القرين إنت لى اليوم ، قال ــ تعالى ــ : ﴿**ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً . يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولا** ﴾[3] .

ولما كان المصاب إذا شاركه غيره فى مصيبته حصل له بالتأسى نوع تخفيف وتسلية ، أخبر الله ــ سبحانه ــ أن هذا غير موجود وغير حاصل فى حق المشركين فى العذاب وإن القرين لا يجد راحة ولا أدنى فرح بعذاب قرينه معه . وإن كانت المصائب فى الدنيا إذا عمت صارت مَسْلاة فمنع الله ــ سبحانه ــ

---

(١) الاية : ٣٠ من سورة الأعراف .

(٢) الآيات : ١٠٣ ــ ١٠٦ من سورة الكهف .

(٣) الآيات : ٢٧ ــ ٢٩ من سورة الفرقان .

هذا القدر من الراحة على أهل النار ، فقال ـ تعالى ـ : ﴿ **ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون** ﴾ . فلا يخفف عنهم بسبب الاشتراك شيء من العذاب ، إذ كل منهم الحظ الأوفر منه .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين . فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ، فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ .

وقد وصفهم الله ـ سبحانه ـ فيما سلف بالعَشَا ووصفهم بالعمى والصمم فقال ـ تعالى ـ : مسليا رسوله ﷺ : ﴿ **أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان فى ضلال مبين** ﴾ أى : ليس لك ذلك فلا يضيق صدرك إن كفروا ، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون . أو نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون** ﴾ أى : فإن نذهب بك ـ أيها الرسول ـ بين أظهر المشركين بموت أو غيره فإنا منهم منتقمون ، كما فعلنا ذلك بغيرهم من الأمم المكذبة لرسلها ، أو نرينك الذى وعدناك من الظفر بهم وإعلائك عليهم فإنا عليهم مقتدرون ، فنظهرك عليهم ونخزيهم بيديك وأيدى المؤمنين .

قال ابن عباس : قد أراه الله ذلك يوم بدر ، وهو قول أكثر المفسرين وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ أى : خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه الحق ، وما يهدى إليه هو الحق المفض إلى صراط مستقيم ، والموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم ، قال ـ تعالى ـ : ﴿ **والذين يمسّكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين** ﴾[1] وقال ﷺ فى حجة الوداع : « تركت فيكم ما إن تمكستم به لن تضلوا بعده أبدا : كتاب الله وسنتى»[2] .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسرين : فإنه أى : القرآن لشرف لك ولقومك وقيل : معناه ﴿ **وإنه لذكر لك ولقومك** ﴾ أى : لتذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾[3] .

---

(١) الآية : ١٧٠ من سورة الأعراف .
(٢) انظر المستدرك للحاكم (كتاب العلم) باب خطبته ﷺ وآله وسلم ح ١ ص ٩٣
(٣) الآية : ١٠ من سورة الأنبياء .

قال القرطبى : والصحيح أنه شرف لمن يحمل به كان من قريش أو من غيرهم وقوله — تعالى — : ﴿ **وسوف تسألون** ﴾ أى : عن الشكر عليه ، قاله مقاتل وقال ابن جريج : أى : تسألون أنت ومن معك على ما آتاك وتسألون عما عملتم فيه .

وقوله — تعالى — : ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ . أى : واسأل أمم من أرسلنا من قبلك من الرسل : هل حكمنا بعبادة غير الله ؟ وهل جاء ذلك فى ملة من الملل ؟ والمراد بهذا الاستشهاد بيان إجماع المرسلين على التوحيد ، والتنبيه إلى أن **محمداً** ﷺ ليس بيدع من بين الرسل فى الأمر به ، حتى يُكذبَّ ويعادى له ، قال — تعالى — : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[1] .

طرف من قصة موسى عليه السلام

قال — تعالى — :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا
جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا
وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ
إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى
قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠
خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ
مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ
ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

معانى المفردات

﴿ الآيات ﴾ : هى المعجزات ، ﴿ وملئه ﴾ أى : أشراف قومه ، ﴿ أخذناهم ﴾ أى : أخذ قهر بالعذاب ، فأرسلنا عليهم الجراد والقمّل والضفادع ، ﴿ الساحر ﴾ أى : العالم الماهر ، ﴿ بما عهد عندك ﴾ أى : بما أخبرتنا من عهده إليك أنا إذا آمنا كشف عنا العذاب الذى أنزل بنا .. ﴿ ينكثون ﴾ أى : ينقضون العهد . ﴿ من تحتى ﴾ أى : من تحت قصرى وبين يدى فى جناتى . ﴿ مهين ﴾ أى : ضعيف حقير . ﴿ يبين ﴾ أى : يفصح عن كلامه . ﴿ والاسورة ﴾ واحدها : سوار ، كأخمرة وخمار . قال مجاهد : كانوا إذا سودوا رجلاً سّوروه بسوارين وطوقوه بطوق من ذهب علامة سيادته . ﴿ مقترنين ﴾ أى : مقرونين به يعينونه على من خالفه . ﴿ فاستخف قومه ﴾ أى : استخف عقولهم فدعاهم إلى الضلال فاستجابوا له . ﴿ آسفونا ﴾ : أغضبونا . ﴿ سلفا ﴾ أى : قدوة لمن بعدهم من الكفار . ﴿ مثلاً ﴾ أى : حديثا عجيب الشأن يسير سير المثل ، فيقول الناس : مثلكم مثل قوم فرعون .

المناسبة والمعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الكفار طعنوا فى نبوة محمد ﷺ لكونه فقيرا عديم المال والجاه ـــ بين هنا أن موسى بعد أن أورد المعجزات الباهرة أورد فرعون هذه الشبهة التى ذكرها كفار قريش فقال : إنى غنى كثير المال ، عظيم الجاه ، فلى ملك مصر ، وهذه الأنهار تجرى من تحتى ، وموسى فقير مهين وليس له بيان ولا لسان ، وهذا شبيه بما قاله كفار قريش .

وأيضاً فإنه لما قال : واسأل من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ذكر هنا قصةَ موسى وعيسى ـــ عليهما السلام ـــ وهما أكثر الأنبياء أتباعاً وقد جاءا بالتوحيد ولم يكن فيما جاءا به إباحة اتخاذ آلهة من دون الله .

ثم ذكر ـــ سبحانه ـــ أن فرعون قال : هلا ألقى إلى موسى مقاليد الملك فطوق بسوار من ذهب إن كان صادقاً ؟ زعماً منه أن الرياسة من لوازم الرسالة ، أو جاء معه جمع من الملائكة يعينونه على من خالفه ، وأعقب هذا بأن ذكر أنه حين دعا قومه إلى تكذيب موسى فى دعواه الرسالة أطاعوه لضلالهم وغوايتهم ، ولما لم تُجد فيه المواعظ غضبنا وانتقمنا منهم ، وجعلناهم قدوة للكافرين وضربنا به الأمثال للناس ليكونوا عبرة لهم ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾[1] .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فقال إنى رسول رب العالمين** ﴾ أى : ولقد بعثنا موسى ومعه حججه الدالة على صدقه إلى فرعون وأشراف قومه ، كما أرسلناك إلى هؤلاء المشركين من قومك ، فقال لهم : إنى رسول من قِبَلِ الله إليكم .

فطالبوه بإحضار البينة على صدق دعواه كما يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون** ﴾ أى : فلما جاءهم بالأدلة على صدق قوله فيما يدعوهم إليه من توحيد الله وترك عبادة الآلهة ، إذا فرعون وقومه يضحكون من تلك المعجزات استهزاء وسخرية ، يوهمون أتباعهم أن تلك الآيات سحر وتخييل وأنهم قادرون عليها .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها** ﴾ أى : وما أرينا فرعون وملأه حجة من حججنا الدالة على صدق رسولنا فى دعواه الرسالة إلا كانت أعظم من سابقتها فى الحجية عليهم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وأخذناهم بالعذاب** ﴾ أى : على تكذيبهم بتلك الآيات ، وهو كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون . وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين . فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين** ﴾[٢] .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ أى : لكى يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان بالله وطاعته ، والتوبة مما هم عليه مقيمون من المعاصى . ولما عاينوا ما جاءهم به من الآيات البينات ، والدلالات الواضحات ظنوا أن ذلك من قبيل السحر .

﴿ **وقالوا يا أيها الساحر** ﴾ أى : وقالوا : يا أيها العالم الماهر ، وكانوا يسمون العلماء سحرة ، ويوقرونهم ويعظمونهم ، ولم يكن السحر صفة ذم عندهم . وقد يكونوا نادوه بذلك فى تلك الحال لشدة شكيتهم ، وفرط حماقتهم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ادع لنا ربك بما عهد عندك** ﴾ أى : ادع لنا ربك ليكشف عنا العذاب بما

---

(٢) الآيات : ١٣٠ ـ ١٣٣ من سورة الأعراف .

أخبرتنا من عهده إليك إن آمنا به كشفه عنا . ﴿ **إننا لمهتدون** ﴾ أى : أنا لمؤمنون بما جئت به إن حدث ذلك كما جاء فى سورة الأعراف من قولهم : ﴿ **لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك** ﴾[1] .

ثم يبين — سبحانه — ما حدث منهم بعد دعوة موسى وكشف العذاب فقال — تعالى — : ﴿ **فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون** ﴾ أى : ينقضون العهد الذى جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا .

ثم أخبر — سبحانه — عن تمرد فرعون وعتوه وعناده فقال — تعالى — : ﴿ **ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون . أم أنا خير من هذا الذى هو مهين . ولا يكاد يبين . فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين** ﴾ .

قيل : لما رأى تلك الآيات خاف ميل القوم إلى موسى فجمع قومه فقال : ﴿ **يا قوم أليس لى ملك مصر** ﴾ أى : لا ينازعنى فيه أحد ، ﴿ **وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ يعنى أنهار النيل ، قال قتادة : كانت جناناً وأنهاراً تجرى من تح قصورة .

﴿ **أفلا تبصرون** ﴾ عظمتى وقوتى وضعف موسى عن مقاومتى لما فيه من فقر وعىٍّ وحصر ؟ .

﴿ **أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين** ﴾ أى : بل أنا — ولا شك — خير بمالى من السعة فى المال والجاه والملك العريض من هذا المهين الحقير الذى لا يكاد يفصح عما يريد ، إذ كان فى لسانه حُبسة فى صغره ، فعابه بها ، وهو لا يعلم أن الله استجاب سؤله حين قال : ﴿ **وأحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى** ﴾[1] فحل عقدة لسانه كما جاء فى قوله ﴿ **قد أوتيت سؤلك يا موسى** ﴾[2] .

والأشياء الخِلْقية لا يعاب المرء بها ولا يذم ، لكنه أراد الترويج على رعيته وصدهم عن الإيمان به .

ونحو الآية قوله : ﴿ **فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾[3] .

---

(١) من الآية : ١٣٤ من سورة الأعراف .
(٢) الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ من سورة طه .
(٣) من الآية : ٣٦ من سورة طه .
الآيات : ٢٣ — ٢٦ من سورة النازعات .

ثم ذكر شبهة مانعة له من الرياسة ، وهى أنه لا يلبس لبس الملوك فلا يكون رئيسا ولا رسولا لتلازمهما - فى زعمه - فقال : ﴿ **فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ أى : هلا ألقى عليه أسورة من ذهب ، وأنما قال ذلك لأنه كان عادة الوقت وزى أهل الشرف . قال مجاهد : كانوا إذا سوَّروا رجلاً سوروه بسوارين وطوقوه بطوق ذهب علامة لسيادته . فقال فرعون : هلا ألقى رب موسى عليه أساوره من ذهب إذ كان صادقاً ﴿ **أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ يعنى : فيمشون معه : قاله مجاهد ، وقال ابن عباس : يعاونونه على من خالفه ، والمعنى : هلا ضم إليه الملائكة التى يزعم أنها عند ربهُ حتى يتكثر بهم ويصرفهم على أمره ونهيه ، فيكون ذلك أهيب فى القلوب . فأوهم قومه أن رسل الله ينبغى أن يكونوا كرسل الملوك فى الشاهد ، ولم يعلم أن رسل الله إنما أيدوا بالجنود السماوية ، وكل عاقل يعلم أن حفظ الله موسى — مع تفرده ووحدته — من فرعون — مع كثرة أتباعه — وإمداد موسى بالعصا واليد البيضاء كان أبلغ من أن يكون له أسورة أو ملائكة يكونون معه أعواناً .

قوله — تعالى — : ﴿ **فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين** .

قال ابن الأعرابى : المعنى : فاستجهل قومه ﴿ **فأطاعوه** ﴾ لخفة أحلامهم وقلة عقولهم . وقيل : استخف قومه ، أى : وجدهم خفاف العقول . قال القرطبى : وهذا لا يدل على أنهم يجب أن يطيعوه ، فلابد من إضمار بعيد تقديره : وجدهم خفاف العقول فدعاهم إلى الغواية فأطاعوه . ﴿ **إنهم كانوا قوماً فاسقين** ﴾ أى : خارجين عن طاعة الله ، ومن ثم أسرعوا إلى تلبية دعوة ذلك الفاسق الغوىّ .

ثم ذكر جزاءهم على ما اجترحوا من تكذيب رسوله على وضوح الدليل وظهور الحق ، فقال — تعالى — : ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾ أى : فلما أغضبونا بعنادهم وعظيم استكبارهم وبغيهم فى الأرض انتقمنا منهم بعاجل عذابنا ، فأغرقناهم جميعاً .

وإنما أهلكوا بالغرق ليكون هلاكهم بما تعززوا به — وهو الماء — فى قوله : ﴿ **وهذه الأنهار تجرى من تحتى** ﴾ وفى هذا إشارة إلى أن من تعزز بشىء دون الله أهلكه الله به .

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى فى الشعب وابن أبى حاتم عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد ما شاء وهو مقيم على معاصيه ، فإنما ذلك استدراج منه له »[1] وقرأ : ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾ .

وقال عمر بن درّ : يا أهل المعاصى : لا تغتروا بطول حلم الله عنكم واحذروا أسفه ، فإنه قال : ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم** ﴾ .

---

(١) مسند الإمام أحمد ١٤٥/٤ حديث عقبة بن عامر .

وقوله — تعالى — : ﴿ **فجعلناهم سلفا ومثلاً للآخرين** ﴾ قال مجاهد : ﴿ **سلفاً** ﴾ : إخباراً لأمة محمد ﷺ ﴿ **ومثلاً** ﴾ أى : عبرة لهم . وقال قتادة : ﴿ **سلفاً** ﴾ إلى النار ، ﴿ **ومثلاً** ﴾ عظة لمن يأتى بعدهم . أى : فجعلناهم قدوة لم يعمل عملهم من أهل الضلال ككفار قومك ﴿ **ومثلاً للآخرين** ﴾ أى : وعبرة وموعظة لمن يأتى بعدهم من الكافرين ، كما قال — تعالى — بعد إهلاك فرعون فى سورة النازعات : ﴿ **إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾[1] .

طرف من قصة المسيح عليه السلام

* ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون ﴿٥٧﴾ وقالوا ءألهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون ﴿٥٨﴾ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني إسرائيل ﴿٥٩﴾ ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴿٦٠﴾ وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم ﴿٦١﴾ ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴿٦٢﴾ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون ﴿٦٣﴾ إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴿٦٤﴾ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴿٦٥﴾

معانى المفردات

﴿ **مثلاً** ﴾ أى : حجة وبرهاناً . ﴿ **يَصِدُّون** ﴾ — بكسر الصاد — أى : يصيحون ويرتفع لهم ضجيج وفرح ﴿ **جدلاً** ﴾ أى : خصومة بالباطل . ﴿ **خصمون** ﴾ أى : شديدوا الخصومة مجبولون على اللجاج وسوء الخلق . ﴿ **مثلاً** ﴾ أى : أمراً عجيباً ﴿ **منكم** ﴾ أى : من بعضكم . ﴿ **يخلفون** ﴾ أى : يخلفونكم فى الأرض . ﴿ **علم** ﴾ أى علامة وشرط من أشراطها . ﴿ **فلا تمترن** ﴾ أى : فلا تشكنّ . ﴿ **البينات** ﴾ : المعجزات ، ﴿ **الحكمة** ﴾ : الشرائع المحكمة التى لا يستطاع نقضها ولا إبطالها .

---

(١) الآية : ٢٦ من سورة النازعات .

المناسبة وإجمال المعنى

روى محمد بن إسحاق فى السيرة « أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فى المسجد مع الوليد بن المغيرة ، فجاء النضر بن الحارث وجلس معهم ــ وفى المسجد غير واحد من رجالات قريش ــ فتكلم رسول الله ﷺ فعرض له النضر فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه ، ثم تلا عليهم ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾[1] الآيات ثم قام رسول الله ﷺ وأقبل عبد الله بن الزِّبَعرى التيمى وجلس ، فقال له الوليد بن المغيرة : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد ، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم . فقال ابن الزبعرى : أما ــ والله ــ لو وجدته لخصمته ، سلوا محمداك : أَكُلُّ ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته ، وأنزل الله ــ عز وجل ــ ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾[2] أى : عيسى وعزير ومن عبد معهما ، فاتخذهم من بعدهم من أهل الضلال أربابا من دون الله ، ونزل فيما يذكر من أمر عيسى ــ عليه السلام ــ وأنه يعبد من دون الله ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً** ﴾ الآية ..

التفسير

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه تصدون . وقالوا آآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾ . ورد فى سبب نزول هذه الآيات أقاويل للمفسرين : قال قتادة : لما قال الله ــ تعالى ــ ﴿ **واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون** ﴾ تعلق المشركون بأمر عيسى وقالوا : ما يريد محمد إلا أن نتخذه إلٰها كما **اتخذ** النصارى عيسى بن مريم إلٰها . **وقال مجاهد : إن قريشا قالت : إن محمدا يريد أن نعبده كما عبد قوم عيسى - عيسى - ، فأنزل الله هذه الآية .**

وقال ابن عباس : أراد به مفاخرة عبدالله بن الزّبعرى مع النبى ﷺ فى شأن عيسى ، وأن الضارب لهذا المثل هو عبد اللهبن الزبعرى السَّهمى حالة كفره لما قالت له قريش : إن محمداً يتلو ﴿ **إنكم وما تعبدون**

(١) الآية : ٩٨ وما بعدها من سورة الأنبياء .
(٢) الآية : ١٠١ من سورة الأنبياء .

من دون الله حصب جهنم ﴾ الآية ، فقال : لو حضرته لرددت عليه ، قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال : كنت أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى ، واليهود تعبد عزيراً أَفَهُمَا من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم ، وذلك معنى قوله : ﴿ **يصدون** ﴾ فأنزل الله ــ تعالى ــ : ﴿ **إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون** ﴾ .

قال القرطبى : لو تأمل ابن الزبعرى الآية ما اعترض عليها ، لأنه قال : ﴿ **وما تعبدون** ﴾ ولم يقل : ومن تعبدون ، وإنما أراد الأصنام ونحوها مما لا يعقل ، ولم يرد المسيح ولا الملائكة وإن كانوا معبودين ..

وروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش : « يامعشر قريش لا خير فى أحد يعبد من دون الله » قالوا : أليس تزعم أن عيسى كان عبداً نبياً وعبداً صالحاً ، فإن كان كما تزعم فقد كان يعبد من دون الله ! فأنزل الله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون** ﴾ أى : يضجون كضجيج الإبل عند حمل الأثقال . قال الجوهرى : صدَّ يصدُّ صديداً ، أى : ضجَّ . فارتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وسروراً ، كما يرتفع لغط القوم وجلبهم إذا أعيوا فى حجة ، ثم فتحت عليهم . ﴿ **وقالوا آآلهتنا خير أم هو** ﴾ أى : إن آلهتنا ليست خيراً من عيسى ، فإذا كان عيسى من حصب جهنم ، كان أمر آلهتنا أهون .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾ أى : ما ضربوا لك المثل إلا لأجل الجدل والغلبة فى القول ، لا لإظهار الحق ، فإن قوله : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله** ﴾ إنما ينطلق على الأصنام والأوثان ، ولا يتناول عيسى والملائكة ، ولكنهم قوم ذوو لَدَد فى الخصومة .

وفى سنن الترمذى عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل »[(١)] ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون** ﴾ .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون . وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم . ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

بين ــ سبحانه ــ أن عيسى بن مريم عبد من عبيده الذى أنعم عليهم بالنبوة والرسالة فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى اسرائيل** ﴾ أى : ما عيسى بن مريم إلا عبد أنعمنا عليه بالنبوة وروادفها ، فهو رفيع المنزلة ، علىُّ القدر ، وقد جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب ، وشرفناه بالنبوة ، وصيرناه عبرة صائرة ، تفتح للناس باب التذكر والفهم ، وليست مخالفة العادة بموجبة لعبادته ــ كما يزعم النصارى ــ بل مذكرة بعبادة الخالق الحكيم .

---

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب التفسير) تفسير سورة الزخرف جـ ٥ صـ ٥٥ رقم ٣٣٠٦ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون** ﴾ قال السدى : ﴿ **ولو نشاء لجعلنا منكم** ﴾ أى : بدلا منكم ﴿ **ملائكة** ﴾ يكونون خلفا عنكم . وقال مجاهد : « **ملائكة يعمرون** الأرض بدلاً منكم . قال القرطبى : والمعنى : لو نشاء لأسكنا الأرض الملائكة ، وليس فى إسكاننا إياهم السماء شرف حتى يعبدون ، أو يقال لهم بنات الله ، ومعنى ﴿ **يخلفون** ﴾ : يخلف بعضهم بعضا ، قاله ابن عباس .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم** ﴾ .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدى وقتادة : إنه خروج عيسى ـ عليه السلام ـ وذلك من أعلام الساعة ، لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة ، كما أن خروج الدجال من أعلام الساعة . وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك « وإنه لَعَلَمٌ للساعة » (بفتح العين واللام) أى : أمارة .

وفى صحيح مسلم « فبينما هو ـ يعنى المسيخ الدجال ـ إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودتين (أى حُلتين) واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جُما كاللؤلؤ ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات ونَفَسُه حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ (قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين) فيقتله »[١] . الحديث وروى خالد عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « الأنبياء إخوة لعِلّات ، أمهاتهم شتى ودينهم واحد ، وأنا أولى الناس بعيسى بن مريم ، إنه ليس بينى وبينه نبى ، وإنه أول نازل فيكسر الصليب ، وليقتلن الخنزير ، ويقاتل الناس على الإسلام »[٢] .

وثبت فى صحيح مسلم : « لينزلنّ عيسى بن مريم حكماً عادلاً فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير ، وليضعن الجزية ، ولتُتركنّ القِلاص فلا يسعى عليها ، ولتذهبن الشحْناء والتباغض والتحاسد ، ولَيَدْعُوَن إلى المال فلا يقبله أحد »[٣] **وعنه قال : رسـول الله ﷺ** : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم »[٤] والأحاديث فى ذلك كثيرة متواترة .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فلا تمترن بها** ﴾ أى : فلا تشكون فيها ، يعنى فى الساعة وقال السدى :

---

(١) انظر صحيح مسلم (كتاب الفتن) باب ذكر الدجال وصفته وما معه جـ ٤ صـ ٢٢٥٣ رقم ٢١٣٧/١١٠ وهو جزء حديث طويل .
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ٤٠٦ فقد رواه عن أبى هريرة ، وهو جزء حديث .
(٣) صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب نزول عيسى بن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد ﷺ جـ ١ صـ ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٣ من رواية أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ
(٤) صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب نزول عيسى بن مريم ... الخ جـ ١ صـ ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٤ من رواية أبى هريرة أيضا .

فلا تكذبون بها ، ولا تجادلون فيها ، فإنه كائنة لا محالة . وقوله : ﴿ **واتبعون** ﴾ أى : فى التوحيد وفيما أبلغكم عن الله .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **هذا صراط مستقيم** ﴾ أى : طريق قويم إلى الله ــ تعالى ــ أى : إلى جنته .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولا يصدنكم الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ أى : لا تغتروا بوساوسه وشبه الكفار المجادلين ، فإن شرائع الأنبياء لم تختلف فى التوحيد ولا فيما أخبروا به من علم الساعة وغيرها بما تضمنته من جنة ونار . ﴿ **إنه لكم عدو مبين** ﴾ أى : إنه مظهر لعدوانه لكم .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون . إن الله هو ربى وربكم فاعبدون هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم** ﴾ .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ولما جاء عيسى بالبينات** ﴾ قال ابن عباس : ويريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام وخلق الطير بإذن الله والمائدة وغيرها ، والإخبار بكثير من الغيوب . وقال قتادة : البينات هنا الإنجيل . ﴿ **قال قد جئتكم بالحكمة** ﴾ أى : النبوة . قاله السدى . وقيل : الإنجيل . ﴿ **ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه** ﴾ قال مجاهد : من تبديل التوراة وقيل : بين لهم بعض الذى اختلفوا فيه من أحكام التوراة على قدر ما سألوه .

قال القرطبى : وقيل : إن بنى اسرائيل اختلفوا بعد موت موسى فى أشياء عن أمر دينهم ، وأشياء من أمر دنياهم ، فبين لهم أمر دينهم . قال مقاتل : وهو كقوله : ﴿ **ولأحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم** ﴾[1] يعنى ما أحل فى الإنجيل مما كان محرما فى التوراة : كلحم الإبل والشحم من كل حيوان ، وصيد السمك يوم السبت .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فاتقوا الله وأطيعون** ﴾ أى : اتقوا الشرك ولا تعبدوا إلا الله وحده ، وإذا كان هذا قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلهاً أو ابن إله ؟ قال ــ تعالى ــ ﴿ **وقال المسيح يا بنى اسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار** ﴾[2] .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وأطيعون** ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره . ﴿ **إن الله هو ربى وربكم**

---

(١) من الآية : ٥٠ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٧٢ من سورة المائدة .

فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ أى : عبادة الله وحده صراط مستقيم ، وما سواه معوج لا يؤدى بسالكه إلى الحق .

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم** ﴾ .

قال الكلبى ومقاتل فى هذه الآية ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم** ﴾ فرق النصارى من النسطورية والملكية واليعاقبة ، اختلفوا فى عيسى ، فقالت النسطورية : هو ابن الله ، وقالت اليعاقبة : هو الله ، وقالت الملكية : ثالث ثلاثة أحدهم الله .

ولقد ذكر الله سبحانه هذه الفرق ورد على افترائهم فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون** ﴾[1] .

وقال ــ تعالى ــ : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾[2] .

وقال ــ تعالى ــ : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** ﴾[3] . وقال هٰهنا ــ جل شأنه ــ : ﴿ **فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم** ﴾ أى : فويل للذين كفروا وأشركوا من عذاب يوم القيامة كما قال ــ تعالى ــ فى سورة مريم ﴿ **فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم ، أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم فى ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون . إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** ﴾[4] .

---

(١) الآيات : ٦٨ ــ ٧٠ من سورة يونس .
(٢) الآية : ١٧ من سورة المائدة .
(٣) الآية : ٧٣ من سورة المائدة .
(٤) الآيات : ٣٧ : ٤٠ من سورة مريم .

مبحث فى علامات الساعة

قال فضيلة الشيخ محمد أنور شاه الكَشميرى الهندى فى كتابه « التصريح بما تواتر فى نزول المسيح » تحقيق فضيلة الشيخ : عبد الفتاح أبو غدة ما ملخصه : أربع آيات من كتاب الله فى نزول عيسى ــ عليه السلام ــ

الآية الأولى :

﴿ **إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس فى المهد وكهلاًومن الصالحين** ﴾ من سورة آل عمران ٤٥ ــ ٤٦

الآية الثانية :

﴿ **إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعْمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلاً** ﴾ من سورة المائدة : ١١٠

أخرج ابن جرير بسنده عن ابن زيد فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **يكلم الناس فى المهد وكهلاًومن الصالحين** ﴾ قال : قد كلمهم عيسى ــ عليه السلام ــ فى المهد ، وسيكلمهم إذا قتل الدجالَ وهو يومئذ كهل .

الآية الثالثة :

﴿ **وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا . بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ من سورة النساء : ١٥٧ : ١٥٩ .

ومعنى الآية كما أورد المفسّرون : ما من أهل الكتاب أحد من الموجودين منهم عند نزول عيسى ــ عليه السلام ــ إلا ليؤمنن عند **نزوله** بأنه عبد الله ورسوله ، قبل موته ــ عليه السلام ــ .

الآية الرابعة :

﴿ **ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون . وقالوا أآلهتنا خير أم هو ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون . إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى اسرائيل . ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون ، وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم** ﴾ قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والضحاك والسدى فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإنه لعلم للساعة فلا تمترن بها**

واتبعون ﴾ : إنه خروج عيسى ابن مريم ، وذلك من أعلام الساعة ، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو العالية وأبو مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم : ﴿ **وإنه لَعَلَمٌ للساعة** ﴾ ـــ بفتح اللام والعين ـــ أى : إن سيدنا عيسى ـــ عليه السلام ـــ (والمراد نزوله) أمارة وعلامة على قرب وقوع الساعة .

وأما الأحاديث النبوية الشريفة التى أوردها المؤلف للدلالة على هذه العلامات الكبرى من علامات الساعة فهى :

الحديث ١ ـــ عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عادلاً ، فيكسرُ الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الحرب ، ويقبض المال ، حتى لا يقبله أحد ، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها »[1] ثم يقول أبو هريرة : واقرأوا إن شئتم : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ رواه البخارى ومسلم .

شرح مفردات الحديث

(ليوشكن) أى : ليقربنّ ، وتوكيد الفعل بالنون يؤكد حتمية نزوله ـــ عليه السلام ـــ .

(حكماً عادلاً) أى : حاكماً عادلاً . قال الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » ٦ : ٣٥٦ : « والمعنى : أنه ـــ عليه السلام ـــ ينزل حكماً بهذه الشريعة فإن هذه الشريعة باقية لا تنسخ ، بل يكون عيسى ـــ عليه السلام ـــ حاكماً من حكام هذه الأمة .

(فيكسر الصليب ويقتل الخنزير) قال الحافظ ابن حجر : أى : يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب حقيقة ، ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه . ويأمر بإعدام الخنزير ، مبالغة فى تحريم أكله . وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يدّعون أنهم على طريقة عيسى ـــ عليه السلام ـــ ثم يستحلون أكل الخنزير ، ويبالغون فى محبته » .

(ويضع الحرب) قال الحافظ ابن حجر : أى : لشيوع الإسلام وانقراض الكفر ، وفى رواية : (ويضع الجزية) أى : عن أهل الكتاب ، ويحملهم على الإسلام ، ولا يقبل منهم غير الإسلام أو القتل ، فيصير الدين واحداً ، فلا يبقى أحد من أهل الذمة ليؤدى الجزية . قال الحافظ ابن حجر : ويؤيده أن عند

---

(١) انظر صحيح مسلم (كتاب الايمان) باب نزول عيسى بن مريم .. الخ جـ ١ صـ ١٣٥ رقم ١٥٥/٢٤٢ فقدرواه عن أبى هريرة إلى قوله : « حتى لا يقبله أحد » فقط .
ورواه البخارى فى (كتاب الأنبياء) من صحيحه جـ ٤ صـ ٢٠٥ واللفظ له .

الإمام أحمد من وجه آخر عن أبى هريرة « وتكون الدَّعوى ـــ أى : الملة ـــ واحدة » . (فتح البارى ٦ : ٣٥٦) .

(ويفيض المال) أى : يكثر المال جداً ، وسبب كثرته : نزول البركات ، وتوالى الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم ، وحينئذ تخرج الأرض كنوزها ، وتقل الرغبات فى اقتناء المال لعلم الناس بقرب الساعة .

(حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها) وذلك أنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة ، لا بالتصدق بالمال لعدم الانتفاع به إذ لا أحد يقبله . قال العلامة فضلُ الله التُّوربشتِي ـــ رحمه الله تعالى ـــ : لم تزل السجدة الواحدة فى الحقيقة كذلك ، أى : خيراً من الدنيا وما فيها ، وإنما أراد بذلك أن الناس يرغبون فى أمر الله ، ويزهدون فى الدنيا ، حتى تكون السجدة الواحدة أحب إليهم من الدنيا وما فيها .

قال الحافظ ابن حجر : قال ابن الجوزى : إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله ﷺ : « حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها » فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس وشدة ايمانهم ، وإقبالهم على الخير ، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا ، والسجدة تطلق ويراد بها الركعة .

قال العلماء : والحكمة فى نزول عيسى دون غيره من الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ من وجوه :

الأول : الرد على اليهود فى زعمهم أنهم قتلوه ، فبين الله ـــ تعالى ـــ كذبهم ، وأنه هو الذى يقتلهم .

الثانى : نزوله ـــ عليه السلام ـــ لدنو أجله ، ليدفن فى الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت فى غير التراب .

الثالث : أنه ـــ عليه السلام ـــ دعا الله ـــ تعالى ـــ لما رأى صفة محمد ﷺ وأمته : أن يجعله منهم ، فاستجاب الله دعاءه ، وأبقاه حين ينزل فى آخر الزمان ، ويجدد أمر الإسلام ، فيوافق نزوله خروج الدجال فيقتله ـــ عليه السلام ـــ .

الرابع : تكذيبه النصارى وإظهار زيفهم فى دعواهم الأباطيل ، وقتله ـــ عليه السلام ـــ لهم .

الخامس : أن خصوصيته بالأمور المذكورة إنما كانت لقول النبى ﷺ : « أنا أولى الناس بعيسى

ابن مريم ، ليس بينى وبينه نبى »[١] ورسول الله أخص الناس به ، وأقربهم إليه لأن عيسى ــ عليه السلام ــ بشر بأن رسول الله ﷺ يأتى من بعده ، ودعا الخلق إلى تصديقه والاتباع له .

الحديث ٢ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم ، وإمامكم منكم »[٢] رواه البخارى ومسلم .

وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى ٦ : ٣٥٨ : « وعند أحمد من حديث جابر فى قصة الدجال ونزول عيسى : « وإذا همْ بعيسى ، فيقال : تقدَّم يا روح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم »[٣] ولابن ماجه : فى حديث أبى أمامة : « وكلهم ــ أى : المسلمون ــ ببيت المقدس ، وإمامهم رجل صالح ، قد تقدم ليصلى بهم ، إذ نزل عيسى ، فرجع الإمام ينكص ليتقدم عيسى ، فيقف عيسى بين كتفيه ثم يقول : تقدم فإنها لك أقيمت »[٤] .

وقيل فى معنى : (وإمامكم منكم) : وهو منكم ، أى : عيسى ، فوضع الاسم المظهر موضع الاسم المضمر ، تعظيماً له ، وتربية للمهابة فى النفوس .

الحديث ٣ ــ عن جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ــ قال ــ : فينزل عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ فيقول أميرهم : تعال فصلّ ، فيقول : لا ، إنَّ بعضكم على بعض أمراء ، تَكرِمَةَ الله هذه الأمة »[٥] رواه مسلم وأحمد فى مسنده .

الحديث ٤ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « والذى نفسى بيده : ليهلَّن ابن مريم بفجّ **الروحاء** حاجاً أو معتمراً ، أو ليثْنِيَنَّهما »

وأخرجه أحمد فى « مسنده » ولفظه : « ينزل عيسى ابن مريم ، فيقتل الخنزير ويمحو الصليب ، وتُجمَعُ له الصلاة ، ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج ، وينزل الروَّحاء ، فيحج منها أو يعتمر أو

---

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب الأنبياء) باب : واذكر فى الكتاب مريم جـ ٤ صـ ٢٠٣ مع اختلاف يسير فى اللفظ .
وانظر صحيح مسلم (كتاب الفضائل) باب فضائل عيسى ــ عليه السلام ــ فقد أورده من رواية أبى هريرة بثلاث روايات جـ ٤ صـ ١٨٣٧ أرقام ٢٣٦٥/١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥

(٢) انظر صحيح مسلم (كتاب الايمان) باب نزول عيسى بن مريم ... الخ جـ ١ صـ ١٣٦ رقم ١٥٥/٢٤٤ وانظر صحيح البخارى (كتاب الأنبياء) جـ ٤ صـ ٢٠٥

(٣) انظر مسند الإمام أحمد (مسند جابر) جـ ٣ صـ ٣٦٨

(٤) انظر حديث أبى أمامة فى سنن ابن ماجة فى (كتاب الفتن) جـ ٢ صـ ١٣٦١ رقم ٤٠٧٧

(٥) صحيح مسلم يشرح النووى (كتب الايمان) باب : نزول عيسى بن مريم ... الخ جـ ٢ صـ ١٩٣ ، ١٩٤
وانظر مسند الإمام أحمد (مسند جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ) جـ ٣ صـ ٣٨٤

يجمعهما »[1] وتلا أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا** ﴾ .

شرح مفردات الحديث

معنى (ليهُلنَّ) : ليرفعن صوته بالتلبية قائلاً : لبيك اللهم لبيك ، محرما بحج أو بعمرة ومعنى (ليثّنينَّهما) : أو ليجمعنَّ بين الحج والعمرة (وفج الروحاء) : مكان فى طريق النبى ﷺ من المدينة إلى بدر . قيل : يبعد عن المدينة ستة أميال .

الحديث ٥ ــ عن النواس بن سمعان ــ رضي الله عنه ــ قال : ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداةٍ فخفَّض فيه ورفَّع ، حتى ظنّناه فى طائفة النخل ، فانصرفنا من عند رسول الله ﷺ ثم رحنا إليه ، فعرف ذلك فينا ، فقال : « ما شأنكم ؟ » فقلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه فى طائفة النخل ، فقال : « غير الدجال أخوفنى عليكم ، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤٌ حجيج نفسه ، والله خليفتى على كل مسلم . إنه شاب قطط ، عينه طائفة كأنى أُشبهه بعبد العُزى بن قطن ، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف ، وإنه خارج خَلَّةً بين الشام والعراق ، فعاث يميناً وعاث شمالاً ، يا عباد الله فاثبتوا » .

قلنا : يا رسول الله ، وما لبثه فى الأرض ؟ قال : « أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ، يوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم » .

قلنا : يا رسول الله فذلك اليوم الذى كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال : لا ، اقدروا له قدره .

قلنا : يا رسول الله ، وما إسراعه فى الأرض ؟ قال : «كالغيث استدبرته الريح ، فيأتى على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى ، وأسبغه ضروعاً ، وأمده خواصر ، ثم يأتى القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله ، فينصرف عنهم ، فيصبحون ممحِلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها : أخرجى كنوزك ، فتتبعه كنوزها كيعاسب النخل ، ثم يدعو رجلاً شابا ممتلئا شبابا ، فيضربه فيقطعه جزلتيْن رمية الغرض ، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك ، فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقىّ

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقى فى (كتاب الايمان) باب إهلال النبى ﷺ وهلاله جـ ٢ صـ ٩١٥ رقم ١٢٥٢/٢١٦ وانظر مسند أحمد (مسند أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ) جـ ٢ صـ ٢٤٠ ، صـ ٢٧٢ ، صـ ٥٤٠ ورواه ابن أبى شيبة فى مصنفه فى (كتاب الفتن) باب فتنة الدجال جـ ١٥ صـ ١٤٤ رقم ١٩٣٤٢

دمشق ، بين مهرودتين ، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر ، وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ ، فلا يحلّ لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات ، ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طرفه ، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ فيقتله ، ثم يأتى عيسى قوم قد عصمهم الله منه ، فيمسح عن وجوههم ، ويُحدّثهم بدرجاتهم فى الجنة ، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى ــ عليه السلام ــ أنّى قد أخرجت عباداً لى لا يدَانِ لأحدٍ بقتالهم ، فحرّز عبادى إلى الطور ، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيمر أولهم على بحيرة طبريَّة فيشربون ما فيها ، ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء ، ويُحصَرُ نبىُ الله عيسى ــ عليه السلام ــ وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم ، فيرغب نبى الله عيسى ــ عليه السلام ــ وأصحابه إلى الله ــ تعالى ــ فيرسل الله عليهم النَّغف فى رقابهم ، فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة ، ثم يهبط نبى الله عيسى ــ عليه السلام ــ وأصحابه إلى الأرض ، فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب نبى الله عيسى ــ عليه السلام ــ وأصحابه إلى الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت ، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله .

ثم يرسل الله مطراً لا يكُنُّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلفة .

ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك ، وردّى بركتك ، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ، ويستظلون بقحفها ، ويبارك فى الرِّسْلِ حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس ، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس ، واللِقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس ، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم ، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ، ويبقى شرار الناس ، يتهارجون فيها تهارج الحمر ، فعليهم تقوم الساعة » . أ هـ(١) .

« رواه مسلم ــ واللفظ له ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، وأحمد فى سنده ، والحاكم فى المستدرك » .

شرح مفردات الحديث

قوله ﷺ : « فخفض فيه ورفّع » قال النووى فى شرح « مسلم » : فى معناه قولان :

الأول : أن معنى (خفّض منه) : حقّره ، ومعنى (رفّع) فيه عظّمه وفخّمه ، فمن تحقيره قوله ﷺ : إنه أعور العين ، وإنه أهون على الله من ذلك ، وإنه لا يقدر على قتل أحد إلا ذلك الرجل ثم يعجز عنه ، وإنه يضمحل أمره ويُقتل بعد ذلك .

(١) انظر حديث مسلم بشرح النووى (كتاب الفتن) باب : ذكر الدجال جـ ١٨ صـ ٦٣ ــ ٧٠ ورواه أبو داود فى سننه باختصار ، انظر كتب الفتن والملاحم جـ ٤ صـ ١١٧ رقم ٤٣٢١ ورواه الترمذى فى (أبواب الفتن) من سننه ، باب : ما جاء فى فتنة الدجال جـ ٤ صـ ٥١٠ ــ ٥١٤ رقم ٢٢٤٠ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .
وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : فتنة الدجال ... الخ جـ ٢ صـ ١٣٥٦ ــ ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٥ .

ومن تفخيمه وتعظيم فتنته قوله ﷺ : ليس بين يدى الساعة خلق أعظم من الدجال ، وما من نبى إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذَّاب ، وتلك الأمور الخارقة للعادة التى تقع له .

والقول الثانى : فى معنى (خفّض فيه ورفّع) : أنه خفّض من صوته لكثرة ما تكلم من شأن الدجال ، فخفّض بعد طول الكلام والتعب ليستريح ثم رفّع ليبلغ صوته كل أحد .

ومعنى (حتى ظنناه فى طائفة النخل) أى : فى ناحية بساتين النخل بقرب المدينة كأنه حضر الآن .

ومعنى (غير الدجال أخوفنى عليكم) قال ذلك ﷺ حين شاهد استعظام الصحابة لأمر الدجال ، وشدة خوفهم من الافتتان به ، وقد بين ﷺ فى حديث آخر من هذا الذى يخاف علينا منه أكثر من الدجال ، فقال فيما رواه الإمام أحمد فى مسنده بسند جيد عن أبى ذر — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « غير الدجال أخوف على أمتى من الدجال : الأئمة المُضلُّون »[(1)] أى : الدعاة إلى الضلالات ! وما أكثرها وأكثرهم ، وأكثر من يتبعهم فى هذه الأيام وما بعدها نسأل الله السلامة والعون .

وقوله ﷺ فى وصف الدجال : (وإنه شاب قطط ، عينه طافئة) أى : شديد جُعودة الشعر مكروهة ، وعينه طافئة ، أى : ذهب نورها وهى العين اليمنى الممسوحة ، ويروى طافية — بالياء — أى : مرتفعة ناتئة فتكون العين اليسرى كما حققه النووى فى شرح مسلم .

(عبد العزيز بن قطن) : رجل من خزاعة ، هلك فى الجاهلية .

« فمن يدركه منكم فليقرأ فواتح سورة الكهف » قال العلامة الطيبى : المعنى : أن قراءة المؤمن لأحد هذين العشرين من أول السورة أو آخرها — كما ورد فى رواية أخرى — أمان من فتنة الدجال ، كما أمنت تلك الفِتْية من فتنة دقيانوس الجبار .

ومعنى « خَلَّةَ بين الشام والعراق » : طريق بين الشام والعراق .

(فعاث يمينا وعاث شمالا) أى : أفسد عن يمينه وأفسد عن شماله مسرعاً فى إفساده أيما إسراع .

وقوله ﷺ : « يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كجمعة ، وسائر أيامه كأيامكم .. » قال المحقق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة : إنه — أى : الدجال — يأخذ بأسماع الناس وأبصارهم ، حتى يخيل إليهم أن الزمان قد استمر على حالة واحدة ، إسفار بلا ظلام ، وصباح بلا مساء ، يحسبون أن الليل لا يمد عليهم رواقه ، وأن الشمس لا تطوى عنهم ضياءها فيبقون فى حيرة والتباس من امتداد الزمان ، ويدخل عليهم دواخل باختفاء الآيات الظاهرة فى اختلاف الليل والنهار ، فأمرهم ﷺ أن يجتهدوا عند مصادمة تلك الأحوال ،

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد (حديث أبى ذر — رضى الله عنه —) جـ ٥ صـ ١٤٥ .

ويقدروا لكل صلاة قدرها ، إلى أن يكشف الله عنهم تلك الغمة ، هذا الذى اهتدينا إليه من التأويل ، والله الموفق لإصابة الحق وهو حسبنا ونعم الوكيل » انتهى .

وقوله : (فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرى وأسبغه ضروعاً ، وأمره خواصر) أى : ترجع عليهم آخر النهار ماشيتهم التى تذهب بالغدوة أوائل النهار إلى مراعيها أعلى ما كانت سناماً وهذا كناية عن كثرة السمن فى السارحة والماشية التى عندهم .

وقوله : « فيصبحون ممحلين » قد أصابهم المحل ، وهو انقطاع المطر وييس الأرض من الكلأ والعشب .

وقوله : «كيعاسب النحل ، مفردها : يعسوب ، وهو أمير النحل متى صار تبعته جماعته ، والمراد تتبع كنوز تلك الأرض الدجال كما تتبع النحل يعاسيبها طاعة ومتابعة .

وقوله : « فيقطعه جزلتين رمية الغرض » : جزلتين ، أى : قطعتين ، والغرض : الهدف . ومعنى رمية الغرض : أنه حينما يقطع الدجال بالسيف ذلك الشاب قطعتين تتباعد القطعتان عن بعضهما كبعد رمية السهم عن القوس . « ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك » أى : يقبل ذلك الشاب على الدجال يتلألأ وجهه يضىء ، ضاحكاً ساخراً من الدجال ، يقول : كيف يصلح هذا إلٰهاً ؟ » .

وقوله : « بين مهروزتين .. » معناه : ينزل عيسى — عليه السلام — فى حُلَّتين لابسهما ، وفيهما صفرة خفيفة . فيكون على جمال فى الملبس إلى جماله — عليه السلام — فى الخِلقةَ والذات .

وقوله : « فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات » أى : لا يمكن ولا يقع الكافر يجد ريح نَفَس عيسى — عليه السلام — إلا مات . قال علامة القرطبى : يعنى أن الله — سبحانه — قوَّى نَفَس عيسى — عليه السلام — حتى يصل إلى إدراك بصره ، ومعناه أن الكفار لا يقربونه ، وإنما يهلكون عند رؤيته ووصول نفسه إليهم ، حفظ من الله — سبحانه — وإظهار لكرامته .

وقوله : « ونفسه حيث ينتهى طرفه » أى : حيث ينتهى امتداد بصره الشريف . « باب لدّ » : بلدة معروفة الآن فى فلسطين قريبة من بيت المقدس . « بحيرة طبرية » : عند جبل الطور .

وقوله : « فيرسل الله عليهم النغف فى رقابهم » أى : فيستجيب الله لهم ويرسل عليهم النغف فى رقابهم ، وهو دود يكون فى أنوف الإبل والغنم .

وقوله : « فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة » : يعنى أن القهر الإلٰهى الغالب على كل شىء يفرسهم دفعة واحدة فيصبحون موتى .

وقوله : « كأعناق البخت » : نوع من الجمال طوال الأعناق ، أى : يرسل الله طيراً كبيرة طويلة الأعناق .

وقوله : « فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلفة » أى : كالمرآة فى صفائها ونظافتها . « العصابة » أى : الجماعة « بقحفها » أى : بقشرها لشدة كبرها . « الرِّسْل » أى : اللبن الحليب . « الفئام » : الجماعة الكثيرة . « الفخذ » : الجماعة أقل من القبيلة . « تهارج الحمر » أى : يتسافدون فى الأرض تسافد الحمير ، أى : يجامع الرجال علانية النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير . (الهَرْج) : الجماع وهذا نموذج لشيوع الفساد والفواحش حينذاك .

الحديث ٦ — عن حذيفة بن أسيد الغفارى — رضى الله عنه — قال : اطّلع النبى ﷺ علينا ، ونحن نتذاكر فقال : « ما تذاكرون ؟ » قالوا : نذكر الساعة ، قال : « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن ، تطرد الناس إلى محشرهم »(١) .

« أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه » .

شرح مفردات الحديث

« عشر آيات » أى : عشر علامات . وقد جاءت العلامات العشر هنا معطوفة بالواو ، والواو لمطلق الجمع ، فلا تفيد أنها ستقع بالترتيب المذكور هنا ، وهذه الآيات كما قال الطيبى — رحمه الله تعالى — ونقله عنه الحافظ ابن حجر فى « فتح البارى » ٣٣/١١ : أمارات وعلامات للساعة إمّا على قربها ، وإمّا على حصولها وقيامها ، فمن أمارات قربها : الدجال : ونزول عيسى — عليه السلام — ويأجوج ومأجوج ، والخسف . ومن أمارات قيامها : الدخان ، وطلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة ، والنار تحشر الناس .

قوله ﷺ فى علامة : (الدُّخان)

قال الصحابى الجليل عبد الله بن عمر — رضى الله عنه — : يخرج الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ، ويدخل فى مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ . أى : كالرأس المشوى على الجمر .

رواه ابن جرير فى تفسيره ، وقد جاء تفسير (الدخان) بهذا المعنى عن عدد من أجلاء الصحابة ، رفعه بعضهم إلى النبى ﷺ كأبى سعيد الخدرى وأبى مالك الأشعرى — رض الله عنهما — .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الفتنة وأشراط الساعة) جـ ١٨ صـ ٢٧ ، ٢٨ وانظر سنن أبى داود (كتاب الملاحم) باب أمارات الساعة جـ ٤ صـ ١١٤ ، ١١٥ رقم ٤٣١١
وورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الفتن) باب ما جاء فى الخسف جـ ٤ صـ ٤٤٧ رقم ٢١٨٣ وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب الآيات جـ ٢ صـ ١٣٤٧ رقم ٤٠٥٥ .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره ١٣٩/٤ بعد أن ذكر تفسيره مسنداً إلى ابن عباس : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس — رضى الله عنه — حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين — رضى الله عنهم أجمعين — مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة ، مع أنه ظاهر القرآن — قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾[1] أى : بين واضح يراه كل أحد ﴿ **يغشى الناس** ﴾ أى : فيغشاهم ويعمهم ﴿ **هذا عذاب أليم** ﴾ أى : يقال ذلك لهم تقريعاً وتوبيخاً ، أو يقول ذلك بعضهم لبعض . ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ أى : يقول الكافرون ذلك عندما إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم ، كقوله — جلت عظمته — ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين** ﴾[2] . انتهى .

معنى قوله ﷺ : (الدَّجَّال)

ذكر الحافظ ابن حجر فى (فتح البارى) ٨٦/١٣ ، ٨٩ — ٩٠ مما رواه — خاصة — الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى عنه قال : إن النبى ﷺ قال : « إنه يهودى ، وإنه لا يولد له ولد ، وإنه لا يدخل المدينة ولا مكة »[3] رواه مسلم . وإن عينه اليمنى عوراء ، جاحظة ، لا تخفى ، كأنها نُخاعة — أى : نُخامة — فى حائط مجصَّص ، وعينه اليسرى كأنه كوكب درى — يعنى من شدَّة اتقادها — معه من كل لسان ومعه صورة الجنة خضراء يجرى فيها الماء ، وصورة النار سوداء » . رواه أحمد فى مسنده ٧٩/٣ . « وبين يديه رجلان ينذران أهل القرى كلما خرجا من قرية دخل أوائله » رواه أبو يعلى والبزَّار .

وذكر الحافظ موطن خروجه فقال : وسيكون خروجه من قبل المشرق جزماً ، ثم جاء فى رواية أنه يخرج من خُراسان ، أخرج ذلك أحمد والحاكم ، وفى رواية : أنه يخرج من أصبهان ، أخرجها مسلم .

« ويخرج أولاً فيدعى الإيمان والصلاح ، ثم يدّعى النبوة ، ثم يدّعى الألوهية » .

ثم قال الحافظ — رحمه الله — : قال الخطابى : فإن قيل : كيف يجوز أن يجرى الله الآية على يد الكافر فإن إحياء الموتى آية عظيمة من آيات الأنبياء ، فكيف ينالها الدجال ، وهو كذاب مفتر يدعى الربوبية ؟ فالجواب : أنه على سبيل الفتنة للعباد ، إذ كان عندهم ما يدل على أنه مبطل غير محق فى دعواه ، وهو أنه أعور ، مكتوب على جبهته : كافر ، يقرؤه كل مسلم . فدعواه داحضة مع وسم الكفر ونقص الذات والقدر ، إذ لو كان إلٰهاً لأزال ذلك عن وجهه ، وآيات الأنبياء سالمة من المعارضة ، فلا يشتبهان » .

---

(١) الآية : ١٠ من سورة الدخان .

(٢) الآية : ٢٧ من سورة الأنعام .

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الفتن وأشراط الساعة) باب : ذكر ابن صياد جـ ١٨ صـ ٥٠ — ٥١ .

ثم قال الحافظ ابن حجر بعد كلام الخطابى هذا : « وفى الدجال دلالة بينة ــ لمن عقل ــ على كذبه ، لأنه ذو أجزاء مؤلفة ، وتأثير الصنعة فيه ظاهر ، مع ظهور الآفة به من عور عينيه ــ أى : عيبهما ــ فإذا دعا الناس إلى آية ربهم فأسوأ حال من يراه من ذوى العقول أن يعلم أنه لم يكن ليسوى خلق غيره ويعدِّله ويحسِّنه ولا يدفع النقص عن نفسه ، فأقل ما يجب أن يقول : يا من يزعم أنه خالق السماء والأرض ، صور نفسك وعدِّلها ، وأزل عنها العاهة ، فإن زعمت أن الرب لا يحدث فى نفسه شيئا فأزل ما هو مكتوب بين عينيك ! » .

ثم قال الحافظ ــ رحمه الله ــ : « وقال القاضى عِيَاض : فى هذه الأحاديث حُجة لأهل السنة فى صحة وجود الدجال ، وأنه شخص معين ، يبتلى الله به العباد ، ويقدره على أشياء كإحياء الميت الذى يقتله ، وظهور الخصب ، والأنهار والجنة والنار واتباع كنوز الأرض له فتنبت ، وكل ذلك بمشيئة الله ــ تعالى ــ ثم يعجزه الله فلا يقدر على قتل ذلك الرجل ولا غيره ، ثم يبطل أمره ، ويقتله عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ .

وقال الشيخ أبو بكر ابن العربى : الذى يظهر على يد الدجال من الآيات : من إنزال المطر والخصب على من يصدقه ، والجذب على من يكذبه ، واتباع كنوز الأرض له ، وما معه من جنة ونار ، ومياه تجرى ، كل ذلك محنة من الله واختبار ، ليهلك المرتاب ، وينجو المتقين ، وذلك كله أمر مخوف ، ولهذا قال ﷺ : « لا فتنة أعظم من فتنة الدجال »(1) . وكان ﷺ يستعيذ منها فى صلاته تشريعاً لأمته ﷺ : انتهى .

وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصَّدَفى : قلتُ للشافعى : كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ، فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة . فقال الشافعى : قصَّر الليث ــ رحمه الله ــ بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ، ويطير فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة » انتهى .

وقال الحافظ ابن كثير : وقد أخبر الله ــ تبارك وتعالى ــ فى كتابه ، ورسوله ﷺ فى السنة المتواترة عنه : أنه لا نبى بعده ، ليعلموا أن كل من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذَّاب أفاك ، دجّال ضال مضل ، ولو تخرّق ــ أى : أتى بالخوارق الظاهرة ــ وشعبذ ــ أى : عمل عملاً فيه خداع للعين والفكر ــ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجات ــ الحيل ــ فكلها محال وضلال عند أولى الألباب . كما أجرى الله ــ سبحانه وتعالى ــ على يد الأسود العنسى باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة ، من الأحوال الفاسدة ، والأقوال

---

(1) هذا جزءحديث رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الفتن) باب فتنة الدجال ... الخ جـ ٢ صـ ١٣٥٩ رقم ٤٠٧٧ وهو حديث أبى أمامة الطويل .

الباردة ، ما علم كل ذى لب وفهم وحِجىً : أنهما كاذبان ضالّان ــ لعنهما الله تعالى ــ وكذلك كل مدّع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيخ الدجال .

فكل واحد من هؤلاء الكذّابين يخلق الله ــ تعالى ــ معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون يكذب من جاء بها . وهذا من تمام لطف الله ــ تعالى ـ بخلقه ، فإنهم ــ أى : أولئك المدّعين الكذّابين ــ بضرورة الواقع : لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل ارتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون هؤلاء فى غاية الإفك والفجور فى أقوالهم وأفعالهم ، كما قال ــ تعالى ــ : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم** ﴾[1] وهذا بخلاف حال الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ فإنهم فى غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ، ويأمرون به وينهون عنه ، مع ما يؤيَّدون به من الخوارق للعادات والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ــ فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً مادامت الأرض والسموات ــ .

معنى قوله : (والدّابة)

قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره ٣٧٤/٣ : « هذه الدابة تخرج من آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، يُخرج الله لهم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك . قال ــ تعالى ــ فى سورة النمل : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾[2] . قال الآروسى فى « روح المعانى » ٣١٤/٦ : «أى : تكلمهم بأنهم لا يتيقنون بآيات الله ــ تعالى ــ الناطقة بمجىء الساعة ومباديها ، أو بجميع آياته التى من جملها تلك الآيات . وقصارى ــ أى : غاية ــ ما أقول فى هذه الدابة أنها دابة عيمة ذات قوائم ، ليست من نوع الإنسان أصلاً ، يخرجها الله ــ تعالى ــ آخر الزمان من الأرض وتخرجُ وفى الناس مؤمن وكافر .

قوله : (وطلوع الشمس من مغربها) .

روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون ، فذاك حين ﴿ **لا ينفع نفساً**

(١) الآيتان : ٢٢١ ، ٢٢٢ من سورة الشعراء .
(٢) الآية : ٨٢ من سورة النمل .

إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً ﴾[1] ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتابعانه ولا يطويانه ! ولتقومنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقحته ـــ أى : ناقته ـــ فلا يطعمه ! ولتقومنّ الساعة وهو يليط حوضه ـــ أى : يطينه ويصلحه ـــ فلا يسقى فيه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فيه ـــ أى : إلى فمه ـــ فلا يطعَمُها[1] » انتهى . وصدق سيدنا رسول الله ﷺ فإن الله ـــ تعالى ـــ يقول : ﴿ **لا تأتيكم إلا بغتة** ﴾[2] .

أما قوله : ﴿ **ونزول عيسى ابن مريم** ﴾ أى : ينزله الله من السماء حاكماً بالإسلام كما سبق ذكره .

قال شيخنا الكوثرى ـــ رحمه الله تعالى ـــ فى كتابه « نظرة عابرة فى مزاعم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة » ص ٤٤ : « والتواتر فى حديث نزول عيسى ـــ عليه السلام ـــ تواتر معنوى حيث تشاركت أحاديث كثيرة جداً ـــ بينها الصحاح والحسان بكثرة ـــ فى التصريح بنزول عيسى مع اشتمال كل حديث منها على معانى أخرى ، وهذا مالا يستطيع إنكاره أحد ممن شم رائحة علم الحديث .

وقال العلامة الآلوسى فى تفسيره بعد هذا : « ثم إن عيسى ـــ عليه السلام ـــ حين ينزل باقٍ على نبوته السابقة لم يعزل عنها بحال ، لكنه لا يتعبد بها لنسخها فى حقه وحق غيره ، وتكليفه بأحكام هذه الشريعة أصلاً وفرعاً ، فلا يكون إليه ـــ عليه السلام ـــ وحى ولا نصب أحكام ، بل يكون خليفة لرسول الله ﷺ وحاكماً من حكام ملته بين أمته بما علمه فى السماء قبل نزوله من شريعته ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ كما فى بعض الآثار » .

وقوله ﷺ : (ويأجوج ومأجوج)

كل واحد من هذين اللفظين : اسم لقبيل وأمة من الناس ، مسكنهم فى أقصى الشرق ، وما يقال فى خلقتهم وصفاتهم مما يخيل إلى سامعه أنهم ليسوا من طبيعة البشر ولا على خلقة الناس فكذب لا أصل له . قال الحافظ ابن كثير فى « تفسيره » سورة الكهف : « هم من سلالة آدم ـــ عليه السلام ـــ كما ثبت فى « الصحيحين » : أن الله ـــ تعالى ـــ يقول : ـــ أى : يوم القيامة ـــ يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ ـــ أى : وما مقدارهم ؟ ـــ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها !

---

(١) من الآية : ١٥٨ من سورة الأنعام .

والحديث رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب التفسير) تفسير سورة الأنعام جـ ٣ صـ ٨٥ من صحيح البخارى بحاشية السندى .

وانظر (كتاب الفتن) من نفس المصدر جـ ٤ صـ ١٥٦ .

(٢) من الآية : ١٨٧ من سورة الأعراف .

فقال : ــ أى : رسول الله ﷺ ــ : إن فيكم أمتين ما كانتا فى شىء إلا كثّرتاه : يأجوج ومأجوج »[١] . انتهى .

وقد اتفقت كلمة القرآن الكريم والحديث الشريف على كثرة يأجوج ومأجوج وشدة إفسادهم .

وقوله ﷺ : « وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم » .

أى : تسوقهم إلى مكان حشرهم وهو أرض بلاد الشام . وقد ثبت ذلك فى عدة أحاديث أوردها الحافظ ابن حجر فى فتح البارى منها : عن أنس ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « أول أشراط الساعة : نار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب »[٢] رواه البخارى وعن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « تُبعَثُ نار على أهل المشرق فتحشرهم إلى المغرب ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ــ من القيلولة »[٣] .

والمراد أن النار تلازمهم فتكون معهم حيث كانوا فى الليل والنهار ــ ويكون لها ما سقط منهم وتخلّف ، وتسوقهم سوق الجمل الكسير ، أى : تسوقهم ببطء . قال الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ١٢/٨ رواه الطبرانى ورجاله ثقات ، وعزاه الحافظ ابن حجر إلى مستدرك الحاكم ٥٤٨/٤ .

ثم قال الحافظ ابن حجر : « ووجه الجمع بين هذه الأخبار أن كون النار تخرج من قعر عدن ، لا ينافى حشرها من المشرق إلى المغرب ، وذلك أن ابتداء خروجها من قعر عدن ، فإذا خرجت انتشرت فى الأرض كلها . والمقصود بقوله ﷺ : « تحشر الناس من المشرق إلى المغرب » إرادة تعميم الحشر لا خصُوص المشرق والمغرب ، وأما جعل الغاية إلى المغرب فلأن الشام بالنسبة إلى المشرق : مغرب » انتهى بزيادة وتصرف .

وقد تضمنت هذه الأحاديث بيان مكان خروج النار ، وبيان وقت خروجها وكيفية سوقها للناس ، ومنتهاها بهم . وجاء فى حديث آخر بيان هال الناس حين يساقون إلى المحشر فى الشام .

روى البخارى فى صحيحه ومسلم فى صحيحه أيضاً عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ قال : « يحشر الناس ــ أى : إلى الشام ــ قبل قيام الساعة ، وهم أحياء على ثلاث طرائق ــ أى : على ثلاث أحوال ــ راغبين راهبين ، واثنان على بعير ، هذا معطوف على محذوف تقديره : واحد على بعير ،

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب : قوله لآدم : أخرج .. الخ جـ ١ صـ ٥٥ رقم ١٣٣ من رواية أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (كتاب الفتن) باب : خروج النار جـ ٤ صـ ١٥٦

(٣) انظر مجمع الزوائد (باب خزوج النار) جـ ٨ صـ ١٢ .

واثنان على بعير ، وثلاثة على بعير ، وأربعة على بعير ، وعشرة على بعير ، أى : أنهم يتعاقبون على ركوب البعير الواحد فيركب بعضهم ويمشى بعضهم ، وتحشر بقيتهم النار ، تقيل معهم حيث قالوا ، وتبيت معهم حيث باتوا ، وتصبح معهم حيث أصبحوا ، وتمسى معهم حيث أمسوا ، أى : تلازمهم كل الملازمة إلى أن يصلوا إلى مكان الحشر ، نسأل الله السلامة والعون » .

الحديث ٧ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ قال : « ليس بينى وبينه نبى ــ يعنى عيسى بن مريم ــ وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه ، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ، بين ممصَّرتين ، كأنّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيقاتل الناس على الإسلام ، فيدق الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويهلك الله فى زمانه الملل كلها إلا الإسلام ، ويهلك المسيخ الدجال ، فيمكث فى الأرض أربعين سنة ، ثم يتوُفى ، فيصلى عليه المسلمون »[1] . رواه أبو داود واللفظ له ، وابن أبى شيبة ، وأحمد فى مسنده ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن جرير كما فى « الدر المنثور » وصححه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى من نزول عيسى ــ عليه السلام ــ ٣٥٧/٦ .

الحديث ٨ ــ عن مجمِّع بن جارية الأنصارى ــ رضى الله عنه ــ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يقتل ابن مريم الدجال بباب لُدّ »[2] رواه الترمذى ، وقال : هذا حديث صحيح ، ورواه أحمد فى مسنده بأربعة طرق ، وفى بعض طرقه « إلى جانب باب لُدّ » .

الحديث ٩ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى ينزل عيسى ابن مريم حكماً مقسطاً وإماماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد »[3] رواه ابن ماجه واللفظ له ، وأحمد فى « مسنده » .

الحديث ١٠ ــ عن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى قال : فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم ، فقال : لا علم لى بها ،

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتب الملاحم) باب خروج الدجال جـ ٤ صـ ١١٧ ، ١١٨ رقم ٤٣٢٤ ورواه ابن أبى شيبة بأطول من هذا فى مصنفه فى (كتاب الفتن) باب : ما ذكر فى فتنة الدجال جـ ١٥ صـ ١٥٨ ، ١٥٩ .

وانظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (ذكر البيان بأن عيسى بن مريم إذا نزل يقاتل الناس على الإسلام جـ ٨ صـ ٢٨٩ ، ٢٩٠ رقم ٦٧٨٢

مسند أحمد (مسند أبى هريرة) جـ ٢ صـ ٤٠٦

(٢) سنن الترمذى (كتاب الفتن) باب : ما جاء فى قتل عيسى بن مريم الدجال جـ ٤ صـ ٥١٥ رقم ٢٢٤٤ وانظر مسند أحمد ١٣ ــ ٤٢ ، ٢٢٦/٤ .

(٣) سنن ابن ماجه (كتب الفتن) باب : فتنة الدجال ... الخ جـ ٢ صـ ١٣٦٣ رقم ٤٠٧٨ وانظر صحيح البخارى (كتاب المظالم والغضب ... الخ) جـ ٣ صـ ١٧٨ با (كسر الصليب وقتل الخنزير) .

وانظر مصنف ابن أبى شيبة (كتب الفتن) باب : ما ذكر فى فتنة الدجال جـ ٥ صـ ١٤٤ رقم ١٩٣٤١ .

فردوا الأمر إلى موسى ، فقال : لا علم لى بها ، فردوا الأمر إلى عيسى فقال : أمَّا وجبتها (أى : ساعة قيامها) فلا يعلمها أحد إلا الله — تعالى — ذلك وفيما عهد إلىّ ربى — عز وجل — أن الدجّال خارج ، قال : ومعي قضيبان (أى : سيفان لطيفان دقيقان) فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص ، قال : فيهلكه الله ، حتى أن الحجر والشجر ليقول : يا مسلم إن تحتى كافراً فتعال فاقتله . قال : فيهلكهم الله — تعالى — ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم . قال : فعند ذلك يخرج يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، فيطأون بلادهم ، لا يأتون على شيء إلا أهلكوه ، ولا يمرون على ماء إلا شربوه ، ثم يرجع الناس إلىَّ فيشكونهم ، فأدعو الله عليهم فيهلكهم الله — تعالى — ويميتهم ، حتى تجوى الأرض ، (أى : تُنتن) من نتن ريحهم ، قال : فيُنزل الله — عز وجل — المطر فيجترف أجسادهم حتى يقذفهم فى البحر .

قال عبد الله بن أحمد : قال أبى : ذهب علىَّ هاهنا شيء لم أفهمه ، كأديم . وقال يزيد — يعنى ابن هارون — : « يُنسَفُ الجبال وتمد الأرض من الأديم » . ثم رجع إلى حديث هُشَيْم قال : « ففيما عهد إلىّ ربى — عز وجل — أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المُتِمّ التى لا يدرى أهلها متى تفجؤهم بولادتها ليلاً أو نهاراً »(1) .

رواه أحمد فى « مسنده » واللفظ له ، والحاكم فى المستدرك وقال : صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبى على ذلك ، وأقره الحافظ ابن حجر فى فتح البارى من نزول عيسى — عليه السلام — وأخرجه ابن ماجه ، وابن أبى شيبة وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه والبيهقى كما فى الدر المنثور .

قال الحافظ ابن كثير « فى تفسيره » ٢٧٣/٢ : « إنما ردوا الأمر إلى عيسى — عليه السلام — فتكلم على أشراطها ، لأنه ينزل فى آخر هذه الأمة منفذاً لأحكام رسول الله ﷺ ، ويقتل المسيخ الدجال ، ويجعل الله هلاك يأجوج ومأجوج ببركة دعائه ، فأخبر — عليه السلام — بما أعلمه الله — تعالى — به » .

الحديث ١١ — عن سمرة بن جُندب — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ فى حديث طويل سرده سمرة فى خطبة خطبها ، قال : ثم سلم — يعنى ﷺ بعد فراغه من صلاة كسوف كان للشمس — فحمد الله وأثنى عليه ، وشهدا أن لا إله إلا الله ، وشهد أنه عبده ورسوله ، ثم قال :

(١) سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب : فتنة الدجال وخروج عيسى ... الخ جـ ٢ صـ ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ رقم ٤٠٨١ .
قال فى الزوائد : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات ، ورواه الحاكم وقال : هذا صحيح الإسناد .
ورواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبدالله بن مسعود — رضى الله عنه —) جـ ١ صـ ٣٧٥ .
وانظر المستدرك للحاكم (كتاب التفسير) تفسير سورة الأنبياء جـ ٢ صـ ٣٨٤ ، ٣٨٥ وصححه الحاكم والذهبى .
وأخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه فى (كتاب الفتن) باب فتنة المسيخ الدجال جـ ١٥ صـ ١٥٨ رقم ١٩٣٧١ .
وانظر مجمع الزائد (كتاب الفتن) باب : ما جاء فى الدجال جـ ٧ صـ ٣٤١ .

« يا أيها الناس إنما أنا بشر ورسول الله ، فأذكّركُم الله — تعالى — إن كنتم تعلمون أنى قصَّرت عن شيء من تبليغ رسالات ربى لما أخبرتمونى حتى أبلغ رسالات ربى كما ينبغى لها أن تبلغ ، وإن كنتم تعلمون أنى قد بلغت رسالات ربى لما أخبرتمونى » فقام الناس ، فقالوا : نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك ، ونصحت لأمتك ، وقضيت الذى عليك ، ثم سكتوا .

فقال رسول الله ﷺ : أما بعد : فإن رجالاً يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض ، وإنّهم كذَبوا ، ولكن آيات من آيات الله يفتن بها عباده لينظر من يحدث من توبة ، والله لقد رأيت منذ قمت أصلى ما أنتم لاقون فى دنياكم وآخرتكم .

وإنه — والله — لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذاباً آخرهم الأعور الدجال ، ممسوح العين اليسرى ، كأنه عين أبى يحيى — لشيخ من الأنصار — وإنه متى خرج فإنه يزعم أنه الله ، فمن آمن به وصدقه واتبعه فليس ينفعه صالح من عمل سلف ، ومن كفر به وكذّبه فليس يعاقب بشيء من عمل سلف .

وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس ، وإنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس ، فيتزلزلون زلزالاً شديداً فيصبح فيهم عيسى ابن مريم — عليه السلام — فيهزمه الله وجنوده ، حتى إنَّ جذِمَ الحائط (أى : أصل الحائط) وأصل الشجرة لينادى : يا مؤمن هذا كافر يستتر بى فتعال فاقتله . ولن يكون ذلك حتى تروا أموراً يتفاقم شأنها فى أنفسكم تساءلون بينكم هل كان بينكم ذكر لكم منها ذكراً ؟ وحتى تزول جبال عن مراسيها ، ثم على أثر ذلك القبض (يعنى الموت وقيام الساعة) وأشار بيده » قال : أى : راوى الحديث عن سمرة : ثم شهدت خطبة أخرى . فذكر هذا الحديث ما قدمها ولا أخرها : (أى : شهدت خطبة أخرى لسمرة فذكر هذا الحديث أيضاً كما سمعته منه أول مرة ما قدم فيه كلمة ولا أخّرها)[1] .

قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ووافقه الذهبى على تصحيحه . وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده ، وأخرجه الطبرانى بلفظ المسند ، وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والطحاوى فى « معانى الآثار » والبيهقى فى « السنن الكبرى » وابن جرير فى « تهذيب السنن والآثار » وسعيد ابن منصور فى « سننه » وأبو يعلى فى « مسنده » وأخرجه أبو داود والنَسَائى والترمذى وابن ماجه فى سننهم ،

---

(١) انظر المستدرك للحاكم (كتاب الكسوف) باب : صلاة الكسوف ركعتان .. الخ . جـ ١ صـ ٣٣٠ فقد أورده الحاكم وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص .

وانظر مسند أحمد (حديث سمرة بن جندب) جـ ٥ صـ ١٦ ورواه ابن خزيمة فى صحيحه فى (كتاب الصلاة) باب : استحباب استحداث التوبة عند كسوف الشمس .. الخ جـ ٢ صـ ٣٢٥ — ٣٢٧ .

ورواه ابن حبان فى صحيحه (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) باب : ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن الكسوف يكون لموت العظماء من أهل الأرض جـ ٤ صـ ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

وانظر تفسير الطبرى جـ ٣ صـ ٢٠٣ وكنزل العمال ٣٨٨٥٨ .

والبزّار فى مسنده ، والبخارى فى « خلق أفعال العباد » مختصراً ، وبعض ألفاظه يتحد مع ما عند مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة .

الحديث ١٢ ــ عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « كيف تهلك أمة أنا أولهَا وعيسى ابن مريم آخرُها ؟ » رواه الحاكم كما فى « كنز العمال » وصححه السيوطى فى « الدر المنثور » وقال المناوى فى « التيسير » : رواه النسائى وغيره .

الحديث ١٣ ــ عن عبد الرحمن بن جبير بن نُفير الحضرمى ، عن أبيه التابعى الجليل جبير بن نُفير قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يُجزِىَ الله أمة أنا فى أولها ، وعيسى فى آخرها »(١) أخرجه ابن أبى شيبة والحكيم الترمذى والحاكم ــ وصحح ــ وحسَّنه الحافظ ابن حجر فى فتح البارى .

الحديث ١٤ ــ عن حذيفة بن أسيد ــ رضى الله عنه ــ قال أبو الطفيل الليثى : كنت بالكوفة ، فقيل : قد خرج الدجال ! فأتينا حذيفة بن أسيد ، فقلت : هذا الدجال قد خرج ! فقال : اجلس ، فجلست ، فنودى : إنها كذبةُ صبَّاغ (أى : كذبة كذَّاب) فقال حذيفة : إن الدجال لو خرج فى زمانكم لرمته الصبيان بالحذَف (صغار الحصى) ولكنه يخرج فى نقص من الناس ، وخفة من الدين ، وسوء ذات بين ، فيرد كلّ منهل ، وتطوى له الأرض طىَّ فروة الكبش حتى يأتى المدينة فيغلب على خارجها ، ويمنع داخلها ، ثم جبل إيلياء (مدينة بيت المقدس) فيحاصر عصابة من المسلمين .

فيقول لهم الذى عليهم : ما تنظرون بهذه الطاغية أن تقاتلوه حتى تلحقوا بالله أو يفتح لكم ؟ فيأتمرون أن يقاتلوه إذا أصبحوا فيصبحون ومعهم عيسى ابن مريم ، فيقتل الدجال ، ويهزم أصحابه . حتى إن الشجر والحجر والمدر يقول : يا مؤمن هذا يهودى عندى فاقتله .

قال : وفيه ثلاث علامات : هو أعور ، وربكم ليس بأعور ومكتوب بين عينيه : (كافر) يقرؤه كل مؤمن أمى وكاتب . ولا يُسخَّر له من المطايا إلا الحمار ، فهو رجس على رجس ، ثم قال : أنا لغيرَ الدجال أخوف علىّ وعليكم ! فقلنا : ما هو ؟ قال : فتن كأنها قطع الليل المظلم . قال : فقلنا : أى الناسِ فيها شر ؟ قال : كل خطيب مِصقَع (أى : بليغ اللسان يخدع ببلاغته العقول والألباب ، فيريها الباطل حقّاً والحق باطلاً) . وكل راكب مُوضع (أى : مسرع ، ويريد من يسرع للفتنة) قال : فقلنا : أى الناس

---

(١) الحديث أخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول فى (الأصل الثانى والعشرين والمائة فى أن خير هذه الأمة أولها وآخرها) صـ ١٥٦ .

فيها خير ؟ قال : كل غنى خفىّ (أى : غنى النفس معتزل عن الناس) قال : فقلت : ما أنا بالغنى ولا بالخفىّ ، قال : فكن كابن اللّبون : لا ظهر فيُركب ، ولا ضرع فيُحلب »[(١)] .

أخرجه الحاكم وصححه ــ كما فى الدر المنثور ــ وأقره الذهبى فى « تلخيص المستدرك » واللبون : الناقة ذات اللبن ترضعه ولدها . وابن اللبون ولدها الصغير ، فهو لصغره لا يمكن أن يركب عليه لقتال ونحوه . ولا أن يكون فيه لبن ليحلب فيتغذى بلبنه . فيبقى بعيداً عن أن يستعان به فى أمر من أمور الفتنة . والحديث موقوف لفظاً على حذيفة بن أسيد ــ رضى الله عنه ــ لم يسند إلى النبى ﷺ ولكنه مرفوع حكماً ، إذ لا يَعلَمُ ما فيه إلا من جانب وحى النبوة .

الحديث ١٥ ــ عن أنس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أدرك منكم عيسى ابن مريم فليقرئه منى السلام »[(٢)] أخرجه الحاكم وصححه كما فى « الدر المنثور » .

الحديث ١٦ ــ عن واثلة بن الأسقع ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا تقوم الساعة حتى تكون عشر آيات : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، والدجال ، والدخان ، ونزول عيسى ، ويأجوج ومأجوج ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر تحشر الذَّرَّ والنّمل »[(٣)] (هذا كناية عن حشرها الناس جميعا ضعيفهم وقويهم) .

والحديث رواه الطبرانى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى فى تلخيص المستدرك ، ورواه ابن مردويه كما فى « كنز العمال » .

الحديث ١٧ ــ عن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « لن تهلك أمة أنا فى أولها ، وعيسى ابن مريم فى آخرها ، والمهدى فى وسطها »[(٤)] .

رواه النسائى ، وأبو نعيم فى « أخبار المهدى » والحاكم وابن عساكر فى تاريخهما وهو حديث حسن كما فى « السراج المنير » للعزيزى .

والمراد بالوسط : ما قبل الآخر ، لأن نزول عيسى ــ عليه السلام ــ لقتل الدجال يكون فى زمن المهدى ، ويصلى سيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ خلفه كما جاءت به الأخبار .

---

(١) انظر فتح البارى جـ ١٣ صـ ٩٢ (كتاب الفتن) .

(٢) المستدرك للحاكم (كتاب الفتن والملاحم) جـ ٤ صـ ٥٤٥

(٢) المستدرك للحاكم (كتاب الفتن والملاحم) جـ ٤ صـ ٤٢٨ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح **الإسناد** ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(٤) انظر كنز العمال جـ ١٤ صـ ٢٦٦ رقم ٣٨٦٧١ .

الحديث ١٨ — عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « يخرج الدجال فى خفة من الدين ، وإدبار من العلم ، وله أربعون يوماً ، يسيحها فى الأرض ، اليوم منها كالسنة ، واليوم منها كالشهر ، واليوم منها كالجمعة ثم سائر أيامه كأيامكم هذه .

وله حمار يركبه ، عرض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً ، فيقول للناس : أنا ربكم ، وهو أعور . وإن ربكم ليس بأعور . مكتوب بين عينيه : (كافر) ك ا ف ر — مهجّاة — يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب .

يرد كل ماء ومنهل إلا المدينة ومكة حرمهما الله — تعالى — عليه وقامت الملائكة بأبوابها . ومعه جبال من خبز والناس فى جهد إلا من تبعه . ومعه نهران أنا أعلم بهما منه ، نهر يقول : الجنة ، ونهر يقول : النار ، فمن أُدخل الذى يسميه الجنة فهو النار ، ومن أدخل الذى يسميه النار فهو الجنة ، ويبعث الله معه **شياطين تكلم الناس ، ومعه فتنة عظيمة : يأمر السماء فتمطر فيما يرى الناس ، ويقتل نفسا ثم يحييها فيما يرى الناس ولايسلط على غيرها من الناس ويقول : ياأيها الناس : هل يفعل هذا إلا الرب - عز وجل - ؟ فيفر المسلمون الى جبل الدخان بالشام ، فيأتيهم فيحاصرهم ، فيشتد حصارهم ويجهدهم جهدا شديدا .**

ثم ينزل عيسى ابن مريم من السَّحَر ، فيقول : ياأيها الناس ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث ؟ فيقولون : هذا رجل جنّى فينطلقون فإذا هم بعيسى ابن مريم — عليه السلام — فتقام الصلاة فيُقال : تقدم ياروح الله ، فيقول : ليتقدم إمامكم فليصل بكم ، فإذا صلى صلاة الصبح خرجوا إليه فحين يراه الكذاب ينماث كما ينماث الملح فى الماء (أى يختفى ويتوارى كما يذوب الملح فى الماء) فيمشى إليه فيقتله ، حتى إن الشجر والحجر ينادى : ياروح الله هذا اليهودى ، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله[(١)] . رواه أحمد فى مسنده وصححه الحاكم فى المستدرك وقال الذهبى فى « تلخيص المستدرك » : هو على شرط مسلم ورجاله ثقات .

الحديث ١٩ — عن عمران بن حُصين — رضى الله عنه — أن رسولَ الله ﷺ قال : « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم [أى : عاداهم] حتى يأتى أمر الله — تبارك وتعالى — **وينزل عيسى عليه السلام رواه أحمد فى مسنده ورجاله ثقات[(٢)] .**

الحديث ٢٠ — عن حذيفة بن اليمان — رضى الله عنه — قال : إن أصحاب النبى ﷺ كانوا يسألون عن الخير ، وكنت أسأل عن الشر مخافة أن أدركه ، وإنى بينما أنا مع رسول الله ﷺ ذات

---

(١) انظر مسند أحمد جـ ٣ صـ ٣٦٧ وانظر المستدرك للحاكم (كتاب الفتن والملاحم) جـ ٤ صـ ٥٣٠ وقال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى فى التلخيص فقال : على شرط مسلم .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد (مسند عمران بن حصين) جـ ٤ صـ ٤٢٩ وانظر المستدرك للحاكم (الفتن والملاحم) جـ ٤ صـ ٤٥٠

يوم قلت : يارسول الله أرأيت هذا الخير الذى أعطانا الله ، هل بعده من شر كما كان قبل شر ؟ قال : نعم . قلت : فما العصمة منه ؟ قال : السيف . قلت : وهل للسيف من بقية ؟ قال : هدنة على دخن . قلت : يارسول الله ما بعد الهدنة ؟ قال : دعاة للضلالة . فإن لقيت لله يومئذ خليفة فى الأرض فالزمه وإن أخذ مالك وضرب ظهرك ، فإن لم يكن خليفة فاهربن فى الأرض حدَّ هربك حتى يدركك الموت وأنت غاضٌّ على أصل شجرة ، قلت : يارسول الله فما بعد دعاة الضلالة ؟ قال : خروج الدجال : قلت : يارسول الله وما يجيء الدجال ؟ قال : يجيء بنار ونهر ، فمن وقع فى ناره وجب أجره ، وحُط وزره ، ومن وقع فى نهره وجب وزره وحط أجره .

قلت يارسول الله فما بعد الدجال ؟ قال عيسى ابن مريم قلت : فما بعد عيسى ابن مريم ؟ قال : لو أن رجلاً أنتج فرساً لم يركب مهرها حتى تقوم الساعة[1] رواه ابن أبى شيبة وابن عساكر كما فى « كنز العمال » وبعض ألفاظه يتحد مع ما عند البخارى ؛ فهو قوى إن شاء الله — تعالى — واستشهد الحافظ ابن حجر فى فتح البارى بجمل من حديث ابن أبى شيبة ، فهو حديث صحيح أو حسن عنده .

شرح مفردات الحديث

قوله : ﴿ **وهل للسيف من بقية ؟** ﴾ أى : هل يبقى استعمال السيف بقية من الناس ؟

وقوله : ﴿ **وهدنة على دخن** ﴾ أى : يبقى الناس على فساد فى قلوبهم وعلى اجتماع فى ظاهرهم ، ولكن لأهواء مختلفة وعيوب مؤتلفة ، وعلى هدنة على دخن ، أى : صُلح على فساد ونفاق فى القلوب وحقد فى النفوس .

وقوله : ﴿ **دعاة للضلالة** ﴾ وفى رواية البخارى : « دعاة على أبواب جهنم » أى : يدعون الناس إلى الكفر الذى يؤول بهم وبمن تبعهم إلى جهنم .

وقوله : ﴿ **فاهربن فى الأرض حد هربك** ﴾ حد هربك ، أى : منتهى هربك ، وأقصى ما تستطيع من البعد عن الفتنة وأهلها .

وقوله : ﴿ **وأنت عاض على أصل شجرة** ﴾ أى : حتى تموت وأنت على انقطاعك عن الناس وبعدك منهم صابراً على شدة الزمان ومكابدة المشقة التى تنالك فى ذلك .

---

(١) انظر مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الفتن) باب من كره الخروج فى الفتنة وتعوذ عنها جـ ١٥ صـ ٩٨ رقم ١٨٩٦٠ وانظر تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر حـ ٥ صـ ١٦٥ فى ترجمة الخضر بن زكريا بن إسماعيل

وقوله : ﴿ ومن وقع فى نهره وجب وزره وحُطَّ أجره ﴾ يعنى : من خالف أمر الدجال و لم يطعه فى دعوته وأوزاره فألقاه فى ناره وجب أجره ، وعفى له من ذنوبه السالفة . ومن وافقه فى دعوته وأطاع أمره ثبت عقابه وبطل ثوابه .

وقوله : ﴿ لو أن رجلاً أنتج فرساً لم يركب مهرها حتى تقوم الساعة ﴾ أى : لو أن رجلاً ولَّد فرساً عنده ولداً ، فما يحين ركوب ذلك المهُر الذى ولدته الفرس إلا وتقوم الساعة ، وهذا كناية عن شدة قرب قيامها . انتهى .

من مشاهد القيامة

قال ــ تعالى ــ

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ
مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ
ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ
ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ
وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم
بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ
سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ
﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟
حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ

الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ
هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

معانى المفردات

(الأخلاء) واحدهم : خليل ، وهو الصديق الحميم . (مسلمين) أى : مخلصين منقادين لربهم . (تحبرون) أى : تسرون سروراً يظهر حَباره (بفتح الحاء) أى : أثره من النضرة والحسن على وجوهكم . (والصحاف) واحدها : صحفة وهى كالقصعة ، قال الكسائى : أكبر أوانى الأكل : الجفنة ، ثم القصعة ، ثم الصحفة ، ثم المكلة (والأكواب) واحدها : كوب ، وهو كوز لا أذن له (المجرمين) المراد بالمجرمين هنا : الراسخون فى الإجرام ، وهم الكفار . (لا يفتر) أى : لا يخفف . (مبلسون) : من الإبلاس : وهو الحزن المعترض من شدة اليأس . (مالك) خازن جهنم . (ليقض علينا ربك) أى : يمتنا . (وأبرم الأمر) : أحكم تدبيره ، (أمراً) : هو التحيل فى تكذيب الحق (والسر) : هو ما يحدث به المرء نفسه أو غيره فى مكان خال . (والنجوى) : التناجى فيما بينهم . (سبحان رب السموات) أى : تنزيهاً له عن كل نقص (يصفون) أى : يقولون كذبا بأن له ولداً . (فذرهم) أى : فاتركهم (يخوضوا) أى : يسلكوا فى باطلهم مسلك الخائضين فى الماء . (ويلعبوا) أى : يفعلوا فى أمورهم الدنيوية فعل اللاعب الغافل عن عاقبة ما يعمل (يومهم) هو يوم القيامة . (إله) أى : معبود بحق لا شريك له ، (يدعون) أى : يعبدون (من شهد بالحق) أى : نطق بكلمة التوحيد . (يؤفكون) أى : يصرفون . (وقيله) أى : قوله . قال أبو عبيدة : يقال : قلت قولا وقالا وقيلا . (فاصفح عنهم) أى : اعف عنهم عفو المعرض ، ولا تقف عن التبليغ . (سلام) أى : سلام متاركة بسلامتكم منى وسلامتى منكم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ، بين أن هذا اليوم يأتى بغتة وهم لا يشعرون روى ابن مردويه عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة ، والرجلان يطويان الثوب ، ثم قرأ ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم**

لا يشعرون ﴾[1] ثم أردف ذلك بيان أحوال ذلك اليوم ، فمنها أن الأخلاء يتعادون فيه إلا من تخالّوا على الإيمان والتقوى ، ومنها أن المؤمنين لا يخافون من سلب نعمة ينتفعون بها ، ولا يحزنون على فقد نعمة قد فاتتهم ، ومنها أنهم يتمتعون بفنون الترف والنعيم فيطاف عليهم بصحاف من ذهب فيها ما لذ وطاب من المآكل ، وبأكواب وأباريق فيها شهيّ المشارب ، ويقال لهم : هذا النعيم كِفاء ما قدمتم من عمل بأوامر الشرع ونواهيه ، وأسلفتم من إخلاص لله وتقوى له . ثم أعقب ذلك بذكر ما يكون فيه الكفار من العذاب الأليم الدائم ، وذكر أن هذا ليس إلا جزاء وفاقا لما دسوا به أنفسهم من سيء الأعمال ، ثم أردف ذلك بمقال أهل النار لخزنة جهنم وطلبهم من ربهم أن يموتوا حتى يستريحوا مما هم فيه من العذاب ، ثم إجابتهم لهم عن ذلك ، ثم وبخهم على ما عملوا فى الدنيا واستحقوا به العذاب . ثم ذكر ما أحكموا تدبيره من رد الحق وإعلاء شأن الباطل ظنًّا منهم أنا لا نسمع سرّهم ونجواهم ، وقد وهموا فيما ظنوا ؛ فإن الله عليم بذلك ورسله يكتبون كل ما صدر عنهم من قول أو فعل **ثم أمر الله نبيه** ﷺ أن يقول للمشركين إحقاقا للحق ! إن مخالفته لهم فى عبادة ما يعبدون لم يكن بغضا منه لهم ولا عداوة لمعبوديهم بل لاستحالة نسبة ما نسبوه إليه وبنوا عليه عبادتهم لهم من كونهم بنات الله ، تنزه ربنا عما يقولون ، ثم أمره أن يتركهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى يلاقون فيه جزاء أعمالهم وأقوالهم ثم أخبر — سبحانه — بأن لا معبود فى السماء ولا فى الأرض سواه ، وهو الحكيم العليم ، وأن من يعبدونهم لا يشفعون لهم حين الجزاء والحساب ، ثم ذكر أن أقوالهم تناقض أفعالهم ، فهم يعبدون غير الله ويقولون : إن الخالق للكون : سمائه وأرضه هو الله ، ثم أردف هذا ببيان أنه لا يعلم الساعة إلا هو ، وأنه يعلم شديد حزنك على عدم إيمانهم وعدم استجابتهم لدعوتك ، ثم ختم السورة بأمر رسوله بالإعراض عنهم وتركهم وشأنهم ، وسيأتى اليوم الذى يلقون فيه الجزاء على سوء صنيعهم .

التفسير

قوله — تعالى — ﴿ **هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون** ﴾ يقول الله — تعالى — هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ؟ أى : فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين ، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها ، فحينئذ يندمون عليها كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم ، ونحو الآية قوله — تعالى — ﴿ **هل ينظرون إلا**

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطى : تفسير سورة الزخرف ج ٧ صـ ٣٨٧ وقال : « اللقحة » بدل (نعمة) . وعزاه إلى ابن مردويه .

أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾[١] **﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونُزّل الملائكة تنزيلاً الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً . ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾**[٢] وههنا يقول ــ جل فى علاه ــ : **﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾** أى : كل صداقة وخلة فإنها تنقلب فى ذلك اليوم إلى عداوة إلا ما كانت فى الله وفى سبيله ، فإنها تبقى فى الدنيا والآخرة . وهذا كما قال إبراهيم الخليل ــ عليه الصلاة والسلام ــ لقومه **﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ﴾**[٣] وكما حكى الله عنهم وهم فى النار يقولون : **﴿ وماأضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين ولا صديق حميم . فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين : إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم**[٤]

وقوله ــ تعالى ــ (إلا المتقين) فإنهم أخلاء فى الدنيا والآخرة ، يقول الحبيب المصطفى ﷺ : « إن الله ــ تعالى ــ يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظِلى يوم لا ظل إلا ظلِّى[٥] » رواه مسلم

وعن معاذ ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله ــ عز وجل ــ : المتحابون فى جلالى ، لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء »[٦] رواه الترمذى : وقال حديث حسن صحيح لذا رغب النبى ﷺ فى مصاحبة المؤمنين ، ومجالسة الأخيار ، ورهَّب من مصاحبة الكافرين ومجالسة الأشرار ، فقال ﷺ فى الحديث المتفق عليه : « إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء ، كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحُذيك ، وإما أن تبتاع منه ، وإمَّا أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة »[٧]

فقد شبه الرسول الكريم ﷺ الجليس الصالح ببائع الطِّيب الذى ينفحك بعطره ، ويغمرك بنشره ، فإما أن يهديك ، وإما أن تجد عنده ريحاً طيبة ، فأنت معه فى ربح دائم ونشوة غامرة ، أما جليس

(١) الآية : ٢١٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيات : ٢٥ ــ ٢٩ من سورة الفرقان .

(٣) من الآية : ٢٥ من سورة العنكبوت .

(٤) الآيات : ٩٩ ــ ١٠٤ من سورة الشعراء .

(٥) صحيح مسلم (كتاب البرّ والصلة والآداب) باب فى فضل الحب فى الله ج. ٤ صـ ١٩٨٨ رقم ٣٧ / ٢٥٦٦

(٦) سنن الترمذى (أبواب الزهد) باب : ما جاء فى الحب فى الله حـ ٤ صـ ٢٤

(٧) انظر صحيح البخارى (كتاب الذبائح) باب المسك حـ ٧ صـ ١٢٥ وذكره بمعناه فى كتاب البيوع من نفس المصدر ج ٣ صـ ٨٢ ورواه الإمام مسلم فى صحيحه فى (كتاب البر والصلة والآداب) ج ٤ صـ ٢٠٢٦ رقم ١٤٦ /٢٦٢٨

السوء فليس هناك أبلغ من تشبيهه بالحداد الذى ينفخ بكيره — مادة حارقة — فأنت معه فى خسارة دائمة ، فإن لم يحرقك بناره ، أحرقك بشرارة ، فصحبته هم دائما ، وحزن لازم ، ونار تلظى .

وقال ﷺ : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »[1] رواه الترمذى سننه ، وصححه النووى .

وقال ﷺ : « لا تصاحبْ إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقى »[2] أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى بسند حسن .

وقال بعض الحكماء : اصطف من الإخوان ذا الدين والحسب ، والرأى والأدب ، فإنه ردءالك عند حاجتك ، ويدفع نائبتك ، وأنس عند وحشتك ، وزَيْن عند عافيتك .

وقال حسان بن ثابت — رضى الله عنه — :

أخلاء الرخاء هُمُ كثير ... ولكن فى البلاء هم قُليل
فلا يغررك خلة من تؤاخى ... فما لك عند نائبة خليل
وكل أخ يقول أنا وفىّ ... ولكن ليس يفعل ما يقول
سوى خِلّ له حسب ودين ... فذاك لما يقول هو الفعول

وقال عدّى بن زيد :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى
إذا كنت فى قوم فصاحب خيارهم ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

قوله — تعالى — : ﴿ ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾ .

---

(١) سنن الترمذى (كتاب الزهد) باب ٤٥ رقم الحديث ٢٣٧٨ من رواية أبى هريرة وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . إلا أنه قال : « الرجل » مكان (المرء) ج ٤ صـ ٥٨٩
وانظر سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب : من يؤمر أن يجالس ج ٤ صـ ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ بنفس لفظ الترمذى .

(٢) انظر سنن الترمذى (أبواب الزهد) باب ما جاء فى صحبة المؤمن ج ٤ صـ ٢٧ رقم ٢٥٠٦ ورواه الإمام أحمد فى مسنده (ومسند أبى سعيد الخدرى) ج ٣ صـ ٣٨ إلا أنه قال : « تصحب » . ورواه أيضا أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : من يؤمر أن يجالس حـ ٤ صـ ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢ من رواية أبى سعيد الخدرى .

روى المعتمر بن سليمان عن أبيه : ينادى منادٍ فى العرصات : « ياعبادى لا خوف عليكم » فيرفع أهل العرصة رءوسهم ؛ فيقول المنادى : « الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين » فينكّس أهل الأديان رءوسهم غير المسلمين ، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم ؛ لأنه أكرم الأكرمين ، لا يخذل وليه ولا يسلمه عند الهلكة .

قال ــ عز وجل ــ : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم** ﴾(١) وقال سبحانه ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون** ﴾(٢)

وهنا يقول ــ سبحانه : ﴿ **ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون** ﴾ أى : يقال لهم : ادخلوا الجنة ﴿ **أنتم وأزواجكم** ﴾ المسلمات فى الدنيا المؤمنات بالله ورسوله . كما قال ــ سبحانه ــ : ﴿ **والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء** ﴾(٣) وكما قال ــ جل فى علاه ــ : ﴿ **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم . فنعم عقبى الدار** ﴾(٤)

وقوله ــ تعالى ــ : (تحبرون) قال ابن عباس : تكرمون . وقال الحسن : تفرحون ، وقال قتادة : تنعمون ، وقال مجاهد : تسَرُّون .

قال القرطبى : الكرامة فى المنزلة ، والفرح فى القلب ، والنعيم فى البدن ، والسرور فى العين .

وبعد أن ذكر ــ سبحانه ــ طرفاً مما يتمتعون به من النعيم ، فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب** ﴾ أى : وبعد أن يستقروا فى الجنة ويهدأ روعهم يطاف عليهم بجفان من الذهب مُترعة بألوان الأطعمة والحلوى وبأكواب فيها أصناف الشراب مما لذ وطاب .

وفى الصحيحين عن حذيفة أنه سمع النبى ﷺ يقول : ﴿ **لا تلبسوا الحرير ولا الدِّياج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا فى صحافها ؛ فإنها هم فى الدنيا ــ أى : للكافرين ــ**

(١) الآيات : ٣٠ ــ ٣٢ من سورة فصلت .
(٢) الآيتان : ١٣ ، ١٤ من سورة الأحقاف .
(٣) من الآية : ٢١ من سورة الطور .
(٤) الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ من سورة الرعد .

ولكم فى الآخرة ﴾[١] قال القرطبى : فمن أكل فيهما فى الدنيا أو لبس الحرير فى الدنيا و لم يتب حُرم ذلك فى الآخرة تحريما مؤبدا . والله أعلم .

وقوله ــ تعالى ــ ﴿ **وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون** ﴾ أى : وفى الجنة ما تشتهيه أنفس أهلها من صنوف الأطعمة والأشربة والأشياء المعقولة والمسموعة ونحوها مما تطلبه النفوس وتهواه كائنا ما كان ، جزاء لهم على ما منعوا أنفسهم من الشهوات ، وفيها ما تقر أعينهم بمشاهدته ، وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، وأنتم لا تخرجون منها ، ولا تبغون عنها حولا .

أخرج ابن أبى شيبة والترمذى عن عبد الرحمن بن سابط قال : قال رجل : يارسول الله هل فى الجنة خيل ؛ فإنى أحب الخيل ؟ قال : « إن يدخلك الله الجنة فلا تشاء أن تركب فرساً من ياقوتة حمراء فتطير بك فى أى الجنة شئت إلا فعلت ، وسأله آخر فقال : يارسول الله هل فى الجنة من إبل فإنى أحب الإبل ؟ فقال : إن يدخلك الله الجنة يكن لك ما اشتهت نفسك ولذت عينك »[٢]

ثم ذكر ــ سبحانه ــ أن هذا كان فضلاً من ربكم آتاكموه كفاء أعمالكم التى أسلفتموها ، فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون** ﴾ أى : وهذه الجنة جعلها الله لكم باقية كالميراث الذى يبقى عن المورث ، جزاء ما قدمتم من عمل صالح .

وبعد أن ذكر الطعام والشراب ذكر ــ سبحانه ــ الفاكهة فقال ــ تعالى ــ : ﴿ **لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون** ﴾ أى : لكم فيها صنوف من الفواكه لا حصر لها ، تأكلون منها حينما شئتم ، وكيفما اخترتم .

قال الإمام ابن القيم :

إن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور فى الخيال

وإن موضع سوط منها خير من الدنيا وما فيها .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان (كتاب اللباس والزينة) باب : تحريم استعمال إناء الذهب والفضة . الخ صـ ٥٤٠ رقم ١٣٣٩

(٢) روى الترمذى فى سننه حديث المسعودى عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن يزيد ، عن أبيه هذا الحديث مع اختلاف فى بعض الألفاظ ، ثم قال :

حدثنا سويد بن نصر ، أخبرنا عبد الملك بن المبارك ، عن سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن عبد الرحمن بن سابط عن النبى ﷺ نحوه بمعناه ، وهذا أصح من حديث المسعودى .

انظر سنن الترمذى (كتاب صفة الجنة) باب ما جاء فى صفة خيل الجنة ج ٤ صـ ٦٨١ رقم ٢٥٤٣ ورواية ابن سابط صـ ٦٨٢ ذكر سندها فقط ولم يذكر لفظها .

قال ــ تعالى ــ ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[1] وتأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذى أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس ، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم ، حين يقومون إلى صلاة الليل بقرة الأعين فى الجنة .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قال الله ــ عز وجل ــ : أعددت لعبادى الصالحين ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[2] مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ وفى صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدى قال : شهدت مع النبى ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى . ثم قال فى آخر حديثه : فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون . فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[3]

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب »[4]

وقد تقدم حديث أبى أمامة عن النبى ﷺ : « ألا مشمراً للجنة ؛ فإن للجنة خطراً لها ، هى ــ ورب الكعبة ــ نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام فى أبد فى دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة . ومحلة عالية بهية »[5]

ولو لم يكن من خطر الجنة وشرفها إلا أنه لا يسأل بوجه الله غيرها ، لكفاها شرفا وفضلا كما فى سنن أبى دواد من حديث سليمان بن معاذ عن ابن المنكدر عن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال قال رسول الله ﷺ : « لا يسأل بوجه الله إلا الجنة »[6] .

---

(١) الآيتان : ١٦ ، ١٧ من سورة السجدة

(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) صـ ٧٩٤ رقم ١٧٩٨

(٣) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) ج ١٧ صـ ١٦٧

(٤) صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب الجهاد) باب الغدوة والروحة فى سبيل الله .. الخ ج ٦ صـ ١٥ ولم يرد فى صحيح مسلم .

(٥) الحديث مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ . رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الزهد) باب صفة الجنة ج ٢ صـ ١٤٤٨ رقم ٤٣٣٢ ولكن من رواية أسامة بن زيد وليس من رواية أبى أمامة . فى الزوائد : فى إسناده مقال . والضحاك المعافرى الدمشقى ذكره ابن حبان فى الثقات . . . ثم قال : ورواه ابن حبان فى صحيحه .

(٦) انظر سنن أبى داود (كتاب الزكاة) باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى ج ٢ صـ ١٢٧ رقم ١٦٧١

وفى معجم الطبرانى من حديث بقية عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله جنة عدن ، خلق فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال لها : تكلمى . فقالت : قد أفلح المؤمنون »[1]

وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها »[2]

وكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده ، وجعلها مقرّاً لأحبابه ، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه ، ووصف نعيمها بالفوز العظيم ، وملكها بالملك الكبير ، وأودعها جميع الخير بحذافيره ، وطهرها من كل عيب وآفة ونقص ، فإن سألت عن أرضها وتربتها فهى المسك والزعفران ، وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن ، وإن سألت عن ملاطها فهو المسك الأذفر ، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر ، وإن سألت عن بنائها فلبنة من فضة ولبنة من ذهب . وإن سألت عن أشجارها فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة ، لا من الحطب والخشب ، وإن سألت عن ثمرها فأمثال القلال ، ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، وإن سألت عن ورقها فأحسن ما يكون من رقائق الحلل . وإن سألت عن أنهارها فأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى .

وإن سألت عن طعامهم ففاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وإن سألت عن شرابهم فالتسنيم والزنجبيل والكافور ، وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة فى صفاء القوارير .

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام ، وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها فإنها تستقر بالطرب لمن يسمعها ، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها . وإن سألت عن سعتها فأدنى أهلها يسير فى ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألفى عام .

وإن سألت عن خيامها وقبابها ، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة طولها ستون ميلا من تلك الخيام ، وإن سألت عن علاليها وجواسقها فهى غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ، وإن سألت عن ارتفاعها فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب فى الأفق الذى لا تكاد تناله الأبصار .

---

(١) انظر مجمع الزوائد (كتاب أهل الجنة) باب فى بناء الجنة وصفتها . ج ١٠ صـ ٣٩٧ ثم ذكر الهيثمى بعد روايتنا هذه رواية أخرى ، وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وأحد إسنادى الطبرانى فى الأوسط جيد .

(٢) صحيح البخارى بشرح الشيخ زروق (كتاب بدء الخلق) باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة ج ٦ صـ ٢٩٤ رقم ٦١

وإن سألت عن لباس أهلها فهو الحرير والذهب ، وإن سألت عن فراشها فبطائنها من إستبرق مفروشة فى أعلى الرتب ، وإن سألت عن أرائكها فهى الأسرة عليها البشخانات وهى الحجال مزررة بأزرار الذهب ، فما لها من فروج ولا ظلال . وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم فعلى صورة القمر . وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاث وثلاثين على صورة آدم — عليه السلام — أبى البشر ، وإن سألت عن سماعهم فغناء أزواجهم من الحور العين ، وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنَّبيين ، وأعلى منها خطاب رب العالمين .

وإن سألت عن مطاياهم التى يتزاورون عليها ، فنجائب — إن شاء الله — وشارتهم فأساور الذهب واللؤلؤ ، على الرءوس ملابس التيجان ، وإن سألت عن غلمانهم فولدان مخلدون كأنهم اللؤلؤ مكنون .

وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم ، فهى الكواعب الأتراب ، اللائى جرى فى أعضائهن ماء الشباب ، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود ، وللرمان ما تضمنته النهود ، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور ، وللرقة واللطافة ما دارت عليه الخصور ، تجرى الشمس من محاسن وجهها إذا برزت ، ويضىء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت ، إذا قابلت حبها فقل ما تشاء فى تقابل النيرين وإذا حادثته فما ظنك بمحادثة الحبيبين . وإن ضمها إليه فما ظنك بتعانق الغصنين ، ويرى وجهه فى صحن صدرها ، كما يرى فى المرآة التى جلاها صقلها ، ويرى مخ ساقها من وراء اللحم ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حللها . لو اطلعت على الدنيا لملأت ما بين الأرض والسماء ريحا . وأفواه الخلائق تهليلا وتكبيرا وتسبيحاً ، ولتزخرف لها ما بين الخافقين ، ولغمضت عن غيرها كل عين ، ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم ، ولآمن على ظهورها بالله الحى القيوم . ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها ، ووصالها أشهى إليه من جميع أمانيها ، ولا يزداد على طول الأحقاب إلا حسنا وجمالا ، ولا يزداد لها طول المدى إلا محبة ووصالا ، مبرأة من الحمل والولادة ، والحيض والنفاس ، مطهرة من المخاط والبصاق ، والبول والغائط وسائر الأدناس ، لا يفنى شبابها ، ولا تبلى ثيابها ، ولا يخلق ثوب جمالها ، ولا يمل طيب وصالها ، قد قصرت طرفها على زوجها ، فلا تطمع لأحد سواه ، وقصر طرفه عليها فهو غاية أمنيته وهواه . وإن نظر إليها سرته ، وإن أمرها بطاعته أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته ، فهو منها فى غاية الأمانى . هذا لم يطمثها قبله إنس ولا جان ، كلما نظر إليها ملأت قلبه سرورا ، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤا منظوما ومنثورا ، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نوراً . وإن سألت عن السن فأتراب فى أعدل سن الشباب ، وإن سألت عن الحسن فهل رأيت الشمس والقمر ، وإن سألت عن الحدق فأحسن سواد فى أصفى بياض فى أحسن حَوَرٍ ، وإن سألت عن القدود فهل رأيت أحسن من الأغصان ، وإن سألت عن النهود فهن الكواعب ، وإن سألت عن اللون فكأنه الياقوت والمرجان ، وإن سألت عن حسن الخلق فهن الخيرات الحسان ، اللاتى جمع لهن بين الحسن والإحسان ، فأعطين جمال الباطن والظاهر ، فهن أفراح النفوس وقرة النواظر .

وإن سألت عن حسن العشرة ولذة ما هنا لك فهن العرب المتحببات إلى الأزواج بلطافة التبعل التى تمتزج بالروح أى امتزاج .

فما ظنك بامرأة إذا ضحكت فى وجه زوجها أضاءت الجنة من ضحكها . وإذا انتقلت من قصر إلى قصر قلت : هذه الشمس متنقلة فى بروج فلكها ، وإذا حاضرت زوجها فياحسن تلك المحاضرة ، وإن خاصرته فيا لذة تلك المعانقة والمخاصرة . وإن غنت فيا لذة الأبصار والأسماع ، وإن آنست وأمتعت فيا حبذا تلك المؤانسة والإمتاع . وإن قبلت فلا شىء أشهى إليه من التقبيل ، وإن نولت فلا ألذ ولا أطيب من ذلك التنويل .

هذا ، وإن سألت عن يوم المزيد وزيارة العزيز الحميد ورؤية وجهه المنزه عن التمثيل والتشبيه ، كما ترى الشمس فى الظهيرة ، والقمر ليلة البدر ، كما تواتر عن الصادق المصدوق النقل فيه ، وذلك موجود فى الصحاح والسنن والمسانيد . من رواية جرير وصهيب وأنس وأبى هريرة وأبى موسى وأبى سعيد ، فاستمع يوم ينادى المنادى : يأأهل الجنة ، إن ربكم ــ تبارك وتعالى ــ يستزيركم فحيَّ على زيارته ، فيقولون : سمعاً وطاعة ، وينهضون إلى الزيارة مبادرين ، فإذا بالنجائب قد أعدت لهم ، فيستوون على ظهورها مسرعين ، وحتى إذا انتهوا إلى الوادى الأفيح الذى جعل لهم موعداً . وجمعوا هناك فلم يغادر الداعى منهم أحداً ، أمر الرب ــ تبارك وتعالى ــ بكرسيه فنصب هناك ، ثم نصبت لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ومنابر من فضة . وجلس أدناهم ــ وحاشاهم أن يكون فيهم دنى ــ على كثبان المسك ، ما يرون أن أصحاب الكراسى فوقهم فى العطايا ، حتى إذا استقرت بهم مجالسهم واطمأنت بهم أماكنهم . نادى المنادى : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار ؟! فبينما هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة ، فرفعوا رءوسهم فإذا الجبار ــ جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ــ وقد أشرف عليهم من فوقهم وقال : يا أهل الجنة ، سلام عليكم ، فلا ترد هذه التحية بأحسن من قولهم : اللهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، فيتجلى لهم الرب ــ تبارك وتعالى ــ ويضحك إليهم ، ويقول : يا أهل الجنة ــ فيكون أول ما يسمعون منه تعالى ــ أين عبادى الذين أطاعونى بالغيب ، ولم يرونى ، فهذا يوم المزيد ، فيجتمعون على كلمة واحدة : قد رضينا فارض عنا ، فيقول : يا أهل الجنة ، إنى لو لم أرض عنكم لم أسكنكم جنتى . هذا يوم المزيد فاسألونى فيجتمعون على كلمة واحدة : أرنا وجهك ننظر إليه . فيكشف لهم الرب ــ جل جلاله ــ الحجب ، ويتجلى لهم ، فيغشاهم من نوره ما لولا أنه ــ تعالى ــ قضى أن لا يحترقوا لاحترقوا . ولا يبقى فى ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه ــ تعالى ــ محاضرة حتى إنه يقول : يا فلان ، أتذكر يوم فعلت كذا وكذا ــ يذكّره ببعض غدراته فى الدنيا ؟ ــ فيقول: يارب ألم تغفر لى ؟ بمغفرتى بلغت منزلتك هذه .

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة ، ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجهه الكريم فى الدار الآخرة ، ويا ذلة الراجعين بالصفقة الخاسرة ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾(١)

اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار .

قوله تعالى : ﴿ إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون لايفتر عنهم وهم فيه مبلسون وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ، ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾

لما ذكر سبحانه وتعالى السعداء فى الآخرة ، ثنى بذكر حال الأشقياء ، فقال تعالى : ﴿ **إن المجرمين فى عذاب جهنم خالدون ، لايفتر عنهم** ﴾ أى لايخفف عنهم ساعة واحدة ﴿ **وهم فيه مبلسون** ﴾ ايسون من كل خير ، كما حكى عنهم سبحانه وتعالى فقال : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾ وقال جل فى علاه : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رءوسهم الحميم ، ويصهر به مافى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾(٢) ، وقال سبحانه : ﴿ **فأما الذين شقوا ففى النار لهم زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك ، إن ربك فعال لما يريد** ﴾(٣) . وقال عز من قايل : ﴿ **ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قال اخسئوا فيها ولاتكلمون** ﴾(٤) . وقال سبحانه : ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا ، خالدين فيها أبدا لايجدون وليا ولانصيرا ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا** ﴾(٥) ، قال جل فى علاه : ﴿ **وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب** ﴾(٦) .

---

(١) الآيات : ٢٢ — ٢٥ من سورة القيامة .

(٢) الآيتان ٣٦ — ٣٧ من سورة فاطر

(٣) الآيات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ من سورة الحج

(٤) الآيتان ١٠٦ ، ١٠٧ من سورة هود

(٥) الآيات ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ من سورة المؤمنون

(٦) الآيات ٦٣ — ٦٨ من سورة الأحزاب

(٧) الآية ٤٩ من سورة غافر

وقال سبحانه : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم ثم فى النار يسجرون** ﴾[١]

ويصور القرآن شدة لهيب هذه النيران ، بضخامة ما يتطاير منها من الشرر ، فهو ليس بذرات صغيرة ، كهذه الذرات ، التى تتصاعد من نار هذه الحياة الدنيا ، ولكنه شرر كجذوع الشجر الضخم ، أو الجمال الصفر ، قال تعالى : ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر * كأنه جمالة صفر* ويل يومئذ للمكذبين** ﴾[٢] .

هذه النيران الملتهبة يسمع لظاها من مدى بعيد ، فكأنما تبدى غيظها مما اقترفه هؤلاء الجناة ، واستمع إليه يصور ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ** ﴾[٣] ، وفى هذه النيران ذات اللظى يتنفسون لهبها ﴿ **لهم فيها زفير وشهيق** ﴾[٤] وليصور خيالك هذا اللهب يتنفسون منه ويزفرون ، وليصور خيالك هذه النيران تحيط بالعصاة من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، قال تعالى : ﴿ **وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون** ﴾[٥] . وليصور الخيال هذه الوجوه تتقلب فى النيران ، والرءوس تنزع منها شواها ، وهذه الأجسام تتخذ ثيابها من النار : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم** ﴾[٦] . وهذه الجلود كلما احترقت وصهرت ، استبدلت بجلود اخرى ، ليبدأ عذابهم من جديد ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف تصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب** ﴾[٧] .

وهكذا لا يجدون فى وسط هذه النيران ظلاً يحسون عنده ببرد الراحة ، اللهم إلا ظل دخان قد تفرق وانتشر شعباً فصار ظلاً ﴿ **لا ظليل ولا يغنى من اللهب** ﴾[٨] ﴿ **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * فى سموم وحميم * وظل من يحموم * لا بارد ولا كريم** ﴾[٩] ، ويظلون فى هذا العذاب خالدين ﴿ **لا يفتر عنهم وهم فية مبلسون** ﴾ وعليهم حرس ﴿ **ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[١٠]

---

(١) الآيتان ٧١ ، ٧٢ من سورة غافر
(٢) الآيتان ٣٢ ، ٣٣ من سورة المرسلات
(٣) الآيتان : ٦ ، ٧ و الآية رقم ٨ من سورة الملك
(٤) الآية ١٠٦ من سورة هود
(٥) جزء من الآية ٥٤ ، الآية ٥٥ من سورة العنكبوت
(٦) الآية ١٩ من سورة الحج
(٧) الآية ٥٦ من سورة النساء
(٨) الاية ٣١ من سورة المرسلات
(٩) الآيات ٤١ ـــ ٤٤ من سورة الواقعة
(١٠) جزء من الاية ٦ من سورة التحريم

وأما طعامهم فمن شجرة الزقوم ، وهى ﴿ **شجرة تخرج فى أصل الجحيم * طلعها كأنه رءوس الشياطين * فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون** ﴾[١] ... فإذا أرادوا الشراب سقوا من عين آنية — أى متناهية فى الحر — وشربوا حميماً — ماء خارا — وغساقاً — صديد أهل النار — ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه * بئس الشراب وساءت مرتفقاً** ﴾[٢] .

لا عجب إذاً إن حاول هؤلاء النزلاء أن يفروا من جهنم ، ولكن أنى لهم الفرار وقد أعدت لهم ، ﴿ **ولهم مقامع من حديد * كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[٣] .

أو تمنوا أن لو كانوا تراباً ، أو دعوا الله أن ينالهم بالهلاك المبيد ﴿ **لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً** ﴾[٤] ، ﴿ **يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته وأخيه * وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً * ثم ينجيه * كلا** ﴾[٥] أرأيت كيف يشتد العذاب بأصحاب النار حتى يتمنى أحدهم أن يفدى نفسه بابنه ، الذى يتمنى المرء أن يفديه بنفسه ، بل يتمنى أن لو هلك الناس جميعاً ونجا وحده ، فى هذا اللهب المشتعل الذى لا يموت من فيه موتة تريحه ، ولا يحيا حياة يرضاها — يلعن أهل النار بعضهم بعضاً ، فإذا حوتهم جهنم جميعاً ، قال الرعاع عن سادتهم : ﴿ **ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار** ﴾[٦] ، فيجيبهم الله بأن لكل منهم ضعفا ، ويقول السادة للرّعاع ، أنتم مثلنا فى العذاب ، ولن يخفف عنكم ﴿ **فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون** ﴾[٧] ، وينادى على السيد منهم فيقال لمعذبيه : ﴿ **خذوه فاعتلوه * إلى سواء الجحيم * ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم * ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾[٨] ، ويتجه هؤلاء العصاة إلى الله ، ويصور القرآن ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا : ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسئوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادى يقولون : ربنا آمنا فاغفر لنا ، وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون . إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون * قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين * قالوا : لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين . قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون . أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾[٩] وحيناً يصطرخون فيها قائلين : ﴿ **ربنا أخرجنا**

---

(١) الآيات ٦٤ — ٦٦ من سورة الصافات

(٢) جزء من الآية ٢٩ من سورة الكهف

(٣) الحج الآيتان : ٢١ ، ٢٢

(٤) الآية ١٤ من سورة الفرقان

(٥) جزء من الآية ١١ ، والآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ وجزء من الآية ١٥ من سورة المعارج .

(٦) جزء من الآية ٣٨ من سورة الأعراف

(٧) جزء من الآية ٣٩ من سورة الأعراف

(٨) الآيات ٤٧ — ٤٩ من سورة الدخان

(٩) الآيات ١٠٥ إلى ١١٥ من سورة المؤمنون

نعمل صالحاً غير الذى كنا نعمل ﴾[١] فيسألون : ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾[٢].

وفى النار لا يسعهم إلا اعترافهم بذنوبهم ، فها هم أولاء الخزنة يسألونهم ، كلما أقبل فوج منهم ﴿ **ألم يأتكم نذير * قالوا : بلى ، قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فأعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير** ﴾[٣] .

ويتجه أصحاب النار حيناً إلى خازنها ، ويتضرعون أن يقضى ربهم عليهم ، فتكون الإجابة قاضية على آمالهم ، بأنهم مخلدون ، لا يفتر عنهم العذاب ﴿ **ونادوا : يا مالك ليقض علينا ربك قال : إنكم ماكثون ، لقد جئناكم بالحق ، ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾ .

وحيناً يتساءلون عن رجال مضوا إلى الجنة مع أنهم كانوا يعدونهم من الأشرار ، فإذا اتجهت أبصارهم تلقاء أصحاب الجنة نادوا ﴿ **أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين * الذى اتخذوا دينهم لهوا ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون** ﴾[٤] .

وأكبر ما يتمنون يومئذ أن يكون لهم شفعاء ، فيشفعوا لهم فيقولون ﴿**فما لنا من شافعين ولا صديق حميم * فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين** ﴾[٥] ذلك وصف حافل للعذاب الجسمى فى جهنم ، أما العذاب الروحى فشعور هؤلاء المجرمين بأنهم محجوبون عن رضوان الله الذى خلقهم ، وأنعم عليهم بما قل من النعم أو كثر ، ثم قابلوا نعمه بالجحود والنكران فلا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾[٦] وفى كفران النعمة شقاء نفسى ، يتعذب له الضمير ، ويشقى من أجله الوجدان ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا** ﴾[٧] ، ﴿ **أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين** ﴾[٨] . (من كتاب بلاغة القرآن للدكتور أحمد أحمد بدوى) .

---

(١) الآية ٣٧ فاطر
(٢) الآية ٣٧ فاطر
(٣) جزء من الآية ٨ ، الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ من سورة الملك
(٤) من الآية ٥٠ ، والآية ٥١ من سورة الأعراف
(٥) الآيات ١٠٠ ـــ ١٠٢ من سورة الشعراء
(٦) الآية ١٥ المطففين
(٧) الآية ٢٧ من سورة الفرقان
(٨) الآية ٥٦ من سورة الزمر

قوله تعالى : ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين** ﴾ أى وما ظلمنا هؤلاء المجرمين بفعلنا بهم ما أخبرناكم أننا فاعلون بهم ، ولكن هم الذين أساءوا إلى أنفسهم فكذبوا الرسل وعصوهم بعد أن أقاموا الحجة عليهم ، فأتوهم بباهر المعجزات ، قال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا** ﴾[1] وبعد أن قص سبحانه علينا قصص قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، وفرعون ، قال سبحانه : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم** ﴾ .. الآية[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾ أى ونادى المجرمون من شدة العذاب فقالوا : يا مالك ادع لنا ربك أن يقبض أرواحنا ليريحنا مما نحن فيه ، فأجابهم بعد مائة سنة — كما قال مجاهد — أو بعد ألف سنة — كما قال الأعمش : بقوله ﴿ **إنكم ماكثون** ﴾ لا خروج لكم منها ، ولا محيص لكم عنها ، ثم خاطبهم خطاب تقريع وتوبيخ ، وبين سبب مكثهم فيها بقوله : ﴿ **لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون** ﴾ أى لقد بينا لكم الحق على ألسنة رسلنا وأنزلنا إليكم الكتب مرشدة إليه ، ولكن سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق وتأباه ، وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم باللائمة ، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة .

قوله تعالى : ﴿ **أم أبرموا أمراً فإنا مبرمون * أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ .

قال القرطبى : قال مقاتل : نزلت فى تدبيرهم بالمكر بالنبى صلى الله عليه وسلم فى دار الندوة ، حين استقر أمرهم ، على ما أشار به أبو جهل عليهم ، أن يبرز من كل قبيلة رجل ليشتركوا فى قتله ، فتضعف المطالبة بدمه ، فنزلت هذه الآية وقتل الله جميعهم ببدر ، ومعنى أبرموا : أحكموا .

فالمعنى : أم أحكموا كيداً فإنا محكمون لهم كيداً ، كما قال سبحانه ﴿ **ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون** ﴾[3] ، وكقوله سبحانه ﴿ **إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً * فمهل الكافرين أمهلهم رويداً** ﴾[4] .

---

(١) الآية ٤٩ من سورة الكهف

(٢) الآيتان ١٠٠ ، ١٠١ من سورة هود

(٣) الآية ٥٠ من سورة النمل

(٤) الآيات ١٥ — ١٧ من سورة الطارق

وقوله تعالى : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ . أى بل أيظنون أنا لا نسمع حديث أنفسهم بذلك ، ولا ما يتكلمون به فيما بينهم بطريق التناجى . ﴿ **بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾ أى بل نسمعهما ونطلع عليهما ، والحفظة يكتبون جميع ما يصدر عنهم ، من قول وفعل ، قال تعالى :﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى * الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾(١) .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظى قال : بينا ثلاثة نفر بين الكعبة وأستارها ، قرشيان وثقفى ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا ، وقال الثانى : إذا جهرتم سمع ، وإذا أسررتم لم يسمع ، وقال الثالث إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم ، فنزلت الآية . قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين * سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** ﴾ قال ابن عباس ، والحسن والسدى : المعنى ما كان للرحمن ولد ، فـ « إن » بمعنى ما ويكون الكلام على هذا تاما ، ثم تبتدىء « **فأنا أول العابدين** » أى الموحدين من أهل مكة على أنه لا ولد له .

وقال مجاهد : المعنى إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبده وحده ، على أنه لا ولد له . فهنا (إن) شرطية : أى إن قلتم ذلك ، فأنا أول مَن وحّده ، قال القرطبى : وهو الأجود ، وهو اختيار ابن جرير الطبرى ، قوله تعالى : ﴿ **سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون** ﴾ أى تنزه مالك السموات والأرض وما فيهما من الخلق ، ورب العرش المحيط بذلك كله — عما يصفه به المشركون كذبا ، وعما ينسبون إليه من الولد إذ كيف تكون هذه العوالم كلها ملكا له ويكون شىء منها جزءاً منه . تعالى ربنا عن ذلك علوّا كبيرا ، ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون** ﴾(٢) . ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير** ﴾(٣) . ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** ﴾(٤) ، ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون * سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ***

(١) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة طه

(٢) الآيات ٦٨ — ٧٠ من سورة يونس

(٣) الآية : ١٧ من سورة المائدة

(٤) الآيتان ١١٦ ، ١١٧ من سورة البقرة

سيقولون لله قل فأنى تسحرون * بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون * ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه إذاً لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴾(١) .

ويصور القرآن ـــ فى أقوى صور التعبير ـــ موقف الطبيعة الساخطة المستعظمة نسبة الولد إلى الله ، فتكاد ـــ لشدة غضبها ـــ أن تنفجر غيظاً ، وتنشق ثورة ، وتخر الراسيات لهول هذا الافتراء ، وضخامة هذا الكذب ، وأصغ إلى تصوير هذا الغضب فى قوله تعالى : ﴿ وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئا إدّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّا * أن دعوْا للرحمن ولدا * وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا * إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً * لقد أحصاهم وعدهم عدّاً * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ أى فذرهم يخوضوا فى جهلهم وضلالهم ﴿ ويلعبوا ﴾ فى دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة أى فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم ومآلهم وحالهم فى ذلك اليوم ، كما قال سبحانه فى موضع آخر ﴿ فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون * خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون ﴾(٣)

قوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله ، وهو العزيز الحكيم ، وتبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون ، ولايملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يفلحون ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو العزيز الحكيم ﴾ . أى هو إله فى السماء وإله فى الأرض يعبده أهلهما ، وكلهك خاضعون له ، طوع إرادته ، أذلاء بين يديه ، وهو الحكيم فى تدبير خلقه ، وتسخيرهم لما يشاء ، العليم بكل شىء ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ماتكسبون ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أى خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما بلا مدافعة ولا ممانعة فسبحانه وتعالى عن الولد . وتبارك أى استقر . تام السلامة من العيوب والنقائص لأنه الرب العلى العظيم المالك للأشياء ، الذى بيده أزمة الأمور ، نقضا وإبراما ، قال

(١) الآيات ٨٤ ـــ ٩٢ من سورة المؤمنون

(٢) الآيات ٨٨ ـــ ٩٥ مريم

(٣) الآيات ٤٢ ـــ ٤٤ المعارج

(٤) الآية ٣ من سورة الأنعام

تعالى : ﴿ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا * الذى له ملك السموات والأرض ، ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديراً ﴾[١]

وقوله تعالى : ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أى وقت قيامها . قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة آيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾[٢] فلا يجليها لوقتها إلا هو . وقوله ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أى فيجازى كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أى من الأصنام والأوثان ﴿ الشفاعة ﴾ أى لا يقدرون على الشفاعة لهم ، ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ هذا استثناء منقطع أى لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم فإنه تنفع شفاعته عنده ، بإذنه له .

قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾[٣] . وقال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ أى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ أى لأقرّوا بأن الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئا . ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ أى كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها ، حتى أشركوا به غيره رجاء شفاعتهم له .

قوله تعالى : ﴿ وقيله يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ قال قتادة : هو قول نبيكم صلى الله عليه وسلم يشكو قومه إلى ربه عز وجل .

كما أخبر تعالى : فى الآية الأخرى ﴿ وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا ﴾[٥] فالتقدير : قيل يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ أى فاصفح عنهم ولا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيء ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا ، ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وهذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد وأعلى دينه وكلمته ، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس فى دين الله أفواجاً وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم ﴾[٦] .

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الفرقان
(٢) الآيات ٤٢ ــ ٤٤ من سورة النزعات
(٣) من الآية ٢٥٥ من سورة البقرة
(٤) من الآية ٢٨ من سورة الأنبياء
(٥) الآية ٣٠ من سورة الفرقان
(٦) الآية ١١٥ من سورة الأنعام

تفسير سورة الدخان

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية إجماعاً

عدد آياتها : تسع وخمسون

عدد كلماتها : ثلاثمائة وست وأربعون

وحروفها : ألف وأربعمائة وواحد وثلاثون

وفواصل آياتها كلها (من) ؛

وسميت سورة الدخان لقوله تعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ .

معظم مقصود السورة :

نزول القرآن فى ليلة القدر ، وآيات التوحيد ، والشكاية من الكفار ، وحديث موسى وبنى إسرائيل وفرعون ، والرد على منكرى البعث ، وذل الكفار فى العقوبة ، وعز المؤمنين فى الجنة ، والمنة على الرسول بتيسير القرآن على لسانه فى قوله تعالى : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك** ﴾[1] .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **إن هى إلا موتتنا الأولى** ﴾[2] مرفوع . وفى الصافات منصوب ذكر فى المتشابه ، وليس منه ، لأن ما فى هذه السورة مبتدأ وخبر ، وما فى الصافات استثناء .

وقوله تعالى : ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾[3] أى على علم منا ، ولم يقل فى الجاثية : فضلناهم على علم ، لأنه ذكر فيه ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾[4] قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض** ﴾[5] بالجمع بالموافقة أول السورة ﴿ **رب السموات والأرض** ﴾[6] .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه تعالى ختم ما قبلها بالوعيد والتهديد ، وافتتح هذه بالإنذار الشديد (**فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم**)[7] .

(٢) إنه تعالى : حكى فيما قبلها قول رسوله ﷺ : ﴿ **يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون** ﴾ يارب هنا عن أخيه موسى ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾[8] .

---

(١) من الآية ٥٨ من سورة الدخان

(٢) من الآية ٣٥ من سورة الدخان

(٣) من الآية ٢٢ من سورة الدخان

(٤) من الآية ٢٢ من سورة الجاثية

(٥) من الآية ٣٨ من سورة الدخان

(٦) من الآية ٧ من سورة الدخان

(٧) الآيتان : ١٠ ، ١١ من سورة الدخان

(٨) الاية ٢٢ من سورة الدخان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ
حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ
ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى
ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ
رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾
يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

معاني المفردات

(ليلة مباركة) هي ليلة القدر ، (منذرين) أى مخوفين ، (يفرق) أى يفصل ويبين ، (حكيم) أى محكم لا يستطاع أن يطعن فيه بحال ، (موقنين) أى ، تطلبون اليقين وتريدونه ، (فارتقب) أى انتظر (يغشى الناس) أى يحيط بهم ، (اكشف عنا) أى ارفع . (أنّى) أى كيف يكون ومن أين ، (معلم) أى يعلمه بشر ، (والبطش) الأخذ بالقوة والعنف .

المناسبة وإجمال المعنى

بدأ سبحانه وتعالى : بالإخبار عن كتابه الكريم المبين لما فيه صلاح البشر ، أنه أنزل القرآن فى ليلة القدر ، لإنذار العباد ، تخويفهم من عقابه . وإن هذه الليلة يفصل فيها كل أمر حكيم ، فيبين فيها التشريع النافع للعباد فى دنياهم وآخرتهم ، وهو رب السموات والأرض وما بينهما ، وهو الذى بيده إحياؤهم ، وإماتتهم وهو ربهم ورب الأولين ، ولكنهم يمترون بعد أن وضح الحق ، وأفصح الصبح لذى عينين وبعد أن

ذكر حال كفار قريش ، إذ قابلوا الرحمة بالكفران ولم ينتفعوا بالمنزل ولا بالمنزل عليه ــ أردف هذا أن أمر نبيه بالانتظار حتى يحل بهم بأسه ، لأنهم أهل الخذلان والعذاب ، لا أهل الإكرام والغفران ، وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهديد للمشركين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ حمٓ ﴾ هذه بعض حروف الهجاء التى يقصد بذكرها تحدى هؤلاء الجاحدين المنكرين لرسالة سيد الأولين والآخرين ، فقد أيده الله تعالى : بإنزال الكتاب العزيز عليه . وهو كتاب معجز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، فإن كنتم تكذبون هذا النبى ، الذى أنزل الله عليه ذلك الكتاب فأتوا بحديث مثله إن كنتم صادقين ، أو فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين وإلا ﴿ **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **والكتاب المبين ، إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين** ﴾ .

هذا قسم منه عز وجل : بالكتاب على إنزال الكتاب ، وكل قسم يشتمل على أداة ومقسم به ، ومقسم عليه ، ومقسم ، المقسم هنا هو الله عز وجل ، ولله جل جلاله أن يقسم بما شاء وبمن شاء من مخلوقاته ، فهو المالك المتصرف المحيى المميت ، المعز ، المذل ، الخافض ، الرافع ، الضار ، النافع ، المبدىء ، المعيد ، ذو العرش المجيد ، أما غير الله فليس له أن يقسم إلا بالله وحده ، ومن حلف بغير الله فقد أشرك .

وأداة القسم هنا هى (الواو) وحروف القسم ثلاثة الواو ، والباء ، والتاء ، وقد اختصت التاء بدخولها على لفظ الجلالة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾[2] . والمقسم به ، وهو الكتاب المبين ، والمقسم عليه وهو جواب القسم قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ .

فقد أنزل الله تعالى : أعظم كتبه وهو القرآن العظيم ، ﴿ **وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم** ﴾ بأعظم لغة هى العربية الفصحى . ﴿ **إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون** ﴾ على يدى أعظم ملك هو الأمين جبريل ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين** ﴾[3] فى أعظم بلد هى مكة المكرمة ﴿ **إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء** ﴾[4] وهذا هو البلد

---

(١) الآيتان ٢٣ ، ٢٤ البقرة

(٢) من الآية ٥٧ من سورة الأنبياء

(٣) الآيات ١٩ ــ ٢١ من سورة التكوير

(٤) الآية ٩١ من سورة النمل

الأمين، فى أعظم غار هو غار حراء ، فى أعظم ليلة ، هى ليلة القدر ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين** ﴾ فى أعظم شهر هو ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾[(١)] على أعظم فتى . هو مبعوث العناية الإلهية ، وشمس الهداية الربانية ، أستاذ الإنسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[(٤)] لأعظم أمة ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[(٣)] بأعظم هدف ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً** ﴾[(٤)]، ﴿ **آلر . كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾[(٥)].

ووصف هذه الليلة الكريمة بالبركة لما ينزل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب .

قوله تعالى : ﴿ **إنا كنا منذرين** ﴾ أى معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

وقوله تعالى : ﴿ **فيها يفرق كل أمر حكيم** ﴾ أى فى ليلة القدر ، يفصل من اللوح المحفوظ ، إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها ، وهكذا روى عن ابن عمر ومجاهد وأبى مالك وغير واحد من السلف ، وقوله تعالى : ﴿ **حكيم** ﴾ أى محكم لا يبدل ولا يغير ، ولهذا قال جل جلاله : ﴿ **أمراً من عندنا** ﴾ أى جميع ما يكون ويقدره الله تعالى : وما يوجبه فبأمره وإذنه وعلمه ﴿ **إنا كنا مرسلين** ﴾ أى إلى الناس رسولاً ، يتلو عليهم آيات الله بينات ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه ولهذا قال تعالى : ﴿ **رحمة من ربك إنه هو السميع العليم** ﴾ أى إنا أرسلنا الرسول به رحمة منا لعبادنا ، حتى يستبين لهم ما يضرهم ، وما ينفعهم وحتى لا يكون لهم حجة بعد إرسال الرسول به ، كقوله تعالى : ﴿ **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم** ﴾[(٦)]وكقوله تعالى : ﴿ **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾[(٧)]. وكقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[(٨)].

---

(١) من الآية ١٨٥ من سورة البقرة
(٢) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء
(٣) الآية ١١٠ من سورة آل عمران
(٤) الآية ٩ من سورة الإسراء
(٥) الآية ١ من سورة إبراهيم
(٦) الآية ٩ من سورة الحديد
(٧) الآية ٥١ من سورة العنكبوت
(٨) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء

وقوله تعالى : ﴿ **إنه هو السميع العليم** ﴾ أى السميع لأقوال العباد ، العليم بأفعالهم ، وقوله تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين** ﴾ أى الذى أنزل القرآن . هو رب السموات والأرض ، وخالقهما ومالكهما ومن فيهما ، إن كنتم من أهل الإيمان واليقين .

﴿ **لا إله إلا هو يحيى ويميت** ﴾ لا معبود بحق إلا هو ، ولا تصلح العبادة إلا له ، وهو المحيى المميت ، يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ويحيى الأرض بعد موتها ، وكذلك تخرجون ، ﴿ **ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ أى هو مالككم والمتصرف فيكم ، ومالك آبائكم الأولين ومدبر شئونهم ، فاعبدوه دون آلهتكم ، التى لا تقدر على ضر ولا نفع ولا موت ولا حياة ولا نشور .

وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت** ﴾ .. الآية[1] .

ليلة القدر
الليلة المباركة

فضلها : قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾

وقال سبحانه : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وما أدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر** ﴾[2]

بين سبحانه أنها ليلة مباركة ، وعظم شأنها بقوله تعالى ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر** ﴾ يعنى به القرآن . وسميت بذلك إما لأن قدرها عند الله عظيم أو لأن القدر فيها يمضى أى يقدر الله فيها ما يكون من ذلك الوقت إلى مثله .

وبين سبحانه أن العمل فيها من الصلاة والتلاوة والذكر والدعاء خير من العمل فى ألف شهر ، ليس فيها ليلة القدر ، فقال تعالى : ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ .

وهى سلام من أول يومها إلى طلوع الفجر ، تسلم فيها الملائكة على المؤمنين ، الذين صاموا وصلوا وقاموا لله فى هذه الليلة .

قال تعالى : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر** ﴾ .

---

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأعراف

(٢) سورة القدر الآيات ١ إلى ٥ أى السورة كلها

(١) وقال الحبيب المصطفى ﷺ : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[١]
(أخرجه البخارى ـــ باب فضل ليلة القدر) استحباب طلبها .

ويستحب طلبها فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان ، فقد كان النبى ﷺ يجتهد فى طلبها فى العشر الأواخر من رمضان .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يجاور فى العشر الأواخر من رمضان ويقول : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان » (متفق عليه)[٢].

(٣) وعنها أيضا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تحروا ليلة القدر فى الوتر من عشر الأواخر من شهر رمضان »[٣].

قيامها والدعاء فيها :

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » (متفق عليه)[٤].

(٥) وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت يا رسول الله : أرأيت إن علمت أى ليلة ، ليلة القدر ، ما أقول فيها ؟ قال : قولى : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنى » (رواه أحمد والترمذى وصححه)[٥].

يا ليلة القدر للعابدين اشهدى، يا أقدام القانتين اركعى لربك واسجدى، يا ألسنة السائلين جدى فى المسألة واجتهدى .

يا نائم الليل كم ترقد ... قم يا حبيبى قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته ... ورداً إذا ماهجع الرقد
من نام حتى ينقضى ليله ... لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوى الألباب أهل التقى ... قنطرة العرض لكم موعد

---

(١) الحديث أخرجه البخارى فى باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠

(٢) الحديث فى البخارى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠ والحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب القيام باب فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .

(٣) الحديث فى البخارى كتاب الصوم باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٦٠ والحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الصيام ـــ باب فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج ٣ ، ص ٥٩ الحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج ٢ ، ص ٨٢٣ حديث ٢٠٦ / ١١٦٥ .

(٥) الحديث أخرجه الترمذى فى صحيحه فى كتاب الدعوات حديث ٣٥٨٠ ج ٥ ، ص ١٩٥ والإمام أحمد فى مسنده ص ٦ / ١٧١ .

يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ بل هؤلاء المشركون فى شك يلعبون ، أى قد جاءهم الحق اليقين وهم يشكون فيه ويمترون ولايصدقون كما قال تعالى : ﴿ اقترب للناس حسابهم ، وهم فى غفلة معرضون * مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم لاتبصرون ﴾[1]

ثم قال عز وجل : متوعداً لهم ومهدداً : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ ارتقب معناه انتظر يا محمد بهؤلاء الكفار يوم تأتى السماء بدخان مبين وفى الدخان قولان : الأول أنه من أشراط الساعة لم يجىء بعد ، وأنه يمكث فى الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض ، فأما المؤمن فيصيبه مثل الزكام ، وأما الكافر والفاجر فيدخل فى أنوفهم فيثقب مسامعهم ، ويضيق أنفاسهم ، وهو من آثار جهنم يوم القيامة ، وممن قال إن الدخان لم يأت بعد : على وابن عباس وابن عمر وأبو هريرة وزيد بن على والحسن وغيرهم . وفى صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى قال : اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال : « ما تذكرون » ؟ قالوا : نذكر الساعة ؟ قال « إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات ـ فذكر ـ الدخان ، والدجال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم »[2] .

وفى رواية أخرى قلت : يا نبى الله ، وما الدخان ؟ قال هذه الآية :﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة ، أما المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام ، وأما الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره» فهذا قول ، والقول الثانى ـ أن الدخان هو ما أصاب قريشا من الجوع بدعاء النبى ﷺ ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخانا ، قاله ابن مسعود . قال : وقد كشفه الله عنهم ، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم[3] .

والحديث عنه بهذا فى صحيح البخارى ومسلم والترمذى قال البخارى ـ بسنده ـ قال عبد الله ـ إنما كان هذا لأن قريشا لما استعصت على النبى ﷺ دعا عليهم بسنين كسنين يوسف ، فأصابهم قحط وجهد

---

(١) الآيات ١ ـ ٣ من سورة الأنبياء

(٢) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب فى الآيات التى تكون قبل الساعة حديث ٣٩ / ٢٩٠١ ص ٢٢٥ ج ٤ .

(٣) الحديث أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه فى كتاب الجنائز باب « إذا أسلم الصبى فمات ، هل يصلى عليه » ١ / ١١٧ ، وكتاب الجهاد باب « كيف يعرض الإسلام على الصبى » ٤ / ٨٥ ـ ٨٦ ، وكتاب الأدب باب قول الرجل : اخسأ : ٨ / ٤٩ ـ ٥٠ ، وكتاب القدر باب ما يحول بين المرء وقلبه ٨ / ١٥٧ .

وأخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن باب « ذكر ابن صياد » ٨ / ١٨٩ ، ١٩٠ .

وفى تفسير الطبرى ٢٥ / ٦٨

وأخرجه الترمذى فى أبواب القدر باب ما جاء فى الخسف حديث ٢٢٧٤ ، ج ٣ ، ص ٣٢٣

حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم** ﴾ ولقد رجح ابن كثير القول الأول .

فقال بعد أن أورد الروايات المسندة لابن عباس : وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس رضى الله عنهما حبر الأمة وترجمان القرآن ، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين : مع الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان ، وغيرها التى أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة على أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين** ﴾ أى بين واضح يراه كل أحد ، وعلى ما فسر به ابن مسعود رضى الله عنه إنما هو خيال رأوه فى أعينهم من شدة الجوع والجهد ، وهكذا قوله تعالى : ﴿ **يغشى الناس** ﴾ أى يتغشاهم ويعميهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين لما قيل فيه ﴿ **يغشى الناس** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **هذا عذاب أليم** ﴾ أى يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخا .

وقوله سبحانه : ﴿ **ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون** ﴾ أى يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم . قال قتادة : « العذاب » هنا الدخان .

قوله تعالى : ﴿ **أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين** ﴾ أى من أين يكون لهم التذكر والاتعاظ عند حلول العذاب وقد جاءهم رسول يبين لهم الحق وقوله تعالى : ﴿ **ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون** ﴾ أى أعرضوا . قال ابن عباس : أى متى يتعظون والله أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليهم عن محمد ﷺ وتكذيبهم إياه . وقيل أى أنى ينفعهم قولهم « إنا مؤمنون » بعد ظهور اعلام الساعة ، كما قال تعالى : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون** ﴾[1] ،(وقالوا معلم مجنون)، أى علمه بشر أو علمه الكهنة والشياطين ، ثم هو مجنون وليس برسول .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون** ﴾ وعد سبحانه أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلا ، أى فى زمان قليل ليعلم أنهم لا يَفون بقولهم ، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه ، قاله ابن مسعود . فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبى ﷺ لهم عادوا إلى تكذيبه ، ومن قال : إن الدخان منتظر قال : أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين آية وآية من آيات قيام الساعة . ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره . وقيل معنى (إنكم عائدون) إلينا ، أى مبعوثون بعد الموت .

وقيل : المعنى « إنكم عائدون » إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا .

---

(١) الآية ١٥٨ من سورة الأنعام

وقوله تعالى : ﴿ **يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾ ، والبطشة الكبرى فى قول ابن مسعود : يوم بدر ، وقيل عذاب جهنم يوم القيامة قاله الحسن وعكرمة وابن عباس واختاره الزجاج . قال القرطبى : ويحتمل أنها قيام الساعة ، لأنها خاتمة بطشاته فى الدنيا ، قال ابن جرير عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضى الله عنهما قال ابن مسعود رضى الله عنه : البطشة الكبرى يوم بدر وأنا أقول هى يوم القيامة ، قال ابن كثير وهذا إسناد صحيح عنه وبه يقول الحسن البصرى وعكرمة فى أصح الروايتين عنه والله أعلم . والمعنى: إننا يوم القيامة لنسلطن عليهم بأسنا وننتقم منهم أشد الانتقام ولا يجدون شفيعاً ولا وليا ولا نصيراً يمنع عنهم عقابنا .

طرف من قصة موسى

قال تعالى :

* وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾
وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ
﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ
﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ
كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ مَا فِيهِ
بَلَـٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

معانى المفردات

(فتنا) أى بلونا وامتحنا ، (كريم) أى جامع لخصال الخير والأفعال المحمودة قاله الراغب ، (أدوا إلى عباد الله) أى أطلقوا وسلموا ، (أمين) أى ائتمنه الله على وحيه ورسالته ، (وأن لا تعلوا على الله) أى لا تستكبروا على الله بالاستهانة بوحيه ، (بسلطان مبين) أى بحجة واضحة لا سبيل إلى إنكارها ،

(عذت بربى وربكم) أى التجأت إليه وتوكلت عليه ، (أن ترجمون) أى تؤذونى ، (فاعتزلون) أى كونوا بمعزل منى لا علىّ ولا لى ولا تتعرضوا لى بسوء ، (مجرمون) أى كافرون ، (أسر بعبادى) أى سر بهم ليلاً ، (متبعون) أى يتبعكم فرعون وقومه ، (رهواً) أى ساكناً ، (مقام كريم) أى مجالس ومنازل حسنة ، (نعمة) أى حسن ونضرة . قال الزمخشرى : النعمة (بالفتح) من التنعيم (وبالكسر) من الإنعام ، (فاكهين) أى طيبى الأنفس ناعمين ، (فما بكت عليهم السماء والأرض) أى لم تكترث لهلاكهم ولا اعتدت بوجودهم ، (منظرين) أى ممهلين ومؤخرين ، (العذاب المهين) أى الشديد الإهانة والإذلال ، (عالياً) أى جباراً متكبراً ، (من المسرفين) أى فى الشر والفساد ، (اخترناهم) أى اصطفيناهم ، (على علم) أى عالمين باستحقاقهم ذلك (على العالمين) أى عالمى زمانهم (الآيات) أى المعجزات كفلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المن والسلوى ، (بلاء مبين) أى اختبار ظاهر .

« المناسبة واجمال المعنى »

بعد أن ذكر سبحانه أن مشركى مكة أصروا على كفرهم ولم يؤمنوا برسولهم ، أردف هذا بيان أن هؤلاء ليسوا بدعاً فى الأمم ، فكثير قبلهم كذبوا الرسل ، فها هم أولاء قوم فرعون قد كان منهم مع موسى مثل ما كان من قومك معك ، بعد أن أتاهم بالبينات التى كانت تدعو إلى تصديقه ، فكذبوه فنصره الله عليهم وأغرق فرعون وقومه وجعلهم مثلاً للآخرين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلى عباد الله إنى لكم رسول أمين** ﴾ .

أى : ولقد اختبرنا قبل مشركى قومك ، قوم فرعون وهم مثال قومك فى جبروتهم وطغيانهم ، وعتوهم واستكبارهم ، فأرسلنا إليهم الرسول الكريم موسى عليه السلام فقال لهم : أيها القوم ارسلوا معى بنى إسرائيل وأطلقوهم من أسركم وتعذيبكم إنى رسول من الله مأمون على ما أبلغكم غير متهم فيه . كقوله تعالى : ﴿ **وقال موسى يا فرعون إنى رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معى بنى إسرائيل** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأن لا تعلوا على الله إنى آتيكم بسلطان مبين** ﴾ أى : وأن لا تطغوا وتبغوا على ربكم فتكفروا به وتعصوه فتخالفوا أمره — لأنى آتيكم بحجة واضحة على حقية ما أدعوكم إليه ، لمن تأملها وتدبر فيها ، وقوله تعالى : ﴿ **وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون** ﴾ أى وإنى ألتجىء إلى الله الذى خلقنى

(١) الآيتان ١٠٤ ، ١٠٥ من سورة الأعراف

وخلقكم ، أن لا تصلوا إلىّ بسوء من قول أوفعل، كقوله تعالى : ﴿ **وقال موسى إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب** ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون** ﴾ أى وإن لم تصدقونى و لم تؤمنوا بالله لأجل برهانى ، (فاعتزلون) أى كونوا بمعزل منى وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا، وقيل : فخلوا سبيلى وكفوا عن أذاى ، والمعنى متقارب .

قوله تعالى : ﴿ **فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون** ﴾ ، (فدعا ربه) فيه حذف تقديره فكفروا فدعا ربه ، (أن هؤلاء قوم مجرمون) أى مشركون قد امتنعوا من إطلاق بنى اسرائيل ، ومن الإيمان بالله الواحد القهار ،ونحو الآية قوله تعالى: ﴿ **وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون** ﴾[٢] وحينئذ أمره الله أن يخرج ببنى إسرائيل من بين أظهرهم بلا أمر فرعون ولا مشورته ، وإلى ذلك أشار بقوله تعالى : — ﴿ **فأسر بعبادى ليلاً** ﴾ أى فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسر بعبادى ، أى بمن آمن بالله من بنى إسرائيل (ليلاً) قبل الصباح .

وقوله تعالى : ﴿ **إنكم متبعون** ﴾ أى أن فرعون وقومه سيتبعونكم إذا علموا بخروجكم ، ومسيركم ليلا يؤخر علمهم بذلك ، فلا يدركونكم .

وقوله تعالى : ﴿ **واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون** ﴾ أى وإذا قطعت البحر أنت وأصحابك فاتركه ساكنا على حاله ، التى كان عليها حين دخلته حتى يدخله فرعون وقومه فيغرقوا فيه .

روى أن موسى عليه السلام لما قطع البحر رجع ليضربه بعصاه حتى يلتئم خوفاً من فرعون وجنوده أن يتبعوه ، فأمر أن يتركه كما هو حتى يدخلوه ، وإنما أخبر سبحانه موسى بغرقهم ليطمئن قلبه فيترك البحر كما هو .

وقوله تعالى : ﴿ **كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين** ﴾ .

أي كم ترك فرعون وقومه بعد مهلكهم من بساتين فيحاء ، وحدائق غناء ، وزروع ناضرة ، وقصور شاهقة ، (كذلك) أى هكذا فعلنا بهؤلاء الذين كذبوا رسلنا وهكذا نفعل بكل من عصانا وخالف أمرنا ، كما قال سبحانه : ﴿ **كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوى شديد العقاب * ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم**

(١) الآية ٢٧ من سورة غافر

(٢) الآيتان ٨٨ ، ٨٩ من سورة يونس

وأن الله سميع عليم ، كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴾(١)

وقوله تعالى : ﴿ **وأورثناها قوماً آخرين** ﴾ أى وأورثنا تلك البلاد بما فيها من خير عميم ، ونعيم عظيم ، قوما غير أهلها ، فسلبوا ذلك جميعه فى صبيحة واحدة وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية ، وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو اسرائيل كما قال تبارك اسمه : ﴿ **وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾(٤) .

قال ابن كثير : أى لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد فى أبواب السماء فيبكى على فقدهم ولا لهم فى الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم .

قال الحافظ أبو يعلى الموصلى : فى مسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكيا عليه »(٣)

وتلا هذه الآية ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض** ﴾ — وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملا صالحا يبكى عليهم ، ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدهم فتبكى عليهم .

قال مجاهد : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحاً قال فقلت له أتبكى الأرض ؟ فقال أتعجب ؟ وما للأرض لا تبكى على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوى كدوى النحل ؟ وقال قتادة فى هذه الآية : ﴿ **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين** ﴾(٤) كانوا أهون على الله عز وجل من أن تبكى عليهم السماء والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ **ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين ، من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين** ﴾ .

أى ولقد خلصناهم بإهلاك عدوهم مما كانوا فيه من الاستعباد وقتل الأبناء واستحياء النساء وتكليفهم بالأعمال الشاقة إلى نحو ذلك من وسائل الخسف والضيم إذ كان جبارا متكبراً مسرفاً فى الشر والفساد ،

---

(١) الآيات : ٥٢ — ٥٤ من سورة الأنفال

(٢) الآية ١٣٧ من سورة الأعراف

(٣) الحديث أخرجه أبو يعلى الموصلى عن أنس فى ...

(٤) الآية ٢٩ من سورة الدخان

ولا أدل على ذلك من ادعائه الألوهية إذ قال أنا ربكم الأعلى ، كما قال سبحانه : ﴿ **إن فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم إنه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد اخترناهم على علم على العالمين** ﴾ أى ولقد اصطفيناهم على عالمى زمانهم بما أنزلنا عليهم من الكتب وأرسلنا فيهم من الرسل ، ونحن عالمون بأنهم أهل لكل مكرمة وفضل لصبرهم وجهادهم مع النبى موسى (عليه السلام) . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين** ﴾ أى وآتيناهم من الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ **ما فيه بلاء مبين** ﴾ أى اختبار ظاهر جلى لمن اهتدى به .

منكرو البعث وجزاؤهم

قال تعالى :

إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾
إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ
يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ
مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

معانى المفردات

(بمنشرين) أى بمبعوثين ، يقال نشر الله الموتى وأنشرهم إذا أحياهم ، (وتبّع) واحد التبابعة ، وهم ملوك اليمن .

(لاعبين) أى عابثين ، (بالحق) أى بسبب الحق وهو الإيمان بالله والطاعة له ، (يوم الفصل) هو

(١) الآيتان : ٤ ، ٥ القصص

(٢) الآية : ٢٠ من سورة المائدة

يوم القيامة ، سمى بذلك لأنه يفصل فيه الحق والباطل (ميقاتهم) أى وقت موعدهم ، (يغنى) أى ينفع ، (مولى) أى حليف . (شجرة الزقوم) هى شجرة ذات ثمر مّر تنبت بتهامة ، شبهت بها الشجرة التى تنبت فى الجحيم ، (الأثيم) أى الكثير الآثام والذنوب وهو الكافر ، (المهل) درديّ الزيت أو المعدن المذاب ، (والحميم) الماء الذى تناهى حره ، (والعَتل) أن تأخذ بمنكبى الرجل فتجره إليك وتذهب به إلى حبس أو محنة ، قال ابن السكّيت : عتلته إلى السجن وأعتلته إذا دفعته دفعاً عنيفاً ، (سواء الجحيم) وسطها .

المناسبة واجمال المعنى

عود على بدء ـــ كان الكلام أولاً فى كفار قريش ، إذ قال فيهم : بل هم فى شك يلعبون ، أى أنهم فى شك من البعث والقيامة ، ثم بين كيف أصروا على كفرهم ، ثم ذكر أن قوم فرعون كانوا فى إصرارهم على الكفر كهؤلاء ، وقد أهلكهم الله وأنجى بنى إسرائيل ، ثم رجع إلى الحديث الأول ، وهو إنكارهم للبعث ثم توعدهم بأنه سيستن بهم سنة من قبلهم من المكذبين ، فقد أهلك من هم أقوى منهم بطشاً وأكثر جنداً ، هذا لانه سبحانه خلق السموات والأرض بالحق وما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ثم ذكر سبحانه يوم البعث ، يوم القيامة ، يوم الجزاء على الأعمال فـ ﴿ **الذين كفروا لهم عذاب شديد ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾[1] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن هؤلاء ليقولون ، إن هى إلا موتتنا الأولى ، وما نحن بمنشرين فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين** ﴾ .

(إن هؤلاء ليقولون) يعنى كفار قريش (إن هى إلا موتتنا الأولى)أى: إن هى إلا حياتنا الدنيا ، ولا حياة بعد الممات ولا بعث ولا نشور ، (وما نحن بمنشرين) أى بمبعوثين . قيل : إن قائل هذا من كفار قريش أبو جهل ، قال : يا محمد ، إن كنت صادقاً فى قولك فابعث لنا رجلين من آبائنا ، أحدهما ـــ قصى بن كلاِب فإنه كان رجلا صادقاً ، لنسأله عما يكون بعد الموت ، وهذا القول من أبى جهل من أضعف الشبهات ، لأن الإعادة إنما هى للجزاء لا للتكليف ، فكأنه قال :إن كنت صادقاً فى إعادتهم للجزاء فأعدهم للتكليف .. حكاه الماوردى .

ثم خاطبوا من وعدوهم بالنشور ، وهم النبى وأصحابه وقالوا لهم : (فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين) أى إن كان البعث حقا كما تقولون فعجلوا لنا بإحياء آبائنا الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا إن كنتم صادقين فيما تدّعون .

(١) الآية ٧ من سورة فاطر

وهذه حجة داحضة ، فإن المعاد يوم القيامة بعد انقضاء الدار الدنيا حين يعيد الله العالمين خلقا جديداً ، ومن ثم لم يتعرض الكتاب الكريم لردّ ما قالوا بل قال لهم مهدداً متوعداً منذراً بأسه الذى لا يرد :

﴿ **أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين** ﴾ أى إن نظراءهم المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع أهلكهم الله وخرب ديارهم وشردهم فى البلاد شَذَرَ مذَرَ ، وقد كانوا أقوى منهم جندا وأكثر عدداً ، وكانت لهم دولة وصولة ، وهؤلاء ليسوا فى شيء من ذلك ـــ وكذلك فعل بمن قبلهم كعاد وثمود إذ كانوا فى خسران بين بكفرهم وإنكارهم للبعث والنشور ، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل ما حل بأولئك ﴿ **سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم** ﴾ .

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) أى وما خلقنا الخلق عبثاً بأن نوجدهم ثم نفنيهم بغير امتحان بطاعتنا ، واتباع أمرنا ونهينا وبغير مجازاة للمطيع على طاعته ، والعاصى على معصيته ، بل خلقناهم لنبتلى من أردنا امتحانه منهم بما شئنا ولنجزى الذين أساءوا بما عملوا ونجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

(ما خلقناهما إلا بالحق) أى إلا بالأمر الحق وقيل إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته .

(ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى ولكن أكثر هؤلاء المشركين بالله لا يعلمون ذلك ، منهم لا يخافون من سخطه عقوبة لهم على ما اجترحوا من السيئات ، ولا يرجون ثرابا على خير ما فعلوه لتكذيبهم بالميعاد والعودة إلى دار أخرى بعد هذه الدار .

ونحو الآيات قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون** ﴾[١] .

وكقوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ، كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب** ﴾[٢] .

وكقوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[٣] . وكقوله جل فى علاه : ﴿ **افحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لاترجعون،**

---

(١) الآية ٦٢ من سورة الأحزاب
(٢) الآيات ١٦ ـــ ١٨ من الأنبياء
(٣) الآيات ٢٧ ـــ ٢٩ من سورة (ص)
(٤) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة الجاثية

فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم * ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾(١) .

فذلك ظن الذين كفروا ، أما الذين آمنوا فقد وصفهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار* ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار* ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار* ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾**(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين * يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ﴾** .

أى إن هذا اليوم الذى يفصل الله فيه بين خلقه فيحق الحق ، ويبطل الباطل ، لآت لا محالة وهو وقت حسابهم ، وجزائهم على ما كسبت أيديهم من خير أو شر ، ﴿ **يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون ﴾** ، أى إن هذا يوم تنقطع فيه الأسباب بابن آدم فلا تنفع الناس إلا أعمالهم ، فمن أصاب خيراً فى دنياه سعد به ، ومن أصاب شرًّا شقى به ، ولا يغنى القريب عن القريب ولا يدفع عنه شيئا من عذاب الله ، ولا يجد الناصر الذى يقيه ذلك العذاب . كقوله تعالى : ﴿ **لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾**(٣) ، وكقوله عز وجل : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾**(٤) وكقوله جلت قدرته ﴿ **ولا يسأل حميم حميماً * يبصرونهم ﴾**(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ﴾** .

أى ولكن من رحمه الله فإنه لا يحتاج إلى قريب ينفعه ولا إلى ناصر ينصره قاله الكسائى ، وقال القرطبى : ويجوز أن يكون الاستثناء متصلاً ، أى لا يغنى قريب عن قريب إلا المؤمنين فإنه يؤذن لهم فى شفاعة بعضهم لبعض (إنه هو العزيز الرحيم) العزيز المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه فقرن سبحانه الوعد بالوعيد .

---

(١) الآيات ١١٥ — ١١٧ من سورة المؤمنون
(٢) الآيات من ١٩٠ إلى ١٩٥ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٢ من سورة الممتحنة
(٤) الآية ١٠١ المؤمنون
(٥) الآيتان ١٠ ، ١١ من المعارج

قوله تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ .

(إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) أى إن الزقوم وهو ثمر هذه الشجرة التى فى الجحيم طعام الكافر كثير الذنوب والآثام .

وشجرة الزقوم : الشجرة التى خلقها الله فى جهنم وسماها الشجرة الملعونة ، فإذا جاع أهل النار التجئوا إليها فأكلوا منها ، غلت فى بطونهم كما يغلى الماء الحار لذا قال سبحانه : ﴿ **كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم** ﴾ . وشبه ما يصير منها إلى بطونهم بالمهل وهو النحاس المذاب ويكون كالماء الحار إذا اشتد غليانه .

قوله تعالى : ﴿ **خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم** ﴾ أى ويقال للزبانية « ملائكة جهنم » خذوا هذا المجرم فادفعوه دفعا إلى وسط جهنم ، لينال قسطه من عذابها ﴿ **ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم** ﴾ أى وبعد أن تدخلوه فيها صبّوا فوق رأسه من الماء الساخن الذى ذكرنا صفته . كقوله تعالى : ﴿ **يصب من فوق رءوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون** ﴾ قال قتادة : نزلت فى أبى جهل وكان قد قال : ما فيها — مكة — أعز منى ولا أكرم ، فلذلك قيل له : ذق إنك أنت العزيز الكريم ، ومعنى الآية أى ذق هذا الذل والهوان اليوم ، فإنك كنت تزعم أنك أنت العزيز الكريم ، وها هو ذا قد تبين لك أنك أنت الذليل المهين .

(إن هذا ما كنتم به تمترون) أى إن هذا العذاب الذى تعذبون به هو العذاب الذى كنتم تشكون فيه فى الدنيا ، فتختصمون فيه ، ولا توقنون به ، فقد لقيتموه فذوقوه كقوله تعالى : ﴿ **يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعلمون** ﴾[2] .

---

(١) الآيات ١٩ — ٢٢ من سورة الحج

(٢) الآيات ١٣ — ١٦ من سورة الطور

جزاء المتقين

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾
كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ
إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾
فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

معانى المفردات

(فى مقام أمين) أى فى مجلس أمنوا فيه من كل هم وحزن ، (سندس) أى ديباج رقيق (إستبرق) أى حرير فيه بريق ولمعان ، (زوجناهم) أى قرناهم (بحور عين) أى بجوار بيض حسان واسعات العيون (يدعون) أى يطلبون (وقاهم) أى حفظهم (ارتقب) أى انتظر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الكافرين ، وما يرونه من الأهوال فى ذلك اليوم ـــ أعقب هذا بوعد المتقين بما يلاقونه فى جنات النعيم من ضروب التكريم فى الملبس والزوجات والمآكل ثم ، ببيان أن هذا النعيم أبدى خالد لا يعقبه موت ولا تحول ولا انتقال ، ثم ختم السورة بالمنة على العرب فى نزول القرآن بلغتهم لعلهم يعتبرون ويتعظون به ، ثم توعدهم إذا هم كذبوا بما جاء به الرسول بحلول النقمة بهم ، والنصر له عليهم .

التفسير

قول تعالى : ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين ، فى جنات وعيون ، يلبسون من سندس واستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمين** ﴾ .

قال ابن القيم : « المقام » موضع الاقامة « والأمين » الآمن من كل سوء وآفة ومكروه وهو الذى قد جمع صفات الأمن كلها . فهو آمن من الزوال والخراب ، وأنواع النقص ، وأهله آمنون فيه من الخروج والنقص والنكد ، والبلد الأمين الذى قد أمن أهله ، فيه مما يخاف منه سواهم ، وقال ابن كثير : قد آمنوا فيها من الموت والخروج ومن كل هم وحزن وجزع وتعب ونصب ، ومن الشيطان وكيده ، وسائر الآفات والمصائب ، (فى جنات وعيون) وهذا فى مقابلة ما أولئك فيه من شجر الزقوم وشرب الحميم ، فالمتقون

فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر . (يلبسون من سندس) وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها (وإستبرق) وهو ما فيه بريق ولمعان وذلك كالرياش وما يلبس على أعالى القماش ، (متقابلين) أى على السرر لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره فهم متواجهون يدور بهم مجلسهم حيث داروا .

وقوله تعالى : ﴿ **كذلك وزوجناهم بحور عين** ﴾ أى هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحور العين الحسان اللاتى ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾[١] ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾[٢] ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾[٣] « والحور » جمع حوراء . وهى المرأة الشابة الحسناء ، الجميلة ، البيضاء شديدة سواد العين ، والعين هن اللاتى جمعت أعينهن صفات الحسن والملاحة .

ذكر ابن المبارك : عن ابن مسعود قال : إن المرأة من الحور العين ليرى مخ ساقها من وراء اللحم والعظم ، ومن تحت سبعين حُلة ، كما يرى الشراب الأحمر فى الزجاجة البيضاء ، وقال القرطبى : وعن أبى قرصافة سمعت النبى ﷺ يقول : « إخراج القمامة من المسجد مهور الحور العين »[٤] وعن أنس أن النبى ﷺ قال « كنس المساجد مهور الحور العين » ذكره الثعلبى رحمه الله .

وقوله تعالى : ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ قال قتادة : آمنين من الموت والوصب والشيطان . وقيل : آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم ، أو من أن ينالهم من أكلها أذى أو مكروه .

قال الامام ابن القيم : « وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن فى قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين** ﴾[٥] ، وفى قوله تعالى : ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام فلا يخافون انقطاع الفاكهة ، ولا سوء عاقبتها ومضرتها ، وأمن الخروج منها ، فلا يخافون ذلك ، وأمن الموت ، فلا يخافون فيها موتاً » .

---

(١) الآية ٥٦ من سورة الرحمن
(٢) الآية : ٤٩ من سورة الصافات
(٣) الآية ٥٨ من سورة الرحمن
(٤) الحديث فى الدر المنثور فى تفسير قوله تعالى « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » ج ٤ ، ص ١٤٤ عن أبى قرصافة .
(٥) الآية ٥١ من سورة الدخان

الأمن فى ظل الإسلام

مقدمة ..

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ . أما بعد :

فإن الأمن هو النعمة العظمى بعد الإيمان بالله لذا فإن الله تعالى سمى نفسه المؤمن أى الذى يؤمن عباده ، ويكفى الأمن شرفا وقدراً أنه من أسماء الله تعالى الحسنى ، ولقد قدمه الله تعالى على نعمة الرزق فقال سبحانه : ﴿ **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان** ﴾[١] وجعل الله الأمن كلمة جامعة وافية كافية شافية جزاء للمؤمنين فبعد ما سأل القرآن هذا السؤال ﴿ **فأى الفريقين أحق بالأمن** ﴾[٢] أجاب فى صراحة ووضوح وشموخ ورسوخ وبزوخ قائلا : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾[٣] وقد وصف الله تعالى دار الخلد بأنها مقام أمين فقال عز من قائل ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون * يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين كذلك وزوجناهم بحورعين * يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾[٤].

ولقد امتن الله تعالى على قريش بالأمن من الخوف فقال : ﴿ **الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** ﴾[٥] ، وقال : ﴿ **أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا** ﴾[٦] وقال : ﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا** ﴾[٧] .

والحقيقة أنه لا حياة مع الخوف إذ تتحول الدنيا بلا أمن إلى أرض مسبعة يفترس القوى فيها الضعيف وتصبح الحياة ظلمات بعضها فوق بعض كأنها بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، والحياة مع الأمن تصير جنات ظلالها وارفة يتبوأ الإنسان فيها حياة طيبة مباركة ويعيش عيشة راضية يثمر وينتج يصون ولا يبدد ، ويحمى ولا يهدد ، يتفيأ ظلال الحرية ، ويأخذ مكانه تحت الشمس ، لذلك فإن الإسلام هو دين الأمن والأمان ، والعزة والكرامة ، والإخاء والمساواة ، والحرية والرفعة ، فلنعمل جميعاً على تحقيق هذه النعمة العظيمة نعمة الأمن ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون وطوبى للمخلصين ، أولئك مصابيح الهدى تنجلى عنهم كل فتنة ظلماء ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

---

(١) من الآية ١١٢ من سورة النحل
(٢) من الآية ٨١ من سورة الأنعام
(٣) من الآية ٨٢ من سورة الأنعام
(٤) الآيات ٥١ — ٥٥ من سورة الدخان
(٥) الآية رقم ٤ من سورة قريش
(٦) من الآية ٦٧ من سورة العنكبوت
(٧) من الآية ٥٧ من سورة القصص

أهمية الأمن :

حقا إن الأمن كلمة خفيفة على اللسان عميقة الوجدان ، مطمئنة للجنان ، إنه فعلا نعمة عظمى ، وغاية يسعى إليها كل إنسان ، بل هى مطلب أساسى ، لا تستقيم الحياة بدونه ، وضعه الحق سبحانه وتعالى جنبا لجنب مع المطلب الأول الذى يسعى إليه كل كائن حى وهو الطعام ، بل إنه سبحانه جل شأنه قدم نعمة الأمن على نعمة الرزق فقال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان** ﴾(١) ولم يمن الحكيم الخبير على قريش بنعمة كما من عليها بآية أطعمها من جوع وآمنها من خوف فقال جل شأنه : ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف** ﴾(٢) .

﴿ **أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء** ﴾(٣) .

﴿ **وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا** ﴾(٤) .

بل إن العلى القدير جعل الأمن هو غاية المنى ، والجزاء الأوفى ، لمن جاهدوا واستمسكوا بالعروة الوثقى ، واتبعوا طريق من سبقونا بالإيمان لم يبالوا بما فيه من صعوبات ومشقات ، فقال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون** ﴾(٥) .

لماذا ؟ لأنهم خافوا مقام ربهم فجعل الأمن عاقبة أمرهم لأنه قال وقوله الحق فى حديثه القدسى : « لا أجمع لعبدى أمنين ، ولا خوفين أبدا ، إن هو أمننى فى الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن هو خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة »(٦) .

فما هو الأمن الذى نال هذه المكانة العظمى ، وجعله الله أسمى الغايات للمؤمنين يتجاوب معه كيانهم وتتشوق إليه أرواحهم وتتطلع إليه أفئدتهم ؟ هل هو الطمأنينة ؟ هل هو السعادة ؟ أهو الاستقرار العائلى والوظيفى ؟ أهو ضمان الرزق والعيش فى رغد من الحياة ؟ أهو أمن الدولة بالمحافظة على حدودها الخارجية وعدم القلقلة والاضطرابات داخليا ؟ أم هو أمن النفس البشرية وحمايتها من تيارات العواصف التى تطيح بها وتجعلها تئن تحت الضغوط الدنيوية وتسبب لها القلق والضياع .

أسئلة كثيرة تدور فى أعماق كل إنسان تجعله يتحير فى اختيار إجابة محدودة واضحة المعالم عن الأمن ، ليس هذا فقط بل إنها تصبغ حياة الناس بصبغة معينة تجعل كلا منهم يتحرك فى كل اتجاه ويجرى وراء

---

(١) الآية : ١١٢ من سورة النحل
(٢) الآيتان ٣ ، ٤ من سورة قريش
(٣) الآية ٥٧ من سورة القصص
(٤) من الآية ١٢٥ من سورة البقرة
(٥) الآية ٨٢ من سورة الأنعام
(٦) الحديث فى إحياء علوم الدين ج ٤ ، ص ١٥٩ ، ج ٤ ، ص ١٦٢

كل ما يتصور أنه يحقق له الأمن . ومن مجموع هذا الإنسان تتكون المجتمعات فالشعوب فالدول ، وتتحدد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

وبالتالى فلنا أن نتصور خطورة الموقف فى تحديد مفهوم الأمن لأنه بناء على هذا المفهوم ستدور عجلة الحياة ، إن خيراً أو شرّاً وسوف تتشكل العلاقات الداخلية والخارجية لكل دولة على حدة ثم تتشكل العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب .

ولذلك سنحاول بإذن الله أن نوضح ما وسعنا الجهد مفهوم الأمن ، ثم نوضح المنهج الإسلامى فى الأخذ بالنفس الإنسانية ، نحو أمن الدنيا ، وأمن الآخرة ، حتى إذا جاء أجلها سعت إلى ربها فرحة مستبشرة ، بقوله الحق : ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾[1] .

مفهوم الأمن عند الناس

نظرا لأن الأمن هو إحساس داخلى فى النفس البشرية يدعمه الواقع العملى ، فإنه من الصعب بمكان على الإنسان أن يحدد مفهوما واضح المعالم للأمن ، لأن هذا المفهوم يختلف من إنسان لآخر حسب قدراته النفسية ، والعقلية ، وظروفه الاجتماعية والاقتصادية ، كما أن هذا المفهوم أيضا يتغير من دولة لأخرى حسب وضعها الجغرافى،وظروفها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

فإذا سألنا كل واحد منا هذا السؤال : كيف يتحقق لك الأمن ؟ نجد أن الإجابات قد تنوعت تنوعا لا حد له : فالبعض يرى أن الأمن من وجهة نظره هو ألا يخاف على نفسه وولده من التعرض للسرقة أو الخطف أو القتل سواء فى منزله أو الطرق التى يسير فيها ، أو وسائل النقل العامة ، أو فى أى مكان حل فيه أو ارتحل عنه بمفرده ، أو مع أهله وأحبابه وأصدقائه .

والبعض الآخر : يرى أن الأمن هو ألا يتعرض لإهمال جسيم يودى بحياته هباء إذا مرض ، أو أصيب فى حادث ، هو أو أى فرد من أفراد أسرته ، فيجد الدواء متوفراً فى متناول يده ، ويجد المستشفى الذى ينتقل إليه بسهولة ويسر ، ويجد القلب الرحيم والرعاية اللازمة التى تنقذ حياته ، أو حياة أحبابه فيشعر أنه إنسان ينتمى لوطن غال يقدر قطرات العرق والجهد الذى يبذله فى إدارة عجلة الحياة والإنتاج .

---

(١) الآيات ٢٧ - ٢٩ من سورة الفجر

ـــ وهناك بعض ثالث : يرى أن الأمن هو ألا يشعر أنه مهدد فى رزقه ومستقبله ، وأن هناك من القوانين الاجتماعية ما يحميه ، فى حالة الشيخوخة والمرض ، أو فى حالة أن يطرده صاحب العمل فى أى وقت يشاء . بدون أى ذنب يجنيه سوى أنه يقول الحق ولا شيء غير الحق .

ـــ وهناك من يرى : أن الأمن جمع المال فيجرى وراء جمعه بشتى الطرق لا يهمه فى ذلك من أى الطرق جمعه حلالا كانت أم حراما ؟ ولا يهمه فى أى الطرق أنفقه ، أكانت فى مرضاة الله أم فى مرضاة نفسه وشهواته وأطماعه .

ـــ وهناك النساء : وهن نسبة كبيرة فى المجتمع لها وزنها وثقلها الذى لا ينكره أحد ، فهن المدرسة التى تخرج الأجيال التى تحمل على سواعدها بناء المجتمع وفى رعايتهن الرعاية الطيبة ، إعداد شعب طيب الأعراق ، هؤلاء النساء يرون أن الأمن هو ألا تعيش الواحدة منهن مهددة فى مستقبلها يعتصرها الخوف من أن تجد نفسها فجأة مطلقة . ومحرومة من أعز ما لديها وهو فلذات أكبادها ، أو تجد نفسها شريدة وحيدة لا تجد القوت الذى يكفيها ، وبالتالى عليها أن تخوض غمار الحياة تصارع أمواجها لتحافظ على كيانها كإنسانة وعلى عقيدتها ومبادئها التى تمنعها من الانحراف .

ـــ وهناك من يرى أن الأمن فى ألا تضيع حقوقه ، بين المحاكم إذا اقتضاه الأمر للتقاضى ويجد القاضى العادل المنصف الذى يحكم بالحق ، فلا تميل بيديه إحدى كفتى الميزان ، فيشيع الظلم وهو المعول الأساسى فى انهيار المجتمعات .

ـــ وهناك : من يرى الأمن فى العدالة الاجتماعية حيث لا محسوبية ولا رشوة ، ولا نفاق ولا تفاوت رهيب فى توزيع الدخول يؤدى إلى سيطرة طبقة على أخرى بحيث يصبح حينذاك فئة طاغية من كثرة المال الذى يزيد عن الحد وفئة مطحونة من شدة الفقر وهى تمثل الغالبية العظمى من الشعب وبالتالى تفقد الحافز على الإنتاج لأنها مهما تعبت فإن الهوة ستظل كبيرة ، حيث الفقر حركة تراكمية لأسفل والغنى حركة تراكمية لأعلى ، وهذا يؤدى إلى تدهور البنيان الاجتماعى فى الدولة ، فيفقد الجميع الإحساس بأى نوع من أنواع الأمن .

ـــ كثيرون كثيرون فى المجتمع كل منهم تدور فى أعماقه مفاهيم معينة عن الأمن ، ولو أن الغالبية العظمى منهم تتصور أن هذا الأمن لابد وأن يتحقق مع التقدم والرفاهية وتطبيق الديمقراطية الغربية ، فإذا كان الأمر كذلك كما يتصورون ، فلم تعانى معظم الشعوب الأوروبية وشعوب الولايات المتحدة الأمريكية ، الإحساس بفقدان الأمن ؟ رغم أن تقدمها يمثل حلما لكل الدول المتخلفة وتمثل ديمقراطيتها قمة مشاركة الشعوب فى صنع قراراتها المصيرية بنفسها وأعلى درجة من الرقابة الشعبية على الحكام مما تتباهى به تلك الدول نفسها على شعوب الكرة الأرضية بأسرها !!

ومع ذلك نجد أن العذاب النفسى ، والشقاء الروحى ، والشذوذ الجنسى ، والانحلال الخلقى ، الذى تقاسى منه هذه الأمم اليوم ، ليكاد يغطى على الإنتاج والرخاء والمتاع ، ويكاد يصبغ الحياة كلها بالكفر والقلق والشقاء وفقدان الأمن بكل معانيه .

وإذا كان الله قد رفع عذاب الاستئصال بعد بعثة رسول الله ﷺ فهناك ألوان من العذاب باقية ، والبشرية تذوق منها الكثير ، إذا بعدت عن منهج الله ، لأن سنة الله فى الكون هى مصداق قوله تعالى : **﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾**(١) .

إذن فالأمن الحقيقى هو فى منهج الله العظيم الذى نزل به الروح الأمين على قلب سيد الخلق وإمام المرسلين ليكون رحمة للعالمين ، وهذا ما خاطبه به أصدق القائلين حيث قال :

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾(٢)

﴿ فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾(٣)

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾(٤)

﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾(٥)

﴿ وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾(٦)

﴿ ولو كنت فظا غليظ القلب لا نفضوا من حولك ﴾(٧)

ذلك الرسول الذى اجتمعت حوله القلوب ، فأشاع فيها الأمن حتى وصف بأنه نبى الرحمة وقال فى مدحه أمير الشعراء :

فإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هما الرحماء

ولنا أن نتخيل مجتمعاً ودستوره ... الرحمة وملجؤه الرحمن الرحيم

أى أمن وأى طمأنينة تشيع فيه ، حقا إن الإسلام وضع مفهوما للأمن تتطلع إليه القلوب ، وتشرئب إليه الأرواح ، لأنه من عند حكيم خبير ، حدده فى آيات قرآنية تشع نورا وبهاء فقال جل شأنه : **﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ، ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾**(٨) .

---

(١) الآية ٤٤ من سورة الأنعام
(٢) الآية ١٠٧ الأنبياء
(٣) الآية ٥٤ من سورة الأنعام
(٤) الآية ٨٩ من سورة النحل
(٥) الآية ١٥٧ من سورة آل عمران
(٦) الآية ٥٧ من سورة يونس
(٧) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران
(٨) الآيات ١٣٣ إلى ١٣٧ من سورة طه

مفهوم الأمن الاسلامى

إن مفهوم الأمن الإسلامى عميق كل العمق ، شامل كل الشمول ، فيتناول الإنسان نفسا وروحا وجسدا ، يتناول واقعه العملى ، وهو الدنيا التى يعيش فيها ومعاده الأزلى ، وهى آخرته التى سيرجع إليها .

المنهج الاسلامى لتحقيق الأمن

إن الاسلام حقق الأمن للإنسان فى صورة مضيئة مشرقة حيث أفاض على القلوب الطمأنينة وعلى العقول النضج والوعى . ونقل البشرية إلى تلك القمة الساحقة وفتح لها آفاقا واسعة ، سواء فى ذلك الآفاق المكانية ، أو الزمانية لتجول فيها وتعرف أن وعد الله حق وأن لا ملجأ من الله إلا إليه بالاعتصام به واتباع منهجه .

﴿ أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض ﴾[1]

﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[2]

﴿ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها ﴾[3]

وهكذا فإن تلك الآفاق تحرر الإنسان من وطأة بشريته التى تسجنه داخل جدران جسده ، وعقله وأهوائه وشهواته ، وتسبب له القلق والضياع .

ثم لم يقتصر الإسلام على ذلك بل إنه وضع منهجا متكاملا لذلك الإنسان ، يحقق له الأمان المطلق الذى تنشده كل نفس بشرية ، يشمل هذا المنهج خمسة دعائم أساسية تشكل فى مجموعها دين الإنسان ودنياه ، واقعه وأخراه ، احتياجاته العاجلة واحتياجاته الأخروية ، تلك الدعائم هى : ـــ

١ ـــ الأمن للعقيدة : حيث تشدد فى توحيد العقيدة ، وبين أن الإسلام هو رسالة الرسل أجمعين . ووضع دعائم الإيمان بالغيب كأساس لتقوية العقيدة . وصحح عقائد أهل الكتاب وحرم الردة .

٢ ـــ الأمن للنفس : حيث عالج مخاوف النفس البشرية بشتى صورها سواء الخوف من الموت ، أو فوات الرزق ، أو المصاعب والمخاطر ، وحارب المذموم من الأخلاق كالغيرة والحسد والنفاق ، والغش ، والكذب ، والخديعة ، والغيبة والنميمة ، وعالج اليأس ، أخطر أعداء النفس البشرية .

٣ ـــ الأمن للعقل : حيث أعد البشرية للرشد العقلى ، وحمايتها من استنفاد العقل فى تيه الفلسفات المذهبية وأهلها لاستخدام هذه الأداة العظيمة فى أدراك الحق وأسرار الخلق ، ولذلك كان هناك من القوانين الإلهية ، الكثير لحماية ذلك العقل أهمها تحريم المسكرات ، وكل ما يضر بالعقل بزجه فى متاهات الجاهلية العمياء .

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٣٧ من سورة ق

(٣) الآية ١٠٥ يوسف

٤ ــ الأمن للعرض : حيث حدد منهجه فى الحفاظ على العرض بتحريم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن ؛ ليعين الناس على التسامى ويطهر المجتمع مما يشوبه من أدران تسبب له القلق والضياع .

٥ ــ الأمن للمال : فالمال عصب الحياة وأى اختلال فى تداوله يعرض المجتمعات الإنسانية إلى هزات اقتصادية عنيفة ، فحرم كل طريقة لتداول الأموال بالباطل ، مثل السرقة أو الغش أو الرشوة ، أو القمار أو احتكار الضروريات لإغلائها ، أو جميع أنواع البيوع المحرمة .

وسنتناول بالتفصيل إن شاء الله تلك النقاط الخمس لنوضح كيف يحقق الإسلام الأمن للبشرية وكيف يعصمها من السقوط فى مهاوى القلق ، وكيف يأخذ بيدها إلى الطمأنينة والرضا والسعادة ، التى هى مطمع كل إنسان وغاية مسعاه .

فالله يقول الحق وهو أصدق القائلين :

﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[١]

﴿ وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ﴾[٢]

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾[٣]

ولنا أن نتخيل مجتمعاً دستوره الرحمة ، وملجؤه الرحمن الرحيم ، ونبيه هو نبى الرحمة : أى أمن وأى طمأنينة تشيع فيه . فلنرهف السمع ، ونوقظ الحواس ، ونحن ننصت إلى ما جاءت به الشريعة الغراء لترسى بكل الوضوح وبكل معانى العظمة دعائم الأمن ليكون هو البشرى وهو الغاية وهو الجزاء الأوفى **﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾**[٤]

﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون ﴾[٥]

﴿ إن المتقين فى مقام آمين ﴾[٦]

---

(١) الآية ٨٢ من سورة الإسراء
(٢) الآية ٥٧ من سورة يونس
(٣) الآية ٥٢ من سورة الأعراف
(٤) الآية ٨٢ من سورة الأنعام
(٥) الآية ٣٧ من سورة سبأ
(٦) الدخان ٥١

أولاً : تحقيق الأمن للعقيدة :

إن المنهج القرآنى فى دعم العقيدة الإسلامية غنى وزاخر ، ويجل عن الوصف،وكيف لا والتشريعات والتوجيهات الإسلامية كلها تنبع من أصل واحد ، وترتكز على ركيزة واحدة ، وهى عقيدة التوحيد المطلق ، ومن تلك العقيدة فى الله تنبع كل التصورات الأساسية التى تقوم عليها المناهج الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، والأخلاقية ، والتى تؤثر على علاقات الناس بعضهم ببعض ، وفى العلاقات الدولية ، كما أنها تجعل العبادات قاعدة للمعاملات بما فيها من تطهير للضمير والسلوك ، وبالتالى فإن أى خلل فى دعم تلك العقيدة معناه إشاعة القلقلة والاضطرابات فى المجتمع الإنسانى حيث يتبع كل فرد هواه مما يترتب عليه الفوضى الشاملة فى المجتمع ككل : ﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾[١]

فما هى تلك الخطوات التى اتخذها المنهج الإلهى لدعم العقيدة الإسلامية ؟ إن تلك الخطوات تتمثل فى نواحى شتى نوجزها فيما يلى : —

١ — التشدد فى توحيد العقيدة : —

إن الإسلام يتشدد فى توحيد العقيدة فى الله ورسله حماية للمؤمن من تشتته بين أهواء ونوازع شتى تبدد طاقاته الروحية ، وتضيع معالم الهدف والطريق ، قال تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[٢]

وقال جل شأنه : ﴿ **إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً** ﴾[٣] .

فكل الأنبياء عملوا فى معسكر واحد هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد هو قول « لا إله إلا الله » أما اختلاف المناهج فى الشريعة ، فقد جاء حسب تطور البشرية من طفولتها المادية ، إلى شبابها الجارف إلى رجولتها الكاملة ، على يد خاتم الأنبياء ﷺ ، وما من شك فى أن البشرية فى فجرها أيام آدم ونوح وهود وصالح وإبراهيم ، غير البشرية أيام موسى وعيسى ، غير البشرية أيام سيدنا محمد ﷺ ، فعقيدة الأنبياء جميعاً واحدة وهى التوحيد ، أما الشرائع فإنها جاءت مطابقة لمقتضى أحوال الأمم فيما يصلحهم ديناً ودنيا .

---

(١) القصص من الآية ٥٠

(٢) من الآية ١٩ من سورة آل عمران

(٣) الآيتان ١٥٠ ، ١٥١ من سورة النساء

قال تعالى :

﴿ **لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه** ﴾(١)

وقال جل شأنه :

﴿ **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** ﴾(٢)

ولا شك أن هذا التوحيد هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس فى هذا الوجود أينما امتد بصره ، ولأنه هو التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعاً فى موكب واحد ، هو موكب النور فى مواجهة صفوف الكفر وأحزاب الشيطان ، ومن ثم كان الإسلام هو الدين وكان المسلمون المعتقدون عقيدة صحيحة ، لم يدخلها أى نوع من أنواع الشرك هم ﴿ **خير أمة أخرجت للناس** ﴾(٤) .

وقد عُنِى الإسلام عناية بالغة بتقدير حقيقة وحدانية الله سبحانه ، وحدانية لا تلتبس ، بشبهة شرك ، أو مشابهة فى أية صورة من الصور ، وذلك لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ليعرفوا من صاحب السلطان فى هذا الكون وفى هذه الأرض فلا يخضعون إلا له ولمنهجه وشريعته فى الحياة ، وهنا يتحقق الأمن والطمأنينة للمجتمع المسلم .

قال تعالى فى حديث قدسى جليل يعتبر دستوراً تطبيقياً يؤكد على أن الإيمان بوحدانية الله والتسليم له وحده ، كفيل بتحقيق كل دواعى الأمن للإنسان المؤمن :

« يا موسى ما أحبنى من أحب المال ، وما أحبنى من أحب الدنيا ، فإنه لا يسع قلب واحد حبى وحبها أبدا ، يا موسى ما خافنى من خاف الخلق ، وما توكل علىّ من خاف فوات الرزق ، وعزتى وجلالى ما توكل علىّ عبد إلا كفيته ، وبيدى مفاتح الملك والملكوت ، وما اعتصم بى عبد الا أدخلته الجنة وكفيته كل مهمة ، ومن اعتصم بغيرى أسخت الأرض تحته . وقطعت الأسباب من فوقه ولا أبالى كيف أهلكته ، يا موسى خمس كلمات ختمت لك بهن التوارة ، إن عملت بهن نفعك العلم كله وإلا لا ينفعك شيء منه :

الأولى : لا تخف ذا سلطان ما دام سلطانى باقيا وسلطانى دائم لا يزول أبدا» .

الثانية : كن واثقاً من رزق مضمون لك مادامت خزائنى مملوءة وخزائنى مملوءة لا تنفد أبدا .

الثالثة :لا ترعيب غيرك مادام فيك عيب والمرء لا يخلو من عيب أبداً .

الرابعة : لا تدع محاربة الشيطان مادامت روحك فى بدنك فإنه لا يدع محاربتك أبداً .

الخامسة : لا تأمن مكرى حتى ترى نفسك فى الجنة ، وفى الجنة أصاب آدم ما أصاب فلا تأمن مكرى أبداً .

---

(١) الحج الآية ٦٧

(٢) من الآية ٤٨ من سورة المائدة

(٣) من الآية ١١٠ من سورة آل عمران

أهمية التوحيد فى المنهج الإسلامى :

(١) قال المصطفى ﷺ : أيحب أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن كل ليلة ؟ فثقل ذلك على المسلمين وقالوا أينا يستطيع ذلك يا رسول الله ؟ فقال لهم : أقرأوا : « قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد »[١]

فلماذا احتلت سورة الإخلاص هذه المكانة ؟

يتضح هذا من اسمها فهى إخلاص الوجه لله وحده لا نشرك به سلطاناً » .

﴿ **فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾[٢] . إنه الله الذى يجب أن يقاتل المؤمنون فى سبيله لإعلاء كلمة ، الحق ولا يخشون إلا إياه سبحانه وتعالى : ﴿ **ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه أن كنتم مؤمنين** ﴾[٣]

ـــ إنه الله الواحد الذى يهدى إلى الحق من اتبع سبيله ويضل من اتبع الشهوات .

﴿ **قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق قل الله يهدى للحق** ﴾[٤]

﴿ **أفرأيت من اتخذ آلهه هواه وأضله الله على علم** ﴾[٥]

ـــ هو الواحد الأحد له ملكوت السموات والأرض .

وتلك الأحدية فى حد ذاتها لها عظمتها فى إشاعة الأمن فى الوجود كله لأنه كما قال جل وعلا : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾[٦]

ـــ وتلك الوحدانية تحرر النفس من كل خوف من آلهة عاجزة تظهر فى صورة ملوك جبارين فى الأرض وهم لا يملكون حولا ولا قوة أمام قوة الله سبحانه وتعالى .

﴿ **وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون** ﴾[٧] .

ـــ إنه الفرد الصمد الذى يقصده الناس فى قضاء حوائجهم ، ويغيث الملهوف ويفرج كرب المكروبين ويرفع راية المتضورين ويهدى الحيارى واليائسين .

---

(١) الحديث : أورده القرطبى فى تفسير سورة الإخلاص ج ١٠ ، ص ٢٤٧ وقال : أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث أبى الدرداء بمعناه ا هـ . قرطبى

(٢) الآية ١١٦ من سورة المؤمنون

(٣) الآية ١٣ من سورة التوبة

(٤) الآية ٣٥ من سورة يونس

(٥) الآية ٢٣ من سورة الجاثية

(٦) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء

(٧) الآية ٨١ من سورة الأنعام

﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله ، قليلا ما تذكرون ، أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته . أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾(١) .

● إنه الله الذى لم يلد ولم يولد لإنه غنى عن العالمين :

﴿ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغنى ﴾(٢)

● إنه الله الذى ليس له كفوا أحد سبحانه وتعالى جل شأنه . ﴿ يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾(٣)

﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾(٤)

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة سبحانه وتعالى عما يشركون ، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ، وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء ، أفلا تسمعون ، قل أرأيتم إن جعل الله عليكم . النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾(٥)

سبحانك ربى لا إله إلا أنت . يا من يقف القلم عاجزا خاشعا أمام عظمة منهجك فى توحيد عقيدتنا بما يحقق للنفس اطمئنانها ، وسكونها إلى من بيده أمرها :

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك عنا الجبين الساجد

٢ ــ **التأكيد على أن الإسلام هو عقيدة الرسل أجمعين** لا شك أن التأكيد على هذا المفهوم يجعل المسلم يزداد يقينا واعتزازا بدينه ، ويجعل نفسه تطمئن إلى ان هذا الدين هو الحق المبين حيث دعا إليه رسل الله أجمعون من عهد آدم إلى خاتم الأنبياء وسيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ .

---

(١) الآيات ٦٢ ــ ٦٤ من سورة النمل
(٢) الآية ٦٨ من سورة يونس
(٣) الآية ٣٩ من سورة يوسف
(٤) الآية ٥٤ من سورة الأعراف
(٥) الآيات ٦٨ ــ ٧٢ من سورة القصص

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾[١]

لماذا ؟ لأن الإسلام هو الرسالة التى بعث بها الأنبياء عبر تاريخ البشرية .

فها هو سيدنا نوح يخاطب قومه فيقول لهم :

﴿ فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾[٢]

ويحدثنا الله سبحانه وتعالى عن عقيدة سيدنا إبراهيم أبى الأنبياء فيقول جل شأنه : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما ﴾[٣]

وغرس سيدنا إبراهيم فى نفوس أولاده الإسلام وأنشأهم عليه ووصاهم به .

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٤]

وكان أهم ما يشغل أحد أحفاده ، وهو نبى الله يعقوب ، ساعة الموت ، حين لقاء الواحد القهار هو الوصية بدين الحق دين التوحيد ألا وهو الإسلام .

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا : نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾[٥]

وقالت الملائكة عندما كلفها الله بإخراج الذين آمنوا من قوم لوط ، وإهلاك الباقين الذين كذبوا به وجحدوا نعمة ربهم : ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾[٦]

وها هو سيدنا موسى يبلغ المنهج الإلهى فيخاطب قومه قائلاً : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾[٧] وعندما آمن السحرة برسالة موسى وهددهم فرعون بأبشع أنواع العقاب ، قالوا له فى يقين لا يتزعزع وقلب مطمئن بحلاوة التوحيد .

﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾[٨] .

حتى فرعون عندما أدركه الغرق وعرف أنه لا ملجأ من الله إلا إليه قال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾[٩] .

وعلى لسان سليمان يقول الحق جل وعلا :

﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟ قالت : كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾[١٠].

---

(١) الآية ٨٥ من آل عمران
(٢) الآية ٧٢ من سورة يونس
(٣) الآية ٦٧ من سورة آل عمران
(٤) الآية ١٣٢ من سورة البقرة
(٥) الآية ١٣٣ من سورة البقرة
(٦) الآية ٣٦ من سورة الذاريات
(٧) من الآية ٨٤ من سورة يونس
(٨) الآية ١٢٦ من سورة الأعراف
(٩) من الآية ٩٠ من سورة يونس
(١٠) الآية ٤٢ من سورة النمل

وتقول ملكة سبأ بعد أن هداها الله على يد نبيه سليمان :

﴿ **وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين** ﴾(١)

ويحكى لنا الله سبحانه وتعالى عن ذلك الحوار الربانى بينه وبين رسوله الكريم عيسى فيقول جل شأنه :

﴿ **وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون** ﴾(٢)

وقال تعالى لصفيه وحبيبه محمد خاتم الأنبياء وسيد المرسلين : ﴿ **قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾(٣).

وهكذا فلا حجة للناس على الله بعد الرسل ، ولا عدوان إلا على الظالمين ولا عذر لعقيدة متميعة تتأرجح بين الشك واليقين ، فالإسلام رسالة شامخة وارفة الظلال ، مغدقة الثمار ترفع رؤوس معتنقيه عالية وتملأ نفوسهم عزة وأمنا ، وتضفى على خطواتهم ثباتا وإرادة ، وكيف لا وهو عقيدة رسل الله أجمعين : صفوة البشرية وساداتها جاء بها خاتمهم وإمامهم صلوات ربى وسلامه عليه فأغدق على النفس المؤمنة الطمأنينة والسكينة ، وسد عليها كل منافذ الشك والقلق .

(٣) الإيمان بالغيب كأساس لدعم العقيدة :

إن أعظم ما يدعو لدعم العقيدة وجعلها راسخة متينة لا تتزعزع ، هو مدى الإيمان بالغيب ، فالمؤمن يتحمل ما يلاقيه من عنت ومشقة فى الحياة راضياً ، لأنه محتسب أجره عند الله ، يطلب عفوه وغفرانه ، ودخول جناته ، كما أنه يتجاوز عن الزلات ويعفو عن المسىء ويكظم غيظه ، ويدفع بالتى هى أحسن ، ابتغاء مرضاة الله إيمانا بالغيب الذى نبأنا عنه الصادق المعصوم .

إن الإيمان بالغيب هو الاختبار الحقيقى للإنسان لأنه يجاهد وجوده المادى ، فى سبيل وجوده المعنوى ، دون أن يرى الله صاحب الوجود الحقيقى ودون أن يرى الجنة أو النار ، فلو تكشف له كل هذا لخضع لله جبراً وقسراً ، واختار الجنة وخشى النار لعظمة الأولى وجمالها وهول الثانية وجحيمها . وبالتالى لا يصبح هناك مجال لتفاوت أقدار الناس ومكانتهم ولا ينصهر الإنسان وينصقل بخوض تجربة الحياة الدنيا التى أرادها الله له ، ولننصت إلى حديث رسول الله ﷺ لنعرف فضل الله على من عبده بظهر الغيب .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :(٤)« إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا هلموا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم ، ما يقول عبادى ؟ قال يقولون : يسبحونك ويكبرونك ويمجدونك قال فيقول : هل رأونى ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول كيف لو رأونى ؟ ،

---

(١) من الآية ٤٤ من سورة النمل.

(٢) الآية ١١١ من سورة المائدة

(٣) الآيتان ١١ ، ١٢ من سورة الزمر

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ج ١٠٨ ، ج ٨ طبعه الشعب

قال : فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تحميداً وتمجيداً وأكثر لك تسبيحاً ، قال : فيقول : ما يسألونى ؟ قال : يقولون يسألونك الجنة ! قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال يقولون لا والله يارب ما رأوها ، قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشدَّ لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة ، قال : ممَّ يتعوذون ؟ قال : يقولون : يتعوذون من النار . قال فيقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله ما رأوها قال فيقول : فكيف لو رأوها قال يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارا وأشد لها مخافة . قال فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة . قال : هم القوم لا يشقى بهم جليسهم — رواه البخارى .

حقّاً إن الإيمان بالغيب هو المحك الحقيقى للإيمان ، وهو الاختبار الشاق للإنسان ، اختبار ما فى الصدور وتمحيص ما فى القلوب . ﴿ **وليبتلى الله ما فى صدوركم ويمحص ما فى قلوبكم** ﴾[١] .

وهذا الابتلاء يعرضه الله علينا فى كل شيء وبعد فرض أوامره وعرض عاقبة المتقين . ومن أمثلة ذلك :

﴿ **ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[٢] .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم** ﴾[٣] .

﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** ﴾[٤] .

إن الإيمان بالغيب هو أمن وحماية وقوة للعقيدة ، لأنه سيوقظ الضمير فيقف حارساً على الحواس ، لأنه يخاف الله ويخشى عاقبة أمره .

﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾[٥] .

﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم** ﴾[٦] .

---

(١) الآية ١٥٤ من سورة آل عمران
(٢) الآيات ١٥٥ — ١٥٧ من سورة البقرة
(٣) الآية ٩٤ من سورة المائدة
(٤) الآية ٢٥ من سورة الحديد
(٥) الآية ١٨ من سورة فاطر
(٦) الآية ١١ من سورة يس

﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾(١) .

والإيمان بالغيب يحمى الإنسان من عوامل القلق فى البحث عما وراء الطبيعة وعن نشأة الكون ونهايته وعما ينتظره ساعة الموت وفيما بعد الموت ، لأنه آمن بالله ثم استقام . والله يقول وقوله الحق : ـــ

﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾(٢) ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيّانَ يبعثون ﴾(٣) ﴿ ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ﴾(٤) .

وجعله أهم صفات المؤمنين المتقين وهو أول ما يطالعنا فى كتاب الله عز وجل فى أول سورة البقرة حيث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ آلم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٥) .

٤ ـــ تصحيح عقيدة أهل الكتاب :

إن تصحيح عقيدة أهل الكتاب من يهود ونصارى هو فى حد ذاته دعم للعقيدة الإسلامية ، لأنه اعتناء ببيان الحق وإظهاره ، وبيان الباطل وكشفه ، حتى يكون المؤمن على هدى من ربه ، فيطمئن قلبه ويسير فى الحياة ثابت الخطى لأنه رضى بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ﷺ .

يتولى القرآن تصحيح عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير مما يبعدها عن العقيدة الصحيحة فى الله وهذا يسبب قصورا فى العقل للبشر أجمعين يؤدى إلى الغلو والتفريط فى تفكير البشرية جمعاء يبعدها عن منهج الحياة وهو منهج الله ، فيخاطب الله أهل الكتاب خطابا زاجرا يردهم به إلى طريق الحق والجادة والصواب فيقول جل شأنه : ـــ

﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ﴾(٦)

إن ذلك الخطاب لأهل الكتاب احتل أهمية كبرى فى القرآن الكريم ، نظرا لأنه خاتم الرسالات إلى العالمين ، فكان لابد من تخليص عقيدة التوحيد ، من كل ما يشوبها من أساطير البشر وتخبطهم فى جاهليتهم العمياء ، فنجد الحق سبحانه وتعالى : يصحح لليهود اختلالات تصور التوحيد ويزيح ما تراكم عليه من غبار الباطل فيقول جل شأنه : ـــ

---

(١) الآية ٩٤ من سورة التوبة
(٢) الآية ١٧٩ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٦٥ من سورة النمل
(٤) الآية ١٢٣ من سورة هود
(٥) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ من سورة البقرة
(٦) الآية ٧٧ من سورة المائدة

﴿ **يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم . وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون* وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا وإياى فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون *وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين** ﴾(١) .

ويتجه الله سبحانه وتعالى : إلى المسيحيين بتصحيح ما اعترى دياناتهم من قصور بَعُد بهم عن معنى الدين الحقيقى وأصاب عقيدتهم بانحراف بعدهم عن الحق المبين فيقول جل شأنه : ﴿ **يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا * لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً** ﴾(٢) .

إن الآيات التى يخاطب فيها الله اليهود والنصارى ليبين لهم العقيدة الصحيحة لا تعد ولا تحصى ، بحيث لا يسمح المجال هنا بسردها ، وما يهمنا الاستدلال به ، هو حرص المنهج الإسلامى على دعم عقيدة المسلم لأنها هى العقيدة الحقة التى ارتضاها الله لنا وبها نحقق الأمن فى أروع معانيه لأن التلقى فى شئون الحياة كلها من الله وحده ويا لها من نعمة عظمى .

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً** ﴾(٣) .

٥ ـــ تحريم الردة :

إن الإسلام عقيدة التسامح ولكنه ليس عقيدة التميع . إنه تصور جاد ونظام جاد ، والجد لا ينافى التسامح ، ولكنه ينافى التميع ، فهو يتسامح مع أصحاب العقائد المخالفة له ، فلا يكرههم أبداً على اعتناق عقيدته ، ولهم ـــ حتى وهم يعيشون فى ظل نظامه ودولته ـــ أن يجهروا بمعتقداتهم المخالفة للإسلام ، فى غير ما دعوة للمسلمين ولا طعن فى الدين . وهو يحافظ على حياتهم وأموالهم ودمائهم ويمتعهم بخير الوطن الإسلامى بلا تمييز بينهم وبين أهل الإسلام ، ويدعهم يتحاكمون إلى شريعتهم فى غير ما يتعلق بمسائل النظام العام .

إن الإسلام يتسامح هذا التسامح مع مخالفيه فى العقيدة ، ولكنه لا يتسامح أبداً مع من يوحدون الله ، ويشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ثم يرتدون بعد ذلك لأن هذا أخطر ما يمكن ، أن يطعن به الأعداء الإسلام وهذا ما فعله الكفار فعلا فى أول الدعوة لمحاربة الإسلام ورسول الإسلام محمد صلوات الله وسلامه عليه ، حيث زين لهم الشيطان أن يعلنوا إسلامهم ثم يرتدوا بعد ذلك معلنين أن هذا الإسلام

---

(١) الآيات ٤٠ ـــ ٤٣ من سورة البقرة

(٢) الآيتان ١٧١ ، ١٧٢ من سورة النساء

(٣) من الآية ٣ من سورة المائدة

ليس أهلا لهم ، وفيه من المبررات ما يجعلهم يرجعون عنه وهذا ما أخبر به الله العليم رسوله الكريم حتى يحذره منهم .

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾(١) .

ومن هنا وحماية للعقيدة الإسلامية وتدعيماً لها حرمت الردة فى الإسلام تحريما قطعيا ، ووصلت عقوبة تلك الجريمة إلى حد القتل ، وذلك حتى لا يستباح دين الله لضعاف النفوس أن يجعلوه مطمعا لتحقيق أغراضهم ثم ينفضوا منه بعد ذلك تاركين وراءهم البلبلة ، والتزعزع فى عقيدة الباقين ، ولذلك قال الصادق المعصوم صلوات ربى وسلامه عليه « من خالف دينه دين الإسلام فاضربوا عنقه »(٢) ، وقال أيضا ﷺ « من بدل دينه فاقتلوه »(٣) .

وهذا الحكم مستمد من القانون الأساسى وهو القرآن الكريم حيث يقول الله عز وجل :

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٤) .

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾(٥) .

وهكذا لم يترك الإسلام ثغرة واحدة يمكن أن ينفذ فيها الشك فى العقيدة إلا وأحكم مغاليقها لتظل عقيدة المسلم قوية البنيان . عميقة الأساس لا تتزلزل ولا تهتز ، لا تستطيع جيوش الباطل مهما أوتيت من قوة أن تغلبها أو تنتصر عليها وهكذا يعيش المؤمن فى أمن عقائدى ، لا يشعر بعظمة هذا الأمن إلا من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان وكفى بها من نعمة .

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(٦) .

وننتقل الآن إلى مجال آخر من المجالات التى اهتم الإسلام بتحقيق الأمن فيها بل إنه مجال لا يقل أهمية عن مجال العقيدة لأنهما متلازمان متلاصقان لا غنى لأحدهما عن الآخر وهو مجال النفس البشرية . فإن كانت العقيدة كالغيث فإن النفس كالأرض ، وكلما كان الغيث غزيرا والأرض خصبة فإنها تؤتى ثمارها . كأروع ما يكون الجنى ، فلنتجول فى رياض الإسلام ونرى كيف أسبغ على النفس المؤمنة كل أمن وطمأنينة وأحاطها بسياج منيعة تحميها من عواصف القلق المدمرة .

---

(١) الآية ٧٢ من سورة آل عمران

(٢) الحديث أخرجه البخارى فى دعاء النبى ﷺ

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى استتابة المرتدين

(٤) من الآية ٢١٧ من سورة البقرة

(٥) من الآية ٨٥ من سورة آل عمران

(٦) الآية ٢٨ من سورة الرعد

ثانياً : تحقيق الأمن للنفس :

ما أعظم المنهج الإسلامى فى علاج النفس البشرية من كل المخاطر والصعاب التى تعترض طريقها فى الحياة الدنيا . ذلك المنهج الذى تتضاءل أمامه كل علوم النفس التى تحاول دراسة وعلاج الصراعات النفسية ، وكيف لا ، وواضع المنهج هو الحكيم الخبير خالق النفس البشرية الذى يعلم مستقرها ومستودعها . يقول الحق تبارك وتعالى تأكيدا عن هذا العلم :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾(١)

﴿ ربكم أعلم بما فى نفوسكم ﴾(٢)

﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾(٣)

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾(٤)

وانطلاقاً من هذا العلم فإن المنهج الربانى أخذ النفس الإنسانية بطريقته الخاصة ، أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله سبحانه فيها حضورا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان،أخذها جملة لا تفاريق ، وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة : لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغا ، فنقل البشرية من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الناس إلى عدالة الإسلام ، وهكذا امتلأت النفوس المؤمنة بالإيمان ذلك الإحساس الندى الرضى البهيج ، فلم تعد بحاجة إلى نشوة الخمر أو إرضاء الرغبات والشهوات الكاذبة لأنها ترف بالإيمان المشع إلى الملأ الأعلى الوضىء وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله ، وتذوق طعم هذا القرب . فتمج كل نشوة عداها :

إنه استنقذ الفطرة من ركام الجاهلية . وفتحها بمفتاحها الذى لا تفتح بغيره ، وتمشى فى حناياها وأوصالها وفى مسالكها ودروبها ، ينشر النور والحياة والنظافة والطهر واليقظة والهمة والاندفاع للخير الكبير والعمل الكبير ، والخلافة فى الأرض على أصولها التى قررها العليم الخبير وعلى عهد الله وشرطه وعلى هديه ونوره .

وبالتالى فإن هذا المنهج الإسلامى لم يحاول زرع اليأس فى النفس البشرية بل استجاشة تلك النفس وتشجيعها وتحذيرها وطمأنتها فى آن واحد ، وشمل العلاج نواحى عدة يعجز الإنسان عن حصرها ولكن يمكن تلخيصها فى عدة نقاط رئيسية تضم كل منها العديد من اتجاهات المنهج الربانى لتحقيق الأمن للنفوس :

١ ــ علاج الخوف بكل أنواعه : سواء الخوف من الموت . أو من فوات الرزق ، أو أى نوع من أنواع المخاطر والصعاب .

---

(١) من الآية ١٦ من سورة ق

(٢) من الآية ٢٥ من سورة الإسراء

(٣) من الآية ٢٣٥ من سورة البقرة

(٤) من الآية ١٤ من سورة الملك

٢ ــ علاج اليأس : هذا اليأس الذى قد يهدد حياة الإنسان بالشلل التام وبالتالى يؤدى إلى تدميرها .
٣ ــ علاج مساوىء الأخلاق والدعوة إلى مكارمها : وذلك لتهذيب النفوس البشرية ومحاربة كل ما يعكر صفو المجتمعات من شيوع رذائل الأخلاق التى تزلزل كيانها وتنشر الحقد والكراهية والقلق بين الناس .

١ ــ علاج الخوف بكل أنواعه :

إن المنهج الإسلامى وضع العلاج بطريقته الخاصة وهى رد تلك النفس إلى خالقها فى كل ما يعتريها من خوف وإرجاعها إلى الواحد الحق الذى إليه المنتهى وإليه المصير :

ــ فالنفس التى تخاف من الموت : إذا رجعت إلى خالقها وأرهفت السمع إلى آياته المحكمات عرفت أن الموت علينا حق مهما فررنا منه أو أحجمنا عن ملاقاته فى أى صورة من صور الجهاد لإعلاء كلمة الحق فى مواجهة الباطل .

﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾[١]

﴿ **نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين** ﴾[٢]

﴿ **كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾[٣]

﴿ **لكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾[٤]

حقاً إن الموت حتم فى موعده المقدر ولا علاقة له بالحرب والسلم ولا علاقة له بحصانة المكان الذى يحتمى به الفرد أو قلة حصانته ولا يؤخره أن يؤخر عن الناس تكليف القتال ، ولا التكاليف الجهادية تعجله عن موعده وبالتالى فلا داعى لخوف النفس وجزعها وخشيتها من خوض المكاره والحروب .

﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة** ﴾[٥]

﴿ **قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾[٦]

﴿ **وما تدرى نفس بأى أرض تموت** ﴾[٧]

﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا** ﴾[٨]

---

(١) الآية ١٨٥ من سورة إل عمران
(٢) الآية ٦٠ من سورة الواقعة
(٣) الآية ٣٥ من سورة الأنبياء
(٤) الآية ٣٤ من سورة الأعراف
(٥) الآية ٧٨ من سورة النساء
(٦) الآية ١٦٨ من سورة آل عمران
(٧) الآية ٣٤ سورة لقمان
(٨) الآية ١٤٥ سوزة آل عمران

ومتى أيقنت النفس ذلك اندفعت آمنة مطمئنة فى خضم الحياة ترسى دعائم الحق والعدل والخير ، غير هيابة ولا وجلة لأن كلمات الحق جل وعلا كشفت لها حقائق الوجود فى سهولة ويسر وأصبح عندها رؤية واضحة محددة للأمور ، فالموت معناه لقاء الله ولقاء محمد وصحبه الأخيار الأبرار ومعناه انتهاء ما فيه الإنسان من مكابدة ومشاق ، والانتقال إلى سعادة لا شقاء بعدها أبداً ، ونعيم لا يزول لأنه نال ذلك بحسن عمله فى الحياة الدنيا .

﴿ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا ﴾(١)

﴿ ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾(٢)

حماية الإسلام للنفس :

رغم أن الاسلام وضع ذلك المفهوم الواضح للموت ،إلا أنه يأبى أن يلقى الإنسان بنفسه إلى التهلكة ، فالنفس أمانة ، حرص الإسلام على حمايتها ، بكل القوانين التشريعية ، وذلك لإسباغ صفة الأمن على المجتمعات البشرية ، بحيث لا تذهب الأرواح سدى ، بل إذا كان لابد من ذلك ، فليكن فيما يعود بالخير العميم ، والنفع الأكيد على المجتمع بأسره ، ولذلك حرّم الإسلام القتل فى غير قصاص ، وفى غير دفع فساد فى الأرض ، تحريماً قاطعاً :

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾(٣)

إن قتل نفس واحدة بدون سبب شرعى ، يعدل قتل الناس جميعاً ، لأن حق الحياة واحد ثابت لكل نفس ، وقتل واحدة من هذه النفوس هو اعتداء على هذا الحق ، الذى تشترك فيه كل النفوس ، وبالتالى فإن الحفاظ على الأرواح يجعل الناس تستمتع بالأمن ، وتزاول نشاطها فى طمأنينة ، وهذا يدعو إلى رقى الحياة الإنسانية ، وزيادة الخير والفضيلة ، والإنتاج والنمو ، وبخاصة أن هذا كله يوفر للناس جميعا ضمانات الحياة كلها ، وينشر من حولهم جوا ، تنمو فيه بذور الخير ، وتذوى بذور الغدر والشر .

ــ هذا حكم الإسلام بالنسبة لقتل أى نفس عموما ، فما هو حكمه بالنسبة لقتل النفس المؤمنة ؟ لا يوجد سبب فى منطق الإسلام ، يمكن أن يفرق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة ، ومن ثم لا يقتل المسلم مسلماً أبداً ، وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة ، اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ ، وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام . أما القتل العمد فلا كفارة له لأنه وراء الحسبان ، ووراء حدود الإسلام :

---

(١) الآية ٢ من سورة الملك
(٢) الآية ١٠٠ من سورة النساء
(٣) الآية ٣٢ من سورة المائدة

﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ﴾(١) .

فهذا هو الاحتمال الوحيد فى الحس الإسلامي، وهو الاحتمال الحقيقى فى الواقع ، فإن وجود المسلم إلى جوار المسلم مسألة كبيرة ، جدّاً ونعمة عظيمة جدّاً حيث تجمع المسلمين العقيدة والقرابة فى رسول الله ﷺ . ثم ترتقى فتجمعهم فى الله سبحانه : الذى ألف بين قلوبهم ذلك التأليف الربانى العجيب :

﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾(٢)

إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب بغير حق ، ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العظيمة التى أنشأها الله بين المسلم والمسلم إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها وبالتالى فمن العسير أن يقدم مسلم على ذلك بسهولة ، وهو أكبر أمن النفس فى المجتمع الإسلامى .

ولم يقتصر الأمن فى الإسلام على النفوس البشرية ،(٣) إنما تجاوزه إلى مخلوقات الله المتنوعة ، فقد حدث أن صحابيا أخذ بعض أفراخ طير من تحت أمه ، فغضب الرسول ﷺ لذلك وأمره أن يردّ الأفراخ إلى أمها وذلك حتى لا يفزع تلك الأم .

ولقد أعلنها عمر رضى الله عنه : صريحة مدوية عبر التاريخ : لو عثرت بغلة فى العراق لسألنى الله عنها لم لم تصلح لها الطريق يا عمر ؟

وقال ﷺ : (٤)« إن الفاجر إذا مات استراح منه البلاد والعباد والشجر والدواب » وهل يستريح العباد والشجر والدواب إلا من اعتداء الفاجر عليه بالقتل أو الهدم أو التعذيب ؟

ويردد لنا التاريخ حرص الإسلام على النفس بصفة عامة فى تلك الوصية التى كان يوصى بها الخليفة الأول ــ سيدنا أبو بكر الصديق ــ الجيوش الإسلامية وهى ذاهبة لقتال العدو فى الميدان فيقول لهم : لا تقتلوا شيخا ولا امرأة ولا صبيا ، ولا تقطعوا شجرا ولا تذبحوا من الأنعام إلا للطعام وستجدون قوما فى الصوامع فدعوهم وما يدينون . فأى خوف من الموت إذن يمكن أن ينتاب الإنسان فى مجتمع مسلم وأى أمان تشعر به النفوس فى ذلك المجتمع .

فالموت على كل الوجوه هو لقاء الله عز وجل فما أعظمه من لقاء وخاصة إذا كان هذا الموت فى سبيل الله وعلى سنة رسوله الكريم ﷺ .

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شِلو ممزع

(١) الآية ٩٢ من سورة النساء

(٢) الآية ٩٣ من سورة النساء

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى الأدب المفرد

(٤) الحديث أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى مستريح ومستراح منه باب ٢١ حديث ٦١ / ٩٥٠ ج ٢ ، ص ٦٥٦

ـ الخوف من فوات الرزق لا معنى له فى الإسلام :

لأنه من بديهات العقيدة الإسلامية أن الرزق بيد الله يوزعه بحكمة وعدل على عباده : قال تعالى فى كتابه الكريم :

﴿ له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾(١)

﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾(٢)

﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾(٣)

وهكذا يحدد المنهج الربانى بوضوح ويقين مصدر الرزق وتوزع الأرزاق حتى يكد المسلم ويجتهد فى الحياة بدون قلق أو خوف لأنه على يقين أن رزقه سيأتيه من خالق السموات والأرض ، فدستور المسلم هو القرآن العظيم حافل بما يؤكد هذا اليقين :

﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ﴾(٤)

﴿ أمن يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾(٥)

﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ﴾(٦)

﴿ أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور ﴾(٧)

والمؤمن على يقين أن هذا الرزق يتفاوت فيه الخلق لحكم كثيرة ، أرادها الحق سبحانه وتعالى تختص بعلمه وحده :

﴿ والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ﴾(٨)

﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾(٩)

﴿ وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾(١٠)

---

(١) الآية ١٢ من سورة الشورى
(٢) الآية ٢١ من سورة الحجر
(٣) الآية ٢٢ من سورة الذاريات
(٤) الآية ٣١ من سورة يونس
(٥) الآية ٦٤ من سورة النمل
(٦) الآية ٣ من سورة فاطر
(٧) الآية ٢١ من سورة الملك
(٨) الآية ٧١ من سورة النحل
(٩) الآية ١٩ من سورة الشورى
(١٠) الآية ١٦٥ من سورة الأنعام

﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا﴾[1]

وهكذا يعالج الإسلام ضعف النفس وحرصها وشحها وقصورها الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة ، فيقرر الله تلك الحقيقة الأزلية وهى أن الرزق بيد الله ليبث عوامل الطمأنينة فى نفس المؤمن فيسعى لطلب الرزق دون أن يشغله ذلك عن إقامة دعائم الحق .

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾[2]

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾[3]

﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ﴾[4]

﴿ فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[5]

إذن فليس هناك أدنى شك عند المؤمن الواثق بربه أن الرزق بيد الله ، فلا داعى للخوف ولا داعى للانقياد لتلك النفس الأمارة بالسوء ، بل عليه السعى لذكر الله ، والمشى فى مناكب الأرض والتوكل على الله ، قال الصادق المعصوم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا »[6] .

فليطمئن المؤمن نفسه وليقل دائماً :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل
الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا
لكنه خلق الإنسان من عجل

وها هو الحى القيوم يزيل ما بقى عالقا بالنفوس من مخاوف بصدد الرزق ، فيقول جل شأنه فى حديث قدسى قريب من نفس المؤمن :[7] « ابن آدم خلقت السموات والأرض ولم أعْىَ بخلقهن . أفيعييني رغيف أسوقه إليك كل حين ، ابن آدم لى عليك فريضة ، ولك على رزق ، فإن خالفتنى فى فريضتى لم أخالفك فى رزق ، وعزتى وجلالى إن لم ترض بما قسمت لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش فى البرية ، لا ينالك منها إلا ما قسمت لك ولا أبالى » .

---

(١) الآية ٣٢ من سورة الزخرف

(٢) من الآيتين ٢ ، ٣ من سورة الطلاق

(٣) الآية ٣١ من سورة الإسراء

(٤) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام

(٥) من الآية ١٥ من سورة الملك

(٦) الحديث أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب ١٤ حديث ٤١٦٤ عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(٧) حديث قدسى : أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق

إذن على المؤمن إقامة دعائم الحق ، وعلى الله الرزق ، فإذا تعرض للفتنة فى الدنيا فأمامه الهجرة فى سبيل الله ، حيث يجد فى الأرض متسعا للرزق ومنطلقا للنجاة والحياة .

﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة﴾ [١] .

فالهجرة فى سبيل الله هى الشرط والأساس لوجود الخير ، والأمن فى الأرض ، أما الهجرة للثراء أو الفرار من الحق أو لأجل الحصول على الملذات والشهوات فلا تدخل ضمن الوعد الإلهى .

ــ أما الخوف من أنواع المخاطر والصعاب فله العلاج فى الصيدلية الإسلامية .

لأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يعلم حقيقة النفس البشرية وأنها قد تحجم أمام الصعاب والمخاطر ، وقد تيأس ، فيعالجها الله سبحانه باستجاشتها . وطمأنتها . فى آن واحد ، ويأخذ بيدها فى كل موقف من مواقف الحياة .. لتجتازه بعقيدة إيمانية ثابتة ويقين لا يتزعزع بنصرة الحق سبحانه وتعالى .

فعند لقاء العدو عندما تأتى تلك اللحظات التى تعلو فيها المشقة على الطاقة ويربو الألم على الاحتمال ، ويحتاج القلب البشرى إلى مدد يعلو على كل مدد بشرى وإلى زاد سماوى علوى . هنا لك يأتى المدد من هذا المعين ويأتى الزاد من رب العالمين الرحمن الرحيم فيقول جل شأنه :

﴿ ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ﴾ [٢] .

هكذا يطمئنهم الحق جل وعلا « إنهم إن كانوا يحتملون آلام المعركة بجميع أنواعها فليسوا وحدهم الذين يتحملونها بل إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح والألم » ولكن شتان بين الفريقين فالمؤمنون يتوجهون إلى الله بجهادهم ويرتقبون عنده جزاءهم وهذا يسبغ عليهم الأمن والطمأنينة فى المعركة لأن عاقبتهم كلها خير فإما النصر وإما الشهادة ، أما الكفار فهم ضائعون مضيعون لا يتجهون لله ولا يرتقبون عنده شيئا فى الحياة ولا بعد الحياة .

﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ﴾ [٣]

﴿ قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ [٤]

﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ [٥]

---

(١) من الآية ١٠٠ من سورة النساء

(٢) الآية ١٠٤ من سورة النساء

(٣) الآية ٢٤ من سورة هود

(٤) الآية ١٠٠ من سورة المائدة

(٥) الآية ٧٤ من سورة النساء

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة تكون فيها فى معركة مكشوفة غير متكافئة ، ولكن القاعدة لا تتغير ، فالمؤمن دائماً بخير ، لأنه يتلقى مددا إيمانياً يختلف فى طبيعته وقوته عن مدد الأعداء ، ذلك المدد يصل إليه فى إشعاعات نورانية ، تلقى فى صدره الأمن والجرأة ، لأن الحق يخاطبه بها فيقول عز من قائل :

﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾(١)

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾(٢)

﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ﴾(٣)

﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾(٤)

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾(٥)

ولما كانت المخاطرة والصعاب التى يواجهها المؤمن لا تتعلق بالحرب فقط بل هناك الكثير من الاختبارات الإيمانية التى يتعرض لها المؤمن بالابتلاءات الإلهية ، فمازال هناك الكثير فى منهج العلاج من الصيدلية الإسلامية ، يقول الصادق المعصوم فى حديث جامع شامل لمواجهة تلك المخاطر والصعاب :

«حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالتضرع والدعاء»(٦)

« ويقول أيضا صلوات ربى وسلامه عليه : « الصدقة تطفىء غضب الرب كما يطفىء الماء النار »(٧)

وهكذا فلا خوف من البلاء بل صبر وطمأنينة وسكينة من عند الله

﴿ وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾(٨)

يقول الإمام ابن القيم « الصبر : حبس النفس عن التسخط بالمقدور ، وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه ، فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة ، فإذا قام به العبد كما ينبغى انقلبت المحنة فى حقه منحة ، واستحالت البلية عطية ، وصار المكروه محبوباً ، فإن الله سبحانه وتعالى ، لم يبتله ليهلكه ، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن لله تعالى على العبد عبودية فى الضراء ، كما له عبودية فى السراء وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب ، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون .. فمن كان عبداً لله فى الحالتين قائماً بحقه فى المكروه والمحبوب

---

(١) الآية ٢٤٩ من سورة البقرة
(٢) الآية ٧ من سورة محمد
(٣) الآية ٥١ من سورة غافر
(٤) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران
(٥) الآية ٤٠ من سورة الحج
(٦) الحديث فى حلية الأولياء فى ترجمة إبراهيم بن يزيد النجفى ج ٤ ، ص ٢٣٧
(٧) الحديث أخرجه الترمذى فى سننه فى كتاب : الزكاة باب ما جاء فى فضل الصدقة ج ٢ ، ص ٨٦ حديث ٦٥٨
(٨) الآية ١٥٥ ، ١٥٦ من سورة البقرة

فذلك الذى تناوله قوله تعالى : ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾[١] ، فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان قال تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾[٢]

وننتقل الآن إلى النوع الثانى من المنهج الإسلامى لتحقيق الأمن للنفس وهو علاج اليأس .

٢ ـ علاج اليأس :

إن اليأس : لا مكان له إطلاقاً فى أساسيات العقيدة للمسلم ، لأن المنهج الإسلامى اهتم بمجاهدة النفس حتى تكون ترجمة حية له ، فى شعورها وسلوكها ، فيرى الناس صورة الإيمان فى هذه النفس فتكون شهادة لهذا الدين بدعوة الناس إليه ، وبيان فضله ومزيته حيث صاغ نفوس أصحابه على هذا المثال من الخلق والكمال .

فاليأس يشتت قوى الإنسان ويذهب نفسه حسرات ويجعله عضوا غير نافع فى المجتمع الإنسانى ، بل إنه عضو ضار ينقل عدوى اليأس والإحباط إلى غيره ، وينشر القلق والفشل بين الناس وهو أخطر ما يهدد المجتمعات بصفة عامة ، ولذلك فهناك قاعدة أساسية فى بناء المجتمع الإسلامى مكتوب على بابها ،

﴿ **ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾[٣] .

فاليأس معناه الشك فى قدرة الله ، ولذلك فهو يعادل الكفر ، أما المؤمن فهو يعلم علم اليقين أن بيده مقاليد الأمور :

﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير** ﴾[٤] .

﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾[٥]

وبالتالى فعليه أن يسعى لتذليل كل ما يقابله من صعوبات فى الحياة لأن الله لم يخلق داء إلا وجعل له دواء[٦] كما قال لنا الصادق المصدوق فيجب أن يعمل ذهنه فى البحث عن هذا الدواء مهما عز أو ندر ، فما خلقنا فى هذه الدنيا إلا لنكد ونتعب فيها ، وننتصر على كل ما يواجهنا . من متاعب الحياة ، وهذا الانتصار فى حد ذاته هو ما يؤهل المؤمن لدخول الجنة حيث لا يشقى بعدها أبداً .

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة الزمر

(٢) من الآية ٤٢ من سورة الحجر

(٣) من الآية ٨٧ من يوسف

(٤) من الآية ١٧ من سورة الأنعام

(٥) الآية ٥١ من سورة التوبة

(٦) الحديث أخرجه البخارى فى الطب فى باب : ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء وهذا الحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[(١)] .

﴿ **أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون** ﴾[(٢)]

إن الخالق العليم بخبايا النفس البشرية ، يعلم أن الإنسان يميل إلى التراخى ، وحب النعيم الدائم ، أما الابتلاءات الإلهية التى تضطره إلى الكفاح والمجاهدة فإنها قد تدفع به إلى اليأس ، فيحدثنا عن ذلك فى قرآنه الحكيم ، فيقول عز من قائل :

﴿ **ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور** ﴾[(٣)] .

﴿ **لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط** ﴾[(٤)]

﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوسا** ﴾[(٥)] .

ولكن هذا يتعارض مع البناء الأساسى للعقيدة الإسلامية التى ترتكز على التوحيد المطلق سمة هذه العقيدة ، والتى ترد الأمر كله لله ، فليعلم المسلم أنه مهما أحاطت به المحن ، فإنه بإيمانه بالله والالتجاء إليه والتوكل عليه والاستمساك بمنهجه سيجتاز تلك المحن بمشيئة الله تعالى ، ويشعر بعدها بقرب أكثر من الله وبسعة رحمته .

﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم** ﴾[(٦)] .

فالإسلام دين العمل والجهاد ، والصبر والثبات والبذل والتضحية،أما اليأس فمعناه انحراف عن ذلك الدين القيم واتجاه فى طريق الضلال والعياذ بالله .

﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** ﴾[(٧)] .

فليتمسك المؤمن بدينه الذى ارتضاه وينفذ كلام ربه العظيم ، وسنة رسوله الذى أرسله الله رحمة للعالمين ، وحينذاك سيكون بينه وبين اليأس بعد المشرقين ﴿ **قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾[(٨)]

---

(١) الآية ١٤٢ من سورة آل عمران

(٢) الآية ١٦ من سورة التوبة

(٣) الآية ٩ من سورة هود

(٤) الآية ٤٩ من سورة فصلت

(٥) الآية ٨٣ من سورة الإسراء

(٦) من الآية ١١٨ من سورة التوبة

(٧) الآية ١٢٥ من سورة الأنعام

(٨) الآية ٥٦ من سورة الحجر

وهكذا فلا يأس مع الإيمان ولا إيمان مع اليأس بل رجاء فى رحمة الله وعفوه ورضاه وامتثال لأوامره ، واجتناب نواهيه ، فالبشرى تتردد مع آيات الله البينات :

﴿ لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ﴾[(١)]

﴿ وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾[(٢)]

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[(٣)]

تلك الرحمة هى التى تشفى صدور قوم مؤمنين ، وتخرجهم من الظلمات إلى النور وتبعدهم عن مهاوى اليأس والهلاك وتنجى كل من دعا ربه فى أحلك لحظات حياته .

يحدثنا المولى سبحانه وتعالى عن آثار رحمته التى تنجى عباده المؤمنين من كل كرب فيقول عز من قائل :

﴿ فانجيناه والذين معه برحمة منا ﴾[(٤)]

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾[(٥)]

﴿ فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾[(٦)]

﴿ ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ﴾[(٧)]

﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾[(٨)]

﴿ ذكر رحمة ربك عبده زكريا ﴾[(٩)]

﴿ وأتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾[(١٠)]

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ﴾[(١١)]

﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ﴾[(١٢)]

﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾[(١٣)]

فكيف يكون هناك يأس مع دين ربه هو الرحمن الرحيم ، ورسوله هو نبى الرحمة ، ومن مواد دستوره .

﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[(١٤)]

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الزمر
(٢) الآية ١٢٠ من سورة آل عمران
(٣) الآية ٥٦ من سورة الأعراف
(٤) الآية ٧٢ من سورة الأعراف
(٥) من الآية ٥٨ من سورة هود
(٦) من الآية ٦٦ من سورة هود
(٧) من الآية ٩٤ من سورة هود
(٨) الآية ٨٢ من سورة الكهف
(٩) الآية ٢ من سورة مريم
(١٠) الآية ٨٤ من سورة الأنبياء
(١١) الآية ٥٠ من سورة الروم
(١٢) الآية ١٧ من سورة الأحزاب
(١٣) الآية ٢ من سورة فاطر
(١٤) الآية ٥٣ من سورة الزمر

فإذا عرفنا أيضا أن عدد الآيات التى ذكرت فيها كلمة الرحمة تبلغ ٣٣٩ آية لأيقنا عظمة هذا الدين فى علاج النفس البشرية من أكبر آفاتها التى تحرمها من أعظم نعمة فى الوجود ألا وهى الأمن . فكيف إذن يشعر إنسان مؤمن باليأس ، وهو يعلمُ علم اليقين أنه يعيش فى كنف الرحمن الرحيم ؟

٣ ـــ علاج مساوىء الأخلاق والدعوة إلى مكارمها :

لا يدرك حقيقة نعمة الأمن فى هذا الدين ، ولا يقدرها قدرها ، من لم يعرف حقيقة الجاهلية ، ومن لم يذق ويلاتها ، والجاهلية فى كل زمان ومكان هى تلك النفوس التى لم تتأدب بأدب الله ، ولم ترتو من معين العلم الإلهى ، ولذلك فقد اهتم الإسلام اهتماما كبيرا بالجانب الأخلاقى ، لأن تلك الأخلاق هى المرآة الحقيقية لقياس حضارة الشعوب ، وتقدمها الروحى ، فحين تتشرب النفوس حلاوة الإيمان ، فإنها تشيع بهجة ، وصفاء ، وتنشر الأمن ، والطمأنينة ، على كل من حولها .

وها هو المصطفى صلوات ربى وسلامه عليه يحدد بوضوح لا ريب فيه اهتمام المنهج الإسلامى بالأخلاق لأنها المعول فى بناء المجتمعات الآمنة الراقية إلى السموات العلى فيقول :

﴿ إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ﴾[١]

بل إنه لا يكتفى بذلك بل يحدد بوضوح أكثر أن التعامل بين الناس هو المقياس الحقيقى لدرجة الإيمان ، لأنه انعكاس لنفوس تأدبت بأدب الإسلام ، فيقول الحبيب المصطفى ﷺ « الدين المعاملة »[٢] ، ويقول أيضا معلم البشرية وهاديها إلى الرشد والخير : « الإيمان هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .

والمنهج الإسلامى لتهذيب النفوس وإزالة كل ما يكدر صفوها ويحرمها من متعة الأمن ، الذى يمكن أن تتمتع به النفس المؤمنة ، غنى وزاخر ويجل عن الوصف ، فضلا عن الحصر ، ولذلك سنجتهد ـــ بعون الله ـــ فى اقتطاف بعض رياحين ذلك المنهج كنماذج للاستشهاد على كلامنا ، أما المنهج ككل فلا يدرك خباياه إلا من صدق الله ورسوله فى السر والعلن وتذوق حلاوة الإيمان وبهجتها لأن الحبيب محمداً ﷺ قال : « من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »[٣]

من معالم ذلك المنهج الربانى لتهذيب النفوس :

١ ـــ الوفاء بالعهود :

قال تعالى فى التأكيد على الوفاء بالعهود فى كل صورها طالما أنها فى حدود ما أمر به الله ورسوله :.

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٢ ، ص ٣٨١

(٢) الحديث أخرجه البيهقى ج ١٠ ، ص ٢٩٢ فى أخلاق الرسول ﷺ

(٣) فى إتحاف السادة المتقين ٧ / ٢٣٢ ، ٣ / ٤٤٩ ، حلية الأولياء ١٠ / ١٥ ، القرطبى ١٣ / ٣٦٤ والدر المنثور ٣٧٢/١

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ﴾[(١)] ، ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾[(٢)]
﴿ إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم فى الآخرة ﴾[(٣)]

وقال رسول الله ﷺ : « لا دين لمن لا عهد له ولا إيمان لمن لا أمانة له »[(٤)].

وهكذا فلا يحل لمسلم أن يخون الله ورسوله ، وبالتالى لا يخون أخاه المسلم الذى ارتبط معه بوشيجة القرابة فى الله ورسوله ، إنه مجتمع يسوده الأمن على الوفاء بالعهد لأن نفوس أفراده انتهلت من معين سماوى علوى فاطمأنت بنور الله .

٢ ــ رعاية الحقوق :

حرص الإسلام حرصاً شديداً على تربية النفوس على رعاية حقوق الغير وهذا فى حد ذاته حفظ لحقوق المسلم نفسه : لأن القوانين الإلهية شملت تحديد حقوق المجتمع بأسره سواء كانت حقوق الأبوين أو الزوجين أو الأبناء أو الأهل والجيران والأحباب ، حتى أهل الديانات الأخرى لهم أيضا حقوق ، وبالتالى فإن مراعاة تلك الحقوق جميعها تنشر الأمن بين أفراد المجتمع المسلم ، فيسعى كل فرد لبناء المجتمع وهو قرير العين مطمئناً على نفسه وماله وعرضه لأنه يعيش فى ظل دستور الحكيم الخبير ، ويسير على سنة رسوله الكريم الذى قال فى حديث جامع شامل :

« كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[(٥)]

بل وصل التشدد الإسلامى فى رعاية حقوق الغير إلى أقصى مداه فحرم الاعتداء على تلك الحقوق التى تؤدى إلى فزع أصحابها ، حتى ولو كان ذلك على سبيل المزاح ، فقد حدث أن صحابيا أراد أن يمزح فأخفى نعل أخيه .فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ غضب وقال : « من فزع مؤمنا فليس منا ».

٣ ــ محاربة النفاق :

إن النفاق فى حقيقته هو الضعف عن الإصرار على الحق فى مواجهة الباطل ، وهذا الضغط هو ثمرة الخوف والطمع . وتعليقها بغير الله ، ولا يخفى على أى عاقل ما للنفاق من آثار هدامة على المجتمعات البشرية لأنها تنشر القلق بين الناس على حقوقهم التى تضيع بسبب تمسكهم بالحق ، فى نفس الوقت الذى يرون

---

(١) الآية ٩١ من سورة النحل
(٢) الآية ١٠ من سورة الفتح
(٣) الآية ٧٧ من سورة آل عمران
(٤) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ، ص ١٣٥ ، ص ١٥٤
(٥) الحديث فى صحيح مسلم فى كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه حديث ٣٢ / ٢٥٦٤ ج ٤ ، ص ١٩٨٦

فيه فئات تنمو وتحقق السيادة لأنها تتملق بالباطل وهذا بدوره يؤدى إلى الإحباط لدى النفوس التى تكد وتشقى ولا تجد ثمار عملها ، علاوة على انتشار جميع الأمراض الأخلاقية التى تفتك بالمجتمع نتيجة انتشار النفاق مثل الغش والمحسوبية والرشوة والتهاون فى الانتاج وتدهوره ، وظهور قوى الشر على قوى الخير لأنها تجد من يدعم سلطتها بالنفاق .

ولذلك وضع الحق ــ سبحانه وتعالى ــ أبشع أنواع الجزاء للنافقين حتى يكون العقاب رادعا عن التمسك بهذه الخصلة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر فقال تعالى :

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً ﴾(١)

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ﴾(٢)

﴿ نسوا الله فنسيهم ان المنافقين هم الفاسقون ﴾(٣)

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾(٤)

٤ ــ تطهير ضمائر المجتمع المسلم

ركز المنهج الاسلامى على رفع المستوى الخلقى والنفسى للمجتمع المسلم حتى تشيع الثقة المتبادلة بين المؤمنين ويعيش الجميع فى أمن من انقطاع روابط المودة والألفة بينهم الناتجة عن : سخرية الناس بعضهم من بعض ، أو الجهر بالسوء ، أو التنابز بالألقاب أو سوء الظن الذى يحبط كثيرا من أعمال الخير ويؤدى إلى إلصاق التهم بالأبرياء أو التجسس الذى يحرم الناس من حق الأمن على أسرارهم ، أو الغيبة والنميمة التى تجعل الإنسان غير آمن على ما يقال فى غيابه من كشف عوراته أو الحاق الضرر والأذى به .

وكل هذه مساوىء أخلاقية إذا انتشرت فى أى مجتمع ، انتشر معها كل عوامل القلق النفسى ، وهضم الحقوق ، وتدمير كيان الإنسان ببعثرة ما تحتويه سريرته على ألسنة الخلق .

والويل كل الويل لمجتمع يعانى من هذه الأمراض ، انه يحرم من كل أمن ومن كل سعادة ومن كل طمأنينة ، ولذلك فقد كان التركيز الاسلامى على تلك الناحية عميقا كل العمق ، حازما كل الحزم ، نكتفى هنا بالاشارة إلى بعض الآيات القرآنية التى تنهى عن ذلك ويكفى أن النهى من رب العالمين ملك الملوك الأعظم .

قال رب العزة جل شأنه فى إرساء المنهج الربانى لتطهير ضمائر عبادة المؤمنين .

---

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء

(٢) الآية ١٤٥ من سورة النساء

(٣) الآية ٦٧ من سورة التوبة

(٤) الآية ٦٨ من سورة التوبة

﴿ يا أيها الذين أمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾(١)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾(٢)

﴿ لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان الله سميعاً عليماً ۞ إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفواً قديراً ﴾(٣)

وهكذا فإن الحكيم الخبير يعلم شدة حساسية المجتمعات وإنها فى حاجة إلى آداب اجتماعية تتفق مع هذه الحساسية ، ورب كلمة عابرة لم يرد قائلها بها إلا فرداً من الناس ، ولكن هذه وتلك تترك فى نفسية المجتمع وفى أخلاقه وفى تقاليده وفى جوه آثاراً مدمرة تشيع القلق والفساد وتتجاوز الفرد المقصود إلى الجماعة الكبيرة .

ومن هنا كانت الدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهى عن مذمومها من أعظم نعم الله لتحقيق الأمن للنفس المؤمنة .

٥ ـ ضبط النفس وسماحة القلب

إن هذا الخلق هو من أهم العوامل التى تحقق الأمن فى المجتمعات الاسلامية لأنه ليس من حق المسلم فى فورة الغضب التى ودفعه الشنآن ان يعتدى على الغير ، بل إنه بالاستعانة بالله يمكنه كبت مشاعر الغضب التى قد تمتد إلى مدى لا يحمد عقباه ، بل انه يمكنه التسامى والتسامح بتقوى الله وطلب مرضاته .

﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ﴾(٣)

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾(٤)

ويقول الله فى حديثه القدسى « عبدى اذكرنى حين تغضب أذكرك حين أغضب ولا أمحقك فيمن أمحق » .

إنها القمة فى ضبط النفس وسماحة القلب تليق مع أمة مكلفة من ربها جاءت لتكون خير أمة أخرجت للناس ، تنشر الأمن والعدل حتى مع الغضب والكره ، فأى أمن أعظم من أن يأمن الإنسان شر من يكرهه ؟ !

---

(١) الآية ١١ من سورة الحجرات

(٢) الآية ١٢ من سورة الحجرات

(٣) الآيتان : ١٤٨ ، ١٤٩ من سورة النساء

(٤) الآية ٢ من سورة المائدة

(٥) الآية ١٣٤ من سورة آل عمران

٦ ــ تجنيد النفس فى وجه ذاتها وفى وجه عواطفها :

لما كانت النفس أمارة بالسوء ــ إلا من رحم ربى ــ لذا كان هناك الكثير من التوجيهات الإلهية لحماية تلك النفس من الذهاب حسرات فى الدنيا والآخرة . من تلك التوجيهات :

﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾(١)

إنه نهى عام عن تمنى ما فضل الله به بعض الناس على بعض ، سواء أى نوع من أنواع التفضيل ، فى الوظيفة والمكانة ، وفى الاستعدادات والمواهب ، وفى المال والمتاع ، لأن هذا فيه إضاعة النفس فى التطلع والحسد وما يصاحبه من حقد وحنق وشعور بالضياع والحرمان ، والتهاوى والتهافت ، أمام هذا الشعور ، مما يذهب بطمأنينة النفس ، ويورث القلق والفكر ، ولذلك كان النهى فى صالح المؤمن لتحقيق الأمن له . فعليه ان يتوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء ، موئل الطمأنينة والرجاء ، ومبعث الإيجابية فى تلمس الأسباب إلى الله الخالق الرازق .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيّاً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾(٢)

إنه تجنيد للنفس المؤمنة فى مواجهة عواطفها لإقامة العدل حتى ولو كان هذا ضد أقرب الناس إلى تلك النفس ، ولكنه المنهج الإسلامى لإرساء دعائم العدل والحق لأنها الأساس فى إشاعة الأمن والطمأنينة فى المجتمعات بأسرها .

٧ ــ المحاولة الدائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى

إن توثيق تلك العلاقات بين الناس نابع من أهمية ترابط أفراد المجتمع بحيث يصبحون جميعاً كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى كما قال الصادق المعصوم ، وقد سئل الرسول صلوات ربى وسلامه عليه أى العمل خير ؟ قال « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »(٣)

هذا فى إفشاء السلام ابتداء وهو سنة ، أما الرد عليه فهو فريضة يقول الحق سبحانه وتعالى : **﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شىء حسيباً ﴾**(٤)

---

(١) الآية ٣٢ من سورة النساء
(٢) الآية ١٣٥ من سورة النساء
(٣) الحديث
(٤) الآية : ٨٦ من سورة النساء

إن المجتمع الإسلامى بنى على السلام والأمن والحب وصلة الرحم . قال ﷺ : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويعطف على صغيرنا »(١)

وقال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »(٢)

وقال أيضا : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »(٣)

إنه مجتمع قام منهم على الإحسان للوالدين ولذى القربى .

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾(٤)

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وايتاء ذى القربى ﴾(٥)

ومن منهجه الإحسان للجار : قال ﷺ :

« ظل جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »(٦)

- والإحسان إلى اليتيم ورعايته

﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ﴾(٧)

- والإحسان فى القول :

﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ﴾(٨)

- والإحسان فى الميزان :

﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾(٩)

- والإحسان فى الرد على الإساءة :

﴿ ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون ﴾(١٠)

- والإحسان فى أداء الحقوق لأصحابها :

﴿ فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ﴾(١١)

---

(١) الحديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ١ ، ص ٢٥٧
(٢) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الايمان باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده باب ٣ ص ١ ، ص ٩
(٣) الحديث اخرجه الامام احمد فى سنده ص ٣ ، ص ١٧٦ ، ٢٧٢ ، ٢٧٨
(٤) الآية ٢٣ من سورة الاسراء
(٥) الآية ٩٠ من سورة النحل
(٦) الحديث اخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب ٢٨ ص ٧ ، ص ٧٣
(٧) الآية ٣٤ من سورة الأسراء
(٨) الآية ٥٣ من سورة الاسراء
(٩) الآية ٣٥ من سورة الإسراء
(١٠) الآية ٩٦ من سورة المؤمنون
(١١) الآية ١٧٨ من سورة البقرة

فأى أمن بعد ذلك لنفوس تهذبت بتلك التعاليم الربانية ؟ وأى أمن لمجتمع تشربت نفوس أفراده تلك النفحات الإلهية ؟ وأى منفذ تركه الخبير الحكيم لأطباء علم النفس كى يلجوا منه لمعالجة ما لم يعالجه الرحمن الرحيم ؟

إنها تلك النفوس المطمئنة التى استجابت لله والرسول فكان عاقبة أمرها رشدا ورجعت إلى ربها راضية مرضية .

﴿ يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾(١)

ثالثاً : تحقيق الأمن للعقل

جاء الإسلام فى ختام الرسالات السماوية ليعد البشرية للرشد العقلى ويؤهلها لاستخدام أعظم نعمة وهبها الله للإنسان ــ وهى العقل ــ استخداما كاملا فى إدراك الحق الذى تنبث آياته فى صفحات الوجود وفى أسرار الكون الذى جاء القرآن لكشفه وتجليته .. ولذلك فقد اهتم المنهج الربانى بتكريم العقل الإنسانى لأنه أداة الإدراك البشرى ووسيلته فى تلقى الوحى الإلهى وإدراك مدلولاته فكان أعظم تكريم لذلك العقل هو تحقيق الأمن له حتى لا يتخبط تحت ضغط النزعات والشهوات والأهواء ويتيه فى خضم الحياة ، وحتى لا يكون لله على الناس حجة بعد ذلك كما أنبأنا بذلك فى دستوره الحكيم : **﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾**(٢)

وقد شمل هذا المنهج الربانى لتحقيق الأمن للعقل عدة نقاط نعرضها فيما يلى :

١ ــ حماية العقل بالوحى الإلهى :

إن الله العظيم الرحيم الحكيم لا يدع هذا الكائن الإنسانى وحده فهو الذى خلقه وهو يعلم سره وجهره وطاقاته وقواه ونقصه وضعفه ، وحاجته إلى الموازين القسط التى يرجع إليها بتصوراته وأفكاره وأقواله وأعماله وأوضاعه ونظامه ليرى إن كانت صوابا وصلاحا أو كانت خطأ وفسادا .

ويعلم سبحانه وتعالى : أن العقل الذى أعطاه له يتعرض لضغوط كثيرة من شهواته ونزواته ، ومطامعه ورغباته ، فضلا على أنه موكل بطاقات الأرض التى له عليها سلطان بسبب تسخيرها له من الله ، وليس موكلا بتصور الوجود تصورا مطلقاً ، ولا بصياغة الأسس الثابتة للحياة فهذا مجال العقيدة التى تأتى له من الله فتنشىء له تصوراً سليماً للوجود والحياة ، ومن ثم وحماية لهذا العقل ورده إلى صحته وسلامته

---

(١) الآيات ٢٧ ، ٣٠ من سورة الفجر
(٢) الآية ١٦٥ من سورة النساء

فإن الله يكل الناس إلى وحيه ورسله وهداه وكتبه ، وهذا هو الذى يليق بكرم الله وفضله ورحمته وعدله ، فما كان ليخلق البشر ثم يتركهم سدى ، ثم يحاسبهم يوم القيامة ولم يبعث فيهم رسولا

﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[١]

فتقدير الله حق قدره يقتضى الاعتقاد بأنه أرسل إلى عباده رسلا يستنقذون فطرتهم من الركام ويساعدون عقولهم على الخلاص من الضغوط والانطلاق للنظر الخالص والتدبر العميق . وأنه أوحى إلى هؤلاء الرسل منهج الدعوة إلى الله وأنزل على بعضهم كتباً تبقى بعدهم فى قومهم إلى حين — ككتب موسى وداود وعيسى — أو تبقى إلى آخر الزمان كالقرآن العظيم الذى جاء به محمد ﷺ وهكذا فإن الله قد جعل حجته على الناس هى الوحى والرسالة ، ولم يجعل هذه الحجة هى عقلهم البشرى ، ولا حتى فطرتهم التى فطرهم الله عليها من معرفة ربها الواحد والإيمان به ، لأن الله سبحانه يعلم أن العقل وحده يضل ، وأن الفطرة وحدها تنحرف وأن لا عاصم لعقل ولا لفطرة إلا أن يكون الوحى هو الرائد الهادى وهو النور والبصيرة ، والواقع يشهد أن الحياة الإنسانية التى قامت أنظمتها على المذاهب الفلسفية أو العلم هى أبأس حياة يشقى فيها الإنسان مهما فتحت عليه أبواب كل شىء ، ومهما تضاعف الإنتاج والإيراد ، ومهما تيسرت أسباب الحياة ووسائل الراحة فيها على أوسع نطاق ، ومن هنا كان الوحى حماية للعقل وأمنا له بدل التيه فى الفلسفات المادية ، (مستفاد من كتاب « فى ظلال القرآن ») للشيخ سيد قطب .

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾[٢]

﴿ أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم ﴾[٣]

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[٤]

٢ — تحريم المسكرات التى تذهب بالعقل :

قال تعالى فى كتابه الكريم محرماً الخمر على عباده المؤمنين :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ﴾[٥]

---

(١) الآية ١٥ من سورة الإسراء

(٢) الآيتان ٦ ، ٧ من سورة الانفطار

(٣) الآية ١٦٢ من سورة آل عمران

(٤) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت

(٥) الآية ٩٠ من سورة المائدة

ثم بين جل شأنه حكمة هذا التحريم بأنها السبيل إلى وقوع العداوة ، والبغضاء والتشاحن بين الناس ، وأنها تمنع عن ذكر الله وإقامة الصلاة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾[1]

وإذا عرفنا أن ذكر الله يشمل كل عمل يقوم به المسلم وقلبه متصل بالحق لتبين لنا مدى الخسارة التى تتحقق من المسكرات لأنها تحرم المجتمع من ثمار عقل واع اتصل بقلب مطمئن بالحق ، فأنتج روائع العقل البشرى . هذا فضلا عما تشيعه المسكرات من بقية المساوىء الأخرى التى تشيع القلق فى المجتمعات البشرية وتحرمها من الأمن والطمأنينة .

٣ ـــ دعوة العقل إلى جولة فى الآفاق :

إن هذه الدعوة فى حد ذاتها هى تحرير للعقل من القيود التى تكبله وتجعله يتعثر تحت ضغط الحاجات والمطالب ، حيث إنه بتجوله فى الآفاق سيشعر بعظمة الخالق وقوته ، فيستمد منه مددا وقوة لينهض بالأعباء التكليفية التى خلق من أجلها ، كما أن هذه الجولة ستوقظه من سبات الغفلة وتفتح كل ما فيه من أذن واعية ومن طاقة فكرية :

﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾
(آل عمران ـــ ١٩٠)

﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها** ﴾ . (الحج ٤٦)

إن هذه الدعوة بلا شك موعظة وعبرة من كل الوجوه :

فمن تشبع فى العقل البشرى حبه إلى المعرفة والإذعان أمام القوى المادية . ولهذا وجه المنهج الربانى الإدراك البشرى لملاحظة بدائع الصنعة الإلهية فى الوجود كله وهى فى ذاتها خوارق معجزة ولكنها خوارق دائمة يقوم عليها كيان الوجود ويتألف منها قوامه :

﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم** ﴾ . (الإسراء ٩٩)

﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا** ﴾ (مريم ٩)

﴿ **أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض** ﴾ (الأعراف ١٨٥)

﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ❁ والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾ .(ق ٦ ، ٧)

---

(١) الآية ٩١ من سورة المائدة

﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ۞ وإلى السماء كيف رفعت ۞ وإلى الجبال كيف نصبت ۞ وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ (الغاشية ١٧ ــ ٢٠)

ــ وهذه الدعوة فيها شحذ للعزائم فيعرف الإنسان أن حل مشاكله ليس بالتراخى وندب الحظ إنما بالعمل والتفكير والإدارة .

﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ (العنكبوت ٢٠)

﴿ **خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون** ﴾ (الأنبياء ٣٧)

إن هذه الدعوة فيها تذكرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿ **قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل** ﴾ (الروم ٤١)

﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ۞ وبالليل أفلا تعقلون** ﴾ (الصافات ١٣٧ ، ١٣٨)

٤ ــ مخاطبة العقل بما هو أهل له .

لا يوجد منهج يكرم العقل الإنسانى مثلما يكرمه الإسلام ، ولا يوجد دين يشبع التطلعات العقلية ويجيب على تساؤلاتها مثلما يجيب الإسلام . ولا عجب فإنه خاتم الأديان والرسالات جاء ليتلاءم مع النضج البشرى والقدرات العقلية المتطورة إلى آخر الزمان والأجيال .

وقد نطق بهذه الحقيقة أعرابى على فطرة الله لم يتلون بأجهزة التوجيه والتأثير من شياطين الجن والإنس عندما سأله الناس : لم آمنت بمحمد ؟ فقال : لأن دينه لم يأمر بشىء وقال العقل : ليته ما أمر . وما نهى دينه عن شىء وقال العقل : ليته ما نهى .

ــ ولذلك فقد قام القرآن أساسا على مخاطبة العقول البشرية لتدرك الحقيقة الأولى وهى أن هذا الدين من عند الله .

﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ . (النساء ٨٢)

﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾ (محمد ٢٤)

﴿ **أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين** ﴾ (المؤمنون ٦٨)

﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب** ﴾ (ص ٢٩)

ــ وقام القرآن ثانيا على وجود أحكام أساسية الحكم فيها لله ، وذلك حماية للعقل لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا فى المدى المحدود ويستحيل أن ينظر من جميع الزوايا ، وإلى جميع المصالح لا فى اللحظة الواحدة ولا فى التاريخ كله ، بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة فلا ينبغى أن يكون الحكم فيها أو فى حكم ثابت قطعى من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشرى . قال تعالى :

﴿ **إن الحكم إلا لله يقُصُّ الحقَّ وهو خير الفاصلين** ﴾ (الأنعام ٥٧)

﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾ (المائدة ٥٠)

﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ (الأنعام ٦٢)
﴿ وكذلك أنزلناه حكما عربيا ﴾ (الرعد ٣٧) .

وقام القرآن ثالثا على فتح المجال للعقول البشرية فيما لا نص فيه مما يجدّ من الأقضية فى حدود ما أمر به الله ورسوله . وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقى بالقدر الذى أراده الله له من التكريم فى مجاله الذى يحسنه وهو معرفة نواميس الكون والإبداع فى عالم المادة وهو ملك عريض . وقد اقتضى هذا الأمر تربية طويلة وتوجيهاً كبيراً حتى يألف الإدراك البشرى هذا اللون من النقلة وهذا المدى من الرقى وحتى يتجه الإنسان إلى قراءة سفر الوجود بإدراكه البشرى فى ظل التوجيه الربانى والضبط القرآنى والتربية النبوية قراءة هذا السفر قراءة غيبية واقعية إيجابية فى آن واحد وبذلك ينقل البشرية إلى عهد الرشد العقلى الذى يتلاءم مع تطوير الأجيال

﴿ قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾ (يونس ١٠)
﴿ فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق ﴾ (الطارق ٥ ، ٦)
﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ (الأنعام ٩٩) .

إن رسول الله ﷺ كان بحق خير من بلغ الرسالة وأدى الأمانة حيث كان فى كل خطوة من خطواته سلوكا تطبيقيا للمنهج الربانى فاستنهض الهمم ، ووضع العقل البشرى فى مكانته اللائقة به فكان يستشير أصحابه فى كل الأمور التى لم ينزل بها الوحى وفتح مجال الاجتهاد على مصراعيه حيث قال : إنه للمجتهد إذا أصاب أجران ، وإذا أخطأ أجر — فأى تقدير للعقل أعظم من هذا التقدير وأى أمن له من التيه تحت ضغط التيارات الدنيوية أحكم من هذا الأمن . فهناك كتاب الله وسنة رسوله الكريم وسنة الخلفاء الراشدين ، لا يمكن أن يضل عقل أبدا استضاء بنورهم وسار فى هديهم ، واجتهد ما وسعه الجهد تحت ظلهم ، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ﴾ (طه ١٢٣)
﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم ﴾ (الأنعام ١٤٤)

حقا إن هدى الله هو الأمان للعقل وهو نور للفؤاد ، وماذا بعد الهدى إلا الضلال ؟ ! !

رابعاً : تحقيق الأمن للعرض :

إن الإسلام عندما حدد منهجه فى الحفاظ على العرض كان هدفه هداية الناس وحمايتهم من عوامل القلق ومن الانحراف فى الهاوية ، وإعانتهم على التسامى فى المرتقى الصاعد إلى السموات العلى . ولذلك فقد أهتم اهتماما بالغا بميدان الحفاظ على الأسرة وتطهير المجتمع وتحديد الصورة النظيفة الوحيدة التى يحب الله أن يلتقى عليها الرجال والنساء وتحريم ما عداها من الصور وتبشيعها وتقبيحها فى القلوب والعيون لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

قال تعالى موضحا نعمته الكبرى ومنته العظمى علينا :

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ (الروم ٢١)

وقال جل شأنه : **﴿ والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ﴾** (النحل : ٧٢)

إنها القاعدة الأولى فى نظام المجتمع الإسلامى، هى الأسرة : جعلها الإسلام وحدة المجتمع وأصدر من القوانين والتشريعات الإلهية ما يحقق صيانة هذه الأسرة من كل شائبة ومن كل اختلاط فى الأنساب ينشأ من شيوعية الاتصال الجنسى أو ينشأ من انتشار الفاحشة وتلوث المجتمع بها . ومن أهم تلك القوانين فرض عقوبات صارمة على الزانى والزانية :

فإن لم يكونا متزوجين : قال تعالى : **﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾** (النور ٢)

وإن كانا متزوجين : ما ورد فى الحديث الشريف :كان مما يتلى « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ورسوله[1] »

إن الأسرة القائمة على الزواج العلنى الذى تخصص فيه امرأة بعينها لرجل بعينه ، ويتم به الإحصان ــ وهو الحفظ والصيانة ــ هى أكمل نظام يتفق مع فطرة الإنسان وحاجاته الحقيقية الناشئة من كونه إنسانا ، لحياته غاية أكبر من غاية الحياة الحيوانية ــ وإن كانت تتضمن هذه الغاية فى ثناياها وتحقق أهداف المجتمع الإنسانى كما يضمن لهذا المجتمع الأمان المطلق : أمن الضمير ، وأمن البيت ، وأمن المجتمع فى نهاية المطاف ...

إن حماية الإسلام للعرض هو حماية لعرض كل المؤمنين من العدوان عليه : قال جل شأنه محذرا من هذا الانتهاك :

﴿ وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ (الشعراء : ٦٦)

ولنعرف عظمة الوصف الإلهى بأن ترك ما أحل من الأزواج إلى غير ما أحل بأنه عدوان يشمل المجتمع بأسره يمكن النظر إلى حياة المجتمعات التى تحررت من قيود الدين والأخلاق والحياء فى هذه العلاقة :

« لقد كانت فوضى العلاقات الجنسية هى المعول الأول الذى حطم الحضارات القديمة : حطم الحضارة

(١) مسند أحمد ٥ /١٨٣ والسنن الكبرى للبيهقى ــ كتاب الحدود ــ باب ما يستدل به على أن السبيل هو جلد الزانين ورجم الثيب ٨ /٢١١ والحاكم فى المستدرك ــ كتاب الحدود ٤ /٣٦٠ وفتح البارى كتاب الحدود ــ باب الاعتراف بالزنا ١٢ /١٤٣

الإغريقية ، وحطم الحضارة الرومانية ، وحطم الحضارة الفارسية . وهذه الفوضى ذاتها هى التى أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة . وقد ظهرت آثار التحطيم شبه كاملة ، فيما يلى :

ـــ فى الأدب الفاحش الخليع الذى يدعو إلى انهيار المثل والمبادىء .

ـــ فى الأفلام السينمائية التى تذكى فى الناس عواطف الحب الشهوانى المدمرة .

ـــ فى انحطاط المستوى الخلقى فى عامة النساء الذى يظهر فى عريهن وفى إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .

ـــ انتشار موجة الإجرام بين المراهقين والمراهقات والإدمان على المخدرات وجرائم الاعتداء على النساء والفتيات الصغيرات وانتشار الأمراض السرية الفتاكة .

ـــ انتشار الاضطرابات العصبية وضعف القوى العقلية وهو من أكثر العناصر فى جلب التعاسة للأفراد وتحطيم الأسر . وهو أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التى قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن .

ـــ وجد أن الذين يبيعون أسرار أمريكا وبريطانيا العسكرية لأعدائهم لا لأنهم فى حاجة إلى المال ولكن لأن بهم شذوذا جنسيا ناشئا من آثار الفوضى الجنسية السائدة فى المجتمع .

ـــ هناك مكاتب مهمتها البحث عن الزوجات الهاربات والبحث عن الأزواج الهاربين وذلك فى مجتمع لايدرى فيه الزوج إن كان سيعود فيجد زوجته فى الدار أم يجدها قد طارت مع عشيق ، ولاتدرى الزوجة إن كان زوجها الذى خرج فى الصباح سيعود إليها أم ستخطفه أخرى أجمل منها أو أشد جاذبية ! مجتمع تعيش فيه البيوت فى مثل هذا القلق كفيل بأن يحطم كل سعادة مادية يحصل عليها المرء .

ـــ هناك انخفاض مستمر فى نسبة المتزوجين وارتفاع مستمر فى نسبة عدد المواليد غير الشرعيين . وهكذا تزيد نسبة الحياة القلقة الشريدة التى يعيشها هؤلاء الأطفال مما ينعكس على المجتمع بأسره .

ـــ إن سهولة تلبية الميل الجنسى ، وفوضى العلاقات الجنسية والتخلص من الأجنة والمواليد ، لا تدع مجالا لتكوين الأسرة ولا لاستقرارها ، مما يؤدى إلى الاتجاه نحو انقراض النسل . هذا مآله زوال الحضارة والاجتماع والفناء آخر الأمر » (مستفاد من ظلال القرآن الجزء : ٥)

صدقت يارب العزة يا من قلت وقولك الحق :

﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ (الأنعام ١٥١)

ثم خصصت الزنى بمزيد من التخصص ومزيد من النهى فقلت :

﴿ ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا ﴾ . (الإسراء ٣٢) .

وقال رسولك الكريم ـــ صلوات ربى وسلامه عليه ـــ :

« لا يسرق السارق وهو مؤمن ، ولا يزنى الزانى وهو مؤمن »(١)
الإيمان أكرم على الله من ذلك .

« لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »(٢) .

« إن الزناة تشتعل وجوههم ناراً »(٣)

« الزنا يورث الفقر »(٤) .

وهكذا فإن الذين يحسبون أن التقيد بمنهج الله وبخاصة فى علاقات الجنسين أمر شاق ومجهد يعيشون فى وهم كبير ، فإطلاق الشهوات من كل قيد وتحرى اللذة فى كل تصرف ، والتجرد فى علاقات الجنسين من كل قيد أخلاقى ومن كل التزام اجتماعى هذا كله يبدو يسرا وراحة وانطلاقا ولكنه فى حقيقته مشقة وجهد . ونتائجها فى حياة المجتمع بل وفى حياة كل فرد هو القلق وفقدان الأمن والانهيار فى النهاية .

وإنه لمفخرة للإسلام ذلك المنهج الذى وضعه الحكيم الخبير فى المحافظة على العرض وتحقيق كل دواعى الأمان له ، لأنه علامة مضيئة وحجر راسخ فى حياة المجتمعات الإسلامية يجعلها تعيش آمنة مطمئنة فى كنف الإسلام الذى جاء من رب رحيم على يد رسول الرحمة الذى أعلنها بكل يقين الإيمان : وبكل نقاء الرسالة وصفائها وأمنها « كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه »(٥)

خامسا : تحقيق الأمن للمال :

إن المال هو عصب الحياة وقوام حياتها وعليه يتوقف تقدم المجتمعات ونهضتها ورخاؤها وعليه أيضا يتوقف أمن تلك المجتمعات وطمأنينتها إذا آمنت بالطريقة المثلى لتداول المال بين الأفراد .

ولأهمية المال القصوى فى إدارة عجلة الحياة فإن المنهج الإسلامى اهتم اهتماما بالغاً بكل منفذ وكل طريقة يتم بها تداول المال سواء فى الاستهلاك أو الادخار أو الاستثمار أو كيفية توزيع الدخول . ليس

(١) البخارى ــ كتاب الأدب ــ باب ما جاء فى قول الرجل ويلك ٨ /٤٨ ، ومسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب قول النبى ــ ﷺ ــ : لا ترجعوا بعدى كفارا ، والنسائى فى تحريم الدم ــ باب تحريم القتل ، وابن ماجه فى الفتن ــ باب لا ترجعوا بعدى كفارا حديث رقم ٣٩٤٣ وأبو داود ــ كتاب السنة ــ باب زيادة الإيمان ونقصه ٥ /٦٤ حديث ٤٦٨٩

(٢) البخارى ــ كتاب الديات ــ باب قول الله تعالى : أن النفس بالنفس ٩ /٦ ومسلم ــ كتاب القسامة ــ باب ما يباح به دم المسلم رقم ١٦٧٦ وأبو داود ــ كتاب الحدود ــ باب الحكم فيمن ارتد ٤ /٥٢٢ رقم ٤٣٥٢ والترمذى ــ كتاب الحدود ــ باب فى المرتد رقم ١٤٥٨ وقال : حسن صحيح والنسائى ــ كتاب تحريم الدم ــ باب الحكم فى المرتد،وابن ماجه ــ كتاب الحدود ــ باب المرتد عن دينه رقم ٢٥٣٥

(٣) رواه الطبرانى . مجمع الزوائد ــ كتاب الحدود والديات ــ باب ذم الزنا ٦ /٢٥٥

(٤) الترغيب والترهيب ــ كتاب الحدود ــ باب الترهيب من الزنا ٣ /٢٧١

(٥) أبو داود ــ كتاب الأدب ــ باب فى الغيبة ٥ / ١٩٥ رقم ٤٨٨٢ والترمذى ــ كتاب البر ــ باب فى شفقة المسلم على المسلم رقم ١٩٢٨ وقال:حسن صحيح ،وابن ماجه ــ كتاب الفتن ــ باب حرمة دم المؤمن وماله ٢ /١٢٩٨ رقم ٣٩٣٣

هذا فقط بل أنه اهتم بالمال بعد وفاة المسلم عن طريق قوانين الميراث واهتم بالمحرومين من المال ففرض لهم الزكاة كركن أساسيٍّ من أركان الإسلام الخمسة وأضاف لهم الصدقات فى حدود الثلث مما أفاض الله به على خلقه ووسع عليهم فى رزقهم .

هناك قاعدة أساسية فى التشريع الإسلامى يتفرع عنها مواد فرعية كثيرة كلها تهدف إلى تحقيق الأمن للمال . هذه القاعدة مكتوب على بابها :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما ﴾ . (النساء ٢٩)

إنه نهى عام عن كل طريقة يتم بها تداول الأموال لم يأذن بها الله أو نهى عنها ، ومنها السرقة والغش والرشوة والقمار واحتكار الضروريات لإغلائها وجميع أنواع البيوع المحرمة والربا فى مقدمتها . وعقب ذلك النهى بما يوحى بالآثار المدمرة التى ينشئها أكل الأموال بالباطل فى حياة الجماعة إنها عملية قتل للمجتمعات حيث يباع فيها ما ليس يباع كالعرض والذمة والضمير والخلق والدين .

فما هى الخطوات التفصيلية التى انتهجها الإسلام لتحقيق الأمن للمال ؟

١ ـ تشديد عقوبة السرقة والاعتداء على الملكية الفردية والاعتداء على أمن الجماعة .

قال تعالى وهو أحكم الحاكمين : **﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم ﴾** (المائدة ٣٨ ـ ٣٩) .

إن قطع اليد تنكيل من الله رادع لكل من تحدثه نفسه بالسرقة . وهو رحمة بالجماعة كلها لأنه يوفر لها الطمأنينة والأمن .

٢ ـ تحريم الاكتناز

إن اكتناز الأموال وحبسها عن التداول هو تعطيل لوظائفها الأساسية وحرمان المجتمع المسلم من الخير الذى سيعود عليها باستثمار تلك الأموال ومواجهة مطالبه واحتياجاته الأساسية وتحقيق الأمن لحياة الفقراء بعيدا عن شظف العيش قال تعالى فى كتابه الكريم محذرا أشد التحذير لكل من تسول له نفسه اكتناز النقود وحبسها عن الاستثمار فى الأغراض التى حددها الله لنا لتحقيق الرفاهية والتقدم للمجتمع المسلم :

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم * هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ . (التوبة ٣٤ ـ ٣٥)

ويضرب لنا الله فى القرآن الكريم أمثلة لقوم كنزوا المال فعوقبوا بالدمار فها هو ذا قارون يؤتى من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . ويأمره قومه بالإحسان كما أحسن الله إليه فيقول : **﴿ إنما**

أوتيته على علم عندى ﴾ فيكون المآل ﴿ **فخسفنا به وبداره الأرض** ﴾ (القصص ٨١)

وها هو ذا ثعلبة يعاهد الله إن آتاه مالا ليصدقن وليكونن من الصالحين ، فيؤتى المال ويبخل به ويكنزه فتكون العاقبة : ﴿ **فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه** ﴾ (التوبة ٧٧) .

٣ ـــ تحريم الربا

إن تحريم الربا من أعظم الإجراءات فى المنهج الإسلامى لتحقيق الأمن للمال . فالربا هو توجيه المال أى وجهة ، الهدف منها زيادة الربح بصرف النظر عن نوعية الاستثمار الموجه إليه ، هذا المال ، حتى ولو كان فى أحط المشروعات وإن كان فى ظاهره يحقق عائدا مجزيا إلا أنه فى باطنه يحقق عائدا سلبيا ليس على المجتمع ككل فقط ، وإنما على المستثمر نفسه . لأن الربا يثقل الصناعة بالفوائد الربوية التى تضاف إلى أصل التكاليف ويثقل التجارة والمستهلك بأداء هذه الفوائد التى يفرضها على الصناعة . وهذا يؤدى إلى ارتفاع الأسعار مما يؤدى إلى ارتفاع تكلفة عوامل الإنتاج على المدى الطويل مما يسبب خسارة المستثمر أو انخفاض نسبة ربحه . فإذا أراد ارتفاع تلك النسبة فإنه سيضطر إلى رفع سعر سلعته وهكذا يدخل المجتمع فيما يسمى بالتضخم الحلزونى ، وهو ما يجر أوخم العواقب التى يعرفها الاقتصاديون جيدا ويلمسها رجل الشارع فى ذلك الارتفاع الرهيب فى الأسعار وعدم مقدرته على الوفاء باحتياجاته الأساسية بنفس الدخل الذى كان يحصل عليه فيما مضى .. وهذا يؤدى إلى انتشار الفقر ، وزيادة وطأة أعباء الحياة على الناس وهو ما يرفضه الإسلام أساسا لأنه دين العزة والقوة والرخاء . قال تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾ (الروم ٣٩)

﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ (البقرة ٢٧٥ ـــ ٢٧٦)

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة** ﴾ (آل عمران ١٣٠)

٤ ـــ تحريم الاحتكار :

حرم الإسلام تحريما قاطعا تخزين كميات كبيرة من الناتج تؤدى إلى نقص المعروض منه فى السوق أو اختفائه فلا يجد المسلم حاجته الضرورية إلا بأسعار مرتفعة ، وهذا يشكل عناء كبيرا على ذوى الدخول المحدودة ويتنافى أساساً مع العدالة الاجتماعية والتكامل الاجتماعى الذى بنى عليهما الإسلام دعائمه .

إن الاحتكار معناه تحكم القلة فى الأغلبية . معناه قلق الناس وخوفهم الدائم من ارتفاع الأسعار بحيث لا يقدرون على مواصلة مسيرتهم فى الحياة .

قال تعالى فى بيان عقوبة المحتكر الذى يسبب بتصرفه هذا تضخما اقتصاديا يجر الويلات على المجتمع بأسره :

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ (المائدة : ٣٣)

وقال صلوات الله وسلامه عليه تأكيدا لذلك المنهج الربانى :

« من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه عليهم ، كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة »[١] .

« من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالجذام والإفلاس »[٢]

« من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله والله برىء منه »[٣] .

« بئس العبد المحتكر إن سمع برخص ساءه وإن سمع بغلاء فرح »[٤] .

فأى أمن يشعر به الإنسان على ماله واحتياجاته وهو يعيش فى مجتمع تظلله تلك القوانين السامية حيث ترتقى بالبشرية إلى قمم سامقة ؟ !

٥ ـ الاهتمام بتوثيق الدين :

لما كان الإسلام دين الحياة فهو يراعى تلك الضرورة التى تلجىء الناس إلى الدين ، فنظمها أروع تنظيم بالمحافظة على حق الدائن والمدين وحماية حقوق كل منهما فى تبادل الأموال . فجعل آية الدين أطول آية فى القرآن الكريم وأمر فيها بكتابته كما أباح الرهن لتوثيق الدين قال تعالى فى دستوره الحكيم :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه

---

(١) مسند أحمد ٢٧/٥ والحاكم فى المستدرك (كتاب البيوع) ١٢/٢ والبيهقى فى السنن الكبرى ٣٠/٦

(٢) سنن ابن ماجه (كتاب التجارات) باب الحكرة والجلب٧٢٩/٢ رقم ٢١٥٥

(٣) مسند أحمد ٣٣/٢ ومجمع الزوائد (كتاب البيوع) باب الاحتكار ١٠٠/٤ والحاكم فى المستدرك ١٢/٢

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ــ كتاب البيوع ــ باب الاحتكار ٤ /١٠١

فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بل شئ عليم وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته وليتق الله ربه ، ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم ﴾ (البقرة ٢٨٢ ــ ٢٨٣)

أى أمن وأى روعة أعظم من ذلك التنظيم البديع للدين ؟ ! فلا هضم للحقوق ولا ضياع للأموال بل إحكام وأمان من لدن حكيم خبير .

٦ ــ الحفاظ على مال الضعيف :

إن تداول المال فى المجتمع يستلزم خبرة ودراية عظيمتين . وكنز المال ممنوع فى الإسلام . إذن ما هو الحل بالنسبة لمن عنده مال ولكنه ضعيف عن استثمار هذا المال مثل اليتيم والسفيه هنا يتدخل الشرع ليحكم حكمه العادل :

ــ بالنسبة لليتيم فعلى ولى أمره أن يستثمر ماله بالحكمة . بما يعود على اليتيم بالنفع وليحذر من تسول له نفسه بأن يستحل شيئاً من هذه الأموال قال تعالى : **﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾** (النساء ١٠)

حتى إذا بلغ اليتيم رشده وأصبح قادرا على استثمار أمواله بنفسه وجدها قد نمت وربت مع الزمن فيستطيع ولى الأمر حينئذ أن يطمئن باله ويرتاح من المهمة التى كلفه الله بها وألقاها على عاتقه فقام بها خير قيام عملا بقول الله عز وجل :

﴿ وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا ﴾ (النساء ٢) .

﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا ﴾ (النساء ٦)

ــ بالنسبة للسفيه فليس من الحكمة ترك المال بين يديه يبعثره كيفما يتراءى له خياله المريض . بما ينعكس آثاره السيئة على المجتمع الإسلامى ككل . ولذا كان حكم الله ــ سبحانه وتعالى ــ بأن يكون هناك من يتولى أمر السفيه ويحرص على ماله لأن المال قوام الحياة وله الدور الإيجابى فى إدارة عجلتها قال تعالى : **﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولاً معروفا ﴾** (النساء ٥) .

٧ ــ تحريم الغش والرشوة :

إن الغش والرشوة وسيلتان للحصول على حقوق بدون وجه حق وهما وبال على المجتمع عندما يصاب بداء التراخى وحب الكسب السريع إنهما يؤديان إلى أسوأ تداول للمال يعود بأوخم العواقب على

الاقتصاد القومى كله . ولهذا كان هناك من القوانين الإلهية ما يردع تلك الأمراض الفتاكة التى يمكن أن تصيب النفوس البشرية وتحرم المال من أمن التداول فيما خلق الله له .

﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون** ﴾ (البقرة ١٨٨)

وقال ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ :

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ؟ وعن شبابه فيم أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟ وعن علمه ماذا عمل فيه ؟ »[(١)]

« لعن الله الرشوة والرائش والمرتشى »

أما بشأن الغش الذى يؤدى إلى الحصول على أموال بطرق غير مشروعة فإنه بخس لحقوق الناس وفساد فى الأرض ما بعده فساد ، له عقوبة تقطيع الأيدى والأرجل من خلاف لأنه سمع قول الحق ـــ تبارك وتعالى ـــ ولم يستجب له . ﴿ **يا قوم أوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾ (هود ٨٥) .

ولأنه خرج من تبعية أمة محمد الرسول الأمين الذى قال ـــ صلوات ربى وسلامه عليه ـــ « من غش فليس منا »[(٢)]

إن ما عرضناه من مقتطفات عن كيفية تحقيق المنهج الإسلامى الأمن للمال يعتبر قطرة من محيط لأن ذلك المنهج عظيم كل العظمة ، عميق كل العمق ، فأنى لقلم أن يوفى ذلك المنهج حقه ، ويكفينا أن نردد قول الحق ـــ سبحانه وتعالى ـــ :

﴿ **ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم** ﴾ (لقمان ٢٧)

[صدق الله العظيم]

قوله تعالى : ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ أى يطلبون ما يشتهون من أنواع الفاكهة ، وهم آمنون من انقطاعها ، ومن غائلة أذاها ومكرها ، فهى ليست كفاكهة الدنيا التى نأكلها ونخاف مكروه عاقبتها أو نخاف نفادها فى بعض الأحايين قال تعالى : ﴿ **وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾[(٣)] .

---

(١) رواه الطبرانى والبزار ورجال الطبرانى رجال الصحيح ـــ مجمع الزوائد ـــ كتاب البعث ـــ باب ما جاء فى الحساب . ١٠ /٣٤٦

(٢) مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ حديث رقم ١٦٤

وابن ماجه ـــ كتاب التجارات ـــ باب النهى عن الغش ٢ /٧٤٩ رقم ٢٢٢٤ والترمذى ـــ كتاب البيوع ـــ باب فى كراهية الغش ٣ /٥٩٧ رقم ١٣١٥

(٣) سورة الواقعة الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

وبعد أن وصف ما هم فيه من نعيم مقيم ، بين أن حياتهم فى هذا النعيم دائمة لا يلحقها موت ولا فناء فقال تعالى : ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى** ﴾ أى : لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها ثم قال : ﴿ **إلا الموتة الأولى** ﴾ على الاستثناء المنقطع ، أى لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا . وقيل : « إلا » بمعنى سوى ، أى : سوى الموتة التى ماتوها فى الدنيا .

وقد ثبت فى الصحيحيين أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت فى صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ثم يذبح ثم يقال : ياأهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت »(١)

وروى أبو هريرة وأبو سعيد ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : « يقال لأهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً »(٢) رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ **ووقاهم عذاب الجحيم** ﴾ أى : وهم مع هذا النعيم قد نجاهم من العذاب الأليم فأعطاهم ما يطلبون ، ونجاهم مما يهربون كما قال تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم * فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون * متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين** ﴾ (الطور ١٧ ، ١٨ ، ١٩) .

وقوله تعالى : ﴿ **فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ أى : فعل ذلك بهم تفضلاً منه عليهم ، إذ وفقهم فى الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة (ذلك هو الفوز العظيم) أى : السعادة والربح العظيم والنجاة العظيمة .

عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله ــ عز وجل ــ يقول لأهل الجنة : ياأهل الجنة فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ياربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ! فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك** ﴾ يعنى القرآن العظيم أى : سهلناه بلغتك عليك وعلى من يقرؤه ﴿ **لعلهم يتذكرون** ﴾ أى : يتعظون وينزجرون . كما قال تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ فختم السورة جل فى علاه بالحث على اتباع القرآن وإن لم يكن مذكورا ، كما قال فى مفتتح السورة ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾ .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الجنة ونعيمها ــ باب النار يدخلها الجبارون والنار يدخلها الضعفاء صـ ٨٠٠ رقم الحديث ١٨١١ ومسلم ــ كتاب الجنة ونعيمها ــ باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٤ /٢١٨٨ رقم ٢٨٤٩

(٢) صحيح مسلم ــ كتاب الجنة وصفة نعيمها ــ باب دوام نعيم أهل الجنة ٤ /٢١٨٢ رقم ٢٨٣٧

(٣) صحيح مسلم ــ كتاب الجنة وصفة نعيمها ــ باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدا ٤ /٢١٧٦ رقم ٢٨٢٩

وقوله تعالى : ﴿ **فارتقب إنهم مرتقبون** ﴾ أى : انتظر ما وعدتك من النصر عليهم إنهم منتظرون لك الموت ، حكاه النقاش وقيل : انتظر الفتح من ربك إنهم منتظرون بزعمهم قهرك . وسيعلمون لمن تكون النصرة والغلبة وعلو الكلمة فى الدنيا والآخرة .

﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾[1] .

تفسير سورة الجاثية

مقدمة :

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية بالإجماع . عدد آياتها : سبع وثلاثون آية .

وعدد كلماتها : أربعمائة وثمانون . وحروفها ألفان ومائة وتسعون .

ومجموع فواصل آياتها : (من) .

ولها اسمان : سورة الجاثية ؟ لقوله تعالى : ﴿ **وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها** ﴾ ، وسورة الشريعة لقوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها** ﴾ .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان حجة التوحيد ، والشكاية من الكفار والمتكبرين ، وبيان النفع والضر والإساءة والإحسان وبيان شريعة الإسلام والإيمان ، وتهديد العصاة والخائنين من أهل الإيمان ، وذم متبعى الهوى ، وذل الناس فى المحشر ، ونسخ كتب الأعمال من اللوح المحفوظ ، وتأبيد الكفار فى النار ، وتحميد الرب المتعال بأوجز لفظ ، وأفصح مقال فى قوله تعالى : ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

المتشابهات : ﴿ **وآتيناهم بينات من الأمر** ﴾ نزلت فى اليهود وقد سبق قوله ﴿ **نموت ونحيا** ﴾ سبق . وقيل : فيه تقديم وتأخير أى : نحيا ونموت . وقوله تعالى : ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت** ﴾ بالباء موافقة لقوله : ﴿ **ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون** ﴾ قوله : ﴿ **سيئات ماعملوا** ﴾ لتقدم : ﴿ **كنتم تعملون** ﴾ ﴿ **وعملوا الصالحات** ﴾ قوله : ﴿ **ذلك هو الفوز المبين** ﴾ تعظيما لإدخال الله المؤمنين فى رحمته .

مناسبتها لما قبلها :

أن أول هذه السورة مشاكل لآخر سابقتها فى الأغراض والمقاصد .

(١) سورة غافر الآيتان : ٥١ ، ٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿٢﴾ إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴿٣﴾
وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴿٤﴾ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من
السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴿٥﴾ تلك
آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴿٦﴾ ويل لكل أفاك
أثيم ﴿٧﴾ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴿٨﴾ وإذا
علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ﴿٩﴾ من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم
ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴿١٠﴾ هذا هدى والذين كفروا
بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴿١١﴾

معـــانى المفردات

(لآيات) لعبراً ، (يبث) أى : يفرق وينشر (اختلاف الليل والنهار) أى : تعاقبهما ليل بعد نهار ، ونهار بعد ليل (من رزق) أى : من مطر وشمس سمى بذلك لأنه سبب له (وتصريف الرياح) أى : تغيرها من جهة إلى أخرى ومن حال إلى حال . (الأفاك) كثير الإفك والكذب (الأثيم) كثير الإثم والمعاصى .
(يصر) الإصرار على الشيء : ملازمته . (من ورائهم) أى : بعد آجالهم (يغنى) يدفع (أولياء) أى : أصناماً (الرجز) أشد العذاب .

التفسيـــــر

قوله تعالى :
(حمٓ) هذه أمثلة من الحروف المقطعة ، ونحن نرجح الرأى القائل إنها إشارات واضحة ودلالات قاطعة على إعجاز القرآن الكريم .
وقوله تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ أى : إن هذا الكتاب الكريم أنزله العزيز الغالب القاهر لكل شيء ، الحكيم فى تدبيره لكل ما خلق ، فهو سبحانه مع قهره للعوالم المادية والروحية ، لا يتصرف إلا بالحكمة كما يشاهد فى النبات والحيوان والأجسام الإنسانية ودوران الكواكب وانتظامها

فى سيرها ، فكل ذلك من القهر والغلبة لها مع الحكمة فى صنعها ومن ثم أعقب ذلك بنتائج العزة والحكمة فقال تعالى :

﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾ .

قوله تعالى : **﴿ إن فى السموات والأرض لآيات للمؤمنين ﴾** أى : إن فى السموات السبع اللاتى منهن ينزل الغيث ، وفى الأرض التى منها يخرج الخلق ــ لأدلة واضحة للمصدقين بالحجج إذا تأملوها وفكروا فيها تفكير من يسلك السبيل القويم ، فيرتب المقدمات ، ليصل فيها إلى النتائج التى هى لازمة لها بحكم النظام الفكرى والترتيب العقلى ، وبعد أن ذكر الأدلة الكونية التى فى الآفاق أتبعها بذكر الأدلة التى فى الأنفس فقال تعالى :

﴿ وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴾ أى : وإن فى خلق الله إياكم على أطوار مختلفة من تراب ثم من نطفة إلى أن تصيروا أناسىّ ، وفى خلق ما تفرق فى الكون من الدواب ــ لحججاً لقوم يوقنون بحقائق الأشياء فيقررونها بعد العلم بصحتها . وقوله تعالى : **﴿ واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ﴾** أى : وإن فى تعاقب الليل والنهار عليكم ؛ هذا بظلمته وسواده ، وذاك بنوره وضيائه ، وفيما أنزل الله من السماء من مطر تحيا به الأرض بعد موتها ، فتهتز بالنبات والزرع من بعد جدوبها وقحوطها ، فتخرج أرزاق العباد وأقواتهم ، وفى تصريف الرياح لمنافعكم شمالية مرة وجنوبية أخرى ، صباً مرة ، ودبوراً أخرى ــ لأدلة وحججا لله على خلقه الذين يعقلون عنه حججه ويفهمون ما وعظهم به من الآيات والعبر ونحو هذه الآيات قوله تعالى فى سورة البقرة : **﴿ وإلٰهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾**[1] .

وقوله تعالى : **﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴾** .

---

(١) سورة البقرة الآيتان : ١٦٣ ــ ١٦٤

قوله : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ أى : هذه آيات القرآن بما فيها من حجج وبينات ، نتلوها عليك متضمنة للحق . ﴿ **فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون** ﴾ أى : فبأى حديث أيها القوم بعد حديث الله الذى يتلوه على رسوله ، وبعد حججه وبراهينه التى دلكم بها على وحدانيته ــ تصدقون إن كذبتم به .

فإذا كنتم لا تؤمنون بهذه الآيات ولا تنقادون لها ، فبم تؤمنون ؟ وإلام تنقادون ؟ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

وبعد أن بين للكفار آياته ، وذكر أنهم إن لم يؤمنوا بها فبأى حديث بعدها يؤمنون ؟ أتبعه بالوعيد العظيم لهم فقال تعالى :

﴿ **ويل لكل أفاك أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم** ﴾ أى : فالويل أشد الويل ، والعذاب أقسى العذاب لكل كذاب فى قوله ، أثيم فى فعله .

﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها** ﴾ أى : إذا سمع آيات الله تقرأ عليه ، وهى مشتملة على الوعد والوعيد ، والإنذار والتبشير ، والأمر والنهى ، والحكم والآداب ، أصرّ على الكفر بها وجحدها عنادا كأنه ما سمعها كما قال سبحانه : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم** ﴾[1] .

ثم أوعده على ما فعل عذاباً أليما فى نار جهنم فقال :

﴿ **فبشره بعذاب أليم** ﴾ أى : فبشره أيها الرسول بالعذاب المؤلم الموجع فى جهنم وبئس القرار .

وفى تسمية هذا الخبر المحزن بشرى ، وهى لا تكون إلا فى الأمر السار ــ تهكم بهم ، واحتقار لشأنهم كما قال سبحانه : ﴿ **بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا علم من آياتنا شيئا اتخذها هزوا** ﴾ أى : وإذا وصل إليه خبرهاوبلغه شىء منها ، جعلها هزوا وسخرية ، فقد روى أن أبا جهل حين سمع قوله تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم * طعام الأثيم** ﴾ دعا بتمر وزُبد وقال لأصحابه : تزقموا من هذا ، ما يعدكم محمد إلا شهداً ، وحين سمع قوله تعالى ﴿ **عليها تسعة عشر** ﴾ أى على النار قال : إن كانوا تسعة عشر فأنا ألقاهم وحدى .

(١) سورة لقمان الآيتان : ٦ ــ ٧

(٢) سورة النساء الآية : ١٣٨

﴿ **أولئك هم عذاب مهين** ﴾ أى : أولئك الأفاكون المتصفون بتلك الصفات لهم العذاب الذى يهينهم ويذلهم فى نار جهنم بماكانوا فى الدنيا يستكبرون عن طاعة الله واتباع آياته ، واتخاذهم لها هزو

وقوله تعالى : ﴿ **من ورائهم جهنم** ﴾ أى : ومن وراء ما هم فيه من التعزز بالدنيا والتكبر جهنم والمراد أنها من قدامهم ، لأنهم متوجهون إليها كقوله : ﴿ **وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾ .

وقوله : ﴿ **ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئا** ﴾ أى : ولا يدفع العذاب عنهم ما كسبوا من الأموال والأولاد .

﴿ **ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء** ﴾أى :ولا تغنى عنهم أصنامهم التى عبدوها من دون الله شيئا ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ أى :قوله تعالى : ﴿ **هذا هدى ، والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ ﴿ **هذا هدى** ﴾أى : هذا القرآن الذى أنزلناه إليك أيها الرسول هاد إلى الحق وإلى طريق مستقيم لمن اتبعه وعمل بما فيه فهو حبل الله المتين ، والنور المبين ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه كما قال تعالى : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾

﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾(١) ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾(٢)

وقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ أى : والذين جحدوا بآياته الكونية فى الأنفس فمروا عليها وهم عنها معرضون ، وجحدوا بآياته المنزلة على رسوله الكريم لهم العذاب المؤلم الموجع يوم القيامة .

من نعم الله تعالى على عباده

قال تعالى :

* ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل
لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٨
(٢) سورة البقرة الآية : ٢

فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ
وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا
ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ
لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ
لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ
عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟
مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ
ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

معاني المفردات

(سخر) هيأ ، (الفلك) السفينة (الابتغاء) الطلب ، (يغفر) أى : يعفو ويصفح (لا يرجون) أى : لا يتوقعون حصولها ، (أيام الله) وقائعه بأعداء دينه ، (الكتاب) المراد به الكتب التى نزلت على أنبياء بنى إسرائيل ، (الحكم) الفصل بين الناس فى الخصومات ، لأنهم كانوا ملوكا ، (بينات من الأمر) أى : دلائل واضحات فى أمر الدين ، ويندرج فيها معجزات موسى — عليه السلام — (بغيا) أى : حسدا وعنادا ، (على شريعة من الأمر) أى : على طريقة ومنهاج فى أمر الدين . وأصل الشريعة مورد الماء فى الأنهار ونحوها ، وشريعة الدين يرد منها الناس إلى رحمة الله والقرب منه ، (بصائر للناس) أى : معالم للدين بمنزلة البصائر فى القلوب ، (الاجتراح) الاكتساب ، ومنه الجارحة للأعضاء التى يكتسب بها كالأيدى والمراد بالسيئات : سيئات الكفر والإشراك بالله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف الحجج الدالة على ــ ربوبيته ووحدانيته ــ أردف ذلك ذكر آثارها ، فمن ذلك تسخير السفن فى البحار ، ومنها تسخيره باقى السموات والأرض من شموس وأقمار وبحار وجبال لتنتفعوا بها فى مرافقكم وشئونكم المعيشية . ثم أمر المؤمنين بمحاسن الأخلاق ، فطلب إليهم أن يصفحوا عن الكافرين ويحتملوا أذاهم ، وعند الله جزاؤهم فمن عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ويوم القيامة يجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر . ثم ذكر بعد ذلك ــ تسلية لرسوله ــ بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، بل طريقهم طريق من تقدمهم . فلقد أنعم الله على بنى إسرائيل بنعم كثيرة وقد حصل بينهم الاختلاف بغيا وحسداً . ثم أمر الرسول بأن يتمسك بالحق ولا يتبع أهواء الجاهلين الضالين ، ثم ذكر أن القرآن معالم للهداية تهتدى بها القلوب الضالة عن طريق الحق ، فتلزم الجادة وتصل إلى طرق النجاة ثم يبين سبحانه أنه لا يسوى بين المحسن والمسىء وذكر الدليل على هذا بأن الله ما خلق الخلق إلا بالحق المقتضى للعدل والانتصاف للمظلوم من الظالم ، والتفاوت بين المحسن والمسىء فى الجزاء ، وإذا لم يكن هذا فى الحياة كان فى دار الجزاء حتماً ، لتجزى كل نفس بما كسبت فلا تظلم بنقص ثواب أو بمضاعفة عقاب . ثم عجَّب سبحانه ممن ركب رأسه واتبع هواه وترك الهدى واضل الله وهو العليم باستعداده وخبث طويته ، فهو ممن ختم الله على سمعه وقلبه ، فلا يتأثر بعظة ، ولا يفكر فى آية ، وجعل على بصره غشاوة مانعة من الاستبصار والاعتبار ، فمن تعبد الله يهديه ؟ أفلا تذكرون وتتفكرون فى هذا ؟ ثم ذكر سبحانه حماقة أخرى من حماقاتهم ، تلك أنهم أنكروا البعث وقالوا : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ، وما ذلك منهم إلا ظنون وأوهام لا مستند لها من نقل ولا عقل ، فأمر الله رسوله أن يجيبهم بأنه هو الذى يحييهم ثم يميتهم ، ثم يجمعهم فى يوم لا شك فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقيقة ذلك .

التفسيــــر

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ۔ وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾

أى : إن ذلك الخالق الواحد الذى أقمت لكم الأدلة على وجوده ــ هو الذى يسَّر لكم استخدام البحر لتجرى فيهُ السفن بإذنه وقدرته حاملة أقواتكم ومتاجركم لتقوم بشئونكم المعيشية ، ولتطلبوا رزق ربكم منه ولتشكروه على ما أفاض عليكم من هذه النعم ، فتعبدوه وتطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه كما قال سبحانه : ﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾

وقوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ أى : وسخر لكم جميع ما خلقه فى سمواته وأرضه مما تتعلق به مصالحكم وتقوم به معايشكم ، فمما سخر لكم من المخلوقات السماوية الشمس والقمر والنجوم النيرات والمطر والسحاب والرياح ، ومن المخلوقات الأرضية الدواب والأشجار والجبال والبحار والسفن رحمة منه وفضلا ﴿ **جميعا منه** ﴾كقوله تعالى : ﴿ **وما بكم من نعمة فمن الله** ﴾ وكل هذه أدلة ناطقة على أنه الله الذى لا إله غيره ، لمن تأمل فيها واعتبر بها وتدبرها حق التدبر ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ فى خلق السموات والأرض ويقولون ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار .

ألا إننا كلنا بائد ... وأىُّ بنى آدم خالدُ
وبدؤهم كان من ربهم ... وكلّ إلى ربه عائد
فيا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

وللعلم فى عالم البحار والأنهار كلمة

قال الدكتور / عزت محمد خيرى فى كتابه « دلائل الحق فى عظمة الخالق » تحت عنوان المياه .. مصادرها وخواصها وأهم منافعها ما نصه :

قال تعالى : ﴿ **ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ (٢٤ ـــ الروم) .

حقا إن الماء شريان الحياة فوق الأرض للإنسان والحيوان والنبات ، والعلم يشهد بأنه من أهم ، إن لم يكن أهم المواد الكيميائية على الإطلاق . فالماء يغطى حوالى ثلاثة أرباع سطح الأرض ، ويصل فى أعماقه فيما يتراوح بين الأمتار بالنسبة للأنهار وعشرات الكيلو مترات بالنسبة للبحار ، ويدخل الماء بنسب كبيرة فى تكوين الكائنات فى الدم والخلايا والأنسجة فى النبات والحيوان والإنسان ، فيحتوى جسم الإنسان على حوالى ٦٥ ٪ من وزنه ماء ، ويحتوى اللبن على ٨٥ ٪ ، وثمار البطيخ مثلاً على ٩٢ ٪ والطماطم على ٩٤ ٪ منه . ومن ناحية أخرى يحتوى جو الأرض على حوالى ١ ـــ ٥ فى المائة بالحجم من بخار الماء تتغير من مكان إلى آخر وإن وجود بخار الماء فى طبقات الجو العليا له من الأهمية العظمى للحياة على الأرض ما يجعلنا نسجد لله شاكرين إذ أنه يمتص الأشعة تحت الحمراء من الشمس فلا يسمح بأن يصل منها إلى الأرض إلا القدر الذى يحفظ الحياة عليها ، وكذلك يعمل بخار الماء فى الجو كحافز لكثير من عمليات الاحتراق والعمليات الطبيعية الأخرى .

وللماء من الخواص الطبيعية المميزة له عن المواد الأخرى ما يؤثر تأثيرا أساسيا فعالاً على الحياة الطبيعية والبيولوجية مما سيأتى ذكره فيما بعد وكان القدماء يعتقدون أن الماء عنصر وليس مركبا ، إلى أن تمكن العالم كافندش من إثبات تكونه عند احتراق الهيدروجين فى الهواء وكان ذلك عام ١٧٨١ ميلادية ، وفى عام ١٧٨٣ أثبت لافوازييه التركيب الجزيئى للماء من ذرتين من الهيدروجين وذرة واحدة من الأكسيجين ، ويوجد العنصران فى الماء بنسبة وزنية تبلغ ٢,٠١٦ إلى ١٦,٠٠٠ .

والماء كما نعلم نوعان أساسيان ، ماء عذب ، وماء ملح ، الأول مصدره الأصلى المطر ، والثانى مصدره البحر والمحيط ، والماء ينزل من السماء إلى الأرض ويتبخر من الأرض إلى السماء فى دورة موزونة وبقدر معلوم منظوم تتجمع السحب وتزخر ، وتتحرك وتلقح ، وتتطابق وتتعانق وتتشاحن وتتكهرب ، وتبرق وترعد ، وتفيض وتهطل وتهبط إلى الأرض فتحيي وتبهى يقول العليم القدير :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ (١٦٤ ـــ البقرة)

وماء المطر يكاد يكون نقياً خالصا من الآثار الضئيلة من الغازات المذابة الموجودة فى الهواء وأهمها النتروجين والأكسجين وثانى أكسيد الكربون والقليل جدا من النشادر وحمض النتروز وحمض النتريك ونترات النشادر ، وفى بعض المناطق الصناعية قد يذيب ماء المطر آثارا من حمض الكبريتوز والكبريتيك ، كما يحمل ماء المطر معه بعض ذرات التراب . هذا ولا تزيد نسبة الشوائب فى ماء المطر على أجزاء صغيرة فى المليون (تتراوح بين ٥ ـــ ٧ فى المليون) . ويمكن أن يستقبل ماء المطر فى خزانات طبيعية أو صناعية أو يتجمع على سطح الأرض فى أنهار أو جداول تسير شرايين للحياة ومنابع للخير والفضل وتصب فائضها فى البحر ، وقد تنساب مياه الأمطار تحت سطح الأرض إلى أعماق صغيرة أو كبيرة وتتفجر من هذه الأعماق تحت الظروف المناسبة كينابيع وعيون ، أو تحفر لها الآبار لتفتح أمامها طريق الخروج إلى سطح الأرض .

أما ماء البحر (والمحيطات) فيكون حوالى ٩٨ ٪ من المحتوى المائى للكون وهو يحتوى على نسبة من المواد المذابة تبلغ فى المتوسط ٣,٥ ٪ من وزنه ـــ وقد تصل هذه النسبة إلى ٢٥ ٪ فى البحار المقفلة كالبحر الميت مثلاً ـــ منها حوالى ٢,٦ ٪ على هيئة كلوريد الصوديم (ملح الطعام) ، والباقى يشتمل على أملاح المغنسيوم والبوتاسيوم والكالسيوم وغيرها من العناصر على هيئة كلوريدات أو كبريتات أو بروميدات أو يوديدات .

وفى الحق يمكن اعتبار المحيطات والبحار على أنها مخازن هائلة ومصادر زاخرة للكيماويات تشتمل

تقريبا على كل العناصر المعروفة بنسب متفاوته . ومن الطريف والمفيد أن نعلم أن الحجم الكلى لماء البحر يقدر بحوالى ١٣٥٠ مليون كيلو متر مكعب ، يحتوى كل كيلو متر مكعب منها على حوالى مليار طن من ماء البحر .

ولكل من النهر والبحر فوائده العديدة ومنافعه الكبيرة لا يبغى أحدهما على صنف الآخر بل يبقى كل منهما محتفظا بصنفيته والبرزخ محط الحياة ، يقول تعالى :

﴿ **مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾ (١٩ — ٢٠ الرحمن) ينبع النهر ومصدره مدرار من عذب مياه الأمطار ويسير فى طريقه من مستواه العالى إلى مستوى البحر المنخفض فيلتقى به ويصب فيه ما زاد على مستوى مساره وما فاض عن مجال استغلاله . وإذ يلتقى ماء النهر العذب بماء البحر الملح الأجاج يحتفظ كل منهما بصفاته اللهم إلا من جزء صغير قصير يقع فى جوار المصب تجد على جانبيه الماء العذب فى النهر والماء المالح فى البحر . وقد أثبت العلم بنظرياته هذه الحقيقة الملموسة على سطح الأرض كما أثبتها بالنسبة للمياة الجوفية وأمكن تحديد المستويات التى يوجد عندها الماء العذب والمستويات التى يوجد عندها الماء الملح ، بما يدلل على عظمة الخلق وبقاء النعمة والفضل فماذا كان يحدث لو اختلط العذب بالملح ، أكانت هناك حياة لنبات أو حيوان أو إنسان بمثل هذا اليسر والفيض ....؟ أما كنا محتاجين لنشرب ونسقى ونروى إلى الطاقات الهائلة والوسائل المعقدة والتكاليف الباهظة لكى نجعل من الملح الأجاج عذبا ؟

يقول تعالى : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ (الأنعام ٩٩) .

قلنا : إن الماء من الخواص الطبيعية والتركيبية مما يؤدى دورا هاما فى الحياة بمختلف صورها ، وفيما يلى نقتطف اثنتين من هذه الخواص لأهميتها الخاصة :

١ — الماء مذيب قوى قادر على إذابة الكثير من المواد خاصة ذات التركيب الأيونى ، وذلك يرجع إلى ماله من خاصية القطبية الكهربية وإلى ثابت العزل الكبير له ، وتعزى هاتان الخاصيتان للتركيب الألكترونى والفراغى لجزئيات الماء إذ إن هذه الجزئيات تترابط مع بعضها البعض عن طريق ما يسمى بروابط الهيدروجين بفعل قوى الجذب بين الشحنة الموجبة حول الهيدروجين والسالبة حول الأكسجين فى كل جزء . ومن ثم يصبح الماء وسطا مهما لسائر العمليات والتفاعلات الكيمائية والبيولوجية . ولعل من أبسط الخصائص التى يتميز بها الماء فى هذا المجال وأهمها أثرا هو أن الماء قادر على أن يذيب الأكسجين بنسبة أكثر من إذابته النتروجين (وكلتاهما نسبته صغيرة) وعلى ذلك فإن الهواء المذاب فى الماء يحتوى على نسبة أكثر من الأكسجين عنه فى الجو ولولا ذلك ما تمكنت الأسماك وسائر الأحياء المائية أن تعيش فى الماء ومعلوم أنها لا تستطيع الحياة فى الهواء خارج الماء .

٢ ــ يتميز الماء بأنه المركب الوحيد الذى يكون وزن الحجم المعين منه أكبر فى الحالة السائلة عنه فى الحالة الصلبة ، ولذلك نجد الثلج يطفو فوق سطح الماء السائل . ويُعزى ذلك إلى أنه نظرا لتركيب جزيئات الماء السابق بيانه تزاد نسبة الروابط الهيدزوجينية وبالتالى يزداد تجمع هذه الجزيئات فى الحالة الصلبة عنه فى الحالة السائلة وبالتالى يكون الحجم فى الحالة الصلبة أكبر منه فى الحالة السائلة أى : أن الكثافة تكون أصغر بالنسبة للثلج عنها بالنسبة للماء عند نفس درجة الحرارة (درجة الصفر المئوى) .

وقد ثبت أن الماء تكون له كثافة كبرى عند درجة ٤ مئوية وهى الوحدة ولعل هذه الخاصية هى إحدى النعم الكبرى التى خص بها الله عباده فى الأرض فلو أن الماء سلك مسلك غيره من المواد لهبط الثلج فى الشتاء إلى قاع المحيطات والبحار ، بل والأنهار فى بعض البقاع ، ولما تمكنت حرارة الشمس أن تصل إليه فى الربيع والصيف ، ولتراكمت الثلوج وتجمدت الأحياء فى المحيطات والبحار ، ولحدث ما يتضاعف عن ذلك الشىء الكثير .

هذه بعض المعلومات عن الماء ومازال عنه الكثير وهذه إحدى دلائل الحق فى عظمة الخالق .

الماء كوسط للحياة ووقود للمستقبل

إنه لعجيب مثير ذلك السائل البسيط شكلاً العظيم فعلا وأثراً ، المتنوع فضلا ونفعا ، إنه الماء نعمة الله الكبرى على مخلوقاته فى الأرض من إنسان وحيوان ونبات ، إنه ذلك السائل الذى يصفه الخالق جلت قدرته بقوله :

﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا** ﴾ (٥٤ ــ الفرقان)

﴿ **والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون** ﴾ (٦٥ ــ النحل) .

﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** ﴾ (٤٨ ، ٤٩ الفرقان) .

ولا غرو فإن الجوانب المتعددة للماء فى الحياة تجعله يلعب أدوارا أساسية تجذب اهتمام كل عامل فى المجالات الفيزيقية والكيمائية ، والبيولوجية والجيوفيزيقية ، والجغرافية ، والفيزيقية الجوية والفلكية ، وإن كلا من هذه المجالات الواسعة الغنية تجد فى الماء ــ كما لا تجد فى أية مادة فى الطبيعة ــ مزايا وخصائص فريدة وفوائد حيوية .

ولكى ندرك أهمية الماء كوسيط للحياة نشير إلى الحقيقة التى توصل إليها علماء وظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وهى أن كل عملية يتبعها تحول فى المواد فى الكائنات الحية ــ فى الإنسان بصفة خاصة ــ لا يمكن أن تحدث إلا إذا كانت نواتجها فى حالة ذوبان ، وأهم المذيبات لهذه النواتج الماء ،

وكذلك فإن أهم العمليات الحيوية ــ الكيميائية والبيولوجية ــ فى الكائنات الحية تتم فى وسط مائى مثل عمليات التنفس ، وبناء الأنسجة وتجددها والتمثيل الغذائى ، والهضم والإخراج .

ويعتبر المشتغلون بالجغرافيا أن الماء يقع بمثابة الأداة الأساسية التى صاغها الله ــ الخالق الإنشائى للطبيعة ــ لتدخل فى تركيب مكوناتها ، وتتغلغل فى ثنايا موجوداتها ، وتسبح فى جو كوكبنا الأرضى بخارا إلى تكثيف وتتراكم سحبا زاخرة فتسقط بعد ذلك ماء عذباً طهورا كل ذلك من صنع الخلاق القادر . وحقّاً إن كل دارس متأمل فى قصة الماء فى الطبيعة يستطيع أن يقرر دون أدنى شك أنه لا يوجد أى جسم صلب فى الطبيعة لا يدخل الماء فى تركيبه ، يقول بذلك ــ عن بحث وفحص ومشاهد وتجريب ــ علماء الطبيعة الأرضية (الجيوفيزيقيا) والكيمياء الأرضية (الجيوكيمياء) وينبئنا المشتغلون بالأرصاد الجوية على أساس تعرفهم لدورة الماء فى الطبيعة أنه ما من عملية أساسية فى الطبقة الحية من الأرض ــ الغلاف الجوى أو البيوسفير ــ إلا وتدخل فيها الماء . ولعل من أهم هذه العمليات وأظهرها عمليات تغذية النبات التى تتم بفضل خاصتين مميزتين هامتين أودعهما الخالق الوهاب فى هذا السائل العظيم ــ الماء ــ ألا وهما الخاصية الشعرية الناشئة عن الارتفاع غير العادى للشد السطحى للماء ــ الذى يعتبر أكبر شد سطحى للسوائل جميعا ــ والقدرة الهائلة للإذابة بهاتين الخاصتين يذيب الماء الأملاح النافعة فى التربة وينقلها بالخاصية الشعرية خلال شعيرات النباتات (فى الجذور والسيقان) فتسرى فيها بشريان الغذاء والنماء وتنبت من كل الثمرات .

هذا ويقرر كل المشتغلين بالكيمياء الحيوية ــ شأنهم فى ذلك شأن المشتغلين بالفيزيقا الفلكية ــ أن الحياة بصورها المتعددة تعتمد فى وجودها أكثر ما تعتمد على المياه التى ثبت أنها تعمل كوسط أساسى لتكوين المركبات العضوية المتراكبة الداخلة فى بناء الأجسام والكائنات الحية . حقا إنها لصنعة عزيز متعال قوى قادر ــ يحاجى بها الكفار ويحكى قصة الخلق وإرادة أن كن فيكون فى قوله تعالى :

﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون** ﴾ (٣٠ ــ الأنبياء) .

وتتبين أهمية الماء للحياة على الأرض وللكائنات الحية فى المحيطات والبحار من نبات وحيوان فى عبور سريع على دورة الماء فى الطبيعة خاصة فيما بين الأنهار والبحار ، فتحمل الأنهار يوميا ٣٥ ألف كيلو متر مكعب من الماء من اليابسة لتصبها فى المحيطات (أو البحار) وتحمل هذه المياه معها ما يعادل حوالى ٣,٥ مليارات من الأطنان من المواد المذابة والعالقة سنويا نظراً للقدرة الفائقة للماء على الإذابة مما تجعل تيارها قادرا على نحت أعتى الصخور الجرانيتية ، ومن ثم فإن مياه البحار والمحيطات تصبح غنية بالأملاح والمعادن ــ ويقدر عدد العناصر التى أمكن التعرف عليها فى مياه المحيطات بحوالى الخمسين عنصراً . وأن وجود هذه الأملاح والمعادن يعتبر أساسا لتغذية الكائنات الحية التى تعيش أو تنبت فى هذه المياه أو فى قيعان المحيطات كما تسهم فى إذابة نسبة كافية من الأكسجين أكبر منها فى الهواء تحفظ التنفس

على الأسماك والحيوانات المائية . وتتبخر مياه المحيطات تدريجياً فتكون السحب وتسقط هذه الماء العذب على الأرض فيقيم الحياة فوقها وتسرى الأنهار محملة بالمزيد من الأملاح والمعادن فتصب فى المحيطات (أو البحار) وهكذا تسير الدورة مؤكدة قانونا طبيعيا حافظا ومنظما للحياة . ويقول العلم كما ينطق الواقع بأنه بدون هذه العلاقة الموزونة بين الماء العذب الفرات فى الأنهار والماء الملح الأجاج فى المحيطات (والبحار) فإنه لا حياة على كوكب الأرض . يقول تعالى :

﴿ وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طريا وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾
(١٢ ــ فاطر) .

وتتجلى أهمية المياه فى حياتنا على كوكب الأرض إلى جانب كونها وسطا أساسيا لتكوين المادة الحية وتطورها ، فى أن المحيطات تستطيع أن تحمى الكثير من المواد العضوية من التأكسد إذ أن المحيطات تحوى فى قيعانها الكثير من المواد العضوية من النباتات والمخلفات الحيوانية فتحفظها بعيدة عن تأثير أكسجين الجو المؤكسد ومن ثم تقيها من التلف وبمثل ما تحمى طبقة الأوزون فى الطبقات العليا من جو الأرض ، تحمى الأرض من تسرب المقادير الزائدة من الأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها أشعة الشمس وفقاً لما تقتضيه ظروف الحياة على الأرض ، فإن الماء يمتص كذلك قدراً من هذه الأشعة مما يولد حماية إضافية للكائنات والمواد الحية الموجودة فى أعماق المحيطات والبحار وتبقيها خزنا للرزق والغذاء تغترف منه البشرية عند الحاجة التى تتزايد مع الانفجار السكانى والتقدم العمرانى فى عصر ثورة العلوم والتكنولوجيا .

ولعله من المفيد فى صدد الحديث عن مياه المحيطات (والبحار) أن نشير إلى ما دلت عليه الحسابات والتقديرات عن مقاديرها الهائلة ، وما يحاول العلم أن يفسر به هذه المقادير العظيمة التى تتزايد مع الزمن . فقد تبين أن المحيطات تحتوى على ما يقرب من مليار ونصف مليار كيلو متر مكعب من المياه ، أى : ما يعادل تقريباً جزءاً من ثمانمائة جزء من حجم الكرة الأرضية ولما كانت هذه الكميات تعادل ما يمكن أن تصبه الأنهار خلال ثمانية وثلاثين ألف عام ، فإن البحث والعلم كانا وما يزالان وراء هذه الحقيقة الناطقة يحاولان لها تعليلاً ولحدوثها تفسيرا . وهناك من الشواهد والدلائل العلمية ما يشير إلى أن جزءاً من مياه المحيطات مصدره المياه تحت الأرضية المصاحبة لخروج الغازات متفجرة من باطن الأرض من مختلف الأعماق ، وتعتبر البراكين كذلك مصادر لمقادير محسوسة من المياه سواء فى الجو أو فى المحيطات تقدر سنويا بما يعادل عشر كيلو متر مكعب من المياه .

هذا عن المياه ومصادرها وعن دورها العام فى الحياة ، أما عن دورها كمصدر مهم للطاقة فى المستقبل فإن ذلك يعتبر نتيجة أساسية لتحضير الماء الثقيل بكميات كبيرة وبالتالى الحصول على الهيدروجين الثقيل ــ الديوتيريوم والقليل من التريتيوم وهو أساس توليد الطاقة الحرارية النووية عن طريق الانصهار

النووى الذى يحوّل الهيدروجين إلى الهليوم مصاحبا بتصاعد مقادير هائلة من الطاقة .

ويحضر الماء الثقيل من عمليات التحليل الكهربائى المستمرة لأوقات طويلة للماء العادى والمحاليل المائية أثناء تحضير غاز الهيدروجين اللازم لكثير من الصناعات أهمها صناعة النشادر والأسمدة النتروجينية (شركة كيما بأسوان مثلاً) .

وختاما لهذا الحديث عن الماء — وما أعذب الحديث عنه وأغزره دعنا نرنو بأبصارنا ونجول بخواطرنا ونناقش ما يحمله العلم لمستقبل المياه فنحن نعلم أن الأرض تفقد الماء فى الطبقات العليا لجوها الواقعة فى مدى ٧٠ إلى ٩٠ كيلو متراً فوق سطح الأرض ، وذلك نتيجة للتفكك الشديد الذى يصيب جزئيات الماء بفعل الدفعات الكثيفة المركزة من الأشعة فوق البنفسجية التى تبعث بها الشمس . ويتبع ذلك تصاعد غاز الهيدروجين الناتج — وهو أقل الغازات كثافة — إلى الطبقات العليا متجاوزًا جو الأرض إلى الفضاء الخارجى ، وهذه تصل فى ارتفاعها إلى ما يقرب من ٦٥٥ كيلو متراً ، ويسبح آنئذ فى أجواء الكواكب الأخرى . وقد توصل العلماء إلى التعرف على ما يسمى (برياح الشمس) وهى تيارات تسبح فى الفضاء بين الكواكب بسرعة تتراوح بين ٣٠٠ كيلو متر فى الثانية فى حالات هدوء الشمس ، وبين ٩٠٠ كيلو متر فى الثانية عندما تكون الشمس فى أوج نشاطها ومقابل هذا الفقد لجزئيات الماء فى الطبقات العليا ، هناك من الدلائل العليا ما يؤكد احتمال تكون جزئيات للماء بطريقة مباشرة فى الطبقات العليا من جو الأرض نتيجة لاتحاد الأكسجين الموجود فيها مع الهيدروجين الذى تدفعه رياح الشمس (أو الزوابع الشمسية) إلى هذه المستويات ، ويطلق بعض العلماء على الماء المتكون عن هذا الطريق تعبير « أمطار الشمس » وفى ذلك ما يعوض الفقد الذى أشرنا إليه . سبحان الله يحفظ على عباده النعمة ويجزل العطاء ويهب الحياة إنه رحمن عزيز مفضال :

﴿ الله خالق كل شىء وهو على كل شىء وكيل * له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون * قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون ﴾ (٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ — الزمر) .

المحيطات مصادر للخير وأمل للمستقبل

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ (٥٩ — الأنعام) .

— يزداد تعداد السكان فى العالم ازديادا مضطردا بمرور الزمن لأسباب عدة أهمها تقدم العلوم والطب والتكنولوجيا والثقافة وكذلك نتيجة للتحولات الاجتماعية . وقد كان عدد سكان الأرض منذ ألف عام أقل من ٣٠٠ مليون ، وفى بداية القرن العشرين قفز هذا العدد إلى ١٥٠٠ مليون ، وفى سنة ١٩٦٤ أصبح ٣٢٠٠ مليون ، ويقدر خبراء الأمم المتحدة أن يصل التعداد إلى ٦٠٠٠ مليون نسمة عند نهاية هذا القرن .

وليس هناك صعوبات ضخمة سوف تواجه مشكلة إيواء هؤلاء السكان حيث إنهم منتشرون على مساحات واسعة من العالم ، كما أن تقدم فنون العمارة والإسكان أتاحت الامتداد الرأسى فى المبانى وأمكن إنشاء العمائر الضخمة التى تمتد إلى مئات من الطوابق ، ولكن المشكلة الرئيسية هى مشكلة الغذاء التى يعانى منها عالمنا الحاضر إذ أن نصف سكانه تقريبا يعانون نقصا فى الغذاء ، ويقدر المتخصصون أن مصادر الغذاء يلزم أن تتضاعف ثلاث مرات بينما تزداد المنتجات الحيوانية ست مرات مع نهاية هذا القرن لكى تفى بحاجة سكان الأرض آنئذ .

وقد دعا ذلك — وسوف يزداد هذا الاتجاه امتدادا مع الزمن — إلى الاتجاه نحو المياه والمحيطات بوجه خاص كمصادر للغذاء ومخازن للمعادن وغيرها من الثروات الطبيعية . وقبل أن نعدد هذه الخيرات نشير إلى إحصائية طريفة تبين أن الكوكب الذى خلقنا الله فيه والكون المحتوى له قادر بإذن الله أن يمد أضعاف أضعاف سكان الأرض من الإنسان والنبات والحيوان بالغذاء والكساء والرزق . فإذا أخذنا طاقة الشمس نجد أن النباتات تمتص ٥٥ ٪ من الطاقة الساقطة عليها وتعكس منها حوالى ٢٧,٥ ٪ وينفذ خلالها ١٧,٥ ٪ من هذه الطاقة . ومن كل هذه الطاقة الممتصة الهائلة لا يتحول منها إلى شغل مفيد إلا ٢,٢ فى المائة تستهلك فى عملية التمثيل الغذائى للنباتات الخضراء بينما يستهلك الجزء الباقى فى تبخير الماء . ومن الحساب السابق يتبين أن حوالى ٣١ ٪ فقط من طاقة الشمس البالغة ٦٣٨ مليار كيلو وات ساعة — التى تصل إلى سطح الأرض هو الذى تمتصه النباتات الخضراء ، منه ٢٠ ٪ فقط تمتصه نباتات اليابس والثمانين فى المائة الباقية تمتصها نباتات الماء فى المحيطات والبحار .

وعلى الأساس السابق يمكن القول بأنه إذا ما كانت كل النباتات الخضراء محتوية على الغذاء أو على المحاصيل الغذائية فإن مقدار طاقة الشمس التى يمتصها السطح اليابس من الأرض يمكن أن يوفر غذاء لحوالى ٥٠ ألف مليون نسمة من البشر ، ويقفز هذا العدد إلى ٢٩٠ ألف مليون إذا ما استخدمت مصادر الغذاء فى المحيطات والبحار . سبحان الله خلاق منعم وهاب رزاق مانح . هذا والمجال مفتوح أمام البشر لمحاولة زيادة قدرة امتصاص النباتات الخضراء لطاقة الشمس ومن ثم زيادة مصادر الغذاء والكساء للبشر واستيعاب المزيد من سكانها .

ولما كانت النسبة العظمى من هذه الطاقة من نصيب نباتات المحيطات والبحار فإن أمل المستقبل يتركز بصفة خاصة فى حسن الاستفادة من حصيلة هذه الطاقة من غذاء وخيرات لنفع البشرية وقوامة الحياة على الأرض ، خاصة إذا علمنا أن هذا النتاج يمكن أن يصل فى مجموعه إلى حوالى ألف ضعف لما تنتجه الأرض اليابسة . حيث إن سمك أكثر طبقات مياه البحر إنتاجا للنبات يبلغ حوالى ١٠٠ — ٢٠٠ متر بينما يبلغ سمك تربة اليابسة من أخصب أراضيها مالا يزيد على ثلاثة أمتار . وبالإضافة إلى ذلك فإن أعشاب البحر تحتوى على أربعة أو خمسة أضعاف ما يحتويه نبات التربة اليابسة من المواد البروتينية العضوية ، فضلاً عن أنها تتكاثر بنسبة تفوق كثيرا جدا تكاثر النباتات الأرضية ، ويستهلك

جزء ملحوظ من هذه الأعشاب لتغذية المملكة الحيوانية لحيوانات البحر من أسماك وغيرها وهذه بالتالى مصادر هائلة للغذاء . يقول تعالى :

﴿ **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ . (١٤ ـــ النحل) .

ويعتقد بعض العلماء أنه لن يمر وقت طويل حتى تؤدى أغذية البحر النباتية إلى تغيير جذرى فى عاداتنا الغذائية ، حيث يبلغ نسبة البروتين فى أعشاب البحر ٥٠ ٪ مقارنة بحوالى ٢١ ٪ فى اللحم ، كما أن هذه الأعشاب غنية بالدهون التى تكون من ربع إلى خمس وزنها الكلى ومن مزايا أعشاب البحر فضلا عن كونها صالحة لغذاء الإنسان والحيوان فإنها مخصبات ممتازة للتربة ، وتعتبر خامات أساسية للعديد من الصناعات الغذائية وصناعات النسيج وغيرها من الصناعات مما يمثل أملا عظيما للمستقبل . فيسكن أعماق البحار ٥٥ نوعاً من الحيوانات من بين ٦٣ نوعا تعيش فى كوكبنا ، ولم يستفد الإنسان حتى الآن إلا من النزر اليسير من هذه الثروة البيولوجية ، حتى بالنسبة للثروة السمكية فلا يستهلك منها سنويا إلا حوالى ٥٠ مليون طن من حوالى ٥٠٠ أو ألف مليون طن قابلة للاستغلال ، وما بالنا لو زادت العناية بتنمية الثروة السمكية على المستوى العالمى فيما يطلق عليه (الحقول السمكية) . هذا ويمكن استئناس بعض حيوانات البحر بإعداد المكان الملائم والغذاء المناسب والحقول المهيأة وبالتالى يمكن تنظيم تكاثرها واستغلالها على نطاق واسع . وبالإضافة إلى ما تقدم فإن المحيطات والبحار تختزن مقادير هائلة من المواد المذابة تشتمل تقريبا على جميع العناصر المعروفة للإنسان ، ويمثل ملح الطعام الجزء الأكبر من هذه المواد المذابة إذ تقدر كميته فى جملتها بحوالى ٤٨ ألف بليون طن ، ونعلم ما لهذا الملح من استخدامات فائقة لا كغذاء فحسب بل فى صناعات كثيرة منها صناعة الصودا الكاوية والكلور وحمض الهيدروكلوريك وكربونات الصودا وكلها من المواد الأولية الهامة .

وما يقال عن المواد المذابة فى الماء من المحيطات والبحار يقال بنفس الدرجة عن الرواسب المعدنية الهائلة فى قاع هذه المحيطات والبحار فقد تم اكتشاف رواسب معدنية تبلغ عدة أضعاف ما يوجد فى باطن الأرض ، ولم يستغل الإنسان منها إلا ما يوجد على قرب من الشواطىء .

وقد تبين وجود كميات ضخمة من خامات الفيرو منجنيز المحتوية على الحديد والمنجنيز فى الطبقات العليا من قاع البحر وما زالت تنتظر الوقت لاستغلالها غير المحدود كما يوجد البترول تحت سطح الماء بمقادير ضخمة ويوجد الفحم والكبريت وغيرهما من العناصر .

هذا ومن المشكلات الهامة التى يواجهها الإنسان النقص فى مصادر المياه العذبة وفقا لمتطلبات الحياة وخاصة استخدام الأراضى الشاسعة البعيدة عن الأنهار والآبار . ومن ثم برزت أهمية إزالة الملوحة من مياه المحيطات والبحار وسارت شوطا كبيرا نحو التطبيق على أسس اقتصادية باستخدام الطاقة النووية ، ومن المقدر أن إنشاء محطات قوى من هذا النوع سوف تكون متعددة الأغراض ، بالإضافة إلى إنتاج

المياه العذبة سوف تنتج مقادير كبيرة من الأملاح لاستخدامها كمواد أولية فى الصناعة ، ومثل هذه المحطة لو كانت تنتج مليون كيلو وات ساعة تكون قادرة على إنتاج حوالى ٤ مليون طن من الماء العذب يوميا تغذى احتياجات مساحة يقطنها ٤ مليون نسمة بما فى ذلك الاحتياجات الصناعية . وبالإضافة إلى ذلك يمكن إنتاج ١٠٠ ألف طن من ملح الطعام ، ٣٥٠٠ طن من البوتاسيوم، ٥٠٠ طن من المغنسيوم ، ٣٠٠ طن من البروم وأكثر من عشرة آلاف طن من حمض الكبريتيك يوميا .

وبعد فهذه بعض من كل ما تزخر به المحيطات والبحار من خيرات ومنافع ودليل آخر من جملة أدلة على عظمة الوجود وقدرة الموجد وعزته وفضله سبحانه خالق السموات والأرض **المانح الوهاب**.

تركيب وشكل أعماق المحيطات

وقد دخلت جيولوجيا المحيطات فى السنوات الأخيرة عمراً جديداً صاحب التقدم الكبير فى علوم البحار ــ بفروعها المختلفة الطبيعية والكيميائية والجيولوجية ــ والتطور العظيم فى الأجهزة والأدوات العلمية . ولقد أضافت الدراسات الجيولوجية إلى مجالات بحثها وفحصها على سطح الأرض ــ البالغة مساحته حوالى ٦١ مليون ميل مربع ــ ما يقرب من ١٥٠ مليون ميل مربع من قيعان المحيطات .

ولعل من أهم الاكتشافات الجيولوجية الحديثة فى ميدان المحيطات والبحار ذلك الحدث الكبير الذى يتمثل فى اكتشاف الأخدود العجيب بين وسط المحيط الأطلنطى ووسط المحيط الهندى ، الذى يتكون من سلاسل جبلية ضخمة الأبعاد تبدأ شمالا قرب رايكجان فى جزيرة ايسلنده وتمتد نحو الجنوب موازية لشواطىء أوربا ، وشمال أمريكا ، وأفريقيا ، وأمريكا الجنوبية ، ثم تلتف بالقرب من رأس الرجاء الصالح فتدخل المحيط الهندى وتستمر حتى تنتهى عند شبه الجزيرة العربية . ويتصل بهذا التكوين الضخم الهائل فروع تتجه شرقاً وغرباً . وقد كان هذا الاكتشاف الذى تم فى أعقاب جهود علمية وتكنولوجية رائعة دوى عظيم فتح الباب للعديد من البحوث والدراسات ووضعت من أجله النظريات والتفسيرات وكلها تنطق بعظمة الخالق ودقة الصنع يقول تعالى :

﴿ ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ (٣١ ــ لقمان) .

ومازالت معلوماتنا عن طبيعة وتكوين السلاسل الجبلية الرئيسية غير كاملة ويحتاج التعرف على تفاصيلها إلى المزيد من البحث والفحص والدرس وما نعلمه عن الفروع المتشعبة منها ما زال أقل بكثير من معرفتنا بالسلسلة الأصلية . وتنقسم هذه السلاسل الضخمة إلى جبال تفصلها وديان يتراوح عددها بين اثنين وسبعة وديان . وتقع أشد المناطق عمقا فى المحيط الأطلنطى ــ تلك المنطقة الواقعة تحت خط الاستواء تماماً والتى يطلق عليها أعماق رومانشى ويصل عمقها إلى حوالى ٤,٥ ميل بحرى .

وخلافاً لهذا التركيب الجبلى العجيب فى المحيط الأطلنطى ممتدا إلى المحيط الهندى ، لم يستدل على وجود مثل هذا التكوين فى المحيط الهادى ، وإن كان قد أمكن التعرف على وجود بعض المرتفعات الواسعة الممتدة كالدروع فى قاع هذا المحيط مثل سلسلة هاواى وسلسلة وسط المحيط الهادى التى ترتكز عليها الجزر الممتدة من هاواى إلى ميداوى وجزر مارشال . وقد دلت الدراسات المختلفة أن هذه السلاسل تختلف تماما فى الشكل والتركيب عن الجبال الموجودة فى قاع الأطلنطى فمثلاً وجد أن سلسلة هاواى شبه السطحية تمتد لمسافة ٢٥٠٠ ميلا ، وهى تختلف ارتفاعا وفى التركيب تماما عن جبال المحيط الأطلنطى .

ومن دلائل الاختلاف بين طبيعة قاع المحيط الأطلنطى والمحيط الهادى أنه بينما يلاحظ أن أخدود وسط الأطلنطى يمثل من هنا أو هناك مراكز وآثار الزلازل متوسطة القوة ، يلاحظ أن الأغوار العميقة التى توجد فى مواقع مختلفة من المحيط الهادى تعتبر مواقع لأشد الزلازل وأقواها ، إذ تنتقل طاقاتها السيزمية بصفة مستمرة خلال باطن الأرض ومن حول كوكبنا . ولم يستدل على وجود أمثال هذه الفجوات العميقة فى قاع الأطلنطى فيما خلا فجوة رونسون شمالى بورتوريكو ، مما يرجح أن هذا الجزء من المحيط قد يكون تابعاً من حيث طبيعته الأرضية للمحيط الأطلنطى .

ـ هذا ويوجد اختلاف ثالث هام بين طوبوغرافية (تخطيط) المحيطين الهادى والأطلنطى وهو تلك النتوءات العديدة المنفردة الموجودة بارزة فى بعض المناطق بالمحيط الهادى والتى تم اكتشافها قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، بينما لم تكتشف مثل هذه النتوءات الجبلية فى المحيط الأطلنطى . وهذه النتوءات فى المحيط الهادى ذات طبيعة بركانية شأنها شأن البراكين المعروفة : فيزوف واتنا وفيوجيوما ، وتتميز هذه النتوءات بأنها ترتفع تحت سطح المحيط بأطوال مرتفعة تصل فى بعضها إلى مسافة ٤٥٠٠ قدم وفى البعض الآخر إلى ١٥٠٠ قدم تحت السطح أو أقل من ذلك . ومن الملفت للانتباه أنه أمكن بواسطة كراكات خاصة الحصول على أحافير أصيلة من أمثال هذه النتوءات البحرية مثل نتوء « هيس » ـــ يرجع عمرها إلى ما بين الدهرين الكريتارى الأسفل والأوسط ، وتتألف هذه الأحافير من صدفات وقواقع وأحجار مرجانية من الأنواع التى توجد فى المياه الضحلة مما يدل على أن هذه النتوءات كانت قائمة قريبة من السطح ثم أخذت فى الغوص تحته مع الزمن .. وقد دلت عمليات الحفر على وجود طبقات سميكة من هذه الهياكل مما يثبت عمليات الهبوط المستمرة للنتوءات تحت المائية فى هذا المحيط العظيم . ولعل من الاكتشافات المذهلة التى توصل إليها العلم عن طريق الحفريات الحديثة هو الوصول إلى القاعدة البازلتية للجبل تحت الدهر المبكر الثالث أى من المرجان الأيوسينى ، وترجع أهمية ذلك إلى حقيقة أنه لم يتم التعرف على أى تركيب جيولوجى مماثل لهذا فى أية منطقة من مناطق الأرض يمكن انتماؤه إلى الدهر الكريتارى المبكر ، أى منذ حوالى ١٣٠ مليون سنة ويكون تركيبها مستمرا بنفس التخطيط وذات القانون والنظام البنائى الهندسى .

وبعد فهذه بعض الملامح عن هذا التكوين العجيب لأحواض المحيطات وبعض ما كشف عنه العلم من خفايا عالم الأعماق أو ما يسمونه الفضاء الداخلى ، وناهيكم عما تزخر به هذه الأعماق من فضل وخير من نبات وحيوان ورزق عميم يفتح أمام البشرية آفاقاً وآمالا وينطق بفضل الله ورحمته الواسعة ، ويشهد بعظمته وقدرته ويدفع إلى مزيد من الإيمان واليقين . وإلى سعى صادق وعمل دائب لاستجلاء المزيد من الدلائل على عظمة خالق الوجود . صدق الله العظيم القائل فى كتابه الحكيم :

﴿ **وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجوراً** ﴾ (٥٣ ــ الفرقان) .

﴿ **أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ (٦١ ــ النمل) .

الماء وبعض خصائص حياة النبات

تمثل المملكة النباتية ــ كأصل للحياة ــ واحدة من أوسع الموجودات تنوعا وتعددا وانتشارا ، بل إنها تتميز بقدرة فائقة على التجدد والتأقلم والاستمرار فى دورات متواليات . كلما بذرت أينعت فأخرجت فأثمرت وكلما أخذت أعطت ، وكلما حصدت أربت ، وإذا أعيد الزرع أو البذر عادت فأخرجت ، وهكذا دواليك فى حياة متجددة وفى قدرة خالصة مطلقة على البقاء لفترات محدودة فى أطوار محدودة تحت الظروف المواتية من حيث الطقس والبيئة . ولعل أهم دور للنبات كأصل للحياة البيولوجية هو قدرته التى بثها فيه الخالق ــ عز وجل ــ على تكوين الكربوهيدرات (السكريات) اللازمة للحياة من المواد غير العضوية . وتحويلها ذاتيا إلى المواد الحية فى الخلايا ، وهناك الكثير من النباتات ما تستخلص كذلك نتروجين الهواء الذى يدخل أيضا فى تكوين المواد الحية . ومن ثم فإن النبات يقوم ذاتياً بعمليات البناء اللازمة لنموه مختلفا فى ذلك عن غيره من الكائنات الحية ...

وجدير بالذكر أن خاصية البناء الذاتى فى النبات لا تكفى وحدها لعمليات استزراع المناطق الجرداء ، بل يجب الاستعانة فى ذلك بالكائنات الحية العضوية التى تمتد حياتها فى غالب الأحيان لأزمنة طويلة فى ظروف بيئية قد لا تسمح بحياة النبات متمثلة فى مختلف صورها من عمليات تحول المواد أو النمو أو الإيناع والإزهار والإثمار . وفى مثل تلك المناطق الجرداء حيث درجة الحرارة والرطوبة النسبية تكونان قاصرتين عن إقامة الحياة النباتية المتطورة ، فإن النبات فى مثل تلك الظروف ــ أو بعض أجزائه ــ يكون متعرضا لحالة نقص شديد فى الماء يجعله فى حالة يمكن أن يطلق عليها حالة « توقف الحياة » حيث تكون بذور النباتات الورقية ، والطحالب « الأشن » ونبات عش الغراب وكذلك البكتريا فى حالة من

الجفاف لا تحتوى إلا على نسبة ضئيلة من الماء لا تتعدى ١٠ ــ ١٥ فى المائة ، ومن ثم لا تظهر عليها أية دلائل من مظاهر الحياة ...

ــ والماء أساس هام لحياة النبات ومعيار أساسى من المعايير المحدودة لظروف بقاء النبات ، فالماء مكون رئيسى للخلايا الحية ، ووسط هام لمختلف التفاعلات الكيميائية والحيوية التى تتم فيها . ومع هذه الأهمية القصوى للماء فإن النبات ــ شأنه شأن سائر الكائنات الحية ــ يحتاجه بقدر وميزان ، فلو زاد الماء فى التربة التى ينمو فيها النبات عن مقنن معلوم تعرض النبات للتلف أو الفساد وربما للموت والانتهاء ، وإذا شح الماء كان الضعف أو الجدب ووهنت مظاهر الحياة أو انقطعت . يقول تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ (١٠ ، ١١ ــ النحل)

﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون** ﴾ (١٨ ١٩ ــ المؤمنون) .

هذا وقد ثبت أن العامل الرئيسى الذى يتحكم فى تزود النبات بالماء هو ضغط الماء فى التربة ، ويختلف ذلك من نبات إلى آخر ، فالأجزاء الممتدة تحت سطح الماء من النباتات الزهرية لا تستطيع أن تحتفظ بحياتها على أبعاد أكثر من خمسة أمتار تحت السطح رغما عن أنها تستطيع أن تأخذ أكثر من حاجتها من الضوء ، الأمر الذى يعود أثره إلى ضغط الماء . وفى مثل هذه النباتات يكون ضغط الماء هو العامل المتحكم ــ بعد الضوء ــ فى حياة النبات . وبالتالى فى صلاحية التربة للإنبات . وقد ثبت علميا أنه إذا زاد ضغط الماء على حوالى نصف جوى اضطربت عمليات التمثيل الغذائى والتحول خاصة عند مرحلة التحضير إلى حد أن النمو يتعرض إلى تعطل واضطراب شديدين . ولكن النباتات الدنيا يمكن أن تتحمل ضغوطا أعلى من ذلك كثيرا ، بينما البكتريا يمكن أن تحتفظ ببقائها الحى تحت ضغوط تصل إلى عدة آلاف مثل الضغط الجوى .

وهناك عامل آخر هام يتحكم فى عمليات الإنبات والنمو ألا وهو ما يسمى بالعامل الكيميائى سواء من حيث تكوين التربة أو من حيث ملوحة المياه ، فإذا ما زادت نسبة الأملاح عن الحد المعين ــ يختلف من نبات إلى آخر ــ أصبحت عملية النمو فى النبات غير ممكنة ، وأصبح من المستطاع التعرف على نسبة الملوحة فى أية تربة عن طريق استخدام نباتات تجارب مختلفة يطلق عليها اسم النباتات الكشافة ، ومتابعة نموها ، وذلك دون استخدام أجهزة التحليل الكيميائى المتداولة . وتقع البكتريا والطحالب الزرقاء فى مواقع الجدارة بالنسبة لقدرتها على احتمال ملوحة التربة .. وغنى عن البيان أن موضوع الملوحة أو القلوية ، وعموما التكوين الكيميائى للتربة ، يلقى عناية كبيرة من العلماء لا ستزراع الأراضى البور أو الجرداء واستنباط المحاصيل والنباتات التى يمكن أن تتأقلم تحت مثل هذه الظروف . ونعلم أيضا أن

عمليات الإنبات والنمو تحتاج إلى عناصر رئيسية أهمها النتروجين والفسفور والبوتاسيوم يلزم تزويد التربة بها على هيئة أسمدة إذا ما كانت مفتقرة إليها .

والخلاصة أن النباتات على تنوعها وتعددها وتصنفها تتحكم فيها عدة عوامل بيئية متشابكة ، وإن جهد الإنسان قد امتد إلى إمكانية التحكم فى بعض هذه العوامل أو كلها بطرق صناعية حتى يستطيع أن يستغل الأرض أحسن استغلال وأن ينهل من رزق الله الوافر ما وسعه النهل وأن يواجه فى النهاية مشاكل الانفجار السكانى ونقص الغذاء .

والحقيقة الخالدة أن الخالق الرازق الوهاب يهىء للإنسان دائماً مصادر الحياة ويسخر له ما فى الأرض جميعا من نبات وحيوان ومعادن وخيرات لتبهى حياته وتحفظ بقاءه . إنه عزيز مفضال .

﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ (٦ — يس) .

تفسير

قوله تعالى : ﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله** ﴾ أى : ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم وكان هذا فى ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين وأهل الكتاب ليكون ذلك كالتأليف لهم ثم لما أصروا على العناد شرع الله للمؤمنين الجلاد والجهاد هكذا روى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — وقتادة .

وقوله : ﴿ **ليجزى قوما بما كانوا يكسبون** ﴾ أى : إذا صفحوا عنهم فى الدنيا فإن الله — عز وجل — مجازيهم بأعمالهم السيئة فى الآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ أى : تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ .

يذكر تعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل من إنزال الكتب عليهم وإرسال الرسل إليهم وجعل الملك فيهم ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ **ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات** ﴾ أى : من المآكل والمشارب ﴿ **وفضلناهم على العالمين** ﴾ أى : فى زمانهم ﴿ **وآتيناهم بينات من الأمر** ﴾ أى : حججا وبراهين وأدلة قاطعات فقامت عليهم الحجج ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة وإنما كان ذلك بغيا منهم بعضهم على بعض ﴿ **إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا**

فيه يختلفون ﴾أى : سيفصل بينهم بحكمه العدل وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم وأن تقصد منهجهم ولهذا قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون * إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين * هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر** ﴾ الشريعة : ما شرع الله لعباده من الدين ومعنى جعلناك على شريعة من الأمر أى على منهاج واضح من أمر الدين يشرع بك إلى الحق ، وقال ابن عباس : (على شريعة من الأمر) أى : على هدى من الأمر وقال قتادة : الشريعة الأمر والنهى والحدود والفرائض .

وقوله تعالى : ﴿ **فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون** ﴾ أى : فاتبع ما أوحى إليك ، ولا تتبع ما دعاك إليه الجاهلون الذين لا يعلمون توحيد الله ولا شرائعه لعباده وهم كفار قريش ومن وافقهم . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون * افحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون** ﴾(١)

وقال تعالى : ﴿ **وكذلك أنزلناه حكماً عربيا ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا واق** ﴾(٢)

وههنا قال تعالى : ﴿ **إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى : إن اتبعت أهواءهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئا ، ﴿ **وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض** ﴾ أى : أصدقاء وأنصار وأحباب قال ابن عباس : يريد أن المنافقين أحباب اليهود

وقوله تعالى : ﴿ **والله ولى المتقين** ﴾ أى : ناصرهم ومعينهم . كقوله تعالى : ﴿ **إن وليى الله الذى**

(١) سورة المائدة الآيات : ٤٨ ــ ٥٠
(٢) سورة الرعد الآية : ٣٧

نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين * والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ أى : هذا القرآن وحده ــ وليس غيره ــ دلائل للناس فيما يحتاجون إليه من أمر الدين ، وبينات تبصرهم وجه الفلاح ، وتعرفهم سبيل الهدى ، وهو هدى ورحمة لقوم يوقنون بصحته ، وهو تنزيل من رب العالمين ، وإنما خص الموقنين بأنه لهم هدى ورحمة ، لأنهم هم الذين ينتفعون بما فيه دون من كذب به من أهل الكفر فإنه عليهم عمى .

كلمة فى الشريعة الإسلامية

قال الدكتور عبد الله ناصح علوان رحمه الله :

الشريعة الإسلامية هى كل ما جاء به محمد ﷺ عن الله ــ عز وجل ــ سواء ما يتعلق بإصلاح العقيدة لتحرير العقل البشرى من رق الوثنية والتقليد والخرافات .. وما يتعلق بإصلاح الأخلاق لتحرير الإنسان من زيغ الأهواء ، وفتنة الشهوات .. وما يتعلق بإصلاح المجتمع لتحرير الأمة من الظلم والفوضى والاستبداد .

ومن أجل هذا كله جاءت الشريعة بنظام مدنى ينظم علائق الناس بعضهم مع بعض ، وعلائقهم بالسلطة الحاكمة ، ويصون لهم حقوقهم ويؤمن للجميع مصالحهم ، ويحقق فى الأرض عزتهم وسيادتهم . وعلى ضوء ما ذكرناه يتضح أن الشريعة تقوم على ثلاث دعائم أساسية عقيدة عقلية ، وعبادة روحية ، ونظام قانونى قضائى وهذا يدل ــ بما لا يقبل الجدل والشك ــ على أن الإسلام دين ودولة . ومن هنا ندرك معنى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ (المائدة : ٣)

خصائص الشريعة ومزاياها

من الأمور المسلم بها ، والمجمع عليها لدى فقهاء الشريعة وعلماء القانون .. أن لكل نظام من الأنظمة سواء كان ربانياً أو وضعياً .. لابد له من مزايا يعرف بها ، وخصائص تكشف عن هويته وتفصح عن حقيقته . فإذا كان الأمر كذلك فما هى المزايا والخصائص التى تتصف بها شريعة الإسلام على غيرها ؟ وبعبارة أدق : ما هى طبيعة نظمها ومبادئها ؟

(١) سورة الأعراف الآيتان : ١٩٦ ، ١٩٧

أرى أن هذه المزايا والخصائص تتركز فى المبادىء التالية :

١ ــ الربانية :

نقصد بالربانية أن أحكام هذه الشريعة وأنظمتها ليست من وضع بشر يحكمه القصور والعجز ، والتأثر بمؤثرات المكان والزمان والثقافة ومؤثرات الوراثة والمزاج والهوى .. وإنما شارعها صاحب الخلق والأمر فى هذا الكون ورب كل من فيه وما فيه الذى أحسن كل شيء خلقه .

والمؤمن حين يطبق المنهج الربانى على نفسه يندفع إليه بكليته وهو مسرور مرتاح عن رغبة وصدق وإخلاص . لماذا ؟

ــ لأنه يعلم علماً أكيدا أن الله ــ سبحانه ــ هو الخالق المبدع القادر ــ فله أن يتصرف فى شئون خلقه كما يريد وحيث يشاء . وليس للإنسان المخلوق الضعيف القاصر إلا أن يمتثل ما اختاره الله له دون توقف أو تردد .. قال تعالى : ﴿ **وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون** ﴾ (القصص : ٦٨)

ــ ولأنه يعلم علماً أكيدا أن الله ــ سبحانه ــ هو العليم بكل شيء .. فهو أعلم بما يشرع لعباده من أحكام ، وأدرى بما يحقق لهم من مصالح ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ؟** ﴾ (الملك : ١٤)

ــ ولأنه يعلم علماً أكيداً أن الله ــ سبحانه ــ هو العليم الحكيم فى كل ما يشرعه ويخلقه ، وحكمته جل جلاله معناها أن يضع كل شيء فى موضعه المناسب بالشكل الذى يؤدى إلى درء المفاسد وتحقيق المصالح ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ (الأنفال ٧١) .

ــ ولأنه يعلم علما أكيدا أن الإنسان مهما نضج علمه وارتقت ثقافته .. ضعيف فى ذاته ، عاجز عن أن يصل إلى مرتبه الكمال .

﴿ **يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا** ﴾ (النساء ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨)

عدا عن أن الإنسان ــ كما ألمحنا ــ يتأثر بالبيئة ، ويتأثر بالهوى ويتأثر بالوراثة ، ويتأثر بالعقيدة التى يعتنقها ويتأثر بالنزعة التى تختلج نفسه بها ..

والواقع الدولى ، والصراع الاجتماعى ، والتناقض الفكرى ، الذى آلت إليه المجتمعات البشرية اليوم أعظم برهان على أن الإنسان يتأثر بهذه المؤثرات جميعا ، وأن عقله مهما سما قاصر ، وأن علمه مهما اتسع محدود ، وأنه عاجز عن وضع التشريع لنفسه مهما بلغ درجة النضج والكمال ﴿ **وفوق كل ذى علم عليم** ﴾ (يوسف : ٧٦) .

لهذا كله نجد المؤمن الواعى المتبصر المتفهم لحقيقة نفسه — يندفع بكليته ، وينطلق من ذاته إلى تطبيق المنهج الربانى ، لاعتقاده أن كمال شخصيته ، وبناء إنسانيته هو اتباع من اختص بالكمال ، والانقياد إلى من تنزه عن النقص ، والاستسلام إلى من تميز بالعظمة والإبداع والإتقان وهو الله وحده ﴿ **ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟** ﴾ (المائدة : ٥٠) من أجل هذه الربانية لم يكن للمسلم خيار فى قبول هذه الشريعة أو رفضها لأن قبولها من مقتضيات الإيمان ، ومستلزمات الفطرة ..

وصدق الله العظيم القائل فى محكم تنزيله : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ (الأحزاب : ٣٦)

٢ — العالمية :

هذه الشريعة فى كل أحكامها وأنظمتها ومبادئها ذات صبغة إنسانية ، وخصيصة عالمية .. فهى رحمة للعالمين ، وهى هداية للناس كافة ، وهى منهاج للبشرية عامة .. فليست تشريعا لجنس خاص من البشر ، أو لإقليم معين من الأرض ، أو لفئة خاصة من الناس ، بل هى للإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن لونه أو جنسه أو لغته أو أرضه — فلا عنصرية فى هذه الدعوة ، ولا عصبية فى هذا التشريع ، ولا طبقية فى هذا الإسلام — وإنما الناس فيه سواء ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى وهذه العالمية للتشريع قد بينها الله — عز وجل — فى أكثر من آية .

قال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾ (الأنبياء : ١٠٧)

وقال تعالى : ﴿ **قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا** ﴾ (الأعراف : ١٥٨) .

وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا** ﴾ (سبأ : ٢٨) .

وأكدها عليه الصلاة والسلام فى أكثر من مناسبة .

روى الشيخان عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهورا ، وأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة ، وأعطيت الشفاعة »[١] .

— وثبت فى الصحيح أنه صلوات الله وسلامه عليه أرسل إلى الملوك والرؤساء فى عصره كالنجاشى ، وكسرى ، وقيصر ، والمقوقس — كتبا يدعوهم فيها إلى الإسلام ، وكان شعاره فى ذلك :

« أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين »[٢] أى : العامة من الفلاحين وغيرهم .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب المساجد — حديث رقم ٢٩٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الجهاد — باب كتاب النبى — ﷺ — إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام رقم ١١٦٢

ومن المؤيدات العالمية للتشريع تكليف الله ـ عز وجل ـ أمة الإسلام فى كل زمان ومكان أمانة الدعوة ورسالة التبليغ حتى يصل الإسلام إلى كل بلد فى العالم .

قال تعالى فى سورة آل عمران : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ (آية : ١١١) .

وقال تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** ﴾ (آية : ١٤٢) .

فانطلاقا من هذه التوجيهات الربانية فى عالمية الدعوة انطلق المسلمون فى أرجاء الأرض ، وآفاق الدنيا .. يبلغون رسالات الله ، ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله ، وشعارهم الذى رفعوه على مسامع الدنيا « ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

ـ وهذه الميزة العالمية إنما هى أثر من آثار الصبغة الربانية فى هذا التشريع ، فلو كان واضعه فردا ، أو فئة من الناس لتعصبت بوعى أو بلا وعى ـ لجنسها وطبقتها ومصالحها ولكن المشرع هنا رب الناس ، ـ ملك الناس ـ فهم جميعا عباده ، لا فضل لفرد منهم على فرد ، ولا لفئة على أخرى بحكم الخلق والنشأة إلا بالتقوى .

٣ ـ الشمول :

ونقصد بالشمول أن الشريعة الإسلامية الغراء اشتملت على نظم وأحكام وقوانين .. فى كل جانب من جوانب التكوين والبناء والإصلاح .. وفى كل ناحية من نواحى المجتمع والحياة .. سواء ما يتعلق بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، أو ما يتعلق بالقوانين العامة من مسائل مدنية وأمور جنائية ، وأحوال شخصية ، ونظم اجتماعية ، وعلاقات دولية . أو ما يتعلق بأسس الحكم وقواعد الاقتصاد ، وركائز المجتمع الفاضل . كل ذلك فى مبادىء دقيقة محكمة ، وفى تشريعات ربانية خالدة تعطى ولا تأخذ ، وتجمع ولا تفرق ، وتؤلف ولا تبدد ، وتبنى ولا تهدم ،تنزيل من حكيم حميد . والقرآن قد أفصح عن شمولية الشريعة وذخر مبادئها وأنظمتها أوضح بيان قال تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء** ﴾[1] وقال أيضا فى سورة النحل : ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين** ﴾[2] .

ولنستمع إلى ما يقوله أساطين الفقه ، وعباقرة القانون فى العالم عن شمولية الشريعة ، ومبادئها الحية الباقية ، نسوقها لمن لا يؤمن بالفكرة إلا إذا هبت ريحها من ديار الغرب .

يقول الدكتور « إيزكو إنساباتو » : « إن الشريعة الإسلامية تفوق فى كثير من بحوثها الشرائع الغربية ، بل هى التى تعطى للعالم أرسخ الشرائع ثباتاً » .

(١) سورة الأنعام الآية : ٣٨

(٢) سورة النحل الآية : ٨٩

ويقول العلامة الكبير « ساتيلانان : « إن فى الفقه الإسلامى ما يكفى المسلمين فى تشريعهم إن لم نقل ما يكفى الإنسانية كلها » .

ويقول الدكتور « هوكنج » أستاذ الفلسفة فى جامعة (هارفارد) : « إن فى نظام الإسلام استعداداً داخلياً للنمو ، وإنى أشعر بأنى على حق حين أقرر أن الشريعة الإسلامية تحتوى بوفرة على جميع المبادىء اللازمة للنهوض إلى غير ذلك من هذه الأقوال الكثيرة والشهادات العديدة المتنوعة .

٤ ــ الأصالة والخلود فى نصوص الشريعة :

ومن أميز خصائص شريعة الإسلام أنها تتصف بالأصالة الباقية والخلود الأبدى فى نصوصها ومصادرها دون أن يتطرق إليها تحريف أو يطرأ عليها أى تبديل أو تغيير .

فالقرآن الكريم الذى هو المصدر الأول من مصادر التشريع قد تكفل الله بحفظه وبقائه إلى يوم البعث والنشور دون أن تناله يد بتحريف أو تبديل ، وها هو ذا قد مضى على نزول القرآن الكريم أربعة عشر قرناً فالقرآن الكريم هو القرآن الكريم فى لفظه ومعناه وتجويده وأدائه .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (الحجر : ٩) .

ولقد شهد لأصالة هذا القرآن وخلوده الأبدى على مدى الأجيال منصفون من رجالات الغرب ، فقد قالوا كلمة الحق بنزاهة وتجرد ، ووضحوا الحقيقة بدقة وأمانة من هؤلاء البروفوسور « رينولد نيكسلون » حيث يقول فى كتابه « التاريخ الأدبى للعرب » بالحرف الواحد : « إن القرآن الكريم وثيقة إنسانية رائعة توضح بدقة سر تصرفات محمد ﷺ فى جميع أحداث حياته ، حتى إننا لنجد فيه مادة فريدة لا تقبل الشك ولا الجدل ، نستطيع خلالها أن نتتبع سير الإسلام منذ نشأته وظهوره فى التاريخ المبكر ، وهذا مالا تجد له مثيلاً فى البوذية ، أو المسيحية أو أى دين من الأديان القديمة » .

● والسنة النبوية التى هى المصدر الثانى من مصادر الشريعة ، بل هى المبينة للقرآن الكريم ، والمكملة لأنظمة الإسلام ــ هذه السنة قد هيأ الله لها من يحفظها من عبث العابثين ، ووضع الملفقين ودس المغرضين .. هيأ لها علماء أثباتاً ، ومحدثين أفذاذاً ورجالات ثقات .. لم يشهد التاريخ الإنسانى أنبه منهم ، ولا أدق فى بيان درجة الحديث ، ومعرفة أحوال السند والمتن وأصول الرواية والدراية .. حتى وصلت السنة إلينا نقية خالصة لم يعتورها أية شبهة ، ولم يطرأ عليها أية علة ، وكل إنسان حين يرجع إلى أسفار السنة ، ومراجع الحديث الكبرى ، يعرف درجة أى حديث يريد التحقق منه من حيث الصحة أو الضعف ، ويتحقق من كل سند من حيث التعديل أو الجرح .. وما ذاك إلا بجهود أهل الحديث الثقات الأثبات الأفذاذ على مدى العصور .

وإليكم هذه الحادثة التاريخية التى تؤيد ما نقول : سمع الخليفة العباسى « هارون الرشيد » أن زنديقاً لفق أحاديث مكذوبة ، ونسبها إلى رسول الله ﷺ والرسول لم يقل منها حرفا واحدا ، فأمر باستدعائه والمثول بين يديه فلما أقر عرضه على السيف ، وقبل أن يقتل قال الزنديق للخليفة : أين أنت من الأحاديث التى وضعتها فيكم ، وقد أحللت فيها الحرام ، وحرمت فيها الحلال ، والرسول لم يقل منها حرفا واحدا ؟ فقال له الخليفة على الفور : أين أنت يا زنديق من أبى إسحق الغزارى وعبدالله بن المبارك فإنهما سيخرجانها حتما ، وينخلانها حرفا حرفا ؟ ثم أمر بقتله فقتل .

وإذا كان الله ــ عز وجل ــ قد تكفل بحفظ القرآن الكريم إلى يوم الدين ــ فمن الطبيعى أن يتكفل بحفظ السنة النبوية إلى قيام الساعة باعتبارها المبنية للقرآن ، والمكملة لأنظمة الإسلام ــ كما سبق ذكره ــ فالقرآن والسنة إذن شيئان متلازمان لا يمكن انفكاك أحدهما عن الآخر ، فحفظ الله للقرآن الكريم معناه ضمناً حفظ للسنة ، وهذا الحفظ قائم لازم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾ (الحجر ــ ٩) .

والذى أخلص إليه بعد ما تقدم :

أن القرآن الكريم ، والسنة المطهرة شيئان متلازمان ، بل هما وثيقتان أصليتان ، ومصدران خالدان .. للحفاظ على مبادىء الشريعة وخلود أحكامها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

٥ ــ التيسير ورفع الحرج .

قال تعالى : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

وقال سبحانه : ﴿ **وما جعل عليكم فى الدين من حرج** ﴾ (الحج : ٧٨) .

وقال جل جلاله : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

فهذه النصوص وغيرها تؤكد تأكيدا جازما أن الإسلام بمبادئه السمحة لا يكلف الإنسان فوق طاقته ، ولا يحمله من المسئوليات فوق إمكانه لكى لا يكون لهذا الإنسان أى عذر أو حجة فى التخلى عن أمر شرعى ، أو ارتكاب محظور دينى .

٦ ــ رعاية مصالح البشر

المقصد العام للتشريع الإسلامى ــ كما هو معلوم ــ هو رعاية مصالح البشر بكفالة ضرورياتهم ، وتوفير حاجياتهم ، وتأمين تحسيناتهم . فكل حكم شرعى من أحكام الشريعة ما قصد إلا واحداً من هذه الثلاثة التى تتكون منها مصالح الناس .

ولكن والمراد شرعاً بالضرورى وبالحاجى وبالتحسينى ؟

فأما الأمر الضرورى : فهو ما تقوم عليه حياة الناس ، ولابد منه لاستقامة مصالحهم ، واذا فقد اختل نظام حياتهم ، ولم تستقم مصالحهم ، وعمت فيهم الفوضى والمفاسد ــ والأمور الضرورية للناس بهذا

المعنى ترجع إلى حفظ خمسة أشياء : الدين ، والنفس ، والعقل ، والعرض ، والمال . فحفظ كل واحد منها ضرورى للناس .

وأما الأمر الحاجى : فهو ما يحتاج إليه الناس لليسر والسعة ، واحتمال مشاق التكليف ، وأعباء الحياة .. وإذا فقد لا يختل نظام حياتهم ، ولا تعم فيهم الفوضى ولكن إذا فقد ينالهم الحرج والضيق والأمور الحاجيه للناس بهذا المعنى ترجع إلى رفع الحرج عنهم والتخفيف عليهم وأما الأمر التحسينى : فهو ما تقضيه المروءة والآداب وسير الأمور على أقوم منهاج ، وإذا فقد لا يختل نظام حياة الناس كما اذا فقد الأمر الضرورى ، ولا ينالهم حرج ولا مشقة كما إذا فقد الأمر الحاجى ؟ ولكن عند فقد الأمر التحسينى ــ تكون حياتهم غير مقبولة وغير سعيدة فى تقدير أصحاب العقول الراجحة والفطر السليمة .. والأمور التحسينية للناس بهذا المعنى ترجع إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن العادات وتوفير أسباب السعادة والهناء .. وكل ما يقصد به سير الناس فى حياتهم الدنيوية على أحسن منهاج .

٧ ــ التوازن بين المادة والروح :

ومن عظمة التشريع الإسلامى أنه لا يباعد بين المادة والروح ، ولا يفصل بين الدنيا والآخرة ــ بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة فى أداء الحقوق سواء ما يتعلق بأداء الإنسان حق ربه أو حق نفسه أو حق غيره . والقرآن الكريم قد حض على هذا التوازن بين المادة والروح فى كثير من آياته التى تلامس المشاعر والوجدان قبل أن تخاطب عقل الإنسان ففى تذكير القرآن بأداء حق الله فى العبادة : فى غمرة الانهماك فى الأعمال الدنيوية ، والمصالح التجارية يقول فى سورة النور : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار** ﴾ (آية ٣٧١)

وفى تذكيره بأداء حق النفس فى التكسب وابتغاء الرزق : فى غمرة المفاجأة الربانية ، والنفحات المسجدية يقول فى سورة الجمعة : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ (الآية ١٠)

وفى تذكيره بأداء حق الغير فى البر والإحسان والتكافل : يقول فى سورة البقرة : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب** ﴾

(آية : ١٧٧) .

٨ ــ التلازم بين العقيدة والحياة :

والشريعة فى مفهومها لا يمكن أن تفصم بين العقيدة والحياة ، ولا يمكن أن تفصل بين العبادة والسلوك ، ولا يمكن أن يكون المسلم مسلماً حتى تنعكس عقيدته الربانية على سائر أعماله الدينية

والدنيوية ، ولا يمكن أن يكون المؤمن مؤمنا حتى تظهر عبادته الخالصة لله على سائر تصرفاته الفردية والاجتماعية .

وبالاختصار نقول :

فإذا كانت الشريعة تمتاز بالربانية والعالمية والشمول . وإذا كانت تختص بالتوازن ، ورفع الحرج ، ورعاية مصالح البشر وإذا كانت تعرف بالربط بين العقيدة والحياة ، والعبادة والسلوك فهى شريعة تستحق البقاء ، وتستأهل الخلود ، وتضىء للدنيا أنوار الحق والمدنية والعرفان ، وترفع فى سماء الانسانية ألوية العلم والحضارة والنهوض ، وتسطر فى ضمير الزمن كلمات المجد والعظمة والخلود وصدق الله العظيم القائل فى محكم تنزيله : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ (المائدة ١٥ ، ١٦) .
أ . هـ

فرية والرد عليها .

يقول الدكتور أحمد محمد جمال فى كتابه « مفتريات على الإسلام » تحت عنوان : فرية اقتباس التشريع الإسلامى من القانون الرومانى :

يقول : ومن الغريب المتنكر أن القانونى المصرى الأستاذ عبد الرازق السنهورى زعم فى « مجلة القانون ـ لسنة ١٤٨ » أن الفقه الإسلامى كالقانون الرومانى من حيث المتانة والصيانة ، وقابلية التطور ، وهو مثله صالح أن يكون قانوناً عالمياً .. ذلك أن الفقه الإسلامى من عمل الفقهاء صنعوه كما صنع فقهاء الرومان وقضاته القانون الرومانى وهو زعم باطل مردود من أربعة وجوه :

• (أولاً) لأن الفقه الإسلامى لم يكن من صنع الفقهاء ، وإنما هو مستخرج من أحكام القرآن وسنة الرسول ﷺ ، وحتى ما استنبطه الفقهاء من أحكام بالقياس أو الإجماع إنما ردوه إلى أصل أو نص من القرآن أو السنة النبوية وكل حكم اجتهادى أو قياسى يتعارض مع القرآن أو الحديث النبوى باطل مردود : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) .

• (ثانيا) لأن الشريعة الإسلامية لم تكتف بتكليف الإنسان بظاهر القانون والقضاء . بل كلفته أن ينصف غيره من نفسه ، ولو حكم له القاضى بمدعاه حسب الظاهر ، وهو يعلم أنه لا حق له عند خصمه ، لأن القضاء لا يحلل حراما ولا يحرم حلالا وذلك ما يشير إليه التوجيه النبوى« إنكم تختصمون إلى ، ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشىء من حق أخيه ، فإنما أقضى له بقطعة من النار فلا يأخذها »[1] متفق عليه .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الأقضية ــ باب الحكم بالظاهر واللحن بالحجة حديث رقم ١١١٤

ولذلك يفرق الفقهاء الإسلاميون بين الجانب القضائى والجانب الديانى ، وبهذه (الديانة) التى تلزم القاضى والمتقاضين إليه ، أو ما يجوز أن نسميه (ضمير) ـــ امتاز التشريع الإسلامى دون تشريعات العالم قديمها والحديث .

• (ثالثا) من مزايا التشريع الإسلامى : النظرة السواء إلى المتقاضين أو المؤاخذين . فلا فرق بين أبيض وأسود ؟ ولا امتياز لمالك على مملوك أو المخدوم على خادم : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد .. وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها[1] ». (متفق عليه) .

أما التشريع الرومانى فأساسه التمييز العنصرى بين المتحاكمين والمذنبين فهو يفرق بين من هو من أصل رومانى وبين من لم يمت إلى الرومان بنسب ، كما يفضل الخاصة على العامة ، إذ يجعل للأولين الزعامة والقيادة والحماية ويفرض على الآخرين الخضوع والانقياد والطاعة .

جاء فى مدونة (جوستيان) القانونية : « من يستهو أرملة مستقيمة أو عذراء ، فعقوبته مصادرة أمواله إن كان من عائلة كريمة ، وإن كان من بيئة ذميمة ، فعقوبته الجلد والنفى من الأرض .

• (رابعاً) إن التشريع الإسلامى حرم وأد البنات الذى كان متبعاً فى العصر الجاهلى .. فهل حرم التشريع الرومانى قتل الأطفال الضعاف بإغراقهم فى دنان النبيذ ، على مقترفيه من الرومانيين ؟

واتفق لى بعد كتابه ما سبق ـــ أن قرأت للدكتور محمد محمد أبى شهبة عميد كلية أصول الدين فى مصر رأيا فى علماء القانون ونظرتهم إلى الشريعة الإسلامية ـــ يقول فيه : « إنه مما يؤسف له أن علماء القانون لا تزيد معارفهم فى الفقه الإسلامى عن طالب العلم المتوسط . ولو أن علماء القانون تضلعوا فى الشريعة الإسلامية ووقفوا على مصادرها وكتبها وشروحها لدافعوا عنها ، وكانوا من الدعاة لها ـــ ثم يخص الدكتور أبو شهبه الدكتور السنهورى بقوله : هل السنهورى هو كل علماء القانون ؟ لو أن الدكتور السنهورى درس كتب الشريعة الإسلامية من صغره ، واستوعبها لبدا له من كنوزها أكثر مما بدا له .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الحدود ـــ باب حد السرقة صـ ٤٢١ رقم ١١٠٠

يقول تعالى : « لا يستوى المؤمنون والكافرون » كما قال عز وجل : ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾[1] وقال تبارك وتعالى ههنا : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات** ﴾ أى : عملوها وكسبوها ﴿ **أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ؟** ﴾ أى : نساويهم بهم فى الدنيا والآخرة ﴿ **ساء ما يحكمون** ﴾ أى : ساء ما ظنوا بنا وبعد لنا أن نساوى بين الأبرار والفجار فى الدار الآخرة وفى هذا الدار .

وقد روى الطبرانى من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى الضحى عن مسروق أن تميماً الدارى قام ليلة حتى أصبح يردد هذه الآية ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾ فلم يزل يكررها ويبكى حتى أصبح[2] ، وكان الفضيل بن عياض يقول لنفسه إذا قرأها : ليت شعرى من أى الفريقين أنت ؟ وقد أثر عن كثير من الناسكين المخبتين لربهم أنهم كانوا يبكون عند تلاوة هذه الآية حتى سموها مبكاة العابدين .

قوله تعالى : ﴿ **وخلق الله السموات والأرض بالحق** ﴾ أى : لم يخلق الله السموات والأرض باطلاً ﴿ **ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار ؟** ﴾

وقوله تعالى : ﴿ **ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾ أى : وليثيب كل عامل بما هو له أهل ، فلا يبخس المحسن ثواب إحسانه ، أو يحمل عليه جرم غيره فيعاقبه به أو يجعل للمسىء ثواب إحسان غيره .

ثم يبين سبحانه أحوال الكافرين وذكر جناياتهم على أنفسهم فقال تعالى : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ .

أى : انظر واعجب من حال من ركب رأسه ، وترك الهدى ، وأطاع الهوى فكأنه جعله إلها يعبده من دون الله ، فهو لا يهوى شيئا إلا فعله ، لا يخاف رباً ، ولا يخشى عقاباً ، ولا يفكر فى عاقبة ما يعمل .

وفى هذا إيماء إلى ذم الهوى ، ومن ثم قال وهب بن منبه : اذا شككت فى خير أمرين فانظرا أبعدهما من هواك فأته . وقال سهل التسترى : هواك دؤاك فإن خالفته فدواؤك وقال البوصيرى فى بردته :

---

(١) سورة الحشر الآية : ٢٠

(٢) المعجم الكبير للطبرانى صـ ٢ صـ ٣٧ رقم ١٢٥٠

وخالف النفس والشيطان واعصهما   وإن هما محّضاك النصح فاتهم

وقال ابن عباس : ما ذكر الله هوى فى القرآن إلا ذمه : قال تعالى :
﴿ واتبع هواه فمثله كمثل الكلب ﴾[1] وقال ﴿ واتبع هواه وكان أمره فرطا ﴾[2] وقال ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[3].

يقول الإمام ابن القيم فى كتابه « إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان » :

والفتنة نوعان : فتنة الشبهات وهى أعظم الفتنتين ، وفتنة الشهوات ،ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة ، وقلة العلم ، ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد ، وحصول الهوى ، فهنالك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت فى ضلال سيء القصد ، الحاكم عليه الهوى لا الهدى ، مع ضعف بصيرته ، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله فهو من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾[4] وقد أخبر الله ــ سبحانه ــ أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾[5]

. وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهى فتنة المنافقين ، وفتنة أهل البدع ، على حسب مراتب بدعهم . فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التى اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل ، والهدى بالضلال .

ولا ينجى من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه فى دق الدين وجله ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه فيتلقى عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام ..

وأما النوع الثانى من الفتنة   ففتنةالشهوات ،وقد جمع الله ــ سبحانه ــ بين ذكر الفتنتين فى قوله : ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذى خاضوا ﴾[6] أى : تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها ، والخلاق هو النصيب المقدر ، ثم قال : ﴿ وخضتم كالذى خاضوا ﴾ فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات .

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٦
(٢) سورة الكهف الآية : ٢٨
(٣) سورة ص الآية : ٢٦
(٤) سورة النجم الآية : ٢٣
(٥) سورة ص الآية : ٢٦
(٦) سورة التوبة الآية : ٦٩

فأشار سبحانه فى هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق ، والخوض بالباطل ، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح .

فالأول : هو البدع وما والاها ، والثانى : فسق الأعمال .

فالأول فساد من جهة الشبهات ، والثانى من جهة الشهوات .

ولهذا كان السلف يقولون « احذروا من الناس صنفين : صاحب هوى قد فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعمته دنياه .

وكانوا يقولون : « احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأى على الشرع والهوى على العقل ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب** ﴾(١)

وقوله تعالى : ﴿ **وأضله الله على علم** ﴾ قال ابن كثير : يحتمل قولين (أحدهما) وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك (والآخر) وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه وقيام الحجة عليه والثانى يستلزم الأول ولا ينعكس .

وقوله تعالى : ﴿ **وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة** ﴾ أى : فلا يسمع ما ينفعه ولا يعى شيئاً يهتدى به ، ولا يرى حجة يستضىء بها ولهذا قال تعالى : ﴿ **فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **من يضلل الله فلا هادى له ويذرهم فى طغيانهم يعمهون** ﴾(٢)

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وماهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات وما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ، قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا** ﴾ أى : وقال المشركون الذين سبق ذكر بعض أوصافهم : لا حياة بعد هذه الحياة التى نحن نعيش فيها ، فنموت نحن وتحيا أبناؤنا من بعد — وهذا تكذيب صريح منهم للبعث والمعاد . ﴿ **وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ أى : وما يفنينا إلا مر الليالى والأيام ، فمرورها هو المؤثر فى هلاك الأنفس ، ويضيفون كل حادث إلى الدهر وأشعارهم ناطقة بذلك ، وقد كان العرب فى جاهليتهم إذا أصابتهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا يا خيبة الدهر ، وقد جاء النهى عن سب الدهر ، فجاء الحديث القدسى « يقول الله عز وجل : يؤذينى ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدى الأمر ، أقلب الليل والنهار »(٣) .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٨

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٨٦

(٣) صحيح البخارى — كتاب التوحيد — باب قول الله تعالى : يريدون أن يبدلوا كلام الله ٩ /١٧٥

قال الشافعى وأبو عبيدة وغيرهما من الأئمة فى تفسير قوله ﷺ : « لاتسبوا الدهر ، فإن الدهر هو الله ، كان العرب فى الجاهلية إذا أصيبوا بشدة أو بلاء قالوا : يا خيبة الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل لأنه فاعل ذلك فى الحقيقة ، فلذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ثم نعى عليهم مقالهم هذا الذى لا دليل عليه فقال تعالى :

﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ أى : وما لهم بقصر الحياة على حياة الدنيا ونسبة الإهلاك إلى الدهر علم يستند إلى عقل أو نقل ، وقصارى أمرهم الظن والتخمين من غير أن يكون لهم ما يتمسكون به من حجة نافذة .

ثم ذكر شبهتهم على إنكار البعث فقال :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ أى : وإذا تلى على هؤلاء المشركين الذين سبق القول فى جرائمهم ـــ آيات الكتاب الدالة على أن البعث حق ، لم يكن لهم من حجة فى دحض هذا إلا أن قالوا إن كان ما يقولونه حقا فانشروا لنا آباءنا الأولين وابعثوهم من قبورهم أحياء حتى نعتقد صحة ما تقولون .

وهذا قول وكلام لا يصدر من عاقل ، فإنه لا يلزم من عدم حصول الشىء فى الحال كإعادة آبائهم التى طلبوها فى الدنيا ـــ امتناعه فيما بعد إذا قامت القيامة وبعث الله الموتى من قبورهم للعرض والحساب وتسمية كلامهم الزائف حجة ـــ ضرب من التهكم بهم .

ثم أمر سبحانه رسوله أن يرد عليهم فقال :

﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

أى : قل لهؤلاء المشركين المنكرين للبعث : الله يحييكم ما شاء أن يحييكم فى الدنيا ، ثم يميتكم فيها متى شاء ، ثم يجمعكم جميعا أولكم وآخركم ، صغيركم وكبيركم يوم القيامة ﴿ لا ريب فيه ﴾ فهو واقع لا محالة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أى : ولكن أكثر الناس ينكرون البعث ويستبعدون عودة الأجساد بعد موتها وحين تكون عظاما نخرة كما قال تعالى : ﴿ إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ﴾ أى : يرون وقوعه بعيدا والمؤمنون يرونه قريبا وما دعاهم إلى ذلك إلا جهلهم وقصر نظرهم لا لأن فيه شائبة ريب .

الله وحده مالك الملك

قال تعالى :

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً
كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا
كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ
ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
مُجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا
نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ
نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ
آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ
السَّمَٰوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

معانى المفردات

(جاثية) أى : باركة على الركب مستوفزة ، وهى هيئة المذنب الخائف المنتظر ما يكره (إلى كتابها) أى : إلى صحيفة أعمالها التى كتبها الحفظة لتحاسب على ما قيد فيها (ينطق) أى : يشهد (نستنسخ) أى : نجعل الملائكة تكتب وتنسخ . (الفوز المبين) أى : الظاهر أنه لا فوز وراءه (وعد الله) أى : بأنه محيى الموتى من قبورهم (بمستيقنين) أى : بمتحققين (وبدا) أى : ظهر ، (سيئات ما عملوا) أى : عقوباتها (وحاق) أى : حل (ننساكم) أى : نترككم (كما نسيتم) أى : كما تركتم آيات الله . (آيات الله) حججه ، (غرتكم) أى : خدعتكم (الحياة الدنيا) أى : زينتها (يستعتبون) أى : يطلب منهم العتبى بالتوبة من ذنوبهم ، (الكبرياء) العظمة والسلطان .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت سبحانه فيما سلف أنه تعالى قادر على الإحياء مرة ثانية كما قدر على ذلك فى المرة الأولى — ذكر هنا دليلاً آخر على ذلك ، وهو أنه تعالى مالك الكون كله ، فهو قادر على التصرف فيه بالإحياء فى الإعادة كما أحياه فى البدء ، ثم ذكر من أهوال هذا اليوم وأن أعمال كل أمة تعرض عليها ، ويقال لهم : هذا ما كتبته الحفظة فى الدنيا فهو شهادة صدق ، لا شك فيها ، ثم أردف ذلك ببيان أنه بعد انتهاء هذا الموقف يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، ويوبخ الكافرين على ما فرط منهم فى الدنيا فلا مأوى لهم إلا جهنم ولا مخرج لهم منها ولا عتبى حينئذ فلا تنفع توبة مما فرط منكم من الذنوب، ويختم هذا المشهد من مشاهد يوم القيامة بالحمد للكبير المتعال وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين

التفسير

قوله تعالى :

﴿ ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ۝ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون ۝ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، بيده ملكوت كل شيء وهو سبحانه مالك يوم الدين لذا يقول سبحانه : ﴿ **ويوم تقوم الساعة** ﴾ أى : يوم القيامة﴿ **يخسر المبطلون** ﴾وهم الكافرون بالله الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات .

وقوله تعالى : ﴿ **وترى كل أمة جاثية** ﴾ أى : على ركبها من شدة هذا اليوم كما قال سبحانه : ﴿ **ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً** ﴾[1] فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم . ينفرد كل واحد منهم بنفسه ينادى : نفسى نفسى ،فيا هول ذلك وأنت تنادى معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه فما ظنك بيوم ينادى فيه آدم ، والخليل إبراهيم والكليم موسى ، والنبى عيسى ، مع كرامتهم على الله عز وجل ، كل ينادى نفسى نفسى ، شفقاً من شدة غضب ربه ، فأين أنت منهم فى إشفاقك فى ذلك اليوم واشتغالك بحزنك وخوفك ؟

---

(١) سورة مريم الآية : ٦٨

﴿ وجيء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد ﴾[١] فتوهمها حين اضطربت وفارت وثارت ، ونظرت إلى الخلائق من بعد مكانها ، فشهقت إليهم ، وزفرت نحوهم ، وجذبت خزانها ، متوثبة على الخلائق غضباً لغضب ربها على من خالف أمره وعصاه فتوهم صوت زفيرها وشهيقها وقد امتلأ منه سمعك ، وارتفع له فؤادك وطار فزعاً ورعباً ، ففر الخلائق هرباً من زفيرها على وجوههم ، وتساقطوا على ركبهم جثاة حول جهنم ، فأرسلوا الدموع من أعينهم ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ يعنى إلى كتاب أعمالها ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغير ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أى تجازون بأعمالكم ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ، وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه ، هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون ﴾[٣].

وقوله سبحانه :﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ أى : هذا كتابنا الذى كتبته الحفظة ودونت فيه أعمالكم ـــ يشهد عليكم شهادة حق دون زيادة ولا نقص ، فهو صورة تطابق ما فعلتموه . ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ أى : إنا كنا نأمر الحفظة بنسخ أعمالكم وكتابتها وإثباتها عليكم أول فأول ، فهى وفق ما عملتم بالدقة والضبط .

•

قوله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين ، وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين ﴾

يخبر تعالى عن حكمه فى خلقه يوم القيامة فقال تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أى : آمنت قلوبهم وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة وهى الخالصة الموافقة للشرع (فيدخلهم فى رحمته ﴾ وهى الجنة كما بينت فى الصحيح « أن الله تعالى قال للجنة أنت رحمتى أرحم بك من أشاء »[٤] ﴿ ذلك هو الفوز المبين ﴾ أى : البين الواضح فتوهم نفسك إن عفاالله عنك فى تلك الرحمة

---

(١) سورة الفجر الايات : ٢٣ ـــ ٢٥

(٢) سورة الكهف الآيات : ٤٩

(٣) سورة الحاقة الآيات : ١٩ ـــ ٣٧

(٤) صحيح البخارى ـــ كتاب التفسير ـــ تفسير سورة ق ٦ / ١٧٣

مسروراً مع مسرورين ، بأبدان قد طهرت ، ووجوه قد أشرقت وأنارت ، فهى كالبدر ، قد سطع من أعراضهم كشعاع الشمس . ذلك هو الفوز المبين ﴿ **إن المتقين فى مقام أمين فى جنات وعيون ، يلبسون من سندس وإستبرق متقابلين ، كذلك وزجناهم بحور عين يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قوماً مجرمين** ﴾ أى : يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخا كقوله تعالى : ﴿ **وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾[2] :

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما تدرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ، وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها** ﴾ أى : إذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ **قلتم ما ندرى ما الساعة** ﴾ أى : لا نعرفها ﴿ **إن نظن إلا ظنا** ﴾ أى : إن نتوهم وقوعها إلا توهما ولهذا قال : ﴿ **وما نحن بمستيقنين** ﴾ أى : بمتحققين .

قوله تعالى : ﴿ **وبدا لهم سيئات ما عملوا** ﴾ أى : وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى : أحاط بهم العذاب والنكال .

وقوله تعالى : ﴿ **وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين** ﴾ : أى : اليوم نعاملكم معاملة الناسى لكم فى نار جهنم وقد ثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة: ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول بلى يارب فيقول أفظننت أنك ملاق ؟ فيقول لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتنى ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾[3] .

---

(١) سورة الدخان الآيات : ٥١ ــ ٥٧

(٢) سورة الزمر الآية : ٧١

(٣) صحيح مسلم ــ كتاب الزهد والرقائق ــ ٤ / ٢٢٧٩ رقم ٢٩٦٨

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا** ﴾ أى : إنما جازيتكم هذا الجزاء لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخريا تسخرون وتستهزئون بها ﴿ **وغرتكم الحياة الدنيا** ﴾ أى : خدعتكم فاطمأننتم إليها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فاليوم لا يخرجون منها** ﴾ أى : من النار ، ﴿ **ولا هم يستعتبون** ﴾ أى : لا يطلب منهم العتبى بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب كما قال سبحانه : ﴿ **فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فماهم من المعتبين** ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض . رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى : فلله الحمد على أياديه على خلقه ، فإياه فاحمدوا ، وله فاعبدوا ، فكل مابكم من نعمة فهو مصدرها سبحانه وهو مالك السموات السبع ، ومالك الأرضين السبع ومالك جميع ما فيهن ﴿ **وله الكبرياء فى السموات والأرض** ﴾ أى : وله الجلال والعظمة والسلطان فكل شىء خاضع له فقير إليه وفى الحديث القدسى يقول رب العزة : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحدا منهما أسكنته نارى »[2] أخرجه أحمد ومسلم ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى : وهو العزيز الذى لا يمانع ولا يغالب ، الحكيم فى أفعاله وأقواله . تقدس ربنا جلت قدرته ، وعظمت آلاؤه . فله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾[3] .

اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت ، وبك آمنت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، أنت ربنا وإليك المصير ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، أنت إلهى لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك »

---

(١) سورة فصلت الآية : ٢٤

(٢) مسلم ـــ كتاب البر ـــ باب تحريم الكبر ٤ /٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠ ، ومسند أحمد ٢٤٨/٢ ، ٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٧٢ ، وسنن داود ـــ كتاب اللباس ـــ باب ما جاء فى الكبر ٤ /٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وابن ماجه ـــ كتاب الزهد ـــ باب البراءة من الكبر ، ٢ /١٣٩٧ رقم ٤١٧

(٣) سورة القصص الآية : ٧٠

تفسير سورة الأحقاف

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق ، آياتها خمس وثلاثون ، كلماتها : ثلاثمائة وأربع وأربعون . وحروفها : ألفان وخمسمائة وخمس وتسعون .

فواصل آياتها : (من)

وسميت بسورة الأحقاف ، لقوله فيها : ﴿ **إذ أنذر قومه بالأحقاف** ﴾

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : إلزام الحجة على عبادة الأصنام ، والأجفاء عن تناقض كلام المتكبرين ، وبيان نبوة سيد المرسلين ، وتأكيد ذلك بحديث موسى ، والوصية بتعظيم الوالدين ، وتهديد المتنعمين والمترفين ، والإشارة بأهلاك عاد العادين ، والإشارة إلى الدعوة ، وإسلام الجن ، وإتيان يوم القيامة فجأة ، واستقلال لبث اللا بثين فى قوله : ﴿ **كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾

المتشابهات :

ما فى هذه السورة من المتشابه سبق ذكره

وجه اتصالها بما قبلها :

ووجه لتصالها بما قبلها : أنه ــ تعالى ــ ختم السورة السالفة بالتوحيد وذم أهل الشرك وقوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَٰبِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا
خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَٰوَٰتِ ۖ ائْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَا أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن
دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ
افْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ
وَاسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا
مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا
وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا
رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَٰمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ
جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

معانى المفردات

(أجل مسمى) هو يوم القيامة ، (أنذروا) أى : خوفوا ، (معرضون) لاهون ، (تدعون) أى : تعبدون ، (شرك) أى : نصيب ، (أثارة) أى : بقية ، (كافرين) مكذبين ، (للحق) المراد بالحق هنا : آيات القرآن ، (افتراه) كذب عليه عمداً ، (فلا تملكون لى من الله شيئا) أى : لا تغنون عنى من الله شيئاً إن أراد عقابى ، (تفيضون فيه) أى : تخوضون فيه من تكذيب القرآن (بدعاً) البدع والبديع من كل شيء : المتبدع المحدث دون سابقة له ، (أرأيتم) أخبرونى ماذا هالكم ، (إفك قديم) كذب متقادم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم** ﴾ يخبر – تعالى – أنه أنزل الكتاب على عبده محمد – ﷺ – ووصف نفسه بالعزة التى لا ترام ، والحكمة فى الأقوال والأفعال ، وبعد ما وصف – سبحانه – ذاته العلية بالعزة والحكمة بين – سبحانه – أنه خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق فقال تعالى : ﴿ **ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ .. أى : ما خلقناهما إلا خلقاً ملتبساً بالعدل ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه فى هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ﴿ **وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾[1] .

ثم بين بعد ذلك غفلة المشركين وإعراضهم عما أنذروا به فقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا عما أنذروا معرضون** ﴾ أى : مع ما نصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب – بقى هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزل الله من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا ، وأنى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لا يعقلون ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين** ﴾ أى : (قل) يا محمد لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿ **أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ ؟

كقوله تعالى : ﴿ **خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين دونه ، بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[3] ، ﴿ **أم لهم شرك فى السموات** ﴾ ؟ أى : ولا شرك لهم فى السموات ولا فى الأرض وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله إلا لله – عز وجل – فكيف تعيدون معه غيره وتشركون به ؟ من أرشدكم إلى هذا ؟ من دعاكم إليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شىء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ائتونى بكتاب من قبل هذا** ﴾ أى : هاتوا كتاباً

---

(١) سورة الجاثية الآية ٢٤
(٢) سورة الفرقان من الآية ٤٤
(٣) سورة لقمان الآيتان ١٠ – ١١

من كتب الله المنزلة على الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ يأمركم بعبادة هذه الأصنام ، ﴿ **أو أثارة من علم** ﴾ أى : دليل بين على هذا المسلك الذى سلكتموه ، ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أى : لا دليل لكم لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت وجعلوا لله شركاء قل سموهم ، أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ، بل زين للذين كفروا مكرهم وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فما له من هاد** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ۝ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ .

﴿ **ومن أضل** ﴾ أى : لا أحد أضل وأجهل ، ﴿ **ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة** ﴾ وهى الأصنام والأنداد ، ﴿ **وهم عن دعائهم غافلون** ﴾ يعنى لا يسمعون ولا يفهمون ، ﴿ **وإذا حشر الناس** ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ **كانوا لهم أعداء** ﴾ أى : هؤلاء المعبودون أعداء الكفار يوم القيامة . قال القرطبى : فالملائكة أعداء الكفار ، والجن والشياطين يتبرءون غداً من عبدتهم ، ويلعن بعضهم بعضا . ويجوز أن تكون الأصنام للكفار الذين عبدوها أعداء ، على تقدير خلق الحياة لها ، دليلة قوله تعالى : ﴿ **تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون** ﴾[2] وقيل : عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم ، وجحد المعبودون عبادتهم وهو قوله : ﴿ **وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا ۝ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا** ﴾[3] أى سيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم . وقال تعالى وهو يحكى قصة الخليل ابراهيم وهو يقول لقومه : ﴿ **إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾[4] .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ۝ ام يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم ۝ قل ما كنت بدعا من الرسل ، وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلَىَّ وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ .

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣
(٢) سورة القصص من الآية ٢٥
(٣) سورة مريم الآيتان ٨١ ــ ٨٢
(٤) سورة العنكبوت الآية ٢٥

أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه . ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها فقال تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أى : دع هذا وأسمع القول المنكر العجيب ، إنهم يقولون : إن محمدا افتراه على الله عمراً ، واختلقه عليه اختلاقا ، وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله تعالى : ﴿ **قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً** ﴾ أى : قل لهم : لو كذبت على الله ، وزعمت أنه أرسلنى إليكم ، ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أنتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسى لعقابه ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[1] .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله تعالى : ﴿ **هو أعلم بما تفيضون فيه** ﴾ أى : هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه ، من التكذيب بالقرآن ، والطعن فى آياته ، وتسميته سحراً تارة وفرية أخرى ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله تعالى فقال سبحانه : ﴿ **كفى به شهيدا بينى وبينكم وهو الغفور الرحيم** ﴾ فهو يشهد بالصدق فى البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود ، كقوله تعالى : ﴿ **لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً** ﴾[2] ، وكقوله : ﴿ **ويقول الذين كفروا لست مرسلا ، قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾[3] . وقوله : ﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾ ترغيب لهم إلى التوبة ، فإن تابوا وأنابوا إلى ربهم وصح عزمهم على الرجوع عما هم عليه ، تاب الله عليهم وعفا عنهم وغفر لهم ورحمهم . وقوله تعالى : ﴿ **قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : أى لست بأول رسول طرق العالم بل قد جاءت الرسل من قبلى فما أنا بالأمر الذى لا نظير له حتى تستنكرونى وتستبعدون بعثتى إليكم ، فإنه قد أرسل الله ــ جل وعلا ــ قبلى جميع الأنبياء إلى أممهم . ﴿ **وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم** ﴾ أى : لا أدرى أيخف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ قاله ابن كثير ثم قال وهذا القول هو الذى عول عليه ابن جرير وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك أن هذا هو اللائق به ــ ﷺ ــ فإنه بالنسبة إلى الآخرة جازم انه يصير إلى الجنة هو ومن اتبعه ، وأما فى الدنيا فلم يدر ما كان يؤول إليه أمره وأمر مشركى قريش إلى ماذا ؟ أيؤمنون أم يكفرون فيعذبون فيستأصلون بكفرهم .

---

(١) سورة الحاقة الآيات ٤٤ ــ ٤٧

(٢) سورة النساء الآية ١٦٦

(٣) سورة الرعد الآية ٤٢

وقوله : ﴿ **إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ** ﴾ أى : إنما أنا منذر وما على إلا البلاغ والاتباع ، ﴿ **وما أنا إلا نذير مبين** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ ، قال مالك عن أبى النضر عن عامر بن سعد عن أبيه قال ما سمعت رسول الله ﷺ يقول لأحد يمشى على وجه الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام — رضى الله عنه — قال وفيه نزلت (وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله)[1] رواه البخارى ومسلم والنسائى . وقال ابن كثير وهذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين** ﴾[2] ، وكقوله : ﴿ **قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب** ﴾[3] ثم ذكر أن فى استكبارهم عن الإيمان ظلماً لأنفسهم وكفراً بآيات ربهم فقال : إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ أى : إن الله لا يوفق لإصابة الحق وهدى الصراط المستقيم عن من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم .

قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ .

أى : قالوا عن المؤمنين بالقرآن لو كان القرآن خيراً ما سبقونا هؤلاء إليه يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً **وخباباً** — رضى الله عنهم — وأشباههم وأضرابهم من المستضعفين والعبيد والإماء وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله وجاهة وله بهم عناية . وقد غلطوا فى ذلك غلطا فاحشاً **وأخطاؤا** اخطأ بينا كما قال — تبارك وتعالى — ﴿ **وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَن الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ ؟[4] . وقوله : ﴿ **وإذ لم يهتدوا به** ﴾ أى : بالقرآن ، ﴿ **فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ أى : كذب قديم ، أى : فأثور عن الناس الأقدمين فينتقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذى يدخل صاحبه النار ، قال رسول الله — ﷺ — « الكبر بطر الحق وغمط الناس »[5] .

---

(١) انظر صحيح البخارى « باب مناقب الأنصار » باب مناقب عبد الله بن سلام — رضى الله عنه — ص ٥ ، ص ٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عامر بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه .

(٢) سورة القصص من الآية ٥٣

(٣) سورة الرعد من الآية ٤٣

(٤) سورة الأنعام الآية ٥٣

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب تحريم الكبر وبيانه » ص ١ ، ص ٩٣ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لعبد الله بن مسعود برقم ١٤٧ / ٩١

وانظر سنن أبى داود « كتاب اللباس » باب ما جاء فى الكبرى ص ٤ ، ص ٣٥٢ حديث رقم ٤٠٩٢ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبى هريرة .

قوله تعالى : ﴿ **ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين** ﴾ .

أى : ومما يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون فى أن الله أنزل التوارة على موسى وجعلها إماما لبنى اسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمقدم محمد — ﷺ — فلابد أن يكون محمد صادقا فى رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهو مشركو مكة ، وهو بشرى لمن أحسن عملا كقوله تعالى : ﴿ **إن هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيرا . وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾(١) ، وكقوله تعالى ﴿ **ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكراً للمتقين . الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون . وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون** ﴾(٢) ، وقوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ . أى : إن الذين قالوا ربنا الله ، لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ، ولم يخلطوه بشرك ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم** ﴾(٣) وهنا يقول - جل وعلا - : ﴿ **أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ **أى : هؤلاء الذين قالوا هذا القول ، واستقاموا ، هم أهل الجنة ماكثين فيها أبدا ثوابا من عند الله كفاء ماقدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .**

عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال قلت يا رسول الله قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحداً بعدك قال — ﷺ — : « قل آمنت بالله ثم استقم »(٤) .

---

(١) سورة الإسراء الآيتان : ٩ — ١٠

(٢) سورة الأنبياء الآيات : ٤٨ — ٥٠

(٣) سورة فصلت الآيات : ٣٠ — ٣١

(٤) انظر صحيح مسلم — كتاب الايمان — باب جامع أوصاف الاسلام ، ص ١ ، ص ٦٥ فقد ورد الحديث بلفظ من حديث طويل عن سفيانبن عبد الله الثقفى برقم ٦٢ / ٣٨

الإحسان إلى الوالدين وأحكام أخرى

قال تعالى:

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ
شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾
أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ
ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن
قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ
دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ
فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

معاني المفردات

﴿ **ووصينا** ﴾ الإيصاء والوصية: بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه. ﴿ **إحساناً** ﴾ الإحسان: خلاف الإساءة، والحسن خلاف القبح، والمراد أن يفعل معهما فعلا ذا حسن. ﴿ **كرْها** ﴾ الكره (بالضم والفتح) المشقة ﴿ **حمله** ﴾ أى: مدة حمله، ﴿ **فصاله** ﴾ فطامه، والمراد به: الرضاع التام المنتهى بالعظام ﴿ **أشده** ﴾ الأشد: القوة والعقل ﴿ **أوزعنى** ﴾ أى: رغبنى ووفقنى، ﴿ **فى أصحاب الجنة** ﴾ أى: منتظمين فى سلكهم ﴿ **أف** ﴾ صوت يصدر من الإنسان حين تضجره. ﴿ **أخرج** ﴾ أى: أبعث من القبر للحساب، ﴿ **خلت القرون من قبلى** ﴾ أى: مضت ولم يخرج منها أحد ﴿ **يستغيثان الله** ﴾ أى: يقولان الغياث بالله منك، يقال: استغاث الله واستغاث بالله، والمراد: أنهما يستغيثان بالله من كفره، إنكاراً واستعظاماً له حتى لجآ إلى الله فى دفعه. ﴿ **ويلك** ﴾ دعاء عليه بالثبور والهلاك، يراد به الحث

على الفعل أو تركه إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيهِّ ، وترك ما هو فيه ، وأخذ بما ينجيه ، ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ أى : أباطليهم التى سطروها فى الكتب من غير أن يكون لها حقيقة . ﴿ **حق عليهم القول** ﴾ أى : وجب عليهم . ﴿ **من الخاسرين** ﴾ أى : من الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برءوس الأموال باتباعهم همزات الشياطين . ﴿ **درجات** ﴾ الدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة . ﴿ **طيباتكم** ﴾ أى : شبابكم وقوتكم يقولون : ذهب أطيباه ، أى : شبابه وقوته . ﴿ **الهون** ﴾ أى : الهوان والذل ﴿ **تفسقون** ﴾ أى : تخرجون عن طاعة الله .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيده ــ سبحانه ــ وإخلاص العبادة له ، والاستقامة فى العمل ، أردف هذه الوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم ، كقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾[1] ثم ذكر حال السعداء البررة بهما وما أعد لهما من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة ، وأيضا حال الأشقياء العاقين للوالدين المنكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لا شك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين ، ثم بين أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار . ويقال لهم حين عرضهم على النار : أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق ، وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والخزى والآلام الموجبة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ .

لما ذكر ــ سبحانه ــ فى الآية الأولى التوحيد له وإخلاص العبادة والاستقامة إليه ، عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون فى غير ما آية من القرآن الكريم وقوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالدين إحساناً** ﴾ أى : أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما كقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك إلا تعبدوا إلا أياه وبالوالدين**

(١) سورة الإسراء من الآية ٢٣

احساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً ۝ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾[1] .

وقوله تعالى ﴿ **حملته أمه كرها ووضعته كرها** ﴾ أى : قاست بسببه فى حال حمله مشقة وتعبا من وصم وغثيان وثقل وكرب إلى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة ﴿ **ووضعته كرها** ﴾ أى: بمشقة أيضاً من الطلق والشدة والعسر ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ أى : ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهراً تكابد الأم فيها الآلام الجسمية والنفسية فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض ، وتقوم بغذائه وتنظيفه ، وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر فى نموه وحسن صحته ، فسبحان من عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة ، حتى تكون فى أهنأ ما يكون من شأنها وراحتها ومقيلها ، فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق الحنان ، تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء ، وأن حياتها تزاد فى حياتك فسبحان الرحمن الرحيم .

وهذه الآية قد استدل على ــ رضى الله عنه ــ بها مع اتى فى لقمان ﴿ **وفصاله فى عامين** ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **والولدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾[2] على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر وهو استنباط قوى صحيح ووافقه علية عثمان وجماعة من الصحابة ــ رضى الله عنهم أجمعين ــ .

وقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه** ﴾ أى : حتى إذا قوى وشب وإرتجل وتناهى عقله وبلغ فهمه وحلمه ، وقد قيل لمسردق متى يؤخذ الرجل بذنوبه قال إذا بلغت الأربعين فخذ حذرك . ورد عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : من أتى عليه الأربعون و لم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار .

إذا المرء وافى الأربعين ولم يكن … له دون ما يهوى حياء ولا ستر
فدعه فلا تنفس عليه الذى مضى … وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

﴿ **قال رب أوزعنى** ﴾ أى : ألهمنى ﴿ **أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه** ﴾ أى : فى المستقبل أجعل عملى وفق رضاك لأنال مثوبتك .

---

(١) سورة الإسراء الايتان ٢٣ ــ ٢٤
(٢) سورة البقرة من الآية ٢٣٣

وقوله تعالى : ﴿ **وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين** ﴾ أى : واجعل الصلاح سارياً فى ذريتى ، متمكنا من نفوسهم ، راسخاً فى قلوبهم كما دعا إبراهيم الخليل : ﴿ **رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾(١)

وكما دعا النبى سليمان : ﴿ **وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين** ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **إنى تبت إليك وإنى من المسلمين** ﴾ أى : إنى تبت إليك من ذنوبى التى فرطت منى فى أيامى الخوالى ، وإنى من الخاضعين لك بالطاعة ، المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك ، وفيه أرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله — عز وجل — ثم ذكر جزاءاً أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال تعالى : ﴿ **أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ أى : هؤلاء المتصفون بما ذكرنا التائبون إلى الله ، المنيبون إليه ، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿ **فى أصحاب الجنة** ﴾ أى : هم فى جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله الغفور الرحيم كما وعد الله — عز وجل — من تاب إليه وأناب ولهذا قال تعالى : ﴿ **وعد الصدق الذى كانوا يوعدون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك أمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ .

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما ، وما لهم عنده من الفوز والنجاة ، عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال : ﴿ **والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى** ﴾ أى : والذى قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقه من قبورهم ومجازاته إياهم بعمالهم : أف لكما ، إنى لضجِرٌ منكما ، أتقولان إنى أبعث من قبرى حيا بعد موتى ، إن هذا لعجب عاجب فها هى ذى قرون مضت ، وأمم قد خلت من قبلى كعاد وثمود ولم يبعث منهم أحد .

وقوله تعالى : ﴿ **وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق** ﴾ أى : ووالداه يستصرفان الله عليه ، ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث ، ويقولان له حثاً وتحريضاً : هلاكاً لك ، صدق بوعد الله ، إنك

---

(١) سورة ابراهيم الآيتان ٤٠ — ٤١
(٢) سورة النمل من الآية ١٩

مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله حق ﴿ **فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ أى : ما هذا الذى تقولان لى ، وتدعوان إليه ، إلا ما سطره الأولون من الأباطيل .

قوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين** ﴾ قال الحسن وقتادة فى هذه الآية : هو الكافر الفاجر العاق لوالديه المكذب بالبعث ، فهؤلاء الذين هذه أوصافهم هم الذين وجب عليهم عذاب الله ، وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعقوا عن أمر ربهم ﴿ **إنهم كانوا خاسرين** ﴾ أنفسهم وأهليهم يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون** ﴾ أى : ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة بحسب أعمالهم من خير أو شر فى الدنيا ، الأبرار فى عليين ، والفجار فى سجين ، **وليوفيهم** أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء منهم بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئاً ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبةٍ من خردل آتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[1] .

بر الوالدين ، وتحريم عقوقهما فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة

١ ــ القرآن الكريم يوصى بالوالدين

قال تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً . ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً** ﴾[2] .

فمن هذه الآية نفهم أن الإسلام جعل للوالدين حق البر واللطف والرعاية والرحمة ، وأكد هذا الحق بأن قرنه بحق الله لما له من الإجلال والوفاء . وقال تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلَىَّ المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلَىَّ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم**

(١) سورة الأنبياء من الآية ٤٧
(٢) سورة الإسراء الآيات ٢٣ ــ ٢٥

بما كنتم تعملون ﴾[١] أمر الله عباده بالإحسان إلى الوالدين وإن حرصا عليك كل الحرص ، على أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فلا تقبل منهما ذلك ــ لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ــ ولا يمنعك ذلك أن تصاحبهما فى الدنيا بعمل المعروف والإحسان إليهما .

وقال تعالى : **﴿ يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾**[٢] .

ففى هذه الآية يقدم الله ــ سبحانه وتعالى ــ الوالدين على الأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل فى صدقة التطوع ، ويؤيد ذلك حديث الرسول ﷺ « أمك ، وأباك ، وأختك ، وأخاك ، وأدناك أدناك »[٣]

٢ ــ بر الوالدين صفة بارزة للأنبياء

يقول الله ــ تعالى ــ عن سيدنا عيسى بن مريم ــ عليه الصلاة والسلام ــ
﴿ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ۝ وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً ۝ وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ۝ والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ۝ ذلك عيسى ابن مريم ﴾[٤] أى : ولم يجعلنى جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتى فأشقى بذلك . قال بعض السلف : لا تجد أحداً عاقاً لوالديه إلا وجدته جباراً شقياً .

وقوله على لسان الخليل ابراهيم ــ عليه الصلاة والسلام ــ :
﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ۝ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾[٥] .

وقوله تعالى عن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام :
﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده

---

(١) سورة لقمان الآيتان ١٤ ــ ١٥
(٢) سورة البقرة الآية ٢١٥
(٣) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم كتاب معرفة الصحابة ص ٣ ، ص ٦١١ باب ذكر صعصعة ابن ناجئة المجاشعى فقد ورد الحديث بلفظه عن صعصعة .
(٤) سورة مريم الآيات ٣٠ ــ ٣٣ ومن الآية ٣٤
(٥) سور ابراهيم الآيتان ٤٠ ــ ٤١

وهم لا يشعرون . فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾(١) .

وقال تعالى عن سيدنا نوح ــ عليه الصلاة والسلام ــ :

﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾(٢) .

وقال تعالى عن سيدنا اسماعيل ــ عليه الصلاة والسلام ــ :

﴿ فبشرناه بغلام حليم . فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى اذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتله للجبين . وناديناه أن يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزى المحسنين . إن هذا لهو البلاء المبين . وفديناه بذبح عظيم ﴾(٣) .

ففى قول اسماعيل : ﴿ **يا أبت أفعل ما تؤمر** ﴾ أى : امض لما أمرك الله من ذبحى ، تظهر طاعة الابن لأبيه .

وقوله تعالى عن سيدنا يحيى ــ عليه الصلاة والسلام ــ

﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً . وحناناً من لدنا وزكاة وكان تقياً . وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً . وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً ﴾(٤) .

فبعد أن وصف الله ــ سبحانه وتعالى ــ يحيى بالأوصاف السابقة من العلم والفهم والجد والعزم والإقبال على الخير وهو حدث صغير ، وصفه أيضا بأنه كان مطيعاً لوالديه وباراً بهما ، ومجانباً عقوقهما قولا وفعلاً أمراً ، ونهياً .

٣ ــ الإحسان للوالدين وبرهما بعد عبادة الله مباشرة

لقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** ﴾(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً** ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا أخذنا ميثاق بنى اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً** ﴾(٧) .

(١) سورة النمل الآيتان ١٨ ــ ١٩
(٢) سورة نوح الآية ٢٨
(٣) سورة الصافات الآيات ١٠١ ــ ١٠٧
(٤) سورة مريم الآيات ١٢ ــ ١٥
(٥) سورة الاسراء من الاية ٢٣
(٦) سورة النساء من الآية ٣٦
(٧) سورة البقرة من الآية ٨٣

وقوله تعالى : ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحساناً** ﴾[(١)] .

والحديث الذى يرويه عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : « سألت رسول الله — ﷺ — أى العمل أحب إلى الله ؟ قال : الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال : بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال الجهاد فى سبيل الله »[(٢)] (متفق عليه) .

فقد جعل منزلة بر الوالدين بعد الصلاة مباشرة وقبل الجهاد فى سبيل الله .

٤ — بر الوالدين يدخل الجنة وعقوقهما يدخل النار

— عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « رغم أنفه ، ثم رغم أنفه ، ثم رغم أنفه » قيل : من يا رسول الله ؟ قال : « من أدرك والداه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ثم لم يدخل الجنة »[(٣)] مختصر صحيح مسلم (١٧٥٨) .

ومعنى رغم أنفه : أى لصق بالرغام وهو التراب . من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرهما فمات فدخل النار .

— وعن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : ارتقى النبى ﷺ على المنبر درجة فقال : آمين ، ثم ارتقى الثانية فقال : آمين ، ثم ارتقى الثالثة فقال : آمين ، ثم استوى فجلس ، فقال أصحابه : على ما أمَّنت ؟ قال : « أتانى جبريل فقال : رغم أنف امرىء ذُكرت عنده فلم يصل عليك ، فقلت : آمين ، فقال : رغم أنف امرىء أدرك أبويه فلم يدخل الجنة ، فقلت : آمين ، فقال : رغم أنف امرىء أدرك رمضان فلم يغفر له ، فقلت آمين[(٤)] (حديث صححه الشيخ الألبانى فى رسالة « فضل الصلاة على النبى » .

---

(١) سورة الأنعام من الآية : ١٥١

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الإيمان — باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال » ص ١ ، ص ٩٠ فقد ورد الحديث بلفظ « أى الأعمال أحب إلى الله .. » من رواية عن الوليد بن العيزار برقم ١٣٩ / ٨٥ .

وأما رواية عبد الله بن مسعود فجاءت بلفظ : (أى العمل أفضل ...) حديث رقم ١٣٧ / ٨٥ .

(٣) انظر مختصر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة » باب « رغم أنف من أدرك أبويه .. » ص ٢ ، ص ٢٢٩ من رواية لأبى هريرة فقد ورد الحديث بلفظه تحت رقم ١٧٥٨ .

وانظر الترغيب والزهيد « كتاب البر والصلة وغيرهما » باب « الترغيب فى بر الوالدين .. الخ » ص ٣ ، ص ٥٢٨ حديث رقم ٢٢ من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر مجمع الزوائد « كتاب البر والصلة » باب « ما جاء فى البر وحق الوالدين » ص ٨ ، ص ١٣٩ ، فقدور والحديث عن جابر بن أبى سمرة بلفظه قال : صدور النبى ﷺ المنبر فقال : آمين آمين آمين ، قال : أتانى جبريل — عليه السلام — فقال : يا محمد ، من أدرك أحد والديه فمات فدخل النار فأبعده الله فعل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : يا محمد ، من أدرك شهر رمضان فمات فلم يغفر له فأدخل النار فأبعده الله قل : آمين ، فقلت : آمين ، قال : ومن ذكرت عنده فلم يصل عليك فمات فدخل النار فأبعده الله قل : آمين ، فقلت : آمين ، رواه الطبرانى بأسانيد وأحدها حسن ، ولهذا الحديث طرق فى الأدعية فى الصلاة على النبى ﷺ .

ــ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ان رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة . العاق لوالديه والمرأة المترجلة المتشبهة بالرجال ، والديوث . وثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه ، والمدمن الخمر ، والمنان بما أعطى »[1] . (صحيح الجامع (٣٠٦٦) والسلسلة الصحيحة للألبانى « ٦٧٤ ») .

والعاق : اسم فاعل من عق . والعقوق : أشد العصيان للوالدين . والديوث : بتشديد الياء ، هو الذى يُقر أهله على الزنا مع علمه بهم . والمنان : الذى يمن على الناس بعطيته لهم .

وعن أن الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « لا يدخل الجنة عاق ، ولا مدمن خمر ، ولا مكذب بقدر »[2] . (السلسلة الصحيحة « ٦٧٥ ») .

قال : « لا يدخل حظيرة القدس ، سكير ، ولا عاق ، ولا منان »[3] وحظيرة القدس : الجنة . (السلسلة الصحيحة « ٦٧٣ ») .

وعن عمرو بن مرة الجهنى ــ رضى الله عنه ــ قال : « جاء رجل إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال : يا رسول الله ، شهدت أنه لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، وصليت الخمس ، وأديت زكاة مالى ، وصمت رمضان ، فقال النبى ﷺ : « من مات على هذا كان مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة هكذا ، ونصب أصبعيه ما لم يعق والديه »[4] . (صحيح الترغيب والترهيب ، فبين هذا الحديث أن عقوق الوالدين يمنع دخول الجنة .

٥ ــ رضى الله فى رضى الوالدين وسخطه فى سخطهما

عن عبد الله بن عمرو بن العاصى ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال « رضى الرب فى رضا الوالد ، وسخط الرب فى سخط الوالد »[5] (السلسلة الصحيحة « ٥١٦ ») .

وفى رواية « رضا الرب فى رضا الوالدين ، وسخطه فى سخطهما »[6] (صحيح الجامع برقم ٣٥٠١) .

(١) انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير ص ٣ ، ص ٣٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر حديث ص ٣٥٤٢ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد ص ٦ ، ص ٤٤١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء .

(٣) انظر صحيح ابن حبان ص ٥ ، ص ١٦٣ فقد ورد الحديث رقم ٣٣٧٥ من رواية لعبد الله بن عمرو ولفظه « لا يدخل الجنة عاق ، ولا منان ، ولا مدمن خمر » .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب الزهيد من عقوق الوالدين .. ص ٣ ، ص ٥٤٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن عمرو بن مرة الجهنى .

وانظر كنز العمال ص ١ ، ص ٨٣ فقد ورد الحديث برواية عن عمرو بن مرة الجهنى حديثه ص ٣٤٢

(٥) انظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب « الفضل فى رضا الوالدين » ص ٣ ، ص ٢٠٧ فقد ورد الحديث رقم ١٩٦٢ برواية عن عبد الله بن عمرو بلفظه .

(٦) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب « الزهيب عن عقوق الوالدين » ص ٣ ، ص ٥٣٥ حديث ص ٣٠ فقد ورد الحديث فى ص ٥٣٥ بلفظ « رضا الرب تبارك وتعالى فى رضا الوالدين وسخط ــ الله تبارك وتعالى ــ فى سخط الوالدين » .

٦ ــ تحريم عقوق الوالدين وأنه من الكبائر

عن أبى بكرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئاً فجلس ، فقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت »[١] .

ومعنى « حتى قلنا ليته سكت » : إشفاقاً عليه ، لما رأينا أثر أنزعاجه فى ذلك . وعن أنسى رضى الله عنه قال : ذكر عند رسول الله ﷺ الكبائر فقال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين »[٢] (رواه البخارى ومسلم) .

٧ ــ ترك الجهاد لبر الوالدين وصحبتهما فالجنة تحت أقدامهما

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ قال : جاء رجل إلى نبى الله ﷺ فاستأذنه فى الجهاد ، فقال : أحىٌّ والداك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد »[٣] . (رواه البخارى ومسلم) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « جئت أبايعك على الهجرة ، وتركت أبوى يبكيان ، فقال : ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما »[٤] . (رواه أبو داود / صحيح الترغيب والترهيب » .

ومعنى (فأضحكهما) أى : أدخل إليهما السرور واجلب لهما الفرح .

وعن طلحة بن معاوية السلمى ــ رضى الله عنه ــ قال : أتيت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنى أريد الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : أمك حَية ؟ قلت : نعم ، قال النبى ﷺ : الزم رِجلها فثَمَّ الجنة »[٥] . (رواه الطبرانى وحسنه الألبانى » صحيح الترغيب والترهيب) .

---

(١) انظر صحيح البخارى ج ٨ ، ص ٤ ، ٥ « كتاب الأدب » فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عبد الرحمن ابن أبى بكره عن أبيه .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » ج ٨ ص ٤ ، ٥ فقد ورد الحديث من رواية أنس بلفظ : « قال ذكر رسول الله ﷺ الكبائر أو سئل عن الكبائر فقال : الشرك بالله وقتل النفس ، وعقوق الوالدين .. الخ » .

(٣) وانظر صحيح البخارى من « كتاب الجهاد » ج ٤ ص ٧١ باب الجهاد بإذن الأبوين فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب بر الوالدين وإنهما أحق به ج ٤ ، ص ٧٥ ، ١٩ حديث رقم ٥ /٢٥٤٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمرو .

(٤) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب البر والصلة » ج ٤ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقد ورد الحديث بلفظه .

انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الرجل يغزو وأبواه كارهان ج ٣ ص ٣٨ حديث رقم ٢٥٢٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو .

(٥) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٨ ، ص ٣٧٢ باب ما روى عن كلمة بن معاوية السلمى فقد ورد الحديث ٨١٦٢ من رواية طلحة عن أبيه ، وبلفظه .

وانظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرها » باب الترغيب فى بر الوالدين وصلتهما ج ٣ ، ص ٤ ، ٥ فقد ورد الحديث بلفظه تحت رقم ٩ من رواية طلحة بن معاوية السلمى .

ومعنى « الزم رجلها » : اخضع لها واقترب منها وراعها واخدمها ، فهناك الجنة ، وبسبب رضاها تحظى بنعيم الله .

وعن معاوية بن جاهمة أن جاهمة جاء إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أردت أن أغزو ، وقد جئت استشيرك ؟ فقال : « هل لك من أم ؟ قال : نعم ، قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجلها . (رواه ابن ماجه والنسائى وحسنه الألبانى / صحيح الترغيب والترهيب)[1] .

وعن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ « أن رجلا هاجر الى رسول الله ﷺ من اليمن ، فقال : « هل لك أحد باليمن ؟ قال : أبواى ، قال : أذنا لك ؟ قال : لا ، قال : ارجع اليهما فاستأذنهما فإن أذنا لك فجاهد ، وإلا فبرهما »[2] . (صحيح الجامع « ٩٠٥ » وإرواء الغليل « ١١٩٩ » للألبانى) .

٨ ــ بر الوالدين من الأعمال الصالحة التى يدعو الإنسان بها الله :

عن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن رسول الله ﷺ قال : « بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر ، فآووا إلى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا بها لعله يفرجها عنكم ، فقال أحدهم :

اللهم إنه كان لى والدان شيخان كبيران وامرأتى ، ولى صبية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم حلبت ، فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بنىَّ ، وإنى نأى بى ذات يوم الشجر ، فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب ، فقمت عند رؤوسهما ، اكره أن أوقظهما من نومهما ، واكره أن أسقى الصبية قبلهما ، والصبية يتضاغون عند قدمى ، فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهل فافرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار ، فجئتها بها ، فلما وقعت بين رجليها ، قالت : يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت عنها ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ، ففرج لهم فرجة .

---

(١) انظر سنن النسائى « كتاب الجهاد » الرخصة فى التخلف لمن له والده ج ٦ ، ص ١١ فقد ورد الحديث من رواية عن معاوية من جاهمة السلمى .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الرجل بغزو وأبواه كارهان ، ج ٣ ، ص ٤٩ حديث رقم ٢٥٣٠ فقد ورد بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .

وقال الآخر : اللهم إنى كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز فلما قضى عمله . قال لى ، أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرقه ، فرغب عنه ، فلم أزل أزرع حتى جمعت منه بقراً ورعاءها ، فجاءنى فقال اتق الله ولا تظلمنى حقى ، قلت : اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها ، فقال : اتق الله ولا تستهزىء بى ، فقلت : إنى لا استهزىء بل ، خذ ذلك البقر ورعاءها ، فأخذه وذهب به ، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج ما بقى ففرج الله ما بقى »[1] . (رواه البخارى ومسلم) صحيح الترغيب والترهيب .

٩ ـــ رضى الوالدين مقدم على رضى الزوجة :

عن ابن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : كان تحتى امرأة أحبها ، وكان عمر يكرهها ، فقال لى : طلقها ، فأبيت ، فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له ، فقال لى رسول الله ﷺ : « طلقها »[2] . (صحيح الترغيب والترهيب تحقيق للألبانى) .

١٠ ـــ تقديم بر الوالدة على الوالد :

عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال ثم من ؟ قال أبوك[3] . (رواه البخارى ومسلم صحيح الترغيب والترهيب) .

وهذا الحديث مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر ، وكان ذلك لصعوبة الحمل ، ثم الوضع ، ثم الرضاع ، فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ، ثم تشارك الأب فى التربية وقد وقعت الإشارة إلى ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله فى عامين** ﴾[4] .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب قصة أصحاب الغر الثلاثة ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ فحديث رقم ١٠٠ / ٢٧٤٣ فقد ورد بلفظه من رواية لابن عمر .

وانظر صحيح البخارى « كتاب بدر الخلق » باب حديث الغار ج ٤ ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة » باب فى بر الوالدين وصلتهما .. الخ ج ٣ ص ٥٢٦ حديث رقم ١٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

وانظر سنن أبى داود « كتاب الأدب » باب فى بر الوالدين ج ٥ ، ص ٣٥٠ حديث / ٥١٣٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الادب » باب من أحق الناس بحسن الصحبة ج ٨ ص ٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

وانظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة » باب بر الوالدين وأنهما أحق به ج ٤ ، ص ١٩٧٤ حديث رقم ١ / ٢٥٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) سورة لقمان من الآية ١٤

١١ ـ دعوات الوالدين مستجابة :

عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث دعوات مستجابات » لا شك فيهن : دعوة الوالد لولده ، ودعوة المسافر ، ودعوة المظلوم »[1]. (صحيح الجامع « ٣٠٢٨ ») وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد لولده ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر [2] (صحيح الجامع « ٣٠٢٩ ») .

١٢ ـ من بر الوالدين الدعاء لهما والحرص على نصحهما وهدايتهما حتى لو كانا كافرين .

عن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت أدعو أمى إلى الإسلام ، وهى مشركة ، فدعوتها يوماً فأسمعتنى فى رسول الله ﷺ ما أكره . فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكى قلت : يا رسول الله ، إنى كنت أدعو أمى إلى الإسلام ، فتأبى على ، فدعوتها اليوم ، فأسمعتنى فيك ما أكره ، فأدع الله أن يهدى أم أبى هريرة ، فقال رسول الله ﷺ « اللهم أهد أمَّ أبى هريرة ، فخرجت مستبشراً بدعوة نبى الله ﷺ ، فلما جئت قصدت إلى الباب ، فإذا هو مجاف (أى مغلق) فسمعت أمى خشف قدمى ، فقالت : مكانك يا أبا هريرة ، وسمعت خضخضة الماء ، قال : فاغتسلت ، ولبست درعها ، وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ، ثم قالت : يا أبا هريرة ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، فأتيته وأنا أبكى من الفرح ، قال : قلت : يا رسول الله ، أبشر ، قد استجاب الله دعوتك ، وهدى أم أبى هريرة ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال خيراً . قال : قلت : يا رسول الله ، ادع الله أن يحببنى أنا وأمى إلى عباده المؤمنين ويحُبّبهُم إلينا . قال : فقال رسول الله ﷺ : « اللهم حبب عبيدك هذا (يعنى أبا هريرة) وأمه إلى عبادك المؤمنين ، وحبب إليهم المؤمنين » فما خلق مؤمن يسمع بى ولا يرانى إلا أحبنى [3] (رواه مسلم « ٧ / ١٦٥ ») فضائل أبى هريرة) .

---

(١) مسند الامام أحمد ج ٢ ، ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة مع تقديم وتأخير فى بعض جمله .

(٢) السنة الكبرى للبيهقى « كتاب صلاة الاستسقاء » باب « استحباب الصيام .. الخ » ج ٣ ، ص ٣٤٥ من رواية لأنس بلفظ : « ثلاث دعوات لا ترد : دعوة الوالد ، ودعوة الصائم ، ودعوة المسافر .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب فضائل الصحابة » باب من فضائل أبى هريرة الدوس ج ٤ ، ص ١٩٣٨ حديث رقم ١٥٨ / ٢٤٩١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

١٣ ـ سب ولعن الوالدين من الكبائر :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتمُ الرجل والديه ؟ قال : نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه »[1] . (رواه البخارى ومسلم وأبو داود / صحيح الترغيب والترهيب) .

وعن عامر بن واثلة قال :

كنت عند على بن أبى طالب ، فأتاه رجل ، فقال : ما كان النبى ﷺ يُسرُّ إليك ؟ قال : فغضب ، وقال : ما كان النبى ﷺ يسر إلى شيئا يكتمه الناس ، غير أنه قد حدثنى بكلمات أربع قال : فقال : وما هن يا أمير المؤمنين ؟ قال : قال « لعن الله من لعن والده ، ولعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من آوى محدثاً ، ولعن الله من غير منار الأرض »[2] . (مختصر صحيح مسلم « ١٢٦١ ») ومعنى « آوىَ محدثاً » ، أى : مبتدعاً ، وإيواؤه الرضا عنه ، وحمايته عن التعرض له « غير منار الأرض » أى : نقل حدودها ، وتغيير حدودها أن يدخلها فى أرضه فيكون فى معنى الغاصب لها .

١٤ ـ الولد من كسب أبيه

عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضى الله عنهما ـ : « أن أعرابيا أتى النبى ﷺ فقال : إن لى مالاً وولداً ، وإن والدى يريد أن يجتاح مالى ، قال : أنت ومالك لوالدك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم »[3] . (ارواء الغليل « ٨٣٨ » للشيخ الألبانى) .

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ أن رجلاً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، والدى أكل مالى فقضى رسول الله ﷺ إنك ومالك لأبيك »[4] . (ارواء الغليل « ٨٣٨ ») .

وفى رواية أخرى « الولد من كسب الوالد » (ارواء الغليل « ٨٣٨ ») .

---

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى عقوق الوالدين ج ٣ ، ص ٢٠٨ حديث رقم ١٩٦٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمرو .

وانظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب لا يسب الرجل والديه ج ٨ ، ص ٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٢) انظر مختصر صحيح مسلم « كتاب الأضاحى » باب فيمن ذبح لغير الله ج ٢ ، ص ١٠١ حديث / ١٢٦١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عامر بن واثلة .

(٣) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٢١٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (عبد الله بن عمرو بن العاص) .

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٢ ، ص ٢٠٤ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله بن عمرو بلفظ « أن رجلا أتى النبى ﷺ يخاصم أباه فقال : يا رسول الله ، إن هذا قد احتاج إلى مالى ، فقال رسول الله ﷺ : « أنت ومالك لأبيك » .

١٥ ـــ بر الوالدين بعد موتهما :

فبرهما بعد الممات الدعاء لهما والاستغفار قال تعالى : ﴿ **وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب** ﴾[٢] .

وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة (أشياء) إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[٣] . (اخرجه مسلم) .

وعن أبى بردة قال : قدمت المدينة فأتانى عبد الله بن عمر : فقال : أتدرى لم أتيتك ؟ قال : قلت : لا ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من أحب أن يصل أباه فى قبره فليصل إخوان أبيه بعده ، وإنه كان بين أبى عمر وبين أبيك إخاء وود فأحببت أن أصل ذاك »[٤] . (حديث حسن حسنة الألبانى فى صحيح الترغيب والترهيب) .

وعن عبد الله بن عمر ـــ رضى الله عنهما ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « من البر أن تصل صديق أبيك »[٥] . (صحيح الجامع « ٥٧٧٧ ») .

قصة للاعتبار

عن العوام بن حوشب ـ رضى الله عنه ـ قال : نزلت مرة حياً وإلى جانب ذلك الحى مقبرة ، فلما كان بعد العصر انشق منها قبر فخرج رجل رأسه رأس الحمار وجسده جسد الإنسان ، فنهق ثلاث نهقات ، ثم انطبق عليه القبر ، فإذا عجوز تغزل شعراً أو صوفاً ، فقالت امرأة : ترى تلك العجوز ؟ قلت : مالها ؟ قالت : تلك أم هذا ، قلت ، وماكان قصته ؟ قالت : كان يشرب الخمر فإذا راح تقول له أمه : يابنى اتق الله إلى متى تشرب هذه الخمر ؟ فيقول لها : إنما أنت تنهقين كما ينهق الحمار ، قال : فمات بعد العصر ، قالت : فهو ينشق عنه القبر بعد العصر كل يوم ، فينهق ثلاث نهقات ، ثم ينطبق عليه القبر .

---

(١) سورة الاسراء من الآية ٢٣

(٢) سورة ابراهيم الآية ٤١

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣ ، ص ١٢٥٥ حديث رقم ١٤ / ١٦٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى هريرة .

(٤) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرهما » ج ٣ ، ص ٥٣٧ فقد ورد الحديث رقم ٣٤ من رواية لأبى بردة والحديث بلفظه

(٥) انظر مجمع الزوائد « كتاب البر والصلة » باب صديق الأب ج ٨ ، ص ١٤٧ فقد ورد الحديث برواية عن أنس وبلفظه . وقال رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه عتبة بن عبد الرحمن القرشى وهو متروك وفى رواية عن ابن عمر « احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفىء الله نورك » رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده حسن .

رواه الأصبهانى وغيره ، وقال الأصبهانى : حدث به أبو العباس الأصم املاء بنيسابور بمشهد من الحفاظ فلم ينكروه »[١] . (وقد حسن الشيخ الألبانى هذه الرواية / صحيح الترغيب والترهيب) .

فسبحان الله ، جعل صورة هذا الرجل صورة حمار له صوت منكر مرتفع لماذا ؟ لأنه خالف نصيحة أمه ، وصد عن قولها ورماها بالوقاحة وقلة الأدب ، وألفاظ البذاءة « أنت تنهقين » فلو سمع نصحها وصغى إلى قولها ، واسترشد بنور إيمانها لنعم وفاز بالجنة لكن عصاها فاستحق كل إهانة وازدراء .

وأخيراً : على الوالدين أن يحسنوا تربية أولادهم ليكن لهم الولد البار الصالح الذى ينفعهم بعد موتهم .

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة (أشياء) إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[٢] . (اخرجه مسلم) .

وعن ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ أن سعد بن عبداة توفيت أمه وهو غائب عنها ، فقال : يا رسول الله ، إن أمى توفيت ، وأنا غائب عنها فهل ينفعها أن تصدقت بشىء عنها ؟ قال : نعم ، (قال) : فإنى أشهدك أن حائط المخراف صدقة عليها »[٣] . (اخرجه البخارى) .

(والمخراف : أى المثمر مسمى بذلك لما يخرف منه أى يجنى من الثمر) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ : « أن رجلا قال للنبى ﷺ : إن أبى مات وترك مالا ولم يوص فهل يكفر عنه أن أتصدق عنه ؟ قال : نعم »[٤] . (اخرجه مسلم وغيره) .

أ . هـ (من كتاب بر الوالدين فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة للشيخ نظام سكجها) .

قوله تعالى : ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** ﴾ .

أى : ذكرهم يا محمد ، يوم يعرض ﴿ **الذين كفروا على النار** ﴾ أى : يكشف الغطاء فيقربون من النار وينظرون إليها ﴿ **أذهبتم طيباتكم** ﴾ فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ يقال لهم ــ على وجه التقريع ــ تمتعتم بالطيبات فى الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات ، يعنى المعاصى . ﴿ **فاليوم تجزون عذاب الهون** ﴾ أى : عذاب الخزى والفضيحة . قال مجاهد : الهون : الهوان .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب « كتاب البر والصلة وغيرهما » باب الترهيب عن عقوق الوالدين . ج ٣ ص ٥٤٧ ــ ٥٤٨ حديث رقم ١٧ عن العوام بن حوشب ــ رضى الله عنه ــ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب العصية » باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ج ٣ ، ص ١٢٥٥ حديث رقم ١٤ / ١٦٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الوصايا » باب الاشهاد فى الوقف والصدقة » ج٤ ص ١٠ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الوصية » باب وصول ثواب الصدقات إلى الحديث ج ٣ ص ١٢٥٤ حديث ١١ / ١٦٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

﴿ **بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق** ﴾ أى : تستعلون على أهلها بغير استحقاق . ﴿ **وبما كنتم تفسقون** ﴾ فى أفعالكم بغياً وظلماً .

وقيل : ﴿ **اذهبتم طيباتكم** ﴾ أى : أفنيتم شبابكم فى الكفر والمعاصى . قال ابن بحر : الطيبات : الشباب والقوة ، مأخوذ من قولهم : ذهب أطيباه ، أى : شبابه وقوته . قال القرطبى : والقول الأول أظهر .

قال قتادة : ذكر لنا أن عمر ــ رضى الله عنه ــ قال : لو شئت كنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا ، ولكنى استبقى طيباتى للآخرة .

وفى صحيح مسلم وغيره أن عمر ــ رضى الله عنه ــ دخل على النبى ﷺ وهو فى مشربته حين هجر نساءه قال : فالتفت فلم أر شيئاً يرد البصر إلا أهباً جلوداً معطوفة قد سطع ريحها ، فقلت : يا رسول الله ، أنت رسول الله وخيرته ، وهذا كسرى وقيصر فى الديباج والحرير ؟ قال : فاستوى جالساً وقال : « أفى شك أنت يا ابن الخطاب . أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا » فقلت استغفر لى ، فقال : « اللهم اغفر له »[1] .

وقال حفص بن أبى العاص : كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ الخبز والزيت ، والخبز والخل ، والخبز واللبن والخبز والقديد ، وأقل ذلك اللحم الغريض (الطرى) . وكان يقول : لا تنخلوا الدقيق فإنه طعام كله ، فجىء بخبز متفلع (مشقق) غليظ ، فجعل يأكل ويقول : كلوا فجعلنا لا تأكل ، فقال : ما لكم لا تأكلون ؟ فقلنا : والله يا أمير المؤمنين ، ترجع إلى طعام الين من طعامك هذا ، فقال : يا بن أبى العاص أما ترى بأنى عالم أنى لو أمرت بعناق سميته فيلقى عنها شعرها ثم تخرج مصلّية (مشوية) كأنها كذا وكذا ، أما ترى بأنى عالم أن لو أمرت بصاع أو صاعين من زبيب فأجعله فى سقاء ثم أشن عليه من الماء فيصبح كأنه دم غزال ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أجل ما تنعت العيش ، قال : أجل ! والله الذى لا إله إلا هو لولا أنى أخاف أن تنقص حسناتى يوم القيامة لشاركتكم فى العيش ، ولكنى سمعت الله تعالى يقول لأقوام : ﴿ **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** .. ﴾ الآية .

وقال جابر : اشتهى أهلى لحما فاشتريته لهم فمررت بعمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقال : ما هذا يا جابر ؟ فأخبرته ، فقال : أو كلما اشتهى أحدكم شيئاً جعله فى بطنه ! أما يخشى أن يكون من أهل هذه الآية : ﴿ **أذهبتم طيباتكم .. الآية** ﴾ قال ابن العربى : وهذا عتاب منه له على التوسع بابتياع اللحم والخروج عن جلْف الخبز والماء ، فإن تعاطى الطيبات من الحلال تستشره لها الطباع ، وتستمرؤها العادة

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الطلاق » باب فى الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن .. الخ ج ٢ ص ١١١١ حديث رقم ٣٤ / ١٤٧٩ فقد ورد الحديث ضمن حديث طويل من رواية لابن عباس .

فإذا فقدتها استسهلت فى تحصيلها بالشبهات حتى تقع فى الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء ، فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله .

قال العلاقة القرطبى . والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد ، طيباً كان أو قفارا (الطعام بلا آدم) ، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة ، وقد كان النبى ﷺ يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عدم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها ، ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذ تيسر ، ولا يعتمده أصلا ولا يجعله ديدناً . ومعيشة النبى ﷺ معلومة ، وطريقة الصحابة منقولة ، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير ، والله يهب الإخلاص ، ويعين على الخلاص برحمته .

وقيل : إن التوبيخ واقع على ترك الشكر ، لا على تناول الطيبات المحللة وهو حسن ، فإن تناول الطيب الحلال مأذون فيه ــ بشرط عدم الأسراف ــ قال تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾[1] ، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يحل له فقد أذهبه والله أعلم قاله القرطبى .

طرف من قصة هود

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا
اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن
كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ
﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ
فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ
الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم
مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ
وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

(١) سورة الأعراف من الآية ٣١

معانى المفردات

﴿ **أخا عاد** ﴾ هود عليه السلام ، ﴿ **الأحقاف** ﴾ واحدها حقف ــ بالكسر والسكون ــ وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به واد بين عمان ومهرة كانت تسكنه عاد ، ﴿ **النذر** ﴾ واحدهم نذير أى : منذر ، ﴿ **من بين يديه** ﴾ أى : من قبله ، ﴿ **ومن خلفه** ﴾ أى : من بعده ، ﴿ **لتأفكنا** ﴾ لتصرفنا ، ﴿ **عن آلهتنا** ﴾ عن عبادتها ،﴿ **بما تعدنا** ﴾أى : من معاجلة العذاب على الشرك ، ﴿ **إنما العلم عند الله** ﴾ أى : العلم بوقت نزوله عند الله ،﴿ **عارض** ﴾ **العارض السحاب الذى يعرض فى** أفق السماء ، ﴿ **مستقبل أوديتهم** ﴾ أى : متجها إليها . ﴿ **تدمر** ﴾ تهلك ، ﴿ **حاق** ﴾ أى : نزل ، ﴿ **صرفنا** ﴾ أى : بينا ونوعنا ، ﴿ **الآيات** ﴾ الحجج والصبر ، ﴿ **فلولا** ﴾ أى : فهلا ، ﴿ **نصرهم** ﴾ أى : منعهم ، ﴿ **قربانا** ﴾ أى : متقرباً بهم إلى الله ، ﴿ **ضلوا عنهم** ﴾ أى : غابوا عنهم ، ﴿ **إفكهم** ﴾ أى : أثر إفكهم وصرفهم عن الحق ، ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ أى : وأثر افترائهم وكذبهم .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن أورد ــ سبحانه ــ الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة و لم يلتفتوا إليها و لم تجدهم فتيلا ، ولا قطميرا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها ــ أردف هذا ذكر قصص عاد وما حدث منهم مع نبيهم هود ــ عليه السلام ــ وضرب لهم به المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله فقد كانوا أكثر منهم أموالا وأقوى منهم جنداً ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم وعنادهم ، و لم يغنى عنهم ما لهم من الله شيئاً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم** ﴾ . أى وأذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ما جئتهم به من الحق ــ هوداً أخا عاد ، فقد كذبه قومه بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئا فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة وأفردوا له الألوهية وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحاً : إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول . ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾[1] .

---

(١) سورة الشعراء الآيتان ٨٩ ــ ٩٠

وحين نصحهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى : قال قومه له : أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعونا إليه ، وإلى اتباعك فيما تقول ، هلم فهات ما تعدنا به من العذاب على عبادة ما نعبد من الآلهة إن كنت صادقاً فى قولك وعِدَتِك .

فرد هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أى : قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندى ، فلا أستطيع تعجيله ، ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال : (وأبلغكم ما أرسلت به) من الإنذار والإعذار ، لا أن آتى بالعذاب فلست عليكم بمسيطر ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربى .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال : (ولكنى أراكم قوماً تجهلون) أى : وإنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم ولم تهتدوا بما جئتكم به بل اقترحتم على ما ليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجىء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأفتهم فقال تعالى : ﴿ **فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم . تدمر كل شىء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ .

أى : فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحاباً يعرض فى أفق السماء متجهاً إلى أوديتهم (قالوا هذا عارض ممطرنا) ظناً منهم أن غيثاً قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياماً ، فساق الله إليهم سحابة سوداء فخرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له : المعتبِّ ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيراً . قال تعالى : ﴿ **بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم** ﴾ أى : بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويجعلكم كأمس الدابر . ﴿ **تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾ أى : تهلك كل شىء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها ، كقوله تعالى : ﴿ **ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم** ﴾[1] أى : كالشىء البالى الخلق ، ﴿ **فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم** ﴾ أى : فجاءتهم الريح فدمرتهم ، فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، ﴿ **كذلك نجزى القوم المجرمين** ﴾ أى : كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب فى الدنيا فأهلكناهم بذنوبهم ، كذلك نجزى كل مجرم كافر بالله متماد فى غيه . ولا يخفى ما فى هذا من التهديد والوعيد الشديد .

اخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : « ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته ، وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيماً وريحاً عُرف ذلك فى

(١) سورة الذاريات الآية ٤٢

وجهه ، قلت : يا رسول الله ، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية ، قال : « يا عائشة ، وما يؤمِّننى أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا »[1] .

لذا كان ﷺ إذا عصفت الريح قال : « اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به »[2] .. الحديث رواه مسلم .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاًوأبصاراً وأفئدة ، فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾

أى : لقد مكنا عاداً ــ الذين أهلكناهم بكفرهم ــ فيما لم يتمكنكم فيه من الدنيا وأعطيناهم منها ما لم نعطكم مثله من الأموال الكثيرة ، وبسطة الأجسام وقوة الأبدان . كقوله تعالى : ﴿ **كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض** ﴾[3] .

﴿ **وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة** ﴾ أى : إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعاً فما استعملوه فى سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناهم أبصاراً ليروا ما نصباه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوباً تفقه حكم الله فى خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم فى آخرتهم ويقربهم من جوار ربهم ، بل صرفوها فى طلب الدنيا والملذات والمنكرات . ﴿ **فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء** ﴾ لا جرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، ثم بين سبحانه العلة فى عدم اغناء ذلك عنهم فقال : ﴿ **إذ كانوا يجحدون بآيات الله** ﴾ أى : لأنهم كانوا يكذبون رسل الله ، وينكرون معجزاتهم . ﴿ **وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾ أى : ونزل بهم ما سخروا به فاستعجلوه من العذاب :

وفى هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه فإن عادا لما اغتروا بدنياهم وأعرضوا عن قول الحق ــ نزل بهم العذاب ، و لم تغن عنهم قوتهم ولاكثرتهم شيئا ــ فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ۞ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون** ﴾ .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة الاستسقاء » باب التعوذ عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر ج ٢ ص ٦١٦ ، ٦١٧ حديث ١٦ / ٨٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن عائشة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة الاستسقاء » باب التعوذ عند رؤية الريح والقيم والفرح بالمطر ج ٢ ص ٦١٦ حديث رقم ١٥ / ٨٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٣) سورة غافر من الآية ٨٢

لما أخبر ــ سبحانه ــ **بهلاك قوم عاد** على ما لهم من المكانة العظيمة ، ليتعظ بهم من سمع أمرهم ، اتبعه بذكر من كان مشاركاً لهم فى التكذيب فأدركه سوء العذاب كما أدركهم فقال ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى** ﴾ أى : ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حول قريتكم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وثمود وسبأ ومدين وقرى لوط ، ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[1] ، وقوله ﴿ **وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾ أى : وبينا لهم دلائل قدرتنا ، وبديع حججنا ليرجعوا عن غيهم فلم يرجعوا .

وقوله : ﴿ **فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة** ﴾ أى : فهلا نصرهم أوثانهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتهم قرباناً يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا حيث قالوا : ﴿ **هؤلاء شفعاؤنا عند الله** ﴾[2] ﴿ **بل ضلوا عنهم** ﴾ أى : هلكوا عنهم ، وقيل : ﴿ **بل ضلوا عنهم** ﴾ أى : ضلت عنهم آلهتهم لأنها لم يصبها ما أصابهم . إذ هى جماد . وقيل : ﴿ **ضلوا عنهم** ﴾ أى : تركوا الأصنام وتبرءوا منها ﴿ **وذلك إفكهم وما كانوا يفترون** ﴾ أى : والآلهة التى ضلت عنهم هى إفكهم فى قولهم : إنها تقربهم إلى الله زلفى ﴿ **وما كانوا يفترون** ﴾ أى : يكذبون . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب** ﴾[3] .

الجن يستمعون القرآن

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ ــ ١٣٨ (٢) سورة يونس من الآية ١٨ (٣) سورة هود الآيتان ١٠٠ ــ ١٠١

معانى المفردات

﴿ **صرفنا** ﴾ أى : وجهنا ، ﴿ **نفرا** ﴾ والنفر ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، ﴿ **أنصتوا** ﴾ أى : اسكتوا ، ﴿ **قضى** ﴾ أى : فرغ من تلاوته ، ﴿ **ولوا** ﴾ أى : رجعوا ، ﴿ **منذرين** ﴾ أى : مخوفين لهم عواقب الضلال ، ﴿ **يجركم** ﴾ أجاره من كذا : أنقذه منه ، ﴿ **داعى الله** ﴾ هو الرسول ﷺ ، ﴿ **فليس بمعجز** ﴾ أى : لا ينجو منه هارب ، ولا يسبق قضاءه سابق . ﴿ **لم يعى** ﴾ أى : لم يعجز ﴿ **أولو العزم** ﴾ أى : ذووا الحجزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوح والخليل الممجد وموسى وعيسى والحبيب محمد

﴿ **بلاغ** ﴾ أى : كفاية فى الموعظة

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر ــ سبحانه ــ أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر ــ أعقب هذا ببيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرّض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول ﷺ كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن . وفى هذا البيان توبيخ لمشركى قريش ، لأن الجن سمعوا القرآن فآمنوا به ، وعلموا أنه من عند الله وأهل مكة معرضون مصرون على الكفر ، ثم ختم السورة بإثبات البعث وأقام الدليل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيى الموتى ، وأعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله ﷺ بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، وبعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة وإن تأخر ، وحين نزوله بهم سيقتصرون على مدة بعثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا . ثم بين بأن فى هذه العظات كفاية أيما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ولم ينقد لأمره ونهيه .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين** ﴾ .

أى : وأذكر أيها الرسول لقومك ــ موبخاً لهم على كفرهم ــ بما آمنت به الجن ، لعلهم يتنبهون لجهلهم ، ويرجعون عن غيّهم وقبح ما هم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ولا من جنس رسوله ــ فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من

تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه . وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً ۝ يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ۝ وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ۝ وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا ۝ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ۝ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ۝ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ۝ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ۝ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ۝ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا ۝ وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا ۝ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ۝ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ۝ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ۝ وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ۝ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ۝** ﴾[1] .

اخرج الامام أحمد فى سنده عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : ما لكم ؟ فقالوا حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث ، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، **فانطلقوا يضربون مشارق** الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء فهنالك حين رجعوا إلى قومهم قالوا يا قومنا : ﴿ **إنا سمعنا قرآنا عجبا ۝ يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً** ﴾ وأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ وإنما أوحى إليه قول الجن[2] رواه البخارى عن مسدد بنحوه ، واخرجه مسلم عن أبى عوانه به ورواه الترمذى والنسائى فى التفسير من حديث إبى عوانه . وهكذا قال الحسن البصرى إنه ﷺ ما شعر بأمرهم حتى أنزل الله تعالى عليه بخبرهم .

---

(١) سورة الجن الآيات ١ ــ ١٧

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب وجوب القراءة للإمام والمأموم فى الصلوات كلها فى الحضر السفر وما يجهرو ما يخافف ج ١ ، ص ١٩٥ « باب الجهر فى قراءة الفجر » فقد ورد الحديث يلفظ عن ابن عباس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب الجهر بالقراءة ج ١ ص ٣٣١ حديث ١٤٩ / ٤٤٩ فقد ورد الجديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر مسند الامام أحد ج ١ ص ٢٥٢ فقد ورد الحدث بلفظه عن رواية لابن عباس .

قال الحافظ البيهقى : وهذا الذى حكاه ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله وفى ذلك الوقت لم يقرأ عليهم ولم يرهم ثم بعد ذلك أتاه داعى الجن فقرأ عليه القرآن ودعاهم إلى الله ــ عز وجل ــ كما رواه عبد الله بن سعود رضى الله عنه قال الامام أحمد بسنده عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال ما صاحبه منا أحد ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال فبتنا بشر ليلة بات بها قوم فلما كان فى وجه الصبح أو قال فى السحر إذا نحن به يجىء من قبل حراء فقلنا : يا رسول الله ، فذكروا له الذى كانوا فيه فقال : « إنه أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم ، قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم قال : قال الشعبى سألوه الزاد . قال عامر سألوه بمكة وكانوا من جن الجزيرة فقال « كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم أوفر ما يكون لحما وكل بعرة أو روثة علف لدوابكم قال فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد اخوانكم من الجن »[1] وهكذا رواه مسلم فى صحيحه .

وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله ﷺ مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ﴾ أى : استمعوه وهذا أدب منهم ، وقد قال الحافظ البيهقى عن جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ قال : قرأ رسول الله ﷺ ــ سورة الرحمن حتى ختمها ثم قال : ما لى أراكم سكوتاً ؟ للجن كانوا أحسن منكم رداً ، ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿ فبأى ألاء ربكما تكذبان ﴾ إلا قالوا : « ولا بشىء من آلائك أو نعمك ربنا نكذب فلك الحمد »[2] ورواه أيضا الترمذى ثم قال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد عن زهير .

وقوله تعالى : ﴿ فلما قضى ﴾ أى : فرغ من تلاوته ، ﴿ ولوا إلى قومهم منذرين ﴾ أى : رجعوا إليهم لعلهم يحذرون .

وقد استدل بهذه الآية على أنه فى الجن نذر وليس فيهم رسل ولا شك أن الجن لم يبعث الله تعالى منهم رسولاً كما فى قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم من أهل القرى ﴾[3] ، وقوله :

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصلاة » باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ج ١ ص ٣٣٢ حديث رقم ١٥٠ / ٤٥٠ من رواية لابن مسعود .

(٢) انظر سنن الترمذى « كتاب التفسير » تفسير سورة « الرحمن » ج ٥ ص ٧٣ ــ ١٤ حديث رقم ٣٣٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الوليد بن مسلم عن زهير بن محمد .

(٣) سورة يوسف من الآية ١٠٩

﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾(١) .

ثم فسر سبحانه إنذار الجن لقومهم مخبراً عنهم بقوله تعالى : ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ﴾ .

أى : قالوا لهم : يا قومنا من الجن ، إنا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد توارة موسى يصدق ما قبله من كتب الله التى أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق وإلى ما فيه-لله رضا ، وإلى الطريق الذى لا عوج فيه . وخصّوا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين .

وقوله تعالى : ﴿ يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ﴾ .

أى : يا قومنا أجيبوا رسول الله محمداً ﷺ إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — وهذا يدل على أنه — ﷺ — كان مبعوثاً إلى الجن والإنس . قال مقاتل : ولم يبعث الله نبياً إلى الجن والإنس قبل محمد ﷺ .

روى مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلى كان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض طيبة طهوراً مسجداً فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة إلىّ قال مجاهد : الأحمر والأسود : الجن والإنس .

وفى رواية من حديث أبى هريرة « وبعثت إلى الخلق كافة وختم بى النبوة »(٢).

وقوله تعالى ﴿ وآمنو به ﴾ أى : بالداعى ، وهو محمد ﷺ وقيل : « به » أى : بالله لقوله : ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ ، قال ابن عباس : فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً ، فرجعوا إلى النبى ﷺ فوافقوه بالبطحاء ، فقرأ عليهم القرآن وأمرهم ونهاهم . وقوله : ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ أى : ويقيكم من عذابه الأليم قال القرطبى : هذه الآى تدل على أن الجن كالإنس فى الأمر والنهى والثواب والعقاب وإليه ذهب مالك والشافعى وابن أبى ليلى .

قوله تعالى : ﴿ ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ﴾ أى : ومن لا يجب رسول الله محمداً ﷺ إلى ما دعا إليه من التوحيد والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسبقه هرباً إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه ، ولا يجد له نصراء ينصرونه ويدفعون

---

(١) سورة الاسراء الآية ٧٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » ج ١ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ حديث رقم ٣ / ٥٢١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لجابر بن عبد الله الأنصارى .

عنه عذابه ، وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون فى ضلال بين وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضحة وأعلامه منصوبة ، والوصول إليه ميسور ، فمن جانفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هو له أهل .

قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى بلى إنه على كل شيء قدير** ﴾ . أى : أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، وبعثة إياهم من قبورهم بعد بلاهم ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شيء ، ولم يعى فى إنشائهن ــ بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلاهم فى قبورهم أحياء كهيئتم قبل وفاتهم ؟ كقوله تعالى : ﴿ **لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[1] .

ثم أجاب عن ذلك مقرراً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال تعالى : ﴿ **بلى إنه على كل شيء قدير** ﴾ ذو قدرة على كل شيء أراد خلقه ، ولا يعجزه شيء أراد فعله .

ولما أثبت البعث ــ سبحانه ــ بما أقام من الأدلة ذكر ما يحدث حينئذ من الأهوال فقال تعالى : ﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ .

أى : يقال لهم يوم القيامة ــ على سبيل التأنيب والتوبيخ : أليس هذا العذاب الذى تعذبون اليوم وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا ، بالحق الذى لا شك فيه ؟ قالوا من فورهم : بلى وربنا ، انه الحق ﴿ **قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون** ﴾ أى : بسبب كفركم . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أو زارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون** ﴾[2] .

قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولو**العزم** من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ .

---

(١) سورة غافر الآية ٥٧

(٢) سورة الأنعام الآيتان ٣٠ ــ ٣١

أى : فاصبر أيها الرسول ﴿ **وما صبرك إلا بالله** ﴾ على ما أصابك فى الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذرا ، كما صبر أولو العزم من الرسل على القيام بأمر الله والانتهاء إلى طاعته . ولما أمره بالصبر ، وهو أعلى الفضائل ، نهاه عن العجلة فقال تعالى : ﴿ **ولا تستعجل لهم** ﴾ أى : لا تعجل بمسألة ربك العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة كقوله تعالى : ﴿ **وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا** ﴾[١] ، وكقوله تعالى : ﴿ **فمهل الكافرين أمهلهم رويداً** ﴾[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ أى : كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم ـــ لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ـــ لأن شدة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا فى الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار كقوله تعالى : ﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين** ﴾[٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **بلاغ** ﴾ أى : هذا القرآن بلاغ للناس ، وكفاية إن فكروا واعتبروا كقوله تعالى : ﴿ **هذا بلاغ للناس ولينذروا به** ﴾[٥] ، وقوله ﴿ **إن فى هذا لبلاغاً لقوم عابدين** ﴾[٦] ثم أوعد وأنذر فقال جل فى علاه : ﴿ **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون** ﴾ أى : وما يَهلك بالعذاب إلا الخارجون عن طاعة الله ، المخالفون لأمره ونهيه .

قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك شرك ، وهذه الآية أقوى آية فى الرجاء ، ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون .

« اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار اللهم لا تدع لى ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين .

(١) سورة المزمل الآية ١١
(٢) سورة الطارق الآية ١٧
(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١١٢ ــ ١١٣
(٤) سورة النازعات الآية ٤٦
(٥) سورة إبراهيم من الآية ٥٢
(٦) سورة الأنبياء الآية ١٠٦

تفسير سورة محمد

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق

عدد آياتها : ثمان وثلاثون .

كلماتها : خمسمائة وتسع وثلاثون

وحروفها : ألفان وثلثمائة وتسع وأربعون

ولها اسمان : سورة محمد ، لقوله : ﴿ **وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق** ﴾

وسورة القتال ، لقوله : ﴿ **وذكر فيها القتال** ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : الشكاية من الكفار فى إعراضهم عن الحق ، وذكر آداب الحرب والأسرى وحكمهم ، والأمر بالنصرة والإيمان وابتلاء الكفار فى العذاب ، وذكر أنهار الجنة : من ماء ، ولبن ، وخمر ، وعسل ، وذكر طعام الكفار وشرابهم ، وظهور علامة القيامة ، وتخصيص الرسول ﷺ بأمره بالخوض فى بحر التوحيد والشكاية من المنافقين ، وتفصيل ذميمات خصالهم ، وأمر المؤمنين بالطاعة والإحسان ، وذم البخلاء فى الانفاق ، وبيان استغناء الحق ــ تعالى ــ وفقر الخلق فى قوله : ﴿ **والله الغنى وأنتم الفقراء** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة** ﴾ نزل وأنزل كلاهما متعد . وقيل : نزل للتعدى والمبالغة ، وأنزل للتعدى . وقيل : نزل . دفعة مجموعا وأنزل متفرقا ، وخص الأولى بنزلت ، لأنه من كلام المؤمنين ، وذكر بلفظ المبالغة ، وكانوا يأنسون لنزول الوحى ، ويستوحشون لإبطائه . والثانى من كلام الله ــ تعالى ــ ولأن فى أول السورة ﴿ **نزل على محمد** ﴾ وبعده ﴿ **أنزل الله** ﴾ ، وكذلك فى هذه الآية قال ﴿ **نزلت** ﴾ ثم ﴿ **أنزلت** ﴾ .

قوله : ﴿ **من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم** ﴾ نزلت فى اليهود ، وبعده : ﴿ **من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً** ﴾ نزلت فى قوم ارتدوا . وليس بتكرار .

مناسبتها لما قبلها

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولها متلاحم بآخر السورة السابقة ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه ، لكان متصلا اتصالاً واحداً لا تنافر فيه ، كالآية الواحدة ، آخذاً بعضه بعنق بعض . فالأحقاف فيها الحديث عن إعراض الكافرين فى مختلف العصور ، وقد استنفدت السورة وسائل الإقناع العقلى ، وأثبتت عتو أهل الكفر وجحودهم فكانت سورة القتال بما فيها من جهاد ، وقواعد الحرب ، وتشريعاته متفقة تماماً مع نسخ وسائل الدعوة السلمية بآية السيف .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

معانى المفردات

﴿ **صدوا عن سبيل الله** ﴾ أى : صرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه . ﴿ **أضل أعمالهم** ﴾ أى : أبطلها ، ﴿ **وهو الحق من ربهم** ﴾ أى : وهو الحق الثابت الذى لا مرية فيه . ﴿ **بالهم** ﴾ أى : حالهم فى الدين الدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الحال التى يكترث بها . ﴿ **يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ أى : يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه فى معادهم .

﴿ **فإذا لقيتم** ﴾ لقيتم من اللقاء : وهو الحرب ، ﴿ **فضرب الرقاب** ﴾ أى : فالقتال وعبر به عنه تصويراً له بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه الأعضاء ومجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة مستبشعة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ القتل ،

﴿ أثخنتموهم ﴾ أى : أكثرتم القتل فيهم ، ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ أى : فأسروهم،والوثاق (بالفتح والكسر) ما يوثق به ، ﴿ منّا أى : إطلاقاً من الأسر بالمجان . ﴿ فداء ﴾ أى : إطلاقا فى مقابلة مال أو غيره ، ﴿ أوزارها ﴾ الأوزار فى الأصل : الأحمال ويراد بها : آلات الحرب وأنفالها من السلاح والكُراع .

﴿ لانتصر ﴾ أى : انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ﴿ ليبلو ﴾ أى : ليختبر . ﴿ يضل ﴾ أى : يضيع ، ﴿ بالهم ﴾ أى شأنهم وحالهم ، ﴿ عرفها ﴾ أى : بينها وأعلمها . ﴿ تنصروا الله ﴾ أى : تنصروا دينه ، ﴿ فتعساً لهم ﴾ أى : سقوطاً على الوجه وسقوطاً على الرأس ، ﴿ أحبط أعمالهم ﴾ أبطلها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد : هم أهل مكة كفروا بتوحيد الله ، وصدوا أنفسهم والمؤمنين عن دين الله وهو الإسلام بنهيهم عن الدخول فيه . وهذا هو الكفر المزدوج أو الضلال المضاعف أو تحول الكفر من حيوان عادى إلى حيوان شرس فاتك قاتل ، هذا الكفر المزدوج المقرون بالصد عن سبيل الله هو ما شكا المؤمنون منه قديما وحديثاً هو ما أعلن القرآن عليه حرباً شعواء. قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيدا . إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً ﴾[1] وبين سبحانه أنهم ينفقون أموالهم للصد عن الإسلام فقال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون ﴾[2] فقد أخبر — تعالى — أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ثم تذهب أموالهم ثم تكون عليهم حسرة أى : ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ، ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزى لهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزى الأبدى والعذاب السرمدى .

وقوله تعالى : ﴿ أضل أعمالهم ﴾ أى : أبطل كيدهم ومكرهم وجعل الدائرة عليهم — وقيل : أبطل ما عملوه فى كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم أخلاق ، من صلة أرحام وفك الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام ونحو ذلك حكم الله ببطلانه ، فلا يرون له فى الآخرة ثواباً ، كقوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء الآيات : ١٦٧ - ١٦٩ (٢) سورة الأنفال الآية : ٣٦ (٣) سورة الفرقان آية ٢٣

ولما ذكر ـــ سبحانه ـــ جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بثواب أهل الإيمان فقال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا اصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾ أى : آمنت قلوبهم وسرائرهم وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم وظواهرهم ، ﴿ **وآمنوا بما نزل على محمد** ﴾ عطف خاص على عام وهو دليل على أنه شرط فى صحة الإيمان بعد بعثته ـــ ﷺ ـــ قاله ابن كثير ، ﴿ **وهو الحق من ربهم** ﴾ جملة معترضة حسنة . ﴿ **ولهذا قال ـــ جل جلاله ـــ** : ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾ أى : فامضى من سيئاتهم وأصلح شأنهم فى الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم فى الآخرة ، بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم فى جناته قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ .

« ذلك » فى موضع رفع ، أى : الأمر ذلك ، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببه هذا ، فالكافر اتبع الباطل ، والمؤمن اتبع الحق . والباطل : الشرك . والحق : التوحيد والإيمان . ﴿ **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ أى : كهذا البيان الذى بُين يبين الله للناس أمر الحسنات والسيئات . والضمير فى « أمثالهم » يرجع إلى الذين كفروا ، والذين آمنوا .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ۝ سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ .

يقول تعالى : مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين ، ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب** ﴾ أى : إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصداً بالسيوف ، ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم** ﴾ : أى : أهلكتموهم قتلاً ، ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ الأسارى الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب وانفصال المعركة مخيرون فى أمرهم إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشارطونهم عليه وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ قال قتادة : حتى لا يبقى شرك وهذا كقوله تعالى ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله** ﴾[1] .

قال ابن كثير : وقال بعضهم : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ أى : أوزار المحاربين وهم المشركون بأن يتوبوا إلى الله ـــ عز وجل ـــ ، وقيل أوزار أهلها بأن يبذلوا الوسع فى طاعة الله ـــ تعالى ـــ وقيل معناه : حتى تضع الحرب ، أى : الأعداء المحاربون أوزارهم ، وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة .

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٣

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم** ﴾ ، « ذلك » فى موضع رفع ، أى : الأمر ذلك الذى ذكرت وبينت وقيل : هو مقصور على معنى افعلوا ذلك . ويجوز أن يكون مبتدأ ، والمعنى ذلك حكم الكفار وهى كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام . قاله القرطبى . ومعنى : ﴿ **لا نتصر منهم** ﴾ أى : أهلكهم بغير فقال : قال ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة ، ﴿ **ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أى : أمركم بالحرب ليبلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين كما بين ـــ سبحانه ـــ فى آخر السورة نفسها ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم** ﴾

وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾(١) **وكقوله تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾**(٢) **وكقوله جل علاه : ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولم يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون ﴾**(٣)

وقوله تعالى : ﴿ **والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم ۝ سيهديهم ويصلح بالهم ۝ ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ . لما كان من شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال ـــ سبحانه ـــ مبيناً ـــ أن الذين قتلوا فى سبيله فلن يذهب أعمالهم بل يكثرها وينميها ويضاعفها : منهم من يجرى عليه عمله طول برزخه كما ورد بذلك الحديث الذى رواه الامام أحمد فى مسنده عن كثير من مرة عن قيس الجذامى ـــ رجل كانت له صحبة ـــ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « يعطى للشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه : تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان »(٤) تفرد به أحمد رحمه الله . ذكره ابن كثير .

وفى صحيح مسلم عن أبى قتادة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر للشهيد كل شىء إلا الدين »(٥) وذكر ابن كثير فى تفسيره حديثا لأبى الدرداء ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « يشفع الشهيد فى سبعين من أهل بيته »(٦) ورواه أبو داود .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٢

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٤

(٣) سورة التوبة الآية ١٦

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٠٠ حديث قيس الجامى ـــ رضى الله عنه ـــ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن قيس الجزامى . (رحل كانت له صحبة) .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الاماره » باب « من قتل فى سبيل الله كفرت خطاياه ، إلا الدين » ج ٣ ص ١٥٠٢ حديث رقم ١١٩ / ١٨٨٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٦) انظر سنن أبى داود « كتاب الجهاد » باب فى الشهيد يشفع ج ٣ ص ٣٤ حديث رقم ٢٥٢٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاداً فى سبيلى ، وإيماناً بى ، وتصديقاً برسلى فهو على ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة والذى نفس محمد بيده : ما من كَلْم يكْلَمُ فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلم لونه لون دم ، وريحه مسك والذى نفس محمد بيده ، لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى ، والذى نفس محمد بيده لوددت أنى أغزوا فى سبيل الله فأقتل ، ثم أغزوا فأقتل ثم أغزوا فأقتل »[١] متفق عليه .

(ومعنى الكَلْم ــ بفتح الكاف وسكون اللام ــ هو الجرح) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »[٢] رواه البخارى .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قيل : يار سول الله ، ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كل ذلك يقول « لا تستطيعونه » ثم قال « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله »[٣] متفق عليه .

وقوله تعالى : ﴿ **سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ أى : يهديهم إلى الجنة ، كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم** ﴾[٤] . وقوله : ﴿ **ويصلح بالهم** ﴾ أى : أمرهم وحالهم ، ﴿ **ويدخلهم الجنة عرفها لهم** ﴾ أى : عرفهم بها وهداهم إليها . وقال محمد بن كعب القرظى : يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة كما تعرفون بيوتكم إذا انصرفتم من الجمعة . وقال مقاتل بن حيان : بلغنا أن الملك الذى كان وكل بحفظ عمله فى الدنيا يمشى بين يديه فى الجنة ويتبعه ابن آدم حتى أقصى منزل هو له فيعرفه كل شىء أعطاه الله ــ تعالى ــ فى الجنة فإذا انتهى

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الامارة » باب « فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله » ج ٣ ص ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ حديث رقم ١٠٣ / ١٨٧٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب فضل الجهاد والسير » باب ج ٤ ص ١٩ ، ٢٠ فقد ورد الحديث من حديث طويل لأبى هريرة .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الامارة » باب فضل الشهادة فى سبيل الله » ج ٣ ص ١٤٩٨ حديث رقم ١١٠ / ١٨٧٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) سورة يونس الآية ٩

إلى أقصى منزله فى الجنة دخل إلى منزله وأزواجه وانصرف الملك عنه . ذكره ابن أبى حاتم رحمه الله . قال ابن كثير وقد ورد الحديث الصحيح بذلك ــ أيضا ــ رواه البخارى من حديث أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار يتقاضون مظالم كانت بينهم فى الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة ، والذى نفسى بيده إن أحدهم بمنزله فى الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان فى الدنيا »[1] .

ونحن الآن فى سبيلنا إلى تفسير هذا النص الكريم : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب .. الآيات** ﴾ وذلك كما جاء فى كتاب روائع البيان تفسير آيات الأحكام للشيخ العابونى . فقد جاء ما نصه .

الحرب فى الإسلام

قوله تعالى : فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

التحليل اللفظى

﴿ **أثخنتموهم** ﴾ أكثرتم فيهم القتل والجراح . يقال : أثخن العدو : إذا أكثر فيه الجراح . قال فى اللسان : والإثخان من كل شىء قوته وشدته ، يقال ، قد أثخنه المرض : إذا اشتدت قوته عليه ووهنه . وأثخنته الجراحة : أوهنته ، وقوله تعالى : ﴿ **حتى يثخن فى الأرض** ﴾[2] معناه : حتى يبالغ فى قتل أعدائه ، ﴿ **الوثاق** ﴾ فى الأصل مصدر كالأخلاص ، وأريد به هنا : ما يوثق به أى : ما يربط به كالحبل وغيره .

قال الجوهرى : وأوثقه فى الوثاق ، أى : شده ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ والوثاق بكسر الواو لغة فيه .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب المظالم والغصب » باب « قصاص المظالم » ج ٣ ص ١٦٧ ، ١٦٨ فقد ورد الحديث من زوايه لابى سعيد الخدرى بلفظ : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، فيتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا ، أذن لهم بدخول الجنة ، فو الذى نفس محمد بيده ، لأحدهم بمسكنه فى الجنة أذل بمنزله كان فى الدنيا » .

(٢) سورة الأنفال من الآية ٦٧

﴿ **مناً** ﴾ مصدر من ، ومعناه : أن يطلق سراح الأسير بدون فداء وبدون مقابل .

﴿ **فداء** ﴾ مصدر فادى ، والفداء : أن يطلق الأسير مقابل مال يأخذه منه . قال فى اللسان : الفِداء بالكسر : فكاك الأسير والعرب تقول : فاديت الأسير ، وتقول : فديته بمالى . وفديته بأبى وأمى ، إذا لم يكن أسيراً .

﴿ **أوزارها** ﴾ الأوزار : جمع وِزر . وهو فى الأصل : الإثم والذنب ، ويطلق على الحمل الثقيل ، والمراد به : آلات الحرب وأثقالها من السلاح والخيل والعتاد . وسمى السلاح ﴿ **أوزارا** ﴾ لأنه يحمل لثقله . قال الأعشى :

وأعـددت للحـرب أوزارهـا   رماحا طوالا وخيلا ذكـورا

وإنما جاء الضمير مؤنثاً ﴿ **أوزارها** ﴾ لأن الحرب مؤنثة .

ومعنى الآن : حتى تنتهى الحرب ، وتضع سلاحها ، فلا يكون قتال مع المشركين لضعف شوكتهم .

﴿ **ذلك** ﴾ اسم الإشارة « ذلك » جيء للفصل بين كلامين ، وقد كثر فى لغة العرب إستعمال اسم الإشارة عند الفصل بين كلامين والانتقال من الكلام الأول إلى الثانى كأنه قيل : ذلك ما كنا نريد أن نقوله فى هذا الشأن ونقول بعده كذا ــ وكذا .

﴿ لا نتصر منهم ﴾ أى : انتصر منهم بدون أن يكلفكم بحرب أو قتال فالله ــ سبحانه ــ قادر على إهلاك الكفار بدون حرب المسلمين لهم . ولكنه ابتلاء من الله ــ سبحانه ــ ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ .

قال الألوسى : قوله تعالى : ﴿ **ولو يشاء الله لانتصر منهم** ﴾ أى : لانتقم منهم ببعض أسباب الهلاك من خسف : أو رجفة ، أو غرق أو موت جارف . ﴿ **ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ أى : أمركم ــ سبحانه ــ بالحرب ، ﴿ **ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ فيثيب المؤمن ويكرمه بالشهادة . ويخزى الكافر بالقتل والعذاب .

والابتلاء فى اللغة : الامتحان والاختبار .

﴿ **يضل أعمالهم** ﴾ أى : فلن يضيع أعمالهم ، بل ستحفظ وتخلد لهم ، ويجزون عليها الجزاء الأوفى يوم الدين .

﴿ **عرّفها لهم** ﴾ أى : بينها لهم وأعلمهم منازلهم فيها فلا يخطئونها ، أو عرّفها لهم فى الدنيا بذكر أوصافها كما قال تعالى : ﴿ **مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن .. الآية** ﴾ من سورة محمد .

المعنى الجملى

يأمر سبحانه المؤمنين عند لقاء الكفار فى الحرب ، ألا تأخذهم شفقة عليهم ، بل ينبغى أن يحكِّمُوا السلاح فى رقابهم ، ويحصدوهم بسيوفهم حصدا ، حتى إذا غلبوهم ، وقهروهم . وكسروا شوكتهم عند ذلك عليهم أن يشدوا الوثاق وهو كناية عن وقوعهم أسرى فى أيدى المؤمنين ، فإذا انتهت الحرب فالمؤمنون عند ذلك بالخيار : إما أن يمنوا على الأسرى فيطلقوا سراحهم بدون عوض ، وإما أن يأخذوا منهم الفداء ليستعين به المسلمون على مصالحهم ، بعد أن تضعف عزائم المشركين وتكسر شوكتهم .

ثم بين الله ــ سبحانه ــ الحكمة من مشروعية القتال مع قدرته ــ تعالى ــ أن ينتصر من أعدائه من غير أن تكون حرب بين المؤمنين والكافرين ، وتلك الحكمة هى امتحان الناس واختبار صبرهم على المكاره واحتمالهم للشدائد فى سبيل الله ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[1] .

ثم بين الله ــ تعالى ــ بعد ذلك أن الذين أكرمهم الله بالشهادة فى سبيله .

ستحفظ أعمالهم ، وتخلد لهم ، ثم هم بعد ذلك فى روضات الجنات يحبرون ، وفى ذلك حض على الجهاد ، وترغيب للخروج فى سبيل الله ، لينال المؤمن إحدى الحسنيين : إما النصر والعزة فى الدنيا ، وإما الشهادة فى سبيل الله .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى : عبر القرآن الكريم عن القتل بقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فضرب الرقاب** ﴾ والسر فى ذلك : أن فى هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس فى لفظ (القتل) لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة ، وهو حز العنق وإطارة العضو ملقى على هيئة منكرة ــ والعياذ بالله ــ ولو قال : (فاقتلوهم) لما كان هذا المعنى الدقيق .

والتعبير ــ أيضا ــ يوحى بشجاعة المؤمنين ، وأنهم من الكفار كأنهم متمكنون من رقابهم ، يعملون فيهم سيوفهم بضرب الأعناق . وهو (مجاز مرسل) علاقته السببية لأن حز الرقبة سبب الموت .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ كناية عن الأسر أى : اجعلوهم أسرى واحفظوهم رهائن تحت أيديكم ، حتى تروا فيهم رأيكم .

ولما كانت العادة أن يربط الأسير لئلا يهرب جاء التعبير بقوله : ﴿ **فشدوا الوثاق** ﴾ وفيه الإشارة إلى الكف عن القتل والاكتفاء بالأسر ، لأن الشريعة الغراء تنهى عن الإجهاز على الجريح ، وذلك من آداب الإسلام وتعاليمه الإنسانية الرشيدة .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٢

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى : ﴿ **فإما مناً بعد وإما فداء** ﴾ ذكر ـ تعالى ـ ﴿ **المن والفداء** ﴾ ولم يذكر القتل والاسترقاق . وفى ذلك **ارشاد** من الله ـ تعالى ـ إلى أن الغرض من الحرب كسر (شوكة المشركين) . لا إراقة الدماء والتشفى بإزهاق الأرواح ، فإذا ضعفت شوكة المشركين ووهنت قواهم فلا حاجة إلى القتل ، وتقديم (المن) على (الفداء) فى الآية الكريمة للإشارة إلى ترجيح حرمة النفس على طلب المال ، فالمجاهد فى سبيل الله يقاتل لاعلاء كلمة الله ، لا للمغنم المادى والكسب الدنيوى .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ **حتى نضع الحرب أوزارها** ﴾ فى الآية الكريمة إشارة إلى أن الاسلام يكره الحرب ويمقتها ، لأنها مخربة مدمرة ، والتعبير بـ ﴿ **أوزارها** ﴾ للإشارة إلى أن ما فيها من آثام إنما ترجع على الذين أشعلوها وهم الكفار ، المحاربون لله ورسوله ، فلولا كفرهم وإفسادهم فى الأرض لما كانت هناك حرب .

قال الإمام الفخر : « والمقصود من وضع الحرب أوزارها ، انقراض الحرب بالكلية بحيث لا يبقى فى الدنيا حزب من أحزاب الكفر ، يحارب حزباً من أحزاب الإسلام ، وإنما قال : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ ولم يقل : حتى لا يبقى حرب ، لأن التفاوت بين العبارتين كالتفاوت بين قولك انقرضت دولة **بنى** أمية ، وقولك : لم يبق من دولتهم أثر ، ولا شك أن الثانى أبلغ ، فكذا ههنا » .

اللصفة الخامسة : فإن قيل : لماذا لم يهلك الله الكافرين مع قدرته عليهم ، وأمر المؤمنين بالجهاد ؟ .

فالجواب : أن الله ـ عز وجل ـ أراد بذلك أن يختبر عباده ، فابتلى المؤمنين بالكافرين ، ليختبر صبرهم على المكاره ، واحتمالهم للشدائد وابتلى الكافرين بالمؤمنين ، ليطهر الأرض من رجسهم ، وينيل المؤمنين الشهادة فى سبيله بسببهم ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : ﴿ **ولكن ليبلو بعضكم ببعض** ﴾ .

فإن قيل : إن الله يعلم المؤمن من الكافر ، والبر من الفاجر ، والمطيع من العاصى ، فما هى الفائدة من هذا الابتلاء ؟ فالجواب : أن الابتلاء من الله ـ تعالى ـ ليس بقصد العلم والمعرفة ، وإنما هو بقصد إثابة المؤمن ، وتعذيب الكافر بعد إقامة الحجة عليه ، حتى يقطع العذر على الإنسان ، أو نقول : إن الابتلاء غرضه الكشف للناس أو للملائكة ، ليظهر لهم الصادق من المنافق ، والتقى من الشقى ، وليس بالنسبة له ـ تعالى ـ ، لأنه بكل شيء عليم .

اللطيفة السادسة : أمر الله ـ تعالى ـ بالمن أو الفداء ، وهذا من مكارم الأخلاق التى أرشد إليها الإسلام . روى أن الحجاج حين أسر أصحاب (عبد الرحمن بن الأشعث) وكانوا قريباً من خمسة آلاف رجل قتل منهم ثلاثة آلاف فجاءه رجل من (كيذة) فقال : يا حجاج ، لا جزاك الله عن السنة والكرم خيراً ! قال : ولم ذاك ؟ قال : لأن الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ **فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ فى حق الذين كفروا .. فو الله ما مننت ، ولا فديت ؟ وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق .

ولا نقتل الأسرى ولكن نفكهم　　إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

• فقال الحجاج : أفٍ لهذه الجيف ! أما كان فيهم من يحسن مثل هذا الكلام ! ؟ خلوا سبيل من بقى فخلى يومئذ عن بقية الأسرى وهم زهاء ألفين ، يقول ذلك الرجل .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما المراد بـ ﴿ **الذين كفروا** ﴾ فى الآية الكريمة ؟ اختلف المفسرون فى المراد من قوله تعالى : ﴿ **الذين كفروا** ﴾ على قولين :

(١) **القول الأول** : أن المراد بهم المشركون الكفار عبدة الأوثان . وهذا مروى عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما .

(٢) **القول الثانى** : أن المراد بهم كل من خالف دين الإسلام من مشرك ، أو كتابى إذا لم يكن صاحب عهد ولا ذمة ، فيدخل فيه كل الكفار بدون استثناء وهو ظاهر الآية . واختيار جمهور المفسرين .

قال ابن العربى : وهو الصحيح لعموم الآية فيه ، والتخصيص لا دليل عليه .

الحكم الثانى : ما المراد من قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **فضرب الرقاب** ﴾ فى الآية الكريمة ؟ ذهب (السدى) وجمهور المفسرين إلى أن المراد منه القتل .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد منه (قتل الأسير صبراً) .

والراجح هو الأول ، لأن الآية الكريمة وهى قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** ﴾ قد جعلت ﴿ **الإثخان** ﴾ وهو الإضعاف لشوكة العدو فما اية لضرب الرقاب ، فأين هو قتل الأسير صبراً ؟ مع العلم بأنه إنما يقع فى الأسر بعد إثخانه وضعفه ، فيكون قول جمهور المفسرين هو الأرجح ، بل هو الصحيح .

الحكم الثالث : ما المراد من الفداء ، وما هى أنواعه ؟

ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد من المفادة العتق أى : عتق الأسير . وذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد إطلاق سراح الأسير فى مقابل ما يأخذه المسلمون منهم . وقد يكون المقابل (أسرى) من المسلمين عند الكفار بطريق التبادل .

وقد يكون المقابل (مالاً) أو عتادا يأخذه المسلمون فى نظير إطلاق الأسرى .

وقد يكون العوض (منفعة) كما كان فى غزوة بدر ، فقد كان من ليس عنده مال يفدى به نفسه أمره ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

فالمراد من الفداء : كل ما يأخذه المسلمون من أعدائهم من مال ، أو عتاد ، أو منفعة ، أو مبادلة أسرى بأسرى وغير ذلك .

الحكم الرابع : ما معنى قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **حتى تضع الحرب أوزارها** ﴾ ؟ اختلف المفسرون فى معنى الآية الكريمة على عدة أقوال :

أ ـــ قال ابن عباس : حتى لا يبقى أحد من المشركين يقاتل .

ب ـــ وقال مجاهد : حتى لا يكون دين إلا دين الاسلام .

ج ـــ وقال سعيد بن جبير : حتى ينزل المسيح ابن مريم وحينئذ ينتهى القتال .

والقول الأخير ضعيف ـــ لأن نزول عيسى ابن مريم ليس فى الآية ما يدل عليه . وإنما يؤخذ من الأحاديث الشريفة ، فبنزوله يدخل الناس فى الإسلام ولا يبقى على ظهر الأرض كافر ، كما دلت عليه السنة المطهرة ، ولكن الآية ليس فيها مايشير إلى هذا المراد من قريب أو بعيد .

ومما يدل على أن المراد بالآية الكريمة ظهور الإيمان ، واندحار الكفر بحيث تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى قوله تعالى فى سورة الأنفال : ﴿ **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** ﴾[1] .

الحكم الخامس : هل يجوز قتل الأسير ؟

اتفق الفقهاء على جواز قتل الأسير . حتى قال « الجصاص » : لا نعلم فى ذلك خلافا فيه ، وقد تواترت الأخبار عن النبى ﷺ فى قتله لبعض الأسرى .

١ ـــ ما روى أن النبى ﷺ ـــ قتل (أبا عزة) الشاعر يوم أحد .

٢ ـــ وقتل (عُقبة بن أبى مُعَيط) صبراً ، (والنضربن الحارث) بعد الأسر فى بدر .

٣ ـــ وقتل (بنى قريظة) بعد نزولهم على حكم (سعد بن معاذ) الذى حكم فيهم بالقتل ، وسبى الذرية

٤ ـــ وفتح ـــ ﷺ ـــ خيبر بعضها صلحا ، وبعضها عَنوة وشرط على (ابن ابى الحقيق) ألا يكتم شيئا ، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله ـــ ﷺ ـــ .

٥ ـــ وفتح مكة وأمر بقتل (هلال بن حظل) و (عبد الله بن أبى سرح) و (مقيس بن حبابه) وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة .

فكل هذه الأخبار تدل على جواز قتل الأسير ، ولأن فى قتله حسم مادة الفساد فى الأرض .

قال الألوسى : « وليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيرا بنفسه فإن فعل كان للإمام أن يعزره . ولكن لا يضمن شيئا ، وإن أسلم الأسارى بعد الأسر لا يقتلهم ، لاندفاع شرهم بالإسلام ، ولكن يجوز استرقاقهم . فإن الإسلام لا ينافى الرق جزاء على الكفر الأصلى ، بخلاف ما لو أسلموا من قبل الأخذ فإنهم يكونون أحرارا . لأنه إسلام قبل انعقاد سبب الملك فيهم ... » .

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٣٩

وقال القرطبى : « وقيل : ليس للإمام أن يقتل الأسير . وقد روى عن الحجاج : أنه دفع أسيراً إلى (عبد الله بن عمر) ليقتله ، فأبى وقال ليس بهذا أمرنا الله ، وقرأ : ﴿ **حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق** ﴾ .

قلنا : قد قاله رسول الله ﷺ وفعله ، وليس فى تفسير الله للمن والفداء منع من غيره ، ولعل ابن لحمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال وربك أعلم .. قاله القرطبى .

الحكم السادس : هل يجوز أخذ الفداء من الأسير ؟

اختلف الفقهاء فى أخذ الفداء من الأسير على أقوال :

أولا : مذهب الحنفية : أن الأسير لا يفادى بالمال ، ولا يباع لأهل الحرب ، لأنه يرجع حرباً علينا ، أما فداؤه بأسرى من المسلمين فجائز عند الصاحبين (أبى يوسف ومحمد) ، وقال (أبو حنيفة) : لا يفادون بأسرى المسلمين أيضا .

ثانيا : مذهب الجمهور : (الشافعى ومالك وأحمد) جواز أخذ الفداء من الأسرى .

دليل الحنفية : استدل الحنفية على عدم جواز الفداء بما يلى :

١ ـــ قالوا : إن الآية الكريمة ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾[١] ، وبقوله تعالى : ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** ﴾[٢] فقل ذلك عن مجاهد وروى عن (قتادة) انه قال : نسختها آية الأنفال ﴿ **فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم** ﴾[٣] .

ووجه الاستدلال :

أن سورة براءة من آخر ما نزل ، فوجب ان يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء ، والصبيان ، ومن يؤخذ منه الجزية ، والمتأخر ينسخ المتقدم كما هو المعلوم من أصول الشريعة الغراء .

٢ ـــ وقالوا : لا يجوز المن ولا الفداء . لأن فيه تقوية لأهل الشرك على أهل الإسلام ، حيث يرجعون حربا علينا ، وقد أمرنا بتطهير الأرض من الكفرومن رجس المشركين .

٣ ـــ وقالوا : إن ما روى فى (أسرى بدر) منسوخ أيضا بما تلونا ، سيما وأنه قد نزل العتاب فى قوله تعالى : ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض** ﴾[٤] .

---

(١) سورة التوبة من الآية ٥
(٢) سورة التوبة من الآية ٣٠
(٣) سورة الأنفال من الآية ٥٧
(٤) سورة الأنفال من الآية ٦٧

فلا يجوز الاستدلال به على جواز أخذ الفداء .

٤ ــ وقالوا : إن ما كان من النبى ﷺ ــ فى صلح الحديبية « أن من جاء منهم رددناه عليهم » إنما كان فى بدء الدعوة ، وقد نسخ ذلك ، ونهى النبى ﷺ عن الإقامة بين أظهر المشركين وقال : « من أقام بين أظهر المشركين فقد برئت منه الذمة »(١) .

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على جواز فداء الأسير بعدة أدلة . نوجزها فيما يلى :

١ ــ قوله تعالى : ﴿ **فشدوا الوثاق فإمامنا بعد وإما فداء** ﴾ فقد أجازت الآية الكريمة الفداء مطلقاً بدون قيد ولا شرط ، فللإمام أن يمن أو يفدى ، أو يسترق ، عملاً بالآية الكريمة .

٢ ــ وقالوا : إن الآية محكمة ولا نسخ فيها ، لأن النسخ إنما يكون لشىء قاطع ، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ ، والجمع ممكن فإن آية براءة وهى قوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ أمر لنا بقتل المشركين عند اللقاء . فإذا وقعوا فى الأسر كففنا عن القتل إلى المن أو الفداء عملاً بقوله تعالى : ﴿ **فإما منا بعد وإما فداء** ﴾ .

٣ ــ واستدلوا ــ أيضا ــ بأن النبى ﷺ فادى أسرى بدر بالمال . ومن لم يكن عنده مال منهم أمره ــ عليه السلام ــ بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة . وهذا قد ثبت بفعله ــ عليه الصلاة والسلام ــ .

٤ ــ واستدلوا بما روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال : « أسرت ثقيف رجلين من أصحاب النبى ــ ﷺ ــ وأسر أصحاب النبى ــ ﷺ ــ رجلا من بنى عامر بن صعصعة فمر به النبى ــ ﷺ ــ وهو فى الأسر فقال الأسير : علام أحبس ، فقال : بجريرة حلفائك ، فقال إنى مسلم ، فقال النبى ــ ﷺ ــ لو قلتها وأنت تملك أمرك لأفلحت كل الفلاح ، ثم مضى رسول الله ــ ﷺ ــ فناداه الأسير ، فقال إنى جائع فأطعمنى ، فقال النبى ــ ﷺ ــ نعم هذه حاجتك ثم فداه بالرجلين اللذين كانت ثقيف أسرتهما » .

قالوا : فهذا دليل على جواز فداء المسلم بغيره من المشركين .

٥ ــ واستدلوا بما رواه مسلم عن عمران بن الحصين أن رسول الله ــ ﷺ ــ فدى رجلين من المسلمين برجل من المشركين .

---

(١) انظر سنن الترمذى « أبواب السير » باب « ما جاء فى كراهية المقام بين أظهر المشركين » ج ٣ ص ٨٠ حديث رقم ١٦٥٤ فقد ورد الحديث عن جرير بن عبد الله بلفظ « أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى خثعم ، فاعتصم ناس بالسجود فأسرع فيهم القتل ، فبلغ ذلك النبى ــ ﷺ ــ فأمر لهم بنصف العقل وقال : « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين ، قالوا : يا رسول الله ، ولم ؟ قال : لا تراءى ناراهما » .

٦ ـــ واستدلوا بالمعقول وهو أن تخليص المسلم أدلى من قتل الكافر للانتفاع بالمسلم لأن حرمته عظيمة ، وأما الضرر الذى يعود إلينا بدفعه إلى المشركين ، فيدفعه نفع المسلم الذى يتخلص من فتنتهم وعذابهم ، وضرر واحد يقوم بدفعه واحد مثله فيتكافئان وتبقى فضيلة تخليص المسلم وتمكينه من عبادة الله ـــ تعالى ـــ ، وفيها زيادة ترجيح .

هذه خلاصة أدلة الجمهور بالنسبة (للفداء) سواء كان بالمال أو بالرجال على ما عرفت .

وأما (المن) على الأسارى وهو أن يطلقهم إلى دار الحرب من غير شيء فلا يجوز (عند أبى حنيفة ، ومالك ، وأحمد) وأجاره الامام الشافعى لما ثبت ان النبى ﷺ من على (ثمامة بن أثال) سيد أهل اليمامة ثم أسلم وحسن أسلامه ، وقال ـــ ﷺ ـــ : لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى من هؤلاء النتنى ـــ يعنى أسارى بدر ـــ لتركته له »[1] رواه البخارى ، فقوله ﷺ ذلك دليل على جواز المن على الأسرى .

الترجيح :

وبعد استعراض هذه الأدلة من الفريقين نرى أن الأرجح : أن يفوض أمر الحرب لأهل الاختصاص من ذوى الرأى والبصر ، يفعلون ما تقضى به المصلحة العامة ، فإن رأوا قتل الأسرى قتلوهم ، وإن رأوا أخذ الفداء بالمال أو بالأسرى ، فادوهم ، وان رأوا ابقاءهم فى الأسر تركوهم تحت أيدى مسلمين ، فيترك لهم تقدير المصلحة حسب الظروف التى هم فيها . وهذه من (السياسة الحكيمة) التى ينبغى ان تتوفر فى قادة المسلمين .

والرسول ﷺ قد فعل ذلك كله ، فأسر من أسر . وقتل من قتل . وفادى من فادى منهم ، وأطلق سراح من أطلق دون مال ولا فداء . وما نزل من آيات العقاب فى سورة الأنفال فإنما كان بتوجيه إلهى حكيم ـــ حسب المصلحة أيضا ـــ حيث نزلت هذه الآيات الكريمة فى (غزوة بدر) وهى أول حرب يخوضها المسلمون مع أعدائهم فكانت المصلحة تقضى بترجيح جانب الشدة على جانب الرحمة . بالقتل والإثخان وإراقة الدماء ، حتى لا يطمع المشركون بالاقدام على حرب المسلمين مرة أخرى ، وحتى تقلّم أظافر الكفر منذ اللحظة الأولى ، فإذا علم المشركون أن لا رحمة فى قلوب المسلمين عليهم ، هابوهم وتخوفوا من الإقدام على حربهم ، وهذا ما كان قد أشار به الفاروق عمر ـــ رضى الله عنه ـــ على رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن موافقاً لرأيه ولما كثر عدد المسلمين ، وقويت شوكتهم ، وأصبحت الدولة بأيديهم نزل القرآن

(١) انظر صحيح البخارى بشرح الكرمانى « كتاب الجهاد والسر » باب « ما من به النبى ـــ ﷺ ـــ على الأمارى من غير أن يخمس » ج ١٣ ص ١١٠ حديث ٢٩٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لجبره ، وانظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٨٠ فقد ورد الحديث من رواية جبير بن مطعم عن أبيه بلفظ « لو كان المطعم ابن عدى حيا فكلمنى فى هؤلاء النتنين أطلقتهم » يعنى أسارى بدر .

الكريم بالمن والفداء على الإسرى ، بعد أن توطدت دعائم الدولة الاسلامية ، وأصبح صرح الإسلام شامخاً عتيداً ، فكان المن عن قوة ، لا عن ضعف ، وعن عزة ، لا عن ذلة واستكانة .

فالمصلحة العامة هى التى ينبغى أن تراعى فى مثل هذه الحالات : والحرب مكر وخديعة ، ولا عزة للضعفاء المستكينين .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : المؤمن يقاتل فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، فينبغى أن يكون شجاعاً مقداماً .

ثانياً : إثخان العدو بكثرة القتل فيهم والجروح ، من أجل إضعاف شوكتهم وتوهين قوتهم .

ثالثاً : الحرب فى الإسلام حرب مقدسة ، غرضها تطهير الأرض من رجس الكفرة المشركين .

رابعاً : الاكتفاء بالأسر بعد إثخان العدو مظهر من مظاهر رحمة الاسلام بأعدائه .

خامساً : إطلاق سراح الأسرى بدون عوض ، أو أخذ الفداء منهم ينبغى أن تراعى فيه مصلحة المسلمين .

سادساً : الجهاد فى سبيل الله **ماض** فى هذه الأمة حتى لا يبقى على وجه الأرض شرك .

سابعاً : الله ــ جل ثناؤه ــ قادر على أن ينتقم من المشركين ، ولكنه أراد أن ينيل المؤمنين أجر الاستشهاد فى سبيله .

ثامناً : الحياة ابتلاء للمؤمن والكافر ، يبتلى بعضهم ببعض ليعذب الكافر ويثيب المؤمن .

حكمة التشريع

أقر الاسلام الحرب ــ مع علمه بما تجره على البلاد من ويلات ونكبات ــ لضرورة وقائية . وعلاج اضطرارى . لا مناص منه لمجابهة الطغيان ، ودفع الظلم والعدوان ، وتطهير الأرض من رجس المشركين الغادرين ، على حد قول القائل :

إذا لم تكن إلا الأسنة مركبا **فما حيلة المضطر إلا ركوبها**

ولكن الإسلام فى الوقت الذى يدعو فيه إلى الجهاد ، ويحض على القتال ، ويبيح الحرب كضرورة من الضرورات ، تجده يأمر بالرحمة والشفقة فى (معاملة الأسرى) الواقعين فى أسر العبودية ، فيحرم تعذيبهم أو إيذاءهم كما يحرم التمثيل بالقتلى ، أو الإجهاز على الجرحى ، أو تقتيل النساء والصبيان .

إن الغرض من الجهاد ليس إراقة الدماء ، وسلب الأموال ، وتخريب الديار ، ولكنه غرض إنسانى نبيل . هو حماية المستضعفين فى الأرض . ودفع عدوان الظالمين ، وتأمين الدعوة ، والوقوف فى وجه الاستعلاء والطغيان كما قال ــ جل ثناؤه : ﴿ **ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات**

ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[١] .

ولقد كان من وصايا النبى الأكرم ــ ﷺ ــ ، للجند والجيش المجاهدين فى سبيل الله ، أن يأمرهم بطاعة الله ، وعدم الغدر والخيانة حتى بالأعداء . فقد روى مسلم فى صحيحه أن رسول الله ــ ﷺ ــ كان إذا أمر أميراً على جيش أو سرية ، أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ، ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « أغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، أغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً »[٢] .

وكذلك فعل الخلفاء الراشدون ، ففى وصية أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ لأسامة بن زيد حين بعثه إلى الشام « لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً ، ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكله وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ــ يريد الرهبان ــ فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

وهكذا كانت رحمة الإسلام فى الحرب ممثلة بمبادئه الإنسانية الرحيمة . فالإسلام حين يبيح الحرب يجعلها مقدرة بقدرها فلا يقتل إلا من يقاتل فى المعركة ، وأما من تجنب الحرب فلا يحل قتله أو الاعتداء عليه : **﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾**[٣] ، **﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾**[٤] .

لقد حرم الإسلام قتل النساء ، والشيوخ ، والأطفال ، وقتل المرضى والرهبان .

وحرم (المثلة) والإجهاز على الجريح ، وتتبع الفارّ ، وتحريق البيوت والأشجار ، وذلك تمشياً مع نظرته الإنسانية المثلى فى حماية المستضعفين ، ودفع الظلم والعدوان ، ولأن الحرب كعملية جراحية ، يجب إلا تتجاوز موضع المرض من جسم الإنسان . فلا عجب أن نرى هذه الرحمة ممثلة فى تعاليم القرآن ، تدعو إلى الإحسان إلى الأسرى ثم إلى المن عليهم والفداء ، حتى تنتهى المعركة لما فيه خير الإنسانية بانتصار الحق واندحار الباطل ، وصدق الله العظيم : **﴿ فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾** فلله ما أرحم الاسلام ! وما أسمى مبادئه وأحكامه !! أ هـ .

---

(١) سورة الحج من الآية ٤٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الجهاد والسير » باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث .. الخ حديث ٣ / ١٧٣١ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل عن سليمان بن بريدة عن أبيه .

(٣) سورة البقرة من الآية ١٩٤

(٤) سورة البقرة من الآية ١٩٠

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾ أى : إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار : كقوله تعالى : ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[1] ، فأقسم سبحانه أنه سينصر من ينصر دينه ورسوله فهو القادر لا يعجزه شىء ، العزيز الذى لا يقهر ولا يغلب ثم ذكر — سبحانه — عوامل النصر والذين يستمعون نصرة الله وهم الذين أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة ، ودعوا إلى الخير ، ونهوا عن الشر ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وقوله تعالى : ﴿ **ويثبت أقدامكم** ﴾ أى : عند القتال ، وقيل : على الاسلام وقيل : المراد تثبيت القلوب بالأمن ، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة فى موطن الحرب كقوله تعالى : ﴿ **إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان** ﴾[2] .

وبين — ﷺ — أن الله يخذل من خذل دينه وركن إلى الدنيا فعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله — ﷺ — : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » قال قائل : يا رسول الله ، ومن قلة يومئذ ؟ قال : « لا ، بل أنتم كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ولتعرفن فى قلوبكم الوهن قال قائل : يا رسول الله ، وما الوهن ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت »[3] ذكره النبوى فى شرح السنة ، ورواه ابو داود بلفظ « وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن » ، وفى مسند أحمد « ينزع المهابة من قلوبكم ويجعل فى قلوبكم الوهن » .. وسنده قوى .

عوامل البناء ومعاول الهدم

جاء فى كتابنا « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » ما نصه :

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد إن لا إله إلا الله ولى الصالحين ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمد رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليك يا علم الهدى .

ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم

فيا حماة الاسلام وحراس العقيدة .

فإن الدهر مدرسة أساتذته الأيام والليالى ، والعاقل من يأخذ من أحداث التاريخ عبرة قال جل شأنه :

---

(١) سورة الحج من الآية ٤٠ والآية ٤١

(٢) سورة الأنفال الآية ١٢

(٣) انظر شرح السنة للبغوى ج ١٥ ص ١٦ فقد ورد الحديث رقم ٤٢٢٤ من رواية عن ثوبان فقد روى الحديث بلفظه .

﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾(١) .

وهذا الكتاب « خذوا من أحداث التاريخ عبرة » يعرض لدراسة قرنين من الزمان تعرض فيهما العالم الاسلامى للهجمات الصليبية الحاقدة إلى أن قيض الله للأمة البطل المسلم (صلاح الدين الأيوبى) الذى كان يستعين على أعدائه بصلاة الليل ، والذى قال لأصدقائه ذات يوم وقد دارت بينهم طرفة فضحكوا ولم يبتسم ، فقيل له : لماذا لا تشاركنا ضحكنا أيها القائد ؟ فقال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أستحى من الله أن يرانى مبتسماً والمسجد الأقصى فى أيدى الصلبيين ، إنه البطل الذى جعل من جهوده جوادة داراً ومستقراً وقيل له : لما لا تبنى لك داراً فقال بلسان يتفاطر يقينا وجلالاً ومهاباً : وماذا يصنع بالدار من ينتظر الشهادة بين عشية أوضحاها ليست هذه دارنا بإن دارنا هناك لها نجمع وإليها نرجع .

لقد أجرى الله النصر على يديه بعد ما قضى على معاول الهدم من تفسخ أخلاق ، وانحلال اجتماعى ، وضعف للوازع الدينى ، وشيد عوامل البناء من عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وقوة للوازع الدينى ، ونحن إد نقدم هذه الدراسة بين يدى الأمة الاسلامية نرى أن التاريخ يعيد نفسه ، منها نحن أولاء قد تداعت علينا الأمم من الشرق والغرب ، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فلنتخذ من أحداث التاريخ عبرة ، ولمثل هذا فليعمل العاملون ، وفيما كان عليه (صلاح الدين) فليتنافس المتنافسون وعلى الله فليتوكل المؤمنون وربنا الرحمن المستعان على ما يصفون . ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾(٢) .

حالة العالم الإسلامى قبل الحروب الصليبية

إن من الواجب على كل من أراد أن يدرس هذه الحقبة من تاريخ العالم الاسلامى التى خاض فيها الشرق الاسلامى هذا الصراع الدامى الرهيب مع جيوش أوروبا التى نزحت إليه تحاول أن تجتث جذوره وتقضى على مقدساته ، من الواجب على الدارس لهذه الحقبة أن يلقى نظرة على خريطة الشرق الاسلامى والمغرب الاسلامى ليرى كيف انتهز هؤلاء الأعداء تلك الفرص السانحة ، واستغلوا مراكز الضعف فى العالم الإسلامى حينذاك ، ثم انقضوا على الفريسة انقضاضا وحشياً لا يعرف الرحمة ولا الهوادة ، ولا يقيم للقيم والمبادىء والمثل والعقائد وزنا ، وليعلم الدارس للتاريخ أن النكبة إذا كانت قد حلت بالمسلمين فى تلك الحقبة كان ذلك لثلاث أسباب كما قال علماء التاريخ ومؤرخو العلوم ، وهذه الأسباب الثلاثة تنحصر فيما يلى :

---

(١) سورة آل عمران من الآية ١٤٠ والآيتان ١٤١ ــ ١٤٢

(٢) سورة النازعات الآية ٢٦

أولاً : ضعف الوازع الدينى

ثانياً : التفسخ الأخلاق

ثالثاً : الانحلال الاجتماعى

وكفى بهذه الأسباب من عوامل للتدمير والهدم ، فإذا ضعف وازع الدين فى النفوس انحلت أكبر عروة وثقى يقوم عليها بناء النفس الإنسانية وإذا ما ضعف وازع الدين فمضا الضمير وقست العاطفة وبين غفوة الضمير وقسوة العاطفة تنام النفوس على هدهدة الشهوات ، وتنزو على الملذات ، ولا تكترث بعظائم الأمور ، ولذلك كانت الرسالة التى جاء الأنبياء من أجلها بناء العقائد فى النفوس وإقامة النفوس على العقائد ، وتشييد الصروح العالية فى مجال الإصلاح الاجتماعى ، وتزكية النفوس وتطهيرها ، وربط القلوب بخالقها ومبدعها .

ومن ثم فإن التعريف الجامع لكلمة الدين : أنه هو مجموعة العقائد والشرائع التى تنظم علاقة العبد بخالقه ، وعلاقته بمخلوقات الله ، أجل ! تنظيم علاقته بربه . فيعرف واجبه عليه ، ويستشعر هيمنة سلطانه الأعلى على نفسه ، ولقد أطلق الرسول — ﷺ — على الإحسان هذا المعنى الواسع الرفيع العظيم القدر الجليل الأثر فقال : « إن الاحسان ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[1] . وهذا هو الذى ركز عليه الكتاب الكريم فى قوله : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾[2] .

وفى قوله جل شأنه : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ان الله بكل شىء عليم** ﴾[3] .

ما ثمة أدنى شك فى أن قوة الوازع الدينى هى محور الإرتكاز ، ومركز الدائرة ، وحجر الزاوية ، والعنصر الفعال ، والركن الركين ، والحصن المتين ، الذى تبنى عليه سعادة الأمة وتشيد فوقه صروحها .

أما خطر التفسخ الأخلاق على الأمة فشره مستطير ، إذ هو أحد النتائج المترتبة على ضعف الوازع الدينى وإنما تنفسخ الأخلاق إذا ضعفت رقابة العبد لأوامر ربه ، قال الله — جل فى علاه — ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾[4] .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب « سؤال جبريل عن الايمان والاسلام » ج ١ ص ١٩ — ٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه من حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) سورة الحديد الآية ٤

(٣) سورة المجادلة الآية ٧

(٤) سورة الأعراف الآية ١٦٥

ولعل الشهادة العليا والحقيقة الكبرى التى نطق بها القرآن الكريم لنبى الرحمة وباعث النهضة الأخلاقية هى قول الله تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[١] .

سئلت عائشة ــ رضى الله عنها ــ عن خلقه ــ ﷺ ــ فقالت « كان خلقه القرآن »[٢] ، وما أجل قول الرسول ﷺ وهو يلخص رسالته فى قوله « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٣] .

وان من أهم الأسباب التى تباد بها الأمم ويرسل الله بسببها الجوائح هو كثرة ذنوبها ومخالفتها ربها وتلك كلها صور من صور التفسخ الأخلاقى .

قال تعالى : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين** ﴾[٤] .

هذه الآية الكريمة بجلالها وقوتها تلخص إهلاك الله للقرون على قدر قوتها وعتوها وسلطانها وجبروتها ، تلخص كل هذا فى قوله « بذنوبهم » وليست كلمة الذنوب الكلمة الرسلة بل إنها صواعق ورعود ، إنها العاصفة بكل بروقها ورياحها الهوجاء .

ومن هنا يتضح لنا قيمة التمسكِ بالقيم والمبادىء والمثل .

يا رسول الله

بنيت من الأخلاق ركنا   فخانوا الركن فانهدم اضطرابا
ولو حفظوا سبيلك كان نورا   وكان من النحوس لهم حجابا

فإذا ما تفسخت الأخلاق تربت على ذلك إنحلال المجتمع وهذه ثالثة الأثافى وداهية الدواهى إذ إنحلال المجتمع مرضى من أخطر الأمراض فما انحلت أمة إلا كان الذل رائدها والخذلان حليفها وأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

والقرآن العظيم يضرب الأمثلة بأقوام إنحلت مجتمعاتهم بعد ما ضعف وازع الدين فيهم ، وتفسخت الأخلاق بينهم فكان مصيرهم الهلاك والدمار والوبال والعار .. إليك ما قاله الله ــ جل شأنه ــ فى مجتمع كان كل همه كسب المال من الحرام ، ولو أدى ذلك إلى أن يبخس الناس أشياءهم ، وينقص المكيال ، والميزان قال تعالى : ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وانى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان**

(١) سورة القلم الآية ٤

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لسعد بن هشام بن عامر .

(٣) انظر السنن الكبرى للبيهقى « كتاب الشهادات » باب بيان مكارم الأخلاق ج ١٠ ص ١٩١ ، ١٩٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) سورة الأنعام الآية ٦

بالقسط ولاتبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ، بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾[١] .

ولكنهم وقفوا من هذه التعاليم السامية والتوجيهات الربانية الغالية الرفيعة العالية موقف الجحود والتهكم والاستهزاء ، ﴿ **قالوا يا شعيب أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾**[٢] . قالوا ذلك على سبيل السخرية لأن لغة المادة إذا سيطرت على النفس أعمتها عن كل الحقائق وسدت أمامها أبواب الرشد والهدى .

فماذا كانت عافية هؤلاء الذين انحلت مجتمعاتهم وفسدت أخلاقهم ؟ قال تعالى : ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾**[٣] .

وهذا نموذج من نماذج عديدة لمجتمعات عديدة وصورة لقوم لم يكن عندهم وازع من الدين ولا بقية من خلق ولا أثارة من إصلاح اجتماعى وهكذا نتبين أن أوروبا انتهزت تفكك المجتمع الاسلامى واستبعاد الفرقة فيه فأرسلت جيوشها لتضرب ضربتها وليلق القارىء نظرة على هذا المجتمع قبل أن تنزح إليه جيوش أوروبا . فقد كان المجتمع الاسلامى قبيل الحروب الصليبية على حالة من الاضطراب والتفكك تسمح لأعدائه بمهاجمته والنيل منه .

فمصر كانت نهباً للمجاعة والثورات والانقلابات وعدم الاستقرار ، وبلاد العراق والخلافة العباسية ما ان شملها نفوذ السلاجقة حتى عادا إلى ما كانا عليه زمان بنى أمية من الخلافات والحوادث والبلاد الشامية كانت مسرحا لحروب بين الفاطميين والسلاجقة وبين السلاجقة أنفسهم .

ولم تكن حالة المغرب الاسلامى أحسن حظاً من المشرق ، فتونس عمتها الفوضى والاضطرابات ونالها التقسيم وفقدان الوحدة السياسية ، وصقلية انتهت منها آخر مقاومة إسلامية واستولى عليها الرومان سنه ٤٨٤ هـ ، أما الأندلس فقد بدأ فيها عهد التراجع ورجحان كفة الصليبين ، وبدأوا يحتلون المدن الاسلامية الواحدة بعد الأخرى .

ولم تكن نجدة ابن تاشفين إلا إيقافا وقتياً لعهد التفوق الصليبى بالأندلس . وهكذا كان العالم الاسلامى قبيل الحروب الصليبين فى حالة مهيئة على مهاجمته واكتساحه .

ما هى الحروب الصليبية ؟

ـــ حروب الصليبيين عبارة عن الحملات العسكرية التى قامت بها أوروبا الصليبية خلال قرنين من

---

(١) سورة هود الآيات ٨٤ ـــ ٨٦

(٢) سورة هود الآية ٨٧

(٣) سورة هود الآيتان ٩٤ ـــ ٩٥

الزمن (٤٩٠ هـ ــ ٦٩٠ هـ) بقصد استخلاص بيت المقدس من يد المسلمين أو للمحافظة على امارات الصليبيين التى تكونت فى البلاد الشامية .

والحروب الصليبية تمثل دوراً هاماً من أدوار الصراع المستمر من الزمن القديم ما بين الشرق والغرب .

فما هى الأسباب التى أدت إلى هذه الحروب ؟

يكاد المؤرخون يجمعون على أن أهم الأسباب التى دعت إلى هذا الصراع الدموى العنيف تنحصر فيما يلى :

١ ــ ما يحمله الأوروبيون من الأحقاد للمسلمين نتيجة وجود بيت المقدس فى يد المسلمين .

٢ ــ لما كانت القسطنطينية على وشك ان يستولى عليها المسلمون استنجد الامبراطور الكسيس كومنين بالعالم الأوروبى ضد المسلمين .

٣ ــ وكان من الأسباب التى دعت إلى ذلك تلك الحالة الاجتماعية بأوروبا وسوء نظام الطبقات والظلم والاضطهاد المسلط على عامة الشعب كان يدفع به إلى الانعتاق والحرية كما كانت طبقات الأمراء والإقطاعيين يدفعها حب تكوين الممالك والإمارات .

٤ ــ وكان من أهم الأسباب وأقواها فى نفوس الصليبيين هو انتزاع بيت المقدس من يد المسلمين .

كيف بدأت .. ؟

وكان فى الأسباب السابقة ما يحفز أهل أوروبا ويدفعهم بقوة إلى أن ينسابوا على الشرق كما تنساب الثلوج من قمم الجبال وأن يتحركوا بسرعة ليحققوا بسفك الدماء وقتل الأبرياء وتشريد الآباء والأبناء دون أن تأخذهم فى ذلك دوافع من رحمة أو بقية من إنسانية ، وليحولوا منطقة الشرق ومهبط الوحى وأرض الرسالات وجنة الأرض وربوع السلام ــ تحركوا ــ ليحولوها إلى دماء تجرى وأرض تضطرم نارا وتصطلى سعيرا ، ــ تحركوا ــ ليحولوها إلى جحيم يستعر نارا تلظى .

واعتدوا أولاً مجمع بليزانس بشمالى ايطاليا ، ثم مؤتمر كليرمون بفرنسا وهو الذى قررت فيه الحرب ، واتفقوا فيما بينهم على أن يكون لقاؤهم بمدينة القسطنطينية ، وكانت الحملة الأولى فى غاية الفوضى والاضطراب استطاع قليج أرسلان السلجوقى أن يقضى عليها قرب مدينة نيقيه ثم تبعتها جيوش أخرى نظمها الإقطاعيون والأسراء جاءت من جنوبى فرنسا وشمالها ومن بلجيكا ومن جنوب ايطاليا واجتمعوا كلهم فى القسطنطينية ولما عبروا إلى آسيا الصغرى اعترضهم قليج أرسلان فدارت بينهما معارك كبرى ثم تقدموا إلى انطاكية وفرضوا عليها حصارا استمر ثمانية أشهر سقطت بعدها فى أيديهم وبعد سقوطها توجهوا بجيوشهم يقصدون بيت المقدس المدينة المقدسة التى فتحها المسلمون أيام الفاروق عمر ــ رضى الله عنه ــ .

أرادت جيوش أوروبا بجبروتها وطغيانها أن تنتزع هذه الأرض المقدسة من يد المسلمين بعد ما رأت فيهم عوامل الفرقة والضعف وقد كانت المأساة بل الملهاة وكانت الكارثة بل الطامة الكبرى أن حاصروا

بيت المقدس شهرا وقع بعده فى أيديهم وكان ذلك فى عام ٤٩٢ هـ ـــ ١٠٩٩ م . وناهيك بما جرى فى هذه المدينة من جرائم تقشعر منها الأبدان وتشيب من هولها الولدان . سقطت مدينة القدس فى شهر شعبان بعد سفك للدماء بصورة وحشية قدرها المؤرخون بسبعين ألفاً من المسلمين .

وإليك ما قاله ابن الأثير عن ابتلاء المجتمع الإسلامى بهذه الكارثة :

« وورد المستنفرون من الشام فى رمضان إلى بغداد صحبة القاضى أبى سعد الهروى فأوردوا فى الديوان كلاماً أبكى العيون وأوجع القلوب وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا وذكروا ما دهم المسلمين من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد ونهب الأموال فلشدة ما أصابهم أفطروا .. ولم يكن الخليفة العباسى فى هذا الوقت يملك من الأمر شيئاً فالضعف والفرقة عاملان خطيران دبا فى صفوف المسلمين ، فتعدد ما كان الصليبيون فى نشوة وفرح بالغلبة والنصر كان ملوك المسلمين وأمراؤهم فى شغل شاغل عما يدور على أرضهم من أخطار جسام ، وأهوال عظام ، شغلتهم الدنيا ، وبددتهم الفرقة . وأضعفتهم الخلافات ، إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

أما الصليبيون فقد استمر رأيهم على أن يقيموا مملكة لاتنين ببيت المقدس واختير لرئاستها قواد فروا ، وهكذا حققت أوروبا حلمها الذى كان يراودها عبر السنين الماضيات فمنذ أن استقر لها الأمر أخذت الأمدادات تتوارد عليها لتقوية حاميتها ولكى يتم لها احتلال بقية السواحل الشامية .

ولقد قام لها بعد ذلك إمارات عرفت بالإمارات اللاتينية أو الممالك الصلبيين وهى :

١ ـــ إمارة الرها : وتم الاستيلاء عليها سنه ٤٩٢ هـ

٢ ـــ إمارة انطاكية : وظلت فى أيديهم إلى سنة ٦٦٧ هـ .

٣ ـــ مملكة ببيت المقدس : وكانت من أعظم الإمارات الصليبية ولهذا متوليها يلقب بملك وكانت هذه المملكة أعظمها شأناً وأوسعها رقعة ، إذ امتدت حدودها إلى أقصى اتساعها من شمال بيروت إلى جنوب عسقلان . وكذلك كانت تشمل الأراضى الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط وامتد نفوذ هذه المملكة إلى الضفة تشمل الأراضى الواقعة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط وامتد نفوذ هذه المملكة إلى الضفة الشرقية للأردن والبحر الميت ووصلت إلى خليج العقبة .

٤ ـــ إمارة طرابلس : تكونت سنه ٤٩٦ هـ واستمرت إلى سنه ٦٨٨ هـ :

ولا يهولنك أن قامت للصليبيين إمارات فإنها لم تكن مستقرة فى أوضاعها ولا هى بالتى يستعصى النصر فيها على المسلمين ، لولا أن الأمراء لمسوا جوانب الضعف والفرقة فى صفوف المسلمين وما كان لهذه الأمارات أن تدوم وما كان للحق أن يرى الباطل يزأر فى عرصات الدنيا ويعربد فى رحابها دون أن يتصدى له بضربة يهوى لها صريعا فقد شاءت حكمة العلى الأعلى والحاكم الأعظم ـــ جل فى علاه ـــ أن يقيض لهؤلاء الطغاة بيتين كريمين هما (آل رنكى ، وآل أيوب) ومن ثم بدأ رد الفعل الإسلامى يتجلى بقوة وبدأ الذين كانوا

يدخلون الرعب فى قلوب المسلمين يرتد كيدهم فى نحورهم ويهتزون من أعماقهم بعد ما أتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون .

وهذه سنة الله فى خلقه عندما يلجأ المسلمون إلى ربهم ويعرفون الطريق إلى رضاه ويأخذون فى الأسباب إلى طاعته لن تستطيع قوة على وجه الأرض أن تقف فى سبيلهم هذا قانون الله الذى لا يتغير : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾(١) .

وعندما يتفرقون ويختلفون يحل بهم من البلاء ويسلط عليهم من يبعث الرعب فى قلوبهم فلا ينزع إلا إذا عادوا إلى الله .

« يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا . أو من قلة يومئذ يا رسول الله ، قال : لا ، إنكم لكثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ينزع الله الرعب من قلوب أعدائكم ويلقى الوهن فى قلوبكم . قالوا : وما الوهن يا رسول الله : قال : حب الدنيا وكراهية الموت »(٢) .

وكأنى ألقى فباظرى إلى مملكة بيت المقدس التى قامت على يد الصليبيين فى شعبان ٤٩٢ هـ حتى قيض الله للأمة البطل المغوار والمجاهد المسلم (صلاح الدين الأيوبىِّ الذى استرد المسجد الأقصى فى رجب ٥٨٣ هـ كأنى انظر الآن إلى مدينة القدس ومسجدها المبارك وهى تقع أسيرة تحت يد الصهيونيين شذاذ الآفاق وبغاة البشر كأنى بالتاريخ يندى جبينه حياء وخجلا عندما ينظر إلى هذه الراية البيضاء ذات النجمة الزرقاء المسدسة الأضلاع ترفرف على أرض السلام على أرض الاسلام ، على أرض النبوة ، على أرض الوحى ، على أرض مواكب النور والعرفان ، على أرض الهدى ، على أرض الضياء ، على ربوع فلسطين التى صارت وطناً بلا شعب لشعب بلا وطن . عندما دخلتها اسرائيل ، بيت الصهيونية البكر لتجعلها ركيزة تقيم عليها دولة تسمى اسرائيل الكبرى تمتد من النيل إلى الفرات ، والمسلمون يملأون الدنيا مشرقا ومغربا ولكن فرقة وخلاف وشتات فما أشبه الليلة بالبارحة . إنها المأساة ، لقد سقطت صقلية وكانت الشهيدة الأولى ، وجاءت بعدها الأندلس فخرت شهيدة على أرض الإسلام .

وتبعتها فلسطين التى سالت دماؤها الذكية بعد ما ذبحها العدو الفاشيستى ، لأنه سرطان يمتد ويسرى إن لم يهب المسلمون ويجروا عملية استئصال له ، فالله وحده هو الذى يعلم العواقب وهو الذى يجرى عاقبة الأمور وهو الذى إليه تعيد مقتضياتها وإليه يرجع الأمر كله .

---

(١) سورة محمد الآية ٧

(٢) انظر شرح السنة للبغوى ج ١٥ ــ ص ١٦ حديث ٤٢٢٤ من رواية لثوبان (سبق تخريجه فى ص ٦٦) .

نهضة مباركة

إذا ما ألقينا نظرة فاحصة على ما مضى من الأحداث رأينا أن سنة الله الواقعة فى كونه شاءت للمسلمين بالنصر إذا كان الله غايتهم الكبرى ، وإذا كانت تعاليم رسوله هدفهم الأسمى .

« مازلتم منتصرين على عدوكم مادتم متمسكين بسنتى » .

والقرآن يؤكد المعنى فى أكثر من موضوع حيث يقول الحق :

﴿ **ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز** ﴾[١] .

وحيث يقول : ﴿ **كتب الله لأغلبن انا ورسلى ان الله قوى عزيز** ﴾[٢] .

وحيث يقول : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾[٣] .

وطريق النجاة هو الإيمان هذا حكم الله القاطع الذى لا يتخلف ولا يغيب .

﴿ **ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين** ﴾[٤] .

فإذا ما تخلف المسلمون عن اتباع كتابهم والسير وراء هدى نبيهم كانت النتيجة : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾[٥] .

« فإن خرجتم عن سنتى سلط الله عليكم من يبعث الرعب فى قلوبكم » .

وهكذا تجلت الأمور وانكشف الحقائق ، فما كان لجيوش أوروبا ان تستولى على بيت المقدس وما وقع فى أيديها من الامارات إلا عندما انتهزت فرصة الضعف السياسى والاجتماعى فى المشرق الإسلامى ولكن العناية العليا ، والإرادة العظمى لها فى هذا حكمة فلعل الشدائد هى التى تمحص الرجال ، ولعل المحن هى البوتقة التى تنصهر فيها النفوس ، لينض خبثها وينصع طيبها .

﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾[٦] .

إن العقيدة هى التى تخلق البطولة وإن الشدائد هى التى تمحص النفوس وتزكيها وإن المحن هى التى تلخص معادنها .

﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾[٧] .

---

(١) سورة الحج من الآية ٤٠
(٢) سورة المجادلة الآية ٢١
(٣) سورة غافر الآية ٥١
(٤) سورة يونس الآية ١٠٣
(٥) سورة النور من الآية ٦٣
(٦) سورة آل عمران الآية ١٤٢
(٧) سورة آل عمران من الآية ١٤٠

هذه حقائق قرآنية عليها خمس نتائج :

الأولى : وليعلم الله الذين آمنوا .

الثانية : ويتخذ منكم شهداء .

الثالثة : والله لا يحب الظالمين

الرابعة : ويمحص الله الذين آمنوا

الخامسة : ويمحق الكافرين .

فى وسط هذا الظلام المدلهم والخطوب المحتدمة وأعماء الليل الحالكة وقد جلل المشرق الاسلامى عار الاحتلال الأوروبى والضعف السياسى والاجتماعى ضاربا أطنابه أوجد الله من الشدة فرجاً ومن الضيق مخرجاً ومن الليل فجراً .

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشر بخير فإن الفارج الله
اليأس يقطع أحيانا بصاحبه لا تيأسن فإن الكافى الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تجزعن فإن الصانع الله
إذا بليت فثق بالله وارض به إن الذى يكشف البلوى هو الله
والله مالك غير الله من أحد فحسبك الله فى كل لك الله

بيت آل زنكى

شاء الله ولا راد لمشيئته ، أن يقوم أبطال يحملون عقيدة التوحيد ، يزلزلون الأرض تحت أقدام الصليبيةَ الأولى ، التى استولت على بيت المقدس والإمارات ، فكان هذا الفجر الذى أشرق أمله ، وانتشر جنوده فى بيت آل زنكى ، ومن حق هؤلاء الناس علينا ، أن نسلط على بيتهم الأصيل بعض الأضواء الكاشفة ، حتى تكون صورتهم فى الأذهان جلية ، فآل زنكى هم هؤلاء الأبطال ، الذين وضعوا المسمار الأول فى نعش الصليبين الأوربية ، عائلة عرف أول أفرادها زمن السلطان (ملكشاه) السلجوق وهو قسيم الدولة آقسنقر ، وقد عرفه صاحب كتاب وفيات الأعيان بقوله : هو أبو سعيد آقسنقر بن عبد الله الملقب قسيم الدولة المعروف بالحاجب ، جر البيت الأتابكى أصحاب الموصل ، وقد كان من المماليك وأصحاب « ملكشاه » وتربى معه منذ الصغر .

وعندما تولى ملكشاه المملكة اتخذه من قواده ، وذلك لأنه لمح فيه أمارات الاستقامة الخلقية ، والكفاءة النادرة ، والشجاعة والقيادة والحكمة ، وهكذا تكون صفات القائد والأمير ، وبهذا يكون ملكشاه قد وضع الأمور فى نصابها ، وأعطى القوس باريها .

ولقد تولى آقسنقر إمارة حلب من قبل ملكشاه ، وكانت وفاته سنه ٤٨٧ هـ ولم يترك إلا ولداً صغيرا له من العمر عشر سنوات ، وهو عماد الدين زنكى .

ويطيب لنا الحديث عن هذا البطل ، الذى طبقت شهرته الآفاق ، وذاع صيته ، فاهتزت له أعواد المنابر ، ووصل رنينه إلى أعماق القلوب المؤمنة ، لقد قام بتربية هذا الطفل الأوصياء من أصدقاء أبيه ، ولما بلغ أشده واستوى عوده ، جاهد مع المجاهدين جند الإمارات الصليبيه ، فبدت منه آيات النجابة ، ودلائل الشجاعة ، وإمارات الصدق مما استرعى أنظار الخليفة العباسى والسلاجقة ، فولوه حكم مدينتى « واسط ــ والبصرة سنة ٥١٦ هـ » وفى سنة ٥٢١ هـ نال الولاية على الموصل .

وهكذا انفسح المجال أمام هذا الأمير الموفق والزعيم الملهم ، فكرس إهتمامه ، وركز هدفه فى إقامة أمة إسلامية موحدة ، لحمتها العدل ، وسداها الرحمة ، وهدفها الجهاد من أجل تحقيق عزة الإسلام ، لِأمة ترفرف فوقها راية السلام والإسلام ، ويحددها العمل الصالح من أجل رضا الواحد الديان ، ويهتف بها قول الحق جل جلاله :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾(1) .

وقد تركزت سياسته الداخلية على أمرين فى غاية الأهمية ، هما : بث الأمن ، والعدالة الاجتماعية داخلياً ، وتركزت سياسته الخارجية على تنظيم الأمة الاسلامية ، وجمع شملها ، وتطهير الأرض من أرجاس المحتل الأثيم .

وكأنه يردد قول القائل :

ومن تكن العلياء همة نفسه   فكل الذى يلقاه فيها محبب .

فذاع صيته ، مما جعل أهل المدن يستنجدون به ضد ظلم حكامهم ، ووجد الاستنجاد قلبا مؤمناً ، فلبى نداء أهل المدن والحصون والقرى بالجزيرة الفراتية ، وديار بكر ، وغربى الفرات ، وما هى إلا فترة وجيزة ، حتى كان عماد الدين تحت إمرته ، حمص وحماه وحلب وبعلبك ومعرة النعمان ، ومن ثم فإن دولته أصبحت تهدد الإمارات الصليبية ، حيث كانت تتاخمها ولم يكن خارجاً عن حكمه فى بلاد الشام سوى دمشق وما جاورها من البلاد .

(1) ــ آل عمران آية : ١٠٤

فجر جديد :

إن التاريخ يشهد ، والوقائع تثبت ، والحقائق تؤكد ، أن العدل والحزم والرحمة ، إذا توافرت فى إنسان يحكم ، كانت مفاتيح يضعها الله ليجرى بها الخير على يديه ، وأن الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذا أخذت مكانها فى قلبه ، أتته الأمور منقادة إليه تجر أذيالها ، وهى طيعة ، فلقد رأيت عماد الدين ، وقد هيأ الله له السبيل إلى توحيد الأمة المتفرقة ، فنشر العدل وركز دعائم الأمن ، وأقام صروح الإصلاح الاجتماعى ، حتى أصبح الرجل الذى يستنجد به لدفع الظلم ، وما أجل هذا العمل ، وما أروعة وفى هذا يقول : ربنا فى الحديث القدسى : « ياعبادى لقد حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً »(١) .

عماد الدين رجل أشرب قلبه بحب الجهاد ، ووجد فى ذلك الغاية الكبرى ، وأراد أن يبدأ حملاته العسكرية ضد الصليبيين ، بفتح مدينة الرها ، وما أدراك ما مدينة الرها ، إنها مدينة ذات قداسة عند الصليبيين ، وفى ذات الوقت لها مكانتها فى قلوب المسلمين ، لما احتوته من المعالم الاسلامية ، والآثار التاريخية ، فيوجد بها جامع ينسب للخليل عليه السلام ، ومقام الأيوب الصديق ، واضرحة لجابر الأنصارى وأبى عبيدة بن الجراح ــ بديع الزمان الهمزانى .

فقد جيش عماد الدين الجيوش ، وعبأهم بالعقيدة ، التى تكاد تجعل المستحيل ممكناً ، والتقى بالصليبيين ، ودارت بينهما رحى الحرب ، وحمى وطيسها وأشتد القتال ، وكان النصر المبين لعماد الدين ، وقد هزم فى هذه المعركة قائد الصليبين جوسلين الثانى ، وكان ذلك سنة ٣٥٩ هـ وكان للانتصار الباهر الذى حققه فى هذه الموقعة آثار كبيرة ، وأهداف عليا ، فلقد علمت المدينة الرها فى نفوس الصليبين ، فضلا عن أنها كانت أول المدن تكويناً وامتدادا فى الشرق الاسلامى ، وأكبر من هذا كله أن النصر فى هذه المدينة ، جاء عقب ليل شديد الظلمة ، قارس البرودة ، عندما أوشك اليأس أن ينسج خيوطه على النفوس ، جاء النصر ليبدد هذه الخيوط ويقيم فى القلوب صروح الأمل باذخة عالية ، لا يعرف اليأس اليها سبيلا ، فكان هذا النصر من أجل ما حققه ذلك الأمير المسلم .

وظل هذا البطل المجاهد يواصل الإصلاح ويقيم آيات الجهاد ، ويرفع رايات الشرف فى ساحة الحق ، إلى أن وقع ضحية اغتيال أثيم ، فلقى ربه راضيا مرضيا واستقر به المطاف فى جوار الله صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، وكانت وفاة هذا البطل سنة ٥٤١ هـ .

ماذا بعد وفاة عماد الدين ؟

لما استشهد عماد الدين ، خلفه من بعده ولداه سيف الدين غازى ، ونور الدين محمود ، وكان طبيعيا أن يقتسم الأخوان هذه المملكة ، فكان القسم الشرقى لسيف الدين غازى وعاصمته الموصل ، وانقسم

---

(١) ــ أخرجه الامام مسلم فى كتاب البر والصلة حـ ٤ صـ ١٩٩٤ ، صـ ١٩٩٥ برقم ٥٥ /٢٥٧٧

الغربى لنور الدين محمود وعاصمته حلب ، وبهذا كانت مملكة نور الدين محمود، وهى المتاخمة للمالك الصليبية قائما ، بصفة عنيفة ، مما جعل التاريخ يمد يديه مصافحا ذلك البطل بدخوله من أوسع الأبواب ، مسجلا له آيات من الفخر والرجولة النادرة ، والبطولة الكريمة .

ومما هو جدير بالذكر أن بعض النفوس قد يتسرب إليها الضعف ، فيثير فيها روح الشقاق والفرقة والخلاف ، لكن الأيام شهدت ، والوقائع أكدت ، أن هذين الأخوين ، لم يستطع الشيطان أن ينزع بينهما ، ولم تستطع الدنيا أن تثير الخلاف فى نفوسهما ، فلقد كانا فى غاية الوفاق والمحبة ، ولعل هذا العامل له أثره الكبير ، ومكانته التى لا تسامى فى تحقيق الآمال .

ولقد تغيرت الأمور بعد موت عماد الدين زنكى ، وهذه سنة الحياة فليس موت البطل بالأمر العادى ، إنما الأبطال رجال لهم الأثر الكريم فى حياتهم ، ولهم ما يلفت الأنظار بعد مماتهم ، لقد إستغل الأعداء موت عماد الدين فانقض الصليبيون على مدينة الرها ، فاستردها الأمير المنهزم جوسلين الثانى ، وعاث فيها فسادا ..

نور الدين ومدينة الرها :

لما ترامت الأنباء إلى نور الدين ، بما حدث فى مدينة الرها ، انتفض انتفاضة القائد الذى اعتدى على كرامته ، فأراد أن يغسل هذا العار ، ويسيل على جوانبه الدم ، وزأر زئير الأسود إذا ديس عرينها ، وزمجر زمجرة الضياغم فى بطون الغاب ، واستشار المسلمين ، حتى استطاع أن يكون جيشاً ، بلغ عدده عشرة آلاف مقاتل ، توجه بهم إلى مدينة الرها ، وكان النصر حليفه ، فقد هزم أميرها الذى هزمه أبوه من قبل ذلك ، وأسقط كثيرا من الحصون الصليبيه ، التى وقعت صريعة تحت ضرباته القاضية القاصمة ، ولقن الذين انتقضوا حكمه فى الرها لقنهم درساً لاينسونه مدى الدهر .

وهكذا تكون الرجولة إذا كانت حازمة صارمة ، لا تعرف التوانى أو التخاذل ، ولا ترض عيشة الذل والهوان ، إما أن تعيش عيشة الكرماء ، وإما أن تموت ميتة الشرف والشهادة فى سبيل توطيد أركان الحق .

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾(١)

الحملة الصليبية الثانية :

تحركت الأحداث بسرعة ، لم يكن أهل أوروبا يتوقعونها ، فلقد ظن الصليبيون أنهم سيصفو لهم الجو فى المشرق الإسلامى ، ونسوا أو تناسوا أن الله هو صاحب الإرادة العليا ، إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون ، فالوجود ملكه ، والقضاء حكمته ، وكل الكائنات طوع إرادته ، قوله الحق وله الملك ، خالق الانسان ، **ومبدع الأكوان** .

---

(١) المنافقون آية : ٨

لعل المنقب فى بطون التاريخ ، اذا عجم عود الأحداث ونخل مخزونها ، وقدح زنادها ، يعلم أن من أهم الأسباب التى دفعت أوروبا إلى تكوين الحملة الصليبية الثانية :

١ ــ اليقظة الإسلامية ، التى قواها وأخرجها إلى حيز الوجود ، الشهيد البطل عماد الدين زنكى ، فالإسلام ذلك العملاق الكبير ، الذى تتضاءل أمامه كل مظاهر الحياة وزخارفها ، والإسلام يحمل من عوامل القوة الذاتية ، ما يجعله كفيلا بأن ينشر نفسه بنفسه ، فهو الحقيقة الثابته التى قال الله فى شأنها :

﴿ له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاة وما هو ببالغه ﴾[1]

أجل أنه الحقيقة ، لأنه وحى الله وإرشاده وتوجيهه .

﴿ فذالكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ﴾[2] .

٢ ــ ويأتى السبب الثانى للحملة الصليبيه الثانية ، وهو إنتصار عماد الدين زنكى فى مدينة الرها ، لما لها فى قلب الصليبيين من قداسة ، واسترجاع ابنه نور الدين لها من يد أميرها المنهزم جوسلين الثانى ، الذى فر منها بعد أسبوع واحد ، كل أولئك الأسباب دعت إلى تكوين هذه الحملة ، التى دعا إليها المحرض لها سان برنارد ، وقد عقد مجمع فى مدينة فيزولاى (مارس ١١٤٦ ــ ٥٤٠ هـ) واستجاب لذلك ملك فرنسا لويس السابع ، وامبراطور ألمانيا كونراد الثالث ، فماذا كان مصير هذه الحملة الثانية ؟

لقد تحركت جيوشها إلى القسطنطينيه ، ومنها إلى آسيا الصغرى ، ولقد التقى لويس السابع بأمير انطاكيت « ريموند » وكان من رأى هذا الأجنبى لويس أن تقع محاربة نور الدين محمود ، لأنه يمثل الخطر الحقيقى ضد الإمارات الصليبيه ، ولكن لويس السابع امتنع عن ذلك ، مفضلاً زيارة بيت المقدس قبل كل شىء ، واحتدم الخلاف بينهما ، حتى خرج لويس السابع مغاضبا متجها إلى بيت المقدس ، ومعهما امبراطور ألمانيا ، واستقر رأى الثلاثة على أن يتوجهوا إلى مدينة دمشق . ويحتلوها ، وأراد الله أن يكون هذا القرار ، الذى استقروا عليه مخيباً لآمالهم ، فلقد تحركت الجيوش فعلا ، وحاصرت دمشق ، ولكن لم يدم حصارها أكثر من خمسة أيام فقد دب الخلاف بين القادة الصليبيين ، وترامت الانباء بتحرك البطلين نور الدين محمود ، وشقيقه سيف الدين غازى ، ورجعت الحملة التى كانت تريد بالإسلام شراً ، رجعت تجر وراءها أذيال الندامة ، رجعت بخف حنين .

---

(١) الرعد آية : ١٤

(٢) يونس آية : ٣٢

﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾[1] .

ولا تسأل عن الآثار الطيبة ، التي كان لها الدافع القوى فى مواصلة الجهاد ، بالنسبة للمسلمين ، فبعد فشل هذه الحملة ، ورجوع جيوشها خائبة ، ارتفعت معنويات المسلمين ، وإزدادت نفوسهم حماسا للجهاد ، وقويت أرواحهم لمواصلة الكفاح .

أهداف لمواصلة الكفاح .

إن الإسلام بعقيدته ، يقيم مكلفيه النفوس على مبادىء قوية من الحق والعدل والرحمة والحزم ، تواضع فى غير ذل ، ورفعة فى غير تكبر ، وهذا هو السر فى عظمة الإسلام ، يقيم النفس على حب الخير ، دون أن يكون ذلك أدنى تسرب للأنانية ، ويقيمها نفساً قوية عزيزة ، دون أن يكون فى ذلك عنف أو ظلم ، ويقيمها صافية طاهرة زاكية ، دون أن يكون للحقد والبغضاء والحسد والشحناء أى سلطان عليها ، ومن الأبطال الذين صقلهم الإسلام بروحه ، ورباهم على عقيدته سليل بيت البطولة نور الدين زنكى ، الذى ورث عن أبيه علو همته ، وسمو فكرته ، وشرف غايته ، ونبل هدفه ، فلقد جمع كل أغراضه الشريفة فى إقامة أمة إسلامية واحدة ، تقوى وحدتها عقيدة الإسلام الصافية ، وتاريخها المشرف وأرضه ، التى تفيض بالخيرات ، وتثمر البركات ، وآماله العريضة ، وآلامة المشتركة ، ولقد علم الله صدق نيته فحقق له هدفه ، فقد استعاد مدينة الرها ، ثم زحف إلى انطاكية وقتل أميرها ريموند سنه ٥٤٤ هـ كما تغلب على جوسلين الثانى ، واحتل الكثير من الحصون والقلاع الواقعة شمالى حلب منها عين تاب ــ عزاز ــ حصن البارة ــ تل خالد ــ كفر لاثا ــ كفر سوب ــ دلوك ــ مرعشى ــ نهر الجوز ــ برج الرصاص .

وهكذا لم يمض إلا وقت قليل ، حتى أصبحت أملاك إمارة الرها وغالب أملاك انطاكية ، خصوصا ما كان منها شرق نهر العاص ، خاضعة لسيادة نور الدين محمود ، ورأى نور الدين بثاقب فكره ، أن يفتح دمشق حتى يقوى بها الوحدة الاسلامية ، فسار بجيوشه اليها ، وهيأ الله له أسباب فتحها ، فاستسلمت له ، وألقت إليها قيادها ، وبفتح دمشق ، يكون قد استولى على البلاد الشامية ، وكانت هذه خطوة مباركة ، خطاها نور الدين على طريق الهداية والنصر .

وبعد أن استولى على البلاد الشامية ، كان لابد أن يلقى بنظرة على مصر ، فإن لمصر مكانتها الخالدة ، وموقعها الممتاز ، فكيف كان حالها فى هذه الحقبة ؟

كانت مصر تحت الخلافة الفاطمية ، وقد دبت فيها الفوضى والنزاع ، وفى نفس الوقت كانت مطمعاً

---

(١) الأحزاب آية : ٢٥

لملك بيت المقدس الرجل الصليبي ، ولذلك قام الصراع بينه وبين نور الدين على مصر ، فالصليبون يريدون ضمها إلى مملكتهم ، ونور الدين محمود لا يرى بدا من فتح مصر ، ليكون عقدا فريدا ، ويقيم وحدة اسلامية خالدة .

ولقد جرت بين الطرفين معارك على ثلاث دفعات ، كانت الجولة الأخيرة لنور الدين محمود سنة ٥٦٤ هـ بتغلب قائده أسدالدين شيركوه على الصليبيين ، وانتصابه وزيرا للخليفة الفاطمى ، وبذلك أصبحت السيادة على مصر لنور الدين محمود ، بواسطة قائده أسد الدين شيريكوة ولكن هذا القائد لم يطل به الأمد فقد توفى بعد شهرين من تولية الوزارة .

لله درك نور الدين — من ملك ... بالعزم مفتتح ، بالنصر مختتم .
آثار عزمك فى الإسلام واضحة ... وسره ذلك باد غير مكتتم .
بما من العدل والإحسان تنشره ... تخاف ربك خوف المذنب الأثم .
أوردت مصر خيول النصر عازمة ... ثنى الأعنة إقداماً على اللجم .
فأقبلت فى سحاب من ذوابها ... وقضبها بدماء الهام منسجم .
تمكن الرعب فى قلب العدو بها ... تمكن النار بالإحراق فى الفحم
لله درك نور الدين من ملك ... عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
فملك مصر وملك الشام قد نظما ... فى عقد عز من الإسلام منتظم .

صلاح الدين الأيوبى والحملة الصليبية الثالثة

الكلام عن صلاح الدين ، إنما هو عن رجل مسلم ، صفا قلبه ، وزكت نفسه ، وطهر وجدانه ، نعم كان صلاح الدين رجلا ذا عقيدة قوية ، وثقة فى الله مطلقة ، كان اذا صلى يطيل الركوع والسجود ، ويطمئن فى صلاته بخشوع ، وكان يستعين على أعدائه بالدعاء وقت السحر ، كان من الذين يقول الله فيهم :
﴿ **كانوا قليلا من الليل ما يهجعون ، وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾[١] ولقد أثر عنه القول .
« إنى استحى أن يرانى الله ناقضاً للعهد ، كاذبا فى القول ،وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم »[٢] .

يقف صلاح الدين الأيوبى على قمة من قمم الإسلام ، وجهاده العربى فى سبيل الحرية والكرامة ، ومقاومة الاستعمار ، فإن جانبا خطيرا من تاريخ الأمة الاسلامية ، يرتبط باسمه ارتباطا ضخما ، ذلك هو امتلاك

(١) الذاريات الايتان : ١٧ ، ١٨
(٢) آل عمران آية : ١٢٦

الصليبين للساحل الشامى ، وانتصار صلاح الدين عليهم فى معركة حطين ، ثم دخوله بيت المقدس رافعاً راية الاسلام خفاقة عالية ، معليا كلمة الله ، هاتفا فى معسكر التوحيد .

« بأن الله وحده صدق وعده ، ونصره عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

إن هذه العقيدة ، هى التى صنعت تلك البطولة ، فمثل صلاح الدين رجل خاف الله مخافة كل شىء ، ولو لم يخف الله لخاف من كل شىء ، رجل امتلأ قلبه يقينا وثقة فوثق بقوله تعالى :

﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾(١)

اعتقد أن هذا قانون الله الذى لا يتخلف ، ولا يمكن أن يتخلف ، لأن الذى حكم به هو مالك الملك وملك الملوك ، ولأن الذى جاء به هو كتاب الله الخالد ، والله اذا حكم ، فلا معقب لحكمه ، واذا قضى فلا راد لقضائه .

﴿ إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(٢) .

أن معركة « حطين » وما بعدها ، ترسم صورة صادقة للبطل المجاهد ، والعبقرى الفذ صلاح الدين ، وتوضح شخصيته بأقوى ما يمكن أن تصور ، فقد كان محارباً شجاعاً ، بالغ الشجاعة ، خبيراً بفنون الحرب وضروبها ، وهو فى المعارك أقسى ما يكون نقمة على عدوه ، فإذا ما انتهت الحرب ، كان مثلاً من الرحمة والعدالة والوفاء لخصومه ، وقد استمد هذه الروح العالية من استاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء سيدنا محمد ﷺ ، فقد كان يأمر بإكرام الأسرى ، ومن أجل صفاته الوفاء بالعهد مع الأعداء ، لأن القرآن الكريم ركز هذا المعنى فى قرارات نفوسهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون ﴾(٣) .

ولعل فى هذا الحادث الذى سنسوقه بين يدى القارىء ، ما يملأ النفس روعة وجلالة ، ويرفع رأس المسبلم إلى ما فوق قبه الفلك ، عزيزاً فخورا ، يقول لربه كفانى عزاً أن أكون لك عبداً وكفانى أن تكون لى فخراً وكفانى شرفاً أن يكون الإسلام لى ديناً وكفانى عظمة أن يكون محمد لى نبياً ورسولا .

ومما زادنى عـــزاً وفخـــراً وكـدت بـأخمص أطـأ الثريـا
دخولى تحت قولك يا عبـادى وأن صيرت أحمد لى نبيـــاً

لقد وقع سهيل بن عمرو اسيرا فى يد المسلمين فى غزوة بدر ، وكان من ألد الناس عداوة لرسول الله ﷺ ، ولما دفع الفداء أطلق سراحه ، فرآه عمر بن الخطاب متوجها إلى مكة ، ليس عليه أى ضير

---

(١) الروم آية : ٤٧
(٢) يوسف آية : ٤٠
(٣) المائدة آية : ٨

ولا سلام ، فقال عملاق الاسلام عمر : « يا رسول الله لا تدع سهيلا يذهب إلى مكة حتى أخلع له ثنيتيه ، حتى إذا قام خطيبا عليك ، اندلع لسانه من فمه فلا يستطيع أن يسبك بعد اليوم » .

فماذا كان رد المبعوث رحمة للعالمين لقد قال له :

« لا والله يا عمر لا أمثل به فيمثل الله بى ولو كنت نبياً »[1] .

هذا حكم شريف نطق به فم شريف ، وكما قال شوقى فى هذا المعنى

وإذا عفوت فقادرا ومقدرا ... لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا أخذت العهد أو اعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب ... هذان فى الدنيا هم الرحماء
يا من له الأخلاق ما تهوى العلا ... منها وما يتعشق الكبراء
زانتك فى الخلق العظيم شمائل ... يغرى بهن ويلع الكرماء

من هذه الروح العالية ، والرجولة النادرة الكاملة ، والإنسانية السمحة ، ينهل أبطال الاسلام ، وارتشفوا من نهلها العذب المورود فكان صلاح الدين شجاعا فى حربه ، قاسيا على عدوه ، فإذا ما وضعت الحرب أوزارها ، كان الوفى بالعهد ، الحريص على صدق الوعد ،

لقد حاز صلاح الدين اهتمام كثير من الكتاب والمؤرخين ، فكتب عنه من مؤرخى العرب ابن الأثير وابن خلدون وأبو الفداء ، وأما مؤرخو الإفرنج ، فقد كتبوا عنه فى سياق الحديث عن الحرروب الصليبية ، وأفرد الكاتب الانجليزى ستانلى لين كتابا خاصا عن صلاح الدين .

ولقد ذهب كثير من مؤرخى الإفرنج ، بأن الله وفق صلاح الدين ، ليقوم بعمل يريده هو سبحانه وتعالى ، ثم يقول هؤلاء المؤرخون : « اذا كان الفرنجة **عاثوا** فى الأرض فسادا ، وطغوا وبغوا وارتكبوا من المظالم والمفاسد ، ما أحمرت منه الأرض خجلا ، وفق الله صلاح الدين بروح من عنده ليوقع عقابه بهم على يده ، فكان من أمره ما كان » .

شهادات من الأعداء :

لما زار الامبراطور غليوم الثانى بلاد الشام قال ما ترجمته :

« مما يزيد سرورى أننى موجود فى بلد ، عاش بها من كان أعظم رجال عصره ، وفريد دهره ، شجاعة وبسالة « وكان يقصد بذلك البطل صلاح الدين ، والحق ما شهدت به الأعداء ..

ويقول « ستيفن » : كان صلاح الدين موفقا فى خططه ، ماهراً فى عمله ، سريعا فى تقريره ، قوى الشخصية ، لم يتردد لحظة واحدة فى تنفيذ ما رسمه ، كان صبورا على الشدائد ، يثق بنفسه وثوقا عظيماً .

(١) سيرة ابن هشام ص ٢ ، ص ٣٠٤ غزوة بدر الكبرى ص ١ الحلبى

علمه بفنون الحرب

نشأ صلاح الدين بين الأكراد ، وهؤلاء كانوا أهل فروسية ، يحبون الحرب والقتال والغزو ، وبيئة هذه أمرها ، لابد أن ينشأ الفرد فيها ، وقد عرفت عنه المقرة الحربية ، والفن العسكرى ، والقوة الجبارة ، والروح العسكرية المجيدة ، من إقدام وشدة ، وشجاعة وقوة وجرأة ، وتضحية ، ولا شك أن البيئة لها أثرها الكبير ، الخطير فى حياة الفرد الذى يتطبع إلى درجة كبيرة بطباعها وعاداتها وأحوالها .

وقد تجلت عبقرية صلاح الدين العسكرية وذكاؤه الحربى ، أنه اضطر الصليبيين إلى أن يحاربوا فى وقت لم يكونوا مستعدين فيه للحرب . إذ أمسك بيده عنصر المباغته ، واختار زمن المعركة ومكانها ، وهما من أهم العناصر فى الحرب ، وقد احتال لذلك فأخرجهم عن مواقعهم ، ليحاربوه فى منطقة جرداء خالية من الماء عندما هاجم طبرية ، ليغريهم بالإسراع لنجدتها ، فتركوا مواقعهم الحصينة ، واندفعوا إلى حيث أراد صلاح الدين الهزيمة الساحقة ، إذ أن الحرب رأى وخدعة ومكيدة فقد تقدم الجيش فى أرض لا ماء فيها ولا زرع ، فقاسى الأهوال والشدائد ، ولقى المشاة اعياء شديدا ، وتخلفوا عن الفرسان فى الوقت الذى كانت قوات صلاح الدين ، تمطرهم وابلاً من السهام ، وهجم المسلمون على خيمة الملك لوزينان ، فسقط أسيرا فى قبضتهم ، كما أسر أرناط ومقدم الراية وكثيرا من الفرسان ، وقتل صلاح الدين أرناط بيده جزاء وفاقاً ، لما اقترفه من آثام وقضى على الفرسان ، وتقدم صلاح الدين ، فأخذ يفضى حصون الصليبيين ، التى لم تعد لها قيمة حربية ، بعد القضاء على الفرسان ، فاستولى على عكا (٥٨٣) ونابلس وقيساربه وصنوربة ، ثم بيروت والرملة وعسقلان .

ثم حاصر صلاح الدين بيت المقدس فى رجب ٥٨٣ هـ الموافق سبتمبر ١١٨٧ م حصارا دام أربعة عشر يوما ، ثم تمكن المسلمون من أحداث ثغرات فى الأسوار فسلمت المدينة .

ولقد علم صلاح الدين أيضا ، أن القوات المحاربة ، لا تستطيع الاستغناء عن الماء ، وأن الجنود لا تستطيع العيش دون الاستمرار فى حربها وقتالها ، إلا اذا كان معهم كميات كبيرة وافرة ، تسد رمقها ، وتروى ظمأها ، لهذا نجده فى موقعة طبرية يرسل جيوشه ، لمنع الماء عن الفرنجة وأفنى ما أمامه من ماء الصهاريج ، وكان الوقت صيفا ، وفى هذا الفصل يشتد احتياج المرء إلى المياه ، ولم يستطع الفرنجة بلوغ الماء ، ولم يجدوا فى الصهاريج أى كمية تغنيهم عن عطش ، فكانوا يحاربون على شدة الجهد من العطش والحر ، وكان من نتيجة محاولتهم الوصول إلى ينابيع المياه ومواردها أن تمكن القائد الذكى المدرب الحذر ، الذى كان يراقب حركاتهم ، ويعرف مقصدهم من حصارهم حصارا تاما وضيق عليهم الخناق ، حتى كان النصر فى النهاية له والهزيمة والخزلان نصيب أعدائه .

الجهاد المقدس :

فما أعظم الحرب ، ومأأجمل الانتصار ، اذا كان المحارب ذا عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وأسلوب علمى ، وتخطيط قائد مجرب ، ولقد كان صلاح الدين من هذا الطراز الرفيع ، الذى خاض الحرب جليلها ودقيقها ، ومحرك الفلك ، من الإله الذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، استمد النصر من فالق الإصباح ، وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم .

هنا يتجلى دور العقيدة فى القائد المحارب .

﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾(١)

إن المؤمن صاحب العقيدة الراسخة ، اذا نزل صومة الوغى وساحات القتال ، يجد ريح الجنة دون المعركة ، فتهفوا نفسه اليها ، وتتوق روحه لرياضها ، لأنه واثق أنه الرابح فى كلتا الحالتين ، النصر أو الشهادة ، وكلاهما من أسمى الأهداف عند المؤمن ، وأجل الغايات فى قلبه ، بهذا نطق القرآن الكريم :

﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾(٢) .

إن المؤمن الحق يحس ضربات السيوف ، كأنها قبلات الملائكة ، **يسمع صليلها على أنغام قدسية ،** ويرى بريقها كأنه سنا من نور السماء ويهتف من أعماقه .

﴿ إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾(٣) .

لا يعرف اليأس ، كما لا يعرفه اليأس ، يجعل من الملح الأجاج **عذبا فراتا سلسبيلا ،** ومن الخطوب المدلهمة **أمنا وطمأنينا وسلامة ،** ومن الليل الطويل نهارا مشرقا بنور النصر وضياء بأفراح الظفر .

الله أكبر إن ديـــن محمـــــد وكتابـه أقــوى وأقــوم قيـــلا .
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فأطفئوا القنديـلا .

عرف صلاح الدين أن الحرب علم وتخطيط ، وفن ودراسة ، كما أهتم فى معاركة بعامل المباغته ، واضطر العدو إلى أن يخوض معركة فرض صلاح الدين زمانها ومكانها ، كما أهتم كذلك بعامل الاستطلاع ، أى

---

(١) آل عمران الآيات : ١٧٣ ــ ١٧٥
(٢) التوبة آية : ٥٢
(٣) الأعراف الآيتان : ١٩٦ ــ ١٩٧

معرفة مواطن الضعف عند العدو ، ومعرفة موارده وقوته ، وما يدبره فى الخفاء وتحركاته وسكناته ، وهذا العامل من أهم العوامل فى الحروب إذ على قدر المعلومات يقاس النصر .

فكلما علمت من عدوك الكثير من تمرده وعدده ، ومواقعه ، كلما كانت المعركة أقرب إلى النجاح ، وبهذه المعلومات ، التى تأتى بها سرايا الاستطلاع ، يستطيع القائد أن يضع خطته حسب ما يتراءى له ، ويقدر موقفه حسب ماتمليه عليه هذه المعلومات ، ولقد ظهر هذا العامل فى الحرب عندما أراد صلاح الدين أن يفتح بيت المقدس ، فقد عرض على أهلها الصلح على أن يسلموا له المدينة فرفضوا عرضه .

وهنا قرر أن يأخذ المدينة عنوة ، فأرسل قوات استطلاعيه هنا وهناك ، يلتمسون من أسوارها النقط الضعيفة ، بعد فحص دقيق دام خمسة أيام ، حتى توصل إلى إيجاد ثغرات كثيرة فى الجبهة الشمالية . عند المكان المعروف بـ « باب كنيسه صهيون » فنصب المنجنيقات ، ونظم الرماه ، وحرك الجند إلى الأسوار عند النقط الضعيفة ، وبدأ هجومه القوى القاسى ، الذى لم يدم أكثر من أسبوع واحد ، رأى بعض المحاصرين أن لا أمل لهم فى النجاة ، فأرسلوا إليه يفاوضونه ويستسلمون ، كذلك من العوامل التى ينى عليها نجاح المعارك الحربية ، ثقة القائد بربه ، ثم ثقة قواده وجنوده به ، وهذا العامل أيضا كان متوفرا فى شخصية صلاح الدين ، ولقد كان موضع ثقة جنوده ، وموضع ثقة نفسه ، كان مؤمنا بالله ، وبأنه يعمل لغرض شريف ، وهدف نبيل ، وكان واثقا من أن نصر الله سيواتيه ، وسيتحقق على يديه ــ بمشيئة الله ــ كل ما يصبوا إليه من أمانى وأحلام ، ولقد حدث أن وصلت أخبار من دمشق بتجمع الأفرنج ، ومحاولتهم غزو جهاتها ، فلم يعبأ القائد العظيم بهذا النبأ ، ولم يجد الفزع إلى قلبه سبيلا ، بل كان ثابتا ثبات الرواسى الشامخات واقفا على أرض صلبة ، لا تعرف الخور ولا الفزع وهذا المعنى يجليه قوله تعالى :

﴿ فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾[(١)]

هذا منطق العقيدة الراسخة ، يعقب عليها القرآن الكريم بقوله :

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾[(٢)] ولقد قال صلاح الدين لجنوده ، عندما ترامت إلى سمعه تلك الأنباء ، التى تنخلع لها القلوب ، وتنفطر لها الأفئدة :

« دعوهم فليعملوا ما يشاءون ، فإنهم إنما يستولون على قرى وكفور ، فى حين أننا نأخذ مدناً وبلاداً ، فإذا ما ذهبنا إليهم ، جئنا لهم بجنود لا قبل لهم بها ، فنخرجهم مما ملكوا أذلة وهم صاغرون » . وهذا القول الذى قاله وسط جنوده ، يشهد له المؤرخ الأوربى ستيفن سن فى كتابه أنه كان (صبورا على الشدائد يثق بنفسه وثوقاً عظيماً)

---

(١) آل عمران الآيتان : ١٤٦ ، ١٤٧

(٢) آل عمران آية : ١٤٨

ومن العوامل القوية ، التى يبنى عليها نجاح المعارك ، أن يكون القائد مثلاً لجنده فى الشجاعة والأقدام ، لا يخشى قوة العدو ، ولا يهاب بأسه ، ولقد كان سيد المرسلين ﷺ ذلك المثل ، الذى لقنه لأبطال الاسلام الافذاذ ، عندما وقف فى صومعة الوغى يوم حنين ، ينادى بأعلى صوته : « أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »[1] لقد اقتبس صلاح الدين هذا الدرس فى الشجاعة والإقدام من سيرة بطل الأنبياء محمد ، الذى اذا تحدث عنه التاريخ جثا على ركبتيه ، فإذا ما تكلمت عنه الدنيا تمرغت تحت قدميه ، لقد كانت شجاعة صلاح الدين الأيوبى من أسباب تتويج جنود المسلمين بانتصارات رائعة ، اذا دلت على شيء فعلى تشبههم بقائدهم العبقرى فى شجاعته النادرة .

يشهد بذلك أنه حدث مرة ، أن أسرع بجواده إلى حيث يوجد بعض جنوده قائد الفرنجة الملقب الأسد ، فقال لهم بصوت دوى كالرعد فيه زئير الأسود ، وقوة الحق ، كأنه العاصفة ببروقها ورعودها دياجها ورماها قال لجنودالأفرنجة .

(قفوا مكانكم فها قلب أسد أقوى من قلب أسدكم) وهكذا كان يعرض نفسه للخطر مع جنوده ، رغبة منه فى قهر أعداء الاسلام ، حتى لا يقربوا الأراضى المقدسة .

وكان صلاح الدين كغيره من القادة الممتازين ، يمتاز بشجاعة لا مثيل لها هى مثل طيب لجنوده ، ومن تحت إمرته يدلنا على ذلك أنه كان لا يخشى سهام عدوه المرسلة اليه ، وكان يركب جواده ، وهو مريض ويقود جنوده ويندفع أمامهم ، فإذا ما طلبوا منه أن يريح نفسه قال :

(إنى إنما أشعر بالمرض حين أترك ظهر جوادى) .

هذه عبارة سجلها التاريخ بحروف من ذهب على صفحات من نور ، لذلك البطل المسلم . (إنما أشعر بالمرض حيث أترك ظهر جوادى) وهذا مبعثه العقيدة الراسخة والإيمان الذى اذا باشرت بشاشته شغاف القلوب ، تكاد تجعل المستحيل ممكناً)

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[2]

---

(١) أخرجه مسلم فى كتابه الجهاد والسير حـ ٣ صـ ١٤٠٠ برقم ٧٨ /١٧٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ /١٧٧٦ والبخارى حـ ٥ صـ ١٩٥ غزوات النبى .

(٢) التوبة آية : ٢٤

صلاح الدين ومبدأ الشورى

من المبادىء التى قام عليها بناء الإسلام ، مبدأ الشورى ، فرأى الإنسان مع الجماعة ، أنفع إلى الناس من رأيه وحده ، وهذا مما يجعل الاسلام يعنى بهذا المبدأ عناية تامة ، ويجعل من أوصاف الجماعة المؤمنة ، أن الأمر شورى بينهم ، فيقول سبحانه فى سورة الشورى : ﴿ **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم** ﴾[1] ويقول تعالى : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾[2] . وللأمام الرازى موقف جديد بالتسجيل على هذه الصفحة لما فيه من روعة وجلال فى قوله تعالى : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾

قال : هذه الآية نزلت عقب غزوة أحد ، ونزولها بالذات عقب هذه الغزوة يؤكد حرص الاسلام على مبدأ الشورى ، وكراهيته للاستبداد بالرأى .

ففى هذه الغزوة بالذات ، بينما كان رأى بعض المسلمين ، خلاف رأى الرسول ، فقد أصروا على الخروج ، بينما كان رأيه صلى الله عليه وسلم التحصن بالمدينة ، وكانت محنة . ومثل هذا الحدث ، قد يعطى مبررا لأى أمير مستبد عبر التاريخ ، لكى يرفض رأى الجماعة ، لأنه خاطىء ... ومنعاً لذلك نزلت آية الشورى ، وفى أعقاب غزوة أحد بالذات ، لتقطع الطريق على من يحاول الانتقاص من رأى الأمة ، أو الافتئات على حقوقها .

وما أجمل كلام شوقى فى **همزيته** ، إذا يقول مخاطبا رسول الله :

وأقمت بعدك للعباد حكومة — لا سوقة فيها ولا أمراء
الله فوق الخلق فيها وحده — والناس تحت لوائها أكفاء
والديـن يسر والخلافة بيعة — والأمر شورى ، والحقوق قضاء
لو أن إنسانا تخير ملة — ما اختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يداً — هى أنت بل أنت اليد البيضاء

ولقد كان صلاح الدين لا يعمل برأيه منفردا ، بل كان يأخذ على الدوام رأى الجماعة وذوى الخبرة من أصحاب الرأى ، لما كان يراه فى رأى الفرد ، من الاستبداد الآمر ، عملاً بأمر الدين ، وجرياً على سنة الرسول كثيرا ما عدل عن رأيه ، وهو يعلم صحة هذا الرأى ، خضوعاً لرأى الجماعة ، كما حدث أمام عكا وصور ، ونحن جميعا فى عصرنا هذا أن أى قائد يجتمع بضباط أركان حربه ، للتداول فيما بينهم ، وللتشاور فى اتخاذ خطة معينة ، وقد ذكر المؤرخون لهذه الحادثة التى إن دلت على شىء فإنما تدل على مدى اهتمام ذلك القائد برأى الجماعة ...

---

(١) الشورى آية : ٣٨

(٢) آل عمران : ١٥٩

حدث مرة أن كان صلاح الدين عند حصن (الشقيف) فبلغ سمعه نبأ سير الفرنج من صور ناحية عكا ، فأسرع إلى دعوة امرائه ، وجمع مجلساً حربياً ، يعرض عليه الموقف ، ويطلب منه إبداء الآراء ، واختيار ما يراه صالحاً لمعالجة الموقف ومواجهته .

وكانت الطرق مفتوحة أمامه ، أما أن يساير الافرنج على الساحل ، ثم يقاتلهم قبل بلوغهم عكا ، وإما أن يلقاهم هناك بعد أن يسلك طريقاً فى الداخل مارا بطبرية ، وعلى الرغم أنه كان يؤيد الطريق الأول ، إلا أنه عندما رأى أمراؤه يقررون الطريق الآخر ، وافق عليه على الرغم من خطورته ، لأن من نتائجه أن الأفرنج يصلون إلى عكا ، ثم يستطيعون بذلك اختيار المكان اللائق للدفاع ووسائل المقاومة للتحصين ،

وليس ثمة أدنى شك فى أن تقدير القائد للموقف الحربى ، له أثر كبير فى نتيجة هذا الموقف ، فكلما كان القائد ممتازا كلما استطاع تقدير الموقف تقديرا صائباً ، ويستطيع بناء على هذا التقدير أن يقر خطة تؤدى به إلى النصر بعون الله ، وهذا ما مكان يمتاز به صلاح الدين .

فقد حدث فى أثناء القتال حول طبرية ، أن كانت همة الإفرنج متجهه إلى قطع الرجعة على صلاح الدين وجيشه ، ليحولوا بينه وبين مركز قواته وينابيع المياه ، إلا أن القوم لم يعرفوا أن صلاح الدين يحتاط فى حرية للأمر قبل وقوعه ، وأنه يعلم ما للحيلة من التأثير العظيم ، والغريب أن الافرنج نسوا أن عليهم أن يدافعوا ، ما دامت قواتهم ليست فى مركز منيع يرتدون اليه عند الحاجة ، إذا إنهم حينما هاجموا وحاولوا تنفيذ ما دبروه ، وجدوا أنفسهم فى كل خطوة تحت نيران صلاح الدين ، فلم يثبتوا ، بل والأدهى من ذلك أنهم عندما حاولوا التقهقر بل الفرار ، وجدوا فرق المسلمين تحيط بفرقهم ، وتسوقها إلى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى .

مع سير الأحداث :

استمرت الخلافة الفاطمية فى مصر من سنة ٣٦٢ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ وكان على عهد صلاح الدين خليفة فاطمى يسمى الخليفة العاضد ، فلما مات عم صلاح الدين (أسد الدين شيريكوه) اختار الخليفة الفاطمى صلاح الدين وزيراً له ، على الرغم من صغر سنه ، ووجود غيره من القواد ، وكان صلاح الدين بهذا الاختيار أهلاً ، لما ظهر به من الكفاءة والنبوغ ، ورجاحة العقل ، وإحكام الخطط ، والبطولة النادرة .

ولما مات الخليفة العاضد انقرضت الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبذلك أصبح صلاح الدين سلطان مصر ، ثم وسع دائرة نفوذه ، فغزا النوبة واستولى على اليمن والحجاز ، ولما مات نور الدين محمود عمل صلاح الدين على ضم مملكته إليه ، بعد أن دخلها الأضطراب والانقسام ، فامتلك دمشق وحلب ، وبقية البلاد الشامية والجزرية ، وتكونت لصلاح الدين مملكة عظيمة ، تمتد من العراق إلى برقة ، ثم اتجه بعد ذلك إلى محاربة الصليبين ، بعد أن وجد مملكته ، وقوى نفوذه ، واستمرت حروبه معهم نحواً من عشر سنوات ، كان فيها منتصرا مظفراً ، وتوج أعماله بانتصاره على الصليبين فى معركة حطين ، واستيلائه على بيت

المقدس ، وحصر الصليبين فى منطقة ساحلية ضيقة ، انتقلت اليها مملكة بيت المقدس وجعلت مدينة عكا عاصمة لها .

حول بيت المقدس :

أكتب سطور هذا الكتاب والأمة الاسلامية ، تمر بمحنة قاسية الأحداث ، تتحرك بقسوة كالعاصفة العاتية ، بكل رعودها وبروقها ، ورياحها ورمالها ، فبعد الاعتداء الصهيونى فى الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ م ، احتلت اسرائيل الضفة الغربية لنهر الأردن ، والمرتفعات السورية ، وشبه جزيرة سيناء ، وتوالت التصريحات من قادة اسرائيل العسكريين والمدنيين ، ولا فرق بين هؤلاء وأولئك . فليس فى اسرائيل صقور أو حمام بل كل حكام الصهيونية صقور ، وإن ارتدوا ريش الحمام ، وكان آخر ما ادلت به رئيسه وزراء اسرائيل : « جولد مائير » قولها :

« إن اسرائيل سترفض أى حل تقترحه الدول الأربعة الكبرى »

ومن قبل أدلى وزير خارجية اسرائيل بقوله :

(إن اسرائيل ستظل محتفظة بخطوط وقف اطلاق النار ما لم توقع معاهدة صلح بين العرب واسرائيل ، يكون معترفا بها بحدود آمنة ، ولو لم تفعل اسرائيل ذلك ، فإنها ستكون قد انتحرت انتحارا سياسياً)

وآخر ما أدلى به وزير الدفاع الاسرائيلى قوله :

(أن الصيف القادم خطير وعلى شعب اسرائيل أن يعد جميع الامكانيات اللازمة للحرب المحتملة .

أسجل سطور هذا الكتاب ، والمسجد الأقصى أسير فى يد الصهيونية ، والمقدسات الإسلامية تئن بدموع اللوعة على ما أصابها من عبث وانتهاك ، وقاذفات القنابل اليهودية تضرب الشيوخ والأطفال ، والنساء الآمنين الوادعين فى الضفة الشرقية للأردن ، وجبهه القتال المصرية فى الضفة الغربية للقتال بين عشيه أو ضحاها ، تشتبك مع القوات الصهيونية المرابطة . على الضفة الشرقية للقتال ، فالحرب الساخنة والوقود المشتعل ، ينذر بالخطر المدهم ، ومنطقة الشرق الأوسط كما شبهها وزير الدفاع الأمريكى كلارل كليفورد بأنها علبة كبريت ، قابلة للاشتعال فى أى وقت ، وكما شبهها رئيس وزراء اسرائيل السابق ، أنها برميل من البترول ، ما يلبث أن يشتعل ، وقع المسجد الأقصى فى يد الصهيونية ، فكان ذلك الحادث الأليم ، طعنة مسمومة فى قلوب أكثر من ستمائة مليون مسلم ، يسكنون أكثر من أربعين دولة اسلامية ، وكأن التاريخ يرجع بنا إلى الحروب الصليبية ، التى وقعت بين المسلمين وجيوش أوربا ، خلال قرنين كاملين **من الزمان ، امتدت من سنة ٤٩٠ هـ إلى ٦٩٠ هـ كأن التاريخ يريد أن ينطلق بحكمه الصادق ؛ أن هذه الحروب لا تزال ممتدة ، فقد كان الشعار الذى يجمع به المال لاسرائيل فى دول أوروبا قبل حرب يونيو سنة ١٩٦٧ م « قاتلوا المسلمين »** .

وبفضل هذا الشعار ، تدفقت الأموال كالسيل المنهمر ، ودارت الأيام دورتها أيام الصليبيين ، فقيض الله للمسجد الأقصى رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فوجهوا الضربات القاضية القاصمة إلى القلوب

المعتدية الأثيمة ، واستخلصوا بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة ، وأن علماء التاريخ ومؤرخى العلوم ، يكادون يجمعون على أن هزيمة المسلمين أيام الصليبيين فى القرون الخالية ، كان مرجعها ثلاثة أشياء :

ضعف الوازع الدينى .

الاغلال الاجتماعى .

التنسخ الأخلاقى .

وما أقساها من أسباب ، وما أعظمها من أدواء ، وها نحن فى أولى القرن الرابع عشر الهجرى ، وها هى الصهيونية تنفذ المخطط الرهيب ، وترسم خريطتها الشنيعة التى تقوم على التوسع والاستيلاء ، وفى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧ تطأ **الصهيونية** بأقدامها المدنسة الأراضى المقدسة ، وتعبث بحرمات الاسلام .

وإننى اذا أذكر للمسلمين الأسباب ، التى أدت إلى وقوع الكارثة أيام الصليبيين ، فلعل فى ذلك ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، فإن الأرض المقدسة تهتف بهم أن وحدوا صفوفكم ، وكلمتكم ، وتناسوا الخلافات ، وقفوا وقفة رجل واحد لخوض المعركة الفاصلة ، فإنها معركة الاسلام .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾(١)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾(٢) .

يا أيها المسلمون فى كل مكان : إن القرآن يناديكم ويهتف بكم قائلا :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾(٣) .

ثم يبعث فينا أملاً ويقينا فى النصر ، إن نحن اعتصمنا بالله واصطلحنا مع الله ، فيقول سبحانه :

﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ﴾(٤)

ويؤكد أن ما نعده من قوة ومن رباط الخيل ، إنما هو إرهاب لأعداء الله ، أما الذى يقتل الأعداء حقيقه ، فهو الله فيقول : **﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين**

---

(١) الأنفال آية : ١٥

(٢) الأنفال الآيتان : ٤٥ ، ٤٦

(٣) آل عمران الآيات : ١٣٩ — ١٤١

(٤) الأنفال آية : ٥٩

من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾[١] .

ويؤكد هنا المعنى

﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾[٢]

وعلى المسلمين أن يتذكروا ما للمسجد الأقصى من مكانه فى القلوب ، وحرمة فى الاسلام ، ومنزلة فى مقدساتهم ، فقد سأل **الصحابى** الجليل أبو ذر الغفارى ـ رضى الله عنه ـ رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله : أى مسجد وضع فى الأرض أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أى ؟ قال : المسجد الأقصى . قلت . كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة ـ الحديث[٣]

وبلغ من فضل هذا المسجد ومكانته فى الاسلام ، أنه أحد المساجد الثلاثة ، التى لا تشد الرحال إلا إليها ، فقد روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال ، إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ، ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » رواه البخارى ومسلم وأبو داود[٤]

وللصلاة فى المسجد الأقصى ، فضل كبير ، فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام . وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه »[٥] .

وقد جاء فى الأحاديث ؟ إن فضل الصلاة فى مسجد بيت المقدس ، أفضل مما سواه من المساجد ـ غير المسجد الحرام والمسجد النبوى . بخمسمائة صلاة[٦]

ويكفى المسجد الأقصى فخراً ، أنه أولى القبلتين ، فقد استقبله الرسول ﷺ فى صلواته ومعه المسلمون ، وظلوا على هذا الحال بعد الهجرة بستة عشر شهرا ، إلى أن أمره الله تعالى باستقبال البيت الحرام .

وتلك مفخرة أخرى للمسجد الأقصى ، تتردد فى سمع الزمان ما تعاقب الملوان ، واختلف الجديدان ، إلا أنها مسرى رسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، حيث التقى بالأنبياء ، وصلى بهم إماماً ، ليعلن أمام الناس أجمعين ، أن شريعة الأنبياء واحدة ، فكلهم يعملون فى معسكر واحد ، هو معسكر التوحيد ، وتحت لواء واحد ، وهو قول لا إله إلا الله ، وإلى هذا المعنى تشير الآية الكريمة :

---

(١) الأنفال آية : ٦٠

(٢) الأنفال آية : ١٧

(٣) أخرجه الامام مسلم فى كتاب المساجد حـ ١ صـ ٣٧٠ برقم ١ /٥٢٠

(٤) أخرجه البخارى حـ ٢ صـ ٩٧٥ برقم ٤١٥ / ٨٢٧ كتاب الحج ، صـ ١٠١٤ برقم ٥١١ /١٣٩٧ وأبو داود حـ ٢ صـ ٥٢٩ برقم ٢٠٣٣ والترمذى حـ ١ صـ ٢٠٥ برقم ٣٢٥ ط دار الفكر

(٥) أخرجه الأمام مسلم حـ ٢ صـ ١٠١٢ برقم ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ /١٣٩٤

(٦) الترغيب والترهيب حـ ٢ صـ ٣٦١ ، صـ ٣٦٢ برقم ١٠ ط مكتبة الجمهورية .

﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[١] .

وهكذا يقف المسجد الأقصى ليأخذ مكانته اللائقة به فى تاريخ الاسلام فقد شرف بزيارة الرسول ﷺ له ليلة الاسراء والمعراج .

﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ﴾[٢] .

صلاح الدين الأيوبى وبيت المقدس

كانت الشرارة الأولى التى فجرت نار الحرب ، بين البطل المجاهد صلاح الدين الأيوبى ، وبين قوات الفرنجة المعتدية الباغية ، أن رجلا يدعى « أرناط » كان حاكما على « الكرك » وهذا الرجل سولت له نفسه سوءاً ، فقد اعتدى على قافلة تجارية تابعة لصلاح الدين ، فغنم أموالها ، وأسر رجالها ، وعلى الرغم من أن صلاح الدين أنذره ، إلا أن هذا الشقى ركب رأسه ، الذى عشش الشيطان فيه وفرخ ، فأقسم صلاح الدين إن ظفر به ليقتلنه بيده ، وعزم أن ينتقم منه ، وأن يكيل له الصاع صاعين ، كان ذلك فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة هجرية ، وفى سنة ٥٨٣ هـ عزم صلاح الدين عزماً اكيداً على أن ينفذ وعيده فى صاحب حصن « الكرك » أرناط ، وعلى أن يهاجم مملكة بيت المقدس ، التى كانت فى ذلك الوقت تحت يد الصليبيين ، فكانت المعركة الفاصلة الخالدة ، التى سجلها التاريخ ، لذلك البطل بحروف من ذهب ، على صفحة من نور ، باقية مدى الدهر ، أعطر من الزهر ، ألا إنها موقعة حطين ، فكيف كان ذلك ؟

معركة حطين :

خرج صلاح الدين من دمشق فى شهر المحرم (٥٨٣ هـ ـــ ١١٨٧م) ولما وصل إلى رأس الماء جعله مركزا لاجتماع الجيوش ، فقد استنفر المسلمين للجهاد العام ، وأعلن حالة التعبئة فى الجماهير المسلمة .

﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾[٣]

وقامت العقيدة بدورها الحقيقى ، لتعلن فى صفوف المجاهدين قول الله عز وجل : **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾**[٤] .

---

(١) الزخرف آية : ٤٥

(٢) الاسراء آية : ١

(٣) التوبة آية : ٤١

(٤) التوبة آية : ١١١

وهكذا نهض الناس وانتفضوا كالليوث الرئبالة ، يزمجرون غضباً لانتهاك الحرمات، ويصيحون صيحة الحق ، ليدمروا الباطل ، الذى أخذ يزأر فى عرضات الدنيا ، فإذا ما توافر للقائد عقيدة راسخة ، ومعنويات عالية ، وأسلوب علمى فى فن القتال ، كان النصر حليفه ، والتوفيق رائده .

﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾(١)

لما التقى صلاح الدين بولده الأفضل عند « رأس الماء » بقى ولده برأس الماء ، وسار هو إلى بصرى ، وسار مظفر الدين كوكبورى إلى عكا ، وأيقن الصليبيون باتساع الخطة ، التى دبرها صلاح الدين ضدهم ، فاجتمعت كلمة رؤسائهم ، وحشدوا جموعهم وتوجهوا إلى طبرية .

وتقابل الفريقان فى حطين ، وجرت معارك قاسية بين الطرفين ، وانتصر فيها صلاح الدين انتصارا حاسما ، فقد هزمت قوات التوحيد ، شراذم الشر الباغية ، هزيمة ساحقة ، فسبحان القائل : ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾(٢) .

وقد بلغ عدد القتلى من الفرنجة عشرة آلاف ، هذا بالاضافة إلى أن ملك بيت المقدس وأرناط ، قد وقعا أسيرين فى أيدى المسلمين ، ولقد أظهر صلاح الدين شهامته ، ورجولته ، وروحه العالية ، روح البطولة ، فعامل ملك بيت المقدس معاملة كريمة وعطف عليه .

أما « أرناط » صاحب حصن الكرك ، الذى سبق أن صلاح الدين أقسم إن ظفر به ليقتلنه ، فقد بر بقسمه وضرب عنقه جزاء ما قدمت يداه ، وبهذا الانتصار الساحق فى موقعة حطين ، بدت شخصية صلاح الدين فى أوروبا ، تحمل أجل صفات البطولة ، وأنصع معانى النصر ، حتى ذاع صيته فى كل مكان ، فملأ قلوب الفرنجة رعباً ، حتى قيل أن نساء أوروبا ، كن إذا أردن أن يخفن أطفالهن : ذكرت لهم اسم صلاح الدين .

هذا هو الرجل ، الذى كان اذا صلى يطيل ركوعه وسجوده ، ويستعين على أعدائه بالدعاء وقت السحر ، وهذه معجزة الاسلام فى صنع الرجال ، وماا أصعب بناء النفوس ، وما أجل بناء البطولات ولما حقق الله النصر على يدى صلاح الدين فى موقعه حطين .

كان ذلك بشير يمن ، وطالع خير ، وإيذانا بأن فجر الحق ، قد امتدت خيوطه تملأ الآفاق ، فتوالت الانتصارات بعد ذلك ، ففى الفترة الواقعة بين الانتصار فى حطين ، وبين فتح بيت المقدس ، توجه صلاح الدين بقواته إلى عكا فاستسلم من فيها بأمان ، ودخلها غرة جمادى الأولى (٥٨٣ هـ — ١١٨٧م) وانتقل الصليبيون منها إلى مدينة صور .

---

(١) آل عمران الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧

(٢) الروم آية : ٤٧

ثم وقع احتلال المدن والحصون، التى حول عكا ، مثل (تبنين — صيدا — جبيل — بيروت) وبعد ذلك ساير الساحل ، وحاصر عسقلان ، مدة أربعة عشر يوما ، وانتهى الأمر باستسلامها فى ١٦ جمادى الآخرة ٥٨٣ هـ .

وبذلك نصب صلاح الدين حصاراً على بيت المقدس ، وحال بين مملكة بيت المقدس ، وبين الامدادات الصليبية التى كانت ترد اليها من الساحل .

صلاح الدين وبيت المقدس :

بعد أن استطاع صلاح الدين ، أن يقطع الإمدادات ، التى كانت ترد إلى بيت المقدس من الصليبيين ، **سهل عليه حصار بيت المقدس ، وذلك بعد ماالستسلمت (الرملة ـ الداروم ـ غزة ـ بيت لحم ـ النطرون) ومن الجدير بالذكر أن حصار بيت المقدس ، لم تدم طويلا ، فقد استمر أسبوعا واحدا ، انتهت بعده المقاومة الصليبية ، وأعاد الله الحق إلى أهله ، وأجرى النصر على يدى عبده المجاهد فى سبيله .**

وهنا تظهر الروح الكريمة العالية ، روح الاسلام التى تتسم بالرحمة ، وتمتاز بالسماحة ، فلعلنا نذكر أن الفرنجة لما دخلوا بيت المقدس ، قتلوا من أهل هذه المدينة المقدسة ، سبعين ألفا من المسلمين ، وكان ذلك فى سنة ٤٩٢ هـ فى شهر شعبان ، لكن صلاح الدين أبت عليه عقيدته ، وشهامته ، ورجولته ، وبطولته ، وانسانيته ، أن يجرى الدماء أنهارا ، بل لقد عفا وأصلح ، وقبل الفداء من الصليبيين (١٠ دنانير للرجل ، ٥ للمرأة ، ٢ للطفل) وأوسع لهم فى أجل هذا الفداء لمدة ٤٠ أربعين يوما ، فخرج الصليبيون تحت حماية القوات الاسلامية ، إلى مدينة صور ، متعهدين بعدم الرجوع إلى الحرب .

فتحنا فكان العدل منا سجية فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتم قتل الأسارى وطالما غدونا على الأسرى نمن ونصفح
فحسبكم هذا التفاوت بيننا فكل أناء بالذى فيه ينضح

رد الفعل :

كان لاحتلال بيت المقدس ، واسترجاعها بأيدى المسلمين ، هزة عنيفة فى أوروبا ، فنظمت حملة صليبية ثالثة ، شارك فيها أعظم ملوك أوروبا فى ذلك الزمان :

(١) امبراطور ألمانيا فردريك بربروس .

(٢) ملك فرنسا فيليب أوغسطس .

(٣) ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد .

ومات امبراطور الألمان أثناء الطريق ، فلم يكن لأمره شأن ، أما الملكان الفرنسى والانكليزى ، فقد

وصلا إلى الشام أثناء حصار عكا الشهير ، وبعد معارك أخرى بين الفريقين ، عقد صلح الرملة بين صلاح الدين وملك الانكليز . نص فيه على حدود الطرفين ، وعقد هدنة لمدة ثلاث سنوات ، وأنه يسمح للصليبيين بزيارة بيت المقدس .

وفاة البطل صلاح الدين

بعد صلح الرملة رجع صلاح الدين إلى بيت المقدس ، وأمر بإجراء عدة اصلاحات وتنظيمات ، ثم صار قاصداً دمشق ، فوصلها فى ٢٥ شوال سنة ٥٨٨ هـ . ولم يعمر صلاح الدين طويلاً بعد صلح الرملة ، فقد وافاه الأجل ، وهو بدمشق ، فأسلم الرو ح فى ٢٧ صفر ٥٨٩ هـ (٤ مارس ١١٩٣م) وفارق الحياة ، بعد أن أدى رسالته على أكمل وجه ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وصبر على البلاء ، وتحمل الضراء ، ومات ميتة الأبطال ، بعد أن سجل له التاريخ الأمجاد الخالدة ، فى سبيل نصرة الاسلام والمسلمين ، وسبحان صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة .

﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾[١]

فإلى رحمة الله ياصلاح الدين ، جزاء ما قدمت من أياد بيض ، ومواقف شرف فى سبيل إعلاء كلمة الله ، كلمة الحق .

الحملتان الصليبيتان الرابعة والخامسة .

بعد الحديث عن موقعة حطين ، وفتح بيت المقدس ، رأينا أن نتمم الفائدة العملية والتاريخية ، حتى يكون القارىء على علم تام بالحملات الأوربية ، التى زحفت إلى الشرق الاسلامى ، تريد أن تغوص أرجل خيولها فى بحار من دم المسلمين ، وأن تستنفذ قواه ، وتستولى على ما فى الأرض من خيرات ، أو على حد قولهم : إنها أرض تفيض باللبن والعسل ، ومن ثم عرضنا للكلام عن بقية الحملات الصليبية ، بعد صلاح الدين رحمه الله .

جاءت الحملة الصليبية الرابعة ، نتيجة للخلاف المحتدم بين الكنيستين ، الأرثوذكسية والكاثوليكية ، تبعة خلاف سياسى وحربى ، كثيرا ما جر إلى الويلات والخطوب ، ولهذا فإن قادة الحملة الصليبية الرابعة ، سرعان ما استجابوا لدعوة دوق البندقية ، فهاجموا الامبراطورية البيزنطية ، واستولوا على القسطنطينية ، وأنشأوا فيها مملكة لاتينيه ، استمرت ٥٧ سنة . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الرابعة ، أما الحملة الخامسة ، فقد كان الغرض منها ، استنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين ، فاستجاب لهذه الدعوة ، ملك المجر أندارى الثانى ، ودوق النمسا ليوبول السادس ، وكانت سنة ٦١٢ هـ ـــ ١٢١٦م ، ولقد تحركت صوب الشرق

---

(١) مريم آية : ٤٠

الاسلامى ، والهدف الأساسى أمام عينيها ، ولكنها لما فشلت بالنسبة لبلاد الشام ، قرر ملك المجر الرجوع إلى بلاده .

لكن بقية الفرنجة ، كانوا قد وضعوا خطة ، تقضى بالزحف على مصر ، التى كانت فى ذلك الوقت ، تحكم بيت المقدس . وكان على حكمها رجل من آل أيوب ، هو الملك العادل ، وكانت الخطة ، تقتضى محاصرة مدينة دمياط الواقعة على الفرع الشرقى لدلتا النيل ، فإذا ما إحتلوها يتجهون إلى القاهرة ، مساير بين فرع النيل الشرق .

حصار دمياط :

وبدأوا ينفذون الخطة ، فتحركت جيوشهم إلى مدينة دمياط ، وحاصروها فى صفر ٦١٥ هـ ، وظلت محاصرة إلى سنة ٦١٦ ، وقد حدث أن الملك العادل مات فى هذه الفترة ، فاضطربت الأمور لموته ، مما أدى إلى سقوط دمياط فى أيديهم ، وبعد سقوط دمياط ، استراحت جيوشهم قليلاً ، ثم قرروا متابعة الزحف إلى القاهرة ، لكن الذى حدث فى هذه الأثناء ، أن الملك الكامل ابن الملك العادل ، استطاع أن يعيد الأمور إلى نصابها ، فأرسل إلى أخوته أمراء الشام ، ليوحد الكلمة ضد الصليبيين ، واستعد لملاقاتهم .

يقول المؤرخون : استعد الملك الكامل لملاقاة الصليبيين قرب المنصورة ، وصمد لهم هناك ، واستمر القتال محتدماً بين الطرفين ، وخشى الملك الكامل تفوق الصليبيين واحتلالهم القاهرة ، فأجرى معهم مخابرات فى الصلح ، وعرض عليهم تسليم بيت المقدس ، وعسقلان وطبرية ، وجميلة ، واللاذقية ، فى مقابل تسليمهم دمياط والخروج من مصر .

لكن الصليبيين لم يرضوا بهذا ، بل طلبوا زيادة عن ذلك ــ بتسليم حصن الكرك ، وثلاثمائة ألف دينار تعويضاً عن تخريب بيت المقدس ، وهكذا أضاع القادة الصليبيون فرصة لا تعوض ، وأغراهم عنادهم ، بمهاجمة القاهرة ، وصادف أن كان الوقت زمن فيضان النيل ، فقطع المصريون الجسور ، واندفعت المياة فى الأرض المنخفضة ، التى كان فيها الصليبيون ، فغمرتهم المياه وحصرتهم من كل جانب ، وأصبحوا فى الماء والوحل ،

وانتصبت قوات إسلامية فى المنفذ الوحيد ، الذى يمكن للصليبيين الخروج منه ، فأسقط فى أيديهم ، وركنوا إلى الاستسلام ، والخروج من مصر ، والانسحاب عن دمياط بدون مقابل (رجب ٦١٨ هـ ــ ١٢٢١م) .

فانظر إلى العناية الإلهية ، وتأمل تدبير خالق السماء والأرض ، وكيف أن الأرض ضاقت على المسلمين بما رحبت ، حتى عرضوا على أعداء الله العروض السخية ، فى سبيل أن يوقفوا هذا السرطان ، الذى يسرى فى جسد الأمة ، فيأبى هؤلاء إلا أن يركبوا رؤوسهم ، ولم يكن أحد يعلم المصير الذى ستنتهى اليه .

تلك الحملة إلا الله وحده ، فتكون هزيمة هؤلاء على يد ماء النيل ، بعد ما ظن المسلمون أنهم لن يخرجوا ، وظن الصليبيون أنهم ما نعتهم حصونهم من الله ، فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، حيث صدرت أوامره الفعالة إلى ماء النيل ، أن يفيض ، فيغرق الجسور ، ويحاصر الأعداء .

أن موقف المسلمين من الحملة الخامسة ، يجب أن نأخذ منه عبرة فى شدة التمسك بحبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، فإن أهل الأرض مهما بلغت قوتهم ، وزادت الأسباب المادية فى أيديهم ، فإنهم لن يستطيعوا أن يطاولوا مالك الملك ، الذى يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز ويذل من يشاء .

« الحرب الصليبية السادسة »

إن المنقب فى بطون التاريخ ، إذا ما ألقى نظرة فاحصة على مسيرة الأحداث عبر القرون الخالية ، يجد من الاستعمار الغربى عجباً عجيبا ، فقد تفاقم الصراع بين الغرب الصليبى ، والشرق الإسلامى ، يريد الغرب أن ينتزع بأنيابه الضارية بيت المقدس من أيدى المسلمين ، ويصر المسلمون على أن يحافظوا على هذا البيت ، وهكذا دارت رحى الحرب ، وحمى وطيسها ، ونحن نقول فى هذا الصدد إن التاريخ أستاذ عظيم ، يلقن الأمم الدروس ، ذات الأثر الفعال ، التى لا تنسى ، والله يقول ﴿ **لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها أذن واعية** ﴾[1]

وما أعظم الدروس التاريخية ، التى يقدمها لنا القرآن العظيم ، والتى تبدو فيها سنن الله واضحة فى أمم خلقه . اقرأ قوله تعالى :

﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾[2] .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون** ﴾[3]

وليستمر الكتاب العزيز فى بيان هذه الدروس ، يلقنها للأمم ، ويبين حيثيات حكم الله القاطع ، الذى حكم به عليها ، اقرأ قوله تعالى :

﴿ **فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد** ﴾[4]

---

(١) الحاقة آية : ١٢

(٢) آل عمران الآيتان : ١٣٧ ، ١٣٨

(٣) النحل الآيتان : ١١٢ ، ١١٣

(٤) الحج آية : ٤٥

ثم استمر فى تلاوة هذه الآيات ، لترى القرآن يلقى بلائمة ، وينعى على الذين إذا ساروا فى الأرض ، لا يأخذون من سيرهم عبرة ولا يستخلصون من حال أهلها موعظة ، يقول جل شأنه :

﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾[1] فياخير أمة أخرجت للناس .

اقرءوا التاريخ ، وكونوا فى قراءتكم معتبرين ، واستخلصوا الدروس ، وكونوا فى دروسه مستبصرين ، ونقبوا فى بطون العبر ، وكونوا فى ذلك مسترشدين ، من قبل أن يأتى يوم لا نملك فيه إلا دموع عيوننا ، وعض بناننا ، ولات ساعة مندم .

لقد جاءت الحملة الصليبية السادسة إلى الشرق الإسلامى ، تريد أيضا استنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين ، كما كانت حال الحملات التى سبقتها ، فقد صارت أنياب الغرب شرسه ضارية تأبى على المسلمين أن تكون لهم كلمة فى هذه الأرض المقدسة ، وعلى وجه الخصوص بيت المقدس ، وكانت الحال التى عليها المسلمون ، وقت مجيء هذه الحملة ، تملأ النفس ألماً ، والقلب مرارة ، فأمراء المسلمين فى مصر والشام فى خلاف محتدم .

فالملك الكامل الأيوبى فى مصر ، والملك المعظم فى الشام صاحب دمشق وبيت المقدس ، والملك الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط ، قد دبت بين الجميع ، نار العداوة ، وخطر الفرقة ، هذا من جهة .

ومن جهه أخرى ، فإن الزحف التترى ، أخذ طريقة إلى بلاد المسلمين ، كالسيل الجارف ، فقد تدفق المغول بقيادة جانكيزخان ، كأنهم الفراش المبثوث ، أو الجراد المنتشر ، يوجهون الضربات إلى الممالك الاسلامية ، كما يصفهم المؤرخ الأوروبى توماس أونولد فى قوله :

« ولقد انساب التتار على أرض المسلمين ، كما تنساب الثلوج من قمم الجبال »

وسقطت أمام زحفهم مملكة خوارزم شاة ، واستمر زحفهم حتى وصلوا إلى شرق العراق ، فارجع البصر فى هذه الأحداث الجسام ، خلاف محتدم بين الأمراء ، وعدو جبار يزحف من أقصى الشرق وهم التتار ، وآخر يأتى من الغرب ، وهم الصليبيون ، والأرض التى تدور عليها المعركة ، أرض المسلمين ، ترى ماذا تكون النتيجة ؟

كانت نتيجة مؤسفة ومحزنة ، كان الامبراطور الألمانى « فردريك الثانى » هو الذى قاد الحملة الصليبية السادسة ، وساعدته العوامل السابقة ، خصوصا الخلاف المحتدم بين الأمراء ، على أن يسلم إليه بيت المقدس بشروط تجعله مشتركاً ، وهذه الشروط هى :

أ ــ تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين ، على شرط أن يبقى سور بيت المقدس مخرباً ، ولا يعاد تجديده وبناؤه ، وأن يحتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وقبة الصخرة (جامع عمرو) ويكون الحكم فى الرساتيق (القرى) إلى والى المسلمين .

---

(١) الحج آية : ٤٨

ب ـــ يكون على ملك الصليبيين القرى الممتدة على الطريق ، من بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية .

ج ـــ يتعهد فريدريك الثانى بمساعدة الملك الكامل ضد خصومه ، سواء كانوا مسيحيين أو مسلمين ، كما يتعهد الامبراطور بالحيلولة دون الامدادات الصليبية إلى الأمراء الصليبيين بالشام مدة عشر سنوات ونصف ، وكان الاتفاق فى ربيع سنة ٦٢٦ هـ . ١٢٢٩م .

ومما هو جدير بالذكر ، أن هذا الصلح ، لم يكن مرضياً منه ، لا من المسلمين ولا من الصليبيين ، وقد استغل أعداء الملك الكامل ، هذا الصلح للتشهير به ، فعقدت المجالس العامة فى دمشق ، وبكى الناس لهذا الحادث واستغله أعداؤه ضده .

وبعد توقيع معاهدة الصلح ، ذهب فردريك إلى بيت المقدس ، وكان يوماً مشئوما وظرفاً عصيبا .

عودة بيت المقدس إلى أيدى المسلمين

لما مات الملك الكامل ، تولى ابنه الملك الصالح أيوب حكم مصر من بعده وكان ذلك سنة ٦٣٧ هـ ـــ ١٢٣٩م وكان حسن التدبير ، يعتبر آخر عظماء سلاطين بنى أيوب ، وكانت له عداوه مع بقية أمراء بنى أيوب ، خصوصاً عمه الملك الصالح اسماعيل ، الذى استولى على دمشق ، وتحالف مع الصليبيين ، وتنازل لهم عن بعض البقاع منها طبرية .

وكانت قد نزلت قوات صليبية جديدة ، قادمة من فرنسا ، من أشهر رجالها كونت شمبانيا ، وكونت بريطانيا ، فلم يكن من الملك الصالح أيوب (صاحب مصر) إلا الاستعانة بالقبائل الخوارزمية ، وجرت بينه وبين عمه اسماعيل والصليبيين معارك شديدة ، انتصر فيها الملك الصالح أيوب عليهم جميعا سنة ٦٤٢ هـ ـــ ١٢٤٤م ، واسترجع بيت المقدس إلى حظيرة السيادة الاسلامية ، فاستبشر المسلمون بهذا الانتصار ، وفزعت أوروبا منه ، مما كان داعياً إلى إثارة حرب صليبية أخرى .

ملك فرنسا والحملة الصليبية السابعة :

وهكذا كان بيت المقدس ، قطب الرحى الذى تدور حوله الرحب ، وتستعر أوارها ، جاء الغرب لينزعه من أصحابه الحقيقين ، وهب المسلمون ، ليستعيدوا حقهم فيه ، وهكذا دواليك حتى هب ملك فرنسا لويس التاسع ومعه إخوته الثلاثة ، روبار دارتو الفونس ، وبواتييه ، شارل دانجو وكثير من الأمراء والأشراف ، وتحركت الحملة إلى قبرص ، حيث حطت الرحال بها ثمانية أشهر ، دارت فيها الاتصالات بين الملك والإمارات الصليبية ، واستقر رأيه أخيراً على أن يتحرك قاصدا مدينة دمياط ، التى سبق أن تحركت إليها الحملة الخامسة سنة ٦١٥ هـ ، وحاصرتها عاما ، ثم كان مصيرها الغرق فى ماء النيل .

وكان على ملك فرنسا أن ينظر فى عاقبة من سبق ، ولكن أعماه حقده الدفين على الاسلام والمسلمين ، فحجبه عن رؤية الحقيقة المجردة ، ونسجت أمام عينيه البغضاء ستارا كثيفا من الضباب ، فأصبح لا يرى وشاء الله له النهاية المخزية ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب .

العقاب .

فى سنة ٦٤٧ هـ أقلعت الحملة الصليبية من قبرص فى اتجاها إلى دمياط ، ولكن عاصفة بحرية ، فرقت سفن الأسطول ، وجعلتها تصل إلى سواحل مصر ، فى فترات متعاقبة ، وقد كانت مراكب لويس التاسع ، أول السفن التى وصلت إلى دمياط فى صفر ٦٤٧ هـ ، وفوجىء سكان دمياط وحاميتها ، بهذا النزول الصليبى ، فاضطربت أحوالهم ودخلهم الرعب ، فأخلوا المدينة ، وفروا تاركين بها الكثير من السلاح والمتاع ، وامتلك الصليبيون مدينة دمياط بدون مقاومة ولا عناء .

ولقد ظل لويس التاسع بمدينة دمياط بعد احتلالها ستة أشهر ، استعدادا للزحف على القاهرة ، وفى هذه الأثناء استعد المسلمون لملاقاته ، وجهزوا جيوشهم لحربه ، يقودهم الملك الصالح ، وتحركوا إلى المنصورة ، حتى يصرفهم عن التوجه إلى القاهرة .

ولكن شاء الله أن توفى الملك الصالح سنة ٦٤٧ هـ . فى شهر شعبان ، وكان له جارية تدعى شجرة الدر ، أخفت موته إلا عن خاصته ، حتى لا يدب الفشل فى صفوف الجيش ، وأخذت تدبر معهم الأمر ، وتصدر الأوامر باسم الملك الصالح ، ريثما يصل ابنه وولى عهده الملك المعظم تورانشاه ، واستطاعت بذلك حفظ المعسكر الاسلامي من الفوضى والاضطراب ، أما الفرنسيون فقد تحركوا إلى المنصورة ، واقتحمتها إحدى فرقهم ، ولكن أبيدت عن آخرها ، ودارت الحرب بين الفريقين بضراوة وعنف ، خصوصاً بعد ما قدم الملك تورانشاه بن الملك الصالح ، وشاء ربك أن يقع الفرنسيون فى موقع غاية فى الحرج ، اذا كانوا محصورين بين فرع النيل ، وبحيرة المنزلة ، والبحر الصغير ، ورأى الملك توران شاه بثاقب فكره ، أن يقطع الامدادات التى تأتى من الصليبيين من دمياط ، فنقل سفنا مفككة على ظهور الأبل وأنزلها بفرع النيل ، بين دمياط والعساكر الصليبية ، وبذلك سد عن الصليبيين منفذهم الوحيد ، وجرت بين الأسطول المصرى ، والأسطول الصليبى معارك كبيرة ، انتهت بانتصار الاسطول المصرى والفتك بثلاثين سفينة صليبية ، واشتد الضغط على الصليبيين ، فقل زادهم ، وانقطع مددهم ، فتفشت فيهم الأمراض ، ونالهم الجوع ، وآباد منهم المسلمون نحو ثلاثين ألفاً ، وضاقت الأرض على الصليبيين ، فأخذوا يخابرون فى المصالحة ، على أن يتخلوا عن دمياط ، مقابل استرجاعهم لبيت المقدس .

ولكن توران شاه أبى هذا ، وأيقن الصليبيون بصمود القوات الاسلامية ، فدخلهم الاضطراب ، وعمدوا إلى إحراج أخشابهم وخيامهم ، وتشتت جموعهم ، فذهب معظم الجيش تجاه دمياط ، أما لويس التاسع ، فانه التجأ إلى تل منيه عبد الله قرب المنصورة ، ولما احتوشته القوات الاسلامية ، وأيقن بالهلاك ، طلب

الأمان فأمنه الطواشى محسن الصالحى ، وكان مع لويس التاسع نحو خمسة آلاف جندى ، ثم اقتيد لويس التاسع إلى مدينة المنصورة ، حيث اعتقل فى دار القاضى إبراهيم لقمان ، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى فى شهر المحرم سنة ٦٤٨ هـ .

نهاية الحملة الصليبية السابعة .

لما اتجهت بقية الصليبيين إلى دمياط ، سارت إليهم القوات المصرية ، والتقت بهم بفارسكو وهزمتهم ، وانتهت بذلك المقاومة الصليبية ، ثم افتدى الملك لويس التاسع رقبته وبقيه من جيشه ، بغرامة مالية مقدارها خمسمائة ألف من العملة الفرنسية اذا ذاك ، وتسليم دمياط بلا قيد ولا شرط ، واتجه لويس التاسع بعد ذلك إلى عكا ، حيث قضى بها أربع سنوات ، كانت له أثناءها اتصالات بقوات التتر ، الذين أخذوا يغيرون على الشرق الاسلامى ، ويكيلون له ضربات قاسمة ، ترى ماذا كان يفعل لويس التاسع أيام أسره ، لقد أخذ يجول ببصره فى أرجاء الشرق ويقلب الأحداث بين يديه ، وينحل مخزون فكره ، ويقدح زناد رأيه ؟ ما هو العامل البديل عن الحملات الصليبية العسكرية ، التى باءت بالفشل الذريع أمام جيوش المسلمين ؟ كلما فشلت حملة تبعتها حملة أخرى ، تتجرع نفس الكأس ، وتذوق نفس المصير ، وبعد أعمال فكر ، واستخلاص رأى ، وضع لويس التاسع دستورا ، لا يزال الاستعمار الغربى يسير على منهجه ، ويترسم خطاه إلى يومنا هذا واقتضت نصوص هذا الدستور ما يلى : —

١ — القيام بحملات مستمرة فى الدس والوقيعة ، وإذكاء نار الفتنة بين أمراء العرب .

٢ — العمل على السيطرة بشتى الطرق وتنشيط حركات التبشير .

٣ — إثارة الحرب الداخلية والغارات الطائفية .

٤ — إقامة قاعدة تمتد من غزة إلى لواء الاسكندرونة .

وهكذا استطاع ملك فرنسا ، قبل أن يغادر الديار المصرية ، أن يخرج بهذه الحصيلة ، التى يتبع خطاها الاستعمار الغربى فى حربه للإسلام والمسلمين ، فهل غير الاستعمار من هذه المخططات شيئا ؟

إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والأحداث تشهد ، أنه ما تغير من هذه المخططات شىء ، إذاً فأين المفر ؟ وكيف الوصول ؟ ومتى النجاة ؟ لا مفر إلا بالرجوع إلى الله ، والوصول أكيد ، اذا ما استيقظت العقيدة فى القلوب ، والنجاة قريبة ، يوم يفيق المسلمون من غفوتهم ، ويستيقظون من كبوتهم .

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[(١)]

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[(٢)]

---

(١) التوبة آية : ١١٩

(٢) الحج آية : ٤٠

لقد انتهت الحملة الصليبية السابعة ، مخلفة وراءها حملة أخرى ، وهى الثامنة ، ولقد كان من المواقف الجليلة للمماليك ، أن المملوك القائد الظاهر بيبرس ، كرس جهاده دائماً على محاربة الصليبيين ، وتطهير أرض المشرق الاسلامى منهم ، حتى لم يبق لهم بعد موته ، إلا إماراتان هما طرابلس وعكا .

ولقد كان الخطب جسيماً ، والخطر فادحاً ، عندما وقعت الأمة الإسلامية بين خطرين داهمين وطاحنين ، هما الخطر المغولى ، الذى كان يهدد فارس والعراق ، والخطر الصليبى الذى بقى فى طرابلس وعكا ، ولكن حكمة الله بالغة ، وعظمته مطلقة ، فهو منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، إليه يرجع الأمر كله ، وله مقاليد السموات والأرض ، ففى الوقت الذى تحالف فيه الصليبيون مع المغول ضد الأمة الإسلامية ، التى لم تفق بعد من ضربات الصليبيين ، واتفق هؤلاء وأولئك عند هدف واحد ، هو القضاء على الاسلام ، نرى فى هذه الظلمات الحالكة ، وفى هذا البحر اللجى ، الذى يغشاه موج من فوقه ، موج من فوقه سحاب ظلمات ، بعضها فوق بعض ، نرى أن الإسلام العظيم بسره العجيب ، وقوته الذاتية ، يغزو قلوب جماعة من المغول ، عرفوا بتتر القفجاق بزعامة بركة خان ، وفى هذه الأثناء ، نرى الظاهر بيبرس ، يتعاون مع هذه الجماعة المسلمة من التتار ، فتتحد الكلمة كلمة الاسلام ضد التتار ، الذين لم يسلموا ، ويقع الصليبيون فى سوء مادبروا ، بعد ما خيب الله ما كانوا يأملون ، وبعد ما اتحدت الكلمة بين المماليك والتتار المسلمين ، كان فى هذه الوحدة قوة دافعة ، وطاقات كبرى ، جعلت الأحقاد الصليبية ، تنقلب على أعقابها .

وفى عهد السلطان قلاوون فتحت طرابلس ، حتى اذا اعتلى ابنه الأشرف خليل عرش مصر ، سقطت مدينة عكا فى أيدى المسلمين سنة ٦٩٠ هـ ـ ١٢٩١م ، وكان سقوطها مسجلاً لنهاية استقرار الصليبية فى البلاد الشامية ، بعد مضى قرنين من الزمان على اندلاع الحروب الصليبية فى المشرق الاسلامى من سنة ٤٩٠ هـ إلى سنة ٦٩٠ هـ .

وقبل أن ينتهى أمر الصليبيين بالمشرق ، خرجت حملة صليبية من فرنسا ، هى الحملة الثانية « لسان لويز » ملك فرنسا ، وهى الحملة الثامنة من الحملات الصليبية ، التى وجهت نحو البلاد الشامية ، ولكن هذه الحملة بدلاً من أن تتجه إلى المشرق ، حسب القصد الذى دعاها ، فإنها بتوجيهات ملك صقلية ، اتجهت إلى تونس ، ونزلت بمدينة قرطاجنة الأثرية ، وكان على تونس السلطان المنتصر بالله الحفصى ، و لم تجر بين الطرفين معارك ذات بال ، فقد بقى الصليبيون حول قرطاجنه واكتفى الحفصيون بمحاصرتهم ، وصادف أن مات « سان لويز » بإصابته بوباء ، فمال بعد ذلك كل من الصليبيين والحفصيين ، إلى الصلح وعقد اتفاق بين الطرفين ، وأقلع الصليبيون ، ورجعوا من حيث أتوا ... واكتفوا من هذه الحملة بما وقع لهم تحت خرائب مدينة قرطاجنة ، وكانت هذه الحملة الثامنة ، هى خاتمة الحملات الصليبية الغادرة الثمان ، التى اتخذت أرقاما عددية .

اللقاء بين الاستعمار والصهيونية :

ترتبط مصالح الاستعمار الغربى بوجود إسرائيل ، فوجود الاستعمار مرتبط بوجود إسرائيل ، ووجود اسرائيل مرتبط بالاستعمار العالمى ، فكلاهما تلتقى مصالحه ، رغم تفاوت درجات كل منهما .

والحديث فى هذا الموضوع وفى تلك الفترة الحاسمة ، حديث الصراع الدموى العنيف ، الذى يفرض نفسه على صوت الخطر ، الذى هبت ناره ، واندلع فى كل البقاع الاسلامية ، خصوصاً بعد الحرب الثالثة ، التى دارت رحاها بين القوى الصهيونية ، والقوى العربية ، وكان من نتائجها أن دخلت إسرائيل بيت المقدس ، واحتلت أجزاء شاسعة من أرض المسلمين والإسلام ، ولعل ذوى الألباب الهاجرة ، وأولى الأفئدة المستنيرة ، يرجعون إلى الحملات الغربية التى تحركت صوب الشرق الاسلامى ، يقودها ملوك أوربا وأمراؤها ، ليستنقذوا بيت المقدس من أيدى المسلمين ، وظل البيت فى حيرة يغتصبه الصليبيون مرة ، ويستعيدة المسلمون أخرى ، وهكذا قامت اسرائيل بنفس الدور الذى قام به أسلافها من جيوش أوروبا .

يحدثنا التاريخ أنه بعد أن وصل الاستعمار الغربى إلى قمته فى القرن التاسع عشر ، **بدأت تواجهه منذ** نهاية هذا القرن ظاهرة محاولة اليقظة ، لنفض هذا الكابوس الذى جثم على صدر الأمة ، ونخر فى عظامها ، وفت فى عضدها ، وفرق كلمتها ، وشتت شملها ، وأوقد نار الفتنة بين أبنائه ، ولا يخشى الغرب إلا يقظة أهل الشرق ، فدعا هذا الأمر أقطاب الاستعمار الغربى ، للنظر فى شأن الشرق ، واجتمع الأقطاب من بريطانيا وفرنسا والبرتغال — أسبانيا — أيطاليا — هولنده .

وقد كشفت توجيهات تتكون وتتسع ، وتقوى ، ثم تستقر إلى حد ما ، ثم تنحل رويداً ، ثم تزول ، والتاريخ ملىء بمثل هذه التطورات ، وهو يتغير بالنسبة لكل نهضة ولكل أمة ، فهناك امبراطوريات روما وأثينا والهند والصين ، وقبلها بابل وأشور والفراعنة ، وغيرهم ، فهل لديكم أسباب أو وسائل ، يمكن أن تحول دون السقوط والإنهيار ، وتؤخر مصير الاستعمار الأوروبى ، وقد بلغ الآن الذروة ، وأصبحت أوروبا قارة قديمة ، استنفذت مواردها ، وشاخت معالمها ، بينما العالم الآخر لا يزال فى شبابه ، يتطلع إلى مزيد من العلم والتنظيم والرفاهية ، هذه مهمتكم أيها السادة وعلى نجاحها يتوقف رخاؤها وسيطرتنا .

اقتراحات لجنة باترمان : -

وعلى **ضوء هذه التوجيهات**، درست اللجنة ، كيفيه ووسائل المحافظة على الامبراطوريات الاستعمارية ، وانتهت فى تقريرها ، الذى صدر سنة ١٩٠٧م ، وعرف باسم تقرير باترمان إلى مايلى : —

أولاً : استبعاد أى خطر على الاستعمار من المستعمرات الحرة ، مثل كندا ، واستراليا ، وجنوب أفريقيا ، والتقليل من خطر استقلال الهند والملايو ، والهند الصينية ، لأن المشاكل الدينية والعنصرية والطائفية ، ستشغل هذه البلدان فترة طويلة ، بعد الاستقلال ، والتقليل كذلك من خطر المستعمرات فى إفريقيا والمحيطين الأطلسى والهادى ، بسبب انعزالها .

ثانيا : (وهذا هو الجزء المهم فى التقرير) أن اللجنة ترى أن الخطر على الاستعمار ، يكمن فى منطقة الشرق الأوسط ، فهذه المنطقة مهد الحضارات والديانات ، ويسكنها شعب ، تتوافر له من وحدة تاريخية ، ووحدة لغته وآماله ، كل مقومات التجمع والترابط ، علاوة على ثرواته الطبيعية ونزعة أهله إلى التحرر .

ولذلك ولمواجهة هذا الخطر ، اقترحت اللجنة على الدول ذات المصالح المشتركة ما يلى :

١ ـــ السيطرة على البحر المتوسط ، لأنه الشريان الحيوى للاستعمار والجسر الذى يربط بين الشرق والغرب .

٢ ـــ استمرار وضع هذه المنطقة المجزأ ، وبقاء شعبها على ما هو عليه من تفكك ، ومحاربة اتحاد هذا الشعب وارتباطه ، بأى نوع من أنواع الارتباط الفكرى أو الروحى أو التاريخى .

٣ ـــ فصل الجزء الأفريقى من هذه المنطقة عن جزئها الآسيوى ، بإقامة حاجز بشرى قوى وغريب ، فى منطقة الجسر البرى ، الذى يربط آسيا وأفريقيا ، بحيث يشكل فى هذه المنطقة ، وعلى مقربة من قناة السويس قوة صديقة للاستعمار ، وعداوة لسكان المنطقة ،

ونتيجة لهذا المخطط الاستعمارى ، كان طبيعياً أن يحدث اللقاء بين الحركة الصهيونية ، وبين الاستعمار ، فقد وجد الاستعمار أهداف هذه الحركة الصهيونية الحاجز البشرى ، الذى يؤمن له مطامعه ومستقبله فى المنطقة ، ووجدت الصهيونية فى الاستعمار ممثلاً فى بريطانيا السند الذى يمكن أن تعتمد عليه ، لتحقيق مخططاتها .

ولم يجد الاستعمار صعوبة فى التفكير فى اختيار هذا الحاجز البشرى الغريب ، فقد كانت الصهيونية العالمية فى ذلك الوقت ، تبحث لليهود عن وطن ، يقيمون فيه ، ومن هنا كان اللقاء بين الاستعمار والصهيونية ، وخاصة بعد مؤتمر « بال » الذى عقد فى مدينة سويسرا سنة ١٨٩٧ م . فما هى الصهيونية ؟

من الناحية اللغوية ، فإن كلمة الصهيونية مشتقة من كلمة صهيون ، وهو جبل يشرف على مدينة القدس فى فلسطين ، قدسه اليهود بعد أن بنى الملك سليمان هيكله هناك ، وقد ظلت هذه الكلمة تطلق على حنين اليهود ، وتطلعهم إلى العودة إلى هذا المكان ، بعد تشردهم منه منذ الأسر البابلى ٥٨٦ ق . م ، كما ظلت ترمز إلى تطلع اليهود إلى هذه البقعة ، من أرض فلسطين ، هذا التطلع ، الذى كان يتخذ صورة البكاء على ماضى اليهود ، ومملكتهم القديمة وهيكلهم ، ظلت كذلك كلمة الصهيونية حتى أواخر القرن التاسع عشر حيث :

١ ـــ دعى موريش هتيس ١٨٦٢ إلى اعتبار أورشليم مركزاً لليهود فى كتابه (روما وبيت المقدس) .

٢ ـــ وانشئت جمعيات عشاق صهيون فى بروسيا ١٨٨٠ ، ثم توحدت هذه الجمعيات سنة ١٨٨٤ .

٣ ـــ ودعا ليوبنسكر ١٨٨٢ إلى ضرورة ايجاد وطن قومى لليهود .

٤ ـــ ثم جاء تيودور هرتزل فأصدر سنة ١٨٨٥ كتاب (الدولة اليهودية) الذى طالب فيه بضرورة قيام دولة يهودية .

ولم يكتف هرتزل بذلك ، بل لقد خطا خطوة أخرى عملية ، لتحقيق هدفه ، وذلك بدعوته إلى مؤتمر « بال » الذى عقد فى مدينة سويسرا فى أغسطس ١٨١٧ م .

مؤتمر بال :

يعتبر هذا المؤتمر أول مؤتمر صهيونى عالمى ، وقد اشترك فيه أكثر من ٢٠٠ مندوب ، يمثلون اليهود فى جميع أنحاء العالم ، وفى هذا المؤتمر صدر تعريف للصهيونية ، بأنها حركة ترمى إلى انشاء وطن للشعب اليهودى شرعى ومعترف به فى أرض فلسطين ، كما حددت أيضا وسائل تحقيق هذا الهدف على النحو التالى :

١ ــ العمل بكل الوسائل على استيطان فلسطين ، بواسطة عمال زراعين وصناعين من اليهود .

٢ ــ تنظيم الشعب اليهودى بواسطة منظمات محلية ودولية ، تلائم الغرض ، وتتفق مع قوانين البلاد ، التى يعيش فيها اليهود .

٣ ــ تقوية الوعى اليهودى القومى .

٤ ــ اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على السند الضرورى من الدول العظمى .

الصهيونية حركة سياسية عنصرية :

وقبل ان نستطرد فى شرح خطوات تنفيذ قرارات مؤتمر « بال » وتوضيح كيفية التنسيق بين مخططات كل من الصهيونية والاستعمار فى المنطقة ، فلابد من وقفة سريعة لتحديد ماهية الحركة الصهيونية ، وذلك لتجريد هذه الحركة من كل الشعارات الزائفة ، التى حاول قادة الصهيونية إلصاقها بها .

قالوا : إن الصهيونية تحقيق لحق اليهود التاريخى فى فلسطين ، وهذا الحق تكذبه وقائع التاريخ نفسها .

فحكم داود وسليمان الذى بنى عليه الصهيونيون ادعاءهم بحقهم فى فلسطين ، لم يدم أكثر من ٧٣ سنة فقط (من ٩٢٧ - ١٠٠٠ ق . م) وحكم اليهود فى فلسطين لم يستمر سوى ٤١٤ عاماً فقط ، ولم يكن هذا الحكم مستقلاً كاملاً ..

هذا بيانها :

١ ــ حكم الرومان هذه البلاد نحو ٦٧٧ سنة .

٢ ــ حكمتها مصر نحو ٦١٥ سنة .

٣ ــ ثم حكمها العرب نحو ٤٤٧ سنة ، وحكمها المسلمون من سلجوقيين ومماليك وعثمانين حوالى ٦٩٨ عاماً ، تضاف إلى حكم العرب فيكون المجموع ١١٤٥ عاماً .

وقالوا : ان الصهيونية رد فعل لاضطهاد اليهود :

وهذا الزعم ترفضه أيضا ، لمبررات كثيرة ، أبرزها أن انبثاق هذه الحركة ، وتبلورها قد جاء فى أعقاب

رياح التحرر والمساواة ، التى كان يمكنها أن تساعد على إذابة اليهود واندماجهم فى المجتمعات ، التى يقيمون فيها ، لو كانت لديهم النية الصادقة لهذا الاندماج ، ولو استطاعوا أن يتخلصوا من خرافة تميزهم عن بقية الشعوب ، وما عرف عنهم من خيانة ، وصفات ذميمة ، ساعدت على نبذهم وعلى تخوف كل الشعوب منهم .

وقالوا أيضا : إن الصهيونية تحقيق لنبوءات اليهودية القديمة فى العودة إلى فلسطين .

والأدلة كثيرة لكشف مدى التضليل فى هذا الزعم ، ولكن يكفى فقط أن الزعماء الصهيونيين وعلى رأسهم هرتزل نفسه ، كانوا مستعدين لإقامة الوطن **القومى** فى أى مكان آخر غير فلسطين .. فى الأرجنتين .. أوغنده — قبرص — استراليا — الإكوادور — بيرو .

ونتيجة لما تقدم ، تظهر لنا حقيقة الصهيونية كحركة سياسية عنصرية رجعية ، قامت لخدمة الاحتكارات الاستعمارية ، واستثارت النعرة العنصرية فى **اليهود**، لتضمن ولاءهم الأعمى لها .

وإذا كانت هذه الحركة ، قد فضلت أن يكون الوطن **القومى** لليهود فى فلسطين ، فإن ذلك يرجع إلى دافعين رئيسين :

الدافع الأول :

استغلال الشحنة العاطفية والدِّينية عند اليهود المرتبطة بالأرض المقدسة ، لتشجيعهم على الهجرة إلى فلسطين ، وتنفيذ مخططات الصهيونية .

الدافع الثانى :

إدراك الزعماء الصهيونيين منذ الوهلة الأولى ، أن اختيار فلسطين بما لها من موقع استراتيجى ، وأهمية تجارية لوقوعها فى الطريق المؤدى إلى الهند ، والذى كان يعد أهم الطرق التجارية فى العالم القديم ، سيلقى تأييد وتشجيع الدول الاستعمارية ، التى كانت تتحكم فى هذه المنطقة ، والتى كان من مصلحتها أن تساهم فى تنفيذ المخطط الصهيونى لحماية مصالحها ، وهذا ما أوضحه ناحوم جولدمان بقوله فى خطاب ألقاه فى مدينة مونتريال بكندا عام ١٩٤٧ :

(كان ممكناً لليهود أن يحصلوا على أوغندا ، أو مدغشقر ، أو غيرها ، ليقيموا فى أى منها وطناً يهودياً ، ولكن اليهود لا يريدون سوى فلسطين ، لا لاعتبارات دينية ، أو بسبب إشارة التوارة إلى فلسطين ، بل لأن فلسطين ، هى ملتقى الطرق بين أوروبا وآسيا وافريقيا ، وأنها هى المركز الحقيقى للقوة السياسية العالمية ، ولأنها المركز العسكرى الاستراتيجى للسيطرة على العالم) .

وهذا التفسير يوضح لنا السبب فى تلاق الصهيونية مع مخططات الاستعمار ، التى وضحت فى قرارات لجنة باترمان .

خطوات تنفيذ المخطط الاستعمارى الصهيونى :

وبدأ تنفيذ المخطط الاستعمارى الصهيونى المشترك ، لإقامة هذا الحاجز البشرى الغريب فى المنطقة ،

وقد تم تنفيذ هذا المخطط على مرحلتين رئيسيتين ، تولت قيادة الأولى منها بريطانيا ، أما المرحلة الثانية فقد تزعمتها الولايات المتحدة الأمريكية .

دور بريطانيا :

بدأت معالم هذا الدور ، تتضح خلال الحرب العالمية الأولى ، ففى الوقت الذى كانت وسائل مكماهون إلى الشريف حسين ، تعد العرب بمنحهم الاستقلال بعد انتهاء الحرب ، كانت بريطانيا تتقاسم مع فرنسا باتفاقية سايكس بيكو ١٩١٦ م السيطرة على بلاد المنطقة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد كان هناك مقابلا قدمته بريطانيا للدور الذى قامت به الحركة الصهيونية ، لمساندة قضية الحلفاء ، والمساهمة فى تمويل الحرب والضغط على الولايات المتحدة ، لدخولها إلى جانب الحلفاء ، هذا الضغط الذى تزعمه اليهودى لويس اندير رئيس المحكمة الأمريكية العليا ، والذى كان الرئيس الأمريكى ويلسون يقتنع بكل ما يشير به عليه .

وكان هذا المقابل ، هو وعد بلفور ، الذى صدر فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ والذى أعطت به بريطانيا أرضاً لا تملكها لمن لا يستحقها .

ثم استطاع الاثنان بالقوة والخديعة ، أن يسلبا صاحب الحق الشرعى حقه فيما يملكه وفيما يستحق .

وتناست بريطانيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، وعودها للعرب ، وبدأت تركز كل اهتمامها فى أن تضع وعد بلفور موضع التنفيذ .

ولم يكن غريبا إذاً ، أن تحول بريطانيا مهمة الانتداب على فلسطين ، من تأهيل سكان فلسطين للحكم الذاتى ، إلى التمهيد لقيام الوطن القومى لليهود فى فلسطين .

ولم يكن غريباً أيضاً ، أن يكون أول مندوب لها فى فلسطين ، هو الصهيونى هربرت صمويل ، ولم تجد بريطانيا من الشذوذ أن تكون حصيلة انتدابها على فلسطين هى :

بالنسبة لعدد اليهود :

ارتفع من ٥٠,٠٠٠ سنة ١٩١٨ م إلى ٦٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٤٧ .

بالنسبة لملكية اليهود للأراضى

ارتفعت من ٢,٥ ٪ سنة ١٩١٨ إلى ٦ ٪ سنة ١٩٤٦ بالاضافة إلى ٤٦ ٪ من أراضى الدولة منحتها بريطانيا للوكالة اليهودية ، بعضها بدون مقابل ، وبعضها بثمن رمزى .

بالنسبة لتمكين اليهود فى فلسطين :

ـــ جعلت بريطانيا اللغة العبرية فى مقدمة اللغات الرسمية فى فلسطين .

ـــ عينت كثيرا منهم فى دوائر الحكومة .

ـــ اشتركت الوكالة اليهودية فى حكم البلاد .

ــ منحت اليهود كثيرا من الامتيازات للاستيلاء على المراكز الرئيسية للاقتصاد الفلسطينى .

بالنسبة لتنظيم اليهود عسكريا :

١ ــ ساعدت بريطانيا اليهود ، على تهريب الأسلحة ، وتخزينها فى المستعمرات .

٢ ــ كما تولى بعض الاخصائين البريطانيين ، تدريبهم على حرب العصابات .

٣ ــ وفى ١٩٤٦ بلغ قوات اليهود .

٦٢,٠٠٠ فى جيش الهجاناة لديهم ١٤,٤٥٠ قطعة سلاح .

٦,٠٠٠ فى عصابة الأرجون .

٠,٣٠٠ فى عصابة شتريد .

٢,٠٠٠ فى قوة البوليس .

دور الولايات المتحدة :

أظهرت الولايات المتحدة تأييدها ، لفكرة الوطن القومى لليهود ، منذ صدور وعد بلفور ، وقد استغلت الحركة الصهيونية ، التنافس بين بريطانيا وواشنطن ، فى محاولة كسب ود هذه الحركة ، والتقرب إليها لكى تصل بسهولة إلى تحقيق مطامعها .

وبعد أن استنفدت الصهيونية ، معظم ما كانت تأمل فيه من بريطانيا بدأت تركز نشاطها فى الولايات المتحدة ، بعد قيام الحرب العالمية الثانية ، وساعدها على ذلك أن الولايات المتحدة ، كانت فى ذلك الوقت ، قد أخذت تتزعم العالم الرأسمالى ، وتبدى اهتمامها بمنطقة الشرق الأوسط ، كما أخذت احتكاراتها ، تتطلع إلى هذه المنطقة ، وخاصة للمشاركة فى عملية نهب البترول العربى ، وقد برز دور الولايات المتحدة واضحاً فيما يلى :

١ ــ المناورات والضغوط التى تمت فى الأمم المتحدة ، لإقرار مشروع التقسيم ففى الأمم المتحدة وبين جنبات هذه الهيئة الدولية ، بدأت مرحلة جديدة من المناورات ، لخدمة المخططات الاستعمارية ، فقد كان من المقرر ان يطرح مشروع التقسيم على الأمم المتحدة ، للاقتراع فى ٢٦ نوفمبر ، ولكن أجل هذا الاقتراح إلى يوم ٢٩ نوفمبر للخوف من عدم إمكان حصول المشروع على الأغلبية المطلوبة .

وخلال هذه الأيام الثلاثة ، بذلت الصهيونية العالمية كل أساليب الضغط والمناورات ، وركزت كل ثقلها ، لكى تكسب هذه الجولة ، فى هذا المجال الدولى ، وكرست الولايات المتحدة كل جهودها ونفوذها ، للهدف نفسه ، وكانت نتيجة ذلك صدور قرار الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، بتقسيم فلسطين بأغلبية ٣٣ صوتاً مقابل ١٣ صوتاً ، وامتناع دول عن التصويت ، وقد كانت المناورات والضغوط الأمريكية ، محل انتقاد وهجوم ، حتى من بعض الشخصيات الأمريكية ، ويكفى ما قاله الكاتب الأمريكى ميلر بوروز : من أن اقرار التقسيم فى الولايات المتحدة ، يقع على عاتق حكومتنا ، فهى التى فرضت هذه

النتيجة فرضاً ، بعد أن لجأت دون حياء أو خجل إلى اصطناع سياسات القوة ، التى انقضى عهدها ، وكان القرار قاضياً على كل ما للعالم من ثقة بالولايات المتحدة ، والأمم المتحدة نفسها .

٢ ـ الاسراع فى الاعتراف باسرائيل :

كان طبيعياً أن يثور العرب على قرار التقسيم ، الذى قابله اليهود ، وخاصة بعد أن منحهم النقب ، فأعطى لدولتهم مخرجاً على البحر الأحمر ، كما ضمن لهم امكانيات توسيع رقعة دولتهم ، واستيعاب مزيد من المهاجرين ، وقد كانت نتيجة هذه الثورة ، أن ثار النقاش فى الأمم المتحدة ، حول كيفية تنفيذ قرار التقسيم ، بل لقد ظهر اقتراح جديد بوضع فلسطين تحت الوصاية ، وأحست الصهيونية بخطورة الموقف ، الذى كان محتملا أن يهدد بعض مكاسبها ، التى حصلت عليها من قرار التقسيم ، ولذلك تحركت الحركة الصهيونية بسرعة ، وأجبرت بريطانيا على تقديم موعد انسحاب قواتها من أغسطس ١٩٤٨ إلى ١٤ مايو ١٩٤٨ .

ـ وفى منتصف ليلة ١٥ مايو ، أعلن انتهاء الانتداب البريطانى ، وبعدها أعلن قيام إسرائيل ، وكانت الولايات المتحدة أولى الدول التى اعترفت بهذا الطغيان ، والكيان البشرى الغريب ، ومن المفارقات أن يصدر هذا الاعتراف فى الوقت الذى كانت الأمم المتحدة ، تناقش فيه الاقتراح بغرض الوصاية على فلسطين .

٣ ـ الاشتراك مع بقية القوى الكبرى فى مساندة اسرائيل :

وهذه المساندة ، هى التى مكنت اسرائيل من أن تستأنف الحرب بعد الهدنة الأولى التى (كانت العامل الرئيسى فى انقاذ اليهود والحيلولة دون سحقهم على أيدى الجيوش العربية) كما ذكر الكاتب البريطانى « كينيت بيلبى » رغم كل المعوقات ، التى كانت تحد من حرية هذه الجيوش فى الحركة ، ورغم تآمر الرجعية الحاكمة فى العالم العربى ، ضد قضية فلسطين ، وكانت هذه المساندة أيضا ، هى السبب فى الضغط على العرب ، لعقد اتفاقيات الهدنة الثانية ، ثم كانت السبب فى قبول اسرائيل فى الأمم المتحدة فى ١١ /٥ / ١٩٤٩م وفى هذا التاريخ تحقق ما نادت به لجنة كامبل باترمان ، وانضم إلى المجتمع الدولى كيان غريب ، اشتركت فى إقامة مخططات صهيونية عنصرية ، ومخططات استعمارية رجعية ، وكان ضحية هذه المخططات شعب فلسطين ، الذى شرد أكثر من ٩٠٠,٠٠٠ ألف من أبنائه ، واغتصب أرضه وممتلكاتهم ، وحرم من وطنه ، ورغم مضى من ٤٠ عاماً على هذه الجريمة ، فما زالت الأمم المتحدة عاجزة عن أن تعيد للفلسطنين حقوقهم ، وأن تجبر اسرائيل على احترام وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة فى هذا الشأن .

وقد استمرت الولايات المساندة إلى تدعيم اقتصاديات اسرائيل ...

فهل تغير الغرب عن الخطوط العريضة ، التى رسمها لويس التاسع ، وهل كف عن اطماعه وعدوانه للشرق ، الواقع أنه لم يتغير ، واذا كان الأمر كذلك ، فواجبنا نحن أن نغير ما بأنفسنا ، حتى يغير الله ما حل بنا حيث يقول :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[١]

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[٢] ... أ هـ

تفسير قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾ .

بعد أن ذكر سبحانه جزاء المجاهدين فى سبيل الله أعقبه بجزاء الكافرين فقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا فتعساً لهم** ﴾ قال ابن عباس أى بعداً لهم ، وقال ابن زيد شقاء لهم ، وقيل إن التعس : الانحطاط والعثار ، قال ابن السِّكيت التعس : أى يخر على وجهه ، والنكس أن يخر على رأسه . قال والتعس أيضا الهلاك ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « **تعس** عبد الدينار ، والدرهم والقطيفة والخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط لم يرضى » أخرجه البخارى . وفى رواية أخرى « تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش » اخرجه ابن ماجه[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأضل أعمالهم** ﴾ أى أبطلها ، لأنها كانت فى طاعة الشيطان كقولة تعالى : ﴿ **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً** ﴾[٤] وكقوله تعالى فى آخر السورة : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم** ﴾[٥] ثم يبين سبحانه سبب ذلك الاضلال فقال :

﴿ **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله** ﴾ من الكتب والشرائع ﴿ **فأحبط أعمالهم** ﴾ التى عملوها فى الدنيا وأصلاهم سعيراً ، فكل ما عملوه فى الدنيا من صالح الأعمال ، فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

---

(١) الرعد آية : ١١١

(٢) محمد آية : ٧

(٣) أخرجه البخارى حـ ٨ صـ ١١٥ كتاب الرقاق ط الشعب وابن ماجه حـ ٢ صـ ١٣٨٥ برقم ٤١٣٥ كتاب الزهد

(٤) الفرقان آية : ٢٣

(٥) محمد آية : ٣٢

دروس وعبر

قال تعالى :

* أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ
أَمْثَالُهَا (١٠) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ
كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢) وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِى أَخْرَجَتْكَ
أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣) أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُم (١٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ
لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ
وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) وَمِنْهُم مَّن
يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ
اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) فَهَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ (١٨)
فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩)

معانى المفردات

﴿ **كأين من قرية** ﴾ كثير من القرى ، ﴿ **مثل الجنة** ﴾ أى حنقها ، ﴿ **آسن** ﴾ أى متغير الطعم والريح ، لطول مكثه ، ﴿ **مصفى** ﴾ أى لم يخالطه الشمع ، ولا فضلات النحل ، ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا ، ﴿ **حميماً** ﴾ أى حاراً ، ﴿ **أمعاءهم** ﴾ الأمعاء : واحدها معى ﴿ **بالفتح والكسر** ﴾ وهو ما فى البطون من الحوايا . ﴿ **آنفاً** ﴾ أى : قبيل هذا الوقت ، ﴿ **آتاهم** ﴾ أى ألهمهم ﴿ **بغتة** ﴾ أى فجأة ، ﴿ **الإشراط** ﴾ العلاقات ﴿ **فأنى لهم** ﴾ أى كيف لهم ، ﴿ **ذكراهم** ﴾ أى تذكرهم ﴿ **متقلبكم** ﴾ أى تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ﴿ **ومثواكم** ﴾ أى مأواكم فى الجنة أو النار .

يستهزئون ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾ [2] .

ثم يبين سبحانه السبب فى حلول أمثال هذه العاقبة بقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** ﴾ أى هذا الذى فعلنا بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم ، بسبب أن الله ولى من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لا ناصر لهم ، فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب ونفى المولى عنهم هنا لا يخالف إثباته ، فى قوله تعالى : ﴿ **ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق** ﴾ لأن المراد به هناك المالك لأمورهم ، المتصرف فى شئونهم . قال قتادة : نزلت هذه الآية يوم أحد والنبى ﷺ فى الشعب إذ صاح أبو سفيان صخر بن حرب ، رئيس المشركين يوم أحد ، حين سأل عن النبى ﷺ ، وعن أبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما فلم يجب ، وقال أما هؤلاء فقد هلكوا ، فأجابه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ فقال : كذبت ياعدو الله ، بل أبقى الله لك ما يسوؤك ، وإن الذين عددت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مُثله لم آمر بها ، ولم تسؤنى ذهب **يرتجـز ويقـول** : اعل هبل اعل هبل . فقال رسول الله قولوا « الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال رسول الله ﷺ « ألا تجيبوه ؟ » قالوا وما نقول يارسول الله ؟ قال قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين أمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ .

كقوله تعالى : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد** ﴾[3] وكقوله سبحانه ﴿ **إن الله يدخل الذين أمنوا وعملو الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، وهدوا الى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ أى والذين جحدوا بالله وكذبوا رسوله ﷺ ، وتمتعوا فى هذه الدنيا بحطامها ورياشها وزينتها الفانية ويأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ولا معتبرين بنعم الله فمثلهم مثل البهائم ليس لهم همة إلا بطونهم وفروجهم ، ساهون عما فى غيرهم . وثبت فى الصحيح ﴿ **المؤمن يأكل فى معى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء** ﴾

---

(١) الروم الآيتان : ٩ ، ١٠

(٢) غافر الآية : ٨٢

(٣) سورة الحج آية : ١٤

(٤) سورة الحج الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغبة أعمالهم ، وأن النار مثوى لهم — أردف هذا أمرهم بالنظر فى أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارهم ، لما للمشاهدات الحسية من آثار فى النفوس ، ونتائج لدى ذووى العقول اذا تدبروها واعتبروا بها . ثم يبين سبحانه الفارق بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين ، فى الاهتداء والضلال فى الدنيا وفى الآخرة ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما ، وبعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مغبتهم — أردف هذا بيان أحوال المنافقين ، الذين كانوا يحضرون مجالس الرسول ، فيسمعون كلامه ولا يعونه ، ومن ثم تشاغلوا عن سماع كلامه ، واقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال الذين اهتدوا ، ثم عنف أولئك المكذبين ، وذكر أن عليهم أن يرعووا قبل أن تجيء الساعة ، التى بدت علاماتها بمبعث محمد ﷺ ، والذكرى لا تنفع حينئذ ، ثم أمر الرسول بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله ، والاستغفار والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله بكل شيء عليم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾

أى أفلم يسر هؤلاء المكذبون بمحمد ﷺ ، والمنكرون ما أنزلنا من الكتاب — فى الأرض فيروا نقمة الله التى أحلها الله بالأمم الغابرة والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وثمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن نفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم ﴿ **دمر الله عليهم** ﴾ أى أهلكهم واستأصلهم . ﴿ **وللكافرين أمثالها** ﴾ أى أمثال هذه الفعلة يعنى التدمير ، والهاء فى (أمثالها) تعود على العاقبة ، أى وللكافرين من قريش أمثال عاقبة الأمم السالفة ، إن لم يؤمنوا .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾[1] وكقوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور** ﴾[2] .

وكقوله تعالى : ﴿ **أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها**

---

(١) الأنعام آية : ١١

(٢) الحج آية : ٤٦

ثم قال تعالى : ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أى يوم جزائهم ونحو الآية قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون ، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون ، من دون الله ، قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ، كذلك يضل الله الكافرين ، ذلكم بما كنتم تفرحون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾[1]

قوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأسا وأكثر جمعا ، من أهل مكة الذين أخرجوك ـ أهلكناهم ماذاع العذاب ولم يجدوا ناصراً ولامعينا يدفع عنهم بأسنا وعذابنا فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل فالله مظهرك عليهم ، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم ان لم ينيبوا إلى ربهم ويثوبوا إلى رشدهم .

أخرج ابن ابى حاتم وابن مردون عن ابن عباس : « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة الى الغار التفت الى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله الى الله ، وأنت أحب البلاد الىّ ولولا أن المشركين أخرجونى لم أخرج منك » . فأعدى الأعداء من عدا على الله تعالى على نبيه ﷺ (وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) .

قوله تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا اهواءهم ﴾ .

يقول تعالى ﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أى على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزل الله فى كتابه من الهدى والعلم وبما جبله الله عليه من الفطرة السليمة المستقيمة ﴿ كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟ ﴾ أى ليس هذا كهذا كقوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ ﴾[2] وكقوله تعالى ﴿ وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، إن الله يسمع من يشاء ، وما أنت بمسمع من فى القبور ﴾[3] .

قوله تعالى ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ، فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم ﴾ .

بعد أن بين سبحانه وتعالى الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال ـــ ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما فذكرَ ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لا يدركها الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب فى النار وشرب الماء الحار الذى يقطع الأمعاء فقال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون ﴾ أى صفة الجنة التى وعدها الله من اتقى عقابه فأدى فرائضه واجتنب نواهيه ـــ ما ستسمونه بعد .

ثم فسر هذه الصفة بقوله :

﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح ، لطول مكثهاوركودها ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أى لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا إلى الحموضة .

(١) سورة غافر الآيات : ٦٩ ـ ٧٦ (٢) سورة الرعد آية : ١٩ (٣) سورة فاطر الآيات : ١٩ ـ ٢٢

﴿ **وأنهار من خمر لذة للشاربين** ﴾ أى **وفيها** أنهار من خمر لذيذة لهم ، اذا لم تدنسها الأرجل ، ولم تكدرها الأيدى كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخمار كخمور الدنيا ، فلا يتكرّهها الشاربون . كما قال سبحانه ﴿ **لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون** ﴾ ﴿ **بيضاء لذة للشاربين** ﴾ . ﴿ **وأنهار من عسل مصفى** ﴾ أى وفيها أنهار من عسل قد صفى من القذى وما يكون فى عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها . قال ابن كثير وفى حديث مرفوع « ولم يخرج من بطون النحل » وقال الأمام أحمد عن حكيم بم معاوية عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « فى الجنة بحر اللبن وبحر الماء وبحر العسل ، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » . رواه الترمذى فى صفة الجنة وقال حسن صحيح . وفى الصحيح « اذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » .

وقوله تعالى : ﴿ **وهم فيها من كل الثمرات** ﴾ كقوله تعالى ﴿ **يدعون فيها بكل فاكهة آمنين** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ . وكقوله تبارك اسمه ﴿ **فيها من كل فاكهة زوجان** ﴾

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ **ومغفرة من ربهم** ﴾ أى مع ذلك كله ، المغفرة والرضوان كقوله تعالى ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم** ﴾ أى أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد فى النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء كقوله تعالى : ﴿ **أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة** ﴾ فليس من هو فى الدرجات العلى كمن هو فى الدرجات السفلى .

وقوله تعالى ﴿ **وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم** ﴾ أى حاراً شديد الغليان ، إذا دنا منهم شوى وجوههم ، ووقعت فروة رءوسهم فإذا شربوه قطع امعاءهم وأخرجها من دبورهم .

قوله تعالى ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ، أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ .

روى مقاتل أن النبى ﷺ كان يخطب ويعيب المنافقين فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفا ؟ قال ابن عباس وقد سُئلت فيمن سئل .

ثم يبين سبحانه سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال تعالى : ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم** ﴾ أى هؤلاء الذين هذه صفتهم ــ هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله ﷺ ، واتبعوا شهواتهم وما دعتهم اليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

وقوله تعالى ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ كقوله تعالى . ﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم .. الآية** ﴾ قال القرطبى وفى الهدى الذى زادهم أربعة أقاويل : أحدها ــ زادهم علماً والثانى ــ أنهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا ، الثالث ــ زادهم بصيرة فى دينهم وتصديقاً

لنبيهم ، والرابع ــ شرح صدورهم بما هم عليه من الإيمان . بقوله ﴿ **واتاهم تقواهم** ﴾ أى ألهمهم إياها وأعانهم على تقواه .

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها إنما هى قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله تعالى ، ونفعة ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » متفق عليه .

قال الأمام الخطابى رحمه الله : فالنبى ﷺ جعل مثل العالم كمثل المطر ، ومثل قلوب الناس فيه ، كمثل الأرض فى قبول الماء فشبه من تحمَّل العلم والحديث ، وتفقه فيه الأرض الطيبة ، أصابها المطر فتنبت ، وانتفع بها الناس ، وشبه من تحمَّله ولم يتفقه بالأرض الصُلبة التى لا تنبت ، ولكنها تمسك الماء ، فيأخذه الناس ، وينتفعون به ، وشبه من لم يفهم ، ولم يحمل بالقيعان التى لا تنبت ولا تمسك الماء ، فهو الذى لا خير فيه أ هـ .

قوله تعالى ﴿ **فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها** ﴾ أى أنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانية الله وصدق نبوة رسوله وأن البعث حق ، وأن الله يهلك من كذب رسله كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التى أهلكها الله لتكذيبها رسلها ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يغوهم كل ذلك شيئا ولم يتعظوا ولم يؤمنوا ــ فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة اذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

وقوله تعالى ﴿ **فقد جاء أشراطها** ﴾ أى أمارات اقترابها كقوله تبارك اسمه ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة** ﴾ وكقوله جلت عظمته ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون** ﴾ **فبعثة** رسول الله ﷺ من أشراط الساعة . لأنه خاتم الرسل الذى أكمل الله تعالى به الدين وأقام به الحجة على العالمين وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبى قبله . وقال الحسن البصرى **بعثة** محمد ﷺ من أشراط الساعة وقال البخارى عن سهل بن سعد رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ قال بأصبعيه هكذا بالوسطى والتى تليها « بعثت أنا والساعة كهاتين » .

ثم قال تعالى ﴿ **فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم ؟** ﴾ أى فكيف للكافرين بالتذكر اذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ؟ كقوله تعالى ﴿ **هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا قل انتظروا إنا منتظرون** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **يومئذ يتذكر الانسان وأنى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد** ﴾ .

وقوله عز وجل ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله** ﴾ قال الماوردى وفيه ــ وإن كان رسول الله ﷺ عالماً بالله ــ ثلاثة أوجه : يعنى أعلم أن الله أعلمك أن لا إله إلا الله . والثانى : ــ ما علمته استدلالا فاعلمه خبراً يقيناً . الثالث ــ يعنى فاذكر أن لا إله إلا الله ، فعبر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه . أ هـ .

وعن سفيان بن عينيه أنه سُئل عن فضل العلم فقال « ألم تسمع قوله تعالى بدأ به ﴿ **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك** ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال ﴿ **اعلموا إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ــ إلى قولة ــ سابقوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾ وقال ﴿ **واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ ثم قال بعد : ﴿ **فاحذروهم** ﴾

وقوله تعالى ﴿ **واستغفر لذنبك** ﴾ قال القرطبى يحتمل وجهين أحدهما ــ يعنى استغفرا الله أن يقع منك ذنب . الثانى ــ استغفر الله لعصمك من الذنوب . وقيل الخطاب له والمراد الأمة ، وعلى هذا القول توجب الآية استغفار الإنسان لجميع المسلمين . وقيل أمر بالاستغفار لتفتدى به الأمة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « والله إنى لأُستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » (رواه البخارى)

وفى رواية لمسلم « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا نعد لرسول الله ﷺ فى المجلس الواحد مائة مرة « رب اغفر لى وتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم »[٢] (رواه أبو داود والترمذى وقال حديث صحيح .) .

وعن عائشة رضى الله عنهما قالت « كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول قبل موته « سبحان الله وبحمده ، استغفر الله وأتوب إليه »[٣] .

وفى الصحيح إنه كان يقول ﷺ فى سجوده « اللهم اغفر لى ذنبى كلة دقه وجله وأوله وآخره وعلانيته وسره » رواه مسلم وقال النووى رحمه الله : قوله ﷺ : (اللهم اغفر لى ذنبى كله) مع أنه مغفور له ، فهو من باب العبودية والإذعان والافتقار لله تعالى .

ــ وقوله تعالى : ﴿ **وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ أى ولذنوبهم ، وهذا أمر بالشفاعة روى مسلم عن عبد الله بن سرجس المخزومى قال : أتيت النبى ﷺ وأكلت من طعامه فقلت يارسول الله : غفر الله لك ، فقال له صاحبى : هل استغفر لك النبى ﷺ ؟ قال : نعم ، ولك ثم تلا هذه الآية : ﴿ **واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات** ﴾ ثم تحولت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه جُمعاً[٤] (وجمع الكف . وهو أن يجمع الأصابع ويصنمها) .

---

(١) أخرجه الترمذى كتاب الدعوات حـ ٥ صـ ١٥٨ برقم ٣٤٩٥ ط دار الفكر وأبو داود حـ ٢ صـ ١٧٨ برقم ١٥١٦ باب الوتر ط دار الحديث

(٢) أخرجه مسلم حـ ١ صـ ٣٥١ برقم ٢٢٠ / ٤٨٤ كتاب الصلاة وأحمد حـ ٦ صـ ١٨٤

(٣) أخرجه مسلم حـ ١ صـ ٣٥٠ برقم ٢١٦ / ٤٨٣ كتاب الصلاة .

(٤) أخرجه مسلم حـ ١ صـ ٣٥٠ برقم ٢١٦ / ٤٨٣ كتاب الصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ **والله يعلم متقلبكم ومثواكم** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما يعلم متقلبكم فى الدنيا ، ومثواكم فى الآخرة .

وقال ابن جريج : يعلم تصرفكم فى نهاركم ، ومستقركم فى ليلكم ، كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار** ﴾[1] واختار هذا القول ابن جرير ورجح ابن كثير .

من أحوال المنافقين

قال تعالى :

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

معانى المفردات

﴿ **لولا** ﴾ كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، أى هلا أنزلت سورة فى أمر الجهاد ، ﴿ **محكمة** ﴾ أى بينة واضحة لا أحتمال فيها لشىء آخر . ﴿ **مرضى** ﴾ أى ضعف ونفاق ﴿ **نظر المغشى عليه من الموت** ﴾ أى كما ينظر المصروع الذى لا يطرف بصره جبناً منه وهلعاً ، ﴿ **أولى لهم** ﴾ أى فويل لهم ،

---

(١) الأنعام آية : ٦٠

﴿ **عزم الأمر** ﴾ أى جد أولو الأمر ، ﴿ **عسى** ﴾ كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها ، ﴿ **توليتم** ﴾ أى توليتم أمور الناس وتآمرتم عليهم . ﴿ **يتدبرون القرآن** ﴾ أى يتصفحون ما فيه من المواعظ والزواجر . ﴿ **ارتدوا على أدبارهم** ﴾ أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، ﴿ **سول لهم** ﴾ أى سهل لهم وزين ، ﴿ **وأملى لهم** ﴾ أى مد لهم فى الأمانى والآمال . ﴿ **يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ أى يتوفونهم وهم على أفظع الأحوال . ﴿ **أضغانهم** ﴾ أحقادهم ، وتضاغن ا لقوم إذا أبطنوا الأحقاد ﴿ **لأريناكهم** ﴾ أى لعرفناكهم ، ﴿ **سيماهم** ﴾ السيمى : العلامة . ﴿ **لحن القول** ﴾ أسلوبه بإمالته عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ﴿ **ولنبلونكم** ﴾ أى لنختبرنكم .

المناسبة وأجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين ، حين استمع آيات التوحيد والحشر والبعث ، وغيرها فيما سلف ﴿ **ومنهم من يستمع إليك** ﴾ وقوله : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى** ﴾ أردف هذا ، فذكر حالهم فى الآيات العملية ، كآيات القتال والصلاة والزكاة ونحوها ، فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ، ويرجون نزولها ، واذا تأخرت كانوا يقولون : هلا أمرنا بشىء من تلك التكاليف ، شق عليهم الأمر ، ثم يبين سبحانه نتيجة لما سلف ، بأنه طرد المنافقين وأبعدهم من الخير ، ومن قبل هذا أصمهم ، فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعمى أبصارهم ، فلا يسيرون على الصراط المستقيم ، ثم يبين سبحانه أن قلوبهم مقفلة ، فلا يتدبرون ما يتلى عليهم ، ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر ، بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك ، وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم يبين سبب ارتدادهم ، وهو قولهم لبنى قريظة والنضير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم ، والله يعلم ما يصدر عنهم منكل قبيح ، ثم أردف هذا ذكر ما يصادفونه من الأهوال ، اذا جارتهم الملائكة ، لقبض أرواحهم الخبيثة ، ثم ذكر سبحانه أنه سيوضح لنبيه أمرهم ، وسيكشف أستارهم ، ويبرز أحقادهم ، وقد أنزل الله فى فضائحهم وما يبطنون من الأفعال ، سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة .

ثم ذكر سبحانه ، أنه يبتلى عباده بالجهاد وغيره ، ليعلم الصادق فى إيمانه ، الصابر على مشاق التكاليف ﴿ **وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾[1].

---

(١) العنكبوت آية : ١١

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم ، طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المخلصين : أنهم تمنوا نزول آيات الجهاد ، حرصاً على ثوابه ورضاه ﴿ **فإذا أنزلت سورة محكمة** ﴾ قال قتادة : كل سورة ذكر فيها الجهاد فهى محكمة ، وهى أشد القرآن على المنافقين ﴿ **وذكر فيها القتال** ﴾ أى فرض فيها القتال والجهاد فى سبيل الله ﴿ **رأيت الذين فى قلوبهم مرض** ﴾ أى شك ونفاق ﴿ **ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت** ﴾ أى من فزعهم وجبنهم من لقاء الأعداء ، ولعل أشد أنواع الحيرة والاضطراب ، كانت تفشى المنافقين ، فكان الأمر بالقتال ، يقع على أسماعهم وقع الصواعق ، حتى وصفوا فى القرآن ، بأنهم كانوا ينظرون إلى النبى ﷺ ، كأنهم فى غشية الموت ، ثم يحاولون التملص من القتال ، باختلاق الأعذار ، كما حكى الله سبحانه وتعالى عنهم فى أكثر من موضع فى كتابه العزيز قال تعالى : ﴿ **قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ، قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ، قل فادرءوا عن**

---

(١) الأحزاب الآيتان : ١٨ ، ١٩

(٢) التوبة آية : ٨١

(٣) التوبة آية : ٩٤

انفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾(١) . وقال تعالى : ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيرا ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾(٢)

وقوله تعالى : ﴿ **فأولى لهم** ﴾ قال قتادة : لأنه قال العقاب أولى لهم . وقال الأصمعى : معناه قاربه ما يهلكه ؟ أى نزل .

وقوله تعالى : ﴿ **طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكانِ خيراً لهم** ﴾ أى طاعة لله ، وقول معروف أمثل لهم ، وأحسن مما هم فيه ، من الهلع والجزع والجبن من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا ، متاع قليل ، والآخرة خير لمن اتقى . ﴿ **فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم** ﴾ أى فإذا حضر القتال كرهوه **وتخلفوا عنه** ، خوفاً وفرقاً ، ولو صدقوا فى إيمانهم ، وأخلصوا النية فى القتال ، لكان خيراً لهم عند ربهم ، كما قال تعالى : ﴿ **ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطاً مستقيما ، ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما** ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ قال قتادة : أى فهل عسيتم إن توليتم عن كتاب الله ، أن تفسدوا فى الأرض ، بسفك الدماء الحرام ، وتقطعوا أرحامكم . قال القرطبى وقيل : ﴿ **فهل عسيتم** ﴾ أى فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن ، وفارقتم أحكامه ، أن تفسدوا فى الأرض ، فتعودوا إلى جاهليتكم ، لذا حذر الرسول

---

(١) آل عمران الآيات : ١٦٦ — ١٦٨
(٢) الفتح الآيتان : ١١ ، ١٢
(٣) النساء الآيات : ٦٦ — ٧٠

ﷺ ، أمته من ذلك ، فى حجة الوداع فقال : « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[1].

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم** ﴾ أى فهؤلاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة ، مما شاهدوا من الآيات ﴿ **ينقضون عهد الله** من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴾[2] .

قال ابن كثير : وفى هذه الآية نهى عن **الإفساد** فى الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك ، عن رسول الله ﷺ من طرق عديدة ووجوه كثيرة قال البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « خلق الله تعالى الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم أخذت بعرش الرحمن عز وجل فقال : مه ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى يارب قال : فهو لك ، قال رسول الله ﷺ : اقرءوا إن شئتم ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم** ﴾[3] وقال الإمام أحمد عن أبى بكر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب **أحرى** أن يعجل الله تعالى عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم »[4] . ورواه الترمذى وقال حديث صحيح وقال أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله إن لى ذوى أرحام : أصل ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم ؟ قال صلى الله ﷺ : لا ، إذن تتركون جميعا ولكن جد بالفضل وصلهم ، فإنه لن يزال معك ظهير من الله عز وجل ما كنت على ذلك[5] .

وقال أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « إن الرحم معلقة بالعرش وليس الواصل بالمكافىء ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها »[6] رواه البخارى .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان حـ ١ صـ ٨٢ برقم ١٢٠ / ٦٦

(٢) الرعد آية : ٢٥

(٣) أخرجه البخارى حـ ٨ صـ ٦ ، صـ ٧ ط الشعب

(٤) أخرجه أحمد حـ ٥ صـ ٣٦ ، صـ ٣٨

والترمذى حـ ٤ صـ ٧٤ برقم ٢٦٢٩ أبواب صفقة القيامة

(٥) أخرجه أحمد حـ ٢ صـ ١٨١ ، صـ ٢٠٨

(٦) أخرجه البخارى حـ ٨ صـ ٧ ط الشعب كتاب الأدب .

أخرجه أحمد حـ ٢ صـ ١٦٣ ، صـ ١٩٣

وقال الأمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما يبلغ به النبى ﷺ قال : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء ، والرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته »(١) وقد رواه أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ــ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سره أن يُبسط له فى رزقه ، أو ينُسأ له فى أثره فليصل رحمه »(٢) رواه البخارى . والأحاديث فى هذا كثيرة . ولا عجب فى أن تكون صلة الرحم من أسباب سعة الرزق ، أو طول العمر ، لأنها صدقة والله تعالى يربى الصدقات ، كما أنها تورث الذكر الجميل بين الناس ، وتورث المنزلة أيضا عند الله لأنها بر ، وما عند الله خير للأبرار .

قوله تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم . ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾ .

أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله ، التى وعظ بها فى آى كتابه ويتفكرون فى حججه ، التى بينها فى تنزيله ، فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم ، فلا يعقلون ما أنزل فى كتابه ، من الصبر والمواعظ . وقال القرطبى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن** ﴾ أى يتفهمونه فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الاسلام ﴿ **أم على قلوب أقفالها** ﴾ أى بل على قلوب أقفال ، أقفلها الله عز وجل عليهم ، فهم لا يعقلون ، قال ابن جرير عن هشام بن عروة عن أبيه رضى الله عنه قال تلا رسول الله ﷺ يوماً : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها ، حتى يكون الله تعالى يفتحها أو يفرجها ، فمازال الشاب فى نفس عمر رضى الله عنه حتى ولى فاستعان به(٣) .

ولما أخبر سبحانه بإقفال القلوب بين فنشأ ذلك فقال تعالى :

﴿ **إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم** ﴾ أى أن الذين رجعوا القهقرى ، على أعقابهم كفاراً ، من بعد ما تبين لهم الهدى ، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لامر الله ــ الشيطان زين لهم ذلك ، وخدعهم ، وحسَّن لهم ما فى الدنيا من لذة ، يتمتعون بها إلى حين ، ثم يعودون كما كانوا مؤمنين ، إلى نحو ذلك من وساوسه ، التى لا تدخل تحت الحصر ، ولا يبلغها العد ،

---

(١) أخرجه أحمد حـ ٢ صـ ١٦٠ ، صـ ٢٩٥
وابو داود حـ ٥ صـ ٢٣١ رقم ٤٩٤١ كتاب الأدب
والترمذى حـ ٣ صـ ٢١١ برقم ١٩٧٢

(٢) أخرجه البخارى حـ ٨ صـ ٦ ط الشعب باب من بسط له فى الرزق بصلته .

(٣) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ١٨٢ ط الدار للبنانية المصرية

قال تعالى : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً** ﴾(١)

ثم ذكر سبحانه كيف أنهم ضلوا فقال تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم فى بعض الأمر والله يعلم إسرارهم** ﴾ أى ذلك الضلال من قبل أنهم ما لؤا اليهود من بنى قريظة والنضير ، وناصحوهم سراً على المؤمنين ، كما هو شأن المنافقين فى كل زمان ، والله يعلم ما يسرون وما يخفون . ﴿ **والله يكتب ما يبيتون** ﴾(٢).

ثم ذكر سبحانه أن هذه الحيل إن أجدت فى حياتهم ، فماذا هم فاعلون حين وفاتهم ، فقال تعالى : ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾ أى كيف حالهم اذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح فى أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال تعالى : ﴿ **ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾(٣) الآية وكقوله تعالى : ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم ـــ أى بالضرب ـــ ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾(٤) قال القرطبى قال ابن عباس : لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه .

ثم يبين سبحانه سبب التوفى على تلك الحال الشيعية فقال : ﴿ **ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم** ﴾ أى ذلك الهول الذى يرونه ، من أجل أنهم انهمكوا فى المعاصى ، وزينت لهم الشهوات ، وكرهوا ما يرضى الله من الإيمان به ، والعمل على طاعته ، والاخلاص له فى السر والعلن ، فأحبط ما عملوه من البر والخير ، إذ هم فعلوه وهم مشركون ، فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدوثة بين الناس .

ثم بالغ فى توبيخ المنافقين ، وإظهار خفاياهم ، وإعلان نواياهم فقال : ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرضى أن لن يخرج أضغانهم** ﴾ أى أيعتقد المنافقون ، أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ، ويجليه حتى يفهمهم ذووا البصائر ، وقد أنزل الله تعالى فى ذلك سورة براءة ، فيبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة ، والأضغان جمع ضغن ، وهو ما فى النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله ، والقائمين بنصره ، قال ابن القيم : أسروا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفلتات اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيماء ، لا يخفون بها على

---

(١) النساء آية : ١٢٠
(٢) النساء آية : ٨١
(٣) الأنفال آية : ٥٠
(٤) الانعام آية : ٩٣

أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم اذا كتموا كفرهم ، وأظهروا إيمانهم ، راجوا على الصيارف والنقاد . كيف ؟ والناقد البصير قد كشفها لكم ﴿ **أم حسب الذين فى قلوبهم مرضى أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم** ﴾ يقول عز وجل : ولو نشاء يا محمد ، لأريناك أشخاصهم ، فعرفتهم عياناً ، ولكن لم يفعل تعالى ذلك فى جميع المنافقين ، ستراً منه على خلقه ، وحملا للأمور على ظاهر السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها ﴿ **ولتعرفنهم فى لحن القول** ﴾ أى فيما يبدو من كلامهم ، الدال على مقاصدهم ، يفهم المتكلم من أى الحزبين . هو بمعانى كلامه وفحواه ، وهو المراد من لحن القول ، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسر أحد سريرة ، إلا أبداها الله على صفحات وجهه ، وفلقات لسانه .

قال القرطبى . قال ابن عباس : وقد عرفه إياهم فى سورة « براءة » وقال أنس : ما خفى على النبى ﷺ ، بعد هذه الآية أحد من المنافقين ؟ كان يعرفهم بسيماهم . ﴿ **والله يعلم أعمالكم** ﴾ أى لا يخفى عليه شيء منها سبحانه وتعالى .

قوله تعالى : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ . أى لنختبرنكم بالأوامر والنواهى ﴿ **حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم** ﴾ حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره ، والمؤمن من المنافق ، ونبلو أخباركم ، فتعرف الصادق منكم فى إيمانه من الكاذب ، كقوله تعالى : ﴿ **أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين،وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾[2] .

أحكام قاطعة الثبوت

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى

(١) العنكبوت الآيتان : ٢ ، ٣
(٢) العنكبوت الآيتان : ١٠ ، ١١

ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟
وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ
﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ
ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

معانى المفردات

﴿ **شاقوا الرسول** ﴾ أى عادوه وخالفوه ، وأهله صاروا فى شق غير شقه . ﴿ **فلا تهنوا** ﴾ أى فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف ﴿ **وتدعوا إلى السلم** ﴾ أى تدعوا الكفار إلى الصلح خوفاً وإظهاراً للعجز ، ﴿ **الأعلون** ﴾ أى الغالبون ﴿ **والله معكم** ﴾ أى ناصركم ، ﴿ **لن يتركم أعمالكم** ﴾ أى لن ينقصكوها ، ﴿ **لعب ولهو** ﴾ كل ما اشتغلت به ، مما ليس فيه ضرر فى الحال ، ولا منفعة فى المآل ، ولم يمنعك عن مهام أمورك ، فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو لهو ، ومن ثم يقال آلات الملاهى ، لأنها مشغلة عن غيرها . ﴿ **فيحفكم** ﴾ أى فيجهدكم بطلبها جميعاً ، والإلحاف والإحفاء ، بلوغ الغاية فى كل شيء ﴿ **أضغانكم** ﴾ أى أحقادكم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ، أن المنافقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال ، حين وفاتهم — أردف ذلك ذكر حال جماعة من أهل الكتاب ، وهم بنو قريظة والنضير ، كفروا بالله ، وصدوا الناس عن سبيل الله ، وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نعته فى التوارة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء لن يضروا الله شيئاً بكفرهم ، بل يضرون أنفسهم ، وسيحبط الله مكايدهم ، التى نصبوها لإبطال دينه ، ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله ، فى أوامره ونواهيه ، وطاعة رسوله ﷺ ، ثم نهى المؤمنين عن إبطال أعمالهم بالمعاصى ، أو الرياء ، أو العجب ، ثم أعقب هذا ببيان أن العادين عن سبيل الله ، إذا ماتوا على كفرهم ، فلن يغفر الله لهم ، وبعدئذ أردف هذا أن الله خاذلهم فى الدنيا ، فإنها ظل زائل ، وعرض غير باق ، وهى مشغلة عن صالح الأعمال ، فلا يليق أن تعضوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم ، يؤتكم أجوركم ، وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النذر ، الذى فيه صلاح المجتمع ، وهو عليم بأن البعض يبخل ، ومن يبخل ، فإنما يبخل عن نفسه ، والله غنى عن معونتكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى ، يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه وينصرون الدعوة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم** ﴾ أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا الناس عن دينه ، الذى بعث به رسوله ، وخالفوا هذا الرسول ، وحاربوه ، وآذوه ، من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة ، أنه مرسل من عند ربه — ﴿ **لن يضروا الله شيئاً** ﴾ لأن الله بالغ أمره ، وناصر رسوله ، ومظهره على من عاداه وخالفه ، وسيبطل مكايدهم ، التى نصبوها لإبطال دينه ، ومشاقه رسوله ، ولا يصلون إلى ما كانوا يبغون له من الغوائل ، وستكون تمزقها إما قتلهم ، أو جلاءهم عن أوطانهم ، والمراد بصد الناس عن سبيل الله ، منعهم إياها عن الإسلام بشتى الوسائل ، وعم متابعة الرسول ﷺ والانضواء تحت لوائه قال تعالى : ﴿ **إن الذين ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يحشرون** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[2] .

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ قال الأمام أحمد بسنده عن أبى العالية قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ولفظ عبد بن حميد . **فخافوا الكبائر أن تحبط أعمالهم** . وأخرج ابن جرير عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معاشر أصحاب محمد ﷺ ، نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : ﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ فلما نزلت هذه الآية ، قلنا : ما هذا الذى يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذا رأينا من أصاب شيئاً منها ، قلنا : قد هلك حتى نزلت هذه الآية ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[3] فلما نزلت ، كففنا عن القول فى ذلك ، وكنا إذا رأينا أحداً أصاب منها شيئاً خفنا عليه ، وإن لم يصب منها شيئاً رجونا له .[4]

ولقد نهى سبحانه المؤمنين ، عن إبطال أعمالهم بالربا والعجب والمنّ ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله ولا باليوم**

---

(١) الأنفال آية : ٣٦

(٢) التوبة الآيتان : ٣٢ ، ٣٣

(٣) النساء آية : ٤٨ ، ١١٦

(٤) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ١٩٤ طبع النهضة الحديثة .

الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾[١]

وكما فى قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[٢] وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾[٣] قال هو أخلصه وأصوبه . قالوا : ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً ، لم يقبل ، وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص : أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[٤] .

وقال تعالى : ﴿ **وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثورا** ﴾[٥] قال ابن القيم : وهى الأعمال التى كانت على غير السنة ، أو أريد بها غير وجه الله .

ولقد أخبر ﷺ ، عن أول ثلاثة تُسعر بهم النار : قارىء القرآن ، والمجاهد ، والمتصدق بماله ، الذين فعلوا ذلك ليقال : فلان قارىء ، فلان شجاع ، فلان متصدق ، ولم تكن أعمالهم خالصة لله .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم** ﴾ أى إن الذين جحدوا توحيد الله ، وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، ثم ماتوا وهم على كفرهم ، فلن يعفو الله سبحانه عما صنعوا : بل يعاقبهم ، ويفضحهم به على رءوس الأشهاد ، كقوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون** ﴾[٦] .

قوله تعالى : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾ أى لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ **وتدعوا إلى السلم** ﴾ أى المهادنة والمسالمة ، ووضع القتال بينكم وبين الكفار ، فى حال قوتكم وكثرة عددكم ، وعنادكم ، ولهذا قال : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون** ﴾ أى فى حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة ، بالنسبة إلى جميع المسلمين ، ورأى الأمام فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك ، كما فعل ﷺ ، حين صده كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم الله عليه وسلم إلى ذلك ،

---

(١) البقرة آية : ٢٦٤
(٢) الكهف آية : ١١٠
(٣) الملك آية : ٢
(٤) الكهف آية : ١١٠
(٥) الفرقان آية : ٢٣
(٦) البقرة الآيتان : ١٦١ ، ١٦٢

وقوله تعالى : ﴿ **والله معكم** ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء ﴿ **ولن يتركم أعمالكم** ﴾ أى ولن يحبطها ويبطلها ويسلبكم إياها ، بل يوفيكم ثوابها ، ولا ينقصكم منها شيئاً ، قاله ابن كثير ، وقال صاحب روائع البيان فى هذه الآيات : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ، إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ، فلاتهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم** ﴾

ما نصه :

التحليل اللفظى :

تبطلوا : تضيعوا أثوابها من بطل الشىء يبطل بطلاً وبطلاناً : ذهب ضياعاً وخسراً ، صدوا : أعرضوا من الصد : وهو الإعراض والصدوف ، قال تعالى : ﴿ **رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً** ﴾(١) فلا تهنوا : أى لا تفتروا ، ولا تضعفوا ، ولا تجبنوا عن قتال العدو ، من الوهنى أى الضعف فى النفس والعمل ، قال تعالى : ﴿ **فما هنوا لما أصابهم فى سبيل الله** ﴾(٢) .

لن يتركم . أى لن ينقصكم من ثواب أعمالكم شيئاً ، ولن يظلمكم من وتره حقه وماله نقصه إياه وفى حديث النبى ﷺ « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتُر أهله وماله »

المعنى الاجمالى

نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين ، مخاطبا إياهم بوصف الإيمان ، تذكيراً لهم بأن هذا الوصف ، يدعوهم إلى طاعة أوامر الله تعالى ، الآية بعد هذا النداء ، ثم جاء الأمر بطاعة الله جل جلاله ، فى أوامره ونواهيه ، فطاعته هى السبيل إلى الفلاح فى الدنيا والآخرة ، وطاعة رسول الله ﷺ من طاعة المولى سبحانه وتعالى ، فعلى المؤمن أن يتبعه فى كل سنة منها .

ثم نهى الله المؤمن عن إبطال عمله ، فقد يقدم أعمالاً كثيرة من الطاعة ، ولكنه قد يضيع عمله بالمعاصى ، والرياء ، والعجب ، إلى غير ما هنا لك ، فنهاه الله عن ذلك ، فعلى المؤمن أن يحافظ على ما يقدم من الطاعات ، ثم يبين الله تعالى ، أنه لا يغفر الشرك ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، حتى لا يظن الظان أن المؤمن إن أبطل عمله بالمعاصى ، فقد هلك ، بل فضل الله باق يغفر له بفضله ؟ وإن لم يغفر له بعمله . وإذا كان أمر الكفار فى الآخرة هذا ، فأمرهم فى الدنيا كذلك من الزلة والحقارة ، فلا تضعفوا أيها المؤمنون فى ملاقاتهم ، ولا تجبنوا عن قتالهم ، فالنصر لكم آجلاً أو عاجلا ، فلا تدعوا الكفار إلى الصلح خورا ، وإظهاراً للعجز ، فإن الله معكم يؤيدكم بنصره ، ويؤيدكم بقوته ، ولن ينقصكم من أعمالكم شيئاً ، بل يعطيكم ثوابها كاملاً غير منقوص .

---

(١) النساء آية : ٦١

(٢) آل عمران آية : ١٤٦

لطائف التفسير :

اللطيفة الأولى : قال الفخر الرازى : قوله تعالى : ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ العطف هنا ، من باب عطف المسبب على السبب ، يقال اجلس واسترح ، وقم وامشى ، لأن طاعة الله تحمل على طاعة الرسول » وقال الألوسى : « وإعادة الفعل فى قوله : ﴿ **وأطيعوا الرسول** ﴾ للاهتمام بشأن إطاعته عليه الصلاة والسلام .

اللطيفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ الآية :

قال الفخر الرازى : يحتمل وجوهاً : أحدها داوموا على ما أنتم عليه ، ولا تشركوا ، فتبطل أعمالكم ، قال تعالى : ﴿ **لئن أشركت ليحبطن عملك** ﴾[١] .

الوجه الثانى : لا تبطلوا أعمالكم بترك طاعة الرسول ، كما أبطل أهل الكتاب أعمالهم ، بتكذيب الرسول وعصيانه ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾[٢]

الثالث : لا تبطلوا أعمالكم بالمن والأذى كما قال تعالى : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾[٣] .

وقد اختلف فيما يبطل الأعمال على أقوال :

قال الحسن : المعاصى والكبائر ، وقال عطاء : الشك والنفاق ، ونقل عن ابن عباس ، وقال ابن عباس : الرياء والسمعة ، ونقل عن ابن جريج ، وقال مقاتل : المنّ ، وقيل : العُجب ، فإنه يأكل الحسنات ، كما تأكل النار الحطب .

وقيل المراد بالأعمال الصدقات أن تعطلوها بالمن والأذى قال القرطبى : وكله يتقارب ، وقول الحسن يجمعه .

اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ استعمال العلو فى رفعة المنزلة مجاز مشهور ، أى أنتم أعز منهم ، لأنكم مؤمنون ، والحجة لكم ، وإن غلبوكم فى بعض الأوقات ، وذلك كقوله : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾[٤] .

---

(١) الزمر آية : ٦٥
(٢) الحجرات آية : ٢
(٣) الحجرات آية : ١٧
(٤) المنافقون آية : ٨

وقيل وأنتم الأعلون : أى أنتم أعلم بالله منهم .

وقال الجصاص : أى وأنتم أعلم بالله منهم .

وكلها متقاربة فالإيمان يرفع منزلة أهله ويعزهم .

اللطيفة الرابعة : قال الفخر الرازى قوله : ﴿ **ولن يتركم أعمالكم** ﴾ وعد لأن الله تعالى لما قال ﴿ **والله معكم** ﴾ كان فيه أن النصر بالله لا بكم ، فكأن القائل يقول : لم يصدر منى عمل له اعتبار ، فلا استحق تعظيماً ، فقال هو ينصركم ، ومع ذلك لا ينقص من أعمالكم شيئاً ، ويجعل كأن النصرة جعلت بكم ، ومنكم ، فكأنكم مستقلون فى ذلك ، ويعطيكم أجر المستبد .

الطيفة الخامسة : فى الآية الكريمة دعوة إلى العزة والكرامة ، وتشجيع للمؤمنين للجهاد والنضال ، لمجابهة أعدائهم ، دون وهن أو خور ، لأن المؤمن لا يرضى بحياة الذل والهوان ، وقد أحسن من قال : عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : قوله تعالى ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ يدل على أن كل من دخل فى قربة أو نافلة لم يجز له الخروج منها قبل إتمامها .

واختلف العلماء فى هذا الحكم على مذهبين :

فذهب (الشافعى وأحمد) الى أن للمرء يترك النافلة إذا شرع فيها ، ولا شىء عليه ، ما عدا الحج فيجب عليه الإتمام . وأما فى الصلاة والصوم فيستحب له الإتمام ولا يجب .

وذهب (أبو حنيفه ومالك) إلى أنه ليس له ذلك . فإذا أبطله وجب عليه القضاء .

أدلة المذهب الأول :

قالوا : هو تطوع ، والمتطوع أمير نفسه ، وإلزامه إياه فخرج عن وصف التطوع قال تعالى ﴿ **ما على المحسنين من سبيل** ﴾ .

وقالوا فى جواب الاستدلال بالآية : المراد بذلك إبطال ثواب العمل المفروض فنهى الرجل عن إحباط ثوابه . فأما ما كان نفلاً فلا ، لأنه ليس واجبا عليه .

واللفظ فى الآية وإن كان عاماً ، فالعام يجوز تخصيصه ووجه تخصيصه أن الفعل تطوع والتطوع يقتضى تخييراً .

أدلة المذهب الثانى :

قوله تعالى ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ أفاد أن التحلل من التطوع بعد التلبس به لا يجوز لأن فيه إبطال العمل وقد نهى الله عنه .

وعن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : كنت أنا وحفصه صائمتين ، فأهدى لنا طعام ، فأكلنا منه ، فدخل رسول الله ﷺ فقالت حفصه وبدرتنى ، وكانت بنت أبيها : يا رسول الله ، إنى أصبحت أنا وعائشة صائمتين متطوعتين فأهدى لنا طعام فأفطرنا عليه فقال :

وقال ﷺ « أقضيا مكانه يوماً »[1] رواه مالك والترمذى وأبو داود .

وقالوا فى جواب دليل المذهب الأول : المتطوع أمير نفسه . ولا سبيل عليه قبل أن يشرع أما إذا شرع فقد ألزم نفسه ، وعقد عزمه على الفعل فوجب أن يؤدى ماالتزم ، وأن يوفى بما عقد ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين أمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[2] .

ثم اللفظ عام فى الآية يشمل التطوع وغيره .

الحكم الثانى : قوله تعالى ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم** ﴾ .

فيه دلاله على أنه لا يجوز طلب الصلح من المشركين ، فأما إذا كان فى الكفار قوه ، وكثرة بالنسبة إلى جمع المسلمين . ورأى الإمام المسلم فى المهادنة والمعاهدة مصلحة ، فله أن يفعل ذلك . كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ودعوه الى الصلح ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك .

فائدة : دل قوله تعالى : ﴿ **فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون** ﴾ على أن النبى ﷺ لم يدخل مكة صلحاً . وإنما فتحها عنوة لأن الله تعالى قد نهاه عن الصلح فى هذه الآية . ا .هـ .

قوله تعالى ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم** ﴾ .

يقول سبحانه حاضّا عباده المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله ، وبذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدعكم الرغبة فى الحياة الدنيا إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبهم فى العمل للآخرة فقال تعالى :

﴿ **وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم** ﴾ أى : وإن تؤمنوا بربكم وتتقوه حق تقاه ، فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه ــ يؤتكم ثواب أعمالكم فيعوضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعا فى الزكاه ، وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاه مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفع ذلك عائد إليكم .

---

(١) انظر سنن الترمذى ح ٢ ص ١١٩ أبواب الصوم . باب ما جاء فى ايجاب القضاء عليه . رقم ٧٣١ .
ــ انظر سنن أبى داود ح ٢ ص ٨٢٦ كتاب الصوم . باب من رأى عليه القضاء برقم ٢٤٥٧
ــ انظر موطأ مالك . كتاب الصوم قضاء التطوع . ص ٣٠٦
(٢) سورة المائدة آية ١

ثم يبين سبحانه شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال تعالى :

﴿ **إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم** ﴾ أى : إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة ويلحف عليكم بطلبها ــ تبخلوا بها وتمنعوها أياه ضناً منكم بها ، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكموها فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حبكم للمال .

قال قتادة : قد علم الله أن فى سؤال المال خروج الأضغان .

ثم أكد سبحانه ما سلف وقرره بقوله تعالى :

﴿ **هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله** ﴾ أى : ها أنتم أيها المؤمنون تدعون الى النفقة فى جهاد أعداء الله ونصره دينه ﴿ **فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء** ﴾ أى : فمنكم من يبخل عن النفقة فى هذا السبيل ، ومن يبخل فإنما ضرر ذلك عائدا إلى نفسه ، كما قال سبحانه فى الحديث القدسى : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »[1] رواه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ **والله الغنى وأنتم الفقراء** ﴾ قال الأمام النووى دلت الأدلة السمعية والعقلية على أن الله مستغن فى ذاته عن كل شيء ، وأنه تعالى لا يتأثر بشيء من مخلوقاته ، وقد بين الله تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما . ثم يبين أنه مستغن عن ذلك ، قال تعالى : ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ وهو قادر على أن يذهب هذا الوجود ويخلق غيره ، ومن قدر على أن يخلق كل شيء فقد استغنى عن كل موجود . ثم يبين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن الشريك فقال تعالى : ﴿ **ولم يكن له شريك فى الملك** ﴾[1] ثم يبين سبحانه أنه مستغنى عن المعين والظهير فقال تعالى : ﴿ **ولم يكن له ولى من الذل** ﴾[2] فوصف العز ثابت له أبداً ، ووصف الذل منتف عنه تعالى ومن كان كذلك فهو مستغن عن طاعته المطيع ، ولو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل منهم وبادروا إلى أوامره ونواهيه و لم يخالفوه لم يتكثر سبحانه وتعالى بذلك ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه وإعانته ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم عصوه كلهم كمعصية أفجر رجل ــ إبليس ــ وخالفوا أمره ونهيه و لم يضره غيرهم ، فسبحان من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية .

---

(١) الحديث فى الصحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٩٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ .

(٢) سورة الإســراء الآية ١١١ .

وقوله تعالى ﴿ **وأن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ أى تعرضوا عن طاعة الله وإتباع شرائعه ، ونصرة دينه ، وترتدوا راجعين عنها ، يهلككم الله ثم يجىء بقوم آخرين غيركم وصفهم الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل لله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** ﴾[1] وصفهم المولى سبحانه وتعالى بصفات خمس : الأتباع ــ الذلة للمؤمنين ــ العزة على الكافرين ــ الجهاد فى سبيل الله ــ عدم الخوف إلا من الله سبحانه وتعالى . تلك هى شروط العضوية للإلتحاق بالجماعة المؤمنة إنها لشروط مبنية على الحب المتبادل بين الرحمن وعباده ، يحبهم ويحبونه ، كما أن الرضا متبادل بينه تعالى وبينهم ، قال تعالى فى حزب الله : ﴿ **لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾[2]

كما أن الله تعالى رزقهم التواضع فى غير ذل إلا لإخوانهم المؤمنين كما وصفهم بالترفع فى غير كبر فهم أعزة على الكافرين ، كما أنه جعل الجهاد خلقهم ، والشجاعة الأدبية ديدنهم وعادتهم منهم لا يخافون فى الله لومة لائم ، ولأنهم اعتقدوا أنه لا يملك الروح والرزق إلا الله ، وكأنهم يقولون بألسنة الحال والمقال نحن الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ، إن هذه الجماعة المؤمنة كانت ولايتها كما كان ولاؤها لله ورسوله والمؤمنين ، لقد عرفناهم فى المساجد ركعاً وسجودا ، أدوا ما عليهم من واجبات فكانوا جديرين أن ينالوا مالهم من حقوق ، ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾[3] لقد عرفوا لمن يكن الولاء وممن يكون البراء ، فتابوا وأخلصوا دينهم لله وأصلحوا كل زمان ومكان فكانوا كالبحر الطهور أنساب فى أرجاء الأرض ليغسل أرجاسها وأنجاسها وأدناسها رفعوا راية الإسلام عاليه باذخة الذرى تناطح الجوزاء وتزاحم الشمس فى الجلاء فأخرجوا البشرية من الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، ومن فلول الدجى وغياهب الظلمات الى نور القرآن وواسع الرحمات ، ابتعثهم الله تعالى ليخرج بهم من شاء من عبادة الأوثان الى توحيد الملك الديان ، ومن جور الإنسان الى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، فكانوا كما قال مولانا ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات**

(١) سورة المائدة آية ٥٤ .
(٢) سورة المجادلة آية ٢٢ .
(٣) سورة المائدة الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .

بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾[١]

وكانوا أهلاً للجزاء الكريم ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[٢]

فأين أنتم يا أمة الإسلام ، يا من تفرقت كلمتكم وتمزقت وحدتكم فسهل على العدو أن يلتهمكم إننى وان اكتب هذه السطور يحضرنى الآن تلك القصيدة التى اصاغها الشاعر المسلم محمود غنيم وتقول أبياتها :

أنى تذكرت والذكرى مؤرقة	مجداً تليداً بأيدينا أضعناه
إنى اتجهت الى الإسلام فى بلد	تجده كالطير مقصوصاً جناحاه
وريح العروبة كان الكون مسرحها	فأصبحت تتوارى فى زواياه
كم صرفتنا يد كنا نصرفها	وبات يملكنا شعب ملكناه
كم بالعراق وكم بالهند ذو شجن	شكا فرددت الأهرام شكواه
هى الحقيقة عين الله تكلؤها	فكلما حاولوا تشويهها شاهوا
هل تطلبون من المختار معجزة	يكيفيه شعب من الأحداث أحياه
من وحّد العرب حتى كان واترهم	إذا رأى ولد الموتور آخاه
وكيف كانوا يداً فى الحرب واحدة	من خاضها باع دنياه بأخراه
وكيف ساس رعاه الابل مملكة	ماساسها قيصر من قبل أوشاه
وكيف كان لهم علم وفلسفة	وكيف كانت لهم سفن وأمواه
سنوا المساواة لاعرب ولاعجم	ما لامرىء شرف إلا بتقواه
وقررت مبدأ الشورى حكومتهم	فليس للفرد فيها ما تمناه
ورحب الناس بالإسلام حين رأوا	أن السلام وأن العدل مغزاه
يا من رأى عمراً تكسوه بردته	والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كسريه فرقا	من بأسه وملوك الأرض تخشاه
سل المعالى عنا إننا عرب	شعارنا المجد يهوانا ونهواه
هى العروبة لفظ إن نطقت به	فالشرق والعناد والإسلام معناه
استرشد الغرب بالماضى فأرشده	ونحن كان لنا ماض نسيناه
إنا مشينا وراء الغرب نقبس من	ضيائه فأصابتنا شظاياه

(١) سورة التوبة آية ٧١

(٢) سورة التوبة آية ٧٢

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب بالأمس كانوا هنا ما بالهم تاهو
أين الرشيد وقد طاف الغمام به فحين جاوز بغداداً تحداه
ملك كملك بنى التاميز ما غربت شمس عليه ولا برق تخطاه
ماض تعيش على أنقاضه أمما وتستمد القوى من وحى ذكراه
إلى لأعتبر الإسلام جامحة للشرق لا محض دين سنه ا لله
أرواحنا نتلاق فيه خافقة كالنحل إذ يتلاق فى خلاياه
دستوره الوحى والمختار عاهله والمسلمون وإن شتوا رعاياه
لاهم قد أصبحت أهواؤنا شيعاً فامتلك علينا براع أنت ترضاه
راع يعيد الى الإسلام سيرته يرعى بينه وعين الله ترعاه

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى ، فاهدنا بفضلك فيمن هديت ، وعافنا فيمن عافيت ، وتولنا فيمن توليت ، وبارك لنا فيما أعطيت ، وقنا واصرف عنا شر ما قضيت إنك سبحانك تقضى بالحق ولا يقضى عليك ، فإنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ، تباركت ربنا وتعاليت ، فلك الحمد على ما قضيت ، ولك الشكر على ما أنعمت به علينا وأوليت ، نستغفرك اللهم من كل ذنب وخطيئة ونتوب إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، أنت الغنى ونحن الفقراء إليك ، ونؤمن بك ونتوكل عليك ، اللهم يا واصل المنقطعين أوصلنا إليك ولا تخزنا يوم العرض عليك ، وعاملنا بالإحسان إذ الفضل منك وإليك ، نسألك علما نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً .

تفسير سورة الفتح

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية إجماعاً ..

آياتها : تسع وعشرون .

وكلماتها : خمسمائة وستون .

وحروفها : ألفان وأربعمائة وثمان وثلاثون .

ونواصل آياتها على الألف .

وسميت سورة الفتح ، لقوله ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : وعد الرسول ﷺ بالفتح والغفران ، وإنزال السكينة على أهل الإيمان ، وإيعاد المنافقين بعذاب الجحيم ، ووعد المؤمنين بنعيم الجنان ، والثناء على سيد المرسلين ، وذكر العهد ، وبيعة الرضوان ، وذكر ما للمنافقين من الخذلان ، وبيان عذر المعذورين ، والمنة على الصحابة بعدم الظفر عليهم من أهل مكة ذى الطغيان ، وصدق رؤيا سيد المرسلين على حقيقة الرسالة ، وشهادة الملك الديان ، وتمثيل حال النبى ﷺ بالزرع والزراع فى البهجة والنضارة وحسن الشأن .

المتشابهات :

قوله ﴿ **ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيماً** ﴾[١] وبعد : ﴿ **عزيزاً حكيماً** ﴾ لأن الأول متصل بإنزال السكينة ، وإزدياد إيمان المؤمنين ، فكان الموضع موضع علم وحكمة ، وقد تقدم ما أقتضاه الفتح عند قوله ﴿ **وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾ وأما الثانى والثالث الذى بعد فمتصلان بالعذاب والغضب وسلب الأموال والغنائم ، فكان الموضع موضع عز وغلبة وحكمة .

قوله ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً** ﴾[٢] وفى سورة المائدة ﴿ **فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح** ﴾[٣] زاد فى هذه السورة (لكم) لأن ما فى السورة نزلت فى قوم بأعيانهم وهم المخلفون وما فى المائدة عام لقوله ﴿ **أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً** ﴾[٤] .

قوله ﴿ **كذلك قال الله** ﴾ بلفظ الجميع ، وليس له نظير وهو خطاب للمضمرين فى قوله ﴿ **لن تتبعونا** ﴾ .

فضل السورة :

عن ابن عباس : لما نزلت هذه السورة قال رسول الله ﷺ « لقد أنزل علىّ سورة هى أحب إلىّ من الدنيا وما فيها » .

[وراه مسلم عن أنس ، كما فى كنز العمال] .

---

(١) سورة الفتح آية ٤
(٢) سورة الفتح آية ١١
(٣) سورة المائدة آية ١٧
(٤) سورة المائدة آية ١٧

مناسبتها لما قبلها :

(١) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .

(٢) إن فى كل منهما ذكراً للمؤمنين والمخلصين والمنافقين المشركين .

(٣) إن فى السورة السالفة أمراً بالأستغفار ، وفى هذه ذكر وقوع المغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ
صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ
عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ
وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾

معانى المفردات

(الفتح) المراد هنا صلح الحديبية وسمى هذا فتحاً ، لأن كان سبباً لفتح مكة قال الزهرى : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم فى ثلاث سنين خلق كثير كثر بهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا الى مكة فى عشرة آلاف ففتحوها .

(أنزل السكينة) أى : خلقها وأوجدها . والسكينة : الطمأنينة من السكون ، (إيماناً مع إيمانهم) أى : يقيناً مع يقينهم ، (ويكفر عنهم سيئاتهم) أى : يغطيها ولا يظهرها (السوء) (بالضم والفتح) . المساءة : (وظن السوء) أى : ظن الأمر السوء . (عليهم دائرة السوء) الدائرة فى الأصل الحادثة التى تحيط بمن وقعت عليه ، وكثر استعمالها فى المكروه ، (والسوء) العذاب والهزيمة والشر . (وهو بالضم والفتح لغتان)

وقال سيبويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين لا يتخطاهم ، (لعنهم) أى : طردهم طرداً نزلوا به الى الحضيض ، (عزيزا) أى : (يتغلب) ولا يُغلب .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصرا عزيزاً** ﴾ .

نزلت هذه السورة المباركة حين منصرفه ﷺ من الحديبية فى ذى القعدة من سنة ست من الهجرة ، لما صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام وحالوا بينه وبين قضاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة — وأن يرجع عامه هذا ثم يأتى من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّه من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب — رضى الله عنه — فلما نحر هديه ﷺ حيث أحصر ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحاً مبيناً لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره ، فقد روى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ونحن نعد الفتح صلح الحديبية .

وروى البخارى « أن رسول الله — ﷺ — كان يسير فى بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلا ، فسأله عمر عن شىء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك ياعمر ، كررت على رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيرى حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل فىّ قرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بى ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل فىّ قرآن ، فجئت رسول الله ﷺ فسلمت عليه . فقال : لقد أنزلت علىّ سورة لهى أحب الىّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ (إنا فتحنا لك فتحاً مبينا)»[1] .

وفى صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال :« لما نزلت (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) — الى قوله (فوزا عظيما) مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكآبة وقد نحروا الهدى بالحديبية ، قال النبى ﷺ لقد أنزلت علىّ آية هى أحب الىّ من الدنيا جميعا »[2]

وقال الإمام أحمد عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال أنزل على النبى ﷺ (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) مرجعة من الحديبية قال النبى ﷺ « لقد أنزلت علىّ الليلة آية أحب إلىّ مما على الأرض » ثم قرأها عليهم النبى ﷺ فقالوا : هنيئاً مريئاً يا نبى الله يبين الله عز وجل ما يفعل بك

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٦ ص ١٦٨ ، ١٦٩ كتاب التفسير (سورة الفتح) وكذلك ح ٥ ص ١٦١ . ١٦١ كتاب المغازى — صلح الحديبية . ط / الشعب .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤١٣ كتاب الجهاد والسير باب صلح الحديبية رقم ٩٧ / ١٧٨٦ .

فماذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه ﷺ (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار — حتى بلغ — فوزاً عظيما) أخرجاه فى الصحيحين من رواية قتادة به .[1]

وقوله تعالى ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ قال ابن كثير : هذا من خصائصه ﷺ التى لا يشاركه فيها غيره ؛ غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ وهو ﷺ فى جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التى لم ينلها بشر سواه لا من الأولين ولا الأخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الاطلاق وسيدهم فى الدنيا والآخرة ، ولما كان أطوع خلق الله تعالى وأشدهم تعظيماً لأوامره ونواهيه قال حين بركت به الناقة « حبسها حابس الفيل » ثم قال ﷺ « والذى نفسى بيده لا يسألونى اليوم شيئاً يعظمون به حرمات الله إلا أجبتهم إليها »[2] فلما أطاع الله فى ذلك وأجاب الى الصلح قال الله تعالى له ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك** ﴾ أى : فى الدنيا والآخرة (ويهديك صراطاً مستقيماً) أى : بما يشرعه لك من الشرع العظيم والدين القويم (وينصرك الله نصراً عزيزاً) أى : بسبب خضوعك لأمر الله تعالى يرفعك الله وينصرك على أعدائك . كقوله تعالى ﴿ **ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ يقول تعالى ﴿ **هو الذى أنزل السكينة** ﴾ أى : جعل الطمائنينة فى قلوب المؤمنين وهم الصحابة — رضوان الله عليهم — يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما أطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم إيماناً مع إيمانهم ، وقال الضحاك فى قوله تعالى ﴿ **ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم** ﴾ يقيناً مع يقينهم . قال الربيع بن أنس : خشية مع خشيتهم . ثم ذكر سبحانه أنه لو شاء لا نتصر من الكافرين فقال تعالى ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ أى لو أرسل عليكم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لماله فى ذلك من الحكمة البالغة والحجة القاطعة والبراهين الدافعة ولهذا قال جلت عظمته ﴿ **وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً** ﴾

وفى الحديث الذى رواه أحمد عن أنس بن مالك : لما قرأ النبى ﷺ على أصحابه ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾ قالوا : هنيئاً لك يا رسول الله ، فماذا لنا ؟ فنزل ﴿ **ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات .. الآية** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ويكفر عنهم سيئاتهم** ﴾ أى : خطاياهم وذنوبهم فلا يعاقبهم عليها بل يعفو ويصفح ويغفر ويستر برحمته سبحانه وتعالى وهو أرحم الراحمين قال تعالى ﴿ **الذى يصلى**

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٦٠ كتاب المغازى — صلح الحديبية — مع حذف فى بعض ألفاظه . ط / الشعب .
— انظر مسند الامام أحمد ح ٣ ص ١٩٧ عن قتادة عن أنس . واللفظ له .
(٢) الحديث فى صحيح البخارى بحاشية السندى ح ٢ ص ١٢٠ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما * تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً كريماً ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ **وكان ذلك عند الله فوزا عظيماً** ﴾ كقوله تعالى ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز** ﴾[2] الآية وقوله تعالى ﴿ **ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدلهم جهنم وساءت مصيرًا ، ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ .

أى : وليعذب هؤلاء فى الدنيا بإيصال **الهم والغم** إليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وربما يشاهدونه من ظهور الإسلام وقهر المخالفين وبتسليط النبى ﷺ عليهم قتلا وأسراً واسترقاقاً ، وفى الاخرة بعذاب جهنم .

وهم قد كانوا يظنون أن النبى ﷺ سيُغلب ، وأن كلمة الكفر **ستعلو** كلمة الإسلام ، ومما ظنوا ما حكاه الله بقوله ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ . وقدم ذكر المنافقين على المشركين ، لأنهم كانو أشد ضرراً على المؤمنين من الكفار المجاهرين لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر ، ويخالط المنافق لظنه إيمانه ، وقوله تعالى ﴿ **عليهم دائرة السوء** ﴾ أى : عليهم تدور الدوائر ، وسيحيق بهم ما كانوا يتربصون بالمؤمنين من قتل وسبى وأسر لا يتخطاهم . وقوله تعالى ﴿ **وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً** ﴾ أى : وناهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلا يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

وقوله تعالى ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾ قال ابن عباس : جنود السموات : الملائكة وجنود الأرض : المؤمنون . ﴿ **وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ أى : وكان الله غالباً لا يرد بأسه ، حكيما فيما دبره لخلقه .

قال الشيخ المراغى فى تفسيره : ترتب على هذا الفتح أربعة أشياء للنبى ﷺ :

(١) مغفرة الذنوب . (٢) إجتماع الملك والنبوة .
(٣) الهداية الى الصراط المستقيم . (٤) العزة والمنعة .

وفاز المؤمنون بأربعة أشياء :

(١) الطمأنينة والوقار . (٢) ازدياد الإيمان .
(٣) دخول الجنات . (٤) تكفير السيئات .

---

(١) الأحزاب الآيتان : ٤٣ - ٤٤

(٢) آل عمران آية : ١٨٥

وجازى الكفار والمنافقين بأربعة أشياء :

(١) العذاب . (٢) الغضب .

(٣) اللعنة . (٤) دخول جهنم .

بيعة الرضوان

قال تعالى :

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

معانى المفردات

﴿ **شاهداً** ﴾ أى : على أمتلك ، ﴿ **ومبشرا** ﴾ أى : بالثواب على الطاعة ، ﴿ **نذيراً** ﴾ أى : بالعذاب على المعصية ﴿ **تعزروه** ﴾ تنصروه ، ﴿ **توقروه** ﴾ **أى : تعظموه** ، ﴿ **بكرة** ﴾ أول النهار ، ﴿ **أصيلا** ﴾ أى : آخر النهار . والمراد جميع النهار . إذ من عادة العرب أن يذكروا طرفى الشىء ويريدوا جميعه . كما يقال شرقا وغربا لجميع الدنيا .

﴿ **يبايعونك** ﴾ أى : يوم الحديبية إذ بايعوه على الموت فى نصرته والجهاد فى سبيل الله . ﴿ **إنما يبايعون الله** ﴾ لأن المقصود من بيعة الرسول وطاعته طاعة الله وامتثال أوامره ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع كلامهم ويرى مكانهم . ﴿ **نكث** ﴾ أى : نقض ﴿ **أوفى** ﴾ يقال أوفى بالعهد ووفى به : إذا أتمه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أتم الكلام على ما لكل من النبى ﷺ والمؤمنين من الثمرات التى ترتبت على عمله ــ أعقبه ــ بما يعمهما معاً ، فذكر أنه أرسل رسوله شاهدا على أمته ، ومبشراً لها بالثواب ومنذر إياها بالعقاب ، ثم أبان فائدة هذا الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه ، غدوة وعشيا ، ونصرة دينه ، ثم ذكر بيعة الحديبية (قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة ، سميت باسم بئر هناك) وأن الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه ، وأن من نقض منهم العهد فوبال ذلك عائدا إليه ولا يضرن إلا نفسه ، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم ، والثواب الجزيل .

التفسير

قوله تعالى ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيراً لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ أى : على الخلق ﴿ ومبشراً ﴾ أى : للمؤمنين ﴿ ونذيراً ﴾ أى : للكافرين كقوله تعالى ﴿ يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا * وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً ﴾[1] وكقوله تعالى ﴿ الر * كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ﴾ قال ابن عباس — رضى الله عنهما — وغير واحد . تعظموه . ﴿ وتوقروه ﴾ من التوفير وهو الإحترام والإجلال والإعظام .

قال القاضى أبو الفضل عياض فى كتابه « الشفا » : فى الباب الثالث :

(فى تعظيم أمره ووجوب توقيره وبره)

قال الله تعالى ﴿ إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه ﴾ وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾[3] وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ﴾ الثلاث الآيات وقال تعالى ﴿ لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ﴾[4] فأوجب الله تعالى تعزيره وتوقيره وألزم إكرامه وتعظيمه ، قال ابن عباس : تعزروه ! تُجلوه وقال المبرء : تعزروه ، تبالغوا فى تعظيمه ، وقال الاخفش تنصروه ، وقال الطبرى تعينونه ، وقرىء تعززوه بزاءيين من العز ، ونهى عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام على قول ابن عباس وغيره وهو اختيار ثعلب ، قال سهل بن عبد الله لا تقولوا قبل أن يقول وإذا قال فاستمعوا له وأنصتوا ، ونهوا عن التقدم والتعجل بقضاء أمر قبل قضائه فيه وأن يفتاتوا بشىء فى ذلك من قتال أو غيره من أمر دينهم إلا بأمر ولا يسبقوه به ، والى هذا يرجع قول الحسن ومجاهد والضحاك والسدى والنووى ثم وعظهم وحذرهم مخالفة ذلك فقال ﴿ واتقوا الله إن الله سميع عليم ﴾ قال الماوردى اتقوه يعنى فى التقدم ، وقال

---

(١) سورة الاحزاب الآيات ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) سورة هود الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الحجرات آية ١ .

(٤) سورة النور آية ٦٣ .

السلمي اتقوا الله فى أهمال حقه وتضييع حرمته إنه سميع لقولكم عليم بفعلكم ، ثم نهاهم عن رفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض ويرفع صوته ، وقيل كما ينادى بعضهم بعضاً باسمه . قال ابو محمد مكى أى : لا تسابقوه بالكلام وتغلظوا به بالخطاب ولا تنادوه باسمه نداء بعضكم لبعض ولكن عظموه ووقروه ونادوه بأشراف ما يجب أن ينادى به : يا رسول الله ، يا نبى الله ، وهذا كقوله فى الآية الأخرى ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾ .

(عادة الصحابة فى تعظيمه ﷺ وتوقيره وإجلاله)

قال القاضى عياض نسبه عن عمرو بن العاص قال : وما كان أحد أحب إلى من رسول الله ﷺ ولا أجلّ فى عينى منه وما كنت أطيق أن أملأ عينى منه إجلالا له ولو سئلت أن أصفه ما أطقت لأنى لم أكن أملأ عينى منه . وروى الترمذى عن أنس أن رسول الله ﷺ كان يخرج على أصحابه من المهاجرين والأنصار وهم جلوس فيهم أبو بكر وعمر فلا يرفع أحد منهم إليه بصره إلا أبو بكر وعمر فإنهما كانا ينظران إليه وينظر إليهما ويبتسمان إليه ويبتسم لهما[1] ، وروى أسامة بن شريك قال أتيت النبى ﷺ وأصحابه حوله كأنما على رؤسهم الطير ، (وقال عروة بن مسعود حين وجَّهته قريش عام القضية إلى رسول الله ﷺ ورأى من تعظيم أصحابه ما رأى ، وأنه لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه وكادوا يقتتلون عليه ، ولا يبصق بُصاقاً ولا يتنخم نخامه إلا تلقوها بأكفهم فدلكوا بها وجوههم وأجسادهم ، ولا تسقط منه شعرة إلا ابتدروها ، وإذا أمرهم بأمر ابتدروا أمره ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون إليه النظر تعظيما له ، فلما رجع إلى قريش قال يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه وإنى والله ما رأيت ملكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه)[2] وقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً .. وقال البراء ابن عازب لقد كنت أريد أن أسأل رسول الله ﷺ عن الأمر فأوخر سنين من هيبته .

واعلم أن حرمة النبى ﷺ بعد موته وتوقيره وتعظيمه لازم ، كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره ﷺ وذكر حديثه ، وسنته وسماع اسمه وسيرته ، ومعاملة آله وعزته ، وتعظيم أهل بيته وصاحبته . قال أبو إبراهيم التجيبىُّ واحب على كل مؤمن متي ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ فى هيبته وإجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه ويتأدب بما أدبنا الله به . وكان ابن سيرين ربما يضحك فإذا ذكر عنده حديث النبى ﷺ خشع ، وكان عبد الرحمن بن مهدى إذا قرأ حديث رسول الله ﷺ أمرهم بالسكون وقال ﴿ **لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى** ﴾ ويتأول أنه يجب من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله ﷺ :ـــ

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ح ٥ ص ٢٧٤ أبواب مناقب رسول الله رقم ٣٧٥٠ .

(٢) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب / ط الحلبى . ـــ وانظر مستند الإمام أحمد ح ٤ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ .

أغر عليه للنبوة خاتم — من الله من نور يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى الى اسمه — إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشق له من اسمه ليجله — فذوا العرش محمود وهذا محمد

قوله تعالى ﴿ **وتسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾ أى : تسبحون الله ﴿ **بكرة وأصيلا** ﴾ أى : أول النهار وآخره كما قال سبحانه ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا * وسبحوه بكرة وأصيلا** ﴾[(١)] .

قوله تعالى ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾

أصل البيعة العقد الذى يفقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد والذى التزمه له ، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، وسبب هذه البيعة العظيمة أن النبى ﷺ أعلن فى المسلمين أنه يتوجه الى مكة معتمراً ــ وكان هذا فى شهر ذى القعدة ، آخر سنة ست للهجرة ــ فتبعه جمع كبير من المهاجرين والأنصار بلغ عددهم ألفاً وأربعمائة تقريباً . وأحرم ﷺ فى الطريق وسافر معه الهدى ليأمن الناس من حربه ، وليعلموا أنه إنما خرج زائر للبيت ومعظما له .

وأرسل ﷺ وهو عند ذى الحليفة عيناً له من قبيلة خزاعة اسمه بشير بن سفيان ليأتيه بخبر أهل مكة وسار النبى ﷺ حتى وصل الى غدير الأشطاط ، فأتاه العين الذى كان قد أرسله ، فقال له : إن قريشا جمعت لك جموعا ، وقد جمعوا لك الأحابيش ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت وما نعوك ، فقال اشيروا أيها الناس . فقال له أبو بكر : يا رسول الله خرجت عامراً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد ، فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه قال : امضوا على اسم الله[(٢)] .

ثم قال : من رحل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟ فقال له رجل من بنى أسلم : أنا يا رسول الله فسلك بهم طريقا وعراً بين الشعاب وسار النبى ﷺ وأصحابه حتى إذا كانوا فى ثنيه المِرار (وهى طريق فى الجبل تشرف على الحديبية) بركت به راحلته ، فقال الناس : حل ، حل (اسم صوت كانوا يزجرون به الجمال) فلم تتحرك ، فقالوا : خلأت القصواء ، فقال ﷺ : ما خلأت ، وما ذاك لها بخلق ــ ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذى نفسى بيده لا يسألوننى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها ، ثم زجرها فوثبت ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على صغيرة قليلة الماء ، فلم يلبث الناس حتى نزحوه ، وشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش فإنتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صاروا عنه[(٣)] ثم دعا رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب ــ رضى

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٤١ ، ٤٢
(٢) أنظر صحيح البخارى بماشيه السندى ح ٣ ص ٤٥ . باب عزة الحديبية .
(٣) أنظر صحيح البخارى بماشيه السندى ح ٢ ص ١٢٠ . باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

الله عنه ـــ لبيعته إلى مكة ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال يا رسول الله أني أخاف قريشا على نفسي وليس بمكة من بنى عدى بنى كعب من يمنعني وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظى عليها ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى عثمان بن عفان تبعته إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظما لحرمته ، فخرج عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ إلى مكة فلقيه أبان بن سعيد بن العاصى حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ فانطلق عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به فقالوا لعثمان ـــ رضى الله عنه ـــ حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم إن شئت أن تطوف بالبيت فطف فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ واحتبسته قريش عندها فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين إن عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ قد قتل فقال ﷺ : « لا نبرح حتى نناجز القوم »[1]ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة فكان الناس يقولون بايعهم رسول الله ﷺ على الموت[1] فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين الى الموادعة والصلح ، وكان قد أتى رسول الله ﷺ أن الذى بلغه من أمر عثمان كذب ، فتم الصلح ومشى **بعضهم** إلى بعض على أن يحج رسول الله ﷺ فى العام القابل ويدخل مكة .. فقوله تعالى ﴿ **إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله** ﴾ أى : إن الذين يبايعونك بالحديبية من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء العدو ، ولا يولوهم الأدبار ، إنما يبايعون الله بيعتهم إياك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك قال تعالى ﴿ **من يطع الرسول فقد أطاع الله** ﴾ وقال ﷺ فى الحديث الصحيح « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : ومن **يأبى** يا رسول الله ، قال : من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »[2] .

وقوله تعالى ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ أى : هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم ويعلم ضمائرهم وظواهرهم فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ كقوله تعالى ﴿ **إن الله أشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم** ﴾[3] .

وقوله تعالى ﴿ **فمن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾ أى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبى ﷺ فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضر إلا نفسه .

وقوله تعالى ﴿ **ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ أى : ومن وفى بعهد البيعة فله الأجر والثواب فى الآخرة ، سيدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

---

(١) أنظر سيرة ابن هشام ح ٣ ص ٧٨٠ باب بيعة الرضوان

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ح ٩ ص ١١٤ كتاب الإعتصام بالكتاب والسنة باب الإقتدار بسنن رسول الله ﷺ .

(٣) سورة التوبة آية ١١١

مواقف لبعض الأعراب

قال تعالى :

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم
مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ
فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ
سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾
سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن
تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل
لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ
ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ
وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

معانى المفردات

(المخلفون) واحد مخلف ، وهو المتروك فى المكان خلف الخارجين منه ، (ضراً) المراد : ما يضر من هلال الأهل والمال وضياعهما ، (نفعاً) المراد به : ما ينفع من حفظ المال والأهل . (ينقلب) أن : يرجع . (إلى أهليهم) أى : عشائرهم وذوى قرباهم (بوراً) أى : هالكين (سعيراً) أى ناراً مسعورة موقدة ملتهبة . (الى مغانم) المراد بالمغانم هنا مغانم خيبر ، فإنه ﷺ رجع من الحديبية فى ذى الحجة ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية ففتحها وغنم أموالاً كثيرة . (يريدون أن يبدلوا كلام الله) المراد بتبديل كلام الله الشركة فى المغانم دون أن ينصروا دين الله ويعلوا كلمته ، (يفقهون) أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فمنهم لأمور الدنيا دون أمور الدين . (البأس) النجدة وشدة المراس فى القتال ، (الحرج) الإثم والذنب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف وبين أن الله غضب عليهم وأعد لهم سعيرا ــ أردف ذلك قبائل من العرب تخلفوا عن رسول الله ﷺ لما استنزفهم عام الحديبية حين أراد السير إلى مكة معتمرا ، وساق معه الهدى ليُعلم أنه لا يريد حربا ، وأعتلوا بأن أموالهم وأهلهم قد شغلتهم ففضحهم الله فى هذه الآيات وأخبر بأنه أعد لهؤلاء وأمثالهم ناراً موقدة تطلع على الأفئدة . ثم أخبر سبحانه أنهم سيقولون دعونا نتبعكم ونسر معكم إلى غزو خيبر ، حين توقعوا ما سيكون فيها من مغانم ولو كانت التعلة السالفة حقاً ما طلبوا السير معه بحال فبين سبحانه كذبهم فى هذه المعذرة وأنهم لا يخرجون إلا للدنيا فقط . ثم أردف ذلك بيان أن باب القتال لا يزال مفتوحاً أمامكم ، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء فى ميدان القتال فاستعدوا فستندبون إلى مواجهة قوم أولى بأس شديد ، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوهم حتى تبيدوا خضراءهم ، فإن اجبتم داعى الله أثابكم ما فعلتم جزيل الأجر ، وأن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجزون العذاب الأليم . ثم ذكر سبحانه الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد . ومنها ما هو لازم كالعمى والعرج ، ومنها ما هو عارض يطرأ ويزول كالمرض رغم أعقب ذلك بالترغيب فى الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة فى الدنيا ونار موقدة فى الأخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا وترك ما يقربه من ربه .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم . قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا** ﴾ .

يقول تعالى مخبرا رسوله ﷺ مما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين أختاروا المقام فى أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ وذلك قول منهم لاعلى سبيل الاعتقاد بل على وجه التقية والمصانعة ولهذا قال تعالى ﴿ **يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ وهذا هو النفاق المحض ﴿ **قل فمن يملك لكم من الله شيئاإن أراد بكم ضراً** ﴾وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن الرسول يدفع عنهم الضر ويعجل لهم النفع ، ويبين سبحانه أنه العليم بسرائرهم وضمائرهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ **بل كان الله بما تعملون خبيراً** ﴾ فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من المعاذير بل كان شكاً ونفاقاً كما فصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ **بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ أى لم يكن تخلفكم تخلف معذورا ولا عاص بل تخلف نفاق فاعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيقتلون وتستأصل شأفتهم فلا يرجعون إلى أهلهم أبداً ، وزين لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبته ، وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين

على أعدائهم ، ﴿ **وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً** ﴾ وقد صرتم بما قلتم قوما هلكى لا تصلحون لشىء من الخير ، مستوجين سخط الله وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعده للكافرين به فقال : ﴿ **ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا اعتدنا للكافرين سعيرا** ﴾ أى : ومن لم يخلص العمل فى الظاهر والباطن لله فإن الله تعالى سيعذبه فى السعير وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه فى نفس الأمر .

ثم يبين تعالى أنه الحاكم المتصرف فى أهل السموات والأرض فقال تعالى ﴿ **ولله ملك السموات والأرض ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيماً** ﴾ أى : وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عداهم من الكافرين منهم بمعزل عن ذلك .

وفى الآية حث لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله ﷺ على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله ـــ ﷺ ـــ وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

قوله تعالى : ﴿ **سيقول المخلفون إذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا** ﴾ .

هذا أخبار من الله سبحانه وتعالى عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى عمرة الحديبية إذ ذهب النبى ﷺ وأصحابه ـــ رضى الله عنهم ـــ إلى خيبر يفتحونها ـــ أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم ومصابرتهم **فأمر الله تعالى رسوله ﷺ** أن لا يأذن لهم فى ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدرا ولهذا قال تعالى ﴿ **يريدون أن يبدلوا كلام الله** ﴾ قال مجاهد وقتادة وهو الوعد الذى وعد به أهل الحديبية . وقال ابن جريج (يريدون أن يبدلوا كلام الله) يعنى بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد . (قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل) أى : وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم (فسيقولون بل تحسدوننا) أى : أن نشرككم فى الغنائم (بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) أى ليس الأمر كما زعموا ولكن لا فهم لهم .

قوله تعالى : ﴿ **قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ، فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً** ﴾ .

أى : قل لهؤلاء الذين تخلفوا عن الحديبية (الذى تقدم ذكرهم إنكم يتفدون الى قتال قوم أولى بأس شديد) قال ابن عباس : ومجاهد : هم فارس وقال كعب والحسن : الروم وقال ابن جبير : هوازن وثقيف ، وقال قتادة : هوازن وغطفان يوم حنين ، وقال الزهرى ومقاتل : بنو حنين أهل اليمامة أصحاب مسليمة والمراد قل لهؤلاء المحلفين الذين تقدم ذكرهم ـ إنكم ستفدون الى قتال قوم من اول البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين : أما السيف وإما الاسلام ، وهذا حكم عام فى مشركي العرب والمرتدين يجب اتباعه .

ثم وعدهم إذا أجابوا بقوله تعالى ﴿ **فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً** ﴾ أى : فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طلب منكم أداؤه ـــ يؤتكم ربكم الأجر الحسن ، والثواب الجزيل ، فتنالوا المغانم فى الدنيا ، وتدخلوا الجنة فى الآخرة . ثم أوعد سبحانه من نكص على عقبة بقوله ﴿ **وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليما** ﴾ أى : أن تعصوا ربكم وتخالفوا أمره ، فتتركوا قتال أولئك القوم إذا دعيتم إلى قتالهم كما عصيتموه فى أمره إياكم بالمسير مع رسوله ﷺ إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالذلة فى الدنيا ، والنار فى الآخرة .

ثم ذكر سبحانه الأعذار فى ترك الجهاد فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر وعارض كالمرض الذى يطرأ أياماً ثم يزول فهو فى حال مرضه يلحق بذوى الأعذار اللازمة حتى يبرأ فقال تعالى :

﴿ **ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذاباً أليما** ﴾ .

قال ابن عباس : لما نزلت (وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) قال أهل الزمالة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فنزلت (ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج) أى : لا إثم عليهم فى التخلف عن الجهاد .

ثم قال تعالى : مرغبا فى الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ **ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وقوله ﴿ **ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً** ﴾ أى : ومن ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش (يعذبه عذاباً أليما) فى الدنيا بالمذلة وفى الآخرة بالنار كما قال تعالى ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير** ﴾[1] .

وأخرج الامام أحمد فى سنده عن ابن عمر ـــ رضى الله عنه ـــ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا حتى ترجعوا إلى دينكم »[2] .

---

(١) سورة التوبة آية ٣٩

(٢) الحديث فى سنن أبى داود ح ٣ ص ٧٤٠ ، ٧٤١ كتاب البيوع باب فى النهى عن العينة رقم ٣٤٦٢ . واللفظ له .
ـــ انظر مسند أحمد ح ٢ ص ٤٢ ، ٨٤ عن ابن عمر مع اختلاف فى اللفظ وتقديم وتأخير .

بيعة الرضوان وصلح الحديبية

قال تعالى

*﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩) وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٢٤) هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦)﴾

معاني المفردات

(السكينة) : الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، (فتحاً قريبا) : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من الحديبية ، (مغانم كثيرة) : هى مغانم خيبر (عزيزاً) أى : غالباً (حكيما) أى : يفعل على مقتضى الحكمة فى تدبير خلقه . (فعجل لكم هذه) أى : مغانم خيبر (أيدى **الناس**) أى : أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها الى الحديبية (آية) أى : أمارة للمؤمنين يعرفون بها[1] صدق الرسول ﷺ[2] حياطة الله لرسوله وللمؤمنين[3] معرفة المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كلاءته تعالى ستعمهم أيضا ماداموا على الصراط المستقيم . (وأخرى) المراد مغانم فارس والروم ، (أحاط الله بها) أى : أعدها لكم وهى تحت قبضته يظهر عليها من أراد (لولوا الأدبار) أى : لا نهزموا ، (سنة الله) أى : سن سبحانه

غلبة أنبيائه كقوله ﴿ لأغلبن أنا ورسلى ﴾ ، ﴿ أيديهم عنكم ﴾ أى : أيدى كفار مكة ، ﴿ وأيديكم عنهم ببطن مكة ﴾ يعنى بالحديبية ﴿ أظفركم عليهم ﴾ أى : أعلى كلمته وجعلكم ذوى غلبة عليهم (الهدى) قرباناً لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة ﴿ معكوفاً ﴾ أى : محبوساً ، (محله) أى : المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى . (الوطء) المراد به الإهلاك ، (والمعرة) المكروه والمشقة ﴿ التنزيل ﴾ التفرق والتميز ، ﴿ الحمية ﴾ الأنفة ﴿ حمية الجاهلية ﴾ حمية فى غير موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان (كلمة التقوى) هى لا إله إلا الله ﴿ وأهلها ﴾ أى : المستأهلين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه حال المخلفين فيما سلف ـــ عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكرهم فيما تقدم بقوله ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ فأبان رضاه عنهم لأجل تلك البيعة لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم أخرج البخارى عن سلمة قال : « بايعت رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قيل على أى شىء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت »[1] وعن جابر أن النبى ﷺ قال « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة »[2] أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

ثم وعدهم سبحانه بمغانم كثيرة من خيبر بعد عودتهم من الحديبية **وسيؤتيهم** سبحانه مغانم أخرى من فارس والروم وغيرهما ما كانوا يقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر سبحانه أنه لو قاتلهم أهل مكة ولم يصالحوهم لانهزموا ولم يجدوا ولياً ولا نصيرا يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة الكافرين وخذلان الكافرين . ثم أمتن على عباده المؤمنين بأنه كف أيدى المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والأخرة . ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات بمكة لا علم لهم بهم فيلزمهم العار والأثم ـــ لأذن لهم فى دخول مكة ، ولقد كان الكف ومنع التعذيب لأهل مكة ليدُخل الله فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل **دخولها** ، وليمنعنَّ الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذب الذين كفروا منهم عذاباً أليما بالقتل والسبى حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التى تمنع من الإذعان

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ح ٣ ص ٤٤ باب غزوة الحديبية . ط / الحلبى .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ١٩٤٢ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة رقم ١٦٣ / ٢٤٩٦ .

ـــ انظر مسند احمد ح ٣ ص ٣٥٠ مسند جابر .

ـــ انظر سنن أبى داود ح ٥ ص ٣٥٠ ابواب المناقب باب فضل من بايع تحت الشجرة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

للحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم ، وألزمهم كلمة التقوى وكانو أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم الله لدينه وصحبة نبيه ﷺ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ .

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة وكانوا ألفا وأربعمائة .

قال ابن الى حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : بينما نحن قائلون إذ نادى منادى رسول الله ﷺ أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس : قال فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ قال فبايع رسول الله ﷺ لعثمان ـــ رضى الله عنه ـــ بإحدى يديه على الأخرى فقال الناس هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ونحن ههنا فقال رسول الله ﷺ « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف بالبيت حتى أطوف »[1]

وقوله تعالى : ﴿ **فعلم ما فى قلوبهم** ﴾ أى : من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ **فأنزل السكينة عليهم** ﴾ وهى الطمائنينة . ﴿ **وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم وما حصل بذلك من الخير العام المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة فى الدنيا والآخرة ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً** ﴾ وكان الله ذا عزة فى انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيما فى تدبير أمر خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

قوله تعالى : ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً . وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديراً** ﴾ .

قال ابن كثير : قال مجاهد فى قوله تعالى ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها** ﴾ هى جميع المغانم إلى اليوم ﴿ **فعجل لكم هذه** ﴾ يعنى فتح خيبر ، وروى العوفى عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ (**فعجل لكم هذه**) يعنى صلح الحديبية (وكف أيدى الناس عنكم) أى : ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدى الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم ، من عيالكم وحريمكم (ولتكون آية للمؤمنين) أى يتعبرون بذلك فإن الله تعالى حافظهم ، وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذا بهم ، أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين ،

(١) انظر كنز العمال ح ١٠ ص ٤٨١ حديث رقم ٣٠١٥٢ .

وإن كرهوه فى الظاهر ، كما قال تعالى ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم** ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ **ويهديكم صراطا مستقيما** ﴾ أى بسبب انقيادكم لأمره واتباعكم طاعته وموافقتكم رسوله — ﷺ — .

وقوله تبارك وتعالى ﴿ **وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا** ﴾ أى : وغنيمة أخرى وفتحاً آخر ومعينا لم تكونوا قادرون عليها قد يسرها الله عليكم وأحاط بها لكم فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون وقد اختلف المفسرون فى هذه الغنيمة **فما** المراد بها فقال العوفى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — هى خيبر ، وقال قتادة هى مكة واختاره ابن جرير ، وقال الحسن البصرى هى فارس والروم ، وقال مجاهد هى كل فتح وغنيمة إلى يوم القيامة .

قوله تعالى ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيرا سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ يقول عز وجل مبشرا لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ولا نهزم جيش الكفر فاراً مدبرا لا يجدون ولياً ولا نصيراً وهذه سنة الله وعادته فى خلقه كقوله تعالى ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد** ﴾[٢] وكقوله تعالى ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾[٣] .

﴿ وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا ﴾ .

هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدى المشركين فلم يصل إليهم منهم سوء وكف أيدى المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام بل صان كلاً من الفريقين وأوجد بينهم صلحاً فيه خيره للمؤمنين وعافية فى الدنيا والآخرة .

وروى الترمذى عن ثابت بن أنس « أن ثمانين هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابه من جبل التنعيم عند صلاة الصبح وهم يريدون أن يقتلوه ، فأخذوا أخذاً فأعتقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ **وهو الذى كف ايديهم عنكم وأيديكم عنهم** ﴾ قال الترمذى هذه حرف حسن صحيح[١] .

وقول تعالى ﴿ **هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ، ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً** ﴾ .

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٢) سورة غافر آية ٥١ .

(٣) سورة المجادلة آية ٢١ .

(٤) الحديث فى سنن الترمذى ح ٥ ص ٥٢ إبواب التفسير سورة الفتح رقم ٣٣١٧ وقال الترمذى . هذا حديث حسن صحيح .

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركى العرب من قريش ومن مالاهم على نصرتهم على رسول الله ﷺ ﴿ **هم الذين كفروا** ﴾ أى هم الكفار دون غيرهم ﴿ **وصدوكم عن المسجد الحرام** ﴾ أى : وأنتم أحق به ، وأنتم أهله فى نفس الأمر . ﴿ **والهدى معكوفا أن يبلغ محله** ﴾ وهذا من بغيهم وعنادهم ، وكان الهدى سبعين بدنه . روى البخارى عن ابن عمر قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ معتمرين ، فحال كفار قريش دون البيت ، فنحر رسول الله ﷺ بدنه وحلق رأسه قيل : إن الذى حلق رأسه يومئذ خراش بن أميه الخزاعى ، وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن ينحروا ويحلّوا ، ففعلوا بعد توقف كان معهم أغضب رسول الله ﷺ فقالت له أم سلمة : لو نحرت لنحرو ، فنحر رسول الله ﷺ هديه ونحروا بنحره وحلق رسول الله ﷺ رأسه ودعا للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة[1] وفى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال : نحرنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة ، وحضر جابر الحديبية قال : ونحرنا يومئذ سبعين بدنة[2] .

قوله تعالى ﴿ **ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء . لو تزيلوا ، لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما** ﴾ أى : ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفه على أنفسهم من قومهم لكنا سلّطانكم عليهم فقتلتموهم ، وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لاتعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى ﴿ **لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة** ﴾ أى : إثم وغرامة (بغير علم) قال القرطبى فى قوله تعالى ﴿ **بغير علم** ﴾ تفضيل للصحابة وإخبار عن صفتهم الكريمة من العفة عن المعصية والعصمة عن التعدى ، حتى لو أنهم أصابوا من ذلك أحداً لكان عن غير قصد .

وقوله تعالى ﴿ **ليدخل الله فى رحمته من يشاء** ﴾ اللام فى « ليدخل » متعلقة بمحذوف ، أى : لو قتلتموهم لأدخلهم الله فى رحمته ويجوز أن تتعلق بالإيمان وقيل : المعنى لم يأذن الله لكم فى قتال المشركين ليسلم بعد الصلح من قضى أن يسلم من أهل مكة ، وكذلك كان ، أسلم الكثير منهم وحسن إسلامه ، ودخلوا فى رحمته ، أى : جنته .

وقوله تعالى ﴿ **لو تزيلوا لعذبنا الذى يكفروا منهم عذاباً أليما** ﴾ أى : لو تميز الكفار عن المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلطانكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً .

---

(١) انظر صحيح البخارى ح ٥ ص ٢٥٢ كتاب الشروط فى الجهاد والصحيح والصلح مع أهل الحرب
ــ وانظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٩٤٦ كتاب الحج رقم ٣١٨ / ١٣٠١ .
ــ وانظر سنن ابن ماجة ح ٢ ص ١٠١٢ كتاب المناسك رقم ٣٠٤٤
(٢) انظر صحيح مسلم كتاب الحج باب الاستدراك فى الهدى ح ٢ ص ٩٥٥ حديث ٣٥٠ / ١٣١٨ من رواية عن جابر والحديث بلفظه .
ــ وانظر سنن الترمذى « كتاب الحج » باب الاستدراك فى البدنه والبقرة ح ٢ ص ١٩٤ حديث رقم ٩٠٦ عن رواية لجابر والحديث بلفظه .

وقوله تعالى ﴿ **إذا جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليماً** ﴾ .

قال الزهرى حميتهم : أنفتهم من الإقرار للنبى ﷺ بالرسالة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم ، ومنعهم من دخول مكة ، فحدث الزهرى أن قريشاً بعثوا سهيل بن عمرو وقالوا ائت محمداً فصالحه ، ولا تلن فى صالحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا ، فوالله لا يتحدث العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً ٢ فأتاه سهيل بن عمرو فلما رآه رسول الله ﷺ قال : « قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل » فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلما وأطالا الكلام وتراجعا حتى جرى بينهما الصلح ... ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن أكتب باسمك اللهم فقال رسول الله ﷺ « اكتب باسمك اللهم » هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل ابن عمرو[1] وقوله تعالى ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى** ﴾ وهى قول لا إله إلا الله .

قال ابن أبى حاتم عن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أخبره أن رسول الله ﷺ قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل »[2] ، وأنزل الله عز وجل فى كتابه وذكر قوماً فقال ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ وقال جل ثناؤه ﴿ **وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ **وهى لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فاستكبروا عنها واستكبر عنها المشركون يوم الحديبية فكاتبهم رسول الله ﷺ على قضية المدة . . .**

(قال ابن كثير هذه الزيادات الظاهر أنها مدرجة من كلام الزهرى والله أعلم) .

وقوله تعالى ﴿ **وكانوا أحق بها وأهلها** ﴾ أى : كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿ **وكان الله بكل شىء عليماً** ﴾ أى : هو سبحانه عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر .

(١) أنظر صحيح البخارى بحاشيه السندى ج ٢ ص ١٢٢ كتاب الشروط والصلح مع أهل الحرب . ط الحلبى .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ١ ص ١ ، ٥٢ كتاب الإيمان . باب الأمر بقتال الناس حتى يقول لا إله إلا الله . رقم ٣٢ / ٢٠ ، ٣٣ / ٢١ .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبى ﷺ فقلت ألست بنبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلم نعطى **الدنية** فى ديننا إذن ؟ قال إنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى ؛ قلت فلم نعطى **الدنية** فى ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بغرزه (سر على نهجه) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى : أفأخبرك أنه آتيه العام ؟ قلت لا ، قال فإنك تأتيه وتطوف به »[1] ثم ذكر سبحانه وتعالى أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر الأديان ثم أردف هذا بيان حال الرسول وأصحابه الغر الميامين ، فوصفهم كلها مدائح لهم ، وذكرى لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم ، وامتلكوا الدول وقبضوا على ناصية العالم أجمع .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ، لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ .

يقول ابن كثير : كان رسول الله ﷺ قد رأى فى المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤيا تتفسر هذا العام فلما وقع من قضية الصلح ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل ، وقع فى نفس بعض الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ من ذلك شىء . حتى سأل عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ فى ذلك فقال له فيما قال أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قال لا ، قال النبى ﷺ « فإنك آتيه ومطوف به » وبهذا أجاب الصديق ـــ رضى الله عنه ـــ أيضا حذو القذة بالقذة ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله** ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده وليس هذا من الاستثناء فى شىء .

وقوله عز وجل ﴿ **آمنين** ﴾ أى : فى حال دخولكم . وقوله ﴿ **محلقين رؤسكم ومقصرين** ﴾ حال مقدرة لأنهم فى حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين وإنما كان هذا فى ثانى الحال ، كان منهم من حلق رأسه ومنهم من قصره ، وثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ رحم الله المحلقين قالوا والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ « والمقصرين » فى الثالثة أو الرابعة[1] .

---

(١) أنظر صحيح البخارى بحاشية السندى ح ٢ ص ١٢٢ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب . ط / الحلبى .

(١) الحديث فى صحيح مسلم ح ٢ ص ٩٤٦ كتاب الحج . باب تفصيل الحلق على التقصير رقم ٣١٨ / ١٣٠١ .

ـــ أنظر سنن ابن ماجة ح ٢ ص ١٠١٢ كتاب المناسك . باب الحلق رقم ٣٠٤٤ .

الرسـول وصحبـه

قال تعالى

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ
وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ
بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ
أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ
فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ
فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

معانى المفردات

(محلقين رءوسكم ومقصرين) أى : يحلق بعضكم ويقصر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، (ليظهره على الدين كله) أى : ليعليه على سائر الأديان حقها وباطلها (أشداء) واحدهم شديد (رحماء) رحيم (فضلاً) ثواباً (سيماهم) السيماء من السومة (بالضم) وهى العلامة . (مثلهم) وصفهم (الشطء) فروخ الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع فى شاطئيه : أى : جانبيه وجمعه أشطاء وشطأ الزرع : إذا أخرج فراخه ، وهو فى الحنطة والشعير والنخل وغيرها ، (آزره) أعانه وقواه وأصله من المؤازره وهى المعاونه ، (استوى على سوقه) أى : استقام علىٰ قصبه وأصوله والسنوق واحدها ساق .

المناسبة وإجمال المعنى

قال قتاده :

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه آمنين ، فاخبر بذلك ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا لم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : إين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل .

وقوله تعالى ﴿ لا تخافون ﴾ حال مؤكدة فى المعنى فأثبت لهم الأ من حال الدخول ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم فى البلد لا يخافون من أحد وهذا كان فى عمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع ، فإن النبى ﷺ لما رجع من الحديبية فى ذى القعدة رجع الى المدينة فأقام بها ذا الحجة والمحرم وخرج فى صفر إلى خيبر ففتحها الله عليه ، بعضها عنوة ، وبعضها صلحاً ، وهى إقليم عظيم كثير النخل والزروع ، فاستخدم من فيها من اليهود عليها على الشطر وقسمها بين أهل الحديبية وحدهم ، ولم يشهدها أحد غيرهم إلا الذين قدموا من الحبشة جعفر بن أبى طالب وأصحابه وأبو موسى الأشعرى وأصحابه ـــ رضى الله عنهم ـــ ولم يغب منهم أحد قال ابن زيد إلا أبا دجانة سماك بن خرشة ، كما هو مقرر فى موضعه ، ثم رجع إلى المدينة . فلما كان فى ذى القعدة من سنة سبع خرج ﷺ إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية فأحرم من ذى الحليفة وساق معه الهدى ، قيل كان ستين بدنه ، فلبى وسار أصحابه يلبون . فلما كان ﷺ قريباً من مر الظهران بعث محمد بن سلمة بالخيل والسلاح أمامه ، فلما رآه المشركون رعبوا رعباً شديدا وظنوا أن رسول الله ﷺ يغزوهم وأنه قد نكث العهد الذى بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين فذهبوا فأخبروا أهل مكة فلما جاء رسول الله ﷺ فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم بعث السلاح من القسى والنبل والرماح الى بطن يأجج ، وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة فى قربها كما شارطهم عليه فلما كان فى أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن صفحى فقال يا محمد ما عرفناك تنقض العهد ؟ فقال ﷺ « وماذاك ؟ » قال دخلت علينا بالسلاح والقسى والرماح ، فقال ﷺ « لم يكن ذلك وقد بعثنا به إلى يأجج ؟ فقال بهذا عرفناك بالبر والوفاء وخرجت رءوس الكفار من مكة لئلا ينظرون إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابه ـــ رضى الله عنهم ـــ غيظاً وحنقاً وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا فى الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فدخلها ﷺ وبين يديه أصحابه يلبون والهدى قد بعثه إلى ذى طوى وهو راكب ناقته **القصواء** التى كان راكبها يوم الحديبية وعبد الله بن رواحه آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ يقودها وهو يقول :

باسم الذى لا دين إلا دينه ... باسم الذى محمد رسوله
خلوا بنى الكفار عن سبيله ... اليوم نضربكم على تأويله
كما ضربناكم على تنزيله ... ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله ... قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله ... بأن خير القتل فى سبيله

يارب إنى مؤمن بقيله

وقال ابن إسحاق : وتحدثت قريش بينها أن محمداً وأصحابه فى عسرة وجهد وشدة . . قال : فصف له المشركون عند دار الندوة ، لينظروا إليه وإلى أصحابه فلما دخل رسول الله ﷺ اضطبع بردائه وأخرج عضده اليمين ثم قال : « رحم الله أمرا أراهم اليوم

من نفسه قوة »[1] ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه ، حتى هرول كذلك ثلاثة أطواف ، ومشى سائرها قال . فكان ابن عباس يقول : كان الناس يظنون أنها ليست عليهم (أى ليست سنة عامة) وذلك أن الرسول إنما صنعها لهذا الحي من قريش للذى بلغه عنهم ، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها ، فمضت السنة بها .

وقوله تعالى ﴿ **فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ أى : فعلم الله عز وجل من الخيره والمصلحه فى **صرفكم** عن مكة ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ **فجعل من دون ذلك** ﴾ أى : قبل دخولكم الذى وعدتم به فى رؤيا النبى ﷺ فتحاً قريباً وهو الصلح الذى كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

ثم قال تبارك اسمه مبشراً للمؤمنين بنصرة الرسول ﷺ على عدوه وعلى سائر أهل الأرض .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً** ﴾ أى : هو سبحانه الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ليعليه على كل الأديان ﴿ **وكفى بالله شهيدا** ﴾ على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان كائن لا محالة .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[2]

المستقبل للإسلام

كتب الشيخ نصر الدين الألبانى تحت هذا العنوان ما نصه :

قال الله عز وجل ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾

تبشرنا هذه الآية الكريمة بأن المستقبل للإسلام بسيطرته وظهوره وحكمه على الأديان كلها ، وقد يظن بعض الناس أن ذلك قد تحقق فى عهده ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين والملوك الصالحين ، وليس كذلك ، فالذى تحقق إنما هو جزء من هذا الوعد الصادق ، كما أشار إلى ذلك النبى ﷺ بقوله « لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى ، فقالت عائشة : يا رسول الله إن كنت لا أظن حين أنزل الله ﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولوكره المشركون** ﴾ أن ذلك تماماً ،

(١) انظر سيرة ابن هشام ح ٣ ص ٨٢٧ عمرة القضاء .

(٢) سورة الصف آية ٩ .

قال إنه سيكون من ذلك ما شاء الله .. »[١] الحديث رواه مسلم وغيره .

وقد وردت أحاديث أخرى توضح مبلغ ظهور الإسلام ومدى انتشاره بحيث لا يدع مجالا للشك فى أن المستقبل للإسلام بإذن الله وتوفيقه ، وها أنا أسوق ما تيسر من هذه الأحاديث عسى أن تكون سببا لشحذ همم العاملين للإسلام ، وحجة على اليائسين المتواكلين .

الحديث الأول : قال ﷺ « إن الله ذوى (أي جمع وضم) لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها وأن أمتى سيبلغ ملكها ما زوى لى منها ... »[٢] الحديث رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى .

والحديث الثانى : قوله ﷺ « ليبلغنى هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل ، عزاً يعز الله به دين الإسلام ، وذلاً يذل به الكفر[٣] رواه الجماعة .

الثالث : « عن أبى قبيل قال كنا عند عبدالله بن عمرو بن العاص وسئل أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق ، قال : فأخرج منه كتاباً قال : فقال عبد الله بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب إذ سئل رسول الله ﷺ : أى المدينتين تفتح أولاً القسطنطينية أو رومية ؟ فقال رسول الله ﷺ (مدينة هرقل تفتح أولاً يعنى قسطنطينية)[٤] رواه أحمد والدرامى وصحح الحاكم ووافقه الذهبى وهو كما قال : (ورومية) هى روما كما فى (معجم البلدان) وهى عاصمة إيطاليا اليوم وقد تحقق الفتح الأول على محمد الفاتح العثمانى ، كما هو معروف ، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من أخبار النبى ﷺ بالفتح ، وسيتحقق الفتح الثانى بإذن الله تعالى ولا بد ، (ولتعلمن نبأه بعد حين) .

ولا شك أيضا أن تحقيق الفتح الثانى يستدعى أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمة المسلمة وهذا مما يبشرنا بقوله ﷺ فى الحديث الرابع :

« تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها ما شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء الله أن يرفعها . ثم تكون ملكاً عاضاً فيكون ملكاً جبرياً فتكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم سكت »[٥] ذكره حذيفة مرفوعاً ، رواه الحافظ العراقى من طريق أحمد وقال هذا حديث صحيح .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢٣٠ كتاب الفتن . باب لاتقوم الساعة حتى تعبد دوس ذا الخصلة برقم ٥٢ / ٢٩٠٧ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم ح ٤ ص ٢٢١٥ كتاب الفتن وأشراط الساعة . باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . رقم ١٩ / ٢٨٨٩

ـ انظر سنن أبى داود ح ٤ ص ٤٥٠ ، ٤٥١ كتاب الفتن والملاحم . باب ذكر الفتن ودلائلها . رقم ٤٢٥٢ .

ـ انظر سنن الترمذى ح ٣ ص ٣١٩ كتاب الفتن باب سؤال النبى ﷺ ثلاث فى أمته . رقم ٢٢٦٧ . وقال الترمذى . هذا حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ١٠٣ ابن عامر عن تميم الوارى .

(٤) الحديث فى مسند أحمد ح ٢ ص ١٧٦ مسند عبد الله بن عمرو بن العاص .

ـ انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم . ح ٤ ص ٥٥٥ كتاب الفتن والملاحم .

(٥) الحديث فى مسند أحمد ح ٤ ص ٢٧٣ مسند حذيفة .

هذا وإن من المبشرات بعودة القوة إلى المسلمين واستثمارهم الأرض استثماراً يساعد على تحقيق الغرض وتنبىء عن أن لهم مستقبلاً باهراً حتى من الناحيتين الإقتصادية والزراعية قوله ﷺ :

« لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً »[1] رواه مسلم .

وقد بدأت تباشير هذا الحديث تتحقق فى بعض الجهات من جزيرة العرب بما أفاض الله عليها من خيرات وبركات وآلات ناضحات تستنبط الماء الغزير من بطن أرض الصحراء ، وهناك فكرة بجر نهر الفرات إلى الجزيرة ، كنا قرأناها فى بعض الجرائد العلمية فلعلها تخرج إلى حيز الوجود ، وإن غداً لناظره قريب .

هذا ومما يجب أن يعلم بهذه المناسبة أن قوله ﷺ « لا يأتى عليك زمان إلا والذى بعده شر منه حتى تلقوا ربكم »[2] رواه البخارى فى باب الفتن .

فهذا الحديث ينبغى أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمة وغيرها مثل أحاديث الهدى ونزول عيسى بن مريم ، فإنها تدل على أن هذا الحديث ليس على عمومه فيقعوا فى اليأس الذى لا يصح أن يتصف به المؤمن (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) أ .هـ .

قوله تعالى ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيماً** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **محمد رسول الله** ﴾ « محمد » مبتدأ « ورسول » خبره وقيل « محمد » ابتداء « ورسول الله » نعته ﴿ **والذين معه** ﴾ أصحابه الكرام الغر الميامين ﴿ **أشداء على الكفار** ﴾ أى : غلاظ عليهم كالأسد على فريسته ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ أى : يرحم بعضهم بعضاً فهم متعاطفون متوادون .

وقوله تعالى ﴿ **تراهم ركعاً سجداً** ﴾ أخبار عن كثرة صلاتهم وإرضائهم لربهم ﴿ **يبتغون فضلاً من الله ورضوانا** ﴾ وهذا إخبار عن إخلاصهم منهم يطلبون بأعمالهم الجنة ورضا الله سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾ السيما : العلامة ، أى لاحت علامات التهجد بالليل وأمارات السهر . وقد روى « من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار »[1] قال الحسن : هو بياض يكون فى الوجه يوم القيامة وفى الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبى هريرة وفيه « ... حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته ممن أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من

---

(١) انظر صحيح مسلم كتاب الزكاة « باب الترغيب فى الصدقة » ح ١ ص ٧٠١ حديث رقم ٦٠ / ١٥٧ فقد ورد الحديث فى حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الفتن باب لا يأتى زمان إلا الذى بعده شر منه » ح ٩ ص ٦١ ؛ ٦٢ فقط ورد الحديث فى حديث طويل لأنس .

النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ، ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله ، فيعرفونهم من النار بأثر السجود تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود ، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود »[٢] .

وقال ابن عباس ومجاهد : السيماء فى الدنيا وهو السمت الحين وعن مجاهد أيضا : هو الخشوع والتواضع . قال منصور : سألت مجاهداً عن قوله تعالى ﴿ **سيماهم فى وجوههم** ﴾ أهو أثر يكون بين عينى الرجل ؟ قال : لا ربما يكون بين عينى الرجل مثل رُكبة العنز وهو أقسى قلباً من الحجارة ! ولكنه نور فى وجوههم من الخشوع .

وقوله تعالى ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ قال ابن عباس وغيره : هما مثلان ، أحدهما فى التوراة والآخر فى الإنجيل ؟ فيوقف على هذا ، على « التوراة » ويكون تمام الكلام ﴿ **ذلك مثلهم فى التوراة** ﴾ ثم ابتدأ فقال ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل** ﴾ وقال مجاهد : هو مثل واحد ، يعنى ، أن هذه صفتهم فى التوراة والإنجيل ، فلا يوقف على « التوراة » على هذا ، ويوقف على « الإنجيل » ويبتدىء ﴿ **كزرع أخرج شطأه** ﴾ على معنى وهم كزرع .

وقوله تعالى ﴿ **كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ .

قال القرطبى : هذا مثل ضربه الله تعالى لأصحاب النبى ﷺ يعنى أنهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون ، فكان النبى ﷺ حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفا فأجابه الواحد بعد الواحد حتي قوى أمره ، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفا فيقوى حالاً بعد الحال حتى يغلظ نباته وأفراخه ، فكان هذا من أصلح مثل وأقوى بيان . وقال قتاده : مثل أصحاب محمد ﷺ فى الإنجيل مكتوب أنه سيخرج من قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

(فآزره) أى : قواه وأعانه وشده ، أى : قوّى الشطء الزرع وقيل بالعكس ، أى : قوّى الزرعُ الشطء .

وقوله ﴿ **فاستغلظ فاستوى على سوقه** ﴾ أى : على عوده الذى يقوم عليه فيكون ساقا له .

وقوله تعالى ﴿ **يعجب الزراع** ﴾ أى : يعجب هذا الزرع زرّاعه وهو مثل كما بينا ، فالزرع محمد ﷺ والشطء أصحابه ، كانوا قليلا فكثروا ، وضعفاء فقووا ، قاله الضحاك وغيره .

وقوله تعالى : ﴿ **ليغيظ بهم الكفار** ﴾ اللام متعلقة بمحذوف ، أى : فعل الله هذا لمحمد ﷺ وأصحابه ليغيظ بهم الكفار .

وقوله تعالى ﴿ **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم** ﴾ أى : وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ، وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة ﴿ **مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ أى : ثوابا لا ينقطع وهو الجنة .

وليست « من » فى قوله « منهم » مبعّضة لقوم من الصحابة دون قوم ، ولكنها عامة مجنسّة ، مثل قوله تعالى ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾[1] لايقصد للتبعيض لكنه يذهب إلى الجنس أى : فاجتنبوا الرجس من جنس الأوثان ، إذ كان الرجس يقع من أجناس شتى ، منها الزنى ، والربا ، وشرب الخمر والكذب . فأدخل « مِن » يفيد بها الجنس وكذا « منهم » أي : هذا الجنس ، يعني جنس الصحابة .

مكانة الصحابة فى الإسلام

روى أبو عروة الزبيرى عن ابن الزبير : كنا عند مالك بن أنس ، فذكروا رجلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك بن أنس هذه الآية ﴿ **محمد رسول الله والذين معه** ﴾ حتى بلغ ﴿ **يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ .

فقال مالك : مَن أصبح من الناس فى قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية ، ذكره الخطيب أبو بكر .

قال القرطبى : لقد أحسن مالك فى مقالته **وأصاب** فى تأويله . فمن نقص واحداً منهم أو طعن عليه فى روايته فقد ردَّ على الله رب العالمين ، وأبطل شرائع المسلمين ، قال الله تعالى ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار** ﴾ الآية .

وقال ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة** ﴾ إلى غير ذلك من الآي التي تضمنت الثناء عليهم ، والشهادة لهم بالصدق والفلاح قال الله تعالى ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾[2] وقال ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا** ﴾ إلى قوله ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾[3] ثم قال تعالى ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **فأولئك هم المفلحون** ﴾[4] وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآل أمرهم وقال رسول الله ﷺ « خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم »[5] وقال « لا تسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مد أحدهم ولا نصيفه » أخرجها البخارى[6] .

---

(١) سورة الحج آية ٣٠

(٢) **الاحزاب آية : ٢٣**

(٣) سورة الحشر آية ٨

(٤) سورة الحشر آية ٩

(٥) الحديث فى صحيح البخارى بحاشيه السندى ح ٢ ص ١٠٢ كتاب الشهادات باب لا يشهد على شهادة جور . ط / الحلبى .

(٦) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٠ كتاب الفضائل باب أبى بكر ط / الشعب

قال أبو عبيد : معناه لم يدرك مد أحدهم إذا تصدق به ولا نصف المد ، فالنصف هو النصف هنا .

وفى البزار عن جابر مرفوعا صحيحا : « إن الله اختار أصحابى على العالمين سوى النبين والمرسلين وأختار لى من أصحابى أربعة — يعنى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا — فجعلهم أصحابى »[1] .

وقال « فى أصحابى كلهم خير » .

وروى عويم بن ساعدة قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل اختارنى واختار لى اصحابى فجعل لى منهم وزراء وأختانا وأصهارا فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا »[2] والأحاديث بهذا المعنى كثيرة ، فحذار من الوقوع فى أحد منهم . ولقد لعن رسول الله ﷺ من سب أصحابه ، فالمكذب لأصغرهم — ولا صغير منهم — داخل فى لعنة الله التى شهد بها رسول الله ﷺ وألزمها كل من سب واحداً من أصحابه أو طعن عليه .

قال القرطبى : فالصحابة كلهم عدول أولياء الله تعالى وأصفيائه ، وخيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله . هذا مذهب أهل السنة والذى عليه الجماعة من أئمة هذه الأمة . وقد ذهبت شرذمة لا مبالاه بهم إلى أن حال الصحابة كحال غيرهم ، فيلزم البحث عن عدالتهم ، ومنهم من فرق بين حالهم فى بداءة الأمر فقال : إنهم كانوا على العدالة إذ ذاك ، ثم تغيرت بهم الأحوال ، فظهرت فيهم الحروب وسفك الدماء ، فلابد من البحث . وهذا مردود ، فإن خيار الصحابة وفضلاؤهم كعلى وطلحة والزبير وغيرهم — رضى الله عنهم — ممن أثنى الله عليهم وزكاهم ورضى الله عنهم وأرضاهم ووعدهم الجنة بقوله تعالى ﴿ مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ ، وخاصة العشرة المقطوع لهم بالجنة باقرار الرسول هم القدوة مع علمهم بكثير من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيهم بإخباره لهم بذلك . وذلك غير مسقط من مرتبتهم وفضلهم ، إذ كانت تلك الأمور مبنية على الإجتهاد ، وكل مجتهد مصيب .

فائدة

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتاب الفوائد « قول النبى ﷺ لعمر وما يدريك أن الله أطلع على أهل بدر فقال أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[3] أشكل على كثير من الناس معناه فإن ظاهرة إباحة كل الأعمال لهم وتخييرهم فيما شاءوا منها ، وذلك ممتنع . فقالت طائفة ، منهم ابن الجوزى : ليس المراد من قوله (اعملوا) الإستقبال وإنما هو للماضى وتقديره ، أى : عمل كان لكم فقد غفرته . قال ويدل على ذلك شيئان : (أحدهما) أنه كان يكون إطلاقاً فى الذنوب ولا وجه لذلك .

---

(١) الحديث فى كشف الأستاذ عن زوائد البزار . ح ٣ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ رقم ٢٧٦٣ . باب مناقب أصحاب رسول الله .

(٢) الحديث فى كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم . كتاب معرفة الصحابة باب لعنة الله على من سب أصحاب النبى . ح ٣ ص ٦٣٢ .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٨٥ باب غزوة الفتح . ط / الشعب .

وحقيقة هذا الجواب إنى قد غفرت لكم بهذه الغزوة ما سلف من ذنوبكم ، ولكنه ضعيف من وجهين (أحدهما) أن لفظ « آعملوا » بأباه ، فإنه للإستقبال دون الماضى .

وقوله ﴿ قد غفرت لكم ﴾ لا يوجب أن يكون أعملوا مثله ، فإن قوله « قد غفرت » تحقيق لوقوع المغفرة فى المستقبل . كقوله ﴿ أتى أمر الله ﴾ ﴿ وجاء ربك ﴾ ونظائره . (الثانى) أن نفس الحديث يرده ، فإن سببه قصة حاطب وتجسسه على النبى ﷺ وذلك ذنب واقع بعد غزوة بدر لا قبلها ، وهو سبب الحديث فهو مراد منه قطعاً ، فالذى نظن فى ذلك ـــ والله أعلم ـــ أن هذا خطاب لقوم قد علم الله سبحانه أنهم لا يفارقون دينهم بل يموتون على الإسلام . وأنهم قد يقارفون بعض ما يقارفه غيرهم من الذنوب ، ولكنه لا يتركهم سبحانه وتعالى مصرين عليها بل يوفقهم لتوبة نصوح ، واستغفار وحسنات تمحو أثر ذلك . ويكون تخصيصهم بهذا دون غيرهم لأنه قد تحقق ذلك فيهم وأنهم مغفور لهم . ولا يمنع ذلك كون المغفرة حصلت بأسباب تقوم بهم كما لا يقتضى ذلك أن يعطلوا الفرائض وثوقاً بالمغفرة ، فلو كانت قد حصلت بدون الإستمرار على القيام بالأوامر لما احتاجوا بعد ذلك إلى صلاة ، وصيام ، وحج ، ولا زكاة ، ولا جهاد ، وهذا محال ، ومن أوجب الواجبات التوبة بعد ذلك . فضمان المغفرة لا يوجب تعطيل أسباب المغفرة ونظير هذا قوله فى الحديث الآخر « أذنب عبد ذنباً فقال أى رب أذنبت ذنباً فأغفره لى فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب آخر ، فقال أى رب أصبت ذنباً فاغفره لى فغفره له . ثم مكث ما شاء الله أن يمكث ثم أذنب ذنباً آخر فقال رب أصبت ذنباً فاغفره لى فقال الله : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، فقد غفرت لعبدى فليعمل ما شاء »[1] فليس فى هذا إطلاق وإذن منه سبحانه له فى المحرمات والجرائم وإنما يدل على أنه يغفر له ما دام كذلك إذا أذنب تاب .

واختصاص هذا العبد بهذا لأنه قد علم أنه لا يصر على ذنب وأنه كلما أذنب تاب . حكم يعم كل من كانت حاله حاله ، لكن ذلك العبد مقطوع له بذلك كما قطع به لأهل بدر وكذلك كل من بشره رسول الله ﷺ بالجنة أو أخبره بأنه مغفور له ، لم يفهم منه هو ولا غيره من الصحابة إطلاق الذنوب والمعاصى له ، ومسامحته بترك الواجبات ، بل كان هؤلاء أشد اجتهاداً وحذراً وطوقاً بعد البشارة منهم قبلها ، كالعشرة المشهود لهم بالجنة . وقد كان الصديق شديد الحذر والمخافة . وكذلك عمر فإنهم علموا أن البشارة المطلقة مقيدة بشروطها والاستمرار عليها إلى الموت ومقيدة بانتفاء ، ولم يفهم أحد منهم من ذلك الإطلاق : الاذن فيما شاءوا من الأعمال .

---

(١) صحيح البخارى « كتاب التوحيد » باب قوله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله » ح ٩ ص ١٧٨ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف فى بعض الفاظ وعباراته واتحاد فى المعنى .

وانظر صحيح مسلم « كتاب التوبة » « باب قبول التوبة من الذنوب وان تكررت الذنوب » ح ٤ ص ٢١١٢ حديث رقم ٢٩ ، ٣٠ / ٢٧٥٨ فقد ورد الحديث عن رواية لأبى هريرة مع اختلاف فى الألفاظ والعبارات واتحاد فى المعنى .

كانــوا رجــالاً

حسبك أن تعلم أن هؤلاء الصفوة كانوا رجالاً ، والرجال قليل ، فالرجولة عملة نادرة فى عصر يقول فيه القائل يخاطب شباب النيل :

شباب النيل يا زين الشباب ... ويا أبنـــــــاء آساد غضاب
أرى منكم فريقاً حين يمشي ... يحك بأنفه طرف السحـاب
يحاكي الليث فى حلف وتيه ... وليس لدى الخطوب بليث غاب
وأرسل شعره المضغوط يحكي ... وميض البرق أو لمع السراب
ولا يخشى على شيء ويخشى ... إذا ثار التراب على الثيـاب
برئت من الفتي يبدو فتبرو ... عليه نعومته البيض الكعـاب
إذا الذئب استحال بمصر ظبياً ... فمن يحمى البلاد من الذئاب

فاعجب معي بعصر اختلط فيه الحابل بالنابل ، وصارت التفرقة بين الجنسين عسيره ، إذ صار هناك جنس ثالث لا إلا هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن هنا نعلم أن الرجولة كلمة رفيعة المستوى ، طالما اهتزت لها أعواد المنابر ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، لقد وصف الله تعالى أصحاب رسوله ، صلوات ربى وسلامه عليه ، بأنهم رجال ، وقد كانوا كذلك ، كانوا رجالاً فى المساجد ﴿ لمسجد أسس على التقوى **من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين**﴾[١]

وكانوا رجالاً ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار . ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾[٢]

وكانوا رجالاً فى ميادين القتال وساحات الوغى ، وعندما تصمت **الأسنة** ، وتنطلق الألسنة ، وتخطب السيوف على منابر الرقاب ، وتقدم النفوس على الخيط الصعاب ، فلا ترى إلا نفوساً تنثر ودماء تهدر ﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما . من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا** ﴾[٣] .

كانوا شبابا مكتهلين فى ثيابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة إلى الباطل أرجلهم ، نظر الله إليهم فى جوف الليل فإذا أصلابهم محنية على أجزاء القرآن إذا مر أحدهم بآية تبشر بالجنة بكى شوقاً إليها ،

---

(١) سورة التوبة آية ١٠٨

(٢) سورة النور الآيات ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨

(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٢٢ ، ٢٣

فإذا مر بآية تنذر من عذاب النار شهق شهيقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، جعلوا من البحر الأبيض والأحمر بحيرتين صغيرتين تجريان فى أرض الإسلام ، كيف تراهم ؟ إلا خاشعين قانتين إنهم الذين قال الله فيهم **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين ﴾**[1] .

قد يكون من السهل تشييد المصانع وإقامة ناطحات السحاب وبناء البوارج التى تمخر عباب الماء وتغوص فى لجج البحار ، وقد يكون من السهل بناء الأساطيل التى تركب متن الهواء ، وقد يكون من السهل بناء الجوارى فى البحر كالأعلام والمصفحات التى تقطع كبد الصحراء ، ولكن ليس من السهل بناء النفوس فهو رسالة تقطع دونها الأنفاس ، عندما تولى الرئيس الأمريكى (ريتشارد نيكسون) حاكم الويات المتحدة الأمريكية قال فى خطاب له ، إن الولايات المتحدة لا تعانى أزمة مادية إنما تعانى أزمة روحانية ، لقد وجدنا أنفسنا أغنياء فى السلع ولكننا فقراء فى الروح ، نصل فى قرب عظيم إلى القمر ، ونسقط فى خلاف حاد على الأرض .

نعم :

يا خادم الجسم كم تشقى لخدمته ... أتطلب الربح بما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا الجسم إنسان
وامدد يديك بحبل الله معتصما ... فإن الركن إن خانتك أركان
دع الفؤاد من الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران

يرحم الله أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب ، وقد دار بينه وبين الصحابة هذا الحوار . قال عمر : ما الذى يتمناه كل واحد منكم ويسأل الله أن يحققه له ؟ قال أحدهم : أتمنى مثل أحد ذهباً أنفقه فى سبيل الله ، وقال آخر وأنا أتمنى ملء الأرض خيلاً أغزو به فى سبيل الله ، وقال ثالث : وأنا أتمنى ملء المدينة عبيداً أعتقهم لوجه الله ، ثم قالوا لأمير المؤمنين فما تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ فماذا قال فاروق هذه الأمة ؟ وقد ضرب الله الحق على قلبه ولسانه قال كلمته الفاضلة : أتمنى ملء هذا المسجد ، يعنى به المسجد النبوى رجالاً أمثال أبى بكر الصديق .

لقد كان قائدهم محمداً ، فنعم القائد ، إذ القيادة قدوة ، فأسد يقود ألف نعامة يغلب ألف أسد تقودهم نعامة ، فما بالك إذا كان قائدهم أسداً وهم أسود ، وعمل رجل فى ألف رجل أقوى تأثيراً وأشد تثبيتاً من قول ألف رجل فى رجل (كانوا أشداء على الكفار رحماء بينهم) ما أمارتهم ؟ (سيماهم فى وجوههم

---

(١) سورة التوبة الآيتان ١١١ ، ١١٢

من أثر السجود) أين مثلهم هذا فى التوراه ؟ فما مثلهم فى الإنجيل (كزرع أخرج شطأه) بأبى بكر (فآزره) بعمر (فاستغلظ) بعثمان (فاستوى على سوقه) بعلى أين تخرجوا ؟ لم يتخرجوا فى جامعات الشرق أو الغرب ، إنما تخرجوا فى جامعة فيها الحبيب المصطفى ، لا يلحق كانوا مسجديين فى جامعة كان سقفها الجريد وأرضها الحصباء ، كان إمامها خير خلق الله وكان مؤذنها بلالاً ، هذا المسجد تخرج فيه المصلح العظيم كأبى بكر والزعيم الملهم كعمر **والحيى** الكريم كعثمان والعبقرى الفذ كعلى ، والزاهد الكريم كأبى ذر ، والفقيه العظيم كأبى عباس ، والمفتى الخبير كأبن عمر ، والمحدث الجليل كأبى هريرة ، والقائد الجبار كخالد بن الوليد ، والفيلسوف البارع كأبى ذر ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾ .

الحمد لله

فالحمد لله الذى أبان للعباد منهج التربية القويمة فى قرآنه المجيد ، وضح للعالمين مبادىء الخير والهدى والإصلاح فى أحكام شرعه الحنيف والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى بعثه الله للإنسانية مؤدياً ، وأنزل عليه تشريعاً يحقق للبشرية أسمى آيات عزها ومجدها وأعظم غايات شؤنها ومكانتها ، ورفعتها واستقرارها . وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار ، الذين أعطوا الأجيال المتعاقبة نماذج فريدة فى تربية الأبناء ، وتكوين الأمم وعلى من نهج نهجهم ، **وأقتفى** أثرهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فمن فضل هذا الإسلام على البشرية أن جاءها بمنهاج شامل قويم فى تربية النفوس ، وتنشئة الأجيال ، وتكوين الأمم ، وبناء الحضارات ، وإرساء قواعد المجد والمدنية ... وماذاك إلا لتحويل الإنسانية التائهة من ظلمات الشرك والجهالة والضلال والفوضى إلى نور التوحيد والعلم والهدى والإستقرار وصدق الله العظيم فى محكم تنزيله ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام . ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه . ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ (١)

وإذا كانت الشريعة الإسلامية تتصف بالربانية ، وتتسم بالشمول ، وتختص بالتجدد والإستمرار ، فهل مبادئها الشاملة ومعطياتها المتجددة .. فكرة مجردة فى الأذهان ، ونظريات مدونة فى الكتب ، أم هى متحققة فى أمة تلمسها الأيدى وتراها العيون ؟ فَلْنُحِلِ الجواب إلى شهيد الإسلام سيد قطب ــ رحمه الله ــ ولنسمع منه ما يقوله « وانتصر محمد بن عبد الله يوم صنع أصحابه ــ عليهم رضوان الله ــ صوراً حية من إيمانه ،

تأكل الطعام ، وتمشى فى الأسواق ، يوم صاغ من كل منهم قرآنا حياً يدب على الأرض ، يوم جعل من كل فرد نموذجاً مجسماً للإسلام ، يراه الناس فيرون الإسلام » .

إن النصوص وحدها لا تصنع شيئاً ، وأن المصحف وحده لا يعمل حتى يكون رجلاً ، وأن المبادئ وحدها لا تعيش إلا أن تكون سلوكاً ومن ثم جعل محمد ﷺ هدفه الأول أن يصنع رجالاً لا أن يلقى مواعظ ، وأن يصوغ ضمائر لا أن يدبج خطباً ، وأن يبنى أمة لا أن يقيم فلسفة ، أما الفكرة ذاتها فقد تكفل بها القرآن الكريم وكان عمل محمد ﷺ أن يحول الفكرة المجردة إلى رجال تلمسهم الأيدى ، وتراهم العيون .

ولقد انتصر محمد ﷺ يوم صاغ من فكرة الإسلام شخوصاً ، وحول إيمانهم بالإسلام عملاً ، وطبع من المصحف عشرات من النسخ ثم مئات وألوفا ، ولكنه لم يطبعها بالمداد على صحائف الورق ، إنما طبعها بالتبر على صحائف من القلوب . وأطلقها تعامل الناس وتأخذ منهم وتعطى وتقول بالفعل والعمل ما هو الإسلام الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ من عند الله .

ومن أراد أن يعرف شيئاً عن تربية الرعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ ومن جاء بعدهم بإحسان ، فليستقرىء التاريخ ليسمع الكثير عن جليل مآثرهم وكريم فضائلهم فهل عرفت الدنيا أنبل منهم وأكرم أو أرأف ، أو أرحم ، أو أجل أو أعظم ، أو أرقى أو أعلم ؟!

ويكفيهم شرفاً وفخرا وخلوداً أن يقول القرآن العظيم فى حقهم ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلاً من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾

ويقول ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾(١)

ويقول ﴿ **والذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾(٢)

ويقول ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا** ﴾(٣)

ويقول ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾(٤)

(١) سورة الذاريات الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .
(٢) سورة الحشر آية ٩ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٢٢ .
(٤) سورة التوبة آية : ١٠٠

هذا غيض من فيض مما نزل فى كريم مآثرهم ، وجميل مجاملهم وقد تحقق بهم فعلاً إقامة المجتمع الفاضل الذى كان حلم المفكرين ، وأمنية الفلاسفة منذ القدم .. وكيف لا والقاضى يجلس بينهم سنتين ولا يتخاصم إليه أثنان ؟ ولماذا يتخاصمون وبين أيديهم القرآن ؟ ولماذا يختلفون وهم يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ؟ ولماذا يتباغضون والإسلام يأمرهم بالمحبة والإخاء ، ويحضهم على التعاطف والإيثار ؟

واليكم ما قاله الصحابى الجليل (عبد الله بن مسعود) — رضى الله عنه — فى تعداد مجاملهم وفضائلهم ، ووجوب التأسى بأفعلهم الحميدة وأخلاقهم الكريمة ...:

« من كان متأسياً فليتأس بأصحاب رسول الله ﷺ فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوبا ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، وأقومها هدياً ، وأحسنها حالاً ، واختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم فى آثارهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم »

(من كتاب تربية الأولاد فى الإسلام)

وقد صدق فيهم — رضى الله عنه — ما قاله العلامة ابن القيم فى تلك القصيدة العصماء :

يا باغى الإحسان يطلب ربه ... ليفوز منه بغاية الآمال
أنظر إلى هدى الصحابة والذى ... كانوا عليه فى الزمان الخالى
واسلك طريق القوم أين تيمموا ... خذ يمنة ما الدرب ذات الشمال
تالله ما اختاروا لأنفسهم سوى ... سبل الهدى فى القول والأفعال
درجوا على نهج الرسول وهديه ... وبه اقتدوا فى سائر الأحوال
نعم الرفيق لطالب يبغى الهدى ... فمآله فى الحشر خير مآل
القانتين المخبتين لربهم ... الناطقين بأصدق الأقوال
التاركين لكل فعل سيىء ... والعاملين بأحسن الأعمال
أهواؤهم تبع لدين نبيهم ... وسواهم بالضد فى ذى الحال
ما شابهم فى دينهم نقص ولا ... فى قولهم شطيح الجهول الغالى
وسواهم بالضد فى الأمرين قد ... تركوا الهدى ودعوا إلى الاضلال
فهم الادلة للحيارى ، من يسر ... بهداهم لم يخشى من إضلال
وهم النجوم هداية وإضاءة ... وعلو منزلة ، وبعد منال
يمشون بين الناس هوناً ، نطقهم ... بالحق ، لا بجهالة والجهال
حلماً ، وعلماً ، مع تقى وتواضع ... ونصيحة ، مع مرتبة الإفضال
يحيون ليلهم بطاعة ربهم ... بتلاوة ، وتضرع ، وسؤال
وعيونهم تجرى بفيض دموعهم ... مثل انهمال الوابل الهطال

وإذا بدا علم الرّهان رأيتهم يتسابقون بصالح الأعمال
بوجوههم أثر السجود صفاتهم فى سورة الفتح المبين العالى
وبرابع السبع الطوال صفاتهم قوم يحبهم ذووا إدلال
وبراءة ، والحشر فيها وصفهم وبهل أتى ، وبسورة الأنفال

صور من السيرة العاطرة التى اشتملت عليها سورة الفتح

اشتملت هذه السورة الكريمة على تلك الصور الرائعة من حياة الرسول ﷺ وجهاده وسوف نتحدث عنها على الوجه التالى :

أولاً : قصة صلح الحديبية .
ثانياً : غزوة خيبر
ثالثاً : عمرة القضاء
رابعاً : فتح مكة
خامساً : غزوة حنين
سادساً : غزوة الطائف

أولاً : قصة صلح الحديبية

قال الإمام ابن القيم فى الزاد

قال نافع : كانت سنة ست فى ذى القعدة ، وهذا هو الصحيح ، وهو قول الزهرى ، وقتاده ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحاق وغيرهم . وكان معه ألف وأربعمائة ، وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار وسلمو بن الأكوع فى أصح الروايتين ، قال شعبة : عن قتاده ، عن سعيد بن المسيب عن أبيه : كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة .

فلما كانوا بذى الحليفة ، قلّد رسول الله ﷺ الهدى وأشعره وأحرم بالعمرة ، وبعث بين يديه عيناً له من خزاعة يخبره عن قريش ، حتى إذا كان قريباً من عسفان ، أتاه عينه فقال : إنى تركت كعب بن لُؤى قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت وما نعوك ، واستشار النبى ﷺ وقال : أترون أن نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم ، فإن قعدوا ، قعدوا موتورين محروبين ، وإن يجيئوا تكن عنقاً قطعها الله ، أم ترون أن نؤم البيت فمن صدّنا عنه قاتلناه ؟ فقال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنماجئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت ، **قاتلناه** ، فقال النبى ﷺ : « فروحوا إذاً » فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبى ﷺ : « **إن** خالد بن

الوليد بالغميم فى خيل لقريش طليعة ، فخذوا ذات اليمين » فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقتره الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش ، وسار النبى ﷺ حتى إذا كان بالثَّنِيَّة التى يهبط عليهم منها بركت به راحلته ، فقال الناس : حَلْ حَلْ ـــ كلمة تقال للناقة إذا تركت السير ـــ فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، خلأت القصواء ، فقال النبى ﷺ « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال : والذى نفسى بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله ، إلا أعطيتهم إياها »[1] ثم زجرها فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء ، إنما يتبرحنه الناس تبرحاً ـــ أى يأخذونه قليلاً قليلاً ـــ فلم يُلبثه الناس أن ترحوه ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش ، فأنتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، قال فوالله مازال يجيش لهم بالرِّيِّ ، حتى صدروا عنه)[2] .

وفزعت قريش لنزوله عليهم ، فأحب رسول الله ﷺ أي يبعث إليهم رجلاً من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم فقال : يا رسول الله : ليس لى بمكة أحد من بنى كعب يغضب لى إن أوذيت ، فأرسلْ عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش ، وقال : أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً ، وأدعهم إلى الإسلام ، وأمره أن يأتى رجالاً بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان ، فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح ، فقالوا : إين تريد ؟ فقال بعثنى رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وأخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عمَّارا ، فقالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك ، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاصى ، فرحّب به ، وأسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس وأجاره ، وأردفه أبان حتى جاء بمكة ، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان ؟ خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به ؟ فقال رسول الله ﷺ « ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون » ، فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص ؟ قال : « ذاك ظنى به . ألا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه » .

واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح ، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر ، وكانت معركة ، وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان كلاهما ، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم ، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل ، فدعا إلى البيعة ، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على ألا يفروا ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه ، وقال « هذه عن عثمان » ولما تمت البيعة ، رجع عثمان ، فقال له المسلمون : أشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ، فقال بئس ما ظنتم بى ، والذى نفسى بيده ، لو مكثت بها سنة ، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية ،

---

(١) أنظر صحيح البخارى بحاشيه السندى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة .

(٢) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١٢٠ كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة ط / الحلبى .

ـــ أنظر القصة من قوله « فلما كانوا بذى الخليفة ... إلى حتى صدورا عنه فى مسند الإمام أحمد ح ٤ ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ . عن المسور بن مخرمه ومروان بن الحكم .

ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت ، فأبيت ، فقال المسلمون : رسول الله ﷺ : رسول الله كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً[1] وكان عمر آخذاً بيد رسول الله ﷺ للبيعه تحت الشجرة ، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجدَّ بن قيس .

وكان معقل بن يسار آخذاً بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ وكان أول من بايعه أبو سنان الأسدى .

وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات ، فى أول الناس ، وأوسطهم وآخرهم .

« فبينما هم كذلك ، إذا جاء بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى فى نفر من خزاعة وكانوا عيبة نصح رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى نزلوا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، قال رسول الله ﷺ «إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكنا جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرَّت بهم ، فإن شاؤوا ماددتهم مدة ، ويخلوا بينى وبين الناس ، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فعلوا ، وإلا فقد جمُّوا ، وإن هم أبو إلا القتال ، فوالذى نفسى بيده لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى ، أو لَيُنفِذنَّ الله أمره » قال بُديل : سأبلغهم ما تقول ، فأنطلق حتى أتى قريشا ، فقال : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وقد سمعته يقول قولاً ، فإن شئتم عرضته عليكم . فقال سفهاؤهم : هات ما سمعته ، قال : سمعته يقول كذا وكذا فحدثهم بماقال النبى ﷺ فقال : عروة بن مسعود الثقفى : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعونى آته ، فقالوا : ائته ، فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال له النبى ﷺ نحواً من قوله لبديل ، فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ، أرأيت لو أستأصلت قومك . هل سمعت بأحد من العرب احتاج أهله قبلك ؟ وإن تكن الأخرى ، فوالله إنى لأرى وجوهاً ، وأرى أوباشا من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك ، فقال له أبو بكر : امصُص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه . قال : من ذا ؟ قالوا : أبو بكر قال أما والذى نفسى بيده ، لولا يد كانت لك عندى لم أجزك بها ، لأجبتك ، وجعل يكلم النبى ﷺ وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة بن شعبه عند رأس النبى ﷺ ومعه السيف ، وعليه المغفر ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنصل السيف ، وقال : أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ فرفع عروة رأسه وقال من ذا ؟ قالوا : المغيرة بن شعبه . فقال : أى غدر أو لست أسعى فى غدرتك ؟ وكان المغيرة صحب قوماً فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم . فقال النبى ﷺ « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال فلست منه فى شيء »[2]

---

(١) أنظر كنز العمال « مراسل عروه » ح ١٠ ص ٤٨١ حديث رقم ٥٢ / ٣٠ فقد ورد الحديث من قوله : ففزعت قريش ... إلى وأحسننا ظنا » .

— وأنظر مسند بن أبى شيبه ح ١٤ ص ٤٢٩ . غزوة الحديبية .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى بحاشيه السندى ح ٢ ص ١٢٠ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ بعينيه فوالله ما تنخم النبى ﷺ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ووجهه ، وإذا أمرهم ، ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم أخفقوا أصواتهم عنده ، وما يُجِدُون إليه النظر تعظيماًله ، فرجع عروة إلى أصحابه ، فقال : أى قوم ، والله لقد وفدت على الملوك : على كسرى ، وقيصر ، والنجاشى ، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما عظم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم نُخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم أخفضوا أصواتهم عنده ، وما يُجدون إليه النظر تعظيما له ، وقد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته ، فقالوا : ائته ، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه . قال رسول الله ﷺ هذا فلان وهو من قوم يعظمون البدن ــ فابعثوها له ، فبعثوها له ، واستقبله القوم يلبون ، فلما رأى ذلك قال :« سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت » فرجع إلى أصحابه فقال : رأيت البدن قد قُلّدت وأشعرت ، وما أرى أن يصدوا عن البيت ، فقام مكرز بن حنص فقال : دعونى آته ، فقالوا آته ، فلما أشرف عليهم ، قال النبى ﷺ « هذا مكرز بن حفص ، وهو رجل فاجر » فجعل يكلم رسول الله ﷺ فبينما هو يكلمه ، إذا جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبى ﷺ : « قد سُهِّل لكم من أمركم » فقال : هات ، اكتب بيننا وبينكم كتاباً ، فدعا الكاتب ، فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل . أما الرحمن ، فوالله ما ندرى ما هو ، ولكن اكتب باسم اللهم ، كما كنت تكتبه ، فقال المسلمون والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال النبى ﷺ « اكتب باسمك اللهم » ثم قال : « اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : فوالله لو كنا نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله فقال النبى ﷺ إنى لرسول الله وإن كذ بتمونى ، أكتب : محمد بن عبد الله فقال النبى ﷺ على أن تخلوا بيننا وبين البيت ، فنطوف به فقال سهيل ، والله لا تتحدث العرب أنا اخذنا ضغطه ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب ، فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فقال المسلمون سبحان الله ، كيف يرد الى المشركين ، وقد جاء مسلماً ، فبينما هم كذلك ، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرصف فى قيوده قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين ، فقال سهيل : هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلّى ، فقال النبى ﷺ « إنا لم نقض الكتاب بعد ، فقال : فوالله إذاً لا أصالحك على شيء أبداً ، فقال النبى ﷺ « فاجزه لى » قال : ما أنا بمجيزه لك . قال : « بلى فافعل » قال : « ما أنا بفاعل . قال مكرز : بلى قد أجزناه . فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين أردُ إلى المشركين وقد جئت مسلما ، ألا ترون ما لقيت ، وكان قد عذب فى الله عذاباً شديداً ، قال عمر بن الخطاب : (والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ) فأتيت النبى ﷺ فقلت يا رسول الله : ألست نبى ا لله حقاً ؟ قال : بلى ، قلت : ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى . فقلت : علام نعطى الدَّنيَّة فى ديننا

إذاً ، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟ فقال : إنى رسول الله ، وهو ناصرى ، ولست أعصيه » قلت : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا قال : فإنك آتيه **وتطوف** به . قال : فأتيت أبا بكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ وردْ على أبو بكر كما ردْ على رسول الله ﷺ سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق . قال عمر : **فعملت** لذلك أعمالاً وفى رواية ابن اسحاق وكان عمر يقول : مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة الذى تكلمت به .

فلما فرغ من قضية الكتاب ، قال رسول الله ﷺ « قوموا فانحروا ، ثم احلقوا » فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة ، فذكر لها ما لقى من الناس . فقالت أم سلمة يا رسول الله . أتحب ذلك أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بذلك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام ، فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك ، قاموا فنحروا ، جعل بعضهم يحلق بعضاً ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً ، ثم جاءه نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين أمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن** ﴾ حتى بلغ (بعصيم الكوافر) (الممتحنة ١٠) فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا فى الشرك فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع إلى المدينة وفى مرجعه أنزل الله تعالى ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً** ﴾ .

فقال عمر : أو فتح هو يا رسول الله ؟ قال نعم ، فقال الصحابة : هنيئا لك يا رسول الله ، فمالنا ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين** ﴾

ولما رجع إلى المدينة ، جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلماً ، فأرسلوا فى طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذى جعلت لنا ، فدفعه إلى الرجلين ، فخرجا به حتى بلغا فى الخليفه ، فنزلوا يأكلون من تمر لهم ، فقال أبو بصير لأحد الرجلين : **والله** إنى لأرى سيفك هذا جيداً ، فاستله الآخر ، فقال : أجل والله إنه لجيد ، لقد جربت به ثم جربت ، فقال أبو بصير : أرنى أنظر إليه ، فأمكنه منه ، فضربه به حتى برد ، وفر الآخر يعدو حتى بلغ المدينة ، فدخل المسجد فقال رسول الله ﷺ حين رآه : « لقد رأى هذا ذعراً » فلما أنتهى إلى النبى ﷺ قال : قتل والله صاحبى وإنى لمقتول ، فجاء أبو يصير ، فقال : يا بنى الله ، قد والله أوفى الله ذمتك ، قد ردتنى إليهم ، فأنجانى الله منهم ، فقال النبى ﷺ « ويل**أمه مسعر**حرب ، لو كان له أحد » ، فلما سمع ذلك ، عرف أنه سيرده إليهم ، فخرج حتى أتى سيف البحر ، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبى بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة فوالله لا يسمعون بعير لقريش خرجت إلى الشام إلا اعترضوا لها ، فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم ، فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل إليهم ، فمن أتاه منهم ، فهو آمن فأنزل الله عز وجل ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾ حتى بلغ (حمّية الجاهلية) .

وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنه نبى الله ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم وحالوا بينهم وبين البيت[١] .

وفى صحيح البخارى عن جابر ، قال عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله ﷺ بين يديه ركوه يتوضأ منها ، إذ جهش الناس نحوه ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : يا رسول الله : ما عندنا ماء نشرب ، ولا نتوضأ إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه أمثال العيون ، فشربوا ، وتوضؤوا ، وكانوا خمس عشرة مائة[١] .

وفى هذه الغزوة أصابهم ليلة مطر ، فلما صلى النبى ﷺ الصبح قال : « أتدرون ماذا قال ربكم اللية ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادى مؤمن بى ، وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذلك مؤمن بى ، كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا نبوء كذا وكذا ، فذلك كافر بى ، مؤمن بالكواكب » (رواه البخارى)

وجرى الصلح بين المسلمين وأهل مكة على وضع الحرب عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم عامه ذلك حتى إذا كان العام المقبل ، قدمها ، وخلوا بينه وبين مكة ، فأقام بها ثلاثاً ، وإن لا يدخلها إلا بسلاح الراكب ، والسيوف فى القرب ، وأن ما أتانا من أصحابك لم نرده عليك ، ومن أتاك من أصحابنا رددته علينا ، وأن بيننا وبينك عيبة مكفوفة (أى صدوراً سليمة فى المحافظة على العهد) وإنه لا إسلال ولا إغلال ، فقالوا : يا رسول الله أنعطيهم هذا ؟ فقال « من أتاهم منا فأبعده الله ، ومن أتانا منهم فرددناه إليهم ، جعل الله له فرجاً ومخرجاً »[٣] (أخرجه أحمد ورجاله ثقات) .

ما تضمنته هذه القصة من الفوائد الفقهية

وفى قصة الحديبية ، أنزل الله — عز وجل فديه الأذى لمن حلق رأسه بالصيام ، أو الصدقة ، أو النسك فى شأن كعب بن عُجرة . وفيها : دعا رسول الله ﷺ للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً ، وللمقصرين مرة . وفيها : نحروا البدنة عن سبعة ، والبقرة عن سبعة وفيها : أهدى رسول الله ﷺ فى جملة هدية جملاً كانم لأبى جهل كان فى أنفه بُدة من فضة ليغيظ به المشركين .

وفيها : أنزلت سورة الفتح ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ﷺ وعهده ، ودخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، وكان فى الشرط أن من شاء أن يدخل فى عقد قريش دخل .

---

(١) أنظر صحيح البخارى ح ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ . كتاب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب . ط / الحلبى .
— وكذلك أنظر القصة بأكملها من قوله فبينما هم كذلك . إذ جاء بديل ... إلى قوله . « وحالوا بينهم وبين البيت » فى مسند أحمد ح ٤ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٥٦ ، ١٥٧ كتاب المغازى باب غزوة الحديبية ط / الشعب .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ١٥٥ كتاب المغازى باب غزوة الحديبية . ط / الشعب .
أنظر صحيح مسلم ح ٣ ص ١٤١١ كتاب الجهاد والسير . باب صلح الحديبية رقم ٩٣ / ١٧٨٤ .
— وأنظر مسند أحمد ح ٤ ص ٣٢٥ .

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمنات ، منهن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، فجاء أهلها يسألونها رسول الله ﷺ بالشرط الذى كان بينهم ، فلم يرجعها إليهم ، ونهاه الله عز وجل عن ذلك ، فقيل هذا نسخ للشرط فى النساء ، وقيل : تخصيص للسنة بالقرآن ، وهو عزيز جداً . وقيل لم يقع الشرط الإعلى الرجال خاصة ، وأراد المشركون أن يعموه فى الصنفين ، فأبى الله ذلك .

ومنها : إعتمار النبى ﷺ فى أشهر الحج ، فإنه خرج إليها فى ذى القعدة .

ومنها : إن الإحرام بالعمرة من **الميقات** أفضل ، كما أن الإحرام بالحج كذلك ، فإنه أحرم بهما من ذى الحليفة ، وبينها وبين المدينة ميل أو نحوه .

ومنها : أن سوق الهدى مسنون فى العمرة المفردة ، كما هو مسنون فى القرآن .

ومنها : أن إشعار الهدى سنة لا مُثلة منهى عنها .

ومنها : استحباب مغايظة أعداء الله ، فإن النبى ﷺ أهدى فى جملة هدية جملاً لأبى جهل فى أنفه برة من فضة يغيظ به المشركين ، وقد قال تعالى فى صفة النبى ﷺ وأصحابه ﴿ **ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار** ﴾ وقال عز وجل ﴿ **ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[1]

ومنها : أن أمير الجيش ينبغى له أن يبعث العيون أمامه نحو العدو ومنها : أن الإستعانة بالمشرك المأمون فى الجهاد جائزة عند الحاجة ، لأن عينه الخزاعة كان كافراً إذ ذاك ، وفيه من المصلحة أنه أقرب إلى اختلاطه بالعدو وأخذه أخبارهم .

ومنها : **استحباب** مشورة الإمام رعيته وجيشه ، إستخراجاً لوحة الرأى ، وإستطابة لنفوسهم ، وأمنا لعتبهم ، وتعرفاً لمصلحة يختص بعلمها بعضهم دون بعض ، وأمتثالا لأمر الرب فى قوله تعالى ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) وقد مدح سبحانه وتعالى بقوله ﴿ **وأمرهم شورى بينهم** ﴾[2] .

ومنها : جواز سبى ذرارى المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال .

ومنها : رد الكلام الباطل ولو نسب إلى غير مكلف ، فإنهم لما قالوا : خلأت القصواء ، يعنى حرنت وألحت ، فلم تسر ، والخلاء فى الإبل (بكسر الخاء والمد) ، نظير الحران فى الخيل ، فلما نسبوا إلى الناقة ما ليس من خلقها وطبعها ، رده عليهم ، وقال : « ما خلأت **وماكان** لها بخلق » ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها وأن الذى حبس الفيل عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التى ظهرت بسبب حبسها ، وما جرى بعده .

---

(١) سورة التوبة آية ١٢٠ .

(٢) سورة الشورى آية ٣٨

ومنها : جواز الحلف ، بل استحبابة على الخير الديني الذى يريد تأكيده ، وقد حفظ عن النبى ﷺ الحلف فى أكثر من ثمانين موضعا وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبره به فى ثلاثة مواضع : فى (سورة يونس) ، (وسبأ) (والتغابن) .

ومنها : أن المشركين ، وأهل البدع والفجور ، والبغاه والظلمة ، إذا طلبوا أمراً يعظمون فيه حرمة من حرمات الله تعالى ، أجيبوا إليه وأعطوه ، **واعينوا** عليه ، وإن منعوا غيره ، فيعاونوا على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى ، لا على كفرهم وبغيهم ويمنعون مما سوى ذلك ، فكل من التمس المعاونة على محبوب لله تعالى مرض له ، وأجيب إلى ذلك كائناً من كان ، ما لم يترتب على إعانته ، على ذلك المحبوب ، مبغوض لله أعظم منه ، وهذا من أدق المواضع وأصعبها ، وأشقها على النفوس ، ولذلك ضاق عنه من الصحابة من ضاق ، وقال عمر ما قال حتى عمل له أعمالاً بعده ، والصديق تلقاه بالرضى والتسليم ، حتى كان قلبه فيه على قلبي رسول الله ﷺ وأجاب عمر عما سأل عن من ذلك بعين جواب رسول الله ﷺ وذلك يدل على أن الصديق ـــ رضى الله عنه ـــ أفضل الصحابة وأكملهم ، وأعرفهم بالله تعالى ورسوله ﷺ وأعلمهم بدينه ، **وأقومهم** بمحابة ، وأشدهم موافقة خاصة دون سائر أصحابه .

ومنها : أن النبى ﷺ عدل ذات اليمين إلى الحديبية ، قال الشافعى : بعضها من الحل ، وبعضها من الحرم وروى الإمام أحمد فى هذه القصة أن النبى ﷺ كان يصلى فى الحرم وهو مضطرب فى الحل ، وفى هذا كالدلالة على أن مضاعفة الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخص بها المسجد الذى هو مكان الطواف وأن قوله « صلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى »[1] كقوله تعالى ﴿ **فلا يقربوا المسجد الحرام** ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾[3] وكان الإسراء من بيت أم هانىء .

ومنها : أن من نزل قريباً من مكة ، فإنه ينبغى له أن ينزل فى الحِلّ ، ويصلى فى الحرم ، وكذلك كان ابن عمر يصنع .

---

(١) الحديث فى صحيح ابن حبان ح ٣ ص ٧١ ، ٧٢ رقم ١٦١٨ . بلفظ صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه ، وصلاة فى ذاك أفضل ممن مائة صلاة فى هذا ـــ يعنى فى مسجد المدينة .

(٢) سورة التوبة آية ٢٨

(٣) سورة الإسراء آية ١

ومنها : جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه ، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداء الطلب منهم وفى قيام المغيرة بن **شعبه** على رأس رسول الله ﷺ بالسيف ، ولم يكن عادته أن يقام على رأسه ، وهو قاعد ، سنة يقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام ، وطاعته ، ووقايته بالنفوس ، وهذه هى العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين ، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين ، وليس هذا من هذا النوع الذى ذمَّه النبى ﷺ بقوله « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار »(١) (أخرجه أبو داود واسناده صحيح) .

كما أن الفخر والخيلاء فى الحرب ليسا من هذا النوع المذموم فى غيره ، وفى بعث البدن فى وجه الرسول الآخر دليل على استحباب إظهار شعائر الإسلام لرسل الكفار .

وفى قول النبى ﷺ للمغيرة : « أمَّا الإسلام فأقبل **وأما** المال فلست منه فى شيء »(٢) دليل على أن مال المشرك المعاهد معصوم ، وأنه لا يملك ، بل يرد عليه ، فإن المغيرة كان قد صحبهم على الأمان ، ثم غدر بهم ، وأخذ أموالهم ، فلم يتعرض النبى ﷺ لأموالهم ، ولا ذبّ عنها ، ولا ضمنها لهم ، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة .

وفى قول الصديق لعروة : امصص بظر اللات ، دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا اكان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال ، كما أذن النبى ـ ﷺ ـ أن يُصرِّحَ لمن ادعى دعوى الجاهلية بهَنِ أبيه ، ويقال له : اعضضن أير أبيك ، ولا يكنى له ، فلكل مقام مقال .

ومنها : إحتمال قلة أدب رسول الكفار ، وجهلة وجفوته ، ولا يقابل على ذلك لما فيه من المصلحة **العامة**، ولم يقابل النبى ﷺ عروة على أخذ بلحيته وقت خطابه ، وإن كانت تلك عادة العرب ، لكن الوقار والتعظيم خلاف ذلك .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود ح ٥ ص ٣٩٨ كتاب الأدب رقم ٥٢٢٩ .

ـ أنظر سنن الترمذى ح ٤ ص ١٨٤ بلفظ من سره ... الخ أبواب الإستئذان والأداب . باب ما جاء فى كراهية قيام الرجل للرجل رقم ٢٩٠٣ .

(٢) الحديث فى صحيح البخارى ح ٥ ص ٢٥٤ كتاب الشروط فى الإسلام . ط / الشعب .

وكذلك لم يقاتل رسول الله ﷺ رسولى مسليمة الكذاب حين قالا : نشهد انك رسول الله وقال : « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكما »[1] .

ومنها : طهارة النخامة ، سواء كانت من رأس أو صدر .

ومنها : طهارة الماء المستعمل .

ومنها : استحباب التفاؤل ، وأنه ليس من الطيرة المكروهة لقوله لما جاء سهيل : « سَهُلَ أمركم » .

ومنها : أن المشهور عليه إذا عرف باسمه واسم أبيه ، أغنى ذلك عن ذكر الجد ؛ لأن النبى ــ ﷺ ــ لم يزد على محمد بن عبد الله ، وقنع من سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة واشتراط ذكر الجد لا أصل له ، ولما اشترى العدَّاء بن خالد منه ــ ﷺ ــ الغلام فكتب له : « هذا ما اشترى العداء بن خالد بن هوذة » فذكر جده ، فهو زيادة بيان تدل على أنه جائز لا بأس به ، ولا تدل على اشتراطه ، ولما لم يكن فى الشهرة بحيث يكتفى باسمه واسم الأب ، وعند عدم الاشتراك اكتفى بذكر الاسم واسم الأب والله أعلم .

ومنها : أن مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزة للمصلحة الراجحة ، ودفع ما هو شر منه ، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما .

ومنها : أن من حلف على فعل شيء ، أو نذره ، أو وعد غيره به و لم يعين وقتاً ، لا بلفظه ، ولا بنيته ، لم يكن على الفور ، بل على التراخى .

ومنها : أن الحلاقة نسك ، وأنه أفضل من التقصير ، وأنه نسك فى العمرة ، كما هو نسك فى الحج ، وأنه نسك فى عمرة المحصور ، كما هو نسك فى عمرة غيره .

ومنها : أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من الحل أو الحرم ، وأنه لا يجب عليه أن يواعد من ينحره فى الحرام إذا لم يصل إليه ، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله ، بدليل قوله تعالى . ﴿ **والهدى معكوفا أن يبلغ محله** ﴾ .

ومنها : أن المحصر لا يجب عليه القضاء ، لأنه ــ ﷺ ــ أمرهم بالحلق والنحر ، ولم يأمر أحداً منهم بالقضاء ، والعمرة من العام القابل لم تكن واجبة ، ولا قضاء عن عمرة الإحصار فإنهم كانوا فى عمرة الإحصار ألفاً وأربعمائة ، وكانوا فى عمرة القضية دون ذلك ، وإنما سميت عمرة القضية والقضاء ، لأنها العمرة التى قاضاهم عليها ، فأضيفت العمرة إلى مصدر فعله .

ومنها : أن الأمر المطلق على الفور وإلا لم يغضب لتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر ، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بإنهم كانوا يرجون النسخ ، فأخرروا متأولين لذلك ، وهذا الاعتذار أولى أن يُعتذر عنه ، وهو باطل ، فإنه ــ ﷺ ــ لو فهم منهم ذلك ، لم يشتد غضبه لتأخير أمره ، ويقول « مالى لا أغضب ،

---

١ ــ الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ صـ ٦٧٢ من رواية أحمد والطبرانى فى الكبير عن نعيم ابن مسعود الأشجعى وفى مسند أحمد جـ ٣ صـ ٤٨٨

وأنا آمر بالأمر فلا أُتبع » وإنما كان تأخيرهم من السعى المغفور لا المشكور ، وقد رضى الله عنهم ، وغفر لهم وأوجب لهم الجنة .

ومنها : أن الأصل مشاركة أمته له فى الأحكام إلا ما خصّه الدليل ولذلك قالت أم سلمة : « أخرج ولا تكلم أحداً حتى تحلق رأسك وتنحر هديك » وعلمت أن الناس سيتابعونه .

فإن قيل : فكيف فعلوا ذلك اقتداء بفعله ، ولم يمتثلوه حين أمرهم به ؟ قيل : هذا هو السبب الذى لأجله ظن من ظن أنهم أخروا الامتثال طمعا فى النسخ ، فلما فعل النبى — ﷺ — ذلك علموا حينئذ أنه حكم مستقر غير منسوخ ، وقد تقدم فساد هذا الظن ، ولكن لما تغيظ عليهم ، وخرج ولم يكلمهم وأزاهم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به ، وأنه لم يؤخر كتأخيرهم ، وأن اتباعهم له وطاعتهم توجب اقتداءهم به بادروا حينئذ إلى الاقتداء به وامتثال أمره .

ومنها : جواز صلح الكفار على رد من جاء منهم إلى المسلحين وألا يرد من ذهب من المسلحين إليهم ، هذا فى غير النساء وأما النساء ، فلا يجوز اشتراط ردهن ، إلى الكفار ، وهذا موضوع النسخ خاصة فى هذا العقد بنص القرآن ، ولا سبيل إلى دعوى النسخ فى غيره بغير موجب .

ومنها : أن خروج البُضع من ملك الزوج متقوم ، ولذلك أوجب الله سبحانه رد المهر على من هاجرت امرأته ، وحيل بينه وبينها ، وعلى من ارتدت امرأته من المسلمين إذا استحق الكفار عليهم ردَّ مهور من هاجر إليهم من أزواجهم ، وأخبر أن ذلك حُكمه الذى حكم به بينهم ، ثم لم ينسخه شىء ، وفى إيجابه رد ما أعطى الأزواج من ذلك دليل على ما تقوُّمه بالمسمى ، لا بمهر المثل .

ومنها : أن رد من جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول من خرج منهم مسلماً إلى غير بلد الإمام ، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام لا يجب عليه رده بدون الطلب فإن النبى — ﷺ — لم يرد أبابصير حين جاءه ، ولا أكرهه على الرجوع ، ولكن لما جاؤوا فى طلبه ، مكنهم من أخذه ، ولم يكرهه على الرجوع .

ومنها : أن المعاهدين إذا تسلموه وتمكنوا منه فقتل أحداً منهم لم يضمنه بدية ولا قود ، ولم يضمنه الإمام ، بل يكون حكمه فى ذلك حكم قتله لهم فى ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم فإن أبا بصير قتل أحد الرجلين المعاهدين بذى الحليفة ، وهى من حكم المدينة ، ولكن كان قد تسلموه وفصل عن يد الإمام وحكمه .

ومنها : أن المعاهدين إذا عاهدوا الإمام ، فخرجت منهم طائفة فحاربتهم ، وغنمت أموالهم ، ولم يتحيزوا إلى الإمام ، لم يجب على الإمام دفعهم عنهم ، ومنعهم منهم ، وسواء دخلوا فى عقد الإمام وعهده ودينه ، أو لم يدخلوا ، والعهد الذى كان بين النبى — ﷺ — وبين المشركين لم يكن عهداً بين أبى بصير وأصحابه وبينهم ، وعلى هذا فإذا كان بين بعض ملوك المسلمين وبعض أهل الذمة من النصارى وغيرهم عهد جاز الملك آخر من ملوك المسلمين أن يغزوهم ، ويغنم أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد ، كما أفتى به شيخ الإسلام فى نصارى ملطية وسبيهم ، مستدلا بقصة أبى بصير مع المشركين .

فصل

فى الإشارة إلى بعض الحكم التى تضمنتها هذه الهدنة

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ : وهى أكبر وأجل من أن يحيط بها إلا الله الذى أحكم أسبابها فوقعت الغاية على الوجه الذى اقتضته حكمته وحمده .

فمنها : أنها كانت مقدمة بين يدى الفتح الأعظم الذى أعز الله به رسوله وجنده ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجاً ، فكانت هذه الهدنة باباً له ، ومفتاحاً ، ومؤذناً بين يديه ، وهذه عادة الله سبحانه فى الأمور العظام ، التى يقضيها قدراً وشرعاً ، أن يوطىء لها بين يديها مقدمات وتوطئات ، تؤذن بها ، وتدل عليها .

ومنها : أن هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح ، فإن الناس أمن بعضهم بعضا ، وأختلط المسلمون بالكفار ، وبادؤوهم بالدعوة ، من كان مختفياً بالإسلام ، ودخل فيه فى مدة الهدنة من شاء الله أن يدخل ، ولهذا سماه الله فتحاً مبيناً . قال ابن قتيبة : قضينا لك قضاء عظيما ، وقال مجاهد : هو ما قضى الله له بالحديبية وحقيقة الأمر : أن الفتح ـ فى اللغة ـ فتح المغلق ، والصلح الذى حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودا مغلقا حتى فتحه الله ، وكان من أسباب فتحه صد رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه عن البيت ، وكان فى الصورة الظاهرة خيماً وهضماً للمسلمين ، وفى الباطن عزاً وفتحا ونصرا ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ ينظر إلى ما وراءه من الفتح العظيم ، والعز ، والنصر من وراء ستر رقيق ، وكان يعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط ، التى لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم وهو ـ ﷺ ـ يعلم ما فى ضمن هذا المكروه من محبوب ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم** ﴾[1] فكان يدخل على تلك الشروط دخول واثق بنصر الله له وتأييده ، وأن العاقبة له ، وأن تلك الشروط واحتمالها هو عين النصر ، وهو من أكبر الجند الذى أقامة المشترطون ، ونصبوه لحربهم ، وهم لا يشعرون فذلوا من حيث طلبوا العز ، وقهروا من حيث أظهروا القدرة والفخر والغلبة ، وعز رسول الله ـ ﷺ ـ وعساكر الإسلام من حيث انكسروا لله ، واحتملوا الضيم له وفيه ، فدار الدّاور ، وانعكس الأمر ، وانقلب العز بالباطل ذلاً بحق وانقلبت الكسرة لله عزاً بالله ، وظهرت حكمة الله وآياته ، وتصديق وعده ، ونصرة رسوله على أتم الوجوه وأكملها التى لا اقتراح للعقول وراءها .

ومنها : ما سببه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعان ، والانقياد على ما أحبوا وكرهوا ، وما حصل لهم فى ذلك من الرضى بقضاء الله ، وتصديق عليهم بالسكينة التى أنزلها فى قلوبهم ، أحوج

---

١ ـ الآية : ٢١٦ من سورة البقرة

ما كانوا إليها فى تلك الحال التى تزعزع لها الجبال ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبهم ، وقويت به نفوسهم وازدادوا به إيماناً .

ومنها : أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذى حكم به لرسوله وللمؤمنين سبباً لما ذكره من المغفرة لرسوله ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولإتمام نعمته عليه ، ولهدايته الصراط المستقيم ، ونصره النصر العزيز ، ورضاه به ، ودخوله تحته ، وانشراح صدره به مع ما فيه من الغيم ، وإعطاء ما سألوه ، كان من الأسباب التى نال بها الرسول وأصحابه ذلك ، ولهذا ذكره الله سبحانه جزاء وغاية ، وإنما يكون ذلك على فعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى ، وفتحه . وتأمل كيف وصف ــ سبحانه ــ النصر بأنه عزيز فى هذا الموطن ، ثم ذكر إنزال السكينة فى قلوب المؤمنين فى هذا الموطن ، الذى اضطربت فيه القلوب ، فازدادوا بها إيماناً إلى إيمانهم ، ثم ذكر سبحانه بيعتهم لرسوله ، وأكدها بكونها بيعة له سبحانه ، وأن يده تعالى كانت فوق أيديهم إذ كانت يد رسول الله ــ ﷺ ــ كذلك وهو رسوله ونبيه ، فالعقد معه عقد مع مرسله ، وبيعته بيعته فمن بايعه ، فكأنما بايع الله ، ويد الله فوق يده ثم أخبر سبحانه أن ناكث هذه البيعة إنما يعود نكثه على نفسه ، وأن للموفى بها أجراً عظيما فكل مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بيعة على الإسلام وحقوقه ، فناكث وموفٍ .

ثم ذكر حال من تخلف عنه من الأعراب ، وظنهم أسوأ الظن بالله : أنه يخذل رسوله وأولياءه ، وجنده ، ويظفر بهم عدوهم ، فلن ينقلبوا إلى أهليهم ، وذلك من جهلهم بالله واسمائه وصفاته ، وما يليق به وجهلهم برسوله وما هو أهل أن يعامله به ربه مولاه .

ثم أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البيعة لرسوله ، وأنه سبحانه علم ما فى قلوبهم حينئذ من الصدق والوفاء ، وكمال الانقياد ، والطاعة ، وإيثار الله ورسوله على ما سواه ، فأنزل الله السكينة والطمأنينة ، والرضى فى قلوبهم ، وأثابهم على الرضى بحكمه ، والصبر لأمره فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان أول الفتح والمغانم فتح خيبر ، ومغانمها ، ثم استمرت الفتوح والمغانم إلى انقضاء الدهر .

ووعدهم الله سبحانه مغانم كثيرة يأخذونها ، وأخذهم أنه عجل لهم هذه الغنيمة ، وفيها قولان . أحدهما : أنه الصلح الذى جرى بينهم وبين عدوهم ، والثانى : أنها فتح خيبر وغنائمها ، ثم قال ﴿ **وكف أيدى الناس عنكم** ﴾ فقيل : أيدى أهل مكة أن يقاتلوهم ، وقيل : أيدى اليهود حين هموا بأن يغتالوا من بالمدينة بعد خروج رسول الله ــ ﷺ ــ بمن معه من الصحابة منها ، وقيل : هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسد وغطفان والصحيح تناول الآية للجميع .

وقوله ﴿ **ولتكون آية للمؤمنين** ﴾ قيل : الفعلة التى فعلها بكم ، وهى كف أيدى أعدائكم عنكم مع كثرتهم ، فإنهم حينئذ كان أهل مكة ومن حولها ، وأهل خيبر ومن حولها ، وأسد وغطفان ، وجمهور قبائل العرب أعداء لهم ، وهم بينهم كالشامة ، فلم يصلوا إليهم بسوء ، فمن آيات الله سبحانه كف أيدى

أعدائهم عنهم ، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم ، وشدة عداوتهم ، وتولى حراستهم ، وحفظهم فى مشهدهم ومغيبهم .

وقيل : هى فتح خيبر ، جعلها الله آية لعباده المؤمنين ، وعلامة على ما بعدها من الفتوح ، فإن الله سبحانه وعدهم مغانم كثيرة وفتوحا عظيمة ، فعجل لهم فتح خيبر ، وجعلها آية لما بعدها ، وجزاء لصبرهم ورضاهم يوم الحديبية وشكرانا ، ولهذا خص بها وبغنائمها من شهد الحديبية . ثم قال ﴿ **ويهديكم صراطاً مستقيماً** ﴾ فجمع لهم إلى النصر والظفر والغنائم الهداية ، فجعلهم مهديين منصورين غانمين ، ثم وعدهم مغانم كثيرة وفتوحاً أخرى ، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها ، فقيل : هى مكة وقيل : فارس والروم ، وقيل : الفتوح التى بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها . ثم أخبر سبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءه ، لولى الكفار الأدبار غير منصورين ، وأن هذه سنته فى عباده قبلهم ، ولا تبديل لسنته . فإن قيل : فقد قاتلوهم يوم أحد ، وانتصروا عليهم ، ولم يولوا الأدبار ؟ قيل : هذا وعد معلق بشرط مذكور فى غير هذا الموضوع ، وهو الصبر والتقوى ، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافى للصبر ، وتنازعهم ، وعصيانهم المنافى للتقوى ، فصرفهم عن عدوهم ، ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه .

ثم ذكر ــ سبحانه ــ أنه هو الذى كف أيدى بعضهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم ، لماله فى ذلك من الحكم البالغة التى منها : أنه كان فيهم رجال ونساء قد آمنوا ، وهم يكتمون إيمانهم ، لم يعلم بهم المسلمون ، فلو سلطكم عليهم ، لأصبتم أولئك بمعرة الجيش ، وكان يصيبكم منهم معرة العدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به ، وذكر سبحانه حصول المعرة بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفين بهم ، لأنها موجب المعرة الواقعة منهم بهم ، وأخبر سبحانه أنهم لو زايلوهم وتميزوا منهم ، لعذب أعداءه عذابا أليما فى الدنيا ، إما بالقتل والأسر ، وإما بغيره ، ولكن دفع عنهم هذا العذاب لوجود هؤلاء المؤمنين بين أظهرهم ، كما كان يدفع عنهم عذاب الاستئصال ، ورسوله بين أظهرهم .

ثم أخبر سبحانه عما جعله الكفار ، فى قلوبهم من حمية الجاهلية التى مصدرها الجهل والظلم ، التى لأجلها صدوا رسوله وعباده عن بيته ، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم ، ولم يقروا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه ، وتيقنهم صحة رسالته بالبراهين التى شاهدوها وسمعوا بها فى مدة عشرين سنة ، وأضاف هذا الجعل إليهم وإن كان بقضائه وقدره ، كما يضاف إليهم سائر أفعالهم التى هى بقدرتهم وإرادتهم .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ أنه أنزل فى قلب رسوله وأوليائه من السكينة ما هو مقابل لما فى قلوب أعدائه من حمية الجاهلية ، فكانت السكينة حظ رسوله وحزبه ، وحمية الجاهلية حظ المشركين وجندهم ، ثم ألزم عباده المؤمنين كلمة التقوى ، وهى جنس يعم كل كلمة يتقى الله بها ، وأعلى نوعها كلمة الإخلاص ، وقد فسرن بسم الله الرحمن الرحيم ، وهى الكلمة التى أبت قريش أن تلتزمها ، فألزمها الله أولياءه وحزبه ، وإنما حرمها أعداءه صيانة لها من غير كفئها ، وألزمها من هو أحق بها وأهلها ، فوضعها فى موضعها ، ولم يضيعها بوضعها فى غير أهلها وهو العليم بمحال تخصيصه ومواضعه .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ أنه صدق رسوله رؤياه فى دخولهم المسجد آمنين وأنه سيكون ولابد ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك فى هذا العام ، والله سبحانه علم من مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم ، فأنتم أحببتم استعجال ذلك ، والرب تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلموه ، فقدم بين يدى ذلك فتحا قريبا ، توطئه له وتمهيدا .

ثم أخبرهم بأنه هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فقد تكفل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهل الأرض ، ففى هذا تقوية لقلوبهم ، وبشارة لهم وتثبيت ، وأن يكونوا على ثقة من هذا الوعد الذى لابد أن ينجزه ، فلا تظنوا أن ما وقع من الإغماض والقهر يوم الحديبية نصرة لعدوه ، ولا تخليا عن رسوله ودينه ، كيف وقد أرسله بدينه الحق ، ووعده أن يظهره على كل دين سواه .

ثم ذكر ــ سبحانه ــ رسوله وحزبه الذين اختارهم له ، ومدحهم بأحسن المدح ، وذكر صفاتهم فى التوارة والإنجيل ، فكأن فى هذا أعظم البراهين على صدق من جاء بالتوارة والإنجيل والقرآن وأن هؤلاء هم المذكورون فى الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم ، لا كما يقول الكفار عنهم : إنهم متغلبون طالبوا ملك ودنيا ، ولهذا لما رآهم نصارى الشام وشاهدوا هديهم وسيرتهم ، وعدلهم وعلمهم ، ورحمتهم وزهدهم فى الدنيا ورغبتهم فى الآخرة ، قالوا : ما الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء ، وكان هؤلاء النصارى بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم والرافضة تصفهم بغير ما وصفهم الله به فى هذه الآية وغيرها و ﴿ **من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً** ﴾[1] .

ثانيا :

غزوة خيبر

قال الإمام ابن الغيم فى الزاد :

« قال موسى بن عقبة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة من الحديبية ، مكث بها عشرين ليلة أو قريباً منها ، ثم خرج غازياً إلى خيبر ، وكان الله ــ عز وجل ــ **وعده** إياها ، وهو بالحديبية .

قال ابن إسحاق : حدثنى الزهرى ، عن عروة ، عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة ، أنهما حدثاه جميعا ، قالا : انصرف رسول الله ــ ﷺ ــ عام الحديبية ، فنزلت عليه سورة الفتح فيما بين مكة والمدينة ، فأعطاه الله ــ عز وجل ــ فيها خيبر ﴿ **وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه** ﴾ خيبر ، فقدم رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة فى ذى الحجة : فأقام بها حتى سار إلى خيبر فى المحرم ، فنزل

١ ــ الآية : ١٧ من سورة الكهف

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالرجيع : واد بين خيبر وغطفان ، فتخوف أن تمدهم غطفان فبات به حتى أصبح ، فغدا إليهم .

واستخلف — صلى الله عليه وسلم — على المدينة سباع بن عرفطة ، وقدم أبو هريرة حينئذ المدينة ، فوافق سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح ، فسمعه يقرأ فى الركعة الأولى (كهيعص) ، وفى الثانية (ويل للمطففين) فقال فى نفسه : ويل لأبى فلان ، له مكيلان ، إذا اكتال اكتال بالوافى ، وإذا كال كال بالناقص ، فلما فرغ من صلاته ، أتى سباعاً ، فزوده حتى قدم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهمانهم .

ولما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — خيبر ، صلى بها الصبح ، وركب المسلمون ، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم ، ولا يشعرون بل خرجوا لأرضهم ، فلما رأوا الجيش ، قالوا : محمد والله ، محمد والخميس ، ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم ، فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — « الله أكبر خربت خيبر ، الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم ، فساء صباح المنذرين »[1]

ولما دنا النبى — صلى الله عليه وسلم — وأشرف عليها قال « قفوا » فوقف الجيش فقال : « اللهم رب السماوات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها ، وخير ما فيها ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا بسم الله »[2]

ولما كانت ليلة الدخول ، قال : « لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » فبات الناس يدوكون أيهم يعطاها ، فلما أصبح الناس ، غدوا على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال « أين على بن أبى طالب ؟ » فقالوا : يارسول الله : هو يشتكى عينيه . قال : « فأرسلوا إليه » ، فأتى به ، فبصق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى عينيه ، ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية ، فقال : يارسول الله ! أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ قال : « أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم »[3] .

فخرج مَرحَبٌ وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى مرحب ... شاكى السلاح بطل مُجرب

إذا الحروبُ أقبلتْ تلهب

١ — الحديث فى صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب غزوة خيبر — حـ ٥ صـ ١٦٧ ط الشعب

٢ — الحديث فى مجمع الزوائد — كتاب الأدعية — حـ ١٠ صـ ١٣٥

٣ — الحديث فى صحيح البخارى — كتاب المغازى — باب غزوة خيبر — حـ ٥ صـ ١٧١ ط الشعب

فبرز على بن أبى طالب وهو يقول :

أنا الذى سمتنى أمى حيدره كليث غابات كريه المنظره
أوفيهم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ، فقلق هامته ، وكان الفتح .

قال موسى بن عقبة : ثم دخل اليهود حصناً لهم منيعاً يقال له : القموص ، فحاصرهم رسول الله ـ ﷺ ـ قريبا من عشرين ليلة ، وكانت أرضاً وخمة شديدة الحر ، فجُهد المسلمون جهداً شديدا ، فذبحوا الحمر فنهاهم رسول الله ـ ﷺ ـ عن أكلها ، وجاء عبد أسود حبشى من أهل خيبر ، كان فى غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح ، سألهم ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبى ، فوقع فى نفسه ذكر النبى ـ ﷺ ـ فأقبل بغنمه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : ماذا تقول وما تدعوا إليه ، قال : « أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا له إلا الله ، وأنى رسول الله ، وألا تعبد إلا الله »(١) . قال العبد ، فما لى إن شهدت وآمنت بالله ـ عز وجل ـ ؟ قال : « لك الجنة إن مت على ذلك »(٢) ، فأسلم ، ثم قال : يانبى الله ! إن هذه الغنم عندى أمانة ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ « أخرجها من عندك وارمها بالحصباء ، فإن الله سيؤدى عنك أمانتك » ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيدها ، فعلم اليهودى أن غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ـ ﷺ ـ فى الناس ، فوعظهم وحضهم على الجهاد ، فلما التقى المسلمون واليهود ، قتل فيمن قتل العبد الأسود ، فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم فأدخل فى الفسطاط ، فزعموا أن رسول الله ـ ﷺ ـ أطلع فى الفسطاط ، ثم أقبل على أصحابه وقال « لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصل لله سجدة قط »(٣) .

وقال شداد بن الهاد : جاء رجل من الأعراب إلى النبى ـ ﷺ ـ فآمن به واتبعه ، فقال : أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله ـ ﷺ ـ شيئا ، فقسمه ، وقسم للأعرابى ، فأعطى أصحابه ما قسمه له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء ، دفعوه إليه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : قسم قسمة لك رسول الله ـ ﷺ ـ فأخذه فجاء ه إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : ما هذا يارسول الله ؟ قال : « قسْم قسمته لك » ، قال : ما على هذا اتبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى هاهنا ، وأشار إلى حلْقِه بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : « إن تصدق الله يصدقك » ثم نهض إلى قتال العدو ، فأتى به إلى النبى ـ ﷺ ـ وهو مقتول ، فقال : « أهو هو ؟ » قالوا : نعم قال : « صدق الله فصدقه » فكفنه النبى ـ ﷺ ـ فى جبته ، ثم قدمه ، فصلى عليه ، وكان من دعائه له : « اللهم هذا عبدك خرج

---

١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ انظر سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى ـ أمر الأسود الراعى فى حديث خيبر ـ حـ ٣ صـ ٣٥٨

مهاجراً فى سبيلك ، قتل شهيدا ، وأنا عليه شهيد » (أخرجه النسائى والحاكم والبيهقى وإسناده صحيح)[١]

قال الواقدى : وتحولت اليهود إلى قلعة الزبير : حصن منيع فى رأس قُلة ، فأقام رسول الله ـ ﷺ ـ ثلاثة أيام ، فجاء رجل من اليهود يقال له عزال فقال : يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهراً ما بالوا ، إن لهم شراباً وعيوناً ، تحت الأرض يخرجون بالليل فيشربون منها ، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك ، فإن قطعت مشربهم عليهم أصحروا لك ، فسار رسول الله ـ ﷺ ـ إلى مائهم ، فقطعه عليهم فلما قطع عليهم ، خرجوا ، فقاتلوا أشد القتال ، وقتل من المسلمين نفر ، وأصيب نحو العشرة من اليهود ، وافتتحه رسول الله ـ ﷺ ـ ثم تحول رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أهل الكُتَيبه والوطيح والسلالم حصن ابن أبى الحُقيق ، فتحصن أهله أشد التحصن ، وجاءهم كل فَلّ كان انهزم من النطاة والشق ، فإن خيبر كانت جانبين . الأول الشق والنطاة ، وهو الذى افتتحه أولاً

والجانب الثانى : الكتيبة والوطيح والسلالم ، فجعلوا لا يخرجون من حصونهم حتى هم رسول الله ـ ﷺ ـ أن ينصب عليهم المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة ، وقد حاصرهم رسول الله ـ ﷺ ـ أربعة عشر يوماً ، سألوا رسول الله ـ ﷺ ـ الصلح ، وأرسل ابن أبى الحقيق إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أنزل فأكلمك ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « نعم » فنزل ابن أبى الحقيق فصالح رسول الله ـ ﷺ ـ على حقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة وترك الذرية لهم ، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم ، ويخلون بين رسول الله ـ ﷺ ـ وبين ما كان لهم من مال وأرض ، وعلى الصفراء والبيضاء والكراع والحلقة إلا ثوباً على ظهر إنسان ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئاً » فصالحوه على ذلك .

قال حماد بن سلمة : عن ابن عمر أن رسول الله ـ ﷺ ـ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم ، فغلب على الزرع والنخل والأرض ، فصالحوه على أن يجُلوا منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ـ ﷺ ـ الصفراء والبيضاء ، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغُيبِّوا شيئاً ، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد ، فغيبِّوا مَسْكاً فيه مال وحلى لحيى بن أخطب ، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لعم حيى بن أخطب : « ما فعل مَسْك حُيى الذى جاء به من النضير ؟ »[١] قال : أذهبته النفقات والحروب فقال : « العهد قريب ، والمال أكثر من ذلك » ، فدفعه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الزبير ، فمسه بعذاب ، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال : « قد رأيت حُيياً ، يطوف فى خربة ها هنا ، فذهبوا فطافوا ، فوجدوا المسك فى الخربة ، فقتل رسول الله ـ ﷺ ـ

١ ـ الحديث فى المستدرك للحاكم جـ ٣ صـ ٥٩٥ ، ٥٩٦ كتاب معرفة الصحابة ذكر شداد بن الهاد ـ رضى الله عنه ـ وفى سنن النسائى جـ ٤ صـ ٦٠ ، ٦١ ـ باب الصلاة على الشهداء

ابنى أبى الحقيق ، وأحدهما زوج صفية بنت حيى بن أخطب ، وسبى رسول الله ـ ﷺ ـ نساءهم وذراريهم ، وقسم أموالهم بالنكث الذى نكثوا ، وأراد أن يجليهم منها ، فقالوا : يا محمد ! دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ـ ﷺ ـ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها ، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها ، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ـ ﷺ ـ أن يقرهم ولم يقتل رسول الله ـ ﷺ ـ بعد الصلح إلا ابنى أبى الحقيق للنكث الذى نكثوا ، فإنهم شرطوا إن غيبوا ، أو كتموا ، فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ، فغيبوا ، فقال لهم : « أين المال الذى خرجتم به من المدينة حين أجليناكم »[1] قالوا : ذهب ، فحلفوا على ذلك ، فاعترف ابن عم كنانة عليهما بالمال حين دفعه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الزبير يعذبه ، فدفع رسول الله ـ ﷺ ـ صفية بنت حيى بن أخطب وابنة عمتها وكانت صفية تحت كنانة بن أبى الحقيق ، وكانت عروساً حديثة عهد بالدخول ، فأمر بلالاً أن يذهب بها إلى رحله ، فمر بها بلال وسط القتلى ، فكره ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : « أذهبت الرحمة منك يابلال »[2] .

وعرض عليها رسول الله ـ ﷺ ـ الإسلام ، فأسلمت ، فاصطفاها لنفسه ، وأعتقها ، وجعل عتقها صداقها ، وبنى بها فى الطريق ، وأولم عليها ، ورأى بوجهها خضرة ، فقال « ما هذا ؟ »[3] قالت : يارسول الله ! رأيت قبل قدومك علينا ، كأن القمر زال من مكانه فسقط فى حجرى ، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً ، فقصصتها على زوجى ، فلطم وجهى وقال : تمنين هذا الملك الذى بالمدينة . (رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح)[4] .

وشك الصحابة : هل اتخذها سُرِّية أو زوجة ؟ فقالوا : انظروا إن حجبها ، فهى إحدى نسائه ، وإلا فهى مما ملكت يمينه ، فلما ركب ، جعل ثوبه الذى ارتدى به على ظهرها ووجهها ثم شد طرفه تحته ، فتأخروا عنه فى السير ، وعلموا أنها إحدى نسائه ، ولما قدم ليحملها على الرحل أجلَّته أن تضع قدمها على فخذه ، فوضعت ركبتها على فخذه ثم ركبت (أخرجه البخارى)[5]

ولما بنى بها ، بات أبو أيوب ليلته قائما قريبا من قُبته ، آخذ بقائم السيف حتى أصبح ، فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك ، كبّر أبو أيوب حين رآه قد خرج ، فسأله رسول الله ـ ﷺ ـ مالك يا أبا أيوب ؟ فقال له : أرقت ليلتى هذه يارسول الله لما دخلت بهذه المرأة ، ذكرت أنك قتلت أباها وأخاها ، وزوجها وعامة عشيرتها ، فخفت أن تغتالك ، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ وقال له معروفاً .

---

(١) انظر سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى حـ ٣ صـ ٣٥١ بقية أمر خيبر

(٢) الحديث فى الاصابة فى تمييز الصحابة حـ ١٣ صـ ١٤

(٣) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى حـ ٢٤ صـ ٦٦ ـ ٧٠

(٤) الحديث رواه الطبرانى حـ ٢٤ صـ ٦٦ ـ ٧٠

(٥) الحديث أخرجه البخارى ـ باب غزوة خيبر ـ حـ ٥ صـ ١٧١ ، ١٧٢

وقسم رسول الله ـ ﷺ ـ خيبر على ستة وثلاثين سهماً جمع كل سهم مائة سهم ، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم فكان لرسول الله ـ ﷺ ـ وللمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم ؟ ولرسول الله ـ ﷺ ـ سهم كسهم أحد المسلمين ، وعزل النصف الآخر ، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين[1]

وقال ابن القيم : وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ، ومن غاب ، وكانوا ألفاً وأربعمائة ، وكان معهم مائتا فرس ، لكل فرس سهمان ، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم ، ولم يغب عن خيبر من أهل الحديبية إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله ـ ﷺ ـ كسهم من حضرها .

قال موسى بن عقبة وغيره : وكان بين قريش حين سمعوا بخروج رسول الله ـ ﷺ ـ إلى خيبر تراهن عظيم وتبايع ، فمنهم من يقول : يظهر محمد وأصحابه ، ومنهم يقول : يظهر الحليفان ويهود خيبر ، وكان الحجاج بن علاط السُلمى قد أسلم وشهد فتح خيبر ، وكانت تحته أم شيبة أخت بنى عبد الدار بن قصى ، وكان الحجاج مكثراً من المال ، كانت له معادن بأرض بنى سليم ، فلما ظهر النبى ـ ﷺ ـ على خيبر ، قال الحجاج ابن علاط : إن لى ذهبا عند امرأتى ، وإن تعلم هى وأهلها بإسلامى ، فلا مالى لى ، فأذن لى ، فلأسرع السير وأسبق الخبر ، ولأخبرن أخباراً إذا قدمت أدرأ بها عن مالى ونفسى ، فأذن له رسول الله ـ ﷺ ـ ، فلما قدم مكة ، قال لامرأته : أخفى علىّ واجمعى ما كان لى عندك من مال ، فإنى أريد أن اشترى من غنائم محمد وأصحابه ، فإنهم قد استبيحوا ، وأصيبت أموالهم ، وإن محمداً قد أسر ، وتفرق عنه أصحابه ، وإن اليهود قد أقسموا : لتبعثن به إلى مكة ثم لتقتلنه بقتلاهم بالمدينة ، ونشأ عن ذلك بمكة ، واشتد على المسلمين وبلغ منهم ، وأظهر المشركون الفرح والسرور ، فبلغ العباس عم رسول الله ـ ﷺ ـ زجلة الناس وجلبتهم وإظهارهم السرور ، فأراد أن يقوم ويخرج ، فانخزل ظهره فلم يقدر على القيام ، فدعا ابناً له يقال له : قثم ، وكان يشبه رسـ ل الله ـ ﷺ ـ فجعل العباس يرتجز ، ويرفع صوته لئلا يشمت به أعداء الله :

حبيى قثم صبـى قثم شيبة ذى الأنف الأشم
نبى ربى ذى النعـم برغم أنف من رغـم

وحشر إلى باب داره رجال كثيرون من المسلمين والمشركين منهم المظهر للفرح والسرور ، ومنهم الشامت المعزى ، ومنهم من به مثل الموت من الحزن والبلاء ، فلما سمع المسلمون رجز العباس وتجلده ، طابت نفوسهم ، وظن المشركون أنه قد أتاه ما لم يأتهم ، ثم أرسل العباس غلاماً له إلى الحجاج ، وقال له : اخْل به ، وقل له : ويلك ما جئت به ، وما تقول ، فالذى وعد الله خير مما جئت به ؟ فلما كلمه

---

١ ـ الحديث فى سنن أبى داود جـ ٣ صـ ٤١٢

الغلام قال له : اقرأ على أبى الفضل السلام ، وقل له : فليخل بى فى بعض بيوته حتى آتيه ، فإن الخبر على ما يسره ، فلما بلغ العبد باب الدار ، قال : أبشر يا أبا الفضل ، فوثب العباس فرحا كأنه لم يصبه بلاء قط ، حتى جاءه وقبل ما بين عينيه ، فأخبره بقول الحجاج ، أُخل به فى بعض بيوتك حتى يأتيك ظهراً ، فلما جاءه الحجاج ، وخلا به ، أخذ عليه لتكتمن خبرى ، فوافقه عباس على ذلك ، فقال له الحجاج : جئت وقد افتتح رسول الله ـ ﷺ ـ خيبر ، وغنم أموالهم ، وجرت فيهم سهام الله ، وإن رسول الله ـ ﷺ ـ قد اصطفى صفية بنت حيي لنفسه ، وأعرس بها ، ولكن جئت لمالى ، أردت أن أجمعه وأذهب به ، وإنى استأذنت رسول الله ـ ﷺ ـ أن أقول ، فأذن لى ، أن أقول ما شئت فاخف علىّ ثلاثاً ، ثم اذكر ما شئت ، قال : فجمعت له امرأته متاعه ، ثم انشمر راجعا ، فلما كان بعد ثلاث ، أتى العباس امرأة الحجاج فقال ما فعل زوجك ، قالت : ذهب ، وقالت : لا يحزنك الله يا أبا الفضل ، لقد شق علينا الذى بلغك ، فقال : أجل ، لا يحزننى الله ، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحب ، فتح الله على رسوله خيبر ، وجرت فيها سهام الله ، واصطفى رسول الله ـ ﷺ ـ صفية لنفسه فإن كان لك فى زوجك حاجة ، فالحقى به . قالت : أظنك والله صادقا . قال : فإنى والله صادق ، والأمر على ما أقول لك ، قالت : فمن أخبرك بهذا ؟ قال : الذى أخبرك بما أخبرك ، ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش ، فلما رأوه ، قالوا : هذا والله التجلّد يا أبا الفضل ، ولا يصيبك إلا خير ، قال : أجل لم يصبنى إلا خير ، والحمد لله ، أخبرنى الحجاج كذا وكذا . وقد سألنى أن اكتم عليه ثلاثاً لحاجة ، فرد الله ما كان للمسلمين من كآبة وجزع على المشركين ، وخرج المسلمون من مواضعهم حتى دخلوا على العباس فأخبرهم الخبر ، فأشرقت وجوه المسلمين (أخرجه عبد الرزاق فى المصنف وعنه أحمد وسند صحيح)[1]

فصل

فيما كان فى غزوة خيبر من الأحكام الفقهية

قال العلامة ابن القيم :

فمنها : محاربة الكفار ومقاتلتهم فى الأشهر الحرم ، فإن رسول الله ـ ﷺ ـ رجع من الحديبية فى ذى الحجة ، فمكث بها أياماً ، ثم سار إلى خيبر فى المحرم ، كذلك قال الزهرى عن عروة ، عن مروان والمسور بن مخرمة ، وكذلك قال الواقدى : خرج فى أول سنة سبع من الهجرة ، ولكن فى الاستدلال بذلك نظر ، فإن خروجه كان فى أواخر المحرم لا فى أوله ، وفتحها إنما كان فى صفر . وأقوى من هذا الاستدلال بيعة النبى ـ ﷺ ـ عند الشجرة بيعة الرضوان على القتال وألا يفروا ، وكانت فى ذى القعدة ،

---

١ ـ انظر سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى ، عبد الحفيظ شلبى ـ حـ ٣ صـ ٣٥٩ ـ ٣٦١ ـ فى فتح خيبر

ولكن لا دليل فى ذلك ؛ لأنه إنما بايعهم على ذلك لما بلغه أنهم قتلوا عثمان وهم يريدون قتاله ، فحينئذ بايع الصحابة ، ولا خلاف فى جواز القتال فى الشهر الحرام إذا بدأ العدو ، إنما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء ، فالجمهور أجوزوه وقالوا : تحريم القتال فيه منسوخ وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله .

وذهب عطاء وغيره إلى أنه ثابت غير منسوخ ، وكان عطاء يحلف بالله : ما يحل القتال فى الشهر الحرام ، ولا نسخ تحريمه شيء . وأقوى من هذين الاستدلالين الاستدلال بحصار النبى ـ ﷺ ـ للطائف ، فإنه خرج إليها فى أواخر شوال ، فحاصرهم بضعا وعشرين ليلة ، فبعضها كان فى ذى القعدة ، فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلاة ، ففتح الله عليه هوازن ، وقسم غنائمها ، ثم ذهب إلى الطائف ، فحاصرها بضعا وعشرين ليلة ، وهذا يقتضى أن بعضها فى ذى القعدة بلا شك . فهذا الحصار وقع فى ذى القعدة بلا ريب ، ومع هذا فلا دليل فى القضية ؛ لأن غزو الطائف كان من تمام غزو هوازن ، وهم بدؤوا رسول الله ـ ﷺ ـ فكان غزوهم من تمام الغزوة التى شرع فيها ، والله أعلم . وقال الله تعالى فى (سورة المائدة) وهى من آخر القرآن نزولاً ، وليس فيها منسوخ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ، ولا الهدى ولا القلائد** ﴾[1]

وقال فى سورة البقرة : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله** ﴾ (البقرة : ٢١٧) ، فهاتان آيتان مدنيتان ، بينهما فى النزول نحو ثمانية أعوام ، وليس فى كتاب الله ولا سنة رسوله فانسخ لحكمها ، ولا أجمعت الأمة على نسخه ، ومن استدل على نسخه بقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا المشركين كافة** ﴾ (التوبة : ٣٦) ونحوها من العمومات ، فقد استدل على النسخ بما لا يدل عليه ، ومن استدل عليه بأن النبى ـ ﷺ ـ بعث أبا عامر فى سرية إلى أوطاس فى ذى القعدة ، فقد استدل بغير دليل ، لأن ذلك كان من تمام الغزوة التى بدأ فيها المشركون بالقتال ، ولم يكن ابتداء منه لقتالهم فى الشهر الحرام .

ومنها : قسمة الغنائم ، للفارس ثلاثة أسهم ، وللراجل سهم .

ومنها : أنه يجوز لآحاد الجيش إذا وجد طعاماً أن يأكله ولا يخمسه كما أخذ عبد الله بن المقفل جراب الشحم الذى دُلِى يوم خيبر ، واختص به بمحضر النبى ـ ﷺ ـ

ومنها : تحريم لحوم الحُمُر الإنسية ، صح عنه تحريمها يوم خيبر ، وصح عنه تعليل التحريم بأنها رجس ، وهذا مقدم على قول من قال من الصحابة إنما حرمها ؛ لأنها كانت ظهر القوم وحمولتهم ، فلما قيل له : فنى الظهر وأكلت الحمر ، حّرمها ، وعلى قول من قال : إنما حرمها لأنها لم تُخمس ، وعلى قول من قال : إنما حرمها لأنها كانت حول القرية ، وكانت تأكل العذرة ، وكل هذا فى « الصحيح » .

---
١ ـ الآية : ٢ من سورة المائدة

لكن قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إنها رجس » مقدم على هذا كله ، لأنه من ظن الراوى ، وقوله بخلاف التعليل بكونها **رجس**. ولا تعارض بين هذا التحريم وبين قوله تعالى ﴿ **قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به** ﴾ (الأنعام : ١٤٥)

فإن لم يكن قد حرم نزول هذه الآية من المطاعم إلا هذه الأربعة ، والتحريم كان يتجدد شيئاً فشيئاً ، فتحريم الحمر بعد ذلك تحريم مبتدأ لما سكت عنه النص ، لا أنه رافع لما أباحه القرآن ، ولا مخصص لعمومه ، فضلاً عن أن يكون ناسخاً . والله أعلم .

ومنها : جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من ثمر أو زرع ، كما عامل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهل خيبر على ذلك ، واستمر ذلك إلى حين وفاته لم ينسخ البتة ، واستمر عمل خلفائه الراشدين عليه ، وليس هذا من باب المؤاجرة فى شىء ، بل من باب المشاركة ، وهو نظير المضاربة سواء ، فمن أباح المضاربة ، وحرم ذلك ، فقد فرق بين متماثلين .

ومنها : فرض الثمار على رؤوس النخل ، وقسمها كذلك ، وأن القسمة ليست بيعاً . ومنها : الاكتفاء بخارص واحد ، وقاسم واحد .

ومنها : جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام نسخه متى شاء .

ومنها : جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط ، كما عقد لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يغيِّبوا ولا يكتموا .

ومنها : جواز تقرير أرباب التهم بالعقوبة ، وأن ذلك من الشريعة العادلة لا من السياسة الظالمة .

ومنها : الأخذ فى الأحكام بالقرائن والأمارات ، كما قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكنانة : « المال كثير ، والعهد قريب »[1] فاستدل بهذا على كذبه فى قوله : أذهبته الحروب والنفقة .

ومنها : أن من كان القول قوله اذا قامت قرينة على كذبه .. لم يلتفت إلى قوله ، ونزل منزلة الخائن .

ومنها : أن أهل الذمة إذا خالفوا شيئا مما شُرط عليهم ، لم يبق لهم ذمة ، وحَلت دماؤهم وأموالهم ؛ لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عقد لهؤلاء الهدنة وشرط عليهم أن لا يغيبوا ولا يكتموا ، فإن فعلوا حلت دماؤهم وأموالهم ، فلم لم يفوا بالشرط ، استباح دماءهم وأموالهم . وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى الشروط التى اشتراطها على أهل الذمة ، فشرط عليهم أنهم متى خالفوا شيئا منها ، فقد حلَّ له منهم ما يحل من أهل الشقاق والمداوة .

ومنها : جواز التفاؤل بل استحبابه بما يراه أو يسمعه مما هو من أسباب ظهور الإسلام وإعلامه ، كما تفاءل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ برؤية المساحى والفؤوس والمكاتل مع أهل خيبر ، فإن ذلك فأل فى خرابها .

---

١ ـ الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى حـ ٩ صـ ١٣٧

ومنها : أن الإمام مخير فى أرض العنوة بين قسمتها وتركها ، وقسم بعضها ، وترك بعضها .

ومنها : جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم ، كما قال النبى — ﷺ — « نقركم ما أقركم الله »[1] وقال لكبيرهم : « كيف بك إذا رقصت بك راحلتك نحو الشام يوماً ثم يوماً » ، وأجلاهم عمر بعد موته — ﷺ — وهذا مذهب محمد بن جرير الطبرى ، وهو قول قوى يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة .

ومنها : جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره ، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه ، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين ، حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت المسلمين من ذلك الكذب ، وأما ما نال من بمكة من المسلمين من الأذى والحزن ، فمفسدة يسيرة فى جنب المصلحة التى حصلت بالكذب ، ولا سيما تكميل الفرح والسرور وزيادة الإيمان الذى حصل بالخير الصادق بعد هذا الكذب ، فكان الكذب سببا فى حصول هذه المصلحة الراجحة .

ومنها : جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب ، وحل طعامهم .

فصل

ثم انصرف رسول الله — ﷺ — من خيبر إلى وادى القرى ، وكان بها جماعة من اليهود ، وقد انضاف إليهم جماعة من العرب فلما نزلوا استقبلهم يهود بالرمى ، وهم على غير تعبئة ، فقتل مِدعم عبدُ رسول الله ﷺ فقال الناس هنيئا له الجنة فقال النبى ﷺ : « كلا والذى نفسى بيده ، إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه نارا »[2] ، فلما سمع بذلك الناس ، جاء رجل الى النبى ﷺ بشراك أو شراكين ، فقال النبى ﷺ « شراك من نار أو شركان من نار »[3] .

فعبأ رسول الله — ﷺ — أصحابه للقتال ، وحفهم ودفع لواءه إلى سعد بن عباده ، وراية إلى الحباب بن المنذر ، وراية إلى سهل بن حنيف ، وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا ، أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم ، فبرز إليه الزبير بن العوام ، فقتله ، ثم برز آخر ، فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فقتله ، حتى قتلوا منهم أحد عشر رجلاً ، كلما قتل منهم رجل ، دعا من بقى إلى الإسلام ، وكانت الصلاة تحضر ذلك اليوم ، فيصلى بأصحابه ، ثم يعود فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله ، فقاتلهم حتى أمسوا ،

(١) . الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى حـ ٩ صـ ٢٠٧
وفى صحيح البخارى — باب ما يجوز من الشروط فى الاسلام — حـ ٣ صـ ٢٥٢

(٢) . الحديث بمعناه فى صحيح البخارى — كتاب الشروط — باب إذا اشترط فى المزارعة إذا شئت أخرجتك — حـ ٣ صـ ٢٥٢ ط الشعب

(٣) الحديث فى سنن النسائى — كتاب الأيمان والنذور — باب هل تدخل الأرضون فى المال إذا نذر حـ ٧ صـ ٢٢

وغدا عليهم ، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم ، وفتحها عنوة ، وغنمه الله أموالهم ، وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، وأقام رسول الله ـ ﷺ ـ بوادى القرى أربعة أيام ، وقسم ما أصاب على أصحابه بوادى القرى ، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود ، وعاملهم عليها ، فلما بلغ يهود تيماء **ماواطأ** عليه رسول الله ـ ﷺ ـ أهل خيبر وفدك ووادى القرى ، صالحوا رسول الله ـ ﷺ ـ وأقاموا بأموالهم ، فلما كان زمن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ أخرج يهود خيبر وفدك ، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى ؛ لأنهما داخلتان فى أرض الشام ، ويرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز ، وأن ما وراء ذلك من الشام .

وانصرف رسول الله ـ ﷺ ـ راجعاً إلى المدينة .

ثالثاً :

فى عمرة القضية

قال العلامة ابن القيم فى الزاد :

قال نافع : كانت فى ذى القعدة سنة سبع . وقال سليمان التيمى لما رجع رسول الله ـ ﷺ ـ من خيبر بعث السرايا ـ وأقام بالمدينة حتى استهل ذو القعدة ، ثم نادى فى الناس بالخروج .

قال موسى بن عقبة : ثم خرج رسول الله ـ ﷺ ـ من العام المقبل من عام الحديبية معتمرا فى ذى القعدة سنة سبع ، وهو الشهر الذى صده فيه المشركون عن المسجد الحرام ، حتى إذا بلغ يأجج (موضع قرب مكة على ثمانية أميال) وضع الأداة كلها الحجف والمجانّ ، والنبل ، والرماح ، ودخلوا بسلاح الراكب : السيوف وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة بنت الحارث بن حزف العامرية ، فخطبها إليه ، فجعلت أمرها إلى العباس بن عبد المطلب ، وكانت أختها أم الفضل تحته ، فزوجها العباس رسول الله ـ ﷺ ـ فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ أمر أصحابه فقال :

« اكشفوا عن المناكب ، واسعوا فى الطواف »[1] ليرى المشركون جلدهم وقوتهم . وكان يكايدهم بكل ما استطاع ، فوقف أهل مكة : الرجال والنساء والصبيان ينظرون إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه يطوفون بالبيت ، وعبد الله بن رواحه بين يدى رسول الله ـ ﷺ ـ يرتجز متوشحاً بالسيف يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله قد أنزل الرحمن فى تنزيله
فى صحف تتلى على رسوله يـارب إنى مؤمـن بقيلـه
إنى رأيت الحق فى قبولـه اليوم نضربكـم على تأويلـه
ضرباً يزيـل الهام عـن مقله ويذهل الخليـل عـن خليلـة .

---

١ ـ الحديث فى مجمع الزوائد ـ كتاب المغازى والسير ـ باب الحديبية وعمرة القضاء حـ ٦ صـ ١٤٦

وتغيب رجال من المشركين كراهية أن ينظروا إلى رسول الله — ﷺ — حنقاً وعيظاً ، فأقام رسول الله — ﷺ — **بمكة** ثلاثاً ، فلما أصبح من اليوم الرابع ، أتاه سهيل بن عمرو ، **وحويطب** بن عبد العزى ، ورسول الله — ﷺ — فى مجلس الأنصار يتحدث مع سعد بن عباده ، فصاح **حويطب** الله والعقد لما خرجت من أرضنا ، فقد مضت الثلاث ، فقال سعد بن عبادة كذبت لا أم لك ، ليست بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا نخرج ثم نادى رسول الله — ﷺ — **حويطب** وسهيلاً ، فقال : « إنى قد نكحت منكم امرأة فما يضركم أن أمكث حتى أدخل بها ، ونضع الطعام فنأكل ، وتأكلون معنا »[1] فقالوا : أنناشدك الله والعقد إلا خرجت عنا ، فأمر رسول الله — ﷺ — أبا رافع ، فأذن بالرحيل ، وركب رسول الله — ﷺ — حتى نزل بطن سرف ، فأقام بها وخلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين **يمسى** ، فأقام حتى قدمت ومن معها ، وقد لقوا أذى وعناء من سفهاء المشركين وصبيانهم ، فبنى بها بسرف ، ثم أدلج وسار حتى قدم المدينة وقدر الله أن يكون قبر ميمونة بسرف حيث بنى بها .

وأما قول ابن عباس : إن رسول الله — ﷺ — تزوج ميمونة وهو محرم وبنى بها وهو حلال « فما استدرك عليه ، وعُد من وهمه ، قال سعيد بن المسيب : ووهم ابن عباس وأن كانت خالته ما تزوجها رسول الله — ﷺ — إلا بعد ما حَل[2]

وقال يزيد بن الأصم عن ميمونة : « تزوجنى رسول الله — ﷺ — ونحن حلالان بسرف »[3] رواه مسلم .

وقال أبو رافع : « تزوج رسول الله — ﷺ — ميمونة ، وهو حلال ، وبنى بها وهو حلال ، وكنت الرسول بينهما » صح ذلك عنه (أخرجه أحمد)[4] .

وقد قيل : **إنه** تزوجها قبل أن يحرم ، وفى هذا نظر إلا أن يكون وكل فى العقد عليها قبل إحرامه ، وأظن الشافعى ذكر ذلك قولاً ، فالأقوال ثلاثة :

أحدها : أنه تزوجها بعد حَله من العمرة ، وهو قول ميمونة نفسها **وقول** السفير بينهما وبين رسول الله — ﷺ — وهو أبو رافع ، وقول سعيد بن المسيب وجمهور أهل النقل .

الثانى : أنه تزوجها وهو محرم ، وهو قول ابن عباس ، وأهل الكوفة وجماعة .

الثالث : أنه تزوجها قبل أن يحرم

١ — انظر سيرة النبى لابن هشام — تحقيق مصطفى السقا ، وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى — حـ ٤ صـ ١٤ باب عمرة القضاء

٢ — الحديث فى السنن الكبرى للبيهقى جـ ٧ صـ ٥٨ — باب ما أبيح له من النكاح فى الإحرام
وفى سنن أبى داود — حـ ٢ صـ ٤٢٢ ، ٤٢٣

٣ — الحديث فى سنن الترمذى — كتاب الحج حـ ٢ صـ ١٦٨ ، ١٦٩
وفى صحيح مسلم بشرح النووى حـ ٩ صـ ١٩٦

٤ — الحديث فى سنن الترمذى — كتاب الحج — حـ ٢ صـ ١٦٧ ، ١٦٨
وفى مسند أحمد حـ ٦ صـ ٣٣٢

وقد حُمل قول ابن عباس أنه تزوجها ، وهو محرم على أنه تزوجها فى الشهر الحرام ، لا فى حال الإحرام ، قالوا ، ويقال : أحرم الرجل : إذا عقد الإحرام ، وأحرم : إذا دخل فى الشهر الحرام وإن كان حلالا وقد روى مسلم فى « صحيحه » من حديث عثمان بن عفان ــ رضى الله عنه ــ قال سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول « لا ينكح المحرم ولا ينكح ، ولا يخطب »[١] ولو قدر تعارض القول والفعل ها هنا ، لوجب تقديم القول ؛ لأن الفعل موافق للبراءة الأصلية ، والقول ناقل عنها ، فيكون رافعاً لحكم البراءة الأصلية ، وهذا موافق لقاعدة الأحكام ، ولو قدم الفعل ، لكان رافعاً لموجبَ القول ، والقول رافع لموجب البراءة الأصلية ، فيلزم تغيير الحكم مرتين ، وهو خلاف قاعدة الأحكام والله أعلم .

ولما أراد النبى ــ ﷺ ــ الخروج من مكة ، تبعتهم ابنة حمزة تنادى ياعم ياعم ، فتناولها على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ فأخذ بيدها وقال لفاطمة : **دونك** ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها على وزيد وجعفر ، فقال على : أنا أخذتها ، وهى ابنة عمى ، وقال جعفر : ابنة عمى وخالتها تحتى ، وقال زيد : ابنة أخى (يريد الإخاء الذى عقده رسول الله ــ ﷺ ــ بينه وبين حمزة لما واخى بين المهاجرين) فقضى بها رسول الله ــ ﷺ ــ لخالتها ، وقال : « الخالة بمنزلة الأم »[٢] وقال لعلى . « أنت منى وأنا منك »[٣] ، وقال لجعفر « أشبهت خَلْقى وخُلُقى »[٤] وقال لزيد : « أنت أخونا ومولانا »[٥] متفق على صحته .

وفى هذه القصة من الفقه : أن الخالة مقدمة فى الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين ، وأن تزوج الحاضنة بقريب من الطفل لا يسقط حضانتها ، نفى أحمد فى رواية عنه على أن تزويجها لا يسقط حضانتها فى الجارية خاصة ، واحتج بقصة بنت حمزة هذه .

وقد اختلف فى سقوط الحضانة بالنكاح على أربعة أقوال :

أحدها : تسقط به ذكراً كان أو أنثى ، وهو قول مالك ، والشافعى وأبى حنيفة ، وأحمد فى إحدى الروايات عنه .

والثانى : لا تسقط بحال ، وهو قول الحسن ، وابن حزم

والثالث : إن كان الطفل بنتاً ، لم تسقط الحضانة ، وإن كان ذكرا سقطت وهذه رواية عن أحمد ــ رحمه الله ــ

والرابع : أنها إذا تزوجت بنسيب من الطفل ، لم تسقط حضانتها ، وإن تزوجت بأجنبى ، سقطت ...

---

١ ــ الحديث فى صحيح مسلم ــ كتاب النكاح ــ حـ ٢ صـ ١٠٣١ ، ١٠٣١

٢ ــ الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٤٠٩ من رواية البخارى ومسلم والدارمى وابن عوانة

٣ ــ الحديث فى مسند أحمد حـ ١ صـ ٩٨ ، ١٦٢

٤ ــ الحديث فى مسند أحمد حـ ١ صـ ٩٨ ، ١٠٨

٥ ــ الحديث فى صحيح البخارى ــ كتاب المغازى ــ باب عمرة القضاء حـ ٥ صـ ١٧٩ ، ١٨٠

فصل

واختلف فى تسمية هذه العمرة بعمرة القضاء ، هل هو لكونها قضاء للعمرة التى صدوا عنها ، أو من المقاضاة ؟ على قولين تقدما ، قال الواقدى بسنده عن ابن عمر ، قال : لم تكن هذه العمرة قضاء ، ولكن كان شرطا على المسلمين أن يعتمروا فى الشهر الذى حاصرهم فيه المشركون .

واختلف الفقهاء فى ذلك على أربعة أقوال :

أحدها : أن من أحصر عن العمرة يلزمه الهدى والقضاء ، وهذا إحدى الروايات عن أحمد ، بل أشهرها عنه .

والثانى : لا قضاء عليه ، وعليه الهدى ، وهو قول الشافعى ، ومالك فى ظاهر مذهبه ، ورواية أبى طالب عن أحمد .

والثالث : يلزمه القضاء ، ولا هدى عليه ، وهو قول أبى حنيفة ،

والرابع : لا قضاء عليه ، ولا هدى ، وهو إحدى الروايات عن أحمد .

فمن أوجب عليه القضاء والهدى ، احتج بأن النبى ـــ ﷺ ـــ وأصحابه نحروا الهدى حين صُدوا عن البيت ، ثم قضوا من قابل ، قالوا : والعمرة تلزم بالشروع فيها ، ولا يسقط الوجوب إلا بفعلها ، ونحر الهدى لأجل التحلل قبل تمامها ، وقالوا : وظاهر الآية يوجب الهدى ، لقوله تعالى ﴿ **فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى** ﴾[1] . ومن لم يوجبها ، قالوا : لم يأمر النبى ـــ ﷺ ـــ الذين أحصروا بالقضاء ولا أحداً منهم ، ولا وقف الحل على نحرهم الهدى ، بل أمرهم أن يحلقوا رؤوسهم ، وأمر من كان معه هدى أن ينحر هديه . ومن أوجب الهدى دون القضاء احتج بقوله ﴿ **فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى** ﴾[1] .

ومن أوجب القضاء دون الهدى ، احتج بأن العمرة تلزم بالشروع ، فإذا أحصر جاز له تأخيرها لعذر الإحصار ، فإذا زال الحصر أتى بها بالوجوب السابق ، ولا يوجب تخلل التحلل بين الإحرام بها أولاً ، وبين فعلها فى وقت الإمكان شيئاً ، وظاهر القرآن يرد هذا القول ، ويوجب الهدى دون القضاء ، لأنه جعل الهدى هو جميع ما على المحصر ، فدل على أنه يكتفى به منه والله أعلم .

وفى نحره ـــ ﷺ ـــ وحلّه ، دليل على أنّ المحصر بالعمرة يتحلل ، وهذا قول الجمهور .

وفى ذبحه ـــ ﷺ ـــ بالحديبية وهى من الحل بالاتفاق ، دليل على أن المحصر ينحر هديه حيث أحصر من حل أو حرم ، وهذا قول الجمهور ، وأحمد ومالك والشافعى . وعن أحمد رواية أخرى ، أنه ليس

١ ـــ الآية ١٩٦ من سورة البقرة

له نحر هديه إلا فى الحرم ، فيبعثه إلى الحرم ، ويواطىء رجلاً على أن ينحره فى وقت يتحلل فيه ، وهذا يروى عن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ وجماعة من التابعين . وهو قول أبى حنيفه .

وهذا إن صح عنهم فينبغى حملة على الحصر الخاص ، وهو أن يتعرض ظالم لجماعة أو لواحد ، وأما الحصر العام ، فالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ ــ تدل على خلافه ، والحديبية من الحل باتفاق الناس ، وقد قال الشافعى : بعضها من الحل ، وبعضها من الحرم ، قلت : ومراده أن أطرافها من الحرم وإلا فهى من الحل باتفاقهم ...

رابعاً :

فى الفتح الأعظم (فتح مكة)

الذى أعز الله به دينه ، ورسوله ، وجنده ، وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين من أيدى الكفار والمشركين ، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء وضربت أطناب عزه على مناكب الجوزاء ، ودخل الناس به فى دين الله أفواجا ، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجا ، فرج له رسول الله ــ ﷺ ــ بكتائب الإسلام ، وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان واستعمل على المدينة أبارهُم كلثوم بن حصين الغفارى ، وقال ابن سعد بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم .

وكان السبب الذى جر إليه ، وحدا إليه فيما ذكر إمام أهل السير والمغازى والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار ، أن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة ــ وهم على ماء يقال له : الوتير ــ فبيتوهم وقتلوا منهم ، وكان الذى هاج ذلك أن رجلاً من بنى الحضرمى يقال له : مالك بن عباد خرج تاجرا ، فلما توسط أرض خزاعة ، عدوا عليه فقتلوه ، وأخذوا ماله ، فعدت بنو بكر على رجل من بنى خزاعة فقتلوه ، فعدت خزاعة على بنى الأسود وهم سلمى ، وكلتوم ، وذؤيب ، فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم ، هذا كله قبل المبعث ، فلما بعث رسول الله ــ ﷺ ــ وجاء الإسلام ، حجز بينهم ، وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله ــ ﷺ ــ وبين قريش ، وقع الشرط : أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله ــ ﷺ ــ وعهده ، فعل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم ، فعل ، فدخلت بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله ــ ﷺ ــ وعهده ، فلما استمرت الهدنة ، اغتنمها بنو بكر من خزاعة ، وأرادوا أن يصيبوا منهم الثأر القديم ، فخرج نوفل بن معاوية الدِّيلى فى جماعة من بنى بكر ، فبيت خزاعة وهم على الوتير ، فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا ، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل مستخفيا ليلاً ، ذكر ابن سعد منهم : صفوان بن أمية ، **وحويطب** بن عبد العزى ، ومكيرز بن حفص حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه ، قالت بنو بكر : يانوفل إنا قد دخلنا الحرم إلهك إلهك . فقال كلمة عظيمة :

لا إله له اليوم ، يابنى بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ ! فلما دخلت خزاعة مكة ، لجئوا إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى ودار مولى لهم يقال له : رافع ، ويخرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على رسول الله ــ ﷺ ــ فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى أصحابه فقال :

يــارب إنى نــاشد محمــداً ۝ حلف أبينا وأبيه الاتلــدا .
قد كنتم ولـداً وكنا والــدا ۝ ثُمت أسلمنا ولم تنزع يــدا
فانصر هداك الله نصراً أبـدا ۝ وادع عباد الله يأتـوا مــددا
إن سيم خسفا وجهه تربَّــدا ۝ فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا
إن قـريشا أخلفوك الموعــدا ۝ ونــقضوا ميثــاقك المؤكــدا
وجعلوا لى فى كــداء رصدا ۝ وزعموا أن لست تدعو أحدا
وهــم أذل وأقــل عــددا ۝ هــم بيوتــا بالـوتير هجَّــدا

وقتلونا ركعاً وسجداً

يقول : قُتلنا وقد أسلمنا ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « نُصرت ياعمرو بن سالم » ثم عرضت سحابة لرسول الله ــ ﷺ ــ فقال « إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بنى كعب » ، ثم خرج بدُيل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا على رسول الله ــ ﷺ ــ ، فأخبروه بما أصيب منهم ، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم رجعوا إلى مكة ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ للناس « كأنكم بأبى سفيان ، وقد جاء ليشد العقد ويزيد فى المدة »[1] .

ومضى بديل بن ورقاء فى أصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعُسفان وقد بعثته قريش إلى رسول الله ــ ﷺ ــ ليشد العقد ، ويزيد فى المدة ، وقد رهبوا الذى صنعوا ، فلما لقى أبو سفيان بديل بن ورقاء ، قال : من أين أقبلت يابديل ؟ فظن أنه أتى النبى ــ ﷺ ــ فقال : سرت فى خزاعة فى هذا الساحل ، وفى بطن هذا الوادى ، قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا ، فلما راح بديل إلى مكة ، قال أبو سفيان : لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته ، فأخذ من بعرها ، ففته ، فرأى فيها النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

ثم خرج أبو سفيان حتى قدم المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبه ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ــ ﷺ ــ طوته عنه ، فقال : يابُنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش ، أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ــ ﷺ ــ وأنت مشرك بخس ، فقال : والله لقد أصابك بعدى شر .

---

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٢

ثم خرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فكلمه ، فلم يرد عليه شيئا ، ثم ذهب إلى أبى بكر ، فكلمه أن يكلم له رسول الله — ﷺ — فقال : ما أنا بفاعل ، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه ، فقال : أنا أشفع لكم إلى رسول الله — ﷺ — فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به ، ثم جاء فدخل على على بن أبى طالب ، وعنده فاطمة ، وحسن غلام يدب بين يديهما ، فقال : ياعلى إنك أمسّ القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة ، فلا أرجعن كما جئت خائباً ، اشفع لى إلى محمد ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ، والله لقد عزم رسول الله — ﷺ — على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه ، فالتفت إلى فاطمة فقال : « هل لك أن تأمرى ابنك هذا ، فيجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما يبلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله — ﷺ — قال : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على ، فانصحنى ، قال : والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك ولكنك سيد بنى كنانة ، فقم فأجِرْ بين الناس ، ثم ألحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً ، قال : لا والله ما أظنه ، ولكنى ما أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس ! إنى قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره فانطلق فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ قال : جئت محمداً فكلمته ، فوالله مارد علىّ شيئا ، ثم جئت ابن أبى قحافة ، فلم أجد فيه خيراً ، ثم جئت عمر بن الخطاب ، فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم ، قد أشار علىّ بشىء صنعته فوالله ما أدرى ، هل يغنى عنى شيئاً ، أم لا ؟ قالوا : وبم أمرك ؟ قال : أمرنى أن أجير بين الناس ، ففعلت ، فقالوا : فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال : لا ، قالوا : ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك ، قال : لا والله ما وجدت غير ذلك .

وأمر رسول الله — ﷺ — الناس بالجهاز ، وأمر أهله أن يجهزوه ، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة — رضى الله عنها — وهى تحرك بعض جهاز رسول الله — ﷺ — فقال ، أى بنية ، أمر كن رسول الله — ﷺ — بتجهيزه ؟ قالت : نعم ، فأين ترينه يريد ، قالت : لا والله ما أدرى ثم إن رسول الله — ﷺ — أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، فأمرهم بالجد والتجهيز ، وقال : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها »[1] فتجهز الناس . فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش كتاباً يخبرهم بمسير رسول الله — ﷺ — إليهم ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته فى قرون فى رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسول الله — ﷺ — الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علياً والزبير ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما ، حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها ، وقالا : معك كتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب ، ففتشا رحلها ، فلم يجدا شيئاً ، فقال لها على — رضى الله عنه — أحلف بالله ما كذب رسول الله — ﷺ ولا كذبنا ، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجدَّ منه ، قالت : أعرض فأعرض ، فحلت قرون رأسها ،

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٤

فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله ــ ﷺ ــ حاطباً ، فقال : ما هذا يا حاطب ؟ فقال : لا تعجل على يارسول الله ، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله وما ارتددت ، ولا بدلت ، ولكنى كنت امرءاً ملصقاً فى قريش لست من أنفسهم ، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لى فيهم قرابة ، يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ، فقال عمر بن الخطاب : دعنى يارسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : ــ « إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك ياعمر ، لعل الله قد اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم »[1] فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

ثم مضى رسول الله ــ ﷺ ــ وهو صائم ، والناس صيام حتى إذا كانوا بالكديد ــ وهو الذى تسميه الناس اليوم قديدا ــ أفطر وأفطر الناس معه . (أخرجه البخارى)

ثم مضى حتى أنزل مر الظهران ، وهو بطن مَرٍّ ، ومعه عشرة آلاف ، وعمّى الله الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وارتقاب وكان أبو سفيان يخرج يتحسس الأخبار فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يتحسسون الأخبار ، وكان العباس قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ، فلقى رسول الله ــ ﷺ ــ بالجحفة ، وقيل : فوق ذلك ، وكان ممن لقيه فى الطريق ابن عمه سفيان بن الحارث ، وعبد الله بن أبى أمية لقياه بالأبواء ، وهما ابن عمه وابن عمته ، فأعرض عنهما لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو ، فقالت له أم سلمة : لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك ، وقال على لأبى سفيان فيما حكاه أبو عمر : أئت رسول الله ــ ﷺ ــ من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف ﴿ **تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين** ﴾[2] فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا ، ففعل ذلك أبو سفيان ، فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين »[3]

فأنشده أبو سفيان أبياتاً منها :

لعمرك إنى حين أحمل راية ... لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكا لمدلج الحيران أظلم ليلة ... فهذا أوانى حين أهدى فأهتدى
هدانى هادٍ غير نفسى ودلنى ... على الله من طرَّدت كل مطرَّد

فضرب رسول الله ــ ﷺ ــ صدره وقال : « أنت طردتنى كل مطرَّد »[3] وحسن إسلامه بعد ذلك .

---

١ ــ الاية : ٩١ من سورة يوسف ٢ ــ الآية ٩٢ من سورة يوسف
٣ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٢٠
وفى المستدرك للحاكم حـ ٣ صـ ٤٣ ، ٤٤ ، وسنده جيد ، وصححه الحاكم ، وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى

ويقال : إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله — ﷺ — منذ أسلم حياء منه ، وكان رسول الله — ﷺ — يحبه وشهد له بالجنة وقال : « أرجو أن يكون خلفاً من حمزة »[١] ولما حضرته الوفاة ؛ قال : لا تبكوا عليَّ ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت .

فلما نزل رسول الله — ﷺ — مر الظهران ، نزله عشاء فأمر الجيش فأوقدوا النيران ، فأوقدت عشرة آلاف نار ، وجعل رسول الله — ﷺ — الحرس عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وركب العباس بغلة رسول الله — ﷺ — البيضاء ، وخرج يلتمس لعله يجد بعض الحَطّابة ، أو أحداً يخبر قريشاً ليخرجوا يستأمنون رسول الله — ﷺ — قبل أن يدخلها عنوة ، قال : والله إنى لأسير عليها إذ سمعت كلام أبى سفيان ، وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً ، قال : يقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ، قال : فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة فعرف صوتى ، فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم ، قال : ما لك فداك أبى وأمى ؟ قال : قلت : هذا رسول الله — ﷺ — فى الناس واصَبَاحَ قريش والله : ، قال : فما الحيلة فداك أبى وأمي ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله — ﷺ — فاستأمنه لك ، فركب خلفى ورجع صاحباه ، قال : فجئت به ، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين ، قالوا : « من هذا ؟ » فإذا رأوا بغلة رسول الله — ﷺ — قالوا : عمُّ رسول الله — ﷺ — على بغلته ، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب ، فقال : من هذا ؟ وقام إلَّى ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد ، ثم خرج يشتد نحو رسول الله — ﷺ — ، وركضت البغلة فسبقت ، فاقتحمت عن البغلة ، فدخلت على رسول الله — ﷺ — ودخل عليه عمر ، فقال : يارسول الله : هذا أبو سفيان ، فدعنى أضرب عنقه ، قال : قلت : يارسول الله — ﷺ — إنى قد أجرته ، ثم جلست إلى رسول الله — ﷺ — فأخذت برأسه ، فقلت : والله لا يناجيه الليلة أحد دونى ، فلما أكثر عمر فى شأنه ، قلت : مهلا ياعمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، قال : مهلاً ياعباس ، « فوالله لأسلامك كان أحب إلّى من إسلام الخطاب لو أسلم ، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله — ﷺ — من إسلام الخطاب ، فقال رسول الله — ﷺ — « اذهب به ياعباس إلى رحلك ، فإذا أصبحت فأتنى به » فذهبت فلما أصبحت ، غدوت به إلى رسول الله — ﷺ — قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إلا الله إلا الله ؟ »[٢] قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك ،

---

١ — الحديث فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة — فى ترجمة أبى سفيان بن الحارث القرشى حـ ٦ صـ ١٤٦ رقم ٥٩٥٩

٢ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٢٢

وأكرمك ، وأوصلك ، لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ، لقد أغنى شيئاً بعد ، قال : « ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ » قال : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، أمَّا هذه ، فإن فى النفس حتى الآن منها شيئا ، فقال له العباس ويحك أسلم ، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق ، فقال العباس يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه ، فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام ، فهو آمن »[1] .

وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله ، فيراها ، ففعل ، فمرت القبائل على راياتها ، كلما مرت به قبيلة قال : ياعباس ، من هذه ؟ فأقول : سُلَيم ، قال : فيقول : مالى ولسُلَيم ، ثم تمر به القبيلة ، فيقول : ياعباس ! من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ، حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سألنى عنها ، فإذا أخبرته بهم قال : مالى ولبنى فلان حتى مر به رسول الله — ﷺ — فى كتيبته الخضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا الحَدَقَ من الحديد قال : سبحان الله ياعباس ، من هؤلاء ؟ قال : قلت : هذا رسول الله — ﷺ — فى المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ، ثم قال : والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما ، قال : قلت ياأبا سفيان : إنها النبوة ، قال : فنعم إذاً ، قال : قلت : النجاء إلى قومك .

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة ، فلما مر بأبى سفيان ، قال له ، اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً . فلما حاذى رسول الله — ﷺ أبا سفيان ، قال : يارسول — ﷺ — ألم تسمع ما قال سعد ؟ قال : وما قال ، فقال : كذا وكذا ، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف : يارسول الله ، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة ، فقال رسول الله — ﷺ — « بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة ، اليوم يوم أعز الله فيه قريشاً » ثم أرسل رسول الله — ﷺ — إلى سعد ، فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه ، قال أبو عمر : وروُى أن النبى — ﷺ — لما نزع منه الراية ، دفعها إلى الزبير .

ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قريشا ، صرخ بأعلى صوته يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، فقامت إليه هند بنت عتبة ، فأخذت بشاربه ، فقالت اقتلوا الحميت الدسم ، الأحمش الساقين ، قُبح من طليعة قوم ، قال : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به ، من دخل دار أبى سفيان ، فهو آمن ومن دخل المسجد ، فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، وما تغنى عنا دارك . قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وسار رسول الله — ﷺ — فدخل مكة

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٤ صـ ٢٢

من أعلاها ، وضُربت له هنالك قبة ، وأمر رسول الله ــ ﷺ ــ خالد بن الوليد أن يدخلها من أسلفها ، وكان على المجنبة اليمنى ، وفيها أسلم ، وسليم ، وغِفار ، ومزينة ، وجهينة ، وقبائل من قبائل العرب ، وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسَّر ، وهم الذين لا سلاح معهم ، وقال لخالد ومن معه : إن عرض لكم أحد من قريش ، فاحصدوهم حصداً حتى توافونى على الصفا ، فما عرض لهم أحد إلا أناموه ، وتجمع سفهاء قريش وأخفاؤها مع عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو بالخندمة ليقاتلوا المسلمين ، وكان حماس بن قيس بن خالد أخو بنى بكر يعد سلاحاً قبل دخول رسول الله ــ ﷺ ــ فقالت له امرأته : لماذا تعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه ، قالت والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء ، قال : إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم ، ثم قال :

إن يقبلوا اليوم فما لى علة ... هذا سلاح كامل وألَّـه
وذو غِرارين سريع السَّلهْ

ثم شهد الخندمة مع صفوان وعكرمة وسهيل بن عمرو ، فلما لقيهم المسلمون ناوشوهم شيئاً من قِتال ، فقتل كُرزين جابر الفهرى ، وخُنيس بن خالد بن ربيعة من المسلمين ، وكانا فى خيل خالد بن الوليد ، فشذا عنه ، فسلكا طريقاً غير طريقه ، فقتلا جميعاً ، وأصيب من المشركين نحو اثنى عشر رجلاً ، ثم انهزموا ، وانهزم حماس صاحب السلاح حتى دخل بيته ، فقال لامرأته : أغلقى علَّى بابى ، فقالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة
واستقبلتنا بالسيوف المسلمة ... يقطعن كل ساعد وجمجمة
ضرباً فلا نسمع إلا غمغمة ... لهم نهيت خلفنا **وهمهمة**
لم تنطقى فى اللوم أدنى كلمة .

وركُزت رايةُ رسول الله ــ ﷺ ــ بالحجون عند مسجد الفتح .

ثم نهض رسول الله ــ ﷺ ــ والمهاجرون والأنصار بين يديه ، وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد ، فأقبل إلى الحجر الأسود **فاستلمه** ، ثم طاف بالبيت ، وفى يده قوس ، وحول البيت ، وعليه ثلاثمائة وستون **صنما** ، فجعل يطعنها بالقوس ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) (جاء الحق وما يبدى الباطل وما يعيد)[1] والأصنام تتساقط على وجوهها .

وكان طوافه على راحلته ، ولم يكن محرما يومئذ ، فاقتصر على الطواف ، فلما أكمله ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، فأمر بها ففتحت ، فدخلها فرأى فيها الصور ، ورأى فيها صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام ، فقال :

---

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٧ وفى صحيح البخارى ــ باب غزوة الفتح حـ ٥ صـ ١٨٨

« قاتلهم الله ، والله ما استقسما بها قط »[1] ورأى فى الكعبة حمامة من عيدان ، فكسرها بيده ، وأمر بالصور فمحيت .

ثم أغلق الباب ، وعلىٌّ وأسامة وبلال ، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع ، وقف وصلى هناك ، ثم دار فى البيت ، وكبر فى نواحيه ، ووحد الله ، ثم فتح الباب ، وقريش قد ملأت المسجد صنوفاً ينتظرون ماذا يصنع ، فأخذ بعضا وتى الباب ، وهم تحته ، فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ألا كل مأثرة أو مال أو دم ، فهو تحت قدمى هاتين الإسدانة وسقاية الحاج ، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ، ففيه الدية مغلظة مائة من الابل ، أربعون منها فى بطونها أولادها ، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء ، الناس من آدم وآدم من تراب » . ثم تلا هذه الآية : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ ثم قال : « يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ »[1] قالوا : خير أخ كريم وابن أخ كريم قال : « فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

ثم جلس فى المسجد ، فقام إليه على — رضى الله عنه — ومفتاح الكعبة فى يده ، فقال : يارسول الله ! اجمع لنا الحجابة مع السقاية — ﷺ — فقال رسول الله — ﷺ — « أين عثمان بن طلحة ؟ »[1] فدعى له ، فقال له : « هاك مفتاحك ياعثمان ، اليوم يوم بر ووفاء »[2]

وأمر رسول الله — ﷺ — بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة وأبو سفيان بن حرب ، وعتاب بن أسير ، والحارث بن هشام ، وأشراف قريش جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب : لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا ، فيسمع منه ما يغيظه ، فقال الحارث : أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته ، فقال أبو سفيان : أما والله لا أقول شيئاً ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء ، فخرج عليهم النبى — ﷺ — فقال لهم : « قد علمت الذى قلتم »[3] ثم ذكر ذلك لهم ، فقال الحارث وعتاب : نشهد أنك رسول الله ، ما اطلع على هذا أحد كان معنا ، فنقول أخبرك ثم دخل رسول الله — ﷺ — دار أم هانىء بنت أبى طالب ، فاغتسل ، وصلى ثمان ركعات فى بيتها ، وكانت ضحى فظنها من ظنها صلاة الضحى ، وإنما هذه صلاة الفتح ، وكان أمراء الإسلام إذا فتحوا حصناً أو بلداً ، صلوا عقيب الفتح هذه الصلاة اقتداء برسول الله — ﷺ — وفى القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكراً لله عليه ، فإنها قالت : ما رأيته صلاها قبلها ولا بعدها .

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٢

٢ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٢

٣ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٣

وأجارت أم هانىء حموين لها ، فقال لها رسول الله ــ ﷺ ــ : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانىء »[(١)] .

ولما استقر الفتح ، أمّن رسول الله ــ ﷺ ــ الناس كلهم إلا تسعة نفر ، فإنه أمر بقتلهم ، وإن وجدوا تحت ستار الكعبة ، وهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وعكرمة بن أبى جهل ، وعبد العزى بن خطل ، والحارث بن نفيل بن وهب ، ومقيس ابن صبابة ، وهبّار بن الأسود ، وقينتان لابن خطل ، كانت تغنيان بهجاء رسول الله ــ ﷺ ــ ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب .

فأما ابن أبى سرح فأسلم ، فجاء به عثمان بن عفان ، فاستأمن له رسول الله ــ ﷺ ــ فقبل منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله ، وكان قد أسلم قبل ذلك ، وهاجر ، ثم أرتد ، ورجع إلى مكة . وأما ابن خطل ، والحارث ، ومقيس ، وإحدى القينتين ، فقتلوا ، وكان مقيس ، قد أسلم ، ثم ارتد وقتل ، ولحق بالمشركين ، وأما هبّار بن الأسود ، فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله ــ ﷺ ــ حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة ، وأسقطت جنينها ، ففر ، ثم أسلم وحسن إسلامه .

واستؤمن رسول الله ــ ﷺ ــ لسارة ولإحدى القينتين ، فأمنهما فأسلمتا .

فلما كان الغد من يوم الفتح ، قام رسول الله ــ ﷺ ــ فى الناس خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ومجّده بما هو أهله ، ثم قال : « يا أيها الناس إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً أو يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ــ ﷺ ــ فقولوا : إن الله أذن لرسوله ، ولم يأذن لكم ، وإنما حلت لى ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد الغائب » (اخرجه البخارى)[(٢)] .

ولما فتح الله مكة على رسوله ،وهى بلده ، ووطنه ، ومولده ، قال الأنصار فيما بينهم : أترون رسول الله ــ ﷺ ــ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها ، وهو يدعو على الصفا رافعاً يديه ؟ فلما فرغ من دعائه ، قال : ماذا قلتم ؟ قالوا : لا شىء يارسول الله ، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « معاذ الله ، المحيا محياكم والممات مماتكم » (أخرجه مسلم)[(٣)]

---

(١) ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣١
(٢) ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٥ ، ٣٦
وفى صحيح البخارى ــ باب غزوة الفتح ــ حـ ٥ صـ ١٩٤ ط الشعب
(٣) ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٣٦ .
وفى صحيح مسلم ــ كتاب الجهاد والسير حـ ٣ صـ ١٤٠٦ ، ١٤٠٨

وهمَّ فضالة بن عمير بن الملوح أن يقتل رسول الله ــ ﷺ ــ وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه ، قال له رسول الله ــ ﷺ ــ أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يارسول الله ، قال : « ماذا كنت تحدث به نفسك[٢] ؟ » قال : لا شيء كنت أذكر الله ، فضحك النبي ــ ﷺ ــ ثم قال : « استغفر الله »[٣] ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما خلق الله شيئاً أحب إلَّى منه ، قال فضالة : فرجعت إلى أهلى ، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلمَّ إلى الحديث ؟ فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت هلمَّ إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام
لو قد رأيت محمداً وقبيله ... بالفتح يوم تكُسَّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّناً ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

وفر يومئذ صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، فأما صفوان ، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ــ ﷺ ــ فأمنه وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة ، فلحقه عمير وهو يريد أن يركب البحر فرده ، فقال اجعلنى فيه بالخيار شهرين ، فقال : أنت بالخيار فيه أربعة أشهر .

وكانت أم حكيم بنت الحارث بن هشام تحت عكرمة بن أبى جهل فأسلمت ، واستأمنت له رسول الله ــ ﷺ ــ فأمنه فلحقت به باليمن ، فأمنته فردته ، وأقرهما رسول الله ــ ﷺ ــ هو وصفوان على نكاحهما الأول .

ثم أمر رسول الله ــ ﷺ ــ تميم بن أسيد الخزاعى فجدد أنصاب الحرم (حجارة تجعل علامات بين الحل والحرم) ، وبث رسول الله ــ ﷺ ــ سراياه إلى الأوثان التى كانت حول الكعبة فكسرت كلها منها اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع فى بيته صنماً إلا كسره » .

فصل
فى الإشارة إلى ما فى الغزوة من الفقه واللطائف

قال ابن القيم :

كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم ، آمن الناس به ، وكلَّم بعضهم بعضاً وناظره فى الإسلام ، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه ، والمناظرة عليه ،

---

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٤ صـ ٣٣

٢ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٤ صـ ٣٧

ودخل بتسببه بشر كثير فى الإسلام ، ولهذا سماه الله فتحاً فى قوله ﴿ **إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً** ﴾ نزلت فى شأن الحديبية ، فقال عمر : يارسول الله ! أو فتح هو ؟ قال : « نعم »[1] وأعاد سبحانه وتعالى ذكر كونه فتحاً فقال ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ إلى قوله ﴿ **فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً** ﴾ .

وهذا شأنه سبحانه وتعالى أن يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل إليها ، المنبهة عليها ، كما قدم بين يدى قصة المسيح وخلقه من غير أب قصة زكريا ، وخلق الوَلد له مع كونه كبيرا لا يولد لمثله ، وكما قدم بين يدى نسخ القبلة قصة البيت وبنائه وتعظيمه ، والتنويه به ، وذكر بانيه ، وتعظيمه ومدحه ، ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ ، وحكمته المقتضية له ، وقدرته الشاملة له ، وهكذا ما قدم بين يدى مبعث رسوله — ﷺ — من قصة الفيل ، وبشارات الكهان به ، وغير ذلك ، وكذلك الرؤيا الصالحة لرسول الله — ﷺ — كانت مقدمة بين يدى الوحى فى اليقظة ، وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدى الأمر بالجهاد ، ومن تأمل أسرار الشرع والقدر ، رأى من ذلك ما تبهر كلمته الألباب .

وفيها : أن أهل العهد إذا حاربوا من هم فى ذمة الإمام وجواره وعهده ، صاروا حرباً له بذلك ، ولم يبق بينهم وبينه عهد ، فله أن يبيتهم فى ديارهم ، ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء ، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة ، فإذا تحققها ، صاروا نابذين لعهده .

وفيها : انتقاض عهد جميعهم بذلك ، ردئهم ومباشريهم إذا رضوا بذلك ، وأقروا عليه ولم ينكروه ، فإن الذين أعانوا بنى بكر من قريش بعضهم ، لم يقاتلوا كلهم معهم ، ومع هذا فغزاهم رسول الله — ﷺ — كلهم ، وهذا كما أنهم دخلوا فى عقد الصلح تبعاً ، ولم ينفرد كل واحد منهم بصلح ، إذ قد رضوا به وأقروا عليه ، فكذلك حكم نقضهم للعهد ، هذا هدى رسول الله — ﷺ — لا شك فيه كما ترى ...

وهذا حكم قطاع الطريق ، حكم ردئهم حكم مباشرهم ؛ لأن المباشر إنما باشر الإفساد بقوة الباقين ، ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه ، وهذا هو الصواب الذى لا شك فيه ، وهو مذهب أحمد ، ومالك ، وأبى حنيفة ، وغيرهم .

وفيها : جواز صلح أهل الحرب على وضع القتال عشر سنين ، وهل يجوز فوق ذلك ، الصواب : أنه يجوز للحاجه والمصلحة الراجحة كما إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم ، وفى العقد لما زاد عن العشر مصلحة للإسلام .

---

١ — انظر تفسير ابن كثير حـ ٧ صـ ٣٠٨ — تفسير سورة الفتح
والحديث فى مسند أحمد حـ ٣ صـ ٤٨٦

وفيها : أن الإمام وغيره إذا سئل ما لايجوز بذله ، أو لا يجب ، فسكت عن بذله ، لم يكن سكوته بذلا له ، فإن أبا سفيان سأل رسول الله ـ ﷺ ـ تجديد العهد ، فسكت رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يجبه بشيء ، ولم يكن بهذا السكوت معاهداً له .

وفيها : أن رسول الكفار لا يقتل ، فإن أبا سفيان كان ممن جرى عليه حكم انتقاض العهد ، ولم يقتله رسول الله ـ ﷺ ـ إذ كان رسول قومه إليه .

وفيها : جواز تبييت الكفار ، ومغافضتهم (أى أخذهم على غرة) فى ديارهم إذ كانت قد بلغتهم الدعوة ، وقد كانت سرايا رسول الله ـ ﷺ ـ يبيتون الكفار ، ويغيرون عليهم بإذنه بعد أن بلغتهم دعوته .

وفيها : جواز قتل الجاسوس وإن كان مسلماً ؛ لأن عمر ـ رضى الله عنه ـ سأل رسول الله ـ ﷺ ـ قتل حاطب بن أبى بلتعة لما بعث يخبر أهل مكة بالخبر ، ولم يقل رسول الله ـ ﷺ ـ : لا يحل قتله أنه مسلم ، بل قال : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم »[1] فأجاب بأن فيه مانعاً من قتله ، وهو شهوده بدراً ، وفى الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوس ليس له مثل هذا المانع ، وهذا مذهب مالك ، وأحد الوجهين فى مذهبا أحمد ، وقال الشافعى وأبو حنيفه : لا يُقتل ، وهو ظاهر مذهب أحمد ، والفريقان يحتجون بقصة حاطب ، والصحيح أن قتله راجع إلى الإمام ، فإن رأى فى قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان استبقاؤه أصلح ، استبقاه ، والله أعلم .

وفيها : جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة ، فإن علياً والمقداد قالا للظعينة : لتخرجن الكتاب أو لنكشفنك ، وإذا جاز تجريدها لحاجتها إلى ذلك حيث تدعو إليها ، فتجريدها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى .

وفيها : أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولاً وغضباً لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه ، فإن لا يكفر بذلك ، بل لا يأثم به ، بل يثاب على نيته وقصده ، وهذا بخلاف أهل الأهواء والبدع ، فإنهم يكفرون ويُبِّدعون لمخالفة أهوائهم ونحلهم وهم أولى بذلك ممن كفّروه وبدّعوه .

وفيها : أن الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تكفر بالحسنة الكبيرة الماحية ، كما وقع الجسُّ من حاطب بشهوده بدراً ، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنة العظيمة من المصلحة ، وتضمنته من محبة الله لها ورضاه بها ، وفرحه بها ، ومباهاته للملائكة بفاعلها ، أعظم مما اشتملت عليه سيئة الجسَّ من المفسدة ، وتضمّنته من بغض الله لها ، فغلبَ الأقوى على الأضعف ، فأزاله ، وأبطل مقتضاه ، وهذه حكمة الله فى الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات ، الموجبين لصحة القلب ومرضه ، وهى نظير حكمته تعالى فى الصحة والمرض اللاحقين للبدن فإن الأقوى منها يقهر المغلوب ، ويصير الحكم له حتى يذهب أثر الأضعف ، فهذه حكمته فى خلقه وقضائه ، وتلك حكمته فى شرعه وأمره ...

---

١ ـ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ١ صـ ٣٣١

فتأمل قوة إيمان حاطب التى حملته على شهود بدر ، وبذله نفسه مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وإيثاره الله ورسوله على قومه وعشيرته وقرابته وهم بين ظهرانى العدو ، وفى بلدهم ، ولم يثن ذلك عنان عزمه ، ولا فَلَّ من حد إيمانه ومواجهته للقتال من أهله وعشيرته وأقاربه عندهم فلما جاء مرضى الجسَّى ، برزت إليه هذه القوة ، وكان البُحرانُ صالحاً فاندفع المرضى ، وقام المريض ، كأن لم يكن به قَلَبَه ولما رأى الصبيب قوة إيمانه قد استعملت على مرض جسه وقهرته ، قال لمن أراد فصده : لا يحتاج هذا العارف إلى فصاد ، « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم قد غفرت لكم »[1] وعكس هذا ذو الخويصرة التميمى وأضرابه من الخوارج الذين بلغ اجتهادهم فى الصلاة والصيام والقراءة إلى حد يَحقُر أحد الصحابة عمله معه ، كيف قال فيهم : « لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد »[2] وقال « اقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً عند الله لمن قتلهم »[3] . وقال « شر قتلى تحت أديم السماء » (أخرجه مسلم) . فلم ينتفعوا بتلك الأعمال العظيمة مع تلك المواد الفاسدة المهلكة واستحالت فاسدة .

وتأمل فى حال إبليس لما كانت المادة المهلكة كامنة فى نفسه ، لم ينتفع معها بما سلف من طاعاته ، ورجع إلى شاكلته وما هو أولى به ، وكذلك الذى آتاه الله آياته ، فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان ، فكان من الغاوين وأضرابه وأشكاله ، فالمعَوَّل على السرائر والمقاصد والنيات والهمم ، فهى الإكسير الذى يقلب نحاس الأعمال ذهباً ، أو يردها خَبَثاً ، وبالله التوفيق .

ومن له لب وعقل ، يعلم قدر هذه المسألة وشدة حاجته إليها وانتفاعه بها ، ويطلع منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته فى خلقه ، وأمره ، وثوابه ، وعقابه ، وأحكام الموازنة ، وإيصال اللذة والألم إلى الروح والبدن فى المعاش والمعاد ، وتفاوت المراتب فى ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائم على كل نفس بما كسبت .

وفيها : جواز بل استحباب كثرة المسلمين وقوتهم وشوكتهم وهيئتهم لرسل العدو إذا جاؤوا إلى الإمام كما يفعل ملوك الإسلام ، كما أمر النبى — صلى الله عليه وسلم — بإيقاد النيران ليلة الدخول إلى مكة ، وأمر العباسى أن يحبس أبا سفيان عند حظيم الجبل ، وهو ما تضايق منه حتى عرضت عليه عساكر الإسلام ، وعصابة التوحيد وجند الله ، وعرضت عليه خاصكية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — (وهم الجند الخاص بحراسة الأمير) وهم فى السلاح منهم إلا الحدق ، ثم أرسله ، فأخبر قريشا بما رأى .

وفيها : جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام ، كما دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — والمسلمون ، وهذا لا خلاف فيه ، ولا خلاف أنه لا يدخلها من أراد الحج أو العمرة إلا بإحرام ، واختلف فيما سوى ذلك إذا لم يكن الدخول لحاجه متكررة ، كالحشَّاش والحطَّاب على ثلاثة أقوال :

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٧
٢ — الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الزكاة — حـ ٢ صـ ٧٤٢
٣ — الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الزكاة — حـ ٢ صـ ٧٤٧

أحدها : لا يجوز دخولها إلا بإحرام ، وهذا مذهب ابن عباس — رضى الله عنه — وأحمد فى ظاهر مذهبه ، والشافعى فى أحد قوليه .

والثانى : أنه كالحشاش والحطاب ، فيدخلها بغير إحرام ، وهذا القول الآخر للشافعى ، ورواية عن أحمد .

والثالث : أنه إن كان داخل المواقيت ، جاز دخوله بغير إحرام ، وإن كان خارج المواقيت ، لم يدخل إلا بإحرام ، وهذا مذهب أبى حنيفه ، وهدى رسول الله — ﷺ — معلوم فى المجاهد ، ومريد النسك ، وأما من عداهما فلا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله ، أو أجمعت عليه الأمة .

وفى القصة : أن النبى — ﷺ — دخل البيت ، وصلى فيه ، ولم يدخله حتى محيث الصور منه ، ففيه دليل على كراهية الصلاة فى المكان المصور ، وهذا أحق بالكراهة من الصلاة فى الحمام ؛ لأن كراهة الصلاة فى الحمام ، إما لكونه مظنة النجاسة ، وإما لكونه بيت الشيطان ، وهو الصحيح ، وأما حمل الصور ، فمظنة الشرك ، وغالب شرك الأمم كان من جهة الصور والتبور .

وفى القصة : أنه دخل مكة ، وعليه عمامة سوداء ، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحيانا ، ومن ثم جعل خلفاء بنى العباس لبس السواد شعارا لهم ، ولولاتهم ، وقضاتهم ، وخطبائهم والنبى — ﷺ — لم يلبسه لباساً راتباً ، ولا كان شعاره فى الأعياد ، والجمع ، والمجامع العظام البتة ، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة ، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد ، بل كان لواؤه أبيض . وفى قصة الفتح من الفقه : جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين كما أجاز النبى — ﷺ — أمان أم هانىء لحمويها . وفيها من الفقه جواز قتل المرتد الذى تغلظت ردته من غير اشتابه ، فإن عبد الله بن مسعد بن أبى سرح كان قد أسلم وهاجر ، وكان يكتب الوحى لرسول الله — ﷺ — ثم ارتد ، ولحق بمكة ، فلما كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله — ﷺ — ليبايعه فأمسك عنه طويلاً ، ثم بايعه ، وقال : « إنما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم ، فيضرب عنقه » فقال له رجل : هلّا أومأت إلَّى يارسول الله ؟ فقال : « ما ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين » . (أخرجه أبو داود وصححه الحاكم ووافقه الذهبى)[1] فهذا كان قد تغلظ كفره بردته بعد إيمانه ، وهجرته ، وكتابة الوحى ، ثم ارتد ولحق بالمشركين يطعن فى الإسلام ويعيبه ، وكان رسول الله — ﷺ — يريد قتله ، فلما جاء به عثمان بن عفان وكان أخاه من الرضاعة لم يأمر النبى — ﷺ — بقتله حياء من عثمان ، ولم يبايعه ليقوم إليه بعض أصحابه فيقتله ، فهابوا رسول الله — ﷺ — أن يقدموا على قتله بغير إذنه ، واستحيى رسول الله — ﷺ — من عثمان ، وساعد القدر السابق لما يريد الله سبحانه بعبد الله مما ظهر منه بعد ذلك من الفتوح ، فبايعه ، وكان ممن

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٢٩

استثنى الله بقوله : ﴿ **كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم** ﴾[١] .

وقوله ــ ﷺ ــ « ما ينبغى لنبى أن تكون له خائنة الأعين »[٢] أى : أن النبى ــ ﷺ ــ لا يخالف ظاهره باطنه ، ولا سره علانيته ، وإذا نفذ حكم الله وأمره لم يُوم به ، بل صرّح به وأعلنه ، وأظهره .

خامساً : غزوة حنين .

قال العلامة ابن القيم فى الزاد :

فى غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس .

وهما موضعان بين مكة والطائف ، فسميت الغزوة باسم مكانها ، وتسمى غزوة هوازن ؛ لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ــ ﷺ ــ

قال ابن إسحاق : ولما سمعت هوازن برسول الله ــ ﷺ ــ وما فتح الله عليه من مكة ، جمعها مالك بن عوف النصْرى واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، واجتمعت إليه مُضر وجُشَمُ كلها ، وسعد بن بكر ، وناس من بنى هلال ، وهم قليل ، ولم يشهدها من قيس عيلان إلا هؤلاء ، ولم يحضرها من هوازن كعب ، ولا كلاب ، وفى جشم دريد بن الصمة شيخ كبير ليس فيه إلا رأية ومعرفته بالحرب ، وكان شجاعاً مجرَّباً ، وفى ثقيف سيدان لهم ، وفى الأحلاف قارب بن الأسود ، وفى بنى مالك سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث وجماع أمر الناس إلى مالك بن عوف النصرى ، فلما أجمع السير إلى رسول الله ــ ﷺ ــ ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، فلما نزل قال : بأى واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، لا حَزن ضرس ، ولا سهل دهْس . مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير وبكاء الصبى ، ويعار الشاء ؟ قالوا : ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم . قال أين مالك ؟ قيل : هذا مالك ، ودُعى له : قال : يامالك إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام ، مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويعار الشاء ؟ ! قال : سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم ، قال : ولم ؟ قال : أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم فقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد المنهزم شىء ، إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ،

---

١ ــ الآيات ٨٦ إلى ٨٩ من سورة آل عمران

٢ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٢٩

وإن كانت عليك ، فضحت فى أهلك ومالك ، ثم قال : ما فعلت كعب وكلاب ؟ قالوا : لم يشهدها أحد منهم . قال : غاب الحد والجِدُ ، لو كان يوم علاء ورفعة ، لم تغب عنا كعب ولا كلاب ولــوددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب ، فمن شهدها منكم ؟ قالوا : عمرو بن عامر ، وعوف بن عامر ؟ قال : ذانك الجذَعَانِ من عامر (يريد أنهما ضعيفان فى الحرب) ولا ينفعان ولا يضران . يامالك ! إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئاً ، ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم وعُليا قومهم ، ثم الق الصُباة على متون الخيل فإن كانت لك ، لحق بك من وراءك . وإن كانت عليك ألفاك ذلك ، وقد أحرزت أهلك ومالك ، قال : والله لا أفعل ، إنك قد كبرت وكبر عقلك ، والله لَتُطيعُنَّنى يامعشر هوازن ، أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى ، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر ورأى ، فقالوا : أطعناك ، فقال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفُتنى .

ثم قال مالك للناس : إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد ، وبعث عيونا من رجاله ، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم ، قال : ويلكم ما شأنكم ؟ قالوا : رأينا رجالاً بيضاً على خيل بُلقٍ ، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى ، فوالله مارده ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد .

ولما سمع بهم نبى الله — صلى الله عليه وسلم — بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد الأسلحة ، وأمره أن يدخل فى الناس ، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ، ثم يأتيه بخبرهم ، فانطلق ابن أبى حدرد ، فدخل فيهم حتى سمع وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه ، ثم أقبل حتى أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبره الخبر .

فلما أجمع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — السير إلى هوازن ، ذكر له أن عند صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً ، فأرسل إليه ، وهو يومئذ مشرك ، فقال : « ياأبا أمية ! أعرنا سلاحك هذا نلقى فيه عدونا غداً » فقال صفوان : أغصباً يامحمد ؟ قال : « بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك »[1] ، فقال ليس بهذا بأس ، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح ، فزعموا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — سأله أن يكفيهم حملها ، ففعل .

ثم خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — معه ألفان من أهل مكة ، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه ، ففتح الله بهم مكة ، وكانوا اثنى عشر ألفاً ، واستعمل عتاب بن أسيد على مكة أميراً ، ثم مضى يريد لقاء هوازن .

قال ابن إسحاق : فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن عبد الرحمن بن جابر ، عن أبيه جابر بن عبد الله ، قال : لما إستقبلنا وادى حنين انحدرنا فى وادى من أودية تهامة أجوف حطوط (منحدر) ، إنما تنحدر فيه انحداراً . قال : وفى عماية الصباح ، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادى ، فكمنوا لنا فى شعابه وأصنائه ومضايقه قد أجمعوا ، وتهيؤوا ، وأعدوا فوالله ما راعنا — ونحن منحطُّون — إلا الكتائب ،

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٤ — ٦٨

قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد ، وانحاز رسول الله ــ ﷺ ــ ذات اليمين ، ثم قال : « إلى أين أيها الناس ؟ هلم إلَّى أنا رسول الله أنا محمد بن عبد الله »[1] ، وبقى مع رسول الله ــ ﷺ ــ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ، وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته على والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه ، والفضل بن العباسى ، وربيعة بن الحارث ، وأسامة بن زيد ، وأيمن بن أم أيمن ، وقتل يومئذ .

قال : ورجل من هوازن على جمل له أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل أمام هوازن ، وهوازن خلفه ، إذا أدرك ، طعن برمحه ، وإذا فاته الناس ، رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فبينا هو كذلك إذ أهوى عليه على بن أبى طالب ، ورجل من الأنصار يريدانه ، قال : فأتى علىٌّ بن خلفه ، فضرب عرقوبى الجمل ، فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل ، فضربه ضربة أطعن قدمه بنصف ساقه ، فانجعف عن رحله ، قال : فاجتلد الناس ، قال : فوالله ما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ــ ﷺ ــ .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المسلمون ، ورأى من كان مع رسول الله ــ ﷺ ــ من جفاة أهل مكة الهزيمة فكلم رجال منهم بما فى أنفسهم من الضِّغن ، فقال أبو سفيان بن حرب : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر ، وإن الأزلام لمعه فى كنانته ، وصرخ جبلة بن الحنبل ــ وقال ابن هشام : صوابه كَلَدة ــ ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان أخوه لأمه وكان بعد مشركا : اسكت فض الله فاك ، فوالله لأن يُربَّنى رجل من قريش أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن وقال ابن إسحاق : وحدثنى الزهرى ، عن كثير بن العباس ، عن أبيه العباس بن عبد المطلب ، قال : إنى لمع رسول الله ــ ﷺ ــ آخذ بحكمة بغلته البيضاء ، قد شجرتها بها ، وكنت امرءا جسيما شديد الصوت ، قال : رسول الله ــ يقول حين رأى ما رأى من الناس : « إلى أين أيها الناس ؟ » . قال : فلم أر الناس يلوون على شىء ، فقال : « ياعباس اصرخ : يامعشر الأنصار يامعشر أصحاب السَّمُرة » ، فأجابوا : لبيك لبيك . قال : فيذهب الرجل ليثنى بعيره ، فلا يقدر على ذلك ، فيأخذ درعه فيقذفها فى عنقه ، ويأخذ سيفه وقوسه وترسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، ويؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس ، فاقتتلوا فكانت الدعوة أول ما كانت للأنصار ، ثم خلصت آخراً : ياللخزرج ، وكان صبُراً عند الحرب ، فأشرف رسول الله ــ ﷺ ــ فى ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم ، وهم يجتلدون . فقال : « الآن حمى الوطيس »[1] وزاد غيره .

١ ــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ــ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٧٢

« أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب »[٤]

وفى « صحيح مسلم » : ثم أخذ رسول الله ـ ﷺ ـ حصيات ، فرمى بها فى وجوه الكفار ، ثم قال : « انهزموا ورب محمد »[٥] فما هو إلا أن رماهم ، فمازلت أرى أحدهم كليلاً ، وأمرهم مدبراً . وفى لفظ له . إنه نزل عن البغلة ، ثم قبض قبضة من تراب الأرض ، ثم استقبل بها وجوههم ، وقال : « شاهت الوجوه »[١] فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة ، فولوا مدبرين .

وذكر ابن اسحاق عن جبير بن مطعم ، قال : لقد رأيت ـ قبل هزيمة القوم ، والناس يقتتلون يوم حنين ـ مثل البجاد الأسود ، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم ، فنظرت فإذا انمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى ، فلم يكن إلا هزيمة القوم ، فلم أشك أنها الملائكة .

قال ابن إسحاق : ولما انهزم المشركون ، أتوا الطائف ، ومعهم مالك بن عوف ، وعسكر بعضهم بأوطاس ، وتوجه بعضهم نحو نخلة ، وبعث رسول الله ـ ﷺ ـ فى آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشعرى ، فأدرك من الناس بعض من انهزم ، فناوشوه القتال ، فرمى بسهم فقتل ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى ، وهو ابن أخيه ، فقاتلهم ففتح الله عليه ، فهزمهم الله ، وقتل قاتل أبى عامر ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « اللهم اغفر لعبيد أبى عامر وأهله ، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك واستغفر لأبى موسى »[٢] .

ومضى مالك بن عوف حتى تحصن بحصن ثقيف ، وأمر رسول الله ـ ﷺ ـ بالسبى والغنائم أن تجمع فجمع ذلك كله ، ووجهوه إلى الجعرانة ، وكان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى بهم رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة .

ثم بدأ بالأموال فقسمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ، ومائة من الإبل فقال : ابنى يزيد ؟ فقال : « أعطوه أربعين أوقية ومائه من الإبل »[٣] فقال : ابنى معاوية ؟ قال : « أعطوه أربعين أوقية ، ومائة من الإبل »[٤] ، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ،

١ ـ الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٥٥٤ من رواية مسلم وأحمد والطبرانى فى الكبير وفى صحيح مسلم ـ كتاب الجهاد والسير ـ حـ ٣ صـ ١٤٠٢

وفى مسند أحمد حـ ١ صـ ٣٦٨ ، صـ ٢٨٦

٢ ـ الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٣٨٨ عن رواية البخارى ومسلم وفى صحيح البخارى ـ باب أوطاس حـ ٥ صـ ١٩٨ ط الشعب وفى صحيح مسلم ـ كتاب فضائل الصحابة ـ حـ ٤ صـ ١٩٤٣ ، ١٩٤٤

٣ ، ٤ ـ الحديث بمعناه فى أسد الغابة فى معرفة الصحابة ـ فى ترجمة أبى سفيان الأموى وهو : صخر بن حرب رقم ٢٤٨٤

ثم سأله مائة أخرى فأعطاه ، وأعطى النضر بن الحارث بن كلده مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفى خمسين ، وذكر أصحاب المائة — وأصحاب ا لخمسين — وأعطى العباس بن مرداس أربعين ، فقال فى ذلك شعرا ، فكمل له المائة . ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الغنائم والناس ، ثم فضها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربعاً من الإبل وأربعين شاة . فإن كان فارساً أخذ اثنى عشر بعيراً وعشرين ومائة شاة قال ابن إسحاق : وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة ، عن محمود بن لبيد ، عن أبى سعيد الخدرى قال : لما أعطى رسول الله — ﷺ — ما أعطى من تلك العطايا فى قريش ، وفى قبائل العرب ، ولم يكن فى الأنصار منها شيء ، وجد هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم ، حتى كثرت فيهم القالة ، حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله — ﷺ — قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة ، فقال : يارسول الله ! إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت ، قسمت فى قومك ، وأعطيت عطايا عظاماً فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار منها شيء . ه

قال : « فأين أنت من ذلك ياسعد »[١] قال : يارسول الله ، ما أنا إلا من قومى . قال : « فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ؟ »[٢] قال : فجاء رجال من المهاجرين ، فتركهم ، فدخلوا ، وجاء آخرون فردهم ، فلما اجتمعوا ، أتى سعد ، فقال : قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار ، فأتاهم رسول الله — ﷺ — فحمد الله ، وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « يامعشر الأنصار مقالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله بى ،

وعالة فأغناكم الله بى وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ »[١] قالوا : الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : « ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ؟ »[٢] قالوا : بماذا نجيبك يارسول الله ، لله ولرسوله المنّ والفضل . قال : « أما والله لو شئتم ، لقلتم ، فلصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكُذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، أوجدتم علىَّ يامعشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، ألا ترضَوْن يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله — ﷺ — إلى رحالكم ، فوالذى نفسى محمد بيده لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة ، لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً وادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار ووديها ، الأنصار شعار والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار[٣]

قال : فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله — ﷺ — وتفرقوا . وقدمت الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله — ﷺ — من الرضاعة ، فقالت : يارسول إنى أختك من

---

١ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٤٧.
٢ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٤٧
٣ — الحديث فى سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٤٧

الرضاعة ، وقال : وما علامة ذلك ؟ قالت : عضة عضضتنيها فى ظهرى ، وأنا متوركتك . قال : فعرف رسول الله — ﷺ — العلامة ، فبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه وخيرها ، فقال : « إن أحببت الإقامة فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك فترجعى إلى قومك »[1] قالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى ، ففعل فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلاما يقال له : مكحول وجارية ، فزوجت إحداهما من الآخر ، فلم يزل من نسلهما بقية . وقال أبو عمر : فأسلمت فأعطاها رسول الله — ﷺ — ثلاثة أعبد وجارية ، ونعماً ، وشاء ، وسماها حذافة . وقال : والشيماء لقب .

فى الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهيه والنكت الحكمية

كان الله — عز وجل — قد وعد رسوله — وهو صادق الوعد — أنه إذا فتح مكة ، دخل الناس فى دينه أفواجا ، ودانت له العرب بأسرها ، فلما تم الفتح المبين ، اقتضت حكمته تعالى أن أمسك قلوب هوازن ومن تبعها عن الإسلام ، وأن يجمعوا ويتألبوا لحرب رسول الله — ﷺ — والمسلمين ، ليظهر أمرَ الله ، وتمام إعزازه لرسوله ، ونصره لدينه ، ولتكون غنائمهم شكراناً لأهل الفتح ، وليظهر الله — سبحانه — رسوله وعباده ، وقهره لهذه الشوكة العظيمة التى لم يلق المسلمون مثلها ، فلا يقاومهم بعد أحد من العرب ، ولغير ذلك من الحكم الباهرة التى تلوح للمتأملين ، وتبدو للمتوسمين .

واقتضت حكمته سبحانه أن أذاق المسلمين أولاً مرارة الهزيمة والكسرة مع كثرة عددهم ، وعُددهم ، وقوة شوكتهم ليطامن رؤوساً رفعت بالفتح ، ولم تدخل بلده وحرمه كما دخله رسول الله — ﷺ — واضعاً رأسه منحنياً على فرسه ، حتى إن ذقنه تكاد تمس سرجه تواضعاً لربه ، وخضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، أن أحل له حرمهُ وبلده و لم يحل لأحد قبله ولا لأحد بعده ، وليبين سبحانه لمن قال : « لن نغلب اليوم عن قلة » أن النصر إنما هو من عنده ، وأنه من ينصره ، فلا غالب له ، ومن يخذله ، فلا ناصر له غيره ، وأنه سبحانه هو الذى تولى نصر رسوله ودينة ، لاكثرتكم التى أعجبتكم ، فإنها لم تغن عنكم شيئاً ، فوليتم مدبرين ، فلما انكسرت قلوبهم ، أرسلت إليها خِلَعُ الجبر مع بريد النصر فأنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وقد اقتضت حكمته أن خِلَعَ النصر وجوائزه إنما تفيض على أهل الانكسار (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون)[2] .

---

١ — الحديث فى سيرة ابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ٩١

٢ — الآيتان ٥ ، ٦ من سورة القصص

ومنها : أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائم مكة ، فلم يغنموا منها ذهباً ولا فضة ، ولامتاعاً ، ولا سببا ، ولا أرضاً كما روى أبو داود عن وهب بن منبهْ ، قال سألت جابراً : هل غنموا يوم الفتح شيئاً ؟ قال : لا . وكانوا قد فتحوها بايجاف الخيل والركاب ، وهم عشرة آلاف ، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيش من أسباب القوة ، فحرك سبحانه قلوب المشركين لغزوهم ، وقذف فى قلوبهم إخراج أموالهم ونعمهم ، وشائهم ، وسبيهم معهم نزلاً ، وضيافة ، وكرامة ، لحزبه وجنده ، وتَّم تقديره سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر ، وألاح لهم مبادىء النصر ، ليقضى الله أمراً كان مفعولا فلما أنزل الله نصره على رسوله وأوليائه ، وبردت الغنائم لأهلها ، وجرت فيها سهام الله ورسوله ، قيل : لا حاجة لنا فى دمائكم ، ولا فى نسائكم وذراريكم ، فأوحى الله سبحانه إلى قلوبهم التوبة والإنابة ، فجاؤوا مسلمين . فقيل : إن من شكر إسلامكم وأيتانكم ، أن نرد عليكم نساءكم وأبناءكم وسبيكم و(إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم)[1] .

ومنها : أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ، ولهذا يقرن بين هاتين الغزاتين بالذكر ، فيقال : بدرٌ وحنين ، وإن كان بينهما سبع سنين والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزاتين ، والنبى — ﷺ — رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما ، وبهاتين الغزاتين أطفئت جمرة العرب لغزو رسول الله — ﷺ — والمسلمين . فالأولى : خوفتهم وكسرت من حَدِّهم ، والثانية : استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم حتى لم يجدوا بُدّاً من الدخول فى دين الله .

ومنها : أن الله سبحانه جبر بها أهل مكة ، وفرَّحهم بم نالوه من النصر والمغنم ، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم وإن كان عين جبرهم ، وعرفهم تمام نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هوازن ، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة ، وإنما نصروا عليهم بالمسلمين ، ولو أفردوا عنهم ، لأكلهم عدوهم ، إلى غير ذلك من الحكم التى لا يحيط بها إلا الله تعالى .

وفيها : من الفقه أن الإمام ينبغى له أن يبعث العيون ومن يدخل بين عدوه ليأتيه بخبرهم ، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوه له ، وفى جيشه قوة ومنعة لا يقعد ينتظرهم ، بل يسير إليهم ، كما سار رسول الله — ﷺ — إلى هوازن حتى لقيهم بحنين .

ومنها : أن الإمام له أن يستعير سلاح المشركين وعدتهم لقتال عدوه كما استعار رسول الله — ﷺ — أدراع صفوان ، وهو يومئذ مشرك .

ومنها : أن من تمام التوكل استعمال الأسباب التى نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعاً ، فإن رسول الله — ﷺ — وأصحابه أكمل الخلق توكلاً ، وإنما كانوا يلقون عدوهم ، وهم متحصنون بأنواع السلاح ،

---

١ — الآية ٧٠ من سورة الأنفال

ودخل رسول الله ـــ ﷺ ـــ مكة ، والبيضة على رأسه ، وقد أنزل الله عليه : (والله يعصمك من الناس)[1] وكثير ممن لا تحقيق عنده ، ولا رسوخ فى العلم يتشكل هذا ، ويتكايس فى الجواب تارة بأن هذا فعله تعليماً للأمة ، وتارة بأن هذا كان قبل نزوله الآية . ووقعت فى مصر مسألة سأل عنها بعض الأمراء ، وقد ذكر له حديث ذكره أبو القاسم بن عساكر فى « تاريخه الكبير » أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان بعد أن أهدت له اليهودية الشاة المسمومة لا يأكل طعاماً قدم له حتى يأكل منه من قدمه .

قالوا : وفى هذا أسوة للملوك فى ذلك . فقال قائل : كيف يُجمع بين هذا وبين قوله تعالى (والله يعصمك من الناس) فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له العصمة ، فهو يعلم أنه لا سبيل لبشر إليه .

وأجاب بعضهم بأن هذا يدل على ضعف الحديث ، وبعضهم بأن هذا كان قبل نزول الآية ، فلما نزلت لم يكن ليفعل ذلك بعدها . ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العصمة ، لا ينافى تعاطيه لأسبابها ، لأغناهم عن هذا التكلف ، فإن هذا الضمان له من ربه تبارك وتعالى لا يناقض احتراسه من الناس ، ولا ينافيه ، كما أن إخبار الله سبحانه له بأنه يظهر دينه على الدين كله ، ويعليه ، لا يناقض أمره بالقتال وإعداد العدة ، والقوة ، ورباط الخيل ، والأخذ بالجد ، والحذر ، والاحتراس من عدوه ، ومحاربته بأنواع الحرب والتورية ، فكان إذا أراد الغزوة ، ورَّى بغيرها ، وذلك لأن هذا إخبار من الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التى جعلها الله مفضية إلى ذلك مقتضية له وهو ـــ ﷺ ـــ أعلم بربه وأتبع لأمره من أن يعطل الأسباب التى جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر ، وإظهار دينه ، وغلبته لعدوه ، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياته حتى يبلغ رسالاته ، ويظهر دينه ، وهو يتعاطى أسباب الحياة من المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن ، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس ، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدعاء وزعم أنه لا فائدة فيه ، لأن المسؤول إن كان قد قدر ، ناله ولابد ، وإن لم يقدر ، لم ينله ، فأى فائدة فى الاشتغال بالدعاء ؟ ثم تكايس فى الجواب بأن قال ـــ الدعاء عبادة ، فيقال لهذا الغالط ، بقى عليك قسم آخر ـــ وهو الحق ـــ أنه قد قدر له مطلوبه بسبب إن يتعاطاه ، حصل له المطلوب ، وإن عطل السبب ، فإنه المطلوب ، والدعاء من أعظم الأسباب فى حصول المطلوب ، وما مثل هذا الغالط إلا مثل من يقول : إن كان الله قد قدر لى الشبع ، فأنا أشبع ، أكلت أو لم آكل ، وإن لم يقدر لى الشبع ، لم أشبع أكلت أو لم آكل ، فما فائدة الأكل ؟ وأمثال هذه الترهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه ، وبالله التوفيق .

ومنها : عفو رسول الله ـــ ﷺ ـــ عمن همَّ بقتله ولم يعاجله ، بل دعا له ومسح صدره حتى عاد ، كأنه ولى حميم .

---

١ ـــ الآية ٦٧ من سورة المائدة

ومنها : ماظهر فى هذه الغزوة من معجزات النبوة وآيات الرسالة من إخباره لشيبة بما أضمر فى نفسه ، وقد تولى عنه الناس ، وهو يقول :

أنا النبى لاكذب — أنا ابن عبد المطلب[1]

ومنها : إيصال الله قبضته التى رمى بها إلى عيون أعدائه على البعد منه ، وبركته فى تلك القبضة ، حتى ملأت أعين القوم ، إلى غير ذلك من معجزات فيها ، كنزول الملائكة للقتال معه ، حتى رآهم جهرة ورآهم بعض المسلمين .

سادساً : غزوة الطائف :

فى غزوة الطائف

قال العلامة ابن قيم الجوزية فى « زاد المعاد » « فى شوال سنة ثمان . قال ابن سعد : قالوا ولما أراد رسول الله — ﷺ — المسير إلى الطائف ، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذى الكفين : صنم عمرو بن حممة الدوسى ، يهدمه ، وأمره أن يستمد قومه ، ويوافيه بالطائف فخرج سريعاً إلى قومه ، فهدم ذا الكفين ، وجعل يحشى النار فى وجهه ويحرِّقه ويقول :

ياذا الكفين لست من عُبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حششت النار فى فؤادكا .

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً ، فوافوا النبى — ﷺ — بعد مقدمة بأربعة أيام ، وقدم بدبابة ومنجنيق قال ابن سعد : ولما خرج رسول الله — ﷺ — من حنين يريد الطائف قدم خالد بن الوليد على مقدمته ، وكانت ثقيف قد رمُّوا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، فلما انهزموا من أوطاس ، دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم ، وتهيؤوا للقتال ، وسار رسول الله — ﷺ — فنزل قريباً من حصن الطائف ، وعسكر هناك ، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديدا ، كأنه رجْلُ جراد حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقتل منهم اثنا عشر رجلاً ، فارتفع رسول الله — ﷺ — إلى موضع مسجد الطائف اليوم ، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب ، فضرب لهما قبتين ، وكان يصلى بين القبتين مدة حصار الطائف ، فحاصرهم ثمانية عشر يوماً وقال ابن إسحاق : بضعاً وعشرين ليلة .

ونصب عليهم المنجنيق ، وهو أول من رمى به فى الإسلام . وقال ابن سعد : حدثنا قبيصة ، حدثنا سفيان ، عن ثور بن يزِيد ، عم مكحول أن النبى — ﷺ — نصب على أهل الطائف أربعين يوماً .

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٣٣١ من رواية أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وفى مسند أحمد حـ ٤ صـ ٢٨٠ (ج) وفى صحيح البخارى — باب فضل الجهاد والسير — حـ ٤ صـ ٣٧ ط الشعب وفى صحيح مسلم — كتاب الجهاد والسير حـ ٣ صـ ١٤٠٠ رقم ٧٨

قال ابن إسحاق : حتى إذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف ، ودخل نفر من أصحاب رسول الله — ﷺ — تحت دبابة ، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها ، فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله — ﷺ — بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس فيها يقطعون .

قال ابن سعد : فسألوه أن يدعها لله وللرحم ، فقال رسول الله — ﷺ — « فإنى أدعها لله وللرحم »[1] فنادى منادى رسول الله — ﷺ — : أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً ، منهم أبو بكرة — فأعتقهم رسول الله — ﷺ — ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين ميمونة ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة .

ولم يؤذن لرسول الله — ﷺ — فى فتح الطائف ، واستشار رسول الله — ﷺ — نوفل بن معاوية الديلى ، فقال : ما ترى ؟ فقال ثعلب فى جحر ، إن أقمت عليه أخذته ، وإن تركته لم يضرك . فأمر رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب ، فأذن فى الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف ؟ فقال رسول الله — ﷺ — : « فاغدوا على القتال »[2] فغدوا فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله — ﷺ — : « إنا قافلون غداً إن شاء الله »[3] فسروا بذلك وأذعنوا ، وجعلوا يرحلون ، ورسول الله — ﷺ — يضحك ، فلما ارتحلوا واستقلوا ، قال : قولوا : « آيبون ، تائبون ، عابدون لربنا حامدون »[4] ، وقيل يارسول الله ! ادع الله على ثقيف فقال : « اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم »[5] .

واستشهد مع رسول الله — ﷺ — بالطائف جماعة ، ثم خرج رسول الله — ﷺ — من الطائف إلى الجعرانة ثم دخل منها محرماً بعمرة ، فقضى عمرته ، ثم رجع إلى المدينة .

قال ابن إسحاق : وقدم رسول الله — ﷺ — من تبوك فى رمضان ، وقدم عليه فى ذلك الشهر وفد ثقيف وكان من حديثهم : أن رسول الله — ﷺ — لما انصرف عنهم اتبع أثره عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله — ﷺ — :

---

١ — انظر سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٢٩
٢ — الحديث فى صحيح البخارى — كتاب المغازى — غزوة الطائف — حـ ٥ صـ ١٩٨ ط الشعب
٣ — الحديث فى صحيح البخارى — كتاب المغازى — غزوة الطائف — حـ ٥ ط الشعب
٤ — الحديث فى مسند أحمد حـ ١ صـ ٢٥٦
٥ — الحديث فى سنن الترمذى — أبواب المناقب حـ ٥ صـ ٣٨٥ — ٣٨٦ رقم ٤٠٣٤

« كما يتحدث قومك أنهم قاتلوك »[١] وعرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن فيهم نخوة الامتناع الذى كان منهم ، فقال عروة : يارسول الله ؟ أنا أحب إليهم من أبكارهم ، وكان فيهم كذلك محبباً مطاعاً ، فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف لهم على عُلّيَّة له ، وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم فقتله ، فقيل لعروة : ما ترى فى ربك ؟ قال : كرامة أكرمنى الله بها ، وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فىّ إلا ما فى الشهداء الذى قتلوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم ، فدفنوه معهم فزعموا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فيه : « إن مثله فى قومه ، كمثل صاحب يس فى قومه »[٢] .

ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة أشهراً ، ثم إنهم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً ، كما أرسلوا عروة فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، وكان فى سن عروة بن مسعود ، وعرضوا عليه ذلك ، فأبى أن يفعل وخشى أن يصنع به كما صنع بعروة ، فقال : لست بفاعل حتى ترسلوا معى رجالاً ، فأجمعوا أن يبعثوا معه رجلين من الأحلاف ، وثلاثة من بنى مالك ، فيكونون ستة ، فبعثوا معه الحكم بن عمرو بن وهب ، وشرحبيل بن غيلان ، ومن بنى مالك عثمان بن أبى العاص ، وأوس بن عوف ، ونمير بن خرشه ، فخرج بهم ، فلما دنوا من المدينة ، ونزلوا قناة لقوا بها المغيرة بن شعبة ، فاشتد ليبشر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقدومهم عليه ، فلقيه أبو بكر فقال : أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أكون أنا أحدثه ففعل ، ثم خرج المغيرة إلى أصحابه ، فروّح الظهر معهم ، وأعلمهم كيف يحُبون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية ، فلما قدموا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضرب عليهم قبة فى ناحية مسجده كما يزعمون .

وكان خالد بن سعيد بن العاصى هو الذى يمشى بينهم ، وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى اكتتبوا كتابهم ، وكان خالد هو الذى كتبه ، وكانوا لا يأكلون طعاماً يأتيهم من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى يأكل منه خالد حتى أسلموا .

وقد كان فيما سألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يدع لهم الطاغية ، وهى اللات لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما برحوا يسألونه سنة ، ويأبى عليهم ، وإنما يريدون بذلك فيما يظهرون أن يسموا بتركها من سفائهم ونسائهم وذراريهم ، ويكرهون أن يردّعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام ، فأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة يهدمانها ، وقد كانوا يسألونه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة ، وألا لا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله ـ

١ ـ فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٩٤
٢ ـ فى سيرة النبى لابن هشام ـ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٩٥

ﷺ ـــ « أما كسر أوثانكم بأيديكم ، فسنعفيكم منه ، وأما الصلاة ، فلا خير فى دين لا صلاة فيه »[١] .

فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ كتاباً ، أمّر عليهم عثمان بن أبى العاص ، وكان من أحدثهم سناً ، وذلك أنه كان من أحرصهم على التفقه فى الإسلام ، وتعلم القرآن فلما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدم الطاغية ، فخرجا مع القوم ، حتى إذا قدموا الطائف ، أراد المغيرة بن شعبة أن يُقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك عليه أبو سفيان ، فقال : ادخل أنت على قومك ، وأقام أبو سفيان بماله بذى الهَدْم فلما دخل المغيرة بن شعبة ، علاها يضربها بالمعول ، وقام دونه بنو مُعّتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة ، وخرج نساء ثقيف حُسَّراً يبكين عليها ، ويقول أبو سفيان ـــ والمغيرة يضربها بالفأس ـــ : « واهاً لك واهاً لك » فلما هدمها المغيرة وأخذ مالها وحليها ، أرسل إلى أبى سفيان مجموع مالها من الذهب والفضة والجزع ...

فهذه قصة ثقيف من أولها إلى آخرها ، سقناها كما هى ، وإن تخلل بين غزوها وإسلامها غزاة تبوك وغيرها ، لكن آثرنا ألا لا نقطع قصتهم ، وأن ينتظم أولها بآخرها ليقع الكلام على فقه القصة وأحكامها فى موضع واحد .

فى الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من المسائل الفقهيه والنكت الحكمية .

فيها من الفقه : جواز القتال فى الأشهر الحرم ، ونسخ تحريم ذلك ، فإن رسول الله ـــ ﷺ ـــ خرج من المدينة إلى مكة فى أواخر شهر رمضان بعد مضى ثمان عشرة ليلة منه والدليل عليه مارواه أحمد فى « سنده » غن شداد بن أوس ، أنه مر مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ زمن الفتح على رجل يحتجم بالبقيع لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان ، وهو آخذ بيدى ، فقال « أفطر الحاجم والمحجوم »[٢] وهذا أصح من قول من قال : إنه خرج لعشر خلون من رمضان ، وهذا الإسناد على شرط مسلم فقد روى به بعينه : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء »[٣] . وأقام بمكة تسع عشرة ليلة يقصر الصلاة ، ثم خرج إلى هوازن ، فقاتلهم ، وفرغ منهم ، ثم قصد الطائف ، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة فى قول ابن إسحاق ، وثمان عشرة ليلة فى قول ابن سعد ، وأربعين ليلة فى قول مكحول . فإذا تأملت ذلك ، علمت أن بعض

---

١ ـــ الحديث فى سيرة النبى لابن هشام ـــ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد حـ ٤ ص ١٩٧

٢ ـــ الحديث فى مسند أحمد حـ ٢ صـ ٣٦٤

٣ ـــ الحديث فى مسند أحمد حـ ٤ صـ ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

مدة الحصار فى ذى القعدة ، ولابد ، ولكن قد يقال : لم يبتدىء القتال إلا فى شوال ، فلما شرع فيه ؟ لم يقطعه للشهر الحرام ، ولكن من أين لكم أنه — صلى الله عليه وسلم — ابتدأ قتالا فى شهر حرام ، وفرق بين الابتداء والاستدامة .

ومنها : جواز غزو الرجل وأهله معه ، فإن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان معه فى هذه الغزوة أم سلمة وزينب .

ومنها : جواز نصب المنجنيق على الكفار ، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية .

ومنها : جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم ، وهو أنكى لهم .

ومنها : إن العبد إذا أبق من المشركين ولحق بالمسلمين ، صار حراً . قال سعيد بن منصور بسنده عن ابن عباس ، قال : كان رسول ا الله — صلى الله عليه وسلم — يعتق العبيد إذا جاؤوا قبل مواليهم .

وعن الشعبى ، عن رجل من ثقيف ، قال : سألنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يَرُدَّ علينا أبا بكرة ، وكان عبداً لنا أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو محاصر ثقيفاً ، فأسلم ، فأبى أن يرده علينا ، فقال : « هو طليق الله ، ثم طليق رسوله »[1] فلم يرده علينا . (أخرجه أحمد) قال ابن المنذر : وهذا قول كل من يحفظ عنه من أهل العلم .

ومنها : أن الإمام إذا حاصر حصناً ، ولم يفتح عليه ، ورأى مصلحة المسلمين فى الرحيل عنه ، لم يلزمه مصابرته ، وجاز له ترك مصابرته ، وإنما تلزم المصابرة إذا كان فيها مصلحة راجحة على مفسدتها .

ومنها : أنه أحرم من الجعرانة بعمرة ، وكان داخلاً إلى مكة ، وهذه هى السنة لم يدخلها من طريق الطائف وما يليه ، وأما ما يفعله كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ، ثم يرجع إليها ، فهذا لم يفعله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولا أحد من أصحابه البتة ، ولا استحبه أحد من أهل العلم ، وإنما يفعله عوام الناس ، زعموا أنه اقتداء بالنبى — صلى الله عليه وسلم — وغلطوا ، فإنه إنما أحرم منها داخلاً إلى مكة ، ولم يخرج منها إلى الجعرانة ليحرم منها ،فهذا لون ، وسنته لونٌ ، وبالله التوفيق .

ومنها : استجابة الله لرسوله — صلى الله عليه وسلم — دعاءه لثقيف أن يهديهم ، ويأتى بهم ، وقد حاربوه وقاتلوه ، وقتلوا جماعة من أصحابه ، وقتلوا رسول رسوله الذى أرسله إليهم يدعوهم إلى الله ، ومع هذا كله فدعا لهم ، ولم يدع عليهم ، وهذا من كمال رأفته ، ورحمته ، ونصيحته — صلوات الله وسلامة عيله —

ومنها : كمال محبة الصديق له ، وقصده التقرب إليه ، والتحبب بكل ما يمكنه ، ولهذا ناشد المغيرة أن يدعه هو يبشر النبى — صلى الله عليه وسلم — بقدوم وفد الطائف ، ليكون هو الذى بشره وفرحه بذلك ، وهذا يدل على أنه يجوز للرجل أن يسأل أخاه أن يؤثره بقربة من القرب ، وأنه يجوز للرجل أن يؤثر بها أخاه ، وقول من قال من الفقهاء : لا يجوز الايثار بالقرب ، لا يصح ، وقد آثرت عائشة عمر بن الخطاب بدفنه فى بيتها جوار النبى — صلى الله عليه وسلم — وسألها عمر ذلك ، فلم تكره له السؤال ، ولا لها البذل ، وعلى هذا ، فإذا

---

١ — انظر سيرة النبى لابن هشام — تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد حـ ٤ صـ ١٣٠ والحديث فى مسند أحمد حـ ٤ صـ ١٦٨

سأل الرجل غيره أن يؤثره بمقامة فى الصف الأول ، لم يكره له السؤال ، ولا لذلك البذل ، ونظائره . ومن تأمل سيرة الصحابة ، وجدهم غير كارهين لذلك ، ولا ممتنعين منه ، وهل هذا إلا كرم وسخاء ، وإيثار على النفس بما هو أعظم محبوباتها تفريحا لأخيه المسلم ، وتعظيماً لقدره ، وإجابة له إلى ما سأله وترغيباً له فى الخير ، وقد يكون ثواب كل واحد من هذه الخصال راجحاً على ثواب تلك القربة ، فيكون المؤثر بها ممن تاجر ، فبذل قربة ، وأخذ أضعافها ، وعلى هذا فلا يمتنع أن يؤثر صاحب الماء بمائه أن يتوضأ به ويتيمم هو إذا كان لابد من تيمم أحدهما ، فآثر أخاه ، وحاز فضيلة الايثار ، وفضيلة الطهر بالتراب ، ولا يمنع هذا كتاب ولا سنة ، ولا مكارم أخلاق ، وعلى هذا فإذا اشتد العطش بجماعة وعاينوا التلف ومع بعضهم ماء فآثر على نفسه ، واستسلم للموت ، كان ذلك جائزاً ، ولم يقل : إنه قاتل لنفسه ، ولا أنه فعل محرماً ، بل هذا غاية الجود والسخاء كما قال تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[1] . وقد جرى هذا بعينه لجماعة من الصحابة فى فتوح الشام ، وعد ذلك من مناقبهم وفضائلهم ، وهل إهداء القرب المجمع عليها والمتنازع فيها إلى الميت إلا إيثار بثوابها ، وهو عين الإيثار بالقرب ، فأى فرق بين أن يؤثره بفعلها ليحرز ثوابها ، وبين أن يعمل ثم يؤثره بثوابها ، وبالله التوفيق .

ومنها : أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً ، فإنها شعائر الكفر والشرك وهى أعظم المنكرات ، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة . وهذا حكم المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التى تقصد للتعظيم والتبرك ، والنذر والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شىء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، أو أعظم شركاً عندها ، وبها ، والله المستعان .

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد أنها تخلق وترزق وتميت وتحيى ، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم ، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حذوا القذة بالقذة ، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر ، وذراعا بذراع ، وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهورها الجهل وخفاء العلم فصار المعروف منكراً ، والمنكر معروفا ، والسنة بدعة ، والبدعة سنة ، ونشأ فى ذلك الصغير ، وهرم عليه الكبير ، وطمست الأعلام واشتدت غربة الإسلام ، وقل العلماء ، وغلب السفهاء ، وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها ، وهو خير الوارثين .

ومنها : جواز صرف الإمام الأموال التى تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت فى الجهاد ومصالح المسلمين ، فيجوز للإمام ، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التى تساق إليها كلها ، ويصرفها على الجند

---

١ — الآية ٩ من سورة الحشر

والمقاتلة ، ومصالح الإسلام ، كما أخذ النبى — ﷺ — أموال اللات ، وأعطاها لأبى سفيان يتألفه بها ، وقضى منها دين عروة والأسود ، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التى بنيت على القبور التى اتخذت أوثانا ، وله أن يقطعها للمقاتلة ، أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين ، وكذلك الحكم فى أوقافها ، فإن وقفها ، فالوقف عليها باطل ، وهو مال ضائع ، فيصرف فى مصالح المسلمين ، فإن الوقف لا يصح إلا فى قربة وطاعة لله ورسوله ، فلا يصح الوقف على مشهد ، ولا قبر يسرج عليه ويعظم ، وينذر له ، ويحج إليه ، ويعبد من دون الله ، ويتخذ وثناً من دونه وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ، ومن اتبع سبيلهم . أ هـ .

تفسير سورة الحجرات

مقدمة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية (**وآياتها**) ثمانى عشرة . (**وكلماتها**) ثلاثمائة وثلاث وأربعون . (**وحروفها**) ألف وأربعمائة وأربع وسبعون (**مجموع فواصل آياتها**) ثمانى عشرة

(مقصود السورة)

معظم مقصود السورة محافظة أمر الحق تعالى ، ومراعاة حرمة والأكابر والتؤدة فى الأمور ، والاجتناب عن التهور ، والكون فى إغاثة المظلوم ، والاحتراز عن السخرية بالخلق ، والحذر عن التجسس والغيبة ، وترك الفخر بالأنساب والتحاشى عن المنّة على الله تعالى بالطاعة ، وإحالة علم الغيب إلى الله — تعالى — فى قوله ﴿ **إن الله يعلم غيب السموات والأرض** ﴾ .

(المتشابهات)

قوله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا** ﴾ مذكور فى السورة خمس مرات والمخاطبون المؤمنون ، والمخاطب به أمر ونهى ، وذكر فى السادس ﴿ **ياأيها الناس** ﴾ فعم المؤمنين والكافرين ، والمخاطب به قوله ﴿ **إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ لأن الناس كلهم فى ذلك شرع سواء .

(مناسباتها لما قبلها)

لا يخفى تآخى هاتين السورتين (الفتح والحجرات) مع ما قبلهما لكونهما مدنيتين ، ومشتملتين على أحكام . فتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة . وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا . وتلك تضمنت تشريفاً له — ﷺ — خصوصاً مطلعها ، وهذه أيضا فى مطلعها أنواع من التشريف له — ﷺ —

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣) إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) ﴾

معاني المفردات

(لا تقدموا) أى : لا تتقدموا ، والمراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) أى : إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء الحد الذى يبلغه صوته (يغضون أصواتهم) أى : يخفضونها ويلينونها ، (امتحن الله قلوبهم) أى : طهرها ونقاها . (من وراء الحجرات) أى : من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، والمراد بها حجرات نسائه — عليه الصلاة والسلام — وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل ، على أبوابها الموح من شعَر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ، إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ .

هذه آداب أدب الله تعالى بها عبادة المؤمنين فيما يعاملون به الرسول — ﷺ — من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام فقال تبارك وتعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله** ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة وقال الضحاك : لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم وقال سفيان الثورى (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله) بقول ولا فعل .

وقال الإمام ابن القيم : أى : لا تقولوا حتى يقول ، ولا تفعلوا حتى يأمر . قال بعض السلف : ما من فعله وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه : هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا فى محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أن الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى ، وابتغاء الوسيلة إليه ؟

ومحل هذا السؤال : أنه ، هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك ، أم فعلته لحظك وهواك ؟

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى ذلك التعبد ، أى : هل كان العمل مما شرعته لك على لسان رسولى ، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى عن المتابعة ، فإن الله سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما

فطريق التخلص من السؤل الأول : بتجريد الإخلاص ، وطريق التخلص من السؤال الثانى : يتحقيق المتابعة .

وإنما يستقيم له هذا باستقامة قلبه وجوارحه . فاستقامة القلب بشئيين : أحدهما : أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب ، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما عداه ، فربت على ذلك مقتضاه ، وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل ، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان . وما أكثر أن يقدم العبد ما يحبه هو يهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى . فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى فى قلبه جميع المحاب ، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه ولا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص ، جزاء له على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى . وقد قضى الله قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئاً سواه عذب به ولابد ، وأن من خاف غيره سُلط عليه ، وأن من اشتغل بشىء غيره كان شؤما عليه ، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه ، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولابد .

الأمر الثانى : الذى يستقيم به القلب تعظيم الأمر والنهى ، وهو ناشىء عن تعظيم الأمر الناهى فإن الله تعالى ذم من لا يعظم أمره ونهيه ، قال سبحانه وتعالى ﴿ **مالكم لا ترجون لله وقارا** ﴾[1] قالوا فى تفسيرها : مالكم لا تخافون الله تعالى عظمة . أ هـ .

وقوله تعالى ﴿ **واتقوا الله إن الله سميع عليم** ﴾

قال السلمى : اتقوا الله فى إهمال حقه وتضييع حرمته إنه سميع لقولكم ، عليم بفعلكم

وقوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾ .

---

١ ــ الآية ١٣ من سورة نوح

هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ألا لا يرفعوا أصواتهم بين يدى النبى - ﷺ - فوق صوته .

وقال البخارى بسنده عن ابن أبى مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - رفعا أصواتهما - عند النبى - ﷺ - حين قدم عليه ركب بنى تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس - رضى الله عنه - أخى بنى مجاشع ، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر - رضى الله عنهما - ما أردت إلا خلافى قال ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما فى ذلك فأنزل الله تعالى ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون** ﴾(١) قال ابن الزبير - رضى الله عنه - فما كان عمر - رضى الله عنه - يسمع رسول الله - ﷺ - بعد هذه الآية حتى يستفهمه ...

وقال الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال لما نزلت هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى - الآية** ﴾ وكان ثابت بن قيس بن الشماس رفيع الصوت فقال أنا الذى كنت أرفع صوتى على صوت رسول الله - ﷺ - أنا من أهل النار ، حبط عملى ، وجلس فى أهله حزيناً ففقده رسول الله - ﷺ - فانطلق بعض القوم إليه فقالوا له تفقدك رسول الله - ﷺ - مالك ؟ قال أنا الذى أرفع صوتى فوق صوت النبى - ﷺ - وأجهر له بالقول حُبط عملى ، أنا من أهل النار ، فأتوا النبى - ﷺ - فأخبروه بما قال فقال - ﷺ - « لا » بل هو من أهل الجنة »(٢) قال أنس - رضى الله - فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف فجاء ثابت بن قيس بن شماس وقد تحنط ولبس كفة فقال بئسما قعودون أقرانكم فقاتلهم حتى قتل - رضى الله عنه -

قال ابن كثير : وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين كذلك فقد نهى الله - عز وجل - عن رفع الأصوات بحضرة رسول الله - ﷺ - وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه سمع صوت رجلين فى مسجد النبى - ﷺ - قد ارتفعت أصواتهما فجاء فقال أتدريان أين أنتما ؟ ثم قال : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف فقال : لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً .

وقال العلماء : يكره رفع الصوت عند قبره - ﷺ - كما كان يكره فى حياته - عليه الصلاة والسلام - لأنه محترم حياً وفى قبره - ﷺ - دائماً . وكان عبد الرحمن بن مهدى إذا قرأ حديث النبى - ﷺ - أمرهم بالسكوت وقال (لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى) . ثم نهى سبحانه عن الجهر له بالقول

---

١ - الحديث فى صحيح البخارى حـ ٦ صـ ١٧١ ، ١٧٢ تفسير سورة الحجرات ط الشعب

٢ - الحديث فى صحيح البخارى حـ ٦ صـ ١٧١ - تفسير سورة الحجرات ط الشعب وفى صحيح مسلم - كتاب الإيمان - باب مخافة المؤمن أن يحبط عمله - حـ ١ صـ ٧٧

وفى مسند أحمد حـ ٣ صـ ١٣٧

وفى تفسير ابن كثير - تفسير سورة الحجرات - حـ ٧ صـ ٣٤٧

كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه بل يخاطب بسكينة ووقار تعظيم كما قال تعالى ﴿ **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً** ﴾[1] .

قوله تعالى ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم** ﴾ .

أى : يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلموا إجلالاً له — ﷺ — أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له . قال أبو بكر — رضى الله عنه — : والله لا أرفع صوتى إلا كأخى السِّرار (أى كصاحب الدار ، أو كمثل المسارة لخفض صوته) . وقال عبد الله بن الزبير لما نزلت (لا ترفعوا أصواتكم) ما حدث عمر عند النبى — ﷺ — بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفض ، فنزلت ﴿ **إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى** ﴾ قال الفراء : أى : أخلصها للتقوى . وقال الأخفش أى : اختصها بالتقوى . وقال ابن عباس (امتحن الله قلوبهم للتقوى) طهرهم من كل قبيح ، وجعل فى قلوبهم الخوف من الله والتقوى . فهؤلاء (لهم مغفرة وأجر عظيم) .

وقد قال الإمام أحمد فى كتاب الزهد عن مجاهد قال كتب إلى عمر بأمير المؤمنين رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر — رضى الله عنه — إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

قوله تعالى ﴿ **إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم** ﴾

يقول ابن كثير : ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات وهى نسائه كما يصنع أجلاف الأعراب فقال (أكثرهم لا يعقلون) ثم أرشد سبحانه إلى الأدب فى ذلك فقال عز وجل ﴿ **ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم** ﴾ أى : لكان لهم فى ذلك الخيرة والمصلحة فى الدنيا والآخرة . ثم قال جل ثناؤه داعيا لهم إلى التوبة والإنابة (والله غفور رحيم) وقد ذكر أنها نزلت فى الأقرع بن حابس التميمى — رضى الله عنه — فيما أورده غير واحد قال الإمام بسنده عن الأقرع بن حابس — رضى الله عنه — أنه نادى رسول الله — ﷺ — فقال يامحمد يامحمد .

---

١ — الآية ٦٣ من سورة النور

إرشادات آلهية

قال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ
نَادِمِينَ ﴿٦﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ
إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ
﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ
فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا
بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

معانى المفردات

(الفاسق) هو الخارج عن حدود الدين من قولهم : فسق الرطب إذا خرج من قشره . (النبأ) الخبر قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة وبه يحصل علم أو غلبة ظن ، (بجهالة) أى : جاهلين حالهم ، (فتصبحوا) أى : فتصيروا . (نادمين) أى : مغتمين غماً لازماً متمنين أنه لم يقع . (لعنتم) أى : لوقعتم فى الجهد والهلاك . (الراشدون) الرشاد : إصابة الحق واتباع الطريق السوى . (بغت) البغى : التطاول والفساد . (تفىء) أى : ترجع إلى الطاعة . (المقسطين) العادلين المحقين

المناسبة وإجمال المعنى

أدب الله عباده المؤمنين بأدب نافع لهم فى دينهم ودنياهم أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأى خبر ، لا يصدقونه بادىء ذى بدء حتى يتثبتوا ، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله ، فإن من لا يبالى بالفسق لا يبالى بالكذب الذى هو من فصيلته — كراهة أن يصيبوا بأذى قوماً هم جاهلون حالهم ، فتندموا على ما فرط منكم وتتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع . ثم عقب تعالى بما يترتب على سماع مثل هذه (الأنباء المكذوبة) من تخاصم ، وتباغض ، وتقاتل فقال : إذا رأيتم أيها المؤمنون طائفتين

من إخوانكم جنحتا إلى القتال والعدوان ، فابذلوا جهدكم للتوفيق بينهما ، وادعوهم إلى النزول على حكم الله تعالى ، فإن اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى فقاتلوا تلك الطائفة الباغية ، حتى تثوب إلى رشدها ، وترضى بحكم الله تعالى ، وتقلع عن البغى والعدوان فإذا كفت عن العدوان فأصلحوا بينهما بالعدل ؛ لأنهم إخوانكم فى الدين ، ومن واجب المسلمين أن يصلحوا بين الإخوان ، لا أن يتركوا البغضاء تدب ، والفرقة تعمل عملها ؛ لأن المؤمنين جميعاً إخوة ، جمعتهم رابطة الإيمان وليس ثمة طريق إلى إعادة الصفاء إلا بالإصلاح بين المتخاصمين ، فهو سبيل الفلاح وطريق الفوز والنجاح ، واتقوا الله لتنالكم رحمته ، وتسعدوا بمرضاته ولقائه .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الايمان وزينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم** ﴾ .

قال ابن كثير :

يأمر تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليحتاط له لئلا يحكم بقوله فيكون فى نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه وقد نهى الله — عز وجل — عن اتباع سبيل المفسدين .

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى معيط حين بعثه رسول الله — ﷺ — على صدقات بنى المصطلق وقد روى ذلك من طرق ومن أحسنها ما رواه الامام أحمد فى مسنده من رواية مالك بنى المصطلق وهو الحارث بن ضرار الخزاعى — رضى الله عنه — يقول : قدمت على رسول الله — ﷺ — قد دعانى إلى الإسلام فدخلت فيه وأقررت به ، ودعانى إلى الزكاة فأقررت بها وقلت يارسول الله أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة فمن استجاب دفعت زكاته ، وترسل إلىَّ يارسول الله رسولاً إبان كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له وبلغ الإبان الذى أراد رسول الله — ﷺ — أن يبعث إليه احتبس عليه الرسول ولم يأته وظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطة من الله تعالى ورسوله فدعا بسروات قومه فقال لهم إن رسول الله — ﷺ — كان وقَّت لى وقتاً يرسل إلىَّ رسوله ليقبض ما كان عندى من الزكاة وليس من رسول الله — ﷺ — الخلق ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة ، فانطلقوا بنا نأتى رسول الله — ﷺ — وبعث رسول الله — ﷺ — الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق أى : خاف فرجع حتى أتى رسول الله — ﷺ — فقال يارسول الله إن الحارث قد

منعني الزكاة وأراد قتلي فغضب رسول الله ـــ ﷺ ـــ وبعث البعث إلى الحارث ـــ رضى الله عنه ـــ وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا هذا الحارث فلما غشيهم قال لهم إلى من بعثتم ؟ قالوا : إليك ، قال ولم ؟ قالوا إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله ، قال ـ رضى الله عنه ـ ـ لا ، والذى بعث محمداً ﷺ بالحق مارأيته ينه ولاأتانى فلما دخل الحار على الرسول قال : « منعت الزكاة وأردت قتل رسولى »[1] قال لا والذى بعثك بالحق مارأيته ولاأتانى وما أقبلت إلا حين احتبس علىّ رسول الله ﷺ خشيت أن يكون سخطة من الله تعالى ورسوله قال فنزلت الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ ﴾ إلى قوله : ﴿ حكيم ﴾ .

قال الإمام الفخر الرازى : ما ذكره المفسرون من أنها نزلت بسبب (الوليدين عقبة) حين بعثه الرسول ـــ ﷺ ـــ إلى بنى المصطلق ليقبض صدقاتهم .. الخ إن كان مرادهم أن الآية نزلت عامة لبيان وجوب التثبت فى خبر الفاسق ، وأنها نزلت فى ذلك الحين الذى وقعت فيه حادثة الوليد فهذا جيد . وإن كان غرضهم أنها نزلت لهذه الحادثة بالذات فهذا ضعيف ؛ لأن الوليد لم يتقصّد الإساءة إليهم ، ورواية الإمام أحمد تدل على أن الوليد خاف وفرق حين رأى هجاعة الحارث ـــ وقد خرجت فى انتظاره . فظنها خرجت لحربه فرجع وأخبر الرسول ـــ ﷺ ـــ بما أخبره ظناً منه أنهم خرجوا لقتاله .. ويتأكد ما ذكرنا أن إطلاق لفظ (الفاسق) على الوليد شىء بعيد ؛ لأنه توهم وظن فأخطأ ، والمخطىء لا يسمى فاسقاً ، وكيف والفاسق فى أكثر المواضع المراد به من خرج من ربقة الإيمان لقوله تعالى ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ وقوله تعالى ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ﴾ إلى غير ذلك أ هـ .

وقوله تعالى ﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾

أى : واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تبارك اسمه ﴿ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ ثم يبين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال ﴿ لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ﴾ أى : لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم كما قال تعالى ﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ .

---

(١) . الحديث فى مسند أحمد حـ ٤ صـ ٢٧٩
وفى تفسير ابن كثير ـــ تفسير سورة الحجرات ـــ حـ ٧ صـ ظذ

(٢) . الآية ٧١ من سورة المؤمنون

وقوله تعالى ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم** ﴾ أى : حببه إلى نفوسكم وحسنه فى قلوبكم قال الإمام أحمد عن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ قال كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول « الإسلام علانية والإيمان فى القلب ـــ قال ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات ثم يقول ـــ التقوى هٰهنا ، التقوى هٰهنا »(١).

وقوله تعالى ﴿ **وكرّه اليكم الكفر والفسوق والعصيان** ﴾أى : وبغّض إليكم الكفر والفسوق والعصيان وهى الذنوب الكبار والعصيان وهى جميع المعاصى وهذا تدريج لكمال النعمة .

وقوله تعالى ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾ أى : المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

وقوله تعالى ﴿ **فضلاً من الله ونعمة** ﴾ أى : فعل الله ذلك بكم فضلاً ، أى : الفضل والنعمة له . (والله عليم حكيم) أى : والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية . (حكيم) فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : العارف بالله يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل . وهذا معنى قوله ـــ ﷺ ـــ فى الحديث الصحيح من حديث بريره ـــ رضى الله عنه ـــ « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى ، لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت »(٢) فجمع فى قوله ـــ ﷺ ـــ « أبوء لك بنعمتك علىَّ ، وأبوء بذنبى » مشاهدة المنة ، ومطالعة عيب النفس والعمل ، فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولى النعم والإحسان ، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة فى كل وقت ، وألا لا يرى نفسه إلا مفلساً ، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقاماً ولا سببا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها ، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف ، والإفلاس المحض، دخول من قد كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل جهاته ، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكمال فاقته وفقره إليه ، وأن فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة ، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى ، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر ، إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته . ولا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية ، ولا حجاب أغلظ من الدعوى .

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ صـ ٣٩٣ من رواية أحمد وأبى يعلى وفى مسند أحمد حـ ٣ صـ ١٣٤ ، ١٣٥ وفى تفسير ابن كثير ـــ تفسير سورة الحجرات ـــ حـ ٧ صـ ٣٥٢

(٢) الحديث فى مسند أحمد حـ ٤ صـ ١٢٢

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها : حب كامل ، وذل تام ومنشأ هذين الأصلين عن ذنبك الأصلين المتقدمين وهما مشاهدة المنة التى تورث المحبة ، ومطالعة عيب النفس والعمل التى تورث الذل التام ، وإذا كان العبد قد بنى سلوكه الى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة وما أسرع ما ينعشه الله — عز وجل — ويجبره ويتداركه برحمته » . (الوابل الصيب لابن القيم)

قوله تعالى ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾

أى : وإن اقتتلت طائفتان من أهل الايمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه . سواء كان لهما أو عليهما وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل . ﴿ **فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾ أى : فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ما جعله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التى تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائعة له . ﴿ **فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل** ﴾ أى : فإن رجعت الباغية بعد قتالك إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لا يتجدد بينهما القتال فى وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل فى كل أمورهم فقال تعالى ﴿ **وأقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ أى : واعدلوا فى كل ما تأتون وما تذرون ، إن الله يحب العادلين فى جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء .

وفى الصحيح عن أنس — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — قال : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما ، قلت : يارسول الله : هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصر ظالماً ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه »[1]

قوله تعالى ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ أى : انهم منتسبون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية وفى الحديث المتفق عليه عن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله — ﷺ — « مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر »[2]

---

١ — الحديث فى حلية الأولياء حـ ٣ صـ ٩٤ ، وفى مسند أحمد حـ ٣ صـ ٩٩ ، وفى مجمع الزوائد وفى صحيح البخارى حـ ٧ صـ ٢٦٤ — كتاب المظالم حـ ٣ صـ ١٦٨ ، وصحيح مسلم — كتال البر — باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما

٢ — الحديث فى صحيح مسلم — حـ ٤ صـ ١٩٩٩ — باب تراحم المؤمنين — وفى صحيح البخارى — كتاب الأدب — باب رحمة الناس والبهائم حـ ٨ صـ ١١ ، ١٢

وفى مسند أحمد حـ ٤ صـ ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٧٥

وفى تفسير ابن كثير — تفسير سورة الحجرات — حـ ٧ صـ ٣٥٥

وعن أبى موسى ، عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ثم شبك بين أصابعه »[١] وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً إذ جاءه رجل يسأل ، وطالب حاجة أقبل علينا بوجهه ، فقال : « اشفعوا فلتؤجروا ، وليقضى الله على لسان نبيه ما شاء »[٢] متفق عليه . وعن جرير بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من لا يرحم الناس لا يرحمه الله »[٣] متفق عليه .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « المسلم أخو المسلم لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه ، التقوى ههنا ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[٤] رواه الترمذى وقال حديث حسن . وعنه أيضاً قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله . التقوى ههنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[٥] متفق عليه .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٦] متفق عليه .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « حق المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه »[٧] .

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولابد ـ تسبب عن ذلك قوله ﴿ **فأصلحوا بين أخويكم** ﴾ فى الدين كما تصلحون بين أخويكم فى النسب .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ١٤ ط الشعب ـ باب تعاون المؤمن ـ
وفى صحيح مسلم ـ حـ ٤ صـ ١٩٩٩ باب تراحم المؤمنين

(٢) الحديث فى صحيح البخارى حـ ٨ صـ ١٤ ط الشعب ـ باب تعاون المؤمن

(٣) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٨٤٢ من رواية أحمد والبخارى ومسلم والطبرانى

(٤) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى حـ ١ صـ ٤٤٦ من رواية الترمذى عن أبى هريرة وفى مسند أحمد والطبرانى فى الكبير عن واثلة
وفى مسند أحمد حـ ٢ صـ ٢٧٧
وفى تحفة الأحوذى ـ باب ما جاء فى شفقة المسلم على المسلم حـ ٦ صـ ٥٤

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ حـ ٤ صـ ١٩٨٦

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ حـ ١ صـ ٦٧

(٧) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب السلام حـ ٤ صـ ١٧٠٥

وقوله تعالى ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فى كل ما تأكلون وما تذرون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين كما قال تعالى ﴿ **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾[٤] وكقوله تعالى ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله عليكم رقيبا** ﴾[١] وقوله تعالى ﴿ **وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون** ﴾[٢] .

قال القرطبى : فى هذه الآية والتى قبلها دليل على أن البغى لا يذيل اسم الإيمان ؛ لأن الله تعالى سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين ، قال الحارث الأعور : سئل على بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ وهو القدوة عن قتال أهل البغى من أهل الجمل وصفين : أمشركون هم ؟ قال : لا ، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا . قيل له : فما حالهم ؟ قال : إخواننا بغوا علينا .

وبعد أن عشنا فى تلك الأجواء الرفيعة المستوى ، المشرقة المحيا ، السامية السامقة ، نزيد الأمر وضوحاً فنسلط تلك الأضواء الكاشفة على هذا المشهد القرآنى المهيب ، ونستمد تلك الأضواء من كتاب روائع البيان لما اشتمل عليه من الأحكام الشرعية التى تستنبط من هذه الآيات الكريمة .

يقول صاحب « روائع البيان » ما نصه :

سورة الحجرات تسمى صورة (الأخلاق والآداب) فقد أرشدت إلى مكارم الأخلاق ، وجاء فيها النداء بوصف الإيمان بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ **خمس مرات ، وفى كل مرة إرشاد إلى مكرمة من المكارم ، وفضيلة من الفضائل ، وهذه الآداب الرفيعة نستعرضها فى فقرات ، وهى :**

١ ـــ وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الرسول ـــ وعدم التقدم عليه برأى ، أو قول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله .. ﴾ أى : لا تعجلوا بقول ، أو فعل قبل أن يقول : فيه رسول الله أو يفعل .

٢ ـــ احترام الرسول ، وتعظيم شأنه ، وعدم رفع الصوت فى حضرته ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى .. الآية** ﴾ .

٣ ـــ وجوب التثبت من صحة الأخبار ، وعدم الاعتماد على أقوال الفسقة المفسدين ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ..** ﴾ الآية .

---

(١) الآية ١ من سورة الأنفال

(٢) الآية ١ من سورة النساء

(٣) الآية ١٣٢ من سورة آل عمران

٤ ــ النهى عن السخرية بالناس وعن التنابز بالألقاب ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن** .. ﴾ الآية .

٥ ــ النهى عن التجسس ، والغيبة ، وسوء الظن ، وعن سائر الأخلاق الذميمة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً** .. ﴾ الآية .

فهذه السورة الكريمة التى لا تتجاوز ثمانى عشرة آية قد جمعت الفضائل ، والآداب الإنسانية ، فلا عجب أن تسمى (سورة الآداب) أو (سورة الأخلاق) فهى تتناول الأدب مع الله ، والأدب مع الرسول ، والأدب مع النفس والأدب مع المؤمنين ، والأدب مع الناس عامة ، وكلها بهذا الشكل الرتيب . (وهذه هى اللطيفة الأولى) .

اللطيفة الثانية :

تصدير الخطاب بالنداء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ لتنبيه المخاطبين على أن ما بعده أمر خطير ، يستدعى مزيد العناية والاهتمام بشأنه ، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ، ووازع عن الإخلال به . أفاده العلامة أبو السعود .

اللطيفة الثالثة :

قوله تعالى : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ فى هذا التعبير إشارة لطيفة إلى أن المؤمن ينبغى أن يكون حذراً يقظاً ، لا يقبل كل كلام يلقى على عواهنه ، دون أن يعرف المصدر ، وتنكير (فاسق) للتعميم ، لأنه نكرة فى سياق الشرط وهى كالنكرة فى سياق النفى تفيد العموم كما قرره علماء الأصول ، والمعنى إن جاءكم أى : فاسق فتثبتوا من خبره ، وجاء بحرف التشكيك (إن) ولم يقل (إذا) التى تفيد التحقيق ، ليشير إلى أن وقوع مثل هذا إنما هو على سبيل (الندرة) إذ الأصل فى المؤمن أن يكون صادقاً ، ولما كان رسول الله ــ ﷺ ــ وأصحابه بالمنزلة التى لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من (الوليد بن عقبة) إلا فى الندرة قيل : (إن جاءكم) بحرف الشك . فتدبر أسرار الكتاب العزيز (روح المعانى للألوسى) .

اللطيفة الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾ تقديم خبرأن على اسمها ليفيد معنى الحصر ، المستتبع لزيادة التوبيخ لهم على ما فرط منهم فى حق الرسول ــ ﷺ ــ وفى الكلام إشعار بأنهم زينوا بين يدى الرسول ــ ﷺ ــ الإيقاع بالحارث وقومه ، وقد أريد أن ينعى عليهم ذلك بتنزيلهم منزلة من لا يعلم أنه ــ عليه السلام ــ بين أظهرهم .

قال الإمام الفخر ــ رحمه الله ــ : « والذى اختاره وكأنه هو الأقوى إن الله تعالى لما قال : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ أى : فتثبتوا واكشفوا ، قال بعده : ﴿ **واعلموا أن فيكم رسول الله** ﴾ .. أى : الكشف سهل عليكم بالرجوع إلى النبى ــ ﷺ ــ فإنه فيكم مبين مرشد ، وهذا كما قال القائل عند اختلاف تلاميذ شيخ فى مسألة : **هذا الشيخ قاعد** .. لا يريد به بيان قعوده ، وإنما يريد أمرهم بالرجوع إليه ، فكأن الله تعالى يقول : استرشدوا بالرسول ــ ﷺ ــ فإنه يعلم ولا يطيع أحدا ، فلا يوجد فيه حيف ، ولا يروج عليه زيف لأنه لا يعتمد على كثير من آرائكم التى تبدونها ، وإنما يعتمد على الوحى الذى يأتيه من عند الله » .

اللطيفة الخامسة :

صيغة المضارع تفيد (الاستمرار والتجدد) بخلاف الماضى ، فالعدول عن الماضى إلى المضارع فى قوله تعالى : ﴿ **لو يطيعكم** ﴾ ليفيد هذا المعنى على أنهم كانوا يريدون إطاعة الرسول لهم إطاعة مستمرة بدليل قوله تعالى : ﴿ **فى كثير من الأمر** ﴾ وذلك أن صيغة المضارع تفيد التجدد والاستمرار ، نقول : فلان يقرى الضيف ، ويحمى الحريم ، تريد أن ذلك شأنه وأنه مستمر على ذلك .

وكأن الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ ولا تكونوا أمثال هؤلاء الذين استفزهم النبأ قبل التعرف على صدقه ، ثم لم يكتفوا حتى أرادوا أن يحملوا الرسول على رأيهم ، ليوقعوا أنفسهم ويوقعوا غيرهم فى العنت والإرهاق ، واعلموا جلالة قدر الرسول ــ ﷺ ــ وتفادوا عن أمثال هذه الأخطاء .

اللطيفة السادسة :

قوله تعالى : ﴿ **أولئك هم الراشدون** ﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هُمُ المُضعِفون** ﴾[(1)] وهذا الإلتفات من المحسنات البديعية كما قرره علماء البلاغة ، ويقصد به التعظيم أى : هؤلاء الذين حبب الله إليهم الإيمان ، وزينه فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، هم الذين بلغوا أرفع الدرجات ، وأعلى المناصب ، ونالوا هذه الرتبة العظيمة (رتبة الرشاد) فضلاً من الله وكرماً .

اللطيفة السابعة :

قوله تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** ﴾ الطائفة فى اللفظ : مفرد ، وفى المعنى : جمع ، لأنها تدل على عدد كبير من الناس ، ولهذا جاء التعبير بقوله : ﴿ **اقتتلوا** ﴾ ، رعاية للمعنى فإن كل طائفة مِن الطائفتين جماعة ، ثم قال تعالى : ﴿ **فأصلحوا بينهما** ﴾ ولم يقل بينهم رعاية للفظ ، والنكتة

---

(١) سورة الروم الآية ٣٩

فى هذا هو ما قيل : إنهم عند الاقتتال تكون الفتنة قائمة ، وهم مختلطون ، فلذا جمع الضمير ، وفى حال الصلح تتفق كلمة كل طائفة حتى يكونوا كنفسين فلذا ثنى الضمير . (أفاده الفخر الرازى) .

اللطيفة الثامنة :

قال الإمام الفخر : ــ رحمه الله ــ قال تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين** ﴾ ولم يقل (منكم) مع أن الخطاب مع المؤمنين لسبق قوله ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ تنبيهاً على قبح ذلك ، وتبعيداً لهم عنهم ، كما يقول السيد لعبده : إن رأيت احداً من غلمانى يفعل كذا فامنعه ، فيصير بذلك مانعاً للمخاطب عن ذلك الفعل بالطريق الحسن ، كأنه يقول : أنت حاشاك أن تفعل ذلك ، فإن فعل غيرك فامنعه ، كذلك ههنا قال : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين** ﴾ ، ولم يقل منكم لما ذكرنا من التنبيه مع أن المعنى واحد .

اللطيفة التاسعة :

قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ ، فيه تشبيه لطيف يسمى (التشبيه البليغ) وأصل الكلام : المؤمنون كالإخوة فى وجوب التراحم ، **والتناصر** فحذف وجه الشبه ، وأداة الشبه فأصبح بليغاً ، قال بعض أهل اللغة : الإخوة جمع الأخ من النسب ، والإخوان جمع الأخ من الصداقة ، فالله تعالى قال : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ تأكيداً للأمر وإشارة إلى أن ما بينهم كما بين الإخوة من النسب ، والإسلام لهم كالأب فأخوة (العقيدة) فوق أخوة (الجسد) ، ورابطة الإيمان أقوى من رابطة النسب ، وقد قال الشاعر العربى :

أبى الإسلام لا أب لى سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

اللطيفة العاشرة :

سئل بعض العلماء عما وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم من قتال فقال : تلك دماء قد طهر الله منها أيدينا فلا تلوث بها ألسنتنا ، وسبيل ما جرى بينهم كسبيل ما جرى بين يوسف وإخوته .
وسئل (الحسن البصرى) عن قتالهم ، فقال : (قتال شهده أصحاب محمد ــ ﷺ ــ وغبنا ، وعلموا ، وجهلنا ، واجتمعوا فاتبعنا ، واختلفوا فوقفنا) .

وقال المحاسبى : فنحن نقول كما قال الحسن : ، ولا نبتدع رأيا منا ، ونعلم أنهم اجتهدوا وأرادوا وجه الله ــ عز وجل ــ .

الأحكام الشرعية
(المستنبطة من الآيات)

الحكم الأول : هل يقبل خبر الواحد إذا كان عدلاً ؟ استدل العلماء بهذه الآية الكريمة ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ** ﴾ على قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً ووجه الاستدلال من جهتين :

(الأولى) : أن الله تعالى : أمر بالتثبت فى خبر الفاسق ، ولو كان خبر الواحد العدل لا يقبل لما كان ثمة فائدة من ذكر التثبت ، لأن خبر كل من العدل ، والفاسق مردود ، فلما دل الأمر بالتثبت فى خبر الفاسق ، وجب قبول خبر العدل ، وهذا الاستدلال كما يقول علماء الأصول من باب (مفهوم المخالفة) .

(الثانية) : أن العلة فى رد الخبر هى (الفسق) لأن الخبر أمانة ، والفسق يبطلها فإذا انتفت العلة انتفى الرد ، وثبت أن خبر الواحد ليس مردوداً ، وإذا ثبت ذلك وجب حينئذ قبوله والعمل به .

وأما المجهول الذى لا تعلم عدالته ولا فسقه فقد استدل الحنفية على قبول خبره ، وحجتهم فى ذلك أن الآية دلت على أن الفسق شرط وجوب التثبت ، فإذا انتفى الفسق فقد انتفى وجوبه ، ويبقى ما وراءه على الأصل وهو قبول خبره ، لأن الأصل فى المؤمن العدالة .

وأنت ترى أن هذا الاستدلال مبنى على أن الأصل العدالة ، ولكن بعض الفقهاء يعارض فى هذا ويقول : الأصل الفسق لأنه أكثر ، والعدالة طارئة فلا يقبل قوله حتى يثبت عدالته .

الترجيح

والظاهر أن مسألة قبول خبر المجهول مبنية على هذا ، فإن صح أن الأصل العدالة فهو باق على عدالته حتى يتبين خلافها ، وإن كان الأصل عدمها فهو داخل فى حكم الفسق حتى تتبين عدالته ، والمسألة تطلب بالتفصيل من كتب الأصول .

الحكم الثانى :

هل يجب البحث عن عدالة الصحابة فى الشهادة والرواية ؟

استدل بعض العلماء بالآية الكريمة على أن من الصحابة من ليس بعدل لأن الله تعالى : أطلق لقب الفاسق على (الوليد بن عقبة) فإنها نزلت فيه ، وسبب النزول لا يمكن إخراجه من اللفظ العام وهو صحابى بالاتفاق ، وقد أمر الله بالتثبت مع خبره ، فلابد من البحث عن عدالة الصحابة فى الشهادة والرواية .

والمسألة خلافية وفيها أقوال نذكرها بإيجاز :

الأول : أن الصحابة كلهم عدول ، ولا يبحث عن عدالتهم فى رواية ولا شهادة ، وهذا رأى جمهور العلماء سلفاً وخلفاً .

الثانى : أن الصحابة كغيرهم يُبحث عن العدالة فيهم فى الرواية والشهادة ، إلا من يكون ظاهر العدالة ، أو مقطوعها كالشيخين (أبى بكر) و (عمر) ـــ رضى الله عنهما ـــ .

الثالث : أنهم عدول إلى زمن عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ ، ويبحث عن عدالتهم بعد مقتله ، وهذا رأى طائفة من العلماء .

الرابع : أنهم عدول إلا من قاتل عليا ـــ كرم الله وجهه ـــ لفسقه بالخروج على الإمام الحق وهذا مذهب **المعتزلة** .

الترجيح

والحق ما ذهب إليه جمهور العلماء سلفاً وخلفاً من أن الصحابة كلهم عدول ، ببركة صحبة النبى ـــ ﷺ ـــ ومزيد من ثناء الله ـــ عز وجل ـــ فى كتابه العزيز كقوله سبحانه : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً** ﴾[1] أى : عدولاً ، وقوله سبحانه : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾[2] ، وقوله جل ذكره : ﴿ **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[3] ، وقوله جل وعلا : ﴿ **يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾[4] . وقوله جل وعلا : ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[5] إلى آخر ما هنا لك من الآيات الكثيرة .

وكذلك ما ثبت فى السنة المطهرة من مدحهم ، والثناءعليهم وبيان أنهم أفضل الناس بعد رسول الله ـــ ﷺ ـــ على الإطلاق ، ونحن نذكر بعض هذه الأحاديث الشريفة التى تشير إلى فضيلتهم باختصار .

١ ـــ قال ـــ ﷺ ـــ : « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم .. الحديث »[6] ، (رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى) .

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٤٣

(٢) سورة آل عمران من الآية ١١٠

(٣) سورة الفتح من الآية ٢٩

(٤) سورة الحشر الآية ٨

(٥) سورة البينة من الآية ٨

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ـــ كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ، ص ١٩٦٣ عن عبد الله رقم ٢١٢ / ٢٥٣٣
ـــ وفى صحيح البخارى كتاب فضائل أصحاب النبى ـــ ج ٥ ص ٣ عن عبد الله
ـــ وفى سنن الترمذى كتاب القدر ـــ باب ما جاء فى القرن الثالث ج ٣ ص ٣٣٩ رقم ٢٣٢٠ عن عمران بن حصين .
ـــ وفى سند الامام أحمد ج ١ ص ٤٣٤ حديث عبد الله .

٢ ــ وقال ــ ﷺ ــ : « لا تسبوا أصحابى فو الذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه »[١] ، (رواه الشيخان وأبو داود والترمذى) .

٣ ــ وقال ــ ﷺ ــ : « الله ، الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فيبغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه »[٢] ، (رواه الترمذى) .

فهذه الأخبار التى وردت فى الكتاب ، والسنة كلها متضافرة على عدالة الصحابة ، وأفضليتهم على سائر الناس ، وما وقع من بعضهم من مخالفات فليس يسوغ لنا أن نحكم عليهم بالفسق ، لأنهم لا يصرون على الذنب ، وإذا تاب الإنسان رجعت إليه عدالته ، ولا يحكم بفسقه على التأبيد ، فهذا (ماعز الأسلمى) الذى ارتكب الفاحشة يقول عنه النبى ــ ﷺ ــ : بعد أن أمر برجمه « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم »[٣] ، (هذا جزء من حديث طويل رواه مسلم) .

والقول بأن بعض الصحابة قد وقع فى الذنب والمخالفة ، بناء على الاعتقاد بعدم عصمتهم ــ لا يعنى أنهم غير عدول ، لأن الفاسق الذى ترد شهادته ، وروايته هو الذى يصر على الذنب والمعصية ، وليس فى الصحابة من يصر على ذلك .

وقد عرفت ما ذكره الإمام الفخر أنها لم تنزل خاصة بسبب (الوليد بن عقبة) وإنما نزلت عامة فى بيان حكم كل فاسق . وأنها نزلت فى ذلك الوقت الذى حدثت فيه تلك القصة ، فهى مثل التاريخ لنزول الآية ، وكلام الإمام الفخر نفيس فارجع إليه .

الحكم الثالث : هل تقبل شهادة الفاسق أو المبتدع .

اتفق العلماء على أن شهادة الفاسق لا تقبل عملاً بالآية الكريمة ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ وكذلك لا تقبل روايته ، لأن الرواية عن رسول الله ــ ﷺ ــ أمانة ودين ، والفسق يبطلها لاحتمال كذبه على رسول الله ــ ﷺ ــ .

قال القرطبى : « ومن ثبت فسقه بطل قوله فى الأخبار إجماعاً ، لأن الخبر أمانة ، والفسق قرينة يبطلها » .

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ج ٤ ص ١٩٦٧ رقم ٢٢٢ / ٢٥٤١
ــ وفى سنن أبى داود ج ٥ ص ٤٥ رقم ٤٦٥٨ ــ كتاب السنة ــ باب النبى عن سب أصحاب النبى ــ ﷺ ــ
وفى سنن الترمذى ج ٥ ص ٣٥٧ رقم ٣٩٥٢ أبواب المناقب . وفى البخارى ج ٥ ص ١٠ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (أبواب المناقب) فى من سب أصحاب النبى ﷺ .. ج ٥ ص ٣٥٨ رقم ٣٩٥٤ .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الحدود ــ باب من اعترف على نفسه بالزنى ج ٣ ص ١٣٢١ ، ١٣٢٢ رقم ٢٢ / ١٦٩٥ عن ماعز بن مالك من حديثه الطويل .

وقال الجصّاص :

وقوله تعالى : ﴿ فتبينوا ﴾ اقتضى ذلك النهى عن قبول شهادة الفاسق مطلقا ، إذ كان كل شهادة خبراً ، وكذلك سائر أخباره فلذلك قلنا : شهادة الفاسق غير مقبولة فى شىء من الحقوق وكذلك أخباره فى الرواية عن النبى — ﷺ — وكل ما كان من أمر الدين ، يتعلق به اثبات شرع ، أو حكم ، أو اثبات حق على إنسان .

وقد استثنى العلماء من قبول خبر الفاسق أموراً تتعلق بالمعاملات وليس فيها شهادة على الغير منها :

أ — قبول قوله فى الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندى مائة درهم فيقبل قوله ، كما يقبل فى ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ب — قبول قوله فى الإقرار على نفسه مثل : لفلان عندى مائة درهم فيقبل قوله ، كما يقبل فى ذلك قول الكافر ، لأنه إقرار لغيره بحق على نفسه فلا تشترط فيه العدالة .

ج — وكذلك فى الإذن بالدخول ونحوه كما إذا استأذن إنسان فقال له : ادخل . لا تشترط فيه العدالة . ومثل هذا جميع أخبار المعاملات إذا لم يكن فيها شهادة على الغير .

واختلف العلماء فى أمر الولاية بالنكاح ، فذهب الشافعى وغيره إلى أن الفاسق لا يكون ولياً فى النكاح ، لأنه يسيىء التصرف ، وقد يضر بمن يلى أمر نكاحها بسبب فسوقه .

وقال أبو حنيفة ومالك : تصح ولايته ، لأنه يلى مالها فيلى بُضعها كالعدل ، وهو — وان كان فاسقاً — إلا أن غيرته موفره ، وبها يحمى الحريم ، وقد يبذل المال ويصون الحرمة ، وإذا ولى المال فالنكاح أولى .

أما المتبوع :

وهو الفاسق الذى يكون فسقه بسبب الاعتقاد ، وهو متأول للنصوص كالجبرية ، والقدرية ، ويقال له : المبتدع بدعة واضحة ، فمن الأصوليين من رد شهادته وروايته كالإمام الشافعى — رحمه الله — ومنهم من قبلهما ، وفرق الحنفية فقالوا : تقبل منه الشهادة ، ولا تقبل منه الرواية لأن من ابتدع بدعة بسبب الدين فلا يبعد أن ينتصر لهواه ويدعو الناس إلى ذلك فنرد روايته دون شهادته ، لأن الدعوة إلى مذهبة داعية إلى النقل فلا يؤتمن على الرواية وهذا مذهب جمهور أئمة الفقه والحديث .

الحكم الرابع : هل تصح ولاية الفاسق ؟

قال ابن العربى — رحمه الله — : « ومن العجب أن يجوز الشافعى ونظراؤه إمامة الفاسق ، ومن لا يؤتمن على حبة مال كيف يصح أن يؤتمن على قنطار دين ؟ ! وهذا إنما كان أصلة أن الولاة الذين كانوا يصلون بالناس ، لما فسدت آديانهم ولم يمكن ترك الصلاة وراءهم ، ولا استطيعت إزالتهم صلى

معهم ووراءهم ، كما قال عثمان : الصلاة أحسن ما يفعل الناس ، فإذا أحسنوا فأحسن ، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم .

ثم كان من الناس من إذا صلى معهم تقيّة أعادوا الصلاة لله ، ومنهم من كان يجعلها صلاته ، وبوجوب الإعادة أقول ، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع من لا يرضى من الأئمة ، ولكن يعيد سراً فى نفسه ، ولا يؤثر ذلك عند غيره .

وأما أحكامه إن كان والياً فينفذ منها ما وافق الحق ويرد ما خالفه ولا ينقض حكمه الذى أمضاه بحال ، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية تؤثر ، أو قول يحكى ، فإن الكلام كثير والحق ظاهر .. (آيات الأحكام لابن العربى) .

الحكم الخامس : هل يجب قتال أهل البغى ؟

ذهب جمهور العلماء إلى وجوب قتال أهل البغى ، الخارجين على الإمام أو أحد المسلمين ، ولكن بعد دعوتهم إلى الوفاق والصلح ، والسير بينهم بما يصلح ذات البين ، فإن أقاموا على البغى وجب قتالهم عملا بقوله : (فأصلحوا بينهما فإن بغت أحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) .

وذهب جماعة ممن يدعى العلم إلى عدم جواز قتال البغاة من المؤمنين ، واحتجوا بقوله — عليه السلام — : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر »[1] رواه الشيخان والترمذى والنسائى .

وهذا الحديث لا ينهض حجة لهم ، لأن من بغى من المؤمنين فقد أمر القرآن بقتاله ، فكيف يحتج بمثل هذا الحديث لإبطال حكم الله عز وجل ؟

قال القرطبى :

وهذه الآية : دليل على فساد قول من منع قتال المؤمنين . ولو كان قتال المؤمن الباغى كفراً لكان الله — تعالى — قد أمر بالكفر تعالى الله عن ذلك !! وقد قاتل الصديق — رضى الله عنه — من تمسك بالاسلام وامتنع من الزكاة ، وأمر الا يتبع مولٍ ولا يجهز على جريح ، ولم تحل أموالهم بخلاف الكفار » .

وقال الطبرى :

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى (كتاب الإيمان) باب خوف المؤمن من ان يحبط عمله ج ١ ص ١٩
— وفى صحيح مسلم — كتاب الايمان باب سباب المسلم فسوق وقتاله كفر عن عبد الله بن سعود ج ١ ص ٨١ رقم ١١٦ / ٦٤ .
— وفى سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) (باب ما جاء فى الشتم) ج ٣ ص ٢٣٨ رقم ٢٠٤٩ وقال ابو عيسى : هذا حديث من صحيح .
— وفى سنن النسائى : ج ٤ ص ١٢١ (كتاب تحريم الدم) باب قتال المسلم عن عبد الله .
وفى سنن ابن أبى ماجه كتاب الفتن باب سباب المسلم فسوق وقتالة كفر ج ٢ ص ٢٩٩ رقم ٣٩٣٩ .

« ولو كان الواجب فى كل اختلاف يكون بين الفريقين الهرب منه ، ولزوم المنازل ، لما أقيم حد ، ولا أبطل باطل ولوجد أهل النفاق ، والبخور سبيلا إلى استحلال كل ما حرم الله عليهم من أموال المسلمين ، وسبى نسائهم ، وسفك دمائهم ، بأن يتحزبوا عليهم ، ويكف المسلمون أيديهم عنهم وذلك مخالف لقوله ــ عليه السلام ــ « خذوا على أيدى سفهائكم »[1] .

أدلة الجمهور :

استدل الجمهور على وجوب قتل البغاة بعدة أدلة نوجزها فيما يلى :

أ ــ قوله تعالى : ﴿ **فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾ الآية .

ب ــ حديث « سيخرج قوم فى آخر الزمان ، حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، يقرءون القرآن ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن فى قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة »[2] ، (رواه الشيخان وأبو داود والنسائى) .

ج ــ حديث « سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القول ويسيئون العمل ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه ، قالوا يا رسول الله : **ماسيماهم** ؟ قال : التحليق »[3] ، (رواه السنة إلا الترمذى) .

فهذه الأحاديث صريحة فى وجوب قتال أهل البغى ومن شايعهم على باطلهم من أهل الفجور والضلال .

---

(١) الحديث فى كنز العمال ج ٣ ص ٦٩ رقم ٥٥٢٥ ــ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وانظر القرطبى ج ٦ ص ٤ .

(٢) الحديث فى البخارى كتاب بدء الخلق باب علامات النبوة ج ٤ ص ٢٤٤

ــ وفى صحيح مسلم : كتاب الزكاة باب التحريض على قتل الخوارج ج ٢ص ٧٤٦ رقم ١٥٤ / ١٠٦٦

ــ وفى أبو داود كتاب الأدب ــ باب قتل الخوارج ج ٥ ص ١٢٤ رقم ٤٧٦٧ .

ــ وفى نصف عبد الرزاق ج ١٠ ص ١٥٦ رقم ١٨٦٧٧ .

وفى سنن النسائى ج ١ المصرية بالأزهر ج ٧ ص ١٩ كتاب تحريم الدم (باب مَن شهر سبقه ثم وضعه فى الناس) .

(٣) الحديث فى سنن أبى داد و (كتاب الأدب) باب قتال الخوارج ج ٥ ص ١٢٣ رقم ٤٧٦٥ . فقد ورد الحديث بلفظه .

ــ وانظر المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٢ ص ١٤٧ « كتاب قتال أهل البغى ، فقد ورد الحديث من رواية أنس بن مالك فى حديث طويل .

ــ وانظر صحيح مسلم (كتاب الزكاة) باب الخوارج شر الخلق والخليقة ج ٢ ص ٧٥٠ حديث ١٥٨ / ١٠٦٨ فقد ورد هذا من رواية لأبى ذر مع اضلاف فى بعض ألفاظه وجمله

ــ وفى السنن الكبرى للبيهقى من رواية أنس بن مالك وأبى سعيد الخدرى ج ٨ ص ١٧١ .

الحكم السادس : هل تكون أموال البغاة غنيمة للمسلمين ؟

اختلف العلماء فى حكم أموال البغاة هل تكون غنيمة للمسلمين ؟ أم ترد إليهم بعد الصلح وانتهاء الحرب ؟

أ ـــ فقال محمد بن الحسن الشيبانى : إن أموالهم لا تكون غنيمة ، وإنما يستعان على حربهم بسلاحهم وخيلهم عند الاستيلاء عليه ، فإذا وضعت الحرب أوزارها رد عليهم السلاح والمال .

ب ـــ وقال أبو يوسف : إن ما وجد فى أيدى البغاة من سلاح وعتاد فهو (غنيمة) يقسم ويخمس .

ج ـــ وقال مالك : لا تسبى ذراريهم ولا أموالهم . وهو مذهب الشافعى .

حجة أبى يوسف : أنهم باغون معتدون فيقسم مالهم غنيمة بين المسلمين .

حجة الجمهور : أن بغيهم يحل قتالهم ، ولا يحل أموالهم وذراريهم ، لأنهم ليسوا كفارا ، وإنما هم مؤمنون باغون ، أو فاسقون خارجون عن الطاعة ، والأمر بقتالهم من أجل ردهم إلى صف المؤمنين .

واستدلوا بما روى عن ابن عباس أن الخوارج لما تقموا على (على) ـــ كرم الله وجهه ـــ قال : أفتسبون أمكم عائشة ، ثم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها ؟ فلئن فعلتم لقد كفرتم .

واستدلوا بحديث ابن عمر عن النبى ـــ ﷺ ـــ أنه قال : « يا عبد الله أتدرى كيف حكم الله فيمن بغى من هذه الأمة » ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، فقال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ولا يطلب هاربها ، ولا يقسم فيئها »[1] ، (القرطبى) .

قال القرطبى :

« والمعوَّل فى ذلك عندنا أن الصحابة ـــ رضى الله عنهم ـــ فى حروبهم لم يتبعوا مدبراً ، ولا ذففوا على جريح (أى أجهزوا على جريح) ولا قتلوا أسيراً ، ولا ضمنوا نفسا ولا مالا ، وهم القدوة » .

الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور لأنهم ليسوا كفاراً ولأننا لو أخذنا أموالهم وسبينا ذراريهم تألبوا علينا ولم يمكن ردهم إلى صف المسلمين والله أعلم .

فائدة هامة : حول ما وقع بين الصحابة ـــ رضوان الله عليهم أجمعين : قال العلامة القرطبى ـــ رحمه الله ـــ : « لا يجوز أن ينسب إلى أحد من الصحابة خطأ مقطوعة به ، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوه ، وأرادوا الله ـــ عز وجل ـــ ، وهم كلهم لنا أئمة ، وقد تعبدنا بالكف عما شجر بينهم ، وألا نذكرهم إلا بأحسن الذكر ، لحرمة الصحبة ، ونهى النبى ـــ ﷺ ـــ عن سبهم ، وأن الله غفر لهم ، وأخبر بالرضا عنهم .

---

(١) الحديث فى تفسير القرطبى الجامع لاحكام القرآن ج ١٦ ص ٣٢٠

هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفة عن النبى – ﷺ – أن طلحة شهيد يمشى على وجه الأرض ، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصيانا لم يكن بالقتل فيه شهيداً ، لأن الشهادة لا تكون إلا بالقتل فى الطاعة .

ومما يدل على ذلك ما قد صح بأن قاتل الزبير فى النار ، وقوله – عليه السلام – (بشر قاتل ابن صفية بالنار) وإذا كان كذلك فقد ثبت : أن (طلحة) و (الزبير) غير عاصيين ، ولا **آثمين** بالقتال ، وقد سئل بعضهم عن الدماء التى أريقت فيما بينهم فقال تعالى : ﴿ **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** ﴾[1] .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : وجوب التثبت من الأخبار وعدم الوثوق بخبر الفاسق الخارج عن طاعة الله .

ثانيا : ضرورة التريث قبل الحكم على الأشخاص لمجرد سماع الأنباء خشية الظلم والعدوان عليهم .

ثالثاً : الرسول – ﷺ – هو المرجع للمؤمنين ، فلا يجوز لأحد من أهل الإيمان أن يقطع بأمر دونه .

رابعاً : وجوب الإصلاح بين طوائف المؤمنين عند حصول النزاع خشية تصدع الصفّ ، وتفرق الكلمة .

خامساً : إذا بغت إحدى الطائفين على الأخرى ولم يمكن الإصلاح وجب قبر الفتنة بحد السيف .

سادساً : المؤمنون إخوة **جمعتهم** رابطة (العقيدة والإيمان) وهذه الرابطة أقوى من رابطة النسب والدم .

سابعاً : يجب على المؤمنين مقاومة أهل البغى إبقاءً لوحدة الأمة الإسلامية ودفعا للظلم عن المستضعفين .

حكمة التشريع

يدعو الإسلام إلى التثبت فى الخبر ، وأخذ الحيطة والحذر ، فى كل أمر من أمور المسلمين ، ليجتنبوا المزالق التى يدبرها لهم أعداؤهم ، ويكونوا على بينة من أمرهم ، فكم من فتنة حصلت بسبب خبر كاذب ، نقله فاسق فاجر ؟ وكم من دماء أريقت بسبب فتنة هوجاء أشعل نارها أناس ماكرون ؟ لا يريدون للأمة الخير ، ولا يضمرون للمسلمين إلا كل شر ، وبلاء ، وفتنة ، ليفسدوا عليهم وحدتهم ، ويكدروا عليهم صفاءهم وسرورهم .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٣٤ ، ١٤١ .

لذلك أمر الإسلام بمبدأ كريم فاضل (مبدأ التمحيص) والتثبت من كل خبر ، وخاصة خبر الفاسق ، الذى لا يقيم حرمة للدين ، ولا يبالى بما يحدث من جراء كذبه وبهتانه من أضرار فادحة ، ونتائج وخيمة ، تشل حركة المجتمع وقد تفضى إلى فجيعة عظيمة تودى بحياة أناس بريئين ، كما كان سيحدث فى قصة (الوليد بن عقبة) لولا أن الله ـــ عز وجل ـــ أطلع رسوله على جلية الأمر ، بواسطة الوحى المنزل ، فكان فى ذلك صيانة الدماء البريئة ، وحفظ وحدة المسلمين ، كما أمر الإسلام بمقاومة الظلم والطغيان ، أياً كان مصدره ، فدعا إلى الإصلاح بين الطوائف المتنازعة ، والفئات المتخاصمة ، فإن لم ينفع الصلح ، ولم تثمر دعوته ، كان السيف هو الحكم الفاصل تقاتل به الفئة الباغية ، حتى ترجع إلى أمر الله ، **وتفىء** إلى رشدها .

وهذه الخطة الحكيمة التى انتهجها الإسلام قاعدة تشريعية وقائية ، لصيانة المجتمع المسلم من الخصام ، والتفكك والاندفاع وراء الأهواء الطائشة التى لا تجنى منها الأمة إلا كل شر ، وبلاء . أ هـ .

من الآداب الإسلامية

قال تعالى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ
خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ
فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟
وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ
إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

معانى المفردات

﴿ لا يسخر ﴾ السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به ، وسخر منه ، وضحك به ، وضحك منه ، وهزىء به ، وهزىء منه ، والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالمحاكاة بالقول ، أو بالفعل ، أو بالاشارة ، أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعته أو على قبح صورته .

﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أى : لا يعب بعضكم بعضا بقول ، أو اشارة باليد ، أو العين أو نحوهما ، والمؤمنون كنفس واحدة فمتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ التنابز : المتعاير والتداعى بما يكرهه الشخص من الألقاب ، ﴿ الاسم ﴾ الذكر والصيت ، ﴿ اجتنبوا ﴾ أى : تباعدوا ، وأصل اجتنبته : كنت منه على جانب ، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له . ﴿ الاثم ﴾ الذنب ، ﴿ التجسس ﴾ البحث عن العورات والمعايب والكشف عما ستره الناس .

﴿ والغيبة ﴾ ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته . ﴿ من ذكر وأنثى ﴾ أى : من آدم وحواء ، ﴿ شعوباً ﴾ الشعوب واحدهم شعب (بفتح الشين وسكون العين) ، وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد . كربيعة ومضر .. وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ــ سبحانه ــ ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله ــ تعالى ــ ومع النبى ــ ﷺ ــ ، بين سبحانه ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لا ينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقبه باللقب الذى يتاذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جرماً كبيراً . كذلك ينبغى عليه أن يبتعد عن سوء الظن بالناس وتخونهم فى كل ما يقولون وما يفعلون ، لأن بعض ذلك قد يكون إثماً محضاً . فليجتنب كثير منه ، وقد روى عن عمر ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً ، وأنت وأن تجد لها فى الخير محملاً ، وكذلك ينبغى عليه ألا يبحث عن عورات الناس ومعايبهم وعدم ذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون ، وقد مثل الشارع المغتاب بآكل لحم الميتة استفظاعاً له . قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدودة أن تأكل منها ، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ .

إنه لترتيب إلهى عال حيث رتب ــ سبحانه ــ مسألة النزاع والقتال بين الطوائف والأشخاص على أبناء الفاسقين ولذا نبهنا فيما سبق إلى التبين والتثبت فى تلقى الأخبار ، وأنه لنسق فريد أن يسوق تلك الإرشادات الإلهية فى هذه الآيات التى تتضمن سل السخائم وإماتة الأحقاد حتى تصبح الأمة الإسلامية كالجسد الواحد بعد ذلك .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ نادانا المولى ــ سبحانه وتعالى ــ بوصف الإيمان لينهانا عن السخرية وغيرها ليشعرنا بأن ما يدعونا إليه من إرشاد هو مقتضى الإيمان الصحيح فقد قال صاحب الخلق العظيم : ﴿ **أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن** ﴾ .

أى : يا أيها الذين آمنوا لا يسخر رجل أو امرأة أو جماعة من رجل آخر أو امرأة أخرى أو جماعة أخرى ، والسخرية بالناس رذيلة تغضب الرحمن وترضى الشيطان ، وتثير كوامن الفتن وبواعث الشر وهى صفة المجردين من الخير ، المنغمسين فى حمأة الرذيلة ، فالسخرية دليل على خبث الطوية ، وسوء السريرة ، ودناءة النفس ، ولا يصح أن يسخر نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ، فالمستهزأ به **غالبا** يكون خيراً عند الله من المستهزىء .

فينبغى ألا يجترىء أحد على الاستهزاء بأحد لرثاثة حالة أو لكونه ذا عاهة فى بدنه ، أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأنقى قلبا ممن هو على ضد صفته فيظلم نفسه بتحقير من وقره الله تعالى .

وقد قال الإمام النووى فى رياض الصالحين : باب تحريم احتقار المسلمين ــ بعد أن أورد هذه الآية : « وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[2] رواه مسلم .

وعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر فقال ، رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، وفعله حسنة ، فقال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »[3] رواه مسلم . ومعنى « بطر الحق » دفعه ، و « غمط الناس » احتقارهم .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تلمزوا أنفسكم** ﴾ أى : ولا يعب بعضكم بعضا بقول أو إشارة على وجه الخفية قال تعالى : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾[4] أى : عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى كتاب الرضاع باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها رقم ١١٧٢ ج ٢ ص ٣١٥ وفى الباب عن عائشة وابن عباس ، وقال ابو عيسى : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم ظلم المسلم وحزلهواحتقاره .. الخ ج ٤ ص ١٩٨٦ رقم ٣٢ / ٢٥٦٤ عن أبى هريرة من حديثه الطويل .

(٣) انظر صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب تحريم الكبر وبيانه ج ١ ص ٩٣ رقم ١٤٧ / ٩١ .

(٤) سورة الهمزة الآية ١

الناس ويعتابهم ويطعن فى أعراضهم ، أو يلمزهم سراً بعينه أو حاجبه ، قال الطبرى : اللمز باليد والعين واللسان والاشارة والهمز لا يكون إلا باللسان . وفى قوله : ﴿ **أنفسكم** ﴾ تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم : قال النبى ـ ﷺ ـ : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[1] ، وقال ـ ﷺ ـ « يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه ، وقيل : من سعادة المرء ان يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره »[2] ، قال الشاعر :

المرء إن كان عاقـــلاً ورعاً اشغلـه عـن عيوبـه ورعُـه
كما السقيم المريض يشغلـــه عـن وجـع النـاس وجعـه

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ .

قال الحسن ومجاهد : كان الرجل يعُير بعد إسلامه بكفره يا يهودى يا نصرانى ، فنزلت هذه الآية .

وروى عن قتادة : هو قول الرجل لأخيه : يا فاسق ، يا منافق وقاله مجاهد والحسن أيضا .

وقال الإمام أحمد : عن أبى جبيرة : بن الضحاك : قال : فينا نزلت فى بنى مسلمة ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ قال : قدم رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة وليسْ فينا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه يغضب من هذا الاسم فنزلت ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾[3] .

ولله در النبى ـ ﷺ ـ حيث يوصى بأن تدعو أخاك بأحب الأسماء إليه .

وقوله تعالى : ﴿ **بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان** ﴾ أى : بئس الصفة والاسم الفسوق وهو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يتعانون بعد ما دخلتم فى الإسلام وعقلتموه .

قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون** ﴾ أى : ومن لم يتب من هذا فأولئك هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم فاكسبوها عقاب الله بعصيانهم أوامره .

فى الفرق بين الاسم والكنية واللقب

قال ابن القيم : هذه الثلاثة . وإن اشتركت فى تعريف المدعو بها . فإنها تفترق فى أمر آخر . وهو أن الاسم إما أن يفهم مدحاً أو ذماً أو لا يفهم واحداً منهما . فإن أفهم ذلك فهو اللقب . وغالب

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة) باب تراجم المؤمنين وتعاطفهم ج ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٦٦ / ٢٥٨٦ .

(٢) انظر كنز العمال ج ١٦ ص ١٢٢ رقم ٤٤١٤١ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة
ـ وفى كشف الخفاء ج ٢ ص ٥٤٣ رقم ٣٢١٢ عن أبى هريرة .
ـ وفى اتحاف السادة المتقين ج ٧ ص ٥٣٧ الحديث ورد بلفظه عن أبى هريرة .

(٣) الحديث فى مسند الإمام أحمد ج ٤ ، ص ٢٦٠ (حديث أبى جبيره بن الصحاك ـ رضى الله عنه ـ .
وفى سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب فى الألقبا ج ٥ ص ٢٤٦ رقم ٤٩٦٢ .

استعماله فى الذم . ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولا تنابزوا بالألقاب** ﴾ ولا خلاف فى تحريم تلقيب الإنسان بما يكرهه سواء كان فيه أو لمن يكن ، وأما إذا عرف بذلك ، واشتهر به كالأعمش والاشتر والأصم والأعرج . فقد اطرد استعماله على ألسنة أهل العلم قديماً وحديثاً ، وسهل فيه الإمام أحمد .

قال أبو داود فى مسائله . سمعت أحمد بن حنبل سئل عن الرجل يكون له اللقب . لا يعرف إلا به ، ولا يكرهه . قال أليس يقال سليمان الأعمش ، وحميد الطويل . كأنه لا يرى به بأساً ، وأما أن لا يفهم مدحاً ، ولا ذماً ، فإن صدر بأب وأم فهو الكنية ، كأبى فلان ، وأم فلان ، وإن لم يصدر بذلك فهو الاسم . كزيد وعمرو ، وهذا هو الذى كانت تعرفه العرب ، وعليه مدار مخاطبتهم .. » .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم** ﴾ .

قال صاحب التفسير الواضح : هذا القسم مشتمل على ثلاثة أمراض : ١ ــ الظن ، السيء ، ٢ ــ تتبع عورة أخيك ، ٣ ــ إشاعة عورته بين الناس بالغيبة . وتلك صفات لعمرى تتنافى مع الإيمان الصحيح ولا يصح أن تكون فى المؤمنين ، ولذا صدر الكلام بالنداء بوصف الإيمان فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ، وقد أخذ فى هذا القسم بالتدرج الطبيعى ، فإن أول بوادر الشر أن يخطر ببالك ظن سيء ، وتأويل غير مقبول لفعل أخيك ، فتأخذ فى تأكيد هذا الخاطر وتثبيته بتتبع حركاته واستقصاء أعماله ، لتبنى من ذلك كله عقائد يعلم الله أنها على أسس من الوهم والظن السيء ، وربما فعلها أخوك من غير قصد ، ولو كان قلبك سليماً من سوء الظن لما فهمت هذا ، ثم يأتى بعد هذا التجسس دور الغيبة وإذاعة السوء محبة أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين وهو دور التقاطع والتدابر والتباغض وربما تفاقم الشر حتى يصل إلى أعلاه ، وقد كان السبب أوهاماً وخيالات لا أساس لها .

وقوله تعالى : ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ ، وهذا أعلى أسلوب وأدقه حيث قال : اجتنبوا كثيراً من الظن ، فإن من الظن ما هو مطلوب كالاحتياط فى دفع الأذى عن النفس والمال .

قال القرطبى : للظن حالتان : حالة تعرف وتقوى بوجه من وجوه الأدلة فيجوز الحكم بها ، وأكثر أحكام الشريعة مبنية على غلبة الظن ، كالقياس . وخبر الواحد وغير ذلك من قيّم المتلفات وأروش الجنايات . والحالة الثانية ــ أن يقع فى النفس شيء من غير دلالة فلا يكون ذلك أولى من ضده ، فهذا هو الشك ، فلا يجوز الحكم به ، وهو المنهو عنه على ما قررنا آنفا .

ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الحانات أو يصاحب الغوانى الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

اخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرىء مسلم شرا وأنت تجد لها من الخير محملا ، ومن عرَّض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه ،

ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وما كافأت من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ولا تفضح حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وان قتلك ، واعتزل عدوك ، وأحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاور فى أمرك الذين يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل ـــ سبحانه ـــ الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله تعالى : ﴿ **إن بعض الظن إثم** ﴾ أى : إن ظن المؤمن الشر أثم ، لأن الله قد نهاه عنه ففعله إثم .

قال ابن عباس فى الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا .. ثم لما أمرهم ـــ سبحانه ـــ باجتناب كثير من الظن نهاهم عن التجسس فقال ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ أى : ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ولا يبحث عن سرائره يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا أو ذموا ، لا على ما تعلمون من الخفايا .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام »[(١)] .

﴿ **التجسس** ﴾ : البحث عما يكتم عنك ، ﴿ **والتحسس** ﴾ : طلب الأخبار والبحث عنها ، ﴿ **والتناجش** ﴾ البيع على بيع غيرك ، ﴿ **والتدابر** ﴾ الهجر والقطيعة .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى عُقر بيته »[(٢)] .

وعن زيد بن وهب قال : أتى ابن مسعود فقيل : هذا فلان تقطر لحيته خمراً . فقال عبد الله : إنا قد نهينا عن التجسس ، ولكن إن يظهر لنا شىء ونأخذ به .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾ نهى ـــ عز وجل ـــ عن الغيبة وهى أن تذكر الرجل بما فيه ، فإن ذكرته بما ليس فيه فهو البهتان . ثبت معناه فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « أتدرون ما الغيبة » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال :

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ٢٣ كتاب الأدب (باب ما ينهى عن التحاور والتدابر) ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة . ـــ وفى سنن الترمذى ، البر والصلة ـــ باب فى الحسد عنأنس ج ٣ ص ٢٢١ رقم ٢٠٠٠ وفى صحيح مسلم : كتاب البر والصلة (باب تحريم الظن والتحسس والتنافس .. ونحوها ج ٤ ص ١٩٨٥) ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٢) الحديث : فى سنن أبى داود كتاب الأدب ـــ باب فى الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٤٨٨٠ ورد الحديث بلفظه عن أبى برزة الأسلمى .

« ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهته »(١) يقال : اغتابه اغتياباً إذا وقع فيه ، والاسم الغيبة ، وهى ذكر العيب بظهر الغيب .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قرة : لو مرَّ بك رجل أقطع فقلت : هذا أقطع كان غيبة . قال شعبة : فذكرته لأبى اسحاق فقال صدق .

وقوله تعالى : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ .

قال القرطبى : مثل الله الغيبة بأكل الميتة ، لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه كما أن الحى لا يعلم بغيبة من اغتابه .

وقال ابن عباس : إنما ضرب الله هذا المثل للغيبة ، لأن أكل لحم الميت حرام مستقذر ، وكذا الغيبة حرام فى الدين وقبيح فى النفوس .

وقال قتادة : كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً كذلك يجب أن يمتنع من غيبته حياً . واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة لأن عادة العرب بذلك جارية ، قال — ﷺ — : « ما صام من ظل يأكل لحوم الناس »(٢) فشبه الوقيعة فى الناس بأكل لحومهم . فمن تنقص مسلما . أو ثلم عرضه فهو كالآكل لحمه حياً ، ومن اغتابه فهو كالآكل لحمه ميتاً .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — « لما عُرج بى مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون فى أعراضهم »(٣) اخرجه ابو داود .

وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — : إياكم وذكر الناس فإنه داء وعليكم بذكر الله فإنه شفاء .

وسمع على بن الحسين — رضى الله عنهما — رجلاً يغتاب آخر ، فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس .

وقوله تعالى : ﴿ فكرهتموه ﴾ قال مجاهد : فكرهتم أكل الميتة فاكرهوا غيبة الناس ، وقال الفراء معناه : أى : فقد كرهتموه فلا تفعلوه .

---

(١) الحديث فى سنن أبى داود كتاب الأدب ج ٥ ص ١٩٢ باب فى القيبة ورد عن أبى هريرة .
وفى صحيح مسلم : (كتاب البر والصلة) باب تحريم الغيبة ج ٤ ص ٢٠٠١ رقم ٧٠ / ٢٥١٩ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .
(٢) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٦ ص ٢٣٦ (تفسير سورة الحجرات)
(٣) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب فى الغيبة ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٤٨٧٨ ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك .

وقوله تعالى : ﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم به ونهاكم عنه وراقبوه واخشوه . ﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ أى : إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به إن يعذبه بعد توبته .

ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يُقلع عنها ويندم على ما فرط منه ، ويعزم عزماً مؤكداً على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه .

بحث فى الغيبة

قال صاحب كتاب « مختصر منهاج القاصدين » وهو يحدثنا عن آفات اللسان : الكلام فيما لا يعنى ، والخوض فى الباطل ، والتقعر فى الكلام ، والفحش والسب والبذاء ، والمزاح ، والسخرية والاستهزاء وافشاء السر واخلاف الوعد والكذب ثم قال:

الآفة الثامنة : الغيبة ، وقد ورد الكتاب العزيز بالنهى عنها وشبه صاحبها بآكل الميتة .

وفى الحديث « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام »[1] .

وعن أبى برزة الأسلمى قال : قال رسول الله — ﷺ — « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته »[2] .

وقال على بن الحسين — رضى الله عنهما — : إياك والغيبة ، فإنها ادام كلاب الناس .

والأحاديث والآثار فى ذلك كثيرة مشهورة .

معنى الغيبة :

ومعنى الغيبة : أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه ، سواء كان نقصاً فى بدنه ، كالعمش ، والعور ، والحول ، والقرع ، والطول ، والقصر ونحو ذلك .

أو فى نسبه ، كقولك : أبوه نبطى ، أو هندى ، أو فاسق ، أو خسيس ونحو ذلك .

أو فى خلقه كقولك هو سىء الخلق ، بخيل ، متكبر ونحو ذلك . أو فى ثوبه كقولك : هو طويل الذيل ، واسع الكم ، وسخ الثياب .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى (كتاب بدء الوحى) باب قول النبى — ﷺ — ج ١ ص ٢٦
وانظر صحيح مسلم كتاب القسامة ج ٣ ص ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ رقم ٢٩ / ١٦٧٩ .

(٢) الحديث فى سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب فى القيبة ج ٥ ص ١٩٤ حديث رقم ٤٨٨٠ ورد الحديث بلفظه عن أبى برزه الأشلمى .
ـ وانظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الامام الترمذى ج ٦ ص ١٨٠ حديث رقم ٢١٠١ ورد الحديث بلفظه .
ـ وفى سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) ج ٣ ص ٢٥٥ رقم ٢١٠١ (باب ما جاء فى تعظيم المؤمن) عن ابن عمر وقال ابو عيسى هذا حديث غريب لا لفرقة إلا من حديث الحسين بن واقد .

والدليل على ذلك ، أن النبى ـ ﷺ ـ سئل عن الغيبة قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قال : أرأيت إن كان فى أخى ما أقول يا رسول الله ؟ قال : « إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »(١).

وأعلم : أن كل ما يفهم منه مقصود الذم ، فهو داخل فى الغيبة سواء كان بكلام أو بغيره ، كالغمز ، والإشارة والكتابة بالقلم فإن القلم أحد اللسانين .

أقبح أنواع الغيبة

وأقبح أنواع الغيبة ، غيبة المتزهدين المرائين ، مثل أن يذكر عندهم إنسان فيقولون : الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على السلطان ، والتبذل فى طلب الحطام ، أو يقولون : نعوذ بالله من قلة الحياء ، أو نسأل الله العافية ، فإنهم يجمعون بين ذم المذكور ومدح أنفسهم .

وربما قال أحدهم عند ذكر إنسان : ذاك المسكين قد بلى بآفة عظيمة ، تاب الله علينا وعليه ، فهو يظهر الدعاء ويخفى قصده .

تحريم سماع الغيبة

واعلم : ان المستمع للغيبة شريك فيها ، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسانه ، فإن خاف منقلبه وإن قدر على القيام ، أو قطع الكلام بكلام آخر ، لزمه ذلك .

قال تعالى : فى وصف المؤمنين (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه)(٢).

وقال تعالى : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾(٣) .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وأما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين** ﴾(٤) .

وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من رد عن عرض أخيه ، رد الله عن وجهه النار يوم القيامة »(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن .

---

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى القيبة ج ٣ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ رقم ١٩٩٩ قال ابو عيسى : هذا حديث حسن .
ـ وفى سنن أبى داود (كتاب الأدب) ج ٥ ص ١٩٢ باب ما جاء فى القيبة ورد عن أبى هريرة .
(٢) سورة القصص من الآية ٥٥
(٣) سورة الاسراء من الآية ٣٦
(٤) سورة الأنعام الآية ٦٨
(٥) الحديث فى سنن الترمذى (كتاب البر والسر) باب ما جاء فى الذب عن المسلم ج ٣ ص ٢١٩ رقم ١٩٩٦ عن أبى الدرداء وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وعن عتبان بن مالك — رضى الله عنه — فى حديثه الطويل المشهور قال : قام النبى — ﷺ — يصلى فقال « أين مالك بن الدُخشنى ؟ » فقال رجل : ذلك منافق لا يحب الله ولا رسوله فقال النبى — ﷺ — : « لا تقل ذلك ، ألا تراه قد قال : لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله ! وإن الله قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله»[1] متفق عليه .

ورأى عمر بن عتبة مولاه مع رجل وهو يقع فى آخر فقال له : ويلك نزه سمعك عن استماع الخنا ، كما تنزه نفسك عن القول به ، فالمستمع شريك القائل ، إنما نظر إلى شر ما فى وعائه ، فأفرغه فى وعائك ، ولو ردت كلمة سفيه فى فيه لسعد بها رادها كما شقى بها قائلها .

فى بيان الأسباب الباعثة على الغيبة وذكر علاجها

أما الأسباب التى تبعث على الغيبة فكثيرة .

منها : تشفى الغيظ ، بأن يجرى من إنسان فى حق آخر سبب يوجب غيظه ، فكلما هاج غضبه تشفى بغيبة صاحبه .

السبب الثانى : من البواعث على الغيبة : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون فى الأعراض ، رأى هذا أنه إذا أنكر عليهم أو قطع كلامهم استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة .

الثالث : إرادة رفع نفسه بتنقيص غيره ، فيقول : فلان جاهل وفهمه ركيك ، ونحو ذلك ، غرضه أن يثبت فى ضمن ذلك فضل نفسه ، ويريهم أنه أعلم منه .

وكذلك الحسد فى ثناء الناس على شخص وحبهم له وإكرامهم ، فيقدح فيه ليقصد زوال ذلك .

الرابع : اللعب والهزل ، فيذكر غيره بما يضحك الناس به على سبيل المحاكاة حتى إن بعض الناس يكون كسبه من هذا .

علاج الغيبة

وأما علاج الغيبة ، فليعلم المغتاب أنه بالغيبة متعرض لسخط الله ومقته ، وأن حسناته تنقل إلى المغتاب إليه ، وإن لم يكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، فمن استحضر ذلك لم يطلق لسانه بالغيبة .

---

(١) الحديث فى كتاب اللؤلؤ والمرجان (كتاب المساجد ومواضع الصلاة فيها) باب الرخصة فى التخلف على الجماعة ج ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ رقم ٣٨٤ حديث عتبان بن مالك .

وينبغى إذا عرضت له الغيبة أن يتفكر فى عيوب نفسه ، ويشتغل بإصلاحها ، ويستحى أن يعيب وهو معيب ، كما قال بعضهم :

إن عبت قوماً بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب الناس من هو أعور
وإن عبت قوماً بالذى ليس فيهم ... فذلك عند الله والناس أكبر

وعن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله بعبد خيراً زهده فى الدنيا ، وفقهه فى الدين ، وبصره عيوبه .

وإن ظن أنه سليم من العيوب ، فليتشاغل بالشكر على نعم الله عليه ولا يلوث نفسه بأقبح العيوب وهو الغيبة ، وكما لا يرضى لنفسه بغيبة غيره له ، فينبغى أن لا يرضاها لغيره من نفسه .

فلينظر فى السبب الباعث على الغيبة ، فيجتهد على قطعه ، فإن علاج الصلة يكون بقطع سببها .

فصل فى حصول الغيبة بسوء الظن

وقد تحصل الغيبة بالقلب ، وذلك سوء الظن بالمسلمين .

والظن : ما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب ، فليس لك أن تظن بالمسلم شراً ، إلا إذا انكشف أمراً لا يحتمل التأويل فإن أخبرك بذلك عدل ، فمال قلبك إلى تصديقه ، كنت معذورا لأنك لو كذبته كنت قد أسأت الظن بالمخبر ، فلا ينبغى أن تحسن الظن بواحد وتسيئه بآخر ، بل ينبغى أن تبحث ، هل بينهما عداوة وحسد ؟ فتتطرق التهمة حينئذ بسبب ذلك ، ومن خطر لك خاطر سوء على مسلم ، فينبغى أن تزيد فى مراعاته ، وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه عنك ، فلا يلقى إليك خاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة .

وإذا تحققت هفوة مسلم ، فانصحه فى السر .

واعلم : أن من ثمرات سوء الظن ، التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ، بل يطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس ، وذلك منهى عنه ، لأنه يوصل إلى هتك ستر المسلم ، ولو لم ينكشف لك ، كان قلبك أسلم للمسلم .

بيان الأعذار المرخصة فى الغيبة وكفارة الغيبة

اعلم : أن المرخص فى ذكر مساوىء الغير ، وهو غرض صحيح فى الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به ، وذلك يدفع إثم الغيبة ، وهو أمور :

أحدها : التظلم ، فإن للمظلوم أن يذكر الظالم إذا استعداه إلى من يستوفى حقه .

الثانى : الاستعانة على تغيير المنكر ، ورد الظالم إلى منهاج الصلاح .

الثالث : الاستفتاء ، مثل أن يقول للمفتى ، ظلمنى فلان ، أو أخذ حقى ، فكيف طريقى فى الخلاص ، فالتعيين مباح والأولى التعريض ، وهو أن يقول : ما تقول فى رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو نحو ذلك ؟

والدليل على إباحة التعيين حديث هند حين قالت : لرسول الله — ﷺ — : « إن ابا سفيان رجل شحيح »(١) ولم ينكر عليها — ﷺ — .

الأمر الرابع : تحذير المسلمين ، مثل أن ترى متفقهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق ، وتخاف أن يتعدى إليه ذلك ، فلك أن تكشف له الحال .

وكذلك إذا عرفت من عبدك السرقة أو الفسق ، فتذكر ذلك للمشترى .

وكذلك المستشار فى التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير ، لا على قصد الوقيعة إذا علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح .

والدليل أن فاطمة بنت قيس ، — رضى الله عنها — قالت : أتيت النبى — ﷺ — فقلت : إن أباجهم ومعاوية خطبانى ؟ فقال رسول الله — ﷺ — « أما معاوية ، فصعلوك لا مال له ، وأما أبو الجهم فلا يضع العصا عن عاتقه »(٢) متفق عليه ومعنى لا يضع العصا عن عاتقه أى : كثير الأسفار .

الخامس : أن يكون معروفاً بلقب ، كالأعرج ، والأعمش ، فلا إثم على من يذكره به ، وإن وجد عن ذلك معدلاً كان أولى .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق ، ولا يستنكف أن يذكر به .

قيل للحسن : الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه مخيبة : قال : لا ، ولا كرامة .

وأما كفارة الغيبة

فاعلم أن المغتاب قد جنى جنايتين

إحداهما : على حق الله — تعالى — إذ فعل مانهاه عنه ، وكفارة ذلك التوبة والندم .

والجناية الثانية : على محارم المخلوق ، فإن كانت الغيبة قد بلغت الرجل ، جاء إليه واستمله ، وأظهر له الندم على فعله .

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٨٦ (كتاب النفقات) باب وعلى الوارث مثل ذلك عن عائشة — رضى الله عنها — وفى صحيح مسلم (كتاب الا قضية) باب قضية هند ج ٣ ص ١٣٣٨ رقم ٧ / ١٧١٤ عن عائشة .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم — كتاب الطلاق — باب المطلقة ثلاث لا نفقة لها ج ٢ ص ١١١٤ رقم ٣٦ / ١٤٨٠ .
— وانظر الترمذى أبواب النكاح — باب ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ج٢ ص ٣٠٠ رقم ١١٤٣ حديث فاطمة بنت قيس .
— وانظر سنن أبى داود (كتاب الطلاق) باب فى نفقة المبتوتة ج ٢ ص ٧١٢ رقم ٢٢٨٤ .
— وانظر سنن النسائى — كتاب النكاح — باب إذا استشارت المرأة رجلا فيمن يخطبها هل يخبرها بما يعلم ج ٦ ص ٧٥ ، ٧٦ .

وقد روى أبو هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه ، من مال أو عرض ، فليأته فليستحلها منه قبل أن يؤخذ وليس عنده درهم ولا دينار ، فإن كانت له حسنات أخذ من حسناته فأعطيها هذا ، وإلا أخذ من سيئات هذا فألقى عليه »[١] .

وإن كانت الغيبة لم تبلغ الرجل ، جعل مكان استحلاله الاستغفار له ، لئلا يخبره بما لا يعلمه ، فيوعز صدره .

قال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثنى عليه وتدعو له بخير ، وكذلك إن كان قد مات . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير** ﴾ .

يقول تعالى : مخبرا للناس أنه ــ سبحانه ــ خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها وهما آدم وحواء وجعلهم شعوباً وهى أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك ، كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[٢] .

قال ابن كثير : فجميع الناس فى الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء ــ عليهما السلام ــ سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ــ وهى طاعة الله ــ تعالى ــ بعد النهى عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً ، منبهاً على تساويهم فى البشرية : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ أى : ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته .

وقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ أى : إنما تتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالاحساب وقد وردت الأحاديث بذلك عن رسول الله ــ ﷺ ــ .

قال البخارى : عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : سئل رسول الله ــ ﷺ ــ أى الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم »[٣] الحديث .

---

(١) انظر شكل الآثار للطحاوى ج ١ ص ٧٠ باب شكل ما روى عن رسول الله ــ ﷺ ــ من أمره من قبله مظلمه لأخيه فى عرض أو فى مال أن يتحلله منها فى الدنيا .
ــ وانظر تفسير القرطبى (تفسير سورة البقرة الآية ٤٨ ج ١ ص ٣٧٨ عن أبى هريرة .
ــ وانظر صحيح البخارى (كتاب المظالم) باب من كانت له مظلمة عند الرجل ج ٣ ص١٧٠ .

(٢) سورة النساء الآية ١

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ج ٦ ص ٦٢ (فى تفسير سورة يوسف) عن أبى هريرة .

وقال مسلم : عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[١] .

وقال ابن أبى حاتم عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : طاف رسول الله ــ ﷺ ــ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم **الأركان** بمحجن فى يده فما وجد لها مناخا فى المسجد حتى نزل ــ ﷺ ــ على أيدى الرجل فخرج بها إلى بطن المسيل فأنيخت ثم إن ــ رسول الله ﷺ ــ خطبهم على راحلته فحمد الله ــ تعالى ــ وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : « يا أيها الناس ، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برّ تقى كريم على الله ــ تعالى ــ ورجل فاجر شقى **هين** على الله ، تعالى ، إن الله ــ عز وجل ــ يقول : ﴿ **يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾ ، ثم قال ــ ﷺ ــ أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم »[٢] .

واخرج الطبرى فى كتاب (آداب النفوس) بسنده عن أبى نضرة قال : حدثنى ، أو حدثنا من **شهد** خطب رسول الله ــ ﷺ ــ بمنى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال : « يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ألا لا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم ، قال ــ ليبلغ الشاهد الغائب »[٣] .

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وأرواح مشاكله ... وأعظم خلقت فيهم وأعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب ... يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم ... على الهدى **لمن** استهدى أدلاء
وقدر كلّ امرىء وما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال سيماء
وضد كل امرىء ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداء

وروى الطبرى من حديث أبى هريرة أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إن أوليائى المتقون يوم القيامة وإن كان نسب أقرب من نسب يأتى الناس بالأعمال وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون يا

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والاداب) باب تحريم ظلم المسلم ج ٤ ص ١٩٩٧ رقم ٣٤ / ٢٥٦٤ .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (فى تفسير سورة الحجرات) ج ٥ ص ٦٤ ، ٦٥ رقم ٣٣٢٤ عن ابن عمر وانظر كنز العمال ج ١ ص ٢٥٨ رقم ١٢٩٦ عن ابن عمر .

(٣) الحديث فى كنز العمال ج ٣ ص ٦٥ رقم ٥٦٥٢ ورد هذا بلفظه وانظر الحديث فى مجمع الزوائد ج ٣ ص ٢٦٦ باب الخطب فى الحج ورد هذا الحديث بلفظه عن أبى نضرة .

محمد فأقول هكذا وهكذا »[١] . وأعرض فى كل عطفيه . وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ جهارا غير سرّ يقول : « إن آل أبى ليسوا لى بأولياء إنما ولىّ الله وصالح المؤمنين »[٢] .

قال القرطبى : وقد جاء منصوصاً عنه ـ عليه السلام ـ « من أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله »[٣] . والتقوى معناها مراعاة حدود الله تعالى أمراً ونهياً .

ما يصنع العبد بعز الغنى والعز كل العز للمتقى
من عرف الله فلم تغنه معرفة الله فذاك الشقى

روى البخارى عن سهل بن سعد أن النبى ـ ﷺ ـ مر عليه رجل فقال : « ما تقولون فى هذا » ؟ فقالوا : حرىٌّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يُسمع . قال : ثم سكت ، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال : « ما تقولون فى هذا » قالوا : حَرِى إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « هذا خير من ملء الأرض مثل هذا »[٤] .

من لم يلبس ثيابا من التقى تقلب عريانا وإن كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير فيمن كان لله عاصياً

قوله تعالى : ﴿ **إن الله عليم خبير** ﴾ أى : إن الله عليم بكم وبأعمالكم ، خبير بباطن أحوالكم فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

---

(١) الحديث فى أتحاف السادة المتقين ج ٨ ص ٤٢٠ ورد الحديث عن أبى هريرة وفى كنز العمال الحديث من (الديلمى رواية عن معاذ) رقم ٥٦٥٩ باب التقوى من الاكمال .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الإيمان) باب موادة المؤمنين ومقاطعة غيرهم والبراءة منهم ج ١ ص ١٩٧ رقم ٣٦٦ / ٢١٥ ورد الحديث بلفظه عن عمرو بن العاص .

(٣) انظر القرطبى ج ١٦ ص ٣٤٥ فى تفسير سورة الحجرات .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى ج ٧ ص ٩ (كتاب النكاح) باب الأكفاء فى الدين : عن سهل .

حقيقة الإيمان والإسلام

* قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن
تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ
﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ
عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾

معاني المفردات

﴿ الأعراب ﴾ : سكان البادية . **﴿ آمنا ﴾ أى : صدقنا بما جئت به من الشرائح وامتثلنا ماأمرنا به . ﴿ لم تؤمنوا ﴾ : لم تصدقوا بقلوبكم . ﴿ أسلمنا ﴾** : استسلمنا خوفا وطمعا . **﴿ لا يلتكم ﴾** أى لاينقصكم ، يقال لاته يلتيه إذا نقصه **﴿ يمنون عليك ﴾** أى : يذكرون ذلك ذكر من اصطنع لك صنيعة ، وأسدى إليك نعمة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حث ـــ سبحانه ـــ الناس على التقوى ـــ **وبخ** من فى إيمانه ضعف من الأعراب الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لإنهم كانوا يريدون المغانم وعرض الدنيا .. قال السدى : نزلت فى الأعراب المذكورين فى سورة الفتح : أعراب مزينة **وجهينة** وأسلم وغفار والدِّيل وأشجع ، قالوا آمنا ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنفروا إلى المدينة تخلفوا .

التفسـير

قال تعالى : ﴿ **قالت الأعراب أمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم** ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

يقول ــ تعالى ــ منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا فى الإسلام ادّعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان فى قلوبهم بعد : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم) وقد استفيد من هذه الآية الكريمة : أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، ويدل عليه حديث جبريل ــ عليه الصلاة والسلام ــ حين سأل عن الإسلام ، ثم عن الإيمان ، ثم عن الإحسان ، فترقى من الأعم ــ إلى الأخص ــ ، ثم للأخص منه . وقال الإمام أحمد عن عامر بن سعد بن أبى وقاص ، عن أبيه ، ــ رضى الله عنهما ــ قال أعطى رسول الله ــ ﷺ ــ رجالاً ولم يعط رجلاً منهم شيئا فقال سعد : ــ رضى الله تعالى عنهما ــ يا رسول الله أعطيت فلاناً وفلاناً ، ولم تعط فلاناً شيئاً ، وهو مؤمن ؟ فقال : النبى ــ ﷺ ــ : أوْ مسلم ــ حتى أعادها سعد ــ رضى الله عنه ــ ثلاثاً ، والنبى ــ ﷺ ــ يقول : أو مسلم ؟ ثم قال النبى ــ ﷺ ــ : « إنى لأعطى رجالاً وأدع من هو أحب إلى منهم فلم أعطه شيئا مخافة أن يكبوا فى النار على وجوههم »[1] اخرجا ــ الصحيحين من حديث الزهرى به ، فقد فرق النبى ــ ﷺ ــ بين المؤمن والمسلم فدل على : أن الإيمان أخص من الاسسلام .. ودل ذلك على أن ذاك الرجل كان مسلماً ليس منافقاً لأنه تركه من العطاء ووكله إلى ما هو فيه من الإسلام ، فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين فى هذه الآية ليسوا بمنافقين ، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان فى قلوبهم ، فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه ، فأدبوا فى ذلك وهذا معنى قول ابن عباس : ــ رضى الله عنهما ــ وابراهيم النخعى ، وقتادة ، وإختاره ابن جرير ، وإنما قلنا : هذا لأن البخارى ــ رحمه الله ــ ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك . وقد روى عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وابن زيد انهم قالوا فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **ولكن قولوا أسلمنا** ﴾ أى : استسلمنا خوف القتل والسبى ، قال مجاهد : نزلت فى بنى أسد من خزيمة ، وقال قتادة انزلت فى قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ــ ﷺ ــ والصحيح الأول : أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعد ، فأدبوا

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ١ ، ص ١٧٦ عن سعد بن أبى وقاص عن أبيه .
ــ وفى صحيح البخارى ج ١ ص ١٣ (كتاب الإيمان) باب إذا لم يكن الاسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل عن سعد بن أبى وقاص .
ــ وانظر صحيح مسلم ج ١ ص ١٢٣ (كتاب الإيمان) رقم الحديث ٢٣٦ / ١٥٠ باب تألف قلب من يخاف الله على إيمانه نصعه .
ــ وفى سنن النسائى ج ١ ص ١٠٣ عن الزهرى (كتاب الإيمان وشرائعه) .

وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ، كما ذكر المنافقين فى سورة براءة ، وإنما قيل لهؤلاء تأديباً : ﴿ **قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم** ﴾ ، أى : لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد ، ثم قال : ﴿ **وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا** ﴾ أى : لا ينقصكم من أجوركم شيئا كقوله عز وجل : ﴿ **وما ألتناهم من عملهم من شىء** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **الله غفور رحيم** ﴾ أى : لمن تاب إليه وأناب .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون** ﴾ .

أى : إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ، ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا ، بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم فى طاعة الله ورضوانه ــ أولئك هم الصادقون فى قولهم : آمنا ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفاً من السيف ، ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

قوله تعالى : ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله بكل شىء عليم** ﴾ ، ﴿ **قل أتعلمون الله بدينكم** ﴾ ؟ أى : قل لهم : أتخبرون الله بما فى ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوانحكم من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقاً . ﴿ **والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيها كقوله تعالى : ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾(١) ، وكقوله تعالى : ﴿ **ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً** ﴾(٢) ، قوله تعالى : ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم فتنالكم عقوبته ، إذ لا يخفى عليه شىء .

قوله تعالى : ﴿ **يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾ ، يعنى ــ سبحانه ــ للأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم ، على الرسول ــ ﷺ ــ يقول الله ــ تعالى ــ رداً عليهم : ﴿ **قل لا تمنوا على إسلامكم** ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ، ﴿ **بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين** ﴾ أى : فى دعواكم ذلك .

---

(١) سورة يونس الآية ٦١

(٢) سورة الإسراء الآية ٢٥

فالله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ولكنه ــ سبحانه ــ خلقنا بمحض جوده وكرمه وبمحض فضله ومنته .

يقول ــ تعالى ــ فى الحديث القدسي : « يا عبادى : إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم . وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً »[1] ، فلو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل منهم وبادروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه لم يتكثر ــ سبحانه وتعالى ــ بذلك ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه ، وإعانته ، وبفضله ، ومنته ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم كلهم عصوه كعصية أفجر رجل ، وخالفوا أمره ونهيه لم يضره ذلك ، ولم ينقص ذلك من كمال ملكه شيئا ، فإنه لو شاء أهلكهم ، وخلق غيرهم فسبحان من لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية الغنى الحميد قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون** ﴾ أى : إن الله يعلم ما غاب فيهما وهو بصير بسركم وعلانيتكم لا يخفى عليه شيء فى الأرض ولا فى السماء يعلم ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى . ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾[3]

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب البر والصلة) باب تحريم الظلم ج ٤ ص ١٩٩٤ ، ١٩٩٥ رقم ٥٥ / ٢٥٧٧ عن أبى ذرٍّ من حديثه الطويل بقوله : يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى .. الخ .

(٢) سورة (فاطر) الآيتان ١٥ ، ١٧ .

(٣) سورة الحشر الآيات ٢٢ ــ ٢٤

تفسير سورة (ق)

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق .

عدد آياتها : خمس وأربعون

وكلماتها : ثلاثمائة وخمس وسبعون

وحروفها : ألف وأربعمائة وأربع وسبعون

مجموع فواصل آياتها : (صر جد ظب)

سميت بـ (ق) لافتتاحها بها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : إثبات النبوة للرسول – ﷺ – وبيان حجة التوحيد ، والاخبار عن إهلاك القرون الماضية وعلم الحق – تعالى – بضمائر الخلق وسرائرهم ، وذكر الملائكة الموكلين على الخلق ، المشرفين على أقوالهم ، وذكر بعث القيامة ، وذل العاصين يومئذ ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضاً فى ذلك اليوم ، وتغيُّظ الجحيم على أهله ، وتشرف الجنة بأهلها ، والخبر عن تخليق السماء والأرض ، وذكر نداء إسرافيل بنفخة الصور ، ووعظ الرسول – ﷺ – الخلق بالقرآن المجيد فى قوله : ﴿ **فذكر بالقرآن من يخاف وعيد** ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **وقال قرينه** ﴾ وبعده : ﴿ **قال قرينه** ﴾ لأن **الأول** خطاب الإنسان من قرينه ومتصل بكلامه ، والثانى استئناف خطاب الله – سبحانه – من غير اتصاله بالمخاطب الأول وهو قوله : ﴿ **ربنا ما أطغيته** ﴾ ، وكذلك الجواب بغير واو ، وهو قوله : ﴿ **لا تختصموا لدىّ** ﴾ وكذلك ﴿ ما يبدل القول لدى ﴾ فجاء الكل على نسق واحد .

قوله : ﴿ **قبل طلوع الشمس وقبل الغروب** ﴾ وفى طه ﴿ **وقبل غروبها** ﴾ لأن فى هذه السورة : راعى الفواصل ، وفى طه ، راعى القياس ، لأن الغروب للشمس ، كما أن الطلوع لها . أ هـ .

مناسبتها لما قبلها :

أنه أشار فى آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيمانا حقا ، وذلك يقتضى الشك فى البعث ، وافتتح السورة بما يتعلق بذلك .

فضل السورة

حديث مسلم ، وغيره عن جابر بن سمرة أنه عليه ـــ الصلاة والسلام ـــ كان يقرأ هذه السورة فى الركعة الأولى من صلاة الفجر .

واخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائى عن أبى واقد الليثى « إنه ـــ ﷺ ـــ كان يقرأ فى العيد بقاف ، واقتربت »[١] .

واخرج أبو داود والبيهقى وابن ماجه عن أم هشام ابنة حارثة قالت : « ما أخذت ﴿ **ق والقرآن المجيد** ﴾ إلا من فى رسول الله ـــ ﷺ ـــ « كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس »[٢] .

وكل ذلك دليل على أنه ـــ ﷺ ـــ كان يقرأ بها فى المجامع الكبيرة كالعيدين ، والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب . فهذه السورة رهيبة ، شديدة الوقع على الحس ، تهز القلب هزاً وترج النفس رجاً ، وتثير فيها روعة الإعجاب ، ورعشة الخوف بما فيها من الترغيب والترهيب .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢١٧ ، ٢١٨ حديث أبى واقد الليثى ـــ رضى الله عنه ـــ

(٢) وانظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٦٥ ، ٤٣٦ فى أحاديث أم هشام من حارثة بن الفهمان ـــ رضى الله عنه ـــ
ـــ وانظر صحيح مسلم (كتاب الجمعة) ج ٢ ص ٥٩٥ باب تخفيف الصلاة والخطبة رقم الحديث ٥٠ / ٨٧٢ .
ـــ وفى سنن أبى داود ج ١ ص ٦٦١ (كتاب الصلاة) باب الرجل يخطب على قوس رقم الحديث ١١٠٢ .
وحديث رقم ١١٠٠ أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟
بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا
مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ
لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ
لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ
وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

معانى المفردات

﴿ **المجيد** ﴾ من المجد وهو كما قال الراغب : السعة فى الكرم ، وصف به القرآن لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والآخروية . ﴿ **رجع بعيد** ﴾ أى : بعث بعد الموت بعيد عن الأذهان . ﴿ **ما تنقص الأرض** ﴾ أى : ما تأكل الأرض من لحوم موتاهم وعظامهم . ﴿ **حفيظ** ﴾ أى : حافظ لتفاصيل الأشياء كلها . ﴿ **بالحق** ﴾ أى : بالنبوة الثابتة بالمعجزات . ﴿ **مريج** ﴾ أى : مضطرب . ﴿ **بنيناها** ﴾ أى : أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، ﴿ **وزيناها** ﴾ أى : بالكواكب ، ﴿ **فروج** ﴾ أى : شقوق ، ﴿ **مددناها** ﴾ أى : بسطناها ، ﴿ **رواسى** ﴾ **أى : جبالا ثوابت تمنعها من المَيْد والاضطراب** ، ﴿ **زوج** ﴾ صنف ، ﴿ **بهيج** ﴾ أى : ذى بهجة وحسن ، ﴿ **تبصرة وذكرى** ﴾ أى : تبصيراً وتذكيراً ، ﴿ **منيب** ﴾ من أناب إذا رجع وخضع ، ﴿ **حب الحصيد** ﴾ أى : حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبُر والشعير ، ﴿ **باسقات** ﴾ أى : طويلات ، والطلع ما ينمو ويصير بلحاً ثم رطباً ثم تمراً ، ﴿ **نضيد** ﴾ أى : منضود بعضه فوق بعض ، ﴿ **الخروج** ﴾ أى : من القبور ، ﴿ **الرس** ﴾ البئر التى لم تطو أى : لم تبن وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب — عليه الصلاة والسلام — ، ﴿ **والأيكة** ﴾ الغيضة الملتفة الشجر ، ﴿ **تبع** ﴾ هو تبع الحميرى ، ﴿ **أفعيينا** ﴾ العىّ عن الأمر : العجز عنه ﴿ **لبس** ﴾ أى : شك شديد وحيرة واختلاط .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ق . والقرآن المجيد** ﴾

﴿ **ق** ﴾ أحد حروف الهجاء وفى القرآن الكريم سور افتتحت بمثل هذا الحرف فقد تفتح السورة بحرف واحد مثل ﴿ **ص** ﴾ و ﴿ **ق** ﴾ و ﴿ **ن** ﴾ وقد تفتتح بحرفين مثل ﴿ **حم** ﴾ ، ﴿ **طه** ﴾ وقد تفتتح بثلاثة أحرف مثل ﴿ **الم** ﴾ ﴿ **الر** ﴾ ﴿ **طسم** ﴾ ، وقد تفتتح بأربعة أحرف مثل ﴿ المر ﴾ وقد تفتتح بخمسة أحرف مثل ﴿ **كهيعص** ﴾ و ﴿ **حم عسق** ﴾ .

ونحن إذا حذفنا المكرر من تلك الحروف أعطتنا جملة تقول ﴿ **نص حكيم ، قاطع ، له سر** ﴾ .

وقد شاءت حكمة الله ـــ تعالى ـــ أن يتحدى أساطين الفكر وأرباب البلاغة وعباقرة الكلمة ، وجهابذة البيان ، بهذا الكتاب الكريم ، وفى هذه الحروف الهجائية التى افتتح الله ـــ تعالى ـــ بها بعض السور فيها إشارة إلى هذا الإعجاز ، فهذا كتاب عربى مبين ، نزل على نبى عربى وهو بشر ، فإن كنتم تكذبونه فما جاء به فقد بعث بمعجزة خالدة دائمة هى :

القرآن الكريم : ﴿ **فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾[(١)] فأنتم عرب تتكلمون بلغة هذا الكتاب ، فإن لم تستطيعوا أن تأتوا بمثله فأتوا بعشر سور وإلا فأتوا بسورة ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، ﴿ **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾[(٢)] . والنتيجة : أنهم عجزوا عجزاً تاماً فلزمتهم الحجة ، ﴿ **فإلم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون** ﴾[(٣)] .

ولمكانة هذا الكتاب المعجز ، وعلوا منزلته ، ورفعة طبقته ، أقسم عليه وهو جواب القسم (البعث حق) كما يستفاد ذلك من سياق الآيات فى قوله تعالى حكاية عنهم : ﴿ **أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد** ﴾ فكأنه ـــ تعالى ـــ يقول لهم : اقسم بهذا الكتاب المعجز « لتبعثن » فإعجازى فى كلمتى كإعجازى فى خلقى فكل شيء عندى بالكاف والنون ، فإذا كان القرآن كوناً ناطقاً فإن القرآن كون صامت ، وإذا كان ذلك كذلك محمد ـــ ﷺ ـــ قرآن ، يمشى بين الناس وإعجازى فى كلماتى التنزيلية كإعجازى فى كلماتى التكونية ، فالتنزيل نور ، والتكوين نور وكلاهما نور على نور ، ﴿ **يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم** ﴾[(٤)] ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الطور الآية ٣٤
(٢) سورة البقرة الآية ٢٤
(٣) سورة هود الآية ١٤
(٤) سورة النور الآية : ٣٥
(٥) سورة العنكبوت الآية ٤٣

قوله تعالى : ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شىء عجيب** ﴾ .

أى : تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر كقوله تعالى : ﴿ **أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس** ﴾(١) ، وكقوله تعالى : ﴿ **أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ..** ﴾(٢) . أى : وليس هذا بعجيب فإن الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس والله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثم قال ــ عز وجل ــ مخبراً عنهم فى تعجبهم أيضا من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ **أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد** ﴾ أى : يقولون : أئذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا وصرنا تراباً كيف : يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ (ذلك رجع بعيد) أى : بعيد الوقوع . منهم يعتقدون استحالته وعدم امكانه . قال الله تعالى : راداً عليهم :

﴿ **قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ أى : قد علمنا ما تأكل الأرض من أجسادهم فى البلى نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان وأين ذهبت وإلى أين صارت ﴿ **وعندنا كتاب حفيظ** ﴾ أى : حافظ لذلك فالعلم شامل ، والكتاب أيضا فيه كل الأشياء مضبوطة . كقوله تعالى : ﴿ **وكل شىء فعلوه فى الزبر وكل صغير وكبير مستطر** ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج** ﴾ أى : وهذا حال كل من خرج عن الحق مهما قال : بعد ذلك فهو باطل ﴿ **فهم فى أمر مريج** ﴾ أى : مضطرب كقوله تعالى : ﴿ **إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك** ﴾(٤).

قوله تعالى : ﴿ أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج ﴾ .

يقول ــ تعالى ــ منبهاً للعباد على قدرته العظيمة ، التى أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها** ﴾ بالمصابيح ﴿ **ومالها من فروج** ﴾ قال مجاهد : يعنى : من شقوق كقوله تعالى : ﴿ **الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾(٥) أى : كليل عن أن يرى عيباً ، أو نقصاً .

---

(١) سورة يونس الآية ٢
(٢) سورة الاعراف الآية ٦٣
(٣) سورة القمر الآيتان ٥٢ ، ٥٣
(٤) سورة الذاريات الآيتان ٨ ، ٩
(٥) سورة الملك الآيتان ٣ ، ٤

وقوله تعالى : ﴿ **والأرض مددناها** ﴾ أى : وسعناها وفرشناها ، ﴿ **وألقينا فيها رواسى** ﴾ وهى : الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب ﴿ **وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج** ﴾ أى : من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ، كقوله تعالى : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ **بهيج** ﴾ أى : حسن المنظر ، قال تعالى : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ أى : ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل فيهما من الآيات العظيمة ، تبصرة ودلالة ، وذكرى لكل عبد منيب ، أى : خاضع خائف ، وجل رجّاع إلى الله ــ عز وجل ــ كقوله تعالى : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفرعنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد** ﴾(٣) .

من آيات الله الكونية

يقول العلامة ابن القيم : تأمل العبرة فى وضع العالم وتأليف أجزائه ، ونظمها على أحسن نظام ، وأدله على كمال قدرة خالقه ، وكمال حكمته ، وكمال لطفه ، فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ، ومصالحه ، وكل ما يحتاج إليه ، فالسماء مسقفة المرفوع عليه والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه ، والنجوم مصابيح له وزينة ، وأدلة للمنتقل فى طرق هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه ، كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شىء منها لشأنه ، الذى يصلح له وضروب النبات مهيأة لمآربه وصنوف الحيوان مصروفة فى مصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة ، والآلات ، ومنها الحرس الذى وكل بحرس الإنسان يحرسه ، وهو نائم ، وقاعد مما هو مستعد لا هلاكه وأذاه فلولا ما سلط عليه من ضده لم

---

(١) سورة الذاريات الآية ٤٩

(٢) سورة الأنعام الآية ٩٩

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٤

يقر للإنسان قرار بينهم ، وجعل الإنسان كالملك المخول فى ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففى هذا : أعظم دلالة ، وأوضحها على أن العالم مخلوق خالق حكيم قدير عليم ، قدره أحسن تقدير ، ونظمه أحسن نظام ، وإن الخالق يستحيل أن يكون اثنين ، بل الإله واحد لا إله إلا هو ــ تعالى ــ عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا ، وأنه لو كان فى السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما ، واختل نظامهما ، وتعطلت مصالحهما ، وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدير له روحان متكافئتان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع إمكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال فى أوائل العقول ، وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ــ فسبحان الله ــ رب العرش عما يصفون ، ﴿ **ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون** ﴾[1] .

ــ فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات فى علوها ، وارتفاعها ، وسعتها ، وقرارها ، بحيث لا تصعد علواً كالنار ، ولا تهبط نازلة كالأجسام . الثقيلة ، ولا عمد تحتها ، ولا علاقة فوقها ، بل هى : ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ، ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ، ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان ، وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كَلَّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى أجانة خضراء مملوءة ماء . فتأمل كيف جعل اديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكسأ فيها بطول مباشرتها له . هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

ــ وتأمل الحكمة البعيدة فى تيسيره ــ سبحانه ــ على عباده ما هم أحوج إليه وتوبسيعه وبذله ، فكلما كانوا أحوج إليه كان أكثر وأوسع ، وكلما استغنوا عنه كان أقل ، وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده ، فلم يكن بالعام ولا بالغادر على مراتب الحاجات ، وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار ، وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق فى البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده فى أقطار العالم لا ختنق العالم من الدخآن والبخار المتصاعد المنعقد فتأمل حكمة ربك فى أن سخر له الريح فإذا تصاعد إلى الجو أحالته سحاباً ، أو ضباباً فأذهبت عن العالم شره واذاه فسل الجاحد من الذى دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير ، وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلو ذلك ويقلبوه سحاباً ، أو ضباباً ، أو يذهبوه عن الناس ، ويكشفوه عنهم ولو شاء

(١) سورة المؤمنون الآيتان ٩١ ، ٩٢

ربه ـ تعالى ـ لحبس عنه الرياح فاختنق على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .
ـ ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضاقت عن مساكن الإنس والحيوان ، وعن مزارعهم ، ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم ، فإن قلت : فما حكمة هذه القفار الخالية ، والفلوات الفارغة الموحشة ، فاعلم أن فيها معايش لا يحصيه إلا الله من الوحوش والدواب ، وعليها أرزاقهم ، وفيها مطردهم ومنزلهم كالمدن والمساكن للإنس ، وفيها مجالهم ومرعاهم ومصيفهم وشتاهم ، ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ، ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال ، والبدو والاستبدال بالأوطان ، فكم من بيداء سماق صارت قصورا وجنانا ، ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها ، لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين . فى أماكنهم لا يجدون عنها إنتقالا إذا فدحهم ما يزعجهم عنها ، ويضطرهم إلى النقلة منها ، وكذلك الماء لولا كثرته ، وتدفقه فى الأودية والأنهار ، لضاق عن حاجة الناس إليه ، ولغلب القوى الضعيف ، واستبد به دونه فيحصل الضبرر ، وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان إليه من الطير والوحوش والسباع ، فاقتضت الحكمة ، إن كان بهذه الكثرة والسعة ، فى كل وقت ، وأما النار فقد تقدم أن الحكمة : اقتضت كمونها متى شاء العبد ، أوراها عند الحاجة ، فهى وإن لم تكن مبثوثة فى كل مكان فإنها عتيدة حاصلة ، متى احتيج إليها واسعة لكل ما يحتاج إليه منها غير أنها مودعة فى أجسام جعلت معادن لها ، فإنها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لاتظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم إن جعلها مخزنة فى الأجسام يخرجها ويبقيها الرجل عند حاجته إليها .. »
ـ ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها ، وفيها من المنافع ما لا يحصيه إلا خالقها وناصبها .. فمن منافعها : أن الثلج يسقط عليها فيبقى فى قللها حاصلا لشراب الناس ، إلى حين نفاده ، وجعل فيها ليذوب أولاً فأولا فتجىء منه السيول الغزيرة ، وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت فى المروج ، والوهاد والربُا ضروب البنات ، والفواكه والأدوية ، التى لا يكون مثلها فى السهل والرمل ، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض فانحل جملة ، وساح دفعة فعدم وقت الحاجة إليه ، وكان فى انحلاله جملة السيول التى تهلك ما مرت عليه فيضر بالناس ضررا لا يمكن تلافيه ولا دفعه لأذيته . (ومن منافعها) ما يكون فى حصونها وقللها من المغارات والكهوف ، والمعاقل التى بمنزله الحصون والقلاع ، وهى أيضا : أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها ، والإرصية وغيرها . ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة ، والنحاس ، والحديد ، والرصاص ، والزبرجد ، والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى : أن فيها ما يكون الشىء اليسير منه تزيد قيمته ، ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة ، وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها ـ سبحانه ـ (ومن منافعها) أيضا : أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم

ما تحتها ولهذا : فالساكنون تحتها فى أمان من الرياح العظام المؤذية . (ومن منافعها) أيضا : أنها ترد عنهم السيول إذا كانت فى مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول فى مجاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن ، (ومن منافعها) أنها أعلام يستدل بها فى الطرقات فهى بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاما فقال : ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالإعلام** ﴾[1] فالجوارى : السفن وأعلام الجبال ، وأحدها علم .. فسمى **الجبل** علماً من العلامة والظهور . (ومن منافعها) أيضا : ما ينبت فيها من العقاقير والأدوية التى لا تكون فى السهول ، والرمال ، كما أن ما ينبت فى السهول والرمال لا ينبت مثله فى الجبال وفى كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم . (ومن منافعها) أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير القلاع والمدن ، (ومن منافعها) ما ذكره الله — تعالى — فى كتابه أن جعلها للأرض أوتاداً تثبتها ورواسى بمنزلة مراسى السفن أعظم بها من منفعة ، وحكمة هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها فى غاية المطابقة للحكمة فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها ، والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع والمساكن ، ولملأت السهل ، ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن ، والمغارات والأكنان ، ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الإنتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة ، هذا الشكل الذى نصبت عليه ، ولقد دعانا الله — سبحانه وتعالى — فى كتابه إلى النظر فيها وفى كيفية خلقها فقال تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[2] فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها ، وفاطرها ، وعلمه ، وحكمته ، ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له ، وتسجد ، وتشقق ، وتهبط من خشيته . ﴿ **هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون فى ضلال مبين** ﴾[3] . أ هـ

قوله تعالى : ﴿ **ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج** ﴾ .

أى : ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرهما ، وأنبتنا به النخل الطوال التى لها طلع منضود متراكم بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

(١) سورة الشورى الآية ٣٢
(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧ — ٢٠
(٣) سورة لقمان الآية رقم ١١

وقوله – تعالى – : ﴿ **وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج** ﴾ أى : وأحيينا بذلك الماء الأرض المجدبة التى لا نبات فيها فتربو وتنبت من كل زوج بهيج ﴿ **كذلك الخروج** ﴾ أى : ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور ، وفى التعبير عن إخراج البنات من الأرض بالاحياء ، وعن احياء الموتى بالخروج تضخيم لشأن الإنبات ، وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق للمماثلة ، بين إخراج النبات ، وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شيء قدير** ﴾[2] ، وكقوله تعالى : ﴿ **فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى وهو على كل شيء قدير** ﴾[3] .

يقول العلامة ابن القيم فى كتابه « مفتاح دار السعادة » :

ثم تأمل الحكمة البالغة فى نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها ، وتلولها ، وظرابها ، وآكامها ، ومنخفضها ، ومرتفعها ، ولو كان ربها تعالى : إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع فى السفلى وكثر وفى ذلك فساد ، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشىء – سبحانه – السحاب ، وهى روايا الأرض ثم : يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر ، وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى ، ولهذا تجد البلاد القريبة من البحر كثيرة الأمطار ، وإذا بعدت من البحر قل مطرها .. ثم تأمل الحكمة البالغة فى إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو ، والغيم يعتقبان على العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام أحدهما كان فيه فساده فلو توالت الأمطار لأهلكت ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب ، والثمار ، وعفنت الزرع ، والخضروات وأرخت الأبدان ، وحشرت الهواء فحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المآكل ، وتقطعت المسالك ، والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان ، وغيض الماء ، وانقطع معين العيون والآبار والأنهار ، والأودية ، وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان ، وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال فاقتضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو ، والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر ، وصح الهواء ، ودفع كل واحد منهما عادية الآخر ، واستقام أمر العالم وصلح .

---

(١) سورة الحج الآيات ٥ ، ٦ ، ٧

(٢) سورة فصلت الآية ٣٩

(٣) سورة الروم الآية ٥٠

ثم تأمل الحكمة الإلهية فى إخراج الأقوات ، والثمار ، والحبوب والفواكه متلاحقة شيئاً بعد شىء ، متتابعة ، ولم يخلقها كلها جملة واحدة فإنها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ، ولم تكن تنبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخلل وفاتت المصالح التى رتبت على تلاحقها وتتابعها ، فإن لكل فصل أوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر ، فهذا حار ، وهذا بارد ، وهذا معتدل ، وكل فى فصله موافق المصلحة ، لا يليق به غير ما خلق فيه . ثم إنه ــ سبحانه ــ خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع آخر من العصف ، والخشب ، والورق ، والنّور ، والسعف ، والكرب وغيرها من منافع النبات ، والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الأبنية ، والسفن والرحال ، والأوانى وغيرها ، ومنافع النور من الأدوية ، والمنظر البهيج الذى يشوق الناظرين وحسن مرائى الشجر ، وخلقتها البديعة الشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة واللطف . ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهى من نفس ذلك الحطب ، ثم الورق الأخضر ، ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها ، وأشكالها ، ومقاديرها وألوانها وطعومها ، وروائحها ومنافعها ، وما يراد منها . ثم تأمل أين كانت مستودعة فى تلك الخشبة ، وهاتيك العيدان ، وجعلت الشجرة لها كالأم فهل كان فى قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب ، وهذا التقدير المحكم ، وهذه الأصباغ الفائقة ، وهذه الطعوم اللذيذة ، والروائح الطيبة ، وهذه المناظر العجيبة . فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره ، وإبرازه وترتيبه شيئا فشيئاً ، وسوق الغذاء إليه فى تلك العروق اللطاف التى يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجارى الدقاق فمن الذى تولى ذلك كله ، ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح ، وأنزل عليها المطر ، ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فإن الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة فى الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الثرى فتؤديه إلى أغصانها ، فتؤديه الأغصان إلى الأوراق والثمر ، كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه فى مجارى وطرق قد أحكمت غاية الأحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بفمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتمله فتعطى كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظلمه ولا تزيده على قدر حاجته ، فسلِ الجاحد من أعطى هذا ، ومن هداها إليه ، ووضعه فيها ، فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة ، أو حيلة ، أو مزاولة ؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ؟ ودلت عليه آياته ؟ كما قيل :

فواعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

ويقول العلامة ابن القيم فى الكلام على خلق النخلة وما فيها من العجائب :

ثم تأمل هذه النخلة التى هى إحدى آيات الله ، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك ، فإنه لما قدر أن يكون فيه إناث تحتاج إلى اللقاح ، جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وإناثه ، ولذلك اشتد شبهها من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصاً بالمؤمن كما مثله النبى — ﷺ — وذلك من وجوه كثيرة ، (أحدها) : ثبات أصلها فى الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التى اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار .

(الثانى) : طيب ثمرها وحلاوتها وعموم المنفعة بها ، كذلك المؤمن طيب الكلام ، طيب العمل ، فيه المنفعة لنفسه ولغيره .

(الثالث) : دوام لباسها وزينتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاء ، كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافى ربه — تعالى — .

(الرابع) : سهولة تناول ثمرتها وتيسره ، أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها ، وأما باسقها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها ، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقى والدرج إلى أعلاها ، وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله وما هو بالغر ولا باللئيم .

(الخامس) : أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم فإنه يؤكل رطبة فاكهة وحلاوة ، ويابسه يكون قوتاً وأدما وفاكهة ، ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ، ويدخل فى الأدوية والأشربة ، وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار .

(السادس) : من وجوه التشبيه : أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد ، وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة ، وتقلعها تارة ، وتقصف أفنانها ، ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة ، فكذلك المؤمن صبور على البلاء لا تزعزعه الرياح .

(السابع) : أن النخلة كلها منفعة لا يسقط منها شىء بغير منفعة ، فثمرها منفعة وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف وغير ذلك ، وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ، ويستر به الفرَج والخلل ، وخوصها يتخذ منه المكاتل والزنابيل وأنواع الآنية والحصر وغيرها ، وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس ، وقد طابق بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة فى المسلم تقابلها ، فلما جاء إلى الشوك الذى فى النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور ، فيكون عليهم فى الشدة والغلظة بمنزلة الشوك ، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وليناً . ﴿ **أشداء على الكفار رحماء بينهم** ﴾[1] .

(١) سورة الفتح من الآية ٢٩

(الثامن) : أنها كلما طال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها ، وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله .

(التاسع) : أن قلبها من أطيب القلوب وأحلاها ، وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر ، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب .

(العاشر) : أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً ، بل إن تعطلت منها منفعة ففيها منافع آخر ، حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس فى سعفها ، وخوصها ، وليفها وكربها منافع ، وهكذا المؤمن لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط ، إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب ، فلا يزال خيره مأمولا وشره مأمونا . وفى الترمذى مرفوعاً إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — (خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره)[1] فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً للحكمة فى خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه ، فتأمل خلقة الجذع الذى لها كيف هو تجده كالمنسوج من خيوط ممدودة كالسدا ، وأخرى معترضة كاللحمة ، كنحو المنسوج باليد وذلك لتشدد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة ، ولبثها فى السقوف ، والجسور ، والأوانى ، وغير ذلك مما يتخذ منها ، وهكذا سائر الخشب ، وغيرها إذا تأملته . شبه النسج ولا تراه مصمتاً كالحجر الصلب بل ترى بعضه كأنه دخل بعضاً طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم بعضها فى بعض فإن ذلك أمتن له وأهيأ لما يراد منه ، فإنه لو كان مصمتاً كالحجارة لم يمكن أن يستعمل فى الآلات والأبواب والأوانى والأمتعة والأسرة والتوابيت ، وما أشبهها ، ومن بديع الحكمة فى الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لولا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة العظيمة ، والأمتعة الكثيرة ، ونقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت فى البر لعظمت المؤنة فى نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم ﴿ **وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون وإخوان لوط ، وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد ، أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ .

بعد أن ذكر — سبحانه — تكذيب المشركين للرسول — صلى الله عليه وسلم — فى صدر السورة ذكر المكذبين للرسل من قبله وبيان ما آل إليه أمرهم ، تسلية لرسوله — صلى الله عليه وسلم — وعبرة لهم . ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ، وعاد وفرعون واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق وعيد** ﴾ أى : كما كذب هؤلاء فكذلك كذب أولئك فحل بهم العقاب . ﴿ **كل كذب**

(١) الحديث فى سنن الترمذى (أبواب الوصايا) باب ٦٣ ج ٣ ص ٣٥٩ رقم ٢٣٦٢ عن أبى هريرة وقال الترمذى : هذا حديث صحيح .

(٢) سورة ابراهيم من الآية ٣٤

الرسل ﴾ من هذه الأمم المكذبة ﴿ **فحق وعيد** ﴾ أى : فحق عليهم وعيدي وعقابى . كقوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار** ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ أى : أفأ عجزنا ابتداء الخلق حتى هم فى شك من الإعادة ؟ ، ﴿ **بل هم فى لبس من خلق جديد** ﴾ أى : فى حيرة من البعث منهم مصدق ومنهم مكذب . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ، إن الله على كل شىء قدير** ﴾[٢] وفى مسند الامام أحمد : من حديث بشر بن جحاش القرشي أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله تعالى : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة »[٣] .

المبدأ والمعاد وصفات التوحيد جمعت فى سورة ق

يقول العلامة ابن القيم فى فوائده

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفى ويشفى ويغنى عن كلام أهل الكلام ، ومعقول أهل المعقول ، فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة وانقسام الناس إلى هالك شقى ، وفائز سعيد وأوصاف هؤلاء ، وهؤلا ، وتضمنت اثبات صفات الكمال لله ، وتنزيهه عما يضاد كما له من النقائص والعيوب وذكر فيها القيامتين : الصغرى والكبرى ، والعالمين : الأكبر ، وهو عالم الآخرة ، والأصغر ، وهو عالم الدنيا وذكر فيها خلق الإنسان ، ووفاته ، واعادته ، وحاله عند وفاته ويوم معاده ، واحاطته ـــ سبحانه ـــ به من كل وجه ، حتى علمه **بوساوس** نفسه ، واقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها ، وإنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه ، وشاهد

---

(١) سورة غافر الآيات ٤ ، ٥ **(٢) العنكبوت الآيتان : ١٩ ، ٢٠**

(٣) الحديث فى مسند الامام أحمد ج ٤ ص ٢١٠ (حديث بشر بن جحاش عن النبى ﷺ والحديث فى اتحاف السادة المدعين ج ٤ ص ٣٤٨ وقال العراق : رواه بن ماجه والحاكم وصحح اسناده من حديث بشر بن جحاش : **قلت ورواه أيضا أحمد وابن سعد** والطبرانى والبيهقى وأبو نعيم ولفظهم جميعاً بقول الله : يا ابن آدم أنى تعجزنى .. الخ .

يشهد عليه ، فإذا أحضره السائق قال : (هذا ما لدى عتيد) أى : هذا الذى أمرت بإحضاره قد احضرته ، فيقال عند إحضاره (ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد) كما يحضر الجانى إلى حضرة السلطان فيقال : هذا فلان قد أحضرته ، فيقول : أذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه .

(المعاد للجسد ذاته)

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله ــ سبحانه ــ يعيد هذا الجسد بعينه الذى أطاع وعصى ، فينعمه ، ويعذبه كما ينعم الروح التى آمنت بعينها ويعذب التى كفرت بعينها ، لا أنه ــ سبحانه ــ يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذى أخبرت به الرسل ، حيث زعم أن الله ــ سبحانه ــ يخلق بدنا غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، من كل وجه ، عليه يقع النعيم والعذاب ، والروح عنده عرض من أعراض البدن ، فيخلق روحاً غير هذه الروح ، وبدناً غير هذا البدن ، وهذا غيرْ ما اتفقت عليه الرسل ، ودل عليه القرآن والسنة ، وسائر كتب الله تعالى ، وهذا فى الحقيقة إنكار للمعاد وموافقة لقول من أنكره من المكذبين ، فإنهم لم ينكروا قدرة الله على خلق أجسام آخر غير هذه الأجسام يعذبها ، وينعمها كيف وهم يشهدون النوع الإنسانى يخلق شيئاً بعد شيء ! فكل وقت يخلق الله ــ سبحانه ــ أجساماً وأرواحاً غير الأجسام التى فنيت ، فكيف يتعجبون من شيء يشاهدونه عياناً ؟ ، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم ، بعد أن مزقهم البلى ، وصاروا عظاما ورفاتا ، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء ، ولهذا قالوا : (أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) .

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه ، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً ، بل يكون ابتداء ، ولم يكن لقوله (قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) كبير معنى .

فإنه ــ سبحانه ــ جعل هذا جوابا لسؤال مقدر ، وهو : إنه يميز تلك الأجزاء التى اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز ، **فأخبر** ــ سبحانه ــ أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم ، وعظامهم ، وأشعارهم ، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء ، فهو قادر على تحصيلها ، وجمعها بعد تفرقها ، وتأليفها خلقاً جديداً ، وهو : ــ سبحانه ــ يقرر المعاد بذكر كمال علمه ، وكمال قدرته ، وكمال حكمته فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع :

شبه المنكرين للمعاد :

أحدها : اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ، ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص .

الثانى : إن القدرة لا تتعلق بذلك .

الثالث : إن ذلك أمر لا فائدة فيه ، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنسانى شيئا بعد شيء ، هكذا أبداً ، كلما مات جيل خلفه جيل آخر . فأما أن يميت النوع الإنسانى كله ، ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة فى ذلك ، فجاءت براهين المعاد فى القرآن مبنية على ثلاثة أصول :

براهين المعاد

أحدها : تقرير كمال علم الرب ـ سبحانه ـ وتعالى كما قال فى جواب من قال : ﴿ من يحيى العظام وهى رميم ۞ قل يحييها الذى أنشاها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾[١] ، وقال : ﴿ وإن الساعة لآتية فاصفح الصفح الجميل إن ربك هو الخلاق العليم ﴾[٢] .

والثانى : تقرير كمال قدرته ، كقوله (أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴾[٥] .

ويجمع ــ سبحانه ــ بين الأمرين كما فى قوله : ﴿ أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

والثالث : كمال حكمته ، كقوله : ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينها لاعبين ﴾[٦] ، وقوله : ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ﴾[٧] ، وقوله : ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾[٨] ، وقوله : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ﴾[٩] ، وقوله : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[١٠].

---

(١) سورة (يس) الآيتان ٧٨ ، ٧٩
(٢) سورة الحجر الآيتان ٨٥ ، ٨٦
(٣) سورة (يس) من الآية ٨١
(٤) سورة القيامة الآية ٤
(٥) سورة الحج الآية ٦
(٦) سورة الدخان الآية ٣٨
(٧) سورة (ص) الآية ٢٧
(٨) سورة القيامة ٣٦
(٩) سورة المؤمنون الآيتان ١١٥ ، ١١٦
(١٠) سورة الجاثية الآيتان ٢١ ، ٢٢

ولهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع ، وأن كمال الرب ــ تعالى ــ وكمال اسمائه ، وصفاته تقتضيه وتوجيه ، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص .

ثم أخبر ــ سبحانه ــ أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم (فهم فى أمر مريج) مختلط لا يحصلون منه على شيء ، ثم دعاهم إلى النظر فى العالم العلوى وبنائه ، وارتفاعه ، واستوائه وحسنه ، والتئامه ، ثم إلى العالم السفلى وهو الأرض ، وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته ، وإن ذلك تبصرة إذا تأملها العبد المنيب ، وتبصر بها ، تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ، فالناظر فيها يتبصر أولاً ، ثم يتذكر ثانياً ، وإن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه .

ثم دعاهم إلى التفكر فى مادة أرزاقهم وأقواتهم ، وملابسهم ومراكبهم وجناتهم ، وهو الماء الذى أنزله من السماء وبارك فيه ، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ما بين أبيض ، وأسود ، وأحمر ، وأصفر ، وحلو ، وحامض ، وبين ذلك مع اختلاف منابعها ، وتنوع أجناسها ، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها ، واختلاف منافعها ، وصفاتها وأشكالها ، ومقاديرها . ثم ، أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التى لا تخفى على المتأمل ﴿ **فأحيا به الأرض بعد موتها** ﴾[1] ، ثم قال : ﴿ **كذلك الخروج** ﴾ أى : مثل هذا الإخراج من الأرض الفواكه والثمار ، والأقوات ، والحبوب خروجكم من الأرض بعد ما غيبتم فيها .

ثم انتقل ــ سبحانه ــ : إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير ، وأوجز لفظ ، وأبعده عن كل شبهه وشك ، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً فكذبوهم فأهلكهم بأنواع الهلاك ، وصدق فيهم وعيده الذى أوعدهم به رسله إن لم يؤمنوا ، وهذا تقرير لنبوتهم من أخبر بذلك عنهم ، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه فى كتاب ، بل أخبر به أخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب ، ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك ، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم ، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان ، وتناقلته القرون قرنا بعد قرن ، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية .

ثم عاد ــ سبحانه ــ إلى تقرير المعاد بقوله : ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول** ﴾ يقال : لكل من عجز عن شيء : عيى به ، وعيى فلان بهذا الأمر ، قال الشاعر :

عيـــوا بأمرهـــــم كما عيـــيت بيـــضتها الحمامـــة

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٦٤

ومن قوله تعالى : ﴿ ولم يعى بخلقهن ﴾ قال ابن عباس : يريد أفعجزنا ، وكذلك قال مقاتل : قلت : هذا تفسير يلازم اللفظة ، وحقيقتها أعم من ذلك ، فإن العرب تقول : أعيانى أن أعرف كذا وعييت به إذا لم تهتد لوجهه و لم تقدر على معرفته وتحصيله فتقول : أعيانى دواؤك إذا لم تهتد له و لم تقف عليه .

ولازم هذا المعنى : العجز عنه ، والبيت الذى استشهدوا به شاهد لهذا المعنى ،فإن الحمامة لم تعجز عن بيضتها ، ولكن أعياها إذا أرادت أن تبيض أين ترمى بالبيضة ، فهى تدور وتجول حتى ترمى بها ، فإذا باضت أعياها أين تحفظها وتودعها حتى لا تنال ، فهى تنقلها من مكان إلى مكان ، وتحار أين تجعل مقرها كما هو حال من عيى بأمره فلم يدر من أين يقصد له ، ومن أين يأتيه ، وليس المراد بالاعياء : فى هذه الآية : التعب ، كما يظنه منَ لم يعرف تفسير القرآن ، بل هذا المعنى : هو الذى نفاه ــ سبحانه ــ عن نفسه فى آخر السورة بقوله : ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ . ثم أخبر ــ سبحانه ــ أنهم ﴿ فى لبس من خلق جديد ﴾ أى : انهم الملتبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ، ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته ، وشواهد ربوبيته ، وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان ، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد .

وأى دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها ، وقواها وصفاتها ، وما فيها من اللحم ، والعظم والعروق ، والأعصاب والرباطات ، والناقد والآلات ، والعلوم ، والإدارات ، والصناعات .. كل ذلك من نطفة ماء . فلو أنصف العبد ربه لا كتفى بفكره فى نفسه ، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه ، وصفاته ، ثم أخبر ــ سبحانه ــ عن أحاطة علمه به ، حتى علم وساوس نفسه ، ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة وإن ذلك أدنى إليه من العرق الذى هو داخل بدنه ، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه ، والعلم به من ذلك العرق .. أ هـ .

الموت والبعث والجزاء

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى
ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ
سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ
نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ

(٢٣) وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ (٢٤) أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (٢٥) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ
(٢٦) ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ (٢٧) * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٨) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٩) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ
لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٣٠) يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣١) وَأُزْلِفَتِ
ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣٢) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٣) مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ
وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٤) ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ (٣٥) لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ

معانى المفردات

﴿ **الوسوسة** ﴾ : الصوت الخفى ، ومنه وسواس الحلى ، والمراد بها هنا : حديث النفس ، وما يخطر بالبال .

﴿ **حبل الوريد** ﴾ : عرق كبير فى العنق ، وللإنسان وريدان مكتنفان بصفحتى العنق فى مقدمها متصلان بالوتين يروان من الرأس إليه .

﴿ **قعيد** ﴾ بمعنى مقاعد ، كالجليس بمعنى مجالس .

﴿ **والرقيب** ﴾ : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شراً فهو صاحب الشمال .

﴿ **عتيد** ﴾ أى : مهيأ لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر .

﴿ **سكرة الموت** ﴾ : شدته ، ﴿ **بالحق** ﴾ أى : بحقيقة الحال .

﴿ **تحيد** ﴾ أى : تميل وتعدل . ﴿ **يوم الوعيد** ﴾ : يوم إنجاز الوعد ، ﴿ **السائق والشهيد** ﴾ : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله والآخر يشهد عليها بعملها . ﴿ **الغطاء** ﴾ : الحجاب المغطى لأمور المعاد ، وهو : الغفلة والانهماك فى اللذات ، وقصر النظر عليها ، ﴿ **حديد** ﴾ أى : نافذ لزوال المانع للإبصار .

﴿ **القرين** ﴾ : هو : الملك الموكل بالمرء . ﴿ **عتيد** ﴾ أى : معدّ محضر . ﴿ **عنيد** ﴾ أى : مبالغ فى العناد وترك الانقياد للحق . ﴿ **مناع للخير** ﴾ أى : كثير المنع للمال فى الحقوق المفروضة عليه . ﴿ **معتد** ﴾ أى : متجاوز للحق ظالم . ﴿ **مريب** ﴾ أى : شاك فى الله وفى دينه ، ﴿ **القرين** ﴾ هنا : الشيطان المقيض له ، ﴿ **بعيد** ﴾ أى : من الحق ، ﴿ **لا تختصموا لدى** ﴾ أى : لا يجادل بعضكم بعضا عندى ، ﴿ **بالوعيد** ﴾ أى : على الطغيان فى دار الدنيا فى كتبى وعلى ألسنة رسلى .

﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ أى : لا يقع فيه الخلف والتغيير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى . ﴿ **مزيد** ﴾ : زيادة . ﴿ **أزلفت** ﴾ أى : أدنيت وقرّبت . ﴿ **غير بعيد** ﴾ أى : فى مكان غير بعيد منهم بل هو بمرأى منهم . ﴿ **هذا ما توعدون** ﴾ أى : هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الرسل . ﴿ **أوّاب** ﴾ أى : رجّاع عن المعصية إلى الطاعة . ﴿ **حفيظ** ﴾ أى : حافظ لحدود الله وشرائعه . ﴿ **خشى الرحمن بالغيب** ﴾ أى : خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد ﴿ **منيب** ﴾ أى : مخلص مقبل على طاعة الله . ﴿ **بسلام** ﴾ أى : سالمين من العذاب وزوال النعم ، ﴿ **الخلود** ﴾ أى : فى الجنة إذ لا موت فيها . ﴿ **مزيد** ﴾ أى : مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن استدل ـــ سبحانه ـــ على إمكان البعث بقوله : أفعيينا بالخلق الأول . أردف ذلك دليلا آخر على إمكانه ، وهو علمه بما فى صدورهم ، وعدم خفاء شىء من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك لا يبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ما جاء به الدين حق لا شك فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعها ملكان أحدهما سائق لها إلى المحشر والثانى شهيد عليها . ثم ذكر ـــ سبحانه ـــ الحوار الذى دار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر ورد القرين عليه ، وأن الله ـــ سبحانه ـــ نهاهم عن الاختصام لديه ، لأنه لا فائدة فيه بعد أن أوعدهم على ألسنة رسله ، ثم أردف هذا ذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قريبة منهم بحيث يرونها رأى العين ، فتطمئن إليها نفوسهم وتثلج لمرآها صدورهم ، ويقال لهم هذا هو الثواب الذى وعدتم به على ألسنة الأنبياء . والرسل ، وهو دائم لانفاد له ولا حصر ، فكل ما يريدون من لذة ، ونعيم فهو حاضر ، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾[1] .

التفسـير

قوله تعالى :

﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ۝ إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ۝ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ۝ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ .

---

(١) سورة التوبة من الآية ٧٢

قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه** ﴾ .

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه ، وعلمه محيط بجميع أموره حتى أنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بنى آدم من الخير والشر ، كما قال تعالى : ﴿ **له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾[1] ، وكما قال جل فى علاه : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ، ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[2] ، وكما قال جل ذكره : ﴿ **ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ ، قال ابن كثير يعنى : ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العليم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع ، تعالى الله وتقدس ولكن اللفظ لا يقتضيه فإنه لم يقل وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال : ﴿ **ونحن أقرب إليه من حبل الوريد** ﴾ ، كما قال فى المحتضر : ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون** ﴾ يعنى : ملائكته وكما قال تبارك وتعالى : ﴿ **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** ﴾[4] فالملائكة نزلت بالذكر — وهو : القرآن — بإذن الله — عز وجل — وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه باقتدار الله — جل وعلا — لهم على ذلك ، فللملك لمة من الإنسان ، كما أن للشيطان لمة وكذلك : « الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم . كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ، ولهذا قال : تعالى : ههنا ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ يعنى : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان . أ هـ .

وقال ابن القيم — رحمه الله — قال شيخنا — ابن تيمية — المراد : بقول : ﴿ **نحن** ﴾ أى : ملائكتنا ، قال : ويدل عليه قوله : ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ .

فقيد المذكور يتلقى الملكين .. أ هـ .

قال الإمام ابن تميه « وهو — سبحانه — فوق العرش ، رقيب على خلقه ، مهيمن عليهم ، مطلع إليهم ، فدخل فى ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه » .

قوله تعالى : ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ .

---

(١) سورة (طه) الآيات ٦ — ٨ .

(٢) سورة (الملك) الآيتان ١٣ ، ١٤

(٣) سورة التوبة الآية ٧٨

(٤) سورة (الحجر) الآية ٩

(٥) من الحديث الموجود فى البخارى كتاب الأحكام (باب الشهادة تكون عند الحاكم فى ولاية القضاء) ج ٩ ص ٨٧ .
— وفى سند الامام أحمد ج ٣ ص ١٥٦
— وفى سنن أبى داود (كتاب الصوم) باب المعتكف يدخل البيت عند الحاجة ج ٢ ص ٨٣٥ رقم ٢٤٧٠ .

﴿ **إذ يتلقى المتلقيان** ﴾ يعنى : الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ، ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ أى : مترصد كقوله تعالى : ﴿ **وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون** ﴾[1] .

وكقوله تعالى : ﴿ **أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول** ﴾ أى : ما يتكلم بكلمة ﴿ **إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ أى : إلا ولها من يرقبها معد لذلك يكتبها لا يترك كلمة ولا حركة قال ابن كثير : وقد اختلف العلماء هل يكتب الملك كل شئ من الكلام ؟ وهو قول الحسن وقتادة ، أو إنما يكتب ما فيه ثواب ، وعقاب كما هو قول ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ ؟ على قولين : الأظهر الأول لعموم قوله تبارك وتعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ .

وقد قال الإمام أحمد بسنده ، عن بلال بن الحارث المزنى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ــ تعالى ــ ما يظن أن تبلغ ما بلغت ، يكتب الله ــ عز وجل ــ له بها رضوانه إلى يوم يلقاه »[3] قال : فكان علقمة ــ الذى روى الحديث عن بلال بن الحارث ــ يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث ، ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وله شاهد فى الصحيح . وقال الأحنف بن قيس : صاحب اليمين يكتب الخير وهو أمين على صاحب الشمال فإن أصاب العبد خطيئة قال له أمسك فإن استغفر الله ــ تعالى ــ نهاه أن يكتبها وإن أبى كتبها ، رواه ابن حاتم وقال : الحسن البصرى ، وتلا هذه الآية ﴿ **عن اليمين وعن الشمال قعيد** ﴾ يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك فاعمل ما شئت أقلل ، أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك ، وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾[4] ، ثم يقول : عدل ، والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وذكر الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شىء حتى الأنين فلم يئن أحمد حتى مات ــ رحمه الله ــ .

---

(١) سورة الانفطار الآيات ١٠ ــ ١٢

(٢) سورة الزخرف الآية ٨٠

(٣) الحديث فى سند الامام أحمد ج ٣ ص ٤٦٩ ورد الحديث بلفظه عن بلال بن الحارث المزنى .

ــ وفى تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى (أبواب الزهد) باب ما جاء فى قلة الكلام رقم ٢٤٢١ .

ــ وفى سنن ابن ماجه (كتاب الفتن) باب كف اللسان فى الفتنة ج ٢ ص ١٣١٢ ، ١٣١٣ رقم ٣٩٦٩ .

(٤) سورة الإسراء الآيتان ١٣ ، ١٤

قوله تبارك ــ وتعالى ــ : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ يقول : ــ عز وجل ــ وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق أى : كشفت لك عن اليقين الذى كنت تمترى فيه ، ﴿ **ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾ أى : هذا هو الذى كنت تفر منه ، قد جاءك فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ، ولا خلاص . قال تعالى : ﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون** ﴾[2] ، وقال جل فى علاه : ﴿ **كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام** ﴾[3] .

يا خاطب الدنيا إلى نفسه تنحّ عن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غرارة قريبة العرس من المأتم

قال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض ، قد هلك فيه الأولون والآخرون ، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك العمل الصالح ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك .

وقال الحسن البصرى : ابن آدم ، إنما أنت عدد ، فإذا مضى يومك فقد مضى بعضك .

وقال أبو العتاهية :

الناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن
وما دون دائرة الردى حصن لمن يتحصن

وقال آخر :

زينت بيتك جاهلاً وتعمرته ولعل غيرك صاحب البيت
من كانت الأيام سائرة به فكأنه قد حلّ بالموت
والمرء مرتهن بسوف وليتنى وهلاكه فى السوف والليت
لله در فتى تدبر أمره فغدا وراح مبادر الفوت

وكان عمر بن عبد العزيز ــ رضى الله ــ عنه يقول فى خطبته : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله ــ عز وجل ــ من رحمته التى وسعت كل شيء ، وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله ــ تعالى ــ واتقى ، وباع قليلا بكثير ، وفانياً بباق ، وشقاوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه

(١) سورة الجمعة الآية ٨
(٣) سورة العنكبوت الآية ٥٧
(٤) سورة الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧

بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟ .

وقال الحسن : يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً ، ياابن آدم ، إذا رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم به . الثواء ها هنا قليل ، والبقاء هناك طويل . أمتكم آخر الأمم ، وأنتم آخر أمتكم ، وقد أسرع بخياركم فماذا تنتظرون ؟ آلمعانية ؟ فكأن قدْ . هيهات هيهات ، ذهبت الدنيا بحاليها ، وبقيت الأعمال قلائد فى أعناق بنى آدم ، فيالها موعظة لو وافقت من القلوب حياة ! أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم ، ولا نبى بعد نبيكم ، ولا كتاب بعد كتابكم . أنتم تسوقون الناس ، والساعة تسوقكم ، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحق آخركم . مَن رأى محمداً ــ ﷺ ــ فقد رآه غادياً رائحاً ، لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، رُفع له عَلم فشمَّر إليه . فالوحاء الوحاء ، والنجاء النجاء . علام تعرّجون . أتيتم ورب الكعبة . قد أسرع بخياركم وأنتم كل يوم ترذلون ، فماذا تنتظرون . إن الله ــ تعالى ــ بعث محمداً ــ عليه السلام ــ على علم منه ، اختاره لنفسه ، وبعثه برسالته ، وأنزل عليه كتابه ، وكان صفوته من خلقه ، ورسوله إلى عباده ، ثم وضعه من الدنيا موضعا ينظر إليه أهل الأرض ، وآتاه منها قوتا وبُلغة ثم قال : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾[1] فرغب أقوام عن عيشه ، وسخطوا ما رضى له ربه ، فأبعدهم الله وأسحقهم ، يا ابن آدم طأ الأرض بقدمك فإنها عما قليل قبرك ، واعلم أنك لم تزل فى هدم عمرك مذ سقطت من بطن أمك ، فرحم الله رجلاً نظر فتفكر ، وتفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر ، وأبصر فصبر . فقد أبصر أقوام فلم يصبروا فذهب الجزع بقلوبهم ، ولم يدركوا ما طلبوا ، ولم يرجعوا إلى ما فارقوا . يا ابن آدم أذكر قوله : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾[2] عدل والله عليك من جعلك حسيب نفسك . خذوا صفاء الدنيا وذروا كدرها ، فليس الصفو ما عاد كدرا ، ولا الكدر ما عاد صفوا ، دعوا ما يريبكم إلى ما لا يريبكم . ظهر الجفاء ، وقلت العلماء ، وعفت السنة ، وشاعت البدعة . لقد صحبت أقواماً ما كانت صحبتهم إلا قرة العين وجلاء الصدر . ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أشفق من أن ترد عليهم ، منكم من سيئاتكم أن تعذبوا عليها ، وكانوا فيما أحل الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرم عليكم منها . ما لى أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً . ذهب الناس

---

(١) سورة الأحزاب من الآية ٢١

(٢) سورة الاسراء الآيتان ١٣ ، ١٤

وبقى النسناس . لو تكاشفتم ما تدافنتم . تهاديتم الأطباق و لم تتهادوا النصائح . قال ابن الخطاب : رحم الله أمراً أهدى إلينا مساوينا . أعدوا الجواب فإنكم مسئولون . المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه ، ولكن أخذه من قبل ربه . إن هذا الحق قد جهد أهله ، وحال بينهم ، وبين شهواتهم ، وما يصبر عليه إلا من عرف فضله ، ورجا عاقبته . فمن حمد الدنيا ذم الآخرة ، وليس يكره لقاء الله إلا مقيم على سخطه . يا ابن آدم ، ليس الإيمان بالتحلى ، ولا بالتمنى ، ولكنه ما وقر فى القلب ، وصدقته الأعمال .

تذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة

باب : ذكر الموت والاستعداد له

يقول العلامة القرطبى فى كتابه (التذكرة) ما ملخصه .

روى النسائى عن أبا هريرة قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « أكثروا ذكر هاذم اللذات »[1] يعنى الموت .

وروى الترمذى : عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله »[2] .

وقال السدى فى قوله تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[3] أى : أكثركم للموت ذكراً ، وله أحسن استعدادا ومنه أشد خوفاً محذراً .

﴿ **فصل** ﴾ : قال : علماؤنا ــ رحمة الله عليهم ــ قوله : عليه الصلاة والسلام : « أكثروا ذكر هادم اللذات الموت »[4] كلام مختصر وجيز قد جمع التذكرة ، وأبلغ فى الموعظة فإن من ذكر الموت حقيقة ذكره نغص عليه لذته الحاضرة ، ومنعه من تمنيها فى المستقبل ، وزهده فيما كان منها يؤمل ، ولكن النفوس الراكدة ، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعاظ ، وتزويق الألفاظ ، وإلا ففى قوله : عليه ــ الصلاة والسلام ــ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت »[5] مع قوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾[6] ما يكفى السامع له ، ويشغل الناظر فيه وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيراً ما يتمثل بهذه الأبيات :

---

(١) الحديث فى سنن النسائى ج ٤ ص ٤ كتاب الجنائز باب كثرة ذكر الموت

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩ وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن (كتاب صفحة القيامة) باب ذكر الموت .

وفى سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠ .

(٣) سورة تبارك من الآية ٢

(٤) الحديث فى رقم ١ من هذه الصفحة

(٥) الحديث فى رقم ١ فى هذه الصفحة

(٦) سورة آل عمران الآية ٨٥ وفى سورة العنكبوت من الآية ٥٧

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويودى المال والولدُ
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنه ... والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والإنس والجن فيما بينهما ترد
أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد ؟
حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يوماً كما وردوا

﴿ فصل ﴾ : إذا ثبت ما ذكرناه . فاعلم أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية ، والتوجه فى كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية ، ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتى ضيق وسعة ، ونعمة ومحنة ، فإن كان فى حال ضيق ومحنة فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه ، فإنه لا يدوم . والموت أصعب منه ، أو فى حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها والسكون إليها لقطعه عنها . ولقد أحسن من قال :

اذكر الموت هادم اللذات ، وتجهز لمصرع سوف يأتى .

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلوم ، ولا زمن معلوم ، ولا مرض معلوم . وذلك ليكون المرء على أهبة من ذلك ، مستعداً لذلك . وكان بعض الصالحين ينادى بليل على سور المدينة : الرحيل . الرحيل . فلما توفى فقد صوته أمير المدينة فسأل عنه . فقيل : إنه قد مات فقال :

مازال يلهج بالرحيل وذكره ... حتى أناخ ببابه الجمال
فأصابه متيقظاً متشمّراً ... ذا أهبة لم تلهه الآمال

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه : ويحك يا يزيد ، من ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ من ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ من ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟ ثم : يقول : أيها الناس ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقى حياتكم ؟ من الموت طالبه ، والقبر بيته ، والتراب فراشه ، والدود أنيسه . وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف يكون حاله ؟ ثم يبكى حتى يسقط مغشياً عليه .

وكان عمر بن عبدالعزيز - رضى الله عنه - يجمع العلماء فيتذاكرون الموت ، والقيامة والآخرة ، فيبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وقال الدقاق : من أكثر من ذكر الموت أكرم بثلاثة أشياء : تعجيل التوبة ، وقناعة القلب ، ونشاط العبادة ، ومن نسى الموت عوقب بثلاثة أشياء : تسويف التوبة ، وترك الرضى بالكفاف ، والتكاسل فى العبادة ، فتفكر يا مغرور فى الموت وسكرته ، وصعوبة كأسة ومرارته ، فيا للموت من وعد ما أصدقه ، ومن حاكم ما أعدله ، كفى بالموت مقرحاً للقلوب ومبكياً للعيون ، ومفرقاً للجماعات ، وهادماً للذات ، وقاطعاً للأمنيات ، فهل تفكرت يا ابن آدم فى يوم مصرعك ، وانتقالك من موضعك ، وإذا نقلت من سعة إلى ضيق ، وخانك الصاحب والرفيق ، وهجرك الأخ والصديق ، وأخذت من فراشك ، وغطائك إلى عرى ، وغطوك من بعد لين لحافك بتراب ومدر ، فيا جامع المال ، والمجتهد

فى البنيان ليس لك والله من مال إلا الأكفان ، بل هى والله للخراب والذهاب وجسمك للتراب والمآب . فأين الذى جمعته من المال ؟ فهل أنقذك من الأهوال ؟ كلا بل تركته إلى من لا يحمدك ، وقدمت بأوزارك على من لا يعذرك . ولقد أحسن من قال فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ﴾[1] أى : أطلب فيما أعطاك الله من الدنيا ، الدار الآخرة وهى الجنة ، فإن حق المؤمن أن يصرف الدنيا فيما ينفعه فى الآخرة ، لا فى الطين والماء والتجبر والبغى ، فكأنهم قالوا : لا تنس أنك تترك جميع مالك إلا نصيبك الذى هو الكفن ، ونحو هذا قول الشاعر :

نصيبك مما تجمع الدهر كله رداءان تُلْوى فيهما ، وحنوطُ

وقال آخر :

هى القناعة لا تبغى بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن

﴿ **فصل** ﴾ وقوله ـ ﷺ ـ : « الكيس من دان نفسه »[2] ، دان : حاسب . وقيل ذل . قال أبو عبيدة : دان نفسه : أى : أذلها واستعبدها . يقال : دنته أدينه ، إذا ذللته فيذل نفسه فى عبادة الله ـ سبحانه ـ وتعالى ، عملاً يعدّه لما بعد الموت ، ولقاء الله ـ تعالى ـ ، وكذلك يحاسب نفسه على ما فرط من عمره ، ويستعد لعاقبة أمره ، بصالح عمله ، والتنصل من سالف زلله ، وذكر الله ـ تعالى ـ وطاعته فى جميع أحواله . فهذا هو الزاد ليوم المعاد ، والعاجز ضد الكيس . والكيس : العاقل ، والعاجز : المقصر فى الأمور ، فهو مع تقصيره فى طاعة ربه ، واتباع شهوات نفسه متمن على الله أن يغفر له ، وهذا هو الاغترار فإن الله ـ تعالى ـ أمره ونهاه ، وقال الحسن البصرى : « إن قوماً ألهتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا وما لهم حسنة ويقول أحدهم : إنى أحسن الظن بربى . وكذب لو أحسن الظن لأحسن العمل » وتلا قوله تعالى : ﴿ **وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾[3] .

---

(١) سورة القصص الآية ٧٧

(٢) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ رقم ٢٤٥٩ (كتاب حفة القيامة) باب ذكر الموت : وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .
وفى سنن ابن ماجة (كتاب الزهد) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠ .

(٣) سورة فصلت الآية ٢٣

باب ما يذكر الموت والآخرة ويزهد فى الدنيا

روى مسلم عن أبى هريرة قال : زار النبى ـ ﷺ ـ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال : « استأذنت ربى أن استغفر لها فلم يؤذن لى واستأذنته فى أن أزور قبرها فأذن لى ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت »(١) .

فصل) : زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء ، مختلف فيه للنساء . أما الشوابُّ فحرام عليهن الخروج ، وأما القواعد فمباح لهن ذلك ، وجائز ذلك لجميعهن إذا انفردن بالخروج عن الرجال ، ولا يختلف فى هذا إن شاء الله ـ تعالى ـ وعلى هذا المعنى يكون قوله عليه ـ الصلاة والسلام ـ : « زوروا القبور » عاماً . وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء فلا يجوز ولا يحل ..

وروى عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أنه خرج إلى المقبرة فلما أشرف عليها قال : يا أهل القبور أخبرونا عنكم ، أو نخبركم أما خبر من قبلنا : فالمال قد اقتسم ، والنساء قد تزوجن ، والمساكن قد سكنها قوم غيركم ، ثم قال : أما والله لو استطاعوا لقالوا : لم نر زاداً خيراً من التقوى .

ولقد أحسن أبو العتاهية حيث يقول :

يا عجباً للناس لو فكروا ... وحاسبوا أنفسهم أبصروا
وعبروا الدنيا إلى غيرها ... فإنما الدنيا لهم معبر
لا فخر إلا فخر أهل التقى ... غداً إذا ضمهم المحشر
ليعلمن الناس أن التقى ... والبر كانا خير ما يدخر
عجبت للإنسان فى فخره ... وهو غداً فى قبره يقبر
ما بال من أوله نطفة ... وجيفة آخره يفجر
أصبح لا يملك تقديم ما ... يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره ... فى كل ما يقضى وما يقدر

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب استئذان النبى ـ ﷺ ـ ربه عز وجل ـ فى زيارة قبر أمه ج ٢ ص ٦٧١ رقم ١٠٨ / ٩٧٦ ورد بلفظه عن أبى هريرة .
وفى سنن ابن ماجة (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى زيارة قبور المشركين ج ١ ص ٥٠١ رقم ١٥٧٢ .

علاج قسوة القلب

(فصل) قال العلماء : ـ رحمة الله عليهم ـ : ليس للقلوب أنفع من زيارة القبور ، وخاصة إن كانت قاسية فعلى أصحابها أن يعالجوها بأربعة أمور :

أحدها : الإقلاع عما هى عليه بحضور مجالس العلم بالوعظ والتذكر والتخويف والترغيب ، وأخبار الصالحين ، فإن ذلك مما يلين القلوب وينجع فيها .

الثانى : ذكر الموت فيكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات وميتم البنين ، والبنات كما تقدم فى الباب قبل ، قال العلماء : تذكر الموت يردع عن المعاصى ، ويلين القلب القاسى ، ويذهب الفرح بالدنيا ويهون المصائب فيها .

الثالث : مشاهدة المحتضرين ، فإن فى النظر إلى الميت ومشاهدة سكراته ونزعاته ، وتأمل صورته بعد مماته ، ما يقطع عن النفوس لذاتها ، ويطرد عن القلوب مسراتها ، ويمنع الأجفان عن النوم والأبدان من الراحة ، ويبعث على العمل ، ويزيد فى الاجتهاد والتعب .

فهذه ثلاثة أمور ينبغى لمن قسا قلبه ، ولزمه ذنبه ، أن يستعين بها على دواء دائه ، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وإغوائه ، فإن انتفع بها فذاك ، وإن عظم عليه ران القلب واستحكمت فيه دواعى الذنب ، فزيارة قبور الموتى تبلغ فى دفع ذلك ما لا يبلغه الأول ، والثانى ، والثالث . ولذلك قال : عليه الصلاة والسلام ـ : « زوروا القبور فإنها تذكر الموت والآخرة ، وتزهد فى الدنيا »[1] ، فالأول : سماع بالأذن ، والثانى . إخبار للقلب بما إليه المصير وقائم له مقام التخويف والتحذير فى مشاهدة من احتضر ، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ، فلذلك كانا أبلغ من الأول والثانى . إلا أن لاعتبار بحال المحتضرين غير ممكن فى كل الأوقات . وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه فى ساعة من الساعات ، وأما زيارة القبور : فوجودها أسرع ، والانتفاع بها أليق وأجدر ، فينبغى لمن عزم على الزيارة أن يتأدب بآدابها ، ويحضر قلبه فى إتيانها ، ولا يكون حظه منها الطواف على الأجداث فقط ، فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة ، ونعوذ بالله من ذلك . بل يقصد بزيارته . وجه الله ـ تعالى ـ وإصلاح فساد قلبه ، أو نفع الميت مما يتلوه عنده من القرآن ، ويجتنب المشى على المقابر ، والجلوس عليها إذا دخل المقابر ، ويخلع نعليه كما جاء فى أحاديث ، ويسلم إذا دخل المقابر ، ويخاطبهم خطاب الحاضرين فيقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين »[2] كذلك كان عليه ـ الصلاة والسلام ـ يقول : ـ

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى زيارة القبور ج ١ ص ٥٠٠ ، ٥٠١ رقم ١٥٦٩ ، ١٥٧١ .
(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه كتاب الجنائز (باب ما يقال فى إذ دخل المقابر ج ١ ص ٤٩٣ رقم ١٥٤٦ من رواية عائشة ـ رضى الله عنها ـ

الرابعة : قوله تعالى : ﴿ كلا إذا بلغت التراق ﴾[1]

روى البخارى عن عائشة — رضى الله عنها — : أن رسول الله — ﷺ — كانت بين يديه ركوة ، أو علبة فيها ماء . فجعل يدخل يديه فيمسح بهما وجهه ويقول : « لا إله إلا الله إن للموت سكرات » ثم نصب يديه فجعل يقول : « فى الرفيق الأعلى » حتى قبض ومالت يده[2] .

وروى أبو هدية ابراهيم بن هدية قال : حدثنا أنس بن مالك عن النبى — ﷺ — قال : « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة »[3] .

وفى الخبر من حديث حميد الطويل ، عن أنس بن مالك ، عن النبى — ﷺ — « إن الملائكة تكتنف العبد ، وتحبسه ولولا ذلك لكان يعدو فى الصحارى والبرارى من شدة سكرات الموت »[4] وجاءت الرواية بأن ملك الموت — عليه السلام — إذا تولى الله قبض نفسه بعد موت الخلائق يقول : « وعزتك لو علمت من سكرة الموت ما أعلم ما قبضت نفس مؤمن » ذكره القاضى أبو بكر بن العربى .

(فصل) : قال علماؤنا — رحمة الله عليهم — : فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين والأولياء والمتقين فما لنا عن ذكره مشغولين ؟ وعن الأستعداد له متخلفين ؟ ﴿ قل هو نبأ عظيم . أنتم عنه معرضون ﴾[5] قالوا : وما جرى على الأنبياء — صلوات الله عليهم أجمعين — من شدائد الموت وسكراته ، فله فائدتان .

أحداهما : أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن وقد يطلع الإنسان على بعض الموتى فلا يرى عليه حركة ولا قلقاً ويرى سهولة خروج روحه ، فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت ولا يعرف ما الميت فيه ؟ فلما ذكر الأنبياء الصادقون فى خيرهم : شدة ألمه ، مع كرامتهم على الله — تعالى — وتهوينه على بعضهم ، قطع الخلق بشدة الموت الذى يعانيه ، ويقاسيه الميت مطلقاً لإخبار الصادقين عنه ، ما خلا الشهيد قتيل الكفار على ما يأتى ذكره .

الثانية : وبما خطر لبعض الناس أن هؤلاء : أحباب الله ، وأنبياؤه ورسله ، فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة ؟ وهو — سبحانه — قادر أن يخفف عنهم أجمعين ، كما قال : فى قصة ابراهيم : « أما

---

(١) سورة القيامة الآية ٢٦
(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ١٣٣ (كتاب الرفاق) باب سكرات الموت
(٣) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٧ ص ١٣ (وجاءت سكرة الموت بالحق) سورة (ق)
(٤) الحديث فى اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٢٧١ عن أنس بن مالك .
(٥) سورة (ص) الآيتان ٦٧ ، ٦٨

روى أبو داود ، عن بريدة بن خصيب قال : قال رسول الله ﷺ : « نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإن في زيارتها تذكرة »[١] وذكر النسائي عن بريدة أيضا ، عن النبي ﷺ قال : ﷺ من أراد أن يزور قبرا فليزوره ، ولاتقولوا هُجرا »[٢] بمعنى سوءا ، وذكر أبو عمر من حديث ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « مامن رجل يمر بقبر أخيه المؤمن الذى كان يعرفه فيسلم عليه ، إلا رد عليه السلام »[٣] روى هكذا موقوفا عن ابى هريرة - رضى الله عنه - قال : « فإن لم يعرفه وسلم : رد عليه السلام » .

وروى مسلم عن عائشة رضى الله عنها — قالت : قلت يا رسول الله : كيف أقول : إذا دخلت المقابر ؟ قال : « قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين ، وإنا ، إن شاء الله ، بكم لاحقون »[٤] .

وفى الصحيحين أنه عليه — الصلاة والسلام — مرّ بإمرأة تبكى عند قبر لها فقال لها : « اتقى الله واصبرى »[٥] الحديث

باب ما جاء أن للموت سكرات وفى تسليم الأعضاء بعضها على بعض وفيما يصير الإنسان إليه

وصف الله — سبحانه — وتعالى — شدة الموت فى أربع آيات :

الأولى : قوله الحق : ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ﴾[٦]

الثانية : قوله تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت ﴾[٧]

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم ﴾[٨]

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجه (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى زيارة القبور ج ١ ص ٥٠١ رقم ١٥٧١ .

(٢) الحديث فى سنن النسائى ج ٤ ص ٨٩ (كتاب الجنائز) باب زيارة القبور .

(٣) الحديث فى تاريخ الخطيب ج ٦ ص ١٣٧ رقم ٣١٧٥
وانظر كنز العمال ج ١٥ ص ٦٥٧ رقم ٤٦٠٢

(٤) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند دخول القبور ج ٢ ص ٦٧١ رقم ١٠٣ / ٩٧٤

(٥) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب فى الصبر فعلى المصيبة عند الصدمة الأولى ج ٢ ص ٦٣٧ رقم ١٥ / ٦٢٦ .
وفى صحيح البخارى ج ٩ ص ٨١ (كتاب الأحكام) باب ما ذكر ان النبى ﷺ (لم يكن له بواب) .

(٦) سورة (ق) الآية ١٩

(٧) سورة الأنعام الآية ٩٣

(٨) سورة الواقعة الآية ٨٣

إنا قد هونا عليك » فالجواب : « إن أشد الناس بلاء فى الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل »(١) كما قال نبينا — عليه الصلاة والسلام . خرجه البخارى وغيره ، فأحب الله أن يبتليهم تكميلاً لفضائلهم لديه ، ورفعة لدرجاتهم عنده ، وليس ذلك فى حقهم نقصاً ، ولا عذاباً ، بل هو كمال قال : كمال رفعة ، مع رضاهم بجميل ما يجرى الله عليهم ، فأراد الحق — سبحانه وتعالى — أن يختم لهم بهذه الشدائد ، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم ، ليرفع منازلهم ، ويعظم أجورهم قبل موتهم . كما ابتلى ابراهيم بالنار ، وموسى بالخوف والأسفار ، وعيسى بالصحارى والقفار ، ونبينا محمداً — ﷺ — بالفقر فى الدنيا ومقاتلة الكفار ، كل ذلك لرفعة فى أحوالهم ، وكمال فى درجاتهم ، ولا بفهم من هذا أن الله شدد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخلطين فإن ذلك عقوبة لهم ، ومؤاخذة على إجرامهم فلا نسبة بينه وبين هذا .

باب الموت كفارة لكل مسلم

أخرج أبو نعيم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله — ﷺ — « الموت كفارة لكل مسلم »(٢) ، ذكره القاضى أبو بكر ابن العربى فى سراج المريدين له ، وقال فيه : حديث صحيح حسن .

(فصل) : إنما كان الموت كفارة ، لكل ما يلقاه الميت فى مرضه من الآلام والأوجاع ، وقد قال — ﷺ — : « ما من مسلم يصيبه أذى ، من مرض فما سواه إلا حط الله به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »(٣) . اخرجه مسلم .

وعن زيد بن أسلم : مولى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قال : « إذا بقى على المؤمن من ذنوبه شيء لم يبلغه بعمله شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وشدائده درجته من الجنة ، وإن الكافر إذا كان قد عمل معروفا فى الدنيا ، هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه فى الدنيا ثم : يصير إلى النار » ذكره أبو محمد عبد الحق .

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٢٨ رقم ٢٥٠٩ (أبواب الزهد) من رواية سعد عن أبيه .
— وفى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٣٤ رقم ٤٠٢٣ من رواية سعد بن أبى وقاص (كتاب الفتن) باب الصبر على البلاء .
وفى صحيح البخارى : (كتاب الطب) باب أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأول فالأول من رواية عبد الله ولفظه « الأمثل فالأمثل بهامشه » .
وفى سند الامام أحمد : ج ١ ص ٧٢ عن رواية مصعب بن سعد بن أبى وقاص : بلفظه
(٢) الحديث فى حلية الأولياء ج ٣ ص ١٢١
(٣) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٩١ رقم ٤٥ / ٢٥٧١ (كتاب البر والصلة)

باب لا يموت أحد إلا وهو يحسن بالله الظن وفى الخوف من الله تعالى

روى مسلم عن جابر قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : قبل وفاته بثلاثة أيام : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن »[١] وذكر الترمذى الحكيم عن الحسن أنه قال : بلغنى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : قال ربكم ـ عز وجل ـ : « لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين ، فمن خافنى فى الدنيا ، أمنته فى الآخرة ، ومن أمننى فى الدنيا ، أخفته فى الآخرة »[٢] .

(فصل) : حسن الظن بالله ـ تعالى ـ ، ينبغى أن يكون أغلب على العبد عند الموت منه فى حال الصحة ، وهو أن الله ـ تعالى ـ يرحمه ويتجاوز عنه ، ويغفر له ، وينبغى لجلسائه ، أن يذكروه بذلك حتى يدخل فى قوله تعالى فى الحديث : « أنا عند ظن عبدى بى ، فليظن بى ما يشاء »[٣] .

وقال الفضيل بن عياض : « الخوف أفضل من الرجاء . ما كان العبد صحيحاً فإذا نزل به الموت ، فالرجاء أفضل من الخوف » .

وذكر ابن أبى الدنيا بسنده عن حصين عن إبراهيم قال : « كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند الموت ، حتى يحسن ظنه بربه عز وجل » .

وفى التنزيل قال : ﴿ **ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون** ﴾[٤] .

باب تلقين الميت : لا إله إلا الله

روى مسلم عن أبى سعيد الخدرى : قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « **لقنوا موتاكم لا إله إلا الله** »[٥] .

قال علماؤنا : تلقين الموتى هذه الكلمة سنة مأثورة عمل به المسلمون . وذلك ليكون آخر كلامهم لا إله إلا الله فيختم له بالسعادة ، وليدخل فى عموم قوله ـ عليه السلام ـ « من كان آخر كلامه

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٨٢ / ٢٨٧٧ (كتاب الجنة وصفة نعيمها)

(٢) الحديث فى كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة (كتاب المواعظ) باب الخوف من الله ص ٧٤ .

(٣) الحديث فى المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب التوبة والإنابة » ج ٤ ص ٢٤٠ فقد ورد الحديث بلفظه وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

(٤) سورة الحجر الآية ٥٦

(٥) الحديث فى صحيح مسلم ج ٢ ص ٦٣١ رقم ١ ، ٢ / ٩١٦ (كتاب الجنائز) عن أبى سعيد
ـ وفى سنن أبى داود (كتاب الجنائز) باب فى التلقين ج ٣ ص ٤٨٧ رقم ٣١١٧ من رواية أبى سعيد الخدرى .

لا إله إلا الله دخل الجنة »[١] اخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل ، وصححه أبو محمد عبد الحق ، ولينبه المتحضر على ما يدفع به الشيطان ، فإنه يتعرض للمحتضر ليفسد عقيدته ، (نسأل الله السلامة) .

فإذا تلقنها المحتضر ، وقالها مرة واحدة فلا تعاد عليه لئلا يضجر ، وقد كره أهل العلم الإكثار من التلقين ، والإلحاح عليه إذا هو تلقنها ، أو فهم ذلك عنه . قال أبو محمد عبد الحق : وإنما ذلك لأنه يخاف عليه إذا لُح عليه بها أن يتبّرم ، ويضجر ، ويثقلها الشيطان عليه فيكون سبباً لسوء الخاتمة ، وكذلك أمر ابن المبارك أن يفعل به . قال الحسن بن عيسى : قال : لى ابن المبارك لقنى ـــ يعنى الشهادة ـــ ولا تعد على إلا أن أتكلم بكلام ثان ، والمقصود أن يموت الرجل ، وليس فى قلبه إلا الله ـــ عز وجل ـــ لأن المدار على القلب ، وعمل القلب هو الذى ينظر فيه وتكون النجاة به ، وأما حركة اللسان دون أن تكون ترجمة عما فى القلب فلا فائدة فيها ، ولا عبر عندها .

ولابد من تلقين الميت ، وتذكيره الشهادة ، وإن كان على غاية من التيقظ . فقد ذكر أبو نعيم الحافظ ، من حديث مكحول ، عن وائلة بن الأسقع ، عن النبى ـــ ﷺ ـــ « احضروا موتاكم ولقنوهم : لا إله إلا الله ، وبشروهم بالجنة ، فإن الحكيم من الرجال والنساء يتحير عند ذلك المصرع ، وإن الشيطان أقرب من ابن آدم عند ذلك المصرع والذى نفسى بيده لمعاينة ملك الموت أشد من ألف ضربة بالسيف ، والذى نفسى بيده لا تخرج نفس عبد من الدنيا حتى يتألم كل عضو منه على حياله »[٢] .

باب من حضر الميت فلا يلغو وليتكلم بخير وكيف الدعاء للميت إذا مات وفى تغميضه

روى مسلم عن أم سلمة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : قال : رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « إذا حضرتم المريض ، أو الميت فقولوا : خيراً فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » . قالت : فلما مات أبو سلمة أتيت النبى ـــ ﷺ ـــ فقلت يا رسول الله : إن أبا سلمة قد مات فقال : قولى : « اللهم اغفر لى وله وأعقبنى منه عقبى حسنة »[٣] قالت : فقلت . فأعقبنى الله من هو خير منه رسول الله ـــ ﷺ ـــ

(١) الحديث فى سنن أبى داود ج ٣ ص ٤٨٦ رقم ٣١١٦ (كتاب الجنائز) باب فى التلقين عن معاذ بن جبل .
(٢) الحديث انظر حلية الأولياء ج ٥ ص ١٨٦
(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ج ٢ ص ٦٣٣ رقم ٦ / ٩١٩ ورد بلفظه عن ام سلمه .

وعنها قالت : دخل رسول الله — ﷺ — على أبى سلمة وقد شق بصره فأغمضه ، ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر ، فضج ناس من أهله ، فقال : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون » ثم قال : « اللهم اغفر لأبى سلمة وارفع درجته فى المهديين ، واخلفه فى عقبه فى الغابرين ، واغفر لنا وله يارب العالمين ، وافسح له فى قبره ، ونور له فيه »[(١)] .

(فصل) : قال علماؤنا : قوله : عليه الصلاة والسلام — : « إذا حضرتم المريض أو الميت فقولوا خير »[(٢)] أمر ندب ، وتعليم بما يقال عند المريض ، أو الميت ، واخبار بتأمين الملائكة على دعاء من هناك ولهذا استحب العلماء : أن يحضر الميت الصالحون ، وأهل الخير حالة موته ليذكروه ، ويدعوا له ولمن يخلفه ، ويقولوا خيراً فيجتمع دعاؤهم وتأمين الملائكة فينتفع بذلك الميت ومن يصاب به ، ومن يخلفه .

باب ما جاء فى سوء الخاتمة وما جاء فى أن الأعمال بالخواتيم

روى مسلم عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار ، وإن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له بعمل أهل الجنة »[(٣)] .

وفى البخارى : عن سهل بن سعد ، عن النبى — ﷺ — قال : « إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة ، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار وإنما الأعمال بالخواتيم »[(٤)] .

قال أبو محمد عبد الحق : اعلم أن سوء الخاتمة — أعاذنا الله منها — لا تكون لمن استقام ظاهرة وصلح باطنه ، ما سمع بهذا ولا علم به — والحمد لله — وإنما تكون لمن كان له فساد فى العقل ، أو إصرار على الكبائر ، وإقدام على العظائم . فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة ، ويختطفه عند تلك الدهشة ، والعياذ بالله ، ثم العياذ بالله ، أو يكون ممن كان مستقيماً ، ثم يتغير عن حاله ، ويخرج عن سننه ، ويأخذ فى طريقه ، فيكون ذلك سبباً لسوء خاتمته ، وشؤم عاقبته .

---

(١) الحديث وفى مسلم ج ٢ ص ٦٣٤ رقم ٧ / ٩٢٠ (كتاب الجنائز)

(٢) الحديث فى صحيح مسلم فى رقم ١ فى (كتاب الجنائز) ج ٢ ص ٦٣٣ رقم ٦ / ٩١٩

(٣) الحديث فى مسلم (كتاب القدر) باب القدر ج ٤ ص ٢٠٤٢ رقم ١١ / ٢٦٥١ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٤) الحديث فى البخارى ج ٨ ص ١٥٥ (كتاب القدر) باب العمل بالخواتيم ورد بلفظه عن أبى هريرة .

(قال العلماء) : وإذا كانت الهداية إلى الله مصروفة ، والاستقامة على مشيئته موقوفة ، والعاقبة مغيبة ، والإرادة غير مغالبة ، فلا تعجب بإيمانك وعملك وصلاتك وصومك وجميع قربك ، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك وفضله الدارّ عليك وخيره ، فمهما افتخرت بذلك ، كنت كالمفتخر بمتاع غيره ، وربما سلب عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف البعير ، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم . فأصبحت وزهرها يابس هشيم ، إذ هبت عليها الريح العقيم . كذلك العبد يمسى وقلبه بطاعة الله مشرق سليم ، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم . ذلك فعل العزيز الحكيم الخلاق العليم .

باب ما جاء فى رسل ملك الموت قبل الوفاة

ورد فى الخبر : أن بعض الأنبياء — عليهم السلام — قال لملك الموت — عليه السلام — : أما لك رسول تقدمه بين يديك ليكون الناس على حذر منك ؟ قال : نعم لى والله رسل كثيرة من الإعلال والامراض والشيب والهموم ، وتغير السمع والبصر فإذا لم يتذكر من نزل به ذلك ولم يتب ، فإذا قبضته ناديته : ألم أقدم إليك رسولا بعد رسول ونذيراً بعد نذير ؟ فأنا الرسول الذى ليس بعدى رسول ، وأنا النذير الذى ليس بعدى نذير .. فما من يوم تطلع فيه شمس ، ولا تغرب إلا وملك الموت ينادى : يا أبناء الأربعين ، هذا وقت أخذ الزاد ، أذهانكم حاضرة ، وأعضاؤكم قوية شداد . يا أبناء الخمسين قد دنا وقت الأخذ والحصاد ، ويا أبناء الستين نسيتم العقاب وغفلتم عن رد الجواب فما لكم من نصير ﴿ **أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾[1] . ذكره ابن الجوزى فى كتاب روضة المشتاق ، والطريق إلى الملك الخلاق .

وفى البخارى ، عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « أعذر الله إلى امرىء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة »[2] .

يقال : أعذر فى الأمر أى : بالغ فيه أى : أعذر غاية الأعذار بعبده وأكبر الأعذار إلى بنى آدم بعثة الرسل إليهم ليتم حجته عليهم . ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[3]

وللفقيه أبى عبد الله محمد بن أبى ذمنين — رحمه الله تعالى آمين — :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا ... ونحن فى غفلة عما يداوينا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها ... وإن توشحت من أثوابها الحسنا

(١) سورة فاطر من الآية ٣٧
(٢) الحديث فى صحيح البخارى ج ٨ ص ١١١ كتاب الرقائق ورد الحديث بلفظه .
(٣) الآية سورة الأسراء الآية رقم ١٥

أيــن الأحبــة والجيران مــا فعلــوا ... أيــن الذيــن هــو كانــوا لنــا سكنــا
سقاهــم المــوت كــأساً غير صافيــة ... فصيرهـــم لأطبــاق الثرى رهنـــا

وروى أن ملك الموت دخل على داود ــ عليه السلام ــ فقال : من أنت ؟ فقال : من لا يهاب الملوك ، ولا تمنع منه القصور ، ولا يقبل الرشا ، قال : فإذا أنت ملك الموت قال : نعم قال : اتيتنى ولم أستعد بعد ؟ قال : يا داود أين فلان قريبك ؟ أين فلان جارك ؟ قال : مات ، قال : أما كان لك فى هؤلاء عبرة لتستعد . وقيل : النذير الحمى . ومنه قوله ــ ﷺ ــ : « الحمى نذير الموت »[1] أى : رائد الموت .

قال الأزهرى : معناه أن الحمّى رسول الموت أى : كأنها تشعر بقدومه ، وتنذر بمجيئه ، وقيل : موت الأهل والأقارب والأصحاب والإخوان ، وذلك إنذار الرحيل فى كل وقت وأوان وحين وزمان .

باب لا تخرج روح عبد مؤمن أو كافر حتى يبشر وأنه يصعد بها

أخرج ابن ماجه ، عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عنَ النبى ــ ﷺ ــ قال : « تحضر الملائكة . فإذا كان الرجل صالحاً قالوا : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب .. اخرجى حميدة وأبشرى برَوْح وريحان ورب راض غير غضبان . فلا يزال يقال لها ، ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقولون . فلان بن فلان فيقال : مرحباً بالنفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب . ادخلى حميدة وأبشرى بروح وريحان ورب راض غير غضبان . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تنتهى إلى السماء التى فيها الله تعالى . فإذا كان الرجل السوء قال : اخرجى أيتها النفس الخبيثة ! كانت فى الجسد الخبيث . أخرجى ذميمة وأبشرى بحميم وغساق . وآخر من شكله أزواج . فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء فلا يتفتح لها فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان . فيقال : لا مرحبا بالنفس الخبيثة ، كانت فى الجسد الخبيث . ارجعى ذميمة فإنها لا تفتح لك أبواب السماء فترسل من السماء ثم تصير إلى القبر »[2] . اخرجه عن أبى بكر بن أبى شيبة .

وذكره مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إذا خرجت روح العبد المؤمن تلقاها ملكان يصعدان بها »[3] الحديث .

---

(١) الحديث فى كشف الخفاء ج ١ ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ج ١ / صلب

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجة (كتاب الزهد) باب ذكر الموت والاستعداد له ج ٢ ص ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ رقم ٤٢٦٢ خرجه أبو بكر بن أبى شيبه عن أبى هريرة .

(٣) الحديث وفى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢٢٠٢ رقم ٧٥ / ٢٨٧٢ ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

قال حماد : فذكر من طيب ريحها وذكر المسك : قال : ويقـول أهل السماء . روح طيبة جاءت من قبل الأرض ــ صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه . فينطلق بها إلى ربه ثم يقول : انطلقوا بها إلى آخر الأجل ، وإن الكافر إذا خرجت روحه قال حماد : وذكر من نتنها وذكر لعناً . ويقول : أهل السماء : روح خبيثة جاءت من قبل الأرض . قال : فيقال : انطلقوا بها إلى آخر الاجل قال أبو هريرة : فرد رسول الله ــ ﷺ ــ ربطة كانت عليه على أنفه هكذا .

وروى البخارى ، عن عبادة بن الصامت ، عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، فقالت عائشة ــ أو بعض أزواجه : انا لنكره الموت فقال : « ليس ذاك ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشر برضوان الله وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا حضره الموت بُشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما أمامه فكره لقاء الله وكره الله لقاءه »[1] اخرجه مسلم وابن ماجه من حديث عائشة وابن المبارك من حديث أنس بن مالك .

وخرج الترمذى فى أبواب القدر عن أنس قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً استعمله ، فقيل : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت »[2] قال أبو عيسى هذا حديث صحيح .

وعن قتادة : فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **روح وريحان** ﴾ قال : الروح : الرحمة ، والريحان : تتلقاه به الملائكة عند الموت .

باب ما جاء فى كيفية التوفى للموتى ؟ واختلاف أحوالهم فى ذلك

ذكر الله تعالى : التوفى فى كتابه مجملاً ومفصلاً : فقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة طيبين** ﴾[3]

وقال : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** ﴾[4] ، وقال : ﴿ **توفته رسلنا وهم**

---

(١) الحديث فى البخارى (كتاب الإيمان) ج ٢ ص ١٣٥ طبعه دار السعادة فى هدايه البارى لترتيب أحاديث البخارى بلفظه . ــ وانظر صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) باب من أحب لقاء الله .

(٢) أحب الله لقاءه ج ٤ ص ٢٠٦٥ ، ٢٠٦٦ حديث رقم ١٥ / ٢٦٨٤ ، فعد ورد الحديث بلفظه من رواية عائشة .

الحديث فى سنن الترمذى : أبواب القدر باب ما جاء إن الله كتب كتابا لأهل الجنة وأهل النها ج ٣ ص ٣٠٥ رقم ٢٢٢٩ عن أنس وورد الحديث بلفظه وقال : هذا حديث صحيح .

(٣) الآية سورة النحل من الآية ٣٢

(٤) سورة المسجد من الآية ١١

لا يفرطون ﴾[١] ، وقال : ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم** ﴾[٢] فهذا كله مجمل ، وقد بينه رسول الله — ﷺ — على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وقال : ﴿ **ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾[٧] ، وقال : ﴿ **فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم** ﴾[٨] وهذا مخصوص بمن قتل من الكفار يوم بدر بإتفاق أهل التأويل ، فيما قاله : بعض علمائنا ، وقد ذكر المهدوى وغيره : فى ذلك اختلافا ، وأن الكفار حتى الآن يتوفون بالضرب ، والهوان والله أعلم .

فصل : إن قال : قائل : كيف : الجمع بين هذه الآى وكيف : يقبض ملك الموت فى زمن واحد أرواح من يموت بالمشرق والمغرب ؟ قيل له : اعلم أن التوفى مأخوذ من توفيت الذين ولستوفيته إذا قبضته ولم يدع منه شيئاً ، فتارة يضاف إلى ملك الموت لمباشرته ذلك ، وتارة إلى أعوانه من الملائكة ، لأنهم قد يتولون ذلك أيضا ، وتارة إلى الله — تعالى — وهو المتوفى على الحقيقة كما قال سبحانه : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها** ﴾[٥] ، وقال ﴿ **وهو الذى أحياكم ثم يميتكم** ﴾[٦] ، وقال : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم** ﴾[٤] فكل مأمور من الملائكة فإنما يفعل ما يفعل بأمره .

وقال الكلبى : يقبض ملك الموت الروح من الجسد ، ثم يسلمها إلى ملائكة الرحمة إن كان مؤمنا ، وإلى ملائكة العذاب إن كان كافراً ، وهذا المعنى منصوص فى حديث البراء ، وسيأتى ان شاء الله .

باب ما جاء إن ملك الموت — عليه السلام — هو القابض لأرواح الخلق وانه يقف على كل بيت فى كل يوم خمس مرات

قال الله تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** ﴾

وروى جعفر بن محمد ، عن أبيه قال : نظر رسول الله — ﷺ — إلى ملك الموت عند رأس رجل من الأنصار فقال : له النبى — ﷺ — : « إرفق بصاحبى فإنه مؤمن »[٨] فقال : ملك

(١) سورة الأنعام من الآية ٦١
(٢) سورة النحل من الآية ٢٨
(٣) **سورة الأنفال الآية ٥٠**
(٤) سورة (محمد) من آية ٢٧
(٥) سورة الزمر من الآية ٤٢
(٦) سورة الحج من الآية ٦٦
(٧) سورة الملك من الآية ٢
(٨) الحديث فى تفسير القرطبى ج ١٤ ص ٩٣ عن رواية جعفر بن محمد عن أبيه ورد هذا الحديث بلفظه (تفسير سورة السجدة) فى قوله تعالى : ﴿ **قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم** ﴾ .

الموت — عليه السلام —: يا محمد طب نفسا، وقر عينا فإنى بكل مؤمن رفيق، واعلم أن ما من أهل بيت مدر ولا شعر فى بر ولا بحر، إلا وأنا أتصفحهم فى كل يوم خمس مرات حتى لأنا أعرف بصغيرهم، وكبيرهم منهم لأنفسهم، والله يا محمد لو أنى أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الآمر بقبضها.

قال جعفر بن محمد: بلغنى أنه يتصفحهم عند مواقيت الصلاة ذكره الماوردى.

قال الشيخ المؤلف — رحمه الله — وفى هذا الخبر ما يدل على أن ملك الموت هو الموكل بقبض كل ذى روح، وأن تصرفه كله بأمر الله — عز وجل — وبخلقه واختراعه.

باب ما يتبع الميت إلى قبره، وبعد موته وما يبقى معه فيه

روى مسلم عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «يتبع الميت ثلاث. فيرجع اثنان ويبقى واحد: يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله»[(١)].

وقال اسماعيل بن رافع: ما من ذى رحم أوصل لذى رحمه، من رجل أتبع ذا رحم بحج أو عتق أو صدقة.

باب ما جاء فى هول المطلع

قال أبو الدرداء — رضى الله عنه —: «أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث: أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه لا يدرى أأرضى الله أم أسخطه؟ وأبكانى ثلاث: فراق الأحبة محمد — ﷺ — وحزبه، وأحزننى هول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين يدى الله يوم تبدو السريرة علانية ثم لا يدرى إلى الجنة أو إلى النار» أخرجه ابن المبارك.

قال وأخبرنا محمد، بلغ به أنس بن مالك قال: ألا أحدثكم بيومين وليليتين لم تسمع الخلائق بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله — تعالى — إما برضاه، وإما بسخطه، ويوم تعرض فيه على ربك آخذاً كتابك، إما بيمينك وإما بشمالك. وليلة تستأنف فيها المبيت فى القبور ولم تبت فيها قط. وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة.

---

(١) الحديث فى مسلم «كتاب الزهد والرقائق) ج ٤ ص ٢٢٧٣ حديث رقم ٥ / ٢٩٦٠ فقد الحديث بلفظه من رواية لأنس.

باب ما جاء أن القبر أول منازل الآخرة وفى البكاء عنده ، وفى حكمه والاستعداد له

روى ابن ماجه عن هانىء بن عثمان قال : كان عثمان ـــ رضى الله عنه ـــ إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له . تذكر الجنة والنار ولا تبكى ، وتبكى من هذا ؟ قال : إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « إن القبر أول منازل الآخرة . فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه » . قال ما رأيت منظراً قط إلا ، والقبر أفظع منه »[١] .

وروى ابن ماجه عن البراء ، قال : كنا مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى جنازة . فجلس على شفير القبر فبكى وأبكى حتى بلّ الثرى ثم قال : « يا إخوانى لمثل هذا فأعدوا »[٢] .

وروى مسلم عن جابر ، قال : نهى رسول الله ـــ ﷺ ـــ « أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه »[٣] .

قال علماؤنا ـــ رحمهم ـــ : وكره مالك تجصيص القبور ، لأن ذلك من المباهاة وزينة الحياة الدنيا ، وتلك منازل الآخرة ، وليس بموضع المباهاة ، وإنما يزين الميت فى قبره عمله . وأنشدوا :

وإذا وليت أمور قوم ليلة ... فاعلم بأنك بعدها مسؤول
وإذا حُملت إلى القبور جنازة ... فأعلم بأنك بعدها محمول
يا صاحب القبر المنقشِ سطحُه ... ولعله من تحته مغلول

وفى صحيح سلم ، عن أبى الهياج الأسدى ، قال : قال لى على بن أبى طالب ـــ رضى الله عنه ـــ : ألا أبعثك على ما بعثنى عليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ ألا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفا إلا سويته .[٤]

وقال أبو داود فى المراسيل ، عن عاصم بن أبى صالح : رأيت قبر النبى ـــ ﷺ ـــ شبراً ، أو نحواً من شبر ، يعنى : فى الارتفاع .

---

(١) الحديث فى سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢٦ كتاب الزهد ـــ باب ذكر القبر والبلى

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٤٠٣ رقم ٤٩١٥ عن البراء

(٣) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب النهى عن تجصيص القبر والبناء عليه فقد ورد الحديث بلفظه عن جابر ج ٢ ص ٦٦٧ حديث رقم ٩٤ / ٩٧٠

(٤) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب الجنائز) باب الأمر بتسوية القبر ج ٢ ص ٦٦٦ حديث رقم ٩٣ / ٩٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى الهياج الأسرى .

قال علماؤنا : — رحمة الله عليهم — يسنم القبر ليعرف كى يحترم ويمنع من الارتفاع الكثير الذى كانت الجاهلية تفعله ، فإنها كانت تعلى عليها . وتبنى فوقها تفخيماً لها وتعظيماً ، وأنشدوا :

أرى أهل القصور إذا أميتوا بنوا فوق المقابر بالصخور
أبنوا إلا مباهاة وفخراً على الفقراء حتى فى القبور
لعمرك لو كشفت الترب عنهم فما تدرى الغنى من الفقير
ولا الجلد المباشر ثوب صوف من الجلد المباشر للحرير
إذا أكل الثرى هذا وهذا فما فضل الغنى على الفقير ؟

يا هذا ، أين الذى جمعته من الأموال ، وأعددته للشدائد والأهوال ، لقد أصبحت كفك منه عند الموت خالية صفراً ، وبدلت من بعد غناك ، وعزك ذلاً وفقراً ، فكيف أصبحت يا رهين أوزاره ويا من سلب من أهله ودياره ؟ ما كان أخفى عليك سبيل الرشاد ، وأقل اهتمامك لحمل الزاد ، إلى سفرك البعيد ، وموقفك الصعب الشديد ، أو ما علمت يا مغرور : أن لابد من الارتحال ، إلى يوم شديد الأهوال ، وليس ينفعك ثم قيل ولا قال ، بل يعد عليك بين يدى الملك الديان ، ما بطشت اليدان ، ومشت القدمان ، ونطق به اللسان ، وعملت الجوارح والأركان ، فإن رحمك فإلى الجنان ، وإن كانت الأخرى فإلى النيران ، يا غافلاً عن هذه الأحوال . إلى كم هذه الغفلة والتوان ، أتحسب أن الأمر صغير ، وتزعم أن الخطب يسير ؟ وتظن أن سينفعك حالك ، إذ آن إرتحالك ، أو ينقذك مالك ، حين توبقك أعمالك ، أو يغنى عنك ندمك ، إذ زلت بك قدمك أو يعطف عليك معشرك ، حين يضمك محشرك ، كلا والله ساء ماتتوهم ، ولابد لك أن ستعلم . لا بالكفاف تقنع ، ولا من الحرام تشبع ، ولا للعظات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع دأبك أن تنقلب مع الأهواء ، وتخبط خبط العشواء ، يعجبك التكاثر بما لديك ولا تذكر ما بين يديك ، يا نائماً فى غفلة وفى خبطه يقظان ، إلى كم هذه الغفلة والتوان أتزعم أن ستترك سدى ، وأن لا تحاسب غداً ، أم تحسب أن الموت يقبل الرشا ، أم تميز بين الأشد والرشا ، كلا والله لن يدفع عن الموت مال ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى وحقق ما ادعى ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الفائز من ارعوى ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى** ﴾[1] فانتبه من هذه الرقدة واجعل العمل الصالح لك عدة ، ولا تتمن منازل الأبرار ، وأنت مقيم على الأوزار عامل بعمل الفجار ، بل أكثر من الأعمال الصالحات ، وراقب الله فى الخلوات ، رب الأرض والسموات ، ولا يغرنك الأمل ، فتزهد عن العمل ، أو ما سمعت الرسول حيث يقول : « لما جلس على القبور . يا أخوانى ، لمثل هذا فأعدوا »[2] أو ما سمعت الذى

---

(١) سورة النجم الآيتان ٣٩ ، ٤٠

(٢) الحديث فى سنن ابن ماجة (كتاب الزهد) ج ٢ ص ١٤٠٣ رقم ٤١٩٥

خلقك فسواك يقول : ﴿ وتزودوا ، فإن خير الزاد التقوى ﴾[1] .

وأنشدوا :

تزود من معاشك للمعاد وقم لله وأعمل خير زاد
ولا تجمع من الدنيا كثيرا فإن المال يجمع للنفاد
أترضى أن تكون رفيق قوم لهم زاد وأنت بغير زاد

وقال آخر :

ولدتك أمك يابن آدم باكياً والقوم حولك يضحكون سروراً
فأمل ليوم أن تكون إذا بكوا فى يوم موتك ضاحكاً مسروراً

وروى عن محمد القرشى أنه قال : سمعت شيخنا يقول : أيها الناس : إنى لكم ناصح ، وعليكم شفيق ، فاعملوا فى ظلمة الليل لظلمة القبور ، وصوموا فى الحر قبل يوم النشور ، وحجوا يحط عنكم عظائم الأمور ، وتصدقوا مخافة يوم عسير .

باب ذكر حديث البراء المشهور الجامع لأحوال الموتى عند قبض أرواحهم وفى قبورهم

أخرجه أبو داود الطيالسى ، وعند بن حميد فى مسنديهما ، وعلى بن معبد فى كتاب الطاعة والمعصية ، وهناد بن السرى فى زهده . وأحمد بن حنبل فى مسنده وغيرهم .. وحديث أبى عوانه أتمهما قال البراء : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ، ولما يلحد ، فجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير » قال عمر بن ثابت : (وقع) ولم يقله أبو عوانة ، فجعل يرفع بصره ، وينظر إلى السماء ، ويخفض بصره ، وينظر إلى الأرض ، ثم قال : « أعوذ بالله من عذاب القبر » قالها مراراً ثم : قال : « إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا ، جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فيقول اخرجى أيتها النفس الطيبة إلى مغفرة من الله ، ورضوان فتخرج نفسه فتسيل كما يسيل قطر السقا » قال : عمرو فى حديثه : ولم يقله أبو عوانه « وإن كنتم ترون غير ذلك . وتنزل ملائكة من الجنة بيض الوجوه ، كأن وجوههم الشمس معهم أكفان من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها فى يده طرفة عين » قال : فلذلك قوله تعالى : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ قال :

---

(١) سورة البقرة من الآية ١٩٧

فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت ، فتعرج الملائكة فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا : ما هذه الروح ؟ فيقال : فلان ، بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به أبواب سماء الدنيا فيفتح له ، ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة ، فيقال : اكتبوا كتابه فى عليين **﴿ وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾** فيكتب كتابه فى عليين ثم يقال : ردوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ، ومنها نخرجهم تارة أخرى ، قال : فيرد إلى الأرض ، وتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه ، فيقولان من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ، ودينى الإسلام ، فيقولان : فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله فيقولان : وما يدريك ؟ فيقول : جاءنا بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت قال : وذلك قوله تعالى : **﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ﴾** قال : وينادى منادى السماء أن قد صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وأروه منزله منها ويفسح له مد بصره ، ويمثل عمله له فى صورة رجل حسن الوجه : طيب الرائحة ، حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم فيقول : بشرك الله بخير ، من أنت فوجهك الوجه الذى جاء بالخير ؟ فيقول : هذا يومك الذى كنت توعد ، أو الأمر الذى كنت توعد أنا عملك الصالح فو الله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً . فيقول : يارب أقم الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى .. قال : « فإن كان فاجراً وكان فى إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة جاء ملك الموت فجلس عند رأسه فقال : أخرجى أيتها النفس الخبيثة ، أبشرى بسخط من الله وغضبه فتنزل الملائكة سود الوجوه معهم مسوح من نار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين ، قال : فتفرق فى جسده فيستخرجها ، تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبتل ، فتؤخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت ، فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض ، إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى سماء الدنيا فلا يفتح لهم فيقولون ردوه إلى الأرض إنى وعدتهم انى منها خلقتهم وفيها نعيدهم ومنها نخرجهم تارة أخرى قال : فيرمى به من السماء قال وتلا هذه الآية : **﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾** قال : فيعاد إلى الأرض وتعاد فيه روحه ، ويأتيه ملكان شديداً الانتهار فينهرانه ، ويجلسانه ، فيقولان : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدرى ، فيقولان فما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه فيُقال محمد ، فيقول : لا أدرى سمعت الناس يقولون ذلك قال : فيقال : لا دريت ، فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ، ويمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح ، قبيح الثياب ، فيقول : أبشر بعذاب الله وسخطه ، فيقول : من أنت فوجهك الذى جاء بالشر ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث فو الله ما علمتك إلا كنت بطيئاً عن طاعة الله سريعاً إلى معصية الله ، قال عمرو فى حديثه عن المنهال

عن زادان عن البراء عن النبى — ﷺ — : « فيقيّض له أصم أبكم بيده مرزبة لو ضرب بها جبل صار تراباً » ، أو قال : رميماً فيضربه به ضربة تسمعه الخلائق إلا الثقلين ، ثم تعاد فيه الروح فيضرب ضربة أخرى »[1] ، وفى رواية على بن معبد ثم يقال : افرشوا له لو حين من نار ، وافتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار ، ويفتح له باب إلى النار » . أ هـ .

الموت بحر طافح موجه تذهب فيه حيلة السابح
يا نفس إنى قائل فاسمعى مقالة من مشفق ناصح
لا ينفع الإنسان فى قبره غير التقى والعمل الصالح

قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور ، ذلك يوم الوعيد ، وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءَك فبصرك اليوم حديد** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور** ﴾ وهى : النفخة الآخرة للبعث ، ﴿ **ذلك يوم الوعيد** ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾ ، قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : سائق : يسوقها إلى الله تعالى ، وشاهد يشهد عليها بما عملت ، وقال مطرف عن أبى جعفر مولى أشجع عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال السائق الملك **والشهيد** العمل . وقال ابن جرير « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » ، أى : ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله وهذا هو الظاهر من الآية الكريمة .

وقوله تعالى : ﴿ **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾ ، أى : لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة عن هذا الذى عانيت من الأهوال والشدائد ، فجلينا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاينته فزالت عنك هذه الغفلة . ﴿ **فبصرك اليوم حديد** ﴾ أى : قوى نافذ يرى ما كان محجوباً عنه . وقال مجاهد : ﴿ **فبصرك اليوم حديد** ﴾ يعنى : نظرك إلى لسان ميزانك حين

---

(١) الحديث انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ فقد ورد الحديث عن البرار بن عازب وهو حديث طويل وهو مختلف فى ترتيب جملة عما هو مدون هنا مع الاتحاد فى المعنى والمراد .
وانظر مسند أبى داود الطيالسى ج ٣ ص ١٠٢ حديث رقم ٧٥٣ الحديث الطويل المروى عن أبى عوانه .
(٢) سورة (يس) الآيات ٥١ — ٥٣

توزن سيئاتك وحسناتك . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً** ﴾[١] .

النفخ فى الصور

قال القرطبى ــ رحمه الله ــ :

« قال : علماؤنا ــ رحمهم الله ــ فالنفخ فى الصور إنما هو سبب لخروج أهل القبور وغيرهم ، فيعيد الله الرفات من أبدان الأموات ويجمع ما تفرق منها فى البحار وبطون السباع وغيرها ، حتى تصير كهيئاتها الأولى ، ثم يجعل فيها الأرواح فتقوم الناس كلهم أحياء .

اخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : جاء أعْرابى إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال : « ما الصور ؟ قال : قرن ينفخ فيه »[٢] قال هذا حديث حسن .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « وكيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنا الجبهة ، وأصغى السمع ينتظر متى يؤمر بالنفخ » ؟ فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى ــ ﷺ ــ فقال : لهم : قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل »[٣] قال حديث حسن .

ومعنى التقم أى وضع طرفه فى فمه

وأخرج أبو داود الطيالسى ، والبيهقى ، وغيرهما ، عن أبى رزين العقيلى قال : قلت : يا رسول الله : كيف يعيد الله الخلق ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال : « أما مررت بوادى قومك جدباً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ قال : نعم قال : « فتلك آية الله فى خلقه »[٤] .

وهذا الحديث : موافق لقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى**

---

(١) سورة النبأ من الآية ٤٠

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (أبواب صفة القيامة ــ باب ما جاء فى الصوز ج ٤ ص ٤١ حديث رقم ٢٥٤٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو بن العاص . وقال حديث حسن صحيح .

(٣) الحديث فى سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة باب ما جاء فى الصور ج ٤ ص ٤٢ حديث رقم ٢٥٤٨ فقد ورد الحديث من رواية أبى سعيد ولفظه : وكيف انعم وصاحب القرن قد التقم القرن واستمع الإذن متى يؤمَرُ بالنفخ فينفخ ، فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبى ــ ﷺ ــ فقال لهم : « قولو حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن .

وقد روى من غير هذا وجه هذا الحديث عن عطية عن أبى سعيد عن النبى ــ ﷺ ــ نحوه .

(٤) الحديث فى مسند أبى داود الذيالس ج ٤ ص ١٤٧ . من رواية أبى رزين العقيلى .

وانظر مسند أحمد ج ٤ ص ١١ ، ١٢ فقد وردت أحاديث متعددة بهذا المعنى .

لعلكم تذكرون ﴾[١] ، وقوله تعالى : **﴿ والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور ﴾**[٢] والآيات فى هذا المعنى كثيرة .

باب : يبعث كل عبد على ما مات عليه

روى مسلم : عن جابر بن عبد الله ، قال : سمعت النبى ـ ﷺ ـ يقول : « يبعث كل عبد على ما مات عليه »[٣] .

وروى البخارى عن عبد الله ، بن عمر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ، ثم بعثوا على أعمالهم »[٤] .

وروى مالك عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « والذى نفسى بيده لا يُكْلَم أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يُكلَم فى سبيله ، إلا جاء يوم القيامة ، وجرحه يثعب دماً اللون لون الدم ، والعرف عرف المسك »[٥] واخرجه أيضا البخارى ومسلم .

وروى أبو هديه ابراهيم بن هديه : حدثنا أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : من مات سكران فإنه يعاين ملك الموت سكران ، ويعاين منكراً ونكيراً سكران ويبعث يوم القيامة سكران إلى خندق فى سوط جهنم يسمى السكران ، فيه عين يجرى ماؤها دماً ، لا يكون له طعام ولا شراب إلا منه » .

وروى مسلم عن ابن عباس أن رجلاً كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ محرماً فوقصته ناقته فمات فقال رسول الله ـ ﷺ ـ « اغسلوه بماء وسدر ، وكفنوه فى ثوبه ، ولا تمسوه بطيب ، ولا تخمروا رأسه ، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً » واخرجه البخارى أيضا .

قوله تعالى : **﴿ وقال قرينه هذا ما لدى عتيد ، ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله إلهاً آخر فالقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدى وقد قدمت إليكم بالوعيد . ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد ﴾** .

---

(١) سورة الاعراف الآية ٥٧

(٢) سورة فاطر الآية ٩

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٨٣ / ٢٨٧٨ .

(٤) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢٢٠٦ رقم ٨٤ / ٢٨٧٩ ـ وفى البخارى (كتاب الفتن) باب إذا أنزل الله بقوم عذاباً ـ ج ٩ ص ٧١ .

(٥) الحديث : وفى الموطأ للإمام مالك ج ٢ ص ٤٦١ عن أبى هريرة بلفظه (كتاب الجهاد) وباب الشهداء فى سبيل الله .
والحديث فى البخارى (كتاب الجهاد) باب من يجرح فى سبيل الله ـ عز وجل ـ ج ٤ ص ٢٢ عن أبى هريرة .
والحديث فى مسلم (كتاب الامارة) باب ـ فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله ج ٣ ص ١٩٩٦ رقم ١٠٣ ، ١٠٥ / ١٨٧٦

قال ابن القيم ــ رحمه الله ــ فى هذه الآيات : أخبر سبحانه أنه قرينه ، وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة ، يكتب عمله وقوله ، يقول لما يحضره ! هذا الذى كنت وكلتنى به فى الدنيا قد أحضرته وأتيتك به ، هذا قول مجاهد ، وقال ابن قتيبة : المعنى : هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندى والتحقيق أن الآية : تتضمن الأمرين ، أى : هذا الشخص الذى وكلت به ، وهذا عمله الذى أحصيته عليه فحينئذ يقال : ﴿ ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذى جعل مع الله ألهاً آخر فالقياه فى العذاب الشديد ﴾ وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد ، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً ، وهو مذهب معروف من مذاهب العرب فى خطابها ، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة ثم أجرى الوصل مجرى الوقف ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

أحدها : أنه كفار لنعم الله وحقوقه ، كفار برسله وملائكته ، كفار بكتبه ولقائه .

الثانية : أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً .

الثالثة : أنه مناع للخير ، وهذا يعم منعه للخير الذى هو احسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله ، والخير الذى هو احسان إلى الناس ؛ فليس فيه خير لنفسه ولا لبنى جنسه كما هو حال أكثر الخلق .

الرابعة : أنه مع منعه للخير ، معتد على الناس ، ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه .

الخامسة : أنه مريب ، أى : صاحب ريب وشك ، ومع هذا فهو آت لكل ريبة .

السادسة : أنه مع ذلك مشرك بالله ، قد اتخذ مع الله آلهاً آخر يعبده ، ويحبه . ويغضب له ، ويرضى له ، ويحلف باسمه ، وينذر له ، ويوالى فيه ، ويعادى فيه : فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه ، وأنه هو الذى أطغاه أضله . فيقول قرينه : لم يكن لى قوة أن أضله وأطغيه ولكن كان فى ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق ، كما قال إبليس لأهل النار : ﴿ وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ﴾[1] .

وعلى هذا ، فالقرين هنا فى قوله تعالى : ﴿ قال قرينه ربنا ما اطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾ هو شيطانه يختصمان عند الله .

وقالت طائفة : بل قرينه ههنا هو : الملك فيدعى عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى . وأنه لم يفعل ذلك كله ، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب ، فيقول الملك : ما زدت فى الكتابة على ما عمل ولا أعجلته عن التوبة ، ﴿ ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾ فيقول : الرب تعالى : ﴿ لا تختصموا لدى ﴾ ، وقد أخبر ــ سبحانه ــ عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه فى سورتى

(١) سورة ابراهيم من الآية ٢٢

الصافات والأعراف ، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه فى سورة الزمر ، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها فى سورة (الشعراء) وسورة (ص) .

ثم أخبر — سبحانه — أنه لا يبدل القول لديه ، فقيل : المراد بذلك قوله : ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾[1] ووعده لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا تخلف . قال ابن عباس : يريد ما لوعدى خلف لأهل طاعتى ولا أهل معصيتى . قال مجاهد : قد قضيت ما أنا قاض . وهذا أصح القولين فى الآية .. وقوله تعالى : ﴿ **وما أنا بظلام للعبيد** ﴾ من تمام قوله : ﴿ **ما يبدل القول لدى** ﴾ فى المعنى ، أى : ما قلته ووعدت به لابد من فعله . ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور .

قوله تعالى : ﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت ونقول هل من مزيد ، وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ۝ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ۝ ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ۝ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

يخبر — تعالى — أنه يقول لجهنم يوم القيامة : هل امتلأت ؟ وذلك لأنه — تبارك وتعالى — وعدها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين ، فهو — سبحانه — وتعالى — يأمر بمن يأمر به إليها ، ويلقى وهى تقول : هل من مزيد : أى : هل بقى شىء تزيدنى ؟ قال ابن كثير هذا هو الظاهر من سياق الآية ، وعليه تدل الأحاديث . قال البخارى : عند تفسير هذه الآية : بسنده عن أنس بن مالك ، رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — « يلقى فى النار وتقول هل من مزيد ؟ يضع قدمه فيها فتقول قط قط »[2] .

وهناك طريق آخر للحديث قال البخارى : بسنده عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « تحاجّت الجنة والنار ، فقالت : النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : ما لى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم قال الله : — عز وجل — للجنة : أنت رحمتى ، أرحم بك من أشاء من عبادى ، وقال للنار : إنما أنت عذاب ، أعذب بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ، ملؤها ، فأما النار فلا تمتلىء حتى يضع رجله ، فتقول : قط قط فهنالك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله — عز وجل — من خلقه أحداً ، وأما الجنة فإن الله — عز وجل — ينشىء لها خلقاً آخر ﴾[3] . وكذلك عند الإمام مسلم وأحمد ، وقال : الحافظ أبو يعلى فى

---

(١) سورة السجدة من الآية ١٣

(٢) انظر الحديث فى صحيح البخارى تفسير سورة « ق » ج ٦ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس .

(٣) الحديث : انظر صحيح البخارى تفسير سورة « ق » ج ٦ ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

— وفى صحيح مسلم (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء رقم ٣٤ / ٢٨٤٦ ورد الحديث عن أبى هريرة .

— وفى سند الامام أحمد ج ٢ ص ٣١٤ ورد الحديث بلفظه .

مسنده : عن أبى بن كعب ـــ رضى الله ، عنه قال : أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « يعرفنى ﷺ ـــ تعالى ـــ نفسه يوم القيامة ، فأسجد سجدة يرضى بها عنى ، ثم أمدحه مدحة يرضى بها عنى ، ثم يؤذن لى فى الكلام ، ثم تمر أمتى على الصراط ـــ مضروب بين ظهرانى جهنم ، فيمرون أسرع من الطرف والسهم ، وأسرع من أجود الخيل ، حتى يخرج الرجل منها يحبو ، وهى الأعمال . وجهنم تسأل المزيد ، حتى يضع فيها قدمه ، فينزوى بعضها إلى بعض وتقول : قط قط ، وأنا على الحوض » : قيل : وما الحوض يا رسول الله ؟ قال ـــ ﷺ ـــ : « والذى نفسى بيده ، إن شرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل ، وأبرد من الثلج ، وأطيب ريحاً من المسك ، وآنيته أكثر من عدد النجوم ، لا يشرب منه إنسان فيظمأ أبداً ، ولا يصرف فيروى أبداً »[1] .

وهذا القول : هو اختيار ابن جرير ، وقد قال : ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ فى قوله تعالى : ﴿ **يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد** ﴾ قال : ما امتلأت قال : تقول : وهل فىَّ من مكان يزاد فىَّ . وكذا رواه الحكم بن أبان عن إعكرمة . ﴿ **وتقول هل من مزيد** ﴾ ، وهل فىَّ مدخل واحد ، قد امتلأت .

وكذا روى عن مجاهد وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فعند هؤلاء أن قوله تعالى : ﴿ **هل امتلأت** ﴾ إنما هو بعد ما يضع قدمه عليها قدمه ، فتنزوى وتقول : حينئذ : هل بقى فىَّ ﴿ **مزيد** ﴾ يسع شيئاً ؟ قال العوفى : عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ وذلك حين لا يبقى فيها موضع يسع إبرة . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد** ﴾ أى : وادنيت وقربت الجنة وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة وكل ما هو آت قريب كقوله تعالى : ﴿ **وإذا الجنة أزلفت** ﴾[2] ، وكقوله تعالى : ﴿ **وأزلفت الجنة للمتقين** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد** ﴾ .

قال ابن القيم : ـــ رحمة الله ـــ : أخبر عن تقريب الجنة للمتقين ، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

---

(١) سورة التكوير الآية ١٣

(٢) الحديث فى سند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠٧

وفى الدر المنثور فى التفسير ج ٧ ص ٦٠٣ فى تفسير سورة « ق » عن أبى بن كعب .

وانظر ابن كثير تفسير سورة « ق » ج ٧ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ ط / الشعب

وانظر كنز العمال ج ١٤ ص ٤٣٦ (باب الشفاعة) رقم ٣٩١٩٦ .

أحدها : أن يكون أوّاباً ، أى : رجَّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته ، ومن الغفلة إلى ذكره قال عبيد بن عمير : الآواب الذى يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها ، وقال سعيد بن المسيب : هو الذى يذنب ، ثم يتوب ، ثم يذنب ، ثم يتوب .

الثانية : أن يكون حفيظاً ، قال ابن عباس : لما ائتمنه الله عليه وافترضه ، وقال قتادة : حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته ، ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الإمساك كان الآواب مستعملا لقوة الطلب فى رجوعه إلى الله ومرضاته ، وطاعته ، والحفيظ مستعملاً : الممسك نفسه عما حرم عليه ، والآواب : المقبل على الله بطاعته .

الثالثة : قوله : ﴿ من خشى الرحمن بالغيب ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته ، وقدرته ، وعلمه ، واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ، ويتضمن الاقرار بكتبه ورسله ، وأمره ونهيه ، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ، ولقائه فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله : ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ قال ابن عباس : راجع عن معاصى الله ، مقبل على طاعة الله ، وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والاقبال عليه ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله تعالى : ﴿ ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ﴾ . أى : وتقول لهم الملائكة تكرمة لهم · ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أى : الذى لا موت بعده ولا ظعن ولا رحيل . وقوله : ﴿ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ أى : لهم إجابة لسؤالهم كل ما يشتهون ، ثم نزيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدر بخلدهم . كقوله تعالى : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[2] .

روى مسلم فى صحيحه من حديث صهيب : قال : قرأ رسول الله ــ ﷺ ــ (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى مناد : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعداً ويريد أن ينجز كموه ، فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ويزحزحنا من النار ؟ ! فيكشف الحجاب ، فينظرون الله فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة)[3] فالحسنى : هى الجنة ، والزيادة : النظر إلى وجه الله ــ عز وجل ــ كذلك فسرها رسول الله ــ ﷺ .

---

(١) سورة (يس) الآية ٥٨

(٢) سورة (يونس) الآية ٢٦

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الايمان) باب اثبات رؤية المؤمنين فى الاخرة ربهم سبحانه وتعالى ــ ج ١ ص ١٦٣ رقم ٢٩٧ / ١٨١ عن صهيب .

وعن أنس — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن فى الجنة سوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال ، فتحشو فى وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهلهم ، وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسناً وجمالاً ! فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالاً »[1] . رواه مسلم .

وعن سهل بن سعد — رضى الله عنه — قال : شهدت من النبى — ﷺ — مجلساً وصف فيه الجنة حتى انتهى ، ثم قال : فى آخر حديثه : « فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، ثم قرأ ﴿ **تتجا فى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون** ﴾[2] .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادى مناد : إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا ، فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا ، فلا تبأسوا أبداً »[3] رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : « إن الله عز وجل يقول : لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك . ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى ؟ يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك : فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى : شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً »[4] متفق عليه .

فحى على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلم
وحى على يوم المزيد الذى به ... زيارة رب العرش فاليوم موسم
وحى على وادٍ هنالك أنيح ... وتربته من إذفر المسك أعظم
منابر من نور هناك وفضة ... ومن خالص القيان لا تنقصم
وكثبان مسك قد جعلن مقاعدا ... لمن دون أصحاب المنابر يعلم

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢١٧٨ رقم ١٣ / ٢٨٣٣ .

(٢) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) عن سهل بن سعد السّاعدى ج ٤ ص ٢١٥٧ رقم ٥ / ٢٨٢٥ .
(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الجنة ونعيمها) ج ٤ ص ٢١٨٢ رقم ٢٢ / ٢٨٣٧ من رواية أبى سعيد وأبى هريرة .
(٤) الحديث فى صحيح مسلم : (كتاب الجنة ونعيمها) باب إحلال الرضوان على أهل الجنة .. ج ٤ ص ٢١٧٦ رقم ٩ / ٢٨٢٩ . وفى صحيح البخارى : (كتاب الرقاق) باب صفة الجنة والنار ج ٨ ص ١٤٢ من رواية أبى سعيد الخدرى .

فبينا هموفى عيشهم وسرورهم / وأرزاقهم تجرى عليهم وتقسم
إذا هم بنور ساطع أشرقت له / بأقطار الجنات لا يتوهم
تجلى لهم رب السموات جهرة / فيضحك فوق العرش ثم يكلم
سلام عليكم يسمعون جميعهم / بآذانهم تسليمه إذ يسلم
يقول سلونى ما اشتهيتم فكل ما / تريدون عندى أننى أنا أرحم
فقالوا جميعاً نحن نسألك الرضا / فأنت الذى تولى الجميل وترحم
فيعطيهم هذا ويشهد جمعهم / عليه تعالى الله فالله أكرم
فيلبائعاً هذا ببخس معجل / كأنك لا تدرى، بلى سوف تعلم
فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة / وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

مواعظ وآداب

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ
لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ
اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ
بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ
حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

معانى المفردات

﴿ **القرن** ﴾ الجيل من الناس ، ﴿ **بطشاً** ﴾ أى : قوة ، ﴿ **فنقبوا فى البلاد** ﴾ أى : ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمكاسب . ﴿ **محيص** ﴾ مهرب ، ﴿ **لذكرى** ﴾ أى : لعبرة ، ﴿ **قلب** ﴾ أى : لُبٌّ يعى به ، ﴿ **أو ألقى السمع** ﴾ أى : أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحى ، ﴿ **شهيد** ﴾ أى : حاضر فهو من الشهود بمعنى الحضور . ﴿ **لغوب** ﴾ أى : تعب ، ﴿ **سبح بحمد ربك** ﴾ أى : نزهه عن كل نقص وأثبت له كل كمال ، ﴿ **أدبار السجود** ﴾ أى : أعقاب الصلوات ، ﴿ **يوم ينادى المنادى** ﴾

أي : يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى . ﴿ **من مكان قريب** ﴾ أى : بحيث لا يخفى الصوت على أحد . ﴿ **الصيحة** ﴾ النفخة الثانية ، ﴿ **بالحق** ﴾ أى : بالبعث والجزاء ، ﴿ **يوم الخروج** ﴾ أى : من القبور ، ﴿ **تشقق** ﴾ أى : تتصدع ، ﴿ **بجبار** ﴾ أى : بمسيطر ومسلط . إنما أنت منذر وداع .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أنذرهم ــ سبحانه ــ بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم ــ أنذرهم بما يعجل لهم فى الدنيا من ضروب العذاب سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين قبلهم ، ووسط بين ذلك المتقين ومايلا قوته من النعيم ، ليكون أمرهم بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ، ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لب واع سميع لما يلقى إليه ، ثم أعاد الدليل مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض فى ستة أيام وما أصابه ــ سبحانه ــ أدنى تعب ولا لغوب كما قال ــ سبحانه ــ ﴿ **أفعيينا بالخلق الأول** ﴾ ثم أمره بالصبر على ما يقولون ، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فها هو ذا قد اقترب يوم البعث والنشور وسُمع صوت الداعى لذلك بعد النفخ فى الصور ، وتشققت الأرض سراعاً وخرج الناس من القبور ، وإنا لنعلم ما يقول المشركون فى البعث والنشور ، فدعهم فى غيهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بعد اليوم ، وما فيه من هول ، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع الذكرى إلا المؤمنين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد هل من محيص** ﴾ .

أى : وكثير من الأمم قبلهم أهلكناهم وكانوا أشد من قومك بطشاً ، وأكثر منهم قوة : كعاد وثمود وتبع ، **فنقبوا** فى البلاد وسلكوا كل طريق ابتغاء الرزق ، ولم يجدوا لهم من أمر الله مهرباً ولا ملجأ حين حُم القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل فى الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ ، أى : إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة (لمن كان له قلب) ، أى : لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، ويعى ما يقال له . ﴿ **أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ أى : استمع القرآن وهو شاهد القلب . وقد ورد فى هذه الآية شروط الانتفاع بالقرآن الكريم .

قال ابن القيم رحمه الله :

« إذا أردت الإنتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به — سبحانه — منه إليه ، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ، قال تعالى :

﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾ ، وذلك إن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر ، وانتفاء المانع الذى يمنع منه ، تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد .. فقوله : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى** ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى ههنا ، وهذا هو المؤثر ، وقوله : ﴿ **لمن كان له قلب** ﴾ فهذا هو المحل القابل . والمراد به : القلب الحى الذى يعقل عن الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حياً** ﴾[1] أى : حى القلب .

وقوله : ﴿ **أو ألقى السمع** ﴾ ، أى : وجه سمعه وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له ، وهذا شرط التأثر بالكلام .

وقوله : ﴿ **وهو شهيد** ﴾ أى : شاهد القلب حاضر غير غائب .

قال ابن قتيبه : أستمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ليس بغافل ولاساه ، وهو اشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته ، عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله ، فإذا حصل المؤثر : وهو القرآن ، والمحل القابل : وهو القلب الحى ، ووجد الشرط ، وهو الإصغاء ، وانتقى وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب ، وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ، فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ .

أخبر — سبحانه وتعالى — أنه خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيامْ ولم يمسه من تعب ولا اعياء ، تكذيب لأعدائه من اليهود حيث قالوا : إنه استراح فى اليوم السابع تعالى الله عما يقولون ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، ﴿ **فاصبر على ما يقولون** ﴾ ثم أمر — سبحانه — نبيه بالتآسى به — سبحانه — فى الصبر على ما يقول اعداؤه فيه ، كما أنه — سبحانه — صبر على قول اليهود أنه استراح . ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه — سبحانه — ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** ﴾ ثم أمره — سبحانه — بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وبالليل وأدبار السجود .

---

(١) سورة (يس) من الآيتان ٧٠ ، ٧١

قال ابن عباس (أدبار السجود) هو الوتر ، وقال عمر وعلى وأبو هريرة وابن عباس فى رواية أخرى هما الركتان بعد المغرب وعن ابن عباس رواية ثالثة أنه التسبيح باللسان ادبار الصلوات المكتوبات .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾[1]

وكقوله تعالى : ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أناى الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب ، يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير ، يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **واستمع** ﴾ يا محمد ، ﴿ **يوم يناد المناد من مكان قريب** ﴾ قال قتادة : قال كعب : الأحبار يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادى على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة إن الله تعالى يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم يسمعون الصيحة بالحق** ﴾ ، يعنى النفخة فى الصور التى تأتى بالحق الذى كان أكثرهم فيه يمترون . ﴿ **ذلك يوم الخروج** ﴾ أى : من القبور ، ﴿ **إنا نحن ونميت وإلينا المصير** ﴾ أى : هو ــ سبحانه ــ الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وإليه مصير الخلائق كلهم فيجازى كلا بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً** ﴾ ، وذلك أن الله ــ تعالى ــ ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها فى قبورها ، كما ينبت الحب فى الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله ــ تعالى ــ [اسرافيل ينفخ فى الصور ، وقد أودعت الأرواح فى ثقب الصور ، فإذا نفخ] إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله ــ عز وجل ــ وعزتى وجلالى لترجعن كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم فى اللديغ ــ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله ــ عز وجل ــ ، ﴿ **مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون : هذا يوم عسر** ﴾[3]

﴿ **قالوا يا ويلينا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[4] .

---

(١) سورة الحجر الآيات ٩٧ ــ ٩٩
(٢) سورة (طه) الآية ١٣٠
(٣) سورة القمر الآية ٨
(٤) سورة (يس) الآيات ٥٢ ــ ٥٤

وفى صحيح مسلم عن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ ـــ : « أنا أول من تنشق عنه الأرض »[١].

وقوله عز وجل : ﴿ **ذلك حشر علينا يسير** ﴾ أى : تلك إعادة سهلة علينا يسيرة لدينا كما قال جل جلاله : ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ ، وقال ـــ سبحانه وتعالى ـــ : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير** ﴾[٢] .

بيان الحشر إلى الموقف كيف هو وفى أرض المحشر وذكر الصخرة

قال العلامة القرطبى فى « التذكرة » ما ملخصه :

قوله تعالى : « واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج ، إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ذلك حشر علينا يسير ﴾ .

قال قتادة : المنادى : هو صاحب الصور ينادى من الصخرة من بيت المقدس . قال كعب : وهى أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً . وقيل : باثنى عشر ميلا ذكره القشيرى والأول ذكره الماوردى ، وقيل : إن المنادى جبريل والله أعلم قال عكرمة : ينادى منادى الرحمن فكأنما ينادى فى

آذانهم يوم يسمعون الصيحة بالحق يريد : النفخ فى الصور . ﴿ ذلك يوم الخروج إنا نحن نحى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ﴾ إلى المنادى صاحب الصور إلى بيت المقدس أرض المحشر ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أى : هين سهل .

فإن قيل : فإذا كانت الصيحة للخروج فكيف يسمعونها وهم أموات ؟

قيل له : إن نفخة الإحياء تمتد وتطول ، فتكون أوائلها للإحياء وما بعدها للإزعاج ، ويحتمل أن تتطاول تلك النفخة والناس يحيون منها أولاً فأولاً ، وكلما حيى واحد سمع ما يحيى به من بعده إلى أن يتكامل الجميع للخروج ، وقد تقدم أن الأرواح فى الصور ، فإذا نفخ فيه النفخة الثانية ذهب كل روح إلى جسده ﴿ **فإذا هم من الأجداث** ﴾ أى : القبور ، ﴿ **إلى ربهم ينسلون** ﴾ وهذا يبين لك ما ذكرنا وبالله توفيقنا . ورى مسلم عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفرا كقرصة النقى ليس فيه علم لأحد »[٣] .

(١) الحديث فى صحيح مسلم : كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا ـــ ﷺ ـــ على جميع الخلائق ج ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٣ / ٢٢٧٨ عن أبى هريرة .

(٢) سورة (لقمان) الآية ٢٨

(٣) الحديث فى صحيح مسلم : (كتاب صفات المنافين) باب فى البعث والنشور ج ٤ ص ٢١٥٠ رقم ٢٨ / ٢٧٩٠ عن سهل بن سعد .

وفى البخارى ج ٨ ص ١٣٥ (باب يفيض الله الأرض) ، (كتاب الرقاق والأدب)

وقوله : ﴿ أول من يكسى من إبراهيم ﴾ فضيلة عظيمة لإبراهيم وخصوص له ، كما خص موسى — عليه السلام — بأن النبى — ﷺ — يجده معلقاً بساق العرش مع أن النبى — ﷺ — أول من تنشق عنه الأرض ، ولا يلزم من هذا أن يكون أفضل منه مطلقا ، بل هو أفضل من وافى القيامة — ﷺ —

بيان قوله (لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

روى مسلم عن عائشة : — رضى الله عنها — قالت : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً » قلت : يا رسول الله : الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : يا عائشة الأمر أشد من ينظر بعضهم إلى بعض »[1] .

واخرج الترمذى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — : أن النبى — ﷺ — قال : « تحشرون حفاة عراة غرلاً » فقالت امرأة : أيبصر بعضنا ، أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال : « يا فلانة لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »[2] قال : حديث حسن صحيح .

فصل : قلت : هذا الباب ، والذى قبله يدل على أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلاً أى : غير مختونين كما بدأنا أول خلق نعيده . قال العلماء : يحشر العبد غداً ، وله من الأعضاء ما كان له يوم ولد ، فمن قطع منه عضو يرد فى القيامة عليه حتى الختان . أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ نحن أعلم بما يقولون ، وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

أخبر سبحانه : أنه — ﷺ — ليس بمسلط عليهم ، ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ، ويكرهم عليه ، إنما أنت مبلغ كقوله تعالى : ﴿ فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر إن إلينا أيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾[3] . ثم أمره — سبحانه — أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده فهو الذى ينتفع بالتذكير كما قال سبحانه : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾[4] وأما من لا يؤمن بلقائه ، ولا يخاف وعيده ، ولا يرجو ثوابه ، فلا ينتفع بالتذكير كما قال سبحانه : ﴿ ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ﴾ .

كان قتاد : بعد ما يقرأ هذه الآية يقول : اللهم ، اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ، يا بار يا رحيم .. آمين .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم كتاب صفة الجنة — باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ٤ ص ١١٩٤ رقم ٥٦ / ٢٨٥٩ . وفى البخارى كتاب الرقاق والأدب باب كيف الحشر ج ٨ ص ١٣٦

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم (كتاب التفسير) ج ٢ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس مع اختلاف يسر فى بعض ألفاظه .

وانظر سنن الترمذى « أبواب صفة القيامة » باب ما جاء فى شأن الحشر ج ٢ ص ٣٨ فقد جاء فى الحديث ٢٥٣٩ المروى عن ابن عباس الشق الأول وهو « يحشر الناس يوما القيامة حفة عراة غرلاً كما خلقوا » .

(٣) سورة الغاشية الآيات ٢١ — ٢٦

(٤) سورة الأعلى الآية ١٠

(٥) سورة الأعلى لآيتان ١١ ، ١٢

واخرج أبو بكر أحمد بن على الخطيب ، عن عبد الله بن سعود : « يحشر الناس يوم القيامة أجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا ، فمن أطعم لله أطعمه ، ومن سقا لله سقاه ، ومن كسا لله كساه ، ومن عمل لله كفاه ، ومن نصر الله أراحه الله فى ذلك اليوم » .

باب ما جاء فى حشر الناس إلى الله تعالى حفاة عراة غرلاً ، وفى أول من يكسى منهم وفى أول ما يتكلم من الإنسان .

روى مسلم عن ابن عباس ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قام فينا رسول الله ـــ ﷺ ـــ بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، ﴿ **كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين** ﴾ ألا وإن أول الناس يكسى يوم القيامة إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ ألا وإنه يؤتى برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : يارب : أصحابى فيقول : إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك . فأقول كما قال العبد الصالح : ﴿ **وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم** ﴾ إلى قوله ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ . قال : فيقال : إنهم لم يزالوا مدبرين مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم »[(١)] .

أخرجه البخارى أيضا : والترمذى ، عن معاوية بن حيدة ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ـــ ﷺ ـــ فى حديث ذكره قال : وأشار بيده إلى الشام فقال : « ههنا إلى ههنا تحشرون ركباناً ومشاة وتجرون على وجوهكم يوم القيامة أفواهكم الفدام توفون سبعين أمة أنتم خيرهم على الله وأكرمهم على الله ، وأن أول ما يعرب عن أحدكم فخذه »[(٢)] ، وفى رواية أخرى ذكرها ابن أبى شيبة « وإن أول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه » .

فصل : قوله : ﴿ **غرلاً** ﴾ أى : غير مختونين ، ﴿ **النقى** ﴾ الحوارى وهو : الدرمك من الدقيق ، ﴿ **والعضر** ﴾ بياض ليس بخالص يضرب إلى الحمرة قليلاً ، ﴿ **والفدام** ﴾ مصفاة الكوز والابريق . قاله الليث : قال أبو عبيدة : يعنى : أنهم منعوا الكلام حتى تتكلم أفخاذهم فشبه ذلك بالفدام الذى يجعل على الإبريق .

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب صفة الجنة ونعيمها وأهلها) باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ج ٤ ص ٢١٩٤ ، ٢١٩٥ رقم ٥٨ / ٢٨٦٠ عن ابن عباس وفى سنن الترمذى (أبواب صفة القيامة) باب ما جاء فى شأن الحشر ج ٤ ص ٣٨ رقم ٢٥٣٩ وفى البخارى (كتاب الأدب والرقاق) باب كيف الحشر ج ٨ ص ١٣٦

(٢) الحديث فى صحيح البخارى :

وفى سنن الترمذى (كتاب صفة القيامة) باب ما جاء فى صفة الحشر ج ٤ ص ٣٩ رقم ٢٥٤١ وقال : أبو عيسى : هذا حديث حسن .

تفسير سورة الذاريات

مقدمة :

السورة : مكية ، عدد آياتها : ستون

وعدد كلماتها : ثلثمائة وستون

وحروفها : ألف ومائتان وسبع وثمانون .

مجموع فواصل آياتها : (قفاك معن) .

وسميت بالذاريات : لمفتتحها

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ذكر القسم : حقية البعث والقيامة ، والإشارة إلى عذاب أهل الضلالة ، وثواب أرباب الهداية ، وحجة الواحدانية ، وكرامة إبراهيم فى باب الضيافة ، وفى إسحاق له بالبشارة ، ولقوم لوط بالهلاكة ، ولفرعون وأهله من الملامة ، ولعاد ، وثمود ، وقوم نوح من الدمار والخسارة ، وخلق السماء والأرض للنفع والإفادة ، وزوجية المخلوقات ، لإجل الدلالة ، وتكذيب المشركين لما فيه للرسول ـــ ﷺ ـــ من التسلية ، وتخليق الخلق لإجل العبادة ، وتعجيل المنكرين بالعذاب والعقوبة فى قوله ﴿ **فلا يستعجلون** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون آخذين** ﴾ وفى الطور ، ﴿ **فى جنات ونعيم فاكهين** ﴾ ليس بتكرار ، لأن ما فى هذه السورة متصل بذكر ما به يصل الإنسان إليها ، وهو قوله : ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك محسنين** ﴾ ، وفى الطور متصل بما ينال الإنسان فيها إذا وصل إليها ، وهو قوله : ﴿ **ووقاهم ربهم عذاب الجحيم كلوا واشربوا** ﴾ الآيات .

قوله ﴿ **إنى لكم منه نذير مبين** ﴾ وبعده : ﴿ **إنى لكم منه نذير مبين** ﴾ ليس بتكرار ، لأن كل واحد منهما متعلق بغير ما يتعلق به الآخر . فالأول متعلق بترك الطاعة إلى المعصية ، والثانى متعلق بالشرك بالله ـــ تعالى ـــ أ هـ .

مناسبتها لما قبلها

(١) إنه قد ذكر فى السورة السابقة البعث والجزاء ، والجنة والنار وافتتح هذه بالقسم بأن ما وعدوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع .

(٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ
يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥)
آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠)
وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣)

معانى المفردات

﴿ **الذاريات** ﴾ : الرياح تذرو التراب وغيره أى : تفرقه ، ﴿ **وقراً** ﴾ الوقر : حمل البعير وجمعه أوقار ، أى : أثقال . ﴿ **والحاملات وقراً** ﴾ : هى الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء ، ﴿ **والجاريات يسرا** ﴾ قيل : هى النجوم ، وقيل : هى السفن ، ﴿ **فالمقسمات أمراً** ﴾ المراد : الملائكة تقسم المقدرات الربانية . ﴿ **إنما توعدون** ﴾ من البعث ، ﴿ **جواب القسم** ﴾ ، ﴿ **إن الدين** ﴾ **الجزاء** بعد الحساب ، ﴿ **ذات الحبك** ﴾ الطرق التى تسير فيها الكواكب . واحدها حبيكة ، ﴿ **قول مختلف** ﴾ متناقض مضطرب ، ﴿ **يؤفك عنه** ﴾ أى : يصرف عن الحق الآتى به الرسول ، ﴿ **قتل الخراصون** ﴾ لعن وقبح الكذابون ، ﴿ **غمرة** ﴾ جهالة غامرة بأمور الآخرة ، ﴿ **ساهون** ﴾ غافلون عما أمروا به ، ﴿ **آيان يوم الدين** ﴾ أى : متى يوم الجزاء ، ﴿ **يفتنون** ﴾ يحرقون ويعذبون . ﴿ **يهجعون** ﴾ الهجوع النوم ليلاً ، والهجعة النومة الخفيفة ، ﴿ **الأسحار** ﴾ واحدها سَحَر وهو : السدس الأخير من الليل . ﴿ **حق** ﴾ نصيب وافر يوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى ربهم واشفاقاً على عباده ، ﴿ **السائل** ﴾ هو المستجدى الطالب العطاء ، ﴿ **المحروم** ﴾ هو المتعفف الذى يحسبه الجاهل غنياً فيحرم الصدقة من أكثر الناس ، ﴿ **آيات** ﴾ أى : دلائل على قدرته ــ تعالى ــ . ﴿ **للموقنين** ﴾

أى : للموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، ﴿ **وما توعدون** ﴾ أى : والذى توعدونه من خير أو شر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والذاريات ذروا ، فالحاملات وقراً ، فالجاريات يسرا ، فالمقسمات أمراً ، إنما توعدون لصادق ، وإن الدين لواقع** ﴾ .

أقسم ــ سبحانه وتعالى ــ بالذاريات وهى : الرياح تذر والمطر ، وتذرو التراب ، وتذرو النبات إذا تهشم . كما قال ــ تعالى ــ ﴿ **فأصبح هشيما تذروه الرياح** ﴾[1] أى : تفرقه ، وتنشره .

ثم أقسم ــ سبحانه ــ بما فوق ذلك وحى : ﴿ **الجاريات يسرا** ﴾ وهى : النجوم التى من فوق القمام ، ﴿ **ويسراً** ﴾ أى : مسخرة مذللة منقادة .

وقال جماعة من المفسرين : انها السفن تجرى ميسرة فى الماء جرياً سهلاً ــ ومنهم من لم يذكر غيره وأختار ابن تيميه ــ رحمه الله ــ القول الأول . وقال : هو أحسن فى الترتيب والانتقال من السافل إلى العالى ، وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذى أمرت به بين خلقه ، وذلك قوله ــ تعالى : ﴿ **فالمقسمات أمراً** ﴾ وهم : المدبرات أمراً .

قال ابن القيم : ــ رحمه الله ــ وأقسم ــ سبحانه ــ بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة والآية . والدلالة الباهرة على ربوبيته ، ووحدانيته ، وعظم قدرته . ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها ، وصفاتها ومهابها وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه ، وريح يؤلف بينه وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه ، وللنبات ريح وللسفن ريح ، وللرحمة ريح وللعذاب ريح إلى غير ذلك من أنواع الرياح ، وذلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ، ويجعلها رخاء تارة وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذاباً تارة ، فتارة يحيىى بها الزرع والثمار وتارة ، ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان ، وتارة تذيبها ، وتارة وتارة عقيما وتارة لافحة وتارة جنوبا وتارة دبوراً ، وتارة صبا ، وتارة شمالاً ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف شىء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السماء والأرض . إذا قطع من الحيوان الذى على وجه الأرض هلك كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها الله ــ

(١) سورة الكهف آية ٤٥

سبحانه ــ إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، تحمل الأصوات والآذان ، والرائحة إلى الأنف والسحاب إلى الأرض الجرز ، وهى من روح الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب ، وهى أقوى خلق الله .. والمقصود أن الرياح أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته .

ثم : أقسم ــ سبحانه ــ بالسحاب ، وهو من أعظم آيات الله فى الجو . فى غاية الخفة ، ثم يحمل الماء والبرد ، فيصير أثقل شىء . فيأمر الرياح ، فتحمله على متونهما ، وتسير به حيث أمرت ، فهو مسخر بين السماء والأرض . حامل لأرزاق العباد ، والحيوان ، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله ، فإنه لو بقى لأضر النبات ، والحيوان فأنشأه ــ سبحانه ــ فى زمن يصلح إنشاؤه فيه وحمله من الماء ما يحمله ، وشاقه إلى بلد شديد الحاجة إليه .

فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه ؟ وحمّله الماء ، والثلج والبرد ؟ ومن حمله على ظهور الرياح ؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد ؟ ومن أغاث بقطره العباد وأحيا به البلاد وصيرفه بين خلقه كما أراد ، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم ، وأنزله منه ، وأفناه بعد الاستغناء عنه ، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلا ، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولا ... ــ فسبحان ــ من شهدت الموجودات بربوبيته ، وأقرت المصنوعات بوحدانيته ، بيده النفع والضر . وله الخلق والأمر ، تبارك الله رب العالمين .

وسل الجاريات يسرا من السفن . من أمسكها على وجه الماء . وسخر لها البحر ؟ ومن أرسل لها الرياح تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح ؟ ومن حفظها فى مجراها ومرساها من طغيان الماء ، وطغيان الرياح ؟ فمن الذى جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها ؟ ومن الذى أجرى لها ريحاً واحدة تسير بها . ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ، ويقاومها . فتتموج فى البحر يميناً وشمالاً . تتلاعب بها الريح ؟ ومن الذى علم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم الذى يمشى على الماء . فيقطع المسافة البعيدة . ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره . مقبلا ومدبراً بريح واحدة تجرى فى موج كالجبال ﴿ **ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور أو يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير** ﴾[1] ومن الذى حمل فى هذا البيت نبيه ، وأولياءه خاصة وأغرق جميع أهل الأرض سواهم ؟

وسل الجاريات يسرا من الكواكب ، والشمس والقمر : من الذى خلقها وأحسن خلقها ، ورفع مكانها ، وزين بها قبة العالم ، وفادت بين أشكالها . ومقاديرها ، وألوانها وحركاتها ، وأماكنها من السماء ، فمنها الكبير ، ومنها الصغير ، والمتوسط والأبيض ، والأحمر والزجاجى اللون والدرى اللون ،

(١) سورة الشورى الآيات ٣٢ ــ ٣٤

والمتوسط فى قبة الفلك ، والمتطرف فى جوانبها ، وبين ذلك ؟ ومنها ما يقطع الفلك فى شهر ، ومنها ما يقطعه فى عام ، ومنها ما يقطعه فى ثلاثن عاماً ، ومنها ما يقطعه فى أضعاف ذلك . ومنها ما لا يزال ظاهراً لا يغيب بحال ، فهو أبدى ، ومنها أبدى الخفاء ، ومنها ما له حالتان ظهور واختفاء ، ومنها ما له حركتان حركة عرضية من المشرق إلى المغرب ، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق فحالما يأخذ الكوكب فى الغروب فإذا كوكب آخر فى مقابلته ، وكوكب آخر قد طلع وهو آخذ فى الارتفاع والتصاعد ، وكوكب آخر فى الربع الشرقى وكوكب آخر فى وسط السماء ، وكوكب آخر قد مال عن الوسط ، وآخر قددنا من الغروب ، وكأنه رقيبة ينتظر بطلوعه غيبته .

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وحدتها تدل على المصار كما تدل على المبدأ ، وتدل على وجود الخالق وصفات كما له ، وربوبيته وحكمته ووحدانيته أعظم دلالة . وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله . فكما جعل الله النجوم هداية فى طريق البر والبحر ، فهى هداية فى طرق العلم بالخالق — سبحانه — وقدرته وعلمه ، وحكمته ، والمبدأ والمعاد ، والنبوة ، ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر ، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية ، فهى هداية فى هذا وهذا وأما دلالة (المقسمات أمراً) وهم الملائكة ، فلأن ما يشاهد مد تدبير العالم العلوى والسفلى وما لا يشاهد إنما هو على أيدى الملائكة ، فالرب — تعالى — يدبر بهم أمر العالم ، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم ، فوكل بالشمس والقمر ، والنجوم ، والأفلاك طائفة منهم ، ووكل بالقطر والسحاب طائفة ، ووكل بالنبات طائفة ، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة ، ووكل بالموت طائفة ، وبحفظ بنى آدم طائفة وبإحصار أعمالهم وكتابتها طائفة ، وبالوحى طائفة ، وبالجبال طائفة ، وبكل شئون العالم طائفة . هذا مع ما فى خلق الملائكة من البهاء ، والحُسن وما فيهم من القوة والشدة ، ولطاقة الجسم ، وحسن الخلقة ، وكمال الانقياد لأمره ، والقيام فى خدمته ، وتنفيذ أوامره فى أقطار العالم .

ثم أقسم — سبحانه — بهذه الأمور على صدق وعده ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال تعالى : ﴿ **إنما توعدون لصادق** ﴾ أى : ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن ، وهو وعد صدق لا كذب ، ﴿ **وإن الدين لواقع** ﴾ أى : إن الجزاء لكائن لا محالة . ويجوز أن تكون (ما) موصولة ، والعائد محذوف . والمعنى : أن الذى توعدونه لصادق ، أى : كائن وثابت . وأن تكون مصدرية ، أى : إن وعدكم لحق وصدق .

وإذا تأملت هذا التناسب والأرتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدله والاً عليه ، مرشداً إليه .

قوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات الحبك إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك قتل الخراصو ن الذين هم فى غمرة ساهون يسألون ايان يوم الدين يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون** ﴾ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله :

ثم أقسم — سبحانه — ﴿ **بالسماء ذات الحبك** ﴾ قال ابن عباس : يريد الخلق الحسن وروى سعيد بن جبير عنه قال : الحبك : حسنها واستواؤها ، وقال قتادة : ذات الخلق الشديد ، وقال أبو عبيدة والمبرد : الحبك : الطريق وقال : شمر : المحبوك فى اللغة ما أجيد عمله والمقصود بهذا كله : ما أفصح به ابن عباس ، فقال : يريد الخلق الحسن .

ثم ذكر — سبحانه — المقسم عليه فقال : ﴿ **إنكم لفى قول مختلف يؤفك عنه من أفك** ﴾ فالقول المختلف أقوالهم فى القرآن وفى النبى — ﷺ — وهو خرص كله فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم ، وآراؤهم ، وطرائقهم ، وأقوالهم فإن الحق شىء واحد وطريق مستقيم ، فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب ، كما قال تعالى : ﴿ **بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج** ﴾[(١)] أى : مختلط ملتبس وفى ضمن هذا الجواب : انكم فى أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضاً ، بسبب تكذيبهم بالحق .

وقوله تعالى : ﴿ **يؤفك عنه من أفك** ﴾ ، أخبر — سبحانه — أنه يصدف بسبب ذلك القول المختلف من صدف . فعن ههنا فيها طرف من معنى التسبيب كقوله تعالى : ﴿ **وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك** ﴾[(٢)] .

وقوله : ﴿ **من أفك** ﴾ ، أى : من سبق فى علم الله أنه يضل ويؤفك وقالت طائفة : الضمير يرجع إلى القرآن ، وقيل : إلى الإيمان ، وقيل : إلى الرسول . والمعنى : يصرف عنه من صرف حتى يكذب به .

ولما كان هذا القول المختلف خرصاً وباطلاً قال : ﴿ **قتل الخراصون** ﴾ أى : المكذبون : ﴿ **الذين هم فى غمرة ساهون** ﴾ ، وجهالة قد غمرت قلوبهم أى : غطتها وغشتها ، كغمرة الماء ، وغمرة الموت ، فالغمرات ما غطاها من جهل ، أو هوى ، أو سكر ، أو غفلة ، أو حب ، أو بغض ، أو خوف أو غم ، ونحو ذلك قال تعالى : ﴿ **بل قلوبهم فى غمرة من هذا** ﴾[(٣)] أى : غفلة وقيل جهالة .

ثم وصفهم بأنهم ساهون فى غمرتهم ، والسهو الغفلة عن الشىء وذهاب القلب عنه ، والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة ، والسهو لا يستلزم ذلك .

(١) سورة (ق) الآية ٥
(٢) سورة (هود) من الآية ٥٣
(٣) سورة المؤمنون من الآية ٦٣

قوله تعالى : ﴿ **يسألون أيان يوم الدين** ﴾ ، استبعاداً للوقوع وجحداً . فأخبر ـــ تعالى ـــ أن ذلك ﴿ **يوم هم على النار يفتنون** ﴾ والمشهور فى تفسير هذا الحرف : أنه بمعنى يحرقون ولكن لفظة (على) تعطى معنى زائداً على ما ذكروه ، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل يومهم فى النار يفتنون . ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم : على بمعنى فى كما تكون (فى) بمعنى (على) . والظاهر : أن فتنتهم على النار ، قيل : فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها ، ووقوفهم عليها فتنة ، وعند دخولهم ، والتعذيب بها فتنة أشد منها ، ومن جعل الفتنة ههنا من الحريق أخذه من قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق** ﴾[1] واستشهد على ذلك أيضا بهذه اللفظة التى فى الذاريات . وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه ، ولهذا سمى الله الكفر فتنة . فهم لما أتوا بالفتنة التى هى أسباب العذاب فى الدنيا سمى جزاءهم فتنة . ولهذا قال : ﴿ **ذوقوا فتنتكم** ﴾ وكان وقوفهم على النار ، وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم ، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها ، ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها ، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم ، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ، ثم فتنوا بعذاب الدنيا ، ثم فتنوا بعذاب الموت ، ثم يفتنون فى موقف القيامة ، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها ، وذلك من أعظم فتنتهم ، ثم الفتنة الكبرى التى أنستهم جميع الفتن قبلها ﴿ **ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون** ﴾ . يقال : لهم ذلك تقريعاً ، وتوبيخاً ، وتحقيراً وتصغيراً .

قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات وعيون ، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون ، وفى أموالهم حق للسائل والمحروم وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ .

يقول تعالى : مخبراً عن المتقين لله ـــ عز وجل ـــ أنهم يوم معادهم يكونون فى جنات ، وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال .

وقوله تعالى ﴿ **آخذين ما آتاهم ربهم** ﴾ أى : عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ، ﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك** ﴾ أى : فى الدار الدنيا ، ﴿ **محسنين** ﴾ بالفرائض كانوا يعبدون الله كأنهم يرونه .

قال ابن القيم : «. ذكر ـــ سبحانه ـــ جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى ، وهو الجنات والعيون وأنهم ﴿ **آخذين ما آتاهم ربهم** ﴾ من الخير والكرامة .

وفى ذلك دليل على أمور : منها قبولهم له . ومنها رضاهم به ، ومنها وصولهم إليه بلا مانع ولا

---

(١) سورة البروج الآية ١٠

عائق . ومنها أن جزاءهم من جنس أعمالهم . فكما أخذوا ما أمرهم به فى الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم ، وانشراح الصدر ، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك . ثم ذكر السبب الذى أوصلهم إلى ذلك ، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له ، والقيام بحقوقه ، وحقوق عباده ، ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه .

قوله تعالى : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ .

قال ابن جرير فى قوله تعالى : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ أى : كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ، ونومهم ، وقال الحسن البصرى : كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ، وقال قتادة : قال الأصنف ابن قيس ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ كانوا لا ينامون إلا قليلاً ثم يقول : لست من أهل هذه الآية . وقال عبد الرحمن ، بن زيد ، بن أسلم . قال : رجل من بنى تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا . ذكر الله ــ تعالى ــ قوماً فقال : ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون** ﴾ ونحن والله قليلاً من الليل ما نقوم فقال له : أبى ــ ــ رضى الله عنه ــ طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ .

فضل قيام الليل
من الكتاب والسنة

قال تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾[1] .

وهذا الأمر وإن كان خاصاً برسول الله ــ ﷺ ــ إلا أن عامة المسلمين يدخلون فيه بحكم أنهم مطالبون بالاقتداء به ــ ﷺ ــ .

وقال تعالى : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾[2] .

قال ابن عباس : من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء فقد بات لله ساجداً وقائماً .

وقال تعالى : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم**

---

(١) سورة الاسراء الآية ٧٩

(٢) سورة الفرقان الآيتان ٦٣ ، ٦٤

نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[١] .

قال الحسن البصرى : أخفى قوم عملهم فأخفى الله لهم ما لم تر عين ولم يخطر على قلب بشر .

وقال تعالى : ﴿ أمَّن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾[٢] .

ففض — سبحانه — التسوية بينهم وبين غيرهم ممن لم يتصف بوصفهم .

هذا بعض ما جاء فى كتاب الله ، أما ما جاء فى سنة رسول الله — ﷺ — فهاك بعضه :

عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — :.« أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم ، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل »[٣] رواه مسلم .

وعن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله — ﷺ — « كان يقوم من الليل حتى تنفطرقدماه » ، فقلت له : « لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً »[٤] متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم يوما ، ويفطر يوماً »[٥] متفق عليه .

وعن جابر — رضى الله عنه — قال : « سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة »[٦] رواه مسلم .

وعن عبد الله — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السر على صدقة العلانية »[٧] رواه الطبرانى بإسناد حسن .

---

(١) سورة السجدة الآيات ١٥ — ١٧

(٢) سورة الزمر الآية ٩

(٣) الحديث فى صحيح مسلم (كتاب الصيام) باب فضل صوم المحرم ج ٢ ص ٨٢١ رقم ٢٠٢ / ١٦٦٣ عن أبى هريرة .

(٤) الحديث فى صحيح البخارى : ج ٢ ص ٦٣ (كتاب الهجد) باب قيام النبى ﷺ حتى قوم قدتاه .
— وفى مسلم فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢١٧١ رقم ٧٩ / ٢٨١٩ (كتاب صفات المنافقين وأحكامهم) باب أكثر الأعمال والاجتهاد فى العبادة .

(٥) انظر البخارى (كتاب بدء الخلق) باب من أحب الصلاة إلى الله ، صلاة داود .. الخ ج ٤ ص ١٥٦ عند عبد الله بن عمرو .
وفى صحيح مسلم (كتاب الصيام) ج ٢ ص ٨١٦ رقم ١٨٩ / ١١٥٩ .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم : انظر صحيح مسلم (كتاب الصلاة) باب فى الليل ساعة مستجاب فيها الدعاة عن جابر : ج ١ ص ٥٢١ رقم ١٦٦ / ٧٥٧ والرقم الذى يليه .

(٧) الحديث ففى مجمع الزوائد (كتاب الصلاة) باب فى صلاة الليل ج ٢ ص ٢٥١ ورد الحديث بلفظه عن عبد الله رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات .

وعن سهل بن سعد ــ رضى الله عنه ــ قال : « جاء جبريل إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : « يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأعمل ما شئت فإنك مجزى به ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ، وعزه استغناؤه عن الناس »[1] (رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن واخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبى) .

وعن عمرو بن عبسة ــ رضى الله عنه ــ أنه سمع النبى ــ ﷺ ــ يقول : « أقرب ما يكون الرب من العبد فى جوف الليل الآخر ، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله فى تلك الساعة فكن »[2] رواه الترمذى وصححه والنسائى وصححه وابن خزيمة .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين »[3] رواه أبو داود وصححه وابن خزيمة . قال الحافظ المنذرى : أى : له قنطار من الأجر ، ومن أول تبارك إلى آخر القرآن ألف آية والله أعلم .

وعن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار »[4] رواه مسلم .

وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إن فى الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، فقال : أبو موسى الأشعرى لمن هى يا رسول الله ؟ قال : ــ ﷺ ــ « لمن آلان الكلام ، وأطعم الطعام ، وبات لله قائماً والناس نيام »[5] رواه أحمد .

وفى الحديث الذى رواه الترمذى وقال حسن صحيح عن معاذ بن جبل وفيه « .. ألا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل » .. ثم تلا « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » حتى بلغ (يعملون) الحديث[6] .

---

(١) الحديث فى مجمع الزوائد ج ١ ص ٢١٩ باب الايجار فى الموعظة ورد الحديث بلفظه عن سهل بن سعد ــ رضى الله عنه ــ وفى الترغيب والترهيب ج ١ ص ٤٣١ رقم ٢٦ ورد بلفظه عن سهل بن سعد .

(٢) الحديث فى سنن الترمذى : (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٢٢٩ رقم ٣٦٥٠ عن عمر بن عبسه وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٣) الحديث انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب تحزيب القرآن ج ٢ ص ١١٨ رقم ١٣٩٨ عن عمر بن العاص .

(٤) الحديث انظر صحيح مسلم (كتاب صلاة المسافرين) باب فضل من يقوم بالقرآن .. ج ١ ص ٥٥٩ رقم ٢٦٨ / ٨١٦ .

(٥) الحديث انظر مسند الأمام أحمد ج ٢ ص ١٨٣ عن عبد الله بن عمر .

(٦) الحديث انظر سنن الترمذى (كتاب الايمان) باب ما جاء فى حرمة الصلاة ج ٤ ص ١٢٤ رقم ٢٧٤٩ عن معاذ بن جبل وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال الحسن البصرى ــ رحمه الله ــ : لم أجد من العبادة شيئاً أشد من الصلاة فى جوف الليل ، فقيل له : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره .

وأنشدوا فى صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما وإذر الدموع على الخدود سجاما
واعلم بأنك ميت ومحاسب يا من على سخط الجليل أقاما
قوم أخلصوا فى حبه فرضى بهم واختصهم خداما
قوم إذا جن الظلام عليهم باتوا هنالك سجداً وقياما
خمص البطون من التعفف خمرا لا يعرفون سوى الحلال طعاما

قوله تعالى : ﴿ **وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ أخبر عنهم ــ سبحانه ــ بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر ختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة ، فباتوا لربهم سجداً وقياماً ، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك كما قال تعالى : فى وصفهم فى سورة آل عمران ﴿ **الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾[1] .

قال ابن القيم : « وكان النبى ــ ﷺ ــ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً ، وأمره الله ــ سبحانه ــ أن يختم عمره بالاستغفار . وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار ، وشرع ــ ﷺ ــ للمتوضىء أن يختم وضوءه بالتوبة . فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار .

وعن أنس بن مالك ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : قال الله تعالى : يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى ، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة »[2] (رواه الترمذى وقال حديث حسن) .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يسألنى فأعطيه ؟ من يستغفرنى فأغفر له »[3] (متفق عليه) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧

(٢) الحديث فى سنن الترمذى (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٢٠٨ رقم ٣٦٠٨ عن أنس ابن مالك : وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٣) الحديث فى صحيح البخارى : (كتاب الجمعة) باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ج ٢ ص ٦٦ عن أبى هريرة .
وفى صحيح مسلم : كتاب صلاة المسافرين وقصرهم ــ باب الترغيب والذكر فى آخر الليل والاجابة فيه ج ١ ص ٥٢١ رقم ١٦٨ / ٧٥٨ عن رواية أبى هريرة .

وفى رواية أخرى عند مسلم عن أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « ما اجتمع قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »[1] .

وقال : « إن الله يمهل حتى إذا كان ثلث الليل الآخر نزل إلى هذه السماء الدنيا ، فنادى ، فقال : هل من مذنب يتوب ؟ هل من مستغفر ؟ هل من داع ؟ هل من سائل ؟ إلى الفجر »[2] .

قوله تعالى : ﴿ **وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** ﴾ هذا مدح ثالث لهم . قال محمد بن مسيرين وقتادة : الحق : هنا الزكاة المفروضة . وقيل : إنه حق سوى الزكاة يصل به رحما ، أو يقرى به حنيفاً ، أو يحمل به كَلَّا ، أو يغنى به محروماً .

﴿ **والسائل** ﴾ الذى يسأل الناس لفاقته ، قاله ابن عباس وغيره ، ﴿ **والمحروم** ﴾ الذى حُرم المال . وقال قتادة ، والزهرى : ﴿ **المحروم** ﴾ المتعفف الذى لا يسأل الناس شيئاً ، ولا يعلم بحاجته . وفى الأثر « ويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة يقولون ربنا ظلمونا حقوقنا التى فرضت لنا عليهم فيقول الله : ـ تعالى ـ وعزتى وجلالى ـ لأقربنكم ولأبعدنهم » .

ويقول ابن القيم فى هذه الآية : ﴿ **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ أخبر ـ سبحانه ـ عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم . فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ، ضد (الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) وأكد إخلاصهم فى هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم ، الذى لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور ، والمحروم المتعفف الذى لا يسأل . وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه حرمه بقضائه ، وشرع لأصحاب الجدة اعطاءه ، وهو أغنى الأغنياء ، وأجود الأجودين ، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر ، والشرع ، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره ، فلم يجمع عليه حرمانين » .

قوله تعالى : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ لما ذكر ـ سبحانه ـ أمر الفريقين بين أن فى الأرض علامات تدل على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات ، والحيوانات ، والمهاد ، والجبال ، والقفار والأنهار ، والبحار ، واختلاف ألسنة الناس ، وألوانهم وما جبلوا عليه من الإرادات ، والقوى ، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم ، والحركات ، والسعادة والشقاوة ، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه . قاله ابن كثير .

---

(1) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء ـ باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ج ٤ ص ٢٠٧٤ رقم ٣٩ / ٢٧٠٠

وفى سنن الترمذى عن أبى هريرة وأبى سعيد ج ٥ ص ١٢٨ أبواب الدعوات وقال ابو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(2) انظر مسلم : (كتاب صلاة المسافرين) باب الترغيب فى الدعاء والذكر ج ١ ص ٥٢٣ رقم ٢٧٢ / ٧٥٨ .

وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآية : ﴿ **وفى الأرض آيات للموقنين** ﴾ ، قال : « فآيات الأرض أنواع كثيرة ، منها خلقها وحدوثها بعد عدمها وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد . فإنها شواهد قائمة بها . ومنها بروز هذا الجانب فيها عن الماء ، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به . ومنها سعتها وكبر خلقها . ومنها تسطيحها ، كما قال تعالى : ﴿ **وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾[1] ولاينافى ذلك كونها كروية . فهى كرة فى الحقيقة لها سطح يستقر عليه الحيوان . ومنها أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه ، وجعلها قراراً ، وجعلها مهادا ذلولا توطأ بالأقدام ، وتضرب بالمعاول والفئوس وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال . فهى ذلول مسخرة لما يريد العبد منها ، وجعلها بساطاً ، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ، وللأموات تضمهم فى بطنها ، وطحاها فمدها وبسطها ، ووسعها ودحاها ، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها ، وشق فيها الأنهار ، وجعل فيها السبل والنجاح . ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته فى جعلها ساكنة . وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها ، ولا علاقة فوقها ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيه كما تكفأ السفينة فاقتضت العناية الأزلية ، والحكمة الالهية أن وضع عليها رواسى يثبتها بها . لئلا تميد ، وليستقر عليها الأنام ، وجعلها ذلولا على الحكمة فى أن لم تكن فى غاية الصلابة والشدة كالحديد ، فيمتنع حفرها ، وشقها . والبناء فيها ، والغرس ، والزرع ، وبعث النوم عليها ، والمشى فيها ، ونبه بكونها قراراً على الحكمة فى أنه لم تخلق فى غاية اللين والرخاوة والدماثة . فلا تمسك بناء ، ولا يستقر عليها الحيوان ، ولا الأجسام الثقيلة . بل جعلها بين الصلابة والدماثة . وأشرف الجواهر عند الإنسان ، الذهب ، والفضة ، والياقوت ، والزمرد ، فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها ، وتعطلت المنافع المقصودة منها ، وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر ، وأنفع ، وأبرك وإن كانت تلك أعلى وأعز ، فغلاؤها ، وعزتها لقاتها . وإلا فالتراب أنفع منها ، وأبرك ، وأنفس ، وكذلك لم يجعلها شفافة ، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور . وما كان كذلك لم يقبل السخونة . فيبقى فى غاية البرد ، فلا يستقر عليه الحيوان ، ولا يتأتى فيه النبات ، وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة ، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس ، كما يشاهد من احتراق القطن ، ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف فاقتضت حكمته ــ سبحانه ــ أن جعلها كثيفة غبراء ، فصلحت أن تكون مستقرا للحيوان ، والأنام والنبات .

ولما كان الحيوان الهوائى لا يمكنه أن يعيش فى الماء كالحيوان المائى أبرز له جانبها كما تقدم ، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه وأنشأ منها طعامه وقوته ، وكذلك خلق منها النوع الإنسانى ، وأعاده إليها ويخرجه منها ..

(١) سورة الغاشية الآية ٢٠

ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس ، والصفات والمنافع مع أنها قطع متجاورات ، متلاصقة فهذه سهلة ، وهذه حزنه ، تجاورها وتلاصقها . وهذه طيبة تنبت ، وتلاصقها أرض لا تنبت ، وهذه تربة ، وتلاصقها رمال ، وهذه صلبة ، ويلاصقها ويليها رخوة ، وهذه سوداء ، ويليها أرض بيضاء ، وهذه حصى كلها ، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر ، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا ، وهذه لا تصلح له ، بل تصلح لغيره ، وهذه سبخة مالحة ، وهذه بضدها ، وهذه ليس فيها جبل ولا معلم ، وهذه مسجرة بالجبال ، وهذه لا تصلح إلا على المطر ، وهذه لا ينفعها المطر ، بل لا تصلح إلا على سقى الأنهار ، فيمطر الله ــ سبحانه ــ الماء على الأرض البعيدة ، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض .

فلو سألتها من نوّعها هذا التنوع ؟ ومن فرّق أجزاءها هذا التفريق ؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصها به ؟ ومن ألقى عليها رواسيها ، وفتح فيها السبل ، وأخرج منها الماء والمرعى ؟ ومن أمسكها من الزوال ؟ ومن بارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، وأنشأ منها حيوانها ونباتها ؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها . ومنافعها ؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام ؟ ومن يبدأ الخلق منها ، ثم يعيده إليها ، ثم يخرجه منها ؟ ومن جعلها ذلولا غير مستعصية ولا ممتنعة ؟ ومن وطأ مناكبها ، وذلل مسالكها ، ووسع مخارجها ، وشق أنهارها ، وأنبت أشجارها ، وأخرج ثمارها ؟ ومن صدعها عن النبات ، وأودع فيها جميع الأقوات ؟ ومن بطنها ؟ وفرشها ومهدها وذللها ، وطماها ، ودحاها ، وجعل ما عليها زينة لها ؟ ومن الذى يمسكها أن تتحرك فتتزلزل ، فيسقط ما عليها من بناء ومعلم ، أو يخسفها بمن عليها فإذا هى تمور ؟ ومن الذى أنشأ منها النوع الإنسانى الذى هو أبدع المخلوقات ، وأحسن المصنوعات ، بل أنشأ منها آدم ، ونوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمداً ــ ﷺ ــ وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين ؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق ، والمعادن والحيوان ؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة ، فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر ، فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك ، ولو زادت فى القرب لاشتدت الحرارة والسخونة ــ كما نشاهده فى الصيف ــ فاحترقت أبدان الحيوان والنبات وبالجملة فكانت تفوت هذه الحكمة ، التى بها انتظام العالم ؟ ومن الذى جعل فيها الجنات والحدائق والعيون ؟ ومن الذى جعل باطنها بيوتاً للأموات وظاهرها بيوتا للأحياء ؟ ومن الذى يحييها بعد موتها ، فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ، ويطلع عليها الشمس ، فتأخذ فى الحبل ، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع ، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج .

فسبحان من جعل السماء كالأب ، والأرض كالأم ، والقطر كالماء الذى ينعقد منه الولد ، فإذا حصل الحب فى الأرض ، ووقع عليه الماء ، أثرت نداوة الطين فيه ، وأعانتها السخونة المختفية فى باطن

الأرض ، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة ، فاتسعت الحبة وربت ، وانتفخت ، وانفلقت عن ساقين : ساق من فوقها وهو الشجرة ، وساق من تحتها وهو العرق ، ثم عظم ذلك الولد ، حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه ، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة . كل ذلك صنع الرب الحكيم فى حبة واحدة لعلها تبلغ فى الصغر إلى الغاية ، وذلك من البركة ، التى وضعها الله — سبحانه — فى هذه الأم ، فيما لها من آية ، تكفى وحدها فى الدلالة على وجود الخالق ، وصفات كماله ، وأفعاله ، وعلى صدق رسله ، فيما أخبروا به عنه ، بإخراج من فى القبور ليوم البعث والنشور ..

فهذا بعض آيات الأرض ، ومن الآيات التى فيها وقائعه سبحانه ، التى أوقعها بالأمم المكذبين لرسلهم ، المخالفين لأمره ، وأبقى آثارهم دالة عليهم ، كما قال تعالى : ﴿ **وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم** ﴾[1] وقال فى قوم لوط : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **فأخذتهم الصيحة مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن فى ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم** ﴾[3] أى : بطريق ثابت لا يزول عن حاله وقال تعالى : ﴿ **وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين ، فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين** ﴾[4] أى : ديارهاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون . وقال تعالى : ﴿ **وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم** ﴾[5] وقال عن رجل يخرج وحده ، لا عدة له ولا عدد ، ولا مال ، فيدعوا الأمة العظيمة ، إلى توحيد الله ، والإيمان به وطاعته ، ويحذرهم من بأسه ونقمته ، فتتفق كلمتهم ، أو أكثرهم على تكذيبه ، ومعاداته ، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالصواعق ، وآخرين بأنواع العقوبات ، وينجو داعيهم ومن معه ، والهالكون أضعاف أضعافهم عوداً وقوة ، ومتعة وأموالاً :

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق ، كن هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا — إن كانوا على الحق وهم أكثرهم عدداً وأقوى شوكة — بقوتهم وعددهم من بأسه وسلطانه ، وهلا اعتصموا من عقوبته ، كما اعتصم من أضعف منهم من اتباع الرسل ؟

---

(١) العنكبوت آية : ٣٨
(٢) الصافات الآيتان : ١٣٧
(٣) الحجر الآيات : ٧٣ — ٧٦
(٤) الحجر الآيتان : ٧٨ ، ٧٩
(٥) إبراهيم آية : ٤٥

ومن الآيات التى فى الأرض ، مما يحدثه الله فيها كل وقت ، ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوتهم ، يحدثها الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى الأرض ، إقامة للحجة ، على من لم يشاهد تلك الآيات ، التى قاربت عصر الرسل ، حتى كأن أهل كل قرن ، يشاهدون ما يشاهده الأولون ، أو نظيره ، كما قال تعالى : ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[١] وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن ، بل لابد أن يرى الله ــ سبحانه ــ أهل كل قرن من الآيات ، ما يبين لهم أنه الله ، الذى لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرض أعظم مما يذكر ، وأكثر ، فنبه باليسير منها على الكثير .

قوله تعالى : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ قيل : التقدير وفى الأرض وفى أنفسهم آيات للموقنين . وقيل : المعنى : وفى خلق أنفسكم من نطفة ، وعلقة ، ومضغة ، ولحم ، وعظم ، إلى نفخ الروح ، وفى اختلاف الألسنة والألوان والصور ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة الدالة على كمال قدرته ، والشاهدة على وحدانيته (أفلا تبصرون) يعنى بصر القلب ، ليعرفوا كمال القدرة لله ــ سبحانه وتعالى ــ

قال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ يقول : أو لم ينظروا فى ذلك نظر تفكر وتدبر ، حتى يستدلوا بكونها محلاً للحوادث والتغيرات ، على أنها محدثات ، والمحدث لا يستغنى عن صانع يصنعه ، وأن ذلك الصانع حكيم عالم ، قدير سميع ، بصير متكلم ؛ لأنه لو لم يكن بهذه الصفات ، لكان الإنسان أكمل منه ، وذلك محال قال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** ﴾[٢] فلانسان إذا تفكر بهذا التنبيه بما جعل له من العقل فى نفسه رآها مدبرة وعلى أحوال شتى مصرّفه . كان نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم لحما وعظاما ، فيعلم أنه لم ينقل نفسه من حال النقص إلى حال الكمال ؛ لأنه لا يقدر على أن يحدث لنفسه فى الحال الأفضل ، التى هى كمال عقله ، وبلوغ أشدة ، عضوا من الأعضاء ، ولا يمكنه أن يزيد فى جوارحه جارحة ، فيدله ذلك على أنه فى حاله نقصه ، وأوان ضعفه ، عن فعل ذلك أعجز ، وقد يرى نفسه شابا ، ثم كهلا ، ثم شيخاً ، وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة ، إلى حال الشيخوخة والهرم ، ولا اختاره

---

١ ــ فصلت آية : ٥٣

٢ ــ المؤمنون الآيات : ١٢ ــ ١٦

لنفسه ، ولا فى وسعه أن يزايل حال المشيب ، ويراجع قوة الشباب ؛ فيعلم بذلك ، أنه ليس هو الذى فعل تلك الأفعال بنفسه ، وأن له صانعاً صنعه ، وناقلاً نقله من حال إلى حال ؛ ولولا ذلك ، لم تتبدل أحواله بلا ناقل ولا مدبر .

وقال الحكماء : إن كل شىء فى العالم الكبير ، له نظير فى العالم الصغير ، الذى هو بدون الإنسان ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ . فحواس الإنسان ، أشرف من الكواكب المضيئة ، والسمع والبصر منها ، بمنزله الشمس والقمر فى إدارك المدركات بها ، وأعضاؤه تصير عند البلى ترابا من جنس الأرض ، وفيه من جنس الماء العرق ، وسائر رطوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الروح والنفس ، ومن جنس النار فيه المرة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض ، وكبده بمنزله العيون التى تستمد منها الأنهار ، لأن العروق تستمد من الكبر ، ومثانته بمنزله البحر ، لا نصباب ما فى أوعية البدن إليها ، كما تنصب الأنهار إلى البحر ، وعظامه بمنزلة الجبال ، التى هى أوتاد الأرض ، وأعضاؤه كالأشجار ، كما أن لكل شجر ورقا أو ثمراً ، فكذلك لكل عضو فعل أو أثر والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض ، ثم إن الإنسان يحكى بلسانه كل صوت حيوان ، ويحاكى بأعضائه صنيع كل حيوان ؛ فهو العالم الصغير مع العالم الكبير ، مخلوق محدث لصانع واحد لا إله إلا هو .

سبحانك اللهم أنت الواحد	كل الوجود على وجودك شاهد
ياحى ياقيوم أنت المرتجى	وإلى علاك عنا الجبين الساجد
ما فى الوجود سواك رب يُعبد	كلاً ولا مولى هناك فيقصد
أنت الأله الواحد الحق الذى	كل الوجود له يقر ويشهد

يقول العلامة ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية : ﴿ **وفى أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، دعاه خالقه وبارئه ، ومصوره ، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر ، والفكر فى نفسه ، فإذا تفكر الإنسان فى نفسه ، استنارت له آيات الربوبية ، وسطعت له أنوار اليقين ، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب ، وانقشعت عنه ظلمات الجهل ، فإنه إذا نظر فى نفسه ، وجد آثار التدبير فيه قائمات ، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات ، شاهدة لمدبره ، داله عليه ، مرشدة إليه ، اذا يجده مكوناً من قطرة ماء : لحوماً منضدة وعظاماً مركبة ، وأوصالاً متعددة ، مأسورة مشددة بحبال

١ ـــ التين : آية ٤

العروق والأعصاب ، قد قمطت وشدت ، وجمعت بجلد متين ، مشتمل على ثلاثمائه وستين مفصلاً ، ما بين كبير وصغير ، وثخين ودقيق ، ومستطيل ومستدير ، ومستقيم ومنحن ، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائه وستين عرقاً ، للاتصال والانفصال ، والقبض والبسط ، والمد والضم ، والصنايع والكتابة .

وجعل فيه تسعة أبواب : فبابان للسمع ، وبابان للبصر ، وبابان للشم ، وبابان للكلام والطعام والشراب والتنفس ، وبابان لخروج الفضلات ، التى يؤذيه احتباسها .
وجعل داخل بابى السمع مراً قائلاً ، لئلا تلج فيها دابة ، تخلص إلى الدماغ فتؤذيه ، وجعل داخل بابى البصر مالحاً ، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم ، وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً ، ليسيغ به ما يأكله ويشربه ، فلا يتنغص به لو كان مراً أو مالحاً ،

وجعل له مصباحين ، من نور كالسراج المضىء ، مركبين فى أعلى مكان منه ، وفى أشرف عضو من أعضائه ، طليعة له ، وركب هذا النور فى جزء صغير جداً ، يبصر به السماء والأرض ، وما بينهما ، وغشاه بسبع طبقات ، وثلاث رطوبات ، بعضها فوق بعض ، حماية له وصيانة وحراسة ، وجعل على محله علقاً بمصراعين أعلى وأسفل ، وركب فى ذيل المصراعين ، أهداباً من الشعر وقاية للعين ، وزينة وجمالاً ، وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر ، يحجبان العين من العرق النازل ، ويتلقيان عنهما ما ينصب من هناك ، وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين ، شغلاً مخصوصاً ، ولكل واحد من الرطوبات مقدارا مخصوصا ، لو زاد على ذلك أو نقص منه ، لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة ، وجعل هذا النور الباصر فى قدر عدسة ، ثم أظهر فى تلك العدسة صورة السماء والأرض ، والشمس والقمر ، والنجوم والجبال ، والعالم العلوى والسفلى ، مع اتساع أطرافه ، وتباعد أقطاره ، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضا وسواداً ، وجعل القوة الباصرة فى السواد ، وجعل البياض مستقراً لها وسكناً ، وزين كلاً منهما بالآخر ، وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم ، والحواجب بالأهداب ، وجعلها إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر ، فضعف الإدراك ، فإن السواد يجمع البصر . ويمنع من تفرق النور الباصر . وخلق سبحانه لتحريك الحدقة ، وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة . لو نقصت عضلة واحدة ، لاختل أمر العين .

ولما كانت العين كالمرآة ، التى إنما تنطبع فيها الصور ، إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء ، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جداً بالطبع إلى الانطباق ، من غير تكلف ، لتبقى هذه المرآة نقية صافية ، من جميع الكدورات ، ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً ، فإنها لاتزال تراها تنظف عينها بيدها ، من آثار الغبار والكدورات ، وكما جعل سبحانه العينين مؤديتين للقلب ما يريانه ، فيوصلانه إليه ، كما ترياه جعلها مرآتين للقلب ، يظهر فيهما ما هو مودع فيه من الحب والبغض ، والخير والشر ، والبلادة

والفطنة ، والزيغ والاستقامة ، فيستدل بأحوال العين على أحوال القلب ، وهو أحد أنواع الفراسة الثلاثة ، وهى فراسة العين ، وفراسة الأذن ، وفراسة القلب ، فالعين مرآة القلب ، وطليعة ورسوله ، ومن عجيب أمرها أنها من ألطف الأعضاء ، وأبعدها تأثراً بالحر والبرد ، على أن الأذن على صلابتها وغلظها لتتأثر بهما ، أكثر من تأثر العين على لطافتها ، وليس ذلك بسبب الغطاء الذى عليها من الأجفان ، فإنها لو كانت متفتحة لم تتأثر بذلك تأثر الأعضاء اللطيفة . .

ومن ذلك الأذنان ، شقهما تبارك وتعالى فى جانبى الوجه وأودعهما من الرطوبة ما يكون معيناً على إدراك السمع . وأودعهما القوة السمعية . وجعل سبحانه فى هذه الصدفة انحرافات واعوجاجات ، لتطول المسافة قليلاً ، فلا يصل الهواء إلا بعد انكسار حدته فلا يصدمها وهلة واحدة ، فيؤذيها ، وأيضاً لئلا يفجأها الداخل إليها من الدبيب والحشرات ، بل إذا دخل إلى عوجة من تلك الإنعطافات وقف هناك ، فسهل إخراجه .

وكانت العينان فى وسط الوجه والأذنان فى جانبيه ، لأن العينين محل الملاحة والزينة والجمال ، وهما بمنزلة النور الذى يمشى بين يدى الانسان ، وأما الأذنان جعلهما فى الجانبين لكون إدراكهما لما خلف الإنسان ، **وأمامه** ، وعن يمينه ، وعن شماله سواء فتأتى المسموعات إليهما على نسبة واحدة . وخلقت العينان بغطاء ، والأذنان بغير غطاء ، وهذا فى غاية الحكمة . إذ لو كان للأذنين غطاء لمنع الغطاء إدراك الصوت فلا يحصل إلا بعد ارتفاع الغطاء ، والصوت عرضى لاثبات له ، فكان يزول قبل كشف الغطاء ، بخلاف ما تراه العين ، فإنه أجسام وأعراض لا تزول فيما بين كشف الغطاء وفتح العين . وجعل سبحانه الأذن عضواً غضروفياً ليس بلحم مسترخ ، ولا عظم صلب ، بل هى بين الصلابة واللين ، فتقبل بلينها ، وتحفظ بصلابتها ، ولا تتصدع انصداع العظام ، ولا تتأثر بالحر والبرد ، والشمس والنجوم تأثر اللحم إذ المصلحة فى بروزها لتتلقى ما يرد عليها من الأصوات والأخبار .

ومن ذلك الأنف . نصبه سبحانه فى وسط الوجه قائماً معتدلاً ، فى أحسن شكل وأوفقه للمنفعة ، وأودعه حاسة الشم التى يدرك بها الروائح وأنواعها ، وكيفياتها ومنافعها ومضارها ، ويستدل بها على مضار الأغذية والأدوية ومنافعها . وأيضاً فإنه يستنشق بالمنخرين الهواء البارد الرطب ، فيؤديه إلى القلب ، فيتروح به ، فيستغنى بذلك عن فتح الفم أبداً . وجعل تجويفه بقدر الحاجة ، فلم يوسعه عن ذلك . فيدخله هواء كبير . ولم يضيقه فلا يدخله من الهواء ما يكفيه وجعل ذلك التجويف مستطيلاً . لينحصر فيه الهواء ، وينكسر برده وحدته قبل أن يصل إلى الدماغ فلولا ذلك لصدمه بحدته وقوته . والهواء الذى يستنشقه الأنف ينقسم شطرين : شطراً يصعد إلى الدماغ ، وشطراً ينزل إلى الرئه ، وهو من آلات النطق . فإن له إعانة على تقطيع الحروف . وكما أن تجويفه جعل لاستنشاق الهواء ، فإنه جعل

مصباً لفضلات الدماغ ، تنحدر منه فى تلك القصبة ، فيخرج . فيستريح الدماغ ، ولذلك جعل عليها ستراً ، ولم يجعلها بارزة فتستقلها العيون . وجعل فيها تجويفاً . فإنه قد ينسد أحدهما ، أو يعرض له آفه تمنعه من الإدراك والاستنشاق . فيبقى التجويف الثانى نائباً عنه يعمل عمله ، كما اقتضت الحكمة ، مثل ذلك فى العينين .

ثم تأمل الهواء الذى يستنشقه الأنف ، كيف يدخله أولاً من المنخرين ، وينكسر برده هناك ، ثم يصل إلى الحلق ، فيعتدل مزاجه هناك . ثم يصل إلى الرئه ألطف ما يكون . ثم تبعثه الرئه إلى القلب ، فيروح عن الحرارة الغريزية فيه . ثم ينفذ من القلب إلى العروق المتحركة ، ويبلغ إلى أقاصى أطراف البدن . ثم إذا سخن فى الباطن وخرج عن حد الانتفاع خرج عن تلك الأقاصى إلى البدن ، ثم إلى الرئه . ثم إلى الحلقوم ، ثم إلى المنخرين خارجاً ، فيخرج منهما ويعود عوضه هواء بارد نافع . والنفس الواحد من أنفاس العبد إنما يتم بمجموع هذه الأمور والقوى والأفعال . وهو له فى اليوم والليلة ، أربعة وعشرون ألف نفس ، لله فى كل نفس عدة نعم ، قد وقفت على القليل منها ، فما ظنك بما وراء النفس من الأعضاء ، والقوى ومنافعها وتمام النعمة بها ؟

وأما الفم فمحل العجائب ، وباب الطعام والشراب والنفس والكلام ويمكن اللسان الناطق الذى هو آلة العلوم ، وترجمان القلب ورسوله المؤدى عنه .

ولما كان القلب ملك البدن ، ومعدناً للحرارة الغريزية ، فإذا دخل الهواء البارد وصل إليه فاعتدلت حرارته ، وبقى هنالك ساعة فسخن واحترق . فاحتاج القلب إلى دفعه وإخراجه فجعل أحكم الحاكمين إخراجه سبباً لحدوث الصوت فى الحنجرة والحنك ، واللسان ، والشفتين . والأسنان مقاطع ومخارج مختلفة ، وبسبب اختلافها تميزت الحروف بعضها عن بعض ثم ألهم العبد تركيب تلك الحروف ليؤدى بها عن القلب ما يأمر به .

فتأمل الحكمة الباهرة حيث لم يضع سبحانه ذلك النفس المستغنى عن المحتاج إلى دفعه وإخراجه ، بل جعل فيه إذا استغنى عنه منفعة ومصلحة هى من أكمل المنافع والمصالح . فإن المقصود الأصلى من النفس هو اتصال الريح البارد إلى القلب . فأما إخراج النفس فهو جار مجرى دفع الفضلة الفاسدة . فصرف ذلك سبحانه إلى رعاية مصلحة ، ومنفعة أخرى . وجعله سبباً للأصوات والحروف والكلام .

ثم أنه سبحانه جعل الحناجر مختلفة الأشكال : فى الضيق ، والسعة والخشونة والملاسة ، لتختلف الأصوات باختلافها ، فلا يتشابه صوتان ، كما لا تتشابه صورتان . وهذا من أظهر الأدلة . فإن هذا

الاختلاف ـــ الذى بين الصور والأصوات على كثرتها وتعددها ـــ فقلما يشتبه صوتان أو صورتان ـــ ليس فى الطبيعة ما يقتضيه . وإنما هو صنع الله الذى اتقن كل شيء وأحسن كل شيء خلقه . فتبارك الله أحسن الخالقين وتبارك الله رب العالمين . فميز سبحانه بين الأشخاص بما يدركه السمع والبصر

سبحـــانك اللهـــم أنت الواحـــد كل الوجود على وجـودك شاهـــد
ياحــــى ياقيـــــوم أنت المرتجى وإلى عـلاك عنـى الجبين الساجــد

وأودع اللسان من المنافع منفعة الكلام ـــ وهي أعظمها ـــ ومنفعة الذوق والإدراك وجعله دليلاً على اعتدال مزاج القلب وانحرافه ، كما جعله دليلاً على استقامته واعوجاجه . فترى الطبيب يستدل بما يبدو للبصر على اللسان من الخشونة ، والملاسة والبياض والحمرة ، والتشقق وغيره ، على حال القلب والمزاج وهو دليل قوى على أحوال المعدة والأمعاء ، كما يستدل السامع بما يبدو عليه من الكلام على ما فى القلب ، فيبدو عليه صحة القلب وفساده معنى وصورة .

وجعل سبحانه اللسان عضواً لحمياً ، لا عظم فيه ولا عصب ، لتسهل حركته ولهذا لا تجد فى الأعضاء من لا يكترث بكثرة الحركة سواه فإن أى عضو من الأعضاء إذا حركته كما تحرك اللسان لم يطق ذلك ، ولم يلبث أن يكل ويخلد إلى السكون ، إلا اللسان . وأيضا فإنه من أعدل الأعضاء وألطفها ، وهو فى الأعضاء بمنزلة رسول الملك ونائبه . فمزاجه من أعدل أمزجه البدن ويحتاج إلى قبض وبسط . وحركة فى أقاصى الفم وجوانبه . فلو كان فيه عظام لم يتهيأ منه ذلك ، ولم يتهي منه الكلام التام ولا الذوق التام . فكونه الله كما اقتضاه السبب الفاعلى والغائى والله أعلم .

وجعل سبحانه على اللسان غلقين : أحدهما الأسنان ، والثانى الفم ، وجعل حركته اختيارية . وجعل على العين غطاء واحداً ولم يجعل على الأذن غطاء . ذلك لخطر اللسان وشرفه وخطر حركاته ، وكونه فى الفم بمنزلة القلب فى الصدر . وذلك من اللطائف . فإن آفة الكلام أكثر من آفة النظر وآفة النظر أكثر من آفة السمع . فجعل للأكثر آفات طبقين وللمتوسط طبقاً ، وجعل الأقل آفة بلا طبق .

وجعل سبحانه الفم أكثر الأعضاء رطوبة ، والريق يتحلل إليه دائماً لا يفارقه . وجعله حلواً لا مالحاً كماء العين ، ولا مراً كالذى فى الأذن ، ولا عفناً كالذى فى الأنف ، بل هو أعذب مياه البدن وأحلاها ـــ حكمة بالغة ـــ فإن الطعام والشراب يخالطه بل هو الذى يحيل الطعام ويمتزج به امتزاج العجين بالماء . فلولا أنه حلو لما التذ الإنسان بل ولا الحيوان ، بطعام ولا شراب ، ولا ساغه إلا بعد

طبخه ، جعل الرب تعالى له آلة للتقطيع والتفصيل وآلة للطحن ، فجعل آلة القطع — وهى الثنايا وما يليها — حادة الرؤس ليسهل بها القطع . وجعل لنواجذ وما يليها من الأضراس مسطحة الرؤس ، عريضة ، ليتأتى بها الطحن . ونظمها أحسن نظام كاللؤلؤ المنظم فى سلك وجعلها من الجانب الأعلى والأسفل ، ليتأتى بها القطع والطحن وجعلها من الجانب الأيمن والأيسر . إذ ربما كلت إحدى الآلتين أو تعطلت أو عرض لها عارض . فينتقل إلى الآلة الأخرى . وأيضاً لو كان العمل على جانب واحد دائماً أو شك أن يعطل ويضعف وتأمل كيف أنبتها سبحانه من نفس اللحم ، وتخرج من خلاله نابته كما ينبت الزرع فى الأرض . ولم يكسها سبحانه لحماً ، كسائر العظام سواها . إذ لو كساها اللحم لتعطلت المنفعة المقصودة ولما كانت العظام محتاجة إلى لحم يكسوها ويحفظها ويتلقى عنها الحرارة والبرد ويحفظ عليها رطوبتها ، لم تكمل مصلحة **الحيوان** إلا بهذه الكسوة . ولما كانت عظام الإنسان محتاجة إلى ذلك من وجه . مستغنية عنه من وجه ، جعلت كسوتها منفصلة عنها وجعلت هى المكتسية العارية لتمام المنفعة بذلك . ولما كانت آلة القطع والكسر والطحن لم تنشأ مع الطفل من أول نشأته — كسائر عظامه — لعدم الحاجة إليها — عطل عنها وقت استغنائه عنها بالرضاع ، وأعطيها وقت حاجته إليها . وفيه حكمة أخرى وهى أنه لو نشأت معه حين يولد لأضرت بحلمه الثدى . اذ لا عقل له يحرزه عن عضها فكانت الأم تمتنع من إرضاعه .

فكانت عجيب أمرها الاتفاق والموالاة التى بينهما وبين المعدة . فإنه يسلم إليها الشىء اليابس والصلب فتطحنه ثم تسلمه إلى اللسان فيعجنه . ثم اللسان يسلمه إلى الحلق فيوصله إلى المعدة فتنضجه وتطبخه . ثم يرسل إليها منه معلومها المقدر لها . فإذا عجزت عن قطع شىء وطحنه عجزت المعدة عن إنضاجه وطبخه . فإذا كلّت الأسنان كلت المعدة ، وإذا ضعفت ضعفت .

وهى تصحب الإنسان وتخدمه ما لم يرها ، فإذا وقعت عينه عليها فارقته الأبد وهى سلاح ومنشار ، وسكين وروح وزينة وفيها منافع ومصالح غير هذه .

ثم تأمل حال الشعر ومنبته وسببه . فإن البدن لما كان حارا رطباً . والحرارة إذا عملت فى الرطوبة فلابد أن تثير بخاراً وتلك الأبخرة تتصاعد من عمق البدن إلى سطحه ، وتريد الانفصال من هناك ، فلابد أن تحدث مساماً ومنافذ فى ظاهر الجلد . وتلك الأبخرة إما أن تكون رطبة لطيفة . فحينئذ تنفصل من المسام ولا تحدث شيئاً . وإما أن تكون دخانية يابسة غليظة فالجلد حينئذ إما أن يكون فى نهاية النعومة والنضارة كجلد الصبيان ، أو فى غاية اليبس والقشف ، أو يكون معتدلا فإذا ذاك لا يتولد فيه الشعر . لأن البخار إذا شق سطح الجلد وانفصل عاد الجلد فى الحال إلى اتصاله الأول ، بسبب كثرة رطوبته ونعومته . مثاله السمك إذا رفع رأسه من الماء انشق له الماء ، فإذا عاد إلى الماء عاد الماء إلى اتصاله الأول فإذا كان الجلد فى غاية اليبس لم يتولد الشعر ، لأن الجلد اليابس إذا انثقب بقيت

تلك الثقب مفتوحة ليبس الجلد . فيفرق أجزاءه البخار ولا يجتمع بعضه إلى بعض فإن الجلد متوسط بين النعومة والكثافة ، فإنه ينفتح فيه المسام بسبب تلك الأبخرة ولا يعود ينسد بعد خروج البخار ، ولكن لا تبقى المسام شديدة الإنفتاح ، وحينئذ يبقى ذلك البخار الدخانى فى تلك الثقبة لا يزال يمده بخار آخر يدفعه أولاً فأولاً الى خارج ، من غير أن ينقطع أصله فيبقى بعضه مركوزا فى الجلد ، منزلته منزلة أصل النبات وبعضه يطلع إلى خارج ، منزلته منزلة ساق النبات . وكذلك الشعر . فمادة الشعر هى البخار الدخانى اليابس وسببه هو الحرارة الطبيعية المحرقة لذلك البخار . والآلة التى بها يتم أمره هى المسام التى ارتكن فيها البخار فتلبد هناك فصار شعراً بإذن الله .

والغاية التى من أجلها وجد نثيان عام ، وهو تنقية البدن من الفضول الدخانية الغليظة ، والأخر خاص . وهو إما للزينة . وإما للوقاية .

وإذا بان أن الشعر إنما يتولد مع الحرارة واليبس المعتدل بقيت ثلاثة أقسام . أحدهما حرارة غالية على اليبس . كالعبيان . الثانى عكسه . وهو يبس غالب على الحرارة كالمشايخ . الثالث حرارة ضعيفة ويبس ضعيف . كأبدان النساء . ففى هذه الأقسام يقل الشعر . وأما الشباب فإن حرارة أبدانهم ويبسهم معتدل ينتوى تولد الشعر فيهم .

وفى شعر الرأس منافع ومصالح : منها وقايته عن الحر والبرد والمرض . ومنها الزينة والحسن .

والسبب الذى صار به شعر الرأس أكثر من شعر البدن هو أن البخار شأنه أن يصعد من جميع البدن الى الدماغ ، ومن الدماغ الى فوق ، وكان هذا الشعر نتمياً على الدوام ، لأن البخار يتصاعد الى الرأس أبداً ، وهو مادة الشعر فبنماء الشعر ينمو البخار . وكان فيه تخليص للبدن من تلك المواد وتكثير لوقايته وغطائه .

واما شعر الحاجبين فقيه ـ مع الحس والزينة والجمال ـ وقاية العين مما ينحدر من الرأس ، وجعل على هذا المقدار لأنه لو نقص عنه لزالت منفعة الجمال والوقاية . ولو زاد عليه لغطى العين وأضر بها وحال بينها وبين ما تدركه وقد ذكرنا منفعة شعر الهدب . ولما كان الأنفع والأصلح أن يكون شعر الهدب قائماً منتصباً وأن يكون باقيا على حال واحد فى مقدار واحد ، جعل منبت هذا الشعر فى جرم صلب شبيه بالغضروف يمتد فى طول الجفن لئلا يطول وينمو ..

وأما شعر اللحية ففيه منافع : منها الزينة ، والوقار ، الهيبة . لهذا لا يرى على الصبيان والنساء من الهيبة والوقار ما يرى على ذوى اللحى ومنها التميز بين الرجال والنساء .

وأما شعر العانة ، والإبط ، والأنف فمنفعته تنقية البدن من الفضلة . ولهذا إذا أزيل من هذا الموضع وجد البدن خفة ونشاطا . وإذ وفر وجد ثقلا وكسلا وغماً . ولهذا جاءت الشريعة بحلق العانة ، ونتف الإبط . وكان حلق العانة أولى من نتفها لصلابة الشعر وتأذى صاحبها بنتفه ، وكان نتف الأبط أولى من حلقه لضعف الشعر هناك وشدته وتعجل نباته بالحلق . فجاءت الشريعة بالأنفع فى هذا وهذا .

وتأمل حكمة الرب تعالى فى كونه أخلى الكفين والجبهة والأخمصين من الشعر ، فإن الكفين خلقا حاكمين على الملموسات فلو حصل الشعر فيهما لأخل بذلك ، وخلقا للقبض ، وإلصاق اللحم على المقبوض أعون على جودته من التصاق الشعر به . وأيضاً فإنهما آلة الأخذ والعطاء ، والأكل ، ووجود الشعر فيهما يخل بتمام هذه المنفعة . وأما الأخمصان فلو نبت الشعر فيهما لأضر بالماشى وأعاقه فى المشى كثيرا مما يعلق بشعره من على الأرض ، ويتعلق بما عليها أيضا . هذا مع أن أكثر الأوتار والأغشية فى الكفين مانع من نفوذ الأبخرة فيها . وأما الأخمصين فإن الأبخرة تتصاعد إلى علو ، وكلما تصاعد كان الشعر أكثر . وأيضا فإن كثرة وطء الأرض بالأخمصين يصلبهما ويجعل سطحهما أملس لا ينبت شيئاً ، كما أن الأرض التى توطأ كثيرا لا تنبت شيئاً .

وأما الجبهة فلو نبت الشعر عليها لستر محاسنها ، وأظلم الوجه وتدلى على العين . وكان يحتاج إلى حلقه دائماً ، ومنع العينين من كمال الإدراك ، والسبب المؤدى لذلك أن الذى تحت عظم الجبهة هو مقدم الدماغ ، وهو بارد رطب ، والبخار لا يتحرك منحرفا إلى الجبهة . بل صاعداً إلى فوق ..

ثم يقول العلامة ابن القيم :

فاستقبل الآن النظر فى نفسك ، وانظر إلى المبدأ الأول ، وهو النطفة التى هى قطرة مهينة ضعيفة ، لو تركت ساعة لبطلت وفسدت كيف أخرجها الرب تعالى من بين الصلب والترائب ؟ وكيف أوقع المحبة والألفة بين الذكور والإناث . ثم قادهما بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع . ثم استخرج النطفة من الذكر بحركة الوقاع من أعماق العروق ، وجمعها فى الرحم فى قرار مكين لا تناله يد ، ولا تطلع عليه شمس ، ولا يصيبه هواء ، ثم صرف تلك النطفة طوراً بعد طور ، وطبقا بعد طبق ، وغذاها بماء الحيض وكيف جعل سبحانه النطفة — وهى بيضاء مشرقة — علقة حمراء ، ثم جعلها مضغة ، ثم قسم أجزاء المضغة إلى العظام والأعصاب والعروق ، والأوتار ، واللحم فى داخل الرحم فى الظلمات الثلاث ، ولو كشف لك الغطاء لرأيت التخطيط والتصوير يظهر فى تلك النطفة شيئاً بعد شيء ، من غير أن ترى المصور ولا آلته ولا قلمه . فهل رأيت مصورا لا تحسى آلته ولا تلاقيها ؟

ثم تأمل هذه القبة العظيمة التى قد ركبت على المنكبين وما أودع فيها من العجائب . وما ركب فيها من الخزائن ، وما أودع فى تلك الخزائن من المنافع ، وما اشتملت عليه هذه القبة من العظام المختلفة الأشكال ، والصفات ، والمنافع ، ومن الرطوبات والأعصاب والطرق ، والمجارى ، والدماغ ، والمنافذ والقوى الباطنة من الذكر والفكر ، والتخيل وقوة الحفظ ، ففيه القوة المفكرة مسخرة لمصالحها ، يستعملها ، ويستخدمها كيف أراد .

فتأمل كيف دور سبحانه الرأس ، وشق سمعه وبصره وأنفه وفمه ؟ وكيف ركب كرته فى بطن الأم من ثلاثة وعشرين عظماً ، وخلق تلك العظام على كيفيات مختلفة .

وتأمل كيف انقلبت تلك النطفة اللينة الضعيفة إلى العظام الصلبة الشديدة ؟

ثم تأمل كيف قدر سبحانه كل واحد من تلك العظام بشكل مخصوص بحيث حصل من مجموعها ما لو كان على خلافه لبطلت المنفعة وفات الغرض . ثم ركب بعضها مع بعض بحيث حصل من مجموعها كرة الرأس على هذه الخلقة المخصوصة .

ولما كان الرأس أشرف الأعضاء الإنسانية وأجمعها للقوى ، والمنافع والآلات والخزائن اقتضت العناية الإلهية بأن صين بأنواع من الصيانات . وذلك أن الدماغ يحيطه غشاء رقيق وفوق ذلك الغشاء غشاء آخر ، يقال له : السمحاق . ثم فوق ذلك الغشاء طبقة لحمية . وفوق تلك الطبقة اللحمية الجلد ثم فوق الجلد الشعر فخلق سبحانه فوق دماغك سبع طبقات كما خلق فوق الأرض سبع سموات طباقاً .

والمقصود من تخليقها الإحتياط فى صون الدماغ من الآفات . والدماغ من الرأس بمنزلة القلب من البدن .

وهو سبحانه قسمه فى طوله ثلاثة أقسام ، وجعل القسم المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن الأوسط محل التأمل والتفكر ، والبطن الأخير محل التذكر والاسترجاع لما كان قد نسيه ولكل واحدة من هذه الأمور الثلاثة أمر مهم للإنسان . لابد له منه ، وأنه محتاج إلى التفهم والتفهيم ، ولو لم يكن حافظا لمعانى التصورات وصورها بعد غيبتها لكان إذا سمع كلمة وفهمها شذت عنه عند مجىء الأخرى ، فلم يحصل المقصود من الفهم والإفهام ، فجعل له ربه وفاطره خزانة تحفظ له صور المعلومات حتى تجتمع له ، وتسمى القوة التى فيها القوة الحافظة ، ولا تتم مصلحة الإنسان إلا بها .. فذلك من أعظم آيات الله وأدلته وقدرته وحكمته . كيف ترتسم صورة السموات والأرض والبحار والشمس والقمر والأقاليم

والممالك والأمم فى هذا المحل الصغير ؟ والإنسان يحفظ كتباً كثيرة جداً وعلوماً شتى متعددة ، وصنائع مختلفة ، فترتسم كلها فى هذا الجزء الصغير ، من غير أن يختلط بعض هذه الصور ببعض ، بل كل صورة منهن بنفسها محصلة فى هذا المحل . وأنت لو ذهبت تنقش صوراً وأشكالاً كثيرة فى محل صغير لا ختلط بعضها ببعض ، وطمس بعضها بعضا . وهذا الجزء الصغير تنقش فيه الصور الكثيرة المختلفة ، والمتضادة ، ولا يبطل منها صورة صورة .

ومن أعجب الأشياء أن القوة العاقلة تقبل ما تؤديه إليها الحواس فتجتمع فيها ، ثم تعيد كل حاسة منها فائدة الحاسة الأخرى .

مثاله : أنك ترى الشخص فتعلم أنه فلان ، وتسمع صوته فتعلم أنه هو ، وتلمس الشىء فتعرفه ، وتشمه فتعرف أنه هو ، ثم تستدل بما تسمعه من صوته على أنه هو الذى رأيته ، فيغنيك سماع صوته عن رؤيته ، ويقوم لك مقام مشاهدته . ولهذا جوز أكثر الفقهاء شهادة الأعمى وبيعه وشراءه . وأجمعوا على جواز وطئه امرأته ، وهو لم يرها قط ، اعتماداً منه على الصوت . بل لو كانت خرساء أيضا وهو أطرش جاز له الوطء .

وقد جعل الله ـــ سبحانه ـــ بين السمع والبصر والفؤاد علاقة وارتباطاً ونفوذاً يقوم به بعضها مقام بعض . ولهذا يقرن سبحانه بينهما كثيرا فى كتابه كقوله : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها** ﴾[3] وهذا من عناية الخالق سبحانه بكمال هذه الصورة البشرية لتقوم كل حاسة منها مقام الحاسة الأخرى . وتفيد فائدتها فى الجملة . لا فى كل شىء .

ثم أودع سبحانه قوة التفكر وأمره باستعمالها فيما يجدى عليه النفع فى الدنيا والآخرة ، فركب القوة المفكرة عن شيئين من الأشياء الحاضرة عند القوة الحافظة تركيباً خاصاً ، فيتولد من بين هذين الشيئين شىء وثالث جديد لم يكن للعقل شعور به . كانت مواده عنده لكن بسبب التركيب حصل له الأمر الثالث . ومن هاهنا حصل استخراج الصنائع والحرف والعلوم وبناء المدن والمساكن ، وأمور

---

١ ـــ سورة الإسراء الآية : ٣٦
٢ ـــ سورة الأحقاف الآية : ٢٦
٣ ـــ سورة الأعراف الآية : ١٧٩

الزراعة والفلاحة وغير ذلك . فلما استخرجت القوة المفكرة ذلك ، واستحسنته سلمته إلى القوة الإرادية العلمية . فنقلته من ديوان الأذهان إلى ديوان الأعيان فكان أمراً ذهنياً ، ثم صار وجودياً خارجياً . ولولا الفكرة لما اهتدى الإنسان إلى تحصيل المصالح ودفع المفاسد ، وذلك من أعظم النعم ، وتمام العناية الإلهية . ولهذا لما فقد البهائم والمجانين ونحوهم هذه القوة لم يتمكنوا مما تكن منه أرباب الفكر كان استخراج الطلوب بهذه الطريقة يتضمن فكراً وتقديراً فيفكر فى استخراج المادة أولاً ، ثم يقدرها ويفصلها ثانياً كما ـــ يصنع الخياط يحصل الثوب ثم يقدره ويفصله ثانياً قال تعالى عن الوليد : ﴿ **ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر** ﴾[١] فكرر سبحانه التقدير دون التفكير وذمه عليه دونه . وهذا منزل على مقتضى حال سواه . فإنه بالفكر طالب لاستخراج المجهول . وذلك غير مذموم . فلما استخرجه قدر له تقديرين : تقديراً كلياً وتقديراً جزئياً . فالتقدير الكلى أن الساحر هو الذى يفرق بين المرء وزوجه . والتقدير الجزئى أن الذى يفرق بين المرء وزوجه مذموم . فههنا تقدير بعد تقدير . فلهذا كرره سبحانه وذمه عليه . وأما التفكير فإن الفكر طالب لمعرفة الشىء . فلا يذم ، بخلاف من قدر بعد تفكيره ما يوصله إلى تحقيق الباطل وإبطال الحق . فتأمله .

ثم أنزل إلى العين . وتأمل عجائبها ، وشكلها ، وخلقها ، وإيداع النور الباصر فيها . وتركيبها من عشر طبقات . وثلاث رطوبات ولكل واحد من هذه الطبقات والرطوبات شكل مخصوص ومقدار مخصوص لو لم يكن عليه لاختلت المصلحة المقصودة وجعل سبحانه موضع الإبصار فى قدر العدسة . ثم أظهر فى تلك العدسة قدر السماء والأرض والجبال والبحار والشمس والقمر . فانظر كيف اتسعت تلك العدسة أن يرتسم فيها ما لانسبة لها إليه البته ؟ وجعل تلك القوة الباصرة فى جزء أسود . فتأمل كيف قام الباصر بهذا الجزء الأسود ؟

وجعل سبحانه الحدقة مصونة بالأجفان ، لتسترها ، وتحفظها ، وتصقلها وتدفع الاقذاء عنها . وجعل شعر الأجفان أسود ليكون سواده سببا لاجتماع النور الذى به الإبصار ، ويكون مانعا من تفرقه ، ويكون أبلغ فى الحسن والجمال .

وخلق سبحانه لتحرك الحدقة أربعة وعشرين عضلة ، لو نقصت واحدة منهن لاختل أمر العين .

---

١ ـــ سورة المدثر الآيات : ١١ ـــ ٢٠

ولما كانت العين شبيهة بالمرآة — التى إنما ينتفع بها إذا كانت فى غاية الصقالة والصفاء — جعل سبحانه الأجفان متحركة إلى الانفتاح والإطباق أبداً باختيار الإنسان وغير اختيار ، لتبقى الحدقة نقية صافية عن جميع الكدورات . وجعل العينين بمنزلة المرآتين الصقيلتين اللتين تنطبع فيهما صور الأشياء الخارجية . فيتأثر القلب ، ثم يظهر ما فيه عليهما فيتأثران به . فهما مرآة لما فى القلب يظهر فيهما ، ومرآة لما فى الخارج تنطبع صورته فيهما . فالعينان على القلب كالزجاجتين الموضوعتين فى المرآة ، ولذلك يستدل بأحوال العين على أحوال القلب من رضاه وغضبه ، وحبه ، وبغضه ، ونفرته فسبحان الله العليم الحكيم .

ثم اعدل إلى الأذنين ، وتأمل شقهما ، وخلقهما ، وإيداع الرطوبة فيهما ليكونا عونا على إدراك السمع ، وجعلها مُرة لتمتنع الهواء عن الدخول فى الأذن ، وحوطهما سبحانه بصدفتين يجمعان الصوت ويؤديانه إلى الصماخ ، وجعل فى الصدفتين تعريجات لتطول المسافة فتنكسر حدة الصوت ولا تلج الهوام دفعة بل تكثر حركاتها فينتبه لها فيخرجها . وجعل العينين مقدمتين والأذنين مؤخرتين لأن العينين بمنزلة الطليعة والكاشف والرائد ، الذى يتقدم القوم ليكشف لهم وبمنزلة السراج الذى يضيء للسالك ما أمامه . وأما الأذنان فيدركان المعانى الغائبة التى ترد على العبد من أمامه ومن خلفه وعن جانبيه فكان جعلهما فى الجانبين أعدل الأمور . فسبحان من بهرت حكمته العقول .

ثم انزل إلى الأنف ، وتأمل شكله وخلقته ، وكيف رفعه سبحانه فى وسط الوجنة بأحسن شكل ، وفتح فيه بابين ، وأودع فيهما حاسة الشم ، وجعله آلة استنشاق الهواء وإدراك الروائح على اختلافها .. وجعل سبحانه تجويفه واسعاً لينحصر فيه الهواء وينكسر برده قبل الوصول إلى الدماغ ، فإن الهواء المستنشق ينقسم قسمين : شطرا منه — وهو أكثره — ينفذ إلى الرئة ، وشطرا ينفذ إلى الدماغ . ولذلك يضر المزكوم استنشاق الهواء البارد . وجعل فى الأنف أيضا إعانة على تقطيع الحروف . وجعل بين المنخرين حاجزاً . وذلك أبلغ فى حصول المنفعة المقصودة ، حتى كأنهما أنفان بمنزلة العينين ، والأذنين ، واليدين والرجلين . وقد يصيب أحد المنخرين آفة فيبقى الآخر سليما ، وجعل تجويفه نازلا إلى أسفل ، ليكون مصباً للفضلات النازلة من الدماغ . وستره بساتر أبدى ، لئلا تبدو تلك الفضلات فى عين الرائى ..

ثم انزل إلى الصدر تر معدن العلم ؟ والحلم والوقار ؟ والسكينة ، والبر وأضدادها ، فتجد صدور العلية تعلو بالبر والخير والعلم والإحسان ، وصدور السفلة تغلى بالفجور والشرور والإساءة والحسد والمكر .

ثم انفذ من ساحة الصدر إلى شاهدة القلب تجد ملكاً عظيماً جالساً على سرير مملكته ، يأمر ، وينهى ، ويولى ، ويعزل ، وقد حف به الأمراء والوزراء والجند . كلهم فى خدمته ، إن استقام استقاموا ، وإن زاغ زاغوا ، وإن صح صحوا ، وإن فسد فسدوا فعليه المعول ، وهو محل نظر الرب تعالى ، ومحل معرفته ، ومحبته ومشيئته والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والرضى به ، وعنه والعبودية عليه أولاً وعلى رعيته وجنده تبعاً . فأشرف ما فى الإنسان قلبه . فهو العالم بالله ، الساعى إليه ، المحب له ، وهو محل الإيمان والعرفان ، وهو المخاطب المبعوث إليه الرسل ، المخصوص بأشرف العطايا ، من الإيمان والعقل ، وإنما الجوارح أتباع للقلب يستخدمها إلى الجوارح من الطاعات والمعاصى ، إنما هى آثاره ، فإن أظلم أظلمت الجوارح ، وإن استنار استنارت ، ومع هذا فهو بين إصبعين من أصابع الرحمن — عز وجل — .

فسبحان مقلب القلوب ومودعها ما يشاء من أسرار الغيوب الذى يحول بين المرء وقلبه ، ويعلم ما ينطوى عليه من طاعته ودينه مصرف القلوب كيف أراد وحيث أراد . أوحى إلى قلوب الأولياء أن أقبلى إلىّ ، فبادرت وقامت بين يدى رب العالمين . وكره عز وجل انبعاث آخرين فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين كانت إكثر يمين رسول الله — ﷺ — « لا ومقلب القلوب »[1] وكان من دعائه « اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك »[2] قال بعض السلف . القلب أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غليانها . وقال آخر : القلب أشد تقلباً من الريشة بأرض فلاة فى يوم ريح عاصف .

ويطلق القلب على معنيين : أحدهما أمر حى وهو العضو اللحمى الصنوبرى الشكل ، المودع فى الجانب الأيسر من الصدر ، وفى باطنه تجويف ، وفى التجويف دم أسود ، وهو منبع الروح ، والثانى أمر معنوى ، وهو لطيفة ربانية رحمانية روحانية لها بهذا العضو تعلق واختصاص . وتلك اللطيفة هى حقيقة الإنسانية .

وللقلب جندان : جندى يرى بالأبصار ، وجند يرى بالبصائر . فأما جنده المشاهد فالأعضاء الظاهرة والباطنة ، وقد خلقت خادمة له لا تستطيع له خلافاً ، فإذا أمر العين بالانفتاح انفتحت . وإذا أمر اللسان بالكلام تكلم . وإذا أمر اليد بالبطش بطشت . وإذا أمر الرجل بالسعى سعت . وكذا جميع الأعضاء ذللت له تذليلا .

---

١ — صحيح البخارى — كتاب التوحيد — باب قوله تعالى : وأنا الرزاق ذو القوة المتين ٩ /١٤٥ وأبو داود — كتاب الإيمان والنذور — باب ما جاء فى يمين النبى — ﷺ — ما كانت ٣ /٥٧٧ رقم ٣٢٦٣ والترمذى فى الإيمان والنذور حديث رقم ١٥٤٠

٢ — مسند أحمد ٤ /١٨٢

ولما خلق القلب للسفر إلى الله والدار الآخرة وحصل فى هذا العالم ليتذود منه افتقر إلى المركب والزاد لسفره الذى خلق لأجله . فأعين باالأعضاء والقوى ، وسخرت له ، وأقيمت له فى خدمته لتجلب له ما يوافقه من الغذاء والمنافع ويدفع عنه ما يضره ويهلكه ، فافتقر إلى جنديين : باطن ، وهو الإرادة والشهوة ، والقوى . وظاهر وهو الأعضاء . فخلق فى القلب من الإرادات والشهوات ما احتاج إليه . وخلقت له الأعضاء التى هى آلة الإرادة ، واحتاج فى دفع المضار إلى جنديين : باطن ، وهو الغضب الذى يدفع المهلكات ، وينتقم به من الأعداء وظاهر وهو الأعضاء التى ينفذ بها غضبه ، كالأسلحة للقتال ولا يتم ذلك إلا بمعرفته ما يجلب وما يدفع ، فأعين الجند من العلم بما يكشف له حقائق ما ينفعه وما يضره .

ولما سلطت عليه الشهوة والغضب والشيطان أعين بجند من الملائكة وجعل له محل من الحلال ينفذ فيه شهواته ، وجعل بإزائه أعداء له ينفذ فيهن غضبه ، فما ابتلى بصفة من الصفات إلا وجعل لها مصرفا ومحلا ينفذها فيه ، فجعل لقوة الحسد فيه مصرفا وهو المنافسة فى فعل الخير ، والغبطة عليه ، والمسابقة إليه ، ولقوة الكبر مصرفاً وهو الحرص على ما ينفع كما قال — ﷺ — : « احرص على ما ينفعك »[1] ، ولقوة الشهوة مصرفا وهو التزوج بأربع والتسرى بما شاء ، ولقوة حب المال مصرفاً ، وهو إنفاقه فى مرضاته تعالى ، والتزود منه لمعاده ، فمحبه المال على هذا الوجه لاتذم ، ولمحبة الجاه مصرفاً ، وهو استعماله فى تنفيذ أوامره وإقامة دينه ، ونصرالمظلوم ، وإغاثة الملهوف ، وإعانة الضعيف وقمع أعداء الله . فمحبة الرياسة والجاه على هذا الوجه عبادة . وجعل لقوة اللعب واللهو مصرفا ، وهو لهوه مع امرأته ، أو بقوسه وسهمه ، أو تأديبه فرسه . وكل ما أعان على الحق . وجعل لقوة التحيل والمكر فيه مصرفا ، وهو التحيل على عدوه وعدو الله تعالى بأنواع التحيل . وهكذا جميع القوى التى ركبت فيه جعل لها مصرفا وقد ركبها الله فيه لمصالح اقتضتها حكمته ولا يطلب تعطيلها ، وإنما تصرف مجاريها من محل إلى محل ، ومن موضع إلى موضع ، ومن تأمل هذا الموضع وتفقه فيه ، علم شدة الحاجة إليه ، وعظم الانتفاع به ...

قوله تعالى : ﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾

قال سعيد بن جبير والضحاك : الرزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج ينبت به الزرع ويحيا به الخلق .

---

١ — مسند أحمد ٢ /٣٧٠

وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه والله رزقكم ولكنكم تحرَمُونه بخطاياكم .

وقال ابن كيسان : يعنى وعلى رب السماء رزقكم كقوله تعالى : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[١] .

وقيل : المعنى وفى السماء تقدير رزقكم ، وما فيه لكم مكتوب فى أم الكتاب . وفى الحديث الصحيح « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : يكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد ـــ الحديث

وقوله تعالى : ﴿ **وما توعدون** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : ﴿ **وما توعدون** ﴾ الجنة . وقال الضحاك : ﴿ **وما توعدون** ﴾ من الجنة والنار . وقال ابن سيرين والربيع : ﴿ **وما توعدون** ﴾ من أمر الساعة .

هكذا يحدد المنهج الربانى بوضوح ويقين مصدر الرزق وتوزيع الأرزاق حتى يكد المسلم ويجتهد فى الحياة بدون قلق أو خوف لأنه على يقين أن رزقه سيأتيه من خالق السموات والأرض ، فدستور المسلم وهو القرآن العظيم حافل بما يؤكد هذا اليقين قال تعالى : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض** ﴾[٤] ﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض** ﴾[٥] ﴿ **أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور** ﴾[٦] .

إذن فليس هناك أدنى شك عند المؤمن الواثق بربه أن الرزق بيد الله ، فلا داعى للخوف ولا داعى للانقياد لتلك النفس الأمارة بالسوء بل عليه السعى لذكر الله والمشى فى مناكب الأرض والتوكل على

---

١ ـــ سورة هود الآية : ٦

٢ ـــ صحيح مسلم ـــ كتاب القدر ـــ باب كيفية الخلق الآدمى فى بطن أمه ٤ / ٢٠٣٦ رقم ٢٦٤٣

٣ ـــ سورة يونس الآية : ٣١

٤ ـ **سورة النمل الآية : ٦٤**

٥ ـــ سورة سبأ الآية : ٢٤

٦ ـــ سورة فاطر الآية : ٤

٧ ـــ سورة الملك الآية : ٢١

الله قال الصادق المعصوم : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتروح بطانا »[١] .

فليطمئن المؤمن نفسه وليقل لها دائما :

لا تعجلن فليس الرزق بالعمل

الرزق فى اللوح مكتوب مع الأجل

فلو جهدنا لكان الرزق يطلبنا

لكنه خلق الإنسان من عجل .

قوله تعالى : ﴿ **فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ يقسم سبحانه بذاته العلية أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكو فيه كالا تشكوا فى نطقكم حين تنطقون ، وكان معاذ — رضى الله عنه — إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

قال العلامة ابن القيم فى قوله تعالى : ﴿ **فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾ أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به ، على أجل مقسم عليه ، وأكد الأخبار بهذا القسم ، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذى لا يشك فيه ذو حاسة سليمة . فقال : فورب السماء والأرض إنه لحق واقع ، كما أنكم تنطقون وقال الفراء : إنه لحق كما أن الآدمى ناطق . وقال الزجاج : هذا كما تقول فى الكلام : إن هذا الحق كما أنك ههنا .

قلت : وفى الحديث « إنه لحق كما أنك ههنا »[٢] فشبه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمى ووجوده ، والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة ، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده ولا خالجه شك فى أنه ناطق . فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد ، والنبوة ، والمعاد ، وأسمائه ، وصفاته حق ثابت فى نفس الأمر ، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده . وهذا باب يعرفه الناس فى كلامهم يقول أحدهم : هذا حق مثل الشمس .

---

١ — سنن الترمذى — كتاب الزهد — باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ٤ /٤ رقم ٢٤٤٧
وابن ماجة — كتاب الزهد — باب التوكل واليقين ٢ /١٣٩٤ رقم ٤١٦٤
ومسند أحمد ١ /٣٠

٢ — انظر تفسير ابن كثير — سورة الذاريات ٧ /٣٩٧ آية ٢٣

وههنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به ، وهو أصدق الصادقين ، وأقسم عليه ، وهو أبر المقسمين وأكده بتشبيهه بالواقع الذى لا يقبل الشك بوجه . وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معايناً مشاهدا بالبصائر . وإن لم يعاين بالأبصار . ومع ذلك فأكثر النفوس فى غفلة عنه لا تستعد له ، ولا تأخذ له أهمية . والمستعد له الآخذ له أهبه لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد . فأكثر الخلق لا ينظرون فى المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار ، ولا يتفكرون فى قلة مقامهم فى دار الغرور . ولا فى رحليهم وانتقالهم عنها ، ولا إلى أين يرحلون ؟ وأين يستقرون ؟ قد ملكهم الحس وقل نصيبهم من العقل ، وشملتهم الغفلة ، وغرتهم الأمانى التى هى كالسراب ، وخدعهم طول الأمل ، وكأن المقيم لا يرحل ، وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل ، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله : لفلان ابن فلان بالأمان من عذابه ، والفوز بجزيل ثوابه . فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنهم حصلوها ، ومن أى وجه لاحت أخذوها ، غافلين عن المطالبة ، آمنين من العاقبة . يسعون لما يدركون . ويتركون ما هم به مطالبون ويعمّرون ما هم عنه منتقلون . ويخربون ما هم إليه صائرون . وهم عن الآخرة هم غافلون . ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون فى مصالحها ، ولا يأخذون فى جمع زادها فى سفرها ﴿ **نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته ، وتحصى عليه أنفاسه ، ومطايا الليل والنهار تسرع به ، ولا يتفكر إلى أين يحمل ، ولا إلى أى منزل ينقل ؟

وكيف تنام العين وهى قريرة ولم تدر فى أى المحلين تنزل ؟

وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته ، وذهاب لذاته ، لا لما سبق من جناياته ، ولا لسوء منقلبه بعد مماته ، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة ، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولابد . فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله وسار بفكره ، وأمعن النظر . وتأمل الآيات . لفهم المراد من إيجاده . ولنظرت عين الراحل إلى الطريق . ولأخذ المسافر فى التزود والمريض فى التداوى . والحازم ما يجوز أن يأتى . فما الظن بأمر متيقن . كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم . وكأنهم يعانيون الأمر . فأظلمت ربوع الإيمان من أهلها خالية . ومعالمه على عروشها خاوية . قال ابن وهب : أخبرنى مسلم بن على . عن الأوزاعى قال : كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم ، حتى لو أن حبيبا لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه ، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس . ثم يقوم بعضهم إلى بعض . فيتخلفون بأول ما يقضون فيه من أمر معاده وما هم صائرون إليه . ثم يأخذون فى الفقه .

---

١ ـ سورة الحشر الآية : ١٩

من قصص الأنبياء مع أقوامهم

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ
(٢٥) فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ
(٢٩) قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٣٠) * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا
أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤)
فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَتَرَكْنَا
فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) وَفِى مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ
بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِى الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) وَفِى عَادٍ إِذْ
أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ
لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ (٤٣) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٤٤) فَمَا اسْتَطَاعُوا
مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٤٦)

تفسير المفردات

(الضيف) لفظ يستعمل للواحد والكثير (المكرمين) أى : عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه وعجل لهم القرى وأجلهم فى أكرم موضع . (قوم منكرون) أى : قوم لا عهد لنا بكم من قبل . (فراغ إلى أهله) أى : ذهب إليهم خفية من ضيفه ، (سمين) أى : ممتلىء بالشحم واللحم . (فقربه إليهم) أى : وضعه لديهم ، (فأوجس منهم خيفة) أى : أحضر فى نفسه الخوف منهم (امرأته) هى سارة لما سمعت بشارتهم له (صرة) أى : صيحة ، (فصكت وجهها) أى : ضربت بيدها على جبهتها وقالت : ياويلتنا ، (عجوز عقيم) أى : أنا كبيرة السن لا ألد . (وفى موسى) وجعلنا فى قصة موسى آية . (فتولى بركنه) فأعرض فرعون بقوته وسلطانه عن الإيمان . (وهو مليم) آت بما يلام عليه من الكفر .

(الريح العقيم) المهلكة لهم ، القاطعة لتسلمهم .

(كالرميم) كالشيء البالى المفتت الهالك .

(فعتوا) فاستكبروا وطغوا . (فأخذهم الصاعقة) فأهلكتهم صيحة أو نار من السماء . (وما كانوا منتصرين) أى : ما كان لهم ناصر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم بعزته أنه كائن لا محالة — سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنهم إن تمادوا فى غيهم وأصروا على كفرهم و لم يقلعوا عما هم عليه فسيحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية . كقوم لوط وفرعون وعاد وثمود وقوم نوح من قبل .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبى — ﷺ — مجلى سنته ، ولأن العرب كانت تجله وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأتى بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخيما لشأن الحديث كما تقول لمخاطبك : هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه توجيها لأنظاره حتى يصغى إليه ويهتم بأمره وتنبيها إلى أن الرسول — ﷺ — لم يعلم به إلا من طريق الوحى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾ قضت مشيئة الله بأن يهلك قوم لوط الذين فعلوا الفاحشة التى لم يسبقهم إليها أحد من عالم زمانهم ، فقد كان الرجال مصابين بالشذوذ الجنسى مما حكى الله عنهم : ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون** ﴾(١) ولهذا حق عليهم العذاب من الله فأرسل سبحانه ملائكة لإنزال الهلاك بهم ، ولكنهم أمروا قبل ذلك أن ينزلوا ضيوفا على إبراهيم بصورة فتيان

---

١ — سورة الشعراء الآية : ١٦٥

تصويب أخطاء المجلد السادس

الجزء الخامس والعشرون

صفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٢٥٠	٨	لا إله رب السموات السبع	لا إله إلا الله رب السموات السبع
٥٢٧٥	٢	ثم لا يجاورنك	ثم لا يحاوزونك

الجزء السادس والعشرون

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٥٥٨٧	٥	لحمر	عمر
٥٥٩٣	١٣	نشدم	نقدم
٥٥٩٥	٢٣	اليمكال	المكيال
٥٥٩٧	١٩	دتارا	ونارا
٥٦٠١	٢٢	جر	جد
٥٦٠٩	٨	هم	هما
٥٦٤٢	٦	حكيم بم	حكيم بن
٥٦٤٧	١٣	يغش	يفشى
٥٦٦٢	٨	إني	أَنَّى
٥٦٧١	١٥	وما يجدون	وما يحدون
٥٦٧١	٢٠	وعزته	وعترته
٥٧٠٥	٨	سوف	سوق
٥٧٠٦	١٠	قلبى	قلب
٥٧٠٨	٢٥	فأحرروا	فأخروا
٥٧٦٢	٥	الحار	الحارث
٥٧٦٤	٤	الظيم	القيم
٥٨٠٣	٢	مخلوق خالق	مخلوق لخالق
٥٨٠٤	١	ترك	فاختنق من
٥٨٠٥	١٠	تنبتها	تثبتها
٥٨٠٧	٢٦	فواجبا	فواعجبا
٥٨١٧	٢٠	تمبه	تيميه
٥٨٢١	٩	عن أبا	عن أبي
٥٨٢٣	١٣	لما بدع	لما بعد
٥٨٣٩	٨	فأعل	فاعمل
٥٨٥٤	١	زيادة (عن)	ابراهيم

محتويات المجلد السادس

الجزء الرابع والعشرون

آخر سورة الزمر (٣٢ - ٧٥) ، سورة غافر (١ - ٨٥)

سورة فصلت (١ - ٤٦)

الجزء الخامس والعشرون

آخر سورة فصلت (٤٧ - ٥٤) ، سورة الشورى (١ - ٥٣)

سورة الزخرف (١ - ٨٩) ، سورة الدخان (١ - ٥٩)

سورة الجاثية (١ - ٣٧)

الصفحة

* سورة محمد

* سورة الفتح

* سورة الحجرات

* سورة ق

* سورة الذاريات

مطابع الأهرام بكورنيش النيل

قال تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين** ﴾ (هل أتاك) أى : ألم يأتك حديث ضيف إبراهيم (المكرمين) أى عند الله ودليله قوله تعالى عن الملائكة ﴿ **بل عباد مكرمون** ﴾ وقال ابن عباس : يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقال مجاهد : مكرمين لخدمة إبراهيم إياهم بنفسه .

قوله تعالى : ﴿ **إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام** ﴾ أى : عليكم سلام . قال علماء اللغة : الرفع أقوى وأثبت من النصب فرده أفضل من التسليم ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ فالخليل اختار الأفضل . وقوله : (قوم منكرون) وذلك أن الملائكة وهم جبريل وميكائيل وإسرائيل قدموا عليه فى صورة شبان حسان عليهم مهابة عظيمة ولهذا قال : (قوم منكرون) وقوله : (فراغ إلى أهله) أى : انسل خفية فى سرعة (فجاء بعجل سمين) أى : من خيار ماله ، وفى الآية الأخرى ﴿ **فما لبث أن جاء بعجل حنيذ** ﴾ أى : شوى على الرضف (فقربه إليهم) أى : أدناه منهم (قال ألا تأكلون) تلطف فى العبارة وعرض حسن . قال ابن كثير : ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل وقد وردت السنة بذلك كما هو ظاهر التنزيل . ثم قال وهذه الآية **نظمت** آداب الضيافة فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون بسرعة ولم يمتن عليهم أولاً فقال : نأتيكم بطعام بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله وهو عجل فتى سمين مشوى فقربه إليهم ولم يضعه وقال اقتربوا بل وضعه بين أيديهم ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم بل قال : (ألا تأكلون ؟) على سبيل العرض والتلطف كما يقول القائل : اليوم إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فأفعل .

قوله تعالى : ﴿ **فأوجس منهم خيفة** ﴾ أى : فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا فأضمر فى نفسه الخوف منهم وقد جاء فى سورة هود : ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت** ﴾[1] أى : استبشرت بهلاكهم لتمردهم وعتوهم على الله تعالى فعند ذلك بشرتها الملائكة بإسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب .

وهنا قال تعالى : ﴿ **فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ، فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم** ﴾ والبشارة له هى بشارة لها لأن الولد منها فكل منهما بشر به ولا تعارض بين الآيتين وقوله : ﴿ **فأقبلت امرأته فى صرة** ﴾ أى فى صرخة عظيمة قال ابن عباس وهى قولها : ﴿ **قالت ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشىء عجيب** ﴾ وقوله : ﴿ **فصكت وجهها** ﴾ أى : ضربت بيدها على جبينها أى تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب .

١ — سورة هود الآية : ٧٠

﴿ **وقالت عجوز عقيم** ﴾ أى : كيف ألد وأنا عجوز وقد كنت فى حال الصبا عقيما لا أحبل ؟ ﴿ **قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم** ﴾ أى : عليم بما تستحقون من الكرامة ، حكيم فى أقواله وأفعاله ، وفى الآية الأخرى : ﴿ **قالوا أتعجبين من أمر الله رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾ .[1]

قوله تعالى : ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون ، قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ، لنرسل عليهم حجارة من طين ، مسومة عند ربك للمسرفين ، فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ، فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ .

قال الله تعالى مخبراً عن إبراهيم عليه ـــ الصلاة والسلام : ـــ ﴿ **قال فما خطبكم أيها المرسلون** ﴾ أى : ما شأنكم وفيم جئتم ؟ ﴿ **قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين** ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ **لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة** ﴾ أى : معلمة ﴿ **عند ربك للمسرفين** ﴾ أى : مكتتبه عنده بأسمائهم كل حجر عليه اسم صاحبه وفى سورة هود : ﴿ **فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط إن إبراهيم لحليم أواه منيب . ياإبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود** ﴾[2] وفى سورة العنكبوت : ﴿ **قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾[3] وقال تعالى ههنا : ﴿ **فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين** ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ **فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين** ﴾ أى : فما وجدنا فيها غير أهل بيت مسلمين يعنى لوطا وبنتيه .

قوله تعالى : ﴿ **وتركنا فيها آية** ﴾ أى : عبرة وعلامة لأهل ذلك الزمان ومن بعدهم كما قال تعالى : ﴿ **ولقد تركنا فيها آية بينة لقوم يعقلون** ﴾[4] وقوله : ﴿ **للذين يخافون العذاب الأليم** ﴾ لأنهم هم المنتفعون بالذكرى ـــ كما قال تعالى : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن**

١ ـــ سورة هود الآية : ٧٣

٢ ـــ سورة هود الآيات : ٧٤ ـــ ٧٦

٣ ـــ سورة العنكبوت الآية : ٣٢

٤ ـــ سورة العنكبوت الآية : ٣٥

ربك فعال لما يريد ، وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿ وفى موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون ، فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم ﴾ أى : وتركنا أيضا فى قصة موسى مع فرعون وقومه آية : ﴿ إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ أى : بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فتولى بركنه ﴾ أى : فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكبارا وعنادا . ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم ﴾ فكان عاقبة أمرهم خسراً ، ألقاهم ﴿ فى اليم ﴾ أى البحر ﴿ وهو مليم ﴾ أى : وهو ملوم كافر جاحد فاجر معاند .

قوله تعالى : ﴿ وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أى : وتركنا فى عاد آية لمن تأمل واعتبر وتفكر وازدجر ﴿ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ وهى التى لا تلقح سحابا ولا شجرا ، ولا رحمة فيها ولا بركة ولا منفعة بل هى كما قال المولى : ﴿ ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شىء بأمر ربها ﴾ وقوله : ﴿ ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ أى : كالشىء الهشيم الهالك البالى وقال السدى : كالتراب المدقوق

وقوله تعالى : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ﴾ أى : وفى ثمود أيضا عبرة وآية حين قيل لهم عيشوا متمتعين بالدنيا ﴿ حتى حين ﴾ أى : إلى وقت الهلاك وهو ثلاثة أيام كما جاء فى سورة هود قال لهم النبى صالح :﴿ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ، فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ﴾[٢] وقيل : معنى ﴿ تمتعوا حتى حين ﴾ أى : أسلموا وتمتعوا إلى وقت فراغ آجالكم قال ابن كثير : والظاهر أن هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾[٣] وهكذا قال ههنا : ﴿ وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم ﴾ أى : خالفوا أمر الله فعقروا الناقة ﴿ فأخذتهم الصاعقة ﴾ أى : صيحة العذاب ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أى : من نهوض . قال

١ ــ سورة هود الآيات : ١٠١ ــ ١٠٨
٢ ــ سورة هود الآيات : ٦٤ ــ ٦٧
٣ ــ سورة فصلت الآية : ١٧

ابن عباس : أى : ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم فى العذاب . ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أى : ولا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه قال تعالى : ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ أى : وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا قوما فاسقين ﴾ .

من آيات القدرة الباهرة
ورسالة الجن والإنس

قال تعالى :

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَـٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَـٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ
خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا
ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ
تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ
أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ
أَصْحَـٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

معاني المفردات

(بنيناها بأيد) قال ابن عباس وغيره : أى : بقوة .

(إنا لموسعون) أى : لذو سعة بخلقها وخلق غيرها ، من الوسع بمعنى الطاقة .

(١) سورة هود الآية : ١٠١

(الأرض فرشناها) مهدناها وبسطناها كالفراش للاستقرار عليها .

(خلقنا زوجين) صنفين ونوعين مختلفين .

(ففروا إلى الله) فاهربوا من عقابه إلى ثوابه

(طاغون) متجاوزون الحد فى الكفر .

(ليعبدون) ليخضعوا لى ويتذللوا .

(ذنوباً) أى : نصيباً من العذاب .

(فويل) هلاك أو شدة عذاب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت سبحانه وأقام الأدلة على أنه كائن لا محالة ـــ أرشد إلى وحدانيته سبحانه وعظيم قدرته ، فبين أنه خلق السموات بغير عمد ، وبسط الأرض ودحاها ، لتصلح لسكنى الإنسان والحيوان ، وخلق من كل نوع من أنواع الحيوان زوجين ذكراً وأنثى ليستمر بقاء الأنواع إلى أن يشاء الله فناء العالم ثم أمرهم أن يعتصموا بحبل الله وأنذرهم شديد عقابه ، وحذرهم أن يجعلوا مع الله نداً وشريكاً . ثم أردف هذا فذكر أنه ما خلق الجن والإنس إلا ليأمرهم ويكلفهم بعبادته ، لا لاحتياجه إليهم فى تحصيل رزق ولا إحضار طعام ، فالله هو الرزاق ذو القوة ثم ختم السورة بتهديد أهل مكة بأنه سيصيبهم من العذاب مثل ما أصاب من قبلهم من الأمم السالفة ، فأولى لهم ألا يستعجلوه بقولهم : « متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » فقد حقت عليهم كلمة ربك فى اليوم الذى يوعدون ، وسيقع عليهم العذاب ما لا مرد له ، ولا يجدون له رافعاً .

قوله تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾

قال العلامة ابن كثير : يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوى والسفلى : ﴿ **والسماء بنيناها** ﴾ أى : جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿ **بأيد** ﴾ أى : بقوة قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير واحد : ﴿ **وإنا لموسعون** ﴾ أى : قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هى . ﴿ **والأرض فرشناها** ﴾ أى : جعلنا فراشا للمخلوقات كقوله تعالى : ﴿ **فنعم الماهدون** ﴾ أى : وجعلناها مهداً لأهلها فنعم الماهدون نحن لهم والمعنى فى **الجمع للتعظيم** .

قوله تعالى : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ أى : صنفين ونوعين مختلفين قال مجاهد : يعنى الذكر والأنثى والسماء والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والنور والظلام ، والسهل والجبل ، والجن والإنس ، والخير والشر ، والبكرة والعشى ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطعوم والأرايبح والأصوات . أى : جعلنا هذا كهذا دلالة على قدرتنا ، ومن قدر هذا فليقدر على الإعادة . وقيل : ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ لتعلموا أن خالق الأزواج فرد فلا يقدر فى صفته حركة ولا سكون ، ولا ضياء ولا ظلام ، ولا قعود ولا قيام ، ولا ابتداء ولا انتهاء ، إن هو عز وجل ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ لذا قال تعالى : ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى : لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له فـ ﴿ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾

قال ابن عباس : فروا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم .

وقال الحسين بن الفضيل : احترزوا من كل شيء دون الله فمن فرّ إلى غيره لم يمتنع منه .

وقال أبو بكر الورّاق : فروا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن . وقوله : ﴿ إنى لكم منه نذير مبين ﴾ أى : أنذركم . عقابه على الكفر والمعصية . وقد كان من دعاء الحبيب المصطفى — صلوات ربى وسلامه عليه — « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »(١)

وكان ﷺ إذا أوى إلى فراشه نام على شقه الأيمن وقال « اللهم إنى أسلمت نفسى إليك وفوضت أمرى إليك وألجأت ظهرى إليك رغبة ورهبة إليك ، ولا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت »(٢) وقوله تعالى : ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إنى لكم منه نذير مبين ﴾ قال ابن عباس : أى : أنذركم بأسه وسيفه إن أشركتم بالله .

١ — ابن ماجه — كتاب الدعاء — باب ما تعوذ منه رسول الله — ﷺ — ١٢٦٢/٢ رقم ٣٨٤١ والترمذى — كتاب الدعوات — باب رقم ٧٦ جـ ٥ صفحة ٥٢٤ حديث رقم ٣٤٩٣ وقال الترمذى : حديث حسن

٢ — اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع رقم ١٧٣٨

حاجة العبد إلى أن يعبد الله أعظم من حاجة الجسد إلى روحه

قال ابن القيم رحمه الله : « اعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً فى محبته ولا فى خوفه ولا فى رجائه ولا فى التوكل عليه ولا فى العمل له ولا فى الحلف به ولا فى النذر له ولا فى الخضوع له ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد إلى روحه والعين إلى نورها ، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به ؛ فإن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بإلهها الذى لا إله إلا هو ، فلا تطمئن فى الدنيا إلا بذكره وهى كادحة إليه كدحاً فملاقية ، ولابد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها ، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ومن شخص إلى شخص ويتنعم بهذا فى وقت ثم يعذب ولابد فى وقت آخر ، وكثيرا ما يكون ذلك الذى يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك ، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التى تحكه فهى تدمى الجلد وتخرقه وتزيد فى ضرره ، وهو يؤثر ذلك لما فى حكها من اللذة ، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم فى الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب ، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما والله الموفق المعين ، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة ، والمقصود أن إله العبد الذى لابد له منه فى كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين هو الإله الحق الذى كل ما سواه باطل ، والذى أينما كان فهو معه ، وضرورته وحاجته إليه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة بل هى فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجة ، ولهذا قال إمام الحنفاء : ﴿ **لا أحب الآفلين** ﴾ . والله أعلم .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون فتول عنهم فما أنت بملوم وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ـ ﷺ ـ: ـ وكما قال لك هؤلاء المشركون قال **المكذبون** الأولون لرسلهم : ﴿ **كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون** ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ **ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ... الآية** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **أتواصوا به ؟** ﴾ أى : أوصى بعضهم بعضا بهذه المقالة ؟ ﴿ **بل هم قوم طاغون** ﴾ أى : ولكن هم قوم طغاة تشابهت قلوبهم فقال متأخرهم كما قال متقدمهم : ﴿ **فتول عنهم** ﴾ أى : فأعرض عن هؤلاء المشركين ﴿ **فما أنت بملوم** ﴾ يعنى فما نلومك على ذلك . ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ أى : إنما ينتفع بها القلوب المؤمنة كما قال سبحانه : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان**

له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ وكما قال جل فى علاه : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم وأقاموا الصلاة ﴾ وكما قال سبحانه : ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

قال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أى : إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتى لا لاحتياجى إليهم . وقال ابن عباس — رضى الله عنهما — : ﴿ إلا ليعبدون ﴾ أى : إلا ليقروا بعبادتى طوعاً أو كرها ، وهذا اختيار ابن جرير . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾[1]

وقوله تعالى : ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

قال ابن عباس وأبو الجوزاء : أى : ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها . وقيل : المعنى ما أريد أن يرزقوا عبادى ولا أن يطعموهم ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ أى : الشديد القوى . ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب ، وأخبر سبحانه أنه غير محتاج إليهم بل هم الفقراء إليه فى جميع أحوالهم فهو خالقهم ورازقهم قال الإمام أحمد عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — يعنى قال الله تعالى — « ياابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك »[2]

قال ابن كثير : وقد ورد فى بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى « ابن آدم خلقتك لعبادتى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كل شىء ، وإن فتك فاتك كل شىء وأنا أحب إليك من كل شىء[3]

---

١ — سورة المؤمنون الآيات : ١١٥ — ١١٧

٢ — سنن الترمذى — كتاب صفة القيامة باب ٣٠ ٦٤٢/٤ رقم ٢٤٦٦ وقال حديث حسن غريب

٣ — انظر تفسير ابن كثير — تفسير سورة الزاريات ٤٠٢/٧ آية ٥٨

بحث فى العبودية
لشيخ الإسلام ابن تيمية

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

العبادة : هى اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة :

فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث . وأداء الأمانة وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والوفاء بالعهود ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين ، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم ، والدعاء ، والذكر ، والقراءة ، وأمثال ذلك من العبادة ، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله ، والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له ، والصبر لحكمه ، والشكر لنعمه ، والرضا بقضائه ، والتوكل عليه ، والرجاء لرحمته ، والخوف من عذابه ، وأمثال ذلك ، هى من العبادة لله .

وذلك : أن العبادة لله هى الغاية المحبوبة له ، والمرضية له ، التى خلق الخلق لها . كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ وبها أرسل جميع الرسل ، كما قال نوح لقومه : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾[1] وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم . وقال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾[4] ، كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾[5] وجعل ذلك لازماً لرسوله إلى الموت كما قال : ﴿ **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾[6]

---

١ ــ سورة الأعراف الآية : ٥٩
٢ ــ سورة النحل الآية : ٣٦
٣ ــ سورة الأنبياء الآية : ٢٥
٤ ــ سورة الأنبياء الآية : ٩٢
٥ ــ سورة المؤمنون الآيتان : ٥١ ، ٥٢
٦ ــ سورة الحجر الآية : ٩٩

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه فقال تعالى : ﴿ وله من فى السموات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾[١]

وقال تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴾[٢].

وذم المستكبرين عنها بقوله : ﴿ وقال ربكم ادعونى استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾[٣].

ونعت صفوة خلقه بالعبودية فقال تعالى : ﴿ عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ﴾[٤] وقال : ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾[٥] الآيات ولما قال الشيطان : ﴿ رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[٦] قال الله تعالى : ﴿ هذا صراط على مستقيم إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ﴾[٧].

وقال فى وصف الملائكة بذلك : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴾[٨] وقال تعالى : ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾[٩] وقال النبى عن المسيح الذى ادعيت فيه الإلهية والنبوة : ﴿ إن النبى ـ ﷺ ـ فى الحديث الصحيح « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله »[١٠]

(والإطراء : الزيادة فى المدح والتغالى فيه)

١ ـ سورة الأنبياء الآيتان : ١٩ ، ٢٠
٢ ـ سورة الأعراف الآية : ٢٠٦
٣ ـ سورة غافر الآية : ٦٠
٤ ـ سورة الإنسان الآية : ٦
٥ ـ سورة الفرقان الآية : ٦٣
٦ ـ سورة الحجر الآيتان : ٣٩ ، ٤٠
٧ ـ سورة الحجر الآيتان : ٤١ ، ٤٢
٨ ـ سورة الأنبياء الآيات : ٢٦ ـ ٢٨
٩ ـ سورة مريم الآيات ـ ٨٨ ـ ٩٥
١٠ ـ مسند أحمد ١ / ٥٥

وقد نعته الله بالعبودية فى أكمل أحواله . فقال فى الإسراء : ﴿ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ﴾(١) وقال فى الإيحاء : ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾(٢) وقال فى الدعوة : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾(٣) . وقال فى التحدى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾(٤)

فالدين كله داخل فى العبادة . وقد ثبت فى الصحيح أن جبريل لما جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ فى صورة أعرابى ، وسأله عن الإسلام قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ، قال : فما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله والبعث بعد الموت ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، قال : فما الإحسان ؟ قال : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ـ ثم قال فى آخر الحديث : « هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم »(٥) فجعل هذا كله من الدين . [العبودية مدارها على قاعدتين هما أصلهما : حب كامل ، وذل تام] والدين يتضمن معنى الخضوع والذل ، يقال : دنته ، فدان : أى : أذللته فذل . ويقال : يدين الله ، ويدين لله ، أى يعبد الله ويطيعه ، ويخضع له . .

فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له .

والعبادة أصل معناها : الذل أيضاً . يقال طريق معبد . إذا كان مذللاً وقد وطأته الأقدام .

لكن العبادة المأمور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهى تتضمن غاية الذل لله ، بغاية المحبة له ...

ومن خضع لإنسان مع بغضه له لا يكون عابداً له ، ولو أحب شيئاً ولم يخضع له ، لم يكن عابداً له ، كما قد يحب الرجل ولده وصديقه . ولهذا لا يكفى أحدهما فى عبادة الله تعالى . بل يجب أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شىء ، وأن يكون الله أعظم عنده من كل شىء ، بل لا يستحق المحبة والذل التام إلا الله فتعظيمه باطل قال تعالى : ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم

---

١ ـ سورة الإسراء الآية : ١

٢ ـ سورة النجم الآية : ١٠

٣ ـ سورة الجن الآية : ١٩

٤ ـ سورة البقرة الآية : ٢٣

٥ ـ صحيح مسلم ـ كتاب الإيمان ـ باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ١ / ٣٦ رقم ٨

وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(١)

فجنس المحبة تكون لله ولرسوله ، كالطاعة . فإن الطاعة لله ولرسوله ، والإرضاء لله ولرسوله ﴿ **والله ورسوله أحق أن يرضوه** ﴾(٢) ، والإيتاء لله ولرسوله ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله** ﴾(٣) وأما العبادة وما يناسبها من التوكل والخوف ، ونحو ذلك . فلا يكون إلا لله وحده كما قال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا : بأنا مسلمون** ﴾(٤) ....

وتحرير ذلك : أن « العبد » يراد به المعبد الذى عبَّده الله ، فذلّله ودبره وصرفه ، وبهذا الاعتبار ؛ فالمخلوقون كلهم عباد الله : الأبرار منهم والفجار ، والمؤمنون والكفار ، وأهل الجنة وأهل النار . اذهو ربهم كلهم ومليكهم، لا يخرجون عن مشيئته وقدرته وكلماته التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر . فما شاء كان وإن لم يشاءوا ، وما شاءوا إن لم يشأ — لم يكن . كما قال تعالى : ﴿ **أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون** ﴾(٥) .

فهو سبحانه رب العالمين ، وخالقهم ورازقهم ، ومحييهم ومميتهم ومقلب قلوبهم ، ومصرف أمورهم ، لا رب لهم غيره ، ولا مالك لهم سواه ، ولا خالق لكل شىء ومدبره ومسخرة إلا هو ، سواء اعترفوا بذلك أو انكروه وسواء علموا ذلك أو جهلوه ، لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك وآمنوا به وشكروه بعبودية الإلهية ؛ رغباً ورهباً ، بخلاف من كان جاهلاً بذلك أو جاحداً له ، مستكبرا على ربه ، لا يقر ولا يخضع له ، مع علمه بأن الله ربه وخالقه فالمعرفة بالحق إذا كانت مع الاستكبار عن قبوله والجحد له ، كان عذاباً على صاحبه كما قال تعالى : ﴿ **وجحدوابهاواستيقنتهاأنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾(٦) .

وقال تعالى : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾(٧) فإن اعترف العبد

١ — سورة التوبة الآية : ٢٤
٢ — سورة التوبة الآية : ٦٢
٣ — سورة التوبة الآية : ٥٩ .
٤ — سورة آل عمرن الآية : ٦٤
٥ - سورة آل عمران الآية : ٨٣
٦ - سورة النمل الآية : ١٤
٧ - سورة الأنعام: ٣٣

أن الله ربه وخالقه وأنه مفتقر إليه محتاج إليه ، عرف العبودية المتعلقة بربوبية الله . وهذا العبد يسأل ربه ، ويتضرع إليه ويتوكل عليه . لكن قد يطيع أمره وقد يعصه ، وقد يعبده مع ذلك وقد يعبد الشيطان والأصنام . ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار ، ولا يصير بها الرجل مؤمناً . كما قال تعالى : ﴿ **ومايؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾[1] . فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم وهم يعبدون غيره . قال تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم * سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله قل فأنى تسحرون** ﴾[3]

وكثير ممن يتكلم فى الحقيقة فيشدها ، لا يشهد إلا هذه الحقيقة . وهى الحقيقة الكونية التى يشترك فيها وفى شهودها وفى معرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر بل إبليس معترف بهذه الحقيقة وأهل النار .

قال تعالى حاكيا عن إبليس : ﴿ **رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون** ﴾[4] وقال له : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين** ﴾[5] وأمثال هذا من الخطاب الذى يقر فيه بأن الله ربه وخالقه وكذلك أهل النار قالوا : ﴿ **ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين** ﴾[6] وقال تعالى عنهم : ﴿ **ولو ترى إذ وقفوا على ربهم ، قال : أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا** ﴾[7] فمن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ، ولم يقم بما أمر الله به من الحقيقة الدينية التى هى عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله ، كان من جنس إبليس ومن أهل النار ، فإن ظن مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق ، الذين يسقط عنهم الأمر والنهى الشرعيان ، كان من شر أهل الكفر والإلحاد ، ومن ظن أن الخضر وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك . كان قوله هذا من شر أقوال الكافرين بالله ورسوله ، حتى يدخل فى النوع الثانى من معنى العبد ، وهو العبد بمعنى العابد فيكون عابداً لله ، لا يعبد إلا إياه ، فيطيع أمره وأمر رسوله ، ويوالى أولياءه المؤمنين المتقين ، ويعادى أعداءه الكافرين والفاسقين .

---

١ ـ سورة يوسف الآية : ١٠٦

٢ ـ سورة الزمر الآية : ٣٨

٣ ـ سورة المؤمنون الآيات : ٨٤ ـ ٨٩

٤ ـ سورة ص الآية ٧٩

٥ ـ سورة ص الآية ٧٩

٦ ـ سورة المؤمنون الآية : ١٠٨

٧ ـ سرة الانعام الآية : ٣٠

وهذه العبادة متعلقة بألوهيته ، ولهذا كان عنوان التوحيد « لا إله إلا الله » بخلاف من يقر بربوبيته ولا يعبده ، أو يعبد معها إلهاً آخر . فالإله هو الذى يأله القلب بكمال الحب والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والخوف والرجاء ، ونحو ذلك .

ويقول شيخ الإسلام : ومن عبادته وطاعته ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بحسب الإمكان ، والجهاد فى سبيله لأهل الكفر والنفاق ، فتجتهدون فى إقامة دينه مستعينين به ، مزيلين بذلك ، ما قدر من السيئات ، دافعين ما قد يخاف من آثار ذلك ،

فهذا حال المؤمنين بالله ورسوله العابدين لله . وكل ذلك من العبادة .. ثم يقول : فالمخالف لما بعث الله به رسوله من عبادته وحده وطاعته رسوله لا يكون متبعاً لدين شرعة الله أبداً ، كما قال تعالى : ﴿ **ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً ، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين** ﴾[1] ...

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط ونحو ذلك من الأسماء : مقصودها واحد ، ولها **أصلان** .

أحدهما : أن لا يعبد إلا الله .

والثانى : أن لا يعبده إلا بما أمر وشرع ، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع . قال تعالى : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[2]

وقال تعالى : ﴿ **بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[3]

وقال تعالى : ﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلا** ﴾[4]

---

١ ــ سورة الجاثية الآيتان : ١٨ ، ١٩
٣ ــ سورة الكهف الآية : ١١٠
٣ ــ سورة البقرة الآية : ١١٢
٤ ــ سورة النساء الآية : ١٢٥

فالعمل الصالح : هو الإحسان وهو فعل الحسنات ، والحسنات : هى ما أحبه الله ورسوله ، وهو ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب . فما كان من البدع فى الدين التى ليست فى الكتاب ، ولا فى صحيح السنة فإنها وإن قالها من قاله ، وعمل بها من عمل : ليست مشروعة . فإن الله لا يحبها ولا رسوله ، فلا تكون من الحسنات ولا من العمل الصالح . كما أن من يعمل ما لايجوز ، كالفواحش والظلم : ليس من الحسنات ولا من العمل الصالح .

وأما قوله : ﴿ **ولا يشرك بعبادة ربه أحدا** ﴾ ، وقوله : ﴿ **أسلم وجهه لله** ﴾ فهو إخلاص الدين لله وحده ، وكان عمر بن الخطاب يقول : « اللهم اجعل عملى كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل **لأحد** فيه شيئاً » .

وقال الفضيل بن عياض فى قوله تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ قال : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا على ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً ، والخالص . أن يكون لله ، والصواب . أن يكون على السنة ..

إذا تبين هذا فكمال المخلوق فى تحقيق عبوديته لله ، وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد **كماله** وعلت درجته ...

ثم يقول شيخ الإسلام : إذا تبين ذلك . فمعلوم أن الناس يتفاضلون فى هذا الباب تفاضلاً عظيما وهو تفاضلهم فى حقيقة الإيمان . وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص ، ولهذا كانت إلهية الرب لهم فيها عموم وخصوص . ولهذا كان الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . وفى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس عبد الخمصية ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، إن أعطى رضى ، وإن مُنع سخط »[1] كما قال تعالى ﴿ **ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون** ﴾[2] فرضاهم لغير الله ، وسخطهم لغير الله ، وهكذا حال من كان متعلقاً برئاسة أو بصورة ، ونحو ذلك من أهواء نفسه ، إن حصل له رضى ، وإن لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك ، وهو

---

١ ـ صحيح البخارى ـ كتاب الجهاد والسير ـ باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ٤ / ٤١ وابن ماجه ـ كتاب الزهد ـ باب فى المكثرين ٢ / ١٣٨٦ رقم ٤١٣٦

٢ ـ سورة التوبة الآية : ٥٨

رقيق له . إذا الرق والعبودية فى الحقيقة . هو رق القلب وعبوديته . فما استرق القلب واستعبده . فالقلب عبده ولهذا يقال :

العبد حر ما قنع　　　والحر عبد ما طمع

وقال القائل :

أطلت مطامعى فاستعبدتنى　　　ولو أنى قنعت لكنت حراً

قال الخليل - ﷺ - قال تعالى : (فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون)[١]

فالعبد لابد له من رزق ، وهو محتاج إلى ذلك . فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله ، فقيرا إليه ، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيرا إليه ، ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة فى الأهل وإنما أبيحت للضرورة . وفى النهى عنها أحاديث كثيرة فى الصحاح والسنن والمسانيد ، كقوله ـ ﷺ ـ : ـ « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلاقى الله وليس فى وجهه مُزعة لحم »[٢] (المزعة : القطعة الصغيرة)[٣]

وقوله : « لا تحل المسألة إلا لذى غُرم مقطع ، أو دم مدجع ، أو فقر مدقع »[٤] وهذا المعنى فى الصحيح .

وقال فى الحديث « من يستغنى يغنه الله ، ومن يستعفف يعفه الله ومن تصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر »[٥] .

---

١ ـ سورة العنكبوت الآية : ١٧

٢ ـ صحيح مسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب كراهة المسألة للناس ٢ / ٧٢٠ رقم ١٠٤٠

٣ ـ ابن ماجه ـ كتاب الزكاة ـ باب كراهية المسألة ١ / ٥٨٩ رقم ١٨٤٠ وأبو داود ـ كتاب الزكاة ـ باب من يعطى من الصدقة وجد الغنى ٢ / ٢٧٧ رقم ١٦٢٦ والترمذى ـ كتاب الزكاة ـ باب من تحل له الزكاة رقم ٦٥٠ وقال : حديث حسن

٤ ـ سنن الترمذى ـ كتاب الزكاة ـ باب ما جاء من لا تحل له الصدقة ٢ / ٨١ رقم ٦٤٧ والطبرانى فى المعجم الكبير ٤ / ١٧ رقم ٣٥٠٤ مع تقديم وتأخير

٥ ـ سنن الترمذى ـ كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء فى الصبر ٤ / ٣٧٣ رقم ٢٠٢٤

وأوصى خواص أصحابه « أن لا يسألوا الناس شيئاً »

وفى المسند أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده ، فلا يقول لأحد : ناولنى **إياه** » ويقول . : « إن حبيبى أمرنى أن لا أسأل الناس شيئاً »[١]

وفى صحيح مسلم وغيره عن عوف بن مالك أن النبى ـ ﷺ ـ « بايعه فى طائفة ، وأسّر إليهم كلمة خفيفة : أن لا تسألوا الناس شيئا ، فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم ولا يقول لأحد ناولنى إياه »[٢]

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهى عن مسألة المخلوق فى غير موضع . كقوله تعالى : ﴿ **فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب** ﴾[٣] وقول النبى ـ ﷺ ـ لابن عباس « اذا سألت فاسأل الله واذا استعنت فاستعن بالله » .

ومنه قول الجليل (فابتغوا عند الله الرزق) ، ولم يقل : فابتغوا الرزق عند الله ، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر ، كأنه قال لا تبتغوا الرزق إلا عند الله ، وقد قال تعالى ﴿ **واسألوا الله من فضله** ﴾[٤]

والإنسان لابد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه . ودفع ما يضره ، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله ، فلا يسأل رزقه إلا من الله ، ولا يشتكى إلا إليه ، كما قال يعقوب عليه السلام : ﴿ **إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** ﴾[٥]

والله تعالى ذكر فى القرآن الهجر الجميل والصفح الجميل ، والصبر الجميل . وقد قيل : إن الهجر الجميل : هو هجر بلا أذى . والصفح الجميل صفح بلا معاتبة ، والصبر الجميل . صبر بغير شكوى

---

١ ـ مسند أحمد ـ مسند أبى بكر ١ / ١٨٠ رقم ٦٥ ـ وقال الشيخ شاكر : إسناده ضعيف لانقطاعه لأن ابن أبى مليكة تابعى ثقة لم يدرك أبا بكر .

٢ ـ صحيح مسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب كراهة المسألة للناس ٢ / ٧٢٠ رقم ١٠٤٣

٣ ـ سورة الشرح الآيتان : ٧ ، ٨

٤ ـ سورة النساء الآية : ٣٢

٥ ـ سورة يوسف الآية : ٨٦

إلى المخلوق . ولهذا قرىء على أحمد بن حنبل فى مرضه : أن طاووساً كان يكره أنين المريض ويقول إنه شكوى . فما أنَّ أحمد حتى مات .

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافى فى الصبر الجميل فإن يعقوب قال : (فصبر جميل) وقال : (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) .

ومن دعاء موسى : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى ، وأنت المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكال ، ولا حول ولا قوة إلا بك » وفى الدعاء الذى دعا به النبى ـ ﷺ ـ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى : وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت ربى ورب المستضعفين ، اللهم إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ، أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة . أن ينزل بى سخطك ، أو يحل علىّ غضبك : لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله »[1] .

وكلما قوى طمع العبد فى فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته قويت عبوديته له ، وحريته مما سواه ، فكما أن طمعه فى المخلوق يوجب عبوديته له ، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه ، كما قيل استغنى عمن شئت تكن نظيره ، وتفضل على من شئت تكن أميره ، واحتج إلى من شئت تكن أسيره » .

فكذلك طمع العبد فى ربه ورجاؤه له يوجب عبوديته له ، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله . لا سيما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق ، بحيث يكون قلبه معتمداً على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه ، وإما على أهله وأصدقائه وإما على أمواله وذخائره ، وإما على ساداته وكبرائه ، كمالك وملكه ، وشيخه ومخدومه وغيرهم ، فمن هو قد مات أو يموت .

قال تعالى : ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾[2]

١ ـ مجمع الزوائد للبيهقى : كتاب المغازى والسير ـ باب خروج النبى ـ ﷺ ـ إلى الطائف ٦ / ٣٥ والقرطبى ١٦ / ٢١١

٢ ـ سورة الفرقان الآية : ٥٨

وكل من علق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه أو يرزقوه ، أو أن يهدوه ، خضع قلبه لهم ، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك . وإن كان فى الظاهر أميراً لهم ، مدبراً لأمورهم ، متصرفاً بهم . فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر .

فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة — ولو كانت مباحة — يبقى قلبه أسيراً لها تتحكم فيه وتتصرف بما تريد ، وهو فى الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكها ولكنه فى الحقيقة هو أسيرها ومملوكها . لا سيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها . وأنه لا يعتاض عنها بغيرها . فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم فى عبده المقهور ، الذى لا يستطع الخلاص منه ، بل أعظم ، فإن أسر القلب أعظم من أسر البدن ، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن . فإن من استعبد بدنه واسترق لايبالى ما دام قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً ، بل يمكنه الإحتيال فى الخلاص .

وإما إذا كان القلب والذى هو ملك الجسم — رقيقاً مستعبداً . يتيما لغير الله ، فهذا هو الذل والأسر المحض ، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب . وعبودية القلب وأسره هى التى يترتب عليها الثواب والعقاب ، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقه فاجر بغير حق ، لم يضره ذلك ، إذا كان قائماً بما يقدر عليه من الواجبات ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران ، ولو أكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان لم يضره ذلك . وأما من استعبد قلبه فصار عبدا لغير الله فهذا يضره ذلك كل الضرر ولو كان فى الظاهر ملك الناس .

فالحرية حرية القلب ، والعبودية عبودية القلب ، كما أن الغنى غنى النفس .

قال النبى — ﷺ — « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس »[1] .

وهذا لعمر الله إذا كان قد استعبد قلبه صورة مباحة . فأما من استعبد قلبه صورة محرمة : امرأة أو صبى . فهذا هو العذاب الذى لا يدانيه عذاب .

---

١ — صحيح البخارى — كتاب الرقاق — باب الغنى غنى النفس — ٨ / ١١٨ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب القناعة ٢ / ١٣٨٦ رقم ٤١٣٧ والترمذى — كتاب الزهد — باب ما جاء أن الغنى غنى النفس ٤ / ٥٨٦ رقم ٢٣٧٣ وقال الترمذى : حديث حسن صحيح

وهؤلاء العشاق عشاق الصور من أعظم الناس عذابا وأقلهم ثواباً ، فإن العاشق لصورة إذا بقى متعلقا بها ، مستعبدا لها اجتمع له من أنواع الشر والخسران والنساء مالا يحصيه إلا رب العباد . ولو سلم من فعل الفاحشة الكبرى ، فقد دام تعلق القلب بها بلا فعل الفاحشة أشد ضرراً عليه ممن يفعل ذنباً ، ثم يتوب منه ويزول أثره من قلبه . وهؤلاء يشبهون بالسكارى والمجانين كما قيل :

سكران : سكر هوى ، وسكر مدامة . ومتى إفاقة من به سكران ؟

ومن أعظم أسباب هذا البلاء : إعراض القلب عن الله ، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له ، لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ، ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب .

والإنسان لا يترك محبوبا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه ، أو خوفاً من مكروه : فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح ، أو بالخوف من الضرر .

قال تعالى فى حق يوسف : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾[١] فالله يصرف عن عبده ما يسوءه من الميل إلى الصور والتعلق بها ، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله .

ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها . فإذا ذاق طعم الإخلاص لله وقوى فى قلبه انقهر له هواه بلا كبير علاج .

قال تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر** ﴾[٢] فإن الصلاة فيها دفع لشر مكروه ، وهو الفحشاء والمنكر . وفيها تحصيل لخير محبوب ، وهو ذكر الله .

وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه . فإن ذكر الله عبادة لله ، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها .

وأما اندفاع الشر عنه فهو مقصور لغيره على سبيل التبع . والقلب خلق يحب الحق ويريده ويطلبه ، فلما عرضت له إرادة ا لشر طلب دفع ذلك فإنها تفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل .

---

١ ــ سورة يوسف الآية : ٢٤

٢ ــ سورة العنكبوت الآية : ٤٥

ولهذا قال تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾[٢] وقال : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ﴾[٤]

فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس ، ويبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس ، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور ، من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك .

وكذلك طلب الرياسة والعلو فى الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليها ولو كان فى الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فهو فى الحقيقة يرجوهم ويخافهم ، فيبذل لهم الأموال والولايات ، ويعفو عما يجترحونه ليطيعوه ويعينوه ، فهو فى الظاهر رئيس مطاع ، وفى الحقيقة عبد مطيع لهم .

والتحقيق أن كلاهما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقيقة عبادة الله . وإذا كان تعاونهما على العلو فى الأرض بغير الحق كانا بمنزلة المتعاونين على الفاحشة أو قطع الطريق . فكل واحد من الشخصين — لهواه الذى استعبده واسترقه — مستعبد للآخر وهكذا أيضا طالب المال ، فإن ذلك المال يستعبده ويسترقه .

وهذه الأمور نوعان : منها : ما يحتاج العبد إليه ، ككل ما يحتاج إليه من طعامه وشرابه وسكنه ومنكحه ، ونحو ذلك فهذا يطلبه من الله ، ويرغب إليه فيه . فيكون المال عنده — يستعمله فى حاجته — بمنزلة حماره الذى يركبه ، وبساطه الذى يجلس عليه ، بل بمنزلة الكنيف الذى يقضى فيه حاجته ، من غير أن يستعبده ، فيكون هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً .

ومنها : ما لايحتاج العبد إليه . فهذا لا ينبغى له أن يعلق قلبه به .

فإذا علق قلبه به صار مستعبداً له ، وربما صار معتمداً على غير الله . فلا يبقى معه حقيقة العبادة لله ، ولا حقيقة التوكل عليه ، بل فيه شعبة من العبادة لغير الله ، وشعبة من التوكل على غير الله .

---

١ — سورة الشمس الآيتان : ٩ ، ١٠

٢ — سورة الأعلى الآيتان : ١٤ ، ١٥

٣ — سورة النور الآية : ٣٠

٤ — سورة النور الآية : ٢١

وهذا من أحق الناس بقوله — ﷺ — : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس القطيفة ، تعس عبد الخميصة »[1] وهذا هو أعطاه إياها سخط ، وإنما عبد الله من يرضيه ما يرضى الله ، ويسخطه ما يسخط الله ويحب ما أحبه الله ورسوله ، ويبغض ما أبغضه الله ورسوله . ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله . وهذا هو الذى استكمل الإيمان ، كما فى الحديث « من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان »[2] .

وقال — ﷺ — : « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله »[3] .

وفى الصحيح عنه — ﷺ — : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله ، ومن كان يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ، كما يكره أن يلقى فى النار »[4] فهذا وافق ربه فيما يحبه وما يكرهه .

فكان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأحب المخلوق ، لا لغرض آخر . فكان هذا من تمام حبه لله .

فإن محبة محبوب من تمام محبة المحبوب . فإذا أحب أنبياء الله وأولياء الله ، لأجل قيامهم بمحبوبات الحق ، لا لشىء آخر ، فقد أحبهم لله لا لغيره .

وقد قال تعالى : ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾[5]

ولهذا قال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾[6] فإن الرسول لا يأمر إلا بما يحب الله ولا ينهى إلا عما يبغضه الله ، ولا يفعل إلا ما يحب الله ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به ، فمن كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول ، فيصدقه فيما أخبر ، ويطيعه فيما أمر ، ويتأسى فيما فعل . ومن فعل هذا قد فعل ما يحبه الله ، فيحبه الله .

---

١ — صحيح البخارى — كتاب فضل الجهاد والسير — باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله ٤ / ٤١ وابن ماجة — كتاب الزهد — باب فى الكثرين ٢ / ١٣٨٥ رقم ٤١٣٥

٢ — سنن أبى داود — كتاب السنة — باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٥ / ٦٠ رقم ٤٦٨١

٣ — مسند أحمد ٤ / ٢٨٦

٤ — صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان خصال من اتصف بهم وجد حلاوة الإيمان ١ / ٦٦ رقم ٤٣

٥ — سورة المائدة الآية : ٥٤

٦ — سورة آل عمران الآية : ٣١

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين : اتباع الرسول ، والجهاد فى سبيله ، وذلك لأن الجهاد حقيقته الاجتهاد فى حصول ما يحبه الله : من الإيمان ، والعمل الصالح ، وفى دفع ما يبغضه الله : من الكفر ، والفسوق والعصيان .

وقد قال تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ـــ إلى قوله ـــ حتى يأتى الله بأمره** ﴾[١] فتوعّد من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله والجهاد فى سبيله بهذا الوعيد الشديد ، بل قد ثبت عنه ـــ ﷺ ـــ فى الصحيح أنه قال « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين »[٢] .

فحقيقة المحبة : لا تتم إلا بموالاة المحبوب ، وهو موافقته فى حب ما يحب وبغض ما يبغض ، والله يحب الإيمان والتقوى ، ويبغض الكفر والفسوق والعصيان . ومعلوم أن الحب يحرك إرادة القلب . فكلما قويت المحبة فى القلب ، طلب القلب فعل المحبوبات .

فإذا كانت المحبة تامة استلزمت إرادة حازمة فى حصول المحبوبات فإذا كان العبد قادراً عليها حصلها ، وإن كان عاجزاً عليها ففعل ما يقدر عليه من ذلك . كان له أجر كأجر الفاعل .

كما قال النبى ـــ ﷺ ـــ : « إن بالمدينة لرجالا ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر »[٣] .

والجهاد هو بذل الوسع ـــ وهو كل ما يملك من القدرة ـــ فى حصول محبوب الحق ، ودفع ما يكرهه الحق ، فإذا ترك العبد ما يقدر عليه من الجهاد وكان تركه دليلا على ضعف محبة الله ورسوله فى قلبه . ومعلوم أن المحبوبات لا تنال غالبا إلا باحتمال المكروهات ، سواء كانت محبة صالحة أو فاسدة ، فالمحبون للمال والرئاسة والصور لا ينالون مطالبهم إلا بضرر يلحقهم فى الدنيا . مع ما يصيبهم من الضرر بالمال نفسه فى الدنيا والآخرة .

---

١ ـــ سورة التوبة الآية : ٢٤

٢ ـــ صحيح البخارى ـــ كتاب الإيمان ـــ باب حب الرسول من الإيمان ١ / ١٢ وابن ماجه ـــ المقدمة ـــ باب فى الإيمان ١ / ٢٦ رقم ٦٧

٣ ـــ صحيح البخارى ـــ كتاب الجهاد والسير ـــ باب من حبه العذر عن الغزو ٤ /٣١ وابن ماجه ـــ كتاب الجهاد ـــ باب من حبه العذر عن الجهاد ٢ / ٩٢٣ رقم ٢٧٦٥

فالمحب لله ورسوله إذا لم يحتمل ما يرى من تحمل المحبين لغير الله ما يحتملون فى سبيل حصول محبوبهم ، دل ذلك على ضعف محبته لله ، إذ كان ما يسلكه أولئك فى نظرهم — هو الطريق الذى يشير به العقل .

ومن العلوم أن المؤمن أشد حباً لله كما قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾[1]

نعم قد يسلك المحب لضعف عقله وفساد تصوره طريقاً لا يحصل له بها المطلوب . فمثل هذه الطريقة لا تحمد إذا كانت المحبة صالحة محمودة . فكيف إذا كانت فاسدة . والطريق غير موصل ؟ كما يفعله المتهورون فى طلب المال والرياسة والصور ، من حب أمور توجب لهم ضرراً ولا تحصل لهم مطلوباً . وإنما المقصود الطرق التى يسلكها ذو العقل السليم لحصول مطلوبة .

وإذا تبين هذا . فكلما ازداد القلب حباً لله ازداد له عبودية وكلما ازداد له عبودية ازداد له حباً وحرية مما سواه والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين : من جهة العبادة ، وهى العلة الغائبة . ومن جهة الاستعانة والتوكل ، وهى العلة الفاعلة . فالقلب لا يصلح ، ولا يفلح ، ولا ينعم ، ولا يسر ، ولا يطيب ، ولا يسكن ، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده ، وحبه والإنابة إليه ، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ، ولم يسكن ، إذ فيه فقر ذاتى إلى ربه بالفطرة من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه . وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة . وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له ، فإنه لا يقدر له على تحصيل ذلك السرور والسكون إلا الله . فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾[2] . فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ، ولم يحصل له عبادته لله ، فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها ، إلا بإخلاص الحب لله ، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده ، وهو المحبوب له بالقصد الأول ، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله لا يحب شيئاً لذاته إلا الله ، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة ﴿ **لا إله إلا الله** ﴾ ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله .

وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان ، بل من ا لألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك ، ولو سعى فى هذا المطلوب ، ولم يكن مستعيناً بالله متوكلا عليه ، مفتقراً إليه فى حصوله ، لم يحصل ، فإنه ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

١ — سورة البقرة الآية : ١٦٥

٢ — سورة الفاتحة الآية : ٥

فالعبد مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود ومن حيث هو المسئول المستعان به ، المتوكل عليه ، فهو إلهه الذى لا إله غيره ، وهو ربه الذى لا رب سواه ، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين . فمتى كان يحب غير الله لذاته ، أو يلتفت إلى غير الله أنه يعينه . كان عبداً لما أحبه ، وعبداً لما رجاه ، بحسب حبه له ورجائه إياه ، وإذا لم يحب أحداً لذاته إلا الله ، وأى شىء أحبه سواه فإنما أحبه له ، ولم يرج قط شيئا إلا الله ، وإذا فعل ما فعل من الأسباب ، أو حصل ما حصل منها كان مشاهداً أن الله هو الذى خلقها وقدّرها وسخرّها له ، وأن كل ما فى السموات والأرض فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره وهو مفتقر إليه ، كان قد حصل له من تمام عبوديته لله بحسب ما قسم له من ذلك .

والناس فى هذا على درجات متفاوته ، لا يحصى طرفيها إلا الله . فأكمل الخلق وأفضلهم وأعلاهم وأقربهم إلى الله وأقواهم ، وأهداهم أتمهم عبودية لله من هذا الوجه .

وهذا هو حقيقة دين الإسلام الذى أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه ، وهو أن يستسلم العبد لله لا لغيره ، فالمستسلم له ولغيره مشرك ، والممتنع عن الاستسلام له مستكبر . وقد ثبت فى الصحيح عن النبى — ﷺ — « يقول الله : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبته »[١،٢] ... (مختصراً من رسالة العبودية للامام ابن تيمية) :

قوله تعالى : ﴿ **فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون** ﴾

أى فإن للذين ظلموا أنفسهم باشتغالهم بغير ما خلقوا له من العبادة ، وإشراكهم بالله — عز وجل — وتكذيبه رسوله نصيباً من العذاب مثل نصيب نظرائهم من الأمم السالفة التى كذبت رسلها . ﴿ **فلا يستعجلون** ﴾ أى : فلا يطلبون منى أن أعجل بالإتيان به ، فإنى لا أخاف الفوت ، ولا يلحقنى عجز وهذا جواب عن قولهم . ﴿ **فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين** ﴾[٣] ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه** ﴾[٤] ﴿ **فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون** ﴾ أى : فويل

---

١ — مسلم — كتاب الإيمان — باب تحريم الكبر وبيانه ٩٣/١ رقم ٩١ وأبو داود — كتاب الناس — باب ما جاء فى الكبر ٤ / ٣٥١ رقم ٤٠٩١ والترمذى — كتاب البر والصلة — باب ما جاء فى الكبر ٣ / ٢٤٣ رقم ٢٠٦٦.

٢ — صحيح مسلم — كتاب البر والصلة — باب تحريم الكبر ٤ / ٢٠٢٣ رقم ٢٦٢٠ وسنن أبى داود كتاب اللباس — باب ما جاء فى الكبر ٤ / ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وابن ماجه — كتاب الزهد — باب البراءة من الكبر والتواضع ٢ / ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ ومسند أحمد ٢ / ٢٤٨ ، ٣٧٦ ، ٤١٤

٣ — سورة الأعراف الآية : ٧٠

٤ — سورة النحل الآية : ١

هم من حلول ذلك العذاب الذى وعدوه يوم القيامة حين لا تغنى نفس عن نفس شيئاً ولا هم ينصرون ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾[1] .

تفسير سورة الطور

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق

عدد آياتها : تسع وأربعون

وكلماتها : ثلاثمائة واثنتا عشرة

وحروفها : ألف وخمسمائة .

مجموع فواصل آياتها (من رعا)

وسميت سورة الطور ، لمفتتحها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : القسم بعذاب الكفار ، والإخبار عن ذلهم فى العقوبة ، ومنازلهم فى النار ، وطرب أهل الجنة بثواب الله الكريم الغفار ، وإلزام الحجة على الكفرة الفجار ، وبشارتهم قبل عقوبة العقبى بعذابهم فى هذه الدار ، ووصية سيد رسل الأبرار بالعبادة والاصطبار ، فى قوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾[2]

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **أميقولون شاعر** ﴾ أعاد (أم) خمس عشرة مرة وكلها إلزامات ليس للمخاطبين بها عنها جواب .

---

١ ــ سورة المعارج الآيتان : ٤٣ ، ٤٤

٢ ــ سورة الطور الآية : ٤٩

قوله : ﴿ ويطوف عليهم ﴾ بالواو ، وعطف على قوله : ﴿ وأمددناهم ﴾ وكذلك : ﴿ وأقبل ﴾ بالواو ، وفى الواقعة : ﴿ يطوف ﴾ بغير واو فيحتمل أن يكون حالاً ، أو يكون خبراً بعد خبر . وفى الإنسان ﴿ ويطوف ﴾ عطف على ﴿ ويطاف ﴾ .

مناسبتها لما قبلها

١ ــ إن فى ابتداء كل منهما وصف حال المتقين .

٢ ــ إن فى نهاية كل منهما وعيداً للكافرين .

٣ ــ إن كلا منهما بدئت بقسم بآية من آياته تعالى الكونية التى تتعلق بالمعاش أو المعاد ، ففى الأول أقسم بالرياح الذاريات التى تنفع الإنسان فى معاشه ، وهنا أقسم بالطور الذى أنزل فيه التوارة النافعة للناس فى معادهم .

٤ ــ فى كل منهما أمر النبى بالتذكير والإعراض عما يقول الجاحدون من قول مختلف

٥ ــ تضمنت كلتاهما الحجاج على التوحيد والبعث ، إلى نحو ذلك من المعانى المتشابهة فى السورتين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (١) وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ
(٥) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (٦) إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ (٨) يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩)
وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠) فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١١) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (١٢) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ
نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (١٣) هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) اصْلَوْهَا
فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٦) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (١٧)
فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩)
مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا
بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ

وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ
كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ
﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

معانى المفردات

(الطور) المراد به طور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى — علية السلام — (وكتاب مسطور) المراد بالكتاب هنا : ما كتب من الكتب السماوية كالقرآن ، والتوراة ، والإنجيل ، والمسطور : أى : المكتوب على طريق منظم (رق) الرق (بالفتح والكسر) جلد رقيق يكتب فيه (منشور) المنشور المفتوح الذى لاختم عليه . (والبيت المعمور) قيل : المراد الكعبة ، وقيل : بيت بحيال البيت المغمور فى السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت . (والسقف المرفوع) هو السماء . (والبحر المسجور) أى : الموقد المحمى ، من سجر النار أى : أوقدها وعنى به باطن الأرض وهو الذى دل عليه الكشف الحديث ولم تعرفه الأمم قديماً . (تمور) تضطرب وترتج وهى فى مكانها ، وأصل المور التردد فى الذهاب والمجىء . (خوض) أصل الخوض السير فى الماء . ثم استعمل فى الشروع فى كل شىء وغلب فى الخوض فى الباطل (يدعون) أى : يدفعون دفعاً شديدا بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعون إلى النار ويطرحون فيها . (فاكهين) أى : طيبة نفوسهم مسرورة بما هى فيه ، (وقاهم) حفظهم (هنيئاً) الطعام الهنىء : مالا يلحق المرء فيه مشقة ولا يعقبه تخمة ولا سقم ، (وزوجناهم) أى : قرناهم (حور عين) الحوار : واحدتهن حوراء ، والحور : أسوداد المقلة ، والعين : واحدتهن عيناء : أى : واسعة العينين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع ، والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع ، يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا فويل يومئذ للمكذبين الذين هم فى خوض يلعبون ، يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ .

أقسم سبحانه بمخلوقاته العظيمة ، الدالة على كمال قدرته ، وبديع صنعته وتضمن هذا القسم خمسة أشياء (والطور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع والبحر المسجور) فالطور هو الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة ، وهو الجبل الذى اختاره الله لتكليم موسى عليه السلام . قال عبد الله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه : عن نوف البكالى قال : أوحى الله ـــ عز وجل ـــ إلى الجبال : إنى نازل على جبل منكم . قال فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور ، فإنه تواضع ، وقال أرضى بما قسم الله لى ، فكان الأمر عليه ، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به ، وإنه لسيد الجبال .

(والثانى) (وكتاب مسطور) الكتاب المسطور فى الرق المنشور المراد به الكتاب المنزل من عند الله ، وأقسم الله به لعظمته وجلالته ، وما تضمنته من آيات ربوبيته ، وأدلة صحف مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة . فالصحف هى الرق ، وكونه بأيدى سفرة هو كونه منشوراً وعلى هذا فيكون قد أقسم سبحانه بسيد الجبال وسيد الكتب ويكون ذلك متضمناً للنبوتين المعظمتين . نبوة موسى ونبوة محمد ـــ ﷺ ـــ وكثيراً ما يقرن بينهما وبين محلهما كما فى سورة التين والزيتون .

ثم أقسم بسيد البيوت ، وهو البيت المعمور قال على وابن عباس وغيرهما : هو بيت فى السماء حيال الكعبة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم يخرجون منه فلا يعودون إليه . وقيل : هو البيت الحرام . قال ابن القيم : ولا ريب أن كلاً منهما معمور : فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم . وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود ، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت .

ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته . وهما مظهر آياته وعجائب صنعته . وهما السقف المرفوع وهو السماء فإنها من أعظم آياته قدراً وارتفاعاً ، وسعة وسمكاً ، ولوناً ، وإشراقاً وهى محل ملائكته ، وهى سقف العالم ، وبها انتظامه ، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار ، والسنين والشهور ، والأيام ، والصيف والشتاء والربيع والخريف . ومنها تنزل البركات وإليها تصعد الأرواح ، وأعمالها وكلماتها الطيبة .

(والثانى) البحر المسجور ، وهو آية عظيمة من آياته وعجائبه التى لا يحصيها إلا الله قال مجاهد : (البحر المسجور) الموقد وقد جاء فى الخبر : « إن البحر يُسجر يوم القيامة فيكون ناراً »[١] ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ **وإذا البحار سجرت** ﴾ قال على وابن عباس : أوقدت فصارت ناراً[٢] .

---

١ ـــ انظر تفسير الطبرى ـــ سورة الطور والتكوير آية : ٦

٢ ـــ انظر تفسير ابن كثير فى هذه الآية

قوله تعالى : ﴿ **إن عذاب ربك لواقع ، ماله من دافع** ﴾ هذا جواب القسم أى : إن عذاب يوم القيامة لمحيط بالكافرين المكذبين بالرسل (ماله من دافع) لا يدفعه عنهم دافع ، ولا يجدون من دونه مهرباً ، ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال : (يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيرا) والمور حركة فى تموج وتكفؤ وذهاب ومجىء ولهذا فرق سبحانه بين حركة السماء وحركة الجبال فقال : (وتسير الجبال سيراً) وقال تعالى : (وإذا الجبال سيرت) من مكان إلى مكان . وأما السماء فإنها تتكفأ ، وتموج ، وتذهب وتجىء .

قوله تعالى : (فويل يومئذ للمكذبين) الذين هم فى خوض يلعبون) قال ابن القيم : ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة ، وذكر أعمالهم وعلومهم التى كانوا عليها ، وهى الخوض الذى هو كلام باطل ، واللعب الذى هو سعى ضائع . فلا علم نافع ولا عمل صالح . بل علومهم خوض بالباطل ، وأعمالهم لعب . ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعاً قال تعالى: ﴿ **يوم يدعون إلى نار جهنم دعا** ﴾ أى : يدفع فى أقفيتهم وأكتافهم ، دفعاً بعد دفع . فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا ، وقيل لهم : ﴿ **هذه النار التى كنتم بها تكذبون** ﴾ وتقولون لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق ثم يقال : (أفسحر هذا ؟) الآن كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل . أنه سحر ، وأنهم مسحرة . فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم ، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها ﴿ **أم أنتم لا تبصرون** ﴾ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق ، كما عميت فى الدنيا فلا تبصرون الحق ؟

ثم سلب عنهم نفع الصبر الذى كانوا فى الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا إليه وتعللوا بإنقضاء البلية لانقضاء أمدها . فقيل لهم يومئذ : ﴿ **اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ كلاهما سواء عليكم لا يجدى عنكم الصبر ولا الجزع ، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب . ولا الجزع يعطف عليك قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة . ثم اعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك ، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذاباً ، فلم يجدوا من اقترانهم به بدأ بل صارت عذاباً لازماً لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم ، ولزوم العذاب لأهله فى النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة ، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم فى الدنيا . فإذا زال ذلك اللزوم فى وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالاً كليا لم يعذبوا عليه فى الآخرة ، لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم ولم يبق له أثر يترتب عليه . فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها ، وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض وغلب الأقوى الأضعف . وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما حكم الله وحكمته فى خلقه ، وأمره ونهيه وعقابه ولا يظلم ربك أحداً .

قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونعيم ، فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ، متكئين على سرر مصفوفة ، وزوجناهم بحور عين** ﴾

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون ، فذكر مساكنهم وهم فى الجنان ﴿ **فى جنات ونعيم** ﴾ وذكر حالهم فى المساكن وهو النعيم . وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم ﴿ **فاكهين بما آتاهم ربهم** ﴾ أى : يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مأكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك فجمع لهم سبحانه بين النعيمين : **نعيم القلب بالتفكه . ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح** . ﴿ **ووقاهم ربهم عذاب الجحيم** ﴾ فوفاهم ما يكرهون . وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب ، فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم .

وقوله تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون** ﴾ أى يقال لهم ذلك : ﴿ **هنيئاً** ﴾ الهنىء ما لا تنغيص فيه ولا نكد ولا كدر . قال الزجاج : أى : ليهنئكم ما صرتم إليه . وقيل : أى : متعتم بنعيم الجنة إمتاعا هنيئاً ، وقيل : ﴿ **هنيئاً** ﴾ أى : لا تموتون ؛ فإن ما لا يبقى أو لا يبقى الإنسان معه منغص غير هنىء فأخبر سبحانه عن دوام ذلك لهم ثم ذكر جل فى علاه مجالسهم وهيئاتهم فيها فقال تعالى : (متكئين على سرر مصفوفة) وفى ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض ، ومقابلة بعضهم بعضاً . كما قال تعالى : (متكئين عليها متقابلين) فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان فى بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه ، ولا يكون بعيداً منه . قد حيل بينه وبينه . بل سريره إلى جانب سرير من يحبه .

وذكر سبحانه أزواجهم وأنهم الحور العين . وقد تكرر وصفهم فى القرآن بهاتين الصفتين قال مجاهد : زوجناهم بهن أى : أنكحناهم إياهن . والحور العين قال مجاهد : التى يحار فيها الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن ، ويرى الناظر وجهه فى كبد إحداهن وكالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون . وقال قتادة : بحور ، أى : بيض وكذا قال ابن عباس . وقال مقاتل : الحور البيض الوجوه ، العين : الحسان الأعين . وعين حوراء : شديدة السواد ، نقية البياض ، طويلة الأهداب مع سوادها ، كاملة الحسن . فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة ، كما قال تعالى : (خيرات حسان) فالبياض فى ألوانهن ، والحسن فى وجوههن ، والملاحة فى عيونهن وقد وصف الله — سبحانه — نساء أهل الجنة بأحسن الصفات ودل بما وصف بما سكت عنه .

قوله تعالى :﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتاهم من عملهم من شيء ﴾

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم فى الدرجة وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم ، ويتم سرورهم وفرحهم ، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى ، بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم .

قال الحافظ الطبرانى عن ابن عباس أظنه عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فقال إنهم لم يبلغوا درجتك فيقول يارب قد عملت لى ولهم فيؤمر بإلحاقهم به » وقرأ ابن عباس : « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ﴾[1] الآية .

قال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية : يقول والذين أدرك ذريتهم الإيمان فعملوا بطاعتى ألحقتهم بإيمانهم إلى الجنة وأولادهم الصغار تلحق بهم قال ابن كثير هذا فضله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء ، وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء فقد قال الإمام أحمد عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح فى الجنة فيقول يارب أنى لى هذه ؟ فيقول باستغفار ولدك لك »[2] واسناده صحيح وله شاهد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ : « اذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[3]

قوله تعالى : **﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾** لما أخبر سبحانه عن مقام الفضل وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضى ذلك أخبر عن مقام العدل وهو أنه لايؤاخذ أحداً بذنب أحد فقال تعالى : **﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾** أى : مرتهن بعمله ولا يحمله عليه ذنب غيره من الناس سواء كان أباً أو ابنا كما قال تعالى : **﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين فى جنات يتساءلون عن المجرمين ﴾**[4]

١ ـ المعجم الكبير للطبرانى ١١ / ٤٤٠ رقم ١٢٢٤٨

٢ ـ مسند أحمد ٢ / ٥٠٩

٣ ـ صحيح مسلم ـ كتاب الوصية ـ باب ما يلحق الانسان من الثواب بعد و فاته ٣ / ١٢٥٥ رقم ١٦٣١ وأبو داود ـ كتاب الوصايا ـ باب ما جاء فى الصدقة عن الميت ٣ / ٣٠٠ رقم ٢٨٨٠ والترمذى ـ كتاب الأحكام ـ باب فى الوقف رقم ١٣٧٦ والنسائى ـ كتاب الوصايا ـ باب فضل الصدقة عن الميت رقم ٣٦٨١

٤ ـ سورة المدثر الآيات : ٣٨ ـ ٤١

قوله تعالى : ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾

ثم ذكر سبحانه إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب . وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم ، يشرب أحدهم ويناول صاحبه ليتم بذلك فرحهم وسرورهم ، ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الأثم لهم فقال :﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾فقصد باللغو السباب ، والتخاصم ، والهجر والفحش فى المقال . ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التى أثمت شارب الخمر . وتأمل قوله تعالى :﴿ ولا تأثيم ﴾ ولم يقل ولا إثم أى : ليس فيها ما يحملهم على الإثم ، ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشربها ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون .

ثم وصف سبحانه خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ فى بياضهم ، والمكنون : المصون الذى لا تدنسه الأيدى ، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن وذلك اللون والصفاء والبهجة . بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون ، ووصفهم فى موضع آخر :﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾[1] ففى ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم فى حوائج ساداتهم وخدمتهم ، وذهابهم ، ومجيئهم وسعة المكان ، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه .

قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ، فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ، إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون:﴿ إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين ﴾أى : كنا خائفين فى محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن من الله علينا ، فأمننا مما نخاف : (ووقانا عذاب السموم) وهذا ضد حال الشقى الذى كان فى أهله مسرورا . فهذا كان مسرورا مع إساءته . وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم فبدل الله ـــ سبحانه ـــ إشفاقهم بأعظم الأمن ، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف . فبالله سبحانه المستعان . ثم أخبر عن حالهم فى الدنيا . وأنهم كانوا يصبرون لله فيها . فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره ، ومحل كرامته والذى جمع لهم ذلك كله بره ورحمته ، فإنه هو البر الرحيم ، فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة فى أول السورة والله أعلم . (مستفاد من كتاب التبيان لابن القيم)

١ ـــ سورة الإنسان الآية : ١٩

إرشاد وتوجيه ومناقشة

قال تعالى :

فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ
ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ
ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ
ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾
أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ
ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

معانى المفردات

﴿ **فذكر** ﴾ أى : فاثبت على ما أنت عليه من التذكير . ﴿ **والكاهن** ﴾ من يخبر بالأخبار الماضية الخفية بضرب من الظن ﴿ **نتربص** ﴾ أى : ننتظر ﴿ **المنون** ﴾ الدهر وريبة : حوادثه وحروفه ﴿ **والأحلام** ﴾ العقول ﴿ **والطغيان** ﴾ تجاوز الحد فى المكابرة والعناد ﴿ **تقوله** ﴾ أى : أختلقه من تلقاء نفسه ، إذ التقول لا يستعمل غالبا إلا فى الكذب . ﴿ **أم خلقوا من غير شىء** ﴾ : أى من غير خالق ﴿ **خزائن ربك** ﴾ أى : خزائن رزقه ﴿ **المسيطرون** ﴾ أى : القاهرون المسلطون عليها من قولهم : سيطر على كذا . إذا راقبه وأقام عليه ﴿ **سلم** ﴾ أى : مرتقى إلى السماء ، ﴿ **بسلطان مبين** ﴾ أى : بحجة واضحة تصدق استماعه ، ﴿ **مغرم** ﴾ أى : التزام غرامه تطلبها منهم ، ﴿ **مثقلون** ﴾ أى : محملون ثقلا ﴿ **الغيب** ﴾ أى : علم الغيب ﴿ **كيدا** ﴾ أى : شراً ، ﴿ **المكيدون** ﴾ أى : الذين يحيق بهم الشر ويعود

إليهم وباله . ﴿ كسفاً ﴾ أى : قطعة ، ﴿ مركوم ﴾ أى : متراكم ملقى على بعض ، ﴿ يصعقون ﴾ أى : يقتلون ، ﴿ دون ذلك ﴾ أى : قبله وهو ما أصابهم من القحط سبع سنين ، بأعيننا . أى : فى حفظنا وحراستنا ، ﴿ إدبار النجوم ﴾ أى وقت إدبارها من آخر الليل أى : غيبتها بضوء الصباح .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن العذاب واقع بالكافرين لا محالة ، وأن الفريقين المصدقين والمكذبين مجزيون بأعمالهم ، وأن الرسول ــ ﷺ ــ على الحق المبين الذى من كذبه باء بغضب من الله ، ومن صدقه استحق رضوانه ومغفرة من لدنه ــ أمر رسوله هنا بالثبات على التذكر والموعظة ، وعدم المبالاة بما يكيد به أولئك الكائدون ، فإنه هو الغالب حجه وسيفاً فى هذه الدار ومنزلة ورفعة فى دار القرار ، ثم ذكر تناقض أقوالهم لينبه إلى فساد آرائهم ، وإلى أنهم ما أعرضوا عن الحق إلا اتباعاً للهوى لا اتباعاً للدليل والبرهان ، وبعد أن أقام عليهم الحجة وسد عليهم المسالك ، طلب إليه أن يتوكل عليه ، وأن يعلم أن كيدهم لا يضيره شيئاً ، فالله ناصره عليهم ، وسيظهر دينه ، ويتم له الغلبة والفلج عليهم ، فدعهم وشأنهم حتى يأتى اليوم الذى لا مرد له ، يوم لا تنفعهم حبائلهم وشراكهم التى كانوا ينصبون مثلها فى الدنيا ، ولا يجدون لهم إذ ذاك ولياً ولا نصيراً ، وأن الله سيصيبهم بعذاب من عنده فى الدنيا قبل ذلك اليوم ، وأنه ناصرك عليهم وكالئك بعين رعايته ، واذكر ربك حين تقوم من منامك ، ومن مجلسك وحين تغيب النجوم ، ويصبح الصباح وتغرد الأطيار مسبحة منزهة خالق السموات والأرض ، قائلة سبوح ، قدوس ، رب الملائكة والروح .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون** ﴾

يقول تعالى آمرا رسوله ــ ﷺ ــ : بأن يبلغ رسالته إلى عباده وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ثم نفى ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال : ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ أى : لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذى يأتيه الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء (ولا مجنون) وهو الذى يتخبطه الشيطان من المس . وممن قال إنه كاهن : شيبة بن ربيعة وممن قال إنه مجنون : عقبة بن أبى معيط .

ثم ذكر أنهم ترقوا فى الإنكار عليه فقال :

﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ، قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين ﴾

روى أن قريشاً اجتمعت فى دار الندوة وذهبت مذاهب شتى فى صدّ دعوته — ﷺ — ومقابلة هذا الخطر الداهم عليهم ، وماذا يفعلون فى الخلاص منه ، فقال قائل من بنى عبد الدار : تربصوا به ريب المنون ، فإنه شاعر ويهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى ، ثم أفترقوا على هذه المقالة فنزلت الآية (رواه محمد بن اسحق فى السيرة عن ابن عباس) فقال تعالى منكراً عليهم : (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون) أى قوارع الدهر ، والمنون الموت ، يقولون ننتظره ونصبر عليه حتى يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه قال تعالى أمر رسوله أن يهددهم ويتهكم بهم : (قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين) أي : قل لهم : انتظروا وتمهّلوا فى ريب المنون ، فإنى متربص معكم منتظرا قضاء الله فى وفيكم ، وستعلمون لمن عقبى الدار .

قوله تعالى : (أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون) أى : عقولهم تأمرهم بهذا الذى يقولونه فيك من الأقاويل الباطلة التى يعلمون فى أنفسهم أنها ضلال معاندون فهذا هو الذى يحملهم على ما قالوه فيك كقوله تعالى : **﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾**

قوله تعالى : **﴿ أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾**

أى : أيقولون كاهن أم يقولون شاعر أم يقولون إنه افترى القرآن واختلقه من تلقاء نفسه ؟ (بل لا يؤمنون) أي : أن كفرهم هو الذى حملهم على هذه المطاعن وزين لهم أن يقولوا ما قالوا .

ثم رد عليهم جميع ما زعموا وتحداهم فى دحض ما قالوا

فقال :

(فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) أى : إن كان شاعراً فلديهم الشعراء العظماء ، أو كاهناً . فلديكم الكهان الأذكياء ، وإن كان قد تقوله فلديكم الخطباء الذين يحبرون الخطب ، فهلمّ فليأتوا بمثل هذا القرآن إن كانوا صادقين فيما يزعمون ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاءوا بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة من مثله . قال تعالى : **﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾**[1]

---

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨ .

بحث فى الإعجاز القرآنى

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله فى كتابه النبأ العظيم ما نصه :

القرآن معجزة لغوية

« من كان عنده شيء من الشك فى هذه القضية فليأذن لنا أن نستوضحه فيم ذلك الشك ؟

هل حدثته نفسه بأنه هو يستطيع أن يأتى بكلام فى طبقة البلاغة القرآنية ؟ أم هو قد عرف من نفسه القصور عن تلك الرتبة ، ولكنه لم يعرف عن الناس ما عرف من نفسه ؟

أم علم أن الناس جميعاً قد سكتوا عن معارضة القرآن ، ولكنه يعلم أن سكوتهم عنه كان عجزاً ، ولا أن عجزهم جاء من ناحية القرآن ذاته .

إن علم أنهم قد عجزوا عنه وأنه هو الذى أعجزهم ، ولكنه لم يعلم أن أسلوبه كان من أسباب إعجازه ؟

أم هو يوقن بأن القرآن الكريم كان ومازال معجزة بيانية لسائر الناس ولكنه لا يوقن بأنه كان معجزاً كذلك لمن جاء به ؟

أم يؤمن بهذا كله ، ولكنه لا يدرى . ما أسراره وما أسبابه ؟

هذه وجوه ستة ، لكل وجه منها علاج يخصه . وسنعالجها على هذا الترتيب :

١ ــ فأما إن كان مثار الشبهة عنده أنه زاول شيئاً من صناعة الشعر أو الكتابة ، وآنس من نفسه اقتداراً فى البيان فوسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع الإتيان بمثل أسلوبه ، فذلك ظن لا يظنه بنفسه أحد من الكبار المنتهين ، وإنما يعرض ــ إن عرض ــ للأغرار الناشئين ومثل هذا دواؤه عندنا نصح نتقدم به إليه أن يطيل النظر فى أساليب العرب وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب حتى تستحكم عنده ملكة النقد البيانى ، ويستبين له طريق الحكم فى مراتب الكلام وطبقاته ثم ينظر فى القرآن بعد ذلك وأناله زعيم بأن كل خطوة يخطوها فى هذه السبيل ستزيده معرفة بقدره ، وستحل عن نفسه عقدة من عقد الشك فى أمره ، إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار

اللغة وإحساناً فى تصريف القول ، وامتلاكاً لناصية البيان ، ازداد بقدر ذلك هضماً لنفسه ، وإنكارا لقوته ، وخضوعاً بكليته أمام أسلوب القرآن . وهذا قد يبدو لك عجيباً ، أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل فيها قوته ويتسع بها علمه . ولكن لا عجب . فتلك سنة الله فى آياته التى يصنعها بيديه : لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعاناً لعظمتها وثقة بالعجز عنها . ولا كذلك صناعات الخلق ، فإن فضل العلم بها يمكنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها . ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين برب موسى وهارون فإن أبى المغرور إلا إصراراً على غروره ، وكُبر عليه أن يقر بعجزه وقصوره ، دعوناه إلى الميدان ليجرب نفسه ويبرز قوته ، وقلنا له : أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ... غير أننا نعظه بواحدة أخرى : ألا يخرج على الناس ببضاعته حتى يُطيل الرويّة ويحكم الموازنة وحتى يستيقن الإحسان والإجادة ، فإنه إن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلطه ويوارى سوءته . وإلا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها .

وإن فى التاريخ لعبراً تؤثر عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة : فجاءوا فى معارضة القرآن بكلام لا يشبه القرآن ولا يشبه كلام أنفسهم ؛ بل نزلوا به إلى حزب من السخف والتفاهة بادٍ عواره ، باق عاره وشفاره . فمنهم عاقل استحيا أن يتم تجربته فحطم قلمه ومزق صحيفته . ومنهم ماكر وجد الناس فى زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته ، فطوى صحفه وأخفاها إلى حين (ومن ذلك ما اشتهر عن تلك الكتب التى وصفها زعماء نحلتى « القاديانية » و « البهائية » لتكون دستورا دينياً كالقرآن وقد لفقوها تلفيقاً ركيكاً من آيات قرآنية وكلمات عامية ، وبدلوا فيها أصول الإسلام وفروعه ، وادعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهيه ...)

ومنهم طائش برز بها إلى الناس . فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين . (كمسيلمة الكذاب ...)

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر فى تلك العبر وليأخذ بأحسنها . ومن لم يستح فليصنع ما يشاء .

٢ ــ وأما إن كان مدخل الشبهة عنده أنه رأى فى الناس من هو أعلى منه كعبا فى هذه الصناعة ، فقال فى نفسه : « لئن لم أكن أنا من فرسان هذا الميدان ، ولم يكن لى فى معارضة القرآن يدان : لعل هذا الأمر يكون يسيرا على من هو أفصح منى لساناً وأسحر بياناً » فمثل هذا تقوله له : إرجع إلى أهل الذكر من أدباء عصرك فاسألهم هل يقدرون أن يأتوا بمثله ؟ فإن قالوا لك « لو نشاء لقلنا مثل

هذا » فقل : « هاتوا برهانكم ! » وإن قالوا : « لا طاقة لنا به » فقل : أى : شيء أكبر من العجز شهادة على الإعجاز .

ثم أرجع إلى التاريخ فاسأله : ما بال القرون الأولى ؟ ينبئك التاريخ أن أحداً لم يرفع رأسه أمام القرآن فى عصر من أعصاره وأن بضعة النفر الذين انفضوا رؤوسهم إليه باؤوا بالخزى والهوان ، وسحب الدهر على آثارهم ذيل النسيان .

أجل . لقد سجل التاريخ هذا العجز على أهل اللغة أنفسهم فى عصر نزول القرآن . وما أدراك ما عصر نزول القرآن ؟ هو أزهى عصور البيان العربى ، وأرقى أدوار التهذيب اللغوى . وهل بلغت المجامع اللغوية فى أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية فى ذلك العصر من العناية بلغتها ، حتى أدركت هذه اللغة أشدها ؛ وتم لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها ؟ .. ما هذه الجموع المحشودة فى الصحراء ، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك ؟ ـــ إنها سوق العرب تعرض فيها أنفس بضائعهم وأجود صناعاتهم ؛ وما هى إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة يتبارون فى عرضها ونقدها ، واختيار أحسنها والمفاخرة بها ، ويتنافسون فيها أشد التنافس ، يستوى فى ذلك رجالهم ونساؤهم وما أمر حسَّان والخنساء وغيرهما بخاف على متأدب .

فما هو إلا أن جاء القرآن ـــ وإذا الأسواق قد انفضت ، إلا منه . وإذا الأندية قد صَفِرتَ ، إلا عنه . فما قدر أحد منهم أن يُباريه أو يجاريه ، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة ، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة ، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى . ذلك على أنه لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه ، بل دعاهم إليه أفراداً أو جماعات ، بل تحداهم وكرر عليهم ذلك التحدى فى صور شتى ، متهكماً بهم متنزلا معهم إلى الأخف فالأخف : فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله . ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله ثم بسورة واحدة من مثله (وانظر كيف تنزل معهم فى هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة العامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مثلاً على التقريب لا التجديد ولذا كان هو آخر صيغ التحدى نزولاً ، فلم يجيء التحدى بلفظ (من مثله إلا فى سورة البقرة المدنية) وأباح لهم فى كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا من استطاعوا ، ثم رماهم والعالم كله بالعجز فى غير مواربة فقال : **﴿ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾** (١) سورة الإسراء . وقال : **﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ﴾** (٢) سورة البقرة فانظر أى إلهاب ، وأى استفزاز ! لقد أجهز عليهم بالحكم البات المؤبد فى قوله : **﴿ ولن تفعلوا ﴾** ثم هددهم بالنار ، ثم سواهم بالحجارة . فلعمرى لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن

(١) سورة الإسراء آية : ٨٨

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤

منافسته وهم الأعداء الألداء وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته ، ولا سلماً يصعدون به إلى مزاحمته ، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ... حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الخوف ، واستنطقوا السيوف بدل الحروف . وتلك هى الحيلة التى يلجأ إليها كل مغلوب فى الحجة والبرهان ، وكل من لا يستطيع دفعاً عن نفسه بالقلم واللسان .

ومضى عصر القرآن والتحدى قائم ليجرب كل امرىء نفسه ، وجاء العصر الذى بعده وفى البادية وأطرافها أقوام لم تختلط أنسابهم ولم تنحرف ألسنتهم ، ولم تتغير سليقتهم ، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه ، ويثبتوا أنهم قادرون من أن القرآن على ما عجز عنه أوائلهم ، لفعلوا ، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل :

ثم مضت تلك القرون ، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد ، كانوا أشد عجزا وأقل طمعاً فى هذا المطلب العزيز . فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة التاريخ على أسلافهم ، وكان برهان الإعجاز قائماً أمامهم من طريقين : وجدانى وبرهانى .. ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

٣ ــ فإن قال لنا : نعم ، قد علمتُ أنه لم يأت أحد بشىء فى معارضة القرآن . ولكن ليس كل ما لم يفعله الناس يكون خارجاً عن حدود قدرتهم ، فربما ترك الإنسان فعلاً هو من جنس أفعاله الاختيارية لعدم قيام الأسباب التى من شأنها أن تبعث عليه ، أو لأن صارفاً إلهياً ثبط همته وصرف إرادته عنه مع توافر الأسباب الداعية إليه ، أو لأن عارضاً فجائياً عطل آلاته وعاق قدرته عن إحداث ذلك الفعل بعد توجه إرادته نحوه ــ فعلى الفرضين الأولين يكون عدم معارضة القرآن قلة اكتراث بشأنه لا عجزاً عن الإتيان بمثله ، وعلى الفرض الأخير يكون تركه عجزا عنه حقاً ، لكن ليس لمانع فيه من جهة علو طبقته عن مستوى القدرة البشرية بل لمانع خارجى هو حماية القدرة العليا له وصيانتها إياه عن معارضة المعارضين ، ولو أزيل هذا المانع لجاء الناس بمثله .

قلنا له هذه الفروض كلها لا تنطبق على موضوعنا بحال .

أما الأول فإن الأسباب الباعثة على المعارضة كانت موفورة متضافرة ، وأى شىء وأقوى فى استثارة حمية خصمك من ذلك التقريع البليغ المتكرر الذى توجهه إليك معلنا فيه عجزه عن مضاهاة عملك ؟ إن هذا التحدى كاف وحده فى إثارة حفيظة الجبان وإشعال همته للدفاع عن نفسه بما تبلغه طاقته فكيف

لو كان الذى تتحداه مجبولاً على الأنفة والحمية ؟ وكيف لو كان العمل الذى تتحداه به هو صناعته التى بها يفاخر ، والتى هو فيها المدرب الماهر وكيف لو كنت مع ذلك ترميه بسفاهة الرأى وضلال الطريق ؟ وكيف لو كنت تبتغى من وراء هذه الحرب الجدلية هدم عقائده ، ومحو عوائده وقطع الصلة بين ماضيه ومستقبله ؟

وأما الثانى فإن هذه الأسباب قد رأيناها آتت بالفعل ثمراتها ، وأيقظت همم المعارضين إلى أبعد حدودها ، حتى كان أمر محمد والقرآن هو شغلهم الشاغل ، وهمهم الناصب ، فلم يدعوا وسيلة من الوسائل لمقاومته باللطف أو بالعنف إلا استنبطوها وتذرعوا بها : أيخادعونه عن دينه ليلين لهم ويركن قليلاً إلى دينهم ، أم يساومونه بالمال والملك ليكف عن دعوته ، أم يتواصون بمقاطعته وبحبس الزاد عنه وعن عشيرته الأقربين حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه ، أم يمنعون صوت القرآن أن يخرج من دور المسلمين خشية أن يسمعه أحد من أبنائهم ، أم يلقون فيه الشبهات والمطاعن أم يتهمون صاحبه بالسحر والجنون ليصدوا عنه من لا يعرفه من القبائل القادمة فى المواسم ، أم يمكرون به ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، أن يخاطرون بمهجهم وأموالهم وأهليهم فى محاربته . أفكان هذا كله تشاغلاً عن القرآن وقلة عناية بشأنه ؟ !

ثم لماذا كل هذا وهو قد دلهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو أن يجيئوه بكلام مثل الذى جاءهم به ؟ ألم يكن ذلك أقرب إليهم **وأبقى عليهم** لو كان أمره فى أيديهم ؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب ، وكان القتل والأسر والفقر والذل كل أولئك أهون عليهم من ركوب هذا الطريق الوعر الذى دلهم عليه . فأى شىء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز ؟

لا ريب أن هذه الحملات كلها لم تكن موجهة إلى شخص النبى وأصحابه فقد كانوا من قبل تعطفهم عليهم أرحامهم ، وتحببهم إليهم مكارم أخلاقهم كما أنها لم تكن موجهة إلى القرآن فى الصدور ولا فى داخل البيوت فقد قبلوا منهم أن يعبد امرؤ ربه فى بيته كيف يشاء إنما كانت مصوبة إلى هدف واحد ، ومقاومة لخطر واحد هو إعلان هذا القرآن ونشره بين العرب .

ولا يهجسنّ فى روعك أنهم ما نقموا من الإعلان بالقرآن إلا أنه دعوة جديدة إلى دين جديد فحسب . كلا ، فقد كان فى العرب حنفاء من **فحول** الخطباء والشعراء وكانت خطبهم وأشعارهم مشحونة بالدعوة إلى ما دعا إليه القرآن من دين الفطرة . فما بالهم قد أهمهم من أمر محمد وقرآنه ما لم يغنهم من أمر غيره ؟ وما ذاك إلا أنهم وجدوا له شأناً آخر لا يشبه شأن الناس ، وأنهم أحسوا فى قرآنه قوة غلابة ، وتياراً جارفاً يريد أن يبسط سلطانه حيث يصل صدى صوته ، وأنهم لم يجدوا سبيلاً لمقاومته

من طريق المعارضة الكلامية التى هى هجِّيراهم ، والتى هى الطريق المباشر الذى تحداهم به . فلا جرم كان الطريق الوحيد عندهم لمقاومته هو الحيلولة بمختلف الوسائل بين هذا القرآن وبين الناس مهما كلفهم ذلك من تضحية . وكذلك فعلوا . وكذلك مضت السنة فيمن بعدهم من أعداء القرآن إلى يومنا هذا

وأما الثالث فإنه لو كان عجزهم عن مضاهاة القرآن لعارض أصابهم حال بينهم وبين شىء فى مقدورهم ، لما استبان لهم ذلك العجز إلا بعد أن يبسطوا ألسنتهم إليه ، ويجربوا قدرتهم عليه ، لأنه ما كان لأمرىء أن يحس بزوال قدرته عن شىء كان يقدر عليه كقدرته على القيام والقعود إلا بعد محاولة وتجربة . ونحن قد علمنا أنهم قعدوا عن هذه التجربة ، ولم يشرع منهم فى هذه المحاولة إلا أقلهم عدداً وأسفههم رأيا . فكان ذلك آية على يأسهم الطبيعى من أنفسهم ، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنهم عجز فطرى عتيد ، كعجزهم عن إزالة الجبال ، وعن تناول النجوم من السماء ، وأنهم كانوا فى غنى بهذا العلم الضرورى عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب .

على أنهم لو كانوا لم يعرفوا عجزهم عنه بادىء ذى بدء وإنما أدركهم العجز بعد شعورهم بأنه فى مستوى كلامهم ، لكان عجبهم إذاً من أنفسهم : كيف عيوا به وهو منهم على طرف التمام ؟ ولجعلوا يتساءلون فيما بينهم أى داء أصابنا فعقد ألسنتنا عن معارضة هذا الكلام الذى هو ككل كلام ؟ أو لرجعوا إلى بيانهم القديم قبل أن يصيبهم العجز فجاءوا بشىء منه فى محاذاته . ولكنهم لم يجيئوا فيه بقديم ولا جديد ، وكان القرآن نفسه هو مثار عجبهم وإعجابهم ، حتى إنهم كانوا يخرون سجداً لسماعه من قبل أن تمضى مهلة يوازنون فيها بينه وبين كلامهم ، بل إن منهم من كان يغلبه هذا الشعور فيفيض على لسانه اعترافاً صحيحاً . « ما هذا بقول بشر »

٤ ـــ فإن قال : قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزاً ، وأنهم وجدوا فى طبيعة القرآن سراً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم ولكنى لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مظان هذا السر ، لأنى اقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب فى لغتهم العربية :

فمن حروفهم ركُبّت **كلماته** ومن كلماتهم ألفت جمله وآياته ، وعلى مناهجهم فى التأليف جاء تأليفه . فأى جديد فى مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادّها وأبنيتها ؟ وأى جديد فى تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به فى مذاهبها ، حتى نقول إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟ قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج فى لغته عن سنن العرب فى كلامهم إفراداً وتركيباً فذلك فى جملته حق لا ريب فيه . وبذلك كان أدخل فى الإعجاز . وأوضح فى قطع الأعذار

﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته . أأعجمى وعربى ؟ ! ﴾

وأما بعد فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان ، كمثل صنعة البنيان : فالمهندسون البناءون ، لا يخلقون مادة بناء لم تكن فى الأرض ، ولا يخرجون فى صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة ، وسقفاً موضوعة ، وأبواباً مشرعة ، ولكنهم تتفاضل صناعتهم وراء ذلك ، فى اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، وأكنها للناس من الحر والقر ، وفى تعميق الأساس ، وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة فى المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء ، بحيث يتخللها الضوء والهواء ، فنهم من يفى بذلك كله ، أو جله ، ومنهم من يخل بشىء منه ، أو أشياء ، إلى فنون من الزينة والزخرف ، يتفاوت الذوق الهندسى فيها ، تفاوتابعيداً . كذلك ترى أهل اللغةالواحدة ،يؤدون الغرض الواحد ، على طرائق شى،تاوت حظها فى احسن والقبول ، وما من لمة من كلامهم ، ولا وضع من أوضاعهم ، بخارج عن مواد اللغة وقواعدها فى الجملة ، ولكنّ حسن الاختيار فى تلك المواد والأوضاع ، قد يعلو بالكلام ، حتى يسترعى سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك ، وسوء الاختيار فى شىء من ذلك ، قد ينزل به حتى تمجّه أذنك ، وتغثى منه نفسك ، وينفر منه طبعك .

ذلك أن اللغة ، فيها العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، والمجمل والمبين ، وفيها العبارة والأشارة ، والفحوى والإيماء ، وفيها الخبر والإنشاء ، وفيها الجمل الإسمية والفعلية ، وفيها النفى والإثبات ، وفيها الحقيقة والمجاز ، وفيها الإطناب والإيجاز ، وفيها الذكر والحذف ، وفيها الابتداء والعطف ، وفيها التعريف والتنكير ، وفيها التقديم والتأخير ، وهلم جرّاً . . . .

ومن كل هذه المسالك ، ينفذ الناس إلى أغراضهم ، غير ناكبين بوضعٍ منها عن أوضاع اللغة جملة ، بل هم فى شعابها يتفرقون ، وعند حدودها يلتقون .

بيد أنه ليس شىء من هذه المسالك بالذى يجمل فى كل موطن ، وليس شىء منها بالذى يقبح فى كل موطن . إذاً لهان الأمر على طالبه ، ولأصبحت البلاغة فى لسان الناس طعماً واحداً ، وفى سمعهم نغمة واحدة . كلا ، فإن الطريق الواحد ، قد يبلغك مأمنك حيناً ، ويقصِّر بك عن غايتك حيناً آخر ، ورب كلمة تراها فى موضع ما كالخرزة الضائعة ، ثم تراها بعينها فى موضع آخر ، كالدرة اللامعة ، فالشأن إذاً فى هذه الطرق أيها أحق بأن يسلك فى غرض غرض ، وأيها أقرب توصيلاً إلى مقصد مقصد ، ففى الجدال ، أيها أقوم بالحجة ، وأدحض للشبهة ، وفى الوصف أيها أدق تمثيلاً للواقع ، وفى موطن اللين ، أيها أخف على الأسماع وأرفق بالطباع ، وفى موطن الشدة ، أيها أشد اطلاعاً على الأفئدة بتلك النار الموقدة ، وعلى الجملة ، أيها أوفى بحاجات البيان وأبقى بطراوته على الزمان .

والأمر فى هذا الاختيار عسير غير يسير ، لأن مجال الاختيار كثير الشعب ، مختلف الالوان فى صور المفردات والتراكيبات ، والناس ليسوا سواء فى استعراض هذه الألوان ، فضلا عن الموازنة بينها ، فضلاً عن حسن الاختيار فيها . . . . .

فالجديد فى لغة القرآن أنه فى كل شأن يتناوله من شؤون القول ، يتخير له أشرف الموادّ ، وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة فى موضعها ، الذى هو أحق بها ، وهى أحق به : بحيث لا يجد المعنى فى لفظه إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد

اللفظ فى معناه إلا وطنه الأمين وقرارة المكين ، لا يوما أو بعض يوم ، بل على أن تذهب العصور ، ويجىء العصور ، فلا المكان يريد بساكنه بدلا ، ولا الساكن يبغى عن منزله حولا ، وعلى الجملة يجيئك من هذا الأسلوب ، بما هو المثل الأعلى فى صناعة البيان .

هذا مطلب له دليله ، وإجمال له تفصيله ، وليس من قصدنا ، أن نعجلك الآن بالبحث فى أدلته وتفاصيله ، وإنما أردنا أن نزيح عنك هذه الشبهة ، لتعلم أن ليس كل الكلام عربى ، ككل كلام عربى ، وأن هذه الناحية اللغوية ، جديرة بأن تتفاوت فيها القوى ، نازلة إلى حد العجز ، أو صاعدة إلى حد الإعجاز .

فإن أحببت أن تعرف للقرآن الكريم سبقه ، وبلوغه الغاية فى هذا المضمار ، وأنت بعد لم ترزق قوة الفصل بين درجات الكلام ، فاعلم أنه لا سبيل لك إلى القضاء فى هذا الشأن عن حُس وخبرة ، وإنما سبيلك أن تأخذ حكمه سلّماً عن أهله ، وتقنع فيه بشهادة العارفين به ، وإذاً يكون من حقك علينا أن نقدم لك مثالاً عن شهادتهم ، فخذ الآن هذا المثال :

جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قرأ عليه القرآن كأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال له ياعم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً ، ليعطوكه ، فإنك أتيت محمداً ، لتتعرض لما قبله ، قال الوليد : لقد علمت قريش أنى من أكثرها مالاً ، قال : فقل فيه قولاً ، يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم منى بالشعر ، لا برَجَزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقولَه شيئاً من هذا ، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمنير أعلاه ، مشرق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يُعلى ، وإنه ليحطم ما تحته . . . الحديث رواه الحاكم عن ابن عباس . وقال صحيح على شرط البخارى .

فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء ، عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار ، عما وراءها من السر المصون ، بل فليت القشرة عن لبها ، وكشفت الصدفة عن درِّها ، فنفذت من هذا النظام اللفظى إلى ذلك النظام المعنوى ، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معانى القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن لهذا الحديث موضعاً يجىء إن شاء الله فى بحث الإعجاز العلمى ، وحديثنا كما ترى لا يزال فى شأن الإعجاز « اللغوى » وإنما اللغة ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ، ينظر فيها ، تارة من حيث هى أبنية صوتية ، مادتها الحروف ، وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية ، قد مضى لنا القول فيها آنفاً . وتارة من حيث هى أداة لتصوير المعانى ونقلها ، من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها وهذه هى الناحية التى سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هى أعظم الناحيتين أثراً فى الإعجاز اللغوى ، الذى نحن بصدده ، إذ اللغات تتفاضل من حيث هى بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هى أجراس وأنغام .

(الشبهه الخامسة والرد عليها)

٥ — سيقول السائل ، إذا انتهى معنا إلى هذا الموضع ، لقد أغلقتم عنا بهذا البيان باباً من الشك ، ولكنكم لم تلبثوا أن فتحتم علينا منه باباً جديداً ، ألم تقولوا لنا إن هذه الصناعة البيانية ، ليست فى الناس بدرجة واحدة ، وإن القوى تذهب فيه متفاوته ، على مراتب شتى ، فما نرى إذاً علينا من حرج ، أن نعد الإعجاز ، الذى حدثتمونا عنه أمراً مشاعاً ، يجرى فى أساليب الناس ، كما يجرى فى القرآن ، ألا ترون أن كل قائل ، أو كاتب ، إنما يضع فى بيانه ، قطعة من عقله ووجدانه ، على الصورة التى تهديه إليها فطرته ومواهبه ؟ وأن اختلاف الناس فى هذه الوسائل ، يتبعه البتة اختلاف طرائقهم فى التعبير عن أغراضهم ؟ إنكم لتستطيعون أن تحصوا فى اللغة العربية ، صوراً كلامية بعدَّة الناطقين بها ، بحيث لا تجدون كاتباً يكتب ، كما يكتب كاتب آخر على السواء ، ولا قائلاً كذلك ، بل إنتم لا محالة واجدون عند كل واحد منهاجاً خاصاً فى الأداء ، فليس البدوى كالحضرى ، ولا الذكى كالغبى ، وليس الطائش كالحليم ، ولا المريض كالسليم ، وليس الأدنى فى هذا الباب ، يستطيع الصعود إلى الأعلى ، ولا الأعلى ، يستطيع النزول إلى الأدنى ، بل المتشابهان فطرة ومزاجاً ، المتساويان تربية وتعليماً ، قد يشربان من كأس واحدة ، ثم لا يتناقضان بالكلام على صورة واحدة ، فكيف تأمرون الناس أن يجيئوكم بمثل القرآن ، وهم لا يقدرون أن يجيء بعضهم بمثل كلام بعض ؟ وكيف تعدون عجزهم عن آية على قدسيته ، وأنتم لا تعدون عجز كل امرىء عن الإتيان بأسلوب غيره آية ، على أن ذلك الأسلوب ، صنع إلهى محض ، لا كسب فيه للذى جرى على لسانه ؟ أليس هذا القياس يسوِّغ لنا ، أن نفترض القرآن كلاماً بشرياً كسائر كلام البشر ، غير أنه اختص أسلوبه بصاحبه ، كما اختص كل امرىء بأسلوب نفسه ؟

وجوابنا لهذا القائل أن نقول له : لسنا نماريك فى أن كلام المتكلم ، إنما هو صورة تمليها عليه فطرته ومواهبه ، ولا فى أن هذه الفطره والمواهب لتفاوتها عند أكثر الناس ، لابد أن تترك أثرها من التفاوت فى صور كلامهم ، ولا فى أن تلك الفطر والمواهب إن تشابهت عند فريق من الناس ، فأملت عليهم صوراً متشابهة من القول ، فإنها لا تخرجها فى عامة الأمر صورة واحدة .

كل هذا نسلمه ولا ننكره ، لا يضُرنا ولا يوهن شيئاً من حجتنا ، ذلك أننا حين نتحدى الناس بالقرآن ، ولا نطالبهم أن يجيئونا بنفس صورته الكلامية ، كلا .. ذلك ما لايطمع فيه ، ولا ندعو المعارضين إليه ، وإنما نطلب كلاماً أياً كان نمطه ومنهاجه ، على النحو الذى يحسنه المتكلم أيا كانت

فطرته ومزاجه ، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية ، حاذاه أو قاربه فى ذلك المقياس ، وإن كان على غير صورته الخاصة ، فالأمر الذى ندعوهم إلى التماثل ، أو المقاربة فيه ، هو هذا المقدار الذى فيه يتنافس البلغاء ، وفيه يتماثلون أو يتقاربون ، وذلك غير المعارض والصور المعنية ، التى لابد من الإختلاف فيها بين متكلم ومتكلم ...

هب إذاً المدعوين لمعارضة القرآن ، فيهم الأكفاء والأنداد لنبى القرآن ، فى الفطرة والسليقة الغربية ، أو من هم أكمل منه فيها ، أو هبهم جميعا دونه فى تلك المنزلة ، فأما الأعلون فسيجيئون على وفق سليقتهم ، بقول أحسن من قوله ، وأما الأنداد فسيجيئون بشىء مثله ، وأما الآخرون فلن يكبُر عليهم أن يقاربوا ويجيئوا بشىء من مثله ، وشىء من هذه المراتب الثلاث ، لو تم لكان كافياً ، فى رد الحجة وإبطال التحدى .

سنقول : بل اختار الواقع ، وهو أن العرب على اختلاف مراتبهم فى البيان ، لم يرتفعوا إلى طبقة البلاغة المحمدية ، وأزعم أن هذا القصور الذاتى الذى قعد بهم عن مجاراته فى عامة كلامه ، هو الذى قعد بهم عن معارضة قرآنه ، إذاً لا يكون هذا العجز حجة لكم على قدسية الأسلوب القرآنى ، كما لم يكن حجة عندكم على قدسية الأسلوب النبوى .

فنجيب : أما أن محمداً ﷺ ، كان هو أفصح العرب وكان له فى هذه الفضيلة البيانية المقام الأول بينهم غير مزاحم ، فذلك ما لا نمارى — بل لا نمترى — فيه نحن ولا أحد ممن يعرف العربية ، غير أننا نسأل ما مبلغ هذاالتفاوت الذى كان بينهم وبينه ؟ أكان مما يتفق مثله فى مجارى العادات ، وبين بعض الناس وبعض فى حدود القوة البشرية ، أم كان أمراً شاذاً خارقا للعادة بالكلية ؟

فأما إن كان كما نعهد شبيهاً بمايكون فى العادة بين البليغ والأبلغ ، وبين الحسن والأحسن ، فلا شك أن هذا النحو من الحلو إن حال بينهم وبين المجىء بمثل كلامه كله ، لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه ، ولئن أعجزهم أن ينزلوا منه بمكان قريب ، ألا وإننا قد أرخينا لهم العِنان فى معارضة القرآن بهذا أو ذاك ، وأغمضنا لهم فيما يجيئوننا أن يكون كلا أو (بعضا)، وكثيراً أو يسيراً ، ومماثلاً أو قريبا من المماثل ، فكان عجزهم عن ذلك كله سواء .

وأما إن قيل : أن التفاوت بينه على السواء وبين سائر البلغاء ، كان إلى حد انقطاع صلتهم به جملة ، ولا ختصاصه من بين العرب ومن بين الناس بفطرة شاذة ، وتنتسب الى سائر الفطر فى قليل

ولا كثير إلا كما تنتسب القدرة الى العجز ، أو الإمكان إلى الاستحالة ، فلا شك أن القول بذلك ، هو أخو القول بأن من الإنسان ، لا يكون من عمل الإنسان ، ذلك أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة ، والطبائع الشخصية تقع فيها الأشباه والأمثال فى الشىء بعد الشىء ، وفى الواحد بعد الواحد ، إن لم يكن ذلك فى كل عصر ، ففى عصور متطاولة ، وان لم يكن فى كل فنون الكلام ، ففى بعض فنونه . وكم رأينا من أناس كثيرة ، تتشابه قلوبهم وعقولهم وألسنتهم ، فتتوافق خواطرهم وعباراتهم حيناً ، وتتفاوت أحياناً ، حتى لقد خيل إليك أن الروح السارى فى القولين ، روح واحد ، وأن النفس ها هنا هو النفس هناك ، وكذلك رأينا من الأدباء المتأخرين ، من يكتب بأسلوب ابن المقفع وعبد الحميد ومن يكتب بأسلوب الهمذانى والخوارزمى ، وهلم جرا .

فلو كان أسلوب القرآن ، من عمل صاحبه الإنسان ، لكان خليقاً أن يجىء بشىء من مثله ، من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجاً ، وأقرب إليه هدياً وسمتاً ، وألصق به رحماً ، وأكثر عنه أخذاً وتعلماً ، أو لكان جديراً بأصحابه ، الذين نزل القرآن بين أظهرهم فقرأو واستظهروه ، وتذوقوا معناه وتمثلوه ، وترسموا خطواته ، واغترفوا من مناهلة ، أن يدنوا أسلوبهم شيئاً من أسلوبه على ما تقضى به غريزة التأسى ، وشيمة نقل الطباع من الطباع ، ولكن شيئا من ذلك كله لم يكن ، وإنما كان قصارى فضل البليغ فيهم ، كما هو جهد البليغ فينا ، أن يظفر بشىء يقتبسه منه فى تضاعيف مقالته ، ليزيدها به علواً ونباهة شأن .

بل نقول : لو كان الأسلوب القرآنى صورة لتلك الفطرة المحمدية ، لوجب على قياس ما أصّلته من المقدمات ، أن ينطبع من هذه الصورة على سائر الكلام المحمدى ، ما أنطبع منها على أسلوب القرآن ، لأن الفطرة الواحدة ، لا تكون فطرتين ، والنفس الواحدة ، لا تكون نفسين ، ونحن نرى الأسلوب القرآنى ، فنراه ضرباً وحده ، ونرى الأسلوب النبوى ، فنراه ضرباً وحده ، لا يجرى مع القرآن فى ميدانه ، إلا كما تجرى محلّقات الطير فى جو السماء ، لا تستطيع إليها صعوداً ، ثم نرى أساليب الناس ، فنراها على اختلافها ضرباً واحداً ، لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يحبو حبواً ، ومنا ما يشتد عدواً ، ونسبة أقوالها إلى القرآن ، كنسبة هذه « السيارات » الأرضية إلى تلك « السيارات » السماوية .

نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوى ، فتطمع فى إقتناصها ومجاراتها ، كما تطمع فى إقتناص الطائر أو مجاراته ، ولقد تقرأ الكلمة من الحكمة ، فيشبه عليك أمرها ، أمن كلمات النبوة هى ، أم من كلمات الصحابة أو التابعين ، ذلك على ما علمت من امتياز الأسلوب النبوى ، بمزيد الفصاحة ،

ونقاء الديباجة ، واحكام السَّدد ، ولكنه امتياز ، قد يدق على غير المنتهين فى هذا الفن ، وقد يقصر الذوق وحده عن إداركه ، فيلجأ إلى النقل يستعينه في تميز بعض الحديث المرفوع ، من الحديث الموقوف أو المقطوع .

أما الأسلوب القرآني ، فإنه يحمل طابعاً ، لا يلتبس معه بغيره ، ولا يجعل طامعاً ، يطمع أن يحوم حول حماه ؟ بل يدع الأعناق تشرئب إليه ، ثم يردها ناكسة الأذقان على الصدور ....

فإن كان السائل من طلاب الحق كما وصفنا ، وانتهى من بحثه الى حيث أشرنا ، فأبصر وسمع ، وقايس ووازن وذاق ووجد ، فسوف يتقدم إلينا بكلمته الأخيرة قائلاً : نعم لقد نثلت كنانة الكلام بين يديّ ، وعجمت سهامها ، فما وجدت كالقرآن أصلب عوداً ، ولقد وردت مناهل القول وتذوقت طعومها فما وجدت كالقرآن أعذب مورداً ، والآن آمنت أنه كما وصفتموه ، نسيج وحده ، وأنه يعلو ولا يعلى ، وأنه يحطم ما تحته ، غير أننى وقد أدركت من قوة الأسلوب القرآنى وحلاوته ما أدركت — ما يزال الذي أحسُّ به من ذلك معني يتجمجم فى الصدر ، لا حسن تفسيره ولا أملك تعليله . وما زالت النفس بعد هذا وذلك ، نزَّاعة إلى درس تلك الخصائص والمزايا ، التى استأثر القرآن بها عن سائر الكلام ، وكان فيها سر إعجازه اللغوى ، فهل من سبل إلى عرض شيء من ذلك علينا ، لتطمئن قلوبنا ، ونزداد إيمانا إلى إيماننا ؟

نقول : أما الآن ، فقد — والله — طلبت منا جسيماً ، وكلفتنا مراماً بعيداً ، لمثله انتدب العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا ، فحفيت من دونه أقلامهم ، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال ، واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا له ، وأن الذى وصفوه مما أدركوه ، أقل مما ضاقت به عباراتهم ، ولم تقف به إشاراتهم .

ونحن وقد أفضتْ إلينا النوبة من بعدهم ، هل تحسب أننا سنسلك سبيلاً غير سبيلهم ، فنزعم أننا فى هذه العُجالة ، سنبرز لك سر الإعجاز جملة ؟ كلا ، ولا استقراء ما كشفه الناس من جوانبه ، كلا ولا استقصاء ما نحسه نحن من تلك الجوانب وإنما نريد أن نصور لك بعض تلك الخصائص ، التى تلاقينا من كتاب الله كلما سمعناه ، أو تلوناه وتدبرناه ، لعلك واجد فى القليل منها ما لا تجده فى الكثير مما يعده الناس ، فإن زادك الناس من ذلك أنواعا ، رجونا أن نزيدك من النوع الواحد إقناعاً وانتفاعاً .

أول ما يفاجـؤك

أول ما يلاقيك ويسترعى إنتباهك من أسلوب القرآن الكريم ، خاصية تأليفه الصوتى فى شكله وجوهره .

دع القارئ المجودَّ ، يقرأ القرآن ، ويرتله حق ترتيله نازلاً بنفسه على هوى القرآن وليس نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبذْ منه مكاناً قصيّاً ، لا تسمع فيه جرْس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ، ومدّاتها وغنّاتها ، واتصالاتها وسكناتها ، ثم ألق سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جرِّدت تجريداً ، وأرسلت ساذجة فى الهواء ، فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب عجيب ، لا تجده فى كلام آخر لو جرِّد هذا التجريد ، وجود هذا التجويد .

ستجد اتساقاً وائتلافاً ، يسترعى من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر ، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر ، وستجد شيئاً آخر ، لا تجده فى الموسيقى ولا فى الشعر ، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر ، فإذا هى تتحد الأوزان فيها بيتاً بيتاً ، وشطراً شطراً ، وتسمع القطعة من الموسيقى ، فإذا هى تتشابه أهواؤها ، وتذهب مذهبا متقارباً فلا يلبث سمعك أن يمجها ، وطبعك أن يملّها ، إذا أعيدت وكررت عليك بتوقيع واحد ، بينما أنت من القرآن أبداً فى لحن متنوع متجدد ، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد ونواصل على أوضاع مختلفة ، يأخذ منها كل وتر من أوتار قلبك بنصيب سواء ، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأم ، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

هذا الجمال التوقيعى فى لغة القرآن ، لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب ، فكيف يخفى على العرب أنفسهم ؟

وترى الناس قد يتساءلون ، لماذا كانت العرب إذا اختصمت فى القرآن ، قارنت بينه وبين الشعر نفياً وإثباتاً ، ولم تعرض لسائر كلامها من الخطابة وغيرها ؟

وأنت فهل تبينت هاهنا الجواب ، وهديت إلى السر الذى فطنت له العرب ، ولم يفطن له المستعربون ؟

إن أول شيء أحسته تلك الأذن العربية فى نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتى البديع ، الذى قسمت فيه الحركة والسكون ، تقسيما منوعًا ، يجدد نشاط السامع لسماعه ، ووزعت فى تضاعيفه حروف المدّ والغنة ، توزيعاً بالقسط ، يساعد على ترجيع الصوت به ، وتهادى النفس فيه آنا بعد آن ، إلى أن يصل الى الفاصلة الأخرى ، فيجد عندها راحته العظمى ، وهذا النحو من التنظيم الصوتى ، إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه فى أشعارها ، فذهبت فيها إلى حد الإسراف فى الاستهواء ، ثم إلى حد الإملال فى التكرير ، فإنها ما كانت تعهده قط ، ولا كان يتهيأ لها بتلك السهولة فى منثور كلامها ، سواء منه المرسل والمسجوع ، بل كان يقع لها فى أجود نثرها عيوب ، تغض من سلاسة التركيب ، و يمكن معها إجادة ترتيله ، إلا بإدخال شيء عليه ، أو حذف شيء منه .

لا عجب إذاً إن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن فى خيال العرب أنه شعر ، لأنها وجدت فى توقيعه هزة لا تجد شيئاً منها إلا فى الشعر ، ولا عجب أن ترجع الى أنفسها ، فتقول : ما هو بشعر لأنه — كما قال الوليد : ليس على أعاريض الشعر فى رجزه ، ولا فى قصيدة ، ثم لا عجب أن تجعل مَردَّ هذه الحيرة أخيراً ، إلى أنه ضرب من الحد ، لأنه جمع بين طرفى الإطلاق والتقييد فى حد وسط ، فكان له من النثر جلاله وروعته ، ومن الشعر جماله ومتعته .

فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً ، فطرقتْ سمعك جواهر حروفه خارجه من مخارجها الصحيحة ، فاجأتك منه لمدة أخرى فى نظم تلك الحروف ، ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها . **هذا يكبر وذاك** يصغر ، وثالث يهمس ورابع يجهر ، وأخر ينزلق عليه النفس ، وآخر يحتبس عنده النفس وهلم جرا ، فترى الجمال اللغوى ماثلاً أمامك فى مجموعة مختلفة مؤتلفة ، لا كركرة ولا ثرثرة ، ولا رخاوة ولا معاظلة ، ولا تناكر ولا تنافر وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضرى الفاتر ، ولا بالبدوى الخشن ، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقة الحاضرة وسلامتها ، وقدر فيه الأمران تقديرا لا يبغى بعضها على بعض . فإذا مزيج منهما ، كأنما هو عصارة اللغتين أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل ، عندها تلتقى أذواقهم ، وعليها تأتلف قلوبهم .

من هذه الخصوصية والتى قبلها ، تتألف القشرة السطحية للجمال القرآنى ، وليس الشأن فى هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلى النفيسة ، فإنه جلت قدرته ، قد أجرى سنته فى نظام هذا العالم ، أن يغشّى جلائل أسراره بأستار لا تخلو من متعة وجمال ، ليكون ذلك من عوامل

حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها ، وحرصهم عليها ، انظر كيف جعل باعثه الغذاء ، ورابطة المحبة قِواماً لبقاء الإنسان فردا وجماعة ، فكذلك لمّا سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم ، التى أودعها هذا الكتاب الكريم ، قضت حكمته أن يختار لها صواناً يحببها إلى الناسْ بعذوبته ، ويغريهم عليها بطلاوته ، ويكون بمنزلة « الحدّاء » يستحث النفوس على السير إليها ، ويهون عليها وعثاء السفر فى طلب كمالها ، لا جرم إصطفى لها من هذا اللسان العربى المبين ذلك القالب العذب الجميل ، ومن أجل ذلك سيبقى صوت القرآن أبداً فى أفواه الناس وآذانهم ، مادامت فيهم حاسة تذوق ، وحاسة تسمع ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب ، يفقهون بها حقيقة سره ، وينفذون بها إلى بعيد غوره (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1] .

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم ، يجمع الى الجمال عزة وغرابة ؟ وهل عرفت أن هذا الجمال ، كان قوة إلهية حفظ بها القرآن من الفقد والضياع ؟

فاعرف الآن أن هذه الغرابة ، كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن فى التحدى والإعجاز ، وأعتصم بها من أبدى المعارضين والمبدلين ، وأن ذلك الجمال ، ما كان ليكفى وحده فى كف أيديهم عنه ، بل كان أجدر أن يغريهم به ، ذلك أن الناس — كما يقول الباقلانى (فى كتابه : إعجاز القرآن) — إذا استحسنوا هذه الصناعة ، يتبع بعضهم بعضا فيما يستجيدونه من الأساليب ، وربما أدرك اللاحق فيهم شأن السابق ، أو أربى عليه ، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم ، فى اقتداء بعضهم ببعض ، وأساليب الناس على إختلاف طرائفها فى النثر والشعر إلا مناهل موروودة ، ومسالك معبّدة ، تؤخذ بالتعلم ، وتراضى الألسنة والأقلام عليها بالمرانة ، كسائر الصناعات .

فما الذى منع الناس أن يخضعوا أسلوب القرآن لألسنتهم وأقلامهم ، وهم شرع فى إستحسان طريقته ، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته ؟ ما ذاك إلا أن فيه منعة طبيعية ، كفت ولا تزال تكف أيديهم عنه ، ولا ريب أن أول ما تلاقيك هذه المناعة فيما صورناه لك من غريب تأليفه فى بنيته ، وما أتخذه فى رصف حروفه وكلماته ، وجمله وآياته ، من نظام له سمت وحده ، وطابع خاص به ، خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه ، فلا جرم ، لم يجدوا له مثالاً يحاذونه به ، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه ، وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يدخل عليه شيئاً من كلام الناس ، من السابقين منهم أو اللاحقين ، من الحكماء أو البلغاء ، أو النبين والمرسلين لأفسد بذلك مزاجه فى فم كل قارىء ، ولجعل نظامه يضطرب فى أذن كل سامع ، وإذاً لنادى الداخل على نفسه بأنه واغل دخيل ،

---

(١) الحجر آية ٩

ولنفاه القرآن عن نفسه ، كما ينفى الكير خبث الحديد ﴿ **وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾[1] .

فإذا أنت لم يُلهك جمال العطاء ، عما تحته من الكنز الدفين ، ولم تحجبك بهجة الأستار ، عما وراءها من السر المصون ، بل فليست القشرة عن لبها ، وكشفت الصدفة عن درِّها ، فنفذت من هذا النظام اللفظى إلى ذلك النظام المعنوى ، تجلى لك ما هو أبهى وأبهر ، ولقيتك منه ما هو أروع وأبدع .

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معانى القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر ، فإن هذا الحديث موضعاً يجىء إن شاء الله فى بحث الإعجاز العلمى ، وحديثنا كما ترى لا يزال فى شأن الإعجاز « اللغوى » وإنما اللفظ ألفاظ .

بيد أن هذه الألفاظ ، ينظر فيها ، تارة من حيث هى أنية صوتية ، ما دتها الحروف ، وصورتها الحركات والسكنات ، من غير نظر إلى دلالتها ، وهذه الناحية ، قد مضى لنا القول فيها آنفاً . وتارة من حيث هى أداة لتصوير المعانى ونقلها ، من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها ، وهذه هى الناحية التى سنعالجها الآن ، ولا شك أنها هى أعظم الناحيتين اثراً فى الإعجاز اللغوى ، الذى نحن بصدده ، أذ اللغات تتفاضل من حيث هى بيان ، أكثر من تفاضلها من حيث هى أجراس وأنغام .

أما النظر فى المعانى القرآنية ، من جهة ما فيها من العلوم العجيبة ، فتلك خطوة أخرى ، ونظرة خارجة عن البحث اللغوى جملة ، إزاء الفضيلة البيانية ، إنما تعتمد دقة التصوير ، وإجادة التعبير عن المعنى كما هو ، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ما تتناوله عقول الناس أو لا يكون ، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً ، وأن يكون هدى فى نفسه على أى صورة أخرجته ، وبأى لغة عبرت عنه .

نعم قد تتفاوت اللغات فى الوفاء بحق المعنى ، فيكون التعبير الجيد مما يزيد فى قيمته العلمية ، لكن النظر ههنا فى قيمة البيان لا فى قيمة المبين ، فلا تعجل عجل علينا بتلك النظرة العلمية ، حتى نفرغ من هذه النظرة اللغوية .

والآن فنبدأ وصفنا لبعض خصائص القرآن البيانية . ولنرتبها على أربعة مراتب :
١ ــ القرآن فى قطعة قطعة منه .

---

(١) فصلت الآيتان : ٤١ ، ٤٢

٢ ــ القرآن فى سورة سورة منه .
٣ ــ القرآن فيما بين بعض السور وبعض
٤ ــ القرآن فى جملته .

« القرآن فى قطعة قطعة منه »

لسنا ندرى والله ماذا نقول لك فى أسلوب معجز فى وصفه ، كما هو معجزة فى نفسه ؟ غير أننا نقول كلمة هى جملة القول فيه ، وهى أنه « تلتقى عنده نهايات الفضيلة كلها ، على تباعد ما بين أطرفها » . هذه كلمة تحتاج تفسيرا طويلاً يمتلىء به الصدر ، ولا ينطلق به اللسان ، وكل ما سنحاوله أن نفسر لك جانباً منها بقدر الطاقة ، غير أننا قبل أن نحدثك فى هذا الجانب عن القرآن ، سنحدثك عن كلام الناس حديثاً ، يفهمه كل من عالج صنعة البيان بنفسه ، لتعرف من وجوه النقص هاهنا ، وجوه الكمال هناك ، ومن أبواب العجز هاهنا ، أسباب الإعجاز هناك ! .

« القصد فى اللفظ » و « الوفاء بحق المعنى »

نهايتان كل من حاول أن يجمع بينهما ، وقف منهما موقف الزوج بين ضرتين لا يستطيع أن يعدل بينهما دون ميل ما إلى إحدهما :

فالذى يعمد إلى ادخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حد الضرورة لا ينفك من أن يحيف على المعنى قليلاً أو كثيراً ، ذلك أنه إما أن يؤدى لك مراده جملة لا تفصيلاً ، فيكون سبيله سبيل من يقول فى باب الحاجة : « صدقوا ، أو كذبوا » وفى باب الوصف « حسن ، أو قبيح » وفى باب الإخبار « كان أو لم يكن » وفى باب الطلب « افعل ، أو لا تفعل » لا زائد على ذلك ، وإما أن يذهب فيه إلى شىء من التفصيل ، ولكنه إذ يأخذه الحذر من الإكثار والإسراف ، يبذل جهده فى ضم أطرافه ، وحذف ما استطاع من أدوات التمهيد والتشويق ، ووسائل التقرير والتثبيت ، وما إلى ذلك مما تمس إليه حاجة النفس فى البيان ، حتى يخرجه ثوباً متقلصاً يقصر عن غايته . أو هيكلاً من العظم ، لا يكسوه لحم ولا عصب ، ورب حرف واحد ينقص من الكلام يذهب بمائه ورونقه ، ويكشف شمس فصاحته ، ورب اختصار يطوى الكلام طياً ، يزهق روحه ، ويعمّى طريقه ؛ ويرد إيجازه عيّاً وإلغازاً .

والذى يعمد إلى الوفاء بحق المعنى وتحليله إلى عناصره ؛ وإبراز كل دقائقة بقدر ما يحيط به علمه ، وما يؤديه إليه إلهامه لا يجد له بُداً من أن يمد فى نفسه مداً ، لأنه لا يجد فى القليل من اللفظ ما يشفى صدره ، ويؤدى عن نفسه رسالتها كاملة فإذا أعطى نفسه حظها من ذلك ، لا يلبث أن يباعد ما بين

أطراف كلامه ، ويبطىء بك فى الوصول إلى غايته ، فتحس بقوة نشاطك ، وباعثة إقبالك ، اخذتين فى التفاؤل والاضمحلال ، إن عامة من نعرفهم من الفصحاء قدامي ومحدثين ، يؤتون من هذا الجانب غالباً ، أعنى جانب الإملاك والإسراف ، لا جانب الإخلال والإجحاف ، وأكثرهم تجمع بهم شهوة البيان إلى أبعد من هذا الحد « فمنهم » من يذهب إلى التكلف والتفصح ، باستعمال الغريب من المفردات والتراكيب ، فيكلفك أن تبدى وتعيد ، وتقبل وتدبر ، حتى تهتدى إلى وجه مراده ، وهكذا لا يزداد كلامه بالبسط إلا ضيقاً عن الفهم . « ومنهم » من يُلقى حول المعنى ركاماً من الحشو والفضول ، ينوء بحمله ، أو يلبسه ثوباً فضفاضاً مّن المترادف والمتقارب ، يتعثر فى أذياله ، يحسب أنه يوفّى لك المعنى ويحدده ، وفى الحق إنما ينشده ويبدده ، ولعل أمثل هؤلاء طريقة من لو حذفت شطر كلامه ، لأغناك عنه ثانى شطريه ...

ولئن ظفرت بأحد وُفق لتقريب نيتك الغايتين إلى حد ما ، فى جمله أو جملتين ، فتربص به كيف أمره بعد ذلك ، وانظر كيف يدركه الكلال والإعياء وفترة الطبع الإنسانى ، فينحل من عقدة كلامه ، ما كان وثيقاً ، ويذبل من زهرته ، ما كان غضاً طرياً ، ثم لا يعود إلى قوته إلا فى الشىء بعد الشىء ، كما تصادف فى التراب قطعة من التبرّ هاهنا ، وقطعة هناك ، فتقول ؛ هذا نفيس جيد ، وهذا أنفس وأجود ، وهذا هو واسطة العقد وبيت ا لقصيد .

سل العلماء بنقد الشعر والكلام :: « هل رأيتم قصيدة ، أو رسالة كلها أو جلها معنى ناصع ، ولفظ جامع ، ونظم رائع ؟ لقد أجمعت كلماتهم على أن أبرع الشعراء ، لم يبلغوا مرتبة الإجادة ، إلا فى أبيات محدودة ، من قصائد معدودة ، وكان لهم من وراء ذلك المتوسط والردىء ، والغث والمستكره ، وكذلك قالوا فى الكتاب والخطباء ، والأمر فيهم أبين..

فإن سرّك أن ترى كيف تجتمع هاتان الغايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع ، فانظر حيث شئت من القرآن الكريم ، تجد بياناً قد قدر على حاجة النفس أحسن تقدير ، فلا تحس فيه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير ، يؤدى لك من كل معنى صورة نقية وافية . « نقية » لا يشوبها شىء مما هو غريب عنها ، « وافية » لا يشذ عنها شىء من عناصرها الأصلية ، ولواحقها الكمالية ، كل ذلك فى أوجز لفظ وأنقاه ، ففى كل جملة منه ، جهاز من أجهزة المعنى ، وفى كل كلمة منه ، عضو من أعضائه ، وفى كل حرف منه ، جزء بقدره ، وفى أوضاع كلماته من جمله ، وأوضاع جمله من آياته سر الحياة الذى ينتظم المعنى بأدائه ، وبالجملة ترى كما يقول الباقلانى : « محاسن متوالية ، وبدائع تترى» .

ضع يدك حيث شئت من المصحف ، وعد ماأحصته كفكَّ الكلمات عداً ، ثم أحص عدتها من أبلغ كلام تختاره خارجاً عن الدفتين ، وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعانى إلى ذاك ، ثم انظر : كل كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها من هذا الكلام ، دون إخلال بغرض قائلة ؟ وأى كلمة تستطيع أن تسقطها ، أو تبدلها من هذا الكلام ، دون إخلال بغرض قائلة ؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية ــ : « لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب لفظة أحسن منها لم توجد » بل هو كما وصفه الله : **﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾**[1]

(ج ــ د)

« خطاب العامة » و « خطاب الخاصة »

وهاتان غايتان عند الناس ، فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف ، الذى تخاطب به الأغبياء ، لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم فى الخطاب ، ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة ، التى تخاطب بها الأذكياء ، لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم ، فلا غنى لك ــ إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حظها كاملاً من بيانك ــ أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال ، فأما أن جملة واحدة ، تلقى إلى العلماء والجهلاء ، وإلى الأذكياء والأغبياء ، وإلى السوقة والملوك ، فيراها كل منهم مقدَّرة على مقياس عقله ، وعلى وفق حاجته ، فذلك ما لا تجده على أتمه ، إلا فى القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء ، أو فى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة ، أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم ، لا يلتوى على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة ، فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد **﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر ﴾**[2] .

(هـ ــ و)

« إقناع العقل » و « وإقناع العاطفة » .

وفى النفس الإنسانية قوتان ، قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها ، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذة وألم ، والبيان التام ، هو الذى يوفى لك هاتين الحاجتين ، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية ، والمتعة الوجدانية معاً .

---

١ ــ هود آية : ١

٢ ــ القمر آية رقم : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء ، إلا غلوًا فى جانب ، وقصوراً فى جانب . (فأما الحكماء) فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك ، واختلاب عاطفتك ، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم ، لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبو عن الطباع . (وأما الشعراء) فإنما يسعون **إلى استثارة وجدانك** ، وتحريك أوتار الشعور من نفسك ، فلا يبالون بما صوّروه لك أن يكون غياً ، أو رشداً ؛ وأن يكون حقيقة ، أو تخيلاً ، فتراهم جادين ، وهم هازلون ، يستبكون وإن كانوا لا يبكون ، ويطربون وإن كان لا يطربون ﴿ **والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون** ﴾[1] .

وكل امرىء حين يفكر ، فإنما هو فيلسوف صغير ، وكل امرىء حين يحس ويشعر ، فإنما هو شاعر صغير ، فسل علماء النفس « هل رأيتم أحداً ، تتكافأ فيه قوة التفكير ، وقوة الوجدان ، وسائر القوى النفسية على سواء ، ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل ، عند قليل من الناس ، فهل ترونها تعمل فى النفس دفعة وبنسبة واحدة ؟ يجيبونك بلسان واحد كلا : بل لا تعمل إلا مناوبة فى حال بعد حال ، وكلما تسلطت واحدة منهن ، أضمحلت الأخرى ، وكاد ينمحى أثرها ، فالذى ينهمك فى التفكير تتناقض قوة وجدانه ، والذى يقع تحت تأثير لذة أو ألم ، يضعف تفكيره ، وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً ، وإلا لكانت مقبلة مدبرة معاً ، وصدق الله : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه** ﴾[2] .

وأما أن أسلوباً واحداً ، يتجه اتجاهاً واتحداً ، ويجمع فى يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً وأثماراً معاً ، أو كما يسرى الروح فى الجسد والماء فى العود الأخضر ، فذلك مالا تظفر به فى كلام بشر ، ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية .

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد ، الذى يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة ، بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين ، ومن المتعة الوجدانية الطيبة ، بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل

---

١ ـــ الشعراء الآيات : ٢٢٤ ـــ ٢٢٦
١ـــ الأحزاب آية : ٤

والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً ، يلتقيان ولا يبغيان ، وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم ، حيثما توجهت ألا تراه فى فسحه قصصه وأخباره لاينس حق العقل من حكمة وعبره ؟ (أقرأ مثلاً سورة القصص وسورة يوسف) أو لا تراه فى معمعة براهينه وأحكامه ، لا ينس حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب ؟ يبث ذلك فى مطالع آياته ، ومقاطعها وتضاعيفها ﴿ **تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾[1] و ﴿ **إنه لقول فصل وما هو بالهزل** ﴾[2] .

(ز - ح)

« البيان » و « الإجمال »

وهذه عجيبة أخرى ، تجدها فى القرآن ، ولا تجدها فيما سواه ، ذلك أن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم ، لم تتسع لتأويل ، وإذا أجملوها ، ذهبوا إلى الإبهام والإلباس ، أو إلى اللغو الذى لا يفيد ، و يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان فى كلام واحد ، وتقرأ القطعة من القرآن ، فتجد فى ألفاظها من الشفوف والملاسة والإحكام ، والخلو من كل غريب عن الغرض ، ما يتسابق به مغزاها إلى نفسك ، دون كذا خاطر ، ولا استعادة حديث ، كأنك لا تسمع كلاماً ولغات ، بل ترى صوراً وحقائق ماثلة ، وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت به خبراً ، ووقفت على معناه محدوداً ... هذا ولو رجعت إليه كرة أخرى ، لرأيتك منه بإزاء معنى جديد ، غير الذى سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك حتى ترى للجملة الواحدة ، أو الكلمة الواحدة وجوهاً عدة ، كلها صحيحة ، أو محتملة الصحة ، كأنما هى فصّ من الماس ، يعطيك كل ضلع منه شعاعاً ، فإذا نظرت إلى أضلاعه جملة ، بهرتك بألوان الطيف كلها ، فلا تدرى ماذا تأخذ عينك ، وماذا تدع ، ولعلك لو وكلت النظر فيها إلى غيرك ، لرأى منها أكثر مما رأيت ، وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان ، يأخذ كل منه ما يُسر له ، بل ترى محيطا مترامى الأطراف ، لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال .

وهذا مثل صغير : أقرأ قوله تعالى : ﴿ **والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ ــ الآية ٢١٢ من سورة البقرة ــ وانظر هل ترى كلاماً أبين من هذا فى عقول الناس .

ثم انظر كم فى هذه الكلمة من مرونة ، فإنك لو قلت فى معناها : إنه سبحانه يرزق من يشاء بغير محاسب يحاسبه ، ولا سائل يسأله ، لماذا يبسط الرزق لهؤلاء ، ويقدره على هؤلاء ، أصبت . ولو

---

١ ــ الزمر آية : ٢٣

٢ ــ الطارق الآيتان : ١٣ ــ ١٤

قلت إنه يرزق من يشاء من حيث لا ينتظر ولا يحتسب ، أصبت ، ولو قلت : إنه يرزقه بغير معاتبة ومناقشة له على عمله ، أصبت . ولو قلت : يرزقه كثيراً لا يدخل تحت حصر ولا حساب ، أصبت ، فعلى الأول يكون الكلام تقريراً لقاعدة الأرزاق فى الدنيا ، وأن نظامها لا يجرى على حسب ما عند المرزوق ، من استحقاق بعلمه أو عمله ، بل تجرى وفقاً لمشيئته وحكمته سبحانه فى الابتلاء ، وفى ذلك ما فيه من التسلية لفقراء المؤمنين ، ومن الهضم لنفوس المغرورين من المترفين .

وعلى الثانى يكون تنبيهاً على سعة خزائنه ، وبسطه يده جل شأنه .

وعلى الثالث : يكون تلويحا للمؤمنين ، بما سيفتح الله لهم من أبواب النصر والظفر ، حتى يبدل عسرهم يسرا ، وفقرهم غنى ، من حيث لا يظنون ، وعلى الرابع والخامس ، يكون وعداً للصالحين إما بدخولهم الجنة بغير حساب ، وإما بمضاعفة أجورهم أضعافا كثيرة لا يحصرهم العد ، ومن وقف على علم التأويل ، واطلع على معترك أفهام العلماء فى آية رأى من ذلك العجب العاجب .

هانحن أولاً ، قد عرضنا لك جانباً من تلك العجائب البيانية ، التى لا تنال مثلها أيدى الناس ، وها قد أعطيناك فى حاشية كل منها نموذجاً صغيرا ، يفتح لك الباب إلى احتذائه فى سائر القرآن ، فهل ترى فى هذا وفاء بما وعدناك ، وبما عودناك ، من التقفية على آثار التفصيل بشىء من التطبيق والتمثيل ؟ أم لا لاتزال بحاجة إلى المزيد من هذه الأمثله ؟

سنزيدك ، وسنوجه نظرك بنوع خاص إلى دقة التعبير القرآنى ، ومتانة نظمه ، وعجيب تصرفه ، حتى يؤدى لك المعنى الوافر الثرِّى ، وفى اللفظ القاصد النقى ، إذ كانت هذه الخاصة الأولى — من الخواص التى ذكرناها — أحوج إلى التوقيف والإرشاد .

يقول الله تعالى فى ذكر حجاج اليهود : ﴿ **وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله . قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بمَا وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟** ﴾ (سورة البقرة الآية ٩١)

هذه قطعة من فصل من قصة بنى إسرائيل ، والعناصر الأصلية التى تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة ، تتلخص فيما يلى :

١ ــ مقالة ينصح بها الناصح لليهود ، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

٢ ــ إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوى على مقصدين .

٣ ــ الرد على هذا الجواب بركنيه ، من عدة وجوه .

وأقسم لو أن محامياً بليغاً ، وكلت إليه الخصومة بلسان القرآن فى هذه القضية ، ثم هدى إلى استنباط هذه المعانى ، التى تختلج فى نفس الداعى والمدعو ، لما وسعه فى أدائها أضعاف أضعاف هذه الكلمات ، ولعله بعد ذلك لا يفى بما حولها من إشارات ، واحتراسات وآداب وأخلاق .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوارة ، ألستم قد آمنتم بالتوارة ، التى جاء بها موسى ، لأنها أنزلها الله ، فالقرآن الذى جاء به محمد أنزله الله ، فآمنوا به كما آمنتم بها . فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير فى هذا اللفظ الوجيز (آمنوا بما أنزل الله) . وسر ذلك أنه عدل بالكلام عن صريح اسم القرآن إلى كنايته ، فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشىء بحجته ، وبذلك أخرج الدليل والدعوى فى لفظ واحد .

ثم انظر كيف طوى ذكر المنزل عليه فلم يقل : آمنوا بما أنزل الله « على محمد » مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة ، أتدرى لم ذلك ؟ .. لأنه لو ذكر لكان فى نظر الحكمة البيانية زائداً ، وفى نظر الحكمة الإرشادية مفسداً .. أما الأول فلأن هذه الخصوصية لا مدخل لها فى الإلزام ، فأدير الأمر على القدر المشترك ، وعلى الحد الأوسط الذى هو عمود الدليل .. وأما الثانى فلأن إلقاء هذا الاسم على مسامع الأعداء من شأنه ، أن يخرج أضغانهم ، ويثير أحقادهم ، فيؤدى إلى عكس ما قصده الداعى من التأليف والإصلاح ، وذلك إلى ما فى هذا الحذف من الإشارة إلى طابع الإسلام ، وهو أنه ليس دين تفريق وخصومة ، بل هو جامع ما فرقه الناس من الأديان ، داع إلى الإيمان بالكتب كلها على سواء ، بما أنزل على ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين شىء من كتبه ، كما لا نفرق بين أحد من رسله ، كان جواب اليهود أن قالوا : إن الذى دعانا للإيمان بالتوارة ، ليس هو كونها أنزلها الله فحسب بل إننا آمنا بها ، لأن الله أنزلها علينا ، والقرآن لم ينزله علينا ، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أمة شرعة ومنهاج ، هذا هو المعنى الذى أوجزه القرآن فى قوله : ﴿ نؤمن بما أنزل علينا ﴾ وهذا هو المقصد الأول ، وقد زاد فى إيجاز هذه العبارة ، أن حذف منها فاعل الإنزال ، وهو لفظ الجلالة ، لأنه تقدم ذكره فى نظيرتها .

من البين أن اقتصارهم على الإيمان بما أنزل عليهم ، يومىء إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ،

وهذا هو المقصد الثانى ، ولكنهم تحاشوا التصريح به ، لما فيه من شفاعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ، انظر كيف أبرزه ؟

إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهباً لهم ، ولم يدخل مضمون قولهم فى جملة ما نقله من كلامهم ، بل أخرجه فى معرض الشرح والتعليق على مقالتهم ؛ فقال : (ويكفرون بما وراءه) أليس ذلك هو غاية الأمانة فى النقل !

ثم انظر إلى التعبير عن القرآن بلفظ (ماوراءه) فإن لهذه الكلمة ، وجهاً تعم به غير القرآن ، ووجهاً تخص به هذا العموم ، ذلك أنهم كما كفروا بالقران المنزل على محمد ، كفروا بالإنجيل المنزل على عيسى ، وكلاهما وراء التوارة ، أى جاء بعدها ، ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوارة من صحف إبراهيم مثلاً مثلاً ، وهكذا تراه قد حدد الجريمة تمام التحديد ، باستعمال هذا اللفظ الجامع المانع ، وهذا هو غاية الإنصاف وتحرّى الصدق فى الاتهام .

جاء دور الردّ والمناقشة فيما أعلنوه وما أسروه ، فتراه لا يبدأ بمحاورتهم فى دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتاً ، كأنها مسلمة ، ليبنى عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب ، فيقول : كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثاً على الكفر بما هو حق مثله ؟ لا ، بل (هو الحق) كله — وهل يعارض الحق ، حتى يكون الإيمان بأحدهما موجباً للكفر بالآخر ؟

ثم يترق ، فيقول : وليس الأمر بين هذا الكتاب الجديد وبين الكتب السابقة عليه ، كالأمر بين كل حق وحق ؟ فقد يكون الشىء حقاً وغيره حقاً ، فلا يتكاذبان ، ولكنهما فى شأنين مختلفين ، فلا يشهد بعضهما لبعض ، أما هذا الكتاب فإنه جاء شاهداً و (مصدقاً) لما بين يديه من الكتب ، فأنى يكذّب به من يؤمن بها ؟ !

ثم يستمر فى إكمال هذا الوجه قائلاً : ولو أن التحريف أو الضياع ، الذى نال من هذه الكتب ، قد ذهب بمعالم الحق فيها ، جملة ، لكان لهم بعض العذر فى تكذيبهم بالقرآن ، إذ يحق لهم أن يقولوا « إن البقية المحفوظة من هذه الكتب فى عصرنا ، ليس بينها وبين القرآن ، هذا التطابق والتصادف ، فليس الإيمان بها موجباً للإيمان به ، بل لو أن هذه البقية ، ليست عندهم ، ولكنهم كانوا عن دراستها غافلين ، لكان لهم مثل ذلك العذر ، أمّا وهذا القرآن مصدق لما هو قائم من الكتاب فى زمنهم وبأيديهم ، ويدرسونه بينهم ، فماذا يعتذرون وأنّى يذهبون ؟ ! هذا المعنى كله يؤديه لنا القرآن بكلمة (لما معهم)

فانظر إلى الاحكام فى صنعة البيان ، إنما هى كلمة رفعت ، وأخرى وضعت فى مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت هذه الكلمة حسماً لكل عذر ، وسداً لكل باب من أبواب الحرب ، بل كانت هذه الكلمة وحدها ، بمثابة حركة تطويق للخصم ، أتمت فى خطوة واحدة ، وفى غير ما جلبة ولا طنطنه .

ولما قضى وطر النفس من هذا الجانب المطوىّ ، الذى ساقه مساق الاعتراض والاستطراد ، استوى إلى الردّ على المقصد الأصلى ، الذى تجحوا بإعلانه والانتحار به ، وهو دعواهم الإيمان بما أنزل عليهم ، فأوسعهم إكذاباً وتفنيداً ، وبين أن داء الجحود فيهم ، داء قديم ، قد أشربوه فى قلوبهم ، ومضت عليه القرون ، حتى أصبح مرضاً مزمناً ، وأن الذى أتوه اليوم من الكفر بما أنزل على محمد ، ما هو إلا حلقة متصلة بسلسلة كفرهم بما أنزل عليهم ؛ وساق على ذلك الشواهد التاريخية المفظعة ، التى لا سبيل لإنكارها ، فى جهلهم بالله ، وانتهاكهم لحرمة أنبيائه ، وتمردهم على أوامره : (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟)

١ — تأمل كيف أن هذا الانتقال ، كانت النفس قد استعدت له فى آخر المرحلة السابقة ، إذ يفهم السامع من تكذيبهم بما يصدق كتابهم ، أنهم صاروا مكذبين بكتابهم نفسه ، وهل الذى يكذب من يُصدقك يبقى مصدقاً لك ؟ !

غير أن هذا المعنى ، إنما أخذ استنباطا من أقوالهم ، وإلزاماً لهم بمآل مذهبهم ، ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم ، فكانت هذه هى مهمة الرد الجديد .

وهكذا كانت كلمة (مصدقاً لما معهم) مغلاقاً لما قبلها ، مفتاحاً لما بعدها ، وكانت آخر درجة فى سلم الغرض الأول هى أول أجزاء الكلام ! وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان ، تدريجاً له على مدارجها ، وتنزيلاً له على قدر حاجتها وفى وقت تلك الحاجة ! فما هو إلا أن آنس تطلّع النفس واستشرافها من تلك الكلمة إلى غاية ، إذا هو قد استوى بها إلى تلك الغاية ، ووقفها عليها تامة كاملة .

٢ — وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلى ، وأعرض عن ذكر الكاسب الحقيقى لتلك الجرائم ، فلم يقل : (فلم قتل آباؤكم أنبياء الله واتخذوا العجل .وقالوا سمعنا وعصينا ؟) إذ كان القول على هذا الوضع حجة داحضة فى بادىء الرأى فكان يحق لهم فى جوابها ، أن يقولوا : « ومالنا ولآبائنا ؟ تلك أمة قد خلت ، ولا تزر وازرة وزر أخرى »

ولو زاد مثلاً « وأنتم مثلهم ، قد تشابهت قلوبكم وقلوبهم ، لجاء هذا التدارك بعد فوات الوقت ، ولتراخى حبل الكلام وفترت قوته .

فكان اختصار الكلام على ما ترى — يوقفهم بادىء ذى بدء فى موقف الاتهام — إسراعاً بتسديد سهم الحجة إلى هدفها ، وتنبيهاً فى الوقت نفسه على أنهم ذرية بعضها من بعض ، وأنهم سواسية فى الجرم ، فعلى أيهم وضعت يدك ، فقد وضعتها على الجانى الأثيم ، لأنهم لا ينفكون عن الاستنان بسنة أسلافهم ، أو الرضى عن أفاعليهم ، أو الانطواء على مثل مقاصدهم .

٣ — وانظر كيف زاد هذا المعنى ترشيحاً بإخراج الجريمة الأولى . وهى جريمة القتل فى صيغة الفعل المضارع ، تصويراً لها بصورة الأمر الواقع الآن ، كأنه بذلك يعرض علينا هؤلاء القوم أنفسهم وأيديهم ملوثة بتلك الدماء الزاكية .

٤ — ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام ، مما يفتح باباً من الإيحاش لقلب النبى العربى الكريم ، وباباً من الاطماع لأعدائه فى نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله ، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله (من قبل) فقطع بهذه الكلمة أطماعهم ، وثبت بها قلب حبيبه ، إذ كانت بمثابة وعده إياه بعصمته من الناس ، ذلك إلى ما فيها من تنبيه على أصل وضع الكلام ، وعلى ما صنع به من التحوز المذكور آنفاً فى الاسناد وفى الصيغة .

٥ — وانظر كيف جىء بالأفعال فى الجرائم التالية ، على صيغة الماضى ، بعد أن وطأ لها بهذه الكلمة . (من قبل) فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعى ، حين لم تبق هناك حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦ — وانظر إلى الآداب العالية فى عرض الجريمة الثانية ، وهى جريمة الشرك ، فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها، وأشدّ نكراً فى العقول ، نبه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل اتخذتم العجل الهاً ، بل طوى هذا المفعول الثانى استبشاعاً للتصريح به فى صحبة الأول ، وبياناً لما بينهما من مفارقة ، .. وكم فى هذا الحذف من تعبير وتهويل ! فرب صمت هو أنطق بالحكم ، وأنكى فى الخصم .

٧ — ثم انظر إلى النواحى التى أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضاً عن كل زيادة ، لا تمس إليها حاجة البيان فى الحال ، فقد قال : إن القرآن مصدق لما معهم ، ولم يبين مدى هذا التصديق ، أفى أصول الدين فحسب ، أم فى الأصول والفروع جميعاً ، أم فى الأصول وبعض الفروع ، وإلى أى حد ؟ ذلك أن هذا كلام الملوك لا يتنزل إلا بقدر معلوم ، وماذا يعنى الداعى إلى أصل الإيمان أن يمتد التطابق بين الأديان إلى فروعها ، أو لا يمتد ؟ فليبحث علماء التشريع .

وقال : إنهم يقتلون أنبياء الله ، فمن هم أولئك الأنبياء ؟ ليبحث علماء التاريخ !

وقال : إن موسى جاءهم بالبينات .. فكم هى ؟ وما هى ؟

وقال : إنه أخذ عليهم ميثاقهم ، فعلى أى شىء كان الميثاق ؟ أن حكمة البيان القرآنى ، لأجل من أن تعرض لهذه التفاصيل فى مثل هذا الموضع ، ولو ذكرت هاهنا ، لكان مثلها مثل من يُسأل :

لم ضربت عبدك ؟ فيقول : لأنه ضرب غلاماً اسمه كذا ، واسم أبيه كذا ، وحليته كذا ، وولد فى عام كذا ، ألا ترى أن هذا زائد وكثير .

٨ — ولو ذهبنا نتتبع سائر ما فى هذه القطعة من اللطائف ، لخرجنا عن حد التمثيل والتنبيه ، الذى قصدنا إليه ، فلنكتف بتوجيه نظرك فيها إلى سر دقيق لا تراه فى كلام الناس ، ذلك أن المرء إذا اهمه أمر من الدفاع ، أو الإقناع ، أو غيرهما ، بدت على كلامه مسحه الإنفعال بأغراضه ، وكأن تأثيره بها فى نفسك على قدر تأثره هو ، طبعاً أو تطبعاً ، فتكاد تحس بما يخالجه من المسرة فى ظفره ، ومن الامتعاض فى إخفاقه ، بل تراه يكاد يهلك أسفاً لو أعرض الناس عن هداه ، إذا كان مؤمناً بقضيته ، مخلصاً فى دعوته ، كما هو شأن الأنبياء عليهم السلام ، أما هنا فإنك تلمح وراء الكلام قوة أعلى من أن تنفعل بهذه الأغراض ، قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك الحقائق خيرها وشرها فى عزة من لا ينفعه خير ، واقتدار من لا يضره شر .

هذا الطابع من الكبرياء والعظمة ، تراه جلياً من خلال هذا الأسلوب المقتصد فى حجاجه أخذاً ورداً ، المقتصد فى وصفه مدحاً وقدحاً ،

انظر إليه حين يجادل عن القرآن ، فلا يزيد فى وصفه على هذه الكلمة : (هو الحق) . نعم إنها كلمة تملأ النفس ، ولكن هل تشبعك أيها الإنسان تلك الكلمة ، إذا أردت أن تصف حقيقة من الحقائق ، التى تقتنع بها ، وتحب أن تقنع بها الناس ؟

وانظر إليه بعد أن سجّل على بنى إسرائيل أفحش الفحش ، وهو وضعهم البقر الذى هو مثل فى البلادة ، موضع المعبود الأقدس ، وبعد أن وصف قسوة قلوبهم فى تأبيهم على أوامر الله مع حملهم عليها بالآيات الرهيبة ، فتراه لا يزيد على أن يقول فى الأولى : إن هذا « ظلم » وفى الثانية : « بئسما » صنعتم ، أذلك كل ما تقابله به هذه الشفاعات ؟ نعم إنهما كلمتان وافيتان بمقدار الجريمة لو فُهمتا على وجههما ، ولكن الألم وحرارة الاندفاع فى الانتقام ؟ بل أين الإقناع والتشنيع وأين الإسراف والفجور الذى تراه فى كلام الناس إذا أحفظوا بالنيل من مقامهم ؟

لله ما أعف هذه الخصومة ، وما أعز هذا الجناب وأغناه عن شكر الشاكرين وكفر الكافرين ، وتالله إن هذا كلام لا يصدر عن نفس بشر .

قلنا إن القرآن الكريم ، يستثمر دائماً برفق أقلّ ما يمكن من اللفظ فى توليد أكثر ما يمكن من

المعانى . أجل ، تلك ظاهرة بارزة فيه كله ، يستوى فيها مواضع إجمالية ، التى يسميها الناس مقام الإيجاز ، ومواضع تفصيله ، التى يسمونها مقام الإطناب ، ولذلك نسميه إيجازاً كله ؛ لأننا نراه فى كلا المقامين لا يجاوز سبيل القصد ، ولا يميل إلى الاسراف ميلاً ما ، ونرى أن مراميه فى كلا المقامين لا يمكن تأديتها كاملة العناصر والحلى ، بأقل من ألفاظه ولا بما يسامر بها ، فليس فيه كلمة إلا هى مفتاح لفائدة جليلة ، وليس فيه حرف إلا جاء لمعنى ...

« وبعد » فإن سر الإيجاز فى القرآن لا يقف عند الحد الذى أشرنا إليه ، من اجتناب الحشو والفضول بته ، وانتفاء الألفاظ الجامعة المانعة التى هى — بطبيعتها اللغوية — أيم تحديدا للغرض ، وأعظم اتساعاً لمعاينة المناسبة ، لا ، بل إنه كثيرا ما يسلك فى إيجازه سبيلا أعز وأعجب .

فلقد تراه يعمد — بعد حذف فضول الكلام وزوائده — إلى حذف شىء من أصوله وأركانه ، التى لا يتم الكلام فى العادة بدونها ، ولا يستقيم المعنى إلا بها ، ولقد يتناول بهذا الحذف كلمات وجملاً كثيرة متلاحقة ومتفرقة فى القطعة الواحدة ، ثم تراه فى الوقت نفسه يستثمر تلك البقية الباقية من اللفظ فى تأدية المعنى كله بجلاء ووضوح ، وفى طلاوة وعذوبة ، حتى يخيل إليك من سهولة مسلك المعنى فى لفظة ، أن لفظة أوسع منه قليلاً .

فإذا ما طلبت سر ذلك ، رأيته قد أودع معنى تلك الكلمات أو الجمل المطوية فى كلمة هنا وحرف هناك ، ثم أدار الأسلوب ادارة عجيبة ، وأمر عليها جندرة البيان بيد صناع ، فأحكم بها خلقه وسوَّاه ، ثم نفخ فيه من روحه ، فإذا هو مصقول أملس ، وإذا هو نيِّر مشرق ، لا تشعر النفس بما كان فيه من حذف وطى ، ولا بما صار إليه من استغناء واكتفاء ، إلا بعد تأمل وفحص دقيق .

لا نكزان أن العرب كانت تعرف شيئاً من الحذف فى كلامها ، وترى ذلك من الفضيلة البيانية ، متى قامت الدلائل اللائحة على ذلك المحذوف ، ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها ، فإذا قيل للعربى أين أخوك ، قال : فى الدار ، وإذا قيل له : من فى الدار ؟ قال : أخى ، ولو قال أخى فى الدار ، لعدَّ ذلك منه ضرباً من اللغو والحشو ، لكن الشأو ، الذى بلغه القرآن فى هذا الباب — كغيره من أبواب البلاغة — ليس فى متناول الألسنة والأقلام ، ولا فى متناول الأمانى والأحلام .

خذ لذلك مثلاً قوله تعالى : ﴿ **ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ... فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون** ﴾[1] الآية مسوقة فى شأن منكرى البعث

١ — يونس آية : ١١

الذى قال لهم النبى : إنى رسول الله إليكم ، وإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقالوا متهكمين : ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم** ﴾[1] فلما لم يجبهم الله إلى اقتراحهم ، وأخرّ عنهم العذاب إلى ساعته المحدودة ، أطغاهم طول الأمن والدعة ، والعافية الحاضرة ، حتى نسوا ريب الدهر ، وأمنوا مكر الله ، **وما يحبسه لو كان آتياً ؟**

أراد القرآن أن يقول فى جواب هذا الاستعجال — لو كانت سنة الله قد مضت بأن يعجل للناس الشر إذا استعجلوه ، كتعجيله لهم بالخير إذا استعجلوه ، لعجله لهؤلاء ، ولكنه قد جرت سنته التى لا تتبدل ، بأن يمهل الظالمين ، ويؤخر حسابهم إلى أجل مسمى ، وعلى وفق هذا النظام الميسنون ، سيترك هؤلاء وشأنهم ، حتى يجىء وقتهم .

هذا هو الوضع الذى يوضع عليه الكلام فى ألسنة الناس ، وفى طبيعة اللغة ، لتأدية المعنى الإجمالى الذى ترمى إليه الآية ، فانظر ماذا جرى .. ؟

١ — كان الكلام فى وضعه العادى مؤلفاً من قضايا ثلاث : اثنتان منها بمثابة المقدمات ، والثالثة بمنزلة النتيجة . فاقتصرا القرآن على الأولى والأخيرة ، أما الوسطى ، وهى الاستدراك — أو الاستثنائية ، كما يسميها علماء المنطق ، فقد طواها طياً .

٢ — وكانت المقدمة الأولى فى وضعها الساذج ، تتألف من أربعة أطراف : تعجيل من الله فى الخير وفى الشر ، واستعجال من الناس كذلك ، ولكن الكلام هاهنا ليس فيه إلا تعجيل واحد من الله ، واستعجال واحد من الناس .

٣ — وكانت المقابلة فى التشبيه بحسب الظاهر إنما هى بين تعجيل وتعجيل ، أو بين استعجال واستعجال ، فأدير الكلام فى الآية على وجه غريب ، وجعلت المشابهة بين تعجيل واستعجال ، وبعد هذا التصرف كله ، هل ترى كلاماً مبتوراً ، أو طريقا ملتوياً يتعثر فيه الفهم ؟ أم ترى مغزى الآية لائحاً للعامة والخاصة كالبدر ليس دونه سحاب ؟

فارجع إلى طلب شىء من أسرار البيان ، وقل : كيف جاء هذا الاشراق مع هذا الاختصار البليغ ؟

---

١ — الأنفال آية : ٣٢

نقول :

(أما الأول)

فإنه لم يدع تلك المقدمة المطوية إلا بعد أن رفع لها علمين من جانبيها ، يدلان على مكانها ، ويوحيان بها إلى النفس من وراء حجاب ، فقد أقام عن يمينها كلمة « لو » الامتناعية التى صدر بها المقدمة الأولى ، دلالة على أنه لا يكون منه هذا التعجيل ، وعن يسارها حرف التفريع ، التى صدر به النتيجة فى قوله : (فنذر) لكى ينم على أن لهذا الفرع أصلاً من جنسه يقال فيه : ولكن شأنه أن يذر الناس ، فلذلك يذر هؤلاء .

ولما كانت الفاء وحدها ليست نصاً فى المطلوب ، لأنها كما تكون للتفريع ، تكون لمجرد العطف — فربما اتصل القارىء عاطفاً بها على جزاء الشرط قبلها ، من قبل أن يتبين له فساد المعنى لو عطف — لم يكتف بالفاء ، بل عزَّزها بقوتين أخريين ، إذ حوّل صيغة النتيجة من الماضى إلى المضارع ، ثم من الغيبة إلى التكلم ؛ ليكون هذا الانقطاع اللفظى بينها وبين ما قبلها ، إيذاناً بإنقطاعها عنه معنى وإذناً بالوقوف دونها ، حتى لا تقع النفس لحظة ما فى أدنى اضطراب أو ليس ، ذلك إلى ما فى التحويل من الافتنان فى الأسلوب تجديداً لنشاط السامع ، ومن إلقاء الرعب فى القلوب بصدور نطق الوعيد والاستدراج على لسان الجبروت الملكى نفسه .

(أما الثانى)

فإنه لّما حذف طرفين من الأطراف الأربعة ، لم يحذفهما من جنس واحد ، بل أبقى من كل زوجين واحداً ، هو نظير ما حذفه من صاحبه ، لينبه بالمذكور على المحذوف ، فكانت كلمة « التعجيل » منبهة على نظيرتها فى المشبه به ، وكلمة « الاستعجال » منبهة على مقابلتها فى المشبه .

(أما الثالث)

فإنه نبه به على معنى هو غاية فى اللطف ، وهو سر الامهال ، وحكمة عدم التعجيل من الله ، ذلك بأنه صوَّر هذا التعجيل المفروض بصورة ، تشبه التماس الطالب وحرصه الشديد على إرضاء شهوته ، وسد حاجته المُلحّة ، التى تبعثه على استعجاله ، ولا سيما إذا كان يطلب الخير لنفسه ، كأنه قيل : إنه تعالى لو عجّل لهم ذلك ، لكان مثله بهذا التعجيل ، كمثل هؤلاء المستعجلين فى استفزاز البواعث إياه ، وحاش لله .

هذا إلى تصرفات عجيبة أخرى

(منها) أن كلمة « لو » بحسب وضعها وطبيعة معناها ، تتطلب أن يليها فعل ماضى ، ولكن المطلوب ها هنا ليس هو نفى المضى فحسب ، بل بيان أن هذا الفعل خلاف سنة الله ، التى لن تجد لها تبديلا ، فلو أدى المعنى على هذا الوضع لطال الكلام ، ولقيل « لو كانت سنة الله المستعمرة فى خلقه أن يعجل .. الخ » ! فانظر كيف اختصر الكلام فى لفظ واحد ، بإخراج الفعل فى صورة المضارع ، الدال على التكرار والاستمرار ، واكتفى بوضع « لو » قرينة على أن ما بعدها ماضى فى معناه ، وهكذا أدى الغرضين جميعاً فى رفق ولين .

(ومنها) أنه كان مقتضى التطابق بين الشرط والجواب ، أن يوضع الجواب عدلا له فيقال : (لعجلّهُ : ولكنه عدل إلى ما هو أفخم وأهول ، إذ بين أنه لو عجل للناس الشر ، لعجل لهؤلاء منه نوعاً خاصاً هم له أهل ، وهو العذاب المستأصل الذى تقضى به آجالهم .

(ومنها) أنه كان مقتضى الظاهر فى تقرير النتيجة أن يقال :

« فنذرهم » أو « فنذر هؤلاء » ولكنه قال : (فنذر الذين لا يرجون لقاءنا) تحصيلا لغرضين مهمين ، أحدهما التنبيه على أن منشأ هذا الاستعجال منهم هو عدم إيمانهم بالبعث ، والثانى التنبيه على أن قاعدة الإمهال من الله قاعدة عامة لهم ولأمثالهم .

(ومنها غير ذلك ...)

قل لنا بربك : لو ظفرت فى كلام البشر بواحدة من هذه التصرفات ، ففى أى أسلوب غير أسلوب القرآن تظفر بهده المجموعة ، أو بما يدانيها فى هذا القدر ، أو فى ضعيفة من الألفاظ ؟

— ٢ —

القرآن فى سورة سورة منه

« الكثرة » و « الواحدة »

هذا الذى حدثناك عنه من عظمة الثروة المعنوية فى أسلوب القرآن على وجازة لفظه ، يضاف إليه أمر آخر ، هو زينة تلك الثروة وجمالها ، ذلك هو تناسق أوضاعها ، وائتلاف عناصرها ، وأخذ بعضها بحجز بعض ، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها . وأنت قد تعرف أن الكلام

فى الشأن الواحد ، إذا ساء نظمه ، انحلت وحدة معناه ، فتفرق من أجزائها ما كان مجتمعاً ، وانفصل ما كان متصلاً ، كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة ، اذا لم يكن سطحها مستوياً ، أليس الكلام هو مرآة المعنى ؟ فلا بد إذاً لإبراز تلك الوحدة الطبيعة « المعنوية » من إحطام هذه الوحدة الفنية « البيانية » وذلك بتمام التقريب بين أجزاء البيان ، والتأليف بين عناصره ، حتى تتماسك وتتعانق ، أشد التماسك والتعانق ، ليس ذلك بالأمر الهيّن ، كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة ؟ بل هو مطلب كبير « يحتاج » مهارة وحذقاً ولطف حس فى اختيار المواقع لتلك الأجزاء ، أيها أحق أن يجعل أصلاً أو تكميلاً ، وأيها أحق أن يُبدأ به أو يختم ، أو يتبوأ مكاناً وسطاً ؟ « ثم يحتاج » مثل ذلك فى اختيار أحسن الطرق لمزجها ، بالإسناد ، أو بالتعليق أو بالعطف ، أو بغيرها ، هذا كله بعد التلطف فى اختيار تلك الأجزاء أنفسها ، والاطمئنان على صلة كل منها بروح المعنى ، وأنها نقية من الحشو ، قليلة الاستطراد ، وأن أطرافها وأوساطها تستوى فى تراميها إلى الغرض ، ويستوى هو فى استهدافه لها ، كما تستوى أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز ويستوى هو بالقياس إلى كل منها .

تلك حال المعنى الواحد ، الذى تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالاً طبيعياً ، فما ظنك بالمعانى المختلفة فى جوهرها ، المنفصلة بطبيعتها كم من المهارة والحذق ، بل كم من الاقتدار السحرى ، يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة ، واتجاهاتها المتشعبة ؟ حتى لا يكون الجمع بينها فى الحديث ، كالجمع بين القلم والحذاء والمنشار والماء ، بل حتى يكون لها مزاج واحد واتجاه واحد ، وحتى يكون عن وحداتها الصغرى وحدة جامعة أخرى .

إنه من أجل عزة هذا الطلب ، نرى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حد ما فى غرض غرض ، كان منهم الخطأ والإساءة فى نظم تلك الأغراض كلاً أو جلاً . « فالشعراء » حينما يجيئون فى القصيدة الواحدة بمعان عدة ، أكثر ما يجيئون بها أشتاتاً لا يلوى بعضها على بعض ، وقليلاً ما يهتدون إلى حسن التخلص من الغرض إلى الغرض ، كما فى الانتقال من النسيب إلى المدح . « والكتاب » ربما استعانوا على سد تلك الثغرات ، باستعمال أدوات التنبيه ، أو الحديث عن النفس ؛ كقولهم : ألا وإن .. هذا ولكن .. بقى علينا .. ولننتقل .. نعود .. قلنا .. وسنقول ..

هذا شأن الأغراض المختلفة ، إذا تناولها الكلام الواحد فى المجلس الواحد ، فكيف لو قد جيء بها فى ظروف مختلفة ، وأزمان متطاولة ؟ ألا تكون الصلة فيها أشد انقطاعاً ، والهوة بينها أعظم اتساعاً ، فإن كنت قد أعجبك من القرآن نظام تأليفه البيانى فى القطعة منه ، حيث الموضوعات شتى ، والظروف متفاوته ، لترى من هذا النظام ما هو أدخل فى الإعجاز والإعجاب ...

أما إن طلبت شاهداً من العيان على صحة ما أجلناه فى هذا الفصل ، من نظام الوحدات فى السور على كثرة أسباب اختلافها ، وأما إن أحببت أن نريك نموذجاً من السور المنجمة ، كيف التأمت منها سلسلة واحدة من الفكر ، تتلاحق فيها الفصول والحلقات ، ونسق واحد من البيان ، تتعلق فيه الجمل والكلمات ، فأى شىء أكبر شهادة وأصدق مثالاً ، من سورة نعرضها عليك هى أطول سور القرآن كافة ، وهى أكثرها جمعاً للمعانى المختلفة ، وهى أكثرها فى التنزيل نجوماً ، وهى أبعدها فى هذا التنجيم تراخياً .

تلك هى سورة البقرة التى جمعت بضعا وثمانين ومائتى آية ، وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفاً وثمانين نجماً ؛ وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عدداً .

واعلم أنه ليس من همنا الآن ، أن نكشف لك عن جملة الوشائج اللفظية والمعنوية ، التى تربط أجزاء هذه السورة الكريمة بعضها ببعض ، فتلك دراسة تفصيلية لها محلها من كتب التفسير ...

وإنما نريد أن نعرض عليك السورة عرضاً واحداً نرسم به خط سيرها إلى غايتها ، ونبرز به وحدة نظامها المعنوى فى جملتها ، لكى ترى فى ضوء هذا البيان كيف وقعت كل حلقة موقعها من تلك السلسلة العظمى ...

(نظام عقد المعانى فى سورة البقرة)

اعلم أن هذه السورة على طولها ، تتألف وحدتها من : مقدمة ، وأربعة مقاصد ، وخاتمة . على هذا الترتيب .

(المقدمة) فى التعريف بشأن هذا القرآن ، وبيان أن ما فيه من الهداية ، قد بلغ حداً من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم ، وإنما يعرض عنه من لا قلب له ، أو من كان فى قلبه مرض .

(المقصد الأول) فى دعوة الناس كافة إلى اعتناق الاسلام .

(المقصد الثانى) فى دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة ، إلى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق .

(المقصد الثالث) فى عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً .

(المقصد الرابع) ذكر الوازع والنازع الدينى ، الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع ، ويعصم عن مخالفتها .

(الخاتمة) فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم فى آجلهم وعاجلهم .

رغبتنا إليك أيها القارىء الكريم ، حين تدرس معنا تفاصيل هذا النسق ، أن تستظهر بالمصحف بين يديك ، لتكون من الموقنين بصحة ما نشير إليه فى كل خطوة .

المقدمة فى عشرين آية (١ ـــ ٢٠)

١ ـــ بدئت السورة الكريمة بثلاثة أحرف مقطعة ، لا عهد للعرب بتصدير مثلها فى الإنشاء والإنشاد ، وإنما عهدوها من القراء الكاتبين فى بدء تعليمهم النهجى للناشئين . (أ . ل . م)

ومهما يكن من أمر المعنى ، الذى قصد إليه بهذه الأحرف ، والسر الذى وضعت هنا من أجله ، فإن تقديمها بين يدى الخطاب مع غرابة نظمها وموقعها ، من شأنه أن يوقظ الأسماع ، ويوجه القلوب لما يلى هذا الأسلوب الغريب .

٢ ـــ وألحقت بهذه الأحرف الثلاثة جمل ثلاث :

أما أولاهن : فإعلان للسامع أن ما سيتلى عليه الآن ، هو خير كتاب أخرج للناس ، وأنه ليس فى الوجود ما يصلح أن يسمى كتاباً بالقياس إليه (ذلك الكتاب)

وأما الأخريان فيدعمان هذا الكم بالحجة والبرهان ، أليس تفاضل الكتب ، إنما هو بمقياس ما تحويه من حق لا يشوبه باطل ، أو ليس أكمل الكمال بعد هذا الحق أن يكون نيّراً لا يثير شبهه ، أو ليس أكمل الكمال بعد هذا وذاك ، أن يكون ذلك الحق ، مما تمس إليه حاجة الناس فى إنارة السبيل ، وإقامة الدليل ، إذا ما اشتبهت عليهم السبل ، وتفرقت المسالك ، فذلكم القرآن هو جماع هذه الفضائل الثلاث ، فهو الحق المحض الذى لا باطل فيه ، بل هو الحق اللائح ، الذى لا شبهة باطل فيه ، ثم هو بعد ذلك الهدى المبين ، الذى يخرج الناس من الظلمات إلى النور (لاريب فيه . هدى) .

هكذا كان موقع هذه الجمل الثلاث ، بعد تلك الأحرف الثلاثة ، موقع التنويه بالمقصود بعد التنبيه إليه .

وكذلك المربى الصالح « يبدأ » خطابه الجليل الشأن ، باستنصات الناس واسترعاء أسماعهم « ويثنى » باتخاذ الوسائل التى تثير فيهم بواعث الإقبال على طلب الاستفادة .

٣ — أول ما تتشوف إليه النفس ، بعد سماع هذا الوصف البليغ للقرآن وهدايته ، هو تعرف الأثر الذى سيحدثه فى الناس ومقدار إجابتهم لدعوته ، فمست الحاجة إلى أن ينساق الحديث لبيان هذه الحقيقة العجيبة ، وهى انقسام الناس فى شأنه إلى فئات ثلاث : فئة تؤمن به ، وأخرى كافرة ، وثالثة مترددة حائرة ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

فكيف تُرى ينتقل من الحديث عن الكتاب إلى الحديث عن الناس ؟ أيجعل الحديث عنهم حديثاً مؤتنفاً ائتنافاً بحتاً ؟ ... أم يسوقه مساق الاستدراك على ما قبله ؟ ..

شيء من ذلك لم يكن ، ولكن انظر إليه وقد مزج الحديثين لا يفطن لما حدث بينهما من الانتقال ، ذلك أنه فى أول الأمر لم يعرض لذكر الطائفتين الأخرتين ، بل أعرض عنهما ، كأن القرآن لم ينزل من أجلهما ، ثم عمد إلى الطائفة الأولى ، فجعل الحديث عنها من تمام الحديث عن هداية القرآن نفسه ، قائلاً إنه : (هدى للمتقين الذين يؤمنون ...) فكانت هذه « اللام الجارة » هى المعبرة السرية التى انزلق عليه الكلام ، وانصب انصباباً واحداً إلى نهاية الحديث عن المؤمنين .

٤ — ولقد كان قصر الانتفاع بهداية القرآن على هذه الطائفة وحدها ، بعد وصف القرآن بأنه الحق الواضح الذى لا ريبة فيه ؛ حريّاً فى بادىء الرأى أن يعدَّ من المفارقات ، التى تثير فى نفس السامع أشد العجب ، إذ كيف تكون الحقائق القرآنية بهذه المرتبة من الوضوح ، ثم لا تنفذ إلى قلب كل من يسمعها ؟ !

ومن جهة أخرى ، فقد كان موقف هذا النبى الرحيم — ﷺ — فى جدة البالغ فى دعوة أمته ، وحرصه الشديد على هدايتهم ، مصوراً له فى عين من يراه ، بصورة الطامع فى إيمان الناس أجمعين ، الظان أن هذه الأمنية ستصبح فى متناول يده ، متى أخذ الناس فى أسبابها العادية ، كأنه يرى أن ليس بينهم وبين هذه مسلمون ، ذلك مع أن القرآن يكاد يحدد الآن مهمته ، ويقول إن الذى سينتفع بهداه إنما هم المتقون ، فكان هذا التحديد مظنة ، لأن يبتهل الرسول — ﷺ — إلى ربه قائلاً : سبحانك اللهم ، ولم لا يهتدى به الناس أجمعون !

وجب إذاً أن تقرر الحقيقة بصورة حاسمة لكل طماعية وتردد ، مريحة للنفس من طلب ما لا سبيل إليه ، وأن تبين مع ذلك الموانع الطبيعية من عموم هداية القرآن ، بأسلوب ينزه القرآن نفسه عن شائبة

القصور ، ويردّ النقص إلى قابلية القابل ، لا إلى فاعلية الفاعل ، وهل يغُض من مهارة الطبيب أن يُعرض المريض عن تناول الدواء منه فيموت بجهله ؟ وهل يضير الشمس ألا ينتفع بنورها العُمى أو المتعامون ؟ — (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ...)

هكذا انتقل الحديث عن المؤمنين ، الذين سبقت لهم الحسنى ، إلى الكافرين ، الذين حقت عليهم كلمة العذاب ، لا على وجه اقتران الحديثين فى القصد من أول الأمر ، إذاً لعُطف أحدهما على الآخر ، بل على وجه ينبى فيه بعض الكلام على بعض ، إجابة لهذا السؤال الذى نطقت به الحال ، وإزالة لذلك التعجب الذى أثاره سابق المقال ، وهذا هو ما يسميه علماء البلاغة بالاستئناف البيانى .

٥ — وجرى الحديث عن هؤلاء إلى نهايته ، فلنضم الشكل إلى شكله ، وعطفت الطائفة الثالثة على اختها ، لأنهم فى التجافى عن الهدى مُشتركون ، تتشابه قلوبهم وإن اختلفت ألسنتهم .. (ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين)

٦ — وارجع الآن قليلاً إلى نظام الأحاديث عن الطوائف الثلاثة ، لترى كيف تقابلت أوضاعها أتم التقابل ، فقد اشتمل الحديث فى كل طائفة على ثلاثة عناصر ، مرتبة على هذا النمط : وصف الحقيقة الواقعة ، فبيان السبب فيها ، فالإخبار عن نتيجتها المنتظرة .

« فحقيقة » الطائفة الأولى أنهم قوم حصلوا فضيلة التقوى بركيذها العلمى والعملى ، وسبب ذلك استمساكهم بالهدى ، وإمدادهم بالتوفيق من ربهم ، ومآل أمرهم ، الفوز والفلاح .

« وحقيقة » الطائفة الثانية ، أنهم مجردون من أساس التقوى ، وهو الإيمان ، وأنهم مصرون على ذلك إصراراً لا ينفع مع إنذار « والسبب » عدم انتفاعهم بما وهبهم الله من وسائل العلم ، **فلهم قلوب** لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، وعاقبة أمرهم العذاب الأليم .

« وحقيقة » الطائفة الثالثة صفة مركبة من ظاهر خير ، وباطن سوء ، فهم يقولون بألسنتهم إنهم مؤمنون ، وليس فى قلوبهم من الإيمان شيء ، ولكل من الوصفين سبب وجزاء أما دعواهم الإيمان ، فسببها قصد المخادعة ، وجزاء الخداع عائد إليهم ، وأما إسرارهم الكفر فسببه مرضى قلوبهم . وجزاء **زيادة المرض والعذاب الأليم** .

وكما بين سبحانه فى الطائفة الثانية ، أنها بلغت من الإصرار والغباوة مبلغا لا يجدى معه الإنذار ، بين فى الطائفة الثالثة ، أنها بلغت من الغرور والجهالة المركبة مبلغاً لا ينفع فيه نصح الناصحين ، فهم

المفسدون ، ويزعمون أنهم المصلحون ، وهم السفهاء ، ويزعمون أنهم الراشدون ، ومن لك بشفاء سقيم يعتقد أنه سليم ؟ ثم كما ختم الكلام فى شأن الطائفة الأولى ، بأن سجل لهم وصف الهدى والفلاح ، ختم الكلام فى شأن الطائفتين الأخريين ، بأن سجل عليهما وصف الضلالة والخسران .

لذلك ضرب الله لكلتا الطائفتين مثلاً يناسبها ، فضرب مثلاً للمعتربين المختوم على قلوبهم ، بقوم كانوا يسيرون فى ظلام الليل فقام فيهم رجل استوقد لهم ناراً يهتدون بضوئها ، فلما أضاءت ما حوله ، لم يفتح بعض القوم أعينهم لهذا الضوء الباهر ، بل لأمر ما سلبُوا نور أبصارهم ، وتعطلت سائر حواسهم عند هذه المفاجئة ، فذلك مثل النور الذى طلع به محمد ـ ﷺ ـ فى تلك الأمة الأمية على فترة من الرسل ، فتفتحت له البصائر المستنيرة هنا وهناك ، لكنه لم يوافق أهواء المستكبرين ، الذى ألفوا العيش فى ظلام الجاهلية ، فلم يرفعوا له رأساً ، ثم نكسوا على رؤوسهم ، ولم يفتحوا له عيناً بل خروا عليه صماً وعمياناً . ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾[1] .

وضرب مثلاً للمترددين المخادعين ، بقوم جادتهم السماء بغيث منهمر ، فى ليلة ذات رعود وبروق ، فأما الغيث فلم يلقوا له بالاً ، ولم ينالوا منه نيلاً ، فلا شربوا منه قطرة ، ولا استنبتوا به ثمرة ، ولا سقوا به زرعاً ولا ضرعا ، وأما تلك التقلبات الجوية والرعد والبرق ، فكانت هى مثار اهتمامهم ، ومناط تفكيرهم ، ولذلك جعلوا يترصدونها ، ويدبرون أمورهم على وفقها ، لا بسين لكل حال لبوسها ، سيراً تارة ، ووقوفاً تارة ، واختفاء تارة أخرى ... ذلك أبداً دأب المنافقين فى كل أمرهم ، إن توقعوا ربحا عاطلا التمسوه فى أى صفت وجدوه ، وإن توقعوا أذى كذلك ، تنكروا للفئة التى ينالها فى سبيلها شىء من المكروه ، وإذا أظلم عليهم الأمر قاموا بعيدا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، أما الذى يؤمن بالله واليوم الآخر ، فإن له قبله الحق لا يخشى فى الله لومة لائم .

وليس يبالى حين يقتل مسلما . على أى جنب كان فى الله مصرعه

هنا تمت المقدمة بعد أن وصفت القرآن بما هو أهله ، ووضعت متبعيه ومخالفيه كلاً بما يستحقه ، ولا مرية أن وصف هذه الطوائف جميعها راجع فى المآل إلى الثناء على القرآن ؛ فإن الشىء الذى يكون متبعوه هم أهل الهدى والفلاح ، ومخالفوه هم أهل الضلالة والخسر ، لا يكون إلا حقا واضحا لا ريب فيه .

---

١ ـــ سورة فصلت آية : ٤٤

فما هو ذلك الحق الذى لا يتبعه إلا مهتد مفلح ، ولا يعرض عنه إلا بالضياء الباهر والغيث الكثير ؟

لاشك أن هذا كله تشويق أى تشويق لسماع الحقائق التى يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أى نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضى بأن يقال : أن هذه الحقائق التى يدعو القرآن الناس إليها . فانظر على أى نحو ساق بيانها .

لقد كان ظاهر السياق يقضى بأن يقال : أن هذه الحقائق ، هى أن يعبدوا ربهم وحده ، ويؤمنوا بكتابه ونبيه (الخ) جرياً على أسلوب الغيبة ، الذى جرى عليه فى وصف الكتاب ، وفى وصف الناس ، ولكنه حوّل مجرى الحديث من الأخبار والغيبة إلى النداء والمخاطبة قائلاً : (ياأيها الناس اعبدوا ربكم ...)

أتعرف شيئاً من سر هذا التحويل ؟

إن ذلك الوصف الدقيق الذى وصف القرآن به الطوائف الثلاث « متقين ، وكافرين ، ومخادعين » قد نقلهم عند السامع من حال إلى حال فبعد أن كانوا غُيباً فى مبدأ الحديث عنهم ، أصبحوا الآن بعد ذلك الوصف الشافى حاضرين فى خيال السامع ، كأنهم رأى عين ، وفى مكان ينادون منه ، فاستحقوا أن يوجه الحديث إليهم ، كما يوجه إلى الحاضرين فى الحس والمشاهدة ، هذا من الناحية العامة ، وأما من الناحية الأخرى ، فإن هذه الأمثال البليغة التى ضربت فى شأن المعرضين خاصة ، قد أبرزتهم أمام السامع فى صورة محزنة ، تبعث فى نفسه أقوى البواعث لنصحهم وتحذيرهم .

حتى أنه لا يشفى صدره ، إلا أن يناديهم أو يسمع من يناديهم ، أن افتحوا أعينكم أيها القوم ، وتعالوا إلى طريق النجاه . وهكذا استعدت النفس أتم استعداد ، لسماع هذا النداء . (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) ـــ الآيات إلى آخر المقصد الأول .

المقصد الأول من مقاصد السورة : فى خمس آيات (٢١ ـــ ٢٥) .
فى هذه الآيات الخمس تسمع نداء قوياً موجهاً إلى العالم كله بثلاثة مطالب :
١ ـــ أن لا تعبدوا إلا الله ولا تشركوا به شيئاً .
٢ ـــ أن آمنوا بكتابه الذى نزله على عبده .

٣ ـــ أن اتقوا أليم عذابه ، وابتغوا جزيل ثوابه .

هذه المطالب الثلاثة هى الأركان الثلاثة للعقيدة الإسلامية ، تراها قد بسطت مرتبة على ترتيبها الطبيعى ، من المبدأ ، إلى الواسطة ، إلى الغاية .

وترى كل واحد من الركنين الأولين ، قد أقيم على أساس من البرهان العقلى القاطع لكل شبهة ، أما الركن الثالث ، فقد جىء به مجرداً عن هذا النوع من البرهان ، ولكنه نفخ فيه من روح الإلهاب ، وتحريك الوجدان ، بالتحذير والتبشير ما يسد فى موضعه مسد البرهان .

عود على بدء : فى أربع عشرة آية (٢٦ ـــ ٣٩)

١ ـــ بدأ الكلام فى السورة ـــ كما علمت ـــ بوصف القرآن بما فيه من الهدى اجمالاً : فكان الحق أن يعود إلى وصف طريقة القرآن فى هذه الهداية ، ليقول أنها هداية كاملة بالبيان الوافى الشامل لكل شىء ، فانظر كيف مهّد لهذا الانتقال تمهيداً يتصل من أول السورة إلى هذا الموضع :

أما المقدمة ، فقد وصف فيها الفرق الثلاث وصفاً شافياً ضرب للناس أمثالهم ، وحقق أن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم .

وأما المقصود ، فقد بين فيه أن لله وحده المثل الأعلى ، الذى لا يشاركه فيه شىء الأنداد ، ثم وضع فيه الفيصل بين النبى والمتنبى بتلك المعجزة العالمية ، التى لا يستطيع أحد من دون الله أن يأتى بمثلها ، ثم ذكر مثل النار التى أعدت للكافرين ، ومثل الجنة التى وعد المتقون .

فتراه قد تناول فى هذه الأمثال ضروباً شتى من الحقائق علوية وسفلية ، مادية ومعنوية .. حتى كانت نهاية الحديث ، أن عرض ما فى الجنة من أنواع المتع واللذائذ الشخصية والجنسية ، تلك المعانى التى قد يستحى المرء من ذكرها ، وقد يخالها الجاهل نابية عن سنن الخطاب الإلهى الأعظم ، غافلاً عن أنه الحق الذى لا يستحى من الحق ، وأنه الرحيم الذى يتنزل رحمته إلى مستوى العقول البشرية ، فيبين لهم كل ما يحتاجون إلى بيانه مما يحبون أو يكرهون ، ومما يرجون أو يحذرون .

وهكذا انساق الحديث من ذكر هذه النماذج المتفاوته إلى استنباط القاعدة الكلية منها ، ببيان أن هذه هى طريقة القرآن فى هدايته ، فهو يضرب الأمثال كلها ، ويبين الحقائق حلوها ومرها ، واضعاً

كل شيء فى موضعه ، مسمياً له باسمه ، لا يبالى أن يتناول فى بيانه جلائل الأمور أو محقراتها (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها)

حقاً إن شأن هذا الكتاب فى تفصيل الحق والباطل ، والضار والنافع ، شأن كتاب الأعمال فى تفصيل الحسنات والسيئات ، كلاهما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

وكما أن وصف القرآن بالهدى إجمالاً ، قد جر هناك إلى ذكر انقسام الناس فى قبول هدايته ، وإلى النعى على من أعرض عنه ، كذلك وصف طريقته فى الهداية ، قد جرها هنا إلى مثل هذا التقسيم . (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً) وإلى النعى على الضالين بذكر مساوئهم وتفصيل نقائصهم (وما يضل به إلا الفاسقين)

وكما أن بيان أوصافهم هناك ، قد جلاهم أمام السامع فى صورة تحرك داعيته لسماع ندائهم بالنصح والتعليم ، كذلك بيان أوصافهم هنا قد استفز النفوس إلى سماع مخاطبتهم بالتعجيب والإنكار . (كيف تكفرون بالله — الآيات) .

٢ — وكذلك عاد الكلام إلى المقصد الأول بأركانه الثلاثة ، ولكن فى ثوب جديد :

(أما فى الركن الأول) فقد سمعته هناك ، يأمر بعبادة الله ، وتسمعه هنا ، ينهى عن الكفر بالله . وهناك ذكرهم بنعمة إيجادهم مجملة ، وهنا يذكرهم بها مفصلة متممة ، وهناك عرفهم بنعمة تسخير الأرض والسماء لهم ، وهنا يعرفهم بذلك فى شيء من التفصيل .

(وأما الركن الثانى)

فقد ذكر هناك نبوة هذا النبى الخاتم ، وهنا ذكر نبوة ذلك النبى الأول آدم ، لتعلم أن نبينا لم يكن بدعاً من الرسل ، وأن أمر التشريع والنبوات أمر قديم متصل بنشأة الانسان ، وقد مهد لهذا البيان ، بذكر تاريخ تلك النشأة العجيبة ، وما جرى فى شأنها من الحديث مع الملائكة ، ذلك الحديث الدال على مزيد العناية الإلهية بهذا النوع البشرى ،

اختاره الله لخلافة الأرض ، وآثره على سائر الخلق بفضيلة العلم ، ليكون الامتنان بذلك جارياً مع الامتنان بالنعم المذكورة فى الركن الأول على حسن نسق — ثم اتصل من هذا التفضيل ، إلى شرح ما نشأ عنه من حسد إبليس وعداوته القديمة للإنسان الأول ، ومخادعته إياه بوسواسه ، وما انتهى إليه

أمر الخادع والمخدوع من ابتلائهما ، وابتلاء ذريتهما بالتكاليف . وهو — كما ترى — حديث يطلب بعضه بعضاً ، ويأخذ بعضه بأعناق بعض .

(وأما الركن الثالث) فقد رأيته هناك يصف الجنة والنار بمالهما من وصف رائع أو مروع ، وتراه هنا يكتفى عن وصفهما بذكر اسمهما وتعيين أهلهما ناظماً مصنع الأجزية مع وضع التكاليف فى سلك واحد ، ومتخلصاً أحسن تخلص من أحدهما إلى الآخر ، بتقرير أن اتباع التكاليف أو عدم اتباعها ، هو مناط السعادة أو الشقاوة فى العقبى .

ولقد ختم الكلام هنا — كما ختمه فى المقدمة — بشأن المخالفين ، تمهيدا للأنتقال مرة أخرى إلى نداء فريق منهم ، ودعوتهم إلى الإسلام ، وهو المقصد الثانى

المقصد الثانى من مقاصد السورة : فى ثلاث وعشرين ومائة آية (٤٠ — ١٦٢) :

بحسبك أن تعلم أن هذه السورة هى غرة السور المدنية ، وأن المدينة كان يسكنها أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، وأكثرهم جدالاً فى دينهم بما أوتوه من العلم قبلهم ، بحسبك أن تعلم هذا وذاك ، لتعرف سر تلك العناية الموفورة بهذا الجانب من الدعوة ، نعنى دعوة بنى اسرائيل خاصة بعد دعوة الناس عامة ، ولتعلم حكمة ذلك التبسط فى الحديث معهم تارة ، والحديث عنهم تارة أخرى ، بألوان تختلف هجوماً ، ودفاعاً ، واستمالة واستطالة إلى ما بعد نصف السورة .

وسترى حين تنتقل فى هذه الأحاديث مرحلة مرحلة ، ما يملك قلبك من جمال نظامها ودقة تقسيمها .

(بدأ) الكلام معهم بآية فذة (٤٠) هى على قلة كلماتها جامعة لأغراض الحديث كله ، ففيها يناديهم بأحب أسمائهم ، وأشرف أنسابهم ، ويذكرهم بسابق نعمة الله عليهم إجمالاً ، ويبنى على ذلك دعوتهم إلى الوفاء بعهدهم ، ويرغبهم ويزهدهم .

(ثم) رجع إلى هذه الأغراض يفصلها على تدرج ، وبقدر معلوم ، فشرح العهد الذى طلب منهم الوفاء به ، فى ست آيات (٤١ — ٤٦) — وبين مقدار النعمة التى امتن بها عليهم فى آية (٤٧) ومقدار المخافة التى خوفهم منها فى آية أخرى (٤٨) .

(ثم) قسم الحديث إلى أربعة أقسام :

(القسم الأول) يذكر فيه سالفة اليهود منذ بعث فيهم موسى عليه السلام .

(القسم الثانى) يذكر فيه أحوال المعاصرين منهم للبعثة المحمدية .

(القسم الثالث) يذكر فيه أولية المسلمين منذ إبراهيم عليه السلام .

(القسم الرابع) يذكر فيه حاضر المسلمين فى وقت البعثة .

أرأيت هذه المراحل الأربع ، التى سلكها القرآن فى دعوة بنى اسرائيل ، كيف رتبها مرحلة مرحلة ، وكيف سار فى كل مرحلة منها خطوة خطوة .

فارجع البصر كرة أخرى إلى هذه المرحلة الأخيرة منها ، لتنظر كيف استخدم موقعها هذا ، لتحقيق غرضين مختلفين ، وجعلها حلقة اتصال بين مقصدين متنائيين ، فهى فى جملتها مناجات من الله للنبى والمؤمنين ، فى خاصة شأنهم ، وفيما يعنيهم من أمر دينهم ، ولكنه جعل هذه النجوى طرفين ، لوّن كل طرف منها بلون المقصد الذى يتصل به ، فالتقى المقصدان فيها على أمر قد قدر ، ألم تر كيف بدأها ، بأن قص على المؤمنين مقالة أعدائهم فى بعض حقائق الاسلام ، وعمد إلى هذه الحقائق ، التى تماروا فيها ، فجعل يمسح غبار الشبه عن وجهها ، حتى جلاها بيضاء للناظرين ، فكانت هذه البداية — كما ترى — نهاية لتلك المعارك الطويلة ، التى حورب فيها الباطل فى كل ميدان ، ثم رأيت كيف ساق الحديث ، فجعل يثبت أقدام المؤمنين على تلك الحقائق النظرية والعملية ، ويحرضهم على الاستمساك بها فى غير ما آبة ، أفلا تكون هذه النهاية بداية لمقصد جديد بعدها ، يراد به هداية المؤمنين إلى تعاليم الإسلام مفصلة ؟

بلى .. إن ذلك هو ما توحى به سياقه هذه النجوى المتواصلة ، التى مدت فى خطاب المؤمنين مداً ، وحولت مجرى الحديث معهم رويداً رويداً ، حتى صار من ألقى سمعه إليها ملياً ، يسمع فى طيها نداء خفياً : أن قد فرغنا اليوم من الأعداء جهادا ، وأقبلنا على الأولياء تعليما وإرشاداً ، وأن قد طوينا كتاب الفجار ، وجئنا نفتتح كتاب الإبرار ، وأن هذه الصفحة الأخيرة من دعوة بنى اسرائيل ، لم تكن إلا طليعة من كتاب الحق ، تنبىء أن سيتلوها جيشه الجرار ، أو شعاعة من فجر الهدى سيتحول الزمان بها من سواد الليل إلى بياض النهار ، إلا ترى الميدان ، قد أصبح خالياً من تلك الأشباح الاسرائيلية ، التى كانت تتراءى لك فى ظلام الباطل تهاجمها وتهاجمك ، هل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً ؟

أو لا ترى هذه الأشعة الأولى من شمس الشريعة الاسلامية ، قد انبعثت يسوق بعضها بعضا ، أصول جامعة ، نظرية تتبعها طائفة من فروعها الكبرى العملية ، ألم يأن لسائر الفروع أن تجيء من خلفها ، حتى تبلغ الشمس ضحاها ...

هكذا تفتحت الآذان لسماع شرائع الإسلام مفصلة ، فلو أنها أقبلت علينا الآن عداً وسرداً ، ما حسبنا الحديث عنها حديثاً مقتضباً .

لكن القرآن ، وقد وضع على أدق الموازين البيانية وأرفقها بحاجات النفوس ، لم يشأ أن يهجم على المقصود ، مكتفياً بهذا التمهيد ، بل أراد أن يقدم بين يديه شقة تستجم النفس فيها من ذلك السفر البعيد ، وتأخذ أهبتها لرحلة أخرى إلى ذلك المقصد الجديد ، فانظر فيما يلى :

المدخل إلى المقصد الثالث : فى خمس عشرة آية (١٦٣ — ١٧٧) .

نيف وعشر من الآيات الكريمة ، هى بمثابة الدهليز بين الباب والدار ، يقطعها السائر فى خطوات ثلاث :

(الخطوة الأولى) تقرير وحدة الخالق المعبود ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾[1]

(الخطوة الثانية) تقرير وحدة الأمر المطاع ﴿ يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً .. ﴾[2]

(الخطوة الثالثة) فهرس إجمالى للأوامر والطاعات المطلوبة .

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر .. ﴾ الآية[3] .

المقصد الثالث من مقاصد السورة : فى ست ومائة آية (١٧٨ — ٢٨٣) بعد إرساء الأساس ، تكون إقامة البنيان ، وبعد الأطمئنان على سلامة الخارج ، يجيء دور البناء والإنشاء فى الداخل ...

نعم ، لقد تم (إصلاح العقيدة) التى هى روح الدين وجوهره ، فليبدأ (تفصيل الشريعة) التى هى مظهر الدين وهيكله .. لقد أزيلت شبه المعاندين ، وأقيمت الحجة عليهم ، فلم يبق إلا إنارة السبيل للسالكين . وإيضاح المحجة بين يديهم .. كانت العناية من قبل موجهة إلى بيان (حقائق الإيمان) فلنتوجه الآن ، إلى بسط (شرائع الإسلام) .

١ — البقرة آية رقم : ١٦٣ .
٢ — البقرة آية رقم : ١٦٨ .
٣ — البقرة آية رقم : ١٧٧ .

وأنت فقد رأيت كيف مهّدت السورة لهذا التحول ، إذ وضعت برزخاً يربط أطراف الحديث ، ويلتقى فيه سباقها ، وسياقها ... ولو أنك تلفتَّ الآن التفاتة يسيرة إلى جانبك ، لرأيت أدنى هذا البرزخ إليك تلك الآية الجامعة (آية البر) التى انتظمت أصول الدعوة بشطريها : النظرى والعملى ، ولرأيت أدنى هذين الشطرين إليك ، هو هذا الشطر العملى .

فاعلم الآن ، أن هذا الشطر العملى ، الذى لمحناه من قبل مطوياً فى فهرس موجز ، سنراه فيما يلى ، مبسوطاً فى بيان مفصل .

ففى نيف ومائة آية ، سنرى فناً جديداً من المعانى ، مهمته رسم نظام العمل للمؤمنين ، وتفصيل الواجب والحرام والحلال لهم فى شتى مناص الحياة ، فى شأن الفردْ ، وفى شأن الأسرة ، وفى شأن الأمة ... بياناً مؤتنفاً تارة ، وجواباً عن سؤال تارة أخرى ، متناولاً فى جملته عشرات من شعب الأحكام ..

هذه الحكمة العامة : فى تأخير إقامة البنيان ، ريثما أرسيت قواعدهُ وفى تأجيل الفروع ، حتى أحكمت أصولها ، ستبدو من ورائها حكم جزئية ، وأسرار دقيقة ، لمن أقبل على هذه الفروع ، ينظر إلى تلاصق لنباتها فى بنيتها ، وتناسق حباتها فى قلادتها ، ثم رجع ينظر فى وجه التقابل بين ذلك الإجمال السابق ، وهذا التفصيل اللاحق ..

فنأخذ فى استعراض الحلقات الرئيسية لهذه السلسلة الجديدة : لقد ختمت آية البر كما رأيت ، بخصلة من خصال البر ، مُيزّت فى إعرابها تمييزاً ، فكان ذلك تنويهاً بشأنها أى تنويه ، تلك هى خلة الصبر ، التى شعبتها الآية المذكورة إلى ثلاث شعب : الصبر فى البأساء ، والصبر فى الضراء ، والصبر حين البأس ، فهل تعلم أنه الآن وقد برىء دور التفصيل ستكون هذه الخصلة بشعبها الثلاث ، أول ما تعنى السورة بنشره من تلك الخصال ، وأنها ستنشرها نشراً مرتباً ترتيباً تصاعدياً ، على عكس ترتيب الطىّ ، الصبر حين البأس ، ثم الصبر فى الضراء ، ثم الصبر فى البأساء ، وهل تعلم أن هذا النظام التصاعدى نفسه ، سيتبع فى سائر الخصال ، الوفاء بالعهود والعقود ، ثم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والبذل والتضحية فى سبيل الله ؟

إليك البيان مفصلاً :

الصبر حين البأس :

لا تحسبنه هنا صبراً على الجروح والقروح فى الحرب ، فذلك معنى سلبى استسلامى ، ولا تحسبنه صبراً فى البطش والفتك بالأعداء ، فذلك جهد عملى إيجابى حقاً ، ولكن مرده إلى قوة العضل والعصب ،

لا إلى قوة الخلق والأدب « ليس الشديد بالصرعة ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب »[(١)]

هكذا سيختار الله لنا من مُثل الصبر أمثلها ، ومن موازينه أوزنها فى معايير القيم ؛ ذلك هو ضبط النفس حين البأس ، كفاً لها عن الاندفاع وراء باعثة الانتقام ، وردعاً لها من الاسراف فى القتل ، ووقوفاً بها عند حد التماثل والتكافؤ العادل .

(القصاص ـــ ١٧٨ ـــ ١٧٩) .ـ وإذا كانت تداعى المعانى يسوقنا من الحديث عن القتلى ، إلى الحديث عمن هم بشرف الموت ، ناسب تتميم الكلام ، ببيان ما يجب على المحتضر من الوصية لأقاربه براً بهم (الوصية ١٨٠ ـــ ١٨٢)

الصبر فى الضراء :

وكذلك سيختار الله لنا من أبواب الصبر فى الضراء أعلاها ، ليس الصبر على الأمراض والآلام بإطلاق ، ولكنه الصبر على الظمأ والمخمصة فى طاعة الله (الصوم ١٨٣ ـــ ١٨٧) .... وينساق الحديث عن الصوم المؤقت عن بعض الحلال ، إلى الصوم الدائم عن السحت والحرام (١٨٨) .

الصبر فى البأساء :

وعلى هذا النمط نفسه ، سنرى الصبر فى البأساء هنا ليس هو ذلك الصبر الاضطرارى على الفقر والأزمات المالية والجوائح السماوية ، ولكنه الصبر الاختيارى على التضحية بالأموال إنفاقاً لها فى سبيل الله .

والمثال الذى يختاره التنزيل الحكيم هنا مثال مزدوج ، ينتظم الصبر فى البأساء والضراء جميعاً ، إذ يجمع بين الجهاد بالنفس والجهاد بالمال (الحج إلى بيت الله ١٨٩ ـــ ٢٠٢) ولا تنس ها هنا أن تنظر إلى المعبرة اللطيفة ، التى انتقل بها الحديث من الصوم إلى الحج ... تلك هى مسألة الأهلة ، التى جعلها الله مواقيت للصوم وللحج جميعاً (١٨٩) .

ولنقف بك ها هنا وقفة يسيرة ، نشير فيها إلى شأن عجيب من شؤون النسق القرآنى فى هذا الموضع ؛ ذلك أنه حين بدىء بذكر الحج ، لم تتصل به أحكامه ولاء ، بل فصل بين اسمه وحكمه بست آيات فى أحكام الجهاد بالنفس والمال فى قتال الأعداء (١٩٠ ـــ ١٩٥) ـــ فاصلة ، يحسبها الجاهل رقعة غريبة فى ثوب المعنى الجديد .. ولكن الذى يعرف تاريخ الاسلام وأسباب نزول القرآن ،

يعرف ما لهذه الفاصلة من شرف الموقع ، وإصابة المحز ، لا لمجرد الاقتران الزمانى بين تشريع الحج وبين غزوة الحديبية ، فى السنة السادسة من الهجرة ، ولكن لأن أداء المناسك فى ذلك العام كان عزماً لم ينفذ ، وأملاً لم يتحقق ؛ إذ حصر المسلمون يومئذ عن البيت ، وهموا أن يبطشوا بأعدائهم ، الذين صدوهم عنه ؛ لولا أن الله نهاهم عن البدء بالعدوان ، وأمرهم ألا يقاتلوا فى المسجد الحرام إلا من قاتلهم فيه ، فانصرفوا راجعين ، مستسلمين لأمر الله ، منتظرين تحقيق وعد الله ، فكذلك فلينصرف القارىء أو المستمع ها هنا ، وهو متعطش لإتمام حديث الحج على أن يعود إليه بعد فاصل ، كما انصرف المسلمون اذ ذاك عن مكة ، وهم إليها متعطشون ، على أن يعودوا إليها من عام قابل ... هكذا كانت هذه الآيات الفاصلة تذكاراً خالداً لتلك الأحداث الأولى ، وهكذا كان القرآن الحكيم مرآة صافية ، نطالع فيها صور الحقائق من كل لون ، نقتبسها تارة من تصريح تعبيره ، وطوراً من نهجه وأسلوبه فى تعجيل البيان أو تأخيره ، ثم كانت هذه الآيات الفاصلة فى الوقت نفسه درساً عملياً فى صبر المتعلم على أستاذه ، لا يعجله بالسؤال عن أمر فى أثناء حديثه ؛ ولكن يتلبث قليلا حتى يحدث له منه ذكراً فى ساعته الموقوته ، وهكذا لن يطول بنا الانتظار ، حتى نرى أحكام الحج والعمرة ، تجىء فى إثر ذلك على شوق وظمأ ، فتشبع وتروى بالبيان الشافى الوافى (١٩٦ — ٢٠٣) وبتمام هذا البيان ، تتم الحلقة الأولى من الأحكام ، أعنى فريضة الصبر فى البأساء والضراء وحين البأس .

استجمامة (٢٠٤ — ٢١٤)

وشاءت حكمة الله ، وتلطفه بنا فى تربية نفوسنا على طاعة أمره ؛ ألا يصعد بنا إلى الحلقة الثانية ، من فورنا هذا ، ولكن بعد استرواحة فيها شىء من الموعظة العامة ، يثبت بها القلوب على ما مضى ، ويوطىء لها السبيل إلى ما بقى ، .. وكان من حسن الموقع لهذه الموعظة العامة ، أنها اتصلت بالموعظة الخاصة ، التى ختم بها حديث الحج ، والتى قسمت الناس من حيث آمالهم ومطامحهم إلى فريقين : فريق يطلب خير الدنيا ، ولا يفكر فى أمر الآخرة ، وفريق لا تنسيه دنياه مصالح أخراه (٢٠٠ — ٢٠٢) فجاءت الموعظة العامة ، تقسم الناس من حيث ما فيهم من خلق الأثرة أو الإيثار إلى فئتين !

فئتين : فئة لا تبالى أن تضحى الأثرة أو الإيثار إلى العباد ، وعمران البلاد ، وفئة على العكس من ذلك ، لا تضن أن تضحى بنفسها فى سبيل مرضاة الله (٢٠٤ — ٢٠٧) وتخلص الآيات الحكيمة من هذا التقسيم ، إلى توجيه النصح للمؤمنين ، بأن يخلصوا نفوسهم من شوائب الهوى ، ويستسلموا بكليتهم لأوامر الله ، دون تفريق بين بعضها وبعض ، محذرة إياهم من الزلل عنها ، بعد أن هدوا إليها ، ووقفوا عليها ، مغرية لهم عما قد يصيبهم من البأساء والضراء فى سبيل إقامتها ، ضاربة لهم المثل فى ذلك بسنة السلف الصالح من الأمم السابقة (٢٠٨ — ٢١٤) .

هنا تمت الاسترواحة بالموعظة العامة .

وستكون الحلقة التالية فى تفصيل الخصلة الثانية من الخصال العملية ، التى أجملت فى آية البر ، وهى الوفاء بالعهود والعقود ، وستختار من بين هذه العقود أحقها بالعناية والرعاية ، عقدة الزواج وما يدور حول محورها من شؤون الأسرة : أليست الأسرة هى المجال الأول للتدريب على حسن العشرة ، وعلى التنزه من رذيلة الأنانية والأثرة ؟ ثم أليست الأمور متى استقامت فى هذا المجتمع الصغير ، استقامت بالتدريج فى المجتمع الكبير ، ثم فى المجتمع الأكبر ؟

ترى كيف سيكون الانتقال إلى هذه الحلقة الثانية ؟ هل يصعد القرآن بنا تواً إلى تفصيل هذه الشؤون المنزلية المشتبكة المتشعبة ؟ كلا إن هذا البيان التربوى الحكيم ، لن يهجم بنا عليها دفعة ، ولكنه سيتلطف فى الوصول بنا إليها على معراج من الأسئلة والأجوبة ، تتصل أوائلها بالأحكام الماضية : الإنفاق والجهاد (٢١٥ — ٢١٨) ، وتتصل أواخرها بالأحكام التالية : مخالطة اليتامى ، وشرائط المصاهرة ، وموانع المباشرة (٢٢٠ — ٢٢٢) وهكذا نصل فى رفق ولين ، دون اقتضاب ولا ابتسار ، إلى صميم الحلقة الثانية (٢٢٣ — ٢٣٧) حيث نتلقى فى شأن الحياة الزوجية دستوراً حكيما ، مؤلفاً من شطرين ، شطره الأول يعالج شؤون الأسرة فى أثناء اتصالها (٢٢٣ — ٢٣٢) وشطره الأخير يعالج شؤونها فى حال انحلالها وانفصالها (٢٣٣ — ٢٣٧)

تأمل أول كل شيء فى خط سير المعانى :

انظر كيف استهل الحديث بإرسال الأساس ، وذلك بتقرير حق العشرة والمخالطة الزوجية (٢٢٣) ثم انظر كيف تلاه النهى عن إدخال اليمين فى أمثال هذه الحقوق المقدسة ، سواء بالحلف على منع البر عن مستحقه ، أو على قطع ما أمر الله به أن يوصل (٢٢٤ — ٢٢٥) وكيف عقبه بحكم فرعى من فروع هذا المبدأ متصل بالعلاقة الزوجية ، وهو حكم من حلف على الإمتناع عن زوجته (٢٢٦ — ٢٢٧) وكيف اتصل من هنا بأحكام الطلاق ، وما يتبع الطلاق من حقوق وواجبات (٢٢٨) .

فإذا أعجبك هذا التسلسل المعنوى ، وهذا التدرج المنطقى ، فى شؤون كانت متفرقة ، ارتجلتها الحوادث ارتجالا ، فتعال معى لأضع يدك فى هذه القطعة ، على حرف واحد ، تلمس فيه مبلغ الاحكام فى التأليف بين هذه المتفرقات ، حتى صارت شأناً واحداً ذا نسق واحد :

ذلك هو موضع النقلة من فتيا الإيلاء إلى فتيا الطلاق :

(وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم والمطلقات يتربصن ..)

ألا ترى كيف أدير الأسلوب فى حكم الإيلاء على وجه معين ، يطل القارئ منه على أفق متلبد ، ينذر باحتمال الفراق ؛ فلما جاء بعده الحديث عن أحكام الفراق لم يكن غريباً ، بل وجد مكانه مهيأ له من قبل ؛ كأنه خاتمة حكم الإيلاء ، وكانت بمثابة عروة مفتوحة ، تستشرف إلى عروة أخرى تشتبك معها ؛ فلما جاءت فتيا الطلاق فى إبانها ، كانت هى تلك العروة المنتظرة ، وما هو إلا أن التقت العروتان حتى اعتنقتا ، وكانت منهما حلقة مفرغة ، لا يدرى أين طرفاها ، وهكذا أصبح الحديثان حديثاً واحداً ..

ترى من علم محمداً — لو كان القرآن من عنده — أنه سوف يُستفتى يوماً ما فى تلك التفاصيل الدقيقة لأحكام الطلاق ؟ ومن علمه أنه سيجد لهذا السؤال جواباً ، وأن هذا الجواب سيوضع فى نسق مع حكم الإيلاء ، وأنه ينبغى لاستقامة النسق كله ، أن يساق حكم الإيلاء ، الذى وقع الاستفتاء فيه الآن ، على وجه يجعل آخر شقيه هو أدناهما إلى حديث الطلاق ، الذى سوف يسأل عنه بعد حين ؛ لكى ينضم الشكل إلى شكله متى جاء وقت بيانه ؟ .. هيهات أن يحوم علم البشر حول هذا الأفق الأعلى ، فإنما ذلك شأن عالم الغيب الشهادة ، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وتمضى السورة فى هذا النمط الجديد ، مفصلة آثار الطلاق وتوابعه كلها : عدة ، ورجعة ، وخلعاً ، ورضاعاً ، واسترضاعاً ، وخطبة ، وصداقاً ، ومتعة ... إلى تمام هذه الحلقة الثانية . (٣٧) .

وهنالك تبدأ الحلقة الثالثة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى[1] ....) (٢٣٨ — ٢٧٤) .

فلننظر : كيف تمت النقلة بين هاتين الحلقتين ؟

إننا بمقدار ما رأينا من التلبث والتمكث ، والاستجمام ، والتنفس بين الحلقة الأولى والثانية . سنرى على عكس ذلك بين الحلقة الثانية والثالثة ، نقلة شبه خاطفة ، بل لفته جدّ مباغته ، قد يحسبها الناظر اقتضابا ، وما هى باقتضاب إلا فى حكم النظر السطحى ... أما من تابع معنا سير قافلة المعانى منذ بدايتها ، وقطع معنا ثلثى الطريق ، الذى رسمته آية البر : من الوفاء بالعهود ، والصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، فإنه لا ريب سوف يستشرف معنا إلى ثلثه الباقى : إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وبذل المال على حبه فى سبيل الله ، وسوف يرى أن هذه الحلقة الثالثة ، قد جاءت هنا فى رتبتها وفى موضعها المقدر لها ، وفق ترتيبها فى الآية الجامعة ..

١ — البقرة آية رقم : ٢٣٨

سيقول قائل : نعم ، لقد جاءت فى موضعها ورتبتها ، ولكن الانتقال إليها قد تم دون إعداد نفسى ، ولا تمهيد بيانى التى ختمت بها الحلقة السابقة . (وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم . إن الله بما تعملون بصير)[1] فهذه لو تدبرت معبرة ذهبية ، وضعت وقت الحاجة إليها ، بعد أن استطال الحديث فى تفصيل الحقوق والواجبات المنزلية ، معبرة جيء بها لتنقلنا من ضوضاء المحاسبة والمخاصمة ، إلى سكون المسامحة والمكارمة ؛ فكانت معراجاً وسطاً ، صعد بنا إلى أفق أعلى ، تمهيداً للعروج بنا فيما يلى ، إلى الأفق الأعلى .. ألا تسمع إلى هذه الكلمات : (ولا تنسوا الفضل بينكم) لا تنسوا . الفضل .. بينكم إن كل حرف أقام بيننا فترة ما ، ليفصل فى شؤوننا ، ثم أخذ الآن يطوى صحيفة أحكامه ، ليتحول بنا عنها إلى ما هو أهم منها ، فقال لنا وهو يطويها : دعوا المشادة فى هذه الشؤون الجزئية الصغرى ؛ سووها فيما بينكم بقانون البر والفضل ، الذى هو أسمى من قانون الحق والعدل ، وحولوا أبصاركم معى إلى الشؤون الكلية الكبرى ، التى هى أحق بأن يتوفر عليها العزم والقصد ، وأجرى أن يشتغل بها العقل والقلب ... نعم نعم لقد كفاكم هذا حديثاً عن حقوق الزوج والولد ، فاستمعوا الآن إلى الحديث عن حقوق الله والوطن :

حافظوا على الصلوات ... انفقوا فى سبيل الله ... جاهدوا فى سبيل الله ..

« وبعد » فهل حديث الصلاة هنا يعتبر مقصداً أصلياً مستقلاً ، أم هو جزء من مقصد آخر ؟

إن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين ، من حيث هم مجاهدون ، ليحل المشاكل التى يثيرها موقف الجهاد نفسه قبل أن يوجه إليهم الأمر الصريح بالقتال ..

فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة فى الحرب : ألا يكون الجهاد رخصة فى إسقاط هذا الواجب أو فى تأجيله .

يجيبنا الكتاب العزيز : لا رخصة فى ترك الصلاة ، ولا فى تأجيلها ، لا فى سلم ولا فى حرب ، لا فى أمن ولا فى خوف (حافظوا على الصلوات) (٢٣٨) وإنما الرخصة عند الخوف فى شيء واحد : فى صفات الصلاة وهيآتها (فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) (٢٣٩) . والصلاة كما نعلم قوة معنوية ، على العدو ، وعدة من عدد النصر ، لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين ، قبل أن يؤمروا بالقتال أمراً صريحاً ، والصلاة فى الوقت نفسه

---

١ — البقرة آية رقم : ٢٣٧

طهره للنفس من مساوىء الأخلاق ، تنقيها من دنس الشح، والحرص على حطام الدنيا ، لا جرم كان من الحكمة كذلك جعلها دعامة للوصية الآنفة ، التى أمرتنا بالتسامح والتكارم فى المعاملات ... هكذا كان وضع حديث الصلاة مزدوج الفائدة : دواء وغذاء معاً ، ينظر إلى الأمام وإلى الوراء جميعاً ، بل قل إنه مثلث الفائدة ، لأنه فى نظره إلى الخلف لا ينظر إلى الآية الآنفة وحدها ، بل ينظر كذلك إلى الآية الجامعة ، ليفصل إجمالها فى هذا الجانب ..

والجندى فى الحرب تشغله على الأقل مخافتان ، مخافة على نفسه وعلى المجاهدين معه ، من أخطار الموت أو الهزيمة ؛ ومخافة على أهله من الضياع والعيلة لو قتل ، .. لذلك إنساق البيان الكريم يطرد من قبله كلتا المخافتين ..

أما أهله ، فقد وصى الله للزوجة ، إذا مات زوجها ، بأن تمتع حولا كاملاً فى بيته ، وكذلك مطلقته سيتقرر لها حق فى المتعة لا ينس ، فليقر عيناً من هذه الناحية (٢٤٠ — ٢٤٢) وأما خوف الموت ، فليعلم أن الذى يطلب الموت قد توهب له الحياة .
(ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم) (٢٤٣) .

وأما خوف الهزيمة ، فإن النصر بيد الله (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) وتلك سنة الله فى المرسلين (٢٤٦ — ٢٥٣) .

هكذا أبعدت المخاوف كلها عن قلوب المجاهدين ، بعد أن زودت أرواحهم بزاد التقوى ، وهكذا أصبحوا على استعداد نفسى كامل ، لتلقى الأوامر العليا ، فليصدر إليهم الأمر صريحاً بالجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم (٢٤٤ — ٢٤٥) ولتفصل لهم العبرة التاريخية التى تثبت أقدامهم حين البأس ، والتى تزيدهم أملاً فى النصر (٢٤٦ — ٢٥٣) والجهاد كما قلنا جهادان : جهاد بالنفس ، وجهاد بالمال ، ولقد أخذ الجهاد بالنفس حظه من الدعوة فى آية قصيرة (٢٤٤) ثم فى آيات كثيرة (٢٤٦ — ٢٥٣) . وأخذ الجهاد بالمال بعض حظه فى آية قصيرة (٢٥٥) فمن العدل أن يأخذ تمام حظه فى آيات كثيرة كذلك ، وهكذا نرى الدعوة إليه تأخذ الآن قسطها ، مطبوعاً بطابع الشدة تارة (٢٥٤ — ٢٦٠) وطابع اللين تارة (٢٦١) وطابع التعليم المفصل لآداب البذل تارة أخرى (٢٦٢ — ٢٧٤) .

ثم ينساق الحديث عن فضيلة التضحية والإيثار ، التى هى أسمى الفضائل الاجتماعية ، إلى رذيلة الجشع والاستئثار ، التى هى فى الطرف المقابل ، أحط أنواع المعاملات البشرية ، (أعنى رذيلة الربا ،

التى تستغل فيها حاجة الضعيف ، ويتقاضى فيها المحسن ثمن المعروف ، الذى يبذله أضعافاً مضاعفة) (٢٧٥ ــ ٢٧٩) وكان هذا الاقتران بينهما فى البيان ، إبرازاً لمدى الافتراق بين قيمتهما فى حكم الضمائر الحية .

وبين هذين الطرفين ، يقيم القرآن ميزان القسط فى الحد الأوسط ، جاعلاً لصاحب الحق سلطانا فى المطالبة برأس ماله كله ، لا ينتقص منه شىء (لا تظلمون ولا تُظلمون) . غير أنه يحذرنا من سوء استعمال هذا الحق بإزاء المعسرين ، فيأمرنا أن نتخذ فيهم إحدى الحسنيين ، إما الانتظار إلى الميسرة ، وإما التنازل لهم نهائياً عن الدّين ، وهذه أكرم وأفضل (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) . (٢٨٠ ــ ٢٨١) .

ولما كان الطابع البارز فى هذا التشريع القرآنى ، وهو طابع القناعة والسماحة ، قد يوحى إلى النفوس شيئاً من التهاون فى امر المال ، وربما مال بها إلى التفريط فى حفظه وتثميره ، جاءت آيتا الدين والرهان (٢٨٢ ــ ٢٨٣) تدفعان عن نفوسنا هذا التوهم ، وتصوغان للمؤمنين دستوراً هو أدق الدساتير المدنية ، فى حفظ الحقوق وضبطها وتوثيقها .

بمختلف الوسائل ، تمهيدا لإنفاقها فى أحسن الوجوه ، فمن لم يجد سبيلا إلى التوثق بوثيقة ما ، ولم يبق أمامه إلا أن يكل عميله إلى ذمته وأمانته (فليؤد الذى اؤتمن أمانته) .

وهكذا ختم الشطر العملى من السورة ، بهذه القاعدة المثلى التى هى أساس كل معاملة شريفة ، أعني قاعدة الصدق والأمانة ، جعلنا الله من أهل الصدق والأمانة ... آمين .

المقصد الرابع من مقاصد السورة : فى آية واحدة (١٨٤)

فى الآية السابقة ، انتهت مهمة الأحكام التفصيلية ، عند الحد الذى أراد الله بيانه فى هذه السورة ، وبها ختم الشطر الثانى من الحقيقة الدينية ، وهو شطرها العملى ؛ بعد أن أرسى شطرها الاعتقادى فى الآى ، وما بعدها . وهكذا تناول البيان حتى الآن ١ ــ حقائق الإيمان ، ٢ ــ شرائع الإسلام ... هل بقى فى بنيان الدين شىء فوق هذه الأركان ؟

نعم ، لقد بقيت ذروته العليا ، وحليته الكبرى ..

بعد الإيمان ... والإسلام ، بقى الإحسان ، وهو كما فسره صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه ، أن تراقب الله فى كل شأنك ، وأن تستشعر شاهدته لك فى سرك وإعلانك ، وأن تستعد لمحاسبته لك ، حتى على ذات صدرك ، ودخيلة نفسك .. مطلب عزيز لا يطيق الوفاء به كل مؤمن ، ولا كل سلم ، وإنما يحوم حول حماه صفوة الصفوة من المتقين ...

وكأنه لعزة هذا المطلب ونفاسته صان الله درته اليتيمة فى هذه الآية الواحدة ، التى توج بها هامة السورة : (٢٨٤) .

الخاتمة : فى آيتين اثنين (٢٨٥ — ٢٨٦) .

والآن وقد تناول البيان أركان الدين كلها ، وألم بعناصره جميعها ، الإيمان ، الاسلام ، والاحسان ، لم يبقى بعد تمام الحديث إلا طى صحيفته وإعلان ختامه ؟

فهل تعرف كيف طويت صحيفة هذه السورة ، وكيف أعلن ختامها ؟

لنعد بذاكرتنا إلى الآيات الخمس التى افتتحت بها سورة البقرة ، لنرى كيف تتجاوب تلك المقدمة ، مع هذه الخاتمة ، ثم كيف يتعانق الطرفان هكذا ، ليلتحم من قوسيهما سور محكم ، يحيط بهذه السورة ، فإذا هى سورة حقاً ، أى بنية محبوكة سورة ، ألم يكن مطلع السورة ، وعداً كريماً لمن سيؤمن بها ، ويطيع أمرها ، بأنهم أهل الهدى وأهل الفلاح ؟

ألسنا نترقب الآن صدى هذا الوعد ؟ بلى ، إننا ننتظر الآن أن تحدثنا السورة هل آمن بها أحد وهل اتبع هداها أحد ؟ ثم ننتظر منها إن كل ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من ثم ننتظر منها إن كان ذلك قد وقع ، أن تحدثنا عن جزاء من استمع واتبع ...

وهكذا سيكون مقطع السورة :

١ — بلاغا عن نجاح دعوتها : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ... وقالوا سمعنا وأطعنا)

٢ — وفاء بوعدها لكل نفس بذلت وسعها فى اتباعها : (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)

٣ — فتحاً لباب الأمل على مصراعيه أمام هؤلاء المهتدين ، فليبسطوا إذاً أكفهم مبتهلين : (ربنا .... ربنا .... ربنا .... أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) .

تلك هى سورة البقرة ... أرأيت وحدتها فى كثرتها ، أعرفت اتجاه خطوطها فى لوحتها ؟ أرأيت كيف التحمت لبناتها من غير ملاط يمسكها ، وارتفعت سماؤها بغير عُمد تسندها ؟ أرأيت كيف انتظم من رأسها وصدرها وأحشائها وأطرافها ، لا أقول أحسن دمية ، بل أجمل صورة حية .

كل ذرة فى خليتها ، وكل خلية فى عضوها ؛ وكل عضو فى جهازه ، وكل جهاز فى جسمه ، ينادى بأنه قد أخذ مكانه المقسوم ، وفقاً لخط جامع مرسوم ، رسمه مربى النفوس ومزكيها ، ومنور العقول وهاديها ، ومرشد الأرواح وحاديها فتالله لو أن هذه السورة ، رتبت بعد تمام نزولها ، لكان جمع أشتاتها على هذه الصورة معجزة ، فكيف وكل نجم منها — كسائر النجوم فى سائر السور — كان يوضع فى رتبته من فور نزوله ، وكان يحفظ لغيره مكانه انتظارا لحلوله ؛ وهكذا كان ما لم ينزل منها معروف الرتبة ، محدد الموقع قبل أن ينزل ؟ ثم كيف وقد اختصت من بين السور المنجمة ، بأنها حددت مواقع نجومها لا قبل نزولها بعام أو بعض عام ، بل بتسعة أعوام ؟ لعمرى لئن كانت للقرآن فى بلاغة تعبيره معجزات ، وفى أساليب تربيته معجزات ، وفى نبوءاته الصادقة معجزات ، وفى تشريعاته الخالدة معجزات ، وفى كل ما استخدمه من حقائق العلوم النفسية والكونية معجزات ومعجزات ، لعمرى إنه فى ترتيب آية على هذا الوجه لهو معجزة المعجزات .

مناقشـــــــة

قوله تعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شئ أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ، أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين ، أم له البنات ولكم البنون ، أم تسئلهم أجراً فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ، أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون** ﴾

قال البخارى عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه : قال سمعت النبى — ﷺ — : يقرأ فى المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية (أم خلقوا من غير شىء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك ؟ أم هم المصيطرون ؟)

كاد قلبى أن يطير ، وجبير بن مطعم ، كان قد قدم على النبى — ﷺ — ، بعد وقعة بدر فى فداء الأسارى ، وكان إذا ذاك مشركاً ، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة ، من جملة ما حمله على الدخول فى الاسلام بعد ذلك .

قوله تعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون** ﴾ هذا المقام فى إثبات الربوبية ، وتوحيد الألوهية قال تعالى : ﴿ **أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون** ﴾ ؟ أى أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم . أى لا هذا ، ولا هذا ، بل الله هو الذى خلقهم وأنشأهم ، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ، كما قال تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون** ﴾ أى : **ليس الأمر كذلك ، فإنهم لم يخلقوا شيئاً** ﴿ **بل لا يوقنون** ﴾ **بالحق ولا يتدبرون فى الآيات ، فيعلموا خالقهم وخالق السموات والأرض** . وقوله : ﴿ **أم عندهم خزائن ربك** ﴾ من النبوة والرزق وغيرهما ، فيخصوا من شاءوا بما شاءوا ﴿ **أم هم المصيطرون** ﴾ الأرباب الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ، ويبنوا الأمور على مشيئتهم ﴿ **أم لهم سلم يستمعون فيه** ﴾ أى أيدّعون أن لهم مرتقى إلى السماء ، ومصعداً وسبباً (يستمعون فيه) أى عليه الأخبار ، ويصلون به إلى علم الغيب ، كما يصل إليه محمد — ﷺ — بطريق الوحى .

﴿ **فليأت مستمعهم بسلطان مبين** ﴾ أى بحجة بينة أن هذا الذى هم عليه حق .

وقوله تعالى : ﴿ **أم له البنات ولكم البنون** ﴾ سفه أحلامهم حيث اختاروا لله ما يكرهون ، وهم حكماء عند أنفسهم ، أى تضيفون إلى الله البنات مع أنفتكم منهن ، والمشركون يزعمون أن الملائكة بنات الله ، مع أنهم يضيقون من نسبة البنات إليهم .

وقوله تعالى : ﴿ **أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون** ﴾ أى : إنك يا محمد متجرد فى دعوتك ، لا تبغى من ورائها مالاً ولا جاهاً ، فماذا يضايقهم . ﴿ **فهم من مغرم مثقلون** ﴾ أى فهم من أدنى شىء يتبرمون منه ويثقلهم ويشق عليهم .

وقوله : ﴿ **أم عندهم الغيب فهم يكتبون ؟** ﴾ أى : ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يعلم من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله .

وقوله : ﴿ **أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون** ﴾ يقول تعالى : أم يريد هؤلاء بقولهم

---

١ ـ الانسان آية رقم ١ ،٢

غير الله تعالى ، حتى يلجأوا إليه وقت الضيق والشدة ؟ ويستنجدوا به لدفع الضر والعذاب عنهم ﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾ أى تنزه وتقدس الله عما يشركون به من الأوثان والأصنام .

هذا فى الرسول وفى الدين ، غرور الناس وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم ﴿ **ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله** ﴾[١] فالذين كفروا هم المكيدون ﴿ **وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون** ﴾[٢] .

وقوله جل فى علاه : ﴿ **أم لهم إله غير الله ؟ سبحان الله عما يشركون** ﴾ أى ألهم خالق رازق ،

قال الخليل : كل ما فى سورة « الطور » من ذكر « أم » فكلمة استفهام وليس بعطف ، ولقد تكررت كلمة « أم » خمس عشرة مرة و« أم » عند علماء اللغة ، تجيء فى هذا السياق للإضراب ، الذى يعقبه استفهام ، قد يكون توبيخاً ، أو تقريراً ، أو تعجيباً .

إلهى

يامن له عنت الوجوه بأسرها ... رهبا وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

قوله تعالى : ﴿ **وإن يروا كسفاً من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم ، فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون ، يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون** ﴾

أى أن هؤلاء قوم ديدنهم العناد والمكابرة ، فلو رأوا بعض ما سألوا من الآيات ، فعاينوا كسفاً من السماء ساقطاً ـــ لكذبوا وقالوا : سحاب بعضه فوق بعض ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، وأعمى أبصارهم ، فأصبحوا ينكرون ما تبصره الأعين ، وتسمعه الآذان ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون** ﴾[٣]

---

١ ـــ فاطر آية رقم : ٤٣
٢ ـــ الشعراء آية رقم : ٢٢٧
٣ ـــ الحجر الآيتان رقم ١٤ ـــ ١٥

ثم أمر رسوله — صلى الله عليه وسلم — أن يتركهم وشأنهم ، فقال تعالى : ﴿ **فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون** ﴾ أى فدعهم وشأنهم ، ولا تكترث بهم ، حتى يأتى اليوم الذى يجازون فيه بسيئات أعمالهم ، وذلك يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون ، يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون** ﴾ أى لا ينفعهم كيدهم ، ولا مكرهم الذى استعملوه فى الدنيا ، لا يجزى عنهم يوم القيامة شيئاً (ولا هم ينصرون) ولا يجدون لهم نصيرا ، ولا معينا يدفع عنهم ما يحيق بهم من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ **وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ، واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾

أى وإن لهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى (عذابا دون ذلك أى قبل ذلك فى الدار الدنيا ، كقوله تعالى : ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون** ﴾[2] ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أى نعذبهم فى الدنيا ، ونبتليهم فيها بالمصائب ، لعلهم يرجعون ، ويثوبون إلى رشدهم ، فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل إذا خلى عنهم مما كانوا فيه ، عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه ، كما قال سبحانه : ﴿ **إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون ، يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا** ﴾ أى واصبر على أذاهم ، ولا تبال بهم ، وامض لأمر الله ، وبلغ ما أرسلت به ، واصدع بما تؤمر ، فإنك بمرأى منا نراك ، ونرى أعمالك ، ونحوطك ونحفظك ، فلا يصل إليك منهم أذى ، كما قال تعالى : ﴿ **فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ، وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين إنه هو السميع العليم** ﴾[4]

---

١ — المعارج الآيات : ٤٢ — ٤٤

٢ — السجدة آية : ٢١

٣ — الدخان الآيتان : ١٥ ، ١٦

٤ — الشعراء الآيات : ٢١٦ — ٢٢٠

وقوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾

قوله تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أى ونزه ربك مما لا يليق به ، حين تقوم من منامك ، ومن كل مجلس بأن تقول : سبحان الله وبحمده . قال ابن عباس : أى صل لله حين تقوم من منامك

قال أبو الجوزاء : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أى من نومك من فراشك ، واختاره ابن جرير . قال القرطبى : وفى هذا روايات صحاح ، منها حديث عبادة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : « من تعارّ فى الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم قال اللهم اغفر لى أو دعا استجيب له ، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته »[1] أخرجه البخارى

(وتعارّ) الرجل من الليل إذا هب من نومه مع صوت .

وعن ابن عباس أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يقول إذا قام إلى الصلاة فى جوف الليل : « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ، ولقاؤك الحق ، والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد حق ، اللهم لك أسلمت ، وعليك توكلت وبك آمنت ، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت ولا إله غيرك »[2] متفق عليه .

وعن ابن عباس أيضا أنه عليه الصلاة والسلام ، كان إذا استيقظ من الليل ، مسح النوم عن وجهه ؛ ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران »[3] .

وفى سنن أبى داود عن عائشة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان إذا استيقظ من الليل : قال : « لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبى ، وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ، ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى ، وهب لى من لدنك رحمة إنك أنت الوهّاب »[4]

---

١ — أخرجه البخارى فى صحيحه حـ ٢ صـ ٦٨ كتاب التهجد بالليل باب فضل من تعار من الليل فصلى . وانظر تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الطور آية ٤٨ ج ٧ ص ٤١٤ .

٢ — اخرجه البخارى كتاب التوحيد ج ٩ ص ١٤٣ باب قول الله تعالى أنا الرزاق ذو القوة المتين .

٣ — اخرجه البخارى كتاب التفسير سورة آل عمران ج ٦ ص ٥٢ — ٥٣ .

٤ — اخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ج ٥ ص ٣٠٦ برقم ٥٠٦١ باب ما يقول الرجل إذا تعارّ من الليل .

وقال ابن أبى حاتم عن عطاء بن أبى رباح أنه حدثه عن قول الله تعالى : ﴿ **وسبح بحمد ربك حين تقوم** ﴾ يقول حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيراً ، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له .

وقال عبد الرزاق عن أبى عثمان الفقير إن جبريل علم النبى ـ ﷺ ـ إذا قام من مجلسه أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت استغفرك وأتوب إليك »[١] قال معمر وسمعت غيره يقول هذا القول كفارة المجالس ، قال ابن كثير ، هذا الحديث مرسل وقد وردت أحاديث سنده من طرق يقوى بعضها بعضاً .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم** ﴾ أى واذكره واعبده بالتلاوة والصلاة فى الليل ؛ لأن العبادة فيه أشق على النفس ، وأبعد من الرياء قال تعالى : ﴿ **إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا** ﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإدبار النجوم** ﴾ أى وحين إدبار الليل بظهور ضوء الصبح ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنهما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ﴾ وقد ثبت فى الصحيحين من عائشة رضى الله عنها قالت لم يكن رسول الله ـ ﷺ ـ على شىء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتى الفجر [٤] وفى لفظ مسلم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها »[٥] .

---

١ ـ أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة الطور رقم ٤٨ حـ ٧ صـ ٤١٥ أخرجه سنن أبى داود كتاب الأدب باب فى كفارة المجلس حـ ٥ صـ ١٨٢ رقم ٤٨٥٩ ، أخرجه مصنف عبد الرزاق باب كفارة المجالس حـ ١١ صـ ٢٤ رقم ١٩٧٩٦

٢ ـ المزمل آية : ٦

٣ ـ الأسراء آية : ٧٩

٤ ـ رواه مسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتى الفجر حـ ١ صـ ٥٠١ رقم ٩٤ / ٧٢٣ رواه البخارى فى صحيحه كتاب التهجد بالليل باب التعاهد على ركعتى الفجر حـ ٢ صـ ٧١ ـ ٧٢ وانظر تفسير ابن كثير تفسير سورة الطور آية رقم ٤٩ حـ ٧ صـ ٤١٦

٥ ـ رواه صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين باب استحباب ركعتى سنه الفجر ، والحد عليهما وتخفيفهما والمحافظة عليهما حـ ١ صـ ٥٠١ رقم ٩٦ / ٧٢٥ . وانظر أيضا تفسير بن كثير تفسير سورة الطور آية رقم ٤٩ حـ ٧ صـ ٤١٦

تفسير سورة النجم

مقدمة

قال صاحب البصائر : السورة مكية بالاتفاق
عدد آياتها : اثنتان وستون
وكلماتها : ثلاثمائة وستون
وحروفها : ألف وأربعمائة وخمسون
مجموع فواصل آياتها (واهن)
سميت النجم لمفتتحها

مقصود السورة :

القسم بالوحى ، وهداية المصطفى — ﷺ — وبيان معراج الكرامة ، وذكر قبيح أقوال الكفار ، وعقيدتهم فى حق الملائكة والأصنام ، ومدح مجتنبى الكبائر ، والشكوى من المعرضين عن الصدقة ، وبيان جزاء الأعمال فى القيامة ، وإقامة أنواع الحجة على وجود الصانع ، والاشارة إلى أحوال من أهلكوا من القرون الماضية ، والتخويف بسرعة مجىء القيامة ، والأمر بالخضوع والانقياد لأمر الحق تعالى فى قوله : ﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾ .

المتشابهات : قوله : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن** ﴾ ، وبعده : ﴿ **ان يتبعون إلا الظن** ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأول متصل بعبادتهم اللات والعزى (ومناة الثالثة الأخرى) ، والثانى بعبادتهم الملائكة ، ثم ذم الظن فقال : ﴿إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً﴾

قوله : ﴿ **ما أنزل الله بها من سلطان** ﴾ **(ما أنزل) فى جميع القرآن بالألف إلا فى الأعراف (ما نزل بها من سلطان)** .

مناسبتها لما قبلها من وجوه

١ ــ إن السورة قبلها ختمت بقوله : (وإدبار النجوم) وبدئت هذه بقوله ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾

٢ ــ إن السورة قبلها ذكر فيها تقوّل القرآن ، وذكر هذا فى مفتتح هذه السورة .

٣ ــ أنه قال هناك فى المؤمنين : ﴿ **ألحقنا بهم ذريتهم** ﴾ وقال هنا فى الكفار : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ .

وهى كما أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود أول سورة أعلن النبى ــ ﷺ ــ قراءتها ، فقرأها فى الحرم والمشركون يسمعون .

وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى « إن أول سورة أنزلت فيها سجدة ﴿ **والنجم** ﴾ فسجد رسول الله ــ ﷺ ــ وسجد كلهم إلا رجلا رأيته أخذ كفّاً من تراب فسجد عليه ؛ فرأيته بعد ذلك قتل كافراً وهو أمية بن خلف[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ
يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ
قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ
مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ
مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

---

١ ــ أخرجه : البخارى فى صحيحه حـ ٦ صـ ١٧٧ كتاب التفسير [تفسير سورة النجم] ، وإخرجه صحيح مسلم حـ ١ صـ ٤٠٥ رقم ١٠٥ / ٥٧٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب سجود التلاوة . وأخرجه أبو داود فى سننه حـ ٢ صـ ١٢٢ رقم ١٤٠٦ كتاب الصلاة باب من رأى فيها السجود .

معانى المفردات

﴿ والنجم ﴾ جنس النجوم إذا غربت أو صعدت ﴿ هوى ﴾ يقال هوى النجم هوياً (بالفتح) أى سقط وغرب . وهُويا (بالضم) إذا علا وسصعد . ﴿ ما ضل ﴾ ما حاد عن الطريق المستقيم . ﴿ صاحبكم ﴾ أى مصاحبكم ، والتعبير عنه ﷺ بعنوان المصاحبة لهم ، إيذانا بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشرعية ، فإن طول صحبتهم له ، ومشاهدتهم لشئونه العظيمة ، تقتضى إحاطتهم خيرا ببراءته مما نسب إليه ، وبإتصافه بالهدى والرشاد . ﴿ وماغوى ﴾ أى وما أعتقد باطلاً . والخطاب فى هذا لقريش ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أى ما يتكلم بالباطل ، ﴿ شديد القوى ﴾ المراد به جبريل أمين الوحى عليه السلام ، ﴿ ذو مرة ﴾ أى ذو حصافة عقل وقوة عارضة .

﴿ فاستوى ﴾ أى فاستقام على صورته التى خلقه الله عليها عند حراء فى بدء النبوة ، وهو بالأفق الأعلى : أى بالجبهة العليا من السماء المقابلة للناظر ، ﴿ ثم دنا ﴾ أى ثم قرب ﴿ فتدلى ﴾ أى فنزل . من قولهم تدلت القمرة . ﴿ قاب قوسين ﴾ الغاب مقدار ما بين المقبض والسيَّة ، ولكل قوس قابان ، والعرب تقدر الأطوال بالقوس والرمح ، وبالذراع والباع والخطوة ، والشبر والإصبع ﴿ أو أدنى ﴾ : أى أقرب من ذلك ، والمراد بالفؤاد فؤاده - ﷺ - ﴿ ما رأى ﴾ أى ما رآه ببصره ﴿ أفتمارونه على ما يرى ﴾ أي أفتجادلونه على ما يراه معاينة ، ﴿ نزلة أخرى ﴾ أى مرة أخرى . ﴿ سدرة المنتهى ﴾ هى شجرة نبق ، قالوا إنها فى السماء السابعة عن يمين العرش ، ﴿ جنة المأوى ﴾ أى : الجنة التى يأوى إليها المتقون يوم القيامة ، ﴿ يغشى ﴾ أى يغطى ، ﴿ ما زاغ البصر ﴾ أى ما عدل عن رؤ ية العجائب التى أمر برؤ يتها ومكن منها ، وما مال يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ أى ما جاوز ما أمر به ، ﴿ آيات ربه الكبرى ﴾ أى عجائبه الملكية والملكوتية فى ليلة المعراج .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

يقول الأمام ابن القيم فى تفسير هذه الآيات المباركات .

أقسم سبحانه بالنجم عند هويه ، على تنزيه رسوله وبراءته ، مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغى .

واختلف الناس فى المراد بالنجم ، فقال الكلبى : عن ابن عباس : أقسم بالقرآن إذا نزل منجماً على رسوله : أربع آيات ، وثلاثاً ، والسورة وكان بين أوله وآخره عشرون سنة ، وهو قول مقاتل و لضحاك ، ومجاهد وعلى هذا فسمى القرآن نجماً ، لتفرقه فى النزول ، والعرب تسمى التفرق تنجيما ، والمفرق نجماً ، وقول (هوى) على هذا القول أي : نزل من علٍ إلى أسفل ، وكذلك قال **الأصمعى** : هوى يهوى هو بفتح الهاء ، إذاسقط الى أسفل .

وقال ابن عباس فى رواية على بن أبى طلحة ، وعطية فى قوله تعالى : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ يعنى الثريا إذا سقطت وغابت وهو ا لرواية الأخرى عن مجاهد . والعرب إذا أطلقت النجم تعنى به الثريا ، وقال أبو حمزة اليمانى : يعنى النجوم إذا **انتثرت** يوم القيامة ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عكرمة : يعنى النجوم التى ترمى بها الشياطين ، إذا سقطت فى آثارها عند استراق السمع ، وهذا قول الحسن وهو أظهر الأقوال .

ويكون سبحانه ، قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة ، التى نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحى من استراق الشياطين له ، على أن ما أتى به رسوله حق وصدق ، لا سبيل للشيطان ، ولا طريق له إليه ، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى ، رصداً بين يدى الوحى ، وحرساً له . وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه فى غاية الظهور ، وفى المقسم به دليل على المقسم عليه .

وليس بالبين تسميه القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ، ولا تسمية نزوله هوياً ، ولا عهد فى القرآن ذلك ، فيحمل هذا اللفظ عليه ؛ وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت .

وليس بالبين أيضا القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيام . بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته ، فلا يجعله نفسه دليلاً ، لعدم ظهوره للمخاطبين ، ولا سيما منكروا البعث ، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ، ولا المكابرة فيه ، فأظهر الأقوال قول الحسن . والله أعلم .

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب مالا يخفى ، فإن النجوم التى ترمى الشياطين آيات من آيات الله ، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله ، بها ظهر دينه وشرعه ، وأسماؤه ،

وصفاته ، وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية ، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافى للهدى ، والغى المنفى للرشد فقال تعالى : ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوى** ﴾ فالهدى فى علمه ، والرشاد فى علمه ، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد ، وبهما سعادته وفلاحه ، وبهما وصف النبى ـــ ﷺ ـــ خلفاءه ـــ فقال : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين **المهديين من** بعدى[1] » فالراشد ضد الغاوى ، والمهدى ضد الضال ، وهو الذى زكت نفسه ، بالعلم النافع والعمل الصالح ، وهو صاحب الهدى ، ودين الحق ، لا يشتبه الراشد المهدى ، بالضال الغاوى إلا على أجهل خلق الله ، وأعماهم قلباً ، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية ، ولله در القائل :

وما انتفاع أخى الدنيا بناظره   اذا استوت عنده الأنوار والظلم .

فالناس أربعة أقسام : ضال فى علمه غاوٍ فى قصده وعمله . وهؤلاء شرار الخلق وهم مخالفوا الرسل .

(الثانى) مهتد فى علمه غاوٍ فى قصده وعمله . وهؤلاء هم الأمة الغضبية ـــ أمة اليهود ـــ ومن تشبه بهم ، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به .

(الثالث) ضال فى علمه ، ولكن قصده الخير وهو لا يشعر .

(الرابع) مهتد فى علمه ، راشد فى قصده ، وهؤلاء ورثة الأنبياء . وهم وإن كانوا الأقلين عدداً منهم الأكثرون عند الله قدراً ، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه .

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ **ما ضل صاحبكم** ﴾ ولم يقل ما ضل محمد تأكيداً لإقامة الحجة عليهم ، بأنه صاحبهم ، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غى ولا ضلال ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط وقد نبه على هذا المعنى بقوله ﴿ **أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون** ﴾ وبقوله ﴿ **وما صاحبكم بمجنون** ﴾

قوله تعالى ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى** ﴾

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى . وبهذا الكمال هداه ورشده وقال ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾ ولم يقل وما ينطق بالهوى ، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به . فتضمن نفى الأمرين نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن نفسه : فنطقه بالحق ، ومصدره الهدى والرشاد لا الغى والضلال .

---

١ ـــ أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٥ صـ ١٣ رقم ٤٦٠٧ كتاب السنة

قوله تعالى ﴿ **إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل أى ما نطقه إلا وحى يوحى . وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة وإن كليهما وحى يوحى .

وقد احتج الشافعى لذلك فقال : لعل من حجة من قال بهذا قوله ﴿ **وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم** ﴾ .

وقال الشافعى : أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن أبى طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً نزل به الوحى ، وما فرض رسول الله ــ ﷺ ــ من صدقة وعقول ــ الديات ــ فإنما نزل به الوحى .

وذكر الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : كان جبريل ينزل على رسول الله ــ ﷺ ــ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه .

وقد صح عنه ﷺ أنه قال : « ألا أنى أوتيت الكتاب ومثله معه » وهذا هو السنة بلا شك . وقد قال الله تعالى ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة** ﴾ وهما القرآن والسنة . وبالله التوفيق .

قوله تعالى ﴿ **علمه شديد القوى** ﴾ ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحى والقرآن ، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية . فقال ﴿ **علمه شديد القوى** ﴾ وهذا نظير قوله تعالى ﴿ **ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **ذو مرة** ﴾ أى جميل المنظر ، حسن الصورة ، ذو جلالة ليس شيطاناً أقبح خلق الله وأشوههم صورة . بل هو من أجمل خلق الله وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله . وهذا تعديل لسند الوحى والنبوة ، وتزكية له . كما تقدم نظيره فى سورة التكوير . فوصفه بالعلم والقوة ، وجمال المنظر وجلالته . وهذه كانت أوصاف الرسول البشرى والملكى . فكان رسول الله ــ ﷺ ــ أشجع الناس ، وأعلمهم وأجملهم ، والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك ، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى ، وأجهل الخلق وأضعفهم هماً ونفوساً .

قوله تعالى ﴿ **فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى** ﴾ ثم ذكر سبحانه استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى ، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ ، وإيحاء الله ما أوحى ، فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده ، إلى أن استوى بالأفق ، ثم دنى فتدلى ، وقرب من رسوله ، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه ، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ، ويعاينونها ، هابطاً من السماء ، إلى أن صار بالأفق الأعلى ، مستويا عليه ، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ ، وخاطبه بما أمره الله به قائلا : ربك يقول لك : كذا وكذا ، وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب ، بأنه قدر قوسين ﴿ **فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ أو أدنى من ذلك ، وليس هذا على وجه الشك ، بل تحقيق لقدر المسافة ، وأنها لا تزيد عن قوسين ألبتة .

قوله تعالى : ﴿ **ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى** ﴾ ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه ، وأن القلب صدق العين ، وليس كمن رأى شيئا على خلاف ما هو به ، فكذب فؤاده وبصره ، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد ، وعلم أنه كذلك . وقوله : ﴿ **أفتمارونه على ما يرى** ﴾ أى أفتكذبونه وتجادلونه فيما رآه بعينه من صورة جبريل عليه السلام له .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ .

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى ؛ فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى ، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى ، وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام ، رآه على صورته التى خلق عليها مرتين كما فى الصحيحين عن زر بن حبيش أن سئل عن **قوله تعالى** : ﴿ **فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ قال : أخبرنى ابن مسعود أن النبى ﷺ ، رأى جبريل له ستمائة جناح[1] . وقال البخارى ، عنه : رأى رفرفا أخضر يسد الأفق ؛ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة فى قوله تعالى : ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾ قال : رأى جبريل عليه السلام ، وفى صحيحه أيضا عن مسروق ، قال : كنت متكئا عند عائشة ، فقالت : ثلاث من تكلم بواحدة منهن ، فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ما هن ؟ قالت : من زعم أن محمدا رأى ربه ، فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئا فجلست ، فقلت : يأم المؤمنين انظرينى ولا تتعجلينى ألم يقل الله عز وجل : ﴿ **ولقد رآه بالأفق المبين** ﴾ ﴿ **ولقد رآه نزلة أخرى** ﴾ ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة ، سأل عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التى خلق عليها غير هاتين المرتين ،

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ٥٤ ، باب فى ذكر سورة المنتهى رقم ١١٠ . وأخرجه مسلم فى كتاب الايمان حـ ١ ص ١٥٨ برقم ١٧٤/٢٨٠ ، ١٧٤/٢٨١ ، ١٧٤/٢٨٢ .

رأيته منبسطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض ، فقالت : أوَ لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ الأنعام آية ١٠٣ ، أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول : ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم** ﴾ الشورى آية ٥١ ، قالت : ومن زعم أن محمدا ، كتم شيئا من كتاب الله ، فقد أعظم على الله الفرية . والله عز وجل يقول : ﴿ **يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته** ﴾ المائدة آية ٦٧ ، قالت : ومن زعم أنه يخبر بما يكون فى غد ، فقد أعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول : ﴿ **قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله** ﴾ ولو كان محمد كاتما شيئا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿ **وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** ﴾[١] الأحزاب آية ٣٧ ، وفى الصحيحين عن مسروق أيضا ، قال : سألت عائشة رضى الله عنها ، هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : سبحان الله ! لقد وقف شعرى لما قلت[٢] وفيهما أيضا قال ، قلت لعائشة : فأين قوله تعالى : ﴿ **ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى** ﴾ قالت : (إنما ذاك جبريل كان يأتيه فى صورة الرجال وإنه أتاه فى هذه المرة فى صورته التى هى صورته ، فسد الأفق)[٣] .

وفى صحيح مسلم بأن أبا ذر سأله ﷺ هل رأيت ربك فقال : « نور أنى أراه »[٤]

وفى صحيح مسلم أيضا من حديث أبى موسى الأشعرى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات ، فقال : « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام . يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[٥] وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبى ذر المقدم وهو كالتفسير له .

ولا ينافى هذا قوله فى الحديث الصحيح ــ حديث الرؤية يوم القيامة ــ « فيكشف الحجاب فينظرون إليه » فإن النور الذى هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه ، وهو لو كشف لم يقم له شىء ، كما قال ابن عباس فى قوله عز وجل ﴿ **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار** ﴾

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان حـ ١ ص ١٥٩ برقم ١٧٧/٢٨٧ .
(٢) أخرجه مسلم حـ ١ ص ١٦٠ برقم ١٧٧/٢٨٩ .
(٣) أخرجه مسلم ص ١٦٠/١٦١ برقم ١٧٧/٢٩٠ .
(٤) أخرجه مسلم حـ ١ ص ١٦١ برقم ١٧٨/٢٩١ .
(٥) أخرجه مسلم حـ ١ ص ١٦١ ـ ١٦٢ برقم ١٧٩/٢٩٣ .

قال : ذاك نوره الذى هو نوره ، إذا تجلى به لم يقم له شيء ، وهذا الذى ذكره ابن عباس يقتضى أن قوله ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ على عمومه وإطلاقه فى الدنيا والآخرة ، ولا يلزم من ذلك أن لا يُرى ، بل يرى فى الآخرة بالأبصار من غير إدراك .

وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هى عليه ، وإن رأتها مع القرب الذى بين المخلوق والمخلوق ، فالتفاوت الذى بين أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم ، ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء ومن تجلى الرب تساقى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلى ، وفى الحديث الصحيح المرفوع « جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه ، فى جنة عدن »[1] .

فهذا يدل أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك **وتعالى** ، هو المانع من رؤية الذات ، ولا يمنع من أصل الرؤية ، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى ، فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة ، وكشف الحجاب بينهم وبينه ، فهو الحجاب المخلوق ، وأما أنوار الذات الذى يحجب عن إدراكها ، فذاك صفة للذات لاتفارق ذات الرب جل جلاله ، ولو كشف ذلك الحجاب ، لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه ، وتكفى هذه الإشارة فى هذا المقام للمصدق الموقن ، وأما المعطل **الجهمى** فكل هذا عنده باطل ومحال .

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية فى سورة النجم ، هو جبريل عليه السلام . وأما قول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، فالظاهر أن مستنده هذه الآية ، وقد تبين أن المرئى فيها جبريل ، فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس ، وقد حكى عثمان بن سعيد الدارسى الإجماع على ما قالته عائشة ، فقال — فى نقضه على بشر المريسى فى الكلام على حديث ثوبان ومعاذ ، أن رسول الله ﷺ قال : رأيت ربى البارحة فى أحسن صورة ، فحكى تأويل المريسى الباطل — ثم قال : ويلك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه ، أما أن رسول الله ﷺ ، قال فى حديث أبى ذر : « إنه لم ير ربه ، وقال رسول الله ﷺ « لن تروا ربكم حتى تموتوا ، وقال عائشة رضى الله عنها ؛ من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية .

---

(١) أخرجه مسلم حـ ١ ص ١٦٣ برقم ١٨٠/٢٩٦ .

وأجمع المسلمون على ذلك ، مع قول الله ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ يعنون أبصار أهل الدنيا ، وإنما هذه الرؤية كانت فى المنام ، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك ، وروى معاذ بن جبل عن النبى ﷺ أنه قال : « صليت ما شاء الله من الليل ، ثم وضعت جنبى ، فأتانى ربى فى أحسن صورة » فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم ؛ قال القاضى عياض : « وقد رأيت لبعض السلف والمتأخرين ما معناه : أن رؤيته تعالى فى الدنيا ممتنعة لضعف تركيب أهل الدنيا وقواهم ، وكونها متغيرة ، عرضة للآفات والفناء ، فلم تكن لهم قدرة على الرؤية ، فإذا كان فى الآخرة ، وركبوا تركيبا آخر ، ورزقوا قوى أخرى ثابتة باقية ، وأتم أنوار قلوبهم وأبصارهم وقلوبهم قووا على الرؤية ، وقد رأيت نحو هذا لمالك ابن أنس قال : لم ير فى الدنيا لأنه باق ، ولا يرى الباقى بالفانى ، فإذا كان فى الآخرة ورزقوا أبصار باقية رئى الباقى بالباقى .

قال القاضى أبو الفضل : وهذا كلام مليح ، وليس فيه دليل على الاستحالة إلا من حيث ضعف القدرة ، فإذا قوى الله من شاء من عباده فأقدره على حمل أعباء الرؤية لم يمتنع فى حقه .

وقال شيخ الإسلام ابن حجر : « جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة ، فيجب حمل مطلقها على مقيدها ، فمن ذلك قول ابن عباس : أتعجبون من أن تكون الخلة لإبراهيم ، والكلام لموسى ، والرؤيا لمحمد ؟ وعنه : رأى ربه بفؤاده مرتين ، وعنه : لم يره بعينه ، وإنما رآه بقلبه ، فعلى هذا يمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفى عائشة ، بأن يحمل نفيها على رؤية البصر ، وإثباته على رؤية القلب». قال أبو إسحق محمد بن ابراهيم تلميذ ابن حجر : المراد برؤية الفؤاد : رؤية القلب بخلق إدراك البصر فيه ، لا مجرد حصول العلم ، وذلك بخلاف غيره من الأولياء ، فإنهم إذا أطلقوا الرؤية والمشاهدة لأنفسهم ، فإنما يريدون المعرفة فأعلمه ؛ فإنه من الأمور المهمة التى يغلط فيها كثير من الناس ، وقد تقدم أن ذلك ممتنع شرعا .

وقوله تعالى : ﴿ **ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ .

قال ابن عباس : ما زاغ البصر يمينا ولا شمالا ، ولا جاوز ما أمر به ، وعلى هذا المفسرون ، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائى ، الذى لا أدب له بين يدى الملوك والعظماء ، من التفاته يمينا وشمالا ، وجاوزه بصره لما بين يديه ، وأخبر عنه بكمال الأدب فى ذلك المقام ، وفى تلك الحضرة إذا لم يلتفت جانبا ، ولم يمد بصره إلى غير ما أرى من الآيات ، وما هناك من العجائب ، بل قام مقام العبد الذى أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أرى ، دون التفاته إلى غيره ، ودون تطلعه إلى ما لم يره ، مع ما

فى ذلك فى ثبات الجأش ، وسكون القلب وطمأنينته ، وهذا غاية الكمال ، وزيغ البصر ، التفاته جانبا ، وطغيانه ، مده أمامه إلى حيث ينتهى ، فنزه فى هذه السورة علمه عن الضلال ، وقصده وعمله عن الغى ، ونطقه عن الهوى ، وفؤاده عن تكذيب بصره ، وبصره عن الزيغ والطغيان ، وهكذا يكون المدح .

وقوله تعالى : ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير** ﴾[1] . أى الدالة على قدرتنا وعظمتنا ، وبهاتين الآيتين ، استدل من ذهب من أهل السنة ، أن الرؤية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال : ﴿ **لقد رأى من آيات ربه الكبرى** ﴾ ولو كان رأى ربه ، لأخبر بذلك ، ولقال ذلك للناس .

عبادة غير الله باطلة

قال تعالى :

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ
ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن
يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ
عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ
إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ
ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

(١) الإسراء آية ١ .

معانى المفردات

﴿ اللات ، والعزى ، ومناة ﴾ : أصنام كانت تعبدها العرب فى جاهليتها .
﴿ الأخرى ﴾ أى : المتأخرة الوضيعة القدر .
﴿ ضيزى ﴾ أى : قسمة جائرة غير عادلة .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن بين سبحانه ما رآه محمد ﷺ ، من العجائب ليلة المعراج ، قال للمشركين ماذا رأيتم فى هذه الأصنام ؟ وكيف تحصرون أنفسكم فى العالم المادى وأصنامه ، وتقطعون على أنفسكم طريق التقدم والارتقاء ، وإن النفس لا ترقى إلا بما استعدت له ، فإذا وقفت النفوس عند هذه المادة وتلك الأصنام لم تكن لها عروج إلى السماء ، ولاسيما أن هذه الأصنام ، لا تشفع لهم عند ربهم ، ولا تجديهم نفعا ، فما هذا منهم إلا أباطيل لا تغنى عن الحق شيئا ، وعليك أيها الرسول أن تعرض عن هؤلاء ، الذين لا هم لهم ، إلا جمع حطام الدنيا والتمتع بزخرفها ، وإن ربك هو العليم بحالهم ، ويجازيهم بما يقولون ويعتقدون جزاء وفاقا .

التفسير :

قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾ قال البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ **اللات والعزى** ﴾ قال : كان اللات رجلاً يلت السويق ، سويق الحاج . قال ابن جرير : وكذا العزى من العزيز ، وكانت شجرة عليها بناء وأستار (بنخلة) وهى بين مكة والطائف ، وكانت قريش يعظمونها ... وأما (مناة) فكانت بالمشلل عند قدير ، بين مكة والمدينة ، وكانت خزاعة والأوس والخزرج فى جاهليتها ، يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة .

وقد كانت بجزيرة العرب وغيرها ، طواغيت آخر ، تعظمها العرب كتعظيم الكعبة ، غير هذه الثلاثة ، التى نص عليها فى كتابه العزيز ، وإنما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها .

ولهذا قال تعالى : ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ ﴾ أى تجعلون له ولدا ، وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ، فلو أقسمتم أنتم ومخلوقون مثلكم هذه القسمة ، لكانت قسمة جائرة ، لذا قال تعالى : ﴿ تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ أى تلك قسمة جائزة غير مستوية ، ناقصة غير تامة ، لأنكم جعلتم لربكم ما تكرهونه لأنفسكم ، وآثرتم أنفسكم بما ترضون لها ، ثم أنكر عليهم سبحانه — ما ابتدعوه من الكذب والافتراء ، فى عبادة الأصنام ، وتسميتها آلهة فقال تعالى :

﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أى أن هذه الأصنام التى تسمونها آلهة — هى أسماء فحسب ، وليس لها مسميات هى الحقه البتة ، كما تزعمون وتعتقدون أنها تستحق أن يُعكف على عبادتها ، وتقديم القرابين إليها ، وليس لكم من حجة ولا برهان ، تؤيدون به ما تقولون ، وإنما قلد فيها الآخر الأول ، وتبع فى ذلك الأبناء الآباء ، ولا يخفى ما فى ذلك من التحقير ، كما تقول : ما هو الاسم إذا لم يكن مشتملا على صفة معتبرة لها شأن وقدر ، وفى الآية قوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾(١) .

ثم أكد ما سلف بقوله تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ أى ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم ، الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظوظ نفوسهم فى رياستهم ، وتعظيم آبائهم الأقدمين .

ثم بين أنه ما كان ينبغى لهم ذلك ، لأنه قد جاءهم ما ينبههم إلى سوء رأيهم ، وعظيم غفلتهم ، فقال تعالى : ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أى هم يتبعون ما كان عليه أسلافهم ، وينقادون إلى آرائهم ، وقد كان ينبغى أن يكون لهم فى ذلك مزدجر ، لكنهم أعرضوا عنه وتولوا ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾(٢) .

قصة الغرانيق « موضوعة »

ذكر الأستاذ الدكتور / محمد بن محمد أبو شهبة فى كتابه « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير » ما نصه :

ومن الموضوعات فى أسباب النزول ما ذكره بعض المفسرين فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ وما

(١) يوسف آية : ٤٠ .

(٢) المدثر الآيتان : ٥٠ — ٥١ .

أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

فقد ذكر بعض المفسرين ما قاله السيوطى : أخرج ابن أبى حاتم وابن جرير ، وابن المنذر ، من طريق بسند صحيح : (كما زعم) عن سعد بن جبير قال : قرأ النبى — ﷺ — بمكة : ﴿ والنجم ﴾ فلما بلغ : ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ ألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترجى ، فقال المشركون : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم ، فسجدوا وسجد ، فنزلت ، وأخرجه البزار وابن مردوية ، بوجه آخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس — فيما أحسبه — وقال : لا يروى متصلا إلا بهذا الإسناد ، وبعد أن ذكر له طرقا كثيرة قال : وكلها إما ضعيفة ، وإما منقطعة ، سوى طريق سعيد بن جبير الأولى ، وهذا الطريق ، وطريقان آخران مرسلان عند ابن جرير ، هم معتمد المصححين للقصة ، كابن حجر والسيوطى[2] .

وهذه القصة غير ثابتة : لا من جهة النقل ، ولا من جهة العقل والنظر . أما من جهة النقل :

فقد طعن فيها كثير من المحققين والمحدثين ، قال البيهقى وهو من كبار رجال السنة : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وقال القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » : إن هذا الحديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ، ولا رواة ثقة بسند سليم متصل ، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون ، والمولوعون بكل غريب ، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم ، ومن حكيت عنه هذه المقالة من المفسرين والتابعين ، لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب ، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية ، والمرفوع منها حديث شعبة ، قال أبو بكر البزار : هذا الحديث لا نعرفه يروى عن النبى ﷺ بإسناد متصل ، إلا هذا ، ولم يسنده عن شعبة إلا أمية بن خالد ، وغيره يرسله عن سعيذ بن جبير ، وإنما يعرف عن الكلبى عن أبى خالد عن ابن عباس ، فقد بين أبو بكر أنه لا يعرف عن طريق يجوز ذكره سوى هذا ، وفيه من الضعف ما نبه عليه ، مع وقوع الشك فيه ، الذى لا يوثق به ولا حقيقة معه ، وأما حديث الكلبى فمما لا يجوز الرواية عنه ، ولا ذكره لقوة ضعفه وكذبه أ . هـ . وكذا أنكر القصة القاضى

---

(١) الحج الآيات : ٥٢ — ٥٤ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير حـ ٥ ص ٤٣٩ طبع الشعب .

أبو بكر بن العربى وطعن فيها من جهة النقل ، وسئل محمد بن إسحاق وابن خزيمة ، عن هذه القصة فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وذهب إلى وضعها الإمام : أبو منصور الماتريدى وصنف منها كتابا نحن نرى : أن من أنكرها وقضى بوضعها ، أكثر ممن صححها اعتمادا على روايات مرسلة .

اضطراب الرواية

ومما يقلل الثقة بالحديث : اضطراب الروايات اضطراباً فاحشاً ، فقائل يقول : إنه كان فى الصلاة ، وآخر يقول : قالها فى نادى قومه ، وثالث يقول : قالها وقد أصابته سنة ، ورابع يقول : بل حدث نفسه فيها ، ومن قائل : إن الشيطان قالها على لسانه ، وإن النبى لما عرضها على جبريل قال : ما هكذا أقرأتك ؟ وآخر يقول : بل أعلمهم الشيطان : أن النبى قرأها كما رويت : تلك الغرانيق العلا على أنحاء مختلفة ، وكل هذا الاضطراب مما يوهن الرواية ، ويقلل الثقة بها ، والحق أبلج والباطل لجج .

والقصة لم يخرجها أحد ممن التزموا الصحاح ، ولا أحد من أصحاب الكتب المعتمدة ، والذى روى فى البخارى — عن ابن عباس : « أن النبى — ﷺ — قرأ : النجم وهو بمكة ، فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والأنس » ، وفى رواية ابن مسعود : « أول سورة أنزلت فيها السجدة والنجم ، قال : فسجد رسول الله — ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلا رأيته أخذ كفا من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافرا[(١)] » . أما سجود المسلمين : فاتباعا لأمر الله ، وأما سجود المشركين : فلما سمعوه من أسرار البلاغة الفائقة ، وعيون الكلم والجوامع ، مع التهديد والإنذار ، وقد كان العربى يسمع القرآن ، فيخر له ساجدا ، أضف إلى ذلك : ما فيه من موافقة الجماعة ، والشخص إذا كان فى جماعة يندفع إلى موافقتها من غير ما يشعر ، ولو كان الأمر على خلاف ما يهوى ويحب ، وهذا أمر مشاهد ، وفى علم النفس ما يؤيده ، وذكر البخارى فى تفسير سورة الحج قال : وقال ابن عباس : « إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته » : إذا حدث ألقى الشيطان فى حديثه ، فيبطل الله ما يلقى الشيطان ، ويحكم آياته ويقال : أمنيته قراءته ، فقد حكى الثانى بصيغة التمريض التى تدل على الضعف ، وليس فى هذا ولا ذاك ما يشير إلى ما يزعمون .

---

(١) أخرجه البخارى جـ ٦ ص ١٧٧ طبع الشعب .

المعتمدون للقصة

ومع ما ذكرنا من قول المحققين فى القصة ، فقد حكمت الصنعة والقواعد الاصطلاحية على الحافظ ابن حجر ، فصحح القصة ، وجعل لها أصلا ، قال فى « الفتح » فى تفسير الحج ، مع ما ساق الطرق الكثيرة ، وكلها سوى طريق سعيد بن جبير إما ضعيف ، وإما منقطع ، لكن كثرة الطرق تدل على أنها أصلا ، مع أن لها طريقين مرسلين آخرين ، رجالهما على شرط الصحيح : أحدهما : ما أخرجه الطبرى من طريق يونس بن يزيد ، عن ابن شهاب ، حدثنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام فذكر نحوه ، والثانى : ما أخرجه أيضا من طريق المعتمد بن سليمان ، وحماد بن سلمة ، فرقهما عن داود بن أبى هند عن أبى العالية ، وبعد أن ذكر كلام القاضى أبى بكر بن العربى ، والقاضى عياض قال : وجميع ذلك لا يتمشى مع القواعد ، فإن الطرق إذا كثرت وتبينت مخارجها ، دل ذلك على أن لها أصلا ، وقد ذكرت أن ثلاثة أسانيد منها على شرط الصحيح ، وهى مراسيل ، يحتج بمثلها من يحتج بالمرسل ، وكذا من لا يحتج لاعتضاد بعضها ببعض ، وإذا تقرر ذلك ، تعين تأويل ما فيها مما يستنكر ، وهو قوله : ألقى الشيطان على لسانه ، تلك الغرانيق العلا ، فإنه لا يجوز حمله على ظاهره ، لأنه يستحيل عليه — صلى الله عليه وسلم — أن يزيد فى القرآن عمدا ما ليس منه ، وكذا سهوا إن كان مغايرا ، لما جاء به من التوحيد ، لمكان عصمته ، وقد سلك العلماء فى ذلك مسالك ، وبعد أن ذكر الكثير منها ، ولم يرتضه ارتضى لتصحيح القصة هذا التأويل ، وهو أن النبى صلى الله عليه وسلم — كان يرتل القرآن ترتيلا ، فارتصده الشيطان فى سكتة من السكتات ، ونطق بتلك الكلمة محاكيا نغمته ، بحيث سمعها من دنا ، فظنه من قوله ، وأشاعها بين الناس ، قال : وهو الذى ارتضاه القاضى عياض وأبو بكر بن العربى أهـ . والقاضيان : عياض وأبو بكر رأيهما البطلان نقلا وعقلا ، ولكنهما ارتضيا ذلك تنزيلا على تسليم الصحة .

الذى أجيب به على ما ذكره الحافظ

١ — إن جمهور المحدثين لم يحتجوا بالمرسل ، وجعلوه من قسم الضعيف ، لاحتمال أن يكون المحذوف غير صحابى ، وحينئذ ، يحتمل أن يكون ثقة أو غير ثقة ، وعلى الثانى فلا يؤمن أن يكون كذابا ، والإمام مسلم قال فى مقدمة كتابه : والمرسل فى أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ، ليس بحجة .

٢ ــ الاحتجاج بالمرسل إنما هو الفرعيات التى يكفى فيها الظن ، أما الاحتجاج به على إثبات شيء يصادم العقيدة وينافى دليل العصمة فغير مسلم ، وقد قال علماء التوحيد : أن خبر الواحد ــ لو كان صحيحا ــ لا يؤخذ به فى العقائد ، لأنه لا يكتفى فيها إلا باليقين ، فما بالك بالضعيف .

٣ ــ هذا التأويل الذى ارتضاه ما أضعفه عند النظر والتأمل ، فهو يوقع متأوله فيما فر منه ، وهو تسلط الشيطان على النبى ، فالتسلط عليه بالمحاكاة ، كالتسلط عليه بالإجراء على لسانه ، كلاهما لا يجوز ، وفتح هذا الباب خطر على الرسالات ، وإذا سلمنا أن الشيطان ، هو الذى نطق فى أثناء سكوت الرسول ، فكيف لا يسمع ما حكاه الشيطان ؟ وإذا سمعنا فكيف لا يبادر إلى إنكارها ؟ والبيان فى مثل هذا وجب على الفور ، وإذا لم يسمع النبى ، ألم يسمع أصحابه ؟ وإذا سمعوا فكيف يسكتون ؟ وإذا لم يسمعوا فهل بلغ من تسلط الشيطان أن يحول بينهم وبين السماع ؟

ثم كيف يتفق هذا وما روى : من أن النبى حزن حزنًا شديدًا وأن جبريل قال له ما جئتك بهذا الحق !!

الحق : أن نسج القصة مهما تأول فيه المتأولون ، فهو مهلهل متداع لا يثبت أمام البحث .

مصادمة القصة للقرآن المتواتر

فقد أفادت القصة ؛ تسلط الشيطان على النبى بالزيادة فى القرآن ما ليس منه ، وهو مخالف لقوله تعالى : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان** ﴾[1] .

وأى شخص أحق بهذه العبودية من الأنبياء ــ بله رسول الله ــ؟

وقال تعالى : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون إنما سلطانه على الذين يتولونه ...** ﴾[2] . وأى بشر أصدق إيمانا ، وأقوى توكلاً من رسول الله؟ ..

وأما بطلان القصة من جهة العقل والنظر

فقد قام الدليل وأجمعت الأمة على عصمته ــ عليه الصلاة والسلام ــ من مثل ما روى ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا ، من مدح آلهة العرب وهو كفر ، أو أن يتسور عليه الشيطان ، ويشبه

---

(١) الحجر آية : ٤٢ .

(٢) النحل آية : ١٠٠ .

عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ، ويعتقد النبى ذلك ، حتى ينبهه جبريل ، وذلك ممتنع فى حقه أن يقول من قبل نفسه عمدًا وهو كفر ، أو سهوًا وهو معصوم ، وقد ثبت بالبراهين والإجماع عصمته من جريان ذلك على لسانه ، أو قلبه لا عمدًا ولا سهوًا ، أو يكون للشيطان سبيل عليه فى التبليغ ، ولو وجدنا ذلك ، لذهبت الثقة بالأنبياء ، ولوجد المارقون سبيلاً للتشكيك فى الأديان .

ووجه آخر لفساد هذه القصة : وهو أن الله ــ تعالى ــ ذم الأصنام فى هذه السورة ، وأنكر على عابديها ، وجعلها أسماء لا مسمى لها ، وما التمسك بأذيالها إلا أوهام وظنون ، فلو أن القصة صحيحة ، لما كان هناك تناسب بين ما قبلها وما بعدها ، ولكان النظام مفككًا ، والكلام متخاذلاً ، وكيف يقع مدح بين ذمين ؟ بل كيف يجوز هذا ممن كمل عقله على كل العقول ، واتسع فى باب البيان ومعرفة الفصيح علمه ؟ وكيف يطمئن إلى مثل هذا التناقض السامعون ، وهم أهل اللسن والفصاحة ، ومنهم أعداؤه الذين يتلمسون له الزلات والعثرات ؟ ولو أن ما روى كان واقعًا لشغب المعادون ، وارتد الضعفاء من المؤمنين ، ولقامت قيامة مكة ، كما حدث فى الإسراء ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن ..

ومما يدل على افتعال القصة : ما ذكره الأستاذ الإمام محمد عبده فى رده هذه الفرية ، وهو : أن وصف العرب لآلهتهم بالغرانيق لم يرد لا فى نظمهم ولا فى خطبهم ، ولم ينقل عن أحد : إن ذلك الوصف كان جاريًا على ألسنتهم ، إلا ما جاء فى : « معجم ياقوت » من غير سند ولا معروف بطريق صحيح ، والذى تعرفه اللغة ، أن الغرنوق والغرانيق : اسم لطائر مائى أسود أو أبيض ، ومن معانيه ، الشاب الأبيض الجميل ، ويطلق على غير ذلك (راجع القاموس) ، ولا شىء من معانيه اللغوية ، يلائم معنى الإلهية والأصنام ، حتى يطلق عليها فى فصيح الملام ، الذى يعرض على أمراء الفصاحة والبيان ، ولا يجوز أن يكون هذا من قبيل المجاز ، بتشبيه الأصنام والآلهة بالغرانيق ، لأن الذوق الأدنى ، يأبى ذلك .

زعم مردود

وقد تناول أحد أعداء **الدين** ، وهو « سيرموير » المستشرق : الذى طبل لهذه القصة وزمر ، أن يدعمها بما يزعم أنه صحيح ، وهو ما روى : أن النبى لما قال ذلك ، تهادن المسلمون والمشركون ، وترامى الخبر إلى مهاجرى الحبشة ، فرجعوا إلى وطنهم ، وهو باطل ، والسبب فى رجوع مهاجرى الحبشة ، هو : إسلام السيد الهمام عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقد أعز الله به الإسلام ،

وقوى شوكة المسلمين ، فخفف المشركون من غلوائهم مما رغب مهاجرى الحبشة فى الرجوع إلى وطنهم ، وانضم إلى ذلك ، حدوث ثورة فى بلاد النجاشى ، كان اعترافه بأن ما جاء به القرآن فى عيسى ، وأنه عبد الله ورسوله حق مصدق لما جاء به الأنجيل ، وإيواؤه المسلمين بعض أسبابها ، فآثر المسلمون العودة على المقام بالحبشة ، خشية أن يتطاير إليهم الشرر ، والضرر .

وإذا كانت القصة غير ثابتة من جهة النقل ، وهى مخالفة للقرآن المتواتر ، ومناقضة لما ثبت بالعقل ، مع تعذر التأويل ، فلا جرم ؛ أن التحقيق يدعونى ، إلى أن أصدع ، بأن حديث الغرانيق مكذوب مختلق ، وضعه الزنادقة ؛ الذين يحاولون إفساد الدين والطعن فى خاتم الأنبياء .

وإذا انتهينا إلى هذه النتيجة الموفقة ، فما معنى الآية حينئذ ؟ وللإجابة عن ذلك ؛ أذكر خلاصة ما ذكره الأستاذ الإمام فى تفسيرها ، وفى تفسيرها وجهان ، الأول ، أن التمنى بمعنى القراءة ، إلا أن الإلقاء لا بالمعنى الذى ذكره المبطلون ، بل بمعنى إلقاء الأباطيل والشبه مما يحتمله الكلام ، ولا يكون مرادًا للمتكلم ، أو لا يحتمله ، ولكن يدعى أن ذلك يؤدى إليه ، وذلك من عمل المعاجزين ، الذين دأبهم محاربة الحق ، يتبعون الشبه ، ويسعون وراء الريبة ، ونسبة الإلقاء إلى الشيطان حينئذ ، لأنه مثير الشبهات بوساوسه ، ويكون المعنى : وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ، إلا إذا حدث قومه عن ربه ، أو تلا وحيًا أنزل الله فيه هداية لهم ، قام فى وجهه مشاغبون ، يتقولون عليه ما لم يقله ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وينشرون ذلك بين الناس ، ولا يزال الأنبياء يجادلونهم فى سبيل الحق ، حتى ينتظر ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان من شبه ، ويثبت الحق ، وقد وضع الله هذه السنة فى الخلق ، ليتميز الخبيث من الطيب ، فيفتتن ضعفاء الإيمان ، الذين فى قلوبهم مرض ، ثم يتمحص الحق عند أهله ، وهم الذين أوتوا العلم ، فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وتخبت له قلوبهم .

ثانيا : أن التمنى : المراد به ، تشهى حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما كان ويكون ، والأمنية من هذا المعنى ... وما أرسلنا من رسول ولا نبى ، إلا إذا تمنى هذه الأمنية السامية ، ألقى الشيطان فى سبيله العثرات ، وأقام بينه وبين مقصده العقبات ووسوس فى صدور الناس ، فثاروا فى وجهه ، وجادلوه بالسلاح حينًا ، وبالقول حينًا آخر ، فإذا ظهروا عليه والدعوة فى بدايتها ، ونالوا منه وهو قليل الأتباع ، ظنوا أن الحق فى جانبهم ، وقد يستدرجهم الله جريًا على سنته ، يجعل الحرب بينهم وبين المؤمنين سجالاً ، فينخدع بذلك الذين فى قلوبهم شك ونفاق ، ولكن سرعان ما يمحق الله ما ألقاه الشيطان من الشبهات ، وينشىء من ضعف أنصار الآيات قوة ، ومن ذلهم عزة ، وتكون كلمة

الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ليعلم الذين أوتوا العلم أن ما جاء به الرسل هو الحق ، فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهادى الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ، هذا هو الحق ، وما عدا ذلك فهو باطل . أ . هـ .

الأمر لله وحده

قوله تعالى : ﴿ **أم للإنسان ما تمنى فلله الآخرة والأولى وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **أم للإنسان ما تمنى** ﴾ أى ليس كل من تمنى خيرًا حصل له كقوله تعالى : ﴿ **ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب** ﴾[1] . ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا كل من ود شيئا يحصل له .

قال القرطبى وقيل : ﴿ **أم للإنسان ما تمنى** ﴾ من غير جزاء ليس الأمر كذلك . وقيل : ﴿ **أم للإنسان ما تمنى** ﴾ من شفاعة الأصنام ، نزلت فى النضر بن الحرث ، وقيل فى الوليد بن المغيرة ، وقيل فى سائر الكفار .

قوله تعالى : ﴿ **فلله الآخرة والأولى** ﴾ يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ، لا ما تمنى أحد . فكل شيء يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ ، لا مشيئة للعباد ، إلا ما شاء لهم ، فما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، قال جل فى علاه : ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى** ﴾ هذا توبيخ من الله تعالى لمن عبد الملائكة والأصنام ، وزعم أن ذلك يقربه إلى الله تعالى ، فاعلم أن الملائكة مع كثرة عبادتها وكرامتهم على الله ، لا تشفع إلا لمن أذن أن يشفع له ، كما قال تعالى : ﴿ **... بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون** ﴾[3] .

---

(١) سورة النساء : آية رقم ١٢٣ .
(٢) سورة آل عمران : آية ١٥٤ .
(٣) سورة الأنبياء : الآيتان : ٢٦ — ٢٨ .

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **إن الذين لا يؤمنون بالآخرة** ﴾ هم الكفار الذين قالوا : إن الملائكة بنات الله ، والأصنام بنات الله ﴿ **ليسمون الملائكة تسمية الأنثى** ﴾ أى كتسمية الأنثى ، أى يعتقدون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ﴿ **وما لهم به من علم** ﴾ أى أنهم لم يشاهدوا خلقة الملائكة ، ولم يسمعوا ما قالوه عن رسول الله ـ ﷺ ـ ولم يروه فى كتاب ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغنى من الحق شيئًا** ﴾ أى لا يجدى شيئًا ولا يقوم أبدًا مقام الحق .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسئلون** ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ **فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ أى فأعرض عن مثل هؤلاء الذين أعرضوا عن كتابنا ، ولم يأخذوا بما فيه ، مما يوصل إلى سعادتهم فى المعاش والمعاد من المعتقدات الحقة ، وقصص الأولين المذكرة **بأمور الآخرة** ، وما فيها من نعيم مقيم ، أو عذاب أليم ، **وانتصروا على** شئون الدنيا ورضوا بزخرفها وجدّوا فى بلوغ أسمى المراتب فيها . ﴿ **ذلك مبلغهم من العلم** ﴾ أى أن منتهى علمهم أن يتفهموا شئون الحياة الدنيا ، ويتمتعوا باللذات ويتصرفوا فى التجارات ، ليحصلوا على ما يكون لهم فيها من بسطة فى المال ، وسعة فى الرزق ، ويكونوا ممن يشار إليهم بالبنان ، وما به يذكرون لدى الناس ، ولا يُعْنون بما وراء ذلك ، فشئون الآخرة دبر آذانهم ، ووراء ظهورهم ، لا يعرفون منها قبيلا من دبير .

روى الإمام أحمد عن أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ **« الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له »**[2] .

---

(١) سورة الزخرف : آية ١٩ .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده جـ ٦ ص ٧١ من رواية لعائشة .

وفى الدعاء المأثور « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » . وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول : « ألا إن الدنيا ملعونة ، ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله تعالى ، وما ولاه ، وعالمًا ومتعلمًا »[١] . رواه الترمذى وقال حديث حسن وعن أنس ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »[٢] . متفق عليه .

قوله تعالى : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ أى إن ربك هو العليم بمن واصل ليله بنهاره ، وصباحه بمسائه مفكرًا فى آياته فى الكون ، وفيما جاء على ألسنة رسله ، حتى اهتدى إلى الحق الذى ينجيه فى آخرته ، ويبلغه رضوان ربه ، ويبلغه سعادة الدنيا بالسير على السنن التى وضعها فى خليقته ، فاحتذى حذوها وسار على أثرها ـــ وبمن حاد عن الطريق وجعل إلهه هواه وركب رأسه ، فلم يلو على شىء مما جاء به الداعى الناصح الأمين ، وإنه لمجاز كلا بما كسب واكتسب ، وسيجزيه على الجليل والحقير ، والصغير والكبير ، بحسب ما أحاط به واسع علمه ، وبمقدار فضله على من أخبت إليه مصداقا لقوله : ﴿ **نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم ، وأن عذابى هو العذاب الأليم** ﴾[٣] .

وخلاصة القول : إن هؤلاء قوم لا تجدى منهم الذكرى ، ولا تؤثر فيهم العظة ، ﴿ **فلا تبتئس بما كانوا يفعلون** ﴾[٤] .

العدالة الإلهية

قال تعالى :

وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى
﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى

(١) أخرجه الترمذى حـ ٤ ص ٤٨٥ ـــ ٤٨٦ . كتاب الزهد . باب ما جاء فى هو أن الدنيا على الله . رقم ٢٣٢٢ .
(٢) أخرجه البخارى حـ ٤ ص ٦١ عن رواية لأنس .
(٣) الحجر : الآيتان ٤٩ ـــ ٥٠ .
(٤) هود : آية ٣٦ .

تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ
﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ
سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ
﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ
عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ
﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾
فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ
لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ
سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴿٦٢﴾

معانى المفردات

﴿ بما عملوا ﴾ أى بالعقاب على عملهم . ﴿ بالحسنى ﴾ أى بالمثوبة الحسنى وهى الجنة . ﴿ كبائر الإثم ﴾ ما يكبر عقابه كالزنا وشرب الخمر . ﴿ الفواحش ﴾ واحدها فاحشة ، وهى ما عظم قبحها من الكبائر . (اللمم) ما صغر من الذنوب . وهو فى اللغة اسم لما قَلّ قدره ومنه لمّة الشعر ، وقيل اللمم : الدنو من الشيء دون ارتكابه من قولهم ألممت بكذا : أى قاربت منه ، وعليه فالمراد الهمّ بالذنب وحديث النفس دون حدوث فعل ، ومن ثم قال سعيد بن المسيب : هو ما خطر على القلب ، (الأجنة) واحدها جنين ، وهو الولد مادام فى البطن . (تولى) أى أعرض عن اتباع الحق . (أكدى) أى قطع العطاء من قولهم : حفر فأكدى . أى بلغ كُدية أى صخرة تمنعه من إتمام العمل . (ينبأ) يخبر . (صحف موسى) هى التوراة ، وصحف إبراهيم ما نزل عليه من الشرائع . (وفّى) أى أتم ما أمر به (ألا تزر وازرة وزر أخرى) . أى لا تحمل نفس حمل نفس أخرى . (المنتهى) أى المعاد يوم القيامة والجزاء حين الحشر ، (تمنى) أى تدفع فى الرحم . (النشأة الأخرى) هى إعادة الأرواح إلى الأجساد حين البعث . (أغنى وأقنى) أى أغنى من شاء وأفقر من شاء . (الشعرى) هى الشعرى العبور وهى ذلك النجم الوضاء ، الذى يُقال له مرزم الجوزاء ، وقد عبدته طائفة من العرب ،، (وعاد الأولى) هم قوم هود . (وعادا الأخرى) من ولد عاد الأولى . (والمؤتفكة) هى قرى قوم لوط ، سميت بذلك لأنها ائتفكت بأهلها : أى انقلبت بهم . (أهوى) أى أسقط فى الأرض . (غشاها) أى غطاها .

﴿ **الآلاء** ﴾ : النعم واحدها ألى (بالفتح والكسر) . ﴿ **تتمارى** ﴾ تمترى وتشك ، والخطاب للإنسان . ﴿ **هذا نذير من النذر** ﴾ أى أن محمدا بعض من أنذر . ﴿ **أزفت** ﴾ قربت والآزفة ، الساعة ، وسميت بذلك لقرب قيامها ، أو لدنوها من الناس ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ **اقتربت الساعة** ﴾[1] . ﴿ **من دون الله** ﴾ أى من غيره . ﴿ **كاشفة** ﴾ أى نفس تكشف وقت وقوعها وتبينه ، لأنها من أخفى المغيبات ، (والحديث) القرآن . ﴿ **سامدون** ﴾ أى لاهون غافلون . وعن ابن عباس : السمود : الغناء فى لغة حمير ، يقال : اسمُدى لنا ، أى غنى لنا ، قال أبو عبيدة : المسمود الذى غُنى له .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن أمر سبحانه رسوله بالإعراض عن المشركين ، وذكر أنه هو العليم باستعدادهم ، وإنهم قوم ضالون لا يصل الحق إلى شغاف قلوبهم ، ولا يلتفتون إليه بعيونهم ، ذكر هنا أنه لا يهملهم ، بل سيجزيهم بسوء صنيعهم ، وهو العليم بما فى السموات والأرض فلا يترك عباده هملا ، بل يجازيهم بعدله ، فيثيب المحسن بالجنة ، ويعاقب المسىء بما هو أهله ، ثم أردف ذلك ذكر أوصاف المحسنين ، ثم حذر عباده بأنه لا تخفى عليه خافية من أمورهم ، من حين أن كانوا أجنة فى بطون أمهاتهم إلى أن يموتوا ، فيعلم المطيع من العاصى ، فلا حاجة للعبد إذًا إلى مدح نفسه بفعل الطاعات ، واجتناب السيئات ، ثم ذكر أن من العجب العاجب بعد أن يسمع سامع ، ويرجو عاقل أن غيره يقوم مقامه فى تحمل وزره ويعطيه جُعلاً ، لكنه ما أعطاه إلا قليلاً ، حتى وقف عن العطاء ، ومن ثم وبخه على ذلك ، بأن علم هذا لا يكون إلا بوحى ، فهل علم منه صحة ما اعتقد ؛ كلا فجميع الشرائع المعروفة لكم ، كشريعة موسى وإبراهيم على غير هذا ، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، فمن أين وصل له أن ذلك مجزٍ له ، ثم بين سبحانه أنه المحى والمميت ، وأنه هو المتصرف فى أمور العالم خلقا وتدبيرًا وملكًا ، وأن أمر المعاد تحت قبضته ، وأن الخلق إذ ذاك يرجعون إليه ، وأن بعض الأمم كذبت رسلها وأنكرت الخالق ، وختم سبحانه السورة ، كما بدأها بالحديث عن هذا القرآن العظيم ، فقال : ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون** ﴾ فلا تعجبوا من القرآن منكرين ، ولا تضحكوا منه مستهزئين وابكوا حزنًا على ما فرطتم فى جنب الله ، وعلى غفلتكم عن مواعظه وحكمه التى فيها سعادتكم ، واسجدوا شكرًا لبارىء النسيم الذى أوجدها من العدم ، واعبدوه بكرة وعشيا ، شكرا على آلائه ، وتقلبكم فى نعمائه .

---

(١) القمر : آية رقم ١ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغنى عما سواه ، الحاكم فى خلقه بالعدل ، خلق الخلق بعلمه ، وقدر لهم أقدارًا ، وضرب لهم آجالاً ، ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم ، يهدى من يشاء ، ويعصم ويعافى ، فضلاً ، ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلى ، عدلاً ، وكلهم يتقلبون فى مشيئته ، بين فضله وعدله . ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أى فهو يجازى بحسب علمه المحيط بكل شيء ، المحسن بالإحسان ، والمسيء بصنيع ما أساء ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ، وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾[١] .

ثم ذكر سبحانه أوصاف المحسنين فقال تعالى : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ أى أن المحسنين هم الذين يبتعدون عما عظم شأنه من كبائر المعاصى ، كالشرك ، وقتل النفس ، التى حرم الله إلا بالحق ، والزنا ، وشهادة الزور ، وعقوق الوالدين ... ولا تقع منهم إلا صغائرها ؛ فيتوبون إلى ربهم ويندمون على ما فرط منهم . كقوله تعالى : ﴿ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريمًا ﴾[٢] .

وقال ههنا : ﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ﴾ وهذا استثناء منقطع ، لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال .

روى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى

---

(١) الجاثية : الآيتان ٢١ ـــ ٢٢ .
(٢) النساء : آية ٣١ .

وتشتهى ، والفرج يصدق من ذلك أو يكذبه »[1] ، أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الرازق به . فإن تقدم بفرجه كان زانيا ، وإلا فهو اللمم ، كذا قال ابن جرير عن ابن مسعود . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **إلا اللمم** ﴾ قال : إلا ما سلف وكذا قال زيد بن أسلم ، وقال ابن جرير عن مجاهد أنه قال فى هذه الآية (إلا اللمم) قال : الذى يلتم بالذنب ثم يدعه .

قال الشاعر :

إن تغفر اللهم تغفر جمًا ... وأى عبد لك ما ألما

وقال الكلبى : **اللمم** على وجهين كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا فى الدنيا ولا عذابًا فى الآخرة ، فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ما لم يبلغ الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر هو الذنب العظيم ، يلم به الإنسان المرة بعد المرة فيتوب منه .

وقوله تعالى : ﴿ **إن ربك واسع المغفرة** ﴾ أى رحمته سبحانه وسعت كل شىء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها ، قال تعالى : ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى** ﴾[2] . وقال جل ذكره : ﴿ **قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** ﴾[3] . وقال سبحانه : ﴿ **ومن يعمل سوأ أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا** ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شى، رحمة وعلمًا فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم** ﴾[5] . وقال تعالى : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون** ﴾[6] .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : ياابن آدم : إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى .

---

(١) أخرجه أحمد حـ ٢ ص ٢٧٦ طبع دار الفكر العربى . وانظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٤٧ . كتاب القدر . باب قدر ابن آدم حظه من الزنا : رقم ٢٦٥٧/٢١ .

(٢) طه : آية ٨٢ .

(٣) الزمر : آية ٥٣ .

(٤) النساء : آية ١١٠ .

(٥) غافر : آية ٧ .

(٦) الأعراف : الآيات ١٥٦ ـــ ١٥٨ .

يابن آدم : لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك . يابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح[1] .

يارب إن عظمت ذنوبى كثرة   فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن   فمن الذى يدعو ويرجو المجرم
مالى إليك وسيلة إلا الرجا   وجميل عفوك ثم إنى مسلم

قوله تعالى : ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾ . أى هو سبحانه بصير بكم ، عليم بأحوالكم ، وأقوالكم ، التى ستصدر عنكم ، وتقع منكم حين أنشأ أباكم آدم من الأرض ، واستخرج ذريته من صلبه أمثال الذر ، ثم قسمهم فريقين ، فريقًا للجنة ، وفريقًا للسعير .

قال مكحول : كنا أجنة فى بطون أمهاتنا ، فسقط منا من سقط ، وكنا فيمن بقى ، ثم كنا مراضيع ، فهلك من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا يفعة ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شبابًا ، فهلك منا من هلك ، وكنا فيمن بقى ، ثم صرنا شيوخًا — لا أبالك — فماذا بعد هذا ننتظر ؟!

وقوله : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى** ﴾أى فإذا علمتم ذلك ،فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصى ، أو بزكاة العمل وزيادة الخير ، بل اشكروا الله على فضله ومغفرته ، فهو العليم بمن اتقى المعاصى ، ومن ولغ فيها ودنس نفسه باجتراحها .

قال الحسن فى هذه الآية : قد علم الله سبحانه كل نفس ما هى عاملة ، وما هى صانعة ، وإلى ما هى صائرة .

والآية كقوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا** ﴾[2] .

---

(١) أخرجه الترمذى حـ ٥ ص ٥١٢ كتاب الدعوات . باب فى فضل التوبة والاستغفار . رقم ٣٥٤٠ .
(٢) النساء : آية ٤٩ .

وقال مسلم فى صحيحه عن محمد بن عمرو بن عطاء قال سميت ابنتى بَرة ، فقالت لى زينب بنت أبى سلمة إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا الاسم وسميت بره فقال رسول الله ﷺ « لا تزكوا أنفسكم إن الله أعلم بأهل البر منكم فقالوا بم نسميها ؟ قال : سموها زينب »[1] .

وروى أحمد عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه قال مدح رجل رجلاً عند النبى ﷺ فقال رسول الله ﷺ « ويلك قطعت عنق صاحبك ــ مرارا ــ أو كان أحدكم مادحا صاحبه لا محالة فليقل أحسب فلانًا ، والله حسيبه ، ولا أزكى على الله أحدًا ، أحسبه كذا وكذا إن كان يعلم ذلك »[2] .

قوله تعالى : ﴿ **أفرأيت الذى تولى ، وأعطى قليلا وأكدى ، أعنده علم الغيب فهو يرى ، أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ .

يقول تعالى ذاما لمن تولى عن طاعة الله : فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴿ **وأعطى قليلاً وأكدى** ﴾ قال ابن عباس : أطاع قليلاً ثم قطعه ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة وغير واحد ، قال عكرمة وسعيد كمثل القوم إذا كانوا يحفرون بئرًا فيجدون فى أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل ، فيقولون أكدينا ويتركون العمل .

قوله تعالى : ﴿ **أعنده علم الغيب فهو يرى** ﴾ أى عند هذا الذى أمسك خشية الإنفاق ، وقطع معروفة أعنده علم الغيب أنه سينفد ما فى يده ، حتى قد أمسك عن معروفه ، فهو يرى ذلك عيانًا ؟ أى ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحًا وهلعًا .

قوله تعالى : ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وإبراهيم الذى وفى** ﴾ أى ألم يخبر بما نصت عليه التوراة ، وما ذكر فى شرائع إبراهيم الذى وفى بما عاهد الله عليه ، وأتم ما أمر به ، وإنما ذكر ما جاء فى شريعتى هذين النبيين فحسب ، لأن المشركين كانوا يدعون أنهم على شريعة أبيهم إبراهيم ، وأهل الكتاب كانوا يدعون أنهم متبعون ما فى التوراة وصحفها قريبة العهد منهم .

---

(١) أخرجه مسلم حـ ٣ ص ١٦٨٧ ، ١٦٨٨ برقم ٢١٤٢/١٩ .
(٢) أخرجه أحمد : حـ ٥ ص ٤٦ ط دار الفكر العربى .

ثم فصل سبحانه ما جاء فى هاتين الشريعتين فقال تعالى : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أى لا تحمل نفس ذنوب نفس أخرى . كقوله تعالى : ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾[(١)] . أي ولا تكسب كل نفس إثمًا إلا كان عليها جزاؤه دون غيرها ، ولا تحمل نفس فوق حملها حمل نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس حملها فحسب قال تعالى : ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أى كما لا يحمل على الإنسان وزر غيره ، لا يحصل له من الأجر إلا ما كسب لنفسه ، ومن هذا استنبط الإمام مالك والإمام الشافعى ومن تبعهما ، أن القراءة لا يصح إهداء ثوابها إلى الموتى ، لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ، ولا حثهم عليه ، ولا أرشدهم إليه ، بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة — رضى الله عنهم — لو كان خيرًا لسبقونا إليه ، وباب القربان يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة ، فذاك مجمع على وصولهما ومنصوص من الشارع عليهما ، وأما الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ « إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[(٣)] . فهذه الثلاثة فى الحقيقة هى من سعيه وكده وعمله ، كما جاء فى الحديث ، إن طيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه ، والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هى من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى : ﴿ إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا

(١) سورة الأنعام : آية ١٦٤ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٦ .

(٣) أخرجه أحمد جـ ٢ ص ٣٧٢ ومسلم جـ ٣ ص ٢٥٥ برقم ١٤/١٦٣١ .

وآثارهم ﴾[١] . والعلم الذى نشره فى الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضًا من سعيه وعمله ، وثبت فى الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ... الحديث »[٢] . (أفاده العلامة ابن كثير) .

قوله تعالى : ﴿ **وأن سعيه سوف يرى** ﴾ أى أن عمله سيعرض يوم القيامة على أهل المحشر ، ويطلعون عليه ، فيكون فى ذلك إشادة بفضل المحسنين ، وتوبيخ للمسيئين ، كقوله تعالى : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[٣] . ﴿ **يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر** ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ أى ثم يجزى بعمله أوفى الجزاء وأوفره فيضاعف الله له الحسنة ، ويبلغها سبعمائة ضعف ، ويجازى بالسيئة مثلها ، أو يعفو عنها بفضله ، قال تعالى : ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾[٥] . وقال سبحانه : ﴿ **مثل الذى ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾[٦] . وقال جل فى علاه : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة** ﴾[٧] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإن إلى ربك المنتهى** ﴾ أى وأن مرجع الأمور يوم الميعاد إلى ربك ، فيحاسبهم على النقير والقطمير ، ويثيبهم أو يعاقبهم بالجنة أو النار ، وفى هذا تهديد بليغ للمسىء ، وحث شديد للمحسن ، وتسلية لقلبه ﷺ ، كأنه يقول له : لا تحزن أيها الرسول ، فإن المنتهى إلى الله .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن عمرو بن ميمون الأودى قال : قام فينا معاذ بن جبل فقال : يابنى أود إنى رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله إلى الجنة أو إلى النار .

---

(١) يس : آية ١٢ .
(٢) أخرجه : صحيح مسلم فى كتاب العلم باب من سند سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة حـ ٤ ص ٢٠٦٠ رقم ٢٦٧٤/١٦ .
(٣) التوبة : آية ١٠٥ .
(٤) الطارق : الآيتان ٩ ، ١٠ .
(٥) الأنعام : آية ١٦٠ .
(٦) البقرة : آية ٢٦١ .
(٧) البقرة: آية ٢٤٥ .

وقوله تعالى : ﴿ **وأنه هو أضحك وأبكى** ﴾ أى خلق فى عباده الضحك والبكاء ، وسببهما وهما مختلفان ، والمراد أن سبحانه خلق ما يسر ، وما يحزن من الأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿ **وأنه هو أمات وأحيا** ﴾ أى وأنه سبحانه خلق الموت والحياة كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **هو يحيى ويميت وإليه ترجعون** ﴾ ذلك بأنه على كل شيء قدير ، وكل شيء إليه فقير ، وكل أمر عليه يسير ، لا يحتاج إلى شيء ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقوله تعالى : ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى** ﴾ أى وأنه خلق الذكر والأنثى ، من الإنسان وغيره من الحيوان ، من المنى الذى يُدفق فى الأرحام ، كقوله تعالى : ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منىّ يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟** ﴾ وكقوله سبحانه : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر** ﴾(١) .

وقال ههنا سبحانه : ﴿ **وأن عليه النشأة الأخرى** ﴾ أى كما خلق البداءة ، هو قادر سبحانه على الإعادة ، وهى النشأة الأخرى يوم القيامة ، كقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا كيف يُبدىء الله الخلق ثم يعيده ، إن ذلك على الله يسير ، قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة . إن الله على كل شيء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **وأنه هو أغنى وأقنى** ﴾ أى وأنه تعالى يغنى من يشاء من عباده ، ويفقر من يشاء . قال بن زيد : أغنى من شاء وأفقر من شاء ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** ﴾(٣) . **ونحو الآية قوله تعالى** : ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم** ﴾(٤) . وقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر . إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾(٥) .

---

(١) الطارق : الآيات ٥ ــ ٨ .
(٢) العنكبوت : الآيات ١٩ ــ ٢٢ .
(٣) سبأ : آية ٣٩ .
(٤) العنكبوت : آية ٦٢ .
(٥) الروم : آية ٣٧ .

فسبحان الخالق . البارىء . المصور ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **وأنه هو رب الشعرى** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد ، الذى يقال مرزم الجوزاء ، كانت طائفة من العرب يعبدونه ، وإنما ذكر أنه رب الشعرى ، وإن كان ربا لغيره ؛ لأن العرب كانت تعبده ، فأعلمهم الله — جل وعز — أن الشعرى مربوب وليس برب ، قال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **وأنه أهلك عادا الأولى** ﴾ وهى قوم هود عليه السلام ، وعاد الأخرى هى إرم بن سام بن نوح ، **كما** قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد** ﴾(٣) . وقد كانوا من أشد الأمم **وأقواهم** وأعتاهم على الله ورسوله ، فأهلكهم ﴿ **بريح صرصر عاتية ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما** ﴾(٤) . أى متتابعة .

وقال المبرد : وعاد الأخرى هى ثمود ، وقيل عاد الأولى من ولد عاد الأولى .

وقوله تعالى : ﴿ **وثمود فما أبقى** ﴾ أى وأهلك ثمود فما أبقى عليهم ، بل أخذهم بذنوبهم ، أخذ عزيز مقتدر ، قال تعالى : ﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون** ﴾(٥) .

وقوله ﴿ **وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى** ﴾ أى وأهلكنا قوم نوح من قبل عاد وثمود ، وكانوا أظلم من هذين ، لأنهم بدءوا بالظلم ، ومن سن سنة سيئة ، فعليه وزرها ووزر من

(١) آل عمران : الآيتان ٢٦ — ٢٧ .
(٢) الحج : آية ١٨ .
(٣) الفجر : الآيات ٦ — ١١ .
(٤) الحاقة : الآيات ٦ ، ٧ .
(٥) فصلت : آية ١٧ .

عمل بها ، وكانت أطغى منهما ، وأكثر تجاوز للحد ، لأنهم سمعوا المواعظ ، وطال عليهم الأمد ، ولبث فيهم النبى نوح ألف سنة إلا خمسين عامًا ، ولم يرتدعوا ، حتى دعا عليهم نبيهم ، بقوله : ﴿ **رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا** ﴾[1] .

وقد كان الرجل منهم يأخذ بيد ابنه ، ويمشى إلى نوح ، يحذره منه ، ويقول : يابنى إن أبى مشى بى إلى هذا ، وأنا مثلك يومئذ ، فإياك أن تصدقه ، فيموت الكبير على الكفر ، وينشأ الصغير على وصية أبيه ، ولا يتأثر من دعائه له ﴿ **وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا** ﴾[2] .

قال تعالى : ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارًافلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾[3] .

قوله تعالى : ﴿ **والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ما غشى** ﴾ أى وأهلك قوم لوط بانقلاب قريتهم عليهم ، وجعل عاليها سافلها ، ثم أمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، قال تعالى : ﴿ **فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل** ﴾[4] . وقوله : ﴿ **فغشاها ما غشى** ﴾ أى ألبسهما ما ألبسهما من الحجارة كما قال تعالى : ﴿ **وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين** ﴾[5] .

وفى هذا الأسلوب تهويل للأمر الذى غشاها به ، وتعظيم له .

قوله تعالى : ﴿ **فبأى آلاء ربك تتمارى ، هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون ، فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾ .

قوله ﴿ **فبأى آلاء ربك تتمارى** ﴾ أى فبأى نعم ربك عليك أيها الإنسان ، تمترى وتشك ؟ كقوله تعالى : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾[6] . وكقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك** ﴾[7] . وكقوله سبحانه : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾[8] .

---

(١) نوح : آية ٢٦ .
(٢) نوح : الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .
(٣) نوح : آية ٢٥ .
(٤) الحجر : آية ٧٤ .
(٥) النمل : آية ٥٨ .
(٦) الواقعة : آية ٨٢ .
(٧) الانفطار : الآيتان : ٦ ، ٧ .
(٨) الرحمن : آية ١٣ .

وقوله تعالى : ﴿ **هذا نذير من النذر الأولى** ﴾ يعنى محمدًا ﷺ منذر من حاد عن طريق الهدى ، وسلك طريق الضلال والهوى ، يسيء العواقب ، فى العاجل والآجل ، وهو كمن قبله من الرسل بالذين أرسلهم ربهم لهداية خلقه ، فكذبوهم **فأخذهم** أخذ عزيز مقتدر ، وحل بهم البوار والنكال ، جزاء تكذيبهم وجحودهم آلاء ربهم ، ونعمه التى تترى عليه . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد** ﴾(1) .

وقوله تعالى : ﴿ **أزفت الآزفة** ﴾ أى اقتربت القريبة ، وهى القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين** ﴾(2) .

وقوله : ﴿ **ليس لها من دون الله كاشفة** ﴾ أى ليس هناك من يعرف وقت حلول الآزفة إلا هو ، فاستعدوا لهذا اليوم ، قبل أن تأخذكم الساعة بغتة وأنتم لا تشعرون ، فتندموا ولات ساعة مندم ، وجّدوا للعمل قبل حلول الأجل .

وقد أشار سبحانه فى هذه الآيات إلى أصول الدين الثلاثة :

(١) وحدانية الله بقوله : ﴿ **فبأى آلاء ربك تتمارى** ﴾ .

(٢) إثبات نبوة محمد ﷺ بقوله : ﴿ **هذا نذير** ﴾ .

(٣) إثبات الحشر والبعث بقوله : ﴿ **أزفت الآزفة** ﴾ .

ثم أنكر المشركون تعجبهم من القرآن ، واستهزاءهم به وإعراضهم عنه ، فقال تعالى : ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون ، وتضحكون ولا تبكون ، وأنتم سامدون** ﴾ .

أى أفينبغى لكم بعد ذلك أن تعجبوا من هذا القرآن ، وقد جاءكم بما فيه هدايتكم إلى سواء السبيل ، وإرشادكم إلى الطريق المستقيم ، وكيف تسخرون منه وتستهزئون به ، ولا تكونوا كالموقنين الذين وصفهم الله بقوله : ﴿ **ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا** ﴾(3) . وكيف تلهون عن استماع عبره ، وتغفلون عن مواعظه ، وتتلقونها تلقى اللاهى الساهى المعرض عما يسمع ، غير المكترث **بما يلقى إليه . . ﴿ وأنتم سامدون ﴾ والسمود اللهو ، والسامد اللاهى ، يقال للقينة : أسمدينا ، أى ألهينا بالغناء قال الحسن ﴿ وأنتم سامدون ﴾ أى غافلون .**

---

(١) سبأ : آية ٤٦ .

(٢) غافر : آية ١٨ .

(٣) الإسراء : آية ١٠٩ .

ثم قال تعالى آمرًا لعباده بالسجود له ، والعبادة المتابعة لرسوله ﷺ ، والتوحيد والإخلاص : ﴿ **فاسجدوا لله واعبدوا** ﴾ أى فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوه .

تحقيق علمى فى تحريم الغناء

قوله تعالى : ﴿ **وأنتم سامدون** ﴾ قال ابن عباس : هو الغناء بالحميرية ؛ اسمدى لنا ؛ أى غنى لنا ، وهى إحدى الآيات الثلاث التى استدل بها العلماء على تحريم الغناء .

والآية الثانية : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ..** ﴾[1] . سئل ابن مسعود عنها ، فأقسم والله الذى لا إله إلا هو ؛ يرددها ثلاث مرات إنه الغناء ، وعن ابن عمر إنه الغناء ، وكذلك قال عكرمة وميمون بن مهران ومكحول .

والآية الثالثة : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾[2] قال مجاهد الغناء والمزامير صوت الشيطان . وروى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ قال : « لا تبيعوا **المغنيات** ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام فى مثل هذا أنزلت هذه الآية : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ..** ﴾ إلى آخر الآية[3] » .

وروى الترمذى وغيره من حديث أنس وغيره عن النبى ﷺ قال : « صوتان ملعونان فاجران أنهى عنهما ، صوت مزمار ورنَّة شيطان عند نغمه ، ومرح ورنَّة عند مصيبة لطم خدود وشق جيوب »[4] .

---

(١) لقمان : آية ٦ .
(٢) الإسراء : آية ٦٤ .
(٣) أخرجه الترمذى : حـ ٥ ص ٢٥ ، تفسير سورة لقمان من رواية لأبى أمامة .

(٤) انظر سنن الترمذى « كتاب الجنائز » باب ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت ، حـ ٢ ص ٢٣٧ ، حديث رقم ١٠١١ من رواية الجابر بن عبد الله جاء فيها « ..... ولكن نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ورنة شيطان » . وقال فى الحديث كلام أكثر من هذا . وانظر مجمع الزوائد « باب فى النوح » حـ ٣ ص ١٣ ، فقد ورد الحديث من رواية لأنس ولفظه : « صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة : مزمار عند نغمة ورنة عند مصيبة » رواه البزار ورجاله ثقات . وفى كشف الأستار عن زوائد البزار حـ ١ ص ٣٧٦ ــ ٣٧٧ ، « باب ما جاء فى النوح » حديث ٧٩٥ ، لأنس بن مالك « نص رواية مجمع الزوائد » . وفى باب « جواز البكاء » للبزار ورد الحديث ٨٠٥ ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ورد رواية لعبد الرحمن بن عوف جاء فيها « ..... إنما نهيت عن النوح ، عن صوتين أحمقين فاجرين صوت عند نغمة ، لعب ولهو مزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة خمش وجوه ، وشق جيوب ورنة شيطان ... » إلخ .

وروى ابن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « من جلس إلى قينة يسمع منها صب فى أذنه الآنك يوم القيامة »[١] . (والآنك الرصاص المذاب) .

قال القرطبي . ولهذه الآثار وغيرها قال العلماء بتحريم الغناء ، وهو الغناء المعتاد عند المشتهرين به ، الذى يحرك النفوس ، ويبعثها على الهوى ، والغزل والمجون ، الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن ؛ فهذا النوع إذا كان فى شعر يُشبب فيه بذكر النساء ، ووصف محاسنهم وذكر الخمر والمحرمات لا يختلف فى تحريمه ؛ لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق ، فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح ؛ كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة ، كما كان فى حفر الخندق وحَدوِ أنجشة وسلمة بن الأكوع ، فأما ما ابتدعته الصوفية اليوم من الإدمان على سماع المغانى بالآلات المطربة من الشبابات والطار والمعازف والأوتار فحرام .

وقال العلامة ابن القيم : (فى كتابه إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان) :

« ومن مكايد عدو الله ومصايده ، التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين ، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين ؛ سماع المكاء والتصدية ، والغناء بالآلات المحرمة ، الذى يصد القلوب عن القرآن ، ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان ، فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن ، وهو رقية اللواط والزنا ، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقه غاية المنى ، كادبه الشيطان النفوس المبطلة ؛ وخسنه لها مكرًا منه وغرورًا ، وأوحى إليها الشبه الباطلة على حسنه ، فقبلت وحيه ، واتخذت لأجله القرآن مهجورًا ، فلو رأيتهم عند ذاك السماع ، وقد خشعت منهم الأصوات ، وهدأت منهم الحركات ، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه ، وانصبت واحدة إليه ، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان ، وتكسروا فى حركاتهم ورقصهم ، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان ؟ ويحق لهم ذلك ؛ وقد خالط خمارة النفوس ، ففعل فيها أعظم ما يفعله حُمَيا الكؤوس ، فلغير الله بل للشيطان قلوب هناك تمزق وأثواب تشقق ، وأموال فى غير طاعة الله تنفق ، واستفزهم بصوته رحيله ، وأجلب عليهم برجله وخيله ، ونَخَز فى صدورهم وخزًا ، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًا فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدار ، وتارة كالذباب ترقص وُسَيْط الدار ، فيارحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام ، ويا سوأتنا من أشباه الحمير والأنعام ، ويا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام ، قضوا حياتهم لذة وطربًا ،

(١) انظر تفسير القرطبى « تفسير سورة لقمان » جـ ١٤ ص ٥٣ فقد ورد الحديث بلفظة من رواية لأنس بن مالك .

واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا ، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن ، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره ، لما حرك له ساكنًا ، ولا أزعج له قاطنًا ، ولا أثار فيه وجدًا ، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلى الله زندًا ، حتى إذا تلى عليه قرآن الشيطان ، وولج مزموره سمعه ، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت ، وعلى أقدامه فرقصت ، وعلى يديه فصفقت ، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت ، وعلى أنفاسه فتصاعدت ، وعلى زفراته فتزايدت ، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت ، فيأيها الفاتن المفتون ، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون ؛ هلا كانت هذه الأشجان عن سماع القرآن ؟ وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد ؟ وهذه الأحوال السنيات عند تلاوة السور والآيات ؟ ولكن كل إمرىء يصبوا إلى ما يناسبه ، ويميل إلى ما يشاكله ، والجنسية علة الضم قدرًا وشرعًا ، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعًا ، فمن أين هذا الأخاء والنسب ؟ لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب ، ومن أين هذه المصالحة التى أوقعت فى عقد الإيمان وعهد الرحمن خللا ؟ **﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾**[1] .

ولقد أحسن القائل :

تُلِي الكتاب ، فأطرقوا ، لا خيفة ... لكنه إطراق ساهٍ لاهي

وأتى الغناء ، فكالحمير تناهقوا ... والله ما رقصوا لأجل الله

دف ، ومزمار ، ونغمة شادنٍ ... فمتى رأيت عبادة بملاهي ؟

ثَقُلَ الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي

سمعوا له رعدًا وبرقًا ، إذ حوى ... زجرًا وتخويفًا بفعل مناهي

ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها ، ياويحها المتناهي

وأتى السماع موافقًا أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

أين المساعد للهوى من قاطع ... أسبابه ، عند الجهول الساهي ؟

إن لم يكن خمرا الجسوم ، فإنه ... خمر العقول مماثل ومضاهي

فانظر إلى النشوان عند شرابه ... وانظر إلى النسوان عند ملاهي

وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه ... من بعد تمزيق الفؤاد اللاهي

واحكم فأي الخمرتين أحق بالتحـ ... ـريم ، والتأثيم عند الله ؟

(١) الكهف : آية ٥٠ .

ويقول ابن القيم :

ولم يزل أنصار الإسلام وأئمة الهدى تصيح بهؤلاء من أقطار الأرض وتحذر من سلوك سبيلهم ، واقتفاء آثارهم من جميع طوائف الملة .

قال الإمام أبو بكر الطرطوشى فى خطبة كتابه ، فى تحريم السماع : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، ونسأله أن يرينا الحق حقا فنتبعه ، والباطل باطلا فنجتنبه ، وقد كان الناس فيما مضى يتستر أحدهم بالمعصية إذا واقعها ، ثم يستغفر الله ويتوب إليه منها ، ثم كثر الجهل وقل العلم ، وتناقص الأمر ، حتى صار أحدهم يأتى المعصية جهارًا ، ثم ازداد الأمر إدبارًا ، حتى بلغنا أن طائفة من إخواننا المسلمين ، وفقنا الله وإياهم ، استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم فى حب الأغانى واللهو ، وسماع الطقطقة والنقير ، واعتقدته من الدين الذى يقربهم إلى الله ، وجاهرت به جماعة المسلمين ، وشاقت سبيل المؤمنين ، وخالفت الفقهاء والعلماء وحملة الدين :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾[(١)] .

فرأيت أن أوضح الحق ، وأكشف عن شبه أهل الباطل بالحجج التى تضمنها كتاب الله وسنة رسوله ، وأبدأ بذكر أقاويل العلماء ، الذين تدور الفتيا عليهم فى أقاصى الأرض ودانيها ، حتى تعلم هذه الطائفة ، أنها قد خالفت علماء المسلمين فى بدعتها ، والله ولى التوفيق .

فتاوى الأئمة الأربعة فى الغناء

ثم قال : أما مالك فإنه نهى عن الغناء ، وعن استماعه ، وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية ، كان له أن يردها بالعيب .

وسئل مالك رحمه الله : عما يرخص فيه أهل المدينة من الغناء ؟ فقال : إنما يفعله عندنا الفساق .

قال : وأما أبو حنيفة : فإنه يكره الغناء ، ويجعله من الذنوب . قلت : مذهب أبى حنيفة فى ذلك من أشد المذاهب ، وقوله فيه أغلظ الأقوال ، وقد صرح أصحابه بتحريم سماع الملاهى كلها ،

---

(١) النساء : آية ١١٥ .

كالمزمار ، والدف ، حتى الضرب بالقضيب ، وصرحوا بأنه معصية يوجب الفسق وترد به الشهادة ، وأبلغ من ذلك أنهم قالوا : إن السماع فسق ، والتلذذ به كفر ، هذا لفظهم ، ورووا فى ذلك حديثًا لا يصح رفعه .

قالوا : ويجب عليه أن يجتهد فى أن لا يسمعه إذا مر به أو كان فى جواره .

وقال أبو يوسف فى دار يسمع منها صوت المعازف والملاهى : أدخل عليه بغير إذنهم ، لأن النهى عن المنكر فرض ، فلو لم يجز الدخول بغير إذن لامتنع الناس من إقامة الفرض .

قالوا : ويتقدم إليه الإمام ، إذا سمع من داره ، فإن أصر حبسه أو ضربه سياطًا ، وإن شاء أزعجه عن داره .

وأما الشافعى : فقال فى كتاب أدب القضاء : إن الغناء لهو مكره ، يشبه الباطل والمحال ، ومن استكثر منه فهو سفيه ، ترد شهادته ، وصرح أصحابه العارفون بمذهبه بتحريمه ، وأنكروا على من نسب إليه حله ، كالقاضى أبى الطيب الطبرى ، والشيخ أبى إسحاق ، وابن الصباغ .

قال الشيخ أبو إسحاق فى التنبيه : ولا تصح ، يعنى الإجارة ، على منفعة محرمة ، كالغناء والزمر وحمل الخمر ، ولم يذكر فيه خلافًا . فقد تضمن كلام الشيخ أمورًا :

أحدها : أن منفعة الغناء بمجرده منفعة محرمة .

الثانى : أن الاستئجار عليها باطل .

الثالث : أن أكل المال به ، أكل مال بالباطل بمنزلة أكله عوضًا عن الميتة والدم .

الرابع : أنه لا يجوز للرجل بذل ماله للمغنى ، ويحرم عليه ذلك ، فإنه بذل ماله فى مقابله محرم ، وأن بذله فى ذلك كبذله فى مقابلة الدم والميتة .

الخامس : أن الزمر حرام ، وإذا كان الزمر ، الذى هو أخف آلات اللهو حرامًا ، فكيف بما هو أشد منه ؟ كالعود ، والطنبور ، واليراع ، ولا ينبغى لمن شم رائحة العلم أن يتوقف فى تحريم ذلك ، فأقل ما فيه : أنه من شعار الفساق وشاربى الخمور .

وكذلك قال أبو زكريا النووى فى روضته :

القسم الثانى : أن يغنى ببعض آلات الغناء ، بماهو من شعارشاربى الخمر ، وهو مطرب كالطنبور والعود والعنبح ، وسائر المعازف والأوتار ، يحرم استعماله واستماعه . قال : وفى اليراع وجهان ، صحح البغوى التحريم .

ثم ذكر عن الغزالى الجواز . قال : والصحيح تحريم اليراع وهو الشبابة ، وقد حكى أبو عمرو ابن الصلاح الإجماع على تحريم السماع الذى جمع الدف والشبابة والغناء ، فقال فى فتاويه :

وأما إباحة هذا السماع وتحليله ، فليعلم أن الدف والشبابة والغناء ، إذا اجتمعت فاستماع ذلك حرام عند أئمة المذاهب وغيرهم من علماء المسلمين ، ولم يثبت عن أحد ممن يعتد بقوله فى الإجماع والاختلاف ، أنه أباح هذا السماع ؛ والخلاف المنقول عن بعض أصحاب الشافعى ، إنما نقل فى الشبابة منفردة ، والدف منفردًا ، فمن لا يحصل أولا يتأمل ربما اعتقد خلافا بين الشافعيين فى هذا السماع الجامع لهذه الملاهى ، وذلك وهم بين الصائر إليه ؛ تنادى عليه أدلة الشرع والعقل ، مع أنه ليس كل خلاف يعتمد عليه ، ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء ، وأخذ بالرخص فى أقاويلهم تزندق أو كاد .

قال : وقولهم فى السماع المذكور : أنه من القربات والطاعات ، قول مخالف لإجماع المسلمين ، ومن خالف إجماعهم فعليه ما فى قوله تعالى : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا** ﴾[1] .

وقد تواتر عن الشافعى أنه قال : خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة ، يسمونه التغبير ، يصدون به الناس عن القرآن .

فإذا كان هذا قوله فى التغبير ، وتعليله أنه يصد عن القرآن ، وهو شعر يزهد فى الدنيا ، يغنى به مغن ، فيضرب بعض الحاضرين بقضيب على نطع أو مخدة على توقيع غنائه ، فليت شعرى ما يقول فى سماع التغبير عنده كنفلة فى بحر ، قد اشتمل على كل مفسدة ، وجمع كل حرام ، فالله بين دينه وبين كل متعلم مفتون وعابد جاهل .

قال سفيان بن عيينة : كان يقال : احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل ، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .

---

(١) النساء : آية ١١٥ .

ومن تأمل الفساد الداخل على الأمة وجده من هذين المفتونين .

وأما مذهب الإمام أحمد فقال عبد الله ابنه : سألت أبى عن الغناء ؟ فقال : الغناء ينبت النفاق فى القلب ، لا يعجبنى . ثم ذكر قول مالك : إنما يفعله عندنا الفساق ....

ونص على كسر آلات اللهو كالطنبور وغيره ، إذا رآها مكشوفة وأمكنه كسرها ، وعنه فى كسرها إذا كانت مغطاة تحت ثيابه وعلم بها روايتان منصوصتان .

ونص فى أيتام ورثوا جارية مغنية ، وأرادوا بيعها فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة ، فقالوا : إذا بيعت مغنية ساوت عشرين ألفًا ونحوها ، وإذا بيعت ساذجة لا تساوى ألفين . فقال : لا تباع إلا على أنها ساذجة .

ولو كانت منفعة الغناء مباحة لما فوت هذا المال على الأيتام .

سماع الأغانى من المرأة من أعظم المحرمات

وأما سماعه من المرأة الأجنبية أو الأمرد ، فمن أعظم المحرمات وأشدها فسادًا للدين .

قال الشافعى رحمه الله : وصاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها ، فهو سفيه ترد شهادته ، وأغلظ القول فيه ، وقال : هو دياثة ، فمن فعل ذلك كان ديوثًا .

قال القاضى أبو الطيب : وإنما جعل صاحبها سفيهًا ، لأنه دعا الناس إلى الباطل ، ومن دعا الناس إلى الباطل كان سفيهًا فاسقاً .

قال : وكان الشافعى يكره التغبير ، وهو الطقطقة بالقضيب ، ويقول : وضعته الزنادقة ليشغلوا به عن القرآن ......

شبهات والرد عليها

قال العلامة ابن القيم فى كتابه (مدارج السالكين)

ومن أعجب العجائب : استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق القوم ، وأنه مباح : بكونه مستلذًا طبعًا ، تلذه النفوس ، وتستروح إليه ، وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة ، فيهون عليه بالحُداء ، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه ، وزيادة فى خلقه ، وبأن الله ذم الصوت الفظيع ، فقال : ﴿ **إن أنكر الأصوات لصوت الحمير** ﴾[1] . وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة ، فقال فيه : ﴿ **فهم فى روضة يحبرون** ﴾[2] . وإن ذلك هو السماع الطيب ، فكيف يكون حرامًا ، وهو فى الجنة ؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشىء كأذنه — أى كاستماعه — لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن ، وبأن أبا موسى الأشعرى استمع النبى ﷺ إلى صوته ، وأثنى عليه بحسن الصوت ، وقال : « لقد أوتى مزمارًا من مزامير آل داود »[3] . أى زينته لك وحسنته . وبقوله ﷺ « زينوا القرآن بأصواتكم »[4] . وبقوله ﷺ « ليس منا ما لم يتغن بالقرآن »[5] . والصحيح : أنه من التغنى بمعنى تحسين الصوت . وبذلك فسده الإمام أحمد رحمه الله ، فقال يحسنه بصوته ما استطاع . وبأن النبى ﷺ أقر عائشة على غناء القينتين يوم العيد . وقال لأبى بكر : « دعهما . فإن لكل قوم عيدًا . وهذا عيدنا أهل الإسلام »[6] .

وبأنه ﷺ أذن فى العرس فى الغناء وسماه لهوًا . وقد سمع رسول الله ﷺ الحُداء . وأذن فيه . وكان يسمع أنسا والصحابة وهم يرتجزون بين يديه فى حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة . وحدا به الحادى فى منصرفه من خيبر . فجعل يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن إن صيح بنا أتينا ... وبالصياح عوّلوا علينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا

---

(١) لقمان : آية ١٩ .
(٢) الروم : آية ١٥ .
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين » باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن حـ ١ ص ٥٤٦ ، حديث رقم ٧٩٣/٢٣٦ .
(٤) انظر سند أبى داود كتاب الصلاة من باب استحباب الترتيل فى القراءة حـ ٢ ص ٥٥ظ رقم ١٤٦٨ .
(٥) انظر سنن أبى داود كتاب الصلاة من باب استحباب الترتيل فى القراءة حـ ٢ ص ١٥٦ رقم ١٤٦٩ .
(٦) انظر سند الإمام أحمد حـ ٦ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

فدعا لقائله :

وسمع قصيدة كعب بن زهير . وأجازه ببرده .

واستنشد الأسود بن سريع قصائده حمد بها ربه .

واستنشد من شعر أمية بن أبى الصلت مائة قافية .

وأنشده الأعشى شيئا من شعره فسمعه .

وصدق لبيدا فى قوله : الاكل شىء ما خلا الله باطل .

ودعا لحسان « أن يؤيده الله بروح القدس ما دام ينافح عنه » وكان يعجبه شعره . وقال له « اهجهم . وبروح القدس معك »(٥) .

وأنشدته عائشة قول أبى كبير الهذلى :

ومبرإ من كل غُبر حيضه ... وفساد مرضعة وداء مُغيل

وإذا نظرت إلى أسِرّة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهلل

وقالت « أنت أحق بهذا البيت » فسُرَّ بقولها .

وبأن ابن عمر رضى الله عنهما رخص فيه ، وعبد الله بن جعفر ، وأهل المدينة وبأن كذا وكذا وليا لله حضروه وسمعوه ، فمن حرمه فقد قدح فى هؤلاء السادة القدوة الأعلام .

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت الآدمى أولى بالإباحة ، أو مساوية .

وبأن السماع يحدد روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه ، فإن كان محبوبه حرامًا كان السماع معينًا له على الحرام ، وإن كان مباحًا كان السماع فى حقه مباحًا ، وإن كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة ، لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب ، كالتذاذ العين بالمنظر الحسن ، والشم بالروائح الطيبة ، والفم بالطعوم الطيبة ، فإن كان هذا حرامًا كانت جميع هذه اللذات والإدراكات محرمة .

(٥) مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ٢٩٩ .

فالجواب :

إن هذه حَيْدة عن المقصود ، وروغان عن محل النزاع ، وتعلق بما لا متعلق به ، فإن جهة كون الشيء مستلذًا للحاسة ملائمًا لها ، لا يدل على إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه ، فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة ، تكون فى الحرام ، والواجب ، والمكروه ، والمستحب ، والمباح ، فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال ؟ .

وهل هذه إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة ، وأن لذته لا ينكرها من له طبع سليم ، وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد ؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات ؟ وهل أصوات المعازف التى صح عن النبى ﷺ تحريمها ، وأن فى أمته من سيستحلها بأصح إسناد ، وأجمع أهل العلم على تحريمها ، إلا لذيذة تلذ السمع ؟ وهل فى التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه : من إباحة أو تحريم .

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوتِ الطيب ، وهو زيادة نعمة منه لصاحبه .

فيقال : والصورة الحسنة الجميلة ، أليست زيادة فى النعمة ، والله خالقها ومعطى حسنها ؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها ، والالتذاذ على الإطلاق بها ؟

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة ؟ وهل فى ذم الله لصوت الحمار ، ما يدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات ، والألحان اللذيذات ، من الصور المستحسنات ، بأنواع القصائد المنغمات ، بالدفوف والشبابات ؟!

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بسماع أهل الجنة ، وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر ، بأن فى الجنة خمرًا ، وعلى حل لباس الحرير ، بأن لباس أهلها حرير ، وعلى حل أوانى الذهب والفضة والتحلى بهما للرجال ، بكون ذلك ثابتًا وجود النعيم به فى الجنة .

فإن قال : قد قام الدليل على تحريم هذا ، ولم يقم على تحريم السماع ، قيل : هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة ، فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل ، لا يرضى به محصل .

وأما قولكم : « لم يقم دليل على تحريم السماع »

فيقال لك : أى السماعات تعنى ؟ وأى المسموعات تريد ؟ . فالسماعات والمسموعات ، منها المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب والمستحب ، فعين نوعًا يقع الكلام فيه نفيًا وإثباتًا .

فإن قلت : سماع القصائد ، قيل لك : أى القصائد تعنى ؟ ما مُدح به الله ورسوله ودينه وكتابه ، وهجى به أعداؤه ؟ . فهذه لم يزل المسلمون يروونها ويسمعونها ويتدراسونها ، وهى التى سمعها رسول الله ﷺ وأصحابه وأثاب عليها ، وحرض حسانًا عليها ، وهى التى غرت أصحاب السماع الشيطانى فقالوا : تلك قصائد ، وسماعنا قصائد ، فنعم إذن ، والسنة كلام ، والبدعة كلام ، والتببيح كلام ، والغيبة كلام ، والدعاء كلام ، والقذف كلام ، ولكن هل سمع رسول الله ﷺ وأصحابه سماعكم هذا الشيطانى المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة فى غير هذا الموضع ، وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها ؟

ونظير هذا : ما غرهم من استحسانه ﷺ الصوت الحسن بالقرآن ، وأذنه له ، وإذنه فيه ، ومحبة الله له ، فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم ، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد ، وذكر القدِّ والنهد والخصر ، ووصف العيون وفعلها ، والشعر الأسود ، ومحاسن الشباب ، وتوريد الخدود ، وذكر الوصل والصد ، والتجنى والهجران ، والعتاب والاستعطاف ، والاشتياق ، والقلق والفراق ، وما جرى هذا المجرى ، مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر ، بما لا نسبة بينهما ، وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه ، إلى سكرة العشق التى لا يستفيق الدهر صاحبها ، إلا فى عسكر الهالكين ، سليبًا حريبًا ، أسيرًا قتيلاً ؟ .

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع ؟ وهل يظن بحكيم أن يحرم أضعاف مفسدة الشراب ؟ حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا فى سكر السماع ، وتأثيره فى العقول والأرواح : خرجوا عن الذوق والحس ، وظهرت مكابرة القوم ، فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ، ويبيح له ما فيه أعظم السقم ؟ والمنصف يعلم أن لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب ، وسقمها بسكر السماع ، وكلامنا مع واجد لا فاقد ، فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا : استدلالكم على إباحة السماع ــ المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية ــ بغناء بنتين صغيرتين دون البلوغ ، عند امرأة صبية فى عيد وفرح ، وأبيات من أبيات العرب ، فى وصف الشجاعة والحروب ، ومكارم الأخلاق والشيم ، فأين هذا من هذا ؟

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم ، فإن الصديق رضى الله عنه سمى ذلك « مزمورًا من مزامير الشيطان » وأقره رسول الله ﷺ على هذه التسمية ، ورخص فيه لجويرتين غير مكلفتين ، ولا مفسدة فى إنشادهما ولا استماعهما ، أفيدل هذا على إباحة ما تعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على ما لا يخفى ؟ فياسبحان الله ! كيف ضلت العقول والأفهام ؟

وأعجب من هذا كله : الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله ﷺ من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد ؟ وهل حرم أحد مطلق الشعر ، وقوله واستماعه ؟ فكم فى هذا التعلق ببيوت العنكبوت ؟

وأعجب من هذا : الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة ، وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا : ﴿ **إنما البيع مثل الربا** ﴾[1] . وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان والأوتار والعيدان ، وأصوات أشباه النساء من المردان والغناء ، بما يحدو الأرواح والقلوب ، إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب ؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القِمْرى والبلبل والحفراز ونحوها ؟ بل تقول : لو كانا سواء ، لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة ، تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد ، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ومعاذ الله أن يكونا سواء .

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة : ثلاث قواعد ، من أهم قواعد الإيمان والسلوك ، فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جرف هار .

القاعدة الأولى :

إن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه ، فيحكم عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه ؟

فهذا ينشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة ، حيث جعلوه حاكمًا ، فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد ، وجعلوه محكًا للحق والباطل ، فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص ، وحكموا فيها الأذواق والأحوال والمواجيد ، فعظم الأمر ، وتفاقم الفساد والشر ، وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم ، وانعكس السير ، وكان إلى الله ، فصيروه إلى النفوس ، فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله ، وهؤلاء يعبدون أنفسهم ...

---

(١) البقرة : آية ٢٧٥ .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع فى نفسه وفى غيره ، **فكل ما خالف مراد الله الدينى من العبد ، فهو** حظه وشهوته ، مالاً كان ، أو رياسة ، أو صورة ، أو حالاً ، أو ذوقًا ، أو وجدًا .

تحكيم الوحى :

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدث المكاشف ــ عمر رضى الله عنه ــ لا يلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته فى شىء من أمور الدين ، حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب ، فإذا أخبروه عن رسول الله ﷺ بشىء ولم يلتفت إلى ذوقه ، ولا إلى وجده وخطابه ، بل يقول « لو لم نسمع بهذا لقضينا بغيره » ويقول : « يأيها الناس ، رجل أخطأ وامرأة أصابت » فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضى الله عنه ، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة .

القاعدة الثانية :

إنه إذا وقع النزاع فى حكم من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق ، هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة ، عند الله ، وعند عباده المؤمنين ، وهى وحيه الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه ، وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول ، وما أبطله ورده فهو الباطل المردود ، ومن لم يبن على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله ؛ فليس على شىء من الدين ، وإن . وإن ، وإنما معه خدع وغرور **﴿ كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا . ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾**[1] .

القاعدة الثالثة :

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شىء ، هل هو الإباحة أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته ، فإن كان مشتملاً على مفسدة راجحة ظاهرة ، فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته ، بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى ، ولاسيما إذا كان طريقا مفضيا إلى ما يغضب الله ورسوله ، موصلا إليه عن قرب ، وهو رقية له ورائد وبريد ، فهذا لا يشك فى تحريمه أولو البصائر .

---

(١) النور : آية ٣٩ .

فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر ، لأنه يسوق النفس إلى السكر ، الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سوقًا للنفوس إلى الحرام بكثير ؟ فإن الغناء — كما قال ابن مسعود رضى الله عنه : هو « رقية الزنا » وقد شاهد الناس أنه ما عاناه صبى إلا وفسد ، ولا امرأة إلا وبغت ، ولا شاب إلا وإلا ، ولا شيخ إلا وإلا ، والعيان من ذلك يغنى عن البرهان ، ولاسيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حدو إلى المعصية والفجور ، بإن يكون على الوجه الذى ينبغى لأهله ، من المكان والإمكان ، والعُشراء والإخوان ، وآلات المعازف ، من اليراع والدف والأوتار والعيدان ، وكان القوّال شاذًا شجى الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان ، وكان القول فى العشق والوصال ، والصد والهجران .

ما جاء فى الشرع من أسماء السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى

قال ابن القيم : « هذا السماع الشيطانى المضاد للسماع الرحمانى له فى الشرع بضعة عشر اسما :

اللهو ، واللغو ، والباطل ، والزور ، والمكاء ، والتصدية ، ورقية الزنا ، وقرآن الشيطان ، ومنبت النفاق فى القلب ، والصوت الأحمق ، والصوت الفاجر ، وصوت الشيطان ، ومزمور الشيطان ، والسمود .

أسماؤه دلت على أوصافه ... تبا لذى الأسماء والأوصاف

فنذكر مخازى هذه الأسماء ، ووقوعها عليه فى كلام الله ، وكلام رسوله والصحابة ، ليعلم أصحابه وأهله بما به ظفروا ، وأى تجارة رابحة خسروا :

فدع صاحب المزمار ، والدف ، والغنا ... وما اختاره عن طاعة الله مذهبا
ودعه يعش فى غيّه وضلاله ... على تاتنا يحيا ويبعث أشيبا
وفى تنتنا يوم المعاد نجاته ... إلى الجنة الحمراء ، يدعى مقربا
سيعلم يوم العرض أى بضاعة ... أضاع ، وعند الوزن ما خف أو ربا
ويعلم ما قد كان فيه حياته ... إذا حصلت أعماله كلها هبا
دعاه الهدى والغى من ذا يجيبه ؟ ... فقال لداعى الغىّ : أهلاً ومرحبا
وأعرض عن داعى الهدى ، قائلاً له : ... هواى إلى صوت المعازف قد صبا

فالاسم الأول : اللهو ، (لهو الحديث)

قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرًا فبشره بعذاب أليم** ﴾[1] .

.. قال الواحدى وغيره : أكثر المفسرين : على أن المراد بلهو الحديث : الغناء ..

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد : هو اشتراء المغنى والمغنية بالمال الكثير ، والاستماع إليه وإلى مثله من الباطل ، وهذا قول مكحول ، وهذا اختيار أبى إسحاق أيضا .

وقال : أكثر ما جاء فى التفسير : أن لهو الحديث ههنا هو الغناء ، لأنه يلهى عن ذكر الله تعالى .

قال الواحدى : وهذه الآية على هذا التفسير تدل علىٰ تحريم الغناء ــ ثم ذكر كلام الشافعى فى رد الشهادة بإعلان الغناء ، قال : وأما غناء الفتيات ، فذلك أشد ما فى الباب ، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه ، وهو ما روى أن النبى ﷺ قال : « من استمع إلى قينة صُب فى أذنيه الآنك يوم القيامة »[2] . والآنك : الرصاص المذاب .

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعًا إلى النبى ﷺ ففى سند الإمام أحمد ، وسند الحميدى ، وجامع الترمذى من حديث أبى أمامة والسياق للترمذى : أن النبى ﷺ قال : « لا تبيعوا المغنيات ، ولا تشتروهن ، ولا تعلموهن ولا خير فى تجارة فيهن وثمنهن حرام »[3] .

فى مثل هذا نزلت هذه الآية :

﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ .

وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زجر عن على بن يزيد الإهالى عن القاسم ،

---

(١) لقمان : الآيتان ٦ ، ٧ .

(٢) انظر تفسير القرطبى « تفسير سورة لقمان حـ ١٤ ص ٥٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٣) أخرجه أحمد حـ ٥ ص ٢٦٤ .

فعبيد الله بن زحر ثقة ، والقاسم ثقة ، وعلى ضعيف ، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات سنذكرها إن شاء الله تعالى ، ويكفى تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث بأنه الغناء ، فقد صح ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .. وصح عن ابن عمر رضى الله عنهما أيضا أنه الغناء .

ولا تعارض بين تفسير « لهو الحديث » بالغناء ، وتفسيره بأخبار الأعاجم وملوكها وملوك الروم ، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة ، يشغلهم به عن القرآن ، فكلاهما لهو الحديث ، ولهذا قال ابن عباس : لهو الحديث : الباطل والغناء . فمن الصحابة من ذكر هذا ، ومنهم من ذكر الآخر ، ومنهم من جمعهما .

إذا عرف هذا ، فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن وإن لم ينالوا جميعه . فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن ، ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا . وإذا يتلى عليه القرآن ولى مستكبرا كأن لم يسمعه ، كأن فى أذنيه وقرا ، وهو الثقل والصمم ، وإذا علم منه شيئا استهزأ به ، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرا ، وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم فلهم حصة ونصيب من هذا الذم .

يوضحه أنك لا تجد أحدا عنى بالغناء وسماع آلاته ، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى علمًا وعملاً ، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء ، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن ، عدل عن هذا إلى ذاك ، وثقل عليه سماع القرآن وربما حمله الحال على أن يسكت القارىء ، ويستطيل قراءته ، ويستزيد المغنى ، ويستقصر نوبته .

والكلام فى هذا مع من فى قلبه بعض حياة يحس بها ، فإما من مات قلبه ، وعظمت فتنته ، فقد سد على نفسه طريق النصيحة . **﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾**(١) .

الاسم الثانى والثالث : الزور ، واللغو .

قال تعالى : **﴿ والذين لا يشهدون الزور ، وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾**(٢) .

---

(١) المائدة : آية ٤١ .

(٢) الفرقان : آية ٧٢ .

قال محمد بن الحنفية : الزور ههنا الغناء ، وقاله ليث عن مجاهد : وقال الكلبى : لا يحضرون مجالس الباطل .

قال الزجاج : لا يجالسون أهل المعاصى ، ولا يمالئونهم عليها ، ومروا مر الكرام ، الذين لا يرضون باللغو ، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه ، والاختلاط بأهله .

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله : ﴿ **وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** ﴾(١) .

وقال ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون** ﴾(٢) .

وتأمل كيف قال سبحانه ﴿ **لا يشهدون الزور** ﴾ ولم يقل بالزور ، لأن (يشهدون) بمعنى يحضرون . فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور . فكيف بالتكلم به وفعله ؟ والغناء من أعظم الزور . والزور : يقال على الكلام الباطل ، وعلى العمل الباطل ، وعلى العين نفسها ، كما فى حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به ، فقال « هذا الزور » فالزور : القول ، والفعل ، والمحل .

وأصل اللفظة من الميل ، ومنه الزور ، بالفتح ، ومنه : زرت فلاناً إذا ملت إليه ، وعدلت إليه ، فالزور : ميل عن الحق الثابت إلى الباطل ، الذى لا حقيقة له قولاً وفعلا .

الاسم الرابع : الباطل .

والباطل : ضد الحق . قال ابن وهب : أخبرنى سليمان بن بلال عن كثير بن زيد ، أنه سمع عبيد الله يقول للقاسم بن محمد كيف ترى فى الغناء ؟ فقال له القاسم : هو باطل ، فقال : قد عرفت أنه باطل ، فكيف ترى فيه ؟ فقال القاسم : أرأيت الباطل ، أين هو ؟ قال : فى النار ، قال : فهو ذاك .

وقال رجل لابن عباس رضى الله عنهما : ما تقول فى الغناء ، أحلال هو أم حرام ؟ فقال :

(١) القصص : آية ٥٥ .

(٢) المؤمنون : الآيات ١ — ٣ .

لا أقول ذلك . ثم قال له : أرأيت الحق والباطل ، إذا جاء يوم القيامة : فأين يكون الغناء ؟ فقال الرجل : يكون مع الباطل ، فقال له ابن عباس ، اذهب فقد افتيت نفسك .

فهذا جواب ابن عباس رضى الله عنهما عن غناء الأعراب ، الذى ليس فيه مدح الخمر والزنا واللواط ، والتشبيب بالأجنبيات ، وأصوات المعازف ، والآلات المطربات ، فإن غناء القوم لم يكن فيه شيء من ذلك ، ولو شاهدوا هذا الغناء ، لقالوا فيه قول ، فإن مضرته وفتنته فوق مضرة شرب الخمر بكثير ، وأعظم من فتنته .

فمس أبطل الباطل أن تأتى شريعة بإباحته ، فمن قاس هذا على غناء القوم ، فقياسه من جنس قياس الربا على البيع والميتة على المذكاة ، والتحليل الملعون فاعله على النكاح ، الذى هو سنة رسول الله ﷺ .

وأما اسم المكاء والتصدية

فقال تعالى عن الكفار :
﴿ وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ﴾[1] .

قال ابن عباس ، وابن عمر ، وعطية ، ومجاهد ، والضحاك ، والحسن وقتادة : المكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق .
قال ابن عباس : كانت قريش يطوفون بالبيت عراة ، ويصفرون ويصفقون .

قال ابن عرفة ، وابن الانبارى : المكاء والتصدية ليسا من الصلاة ، ولكن الله تعالى أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التى أمروا بها المكاء والتصدية ، فألزمهم ذلك عظيم الأوزار .

والمقصود : أن المصفقين والصفارين فى يراع أو مزمار ونحوه ، فيهم شبه من هؤلاء ، ولو أنه مجرد الشبه الظاهر ، فلهم قسط من الذم بحسب تشبههم بهم ، وإن لم يتشبهوا بهم فى جميع مكائهم وتصديتهم ، والله سبحانه لم يشرع التصفيق للرجال وقت الحاجة إليه فى الصلاة إذا نابهم أمر ، بل

---
(١) الأنفال : آية ٣٥ .

أمروا بالعدول عنه إلى التسبيح ، لئلا يتشبهوا بالنساء ، فكيف إذا فعلوه لا لحاجة ، وقرنوا به أنواعًا من المعاصى قولا وفعلا ؟ .

وأما تسميته رقية الزنا

فهو اسم موافق لمسماه ، ولفظ مطابق لمعناه ، فليس فى رقى الزنى أنجح منه ، وهذه التسمية ، معروفة عن الفضيل بن عياض . قال ابن أبى الدنيا : أخبرنا الحسين بن عبد الرحمن ، قال : قال الفضيل بن عياض : الغناء رقية الزنا .

قال : وأخبرنى محمد بن الفضل الأزدى ، قال : نزل الحطيئة برجل من العرب ومعه ابنته مليكة ، فلما جنه الليل سمع غناء ، فقال لصاحب المنزل ، كف هذا عنى ، فقال : وما تكره من ذلك ؟ فقال : إن الغناء رائد من رادة الفجور ، ولا أحب أن تسمعه هذه ، يعنى ابنته ، فإن كففته وإلا خرجت عنك .

فإذا كان الشاعر المفتون اللسان ، الذى هابت العرب هجاءه ، خاف عاقبة الغناء ، فما الظن بغيره ؟ ولا ريب أن كل غيور يجنب أهله سماع الغناء ، كما يجنبهن أسباب الريب ، ومن طرق أهله إلى سماع رقية الزنى ، فهو أعلم بالأثم الذى يستحقه .

ومن المعلوم عند القوم أن المرأة إذا استصعبت على الرجل ، اجتهد أن يسمعها صوت الغناء ، فحينئذ تعطى الليان . وهذا لأن المرأة سريعة الانفعال للأصوات جدًا ، فإذا كان الصوت بالغناء ، صار انفعالها من وجهين ، من جهة الصوت ، ومن جهة معناه ؛ ولهذا قال النبى ﷺ لأنجشة حاديه : « ياأنجشة ، رويدك ، رفقًا بالقوارير »[1] عنى النساء .

فأما إذا اجتمع إلى هذه الرقية الدف والشبابة ، والرقص بالتخنق والتكسر ، فلو حبلت المرأة من غناء لحبلت من هذا الغناء .

فلعمر الله ، كم من حرة صارت بالغناء من البغايا ، وكم من حر أصبح به عبدًا للصبيان أو الصبايا ، وكم من غيور تبدل به اسما قبيحًا بين البرايا ، وكم من ذى غنى وثروة أصبح بسببه على الأرض بعد المطاف والحشايا ، وكم من معافى تعرض له فأمسى وقد حلت به أنواع البلايا ، وكم أهدى للمشغوف

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل (باب رحمة النبى ﷺ بالنساء) حـ ٤ ص ١٨١١ رقم ٢٣٢٣/٧٠ .

به من أشجان وأحزان ، فلم يجد بدا من قبول تلك الهدايا ، وكم جرع من غصة وأزال من نعمة ، وجلب من نقمة وذلك منه من إحدى العطايا ، وكم خبأ لأهله من آلام ينتظره ، وغموم متوقعة ، وهموم مستقبلة .

وأما تسميته منبت النفاق

فقال على بن الجعد ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « الغناء ينبت النفاق فى القلب » .

وهو صحيح عن ابن مسعود من قوله . وقد روى عن ابن مسعود مرفوعًا ، رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب ذم الملاهى .

قال بسنده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الغناء ينبت النفاق فى القلب ، كما ينبت الماء البقل »[1] ... وفى رفعه نظر والموقوف أصح .

فإن قيل : فما وجه إنباته للنفاق فى القلب من بين سائر المعاصى ؟

قيل : هذا من أول شىء على فقه الصحابة فى أحوال القلوب وأعمالها ، ومعرفتهم بأدويتها وأدوائها ، وأنهم هم أطباء القلوب ، دون المنحرفين عن طريقهم ، الذين داووا أمراض القلوب بأعظم أدوائها ، فكانوا كالمداوى من السقم بالسم القاتل ، وهكذا والله فعلوا بكثير من الأدوية التى ركبوها أو بأكثرها . فاتفق قلة الأطباء ، وكثرة المرضى ، وحدوث أمراض مزمنة لم تكن فى السلف ، والعدول عن الدواء النافع الذى ركب الشارع ، وميل المريض إلى ما يقوى مادة المرضى ، فاشتد البلاء وتفاقم الأمر ، وامتلأت الدور ، والطرقات والأسواق ، من المرضى ، وقام كل جهول يطيب الناس ، فاعلم أن للغناء خواص لها تأثير فى صبغ القلب بالنفاق ، ونباته فيه كنبات الزرع فى الماء .

فمن خواصه : أنه يلهى القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره ، والعمل بما فيه ، فإن القرآن والغناء لا يجتمعان فى القلب أبدا لما بينهما من التضاد ، فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى ويأمر بالعفة ، ومجانبة شهوات النفوس ، وأسباب الغى ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان ، والغناء يأمر بضد ذلك كله ، ويحسنه ، ويهيج النفوس إلى شهوات الغى ، فيثير كامنها ، ويزعج قاطنها ، ويحركها إلى كل قبيح

---

(١) أخرجه البيهقى فى سننه الكبرى ، حـ ١٠ ص ٢٢٣ كتاب الشهاوات ، باب الرجل يغنى فيتخذ الغناء صناعة يؤتى عليه ويأتى له ويكون منسوبًا إليه مشهورًا به معروفًا أو المرأة .

ويسوقها إلى وصل كل مليحة ومليح ، فهو والخمر رضيعا لبان ، وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان ، فإنه صنو الخمر ورضيعه ، ونائبه وحليفه ، وخدينه وصديقه ، عقد الشيطان بينهما عقد الإخاء الذى لا يفسخ ، وأحكم بينهما الوفاء التى لا تنسخ ، وهواجس القلب ، وسارق المروءة ، وسوس العقل ، يتغلغل فى مكامن القلوب ، ويطلع على سرائر الأفئدة ، ويدب إلى محل التخيل ، فيثير ما فيه من الهوى والشهوة ، والسخافة والرقاعة ، والرعونة والحماقة ، فبينما ترى الرجل وعليه سمة الوقار ، وبهاء العقل ، وبهجة الإيمان ، ووقار الإسلام ، وحلاوة القرآن ، فإذا استمع إلى الغناء ومال إليه ، نقص عقله ، وقل حياؤه ، وذهبت مروءته وفارقه بهاؤه ، وتخلى عنه وقاره ، وفرح به شيطانه ، وشكا إلى الله تعالى إيمانه ، وثقل عليه قرآنه ، وقال : يارب لا تجمع بينى وبين قرآن عدول فى صدر واحد ، فاستحسن ما كان قبل السماع يستقبحه ، وأبدى من سره ما كان يكتمه ، وانتقل من الوقار والسكينة إلى كثرة الكلام والكذب ، والزهزهة والفرقعة بالأصابع ، فيميل برأسه ، ويهز منكبيه ويضرب الأرض برجليه ، ويدق على أم رأسه بيديه ، ويثب وثبات الذباب ، ويدور دوران الحمار حول الدولاب ، ويصفق بيديه تصفيق النسوان ، ويخور من الوجد ولا كخوار الثيران ، وتارة يتأوه تأوه الحزين ، وتارة يزعق زعقات المجانين ، ولقد صدق الخبير به من أهله حيث يقول :

أتذكر ليلة وقد اجتمعنا ... على طيب السماع إلى الصباح ؟
ودارت بيننا كأس الأغانى ... فأسكرت النفوس بغير راح
فلم تر فيهم إلا نشاوى ... سرورًا ، والسرور هناك صاح
إذا نادى أخو اللذات فيه ... أجاب اللهو : حى على السماع
ولم نملك سوى المهجات شيئا ... أرقناها لألحاظ الملاح

وقال بعض العارفين : السماع يورث النفاق فى قوم ، والعناد فى قوم ، والكذب فى قوم ، والفجور فى قوم ، والرعونة فى قوم .

وأكثر ما يورث عشق الصور ، واستحسان الفواحش ، وإدمانه يثقل القرآن على القلب ، ويكرهه إلى سماعه بالخاصية ، وإن لم يكن هذا نفاقا فما للنفاق حقيقة .

وسر المسألة : أنه قرآن الشيطان ، كما سيأتى ، فلا يجتمع هو وقرآن الرحمن فى قلب أبدًا .

وأيضا فإن أساس النفاق ، أن يخالف الظاهر الباطن ، وصاحب الغناء بين أمرين :

أما أن يتهتك ، فيكون فاجرًا ، أو يظهر النسك ، فيكون منافقًا ، فإنه يظهر الرغبة فى الله ورسوله من أصوات المعازف وآلات اللهو ، وما يدعو إليه الغناء ويهيجه ، فقلبه بذلك معمور ، وهو من محبة ما يحبه الله ورسوله ، وكراهة ما يكرهه قفر ، وهذا محض النفاق .

وأيضًا : فإن الإيمان قول وعمل ، قول بالحق ، وعمل بالطاعة . وهذا ينبت على الذكر وتلاوة القرآن ، والنفاق قول بالباطل ، وعمل البغى ، وهذا ينبت على الغناء .

وأيضا ، فمن علامات النفاق ، قلة ذكر الله ، والكسل عند القيام إلى الصلاة ، ونقر الصلاة ، وقل أن تجد مفتونا بالغناء إلا وهذا وصفه .

وأيضا : فإن النفاق مؤسس على الكذب ، والغناء من أكذب الشعر ، فإنه يحسن القبيح ويزينه ويأمر به ، ويقبح الحسن ويزهد فيه ، وذلك عن النفاق .

وأيضا ، فإن النفاق غش ومكر وخداع ، والغناء مؤسس على ذلك .

وأيضا : فإن المنافق يفسد من حيث يظن أن يصلح ، كما أخبر الله سبحانه بذلك عن المنافقين ، وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن أن يصلحه . والمغنى يدعوا القلوب إلى فتنة الشهوات ، والمنافق يدعوها إلى فتنة الشبهات .

قال الضحاك : « الغناء مفسدة للقلب ، مسخطة للرب » .

فالغناء يفسد القلب ، وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق . وبالجملة فإذا تأمل البصير حال أهل الغناء وحال أهل الذكر والقرآن ، تبين له حذق الصحابة ومعرفتهم بأدواء القلوب وأدويتها ، وبالله التوفيق .

وأما تسميته : قرآن الشيطان

فمأثور عن التابعين ....

ولما أراد عدو الله أن يجمع عليه نفوس المبطلين ، قرنه بما يزينه من الألحان المطربة ، وآلات الملاهى والمعازف ، وأن يكون من امرأة جميلة ، أو صبى جميل ، ليكون ذلك أدعى إلى قبول النفوس لقرآنه ، وتعوضها به عن القرآن المجيد .

وأما تسميته : بالصوت الأحمق ، والصوت الفاجر .

فهى تسمية الصادق المصدق ، الذى لا ينطق عن الهوى .

فروى الترمذى من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال :

« خرج رسول الله ﷺ مع عبد الرحمن بن عوف إلى النخل ، فإذا ابنه إبراهيم يجود بنفسه فوضعه فى حجره ففاضت عيناه ، فقال عبد الرحمن : أتبكى وأنت تنهى الناس ؟ قال : إنى لم أنهه عن البكاء ، وإنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت عند نغمة لهو ولعب ، ومزامير شيطان ، وصوت عند مصيبة : خمش وجوه ، وشق جيوب ، ورنة ، وهذا هو رحمة ، ومن لا يرحم لا يُرحم ، لولا أنه حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزنًا هو أشد من هذا ، وإنا بك لمحزنون ، تبكى العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب « قال الترمذى : هذا حديث حسن »[1] .

فانظر إلى هذا النهى المؤكد ، بتسميته صوت الغناء صوتًا أحمق ، ولم يقتصر على ذلك ، حتى وصفه بالفجور ، ولم يقتصر على ذلك ، حتى سماه من مزامير الشيطان ، وقد أقر النبى ﷺ أبا بكر الصديق على تسمية الغناء مزمور الشيطان ، فإن لم يستفد التحريم من هذا لم نستفده من نهى أبدًا .

فكيف يستجيز العارف إباحة ما نهى عنه رسول الله ﷺ وسماه صوتا أحمق فاجرًا ، ومزمور الشيطان ، وجعله والنياحة التى لعن فاعلها أخوين ؟ وأخرج النهى عنهما مخرجا واحدًا ، ووصفهما بالحمق والفجور وصفًا واحدًا .

وقال الحسن : صوتان ملعونان : مزمار عند نغمة ، ورنة عند مصيبة .

وأما تسميته صوت الشيطان .

فقد قال الله تعالى للشيطان وحزبه : ﴿ **اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشاركهم فى الأموال والأولاد ، وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا** ﴾[2] .

---

(١) أخرجه الترمذى ، أبواب الجنائز ، باب ما جاء فى الرخصة فى البكاء على الميت حـ ٢ ص ٢٣٧ رقم ١٠١١ . هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الإسراء : الإيتان ٦٣ ـــ ٦٤ .

قال ابن أبى حاتم فى تفسيره : عن ابن عباس : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال : كل داع إلى معصية .

ومن المعلوم أن الغناء من أعظم الدواعى إلى المعصية ، ولهذا فسر صوت الشيطان به ، قال ابن أبى حاتم : عن مجاهد (واستفزز من استطعت منهم بصوتك) قال : استزل منهم من استطعت .

قال : وصوته الغناء ، والباطل ...

وهذه الإضافة إضافة تشخيص ، كما أن إضافة الخيل والرجل إليه كذلك ، فكل متكلم بغير طاعة الله ، ومصوت بيراع أو مزمار ، أو دف حرام ، أو طبل ، فذلك صوت الشيطان ، وكل ساع فى معصية الله على قدميه ، فهو من رجله ، وكل راكب فى معصية الله فهو من خياليته ، كذلك قال السلف ، كما ذكر ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : (رجله) : كل رجل مشت فى معصية الله . وقال قتادة : إن له خيلا ورجلا من الجن والإنس .

وأما تسمية مزمور الشيطان .

ففى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها قالت : « دخل علىّ النبى ﷺ وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث ، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، ودخل أبو بكر رضى الله عنه فانتهرنى . قال : مزمار الشيطان عند النبى ﷺ ؟ فأقبل عليه رسول الله ﷺ فقال : دعهما ، فلما غفل غمزتهما فخرجتا »[1] .

فلم ينكر رسول الله ﷺ على أبى بكر تسمية الغناء مزمار الشيطان ، وأقرهما لأنهما جاريتان غير مكلفتين ، بغناء الأعراب الذى قيل فى يوم حرب بعاث من الشجاعة والحرب ، وكان اليوم يوم عيد ، فتوسع حزب الشيطان فى ذلك إلى صوت امرأة جميلة أجنبية ، أو صبى أمرد صوته فتنة ، صورته فتنة ، يغنى بما يدعو إلى الزنى والفجور وشرب الخمور ، مع آلات اللهو التى حرسها رسول الله ﷺ فى عدة أحاديث . ويحتجون بغناء جويريتين غير مكلفتين بنشيد الأعراب ونحوه فى الشجاعة. ونحوها فى

(١) أخرجه اللؤلؤ والمرجان لأبو عبد الله الينابورى كتاب صلاة العيدين رقم ٥١٣ ص ١٩٦ .

يوم عيد ، بغير شبابة ولا دف ، ولا رقص ولا تصفيق ، ويدعون المحكم الصريح لهذا المتشابه ، وهذا شأن كل مبطل ، نعم ؛ نحن لا نحرم ولا نكره مثل ما كان فى بيت رسول الله ﷺ على ذلك الوجه ، وإنما نحرم نحن وسائر أهل العلم والإيمان السماع المخالف لذلك ، وبالله التوفيق .

وأما تسميته بالسمود :

فقد قال الله تعالى ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون** ﴾ .

قال عكرمة عن ابن عباس « السمود : الغناء فى لغة حمير » . يقال : اسْمدى لنا ، أى غنى لنا ، وقال أبو زبيد :

وكأن العزيف فيها غناء ... **للندامى من شارب مسمود**

قال أبو عبيدة : المسمود : الذى غنى له ، وقال عكرمة : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا فنزلت هذه الآية .

وهذا لا يناقض ما قيل فى هذه الآية ، من أن السمود الغفلة والسهو عن الشىء ، قال المبرد : هو الاشتغال عن الشىء بهم أو فرح ، يتشاغل به ، وأنشد :

رمى الحدثان نسوة آل حرب ... بمقدار سمدن له سُمودا

وقال ابن الانبارى : السامد اللاهى ، والسامد الساهى ، والسامد المتكبر ، والسامد القائم .

وقال ابن عباس فى الآية : وأنتم مستكبرون . وقال الضحاك : أشرون بطرون . وقال غيره اللاهون غافلون معرضون ، فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه .

فهذه أربعة عشر اسما سوى اسم الغناء .

أسماؤه دلت على أوصافه ... تبا لذى الأسماء والأوصاف

تفسير سورة القمر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وعدد آياتها : خمس وخمسون..

وكلماتها : ثلاثمائة واثنتان وأربعون .

وحروفها : ألف واربعمائة وثلاثة وعشرون .

وفواصل آياتها كلها على حرف الراء .

وسميت سورة القمر : لاشتمالها على ذكر انشقاق القمر .

معظم مقصود السورة :

تخويف بهجوم القيامة ، والشكوى من عبادة أهل الضلالة ، وذلهم فى وقت البعث وقيام الساعة ، وخبر الطوفان ، وهلاك الأمم المختلفة ، وحديث العادين ونكبتهم بالنكباء ، وقصة ناقة صالح ، وإهلاك جبريل قومه بالصيحة ، وحديث قوم لوط وتماديهم فى المعصية ، وحديث فرعون ، وتعديه فى الجهالة ، وتقرير القضاء والقدر ، وإظهار علامة القيامة ، وبروز المتيقن فى الجنة فى مقعد صدق ، ومقام القربة فى قوله تعالى : ﴿ **مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ .

المتشابه من سورة القمر :

قصة نوح وعاد وثمود ولوط ، ذكر فى كل واحد منها من التخويف والتحذير ما حل بهم ، ليتعظ به حامل القرآن وتاليه ، ويعظ غيره ، وأعاد فى قصة عاد ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ مرتين ؛ لأن الأولى فى الدنيا ، والثانية فى العقبى ، كما قال فى هذه القصة : ﴿ **لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى** ﴾[1] وقيل : الأولى لتحذيرهم قبل إهلاكهم ، والثانية لتحذير غيرهم بعد إهلاكهم .

---

(١) فصلت : آية ١٦ .

مناسبة السورة لما قبلها :

من وجوه

(١) مشاكلة آخر السورة لأول هذه ، فقد قال تعالى فى آخر سورة النجم : ﴿ أزفت الآزفة ﴾ وقال تعالى هنا : ﴿ اقتربت الساعة ﴾ .

(٢) حسن التناسق بين النجم والقمر .

(٣) إن هذه قد فصلت ما جاء فى سابقتها ، ففيها إيضاح أحوال الأمم التى كذبت رسلها ، وتفصيل هلاكهم الذى أشار عليه فى السابقة ، بقوله : ﴿ وأنه أهلك عاذا الأولى وثمود فما أبقى وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى ﴾ فما أشبهها مع سابقتها بالأعراف بعد الأنعام ، والشعراء بعد الفرقان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦) خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ﴾

معانى المفردات

(اقتربت) أى دنت وقربت .

انشق القمر : أى انفصل بعضه من بعض وصار فرقتين .

(آية) : أى دليلا على نبوتك .

(مستمر) : أى مطرد دائم .

﴿ أهواءهم ﴾ : أى ما زينه لهم الشيطان من الوساوس والأوهام .
﴿ مستقر ﴾ : أى منته إلى غاية يستقر عليها لا محالة .
﴿ الأنباء ﴾ : أخبار القرون الماضية . وما حاق بهم من العذاب ، جزاء تكذيبهم للرسل ، واحداها نبأ .
﴿ بالغة ﴾ : أى واصلة غاية الإحكام والإبداع ، ﴿ تغنى ﴾ أى تفيد وتنفع .
﴿ النذر ﴾ : واحدهم نذير بمعنى منذر .
﴿ فتول عنهم ﴾ : أى لا تجادلهم ولا تحاجهم .
﴿ نكر ﴾ : أى أمر تنكره النفوس إذ لا عهد له بمثله .
﴿ خشعا ﴾ : واحدهم خاشع : أى ذليل .
﴿ والأجداث ﴾ : القبور .
﴿ مهطعين ﴾ : أى مسرعين منقادين .
﴿ عسير ﴾ : أى صعب شديد الهول .

التفسـيـر

قوله تعالى : ﴿ اقتربت الساعة ، وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر ﴾[(١)] .

قوله : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ هذا إخبار منه سبحانه عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها ، كما قال تعالى : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[(٢)] . وكقوله : ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ﴾[(٣)] . وكقوله : ﴿ أزفت الآزفة ﴾[(٤)] . قال العلامة ابن كثير : وقد وردت الأحاديث بذلك .

(١) سورة القمر : آية ٥ .
(٢) النحل : آية ١ .
(٣) الأنبياء : آية ١ .
(٤) النجم : آية ٥٧ .

روى الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : كنا جلوسا عند النبى ﷺ والشمس على قعيقعان بعد العصر فقال : « ما أعماركم فى أعمار من مضى إلا كما بقى من النهار فيما مضى »(١) .

وروى أيضا عن سهل بن سعد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « بعثت أنا والساعة هكذا » وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى »(٢) . أخرجاه من حديث أبى حازم مسلمة بن دينار وقال الإمام أحمد بسنده عن وهب السوائى قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقنى »(٣) . وجمع الأعشى بين السبابة والوسطى .

وقال أبو جعفر بن جرير بسنده عن أبى عبد الرحمن السلمى قال نزلنا المدائن ، فكنا منها على فرسخ ، فجاءت الجمعة فحضر أبى وحضرت معه ، فخطبنا حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت ، ألا وإن القمر قد انشق ، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدًا السباق ، فقلت لأبى ايستبق الناس غدا ؟ فقال : يابنى إنك لجاهل ، إنما هو السباق بالأعمال ، ثم جاءت الجمعة الأخرى ، فحضرنا فخطب حذيفة فقال : ألا إن الله يقول : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق ، ألا وإن اليوم المضمار وغدًا السباق ، ألا وإن الغاية النار والسابق من سبق إلى الجنة »(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **وانشق القمر** ﴾ أى وقد انشق القمر ، قال ابن كثير : وهذا أمر متفق عليه بين العلماء ، أى انشقاق القمر قد وقع فى زمان النبى ﷺ ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات .

وقال القرطبى : وعلى هذا **الجمهور** من العلماء ، ثبت ذلك فى الصحيح للبخارى وغيره ، من حديث ابن مسعود وابن عمر وأنس وجبير بن مطعم وابن عباس رضى الله عنهم .

وعن أنس قال : سأل أهل مكة النبى ﷺ آية ، فانشق القمر بمكة مرتين فنزلت « اقتربت الساعة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ٢ ص ١١٦ ، وأخرجه أيضا تفسير ابن كثير حـ ٧ ص ٤٤٥ فى تفسير سورة القمر .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ٣ ص ٢٢٢ ، وأخرجه مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب قرب الساعة حـ ٤ ص ٢٢٦٨ ، رقم ٢٩٥٠/١٣٢ .
(٣) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ٤ ص ٣٠٩ .
(٤) أخرجه تفسير ابن كثير سورة القمر حـ ٧ ص ٤٤٧ .

وانشق القمر» إلى قوله « سحر مستمر »[١] . قال أبو عيسى الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، ولفظ البخارى عن أنس قال : انشق القمر فرقتين . وقال قوم : لم يقع انشقاق القمر بعد ، وهو منتظر ؛ أى اقترب قيام الساعة وانشقاق القمر وغيره .

قلت : قد ثبت بنقل الآحاد العدول ، أن القمر انشق بمكة وهو ظاهر التنزيل .

قوله تعالى : ﴿ **وإن يروا آية يعرضوا** ﴾ هذا يدل على أنهم رأوا انشقاق القمر ، قال ابن عباس : اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ ، وقالوا : إن كنت صادقا فاشقق لنا القمر فرقتين ، نصف على أبى قبيس ونصف على قعيقعان ؛ فقال لهم رسول الله ﷺ ، « إن فعلت تؤمنون » قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا ، فانشق القمر فرقتين ، ورسول الله ﷺ ينادى المشركين : « يافلان يافلان اشهدوا »[٢] .

وفى حديث ابن مسعود : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ ، فقالت قريش : هذا من سحر بن أبى كبشة سحركم فاسئلوا السفار . فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر انشق فنزلت « اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا »[٣] . أى أن يروا آية تدل على صدق محمد ﷺ أعرضوا عن الإيمان (ويقولوا سحر مستمر) أى ذاهب من قولهم مر الشيء واستمر إذا ذهب ، قاله أنس وقتادة ومجاهد وغيرهم . وقال أبو العالية والضحاك : ﴿ سحر مستمر ﴾ أى محكم قوىّ شديد ، وهى من المِرة وهى القوة .

وقوله : ﴿ **وكذبوا واتبعوا أهواءهم** ﴾ أى كذبوا الحق إذ جاءهم واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم ، من جهلهم وسخافة عقلهم . وقوله : ﴿ **وكل أمر مستقر** ﴾ قال قتادة : معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر ، وقال السدى : مستقر أى واقع .

وقوله تعالى : ﴿ **ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر** ﴾ **أى ولقد جاءهم من الأخبار عن قصص الأمم المكذبة بالرسل ، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب ؛ مما يتلى عليهم فى هذا القرآن ، ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادى على التكذيب .**

---

(١) أخرجه البخارى حـ ٦ ص ١٧٨ فى تفسير سورة القمر . وأخرجه أيضا تفسير الطبرى حـ ٢٧ ص ٥٠ فى تفسير سورة القمر .

(٢) أخرجه تفسير الطبرى حـ ٢٧ ص ٥٠ تفسير سورة القمر .

(٣) أخرجه تفسير الطبرى حـ ٢٧ ص ٥١ تفسير سورة القمر .

وقوله تعالى : ﴿ **حكمة بالغة** ﴾ أى حكمة بالغة فى هدايته تعالى لمن هداه ، وإضلاله لمن أضله . (فما تغنى النذر) يعنى أى شىء تغنى النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه ؟ **فمن الذى يهديه من بعد الله ؟ قال ابن كثير الاية كقوله تعالى : ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ . وكذا قوله تعالى : ﴿ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾**[٢] .

بحث فى معجزات الرسول ﷺ

إن قدرة الإنسان محدودة بما حدها الله عز وجل به من عالم القوانين والأسباب ، فما كان ضمن هذه الدائرة استطاعة الإنسان وإلا فلا ، فالإنسان مثلا يستطيع إذا توافر لديه أكسجين وهيدروجين ، والأدوات اللازمة لإحداث التفاعل . بينهما ، أن يصنع منهما ماء ، فهذا داخل ضمن قوانين الكون واستطاعة الإنسان ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ماء من عدم مطلق ، ويستطيع الإنسان أن يتحكم بألكترونات وبروتونات النحاس ، فيصبح النحاس ذهبا ، إذا توافرت لذلك شروط وأدوات معنية ، ولكن الإنسان لا يستطيع أن يوجد ذهبا من لا شىء ، إذن رغم ما أعطى الله الإنسان من إمكانات ، يستطيع بها تسخير هذا الكون لصالحه ، فإن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين هذا الكون ، ويبقى الله وحده ذا السلطان المطلق ، والقدرة المطلقة التى يخلق بها ما شاء من الممكنات .

بعد هذا نقول : إن مما يعرف به الإنسان أن رسول الله ﷺ هو أن تظهر معه آثار قدرة الله ، فتظهر على يديه خوارق لعادات وقوانين وأسباب هذا الكون ، مما لا يمكن أن يكون للجهد البشرى فيه علاقة ، فيعرف الناس بذلك أن هذا الإنسان رسول الله ، بدليل أنها ظهرت معه آثار قدرة الله ، وتقوم بذلك حجة الله على خلقه ، بأنه أرسل رسولا ، وتقوم بذلك حجة الرسول على الخلق بأنه صادق فى دعوى الرسالة ، ولا يكون لأحد عذر فى عدم متابعة الرسول بعد ذلك .

وكما تقوم الحجة على من عاصر الرسول ـ ﷺ ـ تقوم على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخيا ، إذ الثابت تاريخيا كالثابت مشاهدة فى إقامة الحجة ..

---

(١) الأنعام : اية ١٤٩ .
(٢) يونس : آية ١٠١ .

ولم يوجد رسول أبدًا فى تاريخ العالم ، كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتًا تاريخيًا ، يتحدى أدق معايير النقد التاريخى مثل ما كان لخاتم رسل الله محمد — ﷺ — فإن معايير النقد التى وضعها علماء المسلمين ، لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله — ﷺ — ما وصل إليها العالم قط ، ولا يرق إلى نتائجها شك .

والدارس لهذه المعجزات الثابتة تاريخيًا ، يرى بوضوح لا مزيد عليه ، آثار قدرة الله المباشرة ، مؤيدة لرسول الله ﷺ بأشكال وصور ومظاهر ، تحيط بكل الأوضاع ، مما لا يبقى ريبًا لمرتاب ، إلا إذا مات إنصافه مع قلبه فعمى بذلك عقله ، وهذه نماذج من هذه الواقعات ، التى لا تفسر إلا بالقدرة الإلهية المؤيدة لرسول الله ﷺ ، مع ملاحظة أن المعجزة الأساسية لرسول الله ، وبها قامت الحجة على خلق الله فى كل العصور ، هى القرآن الكريم . (مستفاد من كتاب « الرسول » للشيخ سعيد حوى)

انشقاق القمر

قال القاضى أبى الفضل عياض اليحصبى فى كتابه « الشفا بتعريف حقوق المصطفى » ما ملخصه :
قال الله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾ أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضى ، وإعراض الكفرة عن آياته ، وأجمع المفسرون وأهل السنة على وقوعه : أخبرنا الحسين عن محمد الحافظ من كتابه حدثنا القاضى سراج بن عبد الله حدثنا الأصيلى حدثنا المروزى حدثنا الغربرى حدثنا البخارى حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن شعبة وسفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن أبى عمر عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين ، فرقه فوق الجبل ، وفرقة دونه ، فقال رسول الله ﷺ ، اشهدوا وفى رواية مجاهد ونحن مع النبى ﷺ ؛ وفى بعض طرق الأعمش بمنًى ، ورواه أيضا عن ابن مسعود الأسود وقال حتى رأيت الجبل بين فرجتى القمر ، ورواه عنه مسروق أنه كان بمكة ، وزاد فقال قريش : سحركم ابن أبى كبشة فقال رجل منهم : إن محمدا إن كان سحر القمر ، فإنه لا يبلغ من سحره أن يسخر الأرض كلها ، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر ، هل رأوا هذا ؟ فأتوا فسألوهم ، فإخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك[1] .

وعن أنس سأل أهل مكة النبى ﷺ أن يريهم آية ، فأراهم انشقاق القمر مرتين ، حتى رأوا

(١) أخرجه تفسير الطبرى حـ ٢٧ ص ٥٠ ، من تفسير سورة القمر .

حراء بينهما ؛ رواه عن أنس قتادة .. وأكثر طرق هذه الأحاديث صحيحة والآية مصرحة ، ولا يلتفت إلى اعتراض مخذول ، بأنه لو كان هذا لم يخف على أهل الأرض ، إذ هو شيء ظاهر لجميعهم ، إذ لم ينقل لنا عن أهل الأرض أنهم رصدوه تلك الليلة ، فلم يره انشق ، ولو نقل إلينا عمن لا يجوز تمالؤهم لكثرتهم على الكذب ، لما كانت علينا به حجة ، إذ ليس القمر فى حد واحد لجميع أهل الأرض ، فقد يطلع على قوم قبل أن يطلع على الآخرين ، وقد يكون من قوم بضد ما هو من مقابلهم من أقطار الأرض ، أو يحول بين قوم وبينه سحاب أو جبال ، ولهذا نجد الكسوفات فى بعض البلاد دون بعض ، وفى بعضها جزئية ، وفى بعضها كلية ، وفى بعضها لا يعرفها إلا المدعون لعلمها ؛ ذلك تقدير العزيز العليم ، وآية القمر كانت ليلا ، والعادة من الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب ، وقطع العصرف ، ولا يكاد يعرف من أمور السماء شيئا ، إلا من رصد ذلك واهبتل به ، ولذلك يكون الكسوف القمرى كثيرا فى الليل وأكثر الناس لا يعلم به حتى يخبر ، وكثيرًا ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها ، من أنوار ونجوم طوالع عظام ، تظهر فى الأحيان بالليل فى السماء ولا علم عند أحد منها .

نبع الماء بين أصابعه الشريفة وتكثيره ببركته

أما الأحاديث فى هذا فكثيراً جداً ، روى حديث نبع الماء من أصابعه ﷺ جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود . فعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ ، وحانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء ، فلم يجدوه ، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء ، فوضع رسول الله ﷺ فى ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضأوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه ، فتوضأ الناس ، حتى آخرهم ، ورواه أيضا عن أنس قتادة وقال بإناء فيه ماء يغمر أصابعه ، أو لا يكاد يغمر ، قال : كم كنتم ؟ قال : زهاء ثلاثمائة ، وفى رواية وهم بالزوراء عند السوق ، ورواه أيضا حميد وثابت والحسن عن أنس وفى رواية حميد قلت لكم كانوا ثمانين رجلا ونحوه عن ثابت وعنه أيضا وهم نحو من سبعين رجلا ، وأما ابن مسعود ففى الصحيح من رواية علقمة عنه ، بينما نحن مع رسول الله ﷺ : اطلبوا من معه فضل ماء ، فأتى بماء فصبه فى إناء ، ثم وضع كفه فيه ، فجعل الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ . (أخرجه الشيخان)[1] .

وفى الصحيح عن جابر رضى الله عنه عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة

(١) أخرجه أحمد فى سنده حـ ٣ ص ١٣٢ ، ١٤٧ ، ١٧٠ ، ٢١٥ .

فتوضأ منها وأقبل الناس نحوه وقالوا ليس عندنا ماء إلا ما فى ركوتك فوضع النبى ﷺ يده فى الركوة فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون وفيه قلت : كم كنتم : قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشر مائة[١] ، وفى رواية الوليد بن عبادة بن الصامت فى حديث مسلم الطويل فى ذكر غزوة بواط قال : قال لى رسول الله ﷺ : ياجابر ناد الوضوء وذكر الحديث بطوله ، وأنه لم يجد إلا قطرة فى عزلاء شجب . (فم المزادة الأسفل) فأتى به النبى ﷺ فغمزه ، وتكلم بشىء لا أدرى ما هو ، وقال ناد بجفنة الركب فأتيت ، فوضعتها بين يديه ، وذكر أن النبى ﷺ ، بسط يده فى الجفنة وفرّق أصابعه وصب جابر عليه ، وقال بسم الله قال : فرأيت الماء يفور من بين أصابعه ، ثم فارت الجفنة واستدارت ، حتى امتلأت وأمر الناس بالاستقاء ، فاستقوا حتى رووا ، فقلت : هل بقى أحد له حاجة ، فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهى ملأى[٢] .

ومما يشبه هذا من معجزاته تفجير الماء ببركته وابتعاثه بمسه ودعوته .

فيما روى مالك فى الموطأ عن معاذ بن جبل فى قصة غزوة تبوك ، وأنهم وردوا العين وهى تبض (أى : تسيل قليلا) بشىء من ماء مثل الشراك ، فغرفوا من العين بأيديهم ، حتى اجتمع فى شىء ، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويديه ، وأعاده فيها ، فجرت بماء كثير ، فاستقى الناس ، قال فى حديث ابن إسحاق فانخرق من الماء ما له حس كحس الصواعق ثم قال : يوشك يامعاذ إن طالت بك حياة أن ترى ما هاهنا قد مُلىء جناجنا[٣] .

وأخرج مسلم عن أبى قتادة ، أن النبى ﷺ ، كان فى سفر فأسرى ، ثم نام فما استيقظ إلا والشمس فى ظهره ، فدعا بميضأة (إناء يوضع فيه الماء) كانت معى فيها شىء من ماء فتوضأ منها ثم قال : احفظ علينا ميضاتك ، فسيكون لها نبأ ، فسار حتى امتد النهار ، فقال الناس: هلكنا وعطشنا فقال لا هلك عليكم ، ثم قال : انطلقوا إلى عمرى يعنى القدح الصغير ، فدعا بالميضأة ، فجعل النبى ﷺ ، يصب وأبو قتادة يسقيهم ، فقال النبى ﷺ : أحسنوا الملء كلكم سيروى .. حتى ما بقى أحد[٤] .

---

(١) أخرجه صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٣٠٨ رقم ٧٤ / ٣٠١٣ كتاب الزهد والرقائق باب حديث جابر الطويل .

(٢) رواه مسلم حـ ٤ ص ٢٣٠٧ كتاب الزهد والرقائق باب حديث جابر رقم ٣٠١٣ .

(٣) أخرجه مالك فى موطأه كتاب قصر الصلاة فى السفر حـ ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤ رقم ٢ .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضاها . حـ ١ ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ رقم ١٣٣ / ٦٨١ . مطولا .

ومن معجزاته ﷺ تكثير الطعام ببركته ودعائه

روى مسلم عن جابر ، أن رجلا أتى النبى ــ ﷺ ــ يستطعمه ، فأطعمه شطر وسق شعير (الوسق مقدار ستين صاعا) فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله ، فأتى النبى ــ ﷺ ــ فأخبره ، فقال : « لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم » .

(**فلقد استمر أكلهم منه** من غير نقص شيء منه إلى أن كاله ، فظهر نقصه بعد الكيل مما يأخذ منه ، فكانت البركة فى ترك كيله ، حتى لو لم يكله لم ينفد مدة حياتهم)[1] .

ومن ذلك حديث أبى طلحة المشهور ــ القصة فى صحيح البخارى ــ وإطعامه ﷺ ثمانين أو سبعين رجلا من أقراص من شعير جاء بها أنس تحت يده ؛ أى إبطه ؛ فأمر بها ففتت ، وقال فيها ما شاء الله أن يقول[2] .

وحديث جابر فى إطعامه ﷺ يوم الخندق ألف رجل من صاع شعير وعناق (العناق الأنثى من أولاد المعز ، لم يتم لها سنة) .

وقال جابر : فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا (أى انصرفوا) وإن برمتنا لتغط كما هى (أى تغلى غليانا شديدا) وإن عجيننا ليخبز . (أى أنهم استمروا على خبز العجين وإيصاله شيئا فشيئا لمن يأكل منه ، ولم ينقص ببركة النبى ﷺ)[3] . رواه البخارى .

وحديث أبى أيوب (رواه عنه الطبرانى ، والبيهقى) أنه صنع لرسول الله ــ ﷺ ــ ولأبى بكر الطعام زهاء (أى مقدار) ما يكفيهما ؛ فقال له النبى ــ ﷺ ــ : ادع ثلاثين من أشراف الأنصار ؛ فدعاهم فأكلوا حتى تركوا ؛ ثم قال : ادع ستين ؛ فكان مثل ذلك ؛ ثم قال : ادع سبعين فأكلوا حتى تركوا ، وما خرج منهم أحد حتى أسلم ، وبايع .

---

(١) أخرجه مسلم حـ ٤ ص ١٧٨٤ كتاب الفضائل ، باب فى معجزات النبى ﷺ ٩ / ٢٢٨١ .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب الفضائل . باب علامات النبوة حـ ٤ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ . ط الشعب . وكذلك فى كتاب الأطعمة .

(٣) انظر صحيح البخارى ، باب غزوة الخندق ، حـ ٥ ص ١٣٩ فقد ورد الحديث من رواية جابر ، وانظر ص ١٣٨ فقد ورد عن جابر برواية أخرى .

قال أبو أيوب : فأكل من طعامى مائة وثمانون رجلا[١] .

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى ، عن أبيه ، ومثله لسلمة بن الأكوع ، وأبى هريرة ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فذكروا مخمصة (الجوع ، والمجاعة) أصابت الناس مع النبى ﷺ ــ فى بعض مغازيه ، فدعا ببقية الأزواد (أى : طلب من كل رجل منهم أن يأتى بما بقى عنده من زاده) ، فجاء الرجل بالحثية من الطعام ، (أى : ما يملأ اليدين معًا) ، وفوق ذلك ، وأعلاهم الذى أتى بالصاع من التمر ، فجمعه على نطع ، (وهو بساط من جلد) .

قال سلمة : فحزرته كربضة العنز (أى قدرته كمقدار جثة عنز باركة على الأرض) ؛ ثم دعا الناس بأوعيتهم ، فما بقى فى الجيش وعاء إلا ملئوه وبقى منه . (رواه ابن سعد ، والبيهقى ، وصححاه)[٢] .

وعن أبى هريرة : أمرنى النبى ﷺ أن أدعو له أهل الصفة . (وهم فقراء الصحابة الأغراب وغيرهم) فتتبعتهم حتى جمعتهم ، فوضعت بين أيدينا صفحة ، (إناء بين الصغير والكبير يعد للطعام) فأكلنا ما شئنا ، وفرغنا وهى مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع . (رواه ابن أبى شيبة والطبرانى بسند صحيح)[٣] .

ومنه حديث أبى هريرة حين أصابه الجوع ، فاستتبعه النبى ﷺ ، فوجد لبنا فى قدح قد أهدى إليه ، وأمره أن يدعو أهل الصفة . قال : فقلت : ما هذا اللبن فيهم ؟ (أى ما مقداره القليل كاف لهم) .

كنت أحق أن أصيب منه شربة ، أتقوى بها . عندعو تهم . وذكر أمر النبى ــ ﷺ ــ له أن يسقيهم ، فجعلت أعطى الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يأخذه الآخر ، حتى روى جميعهم ، قال : فأخذ النبى ــ ﷺ ــ القدح ، وقال : بقيت أنا وأنت أقعد فاشرب ، فشربت ، ثم قال : اشرب ، ومازال يقولها وأشرب حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ، ما أجد له مسلكا (**أى لم يبق فى جوفى** محلا خاليا يدخله) ، فأخذ القدح فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .[٤]

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد . حـ ٨ ص ٣٠٣ . باب معجزته ــ ﷺ ــ فى الطعام وبركته فيه . وقال الهيثمى . رواه الطبرانى وفى إسناد من لم أعرفه .

(٢) أخرجه صحيح مسلم فى كتاب اللقطة باب استحباب خلط الأزواد إذا قلت حـ ٣ ص ١٣٥٤ رقم ١٩ / ١٧٢٩ .

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه حـ ١١ ص ٤٦٩ ــ ٤٧٠ ، رقم ١١٧٥٧ كتاب الفضائل باب ما أعطى الله تعالى محمد ﷺ .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ ٨ ص ١٢٠ كتاب الرقاق باب كيف كان عيش النبى ﷺ .

وفى حديث أنس : تزوج رسول الله ﷺ ، فصنعت أمى أم سليم حيسًا ، فجعلته فى تور (الحيس : طعام من لبن وأقط وتمر وسمن يحاس ، أى يخلط بعضه ببعض ، والتور : إناء من حجارة واسع) . فذهبت به إلى رسول الله ﷺ ؛ فقال : ضعه ، وادع لى فلانًا وفلانًا ، ومن لقيت . فدعوتهم ، ولم أدع أحدًا لقيته إلا دعوته ، وذكر أنهم كانوا زهاء ثلاثمائة حتى ملئوا الصفة والحجرة ، فقال لهم النبى ﷺ تحلقوا عشرة عشرة ، ووضع النبى ﷺ يده على الطعام فدعا فيه ، وقال ما شاء الله أن يقول ، فأكلوا حتى شبعوا كلهم ، فقال لى : ارفع ، فما أدرى حين وضعت كانت أكثر أم حين رفعت[١] » (سنن الترمذى) .

وأكثر أحاديث هذه الفصول الثلاثة فى الصحيح ، وقد اجتمع على معنى حديث هذا الفصل ، بضعة عشر من الصحابة ، رواه عنهم أضعافهم من التابعين، ثم ممن لا ينعد بعدهم .

كلام الشجرة وشهادتها له بالنبوة وإجابتها دعوته

عن ابن عمر ، كنا مع رسول الله ﷺ فى سفرة ، فدنا منه أعرابى ، فقال : ياأعرابى ، أين تريد ؟ قال : إلى أهلى قال : هل لك إلى خير ؟ قال : وما هو ؟ قال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمد عبده ورسوله . قال : من يشهد لك على ما تقول ؟ قال : هذه الشجرة السمرة (السمرة : شجرة عظيمة ذات شوك) . وهى بشاطىء الوادى وادعها فإنها تجيبك فأقبلت تخد الأرض (أى تشقها) حتى قامت بين يديه ، فاستشهدها ثلاثًا ، فشهدت أنه كما قال ، ثم رجعت إلى مكانها[٢] . (رواه البيهقى ، والبزار ، والدرامى مسندًا عن ابن عمر) .

وفى صحيح مسلم فى حديث جابر بن عبد الله الطويل : ذهب رسول الله ﷺ يقضى حاجته ، فلم ير شيئا يستتر به ، فإذا بشجرتين فى شاطىء الوادى ، فانطلق رسول الله ﷺ إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها ، فقال : انقادى علىّ بإذن الله ؛ فانقادت معه كالبعير المخشوش الذى يصانع قائده .وذكر أنه فعل بالأخرى مثل ذلك ، حتى إذا كان بالمنصف بينهما ، قال : التئما علىّ بإذن الله ؛ فالتأمتا .

(١) أخرجه الترمذى حـ ٥ ص ٢٥٥ ، أبواب المناقب . باب ٣٠ ، أنظر صحيح البخارى . كتاب النكاح . باب الهدية للعروس . حـ ٧ ص ٢٨ ، ٢٩ ، ط الشعب .

(ومعنى انقادى علىّ : أى طاوعينى وميلى على ، ومعنى كالبعير المخشوش : الذى يوضع فى أنفه خشاش يذلل به ، ومعنى يصانع قائده : المراد به الملاينة وسهولة الانقياد . والمنصف : أى وسط المكان)[١] .

وعن ابن مسعود عن النبى ﷺ مثله فى غزاة حنين .

وروى مسلم عن ابن مسعود : أن الجن قالوا : من يشهد لك ؟ قال : هذه الشجرة . تعالى ياشجرة ؛ فجاءت تجر عروقها لها قعاقع . (حكاية صوت الحركة من الأجرام الصلبة)[٢] .

وبعد أن أورد القاضى أبو الفضل روايات أخرى قال : فهذا ابن عمر وبريدة وجابر وابن مسعود ، ويعلى بن مرة ، وأسامة بن يزيد وأنس بن مالك وعلى بن أبى طالب وابن عباس وغيرهم — قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها .

وقد رواها عنهم من التابعين أضعافهم ؛ فصارت فى انتشارها من القوة حيث هى ، أى صارت فى مرتبة قوية لا يشك فيها أحد من العقلاء .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه ﷺ ، قال لأعرابى : أرأيت إن دعوت هذا العذق من هذه النخلة أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، فدعاه فجعل ينقز حتى أتاه (أى يثب صعدا) فقال ارجع ، فعاد إلى مكانه[٣] (رواه البخارى فى تاريخه ، والدرامى والبيهقى مسندًا . وأخرجه الترمذى وقال حديث صحيح) .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الزهد والرقائق . باب حدث جابر الطويل ، وقصة أبى البشر حـ ٤ ص ٢٣٠٦ ، ٢٣٠٧ . رقم ٧٤ / ٣٠١٢ .

(٢) أخرجه تفسير القرطبى فى كتاب الجامع لأحكام القرآن حـ ١٩ ص ٤ — ٥ ، من تفسير سورة الجن آية ٣ .

(٣) أخرجه الترمذى . حديث رقم ٣٧٠٧ . حـ ٥ ص ٢٥٤ أبواب المناقب . باب ٢٨ .

فصل
فى قصة حنين الجِذع

ويعضد هذه **الأخبار أحاديث** أنين الجذع ، وهو فى نفسه مشهور منتشر ، والخبرية متواتر ، قد خرجه أهل الصحيح ـــ كالبخارى ومسلم ـــ ورواه من الصحابة بضعة عشر ، وابن عباس ، وسهل بن سعد ، وأبو سعيد الخدرى ، وبريد ، **وأم** سلمة ، والمطلب بن أبى وداعة ، كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث .

قال جابر بن عبد الله كان المسجد مسقوفا على جذوع نخل ؛ فكان النبى ﷺ ، إذا خطب يقوم إلى جذع منها (أى يقوم مستندًا) فلما صنع له المنبر سمعنا لذلك الجذع صوتًا كصوت العشار . (العشار الناقة التى أتى على حملها عشرة أشهر ، والمراد خوارها حين وضعها أو عقبه ، نزاعها لولدها إذا لم تره) .

وفى رواية أنس حتى ارتج المسجد بخواره .

وفى رواية سهل : وكثر بكاء الناس لما رأوا به .

وفى رواية المطلب وأبى : حتى تصدع وانشق ، حتى جاء النبى ﷺ ، فوضع يده عليه فسكت .

زاد غيره : فقال النبى ﷺ : إن هذا بكى لما فقد من الذكر .

وزاد غيره : والذى نفسى بيده ، لو لم ألتزمه (أى أضمه) لم يزل هكذا إلى يوم القيامة ؛ تحزنا على رسول الله ﷺ ؛ فأمر به رسول الله ﷺ فدفن تحت المنبر[1] .

فكان الحسن البصرى ، إذا حدث بهذا بكى ، وقال : ياعباد الله الخشبة (يريد هنا الجذع) تحن إلى رسول الله ﷺ شوقا إليه لمكانه ؛ فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى لقائه .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ، فى كتاب الفضائل باب علامات النبوة حـ ٤ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ . ط الشعب .
انظر سنن الترمذى . حـ ٥ ص ٢٥٤ . أبواب المناقب . باب ٢٨ .

قال القاضى : ومثل هذا فى سائر الجمادات .

عن ابن مسعود قال : لقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل وفى رواية أخرى له : كنا نأكل مع رسول الله ﷺ الطعام ونحن نسمع تسبيحه[١] . (رواه البخارى) (والرواية الأخرى رواها الترمذى) .

وقال أنس : أخذ النبى ﷺ كفا من حصى ، فسبحن فى يد رسول الله ﷺ ، حتى سمعنا التسبيح ثم صبهن فى يد أبى بكر ـــ رضى الله عنه ـــ فسبحن ، ثم فى أيدينا فما سبحن . (أخرجه ابن عساكر فى تاريخه) .

وروى مثله أبو ذر ، وذكر أنهن سبحن فى كف عمر وعثمان . (رواه الطبرانى والبيهقى والبزار)[٢] .

وقال على كنا بمكة مع رسول الله ﷺ ، فخرج إلى بعض نواحيها ، فما استقبله شجرة ولا جبل ، إلا قال له : السلام عليك يارسول الله . (رواه الترمذى ، بسند صحيح)[٣] .

وعن جابر بن سمرة عن النبى ﷺ « إنى لأعرف حجراً بمكة ، كان يسلم علىّ ، قيل : إنه الحجر الأسود[٤] . (رواه مسلم والترمذى) .

وعن عائشة رضى الله عنها : لما استقبلنى جبريل عليه السلام بالرسالة ، جعلت لا أمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله . (فى حديث صحيح رواه البزار فى مسنده) .

وعن جابر بن عبد الله : لم يكن النبى ﷺ يمر بحجر ولا شجر إلا سجد له . (رواه البيهقى)[٥] .

---

(١) أخرجه البخارى حـ ٤ ص ٢٣٥ . باب علامات النبوة .

(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ . باب تسبيح الحصى وقال الهيثمى : رواه البزار والطبرانى فى الأوسط .

(٣) أخرجه الترمذى : حـ ٥ ص ٢٥٣ . أبواب المناقب . باب ٢٧ . وقال هذا حديث حسن غريب .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب فضل نسب النبى وتسليمه الحجر عليه قبل النبوة حـ ٤ ص ١٧٨٢ رقم ٢ / ٢٧٧ . انظر سنن الترمذى . حـ ٥ ص ٢٥٣ . أبواب المناقب . باب ٦ط .

(٥) أخرجه مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٦٠ كتاب علامات النبوة . باب تسليم الحجر والشجر عليه .

وعن ابن عباس : كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم مثبتة الأرجل بالرصاص فى الحجارة ؛ فلما دخل رسول الله ﷺ المسجد عام الفتح جعل يشير بقضيب فى يده إليها ولا يمسها ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، فما أشار إلى وجه صنم إلا وقع **لقفاه** ، ولا لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم ، (أخرجه الشيخان ، والبزار ، والطبرانى أبو يعلى عن جابر وابن مسعود والحديث فى مسند الطيالسى)[١] .

فصل
فى الآيات فى ضروب الحيوانات

قال القاضى عياض بسنده عن مجاهد عن عائشة : رضى الله عنها ؛ قالت : كان عندى داجن ، فإذا كان عندنا رسول الله ﷺ ، قر وثبت مكانه ؛ فلم يجىء ولم يذهب ؛ وإذا خرج رسول الله ﷺ جاء وذهب[٢] .

(ومعنى داجن : شاة تألف البيوت وتعلف فيها ، وتطلق على غيرها من الحيوانات التى تربى فى البيوت ، ومعنى قرَّ وثبت مكانه : وقف فى مكانه لا يتحرك) .

روى عن عمر أن رسول الله ﷺ كان فى محفل من أصحابه إذ جاء أعرابى قد صاد ضبا ؛ فقال : من هذا ؟ قالوا : نبى الله . فقال : واللات والعزى ، لا آمنت بك أو يؤمن هذا الضب ، وطرحه بين يدى النبى ﷺ ؛ فقال النبى ﷺ . ياضب ؛ فأجابه بلسان مبين يسمعه القوم جميعا : لبيك وسعديك يازين من **وافى** القيامة . قال : من تعبد ؟ قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه . قال : فمن أنا ؟ قال : رسول رب **العالمين** ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وخاب من كذبك . فأسلم الأعرابى[٣] . (رواه الطبرانى ، والبيهقى) .

---

(١) أخرجه اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حـ ٢ ص ٩٤ رقم الحديث ١١٦٦ باب إزالة الأصنام من حول الكعبة . وذكره تفسير ابن كثير تفسير سورة الإسراء آية ٨١ حـ ٥ ص ١٠٩ .

(٢) انظر الشفاء للقاضى عياض . الباب الرابع ، فيما أظهره الله على يديه من المعجزات . فصل فى الآيات فى ضروب الحيوانات . حـ ١ ص ٣٠٩ . ط دار الفكر .

(٣) رواه مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، باب شهادة الضب بنبوته ﷺ .

ومن ذلك قصة كلام الذئب المشهورة عن أبى سعيد الخدرى : بينا راع يرعى غنمًا له ، عرض الذئب لشاة منها ، فأخذها الراعى منه ، فأقعى الذئب وقال للراعى : ألا تتقى الله ! حُلت بينى وبين رزقى ! قال الراعى : العجب من ذئب يتكلم بكلام الإنس ! فقال الذئب : ألا أخبرك بأعجب من ذلك ؟ رسول الله بين الحرَّتين يحدث الناس بأنباء ما قد سبق . فأتى الراعى النبى ﷺ ، فأخبره فقال النبى : قم فحدثهم ، ثم قال : صدق ، والحديث فيه قصة وفى بعضه طول . (رواها أحمد ، والبزار ، والبيهقى)(1) .

(ومعنى رسول الله بين الحرتين المقصود بالمدينة فالحرة : ثنية مرتفعة ذات حجارة سود والحرتان بالمدينة) .

ومن هذا الباب ما روى من تسخير الأسد لسفينة مولى رسول الله ﷺ ، ومعه كتابه ، فهمهم وتنحى عن الطريق ، وذكر فى منصرفه مثل ذلك .

(أخرجه البيهقى أنه وقع لسفينة حين ضل عن الجيش بأرض الروم ، وذكره البخارى فى تاريخه) .

وفى رواية أخرى عنه ــ أن سفينة تكسرت به ، فخرج إلى جزيرة فإذا الأسد ؛ فقلت له : أنا مولى رسول الله ﷺ ؛ فجعل يغمزنى بمنكبه حتى أقامنى على الطريق .

(هذه الرواية هى التى رواها البيهقى والبزار وصححها السيوطى فى تخريجه) .

ثم قال القاضى : والحديث فى هذا الباب كثير ، وقد جئنا منه بالمشهور ، وما وقع فى كتب الأئمة .

(1) أخرجه الإمام أحمد حـ ٣ ص ٨٣ ــ ٨٤ ، مقدور الحديث من رواية لأبى سعيد .
انظر مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٩١ . باب إخبار الذئب بنبوته ﷺ .

ومن معجزاته
إحياء الموتى وكلامهم ، وكلام الصبيان والمراضع وشهادتهم له بالنبوة ﷺ

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن يهودية أهدت للنبى ﷺ شاة مصلية سمتها ، فأكل رسول الله — ﷺ — منها ، وأكل القوم ، فقال ﷺ : ارفعو أيديكم ، فإنما أخبرتنى أنها مسمومة . فمات بشرين البراء . وقال لليهودية : ما حملك على ما صنعت ؟ قالت : إن كنت نبيا لم يضرك الذى صنعت ، وإن كنت ملكا أرحت الناس منك . قال : فأمر بها فقتلت . (رواه أبو داود مسندا إلى أبى هريرة) .

(ومعنى مصلية : أى مشوية ، سمتها : وضعت فيها السم) .

وقد روى هذا الحديث أنس ، وفيه : قالت : أردت قتلك . فقال ما كان الله ليسلطك على ذلك ، فقالوا : نقتلها ؟ قال : لا .

ورواه أيضا جابر بن عبد الله وفيه : آخبرتنى هذه الذراع ، قال : ولم يعاقبها .

وفى حديث أبى هريرة أن رسول الله — ﷺ — قال : فى وجعه الذى مات فيه : مازالت أكلة خبير تعادنى ؛ فالآن أوان قطعت أبهرى . (رواه ابن سعد بسند صحيح) .

وحكى ابن إسحاق : إن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدًا مع ما أكرمه الله به من النبوة .

ومعنى تعادنى : تعود إلىّ مرة بعد مرة فى أوقات معلومة . والأبهر : عرق كبير متصل بالقلب ، وقيل : العرق الذى فى وسط الظهر ، إذا انقطع لا يتصور معه حياة ، ومات شهيدا : أى بسم الشاة .

وقال ابن محنون : أجمع أهل الحديث أن رسول الله ﷺ قتل اليهودية التى سمته (وحديث الشاة المسمومة فى سنن أبى داود ، وصحيح البخارى ، وصحيح مسلم ، وطبقات ابن سعد)[1] .

---

(١) أخرجه أبو داود حـ ٤ ص ٦٥٠ رقم ٤٥١٢ « كتاب الديات » باب م سقى رجلا سما أو أطعمه فمات .
وانظر صحيح البخارى « كتاب فضل الجهاد والسير » باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم ، حـ ٤ ص ١٢١ فقد ورد حديث لأبى هريرة فى هذا .

قال القاضي عياض : وقد خرج حديث الشاة المسمومة أهل الصحيح وخرجه الأئمة ، وهو حديث مشهور .

وروى عن سمر بن عطية أن النبي ﷺ أتى بصبى قد شب لم يتكلم قط ؛ فقال : من أنا : فقال رسول الله . (رواه البيهقى فى دلائل النبوة) .

وهو حديث مبارك اليمامة ، ويعرف بحديث شاصونة ، اسم روايه ، وفيه فقال له النبى ﷺ : صدقت ، بارك الله فيك ، ثم إن الغلام لم يتكلم بعدها حتى شب ، فكان يسمى مبارك اليمامة .. وكانت هذه القصة بمكة فى حجة الوداع .

ومن معجزاته ﷺ
إبراء المرضى وذوى العاهات

عن محمد بن إسحاق ، حدثنا ابن شهاب ، وعاصم بن عمر بن قتادة وجماعة ذكرهم بغزوة أحد بطولها ؛قال وقالوا : قال سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ ليناولنى السهم لا نصل له، فيقول ارم به ؛ وقد رمى رسول الله ﷺ يومئذ عن قوسه حتى اندقت ، واصيب يومئذ عين قتادة — يعنى ابن النعمان — حتى وقعت على وجنتيه ، فردها رسول الله ﷺ ؛ فكانت أحسن عينيه[1] . (هذا الجزء فى سيرة ابن هشام ورواه البيهقى) .

وروى النسائى والترمذى والحاكم والبيهقى وصححوه أن أعمى قال يارسول الله ؛ ادع الله أن يكشف لى عن بصرى . قال : فانطلق فتوضأ : ثم صل ركعتين ؛ ثم قال : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبى محمد نبى الرحمة ؛ يامحمد إنى أتوجه بك إلى ربك أن يكشف عن بصرى ، اللهم شفعه فى . قال : فرجع وقد كشف الله عن بصره[2] . (ومعنى أتوجه بك إلى ربك : أى بدعائك لى فكان توسله بدعاء النبى له ﷺ) .

---

(١) أخرجه مجمع الزوائد حـ ٨ ص ٢٩٧ . باب رده البصر ﷺ .

(٢) أخرجه الحاكم حـ ١ ص ٥٢٦ كتاب الدعاء — باب دعاء رد البصر ، وأخرجه أيضا ابن ماجة فى كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب ما جاء فى صلاة الحاجة حـ ١ ص ٤٤١ رقم ١٣٨٥ عن عثمان بن حنيف .

وتفل فى عينى على ابن أبى طالب يوم خيبر ، وكان رمدا فأصبح بارئا[1] . (رواه البخارى ومسلم) .

ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت . (رواه البخارى) .

ونفث فى رجل زيد بن معاذ حين أصابها السيف إلى الكعب ، حين قتل ابن الأشرف ، فبرئت . وعلى ساق على بن الحكم يوم الخندق إذ انكسرت ، فبرىء مكانه ، وما نزل عن فرسه . (أخرجه البنوى فى معجمه كما قال السيوطى فى نسيم الرياض ٣ — ١١٨) .

وعن ابن عباس : جاءت امرأة بابن لها به جنون ، فمسح صدره ، فثع ثعة فخرج من جوفه مثل الجرو الأسود ؛ فشفى .

(فثع : أى قاء ، والجرو : ولد الكلب والسبع) والحديث رواه أحمد فى سنده بسند متصل بابن عباس وكذلك رواه البيهقى وابن أبى شيبة[3] .

وانكفأت القدر على ذراع محمد بن حاطب وهو طفل ، فمسح عليه ودعا له وتفل فيه فبرأ لحينه . (رواه البيهقى ، والنسائى والطيالسى ، مسندًا مصححا فيه) .

ومن معجزاته ﷺ
(إجابة دعائه ﷺ)

وهذا باب واسع جداً ، وإجابة دعوة النبى ﷺ لجماعة بما دعا لهم وعليهم متواتر على الجملة ، معلوم ضرورة . وقد جاء فى حديث حذيفة رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ إذا دعا لرجل أدركت الدعوة ولده وولد ولده . (رواه أحمد فى مسنده) .

---

(١) أخرجه البخارى فى « أبواب الغزوات » غزوة خيبر حـ ٥ ص ١٧١ فقد ورد الحديث من رواية لسهل بن سعد .
(٢) أخرجه البخارى فى « أبواب الغزوات » « باب غزوة خيبر » حـ ٥ ص ١٧٠ فقد ورد الحديث عن يزيد بن أبى عبيد .
(٣) انظر مجمع الزوائد باب طاعة الجن لرسول الله ﷺ . حـ ٨ ص ٢ . وقال الهيثمى رواه أحمد والطبرانى . وفيه فرقد السبخى وثقة ابن معين والعجلى وضعفه غيرها .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال قالت أمى : يا رسول الله ، خادمك أنس ، ادع الله له . قال : اللهم أكثر ماله وولده ، وبارك له فيما آتيته (رواه البخارى)[١] .

ومن رواية عكرمة : قال أنس : فو الله ، إن مالى لكثير ، وان ولدى وولد ولدى ليعادّون اليوم على نحو المائة .[٢] (اخرجه مسلم) .

ومنه دعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة . قال عبد الرحمن فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً .... (رواه البيهقى) .

ودعا بعز الاسلام بعمر رضى الله عنه ، أو بأبى جهل ، فاستجيب له فى عمر . قال ابن مسعود رضى الله عنه : مازلنا أعزة منذ أسلم عمر .

وأصاب الناس فى بعض مغازية عطش ، فسأله عمر الدعاء ، فدعا فجاءت سحابة ، فسقتهم حاجتهم ، ثم أقلعت (رواه البيهقى والحاكم وصححه عن عمر) .

ودعا فى الاستسقاء ، فسقوا ، ثم شكوا إليه المطر ، فدعا فصحوا (أى صحت السماء وانكشف غيمها ، والحديث فى صحيح البخارى ومسلم)[٣] .

ودعا لابن عباس : اللهم فقهه فى الدين ، وعلّمه التأويل . فسُمّى بعد الحبر وترجمان القرآن . (والحديث رواه الشيخان)[٤] .

ودعا لعبد الله بن جعفر بالبركة فى صفقة يمينة (أى : فى بيعه وشرائه) فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه (رواه البيهقى) .

ودعا بمثله لعروة بن أبى **الجعد** ، فقال : لقد كنت أقوم بالكناسة ، (أى القمامة) فما أرجع حتى أربح أربعين ألفاً (رواه البخارى) .

---

(١) اخرجه الامام البخارى فى صحيحه ج ٨ ص ٩٣ كتاب الدعوات باب دعوة النبى ﷺ لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله . واخرجه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٨ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رقم ١٤١ / ٢٤٨٠ .
(٢) اخرجه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٨ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أنس بن مالك رقم ١٤٣ / ٢٤٨٠ .
٣ — اخرجه اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم كتاب صلاة الاستسقاء ص ١٩٧ — ١٩٨ رقم ٥١٧ .
٤ — رواه الامام مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٢٧ كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما رقم ١٣٨ / ٢٤٧٧ .

وقال البخارى فى حديثه : فكان لو اشترى التراب ربح فيه .

ودعا على مُضر فأقحطوا ، حتى استعطفته قريش ، فدعا لهم فسقوا .[١] (والحديث فى صحيح البخارى ومسلم) .

ودعا على كسرى حين مزق كتابه أن يمزق الله ملكه ، فلم تبق له باقية ، ولا بقيت لفارس رياسة فى أقطار الدنيا . (والحديث رواه الشيخان عن ابن عباس) .[٢]

وهذا الباب أكثر من أن يحاط به .

ومن معجزاته ﷺ
ما أطلع عليه من الغيوب وما يكون فى المستقبل

والأحاديث فى هذا الباب بحر لا يدرك قعره ، ولا ينزف غمره .

وهذه المعجزة من جملة معجزاته المعلومة على القطع الواصل إلينا خبرها على التواتر ، **لكثرة رواتها** ، واتفاق معانيها على الاطلاع على الغيب :

عن حذيفة قال : قام فينا رسول الله ﷺ ، مقاماً فما ترك شيئاً يكون فى مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه ، حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه ، قد علمه أصحابى هؤلاء ، وإنه ليكون منه الشىء فأعرفه فأذكره ، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه ، ثم إذا رآه عرفه . (رواه مسلم)[٣] .

(وفى رواية أبى داود)

ثم قال حذيفة ما أدرى ، أنسى أصحابى أم تناسوه ، والله ما ترك رسول الله ﷺ من قائد فتنة ، إلى أن تنقضى الدنيا ، يبلغ من معه ثلاثمائة فصاعداً ، إلا قد سماه لنا باسمه ، واسم أبيه ، وقبيلته .

---

(١) اخرجه الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب المناقب باب علامات النبوة ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ج ٤ ص ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ رقم ٧٥ / ٧٦ — ٢٩١٨ .

(٣) اخرجه أبو داود فى سننه ج ٤ ص ٤٤١ رقم ٤٢٤٠ كتاب الفتن والملاحم باب ذكر الفتن ودلائلها .
واخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ٢٢١٧ رقم ٢٣ / ٢٨٩١ كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اخبار النبى ﷺ .

وقال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائر جناحيه فى السماء ، إلا ذكرنا منه عِلْمًا . (رواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند صحيح)(١) .

(ومعنى إلا ذكرنا منه عِلمًا : أى تذكرنا وفهمنا من طيرانه ، علماً يتعلق به ، فكيف بغيره مما يهمنا فى الأرض) .

وقد خرج أهل الصحيح والأئمة ما أعلم به أصحابه ﷺ ، مما وعدهم به من الظهور على أعدائه ، وفتح مكة ، وبيت المقدس ، واليمن ، والشام ، والعراق ، وظهور الأمن ، حتى تظعن المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله ، وأن المدينة ستغزى وتفتح خيبر على يدى على فى غد يومه ، وما يفتح الله على أمته من الدنيا ، ويؤتون من زهرتها ، وقسمتهم كنوز كسرى ، وقيصر ، وما يحدث بينهم من الفنون والاختلاف والأهواء ، وسلوك سبيل من قبلهم ، وافتراقهم على ثلاث وسبعين فرقة ، الناجية منها واحدة ، وأنها ستكون لهم أنماط (جمع نمط وهو البساط والمراد التوسع فى الدنيا) يغدو أحدهم فى حلة ، ويروح فى أخرى ، وتوضع بين يديه صحفة ، وترفع أخرى ، ويسترون بيوتهم كما تستر الكعبة .

ثم قال آخر الحديث (الذى رواه الترمذى وغيره وحسنه) : وأنتم اليوم خير منكم يومئذ ، وأنهم إذا مشوا المطيطاء (مشيه فيها مد اليدين ، والمراد به التبختر) وخدمتهم بنات فارس والروم ، رد الله بأسهم بينهم ، وسلط شرارهم على خيارهم .

وبذهاب الأمثل فالأمثل من الناس ، وتقارب الزمان ، وقبض العلم ، وظهور الفتن والتهرج . (رواه مسلم) .

وقال : ويل للعرب من شر قد اقترب . (رواه الشيخان)(٢) .

وأنه زويت له الأرض فأرى مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها (والحديث فى صحيح مسلم) .

وكذلك كان ، امتدت فى المشارق والمغارب مما بين أرض الهند أقصى المشرق إلى بحر طنجه حيث لا عمارة ورواءه ، وذلك ما لم تملكه أمة من الأمم ولم تمتد فى الجنوب ولا فى الشمال مثل ذلك .

---

(١) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ١٥٣ ، ص ١٦٢ .

(٢) اخرجه الامام البخارى فى صحيحه فى كتاب بدء الخلق باب قصة يأجوج ومأجوج ج ٤ ص ١٦٨ ، ص ٢٤١ باب علامات النبوة .

وقال : يكون فى ثقيف كذاب ومبير ، فرأوهما : الحجاج ، والمختار وأن مسيلمة يعقره الله[١] . (والحديث فى الصحيح البخارى ومسلم) .

وان فاطمة أول أهله لحوقاً به .[٢] (الحديث فى صحيح مسلم) .

وأنذر بالردة ، وبأن الخلافة بعده ثلاثون سنة ثم تكون مُلْكاً ، فكانت كذه بمدة الحسن بن على[٣] (والحديث مما رواه الشيخان عن ابن عمر) ، وقال : لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه[٤] (الحديث فى البخارى) .

.... إلى ما أخبر به من الحوادث التى تكون ولم يأت بعد ، منها ما ظهرت مقدماتها ، كقوله ، عمران بيت المقدس خراب يثرب ، وخراب يثرب خروج الملحمة ، وخروج الملحمة ، فتح القسطنطينية (وبقية الحديث — كما فى سنن أبى داود) ، وفتح القسطنطينية **خروج الدجال** ، ثم ضرب بيده على فخذ الذى حدث أو منكبه ، ثم قال : إن هذا لحق كما أنك ها هنا ، أو كما أنك قاعد — يعنى معاذ بن جبل) إلى ما أخبر به من أشراط الساعة وآيات حلولها ، وذكر النشر والحشر ، وأخبار الأبرار والفجار ، والجنة والنار وعرصات القيامة .

وبحسب هذا الفصل أن يكون ديواناً مفرداً يشمل على أجزاء وحده ، وفيما أشرنا إليه من نكت الأحاديث التى ذكرنا كفاية ، وأكثرها فى الصحيح وعند الأئمة . انتهى البحث . (من كتاب الشفا للقاضى عياض) .

إرشاد وتحذير

قوله تعالى : ﴿ **فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شىء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع ، يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ .

---

(١) اخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ج ٤ ص ٢٢١٥ رقم ١٩ / ٢٨٨٩ .

(٢) اخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة بنت النبى ج ٤ ص ١٩٠٥ رقم ٩٧ — ٩٨ — ٩٩ / ٢٢٤٥٠ .

(٣) أبى داود فى سننه فى كتاب السنة باب فى الخلفاء ج ٥ ص ٣٦ رقم ٤٦٤٦ ورواه مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٢٠ .

(٤) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٣٢ .

يقول تعالى : فقل يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم انهم منتظرون قال تعالى : ﴿ **فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون ، أفبعذابنا يستعجلون ، فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ، وتول عنهم حتى حين ، وأبصر فسوف يبصرون سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين** ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿ **يوم يدع الداع إلى شيء نكر** ﴾ أى إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب وما فيه من البلاء والزلازل والأهوال . ﴿ **خشعاً أبصارهم** ﴾ الخشوع فى البصر الخضوع والذلة ، وأضاف الخشوع إلى الأبصار ، لأن أثر العز والذل يتبين فى ناظر الإنسان ، قال تعالى : ﴿ **خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر** ﴾ الأجداث القبور يخرجون منها كأنهم جراد منتشر ، أى كأنهم فى انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعى ، جراد منتشر فى الآفاق ، كقوله تعالى : ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث** ﴾[٤]. وقوله تعالى : ﴿ **مهطعين إلى الداع** ﴾ أى مسرعين إلى الداعى لا يخالفون ولا يتأخرون . ﴿ **يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ أى يوم شديد الهول سيء المنقلب . كقوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير** ﴾[٥]. وفى هذا إيماء إلى أنه هين على المؤمن لا عسر فيه ولا مشقة .

---

(١) الصافات الآيات : ١٧٤ ــ ١٨٢
(٢) الشورى الآية ٤٥
(٣) القلم الآية ٤٣
(٤) القارعة الآية ٣
(٥) المدثر الآيات ٨ ــ ١٠

الرسل وأقوامهم

* كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ
فَانْتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ
عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ
﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾
فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ
بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً
لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا
كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ
بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا
كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ

ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

معانى المفردات

(وازدجر) أى وزجر عن التبليغ بأنواع الأذى والتخويف .

(فانتصر) أى فانتقم لى منهم . (منهم) كثير . . (فالتقى الماء) أى ماء السماء وماء الأرض . (على أمر) أى على حال . (قد قدر) أى قد قدره الله فى الأزل (ذات ألواح) أى ذات خشب عريضة ، (دسر) أى مسامير ، (بأعيننا) المراد بحراستنا وحفظنا ، (تركناها) أى أبقينا السفينة . (آية) أى علامة ودليلا ، (مدكر) أى متذكر ومعتبر ، (نذر) واحدها نذير بمعنى إنذار . (يسرنا) أى سهلنا ، (للذكر) أى للعظة والاعتبار ، (مدكر) أى متعظ بمواعظة .

(الريح الصرصر) الباردة أشد البرد ، (النحس) الشؤم ، (منقعر) أى مقتلع من أصوله ، يقال قعرت النخلة : أى قلعتها من أصلها فانقعرت .

(سعر) أى جنون . (الأشر) شديد البطر والبطر : دهش يعترى الإنسان من سوء احتمال النعمة ، وقلة القيام بحقها ، (فتنة) أى اختباراً ، (فارتقبهم) أى فانتظرهم (واصطبر) أى واصبر على أذاهم . (والشرب) النصيب ، (محتضر) أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فتحضر الناقة مرة ويحضرون أخرى ، (صاحبهم) هو قدار بن سالف الشقى ، (فتعاطى) أى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث به ، (فعقر) أى فضرب قوائم الناقة بالسيف ، (صيحة واحدة) هى صيحة صاحها جبريل عليه السلام ، (والهشيم) ما تهشم وتفتت من الشجر ، (والمحتظر) الذى يعمل الحظيرة فتتساقط منه بعض أجزاء وتتفتت حال العمل . (حاصباً) أى ريحاً ترميهم بالحصباء ، وهى الحصا ، (والسحر) **السدس** الأخير من الليل ، (فتماروا بالنذر) أى فشكوا فى الإنذارات ولم يصدقوها ، (**راودوه** عن ضيفه) أى صرفوه عن رأيه فيهم ، فطلبوا منه أن يسلم إليهم أضيافه ليفجروا بهم ، (فطمسنا أعينهم) أى فحجبناها عن الأبصار ، فلم تر شيئاً ، (بكرة) أى أول النهار ، (مستقر) أى دائب بهم إلى أن يهلكوا ، (النذر) واحدها نذير بمعنى انذار ، وهى الآيات التسع التى أنذرهم بها موسى صلوات الله عليه ، (عزيز) أى لا يغالب ولا يغلب ، (مقتدر) أى لا يعجزه شىء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أنه جاءهم من الأخبار ما فيه مزدجر لو تذكروا لكن لم تغنهم تلك الزواجر شيئاً ــ أردف هذا ذكر قصص من قبلهم من الأمم كقوم نوح وعاد وثمود ، ليبين لرسوله أنهم ليسوا ببدع من الأمم ، بل كثير منهم فعلوا فعلهم ، بل كانوا أشد منهم عتوا واستكبارا ، وأن الأنبياء قبله قد لاقوا منهم من البلاء ما لاقيت ، فلا تأس على ما فرط منهم ولا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴿ **فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل** ﴾[١] ، وفى هذا وعيد للمشركين من أهل مكة وغيرهم على تكذيبهم رسولهم ، وانهم إن لم ينيبوا إلى ربهم ، فسيحل بهم من العذاب ، مثل ما حل بمن قبلهم ، وينجى نبيه والمؤمنين ، كما نجى من قبله من الرسل وأتباعهم من نقمه التى أحلها بأممهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر** ﴾ ، يقول تعالى : كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح ، ﴿ **فكذبوا عبدنا** ﴾ أى صرحوا له بالتكذيب واتهموه بالجنون والضلال ، وقالوا له كما حكى الله عنهم ، ﴿ **قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين** ﴾[٢] ، وقالوا : ﴿ **إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين** ﴾[٣] وقالوا هنا ﴿ **وقالوا مجنون وازدجر** ﴾ وازدجر ، أى انتهروه وزجروه وتواعدوه ﴿ **لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين** ﴾[٤] .

قوله تعالى : ﴿ **فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر** ﴾ أى إنى ضعيف عن هؤلاء وعن مقاومتهم ، فانتصر أنت لدينك كقوله تعالى : ﴿ **قال رب انصرنى بما كذبون ، فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون** ﴾[٥] ، وكقوله تعالى : ﴿ **قال رب إن قومى كذبون ، فافتح بينى وبينهم فتحاً ونجنى ومن معى من المؤمنين** ﴾[٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **وقال نوح**

(١) الأحقاف آية ٣٥
(٢) الأعراف آية ٦٠
(٣) المؤمنون آية ٢٥
(٤) الشعراء آية ١١٦
(٥) المؤمنون الآيتان ٢٦ ، ٢٧
(٦) الشعراء الآيتان ١١٧ ، ١١٨

رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾[١] ، قال الله تعالى : ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر** ﴾ أى فأجبنا دعاءه ، وأمرناه باتخاذ السفينة ، وفتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، أى كثير . قال ابن عباس : ففتحنا أبواب السماء بماء من غير سحاب لم يقلع أربعين عاماً . ﴿ **وفجرنا الأرض عيونا** ﴾ أوحى الله إلى الأرض أن تخرج ماءها ، فتفجرت بالعيون ، ونبعت جميع أرجاء الأرض ، حتى التنانير التى هى محال النيران ، نبعت عيوناً ، ﴿ **فالتقى الماء** ﴾ أى من السماء والأرض ، ﴿ **على أمر قد قدر** ﴾ أى أمر مقدر ، قال قتادة : قدر لهم إذا كفروا ان يغرقوا ، وقال محمد بن كعب كانت الأموات قبل الأجساد ، وكان القدر قبل البلاء وتلا هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ **وحملناه على ذات ألواح ودسر** ﴾ أى حملناه على سفينة ذات ألواح ، ﴿ **ودسر** ﴾ قال قتادة : يعنى المسامير التى دُسرت بها السفينة أى شدت ، وقال الحسن وعكرمة : هى صدر السفينة التى تضرب بها الموج ، سميت بذلك ، لأنها تدسر الماء أى تدفعه ، والدسر الدفع والمَخر .

وقوله تعالى : ﴿ **تجرى بأعيننا** ﴾ أى بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ، وقوله تعالى : ﴿ **جزاء لمن كان كفر** ﴾ أى جزاء لهم على كفرهم بالله ، وانتصاراً لنوح ومن معه من المؤمنين .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد تركناها آية** ﴾ أى ولقد جعلنا السفينة التى حملنا فيها نوحاً ومن معه — عبرة لمن بعده من الأمم ، ليتدبروا ويتعظوا ، ويرعووا أن يسلكوا مسلكهم ، وينهجوا نهجهم فى الكفر بالله وتكذيب رسله ، فيصيبهم مثل ما أصابهم من العقوبة ، كما قال تعالى : ﴿ **إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية ، لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية** ﴾[٢] ، وكقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ **فهل من مدكر ؟** ﴾ أى فهل من معتبر بتلك الآية ، الجديرة بطويل التفكير ، والتأمل فى عواقب المكذبين برسل الله ، الجاحدين بوحدانيته ، المتخذين له الأنداد والأوثان .

---

(١) نوح ٢٦ ، ٢٧
(٢) الحاقة الآيتان ١١ ، ١٢
(٣) الشعراء الآيتان ١٢١ ، ١٢٢

ثم بين سبحانه شديد نكاله وعقابه فقال تعالى : ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر ؟** ﴾ أى ما أشد ما أنزلته بهم من البوار والهلاك ، وما أفظع إنذارى لهم ، بما أحللته بهم من النقمة بعد النعمة ، وهكذا عاقبة كل مكذب جبار ، كقوله تعالى : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لآجل معدود** ﴾(١) .

ثم ذكر سبحانه ، أن هذا القصص وأمثاله ، إنما ذكر فى القرآن للعبرة ، لا ليكون قصصاً تاريخياً يتلى ، فقال تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ أى سهلناه للحفظ ، وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه فيعان عليه ؟ قال سعيد بن جبير : ليس من كتب الله كتاب يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن ، فيسر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ، ليذكروا ما فيه ﴿ **فهل من مدكر** ﴾ قال أبو بكر الوراق : فهل من طالب خير وعلم ، فيعان عليه ، قال القرطبى : وكرر فى هذه السورة للتنبيه والإفهام ، وقيل : إن الله تعالى قص فى هذه السورة على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المسلمين ، وما عاملتهم به الأمم ، وما كان من عقبى أمورهم وأمور المسلمين ، فكان فى كل قصة ونبأ ذكر لمستمع أن لو ادَّكر ، وإنما كرر هذه الآية عند ذكر كل قصة بقوله : ﴿ **فهل من مدكر** ﴾ لأن « هل » كلمة استفهام تستدعى أفهامهم التى ركبت فى أجوافهم ، وجعلها حجة عليهم ، « فاللام » من « هل » للاستعراض و « الهاء » للاستخراج .

قوله تعالى : ﴿ **كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ .

قوله : ﴿ **كذبت عاد** ﴾ هم قوم هود ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ أى فانظروا معشر قريش ، كيف كان عذابى إياهم وعقابى لهم على كفرهم بالله وتكذيبهم رسوله هوداً ، وإنذارى من سلك سبيلهم وتمادى فى الغى والضلال بحلول مثل ذلك العقاب به .

وفى هذا توجيه لقلوب السامعين إلى الإصغاء ، لما يلقى عليهم قبل ذكره ، وتعجيب من حالهم بعد بيانه ، كأنه قيل : كذبت عاد فانظروا كيف كان عذابى وانذارى لهم به قبل نزوله .

---

(١) هود الآيات ١٠٢ ــ ١٠٣

ثم فصّل ما أجمله أولاً فقال تعالى :

﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر** ﴾ أى أرسلنا عليهم ريحاً شديدة البرد ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتابعات ، ﴿ **فى يوم نحس مستمر** ﴾ أى دائم الشؤم استمر عليهم بنحوسه ، واستمر عليهم فيه العذاب إلى الهلاك .

قوله تعالى : ﴿ **تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ أى تقلعهم من مواضعهم ، قال مجاهد : كانت تقلعهم من الأرض ، فترمى بهم على رءوسهم ، فتندّق أعناقهم ، وتبين رءوسهم عن أجسادهم ، والمنقعر المنقطع من أصله ، قعرت الشجرة قعراً قلعتها من أصلها فانقعرت ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية** ﴾[1] .

ثم هوَّل من أمر العذاب والإنذار بعد بيانهما فقال :

﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ أى فانظروا كيف كان عذابى وإنذارى وقد كرره تعظيماً لشأنه ، وهذه سنة فى بليغ الكلام ، فى باب إشارة إلى عذاب الدنيا ، والثانى إلى عذاب الآخرة ، كما جاء فى قصصهم فى آية أخرى ، ﴿ **لنذيقهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون** ﴾[2] .

﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **كذبت ثمود بالنذر ، فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفى ضلال وسعر ، أألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر ، سيعلمون غداً مَن الكذاب الأشر ، إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر ، فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ، فكيف كان عذابى ونذر ، إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ .

(١) الحاقة الآيات ٦ ــ ٨

(٢) فصلت آية ١٦

قوله تعالى : ﴿ **كذبت ثمود بالنذر** ﴾ أى كذبت ثمود بنذر الله ورسله الذين بعثهم لخلقه ، وهم وإن كذبوا صالحاً فحسب ، فإن تكذيبه تكذيب لهم جميعاً ، لا تفاقهم على الأصول العامة للتشريع ، وهى التوحيد ومجىء الرسل واليوم الآخر .

ثم فصل تكذيبهم وحكى عنهم مقالهم فقال تعالى : ﴿ **فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه** ﴾ **أى أنتبع واحداً من الدهماء ، لا من عِلْيَةِ القوم ولا من أشرافهم ، وليس له ميزة عن امرىء منا بعلم ظاهر ، ولا ثروة وغنى ، تجعله يدَّعى أن يكون الزعيم لنا ، ثم ذكروا وجه إصرارهم على تكذيبه بقولهم :** ﴿ **إنا اذا لفى ضلال وسعر** ﴾ أى إنا لو اتبعناه نكون قد ضللنا الصراط السوى وجانبنا الصواب ، وصرنا لا محالة إلى الجنون الذى لا يرضى به عاقل لنفسه .

ثم بالغوا فى العتو والإنكار ، وتعجبوا من أمره ، ونسبوه إلى الاختلاق والكذب فقالوا : ﴿ **أألقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر** ﴾ أى أأنزل عليه الوحى من بيننا ، وأوتى النبوة ، وهو واحد منا ؟ ولم اختصه الله بإنزال الشرائع عليه ، وهو ليس بملك مكرّم ؟ الحق إنه لكذاب متجبر ، يريد أن تكون له السيطرة والسلطان علينا ، ويودّ أن يكون الرئيس المطاع ، وما ذاك إلا بما زينته له نفسه ، وأغواه به الشيطان ، ولا يستند إلى وحى سماوى ، ولا أمر إلهى .

ثم حكى سبحانه ما قاله لصالح وعدا له ووعيدا لقومه فقال : ﴿ **سيعلمون غدا من الكذاب الأشر** ﴾ أى سيعلمون عن قريب حين يحل بهم الهلاك الدنيوى — من الكذاب البطر الذى حمله بطره على ما فعل ، أصالح فى دعواه الرسالة من ربه ، وأنه أمره بالتبليغ لهداية قومه إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، أم هم فى تكذيبهم إياه ودعواهم عليه الاختلاق والكذب ، ثم ذكر مقدمات العذاب الموعود به فقال تعالى : ﴿ **إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم** ﴾ أى إنا مخرجو الناقة من الهضبة التى طلبوا من نبيهم بعثها منها ، لتكون آية لهم ، وحجة على صدقه فى ادعائه النبوة ، وتكون فتنة واختباراً لهم ، أيؤمنون بالله ويتبعونه فيما أمرهم به من توحيد ، أم يكذبونه . ويكفرون به ؟ .

﴿ **فارتقبهم واصطبر** ﴾ أى فانتظر ماذا يفعلون ؟ وأبصر ماذا يصنعون ؟ واصبر على أذاهم ولا تعجل حتى يأتى أمر الله ، فإن الله ناصرك ،ومهلك عدوك .

﴿ **ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر** ﴾ أى وأخبرهم أن ماء بئرهم مقسوم بينهم وبين الناقة ، لها يوم ولهم يوم ، وكل حصة منه يحضر صاحبها ليأخذها فى نوبته ، فتحضر الناقة تارة ، ويحضرون هم أخرى .

وقد جعلت القسمة على هذا الوجه لمنع الضرر ، لأن حيوان القوم كانت تنفر منها ، ولا ترد الماء وهى عليه ، فصعب ذلك عليهم . ﴿ **فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** ﴾ أى فملت ثمود هذه القسمة ، وأرادوا الخلاص منها ، فنادوا قدار بن سالف وكان أشقاهم ليعقرها وحضوه على ذلك ، فلبى طلبهم ، وتناولها بيده ، وأهوى بالسيف ضربا على قوائمها ، فخرت صريعة ، ﴿ **وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً** ﴾[1] . قال تعالى : ﴿ **فكيف كان عذابى ونذر** ﴾ ثم فصل هذا العذاب بقوله : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر** ﴾ أى إنا أرسلنا جبريل ، فصاح بهم صيحة ، فصاروا كالحشيش البالى ، الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته ، وكأنهم هلكوا من أمر بعيد . قال ابن عباس : انهم كانوا مثل القمح الذى ديس وهشم ، كما قال سبحانه : ﴿ **وفى ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين** ﴾[2] ، ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ أى فهل من متذكر بهذا القرآن ، الذى قد يسر الله حفظه ومعناه ؟ وقال محمد بن كعب القرطبى فهل من منزجر عن المعاصى ؟

قوله تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط بالنذر ، إنا ارسلنا عليهم حاصبا إلا آل لوط نجيناهم بسحر ، نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر ، ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ، فذوقوا عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾.

قال العلامة ابن كثير :

يقول تعالى مخبرا عن قوم لوط ، كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من إيتان الذكور ، وهى الفاحشة ، التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم ، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم ، حتى وصل بها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم وأرسلها واتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال هنا : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم حاصباً** ﴾ وهى الحجارة ، ﴿ **إلا آل لوط نجيناهم بسحر** ﴾ أى خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبى الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً ، لم يمسسه سوء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **كذلك نجزى من شكر** ﴾ أى أنعمنا عليهم بالنجاة كرامة لهم منا وهكذا نجزى من شكرنا على نعمتنا وأطاعنا فائتمر بأمرنا ، وانتهى عما نهينا عنه .

---

(١) الإسراء آية ١٦

(٢) الذاريات الآيات ٤٣ — ٤٥

ثم ذكر أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أنذرهم عذابه ، وخوفهم بأسه فقال :

﴿ **ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر** ﴾ أى ولقد أنذرهم نبيهم بأس الله وعذابه ، قبل حلوله بهم ، فما التفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه وتماروا به ، كما قال الله سبحانه : ﴿ **ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون** ﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿ **ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ، قال رب انصرنى على القوم المفسدين** ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد راودوه عن ضيفه** ﴾ وذلك ليلة ورد عليه الملائكة جبريل وميكائيل واسرافيل ، فى صور شباب مرد حسان ، محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها ، فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه ، ويقول لهم ، كما قال الله سبحانه : ﴿ **وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات . قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزونى فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ، قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد ، قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد** ﴾(٣) فلما اشتد الحال وأبوا إلا الدخول ، خرج عليهم جبريل عليه السلام ، فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم ، يقال إنها غارت من وجوههم ، وقيل : إنه لم تبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطا عليه السلام إلى الصباح ، قال الله تعالى : ﴿ **ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر** ﴾ أى لا يحيد لهم عنه ولا انفكاك لهم منه ﴿ **فذوقوا عذابى ونذر** ﴾ ، قال تعالى : ﴿ **فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك ، وما هى من الظالمين ببعيد** ﴾(٤) ثم ختم سبحانه القصة

---

(١) الأعراف الآيات ٨٠ ــ ٨٢

(٢) العنكبوت الآيتان ٢٨ ــ ٢٩

(٣) هود الآيات ٧٨ ــ ٨٠

(٤) هود الآيتان ٨٢ ــ ٨٣

بقوله : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ وهذه الجملة القسمية ، وردت فى آخر كل قصة من القصص الأربع ، تقريراً لمضمون ما سبق من قوله : ﴿ **ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر** ﴾ وتنبيهاً إلى أن كل قصة منها مستقلة بإيجاب الاذكار ، كافية فى الازدجار ، ولم يحصل بها مع هذا عظة واعتبار ، وقد جاء هذا التكرير فى سورة الشعراء ، من قوله : ﴿ **إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾(١) ، وفيما سيأتى فى سورة الرحمن — إن شاء الله — من قوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾(٢) وقوله فى سورة المرسلات : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾(٣). وهذا كثير فى كلام العرب إذا أرادوا العناية بما فيه من هام الأمور .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد جاء آل فرعون النذر ، كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر** ﴾ .

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه : أنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون ، بالبشارة إن آمنوا ، والنذارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة ، وآيات متعددة ، فكذبوا بها كلها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، أى فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ، ولا عين ولا أثر ، كما قال جل فى علاه : ﴿ **ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بنى اسرائيل ، إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورا ، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يا فرعون مثبورا ، فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً** ﴾(٤)، وقال سبحانه : ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ، ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾(٥).

(١) الشعراء الآيتان ٨ — ٩
(٢) الرحمن ١٣
(٣) المرسلات ١٥
(٤) الاسراء الآيات ١٠١ — ١٠٣
(٥) النمل الآيتان ١٣ — ١٤

وعـد ووعيـد

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

معانى المفردات

﴿ **براءة** ﴾ أى صك مكتوب بالنجاة من العذاب ، ﴿ **والزبر** ﴾ الكتب السماوية واحدها زبور ، ﴿ **يولون** ﴾ أى يرجعون ، ﴿ **الدبر** ﴾ أى الأدبار هاربين منهزمين ، ﴿ **والساعة** ﴾ هى القيامة ، ﴿ **موعدهم** ﴾ أى موعد عذابهم ، ﴿ **أدهى** ﴾ أى أعظم داهية ، وهى الأمر الفظيع ، الذى لا يهتدى للخلاص منه ، يقال دهاه أمر كذا : أى أصابه ، ﴿ **وأمرّ** ﴾ أى أشد مرارة فى الذوق ، والمراد الشدة والهول . ﴿ **إن المجرمين فى ضلال** ﴾ أى فى الدنيا عن الحق ، ﴿ **وسعر** ﴾ أى نيران واحدها سعير ، ﴿ **يسحبون** ﴾ أى يجرون ، ﴿ **سقر** ﴾ اسم لجهنم ، ﴿ **ومسها** ﴾ حرها ، ﴿ **بقدر** ﴾ أى مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ ، ﴿ **أمرنا** ﴾ أى شأننا ، ﴿ **واحدة** ﴾ أى كلمة واحدة وهى قوله : ﴿ **كن** ﴾ ﴿ **كلمح بالبصر** ﴾ أى فى اليسر والسرعة ، ﴿ **أشياعكم** ﴾ أى أشباهكم فى الكفر من الأمم السالفة ، واحدهم شيعة ، وهم من يتقوى بهم المرء من الأتباع ، ﴿ **مدكر** ﴾ أى متعظ ، ﴿ **فى الزبر** ﴾ أى فى كتب الحفظة ، ﴿ **مستطر** ﴾ أى سطور مكتوب فى اللوح بتفاصيله . ﴿ **نهر** ﴾ أى أنهار ، ﴿ **فى مقعد صدق** ﴾ أى فى مكان مرضى ، ﴿ **عند مليك مقتدر** ﴾ أى عند ملك عظيم القدرة واسع السلطان .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه قصص قوم نوح ، وعاد وثمود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون ، وفصل ما اجيبوا به من عذاب الله ، الذى لا مرد له ، بسبب كفرهم بآياته وتكذيبهم لرسله — أعقب هذا بتنبيه كفار قريش ، إلى أنهم إن لم يتوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن غيهم ، فستحل بهم سنتنا ، ويحيق بهم من البلاء ، مثل ما حل بأحزابهم من المكذبين من قبلهم ، ثم خاطبهم خطاب إنكار وتوبيخ فقال لهم : **على ما تتكلون**، وماذا تظنون ؟ أأنتم خير ممن سبقكم عدداً وكثرة مال وبطشاً وقوة ، أم لديكم صك من ربكم بأنه لن يعذبكم مهما أشركتم واجترحتم من السيئات ؟ أم أنكم تظنون انكم جمع كثير ، لا يمكن أن ينال بسوء ، كلا إن شيئا من هذا ليس بكائن ، وإنكم ستهزمون ، وسيحل بكم قضاء الله الذى لا مفر منه ، وما سترونه فى الآخرة أشد نكالا ، وأعظم وبالاً ، ثم بين سبحانه أن كل شىء بقضاء الله وقدره ، وإذا أراد الله أمراً ، فإنما يقول له كن فيكون ، ثم نبههم إلى ما كان يجب عليهم أن يتنبهوا له ، من هلاك أمثالهم من الأمم التى كذبت رسلها من قبل ، وفعلت فعلها فأخذها أخذ عزيز مقتدر ، ثم ختم السورة بذكر ما يتمتع به المتقون فى جنات النعيم ، من إجلال وتعظيم ، ويرون ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر** ﴾[1] أى أكفاركم يا معشر قريش خيرمن أولئكم ، الذين أحللت بهم نقمى من قوم نوح وعاد وثمود ؟ فيأملوا أن ينجوا من عذابى ونقمتى ، على كفرهم بى وتكذيبهم رسولى . ﴿ **أم لكم براءة فى الزبر** ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : أى أم لكم فى اللوح المحفوظ براءة من العذاب .

قوله تعالى : ﴿ **أم يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ أى يعتقدون أنهم يتناصرون بعضهم بعضاً ، وأن جمعهم يغنى عنهم من أرادهم بسوء ، قال تعالى : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر** ﴾ أى سيتفرق شملهم ويغلبون .

قال البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال وهو فى قبة له يوم بدر : « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فى الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضى الله عنه بيده

---

(١) القمر آية ٤٣

وقال حسبك يا رسول الله ألححت على ربك ، فخرج وهو يثب فى الدرع وهو يقول : ﴿ **سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر** ﴾[١] .

وقال ابن أبى حاتم عن عكرمة قال لما نزلت : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) ، قال عمر أى جمع يهزم ؟ أى أىّ جمع يغلب ؟ قال عمر فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **إن المجرمين فى ضلال وسعر ، يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر** ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين ، أنهم فى ضلال وسعر مما هم فيه من الشكوك والاضطراب فى الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق ، ثم قال تعالى : ﴿ **يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر** ﴾ أى كما كانوا فى سعر وشك وتردد أورثهم النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم ولا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ذوقوا مس سقر ، أخرج سليم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ فى القدر ، فنزلت ﴿ **يوم يسحبون فى النار على وجوههم ذوقوا مس سقر ، إنا كل شىء خلقناه بقدر** ﴾ واخرجه الترمذى أيضاً وقال حديث حسن صحيح[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **إنا كل شىء خلقناه بقدر ، وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ إلى إن كل كائن فى هذه الحياة ، فهو بتقدير الله وتكوينه على مقتضى الحكمة البالغة ، والنظام الشامل ، وبحسب السنن التى وضعها فى الخليقة كقوله تعالى : ﴿ **وخلق كل شىء فقدره تقديراً** ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى** »[٥] ، وكقوله سبحانه ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾[٦] .

قال القرطبى رحمه الله : (عقيدة أهل السنة فى القضاء والقدر) .

الذى عليه أهل السنة ، أن الله سبحانه قدر الأشياء ، أى علم مقاديرها وأحوالها وأزمانها قبل ايجادها ، ثم أوجد منها ما سبق فى علمه أنه يوجده ، على نحو ما سبق فى علمه ، فلا يحدث حدث فى العالم العلوى والسفلى ، إلا وهو صادر عن علمه تعالى وقدرته وإرادته دون خلقه ، وأن الخلق ليس لهم فيها إلا نوع اكتساب ومحاولة ونسبة واضافة ، وأن ذلك كله إنما حصل لهم بتيسير الله تعالى وبقدرته

---

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه فى تفسير سورة اقتربت الساعة ج ٦ ص ١٧٩ — ١٨٠ .
(٢) اخرجه تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٥٧ فى تفسير سورة القمر آية ٤٣ .
(٣) اخرجه ابن ماجه فى سننه فى المقدمة باب فى القدر ج ١ ص ٣٢ رقم ٨٣ .
(٤) الفرقان آية ٢
(٥) الأعلى الآيات ١ — ٣
(٦) الأحزاب آية ٣٨

وتوفيقه وإلهامه ، سبحانه لا إله إلا هو ، ولا خالق غيره ، كما نص عليه القرآن والسنة ، لا كما قالت القدرية وغيرهم من أن الأعمال إلينا ، والآجال بيد غيرنا . قال أبو ذر رضى الله عنه : قدم وفد نجران على رسول الله ﷺ فقالوا : الأعمال إلينا والآجال بيد غيرنا ، فنزلت هذه الآيات إلى قوله : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾ فقالوا : يا محمد يكتب علينا الذنب ويعذبنا ؟ فقال « أنتم خصماء الله يوم القيامة » .

روى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله إن مرضوا فلا تعودوهم ، وأن ماتوا فلا تشهدوهم ، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم » رواه ابن ماجه فى سننه (١) .

وفى صحيح مسلم أن ابن عمر تبرأ منهم ، ولا يتبرأ إلا من كافر ، ثم أكد هذا بقوله : والذى يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه ، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر .

وقال الإمام الطحاوى رحمه الله : « وأصل القدر سر الله تعالى فى خلقه ، ولم يطلع على ذلك ملك مقرب ، ولا نبى مرسل ، والتعمق والنظر فى ذلك ذريعة الخذلان ، وسلم الحرمان ، ودرجة الطغيان ، فالحذر كل الحذر من ذلك نظراً وفكراً ووسوسة ، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه ، ونهاهم عن مرامه ، كما قال تعالى فى كتابه : ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾(٢) ، فمن سأل : لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب ، كان من الكافرين .

فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى ، وهى درجة الراسخين فى العلم ، لأن العلم علمان : علم فى الخلق موجود ، وعلم فى الخلق مفقود ، فإنكار العلم الموجود كفر ، وادعاء العلم المفقود كفر ، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود ، وترك طلب العلم المفقود ، ونؤمن باللوح والقلم ، وبجميع ما فيه قد رقم ، فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى فيه أنه كائن ، ليجعلوه غير كائن ، لم يقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه ، ليجعلوه كائناً — لم يقدروا عليه ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه فى كل كائن من خلقه ، فقدر ذلك تقديراً محكماً مبرماً ، ليس فيه ناقض ، ولا معقب ، ولا مزيل ، ولا مغير ، ولا ناقض ولا زائد من خلقه فى سماواته وأرضه ، وذلك من عقد الإيمان ، وأصول المعرفة ، والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته ، كما قال تعالى فى كتابه : ﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديراً** ﴾(٣) ، وقال تعالى : ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾(٤) .

---

(١) اخرجه ابن ماجه فى سننه فى المقدمة باب فى القدر ج ١ ص ٣٥ رقم ٩٢ .
(٢) الأنبياء آية ٢٣
(٣) الفرقان آية ٢
(٤) الأحزاب آية ٣٨

فويل لمن صار لله تعالى فى القدر خصيماً ، وأحضر للنظر فيه قلباً سقيماً ، لقد التمس بوهمه فى فحص الغيب سراً كتيماً ، وعاد بما قال فيه أفاكاً أثيماً : (من كتاب العقيدة الطحاوية) .

قوله تعالى : ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾ أى إنما نأمر بالشىء مرة واحدة ، لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذى **نأمر** به حاصلاً موجوداً كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين ، كما قال جل فى علاه : ﴿ **إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ **ولله غيب السموات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب . إن الله على كل شىء قدير** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدكر** ﴾ أى ولقد أهلكنا أشباهكم يا معشر قريش ، من المكذبين لأنبيائهم من الأمم الخالية ، واستأصلنا شأفتهم بحسب سنتنا فى أمثالهم ، بشتى العقوبات كما قال سبحانه : ﴿ **وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون** ﴾[3] ، وقوله : ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾[4] ، وقوله : ﴿ **ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون** ﴾[5] ثم بين لهم سبحانه ، أن كل أعمالهم محصاة عليهم ، وسيحاسبون على النقير والقطمير فقال تعالى : ﴿ **وكل شىء فعلوه فى الزبر ، وكل صغير وكبير مستطر** ﴾ أى وكل شىء فعلوه مقيد لدى الكرام الكاتبين ، كما قال تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[6] فما من صغيرة ولا كبيرة إلا هى مسطورة فى دواوينهم ، وصحائف أعمالهم ، ويوم القيامة يقولون : ﴿ **ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾[7] .

روى الامام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « ياعائشة إياكِ ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً »[8] .

وقيل :

لا تحقرن من الذنوب صغيراً ... إن الصغير غدا يعود كبيراً
إن الصغير وإن تقادم عهده ... عند الإله مسطر تسطيراً
فأسأل هدايتك الإله فتتئد ... فكفى بربك هادياً ونصيراً

قوله تعالى : ﴿ **إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر** ﴾ أى إن الذين اتقوا عقاب ربهم فأطاعوه ، وأدوا فرائضه واجتنبوا معاصيه ، وأخلصوا له العمل فى السر والعلن ،

---

(١) يس آية ٨٢
(٢) النحل آية ٧٧
(٣) الصافات آية ١٠
(٤) القتال الآيتان ١٣٧ — ١٣٨
(٥) الأحقاف آية ٢٧
(٦) ق آية ١٨
(٧) الكهف آية ٤٩
(٨) اخرجه أحمد فى مسنده ج ٦ ص ٧٠

وقاموا الليل واستغفروا بالأسحار ، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويجلسون على فرش بطائنها من استبرق ، ويجدون فيها من النعيم ما لا يخطر على قلب بشر ، كفاء ما بذلوا من الصبر على مشاق الطاعات ، وحرموا منه أنفسهم من اللذات كما قيل للربيع بن خيثم ، وقد صلى حتى ورمت قدماه ، وتهجد حتى غارت عيناه ، أتعبت نفسك ، فقال : راحتها أطلب ، كما ينالون الزلفى عند ربهم ، القادر على جزائهم بإحسانه وجوده ، وفضله ومنته ، فكل شيء تحت قبضته وسلطانه ، لا يمانع ولا يغالب وهو العزيز الحكيم .

اللهم احشرنا فى زمرتهم واجعلنا ممن يسمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، إنك أنت السميع المجيب ، ذو الطول العظيم .

تفسير سورة الرحمن

مقدمة

قال صاحب كتاب « بصائر ذوى التمييز »

السورة مكية بالاتفاق

عدد آياتها : ثمان وسبعون

وكلماتها : ثلاثمائة وإحدى وخمسون

وحروفها : ألف وثلاثمائة وست وثلاثون

وسميت سورة الرحمن لمفتتحها

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : المنة على الخلق بتعليم القرآن ، وتلقين البيان ، وأمر الخلائق بالعدل فى الميزان ، والمنة عليهم بالعصف والريحان ، وبيان عجائب القدرة فى طينة الإنسان وبدائع البحر ، وعجائبها : من استخراج اللؤلؤ والمرجان ، واجراء الفلك على وجه الماء ، أبدع جريان ، وفناء الخلق وبقاء الرحمن ، وقضاء حاجات المحتاجين ، وأن لا نجاة للعبد من الله ، إلا بحجة وبرهان ، وقهره الخلائق فى القيامة بلهيب النار والدخان ، وسؤال أهل الطاعة (وكذا) أهل العصيان وطوف الكفار فى الجحيم ، ودلال المؤمنين فى نعيم الجنان ، ومكافأة أهل الإحسان بالإحسان ، (وسدور) المؤمنين بأزواجهم من الحور الحسان ، وتقلبهم ورودهم فى رياض الرضوان ، على بساط الشاذروان ، وخطبة جلال الحق ، على لسان أهل التوحيد والإيمان ، بقوله تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام .

المتشابهات

قوله ﴿ **ووضع الميزان** ﴾ أعاده ثلاث مرات ، فصرح ولم يضمر ، ليكون كل واحد قائماً بنفسه غير محتاج إلى الأول ، وقيل : لأن كل واحد غير الآخر . الأول ميزان الدنيا ، والثانى ميزان الآخرة ، والثالث ميزان العقل : نزلت متفرقة ، فاقتضى الاظهار .

قوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ كرر الآية احدى وثلاثين مرة ، ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ، ومبدأ الخلق ومعادهم ، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها ، على عدد أبواب جهنم ، وحسن ذكر الآلاء عقيبها ، لأن فى حرقها ودفعها نعما توازى النعم المذكورة ، أو لأنها حلت بالأعداد وذلك يعد من أكثر النعماء ، وبعد هذه السبعة ، ثمانية فى وصف الجنان وأهلها ، على عدد أبواب الجنة ، وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونها ، فمن أعتقد الثمانية الأولى ، وعمل بموجبها ، استحق كلتا الثمانيتين من الله ، ووقاه السبعة السابقة ، والله أعلم .

مناسبتها لما قبلها

لما قال سبحانه فى آخر سورة القمر (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) ثم وصف حال المجرمين فى سقر ، وحال المتقين فى جنات ونهر ، فصل هذا الإجمال فى هذه السورة أتم تفصيل) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ
بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا
فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ
(١٠) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥)
فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ (٢١) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) وَلَهُ الْجَوَارِ
الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦)
وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾

معانى المفردات

﴿ الرحمن ﴾ اسم من أسماء الله الحسنى ، ﴿ الإنسان ﴾ هو هذا النوع ، ﴿ البيان ﴾ تعبير الإنسان عما فى ضميره ، وإفهامه لغيره ، ﴿ بحسبان ﴾ أى بحساب دقيق منظم فالحُسبان بضم الحاء مصدر مثل الغفران ومعناه الحساب .

﴿ يسجدان ﴾ أى ينقادان لله طبعاً كما ينقاد المكلفون اختياراً ، ﴿ رفعها ﴾ أى خلقها مرفوعة المحل والمرتبة ، ﴿ الميزان ﴾ العدل والنظام ، ﴿ أقيموا الوزن بالقسط ﴾ أى قوموا وزنكم بالعدل ، ﴿ ولا تخسروا الميزان ﴾أى لا تنقصوه ، ﴿ للأنام ﴾ أى للخلق ، ﴿ والأكمام ﴾ واحدها (كِم) بالكسر : وعاء الثمر ، ﴿ والعصف ﴾ ورق النبات الذى على السنبلة ، ﴿ والريحان ﴾ كل مشموم طيب الرائحة من النبات ، والآلاء : النعم واحدها أَلى (بفتح الهمزة وكسرها) .. ﴿ الصلصال ﴾ الطين اليابس الذى له صَلصلة وصوت إذا نقر ، ﴿ الفخار ﴾ الخزف وهو الطين المطبوخ ، ﴿ الجان ﴾ نوع من الجن ، ﴿ والمارج ﴾ اللهب الخالص الذى لا دخان فيه ، ﴿ رب المشرقين ﴾ أى مشرق الشمس صيفاً وشتاءٍ ، ﴿ ورب المغربين ﴾ أى مغربيهما كذلك (مرج البحرين) أى أرسلهما وأجراهما من قولك مرجت الدابة فى المرعى : أى أرسلتها فيه (يلتقيان) أى يتجاوران وتتماس سطوحهما لا فصل بينهما فى رأى العين ، ﴿ برزخ ﴾ أى حاجز ، ﴿ لا يبغيان ﴾ أى لا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة وابطال خاصته . ﴿ واللؤلؤ ﴾ الدر المخلوق فى الأصداف ، ﴿ والمرجان ﴾ الخرز الأحمر ، ﴿ الجوارى ﴾ السفن الكبار ، ﴿ المنشئات ﴾ أى المصنوعات . ﴿ والأعلام ﴾ الجبال واحدها علم وهو الجبل العالى ، ﴿ فانٍ ﴾ أى هالك ، ﴿ ذو الجلال والاكرام ﴾ أى ذو العظمة والكبرياء .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾ .

﴿ الرحمن ﴾ من الأسماء الحسنى مختص بالله تعالى لا يجوز أن يسمى به غيره ، قال تعالى : ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾[1] ، وهو يجرى غالباً مجرى الصفة له تعالى ، نحو : (بسم الله الرحمن الرحيم) وقد يذكر موصوفاً ، كما قال تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[2] .

---

(١) الاسراء آية ١١٠

(٢) طه آية ٥

قال الخطابى : ذهب الجمهور من الناس ، إلى أنه اسم مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة ، الذى لا نظير له فيها ، ولذلك لا يثنى ولا يجمع ، وذكر اسم الرحمن سبعاً وخمسين مرة ، فى كتاب الله الكريم ، وأكثر سورة ذكر فيها اسم الرحمن « سورة مريم » إذ ذكر « الرحمن » ستة عشر مرة ، ولم أر اسماً من أسماء الله الحسنى حل محل اسم الجلالة فى القرآن الكريم ، أكثر من هذا الاسم ، وكثير من العلماء يفسر ﴿ **الرحمن** ﴾ بأنه المنعم بعظائم النعم ، وجلائل الآلاء ، ويفسر ﴿ **الرحيم** ﴾ بأنه المنعم بدقائق النعم ، ولطائفها ، وإننا لنسير مع اللغة العربية فى تفهم صيغة ﴿ **الرحمن** ﴾ ، وصيغة ﴿ **الرحيم** ﴾ إذ لابد لكل صيغة من مدلول لغوى ، مقصود المعنى ، باهر الدلالة ، وقد نزل القرآن بلسان عربى مبين (فالرحمن) صيغة جاءت بها اللغة للدلالة على التكثير والتكبير ، وللدلالة على ما يصدر عن تلك الصفة ، من رحمات متجددات ، وتعطفات مستمرات ، وأما (الرحيم) فصيغة تدل على الوصف الملازم الثابت ، فتكون دلالة الوصفين أن الله سبحانه وتعالى (رحيم) فى ذاته ، قد ثبتت له تلك الصفة ثبوتاً ذاتياً سرمدياً أبدياً ، ثم هو (رحمن) كثير الرحمة بعباده ، لا تنقطع عنهم آثار الرحمة ، ولا تستغنى عنها الحياة لحظة من لحظاتها (فالرحمن) الذى تتجدد رحمته ، ويتتابع إحسانه ..

إن اثار رحمة الله دلت عليها صيغة (رحمن) لتبدو فى كل لحظة ، بل فى كل برهة ، بل فى كل نفس يتنفسه الكائن الحى ، فى كل لحظة تسبح فيها الأفلاك رحمة من الله ، وفى كل حركة تجرى فى الأرض ، أو فى السماء رحمة من الله ، ولو تخلت هذه الرحمة عن العوالم برهة ، لكان الفساد الشامل ، بل العدم المطلق ، فهذه الرحمة المتجددة ، ذات الآثار السرمدية ، هى التى لا تنتهى آثارها ، ولا ينقطع مددها ، يقول تعالى : ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها إن ذلك لمحى الموتى ، وهو على كل شيء قدير** ﴾[1] ، ويقول تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾[2] .

فالله عظمت قدرته ، وعمت رحمته ، يصون هذا الإنسان ، ويحرسه ويرعاه فى كل طور من أطوار تربيته ، ثم يتعهده بالرزق والعون والمدد ، فى قلل الجبال ، وفى سارب البحار ، وفى مرامى

---

(١) الروم آية ٥٠

(٢) الروم الآيات ٢٠ ـــ ٢٥

الفلوات ، وإن جن الليل ، وإن انبثق النهار ﴿ **قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون** ﴾(١) . ويقول تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير ، له ما فى السموات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد ، ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرءوف رحيم** ﴾(٢) ، ومن أعطى اسم « الرحمن » حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل ، وإنزال الكتب أعظم من تضمينه علم إنزال الغيث وإنبات الكلأ ، وإخراج الحب ، فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح ، أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح ، يقول تعالى : ﴿ **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرءوف رحيم** ﴾(٣) ، ويقول جل وعلا : ﴿ **أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون** ﴾(٤) ، لذا ذكره المولى سبحانه وتعالى فى أول النعم ، فقال تعالى : ﴿ **علم القرآن** ﴾ أى سهله لأن يذكر ويقرأ ، كما قال تعالى : ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر** ﴾(٥) ، وقال الخازن : إن الله عز وجل عدد نعمه على عباده ، فقدم أعظمها نعمة ، وأعلاها رتبة ، وهو القرآن العظيم ، لأنه أعظم وحى الله إلى أنبيائه ، وأشرفه منزلة عند أوليائه وأصفيائه ، وأكثره ذكراً ، وأحسنه فى أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية المنزلة على أفضل البرية .

وقوله تعالى : ﴿ **خلق الإنسان** ﴾ أى خلق الإنسان السميع البصير الناطق ، والمراد بالإنسان الجنس .

وقوله : ﴿ **علمه البيان** ﴾ أى ألهمه النطق ، الذى يستطيع به أن يبين عن مقاصده ورغباته ، وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان . وقال السدى : علم كل قوم لسانهم الذى يتكلمون به ، وقال يمان : البيان : الكتابة والخط بالقلم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾(٦) ، قال البيضاوى : والمقصود تعداد ما أنعم الله به على نوع الإنسان ، حثا على شكره ، وتنبيهاً على تقصيرهم فيه ، وإنما قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، لأنه أصل النعم الدينية ، فقدم الأهم .

(١) الأنبياء آية ٤٢
(٢) الحج الآيات ٦٣ — ٦٥
(٣) الحديد آية ٩
(٤) العنكبوت آية ٥١
(٥) القمر آية ١٧
(٦) العلق الآيات ١ — ٥

ويقول الإمام ابن القيم قوله تعالى : ﴿ **الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان** ﴾ دلت هذه الكلمات ، على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها ، فقوله خلق الإنسان : إخبار عن الايجاد الخارجى العينى ، وخص الإنسان بالخلق ، لأنه موضع العبرة ، والآية فيه عظيمة ، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم ، وقوله : ﴿ **علم القرآن** ﴾ إخبار عن إعطائه الوجود العلمى الذهنى ، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه ، كما انه انما صار إنساناً بخلقه ، فهو الذى خلقه وعلمه ، ثم قال : ﴿ **علمه البيان** ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة ، كل منها يسمى بياناً ، أحدها البيان الذهنى ، الذى يميز فيه بين المعلومات ، الثانى : البيان اللفظى ، الذى يعبر به عن تلك المعلومات ، ويترجم عنها فيه لغيره . الثالث : البيان الرسمى الخطى ، الذى يرسم به تلك الألفاظ ، فيتبين الناظر معانيها ، كما تبين للسامع معانى الألفاظ ، فهذا بيان للعين ، وذاك بيان للسمع ، والأول بيان للقلب ، وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة ، كقوله تعالى : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾[1] ، وقوله : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[2] ، ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله : ﴿ **صم بكم عمى** ﴾[3] ، وقوله : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** ﴾[4] ..

ويقول : فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها ، وأنه سبحانه هو معطيها بخلقه وتعليمه ، فهو الخالق المعلم ، وكل شىء فى الخارج ، فبخلقه وجد ، وكل علم فى الذهن ، فتعليمه حصل ، وكل لفظ فى اللسان أو خط فى البنان ، فبأقداره وخلقه وتعليمه ، وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه ، بل من أعظمها وأظهرها ، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له (أى للعلم) .

قوله تعالى : ﴿ **الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان والأرض وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكم تكذبان** ﴾ .

انتقل النص القرآنى بعد ذلك لصفحة الكون المنظور ، الناطقة بآلاء الله الجليلة ، وآثاره العظيمة ، التى لا تعد ولا تحصى ، قال تعالى : ﴿ **الشمس والقمر بحسبان** ﴾ أى إن الشمس والقمر ، وهما من

---

(١) الاسراء آية ٣٦
(٢) النحل آية ٧٨
(٣) البقرة آية ١٨
(٤) البقرة آية ٧

أعظم الأجرام ، يجريان فى بروجهما ومنازلهما ، بحساب مقدر معلوم ، وبهما تنتظم أمور المخلوقات الأرضية ، وتختلف الفصول ، وبهذا الحسبان ، انتفع بهما الناس فى شئون الزراعات ، كمواعيد البذر والحصاد ، وما ينفع منها فى كل فصل من الفصول ، وفى الأمور المالية ، من بيع وشراء ، لآجال محدودة ، من شهور وسنين ، وفى تقدير الأعمار والآجال التى تقدمت ، وجاءت فى أخبار الماضيين ، والتى ستكون للحاضرين كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً** ﴾[1] ، وكقوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[2] وكقوله : ﴿ **فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾[3] ، وبعد أن ذكر سبحانه ، أن الشمس والقمر طوع قدرته ، وقد جعل لهما النظم الدقيقة فى الحسبان ، أردفه انقياد العوالم الأرضية له ، فقال تعالى : ﴿ **والنجم والشجر يسجدان** ﴾ أى والنجم والشجر ، يسجدان للكبير المتعال ، كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء** ﴾[4] .

قال النحاس أصل السجود فى اللغة : الاستسلام والانقياد لله عز وجل ، فهو من الموات كلها استسلامها ، لأن الله عز وجل ، وانقيادها له ، ومن الحيوان كذلك ، ويكون من سجود الصلاة .

قوله تعالى : ﴿ **والسماء رفعها** ﴾ كقوله : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج** ﴾[5] ، وكقوله : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها** ﴾[6] .

وقوله تعالى : ﴿ **ووضع الميزان** ﴾ أى العدل كما قال تعالى : ﴿ **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان** ﴾[7] ، وكقوله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾[8] ، قال مجاهد وقتادة والسدى : أى وضع فى الأرض العدل ، الذى أمر به ، وقال

---

(١) الإسراء الآية ١٢
(٢) يونس الآية ٥
(٣) الأنعام الآية ٩٦
(٤) الحج الآية ١٨
(٥) ق الآية ٦
(٦) الرعد الآية ٢
(٧) الشورى الآية ١٧
(٨) الحديد الآية ٢٥

الحسن وقتادة ـــ أيضاً ـــ والضحاك : هو الميزان ذو اللسان الذى يوزن به ، لينتصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو خبر بمعنى الأمر بالعدل ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط** ﴾ والقسط العدل ، ﴿ **ولا تخسروا الميزان** ﴾ أى لا تبخسوا الوزن بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى : ﴿ **وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾[2] ، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس فى الميزان والمكيال .

قوله تعالى : ﴿ **والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف والريحان فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

أى كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات ، لتستقر لما على وجهها من الأنام ، وهم الخلائق ، المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم فى سائر أقطارها وأرجائها ، كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون** ﴾[3] ، وكقوله : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام** ﴾ أى فيها ما يتفكه به من ألوان الثمار ، طازجة ومطبوخة ومجففة ، على شتى الأشكال ، وجذوب الألوان ، والنخل ذات الأوعية تمرها حين ظهوره ، وأفردها بالذكر لكثرتها بالبلاد العربية ، وكثرة فوائدها ، لأنه ينتفع بثمارها رطبة ويابسة ، وينتفع بجميع أجزائها ، فيتخذ من خوصها السلال والزنابيل ، ومن ليفها الحبال ، ومن جريدها سقف البيوت ، ويؤكل جُمَّارها ، ومن ثم ذكرها باسمها ، وذكر الفاكهة دون أشجارها .

وقوله تعالى : ﴿ **والحب ذو العصف والريحان** ﴾ أى وجميع الحبوب ، التى يقتات بها كالحنطة والشعير ، ولها عصف من الورق على سنابلها ، وكل مشموم من النبات تطيب رائحته ، وذكر أولاً الفاكهة ، لأنها للتفكهة فحسب ، ثم النخل لأن ثمرها فاكهة وغذاء ، ثم الحب الذى عليه المعول فى

(١) الإسراء الآية ٣٥
(٢) المطففين الآيات ١ ـــ ٥
(٣) الأنبياء الآية ٣١
(٤) الملك الآية ١٥

الغذاء فى جميع البلاد ، فهو أتم نعمة لموافقته لمزاج الإنسان ، ومن ثم خلقه الله فى سائر البلاد ، وجعل النخل فى البلاد الحارة دون غيرها . وقوله تعالى : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ أى فبأى النعم المتقدمة يا معشر الثقلين من الجن والإنس تكذبان ؟ والمراد من تكذيب آلائه كفرهم بربهم ، لأن إشراكهم آلهتهم به فى العبادة ، دليل على كفرانهم بها ، إذ من حق النعم أن تشكر ، والشكر إنما يكون بعبادة من أسداها إليهم ، قال ابن كثير فى تفسيره :

قال أبو عيسى الترمذى بسنده عن جابر ، قال خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ، فقرأ عليهم سورة الرحمن ، من أولها إلى آخرها ، فسكتوا فقال : (لقد قرأتها على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم) كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قال لا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد .. فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به ، اللهم ولا بشىء من **آلائك** ربنا نكذب ، فلك الحمد وكان ابن عباس يقول لا بأيها يارب أى لا نكذب بشىء منها[1] .

وقد كررت هذه الآية ، فى واحدة وثلاثين موضعاً من السورة تقريراً للنعمة ، وتأكيداً للتذكير بها ، فتراه سبحانه عدد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم ويقررهم بها .

وقال القرطبى رحمه الله : قال الترمذى محمد بن على : هذه السورة من بين السور عَلَم القرآن ، والعلم إمام الجند ، والجند تتبعه ، وإنما صارت عَلَما ، لأنها سورة صفة الملك والقدرة ، فقال : ﴿ **الرحمن علم القرآن** ﴾ فافتتح السورة باسم الرحمن من بين الأسماء ، ليعلم العباد أن جميع ما **يصفه** بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته ، خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال : ﴿ **الرحمن علم القرآن** ﴾ ثم ذكر الإنسان فقال : ﴿ **خلق الإنسان** ﴾ ثم ذكر ما صنع به ، وما من عليه به ، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر ، وسجود الأشياء من نجم وشجر ، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل ، ووضع الأرض للأنام ، فخاطب هذين الثقلين الجن والإنس ، حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته ، التى رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك ، فأشركوا به الأوثان وكل معبود اتخذوه من دونه وجحدوا الرحمة ، التى خرجت هذه الأشياء بها إليهم ، فقال سائلاً لهم : ﴿ **فبأى آلا ربكما تكذبان** ﴾ أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإنما كان تكذيبهم ، أنهم جعلوا فى هذه الأشياء التى خرجت من ملكه وقدرته ، شريكاً يملك معه ويقدر معه ، فذلك تكذيبهم ، ثم ذكر خلق الإنسان من صلصال ، وذكر خلق الجان من مارج من نار ، ثم سألهم فقال : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ أى بأى قدرة ربكما تكذبان ، فإن له فى كل خلق بعد خلق ، قدرة بعد قدرة ، فالتكرير فى هذه الآيات للتأكيد والمبالغة فى التقرير ، واتخاذ الحجة عليهم بما وقفهم على خلقٍ خلق .. أ هـ .

---

(١) اخرجه الترمذى فى سننه ج ٥ ص ٧٣ رقم ٣٣٤٥ .

قوله تعالى : **خلق الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، رب المشرقين ورب المغربين فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

يذكر تعالى خلقة الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلقة الجان من مارج من نار ، قال الامام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » أى من طين . ورواه أيضاً مسلم .(١) .

وقد جاء فى الكتاب الكريم ، عبارات مختلفة فى خلق الإنسان ، باعتبار مراتب الخلق ، فمرة قال : انه خلق من تراب ، وأخرى قال : إنه من طين ، وثالثة قال : إنه من طين لازب ، أى لاصق باليد لما اختلط به من الماء ، وهنا قال من صلصال ، وهى مادة الأصل ، وأحياناً يذكر مادة الفرع ، وهو الماء المهين .

﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ مما أفاض عليكما فى تضاعيف خلقكما من سوابغ النعم .

ولما فرغ من إيضاح خلق الإنسان ، شرع يوضح خلق الشمس والقمر بحسبان ، فقال تعالى : ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ أى رب مشرق الصيف والشتاء ، ومغربيهما ، اللذين يترتب عليهما تقلب الفصول الأربعة ، وتقلب الهواء وتنوعه ، وما يلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات والأنهار الجاريات ، ولما كان فى اختلاف هذه المشارق والمغارب ، مصالح للخلق من الجن والإنس ، قال : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان فبأى آلا ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فبأى آلاء ربكما تكذبان وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

ولما ذكر نعمه التي تترى على عباده فى البر ، أعقبها بنعمه عليهم فى البحر فقال تعالى : ﴿ **مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان** ﴾ أى أرسل البحر الملح والبحر العذب ، متجاورين متلاقيين ، لا يبغى أحدهما على الآخر ، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحاً ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله ، فقد حجز بينهما ربهما بحاجز من قدرته ، فترى نهر النيل بمصر يخرج من جبال الحبشة ويجرى

(١) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٦ ص ١٥٣ .

شمالاً ، حتى يصب فى البحر الأبيض المتوسط ولا يبغى أحدهما على الآخر ، كما قال سبحانه : ﴿ **وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج ، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً** ﴾[1] . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان** ﴾ وقد ثبت فى الكشف الحديث ، أن اللؤلؤ كما يستخرج من البحر الملح ، يستخرج من البحر العذب ، وكذلك المرجان ، وإن كان الغالب ، أنه لا يستخرج إلا من الماء الملح . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

وقوله تعالى : ﴿ **وله الجوار المنشئات فى البحر كالاعلام** ﴾ أى وله السفن الكبار ، التى رفعت شرعها فى الهواء كالجبال الشاهقة تجرى فى البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ، فهى كالجبال فى كبرها ، وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة ، من قطر إلى قطر ، واقليم إلى اقليم ، بما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه ، من سائر أنواع البضائع ولهذا قال تعالى : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

الشمس والبدر من أنوار حكمته ... والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده ... والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه ... والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم ... والعبد ينسى وربى ليس ينساه

قوله تعالى : ﴿ **كل من عليها فإن ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض ، سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السموات ، إلا من شاء الله ، ولا يبقى سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحى الذى لا يموت أبداً .

قال قتادة : أنبأ بما خلق ، ثم أنبأ أن ذلك كله فان ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾[2] ووجه النعمة فى فناء الخلق ، أن الموت سبب النقل إلى دار الجزاء والثواب .

(١) الفرقان الآية ٥٣
(٢) القصص الآية ٨٨

وقوله تعالى : ﴿ ذو الجلال والإكرام ﴾ الجلال عظمة الله وكبرياؤه واستحقاقه صفات المدح ، ﴿ والإكرام ﴾ أى هو أهل لأن يكرم عما لا يليق به من الشرك ، قال ابن عباس ذو الجلال والإكرام ذو العظمة والكبرياء .

وعن أنس رضى الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا فقال « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام يا حى يا قيوم » فقال النبى ﷺ : « لقد دعا الله باسمه العظيم . الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »[1] .

(اخرجه أهل السنن الأربعة والأمام أحمد فى مسنده) .

وفى مسند الامام أحمد وصحيح الحاكم عن حديث أبى هريرة وأنس بن مالك وربيعه بن عامر عن النبى ﷺ أنه قال : « أَلِظُّوا بياذا الجلال والإكرام »[2] (أَلِظُّوا) (بفتح الألف وكسر اللام وتشديد الظاء) قال أبو عبيدة : الإلظاظ : لزوم الشىء والمثابرة عليه ، ويقال : الإلظاظ الإلحاح . والمعنى : تعلقوا بها والزموا وداوموا عليها . وعن سعيد المقبرى أن رجلاً ألح فجعل يقول : اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! اللهم يا ذا الجلال والإكرام ! فنودى أنى قد سمعت فما حاجتك ؟

ولما أخبر سبحانه عن تساوى أهل الأرض كلهم فى الوفاة ، وأنهم سيصيرون إلى الدار الآخرة ، فيحكم فيهم ذو الجلال والإكرام ، بحكمه العدل قال : ﴿ فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

البقاء لله وحده

أخوانى ، تفكروا فى مصارع الذين سبقوا ، وتدبروا مصيرهم أين انطلقوا ، واعلموا أن القوم انقسموا وافترقوا ، قوم منهم سعدوا ، ومنهم قوم شقوا .

شعر :

عجبت والدهر لا تفنى عجائبه ... للراكنين إلى الدنيا وقد صدقوا
وطال ما نغصوا بالفجع ضاحية ... وطال بالفجع والتنغيص ما طرقوا
دار تغر بها الآمال مهلكة ... وذو التجارب فيها خائف فرق
يا للرجال لمخدوع بزخرفها ... بعد البيان ومغرور بها يثق

(١) اخرجه ابن ماجه فى سننه كتاب الدعاء باب اسم الله الأعظم ج ٢ ص ١٢٦٨ رقم ٨٣٥٨ .
(٢) أخرجه الامام أحمد فى سنده ج ٤ ص ١٧٧

أقول والنفس تدعونى لباطلها … أين المملوك ملوك الناس والسوق
أين الذين إلى لذاتها ركنوا … قد كان فيها لهم عيش ومرتفق
أمست مساكنهم قفراً معطلة … كأنهم لم يكونوا قبلها خلقوا
يا أهل لذات دار لا بقاء لها … إن اغتراراً بظل زايل حمق

وقال الحسن : إن الله تبارك وتعالى ، قد كتب على الدنيا الفناء وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء ، فلا يغرنكم مشاهد الدنيا على غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل .

شعر :

ألا كل حى هالك وابن هالك … وذو نسب فى الهالكين عريق
فقل لغريب الدار انك راحل … إلى منزل فأى المحل سحيق
وما تعدم الدنيا الدنية أهلها … شواظ حريق أو دخان حريق
تجرع فيها هالكاً فقد هالك … وتشجى فريقاً منهم بفريق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها … قراراً فما دنياك غير طريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له … عن عدو فى ثياب صديق
عليك بدار لا يزال ظلالها … ولا يتأذى أهلها بمضيق
فما يبلغ الراضى رضاه ببلغة … ولا ينفع الصادى صداه بريق

قال الحسن البصرى : ما عجبت من شىء ، كعجبى من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر ، وأيم الله إن حبها لمن أكبر الكبائر ، وهل تشعبت الكبائر إلا من أجلها ؟ وهل عبدت الأصنام وعصى الرحمن ، إلا لحب الدنيا وإيثارها ؟ .

وكان يقول : من عرف ربه أحبه ، وآثر ما عنده ، ومن عرف الدنيا وغرورها ، زهد فيها .

وقيل له : يا أبا سعيد هل يُرى الله عز وجل فى دار الدنيا ؟

فقال : لا ! قيل : فهل نراه فى الدار الآخرة ؟ فقال : نعم !

قيل : وما الفرق بين ذلك ؟ فقال : لأن الدنيا فانية ، وفان كل ما فيها ، ولأن الآخرة باقية ، وباق كل ما فيها ، ومحال أن يرى الباق بالفانى ، والقديم الأزلى بالمحدث ، وإذا كان يوم القيامة خلق الله لعباده أبصاراً باقية ، يرون بها ربهم تفضلاً عليهم وإكراماً لهم .

وكان يقول : روى أن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، دخل على رسول الله ﷺ ، وهو راقد على سرير موصول بالشريط وقد أثر فى جنبه أثر الحبل فدمعت عيناه : فقال النبى ﷺ « مالك يا ابن الخطاب ؟ فقال : ذكرت كسرى وقيصر وما هما فيه من الملك والتنعيم ، ورأيتك وأنت رسول الله وصفيه ومصطفاه وحبيبه تنام على سرير موصول بالشريط ، فقال : ﷺ : أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة ؟ فقال : رضيت يا رسول الله ، فقال ﷺ : إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب سافر فى يوم صائف فرفعت له شجرة ذات ظل ظليل ، فنزل إليها فقال (أى نام) تحتها هنيهة ، ثم راح وتركها »[1] .

وكان يقول : وجد فى حجر مكتوب : ابن آدم ، لو أنك رأيت قليل ما بقى من أجلك ، لزهدت فيما ترجوه من أملك ، ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت فى حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غداً ندمك ، لقد زلت بك قدمك ، وأسلمك أهلك وحشمك ، وتبرأ منك القريب وانصرف عنك الحبيب ، وصرت تدعى ولا تجيب .

شعر :

يا غادياً فى غفلة ورائحاً ... إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخاف موقفاً ... يستنطق الله به الجوارحا
يا عجباً منك وأنت مبصر ... كيف تجنبت الطريق الواضحا
كيف تكون حين تقرأ فى غد ... صحيفة قد حوت الفضائحا
وكيف ترضى ان تكون خاسراً ... يوم يفوز من يكون رابحاً

ذم رجل الدنيا عند على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقال علىّ الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار نجاة لمن فهم عنها ، ودار غنى لمن تزود منها ، مهبط وحى الله ، ومُصلى ملائكته ، ومسجد أنبيائه ، ومتجر أوليائه ، ربحوا منها الرحمة ، واحتسبوا فيها الجنة ، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببيْنها ، ونادت بفراقها ، وشبهت بسرورها السرور ، وببلائها البلاء ترغيباً وترهيباً .

فيأيها الذام للدنيا المعلل نفسه ، متى خدعتك الدنيا ، أم متى استذمت إليك ، أبمصارع آبائك فى البلى ، أم بمضاجع أمهاتك فى الثرى ، كما مرّضت بيديك ، وعللت بكفيك ، تطلب له الشفاء ، وتستوصف له الأطباء ، غداة لا يغنى عنه دواؤك ، ولا ينفعك بكاؤك .

---

(١) اخرجه : الامام أحمد فى سنده ج ١ ص ٣٩١

وقيل لبكر بن عبد الله المزنى : صف لنا الدنيا ، فقال : ما مضى منها فحلم ، وما بقى فأمانى .

وقيل : الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صدق ، يحكم فيها ملك قادر ، يفصل الحق من الباطل .

وقال ابن مسعود : ليس من الناس أحد إلا وهو ضيف على الدنيا ، وماله عارية ، فالضيف مرتحل ، والعارية مردودة .

شعر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسه تنحَّ عن خطبتها تسلم
إن التى تخطب غرَّارة قريبة العرس من المأتم

وقال لقمان لابنه : إن الدنيا بحر عريض ، قد هلك فيه الأولون والآخرون ، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله ، وعدتك التوكل على الله ، وزادك العمل الصالح ، فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن هلكت فبذنوبك .

وقال بعض الحكماء : السعيد من اعتبر بأمه ، واستظهر لنفسه ، والشقى من جمع لغيره ، وبخل على نفسه .

وقال بعض الشعراء :

من كان يعلم أن الموت مدركه والقبر سكنه والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شىء سوى التقوى به سَمِجٌ وما أقام عليه منه أسمجه
ترى الذى أتخذ الدنيا له وطنا لم يدر أن المنايا سوف تزعجه

روى جعفر بن محمد ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، عن النبى ﷺ : أنه قال فى بعض خطبه .

« أيها الناس ، إن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، وإن لكم معالم فانتهوا إلى معالكم ، وإن المؤمن بين مخافتين ، أجل قد مضى لا يدرى ما الله صانع فيه ، وأجل قد بقى لا يدرى ما الله قاض فيه ، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الحياة قبل الموت ، فإن الدنيا خلقت لكم ،

وأنتم خلقتم للآخرة ، فو الذى نفس محمد بيده : ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا دار ، إلا الجنة أو النار »(١) .

من مشاهد القيامة

﴿ يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ
ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾
فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾
هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ **يسأله من فى السموات والأرض** ﴾ أى يطلبون منه ما يحتاجون إليه ، ﴿ **هو فى شأن** ﴾ أى فى أمر من الأمور ، فيحدث أشخاصاً ، ويجدد أحوالاً ، ﴿ **سنفرغ لكم** ﴾ أى سنقصد لمحاسبتكم بعد الإمهال ، ﴿ **أيها الثقلان** ﴾ الإنس والجن ، ﴿ **أن تنفذوا** ﴾ أى تخرجوا ، ﴿ **والأقطار** ﴾

(١) اخرجه الجامع لأحكام القرآن لابى عبد الله القرطبي ج ١٨ ص ١١٦ تفسير سورة الجمعة آية ١٠ .

الجوانب ، واحدها قطر ، ﴿ والسلطان ﴾ إلا بأمر الله ، ﴿ الشواظ ﴾ اللهب الخالص ، ﴿ النحاس ﴾ الدخان الذى لا لهب فيه ، ﴿ فلا تنتصران ﴾ أى فلا تمتنعان من الله ، ولا يكون لكما منه ناصر ، ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة ، تصدعت السموات ، واختلت نظمها ، واحمر لونها ، وأذيبت حتى صارت كأنها الزيت ونحوه ، مما يدّهن به ، ﴿ والسيما ﴾ العلامة ، ﴿ والنواصى ﴾ واحدها ناصية ، وهى مقدم الرأس ، ﴿ الأقدام ﴾ واحدها قدم ، وهى قدم الرجل المعروفة ، ﴿ والحميم ﴾ الماء الحار ، ﴿ آن ﴾ أى متناهٍ فى الحرارة ، لا يستطاع شربه من شدة حرارته .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن عدد ــ عزت قدرته ــ نعماءه على عباده ، وما يجب من شكرهم عليها ، ثم أرشدهم إلى أن هذه النعم لا بقاء لها ولا ثبات ، فكل شيء يفنى إلا ذاته تعالى ، ذكر أن كل من فى الوجود مفتقر إليه ، فهو المدبر أمره ، والمتصرف فيه ، فهو يحيى قوماً ويميت آخرين ، ويرفع قوماً ويخفض آخرين ، ثم نبههم إلى أنه فى يوم القيامة ، سيلقى كل عامل جزاء ما عمل ، وثواب ما اكتسب ، ولا مهرب حينئذ من العقاب ، ولا سبيل إلى الامتناع منه ، فاستعدوا لهذا اليوم قبل ان تندموا ، ولات ساعة مندم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

هذا إخبار عن غناه عما سواه ، وافتقار الخلائق إليه فى جميع الآنات ، وأنهم يسألونه بلسان حالهم ومآلهم ، وأنه سبحانه كل يوم هو فى شأن .

قال ابن جرير بسنده ، عن منيب بن عبد الله بن منيب الأزدى عن أبيه قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾ فقلنا يا رسول الله وماذاك الشأن ؟ قال « أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماًويضع آخرين »[1] .

---

(١) اخرجه تفسير الطبرى ج ٢٧ ص ٧٨

قال المفسرون : هى شئون يبديها ولا يبتديها ، أى يظهرها للخلق ، ولا ينشئها من جديد ، لأن القلم جف على ما كان وما سيكون إلى يوم القيامة ، فهو تعالى يرفع من يشاء ، ويضع من يشاء ، ويشفى سقيماً ، ويمرض سليماً ، ويعز ذليلاً ، ويذل عزيزاً ، ويفقر غنياً ، ويغنى فقيراً ، فى قوله تعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾[1] ، ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ أى فبأى هذه النعم تكذبان ؟ .

قوله تعالى : ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ **سنفرغ لكم أيها الثقلان** ﴾ قال وعيد من الله تعالى للعباد ، وليس بالله شغل وهو فارغ سبحانه .

وقال البخارى : سنحاسبكم ، لا يشغله شىء عن شىء ، وهو معروف فى كلام العرب ، يقال : لأتفرغن لك وما به شغل ، يقول لآخذنك على غرتك ، وقوله تعالى : ﴿ **أيها الثقلان** ﴾ أى الإنس والجن ، كما جاء فى الحديث الصحيح « يسمعه كل شىء إلا الثقلين »[2] ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾ ، قال ابن كثير : أى لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم ، وهذا فى مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق ، سبع صفوف ، من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ **إلا بسلطان** ﴾ أى إلا بأمر الله ، ﴿ **يقول الإنسان يومئذ أين المفر** ﴾ وهذا إنما يكون فى القيامة لا فى الدنيا ، بدليل قوله تعالى بعده : ﴿ **يرسل عليكما شواظ من نار** ﴾ . (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) . قوله تعالى : ﴿ **يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الشواظ هو لهب النار ، وقيل الشواظ الدخان ، وقال الضحاك : ﴿ **شواظ من نار** ﴾ أى سيل من نار . ﴿ **ونحاس** ﴾ قال ابن عباس النحاس دخان النار . قال ابن جرير : والعرب تسمى الدخان نحاساً (بضم النون) .

---

(١) آل عمران الآيتان : ٢٦ ــ ٢٧

(٢) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ٤ ، وكذا البخارى فى كتاب الجنائز باب الميت يسمع خفق النعال ج ٢ ص ١٣ وكذلك جاء فى نفس الكتاب باب ما جاء فى عذاب القبر ج ٢ ص ١٢٣ .

وقال مجاهد : النحاس الصفر المذاب ، فيصب على رؤوسهم وكذا قال قتادة ، وقال الضحاك ﴿ **ونحاس** ﴾ سيل من نحاس .

قال ابن كثير : والمعنى على كل قول : لو ذهبتم هاربين يوم القيامة ، لردتكم الملائكة والزبانية ، بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم ، لترجعوا ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلا تنتصران ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **فإذا انشقت السماء** ﴾ أى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ **وانشقت السماء فهى يومئذ واهية** ﴾[١] وكقوله جل فى علاه : ﴿ **إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت** ﴾[٢] ، وقوله : ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **فكانت وردة كالدهان** ﴾ أى تذوب كما يذوب الفضة فى السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ ، التى يدهن بها ، فتارة حمراء ، وتارة صفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر ، وهول يوم القيامة العظيم .

وقوله تعالى : ﴿ **فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان** ﴾ لأنهم يعرفون بسيماهم حينما يخرجون من القبور ، ويحشرون إلى الموقف كقوله تعالى : ﴿ **هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون** ﴾[٤] ثم يسألون بعد ذلك ، كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ **فو ربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾[٥] . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام** ﴾ ، قال الحسن وقتادة : يعرفونهم باسوداد الوجوه وزرقة العيون ، كما قال تعالى : ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما هم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾[٦] ، وكما قال سبحانه : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾[٧] ، وكما قال جل فى علاه : ﴿ **ونحشر المجرمين يومئذ زرقا** ﴾[٨] . وقوله تعالى : ﴿ **فيؤخذ بالنواصى والأقدام** ﴾ أى تأخذ الملائكة بنواصيهم أى بشعور مقدم رءوسهم وأقدامهم ، فيقذفون فى النار . وقال الضحاك : يجمع بين ناصيته وقدميه فى سلسلة من وراء ظهره ، وعنه : يؤخذ برجلى الرجل فيجمع بينهما وبين ناصيته حتى يندق ظهره ، ثم يلقى فى النار ، وقيل تسحبهم الملائكة إلى النار ، تارة تأخذ بناصيته ،

---

(١) الحاقة الآية ١٦
(٢) الانشقاق الآيتان ١ ، ٢
(٣) الفرقان الآية ٢٥
(٤) المرسلات الآيتان ٣٥ ، ٣٦
(٥) الحجر الآيتان ٩٢ — ٩٣
(٦) يونس الآية ٢٧
(٧) آل عمران الآية ١٠٦
(٨) طه الآية ١٠٢

وتجره على وجهه ، وتارة تأخذ بقدميه وتسحبه على رأسه ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون ، فى الحميم ثم فى النار يسجرون** ﴾[(١)] . وكما قال جل فى علاه : ﴿ **ولا تجعل مع الله الهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً** ﴾[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ تقدم تفسيره .

قوله تعالى : ﴿ **هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين حميم آن فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

أى هذه النار التى كنتم تكذبون بوجودها ، ها هى حاضرة تشاهدونها عياناً ، يقال لهم ذلك : تقريعاً وتوبيخا ، وتصغيرا وتحقيرا ، كما قال سبحانه : ﴿ **يوم يدعون إلى نار جهنم دعا ، هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾[(٣)] .

قوله تعالى : ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ أى تارة يعذبون فى الجحيم ، وتارة يسقون فى الحميم ، وهو الشراب الذى هو كالنحاس المذاب ، يقطع أمعاءهم . وقوله تعالى : ﴿ **آن** ﴾ أى حار ، قد بلغ الغاية فى الحرارة ، لايستطاع من شدة ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ **إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم** ﴾[(٤)] ، وكقوله تعالى : ﴿ **فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق** ﴾[(٥)] .

ولما كان معاقبة العصاة المجرمين ، وتنعيم المتقين ، من فضله ورحمته ، وعدله ولطفه بخلقه ، وكان إنذاره لهم من عذابه وبأسه مما يزجرهم عماهم فيه من الشرك والمعاصى وغير ذلك ، قال ممتناً بذلك على بريته : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

---

(١) غافر الآيتان ٧١ ــ ٧٢
(٢) : الإسراء الآية ٢٩
(٣) الطور الآيات ١٣ ــ ١٦
(٤) الدخان الآيات ٤٣ ــ ٤٨
(٥) الحج الآيات ١٩ ــ ٢٢

السابقون وأصحاب اليمين

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ
زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى
ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾
وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ
﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ
وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ **مقام ربه** ﴾ أى قيامه عليه واطلاعه على أعماله ، ﴿ **ذواتا** ﴾ مثنى ذات بمعنى صاحبة ، ﴿ **والأفنان** ﴾ الأنواع واحدها فن : أى ذواتا أنواع من الأشجار والثمار ، ﴿ **زوجان** ﴾ أى صنفان ، ﴿ **والفرش** ﴾ واحدها فراش ، ﴿ **والبطائن** ﴾ ، واحدها بطانة ، ﴿ **والإستبرق** ﴾ الديباج أى الحرير الثخين ، ﴿ **والجنى** ﴾ الثمر ، ﴿ **دان** ﴾ أى قريب يناله القائم والقاعد والمضطجع .

﴿ **قاصرات الطرف** ﴾ أى نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا ينظرن إلى غيرهم ، ﴿ **لم يطمثهن** ﴾ أى لم يمسسهن ، وأصل الطمث قروح البدم ، ويراد به قربان النساء ، ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ فى الصفاء والبياض .

﴿ **ومن دونهما** ﴾ أى من ورائهما ، ﴿ **مدها متان** ﴾ أى خضراوان بسواد ، لأن الخضرة إذا اشتدت ، ضربت إلى السواد من كثرة الرى بالماء ونحوه . ﴿ **نضاختان** ﴾ أى فوارتان بالماء ، ﴿ **حور** ﴾ واحدتهن حوراء : أى بيضاء . ﴿ **مقصورات فى الخيام** ﴾ أى مخدرات يقال : امرأة قصيرة ومقصورة : أى مخدرة ملازمة بيتها لا تطوف فى الطرق ، ﴿ **والخيام** ﴾ واحدها خيمة ، وهى أربعة أعواد تنصب وتسقف بشىء من نبات الأرض .

﴿ **الرفرف** ﴾ واحدها رفرفة : وهى الوسادة **ـ المخدة ـ** أو ما تدلى من الأسرَّة من غالى الثياب ، ﴿ **والعبقرى** ﴾ منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب انه بلد يسكنه الجن ، ويسندون إليه كل شىء عجيب ، والمراد العجيب النادر الموشى من البسط .

﴿ **تبارك اسم ربك** ﴾ أى تقدس وتنزه ربنا الذى أفاض على عباده نعمه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما يراه المشركون بربهم ، والعصاة لأوامره ونواهيه ، من الأهوال يوم القيامة ــ ذكر هنا ما أعده من النعيم المقيم ، لمن خشى ربه ، وراقبه فى السر والعلن ، فمن جنات متشابهة الثمار والفواكه ، تجرى من تحتها الأنهار ، جناها دانٍ لمن طلبه ، وأحب نيله ، يجلس فيها على فرش بطائنها من الديباج ، ومن نساء حسان لم يقرب منهن أحد ، لا من الإنس ولا من الجن ، وهن كالياقوت صفاء واللؤلؤ بياضا ، وذلك كفاء ما قدموا من صالح العمل ، وما أسلفوا فى الأيام الخالية ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ثم ذكر سبحانه جنتين آخرين ، دون اللتين قبلهما فى المرتبة والفضيلة فالأوليان للمقربين ، والآخريان لأصحاب اليمين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

يقول تعالى : ولمن خاف مقام ربه بين يدى الله عز وجل يوم القيامة ، ونهى النفس عن الهوى ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى ، فأدى فرائض الله ، واجتنب محارمه ، فله يوم القيامة عند ربه جنتان ،

كما قال عز وجل : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾(١) ، وكقوله سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾(٢) ، وكما قال البخارى بسنده عن أبى بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه : أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن »(٣) .

قال ابن كثير : وهذه الآية عامة فى الإنس والجن ، فهى من أول دليل على أن الجن يدخلون الجنة ، إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء ، فقال : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

الخوف وحقيقته وبيان درجاته

قال الشيخ ابن قدامة المقدسى فى كتابه « منهاج القاصدين » بتصريف .

أعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه ، بسبب توقع مكروه فى الاستقبال .

مثال ذلك ، من جنى على ملك جناية ، ثم وقع فى يده ، فهو يخاف القتل ، ويجوِّز العفو ، ولكن يكون تألم قلبه ، بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله ، وتفاحش جنايته ، وتأثيرها عند الملك ، وبحسب ضعف الأسباب بضعف الخوف ، وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية ، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله ، إذ قد علم أن الله سبحانه ، لو أهلك العالمين لم يبال ، ولم يمنعه مانع ، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه ، وبجلال الله تعالى واستغنائه ، وأنه لا يسأل عما يفعل ، يكون خوفه ، وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبدينه ، ولذلك قال النبى ﷺ : « أنا أعرفكم بالله ، وأشدكم له خشية » (جزء من حديث فى البخارى)(٤) .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط ، فقال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنين »(٥) متفق عليه .

(والخنيين بالخاء المعجمة : هو البكاء مع غنة وانتشاق الصوت من الأنف) .

---

(١) النازعات الآيتان ٤٠ — ٤١ (٢) البينة الآيتان ٧ — ٨

(٣) اخرجه البخارى : فى كتاب التوحيد باب ما يذكر فى الذات والنعوت وأسامى الله ج ٩ ص ١٦٢ .

(٤) اخرجه البخارى فى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب ما يكره من التعمق والتنازع فى العلم والغلو فى الدين والبدوع لقوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ ج ٩ ص ١٢٠ .

(٥) اخرجه الترمذى فى باب الزهد ج ٣ ص ٣٨١ رقم ٢٤١٤ — دار الفكر بيروت .

وقال تعالى : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾(١) وإذا كملت المعرفة ، أثرت الخوف ، ففاض أثره على القلب ، ثم ظهر على الجوارح والصفات ، بالنحول والاصفرار والبكاء .. وأما ظهور أثره على الجوارح ، فبكفها عن المعاصى ، وإلزامها الطاعات ، تلافياً لما فرط ، واستعداداً للمستقبل .

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ « من خاف أدلج ، ومن أدلج ، بلغ المنزل . ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة »(٢) رواه الترمذى وقال حسن (وأدلج : معناه سار من أول الليل ، والمراد : التشمير فى الطاعة) ومن ثمرات الخوف ، أنه يقمع الشهوات ، ويكره اللذات فتصير المعاصى المحبوبة عنده مكروهة ، كما يصير العسل مكروها عند من يشتهيه ، إذا علم أن فيه سماً ، فتحترق الشهوات بالخوف ، وتتأدب الجوارح ، ويذل القلب ويستكين ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد ، ويصير مستوعب الهم لخوفه ، والنظر فى خطر عاقبته ، فلا يتفرغ لغيره ، ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة ، والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ، ومؤاخذة النفس فى الخطرات والخطوات والكلمات ، ويكون حاله كحال من وقع فى مخالب سبع ضار ، لا يدرى أيغفل عنه فيفلت ، أو يهجم عليه فيهلكه ، ولا شغل له إلا ما وقع فيه ، فقوة المراقبة والمحاسبة ، بحسب قوة الخوف ، وقوة الخوف ، بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى ، وبعيوب النفس ، وما بين يديها من الأخطار والأهوال ، وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره فى الأعمال ، أن يمنع المحظورات ، فإن منع ما يتطرق إليه إمكان التحريم ، سمى ورعاً ، وان انضم إليه التجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش ، فهو الصدق .

بيان أقسام الخوف

أعلم : أن مقامات الخائفين تختلف ، فمنهم من يغلب على قلبه خوف الموت قبل التوبة ، ومنهم من يغلب عليه خوف الاستدراج بالنعم ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، ومنهم من يغلب عليه خوف سوء الخاتمة ، وأعلى من هذا خوف السابقة ، لأن الخاتمة فرع السابقة ، والله تعالى يرفع من يشاء من غير وسيلة ، ويضع من يشاء من غير وسيلة لا يسأل عما يفعل .

وقد قال : « هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى » ومن أقسام الخائفين ، من خاف سكرات الموت وشدته ، أو سؤال منكر ونكير ، أو عذاب القبر .

ومنهم من يخاف هيبة الوقوف بين يدى الله تعالى ، والخوف من المناقشة ، والعبور على الصراط ، والخوف من النار وأهوالها ، أو حرمان الجنة ، أو الحجاب عن الله سبحانه وتعالى ، وكل هذه الأسباب مكروهة فى أنفسها ، مخوفة .

(١) فاطر الآية ٢٨

(٢) خرجه الترمذى فى أبواب صفة القيامة ج ٤ ص ٥١ رقم ٢٥٦٧ .

فأعلاها رتبة خوف الحجاب عن الله تعالى ، وهو خوف العارفين ، وما قبل ذلك خوف الزاهدين والعابدين .

ذكر خوف نبينا ﷺ

قال صاحب كتاب « الشفا » القاضى عياض :

« وأما خوفه ربه ، وطاعته له ، وشدة عبادته ، فعلى قدر علمه بربه ، ولذلك قال : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » وفى رواية الترمذى عن أبى ذر رضى الله عنه « إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطتِ السماء وحق لها أن تئط » ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات ، تجأورن إلى الله »[٢] ، قال أبو ذر : وددت أنى شجرة تعضد .

وفى حديث المغيرة : صلى رسول الله ﷺ حتى انتفخت قدماه . فقيل له : « أتكلّف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً »[٣] .

وقال عوف بن مالك : كنت مع رسول الله ﷺ فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلى ، فقمت معه فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ ، ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول : سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة ، ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة ، يفعل مثل ذلك »[٤] . وعن حذيفة مثله .. وعن عبد الله بن الشخير أتيت رسول الله ﷺ وهويصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل .

قال ابن أبى هالة : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان ، دائم الفكرة ليست له راحة . وقال ﷺ « إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »[٥] وفى رواية « سبعين مرة » .

---

(١) اخرجهابن عساكر ج ٥ ص ٢٩٢ وكذلك اتحاف السادة المتقين بشرح علوم الدين ج ٧ ص ٣٠٨ .

(٢) اخرجه الترمذى فى باب الزهد ج ٣ ص ٣٨١ رقم ٢٤١٤ ضبعة دار الفكر بيروت .

(٣) اخرجه صحيح مسلم فى كتاب صفات المنافقين واحكامهم باب اكثار الأعمال والاجتهاد فى العبادة ج ٤ ص ٢١٧١ رقم ٧٩ / ٢٨١٩ .

(٤) اخرجه النسائى فى كتاب الافتتاح باب الذكر فى الركوع ج ٢ ص ١٩١ .

(٥) اخرجه البيهقى فى سننه ج ٧ ص ٥٢ كتاب النكاح باب كان يغان على قلبه فيستغفر الله ويتوب إليه فى اليوم مائة مرة . واخرجه صحيح مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ج ٤ ص ٢٠٧٥ رقم ٤١ / ٢٧٠٢ .

ذكر خوف الصحابة رضوان الله عليهم

كان أبو بكر الصديق — رضى الله عنه — يمسك لسانه ويقول : هذا الذى أوردنى الموارد ، وقال : يا ليتنى كنت شجرة تعضد ثم تؤكل ، وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر — رضى الله عنهم —.

وكان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يسمع آية ، فيمرض فيعاد أياماً ، وكان فى وجهه خطان أسودان من البكاء .

قال على بن أبى طالب : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ ، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم ، لقد كانوا يصبحون شعثاً غبرا ، بين أعينهم أمثال ركب المعزى ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله ، يراوحون بين جباهم وأقدامهم ، فإذا أصبحوا فذكروا الله عز وجل ، مادوا كما يميد الشجر فى يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، والله لكأن القوم باتوا غافلين .

ولقد صدق من قال فيهم :

يحيـون ليلهـم بطاعـة ربهم ... بتـلاوة ، وتضرع وسؤال
فى الليل رهبان ، وعند جهادهم ... لعدوهـم مـن أشجـع الأبطـال
وإذا بـدأ علـم الرهـان رأيتهم ... يتسابقـون بصالح الأعمـال
بوجوههـم أثـر السجود لـربهم ... وبها أشعـة نـوره المتـلالى
ولقـد أبان لك الكتاب صفـاتهم ... فى سورة الفتـح المبين العـالى
وبرابـع السبـع الطـوال صفـاتهم ... قـوم يحبهم ذوو إدلال
وبـراءة ، والحشر فيها وصفهـم ... وبهل أتى ، وبسورة الأنفـال

وكان الحسن يقول : إن لله عباداً ، كمن رأى أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار ، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى .

وكان سُميط يقول : أتاهم من الله وعيد وقذهم ، فناموا على خوف ، وأكلوا على تنغيص .

وقال أحمد بن حنبل — رضى الله عنه — : الخوف يمنعنى من أكل الطعام والشراب فما أشتهيه .

وكان بشر الحافى لا ينام الليل ، ويقول : أخاف أن يأتى أمر الله وأنا نائم .

وكلما هَمَّ بـذرق الكـرى ... صاح بـه الهجـران قـم لا تنـم

قال عمر بن ذر : لما رأى العابدون الليل قد هجم عليهم ، ونظروا إلى أهل الغفلة ، قد سكنوا إلى فرشهم ، ورجعوا إلى ملاذهم ، قاموا إلى الله سبحانه وتعالى فرحين مستبشرين ، بما قد وهب الله

لهم من السهر وطول التهجد ، فاستقبلوا الليل بأبدانهم ، وباشروا ظلمته بصفاح وجوههم ، فانقضى عنهم الليل ، وما انقضت لذتهم من التلاوة ، ولا ملَّت أبدانهم من طول العبادة ، فأصبح الفريقان وقد ولى الليل بربح وغبن ، فاعملوا لأنفسكم فى هذا الليل وسواده ، فإن المغبون من غبن خير الدنيا والآخرة ، كم مِن قائم لله تعالى فى هذا الليل ، قد اغتبط بقيامه فى ظلمة حضرته ، وكم من نائم قد ندم على طول نومه ، عندما يرى من كرامة الله تعالى للعابدين غداً .

﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾[(١)] .

فى فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغى أن يكون الغالب منهما

قال ابن قدامة : فضيلة كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة ، وهى لقاء الله تعالى ، والقرب منه ، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة ، قال الله تعالى : **﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾**[(٢)] ، وقال تعالى : **﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه ﴾**[(٣)] .

قال النبى ﷺ : قال الله عز وجل : « وعزتى وجلالى ، لا أجمع على عبدى خوفين ، ولا أجمع له أمنين إن أمننى فى الدنيا ، أخفته يوم القيامة ، وإن خافنى فى الدنيا أمنته يوم القيامة »[(٤)] (اخرجه ابن حبان عن أبى هريرة ، وسنده حسن) .

وعن ابن عباس رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « عينان لا تمسهما النار أبدا : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله »[(٥)] .

واعلم : أن قول القائل : أيهما أفضل الخوف ، أو الرجاء ؟ كقوله : أيهما أفضل الخبز أو الماء ؟

---

(١) السجدة الآيتان ١٦ — ١٧

(٢) الرحمن الآية ٤٦

(٣) البينة الآية ٨

(٤) اخرجه اتحاف السادة المتقين بشرح أحياء علوم الدين للزبيدى ج ٩ ص ٢١١ .

(٥) اخرجه تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٥ فى تفسير سورة آل عمران آية رقم ٢٠٠ .

وجوابه : أن يقال الخبز للجائع أفضل ، والماء للعطشان أفضل ، فإن اجتمعا ، نظر إلى الأغلب ، فإن استويا ، فهما متساويان ، والخوف والرجاء ، دواءان يداوى بهما القلوب ، ففضلهما بحسب الداء الموجود ، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله ، فالخوف أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية ، وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط ، فالرجاء أفضل ، ويجوز أن يقال مطلقاً : الخوف أفضل ــ لأن المعاصى والاغترار من الخلق أغلب .

وهذا عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يسأل حذيفة رضى الله عنه : هل أنا من المنافقين ؟ وإنما خاف أن تلتبس حاله عليه ، ويستتر عيبه عنه ، فالخوف المحمود هو الذى يبعث على العمل ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا .

وأما عند نزول الموت ، فالأصلح للإنسان الرجاء ، لأن الخوف كالسوط الباعث على العمل ، وليس ثمة عمل ، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نياط قلبه ، والرجاء فى هذه الحال يقوى قلبه ، ويحبب إليه ربه ، فلا ينبغى لأحد ان يفارق الدنيا إلا محباً لله تعالى ، محباً للقائه ، حسن الظن به ،

قوله تعالى : ﴿ **ذواتا أفنان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

ثم نعت سبحانه وتعالى هاتين الجنتين فقال : ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ أى أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

﴿ **فيهما عينان تجريان** ﴾ أى فيهما عينان تسرحان وتسقيان تلك الأشجار والأغصان ، إحداهما يقال لها التسنيم ، والأخرى السلسبيل ، قاله الحسن البصرى (فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟) .

﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ أى فيهما من كل فاكهة صنفان من جميع أنواع الثمار ، مما يعلمون وخير مما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، قال ابراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس ما فى الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهى فى الجنة حتى الحنظل ، وقال ابن عباس : ليس فى الدنيا مما فى الآخرة ، إلا الأسماء ، يعنى أن بين ذلك بوناً عظيماً ، وفرقاً بينا فى التفاضل . (فبأى آلاء ربكما تكذبان و) فبأى الآلاء يا معشر الثقلين من الإنس والجن تكذبان ؟

قوله تعالى : ﴿ **متكئين على فرش بطائنها من إستبرق ، وجنى الجنتين دان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الاحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

بعد أن ذكر سبحانه طعام وشراب أهل الجنة ، ذكر فراشهم ، فقال ﴿ **متكئين على فرش بطائنها من استبرق** ﴾ أى مضطجعين على فرش بطائنها من الديباج الغليظ ، وإذا كانت هذه حال البطائن فما ظنكم بالظهائر ؟ ومن ثم روى عن ابن مسعود أنه قال : أخبرتم بالبطائن ، فكيف لو اخبرتم بالظهائر ؟ .

وقيل لسعيد بن جبير : البطائن من استبرق فما الظواهر ؟

قال : هذا ما قال الله فيه ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين** ﴾(١) . وفى هذا دليل على شرف هذه الفرش ، وتمتع أهلها بالثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، وإنما ذكر الاتكاء ، لأنه هيئة تدل على صحة الجسم ، وفراغ القلب وراحة البال .

قوله تعالى : ﴿ **وجنى الجنتين دان . فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ أى وثمرها قريب منهم متى شاءوا كقوله تعالى : ﴿ **قطوفها دانية** ﴾(٢) ، وكقوله : ﴿ **ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً** ﴾(٣) فهى لا تمتنع ممن أرادها ، بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ؟ ﴾ .

ثم ذكر سبحانه وتعالى النساء اللواتى يمتعون بهن ، فقال تعالى :

﴿ **فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

أى فى تلك الجنات ، نساء غضيضات الطرف عن غير أزواجهن ، فلا يرين شيئاً فيها أحسن منهم ، وهن أبكار لم يمسسهن أحد قبل أزواجهن ، لا من الجن ولا من الإنس .

قال ابن القيم : ظاهر القرآن . أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا ، وإنما هن من الحور العين . وأما نساء الدنيا فنساء الإنس قد طمثهن الإنس ، ونساء الجن قد طمثهن الجن ، والآية تدل على ذلك ، ويدل على أنهن الحور اللاتى خلقهن فى الجنة : أنه سبحانه جعلهن ، مما أعده الله فى الجنة لأهلها ، من الفواكه والثمار ، والأنهار والملابس وغيرها ، ويدل عليه أيضاً الآية التى بعدها ، وهى قوله تعالى : ﴿ **حور مقصورات فى الخيام** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾ أى كأنهن الياقوت صفاء وصغار اللؤلؤ بياضاً ، وقال الامام أحمد مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب »(٤) .

وقال الامام أحمد عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم أو موضع قدمه — يعنى سوطه — من الجنة خير من الدنيا وما

(١) السجدة الآية ١٧
(٢) الحاقة الآية ٢٣
(٣) الانسان الآية ١٤
(٤) اخرجه الامام أحمد ج ٢ ص ٣٤٥ .

فيها ، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحاً ولطاب ما بينهما ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » ورواه البخارى عن أنس بنحوه[١] .

﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾

قوله تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الإحسان فى المثوبة ، كما قال سبحانه : ﴿ **للذين استجابوا لربهم الحسنى** ﴾[٢] ، وكقوله : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾[٣] .

روى عن ابن عباس أنه قال « هل جزاء من قال : لا إله إلا الله فى الدنيا إلا الجنة فى الآخرة » .

﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ اللهم ولا بشىء من آلائك ربنا تكذب ، فلك الحمد .

قوله تعالى : ﴿ **ومن دونهما جنتان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

قال ابن كثير : هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما فى الرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ ، وقد تقدم فى الحديث الذى اخرجه البخارى جنتان من ذهب وجنتان من فضة ، فالأوليان للمقربين ، والآخريان لأصحاب اليمين ، قال أبو موسى : جنتان من ذهب للمقربين ، وجنتان من فضة لأصحاب اليمين ، والدليل على شرف الأوليين على الآخرين وجوه (أحدها) أنه نعت الأولتين قبل هاتين ، والتقديم يدل على الاعتناء ، ثم قال : ﴿ **ومن دونهما جنتان** ﴾ وهذا ظاهر فى شرف التقدم وعلوه على الثانى ، وقال هناك : ﴿ **ذواتا أفنان** ﴾ وهى الأغصان أو الفنون فى الملاذ ، وقال ههنا : ﴿ **مدهامتان** ﴾ أى سوداوان من شدة الرى من الماء .. ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **مدهامتان** ﴾ عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : قد اسودتا من الخضرة ، من شدة الرى من الماء .

---

(١) اخرجه الامام أحمد ج ٣ — ص ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ٢٠٧ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٤٣٣ .
(٢) الرعد الآية ١٨
(٣) يونس الآية ٢٦

وقال محمد بن كعب القرطبى ﴿ **مدهاما متان** ﴾ أى ممتلئتان من الخضرة . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

وقوله : ﴿ **فيهما عينان نضاختان** ﴾ وقال هناك : ﴿ **فيهما عينان تجريان** ﴾ وههنا ﴿ **نضاختان** ﴾ قال ابن عباس : أى فياضتان والجرى أقوى من النضخ . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فيهما فاكهة ونخل ورمان** ﴾ وقال هناك ﴿ **فيهما من كل فاكهة زوجان** ﴾ ولا شك ان الأولى أعم وأكثر فى الأفراد والتنويع على فاكهة وهى نكرة فى سياق الإثبات لا تعم ولهذا فسر قوله ﴿ **ونخل ورمان** ﴾ من باب عطف الخاص على العام كما قرره البخارى وغيره وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ أى فى تلك الجنات نساء خيرات الأخلاق ، حسان الوجوه ، وقال الرازى : فى باطنهن الخير ، وفى ظاهرهن الحسن ، ورد أن الحور يغنين : نحن الخيرات الحسان ، خلقن لأزواج كرام . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ .

وقوله : ﴿ **حور مقصورات فى الخيام ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ أى وهؤلاء الخيرات الحسان ، واسعات العيون ، مع صفاء البياض حول السواد ، محبوسات فى الحجال ، فلسن بطوافات فى الطرقات ، والعرب يمدحون النساء الملازمات للبيوت ، للدلالة على شدة الصيانة ، قال البخارى عن عبد الله بن قيس ان رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمن »[1] واخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه . ﴿ **فبأى آلاء ربكم تكذبان** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ تقدم تفسيره ، وقوله : ﴿ **متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان** ﴾ أى وهم يتكئون على ثياب ناعمة ، وفرش رقيقة النسج من الديباج ، ووسائد عظيمة ، وبسط لها أطراف فاخرة ، غاية فى كمال الصنعة وحسن المنظر . ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ اللهم ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد ، وكما

(١) أخرجه البخارى ج ٦ ص ١٨٢ تفسير سورة الرحمن .

بدأ سبحانه السورة باسم من أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، ختمها كذلك ، فقال تعالى : ﴿ **تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام** ﴾ قال ابن عباس ﴿ **ذى الجلال والإكرام** ﴾ ذى العظمة والكبرياء ، وفى الدعاء المأثورة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » .

دعـاء :

« اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت ، سبحانك وبحمدك ، أنت ربى ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنبى جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب الا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يديك ، والشر ليس إليك أنابك وإليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » . (رواه مسلم وأبو داود والنسائى وأحمد) .

تفسير سورة الواقعة

مقدمة : قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق .

عدد آياتها : ست وتسعون

وكلماتها : ثلاثمائة وثمان وسبعون .

وحروفها : ألف وسبعمائة وثلاث .

مجموعة فواصل آياتها (لابد من) على الباء منها آية واحدة : (وماء مسكوب) .

سميت بسورة الواقعة ، لمفتتحها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : ظهور واقعة القيامة ، وأصناف الخلق بالاضافة إلى العذاب والعقوبة ، وبيان حال السابقين بالطاعة ، وبيان حال قوم يكونون متوسطين بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، وذكر حال أصحاب الشمال ، والغرق فى بحار الهلاك ، وبرهان البعث من ابتداء الخلقة ، ودليل الحشر والنشر من الحرث والزرع ، وحديث الماء والنار ، وما فى ضمنهما . من النعمة والمنة ، ومس المصحف ، وقراءته فى حال الطهارة ، وحال المتوفَّى فى ساعة السكرة ، وذكر قوم بالبشارة ، وقوم بالخسارة والخطبة على جلال الحق تعالى بالكبرياء والعظمة بقوله : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ .

المتشابهات

قوله : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ﴾ أعاد ذكرها . وكذلك ﴿ أصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ﴾ ، ثم قال ﴿ السابقون ﴾ لأن التقدير عند بعضهم . والسابقون ما السابقون فحذف (ما) لدلالة ما قبله عليه . وقيل تقديره : أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، والسابقون ، ثم ذكر عقيب كل واحد منهم تعظيماً أو تهويلاً ، فقال : ما أصحاب الميمنة ، ما أصحاب المشأمة ، والسابقون أى هم السابقون ، والكلام فيه يطول .

قوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ﴾ ﴿ أفرأيتم ما تحرثون ﴾ ، ﴿ أفرأيتم الماء الذى تشربون ﴾ ﴿ أفرأيتم النار التى تورون ﴾ بدأ بذكر خلق الإنسان ، ثم بما لا غنى له عنه ، وهو الحب الذى منه قوته ، ثم الماء الذى منه سوغه وعجنه ، ثم النار التى منها نضجه وصلاحه ، وذكر عقيب كل واحد ما يأتى عليه ويفسده ، فقال فى الأولى : ﴿ نحن قدرنا بينكم ﴾ وفى الثانية : ﴿ لو نشاء لجعلناه حطاما ﴾ وفى الثالثة : ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجا ﴾ ولم يقل فى الرابعة ما يفسدها ، بل قال : نحن جعلناها تذكرة ، يتعظون بها ومتاعا للمقوين : أى للمسافرين ينتفعون بها .

وجه مناسبتها لما قبلها :

(١) أن فى كل منهما وصف القيامة والجنة والنار .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة عذاب المجرمين ، ونعيم المتقين ، وفاضل بين جنتى بعض المؤمنين ، وجنتى بعض آخر منهم ، وبين هنا انقسام المكلفين إذ ذاك إلى أصحاب ميمنة ، وأصحاب مشأمة وسابقين .

(٣) انه ذكر فى سورة الرحمن انشقاق السماء ، وذكر هنا رج الأرض ، فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما موضوعاً سورة واحدة مع عكس فى الترتيب ، فقد ذكر فى أول هذه ما فى آخر تلك ، وفى آخر هذه ما فى أول تلك .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤)
وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ
ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ
ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ
ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ
مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ
مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ
(٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦)﴾

معانى المفردات

﴿ **وقعت** ﴾ أى حدثت ، ﴿ **والواقعة** ﴾ القيامة ، ﴿ **لوقعتها** ﴾ أى لوقوعها ، ﴿ **كاذبة** ﴾ أى كذب ، ﴿ **رجت** ﴾ زلزلت وحركت تحريكاً شديداً ، ﴿ **بست** ﴾ أى فتتت وصارت كالسويق الملتوت ، ﴿ **هباء** ﴾ أى غباراً ، ﴿ **منبثا** ﴾ أى متفرقاً ، ﴿ **أزواجاً** ﴾ أى أصنافا ، ﴿ **الميمنة** ﴾ ناحية **اليمين** ، والمشأمة ناحية الشمال ، ﴿ **والسابقون** ﴾ هم الذين سبقوا إلى الخيرات فى الدنيا ، ﴿ **والمقربون** ﴾ هم أرباب الحظوة والكرامة عند ربهم ، ﴿ **والثلة** ﴾ الجماعة ، قلت أو كثرت ، وقيل : الجماعة الكثيرة من الناس ، ﴿ **موضونة** ﴾ من الوضن وهو النسج ، ﴿ **أكواب** ﴾ أى آنية لا عرا لها ولا خراطيم ، ﴿ **أباريق** ﴾ واحدها إبريق وهو إناء له خرطوم . ﴿ **كأس من معين** ﴾ أى خمر جارية من العيون ، والمراد أنها لم تعصر كخمر الدنيا ، ﴿ **لا يصدعون عنها** ﴾ أى لا يلحقهم صداع بسببها ، كما يحدث ذلك فى خمر الدنيا المحرمة ، ﴿ **ولا ينزفون** ﴾ أى ولا تذهب عقولهم بالسكر منها ، ﴿ **يتخيرون** ﴾ أى يختارون ، ﴿ **حور** ﴾ واحدتهن حوراء : أى بيضاء ، ﴿ **عين** ﴾ واحدتهن عيناء ، أى واسعة العينين ، ﴿ **المكنون** ﴾ المصون الذى لم تمسسه الأيدى ، وهى أصفى وأبعد من التغير .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجاً وبست الجبال بساً فكانت هباء منبثاً ﴾ .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال أبو بكر رضى الله عنه : يا رسول الله أراك قد شبت ! قال : « شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت »[1] (رواه الترمذى وحسنه والحاكم وصححه ووافقه الذهبى) .

قال العلماء : لعل ذلك لما فيهن من التخويف الفظيع ، والوعيد الشديد ، لاشتمالهن مع قصرهن على حكاية أهوال الآخرة وعجائبها وفظائعها ، وأحوال الهالكين والمعذبين ، مع ما فى بعضهن من الأمر بالاستقامة .

قوله تعالى : ﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾ أى قامت القيامة ، والمراد النفخة الأخيرة ، وسميت واقعة ، لأنها تقع عن قرب ، وقيل : لكثرة ما يقع فيها من الشدائد ، وفيه إضمار ، أى اذكروا إذا وقعت الواقعة .

وقوله : ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ قال الثورى : ليس لوقعتها أحد يكذب بها ، وقال الكسائى أيضا : ليس لها تكذيب ، أى ينبغى ألا يكذب بها أحد ، وقال قتادة : لا يردها شيء كما قال سبحانه : ﴿ سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ خافضة رافعة ﴾ قال قتادة : خفضت أقواماً فى عذاب الله ، ورفعت أقواماً إلى طاعة الله .

وقال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — خفضت أعداء الله فى النار ، ورفعت أولياء الله فى الجنة .

(١) اخرجه الترمذى فى كتاب التفاسير فى تفسير سورة الواقعة ج ٥ ص ٧١ رقم ٣٣٥١ ، اخرجه الحاكم ج ٢ ص ٣٤٣ كتاب التفسير .

(٢) المعارج الآيتان ١ ، ٢

وقال محمد بن كعب القرطبى : خفضت أقواماً كانوا فى الدنيا مرفوعين ، ورفعت أقواماً كانوا فى الدنيا مخفوضين ، والخفض والرفع يستعملان ــ عند العرب ــ فى المكانة والمكان ، والعز والمهانة ، ونسب سبحانه الخفض والرفع للقيامة ، توسعاً على عادة العرب فى اضافتها الفعل إلى المحل والزمان وغيرهما ، مما لم يكن منه الفعل ، والخافض والرافع على الحقيقة ، إنما هو الله وحده ، فرفع أولياءه فى أعلى الدرجات ، وخفض اعداءه فى أسفل الدركات . (قاله القرطبى) .

قوله تعالى : ﴿ **إذا رجت الأرض رجاً** ﴾ أى زلزلت وحركت ، كما قال تعالى : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها** ﴾[1] ، وكما قال سبحانه : ﴿ **كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وبست الجبال بساً** ﴾ أى فتتت ، قال مجاهد : كما يُبس الدقيق ، أى يُلت ، كما قال جل وعلا : ﴿ **ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتا** ﴾[3] ، لذا قال سبحانه : ﴿ **فكانت هباء منبثاً** ﴾ قال عكرمة : المنبث الذى قد ذرته الريح وبثته ، أى ونشرته ، وقال قتادة (هباء منبثاً) كيبس الشجر الذى تذروه الرياح ، وهذه الآية كأخواتها الدالة على زوال الجبال الرواسى عن أماكنها يوم القيامة ، وذهابها وتسييرها ونسفها ، أى قلعها وصيروتها كالعهن المنفوش .

قوله تعالى : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون** ﴾ قال العلامة ابن كثير :

أى وينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف : قوم عن يمين العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن ، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ، ويؤخذ بهم ذات اليمين ، قال السدى : وهم جمهور أهل الجنة وآخرون عن يسار العرش ، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ، ويؤتون كتبهم بشمالهم ، ويأخذ بهم ذات الشمال ، وهم عامة أهل النار ــ عياذ بالله من صنيعهم ــ وطائفة سابقون بالخيرات ، بين يديه عز وجل ، وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم ، فيهم الرسل والأنبياء ،

---

(١) لزلزلة الآيات ١ ــ ٣
(٢) الفجر آية ٢١
(٣) طه الآيات ١٠٥ ــ ١٠٧

والصديقون والشهداء ، وهم أقل عدداً من أصحاب اليمين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **والسابقون السابقون أولئك المقربون** ﴾ .

قال الحسن وقتادة : هم السابقون إلى الإيمان من كل أمة ، وقال مجاهد وغيره : هم السابقون إلى الجهاد ، وأول الناس رواحاً إلى الصلاة ، وقال سعيد بن جبير : السابقون إلى التوبة وأعمال البر ، قال الله تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾[1] . قال ابن كثير : وهذه الأقوال كلها صحيحة ، فإن المراد بالسابقين ، هم المبادرون إلى فعل الخيرات ، كما أمروا ، كما قال تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين** ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾[3] ، فمن سابق فى هذه الدنيا ، وسبق إلى فعل الخير ، كان فى الآخرة من السابقين إلى الكرامة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، لذا قال تعالى : ﴿ **أولئك المقربون فى جنات النعيم** ﴾ أى أولئك المتصفون بذلك الوصف الجليل (السبق) هم الذين نالوا خطوة عند ربهم ، وهم فى جنات النعيم ، يتمتعون فيها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : ﴿ **ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين** ﴾ .

قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين أنهم (ثلة) أى جماعة من الأولين وقليل من الآخرين ، وقد اختلفوا فى المراد بقوله الأولين والآخرين ، فقيل المراد بالأولين : الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ، هذا رواية عن مجاهد والحسن البصرى ، وهو اختيار ابن جرير ، واستأنس بقوله ﷺ : « **نحن الآخرون السابقون يوم القيامة** »[4] ولم يحك غيره ، ولا عزاه إلى أحد ، ومما يستأنس به لهذا القول ، ما رواه الإمام أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت : ﴿ **ثلة من الأولين وقليل من الآخرين** ﴾ شق ذلك على أصحاب النبى ﷺ فنزلت : ﴿ **ثلة من الأولين وثلة من الآخرين** ﴾ فقال النبى ﷺ « انى لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة أو شطر أهل الجنة وتقاسمونهم النصف الثانى »[5] ورواه أحمد بسنده عن أبى هريرة . وهذا الذى اختاره ابن جرير ههنا ، فيه نظر بل هو قول ضعيف ، لأن هذه الأمة ، هى خير الأمم بنص القرآن ، فيبعد أن يكون المقربون فى غيرها أكثر منها ، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة ،

---

(١) ، (٢) ال عمران الآية ١٣٣

(٣) الحديد الآية ٢١

(٤) أخرجه بن جرير الطبرى فى تفسيره ج ٢٧ ص ٩٩ وكذلك تفسيرابن كثير فى تفسير سورة الواقعة ج ٧ ص ٤٩٢ الاية رقم ١٣ ، ١٤ .

(٥) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٥٠٤ .

والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم ، والله أعلم . فالقول الثانى فى هذا المقام ، هو الراجح ، وهو أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ **ثلة من الأولين** ﴾ أى من صهور هذه الأمة ، ﴿ **وقليل من الآخرين** ﴾ أى من هذه الأمة . ثم قال ابن كثير : ولا شك أن أول كل أمة خير من آخرها ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت فى الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[1] الحديث بتمامه .

قوله تعالى : ﴿ **على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين** ﴾ أى السابقون فى الجنة ، مجالسهم على سرر ، جمع سرير منسوجة بالذهب ، وقال عكرمة : مشبكة بالدر والياقوت ، قال مجاهد : (على سرر موضونه) : مرمولة بالذهب ، أى منسوجة بالذهب . ﴿ **متكئين عليها** ﴾ أى على السرر ﴿ **متقابلين** ﴾ أى لا يرى بعضهم قفا بعض ، بل تدور بهم الأسرة ، وهذا فى المؤمن وزوجته وأهله ، أى يتكئون متقابلين ، قاله مجاهد وغيره .

قال الكلبى : طول كل سرير ثلاثمائة ذراع ، فإذا أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت ، فإذا جلس عليها ارتفعت ، قال تعالى فى موضع آخر : ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ .

قوله : ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون** ﴾ قال مجاهد : أى غلمان لا يموتون ، وقال الحسن : لا يهرمون ولا يتغيرون ، وقد وصف الله حسنهم فى قوله تعالى : ﴿ **ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون** ﴾[3] ، وقوله : ﴿ **ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً** ﴾[4] .

وقوله : ﴿ **بأكواب وأباريق وكأس من معين** ﴾ أما الأكواب ، فهى الكيزان ، التى لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التى جمعت الوصفين ، والكؤس الهنابات ، والجميع من خمر من عين جارية ، معين ليس من **أوعية** تنقطع وتفرغ ، بل من عيون سارحة .

---

(١) اخرجه مسلم فى صحيحه ج ٤ ص ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ رقم ٢١٠ ، ٢١١ / ٢٥٣٣ كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم .

(٢) الواقعة الآية ٣٤

(٣) الطور الآية ٢٤

(٤) الإنسان الآية ١٩

وقوله تعالى : ﴿ **لا يصدعون عنها ولا ينزفون** ﴾ أى لا تصدع رءوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هى ثابتة مع الشدة المطربة ، واللذة الحاصلة ، روى **الضحاك** عن ابن عباس أنه قال : فى الخمر أربع خصال السكر ، والصداع ، والقىء ، والبول فذكر الله تعالى خمر الجنة ونزهها عن هذه الخصال .

قوله تعالى : ﴿ **وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون** ﴾ أى ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، كما قال تعالى : **متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب** ﴾[١] .

وقوله : ﴿ **ولحم طير مما يشتهون** ﴾ قال الامام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « **إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى فى شجر الجنة** » فقال أبو بكر يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة فقال : ﴿ **آكلها أنعم منها ــ قالها ثلاثاً ــ وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها** »[٢] . وقال الحسن بن عرفة بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « **إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشوياً** »[٣] .

قوله تعالى : ﴿ **وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ أى وحور عين ، كأنهن الرطب فى بياضه وصفائه ، كما وصفهن سبحانه فى أكثر من موضع بقوله : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾[٤] وبقوله : ﴿ **كأنهن الياقوت والمرجان** ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ أى هذا الذى اتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل ، كقوله تعالى : ﴿ **إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً** ﴾[٦] .

ثم قال تعالى : ﴿ **لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلاً سلاماً سلاماً** ﴾ أى لا يسمعون فى الجنة كلاما لاغياً ، أى عبثاً خالياً عن المعنى ، أو مشتملا على شىء حقير ، أو ضعيف ﴿ **إلا قيلا سلاما سلاما** ﴾ أى إلا التسليم منهم بعضهم على بعض ، كما قال تعالى : ﴿ **تحيتهم فيها سلام** ﴾[٧] . اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والإكرام ، اللهم انا نسألك الجنة ، وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل .

---

(١) ص الآية ٥١
(٢) اخرجه الامام أحمد فى سندة ج ٣ ص ٢٢١ .
(٣) اخرجه تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية ٢١ ج ص ٤٩٨ واخرجه الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٤ ص ٥٢٧ رقم ٧٣ .
(٤) الصافات الآية ٤٩
(٥) الرحمن الآية ٥٨
(٦) الإنسان الآية ٢٢
(٧) يونس الآية ١٠

أصحاب اليمين

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ
مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ
﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾
ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾

معانى المفردات

﴿ **السدر** ﴾ شجر النبق ، ﴿ **مخضود** ﴾ أى خضد شوكه ، أى قطع ، ﴿ **الطلح** ﴾ شجر الموز ، ﴿ **منضود** ﴾ أى نضد حمله من أسفله إلى أعلاه ، فليست له سوق بارزة ، ﴿ **ممدودة** ﴾ أى منبسط ممتد لا يتقلص ولا يتفاوت ، ﴿ **مسكوب** ﴾ أى مصبوب يسكب لهم كما يشاءون بلا نصب ولا تعب ، ﴿ **فرش** ﴾ واحدها فراش كسَرح وسراج ، ﴿ **مرفوعة** ﴾ **أى عالية منضدة** ، ﴿ **عرباً** ﴾ أى متحببات إلى أزواجهن ، ﴿ **أتراباً** ﴾ : أى متساويات فى السن واحدتهن ترْب .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال السابقين ، وبين ما لهم من نعيم مقيم فى جنات النعيم ــ أردف ذلك ذكر حال أصحاب اليمين ، فبين أنهم فى جنات ، يتخللها السدر المخضود ، والموز المنضد بعضه فوق بعض ، والفاكهة الكثيرة ، التى لا تنقطع أبدا ، ولا تمتنع عنهم متى شاءوا ، وفيها فرش وثيرة مرتفعة عالية ونساء حسان أبكار فى سن واحدة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين** ﴾ إلى أى شيء أصحاب اليمين ، وما حالهم وكيف مآلهم ، ثم فسر ذلك فقال تعالى : ﴿ **فى سدر مخضود** ﴾ قال الحافظ أبو بكر أحمد بن سلمان النجلر بسنده عن سليم بن عامر قال كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالأعراب

ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابى يوماً فقال يا رسول الله : ذكر الله فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ : « وما هى ؟ » قال : السدر فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : « أليس الله تعالى يقول : ﴿ فى سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكه ، فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، ففتور الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ما فيها لون يشبه الآخر »[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وطلح منضود ﴾ قال مجاهد : أى متراكم الثمر ، وقال ابن عباس يشبه طلح الدنيا ، ولكن له ثمر أحلى من العسل .

قال العلامة ابن كثير : فعلى هذا يكون من صفة السدر ، فكأنه وصفه بأنه مخضود ، وهو الذى لا شوك له ، وأن طلعه منضود ، وهو كثرة ثمره ، والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى سعيد أنه قال (وطلح منضود) قال : الموز[٢] قال وروى عن ابن عباس وأبى هريرة والحسن وعكرمة وأبى قتادة مثل ذلك وبه قال مجاهد وابن زيد وزاد فقال أهل اليمن يسمون الموز الطلح ولم يحك ابن جرير غير هذا القول .

قوله تعالى : ﴿ وظل ممدود ﴾ أخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها . اقرءوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ . وكذا رواه مسلم وأحمد[٣] وفى رواية أحمد « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين أو مائة سنة هى شجرة الخلد » . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾[٤] ، وقوله : ﴿ أكلها دائم وظلها تلك عقبى الذين اتقوا ﴾[٥] ، وقوله : ﴿ إن المتقين فى ظلال وعيون ﴾[٦] ، قوله تعالى : ﴿ وماء مسكوب ﴾ أى مصبوب لا يحتاج أهلها إلى تعب ونصب للحصول عليه .

---

(١) اخرجه تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية ٢٨ ج ٨ ص ٣ . واخرجه أيضا الترغيب والترهيب للمنذرى ج ٤ ص ٥٢٧ ــ ٥٢٨ باب نعيم أهل الجنة .

(٢) اخرجه تفسير ابن كثير فى تفسير سورة الواقعة الآية ٢٩ ج ٨ ص ٤ .

(٣) اخرجه البخارى كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة وانها مخلوقة ج ٤ ص ١٤٤ ، اخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها باب إن فى الجنة شجرة ج ٤ ص ٢١٧٥ ، اخرجه احمد فى مسنده ج ٣ ص ١٣٥ رقم ٦ / ٢٨٢٦ . واخرجه الترهيب والترغيب ج ٤ ص ٥١٩ فصل فى شجر الجنة وثمارها رقم ٥١ .

(٤) النساء الآية ٥٧

(٥) الرعد الآية ٣٥

(٦) المرسلات الآية ٤١

وقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة لامقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أى وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة فى الألوان والطعوم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى : ﴿ **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً** ﴾[١] ، أى يشبه الشكل الشكل ، ولكن الطعم غير الطعم ، وفى الصحيحين فى ذكر سدرة المنتهى فإذا ورقها كآذان الفيلة ونبقها مثل قلال هجر[٢] ، وفيهما أيضا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ والناس معه فذكر الصلاة ، وفيه قالوا يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت ، قال : « إنى رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا . الحديث .[٣] وقوله تعالى : ﴿ **لا مقطوعة ولا ممنوعة** ﴾ أى لا تنقطع شتاء ولا صيفاً ، بل أكلها دائم مستمر أبداً ، مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شىء ، وقال قتادة لا يمنعهم من تناولها عود ولا شوك ولا بعد ، وقد تقدم فى الحديث : إذا تناول الرجل الثمرة عادت مكانها الأخرى .

وقوله تعالى : ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ أى وفرش عالية وطيئة ناعمة ، وقوله تعالى : ﴿ **انا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً عرباً أتراباً لأصحاب اليمين** ﴾ . قال ابن القيم فى تفسير هذه الآيات :

أعاد الضمير إلى النساء ، ولم يجر لهن ذكر ، لأن الفرش دلت عليهن ، إذهى محلهن ، وقيل : الفرش فى قوله : ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾ كناية عن النساء ، كما يكنى عنهن بالقوارير والأزر وغيرها ، ولكن قوله : ﴿ **مرفوعة** ﴾ يأبى هذا إلا أن يقال : المراد رفعة القدر ، وقد تقدم تفسير النبى ﷺ للفرش وارتفاعها .

فالصواب : أنها الفرش نفسها ، ودلت على النساء ، لأنها محلهن غالباً .

قال قتادة وسعيد بن جبير : خلقناهن خلقاً جديداً ، وقال ابن عباس : يريد نساء الآدميات .

وقال الكلبى ومقاتل : يعنى نساء أهل الدنيا العجز والشمط ، يقول الله تعالى : خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول فى الدنيا . ويؤيده ما رواه يحيى الحمانى بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها ، وعندها عجوز ، فقال : من هذه ؟ فقالت : احدى خالتى ، فقال :

---

(١) البقرة الآية ٢٥

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الايمان باب الاسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات ج ١ ص ١٤٥ رقم ٢٥٩ / ١٦٢ .

(٣) اخرجه سند النسائى لنسيوطى فى كتاب الكسوف باب قدر القراءة فى صلاة الكسوف ج ٣ ص ١٤٦ — ١٤٧ .

أما إنه لا يدخل الجنة عجوز ، فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله ، فقال النبى ﷺ : « إنا أنشأناهن إنشاء » خلقاً آخر ، يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا ، وأول من يكسى ابراهيم خليل الله ، ثم قرأ النبى ﷺ « إنا أنشأناهن انشاء »(١) .

وقال آدم بسنده عن سلمة بن يزيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قوله تعالى : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ « يعنى الثيبات والأبكار اللاتى كن فى الدنيا »(٢) .

وقال آدم بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل الجنة العجز » فبكت عجوز ، فقال رسول الله ﷺ : أخبروها أنها يومئذ ليست بعجوز ، إنها يومئذ شابة ، إن الله تعالى يقول : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾(٣) وذكر مقاتل قولاً آخر ، وهو اختيار الزجاج : انهن الحور العين اللاتى ذكرهن قبل ، أنشأهن الله عز وجل لأوليائه ، لم يقع عليهن ولادة .

والظاهر : أن المراد أنشأهن الله فى الجنة إنشاء ، ويدل عليه وجوه أحدها : أنه قد قال فى حق السابقين : ﴿ **يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب ــ إلى قوله ــ كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ فذكر سدرهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم ، وأزواجهم من الحور العين ، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم ، وفرشهم ونساءهم ، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم خلقهن فى الجنة .

الثانى : أنه سبحانه قال : ﴿ **إنا أنشأناهن إنشاء** ﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان ، لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثانى يقيده بذلك ، كقوله : ﴿ **وأن عليه النشأة الأخرى** ﴾(٤) .

الثالث : أن الخطاب بقوله : ﴿ **وكنتم أزواجاً ثلاثة** ﴾ إلى آخره : للذكور والإناث ، والنشأة الثانية أيضا عامة للنوعين ، وقوله : ﴿ **انا أنشأناهن إنشاء** ﴾ ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء . وتأمل تأكيده بالمصدر ، والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف ، بل يدل على مشاركتهن للحور العين فى هذه الصفات المذكورة ، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات ، بل هن أحق به منهن فالإنشاء واقع على الصنفين والله أعلم .

---

(١) اخرجه الدرر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ج ٨ تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١٥ طبعة دار الفكر .
(٢) اخرجه تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ٩ . واخرجه أبو داد الطيالسى ج ٦ ص ١٨٥ رقم ١٣٠٧ .
(٣) إخرجه تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ٩ الآية رقم ٣٥ .
(٤) النجم الآية ٤٧ .

وقوله ﴿ **عرباً** ﴾ جمع عروب ، وهن المتحببات إلى أزواجهن ، قال ابن الأعرابى : العروب من النساء : المطيعة لزوجها ، المتحببة إليه . قلت : يريد حسن موافقتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع .. وذكر المفسرون فى تفسير العُرب . أنهن العواشق المتحببات .. قلت : فجمع سبحانه بين حسن صورتها ، وحسن عشرتها . وهذا غاية ما يطلب من النساء ، وبه تكمل لذة الرجل بهن . وقوله : ﴿ **أتراباً** ﴾ أى كلهن فى سن واحدة ، لا تمتاز واحدة عن أخرى .

اخراج الترمذى فى الشمائل بسنده عن الحسن عن أمه عن أم سلمة قالت قلت يا رسول الله أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ **حور عين** ﴾ قال « حور بيض عين ضخام العيون شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر » قلت أخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ **كأمثال اللؤلؤ المكنون** ﴾ قال : « صفاؤهن صفاء الدر الذى فى الأصداف الذى لم تمسه الأيدى . قلت اخبرنى عن قوله تعالى : ﴿ **فيهن خيرات حسان** ﴾ قال خيرات الأخلاق حسان الوجوه . قلت أخبرنى عن قوله : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ قال « رقتهن كرقة الجلد الذى رأيت فى داخل البيضة مما يلى القشر وهو الغرقىء « قلت يا رسول الله اخبرنى عن قوله : ﴿ **عربا أترابا** ﴾ قال : « هن اللواتى قبضن فى الدار الدنيا عجائز رمصا شمطا خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عربا متعشقات محببات أترابا على ميلاد واحد » قلت يا رسول الله نساء الدنيا أفضل أم الحور العين . قال : بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة . قلت يا رسول الله وبم ذاك ؟ قال : « بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل ، ألبس الله وجوههن النور **وأجسادهن** الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب صفر الحلى ، مجامرهن الدر وأمشاطهن الذهب ، يقلن نحن الخالدات ، فلا نموت أبدا ، ونحن الناعمات فلا نيأس أبداً ، ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنا له ، وكان لنا ، قلت يا رسول الله : المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت ، فتدخل الجنة ، ويدخلون معها من يكون زوجها ؟ » قال : « يا أم سلمة إنها تخير فتختار أحسنهم خلقا ، فتقول يارب إن هذا كان أحسن خلقا معى فزوجنيه ، **يا أم**سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة »(١) وقال الطبرانى بسنده عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً »(٢) . وقال أبو داوود الطيالسى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « يعطى المؤمن فى الجنة قوة كذا وكذا فى النساء قلت يا رسول الله ويطيق ذلك ؟ قال يعطى قوة مائة »(٣) .

---

(١) اخرجه تفسير بن كثير تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١٠ .

(٢) اخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير ج ١ ص ٩١ ، واخرجه أيضا تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١١ .

(٣) اخرجه تفسير بن كثير فى تفسير سورة الواقعة ج ٨ ص ١١ واخرجه أبو داوود الطيالسى فى مسنده ج ٨ ص ٢٦٩ رقم ٢٠١٢ .

وقوله تعالى : ﴿ **لأصحاب اليمين** ﴾ أى خلقهن لأصحاب اليمين وقوله : ﴿ **ثلة من الأولين وثلة من الآخرين** ﴾ أى جماعة من الأولين ، وجماعة من الآخرين ، اللهم اجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين ، قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ﴿ **ثلة من الأولين ، ثلة من الآخرين** ﴾ قال رسول الله ﷺ « هما جميعاً من أمتى »[1] .

أصحاب الشمال

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ **السموم** ﴾ حر نار ينفذ فى المسام ، ﴿ **والحميم** ﴾ الماء الشديد الحرارة ، ﴿ **واليحموم** ﴾ دخان أسود ، كما قال ابن عباس : ﴿ **لا بارد ولا كريم** ﴾ أى لا هو بارد كسائر الظلال ، ولا دافع أذى الحر لمن يأوى إليه ، ﴿ **مترفين** ﴾ أى منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على شىء مما جاء به الرسل ، ﴿ **يصرون** ﴾ أى يقيمون ولا يقلعون ، ﴿ **الحنث العظيم** ﴾ أى الذنب العظيم ، وهو الشرك بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أربابا من دون الله ، ﴿ **والميقات** ﴾ ما وقت به الشىء ، والمراد به يوم القيامة ، وسمى به ، لأنه وقتت به الدنيا .

---

(١) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ٢ ص ٣٩١ .
واخرجه أيضا تفسير ابن كثير فى تفسير سورة للواقعة الآية رقم ١٣ ، ١٤ ج ٧ ص ٤٩٢ ، ج ٨ ص ١٥ .

﴿ **وشجر الزقوم** ﴾ شجر ينبت فى أصل الجحيم . ﴿ **والهيم** ﴾ واحدها أهيم وهو الجمل الذى يصيبه الهيام — **بالضم** — وهو داء يشبه الاستسقاء ، يصيب الأبل فتشرب حتى تموت ، أو تسقم سقماً شديداً . ﴿ **النزل** ﴾ ما يقدم للضيف إذا نزل تكرمة له . ﴿ **ويوم الدين** ﴾ يوم الجزاء .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه زوجين من الأزواج الثلاثة ، وبين ما يلقاه كل منهم من عز مقيم وشرف عظيم ، فى جنات ونعيم ، فى جملة شئونهم ، فى مآكلهم ومشاربهم وفرشهم ، وأزواجهم — أردف ذلك ذكر الزوج الثالث ، وبين ما يلقاه من النكال والوبال وسوء الحال ، ثم أعقبه بذكر السبب فى هذا ، بأنهم كانوا فى دنياهم مترفين غارقين فى ذنوبهم ، منكرين هذا اليوم يوم الجزاء ، ثم أمره أن يخبرهم بأن هذا اليوم واقع حتما ، وأن مأكلهم سيكون من شجر الزقوم يملئون منه بطونهم ، ثم يشربون ولا يرتوون كالإبل الهيم ، وهذا ما أعد لهم من كرم وحسن وفادة فى هذا اليوم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم** ﴾ .

أى وأصحاب الشمال فى حال لا يستطاع وصفها ، ولا يقدر قدرها من نكال ووبال وسوء منقلب .

ثم فسر هذا المهم بقوله تعالى : ﴿ **فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم** ﴾ أى هم فى حر ينفذ فى المسام ، وماء متناه فى الحرارة ، وظل من دخان أسود ، ليس بطيب الهبوب ، ولا حسن المنظر ، لأنه دخان من سعير جهنم ، يؤلم من يستظل به ، وذكر السموم والحميم ولم يذكر النار ، إشارة بالأدنى إلى الأعلى ، فإن هواءهم إذا كان سموماً ، وماءهم الذى يستغيثون به حميماً ، مع أن الهواء والماء من أبرد الأشياء وأنفعها ، فما ظنك بنارهم ، فكأنه قال : إن أبرد الأشياء لديهم أحرها ، فما بالك بحالهم مع حرها ؟

كقوله تعالى : ﴿ **انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغنى من اللهب ، إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمٰلت صفر ويل يومئذ للمكذبين** ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **لا بارد ولا كريم** ﴾ أى ليس طيب الهبوب ولا حسن المنظر كما قاله الحسن وقتادة ، ﴿ **ولا كريم** ﴾ أى ولا كريم المنظر ، **وقال الضحاك** : كل شراب ليس بعذب فليس بكريم .

وقال ابن جرير : العرب تتبع هذه اللفظة فى النفى ، فيقولون هذا الطعام ليس بطيب ولا كريم ، وهذه الدار ليست بنظيفة ولا كريمة ..

ثم ذكر سبحانه السبب فى تعذيبهم ، فقال تعالى :

﴿ **إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو آباؤنا الأولون** ﴾ .

أى كانوا فى الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ **وكانوا يصرون** ﴾ أى يقيمون ولا يتوبون توبة ﴿ **على الحنث العظيم** ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان والأنداد أرباباً من دون الله ، قال ابن عباس : الحنث العظيم الشرك ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **إنا كذلك نفعل بالمجرمين ، إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أءنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ﴾ يعنى أنهم يقولون ذلك مكذبين به مستبعدين لوقوعه . قال الله تعالى : ﴿ **قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم** ﴾ أى أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بنى آدم ، سيجمعون عرصات إلى عرصات القيامة ، لا يغادر منهم أحدا ، كما قال تعالى : ﴿ **إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً** ﴾[٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، وما نؤخره إلا لأجل معدود ، يوم يأت لا تكلم**

---

(١) المرسلات الآيات ٢٩ ـ ٣٤

(٢) الصافات الآيات ٣٤ ـ ٣٩

(٣) مريم الآيات ٩٣ ـ ٩٥

نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾[١] ، ولهذا قال ههنا ﴿ لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أى هو موقت بوقت محدود ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص ، قوله تعالى : ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم هذا نزلهم يوم الدين ﴾ .

أى أيها الذين ضللتم فأصررتم على الذنب العظيم ، إذ لم توحدوا الله ولم تفعلوا ما يوجب تعظيمه ، ثم كذبتم رسله ، فأنكرتم البعث والجزاء فى هذا اليوم — إنكم لآكلون من شجر الزقوم ، فمالئون منها بطونكم ، فشاربون بعد ذلك ماء حار لغلبة العطش عليكم ، ولكنه شرب لا يشفى الغليل ، ومن ثم تشربون ولا ترتوون ، فكأنكم الإبل التى أصيبت بداء الهيام ، فلا يروى لها الماء غليلاً .

كما قال تعالى : ﴿ أذلك خير نزلاً ، أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين ، إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين ، فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ، ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾[٢] ، وكما قال تعالى : ﴿ إن شجرت الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلى فى البطون ، كغلى الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾[٣] .

أخرج الامام أحمد بسنده عن مجاهد : إن الناس كانوا يطوفون بالبيت وإن ابن عباس جالس معه محجن فقال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ولو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن ليس له طعام إلا من الزقوم »[٤] وكذلك رواه الترمذى وقال حسن صحيح .

قوله تعالى : ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ أى هذا الزقوم المأكول والحميم المشروب ، أول الضيافة التى تقدم لهم ، كما يقدم للنازل مما حضر ، فما بالك بهم بعد ما يستقر بهم المقام فى النار ؟ ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم ، والتوبيخ لهم ، كما قال تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ، إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾[٥] .

---

(١) هود الآيات ١٠٣ — ١٠٥
(٢) الصافات الآيات ٦٢ — ٦٨
(٣) الدخان الآيات ٤٣ — ٥٠
(٤) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ج ١ ص ٣٠١
(٥) الدخان الآيتان ٤٩ — ٥٠

من دلائل التوحيد

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ
﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾
إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ
ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى
تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ
﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

معاني المفردات

﴿ **تمنون** ﴾ أى تقذفون فى الأرحام من النطف ، ﴿ **تخلقونه** ﴾ أى تقدرونه وتصورونه بشراً سوياً تام الخلق ، ﴿ **قدرنا** ﴾ أى قسمنا ووقتنا موت كل أحد بوقت ، ﴿ **نبدل أمثالكم** ﴾ أى نميتكم دفعة واحدة ونخلق أشباهكم ، ﴿ **فيما لا تعلمون** ﴾ أى من الخلق والأطوار التى لا تعهدونها ، ﴿ **فلو لا تذكرون** ﴾ أى فهلا تتذكرون ذلك ، ﴿ **تحرثون** ﴾ أى تبذرون حبه وتعملون فى أرضه ، ﴿ **تزرعون** ﴾ أى تنبتونه وتجعلونه نباتاً يرف ، ﴿ **حطاماً** ﴾ أى هشيماً متكسراً متفتتاً لشدة يبسه بعد ما أنبتناه ، ﴿ **تفكهون** ﴾ أى تتعجبون من سوء حاله ، ﴿ **مغرمون** ﴾ أى معذبون مهلكون من الغرام وهو الهلاك ، ﴿ **محرومون** ﴾ أى غير مجدودين ، فليس لنا جد وحظ ، ﴿ **المزن** ﴾ السحاب واحدته مزنه ، ﴿ **أجاجا** ﴾ أى ملحاً زعاقاً ، لا يصلح لشرب ولا فى زرع ، ﴿ **لولا** ﴾ بمعنى هلا ، وهى كلمة تفيد الحث على فعل ما بعدها ، ﴿ **تورون** ﴾ أى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد

﴿ تذكرة ﴾ تذكيراً بالبعث ، ﴿ ومتاعاً ﴾ أى منفعة ، ﴿ للمقوين ﴾ أى للمسافرين الذين يسكنون القواء : أى القفز والمفاوز ، ﴿ فسبح ﴾ أى تعجب من أمرهم وقل : سبحان الله العظيم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر الأزواج الثلاثة ، وبين مآل كل منها ، وفصل ما يلقاه السابقون ، وأصحاب الميمنة من نعيم مقيم ، وذكر ما يلقاه أصحاب المشأمة من عذاب لا ريب فى حميم وعشاق ، وذكر أن ذلك إنما نالهم ، لأنهم أشركوا بربهم ، وعبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وأنكروا البعث والجزاء ـــ أردف ذلك اقامة الأدلة على الألوهية من خلق ورزق لطعام وشراب ، وأقام الدليل على البعث والجزاء ، ثم أثبت الأصل الثالث ، وهو النبوة فيما بعد .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ .

قال ابن كثير :

يقول تعالى مقرراً للمعاد ، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والإلحاد ، من الذين قالوا : ﴿ أئذامتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾(١) ، وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، فقال تعالى : ﴿ نحن خلقناكم ﴾ أى نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، أفليس الذى قدر على البداءة ، بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى ؟ ولهذا قال تعالى : ﴿ فلولا تصدقون ﴾ أى فهلا تصدقون بالبعث ، ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله : ﴿ أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ أى أنتم تقرونه فى الأرحام ، وتخلقونه فيها ، أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال تعالى : ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أى صرفناه بينكم ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أى وما نحن بعاجزين ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أى نغير خلقكم يوم القيامة ، ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ أى من الصفات والأحوال ، ثم قال تعالى : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ أى قد علمتم ان الله أنشأكم ، بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، فخلقكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون ، وتعرفون أن الذى قدر على هذه النشأة ، وهى البداءة ، قادر على النشأة الأخرى ، وهى الإعادة بطريق الأولى والأخرى ، كما قال تعالى : ﴿ أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن

(١) المؤمنون الآية ٨٢

ذلك على الله يسير قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ، يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ، وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾[١] .

وكقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾[٢] . وكقوله جل شأنه : ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾[٣] ، وكقوله جل وعلا : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر** ﴾[٤] ، وكقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين** ﴾[٥] .

فلينظر الإنسان مم خلق

خلق الإنسان من نطفة ، قذيفة منوية تشتمل على أكثر من ٨٠ مليون كائن منوى فى السنتيمتر الواحد ، هذه القذيفة ، إذا صبت فى الأرحام لا يصلح منها للإنجاب ، إلا كائن منوى واحد . هذا الكائن المنوى لا تراه إلا بالمجهر المكبر حجمه ١٠٠٠٠ / ٥٢ من المليمتر ، مفلطح الرأس طويل الذنب يسبح فى ظلمات بسرعة ١/٢ مليمتر فى الثانية الواحدة ، خلق منه الإنسان فى كل مرة يجتمع فيها الذكر والأنثى ، تنساب ملايين الحيوانات المنوية ، لكى تسبح بذيولها حول بويضة صغيرة .. تراها بالميكروسكوب تضرب بذويلها ، وكأنها ترقص ومن بين هذه الملايين ، يخترق حيوان واحد جدار البويضة ، ترى هو أقوى هذه الحيوانات المنوية ؟ أبداً .. هل هو أضعفها ؟ أبداً .. هل هو ؟ .. هل هو ؟! أبداً قد يكون الحيوان العليل الذى يحمل المرض الوراثى ، هو الذى يخترق جدار البيوضة ، وتبقى ملايين الحيوانات المملوءة صحة خارجها ، قد يكون أضعفها ، قد يكون وقد يكون . العلماء يقولون نحن نعرف أن هذه العملية لا تخضع لأى قانون مدون ، ونحن نقول إنها تخضع لإرادة الله لمشيئة الله .

---

(١) العنكبوت الآيات ١٩ — ٢٢
(٢) الروم الآية ٢٧
(٣) يس الآيات ٧٧ — ٧٩
(٤) الطارق الآيات : ٦ — ١٠
(٥) المؤمنون الآيات ١٢ — ١٧

وفى الثانية التى يخترق الحيوان المنوى جدار البويضة يتحدد كل شىء أليس عجباً !! يتحدد نوع الجنين هل هو ذكر أو أنثى ــ لون بشرته ، لون شعره ــ تصميم هيكله الجسدى ــ طويل أم قصير ، بدين أم رفيع ــ تناسق الأطراف ــ الأمراض الوراثية التى يحملها ، كل شىء .. كل شىء ؟ .

والآن هل تعرف ما هو وزن الخلية التى حددت كل هذه الصفات ؟ وزنها ٦ من مليون من الجرام ، أى : أنك إذا جئت بجرام ثم قسمته إلى مليون جزء يكون وزن الخلية ستة أجزاء منه أترى الإعجاز ؟ ! وتنمو الخلية الملقحة هذه داخل الرحم .

رحم طوله ٧ سم وعرضه ٥ سم وسمكه ٢/١ ٢ سم .. هل فيه ضوء يضيىء له حتى يخلق ؟ لا بل ظلمات ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾(١) ، هل صورك فى الأشعة تحت الحمراء ؟ هل صورك فى الأشعة فوق البنفسجية ؟ هل صورك فى ضوء الشمس أو ضوء القمر ؟ لا .

إذاً فى أى شىء صورك ؟! فى ظلمات ثلاث ﴿ **يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث . ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون** ﴾(٢) .

يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل الهيم لأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما دونها ... فى قاع بحر ذاخر متجندل
آلهى
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... رهباً وكل الكائنات توحد
أنت الإله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

ــ (مستفاد من كتاب القرآن والإعجاز فى خلق الإنسان للدكتور طاهر توفيق) .

قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم ما تحرثون ۝ أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ۝ لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون ۝ إنا لمغرمون ۝ بل نحن محرومون ۝** ﴾ .

هذه حجة أخرى على وحدانية الله وقدرته ، أى : أخبرونى عن البذر الذى تلقونه فى الطين ﴿ **أأنتم**

(١) سورة آل عمران الآية ٦
(٢) سورة الزمر الآية ٦

تزرعونه أم نحن الزارعون ﴾ أى : أأنتم تنبتونه وتنشئونه حتى يكون فيه السنبل والحب ، أم نحن الفاعلون **لذلك** ؟ فإذا أقررتم أن الله هو الذى يخرج الحب وينبت الزرع **فكيف** تنكرون إخراجه الأموات من الأرض ؟ .

قال تعالى : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[1] .

وقال جل شأنه : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[2] .

وقال سبحانه : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[3] . وقال جل ذكره : ﴿ **آمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾[4]وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صباً . ثم شققنا الأرض شقاً . فأنبتنا فيها حباً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأباً . متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾[5] .

وقال سبحانه : ﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾[6] .

---

(١) سورة الأنعام الآية ٩٩
(٢) سورة الأعراف الآية ٥٧
(٣) سورة الحج الآيات ٥ ــ ٧
(٤) سورة النمل الآية ٦
(٥) سورة عبس الآيات ٢٤ ـ ٣٢
(٦) سورة يس الآيات ٣٣ ــ ٣٦

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصارهن الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

انظر لتلك الشجرة ... ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة ... وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى ... يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره ... وزانه بأنجم كالدُرر المنتثرة
انظر إلى الليل فمن ... أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم ... كالدرر المنتثرة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
انظر إلى الشمس التى ... جذوتها مستعرة
فيها ضياء وبها ... حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها ... فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
انظر إلى المرء وقل ... من شق فيه بصره
من الذى جهزه ... بقدرة مفتكره
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذوحكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة

قوله تعالى : ﴿ **لو نشاء لجعلناه حطاماً فظللتم تفكهون . إنا لمغرمون بل نحن محرومون** ﴾ أى : نحن أنبتناه بلطفنا ورحمتنا وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ﴿ **ولو نشاء لجعلناه حطاماً** ﴾ أى : لأيبسناه قبل استوائه واستحضاره ، ﴿ **فظلتم تفكهون** ﴾ أى : فظللتم وبقيتم تتفجعون وتحزنون على الزرع مما حلّ به وتقولون : ﴿ **إنا لمغرمون** ﴾ قال قتادة : أى : لا يثبت لنا مال ولا ينتج لنا ربح ، ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أى : بل نحن محرُومون الرزق ، غرمنا قيمة البذر ، وحرمنا خروج الزرع .

نظرة فى حياة النبات

يقول الأستاذ الدكتور / محمد أحمد الغمراوى ـــ رحمه الله ـــ فى كتابه « الاسلام فى عصر العلم » ما نصه :

« إن النبات يتغذى بمواد بسيطة من الهواء ومن الأرض ، فمن الهواء يؤخذ الأكسجين وثانى أكسيد الكربون وأحياناً الأزوت ، ومن الأرض يؤخذ الماء وبعض الأملاح ، خصوصاً الأزوتات ، ولخلايا النبات كلها دخل طبعاً فى كل هذا ، لكن محور هذا التغذى ، وهو تمثيل ثانى أكسيد الكربون ، لا يحدث إلا فى الأجزاء الخضراء من النبات ، سواء كانت الخضرة فى الساق ، أو الفروع ، أو الأوراق . لكن ما يحدث فى غير الأوراق ضئيل بالنسبة لما يحدث فى الأوراق لكثرتها ورقتها واتساع سطحها ، وإذن فمن الممكن أن يقال : إن حياة النبات ، وحياة الحيوان المرتبطة بحياة النبات ، متوقفة كلها على تمثيل ثانى أكسيد الكربون فى الأوراق الخضراء » .

إن النبات يبدأ حياته فى الغالب بذرة أو نواة توضع فى الأرض وتسقى بالماء فتنبت ، أى : تنفلق ويخرج منها جُذير يمتد إلى أسفل وسويق يمتد إلى أعلى تنشق عنه الأرض حاملاً ورقتين صغيرتين خضراوتين .

هذا هو الدور الأول من حياة النبات ويصح أن يسمى بذور الإنبات : لا تأخذ فيه الحبة أو النواة من الخارج إلا الماء والأوكسيجين ، أما ما عدا ذلك من الغذاء اللازم لتكوين الجذير والسويق والورقتين فيستمد مما أودع الله الحب والنوى من مواد عضوية كالنشا قدرها الله بحيث تكفى لتكوين تلك الأعضاء ، وعلى الجذير والوريقتين يتوقف تغذى النبات بعد ذلك .. فالجذير يمتص الماء وما فيه من أملاح ذائبة من الأرض ، والوريقات الخضراء تعمل عملين :

١ ـــ تمتص الأوكسيجين من الهواء لإحراق الغذاء داخل خلايا النبات حرقاً بطيئاً . وتطرد فضلات التغذى من ثانى أوكسيد الكربون وبخار الماء ، هذه العملية تنفسية ، وتجرى ليلاً ونهاراً ، وهى وان كانت غير مقصورة على الورق إلا أنها فى الورق أفعل وأكثر .

٢ ـــ تمتص ثانى أوكسيد الكربون من الهواء فيتغير داخلها تغيراً كيماويا باتحاده مع الماء بواسطة الخضر اتحادا ينشأ عنه من ناحية مواد غذائية للنبات مثل السكريات والنشا ، تدور بصورة ما فى العصارة النباتية على الخلايا لتمثلها مع ما يكون فى العصارة من أملاح ، وينشأ عنها من ناحية أخرى أوكسجين بقدر ما كان فى ثانى أوكسيد الكربون ، وهذا هو المقصود من قولهم : إن النبات فى التمثيل الخضرى

يحلل ثانى أوكسيد الكربون فيأخذ الكربون ويطرد الأوكسجين ، والواقع انه لا يحلله ابتداء ولكن يركبه مع الماء تركيباً تنتج عنه مواد عضوية وأوكسجين بقدر ما كان فى ثانى أوكسيد الكربون ، وهذا هو التمثيل الخضرى .

فمن هذا ترى أن جميع النباتات من شجر وزرع بعد دور الإنبات انما يخلقها الله من بين الوريقات الخضراء والجذير ، فالجذير يمتص الماء والأملاح ، والوريقات تمتص الأوكسجين وثانى أوكسيد الكربون وتهضم ذلك كله ، أى : تحوله إلى مواد معقدة نسبياً إلا أنها صالحة لتمثيل خلايا النبات إياها ، وتحويلها إلى الأجزاء النباتية التى يقتضيها نمو الجذير إلى جذر ، والسويق إلى ساق ، والوريقات إلى أوراق كثيرة ، ثم إذا جاء دور الإثمار إلى أزهار وحب وثمار .

لكن هذا التركيب والنمو والبناء عمل عظيم لابد لإتمامه من طاقة ، فمن أين يأتى النبات بالطاقة اللازمة ؟ هو لا يأخذها من الغذاء كما يفعل الحيوان ، ولكن الله سبحانه وتعالى — يرسلها له مسخرة فى ضوء الشمس : يقع الضوء على المادة الخضراء فتمتص بعضه لتستعين بطاقته على تمثيل ثانى أوكسيد الكربون والماء ، أى : أنه تحول ما تمتصه إلى طاقة كيماوية كامنة فى نواتج التمثيل الخضرى التى يتغذى بها النبات بعد ، كما يتغذى الحيوان بنواتج هضم طعامه ، لذلك كان التمثيل الخضرى لا يجرى إلا نهاراً فى حين ان التنفس يجرى نهاراً وليلاً ، وكان التمثيل الخضرى أقوى كثيراً فى الشمس منه فى الظل ، على أن للتمثيل الخضرى فى الضوء حدا أقصى يقف عنده قلما يبلغه النبات ولو فى الشمس ، لأنه متوقف — أيضاً — على مقدار ثانى أوكسيد الكربون فى الهواء ، وهذا بالطبع ينقص بالتمثيل .

فالتمثيل الخضرى يتوقف بعد المادة الخضراء على ثلاثة أشياء : الضوء من ناحية ، وثانى أوكسيد الكربون ، والماء من ناحية أخرى أما الضوء فأنت من غير شك تنتظر أن يكون أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى هو البنفسجى وما فوقه ، لكن الأشعة البنفسجية وما فوقها ، التى هى أفعل أجزاء الضوء فى التصوير الشمسى وفى قتل الجراثيم ومسح الأصباغ ، ليس لها فى التمثيل الخضرى إلا نصيب ضئيل . أما أفعل أجزاء الضوء فى التمثيل الخضرى فهو الضوء الأصفر . وأما ثانى أوكسيد الكربون فإن نسبته فى الهواء ضئيلة متغيرة حسب الأمكنة والفصول ، فقريباً من وجه الأرض مثلاً تبلغ نسبته بالحجم من ١٢ إلى ١٣ فى كل ١٠٠٠٠ ، وفى يوليو مثلا تبلغ نسبته من ٢,٧ إلى ٢٢٩ ، وفى الشتاء من ٣ إلى ٣,٦ فى كل ١٠٠٠٠ ، وتزداد النسبة طبعاً وانتشار الغازات كفيلان بمزج الهواء وتوزيع أجزائه على السواء . ومتوسط نسبة ثانى أوكسيد الكربون فى الهواء هى بالحجم نحو من ٢,٣ إلى ٣,٥ فى كل ١٠٠٠٠ حجم من الهواء . هذه نسبة ضئيلة ، لكنها تقابل فى مجموع الهواء الجوى مقدار هائلاً

من ثانى أوكسيد الكربون قدروه بنحو ٢١٠٠ بليون كيلو جرام تحتوى على نحو ٥٦٠ بليون كيلو جرام من الكربون كلها مسخرة للنبات بالعوامل الدائبة على نشر الغاز فى الهواء .

على أن هذا المقدار الهائل لا يكفى حياة النباتات الأرضية إلا نحو ثلاثين عاماً ، إن سرعة التمثيل الخضرى تختلف طبعاً باختلاف النباتات ، واختلاف الظروف ، لكنهم قدروا أن المتر المربع من الورق الأخضر فى الظروف المسعدة ينتج بالتمثيل الخضرى من نصف جرام إلى جرام من المواد العضوية الجافة فى الساعة ، فتصور المساحات الهائلة للورق الأخضر فى أشجار الأرض وزروعها وساعات عملها فى فصول نشاطها فى العام ، تدرك هول مقدار المواد العضوية التى يخلقها الله بالتمثيل الخضرى فى درجة الحرارة العادية كل عام ، صحيح أن هذه المواد تداخل فى عناصرها الأوكسيجين والأيدروجين وما إليهما بجانب الكربون . لكن مقدار الكربون اللازم لهذا المحصول قد قدروه بنحو ١٤ إلى ٢٢ بليون كيلو جرام آتية من نحو ٥٠ إلى ٨٠ بليون كيلو جرام من ثانى أوكسيد الكربون . فلو لم يتجدد ثانى أوكسيد الكربون فى الهواء بعمليات التنفس والتعفن والاحتراق لوقفت حياة النبات فى نحو ثلث قرن ، ووقفت بوقوفها الحياة .

فانظر إلى عجيب صنع الله كيف جعل الموت ضرورياً للحياة ، وكيف خلق الحياة من نواتج التعفن والتحلل بعد الموت . إن الله يخلق الأحياء من عناصر قليلة . لكن هذه العناصر محدودة المقدار فى الأرض ، يكفى أن يستنفد عنصر واحد منها فى جيل أو أجيال قليلة لتقف الحياة قاطبة على وجه الأرض ، فلم يكن بد لوجود مطلق الحياة على سطح الأرض من تعاقب الحياة والموت جيلا بعد جيل ، فى النبات والحيوان لتتجدد بموت جيل المادة التى يخلق الله منها الجيل الذى بعده . فالأوكسجين يستمده الأحياء من الهواء ، فإذا ماتوا وتحولوا بالتعفن إلى ثانى أوكسيد الكربون رده الله إلى الهواء مرة أخرى بفعل التمثيل الخضرى ، والكربون يستمده النبات من ثانى أوكسيد الكربون من الجو ، ويتغذى الحيوان بالنبات ، ثم يموت النبات ، فيحرق أو يتعفن ويتحول إلى ثانى أوكسيد الكربون ، فيما يتحول إليه ، ويموت الحيوان فيدفن ويتعفن ويتحول إلى ثانى أوكسيد الكربون فيما يتحول إليه ، ويصعد ثانى أوكسيد الكربون فى الحالين إلى الجو فيتغذى به النبات مرة أخرى ، بالتمثيل الخضرى وهكذا دواليك .

والأزوت يأخذه النبات من أزوتات الأرض ، وأحياناً من أزوت الجو فيحوله إلى جزء منه ، ويتغذى الحيوان بالنبات وتتحلل فضلاتهما وأجسامها فى الأرض بعد الموت ، وتتحول إلى رماد أو تراب أو أزوت يصعد فى الجو ، وفى الحالين يتغذى النبات بأزوت التراب أو الجو مرة أخرى ، وهكذا دواليك .

طبعاً هذه الدورات دائبة متدرجة لا يحس الجيل الحى فيها بفتور أو انقطاع لدوام تجدد كل عنصر من تلك العناصر كلما استنفد منه جزء من حلقة من حلقات الدورة يتجدد بدله جزء فى حلقة أخرى . وقد وازن الله — سبحانه — بين قوى الاستهلاك وقوى التجديد حتى ليبدو كل عنصر أنه ثابت المقدار ، وهذا هو سر خفاء تلك الدورات عن ملاحظة الإنسان ، فلم ينتبه إليها ولم يفقه ما فقهه منها إلا بعد أن أوتى حظاً من العلم فى هذا العصر الحديث .

تلك أمثلة من دورة المادة فى حياة النبات والحيوان ، أو بين الحياة والموت ، وللتمثيل الخضرى أثر عظيم فيها . أما الطاقة التى تقوم عليها حياة الكائن الحى ، كما تقوم على المادة ، فليس لها دورة ، أو ليس يعرف الإنسان لها دورة ، إنما الطاقة على سطح الأرض مستمدة كلها من الشمس ، وللتمثيل الخضرى فى ذلك أعظم الأثر .

إن الانسان والحيوان ينتفع طبعاً بما يصله من حرارة الشمس وضوئها المباشر وكذلك النبات ينتفع باعتدال الجو حوله ، لكن هذا على عظمه لا يكاد يذكر بجانب انتفاع النبات بما يمثله ويختزنه من ضوء الشمس ، أو بجانب انتفاع الحيوان بالطاقة المخزونة فى النبات . فالطاقة التى يختزنها النبات من الشمس هى جزء من صميم كيانه كالمادة التى يأخذها من الهواء أو من الأرض . والإنسان والحيوان يستمد مادته وطاقته من النبات ، فهو حين يتغذى بالنبات ليس يأخذ مادة النمو فقط ، ولكن يأخذ طاقة للعمل . وكل طاقة له خارجية مردها فى النهاية إلى النبات ، ومصدرها الأول هو الشمس .

فالنار التى يستدفىء بها الإنسان ، أو التى يستوقدها فى قطاراته أو سفنه التجارية أو آلاته الصناعية ، كلها نباتى الأصل ، سواء أكانت نار خشب ، أم نار فحم ، أو نار زيت أم نار كحول ، أو نار بنزين ، حتى نار البترول الذى يختلفون فى مصدره أحيوانى هوأم نباتى أو معدنى مردها — أيضا — إلى النبات فى النهاية .

فعلى الثبات مدار حياة الحيوان وحياة الإنسان ، لا من حيث المادة فحسب ، ولكن من حيث الطاقة التى هى بالفعل وبالحرف أهم من المادة .

ومدار النبات فى مادته وطاقته على التمثيل الخضرى المتوقف على الضوء من ناحية وعلى نواتج التحلل والتعفن والاحتراق من ناحية أخرى ..

لكنا نريد مع ذلك إلا نترك هذا الفصل حتى ننظر معك فى آيتين اثنتين لن تجد صعوبة فى فهم

اشاراتهما الواضحة إذا استحضرت ما قدمناه لك من الحقائق . الأولى : آية سورة الأنعام ، والثانية آية سورة يس ، كلاهما تنبه إلى أثر التمثيل الخضرى فى الحياة ، إلا أن آية سورة يس تؤكد فيه ناحية الطاقة ، وآية سورة الأنعام تؤكد فيه ناحية النمو .

أما آية سورة يس ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾(١) .

فمفتاح معناها وصف الشجر بالأخضر ، وترتيب النار على خضرة الشجر . ومن يعرف أثر الخضرة فى نمو الشجر ، وفى بناء كيانه الخشبى على الأخص ، وفى اختزانه ما فى ذلك الكيان من طاقة تبدو ناراً عند الاستيقاد ، لا يجد صعوبة فى إدراك سر ترتيب النار على الخضرة ، أو فى تبين عظمة الآية وبلاغتها وإعجازها . ومن لم يعرف هذا تحير أمام هذا الترتيب الغريب ، وراح يتلمس للآية توجيها يذهب بها فى غير وجهها ، كما فعل من تلمس تفسير الآية فى سهولة اتقاد المرخ والعقار .

على أن هناك قرينة قرآنية قوية تعين أن تفهم الآية الكريمة على هذا الوجه الذى ذكرناه ، ألا وهى قرينة السياق .

إن تلك الآية الكريمة إنما سيقت رداً على مفكرى البعث . بعث الإنسان بعد أن يصير عظماً رميماً ﴿ **وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ۝ قال من يحى العظام وهى رميم ۝ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ۝ الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾(١) . فلابد أن يكون هناك صلة بين معناها وبين مسألة البعث ، كما لابد أن يكون هناك حجة فيها على مفكرى البعث . أما الصلة فظاهرة من أن الآية متصل موضوعها اتصالاً وثيقاً بحياة النبات وإنشائه حياً نامياً قوياً ، بعد أن كان بذرة أو نواة لانماء بها ولا حياة ، وتزداد الصلة بأمر البعث وضوحاً باتضاح الحجة التى فى الآية على مفكر البعث ، والتى تقوم على أن جميع نماء الشجر ومادته وطاقته ، بعد خروج أول وريقتين خضراوتين من البذرة أو النواة ، انما هو آتٍ من مواد أولية هى نواتج تعفن الشجر بعد موته أو احتراقه ، أى : من مواد تشبه من كل الوجوه ذلك العظم الرميم الذى استبعد المفكر الجاحد أن يحييه الله مرة أخرى .

هذا وقد أشارت الآية الكريمة إشارة واضحة يفهمها العالمون إلى ظاهرة تشبه ظاهرة البعث تمام الشبه ، لأنها بالفعل ظاهرة بعث للنبات بعد أن صار بالتعفن أو الإحراق بخار ماء وثانى أوكسيد الكربون

---

(١) سورة يس الآية ٨٠

(١) سورة يس الآيات ٧٨ ــ ٨٠

ورمادا أو أملاحاً ، هى فى الحقيقة التى تقابل العظم الرميم الذى ذكره الجاحد . فكأن الآية تقول لذلك المفكر : إن الذى يبعث الشجرة بعد أن فنيت ويخلقها مرة أخرى بواسطة المادة الخضراء من نواتج تعفنها أو احتراقها ، قادر على أن يبعث الإنسان بعد موته ويخلقه مرة أخرى من نواتج تعفنه ، وتحوله إلى عظم رميم وغير عظم رميم إلا أنه لما لم يكن مأموناً على العقل حين نزلت الآية التصريح بهذه المعانى اكتفى فى الآية بإيداعها مفاتيح إلى هذه المعانى ، لينتفع بها الإنسان إذا اتسع علمه ، ألا وهى وصف الشجر بالخضرة عند جعله أصلاً للنار ، مع السياق على أنه إذا كانت آية سورة يس قد عبرت عن خلق الشجر من الخضرة بلازمة ، وهو خلق النار من الخضرة ، فإن ما أشارت إليه آية سورة يس قد صرحت به آية سورة الأنعام ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكبا** ﴾[1] هذه الآية إذا أخذت حرفياً فقد صرحت بما ألممنا به من حياة النبات فى التفسير السابق . فهناك دور الإنبات ينتهى بخروج الوريقات الخضراء . وكلمة نبات فى الآية يصح أن تكون — أيضا — اسم مصدر بمعنى (الإنبات) . فالماء ينبت الله به كل بذر وكل نوى . ومن ناتج هذا الإنبات يخرج الله الخضر ، ومن هذا الخضر يخرج الله الحب المتراكب الذى هو ثمرة النبات ، وإذن فالله يخرج — أيضا — من الخضر ما بين الخضر والحب من ساق وفروع وأوراق وأزهار .

على أن بقية آية سورة الأنعام صريحة — أيضا — فى أن ما يخرجه الله — سبحانه — من الخضر ليس مقصورا على الزرع ذى الحب ولكن يتناول الأعناب ، والزيتون ، والرمان ، وأشباهها من النباتات طبعا ﴿ **ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[2] .

ألا إننـــا كلنـــا بائـــد وأى بنـــى آدم خالـــد
وبدؤهـــم كان مـــن ربهم وكل إلى بابـــه عائـــد
فواعجباً : كيـف يعصى الإلـه بـل كيـف يجحـده الجاحـد؟
وفى كل شىء لـــه آيـــة تـــدل على أنـــه الواحـــد !

قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون** ﴾ .

(١) سورة الأنعام من الآية ٩٩
(٢) سورة الأنعام من الآية ٩٩

أى : أفرأيتم أيها الناس الماء العذب الذى تشربونه ﴿ **أأنتم أنزلتموه من المزن** ﴾ أى : من السحاب الذى فوقكم إلى قرار الأرض أم نحن منزلوه لكم ؟ ﴿ **لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون** ﴾ أى : لو نشاء لجعلناه ملحاً زعاقاً لا تنتفعون به فى شرب ولا غرس ولا زرع ، فهلا تشكرون ربكم على انزاله المطر عذباً زلالاً ؟

قال تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ۝ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾[١] .

قال جل ذكره : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين** ﴾[٢] .

وقال جلا وعلا : ﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ۝ لنحيى به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً** ﴾[٣] .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا ۝ أحياء وأمواتاً ۝ وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ۝ ويل يومئذ للمكذبين** ﴾[٤] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى جعفر عن النبى ـــ ﷺ : إنه كان إذا شرب الماء قال : « الحمد لله الذى سقاناه عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أجاجا بذنوبنا »[٥] .

واخرج الامام مسلم عن **أنس** ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « إن

(١) سورة النحل الآيتان ١٠ ـــ ١١
(٢) سورة الحجر الآية ٢٢
(٣) سورة الفرقان الآيتان ٤٨ ـــ ٤٩
(٤) سورة المرسلات الآيات ٢٥ ـــ ٢٨
(٥) انظر تفسير ابن كثير .. « تفسير سورة الواقعة » ج ٨ ص ١٨ ط دار الشعب فقد ورد الحديث بلفظه لابن أبى حاتم عن جعفر .

الله — تعالى — ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها ، ويشرب الشربة فيحمده عليها »[١] .

وأخرج أبو داود والترمذى فى الشمائل عن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — أن النبى — ﷺ — كان إذا فرغ من طعامه قال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين »[٢] .

واخرج أبو داود والنسائى بالإسناد الصحيح عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى — رضى الله عنه — قال : كان رسول الله — ﷺ — إذا أكل أو شرب قال : « الحمد لله أطعم وسقى وسوَّغه وجعل له مخرجاً »[٣] .

آية الله فى إيجاد الماء العذب

قال الدكتور محمد أحمد الغمراوى فى كتابه « الاسلام فى عصر العلم » ما نصه :

فى قوله تعالى : ﴿ **لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون** ﴾ . الناس طبعاً يسلمون بالقدرة الالهية على قلب العذب أجاجاً ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ولا يتساءلون هل فى سنن الله ما يسمح بهذا ؟ ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب فى العلم لوجدوه قريباً ، ولعرفوا أن عذوبة الماء الذى يسقيهم الله إياه من السحاب هى بمحض رحمة الله . إن الماء طبعاً عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ولكن طبيعة تكونه تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسة أزوت ، والأزوت كما تعرف — أيضا — لا يكاد يتحد فى العادة بشىء ولا بالأوكسيجين الذى يكاد يتحد بكل شىء ، لكن الكيماويين وجدوا أنهم **يستطيعون** بالكهربائية أن يحولوا الأزوت غير الفعال إلى أزوت فعال يتحد بأشياء كثيرة فى درجة الحرارة العادية ، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الاتحاد بالأوكسجين بإمرار الشرر الكهربائى فى مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأزوت قابل للذوبان فى الماء ، وإذا ذاب فيه اتحد به وكون حمضين أزوتين أحدهما حمض الأزوتيك ، أو ماء النار كما كان يسميه القدماء ، **وإليه يصير الحمض الثانى** .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « استحباب حمد الله تعالى — بعد الأكل والشرب ج ٤ ص ٢٠٩٥ حديث رقم ٨٩ / ٢٧٣٤ من رواية لأنس بن مالك .

(٢) انظر سنن الترمذى « أبواب الدعوات » باب ما يقول إذا فرغ من الطعام ج ٥ ص ١٧٠ — ١٧١ حديث رقم ٣٥٢٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .

(٣) انظر سنن أبى داود « كتاب الأطعمة » باب ما يقول الرجل إذا طعم ج ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ حديث رقم ٣٨٥١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى أيوب الأنصار .

وقليل من حمض الأزوتيك فى الماء كاف لإفساد طعمه وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذى يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجاً من غير خرق لأى سنة من سنن الله الكونية ، فهو نفس الطريق الكهربائى الذى يتكون به المطر ، وكل الذى يلزم هو أن يتعدل أو يتكيف التفريغ الكهربائى ويتكرر فى الهواء ، وما يتكون من الأكاسيد الأزوتية يذوب فى ماء السحاب ، ويحوله حمضياً لا يسيغه الناس .

وهذا هو موضع المن من الله على الناس ، أنه يكيف التفريغ بالصورة التى ينزل بها المطر ولا يؤ ج بها الماء . إن شيئاً من ذينك الحمضين لابد أن ينزل فى ماء العواصف ، وهذا ضرورى للحياة لأنه يتحول فى الأرض إلى الأزوتات الضرورية لحياة النبات . لكن الله برحمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان .. ولو شاء الله لكثره فى ماء المطر فأفسده على الناس .

سواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإن قوله تعالى : ﴿ **لو نشاء جعلناه أجاجاً** ﴾ إشارة إلى تلك العوامل الكهربائية التى يتكون بها المطر ، يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة . ومن يعرف أن الطريق الكهربائى هو أحد الطرق العملية التى يمكن بها تحويل الأزوت الجوى إلى حمض .

إن نعمة الله على الناس فى الماء العذب أكبر من أن يقوموا بشكرها ، لأن كل ماء عذب فى الأرض كان أجاجا فى الأصل إذ هو آت من ماء البحار . إنك تعرف أن الأرض ربعها يابس وثلاثة أرباعها ماء ، هذا الماء كله ماء ملح ومنه يقطر الله للإنسان والحيوان والنبات ما لا غنى لهم عنه من الماء العذب . أما جهاز التقطير فليس كمثله جهاز : البحار كلها فى ذلك الجهاز دست لا يسخن من تحت كما يفعل الإنسان فى تقطيراته التافهة ، ولكن يسخن من فوق بنار قدر تفوق نار الأرض آلاف المرات ، فإذا ما تبخر الماء بحرارة الشمس تكثف فى مكثف ناهيك من مكثف : الجو العلوى كله والجبال ، والرياح مسخرة تحمل البخار من الأرض إلى الجو ، وتحمل السحاب فى الجو إلى حيث يشاء الله أن تنزل الأمطار ، فإذا سالت الأودية وفاضت الأنهار وحملت الخصب والنماء إلى الأقطار تبخر بعض الماء وامتصت الأرض منه بعضاً ، وصار باقية إلى البحر الذى كان منه مصعده .

لكن ليس شىء من هذا الماء بضائع . فما تمتصه الأرض تتفجر به بعد عيوناً حيث يشاء الله ، وما يتبخر من الماء العذب ، أو يصير إلى البحر فهو فى حرز حريز من الضياع ، إذ مآله أن يصير مرة أخرى ماء يحيا به الناس والأنعام ، وتحيا به الأرض الموات . وهذا فرق آخر بين صنع الله وصنع الإنسان .

فما يفلت إلى الجو من الإنسان أثناء تقطيراته فهو ضائع لا يملك الإنسان له استرداداً ، لكن

ليس شيء من الماء أو غير الماء الصاعد إلى الجو ضائعاً فى ملك الله ، فالماء بين البحر والجو واليابسة فى دورة مقدرة متصلة لا انقطاع فيها ولا توقف ولا تعثر ، عليها مدار الحياة فى الأرض ، ولا تنتهى أبداً إلا ان يشاء الله الذى أذن لها بالابتداء .. أ هـ .

قوله تعالى : ﴿ **أفرأيتم النار التى تورون ۝ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ۝ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ۝ فسبح باسم ربك العظيم** ﴾

أى : أفرأيتم النار التى تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، أأنتم أنشأتم شجرتها التى منها الزناد أم نحن المنشئون لها بقدرتنا ؟

وكانت العرب توقد النار بطريق احتكاك المَرْخ بالعَفار (نوعان من الشجر) فيأتون بعود من العفار وبقطعة عريضة من المرخ يحفرون فى وسطها حفرة ثم يضعون عود العفار فى هذه الفجوة ، ويأتى فتى من فتيان القبيلة ويحرك عود العفار فيها بالتوالى ، ويأتى بعده آخر ويصنع صنيع سابقه . ولا يزالون يفعلون هكذا حتى تشتعل النار من كثرة الاحتكاك .

وهذه عملية شاقة عسرة ، ومن ثم كان البيت فى القبيلة إذا رأى النار موقدة استعار جذوة منها ، وإلى هذا أشار فى قوله تعالى فى قصص موسى : ﴿ **إنى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو جذوة من النار لعلكم تصطلون** ﴾ .

ثم بين منافع هذه النار فى قوله تعالى : ﴿ **نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين** ﴾ قال مجاهد . وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ **نحن جعلناها تذكرة** ﴾ أى : تذكر النار الكبرى وقال قتادة : ذكر لنا أن رسول الله — ﷺ — قال : « يا قوم ناركم التى توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ قال انها قد ضربت بالبحر ضربتين أو مرتين حتى يستنفع بها بنو آدم ويدنو منها » . وهذا الذى حكاه قتادة اخرجه الإمام أحمد فى سنده موصولا عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم وضربت بالبحر مرتين ولولا ذلك ما جعل الله فيها منفعة لأحد »[1] .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٢٤٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

ورواه البخارى ومسلم ـــ أيضا ـــ وفى رواية : « والذى نفسى بيده لقد فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل **حرها** »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **ومتاعاً للمقوين** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم يعنى بالمقوين المسافرين . وقال مجاهد ﴿ **ومتاعاً للمقوين** ﴾ للحاضر والمسافر لكل طعام لا يصلحه إلا النار .

قال ابن كثير وهذا التفسير أعم من غيره فإن الحاضر والبادى من غنى وفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع ، ثم من لطف الله ـــ تعالى ـــ أودعها فى الأحجار وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافرين من حمل ذلك فى متاعه وبين ثيابه ، فإذا احتاج إلى ذلك فى منزله أخرج زنده وأورى وأوقد ناراً فأطبخ بها واصطلى بها واشتوى واستأنس بها وانتفع بها سائر الانتفاعات ، فلهذا أفرد المسافرون وان كان ذلك عاماً فى حق الناس كلهم .

وفى الحديث « المسلمون شركاء فى ثلاثة .. النار والكلأ والماء »(٢) .

الحكمة فى خلق النار وبيان ما فيها من الأسرار

قال العلامة ابن القيم فى كتابه « مفتاح دار السعادة » ما نصه :

ثم تأمل الحكمة فى خلق النار على ما هى عليه من الكمون والظهور فإنها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة ، ولو كانت كامنة لا تظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجودها ، فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة فى الأجسام يخرجها

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الخلق » باب « صفة النار وأنها مخلوقة » ج ٢ ص ٢١٩ فقد ورد الحديث عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة بلفظ « ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم قيل : يا رسول الله ، ان كانت لكافية ، قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهم مثل حرها » .

وفى صحيح مسلم « كتاب الجنة صفة نعيمها وأهلها » باب « فى شدة حر نار جهنم .. الخ ج ٤ ص ٢١٨٤ حديث ٣٠ / ٢٨٤٣ بلفظه « ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم » قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله ! قال « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها » وفى رواية أبى الزناد « .. كلهن مثل حرها » .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الرهون » باب المسلمون شركاء فى ثلاث فقد ورد الحديث ٢٤٧٢ عن رواية لابن عباس بلفظ : « المسلمون شركاء فى ثلاث : فى الماء والكلأ والنار وثمنه حرام » قال أبو سعيد : يعنى الماء الجارى .

فى الزوائد : عبد الله بن خراش (ورد فى سند الحديث) قد ضعفه أبو زرعة والبخارى وغيرهما . وقال محمد بن عمار الموصلى : كذاب .

ويبقيها الرجل عند حاجته اليها ، فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها ، فإذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع والسلامة والضرر . قال تعالى : ﴿ **أفرأيتم النار التى تورون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بآياته وشفانا ببيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فنستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعاً للمقوين ، وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هى الأرض الخالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفىء والأنس وغير ذلك .

ثم تأمل حكمته فى كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلا حاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقدها لعظم الداخل عليه فى معاشه ومصالحه ، وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ، وننبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة المنفعة وهى هذا المصباح الذى يتخذه الناس فيقضون به من حوائجهم ما شاؤا من ليليهم ، ولولا هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور ، فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفاً فى ظلمة الليل الداجى وكيف تكون حال من عرض له وجع فى وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك . ثم انظر إلى ذلك النور المحمول فى ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضىء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد ، ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا يفى ولا ينفد ولا يضعف ، وأما منافع النار فى إنضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه ، وتحليل مالا ينتفع إلا بتحليله ، وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى ، ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو ، فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة ، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً ، فمن أعطى هذه القوة التى يطلب بها الهبوط إلى مستقره ، وأعطى هذه القوة التى تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم . أ . هـ .

ويقول الشيخ نديم الجسر فى كتابه « قصة الإيمان » (عن طريق الحوار بين الشيخ وتلميذه) .

يقول القرآن العظيم : ﴿ **أفرأيتم النار التى تورون ۝ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ۝ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ۝ فسبح باسم ربك العظيم** ۝ ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ **الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ .

أما العلم فيقول : إن النار هى عبارة عن ظاهرة لتزايد الحرارة الناتج من احتراق بعض الأجسام

وأن (الاحتراق) بمعناه العام ، هو عبارة عن ظواهر كيماوية تحصل عند اتحاد جسم من الأجسام مع الأوكسجين . ولكن الاحتراق الذى يولد الحرارة إنما يحصل من اتحاد (الأوكسجين مع الكربون) وهذا الكربون موجود فى الطبيعة فى أجسام مختلفة من الجمادات والأحياء ، ولكن أعظم وجوده وأيسره فى النباتات ، فأنسجة النبات ، كما تعلم ، كلها من الكربون . بل يكاد يكون الكربون العنصر الوحيد فى تركيب جسم النبات وغذائه وثماره . فهل أدركت الآن ، يا حيران ، ما تنطوى عليه هذه الآيات ، وما أعظمها وأوضحها (تذكرة) فى بيان القدرة والحكمة !! فالنار من أعظم الضروريات لحياة الإنسان ، فى دفئه وطعامه وصناعته . ولوجدت مكونة كالماء والهواء لأهلكت الحياة ، أو كانت خطرا دائماً عليها . فانظر كيف أعد الخالق لها نواميسها ، وعناصرها ، وجعلها (كامنة) فى الشجر الأخضر كموناً بالقوة ، وسلطنا على توريتها ، عند الحاجة ، وبقدر اللزوم ، وجعلها لنا متاعاً وتذكرة فتذكر بها (حينما نستخرجها من مكمنها فى الشجر الأخضر الطرىء المائى الذى لا نتوقع كمون النار فيه) ، تلك القدرة العظيمة والحكمة الباهرة التى أنشأت لنا شجرة النار . فإن هذا التذكير مما يثير عجب البدوى الساذج ، ويدله على قدرة الخالق ، كما يثير عجب العالم ، فيدرك ما وراءه من أسرار القدرة والحكمة والنظام والقصد والتصميم .

فهل كانت هذه النار ، يا حيران ، هذه النار (غير المتكونة بالفعل ، ليقال إنها تكونت بالمصادفة العمياء ، بل مُعدة ومهيأة للتكوين بالقوة ، وموقفة على عمل ينتجها ويخرجها عن كمونها ، عند الحاجة ، وفق نواميس دقيقة) .

هل كانت هذه النار التى من الله علينا بها ليذكرنا بوجوده ، أثراً من آثار المصادفة العمياء ، يا حيران ؟

قال التلميذ (حيران) ــ سبحان الله العظيم .. أ . هـ .

ما فى الوجود سواك رب يعبد ... كلا ، ولا مولى سواك فيقصد
يا من له عنت الوجوه بأسرها ... ذلا ، وكل الكائنات توحد
أنا الإله الواحد الفرد الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد

قسم ومشاهد

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾
فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا
الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ
﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ
كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾
فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ
الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾
إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ **لا أقسم بمواقع النجوم** ﴾ أى : أقسم بمواقع النجوم . وهذا قسم تستعمله العرب فى كلامها ومعنى (مواقع النجوم) أى : مساقط كواكب السماء ومغاربها ، ﴿ **مكنون** ﴾ أى : مصون عن التغيير والتبديل . ﴿ **المطهرون** ﴾ أى : المنزهون من دنس الحظوظ النفسية ، ﴿ **مدهنون** ﴾ أى : متهاونون كمن يدهن فى الأمر : أى : يلين جانبه ولا يتصلب فيه . ﴿ **لولا** ﴾ حرف يفيد الحث على حصول ما بعده على سبيل الاستحسان أو الوجوب . ﴿ **الحلقوم** ﴾ مجرى الطعام . ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم** ﴾ أى : علماً وقدرة ﴿ **مدينين** ﴾ أى : محاسبين مجزيين ، أو مملوكين مقهورين ، من قولهم : دان السلطان الرعية إذا استذلهم ، واستعبدهم ، ﴿ **فروح** ﴾ الروح : الراحة . ﴿ **وريحان** ﴾ رزق حسن . ﴿ **والمكذبين الضالين** ﴾ هم أصحاب الشمال ، ﴿ **فنزل** ﴾ أى : فجزاؤه نزل ، ﴿ **وتصلية جحيم** ﴾ أى : ادخال فى النار ، ﴿ **حق اليقين** ﴾ أى : حق الخبر اليقين الذى لا شك فيه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة على الألوهية والبعث والجزاء ــ أعقب هذا بذكر الأدلة على النبوة وصدق القرآن الكريم ، وأقسم على هذا بما يرونه فى مشاهداتهم من مساقط النجوم ، انه لكتاب كريم ، لا يمسه إلا المطهرون ، وأنه نزل من لدن حضرة القدس على يد جبريل ــ عليه السلام ــ أمين الوحى ، فكيف تتهاونون فى اتباع أوامره ، والانتهاء عن نواهيه ، وتجعلون شكركم على هذا تكذيبكم بنعم الله وجزيل فضله عليكم ؟ ثم أردف ذلك توبيخهم على ما يعتقدون ، فإنه إذا كان لابد للفعل من فاعل ، وقد جحدتم الله وكذبتم رسوله فالفاعل لهذا كله أنتم ، وإذاً فلماذا لا ترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت ، فإن كنتم صادقين فارجعوها ، الحق انكم لا تعقلون الدليل والبرهان ، بل لا تفهمون إلا المحسوسات ، فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذا من شيمة الجهال ، إذ للعلم وسائل عديدة . فليس عدم رؤية الشيء دليلاً على عدم وجوده .

التفســير

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ، إنه لقرآن لكريم فى كتاب مكنون ، لا يمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ﴾ .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله : ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى ، وأقسام الخلق فيها ، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى ، واخراج النبات من الأرض ، وإنزال الماء من السماء ، وخلق النار ، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس فى القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن ، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن ، وأنه تنزيله .

وقد اختلف فى النجوم التى أقسم بمواقعها ، فقيل : هى آيات القرآن « ومواقعها » نزولها شيئاً بعد شيء وهذا قول ابن عباس ــ رضى الله عنه ــ فى رواية عطاء ، وقيل : النجوم هى الكواكب ومواقعها مساقطها عند غروبها .. ومن حجة قول من قال هى مساقطها عند الغروب : أن الرب ــ تعالى ــ

يقسم بالنجوم وطلوعها وجريانها وغروبها ، إذ فيها وفى أحوالها الثلاث آية وعبرة ودلالة كما فى قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس** ﴾[1] ، وكقوله : ﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾[2] ، وقوله : ﴿ **فلا أقسم برب المشارق والمغارب** ﴾[3] . ويرجح هذا القول أيضاً أن النجوم حيث وقعت فى القرآن فالمراد منها الكواكب كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإدبار النجوم** ﴾ وقوله ﴿ **والشمس والقمر والنجوم** ﴾ .

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم فى القسم : وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه :

﴿ **أحدها** ﴾ : أن النجوم جعلها الله يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وآيات القرآن يهتدى بها فى ظلمات الجهل والغى فتلك هداية فى الظلمات الحسية ، وآيات القرآن فى الظلمات المعنوية . فجمع بين الهدايتين ، مع ما فى النجوم من الرجوم للشياطين ، وفى آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن ، والنجوم آياته المشهودة المعانية . والقرآن آياته المتلوه السمعية ، مع ما فى مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول .

قوله تعالى : ﴿ **وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ أى : وإن هذا القسم عظيم لو تعلمون ذلك . وفى هذا تفخم للمقسم به ، لما فيه من الدلالة على عظيم القدرة ، وكمال الحكمة ، وفرط الرحمة ومن مقتضيات رحمته ، إلا يترك عباده سدى .

ويحدثنا عن عدد النجوم العالم الفلكى « جيمس جينز » فى كتابه « الكون الغامض » فيقول : « ربما كان مجموع عدد النجوم التى فى الكون قريباً من مجموع عدد حبيبات الرمل التى تغطى شواطىء البحار فى العالم كله .. ويقول كذلك فى كتابه « النجوم ومالكها » « يكاد يكون من المؤكد أن هناك أكثر من ٦٠ نجماً مقابل كل رجل وامرأة وطفل على وجه الأرض ، وقد يصل العدد إلى ضعف هذا ، بل ربما إلى ثلاثة أضعافه أو خمسة أمثاله » .

ثم يضرب لذلك مثلاً فيقول : « يجب أن نتصور مكتبة ضخمة تحوى على الأقل نصف مليون كتاب من الحجم المتوسط ، فجميع حروف الطبع التى فى هذه الكتب عددها مساو تقريباً لعدد نجوم السماء . وإذا كنا نطالع بسرعة صفحة فى الدقيقة مدة ثمانى ساعات فى كل يوم ، فلابد لنا من سبعمائة

---

(١) ١٥ ، ١٦ سورة التكوير

(٢) ١ سورة النجم

(٣) ٤٠ سورة المعارج

سنة لقراءة هذه المكتبة ، كذلك لو كنا نعد النجوم بسرعة ألف وخمسمائة نجم فى الدقيقة لاستغرقنا فى ذلك سبعمائة سنة . أما الأرض التى نعيش عليها ، فهى أقل من نقطة على حرف فى مكتبتنا ذات النصف مليون مجلد ، أو على الأصح ، يجب أن نشبهها بهباءة من التراب بين صفحتين فى أى كتاب من هذه الكتب فى هذه المكتبة .

فإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للنجوم ــ وهى شموس تبلغ درجة حرارتها عشرات الملايين من الدرجات التى يقيسها الإنسان بأجهزته ــ فكيف يكون الحال بالنسبة لعدد الكواكب إذا ما عرفنا أن شمسنا هى واحدة من هذه النجوم ، وأرضنا أحد الكواكب التى تكون المجموعة الشمسية ؟ فإذا كان كل نجم ليس له سوى تسعة كواكب ، كما للشمس فقط ، فيا ترى : كم يكون عدد الكواكب ؟ وكم يكون عدد الكواكب والنجوم ؟ إن دراسة إشعاعات النجوم قد ألقت بعض الضوء على بعض وحدات هذا الكون ومركزها فى الوجود ، فقد توصل العلم إلى معرفة أن الضوء يسير بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية ، وقد اختار الفلكيون السنة الضوئية ــ التى تتكون من ٣٥٦ يوماً ، فى كل يوم ٢٤ ساعة ، وفى كل ساعة ٦٠ دقيقة ، وفى الدقيقة ٦٠ ثانية ــ لقياس أبعاد النجوم ، فإذا وصل إلينا ضوء نجم بعد ثانية واحدة كان بعده عنا ١٨٦ ألف ميل ... ولذلك كان الكلام للعرب الأميين (انه لقسم لو تعلمون عظيم) وكيف يعلمون ؟ وهم يومئذ لا يعرفون المراصد ولا يعرفون الأبعاد الشاسعة التى تنتقل الكواكب فيها ولكن لفت نظرهم إن هذه الكواكب وما فيها من أملاك وهذه الأرض وما عليها من جن وإنس الجميع يجب أن يسلم لله وجهه ، وان ينحنى له صلبه ، وأن يخضع لأمر ربه ، وأن يستكين لحكمه فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال تعالى : ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾

فوصفه ــ سبحانه وتعالى ــ بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ، ومنافعه وجلالته ، فإن الكريم هو البهى الكثير الخير العظيم النفع ، وهو من كل شىء أحسنه وأفضله ، والله ــ سبحانه وتعالى ــ وصف نفسه بالكرم . ووصف به كلامه . ووصف به عرشه . ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات ، وغيره ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن قال الكلبى : ﴿ **إنه لقرآن كريم** ﴾ أى : حسن كريم على الله ، وقال مقاتل : كرمه الله وأعزه ، لأنه كلامه . وقال الأزهرى : الكريم اسم جامع لما يحمد ، والله كريم جميل الفعال ، وانه لقرآن كريم يحمد ، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة .

وبالجملة فالكريم الذى من شأنه أن يعطى الخير الكثير بسهولة ويسر . وضده اللئيم الذى لا يخرج خيره إلا النزر إلا بعسر وصعوبة . وكذلك الكريم فى الناس واللئيم . قوله تعالى : ﴿ **فى كتاب مكنون** ﴾ .

قال ابن القيم : اختلف المفسرون فى هذا : فقيل هو اللوح المحفوظ . والصحيح أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة ، وهو المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **فى صحف مكرمة ۝ مرفوعة مطهرة ۝ بأيدى سفرة ۝ كرام بررة** ﴾[١] ، ويدل على أنه الكتاب الذى بأيدى الملائكة قوله : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ فهذا يدل أنه بأيديهم يمسونه . وهذا هو الصحيح فى معني الآية ، ومن المفسرين من قال : ان المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر .

والأول أرجح لوجوه :

(الوجه الأول) أن الآية سبقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون . فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه ، كما قال تعالى : ﴿ **وما تنزلت به الشياطين ۝ وما ينبغى لهم وما يستطيعون** ﴾[٢] ، فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه ، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم ، ولا يقدرون عليه . وكذلك قوله فى سورة عبس : ﴿ **فى صحف مكرمة ۝ مرفوعة مطهرة ۝ بأيدى سفرة ۝ كرام بررة** ﴾ فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به ، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر .

(الوجه الثانى) أن السورة مكية ، والاعتناء فى السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة . وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية .

(الوجه الثالث) إن القرآن لم يكن فى مصحف عند نزول هذه الآية ، ولا فى حياة رسول الله ـــ ﷺ ـــ وإنما جمع فى المصحف فى خلافة أبى بكر . وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتى فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار ، يوضحه .

---

(١) سورة عبس الآيات ١٤ ـــ ١٧

(٢) سورة الشعراء الآيتان ٢١٠ ـــ ٢١١

(٣) سورة الصافات الآية ٤٩

(الوجه الرابع) وهو قوله : ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذى لا تناله أيدى البشر ، كما قال تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾[1] وهكذا قال السلف . قال الكلبى : مكنون من الشياطين . وقال مقاتل : مستور . وقال مجاهد : لا يصيبه تراب ولا غبار وقال أبو اسحق : مصون فى السماء . يوضحه .

(الوجه الخامس) أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله : ﴿ إنه لقرآن كريم ۝ فى كتاب مكنون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد ۝ فى لوح محفوظ ﴾[2] . يوضحه .

(الوجه السادس) أن هذا أبلغ فى الرد على المكذبين ، وأبلغ فى تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث .

(الوجه السابع) قوله : ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى . ولو كان نهياً لكان مفتوحاً . ومن حمل الآية على النهى احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره . إلى معنى النهى والأصل فى الخبر والنهى حمل كل منهما على حقيقته وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهى .

(الوجه الثامن) أنه قال : ﴿ إلا المطهرون ﴾ ولم يقل إلا المتطهرون . ولوأراد به منع المحدث من مسه لقال إلا المتطهرون . كما قال تعالى : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾[3] وفى الحديث « اللهم اجعلنى من التوابين ، واجعلنى من المتطهرين » فالمتطهر فاعل التطهر والمطهر الذى طهره غيره ، فالمتوضىء متطهر ، والملائكة مطهرون .

(الوجه التاسع) انه لو أريد به المصحف الذى بأيدينا لم يكن فى الاخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة ، إذ مجرد الكلام مكنوناً فى كتاب ، لا يستلزم ثبوته فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً فى كتاب ، وهذا أمر مشترك ، والآية إنما سيقت ببيان مدحه وتشريفه ، وما اختص به من الخصائص ، التى تدل على انه منزل من عند الله ، وانه محفوظ مصون ، لايصل إليه شيطان بوجه ما ، ولا يمس محله إلا المطهرون وهم السفرة الكرام البررة .

---

١ ـ الصافات الآية ٤٩

٢ ـ سورة ابروج آيتان ٢٢ ـ ٢٣

٣ ـ سورة البقرة من الآية ٢٢٢

(الوجه العاشر) ما رواه سعيد بن منصور فى سننه بسنده عن أنس بن مالك فى قوله ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ قال : المطهرون : الملائكة . وهذا عند طائفة من أهل الحديث فى حكم المرفوع . وقال الحاكم : تفسير الصحابة عندنا فى حكم المرفوع ، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسير من بعد الصحابة . والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن ، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم وقال حرب فى سائله : سمعت اسحق فى قوله : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ ، قال : النسخة التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون . قال الملائكة :

وسمعت شيخ الاسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر . فقال : هذا من باب التنبيه والإشارة ، إذا كانت **الصحف** التى فى السماء لا يمسها إلا المطهرون ، فكذلك الصحف التى بأيدينا من القرآن لا ينبغى أن يمسها إلا طاهر . والحديث مشتق من هذه الآية . وقوله « لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر » رواه أهل السنن من حديث الزهرى عن بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده : أنه فى الكتاب الذى كتبه النبى ــ ﷺ ــ إلى أهل اليمن فى السنن ، والفرائض والديات (**ان لا يمس القرآن إلا طاهر**)[1] قال أحمد : أرجو أن يكون صحيحاً . وقال أيضا : لا أشك أن رسول الله ــ ﷺ ــ كتبه . وقال أبو عمر بن عبد البر : هو كتاب مشهور عند أهل السير ، معروف عند أهل العلم . معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد . لأنه أشبه التواتر فى مجيئه ، لتلقى الناس له بالقبول والمعرفة ثم قال : وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلا . وقد رواه ابن حبان فى صحيحه ، ومالك فى موطئه . وفى المسألة آثار آخر مذكورة فى غير هذا الموضع .

لا يفهم القرآن إلا القلوب الطاهرة

ويقول ابن القيم : ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة ، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغى . قال البخارى فى صحيحه فى هذه الآية : لا يجد طعمه إلا من آمن به . وهذا ــ أيضا ــ من إشارة الآية وتنبيهها ، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته ، وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله ، تكلم به حقاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، ولا ينال معانيه إلا من لم يكن فى قلبه حرج منه بوجه من الوجوه . فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففى قلبه منه خرج ومن لم يؤمن بأن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يكلم

(١) انظر موطأ الامام مالك « كتاب القرآن » باب الأمر بالوضوء لمن مسَّ القرآن ط / دار الشعب ص ١٤١ حديث ١ عن عبد الله بن أبى بكر بن حزم .

به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ، ففى قلبه منه حرج . ومن قال : إن له باطناً يخالف ظاهره ، وأن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ، ففى قلبه منه حرج .. ومن سلط عليه آل الآرائيين ، وهذيان المتكلمين ، وسفسطة المسفسطين ، وخيالات المتصوفين ، ففى قلبه منه خرج ، ومن جعله تابعا لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه ، ينزله على أقواله ، ويتكلف حمله عليها ، ففى قلبه منه حرج ، ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً فى أصول الدين وفروعه ويسلم وينقاد لحكمه أين كان ، ففى قلبه منه حرج ، ومن لم يأتمر بأوامره ، وينزجر عن زواجره ، ويصدق جميع أخباره ، ويحكم أمره ونهيه وخبره ، ويرد له كل أمر ونهى وخبر خالفه ، ففى قلبه منه حرج . وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه ، ولا يفهمونه كما ينبغى أن يفهم ، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم بإحسان . وأنت إذا تأملت قوله : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته ، وتنبيهه وقياس الشىء على نظيره ، واعتباره بمشاكله ، وتأملت المشابهة التى عقدها الله — سبحانه وتعالى — وربطها بين الظاهر والباطن — فهمت هذه المعانى كلها من الآية . وبالله التوفيق .

قوله تعالى : ﴿ **تنزيل من رب العالمين** ﴾ أى : هذا القرآن العظيم منزل من الله رب العالمين وليس هوَ كما يقولون إنه سحر أو كهانة أو شعر بل هو الحق الذى لا مرية فيه وليس وراءه حق نافع .

قال ابن القيم : وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين

(أحدهما) أنه المتكلم ، وأنه منه نزل ، ومنه بدأ وهو الذى تكلم به . ومن هنا قال السلف : منه بدأ ونظيره ﴿ **ولكن حق القول منى** ﴾[١] ، وقوله : ﴿ **قل نزله روح القدس من ربك** ﴾[٢] .

(والثانى) علو الله — سبحانه — فوق خلقه ، فإن النزول والتنزيل الذى تعقله العقول ، وتعرفه الفطر — هو وصول الشىء من أعلا إلى أسفل . والرب — تعالى — إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم ، وتشهد به عقولهم . وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم ، وتصرفه فيهم وحكمه عليهم ، وإحسانه وإنعامه عليهم ، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى ، ويدعهم هملاً ، ويخلقهم عبثاً ، لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم . فمن أقر بأنه رب

---

(١) سورة السجدة من الآية ١٣
(٢) سورة النحل من الآية ١٠٢

العالمين ، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله ﷺ ، وصحة ما جاء به وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الإستدلال بالمعجزات والخوارق ، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس ، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء .

قوله تعالى : ﴿ **أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ .

ثم وبخهم — سبحانه — على وضعهم الأدهان فى غير موضعه ، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به ويفرق به ويعض عليه بالنواجز ، وتثنى عليه الخناصر ، وتعقد عليه القلوب والأفئدة ، ويحارب ويسالم لأجله ، ولا يلتوى عنه لا يمنة ولا يسرة ، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره ، ولا محاكمة إلا إليه ، ولا مخاصمة إلا به ، ولا اهتداء فى طرق المطالب العالية ، إلا بنوره ، ولا شفاء إلا به ، فهو روح الوجود وحياة العالم ، ومدار السعادة ، وقائد الفلاح ، وطريق النجاة ، وسبيل الرشاد ، ونور البصائر ، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ، ولم ينزل للمداهنة ؟ وإنما أنزل بالحق وللحق . والمداهنة إنما تكون فى باطل قوى لا يمكن إزالته ، أو فى حق ضعيف لا يمكن إقامته ، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل ، فأما الحق الذى قام به كل حق فكيف يدهن به ؟

ثم قال تعالى : ﴿ **وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون** ﴾ لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق ، فرزق البدن الطعام والشراب ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره ، وكان لا حياة له إلا بذلك ، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب — أنعم — سبحانه — على عباده بهذين النوعين من الرزق . وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما . ثم فاوت — سبحانه — بينهم فى قسمة هذين الرزقين ، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته . فمنهم من وفر حظه من الرزقين ووسع عليه فيهما . ومنهم من قتر عليه فى الرزقين . ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب . وبالعكس . وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر . والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه . وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد فإن الله — تعالى — تأذن أنه لابد أن يزيد الشكور من نعمه ، ولابد أن يسلبها من لم يشكرها ، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والايمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيباً ، فإن التصديق والشكر لما كان سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة . فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر ، فجعلوا رزقهم التكذيب ، وهذا المعنى هو الذى حام حوله من قال : التقدير وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون . ومن بعض معنى الآية قولهم : مطرنا بنوء كذا وكذا فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها ، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى والله أعلم (حكاه ابن القيم) .

قوله تعالى : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم ۝ وأنتم حينئذ تنظرون ۝ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ۝ فلولا إن كنتم غير مدينين ۝ ترجعونها إن كنتم صادقين** ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ **فلولا إذا بلغت** ﴾ أى : الروح ، ﴿ **الحلقوم** ﴾ أى : الحلق وذلك حين الاحتضار كما قال تعالى : ﴿ **كلا إذا بلغت التراق ۝ وقيل من راق ۝ وظن أنه الفراق ۝ والتفت الساق بالساق ۝ إلى ربك يومئذ المساق** ﴾[1] . ولهذا قال ههنا : ﴿ **وأنتم حينئذ تنظرون** ﴾ أى : إلى المحتضر وما يكابده من سكرات الموت ، ﴿ **ونحن أقرب إليه منكم** ﴾ أى : بملائكتنا ، ﴿ **ولكن لا تبصرون** ﴾ أى : ولكن لا ترونهم كما قال تعالى : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ۝ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين** ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **فلولا إن كنتم غير مدينين** ﴾ قال سعيد بن جبير والحسن البصرى : غير مصدقين أنكم تدانون وتبعثون وتجزون فردوا هذه النفس ، ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ وقال ميمون بن مهران فى قوله : (فلولا إن كنتم غير مدينين) أى : غير معذبين مقهورين .

وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات المباركات :

« ثم ختم ـــ سبحانه ـــ السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى ، كما ذكر فى أولها أحوالهم فى القيامة الكبرى ، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة . وذكر بين يدى هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته ، بأنهم مربوبون مدَبَّرون مملوكون ، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وارادته ، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه ولا انكاره فقال : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم** ﴾ أى : وصلت الروح إلى هذا الموضع . بحيث فارقت ولم تفارق ، فهى برزخ بين الموت والحياة ، كما أنها إذا فارقت صارت فى برزخ بين الدنيا والآخرة ، ملائكة الرب ـــ تعالى ـــ أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس ، ولكنهم لا يبصرون بهم ، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون ، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدنيين ، ولا مستوعبين ليوم الحساب .

فإن قيل : أى الأرتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما ؟ قيل : هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه ، فإنهم إما أن يقروا بأنهم مربوبون مملكون ، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم ، قاهر آمر ، ناه ،

---

(١) سورة القيامة الآيات ٢٦ ـــ ٣٠

(٢) سورة الأنعام الآيتان ٦١ ـــ ٦٢

أو لا يقرون بذلك : فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله . وأن لا يجعلوا له نداً ، ولا شريكا ، وهذا هو الذى جاءهم به رسوله ، ونزل عليه به كتابه . وإن أنكروا ذلك وقالوا : إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكيين ولا مربوبين ، وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الروح الحلقوم . فإن المتصرف في نفسه ، الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك ، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له ، سواء الذى هو عبد مملوك من جميع الجهات وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولامدافع له . وان أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع ، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن ، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية والإقرار بالعبودية ، ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة ، والاختصار التام ، وندائها إلى معناها من أقرب مكان ، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام ، ودلائل الربوبية والتوحيد ، والبعث ، وفصل النزاع فى معرفة الروح وأنها تصعد وتنزل ، وتنتقل من مكان إلى مكان ، وما أحسن إعادة « لولا » ثانياً قبل ذكر الفعل الذى يقتضيه الأول . وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحداً وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثانى ، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هى الرابط بين لولا الأولى والثانية ، والشرط الأول والثانى ، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه . فتضمنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً ، واستدلالاً على أصول الإيمان : من وجود الخالق — سبحانه — ، وكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وربوبيته ، وتصرفه فى أرواح عباده ، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء ، وأن أرواحهم بيده ، يذهب بها إذا شاء ويردها إليهم إذا شاء ، ويخلى أبدانهم منها تارة ويجمع بينها وبينهما تارة ، وإثبات المعاد ، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه ، وإثبات ملائكته ، وتقرير عبودية الخلق ، وأتى بهذا فى صورة تحضيضين ، وتوبيخين ، وتقريرين ، وجوابين ، وشرطين ، وجزاءين — منتظمة أحسن الانتظام . ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض .

وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه . قال الفراء : وأجيبت (فلولا إذا بلغت) و (فلولا إن كنتم غير مدينين) بجواب واحد وهو (ترجعونها إن كنتم صادقين) .

وقال الجرجانى : قوله ﴿ **ترجعونها** ﴾ جواب قوله ﴿ **فلولا** ﴾ المتقدمة والمتأخرة ، على تأويل : فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها ، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين كما تزعمون ؟ .

يقول تعالى : إن كان الأمر كما تزعمون انه لا بعث ، ولا حساب ولا جزاء ، ولا إله ، ولا رب يقوم بذلك ، فهلا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم ؟ فإذا لم يمكنكم فى ذلك حيلة بوجه

من الوجوه . فهل دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر ، متصرف فيكم ، وهو الله الذى لا إله إلا هو ؟ .

قلت : وكان هذا يلتفت إلى قوله تعالى : ﴿ **قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم** ﴾[1] ، أى : إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون بعد الموت خلقاً جديداً ، فكونوا خلقا لا يفنى ولا يبلى ، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك ، ووجه الملازمة ما تقدم ذكره ، وهو إما أن تقروا بأن لكم رباً متصرفاً فيكم ، ومالكاً لكم ، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته ، يميتكم إذا شاء ، ويحييكم إذا شاء . فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقاً جديداً بعد ما أماتكم . وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك ، نافذ المشيئة فيكم ، والقدرة فيكم . فكونوا خلقاً لا يقبل الفناء والموت فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقاً يموت ، ويحيا ، أن يحييكم بعد ما أماتكم ؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقاً لا يموت . والذى فى الواقعة استدلال **يعجزهم** عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت . وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد .

قوله تعالى : ﴿ **فأما إن كان من المقربين ۝ فروح وريحان وجنة نعيم ۝ وأما إن كان من أصحاب اليمين ۝ فسلام لك من أصحاب اليمين ۝ وأما إن كان من المكذبين الضالين ۝ فنزل من حميم ۝ وتصلية جحيم ۝ إن هذا لهو حق اليقين ۝ فسبح باسم ربك العظيم** ۝ ﴾ .

فلما قام الدليل ، ووضح السبيل ، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون مجزيون محاسبون — ذكر — سبحانه — طبقاتهم عند الحشر الأول ، والقيامة الصغرى ، وهى ثلاثة طبقات : طبقة المقربين ، وطبقة أصحاب اليمين ، وطبقة المكذبين . فجعل تحية طبقة المقربين عند الوفاة : الروح ، والريحان ، والجنة . وهذه الكرامات الثلاثة التى يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التى يعطونها يوم القيامة : ﴿ **فالروح** ﴾ الفرح والسرور ، والسرور والابتهاج ولذة الروح ، فهى كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها وذلك قوتها وغذاؤها ، ﴿ **والريحان** ﴾ الرزق وهو الأكل والشرب (والجنة) المسكن الجامع لذلك كله . فيعطون هذه الثلاث فى البرزخ وفى المعاد الثانى .

ثم ذكر الطبقة الثانية ، وهى طبقة أصحاب اليمين ، ولما كانوا دون المقربين فى المرتبة جعل **تحيتهم** عند القدوم عليه السلام من الآفات والشرور التى تحصل للمكذبين الضالين فقال : (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين) . والسلام مصدر من مسلم . أى : فلك السلامة . والخطاب له نفسه . أى : يقال لك السلامة . كما يقال للقادم : لك البشرى فهذه تحية عند اللقاء .

(١) سورة الاسراء من الآيتان ٥٠ — ٥١

قال مقاتل : يسلم الله لهم أمرهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ، ويتقبل حسناتهم . كما قال تعالى : ﴿ **سلام قولا من رب رحيم** ﴾[1] ، وقال الكلبى : يسلم عليه أهل الجنة ، ويقولون : السلامة لك ، وعلى هذا فقوله : ﴿ **من أصحاب اليمين** ﴾ أى : هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين ، ثم ذكر ــ سبحانه ــ الطبقة الثالثة ، وهى طبقة الضال فى نفسه ، المكذب لأهل الحق ، وأن له عند الموافاة نزل الحميم وسكنى الجحيم . ﴿ **وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم** ﴾ ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأى العين لمن آمن بالله ورسوله فقال : (إن هذا لهو حق اليقين) فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين ، وعن درجة اليقين إلى حقه .

ثم أمره أن ينزه اسمه ــ تبارك وتعالى ــ عما لا يليق به ، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه لمسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون فقال تعالى : ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ . سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جَدك ، وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

تفسير سورة الحديد

مقدمة

قال صاحب البصائر

السورة مدنية ، وقيل مكية

عدد آياتها : تسع وعشرون

وكلماتها : خمسمائة وأربع وأربعون .

وحروفها : ألفان وأربعمائة وست وسبعون .

ومجموع فواصل آياتها (من بزردّ) على الزاء (ان الله قوى عزيز) وعلى الدال (هو الغنى الحميد) .

سميت سورة الحديد لقوله ــ تعالى ــ فيها : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد** ﴾ .

---

(١) سورة يس الآية ٥٨

معظم مقصود السورة

الإشارة إلى تسبيح جملة المخلوقين والمخلوقات فى الأرض والسموات وتنزيه الحق ـ تعالى ـ فى الذات والصفات ، وأمر المؤمنين بإنفاق النفقات والصدقات ، وذكر حيرة المنافقين فى صحراء القرصات وبيان خسة الدنيا وعز الجنات ، وتسلية الخلق عند هجوم النكبات والمصيبات ، فى قوله ﴿ **وأن الفضل بيد الله** ﴾ بهذه الآيات .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **سبح الله** ﴾ وكذلك فى الحشر ، والصف ، ثم ﴿ **يسبح** ﴾ فى الجمعة والتغابن ، هذه كلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر فى بنى اسرائيل ، لأنه الأصل ، ثم بالماضى ، لأنه أسبق الزمانين ، ثم بالمستقبل ، ثم بالأمر فى سورة الأعلى ، استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها . وهى أربع : المصدر ، والماضى ، والمستقيل ، والأمر للمخاطب .

قوله : ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ وبعده ﴿ **له ملك السموات والأرض** ﴾ ليس بتكرار ، لأن الأولى فى الدنيا ، لقوله ﴿ **يحيى ويميت** ﴾ والثانية فى العقبى ، لقوله ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ .

قوله ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ بزيادة ﴿ **هو** ﴾ لأن ﴿ **بشراكم** ﴾ مبتدأ ، ﴿ **وجنات** ﴾ خبره ، ﴿ **تجرى من تحتها** ﴾ صفة لها ، ﴿ **خالدين فيها** ﴾ حال ﴿ **ذلك** ﴾ اشارة إلى ما قبله ﴿ **وهو** ﴾ تنبيه على عظيم شأن المذكور ﴿ **الفوز العظيم** ﴾ خبرة .

قوله : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات** ﴾ ابتداء كلام ﴿ **ولقد أرسلنا** ﴾ عطف عليه .

قوله : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم** ﴾ ، وفى سورة التغابن ، ﴿ **من مصيبة إلا بإذن الله** ﴾ فصّل فى هذه السورة ، وأجمل هناك ، موافقة لما قبلها فى هذه السورة ، فإنه فصّل أهوال الدنيا والآخرة فيها ، بقوله : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا** ﴾ الآية .

وجه مناسبتها لما قبلها .

(١) إن هذه بدئت بالتسبيح ، وتلك ختمت به .

(٢) إن أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح . فكأنه قيل : سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبح له ما فى السموات والأرض .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ
بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ
يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ
مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ۝٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٥
يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٦﴾

معانى المفردات

﴿ **سبح لله** ﴾ نزه الله ومجده . ﴿ **العزيز** ﴾ القادر الغالب على كل شيء .

﴿ **الأول** ﴾ السابق على جميع الموجودات ليس قبله شيء .

﴿ **الآخر** ﴾ الباقي بعد فنائها . ليس بعده شيء .

﴿ **الظاهر** ﴾ فليس فوقه شيء .

﴿ **الباطن** ﴾ فليس دونه شيء كذلك فسره البشير النذير .

﴿ **استوى على العرش** ﴾ استواء يليق بكماله تعالى .

﴿ **ما يلج** ﴾ ما يدخل من مطر وغيره .

﴿ **ما يعرج** ﴾ ما يصعد إليها من الملائكة والأعمال .

﴿ **وهو معكم** ﴾ بعلمه المحيط بكل شيء .

﴿ **يولج الليل** ﴾ يدخله .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى : إن ما دونه من خلقه **ينزهه** عن كل نقص ، تعظيماً له ، وإقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لطاعته . كما قال تعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به .. الآية** ﴾[1] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ **كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم . له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم . تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم .. الآية** ﴾[2] ، وقال رب العزة : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾[3] وقال جل وعلا : ﴿ **ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته .. الآية** ﴾[4] .

والتسبيح تنزيه المولى عن كل ما لا يليق به قولاً ، وفعلاً واعتقاداً . فإن قيل : قد جاء فى بعض فواتح السور ﴿ **سبح لله** ﴾ بلفظ الماضى ، وفى بعضها ﴿ **يسبح لله** ﴾ بلفظ المضارع فما المراد ؟ قال الخازن فى تفسيره : فيه إشارة إلى كون جميع الأشياء مسبحاً لله أبداً ، غير مختص بوقت دون وقت ، بل هى كانت مسبحة أبداً فى الماضى ، وستكون مسبحة أبداً فى المستقبل .

وقوله تعالى : ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ أى : وهو القادر الغالب الذى لا ينازعه شىء ، الحكيم فى تدبير أمور خلقه وتصريفها فيما شاء وأحب .

قوله تعالى : ﴿ **له ملك السموات والأرض ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير** ﴾ أى : هو سبحانه المالك المتصرف فى خلقه فيحيى ويميت ويعطى من يشاء ما يشاء ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ أى : ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن . كما قال عز وجل : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق**

---

(١) سورة غافر من الآية ٧

(٢) سورة الشورى من الآيات ٣ ــ ٥

(٣) سورة الاسراء من الآية ٤٤

(٤) سورة الرعد من الآية ١٣

من تشاء بغير حساب ﴾[١] . وكما قال سبحانه : ﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وهو على كل شيء قدير ﴾[٢] ، فهو ــ سبحانه ــ الملك الحق الذى بيده ملكوت كل شيء ولا شريك له فى ملكه ولا معين ، المتصرف فى خلقه بما يشاء من الأمر والنهى والإعزاز والإذلال والإحياء والإماتة والهداية والإضلال ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين لاراد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره . ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ، له ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير .

قوله تعالى : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ .

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « اللهم رب السموات السبع ، ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ، منزل التوارة والإنجيل والقرآن ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، أقضى عنى الدين واغننى من الفقر »[٣] رواه مسلم .

قال الامام ابن القيم ــ رحمه الله ـ أثناء كلامه على هذه الأسماء الحسنى الأربعة وهى : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن : هى أركان العلم والمعرفة ، فحقيق بالبعد أن يبلغ فى معرفتها إلى حيث ينتهى به قواه وفهمه . وأعلم أن لك أنت أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن ، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر ، فأولية الله ــ سبحانه ــ سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه ، فأوليته سبْقه لكل شيء وآخريته بقاؤه بعد كل شيء ، ومعنى الظهور يقتضى العلو ، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه ، وبطونه ــ سبحانه ــ إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون ، فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهى إحاطتان زمانية ومكانية ، فإحاطته أوليته وآخريته بالقبل والبعد ، فكل سابق انتهى إلى أوليته وكل آخر انتهى إى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله

(١) سورة آل عمران الآيتان ٢٦ ــ ٢٧
(٢) سورة المائدة الآية ١٢٠
(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والرجاء والتوبة والاستغفار » باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ج ٤ ص ٢٠٨٤ حديث رقم ٦٣ / ٢٧١٣ من رواية لأبى هريرة .

فوقه وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله وما من آخر إلا والله بعده .. فسبق كل شيء بأوليته وبقى بعد كل شيء ببطونه ، فلا توارى منه سماءُ سماءً ، ولا أرضٌ أرضاً ، ولا يحجب عنه ظاهر باطناً بل الباطن له ظاهر والغيب عنده شهادة ، والبعيد منه قريب والسر عنده علانية ، فهذه الأسماء الأربعة تشمل على أركان التوحيد فهو الأول فى آخريته ، والآخر فى أوليته ، والظاهر فى بطونه ، والباطن فى ظهوره ، لم يزل أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً . ثم سياق الكلام على التعبد بهذه الأسماء فشفى وكفى — رحمه الله تعالى — ، ولكن قد أحاط بذلك المعنى تفسير رسول الله — ﷺ — فى حديث أبى هريرة المتقدم قريبا بأوجز عبارة وأحضرها فسبحان من خصه بجوامع الكلم — ﷺ — (من كتاب مصارح القبول للشيخ حافظ بن أحمد حلمى) .

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ .

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن استواء يليق بجلاله من غير تمثيل ولا تكييف ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض** ﴾ أى : يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر وغيره ، ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ من نبات وزرع وثمار ومعادن فلا تخفى عليه خافية . كما قال سبحانه : ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء** ﴾[2] ، وكما قال جل شأنه : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾[3] ، ما من جبل إلا ويعلم ما فى وعره ، ولا بحر إلا ويدرى ما فى قعره ، وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب ان ذلك على الله يسير .

وقوله تعالى : ﴿ **وما ينزل من السماء وما يعرج فيها** ﴾ أى : انه سبحانه يعلم ما ينزل من الأمطار والثلوج والبرد والأقدار والأحكام مع الملائكة الكرام وفى الأثر « ما ينزل من قطرة من السماء إلا ومعها ملك يقررها فى المكان الذى يأمر الله به حيث يشاء الله — تعالى —.

(١) سورة الشورى من الآية ١١
(٢) سورة آل عمران الآية ٥
(٣) سورة الأنعام الآية ٥٩

وقوله : ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ أى : من الملائكة والأعمال كما قال تعالى : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾[(١)] ، وكما جاء فى الحديث الصحيح « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل »[(٢)] .

قوله تعالى : ﴿ **وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير** ﴾ أى : رقيب عليكم شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر فى ليل أو نهار فى البيوت أو فى القفار الجميع فى علمه على السواء وتحت بصره وسمعه فيسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم ، كما قال تعالى : ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً اذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾[(٣)] ، وكقوله تعالى : ﴿ **سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار . له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾[(٤)] ، وكقوله ــ جل وعلا ــ : ﴿ **ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم** ﴾[(٥)] .

وفى الصحيح أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال لجبريل لما سأله عن الإحسان : « « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[(٦)] .

وكان الامام أحمد كثيرا ما ينشد هذين البيتين :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل　　خلوت ولكن قل على رقيب

---

(١) سورة فاطر من الآية ١٠

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب فى قوله عليه السلام « ان الله لا ينام » ج ١ ص ١٦١ ــ ١٦٢ فقد ورد الحديث ٢٩٣ / ١٧٩ من رواية لأبى موسى ولفظه : « قام فينا رسول الله ــ ﷺ ــ بخمس كلمات فقال : « إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار ، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجا به النور (وفى رواية أبى بكر : النار) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » .

(٣) سورة يونس الآية ٦١

(٤) سورة الرعد الآيتان ١٠ ــ ١١

(٥) سورة المجادلة الآية ٧

(٦) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب بيان الايمان والاسلام والاحسان .. الخ ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ حديث ١ / ٨ وهو حديث طويل من رواية لعبد الله بن عمر عن أبيه وهو حديث طويل ، يعتبر هذا الحديث الذى معنا جزء منه .

وانظر صحيح البخارى « كتاب الايمان » باب سؤال جبريل النبى ــ ﷺ ــ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة .. الخ فقد ورد حديث لأبى هريرة هذا الحديث الذى معنا جزء منه .

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفى عليه يغيب
يا من يرى مد البعوض جناحه ... فى ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى نياط عروقها فى نحرها ... والمخ فى تلك العظام النحل
ويرى ويسمع ما دونها ... فى قاع بحر ذاخر متجندل

قوله تعالى : ﴿ **له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ أى : هو المالك لما فيهما ، والمدبر لأمورهما ، والنافذ حكمه فيهما ، وإليه مصير جميع خلقه ، فيقضى بينهم بحكمه كما قال تعالى : ﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾[1] . وكما قال سبحانه ﴿ **وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل** ﴾ أى : يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته كما يشاء ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه وقوله : ﴿ **وهو عليم بذات الصدور** ﴾ أى : يعلم السرائر وإن دقت وإن خفيت . فهو يعلم نوايا خلقه كما يعلم ظواهر أعمالهم من خير أو شر . كيف لا وهو الذى خلق وقدر ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[3] .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا ... وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزدانا سل الزهر والندى ... سل الليل والأصباح والطير شاديا
وسل هذه الأنسام والأرض والسما ... وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وامتد سرمدا ... فمن غير ربى يرجع الصبح ثانيا
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم ... سوى الله يجريه كما شاء راويا
ولو أن هذى الريح ثارت واعصرت ... أفى كونكم من يمسك الريح ناهيا

(١) سورة يس الآية ٨٣
(٢) سورة القصص الآية ٧٠
(٣) سورة الملك الآية ١٤

توجيه وإرشاد

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ
(٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (٨) هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ
بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ
لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ
وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾

معانى المفردات

﴿ **مستخلفين فيه** ﴾ أى : جعلكم — سبحانه — خلفاء عنه فى التصرف من غير أن تملكوه ، ﴿ **آيات بينات** ﴾ الآيات البينات هى القرآن الكريم ، ﴿ **الفتح** ﴾ هو فتح مكة ، و ﴿ **الحسنى** ﴾ أى المثوبة الحسنى ، وهى النصر والغنيمة فى الدنيا ، والجنة فى الآخرة ، ﴿ **يقرض الله** ﴾ أى : ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر — سبحانه — أنواعاً من الأدلة تثبت وحدانيته وقدرته وعلمه بين أن كل ما فى السموات وما فى الأرض فهو فى قبضته يصرفه كما يشاء ، ثم ذكر أنواعاً من الظواهر فى الأنفس ترشد إلى هذا وأومأ إلى النظر والتأمل فيها ، أعقب هذا بذكر التكاليف الدينية فأمر بالإيمان والإخلاص والانقياد لرسوله — ﷺ — ، ثم طلب انفاق المال فى سبيله ، وأبان أن المال عارية مستردة فهو ملك له وأنتم

خلفاؤه ، ثم حث على ذلك بأن جعل هذا صفوة دعوة الرسول وقد أخذ عليكم العهد به ، وآيات كتابه هادية لكم والله رءوف بكم إذ أنقذكم من ظلمات الشرك إلى نور الطاعة ، ثم ذكر — سبحانه — فضل السابقين الأولين الذين أسلموا قبل فتح مكة ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى إعلاء كلمة الله حين عز النصير وقل المعين ، فهؤلاء لا يستوون مع من فعل ذلك بعد الفتح ، وهؤلاء وأولئك لهم المثوبة الحسنى ، ثم حث على الإنفاق مرة أخرى وسماه قرضاً له ، وأنه سيرد هذا القرض ويجازى به أجمل الأجر يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** ﴾ .

أمر — تبارك وتعالى — بالإيمان به وبرسوله على الوجه الأكمل والدوام والثبات على ذلك والاستمرار كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** ﴾ أى : وأنفقوا مما هو معكم من المال على سبيل العارية ، فإنه قد كان فى أيدى من قبلكم ثم صار إليكم ، واستعملوه فى طاعته وإلا حاسبكم على ذلك حساباً عسيراً ، وفى هذا ترغيب أيما ترغيب فى الإنفاق ، لأنه من علم أن المال لم يبق لمن قبله وانتقل إليه — علم أنه لا يدوم له بل ينتقل إلى غيره وبذا يسهل عليه إنفاقه .

قال الشاعر :

إذا المرء لم يُعتق من المال نفسه ... تملّكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق ... وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مالٍ فبادر به الذى ... يحق ، وإلا استهلكته مهالكه

(١) سورة النساء الآية ١٣٦

وقال آخر :

كل نفس عند ميتتها حظها من مالها الكفن
إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

قال شعبة : سمعت عن قتادة يحدث عن مطرِّف بن عبد الله عن أبيه قال : « انتهيت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو يقول : « ألهاكم التكاثر » يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت **فأفنيت** ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت **فأبقيت** وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس »[٢] رواه مسلم .

ثم حث ـ سبحانه ـ على ما تقدم من الإيمان والإنفاق فى سبيل الله فقال تعالى : ﴿ **فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** ﴾ أى : فالذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله منكم ، وأنفقوا مما خولهم الله عمن قبلهم ـ فى سبيل الله لهم الثواب العظيم عند ربهم وهناك يرون من الكرامة والمثوبة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

قوله تعالى : ﴿ **وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

أى : وأى شىء يمنعكم من الإيمان والرسول بين أظهركم يدعوكم إلى ذلك ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به .

قال ابن كثير قد روينا فى الحديث من طرق فى أوائل شرح كتاب الإيمان من صحيح البخارى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوماً لأصحابه : أى المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ ـ قالوا الملائكة ـ قال وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ؟ ـ قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لا يؤمنون والوحى ينزل عليهم ـ قالوا فنحن قال وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها .. »[١] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين** ﴾ هذا نظير قوله تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة**

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الزهد والرقائق » ج ٤ ص ٢٢٧٣ فقد ورد الحديث ٣ / ٢٩٥٨ من رواية لقتادة عن مطرق عن أبيه وهو بلفظه .

(٢) انظر تفسير ابن كثير « تفسير سورة الحديد » ج ٨ ص ٢٦ ، ٢٧ .

الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور ﴾[١] ، ويعنى بذلك بيعة الرسول — ﷺ — .

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم** ﴾ أى : هو تعالى الذى ينزل على محمد القرآن العظيم ، المعجز فى بيانه ، الواضح فى أحكامه ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ أى : ليخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ﴿ **وإن الله بكم لرءوف رحيم** ﴾ أى : مبالغ فى الرأفة والرحمة بكم ، حيث أنزل الكتب وأرسل الرسل لهدايتكم . كما قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً** ﴾[٢] ، وكما قال جل وعلا : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ۝ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾[٣] . وكما قال سبحانه : ﴿ **الر ۝ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ۝ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد** ﴾[٤] . وكما قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين ۝ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون** ﴾[٥] .

قوله تعالى : ﴿ **وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير** ﴾ .

أى : وما لكم أيها الناس لا تنفقوا مما رزقكم الله فى سبيله ؟ وأموالكم صائرة إليه إن لم تنفقوها فى حياتكم ، لأن له ما فى السموات والأرض ميراثاً . فأنفقوا ولا تخشوا فقرا وإقلالاً ، فإن الذى أنفقتم فى سبيله هو مالك السموات والأرض وبيده مقاليدهما وعنده خزائنها وهو مالك العرش بما حوى وهو القائل سبحانه : ﴿ **وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾[٦] ، وقال : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾[٧] ، فمن توكل على الله أنفق ولم يخش من ذى العرش إقلالا وعلم أن الله سيخلفه عليه .

---

(١) سورة المائدة الآية ٧
(٢) سورة النساء الآية ١٧٤
(٣) سورة المائدة الآيتان ١٥ ، ١٦
(٤) سورة ابراهيم الآيتان ١ ، ٢
(٥) سورة يونس الآيتان ٥٧ ، ٥٨
(٦) سورة سبأ من الآية ٣٩
(٧) سورة النحل من الآية ٩٦

وقوله تعالى : ﴿ **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل** ﴾ أى : لا يستوى هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أن قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ .

قال قتادة : كان قتالان : أحدهما أفضل من الآخر ، ونفقتان إحداهما أفضل من الأخرى ، كان القتال والنفقة من قبل فتح مكة أفضل من النفقة والقتال بعد ذلك .

﴿ **وكلا وعد الله الحسنى** ﴾ أى : وكل من المنفقين قبل الفتح وبعده لهم ثواب على ما عملوا ، وان كان بينهم تفاوت فى مقدار الجزاء كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً** ﴾[1] .

اخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « لا تسبوا أصحابى فو الذى نفسى محمد بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه »[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أى : عالم بأعمالكم ، مطلع على خفاياكم ونواياكم ، ومجازيكم عليه ، وفى الآية وعد ووعيد .

قال ابن كثير : أى : فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ومن فعل ذلك بعد ذلك ، وماذاك إلا لعلمه بقصد الأول وإخلاصه التام وأنفاقه فى حال الجهد والقلة والضيق ، وفى الحديث « سبق درهم ألف »[3] ولاشك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر ـــ رضى الله عنه ـــ له الحظ الأوفر من هذه الآية فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء ، فإنه أنفق ماله كله ابتغاء وجه الله ـــ عز وجل ـــ ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها .

---

(١) سورة النساء الآية ٩٥

(٢) انظر صحيح البخارى « باب فضائل أصحاب النبى » ج ٥ ص ١٠ فقد ورد الحديث بلفظه حدث به ذكر ان عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الزكاة » باب « جهد المقل » ج ٥ ص ٥٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « سبق درهم مائة ألف درهم .. » حديث طويل .

وقوله تعالى : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم** ﴾ أى : من هذا الذى ينفق أمواله فى سبيل الله محتسباً أجره عند ربه ، فيضاعف له ذلك القرض ، فيجعل له بالحسنة الواحدة سبعمائة ، وله بعد ذلك جزاء كريم بمثوبته بالجنة ؟ .

كما قال تعالى : ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم** ﴾[1] ، وكما قال سبحانه : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون** ﴾[2] ، قال ابن أبى حاتم بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ــ الآية** ﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله ، إن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم يا أبا الدحداح » قال : أرنى يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإنى قد أقرضت ربى حائط ، وله حائط فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها ، قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجى فقد أقرضته ربى ــ عز وجل ــ ، وفى رواية انها قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها وصبيانها وإن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « كم من عذق رداح فى الجنة لأبى الدحداح »[3] ، وفى لفظ « رب نخلة مدلاة عروقها در وياقوت لأبى الدحداح فى الجنة » .

وعد ووعيد

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦١

(٢) سورة البقرة الآية ٢٤٥

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث من رواية لثابت مع اختلاف فى بعض ألفاظ القصة ، ولفظ الحديث « كم من عزق راح لأبى الدحداح فى الجنة » .

وانظر مسند الامام احمد ــ أيضا ــ ج ٥ ص ٩٥ فقد وردت عدة روايات فى هذا الحديث .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الجنائز » باب « ركوب المصلى » ج ٢ ص ٦٦ فقد ورد الحديث بلفظ .. كم من عذق معلق أو مدلل لأبى الدحداح فى الجنة » .. برقم ٨٩ / ٩٦٥ .

وانظر كنز العمال ج ١١ ص ٦٥٨ ــ ٦٥٩ فقد ورد الحديث بعده روايات برقم ٣٣١٨٠ ، ٣٣١٨١ ، ٣٣١٨٢ .

وَالْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ
نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ
مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾

معانى المفردات

﴿ **بشراكم** ﴾ أى : ما تبشرون به ، ﴿ **انظرونا** ﴾ أى : انتظرونا ، ﴿ **نقتبس** ﴾ أصل الاقتباس طلب القبس : أى الجذوة من النار ، ﴿ **بسور** ﴾ السور : الحاجز ، ﴿ **من قبله** ﴾ أى : من جهته ، ﴿ **بلى** ﴾ أى : كنتم معنا ، ﴿ **فتنتم أنفسكم** ﴾ أى : أهلكتموها بالمعاص والشهوات ، ﴿ **وتربصتم** ﴾ أى : انتظرتم بالمؤمنين مصايب الزمان ، ﴿ **وارتبتم** ﴾ أى : شككتم فى أمر البعث ، ﴿ **الأمانى** ﴾ الأباطيل من طول الآمال والطمع فى انتكاس الإسلام ، ﴿ **الغرور** ﴾ بالفتح الشيطان ، ﴿ **فدية** ﴾ والفدية والفداء : ما يبذل لحفظ النفس أو المال من الهلاك ، ﴿ **مأواكم** ﴾ أى : منزلكم الذى تأوون إليه ﴿ **مولاكم** ﴾ أى : أولى بكم ، ﴿ **والمصير** ﴾ المآل والعاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بالإيمان والإنفاق فى سبيله ثم ذكر أن المنفقين أول الاسلام لهم من الأجر أكثر ممن أنفقوا من بعد حين كثر النصير والمعين ــ ذكر هنا حال المؤمنين المنفقين يوم القيامة ، فبين أن نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ليرشدهم إلى الجنة ، ثم أردفه ذكر حال المنافقين إذ ذاك يتخبطون فى الظلمات ، كما كانوا فى الدنيا يعيشون كالبهائم فى ظلمات الجهل والغى والضلال ، ثم بين أنه يُضرب بين الفريقين حاجز باطنه مما يلى المؤمنين فيه الرحمة ، ومما يلى المنافقين فيه العذاب ، لأنه فى النار ، ثم ذكر السبب فيما صاروا إليه وهو أنهم أهلكوا أنفسهم بالنفاق والمعاصى .. ثم أعقبه أنه لا أمل فى النجاة لهم إذ ذاك ، فلا تجدى الفدية كما كانت تنفع فى الدنيا فلا مأوى لهم إلا النار وبئس القرار .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

يقول تعالى ــ مخبراً عن المؤمنين المتصدقين ــ : أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم فى عرصات القيامة بحسب أعمالهم كما قال عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة ومنهم من نوره مثل الرجل القائم وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة .

ورواه ابن أبى حاتم وابن جرير وقال قتادة : ذكر لنا أن نبى الله ــ ﷺ ــ كان يقول : « من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فذون ذلك حتى أن من المؤمنين من يضىء نوره موضع قدميه »[1] ، وقال الحسن : ﴿ **يسعى نورهم بين أيديهم** ﴾ يعنى : على الصراط . « وهذا النور الذى أودعه فى قلب عبده من معرفته ومحبته والإيمان به وذكره ، وهو نوره الذى أنزله إليهم فأحياهم به وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله فى قلوبهم ثم تقوى مادته فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم وسائر الخلق له منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه وهم فيه على حسب قوته وصفته فى قلوبهم فى الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نوراً على إبهام قدمه يضىء مرة ويطفأ مرة ، إذ كانت هذه حال نوره فى الدنيا فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً » . (قاله ابن القيم فى الوابل الصيب) .

وقوله تعالى : ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ .

أى : يقال لهم بشراكم اليوم جنات ، أى : لكم البشارة بجنات تجرى من تحتها الأنهار ﴿ **خالدين**

(١) انظر تفسير ابن جرير الطبرى « تفسير سورة الحديد » ج ٢٧ ص ١٢٨ القول فى تأويل قوله تعالى : ﴿ **يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم ..** ﴾ الخ . فقد ورد الحديثان سعيد عن قتادة ، وعن ابن مسعود .
(٢) سورة الرعد الآيتان ٢٣ ــ ٢٤

فيها ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ﴿ **ذلك هو الفوز العظيم** ﴾ كما قال سبحانه : ﴿ **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾[1] . وكما قال جل شأنه : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾[2] .

وبعد أن ذكر حال المؤمنين فى موقف القيامة أتبعه ببيان حال المنافقين ، فقال تعالى : ﴿ **يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور . فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير** ﴾ .

قال العلامة ابن كثير :

هذا إخبار من الله سبحانه عما يقع يوم القيامة فى العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وأنه لا ينجو يومئذ إلا من آمن بالله ورسوله ، وعمل بما أمر الله به ، وترك ما عنه زجر .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن سليم بن عامر قال : خرجنا على جنازة فى باب دمشق ومعنا أبو أمامة الباهلى فلما صلى على الجنازة وأخذوا فى دفنها ، قال أبو أمامة : أيها الناس إنكم قد أصبحتم وأمسيتم فى منزل تقتسمون فيه الحسنات والسيئات ، وتوشكون أن تظعنوا منه إلى منزل آخر وهو هذا — يشير إلى القبر — بيت الوحدة ، وبيت الظلمة ، وبيت الدود ، وبيت الضيق إلا ما وسع الله ، ثم تنتقلون منه إلى مواطن يوم القيامة فإنكم فى بعض تلك المواطن حتى يغشى الناس أمر من الله فتبيض وجوه وتسود وجوه ، ثم تنتقلون منه إلى منزل آخر فيغشى الناس ظلمة شديدة ، ثم يقسم النور فيعطى المؤمن نوراً ، ويترك الكافر والمنافق فلا يعطيان شيئاً وهو المثل الذى ضربه الله — تعالى — فى كتابه فقال : ﴿ **أو كظلمات فى بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾[3] ، فلا يستضىء الكافر والمنافق بنور المؤمن ، كما لا يتسضىء الأعمى ببصر البصير ، ويقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا : ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ ، ﴿ **قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً** ﴾ وهى خدعة الله التى خدع بها المنافقين حيث قال : ﴿ **يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾[4] فيرجعون إلى المكان الذى قسم فيه النور

(١) سورة الرعد الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٢) سورة الزمر الآية ٧٣
(٣) سورة النور الآية ٤٠
(٤) سورة النساء الآية ١٤٢

فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ **باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ ، وقال العوفى والضحاك وغيرهما عن ابن عباس : بينما الناس فى ظلمة إذ بعث الله نوراً فلما رأى المؤمنون النور توجهوا نحوه وكان النور دليلاً من الله إلى الجنة ، فلما رأى المنافقون المؤمنين قد انطلقوا اتبعوهم فأظلم الله على المنافقين فقالوا حينئذ : ﴿ **انظرونا نقتبس من نوركم** ﴾ فإنا كنا معكم فى الدنيا قال المؤمنون : ﴿ **ارجعوا وراءكم** ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور .

وقال أبو القاسم الطبرانى بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إن الله تعالى يدعو الناس يوم القيامة بأسمائهم سترا منه على عباده ، وأما عند الصراط فإن الله ـ تعالى ـ يعطى كل مؤمن نورا وكل منافق نوراً فإذا استووا على الصراط سلب الله نور المنافقين والمنافقات فقال المنافقون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقال المؤمنون : ربنا أتمم لنا نورنا فلا يذكر عند ذلك أحد أحداً »[1] .

ويقول ابن القيم : ولما لم يكن للمنافقين نور ثابت بل كان نوره ظاهراً لا باطناً ، أعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب .

وقوله تعالى : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ . قال الحسن وقتادة : هو حائط بين الجنة والنار . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هو الذى قال الله تعالى : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾[2] **وهكذا روى عن مجاهد رحمه الله وغير واحد ، قال ابن كثير وهو الصحيح . وقوله** ﴿ **باطنه فيه الرحمة** ﴾ أى : الجنة وما فيها ، ﴿ **وظاهره من قبله العذاب** ﴾ أى : النار ، قاله قتادة وابن زيد وغيرهما . وقوله : ﴿ **ينادونهم ألم نكن معكم** ﴾ أى : ينادى المنافقون المؤمنين أمّا كنا معكم فى الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ، ونصلى معكم الجماعات ، ونقف بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدى معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ **قالوا بلى** ﴾ أى : فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى قد كنتم معنا . ﴿ **ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى** ﴾ قال بعض السلف : أى : فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصى والشهوات وتربصتم أى : أخرتم التوبة من وقت إلى وقت .

---

(١) انظر مجمع الزوائد « كتاب البعث » باب ما جاء فى الميزان والصراط والورود ج ١٠ ص ٣٥٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس . رواه الطبرانى وفيه اسحق بن بشر أبو حذيفة وهو متروك .

(٢) سورة الأعراف الآية ٤٦

وقال قتادة : ﴿ تربصتم ﴾ بالحق وأهله ﴿ وارتبتم ﴾ أى : بالبعث بعد الموت ﴿ وغرتكم الأمانى ﴾ أى : قلتم سيغفر لنا ، وقيل : غرتكم الدنيا ، ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أى : مازلتم فى هذا حتى جاءكم الموت . ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ أى : الشيطان ، قال قتادة كانوا على خدعة من الشيطان والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله فى النار .

ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا : أى : بأبدان لا نية لها ولا قلوب معها ، وإنما كنتم فى حيرة وشك فكنتم تراءون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

وقوله تعالى : ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ كقوله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾(١) ، ولو جاء أحدهم يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدى به من عذاب الله ما قبل منه .

وقوله تعالى : ﴿ ومأواكم النار ﴾ أى : هى مصيركم وإليها متقلبكم وقوله : ﴿ هى مولاكم وبئس المصير ﴾ أى : هى أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير .

« اللهم إنا نعوذ بك من الرياء والنفاق وسوء الأخلاق ، اللهم اجعل أعمالنا كلها صالحة ولوجهك الكريم خالصة ، ولا تجعل لأحد فيها شيئاً » .

رقائق ومواعظ

﴿ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾
ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ

(١) سورة المدثر الآية ٤٨

وَالْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَآ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ **ألم يأن** ﴾ ألم يجيء وقت ذلك ، ﴿ **أن تخشع** ﴾ الخشوع : الخشية والخوف ، ﴿ **لذكر الله** ﴾ لمواعظه ، ﴿ **الحق** ﴾ هو القرآن ، ﴿ **كالذين أوتوا الكتاب** ﴾ هم اليهود والنصارى ، ﴿ **الأمد** ﴾ الزمان ، ﴿ **وطال عليهم الآمد** ﴾ أى : طال العهد دينهم دين أنبيائهم ، ﴿ **فقست قلوبهم** ﴾ أى : صلبت وصارت كالحجارة أو أشد قسوة ، ﴿ **فاسقون** ﴾ أى : خارجون عن حدود دينهم ، ﴿ **الأرض الميتة** ﴾ هى التى لا تنبت شيئاً ، و ﴿ **الآيات** ﴾ هى البينات والحجج . ﴿ **تعقلون** ﴾ تتدبرون ، ﴿ **المصدقين** ﴾ أى : المتصدقين ، ﴿ **قرض حسنا** ﴾ القرض الحسن : هو الدفع بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، ﴿ **يضاعف لهم** ﴾ أى : يضاعف لهم ثواب أعمالهم ، ﴿ **الصديقون والصدّيق** ﴾ : من كثر منه الصدق وصار سجية له ، ﴿ **والشهداء** ﴾ من قتلوا فى سبيل الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وازن بين المؤمنين والمنافقين فيما مضى ، وأبان ما يكون بينهما من فارق يوم القيامة — ذكر هنا التفاوت بين حال المؤمنين وحال الكافرين .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ .

يقول تعالى : آما آن للمؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، أى : تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له ، وتسمع له وتطيعه ، كما قال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً**

مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[١] .

روى الامام مسلم بسنده عن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : ما كان بين اسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ الآية إلا أربع سنين[٢] .
وقال قتادة : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروى عن رسول الله ــ ﷺ ــ قال: « إن أول ما يرفع من الناس الخشوع » .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم** ﴾
نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراءهم ظهرياً ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال فى دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ولا تلين بوعد ولا وعيد ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾
أى : فى الأعمال فقلوبهم فاسدة وأعمالهم باطلة .

وقوله تعالى : ﴿ **اعلموا أن الله يحى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون** ﴾ .

قال ابن كثير : فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدى الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحى الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادى لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذى هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل فى جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

---

(١) سورة الزمر الآية ٢٣
(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب فى قوله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » ج ٤ ص ٢٣١٩ حديث رقم ٢٤ / ٣٠٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن مسعود .

كلمة فى الخشوع

قال الحافظ زين الدين بن رجب الحنبلى : ما ملخصه :

أصل الخشوع هو لين القلب ورقته ، أو سكونه وخضوعه وانكساره وحرقته ، فإذا خشع القلب ، تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء ، لأنها تابعة له ، كما قال — ﷺ — : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »(١) (رواه البخارى) فإذا خشع القلب ، خشع السمع والبصر والرأس ، والوجه ، وسائر الأعضاء وما ينشأ منها حتى الكلام ، ولهذا كان النبى — ﷺ — يقول فى ركوعه فى الصلاة « خشع لك سمعى وبصرى ومخى وعظمى وعصبى » (رواه مسلم) ، ورأى بعض السلف رجلاً يعبث بيده فى الصلاة فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »(٢) .

قال المسعودى عن على بن أبى طالب — رضى الله عنه — فى قوله تعالى : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ قال : « هو الخشوع فى القلب ، وأن تلين كتفك للمرء المسلم ، وأن لا تلتفت فى صلاتك » . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس — رضى الله عنهما — فى قوله تعالى : ﴿ **الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾ قال : « خائفون ساكنون » . وقال الحسن — رحمه الله — « كان الخشوع فى قلوبهم فغضوا له البصر فى الصلاة » .

وقد وصف الله — تعالى — فى كتابه الأرض بالخشوع فقال : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت** ﴾(٣) ، فاهتزازها وربوها — وهو ارتفاعها — مزيل لخشوعها ، فدل على أن الخشوع الذى كانت عليه هو سكونها وانخفاضها .

فكذلك القلب إذا خشع ، فإنه تسكن خواطره ، وإرادته الرديئة التى تنشأ من اتباع الهوى ؛ وينكسر وينخضع لله ، فيزول بذلك ما كان فيه من التعاظم والترفع والتكبر ، ومتى سكن ذلك فى القلب خشعت الأعضاء والجوارح والحركات كلها ، حتى الصوت وقد وصف الله — تعالى — الأصوات بالخشوع فى قوله : ﴿ **وخشعت الأصوات للرحمن** ﴾(٤) فخشوع الأصوات هو سكونها وانخفاضها بعد ارتفاعها .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الإيمان » باب « فضل من استبرأ لدينه » ج ١ ص ٢١ فقد ورد هذا الحديث ضمن حديث طويل « الحلال بين .. » الخ .

(٢) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح » باب الذكر فى الركوع ج ٢ ص ١٩٢ فقد ورد الحديث من رواية لعلى بن أبى طالب ولفظه : « اللهم لك ركعت ، ولك أسلمت ربك آمنت خشع له سمعى وبصرى وعظامى ومخى وعصبى » .

(٣) سورة فصلت من الآية ٣٩

(٤) سورة طه من الآية ١٠٨

الفرق بين خشوع النفاق وخشوع الإيمان

ومتى تكلف الإنسان تعاطى الخشوع فى جوارحه أو أطرافه مع فراغ قلبه من الخشوع وخلوه منه ، كان ذلك خشوع نفاق ، وهو الذى كان السلف يستعيذون منه كما قال بعضهم : « استعيذوا بالله من خشوع النفاق ، قالوا : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجسد خاشعاً والقلب ليس بخاشع » .

ونظر عمر — رضى الله عنه — إلى شاب قد نكس رأسه فقال له : « يا هذا ارفع رأسك ، فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب » .

فمن أظهر خشوعاً غير ما فى قلبه ، فإنما هو نفاق على نفاق .

الخشوع حاصل من معرفة الله

وأصل الخشوع الحاصل فى القلب ، إنما هو من معرفة الله ، ومعرفة عظمته وجلاله وكماله ، فمن كان بالله أعرف ، فهو له أخشع .

ويتفاوت الخشوع فى القلوب بحسب **تفاوت** معرفتها لمن خشعت له ، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع . فمن خاشع لقوة مطالعته لقرب الله من عبده ، واطلاعه على سره وضميره ، المقتضى للاستحياء من الله — تعالى — ، ومراقبته فى الحركات والسكنات .

ومن خاشع لمطالعته لكماله وجماله المقتضى للاستغراق فى محبته والشوق إلى لقائه ورؤيته .

ومن خاشع لمطالعته شدة بطشه وانتقامه وعقابه المقتضى للخوف منه .

وهو — سبحانه وتعالى — يتقرب ممن يناجيه فى الصلاة ويعفر وجهه فى التراب بالسجود ، كما يتقرب من عباده الداعين له ، السائلين له ، المستغفرين من ذنوبهم بالأسحار ، ويجيب دعاءهم ، ويعطيهم سؤلهم ، ولا جبر لانكسار العبد أعظم من القرب والاجابة .

الخشوع هو العلم النافع وهو أول ما يرفع من العلم

فخرج النسائى بسنده عن عوف بن مالك — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ نظر إلى السماء يوماً ، فقال : « هذا اوان يرفع فيه العلم ، فقال رجل من الأنصار يقال له زياد بن لبيد : يا رسول الله ، أو يرفع العلم وقد أثبت ووعته القلوب ؟ فقال له رسول الله — ﷺ — : « أن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة ، وذكر ضلال اليهود والنصارى على ما فى أيديهم من كتاب الله — عز وجل — » ، قال : « فلقيت شداد بن أوس فحدثته بحديث عوف بن مالك فقال : صدق عوف ،

الا اخبرك بأول ذلك يرفع ؟ قلت : بلى ، قال : الخشوع ، حتى لا ترى خاشعاً » (وخرجه الحاكم بنحوه وصححه واقره الذهبى)[1] .

فالعلم النافع : هو ما باشر القلوب فأوجب لها السكينة والخشية والإخبات لله والتواضع والانكسار ، وإذا لم يباشر القلب ذلك العلم وإنما كان على اللسان ، فهو حجة الله على ابن آدم يقوم على صاحبه وغيره كما قال ابن مسعود ــ رضى الله عنه ـ « إن أقواماً يقرأون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع فى القلب ، فرسخ فيه ، نفع صاحبه » .

وقال الحسن ــ رحمه الله ــ « العلم علمان : علم باللسان ، وعلم بالقلب : فعلم القلب هو العلم النافع ، وعلم اللسان حجة الله على ابن آدم » .

فأخبر النبى ــ ﷺ ــ أن العلم الذى عند أهل الكتاب من قبلنا موجود بأيديهم ولا ينتفعون بشىء منه ، لما فقدوا المقصود منه ، وهو وصوله إلى قلوبهم حتى يجدوا حلاوة الإيمان به ومنفعته بحصول الخشية والإنابة لقلوبهم وإنما هو على ألسنتهم تقام به الحجة عليهم .

ولهذا المعنى وصف الله ــ سبحانه ــ فى كتابه العلماء بالخشية كما قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[2] ، وقال : ﴿ **أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[3] ، وقوله تعالى ــ فى وصف هؤلاء الذين أوتوا العلم من قبلنا ــ : ﴿ **ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾[4] مدح لمن أوجب له سماع كتاب الله الخشوع فى قلبه .

وقال تعالى : ﴿ **فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين . الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾[5] ، ولين القلوب هو زوال غشاوتها لحدوث الخشوع فيها والرقة ، وقد قبح الله من لا يخشع قلبه لسماع كتاب الله وتدبره ، قال تعالى : ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب** ﴾[6] الآية . قال ابن مسعود رضى الله عنه « ما كان بين اسلامنا وبين أن عوقبنا بهذه الآية إلا أربع سنين »[7] اخرجه مسلم .

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب العلم » باب « هذا اوان يختلس العلم من الناس .. » الخ ج ١ ص ٩٨ ــ ٩٩ فقد ورد الحديث بلفظه عن جبير بن نظير ، ثم قال هذا صحيح وقد احتج الشيخان بجميع رواته ، والشاهد لذلك فيه شداد بن أوس فقد سمع جبير بن نظير الحديث منهما جميعاً ومن ثالث من الصحابة وهو أبو الدرداء .

(٢) **سورة فاطر من الآية ٢٨**

(٣) سورة الزمر من الآية ٩

(٤) سورة الاسراء من الآية ١٠٩

(٥) سورة الزمر من الآيتان ٢٢ ــ ٢٣

(٦) سورة الحديد من الآية ١٦

(٧) انظر صحيح مسلم « كتاب التفسير » باب فى قوله تعالى ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا ..** ﴾ الخ ج ٤ ص ٢٣١٩ حديث رقم ٢٤ / ٣٠٢٧ فقد ورد من رواية لابن مسعود .

وكان مالك بن دينار — رحمه الله تعالى — يقرأ هذه الآية ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ..** ﴾(١) الآية .

ثم يقول : « أقسم لكم لا يؤمن عبد بهذا القرآن إلا صدع قلبه » وروى عن الحسن — رحمه الله تعالى — قال : « يا ابن آدم إذا وسوس لك الشيطان بخطيئة ، أو حدثت بها نفسك فاذكر عند ذلك ما حمَّلك الله من كتابه مما لو حملته الجبال الرواسى لخشعت وتصدعت » أما سمعته يقول : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله — الآية . فإنما ضرب لك الأمثال لتتفكر فيها وتنزجر بها عن معاصى الله — عز وجل — ، وأنت يا ابن آدم أحق أن تخشع لذكر الله وما حملك من كتابه وآتاك من حكمه لأن عليك الحساب ولك الجنة أو النار .

وقد كان النبى — ﷺ — يستعيذ من قلب لا يخشع كما فى صحيح مسلم عن زيد بن أرقم : أن النبى — ﷺ — كان يقول : « اللهم انى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها »(٢) .

الخشوع فى الصلاة

وقد شرع الله — تعالى — لعباده من أنواع العبادات ما يظهر فيه خشوع الأبدان الناشىء عن خشوع القلب وذله وانكساره ، ومن أعظم ما يظهر فيه ذلك من العبادات الصلاة ، وقد مدح الله الخاشعين فيها لقوله : ﴿ **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون** ﴾(٣) ، قال سعيد بن جبير : يعنى متواضعين لا يعرف من عن يمينه ، ولا من عن شماله ، ولا يلتفت من الخشوع لله — عز وجل — وقال منصور عن مجاهد — رحمه الله — فى قوله — تعالى — : ﴿ **سيماهم فى وجوههم من أثر السجود** ﴾(٣) ، قال « الخشوع فى الصلاة » .

ومما يظهر فيه الخشوع والذل والانكسار من أفعال الصلاة :

— وضع اليدين إحداهما على الأخرى لله حال القيام . وقد روى عن الإمام أحمد — رضى الله تعالى — أنه سئل عن المراد بذلك فقال : « هو ذل بين يدى عزيز » قال على بن محمد المصرى الواعظ — رحمه الله — : « ما سمعت فى العلم بأحسن من هذا » .

وملاحظة هذا المعنى فى الصلاة ، يوجب للمصلى أن يتذكر وقوفه بين يدى الله — تعالى — للحساب .

كان ذو النون — رحمه الله — تعالى — يقول فى وصف العباد : « لو رأيت أحدهم وقد قام

---

(١) سورة الحشر من الآية ٢١

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » باب « التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل » ج ٤ ص ٢٠٨٨ فقد ورد الحديث رقم ٧٣ / ٢٧٢٢ من رواية لزيد بن أرقم وهو حديث طويل . هذا الحديد جزء منه .

(٣) سورة المؤمنون الآيتان ١ — ٢

(٤) سورة الفتح الآية ٢٩

إلى صلاته ، فلما وقف فى محرابه واستفتح كلام سيده ، خطر على قلبه أن ذلك المقام هو الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين ، فانخلع قلبه وذهل عقله » اخرجه أبو نعيم ــ رحمه الله ــ .

ومن ذلك إقباله على الله ــ عز وجل ــ وعدم التفاته إلى غيره وهو نوعان :

أحدهما : عدم التفات قلبه إلى غير ما هو مباح له ، وتفريغ القلب للرب ــ عز وجل ــ

وفى صحيح مسلم عن عمرو بن عبسة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال ــ فى فضل الوضوء وثوابه ــ : « ... فإن هو قام وصلى فحمد الله وأثنى عليه ومجده بالذى هو له أهل وفرغ قلبه لله إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه »[١] .

الثانى : عدم الالتفات بالنظر يميناً وشمالاً وقصر النظر على موضع السجود وهو من لوازم الخشوع للقلب وعدم التفاته .

وفى البخارى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ سألت النبى ــ ﷺ ــ عن الالتفات فى الصلاة ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد »[٢] .

وخرج الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ وأبو داود ــ رحمه الله ــ والنسائى ــ رحمه الله ــ من حديث أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « لا يزال الله مقبلاً على العبد فى صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت انصرف عنه »[٣] .

وقال عطاء ــ رحمه الله ــ : وبلغنا أن الرب ــ عز وجل ــ يقول « يا ابن آدم إلى من تلتفت ، أنا خير لك ممن تلتفت إليه » .

ومن ذلك الركوع : وهو ذل بظاهر الجسد وتمام الخضوع فى الركوع : أن يخضع القلب لله ، ويذل له فيتم بذلك خضوع العبد بباطنه وظاهره لله ــ عز وجل ــ ، ولهذا كان النبى ــ ﷺ ــ يقول فى ركوعه : « خشع لك سمعى ، وبصرى ، ومخى وعظمى ، وما استقلت به قدمى » إشارة إلى أن خشوعه فى ركوعه قد حصل بجميع جوارحه .

ومن ذلك السجود : وهو أعظم ما يظهر فيه ذل العبد لربه حيث جعل العبد أشرف أعضائه وأعزها عليه ، وأعلاها حقيقة أوضع ما يمكنه فيضعه فى التراب متعفراً ، ويتبع ذلك انكسار القلب وتواضعه ، وخشوعه لله ــ عز وجل ــ ، ولهذا كان جزاء المؤمن إذا فعل ذلك أن يقربه الله ــ عز

---

(١) انظر صحيح مسلم

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « الالتفات فى الصلاة » ج ١ ص ١٩١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعائشة .

وانظر سنن النسائى « كتاب السهو » باب التشديد فى الالتفات فى الصلاة فقد ورد الحديث عن عائشة مع اختلاف فى بعض الألفاظ .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ١٧٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر ولفظه : « لا يزال الله ــ عز وجل ــ مقبلا على العبد فى صلاته ما لم يلتفت فإذا صرف وجهه عنه انصرف عنه » ..

وانظر سنن النسائى « كتاب السهو » باب التشديد فى الالتفات فى الصلاة فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر بلفظ رواية البخارى .

وجل ـــ إليه ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، كما صح عن النبى ـــ ﷺ ـــ وقال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ واسجد واقترب ﴾(١) .

ومن تمام خشوع العبد لله عز وجل وتواضعه له فى ركوعه وسجوده أنه إذا ذل لربه بالركوع والسجود وصف ربه حينئذ بصفات العز والكبرياء والعظمة والعلو فكأنه يقول الذل والتواضع وصفى ، والعلو والعظمة والكبرياء وصفك .

ولهذا شرع للعبد فى ركوعه أن يقول : « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده « سبحان ربى الأعلى » . وكان النبى ـــ ﷺ ـــ يقول فى سجوده : « سبحان ذى الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة »(٢) (رواه أبو داود) .

وكان ﷺ يقول ـــ أيضا ـــ : « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين »(٤) (رواه مسلم ـــ كان يقول ـــ أيضا ـــ : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »(٣) ... أ . هـ .

فضل الصدقة

قوله تعالى : ﴿ إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ﴾ .

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أى : دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله لا يريدون جزاء ممن أعطوه ولا شكوراً . وإنما عطف بالفعل على الإسم ، لأن ذلك الإسم فى تقدير الفعل ، أى : إن الذين صدقوا وأقرضوا ﴿ يضاعف لهم ﴾ أى : يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ وهو الجنة .

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله إلا الطيب ، فان الله يتقبلها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلُوَّة حتى تكون مثل الجبل »(٤) اخرجه الشيخان . ومعنى عدل تمر : ما يساوى تمرة . ومعنى فلوه : بفتح الفاء وضمها وضم اللام . المهر من الخيل إذا بلغ سنة .

(١) سورة العلق من الآية ١٩

(٢) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح فى الصلاة » باب الدعاء فى السجود ج ٢ ص ٢٢٣ فقد ورد هذا الحديث من حديث طويل من رواية لعوف بن مالك .

(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح فى الصلاة » باب الدعاء فى السجود ج ٢ ص ٢٢٢ فقد ورد الحديث من رواية من محمد بن قسْلَمَة .

(٤) انظر سنن النسائى « كتاب الافتتاح فى الصلاة » باب الدعاء فى السجود ج ٢ ص ٢٢٢ فقد ورد الحديث من رواية عن محمد بن ابراهيم عن عائشة .

وفى حديث معاذ بن جبل قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « ألا أدلك على أبواب الخير » ؟ قلت : بلى يارسول الله ، قال : « الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » . اخرجه الترمذى مطولاً وقال : حسن صحيح[٢] .

ومن بين السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[٣] رواه البخارى ومسلم مطولا .

قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون . والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ أى : والذين أقروا بوحدانية الله وصدقوا رسله ، وآمنوا بما جاء وهم به من عند ربهم أولئك هم فى حكم الله بمنزلة الصديقين .

قال الامام مالك بن أنس بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرى الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل بينهم » قالوا : « يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال بلى ، والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك واللفظ لمسلم[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ أى : والذين استشهدوا فى سبيل الله لهم أجر جزيل ، ونور عظيم يسعى بين أيديهم ، وهم يتفاوتون فى ذلك بحسب ما كانوا فى الدار الدنيا من الأعمال .

والخلاصة — أن العاملين أقسام : فمنهم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون كما قال تعالى : ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً . ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً** ﴾[٥] .

قال ابن القيم : وعمال الآخرة على قسمين : منهم من يعمل على الأجر والثواب ، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة ، فهو ينافس غيره فى الوسيلة والمنزلة عند الله — تعالى — ويسابق إلى القرب

(١) انظر صحيح البخارى من كتاب التوحيد باب « وكالة عرشه على الماء .. » الخ ج ٩ ص ١٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

(٢) انظر سنن الترمذى — كتاب الايمان « باب ما جاء فى حرمة الصلاة » ج ٤ ص ١٢٤ حديث ٢٧٤٩ فقد ورد الحديث مطولا عن معاذ بن جبل . وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٣) وانظر صحيح البخارى « باب وجوب الزكاة » باب « الصدقة باليمين » ج ٢ ص ١٣٨ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة وفيه « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الزكاة » باب فضل « اخفاء الصدقة » ج ٢ ص ٧١٥ حديث ٩١ / ١٠٣١ فقد ورد الحديث مطولا من رواية لأبى هريرة وفيه « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله »

(٤) وانظر صحيح مسلم « كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها » باب « ترائى أهل الجنة .. الخ » ج ٤ ص ٢١٧٧ حديث رقم ١١ / ٢٨٣١ من رواية لأبى سعيد الخدرى بلفظه .

(٥) سورة النساء الآيتان ٦٩ — ٧٠

منه ، وقد ذكر الله ـــ تعالى ـــ النوعين فى سورة الحديد فى قول الله تعالى : ﴿ **إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم** ﴾ فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب ثم قال : ﴿ **والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فقيل : هذا عطف على الخبر من ﴿ **الذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ أخبر عنهم أن لهم أجراً وهو قوله : ﴿ **لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور : أنهم صديقون ، وشهداء . فهذه هى المرتبة والمنزلة قيل : ثم الكلام عند قوله تعالى ﴿ **الصديقون** ﴾ ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال : ﴿ **الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم** ﴾ فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان ، ثم المؤمنين الذين قد رسخ الايمان فى قلوبهم وامتلأوا منه فهم الصديقون وهم أهل العلم والعمل ، والأولون أهل البر والاحسان ، ولكن هؤلاء أكمل صديقية منهم . ثم ذكر الشهداء وأنه ـــ تعالى ـــ يجرى عليهم رزقهم ونورهم لأنهم لما بذلوا أنفسهم لله ـــ تعالى ـــ أثابهم الله ـــ تعالى ـــ عليها أن جعلهم أحياء عنده يرزقون فيجرى عليهم رزقهم ونورهم فهؤلاء السعداء ..

ولما ذكر السعداء ومآلهم أردف ذلك ذكر حال الأشقياء فقال تعالى : ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ أى : والذين كفروا بالله وكذبوا بحججه وبراهينه الدالة على وحدانيته وصدق رسله أولئك هم أصحاب النار خالدين فيها أبداً لا يفارقونها .

حقيقة الدنيا والعمل للباقية

﴿ اعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ
أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ
أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ
وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا

مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ
ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً
وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟
بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

معانى المفردات

﴿ **وتفاخر بينكم** ﴾ أى : بالأنساب والعظام البالية ، ﴿ **وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ أى : مباهاة بكثرة العدد والعُدَد ، ﴿ **غيث** ﴾ الغيث : المطر ، ﴿ **الكفار** ﴾ هنا الزراع ، ﴿ **يهيج** ﴾ أى : يبتدىء فى اليبس والجفاف بعد أن كان أخضر ناضراً ، ﴿ **حطاماً** ﴾ أى : هشيماً متكسراً من يبسه ، و ﴿ **الغرور** ﴾ الخديعة ، ﴿ **فى كتاب** ﴾ هو اللوح المحفوظ ، ﴿ **نبرأها** ﴾ أى : نخلقها ونوجدها ، ﴿ **تأسوا** ﴾ أى : تحزنوا ، ﴿ **ما فاتكم** ﴾ أى : من نعيم الدنيا ، ﴿ **ما آتاكم** ﴾ أى : ما أعطاكم ، ﴿ **مختال** ﴾ المختال : المتكبر بسبب فضيلة تراءت له من نفسه ، ﴿ **فخور** ﴾ الفخور : هو المباهى بالأشياء العارضة كالمال والجاه ، ﴿ **الميزان** ﴾ العدل ، ﴿ **بالقسط** ﴾ **بالحق** ، ﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ أى : خلقناه ، ﴿ **بأس** ﴾ البأس : القوة ، ﴿ **وليعلم الله** ﴾ أى : ليعلمه علم مشاهدة ووجود فى الخارج ، ﴿ **قفينا** ﴾ قفاه : اتبعه بعد أن مضى ، و ﴿ **الانجيل** ﴾ الكتاب الذى أنزل على عيسى وفيه شريعته ، ﴿ **ابتدعوها** ﴾ أى : استحدثوها ولم تكن فى دينهم ، ﴿ **ابتغاء رضوان الله** ﴾ أى : طلباً لرضاه ومحبته ، ﴿ **فما رعوها** ﴾ أى : ما حافظوا عليها ، ﴿ **كفلين** ﴾ الكفل : النصيب ، ﴿ **لئلا يعلم** ﴾ أى : لكى يعلم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بشر المؤمنين بالنور المقام يوم القيامة ، وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وذكر ثواب المتصدقين والمتصدقات — أردف ذلك وصف حال الدنيا وسرعة زوالها وتقضيها ، ثم حث على عمل ما يوصل إلى مغفرة الله ورضوانه ، ويمهد إلى الدخول فى جنات عرضها السموات والأرض ، أعدها لمن آمن به وبرسله فضلا منه ورحمة ، وبعد أن أبان أن متاع الدنيا زائل ، وأن ما فيها من خير أو شر لا يدوم — أردف ذلك تهوين المصايب على المؤمنين ، لكى لا يحزنوا على فائت ، ولا يفرحوا بما يصل إليهم من لذاتها الفانية . ثم بين أن المختالين الذين يبخلون بأموالهم على ذوى الحاجة والبائسين ويأمرون الناس بالبخل لا يجنن الا على أنفسهم ، والله غنى عنهم وهو المحمود على نعمه التى لا تدخل تحت حد . ثم ذكر سبحانه أنه أرسل الرسل بالبينات والمعجزات ، وأنه أنزل الميزان والحديد ، وأمر الخلق بأن يقوموا بنصرة رسله ثم ذكر أنه شرف نوحاً وابراهيم — عليهما السلام — بالرسالة ، ثم جعل فى ذريتهما النبوة والكتاب ثم ذكر النبى عيسى — عليه السلام — وشريعته وذكر غلو أهل الكتاب وأن أكثرهم فاسقون ، ثم ختم السورة بالحديث عن رحمته التى كتبها للذين يتقون ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ .

يقول تعالى — موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها — : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد** ﴾ أى : إنما حاصل أمرها عند أهلها ، هذا كما قال تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل**

المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾[١] ثم ضرب ـ تعالى ـ مثل الحياة فى أنها زهرة فانية ونعمة زائلة فقال : ﴿ **كمثل غيث** ﴾ وهو المطر الذى يأتى بعد قنوط الناس وقوله تعالى : ﴿ **أعجب الكفار نباته** ﴾ أى : يعجب الزارع نبات ذلك الزرع الذى نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار فإنهم أحرص شيء عليها وأميل الناس إليها وقوله : ﴿ **ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً** ﴾ أى : يهيج ذلك الزرع فتراه مصفراً بعد ما كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً بأن يصير يبساً متحطماً هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء وهكذا الانسان يكون كذلك فى أول عمره ، وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهى المنظر ، ثم انه يشرع فى الكهولة ، فتتغير طباعه ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشيء اليسير كما قال تعالى : ﴿ **الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾[٢] ، ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ورغب فيما فيها من الخير ، فقال تعالى : ﴿ **وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ أى : هى متاع فانٍ غارٌ لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أن لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ، وهى حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾[٣] وقال جل وعلا : ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾[٤] .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة فإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء »[٥] رواه مسلم .

وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يتبع الميت ثلاثة : فيرجع اثنان ويبقى معه واحد يتبعه أهله وماله وعمله : فيرجع أهله وماله ويبقى عمله »[٦] متفق عليه .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٤

(٢) سورة الروم الآية ٥٤

(٣) سورة لقمان الآية ٣٣

(٤) سورة العنكبوت الآية ٦٤

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار » (كتاب الرقاق) باب أكثر أهل الجنة الفقراء .. الخ ج ٤ ص ٢٠٩٨ حديث رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ من رواية لأبى سعيد الخدرى وزاد « فإن أول فتنة بنى اسرائيل كانت فى النساء » وفى حديث ابن باشر « لينظر كيف تعملون » .

(٦) انظر صحيح البخارى « كتاب الرقاق » باب « سكرات الموت » ج ٨ ص ١٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأنس ابن مالك .

وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد ، « ألا كل شىء ما خلا الله باطل »(١) ، متفق عليه .

إن لله عبـــاداً فطنـــاً طلقـــوا الدنيـــا وخافـــوا الفتنـــا
نظـــروا فيها فلمـــا علمـــوا أنها لـــيست لحي وطنـــاً
جعلوهـــــا لجة واتخذوا صالح الأعمـــال فيها سفنـــا

قوله تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

لما أبان ــ سبحانه ــ أن الآخرة قريبة ، وفيها العذاب الأليم ، والنعيم المقيم ــ حث على المبادرة إلى فعل الخيرات ــ فقال : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ أى : سابقوا إلى سبب المغفرة وهو الإيمان وعمل الطاعات وسارعوا إلى جنة واسعة فسيحة ، عرضها كعرض السموات السبع مع الأرض مجتمعة . قال السدى : إن الله ــ تعالى ــ شبه عرض الجنة بعرض السموات السبع والأرضين السبع ، ولا شك أن طولها أزيد من عرضها ، فذكر العرض تنويها على أن طولها أضعاف ذلك ، وقوله : ﴿ **أعدت للذين آمنوا بالله ورسله** ﴾ أى : هيأها الله وأعدها للمؤمنين المصدقين بالله ورسله ﴿ **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء** ﴾ أى : ذلك الموعود به من المغفرة والجنة هو عطاء الله الواسع ، يتفضل به على من يشاء من عباده من غير إيجاب ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ أى : ذو العطاء الواسع والإحسان الجليل ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ۝ الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ۝ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ۝ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين** ﴾(٢) .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الرقاق » باب الجنة إلى أحدكم من شراك فعله والنار مثل ذلك ج ٨ ص ١٢٧ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

(٢) سورة آل عمران الآيات ٣٣ ــ ١٣٦

وكقوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم ۞ على الأرائك ينظرون ۞ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ۞ يسقون من رحيق مختوم ۞ ختامه مسك ۞ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ۞ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ۞ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ .

أى : ما يحدث فى الأرض من مصيبة من المصائب كقحط ، وزلزلة ، وغيره ﴿ **ولا فى أنفسكم** ﴾ أى : من الأمراض ، والأوصاب ، والفقر ، وذهاب الأولاد ، ﴿ **إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها** ﴾ أى : إلا وهى مكتوبة فى اللوح المحفوظ من قبل أن نخلقها ونوجدها ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أى : إن إثبات ذلك على كثرته سهل هين على الله — عز وجل — وإن كان عسيراً على العباد ثم بين تعالى لنا الحكمة فى إعلامنا عن كون هذه الأشياء واقعة بالقضاء والقدر ، فقال تعالى : ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ أى : أعلمناكم بتقديم علمنا وسبق كتابنا للأشياء قبل كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم ، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم فلا تأسوا على ما فاتكم لأنه لو قدر شيء لكان ، ﴿ **ولا تفرحوا بما آتاكم** ﴾ أى : جاءكم ، وتفسير آتاكم أى : أعطاكم وكلاهما متلازم أى : لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم ، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدكم وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ أى : مختال فى نفسه متكبر فخور أى : على غيره . قال عكرمة ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن ولكن اجعلوا الفرح شكراً ، والحزن صبراً . ثم قال تعالى : ﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل** ﴾ أى : يفعلون المنكر ويحضون الناس عليه (**ومن يتول**) أى : عن أمر الله وطاعته ﴿ **فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ كما قال موسى — عليه السلام — لقوله ﴿ **إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد** ﴾(٢) ، وكما قال رب العزة : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد** ﴾(٣) ، فإنه سبحانه لم يخلقنا ليستكثر بنا من قلة أو ليستأنس بنا من وحشة ولكنه سبحانه خلقنا بمحض جوده وكرمه وفضله ومنته ، ولو أن البشر جميعاً مذ خلقوا إلى أن تمهد لهم على ظهر الأرض حركة كفروا بالله ونسوه ما خدش ذلك شيئاً من جلاله ولا نقص ذرة من سلطانه ، ولا كف شعاعاً من ضيائه ، ولا غض بريقاً من

---

(١) سورة المطففين الآيات ٢٢ — ٢٦
(٢) سورة ابراهيم الآية ٨
(٣) سورة فاطر الآية ١٥

كبريائه ، فإنه — سبحانه وتعالى — أغنى بحوله وطوله وأعظم بذاته وصفاته من أن ينال منه وهم واهم أو جهل جاهل ﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز** ﴾

يقول تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات** ﴾ أى : بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ، ﴿ **وأنزلنا معهم الكتاب** ﴾ وهى كتب الشرائع التى فيها هداية البشر وصلاحهم فى دينهم ودنياهم ﴿ **والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ وأمرناهم بالعدل ليعملوا به فيما بينهم ، ولا يظلم بعضهم بعضا .

وقوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾ أى : وخلقنا الحديد لتكون منه السيوف والرماح والدروع والسفن البحري وما أشبه ذلك وفيها القوة التى ترغم أنف الظالم ، وتحمى المظلوم ، وفيه كذلك منافع للناس فى حاجاتهم فى معايشهم كأدوات الصناعات وحاجات البيوت وقطر السكك الحديدية ونحوها .

وقوله : ﴿ **وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب** ﴾ أى : وإنما فعل ذلك ليراكم ناصرى دينه باستعمال السلاح والكراع لمجاهدة أعدائه وناصرى رسله وهم غائبون عنكم لا يبصرونكم . وقوله ﴿ **إن الله قوى عزيز** ﴾ أى : إن الله يدفع بقوته بأس من يعرض عن ملته ، وهو غالب على أمره ، لا يقدر أحد على دفع العقوبة متى أحلها بأحد من خلقه .

قال ابن كثير : فى قوله ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد** ﴾ أى : وجعلنا الحديد رادعا لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله — ﷺ — بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية وكلها جدال مع المشركين وبيان وإيضاح للتوحيد وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف وضرب الرقاب والهام لمن خالف القرآن وكذب به وعانده . وقد روى الامام أحمد بسنده عن ابن عمر — رضى الله عنهما —

---

(١) سورة الجاثية الآيتان ٣٦ — ٣٧

قال : قال رسول الله — ﷺ — : « بعثت بالسيف بين يدى الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم »[١] .

أهمية الحديد ودخوله فى كل اختراع

قال الاستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى رحمه الله فى كتابه الاسلام فى عصر العلم ما نصه : وقد صرح به القرآن وخصه بالذكر لأهميته البالغة فى حياة الإنسان فى سورة سميت باسمه ، وذلك فى قوله من سورة الحديد ﴿ **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** ﴾ الآية ، وفى قوله : ﴿ **وأنزلنا الحديد** ﴾ معجزة قرآنية علمية ، لأن التحليل الطيفى قد أثبت أن الحديد عنصر من عناصر النجوم والشمس التى انفصلت عنها الأرض إنفصالا أشار إليه القرآن فى سورة الأنبياء بقوله : ﴿ **أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما** .. ﴾[٢] الآية ، فكأن الله — سبحانه وتعالى — أنزل الحديد من الشمس مع الأرض لينتفع به الإنسان فى اختراعاته كما ينتفع به فى دمه . وهاتان الآيتان الكريمتان كل منهما مثل عجيب من أمثلة الإعجاز العلمى للقرآن .

والحديد وغيره من العناصر يستخرج من خاماته بواسطة النار ، أو ما تتحول حرارتها إليه من طاقة كهربائية مثلاً . وإلى هذا الجانب أشار القرآن إشارة عجيبة فى مغزاها ووضوحها ، وذلك فى قوله من سورة الرعد ﴿ **ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله** .. ﴾[٣] الآية .. وفى هذه الآية الكريمة إشارة أحاطت بفن التعدين الذى هو أساس كل اختراع ..

وليست هذه هى الإشارة الواحدة التى تشمل استعمال الإنسان النار فى اختراعاته ، فهناك على الأقل اشارتان أخريان ، إحداهما صريحة ، والأخرى ضمنية . أما الصريحة : ففى قصة السد وابتناء ذى القرنين إياه ﴿ **آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال**

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .
(٢) سورة الأنبياء الآية ٣٠
(٣) سورة الرعد الآية ١٧

آتونى أفرغ عليه قطراً . فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ﴾(١) الكهف ، وفى هاتين الآيتين اشارة إلى جانب آخر من أهم جوانب التعدين من ناحية ، والاختراعات من ناحية أخرى ، فإن الحديد النقى ليس فى قوة بعض سبائكه ، فأنواع الفولاذ كلها هى من سبيك الحديد مع قليل من الكربون أو غيره كالمنجنيز . وفى الآية اشارة إلى باب السبائك كلها بذكر مثل منها مثل سبك الحديد والنحاس معاً ، إذا القطر هو النحاس .

اما الاشارة الأخرى الضمنية ففى قوله ــ تعالى ــ تذكيراً بنعمه على سيدنا داوود : ﴿ وألنا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدر فى السرد ﴾(٢) الآية وإذا كان الله ــ سبحانه ــ آلان الحديد لنبيه داوود معجزة بغير نار ، ففى الآية الكريمة تعليم ضمنى لغير داود أن يلين الحديد بالنار ، حتى يستطيع أن ينتفع به فى اختراعاته المضروب لها هنا المثل بعمل الدروع السابقة ، والمضروب للتقدير الضرورى فيها المثل بالتقدير فى السرد الذى أمر الله به نبيه داوود ، وذكره فى القرآن تعليماً وتنبيهاً للإنسان إلى ما ينبغى عليه فى كل اختراع . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ .

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً ــ عليه السلام ــ لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته وكذلك ابراهيم ــ عليه السلام ــ خليل الرحمن ، كما قال تعالى فى الآية الأخرى ﴿ وجعلنا فى ذريتهم النبوة والكتاب ﴾(٣) ، ثم بين سبحانه أن هذه الذرية افترقت فرقتين فقال : ﴿ فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون ﴾ أى : فمن ذريتهما مهتد إلى الحق مستبصر ، وكثير منهم ضلال خارجون عن طاعة الله ذاهبون إلى طاعة الشيطان . كما حكى سبحانه عن ابراهيم : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾(٤) .

قوله تعالى : ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل ﴾ . أى : ثم بعثنا بعدهم رسولاً بعد رسول على توالى العصور والأيام . ثم خص من أولئك الرسل عيسى لشهرة

---

(١) سورة الكهف الآيتان ٩٧
(٢) سورة سبأ الآيتان ١٠ ــ ١١
(٣) سورة الحديد الآية ٢٦
(٤) سورة الصافات الآية ١١٣

شريعته فى عصر التنزيل ولوجود أتباعه فى جزيرة العرب وغيرها فقال ﴿ **وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل** ﴾ أى : وأعطيناه الانجيل الذى أوحيناه إليه ، وفيه شريعته ووصاياه ، وقد جاء مكملاً لما فى التوارة ومخففاً بعض أحكامها التى شرعت تغليظاً على بنى اسرائيل ، لنقضهم العهد والميثاق .

وقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه** ﴾ وهم الحواريون ﴿ **رأفة** ﴾ أى : رقة وهى الخشية ﴿ **ورحمة** ﴾ بالخلق .

وقوله تعالى : ﴿ **ورهبانية ابتدعوها** ﴾ أى : ابتدعها أمة النصارى ﴿ **ما كتبناها عليهم** ﴾ أى : ما شرعناها لهم ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم . وقوله تعالى : ﴿ **إلا ابتغاء رضوان الله** ﴾ قال ابن كثير : فيه قولان : (احدهما) انهم قصدوا بذلك رضوان الله ، قاله سعيد بن جبير وقتادة . (والآخر) ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى : ﴿ **فما رعوها حق رعايتها** ﴾ أى : فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين :

(احدهما) الابتداع فى دين الله ما لم يأمر به الله .

(الثانى) فى عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله — عز وجل — .

وقوله تعالى : ﴿ **فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون** ﴾ أى : فآتينا الذين آمنوا منهم إيماناً صحيحاً أجورهم التى استحقوها كفاء أعمالهم ، ﴿ **وكثير منهم فاسقون** ﴾ وكثير منهم فسقوا عن أمر الله واجترحوا الشرور والآثام وظهر فسادهم فى البر والبحر بما كسبت أيديهم ، فكبكبوا فى النار ، وباءوا بغضب من الله ، ولهم عذاب عظيم .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله** ﴾ أى : يا من صدقتم بالله اتقوا الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وداوموا واثبتوا على الإيمان بالله ورسوله ﴿ **يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ أى : يعطيكم

ضعفين من رحمته ﴿ **ويجعل لكم نوراً تمشون به** ﴾ أى : ويجعل لكم نوراً تمشون به فى الدنيا ، والآخرة على الصراط ، ﴿ **ويغفر لكم** ﴾ أى : ويغفر لكم ما أسلفتم من المعاصى ، ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى : عظيم المغفرة واسع الرحمة . كما قال سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم** ﴾(١) .

وكقوله تعالى : ﴿ **أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون** ﴾(٢) .

قال ابن القيم فى هذه الآية الكريمة : وفيه أن أهل النور هم أهل المشى فى الناس ، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع . فلا مشى لقلوبهم ، ولا لأحوالهم ، ولا لأقوالهم ، ولا لأقدامهم إلى الطاعات . وكذلك لا تمشى على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم .

وفى قوله : « تمشون به » نكتة بديعة ، وهى : « أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم ، كما يمشون بها بين الناس فى الدنيا ، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط ، فلا يستطيع المشى أحوج ما يكون إليه » أ هـ .

وفى الصحيح عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أن النبى — ﷺ — خرج إلى الصلاة بعد سماع الأذان وهو يقول : « اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى لسانى نوراً واجعل فى سمعى نوراً واجعل فى بصرى نوراً ، واجعل من خلفى نوراً ، ومن أمامى نوراً ، اللهم أعطنى نوراً »(٣) .

وقوله تعالى : ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال من الآية ٢٩

(٢) سورة الأنعام الآية ١٢٢

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقفرها » باب « الدعاء فى صلاة الليل وقيامه » ج ١ ص ٥٢٥ حديث رقم ١٨١ / ٧٦٣ عن رواية لابن عباس فقد ورد الحديث مطولا وهذا جزء منه . ولفظه « اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوق نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، وعظمّ لى نوراً » .
وانظر صحيح البخارى « كتاب الدعوات » باب « الدعاء إذا انتبه من الليل » ج ٨ ص ٨٦ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مطولا وفيه .. « اللهم اجعل فى قلبى نوراً ، وفى بصرى نوراً ، وفى سمعى نوراً ، وعن يمينى نوراً ، وعن يسارى نوراً ، وفوق نوراً ، وتحتى نوراً ، وأمامى نوراً ، وخلفى نوراً ، واجعل لى نوراً » .

روى الأمام احمد فى مسنده عن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله — ﷺ — « مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً فقال من يعمل لى من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت اليهود ، ثم قال من يعمل لى من صلاة الظهر إلى صلاة العصر على قيراط قيراط ؟ ألا فعملت النصارى ، ثم قال من يعمل لى من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين ؟ ألا فأنتم الذين عملتم ، فغضبت النصارى واليهود وقالوا نحن أكثر عملاً وأقل عطاء قال هل ظلمتكم من أجركم شيئاً ؟ قالوا لا ، قال فإنما هو فضلى أوتيه من أشاء »[١] .

قال قتادة : حسد أهل الكتاب المسلمين فنزلت ﴿ **لئلا يعلم أهل الكتاب** ﴾ أى : لأن يعلم أهل الكتاب أنهم ﴿ **لا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله** ﴾ ليس بأيديهم فيصرفون النبوة عن محمد — ﷺ — إلى من يحبون . ﴿ **يؤتيه من يشاء** ﴾ ، وفى البخارى أن **عبد الله** بن عمر قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول — وهو قائم على المنبر — : « إنما بقاؤكم فيما سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس أعطى أهل التوارة التوارة فعملوا بها حتى انتصف النهار ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطى أهل الانجيل الانجيل فعملوا إلى صلاة العصر ثم عجزوا فأعطوا قيراطاً قيراطاً ، ثم أعطيتم القرآن فعملتم به حتى غربت الشمس فأعطيتم قيراطين قيراطين . قال أهل التوارة : ربنا ، هؤلاء أقل عملاً وأكثر أجراً قال : هل ظلمتكم من أجركم من شىء قالوا : لا . فقال فذلك فضلى أوتيه من آشاء »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **والله ذو الفضل العظيم** ﴾ أى : والله واسع الفضل كثير العطاء . كما قال سبحانه : ﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾[٣] .

لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون . (من أدعية الرسول الكريم ﷺ صحيح مسلم ﴾

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٦ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عمر .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصلاة » باب « مواقيت الصلاة وفضلها » باب من أدرك ركعة من العصر ج ١ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث من رواية لسالم بن عبد الله عن أبيه مع اختلاف فى بعض جمله وإن اتفقت معانيه .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ٧٣ — ٧٤ .

سورة المجادلة

قال صاحب البصائر : بصيرة فى قد سمع .

السورة مدنية بالاتفاق ، آياتها ثنتان وعشرون عند الجمهور ، واحدى وعشرون عند المكيين ، وكلماتها أربعمائة وثلاث وسبعون ، وحروفها ألف وسبعمائة واثنتان وتسعون .

وسميت سورة المجادلة ، لقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **تجادلك فى زوجها** ﴾ .

معظم مقصود السورة

بيان حكم الظهار ، وذكر النجوى والسرار ، والأمر بالتوسع فى المجالس ، وبيان فضل أهل العلم ، والشكاية من المنافقين ، والفرق بين حزب الرحمن وحزب الشيطان ، والحكم على بعض بالفلاح ، وعلى بعض بالخسران ، فى قوله : ﴿ **هم الخاسرون** ﴾ ، ﴿ **هم المفلحون** ﴾ .

المتشـــابهات

﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم** ﴾ وبعده : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم** ﴾ . لأن الأول خطاب للعرب ، وكان طلاقهم فى الجاهلية الظهار ، فقيده بقوله : ﴿ **منكم** ﴾ ، وبقوله : ﴿ **وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً** ﴾ ، ثم بين أحكام الظهار للناس عامة ، فعطف عليه فقال : ﴿ **والذين يظاهرون** ﴾ ، فجاء فى كل آية ما اقتضاه معناه .

قوله : ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾، وبعده : ﴿ **وللكافرين عذاب مهين** ﴾ ، لأن الأول متصل بضده ، وهو الإيمان فتوعدهم على الكفر بالعذاب الأليم الذى هو جزاء الكافرين ، والثانى متصل بقوله : ﴿ **كبتوا** ﴾ وهو الإذلال والإهانة ، فوصف العذاب بمثل ذلك فقال : ﴿ **مهين** ﴾ .

قوله : ﴿ **جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾ بالفاء ، لما فيه من التعقيب ، اى : فبئس المصير ما صاروا إليه وهو جهنم .

قوله : ﴿ **من الله شيئاً أولئك** ﴾ بغير الواو ، موافقة للجمل التى قبلها ، وموافقة لقوله : ﴿ **أولئك حزب الله** ﴾ .

وجه اتصالها بما قبلها

(١) أن الأولى ختمت بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من هذا الواوى .

(٢) أنه ذكر فى مطلع الأولى صفاته الجليلة ومنها الظاهر والباطن ، وذكر فى مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التى شكت إليه ـــ تعالى ـــ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ
سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي
وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ
مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ
فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ
أَلِيمٌ (٤) ﴾

معانى المفردات

﴿ **سمع** ﴾ أى : أجاب وقبل ، كما يقال : سمع الله لمن حمده ، ﴿ **التى تجادلك فى زوجها** ﴾ هى خَوْلة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أى : تراجعك الكلام فى أمره وفيما صدر منه فى شأنها ﴿ **وتشتكى إلى الله** ﴾ أى : تبث إليه ما انطوت عليه نفسها من غم وهم وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت ، أخو عبادة بن الصامت ، ﴿ **يسمع** ﴾ السمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها الله ــ تعالى ــ لنفسه . ﴿ **تحاوركما** ﴾ التحاور : المرادّة فى الكلام ، والكلام المردد ، كما يقال : كلمته فما رجع إلى حواراً : أى : ما ردّ علىّ بشىء ، ﴿ **يظاهرون** ﴾ الظهار : لغة من ظاهر ، ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال : ظاهر فلان فلاناً : أى نصره . وظاهر بين ثوبين : أى : لبس أحدهما فوق الآخر ، وظاهر من امرأته : أى : قال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، أى : محرمة ، وقد كان هذا أشد طلاق فى الجاهلية ، والظهار شرعاً : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسباً أو رضاعاً أو مصاهرة بقصد التحريم لا بقصد الكرامة ، ولهذا المعنى نزلت الآية : ﴿ **إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم** ﴾ : أى : ما أمهاتهم ﴿ **منكراً** ﴾ والمنكر : ما ينكره الشرع والعقل والطبع ، ﴿ **زوراً** ﴾ أى : كذباً ، ﴿ **فتحرير رقبة** ﴾ أى : عتق عبد أو جارية ، ﴿ **أن يتماسا** ﴾ أى : أن يجتمعا اجتماع الأزواج ، ﴿ **متتابعين** ﴾ أى : متواليين ، ﴿ **فمن لم يستطع** ﴾ أى : من لم يقدر على ذلك لكبر سن أو ضعف أو شبق إلى النساء ، ﴿ **حدود الله** ﴾ أى : أحكام شريعته ، ﴿ **وللكافرين** ﴾ أى : وللذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

سبب النزول وإجمال المعنى

روى أن هذه الآيات الأربع نزلت فى خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت . ومن حديث ذلك : أن أوساً كان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، فدخل على خولة يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال لها : أنت علىّ كظهر أمي [وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه] ، وكان هذا أول ظهار فى الاسلام ، فندم لساعته ، فدعاها [طلب ملامستها] فأبت ، وقالت : والذى نفسى بيده لا تصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ، فأتت الرسول ـــ ﷺ ـــ فقالت : يا رسول الله ، إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلاسنى ، ونثرت بطنى (كثر ولدى) جعلنى عليه كأمه إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة تنعشنى بها وإياه فحدثنى بها ، فقال ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ والله ما أمرت فى شأنك بشيء حتى الآن ، وفى رواية : ما أراك إلا قد حرمت ، قالت : ما ذكر طلاقاً ، وجادلت رسول الله ـــ ﷺ ـــ مراراً ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى وما يشق على من فراقه ، وفى رواية أنها قالت : أشكو إلى الله فاقتى وشدة حالى ، وإن لى صبية صغاراً إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : يا خولة أبشرى ، قالت : خيراً ، فقرأ عليها : ﴿ قد سمع الله ﴾ الآيات[1] .

روى البخارى فى تاريخه : أنها استوقفت عمر يوماً فوقف ، فأغلظت له القول ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين ، ما رأيت كاليوم ، فقال ـــ رضى الله عنه ـــ : وما يمنعنى أن أستمع إليها وهى التى استمع الله لها ، فأنزل فيها ما أنزل . (قد سمع الله) الآيات .

والشارع اعتبر الظهار يميناً ، وأوجب فيها الكفارة عند إرادة الملامسة بأحد أمور ثلاثة على الترتيب الآتى :

(١) تحرير رقبة (عتق عبد أو جارية) .

(٢) صيام شهرين متواليين إن لم يجد ما يعتقه .

(٣) إطعام ستين مسكيناً إن لم يستطع الصوم لكبر أو مرض لا يرجى زواله ، لكل مسكين نصف صاع من بر (رطل وثلث) أو صاع من تمر أو شعير .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ .

---

(١) انظر تفسير الطبرى ج ٢٨ ، ص ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ تفسير سورة المجادلة فقد وردت فيها روايات متعددة فى أسباب النزول .

روى الامام أحمد — رضى الله عنه — بسنده عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبى — ﷺ — تكلمه وأنا فى ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله — عز وجل — ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾[1] إلى آخر الآية .

وفى رواية لابن أبى حاتم بسنده عن عائشة قالت : تبارك الذى أوعى سمعه كل شيء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله — ﷺ — وهى تقول : يا رسول الله : أكل مالى وأفنى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى وانقطع بطنى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك قالت فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآية : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾ . قالت وزوجها أوس بن الصامت[2] .

وقال ابن لهيعة : عن أبى الأسود : عن عروة : عن أوس بن الصامت وكان أوس امرءاً به لمم ، فكان إذا أخذه لممه واشتد به يظاهر من امرأته وإذا ذهب لم يقل شيئاً ، فأتت رسول الله — ﷺ — تستفتيه فى ذلك ، وتشتكى إلى الله فأنزل الله : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله** ﴾ الآية .

قوله تعالى : ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾ .

روى الامام أحمد بسنده عن **خولة بنت ثعلبة** قالت : فىّ والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علىّ يوماً فراجعته بشيء فغضب . فقال : أنت علىّ كظهر أمى . قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل على فإذا هو يريدنى عن نفسى . قالت : قلت : كلا والذى نفس خولة بيده لا تخلص إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثبنى فامتنعت منه . فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف فألقيته عنى ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى فاستعرت منها ثيابا ثم

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « المقدمة » ج ١ ص ٦٧ حديث رقم ١٨٨ عن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات . لقد جاءت المجادلة إلى النبى — ﷺ — وأنا فى ناحية البيت تشكو زوجها ، وما اسمع ما تقول ، فأنزل الله : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** .. ﴾ وانظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب « الظهار » ج ١ ص ٦٦٦ فقد ورد الحديث رقم ٢٠٦٣ عن عروة بن الزبير قال : قالت عائشة : تبارك الذى وسع سمعه كل شيء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله — ﷺ — وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى ، وانقطع ولدى ، ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها**

خرجت حتى جئت إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه .

قالت فجعل رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » قالت : فو الله ما برحت حتى نزل فىّ قرآن ، فتغشى رسول الله ــ ﷺ ــ ما كان يتغشاه ثم سرى عنه فقال لى : « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآناً ــ ثم قرأ على ــ ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ قالت : فقال لى رسول الله ــ ﷺ ــ : « مريه فليعتق رقبة » قالت : فقلت يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين » . قال : فقلت والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام فقال : « فليطعم ستين مسكيناً وسقا من تمر » قالت : فقلت والله يا رسول الله ماذاك عنده . قالت : فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « فإنا سنعينه بفرق من تمر » قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بفرق آخر قال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبى فتصدق به عنه ثم استوصى بابن عمك خيراً » قالت : ففعلت[1] .

قوله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ أصل الظهار : مشتق من الظهر وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علىّ كظهر أمى . ثم فى الشرع كان الظهار فى سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيها كفارة ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه فى جاهليتهم . هكذا قال غير واحد من السلف . قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية أنت على كظهر أمى حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر فى الإسلام أوس ، وكان تحته ابنة عم له يقال لها : خولة بنت ثعلبة ، فظاهر منها فأسقط فى يديه . وقال : ما أراك إلا قد حرمت على وقالت له مثل ذلك . قال : فانطلقى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فأتت رسول الله ــ ﷺ ــ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال : « يا خويلة » ما أمرنا فى أمرك بشىء ، فأنزل الله على رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : « يا خويلة أبشرى » قالت : خيراً ، فقرأ عليها : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما ﴾ ــ إلى قوله تعالى ــ ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ﴾ قالت : وأى رقبة لنا والله ما يجد رقبة غيرى فقال : ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب فى اليوم ثلاث مرات لذهب بصره قال : ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ . قالت : من أين ما هى إلا أكلة إلى مثلها ، قال : فدعا بشطر وسق ثلاثين صاعاً والوسق ستون صاعاً فقال : ليطعم ستين مسكيناً وليراجعك . وهذا إسناد جيد قوى[2] .

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ فقد ورد الحديث بلفظه عن خولة بنت ثعلبة .

(٢) انظر سنن البيهقى « كتاب الظهار » ج ٧ ص ٣٧٢ باب سبب نزول آية الظهار فقد ورد الحديث عن رواية لابن عباس .

وقد روى أهل السنن من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إنى ظاهرت من امرأتى فوقعت عليها قبل أن أكفر . فقال : « ما حملك على ذلك يرحمك الله » قال رأيت خلخالها فى ضوء القمر . قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله ــ عز وجل ــ وقال الترمذى حسن غريب صحيح .

قوله تعالى : ﴿ **فتحرير رقبة** ﴾ أى : فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالإيمان ، وفى كفارة القتل مقيدة بالإيمان . فحمل الشافعى ــ رحمه الله ــ ما أطلق ههنا على ما قيد هناك لاتحاد الموجب وهو عتق الرقبة ، واعتضد فى ذلك بما رواه عن مالك بسنده عن معاوية بن الحكم السلمى فى قصة الجارية السوداء وأن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « اعتقها فإنها مؤمنة » وقد رواه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه . وقال الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن ابن عباس قال : أتى رجل رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : إنى ظاهرت من امرأتى ثم وقعت عليها قبل أن أكفر ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « ألم يقل الله ــ تعالى ــ ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ قال : أعجبتنى . قال : « أمسك حتى تكفر » .

قوله تعالى : ﴿ **ذلكم توعظون به** ﴾ أى : تزجرون به ﴿ **والله بما تعملون خبير** ﴾ أى : خبير بما يصلحكم عليم بأحوالكم . فهو ــ سبحانه ــ يريد بكم أن تسلكوا طريق الهدى والرشاد ، والعفاف والسداد ، ويهديكم سنن الذين من قبلكم ، ويتوب عليكم والله عليم حكيم .

الإسلام محرر العبيد

تأخذك الدهشة ويستولى عليك العجب ، وأنت تقرأ قوله ــ عز وجل ــ : ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا** ﴾ بعد قوله ــ تعالى ــ: ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا** ﴾ فما سر التعبير بقوله ــ جل شأنه ــ : ﴿ **فمن لم يجد ولماذا لم يقل** : ﴿ **فمن لم يستطع** ﴾ كما قال فى شأن الصيام . ذلك الأمر . لحكمة بالغة لا يدركها إلا ذوو الألباب الباصرة ، وأولو الأفئدة المستنيرة فإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يعلم أنه سيأتى اليوم الذى يحرر الاسلام فيه العبيد بحيث لا يجد من أراد الكفارة عبداً يعتقه ، أو أمة يطلق سراحها . وقد تحقق العلم الإلهى القديم المحيط الشامل فحرر الإسلام العبيد ، وأعطى لكل إنسان حقه فى الحرية والعزة والكرامة .

﴿ **لقد مَن الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين** ﴾[1] .

الإسلام هو الدين الذى حرر البشرية من الظلم وغمرها بعد له .. فما أشد حاجة البشرية إليه ؛ والإسلام هو الذى حرر المجتمع من الفساد ، وركز فيه سبل الإصلاح ، والإسلام هو الذى حرر العقل

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٤

من الجمود والتقليد ، وأفسح أمامه المجالات للنظر والتفكير . والإسلام هو الذى حرر العبيد من قيود الذل والاستعباد ، وجعل منهم سادة أقوياء .

لقد حاول أعداء الإسلام على كر العصور ومر الدهور أن يثيروا شبهات حول الاسلام ، فجعلوا من مسألة « الرق » ثغرة يحاولون النفوذ منها للطعن فى الإسلام والنيل منه ، بعد ما أعجزتهم الحيل ، فلم يجدوا فى الإسلام مغمزاً لطاعن أو طعنة لغامز ، ولو تدبر هؤلاء مسألة « الرق » لوجدوا أنها كانت من القضايا التى يعود الفضل كله للإسلام فى حلها ، بل هى مفخرة من مفاخر الاسلام .

يقول الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد ــ رحمه الله ــ فى كتابه (ما يقال عن الاسلام) : مسألة الرق فى الإسلام موضوع حملة من أقوى الحملات العصرية يتآمر عليها الذين لا يتفقون على شىء فيما عدا هذه الحملات ، وهم الماديون المنكرون للأديان ، وجماعات المبشرين الذين يحترفون صناعة الدعوة إلى هذا الدين أو ذاك ، ويتفق الماديون والمبشرون ، لأنهم يتجهون إلى وجهتين مهمتين عند هؤلاء وهؤلاء : أولاهما ــ نشر الدعوة بين شباب المسلمين الذين يسمعون بدعاية الديمقراطية وحقوق الانسان ، ويجهلون دينهم ، فيصدقون ما يقال فيهم عنه فى مسألة الرق ، ولا يعلمون به أنه الدين الوحيد الذى شرع للأرقاء شرعة لم يسبقه إليها دين من الأديان ، وأن الحضارة الغربية لم تدرك بعد شأو الاسلام فى إنصافه لجميع الأرقاء .

أما الوجهة الأخرى التى يتفق عليها الماديون والمبشرون ــ فهى غزو القارة الأفريقية بالدعاية المذهبية ، والتنفير من الاسلام فى هذه المرحلة الهامة من مراحل النهضة الأفريقية ، خوفاً من إقبال أبناء هذه القارة على الإسلام ، قياساً على نجاح الاسلام بين الأفريقيين فى الأزمنة القريبة ، مع قلة الجهود التى يبذلها المسلمون لنشر دينهم هناك ، وعظيم الجهود التى يبذلهاالمبشرون وتعاونهم عليها حكومات الدول الغربية . فالماديون والمبشرون يجتهدون ــ غاية الجهد ــ لنشر دعوتهم بإغراء المال والسياسة ووسائل التعليم والتطبيب ، ويعلمون أن الإسلام كفيل بإحباط مساعيهم إن لم يتداركوه بتشويه السمعة بين أبناء القارة الذين يعاشرون العرب ، ويشتركون معهم فى الموطن ومصالح المعيشة ، فيتوصلون إلى تشويه سمعة الإسلام والمسلمين بإعادة القول فى مسألة « النخاسة » ، وتلفيق الأكاذيب التى توهم الأفريقيين المتحررين أن العرب قد احتكروا « النخاسة » قديماً وحديثاً وهم ــ أى دعاة المادة والتبشير ــ أول من يعلم أن تاريخ النخاسة أنها كانت صناعة شركات أوروبية وأمريكية ، تعتمد على سماسرتها من غير العرب المسلمين ، ولكنه تاريخ مجهول عند أبناء الجيل الحاضر ممن تعلموا فى مدارس المبشرين .

أما الحقيقة التى تقابل هذه الدعاية المسموحة وينبغى أن تقابلها فى ميادينها الواسعة فهى واضحة ، قريبة المنال ، كفيلة بإقناع من يستمع إليها ، مسلماً كان أو غير مسلم ، ولكنه برىء من دواعى الغرض وسوء النية ، ولو امتلأت أذناه قبل ذلك بأكاذيب الماديين ومحترفى صناعة التبشير .

إن الأديان جميعاً ـ قبل الإسلام ـ أباحت الرق ، وألزمت الأرقاء طاعة سادتهم ، ومسخريهم فى خدمتهم وخدمة ذويهم ، واعتبره بعض الدعاة قضاء مبرماً يعاقب به الخالق من يعصونه من خلقه ، ويضلون عن سبيله . وجاء الإسلام فشَرع العتقَ ، و لم يشرع الرق : وقد ندب المسلمين إلى فك الاسار عن الأسرى ، فجعله فريضة من فرائض التكفير عن ذنوب كثيرة .

وقال ابن لهية حدثنى عطاء : عن سعيد بن جبير : (ثم يعودون لما قالوا) يعنى يريدون أن يعودوا فى الجماع الذى حرموه على أنفسهم ، وقال الحسن بن البصرى : يعنى الغشيان فى الفرج وكان لا يرى بأساً أن يغشى فيما دون الفرج قبل أن يكفر . وقال على بن أبى طلحة : عن ابن عباس : ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ والمس : النكاح ، وكذا قال عطاء والزهرى وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الزهرى ليس له أن يقبلها ولا يمسها حتى يكفر .

قال سعيد بن جبير : كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية ، فوقت الله الإيلاء أربعة أشهر وجعل فى الظهار الكفارة . وقد استدل الإمام مالك على أن الكافر لا يدخل فى هذه الآية بقوله منكم ، فالخطاب للمؤمنين . وأجاب الجمهور بأن هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ، واستدل الجمهور عليه بقوله : ﴿ **من نسائهم** ﴾ على أن الأمة لا ظهار منها ولا تدخل فى هذا الخطاب .

وقوله تعالى : ﴿ **ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم** ﴾ أى : لا تصير المرأة بقول الرجل : أنت على كأمى ، أو مثل أمى ، أو كظهر أمى ، وأما أشبه ذلك ، لا تصير أمه بذلك إنما أمه التى ولدته ولهذا قال تعالى : ﴿ **وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً** ﴾ أى : كلاماً فاحشاً باطلاً . ﴿ **وإن الله لعفو غفور** ﴾ أى : عما كان منكم فى حال الجاهلية ـ وهكذا ـ أيضاً ـ عما خرج من سبق اللسان ولم يقصد إليه المتكلم كما رواه **أبو داود أن رسول الله** ـ ﷺ ـ سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أختى ، فقال : « أختك هى ؟ »[1] فهذا إنكار ولكن لم يحرمها عليه بمجرد ذلك لأنه لم يقصده ولو قصده لحرمت عليه لأنه لا فرق على الصحيح بين الأم وبين غيرها من سائر المحارم من أخت وعمة وخالة وما أشبه ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا** ﴾ اختلف السلف والأئمة فى المراد بقوله تعالى : ﴿ **ثم يعودون لما قالوا** ﴾ فقال بعض الناس : العود هو أن يعود إلى لفظ الظهار فيكرره وهذا القول باطل وهو اختيار ابن حزم . وقال الشافعى : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زمانا يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع أو يعزم عليه فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقد حكى عن مالك : أنه العزم على الجماع والإمساك ، وعنه : أنه الجماع ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة ، وإليه ذهب أصحابه والليث بن سعد .

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الطلاق » باب فى الرجل يقول لامرأته : يا أختى ج ٢ ص ٦٥٨ ، ٦٥٩ فقد ورد الحديث رقم ٢٢١٠ عن أبى عتيمة الهجيمى .

لقد أوجب الإسلام قبول الفداء مع استحسان فك الإسار لغير فداء ، وفرض تحرير الرقاب على من يقتل خطأ ، ومن يحنث فى يمينه ، ومن يظاهر من زوجه ، ومن يؤدى الزكاة فى مصارفها ، ومنها : فدية الرقاب .. ولم يبق الاسلام من قيود الرق إلا ما هو باق إلى اليوم باتفاق الدول ، وسيبقى بعد اليوم إلى أن يشاء الله .

فالقوانين الدولية تبيح اليوم تسخير الأسرى واعتقالهم إلى أن يتم الفداء بتبادل الأسرى ، أو يبذل التعويض الذى تفرضه الدولة الغالبة ، وقد تأخرت دول الحضارة أكثر من عشرة قرون قبل أن تنتظم بينها معاملات الحرب على هذا النظام الذى شرعه الاسلام وأوجبه على الدول الاسلامية ، وهى تتولى صرف الزكاة « فى الرقاب » ..

فإذا كانت الدول غير الاسلامية لم تعرف لها نظاماً تتبعه لإطلاق أسراها من الرق ، فهى المسئولة عن هذا التقصير ، وليس على الاسلام أو الدولة الاسلامية ملامة فيه .

وقد نعود إلى الواقع من تاريخ الحرب بين الدول الاسلامية وغيرها فنعلم أن هذه الدول الأخرى قد تعلمت من المسلمين نظام تبادل الأسرى وتحرير الأرقاء منذ اشتبكت الحروب بين حكومات الروم فى آسيا الصغرى وحكومات المسلمين التى تجاورها . ولو وجدت شريعة الفداء عند حكومات القرن السابع للميلاد كما وجدت عند الحكومة الاسلامية ، لتقدم العالم كله فى قضية الأسر والرق أكثر من عشرة قرون .

ولنسأل أدعياء التحرير فى العصور الحديثة : ماذا يحدث فى هذا العصر لو لم يصبح تبادل الأسرى معاملة متفقاً عليها بين المتقاتلين ؟ .

ماذا تصنع كل دولة بأسراها فى ميادين القتال ؟ هل تعفيهم من العمل ؟ هل تعامل أعداءها المأسورين معاملة المواطنين أصحاب الحقوق ؟ هل تطلقهم وتبقى جنودها المأسورين عند أعدائها ؟ هل تصنع بهم صنيعاً أكرم من صنع الاسلام يوم أوجب على المسلمين أن يمنوا بالتسريح أو يقبلوا الفداء والعتق ، أو يوجبوه فى مقام التكفير والاحسان ؟

إن صنيع الاسلام الذى أوجبه ــ قبل أربعة عشر قرناً ــ هو غاية ما تستطيعه دول الحضارة اليوم فى إنصاف أسراها وأسرى أعدائها : فإما أن يكون لها صنيع أكرم منه : فلا ندرى كيف يكون ، ولا كيف يأتى لنظام من النظم الدولية أن يستقر عليه .

على أن دول الحضارة لم تدرك فضيلة الدين الاسلامى فى تشريعات الرق ، بغير استثناء دولة منها فى أحدث تشريعاتها الانسانية كما تسميها . فالاسلام قد أنصف الأرقاء ابتداء ، بغير اضطرار إلى الإنصاف اتقاء لثورة سياسية ، أو منازعة اقتصادية ، أو أزمة من أزمات الحروب والاستعداد بالسلاح .

إن أول خطوة من خطوات الحضارة الحديثة إلى تحرير الأرقاء : جاءت على أثر النزاع بين أصحاب الصناعات الكبرى فى بلاد تنفق الأجور الوافرة على الصناع وبين أصحاب هذه الصناعات ، حيث تدار بأيدى الأرقاء ولا تنفق عليها أجوراً ، فإن أصحاب الأموال والصناع معاً حاربوا الرق ليحاربوا هذه المنافسة ، واستجابوا لداعى المنفعة قبل أن يستجيبوا لداعى الكرامة الإنسانية .

ثم جاءت الخطوة الثانية ، يوم احتاجت الدول إلى العبيد لتجنيدهم أو لصنع السلاح فى غيبة المجندين ، فخطبت ودهم بمنحهم حقوق الانتخاب والتصويت .

وجاءت خطوة أخرى بعد هذه الخطوة ، يوم أصبحت للعبيد أصوات يتنافس عليها المرشحون .

وجاءت بعدها آخر الخطى : يوم نهضت القارة الأفريقية نهضتها ، وتحررت شعوبها من سادتها ، وخاف أولئك السادة أن يستمال السود إلى معسكر أعدائهم فى سباق التنافس على التحرير واجتذاب قلوب المستضعفين إلى هذا الفريق أو ذاك فلما وصلت الحضارة الأوروبية إلى هذا المدى ــ بعد طول التعثر والمجال ــ لم تكن قضية الرق قضية سماحة وإنصاف ، ولكنها كانت ولا تزال ــ قضية مساومة واضطرار ، وحيلة من حيل السياسة والإدارة وخطة من خطط التأجير والاستغلال .

والفارق الأكبر فى مسألة الرق ــ من جانب الواقع التاريخى ــ هو ذلك الفارق الذى تحصيه الأرقام بالحساب بين عدد الأرقاء فى البلاد الاسلامية ، وعددهم فى البلاد الغربية ــ حيث يعيشون اليوم بين الأمريكتين ــ فإن الأرقاء من الزنوج لم يزيدوا فى البلاد الاسلامية ــ بعد ثلاثة عشر قرناً ــ على ثلاثة ملايين ، أو نحو هذا العدد القليل ، بالقياس إلى سعة البلاد وطول الزمن واقتراب المكان ، ولكن عدد السود فى الأمريكتين قد يبلغ العشرين مليوناً ولم يمض على قيام الحكم الأبيض .. هناك أكثر من ثلاثة قرون .

وأبعد هذا الفارق فى العدد : فارق المعاملة التى لقيها الأرقاء فى البلاد الاسلامية ، والمعاملة التى لقيها إخوانهم فى الأمريكتين ، فلا وجه للمقارنة بين المساواة فى النسب والمصاهرة وحقوق الدم والمال ، وبين تحريم المساكنة والمصاهرة ، واستباحة الدم ، انتقاماً من الأسود الذى يرفع هذه الحواجز بينه وبين سادته « البيض » . ثم يستطرد الأستاذ العقاد قائلاً :

إن مسألة الرق تصلح للدعاية الواسعة بين الناشئة الإسلامية والأمم الأفريقية التى تتحرر من قيودها ، وتتلمس سبيلها إلى عقيدة مثلى وحضارة تصلح لها وتخاطبها بما يقنعها ، ولكنها دعاية للإسلام وليست بالدعاية التى يحارب بها الاسلام .. فإذا انعكست الآية وذهب بها سماسرة المادية والتبشير مذهب الحملة الشعواء على الإسلام بمسمع ومشهد من المسلمين ، فمن ذا يلام على ذلك غير أولئك المسلمين ؟!

وهكذا ينتهى هذا البحث التحليلى للدعاية المفرضة التى يشنها سماسرة المادة والتبشير . وقد اتضح لكل ذى عقل أن مشكلة الرق لا يلام عليها الاسلام إنما هى فى الحقيقة مفخرة عظمى للحل السليم الذى عالج به الإسلام العظيم هذه المسألة .

ونحن نسأل هؤلاء وأولئك : هل الاسلام هو الذى أنشأ الرق إن الوقائع تثبت ، والتاريخ يؤكد ، والحقائق تقرر أن الإسلام جاء والرق فى هذه الدنيا كأنه بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض ، فأخذ الإسلام يسلط أشعته الكاشفة الهادئة على تلك الظلمات فيبددها بحكمة معروفة فيه .. كان علاجه لتلك المشكلة كالنسيم الهادىء الذى يدفع الشراع دون أن يغرق المركب ، أو كالنار الهادئة التى تقتل الجراثيم دون أن تحرق المريض .

فكيف عالج الإسلام هذا الإشكال الاجتماعى ؟

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه « فى الدين والأخلاق والقومية » ما نصه : محمد محرر البشرية : عجبت لمن يتحدث عن الإسلام والرق ، كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند ، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج ، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان إلا كما يلتقى سواد الليل وبياض النهار ، وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من ربقة العبودية ؟ وهل كانت الأولى إلا قمة التطهير من ذل الخضوع والخشوع لشىء أو لأحد غير الله .

الاسترقاق إهدار للكرامة الإنسانية ، فكيف يكون من صنع الاسسلام الذى أعلن كرامة الإنسان ؟ والاستعباد تبديل للفطرة ، فكيف يكون عن أنظمة الإسلام الذى هو دين الفطرة ؟! .

وإن تعجب لشيء فأعجب لهؤلاء الذين يلصقون هذا الاتهام بالاسلام وهم قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم الذين أنشأوا الرق ، أبيضه وأسوده وأنهم هم الذين أفشوه ، ونشروا وباءه فى العالم من أبشع الطرق وأشنعها : من طريق الخداع والتمويه ، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب ! وانهم جاوزوا فيه الحدود ولم يكفهم استرقاق الأفراد ، فعمدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب .

فلندع ذكر هذا الماضى القريب الذى يعرفه الجميع ، ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام : لقد كانت هناك شرائع فى الشرق والغرب ، فى اليونان ، وفى الرومان ، وفى غير اليونان والرومان ، فتحت باب الرق على مصراعيه ، فكان جزاء القاتل أن يكون عبداً لولى الدم ، وكان المدين الذى يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكاً لدائنه ، وكان السارق الذى يضبط عنده متاع يصبح رقيقاً لرب المال ، ومصداقه فى قصة يوسف ــ عليه السلام ــ :

﴿ **قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين . قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين** ﴾[1] ، وكان السلطان المطلق المخول لرب الأسرة على أعضائها يبيح له أن يقتل منهم من شاء ، وأن يبيع من شاء ، وكان نير العبودية متى وضع على عنق فلا فكاك لها منه أبد الدهر إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته .

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرر البشرية محمد ــ ﷺ ــ خاتم النبيين ، وقدوة المصلحين ، فماذا صنع محمد ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ حين جاء بالاسلام ؟ انه أعلنها ثورة غاضبة على هذه الأوضاع كلها ، ولكنها ثورة حكيمة منظمة : كثورته على الخمر ، وثورته على الربا ، وثورته على سائر الأنظمة الفاسدة المزمنة ، والرذائل الموروثة المستحكمة .

لقد كانت سوق الرق فى تلك المجتمعات مقبرة مفتحة المداخل ، موصدة المخارج . كان الرق وباءً يتساقط فيه الناس تساقط الفراش فى النار ، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه واحدة ، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة .

فانظر إلى الجهاز الذى أعده نبى الإسلام محمد ــ ﷺ ــ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة ! إنه جهاز مركب من ثلاثة أجهزة : نطاق من الحواجز ضربه حول النار حتى لا تندلع إلى

---

(١) سورة يوسف الآيتان ٧٤ ــ ٧٥

خارجها ، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار لنطلق منها كل من استطاع النجاة ، وميازيب من الغيث صبها على من بقى فى الدار لتكون النار عليهم برداً وسلاماً ، ريثما يتيسر لهم الخروج منها .. وسأفسر لك ذلك

ويمضى الأستاذ الدكتور فيشرح هذا التصوير الرائع شرحاً واقعياً فى ظلال الإسلام فيقول :

فأما النطاق الذى ضربه الاسلام حول هذه المنطقة المحترقة : فذلك هو الدواء الواقى الذى أوقف من سير الداء حتى لا تسرى عدواه إلى غير المصابين .. ذلك هو القانون الذى منع استرقاق الأحرار وأمنهم منه ، بعد أن كانوا مهددين به من كل جانب ، فاليوم لا الخطف ، ولا البيع والشراء ، ولا التغلب فى المشاجرات والغارات ، ولا تحكم رب الأسرة ، ولا العجز عن وفاء الدين ، ولا السرقة ، ولا القتل ، لم يعد شيء من ذلك كله . منذ ظهر الإسلام — يصلح مبرراً لاستعباد الإنسان ، ولم يكتف الاسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق ، بل انه حال بينهم وبين أن يخرج من أصلابهم ذرية تستعبد ، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء ، إلا فى حالة الاضطرار وخشية العنت ، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام — قبل أن يبدأ بالعلاج الشافى من الرق القائم بالفعل — أراد بهذه التشريعات الواقية منع إنشاء فئة جديدة من الأرقاء ، غير أن ها هنا شبهة تجول فى الخواطر ، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها : أما الشبهة فهى أن الإسلام — وإن كان قد سد كل الأبواب التى أشرنا إليها ، والتى كانت تتخذ ذريعة لإنشاء رق جديد — قد ترك — إلى جانب هذه الأبواب — منفذاً صغيراً لم يغلقه ، ذلك : هو حال الحرب الإسلامية المشروعة وهى التى يعتدى فيها الكفار على بلاد الإسلام .

أليست الشريعة قد أباحت للمسلمين — فى هذا الحال — أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث : إما بإطلاق سراحهم ، وإما باسترقاقهم ، ولو كانوا أحراراً ، وإما بقتلهم ؟

والجواب أن الأمر ليس كما يظنه الناس فى هذه الخطط الثلاث ، فالواقع أنها فى نظر الإسلام ليست سواء فى المشروعية .

فنحن إذا نظرنا فى نصوص القرآن الكريم ، لم نجد فيه أثر لقتل الأسير ولا استرقاقه ، وإنما نجد له فيه مصيراً واحداً كريماً ، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل : ﴿ **فإما مناً بعد وإما**

فداء ﴾[1] ، كما أن سنة الرسول الرحيم ــ ﷺ ــ لا نجد فيها أنه أذن بقتل الأسير ، إلا فى حالة شاذة نادرة كان الأسير فيها معروفاً بخطورة وشدة نكايته بالمسلمين ، فهو ليس قاعدة عامة ، وإنما هو استثناء طبق على الشاذين الخطرين ، وهذا هو ما يعرف فى لغة العصر باسم : عقوبة (مجرمى الحرب) .

بقى الاسترقاق ، وواضح أنه يلى القتل فى القسوة والشناعة ، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل ، كما أن الحرية فى نظره شقيقة الحياة . ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ؟

إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة .. فإن رفع إلى مستوى الحرية يعد إدراجاً له فى زمرة الأحياء ، بعد أن كان محسوباً فى عداد الأموات .

وهكذا يتبين لنا أنه ليس فى روح التشريع الاسسلامى ، ولا فى نصوصه ، ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم ، أو يجعله فى نظرهم سواء هو والمن على هؤلاء الأسرى بالحرية ، فإن لجأ الإسلام يوماً إلى استرقاق الأسير : فإنما يكون ذلك منه نزولاً على حكم الضرورة ، اتقاء لخطره ، وكسراً لشوكته وشوكة قومه .

على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائى ، وإنما يتخذه إجراءً مؤقتاً ، وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذى يرضاه ويلح فى المطالبة بتحقيقه ، ألا وهو : التحرير الكامل .

وهكذا ينساق بنا البحث إلى الوسيلة الثانية من الوسائل التى أعدها الإسلام لمكافحة الرق ، وأعنى بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التى فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية .

ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب ، كان هو مفتاح القلوب ، فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب ، ويرغبهم بمختلف الوسائل ، قال تعالى :

﴿ فلا اقتحم العقبة ۝ وما أدراك ما العقبة ۝ فك رقبة ﴾[2] .

---

(١) سورة محمد من الآية ٤

(٢) سورة البلد الآيات ١١ ــ ١٣

وقال عليه الصلاة والسلام :

(من أعتق رقبة : أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار)[١] .

ومفتاح ثان : هو مفتاح خزائن الدولة .. إذ جعل فيها سهماً مكرراً فى كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين .

ومفتاح ثالث : هو مفتاح « قانون الكفارات » وهو القانون الذى يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا : كالحنث فى اليمين ، والفطر فى رمضان ، والقتل الخطأ ، وغير ذلك .

ومن أهم هذه الأنواع : « كفارة الإساءة » التى تقع من السيد فى حق العبد نفسه .. وفى هذا يقول رسول الرحمة — صلوات الله وسلامه عليه — : (من لطم مملوكه أو ضربه : فكفارته أن يعتقه)[٢] .

هذا جزاء الضربة أو اللطمة ، أما الجرح ، أو تشويه الجسم ، فإن حكمه — عند أكثر الأئمة — أن يصير العبد حراً بمجرد اصابته ، فينزع من ملك السيد قهراً عنه . وكذلك إذا كلفه سيده أعمالاً فوق طاقته وتكرر منه ذلك .

وهكذا يقودنا الحديث إلى القسم الثالث والأخير من العلاج الاسلامى الرحيم : لقد رأينا أبواباً فتحت أمام الحرية ، ورأينا أبواباً أغلقت دون الرق ، بين هذين الطرفين ، ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ، ولكنهم لم يصلوا إليه بعد ، انهم هنالك ينتظرون دورهم فى استنشاق هواء الحرية الطلق ، فهل صنع الإسلام شيئاً لهذه الفئة فى فترة الانتظار ؟ نعم ! لقد فتح لهم فيها نوافذ للتهوية ، فأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم فى هذه الفترة يحيون حياة الإنسان ، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات .. ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادميهم إلى المستوى الذى يعيشون فيه هم أنفسهم .

---

(١) انظر صحيح مسلم كتاب « العتق » باب « فضل العتق » ج ٢ ص ١١٤٧ حديث رقم ٢٢ / ١٥٠٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة وزاد فى آخره .. « حتى فرجه بفرجه » .

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « الايمان » باب « صحبة المماليك وكفارة من لطم عبده » ج ٣ ص ١٢٧٨ حديث رقم ٢٩ / ١٦٥٧ عن زاذان أبى عمر قال : أتيت ابن عمر ، وقد أعتق مملوكا قال : فأخذ من الأرض عوداً أو شيئاً ، فقال : ما فيه من الأجر ما يَسْوَى هذا ، إلا أنى سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « عن لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه » .

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين :

« إنهم إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم »[١] .

صدقت يا نبى الرحمة ــ صلوات ربى وسلامه عليك !

هذا هو موقف الإسلام من الرق :

١ ــ منع لإنشائه ، وابتدائه .

٢ ــ عمل بكل الوسائل على تصفية الموجود منه وإنهائه .

٣ ــ عطف سابغ عليه فى أثناء محنته وبليته .

أما بعد ، فهل من منصف يقولها معى :

أما والله لعبد فى ظل الإسلام ، خير من كثير من الأحرار فى كل نظام . وهكذا ينتهى هذا المقال الرائع الذى وضع النقاط على الحروف ، وكشف النقاب عن الحقيقة التى يثير حولها أعداء الله غبار الشبهات .. وهكذا تبين لنا كيف وقف الإسلام من مشكلة الرقيق وقفة الحزم والعزم ، كما هو فى كل شئونه .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

داويت متئــداً وداووا طفــرة وأخف من بعض الدواء : الـداء

أبعد كل هذه الوصايا بالبشرية ، وإحاطتها بالكرامة ، يجرؤ أفاك أثيم على أن يلصق بالإسلام ما هو منه براء .

إن الإسلام يعد الناس جميعاً متساويين فى الإنسانية ، لأنهم جميعاً صنعة إله واحد ، أبناء لأب واحد .. **﴿ إن أباكم واحد ، وإن ربكم واحد ﴾** ، **﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾**[٢] .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الأدب » باب ما ينهى عن السباب واللعن ج ٤ ص ٥٨ فقد ورد الحديث من رواية طويلة لأبى ذر .. إلى أن قال رسول الله ــ ﷺ ــ هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن جعل الله أخاه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما يغلبه فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه » .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الأدب » باب « الإحسان إلى المماليك » ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ فقد ورد الحديث رقم ٣٦٩٠ عن أبى ذر بلفظ : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فأطعموهم مما تأكلون ، وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣

وهذه المساواة العامة الإنسانية تتحطم معها فوارق الجنس واللون والحسب والنسب ، وهى فوارق الانحراف البشرى ، والظلام الإنسانى .. فوارق الجاهلية الضالة ، والهوى المتسلط ، والتعالى الكاذب ، والتمييز المصطنع .. وهو تمييز تأباه فطرة الحياة التى لا تفرق — فى قليل أو كثير — عن طبيعة الخلق والولادة ، والمأكل والمشرب ، والحياة ، وأسباب المعرفة والإدراك .

المساواة فى الإسلام

لست أدرى : أين هى التفرقة فى واقع الخلق حتى تقع بين الخلق ؟

التفرقة فى حقيقتها انتكاس بالإنسانية وتفويت لأسباب الرفعة الحقيقية حتى لا يمكن أبداً أن تتم لعبد يغفل عن حقيقة نفسه ومعرفة خالقه .

والطبيعة تأبى على الإنسان أن يكون غير كونه إنساناً ، فهو خاضع للقوانين المسيطرة والسنن العامة ، والمصير المشترك ، كما تأبى سنن الخالق — تبارك وتعالى — أن يمتد بقاؤه فيحقق ما يصبوا إليه من استعباد الناس والتعالى عليهم .

فكم من حالم أيقظته مخالب الموت !

وكم من مختال على العباد داسته أقدامهم فى التراب !

وكل ما فوق التراب تراب !

فمن أين تأتى التفرقة والمبدأ معروف ، والمصير مشترك ؟!

ولى فى فنـاء الخلـق أكبر عبرة لمن كان فى بحر الحقيقـة راقى
شخـوص وأشكـال تمر وتنـقضى فتفنـى جميعـاً والمهيمـن بـاقى

الإسلام العظيم يأبى التفرقة ويحاربها ، والنبى الكريم — صلوات ربى وسلامه عليه — يعلن فى

خطبته الجامعة : (أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم)[١] .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[٢] .

أخا الإسلام :

لا تركنن إلى القصور الفاخرة ... واذكر عظامك حين تمسى ناخرة
وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل ... يارب إن العيش عيش الآخرة

إن المساواة فى الإسلام تدعو إليها الفطرة العامة ، ويقضى بها المصير المشترك ، ويتطلبها عدل السلوك وسلام الإنسانية ، قامت فى الإسلام من أول أمره حين دعا الناس جميعاً إلى عبادة الرب الواحد ، رب العالمين ، وهذه المساواة فى الإنسانية : تستلزم المساواة فى الحقوق .. فالناس جميعاً أمام قانون الله سواء ، لا فرق بين عظيم وحقير وشريف ووضيع .

فالحق أساس هذا الدين ، والعدل سياجه ، والناس — مع اختلاف عقائدهم وألوانهم وأجناسهم — أمام عدله وحقه : سواء !

لا تخضعن لمخلوق على طمع ... فإن ذلك نقص منك فى الدين
لن يقدر العبد أن يعطيك خردلة ... إلا بإذن الذى سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعز به ... وكن عفيفاً ، وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما فى خزائنه ... فإن رزقك بين الكاف والنون
واستغن بالله عن دنيا الملوك ... كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

أجل ! صدقت يارب العزة ، يا من قلت : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً** ﴾[٣] .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٥ ص ٤١١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .
(٢) سورة الحجرات من الآية ١٣
(٣) سورة الاسراء الآية ٧٠

العدالة فى الإسلام

والعدل فى الإسلام عدل مطلق ، يستوى فيه الأصدقاء والأعداء ، وأنت تسمع من قوانين هذا الدين قوله — جل شأنه — : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[١] .

وأنت ترى رسول الله — ﷺ — يغضب أشد الغضب ويحمر وجهه كأنه الشفق عندما تودعه الشمس الغاربة .. إنها غضبة مضرية .

وإذا غضبت فإنما هى غضبة للحق : لا ضغن ولا شحناء

يغضب عندما يرى أسامة بن زيد ، الحب بن الحب ، يستشفع لامرأة مخزومية شريفة الأصل — كانت قد سرقت — ويقول له غاضباً معنفاً : « أتشفع فى حد من حدود الله » ثم يخطب فى الناس قائلاً :

« **إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله : لو أن فاطمة بنت محمد سرقت : لقطعت يدها** »[٢] .

وهذا عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — عملاق الإسلام ، وفاروق هذه الأمة ، يعلن فى سمع الزمان هذا المبدأ الخالد ، بعد ما تولى خلافة المسلمين بعد أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — فيقول :

« أيها الناس : الضعيف فيكم قوى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه » .

ويقول فى رسالة له لأبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — فى أمر القضاء . ﴿ **آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك** » .

وها هو ذا « ضرار الصدائى » يصف أمير المؤمنين علياً — كرم الله وجهه — وما اتصف به من العدالة والانصاف للرعية فيقول :

---

(١) سورة المائدة الآية ٨

(٢) انظر صحيح مسلم كتاب « الحدود » باب « قطع السارق الشريف وغيره والنهى عن الشفاعة فى الحدود » ج ٣ ص ١٣١٥ فقد ورد الحديثان ٨ — ٩ / ١٦٨٨ عن عائشة فى هذا .

« كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا : لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته . يعظم أهل الدين ويحب المساكين .. لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .. كان ـــ والله ـــ غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه » .

وهل ينسى التاريخ هذا الموقف الإسلامى المشرف الذى وقفه الفاروق من « عمرو بن العاص » حين علم أن ابنه ضرب أحد أبناء الرعية ، وقد قال له كلمته الخالدة : يا عمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ » .

أبعد هذا التكريم للبشرية ، يجرؤ أفاك أثيم على أن يرفع صوته بهذه الفرية التى تقول أن الرق فى الاسلام يعتبر تهمة توجه ضده ، وهو لم يقرأ عن الإسلام شيئاً ، بل إنه يهرف بما لا يعرف .

وصدق الله تعالى حيث يقول : ﴿ ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ .

هذا الإسلام ، هو الذى كانت عدالته مضرب الأمثال فى معاملة البشر ، مهما اختلفت أجناسهم ومعتقداتهم .

ومن جليل ما يذكر فى هذا المجال ، ماجرى بين على بن أبى طالب وعمر بن الخطاب ، وقد تحاكم الأول امام عمر ، وكان الخصم يهودياً ، وكان عمر ـــ كعادته ـــ ينادى علياً قائلاً : يا أبا الحسن ، فلما ناداه فى هذه المرة وهو يتحاكم أمامه كعادته ، ظهر الغضب على وجه على ، فظن عمر أن علياً يتبرم من وقوفه مع اليهودى على قدم المساواة ، وعلىّ هو من تعلم : حسباً ونسباً ، وإيماناً ، وصدقاً .. قال عمر لعلى : أكرهت أن يكون خصمك يهودياً ؟ فقال على ـــ رضى الله عنه ـــ : إنما غضبت لأنك لم تسوبينى وبين خصمى اليهودى ، إذ ناديته باسمه ، وناديتنى بكنيتى !

أرأيت أن هذه المساواة فى الحقوق ليست بين المسلمين وحدهم ، بل بين المسلمين وغير المسلمين ، وأن عليا يقف فى ساحة القضاء مع خصم يهودى ، يأبى عليه دينه أن يترك **لفظاً** تشم منه رائحة التعظيم

له فيغضب ، ويعد هذا تمييزاً فى موطن القضاء .. وما كان النداء من عمر الانداء قد اعتاده ، ولكن لم يستطبه منه فى هذا الموطن (موطن القضاء ، ورد الحقوق) .

أبعد كل هذا تجوز المقارنة بين عدالة الاسلام ونزاهته ونظافته وطهارته ؛ وبين ما يدور فى العالم من شرور التفرقة العنصرية فى أعظم الأمم حضارة فى عصرنا هذا ؟

إذ لا تصح المقارنة بين شريعة الله وشريعة الغاب التى وضعها العبد ، وسولت له نفسه الامارة بالسوء أن يحكم بها عباد الله .

شتان ، ثم شتان ، بين عدل الخالق وظلم المخلوق .

وحسبك يا أخى أن تعلم أن الإسلام يبنى عزائم المؤمنين لإقامة الحق والعدل مع الصديق والعدو .. مع الفقير والغنى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾(١) .

ثم تأمل بعد ذلك الهدى الإلهى ، والعدل الربانى .. تأمل ما تنص عليه شرائع القوم هناك فى العالم الحر : من تفرق بين الأسود والأبيض ، وتجعل للبيض حقوقاً لا ينالها مواطنوهم السود !

وما أمر هذه التفرقة فى أمريكا وجنوب افريقيا وغيرهما من دول العالم ، بالأمر الخفى الذى يحتاج إلى بيان .

محمد الذى جعل من العبيد سادة

هذه حقيقة ثابتة لا يجادل فيها إلا مكابر ، ولا يمارى فى مضمونها إلا كل معتد أثيم ﴿ **يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها** ﴾(٢) .

---

(١) سورة النساء الآية ١٣٥
(٢) سورة الجاثية الآية ٨

وأولى بالذين يحاولون أن يجعلوا من مسألة الرق شبهة يثيرون غبارها على جلال الاسلام وجماله . أولى بهم أن يرددوا هذه الحقيقة إذا أرادوا الإنصاف ، وطلبوا وجه الحق .

أولى بهم أن يقولوا إن محمداً هو الذى جعل من العبيد سادة ، ومن المستضعفين موجهين وقادة .

لقد كان مولده الشريف إيذاناً بأنه محرر العبيد .. فقد كانت أول رضعة ، وأول جرعة لبن نزلت جوفه الشريف من جارية لعمه « أبى لهب » تسمى « ثويبة » .. وكان من حسن الطالع وبشير اليمن : أن هذه الجارية عندما ذهبت وأخبرت أبا لهب بمولد السيد الجليل محمد — ﷺ — : فرح بهذا الخبر فرحاً عظيماً ، وكانت مكافأته : عتقها ، فصارت بسبب هذه البشرى الكريمة حرة تنشق نسيم الحياة الكريمة .. وكان مولده الشريف إيذاناً وإعلاماً بأن هذا المولود سيجعل من العبيد سادة ومن المستضعفين مفكرين وقادة .

وها نحن أولاء ننتقل بالحديث عن جارية أخرى .. انها السيدة الجليلة « بركة الحبشية » المكنية « بأم أيمن » :

وكانت أمة مملوكة للسيدة آمنة أم رسول الله — ﷺ — وقال لها سيدنا محمد — ﷺ — بعد موت أمه : أنت أمى بعد أمى .. وقد أسلمت بعد ما دخلت خديجة — رضى الله عنها — فى الإسلام .. إذ أن خديجة كانت أول من آمن بالنبى — ﷺ — من النساء ، وأقامت « أم أيمن » بمكة تحتمل أذى المشركين ، إلى أن جاءت الهجرة إلى المدينة ، فخرجت من مكة ماشية إليها ، وليس معها ماء تشربه ولا زاد تأكل منه ، وكان عندها قوة عجيبة على احتمال العطش والجوع ، حتى أنها كانت تصوم فى اليوم الحار ثم تطوف فى الشمس كى تعطش فلا يصيبها عطش !

أما جهادها فى الاسلام فقد كانت تقوم بسقى الجيش ، وتداوى الجرحى فى القتال . ومما حضرته من الغزوات : غزوة أحد ، وخيبر ، وكانتا من أهم غزوات النبى — ﷺ — .

هذا بالاضافة إلى أنها كانت من أكثر نساء المهاجرين حظاً فى الشهداء من رجالهن .. فقد تزوجت بعبيد بن زيد ، وأنجبت منه أيمن ، الذى مات شهيداً يوم « حنين » ، وبعد موت « عبيد » : تزوجت بزيد بن حارثة وأنجبت منه أسامة بن زيد ، وقدمات « زيد » شهيداً فى « مؤتة » ، فصبرت على فقد زوجها « زيد » وابنها أيمن وكان أسامة غلاماً ، فعكفت على رعايته والعناية به ، حتى جعلت منه رجلاً

يقود جيشاً ، فيه من الأبطال مثل أبى بكر وعمر ، وكان آخر جيش أعده النبى — ﷺ — ولم يكن أسامة قد جاوز العشرين سنة .

ولما مات النبى — ﷺ — كانت أم أيمن تبكيه كلما ذكرته ، ولا ينقطع بكاؤها عليه ، وقد قال أبو بكر لعمر : انطلق بنا لنزور أم أيمن ، كما كان رسول الله — ﷺ — يزورها ، فلما دخلا عليها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ، فما عند الله خير لرسوله ؟ فقالت : أبكى لأن وحى السماء قد انقطع فهيجتهما على البكاء ، فجعلت تبكى ويبكيان معها .

وليس هناك أسمى من هذه النفس التى تبكى انقطاع الوحى ، وتحزن بفقد الاتصال بالسماء ، فهى لا ترى إلا السعادة الروحية التى تصل بيننا وبين الملأ الأعلى ، وتفيض على أهل الأرض فتسمو بهم إلى مواطنها .

وقد ماتت أم أيمن بعد عشرين يوماً من خلافة عثمان — رضى الله عنه — سنة ٦٤٣ م . أرأيت إلى هذا الجلال وتلك العظمة فى هذه السيدة التى كانت مملوكة للرسول — ﷺ — فامتدت يداه الكريمتان **فأهداها** نعمة الحرية ، وجعل منها السيدة التى تكلم الخليفة أبا بكر ، ووزير عدله عمر كلمة تجعلهما يبكيان ويذرفان الدمع على انقطاع الوحى بعد رسول الله — ﷺ — ؟

إن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على أن محمداً — ﷺ — جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة .

زيد بن حارثة

حب رسول الله — ﷺ — الذى قال فى شأنه : « أنت مولاى ومنى وأحب القوم إلى »[1] .

---

(١) انظر صحيح البخارى باب فضائل الصحابة ج ٢ ص ٣٠٣ باب مناقب زيد بن حارثة فقد ورد عن البراء عن النبى — ﷺ — قوله فى هذا المعنى : « أنت أخونا ومولانا » .

نشأته وشأنه ومكانته فى الإسلام :

خرجت أمه « سعدى بنت ثعلبة » معه تزور قومها « بنى معن » فأغارت خيل لبنى القيس ابن جسر ، فمروا على أبيات « بنى معن » فاحتملوا زيداً ــ وقد كان يومئذ غلاماً يافعاً ــ ولم يعرف أبوه بعد شيئاً عنه .

وكان موسم الحج قد أقبل ، فحج قوم من « كلب » ، وأمام أعينهم دائماً صورة هذا الرجل الباكى « حارثة بن شرحبيل » ومضوا يطوفون بالبيت ، وهناك رأوا « زيداً » فعرفهم ، وعرفوه ، وأقبل عليهم ، وعلموا منه أن خاطفيه وافوا به « سوق عكاظ » فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم « حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم : فلما تزوجها شريف ــ قريش : محمد ابن عبد الله ــ ﷺ ــ ، وهبته له ، وانطلق « الكلبيون » وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب بفدائه ، وقدما مكة ، فسألا عن النبى ــ ﷺ ــ فدخلا عليه وقالا : يا ابن عبد الله ! يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل الحرم وجيرانه ، وعند بيته تفكون العانى وتطعمون الأسير .. جئنا فى ابننا ، فامتن علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه ، فإننا سندفع لك الفداء . فقال لهم الرسول ــ ﷺ ــ : « دعوه فخيروه ، فإن إختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى ، فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى » .

فدعاه النبى ــ ﷺ ــ وقال له : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم . قال من هما ؟

قال زيد : هذا أبى وهذا عمى ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : فأنا من علمت ورأيت صحبتى لك ، فاخترنى أو اخترهما[1] .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحداً ، أنت منى بمكانة الأب والأم .

فقالا : ويحك يا زيد ! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ !

قال زيد : نعم ! إنى قد رأيت من الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً أبداً .

---

(١) انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٢٨٢ ترجمة زيد بن حارثة .

فلما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك اخرجه إلى الحجر ، وقال : « يا من حضر ، إشهدوا أن زيداً ابنى : أرثه ويرثنى »[١] .

فلما رأى أبوه وعمه ذلك : طابت أنفسهما وانصرفا ، ونزلت الرسالة على محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فكان زيد أول من آمن به من الأرقاء .

ولم يفارق النبى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لحظة ، فأحبه النبى حباً شديداً .

وأذن النبى ـ ﷺ ـ فى الهجرة لأصحابه ، وهاجر زيد ، ونزل فى المدينة على سعد بن خيثمة . ولما هاجر الرسول الأعظم إلى يثرب وآخى بين المسلمين : كان حمزة سيد الشهداء ، وزيد أخوين فى الله . ثم آخى النبى الأعظم بعد مقتل حمزة بينه وبين أسيد بن حضير .

وقامت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان زيد من الرماة المذكورين فشهد بدراً وأحداً ، واستخلفه الرسول ـ ﷺ ـ على المدينة عندما خرج إلى « المريسيع » ، وشهد الخندق والحديبية وحنيناً .

وخرج زيد أميراً فى سبع سرايا : أولها القردة ، فاعترض لعير قريش فأصابها وأفلت أبو سفيان منهم ، وأسر زيد « فرات بن حيان العجلى » .

وقدم بالعير على النبى ـ ﷺ ـ ، وكانت أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون .

قالت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما بعث رسول الله زيد بن حارثة فى جيش قط ، إلا أمره عليهم ، ولو بقى بعده لاستخلفه » .

وأراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يغزو الروم ، فجمع ثلاثة آلاف من المسلمين وعقد لزيد ، وقدمه على الأمراء الآخرين قائلاً : « عليكم زيد بن حارثة ، فإن أصيب زيد : فجعفر بن أبى طالب ، **فإن أصيب جعفر : فعبد الله بن رواحه »**[٢] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى « تفسير سورة الأحزاب » ج ١٤ ص ١١٨ فقد ورد الحديث بلفظ « يا معشر قريش اشهدوا أنه النبى يرثنى وأرثه » . وفى ص ١٩٣ ورد الحديث بلفظ : « اشهدوا أنى وارث وموروث » . وانظر من الغابة ج ٢٨٢ ترجمة زيد بن حارثة .

(٢) انظر صحيح البخارى كتاب « المغازى » باب « غزوة مؤتة ج ٣ ص ٥٨ فد ورد الحديث عن عبد الله بن عمر قال : أمر رسول الله ـ ﷺ ـ فى غزوة موتة زيد بن حارثة فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله ابن رواجه .. » الخ .

وتحرك الجيش الإسلامى بقيادة لواء الاسلام « زيد بن حارثة » .

أليس فى هذا المعنى ما يعطى الدلالة الصادقة على أن رسول الله هو الذى جعل من العبيد سادة ومن المستضعفين أساتذة وقادة ؟

هذا « زيد » يقود جيشاً فيه جعفر الطيار ، ابن عم رسول الله ، الشريف الكريم ، وفيه خالد ابن الوليد ، وخالد هو سيف الله المسلول ، ومن بعد زيد : قاد ابنه « أسامة » الحملة بعد وفاة الرسول — ﷺ — ، قادها إلى فلسطين ، وكان على رأس جيش فيه أبو بكر الصديق وعمر الخليفة فاروق هذه الأمة .

أى دلالة أعظم من هذه الدلالة ؟ وأى معنى أوضح من هذا المعنى ؟ إنه الإسلام الذى كرم البشرية ، وزكى النفوس ، وطهر القلوب .

سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

الديـن والدنيـا لنـا جمعتهمـا لك شرعـة قدسيـة غـراء
والمسلمـون جميعهـم جسد ، إذا عضو شكى ، سهرت لـه الأعضاء

سار المسلمون وعلى رأسهم زيد ، حتى وصلوا إلى « مؤتة » ، وهناك علموا بتجمع جيوش الروم فى أكثر من مائة ألف ، وهم ثلاثة آلاف فقط ، وهناك تردد الناس قليلاً .

ولكن ما لبث الأمير أنْ اندفع يقاتل الروم ، فما تلك الحياة بجانب تلك الغاية التى يريدها ؟ وتناولته السيوف بالطعن ، وهو يقاتل دون راية رسول الله — ﷺ — وأخيراً استشهد الأمير .

أيتها النفس الكبيرة :

لقد عرف النبى الأعظم حقيقتك ، فرفعك من رتبة العبودية إلى رتبة البنوة ، حيث قال : « زيد ابنى » ، ثم أمرك على المسلمين ، ثم رفعك مرة أخرى إلى رتبة الشهداء الصالحين .

وفى المدينة وقف النبى — ﷺ — يقول : « استغفروا لزيد ، لقد دخل الجنة وهو يسعى » ،

ثم أتى أهله ، فجهشت بنت زيد بالبكاء ، فبكى النبى ﷺ حتى انتحب ، فقال له سعد بن عبادة : يا رسول الله : ما هذا ؟ فقال له الرسول ـ ﷺ ـ : (يا سعد : هذا شوق الحبيب إلى الحبيب) .

يرحمك الله يا زيد بن حارثة ، يا من أثنى عليك رسول الله خيراً ، ويا من أنعم الله عليك بالاسلام ، وأنعم رسوله عليك بالعتق ، يا من ختم الله لك حياتك الكريمةبالموتة الكريمة ، فلقيته شهيداً ، وعشت فى دار الكرامة فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(١) .

بلال بن رباح
مؤذن الرسول وكفى بالأذان شرفاً

أليس المؤذن هو الذى يرفع كلمة التوحيد عالية يشنف بها الآذان ، ويملأ بها القلوب عزة وكرامة ؟

كان بلال عبداً مملوكا لأمية بن خلف ، ولاقى من الأذى فى سبيل عقيدته ما لا يقوى عليه أحد غيره ، فوقف من التعذيب والتنكيل موقف الجبل الأشم ، لا تحركه العواصف ولا تؤثر فيه الرياح القواصف .. كان كلما اشتد عليه الأذى وتضاعف أمامه الكروب : ازداد إيماناً على إيمانه .

بلغ من قسوة أمية بن خلف انه كان يطرحه على رمضاء مكة وقت الظهيرة حيث الشمس تضرب وجه الأرض بسياطها الحامية ويسيل منها لعاب كالمهل يشوى الوجوه ولا عجب : فأمية عرفه التاريخ بأنه رجل حديد اللسان حديد الوجه حديد القلب .. لو وزعت قسوة قلبه على الناس ، ما بقى للرحمة سبيل إلى قلب واحد منهم .

كلما اشتد الأذى ببلال : كان يردد هذا النشيد الخالد : أحد أحد ، فرد صمد ، لا والد ولا ولد .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٦٩ ـ ١٧٠

أجل يا بلال ! ان الله واحد فى ذاته لا شريك له ، واحد فى صفاته لا نظير له .. إنه رب السماء والفضاء والجبال والشجر ، إنه رب عزيز قادر ، له الجبين قد سجد ويردد بلال هذه الكلمات كلما أمره أمية بالكفر ، ويشطاط عدو الله غضباً فيقول له العبد المؤمن : إن أكن عصيتك فقد أطعت الله ، عذب ماشئت فإنك إنما تعذب جسدى ، أما روحى فلن تنال منها شيئاً ؟!

لله درك يا بلال : لقد ضربت المثل الأعلى فى الصمود والثبات على المبدأ الحق ، حتى جعل الله لك من الضيق فرجا ، وقد تقدم الصديق — رضى الله عنه — فاشتراك وأعتقك ، وكنت صاحب المكانة المرموقة عند رسول الله — ﷺ — . عرفت بالصوت الندى فى الأذان ، حتى قال عنك رسول الله — ﷺ — إنك أندى صوتا . وكان لك الشرف العظيم أن تعلن الأذان من فوق بيت الله الحرام يوم الفتح الأعظم ، حيث اشرأبت الأعناق ، وقال بعض أهل مكة من ذوى النفوس التى ملكها الكبر : ألم يجد محمد غير هذا ليؤذن ، فرد عليهم القرآن الكريم فى صراحة ووضوح وحزم وعزم : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير** ﴾[(١)] .

سرعة بديهته — رضى الله عنه — :

لا ننسى ذكاءك وسرعة بديهتك وحضور حجتك وعندما سألك سائل فقال لك يا بلال : ابن من أنت ؟ فقلت له — على الفور أنا ابن الذى اسجد الله له الملائكة صدقت يا بلال فرسول الله يؤيدك كل التأييد اذ يقول : (كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على اعجمى إلا بالتقوى) .

ولا ينكر أحد مكانتك فى قلب المصطفى — ﷺ — لقد غضب من أبى ذر **الغفارى** الصحابى الزاهد الورع ، عندما قال لك فى لحظة غضب : يا ابن السوداء فلما بلغ رسول الله — ﷺ — ذلك : امتلأ غضباً وقال فى حدة وشدة : (يا أبا ذر : **أعيرته بأمه ، إنك امرؤ فيك جاهلية**) ، وأخذت هذه الكلمات كل مأخذ وكأنها سهام بتاره ، جعلت أبا ذر رضى الله عنه يضع خده على الرمال ويقول : يا بلال : طأ على خدى بقدميك !

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣

انه الأدب والخلق الذى تربى عليه أصحاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه إذا أخطأوا ، أو ظلموا أنفسهم ، أو شعروا بانحراف فى النفس : استيقظت لواعج الوجدان فذكروا الله ، فاستغفروا لذنوبهم .

دعابة لطيفة :

لقد كان رسول الله ــ ﷺ ــ إذا رأى هؤلاء النفر الذين انعم الله عليهم بنعمة الاسلام والعتق : **يبش** لهم ويبتسم .

سأل رسول الله ــ ﷺ ــ بلال ذات يوم ــ وكان يوم الأضحى ــ بم ضحيت يا بلال ؟ فقال : يا رسول الله لم أجد الا « ديكا » فضحيت به ، فقال له الرسول ﷺ فى دعابة لطيفة : « مؤذن ضحى بمؤذن » وكان المصطفى ﷺ يمزح ولا يقول الا حقا .

فرحمك الله يا بلال يا من رفعت إلى مكانة فى الاسلام عالية مرموقة ، ونلت من الله فضلاً عظيماً وأجراً كريماً .

سلمان الفارسى

الرجل الذى بحث عن الحقيقة العليا ، ونخل مخزون فكره ، وقدح زناد رأيه فى سبيل الوصول إلى الحق .

نشأ بين قوم فى بلاد الفرس ، يعبدون النار من دون الله ، وكان أبوه قد جعله قائماً على شأن النار يغذيها بالوقود إذا ما أوشكت أن تضعف .. ودارت فى نفسه وعقله أفكار **وتساؤلات** .. هل يليق بالإله أن يكون محتاجاً إلى عباده ؟ وماذا يحدث لو أنه أهمل مده بالوقود ؟ لابد أن تنطفىء هذه النار . وأخيراً ، ولى هارباً ، وهاجر من هذه البلاد يسعى وراء الحق ، ويطلب الحقيقة .. ونزل على أحد الرهبان ، فدله الراهب على أن الحق فى شريعة محمد خاتم الأنبياء .. وولى سلمان وجهه شطر المدينة ، فى قافلة متوجهة إلى هناك ، لكن أحد اليهود المقيمين بيثرب ادعى أنه اشتراه ، فصار « سلمان » عبداً مملوكاً لذلك اليهودى يقوم على خدمته ورعاية شئونه .

ولما هاجر الرسول ــ ﷺ ــ إلى المدينة : أسرع سلمان ليختبر فيه الصفات التى أرشده إليها

الراهب ، الذى التقى به فى بلاد الشام ، من أن النبى — ﷺ — لا يقبل الصدقة ، ولكنه يقبل الهدية ، وأن خاتم النبوة دليل واضح على صدق دعواه ، وتحققت هذه كلها فى رسول الله أمام سلمان ، فأسلم ، وتعاون المسلمون على شرائه من اليهودى ، ثم أعتقوه ، فصار حراً ، وكل منهم يريد أن ينسبه إليه ، فقال رسول الله — ﷺ — لهم : « سلمان منا آل البيت »(١) .

وكان لسلمان موقفه التاريخى المجيد يوم (الخندق) عندما ادلهمت الخطوب ، واشتدت المحن ، وحوصرت المدينة ، استشار الرسول أصحابه ، فأشار عليه سلمان بحفر الخندق ، وصادف هذا الرأى قبولاً مطلقاً فى نفوس المسلمين ، فحفر الخندق ، وكان فى حفره خير ويمن .

إننا لا ننسى لسلمان هذا الموقف الاسلامى الجليل ، ولا ننسى له شدة تمسكه وعمق تغلغله فى مفاهيم الاسلام .. قال له سائل : يا سلمان ، من أبوك ؟ فقال له بلسان اليقين ومنطق الحق المبين : أنا ابن الاسلام ، ولما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين عمر بكى وقال ثلاث مرات : وأنا ابن الاسلام . أجل يا سلمان

لعمرك : ما الإنسان إلا ابن دينه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الاسلام سلمان فارس ... وقد حط بالشرك النسيب أبو لهب

كان سلمان رجلاً مجداً فى حياته ، لا يعرف الكسل .. كان يكتسب لقمة عيشه بكد يمينه وعرق جبينه .. كان يأتى بـ « خوص » النخيل فيصنع منه **المكاتل** ويبيعها ، ويقسم الربح أقساماً ثلاثة : قسم يتصدق به على الفقراء والمساكين ، وقسم ينفق منه على أهله ونفسه ، وقسم يعمل فيه فى التجارة .

وقد صدق فيه قول رسول الله — ﷺ — : « إن الله يرضى لرضا سلمان ويغضب لغضبه ، وإن الجنة لتشتاق إلى سلمان أكثر من اشتياقه إليها » .

رحمك الله يا سلمان ، وجزاك عن الاسلام خيراً ، يا من قال عنك الرسول — ﷺ — : « سلمان منا ، آل البيت » .

---

(١) انظر المعجم الكبير للطبرانى ج ٦ ص ٢٦٠ — ٢٦١ « عن أخبار سلمان ووفاته » حديث رقم ٦٠٤٠ من رواية لكثير بن عبد الله المزنى . قال فى المجمع ج ٦ ص ١٣٠ : فيه كثير بن عبد الله المزنى وقد ضعفه الجمهور ، وحسنى الترمذى حديثه . وانظر تفسير القرطبى « تفسير سورة الأحزاب » ج ١٤ ص ١٢٩ فقد ورد الحديث بلفظه .

هنيئاً لك ، ثم هنيئاً لك بهذا الشرف الذى رفعك إليه سيد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه .

وخلاصة القول :

هذه نماذج كريمة لقوم جعل منهم الاسلام سادة وقادة .

لقد حاول الملأ من قريش أن يصرفوا نظر رسول الله — ﷺ — عن هؤلاء المستضعفين وقالوا له بلسان الكبرياء والصلف : إن أردتنا أن نؤمن بك ، فاطرد هؤلاء الصعاليك من حولك ، والله يشهد أنهم لكاذبون ، وأن قلوبهم قد ران عليها صدأ الجبروت والعناد .

فماذا كان جواب الاسلام على افترائهم ؟

لقد مروا برسول الله — ﷺ — ذات يوم فوجدوه قد بسط رداءه لهؤلاء المستضعفين وخفض لهم جناحه ، لأن الله رد على هؤلاء المتكبرين بقوله : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾[1] ، وقال أيضاً : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين** ﴾[2] . بل لقد كرمهم القرآن تكريماً دونه كل تكريم حيث قال تعالى : ﴿ **وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾[3] .

وكان السيد الجليل رسول الله — ﷺ — إذا لقيهم يقول : « مرحباً بمن أوصانى ربى بهم خيراً » .

---

(١) سورة الكهف الآية ٢٨
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٢
(٣) سورة الأنعام الآية ٥٤

الصيام

قوله تعالى : ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا** ﴾ .

وهكذا ينتقل بنا النظم الكريم إلى نوع آخر من الكفارات وهو صيام شهرين متتابعين . وهنا لابد لنا أن نعلم أن كفارة الظهار فى الصيام مثل كفارة من جامع زوجته فى نهار رمضان ومثل كفارة القتل الخطأ والتى قال الله فيها : ﴿ **فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً** ﴾(١) .

أما كفارة اليمين المنعقدة فقد قال فيها الله ـ تعالى ـ : ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون** ﴾(٢) .

ومن ثم ، فإننا نرى أن نبسط القول عن الصيام وأقسامه حتى نعطى صورة واضحة تنفع المسلم . فنقول وبالله التوفيق .

ما من شك فى أن الصيام طبيب للأبدان ، ولقد عجبت لسائل قال للإمام الباقلانى صاحب إعجاز القرآن قال له السائل : إن كتابكم خلا من الطب ، فقال له الامام على الفور : بل إن كتابنا جمع الطب فى نصف آية . قال : اقرأها ، قال الامام : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** ﴾(٣) . **فبُهت** الذى كفر .

والناظر فى كتاب الله ـ تعالى ـ يجده قد احتوى على الطب النفسانى . قال تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾(٤) .

كذلك احتوى على الطب الاجتماعى . قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾(٥) .

واحتوى على الصحة الوقائية . قال جل شأنه : ﴿ **حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ماذكيتم ..** ﴾(٦) .

---

(١) سورة النساء الآية ٩٢
(٢) سورة المائدة الآية ٨٩
(٣) سورة الأعراف الآية ٣١
(٤) سورة الزمر الآية ٥٣
(٥) سورة الروم الآية ٢١
(٦) سورة المائدة الآية ٣

واحتوى كذلك على الصحة الغذائية ، قال جل شأنه : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾[١] . هذا هو القرآن فى كماله وجماله وبهائه .

أما عن الصيام وماله من روعة وجلال ، فإنه أستاذ فى بناء النفوس على الخلق الكريم ، ولن نجنح هنا فى سبحات الخيال وآفاقه الشاسعة ، إنما تكفينا كلمة واحدة عقب بها المولى ــ تبارك اسمه ــ على الصيام وهى « لعلكم تتقون » بعدما قال سبحانه : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾[٢] ، وكلمة لعل تفيد الترجى ، وهو توقع حدوث الأمر المحبوب ، ولكن الترجى الذى يفيد التوقع لا يليق بذات الله لأن التوقع يفيد الجهل ، بالمستقبل والله ــ جل شأنه ــ علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون . إذن فلابد أن يكون المعنى هنا غير الترجى ، وعلى هذا فإنها ــ أى لعل ــ تفيد العلة والحكمة والغاية والهدف ، أى كتبنا عليكم الصيام لتتقوا . فما هى التقوى ؟ وأين مكانها ؟ يجيب على هذا السؤال الامام على ــ رضى الله عنه ــ فيقول :

التقوى : هى الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل .

أما مكانها ، فقد ورد فى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « **التقوى ها هنا ــ مشيراً إلى صدره الشريف** »[٣] إذن فهناك مناسبة كبرى وطيدة بين الصيام والإيمان والتقوى ، فالإيمان تصديق بالقلب . **قال ـ بعض السلف ـ : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل »** ، **وتقول آيات الكتاب العزيز : ﴿ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾**[٤] ، ﴿ **وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾[٥] .

والصيام عبادة سرية لا يطلع عليها الاعلام الغيوب . فقد تستطيع أن تأكل ملء بطنك وتشرب من الماء ما شئت ثم تخرج على الناس فى نهار رمضان تشكو شدة الظمأ ولوعة الجوع ، وأنت لا تدرى أن الله مطلع على ما تقول :

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٣٢

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب البر والصلة والآداب » باب « تحريم ظلم المسلم .. » الخ ج ٤ ص ١٩٨٦ حديث رقم ٣٢ / ٢٥٦٤ عن أبى هريرة من حديث طويل جاء فيه : « التقوى ههنا » .

(٤) سورة المجادلة الآية ٢٢

(٥) سورة النحل الآية ١٠٦

الله يــدرى كل مــا تضمـــر يعلـم مـا تخفـى ومـا تظهـر
وإن خــدعت النـــاس لم تستطع خداع من يطوى ومن ينشر

نعم الصيام عبادة سرية لذلك نسبها الله إليه : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به »(١) .

فإذا كان الإيمان محله القلب ، وإذا كان الصيام عبادة سرية ، وإذا كانت التقوى محلها القلب ، فإن القضايا التى ورد ذكرها فى الآية الكريمة كلها سرية لا يعلمها ولا يطلع عليها إلا الله . ومن ثم كان الصيام وسط بين الإيمان والتقوى ، لأن الإيمان يؤدى إلى الطاعة ، والطاعة تؤدى إلى التقوى . فهذا تسلسل منطقى قرآنى رائع ، إذ القرآن لفظ حامل ومعنى به قائم ، ورباط بينهما ناظم ، وعندما لا يؤدى الصيام إلى التقوى ، يكون هذا خداع عجيب :

تـعصى الإلـه وأنت تظهـر حبـه هـذا لعمـرى فى القيـاس بديـع
لـو كان حـبك صادقـاً لأطعتـه إن المحب لمن يحب مطيـــــع

لقد كان تركيز الاسلام دائماً فى تربية النفوس على تكوين وازع من داخل النفس يجعلها تخشى الله ، ومن ثم كانت اجابة المصطفى ــ صلوات ربى وسلامه عليه ــ شافية كافية واضية عندما قال له جبريل : أخبرنى عن الإحسان ، كانت الإجابة : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »(٢) . هذا ما يسميه الفلاسفة بالضمير ، ونحن نسميه بالوازع الداخلى الذى لا يهيمن عليه إلا علام الغيوب ، ولا يربى هذا الوازع إلا الإيمان والصيام والتقوى . فالنفس بطبيعتها إن لم يكن رقيبها من داخلها فلن تنضبط أبداً . **﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾**(٣) .

هذا الوازع الداخلى هو الذى جعل الزوجة الصالحة فى صدر الإسلام تقول لزوجها وهويستقبل

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٧ حديث رقم ١٦٣ / ١١٥١ فقد ورد هذا ضمن حديث طويل لأبى هريرة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب « بيان الايمان والاسلام والاحسان .. الخ » ج ١ ص ٣٦ ــ ٣٧ حديث رقم ١ / ٨ فقد ورد هذا ضمن حديث طويل لعبد الله بن عمر .

(٣) سورة المجادلة الآية ٢

يومه سعياً وراء لقمة العيش : يا هذا اتق الله ولا تأكل حراماً إننا نستطيع أن نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نستطيع أن نصبر على عذاب النار يوم القيامة . فإذا عاد من عمله بادرته قائلة : كم نزل اليوم من القرآن وكم حفظت من حديث رسول الله .

إذا كان الصيام يؤدى إلى تقوى الله فإن التقوى هى السلاح الأقوى . قيل لرسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ : ما أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ قال : « تقوى الله وحسن الخلق » قيل : فما أكثر ما يدخل الناس النار ؟ قال : « **البطن والفرج** »[1] .

ولذا ورد فى الحديث الشريف : « من أصبح وهمه تقوى الله وقاه الله هم الدنيا والآخرة .

إن هذا السلاح القوى هو الذى جعل راعى الغنم ينال جائزة الدولة التقديرية من أمير المؤمنين عمر ، وهو يتفقد حال الرعية . قال لراعى الغنم : يا غلام ، أعطنا غنمة نتغذى بها . فقال له الغلام : إنها ملك سيدى . قال له أمير المؤمنين ـــ والراعى لا يدرى من المتحدث ـــ : نشتريها منك ونثر أمامه شيئاً من الدنانير والدراهم ، وللدنانير بريقها الذى يسيل لها لعاب المرضى ، وللدراهم رنينها الذى تنخلع له قلوب ضعفاء الإيمان . قال الراعى : وإذا سألنى سيدى عنها فماذا أقول له ؟ قال له عمر : قل له أكلها الذئب ، فانتفض الراعى انتفاضة العصفور إذا بلله ماء المطر وقال له : يا هذا ، وإذا كذبت على سيدى الأصغر فأين الله ؟ أين الله ؟ أين الله ؟

ولم يستطع عمر بعد ذلك أن يتكلم فقد انعقد لسانه بعد ما شعر بقشعريرة تنتاب بدنه وكأنه يقف فى وهدة سحيقة ويطل بناظريه إلى قمة شماء تنخلع الرقاب عند ذراها ، وانطلق إلى سيد الغلام واشترى منه الغنم كلها والعبد فأعتق العبد ووهبه الغنم وقال أنقذته كلمته هذه من رق الدنيا وأرجو أن تنقذه من عذاب النار يوم القيامة .

---

(١) الترغيب والترهيب « كتاب الأدب » الترغيب فى الخلق الحسن وفضله .. الخ » ج ٣ ص ٤٠٣ فقد ورد الحديث رقم ٤ من رواية لأبى هريرة ، وقال : رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح غريب .
وانظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب ما جاء فى حسن الخلق ج ٣ ص ٢٤٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة رقم ٢٠٧٢ .

لولا أن هناك فى النفس وازع يراقب الله فى تصرفاته ، ما كان هناك شيء يجدى ، فالأجهزة بمختلف أشكالها وألوانها لا تستطيع أن تديم المراقبة إذ تعتريها فترات غفلة وركود ، أما الذى لا يغفل ولا ينام صاحب المملكة الدائمة والعظمة القائمة فكل شيء قائم به وكل شيء خاشع له ، عز كل ذليل ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، ومفزع كل ملهوف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ، سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، فأى رتبة فى الدنيا تنال من القوة مثلما للتقوى من قوة . ومن هنا فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »(١) .

إن التقوى هى الركيزة الحقيقية للأخلاق .

النفس تجزع أن تكون فقيرة ... والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف فإن أبت ... فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

وقف الامام على ـ رضى الله عنه ـ ذات يوم بين المقابر ومعه بعض الأصحاب ، ونادى على الأموات : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون وإنا ان شاء الله بكم لاحقون . أما أموالكم فقد قسمت ، وأما دياركم فقد سكنت ، وأما نساؤكم فقد تزوجن بغيركم ، هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثم نظر إلى أصحابه وقال : والله لو شاء الله لهم أن يتكلموا لقالوا : إن خير الزاد التقوى صدقت يا أمير المؤمنين .

إذا المرء لم يلبس ثياباً من التقى ... تقلب عرياناً ولو كان كاسياً
وخير لباس المرء طاعة ربه ولا خير ... فيمن كان لله عاصياً

إن الله تعالى : أعد للمتقين جنة عرضها السموات والأرض ، ثم وصفهم بصفات لا تسامى ولا يلحق بها ولا يشق لها غبار ، قال ـ جل شأنه ـ : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ۝ الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾(٢) .

---

(١) الترغيب والترهيب « كتاب الأدب » الترغيب ف يالخلق الحسن وفضله .. الخ » ج ٣ ص ٤٠٩ حديث رقم ٣٠ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى ذر ـ رضى الله عنه ـ رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .
وانظر سنن الترمذى « أبواب البر والصلة » باب « ما جاء فى معاشرة الناس » ج ٣ ص ٢٣٩ حديث رقم ٢٠٥٣ من رواية لأبى هريرة .
(٢) سورة آل عمران الآيتان ١٣٣ ـ ١٣٤

إن هذه الآيات تتنزل على قلوب الطائعين كما تنزل قطرات الندى على الزهرة الظمأى .

كان للمأمون بن هارون الرشيد خادم يصب له الماء فوقع الإبريق من يديه فى الطست فطار الرشاش على وجه الأمير فاشتد غضبه وانتفخت أوداجه فنظر إليه الخادم فى هدوء وسكينة وقال له : يا سيدى ، أو ما قرأت قوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ قال الأمير : كظمت غيظى ، قال الخادم : ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ قال الأمير : عفوت عنك ، قال الخادم : ﴿ **والله يحب المحسنين** ﴾ قال الأمير : اذهب فأنت حر لوجه الله ولك منى ألف درهم فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحول القلوب من ثورة الغضب إلى رحاب السكينة إنها صفة من صفات التقوى .

لا تركنن إلى الدنيا وما فيها ... **فالموت لا شك يفنينا ويفنيها**

واعمل لدار غداً رضوان خازنها ... والجار أحمد والرحمن ناشيها

قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

تباركت ربنا وتعاليت ، ولك الحكمة البالغة عندما أمرتنا بالصيام ، وجعلته فريضة على أمة الاسلام ، وجعلت الغرض منه والهدف الأعلى تقواك ، وجعلت التقوى خوفاً من الجليل وعملاً بالتنزيل ، ورضاً بالقليل ، واستعداداً ليوم الرحيل ، وصدق رسولك الكريم إذ أشار إلى صدره مبيناً مكان التقوى . فيا أمة الاسلام ، لا تجعلوا الصيام إمساك عن شهوتى البطن والفرج فحسب . إنه بهذا المعنى جسد بلا روح ، وشمس بلا ضوء ، وقمر بلا نور ، إنما حقيقة الصيام أن تصوم جوارحكم عما يغضب الله مع إمساك الجسد عن الأكل والشرب والشهوة ، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والله ــ تعالى ــ يوفقنا لما فيه رضاه .

قال الفقهاء

الصيام يطلق على الإمساك . قال الله تعالى : ﴿ **إنى نذرت للرحمن صوماً** ﴾[1] أى : إمساكاً عن الكلام .

والمقصود به هنا : الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية .

(١) سورة مريم الآية ٢٦

فضله :

١ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لى [إضافته إلى الله إضافة تشريف] ، وأنا أجزى به .

هذا الحديث بعضه قدسى وبعضه نبوى ، فالنبوى من قوله : « والصيام جنة إلى آخر الحديث » ، والصيام جُنة [مانع من المعاصى] فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث [الرفث : هو الفحش فى القول] ولا يصخب [لا يصيح] ، ولا يجهل [أى : لا يسفه] ، فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل : إنى صائم مرتين ، والذى نفس محمد بيده لخلوف [الخلوف تغير رائحة الفم بسبب الصوم] فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك ، « وللصائم فرحتان يفرحهما : إذا فطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربه فرح بصومه »(١) رواه أحمد ومسلم والنسائى .

٢ ــ ورواية البخارى وأبى داود : « الصيام جُنة ، فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل ، فإن إمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إنى صائم مرتين ، والذى نفس محمد بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلى ، الصيام لى وأنا أجزى به ، والحسنة بعشر أمثالها »(٢) .

٣ ــ وعن عبد الله بن عمرو ، أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة ، يقول الصيام : أى [حرف نداء بمعنى « ي » أى : يارب] رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعنى فيه . ويقول القرآن : منعته النوم بالليل فشفعنى فيه ، فيشفعان [أى : تقبل شفاعتهما](٣) رواه أحمد بسند صحيح .

٤ ــ وعن أبى أمامة قال : أتيت رسول الله ــ ﷺ ــ فقلت : مرنى بعمل يدخلنى الجنة . قال : « عليك بالصوم فإنه لا عَدل له [أى : لا مثل له] ، ثم أتيته الثانية ، فقال : « عليك بالصيام »(٤) . رواه أحمد والنسائى والحاكم وصححه .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٧ حديث رقم ١٦٣ / ١١٥١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

وانظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « هل يقول إنى صائم » ج ١ ص ٣٢٦ فقد الحديث عن أبى هريرة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « فضل الصوم » ج ١ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب فضائل القرآن » ج ١ ص ٥٥٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عبد الله بن عمرو . وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

وانظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « الترغيب فى الصوم مطلقا ، وما جاء فى فضله وفضل دعاء الصائم » ج ٢ ص ٨٤ حديث رقم ١٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن عمر .

٥ ــ وعن أبى سعيد الخدرى[١] ـ رضى الله عنه ــ أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « لا يصوم عبد يوماً فى سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم النار عن وجهه سبعين خريفاً »[٢] رواه الجماعة إلا وأبو داود

٦ ــ وعن سهل بن سعد أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « إن للجنة باباً يقال له الريان . يقال يوم القيامة : أين الصائمون ؟ فإذا دخل آخرهم أغلق ذلك الباب »[٣] رواه البخارى ومسلم .

أقسامه

قال الفقهاء : ينقسم الصيام إلى قسمين : فرض وتطوع . أما الفرض فينقسم إلى أربعة أقسام : رمضان ، وقضاؤه ، والنذر ، والكفارات ولما تحدثنا عن أنواع الكفارات وقلنا : إن الكفارة إما أن تكون كفارة ظهار ، أو جماع فى نهار رمضان ، أو قتل خطأ ، أو يمين منعقدة . لما كان ذلك كذلك ، فسوف نفصل الكلام هنا عن صيام رمضان لكونه أحد الأركان التى بنى عليها الإسلام . ثم بعد ذلك نفصل القول فى صيام التطوع . فنقول وبالله التوفيق :

صوم رمضان

حكمه : ــ

صوم رمضان واجب بالكتاب والسنة والإجماع . فأما الكتاب : فقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب[٤] عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[٥] ، وقال : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد[٦] منكم الشهر فليصمه** ﴾[٧] .

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب الصوم » ج ١ ص ٤٢١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أمامة . وانظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٤٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أمامة .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام فى سبيل الله .. الخ » ج ٢ ص ٨٠٨ حديث ١٦٧ / ١١٥٣ فقد ورد الحديث عن أبى سعيد الخدرى بلفظه : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفان وانظر الحديث رقم ١٦٨ بعده .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب فى « صيام يوم فى سبيل الله » ج ١ ص ٥٤٧ ، ٥٤٨ حديث ١٧١٧ عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الريان للصائمين » ج ١ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث من رواية لسهل بن سعد مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٤) كتب : فرض

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٦) شهد : حضر

(٧) سورة البقرة الآية ١٨٥

وأما السنة : فقول النبى ــ ﷺ ــ : « بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان وحج البيت »[١] .

وفى حديث طلحة بن عبيد الله : أن رجلاً سأل النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أخبرنى عما فرض الله علىَّ من الصيام ؟ قال : « شهر رمضان » .

قال : هل علىّ غيره ؟ قال : « لا . إلا أن تطوّع »[٢] .

وأجمعت الأمة : على وجوب صيام رمضان . وأنه أحد أركان الإسلام التى عُلِمت من الدين بالضرورة ، وأن منكره كافر مرتد عن الاسلام . وكانت فرضيته يوم الاثنين ، لليلتين خلتا من شعبان من السنة الثانية من الهجرة .

فضل شهر رمضان وفضل العمل فيه

١ ــ عن أبى هريرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : لما حضر رمضان « قد جاءكم شهر مبارك افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبوابُ الجنة وتغلق فيه أبواب الجحيم وتغلّ فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم »[٣] رواه أحمد والنسائى والبيهقى .

٢ ــ وعن عرفجة قال : كنت عند عتبة بن فرقد وهو يحدث عن رمضان قال : فدخل علينا رجل من أصحاب محمد ــ ﷺ ــ ، فلما رآه عتبة هابه فسكت . قال : فحدث عن رمضان . قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « فى رمضان تغلق فيه أبواب النار وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتصفد فيه الشياطين . قال : وينادى فيه ملك : يا باغى الخير أبشر ، ويا باغى الشر أقصر ، حتى ينقضى رمضان »[٤] . رواه أحمد والنسائى وسنده جيد .

٣ ــ وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »[٥] رواه مسلم .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الإيمان » باب « دعاؤكم إيمانكم » ج ١ ص ١١ فقد ورد الحديث من رواية ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ بلفظ « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان » .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « وجوب صوم رمضان » .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٨٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر مسند الامام احمد ج ٤ ص ٣١٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن عرفجة .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الطهارة » باب « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة .. الخ » ج ١ ص ٢٠٩ حديث رقم ١٦ / ٢٣٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

٤ ــ وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ــ ﷺ ــ قال : من صام رمضان وعرف حدوده وتحفظ مما كان ينبغى أن يتحفظ منه ، كفر ما قبله »[١] . رواه أحمد والبيهقى بسند جيد .

٥ ــ وعن أبى هريرة . قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً (طالباً وجه الله وثوابه) غفر له ما تقدم من ذنبه »[٢] رواه أحمد وأصحاب السنن .

الترهيب من الفطر فى رمضان

١ ــ عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « عُرَى الاسلام وقواعد الدين ثلاثة عليهن أسس الاسلام ، من ترك واحدة منهن فهو بها كافر حلال الدم : شهادة أن لا إله إلا الله ، والصلاة المكتوبة ، وصوم رمضان »[٣] رواه أبو يعلى والديلمى وصححه الذهبى .

٢ ــ وعن أبى هريرة : أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « من أفطر يوماً من رمضان فى غير رخصة رخصها الله له ، لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه »[٤] رواه أبو داود وابن ماجه والترمذى . وقال البخارى : ويذكر عن أبى هريرة رفعه : « من أفطر يوماً من رمضان من غير عذر ولا مرض لم يقضه صوم الدهر وإن صامه »[٥] وبه قال ابن مسعود .

قال الذهبى : وعند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض : أنه شر من الزانى ومدمن الخمر ، بل يشكّون فى إسلامه ويظنون به الزندقة والانحلال » .

أركان الصوم

للصيام ركنان تتركب منهما حقيقته :

١ ــ الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « فضل ليلة القدر » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة وزاد « ... ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » وانظر ص ٣٢٥ باب من صام رمضان إيماناً واحتساباً .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « الترهيب من إفطار شىء عن رمضان من غير عذر » ج ٢ ص ١٠١ ــ ١٠٢ حديث رقم ٣ فقد ورد بلفظه من رواية لابن عباس .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب ما جاء « فى كفارة من أفطر يوما من رمضان » ج ١ ص ٥٣٥ حديث ١٦٧٢ فقد ورد عن أبى هريرة ولفظه : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « من أفطر يوما من رمضان من غير رخصة ، لم يجزه صيام الدهر كله » .

(٥) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « إذا جامع فى رمضان » ج ١ ص ٣٣١ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

لقول الله ــ تعالى ــ : ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾[١] .

والمراد بالخيط الأبيض والخيط الأسود بياض النهار وسواد الليل .

لما رواه البخارى ومسلم : أن عدى بن حاتم قال : لما نزلت : (حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض فجعلتهما تحت وسادتى ، فجعلت أنظر فى الليل فلا يستبين لى ، فغدوت على رسول الله ــ ﷺ ــ فذكرت له ذلك فقال : « إنما ذلك سواد الليل وبياض النهار »[٢] .

٢ ــ النية . لقوله تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾[٣] .

وقوله ــ ﷺ ــ : « **إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل إمرىء ما نوى** »[٤] ولابد أن تكون قبل الفجر ، من كل ليلة من ليالى شهر رمضان .

لحديث حفصة قالت : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « من لم يجمع (يجمع من الإجماع ، وهو إحكام النية والعزيمة) الصيام قبل الفجر فلا صيام له »[٥] رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه ابن **خزيمة وابن حبان** .

وتصح فى أى جزء من أجزاء الليل ، ولا يشترط التلفظ بها فإنها عمل قلبى لا دخل للسان فيه ، فإن حقيقتها القصد إلى الفعل امتثالاً لأمر الله ــ تعالى ــ وطلباً لوجهه الكريم .

فمن تسحّر بالليل قاصداً الصيام تقرباً إلى الله بهذا الإمساك فهو ناوٍ .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب قوله تعالى : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .. الخ » ج ١ ص ٣٢٨ فقد ورد الحديث عن رواية لعدى ابن حاتم .

(٣) سورة البينة الآية

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الوحى » ج ١ ص ٥ ، ٦ فقد ورد الحديث من رواية لعمر بن الخطاب .

(٥) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب ما جاء « فى فرض الصوم من الليل .. الخ » ج ١ ص ٥٤٢ فقد الحديث رقم ١٧٠٠ عن حفصة بلفظ : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « لا صيام لمن لم يفرضه من الليل » ومعنى لم يفرضه : لم ينوه .

ومن عزم على الكف عن المفطرات أثناء النهار مخلصاً لله فهو ناوٍ كذلك وإن لم يتسحر .

وقال كثير من الفقهاء : إن نية صيام التطوع تجزى من النهار إن لم يكن قد طعم .

قالت عائشة : دخل على النبى — ﷺ — ذات يوم فقال : « هل عندكم شيء ؟ قلنا : لا . قال : فإنى صائم »(١) رواه مسلم وأبو داود . واشترط **الأحناف** أن تقع النية قبل الزوال ، وهذا هو المشهور من قولى — الشافعى ، وظاهر قولى ابن مسعود وأحمد : أنها تجزىء قبل الزوال وبعده على السواء .

على من يجب

أجمع العلماء : على أنه يجب الصيام على المسلم العاقل البالغ الصحيح المقيم ، ويجب أن تكون المرأة طاهرة من الحيض والنفاس .

فلا صيام على كافر ولا مجنون ولا صبى ولا مريض ولا مسافر ولا حائض ولا نفساء ولا شيخ كبير ولا حامل ولا مرضع .

وبعض هؤلاء لا صيام عليهم مطلقاً : كالكافر والمجنون ، وبعضهم يطلب من وليّه أن يأمره بالصيام ، وبعضهم يجب عليه الفطر والقضاء ، وبعضهم يرخص لهم فى الفطر وتجب عليه الفدية ، وهذا بيان كل على حدة :

صيام الكافر والمجنون : —

الصيام عبادة إسلامية ، فلا تجب على غير المسلمين ، والمجنون غير مكلف ، لأنه مسلوب العقل الذى هو مناط التكاليف ، وفى حديث على رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « رُفع القلم عن ثلاثة : عن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبى حتى يحتلم »(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب جواز صوم النافلة بقية من النهار .. الخ ج ٢ ص ٨٠٩ حديث رقم ١٧٠ / ١١٥٤ فقد ورد من حديث طويل لعائشة ، وانظر الحديث قبله ١٦٩ / ١١٥٤ لعائشة أيضا .

(٢) انظر سنن أبى داود « كتاب الحدود » باب فى المجنون يسرق أو يصيب أحد ج ٤ ص ٥٥٩ فقد ورد الحديث رقم ٤٤٠١ من رواية لعلى .

صيام الصبى :

والصبى . وإن كان الصيام غير واجب عليه ، إلا أنه ينبغى لولى أمره أن يأمره به ليعتاده من الصغر مادام مستطيعاً له وقادراً عليه .

فعن الربيع بنت معوذ قالت : أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ صبيحة عاشوراء ـ إلى قرى الأنصار : من كان أصبح صائماً فليتم صومه ، ومن كان أصبح مفطراً فليصم بقية يومه ، فكنا نصومه بعد ذلك ، ونصوّم صبياننا الصغار منهم ، ونذهب إلى المسجد فنجعل لهم اللعبة من العهن (الصوف) فإذا بكى أحدهم من الطعام أعطيناه إياه ، حتى يكون عند الإفطار »[١] رواه البخارى ومسلم .

● من يرخص لهم فى الفطر وتجب عليهم الفدية : ـ

يرخص الفطر للشيخ الكبير ، والمرأة العجوز ، والمريض الذى لا يرجى برؤه وأصحاب الأعمال الشاقة الذين لا يجدون متسعاً من الرزق غير ما يزاولونه من أعمال هؤلاء جميعاً يرخص لهم الفطر إذا كان الصيام يجهدهم يشق عليهم مشقة شديدة فى جميع فصول السنة .

عليهم أن يطعموا عن كل يوم مسكيناً ، وقدّر ذلك بقدر صاع (قدح وثلث) أو نصف صاع أو مد ، على خلاف فى ذلك ولم يأت من السنة ما يدل على التقدير .

قال ابن عباس : « رخص للشيخ الكبير أن يفطر ويطعم عن كل يوم مسكيناً ولا قضاء عليه »[٢] رواه الداقطنى والحاكم وصححاه .

وروى البخارى عن عطاء : أنه سمع ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ يقرأ : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾[٣] قال ابن عباس ليست بمنسوخة وهى للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً (مذهب مالك وابن حزم أنه لا قضاء ولا فدية) .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب صوم الصبيان ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث من رواية الربيع بنت معوذ . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب من أكل فى عاشوراء فليكف بقية يومه ج ٢ ص ٧٩٨ ، ٧٦٩ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية الربيع بنت معوذ برقم ١٣٦ / ١١٣٦ .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب الصوم » ج ١ ص ٤٤٠ فقد الحديث من رواية لابن عباس . وقال : هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه وفيه الدليل .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٤

والمريض الذى لا يرجى برؤه ويجهده الصوم مثل الشيخ الكبير . وكذلك العمال الذين يضطلعون بمشاق الأعمال بصورة دائمة .

قال الشيخ محمد عبده : فالمراد بمن « يطيقونه » فى الآية الشيوخ الضعفاء والزمنى (المرضى مرضاً مزمناً لا يبرأ) ونحوهم ، كالفعلة الذين جعل الله معاشهم الدائم بالأشغال الشاقة كاستخراج الفحم الحجرى من مناجمه .

ومنهم المجرمون الذين يحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة إذا شق الصيام عليهم بالفعل وكانوا يملكون الفدية .

والحبلى والمرضع إذا خافتا على أولادهما (ومعرفة ذلك بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن) أفطرتا وعليهما الفدية ولا قضاء عليهما عند ابن عمر وابن عباس .

روى أبو داود عن عكرمة ان ابن عباس قال فى قوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه** ﴾ ، كانت رخصة للشيخ الكبير والمرأة الكبيرة وهما يطيقان الصيام أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم مسكيناً ، والحبلى والمرضع إذا خافتا « يعنى على أولادهما » أفطرتا وأطعمتا »[1] رواه البزار .

وزاد فى آخره : وكان ابن عباس يقول لأم ولدٍ له حبلى : « أنت بمنزلة الذى لا يطيقه ، فعليك الفداء ولا قضاء عليك »[2] . وصحح الدار قطنى إسناده . وعن نافع أن ابن عمر سئل عن المرأة الحامل إذا خافت على ولدها . فقال : تفطر وتطعم مكان كل يوم مسكيناً مدّاً (ربع قدح من قمح) من حنطة . رواه مالك والبيهقى .

وفى الحديث : « إن الله وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة ، وعن الحبلى والمرضع الصوم »[3] .

---

(١) انظر سنن أبى داود « كتاب الصوم » باب من قال : هى مثبتة للشيخ والحبلى ج ٤ ص ٧٣٨ فقد ورد الحديث ٢٣١٨ من رواية لسعيد بن جبير عن ابن عباس وهو موافق للحديث الذى معنا .

(٢) انظر مسند البيهقى « كتاب الصيام » باب « الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أفطرتا وتصدقتا عن كل يوم بد من حنطة ثم قضتا » ج ٤ ص ٢٣٠ فقد ورد الحديث عن نافع عن ابن عمر .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٥ ص ٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأنس . وانظر ج ٤ ص ٣٤٧ من المرجع نفسه .

وعند الأحناف وأبى عبيد وأبى ثور : أنهما يقضيان فقط ، ولا إطعام عليهما . وعند أحمد والشافعى : أنهما إن خافتا على الولد فقط وأفطرتا فعليهما القضاء والفدية ، وإن خافتا على أنفسهما فقط ، أو على أنفسهما وعلى ولدهما فعليهما القضاء لا غير .

من يرخص لهم فى الفطر ويجب عليهم القضاء :

يباح الفطر للمريض الذى يرجى برؤه والمسافر ويجب عليهما القضاء ، قال الله تعالى : ﴿ **ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾[١] . وروى أحمد وأبو داود والبيهقى بسند صحيح من حديث معاذ . قال : ان الله ــ تعالى ــ فرض على النبى ــ ﷺ ــ الصيام . فأنزل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ ، فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً ، فأجزأ ذلك عنه . ثم إن الله تعالى أنزل الآية الأخرى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾ إلى قوله : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ . فأثبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر ، وأثبت الإطعام للكبير الذى لا يستطيع الصيام .

والمرض المبيح للفطر هو المرض الشديد الذى يزيد بالصوم ، أو يخشى تأخر برته (يعرف ذلك ، إما بالتجربة أو بإخبار الطبيب الثقة أو بغلبة الظن) .

قال فى المغنى : وحكى عن بعض السلف أنه أباح الفطر بكل مرض حتى من وجع الإصبع والضرس : لعموم الآية فيه ، ولأن المسافر يباح له الفطر وإن لم يحتج إليه ، فكذلك المريض ، وهذا مذهب البخارى وعطاء وأهل الظاهر . والصحيح الذى يخاف المرض بالصيام يفطر مثل المريض ، وكذلك من غلبه الجوع أو العطش فخاف الهلاك لزمه الفطر وإن كان صحيحاً مقيماً وعليه القضاء . قال الله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً** ﴾[٢] .

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .
(٢) سورة النساء الآية ٢٩

وقال تعالى : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[١] .

وإذا صام المريض وتحمل المشقة صح صومه ، إلا أنه يكره له ذلك لإعراضه عن الرخصة التى يحبها الله وقد يلحقه بذلك ضرر .

وقد كان بعض الصحابة يصوم على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ وبعضهم يفطر متابعين فى ذلك فتوى الرسول ـ ﷺ ـ .

قال حمزة الأسلمى : يا رسول الله ، أجد منى قوة على الصوم فى السفر ، فهل علىّ جناح ؟ فقال : « هى رخصة من الله ـ تعالى ـ فمن أخذ بها فحسن ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه »[٢] رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سافرنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى مكة ونحن صيام . قال : فنزلنا منزلاً ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم ، فكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلاً آخر فقال : إنكم مصبّحو عدوكم ، والفطر أقوى لكم فافطروا ، فكانت عزمة ، فأفطرنا ، ثم رأيتنا بعد ذلك نصوم مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى السفر »[٣] رواه أحمد ومسلم وأبو داوود .

وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : ـ « **كنا نغزو مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى رمضان فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا يجد الصائم على المفطر (أى لا يعيب عليه) ولا المفطر على الصائم ، يرون أن من وجد قوة فصام فإن ذلك حسن ، ويرون أن من وجد ضعفاً فأفطر ، فإن ذلك حسن** »[٤] رواه أحمد ومسلم .

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب التخيير فى الصوم والفطر فى السفر » ج ٢ ص ٧٩٠ حديث رقم ١٠٧ / ١١٢١ فقد ورد الحديث عن حمزة بن عمرو الأسلمى .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أجر المفطر فى الصوم إذا تولى العمل » ج ٢ ص ٧٨٩ فقد ورد الحديث برقم ١٠٢ / ١١٢٠ من رواية أبى سعيد الخدرى .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « جواز الصوم والفطر فى شهر رمضان للمسافر .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٧ فقد ورد الحديث رقم ٩٦ / ١١١٦ من رواية أبى سعيد الخدرى .

وقد اختلف الفقهاء فى أيهما أفضل ؟ ..

فرأى أبو حنيفة والشافعى ومالك : أن الصيام أفضل لمن قوى عليه ، والفطر أفضل لمن لا يقوى على الصيام :.

وقال أحمد : الفطر أفضل .

وقال عمر بن عبد العزيز : أفضلهما أيسرهما ، فمن يسهل عليه حينئذ ، ويشق عليه قضاؤه بعد ذلك ، فالصوم فى حقه أفضل .

وحقق الشوكانى فرأى أن من كان يشق عليه الصوم ، ويضره ، وكذلك من كان معرضاً عن قبول الرخصة فالفطر أفضل ، وكذلك من خاف على نفسه العُجْبَ أو الرياء إذا صام فى السفر فالفطر فى حقه أفضل .

وما كان من الصيام خالياً عن هذه الأمور فهو أفضل من الإفطار . وإذا نوى المسافر الصيام بالليل وشرع فيه جاز له الفطر أثناء النهار .

فعن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — : « أن رسول الله — ﷺ — خرج إلى مكة عام الفتح فصام حتى بلغ كراع الغميم (اسم واد أمام عسفان) وصام الناس معه . فقيل له : إن الناس قد شق عليهم الصيام ، وإن الناس ينظرون فيما فعلت . فدعا بقدح من ماء بعد العصر فشرب والناس ينظرون إليه . فأفطر بعضهم وصام بعضهم ، فبلغه أن ناساً صاموا . فقال : أولئك العصاة » . (لأنه عزم عليهم فأبوا وخالفوا الرخصة)[1] رواه مسلم والنسائى والترمذى وصححه .

وأما إذا نوى الصوم وهو مقيم ثم سافر أثناء النهار فقد ذهب جمهور العلماء إلى عدم جواز الفطر له . وأجازه أحمد واسحاق .

كما رواه الترمذى وحسّنه عن محمد بن كعب قال : أتيت فى رمضان أنس بن مالك وهو يريد سفراً ، وقد رُحّلت له راحلته ولبس ثياب السفر فدعا بطعام فأكل . فقلت له : سُنة ؟ فقال : سنة . ثم ركب .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب جواز الصوم والفطر فى شهر رمضان للمسافر فى غير معصية .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٥ فقد ورد الحديث برقم ٩٠ / ١١١٤ من رواية جابر بن عبد الله .

وعن عبيد بن جبير قال : ركبت مع أبى بصرة الغفارى فى سفينة من الفسطاط (مصر القديمة) فى رمضان ، فدفع ثم قرب غداءه . ثم قال : اقترب ، فقلت ألست بين البيوت . فقال أبو بصرة : أرغبت عن سنة رسول الله ﷺ (إستفهام إنكارى) ؟ رواه أحمد وأبو داوود ورجاله ثقات .

قال الشوكانى : والحديثان يدلان على أن للمسافر أن يفطر قبل خروجه من الموضع الذى أراد السفر منه .

وقال ابن العربى : وأما حديث أنس فصحيح يقتضى جواز الفطر مع أهبة السفر ، وقال : وهذا هو الحق .

والسفر المبيح للفطر : هو السفر الذى تقصر الصلاة بسببه ، ومدة الإقامة التى يجوز للمسافر أن يفطر فيها هى المدة التى يجوز له أن يقصر الصلاة فيها .

وقد روى أحمد وأبو داوود والبيهقى والطحاوى عن منصور الكلبى : أن دحية بن خليفة خرج من قرية من دمشق مرّة إلى قدر عقبة (أى أن المسافة التى قطعها من القرية التى خرج منها تعدل المسافة التى بين مصر القديمة وميت عقبة المجاورة لإمبابة وقدرت هذه المسافة بفرسخ) . من الفسطاط فى رمضان ، ثم إنه أفطر وأفطر معه ناس ، وكره آخرون أن يفطروا .

فلما رجع إلى قريته قال : والله لقد رأيت اليوم أمراً ما كنت أظن أن أراه : إن قوماً رغبوا عن هدى رسول الله ــ ﷺ ــ وأصحابه . يقول ذلك للذين صاموا ، ثم قال عند ذلك : اللهم اقبضنى إليك .

من يجب عليه الفطر والقضاء معاً :

اتفق الفقهاء : على أنه يجب الفطر على الحائض والنفساء ويحرم عليهما الصيام ، وإذا صاما لا يصح صومهما ويقع باطلاً وعليهما قضاء ما فاتهما .

روى البخارى ومسلم عن عائشة . قالت : كنا نحيض على عهد رسول الله ــ ﷺ ــ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة »[١] .

الأيام المنهى عن صيامها

جاءت الأحاديث مصرحة بالنهى عن صيام أيام نبينها فيما يلى :

١ ــ النهى عن صيام يومى العيدين :

أجمع العلماء على تحريم صوم يومى العيدين ، سواء أكان الصوم فرضاً أو تطوعاً .

لقول عمر رضى الله عنه : « إن رسول الله ــ ﷺ ــ نهى عن صيام هذين اليومين . أما يوم الفطر ، ففطركم من صومكم (أى الفطر من صيام رمضان) ، وأما يوم الأضحى ، فكلوا من نسككم (النسك : الأضاحى)[٢] رواه أحمد والأربعة .

٢ ــ النهى صوم أيام التشريق :

لا يجوز صيام الأيام الثلاثة التى تلى عيد النحر :

لما رواه أبو هريرة أن رسول الله ــ ﷺ ــ بعث عبد الله بن حذافة يطوف فى منى . « أن لا تصوموا هذه الأيام ، فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل »[٣] رواه أحمد بإسناد جيد .

وروى الطبرانى فى الأوسط عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : « أن رسول الله ــ ﷺ ــ

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الحيض » باب لاتقضى الحائض الصلاة ج ١ ص ٦٧ فقد ورد أن امرأة قالت لعائشة : أتجزى احدانا صلاتها إذا طهرت . فقالت أحرورية أنت ؟ كنا نحيض مع النبى ــ ﷺ ــ فلا يأمرنا به أو قالت فلا تفعله » وانظر ص ٣٣٤ باب تترك الحائض الصوم والصلاة .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الحيض » باب « وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة » ج ١ ص ٢٦٤ حديث رقم ٦٩ / ٣٣٥ فقد ورد عن معاذة قالت : سألت عائشة فقلت : ما بال الحائض تقضى الصوم ولا تقضى الصلاة ؟ فقالت : أحرورية أنت ؟ قلت : لست بحرورية : ولكنى أسأل . قالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الفطر » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد عن أبى عبيد مولى ابن أزهر قال : شهدت العيد مع عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فقال : هذان يومان نهى رسول الله ــ ﷺ ــ عن صيامهما : يوم فطركم من صيامكم واليوم الآخر تأكلون فيه من نسككم .
وعن أبى سعيد ــ رضى الله عنه ــ قال : نهى النبى ــ ﷺ ــ عن صوم يوم الفطر والنحر .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن صوم يوم الفطر ويوم الأضحى » ج ٢ ص ٧٩٩ حديثه ١٣٨ / ١١٣٧

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٥١٣ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

أرسل صائماً يصيح : أن لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب والعال (جماع الرجل زوجته)[١] .

وأجاز أصحاب الشافعى صيام أيام التشريق فيما له سبب من نذر أو كفارة أو قضاء .

أما ما لا سبب له فلا يجوز فيها بلا خلاف .

وجعلوا هذا نظير الصلاة التى لها سبب فى الأوقات المنهى عن الصلاة فيها .

٣ ــ النهى عن صيام يوم الجمعة منفرداً :

يوم الجمعة عيد أسبوعى للمسلمين ، ولذلك نهى الشارع عن صيامه . وذهب الجمهور : إلى أن النهى للكراهة (وعن أبى حنيفة ومالك : لا يكره ، والأدلة المذكورة حجة عليهما) لا للتحريم إلا إذا صام يوما قبله أو يوما بعده أو وافق عادة له أو كان يوم عرفة أو عاشوراء ، فإنه حينئذ لا يكره صيامه .

فعن عبد الله بن عمرو : « أن رسول الله ﷺ دخل على جويرية بنت الحارث وهى صائمة فى يوم الجمعة فقال لها : أصمت أمس ؟ فقالت : لا . قال : أتريدين أن تصومى غداً ؟ قالت : لا . قال : فأفطرى إذن »[٢] . رواه أحمد والنسائى بسند جيد .

وعن عامر الاشعرى قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « إن يوم الجمعة عيدكم فلا تصوموه إلا أن تصوموا قبله أو بعده »[٣]

وقال على ــ رضى الله عنه ــ : من كان منكم متطوعاً فليصم يوم الخميس ولا يصم يوم الجمعة ، فإنه يوم طعام وشراب وذكر[٤] . رواه ابن أبى شيبة بسند حسن وفى الصحيحين من حديث جابر رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : « لا تصوموا يوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم » .

---

(١) انظر مجمع الزوائد « كتاب الصيام » باب « نهى عن صيامه من أيام التشريق وغيرها » ج ٣ ص ٢٠٣ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الجمعة » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى أيوب عن جويرية بنت الحارث .

(٣) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ٣٠٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة بلفظ « إن يوم الجمعة يوم عيد فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده » .

(٤) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٤٩٥ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

وفى لفظ لمسلم : ولا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالى ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام ، إلا أن يكون فى صوم يصومه أحدكم »[١] .

٤ ـ النهى عن افراد يوم السبت بصيام :

عن بُسر السلمى عن أخته الصماء : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم (ويشتمل القضاء والنذور والنفل ، وإذا وافق عادته أو كان يوم عرفة ونحو ذلك) وإن لم يجد أحدكم إلا لحاء عنب (قشر عنب) أو عود شجرة فليمضغه » . رواه أحمد وأصحاب السنن والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم ، وحسنه الترمذى . وقال : ومعنى الكراهة فى هذا أن يختص الرجل بيوم السبت بصيام ، لأن اليهود يعظمون يوم السبت[٢] .

وقالت أم سلمة : « كان النبى ـ ﷺ ـ يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام ، ويقول : إنهما عيد المشركين ، فأنا أحب أن أخالفهم »[٣] رواه أحمد والبيهقى والحاكم وابن خزيمة وصححاه .

ومذهب الأحناف والشافعية والحنابلة كراهة الصوم يوم السبت منفرداً لهذه الأدلة .

وخالف فى ذلك مالك فجوّز صامه منفرداً بلا كراهة ، والحديث حجة عليه .

٥ ـ النهى عن صوم يوم الشك : ـ

قال عمار بن ياسر ـ رضى الله عنه ـ : « من صام اليوم الذى شك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ » . رواه أصحاب السنن ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح[٤] . والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم ، وبه يقول سفيان الثورى ومالك بن أنس وعبد الله بن المبارك والشافعى وأحمد واسحاق : كرهوا أن يصوم الرجل اليوم الذى يشك فيه .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم يوم الجمعة » ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة بلفظ « لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا يوما قبله أو بعده » .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « كراهة صيام يوم الجمعة منفردا » فقد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة برقم ١٤٨ / ١١٤٣ ج ٢ ص ٨٠١ .

(٢) سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى صيام يوم السبت » ج ١ ص ٥٥٠ حديث رقم ١٧٢٦ من رواية لعبد الله ابن بسر بلفظ « لا تصوموايوم السبت إلا فيما افترض عليك ، فإن لم يجد أحدكم إلا عود عنب أو لحاء شجرة فليمصه » وفى رواية أخرى عن عبد الله بن بسر عن أخته بلفظه .

(٣) انظر مسند الامام أحمد ج ٦ ص ٣٢٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أم سلمة .

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى صيام يوم الشك » ج ١ ص ٥٢٧ حديث ١٦٤٢ فقد ورد الحديث عن عمار بلفظ « من صام هذا اليوم فقد عصى أبا القاسم » .

ورأى أكثرهم إن صامه وكان من شهر رمضان أن يقضى يوماً مكانه (وعند الحنفية : ان ظهر أنه من رمضان وصامه أجزأ عنه) ، فإن صامه لموافقته عادة له جاز له الصيام حينئذ بدون كراهة .

فعن أبى هريرة : أن النبى — ﷺ — قال : « لا تقدموا (تتقدموا) صوم رمضان بيوم أو يومين ، إلا أن يكون صوم يصومه رجل . فليصم ذلك اليوم »[1] رواه الجماعة وقال الترمذى حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم كرهوا أن يتعجل الرجل بصيام قبل دخول رمضان لمعنى رمضان .

وإن كان رجل يصوم صوماً فوافق صيامه ذلك فلا بأس به عندهم .

٦ — النهى عن صوم الدهر :

يحرم صيام السنة كلها بما فيها الأيام التى نهى الشارع عن صيامها . لقول رسول الله ﷺ : « لا صام من صام الأبد »[2] رواه أحمد والبخارى ومسلم .

فإن أفطر يومى العيد وأيام التشريق وصام بقية الأيام انتفت الكراهة إذا كان ممن يقوى على صيامها .

قال الترمذى : وقد كره قوم من أهل العلم صيام الدهر إذا لم يفطر يوم الفطر ويوم الأضحى وأيام التشريق .

فمن أفطر فى هذه الأيام فقد خرج من حد الكراهة ولا يكون قد صام الدهر كله هكذا روى عن مالك والشافعى وأحمد واسحاق .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « لا يتقدمن رمضان بصوم يوم ولا يومين » ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ فقد ورد من رواية لأبى هريرة بلفظ « لا يتقدمن أحدكم رمضان بصوم يوم أو يومين إلا أن يكون رجل كان يصوم صومه فليصم ذلك اليوم » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولايومين ج ٢ ص ٧٦٢ حيث ٢١ / ١٠٨٢ من رواية لأبى هريرة بلفظ « لا تقدموا رمضان بصوم يوم ولا يومين إلا رجل كان يصوم صوماً فليصمه » .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صوم الدهر » ج ١ ص ٣٣٨ فقد ورد حديث طويل لأبى العباس الشاعر أنه أخبر عطاء بسماعه من عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — وقد جاء فى آخر ، قال عطاء : لا أدرى كيف ذكر صيام الأبد قال النبى — ﷺ — : « لا صام من صام الأبد مرتين » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهى عن صوم الدهر .. الخ » ج ٢ ص ٨١٤ — ٨١٥ من حديث طويل لعطاء جاء فى آخره « لا صام من صام الأبد . لا صام من صام الأبد . لا صام من صام الأبد » .

وقد أقر النبي – ﷺ – حمزة الأسلمي على سرد الصيام وقال له : « صم إن شئت وأفطر إن شئت »[١] .

والأفضل أن يصوم يوماً ويفطر يوماً ، فإن ذلك أحب الصيام إلى الله .

٧ – النهي عن صيام المرأة وزوجها حاضر إلا بإذنه :

نهى رسول الله – ﷺ – المرأة أن تصوم وزوجها حاضر حتى تستأذنه .

فعن أبي هريرة : أن النبي – ﷺ – قال : « لا تصم المرأة يوماً واحداً وزوجها شاهد إلا بإذنه ، إلا رمضان »[٢] . رواه أحمد والبخاري ومسلم .

وقد حمل العلماء هذا النهي على التحريم ، وأجازوا للزوج أن يفسد صيام زوجته لو صامت دون أن يأذن لها لافتياتها على حقه (لتعديها على حقه) ، وهذا في غير رمضان كما جاء في الحديث ، فإنه لا يحتاج إلى إذن من الزوج .

وكذلك لها أن تصوم من غير اذنه إذا كان غائباً ، فإذا قدم له أن يفسد صيامها . وجعلوا مرض الزوج وعجزه عن مباشرتها مثل غيبته عنها في جواز صومها دون أن تستأذنه .

النهي عن وصال الصوم

(متابعة بعضه بعضاً دون فطر أو سحور) .

١ – عن أبي هريرة : أن النبي – ﷺ – قال : إياكم والوصال » « قالها ثلاث مرات » قالوا : فإنك تواصل يا رسول الله ؟ قال : إنكم لستم في ذلك مثلي ، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني (أي يجعل الله له قوة الطاعم) فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون »[٣] . رواه البخاري ومسلم .

(١) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « الصوم في السفر والإفطار » ج ١ ص ٣٣٣ فقد ورد الحديث عن حمزة بلفظ « إن شئت فصم وإن شئت فأفطر » .
انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « التخيير في الصوم والفطر في السفر » ج ٢ ص ٧٨٩ حديث رقم ١٠٤ / ١١٢١ فقد ورد الحديث بلفظه ردا على سؤال حمزة بن عمرو الأسلمي .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الزكاة » باب « ما أنفق العبد من مال مولاه » ج ٢ ص ٧١١ حديث رقم ٨٤ / ١٠٢٦ من رواية لأبي هريرة من حديث طويل بلفظ « لا تصم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته وهو شاهد إلا بإذنه .. الخ » .
وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « في المرأة تصوم بغير إذن زوجها » ج ١ ص ٥٦٠ حديث ١٧٦١ من رواية لأبي هريرة .. قال : « لا تصوم المرأة وزوجها شاهد يوما من غير شهر رمضان إلا بإذنه » .

(٣) انظر صحيح البخاري « كتاب الصوم » باب « التنكيل لمن أكثر الوصال » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ : « إياكم والوصال مرتين ، قيل : إنك تواصل . قال : إني أبيت يطعمني ربي ويسقين ، فاكلفوا من العمل ما تطيقون » .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « النهي عن الوصال في الصوم » ج ٢ ص ٧٧٤ حديث ٥٨ / ١١٠٢ فقد ورد الحديث عن أبي هريرة بلفظ « إياكم والوصال » قالوا : فإنك تواصل ، يا رسول الله ! قال : إنكم لستم في ذلك مثلي إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني ، فأكلفوا من الأعمال ما تطيقون » .

وقد حمل الفقهاء النهى على الكراهة .

وجوز أحمد واسحاق وابن المنذر الوصال إلى السحر ، ما لم تكن مشقة على الصائم لما رواه البخارى عن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « لا تواصلوا ، فأيكم أراد أن يواصل فليواصل حتى السحر »[١] .

صيام التطوع

رغب رسول الله ﷺ فى صيام هذه الأيام الآتية :

ــ صيام ستة أيام من شوال :

روى الجماعة إلا البخارى والنسائى عن أبى أيوب الأنصارى : أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر »[٢] (هذا لمن صام رمضان كل سنة) . قال العلماء : الحسنة بعشر أمثالها ، ورمضان بعشرة شهور ، والأيام الستة بشهرين .

وعند أحمد : أنها تؤدى متتابعة وغير متتابعة ، ولا فضل لأحدهما على الآخر .

وعند الحنفية والشافعية : الأفضل صومها متتابعة عقب العيد .

ــ صوم عشر ذى الحجة وتأكيد يوم عرفة لغير الحاج :

١ ــ عن أبى قتادة ــ رضى الله عنه ــ قال ، قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « صوم يوم عرفة يكفر سنتين : ماضية ومستقبلة ، وصوم يوم عاشوراء يكفر سنة ماضية »[٣] رواه الجماعة إلا البخارى والترمذى .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الوصال إلى السحر » ج ١ ص ٣٣٦ فقد ورد هذا الحديث عن حديث طويل لأبى سعيد .

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « استحباب صوم ستة أيام من شوال اتباعا لرمضان » ج ٢ ص ٨٢٢ حديث رقم ٢٠٤ / ١١٦٤ لأبى أيوب بلفظ « من صام رمضان ثم أتبعه ستاً من شوال كان كصيام الدهر » .

وانظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب صيام ستة أيام من شوال ج ١ ص ٥٤٧ حديث رقم ١٧١٦ من رواية لأبى أيوب مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « صيام يوم عرفة » وباب صيام يوم عاشوراء ج ١ ص ٥٥١ ، ص ٥٥٣ فقد ورد الحديث ١٧٣٠ عن أبى قتادة والحديث ١٧٣١ عن قتادة أيضا فى صوم يوم عرفة ، والحديث ١٧٣٨ عن أبى قتادة فى صيام يوم عاشوراء وكلها تؤدى المعنى .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس ج ٢ ص ٨١٩ فقد ورد الحديث ١٩٧ / ١١٦٢ وهو حديث طويل لأبى قتادة ، جاء فيه أن رسول الله ــ ﷺ ــ سئل عن صوم يوم عرفة : فقال : « يكفر السنة الماضية والباقية » وعن صوم يوم عاشوراء ، فقال : « يكفر السنة الماضية » .

٢ ــ عن حفصة قالت : « أربع لم يكن يدعهن رسول الله ــ ﷺ ــ : صيام عاشوراء ، والعشر (أى من ذى الحجة) ، وثلاثة أيام من كل شهر ، والركعتين قبل الغداة »[١] . رواه أحمد والنسائى .

٣ ــ عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الاسلام وهى أيام أكل وشرب »[٢] رواه الخمسة إلا ابن ماجه ، وصححه الترمذى .

٤ ــ عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : « نهى رسول الله ــ ﷺ ــ عن صوم يوم عرفة بعرفات »[٣] ، رواه أحمد والنسائى وأبو داود وابن ماجه .

قال الترمذى : قد استحب أهل العلم صيام يوم عرفة إلا بعرفة[٤]

٥ ــ عن أم الفضل : أنهم شكّوا فى صوم رسول الله ــ ﷺ ــ يوم عرفة ، فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشربه » متفق عليه .

صيام المحرّم وتأكيد صوم عاشوراء ويوماً قبلها ويوماً بعدها :

١ ــ عن أبى هريرة قال : سئل رسول الله ــ ﷺ ــ : « أى الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ . قال : الصلاة فى جوفْ الليل . قيل : ثم أى الصيام أفضل بعد رمضان ؟ قال : شهر الله (الإضافة للتشريف) (الذى تدعونه) المحرم »[٥] رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

٢ ــ عن معاوية بن أبى سفيان قال : سمعت رسول الله ــ ﷺ ــ يقول : « إن هذا يوم عاشوراء ، ولم يكتب عليكم صيامه ، وأنا صائم فمن شاء صام ومن شاء فليفطر »[٦] متفق عليه .

٣ ــ عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : « كان يوم عاشوراء يوما تصومه قريش فى الجاهلية ،

---

(١) انظر سنن النسائى « كتاب الصيام » باب كيف يصوم ثلاثة أيام .. الخ ج ٤ ص ٢٢٠ فقد ورد الحديث بلفظه عن حفصة .

(٢) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم « كتاب الصوم » ج ١ ص ٤٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عقبة بن عامر .
وانظر سنن الترمذى « كتاب الصوم » باب كراهية صوم أيام التشريق ج ٢ ص ١٣٥ حديث رقم ٧٧٠ فقد ورد بلفظه .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب صيام يوم عرفة ج ١ ص ٥٥١ حديث ١٧٣٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) انظر « صحيح البخارى » كتاب الصوم « باب صوم يوم عرفة ج ١ ص ٣٤٠ فقد ورد هذا عن أم الفضل وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب استحباب الفطر للحاج يوم عرفة ج ٢ ص ٧٩١ حديث ١١٠ / ١١٢٣ مروى عن أم الفضل .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل صوم المحرم » ج ٢ ص ٨٢١ فقد ورد الحديث ٢٠٣ / ١١٦٣ من رواية لأبى هريرة مع اختلاف فى ترتيب جملة فقد جمع الأسئلة أولا ، ثم الاجابة بعد ذلك .

(٦) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ وقد ورد الحديث بلفظه من رواية عن معاوية بن أبى سفيان .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صوم يوم عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٥ حديث ١٢٦ / ١١٢٩ فقد ورد الحديث عن معاوية مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يصومه ، فلما قدم المدينة صامه وأمر الناس بصيامه . فلما فرض رمضان ـــ ترك يوم عاشوراء : فمن شاء صامه ومن شاء تركه »[1] متفق عليه .

٤ ـــ عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : قدم النبى ـــ ﷺ ـــ المدينة فرأى اليهود تصوم عاشوراء . فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله فيه موسى وبنى اسرائيل من عدوهم فصامه موسى . فقال النبى ـــ ﷺ ـــ : « أنا أحق بموسى منكم » فصامه وأمر بصيامه »[2] .

٥ ـــ عن أبى موسى الأشعرى ـــ رضى الله عنه ـــ قال : كان يوم عاشوراء يوما تعظمه اليهود وتتخذه عيداً . فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « صوموه أنتم »[3] متفق عليه . .

٦ ـــ عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : لما صام رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوم عاشوراء وأمر بصيامه ، قالوا : يا رسول الله : انه يوم تعظمه اليهود والنصارى .. فقال : « فإذا كان العام المقبل ـــ إن شاء الله ـــ صمنا اليوم التاسع »[4] قال : فلم يأت العام المقبل حتى توفّى رسول الله ـــ ﷺ ـــ . رواه مسلم ، وأبو داود ..

وفى لفظ قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « لئن بقيت إلى قابل لأصومن التاسع »[5] يعنى مع يوم عاشوراء . رواه أحمد ومسلم .

وقد ذكر العلماء : أن صيام يوم عاشوراء على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى : صوم ثلاثة أيام : التاسع والعاشر والحادى عشر .

المرتبة الثانية : صوم التاسع والعاشر .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث من رواية عبد الله ابن مسلمة .. عن عائشة بلفظه .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صوم يوم عاشوراء » ج ٢ ص ٧٩٦ حديث ١٢٨ / ١١٣٠ من رواية لابن عباس مع اختلاف بعض ألفاظه .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام يوم عاشوراء » ج ١ ص ٣٤١ ز ٣٤٢ فقد ورد الحديث من رواية لأبى موسى مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب صوم يوم عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٦ حديث ١٢٩ / ١١٣١ فقد ورد من رواية لأبى موسى بلفظه .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب أى يوم يصام فى عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٧ ـــ ٧٩٨ حديث ١٣٣ / ١١٣٤ فقد ورد الحديث رواية لابن عباس بلفظه .

(٥) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب أى يوم يصام فى عاشوراء ج ٢ ص ٧٩٨ حديث ١٣٤ / ١١٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه .

المرتبة الثالثة : صوم العاشر وحده .

التوسعة يوم عاشوراء :

عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنه — : أن رسول الله — ﷺ — قال : « من وسّع على نفسه وأهله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته »[1] رواه البيهقى فى الشعب وابن عبد البر .

صيام أكثر شعبان :

كان رسول الله — ﷺ — يصوم أكثر شعبان . قالت عائشة .. فما رأيت رسول الله — ﷺ — استكمل صيام شهر إلا شهر رمضان ، وما رأيته أكثر صياماً منه فى شعبان »[2] . رواه البخارى ومسلم .

وعن أسامة بن زيد — رضى الله عنهما — قال : قلت يا رسول الله : لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان ؟ قال : « ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، فأحب أن يرفع عملى وأنا صائم »[3] رواه أبو داود والنسائى وصححه ابن خزيمة .

وتخصيص صوم يوم النصف منه ظناً أن له فضيلة على غيره مما لم يأت به دليل صحيح .

صوم الأشهر الحرم :

الأشهر الحرم : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ويستحب الإكثار من الصيام فيها .

---

(١) انظر شعب « الايمان للبيهقى » باب « تخصيص شهر المحرم بالذكر » ص ١٧٣ فقد ورد الحديث بلفظه .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصيام » باب « صوم شعبان » ج ١ ص ٣٣٧ فقد ورد الحديث عن عائشة فى حديث طويل .
وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صيام النبى — ﷺ — فى غير رمضان .. الخ » ج ٢ ص ٨١٠ فقد ورد الحديث ١٧٥ / ١١٥٦ من رواية لعائشة ولفظه « .. وما رأيت رسول الله — ﷺ — استكمل صيام شهر قط إلا رمضان ، وما رأيته فى شهر أكثر منه صياما فى شعبان » .

(٣) انظر سنن النسائى « كتاب الصيام » صوم النبى — ﷺ — ... الخ ج ٤ ص ٢٠١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأسامة بن زيد .

فعن رجل من باهلة : « أنه أتى النبى — ﷺ — فقال : يا رسول الله ، أنا الرجل الذى جئتك عام الأول . فقال : فما غيرّك وقد كنت حسن الهيئة ؟ قال : ما أكلت طعاماً إلا بليل منذ فارقتك . فقال رسول الله — ﷺ — : لم عذبت نفسك ؟ ثم قال : صم شهر الصبر ، ويوماً من كل شهر . قال : زدنى فإن بى قوة . قال صم يومين . قال : زدنى ، قال : صم من الحرم واترك ، صم من الحرم واترك . وقال بأصابعه الثلاثة ، فضمها ثم أرسلها (أى أشار إليه بصيام ثلاثة أيام وفطر ثلاثة أخرى)[1] . رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة والبيهقى بسند جيد .

وصيام رجب ليس له فضل زائد على غيره من الشهور إلا أنه من الأشهر الحرم . ولم يرد فى السنة الصحيحة أن للصيام فيه فضيلة بخصوصه . وأن ما جاء فى ذلك مما لا ينتهض للاحتجاج به .

قال ابن حجر : « لم يرد فى فضله ولا فى صيامه ولا فى صيام شىء منه ولا فى قيام ليلة مخصوصة منه حديث صحيح يصلح للحجة .

صوم يومى الاثنين والخميس :

عن أبى هريرة أن النبى — ﷺ — كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس . فقيل له : (أى سئل عن الباعث على صوم يومى الاثنين والخميس) فقال : « إن الأعمال تعرض كل اثنين وخميس فيغفر الله لكل مسلم ، أو لكل مؤمن إلا المتهاجرين فيقول : أخرهما »[2] . رواه أحمد بسند صحيح .

وفى صحيح مسلم أنه — ﷺ — سئل عن صوم يوم الاثنين ؟ فقال : « ذاك يوم ولدت فيه ، وأنزل على فيه »[3] أى نزل على الوحى فيه .

صيام ثلاثة أيام من كل شهر :

قال أبو ذر الغفارى — رضى الله عنه — : « أمرنا رسول الله — ﷺ — : أن نصوم من الشهر

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « صيام أشهر الحرم » ج ١ ص ٥٥٤ فقد ورد الحديث ١٧٤١ عن أبى مجيبة الباهلى ، عن أبيه أو عن عمه فى هذا مع اختلاف فى بعض ألفاظه وزيادة فى آخره « وصم أشهر الحرم » .
وانظر سنن أبى داود « كتاب الصوم » باب « فى صوم أشهر الحرم » ج ٢ ص ٨٠٩ ، ١١٠ حديث رقم ٢٤٢٨ من رواية للباهلى .

(٢) انظر مسند الامام أحمد ج ٢ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر .. الخ » ج ٢ ص ٨١٩ فقد ورد الحديث ١٩٧ / ١١٦٢ حديث طويل لأبى قتادة الأنصارى جاء فيه السؤال عن صوم يوم الاثنين . وانظر الحديث ١٩٨ / ١١٦٢ لأبى قتادة — أيضا — .

ثلاثة أيام ، البيض : ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة وقال : هى كصوم الدهر »[1] رواه النسائى وصححه ابن حبان .

وجاء عنه ــ ﷺ ــ انه كان يصوم من الشهر : السبت والأحد والاثنين . ومن الشهر الآخر : الثلاثاء والأربعاء والخميس ، وأنه كان يصوم من غرة كل هلال ثلاثة أيام ، وأنه كان يصوم الخميس من أول الشهر والاثنين الذى يليه ، والاثنين الذى يليه .

صيام يوم وفطر يوم :

عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عمرو قال : قال لى رسول الله ــ ﷺ ــ : « لقد أخبرت أنك تقوم الليل وتصوم النهار . قال : قلت : يا رسول الله ، نعم . قال : فصم وأفطر ، وصلِّ ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، وإن لزورك (ضيفك) عليك حقاً ، وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام . فقال : فشدّدت فشدّد علىّ . قال : فقلت يا رسول الله : إنى أجد قوة . قال : فصم من كل جمعة ثلاثة أيام . قال فشددت فشدد علىّ . قال فقلت : يا رسول الله إنى أجد قوة . قال : صم صوم نبى الله داود ولا تزد عليه . قلت : يا رسول الله : وما كان صيام داود عليه الصلاة والسلام ؟ قال : كان يصوم يوماً ويفطر يوماً »[2] رواه أحمد وغيره .

وروى ــ أيضا ــ عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « أحبَّ الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود . كان ينام نصفه ويقوم ثلثة وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً »[3].

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة » ج ١ ص ٣٣٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « أوصانى خليلى ــ ﷺ ــ بثلاث صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وركعتى الضحى ، وأن أوتر قبل أن أنام » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب استحباب صلاة الضحى .. الخ » ج ١ ص ٤٩٩ فقد ورد الحديث ٨٥ / ٧٢١ لأبى هريرة والحديث ٨٦ / ٧٢٢ لأبى الدرداء ذكر فيهما صيام ثلاثة أيام من كل شهر .

وانظر سنن النسائى « كتاب الصوم ــ ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة فى الخبر .. الخ » ج ٤ ص ٢٢٢ فقد وردت عدة روايات لأبى ذر فى هذا .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ١٩٨ فقد ورد الحديث عن عبد الله بن عمرو .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب النهى عن صوم الدهر لمن تضرر به .. الخ ج ٢ ص ٨١٦ فقد ورد الحديث ١٨٩ / ١١٥٩ من رواية لعبد الله بن عمرو بلفظ قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن أحب الصيام إلى الله صيام داود ، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود ــ عليه السلام ــ كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوماً » .

جواز فطر الصائم المتطوع

١ — عن أم هانىء — رضى الله عنها — « أن رسول الله — ﷺ — دخل عليها يوم الفتح ، فأتى بشراب فشرب ثم ناولنى . فقلت : إنى صائمة ، فقال : إن المتطوع أمير على نفسه ، فإن شئت فصومى وإن شئت فأفطرى »[١] رواه أحمد والدار قطنى والبيهقى .

ورواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ولفظه : « الصائم المتطوع أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر »[٢] .

وعن أبى جحيفة قال : « آخى النبى — ﷺ — بين سلمان وأبى الدرداء ، فزار سلمان أبا الدرداء ، فرأى أم الدرداء متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا .

فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال : كلْ قال فإنى صائم . قال : ما أنا بآكل حتى تأكل . قال فأكل . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم . قال : نم . فنام ، ثم ذهب يقوم فقال : نم . فلما كان من آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا فقال له سلمان : إن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، فأعط كل ذى حق حقه ، فأتى النبى — ﷺ — فذكر ذلك له ، فقال النبى — ﷺ — : « صدق سلمان »[٣] رواه البخارى والترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى — رضى الله عنه — قال : صنعت لرسول الله — ﷺ — طعاماً ، فأتانى هو وأصحابه ، فلما وضع الطعام قال رجل من القوم : إنى صائم ، فقال رسول الله — ﷺ — : « دعاكم أخوكم وتكلف لكم . ثم قال : أفطر وصم يوماً مكانه إن شئت »[٤] رواه البيهقى بإسناد حسن كما قال الحافظ .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث عن أم هانىء .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٣٤١ فقد ورد الحديث عن أم هانىء وبزيادة « ان شاء صام وإن شاء أفطر » .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب من أقسم على أخيه ليفطر فى التطوع .. الخ ج ١ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى حجفة .

(٤) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب التخيير فى القضاء إن كان صومه تطوعاً ج ٤ ص ٢٧٩ .

وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى جواز الفطر لمن صام متطوعاً ، واستحبوا له قضاء ذلك اليوم استدلالاً بهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة .

آداب الصيام

يستحب للصائم أن يراعى فى صيامه الآداب الآتية :

١ ــ السحور :

وقد أجمعت الأمة على استحبابه وأنه لا إثم على من تركه فعن أنس ــ رضى الله عنه ــ : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « تسحروا فإن فى السحور بركة »(١) (السحور بالفتح المأكول ، وبالضم المصدر والفعل) رواه البخارى ومسلم .

وعن المقدام بن معد يكرب عن النبى ــ ﷺ ــ قال : عليكم بهذا السُّحور ، فإنه هو الغذاء المبارك »(٢) رواه النسائى بسند جيد .

وسبب البركة : أنه يقوى الصائم وينشطه ويهوِّن عليه الصيام .

بم يتحقق :

ويتحقق السحور بكثير الطعام وقليله ولو بجرعة ماء . فعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ : أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « السحور بركة فلا تدعوه ، ولو أن يجرع أحدكم جَرعة ماء ، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين »(٣) رواه أحمد .

وقته :

وقت السحور من منتصف الليل إلى طلوع الفجر ، والمستحب تأخيره . فعن زيد بن ثابت ــ رضى الله عنه ــ قال : « تسحرنا مع رسول الله ــ ﷺ ــ ثم قمنا إلى الصلاة . قلت : كم كان قدر ما بينهما ؟ قال : خمسين آية »(٤) . رواه البخارى ومسلم .

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « بركة السحور » ج ١ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بن مالك . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصوم » باب « فضل السحور » الخ ج ٢ ص ٧٧٠ حديث رقم ٤٥ / ١٠٩٥ فقد ورد الحديث من رواية لأنس بن مالك .

(٢) انظر سنن النسائى « كتاب الصيام » باب « تسمية السحور غداء » ج ٤ ص ١٤٦ فقد ورد الحديث بلفظه عن المقدام بن معد يكرب .

(٣) انظر مسند الإمام احمد ج ٣ ص ١٢ ، ٤٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى سعيد الخدرى .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « بركة السحور » ج ١ ص ٣٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لزيد بن ثابت . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل السحور .. الخ » ج ٢ ص ٧٧١ حديث رقم ٤٧ / ١٠٩٧ فقد ورد الحديث من رواية لزيد بن ثابت .

وعن عمرو بن ميمون قال : « كان أصحاب محمد ــ ﷺ ــ أعجل الناس إفطاراً وأبطأهم سحوراً »[١] رواه البيهقى بسند صحيح .

وعن أبى ذر الغفارى ــ رضى الله عنه ــ مرفوعاً : « ما تزال أمتى بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور »[٢] وفى سنده سليمان بن أبى عثمان ، وهو مجهول .

الشك فى طلوع الفجر :

ولو شك فى طلوع الفجر ، فله أن يأكل ويشرب حتى يستيقن طلوعه ولا يعمل بالشك ، فإن الله ــ عز وجل ــ جعل نهاية الأكل والشرب التبين نفسه لا الشك . فقال : « وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[٣] .

وقال رجل لابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ : « إنى أتسحر ، فإذا شككت أمسكت ، فقال ابن عباس : كل ما شككت حتى لا تشك » .

وقال أبو داود : قال أبو عبد الله (أحمد بن حنبل) : « إذا شك فى الفجر يأكل حتى يستيقن طلوعه » .

وهذا مذهب ابن عباس وعطاء والأوزاعى وأحمد .

وقال النووى : وقد اتفق أصحاب الشافعى على جواز الأكل للشاكّ فى طلوع الفجر .

٢ ــ تعجيل الفطر :

ويستحب للصائم أن يعجل الفطر متى تحقق غروب الشمس .

فعن سهل بن سعد : أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر »[٤] رواه البخارى ومسلم .

وينبغى أن يكون الفطر على رُطبات وتراً ، فإن لم يجد فعلى الماء .

---

(١) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب ما يستحب من تعجيل الفطور وتأخير السحور ج ٤ ص ٢٣٨ فقد ورد الحديث من رواية لعمرو بن ميمون .

(٢) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « تعجيل الفطور وتأخير السحور فقد وردت أحاديث متعددة فى هذا الشأن عن سهيل بن سعد ، وأبو هريرة عن أبى عطية .

(٣) سورة البقرة الآية ١٨٧

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب تعجيل الإفطار » ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل السحر .. الخ » ج ٢ ص ٧٧١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية سهل بن سعد .

فعن أنس — رضى الله عنه — قال : « كان رسول الله — ﷺ — يفطر على رطبات قبل أن يصلى ، **فإن لم تكن فعلى تمرات ، فإن لم تكن حَسَا حسوات (أى شرب) من ماء »**[١] **رواه أبو داود والحاكم وصححه ، والترمذى وحسنه .**

وعن سلمان بن عامر : أن النبى — ﷺ — قال : « إذا كان أحدكم صائماً فليفطر على التمر ، فإن لم يجد التمر فعلى الماء فإن الماء طهُور »[٢] رواه أحمد والترمذى وقال حسن صحيح .

وفى الحديث دليل على أنه يستحب الفطر قبل صلاة المغرب بهذه الكيفية ، فإذا صلى ، تناول حاجته من الطعام بعد ذلك ، إلا إذا كان الطعام موجوداً فإنه يبدأ به . قال أنس : قال رسول الله — ﷺ — : « إذا قدّم العَشاء فابدوًا به قبل أن تصلوا صلاة المغرب ، ولا تعجلوا عن عشائكم »[٣] رواه الشيخان .

٣ — الدعاء عند الصيام وأثناء الصيام :

روى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص : أن النبى — ﷺ — قال : « إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد » وقال عبد الله إذا أفطر يقول : « اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شيء أن تغفر لى »[٤]

وروى مرسلاً : أنه ﷺ كان يقول : « اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت »[٥]

وثبت أنه ﷺ كان يقول : « ذهب الظمأ وابتلت العروق ، وثبت الأجر — إن شاء الله تعالى — »[٦] .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ١٦٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس . وانظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » ج ٤ ص ٢٣٩

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء على ما يستحب الفطر » ج ١ ص ٥٤٢ حديث ١٦٩٩ فقد ورد عن سلمان بن عامر ، قال : قال رسول الله — ﷺ — : إذا أفطر أحدكم ، فليفطر على تمر ، فإن لم يجد فليفطر على الماء فإنه طهور » .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الأذان » باب « إذا حضر الطعام وأقيمت الصلاة » الخ ج ١ ص ١٢٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن أنس بن مالك.

وانظر صحيح مسلم « كتاب المساجد ومواضع الصلاة » باب « كراهة الصلاة بحضره الطعام .. الخ » ج ١ ص ٣٩٢ حديث رقم ٦٤ (....) من رواية ابن شهاب عن أنس بن مالك بلفظ « إذا قرب العشاء وحضرت الصلاة .. » الخ ..

(٤) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « فى الصائم لا ترد دعوته » ج ١ ص ٥٥٧ حديث ١٧٥٣ من رواية لعبد الله بن عمرو بن العاص فقد ورد الحديث بلفظه .

(٥) سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب ما يقول إذا أفطر ج ٤ ص ٢٣٩ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر

(٦) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « ما يقول إذا أفطر » فقد ورد الحديث من رواية عن معاذ بن زهرة . ج ٤ ص ٢٣٩

وروى الترمذى بسند حسن أنه ــ ﷺ ــ قال : « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الصائم حتى يفطر (يستفاد منه استحباب الدعاء طول مدة الصيام) « الإمام العادل والمظلوم »

٤ ــ الكف عما يتنافى مع الصيام :

الصيام عبادة من أفضل القربات ، شرعه الله ــ تعالى ــ ليهذب النفس ويعودها الخير . فينبغى أن يتحفظ الصائم من الأعمال التى تخدش صومه حتى ينتفع بالصيام وتحصل له التقوى التى ذكرها الله فى قوله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[٢] .

وليس الصيام مجرد إمساك عن الأكل والشرب ، وإنما هو إمساك عن الأكل والشرب وسائر ما نهى الله عنه .

فعن أبى هريرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « ليس الصيام ، من الأكل والشرب ، وإنما الصيام من اللغو والرفث ، فإن سابّك أحد ، أو جهل عليك ، فقل إنى صائم . إنى صائم »[٣] رواه ابن خزيمه وابن حبان والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وروى الجماعة إلا مسلماً عن أبى هريرة : أن النبى ــ ﷺ ــ قال : من لم يدع (يترك) قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه »[٤] (أى ليس لله إرادة فى قبول صيامه : أى إن الله لا يقبل صيامه) .

وعنه أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « رُب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، ورُب قائم ليس له من قيامه إلا السهر »[٥] رواه النسائى وابن ماجة والحاكم وقال : صحيح على شرط البخارى .

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « فى الصائم لا ترد دعوته » ج ١ ص ٥٥٧ فقد ورد الحديث ١٧٥٢ عن أبى هريرة بلفظ « ثلاثة لا ترد دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

(٣) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الصوم » باب « ترهيب الصائم من الغيبة والفحش والكذب .. الخ » ج ٢ ص ١٤٧ ــ ١٤٨ ، فقد ورد الحديث رقم ٤ عن أبى هريرة بلفظه .

وقال : رواه ابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما ، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب اللباس » باب قول الله تعالى : ﴿ **واجتنبوا قول الزور** ﴾ ج ٤ ص ٥٩ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ قال : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه » .

(٥) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى الغيبة والرفث للصائم » ج ١ ص ٥٣٩ فقد ورد الحديث ١٦٩٠ عن أبى هريرة بلفظه .

٥ ــ السـواك :

ويستحب للصائم أن يتسوّك أثناء الصوم ، ولا فرق بين أول النهار وآخره .

قال الترمذى : « ولم ير الشافعى بالسواك أول النهار وآخره بأساً » . وكان النبى ــ ﷺ ــ يتسوك وهو صائم .[١]

٦ ــ الجود ومدارسة القرآن :

الجود ومدارسة القرآن مستحبان فى كل وقت ، إلا أنهما آكد فى رمضان روى البخارى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة »[٢] (أى فى الإسراع والعموم) .

٧ ــ الاجتهاد فى العبادة فى العشر الأواخر من رمضان :

روى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أن النبى ــ ﷺ ــ « كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر »[٣] .

وروى الترمذى وصححه عن على ــ رضى الله عنه ــ قال : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يوقظ أهله فى العشر الأواخر ، ويرفع المئزر »[٤]

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى السواك والكحل للصائم » ج ١ ص ٥٣٦ حديث رقم ١٦٧٧ ، فقد ورد عن عائشة قالت : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « من خير خصال الصائم السواك » قال وفى الزوائد فى إسناده مجالد وهو ضعيف ، لكن له شاهد من حديث عامر بن ربيعة . رواه البخارى وأبو داود والترمذى .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب بدء الخلق » باب « صفة النبى » ج ٢ ص ٢٧٢ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « العمل فى العشر الأواخر » ج ١ ص ٣٤٤ فقد ورد الحديث عن عائشة وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان » ج ٢ ص ٨٣٢ فقد ورد الحديث رقم ٧ / ١١٧٤ فقد ورد عن عائشة « كان إذا دخل العشر أحيا الليل » الخ وورد الحديث رقم ٨ / ١١٧٥ عن عائشة قالت : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يجتهد فى العشر الأواخر ما لا يجتهد فى غيره » .

(٤) انظر سنن الترمذى « كتاب الصوم » باب « ما جاء فى ليلة القدر » حديث ٧٩٢ فقد ورد الحديث عن عائشة ولم يرد فيه « ويرفع المئزر » .

مباحات الصيام

يباح فى الصيام ما يأتى :

١ — نزول الماء والانغماس فيه :

لما رواه أبو بكر بن عبد الرحمن ، عن بعض أصحاب النبى — ﷺ — : أنه حدث فقال : « ولقد رأيت رسول الله — ﷺ — يصب على رأسه الماء وهو صائم ، من العطش أو من الحر »[١] رواه أحمد ومالك وأبو داود بإسناد صحيح .

وفى الصحيحين عن عائشة — رضى الله عنها — أن النبى — ﷺ — : « كان يصبح جنباً وهو صائم ثم يغتسل »[٢] فإن دخل الماء فى جوف الصائم عن غير قصد **فصومه صحيح** .

٢ — الاكتحال والقطرة ونحوهما مما يدخل العين سواء أوجد طعمه فى حلقه أم لم يجده ، لأن العين ليست بمنفذ إلى الجوف .

وعن أنس : « أنه كان يكتحل وهو صائم »[٣] .

وإلى هذا ذهبت الشافعية ، وحكاه ابن المنذر عن عطاء والحسن والنخعى والأوزاعى وأبى حنيفة وأبى ثور .

وروى عن ابن عمر وأنس وابن أبى أوْفى عن الصحابة . وهو مذهب داود . ولم يصح فى هذا الباب شىء عن النبى — ﷺ — كما قال الترمذى .

٣ — القبلة : لمن قدر على ضبط نفسه :

فقد ثبت عن عائشة — رضى الله عنها — قالت : « كان النبى — ﷺ — يقبل وهو صائم ، ويباشر وهو صائم ، ولكنه أملككم لإ رْبه »[٤] .

---

(١) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « الصائم يصب على رأسه الماء » ج ٤ ص ٢٦٣ من رواية لأبى بكر بن عبد الرحمن عن جدته .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الصائم يصبح جنباً » ج ١ ص ٣٢٩ فقد أخبرت عائشة وأم سلمة « أن رسول الله — ﷺ — كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله ثم يغتسل ويصوم » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب » ج ٢ ص ٧٧٩ — ٨٧٠ فقد ورد الحديث رقم ٧٥ / ١١٠٩ فقد أخبرت عائشة وأم سلمة « أن رسول الله — ﷺ — كان النبى — ﷺ — يصبح جنباً من غير حلم ثم يصوم » وانظر الأحاديث بعده .

(٣) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى السواك والكحل للصائم » ج ١ ص ٥٣٦ فقد ورد الحديث ١٦٧٨ أن عائشة قالت : اكتحل رسول الله — ﷺ — وهو صائم .

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « بيان أن القبلة فى الصوم ليست محرمة .. الخ » ج ٢ ص ٧٧٧ حديث رقم ٦٥ / ١١٠٦ عن رواية عائشة وقد ورد الحديث بلفظه وانظر الحديث قبله والحديث بعده .

وعن عمر ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : « هششت (نشطت) يوماً ، فقبلت وانا صائم ، فأتيت النبى ــ ﷺ ــ فقلت : صنعت اليوم أمراً عظيماً ، قبّلت وأنا صائم ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟ قلت : لا بأس بذلك ، قال : فقيم (أى فقيم السؤال)

قال ابن المنذر : رخص فى القبلة عمر وابن عباس وأبو هريرة وعائشة وعطاء والشعبى والحسن وأحمد وإسحاق .

ومذهب الأحناف والشافعية : أنها تكره على من حركت شهوته ولا تكره لغيره ، لكن الأولى تركها ، ولا فرق بين الشيخ والشاب فى ذلك ، والاعتبار بتحريك الشهوة وخوف الإنزال . فإن حركت شهوة شاب أو شيخ قوى كرهت . وإن لم تحركها لشاب أو شيخ ضعيف ، لم تكره والأولى تركها .

وسواء قبّل الخد أو الفم أو غيرهما . وهكذا المباشرة باليد والمعانقة لهما حكم القبلة .

٤ ــ الحقنة : مطلقاً سواء كانت للتغذية أو لغيرها ، وسواء أكانت فى العروق ، أم تحت الجلد فإنها وإن وصلت إلى الجوف فإنها تصل إليه من غير المنفذ المعتاد .

٥ ــ الحجامة (أخذ الدم من الرأس) : فقد احتجم النبى ــ ﷺ ــ وهو صائم (رواه البخارى) إلا إذا كانت تضعف الصائم بأنها تكره له ، قال ثابت البنانى لأنس : أكنتم تكرهون الحجامة للصائم على عهد رسول الله ــ ﷺ ــ : قال : « لا . إلا من أجل الضعف »[1] رواه البخارى وغيره .

٦ ــ المضمضة والاستنشاق : إلا أنه تكره المبالغة فيهما . فعن لقيط بن صبرة أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « فإذا استنشقت فأبلغ ، إلا أن تكون صائماً »[2] رواه أصحاب السنن وقال الترمذى حسن صحيح .

وقد كره أهل العلم السُّعوط (وضع الدواء فى الأنف) للصائم ورأوا أن ذلك يفطر ، وفى الحديث ما يقوّى قولهم .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الحجامة والقىء للصائم » ج ١ ص ٣٣٢ فقد ورد الحديث عن ابن عباس وآخر عن أنس .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطهارة وسننها » باب المبالغة فى الاستنشاق والاستنثار ج ١ ص ١٤٢ فقد ورد الحديث رقم ٤٠٧ عن لغيط بن صبرة عن أبيه بلفظ .. قال : قلت : يا رسول الله : أخبرنى عن الوضوء ، قال : « أسبغ الوضوء ، وبالغ فى الاستنشاق إلا أن تكون صائماً » .

قال ابن قدامة : وإن تمضمض أو استنشق فى الطهارة فسبق الماء إلى حلقه من غير قصد ولا إسراف فلا شيء عليه ، وبه قال الأوزاعى واسحاق والشافعى فى أحد قوليه ورُوى ذلك عن ابن عباس ، وقال مالك وأبو حنيفة : « يفطر لأنه أوصل الماء إلى جوفه ذاكراً لصومه » فأفطر ، كما لو تعمد شربه .

قال ابن قدامة مرجحا الرأى الأول ، ولنا أنه إذا وصل الماء إلى حلقه من غير اسراف ولاقصد ، فأشبه مالوطارت ذبابة الى حلقه ، وبهذا فارق المتعمد . (قال ابن عباس : دخول الذباب فى حلق الصائم لا يفطر) .

٧ ــ وكذا يباح له ما لا يمكن الاحتراز عنه ، كبلع الريق وغبار الطريق وغربلة الدقيق والنخامة ونحو ذلك .

وقال ابن عباس : لا بأس أن يذوق الطعام الخلَّ والشيء يريد شراءه .

وكان الحسن يمضغ الجوز لابن ابنه وهو صائم ، ورخص فيه ابراهيم .

وأما مضغ العلك (اللبان) فإنه مكروه ، إذا كان لا يتفتت منه أجزاء وممن قال بكراهته : الشعبى والنخعى ، والأحناف والشافعى والحنابلة .

ورخصت عائشة وعطاء فى مضغه ، لأنه لا يصل إلى جوفه فهو كالحصاة يضعها فى جوفه . هذا إذا لم تتحلل منه أجزاء ، فإن تحللت منه أجزاء ونزلت إلى الجوف ، أفطر .

قال ابن تيمية : « وشم الروائح الطيبة لا بأس به للصائم ، وقال : اما الكحل والحقنة ،**ومايقطر** فى إحليله ، ومداواة المأمومة والجائفة ، فهذا مما تنازع فيه أهل العلم ، فمنهم من لم يفطر بشيء من ذلك ، ومنهم من فطرّ بالجميع لا بالكحل ، ومنهم من فطر بالجميع لا بالتقطير ، ومنهم من لا يفطر بالكحل ولا بالتقطير ، ويفطر بما سوى ذلك .

ثم قال مرجحاً الرأى الأول : والأظهر أنه لا يفطر بشيء من ذلك ، فإن الصيام من دين الإسلام ، الذى يحتاج إلى معرفته الخاص والعام .

فلو كانت هذه الأمور مما حرمها الله ورسوله فى الصيام ويفسد الصوم بها ، لكان هذا مما يجب على الرسول بيانه ، ولو ذكر ذلك لعلمه الصحابة وبلغوه الأمة كما بلغوا سائر شرعه . فلما لم ينقل

أحد من أهل العلم عن النبى — ﷺ — فى ذلك ، لا حديثاً صحيحاً ولا ضعيفاً ولا مسنداًولا مرسلا عُلم أنه لم ينكر شيئا من ذلك .

قال : فإذا كانت الأحكام التى تعمُّ بها البلوى ، لابد أن يبينها الرسول — ﷺ — بياناً عاماً ، ولابد أن تنقل الأمة ذلك . فمعلوم أن الكحل ونحوه مما تعمُّ به البلوى كما تعمّ بالدهن والإغتسال والبخور والطيب .

فلو كان هذا مما يفطر لبينه النبى — ﷺ — كما بيّن الإفطار بغيره ، فلما لم يبين ذلك ،عُلم انه من جنس الطيب والبخور والدهن والبخور قد يتصاعد إلى الأنف ويدخل فى الدماغ ، وينعقد أجساماً .

والدهن يشربه البدن ويدخل داخله ويتقوى به الإنسان ، وكذلك يتقوى بالطيب قوة جيدة .

فلما لم ينه الصائم عن ذلك دل على جواز تطيبه وتبخره وادهانه ، وكذلك اكتحاله .

وقد كان المسلمون فى عهده — — يجرح أحدهم إما فى الجهاد وإما فى غيره ، مأمومة وجائفة ، فلو كان هذا يفطر ، لبين لهم ذلك فلما لم ينه الصائم عن ذلك ، علم أنه لم يجعله مفطرًا . ثم قال : فإن الكحل لا يغذى البته ، ولا يدخل أحد كحلاً إلى جوفه ، لا من أنفه ولا من فمه .

وكذلك الحقنة يقصد الحقنة الشراجية ،فإنها لا تفطر الصائم-وإن كان بعض المذاهب تعدها من المفطرات-لأنها لاتغذى بل تستفرغ ما فى البدن ، كما لو شم شيئا من المسهلات ، أو فزع فزعا أوجب استطلاق جوفه ، وهى لاتصل الى المعدة والدواء الذى يصل الى المعدة ، فى مداواة الجائفة (أى : الجراحة التى تصل إلى الجوف) ، والمأمومة (أي : الشجة فى الرأس تصل الى أم الدماغ ومداواتهم ليست تغذية) لأيشبه مايصل إليها من غذائه .

والله سبحانه قال : ﴿ **كتب عليكم الصيام كما كتب علىَ الذين من قبلكم** ﴾[1] .

وقال ﷺ : « الصوم جُنة »[2] ، وقال : « إن الشيطان **يجرى من ابن آدم** مجرى الدم ، فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم »[3] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٣

(٢) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « فضل الصيام » ج ٢ ص ٨٠٦ حديث رقم ١٦٢ / ١١٥١ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة بلفظ « الصيام جنة » .

(٣) انظر صحيح البخارى ج ٩ ص ٨٧ « كتاب الأحكام .. الخ » فقد ورد الحديث ولم يرد فيه « فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم » وكذلك فى مسند أحمد وغيره من غير هذه الزيادة .

وانظر تفسير ابن كثير ج ٨ ص ٥٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه .

فالصائم نهى عن الأكل والشرب ، لأن ذلك سبب التقوى ، فترك الأكل والشرب الذى يولِّدُ الدم الكثير الذى يجرى فيه الشيطان ، إنما يتولد من الغذاء ، لا عن حقنة ، ولا كحل ولا ما يقطر فى الذكر ، ولا ما يداوى به المأمومة والجائفة » . انتهى .

٨ ــ ويباح للصائم أن يأكل ويشرب ويجامع حتى يطلع الفجر ، فإذا طلع الفجر وفى فمه طعام ، وجب عليه أن يلفظه أو كان مجامعاً وجب عليه أن ينزع .

فإن لفظ أو نزع صح صومه ، وإن ابتلع ما فى فمه من طعام مختاراً ، أو استدام الجماع أفطر .

روى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ : أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « إن بلالاً يؤذن بليْل ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم »[1] .

٩ ــ ويباح للصائم أن يصبح جنباً .

١٠ ــ الحائض والنفساء إذا انقطع الدم من الليل جاز لهما تأخير الغسل إلى الصبح وأصبحتا صائمتين ، ثم عليهما أن يتطهرا للصلاة .

ما يبطل الصيام

ما يبطل الصيام قسمان .

١ ــ ما يبطله ويوجب القضاء .

٢ ــ وما يبطله ويوجب القضاء والكفارة .

فأما ما يبطله ويوجب القضاء فقط فهو ما يأتى :

١ ، ٢ ــ الأكل والشرب عمداً :

فإن أكل أو شرب ناسياً أو مخطئاً أو مُكرهاً فلا قضاء عليه ولا كفارة .

فعن أبى هريرة أن النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « مَن نسى وهو صائم فأكل أو شرب ، فليتم صومه ، فإنما أطعمه الله وسقاه »[2] رواه الجماعة .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال » ج ١ ص ٣٢٨ فقد ورد هذا من حديث عائشة وفيه « ... فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « بيان أن الدخول فى الصوم يحصل بطلوع الفجر .. الخ » ج ٢ ص ٧٦٨ حديث ٣٨ / ١٠٩٢ فقد ورد الحديث عن ابن عمر وورد مثله عن عائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً » ج ١ ص ٣٣٠ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف يسير .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « أكل الناس وشربه وجماعه لا يفطر » ج ٢ ص ٨٠٩ حديث رقم ١٧١ / ١١٥٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أبى هريرة .

وقال الترمذى : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم . وبه يقول سفيان الثورى والشافعى وأحمد واسحاق .

وروى الدارقطنى والبيهقى والحاكم . وقال ـــ صحيح على شرط مسلم ـــ عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « من أفطر فى رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة »[1] قال الحافظ بن حجر: إسناده صحيح .

وعن ابن عباس ـــ رضى الله عنها ـــ أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما إستكرهوا عليه »[2] رواه ابن ماجة والطبرانى والحاكم .

٣ ـــ القىء عمداً :

فإن غلبه القىء فلا قضاء عليه ولا كفارة .

فعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ ، أن النبى ـــ ﷺ ـــ قال : « من ذرعه (غلبه) القىء فليس عليه قضاء ، ومن استقاء (تعمد القىء واستخرجه ، بشم ما يقيئه أو بإدخال يده) **عمداً** فليقض »[3] رواه أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجة وابن حبان والدار قطنى والحاكم وصححه .

قال الخطابى : لا أعلم خلافاً بين أهل العلم فى أن من ذرعه القىء لا قضاء عليه ، ولا فى أن من استقاء عامداً فعليه القضاء .

٤ ، ٥ ـــ الحيض والنفاس ، ولو فى اللحظة الأخيرة قبل غروب الشمس ، وهذا مما أجمع عليه العلماء .

٦ ـــ الاستمناء : (تعمد اخراج المنى بأى سبب من الأسباب) ، سواءاً أكان سببه تقبيل الرجل لزوجته أو ضمها إليه ، أو كان باليد ، فهذا يبطل الصوم ويوجب القضاء .

فإن كان سببه مجرد النظر أو الفكر فإنه مثل الاحتلام نهاراً فى الصيام ، لا يبطل الصوم ولا يجب فيه شىء .

---

(١) انظر سنن البيهقى « كتاب الصيام » باب « من أكل أو شرب ناسياً فليتم صومه ولا قضاء عليه » ج ٤ ص ٢٢٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب طلاق المكره والناس » ج ١ ص ٦٥٩ حديث ٢٠٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس .

(٣) سنن ابن ماجه « كتاب الصيام » باب « ما جاء فى الصائم يقىء » ج ١ ص ٥٣٦ حديث ١٦٧٦ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة .

وكذلك الذى لا يؤثر فى الصوم قلّ أو كثر .

٧ ـــ تناول ما لا يتغذى به من المنفذ المعتاد إلى الجوف مثل تعاطى الملح الكثير ، فهذا يفطر فى قول عامة أهل العلم .

٨ ـــ ومن نوى الفطر وهو صائم بطل صومه ، وإن لم يتناول مفطراً .

فإن النية ركن من أركان الصيام ، فإذا نقضها قاصداً الفطر ومتعمداً له انتقض صيامه لا محالة .

٩ ـــ إذا أكل أو شرب أو جامع ظاناً غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر فظهر خلاف ذلك ، فعليه القضاء عند جمهور العلماء ، ومنهم الأئمة الأربعة .

وذهب إسحاق وداود وابن حزم وعطاء وعروة والحسن البصرى ومجاهد : إلى أن صومه صحيح ولا قضاء عليه لقول الله تعالى : ﴿ **وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم** ﴾[١] .

ولقول رسول الله ﷺ : « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه »[٢] رواه ابن ماجة والطبرانى والحاكم .

وروى عبد الرزاق قال : حدثنا معمر عن الأعمش عن زيد بن وهب قال : أفطر الناس فى زمن عمر بن الخطاب فرأيت ـــ عساساً (أى : أقداحاً ضخاماً ، قيل : إن القدح نحو ثمانية أرطال) أخرجت من بيت حفصة فشربوا ، ثم طلعت الشمس من سحاب فكأن ذلك شق على الناس . فقالوا : نقضى هذا اليوم . فقال عمر : لم ؟ والله ما تجانفنا الإثم » (التجانف : الميل ، أى لم نمل لارتكاب الإثم) .

وروى البخارى عن أسماء بنت أبى بكر ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : أفطرنا يوما من رمضان فى غيم على عهد رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، ثم طلعت الشمس »[٣] .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٥

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب « طلاق المكره والناس » ج ١ ص ٦٥٩ حديث ٢٠٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عباس ، وانظر الحديث ٢٠٤٣ .

(٣) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب إذا أفطر فى رمضان ثم طلعت الشمس ج ١ ص ٣٣٥ فقد ورد الحديث بلفظه عن أسماء بنت أبى بكر .

قال ابن تيمية : وهذا يدل على شيئين :

الأول : يدل على أنه لا يُستحب مع الغيم التأخير إلى أن يتيقن الغروب ، فإنهم لم يفعلوا ذلك ولم يأمرهم به النبى — ﷺ — ، والصحابة — مع نبيهم — اعلم وأطوع لله ولرسوله ممن جاء بعدهم .

والثانى يدل على أنه لا يجب القضاء . فإن النبى — ﷺ — لو أمرهم بالقضاء لشاع ذلك كما نقل فطرهم ، فلما لم ينقل ، دلّ على أنه لم يأمرهم به .

وأما ما ينطله ويوجب القضاء والكفارة فهو الجماع لا غير عند الجمهور .

فعن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى النبى — ﷺ — فقال : هلكت يا رسول الله . قال : « وما أهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتى فى رمضان . فقال : هل تجد ما تعتق رقبة ؟ قال : لا . قال : فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين . قال : لا . قال : فهل تجد ما تطعم ستين مسكيناً ؟ قال : لا . قال : ثم جلس ، فأتى النبى — ﷺ — بعَرق (مكيال يسع ١٥ صاعاً) فيه تمر فقال : تصدق بهذا . قال : فهل على أفقر منا ؟ فما بين لابتيها (جمع لابة . وهى الأرض التى فيها حجارة سود والمراد ما بين أطراف المدينة أفقر منا) . أهل بيت أحوج إليه منا . فضحك النبى — ﷺ — حتى بدت نواجذه وقال : اذهب فأطعمه أهلك »[1] رواه الجماعة .

(استدل بهذا من ذهب إلى سقوط الكفارة بالإعسار ، وهو أحد قولى الشافعى ، ومشهور مذهب أحمد ، وجزم به بعض المالكية والجمهور على أن الكفارة لا تسقط بالإعسار) .

ومذهب الجمهور : أن المرأة والرجل سواء فى وجوب الكفارة عليهما . ما داما قد تعمدا الجماع ، مختارَيْن فى نهار رمضان (فإن كان الصيام قضاء رمضان ، أو نذراً وأفطر بالجماع ، فلا كفارة فى ذلك) ناويَيْن الصيام . فإن وقع الجماع نسياناً ، أو لم يكونا مختارين ، بأن أكرها عليه ، أو لم يكونا ناويين الصيام ، فلا كفارة على واحد منهما . فإن أكرهت المرأة من الرجل ، أو كانت مفطرة لعذر وجبت الكفارة عليه دونها .

ومذهب الشافعى : أنه لا كفارة على المرأة مطلقاً ، لا فى حالة الاختيار ولا فى حالة الإكراه — وإنما يلزمها القضاء فقط .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « إذا جامع فى رمضان ولم يكن له شئ فتصدق عليه فليكفر » ج ١ ص ٣٣١ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه .

وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « تغليظ تحريم الجماع فى نهار رمضان .. الخ » ج ٢ ص ٧٨١ — ٧٨٢ حديث ٨١ / ١١١١ فقد ورد الحديث عن أبى هريرة مع اختلاف يسير فى بعض ألفاظه .

قال النووى : والأصح ــ على الجملة ــ وجوب كفارة واحدة عليه خاصة عن نفسه فقط ، وأنه لا شىء على المرأة ولا يلاقيها الوجوب لأنه حق مال مختص بالجماع فاختص به الرجل دون المرأة ، كالمهر .

قال أبو داود : سئل (هذه إحدى الروايتين عن أحمد) أحمد عمن أتى أهله فى رمضان ، أعليها كفارة ؟ قال : ما سمعنا أن على امرأة كفارة .

قال فى المغنى : ووجه ذلك : أن النبى ــ ﷺ ــ « أمر الواطىء فى رمضان أن يعتق رقبة » ولم يأمر فى المرأة بشىء مع علمه بوجود ذلك منها » .

والكفارة على الترتيب المذكور فى الحديث ، فى قول جمهور العلماء .

فيجب العتق أولاً ، فإذا عجز عنه صام شهرين متتابعين (ليس فيهما رمضان ولا أيام العيدين والتشريق) فإن عجز عنه أطعم ستين مسكيناً من أوسط ما يطعم منه أهله (مذهب أحمد لكل مسكين مد من قمح ، أو نصف صاع من تمر ، أو شعير ونحوهما . وقال أبو حنيفة : من القمح نصف صاع ومن غيره صاع . وقال الشافعى ومالك : يطعم مداً من أى الأنواع شاء . وهذا رأى أبى هريرة وعطاء والأوزاعى ، وهو أظهر . فإن العرق الذى أعطى للأعرابى يسع ١٥ صاعاً) . وأنه لا يصح . الانتقال من حالة إلى أخرى ، إلا إذا عجز عنها . ومذهب المالكية ورواية لأحمد : أنه مخير بين هذه الثلاث فأيها فعل أجزأ عنه .

لما روى مالك وابن جريج . عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة « أن رجلا أفطر فى رمضان ، فأمره رسول الله ــ ﷺ ــ أن يكفر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً »(١) رواه مسلم ، و « أو » تفيد التخيير .

ولأن الكفارة بسبب المخالفة ، فكانت على التخيير . ككفارة اليمين .

قال الشوكانى : وقد وقع فى الروايات ما يدل على الترتيب والتخيير ، والذين رووا الترتيب أكثر ومعهم الزيادة .

وجمع المهلب والقرطبى بين الروايات بتعدد الواقعة . قال الحافظ : وهو بعيد لأن القصة واحدة والمخرج متحد ، والأصل عدم التعدد . وجمع بعضهم بحمل الترتيب على الأولوية ، والتخيير على الجواز ، وعكسه بعضهم . انتهى .

---

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « تغليظ تحريم الجماع فى نهار رمضان على الصائم .. الخ » ج ٢ ص ٧٨٢ ــ ٧٨٣ حديث ٨٤ / ١١١١ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

ومن جامع عامداً فى نهار رمضان ، ولم يكفر ثم جامع فى يوم آخر منه فعليه كفارة واحدة **عند الأحناف** ، ورواية عن أحمد ، لأنها جزاء عن جناية تكرر سببها قبل استيفائها ، فتتداخل .

وقال مالك والشافعى ، ورواية عن أحمد : عليه كفارتان ، لأن كل يوم عبادة مستقلة ، فإذا وجبت الكفارة بإفساده لم تتداخل كرمضانين . وقد أجمعوا : على أن من جامع فى نهار رمضان عامدا وكفر ، ثم جامع فى يوم آخر ، فعليه كفارة أخرى .

وكذلك أجمعوا على أن من جامع مرتين فى يوم واحد ولم يكفر عن الأول : أن عليه كفارة واحدة .

فإن كفر عن الجماع الأول لم يكفر ثانياً عند جمهور الأئمة . وقال أحمد : عليه كفارة ثانية .

قضاء رمضان

قضاء رمضان لا يجب على الفوْر ، بل يجب وجوباً موسعاً فى أى وقت وكذلك الكفارة .

فقد صح عن عائشة أنها كانت تقضى ما عليها من رمضان فى شعبان (رواه أحمد ومسلم) ولم تكن تقضيه فوراً عند قدرتها على القضاء .

والقضاء مثل الأداء ، بمعنى أن من ترك أياماً يقضيها دون أن يزيد عليها .

ويُفارق القضاءُ الأداءَ فى أنه لا يلزم فيه التتابع . لقول الله — تعالى — : ﴿ **ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾[1] . أى ومن كان مريضاً ، أو مسافراً فأفطر ، فليصم عدة الأيام التى أفطر فيها فى أيام أخر متتابعات أو غير متتابعات ، فإن الله أطلق الصيام ولم يقيده .

وروى الدارقطنى عن ابن عمر — رضى الله عنهما — ، أن النبى — ﷺ — قالَ فى قضاء رمضان : « إن شاء فرّق وإن شاء تابع »[2] .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥

(٢) انظر سنن الدار قطنى « كتاب الصيام » ج ٢ ص ١٩٣ فقد ورد الحديث بلفظه عن ابن عمر تحت رقم ٧٤ .

وإن أخر القضاء حتى دخل رمضان آخر صام رمضان الحاضر ثم يقضى بعده ما عليه ، ولا فدية عليه ، سواء كان التأخير لعذر أو لغير عذر .

وهذا مذهب الأحناف والحسن البصرى .

ووافق مالك والشافعى وأحمد واسحاق في أنه لا فدية عليه إذا كان التأخير بسبب العذر .

وخالفوهم فيما إذا لم يكن له عذر فى التأخير . فقالوا : عليه أن يصوم رمضان الحاضر ، ثم يقضي ما عليه بعده ، ويفدى عما فاته عن كل يوم مداً من طعام .

وليس لهم فى ذلك دليل يمكن الاحتجاج به .

فالظاهر ما ذهب إليه الأحناف ، فانه لا شرع إلا بنص صحيح .

من مات وعليه صيام

أجمع العلماء على أن من مات وعليه فوائت من الصلاة فإن وليه لا يصلى عنه ، هو ولا غيره ، وكذلك من عجز عن الصيام لا يصوم عنه أحد أثناء حياته . فإن مات وعليه صيام وكان قد تمكن من صيامه قبل موته فقد اختلف الفقهاء فى حكمه .

فذهب جمهور العلماء ، منهم أبو حنيفة ومالك والمشهور عن الشافعى إلى أن وليّه لا يصوم عنه ويطعم عنه مدّاً عن كل يوم (يرى الحنفية أن الواجب نصف صاع من قمح ، وصاع من غيره) .

والمذهب المختار عند الشافعية أنه يستحب لوليه أن يصوم عنه ويبرأ به الميت ولا يحتاج إلى إطعام عنه .

والمراد بالولى القريب ، سواء كان عصبة ، أو وارثاً أو غيرهما .

ولو صام أجنبى عنه ، صح إن كان بإذن الولى ، وإلا فإنه لا يصح .

واستدلوا بما رواه أحمد والشيخان عن عائشة أن النبى ﷺ — قال : « من مات وعليه صيام ،

صام عنه وليه »[1] زاد البزاز لفظ : إن شاء وسندها حسن وروى أحمد وأصحاب السنن : عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ ، فقال : « يا رسول الله ، إن أمى ماتت وعليها صوم شهر ، أفأ قضيه عنها ؟ فقال : لو كان على أمك دين أكنت قاضية عنها ؟ قال : نعم . قال : فدَين الله أحق أن يقضى »[2] .

قال النووى : « وهذا القول هو الصحيح المختار الذى نعتقده وهو الذى صححه محققو أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة .

ـ التقدير فى البلاد التى يطول نهارها ويقصر ليلها :

اختلف الفقهاء فى التقدير فى البلاد التى يطول نهارها ويقصر ليلها ، والبلاد التى يقصر نهارها ويطول ليلها على أى البلاد يكون ؟

فقيل : يكون التقدير على البلاد المعتدلة التى وقع فيها التشريع كمكة والمدينة ، وقيل : على أقرب بلاد معتدلة إليهم .

ليلة القدر

ـ فضلها :

ليلة القدر أفضل ليالى السنة لقوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر ۝ وما أدراك ما ليلة القدر ۝ ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾[3] .

ـ أى القرآن : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن** ﴾[4] .

أى العمل فيها من الصلاة والتلاوة والذكر خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر .

---

(١) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « من مات وعليه صوم » ج ١ ص ٣٣٤ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « قضاء الصيام عن الميت » ج ٢ ص ٨٠٣ حديث ١٥٣ / ١١٤٧ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « من مات وعليه صوم » ج ١ ص ٣٣٤ فقد ورد الحديث عن عائشة . وانظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب « قضاء الصيام عن الميت » ج ٢ ص ٨٠٤ حديث ١٥٥ / ١١٤٨ فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة .

(٣) سورة القدر الآيات ١ ـ ٣

(٤) سورة البقرة الآية ١٨٥

ــ استحباب طلبها :

ويستحب طلبها فى الوتر من العشر الأواخر من رمضان ، فقد كان النبى ــ ﷺ ــ يجتهد فى طلبها فى العشر الأواخر من رمضان .

فقد كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر (أى اعتزل النساء واشتد فى العبادة)[١] .

ــ أى الليالى هى ؟

للعلماء آراء فى تعيين هذه الليلة ، فمنهم من يرى أنها ليلة الحادى والعشرين ، ومنهم من يرى انها ليلة الثالث والعشرين ، ومنهم من يرى أنها ليلة الخامس والعشرين ، ومنهم من ذهب إلى أنها ليلة التاسع والعشرين . ومنهم من قال : انها تنتقل فى ليالى الوتر من العشر الأواخر .

وأكثرهم على أنها ليلة السابع والعشرين .

روى أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان متحرّيها فليتحرَّها ليلة السابع والعشرين »[٢] .

وروى مسلم وأحمد وأبو داود والترمذى وصححه عن أبى بن كعب أنه قال : « والله الذى لا إله إلا هو إنها لفى رمضان ــ يحلف ما يستثنى ــ ووالله انى لأعلم أى ليلة هى . هى الليلة التى أمرنا رسول الله ــ ﷺ ــ بقيامها . هى ليلة سبع وعشرين . وأمارتها أن تطلع الشمس فى صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها »[٣] .

ــ قيامها والدعاء فيها :

١ ــ روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه »[٤] .

(١) انظر صحيح مسلم « كتاب الاعتكاف » باب « الاجتهاد فى العشر الأواخر من شهر رمضان » ج ٢ ص ٨٣٢ فقد ورد الحديث رقم ٧ / ١١٧٤ عن عائشة فى ذلك .

(٢) انظر مسند الامام احمد ج ٢ ص ١٥٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن عمر .

(٣) انظر صحيح مسلم « كتاب الصيام » باب فضل ليلة القدر .. الخ ج ٢ ص ٨٢٨ حديث ٢٢٠ / ٧٦٢ فقد ورد الحديث عن أبى بن كعب فى هذا .

(٤) انظر صحيح البخارى « كتاب الصوم » باب « فضل ليلة القدر » ج ١ ص ٣٤٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة بلفظ : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وانظر صحيح مسلم « كتاب صلاة المسافرين وقصرها » باب « الترغيب فى قيام رمضان وهو التراويح » ج ١ ص ٥٢٣ ــ ٥٢٤ فقد ورد الحديث رقم ١٧٥ / ٧٦٠ من رواية لأبى هريرة بلفظ البخارى .

٢ ـــ وروى أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه عن عائشة رضى الله عنها ـــ قالت : قلت : يا رسول الله ، أرأيت إن علمت أى ليلة ليلة القدر . ما أقول فيها ؟ قال : قولى : « اللهم إنك عفوا تحب العفو فاعف عنى »[1] .

الإطعام

قوله تعالى فى كفارة الظهار : ﴿ **فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً** ﴾ أى : من أوسط ما يطعم منه أهله ﴿ **ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله** ﴾ أى : لتصدقوا بأحكامه وتمتثلوا أمره وأمر رسوله وليحدث لكم كمال الإيمان ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾ أى : الجاحدين لأحكام الله ـــ تعالى ـــ الخارجين عن التصديق بما بعث به نبيه ـــ ﷺ ـــ والعذاب الأليم هو المؤلم الذى قال الله فيه : ﴿ **إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً** ﴾[2] .

كتاب الظهار

والآن نبين بالتفصيل ما جاء عن الفقهاء من أحكام فى الظهار ، فنقول وبالله التوفيق :

تعريفه :

الظهار : مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى .

قال فى الفتح :

« وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً ، ولذلك سمى الركوب ظهراً ، فشبهت المرأة بذلك . لأنها مركوب الرجل » .

والظهار كان طلاقاً فى الجاهلية ، فأبطل الإسلام هذا الحكم ، وجعل الظهار محرماً للمرأة حتى يكفر زوجها .

---

(١) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الدعاء » باب « الدعاء بالعفو والعافية » ج ٢ ص ١٢٦٥ حديث ٣٨٥٠ فقد ورد الحديث عن عائشة .

(٢) سورة النساء الآية ٥٦

فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق ، كان ظهاراً ، ولو طلق يريد ظهاراً ، كان طلاقاً ، فلو قال : « أنت علىّ كظهر أمى » ، وعنى به الطلاق ، لم يكن طلاقاً ، وكان ظهاراً لا تطلق به المرأة .

قال ابن القيم : « وهذا لأن الظهار كان طلاقاً فى الجاهلية ، فنسخ ، فلم يجز أن يعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضاً أن أوْس بن الصامت إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأجرى عليه حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضاً فإنه صريح فى حكمه ، فلم يجز جعله كناية فى الحكم الذى أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب » .

وقد أجمع العلماء على حرمته ، فلا يجوز الإقدام عليه لقول الله — تعالى — : ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم ، ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور** ﴾ .

وأصل ذلك ما ثبت فى السنن أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة . وهى التى جادلت فيه رسول الله — ﷺ — واشتكت إلى الله ، وسمع الله شكواها من فوق سبع سموات . فقالت : « يا رسول الله ، إن أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة مرغوب فىّ ، فلما خلاسنى ، ونثرت بطنى ، جعلنى كأمه عنده ، فقال لها رسول الله ، ﷺ — : « ما عندى فى أمرك شىء » .

فقالت : « اللهم إنى أشكو إليك » .

وروى أنها قالت : « ان لى صبية صغاراً ، ان ضمهم اليه ضاعوا ، وان ضممتهم إلىّ جاعوا » . فنزل القرآن .

وقالت عائشة : « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات » ، لقد جاءت خولة بنت ثعلبة تشكو إلى رسول الله — ﷺ — وأنا فى كِسْر البيت يخفى علىّ بعض كلامها ، فأنزل الله — عز وجل — : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ .

فقال النبى — ﷺ — :

« ليعتق رقبة ! قالت : لا يجد ! قال : فيصوم شهرين متتابعين . قالت : يا رسول الله ، إنه شيخ كبير ، ما به من صيام . قال : فليطعم ستين مسكيناً . قالت : ما عنده من شىء يتصدق به . قال :

سأعينه بعزق من تمر ! قالت : وأنا أعينه بعرق آخر . قال : أحسنت فأطعمى عنه ستين مسكيناً ، وارجعى إلى ابن عمك »[١] .

وفى السنن أن سلمة بنت صخر البياضى ، ظاهر من امرأته مدة شهر رمضان ، ثم واقعها ليلة قبل إنسلاخه . فقال له النبى — ﷺ — : أنت بذاك يا سلمة . قال : قلت : أنا بذاك (أى أنت الملم بذاك والمرتكب له) يا رسول الله ؟ — مرتين — وأنا صابر لأمر الله ، فاحكم فىّ بما أراك الله . قال : حرر رقبة . قلت : والذى بعثك بالحق نبياً ما أملك — قبة غيرها — وضربت صفحة رقبتى ، قال : فصم شهرين متتابعين . قال : فهل أصبت الذى أصبت إلا فى الصيام ؟ قال : فأطعم وسقاً من تمر ستين مسكيناً . قلت : والذى بعثك بالحق لقد بتنا وحشيين (أى بتنا مقفرين لا طعام لنا) . ما لنا طعام . قال : فانطلق إلى صدقة بنى زرُيق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها . قال : خرجت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند رسول الله السورة وحسن الرأى ، وقد أمر لى بصدقتكم »[٢] .

— هل الظهار مختص بالأم ؟

ذهب الجمهور إلى أن الظهار ، يختص بالأم كما ورد فى القرآن وكما جاء فى السنة . فلو قال لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى ، كان مظاهراً ، ولو قال لها : أنت علىّ كظهر أختى لم يكن مظاهراً . وذهب البعض ، ومنهم **الأحناف** والأوزاعى والثورى والشافعى فى أحد قوليه ، وزيد بن على ، إلى أنه يقاس على الأم جميع المحارم ، (قال الأئمة الثلاثة ورواية عن أحمد ، إذا قالت المرأة لزوجها : أنت على كظهر أمى ، فإنه لا كفارة عليها ، وقال أحمد فى الرواية الأخرى — وهى أظهرها — يجب عليها الكفارة إذا وطئها ، وهى التى اختارها الخرق) .

فالظهار عندهم هو تشبيه الرجل زوجته فى التحريم بإحدى المحرمات عليه ، على وجه التأييد بالنسب أو المصاهرة أو الرضاع ، إذ العلة هى التحريم المؤبد .

ومن قال لامرأته : انها أختى أو أمى على سبيل الكرامة والتوقير فإنه لا يكون مظاهراً .

والظهار لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم . لزوجة قد انعقد زواجها انعقاداً **صحيحاً** نافذاً .

---

(١) انظر مسند الامام احمد ج ٦ ص ٤١٠ ، ٤١١ فقد ورد الحديث عن خولة بنت نبلة .

(٢) انظر سنن ابن ماجه « كتاب الطلاق » باب الظهار ج ١ ص ٦٦٥ — ٦٦٦ حديث رقم ٢٠٦٢ فقد ورد الحديث من رواية سليمة بن صخر البياض .. مع اختلاف فى بعض ألفاظه .

ـ الظهار المؤقت :

الظهار المؤقت هو إذا ظاهر من امرأته إلى مدة ، مثل أن يقول : « أنت علىّ كظهر أمى إلى الليل » ثم أصابها قبل انقضاء تلك المدة .

وحكمه أنه ظهار كالمطلق .

قال الخطابى :

واختلفوا فيه إذا بر فلم يحنث :

فقال مالك وابن أبى ليلى : إذا قال لامرأته : « أنت علىّ كظهر أمى إلى الليل » لزمته الكفارة وإن لم يقربها .

وقال أكثر أهل العلم : لا شىء عليه إن لم يقربها .

قال : وللشافعى فى الظهار المؤقت قولاً : أحدهما أنه ليس بظهار .

ـ أثر الظهار :

إذا ظاهر الرجل من امرأته ، وصح الظهار ، ترتب عليه أثران :

الأثر الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقول الله سبحانه : ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ .

وكما يحرم المسيس ، فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقبيل والمعانقة ونحو ذلك ، وهذا عند جمهور العلماء .

وذهب بعض أهل العلم (هذا رأى الثورى ، وأحد قولى الشافعى) إلى أن المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

والأثر الثانى : وجوب الكفارة بالعود .

وما هو العود ؟

اختلف العلماء فى العود ... ما هو ؟

فقال قتادة ، وسعيد بن جبير ، وأبو حنيفة وأصحابه :

« انه إرادة المسيس لما حرم بالظهار » لأنه إذا أراد ، فقد عاد من عزم ، إلى عزم الفعل ، سواء فعل أم لا .

وقال الشافعى :

بل هو إمساكها بعد الظهار وقتاً يسع الطلاق ، ولم يطلق إذ تشبيهها بالأم يقتضى إبانتها ، وإمساكها نقيضه ، فإذا أمسكها فقد عاد فيما قال ، لأن العود للقول مخالفته .

وقال مالك وأحمد :

بل هو العزم على الوطء فقط ، وإن لم يطأ .

وقال داود وشعبة ، وأهل الظاهر :

بل إعادة لفظ الظهار فالكفارة لا تجب عندهم إلا بالظهار المعاد ، لا المبتدأ .

ــ المسيس قبل التكفير :

إذا مس الرجل زوجته قبل التفكير ، فإن ذلك يحرم ، والكفارة لا تسقط ولا تتضاعف ، بل تبقى كما هى ، كفارة واحدة .

قال الصّلب بن دينار : سألت عشرة من الفقهاء عن المظاهر يجامع قبل أن يكفر ؟ فقالوا : كفارة واحدة .

ــ ما هى الكفارة ؟

والكفارة هى : عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً . لقول الله سبحانه : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به ، والله بما تعملون خبير ۝ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً** ﴾ .

وقد روعى فى كفارة الظهار التشديد ، محافظة على العلاقة الزوجية ومنعاً من ظلم المرأة ، فإن الرجل إذا رأى أن الكفارة يثقل عليه الوفاء بها ، احترم العلاقة الزوجية ، وامتنع عن ظلم زوجته .

الظهار وكفارته فى الإسلام

تحت هذا العنوان كتب الشيخ الصابونى فى كتابه (روائع البيان ـــ تفسير آيات الأحكام) فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ۝ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم ان أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وان الله لعفو غفور ۝ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ۝ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾ .

التحليل اللفظى

﴿ **سمع الله** ﴾ : السمع والبصر صفتان كالعلم والقدرة ، والحياة والإرادة ، فهما من صفات الذات لم يزل الخالق سبحانه متصفاً بهما .

ومعنى السميع : المدرك للأصوات من غير أن يكون له أذن لأنها لا تخفى عليه .

قال أبو السعود : ومعنى سمعه ـــ تعالى ـــ لقولها : إجابة دعائها ، لا مجرد علمه ـــ تعالى ـــ بذلك كما هو المعنى بقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **والله يسمع تحاوركما** ﴾ أى : يعلم تراجعكما الكلام .

﴿ **تجادلك** ﴾ أى : تراجعك فى شأن زوجها ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة .

وفى الحديث : (**ما أوتى قوم الجدل إلا ضلوا**)[1] والمراد بالحديث الجدل على الباطل ، وطلب

---

(١) هذا جزء حديث رواه الترمذى عن أبى أمامة فى (كتاب التفسير) تفسير سورة الزخرف ج ٥ ص ٣٧٨ رقم ٣٢٥٣ ولفظه : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم تلا رسول الله ـــ ﷺ ـــ هذه الآية : ﴿ **ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون** ﴾

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه ابن ماجه فى المقدمة ج ١ ص ١٩ رقم ٤٨

وانظر مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٥٢ .

المغالبة به . لإظهار الحق ، فإن ذلك محمود ــ لقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾(١) والمراد هنا : المراجعة فى الكلام .

﴿ **وتشتكى** ﴾ الشكوى : إظهار البث وما انطوت عليه النفس من الهمّ والغم . وفى التنزيل : ﴿ **قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله** ﴾(٢) وشكا واشتكى بمعنى واحد .

﴿ **تحاوركما** ﴾ المحاورة : المراجعة فى الكلام ، من حار الشىء ، يحور ، حوراً ، أى : رجع يرجع رجوعاً ، ومنه حديث : « **نعوذ بالله من الحَوْر بعد الكَوْر** »(٣) ومنه : فما أحار بكلمة ، أى : فما أجاب . قال عنترة :

لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى

يريد به فرسه ، أى : لو كان يعلم الكلام لكلمنى .

﴿ **يظاهرون** ﴾ الظهار : مشتق من الظهر ، وهو قول الرجل لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى . ومعناه الأصلى : مقابلة الظهر بالظهر ، يقال : ظاهر فلان فلاناً ، أى : قابل ظهره بظهره ، ثم استعمل فى تحريم الزوجة يجعلها محرمة كظهر أمه .

قال الألوسى : الظهار لغة : مصدر ظاهر ، وهو (مفاعلة) من الظهر ، ويراد به معان مختلفة ، راجعة إلى الظهر معنى ولفظاً باختلاف الأغراض .

فيقال : ظاهر زيد عمراً ، أى : قابل ظهره بظهره حقيقة .

وظاهره : إذا غايظة وإن لم يقابل حقيقة ، باعتبار أن المغايظة تقتضى ذلك .

وظاهره : إذا ناصره ، باعتبار أنه يقال : قوّى ظهره : إذا نصره .

وظاهر بين ثوبين : إذا لبس أحدهما فوق الآخر .

وظاهر من امرأته : إذا قال لها : أنت علىّ كظهر أمى .

وهذا الأخير هو المعنى الذى نزلت فيه الآيات .

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة النحل .

(٢) من الآية ٨٦ من سورة يوسف .

(٣) هذا جزء حديث رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الدعاء) باب ما يدعو به الرجل إذا سافر ج ٢ ص ١٢٧٩ رقم ٣٨٨٨ ولفظه : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، والحور بعد الكور ، ودعوة المظلوم ، وسوء المنظر فى الأهل والمال » .

وانظر الجامع الصحيح للترمذى ج ٥ ص ٤٩٨ رقم ٣٤٣٩ .

قال فى الفتح : « وإنما خص الظهر بذلك دون سائر الأعضاء ، لأنه محل الركوب غالباً ، ولذلك سمى المركوب ظهراً ، فشبهت المرأة بذلك لأنها مركوب الرجل » .

﴿ **اللائى** ﴾ : جمع التى ، فيقال : اللاتى ، واللائى . قال ـ تعالى ـ : ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن** ﴾[1] .

﴿ **منكراً** ﴾ المنكر من الأمر : خلاف العروف ، وكل ما قبّحه الشرع وحرّمه وكرهه فهو منكر .

﴿ **زوراً** ﴾ الزور : الكذب والباطل الواضح ، ومنه شهادة الزور .

﴿ **تحرير رقبة** ﴾ حرّرته ، أى : جعلته حراً لوجه الله . والرقبة فى الأصل : العُنق ، ثم أطلقت على ذات الإنسان تسمية للشىء ببعضه . والمراد بها المملوك عبداً أو أمة .

قال الآلوسى : وذلك من تسمية الكل باسم الجزء .

﴿ **يتماسا** ﴾ المسّ : مسك الشىء باليد ، ثم استعير للجماع ، لأنه لمس والتصاق . لأن فيه التصاق الجسم بالجسم ، والتماس هنا : كناية عن الجماع .

﴿ **مسكيناً** ﴾ المسكين : الذى لا شىء له ، وقيل : الذى لا شىء له يكفى عياله . وأصل المسكين فى اللغة : الخاضع .

والمراد به هنا ما يعم الفقير . والمسكين أحسن حالاً من الفقير .

وقد قالوا : المسكين والفقير إذا اجتمعا (يعنى فى اللفظ) افترقا (فى المعنى) وإذا افترقا اجتمعا .

﴿ **حدود** ﴾ الحد : الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أحدهما بالآخر ، أو لئلا يتعدى أحدهما على الآخر ، وجمعه : حدود وحدود الله : الأشياء التى بيّن تحريمها وتحليلها . وأمر أن لا يتعدى شىء منها فيتجاوز إلى غير ما أمر فيها أو نهى عنه منها ومنع من مخالفتها .

وهنا قوله : ﴿ **تلك حدود الله** ﴾[2] يعنى الحدود بين معصيته وطاعته . فمعصيته الظهار . وطاعته الكفارة .

---

(١) من الآية ٣٤ من سورة النساء .
(٢) من الآية ١٣ من سورة النساء .

المعنى الإجمالى

إن الله ــ تعالى ــ سميع قريب ، يجيب **دعوة الداع إذا دعاه** ، وهذه امرأة جاءت إلى رسول الله ــ ﷺ ــ تشكو ظلم زوجها لها ، حيث حرّمها على نفسه بلفظ كانت الجاهلية تستعمله . أفيبقى هذا اللفظ محرماً فى الإسلام ؟ !

جادلت رسول الله ــ ﷺ ــ وتوجهت بالدعاء إلى المولى جل وعلا ، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، تشكو إليه وحدتها ، فلا أهل لها ولا معيل ولا نصير ، وقد كبر سنها ، وأولادها صغار ، إن أبقتهم عنده ضاعوا ، وإن ضمتهم إليه جاعوا .

ورسول الله ــ صلوات الله عليه ــ لا يشرّع من قبل نفسه ، وإنما يتبع الوحى الذى يأتيه من ربه ، ولم يوح إليه فى الظهار بشىء . ولذلك ما كان يجزم بالتحريم ، وإنما كان يقول : « ما أراك إلا قد حَرُمت عليه »[1] فكانت تجادله .

استجاب الله دعاء هذه المرأة الضعيفه الوحيدة ، ونزل الوحى ليقول للزوج : زوجك التى ظاهرت منها ليست بأمك . فأمك هى التى ولدتك حقيقة ، وحرمت عليك بذلك ، فكيف تصف ما أباحة الله لك بما حرمه عليك ؟ إنك تقول قولاً يمقته الشرع ، فضلاً عن كونه كذبا وزوراً ، ومع ذلك فإن الله عفو عمن اخطأ ثم تاب ، غفور لمن وقف عند حدود الشرع ، واتبع أمر الله الذى أنزله على نبيه .

فمن ظاهر من زوجه وقال لها : أنت علىّ كظهر أمى ، ثم أراد أن ينقض قوله ، ويعود إلى ما أحله الله له من زوجه ، فالواجب عليه أن يحرر عبداً مملوكاً قبل أن يمسك زوجه ، هذا حكم من ظاهر ليتعظ به المؤمنون ، ويعلموا أن الله ــ جل وعلا ــ خبير بكل ما يعملونه ، فعليهم أن ينتهوا عما نهاهم عنه .

فمن لم يجد الرقبة بأن كان لا يملك ثمنها ، أولا يجد عبداً يشتريه ويعتقه فليصم شهرين متتابعين من قبل أن يقرب زوجه ، فإذا كان ضعيفاً لا يقوى على الصوم ، أو مريضاً يضعفه الصوم ، فعليه أن يطعم ستين مسكيناً ما يشبعهم ، ذلك هو حكم الله فى الظهار ، لتؤمنوا أن هذا منزل من عند الله ــ تعالى ــ وتتبعوه وتقفوا عند حدود ما شرع لكم فلا تتعدوها .

---

(١) الحديث رواه ابن كثير عن ابن أبى حاتم فى تفسير سورة المجادلة ٤ ص ٣٢٠ طبع الحلبى .

سبب النزول

أولاً : عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت :

« تبارك الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة وكلمت رسول الله ــ ﷺ ــ وأنا فى جانب البيت أسمع كلامها ، ويخفى علىّ بعضه ، وهى تشتكى زوجها وتقول : يا رسول الله : أبلى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك .

قالت : فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات »[١] . رواه البخارى ، والنسائى مختصراً ، ورواه الواحدى فى أسباب النزول ، والطبرى ، والحاكم فى المستدرك وصححه ووافقه الذهبى ، ورواه ابن ماجه فى سننه بسند صحيح ، والبيهقى فى سننه .

ثانياً : وقال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ :

« كان الرجل إذا قال لامرأته فى الجاهلية : أنت علىّ كظهر أمى ، حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر فى الإسلام (أوس) ثم ندم ، وقال لامرأته : انطلقى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فسليه ، فأتته ، فنزلت هذه الآيات »[٢] . رواه البيهقى فى السنن ، والسيوطى فى الدر ونسبه لابن مردويه والنحاس .

ثالثاً : وعن خولة بنت مالك بن ثعلبة قالت :

ظاهر منى زوجى أوس بن الصامت ، فجئت رسول الله ــ ﷺ ــ أشكو إليه وهو يجادلنى فيه ويقول : « **اتقى الله فإنه ابن عمك** » . فما برحت حتى نزل القرآن : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ... ﴾ إلى الفرض أى : إلى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن**

---

(١) انظر صحيح البخارى (كتاب التوحيد) ج ٩ ص ١٤٤ فقد رواه مختصرا . ورواه أيضا النسائى فى سننه فى (الظهار) ج ٥ ص ١٦٨ مختصرا .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ١ ص ٦٦٦ رقم ٢٠٦٣ .

وانظر المستدرك للحاكم (كتاب التفسير) تفسير سورة المجادلة ج ٢ ص ٤٨١ .

ورواه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الظهار) بروايتين ج ٧ ص ٣٨٢ .

ورواه السيوطى فى الدر المنثور فى (تفسير سورة المجادلة) ج ٧ ص ٦٩ ، ٧٠ .

ورواه الطبرى فى تفسيره (تفسير سورة المجادلة) ج ٢٨ ص ٥ .

(٢) الحديث رواه البيهقى فى السنن فى (كتاب الظهار) ج ٧ ص ٣٨٢ . وانظر الدر المنثور للسيوطى فى (تفسير سورة المجادلة) ج ٧ ص ٦٩ .

يتماسا ... ﴾ الآية ، قال : « يعتق رقبة » قلت : لا يجد ، قال : « فيصوم شهرين متتابعين » قلت : يا رسول الله إنه شيخ كبير ما به من صيام . قال : « فليطعم ستين مسكيناً » قلت : ما عنده شيء يتصدق به . قال : « فإنى سأعينه بعَرَق من تمر » ، قلت : يا رسول الله وإنى أعينه بعرق آخر . قال : « قد أحسنت ، اذهبى فأطعمى بهما عنه ستين مسكيناً وارجعى إلى ابن عمك »[1] ، قال : والعَرَق : ستون صاعاً . رواه أبو داود ، والإمام أحمد بمعناه .

وجوه القراءات

أولاً : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **قد سمع الله** ﴾ بإظهار الدال .

وقرأ أبو عمرو وحمزة الكسائى بإدغام الدال فى السين .

قال الكسائى: من قرأ (قد سمع) فبيّن الدال فلسانه أعجمى ليس بعربى .

قال الآلوسى : « ولا يلتفت إلى هذا ، فكلا الأمرين فصيح متواتر ، بل الجمهور على البيان » .

ثانياً : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **تجادلك فى زوجها** ﴾ قراءة الجمهور تجادلك من المجادلة وهى المراجعة فى الكلام .

وقرىء ﴿ **تحاورك** ﴾ اى : تراجعك الكلام .

ثالثاً : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **يظاهرون من نسائهم** ﴾ قرأ حفص وعاصم ﴿ **يُظاهرون** ﴾ بضم الياء وكسر الهاء .

وقرأ نافع وابن كثير وعمرو ﴿ **يَظهّرون** ﴾ بتشديد الظاء والهاء وحذف الألف وفتح الياء .

وقرأ حمزة والكسائى وخلف ﴿ **يَظاهرون** ﴾ بفتح الياء وتشديد الظاء والألف .

وقرا الحسن وقتادة : ﴿ **يظهرون** ﴾ بفتح الياء وفتح الظاء مخففة مكسورة الهاء مشددة والمعنى : (يقولون لهن : أنتن كظهور أمهاتنا) .

رابعاً : قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ماهن أمهاتهم** ﴾ الجمهور بكسر التاء وهى لغة أهل الحجاز .

وقرأ المفضل عن عاصم (أمهاتهم) بالرفع على لغة تميم .

وقرأ ابن مسعود : (بأمهاتهم) بزيادة الباء .

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الطلاق) باب فى الظهار ج ٢ ص ٢٦٦ رقم ٢٢١٤ ورواه الامام أحمد فى مسنده (حديث خولة بنت ثعلبة رضى الله عنها) ج ٦ ص ١١٠ ، ١١١ .

وجوه الإعراب

أولاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وتشتكى إلى الله** ﴾ عطف على ﴿ **تجادلك** ﴾ فهو من عطف الجمل ، لا محل لها من الإعراب لكونها صلة للتى .

وجوّز بعضهم أن تكون حالاً ، أى : تجادلك شاكية حالها إلى الله ــ تعالى ــ ويقدر مبتدأ ، أى : وهى تشتكى لأن المضارعية لا تقترن بالواو فى الفصيح ، فيقدر معها المبتدأ لتكون اسمية .

ثانياً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **الذين يظاهرون منكم من نسائهم** ﴾ اسم الموصول ﴿ **الذين** ﴾ مبتدأ ، خبره محذوف ، أى : مخطئون ، وأقيم دليله ــ وهو قوله تعالى : ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ مقامه .

ثالثاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ .

وقال ابن الانبارى : خبره ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ أى : ما نساؤهم أمهاتهم .

قال الفراء : وانتصاب الأمهات ههنا بإلقاء الباء . وهى قراءة عبد الله ﴿ **ما هن بأمهاتهم** ﴾ ومثله : ﴿ **ما هذا بشراً** ﴾[1] أى : ما هذا ببشر فلما ألقيت الباء ألقى أثرها ، وهو النصب ، وعلى هذا كلام أهل الحجاز . فأما أهل نجد فإنهم إذا ألقوا الباء رفعوا وقالوا ﴿ **ما هن أمهاتهم** ﴾ و ﴿ **ما هذا بشر** ﴾ .

وقال أبو حيان : أجرى (ما) مجرى (ليس) فى رفع الاسم ونصب الخبر كما فى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ما هذا بشراً** ﴾ وقوله : ﴿ **فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[2] .

أقول : هذا هو الصحيح ، لان (ما) بمعنى ليس فهى نافية حجازية وهى لغة القران .

رابعاً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **وإنهم ليقولون منكرا من القول وزوراً** ﴾ انتصب ﴿ **منكراً وزوراً** ﴾ على الوصف لمصدر محذوف ، وتقديره : وإنهم ليقولون قولاً منكراً ، وقولاً زوراً .

خامساً : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة** ﴾ اسم الموصول (الذين) مبتدأ . وقوله ــ تعالى ــ : (فتحرير رقبة) مبتدأ آخر خبره مقدر ، أى : فعليهم تحرير رقبة ، أى : فكفارتهم تحرير رقبة .

والجملة من المبتدا الثانى وخبره خبر الموصول . ودخلته الفاء لتضمن المبتدأ معنى الشرط .

---

(١) من الاية ٣١ من سورة يوسف

(٢) من الآية ٤٧ من سورة الحاقة

سادسا : قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **ثم يعودون لما قالوا** ﴾

قال ابن الانبارى : الجار والمجرور فى موضع نصب لأنه يتعلق بـ ﴿ **يعودون** ﴾ و ﴿ **ما** ﴾ مصدرية ، وتقديره : يعودون لقولهم . والمصدر فى موضع المفعول ، كقولك : ﴿ **هذا الثوب نسج اليمن** ﴾ أى : منسوجه ، ومعناه يعودون للإمساك المقول فيه الظهار ولا يطلّق . وقيل : اللام فى ﴿ **لما قالوا** ﴾ بمعنى (إلى) أى : يعودون إلى قول الكلمة التى قالوها أولاً ، من قولهم : أنت علىّ كظهر أمى ، وهذا مذهب أهل الظاهر .

لطائف التفسير

* **اللطيفة الأولى** :

يقول علماء اللغة : ﴿ **قد** ﴾ حرف يوجب به الشىء ، وهى إذا دخلت على الماضى تفيد ﴿ **التحقيق** ﴾ وإذا دخلت على المضارع تفيد ﴿ **التقليل** ﴾ لأنها تميل إلى الشك ، تقول : قد ينزل المطر ، وقد يجود البخيل . وأما فى كلام الله فهى للتحقيق سواء دخلت على الماضى أو المضارع ، كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **قد يعلم الله المعوّقين منكم** ﴾[1] .

قال الجوهرى : (قد) حرف لا يدخل إلا على الأفعال .

قال الزمخشرى : « معنى (قد) التوقع لأنه ــ ﷺ ــ والمجادلة كانا متوقعين أن ينزل الله فى شكواها ما يفرّج عنها » .

ومعنى سمعه ــ تعالى ــ لقولها اجابة دعائها ، لا لمجرد علمه ــ تعالى ــ بذلك ، وهو كقول المصلى : سمع الله لمن حمده .

* **اللطيفة الثانية** :

قال الإمام الفخر : هذه الواقعة تدل على أن من انقطع وجاؤه عن الخلق ، ولم يبق له فيما أهمه أحد سوى الخالق كفاه الله ذلك الأمر . وصيغة المضارع (يسمع) تفيد التجدد ، للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده ، وذكرها مع الرسول فى سلك الخطاب (تحاوركما) تشريف لها بهذا الخطاب الكريم ، واظهار الاسم الجليل فى الموضعين لتربية المهابة والروعة فى قلوب المؤمنين .

قوله ــ تعالى ــ :﴿ **والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ .

---

(١) من الآية ١٨ من سورة الأحزاب

* **اللطيفة الثالثة :**

قال ابن منظور : كانت العرب تطلّق النساء فى الجاهلية بهذه الكلمة : ﴿ **أنت علىّ كظهر أمى** ﴾ وإنما خصوا (الظهر) دون البطن ، والفخذ ، والفرج ــ وهذه أولى التحريم ــ لأن الظهر موضع الركوب ، وامرأة مركوبة اذا غشيت ، فكأنه أراد أن يقول : ركوبك للنكاح علىّ حرام كركوب أمى للنكاح ، فأقام الظهر مقام الركوب ، وهذا من لطيف الاستعارات للكناية .

وقال الفخر الرازى : ليس الظهار مأخوذاً من الظهر الذى هو عضو من الجسد ، لأنه ليس الظهر أولى بالذكر فى هذا الموضع من سائر الأعضاء ، التى هى مواضع المباضعة والتلذذ ، بل الظهر ههنا مأخوذ من العلو ، ومنه قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فما اسطاعوا أن يظهروه** ﴾[1] أى : يعلوه ، وكل من علا شيئاً فقد ظهره ، ومنه سُمى المركوب ظهراً ، لأن راكبه يعلوه ، وكذا امرأة الرجل ظهره لأنه يعلوها بملك البضع ، فكأن امرأة الرجل مركوب للرجل وظهر به .

ويدل على صحة هذا المعنى أن العرب تقول فى الطلاق : نزلت عن امرأتى ، أى : طلقتها ، وفى قولهم : أنت على كظهر أمى (حذف واضمار) لأن تأويله : ظهرك علىّ ، أى : ملكى إياك ، وعلوّى عليك حرام . كما أن علوّى على أمى وملكها حرام علىّ .

* **اللطيفة الرابعة :**

المظاهر شبه الزوجة بالأم ، ولم يقل هى أم ، فكيف كان ذلك منكراً وزوراً ؟

قال الامام الفخر فى الجواب عن ذلك : إن الكذب إنما لزم لأن قوله : « أنت على كظهر أمى » إما أن يكون اخباراً ، أو انشاءً .

فعلى الأول : انه كذب لأن الزوجة محللة ، والأم محرمة ، وتشبيه المحللة بالمحرمة فى وصف الحل والحرمة كذب .

وعلى الإنشاء : كان ذلك أيضاً كذباً ، لأن معناه أن الشرع جعله سبباً فى حصول الحرمة ، فلما لم يرد الشرع بهذا التشبيه كان جعله إنشاء فى وقوع هذا الحكم كذباً وزوراً .

---

(١) من الآية ٩٧ من سورة الكهف

* **اللطيفة الخامسة :**

روى أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ مر فى خلافته على امرأة ، وكان راكباً على حمار والناس معه ، فاستوقفته تلك المرأة طويلا ووعظته ، وقالت له : عهدى بك يا عمرو أنت صغير تدعى عميراً ، ثم قيل لك : يا عمر ، ثم قيل لك : يا أمير المؤمنين ، فاتق الله يا عمر فى الرعية ، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت ، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب .

وهو واقف يسمع كلامها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين : أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف ؟

فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره ، لا زِلت إلا للصلاة المكتوبة ، أتدرون من هذه العجوز ؟ هذه (خولة بنت ثعلبة) التى سمع الله قولها من فوق سبع سموات ، أيسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟ !

أقول : رضى الله عنك يا عمر فهذه أخلاق الصديقين .

* **اللطيفة السادسة :**

قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **الذين يظاهرون منكم** ﴾ الخطاب بلفظ ﴿ **منكم** ﴾ فيه مزيد توبيخ للعرب ، وتهجين لعادتهم فى الظهار ، لأنه كان من أيمان الجاهلية خاصة ، دون سائر الأمم .

* **اللطيفة السابعة :**

روى الامام الترمذى عن (سلمة بن صخر البياضى) أنه قال : « كنت امرأ أصيب من النساء ما لا يصيب غيرى ، فلما دخل رمضان خفت أن أصيب من امرأتى شيئاً يتابع بى حتى أصبح ، فظاهرت منها حتى ينسلخ رمضان ، فبينما هى تخدمنى ذات ليلة إذ انكشفت لى منها شىء ، فما لبثت أن نزوت عليها ، فلما أصبحت أخبرت قومى ، فقلت : امشوا معى إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال : « أنت بذاك يا سلمة » ، قلت : أنا بذاك يا رسول الله ــ مرتين ــ وأنا صابر لأمر الله . فاحكم فيما أراك الله .

قال : حرر رقبة ، قلت : والذى بعثك بالحق ما أملك رقبة غيرها ــ وضربت صفحة رقبتى ..

قال فصم شهرين متتابعين .

قلت : وهل أصبت الذى أصبت إلا من الصيام .

قال : فأطعم وسقاً (الوسق ـــ بالفتح ـــ ستون صاعاً بصاع النبى ﷺ) من تمر بين ستين مسكيناً .

قلت : والذى بعثك بالحق لقد بتنا وحشين (مقفرين لا طعام لنا) ما لنا من طعام .

قال : فانطلق إلى صاحب صدقة بنى زريق فليدفعها إليك ، فأطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر ، وكل أنت وعيالك بقيتها » فرجعت إلى قومى فقلت : وجدت عندكم الضيق وسوء الرأى ، ووجدت عند النبى ـــ ﷺ ـــ السعة وحسن الرأى ، وقد أمر لى بصدقتكم .[1]

رواه الترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم ، وحسنه الترمذى .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول :

هل الظهار مشروع كالطلاق أم هو محرَّم ؟

كان الظهار فى الجاهلية طلاقا ، بل هو أشد أنواع الطلاق عندهم ، لما فيه من تشبيه الزوجة بالأم التى تحرم حرمة على التأبيد بل لا تجوز بحال من الأحوال ، وجاء الإسلام فأبطل هذا الحكم ، وجعل الظهار محرما قربان المرأة حتى يكفّر زوجها ، ولم يجعله طلاقا كما كانوا يعتبرونه فى الجاهلية .

فلو ظاهر الرجل يريد الطلاق كان ظهارا ، ولو طلق يريد به الظهار كان طلاقا ، والعبرة باللفظ لا بالنية ، فلا يقوم أحدهما مقام الآخر .

قال ابن القيم : « وهذا لأن الظهار كان طلاقا فى الجاهلية فنسخ ، فلم يجز أن يُعاد إلى الحكم المنسوخ ، وأيضا ، فإن (أوس بن الصامت) إنما نوى به الطلاق على ما كان عليه ، وأصبرى عليه

(١) انظر الجامع الصحيح للترمذى (كتاب التفسير) باب : ومن سورة المجادلة ج ٥ ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ رقم ٣٢٩٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب فى الظهار ج ٢ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ رقم ٢٢١٣ وقد رواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ١ ص ٦٦٥ ، ٦٦٦ رقم ٢٠٦٢ وانظر نيل الأوطار للوشكانى (كتاب الظهار) ج ٦ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ وقال : رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذى ، واخرجه ـــ أيضا ـــ الحاكم .

واخرجه الامام أحمد فى مسنده (حديث سلمة بن صخر الزرق الأنصارى) ج ٤ ص ٣٧ .

وانظر المستدرك للحاكم (كتاب التفسير) تفسير سورة المجادلة ج ٢ ص ٢٠٣ قال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه . ووافقه الذهبى فى التلخيص .

حكم الظهار دون الطلاق ، وأيضا فإنه صريح فى حكمه ، فلم يجز جعله كناية فى الحكم الذى أبطله الله بشرعه ، وقضاء الله أحق ، وحكم الله أوجب » .

وقد دلت الآية الكريمة وهى قوله ــ تعالى ــ : « وانهم ليقولون منكرا من القول وزوراً » على أن الظهار حرام ، بل لقد قال فقهاء الشافعية : إنه من الكبائر ، فمن أقدم عليه اعتبر كاذباً معانداً للشرع .

وقد اتفق العلماء على حرمته ، فلا يجوز الإقدام عليه ، لأنه كذب وزور وبهتان ، وهو يختلف عن الطلاق ، فالطلاق مشروع ، وهذا ممنوع ، ولو أقدم الإنسان عليه يكون قد ارتكب محرماً ويجب عليه الكفارة .

الحكم الثانى :

ماذا يترتب على الظهار من أحكام ؟

إذا ظاهر الرجل من امرأته ترتب عليه أمران :

ــ الأول : حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا** ﴾ .

ــ والثانى : وجوب الكفارة بالعود ، لقوله ــ تعالى ــ : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ..** ﴾ الآية . وسنتحدث عن معنى العود فى الحكم الثالث إن شاء الله .

وكما يحرم المسيس ، فإنه يحرم كذلك مقدماته ، من التقبيل ، والمعانقة وغيرها من وجوه الاستمتاع ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء (الحنفية والمالكية والحنابلة) .

وقال الثورى والشافعى (فى أحد قوليه) : ان المحرم هو الوطء فقط ، لأن المسيس كناية عن الجماع .

حجة الجمهور :

أ ــ أن العموم الوارد فى الآية (من قبل أن يتماسا) فإنه يشمل جميع وجوه الاستمتاع .

ب ـــ مقتضى التشبيه الذى هو سبب الحرمة (كظهر أمى) فكما يحرم مباشرة الأم والاستمتاع بها بجميع الوجوه ، فكذلك يحرم الاستمتاع بالزوجة المظاهر منها بجميع الوجوه عملاً بالتشبيه .

ج ـــ أَمْرُ الرسول ـــ ﷺ ـــ للرجل الذى ظاهر من زوجته بالاعتزال حتى يكفر . الحديث رواه أصحاب السنن عن ابن عباس وفيه قال ـــ ﷺ ـــ له : « ما حملك على ذلك يرحمك الله ؟ » قال : رأيت خلخالها فى ضوء القمر ، قال : « لا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله »(١) .

حجة الشافعى والثورى :

أ ـــ الآية ذكرت المسيس وهو كناية عن الجماع فيقتصر عليه .

ب ـــ الحرمة ليست لمعنى يُخلُّ بالنكاح فأشبه الحيض ، الذى يحرم الاستمتاع فيه فيما بين السرة والركبة .

أقول : رأى الجمهور أحوط من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، سيما وقد نقل الامام الفخر ان للشافعى فيه قولين : (أحدهما) : أنه يحرم الجماع فقط . (والثانى) أنه يحرم جميع جهات الاستمتاعات قال : وهو الأظهر . وكفى الله المؤمنين القتال .

الحكم الثالث :

ما المراد بالعود فى الآية الكريمة ؟

اختلف الفقهاء فى المراد من العود فى قوله ـــ تعالى ـــ : (ثم يعودون لما قالوا) على عدة أقوال :

أ ـــ قال أبو حنيفة : العود : هو عبارة عن العزم على استباحة الوطء والملامسة .

ب ـــ وقال الشافعى : العود : هو أن يمسكها بعد الظهار مع القدرة على الطلاق .

ج ـــ وقال مالك وأحمد : العود : هو العزم على الوطء فقط ، أو على الوطء والإمساك .

د ـــ وقال أهل الظاهر : العود : أن يكرر لفظ الظهار مرة ثانية فإن لم يكرر لا يقع الظهار .

والآراء الثلاثة الأولى متقاربة فى المعنى ، لأن العود إلى الامساك ، أو الوطء ، أو إبقائها بعد الظهار بدون طلاق ، كلها تدل لى معنى الندم وإرادة المعاشرة لزوجة التى ظاهر منها . فاللام فى (لما) بمعنى (إلى) .

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الطلاق) باب : ما جاء فى المظاهر بواقع قبل أن يكفر ج ٣ ص ٤٩٤ رقم ١١٩٩ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

ورواه أبو داود بمعناه فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب فى الظهار ج ٥ ص ٢٦٨ رقم ٢٢٢٣ .

وانظر سنن ابن ماجه (كتاب الطلاق) باب : الظاهر بجامع قبل أن يكفر ج ١ ص ٦٦٦ ، ٦٦٧ رقم ٢٠٦٥ .

ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الطلاق) باب الظهار ج ٦ ص ١٦٨ من طريق عكرمة مرسلا .

وانظر نيل الأوطار للشوكانى (حكم إذا واقع قبل أن يكفر) ج ٦ ص ٢٦١ رقم ٤ .

والمعنى : يرجعون إلى تحليل ما حرّموا على أنفسهم بالعزم على الوطء ، وقد عدّد القرطبى فيها سبعة أقوال .

قال الفراء : معنى الآية يرجعون عمّا قالوا ، وفى نقض ما قالوا .

ـــ دليل الظاهرية

قال أهل الظاهر : ان العود معناه تكرار لفظ الظهار واعادته ، فلا تلزم الكفارة إلا إذا أعاد اللفظ ـــ يعنى ظاهر مرة ثانية ـــ .

وقالوا : الذى يعقل من قولهم : عاد إلى الشيء ، أى : أنه فعله مرة ثانية ، كما قال ـــ تعالى ـــ : ﴿ ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه ﴾[1] .

فإذا لم يتكرر الظهار لا يقع التحريم .

قال الزجّاج : وهذا قول من لا يدرى اللغة .

وقال أبو على الفارسى : ليس هو كما ادّعوا ، لأن العود قد يكون إلى شيء لم يكن عليهاالإنسان قبل ، وسميت الآخرة معاداً ولم يكن فيها أحد ثم عاد الناس إليها ، قال الهُذلى :

وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل سوى الحق شيئاً واستراح العواذل

وقال ابن العربى : « ويشبه أن يكون هذا من جهالة داود وأشياعه ، وهو باطل قطعاً ، لأنه قد رويت قصص المظاهرين وليس فيها ذكر لعود القول منهم ، وأيضاً فإن المعنى ينقضه ، لأن الله ـــ تعالى ـــ وصفه بأنه منكر من القول وزور ، فكيف يقال له : إذا أعدت القول المحرّم والسبب المحظور وجبت عليك الكفارة ؟ » .

أقول : ما قاله جمهور الفقهاء أن المراد بالعود ليس تكرار اللفظ ، إنما هو العود إلى معاشرتها والعزم على وطئها هو الصحيح المعقول لغة وشرعاً ، لأن المظاهر قد حرّم على نفسه قربان الزوجة ، فهو يريد أن ينقض ذلك ويعيدها إلى نفسه فيلزمه التكفير بهذا العزم .

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة الأنعام .

وأما ما قاله أهل الظاهر فباطل لا يقوم عليه دليل ، بل هو من آثار الفهم السقيم الذى تخبّط فيه هؤلاء فى كثير من الأحكام الشرعية ، ويكفى لبطلانه حديث (أوس بن الصامت) فإنه لم يكرر الظهار ، وقد الزمه ـ ﷺ ـ الكفارة . وحديث (سلمة بن صخر) فقد أمره ـ ﷺ ـ بالكفارة مع أنه لم يكرر اللفظ . وكفى بذلك حجة قاطعة ، ولا رأى لأحد أمام قول المعصوم ـ ﷺ ـ .

ـ **الحكم الرابع** : هل يصح ظهار غير المسلم كالذمى والكتابى ؟

ذهب الجمهور (الحنفية والمالكية والحنابلة) إلى أن ظهار الذمى لا يقع لأن الله ـ تعالى ـ يقول : ﴿ **الذين يظاهرون منكم** ﴾ وظاهر قوله : ﴿ **منكم** ﴾ أن غير المسلم لا يتناوله الحكم .

وقالوا أيضا : إن الذمى ليس من أهل الكفارة ، لأن فيها إعتاق رقبة ، والصوم ، ولما كان الصوم عبادة لا تصحّ من غير المسلم ، إذن فلا يصح ظهاره .

فالظهار عندهم لا يكون إلا من الزوج العاقل البالغ المسلم .

ـ مذهب الشافعى : قال الشافعية : كما يصح طلاق الذمى وتترتب عليه أحكامه ، كذلك يقع ظهاره .

قال الآلوسى : والعجب من الإمام الشافعى ـ عليه الرحمة ـ أن يقول بصحته مع أنه يشترط النية فى الكفارة ، والإيمان فى الرقبة ، والكافر لا يملك المؤمن .

أقول : الراجح رأى الجمهور ، واستدلالهم بالكفارة فى (العتق والصيام) قوىّ ، وأما استدلالهم بمفهوم الصفة فى الآية الكريمة (منكم) فليس بذاك ، لأن الآية وردت مورد (التهجين والتشنيع) لما مرّ أن الظهار لم يعرف إلا عند العرب فليس فيها ما يدل لهم . والله أعلم .

ـ **الحكم الخامس** : هل يصح الظهار من الأمة ؟

أ ـ ذهب (الحنفية والحنبلية والشافعية) إلى أن الرجل لو ظاهر من أمته لا يصح ، ولا يترتب عليه أحكام الظهار ، لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **من نسائهم** ﴾ لأن حقيقة اطلاق النساء على (الزوجات) دون (الإماء) بدليل قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن** ﴾[1] . فقد غاير بينهن ، فالمراد بالنساء فى الآية الحرائر .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة النور .

ب ــ وذهب مالك : إلى صحة الظهار فى الأمة مطلقاً لأنها مثل الحرة .
ج ــ وروى عن الامام أحمد : أنه لا يكون مظاهراً ، ولكن تلزمه كفارة الظهار .

الحكم السادس : هل يقع ظهار المرأة ؟

اتفق الفقهاء على أنه ليس للنساء ظهار ، فلو ظاهرت امرأة من زوجها بقولها : (أنت علىّ كظهر أمى) فلا كفارة عليها ولا يلزمها شىء وكلامها لغو .

قال ابن العربى : وهو صحيح فى المعنى لأن الحَلَّ والعقد ، والتحليل والتحريم فى النكاح من الرجال ليس بيد النساء منه شىء .

وروى عن الإمام أحمد (فى أحد قوليه) أنه يجب عليها الكفارة إذا وطئها وهى التى اختارها الخرقى .

الحكم السابع : هل الظهار مختص بالأم ؟
أ ــ ذهب الجمهور إلى أن الظهار يختص بالأم ، كما ورد فى القرآن الكريم ، وكما جاء فى السنة المطهرة ، فلو قال لزوجته : (أنتِ علىّ كظهر أمى) كان مظاهراً . ولو قال لها : أنت علىّ كظهر أختى أو ابنتى لم يكن ذلك ظهاراً .
ب ــ وذهب أبو حنيفة والشافعى (فى أحد قوليه) : إلى أنه يقاسِ على الأم جميع المحارم .

فالظهار عندهم هو تشبيه الرجل زوجته فى التحريم بإحدى المحرمات عليه على وجه التأبيد بالنسب ، أو المصاهرة ، أو الرضاع ، إذ العلة هى التحريم المؤبد .

وأما من قال لامرأته : يا أختى ، أو يا أمى ، على سبيل الكرامة ، والتوقير فإنه لا يكون مظاهراً ، ولكن يكره له ذلك لما راه أبو داود عن (أبى تميمةالهجيمى) أن رسول الله ــ ﷺ ــ سمع رجلاً يقول لامرأته : يا أُخيّه ، فكره ذلك ، ونهى عنه .[1]

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب الطلاق) باب : فى الرجل يقول لامرأته : يا أختى ج ٢ ص ٢٦٤ رقم ٢٢١٠ ولفظه : عن أبى تميمة الهجيمى أن رجلا قال لامرأته : يا أخية ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « أختك هى ؟ » فكره ذلك ونهى عنه .
وانظر رقم ٢٢١١ من نفس المرجع .

ـ **الحكم الثامن** : ما هى كفارة الظهار ؟

الكفارة هى : عتق رقبة ، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً كما دلت عليه الآية .

أ ـ الإعتاق : وقد أطلقت **الرقبة** فى الآية فهل تجزىء أى رقبة ولو كافرة ؟

ذهب الحنفية إلى أن يجزىء فى الكفارة إعتاق الرقبة الكافرة والمؤمنة ، والذكر والأنثى ، والكبير والصغير ولو رضيعاً ، لأن الاسم ينطلق على كل ذلك .

وذهب الشافعية والمالكية إلى اشتراط الإيمان فى الرقبة ، فلا يصح عتق غير مؤمن حملاً للمطلق على المقيد فى آية القتل ، لقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **فتحرير رقبة مؤمنة** ﴾[1] بجامع الإذن فى السبب فى كل منهما .

وقال الحنفية : لا يحمل المطلق على المقيد إلا فى حكم واحد فى حادثة واحدة ، لأنه حينئذ يلزم ذلك لزوما عقلياً ، إذ الشىء لا يكون نفسه مطلوباً إدخاله فى الوجود مطلقاً ومقيداً ، كالصوم فى كفارة اليمين ، ورد مطلقاً ومقيداً بالتتابع فى القراءة المشهورة التى تجوز القراءة بمثلها .

وأما الإمام أحمد ففى المسألة عنه روايتان .

ب ـ صيام شهرين متتابعين :

من عجز عن إعتاق الرقبة فعليه صوم شهرين متتابعين .

ويعتبر الشهر بالهلال فلا فرق بين التام والناقص ، وإن صام بغير الأهلة فلابد من ستين يوماً عند الحنفية .

وعند الشافعية والمالكية : يصوم إلى الهلال ثم شهرا بالهلال ثم يتم الأول بالعدد .

ج ـ إطعام ستين مسكيناً :

من لم يستطع صيام شهرين متتابعين بأن لم يستطع أصل الصيام ، أو بأن لم يستطع تتابعه لسبب من كبر أو مرض لا يرجى زواله عادة أو بقول طبيب فعليه إطعام ستين مسكيناً .

واختلف الفقهاء فى قدر الإطعام لكل مسكين .

قال أبو حيان :

والظاهر مطلق الإطعام وتخصصه ما كانت العادة فى الإطعام وقت النزول وهو ما يشبع من غير تحديد بمد .

---

(١) من الآية ٩٢ من سورة النساء .

ولا يجزى وعند مالك والشافعى أن يطعم أقل من ستين مسكيناً .

وقال أبو حنيفة وأصحابه : لو أطعم مسكيناً واحداً كل يوم نصف صاع حتى يكمل العدد أجزأه .

ـ **الحكم التاسع** : هل تتغلّظ بالمسيس قبل التكفير .

ا ـ ذهب أبو حنيفة : إلى أنّ المظاهر إذا جامع زوجته قبل أن يكفر أثم وعصى الله ، وتسقط عنه الكفارة لفوات وقتها .

ب ـ وذهب جمهور الفقهاء إلى أنه أثم وعصى ويستغفر ويتوب ، ويمسك عن زوجته حتى يكفرِّ كفارة واحدة .

قال أبو بكر الرازى : إن الظهار لا يوجب كفارة ، وإنما يوجب تحريم الوطء ، ولا يرتفع إلا بالكفارة ، فإذا لم يرد وطأها فلا كفارة عليه ، وإن ماتت أو عاشت فلا شيء عليه ، إذ كان حكم الظهار إيجاب التحريم فقط مؤقتاً بأداء الكفارة ، وذلك لأنه علق حكم الظهار وما أوجب به من الكفارة بأدائها قبل الوطء لقوله : ﴿ **من قبل أن يتماسا** ﴾ فمتى وقع المسيس فقد فات الشرط فلا تجب الكفارة بالآية ، لأن كل فرض محصور بوقت أو معلق على شرط ، فأنه متى فات الشرط ، وعُدم الشرط ، لم يجب باللفظ الأول واحتيج إلى دلالة أخرى فى إيجاب مثله فى الوقت الثانى ، فهذا حكم الظهار إذا وقع المسيس قبل التكفير ، إلا أنه قد ثبت عن النبى ـ ﷺ ـ أن رجلا ظاهر من امرأته فوطئها قبل التكفير ثم سأل النبى ـ ﷺ ـ فقال له : « استغفر الله ولا تعد حتى تكفرّ »[1] فصار التحريم الذى بعد الوطء واجباً بالسنة .

الترجيح : والصحيح ما ذهب إليه الجمهور أنه يأثم بهذا الفعل وتجب عليه كفارة واحدة والله أعلم .

* ما ترشد إليه الآيات الكريمة :

أولاً : استجابة الله دعاء الشاكى الصادق إذا أخلص الدعاء .

ثانياً : عدم جواز تشبيه الزوجة بمحرم من المحرمات على التأييد .

ثالثاً : عدم جواز مس المرأة قبل أداء كفارة الظهار .

رابعاً : خصال الكفارة مرتبة لا يصار إلى التالية قبل العجز عن التى قبلها .

خامساً : حدود الله يجب التزامها ، ولا يجوز تعديها .

---

(١) الحديث رواه الترمذى بمعناه ج ٣ ص ٤٩٤ رقم ١١٩٩ من حديث ابن عباس . وانظر سنن أبى داود ج ٢ ص ٢٦٨ رقم ٢٢٢٣ وابن ماجه ج ١ ص ٦٦٧ رقم ٢٠٦٥ والنسائى ج ٦ ص ١٦٧ .

حكمة التشريع

لقد شرع الإسلام الزواج عقداً دائماً غير مؤقت . لا يقطعه إلا هادم اللذات ، أو أبغض الحلال إلى الله ، وبالزواج يَحلّ للرجل كل شيء من زوجه ، فى حدود ما أباحه الله ــ تعالى ــ له ، فإذا جاء الإنسان يريد أن يغير ما أباحه الله له فيجعل الحلال حراماً ، فقد ارتكب كبيرة لا محالة ، وتجاوز بذلك الحدود التى شرعها الله له ، فلهذا كان عقابه كبيراً ، وكانت أولى خصال الكفارة ما فيه فائدة للمجتمع ، ألا وهى تحرير رقاب العبيد ، وهذه إحدى سبل تحريرهم ، فإذا لم يستطع شراء العبد وعتقه ، فليصم شهرين متتابعين ، والصوم مدرسة تهذب خلقه ، وتربى نفسه وتقوم ما اعوج من تربيته .

هذا ان كان صحيح الجسم ، موفور الصحة ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ، فالمريض الذى لا يستطيع الصوم ، ينتقل الواجب فى حقه إلى المجتمع أيضاً فيطعم ستين مسكيناً ، وهكذا تنتقل خصال الكفارة بين فائدة المجتمع وفائدة الرجل نفسه .

هذا جزاء من حرم حلالاً ، فليتعظ المؤمنون بهذا الجزاء الزاجر .

وعيد وتهديد

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ
وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ
مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ
إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

معانى المفردات

﴿ يحادون ﴾ أى : يشاقون ويعادون ، وأصل المحادة : الممانعة ، ومنه قيل للبواب حداد ، ﴿ كبتوا ﴾ أى : خذلوا ، وقال المبرد : كبت الله فلاناً : إذا أذله ، والمردود بالذل : مكبوت . ﴿ آيات بينات ﴾ أى : حججاً وبراهين مبينة لحدود شرائعنا . ﴿ مهين ﴾ أى : يلحق بهم الهوان والذل ، فينبئهم بما عملوا ، أى : يخبرهم بأعمالهم توبيخاً وتقريعاً لهم . ﴿ أحصاه الله ﴾ أى : أحاط به عدّاً لم يغب عنه شىء منه . ﴿ شهيد ﴾ أى : مشاهد لا يخفى عليه شىء . ﴿ ألم تر ﴾ أى : ألم تعلم ، ﴿ ما يكون ﴾ أى : ما يوجد . ﴿ والنجوى ﴾ : التناجى والمسارّة ، كما قال : ﴿ لا خير فى كثير من نجواهم ﴾[1] ، وقد يستعمل فى المتناجين كما قال : ﴿ وإذ هم نجوى ﴾[2] أى : أصحاب نجوى .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر أحكام كفارة الظهار ، وبيّن أنه إنما شرعها تغليظاً للناس حتى يتركوا الظهار (وقد كان ديدنهم فى الجاهلية) ويتبعوا أوامر الشريعة ، ويلين قيادهم لها ، ويخلصوا لله ربهم فى جميع أعمالهم ، فتصفو نفوسهم ، وتزكو بصالح الأعمال .

أردف هذا ببيان أن من يشاق الله ورسوله ويعصى أوامره ، يلحق به الخزى والهوان فى الدنيا وله فى الآخرة العذاب المهين فى نار جهنم ، ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد ، فبيّن أنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو عليم بمناجاة المتناجين ، فإن كانوا ثلاثة فهو رابعهم ، وإن كانوا خمسة فهو سادسهم ، وإن كانوا أقل من ذلك أو أكثر فهو معهم أينما كانوا ، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم ، وسينبئكم بها عند العرض والحساب ، وحين ينصب الميزان ، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم ، وتندمون ولات ساعة مندم .

التفسير

قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين** ﴾ .

(١) من الآية ١١٤ من سورة النساء
(٢) من الآية ٤٧ من سورة الاسراء

هذا إخبار منه ــ سبحانه وتعالى ــ عن قوم عاندوا وشاقوا وتمردوا على أوامر الله ورسوله كما فى قوله ــ جل شأنه ــ : ﴿ **ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً** ﴾(١) ، وقوله ــ جل شأنه ــ : ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾(٢) .

هؤلاء المعاندون المكابرون أهينوا ولعنوا وأخذوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم . ﴿ **وقد أنزلنا آيات بينات** ﴾ أى : واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ، ﴿ **وللكافرين عذاب مهين** ﴾ أى : فى مقابلة ما استكبروا عن اتباع شرع الله والانقياد له والخضوع لديه .

ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً** ﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، ﴿ **فينبئهم بما عملوا** ﴾ أى : فيخبرهم بالذى فعلوا من خير وشر ، ﴿ **أحصاه الله ونسوه** ﴾ أى : ضبطه الله وحفظه عليهم وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿ **والله على كل شىء شهيد** ﴾ أى : لا يغيب عنه شىء ولا يخفى ، ولا ينسى شيئاً .

تزود من التقوى فإنك راحل ... وسارع إلى الخيرات فيمن يسارع
فما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوماً أن ترد الودائع
دنياك ساعات سراع الزوال ... وإنما العقبى خلود المآل
فهل تبيع الخلد يا غافلاً ... وتشترى دنيا المنى والضلال

وقد عقد الإمام الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى مجلساً فى ذكر القيامة وأهوالها ــ أجارنا الله منها ــ فقال :

سورة الزلزلة وما تشير إليه

قال الله ــ عز وجل ــ : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ هذه السورة مكية محكمة بالوعد والوعيد ، يخوف الله ــ تبارك وتعالى ــ بها عباده ، ويذكرهم فيها تزلزل الأرض وقيام الساعة لينتهوا عما نهاهم عنه من العصيان ، ويمتثلوا ما أمرهم به من الطاعة والإيمان ، وخوفهم الله ــ تعالى ــ من يوم القيامة ليستعدوا لها ولعظيم أهوالها .

(١) الآية ١١٥ من سورة النساء
(٢) الآية ٤ من سورة الحشر

قال الله — سبحانه وبحمده — : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ يقول : إذا تحركت الأرض بأهلها فزلزلت من نواحيها وارتجت من مشرقها ومغربها فلا تزال كذلك حتى يكسر ما على ظهرها من جبل وبناء فلا تسكن حتى يدخل فى بطنها جميع ما خرج منها . وزلزلتها من شدة صوت إسرافيل — عليه السلام — وذلك إذا فرغت أحيان الدنيا (أحيان الدنيا ، أى : مدتها ، والحين : الوقت ، ويجمع أيضاً على : أحايين وساعاتها وشهورها وأوقاتها وأعوامها وأيامها وحلالها وحرامها . وذلك إذا خمد الحق وظهر الباطل . وترك الناس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وركبوا المآثم واستحلوا المحارم ، وكثر بينهم التظالم ، وترك الجهاد ، وظهر الفساد ، وفشا الربا ، وكثر اللواطة والزنى ، وركبوا الفواحش والفجور ، واستعانوا على ذلك كله بشرب الخمور ، وأمر قوم بالمعروف وتركوه ونهوا عن المنكر وفعلوه ، وكرهوا الحق واتبعوا أهواءهم ، وقرىء القرآن فلم يعمل به ، واسودت القلوب ، وكثرت الفواحش والعيوب ، وتزين الفساق بالمعاصى والذنوب (أى : تباهوا بها وأظهروها ولم يزجروا عنها . وهذا الواقع فى عصرنا — ولا حول ولا قوة إلا بالله) فإذا كانوا كذلك اشتد غضب الجبار — جل جلاله — عليهم فعند ذلك يقول الله : يا إسرافيل ، انفخ نفخة الصعق (صعق الرجل : غشى عليه ، وصعق من فى السموات ومن فى الأرض ، أى : مات ، وهو المراد هنا) .

فينفخ إسرافيل عند ذلك كما أمره الجبار — جل جلاله — فتزلزل الأرض من مشرقها إلى مغربها ، وذلك من غضبة يغضبها الجبار على المنافقين والفجار .

صفة إسرافيل

وإسرافيل (اسم أعجمى ، ويقال فيه : إسرافين ، **أيضا بالنون**). — **عليه السلام** — **ملك عظيم** جناح له بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت تخوم **الأرض السابعة السفلى** بخمسمائة عام ، والسموات السبع إلى ركبتيه ، وعنقه ملوى **تحت العرش** ، **والعرش على كاهله** ، وقد مد الرجل اليمنى وأخر اليسرى ، واللوح المحفوظ بين عينيه وقد التقم الصور **وشخص ببصره نحو العرش** ، وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر بالنفخ فى الصور ؟ والصور : قرن من نور .

قال النبى — ﷺ — : ﴿ **الصور قرن من نور ، والذى نفسى بيده ، إن أعظم شارة فيه كما بين السماء والأرض** ﴾[1] .

---

(١) ورد فى الترمذى فى (كتاب التفسير) تفسير سورة الزمر ج ٥ ص ٣٧٣ حديث رقم ٣٠٠٤ عن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — قال : قال أعرابى : يا رسول الله : ما الصور ؟ قال : « **قرن ينفخ فيه** » .
وقال الترمذى : هذا حديث حسن ، وانظر الدر المنثور ج ٧ ص ٢٥٦ وقال فيه : (**إن عظم دارة فيه لعرض** .. الخ) .

وروى عنه ــ ﷺ ــ أنه قال : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم الصور وحنى جبهته وشخص ببصره نحو العرش وأنصت بأذنيه ينتظر متى يؤمر أن ينفخ فى الصور »(١) (الصور : القرن ، وقيل : هو جمع صورة) فإذا نفخ فيه مات أهل السموات والأرض إلا أربعة أملاك فإنهم لا يموتون إلا بعد موت الخلائق وهم : جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت ، فمن شدة صوت إسرافيل تتحرك الأرض من مشرقها إلى مغربها ، فلا يبقى عليها بناء إلا انهدم إلا المساجد فإن أساسها يبقى لا ينهدم لفضلها عند الله ــ تبارك وتعالى ــ لما عبد فيها ووحد وقرىء كلامه فيها ، وذلك قوله ــ تعالى ــ : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾(٢) .

جاء فى التفسير أن الأشياء كلها تهلك إلا عملاً يراد به وجه الله ــ تعالى ــ ، والمساجد لا تهلك لأنها إنما بنيت لوجه الله تعالى .

خشية النبى من هبوب الريح

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه كان إذا هبت الريح تغير لونه ، وكان يدخل ويخرج مرة بعد أخرى من شدة خوف قيام الساعة وزلزلة الأرض .(٣)

فإذا كان رسول الله ــ ﷺ ــ يخاف هذا الخوف كله وهو أكرم الخلق على الله ، فكيف بمن أفنى عمره فى السهو والغفلات ؟ وقطع أيامه باللهو والبطلات ؟ وضيع أوقاته فى العصيان حتى مات ؟ وأنشدوا :

نهارك يا مغرور سهو وغفلة ... وليلك نوم والردى لك لازم
وشغلك فيما سوف تكره غبه ... كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
وفعلك فعل الجاهلين بربهم ... وعمرك فى النقصان بل أنت ظالم

---

(١) ورد فى تاريخ بغداد للخطيب ج ٥ ص ١٥٣ رقم ٢٥٨٧ حديث بلفظ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن ، وحنى ظهره ينظر تجاه العرش كأن عينيه كوكبان دريان لم يطرف قط مخافة أن يؤمر من قبل ذلك » والحديث رواه أنس بن مالك .

(٢) من الآية ٨٨ من سورة القصص .

(٣) روى ابن ماجه فى سننه ج ٢ ص ١٢٨٠ ، ١٢٨١ رقم ٣٨٩١ عن عائشة قالت : كان رسول الله ــ ﷺ ــ إذا رأى مخيلة (سحابة تكون فطنة المطر)تلون وجهه وتغير ، ودخل وخرج ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سُرِّىَ عنه .

قال : فذكرت له عائشة بعض ما رأت منه . فقال : « وما يدريك ؟ لعله كما قال قوم هود : فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا اهذا عارض ممطرنا .. الآية » .

وانظر مسند الإمام أحمد (مسند عائشة ــ رضى الله عنها ــ) ج ٦ ص ١٢١ فقد روته بلفظ : « كان رسول الله ــ ﷺ ــ إذا رأى الريح فقد اشتدت تغير وجهه » .

وانظر مجمع الزوائد ج ٢ ص ٢١١ فقد رواه عن أنس .

فلا أنت فى الأيقاظ يقظان حازم ولا أنت فى النوام ناج وسالم
تسر بما يفنى وتفرح بالمنى كما سر باللذات فى النوم حالم
فلا تحمد الدنيا ولكن فذمها ولا تكثر العصيان ، إنك ظالم

وروى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « انتهيت ليلة أسرى بى إلى السماء السابعة ، فرأيت إسرافيل قد حنى جبهته وقدم رجلاً وأخر أخرى والعرش على منكبه (مجمع عظم العضد والكتف) والصور فى فيه بين شدقيه ، وقد تهيأ للنفخ فى الصور ، فما ظننت أن أبلغ الأرض حتى تبلغن النفخة ، كما رأيت من تهيئته للنفخة »[1] .

سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن إسرافيل فقال : « له جناح بالمشرق وجناح له بالمغرب ، ورجلاه تحت الأرض السابعة السفلى والعرش على كاهله (ما بين الكتفين) وإنه ليفكر كل يوم ثلاث ساعات فى عظمة الله ـ تعالى ـ فيبكى من خوف الجبار حتى تجرى دموعه كالبحار ، فلو أن بحراً من دموعه أذن له أن يسكب لطبق بين السموات والأرض وإنه ليتواضع ويصغر حتى يصير كالوضع » والوضع طير صغير يشبه العندليب ، والعندليب أصغر ما يكون من الطير .

فالله يا معشر من آمن بالله واليوم الآخر ، استعد والقيام الساعة وزلزالها .

قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها** ﴾ تتحرك الأرض وتتمخض ، وتتطاير الجبال وتنقلع الشجر ، وتنهدم المبانى ، فلا يبقى على ظهرها من جبالها وشجرها ونباتها شىء إلا دخل فى جوفها .

قال عكرمة : إنما تقوم الساعة على شر الخلق .

متى ينفخ فى الصور ؟

قال حذيفة : كان الناس يسألون النبى ـ ﷺ ـ عن الخير وكنت أنا أسأله عن الشر مخافة أن يصيبنى ، فكان النبى ـ ﷺ ـ يقول : « فى آخر الزمان فتن كقطع الليل المظلم فإذا غضب الله ـ تعالى ـ على أهل الأرض أمر الله ـ تعالى ـ إسرافيل أن ينفخ نفخة الصعق ، فينفخ على غفلة من الناس ، فمن الناس من هو فى وطنه ، ومنهم من هو فى سوقه ، ومنهم من هو فى حرثه ، ومنهم

---

(١) انظر أحاديث الصور وإسرافيل وموت الملائكة وملك الموت فى الدر المنثور ج ٧ ص ٢٤٩ ـ ٢٦٢ .

من هو فى سفره ، ومنهم من يأكل فلا يرفع اللقمة إلى فيه حتى يخمد ويصعق ، ومنهم من يحدث صاحبه فلا يتم الكلمة حتى يموت ، فتموت الخلائق كلهم عن آخرهم »

وإسرافيل لا يقطع الصيحة حتى تفور عيون الأرض وأنهارها ، ونباتها وأشجارها وجبالها وبحارها ، ويدخل الكل بعضه فى بعض فى بطن الأرض ، والناس خمود صرعى ، فمنهم من هو صريع على بطنه ، ومنهم مَن هو صريع على ظهره ، وعلى جنبه ، وعلى خده ، ومنهم من يكون اللقمة فى فيه فيموت وما أدرك أن يبتلعها ، وتنقطع السلاسل التى فيها قناديل النجوم فتستوى بالأرض من شدة الزلزلة ، وتموت ملائكة السبع السموات ، والحجب والسرادقات والصادقون والمسبحون ، وحملة العرش والكرسى ، وأهل سرادقات الكروبيين (طائفة من الملائكة ، سموا كروبيين لشدة حزنهم وطول عبادتهم . وهم كالأولياء فى الناس) ويبقى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت — عليهم السلام — .

كيف يموت جبريل ؟

فيقول الجبار — جل جلاله — : يا ملك الموت من بقى ؟ — وهو أعلم — فيقول ملك الموت : سيدى ومولاى أنت أعلم . بقى إسرافيل ، وبقى جبريل ، وبقى ميكائيل وبقى عبدك الضعيف ملك الموت ، خاضع ذليل قد ذهلت نفسه لعظيم ما عاين من الأهوال ، فيقول له الجبار — تبارك وتعالى — : انطلق إلى جبريل فاقبض روحه . فينطلق ملك الموت إلى جبريل — عليه السلام — فيجده ساجداً وراكعاً ، فيقول له : ما أغفلك عما يراد بك يا مسكين ، قد مات بنو آدم وأهل الدنيا والأرض والطير والسباع والهوام وسكان السموات وحملة العرش والكرس والسرادقات وسكان سدرة (شجرة) المنتهى ، وقد أمرنى المولى بقبض روحك ! فعند ذلك يبكى جبريل — عليه السلام — ويقول متضرعاً إلى الله تعالى : يا الله : هون علىّ سكرات الموت . فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه فيخر جبريل منها صريعاً ، فيقول الجبار — جل جلاله — : من بقى يا ملك الموت و — وهو أعلم — فيقول : مولاى وسيدى بقى ميكائيل وإسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت .

كيف يموت ميكائيل ؟

فيقول الجبار — جل جلاله — : انطلق إلى ميكائيل فاقبض روحه ، فينطلق ملك الموت إلى ميكائيل كما أمره الله — تعالى — فيجده ينتظر الماء ليكيله على السحاب ، فيقول له : **ما أغفلك** يا مسكين عما يراد بك ! ما بقى لبنى آدم رزق ولا للأنعام ولا للوحوش ولا للهوام . قد مات أهل السموات وأهل

الأرضين وأهل الحجب والسرادقات وحملة العرش والكرسى وسرادقات المجد والكروبيون والصادقون والمسبحون ، وقد أمرنى ربى بقبض روحك ، فعند ذلك يبكى ميكائيل ويتضرع إلى الله ويسأله أن يهون عليه سكرات الموت فيحضنه ملك الموت ويضمه ضمة يقبض فيها روحه فيخر صريعاً ميتاً لا روح فيه ، فيقول الجبار ــ جل جلاله ــ : من بقى ــ وهو أعلم ــ يا ملك الموت ؟ فيقول : مولاى وسيدى : أنت أعلم ، بقى إسرافيل وعبدك الضعيف ملك الموت

كيف يموت إسرافيل ؟

فيقول الجبار ــ تبارك وتعالى ــ : انطلق إلى إسرافيل فاقبض روحه ، فينطلق كما أمره الجبار إلى إسرافيل فيقول له : ما أغفلك يا مسكين عما يراد بك ! قد مات الخلائق كلهم وما بقى أحد ، وقد أمرنى ربى ومولاى أن أقبض روحك ، فيقول إسرافيل : سبحان من قهر العباد بالموت ، سبحان من تفرد بالبقاء ، ثم يقول : مولاى : هون على مرارة الموت ، فيضمه ملك الموت ضمة يقبض فيها روحه فيخر ميتاً صريعاً . فلو كان أهل السموات فى السموات وأهل الأرض فى الأرض لماتوا كلهم من شدة رجة وقعته .

كيف يموت ملك الموت ؟

فيقول الجبار ــ تبارك وتعالى ــ : من بقى يا ملك الموت ؟ وهو أعلم .. فيقول : مولاى وسيدى : أنت أعلم بمن بقى ، بقى عبدك الضعيف ملك الموت . فيقول الجبار ــ تعالى ــ : وعزتى وجلالى لأذيقنك ما أذقت عبادى ، انطلق بين الجنة والنار ومت ، فينطلق بين الجنة والنار ، فيصيح صيحة لولا أن الله ــ تبارك وتعالى ــ أمات الخلائق ، لماتوا من عند آخرهم من شدة صيحته ، فيموت ، فتبقى السموات خالية من أملاكها ، ساكنة أفلاكها ، وتبقى الأرض خاوية من إنسها وجنها وطيرها وهوامها وسباعها وأنعامها ، ويبقى الملك لله الواحد القهار ، الذى خلق الليل والنهار ، فلا ترى أنيساً ، ولا تحس حسيساً ، قد سكنت الحركات ، وخمدت الأصوات ، وخلت من سكانها الأرضون والسموات .

لمن الملك اليوم ؟

ثم يطلع الله ــ تبارك وتعالى ــ إلى الدنيا فيقول : يا دنيا : أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ؟ وأين سكانك ؟ وأين عمارك ؟ وأين الملوك وأبناء الملوك ؟ وأين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الذين أكلوا رزقى ، وتقلبوا فى نعمتى وعبدوا غيرى ، لمن الملك اليوم ؟

فلا يجيبه أحد ، فيقول ــ تعالى ــ : الملك لله الواحد القهار ، فينظر الجبار ــ جل جلاله ــ إلى عباده موتى من بين صريع على خده ، ومن بين بال فى قبره ، ثم يقول : يا دنيا : أين أنهارك ؟ وأين أشجارك ؟ وأين سكانك وأين عمارك ؟ وأين الملوك ؟ وأين الجبابرة ؟ لمن الملك اليوم ؟ فلا يجيبه أحد ، فيقول ــ تعالى ــ : لله الواحد القهار . فتبقى الأرضون والسموات ليس فيها من ينطق ولا من يتنفس ما شاء الله من ذلك ، وقد قيل : تبقى أربعين يوماً وهو مقدار ما بين النفختين ، ثم بعد ذلك ينزل الله ــ تبارك وتعالى ــ من السماء السابعة ــ من بحر يقال له : بحر الحيوان ــ ماء يشبه منى الرجال ينزله ربنا أربعين عاماً ، فيشق ذلك الماء الأرض شقاً ، فيدخل تحت الأرض إلى العظام البالية فتنبت بذلك الماء كما ينبت الزرع بالمطر .

كيفية بعث الموتى

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته**) **إلى قوله** : ﴿ **كذلك نخرج الموتى** ﴾[١]- الآية . كما أخرج النبات بالمطر ، كذلك يخرج الموتى بماء الحياة ، فتجتمع العظام والعروق واللحوم والأشعار فيرجع كل عضو إلى مكانه الذى كان فيه فى دار الدنيا ، فتلتئم الأجساد بقدرة الجبار ــ جل جلاله ــ وتبقى بلا أرواح ، ثم يقول الجبار ــ جل جلاله ــ : ليبعثن إسرافيل ، فيقوم إسرافيل ــ عليه السلام ــ حياً بقدرة الله ــ تعالى ــ فيقول له الجبار : يا إسرافيل : التقم الصور وازجر عبادى لفصل القضاء ، فأول ما يحيى الله ــ تبارك وتعالى ــ إسرافيل ويأمره أن يلتقم الصور .

صفة الصور .

والصور : قرن من نور فيه أثقاب على عدد أرواح العباد فتجتمع الأرواح كلها فتجعل فى الصور .

أين يقف إسرافيل ؟

ويأمر الجبار إسرافيل أن يقف على صخرة بيت المقدس وينادى فى الصور ، وهو فى فيه قد التقمة ، والصخرة أقرب ما فى الأرض إلى السماء ، وهو قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب** ﴾[٢] .

---

(١) الآية : ٥٧ من سورة الأعراف

(٢) الآية ٤١ من سورة ق

ويقول إسرافيل فى ندائه : أيتها العظام البالية ، واللحوم المتقطعة ، والأشعار المتبددة ، والعروق المتمزقة ، لتقمن إلى العرض على الملك الديان ليجاز يكن بأعمالكن ، فإذا نادى إسرافيل — عليه السلام — فى الصور خرجت الأرواح من أثقاب الصور فتنتشر بين السماء والأرض كأنها النحل ، يخرج من كل ثقب روح ، ولا يخرج من ذلك الثقب غيره ، فأرواح المؤمنين تخرج من أثقابها نائرة بنور الإيمان وبنور أعمالها الصالحة ، وأرواح الكفار تخرج مظلمة بظلمات الكفر ، وإسرافيل يديم الصوت ، والأرواح قد انتشرت بين السماء والأرض ، ثم تدخل الأرواح فى الأرض إلى الأجساد ، فيدخل كل روح إلى جسده الذى فارقه فى دار الدنيا ، فتدب الأرواح فى الأجساد كما يدب السم فى الملسوع (هو الذى لسعته العقرب والحية ونفثت سمها فيه ، فيتمشى فى الجسم على مهل ، إن لم يتدارك بربط العضو الملسوع ، ويجب بعد ربطه ربطاً محكماً أن يشرط بموسى لينزل منه الدم ثم يمتصه آخر ليس فى فمه جروح ، ويوضع عليه ملح الطعام ويسقى ماء الليمون) حتى ترجع إلى أجسادها كما كانت فى دار الدنيا ، ثم تنشق الأرض من قبل رءوسهم فإذا هم قيام على أقدامهم ينظرون إلى أهوال يوم القيامة وطوامها ، إسرافيل — عليه السلام — ينادى بهذا النداء لا يقطع الصوت ويمده مدّاً ، والخلائق يتبعون صوته ، والنيران تسوق الخلائق إلى أرض القيامة .

ملازمة الأعمال للأجساد

فإذا خرجوا من قبورهم خرج من كل إنسان عمله الذى عمله فى الدنيا ، لأن عمل كل إنسان يصحبه فى قبره ، فإذا كان العبد مطيعاً لربه وعمل عملاً صالحاً كان أنيسه فى الدنيا ، ويكون أنيسه إذا خرج من قبره يوم حشره ، ويؤنسه من الأهوال ومن هموم القيامة وكروبها ، كلما نظر العبد المؤمن إلى نار أو إلى هول من أهوال القيامة جزع ، فيقول له عمله : يا حبيبى ما عليك من هذا شىء ، ليس يراد به من أطاع الله ، إنما يراد به من عصى الله — تعالى — مولاه ، ثم كذب بآياته واتبع هواه ، وأنت كنت عبداً مطيعاً لمولاك ، متبعاً لنبيك ، تاركاً لهواك ، فما عليك اليوم من هم ولا حزن حتى تدخل الجنة .

العمل السوء وهيئته

وإذا كان العبد خاطئاً وعاصياً لذى الجلال ومات على غير توبة وانتقال ، فإذا خرج المغرور المسكين من قبره ، خرج معه عمله السوء الذى عمل فى دار الدنيا ، وكان قد صحبه فى قبره ، فإذا نظر إليه العبد المغتر بربه رآه أسود فظيعاً ، فلا يمر على هول ولا نار ولا شىء من هموم القيامة إلا قال له عمله : يا عدو الله : هذا كله لك وأنت المراد به ، وأنشدوا :

أى يوم يكون يوم النشور … يوم فيه يفوز أهل القبور
يوم فيه الجزاء جنة عدن … لمطيع ومن عصى فى سعير
خاب من قد عصى وفاز مطيع … راقب الله فى جميع الأمور
قام فى الليل للإله ذليلاً … ليس يخلو من خوفه للقدير
خاف من عظم يوم هول شديد … شدة الهول من عذاب الزفير

فالله الله عباد الله ، معشر المريدين انتبهوا من هذا المنام ، واهجروا الفواحش والآثام ، وارجعوا إلى طاعة الملك العلام ، من قبل أن يأتى يوم تشقق السماء فيه بالغمام .

إخراج الأرض ما فيها

قال الله — تعالى — : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ يعنى ما فيها من الموتى والكنوز ، وما أودعها من أعمال العباد ، ومن مخبئات أسرارهم من أعمال الطاعة وأعمال العصيان ، فيأمر الله — تعالى — أن تخرج أعمال العباد ، وذلك أن العبد إذا خرج من قبره يجد عمله على شفير قبره ، فإن كان عمله صالحاً وجده نوراً يستره ويحجبه ، يستر عورته من أعين الناس ويحجبه عن النيران التى تسوق الناس إلى أرض القيامة ، وإن كان عملاً سيئاً وجده ظلمة سوداء تكون عليه أشد من كل هول يلقاه من أهوال يوم القيامة .

هذا كله فى النفخة الثانية ، وبين النفخة الأولى والثانية أربعون سنة ، فهو قوله : ﴿ **وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ .

فمثل لنفسك يا مغرور وقد ترادفت عليك الهموم والكروب ، وأحاطت بك الأهوال والخطوب ، وأظهرت لك القبائح والعيوب ، وأثقلت ظهرك الأوزار والذنوب . وأنشدوا :

قد سودت وجهى المعاصى … وأثقلت ظهرى الذنوب
أورثننى ذكرها سقاماً … فليس لى فى الورى طبيب
يا شؤم نفسى غداة حشرى … إذا أحاطت بى الكروب
وصوت داع دعا باسمى … أين مفرى ؟ وما أجيب ؟
هذا كتاب الذنوب[1] فاقرأ … فعندها تظهر العيوب

---

(١) اشارة إلى قوله — تعالى — : ﴿ **وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً** ﴾ — سورة الاسراء الآيتان ١٣ ، ١٤ .

ذكر أن العبد إذا خرج من قبره ، وجد عمله السوء حزمة وملك من ملائكة العذاب واقف عليها ، فإذا نظر إلى ما قدم فى أيامه ، قال له الملك : يا عدو الله خذ عملك فاحمله على ظهرك كما كنت تلتذ به فى الدنيا ولم تراقب مولاك ، وقد علمت أنه مطلع عليك ويراك ، فيأخذ العبد المسكين تلك الحزمة فيجده على ظهره أثقل من جبال الدنيا ، والنار تسوقه إلى الموقف ، وملك يسوقه سوقاً حثيثاً بالعنف والانتهار والاغلاظ عليه ، وآخر يشهد عليه مع علم الله — تعالى — فيه . وأنشدوا :

كيف احتيالى إذا جاء الحساب غداً ... وقد حشرت بأثقالى وأوزارى
وقد نظرت إلى صحفى مسودة ... من شؤم ذنب قديم العهد أوطارى
وقد تجلى لهتك الستر خالقنا ... يوم المعاد ويوم الذل والعار
يفوز كل مطيع للعزيز غداً ... بدار عدن وأشجار وأنهار
لهم نعيم خلد لانفاد له ... يخلدون بدار الواحد البارى
ومن عصى فى قرار النار مسكنه ... لا يستريح من التعذيب فى النار
فابكوا كثيراً فقد حق البكاء لكم . ... خوف العذاب بدمع واكف جارى

فالله الله يا أولى الألباب ، تفكروا فى هول يوم الحساب ، ولا تنسوا المطالبة برد الجواب ، وأشفقوا على أنفسكم من أليم العذاب ، وارجعوا إلى طاعة رب الأرباب ، وابكوا على ما سلف من ذنوبكم بانتحاب .

مدة النفخ فى الصور

ذكر أن إسرافيل — عليه السلام — لا يقطع النداء فى الصور حتى تخرج الأرض جميع ما فيها من الموتى ومما أودعها الله — تعالى — من شيء ، فإذا كمل العباد فى الموقف وكل إنس الأرض وجنها ، ووحوشها ودوابها ، وطيرها وأنعامها وهوامها حتى الذباب ، قطع إسرافيل النداء بأمر الله — تعالى — وذلك بعد تبديل الأرض غير الأرض والسموات ، ففى تبديلها قولان :

هيئة أرض الحساب

أحدهما : أن الأرض التى يحاسب العباد عليها هى أرض من فضة بيضاء ، لا جبل فيها ولا بناء ، ولا بحار ولا أنهار ولا أشجار ، ما سفك عليها دم ، ولا عصى الله — تعالى — عليها ، يأتى بها من غامض علمه ، ويقول لها : كونى فتكون ، وقد أضرم تحتها النيران ، وتكون هذه الأرض فى عظم تلك الأرض مثل الشعرة البيضاء فى الثور الأسود .

وقد قيل : ان تبديل الأرض هدم مبانيها ، وغور مياهها ، وانقطاع أشجارها ، وتسجير بحارها ، وتسيير جبالها ، وتبديل السماء ، وتكوير شمسها وقمرها ، وانكدار نجومها ، وتعطيل أفلاكها ، وتشققها ، فهذا تبديل الأرض والسموات . والله أعلم بحقيقة ذلك .

كيف يقف الناس فى المحشر ؟

فإذا قطع إسرافيل — عليه السلام — النداء وقف الخلائق كل واحد منهم ينظر إلى السماء ، ولا يرتد إليه طرفه ولا يدرى أحد من يقف بجواره ، لا رجل ولا امرأة ، ولا يدرى الأخ بأخيه ، ولا الوالد بولده ، ولا الأم بابنها ، كل إنسان منهم مشغول بما هو فيه من عظيم الأهوال ، وكل واحد منهم يفكر فيما جاء به من العصيان ، وفرط فيه من الطاعة والنسيان ، فالكل ينظر إلى ما ينزل به الأمر من السماء من شقاوة أو سعادة .

مقدار زمن المحشر

ويقال — والله أعلم — : ان الوقوف يكون مقدار ثلاثمائة سنة من سنين الدنيا ، لا خبر يتنزل ولا خبر يصعد ، قد كثر الزحام فلا تسمع إلا همس الأقدام ، حيارى نادمون فيما فرطوا فيه من استزلال القدم ، يومئذ لا ينفع البكاء ولا الندم . وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن آ ... من بالبعث سرور
إنما يفرح بالد ... نيا جهول أو كفور
إنما الدنيا متاع ... كل ما فيها غرور
فتذكر هول يوم ... السما فيه تمور

بكاء النبى من أهوال القيامة

روى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « خوفنى جبريل — عليه السلام — من أهوال يوم القيامة حتى أبكانى ، فقلت له : حبيبى جبريل : أليس قد غفر الله لى ما تقدم من ذنبى وما تأخر ؟

فقال : يا محمد : لتشاهدن من الأهوال يوم القيامة ما ينسيك المغفرة . فبكى رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى بلت دموعه لحيته »[١] .

فإذا كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ يبكى من هول يوم الحساب وقد أمَّنه الجبار من أليم العذاب ، ووعده بالجنة وحسن المآب ، فكيف بأمثالنا المساكين ؟ وكيف بمن ترك الحق والصواب ، وخالف السنة والكتاب ، وأطاع الشيطان وأفنى عمره فى معصية الملك الوهاب ؟ وقد قيل فى قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **كلا إذا دكت الأرض دكًا دكًا** ﴾[٢] هو تحريكها ، وقيل : دكًا دكًا : اذهاباً .

معنى دكِّ الأرض وانشقاقها

سئل بعض العلماء عن معنى تكرار هاتين الكلمتين ، دكًا دكًا ، وصفاً صفاً ؟ فقال :

تدكدك الأرض دكاً بعد دك ، أى : تحريك مرة بعد أخرى حتى لا يبقى عليها أثر من بناء أو جبل أو شجر . وقوله : صفاً صفاً : تأتى الملائكة صفاً بعد صف ، كل ملك قد شغل بنفسه ، لعظم ما يرى من ظهور الأهوال ، فإذا كثر زلزال الأرض ﴿ **وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** ﴾[٣] حتى تنقطع الجبال من أصولها ، وتنشق الأرض وتغور فيها أنهارها وعيونها ، ويدخل فيها كل قصر مشيد ، من بين قديم وجديد ، فياله من يوم ما أهوله !! ومن بلاء ما أطوله !! ومن جبار ما أعدله !! قد أفنى العباد بالحمام (الموت) فلا يرى أحد من الأنام . فإذا استوى الأولون والآخرون فى أرض القيامة ، أمر الله ـــ تبارك وتعالى ـــ السموات أن تنشق ، فتنشق كل سماء ، وتنقطع كقطع السحاب ، وقيل : كما يتطاير القطن بين يدى القطانين إذا ندفوه .

فمثل لنفسك صوت انشقاقها فى سمعك ، وكيف يثبت له فؤادك ، ويستقر لفظاعة هوله قدمك ، فقدم فى أيام حياتك ما يقيك تلك الأهوال ، لأن الخلق فى أهوال يوم القيامة على قدر أعمالهم فى الدنيا من خير وشر ، فمن عمل صالحاً وخاف من ربه ، وخاف من هول ذلك اليوم ، أمنه الله من جميع أهواله وكروبه ، ومن لم يقدم فى دنياه عملاً صالحاً لآخراه لقيته صعاب الخطوب ، وترادفت عليه الهموم والكروب ، فيندم حين لا تنفعه الندامة ، إذا حل فى أهوال القيامة .

---

(١) انظر مختصر التذكرة (تذكرة القرطبى) للامام الشعرانى ، باب ذكر ما يلقى الناس فى الوقف من الأهوال والشدائد ص ٥٠ فقد أورده عن ابن الجوزى غير معزو إلى مرجع من كتب الحديث .

(٢) الآية ٢١ من سورة الفجر .

(٣) الآية ١٤ من سورة الحاقة .

الأمن والخوف

روى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : يقول الله ـ تبارك وتعالى ـ : « إذا خافنى عبدى فى الدنيا أمنته يوم القيامة وإذا أمننى فى الدنيا أخفته يوم القيامة » فإذا انشقت السموات بلغت القلوب الحناجر ، وأيقن كل عبد وأمة أنه قادم على ما عمل فى الظواهر والسرائر ، إذا انشقت السموات عظمت المصائب ، وكثرت النوائب ، وندم الصبر على ما فرط فى الدنيا وضيع من الثواب والرغائب .

فإذا انشقت السموات عظمت الرزيات ، وكثرت الآفات ، وظهر العذاب ، وجلت العقوبات ، وأظهر الله مخبئات السريرات ، وندم العبد المغرور على ما أذنب فى الأيام والأوقات ، وما جنى فى الشهور والساعات .

فإذا انشقت السموات كثرت الأحزان ، وبرزت النيران ـ وأزلفت الجنان ، وندم العاصى على ما عمل من العصيان ، وعلى ما فرط فيه من طاعة الرحمن .

فانتبهوا لهذه الأهوال ، يا معشر الاخوان ، يا أهل الإسلام والإيمان ، فإن الهول ـ والله ـ عظيم ، والخطب كبير جسيم .

ملائكة سماء الدنيا

فإذا انشقت السموات وتقطعت ونزلت الملائكة بأجمعها ، فإذا نزلت ملائكة سماء الدنيا فزع منهم أهل الأرض ، وظنوا أنهم قد أمر فيهم بأمر ، فتقول لهم ملائكة سماء الدنيا : لا تجزعوا منا ، فإنا نخاف من الذى تخافون ، وتكون ملائكة سماء الدنيا أكثر من أهل الأرض إنسها وجنها ، وأنعامها وطيرها ووحوشها ، وجميع خلق برها وبحرها ، سبعين ضعفاً ، فيبقى العباد يموج بعضهم فى بعض .

ملائكة السماء الثانية

ثم ينزل ملائكة السماء الثانية وهم أكثر عدداً وأعظم خلقاً ممن اجتمع فى الأرض سبعين ضعفاً ، فتجزع منهم ملائكة سماء الدنيا وجميع من فى الأرض ، فيقولون لهم : لا تجزعوا ؛ نحن مشغولون

بأنفسنا ، ونخاف مما تخافون منه . فلا تزال ملائكة كل سماء تنزل ويجزع منهم جميع من سبقهم ، ويكون أهل كل سماء أكثر وأعظم ممن سبقهم سبعين ضعفاً ، وكان أهل كل سماء فى صف واحد على حدة ، كل واحد منهم قد شغل بنفسه من عظيم ما يرى وما يبدو له . وأنشدوا : —

يا غافلين أفيقوا قبل بعثكم ... وقبل يؤخذ بالأقدام واللمم
والناس أجمع طراشا خصون غداً ... لا ينطقون بلا بكم ولا صمم
والخلق قد شغلوا والحشر جامعهم ... والله طالبهم بالحل والحرم
وقد تبدّى لأهل الجمع كلهم ... وعد الإله من التعذيب والنقم
وكل نفس لدى الجبار شاخصة ... لا ينطقون ، بلا روح من الزحم

الجبابرة فى الحشر كالذر

روى أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صورة الذر (صغار النمل ، وقد وردت جملة أحاديث تؤيد ذلك ، وخصوصاً فى قصة الإسراء عند الكلام على رؤيته — ﷺ — للعصاة والمذنبين ، أصغر الناس خلقة ، لتجبرهم على العباد فى الدنيا ، قد صارت العزة للغنى الحميد ، ولزمت الذلة على كل جبار عنيد ، وشيطان مريد ، قد ترادفت عليهم الهموم والأهوال ، وظهرت لهم العقوبات والأنكال ، وندم كل مذنب بطال ، فحينئذ لا حيلة لمحتال فى (يوم لا بيع فيه ولا خلال)[1] .

شعر :

مقام المذنبين غداً عسير ... إذا ما النار قربها القدير
وقد نصب الصراط لكى تجوزوا ... فلا ينجو الكبير ولا الصغير
وقد نسفت جبال الأرض نسفاً ... ويبست البحور فلا بحور
وبرزت الجحيم لكل عبد ... على أهل المعاد لها زفير

عباد الله تفكروا واعتبروا ، وابكوا وتباكوا ، واستعدوا لليوم الثقيل ، والهول الكبير ، والخطب الجليل ، والعذاب الشديد الطويل .

حديث فى أهوال يوم القيامة

ذكر فى بعض الأخبار عن المختار — ﷺ وعلى آله الأخيار ، دوام اختلاف الليل والنهار — أنه قال : « ليوم القيامة مائة ألف هول ، كل هول أعظم من الموت مائة ألف مرة » .

---

(١) من الآية ٣١ من سورة ابراهيم

فاندم يا مسكين على ما صنعت وفات ، وأصلح بالتوبة النصوح ما هو آت ، من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله ، ليس للظالمين من نصير ، ولا للعاصين من مجير ، ولا لأحد من ملجأ ولا نكير .

شدة الحر والظل

فإذا تكامل أهل السموات ، وأهل الحجب والسرادقات ، وحملة العرش والكرسى ، وجميع أهل الأرض فى عرصة القيامة ، وازدحمت الخلائق واختلفت الأقدام ، وشخصت الأحداق ، وتطاولت الأعناق وانثنت من شدة العطش ، واجتمع زحام الخلائق وأنفاسهم وشدة حر الشمس وضيق البأس ، ارتفع العرق على وجه الأرض حتى يعلو على الأبدان ، ويعم العباد على قدر منازلهم ورتبتهم التى أنزلتهم عليها أعمالهم التى عملوها فى دار الدنيا ، وقد زيد فى حر الشمس ما يتضاعف ــ قيل حر عشر سنين ــ ولا ظل يومئذ إلا ظل العرش ، فلا يصيب منه عبد ولا أمة إلا على قدر عمله ، فكم بين مستظل ناعم بظل العرش ، وبين ضاح باد بحر الشمس ؟

مطر الرحمة

وقد قيل : إن الله ــ تعالى ــ يمطر يوم القيامة الغيث على طائفة من عباده وترمى جهنم شررها على طائفة أخرى ، فكم بين مستريح ببرد الأمطار وبين ملتهب بحر شرر النار ؟ فمن قطع عمره فى الدنيا بطاعة الرحمن وعمل بالسنة والقرآن ، خلصه مولاه من جميع الهموم والأحزان .

ترهيب من أهوال الحشر

فمثل لنفسك وقد نظرت للجبال قد تقلعت من أصولها ، وصارت مثل السراب ، وتقطعت السموات وتطايرت مثل قطع السحاب ، وقد أيقن كل فاجر وكافر بالحلول فى أليم العذاب ، وقد صارت العزة لذى البطش الشديد ، ولزمت الزلة كل جبار عنيد ، ثم رجعت السماء كالمهل ــ وهو دردى الزيت الذى يجلس فى قعر الإناء (والمهل أيضاً : النحاس المذاب . والمهل : القيح والصديد) قيل : ترجع السماء كالدهن الرقيق ، وترجع الجبال كالعهن المنفوش ، وهو أضعف ما يكون من الصوف ، وتصير الخلائق كالفراش وهو البعوض ، وقيل : كالجراد المنتشر إذا خرجت عليه الشمس لا يأخذ بجهة واحدة ، كذلك الخلق يموج بعضهم فى بعض ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه . قد اجتمعت القيامة بأهوالها ، ووضعت الحوامل أحمالها ، وزلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وشهد على

الأمم بأعمالها . وشاب الوليد ، وحضر الوعد وحق الوعيد ، وعظم الهول الشديد ، وذل كل متكبر وجبار عنيد ، قد خضعت الرقاب لرب الأرباب ، وخاب كل كفار كذاب ، واشتد الهول وعظم العذاب ، فتفكروا فيما تسمعون يا معشر الأحباب ، وانظروا لأنفسكم ياجماعة الإخوان والأصحاب ، واستعدوا لأهوال القيامة يا أولى العقول والألباب . وأنشدوا :

مثـــل لقلـــبك أيها المغـــــرور ... يـــوم القيامـــــة والسمــــاء تمور
قد كورت(١) شمس النهار وأضعفت(٢) ... حـــرًّا على روس العبـــاد تفـــور
وإذا الجبـــال تعلـــقت بـــأصولها ... فـــرأيتها مثـــل السحـــاب تسير
وإذا النجـــوم تساقـــطت وتناثـــرت ... وتبـــدلت ، بعـــد الضيـــاء كـــدور
وإذا العشار تعطـــلت عـــن أهلهـــا ... خـــلت الديـــار فمـــا بها معمـــور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحضرت ... وتقـــول للأمـــلاك أيـــن نسير
فيقـــال سيروا تشهـــدون فضائحـــاً ... وعجائبـــاً قـــد أحضرت وأمـــور
وإذا الجنين بأمـــــه متعلـــــق ... خـــوف الحساب وقلبـــه مذعـــور
هـــذا بـــلا ذنب يخاف لهولـــه ... كيـــف المقيم على الذنوب دهـــور ؟

جهنم فى المحشر

فإذا اشتد الفرق ، وسال العرق ، أمر الجبار ـــ جل جلاله ـــ أن يؤتى بجهنم ـــ أعاذنا الله وإياكم منها ، وزحزحنا وإياكم عنها برحمته ـــ فيؤتى بها وأهوالها وأنكالها وسلاسلها وأغلالها ، وقد اشتد جحيمها ، وغلى حميمها ، وكثر زقومها ، وغضب زبانيتها ، وعظم سم حياتها وعقاربها ، واسودت جبالها ، وهاجت بحارها ، ونتن غسلينها ، وغلى سمومها ، وقد اجتمعت مما خلق الله فيها من عظيم بلائها ، فأبرزت للخلائق وهم ينظرون إليها من مسيرة خمسمائة عام .

وصـــف جهـــنم

قال الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وبرِّزت الجحيم لمن يرى** ﴾(٣) فيراها الخلائق كلهم وهى تغتاظ على العباد ، وتغضب لغضب الجبار ـــ جل جلاله ـــ وتتغيظ وتتسعر ، عليها سبعون ألف زمام من حديد ،

(١) كورت الشمس : قال ابن عباس : غورت . وقال قتادة : ذهب ضوؤها . وقال أبو عبيد : مثل تكوير العمامة ، تلف فتمحى

(٢) أضعفت : أى : زيد عليها مثلها أو أكثر ، يريد أن الشمس زادت حرارة بعد تكويرها .

(٣) الآية ٣٦ من سورة النازعات

قد تعلق بكل زمام سبعون ألف ملك من ملائكة النار يحبسونها عن الخلائق ، وهى تريد أن تنفلت من أيديهم وتأتى على أهل الموقف ، والملائكة الذين يحبسونها : وجوههم مثل الجمر ، وأعينهم مثل البرق الخاطف ، فإذا تكلم أحدهم تناثرت النار من فيه ، بيد كل واحد منهم أرزبة من حديد ، من نار ، فيها اثنان وسبعون ألف رأس من نار كأمثال الجبال الراسيات العظام ، ورءوسها كرءوس الأفاعى ، وهى أخف فى يدى الملك من الريشة ، وأعينهم زرق ، ووجوههم كالحة ، قد خلقوا من نار السموم ، فتريد جهنم أن تنفلت من أيدى الملائكة من غضب الجبار — جل جلاله — هذا كله قاله الضحاك عن الأئمة عن ابن عباس — رضى الله تعالى عنهم —

بطش جهنم

فإذا جاءت جهنم بأمر الله — تبارك وتعالى — جاءت بالهول الأكبر ، والفزع الأعظم ، فيخرج من نفسها وهج شديد ، ويسمع من جوفها دوى سلاسل الحديد فإذا قربت من الخلائق سمعوا لها شهيقاً ورأوا لها حريقاً ، فإذا نظرت فى أهل المعاصى ثارت وفارت ، وأرادت أن تثب عليهم ، فاغتاظت وتحمحمت إليهم ، وأرادت أن تأتى على جميع الخلائق ، فلا يجدون منفذاً ولا مكاناً يستغيثون إليه ، ومنادى ينادى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان** ﴾[1] . أى : بحجة ، ثم ترجع جهنم بسلطانها على خزانها لشدة غضب الجبار على من عصى الله وخالف رسوله ، فإذا انفلتت من أيدى الزبانية ، أرادت أن تقبض على كل من فى الموقف ، فيعرض لها — صلوات الله وسلامه عليه — محمد الرسول ، وكل نبى يومئذ بنفسه مشغول .

رد الرسول جهنم عن الخلائق

فيأخذ محمد — ﷺ — بزمامها ، ويقبض على خطامها ، فيردها على عقبها ، وهو — ﷺ — يقول لها : كفى عن أمتى ، فتخمد من نوره — ﷺ — وتناديه : أيها النبى المكرم ، والرسول المشرف المعظم ، خل سبيلى من يديك ، فما جعل الله لى ولا لغيرى من سلطان عليك . فيناديها الملك الجليل الجبار : هذا محمد حبيبى سيد الأبرار ، ووزير الأخيار ، فالطاعة لمن له الوسيلة والشفاعة ، فعند ذلك تضع جهنم رأسها خاضعة كالحة كليلة تحت سكون وخمود ، بإذن الملك المعبود ، لمحمد — ﷺ — صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود ، واللواء المعقود ، والكرم والجود ، وإقامة الحقائق والحدود . ولو تركها خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، لأهلكت الخلائق أجمعين ، غضباً لغضب رب العالمين ، أعاذنا الله وإياكم برحمته منها — انه أرحم الراحمين .

(١) الآية ٣٣ من سورة الرحمن

جهنم وزفيرها

وقيل : إن جهنم ـــ أعاذنا الله منها ، وزحزحنا وإياكم برحمته عنها ـــ إذا نظَرت إلى الكفار والمنافقين والفجار ، وأصحاب الخطايا والأوزار ، زفرت زفرة فترمى شرراً على رءوس الخلائق مثل عدد نجوم السماء ، وزبد البحر ورمل البر ، فتقع على رءوس الكافرين والعاصين لرب الأولين والآخرين فلو كانت الدنيا باقية لانهارت جبالها ، وجفت أزهارها ، ويبست عيونها وأنهارها ، من شدة حر شرر جهنم ، ولو كان ثمَّ موت لمات الخلق كلهم .

الزفرة الثانية

ثم تزفر أخرى أعظم من الأولى فلا تبقى دمعة فى عين إلا قطرت ، ويغلب بياض العين على سوادها ، وتبلغ القلوب الحناجر ، ولا يسأل أحد إلا نفسه : البر والفاجر .

الزفرة الثالثة

ثم تزفر الثالثة وهى أعظم من الأولى والثانية ، فلا يبقى ملك مقرب ولا نبى مرسل ولا ولى ولا صديق إلا جثا على ركبتيه ، حتى ابراهيم وجميع المرسلين ، ما خلا حبيب رب العالمين محمد ـــ ﷺ ـــ خاتم النبيين ، فإنه لا يسأل عن هول النار ، فقد خلصه الله من أهوالها .

الزفرة الرابعة

ثم تزفر الرابعة ، وهى أعظم من الأولى والثانية والثالثة فتلقى الزبانية على وجوههم أجمعين ، وتفر الخلائق كلهم هاربين ، ويتعلق جبريل وميكائيل ـــ عليهما السلام ـــ بساق العرش ، وكل ملك ينادى : نفسى نفسى ، لا أسألك اليوم غيرها . ويقول أيضاً كل واحد منهم : بحرمة محمد ، وبقدر محمد ـــ ﷺ ـــ نجنى من عذابك ، لما يرون من حرمته وجلالة قدره وعظيم منزلته عند ربه ، فإذا هرب الخلائق وجهنم تريد أن تأتى عليهم ، وقد غلى بعضها فى بعض ، وتقلب بعضها على بعض ، ولا يبقى غل ولا سربال ولا سلسلة ولا قيد ولا حية ولا عقرب إلا ألقت الكل على متنها .

بماذا تخمد النار ؟

فعند ذلك يقبل إليها محمد — ﷺ — ويلقى يده فى زمامها ويلوح إليها بحلة خضراء ، فتخمد من نور وجهه المبارك ، وهو — ﷺ — يضرع إلى العلى المجيد وهو يقول : يا سلام سلم أمتى من العذاب الشديد .

وأنشدوا :

الدمع فى خد من عصى حسن ... حسب الفتى من دموعه الحزن
يا من شكل حافظاه خلوته ... لما خلا ، والعباد ما فطنوا
قد كان ربى عليك مطلعاً ... وأنت لاهى الفؤاد مفتتن
لم تهتك الستر إذ خلوت به ... ولا انقضت من عطائه المنن
النار تسعى إلى العصاة غداً ... لم يعلم المذنبون ما وسن

يا قوم : العجب من القلوب التى بُليت بالعباد ، وغفلت عن أهوال يوم المعاد ، وتمادت على معصية الرب الكريم الجواد .

يا أخى : كأن المراد بهذا كله غيرنا . ليبعثن الجبار الذليل والحقير ، ويسألهم عن الفتيل والنقير ، وعن الذرة والقطمير ، وعن القليل والكثير ، فى اليوم المهول العبوس والعسير ، الذى يشيب من فظاعة هوله الطفل الصغير ، رفق الله بنا وبكم فى ذلك اليوم انه على ما يشاء قدير ثم يبعث الله تعالى جبريل إلى جهنم فيقول لها : الله تعالى يقول لك : الطاعة . فتقول : وعزة الله وعظيم جلاله لأنتقمن اليوم ممن لم يعمل بطاعة الله ، واستعان بنعمته على معصيته . ثم تقول : يا جبريل : هل خلق الله خلقا يعذبنى به ؟ فيقول جبريل : لا ، ما خلقك الله — تعالى — إلا نقمة لمن عصاه . فتقول جهنم عند ذلك : الحمد لله الذى جعلنى نقمة لمن عصاه ، ولم يجعل من خلقه من ينتقم منى .

عند ذاك — والله — تعظم الخطوب ، وتظهر القبائح والعيوب ، ويندم أهل المعاصى والذنوب .

وأنشدوا :

ليس فى الدنيا لمن ... آمن بالبعث سرور

فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من باع نفسه فى سوق الخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وبذل مهجته لعذاب النيران ، وبارز بالخطايا الملك الديان .

من أسباب غفران الذنوب

حكى عن بعض العارفين ــ رحمه الله ــ أنه قال : حضرت سنة من السنين الوقوف بعرفات ، فإذا بضجة الناس ، فتذكرت يوم القيامة ، وذكرت رحمة الله ، فأردت أن أحلف أن الله قد غفر لكل من فى الجمع ، فذكرت أنى فيهم فأمسكت . وأنشدوا :

يا كثير الذنوب أقصر قليلاً قد بلغت المدى من الإسراف

فإذا اشتد بالخلائق الهلع ، وكثر منهم الخوف والجزع ، وبلغت القلوب الحناجر ، من خوف من يعلم الظواهر والسرائر ، نادى الملك الرحمن : « يا عباد : لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون »(١) . فإذا سمع الخلائق هذا النداء طمع كل منهم فيه . فيقول ــ سبحانه ــ : ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾(٢) فعندئذ ييأس من الرحمة جميع الكفار والمنافقين والفجار ، ويطمع فيها من آمن بالواحد القهار ، واتبع سنة محمد المختار .

عند ذلك تنشر الدواوين ، وتوضع الموازين ، وتتطاير الصحف فى الألف ، فكل امرىء بما اكتسب معترف ، فندم الظالم ، وخسر الآثم ، وظهرت فى الصحائف الفضائح ، وكثر الخجل ، واشتد الوجل ، وبدت الفضائح ، وشهدت على كل امرىء حفظته والجوارح .

وأنشدوا :

طال والله بالذنوب اشتغالى وتماديت فى قبيح فعالى
ليت شعرى إذا أتيت فريداً والموازين قد نصبن حيالى
والدواوين قد نشرن وجئنا والنبيون يشهدون سؤالى
ما اعتذارى وما أقول لربى فى سؤالى وما يكون مقالى ؟
أورثتنى الذنوب دار هموم لست أبقى لها ولا تبقى لى
يا عظيم الجلال ما لى عذر بل حقيق أنا بنار السغالى
غير أن الرجاء فيك مكين فارحم العبد يا جميل الفعال
وتفضل على عُبَيْدٍ مسىء ليس يرجو سواك يا ذا الجلال

(١) الآية ٦٨ من سورة الزخرف

(٢) الآية ٦٩ من سورة الزخرف

هذا يوم الدين

روى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : « إذا جمع الله ــ تبارك وتعالى ــ الأولين والآخرين نادى مناد : هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون »[1] .

فانظر لنفسك يا مسكين ، يا ضعيف الإيمان واليقين ، يا من يقول إنه من المؤمنين المصدقين ، وهو يعمل أعمال المكذبين المخالفين ، التاركين لسنن سيد المرسلين وخاتم النبيين . ما أجرأك أن تكون عند الله من الكاذبين ، لو خفت من عذاب يوم الدين ، لعملت بالقرآن المبين ، ولو كنت من المؤمنين المصدقين ، لأطعت رب الأولين والآخرين . فسل مولاك أن يفرج عنك ما قد نزل بك من داء الذنوب ، وهتك سترك من القبائح والعيوب . وأنشدوا :

يا طبيب الذنوب والآثام ... هل دواء أبرأبه من سقامى ؟
إن داء الذنوب أضعف جسمى ... ومشيبى موكل بجمامى
وشفائى أعيا الأطباء إنى ... قد تغذيت مدتى بالحرام
وركبت الذنوب سرًّا وجهراً ... وتباعدت من محل الكرام
كيف بالطب أن يعالج مسقمى ... وكلامى يزيد قرح كلامى[1]
أيها الناس قد علمتم ذنوبى ... واغترارى وشقوتى واحترامى
وأنا أرغب الدعاء فجدوا ... فى فكاكى من الذنوب العظام
واشتياقى إلى الطواف شديد ... وإلى الركن والصفا والمقام
وإلى يثرب يحن فؤادى ... كى أزور النبى خير الأنام
فسلوا الله فى الوصول فإنى ... ذو اشتياق لحج بيت حرام
فلعل الإله يغفر جرمى ... وينجنى من هول يوم القيام
ويفك ذو الجلال عبداً ضعيفاً ... مات خوفاً من العذاب الغرام

---

(١) روى ابن كثير فى تفسيره (تفسير سورة المرسلات) ج ٤ ص ٤٦١ عن ابن أبى حاتم بسنده إلى أبى عبد الله الجدلى قال : أتيت بيت المقدس فإذا عبادة بن الصامت وعبد الله بن عمرو وكعب الأحبار يتحدثون فى بيت المقدس ، فقال عبادة : « إذا كان يوم القيامة جمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد ينفذهم ويسمعهم الواعى ، ويقول الله : هذا (يوم الفصل جمعناكم والأولين . فإن كان لكم كيد فكيدون) اليوم لا ينجو منى جبار عنيد ولا شيطان مريد » .

(٢) الأولى : كلامه ، أى : ألفاظه ــ بفتح الكاف ــ والثانية بكسرها ، أى : جروحه .

موعظة كعب الأحبار

روى أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال لكعب : يا كعب خوفنا . فأطرق برأسه ثم رفع رأسه وعيناه تذرفان دموعاً ، فقال : يا أمير المؤمنين : والذى نفس كعب بيده ، إن جهنم لتزفر زفرة فتقطع السلاسل التى بأيدى الزبانية الذين يمسكونها بها حتى تفيض على أهل الجمع ، وتلقى الزبانية على وجوههم ، وينهزم مالك خازنها من بين يديها ، فلو كان لكل آدمى عمل مائة ألف نبىّ ، ومائة ألف صِدِّيق ، ومائة ألف شهيد ، لحقر عمله ولظن أنه لا ينجو منها . فعند ذلك يعرض لها النبى ــ ﷺ ــ وقد أشرقت القيامة من نور وجهه ، فيأخذ بزمامها ويقول لها : كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى ، كفى عن أمتى (ثلاثاً) فتقول له : يا أيها النبى الكريم ، والرسول الرءوف الرحيم ، ما جعل الله لى عليك ولا على أمتك من سبيل . فعند ذلك يتعلق العبد المذنب إذ رأى الأهوال العظام بالنبى ــ عليه الصلاة والسلام ــ فيقول : يا رسول الله : أنقذنى من عذاب الله . فيقول له : ألم أبلغك رسالة ربى فلم عصيت ؟ فيقول له العبد المذنب : يا رسول الله غلبت على شقوتى . فيقول ــ ﷺ ــ : لا شقوة على أحد من أمتى ، ولا على من قال فى الدنيا مخلصاً : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فيشفع له إلى الله تعالى فيشفع فيه .

وأنشدوا :

ألا أكرم بأحمد ذى الأيادى ... شفيع الناس فى يوم التنادى
إذا نشر الخلائق من قبور ... عراة يبتغون ندا المنادى
وقربت الجحيم لمن يراها ... فيالله من خوف العباد
وقد زفرت جهنم فاستكانوا ... سقوطاً كالفراش والجراد
وقد بلغت حناجرَهم قلوب ... وقد شخصوا بأبصار حداد
فيا جبار عفواً منك فالطف ... ويا رحمن رفقاً بالعباد
ونودوا للصراط ألا هلموا ... فهذا ويحكم يوم المعاد
تسوقكم إليه سوق عنف ... مقامع من زبانية شداد
ألا يا معشر الاسلام هبوا ... من الإغفال فى غمر الرقاد

حديث فى الترهيب

روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عين بكت من خشية الله ، وعين غضت عن محارم الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله »[1] .

فقدموا عباد الله فى اليسير من الأيام ، ما يقيكم الأهوال العظام ، والخطوب الجسام ، والزلازل والطوام ، والعذاب الغرام ، فإن العمر يسير ، والأجل قصير ، والزاد قليل ، والهول جليل ، والعذاب طويل ، واليوم مهول ثقيل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على من قطع أيامه فى العصيان ، واستبدل الجنة بالنيران ، والربح بالخسران ، وترك العز ورضى بالهوان ، وعوض عن الزيادة بالنقصان .

ففكر فيما تسمع أيها الإنسان ، وأنا وأنت وكلنا ذلك الإنسان .

وأنشـدوا :

مقـام المذنـبين غـداً ذليـل ... وقـدر الطائـعين غـداً جليـل

إذا مـد الصراط على جـحيم ... تصول على الـعصاة وتستطيـل

ونـادى مالكـاً خـذ مـن عصانى ... فـإنى اليـوم لست لهم أقيـل

سجود جهنم

ذكر فى بعض الأخبار أن جهنم ـ أعاذنا الله منها ، وزحزحنا برحمته عنها ـ تستأذن يوم القيامة فى السجود ، فيؤذن لها ، فتسجد ما شاء الله من ذلك ثم يقال لها : ارفعى رأسك فترفع رأسها وهى تقول : الحمد لله الذى خلقنى لينتقم بى ممن عصاه ولم يجعل شيئاً من خلقه ينتقم به منى .

إلهى : قد اشتد بلائى وأخمدت نارى ، وغلا حميمى وزقومى ، وكثر نتنى وغسلينى (ما انغسل من لحوم أهل النار ودمائهم) وأكل بعضى بعضاً ، إلهى : عجل علىّ بأهلى ، فو عزتك لأنتقمن لك ممن عصاك واتبع هواه ، وجحد آياتك وكذب رسلك ، وجعل معك إلهاً غيرك ، لا إله ألا أنت . فتنادى نداء يسمعه أهل الموقف جميعاً ، ثم تغتاظ على أهل المعاصى فترمى بشرر وفى القرآن : ﴿ **إنها ترمى بشرر كالقصر** ﴾[2] .

---

(١) الحديث رواه السيوطى فى الدر المنثور ج ٦ ص ١٧٨ فى (تفسير سورة النور) تفسير الآية ٣٠ ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ..** ﴾ الآية . وعزاه إلى ابن أبى الدنيا والديلمى .

وانظر تفسير ابن كثير فى نفس الآية ولفظه : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل عين باكية يوم القيامة إلا عينا غضت عن محارم الله ، وعينا سهرت فى سبيل الله ، وعينا خرج منها مثل رأس الذباب من خشية الله » .

(٢) الآية ٣٢ من سورة المرسلات

وفسره ابن عباس بأعناق النخل . وقال الزمخشرى : أعناق النخل وأعناق الابل ، وقال الهروى : أعناق الإبل ، كعدد النجوم فى السماء ، وزبد البحر ورمل البرونبات الأرض على رءوس الخلائق ، فيقع على رءوس العصاة ، فمن كان له عمل صالح صار حجاباً بينه بين شرر جهنم ، ومن لم يكن له عمل صالح صار رأسه غرضاً لشرر جهنم . أعاذنا الله منها ، وزحزحنا عنها برحمته . يارب العالمين . آمين .

مجلس فى ذكر الميزان والصراط

قال الله ــ سبحانه وتعالى ــ : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً** .. ﴾(١) الآية ، عباد الله ، ما لقلوبكم لا تخشع ؟ وما لآذانكم لا تسمع ؟ وما لدعائكم لا يسمع ؟ وما لعيونكم لا تدمع ؟ وما لبطونكم من السحت (بسكون الحاء وضمها : الحرام ، وأسحت فى تجارته : إذا اكتسب السحت) والحرام لا تشبع ؟ وما لعملكم المحمود لا يرفع ؟ .

إخوانى : من شغل نفسه بخدمة المعبود المحمود ؟ من خاف من ورود النار وبئس الورد والمورود ؟

افتخار الوحوش على بنى آدم

ذكر فى بعض الأخبار أن الوحوش تجتمع يوم القيامة فتخر ساجدة ، فيقال لها : ما هذا يوم السجود ، فتقول : إنما سجدنا شكراً لله الذى لم يجعلنا من ولد آدم ، وجعلنا ممن يشهد فضائح ابن آدم .

فالله الله يا إخوانى . اقبلوا النصيحة ، قبل يوم الخجل والفضيحة فإذا كان يوم القيامة وجاءت جهنم بأهوالها ، يضرب الصراط على متنها ، طوله خمسمائة عام ، وقد قيل : طوله ستة وثلاثون ألف سنة من سنين الدنيا ، أدق من الشعر ، وأَحَدُّ من الموسى ، وقيل : أَحَدُّ من السيف ، وأحر من الجمر . وقد قيل : إنه شعرة من جفن مالك خازن جهنم يمدها على متن جهنم ، عليه حسك وكلاليب (الحسك : شوك السعدان ، والحسك أيضاً : ما يعمل من الحديد على مثاله للمحاربين . والكلاليب : آلة من الحديد كالخطاف) قد تعلق بكل كلوب منها عدد نجوم السماء من الزبانية ، لو أن واحداً منها أذن الله له أن يتنفس فى الدنيا لأحرقها بإنسها وجنها ، وجميع ماذرأ الله فيها ، ولأذاب جبالها وجفف بحارها .

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

صفة الصراط

والصراط أسود مظلم من شدة سواد جهنم ، فلا يجوز يومئذ إلا من كان له نور ، ولا يكون النور يومئذ إلا من الأعمال الصالحة ، فمن عمل عملاً صالحاً نجاه من النار ، وجاز إلى دار الراحة والقرار ، ومن لم يقدم فى الدنيا عملاً صالحاً حرم من النظر إلى وجه الجبار ، وهوى فى دار الندامة والبوار . فى دار عذابها سموم وشرابها حميم (ماء حار) وظلها لا بارد ولا كريم ، وطعامها الزقوم (اسم طعام للعرب ، فيه تمر وزبد . قال الله — تعالى — : ﴿ **إن شجرة الزقوم ۝ طعام الأثيم ۝ كالمهل يغلى فى البطون ۝ كغلى الحميم** ﴾[1] ، يتردى — والله — فى دار عذابها أليم ، ومسكنها جحيم ، وساكنها أبداً فى العذاب مقيم ، يتردى — والله — فى نار قعرها بعيد ، وعذابها شديد ، وشرابها صديد ، ومقامعها حديد ، وما هى من الظالمين ببعيد .

وأنشدوا :

أما آن يا أخى أن تستفيقا ... وأن تتناسى الحمى والعقيقا
وقد ضحك الشيب فى عارضيـ ... ـك وبانت مساويك فيه بروقا
وركب أتاهم وقد عرضوا ... على أتباع المنايا طروقا
أدارت عليهم كؤوس الحمام ... صبوحاً تلازمهم أو غبوقاً
ومازال فيهم غراب الحما ... م فيسمعهم للمنايا نعيقا
ويحجل فى عرصات القصو ... ر حتى أعاد الفسيحات ضيقا
ألا فازجر النفس عن غيها ... عساك تجوز الصراط الدقيقا
مقام به تذهل المرضعا ... ت وتلقى الحوامل ، وعداً صدوقا
وتبرز للناس نار الجحيم ... لها عنق تترامى حريقا
شرابهم المهل فى قعرها ... تقطع أمعاءهم والعروقا
إذا طبقت فوقهم لم يكن ... لتسمع إلا البكا والشهيقا
أذلك خير أم القاصرا ... ت تخال مباسمهن البروقا
قصرن على حب أزواجهـ ... ـن فمشتاقة تتلقى مشوقا
لقد فاز من كان للمصطفى ... بدار المقامة يوماً رفيقاً

(١) الآيات ٤٣ — ٤٦ من سورة الدخان

حسن العمل والصراط

فمثل لنفسك يا مسكين وقد جئت إلى الصراط ، وقد رأيت العاملين وقد جازوا ، وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، ورأيت البطالين فى ظلمات البطالات ، وغمرات الجهالات . فالله الله يا جماعة الضعفاء ، يا من قطع عمره فى الخلاف والجفاء ، خذوا لأنفسكم بالاحتياط ، واحذروا الأهوال الصعبة عند جواز الصراط ، لأن الصراط لا يجوزه آثم ، ولا ينجو منه ظالم . والصراط حق دقيق ، لا ينجو منه من خالف التحقيق ، وترك السنة ومنهاج (الطريق الواضح) الطريق . الصراط طويل بعيد ، لا يجوزه إلا من أخذ نفسه بالحزم الشديد ، واستقام على طاعة الولى الحميد . الصراط مهول مخوف ، لا يجوزه إلا من أغاث الملهوف ، وأطاع الرحيم الرءوف ، الصراط صعب مهول ، لا يجوزه إلا من اتبع سنة محمد الرسول . وأطاع رباً لا يحول ولا يزول ، الصراط كثير الزبانية (عند العرب ـــ الشرط ـــ وأصل الزبن : الدفع ، لأنها تدفع العصاة إلى النار) لا يجوزه إلا من أطاع مولاه فى الفانية . وراقب الله فى السر والعلانية .

ذكر فى بعض الأخيار أنه لا يجوز الصراط العبد والأمة إلا من بعد نشر الدواوين ، ووضع الموازين .

الموازين يوم القيامة

ذكر أن لكل إنسان ميزاناً يوزن به عمله ، فمن عمل عملاً سيئاً خف ميزانه وهوى فى النار ، وقد قيل : إن الميزان هو منصوب بين يدى عرش الرحمن ، يوزن به أعمال العباد .

وكان الحسن ـــ رضى الله عنه ـــ يقول : لكل إنسان ميزان يوزن به عمله من خير وشر ، واستدل على ذلك بقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة** ﴾[1] الآية . وأما قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وأما من ثقلت موازينه ، وأما من خفت موازينه** ﴾ فهو ميزان الحسنات وميزان السيئات ، وقوله : ﴿ **ثقلت وخفت** ﴾ فقوله : ﴿ **ثقلت** ﴾ بقول : لا إله إلا الله ، بالإخلاص ، و ﴿ **خفت** ﴾ من الحسنات بالشرك والنفاق والرياء والسمعة ، لأن العبد قد يقول : لا إله إلا الله على معصية ، ويقول لا إله إلا الله والله أكبر على أخذ مال مسلم ، فإنما ذلك نفاق ، لأن النبى ـــ ﷺ ـــ

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

قال : « من قال : لا إله إلا الله مخلصاً رجح ميزانه ونجا من النار ودخل الجنة » فقيل : يا رسول الله : وما إخلاصها ؟ فقال : « أن تزحزحكم عما حرم الله تعالى »[١] .

وزن الأعمال

ذكر فى بعض الأخبار أنه يقدم عبد يوم القيامة للحساب فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً مملوءة بالسيئات فتوضع فى كفة الميزان فيشتدهمّ العبد وكربه ، فيقول الجبار ـــ جل جلاله ـــ : لعبدى عندى ذخيرة ادخرتها له ، فيأمر الله تبارك وتعالى أن يخرج له رقعة صغيرة فيها مكتوب ، مات فلان وهو يشهد ويقول : لا إله إلا الله مخلصاً[٢] .

كلمة التوحيد

فيقول الله ـــ تعالى ـــ : ضعوها فى ميزان عبدى ، فتوضع فى ميزانه ، فيميل الميزان بها ، وترجح على جميع سيئاته ، فعند ذلك يفرح العبد ، فيأمر الله تبارك وتعالى به إلى الجنة .

وأنشدوا :

أعددت لله حين ألقاه ... أشهد أن لا إله إلا الله
أقولها للإله خالصة ... يرحمنى فى القيامة الله
لعل يوم الحساب أنجو بها ... يوم العقوبة يوم بلواه
يوم يفوز التقى قائلها ... ويخسر الجاحدون نعماه
فهى لدار الخلود قائدة ... ومن عصى فالجحيم مأواه
من قالها للإله مخلصة ... فهو الذى قد آتاه تقواه
وهو الذى فى الجنان مسكنه ... الله قد خصه وأرضاه
قد فاز عبد يكون ذاكرها ... بدار عدن جوار مولاه
يحظى بدار الخلود قائلها ... طوبى لمن قالها وطوباه[٣]
من كان عند الممات قائلها ... فاز بدنياه وأخراه

(١) الحديث فى تاريخ بغداد للخطيب ج ١٢ ص ٦٤ عن أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ
(٢) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ج ٢ ص ١٤٣٧ رقم ٤٣٠٠ .
(٣) الطوبى : فعْلَى من الطيبب ، واسم شجرة فى الجنة .

فالله الله عباد الله ، ارغبوا إلى مولاكم أن يثبتكم على الكلمة المباركة الخفيفة فى اللسان ، الثقيلة فى الميزان ، المزينة للديوان ، بها يرضى الملك الرحمن ، وبها يسخط اللعين الشيطان ، وبها ينجو العبد المذنب من النيران ، وبها يصل العبد إلى نعيم الخلد والإيمان .

فضل الصدقة

ذكر أن العبد إذا قدم إلى ميزانه وأخرجت سجلات سيئاته أعظم من جبال الدنيا ، فإذا وجدت له صدقة طيبة تصدق بها لم يرد بها إلا وجه الله — تعالى — و لم يطلب بها جزاء من مخلوق ، ولا رياء ولا سمعة ولا محمدة ولا شكراً ، فإن تلك الصدقة توضع فى الميزان بأمر الملك الخلاق ، فترجح على جميع سيئاته ولو كانت سيئاته مثل وزن الجبال .

وأنشدوا :

يا جامع المال يرجو أن يدوم له — كل ما استطعت قدم للموازين
ولا تكن كالذى قد قال إذ حضرت — وفاته ثلث مالى للمساكين[1]

واعلموا عباد الله أن الميزان إذا نصب للعبد فهو من أعظم الأهوال يوم القيامة ، لأن العبد إذا نظر إلى الميزن فؤاده ، وكثرت خطوبة ، وعظمت كروبه (الكرب : الغم الشديد الذى يأخذ النفس) فلا تهدى روعة العبد حتى يرى أيثقل ميزانه أم يخف ؟ فإن ثقل ميزانه فقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه فقد خسر خسراناً مبيناً ، ولقى من العذاب أمراً عظيماً .

شفاعة الرسول

ذكر فى الأخبار أن أمة محمد — ﷺ — إذا قدموا إلى الميزان عظمت كروبهم ، حين أظهرت لهم قبائحهم وعيوبهم ، ووزنت أوزارهم (آثامهم وأثقالهم) وذنوبهم ، وضاقت حيلهم ، وتغيرت أحوالهم ، فعند ذلك يأتيهم النبى الشفيع محمد — ﷺ — فإذا نظر إلى أمته قد تحيروا عند الميزان دعا الله أن يثقل موازينهم ، فيأمره الله — تعالى — أن ينظر إلى موازين أمته ، فينظر — ﷺ — إليها فترجح موازينهم من نظره ونور وجهه — ﷺ —

ذكر أن الميزان بيد جبريل — عليه السلام — وله كفتان : إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب ، وأن الذرة والخردلة (الذرة : أصغر النمل ، والخردلة : حب صغير جداً) والحبة من أعمال العباد من الخير والشر لتوضع فى الكفة ، فتميل بها بقدرة الله — تعالى — فالله أعلم بحقيقة ذلك .

فلا يحقرن أحدكم حسنة يعملها وإن صغرت فى عينه ، فربما ثقلت الميزان ، ولا يحقرن أحدكم سيئة يعملها وإن صغرت ، فربما خففت الميزان ، لأن الذنب الصغير فى عين محتقرة يأتى يوم القيامة وهو فى الميزان أعظم من الجبال الرواسى .

ما يثقل الميزان

قال الله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً** ﴾[1] الآية . روى أبو هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — : « كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »[2] وقيل : جاء رجل إلى رسول الله فقال : يا رسول الله : جئتك تعلمنى ما يدخلنى الجنة ، وينجينى من النار . فقال له النبى — ﷺ — : « ألا أدلك على كلمتين ثقيلتين فى الميزان ، خفيفتين على اللسان ، ترضيان الرحمن وتسخطان الشيطان ؟ تقول : سبحانه الله والحمد لله ، فإنهما المقربتان ، يقربان من الجنة ، ويبعدان من النار »[3] فكل من زعم أن الميزان ليس هو حق ، فقد رد على الله فى كتابه ، وعلى رسوله — ﷺ — فى سنته .

الرأس فى الخير والرأس فى الشر

روى عن الحسن — رضى الله عنه — قال : يؤتى يوم القيامة بالميزان فيوضع بين يدى الله — تبارك وتعالى — ثم يدعى العباد للحساب ، فإذا كان العبد أو الأمة رأساً فى الخير (يريد الرأس فى الخير : من سن سنة خير فانتشرت وعمل الناس بها ، كما أن رأس الشر : من سن سنة سوء فانتشرت وعمل الناس بها . وفى الحديث : « من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ،

---

(١) الآية ٤٧ من سورة الأنبياء

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (كتاب الدعاء) ج ٤ ص ١١٤ ، ص ٣٢١ (كتاب التوحيد) وانظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الذكر والدعاء) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء ج ١٧ ص ١٩ ورواه الترمذى فى (كتاب الدعوات) ج ٥ ص ٥١٢ رقم ٣٤٦٧ ورواه ابن ماجه فى (كتاب الأدب) ج ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦ .

(٣) انظر الحديث قبله ، حيث لم أعثر عليه فى المراجع التى بين يدى .

ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[1] والسنة : الطريقة والسيرة) يدعو إليه ويأمر به دعى باسمه ، ثم يقرب من الميزان فتوزن حسناته وسيئاته ولو كانت حسنة واحدة ولو كانت سيئاته أكثر من حسناته وأثقل من جبال الدنيا ، لأن الله ـــ تعالى ـــ إذا تقبل من العبد أو الأمة حسنة واحدة غفر له جميع ذنوبه وإن كثرت ذنوبه .

وقد قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لعائشة : « يا عائشة : لو قبل الله تعالى من العبد سجدة واحدة لأدخله بها الجنة » فقالت : يا رسول الله ، فماذا يصنع بأعمال العباد ؟ فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « يأكلها الرياء والسمعة كما تأكل النار الحطب » . وإذا كان العبد أو الأمة رأساً فى الشر يأمر به ويدعو إليه دعى باسمه فقدم إلى الميزان ، فتوضع حسناته وسيئاته ، فترجح سيئاته على حسناته ولو كانت سيئاته سيئة واحدة ، ولو كانت حسناته أكثر وأثقل من جبال الدنيا ، لأن الله ـــ تعالى ـــ أحبطها و لم يتقبل منها حسنة واحدة ، ويأمر بهم ذات الشمال إلى النار ، فقال أصحابه ـــ رضى الله عنهم ـــ : يا رسول الله : أما كانوا مسلمين ؟ فقال ـــ ﷺ ـــ : « كانوا يصلون كما تصلون ، ويصومون كما تصومون ، ويزكون كما تزكون ، ويقومون من الليل برهة ، ولكن كانوا إذا عرض عليهم درهم حرام وثبوا عليه كالذئاب ، فأحبط الله أعمالهم بذلك ، و لم يتقبل منهم حسنة واحدة ، وإذا لم يتقبل الله من العبد حسنة واحدة فأحرى أن يؤثر فى الميزان ، لأن الحسنات لا تنفع ولا تثقل الميزان إذا لم يتقبلها الله ـــ تعالى ـــ لأنه ـــ تعالى ـــ لا يقبل إلا ما كان لوجهه خالصاً » .

فالله الله عباد الله ، إذا عملتم عملاً فأخلصوا لله ، فإن الله لا ينفعكم ولا يتقبل منكم إلا ما كان لوجهه خالصاً .

وأنشدوا :

من كان يعلم أن الله باعثه ... يوم الحساب لدى نشر الدواوين
فلا يرد بفعال البر أجمعها ... إلا الحساب وتثقيل الموازين

فقدموا عباد الله للميزان بلزوم طاعة الرحمن ، قدموا للموازين بطاعتكم لسلطان السلاطين .
إخوانى : وأعظم مصيبة وحسرة من خفت موازينه من الحسنات ، وأمر به إلى العذاب والعقوبات . الويل ثم الويل لمن خفت موازينه من صالح الأعمال ، وغضب عليه ذو الجود والإفضال ، وأمر به إلى العذاب والنكال ، وإلى السلاسل والأغلال .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزكاة) باب الحث على الصدقة ج ٧ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ فقد رواه عن المنذر بن جرير عن أبيه .
وانظر سنن ابن ماجه (المقدمة) باب من سن سنة حسنة أو سيئة ج ١ ص ٧٤ رقم ٢٠٣ .

وزن أعمال العباد

يا إخوانى : فإذا وزنت أعمال العباد ، وخف من خف ، وثقل من ثقل ، أمروا أن يمضوا إلى الصراط ، فيجىء كل إنسان إلى الصراط ، فمن الناس من يضع عليه قدمه ، فيزل من أول قدم يضعها فيهوى فى النار ، ومن الناس من يمشى القليل منه ويزل فى النار ، ومنم من يجوزه كالبرق الخاطف ، ومنهم من يجوزه كالريح الهبوب ، ومنهم من يجوزه كالطير السريع فى طيرانه ، ومنهم من يهرول (الهرولة : ضرب من السير بين المشى والعَدْو) ومنهم من يكون كالضعيف إذا مشى ، ومنهم من يكون كالمبطون (العليل البطن) الذى يمشى على يديه ورجليه ، ومن الناس من يأتى إلى الصراط فتخرج النار فتأخذه فتهوى به ، كل هذا على قدر أعمال العباد وأنواهم ورتبتهم ، وعلى قدر القبول من الله ــ تبارك وتعالى ــ بها ، وعلى قدر تثقيل الموازين وتخفيفها ، فإذا أتى العبد من أمة محمد ــ ﷺ ــ إلى الصراط ، فمن كان من أهل الذنوب ولم يكن له عمل يجوز به على الصراط بقى متحيراً لا يقدر على الجواز ، فبينما هم فى شدة الفزع من هول الصراط إذ أقبل محمد ــ ﷺ ــ .

نور الرسول على الصراط

فإذا نظر ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ إليهم كساهم نور وجهه ــ ﷺ ــ ما يجوزهم الصراط ، فيأخذ كل واحد من نور وجه المصطفى ــ ﷺ ــ على قدر صلاته عليه فى الدنيا ، فيستبق العباد فى الجواز على قد ما أخذوا من النور الذى أخذوا من نور وجه المصطفى ، وكلما أخذ الخلق من نور وجهه ــ ﷺ ــ زاد الله ــ تبارك وتعالى ــ فى النور فى وجه الحبيب ــ محمد ﷺ ــ فأكثروا من الصلاة على نبيكم ــ ﷺ ــ فإن صلاتكم عليه مبلغة إليه .

فضل الصلاة على النبى

قال النبى ــ ﷺ ــ : « أنجاكم من أهوال يوم القيامة ومواطنها أكثركم على صلاة ، وأولاكم بشفاعتى أكثركم على صلاة »(١) فأكثروا من الصلاة عليه يا معشر المذنبين ، فهو شفيعكم يوم الجزاء والدين ــ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، وجعلنا بالصلاة عليه من الآمنين من عقابه والفائزين برحمته من عذابه إنه منهم كريم ــ وأنشدوا :

---

(١) انظر جامع الأحاديث للسيوطى ج ٧ ص ٦٥٨ فقد أورده بلفظ « يا أيها الناس إن أنجاكم يوم القيامة من أهوالها ومواطنها أكثركم علىَّ صلاة » وعزاه إلى الديلمى عن أنس .

ألا أكـرم بـأحمد ذى المعـالى   شفيـع النـاس يـوم السؤال
إذا مـد الصراط على جـحيم   تصول على العبـاد باستطـال
إذا كان النبـى لنـا شفيعـاً   سننجـو مـن سلاسلهـا الطـوال
ولـو كانت خطايانـا جسامـاً   تشبـه بالثقـال مـن الجبـال
لجزنـا فى الصراط بـغير حـزن   إلى دار الخلـود مـع الجلال

روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « يمر الناس على الصراط فالزالون والزالات كثير ، وأكثر ما تزل النساء »[٢] ذكر أن الصراط المستقيم عليه زبانية ينظرون إلى وجوه العباد ، فمن رأوا فى وجهه نورً ، تركوه أن يتحول ويجوز ، ومن لم يروا فى وجهه نوراً كبكبوه فى النار ، ولا يكون النور يومئذ إلا من العمل الصالح .

جسور جهنم

روى بعض العلماء عن التابعين وعن بعض أصحابه أنهم قالوا : إن جهنم ـ أعاذنا الله منها ـ عليها سبعة جسور وهى القناطر ، ثلاثة دون الرب ـ سبحانه وتعالى ـ الرابعة الوسطى عليها الرب ـ جل جلاله ـ لا حَدَّ ولا كَيْف ، تسليماً وإيماناً وتصديقاً .

القنطرة الأولى

والصراط أحد من السيف ، فيقول الله ـ تبارك وتعالى ـ حين يبلغون القنطرة الأولى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تناصرون** ﴾[١] فيحسبون فيحاسبون على الصلاة ، فمن وجدت صلاته تامة نجا من تلك القنطرة ، ومن لم توجد له صلاة تامة هوى فى النار فينجو من نجا ويهلك من هلك .

القنطرة الثانية

ثم يحبسون على القنطرة الثانية فيحاسبون على الأمانة ، وهى أمانة الخالق وأمانة الخلق ، وإذا أراد الله بعبده خيراً جعل الغنى فى قلبه ، وجعله أميناً لله ، وأعانه على أداء الأمانات التى افترض عليه ـ

(١) هذا جزء حديث أورده صاحب كنز العمال ج ١٤ ص ٣٨٦ رقم ٣٩٠٣٦ وعزاه إلى البيهقى فى شعب الإيمان وضعف ، عن أنس .

(٢) الآيتان ٢٤ ـ ٢٥ من سورة الصافات .

جل جلاله — من الوضوء والاغتسال والصلاة والصيام والزكاة ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحفظ لحدود الله ، فذلك العبد الذى ألهمه الله — تعالى — رشده ، وبصره عيوب نفسه ، وجعل غناه فى قلبه .

تأدية الأمانة وتضييعها

وإذا أراد بعبده شراً جعل فقره بين عينيه وفى قلبه وكسله عن أداء الأمانات من المفترض الذى افترض عليه وعلى جميع عباده ، وغيب عنه رشده ، وسلط عليه الشيطان فزين له سوء عمله ، وحبب إليه عيوبه ، فإذا كان العبد كذلك فلا يبالى عما قال ولا عما قيل فيه ، ولا يكون همه إلا فى دنياه وأصلاحها ، ولا يبالى بتلف دينه ، فذلك العبد الذى قد سخط عليه مولاه ، وأبعده عن أبواب الخير كلها ، وقربه من أبواب الشر كلها ، قال الله — تعالى — : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون** ﴾[1] .

تضييع الأمانة

ذكر فى بعض الأخبار أنه يؤتى بمضيع الأمانة فيقال له : أدِّ ما ضيعت ، فيقول : يارب ذهبت عنى الدنيا ، فمن أين أؤديها ؟ فيخلق له مثلها فى قعر جهنم ، أعاذنا الله منها — فيقال : أنزل إليها وأخرجها إلى صاحبها ، فينزل العبد المسكين إليها فيرفعها على كتفه ، فهى أثقل من جبال الدنيا كلها ، فإذا صار الشقى المسكين إلى أعلى جهنم وقعت عن كتفه إلى قعر جهنم ، فيقال له : أنزل إليها فينزل مرة أخرى ويرفعها ، فإذا صار إلى أعلى جهنم وقعت منه ، فلا يزال هذا عذابه إلى ما شاء الله — تعالى — من ذلك .

هذا كله عند جواز الصراط — والله أعلم — وهذا العبد — والله أعلم — الذى ضيع أمانات الناس .

أنشـدوا :

خرجت من الدنيا وقد خنت أهلها ... وصرت إلى النيران بالوزر والإثم
وطالبنى الجبار بالصدق والوفا ... وبان لأهل الجمع ما كان من جرحى
وقيل لكل الخلق هذا مضييع ... أمانة رب العرش والذكر والحكم

---

(١) الآية ٢٧ — من سورة الأنفال .

القنطرة الثالثة

ثم يحاسبون على القنطرة الثالثة وهى أدنى من الرب ــ جل جلاله ــ بلا تكييف ولا تحديد ــ فيحاسبون على صلة الرحم كيف وصلوها ؟

صلة الرحم

ولم قطعوها ؟ والرحم يومئذ تنادى : اللهم من وصلنى فصله ، ومن قطعنى فاقطعه ، فينجو من نجا ، ويهلك من هلك .

القنطرة الرابعة

ثم يمرون على القنطرة الرابعة فيحاسبون على بر الوالدين ، فينجو من نجا ، ويهلك من هلك وهو السؤال العظيم ، لأن الله ــ تعالى ــ قد قرن شكره بشكر الوالدين فقال ــ جل أسمه ، وعز وجهه ــ : ﴿ **أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير** ﴾[1] فالله ــ تعالى ــ يقول فى بعض كتبه المنزلة :

شكر الوالدين

أرض والديك ، فإن رضائى فى رضا الوالدين وسخطى فى سخط الوالدين ، فلو أن عبداً جاء يوم القيامة بعمل ألف صديق وكان عاقاً لوالديه ما نظر الله ــ تبارك وتعالى ــ فى شىء من عمله ، وكان مصيره إلى النار ، وما من عبد مسلم أو أمة مسلمة ضحك فى وجه والديه أو أحدهما إلا غفر الله له ما كان من الذنوب والخطايا ، وكان مصيره إلى الجنة .

وأنشدوا :

الوالدان إلى شكر الإله وصول ... والوالدان إلى دار السلام سبيل
صل والديك ولا تقطع حبالهما ... ليجزينك فى دار البقاء جليل

(١) وصول : أى : بسبب برهما ودعائهما تصل إلى رضاء الله ــ تعالى ــ ورحمته ، كما أنهما طريق إلى الجنة ، وهى دار السلام . وقد أمرنا الله تعالى ببرهما فى القرآن عند قوله : ﴿ **فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً** ﴾[2] الآية .

---

(١) من الآية ١٤ من سورة لقمان .
(٢) من الآية ٢٣ من سورة الإسراء .

القنطرة الخامسة

ثم يحبسون على القنطرة الخامسة فيحاسبون على حفظ اللسان من الغيبة والنميمة وشهادة الزور ، فينجو من حفظ لسانه ويهلك من سرح لسانه بما لا يعنيه ، لأنه ليس من جوارح العبد أشد ذنباً من اللسان ، لأن كلمة يتكلم بها العبد أو الأمة تكون سبباً لدخول النار .

ترك الغيبة والنميمة

وقد كان بعض الخائفين إذا أصبح أخذ لوحاً ودواة وجعلهما بجواره ، فإذا تكلم كلمة كتبها فى اللوح ويقول لنفسه : هكذا أثبتها عليك المَلَكُ بأمر المَلِكِ ، فإذا غربت الشمس وصلى صلاة المغرب وضع اللوح بين يديه وجعل يقرأ ويبكى ، ويقول فى بكائه ونحيبه وتقريره لنفسه : يا نفس كأنى بك وقد سئلت عن هذا عند جواز الصراط ، يا نفس تراك بأى كلمة من هذه تدخلين النار ، فلا يزال يبكى حتى لا يجد بكاء وتفرغ دموعه فيغشى عليه ، فإذا أفاق مما هو فيه أخرج اللوح وكبت ما فيه بقرطاس وهو يقول متضرعاً : يا ألله عفواً ورفقاً ولطفاً بعبدك . فلم يزل هذا دأبه حتى مات ، فرآه بعض الصالحين فى المنام فى حالة حسنة ، فسأله عما لقى من الله تعالى فقال : ما يلقى من الكريم إلا الكرم ، جعل محاسبتى لنفسى فى الدنيا بدلاً عن الحساب فى الآخرة ، وجعل دموعى التى بكيت فى الدنيا أنهاراً ترويني يوم العطش الأكبر ، وتفضل الكريم على بدخول الجنة وبجواز الصراط ، ومن علىّ بالفضيلة العظيمة والزيارة الكبرى إلى وجهه الكريم .

كلمة الشر وعذابها

وقد روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة فينزل بها فى النار بعد ما بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله ـ تبارك وتعالى ـ بعبده خيراً أعانه على حفظ لسانه وشغله بعيوب نفسه عن عيوب غيره »(١) .

قيل : مر رجل على رجل فسلم عليه ، فقال له الرجل الذى سلم عليه : يا أخى لو كشف لك عن حالى ما سلمت علىّ . فقال له الرجل الذى سلم عليه : يا أخى لو كشفت لى عيوبك لكان فى عيوبى ما يشغلنى عن جميع عيوبك . فجلس كل منهما يبكى فى ناحية حتى بلّ كل واحد منهما الأرض بدموعه ، ثم تفرقا .

---

(١) انظر مسند أحمد ٢ / ٣٧٩ فقد رواه عن أبى هريرة إلى قوله : « ما بين المشرق والمغرب » .

شهادة الزور

وروى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « **من شهد شهادة زور على ذمِّى أو مسلم أو من كان من الناس ، علق بلسانه فى الدرك الأسفل من جهنم** »[1] .

وفى بعض الأخبار أن شهادة الزور من أعظم الكبائر عند الله تعالى ، وشاهد الزور يعلق بلسانه بكل كلمة فى شهادة الزور ، وبكل حرف كتب فيها شهادته ألف عام على الصراط عند القنطرة الخامسة . ولو أن شاهد الزور جاء يوم القيامة بعمل سبعين نبياً ما نظر الله إليه . وكذلك صاحب الغيبة والنميمة لا يجوز من هذا الصنف الصراط إلا أن يعفو الله أو تدركه الشفاعة .

وأنشدوا :

إذا ازدحم العباد لكى يجوزوا ... تساقط كل جبار أثيم
بقعر النار ليس لهم مغيث ... ولا للعاصى يوماً من حميم
ومن يطع الإله فسوف ينجو ... من التعذيب فى قعر الجحيم
إذا نصب الصراط على جحيم ... فيالله من هول عظيم
ألا يا معشر الإسلام توبوا ... من العصيان للرب الرحيم

إخوانى : أطيعوا الله فى السر والإعلان ، واعملوا بالسنة والقرآن ، واتركوا الأوزار والعصيان ، واحذروا من هول الصراط المنصوب على سَمُوم النيران .

القنطرة السادسة

ثم يحبسون على القنطرة السادسة فيحاسبون على حفظ الجار ، فينجو من حفظ جاره وأكرم ضيفه ، ويهلك من خان جاره ولم يكرم ضيفه .

إكرام الضيف

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »[2] وكرامته أن يكرمه لوجه الله ، وتكون ضيافته من خلال ، وأما من أنفق على ضيفه من حرام فإنه لا ثواب له . فما أنفق على الضيف فى الخمر أو فيما لا يرضى الله — تعالى — به فإن ذلك الضيف يأتى يوم

---

(١) لم أعثر عليه فى المراجع التى بين يدى

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان ج ١ ص ١١ (كتاب الإيمان) رقم ٢٩

القيامة يتعانق هذا بهذا ويلعن هذا بهذا ، ثم يأتيان إلى الصراط ، وكل واحد منهما يلوم صاحبه ، ويقول له : لعنك الله بالذى ساعدتنى على الإنفاق فى غير الله . ثم يقال لهما : جوزا الصراط ، ففى أول قدم يضعان على الصراط يهويان فى النار .

البركة مع الضيف

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « الضيف إذا دخل بيت المؤمن ، دخلت معه ألف بركة وألف رحمة ، ويكتب الله ـ تعالى ـ لصاحب المنزل بكل لقمة يأكلها الضيف حجة وعمرة » .

وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « درهم ينفقه الرجل على ضيفه أفضل من ألف دينار ينفقها فى سبيل الله ، ومن أكرم الضيف لوجه الله أكرمه ـ تعالى ـ يوم القيامة بألف كرامة ، وخلصه من النار وأدخله الجنة »

وقد جاء فى حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ـ ﷺ ـ كان يقول لها : « يا عائشة لا تتكلفى للضيف فتمليه »[1] (ولذلك ندب أن يقدم الإنسان للضيف ما وجد ، سواء أكان قليلاً أم كثيراً ، لا كما يفعله الناس الآن من الاقتراض (ليبيضوا وجوههم أمام الضيف) وليس ذلك من السنة فى شىء ، فغاية الجود بذلك الموجودة وعلى الضيف أن لا يقترح ، بل يأكل ما يجد ويشكر عليه) وإنما أراد ـ ﷺ ـ مداومتها على إكرام الضيف .

وفى حديث على بن أبى طالب ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يا على : إذا جاءك الضيف فاعلم أن الله ـ تعالى ـ قدمن عليك إذ بعثه إليك ليغفر لك ذنبك بذلك » .

ينزل الضيف برزقه

وفى حديث أبى هريرة ـ رضى الله تعالى عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أيها الناس لا تكرهوا الضيف ، فإنه إذا نزل نزل برزقه ، وإذا رحل رحل بذنوب أهل المنزل »[2] (ليس المراد أنه يحمل ذنوبهم ، بل إن الله ـ تعالى ـ يغفر لهم ذنوبهم بإكرامهم للضيف) .

---

(١) الحديث فى كنز العمال برقم ٢٥٨٩٠ وعزاه إلى النيرازى والرافعى عن عياض بن أبى قرصافة عن أبيه .

(٢) انظر كشف الخفاء للعجلونى ج ١ ص ٩١ فقد ذكره بلفظ : « إذا دخل الضيف على قوم دخل برزقه ، وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم » قال السخاوى رواه الديلمى بسند ضعيف عن أنس مرفوعاً ، وله شاهد عند أبى الشيخ عن أبى قرصافة .

وفى حديث معاذ بن جبل — رضى الله تعالى عنه — : « ما من منزل ينزل فيه ضيف إلا بعث الله — تبارك وتعالى — إلى ذلك المنزل قبل نزول الضيف به بأربعين يوماً ملكاً على صورة طائر ينادى : يا أهل المنزل فلان بن فلان ضيفكم فى يوم كذا وكذا ، والخلف من باب كذا وكذا ، فتقول الملائكة الذين وكلوا بأهل الدار : وبعد الخلف ما يكون ؟ فيخرج لهم ذلك الملك كتاباً فيه مكتوب : قد غفر الله لأهل المنزل ولو كانوا فى ألف »[1] .

وفى حديث آخر أنه قال : « ما من عبد من عباد الله المؤمنين أكرم ضيفاً لوجه الله الكريم إلا نظر الله إليهم إن كانوا جماعة ، فإن كان الضيف من أهل جنة وكان رب المنزل من أهل النار جعله الله — تعالى — من أهل الجنة بإكرامه ضيفه »[2] .

وفى حديث آخر : « إن الضيف ورب المنزل — وأرباب المنزل إن كانوا جماعة — يأتون الصراط فيأخذ كل واحد منهم بيد صاحبه فيجوز الصراط أسرع من البرق اللامع ، فإن لم يكن فيهم من له عمل يجوز به الصراط ، أمر الله الملك الموكل بنفقة الضيف أن يأخذ بيدهم ويجوز الصراط ولو كانوا مائة ألف »[3] .

إطعام الطعام

وإطعام الطعام ينقسم على ثلاثة أوجه : مخلوف ومسلوف ومتلوف ، فالمخلوف الذى يطعم لوجه الله لا يريد به غير لله — تعالى — ولا يطلب به جزاء من مخلوق . والمسلوف الذى تضيفه مرة ويضيفك مرة أخرى . والمتلوف كل ما كان إطعامه على المعاصى . والمخلوف والمسلوف فيهما الأجر إلا أن المخلوف أعظم أجراً ، والمتلوف هو حسرة وندامة يوم القيامة .

وأنشدوا :

يا مكرم الضيف للرحمن خالقنا ... عند الصراط ستلقى الخير موفوراً
أكرم ضيوفك كى ترجو الجواز غداً ... على الصراط وترجو الخلد مجبوراً

(١) لم أعثر عليه
(٢) لم أعثر عليه
(٣) لم أعثر عليه

حفظ الجار

وأما حفظ الجار فإن العبد أو الأمة يسأل عن حفظه ، فمن حفظ جاره جاز الصراط ونجا من العذاب الأليم ، وصار إلى الجنة ودار النعيم .

وروى عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « ما آمن بالله واليوم الآخر من بات شبعان وجاره جائع ، أو بات ريان وجاره عطشان »[1] .

ومن كرامة حفظ الجار أن توقظه من الغفلات ، وتلهمه إلى الطاعات ، وتأمره بإقامة الصلوات .

تعلق الجار بالجار

ذكر فى بعض الأخبار أن الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يارب : جارى هذا خانني فى الدنيا . فيقول الله — تبارك وتعالى — : لم خنت جارك ؟ فيقول : وعزتك وجلالك ما خنته لا فى مال ولا فى أهل ، وأنت أعلم بذلك . فيقول له جاره : ما فعلت ذلك ولكن رأيتنى على المعاصى فلم تزجرنى عنها ، فيؤمر به وبصاحبه إلى النار ، ولا يغفر الله لهما .

وما من عبد مسلم — أو أمة مسلمة — حفظ جاره وأمره بالمعروف ونهاه عن المنكر إلا جوزه الله — تبارك وتعالى — على الصراط قبل العباد بخمسمائة عام .

الوصية بحفظ الجار

وروى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « لقد أوصانى ربى ليلة أسرى بى بحفظ الجار حتى ظننت أنه سيورثه » . وبعض العلماء يرى شفاعة الجار .

فكل من حفظ الجيران فقد أطاع الرحمن . وأسخط الشيطان ، وعمل بالسنة والقرآن .

روى أن الرجل الصالح والمرأة الصالحة يشفعان يوم القيامة فى سبعين من جيرانهما ويجوزانهم على الصراط .

---

(١) روى فى الآلى المصفوعة ج ٢ ص ٨٢ بلفظ : « ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » من حديث أنس .

عباد الله ــ من حفظ الجار نجا من النار ، وجاز الصراط إلى دار القرار ، ومن حفظ الجار فقد عمل بالسنة والكتاب ، وأطاع الملك الوهاب ، وأسخط الشيطان اللعين الكذاب ، وما من جار يلقى جاره المسلم فيسلم عليه إلا غفر الله لجاره ولو كان له ألف جار .

حفظ الجار قربة ووسيلة ، ودرجة عند الله وفضيلة .

وأنشدوا :

يا حافظ الجار ترجو أن تنال به عفو الإله وعفو الله مذخور[1]
الجار يشفع للجيران كلهم يوم الحساب وذنب الجار مغفور

القنطرة السابعة

ثم يحبسون على القنطرة السابعة فيسألون عن الصدق ، من حفظ لسانه عن الكذب نجا من الصراط ونجا من النار ، وصار إلى الجنة مع الأبرار .

الصدق والكذب

ومن كذب فقد خالف الكتاب والسنة ، وقد حرم نعيم الجنة .

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « إذا كذب المؤمن كذبة من غير عذر تباعد منه الملكان مسيرة سنة من نتن ما جاء به . وكتب الله تبارك وتعالى عليه بكذبة ثمانين خطيئة ، أقلها كما يزنى بأمه »[1] (لأن ذلك من أصعب الكبائر ، فضلاً عن استحالته عقلاً) .

(١) مذخور : أى : رأيته عند الله ذخيرة لك يوم القيامة ، وقد حكى عن المهلب بن أبى صفرة أنه كان يتكفل بأربعين بيتاً من كل جهة من بيته بالخبز والطعام والكسوة حتى لا يتكلفوا أن يصنعوا طعاماً فى جواره أو يوقدوا تنوراً .

---

(١) جاء فى صحيح الترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى الصدق والكذب ج ٤ ص ٣٤٨ رقم ١٩٧٢ حديث بلفظ : عن ابن عمر أن النبى ــ ﷺ ــ قال : « إذا كذب العبد تباعد عنه الملك ميلا من نتن ما جاء به » .
قال أبو عيسى : هذا حديث حسن جيد غريب .

كذبة المؤمن بثمانين خطيئة

وإذا كذب المؤمن من غير عذر يخرج من فيه شيء منتن حتى يبلغ العرش فتلعنه حملة العرش ، ويلعنه ثمانون ألف ملك ، ويكتب عليه ثمانون خطيئة أقلها مثل جبل أحد (جبل بالمدينة كانت عنده واقعة أحد الشهيرة) . الكذب نفاق ، والكذب من الكبائر ، وإذا استحل العبد الكذب فقد استحل المحارم كلها ، وإذا لم يستحل العبد الكذب لم يقدر أن يباشر شيئاً من محارم الله ، وإن الصادق إذا جاء الصراط سبقه نور وجهه مسيرة مائة عام — يعنى على الصراط — ومن صدق عمل بكتاب الله ، واتبع سنة رسول الله ، والصادق أسرع جوازاً على الصراط وأسرع الناس دخولاً الجنة .

والكاذب فى أول قدم يضعها على الصراط يهوى فى النار فلا ينجو من الجسر السابع — وهو أصعبها — إلا من صدق ، ويهلك من كذب .

جعلنا الله وأياكم — برحمته — ممن صدق فنجا .

وأنشدوا :

أصدق يريك إله العرش جنته ... يوم المعاد ولا تولع بتكذيب
إن الصدوق لدى الرحمن منزله ... دار الخلود بلا موت وتعذيب
يوم الجزاء على متن الصراط إلى ... دار النعيم بلا حزن وتكئيب

ذكر فى بعض الأخبار أن الصادق يجوز على الصراط وهو لا يشعر به ولا يهو له ، فالله الله عباد الله : كونوا من الصادقين ، ولا تكونوا من الكاذبين ، وتأسوا بخاتم النبيين وسيد المرسلين — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

نجاة الصادقين

ذكر فى بعض الأخبار أن الناس الذين ينجون من الصراط وهو له ، يحبسون بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصون مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا نقوا وهذبوا أذن لهم بدخول الجنة .

قال رسول الله — ﷺ — : « والذى نفسى بيده إن أحدهم مسكنه فى الجنة أدل منه لمسكنه

الذى كان فى الدنيا »[1] . يا لها من كرامة ويا لها من نعمة ، ويا لها من فرحة . فقدموا عباد الله اليسير من الأوقات والقليل من الساعات ما يجوزكم الصراط ، ويقيكم الآفات ، الصراط على متن جهنم ممدود ، لا يجوزه إلا من خاف من أهوال اليوم الموعود وأطاع الملك المعبود ، الغفور الودود .

الصلاة تجوز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن من صام ثلاثة أيام من كل شهر وقام فى ليلة من لياليها يصلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، فإذا فرغ من صلاته صلى على محمد ــ ﷺ ــ عشر مرات ثم يقول : سبحان من كان ولا مكان ، سبحان الموجود بكل حين وأوان ، سبحان المعبود فى كل أوان ، سبحان المسبَّح بكل لسان ، سبحان المنجى من الهلكات ، سبحان خالق الأرضين والسموات ، جوزه الله ــ تعالى ــ على الصراط أسرع من البرق الخاطف ، ولا يؤذيه حر النار ويمضى إلى الجنة مع أول زمرة من الصحابة والتابعين ، ويشفعه الله ــ تبارك وتعالى ــ فى سبعين من أهله وجيرانه . وهى أفضل ما يصام من الشهر وهى يوم ثلاثة عشر وأربعة عشر وخمسة عشر .

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « يمر الناس على الصراط فالزالون والزالات كثير ، وأكثر ما يزل النساء ، وجبريل ــ عليه السلام ــ آخذ بحجزتى (حجزة الإزار ، معقدة ، وحجزة السراويل : محل التكة) إذا عصفت الريح بأمتى فصاحوا : يا محمداه ، فلولا أن جبريل ــ عليه السلام ــ آخذ بحجزتى لأغثت أمتى ، فيبادرون جوازاً فلا يجوزه ظالم ، فيبقون متحيرين ثم يتداركهم الله برحمته وبفضل دعائى لهم ، فيقول : جوزوا على الصراط بعفوى فيجوزوا » اللهم اغفر لنا جميعاً برحمتك .

وأنشدوا :

لو علم الخلق ما يراد بهم ... وأيما مورد غداً يردوا
ما استعذبوا لذة الحياة ولا ... طاب لهم عيش إذا رقدوا
خوفاً من العرض والصراط على ... نار تلظى وحرها يقد
والناس فى هول موقف عسر ... قد عاينوا هوله الذى وعدوا

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (باب ما جاء فى الرقاق) ج ٤ ص ١٣٤ إلا أنه قال : « فو الذى نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله فى الجنة بمنزله كان فى الدنيا » .

يا لك من موقف يفوز به   قوم همُ للجنان قد وفدوا
مع النبى اصطفاه خالقنا   صلى عليه المهيمن الصمد[1]

عباد الله : اشتروا أنفسكم من مولاكم باليسير من الأعمال ، وبالقليل من الأفعال ، وبالطيب من الأقوال ، من قبل حبسكم على الصراط لشدة الأهوال ، يوم لا بيع فيه ولا خلال ، بين يدي الكبير المتعال .

كيفية الجواز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن الناس ينقسمون فى جواز الصراط سبعة أقسام : فيجوز أول قسم من الرجال والنساء كطرفة عين ، والقسم الثانى كالبرق الخاطف ، والقسم الثالث كالريح العاصف . والقسم الرابع كالطير المجد . والقسم الخامس كالخيل فى جريها ، والقسم السادس كالماشى ، والقسم السابع كالمهرول .

أقسام الناجين على الصراط

فأما القسم الأول : فهم أصحاب الصدقات وقوام الليل والعلماء يقدمونهم .
والقسم الثانى : هم الذين استقاموا على أداء الفرائض ولم يفرطوا فيها وأدوها فى أوقاتها .
والقسم الثالث : هم الذين أدوا الزكاة ولزموا صحبة العلماء وأحبوهم .
والقسم الرابع : هم الذين وصلوا أرحامهم ، وطلبوا بصلتها رضاء مولاهم .

روى عن النبى ـــ ﷺ ـــ أنه أوصى عند موته بصلة الرحم ، وما من عبد وصل رحمه بنفسه أو ماله إلا جعله الله ـــ تعالى ـــ يوم القيامة على الصراط كالذى يمشى فى رياض الجنة ، ولا يرى من أهوال الصراط شيئاً ، ويدخل الجنة مع أول زمرة تجوز الصراط وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم .

والقسم الخامس : هم الذين غضوا أبصارهم عن محارم الله ، وصانوا فروجهم عن الفواحش ، وحفظوا أزواجهم عما لا يحل لهن ، وحجبوهن ولا طفوهن ورفقوا بهن ، كما قال ـــ ﷺ ـــ (وفى هذا رد على من قال بأن المرأة الشرقية كانت مستعبدة من الأزل ، فقد أمرت الشريعة الإسلامية فى غير ما موضع بإكرامها وإعزازها ، وأباحت لها التصرف بمالها وتجارتها وساوتها بالرجل فى كثير من الأمور . هذا فى الوقت الذى كانت فيه المرأة الأوروبية تحسب كالمتاع فى المنزل) .

---

(١) الصمد ، أى : السيد ، لأنه يصمد إليه فى الحوائج ، أى : يقصد .

حديث فى العناية بالنساء

« النساء ودائع الأحرار ، ولا يعزهن إلا عزيز ، ولا يذلهن إلا ذليل ، والذليل عند الله فى النار » وكذلك المرأة إذا عزت زوجها وأطاعته فيما يرضى الله تعالى .

آكل الربا

وقد ذكر أن آكل الربا يأتى الصراط ، فيجعل الله ــ تبارك وتعالى ــ كل درهم وكل حبة وكل ثوب وكل لقمة وكل شيء أكل أو اكتسبت يداه من الربا ثعباناً من نار يخطفه من على الصراط ، ويهوى به فى قعر جهنم مع اليهود ، ومن تاب تاب الله عليه وغفر له ما جنى .

والقسم السابع : هم الذين بروا الوالدين ، وبروا الأزواج ، وبروا الجيران ، وبروا الإخوان : ولزموا المساجد ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وحفظوا حدود الله ، ولم تأخذهم فى الله لومة لائم ، وعملوا بكتاب الله وسنة رسوله ــ ﷺ ــ وأنشدوا :

أتطمع بالنجاة وكيف تنجو ... ولست على نجاتك بالحريص
ولو فى نيلها أعملت حرصاً ... لنلت الفوز بالثمن الرخيص
ولكنى أراك تريد عزاً ... وحالك حال ممتهن نقيص
وليس لمن تعرض للمعاصى ... هديت عن الضلالة من محيص

المتصدقون سراً وعلانية

يا أحبابى : اذا جاز الناس الصراط وجدوا خلقا كثيراً نساء ورجالا قد سبقوهم إلى الجنة فيقولون : من هؤلاء الذين سبقونا ؟ فتقول لهم الملائكة : هؤلاء الرجال الذين تصدقوا فى السر ابتغاء وجه الله ، وتصدقوا فى العلانية ليحببوا الصدقة إلى عباد الله ، هؤلاء الذين فرجوا عن المكروبين . وهؤلاء النسوة اللاواتى أطعن أزواجهن ، وحفظن فروجهن وحفظن ألسنتهن عن أذى الزوج وعن أذى الجيران ، وتصدقن فى السر والإعلان ، تسبق هذه الزمرة (الجماعة ، والزمر : الجماعات) جميع الناس إلى الصراط وجوازه بخمسمائة عام . ومن كان من إخوانهم من أهل الذنوب جازوا فى شفاعتهم ، فإذا جازت أول زمرة من الأولين السابقين ، وزمرة المتأخرين يبقى رجل واحد فيضع قدمه الواحدة فتزل فيبقى بالقدم الأخرى ، فيركب الصراط على بطنه والنار تصيبه على قدر ذنوبه .

آخر من يبقى على الصراط

فلا يزال يحبو ويتدرج ، ويبكى ويتضرع إلى الله — تعالى — حتى يجوز ، فإذا جازونجا رد رأسه ونظر إلى الصراط وأهوال أهل النار ، وعواء أهل النار (صيامهم ، والعواء : صياح الكلب والذئب) فى النار فيقول : سبحان الذى خلصنى منك ونجانى من أهوال النار . فبينما هو ينظر إلى الصراط ويقول هذا القول ، يبعث الله — تعالى — إليه بلطفه ملكاً من ملائكته فيأتيه فيأخذه بيده ويقول له : قم يا عبد الله فينطلق إلى غدير (قطعة من ماء ، يغادرها السيل ، أى : يتركها) من ماء على باب الجنة ، فيقول له الملك : اغتسل من هذا الماء واشرب منه ، فيغتسل العبد ويشرب كما أمره الملك فيعود كالقمر الطالع ليلة التمام ، وتعود رائحته كرائحة أهل الجنة ، ولونه كألوان أهل الجنة . ثم ينطلق به إلى قرب جهنم فيقول له : قف ها هنا حتى يأتيك إذن من ربك ، فينظر إلى أهل النار ويسمع عواءهم كعواء الكلب يستغيثون من شدة العذاب ، فإذا سمع العبد أهل النار وما هم فيه بكى وقال : يارب : اصرف وجهى عن أهل النار حتى لا أنظر إليهم ولا أسمع صوتهم ولا أسألك غير هذا ، فيأتيه ذلك الملك من عند رب العالمين فيحول وجهه عن أهل النار إلى أهل الجنة ، فينظر إلى ناحية أهل الجنة فيرى بينه وبين باب الجنة روضة خضراء ما رأى أحد قط مثلها ، ثم ينظر إلى باب الجنة وجماله ، وعرضه مسيرة أربعين يوماً للطير المسرع — والله أعلم — من أى الأعوام ، يقول : يارب قد أحسنت إلى الإحسان كله جوزتنى الصراط وأنجيتنى من النار وأدنيتنى من باب الجنة ، هذه الروضة أسألك أن تبلغنى إليها ولا إسألك غير ذلك ، فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك ، ألست قد عزمت إنك لا تسأل غير هذا المقام ؟ فيأخذ بيده وينطلق به للروضة فيدخله فيها .

بـاب الجنـة

فينظر إلى باب الجنة ، وإلى بهجة تلك القصور وأطرافها من الجندل (الحجارة الكبيرة) الأخضر ، وحصباؤها (الحصباء : الحصا الصغير) من الياقوت الأحمر ، فيستنشق نسيم طيب الكافور والمسك ، ويسمع حسن تغريد الأطيار وخرير تلك الأنهار ، وما لا تصفه ألسنة الواصفين ولا يخطر ببال المتفكرين ، فإذا سمع العبد ذلك كله استخفه الطرب فيقول : يا مولاى لقد أنعمت علىّ نعماً أكمل النعم : جوزتنى الصراط ، وأنجيتنى من النار ، وصرفت وجهى عن أهل النار حتى لا أراهم ، ولكن أسألك — يا سيدى ومولاى — أن تدخلنى الجنة ، فاجعل هذا الباب بينى وبين أهل النار حتى لا أسمع

حسيسهم (الحسيس : الصوت الخفى ، ومنه قوله ــ تعالى ــ : ﴿ **لا يسمعون حسيسها** ﴾(١)) ولا أرى عذابهم . فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك !! ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما قد سألت ؟ فيقول : وعزتك يارب لا سألتك غيره . فيأخذ الملك بيده فيدخله الباب ، فينظر العبد عن يمينه وعن شماله مسيرة سنة ، فلا يرى إلا الشجر المثمر ، وما رأى قط مثلها ولا خطر على قلب آدمى ولا جنى ، فينظر إلى أدنى شجرة فيرى عندها روضة فيها شجرة أصلها **ذهب ، وأغصانها** فضة وورقها حلى ما رأى مثلها قط آدمى ولا جنى ولا خطر على قلب بشر ، وثمرها ألين من الزبد ، وأحلى من العسل ، فيقول العبد : يارب لقد أنعمت على عبدك ، وتفضلت ونجيتنى من النار ، وأدخلتنى الجنة وأعطيتنى وأرضيتنى ، وإنما بينى وبين هذه الروضة قليل فبلغنى إليها ، فو عزتك لا سألتك غيرها . فيأتيه ذلك الملك فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك ، ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما سألت ؟ يا ابن آدم أين ما أقسمت به ؟ أما تستحى من الله ؟!

منازل الجنة

فيأخذ بيده فينطلق إلى أدنى منزل من منازلها ، فإذا هو بقصر من لؤلؤه بيضاء بين يديه ، فلا يملك نفسه حين ينظر إليه ، فيقول : يارب أسألك هذا المنزل ولا أسألك غيره . فيأتيه الملك من عند الله ــ سبحانه وتعالى ــ فيقول له : يا ابن آدم ما أكذبك . ألست قد زعمت أنك لا تسأل غير ما أنت فيه ؟ فينظر بين يديه فإذا بمنزل كأنما المنزل الأول والثانى وجميع ما خلق ورآه حلم ، فيسأله فيعطى ، فلا يزال كذلك حتى يعطى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فلو نزل فى أدنى قصر من قصوره الجن والإنس لكان عنده من الكراسى ما يجلسون ويتكئون عليها ، ولكان عنده من الموائد ما يفضل عنهم ، ولكان عندهم من الطعام والشراب ما يأكلون ، وإذا أكلوا وشربوا لم ينقص من الطعام والشراب إلا بقدر ما أصاب رجل واحد ﴿ **وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾(٢) .

وأنشدوا :

مقام المتقين غداً جليل ... يطيب لهم مع الحور المقيل
وأنوال عليهم مشرقات ... إذا ناداهم الملك الجليل

---

(١) من الآية ١٠٢ من سورة الأنبياء

(٢) من الآية ٣٦ من سورة الشورى

فائدة الجواز على الصراط

ذكر فى بعض الأخبار أن العبد أو الأمة إذا ذكر الصراط وهوله وصعوبته ودقته وطوله وبعد مسافته ، ثم بكى ثم قام فصلى عشر ركعات يقرأ فى كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة ، وقل هو الله أحد ثلاث مرات ، ويسلم عن كل ركعتين ، فإذا فرغ من العشر ركعات صلى على النبى ــ ﷺ ــ وشرف وكرم مائة مرة ثم قال : سبحان الله من خلق ما شاء ، وقضى بما شاء ، والحمد لله على كل شىء ــ ثلاث مرات ــ ثم يقول : اللهم جوزنى الصراط ونجنى من هوله ، الله لا إله إلا أنت لا شريك لك وصلى الله على سيدنا محمد وآله . فمن صلى هذه الصلاة وقال هذا القول جوزه الله ــ تبارك وتعالى ــ الصراط وهو لا يشعر به ولا يهوله مع أول زمرة تمر إلى الجنة .

فاغتنموا ــ رحمكم الله ــ هذا الثواب ، وتحصنوا به من أليم العذاب ، يا أولى العقول والألباب (اللب : العقل أيضاً) لأن الصراط حاد دقيق ، وطريقه أبعد الطريق ، يا له من طريق ، لا يعين على جوازه أخ ولا صديق ، إلا عمل صالح ورب رفيق .

واعلموا ــ وفقنا الله وإياكم ــ أن العمر يذهب ، والدنيا تفنى وتخرب ، والنفس تموت والمراد إلى الحى الذى لا يموت ، فاستعدوا بكثرة الأنوار ، وبالصلاة وفعل الخير فى الليل والنهار ، وبالطاعة للنبى السيد المختار ، وبالعمل بكتاب الله الملك الواحد القهار ، وابكوا على هول الصراط المنصوب على متن النار . يسره الله لنا وهونه علينا . آمين يارب العالمين . إنه قريب مجيب .

شفاعة الناس بعضهم لبعض

ذكر أن العبد إذا جاوز الصراط وخلص ، ذكر فى ذلك الموقف أباه وإخوانه وأبناءه وجيرانه ، فعند ذلك يسأل الصديق فى صديقه ، والوالد فى ولده ، والجار فى جاره ، والرجل فى زوجته ، والمرأة فى زوجها ، والإمام فى جماعته التى كان يصلى بها ، فيشفع كل واحد منهم على قدر عمله ومنزلته عند ربه .

روى قتادة عن الحسن البصرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ــ ﷺ ــ : « ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد أحداً : عند الميزان حتى ينظر أيثقل ميزانه أم يخف ، وعند الصراط حتى ينظر أيجوز

أم لا ، وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ الصحيفة أم بشماله »[١] . فهذه ثلاثة مواطن لا يذكر فيها أحد حميمه ولا صديقه ولا حبيبه ولا قريبه **ولا ابنه ولا والديه** ، وذلك قول الله — تبارك وتعالى — : ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾[٢] هو مشغول بنفسه عن غيره من شدة الأهوال العظام . أسأل الله أن يسهلها لنا برحمته ، ويهونها علينا بمنه ولطفه .

وأنشدوا :

بكيت على هول الصراط وذكره ... وهول زفير النار من أعظم الذكر
وكيف يطيق الصبر من كان عاصياً ... لخالق كل الخلق فى السر والجهر
ومن يك ذا خوف شديد لهوله ... فإن له أمناً من الهول فى الحشر
فليس لمن يبكى لهول صراطه ... جزاء سوى دار النعيم مع الفخر
فيالـه من هول عظيم يجوزه ... رجال أطاعوا الله فى سالف العمر

عباد الله : تفكروا فى هول الصراط الدقيق البعيد ، وأشفقوا من الهول العظيم الشديد ، وأطيعوا الجبار الولى الحميد .

لا تقبل صلاة شُراب الخمر

ذكر أن شُراب الخمر إذا أتوا على الصراط تخطفهم الزبانية فتهوى بهم إلى عين الخبال ، وهى قيح أهل النار ، فيسقون بكل كأس شربوا من الخمر فى الدنيا شربة من الخبال ، لو أن تلك الشربة تصب من السماء السابعة لأحرقت السموات والأرضين بمن فيهن ومن عليهن . والأصل فى شارب الخمر أنه يخطف من على الصراط لأنه ليس فى وجهه نور ، لأن النور لا يكون إلا من العمل الصالح ، وشارب الخمر ليس له عمل صالح ، والأصل فيه أن الأعمال كلها لا تقبل إلا ممن صلى ، لأن الصلاة هى رأس الأعمال ، وشارب الخمر لا تقبل منه صلاة ما دام مصرًا على شرب الخمر ، فإذا لم تقبل منه صلاة فلا يقبل منه سائر عمله ، فيأتى إلى الصراط ووجهه أسود ، وقد عهد إلى الزبانية الذين على الصراط أن لا يتركوا أن يجوز إلا من له نور ، ومن ليس له نور أن يكبوه فى النار ، إلا من تاب وترك الخمر ورجع إلى الله تعالى .

---

(١) انظر سنن أبى داود (كتاب السنة) باب فى ذكر الميزان ج ٤ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ رقم ٤٧٥٥ ولفظه : « أما فى ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً : عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أو يثقل ، وعند الكتاب حين يقال : هاؤم اقرأوا كتابيه حتى يعلم أين يقع كتابه أفى يمينه أم فى شماله أم من وراء ظهره ؛ وعند الصراط إذا وضع بين ظهرى جهنم » .

(٢) الآية ٣٧ من سورة عبس

التوبة من الخمر وثوابها

يا إخوانى : اعلموا أن شارب الخمر إذا تاب وترك الخمر لوجه الله ــ تعالى ــ كان يوم القيامة أفضل وأكثر نوراً على الصراط ، وأسرع جوازاً من لم يشربها . فالله الله يا معشر المذنبين ، توبوا إلى مولاكم أسرع الحاسبين ، يغفر لكم ذنوبكم أجمعين .

فضل المؤذنين

ذكر فى بعض الأخبار أن المؤذنين إذا أتوا إلى الصراط يجدون نجائب من نور مسرجة بسرج الياقوت والزبرجد ، فيركبونها فتطير بهم على الصراط ، ويشفع كل واحد منهم عند جواز الصراط فى أربعين ألفاً كلهم قد استوجبوا النار ، ويجوز فى نور المؤذن ألف رجل وألف امرأة ، وفى حديث آخر : أن المؤذن إذا جاء إلى الصراط سبقه نور الأذان ، ونور لا إله إلا الله ، ونور محمد رسول الله ، ونور الدعاء الذى يدعو الناس إلى توحيد الله ــ تبارك وتعالى ــ فيجوز الصراط فى نور المؤذن أربعون ألفاً ممن ليس لهم نور ، وهم أهل الذنوب والخطايا (لأن المؤذن غالباً إذا أذن ابتغاء مرضاة الله ، وذكر عباده بأوقات الصلاة وأقامها وصلاها وواظب على ذلك ، انقطعت علائق نفسه السيئة عن ملاذ الدنيا ، ووجد اللذة كل اللذة فى ما هو بصدده) .

روى عن رسول الله ــ ﷺ ــ أنه قال : « ما من عبد مسلم حان عليه وقت الصلاة فى أرض قفراء أو موضع ليس فيه جماعة ، فقام فأذن ثم قام فصلى إلا وأم من جنود الأرض ما لا يحصى عددهم إلا الله ــ تبارك وتعالى ــ ويكتب الله له بعددهم حسنات ، ويمحو بعددهم سيئات ، ويرفع له بعددهم فى الجنة درجات ، لو دخل فى أدنى درجة من درجاته الجن والإنس لوسعتهم ، ولكان فيها من الفرش والأسرَّة والموائد والطعام والشراب والخدم ما يفضل عنهم ، وإن لم يؤذن واقتصر على الإقامة وحدها لم يصل خلفه إلا ملكاه اللذان يكتبان عمله » وفى حديث آخر : « إذا أذن العبد المسلم فى فلاة من الأرض ثم أقام فصلى جعل الله ــ تبارك وتعالى ــ خلفه سبع صفوف من الملائكة المقربين ، أحد طرفى الصف بالمشرق والآخر بالمغرب ، فإذا فرغ من صلاته ودعا آمنوا على دعائه ، ويكتب الله ــ تبارك وتعالى ــ له بعددهم حسنات ، ويمحو عنه ــ جل وعلا ــ بعددهم سيئات ، ويرفع له ــ تعالى ــ بعددهم درجات ، كل درجة أعظم من الدنيا سبعين ألف مرة ، فيها من النعيم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فإذا جاء يوم القيامة إلى الصراط جاء معه أصحابه من الملائكة الذين صلوا خلفه ، كل ملك منهم معه نور من نور الجنة ، فيأخذون بيده وبأيدى أهله وبأيدى إخوانه الذين صحبوه وأحبوه فى الله فيفرقون عليهم من تلك الأنوار ، ويجوزونهم الصراط فى شفاعته ويمضون معهم إلى الجنة ولا يرون من هول الصراط ولا من حره ولا صعوبته شيئاً » .

فضل العلماء

ذكر فى بعض الأخبار أن العلماء إذا أتوا إلى الصراط تكون وجوههم كالشمس الضاحية ، وأنوارهم بين أيديهم ، وبيد كل عالم منهم لواء من نور الجنة يضىء له مسيرة خمسمائة عام ، وتحت لواء العالم كل من اقتدى بعلمه ، وكل من أحبه فى الله ، ومناد ينادى : هؤلاء أحباء الله ، هؤلاء أولياء الله ، هؤلاء الذين خلفوا الأنبياء ، هؤلاء الذين علموا عباد الله ، هؤلاء الذين دعوا إلى الله ، هؤلاء الذين حفظوا حدود الله ، هؤلاء مصابيح الدجى ، هؤلاء أئمة الهدى . فإذا دنوا من الصراط يوضع على رأس كل واحد منهم تاج من نور الجنة ، لو وضع ذلك التاج فى السماء السابعة العليا لخرق نوره إلى الأرض السابعة السفلى ، ويكسى كل واحد منهم حلة من حلل الجنة لو نشرت تلك الحلة بين السماء والأرض لغطى نورها نور الشمس ، ولمات الخلائق كلهم عشقاً إلى رؤيتها ، ولملأت الأرض والبحار من رائحة المسك ، وينزل على رأس كل واحد منهم غمامة من نور تقيه من حر شرر جهنم ومن حر الشمس ، وأنشدوا : ـ

يا طالب العلم ترجو أن تنال به ... عفو الإله وعفو الله موجود
أطلب بعلمك وجه الله خالقنا ... إن الصراط على النيران ممدود
عفو الإله لأهل العلم نائلهم ... وعفوه عند أهل الجهل مفقود
فاحرص هديت على التعليم مجتهداً ... وأنت عند إله العرش محمود
فاعمل بعلم رسول الله سيدنا ... وأنت بين عباد الله مسعود

واعلموا أن الله ــ تعالى ــ لا يقبل عملاً بلا علم . قال الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾[1] فالعلماء قد أثبت لهم الجبار الخشية والتقى . قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **إنما يتقبل الله من المتقين** ﴾[2] ومن لا يعلم لا يتقى ، وكيف يتقى من لا يدرى ما تبقى ؟ وقد قال رسول الله ــ ﷺ ــ :

« تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يحمد الله ويوحد . هو إمام العمل ، والعمل

(١) سورة فاطر الآية ٣٨
(٢) سورة المائدة الآية ٢٧

تابعه ، يرفع الله بالعلم أقواماً فيجعلهم للخير قادة وأئمة يقتدى بهم وينتهى إلى رأيهم »[١] .

فقد بين رسول الله ـ ﷺ ـ أن العبادة لا تكون إلا بالعلم ، لقوله ـ ﷺ ـ : « **به يعرف الله ويعبد » ويستوفى ذكر فضل العلم فى قول الله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾** . والمقصود فى هذا الموضع ذكر الصراط والجواز عليه .

فضل حملة القرآن

ذكر فى بعض الأخبار أن حملة القرآن يحشرون يوم القيامة على كثبان من مسك أسود ، وأنوار وجوههم تغشى بالأبصار ، فإذا أتوا إلى الصراط تلقتهم الملائكة ـ الذين وكلوا بحملة القرآن ـ فتأخذ بأيديهم ، وتضع التيجان على رؤوسهم ، والحلل على أجسامهم ، وتقرب إليهم خيلاً من نور الجنة عليها سرج من المسك الأذفر ، والعنبر الأشهب ، إلجمها من اللؤلؤ والياقوت ، يركبونها فتطير بهم على الصراط ، ويجوز فى شفاعة كل واحد مائة ألف ممن قد استوجب النار ، ومناد ينادى : هؤلاء أحباب الله ، هؤلاء أولياء الله الذين قرءوا كتاب الله ، وعملوا به ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وهم أهل الله ، وهم أحباب الله ، من أحبهم فى الدنيا أحبه الله ، فجاوزوا الصراط وخلفوه بلا هول ولا هم ولا حزن ولا غم . وهذا إذا عملوا بالقرآن ، ووقفوا عند أوامره ونواهيه وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وآمنوا بمحكمه ، ووقفوا عند متشابهه ، وسارعوا إليه (**أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون**[٢] ، **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾[٣] أولئك أولياء الله الصالحون ، أولئك الذين رضى الله عنهم ، ووفقهم وهداهم ، وآتاهم تقواهم .

من لم يعمل بالقرآن

وأما حامل القرآن إذا لم يعمل به فإنه يأتى إلى الصراط فتستقبله الزبانية بمقامع الحديد وأرازب النار ، وتسود وجوههم على قدر ما ضيعوا من العلم ، فمن تعلم علماً للتجبر والمباهاة أو الرياء أو السمعة ولم يرد به وجه الله تعالى وطلب به الرشا والبراطيل ، وكتمه ولم ينصح به عباد الله ، وطلب به الرياسة

---

(١) انظر أحياء علوم الدين ج ١ ص ٢٠ باب فضيلة التعليم .
وانظر ابن حيان فى كتاب الثواب ، وابن عبد البر فى جامع بيان العلم وفضله ج ١ ص ٥٤ ، ٥٥ وقال : ليس له اسناد قوى .
(٢) سورة المجادلة الآية ٢٢
(٣) سورة الأنعام الآية ٩٠

وصحبة الملوك ، ومشى به إلى أبواب أبناء الدنيا ، وإلى دور الظلمة وأهل الجور ، وحكم به بغير العدل ، ألجم بلجام من نار جهنم ، وكان عمله عليه حجة وغمة ومحنة وحسرة وندامة وظلمة على الصراط . ثم يكون العلم للعامل نوراً وفرحة وسروراً وجنة وحبوراً . ينظر المغرور المسكين إلى وفود العلماء وزمر الأولياء وألويتهم على رءوسهم منشورة ، وقلوبهم مما بشروا به من الفوز بالجنان مسرورة ، وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، والملائكة تنادى : ﴿ **ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾[1] وأنت فى ظلمك حيران ، أيقنت بالحلول فى سموم النيران ، إلا أن يتداركك بعفوه الملك الديان .

وقد أخذ الملك بيدك وهو ينادى عليك ولجام النار فى فمك لو كان ذلك اللجام فى الدنيا لأحرقها من مشرقها إلى مغربها ، وينادى عليك : هذا الذى ضيع حدود الله ، هذا الذى خالف أوامر الله ، هذا الذى بدّل عهد الله ، وخالف كتاب الله وسنة رسول الله ــ ﷺ ــ ، وآثر حب الدنيا على ما عند هؤلاء .

يا مسكين أخذت على العلم أجرة وبرطيلا (ليس المراد هنا أن يأخذ المدرس على التدريس جعلاً يعيش به ، ولكن المراد من جعل العلم وسيلة لكسب السحت من المال بأن أعان به ظالماً ، أو مدح به جباراً غاشماً) واشتريت به ثمناً قليلاً ، ولم تراقب مولى كريماً جليلاً ، وتركت وراءك يوماً هائلاً ثقيلاً ، وخسرت يا مغرور ملكا كبيراً دائما جزيلاً .

فسقة حملة القرآن

ذكر فى بعض الأخبار عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان والنيران ، فيقولون : ويبدأ بنا قبل عبدة الأوثان والنيران ؟ فتقول الملائكة : ليس من يعلم كمن لا يعلم »[2] .

وفى حديث آخر : « **إن الملائكة الذين جعلهم الله على الصراط إذا نظروا إلى حملة القرآن الفساق أخذوهم وزجوا فى أقفيتهم وألقوهم فى جهنم أو يعف الله ــ تعالى ــ عنهم** » .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٤٩

(٢) انظر الترغيب والترهيب ج ١ ص ٧٦ . كتاب العلم . باب الترهيب من أن يخالف فعله قوله .
انظر كتاب الموضوعات لابن الجوزى . ج ١ ص ٢٦٦ ، باب عقوبة فسقة العلماء .

اللهم أعف عنا وعن جميع إخواننا المسلمين ، واجعل القرآن حجة لنا ولا تجعله حجة علينا يا أرحم الراحمين وأنشدوا :

عظمت مصيبة حامل القرآن إن كان ملجؤه إلى النيران
فهو الجزاء لمن عصى رب العلا دار العذاب وموقف الخسران
عظمت خسارته وجل مصابه عند الصراط بظلمة وهوان
يارب عفواً عن قبيح فعالنا أنت الدليل لجنة الرضوان

فاتقوا الله معشر أهل القرآن فى كتابه ، واشفقوا من أليم عذابه ، واعملوا بالقرآن وارغبوا فى جزيل ثوابه ، لأن القرآن هو لكم وهو عليكم ، إن لم تعملوا به ويل وثبور ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾[١] .

روى عن النبى ـ ﷺ ـ انه قال : « **عرضت علىّ الذنوبُ كلها فلم أر فيها ذنباً أعظم من ذنب حامل القرآن وتاركه** »[٢] ومعنى تاركه ، تارك العمل به ، العمل مع قلة العلم أعظم من كثرة العلم وقلة العمل .

روى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال « يسأل حامل القرآن عما يسأل عنه الأنبياء » وإذا غضب حامل القرآن يقول له القرآن : أما تستحى ، أنا معك وأنت تغضب ؟ اقتد بى تنج ، وأكرمنى بالطاعة أكرمك وأنجيك من الأهوال وأجوزك الصراط وأدخلك الجنة .

ويروى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **ما من شفيع أفضل منزلة عند الله من القرآن لا نبى ولا ملك ولا غيره** »[٣] . فإنا لله وإنا إليه راجعون على من لا يعمل بالسنة والقرآن ، كيف اختار النار على الجنان ، وعصى مولاه وأطاع الشيطان ، لقد ضل ضلالاً بعيداً ، وتبوأ عذاباً شديداً . وبقى من الخير فريداً وحيداً . فيا لها من مصيبة ما أعظمها ، ومن حسرة ما أدومها .

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٣

(٢) انظر مصنف ابن أبى شيبة ج ١٠ ص ٤٧٩ . كتاب فضائل القرآن . باب فى نسيان القرآن . رقم ١٠٠٤٧ .

(٣) الحديث فى كتاب احياء علوم الدين . باب فضيلة القرآن .

وانظر صحيح مسلم ١ ص ٥٥٣ كتاب صلاة المسافرين وقصرها . فى فضل القرآن بلفظ (قرءوا فإنه يجيىء يوم القيامة شفيعاً لصاحبه) .

ما خلف الصراط

روى الحسن عن رسول الله — ﷺ — أنه قال : « **خلف الصراط جسر عليه الأمانة ، وجسر عليه الرب جل جلاله ، وجسر عليه الرحمة** » . فيأيها السامع لما جاء من أحاديث الصفات والآثار المشكلات ، سلم الأمور لباريها ، واترك تأويلها إن كنت تاليها وقاريها ، وعليك بخويصة نفسك ، وأعمل ليوم رمسك (الرمس : تراب القبر ، ورمس الميت : دفنه) وذلك الجسر عليه السؤال ، ذلك الوقت يقول الله — جل جلاله وتقدست أسماؤه — : عبدى عملت كذا فى يوم كذا ؟ فيقول العبد : نعم يارب . فلا يزال الرب جل جلاله يعرف العبد ، والعبد يعترف ويقول نعم حتى يقول العبد : لإرسالك بى إلى النار أهون علىّ من هذا التوبيخ . فيقول له الله تعالى : يا عبدى : بعينى إذا كنت عملت ذلك وكنت عليك شهيداً وملائكتى وأرضى ، ولكن سترت عليك بحلمى وجودى ، يا عبدى ، أنا سترتها فى الدنيا عليك وأنا أغفرها اليوم لك[1] . غفر الله لنا أجمعين ، وأماتنا برحمته مسلمين تائبين على السنة والجماعة على شهادة أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمداً رسول الله — ﷺ — .

مجلس فى قوله تعالى وتقدست أسماؤه :
﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم ﴾[2]

هؤلاء الذين ذكرهم المولى — جل جلاله — بقوله : ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾ هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فحبسوا على الأعراف ، والأعراف هى مواضع مرتفعة على الصراط ، لأن الصراط سبع قناطر وهى الجسور بعضها أصعب من بعض ، وبعضها أشد سؤالاً من بعض ، وبعضها أكثر ارتفاعاً من بعض ، وعند كل جسر يسأل العبد فيها عن عبادته التى افترضها الله عليه فى الدنيا .

فنسأل الله التوفيق فى الدنيا والتسهيل فى الآخرة فى تلك المقامات .

سؤال العباد يوم القيامة

فأول ما يسأل عنه العبد الصلاة ، ثم الزكاة ، ثم الصيام ، ثم الحج ، ثم الأمانة ، ثم بر الوالدين ، ثم حفظ اللسان ، ثم حفظ الجار ، ثم صلة الرحم ، وكذلك جميع ما أمر الله — عز وجل — به وجميع ما نهى عنه ، فكل من جاء إلى جسر من جسور الصراط سئل عن عبادته ، فإن أجابها جاز وصار

---

(١) (وقيل إن الأعراف سور بين الجنة والنار وسمى أعرافا لمعرفة العباد أحوالهم عنده ، فمنهم شقى وسعيد) .

(٢) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ كتاب التوحيد . باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم .

إلى الجنة ، ونور الإيمان يسعى بين يديه وعن يمينه وعن شماله ، وإن لم يأت بها نقص نوره ، وهو نور الإيمان لأن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بطاعة الله وينقص بمعصية الله ، فكل من نقص ثوابه بالمعصية ، نقص نوره على الصراط . فمن أراد مولاه أن يعذبه أتم له النور فى بعض جسور الصراط وطفأ النور عنه فى بعضه . والصراط أسود مظلم من شدة سواد جهنم ، لو أن قطرة من ظلمة الصراط وضعت فى الدنيا لأظلم مشرق الدنيا ومغربها ، ولمات الخلق من شدة الظلمة ، وإنما حبس الله تعالى هؤلاء القوم على أعراف الصراط ليبين لأهل الجنة والملائكة والجن والإنس ولجميع ما خلق الله — تبارك وتعالى — فضل نبينا محمد — ﷺ — . وليظهر فخره وجاهه وقدره وحرمته عند ربنا — جل جلاله — وذلك أن الله — تبارك وتعالى — يأمر العباد يمضون على الصراط والصراط منصوب على متن جهنم ، وتأتى الخلائق إلى الصراط ، المؤمنون والكافرون ، فأما المؤمنون فيمضون وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، أى عن أيمانهم .

ظلمات الكفر والمعصية

وأما الكافرون فإنهم يمضون فى ظلمات الكفر ، وظلمات أعمالهم التى عملوا فى حال الكفر فى دار الدنيا ، فإذا أتوا إلى الصراط ، فأول قدم يضعونها على الصراط يهوون (يسقطون إلى أسفل) فى النار فتخطفهم الملائكة بالكلاليب فتلقيهم فى قعر جهنم ، فإذا مضى المؤمنون بنورهم ، مضى المنافقون فى آثارهم يتبعونهم وينادونهم : أنظرونا نقتبس من نوركم ، فنمشى فى ضوئكم ، فيقال : ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . وهو قوله تعالى : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾[1] وذلك أنهم كانوا فى الدنيا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وأظهروا لهم الإيمان بألسنتهم واعتقدوا الكفر بقلوبهم ، والله تعالى يعامل العباد على عقائد قلوبهم ، والمنافقون كانوا يتربصون بالمؤمنين الدوائر ، فإذا كانوا على الصراط على آثار المؤمنين ليمشوا فى نورهم قالوا للمؤمنين : أنظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا . فيظنون أن وراءهم نوراً يلتمسونه فيرجعون وراءهم ، فيرفع لهم سرداب ، فيظنون أن فى السرداب نوراً يجوزهم على الصراط ، فيقتحم بهم إلى أبواب جهنم ، فإذا رأى المؤمنون المنافقين قد تساقطوا وتهافتوا فى النار ، فزعوا مما حل بالمنافقين ، فعند ذلك يقال لهم : ﴿ **بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾[2] وهذا العذاب الذى فزعتم منه هو للمنافقين الذين عصوا الله ورسوله وجحدوا بآيات الله وخالفوا كتابه ، فعند ذلك يضرب بينهم بسور له باب .

---

(١) سورة النساء الآية ١٤٢

(٢) سورة الحديد الآية ١٢

السور الحاجز بين الجنة والنار

والسور هو الحائط له باب إلى الجنة ، وهو حائط بين الجنة والنار ، باطن هذا الحائط فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب — يعنى جهنم — والباطن فيه الرحمة — يعنى الجنة — فإذا رأى المنافقون المؤمنون لم يعرجوا عليهم (يعرجون : يرتقون ، وعرج فى السلم : ارتقى) ولم يلتفتوا إليهم ، ورأوهم فى حال السلامة والفوز . فيقول لهم المنافقون : ألم نكن معكم فى الدنيا على التوحيد وكنا نصلى معكم ؟ فيقول لهم المؤمنون : ألم نكن معكم فى الدنيا على التوحيد وكنا نصلى معكم ؟ فيقول لهم المؤمنون : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم — أى عذبتم — وأحرقتم أنفسكم بالنار بخلافكم لرسول الله — ﷺ — وقولكم بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ، وتكذيبكم بلقاء الله — تبارك وتعالى — ، وكذبتم بهذا اليوم وتربصتم برسول الله — ﷺ وبالمؤمنين الدوائر ، وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور فيما فعلتم برسول الله — ﷺ — وبالمؤمنين ، فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا — يعنى لا يؤخذ من كافر ولا منافق فداء .

صفة المنافقين

فالكافر ، هو الذى كفر فى السر والإعلان ، والمنافق ، الذى كفر فى السر وآمن فى الإعلان ، وآمن بلسانه وكفر بقلبه ، وقوله : ﴿ **مأواكم النار** ﴾ أى مرجعكم إليها ومستقركم فيها ، هذا كله غرور الشيطان بكم حتى جاءكم الموت ومتم على النفاق ، فإذا رجعوا وراءهم ليلتمسوا النور رأوا سرداباً فيدخلون ذلك السرداب ويظنون أن النور فيه فيهجم بهم على أبواب جهنم ، فتخطفهم الملائكة بالكلاليب فتقذفهم فى جهنم حتى يجاوزون الباب الأول من جهنم ، ثم يلقون فى الباب الثانى حتى يجاوزونه ، فلا يزالون من باب إلى باب حتى ينتهوا إلى الدرك الأسفل من النار ، فينتهى بهم إلى جب (الجب : البئر التى تبنى بالحجارة) يقال له جب الحزن ، فى ذلك الجب بئر يقال له الهبهب ، فيها توابيت من نار وعليها أقفال من نار .

بئر الهبهب

على تلك البئر صخرة من كبريت فى تلك البئر باب إذا رفعت تلك الصخرة استغاثت نار جهنم من تلك النار التى تخرج منها فتأكل تلك النار التى تخرج من تلك البئر نيران جهنم وما فيها أسرع من طرفة عين ، فيؤتى بالمنافقين فيلقون فى تلك البئر ، وتوضع عليهم تلك الصخرة فلا يخرجون منها

أبداً ، كلما أكلت تلك النار لحومهم جدد الله لهم لحوماً غيرها ، فلا يخرجون من تلك البئر أبداً ، فذلك قوله عز وجل : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً** ﴾[١] وقوله : ﴿ **إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم** ﴾[٢] يعنى بقوله : ﴿ **ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً** ﴾[٣] .

وأما المؤمنون الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم فإنهم يمشون على الصراط وأنوارهم تسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، حتى إذا كانوا على جسر الصراط ، وهو أعلى الجسور من الصراط وهى الأعراف وهى المواضع المرتفعة وأحدها عرف ، وتسمى النشز من الأرض وهو الموضع المرتفع عرفاً ، ومنها عرف الديك .

أهل الأعراف

فإذا صاروا على تلك المواضع من الصراط ، نقص نورهم وبقوا على أطراف أنامل أرجلهم ورأوا أن ذلك ظلمة ، وذلك أن الخلق فى الصراط على قدر أعمالهم فى الدنيا ، فمن الناس من يكون له من النور ما يضىء على الصراط مسيرة مائة عام ، ومنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة سنة ، ومايضى مسيرة شهر ومسيرة جمعة ، ومسيرة يوم ، ومسيرة ساعة ، ومن الناس من يعطى من النور مايضىء له موضع قدميه . على قدر منازلهم عندالله ـ تعالى ـ وعلى قدر أعمالهم فى الدنيا ، فيستبقون فى الجواز على قدر أنوارهم التى معهم فمن كان له نور كثير جاز فى السعة ، ومن كان له نور قليل جاز فى الضيق ، على قدر ما أعطى الله لكل عبد ، فإذا ثبت أصحاب الأعراف على أنامل أرجلهم فى ذلك ولا ينظرون إلى موضع أقدامهم من شدة الظلمة ، والظلمة هى من شدة سواد جهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها وسهل لجميعنا شدائدها وظلمتها ، وثبت على الصراط أقدامنا بمنه وفضله . والصراط أحد من السيف ، وأدق من الشعرة ، وأحر من الجمر ، عليه من الحسك (الشوك مثل حسك السعدان ، والحسك ما يعمل من الحديد على مثاله للحرب) والكلاليب أكثر من عدد الإنس والجن ، قد تعلق بكل كلوب من الزبانية عدد نجوم السماء إذا تكلم واحد منهم تناثر النار من فيه ، لو أن واحداً منهم بصق فى البحار الزاخرة لجففها ، وإذا تكلم واحد منهم فزع صاحبه منه ، ولو سمع أهل الدنيا صوت واحد يتكلم بالكلام لمات كل من فيها من إنسها وجنها وجميع ما خلق الله ــ تبارك وتعالى ــ فيها من برها وبحرها من فظاعة كلامه ، ومن شدة صوته . وإذا صاح مالك خازن جهنم على خزنة جهنم يغشى عليهم من شدة صوته ، والصراط مع دقته ورقته يضطرب كما تضطرب السفينة

(١) سورة النساء الآية ١٤٥

(٢) سورة النساء الآية ١٤٢

(٣) سورة الحديد الآية ١٣

بأهلها إذا كانت الريح عاصفة ، فإذا ثبت القوم على أناملهم من أرجلهم لا يستطيعون الجواز وهم ينظرون إلى أهل النار كيف يعذبون فى النار ، قال الله تعالى : ﴿ **وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين** ﴾[1] وهم يستغيثون ويتضرعون إلى مولاهم ـــ جل جلاله ـــ ويسألونه النجاة من النار ومن هول ما هم فيه من صعوبة الصراط ، فيمكثون كذلك ما شاء الله ـــ تبارك وتعالى ـــ مغمومين مكروبين محزونين لا يدرون أينجون أم يهلكون ، مع كل إنسان منهم حافظاه الذان كانا يكتبان عليه عمله فى الدنيا ، فبينما هم كذلك إذ يلقى الله ـــ تبارك وتعالى ـــ ذكرهم فى قلوب إخوانهم من أهل الجنة وعلى ألسنتهم ، فيقول بعضهم لبعض : يا ليت شعرنا ما فعل إخواننا من أهل الأعراف .

فيقولون : ما لنا علم بما صنعوا ولكننا نسأل الحفظة ومن معهم حتى يخبرونا ما فعلوا فينادون من قصورهم : يا معشر الملائكة الذين مع أصحاب الأعراف ، ما فعل إخواننا من أصحاب الأعراف ؟

شفاعة أهل الجنة فى أصحاب الأعراف

فيقول الملائكة : يا معشر أهل الجنة : أصحاب الأعراف لم يدخلوها ، وهم يطمعون بدخولها ، قد قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، وبقوا على أطراف أناملهم وأرجلهم ، وهم وقوف ينتظرون رحمة ربهم ، فذلك قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ونادوا أصحاب الجنة** ﴾ يعنى نادت الملائكة أصحاب الجنة ﴿ **أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون** ﴾[2] .

حياء آدم

فعند ذلك يلبس أهل الجنة الحلى والحلل ، ويضعون التيجان على رءوسهم ، ثم يمضون بأجمعهم حتى يأتوا آدم ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ وهو فى قصره ، فينادون بأجمعهم : يا أبانا : أنت الذى خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك كرام ملائكته ، وأسكنك جنته ، إن ناساً من ولدك محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين . فيقول آدم ـــ عليه السلام ـــ : لست هنالك . أنا الذى عصيت ربى ، وأكلت من الشجرة فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئا . ولكن عليكم بابنى نوح الذى حمله الله فى الفلك .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٤٧

(١) سورة الأعراف الآية ٤٦

حياء نوح

فيأتوا نوحاً ــ عليه السلام ــ فينادون بأجمعهم : يا نوح : فيشرف عليهم من قصره فينظر إلى جماعتهم فيقول لهم نوح : يا أهل الجنة : ما الذى أزعجكم من منازلكم وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : يا نوح : أنت الذى حملك الله فى الفلك ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم نوح : لست هنالك ، أنا الذى خاطبت ربى فيما ليس لى به علم ، فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ، ولكن عليكم بإبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً ، وجعل النار عليه برداً وسلاماً ، فيأتون إبراهيم ــ عليه السلام ــ وهو فى قصره فينادون بأجمعهم : يا إبراهيم : أنت الذى اتخذك الله خليلاً ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم : لست هنالك ، أنا الذى كذبت كذبتين ــ وقيل ثلاث ــ فغفر لى ، وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ولكن عليكم بموسى ابن عمران كليم الله ونجيه .

حياء موسى

فيأتون موسى ــ عليه السلام ــ فينادونه ، فيشرف عليهم فيقولون له : يا موسى : أنت الذى كلمك الله بغير ترجمان ، وأنزل عليك التوراة وضرب لك طريقاً يبساً فى البحر ، وأراك العجائب من قدرته ، إن ناساً من إخواننا محبوسون على الصراط قل نورهم وطفىء سراجهم فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول لهم موسى : لست هنالك أنا الذى وكزت الرجل فقتلته فغفر لى وأنا أستحى أن أسأله بعد المغفرة شيئاً ولكن عليكم بعيسى بن مريم العذراء البتول (البتول من النساء العذراء المنقطعة من الأزواج الدائمة العبادة) البكر .

حياء عيسى

فيأتون عيسى ، وهو ــ ﷺ ــ فى قصره ، فينادونه بأجمعهم يا عيسى : فيشرف عليهم من قصره فيقول لهم : يا أهل الجنة : ما الذى أزعجكم من منازلكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : يا عيسى : أنت الذى خلقك الله من غير بشر ، وأنت الذى جعلك الله آية للناس ، وأنت ابن الطاهرة البكر العذراء البتول ، إن ناساً محبوسون على الصراط ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين ، فيقول : لست هنالك ، أنا الذى زعمت النصارى أنى قلت لهم اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، فأستحى منه أن أسأله شيئاً ، ولكن عليكم بالذى كان آخر المرسلين وهو اليوم أولهم ، عليكم به فهو ، إمام المتقين ، وسيد العالمين وخاتم النبيين ، محمد ــ ﷺ ــ .

شفاعة محمد

فيأتون النبى — ﷺ — وهو فى قصره خير قصور الجنة ، فيقفون حول القصر والقصر قد أشرق نوره وبهجته على جميع قصور أهل الجنة ، فينادون بأجمعهم : يا محمد : يا أبا القاسم : يا أحمد : يا سيد العالمين : ، يا إمام المتقين : يا خاتم النبيين : ، فيشرف عليهم محمد — ﷺ — من قصره والنور من وجهه قد أشرق على قصور الجنة كلها ، فيقول لهم — صلوات الله وسلامه عليه — : ما الذى أزعجكم من منازلكم ؟ وما الذى جاء بكم ؟ فيقولون له : أنت الذى جعلك الله خاتم النبيين وسيد العالمين وإمام المتقين ، إن ناساً من أمتك على الصراط محبوسون ، قل نورهم ، وطفىء سراجهم ، فاشفع لهم عند ديان يوم الدين .

دخوله جنة عدن

فيقول النبى — ﷺ — : أنا لها ، فيلبس — ﷺ — الحلى والحلل ويضع على رأسه التاج ، ويتبعه أهل الجنة حتى ينتهى إلى باب جنة عدن فيستفتح فيقال : من هذا؟ قال — ﷺ — : فأقول : أنا أحمد فيفتح لى ، فإذا خلف السرادق ملك يتلألأ نوراً فيهولنى ما أرى منه ، فيؤنسنى ويمسحنى فيقول : يا أحمد أنت عبد وأنا عبد مثلك ، ثم أمضى فأنتهى إلى سرادق ثان ، فأستفتح فيقال : من هذا ؟ فأقول : أنا أحمد فيفتح لى ، فإذا خلف السرادق ملك عظيم أعظم خلقاً وأشد نوراً من الذى رأيت ، فيهولنى ما رأيت من عظمه ، فيؤنسنى ويمسحنى ويقول : يا أحمد : أنت عبد وأنا عبد مثلك فلا أزال أمشى فى عظم الملائكة وبعضهم أشد نوراً من بعض حتى أنتهى إلى السرادق السابع فأستفتح فيقال : من هذا ؟ فأقول : أنا أحمد ، فيفتح لى فإذا خلف السرادق جبريل — عليه الصلاة والسلام — ، فيقول : مرحباً بهذا الصوت لقد كنت إليه مشتاقاً . فأمضى حتى أنتهى إلى الحجب ، فترتفع الحجب فيتجلى لى رب العالمين — جل جلاله وعظمت قدرته — ، فإذا نظرت إليه خررت له ساجداً فأحمده بتحميد ما حمده بمثله ملك من حملة العرش ولا من حملة الكرسى ولا نبى مرسل حينئذ فى ذلك المكان ، حتى يقول الكروبيون والروحانيون وأصحاب السرادقات : إن هذا لأهل أن يشفعه الله فيمن يشفع .

سجوده بين يدى الله تعالى

فيقول الجبار — جل جلاله وعظمت قدرته — : يا أحمد : ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، قال رسول الله — ﷺ — : فأرفع رأسى من السجود فإذا نظرت إلى ربى — جل جلاله — خررت

ساجداً وأحمده وأثنى عليه بمثل ما حمدته به فى المرة الأولى ، فأفعل ذلك ثلاث مرات وربى ــ جل جلاله ــ يقول لى فى كل مرة : إرفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع ، فأقول : يارب : إن ناساً من أمتى محبوسون على الصراط قل نورهم وطفى سراجهم فأتمم لهم نورهم ، وأضىء سراجهم ، وهم الذين يقولون عند ذلك : ﴿ **ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير** ﴾[١] . حتى نمضى كما مضى إخواننا إلى الجنة ، فيبعث الله ــ تبارك وتعالى ــ الملائكة فيأتون بالنور من جنة عدن ، ثم يغمسون غمساً فيحي الله نورهم ويضىء سراجهم ، ثم تقبل الملائكة على أهل جهنم فيقولون لهم : ﴿ **أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾[٢] وذلك أن أهل جهنم لما نظروا إلى أصحاب الأعراف محبوسين على الصراط قال بعضهم لبعض : والله ما حبسوا هؤلاء إلا ليدخلوا معنا فى جهنم ، فمن أجل ذلك قالت لهم الملائكة : (هؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله **برحمة**) ثم تقبل الملائكة على أصحاب الأعراف .

جاه المصطفى العظيم

فيقولون لهم : ﴿ **إدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون** ﴾ أى لا تحزنون ولا تموتون فى الجنة أبداً ، فيمضون والنور الذى جاءتهم به الملائكة من جنة عدن ، يسعى بين أيديهم وبأيمانهم حتى يجوزوا الصراط ويدخلوا الجنة ويلحقوابمنازلهم وإخوانهم ونبيهم ــ ﷺ ــ ، وإنما حبسهم الجبار ــ جل جلاله وعظمت قدرته ــ ليظهر جاه محمد ــ ﷺ ــ وفضله وحرمته ودرجته ومنزلته ومكانه عند الله ــ تبارك وتعالى ــ . من الشفاعة ــ ﷺ ــ صلاة تشرف بها عقباه ، وتبلغه بها من الشفاعة العظمى رضاه ، آمين يارب العالمين ، صلاة دائمة منتهى الآباد ، طيبة باقية بلا انقطاع ولا نفاد ، صلاة تنجينا بها من حر جهنم وبئس المصير ، وتدخلنا الجنة مع صحابته الأبرار الطيبين . آمين يارب العالمين .

مجلس فى قوله تعالى

﴿ يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها ﴾
﴿ وفى حساب الملائكة والرسل واللوح المحفوظ ﴾

روى عن النبى ــ ﷺ ــ أنه قال : « تقف للعرض الأكبر بين يدى رب العالمين فيفرقون على قدر أعمالهم » .

وروى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : يقول الله ــ تبارك وتعالى ــ يوم القيامة : « يا بنى آدم انصتوا فطالما نصت لكم » .

(١) سورة التحريم الآية ٨
(٢) سورة الأعراف الآية ٤٩

وفى رواية أخرى : « فقد نصت لكم من يوم خلقتكم إلى يومكم هذا ، أسمع قولكم وأنظر أعمالكم ، فانظروا اليوم أعمالكم تعرض عليكم ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه ، احشروا على عبادى فو عزتى وجلالى لا يجوزنى ظّلم ظالم » .

فكيف بك يا مسكين يا مغرور يا تارك الحق والصواب ، يا مخالفاً للسنة والكتاب ، يا ظالماً لنفسه يا غافلاً عن الحساب ، يا من بذل نفسه لأليم العذاب ، يا من تمادى فى معصية رب الأرباب ، ونسى الجنة وحسن المآب . وأنشدوا :

إلى كم لا تفيق من التصابى ... وهذا العمر يؤذن بالذهاب
ويرضى بالقليل المرء حظاً ... ويزهد فى الكثير من الثواب
فقد ما غرت الدنيا أناساً ... كما غر المحين بالشراب
تمنيهم غروراً باطلات ... وتخدعهم بآمال كذاب
كأنك لا ترى فى كل يوم ... جنائز تستحث إلى الخراب
خلقت من التراب وعن قريب ... ستلحق ــ غير شك ــ بالتراب
وتحيا بعد موتك كى تجازى ... بما قدمت فى يوم الحساب
فإن تك بالمسىء بقبح فعل ... فحسبك بالعقاب مع العذاب
وإن كنت الذى قدمت خيراً ... جزيت به غداً حسن المآب

تبكيت الله تعالى للجبابرة

ذكر فى بعض الأخبار أن الجبار ــ جل جلاله ــ إذا اجتمع الأولون والآخرون فى عرصة القيامة نادى ــ سبحانه وتعالى ــ : أين الجبابرة وأبناء الجبابرة ؟ أين الملوك وأبناء الملوك قصمت[1] الجبابرة بسلطانى ، وأفنيت الملوك بعظمتى .

ذكر فى الخبر أن الجبابرة يحشرون يوم القيامة على صور الذر أصغر الخلائق خلقة لتجبرهم على العباد ، والجبابرة هم الذين تجبروا على الخلق وعن اتباع سنة رسول الله ــ ﷺ ــ . وقيل : الجبابرة هم الذين أجبروا المساكين والضعفاء على ما لا يطيقوا ، وهذا الاسم قد اشترك فيه الخالق والمخلوق فالخالق ــ جل جلاله ــ هو جبار على الحقيقة .

---

(١) قصمهم : كسرهم

تفسير الجبار

وتفسير الجبار ــ فى حق الله تعالى ــ الذى جبر عباده على ما أراد ، وقيل الذى يجبر عن ظلم العباد : إن الله ــ تعالى جل اسمه ــ لا ينسب إليه الظلم لأن حد الظلم وضع الشىء فى غير موضعه ، لأن الدنيا والآخرة ملك الله تعالى ، والجبار من العباد هو الظالم الذى يضع الشىء فى غير موضعه ، يأخذ ما ليس له بحق ويرده إلى ما قد ملكه الله ــ تبارك وتعالى ــ ، وإذا قضى الله ــ تبارك وتعالى ــ على عبده بقضاء فهو له خيرة . لقول رسول الله ــ ﷺ ــ : « لا يكمل للمؤمن إيمانه حتى يرى أن الذى قضاه الله ــ تعالى ــ عليه أوله خير له من الذى أراد لنفسه » ، وقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « فى قضاء الله تعالى خيرة إلا قضاء النار » وإذا قضى الله تبارك وتعالى على عبده بالنار فهو عبده وهو خلقه لم يعنه أحد على خلقه ولا على رزقه ، وهو يفعل ما يريد لا شريك فى ملكه . ثم ينادى الجليل جل جلاله : ﴿ **يا عبادى لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون** ﴾[1] فإذا سمع الخلق هذا النداء رفعوا رءوسهم وطمعوا كلهم فى هذا النداء وقالوا كلهم نحن عباد الله ، ثم ينادى ثانية ﴿ **الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين** ﴾[2] .

فعند ذلك ينكس رأسه من لم يكن مسلماً ، فتبقى أهل الأديان متحيرين ويفرح المسلمون ، ثم ينادى ثالثة : ﴿ **الذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ أى كانوا يتقون الكبائر ، فينكس أهل الكبائر من أهل التوحيد رءوسهم ويرفع رءوسهم سائر أهل التوحيد الذين اجتنبوا الكبائر وتابوا عنها توبة نصوحا .

فكيف بك يا مغرور : يا مسكين : قد ارتكبت الكبائر والصغائر ، وعصيت مولاك فى الخفيات والظواهر ، وأيقنت أنك مسئول يوم تبلى السرائر ، ولاق من العقوبة على ذلك الحظ الجزيل الوافر . وأنشدوا :

عصيت الله ألـــوان المعـــــاصى ... كـــأنى لست أوقـــن بالـــقصاص
فمـــا لى لا أنـــوح على ذنـــوبى ... وأبكـــى يـــوم يؤخـــذ بالنـــواصى

نصــيحة

فانظر لنفسك يا مسكين : يا ضعيف الإيمان واليقين : قبل حلول الندم ، وزوال النعم ، ونزول النقم ، حيث لا ينفع الندم ، فاستعد للسؤال ، وتهيأ للجدال ، قال الله الكبير المتعال : ﴿ **يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون** ﴾[3] .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٨ (٢) سورة الزخرف الاية ٦٩

السائق والشهيد

فإذا سمع العباد النداء وعلم كل عبد وأمة منزلته من جميع أهل الأديان ، نشرت الدواوين ، ووضعت الموازين ، وجيء بالنبيين ، ونصبت المنابر بالأنبياء والرسل ، فيجلس كل نبى على منبره وأمته قد أحدقت به ، ونصبت الكراسى للصديقين والشهداء ﴿ **وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد** ﴾[1] سائق يسوقها وشاهد يشهد عليها ، فالناس ينقسمون فى السياقة على قسمين : قسم تسوقه الملائكة ببر وإكرام ، وروق وإجلال ، وتؤمنهم وتهدىء روعاتهم كلما نظر العبد إلى من يعذب أو ينكل يقول له سائقه من الملائكة : يا عبد الله ما أنت مثل هذا ، هذا عصى الله وأنت أطعته ، والقسم الثانى يساقون بالإنتهار والسطوة والإغلاظ ، يسوقه سائقه وهو يروعه ويقول له : يا عدو الله هذا الحساب سوف تدرى ، كلما نظر المسكين إلى من يعذب أو نيكل (نكل به جعله عبرة لغيره) قال له سائقه : الساعة تكون أنت مثل هذا ، هذا عصى الله وأنت عصيته ، أما علمت يا عدو الله أن الحساب والحشر أمامك ؟ وأنشدوا :

كأنى بنفسى قد بلغت مدى عمرى ... وأنكرت ما قد كنت أعرف من دهرى
وطالبنى من لا أقوم بدفعه ... وحولت من دارى إلى ظلمة القبر
وفاز بميراثى أناس فشتتوا ... بإفسادهم ما كنت أجمع من أمرى
وأغفلنى من كان يبدى محبتى ... فأخلصه ودى ويغمره برى
فلم يسخ لى منهم صديق بدعوة ... إذا ما جرى يوماً بحضرته ذكرى
وأضحى لبيتى ساكناً مبهجاً به ... وفى اللحد بيتى لا أقوم إلى الحشر
فيا شقوتى إن لم يجد بنجاته ... إلهى ولم يجبر برحمته فقرى
فقد أثقلت ظهرى ذنوب لو أنها ... على ظهر طور[2] أثقلته من الوزر

فما أعظم مصيبتكم ، وما أطول حسرتكم إن لم يعف عنكم مولاكم وجعل النار مأواكم ، فاغتنموا التجارة فى دار الفناء والذهاب ، يجازيكم بها مولاكم عند مناقشة الحساب ، فالحساب عظيم عسير ، والهول ــ والله ــ جليل كبير ، والناقد مميز بصير ، واليوم عبوس قمطرير .

---

(١) سورة ق الآية ٢١

(٢) الطور : الجبل العظيم

اللوح المحفوظ

ذكر عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال : إذا جمع الله ــ تبارك وتعالى ــ الأولين والآخرين فى صعيد واحد ونشرت الدواوين ، ونصبت الموازين ، وأحضرت الأنبياء بأممها ، وحضر الصديقون والشهداء ، وحشر وحوش الأرض ، وهوامها وطيورها وأنعامها ، وسكان جبالها وبحارها ، ينادى مناد من قبل العرش : أين اللوح المحفوظ ؟ فيؤتى باللوح المحفوظ فيوقف بين يدى الجبار ــ جل جلاله ــ خاضعاً ذليلاً ، فيقول له تبارك وتعالى : ما صنعت بالوحى الذى أنزلت فيك ؟ واللوح من درة بيضاء ، صفحتاه من ياقوتة حمراء ، عرضه كما بين السماء والأرض ، ينظر الله تبارك وتعالى فيه فى كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة ، فيخلق فى كل نظرة ، ويحيى ويميت ويعز ويذل ، ويرفع أقواماً ويفعل بهم الخير ويوفقهم بفضله . ويخفض أقواماً ويصدهم عن منهاج الهدى بعدله ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون يوم القيامة لأنهم ما قدروا الله حق قدره ولا عبدوه حق عبادته ، لأنه ــ جل جلاله ــ أجل وأعظم من أن يوفى فى العبادة والطاعة والمعرفة حقه ، ما قدر على هذا بنى مرسل ولا ملك مقرب ، فسبحان من لا سبيل إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . قال فيقف اللوح بين يدى الجبار جل جلاله وعظمت قدرته فيقول له : أيها اللوح المحفوظ ما صنعت بالذى أنزلت فيك ؟ فيقول اللوح المحفوظ : سيدى ومولاى بلغته عبدك ميكائيل .

رسالة ميكائيل

فينادى أين ميكائيل ؟ فيؤتى به ــ ﷺ ــ وهو ملك عظيم له ستة عشر ألف جناح لو نشر منها جناحاً واحداً فى الدنيا لما وسعته ، فيقف بين يدى الله تعالى خاضعاً ذليلاً قد بلغت نفسه إلى حنجرته فلا هى تدخل ولا هى تخرج خوفاً وجزعاً وهيبة من الجبار جل جلاله ، فيقول الله له : ما صنعت بالوحى الذى بلغ إليك اللوح المحفوظ ؟ وهل تشهد له بالتبليغ ؟ وأنا أعلم بذلك منك ولكن سبق فى علمى أنى أسأل اليوم عبادى وجميع خلقى وأستشهد بعضهم على بعض ، فيقول ميكائيل : بلغنى اللوح المحفوظ وبلغته عبدك إسرافيل وأنت أعلم .

رسالة إسرافيل

فيبرأ اللوح المحفوظ بشهادة ميكائيل له ، ثم ينادى أين إسرافيل ؟ فيؤتى به ــ ﷺ ــ وهو ملك عظيم له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، ورجلاه تحت تخوم الأرض السابعة السفلى والعرش على رأسه ،

فيقف بين يدى الله ـــ تبارك وتعالى وجل ـــ ، مع عظم خلقه ، خاضعاً ذليلاً قد ذهلت نفسه وتغير لونه ، وارتعدت فرائصه واضطربت أوصاله واصطكت ركبتاه ، وقد بلغت نفسه إلى حلقه فلا هى تدخل ولا هى تخرج خوفاً وجزعاً وهيبة من الله ـــ تبارك وتعالى ـــ . فيقول له الجبار ـــ جل جلاله ـــ : ما صنعت بالوحى الذى بلغك ميكائيل ؟ وهل بلغك وهل تشهد له بالتبليغ ؟ وأنا علام الغيوب . فيقول إسرافيل ـــ عليه السلام ـــ : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغنى وأنت أعلم وقد بلغته عبدك جبريل ، فيبرأ ميكائيل بشهادة إسرافيل ـــ عليهما السلام ـــ .

رسالة جبرائيل

ثم ينادى : أين جبريل ؟ فيؤتى بجبريل ـــ ﷺ ـــ وقد تغير لونه وتبلبل لبه وارتعدت فرائصه واضطربت أوصاله واصطكت ركبتاه ، وقد بلغت نفسه إلى حلقه فلا هى تدخل ولا هى تخرج جزعاً وخوفاً من الجبار ـــ جل جلاله ـــ ، فيقول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ : يا جبريل ما صنعت بالوحى الذى بلغك عبدى إسرافيل وهل تشهد له بالتبليغ ؟ فيقول جبريل عليه السلام : نعم يا سيدى ومولاى بلغنى وبلغته نبيك نوحاً ـــ عليه السلام ـــ وأنت أعلم . فيبرأ إسرافيل بشهادة جبريل .

شهادة نوح

فيؤتى بنوح ـــ عليه السلام ـــ حتى يوقف بين يدى الجبار ـــ جل جلاله ـــ وقد ذهبت نفسه وتغير لونه وقد مات فزعاً وخوفاً من الجبار ـــ جل جلاله ـــ فيقول الجبار ـــ جل جلاله ـــ : يا نوح : ما صنعت بالوحى الذى بلغك عبدى جبريل وهل تشهد له بالتبليغ ؟ فيقول ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغنى عبدك جبريل ـــ عليه السلام ـــ وقد بلغته قومى وأنت أعلم من جميع عبادك بذلك . فيقول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ : صدقت ، أنا أعلم من جميع خلقى ولكن قد سبق فى علمى أن أسأل جميع خلقى وأستشهد بعضهم على بعض وأنا الحاكم الجبار الذى لا أجور فى حكمى . ثم يدعى بقوم نوح ـــ عليه السلام ـــ فيقول لهم : ما صنعتم بالوحى الذى بلغكم نوح ؟ وهل بلغكم وهل تشهدون له بالتبليغ ؟ فيقول قوم نوح : ربنا ما جاءنا من نذير ولا رأيناه يوماً قط ولا سمعناه به ولا بلغ إلينا رسالة ، فإذا سمع نوح ـــ عليه السلام ـــ كلام قومه ذهبت نفسه وود لو ابتلعته الأرض ، ولو قضى الله ـــ تبارك وتعالى ـــ بالموت لمات نوح حين جحده قومه ، حياءً من الله ـــ تبارك وتعالى ـــ ، فيقول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ : يا نوح : هل تجد من يشهد لك أنك قد بلغت قومك الرسالة ؟ فينظر نوح ـــ عليه السلام ـــ فى الموقف يميناً وشمالاً ومشرقاً ومغرباً يتضح

ويتبصر من بين سائر الأنبياء والمرسلين ، وبين كراسى الشهداء والصديقين . فلا يرى فى المنابر أعلى ولا أنور ولا أحسن ولا أزهى من منبر محمد ــ ﷺ ــ .

جاه الرسول الأعظم

ولا يرى فى الأنبياء وجهاً أحسن من وجه محمد ــ ﷺ ــ ، ولا يرى نوح فى الكراسى أنور ولا أحسن من كراسى أمة محمد ــ ﷺ ــ ، ولا يرى أبهى ولا أنور ولا أحسن من كرسى أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ . ولا يرى فى الوجوه وجوهاً أحسن من وجوه أمة محمد ــ ﷺ ــ ، ولا يرى فى الصديقين والشهداء أحسن ولا أبهى ولا أنور من وجه أبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ

فضل أبى بكر الصديق

فيقول له نوح : قد أصبت من يشهد لى يا مولاى وسيدى ، فيقول الله ــ تبارك وتعالى ــ وهو أعلم ــ من يشهد لك يا نوح ؟ فيقول نوح ــ عليه السلام ــ يشهد لى محمد ــ ﷺ ــ وأمته بأنى قد بلغت قومى الرسالة ، فينادى مناد : أين النبى الأمى العربى التهامى ؟ أين أحمد ؟ أين سيد المرسلين ، وأين خاتم النبيين والمرسلين ، أين إمام المتقين ؟ فعند ذلك يقوم محمد ــ ﷺ ــ ، وعند ذلك يرفع أهل الجمع رءوسهم إذا رأوا رسول الله ــ ﷺ ــ فيمضى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ حتى ينتهى إلى ربه ــ عز وجل ــ فيقول له ربه يا أحمد ــ ونوح قائم ينظر ــ ما تقول هل بلغ نوح الرسالة إلى قومه ؟

فيقول محمد ــ ﷺ ــ : نعم يا سيدى ومولاى قد بلغ وأقام يدعوهم إلى الإيمان ألف سنة إلا خمسين عاماً . فيقول الجبار ــ جل جلاله ــ : صدقت يا أحمد . فعند ذلك يفرح نوح ــ عليه السلام ــ ويتهلل وجهه ، ثم يقول الله تعالى : يا محمد : هلم أمتك إلى الحساب والشهادة ، فتجتمع كل أمة حول نبيها وتنظر أمة محمد ــ ﷺ ــ يميناً وشمالاً فلا يرون النبى ــ ﷺ ــ ، والأمم قد أحدقت بأنبيائها وينظر الأنبياء والأمم إلى منبر رسول الله ــ ﷺ ــ خالياً .

منبر الرسول والمحشر

فيقول بعضهم لبعض : لمن هذا المنبر الذى لا يرى فى الموقف مثله لحسنه وجماله ، ولا يرى أنور منه ولا أعلا ولا أبهى منه ، ونراه خالياً ولا نرى له صاحباً ؟

فبينما هم ينظرون إلى منبر النبى — ﷺ — إذ ينادى المنادى ، ألا إن هذا المنبر منبر محمد — ﷺ — ، وإن محمداً — ﷺ — يناجى ربه فى المذنبين من أمته يشفع لهم إلى الله — تعالى — : فبينما هذه الأمة وقوف مغمومون محزونون بما يأتى النبى — ﷺ — من عند ربه — عز وجل — ، إذ يخرج إليهم — صلوات الله وسلامه عليه — من عند ربه — عز وجل — ، إذ يخرج إليهم — صلوات الله وسلامه عليه — من عند ربه — جل جلاله — حتى ينتهى إليهم فيقوم بينهم فيرفعون رءوسهم وينظرون إليه فإذا رآهم — صلوات الله وسلامه عليه — أرسل عينيه بالبكاء ، فإذا نظروا ﴿ **تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾[١] الآية . ذلك يوم مهول عبوس ، يوم تشيب فيه الرءوس ، وتذهل فيه النفوس ، وتبلو كل نفس ما أسلفت ، وتقدم كل أمة على ما أقدمت ، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت ، يجد والله كل عبد وأمة ما عمل وقدم من خير ثواباً ونعيماً ، وسروراً مقيماً ، ورباً كريماً ، رءوفاً بعباده رحيماً . ويجد كل عبد وأمة ما عمل من شر خزياً جسيماً ، وناراً وجحيماً ، وعذاباً مُقيماً ، ونكالاً أليماً ، ورباً غضباناً عظيماً ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ .

الثواب والعقاب

يجد الطائع الثواب ، ويجد الفاسق العذاب ، يجد المؤمن لذة الوصال ، بالنظر إلى الكبير المتعال ، فى دار الخلد والجلال ، ويجد الكافر العذاب والنكال ، والسلاسل والأغلال ، والجحيم والخبال ، وفظاعة الأهوال ، يوم تجد كل نفس ما عملت ، يجد المؤمن النعيم والكرامة ، والأمن فى القيامة ، والعافية والسلامة ، والحلول فى دار المقامة ، ويجد الكافر الخزى والندامة ، والعذاب والملامة ، ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ يجد المؤمن الدرجات ، ويجد الكافر العقوبات ، يجد المؤمن السرور ، ويجد الفاجر الثبور ، يجد المؤمن النعيم والخلود ، ويجد الفاجر عذاباً غير مردود ، يجد المؤمن ما قدم من الإحسان ، فى درجات الجنان فى جوار الرحمن ، مع الخيرات الحسان ، ويجد الفاجر ما عمل من العصيان فى سموم النيران ، فى جوار الشيطان ، مع الذل والهوان . ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ فى يوم هائل عظيم ، يوم تكثر فيه الغموم وتعظم فيه الهموم ، ويفصل الرب بين عباده وهو الحى القيوم ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ يوم تندم على القبائح ، وتتأسف عند معاينة الفضائح ، وتوجد الأعمال فى الصحائف الصحائح ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت** ﴾ يوم يندم الظالم ويخسر الآثم ، ويكون الجبار — جل جلاله — فى ذلك اليوم العدل الحاكم ، ذلك يوم الندامة والحسرة ، والأهوال والعبرة . وأنشدوا :

يا واحداً صمداً بغير قرين ... ارحم ضراعة عبدك المسكين
واعطف علىّ إذا وقفت مروعاً ... حيران بين يديك يوم الدين

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

يـــا حسرتى بين العبـــاد إذا هموا خافوا الحساب فخـف عنهم دونى
ما حيلتى فى يوم نشر صحيفتى إذا قيـل لى خذهـا بـغير يمين
مـا حيلتى عنـد الحساب وهولـه إذا قصرت بى قـوتى ويقينـى
لا حيلـة عنـدى ولا لى موئـل إن خاننى طمعى وحسن ظنـونى
يـارب لا تتـرك عبيـدك هالكـاً وارحـم بـفضلك عبرتى وشئـونى

﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ أى تجده حاضراً عتيداً (العتيد الحاضر المهيأ) وتسأل عن أعمالك سؤالاً شديداً ﴿ **وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾[١] . قيل الأمد البعيد الذى يود من عمل سوءاً وعصى مولاه أن يكون بينه وبين عمله السوء كما بين المشرق والمغرب وقيل الأمد البعيد الغاية فى البعد الذى يتمنى أنه تاب فى الدنيا وتبدل الشر بالخير حتى يمحى عنه السوء بالتوبة فلا يراه ولا يسمعه ولا يعاقب عليه إذا رأى التائبين غفر لهم بالتوبة ، وبدلت سيئاتهم بالحسنات والأوبة ، كما قال تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** ﴾[٢] الآية .

فائدة التوبة

وقال - رسول الله - ﷺ - « كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون »[٣] فإذا رأى المسكين الذى عمل السوء وقد أحاطت به الكروب وترادفت عليه الهموم والخطوب ، واسود وجهه من ظلمات الذنوب ، وقد غضب عليه علام الغيوب ، ورأى الذين تابوا من إخوانه وأهله وأصحابه وجيرانه قد فازوا بالملك الكبير ، والحساب اليسير ، ولباس السندس والحرير والنظر إلى وجه السميع البصير ، قد جاء فى القرآن الكريم ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾[٤] ، وفى الحديث « سترون ربكم كالقمر عند تمامه لا تضارون شيئاً عن رؤيته »[٥] ورؤية الله - تعالى - يوم القيامة لا شك فيها وتلك أفضل الكرامة ، وقد أيدها الإمام أحمد بن حنبل بأحاديث صحيحة ورأى نفسه قد خسر وخاب ، وحرم الثواب ، ونوقش

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٢) سورة الفرقان الآية ٦٨

(٣) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٦٨ كتاب صفة القيامة باب ٤٩ رقم ٢٤٩٩ ط / دار الكتب العلمية ــ تحقيق كمال يوسف الحوت . وقال : هذا حديث غريب لا تعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة .
وانظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢٠ . كتاب الزهد ، باب ذكر التوبة . رقم ٤٢٥١ .

(٤) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣

(٥) انظر صحيح البخارى ج ٤ ص ٢٨٣ . كتاب التوحيد . باب قول الله ــ تعالى ــ ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .
انظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٩٤ كتاب صفة الجنة وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب .

الحساب ، وحجب عن رب الأرباب ، وصار إلى أليم العذاب . يود لو كان تائباً ، ولم يكن من الرحمة خائباً ، يود لو كان السوء عنه بعيداً ولم يكن حاضراً عتيداً ، ولم يكن العذاب عليه شديداً . يود لو كان من التائبين ، ولم يكن من المحرومين ، يود لو كان من الآمنين ولم يكن من المخالفين ، يود لو كان من الطائعين ولم يكن من العاصين ، يود لو كان من المحسنين ولم يكن من الظالمين ، يود لو كان من أهل الجنان ولم يكن من أهل النيران ، يود لو كان من أهل الثواب ولم يكن من أهل العقاب ، يود لو كان من أهل النعيم ولم يكن من أهل الجحيم ، يود لو كان من الأولياء ولم يكن من الأشقياء . يود لو كان من أهل الوفاق ، ولم يكن من أهل النفاق . يود لو كان من أهل الفوز بالجنة ، ولم يكن من أهل العذاب والمحنة . يود لو كان سعيداً رشيداً ، ولم يكن عن الله بعيداً . لا أبعدنا الله وإياك من رحمته ، وقربنا وإياكم بالفوز لجنته .

عمل العبد يلازمه

ذكر فى بعض الأخبار أن العبد إذا مات أحضر عمله كله عند رأسه حين يغسل خيراً كان أو شراً ، فإذا صلى عليه ومضى إلى قبره وانصرف الناس عنه بقى عمله معه فى قبره ولا يزال معه فى قبره إلى يوم يخرج من قبره فإذا خرج خرج معه ، فإذا قدم إلى الحساب اجتمع عمله كله خيره وشره حتى حركاته وأنفاسه ووفاته وخلافه ، يجد الكل مجموعاً لم يُنس منه شىء من الكبائر ولا من الصغائر ، ولا من الظواهر ولا من السرائر .

الحض على التوبة

فالله الله معشر المذنبين ، ابعدوا عن عمل السوء بالتوبة إلى الرحمن ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا فإنها غرور الشيطان ، واعلموا أن الله ـ تبارك وتعالى ـ يمحو عنكم سيئاتكم بترك الذنوب والعزم على التوبة ، ويرحمكم يوم الحساب بحسن الأوبة . يا أخى وما عسى أن أقول لك من كرم مولاك الجليل ـ جل جلاله ـ لو أن الذنوب التى عملت فى أيام طغيانك وعصيانك كانت مثل جبال الدنيا برمالها وبحارها وأنهارها ، وتبت توبة واحدة بصدق وحرقة وندامة ، ليغفرها لك مولاك الكريم بكرمه وفضله ، ولا تسأل عنها يوم القيامة ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[1] ، وأنشدوا :

---

(١) سورة النساء الآية ١١٦

نهاك الطبيب محيلاً على مطاعم لونلتها لم تمت
وخاطبك الله جل اسمه بترك الذنوب التى حرمت
فأعرضت عن أمره لاهياً وأمنت نفسك ما خوفت
فأطمعتها أن تنال الرضا بجهلك فى فضل من قد عصت
فماذا تقول إذا أزعجت لتخرج بالكره فاستسلمت
فلا ندم حط أوزارها ولا توبة غسلت ما جنت
وأفردت وحدك فى ملحد بكت فيه نفسك ما أسلفت

ما تحويه الآية

يا أهل الذنوب تدبروا هذه الآية فإن فيها بلاغة لمن تذكر، وزجراً لمن اعتبر، وتخويفاً لمن تدبر، ونهياً لمن تفكر. فالفكرة عبادة، وخير وزيادة لأن مولاكم الكريم قد خوفكم وهددكم وزجركم بها زجراً شديداً فقال: **﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾**[1].

ثم قال: **﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾** أى يحذركم عقابه وعذابه إذا عصيتموه ويجزل لكم ثوابه إذا أطعتموه، فلا يحقرن أحدكم من الذنوب شيئاً وإن صغر، فربما كان فيه شدة العذاب والعقاب، ولا يحقرن أحدكم حسنة يعملها وإن قلت فربما كان فيها الرضا من الملك الوهاب، واعلموا أن الذنب الذى يحقره صاحبه يكون يوم القيامة فى ميزان فاعله أثقل من جبال الأرض، فازجر نفسك عن غيها وقدم فى حياتك ليوم فقرك. والأصل فى الذنب الصغير أن يكون سبباً لدخول صاحبه النار. إن العبد المغرور يعمل الذنب ويحقره ولا يفكر فى من قد عصاه وهو الجبار - جل جلاله -، فعند ذلك يغضب عليه مولاه ويقول له: عبدى حقر ذنبه واستخف بحقى، وعزتى وجلالى لأعذبنه عليه بالنار، ومن تاب تاب الله عليه وغفر له بالتوبة.

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠

وقد قال رسول الله - ﷺ - : « إياكم ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالباً »(١) قال الله - سبحانه - : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت ﴾ الآية . وأنشدوا :

قـد ذهب الحى إلى عـرسه وعـذب الميت فى رمسه
مـرتهن النـفس بأعمـالها لا يأمـن الإطـلاق مـن حـبسه
لنـفسه صالح أعمـالها ومـا سوى هـذا على نـفسه

حكاية عن أحد الصالحين

حكى أن المنصور بن عمار - رحمه الله - دخل على عبد الملك بن مروان ، فقال له عبد الملك : يا منصور مسألة ؟ وقد أمهلتك سنة كاملة ، من أعقل الناس ؟ ومن أجهل الناس ؟ قال : فخرج منصور إلى بعض الفضاء من القصر ليخرج فإذا الجواب قد حضره ، فرجع إلى عبد الملك ، فقال له عبد الملك : يا منصور ما الذى ردك إلينا ؟ قال : يا أمير المؤمنين أعقل الناس محسن خائف وأجهل الناس مسىء آمن . فبكى أمير المؤمنين حتى بل ثيابه بدموعه ثم قال : أحسنت والله يا منصور ثم قال له إقرأ علىّ شيئاً من كتاب الله فهو الشفاء لما فى الصدور ، وهو الدواء والنور ، فقرأ : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية . فقال عبد الملك : قتلتنى يا منصور ، وما معنى ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ قال منصور : عقوبته يا أمير المؤمنين فبكى عبد الملك ثم أفاق فبكى مرة أخرى ثم قال يا منصور : وما معنى (رءوف بالعباد) قال : رحيم غفار لمن تاب وأناب . قال : وما معنى ﴿ ما عملت من سوء محضراً ﴾ قال : كل صغيرة وكبيرة يجدها العبد يوم القيامة ، لم يغفر الله منها شيئاً . فبكى عبد الملك حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال :

رقة عبد الملك بن مروان

إن - والله - من فكر فى هذه الآية وعصى مولاه بعد ذلك لقد ضل ضلالاً بعيداً . وأنشدوا :

بكيت على عظم الذنوب وغزرهـا وما قل من يبكى لعظم سؤالـه
تفكر فى عظم السؤال وهو لـه وتنـدب دهـراً زاد قبـح فعالـه

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٧ ص ٤٦١ ، ج ٨ ص ٤٨٣ . ط / الشعب .
وانظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤١٧ كتاب الزهد رقم ٣٢٤٣ بلفظ يا عائشة : إياك .. الحديث .
وانظر مسند أحمد ج ٦ ص ١٥١ وأيضا ج ٦ ص ٧٠

لعل إله العرش يرحم عبده ويمنحه فى الحشر طول وصاله
ويغفر ما قد كان فى طول جهله ويسكنه بالغفو دار جلاله
وإن نظر الرب العظيم جلاله فذاك جسيم من جزيل نواله

﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ تجد والله كل نفس ما قدمت فى الأيام ، من الطاعات والإجرام ، ذلك يوم المصائب ويوم النوائب ، ويوم العجائب . يوم هتك الأستار ، يوم تسعر فيه النار ، يوم يفوز فيه الأبرار ، ويندم فيه الفجار ، وتعرض العباد على الواحد القهار ، فالعجب كل العجب ممن قطع عمره فى الأغفال ، وضيع أيامه فى المحال ، وأفنى شبابه فى الضلال ، ولم يعمل بما فى كتاب ذى المجد والجلال ، قال الله الكبير المتعال : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ يقول الله تعالى : يا ابن آدم تطلب موعظة ساعة وتقيم على الذنب سنة وأنشدوا :

ما بال قلبك باللذات قد شغفا وعن فوات صواب الفعل ما أسفا
وقد توعده الجبار خالقنا وبالذنوب وبالعصيان قد كلفا

توبيخ الله تعالى للعباد

ذكر فى بعض الأخبار أن الله تعالى يقول فى بعض كتبه المنزلة على أنبيائه : يا عبدى ما الذى زهدك فىّ ورغبك فى غيرى ؟ عبدى أنا أتقرب إليك وتهرب عنى وأطلبك وتفر منى . عبدى بسطت لك غرور الدنيا فاشتغلت بها عنى ، وآثرتها علىَّ وزهدت فى سعة رحمتى ، أهكذا يفعل المطيعون بأربابهم المحسنين إليهم ؟ عبدى ، من الذى سترك وكلأك وحفظك ووقاك ؟ هل كانت لك شركة فى نفسك معى ، أم هل كانت لك قوة بنفسك على ؟ عبدى ما الذى قصرك عن عبادتى ؟ ما الذى زهدك فى طاعتى ؟ أين أنت من هادم اللذات ، أين أنت من نواح الآباء والأمهات ، أين أنت من المفرق بين البنين والبنات ، أين أنت ممن لا يستأذن على أصحاب القصور ، ولا يستأمر أرباب الدور ، أين أنت من قاصم الجبارين الموكل بأرواح المخلوقين ؟ عبدى ، أليس قد اضمحلت آثار الماضين ، ودرست معالم السالفين ، واتبع آثارهم الباقون . ومن ذا الذى يقوم بخلود الدهر غيرى ؟ ومن ذا الذى ينفع دوام الأبد غيرى ؟ عجزت عن الخلود الجبال الراسيات والأطواد العاليات والبحار الطاميات . أنا الذى تفردت بالبقاء ، وحكمت على عبادى بالفناء ، أنا الله لا إله إلا أنا لا شريك معى فى ملكى ، ولا نظير لى فى حكمى ، ولا ضد لى فى سلطانى . وأنشدوا :

أما والذى لا خلد إلا لوجهه ومن ليس فى العز المنيع له كفو
لئن كان هذا العيش مراً مذاقه لقد يجتنى من غثه الثمر الحلو

السؤال لا يدع ذرة

واعلموا أن الله ـــ تعالى ـــ سائلكم عن الكبيرة والصغيرة ، والخفية والسريرة ، وعن كل ما قل ، وما دق وما جل ، لا يغفل عن شيء ، يجد العبد ما عمل حاضراً ، ويجزى به وافراً ، ويسأل عما عمل سراً مظاهراً ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ تجد ـــ والله ـــ القليل والكثير ، والنقير والذرة والقطمير . وأنشدوا :

والله لو بكينا طول الأيام ... بدمع هامل سجام
وفررنا من الأهل والأوطان ... إلى الجبال والآكام[1]

خوفاً من ذلك المقام ، لكان ذلك لنا قليلاً خوفاً من سؤال الملك العلام . فكيف ونحن لا نفيق من الغفلات ، ولا ننتبه من السكرات ، ولا نخاف يوماً نجد فيه الحسنات والسيئات ، ونسأل عن المظالم والتبعات ، كما قال الذى فطر الأرض والسموات : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا** ﴾ .

سؤال الله تعالى للعباد

روى عن النبى ـــ ﷺ ـــ أنه قال : « إن الله ـــ تعالى ـــ يخلو بعبده يوم القيامة ليس بينه وبينه حجاب ويقول له : عبدى : عملت كذا وكذا فى يوم كذا . أما علمت أنى مطلع عليك ؟ يا عبدى أفجعلتنى أهون الناظرين إليك ؟ أما استحييت منى ، أما استحييت من ملائكتى ، أما خفت من عقابى ؟ عبدى أرويتك من الماء البارد وقويت جسمك ووسعت عليك من سعة رزقى فعصيتنى . حتى إن العبد ليذوب حياء من الله ويغمره العرق حتى ليكاد يموت من الفزع ، ثم يقول العبد : يارب : النار أهون على من حيائى منك ومن العباد . فيأمر الله ـــ تعالى ـــ به إلى النار ، فيمضى العبد وهو يرد رأسه ويقول : يارب : وعزتك وجلالك ما عصيت بهذا كله استخفافاً بحقك ، وما ظننت بك إلا أن تغفر لى كما سترت علىّ فى الدنيا ، وقد أيقنت أن عصيانى ذلك لا يضرك ، وأن رحمتك لى لا تنقصك . فيقول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ : يا ملائكتى مروا بعبدى إلى الجنة . ومن العباد من يقول : يارب العذاب علىّ أهون من توبيخك لى أرسل بى إلى النار كما يفعل بالعبد الآبق[2] عن مولاه . فيقول الله ـــ تبارك وتعالى ـــ : عبدى ما بحتك إلا لأعرفك أن ذنوبك بعينى إذ عصيتنى بها ، وجعلت توبيخى لك كفارة لذنوبك وقد غفرتها لك وقد رحمتك وأنا أرحم الراحمين . مروا بعبدى إلى الجنة »[3] .

---

(١) الآكام : جمع أكمة ، وهى التل المرتفع من الرمل أو الحجارة

(٢) أبق العبد ـــ بفتح الباء ـــ هرب

(٣) انظر الحديث بمعناه فى اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٤٦٩ ، ص ٤٧٠ .

جعلنا الله وإياكم من أهل الجنة أجمعين ، وتوفانا برحمته مسلمين ، وختم لنا عند فراق الدنيا بحسن الخاتمة ، وكلمة التقوى ، قول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ــ صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشرف وكرم ــ ، وحشرنا معه فى المقام الأعظم ، مع أصحابه وأزواجه الكرام أمهات المؤمنين ، آمين . يارب العالمين .

مجلس فى قوله تعالى

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ﴾ الآية .

قال الله ــ سبحانه وتعالى ــ : **﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ﴾** يجد المؤمن الحسنات فى قرار الجنات ، والقصور العاليات ، والحور والدرجات ، والنظر إلى رب الأرضين والسموات ، يجد الطائع البشرى ، ويجد الفاجر النار الكبرى ، يجد المؤمن الأمان مع السرور والرضوان ، ويجد الفاجر الهوان مع الذل والخسران ، يجد المؤمن الملك الجزيل ، مع الثواب والتفضيل ، وأنهار السلسبيل ، والنظر إلى وجه الملك الجليل ، ويجد الفاجر النوح والعويل ، والحزن الدائم الطويل ، والعذاب الشديد الثقيل ، يجد المؤمن الخلاص ، والتبجيل والإختصاص ، ويجد الفاجر العذاب وشدة القصاص . المؤمن يوم القيامة مرحوم والفاجر باللعنة مرجوم ، المؤمن عند الحساب مستور ، والفاجر عند السؤال مشهور . المؤمن عند الحساب يلاطف ، والفاجر عند الحساب يكاشف . المؤمن حسابه عتاب ، والفاجر سؤاله عذاب . المؤمن يجد من مولاه الرحمة ، والفاجر يجد من الله النقمة . المؤمن حسابه يسير والفاجر حسابه عسير . المؤمن يجد لباسه حرير الجنان ، والفاجر لباسه سرابيل القطران . المؤمن يجد عمله سروراً والفاجر يجد عمله ويلاً وثبوراً . المؤمن يجد الإتصال ، والفاجر يجد الإنفصال . المؤمن يجد الخلاص والفكاك ، والفاجر يجد الهوان والهلاك . المؤمن مع محمد النبى ، والفاجر مع الشيطان الغوى . المؤمن فى وجهه نضرة النعيم ، والفاجر فى وجهه ظلمة الجحيم ، المؤمن فى الحساب ريان ، والفاجر فى الموقف عطشان . وأنشدوا :

أنت المخاطب أيها الإنسان ... فأصخ[1] إلىّ يلح لك البرهان
أودعت ما لو قلته لك قلت لى ... هذا لعمرك كله هذيان
فانظر لعقلك من بيانك واعتبر ... اتقان صنعته فثم الشان[2]

(١) أصاخ له : استمع

(٢) أى إذا نظرت بعين فكرك وتدبرت بسديد رأيك صنع الله ــ تعالى ــ وإتقان هذا الصنع فى الذرة الصغيرة وفى الفيل الكبير لعلمت أنه هناك الشأن أو الدلالة على قدرته وحدانيته .

وجزا محاسن فعلهم فى حشرهم   عند الإله وعنده الرضوان
هذا لعمرى ظاهر لا يختفى   نطق الرسول وبين الفرقان
وفى كل شىء له آية ، تدل على أنه الواحد

حكم قدسية

ذكر فى بعض الحكم التى أنزلت على الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – : عجباً لمن لا يرحم نفسه كيف يرحم ، وعجباً لمن يدوم على المعصية كيف يرجو حسن المآب ، وعجباً لمن يعمل أعمال النيران وهو يطلب نعيم الجنان . كأنك يا أخى قد قربت من العرض والحساب ، ووقفت بين يدى الملك الوهاب ، فيأمر بك إلى الجنة وحسن المآب ، أو إلى النار وأليم العذاب ، تفكر فى هذا كله يا مغرور لعل القسوة تنجلى من قلبك ، والوقر أن يزول عن سمعك ، والغطاء أن يرتفع عن بصر قلبك ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور . فانظر يا أخى بنور فكرتك ، وأطلق الموعظة على بحر عبرتك ، فلعل العين أن تدمع ، ولعل القلب أن يرق ويخشع ، فإذا جرت الدموع وخشعت القلوب محيت الذنوب ، وبلغت المنى والمرغوب ، ويسر حسابك علام الغيوب . وأنشدوا :

تذكرى المكث فى التراب   حتى أنادى إلى الحساب
هون كل البلاء عندى   وهكذا الفقد للشباب[1]
فليت شعرى وكم مقامى   تحت الثرى أو متى إيابى
لو كان لى عقل ما هنانى   نومى ولا ساغ[2] لى شرابى
ولا ضحكت ولست أدرى   ما لى لدى الله من حساب

النداء بأسماء الخلائق

ذكر فى بعض الأخبار : أن الخلائق إذا وقفوا فى أرض القيامة فيقف كل عبد وأمة إذا نادى المنادى باسمك يا مغرور على رءوس الأولين والآخرين . أين فلان بن فلان ؟ أو أين فلانة بنت فلان ؟ هلم إلى الحساب بين يدى رب العالمين ، فاستقر فى سمعك يا مسكين أنك أنت المنادى من جميع الخلق ، فقمت على قدميك قد تغير من الفزع لونك ، وانخلع من الجزع قلبك ، واضطربت من الهلع مفاصلك ، وقد سمع من كان حولك حسيس قلبك بالخفقان ، وأوصالك قد اشتدت فى الطيران ، فكادت نفسك

(١) أى وهون أيضاً فقدى للشباب وهو حقاً أشد ما يحزن عليه الشيخ . وقيل : إن الشباب علة التصابى ، روائح الجنة فى الشباب .
(٢) ساغ الشراب : سهل مدخله فى الحلق

أن تزهق من خوف الرحمن ، فإذا نظر الملك الموكل بسوقك وقد تغير لونك وتحير لبك ، علم أنك أنت المنادى باسمه فإذا كنت من أهل النفاق والعصيان للملك الخلاق ، نظر على وجهك ظلمة الذنوب ، فعلم أنك عدو لعلام الغيوب ، فجمع بين ناصيتك وقدميك ، غضباً لغضب الله عليك .

أهل الرشاد والتوفيق

قال الله ـــ تبارك وتعالى ـــ : ﴿ **يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام** ﴾[1] وإن كنت من أهل الرشاد ، والتوفيق والسداد ، الذين وفوا الله بالميعاد ، وخافوا مولاهم رب العباد ، أخذ بيدك الملك وقادك ، يجوز بك بالرفق ورفع الخلائق أبصارهم إليك ، وتمنوا مثل ما من الله عليك وأنت سائر إلى ربك ليجازيك بسعيك ، ويعدل عليك بكسبك . فلما انتهى بك الملك إلى سلطان العظمة .

فإن كنت من أهل السير الصالح فى الدنيا سترك جل جلاله بالنور ، وأبدى لك البشرى والسرور ، وقربك وأدناك ، وفضلك وحاباك ، فلم يطلع على حسابك ملك ولا نبى ولا رسول ، إلا الملك الجبار الذى لا يحول ولا يزول ، فيقول لك : عبدى : أنت الذى كنت تسهر والعباد نائمون ، وتصوم والعباد يشبعون ، وتبكى والعباد يضحكون ، وتحزن والعباد يفرحون ، وتخافنى والعباد آمنون ، أنت الذى كنت تجتهد فى عبادتى والعباد بطالون ، وتتصدق والعباد يبخلون ، وتبذل المعروف بين عبادى والناس يمنعون .

يقول المولى جل جلاله : فو عزتى وجلالى وملكى ومجدى وكبريائى وعظيم سلطانى وقدرتى على جميع العباد لأومنن روعك ، ولأبيحنك جنتى ، ولأوسعنك مغفرتى ورحمتى ، ولأعطينك من جزيل ثوابى وحسن مآبى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ولأبيحنك النظر إلى وجهى ، ولأرفعن قدرك وجاهك ، ولأشفعنك فى إخوانك وأهلك وأحبابك وجيرانك من أهل الذنوب والخطايا .

شفاعة العبد المؤمن

يقول المولى جل جلاله : يا عبدى ، أخرج إلى موقف الحشر فانظر إلى من لقينى من أهل الذنوب على التوحيد ، قد شفعتك فيه ، خذ بيده وانطلق به إلى الجنة بلا خوف ولا حزن ، والله تعالى أعلم . وأنشدوا :

---

(١) سورة الرحمن الآية ٤١

عنى إليك فما اللذات من شغلى ولا سبيل الصبا واللهو من سبلى
حال التقى دون ما قد كنت تعرفه فلست منه على زيغ ولا زلل[١]
فى الحشر لى شغل عن كل مشتغل بلذة وعن الألحاظ والمقل
هذا أطار الكرى عن مقلتى وزوى[٢] عنى المنى وطوى المبسوط من أملى
كم ليلة بت فيها ساهراً أرقاً أخشى العقاب وأخشى سرعة الأجل

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد** ﴾[٣] رءوف ــ والله ــ بالمؤمنين ، ذو نقمة على الظالمين ، رءوف بأهل الإحسان ، وذو انتقام من أهل العصيان ، رءوف بأهل السداد ، وذو انتقام من أهل العناد ، يا مغرور تفكر فى هذه الآية فلك فيها من التخويف غاية ، ومن الزجر والتقريع نهاية ، فازجر نفسك عن هواها ، عساك تبلغها يوم العرض مناها .

حكاية عن ذى النون المصرى

حكى عن ذى النون المصرى بن إبراهيم الأخميمى (أخميم بلدة من صعيد مصرّ مشهورة ، وهى الآن مركز مهم يصنع فيه قماش جيد وذى النون المصرى من أعلام المتصوفين القدماء اشتهرت عنه ألفاظ من الحكمة العالمية والفلسفة الإسلامية وربى كثيراً من المريدين . وله ترجمة وافية فى تاريخ الخطيب البغدادى) رحمة الله تعالى عليه أنه قال : خرجت مرة من المرات إلى ناحية الأردن من أرض الشام ، فلما علوت الوادى فإذا أنا بسواد قد أقبل وهو يقول ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[٤] فلما قرب منى السواد إذا هو شخص ، فتأملته ، فإذا هو امرأة عليها جبة صوف ، وخمار من صوف ، وبيدها ركوة[٥] ، وبيدها الأخرى عكاز ، فقالت لى غير فازعة منى : من أنت ؟ فقلت لها رجل غريب ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة وهو مؤنس الغرباء ، ومعين الضعفاء ، فاجعله أنيسك إذا استوحشت ، وهاديك إذا ضللت ، وصاحبك إذا احتجت . قال ذو النون : فبكيت من كلامها فقالت مم بكاؤك ؟ قلت لها : وقع دواؤك على دائى وأنا أرجو أن يكون سبباً لشفائى ، قالت فإن كنت

(١) الزيغ : الإنحراف عن السبيل السوى ، والزلل : الخطأ والوقوع فى المعصية .

(٢) زوى الشيىء يزويه زيا ، جمعه وقبضه ، وفى الحديث « زويت لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها » وهى هنا بمعنى : منع وحجب . انظر الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ٢٢١٥ كتاب الفتن باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض . وانظر سنن الترمذى ج ٤ ص ٤١٠ كتاب الفتن . باب ما جاء فى سؤال النبى ﷺ فى أمته .

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٠

(٤) سورة الزمر الآية ٤٧

(٥) والركوة : وعاء للماء يحمله المتزهدون ، ويصنع من الخشب غالباً . وترى مع المتمشيخين كثيراً .

صادقاً فى مقالتك فلم بكيت ؟ قلت لها رحمك الله والصادق لا يبكى !! قالت : لا ، قلت لها : لم لا يبكى الصادق ؟ قالت لأن البكاء راحة القلب وملجأ يلجأ إليه ، وماكتم القلب أحر من الزفير والشهيق وذلك ضعيف عند أوليائه . قال ذو النون : فبقيت والله متعجبا من قولها ، فقالت لى : ما لك ؟قلت : أنا والله متعجب من قولك ، قالت : وهل نسيت القرحة التى ذكرتها ؟ قال قلت لها : رحمك الله إن رأيت أن تمنى على بالزيادة . فقالت : وما أفادك الحكيم فى مقامك بين يديه من الفوائد ما يستغنى به عن طلب الزوائد ! قال : قلت لها : رحمك الله ما أنا بمستغنٍ عن طلب الزوائد ، قالت : صدقت يا مسكين ، حب مولاك واشتق إليه فإن له يوماً يذيق فيه أولياءه كأسا لا يظمئون بعده أبدا ، ثم علا شهيق ثم قالت : يا حبيب قلبى إلَّى ، كَم تخلفنى فى دار لا أجد فيها صادقاً برئياً من الدعاوى الكاذبة يساعدنى على البكاء أيام حياتى . ثم تركتنى وانحدرت فى الوادى وهى تقول : اللهم إليك لا إلى النار ، حتى غاب شخصها عن بصرى ، وانقطع صوتها عن سمعى . قال ذو النون : فو الله ما ذكرت كلامها قط إلا كدر على احشائى وعيشى . قال ذو النون : فلقد اديتنى واستقام حالى مذ رأيتها وأنشدوا :

أريد وأنت تعلم ما مرادى ... وتعلم ما تلجلج فى فؤادى
فهب لى ذلتى واغفر ذنوبى ... وسامحنى بها يوم التنادى

رجع إلى الموعظة

يا أخى : مالك لا تفكر فى قول مولاك الذى لم يزل عليك شهيداً وهو يسمعك ـ ويراك ، قوله تعالى ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وماعملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً** ﴾(١) الآية . اقرع يا مسكين بهذا الكلام باب قلبك فعساك تذيل عنه الأقفال . وترده عن الغى والمحال ، وتوقظه عن السهو والإغفال ، قال الله الكبير المتعال ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾(٢) ، ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ يوم يظهر الخفى من أعمالك ، يوم تبكى على قبيح أفعالك ، يوم يحزن المسىء من أقوالك ، يوم تنوح على خطاياك وضلالك .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠
(٢) سورة محمد الآية ٢٤

جهنم وشدقها

ذكر أن الخلق إذا اجتمعوا فى الموقف وضاق المتسع ، وعظم الفزع ، واشتد الجزع ، واختلفت الأقدام ، وكثر الإزدحام ، وجاءت جهنم بالهول الأعظم ، والعذاب المقيم الألزم ، ووقفت بين يدى الجبار خاضعة للملك القهار أمر الجبار — جل جلاله — أن تفتح أبوابها ، وترفع كل جلال[1] عليها ، وهى سبعة أبواب على كل باب سبعمائة ألف جلال ، وهى الحجب ، ولولا تلك الأجلال لاحترقت السموات ومن فيها والأرضون ومن عليها ، غلظ كل جلال خمسمائة عام ، فإذا فتح منها الأبواب رفعت تلك الحجب من عليها ورمت النفط والقطران وحجارة الكبريت ويخرج منها عنق من نار أسود فيلتقط من الموقف كل ذهب وفضة وياقوتة وزبرجدة[2] ولؤلؤة[3] استعدت لزينة الدنيا .

زينة الدنيا الزائلة

فيأخذ الكل ويجمعه ، والجبار — جل جلاله — يقول لها : اتركى ما لم يكن لنا فكل ما كان من زينة لم يرد به وجه الله — تعالى — أخذته النار ، ومناد ينادى أصحابها : « هذه زينتكم التى إشتغلتم بها عن طاعة الله — عز وجل — وآثرتموها على ما عند الله ، ولم تتبعوا سنة النبيين ، ولا سير الصالحين » ثم ينادى المنادى : « اتبعوا زينتكم » فتخرج عنق من النار مرة أخرى فتلتقط أصحابها إلا من رحم الله .

صاعقة جهنم

فعند ذلك يقول كل عبد وأمة : يا ليت هذا كله جعلته فى جنب الله ، يا ليته لم يكن معى ، يا ليته بعد عنى ، ثم يأمر الله — تعالى — أن ترتفع صاعقة من جهنم سوداء ، فتسود وجوه أقوام من الرجال والنساء ، وتعمى أبصار قوم من الرجال والنساء ، وتختم على أفواه قوم من الرجال والنساء ، فذلك قول الله — عز وجل — : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه** ﴾[4] ، يا أخى يا مسكين يا ضعيف اليقين مثلى : أتراك من أى الفريقين تكون ؟ أمن الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الملك الرحيم ، أو من الذين اسودت وجوههم ففى العذاب الأليم ؟ أفهل تكون من الذين أبيضت وجوههم بالرحمة ، أم من الذين اسودت وجوههم بالنقمة ؟ فكل من اسود وجهه فقد أيقن بالنار ، وكل من

---

(١) جلال : جمع جل ، وهو يصنع للدواب ، وهنا بمعنى الحجاب ، أى الستار الموضوع على جهنم .

(٢) الزبرجد : جوهر ثمين معروف ، لونه أميل إلى الزرقة .

(٣) اللؤلؤ : ما يخرج من الأصواف .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٦

أبيض وجهه فقد أيقن أنه من أهل دار القرار ، فيا لها من فرصة ما أعظمها ، ويا لها من مصيبة ما أدومها ، فإذا نزل السواد فى وجه من شاء الله ــ تبارك وتعالى ــ صار ذلك السواد حجاباً بينه وبين النظر إلى وجه مولاه ، وإذا نزل البياض فى وجه من أراد الله ــ تبارك وتعالى ــ يبيض وجهه رفع ذلك النور حجاب الذنوب الذى يحجب العبد عن النظر إلى وجه علام الغيوب .

من أبيض وجهه

وذلك أن البياض نور المغفرة ، وهو نور الرحمة ، وهو نور القرب ، وهو نور الوصال .

والسواد أيضاً هو سواد البعد ، وهو سواد الإنفصال ، وهو سواد النكال وهو سواد النقمة ، وهو سواد الحجبة . قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾(١) . فالحجاب يا مسكين يا مغرور فى الدنيا وقع على قلبك باكتساب السيئات ، ودوامك على الخطيئات ، وإشتغالك عن رب الأرضين والسموات ، قال الله ــ تبارك وتعالى ــ : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾(٢) .

فيا معشر المذنبين : أبعدوا السوء وأبدلوه بالإحسان ، وارغبوا فى نعيم الجنان ، وارجعوا عن الأوزار والعصيان ، فإنها تزيدكم من عذاب النيران . يا أخى : أبعد السوء وأبغضه بغضاً شديداً ، وكن على إبعاده بالتوبة جلداً جليداً ، من قبل أن يأتى يوم تود أن لو كان السوء عنك بعيداً ، ولم تتبع شيطاناً غوياً مريداً .

وأنشدوا :

يا من إليه جميع الخلق يبتهلوا ... وكل حى على رحماه يتكل
يا من نأى فرأى ما فى الغيوب ... وما تحت الثرى وحجاب الليل ينسدل
يا من دنا فنأى عن أن تحيط به ... الأفكار طبرا أو الأوهام والعلل
أنت الملاذ إذا ما أزمة شملت ... وأنت ملجأ من ضاقت به الحيل
أنت المنادى به فى كل حادثة ... أنت الإله وأنت الذخر والأمل
أنت الغياث لمن سدت مذاهبه ... أنت الدليل لمن ضلت به السبل
إنا قصدناك والآمال واقعة ... عليك والكل ملهوف ومبتهل
فإن غفرت فعن طول وعن كرم ... وإن سطوت فأنت الحاكم العدل

---

(١) سورة المطففين الآية ١٥

(٢) سورة آل عمران الآية ٣٠

حكاية ذى النون عن الراهب الصامت

قال ذو النون ــ رحمه الله ــ : ذكر لى عن راهب بالشام أنه لم يكلم أحداً مدة أربعين سنة ، فنهضت إليه فلم أزل أنادى تحت صومعته[1] وأقسم أن يشرف عليّ حتى أشرف من أعلى صومعته ، فراودته على الكلام فأبى على :فقلت له بالذى سكت من أجله ومن خوفه ألا أجبتنى عما أسألك عنه ، فقال لى : قل ولا تطل الكلام عليّ ، قلت له : منذ كم أنت فى هذا الموضع ؟ فقال : منذ يوم واحد ، فقلت له : وكيف ذلك ؟ قال : سمعت الناس يقولون أمس واليوم وغداً ، فأما أمس فقد فات ، وأما اليوم فلى ، وأما الغد فلا أدرى أبلغه أم لا ، ثم أدخل رأسه فما كلمنى وهو يبكى ويقول : لا صبر لى على النار . وأنشدوا :

أيا نفس لا صبر على النار فاعلمى وكونى على خوف من النار ما عشت
ودومى على الأحزان ما دمت حية عسى تذهب الأحزان عنك إذا مت
يقولون فى طول الكلام بلاغة وقد علموا أن البلاغة فى الصمت
إذا العبد لم يلعب هواه بعقله عصى ربه وازداد مقتاً على مقت

تقسيم العمر على الأعمال

معشر المذنبين : اجعلوا أعماركم ثلاثة أيام : يوم مضى ، ويوم أنتم فيه ، ويوم تنتظرونه لا تدرون بما يأتيكم من صلاح أو فساد ولعلكم لا تبلغونه ، فأصلحوا اليوم الذى مضى بالندم علي ما فاتكم فيه من الطاعة والإحسان ، وما اقترفتم فيه من الذنوب والعصيان ، واليوم الذى مضى إنما تصلحونه فى اليوم الذى أنتم فيه بالبكاء والندامة ، وذم النفس مع الملامة . وأنشدوا :

حتى متى نحن والأيام نحسّبها وإنما نحن فيها بين يومين
يوم تولى ويوم أنت تأمله لعله أجلب الأيام للحين[2]

آنس الله روعتى وروعتكم يوم النشور ، وآنس وحشتى ووحشتكم فى القبور ، إنه على ذلك قدير ، وهو عليه يسير ، وأماتنا وإياكم على هذه الكلمة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، غير مبدلين ولا مغيرين ولا مبتعدين . آمين . يارب العالمين .

(١) الصومعة : بناء صغير دقيق الرأس يسكنه رهاب النصارى وهى أشبه بـ (فيلا) صغيرة لسكنى فرد أو اثنين .
(٢) الحين : بالفتح ــ الهلاك ، وحان الرجل : هلك

مجلس فى قوله تعالى :

﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ الآية

يا أخى يا مسكين يا حيران ، من الذنوب والعصيان ، يا من تعرض لسخط الملك الديان ، يا من أقرعين عدوه الشيطان ، بتماديه على الخذلان ، والضلال والبهتان ، والأوزار والطغيان ، يا مغرور : إنك آخذ كتاباً ، ووارد حساباً ، ونازل ثواباً ، أو عذاباً . فقم يا غافل فى دار الغرور ، ما تجده فى الكتاب المنشور ، من الثواب والحبور ، والفرح والسرور ، والضياء والنور ، من رحمة العزيز الغفور .

أين الكتب يوم القيامة ؟

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « **الكتب كلها تحت العرش ، فإذا كان يوم القيامة بعث الله — تبارك وتعالى — ريحاً تطيرها بالايمان وبالشمائل » أول حرف فى الكتاب ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾**(١) ما أعدل الملك الوهاب ، إذ جعل الإنسان حسيب نفسه فى قراءة الكتاب . يا مسكين يا مغرور : إن أخذت الكتاب بالشمال فحسبك العذاب والنكال ،والمحن والأهوال ، والسلاسل والأغلال ، والحميم والخبال ، واللعنة والانفصال من ذى الجود والجلال . وإن أخذت الكتاب باليمين ، فحسبك المقام الأمين فى أعلى عليين ، مع الولدان والحور العين ، والاتصال برب العالمين ، وبمحمد خاتم النبيين — صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين — . وإن أصررت فى الدنيا على جرمك ، ولم تتب إلى مولاك عن قبيح ذنبك ، فسوف تأخذ كتابك من وراء ظهرك ، فتجد فيه ما يحزن قلبك ، ويعظم حزنك ويكثر كربك ، فيا معشر المذنبين : اعلموا أنما جعل الله الدنيا إبتلاء واختبارا ، وأوجب عليكم فيها حقوقاً كباراً ، فمتى ضيعتموها فقد أودعتم كتبكم آثاماً وأوزاراً ، ومتى وفيتم بها فقد ملأتم كتبكم سروراً وأنواراً ، وما من عبد ولا أمة إلا وله كتاب يقرؤه يوم العرض والحساب ، وإنما مثل الناس عند قراءتهم الكتاب ، كمثل الزارع إن زرع طيباً ، رفع طيباً ، وإن زرع خبيثاً رفع خبيثاً ، يا أخى : فكأنك أنت كتبته بأقوالك ، وملأته بأفعالك ، وسودته بالقبائح من أعمالك . وأنشدوا:

كأنى بنفسى فى القيامة واقف ... وقد فاض دمعى حين أعطى كتابيا
لعلمى بأفعالى وسوء مناقبى ... وأن كتابى سوف يبدى المساويا

(١) الحديث فى التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة . للقرطبى . ص ٢٩١ . باب ما جاء فى تطاير الصحف . انظر المعنى فى اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .

فيا أهل الذنوب مثلى : اعلموا أن الأعمال قد أثبتت عليكم فى الديوان ، من الإحسان والعصيان ، والزيادة والنقصان ، والنفاق والإيمان ، وأنت غافل فى سكرة الغرور ، وكتابك مملوء بالويل والثبور(١) . فبادروا إلى الصحائف وامحوا ما فيها من القبائح ، ومحصوا(١) ما قد ثبت عليكم من الفضائح ، وذلك باكتساب الحسنات ، كما قال رب الأرضين والسموات : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾(٣)

أول الناس حساباً

ذكر فى بعض الأخبار أن أول ما يحاسب الله من الأمم أمة محمد ــ ﷺ ــ فإذا اجتمع الأولون والآخرون فى أرض القيامة وقفت أمة محمد ــ ﷺ ــ ، فأول من يدعى منهم إلى الحساب ــ رجل من قريش من بنى مخزوم يقال له عبد الله بن عبد الأسد ، وله أخ يقال له الأسود بن عبد الأسد وفيهما نزلت هاتان الآيتان ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه** ﴾(٤) إلى قوله ﴿ **فى الأيام الخالية** ﴾ نزلت هذه الآية فى عبد الله بن عبد الأسد . ﴿ **وأما من أوتى كتابه بشماله** ﴾(٥) وهو الأسود بن عبد الأسد ، فأما عبد الله وهو المؤمن فيدخل من وراء الحجب فيوقف بين يدى الله عز وجل ، فترعد فرائصه ، وتنفك أوصاله ، وتذهل نفسه من شدة الخوف من الله تعالى ، فبينما هو على أشد الأحوال من الخوف بين يدى الجبار ــ جل جلاله ــ إذ يأتيه ملك من عند الله تعالى وبيده صحيفة بيضاء مختومة بخاتم الخلد ، فيقول له الملك :

كتاب الحسنات

هذا كتابك فيتناول الكتاب بيمينه . وكل من كان من أهل الشقاوة إذا أوتى كتابه يروم أن يمد اليمين لأخذه فلا يقدر ، لأنه يجد يمينه كأنما علق فيها جبال الدنيا فلا يطيق أن يرفعها من الثقل ، وقيل أنها تفك يده ، وقيل أنها تلصق بجسده ، وقيل أن الملك يقول له : يا عدو الله خذ كتابك بشمالك فإنك من أصحاب الشمال ــ جعلنا الله وإياكم من أصحاب اليمين ــ .

---

(١) الثبور : الهلاك والخسران

(٢) التمحيص : الإبتلاء والإختبار

(٣) سورة هود الآية ١١٤

(٤) سورة الحاقة الآية ١٩

(٥) سورة الحاقة الآية ٢٥

فيتناول عبد الله أخو الأسود كتابه بيمينه ويقال له اقرأ ما عملت من جد وشر ولا تلومن إلا نفسك ، فيفض خاتم الكتاب فينشر كتابه فإذا هو مكتوب بخط أبيض فى باطن الكتاب السيئات وفى ظاهره الحسنات فيقال له اقرأ سيئاتك ، فأول حرف يجد فى الكتاب أصغر ذنب عمله فى الدنيا فإذا رأى ذلك الذنب ميل رأسه ونكسه حياء من الله — تعالى — وسال منه من العرق ما لو أن مائتين من الإبل أكلت حمضاً والتهبت عطشاً ووردت على عرقه لشربت كلها ورجعت وقد رويت وما نقص من عرقه شيء .

كيفية السؤال

هذا كله حياء من الله عز وجل فيقول الجبار — جل جلاله — : عبدى فيقول : لبيك ربى وسعديك فيقول : ارفع رأسك أتعرف ذنبك هذا ؟ فيقول مولاى وسيدى وعزتك وجلالك أنى لأعرفه ، فيقول : عبدى أتذكر يوم كذا وكذا ، فى موضع كذا وكذا ، وأنت على هذا الذنب ؟ فيقول : نعم ، وعزتك وجلالك ، فيقول له الجبار جل جلاله : عبدى أنك إذا أخفيت ذلك من الخلائق ، لقد علمت أنى كنت مطلعاً عليك فيقول : بلى يا سيدى ومولاى وعزتك وجلالك لقد علمت ذلك . فيقول له جل جلاله : أما استحيت منى ؟ أما راقبتنى ؟ أما علمت أن مرجعك إلى ؟ والعبد فى هذا التوبيخ قد علاه الفرق وزاب من شدة الفرق فيقول مولاى وسيدى : لأن ترسل بى إلى النار أهون على من هذا التوبيخ ، فيقول الله — تبارك وتعالى — : عبدى أليس قد سترتها عليك فى الدنيا ؟ فيقول العبد مولاى لقد فعلت ذلك بى فيقول جل جلاله : عبدى وعزتى وجلالى ومجدى وجودى وكرمى لقد محوتها من قلوب الملائكة وقلوب الآدميين وأبقيتها بينى وبينك حتى تعلم نعمتى عليك وأفضالى لديك فى الدنيا والآخرة .

غفران الذنوب

فلا يزال — جل جلاله — يفعل به ذلك فى كل ذنب حتى يقرأ جميع ما فى كتابه من الذنوب فإذا أتى على آخر الكتاب وجد فيه ، عبدى : هذه سيئاتك قد غفرتها لك . فعند ذلك يبيض وجهه وتحسن بشرته ويذهب عنه الحزن والهم والجزع .

ثم يقول الله — جل جلاله — : قلب كتابك فاقرأ حسناتك ، فيقلب العبد كتابه فيقرأ حسناته ، كلما مر على حسنة إزداد قلبه فرحة وسروراً ، وازداد بياضاً وحسناً ونوراً ، ثم يؤتى بتاج من نور فيوضع على رأسه لو أخرج ذلك التاج إلى الدنيا لكسف نوره ضوء الشمس والقمر .

لباس المكرمين

ويؤتى بحلتين من حلل الجنة ، شبر منها خير من الدنيا وما فيها مائة ألف مرة ، فيلبسها ويحلى كل مفصل منه بحلى الجنة ، ويقال له : اخرج على الناس وأخبرهم وبشرهم أن لكل عبد وأمة من المؤمنين مثل ذلك . فعند ذلك يخرج عبد الله بن عبد الأسد وكتابه بيمينه وقد أشرق وجهه نورا ، وقلبه قد امتلأ سرورا . قد جرت على وجهه نضرة نعيم الجنان ، وتلك علامة لأهل الإيمان . والملك آخذ بيمينه وهو ينادى عليه نداء البشرى : ألا إن فلاناً قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ، والخلائق قد رفعوا أبصارهم إليه وتمنوا مثل ما منّ الله به عليه وهو يقرأ : ﴿ **هاؤم اقرءوا كتابيه** ﴾[1] ليس فيه سيئة واحدة قد غفر الله — تبارك وتعالى — جميع ذنوبى ومحاها عنى ﴿ **إنى ظننت أنى ملاق حسابيه** ﴾[2] إنى أيقنت فى الدنيا أنى ألقى هذا اليوم وكنت خائفاً من هوله ، ومن قراءتى كتابى ومن حساب ربى جل جلاله ، فلا يزال كذلك حتى ينتهى إلى أصحابه فيقولون : من هذا العبد الذى أكرمه الله ورضى عنه ؟ اللهم اجعله من أحبابنا وقربه منا حتى ننظر إلى ما قد فضله مولانا به ، فإذا قرب منهم سلم عليهم فيقولون له : من أنت يا عبد الله ؟ فيقول : أو ما تعرفونى ؟ فيقولون له : يا عبد الله ، لقد زينتك كرامة المولى — جل جلاله — حتى لا نعرفك ، فمن أنت ؟ فيقول لهم : أنا عبد الله بن عبد الأسد ، ألا وإن لكل واحد منكم مثل هذا ، وهكذا يفعل الله — تبارك وتعالى — بكل مؤمن يكون رأساً فى الخير يدعو إليه ويأمر به ، ثم يشفعه الله — تبارك وتعالى — فى كل من شاء من أهل الذنوب ، فعند ذلك يفرح أصحابه بما قد بشرهم به من المغفرة والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ﴿ **فهو فى عيشة راضية** ﴾[3] قد رضى ورضيت نفسه ورضى عنه مولاه ، وهو راض بتلك العيشة ، والعيشة هى الجنة ﴿ **فى جنة عالية** ﴾[4] فى غرفة ارتفاعها مسيرة مائة عام من لؤلؤة بيضاء أو من ياقوتة حمراء ، ملاطها المسك الأذفر ، والعنبر الأشهب والكافور الأبيض . ﴿ **قطوفها دانية** ﴾[5] يعنى ثمارها دانية منهم ، إذا اشتهوها نزلت عليهم حتى تدخل عليهم فى منازلهم ، فتدنو منهم فيأكلون من ثمارها ما يشتهون وهم نيام أو قعود أو قيام على أى حال أرادوا ، ثم ترجع إلى أماكنها وذلك قوله تعالى : ﴿ **كلوا واشربوا هنيئاً** ﴾[6] لا موت فيها ولا حزن ﴿ **بما أسلفتم فى الأيام الخالية** ﴾[7] يعنى الأيام الماضية ، وهى أيام الدنيا التى أطاعوا الله — تبارك وتعالى — فيها ، واستقاموا ولم يزوغوا عن طاعته . وأنشدوا :

---

(١) سورة الحاقة آية ١٩
(٢) سورة الحاقة آية ٢٠
(٣) سورة الحاقة آية ٢١
(٤) سورة الحاقة آية ٢٢
(٥) سورة الحاقة آية ٢٣
(٦) سورة الحاقة آية ٢٤
(٧) سورة الحاقة آية ٢٤

ببابك عبد من عبيدك مذنب كثير الخطايا جاء يسألك العفو
فأنزل عليه العفو يا من بمنه على قوم موسى أنزل المن والسلوى
أنا عبدك المسكين فارحم تضرعى ولا تجعل النيران يارب لى مثوى
وخفف من العصيان ظهرى إننى بلغت من الأوزار غايتها القصوى

فهذا عبد الله بن عبد الأسد ، الذى أنزل الله تعالى فيه هذه الآية ، وعلى سيرته فى الحساب تجرى سير المؤمنين من أمة محمد ـ ﷺ ـ على قدر أحوالهم واجتهادهم فى الدنيا فى الخير والإستقامة على طاعة الله

أشد الناس عذاباً

وأما قوله تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله ﴾(١) **فهو الأسود بن عبد الأسد المخزومى وهو أخو عبد الله بن عبد الأسد وذلك أن الله تعالى يدعو به على إثر أخيه عبد الله فيدخل الأسود حتى يوقف ، وبينه وبين الله ـ عز وجل ـ حجاب السخط ، فيكون من وراء الحجاب لأن الله ـ تعالى ـ لا يراه إلا المؤمنون وأما الكفار فلا يرونه ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ كلا إنهم عند ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾**(٢) فيوقف الأسود بين يدى الملائكة يرعد من خوف العذاب ، والملائكة الذين معه هم ملائكة العذاب ، فبينما هو كذلك إذ يأتيه ملك من ملائكة السخط فيأخذه بيده اليمنى ثم يهزها فيخلعها من موضعها فيعلقها من صلبه بجلده ، ثم يأخذ برأسه فيلوى عنقه فيحول وجهه فى قفاه

كتاب السيئات

ثم يأتيه ملك من وراء ظهره فى يده صحيفة سوداء فيها كتاب بخط أسود فى باطن الكتاب حسناته وفى ظاهره سيئاته والكتاب مختوم ، فيقال له : هذا كتابك خذه فلا يقدر أن يتناوله بيمينه لأن يمينه مخلوعة من منكبه ، فيتناول كتابه بشماله فيقال له : فض خاتم الكتاب فيفضه ، ويقال له : انشر كتابك واقرأه ، فينشر الصحيفة وهى سوداء فيبدأ بباطن الكتاب فتستقبله حسناته فيقرؤها ويفرح ويظن أنه سينجو من عذاب الله ـ تبارك وتعالى ـ ، حتى إذا بلغ آخر الصحيفة وجد فيها : هذه حسناتك قد ردت عليك لأنك لم ترد بها وجه الله ـ تعالى ـ والدار الآخرة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **من كان**

---

(١) سورة الحاقة آية ٢٥
(٢) سورة المطففين آية ١٥

يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴾[١] أى لا ينقصون ، تعجل لهم فى الدنيا أجور أعمالهم ولا يثابون فى الآخرة بشىء من أعملهم ، ولا يتجاوز عنهم فى شىء من أعمالهم السيئة حتى يعذبهم الله — تعالى — عليها ، وأعمالهم الحسنة أحبطها الله — عز وجل — بالكفر ، والأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله — تبارك وتعالى — يجازى الله — تعالى — أصحابها بالثواب الباقى وهو نعيم الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم ، فوجه الله باق ونعيم الجنة باق ، لأن الله تعالى خلق الجنة ثواباً لأهل الأعمال الصالحة التى يراد بها وجه الله — تعالى — : ﴿ **كل شىء هالك إلا وجهه** ﴾[٢] وكل عمل يراد به وجه الله لا يهلك ، يبقى ثوابه لصاحبه ، وثوابه الجنة ، فإن الله — تبارك وتعالى — يثيب على العمل الباقى بالنعيم الدائم الباقى ، ويثيب على العمل الفانى ، وهو ما يعمل للدنيا وزينتها بالعرض الفانى وهو حطام الدنيا ، والمؤمن لا يرضى الله — عز وجل — أن يثيبه على عمله الصالح بعرض من الدنيا وإن وسع عليه فى الدنيا . **أى بالمال والجاه والقوة** . فإنما يعطيه ذلك زيادة ومعونة يستعين بها على طاعته ، وأجر عمله ادخره له ليوم فقره إذا احتاج إليه . ثم يقال للأسود بن عبد الأسد : اقلب كتابك فاقرأ فيقلب ظاهره فتستقبله سيئاته مثل الجبال الرواسى وهى سود بخط أسود ، لأنها محبوطة بالكفر غير مقبولة ، فأول سيئة يقرؤها يسود وجهه ويسمج[٣] لونه ، كلما قرأ سيئة ازداد سماجة وقبحاً ، فإذا بلغ آخر الصحيفة وجد فيها : هذه سيئاتك قد اضعفت ، إنى قد أضعف عليك العذاب بعملك السيئات .

صفة العذاب للكافر

فيرجع وجهه أشد سواداً من القار — وهو الزفت — ويعظم جسده للنار حتى يكون ما بين منكبيه مسيرة شهر ، وغلظ كل فخذ من فخذيه مسيرة ثلاثة أيام ، وما بين شفتيه العليا والسفلى أربعون ذراعاً ، وقد خرجت أنيابه وأضراسه من بين شفتيه بادية وعيناه زرق ، وحدقتاه قد وقعتا على وجهه من شدة ما هو فيه من العذاب ، وكل ضرس من أضراسه أعظم من جبل أحد ، شعره كآجام القصب ، وله سبعة جلود غلظ ، كل جلد منها أربعون ذراعاً ، ما بين الجلد إلى الجلد مسيرة ثلاثة أيام فيها ديدان لها جلبة كجلبة الوحوش فى البرية ، فى جسده من الشعر ما لا يحصى عدده إلا الله — تعالى — ، فى أصل كل شعرة من الآلام والوجع والعذاب ما لو قسم على أهل الدنيا من يوم خلقهم الله — تعالى — إلى يوم يبعثهم لماتوا كلهم فى أسرع من طرفة عين . ثم يؤتى بسلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فتغل بها

---

(١) سورة هود آية ١٥
(٢) سورة القصص آية ٨٨
(٣) سمج : قبح — والسماجة : القباحة

يداه وعنقه ، ويدخل طرفها فى فيه وتخرج من دبره ، ثم يلف ما بقى منها على عنقه يتوقد ويشتعل ناراً ، ثم يؤتى بصخرة من كبريت أعظم من الجبل العظيم ، لو وضعت على جبال الدنيا لذابت من حرها فتعلق فى عنقه وهى تشتعل ناراً ، ثم يؤتى بتاج من نار فيوضع على رأسه فيصعد حر الصخرة إلى وجهه ، وينزل حر التاج إلى وجهه ، ويجتمع مع حر الصخرة ، ولا يقدر أن يرفع عن وجهه بيديه لأنهما مغلولتان إلى عنقه . قال الله تعالى : ﴿ **أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة** ﴾(١) وقال عز وجل : ﴿ **وتغشى وجوههم النار** ﴾(٢) تغشى وجوه الكفار . ثم يؤتى بسربال (قميص) من قطران وهو نحاس جهنم ، قد انتهى فى شدة الحر فيلبسه ، لو أن ذلك السربال ألقى فى الدنيا لصارت الدنيا من مشرقها إلى مغربها جمرة واحدة أسرع من لمح البصر ، ثم يقرن مع شيطان يكون ذلك الشيطان عليه أشد من كل عذاب يعذب به ، ثم يقال له : اخرج على الناس واخبر أصحابك أن لكل واحد منهم مثل هذا العذاب . فيخرج الأسود على أقبح الأحوال ، وكتابه بشماله ليس فيه حسنة واحدة ، وسيئاته ظاهرة للخلق ، والملك ينادى على الأسود ابن عبد الأسد : ياأهل الموقف ، قد شقى الأسود شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . إلعنوه فإن الله تعالى قد لعنه وسخط عليه ، فينادى بأعلى صوته نداء يسمعه أهل الجمع : ﴿ **يا ليتنى لم أوت كتابيه** ﴾(٣) أى يا ليتنى لم أعط كتابى بشمالى ولا يحل بى هذا البلاء الذى أنا فيه ﴿ **ولم أدر ما حسابيه** ﴾ (٤)اى يا ليتنى تبت وآمنت ولم أحاسب بهذا الحساب ، ولا نزل بى هذا العذاب . ﴿ **يا ليتها كانت القاضية** ﴾(٥) أى ياليت الموت عاد إلّى حتى يريحنى من هذا العذاب . ﴿ **ما أغنى عنى مالية** ﴾(٦) يعنى المال الذى كان معه فى الدنيا وكان ينفقه فى غير ا الله ويبخل به فى ذات الله — تبارك وتعالى — ﴿ **هلك عنى سلطانيه** ﴾(٧) أى انقطعت عنى حجتى واضمحلت . ثم يأمر الله — تعالى — أن يخرج له منبر من جهنم منْ نار فينصب له ، ويصعد عليه وتبدو كل قبيحه عملها فى الدنيا ، ويلعنه كل من فى الموقف ويعيره حتى يود لو أمر به إلى النار ، ثم يقول الله — تبارك وتعالى — للملائكة : ﴿ **خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه** ﴾(٨)

فيبتدره سبعون ألف ملك خلقوا من نار السموم ، مع كل ملك منهم زمن العذاب خلاف ما مع الآخر فيأخذونه بينهم فيلقونه فى الهاوية من النار الحامية ، ويدخلون بسلسلة فى فيه ويخرجون طرفها

(١) سورة الزمر آية ٢٤
(٢) سورة ابراهيم آية ٥٠
(٣) سورة الحاقة اية ٢٥
(٤) سورة الحاقة آية ٢٦
(٥) سورة الحاقة آية ٢٧
(٦) سورة الحاقة آية ٢٨
(٧) سورة الحاقة آية ٢٩
(٨) سورة الحاقة الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢

من دبره كما تصنع الخرزة فى السلك ، ثم يطعم الغسلين وهو شىء أسود نتن ــ لو أن قطرة من الغسلين (هو ما أنغسل من لحوم أهل النار ودمائهم ، ويقال هو صديدهم) لو أخرجت إلى الدنيا ، لمات جميع أهلها من النتن .

طعام أهل النار

وإنما يطعم أهل النار الغسلين لأنهم كانوا فى الدنيا لا يرون أن يغتسلوا من الجنابة ، ولا يتوضأوا للصلاة فيحرق الغسلين مواضع الوضوء والاغتسال وما سقط منه أطعموه إياه جزاء بما ضيعوا فى الدنيا من حقوق الله ــ تعالى ــ ، وهذا العذاب كله للأسود بن عبد الأسد ، وكذلك لكل من كان فى الشر رأساً يأمر به ويدعو إليه ، يفعل به كما فعل بالأسود بن عبد الأسد ، وكل من كان فى الدنيا فى الخير رأساً يأمر به ويدعو إليه يفعل به كما فعل بعبد الله بن عبد الأسد ، يجزى الله ــ تعالى ــ الناس كلهم على هذا المنهاج فى الخير والشر ، والله يفعل ما يشاء ، لا إله إلا هو ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فنعوذ بالله من أعمال أصحاب الشمال .

مجلس فى قوله تبارك وتعالى

﴿ ووضع الكتاب ﴾ الآية .

يا أهل الذنوب مثلى ، يا أهل العيوب مثلى ، يا من يعصى ولا يتوب ، يا من الغى والمحال له صحوب ، يا من ضيع غاية المنى والمرغوب ، يا من سود كتابه بمعصية علام الغيوب ، اعلموا ــ عصمنا الله وإياكم ــ أن للعباد غداً صحائف يقرءون فيها الحسنات والقبائح ، فمن كُتب له حافظاه خيرا فى الدار الفانية فهو خير له فى الدار الباقية ، ومن كان خائفا فى الدنيا من العذاب ، متحفظاً بما يثبت عليه فى الكتاب ، متجنباً لمعصية رب الأرباب ، وفقه الله مولاه للحق والصواب ، ويسر عليه برحمته الحساب ، ومحيت أوزاره من الكتاب ، ورضى عنه الملك الوهاب ، وأمر به إلى الجنة وحسن المآب .

ومن علم أن عمله يثبت عليه فى الديوان ، وهو يقرؤه لا محالة بين يدى الرحمن ، فكيف يألف العصيان ؟ وكيف يتحرك منه اللسان ، بالزور والبهتان ، ومخالفة كتاب الملك الديان ؟

الفرق بين الحسنة والسيئة

ذكر فى بعض الحكم أن رجلاً كان يسوق دابته فعثرت ، فقال الرجل : تعست الدابة ــ يعنى عثرت ــ فقال ملك اليمين لملك الشمال : ليست بحسنه فاكتبها ، فأوحى الله ــ تعالى ــ لملك الشمال ما ترك صاحب اليمين فاكتبه أنت ، فكتب صاحب الشمال قول الرجل : تعست الدابة .

وأعظم من هذا أنه ما من عبد ولا أمة يتنفس نفساً إلا أثبت عليه فى الكتاب ، فإن خرج النفس فى طاعة الله أثبته صاحب اليمين ، وإن خرج النفس فى غير طاعة الله — تعالى — أثبته صاحب الشمال حتى يحكم الله — تعالى — يوم الحساب فيه بحكمه ، فمن علم هذا يقيناً فلا يحتاج أن تمر عليه ساعة من ساعاته ، ولا وقت من أوقاته ، ولا لحظة من لحظاته إلا فى ذكر الله وفى الفكرة فى عظمة الله .

النجاة فى ذكر الله

روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « **ليس شىء أنجى للمؤمن من عذاب الله من ذكر الله ، وأكثر ما يجد المؤمن فى صحيفته يوم القيامة الإستغفار فى الليل والنهار** »(١) فكل من كان فى الدنيا من قراءة كتابه خائفاً مشفقاً ، كان الله — تبارك وتعالى — به عند قراءته إياه رحيماً مرفقاً . ومن كان فى الدنيا من الغافلين ، كان عند قراءته من النادمين .

فلو رأيتم يا أهل الذنوب ما قد أثبت عليكم فى الديوان ، من الخطايا والعصيان ، والزور والبهتان ، والزيادة والنقصان ، والغفلة والنسيان ، لعظمت منكم المصائب . وكثرت منكم النوائب ، وسارعتم إلى الثواب والرغائب ، ولتبتم إلى رب المشارق والمغارب . وأنشدوا :

ما بال عينك تبكى لما سلفا ... ذكر الذنوب وخوف النار والتلفا
يا أيها المذنب المحصى جرائمه ... لا تنس ذنبك واذكر منه ما سلفا
من الذنوب التى لم تبل جدتها ... وكيف تبلى وقد أودعتها صحفا
أما تخاف أما تخشى فضائحها ... إذا الغطاء انجلى عنهن وانكشفا

اعلموا معاشر المذنبين لو أن الله — تعالى — أطلع بعضنا على صحائف بعض ، وكشف له ما فيها من الذنوب لكان الناس يشتغلون عن معايشهم بتعيير بعضهم لبعض ، ولعنة بعضهم . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

حكاية عن رقة ابن واسع

حكى عن محمد بن واسع — رحمه الله — أنه ما رآه أحد قط ضاحكاً ، وإن كان ليبكى حتى ترحمه الناس ، فذكر له ذلك فقال : يا أحبابى وكيف يضحك من لا يدرى ما أثبت عليه فى كتابه ولا يدرى بما يختم له ؟ اللهم اختم لنا بخير .

---

(١) انظر الترغيب والترهيب حـ ٢ صـ ٦٦٢ بمعناه
وانظر أيضا الدار المنثور للسيوطى حـ ٥ صـ ٣٤٧ تغير قوله — تعالى — فى سورة الإسراء (ويخرون للأذقان يبكون)

وكان رجل يكلم محمد بن واسع فى حاجة ، فقال له محمد بن واسع : ادن منى فلو كانت للذنوب رائحة لما قدرت أن تدنو منى . فيا معشر المذنبين مثلى ، وكلنا مذنب ، لا تغتروا بستر الله — تعالى — عليكم فإن له يوماً يهتك فيه الأستار ، ويحاسب عباده على ما عملوا فى الليل والنهار ، فقوم إلى الجنة وقوم إلى النار . فالخير والشر قد حصل عليكم فى الكتاب الذى يوضع لكم يوم العرض والحساب ، بين يدى رب الأرباب ، قال الملك الوهاب ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه** ﴾[1] . ووضع الكتاب للمؤمنين ، ووضع الكتاب للمجرمين . ووضع الكتاب لأهل الإيمان ، ووضع الكتاب لأهل النيران . ووضع الكتاب لأهل الثواب . ووضع الكتاب لأهل العقاب . ووضع الكتاب للطائعين . ووضع الكتاب للعاصين . ووضع الكتاب لأهل الإخلاص والوفاق ، ووضع الكتاب لأهل الرياء والنفاق . ووضع الكتاب لأهل الوفاء ، ووضع الكتاب لأهل الجفاء ، ووضع الكتاب للعاملين ، ووضع الكتاب للبطالين . ووضع الكتاب للقائمين ، ووضع الكتاب للنائمين ، ووضع الكتاب للمستغفرين ، ووضع الكتاب للغافلين . ووضع الكتاب للسعداء ، ووضع الكتاب للأشقياء .. ووضع الكتاب لأهل الجنة ، ووضع الكتاب لأهل المحنة . ووضع الكتاب للأبرار ، ووضع الكتاب للفجار ، ووضع الكتاب لأهل الكرامة ، ووضع الكتاب لأهل الندامة . ووضع الكتاب لأهل الرشاد ، ووضع الكتاب لأهل الفساد . وضع الكتاب لأهل الحسنات ووضع الكتاب لأهل السيئات . وضع الكتاب لأهل النعيم والسرور ، ووضع الكتاب لأهل الويل والقبور . فكتب تبشر بالجنة ، وكتب آخرها باللعنة والمحنة . جعلنا الله وإياكم ممن يبشره كتابه بالجنة برحمته .

إحاطة الكتاب بكل شىء

واعلموا يا معشر المذنبين أن الله تعالى — لم يدع شيئاً من القول إلا وقد فسره لعباده ، وأنزل بذلك كتابه العزيز فقال فيه — تبارك وتعالى — : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾[2] وقد أعلمنا إلهنا ومولانا أن ﴿ **كل إنسان ألزمناه طائره** ﴾[3] وأن كل إنسان لابد له من السؤال ولابد له من حساب ، ولابد له من ثواب أو حساب . ومولانا عز وجل قد أمرنا بالعمل الصالح ، ووعدنا عليه بالجنة ، ونهانا عن المعاصى وتوعدنا عليها بالنار . وما قدمتم من خير أو شر قد أثبت عليكم فى كتاب مكتوب ، بالحسنات والذنوب .

---

(١) سورة الكهف آية ٤٩

(٢) سورة الأنعام آية ٣٨

(٣) سورة الإسراء آية ١٣

حكاية فى كتابة الكتب

روى عن الحسن (هو الحسن البصرى) ــ رضى الله عنه ــ أنه قال : ما من عبد ولا أمة يدفن إلا دخل عليه ملك فى قبره معه دواة وقرطاس ، فيأخذ الملك برأس الميت ويقعده ويرفع إليه ذلك القرطاس ويناوله قلماً ويقول له : اكتب جميع ما عملت فى عمرك الذى وجبت عليك فيه الحدود من خير وشر ، فيأخذ الميت القلم فيكتب وإن لم يكن فى الدنيا كاتباً ، فإن كان العبد من أهل السعادة فأول ما يجرى القلم بيده بإذن الله ــ تبارك وتعالى ــ : « بسم الله الرحمن الرحيم » لأن بسم الله الرحمن الرحيم لا تكون فى كتاب أهل الشقاوة ، وإنما تكون فى كتاب أهل الإيمان والسنة والأمان والغفران . لأن بسم الله الرحمن الرحيم هى آية الإيمان ، وهى إخبار عن رحمة الله ولطفه جل جلاله .

يا أهل السنة من هذه الأمة ، فإذا ثبت العبد فى كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقد أمن فى قبره من العذاب والضيقة .

البسملة وبركتها

وإذا لم يثبت فى كتابة بسم الله الرحمن الرحيم فقد حل به العذاب فى قبره ، فإذا كتب العبد ما عمل من خير وشر شقياً كان أو سعيدا ، يطوى الملك الكتاب ويعلقه فى عنقه . فإذا خرج العبد من قبره يوم القيامة جاءه ذلك الملك فأخذ الكتاب وناوله إياه وقال : يا ولى الله أو يا عدو الله ، أتعرف هذا ؟ فيقول : نعم أنا كتبته ، وأنا عملته ، فيقول له : فاقرأه فيستقبله منه ما سبق له من سعادة أو شقاوة .

فالله الله معشر المذنبين ، مثلى ، المؤمنين . لا تضيعوا أيامكم بالقبائح ، ولا تهملوا أعماركم فى الذنوب والفضائح ، فإن جميع أعمالكم قد حصلت عليكم فى الصحائف الصحائح ، وستقرؤونها بين يدى مولاكم ، وتشهد عليكم الجوارح بالقبيح والحسن من أعمالكم . وأنشدوا :

سوف يأتى عليك ساعة خوف ... حين تعطى صحائف الأعمال
وكأنى أرى فضائح قوم ... قد تجلى لكشفها ذو الجلال
ليت شعرى إذا قرأت كتابى ... بيمينى أعطاه أم بشمالى

حكاية عن عيسى ــ عليه السلام ــ

روى عن محمد بن اللباد ــ رحمه الله ــ أنه قال : دخل عيسى ابن مريم ـ ﷺ ـ وعلى نبينا محمد ـ ﷺ ـ مدينة خربة فدخل قصراً من قصورها فنادى : يا خراب الآخربين أين أهلك وعمارك ؟ فأجابه شيء من آخر القصر أيا ابن مريم بادوا وسيعودون . فاجتهد يا أخى لا تفرط فإن العظام قد بليت وبقيت أعمالهم فى رقابهم . وأنشدوا :

لا تحقرن من الذنوب صغيرها إن الصغير غداً يعود كبيرا
كل الذنوب وإن تقادم عهدها عند الإله مسطر مسطورا

أيها الرجل المقنع بالمشيب ، الملبس حلة المعاصى المريب ، قد خسرت أيام الشباب ، وبذلت مهجتك للعذاب ، بغفلتك عما فى الكتاب ، واتباعك اللعين الكذاب ، وتهاونك بالحساب ، وصدودك عن الصواب ، ومعصيتك لرب الأرباب . ما حيلتك يا مكروب ، مثلى ، سودت كتابك بالذنوب ، وعصيت مولاك علام الغيوب ، وبعت الحظ الجزيل بالكذب المشوب ، وضيعت الجنة التى ليس فيها نصب ولا لغوب[1] واعلموا معشر المذنبين أن العبد إذا وفقه مولاه وأعطاه الفكرة فى قراءة كتابه كان عند مولاه مستجاب الدعاء .

حكاية فى الاعتماد على الله

حكى : عن مطرف بن الشخير ـــ رحمه الله ـــ أنه أرسل رسولاً عن عوزماء[2] وكان فى زمان الحر ، فأبطأ عليه الرسول ، وكان عنده جماعة قد عطشوا ، وكان معه قليل ماء ، فقام فتوضأ بذلك الماء ، ثم صلى ركعتين دعا فيهما مولاة ـــ سبحانه ـــ ، فأرسل الله ـــ تبارك وتعالى ـــ سحابة حتى شرب هو وأصحابه ، فقيل له : بم بلغت هذه المنزلة ؟ فقال : جعلت كتابى نصب عينى ، فى ليلى ونهارى حتى كأنى أقرؤه بين يدى ربى ـــ جل جلاله ـــ .

حكاية عن مالك بن دينار

قال عبد الواحد بن زيد ـــ رحمه الله ـــ : كنا عند محمد بن واسع ومعه مالك بن دينار ، فجاء رجل فكلم مالكاً وأغلظ عليه فى الكلام فى قسمة قسمها وقال وضعتها فى غير حقها ، وفضلت بها أهل مجلسك ليكثروا جمعك ، ولتصرف وجوه الناس إليك ، قال : فبكى مالك بن دينار وقال : ما أردت بهذا ، هذا الذى تقول ، قال : بلى والله لقد أردته ، فلما أكثر على مالك الكلام رفع جيب يديه وقال : اللهم إن هذا قد شغلنا عن ذكرك فأرحنا منه كيف شئت . فسقط الرجل ميتاً بإذن الله .

---

(١) النصب ـــ بالفتح ـــ : شدة النصب . اللغو : الإعياء .

(٢) أى عن شدة عوزهم واحتياجهم للماء كما يحصل غالبا فى البلاد التى لم يكن بها نهر جار .

دعاء ابن واسع

وكان محمد بن واسع إذا جن عليه الليل يبكى ويقول فى بكائه : ويلى من ذنوب قد أحصيت ، ومن صحيفة قد ملئت ، وربى قد علم ذلك ولم يخف عليه من ذلك شيء . فأورثه الله تعالى ببكائه على كتابه ، وعلى حياته من ربه الإستجابة فى الدعاء وتنور القلب . وأنشدوا :

أرى المشيب بالعذار قد ألم ... كأن موتى عن قريب قد هجم
خط المشيب أسطراً فى مفرق ... فراعنى ما خطه وما رقم
هل الفتى إذا انقضى شبابه ... إلا كزرع هاج(١) سوف ينحطم
شاب الفؤاد قبل شيب لمتى(٢) ... واعتادنى ضعف القوى قبل الهرم(٣)
ويحى من التوبيخ من ربى غداً ... من ذلك الأمر الشديد المستهم
ويحى إذا نادى المنادى بى ألا ... قم عبد سوء مسرع للعرض قم
ويحى إذا ما قال لى مقرراً ... وخص شيئاً بعد شيء ثم عم
ما قد صنعت فى فروضى والذى ... قضيت منها هل صفا لى هل سلم
فجئت ربى خاسراً قد أثقلت ... ظهرى ذنوبى كالحساب المرتكم .

قال الله — تبارك وتعالى — : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾(٤) وضع الكتاب لفصل القضاء ، ووضع الكتاب للحزن والبكاء ، وضع الكتاب لتبدو الفضائح ، ووضع الكتاب لتظهر القبائح ، وضع الكتاب لتصح الصحائح .

الله الله يا معشر المذنبين : حاسبوا أنفسكم قبل يوم الحساب وارحموا أنفسكم قبل نزول العذاب، وبادروا بالتوبة قبل غلق الباب ، واجتهدوا فى بقية أعماركم قبل وضع الكتاب ، وسارعوا إلى المغفرة من ربكم قبل الخجل بين يدى رب الأرباب ، وقبل أن تطلبوا برد الجواب ، وتحبس الألسنة عن النطق والخطاب ، وتشهد الجوارح بما عملت من عصيان أو ثواب . وأنشدوا :

أبك لذنبك طوال الدهر مجتهداً ... أن البكاء معول الأحزان
لا تنس ذنبك فى الكتاب وعظمة ... أن الذنوب تحيط بالإنسان

---

(١) هاج النبت : يبس وجف
(٢) اللمة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن ، فإذا بلغ المنكبين سمى جمة .
(٣) الهرم : كبر السن ، والهرم مشهور بمصر
(٤) سورة الكهف . آية ٤٩

مساكين أهل الذنوب ، ما أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمن ، مساكين أهل الذنوب : جلت كروبهم ، وعظمت خطوبهم ، وكبرت عيوبهم ، وأحصيت عليهم فى الكتاب ذنوبهم ، مساكين أهل الذنوب : عصوا الجبار فى الليل والنهار ، وبذلوا مهجتهم لعذاب النار ، وسودوا صحفهم الخطايا والأوزار . مساكين أهل الذنوب : غفلوا عن الطاعة ، وخالفوا السنة والجماعة ، وخسروا أنفسهم قبل قيام الساعة ، وأنشدوا :

(من كان) يخشى الله جل جلاله ... فليكثر العبرات فى الخلوات
فلعله بعد التذكر والبكا ... بدلت له العبرات بالحسنات
وتخفف الأوزار عن منشوره ... يوم الحساب وموقف الحسرات

عجائب الكتب

قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾[1] . عباد الله ، عند وضع الكتاب عجائب ، وأحزان ومصائب ، وكروب ونوائب . فواحد يوضع له الكتاب فيبكى ، وآخر يوضع له الكتاب فيفرح ويبكى . وآخر يوضع له الكتاب فتجرى على وجهه نضرة[2] النعيم . وآخر يوضع له الكتاب فتعلو وجهه ظلمة الجحيم . وآخر يوضع له الكتاب مختوماً بسخط الرب الجواد . وآخر يوضع له الكتاب مختوماً بالتوفيق والسداد .

اللهم وفقنا للطاعة ، وأمتنا على السنة والجماعة ، ونجنا من أهوال يوم الساعة ، وأدخلنا فى جملة أهل الشفاعة .

واعلموا معشر المذنبين : أن الماء يمحو الكتاب من ألواح الصبيان ، والدمع يمحو من كتبتكم الأوزار والعصيان ، والهموم والغموم والأحزان . فاجتهدوا فى البكاء معشر الإخوان ، وأكثروا الندامة فإنها توجب الغفران وأنشدوا :

دعونى على نفسى أنوح وأندب ... بدمع غزير واكف يتصبب
دعونى على نفسى أنوح فإننى ... أخاف على نفسى الضعيفة تعطب
وإنى حقيق بالتضرع والبكا ... إذا ما هدا النوام والليل غيهب[3]
وجالت دواعى الحزن من كل جانب ... وغارت نجوم الليل وانفض كوكب

---

(١) سورة الكهف آية ٤٩

(٢) النضرة : الحسن والرونق . والنضار : الذهب .

(٣) الليل غيهب : شديد الظلام

كفى أن عينى بالدموع بخيلة ... وأنى بآفات الذنوب معذب
فمن لى إذا نادى المنادى بمن عصى ... إلى أين الجانى إلى أين أهرب ؟
وقد ظهرت تلك الفضائح كلها ... وقد قرب الميزان والنار تلهب
فياطول حزنى ثم ياطول حسرتى ... لئن كنت فى قاع الجحيم أعذب
فقد فاز بالملك العظيم عصابة ... تبيت قياماً فى دجى الليل ترهب
إذا أشرف الجبار من فوق عرشه ... وقد زينت حور الجنان الكواعب
فناداهم سهلاً وأهلاً ومرحباً ... أبحت لكم دارى وما شئتم اطلبوا

فبادروا ، رحمكم الله فى هذه الأيام الشريفة ، إلى محو السيئات من الصحيفة .

ضرب مثل فى رقة القلب

يا أخى : الخشبة اليابسة إذا دخل طرفها الواحد فى النار ، عرق طرفها الآخر ، وكذلك القلب إذا كانت فيه حرقة ندامة الذنوب التى حصلت فى الكتاب المكتوب الموضوع جادت العينان بواكف الدموع ، ولانت الجوارح بالخضوع ، والقلب بالإنابة والخشوع وأنشدوا :

كتبت بأدمعى فى صحن خدى ... كتاباً بالتذلل والخضوع
فقالوا قد عفونا عنك لما ... محوت قبيح فعلك بالدموع

حكاية عن التوبة

ذكر عن بعض الخائفين أنه قال : رأيت رجلاً واقفاً على صبى من الصبيان فى المكتب وهو يمحو لوحاً ، وكان اللوح قد كتبه بالحبر ، وكانت الكتابة قد ثبتت ولا تزول بالماء ، فجعل الصبى يحك اللوح بالحبل والتراب ، فقال الرجل الواقف عليه : يا بنى مالك تحك اللوح بالحبل ؟ فقال : ليزول الحبر الذى ثبت . فيه فقال له الرجل : والحبل يا بنى يزيل الحبر ؟ قال : نعم ، ألا ترى أن الحبل شبه الخنادق فقال الرجل : ذلك بطول المدة ، فقال الصبى : لا ، يا نعم الرجل إلا بالحزم والإجتهاد وإياك يا نعم الرجل : بعيد الذهن ، قال الرجل : كيف ذلك يا بنى ؟ قال : لأنى قد قلت لك إشارة لو ألقيتها على قلبك لأفاق وامحى الحبر الذى عليه .

فقال الرجل : يا بنى : كان على قلبى حبر قال يا عم وأى لون هو الحبر ؟ قال : هو أسود قال الصبى :

يا عم ألم أقل لك إنك بعيد الذهن ؟ وأى سواد أشد من سواد الذنوب على القلوب ؟ فصاح الرجل صيحة وخر مغشياً على وجهه ، ثم أخذه البكاء فقال له الصبى : أما الآن فقد وجدت الدواء لذنوبك ومحوها من كتابك وقلبك فقال الرجل يا بنى وما الدواء ؟ فقال له البكاء فقال : يا بنى : والبكاء يمحو الذنوب من الكتاب والقلب ؟ قال له : نعم ، والدليل على ذلك قول النبى - ﷺ - « إن الدموع تطفىء بحار النار يوم القيامة عن الباكى » .

الدموع تمحو الذنوب

فإذا محت الدموع بحار النار ، فإحرى أن تمحو من الكتاب القبائح والأوزار ، وإذا زالت من الكتاب الفضائح والأوزار ، رضى عنك الملك الغفار ، وأمر بك إلى دار الراحة والقرار ، وخلصت من عذاب البوار .

فابكوا يا جماعة المسلمين على ما أذنبتم فى الشهور والأعوام ، وفى الساعات والأيام ، عن الخطايا والإجرام ، واكتساب الربا والحرام ، وظلم الضعفاء والأرامل والأيتام ، وما فرطتم فيه من أداء حقوق الملك العلام ، وأنشدوا :

وددت أن دموعى بحر فأسفحها ... من مقلتى على ما فات من زمنى
واها على أسف منى على وهل ... يجنى التأسف إلا غلة الشجن
والله لوضح تحقيق التأسف ما ... ألغيت مع .إلا مع النوام فى الحزن
يا ليت لى عيناً فى كل جارحة ... تبكى على بدمع مانع الوسن

فضل البكاء

فالواجب ـــ والله يا أهل الإعلام ـــ على كل مسلم علم من نفسه ذنباً أن يكثر البكاء عليه عساه يمحوه من كتابه مولاه ، ويتفضل عليه ويغفر له ما قد جناه ، فهو المنان الكريم ، المتفضل العظيم .

اللهم يا أكرم الأكرمين ، ويا آخر الغافرين ، تفضل علينا بتوبة وعلى جميع المذنبين ، تنقلنا بها من ذل المعصية إلى عز الطاعة ، وثبتنا عليها حتى تخرجنا من الدنيا بلا ذنب ولا تباعه[1] على منهاج أهل السنة والجماعة ، الذين أوجبت لهم الرحمة والشفاعة

(١) التباعة والتبعة : ما اتبع به

اللهم إن الطاعة والمعاصى بقدرك ، وفى يدك القلوب والنواصى ، فطهر قلوبنا بماء التوبة ، واغسلها من دنس الحوبة ، ومتعنا بالسلامة فى ديننا ودنيانا ، وفى أسماعنا وأبصارنا ، وجميع جوارحنا ما أبقيتنا ، ولا تردنا على أعقابنا بعد إذ هديتنا ، فإنك على كل شيء قدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

العلم المحيط

قوله تعالى : **﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى ا لسموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾**[1] .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . علمت ما كان وعلمت ما يكون وعلمت ما سيكون وعلمت ما لايكون لو كان كيف، كان يكون وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين . يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير .

الله يــــدرى كل ما تضمـــــر   يعلـــم ما تخفـــى وما تظهـــر
وإن خـدعت النـاس لم تستطـع   خداع مـن يطـوى ومـن يـنشر

قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله .

يا من يرى مد البعوض جناحــه   فى ظلمــة الليــل البهيم الأليــل
ويـرى ويسمـع ما يـرى مـا دونها   فى قــاع بحر ذاخــر متجنــدل

سبحانك أنت القائل : **﴿ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين ﴾** ، وأنت القائل : **﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين**[2] وأنت القائل :

(١) سورة المجادلة آية ٧
(٢) سورة هود آية ٥ ، ٦

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور . ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(١) .

يقول تعالى مخبراً عن إحاطة علمه بخلقه واطلاعه عليهم ، وسماعه كلامهم ، ورؤيته مكانهم حيث كانوا ، وأين كانوا ، فقال — تعالى — : ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ أى من سر ثلاثة ﴿ إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾(٢) أى مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له كما قال تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾(٣) . وقال تعالى : ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾(٤) ولهذا حكى غير واحد الإجماع على أن المراد بهذه الآية معية علمه تعالى ولا شك فى إرادة ذلك ، ولكن سمعه أيضاً مع علمه محيط بهم ، وبصره نافذ فيهم ، فهو — سبحانه وتعالى — مطلع على خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شىء ، ثم قال تعالى : ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم ﴾(٥) قال الإمام أحمد : إفتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

أحكام تتعلق بالنجوى

قوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

(١) سورة الملك الآيتان ١٣ ، ١٤
(٢) سورة المجادلة آية ٧
(٣) سورة التوبة آية ٧٨
(٤) سورة الزخرف آية ٨٠
(٥) سورة المجادلة آية ٧

معانى المفردات

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أى : بما هو معصية وذنب ، والعدوان : الإعتداء على غيرهم كمعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا الله : أى : هلا يعذبنا بسبب ذلك ، حسبهم جهنم : أى : عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أى : يقاسون حرّها .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ــ سبحانه ــ أنه عليم بالسر والنجوى ، وأنه لا تخفى عليه خافية من أمرهم ، فهو عليم بما يكون من التناجى بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل ، ومجازيهم على ما يكون به التناجى ــ خاطب رسوله معجِّباً له من اليهود والمنافقين الذين نهوا عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لما نهوا عنه ، وما كان تناجيهم إلا بما هو إثم وعدوان على غيرهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاءوا الرسول حيُّوه بغير تحية الله ، فيقولون له : السام عليك (يريدون الموت) ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان رسولاً لعذبنا الله للإستخفاف به ، وإن جهنم لكافية جد الكفاية لعذابهم ، ثم نهى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ، بل يتناجون بالبر والتقوى ؛ ثم بين أن التناجى بالإثم والعدوان من الشيطان ولن يضيرهم شىء منه إلا بإذن الله ، فعليه فليتوكلوا .

سبب النزول

قال ابن عباس : نزلت فى اليهود والمنافقين ، كانوا يتناجون فيما بينهم ، وينظرون للمؤمنين ويتغامزون بأعينهم ، فيقول المؤمنون : لعلهم بلغهم عن إخواننا وقرابتنا من المهاجرين والأنصار قتل أو مصيبة أو هزيمة ، ويسوؤهم ذلك ، فشكوا إلى رسول الله فنهاهم ــ أى اليهود والمنافقين ــ عن النجوى فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية ﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى** ﴾ .

وروى البخارى أن اليهود أتوا النبى ﷺ فقالوا : السام عليك ــ أى الموت عليك ــ قالت عائشة : ففهمتها . فقلت : عليكم السام ولعنكم الله ، وغضب عليكم ، فقال ــ عليه الصلاة والسلام ــ : مهلاً يا عائشة ، عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، قالت : أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال : أو لم تسمعى ما قلت ؟ وردت عليهم ، فيستجاب لى فيهم ، ولا يستجاب لهم . وفى رواية أخرى فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾[1] .

---

(١) انظر صحيح البخارى . جـ ٨ صـ ١٥ كتاب الأدب باب لم يكن النبى ــ ﷺ ــ فاحشا ولا متفحشا .

أضواء كاشفة

إن أمر هؤلاء الذين يؤمرون بترك شيء ، وينهون عنه ثم يعودون إليه إن أمر هؤلاء لعجيب ! ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى من المنافقين واليهود ، فإنهم كانوا يتناجون دون المؤمنين ، ثم ينظرون إليهم ، ويتغامزون بأعينهم عليهم ، مع إيهامهم أن أقاربهم وإخوانهم أصابهم شر ، ولا يزالون كذلك حتى تعود أقارب المسلمين ، فلما كثر ذلك من المنافقين وإخوانهم اليهود ، شكاهم المسلمون للنبي — ﷺ — فنهاهم عن ذلك ، فعادوا لمثل فعلهم ﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ (الإستفهام فى الآية للإنكار والتعجب ، والتعبير بالمضارع فى « يعودون » للدلالة على تكرر عودتهم وتجددها واستحضار صورتها العجيبة) ، ومع ذلك فهم يتناجون بما هو إثم عند أنفسهم ، ووبال عليهم لأن ضرره عائد لهم ، وبما هو عدوان على المؤمنين ، وبما هو تواص بمخالفة الرسول — ﷺ — ، انظر إلى هؤلاء أيها المسلم ، واحذر أن تكون ممن يتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول التى هى رمز الأنتهاك القانون العام .

ولقد جر ذكر بعض صفاتهم إلى ذكر صفة أخرى ، تدل على سوء القصد ، وخبث النية ، فهؤلاء المنافقون واليهود كان يأتى بعضهم إلى النبى ، ويحييه بتحية لم يشرعها الله ، ولم يأذن بها ، وهى قولهم : السام عليك ، يريدون الدعاء عليه بالموت والهلاك ، فكان النبى ﷺ يرد عليهم قائلاً : وعليكم ، ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد بل يقولون فى أنفسهم : هل يعذبنا الله بما نقول ، والمراد : لو كان محمد نبياً لعذبنا الله بسبب قولنا هذا . والله يرد عليهم بقوله الفصل : حسبهم جهنم وكفى ، يدخلونها ويصطلون بنارها ، فبئس المصير مصيرهم .

يأيها الذين آمنوا : إن مقتضى هذا الإيمان أن تمتثلوا أمر الله ، وتبتعدوا عن كل ما يتنافى مع الإيمان الصحيح ، وخاصة التناجى بالإثم والعدوان فلا تتناجوا كما يتناجى المنافقون واليهود ، وليكن تناجيكم المشروع بالبر والتقوى ، وبالخير والصالح ، واتقوا الله فى السر والعلن ، فإنه مطلع عليكم ، ثم إليه تحشرون . روى عن النبى — ﷺ — أنه قال : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج إثنان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه** »(١) . **أى من أجل أن يقع فى نفسه ما يحزن لأجله إن كثيراً ما يفهم** أن الحديث عنه بما يكره .

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧١٨ كتاب السلام . باب تحريم مناجاة اثنين دون الثالث بغير رضاه . رقم ٣٦ / ٢١٨٣
— وانظر سنن الترمذى جـ ٥ صـ ١١٧ ، ١١٨ كتاب الأدب . باب ما جاء لا يتناجى إثنان دون ثالث . رقم ٢٨٢٥ .
— وانظر صحيح البخارى . كتاب الاستئذان . جـ ٧ صـ ٨٠ ط / الشعب

إنما التناجى سراً أى مع وجود من يظن شراً من تزين الشيطان ليحزن الذين آمنوا إذ قد فهموا من تناجى اليهود والمنافقين أن إخوانهم أصيبوا بشر ، وليس التناجى بضارهم فى شىء إلا بإذن الله ، وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون . أنظر إلى أدب القرآن فى المناجاة ، وكيف يوجهها إلى البر والتقوى ، ويمنعها عن الإثم والعدوان .

التفسير

قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) قال اليهود ، وكذا قال مقاتل بن حيان وزاد : كان بين النبى ـ ﷺ ـ وبين اليهود موادعة وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم ، فنهاهم النبى ـ ﷺ ـ عن النجوى فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى ، فأنزل الله ـ تعالى ـ : ﴿ **ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه** ﴾ وقال ابن حاتم بسنده عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبى سعد الخدرى عن أبيه عن جده قال : كنا نتاوب رسول الله ـ ﷺ ـ نبيت عنده ، يطرقه من الليل أمر وتبدو له حاجة فلما كانت ذات ليلة كثر أهل النوب والمحتسبون حتى كنا أندية نتحدث ، فخرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « **ما هذه النجوى ؟ ألم تنهوا عن النجوى ؟** » قلنا : تبنا إلى الله يارسول الله . إنا كنا فى ذكر المسيح فرقاً منه . فقال : « **الشرك الخفى أن يقوم الرجل يعمل لمكان رجل** »(١) هذا إسناد غريب وفيه بعض الضعفاء .

قوله تعالى : ﴿ **ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول** ﴾ أى يتحدثون فيما بينهم بالإثم وهو ما يختص بهم (والعدوان) وهو ما يتعلق بغيرهم ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ويتواصون بها .

قوله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ـ ﷺ ـ يهود فقالوا : السام عليك ياأبا القاسم . فقالت عائشة : وعليكم السام قالت : فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **يا عائشة إن الله لا يحب الفحش ولا التفحش** » . قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **أو ما سمعت أقول وعليكم ؟** » فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ . وفى

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٨ ط / الشعب وتفسير القرطبى ٥ / ١٨١

رواية فى الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام والذام واللعنة وأن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « **إنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا** »(١) . وقال ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك أن رسول الله ــ ﷺ ــ بينما هو جالس مع أصحابه ، إذ أتى عليهم يهودى فسلم عليهم ، فردوا عليه ، فقال النبى ــ ﷺ ــ « **هل تدرون ما قال ؟** » قالوا : سلم يارسول الله . قال « **بل قال سام عليكم** » أى تسامون دينكم ، قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « **ردوه** » فردوه عليه ، فقال نبى الله : « **أقلت سام عليكم** » قال نعم ، فقال رسول الله ــ : « **إذا سلم عليكم أحد من أهل الكتاب فقولوا عليك** »(٢) . أى عليك ما قلت ، وأصل حديث أنس مخرج فى الصحيح ، وهذا الحديث فى الصحيح عن عائشة بنحوه .

قوله تعالى : ﴿ **ويقولون فى أنفسهم : لولا يعذبنا الله بما نقول** ﴾ أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام ، وإيهام السلام ، وانما هو شتم فى الباطن ، ومع هذا يقولون فى أنفسهم لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقول له فى الباطن لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة فى الدنيا ، فقال الله تعالى : ﴿ **حسبهم جهنم** ﴾ أى جهنم كفايتهم فى الدار الآخرة ﴿ **يصلونها فبئس المصير** ﴾ . وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون بما نقول ؟ فنزلت هذه الآية ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾(٣) إسناد حسن ولم يخرجوه ؛

وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ **وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله** ﴾ قال : كان المنافقون يقولون لرسول الله ــ ﷺ ــ إذا حيوه : سام عليك ، قال الله تعالى : ﴿ **حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾ . ثم قال ــ تعالى ــ مؤدباً عباده المؤمنين أن لا يكونوا مثل الكفرة والمنافقين : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول** ﴾ أى كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن ما لأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ **وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون** ﴾ أى : فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التى قد أحصاها عليكم وسيجزيكم بها . قال الإمام أحمد بسنده عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل فقال : كيف

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧٠٦ ، ١٧٠٦ كتاب السلام . باب السلام . باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ، وكيف يرد عليهم رقم ١٠ ، ١١ / ٢١٦٥

وانظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٨ ، ٦٩ . تفسير سورة المجادلة ط / الشعب .

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٩ ط / الشعب وانظر تفسير الطبرى جـ ٢٧ صـ ١١ .

أنظر سنن الترمذى جـ ٥ صـ ٣٧٩ ، ٣٨٠ كتاب تفسير القرآن باب سورة المجادلة . رقم ٣٣٠١

(٣) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ١٧٠ مسند عبد الله بن عمرو .

ــ وانظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٦٩ ط / الشعب

سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ـــ ﷺ ـــ يقول : « **إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أن قد هلك ، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين** »(١) أخرجاه فى الصحيحين من حديث قتادة .

ثم قال تعالى : ﴿ **إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ أى : إنما النجوى وهى المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً . ﴿ **من الشيطان ليحزن الذين آمنوا** ﴾ يعنى : إنما يصدر هذا من المتناجين من تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ **ليحزن الذين آمنوا** ﴾ أى : ليسوءهم وليس ذلك بضارهم شيئا إلا بإذن الله ، ومن أحس من ذلك شيئاً فليستعذ بالله واليتوكل على الله فإنه لا يضره شىء بإذن الله . وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى حيث يكون فى ذلك تأذ على مؤمن كما قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فإن ذلك يحزنه** »(٢) أخرجاه من حديث الأعمشى . وقال عبد الرازق بسنده عن ابن عمر قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « **إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه فإن ذلك يحزنه** »(٣) انفرد بإخراجه مسلم عن أبى الربيع وأبى كامل كلاهما عن حماد بن زيد عن أيوب به .

---

(١) انظر صحيح البخارى تفسير سورة هود ٦ صـ ٩٣

الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ صـ ٢١٢٠ كتاب التوبة ـــ باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله . رقم ٥٢ / ٢٧٦٨ .

انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٠ ط / الشعب

وانظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ٧٤

(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ ١ صـ ٤٣١ ، ٤٣٢

(٣) انظر صحيح البخارى . كتاب الاستئذان جـ ٧ صـ ٨٠ ط / الشعب وانظر صحيح مسلم . كتاب السلام . باب تحريم مناجاة اثنين دون الثالث بغير رضاه . جـ ٤ صـ ١٧١٨ رقم ٣٦ / ٢١٨٣

من آداب الإسلام

قال تعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾

التحليل اللفظى

تفسحوا : توسعوا فى المجلس وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : افسح عنى أى تنحّ ، يقال : بلدة فسيحة ، ومغازة فسيحة ، ولك فيه فسحة أى : سعة .

قال القرطبى : وفسَحَ يفسح مثل قَنَعَ يمنع ، أى وسّع فى المجلس ، وفسُح يفسّح مثل كروم يكرُم ، أى : صار واسعاً ، ومنه مكان فسيح .

انشزوا : انهضوا وارتفعوا ، وأصله من النشز وهو المرتفع من الأرض ، قال فى اللسان : النّشز : المرتفع عن الأرض ، ونشز الشىء : ارتفع ، وتل ناشز : مرتفع ، وفى التنزيل (وإذا قيل لكم انشزوا فانشزوا) قرأها الناس بكسر الشين ، وأهل الحجاز يرفعونها ، وهى لغتان ومعناه : إذا قيل انهضوا فانهضوا وقوموا .

درجات : أى : منازل رفيعة ، جمع درجة وهى الرفعة فى المنزلة . فأخوذ من الدّرج الذى يرقى به إلى السطح .

قال فى اللسان : والدرجة : الرفعة فى المنزلة ، والدرجة واحدة الدرجات ، وهى الطبقات من المراتب ، ودرجات الجنة : منازل أرفع من منازل .

نجواكم : النجوى مصدر بمعنى التناجى وهو المسارّة . مأخوذة من (النجوة) وهى ما ارتفع من الأرض ، فالمتناجيان يخلوان بسرهما كخلوّ المرتفع من الأرض عما يتصل به .

وقيل : النجوى من المناجاة وهي الخلاص ، وكأن المتناجيين يتعاونان على أن يخلص أحدهما الآخر .
ومعنى الآية : إذا أردتم مناجاة الرسول — ﷺ — لأمر من الأمور فتصدقوا قبلها .

أطهر : أى أزكى لأنفسكم وأطيب عند الله .

أأشفقتم : الإشفاق : الخوف من المكروه ، والمعنى : أخفتم وبخلتم بالصدقة وشق ذلك عليكم ؟
قال ابن عباس : « أأشفقتم » أى : أبخلتم بالصدقة وهو استفهام معناه التقرير .

المعنى الإجمالى

يقول الله — جل ثناؤه — ما معناه : ياأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم توسعوا فى المجلس لأخوانكم القادمين ، فتوسعوا لهم ، وافسحوا لهم ، حتى يأخذ القادم مكانه فى المجلس ، فإن ذلك سبب المودة والمحبة بينكم ، ومدعاة للألفة وصفاء النفوس ، وإذا فسحتم لهم فإن الله تعالى يفسح لكم فى رحمته ، وينور قلوبكم ، ويوسع لكم فى الدنيا والآخرة . وإذا قيل لكم — أيها المؤمنون — انهضوا إلى الصلاة ، والجهاد ، وعمل الخير فانهضوا ، أو قيل لكم قوموا من مقاعدكم للتوسعة على غيركم فأطيعوا ، فإن الله — تعالى — يحب من عباده الطاعة ، ويرفع درجات المؤمنين ، والعلماء العاملين الذين يبتغون بعلمهم وجه الله ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ، وليست الرافعة عند الله — تعالى — بالسبق إلى صدور المجالس ، وإنما هى بالعلم والإيمان .

ثم أمر — تعالى — عباده المؤمنين إذا أرادوا مناجاته — عليه الصلاة والسلام — لأمر من الأمور ، أن يتصدقوا قبل هذه المناجاة ، تعظيماً لشأن الرسول — ﷺ — ونفعاً للفقراء ، وتمييزاً بين المؤمن المخلص والمنافق المراوغ ، فإن ذلك أزكى للنفوس ، وأطهر للقلوب ، وأكرم عند الله — تعالى — ، فإذا لم يتيسر للمؤمن الصدقة فلا بأس عليه ولا حرج . ثم أخبر تعالى بأن عمل الخير كالصدقة وغيرها لا ينبغى أن يخاف منها الإنسان فقال ما معناه : أخفتم تقديم الصدقات لما فيها من إنفاق المال ، فإذا لم تفعلوا ما أمرتم به ، وتاب الله عليكم ، ورخّص لكم فى الترك ، فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ولا تفرطوا فيهما وفى سائر الطاعات ، لأن الله خبير بما تعملون .

سبب النزول

أ — روى أن النبى — ﷺ — كان يوم جمعة فى الصفّة ، وفى المكان ضيق ، وكان عليه — الصلاة والسلام — يكرم أهل بدر من (المهاجرين والأنصار) فجاء ناس من أهل بدر ، منهم (ثابت بن قيس بن شمّاس) وقد سبقوا إلى المجلس ، فقاموا حيال النبى — ﷺ — فقالوا : السلام عليك أيها النبى

ورحمة الله وبركاته ، فرد النبى ــ ﷺ ــ ثم سلموا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسّع لهم ، فلم يفسحوا لهم ، فشقّ ذلك علىّ رسول الله ــ ﷺ ــ فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، وقم يا فلان ، فأقام نفراً مقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته فى وجوههم ، وقال المنافقون : ما عدل بإقامة من أخذ مجلسه ، وأحبّ قربه لمن تأخر عن الحضور ، فأنزل الله ــ تعالى ــ هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم** ﴾[1] (أخرجه ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان) .

ب ــ وروى عن ابن عباس وقتادة : « أن قوماً من المسلمين كثرت مناجاتهم للرسول ــ ﷺ ــ ، فى غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم وكان ــ ﷺ ــ سمحاً لا يرد أحداً فنزلت هذه الآية ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول** .. ﴾ الآية .

حـ ــ وروى عن مقاتل : أن الأغنياء كانوا يأتون النبى ــ ﷺ ــ فيكثرون مناجاته ، ويغلبون الفقراء على المجالس ، حتى كره ــ ﷺ ــ طول جلوسهم ومناجاتهم فنزلت الآية : ﴿ **إذا ناجيتم الرسول** ﴾ .

وجوه القراءات

١ ــ قوله تعالى : ﴿ **إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس** ﴾ قرأ الجمهور ﴿ **تفسّحوا** ﴾

٢ ــ قرأ الجمهور ﴿ **فى المجلس** ﴾ بالإفراد على إدارة معنى الجمع ، وقرأ عاصم وقتادة ﴿ **المجالس** ﴾بالجمع .

٣ ــ قوله تعالى : ﴿ **انشُزُوا فانشُزُوا** ﴾ قرأ الجمهور بضم الشين فيهما . قال الغراء : وهما لغتان مثل : يعكفُون ويعرِشُون .

٤ ــ قرأ الجمهور ﴿ **فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ بالإفراد ، وقرئ ﴿ **صدقات** ﴾ بالجمع لجمع المخاطبين .

وجوه الإعراب

١ ــ قوله تعالى : ﴿ **يفسح الله لكم** ﴾ يفسح مضارع مجزوم لأنه جواب الطلب ، وحرّك بالكسر للتخلص من التقاء الساكنين ، ومثله ﴿ **يرفع الله** ﴾ مجزوم لأنه جواب الأمر كأنه قيل : إن تنشزوا يرفع الله عز وجل المؤمنين جزاء امتثالهم درجات .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧١ ط / الشعب .

٢ ــ قوله تعالى : ﴿ **والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ قال أبو حيان **معطوفاً على** الذين آمنوا عطف صفات .

والمعنى : يرفع الله المؤمنين العلماء درجات ، فالوصفان لذات واحدة واختار الطيبى : أن يكون فى اللفظ تقدير يناسب المقام نحو أن يقال : يرفع الله الذين آمنوا فى الدنيا بالنصر وحسن الذكر ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات تعظيماً لهم .

٣ ــ قوله تعالى : ﴿ **أأشفقتم أن تقدّموا** ﴾ أن وما بعدها فى تأويل مصدر مفعول لـ (أشفقتم) والله أعلم .

لطائف التفسير

ــ اللطيفة الأولى : لما نهى سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض والتنافر ، أمرهم فى هذه الآيات بما يكون سبباً لزيادة المحبة والمودة ، وقد كان الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ شديدى الحرص على القرب من رسول الله ــ ﷺ ــ والجلوس بين يديه حرصاً على استماع كلامه ، فأمروا بالتوسعة على إخوانهم فى المجلس تطييباً لقلوبهم ، وهذا هو السر فى مجىء هذه الآيات عقب آيات النهى عن التناجى بالإثم والعدوان .

ــ اللطيفة الثانية : ذكر ــ تعالى ــ فى أول الآية مكانة المؤمنين ، ثم عطف عليها بذكر مكانة العلماء ، والعطف فى مثل هذا الموطن هو من باب (عطف الخاص على العام) تعظيماً لشأن العلماء كأنهم جنس آخر ، ولذا أعيد اسم الموصول فى النظم الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **والذين أوتوا العلم درجات** ﴾ .

ــ اللطيفة الثالثة : الأمر للمؤمنين بالصدقة عند مناجاة الرسول ــ ﷺ ــ فيه فوائد عديدة :

أولها : تعظيم الرسول ــ ﷺ ــ وتعظيم مناجاته .

ثانيها : نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقة .

ثالثها : الزجر عن الإفراط فى الأسئلة لرسول الله ــ ﷺ ــ .

رابعها : التمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الدنيا ومحب الآخرة .

ــ اللطيفة الرابعة : قوله تعالى : ﴿ **فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ : فى هذا اللفظ استعارة يسميها علماء البلاغة (استعارة تمثيلية) وأصل التركيب يستعمل فيمن له يدان كالإنسان فقد استعار

اليدين للنجوى ، وقيل إنها (استعارة مكنية) حيث شبه النجوى بإنسان ، وحذف المشبه به وهو الإنسان ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليدان على سبيل الاستعارة المكنية ومثله قوله تعالى : ﴿ **بين يدى عذاب شديد** ﴾ وذكر اليدين تخييل .

ـــ اللطيفة الخامسة : أشاد القرآن بمنزلة العلماء الرفيعة ، ومكانتهم السامية عند الله ـــ تعالى ـــ ، ويكفيهم هذا الشرف والفخر وقد قال ـــ ﷺ ـــ : (**من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيى به الإسلام ، فبينه وبين النبيين درجة**)(١) . (أخرجه الدارمى عن عمر بن كثير عن الحسن) .

وقد ذكر بعض الظرفاء مناظرة رمزية بين (العقل والعلم) نذكرها لطرافتها قال بعض الأدباء :

علمُ العليم وعقلُ العاقل اختلفا ... من ذا الذى منهما قد أحرز الشرفا ؟
فالعلم قال : أنا أدركتُ غايته ... والعقل قال : أنا الرحمن بى عُرفا
فأفصح العلم إفصاحاً وقال له : ... بأيّنا الله فرقانه اتصفا ؟
فبان للعقل أن العلم سيّدُه ... فقبل العقل رأس العلم وانصرفا

الأحكام الشرعية

ـــ الحكم الأول : ما المراد بـ (المجالس) فى الآية الكريمة ؟ اختلف المفسرون فى المراد بالمجلس على ثلاثة أقوال :

أحدهما : أن المراد به مجلس الرسول ـــ ﷺ ـــ خاصة ، وهو قول مجاهد

والثانى : أن المراد به مجلس الحرب ، ومقاعد القتال ، حيث كانوا لحرصهم على الشهادة يأبون التوسع ، وهو قول ابن عباس ، والحسن .

والثالث : أن المراد به مجالس الذكر كلها ، وهو قول قتادة وهو الأرجح .

قال الطبرى : « والصواب من القول فى ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أمر المؤمنين ، أن يتفسحوا فى المجلس ، ولم يخصص بذلك مجلس النبى ـــ ﷺ ـــ دون مجلس القتال ، وكلا الموضعين يقال له : مجلس ، فذلك على جميع المجالس ، من مجالس رسول الله ـــ ﷺ ـــ ومجالس القتال » .

وقال القرطبى : الصحيح فى الآية أنها عامة فى كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر ، سواء كان مجلس حرب أو ذكر ، أو مجلس يوم الجمعة ، فإن كل واحد أحق بمكانه الذى سبق إليه .

---

(١) انظر سنن الدارمى جـ ١ صـ ٨٥ . باب فضل العلم والعالم .
ـــ انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١ صـ ١٠٠

ـــ الحكم الثانى : هل يباح الجلوس مكان الشخص بدون إذنه ؟ .

دلت الآية الكريمة على وجوب التوسع فى المجلس للقادم ، وهذا من مكارم الأخلاق التى أرشد إليها الإسلام ، ولكن لا يباح للإنسان أن يأمر غيره بالقيام ليجلس مجلسه لقوله ـــ ﷺ ـــ : (**لا يقيم الرجلُ الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا**)(١) وقد جرى الحكم أن من سبق إلى مباح فهو أولى به ، والمجلس من هذا المباح ، وعلى القادم أن يجلس حيث انتهى به المجلس ، إلا أن الآداب الإجتماعية تقضى على الناس بتقديم أولى (الفضل والعلم) وبذلك جرى عرف الناس وعوائدهم فى القديم والحديث .

ولقد كان هذا الأدب السامى شأن الصحابة فى مجلس الرسول ـــ ﷺ ـــ فكانوا يقدّمون بالهجرة ، وبالعلم ، وبالسن ، وما فعله النبى ـــ ﷺ ـــ فى جماعة (ثابت بن قيس) من أهل بدر ، فإنما كان لتعليم الناس مكارم الأخلاق ، وخاصة مع أهل الفضل والعلم ، من المهاجرين والأنصار .

أ ـــ روى ابن العربى بسنده عن انس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ أنه قال : « بينما رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى المسجد وقد طاف به أصحابه ، إذ أقبل على بن أبى طالب فوقف وسلّم ، ثم نظر مجلساً يشبهه ، فنظر رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى وجوه أصحابه أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر جالساً على يمين النبى ـــ ﷺ ـــ فتزحزح له عن محله ، وقال : ها هنا ياأبا الحسن . فجلس بين النبى ـــ ﷺ ـــ وبين أبى بكر ، فقال ياأبا بكر : إنما يعرف الفضل ، لأهل الفضل ، ذوو الفضل »(٢) .

ب ـــ وثبت فى الصحيح أن عمر بن الخطاب كان يقدم عبد الله بن عباس على الصحابة ، فكلموه فى ذلك فدعاهم ودعاه ، وسألهم عن تفسير : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فسكتوا ، فقال ابن عباس : هو أجل رسول الله ـــ ﷺ ـــ أعلمه إياه ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم ، ثم قال : بهذا قدّمت الفتى »(٣) .

وإذا قام الإنسان من مجلسه لحاجة ثم رجع إليه فهو أحق بالمجلس لقوله ـــ ﷺ ـــ : (**من قام من مجلسه ثم رجع إليه فهو أحق به**)(٤) .

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب الجمعة باب . لا يقيم الرجل أخاه يوم الجمعة ويقعد فى مكانه جـ ٢ صـ ١٠ ط / الشعب
انظر صحيح مسلم . كتاب السلام . باب تحريم إقامة الإنسان من موضعه المباح الذى سبق إليه
وانظر مسند الإمام أحمد جـ ٢ صـ ٣٣٨ ، ٤٣٨ ، ٥٢٣ .

(٢) انظر كشف الخفاء جـ ١ صـ ٢٥٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٥٢٩ ، ٥٣٠ تفسير سورة . إذا جاء نصر الله والفتح . طـ / الشعب

(٤) انظر صحيح مسلم جـ ٤ صـ ١٧١٥ . كتاب السلام . باب إذا قام من مجلسه ثم عاد فهو أحق به . رقم ٣١ / ٢١٧٩ .

ــ الحكم الثالث : هل يجوز القيام للقادم إذا كان من أهل الفضل والصلاح ؟ .

ذهب جمهور الفقهاء إلى جواز القيام للقادم إذا كان مسلماً من أهل الفضل والصلاح على وجه التكريم ، لأن احترام المسلم واجب ، وتكريمه لدينه وصلاحه مما يدعو إليه الإسلام ، لأنه سبيل المحبة والمودة ، وقد قال ــ ﷺ ــ « **لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تُكلم أخاك وأنت منبسط إليه بوجهك** »(١).

فالقيام للقادم جائز على وجه التكرمة ، إن لم يكن فاسقاً ، ولم يكن سبيلاً للكبرياء والخيلاء ، وما لم يصبح ديدناً للإنسان عند كل دخول أو خروج ، وفى كل حين وآن فعند ذلك يكره .

قال العلامة ابن كثير : وقد اختلف الفقهاء فى جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال ، فمنهم من رخّص فى ذلك محتجاً بحديث : (**قوموا إلى سيدكم**)(٢) ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث : (**من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار**)(٣) . ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم فى محل ولايته ، كما دلّ عليه قصة (سعد بن معاذ) فإنه لما استقدمه النبى ــ ﷺ ــ حاكماً فى بنى قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « **قوموا إلى سيدكم** » ومازال إلا ليكون أنفذ لحكمه والله أعلم .

أقول : جمهور العلماء على جواز القيام للقادم ، إلا إذا كان فاسقاً ، أو عاصياً أو مرتكباً لكبيرة ، أو مشهوراً بالكبر وحب الظهور ، وأما ما استدل به بعضهم من منع القيام بحديث .. (**من أحب أن يتمثل له الناس قياماً ...**)(٤) الحديث ، فليس فيه دليل لهم ، لأن الرسول ــ ﷺ ــ لم يطلق اللفظ وإنما قيّده بوصف يدل على الكبرياء وحب الظهور (من أحب أن يتمثل له الناس قياماً) ولم يقل ــ صلوات الله عليه ــ : (**من قام له الناس فليتبوأ مقعده من النار**) ولا شك أن هذا الوصف لا ينطبق إلا على المتكبر المغرور ، والفرق دقيق بين اللفظين فلا ينبغى أن يغفل عنه .

---

(١) انظر صحيح ابن حيان جـ ١ صـ ٣٤٦ . باب حسن الخلق .
ــ انظر الخرائطى . فى مكارم الأخلاق صـ ١٦ . بلفظ لا تذهدن ...... المطبعة السلفية .
(٢) الحديث فى صحيح مسلم . جـ ٣ صـ ١٧١٥ كتاب الجهاد وسير . باب جواز قتال من نقض العهد . رقم ٦٤ /١٧٦٨
(٣) انظر سنن أبى داود جـ ٥ صـ ٣٩٠ ، ٣٩١ رقم ٥٢١٥ كتاب الأدب
انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٢ . ط/ الشعب
انظر كنز العمال جـ ٩ صـ ١٣٨ رقم ٢٥٣٨٧
انظر تحفة الأحوذى جـ ٨ صـ ٣٠ رقم ٢٩٠٣ .
(٤) انظر سنن أبى داود جـ ٥ صـ ٣٩٠ ، ٣٩١ . كتاب الأدب

وأما ما يقوله بعضهم : من أن القيام ركن من أركان الصلاة فلذلك يحرم ، لأنه يشبه العبادة ، فهذا جهل مطبق لا يصدر من فقيه عالم يتصدى لاستنباط الأحكام .

كيف والصلاة تشتمل على أركان كثيرة كالقعود ، وقراءة القرآن والتشهد ، والصلاة على النبى ــ ﷺ ــ فى بعض الأقوال ــ كما هو مذهب الإمام الشافعى ــ فهل يقول أحد : إن الجلوس بين يدى العالم حرام لأنه ركن من أركان الصلاة ؟ وإن الصلاة ــ على النبى عليه السلام ــ حرام فى حضرة الناس لأنها ركن من أركان الصلاة ؟

وقياس القيام على الركوع والسجود فى الحرمة ، قياس مع الفارق ، وهو قياس باطل ، لأن الركوع والسجود لا يجوز لغير الله كما قال ــ عليه السلام ــ : (**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**)[١] وقد ورد فى تحريمه النص القاطع ، أما القيام ، والقعود ، والإضطجاع ، فليس من هذا القبيل ، وكفانا الله شر الجهل ، وحماقة المتطفلين على العلم والعلماء .

ــ الحكم الرابع : هل الصدقة عند مناجاة الرسول ــ ﷺ ــ واجبة ؟

اختلف العلماء فى قوله تعالى : ﴿ **فقدموا بين يدى نجواكم صدقة** ﴾ هل الأمر للوجوب أو الندب ؟

فقال بعضهم : إن الأمر للوجوب ، ويؤيد هذا قوله ــ تعالى ــ فى آخر الآية : ﴿ **فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم** ﴾ ومثل هذا لا يقال إلا فى الواجبات التى لا يصح تركها .

وقال آخرون : إن الأمر للندب والاستحباب ، وذلك لأن الله تعالى قال فى الآية : ﴿ **ذلك خير لكم وأطهر** ﴾ ومثل هذا قرينة تصرف الأمر عن ظاهرة ، وهو إنما يستعمل فى التطوع دون الفرض .

ومن جهة أخرى : فإن الله تعالى قال فى الآية التى بعد هذه مباشرة : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات ؟** ﴾ وهذا يزيل ما فى الأمر الأول من احتمال الوجوب ، ويبقى الأمر للندب .

واتفق العلماء على أن الآية منسوخة نسختها الآية التى بعدها : ﴿ **أأشفقتم أن تقدموا** ﴾ وقد اختلفوا فى مقدار تأخر الناسخ عن المنسوخ فقيل : بقى التكليف عشرة أيام ثم نسخ ، وقيل : ما بقى إلا ساعة من النهار ثم نسخ .

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٣ صـ ٤٦٥ كتاب الرضاع . باب ما جاء فى حق الزوج على المرأة . رقم ١١٥٩ . وقال الترمذى : هذا حديث حسن

وقد روى عن على ــ كرم الله وجهه ــ أنه قال : (إن فى كتاب الله لآية ما عمل بها أحد قبلى ، ولا يعمل بها أحد بعدى ، كان لى دينار ، فاشتريت به عشرة دراهم ، فكلما ناجيت الرسول ــ ﷺ ــ قدمت بين يدى نجواى درهماً ، ثم نسخت فلم يعمل بها أحد)[1] .

قال القرطبى : (وهذا يدل على جواز النسخ قبل الفعل ، وما روى عن على ــ رضى الله عنه ــ ضعيف ، لأن الله ـ تعالى ـ قال : ﴿ فإذ لم تفعلوا ﴾ وهذا يدل على أن أحداً لم يتصدق بشىء ، والله أعلم) .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : وجوب التوسعة فى المجلس للقادم لأنها من مكارم الأخلاق .

ثانياً : التوسعة للمؤمن فى المجلس سبب لرحمة الله ــ عز وجل ــ وطريق لرضوانه .

ثالثاً : الرفعة عند الله والعزة والكرامة إنما تكون بالعلم والإيمان .

رابعاً : وجوب تعظيم الرسول ــ ﷺ ــ وعدم الإثقال عليه فى المناجاة .

خامساً : تقديم الصدقة قبل المناجاة مظهر من مظاهر تكريم الرسول ــ ﷺ ــ .

سادساً : نسخ الأحكام الشرعية لمصلحة البشر تخفيف من الله ــ تعالى ــ على عباده .

سابعاً : الصلاة والزكاة أعظم أركان الإسلام ولهذا قرن القرآن الكريم بينهم فى كثير من الآيات .

حزب الشيطان

قال تعالى :

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٣٢٦ ، ٣٢٧ . فى تفسير سورة المجادلة

لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ
فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾

معانى المفردات

ألم تر : أى : أخبرنى ، وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة للمخاطب ، والمراد من الذين تولوا : المنافقون ، والتولى : من الموالاة وهى المودة والمحبة ، والقوم : هم اليهود ، وغضب الله : سخطه والطرد من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم : أى : لأنهم مذبذبون ، على الكذب : أى : على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أى وقاية وستراً على المؤاخذة ، على شيء : أى : من جلب منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ على الشيء : حواه وأحاط به ، قال المبرد : ويقال : حاوزتُ الإبل ، وحزتُها إذا استوليت عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذياً نسيج وحدِه : أى : سائساً ضابطاً للأمور لا نظير له ، فأنساهم ذكر الله : أى : لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من الشهوات ، وحزب الشيطان : جنوده وأتباعه ، يحادون : أى يعادون ويشاقون ، فى الأذلين : أى : فى جملة أذلّ خلق الله ، لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر أن أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لتلقى الدين عنه والإهتداء بهديه حتى كان يضيق بهم المجلس ، فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا ، ذكر هنا حال قوم من المنافقين يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين ، فهم عيون لهم عليهم ، وإذا لاقوا المؤمنين قالوا لهم : إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم **كاذبون فى كل مايقولون ، وقد جعلوا الإيمان وقاية لستر ما يبطنون ، فأمنوا من المؤاخذة وجاسوا خلال** ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدين ، ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه ؛ ثم أبان أن الله قد أعدّ لمثل هؤلاء عذاباً شديداً يوم القيامة ، وما هم فيه من مال وولد فى الدنيا لن يغنى عنهم شيئاً حينئذ ؛ ثم ذكر أن الذى جرأهم على ما فعلوا هو الشيطان ، فقد استولى على عقولهم ، وزين لهم قبيح أعمالهم ، فأنساهم عذاب اليوم الآخر ، ثم ذكر أن أولئك هم جند الشيطان ، وجنود الشيطان لن تفلح فى شيء ، وسيرد

الله عليهم كيدهم فى نحورهم ، ويحبط سعيهم ، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون . وبعد أن ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذباً إنهم مؤمنون ، ويمالئون المؤمنين طوراً واليهود طوراً آخر اكتساباً لرضا الفريقين ، ثم بين أن الذى حملهم على ذلك هو الشيطان ، إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله ومايجب لله من تعظيم . والإيمان باليوم الآخر . ثم حكم عليهم بأن صفقتهم خاسرة ، لأنهم باعوا الباقى بالفانى ، والزائل الذى لا دوام له بما هو دائم أبداً سرمداً ، بين هنا سبب خسرانهم وهو أنهم شاقوا الله ورسوله وعصوا أمره ، فكتب عليهم الذلة فى الدنيا والآخرة .

أضواء كاشفة

انظر يا من يتأتى منه النظر ــ متعجباً ــ إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ، وهم اليهود وقد تولاهم المنافقون يسرون اليهم بالمودة ، ويحلفون لهم إنهم لمعكم ، ويعلم الله إن المنافقين لكاذبون ، كيف يتولون قوماً غضب الله عليهم ؟ حالة كونهم ما هم منكم ، ولا منهم أى : هؤلاء الذين تولوا اليهود ليسوا من المؤمنين الخلص ، ولا من الكافرين الخلص بل هم مذبذبون بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

روى أن هذه الآية نزلت فى عبد الله بن نبتل ، المنافق ــ وكان أزرق أسمر قصيراً خفيف اللحية ــ وكان يجالس النبى ــ ﷺ ــ ، ثم يرفع حديثه إلى اليهود ، فبينا نحن جلوس مع النبى فى إحدى حجراته إذ قال : « **يدخل عليكم الآن رجل قلبه جبار وينظر بعينى شيطان** »[1] فدخل عبد الله بن نبتل ، فقال النبى له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، فقال له النبى : « **فعلت** » فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما سبوه فنزلت الآية ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ **ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ نعم ، حلفوا بالله أيماناً فاجرة ، وهم يعلمون أنهم كاذبون ، وتلك هى اليمين الغموس .

هؤلاء أعد الله لهم عذاباً شديداً ، وهو الدرك الأسفل من جهنم ، إنهم بئس العمل عملهم ، هؤلاء اتخذوا أيمانهم الفاجرة الكاذبة جنة ووقاية لهم حتى أمنوا القتل ، وفى قراءة : « إيمانهم ، أى : الظاهرى كان وقاية لهم من القتل ، فصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وهو جهادهم بقتلهم وأخذ أموالهم ، وقيل صدهم عن سبيل الله بإلقاء الأراجيف وتثبيط المسلمين عن الجهاد وتخويفهم من القتل ، وقد كان المنافقون كذلك ، ويترتب عليه أن لهم عذاباً ذا إهانة فى الدنيا والآخرة ، لن تنفعهم أموالهم التى جمعوها ، ولا أولادهم الذين يعتزون بهم ، ولن يغنوا عنهم من عذاب الله شيئاً من الإغناء ، وكيف تنفعهم فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ؟ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ١٧ صـ ٣٠٤

ــ انظر تفسير ابن كثير جـ ٨ صـ ٧٨ ط / الشعب

اذكر يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له أنهم مؤمنون ، وما علموا أن ذلك لا ينفعهم أبداً ، ولا يليق بعاقل أبداً ، يحلفون لله كما يحلفون لكم ، ويحسبون أنهم على شيء من منفعة بسبب يمينهم ، ألا إنهم هم الكاذبون المبالغون فى الكذب ، حيث كذبوا بين يدى علام الغيوب يوم القيامة فى الحال التى يؤمن فيها الفاجر ، فلا عجب إذ يحلفون لكم الآن ، ولسائل أن يسأل عن السبب فى هذا ، والجواب أنه : استحوذ عليهم الشيطان فملك عنانهم ، وغلب على عقولهم حتى اتبعوه بلا عقل ولا روية ، وهذا هو سبب كذبهم وضلالهم السابق ، استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . حتى نسوا أنفسهم فتركوها ترتكب الآثام والأباطيل أولئك — والإشارة لبعدهم فى الغواية والبهتان — حزب الشيطان وجماعته المتجمعون على الإثم والعدوان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون وأى خسارة بعد هذا ؟

إن الذين يحادون الله ورسوله بمخالفة أمره ، واتباع الشيطان ، أولئك فى عداد الأذلين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ . هذا إخبار من الله — تبارك وتعالى — عن المنافقين الذين اتخذوا اليهود والنصارى أولياء . وهؤلاء المنافقون فى الحقيقة ليسوا من المؤمنين ولا من اليهود والنصارى . إنما هم كما قال — تعالى — : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون . ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير** ﴾[1]

---

(١) سورة البقرة الآيات من ٨ إلى ٢٠ .

وكما قال تعالى فى سورة النساء : ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً . بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً . وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً . الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبيناً . إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾[1] .

وما أعظم قول الله تبارك وتعالى فى سورة المائدة : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد إيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لايعقلون . قل ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وماأنزل إلينا وماأنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل . وإذا جاءوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون ، وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾[2] ﴿ لولا ينهاهم

(١) سورة النساء الآيات ١٣٧ ــ ١٤٦
(٢) سورة المائدة الآيات ٥١ ــ ٥٨

الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون . وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين . ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون ﴾[1]

ثم قال تعالى منكراً على المنافقين فى موالاتهم الكفار فى الباطن وهم فى نفس الأمر لا معهم ولا مع المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾[2] وقال ههنا : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم** ﴾ يعنى اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم فى الباطن . ثم قال تعالى : ﴿ **ما هم منكم ولا منهم** ﴾ أى : هؤلاء المنافقون ليسوا فى الحقيقة منكم أيها المؤمنون ولا من الذين يوالونهم وهم اليهود .

ثم قال تعالى : ﴿ **ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ يعنى المنافقين يحلفون على الكذب وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا وهى اليمين الغموس ولا سيما فى مثل حالهم اللعين عياذاً بالله منه فإنهم كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا . وإذا جاءوا الرسول حلفوا بالله أنهم مؤمنون . وهم فى ذلك يعلمون أنهم يكذبون فيما حلفوا به لأنهم لا يعتقدون صدق ما قالوه وإن كان فى نفس الأمر مطابقاً ولهذا شهد الله بكذبهم فى أيمانهم وشهادتهم لذلك . ثم قال تعالى : ﴿ **أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ أى : أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهى موالاة الكافرين ونصحهم ومعاداة المؤمنين وغشهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله** ﴾ أى : أظهروا الإيمان فأبطنوا الكفر واتقوا بالأيمان الكاذبة فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن

---

(١) سورة المائدة الآيات : ٥٩ ــ ٦٦

(٢) سورة النساء الآية : ١٤٣

سبيل الله لبعض الناس ﴿ **فلهم عذاب مهين** ﴾ أى : فى مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم فى الأيمان الكاذبة الحانثة . ثم قال تعالى : ﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً** ﴾ أى : لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم . ﴿ **أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً** ﴾ أى : يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم فلا يغادر منهم أحدا ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء** ﴾ أى : يحلفون بالله — عز وجل — أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا — يحلفون للناس فى الدنيا لأن من عاش على شىء مات عليه وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة ولهذا قال : ﴿ **ويحسبون أنهم على شىء** ﴾ أى : حلفهم ذلك لربهم — عز وجل — ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم : ﴿ **ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : أن النبى — ﷺ — كان فى ظل حجره من حجره وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعينى شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق فدعاه رسول الله — ﷺ — فكلمه فقال : « علام تشتمنى أنت وفلان وفلان » نفر دعاهم بأسمائهم . قال فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له . واعتذروا إليه قال فأنزل الله عز وجل : ﴿ **فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون** ﴾(١) .

وحال هؤلاء كما أخبر الله — تعالى — عن المشركين فى قوله : ﴿ **ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ماكانوا يفترون** ﴾(٢) .. ثم قال تعالى : ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله** ﴾ أى : استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله — عز وجل — وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه ، ولهذا قال أبو داود بسنده عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليك بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »(٣) . **قال زائدة : قال السائب : يعنى الصلاة فى الجماعة . . ثم قال تعالى : ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ يعنى الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله . ثم قال تعالى : ﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ .**

---

(١) مسند أحمد ١ /٢٤٠ ، ٢٦٧ ، ٣٥٠

(٢) سورة الأنعام الآيات : ٢٢ — ٢٤

(٣) سنن أبى داود — كتاب الصلاة — باب فى التشديد فى ترك الجماعة ١ / ٣٧١ رقم ٥٤٧

ثم يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ورسوله يعنى الذين هم فى حد والشرع فى حد أى مجانبون للحق مشاقون له هم فى ناحية والهدى فى ناحية : ﴿ **أولئك فى الأذلين** ﴾ أى : فى الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين فى الدنيا والآخرة .

النفاق والمنافقون

إن المؤمنين فى العهد المكى كانوا مبتلين ، يعذبون ويضطهدون ومع ذلك صبروا واحتسبوا فلم يكن فى مكة حينئذ إلا فريقان : فريق المؤمنين الصابرين ، وفريق الكفار والمشركين الجبابرة ولم يكن هناك « منافقون » لأن النفاق طبيعة المراوغة والاحتيال وهذا الدين لم يكن يقدر عليه فى مكة إلا المؤمنون الصادقون أما فى المدينة ، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة ، التى تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام ، وتحب الكفر وأهله ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به .

والمنافقون : قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل ، وابطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله ، فهم فى الدرك الأسفل من النار كما قال تعالى : ﴿ **إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا** ﴾ ١٤٥ النساء .

« فالكافرون المجاهرون أخف منهم ، وهم فوقهم فى درجات النار ، لأن الطائفتين اشتركا فى الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى فى حقهم : ﴿ **هم العدو فاحذرهم** ﴾ ٤ المنافقون .

ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر . أى : لا عدو إلا هم ، ولكن لم يردها هنا حصر العداوة فيهم ، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم للمسلمين ظاهرا ، وموالاتهم له ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها .

« فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم ـــ وهم فى الباطن على خلاف دينهم ـــ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم . لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر ، أما هؤلاء فمعهم فى الديار والمنازل صباحاً ومساءً ، يدلون العدو على عوراتهم ، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم .. صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم تحل غضب الجبار ، وتوجب دخول النار .

« من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان ، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً ، ويمشى على عقبة القهقرى إدباراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً » .

وكان من نعمة الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ على هذه الأمة أن لا يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق ، ذلك أن عدم التمييز يؤدى إلى ضياع القدوة الحسنة فى المجتمع الإسلامى ، ويؤدى أيضاً إلى ذوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق .

« وفى المتسبين للإسلام أناس « نفعيون » لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أى مأرب من ماربهم الدنيئة ، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم ، وإذا أصيبوا كانوا عليهم ، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض الهدامة ممن قد امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ويتظاهرون لهم بأنهم معهم ، ولكنهم يخونونهم فى أحرج المواقف » .

ولما كان الأمر كذلك ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الإبتلاء والإمتحان قال تعالى : ﴿ **آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ ١ ـــ ٣ العنكبوت ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمينَ . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ ١٤٠ ـــ ١٤١ آل عمران ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** ﴾ ١٧٩ آل عمران .

أجل : إنه لابد من التمييز بين الخبيث والطيب ، فالإبتلاء سنة ربانية عبوديتهم على السراء والضراء ، وفى حال العافية والبلاء ، فلله سبحانه على العباد فى كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال .. لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجوع والعطش ، والتعب والنصب ، فتلك المحن والبلايا شرط فى حصول الكمال الإنسانى والاستقامة المطلوبة منه .

والحديث عن المنافقين طويل طويل والحديث هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين فى كيدهم للدعوة الإسلامية .

(١) من أخطر ما ارتكبه المنافقون : موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن فى

عدة مواضع ومنها سورة الحشر ، قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** » ١١ ــ ١٢ الحشر

. وقال تعالى :﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ ١٤ المجادلة

ذكر السدى ومقاتل : أنها نزلت فى عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نبتل المنافقين : فقد كان أحدهما يجالس النبى ــ ﷺ ــ ثم يرفع حديثه إلى اليهود . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً** ﴾ ١٤٣ النساء

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هى سورة « المنافقون » بيّن الله فيها أنهم يظهرون مالا يبطنون ، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين .

﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ ٧ المنافقون .

وفيها أيضاً :

﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ . ٨ المنافقون .

روى البخارى ومسلم فى سبب نزولها عن جابر بن عبد الله ــ رضى الله عنهما ــ قال : « كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : ياللأنصار ، وقال المهاجرى : ياللمهاجرين ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا يارسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها منتنة » فسمعها عبد الله بن أبىّ فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق : قال ــ ﷺ ــ « دعه . لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »[1] .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب البر والصلة ــ باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما رقم ١٦٦٩

قال محمد بن إسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبىَّ لما بلغه ما كان عن أبيه أتى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : يا رسول الله : إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل ابر بوالديه منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبىَّ يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ :« بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا »[1] .

وذكر عكرمة وغيره : أن الناس قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله بن أبىَّ على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبىَّ قال له ابنه : وراءك ، فقال : مالك ويلك ؟ قال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن رسول الله ــ ﷺ ــ وكان إنما يسير ساقه ــ « من صفته ــ ﷺ ــ أنه يسوق أصحابه أى يقدمهم ويمشى خلفهم تواضعاً ولا يدع أحداً يمشى خلفه » فشكى له عبد الله بن أبىَّ ابنه ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ،فأذن له رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ــ ﷺ ــ فجز الآن[2] .

وحقاً إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الإبن لرسول الله : إن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه . إنه ما حمل هذا الإبن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء فى نفسه .

(٢) من أقبح صفاتهم : رفض التحاكم إلى شريعة الله ، والتحاكم إلى الطواغيت التى تحقق رغباتهم ، قال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ . ٦٠ ــ ٦٣ النساء

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى :

---

(١) تفسير الطبرى ٢٨ / ٧٦ سورة المنافقون آية ٨

(٢) تفسير ابن كثير ــ طبعة الشعب . سورة المنافقون آية ٨ ٨ / ١٥٩

• ﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٨ ـــ ٥٠ النور

ثم يضع الله ميزاناً دقيقاً فى هذه القضية بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول : سمعت وأطعت ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ النور

هذه هى صفة المؤمن ، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله .

(٣) من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة : التخذيل فى صف المسلمين ، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم . قال الله عنهم :

﴿ الذين قالوا لأخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ . ١٦٨ آل عمران .

ولقد أصيب المسلمون فى غزوة أحد بالدهشة حيث رجع ثلث الجيش بزعامة ابن أبّى . وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها .

وفى موالاتهم للكفار يقول الله فى شأنهم :

﴿ أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ ١٣٨ ـــ ١٣٩ النساء .

وأخبرنا سبحانه أنهم هم :

﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ . ١٤١ النساء .

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى : ﴿ إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله

واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾ . ٤٥ ـــ ٥٠ التوبة .

ففى هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً لأنهم جبناء ، مخذلون ، ولأسرعوا بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة . وقال الله فيهم أيضاً :

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ ٨٦ ـــ ٨٧ التوبة .

ولهم مواقف أخرى كثيرة ، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين لرسوله ﷺ ـــ أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عياناً ولكنهم يعرفون بلحن القول ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾ ٣٠ محمد .

حزب الله

قال الله تعالى :

كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ

معانى المفردات

كتب الله : أى قضى وحكم ، لأغلبن : أى بالحجة والسيف ، وأيدهم : أى قواهم ، بروح منه : أى بنور يقذفه فى قلب من يشاء من عباده ، لتحصل له الطمأنينة والسكينة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد ما حكم الله تعالى على المنافقين بالخسران وحكم على الذين يحادون الله ورسوله بأنهم فى الأذلين ، قضى قضاءً لا يتغير بأن الغلبة والنصر له سبحانه ولرسله الكرام وأن الذلة لأعدائه ثم ذكر أن الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاة أعدائه مهما قرب بهم النسب بأن كانوا آباء أو أبناء أو إخوانا أو من ذى العشيرة ، لأن المحادين كتبت عليهم الذلة ، وأولئك كتبت لهم العزة ، وقواهم ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان ، وهم جند الله وناصرو دينه ، وحزب الله مفلح لا محالة وقد كتبت له السعادة فى الدارين ، كما قال : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** ﴾[1] .

أضواء كاشفة

إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وما سبب ذلك ؟ الجواب : كتب الله لأغلبن أنا ورسلى أى قدر وأراد إرادة مؤكدة كأنه أقسم عليها ، ولذا جاء الجواب باللام المؤكدة فى قوله : لأغلبن أنا ورسلى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون ، وإن جندنا لهم الغالبون ﴾[2] ولا غرابة إن ربك لقوى قادر عزيز غالب . لا تجد قوماً يؤمنون بالله ورسوله حقاً إيماناً كاملاً ، يوادون من حاد الله ورسوله بقلوبهم مخلصين ، والغرض من هذا الأسلوب بيان أنه لا ينبغى أن يجتمع فى قلب واحد إيمان كامل مع موادة الكفار ، وحقه أن يمتنع ، ولا يوجد بحال ، وهذا مبالغة فى النهى عنه والزجر عن سلوك طريقه ، والنهى عنه الإخلاص القلبى للكافر ، ولو كان أباً أو إبناً أو أخاً أو من العشيرة ، وقد كان الصحابة لا يفضلون على حب الله ورسوله شيئاً بل بعضهم قتل وصفع وأهان بعض أقاربه فى سبيل الله ، أولئك الممتثلون أمر الله ، الذين يجدون حلاوة الإيمان فى حب الله ورسوله . وهم بالطبع لا يوادون أعداء الله وأعداء الإسلام والقرآن ، أولئك كتب الله فى قلوبهم الإيمان وثبته ، وأيدهم بروح من عنده ، وأنار قلوبهم للحق فاعتنقوه ،

---

(١) سورة محمد الاية : ٧

(٢) سورة الصافات الآيات : ١٧١ ــ ١٧٣

وسيدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الرحمن المختصون بالقرآن ، ألا إن حزب الله هم المفلحون وحدهم ، وأى فلاح بعد ذلك ؟ ! !

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى** ﴾ أى : قد حكم وكتب فى كتابه الأول وقدره الذى لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين فى الدنيا والآخرة ، وأن العاقبة للمتقين ، كما قال تعالى : ﴿ **إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار** ﴾(١) وقال ههنا : ﴿ **كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز** ﴾ أى : كتب القوى العزيز أنه الغالب لأعدائه وهذا قدر محكم وأمر مبرم أن العاقبة والنصرة للمؤمنين فى الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم** ﴾ أى لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين . كما قال تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه** ﴾(٢) . الآية . وقال تعالى : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾(٣) .

وقد قال سعيد بن عبد العزيز وغيره : أنزلت هذه الآية : ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾ إلى آخرها ، فى أبى عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح حين قتل أباه يوم بدر ولهذا قال عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — حين جعل الأمر شورى بعده فى أولئك الستة — رضى الله عنهم — ولو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته . وقيل فى قوله تعالى : ﴿ **ولو كانوا آباءهم** ﴾ نزلت فى أبى عبيدة قتل أباه يوم بدر ﴿ **أو أبناءهم** ﴾ فى الصديق همَّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن ﴿ **أو إخوانهم** ﴾ فى مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ ﴿ **أو عشيرتهم** ﴾ فى عمر قتل قريباً له يومئذ فالله أعلم .

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٥١ — ٥٢
(٢) سورة آل عمران الآية : ٢٨
(٣) سورة التوبة الآية : ٢٤

ومن هذا القبيل حين استشار رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين فى أسارى بدر فأشار الصديق بأن يفادوا فيكون ما يؤخذ منهم قوة للمسلمين ، وهم بنوا العم والعشيرة ولعل الله تعالى أن يهديهم وقال عمر : لا أرى ما رأى يارسول الله ، هل تمكننى من فلان . قريب لعمر فأقتله ، وتمكن علياً من عقيل وتمكن فلاناً من فلان ليعلم الله أنه ليست فى قلوبنا موادة للمشركين .

وقوله تعالى : ﴿ **أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾ أى : من اتصف أنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله فى قلبه الإيمان أى كتب له السعادة وقررها فى قلبه وزين الإيمان فى بصيرته . قال السدى : (كتب فى قلوبهم الإيمان) جعل فى قلوبهم الإيمان . وقال ابن عباس : (وأيدهم بروح منه) أى : قواهم وقوله تعالى : ﴿ **ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ هذا جزاؤهم عند الله فالكريم إذا وعد وفّى وأنجز إذا أوعد فهو بالخيار إن شاء عفا وإن شاء عاقب .

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب
إذا صح منك الود فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

سبحانك أنت القائل : ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون** ﴾ وأنت القائل : ﴿ **وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[1] .

رضاك خير من الدنيا وما فيها ... يا مالك النفس قاصيها ودانيها
فليس للنفس آمال تحققها ... سوى رضاك فذا أقصى أمانيها
فنظرة منك ياسؤلى ويا أملى ... خير إلىّ من الدنيا وما فيها

سمع أحد الصالحين رجلاً فى مجلسه يقول : اللهم ارض عنى ، فقال له : لو رضيت عن الله لرضى الله عنك . قال الرجل : وكيف أرضى عن الله ؟ قال له : يوم تسر بالنقمة سرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله .

(١) سورة التوبة الآية ٧٢

ما مسنى قدر بكرهٍ أو رضى إلا اهتديت به إليك طريقا
أمضى القضاءِ على الرضا منى به إنى عرفتك فى البلاء رفيقاً

إلهى : — شعاع من رضاك يطفىء غضب ملوك أهل الأرض ، ولمحة من غضبك تزهق الروح ولو انغمست فى نعيم الدنيا .

أنا لا أضام وفى رحابك عزتى أنا لا أخاف وفى رضاك أمانى
يارب حبك فى دمى وكيانى نور أغر يذوب فى وجدانى

أستحى أن أسألك وأنا أنا ولكن كيف لا أسألك وأنت أنت إن كانت ذنوبى لها حد وغاية ، فإن عفوك لا حد له ولا نهاية .

فعلنا خطايانا وسترك مسبل وليس لشىء أنت ساتره كشف
إذا نحن لم نخطىء وتعفو تكرماً فمن غيرنا يهفو وغيرك من يعفو

يارب : — إن لم أكن أهلاً لبلوغ رحمتك فإن رحمتك أهل لأن تبلغنى ، فأنت القائل : ﴿ **ورحمتى وسعت كل شىء** ﴾ وأنا شىء فلتسعنى رحمتك .

يا بارىء الكون فى عز وتمكين وكل أمر جرى بالكاف والنون
يا من لطفت بحالى قبل تكوينى لا تجعل النار يوم الحشر تكوينى

قوله تعالى : ﴿ **أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ أى : هؤلاء حزب الله أى عباد الله وأهل كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ **ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم فى الدنيا والآخرة فى مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان . ثم قال : ﴿ **ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ . وقد قال ابى حاتم بسنده كتب أبو حازم الأعرج إلى الزهرى : اعلم أن الجاه جاهان ، جاه يجريه الله تعالى على أيدى أوليائه لأوليائه ، وأنهم الخامل ذكرهم ، الخفية شخوصهم ، ولقد جاءت صفتهم على لسان رسول الله — ﷺ — « إن الله يحب الأخفياء الأتقياء الأبرياء الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذا

حضروا لم يدعوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، يخرجون من كل فتنة سوداء مظلمة » فهؤلاء أولياء الله تعالى الذين قال الله فيهم : **﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾**(١)

وقال نعيم بن حماد بسنده عن الحسن قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لفاسق عندى يداً ولا نعمة ، فإنى وجدت فيما أوحيته إلىّ » . **﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ﴾** . قال سفيان : يرون أنها نزلت فيمن يخالط السلطان . رواه أبو أحمد العسكرى(٢) .

قضية ذات أهمية بالغة

بعد الحديث عن حزب الله وحزب الشيطان ، أرى لزاماً على كل مسلم أن يقف طويلاً طويلا أمام تلك القضية التى يجب على كل مسلم أن يعلمها ويعمل بمقتضاها ويدرك مبناها ومعناها ويقف على حقيقة مرماها ومغزاها . وهذه القضية تدور حول سؤالين : لمن يكون الولاء ؟ وممن يكون البراء ؟

وعندما نتحدث عن هذه القضية نبدأ حديثنا بقوله تعالى : **﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾**(٣)

وقوله جل شأنه : **﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق . يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة . يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾**(٤) .

فاللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ونؤمن بك ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم إياك نعبد ولك نصلى ونسجد وإليك

---

(١) سند ابن ماجه ـ كتاب الفتن ـ باب من ترجى له السلامة من الفتن ٢ /١٣٢٠ رقم ٣٩٨٩

(٢) انظر تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب . سورة المجادلة . آية ٢٢ ٨ /٨٠

(٣) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤

(٤) سورة الممتحنة الآيتان : ١ ، ٢

نسعى ونحفر ، نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد بالكفار ملحق . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم . فلمن يكون الولاء وممن يكون البراء ؛ وتحت هذين السؤالين تندرج بحوث كثيرة نسأل الله تعالى أن يلهمنا العمل بما نعلم كما نسأله أن يبصرنا بعيوبنا .

قال الشيخ : محمد بن سعيد بن سالم فى هذه القضية التى بين أيدينا :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدى ومن يضلل الله فلن تجد له ولياً مرشداً وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ ــ وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيله واهتدى بهداه وسلم تسليماً كثيراً أما بعد :

فإنه من رحمة الله ــ سبحانه وتعالى ــ وعظيم لطفه بخلقه : أن جعل الرسالة المحمدية هى خاتمة الرسالات السماوية وجعلها سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنها إلا هالك . وكتب تبارك اسمه وتعالى جله السعادة فى الدارين لأتباع هذه الرسالة الذين قدروها حق قدرها وقاموا بها على وفق ما أراد الله وعلى هدى نبى الله - ﷺ - وسماهم أولياء الله وحزبه ، وكتب عز وجل الشقاء والذلة على من حاد عن هذه الشريعة وتنكب الصراط المستقيم سماهم أولياء الشيطان وجنده .

وأصل هذه الرسالة الخالدة : كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

هذه الكلمة العظيمة ــ كما يقول ابن القيم : ــ « التى لأجلها نصبت الموازين ووضعت الدواوين ، وقام سوق الجنة والنار ، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار وأسست الملة ولأجلها جردت السيوف للجهاد وهى حق الله على جميع العباد » وحقيقة هذه الكلمة : « مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ــ ﷺ ــ علماً ، والتصديق به عقداً ، والاقرار به لطفاً والانقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان وكماله فى الحب فى الله والبغض فى الله والمنع فى الله وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده والطريق إليه : تجريد متابعة رسوله ــ ﷺ ــ ظاهراً وباطناً ، وتغميض عين القلب عن الالتفات إلى سوى الله ورسوله . هذه الكلمة العظيمة بكل مفاهيمها ومقتضياتها قد غابت عن حس الناس اليوم إلا من رحم الله ، ومن هذه المفاهيم بل من أهمها موضوع : الولاء والبراء .

ولئن كان هذا المفهوم العقدى الهام قد غاب اليوم عن واقع حياة المسلمين ــ إلا من رحم ربك ــ فإن ذلك لا يغير من حقيقته الناصعة شيئاً .

ذلك أن الولاء والبراء : هما الصورة الفعلية للتطبيق الواقعى لهذه العقيدة وهو مفهوم ضخم فى حس المسلم بمقدار ضخامة وعظمة هذه العقيدة .

ولن تتحقق كلمة التوحيد فى الأرض إلا بتحقيق الولاء لمن يستحق الولاء والبراء ممن يستحق البراء .

ويحسب بعض الناس أن هذا المفهوم العقدى الكبير يدرج ضمن القضايا الجزئية أو الثانوية ولكن حقيقة الأمر بعكس ذلك . إنها قضية إيمان وكفر كما قال الله تعالى : —

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله . وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(١) .

وقال جل جلاله :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(٢)

وقد قال أحد العلماء — وهو الشيخ حمد بن عتيق رحمه الله — « إنه ليس فى كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم — أى الولاء والبراء — بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده » ولقد قامت الأمة الإسلامية بقيادة البشرية دهراً طويلاً حيث نشرت هذه العقيدة الغراء فى ربوع المعمورة وأخرجت الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ثم ما الذى حدث ؟

لقد تقهقرت هذه الأمة إلى الوراء بعد أن تركت الجهاد وأخذت بأذناب اللهو .

تراجعت بعد أن زهدت فى الجهاد وهو ذروة سنام الإسلام .

تبعت الأمم الأخرى بعد أن ركنت إلى حياة الدعة والرفاهية والبذخ والمجنون .

(١) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤
(٢) سورة المائدة الآية : ٥١

تبلبلت أفكارها بعد أن خلطت نبعها الصافى بالفلسفات الجاهلية والهرطقة البشرية .

دخلت هذه الأمة فى طاعة الكافرين واطمأنت إليهم ، وطلبت صلاح دنياها بذهاب دينها فخسرت الدنيا والآخرة .

وبرزت صور موالاة الكفار فى أمور شتى منها : —

(١) محبة الكفار وتعظيمهم ونصرتهم على حرب أولياء الله ، وتنمية شريعة الله عن الحكم فى الأرض ورميها بالقصور والجمود وعدم مسايرة العصر ومواكبة التقدم الحضارى .

(٢) ومنها : استيراد القوانين الكافرة — شرقية كانت أم غربية — وإحلالها محل شريعة الله الغراء وغمز كل مسلم يطالب بشرع الله بـ : التعصب والرجعية والتخلف .

(٣) ومنها : التشكيك فى سنة رسول الله — ﷺ — والطعن فى دواوينها الكريمة والحط من قدر أولئك الرجال الأعلام الذين خدموا هذه السنة حتى وصلت إلينا .

(٤) قيام دعوات جاهلية جديدة تعتبر ردة جديدة فى حياة المسلمين ذلك مثل دعوة **القومية الطورانية** والقومية العربية والقومية الهندية .. و .. و .. الخ .

(٥) إفساد المجتمعات الاسلامية عن طريق وسائل التربية والتعليم وبث سموم الغزو الفكرى فى المناهج والوسائل الإعلامية بكل أصنافها .

وأمام هذه الصورة وغيرها من الصور الكثيرة تنشأ أسئلة كثيرة تحتاج إلى إجابات صادقة وافية يدعمها الدليل من الكتاب والسنة والاسترشاد بآراء العلماء الأعلام ومن هذه الأسئلة : لمن ينتمى المسلم ؟ ولمن يكون ولاؤه ؟ وممن يكون براؤه ؟ ما حكم تولى الكفار ونصرتهم ؟ وما حكم الإسلام فى المذاهب الفكرية التى يروج لها المستغفلون أو الحاقدون من أبناء أمتنا وممن ينطقون بألسنتنا ؟

كيف ينبغى أن تكون صورة الولاء للمسلمين الذين يضطهدون اليوم وغير اليوم فى مشارق الأرض ومغاربها حيث تكالبت عليهم قوى الشر والكفر ؟

ما هو طريق الخلاص بعدما تقبل المسلمون لباس العبودية العقلية الذى خلعته عليهم المدنية الأجنبية ؟
يستثير هذه الأسئلة وغيرها غياب المفهوم الصحيح لكلمة التوحيد وبعد ذلك عن واقع المسلمين اليوم حيث مسخت مفاهيمها حتى صار من يقر بتوحيد الربوبية فقط دون توحيد الألوهية يعتبر موحداً عند كثير من الناس .

أما كون لا إله إلا الله ولاء وبراء أما كونها توحيد ألوهية وعبادة : فهذه معان لا تخطر على أذهان الكثير ــ إلا من رحمه الله ــ ورحم الله الإمام الداعية شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب حين قال : « إن الانسان لا يستقيم له إسلام ولا وحدانية وترك الشرك إلا بعداوة المشركين كما قال تعالى فى سورة المجادلة : ــ

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبنائهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ .

لما عرف الصحابة رضوان الله عليهم الجاهلية ، ثم عرفوا الإسلام خرجوا ــ نتيجة للتربية القرآنية والعناية النبوية وهم أعظم جيل عرفه تاريخ هذه الدعوة .

ترى ما سر تلك العظمة التى نقرأ عنها ونسمع وكأنها شبه أحلام نظراً للهوة السحيقة التى وصلنا إليها ؟ ذلك الجيل الذى كان الواحد منهم إذا دخل فى الإسلام خلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية وانتقل نقلة بعيدة من عالم مظلم سحيق وتصور ومفاهيم كليلة وعبودية للمال والعبيد إلى حياة رحبة فسيحة وعالم يملؤه نور الله وتصور كامل شامل ، واستعلاء على كل عبودية إلا العبودية لله ــ عز وجل ــ

إن سر ذلك النجاح وتلك العظمة هو نقطة البدء التى بدأ بها رسول الله ــ ﷺ ــ وهى كلمة « لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » هذه الكلمة التى مزقت كل رابطة ، وأهدرت كل وشيمة إلا وشمة العقيدة . رابطة الحب فى الله ، رابطة المؤاخاة الإيمانية التى يتهاوى دونها كل عرق ودم وتراب وجنس ولون .

ورد فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال « قال رسول الله ــ ﷺ ــ « إن الله يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى . اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى »[1] .

---

(١) صحيح مسلم ــ كتاب البر والصلة ــ باب فى فضل الحب فى الله ٤ /١٩٨٨ رقم ٢٥٦٦

وعن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : قال النبى ــ ﷺ ــ « إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى » قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم ؟ قال : « هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور وإنهم على نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس »[١] وقرأ هذه الآية : ــ

﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[٢]

ولقد مكث رسول الله ــ ﷺ ــ بمكة ثلاثة عشر عاماً يدعو الناس إلى هذه العقيدة ويمكنها فى نفوس العصبة المسلمة مما جعل آثار ذلك تنعكس فى أفعالهم الحميدة وجهادهم المستمر لنشر كلمة الله فى الأرض حين قامت دولة المصطفى فى المدينة المنورة . إن الذى يجعلنا نتحدث عن قضية الألوهية ومفهومها الصحيح الذى جاء به الإسلام هو الحاجة الماسة لشرحها اليوم وبيانها للناس . بعد أن انحرف الناس ــ إلا من رحمه الله ــ عن العقيدة الصافية التى جاء بها الرسول ــ ﷺ ــ

لقد أصبحت هذه القضية عند سواد الناس اليوم مجرد لفظة ترددها الألسنة دون وعى وتدبر لمعناها ولوازمها و لم يقتصر الأمر على هذا فحسب بل تعداه إلى إيراد بعض النصوص للاستشهاد بها على ما يرون من معتقد ، دون نظر لكامل النصوص فى هذه القضية ، ودون رجوع إلى بيان ذلك فى كتب أهل العلم من كتب الحديث وشروحها وكتب التفسير وشروح جهابذة رجال الدعوة والإصلاح على مدار تاريخ هذه الأمة .

ومسخ أيضاً مفهوم العبادة الشامل الكامل للحياة الدنيا والآخرة إلى جزء يسير منها وهو الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج .

أما النظام الذى تقوم عليه الحياة . أما الولاء لمن يكون ؟ والبراء ممن يكون ؟ أما الحب لمن ؟ والبغض لمن ؟ فهذه معانٍ بعيدة عن تصورهم ومجال تفكيرهم ! !

إن هذا الدين لم يكن توحيد ربوبية فحسب . وإنما هو أيضاً توحيد ألوهية وتوحيد أسماء وصفات تليق بجلال الله وعظمته . وتأمل ــ كما يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب ــ رحمه الله ــ « وحال رسول الله ــ ﷺ ــ لما قام ينذر المشركين من الشرك ويأمرهم بضده وهو التوحيد لم يكرهوا واستحسنوا وحدثوا

---

(٢) سنن أبى داود ــ كتاب البيوع والإجارات ــ باب فى الرهن ٣ / ٧٩٩ رقم ٣٥٢٧

(٣) سورة يونس الآيتان : ٦٢ ، ٦٣

أنفسهم بالدخول فيه إلى أن صرح بسب دينهم وتجهيل علمائهم فحينئذ شمروا له ولأصحابه عن ساق العداوة ، وقالوا : سفه أحلامنا وعاب ديننا وشتم آلهتنا ومعلوم أنه صلى الله عليه وسلم لم يشتم عيسى وأمه ولا الملائكة ولا الصالحين ولكن لما ذكر أنهم لا يدعون ولا ينفعون ولا يضرون جعلوا ذلك شتماً .

فإذا عرفت هذا عرفتَ أن الإنسان لا يستقيم له إسلام ــ ولو وحد الله وترك الشرك ــ إلا بعداوة المشركين ، والتصريح لهم بالعداوة والبغض ، كما قال تعالى فى سورة المجادلة : ــ

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان ﴾ .

فإذا فهمت هذا جيداً عرفت أن كثيراً من الذين يدعون الدين لا يعرفونها ــ أى لا إله إلا الله ــ وإلا فما الذى حمل المسلمين على الصبر على ذلك العذاب والأسر والضرب والهجرة للحبشة مع أنه ــ ﷺ ــ أرحم الناس لو يجد لهم رخصة لأرخص لهم » .

وما دام أن هناك من يجهل حقيقة « لا إله إلا الله » فلابد من الشرح لها والبيان لمدلولها وحقيقتها وشروطها ونواقضها ولوازمها وإليك ذلك مفصلاً .

ومن الله نستمد العون والسداد .

كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله »

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله وبذلك تنفى الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده .

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : « ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا فى محبة الله والتقرب إليه بما يحبه ولا تمكن محبة إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » وهى ملة إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم : أجمعين أما شقها الثانى « محمد رسول الله » فمعناه تجريد متابعته فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر .

ومن هنا كانت « لا إله إلا الله » ولاء وبراء نفياً وإثباتاً . ولاء لله ولدينه وكتابه وسنة نبيه وعباده الصالحين . وبراء من كل طاغوت عبد من دون الله .

﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد إستمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾[١]

وفى هذا يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب : واعلم أن الإنسان ما يصير مؤمناً بالله إلا بالكفر بالطاغوت والدليل هذه الآية . يعنى الآية السابقة .

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله .

﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون** ﴾[٢] .

﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها** ﴾[٣]

وبراء من حكم الجاهلية : —

﴿ **أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون** ﴾[٤] .

وبراء من كل دين غير دين ا لاسلام : —

﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[٥] .

ثم هى نفى وإثبات تنفى أربعة أمور . وتثبت أربعة أمور : —

« تنفى : الآلهة ، والطواغيت والأنداد والأرباب .

فالآلهة : ما قصدته بشىء من جلب خير أو دفع ضر أنت متخذه إلهاً .

والطواغيت : من عبد وهو راض أو رشح للعبادة .

والأنداد : ما حزبك عن دين الإسلام من أهل أو مسكن أو عشيرة أو مال . فهو ند لقوله تعالى : —

﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله** ﴾[٦]

والأرباب : من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾[٧] .

وتثبت أربعة أمور : —

التعبد : وهو كونك ما تقصد إلا الله .

والتعظيم والمحبة : لقوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾[٨] والخوف والرجاء : لقوله تعالى :

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٦
(٢) سورة الأعراف الآية : ٢
(٣) سورة الروم الآية : ٣٠
(٤) سورة المائدة الآية : ٥٠
(٥) سورة آل عمران الآية : ٨٥
(٦) سورة البقرة الآية : ١٦٥
(٧) سورة التوبة الآية : ٣١
(٨) سورة البقرة الآية : ١٦٥

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يُردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾(١) .

فمن عرف هذا قطع العلاقة مع غير الله ولا تكبر عليه جهامة الباطل كما أخبر تعالى عن إبراهيم — عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام — بتكسير الأصنام وتبريه من قومه : —

﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا بُرَءآؤُ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾(٢) .

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبنى معنى لا إله إلا الله بنفى الشرك وتوابعه ، ويقرر الإخلاص وشرائعه ، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلول كلمة الإخلاص لأن دلالتها على الدين كله إما مطابقة وإما تضمناً وإما التزاماً يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى والتقوى : — أن يتقى سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصى وإخلاص العبادة لله واتباع أمره على ما شرعه . كما قال ابن مسعود — رضى الله عنه — « أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله » .

أما كيف تم لأصحاب رسول الله — ﷺ — معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضياتها ولوازمها فيشرح ذلك الإمام الجليل سفيان بن عيينه : حدث محمد بن عبد الملك المصيصى قال : كنا عند سفيان بن عيينه فى سبعين ومائة فسأله رجل عن الإيمان ؟ فقال : قول وعمل قال : يزيد وينقص ؟ قال : يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه وأشار سفيان بيده . قال الرجل : كيف نصنع بقوم عندما يزعمون : أن الإيمان قول بلا عمل ؟ قال سفيان : كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده .

إن الله — عز وجل — بعث نبينا محمداً — ﷺ — إلى الناس كلهم كافة أن يقولوا : لا إله إلا الله وأنه رسول . فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله — عز وجل — فلم علم الله — عز وجل — صدق ذلك من قلوبهم ، أمره أن يأمرهم بالصلاة فأمرهم ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم .

---

(١) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٢) سورة الممتحنة الآية : ٤

فلما علم الله ـــ جل وعلا ـــ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة فأمرهم ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم حتى يقولوا كقولهم ويصلوا صلاتهم ويهاجروا هجرتهم فأمرهم ففعلوا ، حتى أتى أحدهم برأس أبيه فقال : يا رسول الله : هذا رأس شيخ الكافرين ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتالهم فلما علم الله ـــ عز وجل ـــ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدا وأن يحلقوا رؤوسهم تذللاً ففعلوا فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم فلما علم الله ـــ عز وجل ـــ صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها والله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ولا قتلهم آباءهم ولا طوافهم ، فلما علم الله ـــ تبارك وتعالى ـــ **الصدق من**/قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عز وجل : قل لهم : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** ﴾[1] قال سفيان : فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافراً ومن تركها كسلاً أو تهاوناً بها ، أدبناه وكان بها عندنا ناقصاً . هكذا السنة أبلغها عنى من سألك من الناس وقد ذكر العلماء ـــ رحمهم الله ـــ شروطاً سبعة لـ « لا إله إلا الله » لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط فيه وإليك شرحها : ـــ

شروط « لا إله إلا الله »

ينبغى أن نعلم أنه « ليس المراد من هذا عد ألفاظها وحفظها فكم من عامى اجمعت. فيه والتزمها ولو قيل له أعددها لم يحسن ذلك وكم حافظ لألفاظها يجرى فيها كالسهم ، وتراه يقع كثيراً فيما يناقضها والتوفيق بيد الله » .

وقد قال وهب بن منبه لمن سأله : أليس « لا إله إلا الله » مفتاح الجنة ؟

قال : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك .

وأسنان هذا المفتاح هى شروط « لا إله إلا الله » الآتية : ـــ

الشرط الأول : ـــ

العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافى للجهل بذلك قال تعالى :

---

(١) سورة المائدة الآية : ٣

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[١]

وقال ﴿ إلا من شهد بالحق ﴾[٢]

أى : بلا إله إلا الله ﴿ وهم يعلمون ﴾ بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم .

وقال تعالى : —

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[٣] .

وفى الصحيح عن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة »[٤] .

الشرط الثانى : —

اليقين المنافى للشك . ومعنى ذلك : أن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة ، يقيناً جازماً ، فإن الإيمان لا يغنى فيه إلا علم اليقين لا علم الظن قال تعالى :

﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾[٥]

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله — ﷺ — « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة »[٦]

وفى رواية « لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة »[٧] وعن أبى هريرة أيضاً من حديث طويل « من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة »[٨] وقال القرطبى : — فى « الفهم على صحيح مسلم » باب لا يكفى مجرد التلفظ بالشهادتين بل لابد من استيقان القلب وهذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غلاة المرجئة القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كاف فى الإيمان وأحاديث هذا الباب تدل على فساده بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح وهو باطل قطعاً » .

(١) سورة محمد الآية : ١٩
(٢) سورة الزخرف الآية : ٨٦
(٣) سورة آل عمران الآية : ١٨
(٤) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٥ رقم ٤٣
(٥) سورة الحجرات الآية : ١٥
(٦) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الدليل على أن لمن مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٦ رقم ٤٤
(٧) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٧ رقم ٤٥
(٨) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة ١ / ٥٩ رقم ٥٢

الشرط الثالث : —

القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه وقد قص الله — عز وجل — علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها وانتقامه ممن ردها وأباها كما قال تعالى : —

﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(١)

وقال تعالى : —

﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين ﴾(٢)

ويقول تعالى : —

﴿ إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، ويقولون أئنا لتاركوا إلهتنا لشاعر مجنون ﴾(٣) .

الشرط الرابع : —

الانقياد لما دلت عليه ، المنافى لترك ذلك .

قال تعالى : **﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾**(٤)

وقال : **﴿ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾**(٥)

وقال : **﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾**(٦) .

وفى الحديث « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »(٧) هذا هو تمام الانقياد وغايته .

وقال تعالى : **﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾**(٨)

---

(١) سورة الزخرف الآيات : ٢٣ — ٢٥

(٢) سورة يونس الآية : ١٠٣

(٣) سورة الصافات : الآيتان : ٣٦ — ٣٧

(٤) سورة الزمر الآية : ٥٤

(٥) سورة النساء الآية : ١٢٥

(٦) سورة لقمان الآية : ٢٢

(٧) شرح السنة للإمام النبوى ١ / ٢١٣ رقم ١٠٤

(٨) سورة النساء الآية : ٦٥

قال ابن كثير — رحمه الله — فى تفسيرها : يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول فى جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذى يجب الانقياد له باطناً وظاهراً ولهذا قال : ﴿ **ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ أى : إذا حكموك يطيعونك فى بواطنهم فلا يجدون فى أنفسهم حرجاً مما حكمت به وينقادون له فى الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعه ولا منازعة كما ورد فى الحديث « والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

الشرط الخامس : —

الصدق المنافى للكذب وهو أن يقولها صدقاً من قلب يواطىء قلبه لسانه قال تعالى : —

﴿ **آلم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم . فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾[١]

وقال تعالى : —

﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً . ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾[٢] .

وفى الصحيحين عن معاذ بن جبل — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — [ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار][٣] .

قال العلامة ابن القيم : « والتصديق بلا إله إلا الله يقتضى الإذعان والإقرار بحقوقها وهى شرائع الإسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه فالمصدق بها على الحقيقة هو الذى يأتى بذلك كله ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقها وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها »

---

(١) سورة العنكبوت الآيات : ١ — ٣

(٢) سورة البقرة الآيات : ٨ — ١٠

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب من لقى الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار رقم ٢٠

وفى الحديث : قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : [شفاعتى لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً يصدق قلبه لسانه ولسانه قلبه][1] .

وقال ابن رجب : « أما من قال : لا إله إلا الله بلسانه ثم أطاع الشيطان وهواه فى معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله فى طاعة الشيطان والهوى .
﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾[2]
وقال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾[3] .

الشرط السادس : ـ
الإخلاص وهو تصفية العمل بصالح النية من جميع شوائب الشرك قال تعالى : ـ
﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾[4]
وقال تعالى : ـ ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾[5] .

وفى الصحيح عن أبى هريرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « قال أسعد الناس بشفاعتى من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه »[6]

وفى الصحيح عن عتبان بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله ـ عز وجل ـ »[7] .

وللنسائى فى اليوم والليلة من حديث رجلين من الصحابة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير مخلصاً بها قلبه ، يصدق بها لسانه إلا فتق الله لها السماء فتقاً حتى ينظر إلى قائلها من أهل الأرض وحق لعبد نظر الله إليه أن يعطيه سؤاله »[8] .

(١) مسند أحمد ٢ / ٣٠٧
(٢) سورة القصص الآية : ٥٠
(٣) سورة ص الآية : ٢٦
(٤) سورة الزمر الآية : ٣
(٥) سورة البينة الآية : ٥
(٦) صحيح البخارى ـ كتاب الرقاق ـ باب صفحة الجنة والنار ٨ / ١٤٦
(٧) صحيح البخارى ـ كتاب الصلاة ـ باب المساجد بيوت الله ١ /١١٦
(٨) عمل اليوم والليلة للنسائى صفحة ٢٨ رقم ٢٨

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : « إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله والصواب أن يكون على السنة . ولقد ضرب الله سبحانه فى القرآن العظيم مثلاً واضحاً للمخلص فى توحيده وللمشرك قال تعالى :

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ﴾(١)

ويقول الأستاذ سيد قطب ــ رحمه الله ــ فى تفسيرها : « هذا مثل يضربه الله للعبد الموحد والعبد المشرك بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه وهو بينهم موزع ولكل منهم فيه توجيه ولكل منهم عليه تكليف وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ولا يملك أن يرضى أهواءهم المتنازعة المتشاكسة . وعبد يملكه سيد واحد وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح « هل يستويان » ؟ لا . لأن الذى يخضع لسيد واحد ينعم براحة الاستقامة والمعرفة واليقين وتجمع الطاقة ووحدة الاتجاه ووضوح الطريق والذى يخضع لسادة مشتركين معذب مقلقل لا يستقر على حال ، ولا يرضى واحداً منهم فضلاً عن أن يرضى الجميع . وهذا المثل يصور حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك فى جميع الأحوال فالقلب المؤمن بحقيقة التوحيد هو القلب الذى يسير على هدى من الله يستمد منه وحده ويتجه إليه وحده » .

ويقول الشيخ القاسمى ــ رحمه الله ــ : « إن القصد هو توحيد المعبود فى توحيد الوجهة ودرء الفرقة كما قال تعالى :

﴿ أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار ﴾(٢)

إن الاسلام لابد فيه من الاستسلام لله وحده وترك الاستسلام لما سواه وهذا حقيقة « لا إله إلا الله » فمن أسلم لله ولغير الله فهو مشرك والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم له فهو مستكبر عن عبادته وقد قال تعالى :

﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين ﴾

الشرط السابع : ــ

المحبة لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها وبغض ما ناقض ذلك ، قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ . وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم**

(١) سورة الزمر الآية : ٢٩
(٢) سورة يوسف الآية : ٣٩

ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾[١] .

وفى الحديث : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف فى النار »[٢]

قال الشيخ حافظ الحكمى ــ رحمه الله ــ : « وعلامة حب العبد ربه : تقديم محابه إن خالفت هواه وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه وموالاة من والى الله ورسوله . ومعاداة من عاداه واتباع رسوله ــ ﷺ ــ واقتفاء أثره وقبول هداه » .

ويقول ابن القيم فى القونية : ــ

شرط المحبة أن توافق من تحب ... على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة مع خلا ... فك ما يحب فأنت ذوى بهتان
أتحب أعداء الحبيب وتدعى ... حباً له ما ذاك فى إمكان
وكذا تعادى جاهداً أحبابه ... أين المحبة ياأخا الشيطان
ليس العبادة غير توجيه المحبة ... مع خضوع القلب والأركان

إلى أن يقول :

ولقد رأينا من فريق يدعى الإ ... سلام شركا ظاهر البنيان
جعلوا له شركاء والوهم وس ... وهم به فى الحب لا السلطان

« الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله »

« لما كان أصل الموالاة : الحب . وأصل المعاداة : البغض . وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل فى حقيقة الموالاة والمعاداة كالنصرة والأنس والمعاونة وكالجهاد والهجرة ونحو ذلك » فإن الولاء والبراء من لوازم لا إله إلا الله . وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة .

أما الكتاب فمن ذلك قوله تعالى :

---

(١) سورة المائدة الآية : ٥٤

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب الإيمان ــ باب حلاوة الإيمان ١ / ١٢

﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير** ﴾(١) .

ويقول تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾(٢)

ويقول تباركت أسماؤه : عن أهداف أعداء الله : ﴿ **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله** ﴾(٣) .

ويقول تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾(٤) .

ويقول تعالى :

﴿ **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾(٥) .

أما الأحاديث والآثار : فكثيرة وأذكر منها : ـــ

(١) ما رواه الامام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلى أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ بايعه على أن « **تنصح لكل مسلم وتبرأ من الكافر** »(٦) .

(٢) روى ابن شيبة بسنده قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ « أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله »(٧) .

(٣) روى الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « أوثق عرى الإيمان الموالاة فى الله والمعاداة فى الله والحب فى الله والبغض فى الله »(٨) .

(٤) أخرج ابن جرير ومحمد بن نصر المروزى عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ قال : « من أحب فى الله وأبغض فى الله ووالى فى الله وعادى فى الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك وقد صارت مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً »

(١) سورة آل عمران الآية : ٢٨
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ٣١ ، ٣٢
(٣) سورة النساء الآية : ٨٩
(٤) سورة المائدة الآية : ٥١
(٥) سوزة المائدة الآية : ٥٤
(٦) مسند أحمد ٤ / ٣٥٧
(٧) مصنف ابن أبى شيبة ـــ كتاب الإيمان ١١ / ٤١ رقم ١٠٤٧٠
(٨) الطبرانى الكبير ١١ / ٢١٥ رقم ١١٥٣٧

يقول الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب فى شرح قول ابن عباس هذا : قوله « ووالى فى الله » هذا بيان للازم المحبة فى الله وهو الموالاة فيه ، إشارة إلى أنه لا يكفى فى ذلك مجرد الحب بل لابدفع ذلك من الموالاة التى هى لازم الحب. وهى النصرة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين باطناً وظاهراً . وقوله « وعادى فى الله » هذا بيان للازم البغض فى الله ، وهو المعاداة فيه . أى : إظهار العداوة بالفعل كالجهاد لأعداء الله والبراء منهم والبعد عنهم باطناً وظاهراً إشارة إلى أنه لا يكفى مجرد بغض القلب بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازمه كما قال تعالى :

﴿ **قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾(١)

قلت : ومما سبق يتضح أن الولاء فى الله هو : محبة الله ونصرة دينه ومحبة أوليائه ونصرتهم . والبراء هو : بغض أعداء الله ومجاهدتهم وعلى ذلك جاءت تسمية الشارع الحكيم للفريق الأول بـ : (أولياء الله) والفريق الثانى بـ : (أولياء الشيطان) قال تعالى : ـــ

﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(٢) .

وقال تعالى :

﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾(٣) . وأعلم أن الله سبحانه لم يبعث نبياً بهذا التوحيد إلا جعل له أعداء كما قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾(٤) .

﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون** ﴾(٥) .

والواجب على المسلم أن يتكلم من دين الله ما يصير له سلاحاً يقاتل به هؤلاء الشياطين ومن ثم لا خوف ولا حزن لأن : ﴿ **كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ والعامى من الموحدين يغلب الألف من علماء المشركين كما قال تعالى : ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾(٦) .

---

(١) سورة الممتحنة الآية : ٤
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٧
(٣) سورة النساء الآية : ٧٦
(٤) سورة الأنعام الآية : ١١٢
(٥) سورة غافر الآية : ٨٣
(٦) سورة الصافات الآية : ١٧٣

فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان كما أنهم الغالبون بالسيف والسنان وإذا كانت أهداف أعداء الإسلام من ملحدين ويهود ونصارى ومستغربين وصهيونية عالمية وشيوعية عالمية هى تمييع عقيدة المسلمين وتذويب شخصيتهم المتفردة لجعلهم جمداً للشعب المختار كما تنص على ذلك بروتوكولات حكماء صهيون . فإنه يتضح لدى المسلم أهمية هذا الموضوع حتى يحذر هو ومن معه بل يحذر المسلمون عامة من الانزلاق فى مهاوى الروى خاصة وإن الدعوات المشبوهة الملحدة تدعو إلى ما يسمى بالأخوة والمساواة وإن الدين لله والوطن للجميع

فبان بهذه الأدلة الواضحة من الكتاب والسنة أن الولاء والبراء من لوازم « لا إله إلا الله » وهو أيضاً تحقيق معناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ « أن تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله يقتضى أن لا يحب إلا لله ولا يبغض إلا لله ولا يوالى إلا لله ولا يعادى إلا لله وأن يحب ما أحبه الله ويبغض ما أبغضه الله » ويوالى المؤمنين فى أى مكان خلوا ويعادى الكافرين ولو كانوا أقرب قريب .

الرد على من زعم أن كلمة التوحيد لفظ فقط مع بيان المذهب الصحيح فى الأحاديث الواردة بخصوصها .

يقول العلامة ابن القيم ــ رحمه الله ــ : « ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه : لا خالق إلا الله وأن الله رب كل شىء ومليكه كم كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون . بل التوحيد يتضمن من محبة الله والخضوع له والذل له وكمال الانقياد لطاعته وإخلاص العبادة له وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحبه وبين الأقوال والأعمال والمنع والعطاء والحب والبغض ما يحول بين صاحب وبين الأسباب الداعية إلى المعاصى والإصرار عليها ومن عرف هذا عرف قول النبى ــ ﷺ ــ « إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله »[1] .

وقوله : ﴿ **يخرج من النار من قال لا إله إلا الله** ﴾[2] .

وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث ، التى أشكلت على كثير من الناس حتى ظنها بعضهم

---

(١) صحيح البخارى ــ كتاب الجمعة ــ باب صلاة النوافل جماعة ٢ / ٧٥

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب الإيمان ــ باب زيادة الإيمان ونقصه ١ /١٨

وصحيح مسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب أدنى أهل الجنة منزلة ١ / ١٨٢ رقم ٣٢٥

منسوخة وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهى واستقرار الشرع وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال : المعنى لا يدخلها خالداً ، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهه . فإن الشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط فإن هذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام ، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين لها فى الدرك الأسفل من النار .

بل لابد من قول القلب ، وقول اللسان .

وقول القلب : يتضمن من معرفتها والتصديق بها ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفى والإثبات ومعرفة حقيقة الإلهية المنفعية عن غير الله المختصة به التى يستحيل ثبوتها لغيره وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفة ويقيناً وحالاً : ما يوجب تحريم قائلها على النار .

وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفه ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل منها مد البصر فتثقل البطاقة وتطيش السجلات فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة ولكن السر الذى ثقل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات .

وتأمل أيضاً ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره ويعالج سكرات الموت ، لأن ذلك كان أمراً آخراً ، وإيمانا آخر ولذلك الحق بأهل القرية الصالحة » وقريب من هذا ما قام بقلب البغى التى رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش ، يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت — مع عدم الآلة وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها . وملء الماء فى خفها ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بغيها وهو ملآن حتى أمكنها الرقى من البئر ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه ، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً ، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها »

وقد ورد فى صحيح مسلم قوله — ﷺ — « من قال : لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله ، حرم ماله ودمه وحسابه على الله »[1] .

يقول محمد بن عبد الوهاب — رحمه الله — : وهذا من أعظم ما يبين معنى لا إله إلا الله فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال بل ولا معرفة معناها مع لفظها ، بل ولا الإقرار بذلك بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له ، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ١ /٥٣ رقم ٣٧

دون الله فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه . ومن هنا نعلم فساد عقيدة المرجئة : الدين يقولون : إن الإيمان هو المعرفة فقط والكفر هو الجهل فقط وأخروا العمل عن الإيمان .

ومن المعلوم أن كفار مكة قد علموا مراد النبى ـ ﷺ ـ من كلمة لا إله إلا الله فأبوا واستكبروا ولم يكن ينفعهم إيمانهم بأن الله واحد رازق محى مميت . ولما قال لهم النبى ﷺ ـ قولوا : لا إله إلا الله قالوا :

﴿ أجعل الألهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب ﴾ ٥ سورة ص

« فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك ، فالعجب ممن يدعى الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهال الكفار ، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب بشىء من المعانى ، والحاذق من يظن أن معناها : لا يخلق ولا يرزق ولا يحيى ولا يميت ولا يدبر الأمر كله إلا الله ، فلا خير فى رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلا الله » . ويتابع الإمام محمد بن عبد الوهاب رده عليهم فيقول : وهنا شبهة ، وهى قول من يقول : أن النبى ـ ﷺ ـ أنكر على أسامة قتل من قال : « لا إله إلا الله وكذلك قوله ـ ﷺ ـ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله »[1] . وأحاديث أخر فى الكف عمن قالها .

ومراد هؤلاء الجهلة : أن من قالها لا يكفر ، ولا يقتل ولو فعل ما فعل . فيقال لهؤلاء المشركين الجهال : معلوم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قاتل اليهود وسباهم وهم يقولون : لا إله إلا الله » وأن أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قاتلوا بنى حنيفة وهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويصلون ويدّعون الإسلام ، وكذلك الذين حرقهم على بن أبى طالب بالنار (هم الغلاة الذين ادعوا ألوهية علىّ ـ رضى الله عنه ـ) وهؤلاء الجهلة مقرون أن من أنكر البعث كفر وقتل ولو قال لا إله إلا الله ، وأن من جحد شيئاً من أركان الإسلام كفر وقتل ولو قالها .

فكيف لا تنفعه إذا جحد فرعاً من الفروع وتنفعه إذا جحد التوحيد الذى هو أصل دين الرسل ورأسه ؟ !

ولكن أعداء الله ما فهموا معنى الأحاديث . فمعلوم أن الرجل إذا أظهر الإسلام وجب الكف

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الإيمان ـ باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله رقم ١٣

عنه حتى يتبين منه ما يخالف ذلك كما قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا** ﴾ **٩٤ النساء أى فتثبتوا . فدلت الآية على وجوب الكف حتى يثبت منه ، فإذا تبين منه بعد ذلك ما يخالف الإسلام قتل لقوله تعالى** : ﴿ **فتبينوا** ﴾ ولو كان لا يقتل إذا قالها لم يكن للتثبت معنى .

وأيضاً أمره ـ ﷺ ـ بقتل الخوارج ﴿ **أينما لقيتموهم فاقتلوهم لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد** ﴾[1] . مع كونهم من أكثر الناس عبادة وتهليلاً وتسبيحاً ، حتى أن الصحابة يحقرون صلاتهم عندهم . وقد تعلموا العلم من الصحابة ، فلم تنفعهم « لا إله إلا الله » ولا كثرة العبادة ولا إدعاء الإسلام لما ظهر منهم مخالفة الشريعة .

ويعلم كل ذى لب أنها لو كانت كلمة ـ مجرد كلمة ـ لكان أمرها على قريش سهلاً فتنطقها وتتخلص من هذا العناء وتسفيه الآلهة . ولكنها تعلم أن هذه الكلمة لها مدلولها الذى يغير أوضاع قريش الجاهلية ولها مقتضياتها التى تحطم طغيان قريش واستعبادها للناس . ولها أهميتها فى تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض إلى عبودية الواحد القهار وجعل التقوى هى الميزان والفخار الذى ينشده الناس ، وليس العادات والتقاليد الجاهلية التى توارثها الأبناء عن الآباء والأجداد .

فحرى بكل مسلم جاد فى إسلامه أن يقدر لهذه الكلمة قدرها حتى يكون ممن عبد الله على بصيرة وعلم ويقين .

آثار الإقرار بلا إله إلا الله فى حياة الإنسان

ذكر الأستاذ المودودى ـ رحمه الله ـ فى كتابه القيّم « مبادىء الإسلام » تسعة آثار لكلمة التوحيد أذكر ملخصها فيما يلى :

(١) إن المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيق النظر ، بخلاف من يقول بآلهة متعددة . أو من يجحدها .

(٢) إن الإيمان بهذه الكلمة ينشىء فى النفس من الأنفة وعزة النفس ما لا يقوم دونه شىء ، لأنه لا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله ، وهو المحيى المميت . وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة . ومن ثم ينتزع من القلب كل خوف إلا منه سبحانه ، فلا يطأطىء الرأس أمام أحد من الخلق ، ولا يتضرع إليه ولا يتكفف له ، ولا يرتعب من كبريائه وعظمته . لأن الله هو العظيم القادر . وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم رقم ٦٣٩

(٣) ينشأ من الإيمان بهذه الكلمة مع أنفة النفس وعزتها : تواضع من غير ذل وترفع من غير كبر ، فلا يكاد ينفخ أوداجه شيطان الغرور ويزهيه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيقن أن الله الذى وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء . أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة .

(٤) المؤمن بهذه الكلمة : يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح . أما المشركون والكفار فإنهم يقضون حياتهم على أمانى كاذبة . فمنهم من يقول : إن ابن الله قد أصبح كفارة عن ذنوبنا ، عند أبيه ، ومنهم من يقول : نحن أبناء الله وأحباؤه فلن يعذبنا بذنوبنا . ومنهم من يقول : إننا سنستشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا ، ومنهم من يقدم النذور والقرابين إلى آلهته زاعماً أنه قد نال بذلك رخصة فى العمل بما يشاء . أما الملحد الذى لا يؤمن بالله فيعتقد أنه حر فى هذه الدنيا غير مقيد بشرع الله وإنما إلهه هواه وشهوته وهو عبدهما .

(٥) قائل هذه فى الدنيا لا يتسرب إليه اليأس . ولا يقعد به القنوط ، لأنه يؤمن أن الله له خزائن السموات والأرض . ومن ثم فهو على طمأنينة وسكينة وأمل ، حتى ولو طرد وأهين وضاقت عليه سبل العيش .

إن عين الله لا تغفل عنه ولا تسلمه إلى نفسه ، وهو يبذل جهده متوكلاً على الله ، بخلاف الكفار الذين يعتمدون على قواهم المحدودة ، وسرعان ما يدب له اليأس ، ويساورهم القنوط عند الشدائد مما يفضى بهم أحياناً إلى الانتحار .

(٦) الإيمان بهذه الكلمة يربى الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام والصبر والثبات والتوكل حينما يضطلع بمعالى الأمور ابتغاء مرضاة ا لله . إنه يشعر أن وراءه قوة مالك السماء والأرض . فيكون ثباته ورسوخه وصلابته التى يستمدها من هذا التصور ، كالجبال الراسية وأبى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات ؟

(٧) هذه الكلمة تشجع الإنسان وتملأ قلبه جرأة ، لأن الذى يُجبن الإنسان ويوهن عزمه شيئان : حبه للنفس والمال والأهل ، أو اعتقاده أن هناك أحداً غير الله يميت الإنسان ، فإيمان المرء بلا إله إلا الله ينزع عن قلبه كلاً من هذين السببين ، فيجعله موقناً أن الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله فعند ذلك يضحى فى سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده . وينزع الثانى بأن يلقى فى روعه أنه لا يقدر على سلب الحياة منه إنسان ولا حيوان ولا قنبلة ولا مدفع ، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر على ذلك الله وحده .

من أجل ذلك لا يكون فى الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى ، فلا يكاد يخيفه أو يثبت فى وجهه زحف الجيوش ، ولا السيوف المسلولة ، ولا مطر فهذا كفر عمل . وكذلك قوله : (من

أتى كاهناً فصدقه بما يقول أو أتى امرأته فى دبرها فقد برئ مما أنزل على محمد)[1] وقوله : (إذا قال الرجل لأخيه : يا كافر فقد باء بها أحدهما)[2] .

« وقد سمى الله — سبحانه وتعالى — من عمل ببعض كتابه ، وترك العمل ببعضه مؤمناً بما عمل به وكافراً بما ترك العمل به فقال تعالى :

﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون ﴾ ٨٤ — ٨٥ سورة البقرة .

فأخبر سبحانه أنهم أقروا بميثاقه الذى أمرهم به والتزموه ، وهذا يدل على تصديقهم به أنهم لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، ثم أخبر أنهم عصوا أمره ، وقتل فريق منهم فريقاً وأخرجوهم من ديارهم ، فهذا كفرهم بما أخذ عليهم فى الكتاب . ثم أخبر أنهم يفدون من أُسر من ذلك الفريق ، وهذا إيمان منهم بما أخذ عليهم فى الكتاب ، فكانوا مؤمنين بما عملوا به من الميثاق ، كافرين بما تركوه منه . « فالإيمان العملى يضاده الكفر العملى والإيمان الاعتقادى يضاده الكفر الاعتقادى . وقد أعلن النبى — ﷺ — بما قلناه فى قوله فى الحديث الصحيح « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »[3] ففرق بين قتاله وسبابه وجعل أحدهما فسوقاً لا يكفر به والآخر كفراً ومعلوم إنما أراد الكفر العملى لا الاعتقادى وهذا الكفر لا يخرجه من الدائرة الإسلامية والملة بالكلية كما لا يخرج الزانى والسارق والشارب من الملة وإن زال عنه اسم الإيمان .

« وهذا التفصيل هو قول الصحابة الذين هم أعلم الأمة بكتاب الله وبالإسلام والكفر ولوازمهما فلا تتلقى هذه المسائل إلا منهم فإن المتأخرين لم يفهموا مرادهم فانقسموا فريقين : فريقاً أخرجوا من الملة بالكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود فى النار وفريقاً جعلوهم مؤمنين كاملى الإيمان فهؤلاء غلوا وهؤلاء حفوا . وهدى الله أهل السنة للطريقة المثلى والقول الوسط الذى هو فى المذاهب كالإسلام فى الملل . فها هنا كفر دون كفر ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك . وفسوق دون فسوق ، وظلم دون

---

(١) سنن أبى داود — كتاب الطب — باب فى الكاهن ٤ / ٢٢٥ رقم ٣٩٠٤ والترمذى فى الطهارة رقم ١٣٥ وابن ماجه فى الطهارة رقم ٦٣٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر رقم ٣٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب بيان قول النبى — ﷺ — باب المسلم فسوق وقتاله كفر رقم ٤٣

ظلم . قال سفيان بن عينية : عن هشام بن حجير عن طاووس عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ .

الرصاصات والقنابل فإنه عندما يتقدم فى سبيل الله للجهاد ، يهزم قوة تزيد على قوته بعشر مرات وأنى بمثل هذا للمشركين والكفار والملحدين ؟

(٨) الإيمان بلا إله إلا الله يرفع قدر الإنسان وينشىء فيه الترفع والقناعة والاستغناء ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد والدناءة واللؤم وغيرها من الصفحات القبيحة .

(٩) وأهم شىء وأجدره فى هذا الصدد : أن الإيمان بـ « لا إله إلا الله » يجعل الإنسان متقيدا بشرع الله ومحافظا عليه فإن المؤمن يعتقد بتعين أن الله خبير بكل شىء وهو أقرب إليه من حبل الوريد وأنه اذا كان يستطيع أن يفلت من بطش أى كان فإنه لا يستطيع أن يفلت من الله ـ عز وجل ـ .

وعلى قدر ما يكون هذا الإيمان راسخاً فى ذهن الإنسان يكون متبعاً لأحكام الله قائماً عند حدوده لا يجرؤ على اقتراف ما حرم الله ويسارع إلى الخيرات والعمل بما أمر الله . ومن أجل ذلك جُعل بلا إله إلا الله أول ركن وأهمه ليكون الإنسان مسلماً والمسلم هو : العبد المطيع المنقاد لله تعالى ولا يكون كذلك إلا إذا كان مؤمناً من قلبه بأن لا إله إلا الله . وهذا هو أصل الإسلام ومصدر قوته وكل ما عداه من معتقدات الإسلام وأحكامه إنما هى مبنية عليه ولا تستمد قوتها إلا منه والإسلام لا يعى منه شىء لو زال هذا الأساس .

ومن فضائلها ما ذكره ابن رجب حيث أورد قول سفيان بن عينية : ما أنعم الله على عبد من العباد نعمة أعظم من أن عرفهم لا إله إلا الله وأن لا إله إلا الله لأهل الجنة كالماء البارد لأهل الدنيا ولأجلها أعدت دار الثواب ودار العقاب ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد فمن قالها عصم ماله ودمه ، ومن أباها فماله ودمه اهدر ، وهى مفتاح الجنة ومفتاح دعوة الرسل . ولو أردت أن أذكر ما أورده العلماء ــ رحمهم الله تعالى ــ حول فضلها وما فى ذلك من الأحاديث النبوية وآثار السلف لطال المقام .

نواقض «لا إله إلا الله»

« حرص الإسلام على بيان حقيقته وحقيقة ما يناقضه »

سبق الكلام على مفهوم « لا إله إلا الله » وشروطها ، وحقيقتها وآثارها . وهنا أذكر نواقضها ، من أجل أن تتضح معالم الصورة الكاملة لحقيقة « لا إله إلا الله » ذلك أن معرفة الضد يميز الشىء المراد إيضاحه . كما قيل : « وبضدها تتميز الأشياء » . ومعلوم أن الكفر والشرك والنفاق والردة هى

نواقض الإسلام ، بشتى صورها ، وقبل إيراد ذلك ، لابد من أن نورد ــ قاعدة جليلة لأهل السنة والجماعة ، بها تنضبط المسائل أصولاً وفروعاً . وسيتضح من خلال هذه القاعدة الرد على فرقة المرجئة ، الذين ميعوا وضيعوا مفهوم هذه العقيدة . والرد أيضاً على الخوارج الذين غلوا وحادوا عن الصراط ودين الإسلام وسط بين الإفراط والتفريط .

وقد كثر كلام الناس حول هذا فى القديم والحديث ولكل وجهة هو موليها . بيد أنى وجدت للعلامة ابن القيم كلاماً قيماً فى هذا الموضوع ــ وهى القاعدة التى أشرت إليها آنفاً . قال رحمه الله فى كتاب الصلاة :

« الكفر والإيمان متقابلان ، إذا زال أحدهما خلفه الآخر . ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة ، وكل شعبة منها تسمى إيماناً : فالصلاة من الإيمان ، وكذلك الحج والزكاة والصيام ، والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل ، والخشية من الله والإنابة إليه ، حتى تنتهى هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان .

وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة . ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إماطة الأذى عن الطريق . وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً . منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب ، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب . وكذلك الكفر ذو أصل وشعب ، فكما أن شعب الإيمان إيمان ، فشعب الكفر كفر . والحياء شعبة من الإيمان ، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر . والصدق شعبة من شعب الإيمان ، والكذب شعبة من شعب الكفر ، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان وتركها من شعب الكفر . والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان ، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر ، والمعاصى كلها من شعب الكفر كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان . « وشعب الإيمان قسمان : قولية وفعلية ، وكذلك شعب الكفر نوعان : قولية وفعلية . ومن شعب الإيمان القولية شعب يوجب زوالها زوال الإيمان ، فكذلك من شعبه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان ، وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية . فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً ــ وهى شعبة من شعب الكفر ــ فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، فهذا أصل » .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل ، والقول قسمان : قول القلب : وهو الاعتقاد . وقول اللسان : وهو التكلم بكلمة الإسلام .

والعمل قسمان : عمل القلب ، وهو نيته وإخلاصه ، وعمل الجوارح . فإذا زالت هذه الأربعة

زال الإيمان بكماله . وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء ، فإن تصديق القلب شرط فى اعتقادها وكونها نافعة ، وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق : فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة . فأهل السنة : مجمعون على زوال الإيمان ، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده ، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول ، بل ويقرون به سراً وجهراً ويقولون : ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به .

« وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب ، فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح ولا سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده ، الذى هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره ، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح ، إذ لو أطاع القلب وانقاد ، أطاعت الجوارح وانقادت ، ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة ، وهو حقيقة الإيمان . فإن الإيمان ليس مجرد التصديق ، وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد . وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبيينه ، بل هو معرفته المستلزمه لاتباعه والعمل بموجبه ، وإن سمى الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتداء ، كما أن اعتقاد التصديق وإن سمى تصديقاً — فليس هو التصديق المستلزم للإيمان . فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود وعناد ، فكفر الجحود : أن يكفر بما علم أن الرسول جاء به من عند الله جحوداً وعناداً ، من أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه . وهذا الكفر يضاد الإيمان من كل وجه . وأما كفر العمل : فينقسم إلى ما يضاد الإيمان ، وإلى ما لا يضاده . فالسجود للصنم ، والاستهانة بالمصحف ، وقتل النبى وسبه يضاد الإيمان .

وأما الحكم بغير ما أنزل الله ، وترك الصلاة فهو من الكفر العملى قطعاً ولا يمكن أن ينفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه . فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر وتارك الصلاة كافر بنص رسول الله — ﷺ — ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد . ومن الممتنع أن يسمى الله — سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ، ويسمى رسول الله — ﷺ — تارك الصلاة كافراً ، ولا يطلق عليهما اسم الكفر . وقد نفى رسول الله — ﷺ — عن الزانى والسارق وشارب الخمر ، وعمن لا يأمن من جاره بوائقه . وإذا نفى عنه اسم الإيمان فهو كافر من جهة العمل ، وانتفى عنه كفر الجحود والاعتقاد .»

« وكذلك قوله : ﴿ **لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض** ﴾[1] قال : هو بهم

---

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بيان معنى تحول النبى — ﷺ — : لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ١ /٨٢ رقم ١٢٠

الكفر ، وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وقال فى رواية أخرى عنه : كفر لا ينقل عن الملة . وقال طاووس : ليس بكفر ينقل عن الملة.. وقال وكيع بن سفيان عن ابن جريج عن عطاء : كفر دون كفر وظلم دون ظلم وفسق دون فسق وهذا الذى قاله عطاء بين فى القرآن لمن فهمه ، **فإن الله سبحانه سمى الحاكم بغير ما أنزل كافراً ، وسمى جاحد ما أنزله على رسوله كافراً . وليس الكافران على حد سواء .**

﴿ **والكافرون هم الظالمون** ﴾ ٢٥٤ البقرة

وسمى متعدى حدوده فى النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالماً فقال :

﴿ **ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾ ١ الطلاق

وقال نبيه يونس :

﴿ **لا إله إلا انت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ ٨٧ الأنبياء

وقال صفيه آدم :

﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا** ﴾ ٢٣ الأعراف .

وقال كليمه موسى :

﴿ **رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى** ﴾ ١٦ القصص

وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم .

ويسمى الكافر فاسقاً : كما فى قوله :

﴿ **وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه** ﴾ ٢٦ — ٢٧ البقرة

وقال :

﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ ٩٩ البقرة

وهذا كثير فى القرآن . ويسمى المؤمن فاسقاً كما فى قوله تعالى :

﴿ **يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ ٦ الحجرات

نزلت فى الحكم بن أبى العاص. وليس الفاسق كالفاسق . وقال تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون** ﴾ ٤ النور

وقال عن إبليس :

﴿ **ففسق عن أمر به** ﴾ ٥٠ الكهف

وقال :

﴿ **فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق** ﴾ ١٩٧ البقرة

وليس الفسوق كالفسوق .

والكفر كفران ، والظلم ظلمان ، والفسق فسقان ، وكذا الجهل جهلان : جهل كفر كما فى قوله تعالى :

﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ ١٩٩ الأعراف

وجهل غير كفر كقوله تعالى :

﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾ ١٧ النساء

وكذلك الشرك شركان : شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر ، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر ، وهو شرك العمل كالرياء . قال تعالى فى الشرك الأكبر :

﴿ إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ ٧٢ المائدة

وقال :

﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ ٣١ الحج

وفى شرك الرياء :

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ ١١٠ الكهف

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ـــ ﷺ ـــ : « من حلف بغير الله فقد أشرك »[١] رواه أبو داود وغيره . ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة ، ولا يوجب له حكم الكفار . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل »[١] .

فانظر كيف انقسم الشرك والكفر والفسوق والظلم والجهل إلى ما هو كفر ينقل عن الملة ، وإلى ما لاينقل عنها . وكذا النفاق نفاقان : نفاق اعتقاد ، ونفاق عمل ، فنفاق الاعتقاد : هو الذى أنكره الله على المنافقين فى القرآن وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار .

« ونفاق عمل كقوله ـــ ﷺ ـــ فى الحديث الصحيح : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »[٢] . وفى الصحيح أيضاً : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن ، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا أؤتمن خان[٣] . فهذا نفاق عمل ، قد يجتمع مع أصل الإيمان ، ولكن إذا استحكم وكمل فقد ينسلخ صاحبه عن الإسلام بالكلية ، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فإن الإيمان ينهى المؤمن عن هذه الخلال ، فإذا كملت فى العبد ولم يكن له ما ينهاه عن شىء منها فهذا لا يكون إلا منافقاً خالصاً ..

---

(١) سنن أبى داود ـــ كتاب الإيمان والنذور ـــ باب فى كراهية الحلف بالآباء ٣ / ٥٧٠ رقم ٣٢٥١ وسنن الترمذى ـــ كتاب النذور ـــ باب كراهية الحلف بغير الله تعالى ٤ /١١٠ رقم ١٥٣٥

(٢) مسند أحمد ٤ / ٤٠٣

(٣) صحيح مسلم ـــ كتاب الإيمان ـــ باب بيان خصل المنافق ١ /٧٨ رقم ١٠٧

« وكلام الإمام أحمد يدل على هذا ، فإن اسماعيل بن سعيد الشالنجى قال : سألت أحمد بن حنبل عن المصر على الكبائر يطلبها بجهده ، إلا أنه لم يترك الصلاة والزكاة والصوم ، هل يكون مصراً من كانت هذه حاله ؟ قال : هو مصر مثل قوله : ﴿ لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ﴾ ، يخرج من الإيمان ويقع فى الإسلام ، ونحو قوله : **﴿لا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ﴾**[1] . ونحو قول ابن عباس فى قوله :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة

قال اسماعيل : فقلت له ما هذا الكفر ؟ قال : لا ينقل عن الملة ، مثل الإيمان بعضه دون بعض ، فكذلك الكفر حتى يجيء من ذلك أمر لا يختلف فيه .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان . وهذا من أعظم أصول أهل السنة ، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية .

« ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل ، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة . قال تعالى : **﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾** ١٠٦ يوسف .

فأثبت لهم إيماناً به سبحانه مع الشرك ، وقال تعالى :

﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ﴾ ١٤ الحجرات

فأثبت لهم إسلاماً وطاعة لله ورسوله مع نفى الإيمان عنهم وهو الإيمان المطلق الذى يستحق اسمه بمطلقه .

﴿ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ﴾ ١٥ الحجرات .

وهؤلاء ليسوا منافقين فى أصح القولين ، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله ، وليسوا مؤمنين . وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفار .

« قال الإمام أحمد : من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن — يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب — فهو مسلم ولا اسميه مؤمناً ، ومن أتى دون ذلك — يريد دون الكبائر — سميته مؤمناً

---

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب خصال المنافق ١ /٧٨ رقم ١٠٦

اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى رقم ٣٦

ناقص الإيمان ، فقد دل على هذا قوله صلى الله عليه وسلم : « فمن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة منَ النفاق » . فدل على أنه يجتمع فى الرجل نفاق وإسلام . كذلك الرياء شرك ، فإذا راءى الرجل فى شىء من عمله إجتمع فيه الشرك والإسلام .

« وإذا حكم بغير ما أنزل الله ، أو فعل ما سماه رسول الله — ﷺ — كفراً ، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه فقد قام به كفر وإسلام .

وقد بينا أن المعاصى كلها شعب من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان ، وقد يسمى بتلك الشعبة مؤمناً ، وقد لا يسمى . كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافراً ، وقد لا يطلق عليه هذا الإسلام . فهى هنا أمران : أمر إسمى لفظى ،. وأمر معنوى حكمى .

فالمعنوى : هل هذه الخصلة كفر أم لا ؟ واللفظى : هل يسمى **من قام به** كافراً أم لا ؟

فالأمر الأول : شرعى محض ، والثانى لغوى وشرعى .

« وهاهنا أصل آخر : وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمناً وإن كان ما قام به إيماناً ، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافراً ، وإن كان ما قام به كفراً . كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالماً : ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهاً ولا طبيباً ، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيماناً ، وشعبة النفاق **نفاقاً ، وشعبة الكفر كفراً . وقد يطلق عليه الفعل كقوله : (فمن تركها فقد كفر) و (من حلف بغير الله فقد كفر) وقوله : (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر ، ومن حلف بغير الله فقد كفر)[1] . رواه الحاكم فى صحيحه بهذا اللفظ . فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق ، ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه »** .

يقول الشيخ محمد بن سعيد بن سالم : ولى على هذا النص تعليق :

فى النص المتقدم بعض العبارات التى قد توهم بعض الناس فى قضية « الحاكمية » حيث ذكر ابن القيم أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر دون كفر . وهنا لابد من إيضاح هذه القضية حتى يزول ما قد يحصل من إشكال .

---

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم — كتاب الإيمان ١ / ٨ وقال الحاكم : حديث صحيح على شرطهما جميعا

إن المجتمع الإسلامى منذ قيامه على يد رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد قام على الحكم بشريعة الله ، ومضى على ذلك خلفاؤه الراشدون ، ثم الخلفاء الأمويون مضوا على ذلك وإن كان بدر منهم بعض الانحرافات ، إلا أن الحكم الذى يتحاكم إليه الناس هو شرع الله ، يظلهم برايته ويرعاهم بحكمته وعدالته . ثم جاءت الدولة العباسية وكان الشرع أيضاً هو نظام الحكم مع وجود ثغرات قوية بعض الشىء . ثم جاء التتار ، وأتى « هولاكو » بالياسق .

ولما كان الأمر كذلك فإن كلام السلف ومنهم ابن القيم كلام لا غبار عليه ، فإذا حكم الحاكم برشوة أو لقرابة ، أو شفاعة أو ما أشبه ذلك فلا شك أن ذلك كفر دون كفر .

وأما ما وجد فى حياة المسلمين ـــ ولأول مرة فى تاريخهم ـــ وهو تنحية شريعة الله ورميها بالرجعية والتخلف وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضارى ، والعصر المتطور فهذه ردة جديدة على حياة المسلمين . إذا الأمر لم يقتصر على تلك الدعاوى التافهة ، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة واستبدال الذى هو أدنى بها ، فحل محلها القانون الفرنسى أو الإنجليزى أو الأمريكى أو الإشتراكية الإلحادية وما أشبه ذلك من تلك النظم الجاهلة الكافرة ولى على هذا الكلام أدلة كثيرة منها :

(١) ما أورده ابن القيم نفسه ـــ رحمه الله ـــ من قول الإمام أحمد « حتى يجىء من ذلك أمر لا يختلف فيه » .

نعم ، إنه أمر لا يختلف فيه أبداً وهو تنحية الشريعة ورميها بالقصور والنقصان وأن القانون أكمل منها ، وألين منها فى مسايرة تطورات العصر كُفر صريح .

(٢) ما أورده ابن القيم أيضاً من أن الكفر الذى هو كفر دون كفر ينطبق على الحاكم « الملتزم للإسلام وشرائعه » فهذا إذا خالف النص أو حاد عنه ، هو الذى ينطبق عليه هذا الحكم . وليس الأمر سارياً على من يحل القانون محل شرع الله .

(٣) قضية التحليل والتحريم ، والتشريع للناس ، اتفقت أقوال العلماء قديماً وحديثاً على أن ذلك من خصائص رب العالمين جل جلاله فمن ادعاها لنفسه فقد ألّه نفسه ونصبها نداً يعبد من دون الله .

(٤) إن إقصاء الشريعة الربانية وإحلال أهواء البشر محلها ، هذا من الأشياء التى كفّر العلماء قديماً وحديثاً فاعلها لأنها من المعلوم من الدين بالضرورة . وهل يجادل أحد فى ذلك والله يقول :

﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ ٥٤ الأعراف

فكما أنه سبحانه ـــ وباعتراف الناس ـــ مؤمنهم وكافرهم ـــ هو خالق السماء والأرض ، فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان ، والحكم والسيادة .

(٥) يوضح كلمة الإمام أحمد ــ رحمه الله ــ وهى قوله ﴿ **حتى يجىء من ذلك أمر لا يختلف فيه** ﴾ علم من أعلام المسلمين هو الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ــ رحمه الله ــ حيث يقول :

« إن من الكفر الأكبر المستبين تنزيل القانون اللعين منزلة ما نزل به الروح الأمين على قلب محمد ــ « ــ ليكون من المنذرين بلسان عربى مبين » .

(٦) ما ذكره أيضاً ابن القيم ــ رحمه الله ــ فى كتاب : « مدارج السالكين » حيث قال بعد أن أورد الأقوال فى قضية الحكم قال : « والصحيح أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين : الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا كفر أصغر . وإن اعتقد أنه غير واجب « وأنه مخير فيه ، مع تيقنه أنه حكم الله . فهذا كفر أكبر ، وإن جهله وأخطأ : فهذا مخطىء له حكم المخطئين » .

(٧) ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فى كتاب « منهاج السنة » حيث قال : « ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر . فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر . فإنه ما من أمة إلا وهى تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم ، بل كثير من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله ، كسواليف البادية وكانوا الأمراء المطاعين ، ويرون أن هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة ، وهذا هو الكفر ، فإن كثيراً من الناس أسلموا ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون ، فهؤلاء عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله ، فلم يلتزموا ذلك ، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار » .

(٨) يقول العلامة ابن القيم فى تفسير قوله تعالى :

﴿ **تالله إنا كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين** ﴾ ٩٧ ــ ٩٨ الشعراء

« هذه التسوية إنما كانت فى الحب والتأليه واتباع ما شرعوا ، لا فى الخلق والقدرة والربوبية ، وهى العدل الذى أخبر به عن الكفار كقوله : ﴿ **الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** ﴾ الأنعام .

وأصح القولين : أن المعنى : ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، فيجعلون له عدلاً يحبونه ويقدسونه ويعبدونه ، كما يعبدون الله ويعبدونه ، ويعظمون أمره وهذه التسوية لم تكن منهم فى الأفعال والصفات ، بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه فى أفعاله وصفاته ، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها فى المحبة والعبودية والتعظيم مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها ، فتصحيح هذه : هو تصحيح شهادة « أن لا إله إلا الله » .

وأن مما يزيد إيضاح الحقيقة فى أمر إجلال القانون والهوى محل الشرع ، ما ذكره العلماء من أن كفر الاعتقاد ينقسم إلى خمسة أنواع هى :

(١) كفر تكذيب : وهو اعتقاد كذب الرسل . وهذا القسم قليل فى الكفار ، فإن الله تعالى أيد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة وأزال به المعذرة . قال تعالى عن فرعون وقومه :

﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً** ﴾ ١٤ النمل

وقال لرسوله ـــ ﷺ ـــ :

﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾ ٣٣ الأنعام

(٢) كفر إباء واستكبار : مثل كفر إبليس : ومن هذا كفر من عرف الرسول و لم ينقد له إباء واستكباراً وهو الغالب على كفر أعداء الرسل كما قال تعالى عن فرعون وقومه :

﴿ **أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون** ﴾ ٤٧ المؤمنون

ومنه كفر أبى طالب فإنه صدقه و لم يشك فى صدقه ولكن أخذته الحمية ، وتعظيم **آبائه** أن يرغب عن ملتهم .

(٣) كفر إعراض : مثل من يعرض عن الرسول ـــ ﷺ ـــ لا يسمعه ، ولا يصدقه ، ولا يكذبه ولا يواليه ولا يعاديه ولا يصغى إلى ما جاء به البتة ، كما قال أحد بنى عبد ياليل للنبى ـــ ﷺ ـــ :

« **والله ما أقول لك كلمة : إن كنت صادقاً فأنت أجل فى عينى من أن أرد عليك وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أكلمك** » .

(٤) كفر الشك : حيث لا يجزم بصدقه ، ولا يكذبه ، بل يشك فى أمره ، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول ـــ ﷺ ـــ جملة ، وأما مع التفاته إليها ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك لأنها مستلزمة للصدق .

(٥) كفر نفاق : وهو أن يظهر بلسانه الإيمان وينطوى بقلبه التكذيب وهذا هو النفاق الأكبر .

وبعد أن وضحنا الكفر بنوعيه ـــ نعوذ بالله منه ـــ ننتقل إلى تبيان الشرك ـــ نعوذ بالله منه ، وهو كما قال ابن القيم ينقسم إلى أكبر مخرج من الملة ، وإلى أصغر وهو الرياء . أما الشرك الأكبر فدليله قوله تعالى :

﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ ١١٦ النساء

وهو أربعة أنواع كما ذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهى :

(١) شرك الدعوة : قال تعالى :

﴿ **فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون** ﴾

٦٥ العنكبوت

(٢) شرك النية والإرادة والقصد : قال تعالى :

﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ ١٥ — ١٦ هود

(٣) شرك الطاعة : قال تعالى :

﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ ٣١ التوبة

وفى الحديث : عن عدى بن حاتم حين سمع النبى — ﷺ — يقرأ هذه الآية : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله** ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم ؟ فقال : **بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلو لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم**»[1] . قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما فى تفسيرها : إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا .

(٤) شرك المحبة : قال تعالى :

﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله** ﴾ ١٦٥ البقرة

وأما النفاق : فمنه ما هو مخرج من الملة ، وهذا هو النفاق الأكبر وفيه يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « والنفاق منه ما هو أكبر ، يكون صاحبه فى الدرك الأسفل من النار ، كنفاق عبد الله بن أبىّ وغيره ، بأن يظهر تكذيب الرسول ، أو جحود بعض ما جاء به ، أو بغضه ، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه ، أو المسرة بانخفاض دينه ، ونحو ذلك مما لا يمكن صاحبه إلا عدواً لله ورسوله » .

وأما الردة : فهى الكفر بعد الإيمان فمن (قال الكفر أو فعله أو رضى به مختاراً للكفر ، وإن كان مع ذلك يبغض بقلبه ، وبهذا قال علماء السنة والحديث ، وذكروا ذلك فى كتبهم فقالوا : إن المرتد هو الذى يكفر بعد إسلامه إما نطقاً وإما فعلاً ، وإما اعتقاداً . وقرروا أن من قال الكفر كفر وإن لم يعتقده ولم يعمل به إذا لم يكن مكرهاً .

وكذلك إذا فعل الكفر كفر وإن لم يعتقده ولا نطق به ، وكذلك إذا شرح بالكفر صدره أى فتحه ووسعه وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به

ومن باب التفصيل والتوضيح وذكر التفصيل بعد الإجمال : إليك نواقض الإسلام العشرة كما قررها أهل العلم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشعب — آية ٣١ من سورة براء ٤ / ٧٧

نواقض الإسلام

ذكر أهل العلم أن هناك عشرة نواقض هامة هي :

(١) الشرك في عبادة الله وحده لا شريك له ، قال تعالى :

﴿ **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ ١١٦ النساء

(٢) من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة . كفر إجماعاً .

(٣) من لم يكفر المشركين ، أوشكَّ في كفرهم ، أو صحح مذهبهم . كفر إجماعاً .

(٤) من اعتقد أن غير هدى النبي ـ ﷺ ـ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ، كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر .

(٥) من أبغض شيئاً مما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ ولو عمل به كفر إجماعاً . والدليل قوله تعالى :

﴿ **ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم** ﴾ ٩ محمد

(٦) من استهزأ بشيء من دين الله ، أو ثوابه أو عقابه ، كفر والدليل قوله تعالى :

﴿ **قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾٦٥ ـ ٦٦ التوبة .

(٧) السحر ، ومنه الصرف ، والعطف فمن فعله أو رضى به كفر والدليل قوله تعالى :

﴿ **وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾ ١٠٢ البقرة .

(٨) مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين والدليل قوله تعالى :

﴿ **ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ ٥١ المائدة

(٩) من اعتقد أن بعض الناس لا يجب عليه اتباع النبي ـ ﷺ ـ وأنه يسعه الخروج من شريعته كما وسع الخضر الخروج من شريعة موسى ـ عليهما السلام ـ

(١٠) الإعراض عن دين الله لا يتعلمه ، **ولا يعمل** به ، والدليل قوله تعالى :

﴿ **ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون** ﴾ السجدة ٢٢

ولا فرق في جميع النواقض بين الهازل والجاد والخائف إلا المكره ، وكلها من أعظم ما يكون خطراً ، ومن أكثر ما يكون وقوعاً ، فينبغى للمسلم أن يحذرها ويخاف منها على نفسه .

ويجدر بنا ونحن نستعرض هذه النواقض أن نقف عند اثنين منها ، نظراً لأهميتها وخطورتهما على حياة المسلمين وليتضح سبب الاسهاب في قضية الحاكمية وعلاقة الولاء والبراء بذلك .

الأول : (من اعتقد أن غير هدى النبي ـ ﷺ ـ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه كالذين يفضلون حكم الطاغوت على حكمه فهو كافر) .

إن تنحية شريعة الله عن مجرى الحياة ، واستيراد قوانين البشر القاصرة : ردة جديدة برزت فى القرون الأخيرة من حياة المسلمين ، ذلك أن المجتمع الإسلامى عاش قروناً طوالاً يستظل بشرع الله وتهيمن الشريعة على حياة أفراده حكاماً ومحكومين ــ مع وجود بعض المعاصى سواء كانت كبائر أم صغائر ــ ولكن نظام حياة الناس ، والتشريع المنفذ فى أمورهم هو شرع الله وحكمه ، وكذلك جهاد الكفار ونشر كلمة الإسلام فى الأرض كانت كل هذه الأمور فى ازدياد وتوسع . أما رمى الشريعة الإسلامية بالقصور والرجعية وعدم مسايرة تطورات العصر ، فهذا شىء لم يحدث إلا بعد أن مكن المسلمون الاستعمار العالمى من ذلك وبعد أن نسوا الله فأنساهم أنفسهم .

ولقد جاء القرآن الكريم والسنة المطهرة بنصوص كثيرة صريحة واضحة حول قضية الحكم وأنها من عقيدة المسلم ، ومن أهم أمور الدين قال تعالى :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ ٤٤ المائدة .

﴿ ولم لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ٤٥ المائدة

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ ٤٧ المائدة .

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ ٥٠ المائدة

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ ٦٥ النساء

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ ٢١ الشورى

وقال تعالى :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله . بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٤٧ ــ ٥١ النور

ويقول سبحانه :

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾ ١١٥ النساء

ثم يبين سبحانه زيف زعم من يدعى الإيمان ويريد التحاكم إلى الطاغوت فيقول :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا . وإذا قيل لهم تعالوا

إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ ٦٠ ـــ ٦١ النساء
ولقد أحسن أحد العلماء فى وصف من طمست بصيرته فاستبدل بالتشريعة القانون حيث قال : إن مثل هذا مثل « الجعل يتأذى من رائحة المسك والورد الفواح ، ويحيا بالعذرة والغائط فى المستراح » . ولقد قال تعالى :

﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾ ٢٠ المجادلة .

ومن أعظم المحادة لله ورسوله التولى عن حكم الله وشرعه وسنة نبيه ـــ ﷺ ـــ وما هذه الذلة التى يعيشها المسلمون اليوم فى الأرض إلا نتيجة طبيعية لترك شرع الله . فهاهم أولاء اليوم كثير ولكنهم غثاء كغثاء السيل ، طمعت فيهم أحقر الأمم وسيطرت عليهم أراذل الناس ، ولقد صدقت فيهم نبوءة محمد ـــ ﷺ ـــ حين قال :

« يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » فقال **قائل : أو من قلة نحن يومئذ ؟ قال** : « بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن » فقال قائل : يارسول الله : وما الوهن ؟ قال : « حب الدنيا وكراهية الموت »[1] .

وإن جزءاً كبيراً من هذا الانحراف الذى سيطر اليوم على حياة المسلمين يتحمله الذين يتزيون بزى العلماء ويحسنون للناس أن يستبدلوا بشرع الله أهواء البشر ، إن هؤلاء ليحملون أوزارهم كاملة ومن أوزار الذين يضلونهم إلى يوم القيامة والإسلام برىء من هؤلاء . ويرحم الله علماء السلف الذين كانوا حماة على ثغور الإسلام حتى لا يؤتى الإسلام من قبل أحدهم .

فهذا الإمام الجليل الحافظ ابن كثير ـــ رحمه الله ـــ يذكر فى كتابه « تفسير القرآن العظيم » ما حل بالأمة الإسلامية أيام التتار ، وذلك عند قوله تعالى :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ ٥٠ المائدة
قال : ينكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير ، الناهى عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التى وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات ، ما يضعونها بآرائهم وأهوائهم ، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكيز خان ، الذى وضع لهم **«الياسق»** وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى ، من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية ،

(١) سنن أبى داود ـــ كتاب الملاحم ـــ باب فى تداعى الأمم على الإسلام ٤ / ٤٨٣ رقم ٤٢٩٧

وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه ، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً ، يقدمونها على الحكم بكتاب الله وسنة رسوله — ﷺ — ، ومن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله ، حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله ، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير »

(١) إذا جحد الحاكم بغير ما أنزل الله أحقية حكم الله ورسوله . وهو معنى ما روى عن ابن عباس ، واختاره ابن جرير ، وجحود ما أنزل الله من الحكم الشرعى لا نزاع فيه بين أهل العلم ، فإن الأصول المتقررة المتفق عليها بينهم ، أن من جحد أصلاً من أصول الدين أو فرعاً مجمعاً عليه ، أو أنكر حرفاً مما جاء به الرسول — ﷺ — قطعياً فإنه كافر كفراً ينقل عن الملة .

(٢) إن لم يجحد الحاكم بغير ما أنزل الله أن حكم الله ورسوله حق ، ولكنه اعتقد أن حكم غير الرسول — ﷺ — أحسن من حكمه ، وأتم وأشمل لما يحتاجه الناس وما استجد لهم من حوادث نشأت عن تطور الزمان ، وتغير الأحوال فهذا أيضاً لا ريب فى كفره لتفضيله أحكام المخلوقين التى هى زبالة الأذهان وحثالة الأفكار على حكم الحكيم الخبير ، فإنه ما من قضية كائنة ما كانت إلا وحكمها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله — ﷺ — نصاً أو ظاهراً أو استنباطاً أو غير ذلك ، علم ذلك من علمه وجهله من جهله .

(٣) أن لا يعتقد كونه أحسن من حكم الله ورسوله ، لكن اعتقد أنه مثله ، فهذا كالنوعين السابقين كافر كفراً ينقل عن الملة لما فى ذلك من تسوية المخلوق بالخالق .

(٤) من اعتقد جواز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله فهو كالذى قبله .

(٥) من أعظم ذلك وأظهرها معاندة للشرع ومكابرة لأحكامه ، ومشاقة لله ولرسوله : إيجاد المحاكم الوضعية التى مراجعها القانون الوضعى ، كالقانون الفرنسى أو الأمريكى أو البريطانى أو غيرها من مذاهب الكفار ، وأى كفر فوق هذا الكفر ؟ وأى مناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟

(٦) ما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادى ونحوهم من حكايات آبائهم وأجدادهم وعاداتهم والتى يسمونها « سلومهم » يتوارثون ذلك منهم ويحكمون به رغبة وإعراضاً عن حكم الله .

(أما الكفر الذى لا ينقل عن الملة : والذى ورد عن ابن عباس — رضى الله عنهما — بأنه كفر دون كفر وقوله أيضاً : « ليس بالكفر الذى تذهبون إليه » فذلك مثل ، أن تحمله شهوته وهواه على الحكم فى القضية بغير ما أنزل الله مع اعتقاده أن حكم الله ورسوله هو الحق ، واعترافه على نفسه بالخطأ ومجانبة الهدى . وهذا وإن لم يخرجه كفره عن الملة فإنه معصية عظمى أكبر من الكبائر كالزنا وشرب الخمر والسرقة وغيرها فإن معصية سماها الله فى كتابه كفراً أعظم من معصية لم يسمها الله كفراً) .

وإن الذى جعلنا نهب فى ذكر شئون الحاكمية وتفصيل أحكامها هو خطورتها وعظمها . فإن موالاة الحاكم بغير ما أنزل الله وإقرار تشريعه للناس من عند نفسه وتحليله وتحريمه ما لم يأذن به الله ، مناقضة للشهادة بأن الله هو الإله الذى تألهه القلوب بالحب والتعظيم والطاعة والإنقياد ، ومناقضة للشهادة بأن محمداً رسول الله فهو المطاع فيما أمر ونهى عنه وزجر ولو فهم الناس هذا لما بقى لطاغية فى الأرض حق الوجود والتشريع . وإقرار الكفر وتنحية شرع الله المحكم .

الثانى : من الأمور التى يجب أن نتدبرها بروية — من نواقض الإسلام — مظاهرة المشركين ومعاونتهم على المسلمين ، والدليل قوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ ٥١ المائدة

وهذا من أعظم النواقض التى وقع فيها سواد الناس اليوم فى الأرض ، وهم بعد ذلك يحسبون على الإسلام ويتسمون بأسماء إسلامية . فلقد صرنا فى عصر يستحى فيه أن يقال للكافر : يا كافر ! ! بل زاد الأمر عتواً بنظرة الإكبار والتعظيم والمهابة لأعداء الله ، وأصبحوا موضع القدوة والأسوة لضعاف الإيمان ، ينظرون إلى أعداء الله نظرة انبهار ملؤها التمنى أن يكونوا مثلهم حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوه .

مظاهرة أخذت صوراً شتى فمن الميل القلبى إلى انتحال مذاهبهم الإلحادية إلى مجاراتهم فى تشريعاتهم ، إلى كشف عورات المسلمين لهم ، إلى كل صغير وكبير فى حياتهم .

من هنا فإن إدراك حقيقة هذه العقيدة ونواقضها ، أمر كفيل بأن يجعل المسلم على بصيرة من أمره فى عقيدة الولاء والبراء . حسب المقياس الشرعى الصحيح ، وليس حسب مقياس أهواء البشر . إنه لا ولاء إلا لله ولرسوله ودينه والمؤمنين . والبراء من كل متبوع أو مرغوب أو مرهوب يحاد الله ورسوله .

مفهوم الولاء والبراء
تعريفه وأهميته فى الكتاب والسنة

— الولاء فى اللغة : جاء فى لسان العرب : الموالاة — كما قال ابن الأعرابى : — أن يتشاجرا اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح ، ويكون له فى أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه . ووالى فلان فلاناً إذا أحبه .

والمولى : اسم يقع على جماعة كثيرة ، فهو : الرب ، والمالك ، والسيد ، والمنعم ، والمعتق ، والناصر ، والمحب والتابع والجار ، وابن العم ، والحليف والعقيد والصهر ، والعبد والمعتق والمنعم عليه . ويلاحظ فى هذه المعانى أنها تقوم على النصرة والمحبة .

والوَلاية — بالفتح — فى النسب والنصرة والعتق . والموالاة — بالضم — من والى القوم . قال الشافعى فى قوله — ﷺ — : « من كنت مولاه فعلى مولاه »[1] يعنى بذلك ولاء الإسلام كقوله تعالى :

﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ١١ محمد

والموالاة ضد المعاداة ، والولى ضد العدو ، قال تعالى :

﴿ ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ ٤٥ مريم

قال ثعلب : كل من عبد شيئاً من دون الله فقد اتخذه ولياً . وقوله تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ ٢٥٧ البقرة .

وليهم فى نصرهم على عدوهم ، وإظهار دينهم على دين مخالفيهم . وقيل : وليهم أى : يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم .

والوَلْىُ : القرب والدنو . والموالاة : المتابعة .

والتولى : يكون بمعنى الإعراض ، ويكون بمعنى الإتباع . قال تعالى :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ ٣٨ محمد

أى : إن تعرضوا عن الإسلام .

وقوله تعالى :

﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ٥١ المائدة

معناه : من يتبعهم وينصرهم .

وقال صاحب « المصباح المنير » : الولى : فعيل بمعنى فاعل ، من وليه إذا قام به ، ومنه قوله تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾ ٢٥٧ البقرة

ويكون الولى بمعنى مفعول ، فى حق المطيع ، فيقال : المؤمن ولى الله .

ووالاه موالاة وولاء : من باب « قاتل » أى تابعه .

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢

تعريف البراء فى اللغة : قال ابن الأعرابى : برىء إذا تخلص ، وبرىء : إذا تنزه وتباعد ، وبرىء إذا أعذر وأنذر ، ومنه قوله تعالى :

﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ ١ التوبة

أى إعذار وإنذار .

وفى حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – لما دعاه عمر إلى العمل فأبى قال عمر : إن يوسف قد سأل العمل ، فقال أبو هريرة : إن يوسف منى برىء وأنا منه براء . أى برىء عن مساواته فى الحكم وأن أقاس به ، ولم يرد براءة الولاية والمحبة لأنه مأمور بالإيمان به ، انتهى من النهاية . والبراء والبرىء سواء .

وليلة البراء : ليلة يتبرأ القمر من الشمس ، وهى أول ليلة من الشهر .

– تعريف الولاء بالمعنى الاصطلاحى : الولاية هى النصرة والمحبة والإكرام والاحترام والكون مع المحبوبين ظاهراً أو باطناً . قال تعالى :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ ٢٥٧ البقرة

فموالاة الكفار تعنى التقرب إليهم وإظهار الود لهم ، بالأقوال والأفعال والنوايا .

– تعريف البراء بالمعنى الاصطلاحى : هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار .

– شرح تعريف الولاء والبراء : قال شيخ الإسلام ابن تيمية : الولاية : ضد العداوة . وأصل الولاية : المحبة والقرب ، وأصل العداوة : البغض والبعد .. والولى : القريب يقال : هذا يلى هذا : أى يقرب منه ، ومنه قوله – ﷺ – : « الحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فهو لأولى رجل ذكر »(١) أى لأقرب رجل إلى الميت .

فإذا كان ولى الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه ، ويبغضه ويسخطه ويأمر به وينهى عنه ، كان المعادى لوليه معادياً له . كما قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ﴾ ١ الممتحنة .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب الفرائض – باب ألحقوا الفرائض بأهلها فما بقى فلأولى

فمن عادى أولياء الله فقد عاداه ، ومن عاداه فقد حاربه ، ولهذا جاء فى الحديث :

« ومن عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة »[١]

ومسمى الموالاة (لأعداء الله) : يقع على شعب متفاوتة منها ما يوجب الردة وذهاب الإسلام بالكلية ، ومنها ما هو دون ذلك من الكبائر والمحرمات . ولما عقد الله الأخوة والمحبة والموالاة والنصرة بين المؤمنين ، ونهى عن موالاة الكافرين **كلهم** من يهود ونصارى وملحدين ومشركين وغيرهم كان من الأصول المتفق عليها بين المسلمين : أن كل مؤمن موحد تارك لجميع المكفرات الشرعية تجب محبته وموالاته ونصرته ، وكل من كان بخلاف ذلك وجب التقرب إلى الله ببغضه ومعاداته ، وجهاده باللسان واليد بحسب القدرة والإمكان .

وحيث أن الولاء والبراء تابعان للحب والبغض ، فإن أصل الإيمان أن تحب فى الله أنبياءه وأتباعهم ، وتبغض فى الله أعداءه وأعداء رسله . وقد ورد عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قوله : « من أحب فى الله ، وأبغض فى الله ، ووالى فى الله ، وعادى فى الله ، فإنما تنال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدى على أهله شيئاً » . وإذا كان صبر هذه الأمة يذكر أن مؤاخاة الناس فى زمانه قد أصبحت على أمر الدنيا وأن ذلك لا يجدى على أهله شيئاً ، وهذا فى القرن الذى هو خير القرون : فجدير بالمؤمن أن يعى ويعرف من يحب ومن يبغض ، ومن يوالى ومن يعادى ثم يزن نفسه بميزان الكتاب والسنة ليرى أواقف هو فى صف الشيطان وحزبه أم فى صف عباد الرحمن وحزب الله الذين هم المفلحون ، وما عداهم فأولئك هم الذين خسروا الدنيا والآخرة ! وإذا أصبحت المؤاخاة والمحبة على أمر الدنيا ــ كما قال الصحابى الجليل عبد الله بن عباس ــ فإن تلك المحبة والمؤاخاة لا تلبث أن تزول بزوال العرض الزائل ، وحينئذ لا يكون للأمة شوكة ومنعة أمام أعدائها .

وفى عصرنا الحاضر عصر المادة والدنيا قد أصبحت محبة الناس فى الأغلب على أمر الدنيا وذلك لا يجدى على أهله شيئاً .

ولن تقوم للأمة الإسلامية قائمة إلا بالرجوع إلى الله والاجتماع على الحب فيه والبغض فيه والولاء له والبراء ممن أمرنا الله بالبراء منه وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

(١) صحيح البخارى ــ كتاب الرقاق ــ باب التواضع ٨ / ١٣١

أهمية هذا الموضوع فى الكتاب والسنة ونصيبه من الدراسة والتأليف

إنه من الجدير بالذكر أن هذا الموضوع ــ الولاء والبراء ــ رغم أهميته ووضوحه فى الكتاب والسنة إلا أن نصيبه من الدراسة والتأليف فى الكتب العقدية القديمة قليل جداً . وذلك راجع إلى ثلاثة أمور :

(١) إن هذا المفهوم العقدى كان من الوضوح والنصاعة عند المسلمين الأولين بمكان ، حيث إنهم ــ من خلال سيرتهم وتاريخهم الوضيء ــ كانوا على درجة عالية جداً من الصفاء العقيدى ، والتميز الواضح ، وقيامهم أيضاً بالجهاد فى سبيل الله . كل هذا جعل الأمر واضحاً وجلياً فى حسهم ، وأيضاً رجوعهم للكتاب والسنة فى كل شيء وهذا الأمر فيهما واضح جداً .

(٢) إن طبيعة المجتمع الإسلامى الأول ، خاصة بعد الخلافة الراشدة لم تظهر فيه مشاكل عقدية حول هذا الموضوع ، وإنما نشأت حول صفات الله ــ جل جلاله ــ وقامت الفرق المختلفة بالخوض فيها . فكان لابد أن يتصدى أهل السنة والجماعة لمعالجة ذلك الانحراف بأن يبينوا للناس أن لله صفات تليق بجلاله وعظمته . نثبتها له كما جاءت فى الكتاب والسنة من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تشبيه ولا تمثيل .

من هنا ظهرت مؤلفاتهم ــ رحمهم الله ــ بالحديث فى هذا الشأن ، ولا تجد لهم ذكراً لقضية الولاء والبراء إلا فى كلمات موجزة صغيرة كقولهم : « ونحن أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ ولا نفرط فى حب أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحد منهم ، ونبغض من يبغضهم ، وبغير الخير يذكرهم » .

(٣) وبعد دخول علم الكلام فى مؤلفات المسلمين العقائدية ، وتعكير صفوها بما ليس منها : لم يعد لهذا الموضوع ذكر البته : وليس هو المنفرد بهذا الإقصاء ، بل إنه تابع لإقصاء موضوع « لا إله إلا الله وما تقتضيه من توحيد الألوهية وما يضاد ذلك من نواقض الإسلام ، التى لو شغل المسلمون أنفسهم ببيانها وعرضها للناس عرضاً سليماً صحيحاً بدلاً من تحويلها إلى قضايا ذهنية تجريدية لا علاقة لها بالسلوك الواقعى ولا بمعانى الإسلام الحقيقية لكان ذلك أجدى وأنفع للناس ، وأقوم للقيام بما أراده الله منهم . ولو أن الأمة الإسلامية تقيدت بقول رسولها ــ ﷺ ــ « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك »(١) وعضت على ذلك بالنواجذ ما طمع فيها شرق ولا غرب ، ولا تخبطت فى متاهات التبعية العمياء للإلحاد والفكر الجاهلى سواء كان شرقياً أم غربياً على حد سواء .

---

(١) سنن ابن ماجة ــ المقدمة ١ / ١٦ رقم ٤٣

وحين اقتصر المسلمون الأوائل على الوحيين العزيزين خرج منهم جيل فريد ليس له مثال لا سابق ولا لاحق ، جيل اعتز بانتمائه لدينه الخالص ، ففتح الدنيا ومزق ظلام الكفر والشرك وصدع باسم الله فى الأرض من مشارف فرنسا غرباً إلى حدود الصين شرقاً .

ولعله من المناسب هنا أن نتحدث عن طريقة القرآن والسنة فى عرض العقيدة بصفة عامة وجناية الكلام على المسلمين لنقف من خلال هذه النبذة على مدى الهوة بين صفاء النبع العقيدى الربانى وبين جهالات علم الكلام .

لقد أدرك سلف هذه الأمة ــ رحمهم الله ــ أن كتاب الله العزيز هو : كتاب هداية وليس كتاب فلسفة ونظريات فارغة لا تمس الواقع . وأيقن ذلك الجيل أن الله هو خالق النفس البشرية وأنه هو العليم وحده بما يصلحها ، فلما أنزل كتابه على رسوله ــ ﷺ ــ كان هو النور الهادى للنفوس ، ومصدر كل خير لها ، وهو أيضاً النذير لها من كل ما يوردها موارد الهلاك والخسران . وميزة الخطاب القرآنى : أنه يخاطب « الإنسان » كوحدة متصلة فيها الروح والجسد وفيها العقل والعاطفة ، وفيها حب الخير وكره الشر :

﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ ٧ ــ ١٠ الشمس .

هكذا هى الطريقة القرآنية فى عرضها للعقيدة أنها : (طريقة لا تخاطب الذهن المجرد ولكنها تخاطب « الإنسان » كله ، وتخاطبه ــ أول ما تخاطبه ــ عن طريق الوجدان ، ولا يمنع هذا أن تدعو عقله للمشاركة فى الأمر ، ولكنها لا تخاطبه منفرداً إنما تخاطبه دائماً والوجدان مستجاش ، فيأخذ دورة فى التلقى منفعلاً بالقضية ، متحركاً للإيمان بها ، لا مجرد مُسَاجِل فيها بالمنطق والبرهان : والقرآن حين يصنع ذلك فهو مستجيب للفطرة البشرية كما خلقها الله ، فالله الذى خلق هذه الفطرة هو الذى أنزل هذا القرآن مفصلاً على قدها ، مستجيباً لها ، ومحيياً لها ، وباعثاً ومقوماً فى آن . والعقل جزء من هذه الفطرة ولا شك ، وله دور فى قضية الإيمان .. ولكن الله يعلم الشروط اللازمة لهذا العقل حين يتناول قضية من قضايا « الحياة » إنه يمكن أن يعمل وحده حين يكون دوره هو التعرف على سنة من سنن الكون لا مجال فيها للوجدان ، أما فى قضية الإيمان فإنه لا يستقل بهذا الأمر وحده ، بل تشاركه العاطفة والوجدان » .

وإذا تصفحنا التاريخ الإسلامى لنبحث عن تاريخ الإنحراف فى الدراسات العقدية لوجدنا أن ذلك

قد وقع فى العهد الأموى بشكل بسيط ، ولكنه بلغ قمته فى العهد العباسى إبّان ترجمة العلوم الهندية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية .

فبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت رقعة الدولة الإسلامية ودخل فى الإسلام أناس أظهروا الإسلام وأبطنوا النفاق والزندقة حصل خلط فى المترجمات ، فلم يفرق بين الغث والسمين من تلك العلوم الأجنبية . ولما أصبح شغل أكثر الناس هو الترف العقلى ، رأوا أن يستوردوا غثاء الجاهلية الإغريقية وسمى ذلك عند المخدوعين به « فلسفة » ! ! وانبهروا بهذا المستورد الدخيل وما فيه من عجمة وتعقيد ولعب بالألفاظ ودلالتها . وقادهم هذا الانبهار إلى إلباس التصور الإسلامى قناعاً غريبا عليه . غريباً عليه فى ذاته ، وغريباً عليه فى عرضه ، وغريباً أيضاً على أهله . وسر ذلك أن : (هناك جفوة أصيلة بين منهج الفلسفة ومنهج العقيدة ، وبين أسلوب الفلسفة وأسلوب العقيدة ، وبين الحقائق الإيمانية الإسلامية وتلك المحاولات الصغيرة المضطربة المفتعلة التى تتضمنها الفلسفات والمباحث اللاهوتية البشرية) .

وحرى بنا أن نسأل : ما هو سر محاولة التوفيق بين الفلسفة البشرية الجاهلية التى نمت وترعرعت فى جو وثنى كافر ، وبين المورد العذب دين الله « الإسلام » ؟

هل كان ذلك نتيجة للتقليد الأعمى والسعى وراء كل ناعق ؟

أم أنه نتيجة للقعود عن الجهاد ونشر العقيدة فى ربوع الأرض ؟

أم أن وراء ذلك كيداً من أعداء الإسلام فى محاولة تشويه صفاء هذه العقيدة وخلطها بالشوائب الغريبة عنها ؟ !

والذى يظهر والله أعلم أن هذه الأسباب مجتمعة لها دورها كل بحسب أهميته إلا أنه من خلال تتبع قصة الترجمة فى عهدها الأول يظهر : أن كيد أعداء الدين وافق هوى عند بعض المسلمين خاصة بعض الحكام فى العهد العباسى ــ كالمأمون مثلاً ــ فحدث ما حدث من ترجمة لكتب المباحث السوفسطائية اليونانية وغيرها .

ويصدق ذلك أن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحى يطلب منه أن يبادر بإرسال مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتب الفلسفة . وتردد الحاكم فى إرسالها ، وجمع رجالات دولته واستشارهم حول هذا

الطلب فأشار عليه المطران الأكبر بقوله : (ارسلها إليه ، فوالله ما دخلت هذه العلوم فى أمة إلا أفسدتها) فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها . ثم أحضر المأمون حنين بن اسحاق ــ وكان فتى لسناً ــ وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب حكماء اليونان إلى العربية ، فامتثل لأمره . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية مثلاً بمثل . مما جعل حنيناً يكتب على ورق غليظ ويباعد بين الأسطر ويكتب بالحروف الكبيرة . وصدق ــ والله ــ المطران القبرصى : إن هذه الكتب ما دخلت أمة إلا أفسدتها ترى من أين جاءت محنة الإمام أحمد بن حنبل ــ رحمه الله ــ فى مسألة خلق القرآن ؟ ومن أين جاء اضطهاد علماء السنة ــ ومحاربتهم وظهور المبتدعة أيام المأمون وغيره ؟ ومن أين جاءت المصطلحات المبتدعة كالجوهر والعرض والواجب والممكن وغيرها ؟ إنه لم يأت كل ذلك إلا من ترجمة علم الكلام الجاهلى وخلطه بالعقيدة الإسلامية ليصنع من ذلك كله ما سمى بـ « الفلسفة الإسلامية » .

وإذا علمنا : أن المترجمين كان جلهم نصارى . وقد كتبوا فى الترجمة العربية ما يعتقدونه ويدينون به . فكيف يوثق بنصرانى يعتقد التثليث وهو يترجم للمسلمين كتباً يتعلمونها ويعلمونها أبناءهم ويستفيدون منها فى مؤلفاتهم لقد صدق الشاعر حين قال :

ومن جعل الغراب له دليلاً يمر به على جيف الكلاب

ولمزيد من إيضاح وبيان البون الشاسع بين طريقة القرآن والسنة فى عرض العقيدة وبين علم الكلام ، نذكر الأمور التالية فى المباينة بينهما ، لا من باب المقارنة ، فلا وجه للمقارنة فى الحقيقة ، إذ الأمر كما يقول الشاعر : ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل أن السيف أمضى من العصا وإنما من باب التنبيه والتذكير .

(١) فى المصدر : فمصدر العقيدة القرآنية : الله رب العالمين . أما مصدر « علم الكلام » فعقول البشر القاصرة الهزيلة .

(٢) فى المنهج والسبيل : فغاية علم الكلام : إثبات وحدانية الخالق ، وأنه لا شريك له ويظن المتكلمون أن هذا هو المراد بـ « لا إله إلا الله » .

ثم إن علم الكلام ــ يسعى لتحقيق « المعرفة » فى الوقت الذى نجد فيه الطريقة القرآنية تهدف إلى « الحركة » من وراء المعرفة ، فتحول تلك المعرفة إلى قوة دافعة لتحقق مدلولها فى عالم الواقع وتستجيش الضمير الإنسانى ليحقق وجوده فى الأرض حسب الخطة التى رسمها له التصور الربانى ، وحينئذ ترجع البشرية إلى ربها ، وتحيا حياة كريمة رفيعة تتفق مع الكرامة التى كتبها الله للإنسان .

ثم إن المنهج القرآنى يدعو إلى (عبادة الله وحده) قال تعالى :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ الأنبياء : ٢٥

وأوصى المصطفى — ﷺ — معاذاً حين بعثه إلى اليمن : أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فإذا عرفوا ذلك دعاهم للفرائض ولم يأمره أن يدعوهم أولاً إلى « الشك » أو « النظر » كما هى طريقة المتكلمين .

(والله سبحانه عندما يبعث الناس لا يسألهم عن العلوم الحسية والبدهية ، والمنطق ، والطبيعى ، والجوهر والعرض — بل يسألهم عن استجابتهم للرسل أو عدمها .

﴿ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزّل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير . وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير . فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾

٨ — ١١ الملك

ووحدانية الخالق التى هى غاية علم الكلام : لم تنفع المشركين الذين حاربهم الرسول — ﷺ — فإنهم كانوا يقرون بها كما أخبر الله عنهم :

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله . قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ ٢٥ لقمان

(٣) قوة التأثير : الذى هو طابع العقيدة الربانية : مما يجعل لها سلطاناً قوياً على نفوس معتنقيها . بعكس الفلسفة والكلام اللذين يدلان على جهل أصحابهما كما قال أحدهم — وهو سقراط — (الشىء الذى لا أزال أعلمه جيداً هو أننى لست أعلم شيئاً) .

(٤) الأسلوب : فالعقيدة الربانية تخاطب الكينونة الإنسانية بأسلوبها الخاص وهو أسلوب يمتاز بالحيوية والإيقاع . واللمسة المباشرة والإيحاء بالحقائق الكبيرة ، مع بساطة فى العرض ووضوح فى البيان وإعجاز فى اللفظ والمعنى . مما يجعل إدراك هذه العقيدة سهلاً لكافة المستويات البشرية . وهذا كله بخلاف الفلسفة والكلام ، وبخلاف تلك المصطلحات المعقدة التى لا تزيد الشك إلا شكاً وحيرة وضلالاً .

وأسلوب المتكلمين يسير على خط واحد فى كل قضية يتحدث عنها فهو لا يخرج عن قوله : (فإن قيل لنا كذا ، قلنا لهم كذا) .

أما الأسلوب القرآنى فإنه يعرض العقيدة على نمطين :

الأول : توحيد فى الإثبات والمعرفة . أى إثبات حقيقة الرب وصفاته وأفعاله وأسمائه كما أخبر بها عن نفسه وكما أخبر رسوله الكريم ، وهذا موجود فى أول سورة الحديد ، وطه ، وآخر الحشر ، وأول السجدة ، وأول آل عمران ، وسورة الإخلاص بكاملها

الثانى : توحيد فى الطلب والقصد : وهذا ما تضمنته سورة : ﴿ **قل يأيها الكافرون** ﴾

﴿ **قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾

٦٤ آل عمران

وأول سورة تنزيل الكتاب وآخرها ، وأول سورة يونس وأوسطها وآخرها وأول سورة الأعراف وآخرها وجملة سورة الأنعام .

ويعّرف الأول بأنه : توحيد علمى خبرى ، والثانى بأنه : توحيد إرادى طلبى . ونظرة واحدة إلى سيرة المصطفى — ﷺ — فى عرضه لهذه العقيدة وتربيته الفذة لصحابته كافية فى الدلالة على أن من سلك طريقاً غير طريق القرآن والسنة فى عرض العقيدة فقد سلك (سبلاً) لا تلتقى مع صراط الله المستقيم .

روى الأعمش عن أبى وائل عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن .

وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا : أنهم كانوا يستقرئون من النبى — ﷺ — فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

يقول الأستاذ سيد قطب — رحمه الله — : لقد كان تلقى صحابة رسول الله — ﷺ — لهذه العقيدة أشبه ما يكون بتلقى الجندى فى الميدان « الأمر اليومى » ليعمل به فور تلقيه ، ولذلك لم يكن أحدهم ليستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه ، فكان يكتفى بعشر آيات حتى يحفظها ويعمل بها كما جاء فى حديث ابن مسعود .

هكذا كان صدر هذه الأمة مقتصراً على كتاب الله وسنة رسوله فى عقيدته ولكن الانحراف الذى طرأ على المسائل العقدية فى العصور المتأخرة سببه حركة الترجمة والانبهار بفلسفة اليونان وعلومهم . ولو كان هناك وعى وتفكير فى الأشياء المترجمة لا تقتصر على ترجمة العلوم البحتة كالهندسة والكيمياء والطب وغيرها من العلوم النافعة وبشرط أن تكون صياغة ترجمتها متفقة مع عقيدة المسلمين . ولكن الخطأ الذى حصل كان ترجمة جميع العلوم ومنه « الإلهيات » عند أرسطو وأفلاطون وغيرهم .

إنه خطأ فاحش وقع فيه من وقع وإلا فما هو الدافع لاستيراد ما عند الوثنيين واستخدام أهل الكتاب فى ذلك ؟

وصدق حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ حين قال محذراً : (أولا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم فلا والله ما رأينا رجلاً منهم يسألكم عن الذى أنزل إليكم) .

والذى حصل كما يقول الشيخ محمد الغزالى : إن صفو هذه العقيدة قد تعكر بالفكر الأجنبى الذى أقحم على الحياة الإسلامية وبضروب الجدل التى زجى بها المتبطلون أوقات فراغهم .

ولكن رحمة الله بعباده وتكفلهم ــ جل جلاله ــ بحفظ هذا الدين تجلت فى إيجاد علماء أعلام ، فى كل عصر ومصر ، قاموا بواجب الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله ، وتبصير الأمة بما شردت عنه ، وزهدت فيه

لهذا حين رأى كثير من الأئمة ــ رحمهم الله ــ هذا الداء الدخيل يحل على المسلمين فى تصورهم وعقيدتهم قاموا بواجبهم الجهادى نحوه .

فهذا الإمام الجليل الشافعى ــ رحمه الله ــ يقول : « فى أهل الكلام أن يضربوا بالجريد والنعال ويطاف بهم فى العشائر والقبائل ويقال : هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة ، وأقبل على الكلام » .

ويقول أبو يوسف صاحب أبى حنيفة ــ رحمهما الله ــ « العلم بالكلام هو الجهل ، والجهل بالكلام هو العلم » .

ثم عقب شارح الطحاوية على ذلك بقوله : « كيف يرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتباع ما جاء به الرسول » .

وذكر ابن الجوزى ــ رحمه الله ــ : أن أصل الدخل فى العلم والاعتقاد : من الفلسفة وذلك أن خلقاً من العلماء فى ديننا لم يقنعوا بما قنع به رسول الله ــ ﷺ ــ من الانعكاف على الكتاب والسنة ، بل أوغلوا فى النظر فى مذاهب أهل الفلسفة وخاضوا فى الكلام الذى حملهم على مذاهب ردية أفسدوا بها العقائد .

أما شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ فيقول :

(هؤلاء أهل الكلام المخالفون للكتاب والسنة الذين ذمهم السلف والأئمة ، إنهم لم يقوموا بكمال الإيمان ولا بكمال الجهاد ، بل أخذوا يناظرون أقواماً من الكفار وأهل البدع الذين هم أبعد عن السنة منهم ، بطريق لا يتم إلا برد بعض ما جاء به الرسول ، وهذا لا يقطع أولئك الكفار بالعقول ، فلا آمنوا بما جاء به الرسول حق الإيمان ، ولا جاهدوا الكفار حق الجهاد . وأخذوا يقولون :

إنه لا يمكن الإيمان بالرسول ولا جهاد الكفار ، والرد على أهل الإلحاد والبدع إلا بما سلكناه من المعقولات ، وإن ما عارض هذه المعقولات من السمعيات يجب رده تكذيباً ، أو تأويلاً أو تفويضاً . لأنها أصل السمعيات ، وإذا حقق الأمر عليهم وجد الأمر بالعكس) .

وكلمة أخيرة نذكرها للعبرة والعُظة ، وهى كلمة لأحد أولئك الذين خاضوا فى بحر الكلام اللجى ثم خرجوا منه يطلبون النجاة . إنها كلمة أبى عبد الله محمد بن عمر الرازى حيث قال : « لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفى عليلاً ، ولا تروى غليلاً . ورأيت أقرب الطرق . طريقة القرآن .. ومن جرب مثل تجربتى ، عرف مثل معرفتى . هذا وإنه لحرى بالأمة ، بعد أن عاشت قروناً من الضياع والتخبط أن تعود إلى المشكاة الربانية كتاب الله وسنة رسوله ، فتتدبر معانيها ، وتعمل بما فيها ففى ذلك النجاح والفلاح وطمأنينة القلب .

﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ ٢٨ الرعد

ثم يستطرد الشيخ محمد بن سعيد بن سالم فيقول :

إن من أولى البدهيات فى هذا الشأن أن الإسلام قد حرص على أن يكون انتماء المسلم لدينه فقط منذ أول لحظة يعلن فيها (لا إله إلا الله محمد رسول الله) . والبراءة من كل معبود أو متبوع أو مطاع سوى الله تعالى .

والأدلة على ذلك كثيرة جداً فى كتاب الله وسنة رسوله ــ ﷺ ــ

قال تعالى :

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ ٢٥٦ البقرة

وقال :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾
١٠٣ آل عمران

﴿ قل أندعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾
٧١ الأنعام

﴿ ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾
٢٢ لقمان

﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾
٨٥ آل عمران

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين ﴾
٣٣ فصلت

فهذه النصوص الكريمة تثبت مدى منة الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ بإنعامه على المسلمين بهذا الدين ، فالولاء له مصدر القوة والعزة .

فمن استمسك بهذا الولاء ، وحققه فقد استمسك بالعروة الوثقى .

أما الحديث ـــ فعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

« إن الله قد أذهب عنكم عبيَّة (كبر ونخوة) الجاهلية ، وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخرهم بأقوام إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن[(١)] » وحرص المصطفى - ﷺ - على تربية أمته والبعد بها عن مفاخر الأنساب والأحساب التى لا تستمد قوتها وحيوتها من هذا الدين القيم ، فنجده - ﷺ - يحثهم على أن يكون انتمائهم للصف الإسلامى وحسب . ففى الحديث عن أبى عقبة - وكان مولى من أهل فارس - قال : شهدت مع رسول الله - ﷺ - أحداً ، فضربت رجلاً من المشركين ، فقلت : خذها منى وأنا الغلام الفارسى ، فالتفت إلىّ رسول الله - ﷺ - وقال : « فهلا قلت خذها منى وأنا الغلام الأنصارى »[(٢)] .

---

(١) سنن أبى داود ـــ كتاب الأدب ـــ باب فى التفاخر بالأحساب ٥ / ٣٣٩ رقم ٥١١٦ وسنن الترمذى ـــ كتاب المناقب ـــ باب فضل الشام واليمن ٥ / ٧٣٤ رقم ٣٩٥٥
(٢) سنن أبى داود ـــ كتاب الأدب ـــ باب العصبية ٥ / ٣٤٢ رقم ٥١٢٣ وسنن ابن ماجه ـــ كتاب الجهاد باب النية فى القتال ٢ / ٩٣١ رقم ٢٧٨٤

ولقد كان ديدن العقيدة الإسلامية هو : إفراد الله — تعالى — بالتعلق والحب والتعظيم والطاعة والإنابة والخشوع والخوف والرجاء ، وتجريد النفس من كل محبوب أو مرهوب أو مرغوب سوى الله تعالى ، قال جل شأنه :

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ﴾(١)

وقال رسول الله — ﷺ — لعبد الله بن عباس — رضى الله عنهما — « .... واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ﴾(٢) .

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة .. ويتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً ، واشتغالاً به عن غيره ، فيرى أن **إعماله** فكرة فى أمر عدوه وخوفه منه ، واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل ، والله يتولى حفظه والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا . ومعلوم أن التوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين . قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شىء ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء

هذا طريق من طرق منهج العقيدة فى غرسها للولاء والبراء فى النفوس .

وطريق آخر : وهو استخدام مشاهد يوم القيامة ، لتصوير الخصومة والعداء بين الأتباع والمتبوعين ، الذين سلكوا غير منهج الله فى الدنيا ووالوا وعادوا حسب العادات ودين الآباء — وتبرؤ كل فريق من صاحبه .

قال تعالى :

﴿ إذا تبرأ الذين اتُبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾(٣)

ولا شك أن هذه حال من اتخذ من دون الله ورسوله وليجة وأولياء ، يوالى لهم ويعادى لهم ، ويرضى لهم ويغضب لهم ، فإن أعماله كلها باطلة ، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها ، وشدة تعبه فيها ونصبه ، إذ لم يخلص موالاته ومعاداته ، ومحبته وبغضه ، وانتصاره وإيثاره لله ورسوله . ويوم القيامة ينقطع كل سبب ووسيلة وموالاة كانت لغير الله ، لا يبقى إلا من كان له سبب يصل بينه وبين

(١) سورة يونس الآية : ١٠٧

(٢) سنن الترمذى — كتاب صفة القيامة — باب ٥٩ ، ٤ / ٦٦٧ رقم ٢٥١٦

(٣) البقرة ١٦٦-١٦٧ .

ربه وهو حظه من الهجرة إلى الله ورسوله وعبادة الله وحده وما يلزم ذلك من الحب والبغض والعطاء والمنع والولاء والعداء والقرب والبعد ، وتجريد متابعة رسول الله ـــ ﷺ ـــ والإعراض والترك لما خالف سنته وهديه .

ومن منهج القرآن أيضاً فى موضوع الولاء والبراء : ضرب المثل ، وهذا كثير فى القرآن الكريم وأبرز مثال فى هذه القضية هو إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ خليل الرحمن وأبو الأنبياء . فإنه هو القدوة الأولى فى الولاء والبراء .

وإذا وجدت محبة الله فى القلب ، تحمل المؤمن من حينئذ وتقبل تكاليف هذه المحبة ولوازم عبادته لله ـــ تعالى ـــ ومن ذلك جهاد أعداء الله وبغضهم وهجرهم والصبر على الأذى فى سبيل الله .

ثم يمضى القرآن الكريم فى أسلوب عرض هذه العقيدة مستخدماً التهديد والوعيد بعد البيان والإيضاح وإقامة الحجة على الناس فيقول عز وجل :

﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ ٥٤ المائدة

أما المستجيبون لأمر الله فإن الله يحبهم وهو ناصرهم ومولاهم :

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ ٤ الصف

﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ ١٥٠ آل عمران

﴿ واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾ ٧٨ الحج

ومن لوازم محبة الله اتباع رسوله ـــ ﷺ ـــ

﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى ـــ يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾ ٣١ آل عمران

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فاتباع سنة رسوله ـــ ﷺ ـــ واتباع شريعته باطناً وظاهراً هو موجب محبة الله ، كأن الجهاد فى سبيل الله ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه هو حقيقتها .

ويقول الحسن البصرى ـــ رحمه الله ـــ : زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم بهذه الآية : **﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾** . لقد ربى الكتاب والسنة الأمة على الحب فى الله والبغض فى الله ، والولاء فى الله والبراء فى الله ، حتى وصلت إلى حد أن لو قذفت فى النار لكان أحب إليها من أن تعود فى الكفر بعد إذ أنتذها الله منه . ولئن كان الولاء والبراء قد غاب اليوم فى واقع حياة المسلمين ـــ إلا من رحم ربك ـــ فإن هذا الغياب لا يغير من الحقيقة الناصعة الجلية شيئاً لأن هذا الأمر العظيم كما يقول الشيخ حمد بن عتيق : « ليس فى كتاب الله تعالى حكم فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده » . وما سر استيراد مذاهب البشرية الإلحادية

وأفكارهم القاصرة إلا نتيجة حتمية لغياب ولائهم لله ورسوله وعدم براءتهم من الطواغيت المقنعة ببهرج الباطل وزيف الحقيقة .

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وطبيعة العداوة بينهما

إن وجود أولياء الرحمن وأولياء الشيطان أمر قديم نشأ منذ خلق آدم ـــ عليه السلام ـــ وأمر الله للملائكة بالسجود له فسجدت إلا إبليس أبى واستكبر .

وقد تحدث القرآن الكريم عن قصة هذه العداوة بين آدم وإبليس فى سور شتى من أبرزها سورة البقرة وسورة الأعراف وسورة طه وغيرها .

قال تعالى :

﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(١)

وفى سورة الأعراف يأتى بيان عدم سجود إبليس :

﴿ قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾(٢)

لقد كان أمر الله لإبليس أن يسجد فكان رده ـــ لعنه الله ـــ الامتناع والاستكبار مستخدماً فى ذلك قياسه الفاسد : إن النار أشرف من الطين ، وهو بهذا ينصب نفسه نداً لله ـــ سبحانه وتعالى ـــ : الله يقول كذا ، فيقول إبليس أنا أرى كذا ولذلك استحق اللعنة والطرد من رحمة الله .

وانقسام الناس إلى فريق الهدى وفريق الضلال بدأ بهذه البداية كما ذكر ذلك المولى سبحانه :

﴿ هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾(٣)

فأما الفريق الذى أجاب دعوة الرسل وآمن بكتب الله المنزلة ورسله المبعوثين رحمة للناس فهؤلاء أولياء الرحمن .

وأما الفريق الذى أعرض واستكبر فهم أولياء الشيطان .

وقبل الحديث عن الفريقين ، لابد أن نعلم أن الله سبحانه وتعالى قد أقام الحجة على عباده فبين لهم عداوة الشيطان ـــ حتى بعد قصته مع آدم ـــ فهو سبحانه لم يذكر قصة آدم وعداوة إبليس له عدة مرات فى القرآن فحسب ، بل زاد الأمر بياناً فحذر بنى آدم فى مواضع كثيرة من القرآن أن يستمعوا

---

(١) الآية من ٣٤ ـ ٣٨ البقرة .
(٢) الآية ١٢ من الأعراف .
(٣) الآية ٢ من سورة التغابن .

لغواية الشيطان ويعرضوا عن طريق الله المستقيم . قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾(١)

ثم يأتى التذكير مع التحذير فى قوله تعالى :

﴿ يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾(٢)

ولم يقتصر البيان القرآنى الكريم على هذا بل قد كشف للناس المخطط الشيطانى ، حتى يبصر كل ذى عينين ويتفكر أولوا الألباب فقال تعالى عن إبليس : ﴿ لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً . ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً . يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾(٣)

ثم يذكر الله للناس مشهداً من مشاهد يوم القيامة حين يندم أولياء الشيطان ولات ساعة مندم فيقول سبحانه :

﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ﴾(٤)

ومشهداً آخر لإبليس حتى يتبرأ من أتباعه :

﴿ وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي . إنى كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾(٥)

إنه ليس بعد بيان الله بيان ، والأشياء لأصلها تعود كما يقولون فما دام أن إبليس عدو لآدم فلا شك أن اتباع إبليس وحزبه أعداء لأولياء الرحمن وأتباع المرسلين . ومن ثم فلا التقاء بين الفريقين ولا هوادة بينهما إنها الحرب والعدواة والحسد والاستهزاء والسخرية والمكر والخديعة وكل ما يوحى به إبليس لأتباعه ذلك سلاح حزب الشيطان .

وحزب الشيطان أناس يتربصون بالمؤمنين يحاولون ما استطاعوا أن يصدوهم عن ذكر الله ، ولقد أخبرنا الله ــ جل جلاله ــ بذلك فى مواضع عدة من كتابه الكريم فقال سبحانه عن سخرية أعداء الله بحزب الله :

﴿ زُيّن للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾(٦)

---

(١) ٢٠٨ سورة البقرة .
(٢) ٢٧ سورة الأعراف .
(٣) ١١٨ - ١٢٠ سورة النساء .
(٤) ٥٩ - ٦١ سورة يس .
(٥) ٢٢ سورة ابراهيم .
(٦) ٢١٢ سورة البقرة .

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾(١)

﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾(٢)

وانظر إلى التصوير القرآنى لعداوة حزب الشيطان ، وما تنطوى عليه نفوسهم ضد المؤمنين فى قوله تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾(٣)

وهاهنا حقيقة هامة وهى : إن العداوة التى وقعت بين آدم — عليه السلام — وبين إبليس هى عداوة قائمة إبليس وبنى آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وتاريخ البشرية كله ما هو إلا مصداق لحقيقة انقسام الناس إلى فريق الهدى والرشاد وفريق الهوى والشهوة والشيطان .

﴿ خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾(٤) .

وعلى ذلك فإنه لا التقاء بين الفريقين فى الدنيا ولا فى الآخرة ولذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله — : (ومن سنّة الله : أنه إذا أراد إظهار دينه ، أقام من يعارضه ، فيحق الحق بكلماته ، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) .

وانظر إلى عداوة قوم نوح — عليه السلام — له ، وقوم عاد وقوم صالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد — ﷺ — ، ثم العداوة التى تقابل بها الجاهلية أهل الإيمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كان أولياء الرحمن مصرين على اتباع هدى ربهم فإن أولياء الشيطان يصرون أيضاً على التردى فى حمأة الجهل والضلال ، عابدين للطاغوت سواء كان هذا الطاغوت نداً يعبد ، أو شهوة يراد إشباعها أو جنساً أو لغة أو سلطة أو أرضاً أو دين الآباء الأولين . وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٥)

أما حزب الرحمن فهم « الذين ينتمون إليه سبحانه ، ويستظلون برايته ، ويتولونه ولا يتولون أحداً غيره ، وهم أسرة واحدة وأمة واحدة من وراء الأجيال والقرون ، ومن وراء المكان والأوطان ، ومن وراء القوميات والأجناس ، ومن وراء الأرومات والبيوت » .

وقد جاء الدين الإسلامى بفيصل التفرقة بين الحق والباطل ، وبين الأسلام والجاهلية ، فلم يجعل التقاء الناس على أساس العرق أو اللون أو الجنس أو التراب . كما تفعل ذلك الجاهليات القديمة والحديثة

---

(١) ٧٦ سورة الأعراف .
(٢) الآيات من ٢٩ - ٣٢ من سورة المطففين .
(٣) ٧٢ سورة الحج .
(٤) ٢ سورة التغابن .
(٥) ٢٥٧ سورة البقرة .

على السواء — بل جعل التقاء الناس على العقيدة فى الله ، وجعل المفاضلة بينهم بالعمل الصالح .

قال تعالى :

﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ ١٣ الحجرات .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى . كلكم لآدم وآدم من تراب »(١) .

وقال أيضاً : « إن الله أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى وفاجر شقى »(٢) . ولقد تبرأ المصطفى — ﷺ — من أقرباء له ليسوا على دينه ، ليضع من نفسه قدوة للمؤمنين فقال فيما رواه عمرو بن العاص — رضى الله عنه — سمعت رسول الله — ﷺ — يقول جهاراً من غير سر : « إن آل فلان — أناس من أقاربه — ليسوا لى بأولياء ، إنما وليى الله وصالح المؤمنين »(٣) متفق عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن أولى الناس بى المتقون من كانوا وحيث كانوا » وهذا موافق لقوله تعالى(٤) :

﴿ فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين ﴾ ٤ التحريم .

من هنا كان المؤمنون هم أولياء الله لأنهم استجابوا لما أراد الله فتلقوا منه وحده ، وعبدوه وحده ، وخافوه وحده . بعكس الفريق الثانى فإنهم كلما دعاهم رسول من رسل الله قالوا :

﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ١٧٠ البقرة .

﴿ وإذ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ ١٠٤ المائدة

ومن صفات أولياء الرحمن : الاستجابة والانقياد لحكم الله وشرعه واتباع أمره . قال تعالى :

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ النور

أما أولياء الشيطان : فمن سماتهم الإعراض عن حكم الله وشرعه ، واتباع الهوى والشيطان .

---

(١) مسند أحمد ٥ / ٤١١

(٢) سنن الترمذى — كتاب المناقب — باب فضل الشام واليمن ٥ / ٧٣٤ رقم ٣٩٥٥ وقال : حديث حسن غريب ، وسنن أبى داود — كتاب الأدب — باب فى التفاخر بالأحساب ٥ / ٣٣٩ رقم ٥١١٦

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الإيمان — باب موالاة المؤمنين ومقاطعة غيرهم رقم ١٢٨

(٤) مسند أحمد ٥ / ٢٣٥

قال تعالى :

﴿ ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًا بألسنتهم وطعناً فى الدين ﴾ ٤٦ النساء .

وقال :

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ﴾ ٢٢ السجدة .

يقول العلامة ابن القيم : « كل من كذب رسول الله — ﷺ — وأعرض عن متابعته ، وحاد عن شريعته ، ورغب عن ملته ، واتبع غير سنته ، ولم يتمسك بعهده ، ومكن الجهل من نفسه ، والهوى والفساد من قلبه ، والجحود والكفر من صدره ، والعصيان والمخالفة من جوارحه ، فهو ولى الشيطان » .

ومن سمات أولياء الشيطان أنهم : (إذا جاء الحق معارضاً فى طريق رسالتهم طحنوه ، وداسوه بأرجلهم ، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل ، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه فى الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى ، وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان ، فإن لم يجدوا منه بدأ أعطوه السكة والخطبة ، وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم ، وكان لهم ، صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهوائهم .

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٨ — ٥٠ النور

طبيعة العداوة بين الفريقين

بعد أن بينا سمات الفريقين ، نتحدث الآن عن العداوة بينهما ، ومعرفة هذه العداوة أمر لابد منه لتمييز الخبيث من الطيب .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران

ومعرفة العداوة بين الفريقين أمر هام يكشف العوبة بعض المتسمين بأسماء إسلامية وهم يسعون لتذويب المسلم فى خضم الجو الجاهلى المعاصر وتمييع ولائه لربه ودينه وإخوانه المسلمين . وأمانة براءته وعداوته لكل عدو لهذا الدين . هذه الحقيقة الهامة الناصعة يحاول أعداؤنا تزييفها : بأن الكفار أصدقاء أوفياء شرفاء يجب أن يكون لهم الحب والتقدير ، والإجلال والإكبار والتعظيم ، يقولون إننا متأخرون وهؤلاء القوم متقدمون يجب أن نسلك مسلكهم ، وننهج نهجهم نقتفى آثارهم فى كل وضع وحال ، نأخذ حضارتهم بكاملها حلوها ومرها ، حقها وباطلها ، بل إنه لا بطال فيها .

ولكن هيهات خسئوا وخابوا ، إن حزب الله هم الأعلون عند الله قدراً ، وهم الأعلون ولو كانوا أقل عدداً ، وحزب الشيطان هم الخاسرون ولو كانوا عدد الحصى .

ولابد أن يسبق حديث العداوة بين الفريقين ، نبذة بسيطة عن عداوة إبليس للإنسان حتى نعلم **مداخل الشيطان لهذه النفس البشرية ، ومدى تلبيسة الحق بالباطل على أوليائه فيبيّن الحق للمؤمن فيأخذ الحذر على نفسه ومن معه ، ويعبد الله على بصيرة منه ونور من شرعه .**

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أن عداوة الشيطان للإنسان تتمثل فى ست مراتب نذكرها هنا باختصار :

(١) الكفر والشرك ، ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر الشيطان بذلك من ابن آدم برد أنينه ، واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فإن ظفر به صيره من عسكره ونوابه ، فصار من دعاة إبليس ، فإن يئس من ذلك نقله للمرتبة الثانية من الشر وهى :

(٢) البدعة : لأنها أحب إليه من : الفسوق والعصيان ، وذلك أن ضررها فى نفس الدين وهو ضرر متعد ، وهى مخالفة لدعوة الرسل ، فإن كان الشخص ممن يعادى أهل البدع والضلال نقله إلى المرتبة الثالثة وهى :

(٣) الكبائر : على اختلاف أنواعها : فيحرص أن يوقعه فيها ، خاصة إذا كان عالماً متبوعاً لينفر الناس عنه . ومن المعلوم أن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، هذا إذا أحبوا **إشاعتها ، فكيف إذا تولوا هم إذاعتها ؟ فإن عجز عن هذه نقله للتى بعدها وهى :**

(٤) الصغائر : التى إذا اجتمعت ربما أهلكت صاحبها ، كما قال النبى ــ ﷺ ــ : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإن مثل ذلك قوم نزلوا بغلاة من الأرض »[(١)] . وذكر حديثاً معناه : أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا . ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها ، فيكون صاحب الكبيرة الخائف أحسن حالاً منه ، فإن أعجزه العبد عن هذه نقله للخامسة .

(٥) اشتغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب ، بل عاقبتها فوات الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد عن هذه بأن كان حافظاً لوقته شحيحاً به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب نقله للتى بعدها .

(٦) اشتغاله بالعمل المفضول عن الفاضل ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، ويفتح له أبواب خير كثيرة ، كما ورد أنه يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير إما ليتوصل إلى باب واحد من الشر وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين وأجل وأفضل . وهذا أمر لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور الله يقذفه فى قلب العبد ، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ــ ﷺ ــ وشدة عنايته بمراتب الأعمال

---

(١) مسند أحمد ١ / ٤٠٢ ، ٥ / ٣٣١

عند الله ، وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وهذا لا يعرفه إلا من كان من ورثة الرسول — ﷺ — ونوابه فى الأمة ، وخلفائه فى الأرض والله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

وما دام أن هذا هو كيد الشيطان للإنسان ، فما هو سبب العداوة ومثيرها بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ؟

والجواب على ذلك أحد أمور أربعة أو الأربعة مجتمعة :

(١) الكبر : فأولياء الشيطان استكبروا على الحق وعلى الرسول وعلى الرسالة .

قال الله تعالى فيهم :

﴿ إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان آتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ ٥٦ غافر

﴿ أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ ٨٧ البقرة .

وقال تعالى :

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأنَّ فى أذنيه وقراً فبشره بعذاب أليم ﴾ ٧ لقمان .

(٢) استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ، واللصوق بالشهوات واللذائذ . قال تعالى :

﴿ ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ ١٠٧ النحل .

﴿ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك فى ضلال بعيد ﴾ ٣ إبراهيم .

وإذا وجد الكبر وحب الدنيا على الآخرة أو أحدهما : فإن أرباب ذلك ينزعجون من وجود عباد الله المخلصين ، حتى ولو لم يظهر لهم منهم أى احتكاك فإن وجودهم بهذا النقاء وبهذه الطهارة وبذلك الاستعلاء أمر يغيظ أعداء الله .

قال تعالى :

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾ ٨٩ النساء .

ذلك أن وجود الفريق الطاهر يشعر الفريق الدنس بخبث طويته وقبيح فعله ، فمن هنا يبدأ كيد أعداء الله لأولياء الله بكل ما تعنى كلمة « كيد » سواء كان ذلك بالسخرية أو الاستهزاء ، أو العذاب والاضطهاد ، أو التربص للمؤمنين بكل ما يسوء .

(٣) الحسد : فثائرة أولياء الشيطان لا تهدأ ، ولذلك يكنون للمؤمنين الحسد والحقد ، وقد بين الله ذلك فى كتابه العزيز بقوله تعالى :

﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شئ قدير ﴾ ١٠٩ البقرة

أجل هذه هى أمنيتهم أن يكفر عباد الله ليتساوا معهم فى الكفر والضلال ، وقد بين الله عظيم حقدهم وحسدهم لو ظهروا على المؤمنين فقال تعالى :

﴿ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولاذمة ﴾ ٨ التوبة

(٤) سلب الهيمنة والولاء : وهذا أمر يختص بـ « الملأ » أى السيادة والطواغيت الذين يستعبدون الناس ، حيث يتقدم الناس لهم بالإجلال والتعظيم والرغبة والرهبة والخوف والرجاء . فإذا جاء دين الله وشرعه الذى يحرر الناس من عبودية العبيد إلى عبادة الواحد القهار فإن « الملأ » يثورون ويعادون دعاة الخير لأنهم يشعرون حينئذ أن سلطانهم قد سلب وإن شرفهم قد زال وإن الناس لم يعودوا يخشونهم أو يرهبونهم لأن دين الله قد حررهم وأعزهم وعبّدهم لله فخوفهم من الله وحبهم لله وولائهم لله وبغضهم فى الله .

ودليل هذا فعل كسرى حين جاءه كتاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ يدعوه إلى الدخول فى الإسلام فاستكبر فى نفسه وكأنه يقول : أمر عجيب الأعراب الذين كانوا رعاة لنا يأتون إلىّ لأدخل فى دينهم الجديد وظن أن ملكه سيزول إذا دخل فى الدين الجديد فما كان منه إلا أن مزق الكتاب قد استجاب الله دعوة نبيه ـــ ﷺ ـــ فمزق الله ملك كسرى شر ممزق فهكذا الطواغيت التى لا تدين لله بالولاء والسلطة والحاكمية تعادى أولياء الرحمن وتصب عليهم أشد أنواع العذاب كما قال تعالى :

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ البروج الآية : ٨

والجاهلية لا تكره الإسلام لأنها ـ فى دخيلة نفسها ـ لا تعرف ما فيه من الحق والخير أو لأنها ـ بينها وبين نفسها ـ تعتقد حقاً أن باطلها الذى تعيش فيه أصوب وأقوم من الإسلام ! كلا ! فهى تكرهه وهى عالمة بما فيه من الحق والخير وبأنه هو الذى يقوم ما اعوج من شؤون الحياة وإنما تكرهه لأنها حريصة على هذا العوج لا تريد تقويمه وتود أن تبقى الأمور على اعوجاجها ولا تستقيم ، تكرهه لأنها هى الجاهلية ..... وهو الإسلام ! .

﴿ **وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** ﴾ **فصلت الآية : ١٧**

أما طبيعة عداوة أولياء الرحمن لأعدائهم : فهى جزء من عقيدتهم وأحسب أنى فضلت القول فى هذا فى التمهيد حين تكلمت عن لوازم لا إله إلا الله من أنهم يبغضون فى الله من حاد الله ورسوله .

قال تعالى :

﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون** ﴾[1] .

« إنهم لا يلتقون مع أعدائهم فى منتصف الطريق بل يقولون كما قال إمامهم إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ

---

(١) سورة المجادلة الآية : ٢٢

« إنا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده » .

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : « إنه لا يستقيم للإنسان إسلام — ولو وحد الله وترك الشرك — إلا بعداوة المشركين والتصريح لهم بالعداوة والبغض كما قال تعالى : ﴿ **لا تجد قوماً** ﴾ وما دمنا قد عرفنا منطلق العداوة وحقيقتها فيجب أن نعلم أن هذا هو (القاسم المشترك) بين أعداء **الإسلام بشتى أصنافهم كفار ومشركين ومنافقين وكل من كره الإسلام وعاداه** ..

إن طبيعة المنهج الإسلامى التى يعرفها جيداً أصحاب المناهج الأخرى طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله فى الأرض وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وتحطيم الحواجز المادية التى تحول بين الناس كافة . وبين حرية الاختيار الحقيقية ... ثم إنها طبيعة التعارض بين منهجين للحياة ، لا التقاء بينهما فى صغيرة ولا كبيرة وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الربّانى الذى يهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم فهى حتمية لا اختيار فيها فى الحقيقة لهؤلاء ولا لهؤلاء .... وهذه الظاهرة يقررها القرآن بقوله : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾[1]

ونذكر بعض عداوات هذه الأصناف حسبما نص عليه القرآن الكريم فأما الكفار فقد قال الله تعالى عنهم : -

﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون** ﴾[2]

وقال فى شأن « المشركين » : —

﴿ **ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم** ﴾[3] .

﴿ **هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾[4]

وأما عداوة أهل الكتاب فالله يقول عنهم : —

﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم** ﴾[5] .

﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود** ﴾[6]

﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل** ﴾[7] .

﴿ **وإذا لقوكم قالوا ءامنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور** ﴾[8] .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٧
(٢) سورة الصف الآية : ٨
(٣) سورة البقرة الآية : ١٠٥
(٤) سورة التوبة الآية : ٣٣
(٥) سورة البقرة الآية : ١٢٠
(٦) سورة المائدة الآية : ٨٢
(٧) سورة النساء . الآية : ٤٤
(٨) سورة آل عمران الآية : ١١٩

أما عداوة المنافقين : فقد نبه القرآن الكريم على ذلك فى مواضع كثيرة ومن ذلك ما ورد فى أول سورة البقرة حيث ذكرهم فى ثلاثة عشرة آية من آية ٨ ـ ٢٠ وذلك لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً ، لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه فى الحقيقة يخرجون عداوته فى كل قالب يظن الجاهل أنه علم وإصلاح وهو غاية الجهل والإفساد .

« فيال الله كم معقل للاسلام هدموه ! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخربوه وكم من لواء مرفوع قد وضعوه ... اتفقوا على مفارقة الوحى فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون :

﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾(١) رأس مالهم الخديعة والمكر وبضاعتهم الكذب وعندهم العقل المعيشى : إن الفريقين عنهم راضون وهم بنبيهم آمنون .

﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾(٢)

« من علقت مخالب شكوكهم بأديم **إيمانه** مزقته كل تمزيق ، ومن تعلق شرر فتنتهم بقلبه ألقاه فى عذاب الحريق ، خرجوا فى طلب التجارة البائرة فى بحار الظلمات فركبوا مراكب الشبه والشكوك ، تجرى بهم فى موج الخيالات فلعبت بسفنهم الريح العاصف ، فألقتها بين سفن الهالكين .

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾(٣)

وقد نزلت بخصوصهم سورة كاملة فى القرآن هى سورة **﴿ المنافقون ﴾** وقد ورد فيها صريح عداوتهم للمؤمنين فى قوله تعالى عنهم : —

﴿ هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون . يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾(٤)

وما دمنا قد عرفنا عداوات هذه الأصناف للإسلام فإنه لجدير بنا أن نؤكد خطورة عداوة اليهود والنصارى لأنهم هم المسيطرون اليوم على معظم بقاع الأرض وهم الذين يشون غزوهم بشتى الأساليب وهم رمز « البهرج والانبهار » أمام المخدوعين من أبناء المسلمين .

يقول الأستاذ سيد قطب — رحمه الله — : إن حقيقة المعركة التى يشنها اليهود والنصارى فى كل أرض وفى كل وقت ضد الجماعة المسلمة هى من أجل العقيدة . وهم قد يختصمون فيما بينهم ولكنهم يلتقون دائماً فى المعركة ضد الإسلام والمسلمين وقد يرفعون لهذه المعركة أعلاماً شتى — فى خبث ومكر — لأنهم قد جربوا حماسة المسلمين لدينهم وعقيدتهم حين واجهوهم تحت راية العقيدة ، فخوفاً من حماس العقيدة الإسلامية وجيشانها : أعلنوا الحرب باسم الأرض والاقتصاد والسياسة والمراكز العسكرية ، وألقوا فى روع المخدوعين منا : إن حكاية العقيدة قد صارت حكاية قديمة لا معنى لها !

(١) سورة المؤمنون الآية : ٥٣
(٢) سورة البقرة الاية : ٩
(٣) سورة البقرة الآية : ١٦
(٤) سورة المنافقون الآيتان : ٧ ، ٨

ولا يجوز رفع رايتها وخوض المعركة باسمها فهذه سمة المتخلفين المتعصبين ! وذلك ليأمنوا جيشان العقيدة من جديد ، بينما هم فى قرارة نفوسهم جميعاً : يخوضون المعركة أولاً وقبل كل شيء لتحطيم هذه الصخرة العاتية التى نطحوها طويلاً فأدمتهم جميعاً !

فإذا نحن خدعنا بخديعتهم فلا نلومن إلا أنفسنا ونحن نبتعد عن توجيه الله لنبيه ـ ﷺ ـ ولأمته وهو سبحانه أصدق القائلين .

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾(١)

هذا هو الثمن الوحيد الذى يرتضونه وما سواه فمرفوض ومردود ولكن الأمر الحازم والتوجيه الصادق **﴿ قل إن هدى الله هو الهدى ﴾**(٢) على سبيل القصر والحصر هدى الله هو الهدى وما عداه فليس بهدى وخلاصة القول :

إن حقيقة العداوة وطبيعتها هو إختلاف الدينين وافتراق المنهجين . فإما دين الله واتباع شرعه وموالاة عباده المؤمنين .

وإما دين الباطل واتباع الهوى والشهوات والشيطان والانضمام إلى حزب الشيطان . فعلى أولياء **الله أن يعتزوا بدينهم ، وأن يستعلوا فوق وطأة الباطل فإنهم هم المنصورون ، وإذا كان أعداء الله يتباهون بقوتهم وكثرة عددهم وعدتهم فإن المؤمنين يفخرون بنصر الله وكريم معيته وعونه لهم .**

فقد ورد فى جملة البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « يقول الله تعالى : « من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ولئن إستعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن قبضه نفس عبدى المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه ﴾(٣) ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾(٤)

﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ﴾(٥)

﴿ فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ﴾(٦)

وإذا قلبنا صفحات التاريخ وجدنا مصداق ذلك ، ففى غزوة بدر نصر الله القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة وأعز دينه ونصر حزبه وفتوحات المسلمين شرقاً وغرباً وتحطيم عروش كسرى وقيصر ليست

(١) سورة البقرة الآية : ١٢٠
(٢) سورة البقرة الآية : ١٢٠
(٣) صحيح البخارى ـ كتاب الرقائق ـ باب التواضع ٨ / ١٣١
(٤) سورة النحل الاية : ١٢٨
(٥) سورة الأنفال الآية : ١٢
(٦) سورة محمد الآية : ٣٥

بغائبة عن الأذهان . ونصر الله وتأييده للمؤمنين فى معركتهم مع التتار ومع الصليبيين الحاقدين . وغيرها من مئات الحوادث سواء كانت على مستوى الفرد أم الجماعة خير شاهد على ما نقول .

وسيبقى النصر والعون والمدد لأولياء الله إن شاء الله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما على المؤمنين إلا الصدق مع الله والإخلاص فى العمل ابتغاء مرضاته هو وحده والعمل وفق كتابه وسنة نبيه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

« عقيدة أهل السنة والجماعة فى الولاء والبراء »

لابد أن نذكر معتقد أهل السنة والجماعة فى الولاء والبراء حتى يخرج بذلك أرباب البدع والأهواء **التى لا تستند إلى دليل قوى من كتاب الله أو سنة رسوله - ﷺ -**

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ــ رحمه الله ــ : على المؤمن أن يعادى فى الله ويوالى فى الله فإن كان هناك مؤمن فعليه أن يواليه وإن ظلمه ــ فإن الظلم لا يقطع الموالاة الإيمانية » .

قال تعالى : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما** ﴾ (١)

فجعلهم إخوة مع وجود القتال والبغى وأمر بالإصلاح بينهم فليتدبر المؤمن : إن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه والإكرام والثواب لأوليائه والإهانة والعقاب لأعدائه .

وإذا اجتمع فى الرجل الواحد : خير وشر وفجور وطاعة ومعصية وسنة وبدعة استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر فيجتمع فى الشخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة كاللص يقطع يده لسرقته ويعطى من بيت المال ما يكفيه لحاجته هذا هو الأصل الذى اتفق عليه أهل السنة والجماعة وخالفهم الخوارج والمعتزلة ومن **وافقهم** .

ولما كان الولاء والبراء مبنيين على قاعدة الحب والبغض كما أسلفنا فيما سبق فإن الناس فى نظر أهل السنة والجماعة ــ بحسب الحب والبغض والولاء والبراء ــ ثلاثة أصناف :

الأول : ــ من يحب عمله وهو من آمن بالله ورسوله وقام بوظائف الإسلام ومبانيه العظام علماً وعملاً واعتقاداً ، وأخلص أعماله وأفعاله وأقواله لله ، وانقاد لأوامره وانتهى عما نهى الله عنه ورسوله وأحب فى الله ووالى فى الله وأبغض فى الله ، وعادى فى الله وقدم قول رسول الله ــ ﷺ ــ على قول كل أحد كائناً من كان .

الثانى : ــ من يحب وجه ويبغض من وجه ، فهو المسلم الذى خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فيحب ويوالى على قدر ما معه من الخير ، ويبغض أكثر مما يصلح .. وإذا أردت الدليل على ذلك فهذا عبد

---

(١) سورة الحجرات الآية : ٩

الله بن حماز وهو رجل من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان يشرب الخمر فأتى به إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فلعنه رجل وقال : ما أكثر ما يؤتى به ، فقال النبى ـــ ﷺ ـــ « لا تلعنوه فوالله ما علمت **إلا أنه يحب الله ورسوله »[(١)] مع أنه ـ ﷺ ـ لعن الخمر وشاربها وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه .**

الثالث : ـــ من يبغض جملة وهو من كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ولم يؤمن بالقدر خيره وشره وأنه كله لقضاء الله وقدره وأنكر البعث بعد الموت أو ترك أحد أركان الإسلام الخمسة أو أشرك بالله فى عبادته أحداً من الأنبياء والأولياء والصالحين وصرف لهم نوعاً من أنواع العبادة كالحب والدعاء والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والذبح والنذر والإنابة والذل **والخضوع والخشية والرغبة والرهبة والتعلق ، أو الحد فى أسمائه وصفاته واتبع غير سبيل المؤمنين وانتحل ما كان عليه أهل البدع والأهواء المضلة وكذلك كل من قامت به نواقض الإسلام العشرة أو أحدها .**

فأهل السنة والجماعة ـــ إذن ـــ يوالون المؤمن المستقيم على دينه ولاء كاملاً ويحبونه وينصرونه نصرة كاملة ـــ ويتبرأون من الكفرة والملحدين والمشركين والمرتدين ويعادونهم عداوة وبغضاً كاملين أما من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيوالونه بحسب ما عنده من الإيمان ويعادونه بحسب ما هو عليه من الشر ، وأهل السنة والجماعة يتبرأون ممن حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب .

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوآدون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾[(٢)]

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[(٣)]

ويلخص الامام ابن تيمية مذهب أهل السنة والجماعة فيقول :

الحمد والذم والحب والبغض والموالاة والمعاداة إنما تكون بالأشياء التى أنزل الله بها سلطانه وسلطانه كتابه فمن كان مؤمنا وجبت موالاته من أى صنف كان ومن كان كافراً وجبت معاداته من أى صنف كان .

قال تعالى : **﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾[(٤)]**

---

(١) صحيح البخارى ـــ كتاب الحدود ـــ باب ما يكره من لعن شارب الخمر ٨ /١٩٧

(٢) سورة المجادلة الآية : ٢٢ (٣) سورة التوبة الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ (٤) سورة المائدة الآيتان : ٥٥ ، ٥٦

وقال ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ﴾(١)

وقال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾(٢).

ولايجعل الأنبياء والصديقون والشهداء الصالحون بمنزلة الفساق فى الإيمان والدين والحب والبغض والموالاة والمعاداة . قال تعالى :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما إلى قوله ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾(٣)

فجعلهم إخوة مع وجود الاقتتال والبغي .

ولهذا كان السلف مع الاقتتال يوالى بعضهم بعضاً موالاة الدين لا يعادون كمعاداة الكفار ، فيقبل بعضهم بشهادة بعض ويأخذ بعضهم العلم من بعض ويتوارثون ويتناكحون ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من القتال والتلاعن وغير ذلك .

الولاء والبراء القلبى

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة فى هذا الموضوع أن الولاء القلبى وكذلك العداوة يجب أن تكون كاملة .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : فأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهته فينبغى أن تكون كاملة جازمة لا توجب نقص ذلك إلا بنقص الإيمان وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فلن يعطى ثواب الفاعل الكامل .

ذلك أن من الناس من يكون حبه وبغضه وإرادته وكراهته بحسب محبة نفسه وبغضها لا بحسب محبة الله ورسوله وبغض الله ورسوله وهذا نوع من الهوى فإن اتبعه الإنسان فقد اتبع هواه ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾(٤).

« موقف أهل السنة والجماعة من أصحاب البدع والأهواء »

يدخل فى معتقد أهل السنة والجماعة البراءة من أرباب البدع والأهواء والبدعة : مأخوذة من الابتداع وهو الاختراع وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق ولا مثال احتذى ولا إلف مثل ومنه قولهم : ابتدع الله الخلق أى خلقهم ابتداء ومنه قوله تعالى :

﴿ بديع السموات والأرض ﴾(٥)

وقوله ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾(٦)

---

(١) سورة المائدة الآية : ٥١
(٢) سورة التوبة الآية : ٧١
(٣) سورة الحجرات الآيات : ٩ ، ١٠
(٤) سورة القصص الآية : ٥٠
(٥) سورة البقرة الآية : ١١٧
(٦) سورة الأحقاف الآية : ٩

أى لم أكن أول رسول إلى أهل الأرض .

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب وفيما تنطق به الألسنة وفيما تفعله الجوارح .

قال ابن الجوزى : « البدعة عبارة عن فعل لم يكن فابتدع . والأغلب فى المبتدعات أنها تصادم الشريعة بالمخالفة وتوجب التعاطى عليها بزيادة أو نقصان » .

ولقائل أن يقول : ما شأننا الآن وأصحاب البدع لاسيما وأنت تتكلم عن ولاء الكفار والبراء منهم وموالاة المؤمنين ونصرتهم ؟ ؟

والجواب على ذلك : أولاً : أن البدعة خطرها عظيم وكبير والدليل على ذلك أنها تنقسم إلى رتب متفاوته ما بين الكفر الصريح إلى الكبيرة والصغيرة وفى هذا يقول الإمام الشاطبى : « البدعة تنقسم إلى رتب متفاوته منها ما هو كفر صراح كبدعة الجاهلية التى نبه عليها القرآن بقوله :

﴿ **وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا** ﴾[1]

وقوله تعالى :

﴿ **وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم علىّ أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء** ﴾[2]

وقوله : ﴿ **ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام** ﴾[3]

وكذلك بدعة المنافقين حين اتخذوا الدين ذريعة تحفظ النفس والمال وما أشبه ذلك مما لا يشك أنه كفر كفر صراح .

وقضية التحليل والتحريم خصوصية لله — عز وجل — فمن ادعى التحليل والتحريم فقد شرّع ومن شرع فقد أله نفسه . وكما أن الله — سبحانه وتعالى — هو الخالق فهو أيضاً صاحب الأمر والسلطان : قال تعالى :

﴿ **ألا له الخلق والأمر** ﴾[4]

وقال سبحانه :

﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب** ﴾[5]

فهذه البدعة الكفرية وأمثالها لأصحابها منا العداء والبغض والكره والجهاد بعد الإعذار والإنذار والبراءة منهم لا تختلف عن البراءة من الكافر الأصلى .

فقد قال — ﷺ — « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد »[6]

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٣٦
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٣٩
(٣) سورة المائدة : ١٠٣
(٤) سورة الأعراف الآية : ٥٤
(٥) سورة النحل الآية : ١١٦
(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الأقضية — باب نقض الأحكام الباطلة رقم ١١٢٠

قال البغوى : « وقد أتفق علماء السنة على معاداة أهل البدعة ومهاجرتهم ونعود لرتب البدع كما ذكرها الشاطبى فقال : « ومن البدع ما هو من المعاصى التى ليست بكفر أو يختلف فيها هل هى كفر أم لا ؟ كبدعة الخوارج والقدرية والمرجئة ومن أشبههم من الفرق الضالة . ومنها ما هو معصية ويتفق على أنها ليست بكفر ، كبدعة التبتل والصيام قائماً فى الشمس والخصاء بقصد قطع شهوة الجماعة .

ومنها : ما هو مكروه كالاجتماع للدعاء عشية عرفة ، وذكر السلاطين فى خطبة الجمعة على ما قاله ابن عبد السلام الشافعى . وما أشبه ذلك ».

فأرباب هذه البدع يتبرأ منهم أهل السنة والجماعة .

ثانياً : ــ لخطورة البدع على الدين أورد هنا نماذج من أقوال سلف الأمة فى التحذير من البدع وأصحابها .

ومن ذلك ما قاله الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ حيث يقول : ــ « من كان مستناً فليتسنى بمن قد مات : أولئك أصحاب محمد ــ ﷺ ــ كانوا خير هذه الأمة أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً ، قوم اختارهم الله لصحبه نبيه ــ ﷺ ــ ونقل دينه فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم كانوا على الهدى المستقيم »

وقال سفيان الثورى ــ رحمه الله ــ : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وقال الامام مالك ــ رحمه الله ــ : من أحدث فى هذه الأمة شيئاً لم يكن عليه سلفها فقد زعم أن رسول الله ــ ﷺ ــ خان الدين لأن الله تعالى يقول :

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾[1] « فما لم يكن يومئذ ديناً لا يكون اليوم ديناً »

وذكر الشاطبى ــ رحمه الله ــ أن مفاسد البدع تنحصر فى أمرين : ــ

(١) أنها مضادة للشارع ومراغمة له حيث نصب المبتدع نفسه منصب المستدرك على الشريعة لا منصب المكتفى بما حوله .

(٢) أن كل بدعة ــ وإن قلت ــ تشريع زائد أو ناقص أو تغيير للأصل الصحيح وكل ذلك قد يكون على الانفراد وقد يكون ملحقاً بما هو مشروع فيكون قادماً فى المشروع ولو فعل أحد مثل هذا فى نفس الشريعة عامداً لكفر إن الزيادة والنقصان فيها أو التغيير ــ قل أو كثر ــ كفر . وبعض هذا النظر عموم الأدلة فى ذم البدع ومنها : قوله ــ ﷺ ــ « كل بدعة ضلالة »[2] وقوله ــ ﷺ ــ : « من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً »[3]

(١) سورة المائدة الآية : ٣

(٢) سنن أبى داود ــ كتاب السنة ــ باب فى لزوم السنة ٥ /١٥ رقم ٤٦٠٧ وابن ماجه ــ المقدمة ١ /١٦ رقم ٤٢

(٣) صحيح مسلم ــ كتاب العلم ــ باب من سن سنة حسنة أو سيئة ٤ / ٢٠٦٠ رقم ١٦ والترمذى كتاب العلم رقم ٢٦٧٦ باب فيمن دعا إلى هدى . وابن ماجه فى المقدمة ــ باب من سن سنة حسنة رقم ٢٠٦ وقال : الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال أحد علماء السلف لا تجالسوا أصحاب الأهواء ، أو قال أصحاب الخصومات فإنى لا آمن أن يغمسوكم فى ضلالتهم ويلبسوا عليكم بعض ما تعرفون »

فالخلاصة : أنه من معتقد أهل السنة والجماعة البراء من البدعين خاصة أصحاب البدع الكفرية .

سورة الحشر

قال صاحب البصائر :

« السورة مدنية بالاتفاق . آياتها أربع وعشرون ، كلماتها أربعمائة وخمس وأربعون . حروفها ألف وتسعمائة وثلاث عشرة . فواصل آياتها (من بر) على الباء آيتان : العقاب فى موضعين . سميت سورة الحشر ، لقوله : لأول الحشر » .

معظم مقصود السورة : الخبر عن جلاء نبى النضير وقسم الغنائم وتفصيل حال المهاجرين والأنصار والشكاية من المنافقين فى واقعة قريظة وذكر برصيصاء العابد والنظر إلى العواقب وتأثير نزول القرآن وذكر أسماء الحق تعالى وصفاته وبيان أن جملة الخلائق فى تسبيحه وتقديسه فى قوله (الأسماء الحسنى) إلى آخر السورة .

ليس فيها منسوخ .

المتشابهات :

قوله تعالى : (وما أفاء الله) وبعده : (ما أفاء الله) بغير واو ، لأن الأول معطوف على قوله : (ما قطعتم) والثانى استئناف ليس له به تعلق . وقول من قال : انه بدل من الأول زيف عند أكثر المفسرين . قوله : ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ وبعده : ﴿ قوم لا يعقلون ﴾ لأن الأول متصل بقوله : ﴿ لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ﴾ لأنهم يرون الظاهر ولا يفقهون على ما استتر عليهم. والفقة معرفة ظاهر الشرع وغامضة بسرعة فطة فنفى عنهم ذلك والثانى متصل بقوله : ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) أى لو عقلوا لاجتمعوا على الحق ولم يتفرقوا .

وجه إرتباطها بما قبلها :

وذلك من وجوه

(١) إن من آخر السالفة قال : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى) وفى أول هذه قال « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب » .

(٢) إن فى السابقة ذكر من حاد الله ورسوله وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله .

(٣) إن فى السالفة ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضا وفى هذه ذكر ما حل باليهود وبيان عدم فائدة تولى المنافقين إياهم « روى أن بنى النضير كانوا قد صالحوا رسول الله ـ ﷺ ـ على ألا يكونوا عليه ولا له فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبى الذى نعت فى التوراة لا ترد له راية

فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكباً إلى مكة فحالفوا عليه قريشاً عند الكعبة ، فأخبر جبريل النبى - ﷺ - بذلك فأمر بقتل كعب **فقتله** محمد بن سلمة **غيلة وهو عروس وكان عليه الصلاة والسلام قد أطلع منهم على خيانة حين أتاهم ليستعينهم فى رية المسلمين من بنى عامر عند منصرفه من بئر معونة إذ هموا بطرح حجر عليه فعصمه الله »** .

وبعد أن قتل كعب بأشهر تهيأ المسلمون لقتالهم وساروا مع رسول الله - ﷺ - واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حتى إذا نزل فى بنى النضير وجدهم ينوحون على كعب وقالوا ذرنا نبكى شجوناً ثم ائتمر أمرك) فقال : اخرجوا من المدينة ، فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب ودس المنافقون عبد الله بن أبى وأحذابه إليهم ألا يخرجوا من الحصن فإن قاتلوكم فنحن معكم . وإن أخرجتم لنخرجن معكم ، فحصنوا الأزقة وحاصروهم إحدى وعشرين ليلة وقذف الله الرعب فى قلوبهم وأيسوا من نصر المنافقين فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على **بعير ما شاءوا من متاعهم ، فحملوا إلى الشام إلى أريحا وأذرعات إلا أهل بيتين منهم هما آل أبى الحقيق وآل حيى بن أخطب فإنهم لحقوا بخيبر ولحقت طائفة بالحيرة وقبض النبى - ﷺ - أموالهم وسلاحهم فوجد** خمسين درعاً وخمسين سيفاً » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى
ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾

معانى المفردات

الذين كفروا : هم بنو النضير (بزنة أمير) قبيلة عظيمة من اليهود كبنى قريظة ، والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أى فى أول حشرهم ، أى : جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر : إجلاء عمر إياهم من خيبر إلى الشام ، والحصون : واحدها حصن وهو القصر الشاهق والقلعة المَشيدة ، مانعتهم حصونهم من الله : أى : مانعتهم من بأسه وعقابه ، فأتاهم الله : أى : جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا : أى : من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقذف الشىء : رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه فى قلوبهم ، والرعب : الخوف الذى يملأ الصدر . يخربون : أى : يهدمون ، فاعتبروا : أى : فا تعظوا ، والاعتبار : النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليُعرَف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها ، وأجليت القوم عن منازلهم : أى : أخرجتهم منها ، وجَلوا : خرجوا ، وقد فرقوا بين الاجلاء والاخراج من وجهين : أن الأول لا يكون إلا الجماعة ، والثانى يكون لواحد وللجماعة وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثانى يكون مع بقائهما : واللينة : النخلة .

المناسبة وإجمال المعنى

لقد نقض اليهود عهد رسول الله — ﷺ — وظاهروا المشركين اتكالاً على مساعدة المنافقين لهم ومناعة حصونهم ، فتهيأ رسول الله — ﷺ — وسار لقتالهم ، فلما علموا بقدومه حصنوا الأزقة فحاصرهم عليه الصلاة والسلام عدة أيام وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء ، وأخرجهم من حصوُنهم بعد تخريبها بأيديهم وأيدى المؤمنين ، ولولا جلاؤهم لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد ، وما كان ذلك إلا بإذن الله وتقديره للأمور وفق الحكمة والمصلحة .

أضواء كاشفة

اجلاء بنى النضير يحتاج فهمه إلى مقدمة تاريخية بسيطة ، تتلخص فى أن النبى — ﷺ — حينما هاجر إلى المدينة وادع اليهود ، وعقد معهم العهود على أن لا يقاتلهم ، ولا يقاتلوه ، وظل الحال كذلك حتى وقع ما جعل المسلمون يحاصرون بنى قينقاع ويجلوهم عن المدينة ، عقب غزوة بدر ، ثم كانت غزوة أحد التى هزم فيها جيش المسلمين ، وكان لهذا أثر عميق فى نفوس المنافقين واليهود ، وقبائل العرب مما كان سبباً فى حوادث تتابعت كيوم الرجيع — وفيه قتلت هزيل ثلاثة من خيار الصحابة وأسرت ثلاثة قتلت منهم واحداً فى الطريق ، وباعت إثنين لقريش قتلوهما ، وهما زيد بن الدثنة وخبيب — ويوم بئر معونة ، وفيه قتل من المسلمين أربعون غيلة . ووجد المنافقون واليهود فيما أصاب المسلمين فى بئر

معونة والرَّجيع وغزوة أحد ما شجعهم على الانتقاص من محمد وصحبه ، ووجدوا ماأضعف فى نفوسهم هيبته ، وفكر النبى — صلى الله عليه وسلم — كثيراً فى هذا الأمر ، وعمل على تقوية الجبهة الداخلية حتى لا يكون هناك خلاف فى وجهة النظر فى المدينة وما حواليها ، ورأى النبى أن من الحكمة السياسية أن يستطلع نوايا اليهود ؛ فذهب يوماً إلى بنى النضير يسألهم المعونة فى دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين خطأً ، وهما من بنى عامر حلفائهم ، ذهب إليهم فى عشرة من أصحابه . فلما ذكر لهم ما جاء من أجله أظهروا الغبطة والسرور ، إلا أنه بدت فيهم حركة مريبة وأنهم يدبرون قتله على يد عمر بن جحاش بن كعب اليهودى بواسطة حجر يلقيه على النبى من فوق السطح وهو جالس بجوار الجدار ، فلما أطلعه الله على ذلك خرج الرسول وحده وقصد المدينة ، وظن من معه من الصحابة أنه قام لبعض شأنه فلما استبطأوا النبى طلبوه فعلموا أنه قصد المدينة ودخل المسجد ، فلما ذكر ما رابه من أمر اليهود ، ومن اعتزامهم الغدر به ، قرر المسلمون إجلاءهم من المدينة حتى يهدأ الجو ، ويصفو ، فأرسل النبى لهم محمد بن مسلمة وقال لهم على لسان الرسول : أخرجوا من بلادى لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . ولقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » . ضاقت الدنيا فى وجه بنى النضير وتشاوروا فى أمرهم ، وبينا هم كذلك إذ جاءهم رسول عبد الله بن أبى المنافق بشير عليهم بالبقاء والتحصن ، ويعرض عليهم ألفين من قومه وغيرهم. فانتهى الأمر فيما بينهم إلى التحصن بالحصون ، وظنوا أنها تمنعهم من النبى — صلى الله عليه وسلم — أما المسلمون فساروا إليهم وحاصروهم عشرين ليلة ، وأمر النبى المسلمين أن يقطعوا نخلهم أو يحرقوه حتى لا تبقى اليهود متعلقة بأموالها متحمسة لديارها ، وجزع اليهود ، ونادوا يا محمد : قد كنت تنهى عن الفساد وتصيب من يصنعه ، فما بال قطع النخل وتحريقها و وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ **ما قطعتم من لينة أو تركتموها** ﴾[1] الآية .

وفى الآيات التى بين أيدينا يخبر الحق — تبارك وتعالى — بأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض يسبحه ويقدسه ويصلى له ويوحده ، وينقاد له ويسجد : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾[2] وكيف لا يكون ذلك كذلك ؟ وهو العزيز الجبار الحكيم الفعال ، ومن مظاهر هذا إجلاء بنى النضير الذى ذكر فى قوله تُعالى بما معناه : هو الحق سبحانه الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب — وهم بنو النضير من ديارهم وأموالهم بعد ما نقضوا العهود ، وعادوا الرسول والمؤمنين أخرجهم فى وقت الحشر الأول من ديارهم .

سبحانه أخرج بنى النضير من ديارهم رغم كثرة عددهم ، ووفرة عُددهم ، وقرب بنى قريظة وأهل خيبر منهم ، وعرض المنافقين مساعدتهم عليهم ، لهذا كله ما ظن المسلمون أنهم يخرجون ، وقد ظنوا هم أن حصونهم تمنعهم من بأس الله إذ جاءهم ، فما أغنى عنهم من ذلك شىء أبداً ، وجاءهم

(١) سيرة ابن هشام — أمر إجلاء بنى النضير ٣ / ١٩٩

(٢) سورة الإسراء الآية : ٤٤

من الله ما لم يكن ببالهم ، وقد قذف الله فى قلوبهم الرعب ، وكيف لا .. ؟ والنبى نصر بالرعب من مسيرة شهر ، فكان ما أراد المسلمون ، وصالحوهم على أن يخرجوا من ديارهم ، ولكل ثلاثة منهم بعير ، يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم ليأخذوا ما غلا ثمنه وخف حمله ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾ وتفكروا فى عاقبة من خاف الله ورسوله ، ومن لم يخف الله ورسوله .

ولولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء لكان لهم عذاب فى الدنيا أشد ، وهو القتل والأسر ، ولهم فى الآخرة على كفرهم عذاب النار . ذلك كله بسبب أنهم شاقوا الله ورسوله وعادوه ، وأرادوا قتله ، وأطلقوا عليه ألسنتهم وأيديهم بالسوء ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ، وانظر إلى القرآن حيث جعل عداوة الرسول عداوة لله ، كما أن طاعته كذلك .

وقد كان المسلمون أثناء الحصار يقطعون نخيلهم ويحرقونه ، فقيل إن هذا سعى فى الأرض بالفساد والله حرمه ، فأجاب العزيز الحكيم بقوله : ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها كما هى بلا قطع فذلك كله بإذن الله وأمره ، وفى هذا خير بلا شك ، والله أمر بهذا ليعز المؤمنين ، وليذل ويخزى الفاسقين .

غزوة بنى النضير

أ) قوات الطرفين :

أولاً : المسلمون :

مسلمو المدينة بقيادة الرسول ـ ﷺ ـ

ثانياً : اليهود :

بنو النضير : الذين كانت منازلهم بناحية « الغَرْس » وما والاها .

ب) الهدف :

التخلص من بنى النضير لتآمرهم على اغتيال الرسول ـ ﷺ ـ

ج) الحوادث :

ذهب النبى ـ ﷺ ـ إلى منازل بنى النضير فى ضواحى المدينة ليستعين بهم فى دية قتيلين معاهدين للمسلمين قتلهما عمرو بن أمية الضَمْرى خطأ دون أن يعلم بعهدهما فلما فاوضهم الرسول ، أظهروا الرضا بمعونته ، فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم مع عشرة من أصحابه بينهم أبو بكر وعمر وعلى . وفى أثناء تبسّط بعضهم معه فى الحديث رأى أن بعضهم يأتمرون به ، فيذهب أحدهم إلى ناحية ، ويتدو عليهم كأنهم يذكرون مقتل كعب بن الأشرف ، ثم يدخل أحدهم « عمرو بن جحاش » البيت الذى كان الرسول ـ ﷺ ـ مستنداً إلى جداره .

حينذاك رابه أمرهم وزاده ريبة ما كان يبلغه سابقاً من حديثهم عنه وائتمارهم به ، فترك موقعه بالقرب من الجدار ، وقفل راجعاً إلى المدينة وحده . ولما استبطأه أصحابه ، قاموا للتفتيش عنه ، فرأوا رجلاً مقبلاً من المدينة أخبرهم أن النبي — ﷺ — هناك ، فأسرعوا يلحقون به . فلما ذكر ما رابه من أمر اليهود ومن اعتزامهم الغدر به ، تنبهوا إلى حركات اليهود التى تدل على مؤامرتهم للقضاء على حياة الرسول — ﷺ —
وقد عرف — بعد — أن عمرو بن جحاش هو الذى أراد قتل النبى — ﷺ — بإلقاء حجر الرحى عليه من فوق سطح الجدار الذى كان الرسول تحته .

استدعى الرسول - ﷺ - محمد بن مسْلَمة وقال له : «اذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم ما هممتم به من الغدر بى . لقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه » .

لم يجد اليهود بعد ذلك مناصاً من الخروج ، فأخذوا يتجهزون للرحيل ، إلا أن منافقى المدينة وعلى رأسهم عبد الله بن أبىّ أرسلوا إليهم : « أن اثبتوا ونحن ننصركم على محمد وصحبه » .

عند ذاك عادت لليهود ثقتهم بأنفسهم ، واستقر رأيهم على القتال ، وأرسلوا للنبى — ﷺ — من يقول له : « لن نخرج فافعل ما بدالك » .. ثم اجتمعوا بحصونهم ونقلوا الحجارة إلى شوارعهم وأقاموا منها متاريس وخنادق للاحتماء وراءها فى القتال ، وكدسوا أرزاقاً تكفيهم لمدة سنة فى حصارهم ، وكان الماء متيسراً لديهم باستمرار . تحرك المسلمون بقيادة الرسول القائد إلى ديار بنى النضير ، فحاصروهم عشرين ليلة ، كانوا أثناءها يحتلون شارعاً بعد شارع وداراً بعد دار ولما رأى الرسول — ﷺ — إصرار اليهود على القتال مستفيدين من حصونهم القوية ، أمر أصحابه أن يقطعوا نخل اليهود وأن يحرقوه ، حتى لا تبقى اليهود على حماسها فى القتال طمعاً فى المحافظة على أموالها .

وجزع اليهود وانتظروا عبثاً إسراع عبد الله بن أبىّ أو القبائل الأخرى لنجدتهم ، فسألوا محمداً — ﷺ — أن يؤمنهم على أموالهم ودمائهم وذراريهم ، حتى يخرجوا من المدينة .

وافق الرسول — ﷺ — على مصالحتهم بشرط أن يخرجوا من المدينة ولكل ثلاثة منهم بعير يحملون عليه ما شاءوا من مال أو طعام أو شراب ليس لهم غيره ، فخرج بعضهم إلى « خيبر » وبعضهم إلى ضواحى الشام ، وتركوا للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة من سلاح بلغ خمسين درعاً وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، وغلالاً عظيمة ، كما أصبحت أرضهم للمسلمين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ هذا إخبار منه تبارك وتعالى أن جميع ما فى السموات والأرض من شىء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلى له ويوحده كقوله تعالى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أى : منيع الجناب (الحكيم) فى قدره وشرعه . وقوله تعالى : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ : يعنى يهود بنى النضير . قاله ابن عباس ومجاهد والزهرى وغير واحد كان رسول الله — ﷺ — لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد الذى كان بينهم وبينه فأحل الله بهم بأسه الذى لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذى لا يصد فأجلاهم النبى — ﷺ — وأخرجهم من حصونهم الحصينة التى ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله فما أغنى عنهم من الله شيئاً وجاءهم **إلى أذرعات من أعالى الشام وهى أرض المحشر والمنشر ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم فكانوا يخربون ما فى بيوتهم من المنقولات** التى يمكن أن تحمل معهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا ياأولى الأبصار** ﴾ أى : تفكروا فى عاقبة من خالف أمر الله وخالف رسوله وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزى له فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من العذاب الأليم .

قال أبو داود بسنده عن **عبدالرحمن** بن كعب بن مالك عن رجل من أصحاب النبى — ﷺ — أن كفار قريش كتبوا إلى ابن أبىّ ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج ورسول الله — ﷺ — يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر إنكم آويتم صاحبنا وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلكم ونستبيح نساءكم ، فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبىّ ومن كان معه من عبدة الأوثان اجمعوا لقتال النبى — ﷺ — فلما بلغ ذلك النبى — ﷺ — لقيهم فقال : « لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم تريدون أن يقاتلوا أبناءكم وإخوانكم » . فلما سمعوا ذلك من النبى — ﷺ — تفرقوا فبلغ ذلك كفار قريش فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود : إنكم أهل الحلقة والحصون وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا ولا يحول بيننا وبين خدم نسائكم شىء وهو الخلاخيل . فلما بلغ كتابهم النبى — ﷺ — أجمعت بنو النضير بالغدر فأرسلوا إلى النبى — ﷺ — : أخرج إلينا فى ثلاثين رجلاً من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً حتى نلتقى بمكان المنصف ، فيسمعوا منك فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك فقص خبرهم فلما كان الغد ، غدا عليهم رسول الله — ﷺ — بالكتائب فحصرهم فقال لهم : « إنكم والله لا تؤمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه فأبوا أن يعطوه عهداً فقاتلهم يومهم ذلك ثم غدا الغد على بنى قريظة

بالكتائب وترك بنى النضير بالكتائب فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء فجلت بنو النضير واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها فكان نخل بنى النضير لرسول الله — ﷺ — خاصة أعطاه الله إياها وخصة بها فقال تعالى : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ يقول بغير قتال ، فأعطى النبى — ﷺ — أكثرها للمهاجرين وقسمها بينهم وقسم منها لرجلين من الأنصار وكانا ذوى حاجة ولم يقسم لأحد من الأنصار غيرهما وبقى منها صدقة رسول الله — ﷺ — التى فى أيدى بنى فاطمة — رضى الله عنها —[1]

وهذا ملخص لغزوة بنى النضير كما ذكره أصحاب المغازى والسير : وإنه لما قتل أصحاب بئر معونة من أصحاب رسول الله — ﷺ — رضى الله عنهم وكانوا سبعين . وأفلت منهم عمرو بن أمية الضمرى فلما كان فى أثناء الطريق راجعاً إلى المدينة قتل رجلين من بنى عامر وكان معهما عهد من رسول الله — ﷺ — وأمان لم يعلم به عمرو فلما رجع أخبر رسول الله — ﷺ — فقال له رسول الله — ﷺ — : « لقد قتلت رجلين لأدينهما » وكان بين بنى النضير وبنى عامر حلف وعهد فخرج رسول الله — ﷺ — إلى بنى النضير ليستعينهم فى دية ذينك الرجلين وكانت منازل بنى النضير ظاهر المدينة على أميال منها شرقيها . قال محمد بن اسحاق بن يسار فى كتابه السيرة : ثم خرج رسول الله — ﷺ — إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى للجوار الذى كان رسول الله — ﷺ — عقد لهما فيما حدثنى يزيد بن رومان وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد وحلف فلما آتاهم رسول الله — ﷺ — يستعينهم فى دية ذينك القتيلين قالوا : نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله — ﷺ — إلى جنب جدار من بيوتهم — فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ، فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم فقال : أنا لذلك ، فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال : ورسول الله — ﷺ — فى نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى — رضى الله عنهم — فأتى رسول الله — ﷺ — الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة فلما استلبث النبى — ﷺ — أصحابه قاموا فى طلبه فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه عنه فقال : رأيته داخلاً المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله — ﷺ — حتى انتهوا إليه ، فأخبرهم الخبر بما كانت يهود أرادت من الغدر به وأمر رسول الله — ﷺ — بالتهيؤ لحربهم والمسير إليهم ثم سار حتى نزل بهم فتحصنوا منه فى الحصون فأمر رسول الله — ﷺ — بقطع النخل والتحريق فيها . فنادوه : أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض وتعيب على من يصنعه فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ .

---

(١) سنن أبى داود — كتاب الخراج والإمارة والفىء — باب فى خبر النضير ٣ / ٤٠٤ رقم ٣٠٠٤

وقد كان رهط من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبىّ بن سلول ووديعة ومالك بن أبى قوقل وسويد وداعس قد بعثوا إلى بنى النضير أن اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن خرجتم خرجنا معكم ، فتربصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا وقذف فى قلوبهم الرعب ، فسأل رسول الله — ﷺ — أن يجليهم عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة ففعلوا فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته عن إيجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به فخرجوا إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام وخلوا الأموال لرسول الله — ﷺ — فكانت لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة — سماك بن خرشة — ذكرا فقراً فأعطاهما رسول الله — ﷺ — قال : ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان : يامين بن عمرو بن كعب عم عمرو بن جحاش وأبو سعد بن وهب ، أسلما على أموالهما فأحرزاها . قال ابن اسحاق : وقد حدثنى بعض آل يامين أن رسول الله — ﷺ — قال ليامين : « ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأنى ، فجعل يامين بن عمرو لرجل جعلاً على أن يقتل عمرو بن جحاش فقتله فيما يزعمون . قال ابن اسحاق : ونزل فى بنى النضير سورة الحشر بأسرها .[1] فقوله تعالى : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب** ﴾ يعنى بنى النضير . ﴿ **من ديارهم لأول الحشر** ﴾ . قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : من شك فى أن أرض المحشر ههنا — يعنى الشام — فليقرأ هذه الآية : ﴿ **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر** ﴾ قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر »[2] . وحدثنا أبو سعيد الأشج بسنده عن الحسن قال : لما أجلى رسول ا لله — ﷺ — بنى النضير قال : « هذا أول الحشر وأنا على الأثر » ورواه ابن جرير عن ابن بشار عن ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن به[3]

وقوله تعالى : ﴿ **ما ظننتم أن يخرجوا** ﴾ أى : فى مدة حصاركم لهم وقصرها وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ولهذا قال تعالى : ﴿ **وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** ﴾ أى جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال . كما قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** ﴾[4] .

وقوله تعالى : ﴿ **وقذف فى قلوبهم الرعب** ﴾ أى : الخوف والهلع والجزع وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذى نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٠٠ — ٢٠١ — ٢٠٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير — طبعة الشعب ٨ / ٨٤

(٣) تفسير الطبرى — طبعة الحلبى ٢٨ / ٢٩

(٤) سورة النحل الآية : ٢٦

وقوله : ﴿ **يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين** ﴾ هو نقص ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وتحملها على الإبل . قال مقاتل بن حيان : كان رسول الله — ﷺ — يقاتلهم فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال . وكان اليهود إذا علوا مكاناً أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها ثم حصنوها ودربوها . يقول الله تعالى : ﴿ **فاعتبروا ياأولى الأبصار** ﴾ . وقوله : ﴿ **ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا** ﴾ أى : لو أن كتب الله عليهم هذا الجلاء وهو النفى من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبى ونحو ذلك قاله الزهرى عن عروة والسدى وابن زيد لأن الله قد كتب عليهم أنه سيعذبهم فى الدار الدنيا مع ما أعد لهم فى الدار الآخرة من العذاب فى نار جهنم . قال ابن أبى حاتم بسنده عن عروة بن الزبير قال : ثم كانت وقعة بنى النضير وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقعة بدر وكان منزلهم بناصية من المدينة ، فحاصرهم رسول — ﷺ — حتى نزلوا على الجلاء وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة وهى السلاح فأجلاهم رسول الله — ﷺ — قبل الشام . قال : والجلاء أنه كتب عليهم فى آى من التوراة وكانوا من سبط لم يصيبهم الجلاء قبل ما سلط عليهم رسول الله — ﷺ — وأنزل الله فيهم : ﴿ **سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض — إلى قوله — وليخزى الفاسقين** ﴾ وقال عكرمة : الجلاء : القتل ، وفى رواية عنه : الفناء ، وقال قتادة : الجلاء خروج الناس من البلد إلى البلد : وقال الضحاك أجلاهم إلى الشام وأعطى كل ثلاثة بعيراً وسقاء . فهذا الجلاء .

وقد قال الحافظ أبو بكر البيهقى بسنده عن ابن عباس قال : كان النبى — ﷺ — قد حاصرهم حتى بلغ منهم كل مبلغ فأعطوه ما أراد منهم فصالحهم على أن يحقن لهم دماءهم وأن يخرجهم من أرضهم ومن ديارهم وأوطانهم وأن يسيرهم إلى أذرعات الشام وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاء . والجلاء : إخراجهم من أرضهم إلى أرض أخرى[1] .

وروى أيضاً من حديث يعقوب بن محمد الزهرى بسنده عن محمد بن مسلمة أن رسول الله — ﷺ — بعثه إلى بنى النضير وأمره أن يؤجلهم فى الجلاء ثلاثة أيام[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولهم فى الآخرة عذاب النار** ﴾ أى : حتم لازم لابد لهم منه .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله** ﴾ أى : إنما فعل الله بهم ذلك وسلط عليهم رسله المتقدمين فى البشارة بمحمد — ﷺ — وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال : ﴿ **ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب** ﴾ .

(١) أخرجه البيهقى فى الدلائل — انظر الدار المنثور ٦ / ١٩١
(٢) الدار المنثور للسيوطى — طبعة دار الفكر ٨ / ٩١

وقوله تعالى : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ﴾ : اللين : نوع من التمر وهو جيد . قال أبو عبيدة : وهو ما خالف العجوة والبرنى من التمر . وقال كثيرون من ا لمفسرين : اللينة ألوان التمر سوى العجوة . قال ابن جرير : هو جميع النخلة ونقله عن مجاهد : وهو البويرة أيضاً . وذلك أن رسول الله — ﷺ — لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم وإرهاباً وإرعاباً لقلوبهم . فروى محمد بن اسحاق عن يزيد بن رومان وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا فبعث بنو قريظة يقولون لرسول الله — ﷺ — : إنك تنهى عن الفساد فما بالك تأمر بقطع الأشجار ؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة[1] أى ما قطعتم من لينة وما تركتم من الأشجار فالجميع بإذنه ومشيئته وقدره ورضاه وفيه نكاية للعدو وخزى لهم ، وإرغام لأنوفهم . وقال مجاهد : نهى بعض المهاجرين بعضاً عن قطع النخل وقالوا : إنما هى مغانم المسلمين . فنزل القرآن بتصديق من نهى عن قطعه وتحليل من قطعه من الإثم وإنما قطعه وتركه بإذنه ، وقد روى نحو هذا مدفوعاً فقال الترمذى بسنده عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ﴾ قال : استنزلوهم من حصونهم وأمروا بقطع النخل فحك فى صدورهم ، فقال المسلمون : قطعنا بعضاً وتركنا بعضاً فلنسألن رسول الله — ﷺ — هل لنا فيما قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فيما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله : ﴿ ما قطعتم من لينة ﴾ . وقال الحافظ أبو يعلى فى مسنده بسنده عن جابر قال : رخص لهم فى قطع النخيل ثم شدد عليهم فأتوا النبى — ﷺ — فقالوا : يا رسول الله : علينا إثم فيما قطعنا أو علينا وزر فيما تركنا فأنزل الله — عز وجل — : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله ﴾[1] . وقال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر أن رسول الله — ﷺ — قطع نخل بنى النضير وحرق[2] ، وأخرجه صاحبا الصحيح من رواية موسى بن عقبة[3] بنموه ، ولفظ البخارى من طريق عبد الرزاق عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر قال : أحاربت النضير وقريظة فأجلى بنى النضير وأقر قريظة ومن عليهم حتى حاربت قريظة فقتل رجالهم وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبى — ﷺ — فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة فآمنهم وأسلموا وأجلى يهود المدينة كلهم بنى قينقاع وهم رهط عبد الله ابن سلام ويهود بنى حارثة وكل يهود بالمدينة ، ولهما أيضا عن قتيبة عن الليث بن سعد عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله — ﷺ — حرق نخل بنى النضير وقطع وهى البويرة فأنزل الله — ﷺ — فيه : ﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين ﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى — طبعة الحلبى ٢٨ / ٣٤

(٢) سنن الترمذى — كتاب التفسير — تفسير سورة الحشر ٥ / ٨١ رقم ٣٣٥٧

ما هو الفىء وما حكمه

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ
عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ
وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ
وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ
ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ
مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ
خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ
رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ
رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

معانى المفردات

(وما أفاء) : المراد ما رده الله على رسوله ، والفىء فى اصطلاح علماء الإسلام ما أخذ من الكفار بلا حرب ولا إيجاف خيل بخلاف الغنيمة فإنها ما أخذت بحرب ، ولكل تقسيم يخالف الآخر . (فما أوجفتم) وجف الفرس والبعير وجيفاً : عدا ، وأوجفه : جعله يعدو أى يسرع فى الجرى (من خيل ولا ركاب) الخيل معروفة ، والركاب هى الإبل خاصة (دولة) : يقال : تداول القوم الكرة كانت فى يد هذا ثم فى يد هذا ، والإسم : الدولة بضم الدال وفتحها ، وقال بعضهم : الدَّولة فى المُلك ، والدُّولة فى المِلْك . (تبوءوا الدار والإيمان) إتخذوها مباءاً ومنزلاً مع الإيمان (ويؤثرون) **الإيثار هو** تقديم الغير على النفس فى أغراض الدنيا (خصاصة) حاجة (شح نفسه) الشح لؤم الطبع ويلزمه البخل مع الحرص (غلاً) حقداً وحسداً .

وهذا شروع فى بيان حكم الأموال التى أخذت منهم بعد بيان ما حل بهم فى الدنيا ، وما أعد لهم فى الآخرة ، ثم استطرد فذكر أصناف المؤمنين الذين يستحقون الفىء..

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه ما حل ببنى النضير من العذاب العاجل كتخريب بيوتهم بأيديهم وتحريق نخيلهم وتقطيعها ، ثم إجلائهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع — ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم فجعله فيئاً لله ورسوله ينفق منه على أهله نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عُدّة فى سبيل الله ، ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة ، لأنهم لم يقاتلوا لأجله ،

روى أن الصحابة — رضى الله عنهم — طلبوا من الرسول — ﷺ — أن يقسم الفىء بينهم كما قسم الغنيمة فى بدر وغيرها بينهم ، فبين سبحانه الفرق بين الأمرين ، بأن الغنيمة تكون فيما أتعبتم أنفسكم فى تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ، والفىء فيما لم تتحملوا فى تحصيله تعباً ، وحينئذ يكون أمره مفوضاً إلى الرسول يضعه حيث يشاء

وبعد أن بين مصارف الفىء ، وذكر أنه لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين — ذكر أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات السامية ، والمناقب الرفيعة ، ثم مدح الأنصار ساكنى المدينة وبالغ فى مدحهم ، فذكر لهم هذه الفضائل :

(١) إنهم يحسبون المهاجرين .

(٢) إنهم ليس فى قلوبهم حقد ولا حسد لهم .

(٣) إنهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم ما هم فى أشد الحاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشح المردى والبخل المهلك ، الذى يدسِّى النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر .

ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، يدعون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة ، ويطلبون من الله ألا يجعل فى قلوبهم حقداً وحسداً لهم .

أضواء كاشفة

وما أعاده الله على **رسوله** من أموال بنى النضير فما ركبتم لأجلها خيلاً ولا إبلاً ولا تجشمتم فى تحصيلها مشقة ، ولا لقيتم بها حرباً ، ولذا كانت هذه الأموال لرسول الله بعد تقسيم خمسها على مستحقيه كما فى الآية .

ولكن الله يسلط رسله على من يشاء من أعدائه ، وفى هذا بيان أن الأموال للرسول وليست

لأصحابه لأنهم لم يوجفوا لها خيلاً ، ولم يركبوا لها إبلاً ، ولم يقاسوا فيها من شدائد الحروب ، والله على كل شىء قدير يسلط من يشاء على من يشاء .

وكأن الله خلق المال والمتاع ليتقرب به العبد إلى ربه ، فإذا صرف فى غير محله ، واستولى عليه الكفار ليصرفوه فى غير وجوهه فقد خرج عن وضعه الأصلى ثم إذا عاد إلى المسلم الذى ينفقه فى وجوه الخير فقد عاد إلى الوجه الأول ، ولذا عبّر الله بقوله : ما أفاء الله على رسوله .

وكأن سائلاً سأل وقال : قد علمنا حكم ما أفاء الله على رسوله من أموال بنى النضير فما حكم الفىء إذا كان من غيرهم ؟ والجواب هو : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى **فلله** وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

والفىء يقسم خمسة أقسام ، خمس منها يقسم خمسة أخماس : سهم لله وللرسول ، وكان له فى حياته ثم يصرف على مصالح المسلمين بعد وفاته ، وسهم لذوى القربى من أقارب الرسول وهم بنو **هاشم وبنو عبد المطلب ، والأربعة أخماس الباقية فهى للنبى - ﷺ - خاصة ، وقد وزعها فى حياته على المهاجرين ولم يعط من الأنصار إلا رجلين أظهرا الفقر ، وبعد وفاته تصرف للمرتزقة من الجند أى للجيش ما لم يوجد لهم تبرع أو مرتب خاص ، أما الغنيمة فتقسم خمسة : - خمس لهؤلاء الخمسة كما فى سورة الأنفال والأربعة أخماس الباقية للمقاتلين الذين حضروا المعركة كما فى سورة الأنفال ، وإنما كان تقسيم الفىء على هذا النظام كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم يتداولونه بينهم ، ويحرم الفقير منه ، فإذاً : يفهم من هذا التعليل أن هذا المال يصرف للفقراء المحتاجين كما أنفقه النبى على المهاجرين دون الأنصار .**

من هذا التعليل أن هذا المال يصرف للفقراء المحتاجين كما أنفقه النبى على المهاجرين دون الأنصار .

أيها المسلمون ، ما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله وهذا هو دستور الإسلام الحق الجامع لكل أمر ونهى ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب « للفقراء المهاجرين فى سبيل الله .. » فكأن الله قال : أعنى بأولئك الأربعة — لذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . هؤلاء الفقراء المهاجرين أو الأنصار أو التابعين . وقال بعضهم : المعنى اعجبوا لهؤلاء الفقراء حيث تركوا الأوطان والأموال وتحملوا الضيق والتغرب فى حب النبى — ﷺ — وهل الفقر شرط فى إعطائهم أولاً ؟ قولان : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله : حالة كونهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ناوين نصرة الرسول ودينه ، أولئك الموصوفون بما ذكر من الصفات الجليلة هم الصادقون فى دعوى الإيمان حيث نالهم ما نالهم من أجله ؛ ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ هم الأنصار — رضى الله عنهم — نزلوا المدينة واتخذوها مباءة ومنزلاً للإسلام ، وموئلاً له ، وألفوا الإيمان وأخلصوا له من قبل هجرة المهاجرين إليهم يحبون من هاجر إليهم من المهاجرين ، ولا يجدون فى صدورهم حسداً ولا غيظاً مما أوتوا أى مما أعطى المهاجرون من الفىء وغيره ، مع حرمانهم منه ، فنفوسهم لم تتبع ما أعطى المهاجرون ولم تطمع إلى شىء منه تحتاج إليه ،

على أنهم يؤثرون على أنفسهم غيرهم ، ويقدمون المهاجرين على أنفسهم فى كل شيء من الطيبات مع الحاجة إليه ، حتى إن من كان عنده امرأتان نزل لأخيه المهاجر عن واحدة وخيره فيهما ، وهذا هو مظهر من مظاهر الإخاء الذى فعله النبى ـ ﷺ ـ عندما استقر بالمدينة ، وهذا بلا شك يدل على صفاء النفس من أكدار المادة والدنيا ، ويدل على قوة الروح ومبلغ العزوف عنها ، ومن يوق شح نفسه ، فأولئك هم المفلحون لا غير ، فالشح داء عضال لا يصدر عنه خير ، وهو سبب الكثير من الجرائم :

والذين جاءوا من بعدهم إلى الدين الجديد حيث تأخر زمنهم أو جاءوا بعد المهاجرين وآمنوا بعد الفتح **واستتباب** الدولة الإسلامية حالة كونهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فهى أخوة فى الدين ، ولا شك أنها أعز من أخوة النسب ، اللهم لا تجعل فى قلوبنا غلاً ولا حقداً للذين آمنوا مطلقاً ، ربنا إنك رءوف بنا رحيم بخلقك ، ومن هذا يظهر موقف الصحابة ومكانتهم ، وأن الواجب أن ندعوا لهم بخير وأن نفهم فيهم الصدق والإخلاص الكامل . وفى الحديث : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم »(١) .

التفسير

يقول تعالى مبيناً ما الفيء وما صفته وما حكمه ، فالفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير هذه فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أى لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة **والمصاولة** بل نزل أولئك من الرعب الذى ألقى الله فى قلوبهم من هيبة رسول الله ـ ﷺ ـ فأفاءه الله على رسوله ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين فى وجوه البر والصالح التى ذكرها الله ـ عز وجل ـ فى هذه الآيات فقال تعالى : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم** ﴾ أى من بنى النضير ﴿ **فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب** ﴾ يعنى الإبل ﴿ **ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ أى : هو قدير لا يغالب ولا يمانع بل هو القاهر لكل شيء . ثم قال تعالى : ﴿ **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى** ﴾ أى جميع البلدان التى تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بنى النضير . ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** ﴾ إلى آخرها . والتى بعدها . فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه .

قال الإمام أحمد بسنده عن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله ـ ﷺ ـ خالصة فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وقال مرة : قوت سنته وما بقى جعله فى الكراع والسلاح فى سبيل الله ـ عز وجل ـ(٢)

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفا : رواه البيهقى . وأسنده الديلمى عن ابن عباس بلفظ : « أصحابى بمنزله النجوم فى السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

(٢) مسند أحمد ١ / ٢٥ ، ٤٨

وفى الصحيحين عن مالك بن أوس قال : أرسل إلىّ عمر بن الخطاب ــ رضى ا لله عنه ــ حين تعالى النهار فجئته فوجدته جالساً على سرير مفضياً إلى رماله فقال حين دخلت عليه : يا مالك إنه قد دَفَّ أهل أبيات من قومك وقد أمرت فيهم بشىء فأقسم فيهم ، قلت : لو أمرت غيرى بذلك . فقال : خذه فجاءه يرفا فقال : يا أمير المؤمنين : هل لك فى عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص ؟ قال : نعم ، فأذن لهم فدخلوا ثم جاءه يرفا فقال : ياأمير المؤمنين : هل لك فى العباس وعلى ؟ قال نعم ، فأذن لهما فدخلا . فقال العباس : ياأمير المؤمنين : اقض بينى وبين هذا ــ يعنى علياً ، فقال بعضهم : أجل ياأمير المؤمنين ، اقض بينهما وارحهما ، قال مالك بن أوس : خيل إلىّ أنهما قدما أولئك النفر لذلك ، فقال عمر ــ رضى الله عنه ــ : اتئد ، ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض ، هل تعلمون أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » قالوا نعم ، ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدكما بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « لا نورث ما تركنا صدقة » فقالا : نعم . فقال : إن الله خص رسوله بخاصة لم يخص بها أحداً من الناس فقال تعالى : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير ﴾ فكان الله تعالى أفاء على رسوله أموال بنى ا لنضير فوالله ما استأثر بها عليكم ولا أحرزها دونكم ، فكان رسول الله ــ ﷺ ــ يأخذ منها نفقة سنة أو نفقته ونفقة أهله سنة ويجعل ما بقى أُسْوَة الْمَالِ ثم أقبل على أولئك الرهط فقال : أنشدكم بالله الذى بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمون ذلك ؟ قالوا : نعم ، ثم أقبل على علىّ والعباس فقال : أنشدكما بالله بإذنه تقوم السماء والأرض هل تعلمان ذلك ؟ قالا نعم ، فلما توفى رسول الله ــ ﷺ ــ قال أبو بكر : أنا ولى رسول الله ــ ﷺ ــ فجئت أنت وهذا إلى أبى بكر تطلب أنت ميراثك من ابن أخيك ويطلب هذا ميراث امرأته من أبيها . فقال أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ : قال رسول الله ــ ﷺ ــ : « لا نورث ما تركنا صدقة » والله يعلم إنه لصادق بار راشد تابع للحق فوليها أبو بكر ، فلما توفى قلت : أناولى رسول الله ــ ﷺ ــ وولى أبى بكر فوليتها ما شاء الله أن أليها فجئت أنت وهذا وأنتما جميع وأمركما واحد فسألتمانيها فقلت إن شئتما فأنا أدفعها إليكما على أن عليكما عهد الله أن تلياها بالذى كان رسول الله ــ ﷺ ــ يليها فأخذتماها منى على ذلك ثم جئتمانى لأقضى بينكما بغير ذلك ، والله لا أقضى بينكما بغير ذلك حتى تقوم الساعة فإن عجزتما عنها ، فرداها إلىّ[1] ، أخرجاه من حديث الزهرى به قال الإمام أحمد بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : إن الرجل كان يجعل له من ماله النخلات أو كما شاء الله حتى فتحت عليه قريظة والنضير قال : فجعل يرد بعد ذلك ، قال وإن أهلى أمرونى أن آتى النبى ــ ﷺ ــ فأعطانيهن فجاءت أم أيمن فجعلت الثوب فى عنقى وجعلت

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الجهاد ــ باب حكم الفىء رقم ١١٤٧

تقول : كلا والله الذى لا إله إلا هو لا يعطيكهن وقد أعطانيهن أو كما قالت ، فقال نبى الله : « لك كذا وكذا » قال : وتقول كلا والله . قال ويقول : « لك كذا وكذا » قال وتقول : كلا والله ، قال : ويقول : « لك كذا وكذا » قال حتى أعطاها حسبت أنه قال عشرة أمثاله أو قال قريباً من عشرة أمثاله ، أو كما قال(١) . ورواه البخارى ومسلم(٢) من طرق عن معمر به .

وهذه المصارف المذكورة فى هذه الآية هى المصارف المذكورة فى خمس الغنيمة وقوله تعالى : ﴿ **كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾ أى جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كى لا يبقى مأكله يتغلب عليها الأغنياء ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء .

وقوله تعالى : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ أى مهما أمركم به فافعلوه ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن مسروق قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغنى أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشيء وجدته فى كتاب الله تعالى وعن رسول الله ـ ﷺ ـ قالت : والله لقد تصفحت ما بين دفتى المصحف فما وجدت فيه الذى تقول . تقول : فما وجدت فيه : ﴿ **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** ﴾ قالت بلى ، قال : فإنى سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ ينهى عن الواصلة والواشمة والناقصة ، قالت : فلعله فى بعض أهلك ، قال : فادخلى فانظرى ، فدخلت فنظرت ثم خرجت قالت : ما رأيت بأساً ، فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح : ﴿ **وما أريد أن أخالفكم إلى ماأنهاكم عنه** ﴾(٣) .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن مسعود قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن ، المغيرات خلق الله ـ عز وجل ـ قال فبلغ امرأة من بنى أسد فى البيت يقال لها أم يعقوب فجاءت اليه فقالت : بلغنى أنك قلت كيت وكيت ، قال : مالى لا ألعن من لعن رسول الله ـ ﷺ ـ وفى كتاب الله تعالى ، فقالت : إنى لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته ، فقال : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه أنا قرأت (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) قالت بلى ؟ قال : اذهبى فانظرى فذهبت فلم تر من حاجتها شيئاً ، فجاءت فقالت : ما رأيت شيئاً قال : لو كان كذا لم تجامعنا .

أخرجاه فى الصحيحين(٤) من حديث عبدالله بن مسعود وقد ثبت فى الصحيحين أيضاً عن أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إذا أمرتكم بأمر فائتوا به ما استطعتم ، ومانهيتكم عنه فاجتنبوه(٥) »

---

(١) مسند أحمد ٣ / ٢١٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الجهاد ـ باب رد المهاجرين إلى الأنصار منائحهم رقم ١١٦٠

(٣) انظر تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٨ /٩٢

(٤) مسند أحمد ١ /٤٣٣ ، ٤٣٤

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب اللباس والزينة ـ باب قتل الواصلة والمستوصلة رقم ١٣٧٧
صحيح البخارى ـ كتاب الاعتصام ـ باب الاقتداء بسنن رسول الله ـ ﷺ ٩ / ١١٦
سلم ـ كتاب الفضائل ـ باب توقيره ـ ﷺ ـ وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه ٤ /١٨٣٠ رقم ١٣٠

وقال النسائى بسنده عن سعد بن جبير عن عمرو ابن عباس أنهما شهدا على رسول الله ـ ﷺ ـ : أنه نهى عن الدباء والحنتم والمزفت والنقير ثم تلا رسول الله ـ ﷺ ـ : (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ أى : خرجوا من ديارهم وخالفوا قومهم ابتغاء مرضات الله ورضوانه ﴿ **وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾ أى : هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ أى :سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم : قال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن **مسيئهم**. رواه البخارى(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **يحبون من هاجر إليهم** ﴾ أى من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . قال الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال المهاجرون أيا رسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة فى قليل ولا أحسن بذلاً فى كثير لقد كفونا المؤنة وأشركونا فى المهنأ **حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال : « لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم وقال البخارى بسنده عن يحيى بن سعيد أنه سمع أنس بن مالك حين خرج معه إلى الوليد قال : دعا النبى ـ ﷺ ـ الأنصار أن يقطع لهم البحرين قالوا : لا إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها قال : « إما لا فاصبروا حتى تلقونى فإنه سيصيبكم أثره » . تفرد به البخارى من هذا الوجه**(٣) .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : قالت الأنصار اقسم بيننا وبين إخواننا النخل . قال : لا . فقالوا يكفونا المؤنة وتشركونا فى التمر قالوا سمعنا وأطعنا . تفرد به دون مسلم(٤) ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ أى : لا يجدون فى أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم فى الذكر والرتبة . قال الحسن البصرى : ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة** ﴾ يعنى الحسد ﴿ **مما أوتوا** ﴾ قال قتادة : يعنى فيما أعطى إخوانهم . وكذا قال ابن زيد ، ومما يستدل

(١) سنن النسائى ـ كتاب الأشربة ـ باب ذكر الدلالة على النهى للموصوف من الأدعية ٨ /٣٠٨
(٢) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ـ سورة الحشر ٦ /١٨٥
(٣) مسند أحمد ٣ /٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤
(٤) صحيح البخارى ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب قول النبى ـ ﷺ ـ للأنصار : « اصبروا حتى تلقونى على الحوض » ٥ /٤٢
(٥) صحيح البخارى ـ كتاب الفضائل ـ باب أخاء النبى بين المهاجرين والأنصار ٥ /٣٩

به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله – ﷺ – فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال فلما كان الغد قال رسول الله – ﷺ – مثل ذلك ، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان فى اليوم الثالث قال رسول الله – ﷺ – مثل مقالته أيضاً ، فطلع ذلك الرجل مثل حالته الأولى فلما قام رسول الله – ﷺ – تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص فقال إنى لاحيت أبى فأقسمت أنى لا أدخل عليه ثلاثاً فإن رأيت أن تؤوينى إليك حتى تمضى فعلت . قال : « نعم » قال أنس : فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الليالى الثلاث فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبد الله : غير أنى لم أسمعه يقول : إلا خيراً ، فلما مضت الليالى الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت : ياعبد الله لم يكن بينى وبين أبى غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله – ﷺ – يقول لك ثلاث مرات : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت أن آوى إليك لأنظر ما عملك فأقتدى به فلم أرك تعمل كبير عمل فما الذى بلغ بك ما قال رسول الله – ﷺ – ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعانى فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أنى لا أجد فى نفسى لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه . قال عبد الله : فهذه التى بلغت بك وهى التى لا تطاق[1] .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ يعنى مما أوتوا المهاجرون . قال : وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم فى الأنصار فعاتبهم الله فى ذلك فقال تعالى : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ قال : وقال رسول الله – ﷺ – : « إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم » فقالوا أموالنا بيننا قطائع فقال رسول الله – ﷺ – « أو غير ذلك » قالوا وما ذاك يارسول الله ؟ قال : « هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر » فقالوا : نعم يارسول الله[2] .

وقوله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ يعنى حاجة أى : يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ويبدءون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك .

وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : « أفضل الصدقة جهد المقل »[3]

---

(١) مسند أحمد ٣ /١٦٦

(٢) تفسير الطبرى ٢٨ /٤٢ طبعة الحلبى

(٣) سنن أبى داود – كتاب الزكاة . باب الرخصة للرجل يخرج من ماله ٢ /٣١٢ رقم ١٦٧٧

وهذا المقام أعلى من حال الذين وصف الله بقوله تعالى : ﴿ **ويطعمون الطعام على حبه** ﴾ وقوله : ﴿ **وآتى المال على حبه** ﴾ فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به وقد لا يكون لهم حاجة إليه ولا ضرورة به وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه ، ومن هذا المقام تصدق الصديق ــ رضي الله عنه ــ بجميع ماله فقال له رسول الله ــ ﷺ ــ « ما أبقيت لأهلك » ؟ فقال ــ رضى الله عنه ــ أبقيت لهم الله ورسوله[(١)] ، وهكذا الماء الذى عرض على عكرمة وأصحابه يوم اليرموك فكل منهم يأمر بدفعه إلى صاحبه وهو جريح مثقل أحوج ما يكون إلى الماء ، فرده الآخر إلى الثالث فما وصل إلى الثالث حتى ماتوا عن آخرهم ولم يشربه أحد منهم ــ رضى الله عنهم ــ وأرضاهم ــ .

وقال البخارى بسنده عن أبى هريرة قال : أتى رجل رسول الله ــ ﷺ ــ فقال يارسول الله أصابنى الجهد . فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال النبى ــ ﷺ ــ « ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله » فقال رجل من الأنصار فقال : أنا يارسول الله ، فذهب إلى أهله فقال لامرأته هذا ضيف رسول الله ــ ﷺ ــ لا تدخريه شيئاً . فقالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالى فأطفىء السراج ونطوى بطوننا الليلة ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ــ ﷺ ــ فقال : « لقد عجب الله ــ عز وجل ــ أو ضحك ــ من فلان وفلانة » وأنزل الله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[(٢)]

وقوله تعالى : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ أى من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح .

قال أحمد بسنده عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[(٣)] . إنفرد بإخراجه مسلم فرواه عن القعنبى عن داود بن قيس به[(٤)] .

وقال الأعمش بسنده عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ــ ﷺ ــ « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش ، وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالفجور ففجروا ، وأمرهم بالقطيعة

---

(١) سنن الترمذى ــ كتاب المناقب ــ باب فى مناقب أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ٥ /٣٦٧٥ وقال الترمذى حديث حسن صحيح . وسنن أبى داود ــ كتاب الزكاة ــ باب الرخصة للرجل يخرج من ماله ٢ /٣١٢ رقم ١٦٧٨

(٢) صحيح البخارى ــ كتاب التفسير ــ سورة الحشر ٦ /١٨٥

(٣) مسند أحمد ٣ /٣٢٣

(٤) صحيح مسلم ــ كتاب البر والصلة ــ باب تحريم الظلم ٤ /١٩٩٦ رقم ٥٦

فقطعوا »[1] ورواه أحمد بسنده عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الشح والإيمان فى قلب عبد أبداً »[2] وقال ابن أبى حاتم بسنده عن الأسود بن هلال قال : جاء رجل إلى عبد الله فقال يا أبا عبد الرحمن إنى أخاف أن تكون أصابتنى هذه الآية .

وقال سفيان الثورى بسنده عن أبى الهياج الأسدى قال : كنت أطوف بالبيت فرأيت رجلاً يقول : اللهم قنى شح نفسى . لا يزيد على ذلك ، فقلت له ، فقال : إنى إذا وقيت شح نفسى لم أسرق ولم أزن ولم أفعل وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف ــ رضى الله عنه ــ رواه ابن جرير . وقال ابن جرير بسنده عن أنس بن مالك عن رسول الله ــ ﷺ ــ قال : « برىء من الشح من أدى الزكاة وقرى الضيف وأعطى فى النائبة »[3] .

وقوله تعالى : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء وهم المهاجرون ثم الأنصار ثم التابعون لهم بإحسان كما قال فى آية براءة : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ فالتابعون لهم بإحسان هم المتبعون لآثارهم الحسنة وأوصافهم الجميلة ، الداعون لهم فى السر والعلانية . ولهذا قال تعالى فى هذه الآية الكريمة : ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون** ﴾ أى : قائلين ﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً** ﴾ أى : بغضاً وحسداً ﴿ **للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ وما أحسن ما استنبط الصحابة ليس له فى مال الفيء نصيب لعدم إتصافه بما مدح الله به هؤلاء فى قولهم ﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ وقال ابن أبى حاتم بسنده عن عائشة أنها قالت : أمروا أن يستغفروا لهم فسبوهم ثم قرأت هذه الآية ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان** ﴾ الآية[4] .

وقال اسماعيل بن عليه بسنده عن عائشة قالت : أمرتم بالإستغفار ولأصحاب ــ محمد صلى الله عليه وسلم ــ فسببتموهم . سمعت نبيكم ــ ﷺ ــ يقول : « لا تذهب هذه الأمة حتى يلعن آخرها

---

(١) سنن أبي داود ــ كتاب الزكاة ــ باب فى الشح ٢ / ٣٢٤ رقم ١٦٩٨

(٢) مسند أحمد ٢ / ٢٥٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٥٠٥

(٣) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٣ طبعة الحلبى

(٤) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٤ طبعة الحلبى

أولها » رواه البغوى[(١)] . وقال أبو داود بسنده عن الزهرى قال : قال عمر ــ رضى الله عنه ــ : ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ قال الزهرى : قال عمر ــ رضى الله عنه ــ : هذه لرسول الله ــ ﷺ ــ خاصة وقرى عرينة وكذا وكذا مما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ــ وللفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ــ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ــ والذين جاوا من بعدهم ، فاستوعبت الآية ا لناس فلم يبق أحد من المسلمين إلا له فيها حق . قال أيوب : إلا بعض من تملكون من أرقائكم[(٢)]

وقال ابن جرير بسنده عن مالك بن أوس بن الحدثان قال : قرأ عمر بن ا لخطاب : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين ــ حتى بلغ ــ عليم حكيم) ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : (واعلموا أنما غنتم من شيء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى) الآية : ثم قال : هذه لهؤلاء . ثم قرأ : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى ــ حتى بلغ للفقراء ــ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ــ والذين جاءوا من بعدهم) ثم قال : إستوعبت هذه المسلمين عامة وليس أحد إلا له فيها حق ، ثم قال : لئن عشت ليأتين الراعى يسير / حُمَرَةُ نصيبه فيها لم يعرق فيها جبينه .[(٣)]

هكذا المنافقون واليهود

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ

(١) تفسير البغوى ــ سورة الحشر ٤ / ٣٢١
(٢) سنن أبى داود ــ كتاب الخراج والإمارة والفيء ــ باب فى صفايا رسول الله ــ ﷺ ــ من الأموال ٣ / ٣٧٢ رقم ٢٩٦٦
(٣) تفسير الطبرى ٢٨ / ٣٧ طبعة الحلبى

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ
ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

معانى المفردات

نافقوا : أى : أظهروا غير ما أضمروا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، والإخوان الأصدقاء . واحدهم : أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لننصرنكم : أى : لنعاوننكم ، ليولن الأدبار : أى : ليفُرن هاربين ، أشد رهبة فى صدورهم من الله : أى : إنهم يخافونكم فى صدورهم أشد من خوفهم لله ، لا يفقهون : أى : لا يعلمون عظمته تعالى حتى يخشوه حق خشيته ، جميعاً : أى : مجتمعين ، محصنة : أى : بالدروب والخنادق وغيرها ، جُدُر : أى : حيطان ، واحدها جدار ، بأسهم : أى : جربهم ، وشتى : أى : متفرقة ، واحدها شتيت ، وبال أمرهم : سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلأ وبيل : أى : وخيم سيىء العاقبة .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث لبنى النضير من الاستسلام خوفاً ورهبة ، لما قذفه فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفىء ، أردفه ذكر ما حصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أبىّ بن سلول ورفقته لأولئك ا ليهود ، وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ومحاربتهم رسول الله ـ ﷺ ـ بما قصّه الله علينا وفصله أتم تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ، وإنا لنشاهد كل يوم أن الناس يضل بعضهم بعضاً ويغوونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون لهم مخلصاً مما وقعوا فيه .

أخرج ابن اسحاق وابن المنذر وأبو نُعيم عن ابن عباس : أنها نزلت فى رهط من بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبىّ بن سلول ، ووديعة بن مالك ، وسويد وداعس بعثوا إلى بنى النضير بما قصه الله علينا فى كتابه .

أضواء كاشفة

انظر ـ يا من يتأتى منه النظر ـ متعجباً إلى الذين نافقوا فى إيمانهم وبعثوا إلى بنى النضير بما تضمنته الجمل التى حكيت فى القرآن ـ يقول هؤلاء المنافقون لإخوانهم الذين كفروا من اليهود ، وهم بنو النضير ، وكانوا إخوانهم فى الدين والكفر والصداقة يقولون : والله لئن أخرجتم من دياركم كما يطلب

محمد وصحبه منكم لنخرجن معكم ، ولا نطيع فى شأنكم أحداً يمنعنا من الخروج وإن طال الزمن ، ووالله لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولنعاوننكم على عدوكم ، ولو كانوا هم المسلمين . والله يشهد إن المنافقين لكاذبون فى مواعيدهم وعهودهم المؤكدة بالإيمان ، والله لئن أخرج اليهود لا يخرجون معهم لأنهم منافقون ، ووالله لئن قوتل اليهود أى بنو النضير لا ينصرهم المنافقون أبداً ، وهذا وعد إخبار بالغيب وقد تحقق ذلك كله ، ولئن نصروهم فرضاً وتقديراً ليولن الأدبار ويمعنون فى الفرار ، ولا يلوون على شىء فإنهم المنافقون وكفى .

لأنتم أيها المسلمون أشد رهبة فى صدورهم من الله - عز وجل - ذلك بسبب أنهم قوم لايفقهون ولايعرفون عظمة الله فيخشونه حق خشيته .

لا يقاتلونكم أى اليهود والمنافقون جميعاً إلا فى قرى محصنة بالتحصينات التى عرفوها والتى ستعرف فى المستقبل ، أو من وراء جدار ، نعم رأيناهم فى حروب فلسطين لا يقاتلون الناس إلا كذلك ، فإن أفئدتهم هواء ، وقلوبهم مليئة بالجبن والخور والضعف وحب الدنيا وكراهية الموت والخوف الموروث من المسلمين ، وهم إن أبدوا شجاعة فشجاعة ظاهرية لا تلبث أن تتماع ، ولقد صدق الله فى وصفهم هذا الوصف الدقيق « بأسهم بينهم شديد » فهم كما يقول الشاعر :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طالب الطعن وحده والنزالا

وما أروع قول الله : « بينهم » أما إذا كان البأس والحرب بينهم وبين غيرهم كانوا أجبن من الجبن تحسبهم جميعاً مجتمعين ، والواقع أن قلوبهم واتجاههم شتى .

الله يقول ذلك عن اليهود ، وهو أصدق القائلين ، بقى من يقاتلهم هل هو مثلهم أو أشد ؟ أم أصبح المسلمون تتوزعهم الفرق والخلافات وأصبحوا يجرون وراء أمريكا وانجلترا ، وتركوا دينهم وقرآنهم وراءهم ظهريا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

أيها المسلمون تشجعوا واتحدوا ، ولا يهمنكم أمر تلك الشرزمة من العصابات اليهودية مهما ساعدتها أمريكا وانجلترا وروسيا فالله يقول : تحسبهم جميعاً ، وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون . مثل اليهود من بنى النضير كمثل الذين من قبلهم حيث ذاقوا وبال أمرهم ، وعاقبة كفرهم قريباً ، فلم تتأخر عقوبتهم إلى يوم القيامة ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، وقد كان ذلك مع المشركين يوم بدر ، ومع بنى قريظة قبل بنى النضير . ومثل المنافقين الذين وعدوا بنى النضير بالمساعدة ثم خانوهم ، كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، وأغراه على الكفر ، فلما كفر بالله وعصى رسله ، ووقع فى عاقبة كفره تبرأ الشيطان منه ولم يقف معه وقال : كذباً ورياء إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين ، فكان عاقبتهما — من وسوس بالكفر ومن كفر — أنهما فى النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين مطلقاً .

التفسير

يخبر تعالى عن المنافقين كعبد الله بن أبَىّ وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بنى النضير يعدونهم النصر من أنفسهم فقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم** ﴾ قال الله تعالى : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ أى : كاذبون فيما وعدوهم به إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذى قالوه ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولئن قوتلوا لا ينصرونهم** ﴾ أى : لا يقاتلون معهم ﴿ **ولئن نصروهم** ﴾ أى : قاتلوا معهم ﴿ **ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

ثم قال تعالى : ﴿ **لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر** ﴾ يعنى أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الإسلام بالمبارزة والمقابلة بل إما فى حصون أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ثم قال تعالى : ﴿ **بأسهم بينهم شديد** ﴾ أى : عداوتهم فيما بينهم شديدة كما قال تعالى : ﴿ **ويذيق بعضكم بأس بعض** ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ **تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى** ﴾ أى : تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية الاختلاف قال إبراهيم النخعى : يعنى أهل الكتاب والمنافقين ﴿ **ذلك بأنهم قوم لا يعقلون** ﴾

ثم قال تعالى : ﴿ **كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم** ﴾ قال مجاهد والسدى ومقاتل بن حيان : يعنى كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر . وقال ابن عباس : كمثل الذين من قبلهم يعنى يهود بنى قينقاع وكذا قال قتادة ومحمد بن إسحاق وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بنى قينقاع كان رسول الله ــ ﷺ ــ قد أجلاهم قبل هذا .

وقوله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال الإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك** ﴾ يعنى مثل هؤلاء اليهود فى اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين ، وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حققت الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة مثالهم فى هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان والعياذ بالله ــ الكفر فإذا دخل فيما سوله له تبرأ منه وتنصل وقال : ﴿ **إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾ .

وقد ذكر بعضهم ههنا قصة لبعض عباد بنى إسرائيل هى كالمثال لهذا المثل لا أنها المرادة وحدها بالمثل بل هى منه مع غيرها من الوقائع الشاكلة لها ، فقال ابن جرير بسنده عن أبى اسحاق قال : سمعت عبد الله بن نهيك قال سمعت علياً ــ رضى الله عنه يقول : إن راهباً تعبد ستين سنة وإن الشيطان أراده فأعياه فعمد إلى إمرأة فأجنها ولها إخوة فقال لإخوتها : عليكم بهذا القس فيداويها قال : فجاءوا به إليه فداواها وكانت عنده فبينما هو يوماً عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت فعمد إليها فقتلها فجاء

إخوتها ، فقال الشيطان للراهب : أنا صاحبك إنك أعييتنى أنا صنعت هذا بك فأطعنى أنجك مما صنعت بك فاسجد لى سجدة فسجد له ، قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين فذلك قوله : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾[1]

وقال ابن جرير بسنده عن عبد الله بن مسعود فى هذه الآية : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين** ﴾ قال : كانت امرأة ترعى الغنم وكان لها أربعة إخوة وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب قال : فنزل الراهب ففجر بها فحملت فأتاه الشيطان فقال له اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل مصدق يسمع قولك فقتلها ثم دفنها قال : فأتى الشيطان إخوتها فى المنام فقال لهم : إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم فلما أحبلها قتلها ثم دفنها فى مكان كذا وكذا فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدرى أقصها عليكم أم أترك ؟ قالوا لا بل قصها علينا ، قال فقصها فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك ، فقال الآخر وأنا والله لقد رأيت ذلك ، قالوا فوالله ما هذا إلا لشىء قال فانطلقوا فاستعدوا ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه ثم انطلقوا به فلقيه الشيطان فقال : إنى أنا الذى أوقعتك فى هذا ولن ينجيك منه غيرى فاسجد لى سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه . قال فسجد له ، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل[2] . وكذا روى عن ابن عباس وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك .

واشتهر عند كثير من الناس أن هذا العابد هو برصيص فالله أعلم . وهذا القصة مخالفة لقصة جريج العابد ، فإن جريجاً اتهمته / امرأة بغى بنفسها وادعت أن حملها منه ورفعت أمرها إلى ولى الأمر فأمر به فأنزل من صومعته وخربت صومعته وهو يقول : مالكم مالكم . قالوا : ياعدو الله فعلت بهذه المرأة كذا وكذا ، فقال جريج اصبروا ثم أخذ ابنها وهو صغير جداً ثم قال : ياغلام من أبوك . قال : أبى الراعى وكانت قد أمكنته من نفسها فحملت منه . فلما رأى بنو اسرائيل ذلك عظموه كلهم تعظيماً بليغاً وقالوا نعيد صومعتك من ذهب ، قال : لا بل أعيدوها من طين كما كانت .

وقوله تعالى : ﴿ **فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها** ﴾ أى : فكان عاقبة الأمر بالكفر والفاعل له ومصيرهما إلى نار جهنم خالدين فيها ﴿ **وذلك جزاء الظالمين** ﴾ أى : جزاء كل ظالم .

(١) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٩ طبعة الحلبى
(٢) تفسير الطبرى ٢٨ / ٤٩ طبعة الحلبى

موجبات التقوى

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾
لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ
عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ
إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

معانى المفردات

(لغدٍ) : المراد به يوم القيامة أطلق عليه لقربه وتحقق وقوعه كالغد . (الملك) : المالك المتصرف فى خلقه وملكه تصرفا تاما . (القدوس) : البليغ فى البعد عن النقص أو الكامل فى ذاته وصفاته وأفعاله (السلام) : ذو السلامة من كل نقص وعيب . (المؤمن) : المصدق لنفسه ورسله فيما بلغوه عنه بالقول أو بخلق المعجزات على أيديهم أو هو واهبا لأمن لعباده . (المهيمن) : الرقيب الحافظ لكل شيء مأخوذ من قولهم : أمن الراعى الذئب على غنم إذا حفظهم حفظاً كاملاً من كل سوء . (العزيز) : الغالب من عز إذا غلب ، أو هو الذى لا مثل له من قولهم هذا شيء عزيز أو نادر المثال (الجبار) : الذى جبر خلقه على ما أراد (المتكبر) : البليغ الكبرياء والعظمة . (الخالق) : المقدر لخلقه على حسب ما تقضيه حكمته . (البارىء) : الموجد لخلقه برئياً من التفاوت المخل به . (المصور) : ا لموجد لصور الأشياء وكيفياتها . (الاسماء) : الأسماء الدالة على محاسن المعانى . ما مضى كان فى الكلام على اليهود والمنافقين ، وبيان نهايتهم فى الدنيا والآخرة . ولما أتم هذا شرع فى وعظ المسلمين وتبنييهم إلى يوم القيامة وما فيه وأنه لا يستوى العاصى والمطيع ولفت نظرهم إلى القرآن الكريم وما فيه ثم ذكر بعض صفات الحق ـــ تبارك وتعالى ـــ التى تغرس فى النفوس الإيمان الصحيح والعقيدة الراسخة وكان هذا ختاماً للسورة ما أجمله !

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر المضلين من المنافقين ، وبين أن ما يقولون غير ما يبطنون وأن مثلهم كمثل الشيطان فى الإغواء والإضلال ، ثم أعقبه بذكر الضالين من بنى النضير وكيف خدعوا بتلك الوعود الخلابة التى كانت عليهم وبالاً ونكالاً وكان فيها سوء حالهم فى دنياهم ودينهم - شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى ، وأن يعملوا فى دنياهم ما ينفعهم فى أخراهم حتى ينالوا الثواب العظيم والنعيم المقيم وألا ينسوا حقوق الله فيجعل الله الذين على قلوبهم ، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم .

وبعد أن ذكر فرق المضلين من المنافقين ، والضالين من اليهود وغيرهم وأمر عباده المؤمنين بالتقوى إستعدادا ليوم القيامة — ذكر هنا أن لهم مرشدا عظيما وإماما هاديا هو القرآن الذى يجب أن تخشع لهيبته القلوب وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة لما فيه من وعيد وبشارة وإنذار وحكم وأحكام فلو أنا الهمنا الجبل عقلا وفهمه وتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله — عز وجل — فكيف بكم أيها البشر لا تلين قلوبكم ، ولا تخشع وتتصدع من خشيته ؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه .

وبعد أن وصف القرآن بالعظيم أتبعه بوصف عظمة المنزل للقرآن ذى الأسماء الحسنى الذى يخضع له ما فى السموات والأرض وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

أضواء كاشفة

قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أى حيثما كنتم وفى أى عمل عملتم ولتنظر نفس واحدة أى شيء قدمته من الأعمال ليوم القيامة ولتحاسب كل نفس نفسها عما عملت ، قبل أن تحاسب هى عليه وفى هذا حث عظيم على النظر فيما ينفع لغد وبيان أن النظر فيه قليل واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون وسيجازيكم عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وإياكم أن تكونوا كالذين نسوا حقوق الله ، وما قدروا الله حق قدره ولم يراعوا الواجب عليهم نحو الذات الأقدس — جل شأنه — لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم الله بسبب ذلك أنفسهم حتى لم يعملوا لخيرها ولم يحصلوا ما يخلصها يوم القيامة أولئك الذين **نسوا الله** هم الفاسقون الكاملون فى الفسق والفجور فإياكم أن تكونوا مثلهم واعلموا أنه لا يستوى أصحاب النار الذين عملوا لها حيث خالفوا أمر الله فى كل شيء . وأصحاب الجنة الذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة ؛ أصحاب الجنة هم الفائزون وحدهم . وفى هذا تنبيه وأى تنبيه للناس وإيذاناً لهم بأنهم لفرط فضلهم وقلة تفكيرهم . وفى الآخرة وأحوالها كأنهم لا يعرفون أن هناك فرقاً بين أصحاب الجنة وأصحاب النار وهذا كما تقول لمن يسىء إلى أخيه : هذا أخوك .

يأيها الذين آمنوا : ألم تعلموا أن معكم حبل الله المتين وكلامه الكريم ، وقرآنه المجيد فكيف لا تتعظون به ؟ وكيف لا تملأ قلوبكم خشية عند سماع كلامه ؟ مع العلم أنه لو أنزل هذا القرآن على

جبل وكان له عقل يميز مع أن الجبل علم فى القساوة لرأيته خاشعاً متشققاً من خشية الله وهذا تمثيل وتخيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر . وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون .

واعلم أن الذى أنزل القرآن وأمر بالتقوى هو الله جل جلاله واجب الوجود أزلا وأبداً الحاضر الذى لا يزول المعبود فلا أحد يستحق العبادة غيره ولا معبود بحق سواه هو الرحمن الرحيم بخلقه فى الدنيا والآخرة « ورحمتى وسعت كل شىء »[1] هو الله الذى لا إله إلا هو صاحب الملك والملكوت بيده الأمر « ألا له الخلق والأمر »[2] يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو كل شىء قدير هو الملك القدوس المتنزه عن كل نقص وعيب ، الكامل فى كل شىء ذو السلامة من كل ما يشينه ذاتا وصفاتا وأفعالاً وهو المؤمن المصدق لنفسه ولرسله بما أنزل من كتاب وما خلق من معجزات ، سبحانه وتعالى وهب الأمن لعباده فى الدنيا والآخرة وهو المهيمن والرقيب على خلقه وملكه أو هو الذى أمن على خلقه وملكه من كل شىء لإحاطة علمه وكمال قدرته وهو العزيز الجبار الذى جبر خلقه على ما أراد ، لا راد لأمره ولا معقب لحكمه وهو المتكبر الذى تكبر بربوبيته فلا شىء مثله والكبرياء فى صفات الله مدح وفى صفات المخلوقات ذم وفى الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله – ﷺ – قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : ﴿ **الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى واحدة منهما قصمته ثم قذفته فى النار** ﴾[3] .

سبحانه وتعالى عما يشركون ! ! هو الله الخالق المقدر لكل شىء البارىء لهذا الكون والموحد له خالياً من تفاوت يخل به وهو الذى أوجد صوره وكيفياته على حسب حكمته وإرادته .

لله سبحانه الأسماء الحسنى الدالة على محاسن المعانى وفضائلها وأشرافها . يسبح له لأجل هذا كله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم الجامع للكمال كله .

روى عن ابن عباس : اسم الله الأعظم فى ست آيات من آخر سورة الحشر وفى رواية عن البراء عن على – رضى الله عنهما – أنه قال : يابراء إذا أردت أن تدعو الله باسمه الأعظم فاقرأ من أول سورة الحديد عشر آيات . وآخر الحشر ثم قل : يا من هو كذلك وليس شىء هكذا غيره أسألك أن تفعل لى كذ وكذا . والعبرة فى هذا كله بالإخلاص وصفاء الروح والقرآن كله وخاصة أمثال هذه الآيات مما يصفى الروح وينقيها ويجعل دعاءها مقبولاً .. نفعنا الله بالقرآن آمين .

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٢٦

(٢) سورة الأعراف الآية : ٥٤

(٣) سنن أبى داود – كتاب اللباس – باب ما جاء فى الكبر ٤ / ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ وسنن ابن ماجه – كتاب الزهد – باب البراءة من الكبر والتواضع ٤ /١٣٩٧ رقم ١٤٧٤ ومسند أحمد ٣٧٦/٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢

التفسير

﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون . لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

قال الإمام أحمد بسنده عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فى صدر النهار قال : فجاءه قوم حفاة عراة مجتابى الثمار أو العباء متقلدى السيوف عامتهم من مضر بل كلهم من مضر فتغير وجه رسول الله ـ ﷺ ـ لما رأى بهم من الفاقة قال فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام الصلاة فصلى ثم خطب فقال « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ـ إلى آخر الآية وقرأ الآية التى فى الحشر ـ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ـ تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره من صاع تمره ـ حتى قال ـ ولو بشق تمرة » قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت رسول الله - ﷺ - : يتهلل وجهه كأنه مذهبه فقال رسول الله - ﷺ - : « من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شىء ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء »[1] فقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أمر بتقواه وهو يشمل فعل ما به أمر وترك ما عنه زجر .

وقوله تعالى : ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾ أى : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم (واتقوا الله) تأكيد ثان (إن ا لله خبير بما تعملون) أى : اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

المراقبة والمحاسبة

فى كتابه (إحياء علوم الدين) كتب حجة الإسلام أبو حامد الغزلى ـ رحمه الله تعالى ـ تحت هذا العنوان فقال :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما أجترحت المطلع على ضمائر القلوب إذا هجست الحسيب على خواطر عباده إذا إختلجت الذى لا يغزب عن علمه مثقال ذره فى

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٣٥٨

صحيح مسلم ـ كتاب الزكاة ـ باب الحث على الصدقة ٢ / ٧٠٥ رقم ٦٩

السموات والأرض تحركت أو سكنت المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت . المتفضل لقبول طاعات العباد وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة فى الدنيا لشقيت فى صعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراجعة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغرقت رحمته الخلائق فى الدنيا والآخرة وغمرت فبنفحات فضله اتسعت القلوب للإيمان وانشرحت وبيمن توفيقه تقيدت الجوارح بالعبادات وتأدبت وبحسن هدايته انحلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكايد الشيطان واندفعت وبلطف عنايته تترجح كفة الحسنات إذا ثقلت وبتيسيره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فمنه العطاء والجزاء والإبعاد والإرثاء والإسعاد والإشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

أما بعد . فقد قال الله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾(١) — وقال تعالى : ﴿ **ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً** ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ **يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** ﴾(٣) وقال تعالى : — ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خيراً محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه** ﴾(٦) وقال تعالى : — ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه** ﴾(٧) فعرف أرباب البصائر ومن جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد وأنهم سيناقشون فى الحساب ويطالبون بمثاقيل الذرات والخطرات واللحظات وتحققوا أنه **لاينجيهم** من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس فى الأنفاس والحركات ومحاسبتها فى الخطرات واللحظات

(١) سورة الأنبياء الآية : ٤٧
(٢) سورة الكهف الآية : ٤٩
(٣) سورة المجادلة الآية : ٦
(٤) سورة الزلزلة الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨
(٥) سورة البقرة الآية : ٢٨١
(٦) سورة آل عمران الآية : ٣٠
(٧) سورة البقرة الآية : ٢٣٥

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفَّ فى القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن متقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه راحت حسراته وطالت فى عرضات يوم القيامة وقفاته وقادته إلى الخزى والمقت سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾[1] فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاتبة فكانت لهم فى المرابطة ست مقامات ولابد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن لك حساب فبعد مشارطة ومراقبة ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

المقام الأول من المرابطة المشارطة

أعلم أن مطلب المتعاملين فى التجارات المشتركين فى البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر فى طريق الآخرة وإنما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس فى هذه التجارة إذ يستعملها ويستنجرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذى يتجر فى ماله وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه فى الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم **ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغى أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها .**

فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب فى هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه فى أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالاضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التقدم والانقضاء ، ولا خير فى خير لا يدوم . بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم ، لأن الشر الذى لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر ، والخير الذى لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير ولذلك قيل : —

أشد الغم عندى فى سرور تيقن عنه صاحبه انتقالاً

فحتم على كل ذى حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها فى حركاتها ، وسكناتها ، وخطراتها ، وخطواتها ، فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ،

---

(١) سورة ال عمران الآية : ٢٠٠

يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد . فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو معروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح . ينبغى أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركته فيقول للنفس : ما لى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه ، وأنسأ فى أجلى ، وأنعم على به ، ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يومًا واحداً حتى أعمل فيه صالحاً . فاحسبى أنك قد توفيت ثم قد رددت ، فإياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها ، واعلمى يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد فى الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة ، فيناله الفرح والسرور والاستبشار لمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار ، ما لو وزع على أهل النار لأدهشتهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار / ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة ، يفوح نتنها ، ويغشاه ظلامها ، وهى الساعة التى عصى الله فيها ، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لتنغص عليهم نعيمها ، ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه ، وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا ، فيتحسر على خلوها ، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير والملك الكبير ، إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته ، وناهيك به حسرة وغبناً . وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره ، فيقول لنفسه : اجتهدى اليوم فى أن تعمرى خزانتك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ، ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة ، فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك ، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك ، وإن دخلت الجنة ، فألم الغبن وحسرته لا يطاق وإن كان دون ألم النار[1] .

وقد قال بعضهم هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين ، أشار به إلى الغبن والحسرة : وقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾[2] فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصيته فى أعضائه السبعة : وهى العين ، والأذن ، واللسان ، والبطن ، والفرج ، واليد ، والرجل ، وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة ، وبها تتم أعمال هذه التجارة . وإن لجهنم سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم . وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله ــ تعالى ــ بهذه الأعضاء فيوحيها بحفظها عن معاصيها ، أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم ، أو إلى عورة مسلم ، أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار ، بل عن كل فضول مستغنى عنه ، فإن الله ــ تعالى ــ يسأل عبده عن فضول النظر ، كما يسأله عن فضول الكلام ، ثم إذا صرفها عن هذا لم تقنع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها

(١) انظر الحديث : ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة ... فى كتاب إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٤١ . كتاب المحاسبة والمراقبة ط / الشعب . وقال محققه : الحديث بطوله لم أجد له أصلا .

(٢) سورة التغابن الآية ٩

وربحها ، وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للإقتداء ، والنظر فى كتاب الله وسنة رسوله ، ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة . وهكذا ينبغى أن يفصل الأمر عليها فى عضو عضو ، لا سيما اللسان ، والبطن ، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ، ولا مؤنة عليه فى الحركة ، وجنايته عظيمة بالغيبة ، والكذب ، والنميمة ، وتزكية النفس وقذفه الخلق والأطعمة ، واللعن ، والدعاء على الاعداء ، والمماراة فى الكلام وغير ذلك ، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم ، وإرشاد عباد الله إلى طريق الله ، واصلاح ذات البين ، وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا فى الذكر ، فنطق المؤمن ذكر ، ونظره عبرة ، وصمته فكرة ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[1] .

وأما البطن فيكلفه ترك الشره ، وتقليل الأكل من الحلال ، واجتناب الشبهات ويمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة . ويشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها ، وهكذا يشرط عليها فى جميع الأعضاء ، واستقصاء ذلك يطول ، ولا تخفى معاصى الأعضاء وطاعاتها ، ثم يستأنف وصيتها فى وظائف الطاعات التى تكرر عليه فى اليوم والليلة ، ثم فى النوافل التى يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ، ويرتب لها تفصيلها وكيفيتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها ، وهذه شروط يفتقر إليها فى كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه فى الوفاء بجميعها استغنى عن المشاركة فيها ، وإن أطاع فى بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشاركة فيما بقى ، ولكن لا يخلو كل يوم عن فهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد ، ولله عليه فى ذلك حق ، ويكثر هذا على من يشتغل بشىء من أعمال الدنيا ، من ولاية أو تجارة أو تدريس ، إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها ، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق فى مجاريها ويحذرها مغبة الإهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[2] .

فهذا وما يجرى مجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهى محاسبة قبل العمل . والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله للتحذير قال الله تعالى : ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه** ﴾[3] وهذا للمستقبل وكل نظر فى كثرة ومقدار لمعرفة ، زيادة ونقصان ، فانه يسمى محاسبة . فالنظر فيما بين يدى العبد فى نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا**

---

(١) سورة ق الآية ١٨
(٢) سورة الذاريات الآية ٥٥
(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٥

ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ﴾[1] ، وقال ـــ تعالى ـــ : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾[2] ، وقال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ﴾[3] ذكر ذلك تحذيراً وتنبيهاً للإحتراز منه فى المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه ـــ عليه السلام ـــ قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه : « إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فامضه وإن كان غياً فانته عنه »[4] .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة فى القلب أكثر من مكث خفة الشهوة .

وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة .

وروى شداد بن أوس عنه ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ أنه قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله »[5] . (دان نفسه : أى حاسبها ويوم الدين : يوم الحساب ، وقوله : ـــ ائنا لمدينون ـــ أى لمحاسبون) .

وقال عمر ـــ رضى الله عنه ـــ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ، وتهيأوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبى موسى الأشعرى : حاسب نفسك فى الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب : قبل أن تجدها فى كتاب الله قال : ويل لديان الأرض من ديان السماء فعلاه بالدرة . وقال إلا من حاسب نفسه فقال كعب : يا أمير المؤمنين : إنها إلى جنبها فى التوراة ما بينهما حرف إلا من حاسب نفسه . وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولاً وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها .

(المرابطة الثانية : المراقبة) إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض فى الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة ، فإنها إن تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها : أما الفضيلة : فقد سأل جبريل ـــ عليه السلام ـــ عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه » . وقال ـــ عليه السلام ـــ : « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[6] . وقد قال ـــ

---

(١) سورة النساء الآية ٩٤

(٢) سورة الحجرات الآية ٦

(٣) سورة ق الآية ١٦

(٤) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٣

(٥) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٥٥٠ كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٥٩ وقال : هذا حديث حسن .
ـــ انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٤٢٣ . كتاب الزهد . باب ذكر الموت والاستعداد له . رقم ٤٢٦٠ .

(٦) الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٣٦ . كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان رقم ١ / ٨ .
ـــ انظر سنن الترمذى ج ٥ ص ٨ ، ٩ كتاب الإيمان رقم ٢٦١٠ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

تعالى ــ : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[١] وقال ــ تعالى ــ : ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾[٢]. وقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ إن الله كان عليكم رقيبًا ﴾[٣]. وقال ــ تعالى ــ : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾[٤]

وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله ــ تعالى ــ ، فسأله عن تفسيره فقال : كن أبداً كأنك ترى الله ــ عز وجل ــ .

وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدى رقيبًا علىّ فلا أبالى بغيره وقال أبو عثمان المغربى : أفضل ما يلزم الإنسان نفسه فى هذه الطريقة المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم .

وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات : وقال الجريرى : أمرنا هذا مبنى على أصلين : أن تلزم نفسك المراقبة لله ــ عز وجل ــ ويكون العلم على ظاهرك قائماً .

وقال أبو عثمان : قال لى أبو حفص : إذا جلست للناس فكن واعظًا لنفسك وقلبك ، ولا يغرنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك .

وحكى أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدمه ، فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدة طيور ، وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال : ليذبح كل واحد منكم طائره فى موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ورجع الشاب والطائر حى فى يده فقال : مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجد موضعاً لا يرانى فيه أحد إذ الله مطلع علىّ فى كل مكان فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا حق لك أن تكرم .

وحكى أن زليخا لما خلت بيوسف ــ عليه السلام ــ قامت فغطت وجه صنم كان لها . فقال يوسف : مالك أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيى من مراقبة الملك الجبار .

وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها ، فقالت له : ألا تستحيى ؟ فقال : ممن أستحيى ؟ وما يرانا إلا الكواكب . قالت : فأين مكوكبها ؟ .

وقال رجل للجنيد : بم أستعين على غض البصر ؟ فقال : بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه .

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣

(٢) سورة العلق الآية ١٤

(٣) سورة النساء الآية ١

(٤) سورة المعارج الآيتان ٣٢ ، ٣٤

وقال الجنيد : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له : ومن يسكنها ؟ قال : يقول الله - عز وجل - : **إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي وذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انثنت** أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . وسئل المحاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب — تعالى — . وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة .

ويروى أن الله — تعالى — قال لملائكته : أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن .

وقال محمد بن علي الترمذي : إجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

وقال سهل : لم يتزين القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان .

وسئل بعضهم عن قوله — تعالى — : ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه** ﴾[1] فقال : معناه : ذلك لمن راقب ربه — عز وجل — وحاسب نفسه وتزود لمعاده .

وسئل ذو النون : بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس : إستقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد وليس معه سهو ، ومراقبة الله — تعالى — في السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب . وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل ... خلوت ولكن قل عليّ رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب ... وان غداً للناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن علي : عظني فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خالياً ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرت .

وقال سفيان الثوري : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية ، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء ، وعليك بالحذر ممن يملك العقوبة .

وقال فرقد السنجي : إن المنافق ينظر ، فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله — تعالى — .

---

(١) سورة البينة الآية ٨

وقال عبد الله بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ إلى مكة ، فعرسنا فى بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له : يا راعى بعنى شاة من هذه الغنم ، فقال : إنى مملوك . فقال : قل لسيدك أكلها الذئب . قال : فأين الله ؟ قال فبكى عمر ـــ رضى الله عنه ـــ ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال : أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تعتقك فى الآخرة .

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

إعلم أن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب ، وانصراف الهم إليه ، فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلاناً ويراعى جانبه ، ويعنى بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً فى الجوارح وفى القلب ، أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب ، واشتغاله به والتفاته إليه ، وملاحظته إياه وانصرافه إليه ، وأما المعرفة التى تثمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك ، فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً ، أعنى أنها خلت على الشك ، ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لا شك فيه لا يغلب على القلب كالعلم بالقلب فإذا استولت على القلب إستجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين .

الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين ، وهى مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للإلتفات إلى الغير أصلاً ، وهذه المراقبة لا نطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب .

أما الجوارح فإنها تتعطل عن التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سنن السداد ، بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقاً بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والإستقامة من غير تكلف ، وهذا هو الذى صار همه هماً واحداً فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن عاتبه : إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظير هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض ، حتى إن خدم الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة إستغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فربما يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له .

وقد قيل لعبد الواحد بن زيد : هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخلق ؟ قال :

ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام ، فقال له عبد الواحد ابن زيد: من أين جئت يا عتبة ؟ فقال : من موضع كذا وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت فى الطريق ؟ فقال : ما رأيت أحداً .

ويروى عن يحيى بن زكريا ــ عليهما السلام ــ أنه مر بامرأة فدفعها فسقطت على وجهها فقيل له : لم فعلت هذا ؟ فقال : ما ظننتها إلا جداراً .

وحكى عن بعضهم أنه قال : مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بعيداًمنهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال : ذكر الله ــ تعالى ــ أشهى . فقلت : أنت وحدك ؟ فقال : معى ربى وملكاى . فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له . فقلت : أين الطريق ؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى . وقال : أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله ــ تعالى ــ لا يتكلم إلا منه ولا يسمع إلا فيه ، فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه ، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه .

ودخل الشبلى على أبى الحسن النورى وهو معتكف فوجده ساكناً حسن الإجتماع لا يتحرك من ظاهره شيء فقال له : من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال : من سنور كانت لنا . فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شعرة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى علىّ الروذبارى ، فقال له عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد : إن فى صور شاباً وكهلاً قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما نظرة لعلك تستفيد منهما ، فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقة وليس على كتفى شيء ، فدخلت المسجد فإذا بشخصين قاعدين مستقبلى القبلة ، فسلمت عليهما فما أجابانى ، فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدتكما بالله إلا رددتما علىّ السلام ، فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إلىّ وقال : يا ابن خفيف : الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تتفرغ إلى لقائنا . قال : فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صلينا الظهر والعصر فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عظنى فرفع رأسه إلىّ وقال : يا ابن خفيف : نحن أصحاب المصائب ليس لنا لسان العظة فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى : أحلفهما أن يعظانى لعلى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه وقال لى : يا ابن خفيف : عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته ، وتقع هيبته على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا . فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك .

الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين إطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم . ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الإعتدال متسعة للتلفت

إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة . نعم ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحى منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن إجلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء منك . وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه ، فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله — تعالى — ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران : نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل ، فلينظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان ، فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق ، فإن كان لله — تعالى — أمضاه ، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعرّفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته ، وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإن فى الخبر : « إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول : لِمَ ، والثانى : كيف ، والثالث : لمن » بمعنى لم : أى لم فعلت هذا ؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك فإن سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له : كيف فعلت هذا ؟ فإن لله فى كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم ، فيقال له : كيف فعلت ؟ أبعلم محقق أم بجهل وظن فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث : وهو المطالبة بالإخلاص فيقال له : لمن عملت ؟ ألوجه الله خالصاً وفاء بقولك لا إله إلا الله ، فيكون أجرك على الله أو لمراءات خلق مثلك فخذ أجرك منه . أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك ، وحبط عملك ، وخاب سعيك . وإن عملت لغيرى فقد استوجبت مقتى وعقابى إذ كنت عبداً لى تأكل رزقى وتترفه بنعمتى ثم تعمل لغيرى ، أما سمعتنى أقول : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** ﴾[1] ، ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه** ﴾[2] . ويحك أما سمعتنى أقول : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾[3] .

فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات ، طالب نفسه قبل أن تطالب ، وأعد للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً فلا يبدىء ولا يعيد إلا بعد التثبت ولا يحرك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٩١
(٢) سورة العنكبوت الآية ١٧
(٣) سورة الزمر الآية ٣

وقد قال النبى — ﷺ — لمعاذ : « إن الرجل ليُسأل عن كحل عينيه وعن فته الطين بإصبعيه ، وعن لمسه ثوب أخيه »[١] .

وقال الحسن : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن كان لله أمضاه .

وقال الحسن : رحم الله — تعالى — عبداً وقف عند همه فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر .

وقال فى حديث سعد حين أوصاه سلمان : « اتق الله عند همك إذا هممت » . وقال محمد بن علىّ : إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كحاطب ليل فهذا هو النظر الأول فى هذه المراقبة ولا يخلص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكايد الشيطان ، فمتى لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ، ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه فى نيته وهمته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم فى هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله — تعالى — وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر على التعلم فيه يعذر ، هيهات ، بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ، ولهذا كان ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكايد الشيطان ، ومواضع الغرور فيتقى ذلك . والجاهل لا يعرفه فكيف يحترز منه فلا يزال الجاهل فى تعب والشيطان منه فى فرح وشماته ، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة فهو رأس كل شقاوة وأساس كل خسران فحكم الله — تعالى — على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقف عن الهم وعن السعى حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله — تعالى — فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به ، فإن الخطرة الأولى فى الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة ، والرغبة تورث الهم ، والهم يورث جزم القصد ، والقصد يورث الفعل ، والفعل يورث البوار والمقت ، فينبغى أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه ، ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكر فى ذلك بنور العلم ، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضى بنور علماء الدين ، وليفر من العلماء المضلين المقبلين على الدنيا فراره من الشيطان بل أشد ، فقد أوصى الله تعالى إلى داود — عليه السلام — : لا تسأل عنى عالماً أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبتى أولئك قطاع الطريق على عبادى ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشرة والتكالب عليها محجوبة عن نور الله — تعالى — فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضىء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضها ومقيتها ، وهى شهوات الدنيا فلتكن همة المزيد أولاً فى أحكام العلم أو فى طلب عالم معرض عن الدنيا أو ضعيف الرغبة فيها ، إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله —

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٨٨ . وقال العراقى لم أجد له أصلا ، ولكن انظر حلية الأولياء ج ١ ص ٣١ . ترجمة أحمد ابن أبى الحوارى . حديث بلفظ « يا معاذ إن المؤمن لدى الحق أسير ... وفيه » . (إن المؤمن يسأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه) .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات »(١) . جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد فى الشبهات ولذلك قال ـ عليه السلام ـ : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً »(٢) . فما قدر العقل الضعيف الذى سعد الآدمى به حتى يعمد إلى محوه ومحقه بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست فى هذه الأعصار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واشتغلوا بالتوسط فى الخصومات الثائرة فى اتباع الشهوات ، وقالوا : هذا هو الفقه ، وأخرجوا هذا العلم الذى هو فقه الدين عن جملة العلوم ، وتجردوا لفقه الدنيا الذى ما قصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين ، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه . وفى الخبر : « أنتم اليوم فى زمان خيركم فيه المسارع وسيأتى عليكم زمان خيركم فيه المتثبت » .

ولهذا توقف طائفة من الصحابة فى القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وأسامة ، ومحمد بن مسلمة ، وغيرهم . فمن لم يتوقف عند الإشتباه كان متبعاً لهواه معجباً برأيه وكان ممن وصفه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ قال : « فإذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعاً وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك »(٣) . وكل من خاض فى شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴾(٤) . وقوله ـ عليه السلام ـ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »(٥) . وأراد به ظناً بغير دليل كما يستفتى بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ، ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق ـ رضى الله تعالى عنه ـ : اللهم أرنى الحق حقاً وارزقنى اتباعه ، وأرنى الباطل باطلاً وارزقنى اجتنابه ، ولا تجعله متشابهاً علىّ فأتبع الهوى . وقال عيسى ـ عليه السلام ـ : « الأمور ثلاثة : أمر استبان رشده فاتبعه ، وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمراً شكل عليك فكله إلى عالمه »(٦) . وقد كان من دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم إنى أعوذ بك أن أقول فى الدين بغير علم »(٧) . فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٥

(٢) انظر المرجع السابق

(٣) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ .

(٤) سورة الإسراء .

(٥) انظر إحياء علوم الدين ج ٢ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ .

(٦) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ . وقال رواه الطبرانى من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٧) انظر اتحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٦ .

قال ــ تعالى ــ إمتناناً على عبده : ﴿ **وكان فضل الله عليك عظيماً** ﴾[١] وأراد به العلم وقال ــ تعالى ــ : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾[٢] ، وقال تعالى : ﴿ **إن علينا للهدى** ﴾[٣] . وقال : ﴿ **ثم إن علينا بيانه** ﴾[٤] . وقال : ﴿ **وعلى الله قصد السَّبيل** ﴾[٥] . وقال علىّ كرم الله وجهه : الهوى شريك العمى ، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفى الصدق السلامة رب بعيد أقرب من قريب ، وغريب من لم يكن له حبيب ، والصديق من صدق غيبه ، ولا يعدمك من حبيب سوء ظن ، نعم الخلق التكرم ، والحياء سبب إلى كل جميل ، وأوثق العرى التقوى ، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله ــ تعالى ــ ، إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك والرزق رزقان : رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أتاك وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك ، واستدل على ما لم يكن بما كان ، فإنما الأمور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً ، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفا ، وليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وشغلك لآخرتك ، وهمك فيما بعد الموت . وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله : ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فإذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال ــ ﷺ ــ : « ثلاث من كن فيه إستكمل إيمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشىء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرة على الدنيا »[٦] . وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ــ ﷺ ــ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[٧] .

النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك يتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه ويحسن النية فى إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له فى جميع أحواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله ــ تعالى ــ فى جميع ذلك قدر على عبادة الله ــ تعالى ــ فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعداً مثلاً فينبغى أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ــ ﷺ ــ : « خير المجالس ما استقبل به القبلة »[٨] . ولا يجلس متربعاً إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع عليه .

(١) سورة النساء الآية ١١٣

(٢) سورة النحل الآية ٤٣

(٣) سورة الليل الآية ١٢

(٤) سورة القيامة الآية ١٩

(٥) سورة النحل الآية ٩

(٦) انظر اتحاف السادة المتقين . ج ٩ ص ٩٧٨ . وقال الواق فيه سالم المرادى . ضعفه أبو معين والنسائى . ووثقه ابن حيان . انظر الديلمى فى مسند الفردوس . ورقة ١٢٠ / مخطوط .

(٧) الحديث فى سنن الترمذى ج ٤ ص ٤٨٣ كتاب الزهد باب ١١ رقم ٢٣١٧ . وقال : هذا حديث غريب . ــ انظر سنن ابن ماجة ص ٢ ص ١٣١٥ . كتاب الفتن . باب كف اللسان فى الفتنة رقم ٣٩٧٦ .

(٨) انظر كشف الخفاء ج ١ ص ٤٧٤

قال إبراهيم بن أدهم ــ رحمه الله ــ : جلست مرة متربعاً فسمعت هاتفاً يقول : هكذا تجالس الملوك ! فلم أجلس بعد ذلك متربعاً وإن كان ينام ، فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التى ذكرناها فى مواضعها ، فكل ذلك داخل فى المراقبة بل لو كان فى قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون فى طاعة أو فى معصية أو فى مباح الآفات وإن كان فى معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والإشتغال بالتفكر ، وإن كان فى مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم فى النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد فى جملة أحواله عن بلية لا بدله من الصبر عليها ، ونعمة لابد له من الشكر عليها ، وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد فى كل حال من فرض لله ــ تعالى ــ عليه ، إما فعل يلزمه مباشرته أو محظور يلزمه تركه أو ندب حث عليه ليسارع به إلى مغفرة الله ــ تعالى ــ ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ، ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ **ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾(١) . فينبغى أن يتفقد العبد نفسه فى جميع أوقاته فى هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغى أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾(٢) وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب فيها على العبد كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية ، وساعة مستقبلة لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدرى ما يقضى الله فيها ، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه ، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة ، وإن أتته الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها ، بل يكون ابن وقته كأنه فى آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر ــ رضى الله تعالى عنه ــ من قوله ــ عليه السلام ــ : « لا يكون المؤمن ظاعناً إلا فى ثلاث : تزود لمعاد ، أو مرمة لمعاش ، أو لذة فى غير محرم »(٣) وما روى عنه أيضاً فى معناه : (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة ينظر فيها فى صنع الله ــ تعالى ــ ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب) . فإن فى هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغى أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر

---

(١) سورة الطلاق الآية ١

(٢) سورة القصص الآية ٧٧

(٣) انظر تحاف السادة المتقين ج ١٠ ص ١٠٨

انظر حلية الأولياء ج ١ ص ١٦٦ حديث . يا أبا ذر ان للمسجد تحية .

والفكر فإن الطعام الذى يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام :

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والإعتبار ، فينظرون فى عجائب صنعته ، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابه ، وخلق الشهوات الباعثة عليه ، وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه ، وهذا مقام ذوى الألباب .

وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة ، ويلاحظون وجه الإضطرار إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته ، وهذا مقام الزاهدين .

وقوم يرون فى الصنعة الصانع **ويترقون** منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات ، وهو من مقامات العارفين ، وعلامات المحبين ، إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسى الصنعة واشتغل قلبه بالصانع ، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله ــ تعالى ــ فله فى النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب الملكوت وذلك عزيز جداً .

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على مافاتهم منه ، ويفرحون بما حضرهم من جملته ، ويذمون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ، ويذمون فاعله ، فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ــ **ولقدرته ولعلمه** ــ هو الله ــ تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير اذن الله فقد ذم الله ، ولذلك قال النبى ــ ﷺ ــ : « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر »(١) .

المرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة ، فقد قال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾(٢) وهذه اشارة علي المحاسبة لما مضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا .

وفى الخبر : « أنه ــ عليه السلام ــ جاءه رجل فقال : يا رسول الله : أوصنى ، فقال : أمستوص

(١) الحديث فى صحيح مسلم ج ٤ ص ١٧٦٣ كتاب ألفاظ الأدب رقم ٥ / ٢٢٤٦ .
(٢) سورة الحشر الآية ١٨

أنت ؟ فقال نعم ، قال : إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته ، فإن كان رشداً فامضه ، وإن كان غياً فانته عنه »[١] .

وفى الخبر : ويتبغى للعاقل أن يكون له أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه .

وقال ــ تعالى ــ : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيُّهَ المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[٢] . والتوبة نظر فى الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبى ــ ﷺ ــ : « إنى لأستغفر الله ــ تعالى ــ وأتوب إليه فى اليوم مائة مرة »[٣] .

وقال الله ــ تعالى ــ : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[٤] . وعن عمر ــ رضى الله تعالى عنه ــ أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جنه الليل ويقول لنفسه : ماذا عملت اليوم ؟!! وعن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل . وروى عن عائشة ــ رضى الله تعالى عنها ــ أن أبا بكر ــ رضوان الله عليه ــ قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحب إلىّ من عمر ثم قال لها : كيف قلت فأعادته عليه ما قال . فقال : لا أحد أعز علىّ من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبد لها بكلمة غيرها .

« وحديث أبى طلحة حين شغله الطائر فى صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى ندماً ورجاء للعوض مما فاته » .

وفى حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له : يا أبا يوسف قد كان فى بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا ، فقال : أردت أن أجرب نفسى هل تنكره .

وقال الحسن : المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة . ثم فسر المحاسبة فقال : إن المؤمن يفجؤه الشىء يعجبه فيقول : والله إنك لتعجبنى وإنك من حاجتى ، ولكن هيهات ، حيل بينى وبينك ، وهذا حساب قبل العمل . ثم قال : ويفرط منه الشىء فيرجع إلى نفسه فيقول : ماذا أردت بهذا ؟ والله لا أعذر بهذا ، والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله .

وقال أنس بن مالك : سمعت عمر بن الخطاب ــ رضى الله تعالى ــ عنه يوماً ، وقد خرج وخرجت

---

(١) انظر إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٥٧ . كتاب المراقبة والمحاسبة . الرابطة الثالثة . محاسبة النفس بعد العمل . ط / الشعب .
(٢) سورة النور من الآية ٣١
(٣) انظر سنن ابن ماجة ج ٢ ص ١٢٥٤ . كتاب الأدب . باب الاستغفار رقم ٣٨١٥ .
(٤) سورة الأعراف الآية ٢٠١

معه حتى دخل[1] حائطاً ، فسمعته يقول ، وبيني وبينه جدار ، وهو فى الحائط : عمر بن الخطاب أمير المؤمنين : بخ بخ ، والله لتتقين الله أو ليعذبنك .

وقال الحسن فى قوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوّامة** ﴾[2] قال لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتى ؟ ماذا أردت بأكلتى ؟ ماذا أردت بشربتى ؟ والفاجر يمضى قدماً لا يعاتب نفسه . وقال مالك بن دينار ـــ رحمه الله تعالى ـــ : رحم الله عبداً قال لنفسه : ألست صاحبة كذا ؟ ألست صاحبة كذا ؟ ثم ذمها ثم خطمها ، ثم ألزمها كتاب الله ـــ تعالى ـــ فكان له قائداً . وهذا من معاتبة النفس .

وقال ميمون بن مهران : التقى أشد محاسبة لنفسه من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمى : مثلت نفسى فى الجنة آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وأعانق أبكارها . ثم مثلت نفسى فى النار آكل من زقومها ، وأشرب من صديدها ، وأعالج سلاسلها وأغلالها ، فقلت لنفسى : يا نفس أى شىء تريدين ؟ فقالت : أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحاً . قلت : فأنت فى الأمنية فاعملى .

وقال مالك بن دينار : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله امرأ نظر فى مكياله ، رحم الله امرأ نظر فى ميزانه ، فما زال يقول حتى أبكانى .

وحكى صاحب للأحنف بن قيس قال : كنت أصحبه ، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجىء إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ، ثم يقول لنفسه : يا حنيف : ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟ ما حملك على ما صنعت يوم كذا ؟

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

اعلم أن العبد كما يكون له وقت فى أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغى أن يكون له فى آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار فى الدنيا مع الشركاء فى آخر كل سنة ، أو شهر ، أو يوم ، حرصاً منه على الدنيا ، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم فى فواته ، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ! ، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة ، والخذلان ، وقلة التوفيق ، نعوذ بالله من ذلك .

ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر فى رأس المال وفى الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان . فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه فى المستقبل .

---

(١) حائطاً : بستاناً

(٢) سورة القيامة الآية ٢

فكذلك رأس مال العبد فى دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصى . وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولاً ، فإن أداها على وجهها شكر الله ــ تعالى ــ عليه ، ورغبها فى مثلها ، وإن فوتها من أصيلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ، ليستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يفتش فى حساب الدنيا عن الحبة والقيراط ، فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن فى شىء منها ، فينبغى أن يتقى غبينة النفس ومكرها ، فإنها خداعة ملبسة مكارة فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره فى صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره ، بل عن خواطره ، وأفكاره ، وقيامه ، وقعوده ، وأكله ، وشربه ، ونومه ، حتى عن سكوته أنه لم سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس ، وصح عنده قدر أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوباً له ، فيظهر له الباق على نفسه فليثبته عليها ، وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباق الذى على شريكه على قلبه وفى جريدة حسابه .

ثم النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الديون . أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شىء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقى من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء . ثم ينبغى أن يحاسب النفس على جميع العمر يوماً يوماً ، وساعة ساعة ، فى جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة ، كما نقل عن توبة ابن الصمة ، وكان بالرقة ، وكان محاسباً لنفسه ، فحسب يوماً فإذا هو ابن ستين سنة ، فحسب أيامها ، فإذا هى أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم ، فصرخ وقال : يا ويلتى ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف ؟ وفى كل يوم عشرة آلاف ذنب ، ثم خر مغشياً عليه فإذا هو ميت . فسمعوا قائلاً يقول : يا لك ركضة إلى الفردوس الأعلى .

فهكذا ينبغى أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح فى كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجراً فى داره لامتلأت داره فى مدّة يسيرة قريبة من عمره ، ولكنه يتساهل فى حفظ المعاصى والملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

المرابطة الرابعة : فى معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية ، وارتكاب تقصير فى حق الله ــ تعالى ــ فلا ينبغى أن يهملها ، فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصى ، وأنست بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغى أن يعاقبها ، فإن أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغى أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير محرم ينبغى أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه

عن شهواته ، هكذا كانت عادة سالكى طريق الآخرة . فقد روى عن منصور بن ابراهيم أن رجلاً من العباد كلم امرأة ، فلم يزل حتى وضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبست .

وروى أنه كان فى بنى اسرائيل رجل يتعبد فى صومعته ، فمكث كذلك زمناً طويلاً ، فأشرف ذات يوم فإذا هو بإمرأة ، فافتتن بها وهم بها ، فأخرج رجله لينزل إليها ، فأدركه الله بسابقة فقال : ما هذا الذي أريد أن أصنع ؟ فرجعت إليه نفسه وعصمه الله — تعالى — . فندم ، فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال : هيهات هيهات ، رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معى فى صومعتى ! لا يكون والله ذلك أبداً فتركها معلقة فى الصومعة تصيبها الأمطار ، والرياح ، والثلج ، والشمس ، حتى تقطعت فسقطت ، فشكر الله له ذلك ، وأنزل فى بعض كتبه ذكره .

ويحكى عن الجنيد قال : سمعت ابن الكريبى يقول : أصابتنى ليلة جنابة ، فاحتجت أن أغتسل ، وكانت ليلة باردة ، فوجدت فى نفسى تأخراً وتقصيراً ، فحدثتنى نفسى بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء ، أو أدخل الحمام ولا أعنى على نفسى . فقلت : واعجباه ! . أنا أعامل الله فى طول عمرى ، فيجب له علىّ حق ، فلا أجد فى المسارعة ، وأجد الوقوف والتأخر ! . آليت أن لا أغتسل إلا فى مرقعتى هذه ، وآليت أن لا أنزعها ، ولا أعصرها ، ولا أجففها فى الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا فى بعض مغازيهما ، فتكشفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بترت . وقال : إنك للحاظة إلى ما يضرك ، ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش .

ويحكى أن حسان بن أبى سنان مر بغرفة فقال : متى بنيت هذه ؟ ثم أقبل على نفسه فقال : تسألين عما لا يعنيك لأعاقبنك بصوم سنة ، فصامها .

وقال مالك بن ضيغم : جاء رباح القيسى يسأل عن أبى بعد العصر ، فقلنا : إنه نائم . فقال : أنوم هذه الساعة ! هذا وقت نوم ؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له : ألا نوقظه لك ، فجاء الرسول وقال : هو أشغل من أن يفهم عنى شيئاً ، أدركته وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول : أقلت وقت نوم هذه الساعة ؟ أفكان هذا عليك ؟ ينام الرجل متى شاء . وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم ؟ تتكلمين بما لا تعلمين ؟ أما إن لله على عهداً لا أنقضه أبداً لا أوسدك الأرض لنوم حولا إلا لمرض حائل ، أو لعقل زائل ، سوأة لك ، أما تستحين ؟ كم توبخين ؟ وعن غيك لا تنتهين ؟ قال وجعل يبكى وهو لا يشعر بمكانى . فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته .

ويحكى عن تميم الدارى أنه نام ليلة لم يقم فيها يتهجد فقام سنة لم ينم فيها للذى صنع .

وعن طلحة — رضى الله تعالى عنه — قال : « انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرغ فى الرمضاء ، فكان يقول لنفسه : ذوقى ، ونار جهنم أشد حراً ، أجيفة بالليل بطالة بالنهار ، فبينما هو كذلك إذ أبصر

النبى - ﷺ - فى ظل شجرة فأتاه فقال : غلبتنى نفسى ، فقال له النبى - ﷺ - : « ألم يكن لك بد من الذى صنعت ؟ أما لقد فتحت لك أبواب السماء ولقد باهى الله بك الملائكة » ثم قال لأصحابه : « تزودوا من أخيكم » فجعل الرجل يقول له : يا فلان : ادع لى ، يا فلان : ادع لى ، فقال النبى - ﷺ - : « عُمَّهُمْ » ، فقال : اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبى - ﷺ - يقول : « اللهم سدده » . فقال الرجل : اللهم اجعل الجنة مآبهم » .

وقال حذيفة بن قتادة : قيل لرجل : كيف تصنع بنفسك فى شهواتها ؟ فقال : ما على وجه الأرض نفس أبغض إلىَّ منها ، فكيف أعطيها شهواتها ! .

ودخل ابن السماك على داود الطائىّ حين مات وهو فى بيته على التراب ، فقال : يا داود : سجنت نفسك قبل أن تسجن ، وعذبت نفسك قبل أن تعذب ، فاليوم ترى ثواب من كنت تعمل له .

وعن وهب بن منبه أن رجلاً تعبد زماناً ثم بدت له إلى الله — تعالى — حاجة ، فقام سبعين سبتاً يأكل فى كل سبت احدى عشرة تمرة ، ثم سأل حاجته فلم يعطها ، فرجع إلى نفسه وقال : منك أتيت ، لو كان فيك خيراً لأعطيت حاجتك . فنزل إليه ملك وقال : يا ابن آدم : ساعتك هذه خير من عبادتك التى مضت ، وقد قضى الله حاجتك .

وقال عبد الله بن قيس . كنا فى غزاة لنا ، فحضر العدو فصيح فى الناس ، فقاموا إلى المصاف فى يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامى وهو يخاطب نفسه ويقول : أى نفسى : ألم أشهد مشهد كذا وكذا ، فقلت لى : أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ؟ والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك . فقلت لأرمقنه اليوم ، فرمقته ، فحمل الناس على عدوهم فكان فى أوائلهم ، ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا ، فكان فى موضعه حتى انكشفوا مرات ، وهو ثابت يقاتل فو الله مازال دأبه حتى رأيته صريعاً . فعددت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبى طلحة لما اشتغل قلبه فى الصلاة بطائر فى حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك .

وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم . وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه ألا يرفع رأسه إلى السماء مادام فى الدنيا .

وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه المصباح بالليل ، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه : ما حملك على أن صنعت يوم كذا وكذا ؟

وأنكر وهيب بن الورد شيئاً على نفسه ، فنتف شعرات على صدره حتى عظم أمله ، ثم جعل يقول لنفسه : ويحك إنما أريد بك الخير .

ورأى محمد بن بشر داوود الطائى وهو يأكل عند إفطاره خبزاً بغير ملح ، فقال له : لو أكلته بملح ، فقال : إن نفسى تدعونى إلى الملح منذ سنة ، ولا ذاق داوود ملحاً مادام فى الدنيا ، فهكذا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم .

والعجب أنك تعاقب عبدك ، وأمتك ، وأهلك ، وولدك ، على ما يصدر منهم من سوء خلق ، وتقصير فى أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار ، وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهى أعظم عدولك ، وأشد طغياناً عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يشوشوا عليك معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم ، الذى لا آخر له ، ونفسك هى التى تنغص عليك عيش الآخرة ، فهى بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ، فينبغى أن يعاقبها بالعقوبات التى مضت . وإن رآها تتوانى بحكم الكسل فى شىء من الفضائل أو ورد من الأوراد ، فينبغى أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ، ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه ، وتداركاً لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله ــ تعالى ــ . فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر فى جماعة ، بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم . وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة فى جماعة أحيا تلك الليلة . وآخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين . وفات ابن أبى ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة . وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة ، أو الحج ماشياً ، أو التصدق بجميع ماله . كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها . فإن قلت : إن كانت نفسى لا تطاوعنى على المجاهدة والمواظبة على الأوراد ، فما سبيل معالجتها ؟ . فأقول سبيلك فى ذلك أن تسمعها ما ورد فى الأخبار من فضل المجتهدين . ومن أنفع أسباب العلاج ان تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد فى العبادة ، فتلاحظ أقواله وتقتدى به . وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتنى فترة فى العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده ، فعملت على ذلك أسبوعاً ، إلا أن هذا العلاج قد تعذر ، إذ قد فقد فى هذا الزمان من يجتهد فى العبادة اجتهاد الأولين ، فينبغى أن يعدل من المشاهدة إلى السماع ، فلا شىء أنفع من سماع أحوالهم ، ومطالعة أخبارهم ، وما كانوا فيه من الجهد الجهيد ، وقد انقضى تعبهم وبقى ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم وما أشد حسرة من لا يقتدى بهم فيمتع نفسه أياماً قلائل بشهوات مكدرة ، ثم يأتيه الموت ، ويحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد ، نعوذ

بالله - تعالى - من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين ، وفضائلهم ، ما يحرك رغبة المريد فى الاجتهاد إقتداء بهم فقد قال رسول الله - ﷺ - : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى »(١) .

قال الحسن أجهدتهم العبادة . قال الله — تعالى — : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾(٢) . قال الحسن : يعملون ما عملوا من أعمال البر ، ويخافون ألا ينجيهم ذلك من عذاب الله . وقال رسول الله — ﷺ — : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله »(٣) . ويروى أن الله — تعالى — يقول لملائكته : ما بال عبادى مجتهدين ؟ فيقولون : إلهنا : خوفتهم شيئاً فخافوه وشوّقتهم إلى شىء فاشتاقوا إليه . فيقول الله - تبارك وتعالى - : فكيف لو رآنى عبادى لكانوا أشد اجتهاداً .

وقال الحسن : أدركت أقواماً ، وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشىء من الدنيا أقبل ، ولا يتأسفون على شىء منها أدبر ، ولهى كانت أهون فى أعينهم من هذا التراب الذى تطؤونه بأرجلكم ، إن كان أحدهم ليعيش عمره كله ما طوى له ثوب ، ولا أمر أهله بصنعة طعام قط ، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط ، وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ، إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم فى فكاك رقابهم ، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ، ودأبوا فى شكرها ، وسألوا الله أن يتقبلها ، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم ، وسألوا الله أن يغفرها لهم ، والله مازالوا كذلك ، وعلى ذلك ، ووالله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا إلا بالمغفرة .

ويحكى أن قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه فى مرضه وإذا فيهم شاب ناحل الجسم ، فقال عمر له : يا فتى : ما الذى بلغ بك ما أرى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : أسقام وأمراض . فقال : سألتك بالله إلا صدقتنى فقال : يا أمير المؤمنين : ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة ، وصغر عندى زهرتها وحلاوتها ، واستوى عندى ذهبها ، وحجرها ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى ، والناس يساقون إلى الجنة والنار ، فأظمأت لذلك نهارى ، وأسهرت ليلى ، وقليل حقير كل ما أنا فيه فى جنب ثواب الله وعقابه .

وقال أبو نعيم : كان داوود الطائى يشرب الفتيت ، ولا يأكل الخبز ، فقيل له فى ذلك فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية . ودخل رجل عليه يوماً فقال : إن فى سقف بيتك جذعاً مكسوراً فقال : يا ابن أخى ، إن لى فى البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف ، وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام .

وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزين من غدوة إلى العصر فما التفت يمنة ولا يسرة ،

---

(١) انظر احياء علوم الدين . جـ ٤ كتاب المراقبة والمحاسبة . وقال محققه لم أجد له أصلا . إلا أن أحمد قد رواه فى الزهد .
(٢) سورة المؤمنون الآية ٦٠
(٣) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١٠ كتاب المراقبة والمحاسبة .
- انظر كشف الخفاء ج ١ ص ٤٦١ .أبلفظ خيركم من طال عمره وحسن عمله .

فقيل له فى ذلك . فقال : إن الله ـ تعالى ـ خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله ـ عز وجل ـ ، فكل من نظر بغير اعتبار كتبت عليه خطيئة .

وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة ، وقالت : والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكى رحمة له .

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله فى جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر . وكان الأسود بن يزيد يجتهد فى العبادة ويصوم فى الحر حتى يخضر جسده ويصفر ، فكان علقمة بن قيس يقول له : لم تعذب نفسك ؟ فيقول : كرامتها أريد ، وكان يصوم حتى يخضر جسده ويصلى حتى يسقط ، فدخل عليه أنس بن مالك والحسن فقالا له : إن الله ـ عز وجل ـ لم يأمرك بكل هذا فقال : إنما أنا عبد مملوك لا أدع من الإستكانة شيئاً إلا جئت به .

وكان بعض المجتهدين يصلى كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجليه فكان يصلى جالساً ألف ركعة فإذا صلى العصر احتبى ثم قال : عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلاً منك ، عجبت للخليقة كيف أنست بسواك ، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك .

وكان ثابت البنانى قد حببت إليه الصلاة فكان يقول : اللهم إن كنت إذنت لأحد أن يصلى لك فى قبره فائذن لى أن أصلى فى قبرى .

وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السرى ، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤى مضطجعاً إلا فى علة الموت .

وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه فى ذلك فقال : وما هذا عند ما يراد بالخلق من شدة الأهوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم ، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم ، فبكى القوم عن آخرهم .

وعن أبى محمد المغازلى قال : جاور أبو محمد الجريرى بمكة سنة فلم ينم ، ولم يتكلم ، ولم يستند إلى عمود ، ولا إلى حائط ، ولم يمد رجليه . فعبر عليه أبو بكر الكتانى ، فسلم عليه ، وقال له : يا أبا محمد : بم قدرت على اعتكافك هذا ؟ فقال : علم صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى ، فأطرق الكتانى ومشى مفكراً .

وعن بعضهم قال : دخلت على فتح الموصلى فرأيته قد مد كفيه يبكى حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه ، فدنوت منه ، فإذا دموعه قد خالطها صفرة فقلت : ولم بالله يا فتح : بكيت الدم ؟ فقال : لولا أنك أحلفتنى بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دماً ، فقلت له : على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال : على تخلفى عن واجب حق الله ـ تعالى ـ وبكيت الدم على الدموع لئلا يكون ما صحت لى الدموع ، قال :

فرأيته بعد موته فى المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى ، فقلت له : فماذا صنع فى دموعك ؟ **فقال** : **قربنى** ربى — عز وجل — وقال : يا فتح : الدمع على ماذا ؟ قلت على دموعى أن لا تصح لى . فقال لى : يا فتح : ماذا أردت بهذا كله ، وعزتى وجلالى لقد صعد حافظاك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة .

وقيل إن قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق ، فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه ، فأشرف عليهم من صومعته فقالوا : يا راهب : إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق ؟ : فأومأ برأسه إلى السماء ، فعلم القوم ما أراد فقالوا : يا راهب : إنا سائلوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال : سلوا ولا تكثروا ، فإن النهار لن يرجع ، والعمر لا يعود ، والطالب حثيث ، فعجب القوم من كلامه فقالوا : يا راهب : علام الخلق غداً عند مليكهم ؟ فقال : على نياتهم . فقالوا : أوصنا ، فقال : تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما بلغ البغية ، ثم أرشدهم إلى الطريق وأدخل رأسه فى صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد : مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته : يا راهب : فلم يجبنى ، فناديته ثانية : فلم يجبنى ، فناديته الثالثة : فأشرف علَّى وقال : يا هذا ما أنا براهب . إنما الراهب من رهب الله فى سمائه ، وعظمه فى كبريائه ، وصبر على بلائه ، ورضى بقضائه ، وحمده على آلائه ، وشكره على نعمائه ، وتواضع لعظمته ، وذل لعزته ، واستسلم لقدرته ، وخضع لمهابته ، وفكر فى حسابه وعقابه ، فنهاره صائم ، وليله قائم ، قد أسهره ذكر النار ، ومسألة الجبار ، فذلك هو الراهب . وأما أنا فكلب عقور . حبست نفسى فى هذه الصومعة عن الناس لئلا أعقرهم . فقلت : يا راهب : فما الذى قطع الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ : فقال : يا أخى : لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا ، وزينتها ، لأنها محل المعاصى والذنوب ، والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله — تعالى — من ذنبه ، وأقبل على ما يقربه من ربه . وقيل لداوود الطائى : لو سرحت لحيتك فقال : إنى إذن لفارغ . وكان أويس القرنى يقول : هذه ليلة الركوع ، فيحيى الليل كله فى ركعة . وإذا كانت الليلة الآتية قال : هذه ليلة السجود . فيحيى الليل كله فى سجدة . وقيل لما تاب عتبة الغلام ، كان لا يتهنا بالطعام والشراب ، فقالت له أمه : لو رفقت بنفسك قال : الرفق أطلب ، دعينى أتعب قليلاً وأتنعم طويلاً ، وحج مسروق فما نام قط إلا ساجداً .

وقال سفيان **الثورى** : عند الصباح يحمد القوم السرى ، وعند الممات يحمد القوم التقى .

وقال عبد الله بن داود : كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أى كان لا ينام طول الليل .

وكان كهمس بن الحسن يصلى كل يوم ألف ركعة ، ثم يقول لنفسه : قومى يامأوى كل شر . فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ، ثم كان يبكى ويقول : ذهب نصف عملى .

وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول : ياأبت مالى أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فيقول : ياابنتاه إن أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر ، نادته يابنى : لعلك قتلت قتيلا

قال : نعم يأماه ، قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك ، فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك ، وعفوا عنك . فيقول : يأماه : هي نفسي ، وعن عمر بن أخت بشر بن الحرث قال : سمعت خالي بشر بن الحرث يقول لأمي : ياأختي : جوفي وخواصري تضرب عليّ . فقالت له أمي : ياأخي : أتأذن لي حتى أصلح لك قليل حساء بكف دقيق عندي تتحساه يرم جوفك ، فقال لها : ويحك أخاف أن يقول : من أين لك هذا الدقيق ؟ فلا أدري أيش أقول له . فبكت أمي ، وبكى معها ، وبكيت معهم ، قال عمر : ورأت أمي ما ببشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي : ياأخي : ليت أمي لم تلدني ، فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك ، فسمعته يقول لها ، وأنا فليت أمي لم تلدني وأذ ولدتني لم يدر ثديها علي . قال عمر : وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار .

وقال الربيع : أتيت أويساً فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت : ألا أشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ، ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه فقال : اللهم إني أعوذ بك من عين نوامة ، ومن بطن لا تشبع فقلت : حسبي هذا منه ثم رجعت . ونظر رجل إلى أويس فقال : ياأبا عبد الله : مالي أراك كأنك مريض ، فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا ، يطعم المريض وأويس غير طاعم ، وينام المريض وأويس غير نائم .

وقال أحمد بن حرب : ياعجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما .

وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء ، فقعدت أرقبه ، فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر ، وأذن المؤذن ، فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءا فحاك ذلك في صدري ، فقلت له : رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجدد الوضوء ؟ فقال : كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا ، وفي أودية النار أحيانا ، فهل في ذلك نوم ؟

وقال ثابت البناني : أدركت رجالا كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا .

وقيل : مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ، ونزل الماء في إحدى عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله وقيل كان ورد سمنون في كل يوم خمسمائة ركعة .

وعن أبي بكر المطوعي قال : كان وردي في شبيبتي كل يوم وليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد ، إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة (شك من الراوي) . وكان منصور المعتمر إذا رأيته قلت : رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين ، إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه : ما هذا الذي تصنع بنفسك ؟ تبكي الليل عامته لا تسكت : لعلك يا بني : أصبت نفساً ، لعلك قتلت قتيلاً ؟ فيقول : يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسي .

وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل ، وظمأ الهواجر ، فقال : هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ، ونوم الليل إلى النهار . وليس فى ذلك خطير أمر وكان يقول : ما رأيت مثل الجنة ، نام طالبها ، ولا مثل النار نام هاربها . وكان إذا جاء الليل قال : أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يصبح ، فإذا جاء النهار قال : أذهب حر النار النوم فما ينام حتى يمسى فإذا جاء الليل قال : من خاف أولج ، وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بليل ولا نهار .

ويروى عن رجل من أصحاب على بن أبى طالب ــ رضى الله تعالى عنه ــ أنه قال : صليت خلف علىّ ــ رضى الله تعالى عنه ــ الفجر ، فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ وما أرى اليوم شيئا يشبههم ، كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكر الله مادوا كما يميد الشجر فى الريح ، وهملت أعينهم حتى تتبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين ، يعنى من كان حوله . وكان أبو مسلم الخولانى قد علق سوطاً فى مسجد بيته يخوف به نفسه ، وكان يقول لنفسه : قومى فو الله لأزحفن بك زحفاً حتى يكون الكلل منك لا منى .
فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول : أنت أولى بالضرب من دابتى وكان يقول : أيظن أصحاب محمد ــ ﷺ ــ أن يستأثروا به دوننا ؟ ، كلا والله لنزاحمهم زحاماً حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً .

وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الإجتهاد ما لو قيل له القيامة غداً ما وجد متزايداً ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد ، وإذا كان فى الصيف إضطجع فى داخل البيوت ليجد الحر ، فلا ينام ، وأنه مات وهو ساجد ، وأنه كان يقول : اللهم إنى أحب لقاءك فأحب لقائى .

وقال القاسم بن محمد : غدوت يوماً وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة ــ رضى الله عنها ــ أسلم عليها ، فغدوت يوماً إليها فإذا هى تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ : ﴿ **فمنَّ الله علينا ووقانا عذاب السموم** ﴾[١] وتبكى وتدعو وتردد الآية . فقمت حتى مللت ، وهى كما هى ، فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق ، فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع ففرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى ، تردد الآية وتبكى وتدعو .

وقال محمد بن اسحاق : لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجاً اعتلت إحدى قدميه ، فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء .

---

(١) سورة الطور الآية ٢٧

وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وقال علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ : سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر ، وعمش العيون من البكاء ، وذبول الشفاه من الصوم ، عليهم غبرة الخاشعين .

وقيل للحسن : ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً ؟ فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره .

وكان عامر بن عبد القيس يقول : إلهي : خلقتني ولم تؤامرني ، وتميتني ولا تعلمني ، وخلقت معي عدواً ، وجعلته يجري مني مجرى الدم ، وجعلته يراني ولا أراه ، ثم قلت لي : استمسك . إلهي : كيف أستمسك إن لم تمسكني ، إلهي : في الدنيا الهموم والأحزان ، وفي الآخرة العقاب والحساب ، فأين الراحة والفرح ؟! .

وقال جعفر بن محمد : كان عتبة الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات ، كان إذا صلى العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا مضى الثلث الثاني صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر ، فإذا كان السحر صاح صيحة قال جعفر بن محمد : فحدثت به بعض البصريين فقال : لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح .

وعن القاسم بن راشد الشيباني قال : كان زمعة نازلاً عندنا بالمحصب ، وكان له أهل وبنات ، وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته : أيها الركب المعرسون ، أكل هذا الليل ترقدون ؟ أفلا تقومون فترحلون ؟ فيتواثبون ، فيسمع من ههنا باك ، ومن ههنا داع ، ومن ههنا قارىء ، ومن ههنا متوضىء ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته : عند الصباح يحمد القوم السرى .

وقال بعض الحكماء : إن لله عباداً أنعم عليهم فعرفوه ، وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه ، فسلموا الخلق والأمر إليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوابيت للعظمة ، وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلق مقبلون ، ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوذ بمحجوب الغيوم ، ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف الفوائد ، وما لا يمكن واصفاً أن يصفه فهم في باطن أمورهم ، كالديباج حسناً ، وهم في الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً ، وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلف وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك ، فإذا أنا بصوت قد علا ، وإذا تلك الجبال تجيبه ، لها دوي عال ، فاتبعت الصوت ، فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً** ﴾ إلى قوله :

﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾[1] قال : فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية ، إذ صاح صيحة خر مغشياً عليه ، فقلت : واأسفاه ! هذا لشقائى ، ثم انتظرت إفاقته ، فأفاق بعد ساعة ، فسمعته وهو يقول : أعوذ بك من مقام الكذابين ، أعوذ بك من أعمال البطالين ، أعوذ بك من إعراض الغافلين ، ثم قال لك خشعت قلوب الخائفين ، وإليك فزعت آمال المقصرين ، ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ، ثم نفض يده فقال : ما لى وللدنيا ، وما للدنيا ولى ، عليك يا دنيا بأبناء جنسك ، وألَّاف نعيمك ، إلى محبيك فاذهبى ، وإياهم فاخدعى ، ثم قال : أين القرون الماضية ، وأهل الدهور السالفة فى التراب يبلون ، وعلى الزمان يفنون ، فناديته . يا عبد الله : أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال : وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره ، يخاف سبقها بالموت إلى نفسه ، أم كيف يفرغ من ذهبت أيامه ، وبقيت آثامه ، ثم قال : أنت لها ولكل شدة أتوقع نزولها ، ثم لها عنى ساعة ، وقرأ : ﴿ وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾[2] . ثم صاح صيحة أخرى أشد من الأولى ، وخرّ مغشياً عليه ، فقلت قد خرجت روحه . فدنوت منه فإذا هو يضطرب ، ثم أفاق وهو يقول : من أنا ؟ ما خاطرى ؟ هب لى إساءتى من فضلك ! وجللنى بسترك ، واعف عن ذنوبى بكرم وجهك ، إذا وقفت بين يديك ، فقلت له بالذى ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلمتنى ، فقال عليك بكلام من ينفعك كلامه ، ودع كلام من أوبقته ذنوبه ، إنى لفى هذا الموضع مذ شاء الله ، أجاهد إبليس ويجاهدنى ، فلم يجدعوناً علىّ ليخرجنى مما أنا فيه غيرك ، فإليك عنى يا مخدوع : فقد عطلت على لسانى ، وميلت إلى حديثك شعبة من قلبى ، وأنا أعوذ بالله من شرّك ، ثم أرجو أن يعيذنى من سخطه ، ويتفضل علىّ برحمته . قال : فقلت هذا ولى الله أخاف أن أشغله فأعاقب فى موضعى هذا ، فانصرفت وتركته .

وقال بعض الصالحين : بينما أنا أسير فى مسير لى ، إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف علىّ فقال لى : يا هذا : قم فإن الموت لم يمت ، ثم هام على وجهه ، فاتبعته فسمعته وهو يقول : ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾[3] اللهم بارك لى فى الموت ، فقلت وفيما بعد الموت ، فقال : من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له فى الدنيا مستقر ، ثم قال : يا من لوجهه عنت الوجوه ، بيض وجهى بالنظر إليك ، واملأ قلبى من المحبة لك ، وأجرنى من ذل التوبيخ غداً عندك ، فقد آن لى الحياء منك ، وحان لى الرجوع عن الإعراض عنك ، ثم قال : لولا حلمك لم يسعنى أجلى ، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملى ، ثم مضى وتركنى ، وقد أنشدوا فى هذا المعنى :

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقمة أو بطن وادى
ينوح على معاص فاضحات ... يكدّر ثقلها صفو الرّقاد

(١) سورة آل عمران الآية ٣٠
(٢) سورة الزمر الآية ٤٧
(٣) سورة آل عمران الآية ١٨٥

فإن هاجت مخاوفه وزادت ... فدعوته أغثني يا عمادى
فأنت بما ألاقيه عليم ... كثير الصفح عن زلل العباد

وقيل أيضاً :

ألذ من التلذذ بالغوانى ... إذا أقبلن فى حلل حسان
منيب فر من أهل ومال ... يسبح إلى مكان من مكان
ليخمل ذكره ويعيش فرداً ... ويظفر فى العبادة بالأمانى
تلذذه التلاوة أين ولى ... وذكر بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير ... يبشر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أرادو ما تمنى ... من الراحات فى غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يختم القرآن فى كل يوم ثلاث مرات . ويجاهد نفسه فى العبادات غاية المجاهدة ، فقيل له : قد أجهدت نفسك . فقال : كم عمر الدنيا ؟ فقيل : سبعة آلاف سنة ، فقال : كم مقدار يوم القيامة ؟ فقيل خمسون ألف سنة . فقال : كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم ! يعنى أنك لو عشت عمر الدنيا ، واجتهدت سبعة آلاف سنة ، وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة ، لكان ربحك كثيراً ، وكنت بالرغبة فيه جديراً ، فكيف وعمرك قصير ، والآخرة لا غاية لها .

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين فى مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمردت نفسك عليك ، وامتنعت من المواظبة على العبادة ، فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عز الآن وجود مثلهم ، ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع فى القلب ، وأبعث على الإقتداء ، فليس الخبر كالمعاينة . وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى وخير نفسك بين الإقتداء بهم ، والسكون فى زمرتهم ، وغمارهم وهم العقلاء ، والحكماء ، وذوو البصائر فى الدين ، وبين الإقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تنخرط فى سلك الحمقى ، وتقنع بالتشبه بالأغبياء ، وتؤثر مخالفة العقلاء ، فإن حدثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الإقتداء بهم ، فطالع أحوال النساء المجتهدات ، وقل لها يا نفس لا تستنكفى أن تكونى أقل من امرأة . فأخسس برجل يقصر عن امرأة فى أمر دينها ودنياها .

ولنذكر الآن نبذة عن أحوال المجتهدات : فقد روى عن حبيبة العدوية أنها كانت إذا صلت العتمة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت : إلهى : قد غارت النجوم ، ونامت العيون ، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه ، وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت : إلهى : هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعرى ، أقبلت منى ليلتى فأهنأ ؟ أم رددتها علىّ فأعزى ؟ وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما أبقيتنى . وعزتك لو انتهرتنى عن بابك ما برحت لما وقع فى نفسى عن وجودك وكرمك .

ويروى عن عجرة أنها كانت تحيى الليل ، وكانت مكفوفة البصر ! فإذا كان فى السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى الليالى يستبقون إلى رحمتك وفضل مغفرتك ، فبك يا إلهى : أسألك لا بغيرك أن تجعلنى فى أول زمرة السابقين ، وأن ترفعنى لديك فى عليين ، فى درجة المقربين ، وأن تلحقنى بعبادك الصالحين ، فأنت أرحم الرحماء ، وأعظم العظماء ، وأكرم الكرماء يا كريم ، ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجبة ، ثم لا تزال تدعو وتبكى إلى الفجر .

وقال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء . فقلت لصاحب لى : لو أتيناها إذا خلت فأمرناها بالرفق بنفسها ؟ فقال : أنت وذاك قال فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئاً فكان لك أقوى على ما تريدين ، قال فبكت ثم قالت : والله لوددت أنى أبكى حتى تنفد دموعى ، ثم أبكى دماً حتى لا تبقى قطرة من دم فى جارحة من جوارحى ، وأنى لى بالبكاء ، وأنى لى بالبكاء ، فلم تزل تردد وأنى لى بالبكاء ، حتى غشى عليها .

وقال محمد بن معاذ : حدثتنى امرأة من المتعبدات قالت : رأيت فى منامى كأنى أدخلت الجنة ، فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم . فقلت : ما شأن أهل الجنة قيام ، فقال لى قائل : خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التى زخرفت الجنان لقدومها فقلت : ومن هذه المرأة فقيل : أمة سوداء من أهل الأيكة ، يقال لها شعوانة . قالت : فقلت : أختى والله ، قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها فى الهواء ، فلما رأيتها ناديت : يا أختى : أما ترين مكانى من مكانك . فلو دعوت لى مولاك فلحقنى بك قالت : فتبسمت إلىّ وقالت : لم يأن لقدومك ولكن إحفظى عن اثنتين : إلزمى الحزن قلبك ، وقدمى محبة الله على هواك ، ولا يضرك متى مت وقال عبد الله بن الحسن : كانت لى جارية رومية وكنت بها معجباً فكانت فى بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت ، فالتمستها فلم أجدها ، فقمت أطلبها فإذا هى ساجدة وهى تقول : بحبك لى ألا ما غفرت لى ذنوبى . فقلت لها : لا تقولى بحبك لى ، ولكن قولى بحبى لك ، فقالت : يا مولاى بحبه لى أخرجنى من الشرك إلى الإسلام ، وبحبه لى أيقظ عينى وكثير من خلقه ينام .

وقال أبو هاشم القرشى : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سرية فنزلت فى بعض ديارنا قال : فكنت أسمع لها من الليل أنيناً وشهيقاً ، فقلت يوماً لخادم لى أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع . قال : فأشرف عليها ، فما رآها تصنع شيئاً غير أنها لا ترد طرفها عن السماء ، وهى مستقبلة القبلة ، تقول : خلقت سرية ، ثم غذيتها بنعمتك من حال إلى حال ، وكل أحوالك لها حسنة ، وكل بلائك عندها جميل ، وهى مع ذلك متعرضة لسخطك بالتوثب على معاصيك فلتة بعد فلتة ، أتراها تظن أنك لا ترى سوء فعالها وأنت عليم خبير ، وأنت على كل شىء قدير . وقال ذو النون المصرى : خرجت ليلة من وادى كنعان ، فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول : ﴿ **وبداهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[1] ويبكى فلما قرب منى

(١) سورة الزمر الآية ٤٧

السواد إذا هى امرأة عليها جبة صوف وبيدها ركوة ، فقالت لى : من أنت ؟ غير فزعة منى فقلت : رجل غريب فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة . قال : فبكيت لقولها فقالت لى : ما الذى أبكاك ؟ فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع فى نجاحه قالت : فإن كنت صادقاً فلم بكيت . قلت : يرحمك الله والصادق لا يبكى قالت : لا . قلت : ولم ذاك قالت : لأن البكاء راحة القلب ، فسكت متعجباً من قولها . وقال أحمد بن على ، إستأذنا على عفيرة ، فحجبتنا ، فلازمنا الباب ، فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعتها وهى تقول : اللهم إنى أعوذ بك ممن جاء يشغلنى عن ذكرك ، ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها : يا أمة الله : ادعى لنا فقالت : جعل الله قراكم فى بيتى المغفرة ، ثم قالت لنا : مكث عطاء السلمى أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فخر مغشياً عليه ، فأصابه فتق فى بطنه . فياليت عفيرة إذا رفعت رأسها لم تعص ، وياليتها إذا عصت لم تعد .

وقال بعض الصالحين : خرجت يوماً إلى السوق ومعى جارية حبشية ، فاحتسبتها فى موضع بناحية السوق ، وذهبت فى بعض حوائجى ، وقلت لا تبرحى حتى أنصرف إليك قال : فانصرفت فلم أجدها فى الموضع ، فانصرفت إلى منزلى وأنا شديد الغضب عليها ، فلما رأتنى عرفت الغضب فى وجهى فقالت : يا مولاى : لا تعجل على ، إنك أجلستنى فى موضع لم أر فيه ذاكر الله — تعالى — فخفت أن يخسف بذلك الموضع . فعجبت لقولها وقلت لها : أنت حرة . فقالت : ساء ما صنعت ، كنت أخدمك فيكون لى أجران وأما الآن فقد ذهب عنى أحدهما .

وقال ابن العلاء السعدى : كانت لى ابنة عم يقال لها بريدة . تعبدت وكانت كثيرة القراءة فى المصحف ، فكلما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكى حتى ذهبت عيناها من البكاء ، قال : فدخلنا عليها ، فقلنا : يا بريدة : كيف أصبحت ! قالت : أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب . فقلنا لها : كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ، فقالت : إن يكن لعينى عند الله خير فما يضرهما ما ذهب منهما ، فى الدنيا ، وإن كان لهما عند الله شر فسيزيدهما بكاء أطول من هذا ، ثم أعرضت . قال : فقال القوم قوموا بنا فهى والله فى شيء غير ما نحن فيه .

وكانت معاذة العدوية إذا جاء النهار تقول : هذا يومى الذى أموت فيه فما تطعم حتى تمسى ، فإذا جاء الليل تقول : هذه الليلة التى أموت فيها فتصلى حتى تصبح .

وقال أبو سليمان الدارانى : بت ليلة عند رابعة ، فقامت إلى محراب لها ، وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر ، فلما كان السحر قلت : ما جزاء من قوانا على قيام هذه الليلة ، قالت : جزاؤه أن تصوم له غداً .

وكانت شعوانة تقول فى دعائها إلهى : ما أشوقنى إلى لقائك ، وأعظم رجائى لجزائك ، وأنت الكريم الذى لا يخيب لديك أمل الآملين ، ولا يبطل عندك شوق المشتاقين . إلهى : إن كان دنا أجلى و لم يقربنى

منك عمل فقد جعلت الاعتراف بالذنب وسائل عللى ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي : قد جرت على نفسي فى النظر لها وبقى لها حسن نظرك ، فالويل لها أن لم تسعدها . إلهي : إنك لم تزل بى براً أيام حياتى ، فلا تقطع عنى برك بعد مماتى ، ولقد رجوت ممن تولانى فى حياتى بإحسانه أن يسعفنى عند مماتى بغفرانه . إلهي : كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتى و لم تولنى إلا الجميل فى حياتى . إلهي : إن كانت ذنوبى قد أخافتني فإن محبتى لك قد أجارتنى ، فتول من أمرى ما أنت أهله ، وعد بفضلك على من غره جهله : إلهي : لو أردت إهانتى لما هديتنى ، ولو أردت فضيحتى لم تسترنى ، فمتعنى بماله هديتنى ، وأدم لى بما به سترتنى . إلهي ما أظنك تردنى فى حاجة أفنيت فيها عمرى . إلهي : لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ، ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك .

وقال الخواص : دخلنا على رحلة العابدة ، وكانت قد صامت حتى اسودت ، وبكت حتى عميت ، وصلت حتى أقعدت ، وكانت تصلى قاعدة ، فسلمنا عليها . ثم ذكرناها شيئاً من العفو ليهون عليها الأمر . قال : فشهقت ثم قالت : علمي بنفسي قرَّح فؤادى وكلم كبدى . والله لوددت أن الله لم يخلقنى و لم أك شيئاً مذكوراً ، ثم أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك ، ويزيد حرصك ، وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك ، فإنك أن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله . وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر ، وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك ، وبعد أهل عصرك من أهل الدين ، فإن حدثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك ، وقالت إنما يتيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان . والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه ، وعليه فلا يجرى عليك إلا ما يجرى عليهم ، والمصيبة إذا عمت طابت ، فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويره ، وقل لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد ، وثبتوا على مواضعهم . و لم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال ، وقدرت أنت على أن تفارقيهم وتركبى فى سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج فى نفسك أن المصيبة إذا عمت طابت ، أم تتركين موافقتهم وتستجهلينهم فى صنيعهم ، وتأخذين حذرك مما دهاك ، فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ؟ ومن أين تطيب المصيبة إذا عمت ؟ ولأهل النار شغل شاغل عن الإلتفات إلى العموم والخصوص ، و لم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[1] . فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك ، وحملها على الإجتهاد فاستعصت ، أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها ، وتقريعها ، وتعريفها سوء نظرها لنفسها ، فعساها تنزجر عن طغيانها .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٢٣

الرابطة السادسة : فى توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وقد خلقت أمارة بالسوء ، ميالة إلى الشر ، فرارة من الخير ، وأمرت بتزكيتها ، وتقويمها ، وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها ، وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ، و لم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ ، والمعاتبة ، والعذل ، والملامة ، كانت نفسك هى النفس اللوّامة التى أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك . أوحى الله — تعالى — إلى عيسى عليه السلام : يا ابن مريم : عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحيى منى . وقال — تعالى — : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[1] . وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها وإستنكافها إذا نسبت إلى الحمق ، فتقول لها : يا نفس : ما أعظم جهلك ، تدعين الحكمة ، والذكاء والفطنة ، وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار ، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ، فما لك تفرحين ، وتضحكين ، وتشتغلين باللهو ، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين أو غداً ! فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله قريباً ، أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ، وأن البعيد ما ليس بآت ؟ اما تعلمين أن الموت يأتى بغتة من غير تقديم رسول ؟ ومن غير مواعدة ، ومواطأة ، وأنه لا يأتى فى شىء دون شىء ، ولا فى شتاء دون صيف ، ولا فى صيف دون شتاء ، ولا فى نهار دون ليل ، ولا فى ليل دون نهار ، ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ، ولا فى الشباب دون الصبا ، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ، ثم يفضى إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ، أما تتدبرين قوله تعالى : ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون . ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون . لاهية قلوبهم** ﴾[2] . ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . ويحك يا نفس : لو واجهك عبد من عبيدك ، بل أخ من إخوانك بما تكرهينه ، كيف كان غضبك عليه ، ومقتك له ، فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله ، وغضبه ، وشديد عقابه ، أفتظنين أنك تطيقين عقابه ؟ هيهات هيهات ، جربى نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه ، فاحتبسى ساعة فى الشمس أو فى بيت الحمام ، أو قربى أصبعك من النار ، ليتبين لك قدر طاقتك ، أم تغترين بكرم الله وفضله ؟ وإستغنائه عن طاعتك ، وعبادتك ، فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى فى مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل فى دفعه ولا تكلينه

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥

(٢) سورة الأنبياء الآيات ١ ، ٢ ، ٣

إلى كرم الله — تعالى — . وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضى إلا بالدينار والدرهم فلم تنزعين الروح فى طلبها ، وتحصيلها ، من وجوه الحيل ، فلم لا تعولين على كرم الله حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعى منك ولا طلب ، أفتحسبين أن الله كريم فى الآخرة دون الدنيا ؟ وقد عرفت أن سنّة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

ويحك يا نفس : ما أعجب نفاقك ، ودعاويك الباطلة ، فإنك تدعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لك سيدك ومولاك : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾[1] وقال فى أمر الآخرة : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾[2] فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعى فيها ، فكذبته بأفعالك ، وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك ، فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون فى الدرك الأسفل من النار .

ويحك يا نفس : كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب ، وكأنك تظنين أنك إذا مت إنفلت وتخلصت وهيهات ، أتحسبين أنك تتركين سدى ، ألم تكونى نطفة من منّى يمنى ، ثم كنت علقة فخلق فسوى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك ، وأجهلك ، إما تتفكرين أنه مما ذا خلقك ؟ من نطفة خلقك فقدرك ، ثم السبيل يسرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه فى قوله ، ثم إذا شاء أنشرك ، فإن لم تكونى مكذبة فما لك لا تأخذين حذرك ؟ ولو أن يهودياً أخبرك فى ألذ أطعمتك بأنه يضرك فى مرضك لصبرت عنه وتركته ، وجاهدت نفسك فيه ، أفكان قول الأنبياء المؤيدين بالمعجزات ، وقول الله — تعالى — فى كتبه المنزلة أقل عندك تأثيراً من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين ، وظن مع نقصان عقل ، وقصور علم . والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن فى ثوبك عقرباً لرميت ثوبك فى الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان . أفكان قول الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، وكافة الأولياء ، أقل عندك من قول صبى من جملة الأغبياء ، أم صار حر جهنم ، وأغلالها ، وأنكالها ، وزقومها ، ومقامعها ، وصديدها ، وسمومها ، وأفاعيها ، وعقاربها ، أحقر عندك من عقرب لا تحسين بألمها إلا يوماً أو أقل منه ؟ ما هذه أفعال العقلاء . بل لو انكشفت للبهائم حالك لضحكوا منك ، وسخروا من عقلك ، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك ، وآمنت به ، فمالك تسوفين العمل ، والموت لك بالمرصاد ، ولعله يختطفك من غير مهلة ، فبماذا أمنت إستعجال الأجل . وهبك أنك وعدت بالإمهال مائة سنة ، أتظنين أن من يطعم ، الدابة فى حضيض العقبة يفلح ويقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك . أرأيت لو سافر رجل ليتفقه فى الغربة ، فأقام فيها سنين متعطلاً ، بطالاً ، يعد نفسه بالتفقه فى السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه ،

(١) سورة هود الآية ٦

(٢) سورة النجم الآية ٣٩

هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس مما يطمع فيه بمدة قريبة ، أو حسبانه أن مناصب الفقهاء تنال من غير تفقه إعتماداً على كرم الله ــ سبحانه وتعالى ــ . ثم هبى أن الجهد فى آخر العمر نافع ، وأنه موصل إلى الدرجات العلا ، فلعل اليوم آخر عمرك فلم لا تشتغلين فيه بذلك ، فإن أوحى إليك بالإمهال ، فما المانع من المبادرة ، وما الباعث لك على التسويف ! هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة ، أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات ، هذا يوم لم يخلقه الله قط ، ولا يخلقه ، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس . وهذا مجال وجوده ، أما تتأملين مذكم تعدين نفسك وتقولين غداً غداً ، فقد جاء الغد وصار يوماً ، فكيف وجدته ، أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس ، لا ، بل تعجزين عنه اليوم ، فإنت غداً عنه أعجز ، وأعجز ، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التى تعبد العبد بقلعها ، فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخرها ، كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قوى ، فأخرها إلى سنة أخرى ، مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخاً ، ويزيد القالع ضعفاً ووهناً ! فما لا يقدر عليه فى الشباب ، لا يقدر عليه قط فى المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم ، ومن التعذيب تهذيب المشيب . والقضيب الرطب يقبل الإنحناء ، فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك .

فإن كنت أيتها النفس لا تفهمين هذه الأمور الجلية ، وتركنين إلى التسويف ، فما بالك تدعين الحكمة ، وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ؟ ولعلك تقولين ما يمنعنى عن الإستقامة إلا حرصى على لذة الشهوات ، وقلة صبرى على الآلام والمشقات ، فما أشد غباوتك ، وأقبح إعتذارك ! ان كنت صادقة فى ذلك فاطلبى التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ، ولا مطمع فى ذلك إلا فى الجنة ، فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها فى مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات ، وما قولك فى عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنأ بشربه طول عمره ، وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضاً مزمناً وامتنع عليه شربه طول العمر ، فما مقتضى العقل فى قضاء حق الشهوة ؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر ؟ أم يقضى شهوته فى الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام ، حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم ؟ وجميع عمرك بالاضافة إلى الذى هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ، أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، وليت شعرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة ، أو ألم النار فى دركات جهنم فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله : ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفى ، أو لحمق جلى : أما الكفر الخفى فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب ، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب .

وأما الحق الجلى فاعتمادك على كرم الله ــ تعالى ــ وعفوه ، من غير التفات إلى مكره ، واستدراجه ، واستغنائه عن عبادتك ، مع أنك لا تعتمدين على كرمه فى لقمة من الخبز ، أو حبة من المال ، أو كلمة واحدة

تسمعينها من الخلق ، بل تتوصلين إلى غرضك فى ذك بجميع الحيل ، وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله — ﷺ — حيث قال : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى »(١) . ويحك يا نفس لا ينبغى أن تغرك الحياة الدنيا ، ولا يغرنك بالله الغرور ، فانظري لنفسك فما أمرك بمهم لغيرك ، ولا تضيعى أوقاتك فالأنفاس معدودة ، فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بعضك فاغتنمى الصحة قبل السقم ، والفراغ قبل الشغل ، والغنى قبل الفقر ، والشباب قبل الهرم ، والحياة قبل الموت ، واستعدى للآخرة على قدر بقائك فيها ، يا نفس : أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته ، فتجمعين له القوت ، والكسوة ، والحطب ، وجميع الأسباب . ولا تتكلين فى ذلك على فضل الله وكرمه ، حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ، ولبد ، وحطب ، وغير ذلك ، فإنه قادر على ذلك ، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف برداً وأقصر مدة من زمهرير الشتاء ؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا . كلا أن يكون هذا كذلك ، أو أن يكون بينهما مناسبة فى الشدة والبرودة ، أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعى ؟ هيهات ، كما لا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات . وإنما كرم الله — تعالى — فى أن عرفك طريق التحصن . ويسر لك أسبابه ، لا فى أن يندفع عنك العذاب دون حصنه . كما أن كرم الله — تعالى — فى دفع برد الشتاء أن خلق النار ، وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر ، حتى تدفعى بها برد الشتاء عن نفسك . وكما أن شراء الجبة والحطب مما يستغنى عنه خالقك ومولاك ، إنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سبباً لاستراحتك ، فطاعاتك ومجاهداتك أيضاً هو مستغن عنها ، وإنما هى طريقك إلى نجاتك ، فمن أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها والله غنى عن العالمين .

ويحك يا نفس : اترعى عن جهلك ، وقيسى آخرتك بدنياك ، فما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ، وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما بدأكم تعودون ، وسنة الله — تعالى — لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً .

ويحك يا نفس : ما أراك إلا ألفت الدنيا ، وأنست بها ، فعسر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها ، وتؤكدين فى نفسك مودتها ، فاحسبى أنك غافلة من عقاب الله وثوابه ، وعن أهوال القيامة وأحوالها ، فما أنت مؤمنة بالموت المفرق بينك وبين محابك . أفترين أن من يدخل دارملك ليخرج من الجانب الآخر ، فمد بصره إلى وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبه ، ثم يضطر لا محالة إلى مفارقته ، أهو معدود من العقلاء أم من الحمقى ، أما تعلمين أن الدنيا دار لملك الملوك ، ومالك فيها إلا مجاز ، وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت . ولهذا قال سيد البشر — صلى الله عليه وسلم — « إن روح القدس نفث فى روعى أحبب

---

(١) الحديث فى سنن الترمذى جـ ٤ ص ٥٥٠ كتاب صفة القيامة رقم ٢٤٥٩ وقال : هذا حديث حسن .
— وانظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٤٢٣ كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له رقم ٤٢٦٠ .

من أحببت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزى به وعش ما شئت فإنك ميت »[1] ويحك يا نفس : أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ، ويأنس بها مع أن الموت من ورائه ، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة ، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى ، أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلوا ، ثم ذهبوا وخلوا ، وكيف أورث الله أرضهم وديارهم أعداءهم ؟ . أما ترينهم كيف يجمعون ما لا يأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، ويؤملون ما لا يدركون ، يبنى كل واحد قصراً مرفوعاً إلى جهة السماء ، ومقره قبر محفور تحت الأرض ، فهل فى الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا ؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقيناً ، ويخرب آخرته وهو صائر إليها قطعاً ؟ . أما تستحيين يا نفس : من مساعدة هؤلاء الحمقى على حماقتهم ؟

واحسبى أنك لست ذات بصيرة تهتدى إلى هذه الأمور ، وإنما تميلين بالطبع إلى التشبه والإقتداء ، فقيسى عقل الأنبياء ، والعلماء ، والحكماء ، بعقل هؤلاء المنكبين على الدنيا ، واقتدى من الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين فى نفسك العقل والذكاء .

يا نفس : ما أعجب أمرك ، وأشد جهلك ، وأظهر طغيانك ! عجباً لك ، كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ! ولعلك يا نفس : أسكرك حب الجاه ، وأدهشك عن فهمها ، أو ما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك ، فاحسبى أن كل من على وجه الأرض سجد لك ، وأطاعك ، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ، ممن عبدك ، وسجد لك ، وسيأتى زمان لا يبقى ذكرك ، ولا ذكر من ذكرك ، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك ، فهل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركزاً ، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقى ؟ هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض ، سلم لك الشرق والغرب ، حتى أذعنت لك الرقاب ، وانتظمت لك الأسباب ، كيف ويأبى إدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك ؟ بل أمر دارك فضلاً عن محلتك ، فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة فى الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك ، فما لك لا تتركينها ترفعاً عن خسة شركائها ، وتنزهاً عن كثرة عنائها ، وتوقياً من سرعة فنائها ، أم مالك لا تزهدين فى قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها ؟ ومالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ، ويزيدون عليك فى نعيمها وزينتها ؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء . فما أجهلك ، وأخس همتك ، وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكونى فى زمرة المقربين من النبيين والصديقين ، فى جوار رب العالمين أبد الآبدين ، لتكونى فى صف النعال من جملة الحمقى الجاهلين أياماً قلائل . فيا حسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين .

فبادرى ويحك يا نفس فقد أشرفت على الهلاك ، واقترب الموت ، وورد النذير ، فمن ذا يصلى عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ؟ ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت ؟

---

(١) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١٠ ص ١٥٢ . وقال العراق : رواه الشيرازى والطبرانى فى الأوسط والأصغر وكلاهما ضعيف .

ويحك يا نفس ، مالك إلا أيام معدودة هى بضاعتك ، إن اتجرت فيها وقد ضيعت أكثرها ، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة فى حق نفسك ، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك ؟

أما تعلمين يا نفس : أن الموت موعدك ، والقبر بيتك ، والتراب فراشك والدود أنيسك ، والفزع الأكبر بين يديك . أما علمت يا نفس : أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك ، وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالأيمان المغلظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم . أما تعلمين يا نفس : أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم ، وأنت فى أمينتهم ، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه ، وأنت تضيعين أيامك فى الغفلة والبطالة . ويحك يا نفس : أما تستحيين ؟ تزينين ظاهرك للخلق ، وتبارزين الله فى السر بالعظائم ، أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق ؟ ويحك أهو أهون الناظرين عليك ، أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل ، تدعين إلى الله وأنت عنه فارة ، وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أما تعلمين يا نفس : أن المذنب أنتن من العذرة ، وأن العذرة لا تطهر غيرها ، فلم تطمعين فى تطهير غيرك ، وأنت غير طيبة فى نفسك .

ويحك يا نفس : لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . ويحك يا نفس : قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد ، ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بعملك وفيه من الأفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لكان الربح فى يديك ، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك ، وقد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتى ألف سنة ، وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه .

ويحك يا نفس : ما أغدرك ، ويحك يا نفس : ما أوقحك ، ويحك يا نفس : ما أجهلك ! وما أجرأك على المعاصى ، ويحك كم تعقدين فتنقضين ، ويحك كم تعهدين فتغدرين ، ويحك يا نفس : أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك ، كأنك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور ، كيف كانوا جمعوا كثيراً ، وبنو مشيداً ، وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبنيانهم قبوراً ، وأملهم غروراً . ويحك يا نفس : أمالك بهم عبرة ؟ أمالك إليهم نظرة ؟ أتظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين ؟ هيهات ، هيهات ، ساء ما تتوهمين . ما أنت إلا فى هدم عمرك مند سقطت من بطن أمك . فابنى على وجه الأرض قصرك ، فإن بطنها عن قليل يكون قبرك . أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدو رسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه ، وبشرى بالعذاب ؟ فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ؟ والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة . ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك . ولا تحزنين بنقصان عمرك ، وما نفع مال يزيد وعمر ينقص . ويحك يا نفس : تعرضين عن الآخرة وهى مقبلة عليك ، وتقبلين على الدنيا وهى معرضة عنك . فكم من مستقبل يوماً لا يستكمله ، وكم من مؤمل لغد لا يبلغه . فأنت تشاهدين ذلك فى إخوانك ، وأقاربك ، وجيرانك ، فترين تحسرهم عند

الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك . فاحذرى أيتها النفس المسكينة يوماً آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبداً أمره فى الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله ، دقيقه وجليله ، سرّه وعلانيته . فانظرى يا نفس : بأى بدن تقفين بين يدى الله ، وبأى لسان تجيبين ، وأعدى للسؤال جواباً ، وللجواب صواباً ، واعملى بقية عمرك فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال لدار مقامة ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، إعملى قبل أن لا تعملى ، اخرجى من الدنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجى منها على الاضطرار ، ولا تفرحى بما يساعدك من زهرات الدنيا ، فرب مسرور مغبون ، ورب مغبون لا يشعر . فويل لمن له الويل ثم لا يشعر ، يضحك ويفرح ، ويلهو ويمرح ، ويأكل ويشرب ، وقد حق له فى كتاب الله أنه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس : إلى الدنيا إعتباراً ، أو سعيك لها إضطراراً ، ورفضك لها اختياراً ، وطلبك للآخرة ابتداراً ، ولا تكونى ممن يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، وينهى الناس ولا ينتهى ، واعلمى يا نفس : أنه ليس للدين عوض ، ولا للإيمان بدل ، ولا للجسد خلف ، ومن كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وإن لم يسر ، فاتغطى يا نفس بهذه الموعظة ، واقبلى هذه النصيحة ، فإن من اعرض عن الموعظة فقد رضى بالنار ، وما أراك بها راضية ، ولا بهذه الموعظة واعية ، فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعينى عليها بدوام التهجد والقيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام ، فإن لم تزل فبصلة الأرحام ، واللطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمى أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه ، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه ، فوطنى نفسك على النار ، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً ، وخلق النار وخلق لها أهلاً ، فكل ميسر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطى من نفسك ، والقنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله من ذلك ، فلا سبيل لك إلى القنوط ، ولا سبيل لك إلى الرجاء ، مع انسداد طرق الخير عليك ، فإن ذلك اغترار وليس برجاء ، فانظرى الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التى ابتليت بها ، وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك ، فإن سمحت فمستقى الدمع من بحر الرحمة ، فقد بقى فيك موضع للرجاء ، فواظبى على النياحة والبكاء ، واستعينى بأرحم الراحمين ، واشتكى إلى أكرم الأكرمين ، وأدمنى الإستغاثة ، ولا تملى طول الشكاية لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك ، فإن مصيبتك قد عظمت ، وبليتك قد تفاقمت ، وتماديك قد طال ، وقد انقطعت منك الحيل ، وراحت عنك العلل ، فلا مذهب ولا مطلب ، ولا مستغاث ولا مهرب ، ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك ، فافزعى إليه بالتضرع ، واخشعى فى تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك ، لأنه يرحم المتضرع الذليل ، ويغيث الطالب المتلهف ، ويجيب دعوة المضطر ، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة ، وإلى رحمته محتاجة ، وقد ضاقت بك السبل ، وانسدت عليك الطرق ، وانقطعت منك الحيل ، ولم تنجع فيك العظات ! ولم يكسرك التوبيخ ، فالمطلوب منه كريم ، والمسئول جواد ، والمتغاث به بد رءوف ، والرحمة واسعة ، والكرم فائض ، والعفو شامل ، وقولى يا أرحم الراحمين ، يا رحمن يا رحيم ، يا حليم يا عظيم ، يا كريم أنا المذنب المصرّ ، أنا الجرىء الذى لا أقلع ، أنا المتمادى الذى لا أستحى ، هذا مقام المتضرع المسكين ، والبائس الفقير ، والضعيف الحقير ،

وانالك الغريق ، فعجل أغاثتي وفرجي ، وأرنى آثار رحمتك ، وأذقنى برد عفوك ومغفرتك ، وارزقنى قوة عصمتك يا أرحم الراحمين ، إقتداء بأبيك آدم ــ عليه السلام ــ فقد قال وهب بن منبه : لما أهبط الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له دمعة فاطلع الله ــ عز وجل ــ عليه فى اليوم السابع وهو محزون كئيب كظيم منكس رأسه ، فأوحى الله ــ تعالى ــ إليه : يا آدم : ما هذا الجهد الذى أرى بك ؟ قال : يارب : عظمت مصيبتى ، وأحاطت بى خطيئتى ، وأخرجت من ملكوت ربى ، فصرت فى دار الهوان بعد الكرامة ، وفى دار الشقاء بعد السعادة وفى دار النصب بعد الراحة ، وفى دار البلاء بعد العافية ، وفى دار الزوال بعد القرار ، وفى دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء ، فكيف لا أبكى على خطيئتى ؟ ، فأوحى الله ــ تعالى ــ إليه يا آدم : ألم أصطفك لنفسى ، وأحللتك دارى ، وخصصتك بكرامتى ، وحذرتك سخطى ، ألم أخلقك بيدى ، ونفخت فيك من روحى ، وأسجدت لك ملائكتى ، فعصيت أمرى ، ونسيت عهدى ، وتعرضت لسخطى ؟ ، فو عزتى وجلالى لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك . يعبدوننى ، ويسبحوننى ، ثم عصونى ، لأنزلتهم منازل العاصين . فبكى آدم ــ عليه السلام ــ عند ذلك ثلاثمائة عام .

وكان عبيد الله البجلى كثير البكاء ، يقول فى بكائه طول ليله **إلهى** أنا الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى ، أنا الذى كلما هممت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى ، واعبيداه ، خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى ، واعبيداه ، إن كانت النار لك مقيلاً ومأوى ، واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيأ ، واعبيداه قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى .

وقال منصور بن عمار : سمعت فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول : يارب : وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخف ، ولكن سولت لى نفسى ، وأعاننى على ذلك شقوتى ، وغرنى سترك المرضى علىّ ، فعصيتك بجهلى ، وخالفتك بفعلى ، فمن عذابك الآن من يستنقذنى ؟ . أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنى ؟ واسوأتاه مِنَ الوقوف بين يديك غداً . **إذا قيل للمخفين جوزوا ، وقيل للمثقلين حطوا . أمع المخفين أجوز ،** أم مع المثقلين أحط ؟ . ويلى ! كلما كبرت سنى كثرت ذنوبى . ويلى ! كلما طال عمرى كثرت معاصىّ ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ ، أما آن لى أن أستحيى من ربى . فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم ، وفى معاتبة نفوسهم . وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والإسترعاء ، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً ، ويوشك أن لا يكون الله ــ تعالى ــ عنه راضياً .

تحذير

قوله تعالى : ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾ أى : لا تنسوا ذكر الله تعالى ، فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التى تنفعكم فى معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال ــ تعالى ــ :

﴿ **أولئك هم الفاسقون** ﴾ أى : الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾(١) ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى بسنده عن نعيم بن نمحة قال : كان فى خطبة أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله — عز وجل — فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله — عز وجل — ، إن قوماً جعلوا آجالهم لغيرهم فنهاكم الله — عز وجل — أن تكونوا أمثالهم ﴿ **ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم** ﴾ أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قدموا على ما قدموا فى أيام سلفهم وخلوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط ؟ . قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تفنى عجائبه فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه ، إن الله — تعالى — أثنى على زكريا وأهل بيته فقال — تعالى — : ﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾(٢) لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله . ولا خير فيمن يغلب جهله حلمه ، ولا خير فيمن يخاف فى الله لومة لائم . هذا إسناد جيد ورجاله كلهم ثقات .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة** ﴾أى : لا يستوى هؤلاء وهؤلاء فى حكم الله — تعالى — يوم القيامة ، كما قال — تعالى — : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون** ﴾(٣) وقال تعالى : ﴿ **وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيىء قليلاً ما تتذكرون** ﴾(٤) ، وقال تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾(٥) .

ومثل ذلك قوله — تعالى — : ﴿ **كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون . إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . أفنجعل المسلمين كالمجرمين . ما لكم كيف تحكمون** ﴾(٦) ، وقوله — جل شأنه — : ﴿ **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون** ﴾(٧) .

---

(١) سورة المنافقون الآية ٩
(٢) سورة الأنبياء الآية ٩٠
(٣) سورة الجاثية الآية ٢١
(٤) سورة غافر الآية ٥٨
(٥) سورة ص الآية ٢٨
(٦) سورة ن الآيات ٣٢ — ٣٦
(٧) سورة السجدة الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠

أما قوله تعالى : ﴿ **أصحاب الجنة هم الفائزون** ﴾ فهذا منطق العدالة الإلهية إذ المساواة بينهما ظلم . والله ــ تبارك وتعالى ــ هو الحكم العدل ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[1] .

عظمة القرآن وأسماء الله الحسنى

قوله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون . هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

يقول ــ تعالى ــ معظماً لأمر القرآن ومبيناً علو قدره وأنه ينبغى أن تخشع له القلوب ، وتتصدع عند سماعه ، لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد ، ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله** ﴾ . أى : فإذا كان الجبل فى غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله ــ عز وجل ــ فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم وتخشع وتتصدع من خشية الله ؟ وقد فهمتم عن الله أمره وتدبرتم كتابه ولهذا قال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ . قال العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً** ﴾ إلى آخرها . يقول : لو أنى أنزلت هذا القرآن على جبل حملته إياه لتصدع وخشع من ثقله ومن خشية الله ، فأمر الله الناس إذا نزل عليهم القرآن أن يأخذوه بالخشية الشديدة والتخشع ، ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون** ﴾ وكذا قال قتادة وابن جرير . وقد ثبت فى الحديث المتواتر أن رسول الله ــ ﷺ ــ لما عمل له المنبر وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبى ــ ﷺ ــ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبى الذى يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحى عنده . ففى بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصرى بعد إيراده : فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ من الجذع . وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت ، وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟ وقد قال ــ تعالى ــ : ﴿ **ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى** ﴾[2] الآية . وقد قال تعالى : ﴿ **وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله** ﴾[3] .

(١) سورة النساء الآية ٤٠
(٢) سورة الرعد الآية ٣١
(٣) سورة البقرة الآية ٧٠

ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ أخبر ــ تعالى ــ أنه الذى لا إله إلا هو فلا رب غيره ، ولا إله للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أى : يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا ، والغائبات عنا ، فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء من جليل وحقير وكبير ، وصغير ، حتى الذر فى الظلمات . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ أى : أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، وقد قال ــ تعالى ــ : ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾[(١)] ، وقال ــ تعالى ــ : ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾[(٢)] ، وقال ــ تعالى ــ : ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[(٣)] .

ثم قال تعالى : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك ﴾ أى المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ القدوس ﴾ . قال وهب بن منبه : أى : الطاهر . وقال مجاهد وقتادة : أى : المبارك . وقال ابن جريج : تقدسه الملائكة الكرام . ﴿ السلام ﴾ أى : من جميع العيوب والنقائص . لكماله فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ المؤمن ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس أى : أمن خلقه من أن يظلمهم . وقال قتادة : أمن بقوله أنه حق . وقال ابن زيد : صدق عباده المؤمنين فى إيمانهم به . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ المهيمن ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : أى : الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ، كقوله : ﴿ والله على كل شىء شهيد ﴾[(٤)] ، وقوله : ﴿ ثم الله شهيد على ما يفعلون ﴾[(٥)] ، وقوله : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[(٦)] الآية ، وقوله تعالى : ﴿ العزيز ﴾ أى : الذى قد عز كل شىء فقهره وغلب الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ، ولهذا قال ــ تعالى ــ : ﴿ الجبار المتكبر ﴾ أى : الذى لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا لعظمته ، كما جاء فى الصحيح : « العظمة ازارى والكبرياء ردائى فمن نازعنى واحداً منهما عذبته »[(٧)] . وقال قتادة : الجبار الذى جبر خلقه على ما يشاء . وقال ابن جرير : الجبار : المصلح أمور خلقه المتصرف فيهم بما فيه صلاحهم . وقال قتادة : المتكبر يعنى عن كل سوء . ثم قال ــ تعالى ــ : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٥٦
(٢) سورة الأنعام الآية ٥٤
(٣) سورة يونس الآية ٥٨
(٤) سورة المجادلة من الآية ٦
(٥) سورة يونس من الآية ٤٦
(٦) سورة الرعد الآية ٣٣
(٧) انظر سنن أبى داوود . كتاب اللباس ، باب ما جاء فى الكبر . جـ ٤ ص ٣٥٠ رقم ٤٠٩٠ .
وانظر سنن ابن ماجة . كتاب الزهد . باب البراءة من الكبر جـ ٢ ص ١٣٩٧ رقم ٤١٧٤ .
انظر مسند احمد جـ ٢ ص ٣٧٦ ، ٤١٤ .

وقوله تعالى : ﴿ هو الله الخالق البارىء المصور ﴾ الخلق : التقدير ، والبرء هو الفرى وهو التنفيذ وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل . قال الشاعر يمدح آخر :

ولأنت تفرى ما خلقت وبعـ ... ـض القوم يخلق ثم لا يفرى

أى أنت تنفذ ما خلقت أى قدرت ، بخلاف غيرك فإنه لا يستطيع ما يريد فالخلق التقدير ، والفرى : التنفيذ ومنه يقال : قدر الجلاد ثم فرى أى قطع على ما قدره بحسب ما يريده .

وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ الخالق البارىء المصور ﴾ أى الذى إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التى يريد والصورة التى يختار . كقوله تعالى : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ ولهذا قال : المصور أى الذى ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التى يريدها . وقوله تعالى : ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ فقد روى فى الصحيحين عن أبى هريرة عن رسول الله ــ ﷺ ــ : « إن لله ــ تعالى ــ تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »[1] . وسياق الترمذى وابن ماجة له عن أبى هريرة أيضاً وزاد بعد قوله : « وهو وتر يحب الوتر » . واللفظ للترمذى : « هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدىء المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف ، مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المعطى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور »[2] . وقوله تعالى : ﴿ يسبح له ما فى السموات والأرض ﴾ كقوله ــ تعالى ــ : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾[3] . وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ وهو العزيز ﴾ : أى : فلا يرام جنابه (الحكيم) فى شرعه وقدره . وقد قال الإمام أحمد بسنده عن معقل بن يسار عن النبى ــ ﷺ ــ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسى وإن مات فى ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسى كان بتلك المنزلة »[3] .

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٦٣ . كتاب الذكر والدعاء . باب أسماء الله تعالى رقم ٥ ، ٦ / ٢٦٧٧ .
(٢) الحديث بكماله فى سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩٦ . كتاب الدعوات باب ٨٣ . رقم ٣٥٠٧ .
انظر سنن ابن ماجه جـ ٢ ص ١٢٧٩ ، ١٢٧٠ . كتاب الدعاء باب أسماء الله عز وجل . رقم ٣٨٦١ .
(٣) سورة الاسراء الآية ٤٤
(٤) انظر مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٢٦ مسند معقل بن يسار .

أسماء الله الحسنى
دستور الأخلاق فى الإسلام

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾ ، ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴾ ، ﴿ هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ (الحشر / ٢٢ — ٢٤) . إنها تسبيحة مديدة بهذه الصفات المجيدة ، ذات ثلاث مقاطع يبدأ كل مقطع منها بصفة التوحيد : ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ أو ﴿ هو الله ﴾ .

ولكل اسم من هذه الأسماء الحسنى أثر فى هذا الكون وأثر فى حياة البشر ملموس . فهى توحى إلى القلب بفاعلية هذه الأسماء والصفات فاعلية ذات أثر وعلاقة بالناس والأحياء . وليست هى صفات سلبية منعزلة عن كيان هذا الوجود ، وأحواله وظواهره المصاحبة لوجوده . ﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ فتقرر فى الضمير وحدانية اعتقاد ، ووحدانية العبادة ، ووحدانية الاتجاه ، ووحدانية الفاعلية من مبدأ الخلق إلى منتهاه . ويقوم على هذه الوحدانية مبدأ كامل فى التفكير والشعور والسلوك ، وارتباطات الناس بالكون وبسائر الأحياء وارتباطات الناس بعضهم ببعض على أساس وحدانية الإله . ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ فيستقر فى الضمير الشعور بعلم الله للظاهر والمستور . ومن ثم تستيقظ مراقبة هذا الضمير لله فى السر والعلانية ، ويعمل الإنسان كل ما يعمل بشعور المراقب من الله المراقب لله ، الذى لا يعيش وحده ، ولو كان فى خلوة أو مناجاة ، ويتكيف سلوكه بهذا الشعور الذى لا يغفل بعده قلب ولا ينام .

﴿ هو الرحمن الرحيم ﴾ فيستقر فى الضمير شعور الطمأنينة لرحمة الله والاسترواح ويتعادل الخوف والرجاء ، والفزع والطمأنينة ، فالله فى تصور المؤمن لا يطارد عباده ولكن يراقبهم ، ولا يريد الشر بهم بل يحب الهدى ، ولا يتركهم بلا عون ، وهم يصارعون الشرور والأهواء .

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو ﴾ يعيدها فى أول التسبيحة التالية لأنها القاعدة التى تقوم عليها سائر الصفات .

﴿ الملك ﴾ فيستقر فى الضمير لأن لا ملك إلا الله الذى لا إله إلا هو . وإذا توحدت الملكية ، لم يبق للمملوكين إلا سيد واحد يتوجهون إليه ، ولا يخدمون غيره . فالرجل لا يخدم سيدين فى وقت واحد ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه ﴾(١) .

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤

﴿ القدوس ﴾ وهو اسم يشع القداسة المطلقة ، والطهارة المطلقة ، ويلقى فى ضمير المؤمن هذا الإشعاع الطهور ، فينظف قلبه هو ويطهره ، ليصبح صالحاً لتلقى فيوض الملك القدوس والتسبيح له والتقديس .

﴿ السلام ﴾ وهو اسم كذلك يشع السلام ، والأمن ، والطمأنينة ، فى جنبات الوجود ، وفى قلب المؤمن تجاه ربه ، فهو آمن فى جواره ، سالم فى كنفه ، وحيال هذا الوجود وأهله من الأحياء والأشياء . ويؤوب القلب من هذا الإسم بالسلام والراحة والإطمئنان . وقد هدأت شرته وسكن بلباله وجنح إلى الموادعة والسلام .

﴿ المؤمن ﴾ واهب الأمن وواهب الإيمان . ولفظ هذا الاسم يشعر القلب بقيمة الإيمان ، حيث يلتقى فيه بالله ، ويتصف منه بإحدى صفات الله . ويرتفع إذن إلى الملأ الأعلى بصفة الإيمان .

﴿ المهيمن ﴾ وهذا بدء صفحة أخرى فى تصور صفة الله ــ سبحانه ــ إذ كانت الصفات السابقة : ﴿ القدوس السلام المؤمن ﴾ صفات تتعلق مجردة بذات الله . فأما هذا فتتعلق بذات الله فاعلة فى الكون والناس . توحى بالسلطان والرقابة .

وكذلك ﴿ العزيز الجبار المتكبر ﴾ فهى صفات توحى بالقهر والغلبة والجبروت والاستعلاء . فلا عزيز إلا هو ، ولا جبار إلا هو . ولا متكبر إلا هو . وما يشاركه أحد فى صفاته هذه . وما يتصف بها سواه فهو المتفرد بها بلا شريك ومن ثم يجىء ختام الآية : ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

ثم يبدأ المقطع الأخير فى التسبيحة المديدة .

﴿ هو الله ﴾ فهى الألوهية الواحدة . وليس غيره بإله .

﴿ الخالق ﴾ . ﴿ البارىء ﴾ والخلق : ألتصميم والتقدير ، والبرء : التنفيذ والإخراج ، فهما صفتان متصلتان والفارق بينهما لطيف دقيق .

﴿ المصور ﴾ وهى كذلك صفة مرتبطة بالصفتين قبلها . ومعناها إعطاء الملامح المتميزة والسمات التى تمنح لكل شىء شخصيته الخاصة . وتوالى هذه الصفات المترابطة اللطيفة الفروق ، يستجيش القلب لمتابعة عملية الخلق والإنشاء والإيجاد والإخراج مرحلة مرحلة ــ حسب التصور الإنسانى ــ فأما فى عالم الحقيقة فليست هناك مراحل ولا خطوات . وما نعرفه من مدلول هذه الصفات ليس هو حقيقتها المطلقة ، فهذه لا يعرفها إلا الله إنما نحن ندرك شيئاً من آثارها هو الذى نعرفه بها فى حدود طاقاتنا الصغيرة ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ الحسنى فى ذاتها بلا حاجة إلى استحسان من الخلق ولا توقف على استحسانهم . والحسنى التى توحى بالحسن المقلوب وتفيضه عليها ، وهى الأسماء التى يتدبرها المؤمن ليصوغ نفسه وفق ايحائها واتجاهها دليل أن الله يحب له أن يتصف بها . وأن يتدرج فى مراقبة وهو يتطلع إليها .

وخاتمة هذه التسبيحة المديدة بهذه الأسماء الحسنى ، والسبحة البعيدة مدلولاتها الموحية وفى فيوضها العجيبة ، هى مشهد التسبيح لله يشيع فى جنبات الوجود ، وينبعث من كل موجود .

﴿ يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾ وهو مشهد يتوقعه القلب بعد ذكر تلك الأسماء ، ويشارك فيه مع الأشياء والأحياء ، كما يتلاق فيه المطلع والختام . فى تناسق والتئام . (للأستاذ سيد قطب) .

الأسماء الحسنى
ألفاظ الحديث النبوى الشريف
والروايات الواردة فى الأسماء الحسنى

جاء فى صحيح الترمذى :

حدثنا يوسف بن حماد البصرى بسنده عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة غير واحد ، من أحصاها دخل الجنة »(١) .

قال يوسف : حدثنا عبد الأعلى ، عن هشام بن حسان عن محمد عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — أنه قال : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » .

حدثنا ابراهيم بن يعقوب الجوزجانى ، حدثنى صفوان بن صالح ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا شعيب بن أبى حمزة ، عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ، قال رسول الله — ﷺ — : « إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة » . وهى :

« الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدىء المعيد المحيى المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول والآخر الظاهر الباطن الوالى المتعالى البر التواب المنتقم العفو الرءوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباق الوارث الرشيد الصبور »(٢) .

حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا سفيان ، قال : حفظناه من أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة رواية قال : « لله تسعة وتسعون إسماً مائة إلا واحداً ، لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر »(٣) .

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩٦ كتاب الدعوات . باب ٨٣ رقم ٣٥٠٦ .

(٢) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٩٦ — ٤٩٧ كتاب الدعوات باب ٨٣ رقم ٣٥٠٧ .

(٣) انظر صحيح البخارى بحاشته السندى جـ ٤ ص ١١٥ كتاب الدعوات باب لله مائة اسم غير واحد . ط / الحلبى .

وقد أخرج الطبرانى الحديث المذكور ، عن أبى زرعة الدمشقى ، عن صفوان بن صالح ، مخالف فى عدة أسماء فقال : (القائم الدائم بدل القابض الباسط) (والشديد بدل الرشيد) ، (والأعلى المحيط مالك يوم الدين بدل الودود المجيد الحكيم) .

ووقع عن ابن حيان عن الحسن بن سفيان عن صفوان ، (الرافع بدل المانع) . ووقع فى صحيح ابن خزيمة فى رواية صفوان أيضاً ، مخالفة فى بعض الأسماء قال : (الحاكم بدل الحكيم) ، (المولي بدل الوالى) .

وجاء فى سنن ابن ماجة ، باب أسماء الله عز وجل : حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة ، حدثنا عبده بن سليمان عن أبى هريرة ، قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن لله تسعة وتسعين إسماً ، مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة »[١] .

حدثنا هشام بن عمار بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً ، إنه وتر يحب الوتر ، من حفظها دخل الجنة وهى :

الله الواحد الصمد الأول الآخر الظاهر الباطن الخالق البارىء المصور الملك الحق السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرحمن الرحيم اللطيف الخبير السميع البصير العليم العظيم البار المتعال الجليل الجميل الحى القيوم القادر القاهر العلى الحكيم القريب المجيب الغنى الوهاب الودود الشكور الماجد الواحد الوالى الراشد العفو الغفور الحليم الكريم التواب الرب المجيد الولى الشهيد المبين البرهان الرءوف (مرة أخرى) الرحيم المبدى المعيد الباعث الوارث القوى الشديد الضار النافع الباقى الواقى الخافض الرافع القابض الباسط المعز المذل المقسط الرزاق ذو القوة المتين القائم الدائم الحافظ الوكيل الناظر السامع المعطى المحيى المميت المانع الجامع الهادى الكافى الأبد العالم الصادق النور المنير التام القديم الوتر .

الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، قال زهير : فبلغنا من غير واحد من أهل العلم أن أولها يفتتح بقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، بيده الخير وهو على كل شىء قدير ، لا إله إلا الله له الأسماء الحسنى »[٢] .

وبذلك تكون رواية زهير كما وردت فى سنن ابن ماجة مخالفة لرواية الوليد ، كما جاءت فى صحيح الترمذى فى خمسة وعشرين اسماً ، فليس فى بداية زهير ، الأسماء والصفات التالية :

القدوس الغفار القهار الفتاح الحكم العدل الكبير الحفيظ المميت الحسيب الرقيب الواسع الحميد المحصى المقتدر المقدم المؤخر البر المنتقم مالك الملك ذو الجلال والإكرام المغنى البديع الرشيد الصبور .

وذكر بدلها :

(١) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٦٩ كتاب الدعاء باب أسماء الله عز وجل ، رقم ٣٨٦٠ .

(٢) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ . كتاب باب أسماء الله عز وجل ، رقم ٣٨٦١ .

البار الجميل القاهر القريب الراشد الرب المبين البرهان الشديد الواقى ذو القوة القائم الدائم الحافظ الناظر السامع المعطى الكافى الأبد العالم الصادق المنير التام القديم الوتر .

الأسماء الحسنى
كما جاءت فى الكتاب العربى المبين

نزلت فى القرآن العظيم « الأسماء الحسنى » التالية ، حسب ترتيبها فى المصحف .

(١) الله

(٢) الرحمن

(٣) الرحيم

﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ (١ ــ الفاتحة) .

(٤) الرب . رب العالمين

﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ (٢ ــ الفاتحة)

(٥) الملك

﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ (٤ ــ الفاتحة)

﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ (١١٤ طه) .

(٦) المحيط

﴿ **والله محيط بالكافرين** ﴾ (١٩ البقرة)

﴿ **ألا إنه بكل شىء محيط** ﴾ (٥٤ فصلت)

(٧) القدير

﴿ **إن الله على كل شىء قدير** ﴾ (٢٠ البقرة)

(٨) العليم

﴿ **فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم** ﴾ (٢٩ البقرة)

(٩) الحكيم

﴿ **قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم** ﴾ (٣٢ البقرة) .

(١٠) التواب

﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ (٣٧ البقرة) .

(١١) البارىء

﴿ ... فتوبوا إلى بارئكم ﴾ (٥٤ البقرة) .

(١٢) البصير

﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ (٩٦ البقرة)

(١٣) الولى

﴿ وهو الولى الحميد ﴾

(١٤) النصير

﴿ وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير ﴾ (١٠٧ البقرة)

(١٥) الواسع

﴿ ان الله واسع عليم ﴾ (١١٥ البقرة)

(١٦) البديع

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ (١١٧ البقرة)

(١٧) السميع

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ (١٢٧ البقرة)

(١٨) العزيز

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (١٢٩ البقرة) .

(١٩) الإله

(٢٠) الواحد

﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم واسماعيل واسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ (١٣٣ البقرة)

(٢١) الرءوف

﴿ إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ (١٤٣ البقرة)

(٢٢) الشاكر

﴿ ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم ﴾ (١٥٨ البقرة)

(٢٣) الغفور

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ (١٧٣ البقرة)

(٢٤) القريب

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾ (١٨٦ البقرة)

(٢٥) الحليم

﴿ والله غفور حليم ﴾ (٢٢٥ البقرة)

(٢٦) الخبير

﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ (٢٣٤ البقرة)

(٢٧) الحى

(٢٨) القيوم

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾

(٢٩) العلى

(٣٠) العظيم

﴿ وهو العلى العظيم ﴾ (٢٥٥ البقرة)

(٣١) الغنى

﴿ والله غنى حليم ﴾ (٢٦٣ البقرة)

(٣٢) الحميد

﴿ واعلموا أن الله غنى حميد ﴾ (٢٦٧ البقرة)

(٣٣) الوهاب

﴿ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾ (٨ آل عمران)

(٣٤) الجامع

﴿ ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ﴾ (٩ آل عمران)

(٣٥) القائم

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط ﴾ (١٨ آل عمران)

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ (٣٣ الرعد)

(٣٦) مالك الملك

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ﴾ (٢٦ آل عمران)

(٣٧) الشهيد

﴿ والله شهيد على ما تعملون ﴾ (٩٨ آل عمران)

(٣٨) الناصر

﴿ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ (١٥ آل عمران)

(٣٩) الوكيل

﴿ فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ (١٧٣ آل عمران)

(٤٠) الرقيب

﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ (١ النساء)

(٤١) الحسيب

﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ (٦ النساء)

(٤٢) الكبير

﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ (٣٤ النساء)

(٤٣) العفو

﴿ إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ (٤٣ النساء)

(٤٤) المقيت

﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾ (٨٥ النساء)

(٤٥) الرزاق

﴿ وارزقنا وانت خير الرازقين ﴾ (١١٤ النساء)

(٤٦) الفاطر

﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ (١٤ الانعام)

(٤٧) القاهر

﴿ وهو القاهر فوق عباده ، وهو الحكيم الخبير ﴾ (١٨ الانعام)

(٤٨) القادر

﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (٣٧ الانعام)

(٤٩) الحق

﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ (٦٢ الانعام)

٥٠ عالم الغيب والشهادة

﴿ عالم الغيب والشهادة وهو الحكيم الخبير ﴾ (٧٣ الانعام)

(٥١) الخالق

﴿ ذالكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شى فاعبدوه ﴾ (١٠٢ الانعام)

(٥٢) اللطيف

﴿ لا تدركه الابصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾ (١٠٣ الانعام)

(٥٣) الحكم

﴿ أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ (١١٤ الانعام)

(٥٤) الصادق

﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ (١٤٦ الأنعام)

(٥٥) المولى

﴿ فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ (٤٠ الأنفال)

(٥٦) القوى

﴿ إن الله قوى شديد العقاب ﴾ (٥٢ الأنفال)

(٥٧) الحفيظ

﴿ إن ربى على كل شيء حفيظ ﴾ (٥٧ هود)

(٥٨) المجيب

﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب ﴾ (٦١ هود)

(٥٩) المجيد

﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ (٧٣ هود)

(٦٠) الودود

﴿ إن ربى رحيم ودود ﴾ (٩٠ هود)

(٦١) المستعان

﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ (١٨ يوسف)

(٦٢) الغالب

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٢١ يوسف) .

(٦٣) القهار

﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ (٣٩ يوسف)

(٦٤) الحافظ

﴿ فالله خير حافظاً ، وهو أرحم الراحمين ﴾ (٦٤ يوسف)

(٦٥) المتعالى

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ (٩ الرعد)

(٦٦) الوالى

﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾ (١١ الرعد)

(٦٧) الشديد

﴿ وهم يجادلون فى الله وهو شديد المِحَالِ ﴾ (١٣ الرعد)

ذكر هذا الاسم الحسن فى رواية زهير ، ومن أسرار القرآن العظيم أن ينزل هذا الاسم « الشديد » هذا الاسم الكريم فى الآية الثالثة عشرة ، من السورة الثالثة عشرة ، من الجزء الثالث عشر من الكتاب العزيز ؛ ذلك بأن سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة حسب ترتيبها فى المصحف الشريف .

(٦٨) الوارث

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون ﴾ (٢٣ الحجر)

(٦٩) الخلاق

﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ (٨٦ الحجر)

(٧٠) الكفيل

﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ (٩١ النحل)

(٧١) المقتدر

﴿ وكان الله على كل شىء مقتدرا ﴾ (٤٥ الكهف)

(٧٢) الحفى

﴿ قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا ﴾ (٤٧ مريم)

(٧٣) الغفار

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ (٨٢ طه)

(٧٤) الهادى

﴿ وإن الله لهادِ الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ (٥٤ الحج)

(٧٥) المبين

﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ (٢٥ النور)

٧٦ ــ النور

﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[١]

٧٧ ــ الكريم

﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[٢]

٧٨ ــ المنتقم

﴿ ومن أظلم ممن ذُكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون ﴾[٣]

٧٩ ــ الفتاح

﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾[٤]

٨٠ ــ الشكور

﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور ﴾[٥]

٨١ ــ الكافى

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾[٦]

٨٢ ــ الغافر

﴿ غافر الذنب ﴾[٧]

٨٣ ــ الرفيع الدرجات

٨٤ ــ ذو العرش

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق ﴾[٨] غافر

---

(١) النور آية : ٣٥
(٢) النمل آية : ٤٠
(٣) السجدة آية : ٢٢
(٤) سبأ آية : ٢٦
(٥) فاطر آية : ٣٠
(٦) الزمر آية : ٣٦
(٧) غافر آية : ٣
(٨) غافر آية : ١٥

٨٥ ــ المحيى

﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذى أحياها لمحيى الموق ، إنه على كل شىء قدير ﴾(١) .

٨٦ ــ الرزاق

٨٧ ــ ذو القوة

٨٨ ــ المتين

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٢) .

٨٩ ــ البر

﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ، إنه هو البر الرحيم ﴾(٣) .

٩٠ ــ المليك

﴿ فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾(٤) .

٩١ - ذو الجلال والإكرام

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾(٥) .

٩٢ ــ الأول

٩٣ ــ الآخر

٩٤ ــ الظاهر

٩٥ ــ الباطن

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾(٦) .

٩٦ ــ القدوس

٩٧ ــ السلام

٩٨ ــ المؤمن

٩٩ ــ المهيمن

١٠٠ ــ الجبار

١٠١ ــ المتكبر

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحان الله عما يشركون ﴾(٧) .

---

(١) فصلت آية : ٣٩
(٢) الذاريات آية : ٥٨
(٣) الطور آية : ٢٨
(٤) القمر آية : ٥٥
(٥) الرحمن آية : ٢٢
(٦) الحديد آية : ٣
(٧) الحشر آية : ٢٣

١٠٢ ـــ المصور

﴿ هو الله الخالق البارىء المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴾(١) .

١٠٣ ـــ الأعلى

﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾(٢)

١٠٤ ـــ الأكرم

﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾(٣)

١٠٥ ـــ الأحد

﴿ قل هو الله أحد ﴾(٤)

١٠٦ ـــ الصمد

﴿ الله الصمد ﴾(٥)

الذى ﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾

تلك هى الأسماء الحسنى التى جاءت فى القرآن العظيم ، بصيغة الاسم ، وفى مواضع ظاهرة من آيات الكتاب العزيز ، وقد قرأت مائة وستة اسماء نزلت بلفظ الاسم فى آى الذكر الحكيم . والحكمة فى قوله ﷺ « تسعة وتسعين » :

نلاحظ أن العدد « تسعة وتسعين » ذكر فى كلام الرسول أكثر من مرة كقوله ﷺ :

« إن الله عز وجل خلق مائة رحمة فمنها رحمة يتراحم بها الخلق .. وأخّر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة(٦)

كما ذكر هذا العدد فى القرآن الكريم مرة ، فى الآية الثالثة والعشرين من سورة « ص » وأغلب الظن أن هذا العدد ذكر فى كتب الله التى نؤمن بها فما الحكمة فى اختيار هذا العدد بالذات ، مع إجماع العلماء أن الاسماء الحسنى أكثر من هذا ؟ بل إن بعض الاسماء الحسنى قد استأثر بها الله سبحانه ، فى علم الغيب عنده . بدليل هذا الدعاء للنبى ـــ ﷺ ـــ :

---

(١) سورة الحشر آية : ٢٤
(٢) سورة الأعلى آية : ١
(٣) سورة العلق آية : ٣
(٤) سورة الاخلاص آية : ١
(٥) سورة الاخلاص آية : ٢
(٦) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير حـ ٦ رقم ٦١٢٦ صـ ٣٠٧ وأخرجه أيضا صحيح مسلم فى كتاب التوبة باب فى سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه حـ ٤ صـ ٢١٠٨ رقم ٢٠ / ٢٧٥٣ وهما ما أسند عن سلمان الفارسى .

« . . . أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى »[١] .

ويرى الفخر الرازى ، أن الحكمة فى القصر على هذا العدد المخصوص ، أنه تعبد لا يعقل معناه ، كما قيل فى عدد الصلوات وغيرها .. ، إشارة إلى أن الأسماء لا تؤخذ قياساً ، وربما كان السبب فى اختيار هذا العدد أنه يطلق على الأشياء ، التى يصعب حصرها ، وربما كانت الحكمة أن معانى الأسماء ولو كانت كثيرة جداً ، إلا أنها موجودة ــ على قدر احتياجنا ــ فى هذه الأسماء الحسنى التسعة والتسعين ، أو أن الأسماء المذكورة هى أشهر الأسماء وأبينها معانى ، وذلك بقدر حاجتنا إلى الاسماء ، التى ندعو بها الله سبحانه ، وليس بعد أسماء الله الذى لا إله إلا هو . وأخيراً أحب أن أضيف أن كثيراً ممن عنى بكتابة الأسماء الحسنى ، قد ذكر مائة اسم ، كما فعل الإمام أبو بكر البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ فقد ذكر البيهقى الأسماء كما جاءت برواية الوليد عن شعيب ، ثم أضاف الاسم : « الكافى » فيكون المجموع مائة ، وقد جزم الهيلى فقال : الأسماء الحسنى مائة على عدد درجات الجنة ، والحديث الشريف يقول : « مائة غير واحد فى رواية الوليد عن شعيب » . ويقول الرسول محمد ــ ﷺ ــ : « مائة إلا واحداً »[٢] . فى رواية زهير ويكون « الواحد » هو الله الذى لا إله إلا هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد والله ورسوله أعلم .

الله

هو الاسم العظيم الدال على الموجود الحق الجامع لجميع صفات الكمال الإلهية ، وهو أكبر الأسماء وأجمعها للمعانى ،

وهو الاسم الذى تفرد به الله سبحانه وتعالى ، واختصه لنفسه ، وقدمه على جميع اسمائه ، وأضاف اسماءه كلها إليه ، وكل ما يأتى بعده من الاسماء نعت له ، وصفة ، ومتعلقة به ، وتوصف سائر الأسماء بأنها اسماء الله تعالى ، وتعرف فى الأغلب بالإضافة إليه ، أو تجرى له مجرى الصفات ، وقد سبقت الأسماء الحسنى : الرب الرحمن العزيز ، الحميد ، الحكيم ، قليلاً نادراً فى بعض آيات القرآن الكريم :

(١) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ٢ صـ ٢٦٧ .
(٢) أخرجه أحمد فى مسنده حـ ١ صـ ٣٩١ ، صـ ٤٥٢ .

فقد ذكر اسم الرب مسنداً إليه فى الآية ١٣٣ من سورة الأنعام :

﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ ٥٨ الكهف

كما ذكر اسم « الحكيم » مسنداً إليه فى الآية الأولى من سورة هود :

﴿ آلر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، يقال : من الأسماء الحسنى من أسماء الله تعالى ، ولا يقال الأسماء الحسنى من أسماء الحليم ، أو من أسماء الغفور ، أو من أسماء الصبور » .

وإذا قلت : «الله » لم ينطلق إلا عليه سبحانه وتعالى ، ولهذا جاز أن ينادى اسم الله وفيه لام التعريف ، ويقطع همزته فيقال : ياالله واللهم أصله ياالله ، حذف حرف النداء ، وعوّض عنه ميم مشددة بالآخر للتعظيم والتفخيم .

والاسلام لا يتم إلا بذكر هذا الاسم الكريم : « الله » ولا يقبل اسم عوض منه ، فلا يقال إلاه .

لا إله إلا الله

قال محمد ـــ ﷺ ـــ : « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله »

فتعالوا معى لنرى بعض النور الذى فى هذه الكلمة ، الكلمة الطيبة ، كلمة التقوى : لا إله إلا الله .

« لا » نافية

« إله » كلمة إلاه ، على وزن كتاب ، اسم بمعنى مألوه ، على وزن مفعول ، مثل كتاب هو اسم بمعنى مكتوب ، ومثل إمام وهو مأموم . وخير الطرق لمعرفة مدلول هذا اللفظ ، هو طريق الاشتقاق : يقال : ألَه ، أى عَبَدَ . ويقال : ألَه إلا الله ، وأله أكوهة ، أى ألَه ألوهية ، أى عبد عبادة ، ويقال يتأله ، يتعبد ، ويقال : هو عابد متأله فيكون الإله هو المعبود .

والعبادة هى الطاعة وتنفيذ الدين ، والمقصود من العبادة هو العمل للوصول إلى غاية ، أى أن العبادة هى الطريق إلى غاية .

فمن عبد الله ليتوصل بعبادته إلى كسب ثواب ، أو دفع عقاب ، كان المعبود فى الحقيقة ، هو ذلك الخير ، قال الله تعالى :

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات آلله والله رءوف بالعباد ﴾[١] « يشرى نفسه : أى يبيع نفسه » .

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين ﴾[٢] .

فالعبادة يجب أن تكون لغير غاية إلا الله ، وإلا كانت غير ثبات على دين الحق ، وانحراف عن سبيل الله ، وهذا هو الشرك الذى ربما لا يراه بعض الناس ، وأولى بمن يفعل ذلك أن يخلص دينه لله ، قال تعالى :

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾[٣]

والإخلاص : هو قصد المؤمن بعمله ونيته مرضاة الله وحده ، والقصد : هو اتجاه الإنسان بنفسه إلى المقصود علناً ، ومثله الاتجاه إلى المقصود سراً ، ولا يجوز أن يكون المقصود سراً أو علناً إلا الله وحده . وفى اللغة : خَلَصَ الشئ ، فهو خالص ، أى سلم ونجا . يقال : خلص الماء من الكدر ، أى صفا ، وهذا ثوب خالص إذا كان صافى البياض ، والدين الخالص أى خلوصه من الشرك ومن الرياء ، والذين هم يراءون لهم من المشركين .

ولما كان الدعاء هو مخ العبادة ، بل إن سؤال الله وحده ، هو العبادة ، ثم ينبغى أن نعلم علم اليقين ، أن ما عند الله هو أقرب إلينا مما فى أيدينا ، من أجل ذلك ، فلا يسأل إلا إياه ، ولا يقصد إلا إياه ، ومَنْ غير الله ، صاحب الأسماء الحسنى ، يقصد فى الرغائب كلها ؛ وهو الذى يحب أن يسأل ، وهو الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، وكل مولود يولد على الفطرة ، والفطرة هى الميل الفطرى من القلب إلى الذى فطره ، وهذه هى فطرة الله التى فطر الناس عليها ، وهذا هو دين الله ، ولا تبديل لدين الله ، قال الله تعالى :

(١) البقرة آية : ٢٠٧
(٢) الحج آية : ١١
(٣) الزمر الآيتان : ٢ ، ٣

﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾(١) . « وخلق الله هو دين الله » .

وقد أجمع العلماء على أن تفسير : « لا تبديل لخلق الله » ، فى الآية الكريمة المحكمة السابقة ، هو : « لا تبديل لدين الله » . وقد ذكر من قال ذلك فى تفسير الطبرى :

حدثنى محمد بن عمرو بسنده عن مجاهد : « لا تبديل لخلق الله : قال : « لدينه » . أى لدين الله .

وجاء فى صحيح البخارى فى تفسير سورة الروم : ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ : **لدين الله ، خلق الأولين : دين الأولين ، والفطرة الإسلام ، وهذا هو الدين الحنيف** .(٢) .

والدين هو الشريعة ، والدين هو الطاعة والانقياد ، والدين الحنيف هو الحب فى الله ، أى أن عبادة الرحمن ، هى اعتصام بالله بحبل من الحب .

﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾(٣)

والحب هو ميل القلب إلى من يحب ، يقال : مال إليه ـــ أى أحبَّه . وهذا الحب الحنيف ، هو ميل قلب العابد إلى المعبود ، الذى لا إله إلا هو ، وهو ميل القلب الفطرى إلى فاطر السموات والأرض ، وهو من لدن الله ، وهو من روح الله ، وهو من نور الله ، وهو من آيات الله ، وهو فطرة الله ، وهو ملك للذى فطره ، مقلب القلوب الذى لا إله إلا هو الرحمن ، وهو هدى الله ـــ يهدى به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، قال تعالى : ﴿ **إن ربى على صراط مستقيم** ﴾(٤) .

وهذا الميل من القلب إلى صاحب الفضل ، خلقه وطبيعة فى الإنسان ، فإن المولود يحب ويميل ويطرب إلى أمه ، التى ترضعه وتحنو عليه ، لينام آمناً ويقوم ، والمريض يحب الطبيب ، الذى كان سبباً فى ذهاب الآم مرضه ، والفضل كله لله ، فمن باب أولى- أن يميل القلب الذى هداه الله إلى الحق ، ومن حق هذا القلب ، أن يميل إلى الذى خلقه ، وخلق كل شيء ، قال تعالى على لسان إبراهيم :

(١) الروم آية : ٣٠

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه . كتاب التفسير . تفسير سورة الروم حـ ٦ صـ ١٤٣ ط / الشعب

(٣) آل عمران آية : ١٠١

(٤) هود آية : ٥٦

﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ﴾
﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾
﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾
﴿ والذى يميتنى ثم يحيين ﴾(١)

وإن الله تعالى أرحم بنا جميعاً من الأم بابنها ، ومن رحمته أن جعل لنا هذا الميل الفطرى ، الذى يهدى الله به من يشاء إلى سبيله وإلى الصراط المستقيم ، صراط الله ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، وهذا هو دين الحق ، وهو الدين القيم ، وهو الدين الحنيف .

معنى الحنف فى اللغة :

الحاء والنون والفاء ، ح ن ف ، حنف ، أصل مستقيم ، وهو « الميل » يقال : حنف يحنف حنفاً ، أى مال يميل ميلاً بسكون الياء ، ويقال : قد تحنف فلان إلى الشىء إذا مال إليه ، ومنه قيل لمن مال عن كل دين أعوج : هو حنيف ، وله دين حنيف ، وتحنف فلان إذا أسلم ، والحنيف : هو المخلص الذى أسلم لأمر الله ، فلم يلقو فى شىء من دينه ، وجمعه حنفاء ، قال الله تعالى : ﴿ **حنفاء لله غير مشركين به** ﴾(٢)

أى مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له ، كما جاء فى كتب التفسير ويقال : مال إلىّ ، أى أقبل إلىّ ، أو عدل إلى — والعدل : هو ما قام فى النفوس أنه المستقيم ، وهو ضد الجور — يقال : اعتدل أى استقام ، جاء فى لسان العرب لابن منظور :

وفى أسماء الله سبحانه ، العدل : هو تعالى الذى لا يميل به الهوى ، فيجور فى الحكم والتعديل هو التقويم .

والميل هو الرغبة ، يقال : مال إلىّ : أى رغب إلىّ ، ويقال : رغب يرغب رغبة ، إذا حرص على الشىء وطمع فيه ، ومنها الرغبة إلى الله تعالى ، ويقال رغب فيه رغباً ورغبة ، أى أراده بالحرص

(١) الشعراء الآيات : ٧٨ — ٨١
(٢) الحج آية : رقم ٣١

عليه وأحبه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون** ﴾(١) .

﴿ **عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون** ﴾(٢) .

﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ (٣) .

غير أن الرغبة إلى الله الواحد القهار ، امتزج فيها الرهبة مع الرغبة ، والخوف مع الطمع ، قال الله تعالى :

﴿ **إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين** ﴾ .

﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾(٥) .

وهكذا نرى أن الحنف معناه : « الميل » فإن كان الحنف خلقة فى الشىء ، فهو « قتيل » بفتح الياء ، يقال مال يميل ميلاً ، بفتح الياء ، أى أعوج . يقال : رجل أحنف ، أى به اعوجاج فى الرِّجلين ، ويمشى على ظهر قدميه ، وبه حنف ، وقد حنفت رجله ، وهى حنفاء بفتح الحاء .

والمِّلة هى طريقة للوصول ، وخير الملل هى ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، الذى أخلص دينه لله ، واستعمل ميل قلبه الفطرى للوصول إلى الله الرحمن الرحيم .

﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سَفِه نفسه** ﴾(٦) .

ومن يميل عن صراط الله إلا من جهل فطرته .

من أجل ذلك ، اتفق ذكر الحنيفية السمحة فى القرآن الكريم مع تأكيد الإخلاص لله ، وعدم الشرك به سبحانه .

١ ــ ﴿ **قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين** ﴾(٧)

---

(١) التوبة آية رقم : ٥٩
(٢) القلم آية رقم : ٣٢
(٣) الشرح آية : ٨
(٤) الأنبياء آية رقم : ٩٠
(٥) السجدة اية رقم : ١٦
(٦) البقرة آية : ١٣٠
(٧) البقرة آية : ١٣٥

٢ ــ ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾[(١)] .
٣ ــ ﴿ قل صدق الله ، فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين ﴾[(٢)] .
٤ ــ ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين ﴾[(٣)] .
٥ ــ ﴿ قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[(٤)] .
٦ ــ ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴾[(٥)] .
٧ - ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ﴾[(٦)] .
٨ ــ ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾[(٧)] .
٩ ــ ﴿ حنفاء لله غير مشركين به . . . ﴾[(٨)] .
﴿ . . . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ﴾[(٩)] .

كما اتفق ذكر الحنف ، وهذا الميل من القلب إلى الله الواحد القهار ، مع ذكر « إبراهيم الذى وفى » ــ فى بضع آيات من القرآن العظيم .

ذلك بأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، استعمل ميل قلبه الفطرى ، للوصول إلى الله الحق المتين ، إذ لم ينشرح صدره أن تكون تماثيل أبيه آلهة وكفر بالكوكب ، ولم يشعر بأن يكون القمر أو الشمس رباً له ، ولم يشعر معهما إلا بقلب سقيم ، ورجع وذهب وأناب إلى الله ، وعلم أن لا سبيل له إلا طريق واحد ، يهدى إلى إله واحد ، وجاء ربه بقلب سليم « وسلام على إبراهيم » .

القلب السليم وطرق الوقاية والعلاج

هذا الاتجاه وهذا « الميل » وهذا الهدى إلى الإيمان هو من فضل الله ، يؤتيه من يشاء من عباده ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، ويزدادوا هدى .

﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ﴾[(١٠)] .

---

(١) آل عمران آية : ٦٧
(٢) آل عمران آية : ٩٥
(٣) الأنعام آية : ٧٩
(٤) الأنعام آية : ١٦١
(٥) يونس آية : ١٠٥
(٦) النحل آية رقم : ١٢٠
(٧) النحل آية رقم : ١٢٣
(٨) الحج آية رقم : ٣١
(٩) النساء آية رقم : ٨٢
(١٠) النساء آية رقم : ٦٩

﴿ **ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله** ﴾(١) ذلك بأن اتباع الشهوات ، هو ميل عظيم عن الحق من الذين فى قلوبهم مرض ، ليزدادوا مرضاً على مرضهم ، ورجساً على رجسهم ﴿ **ولكن الله يهدى من يشاء** ﴾(٢) .

وهذا من علم الله ، عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ، وإن مثل علم الله فينا ، كمثل السماء التى تظلنا والأرض التى تقلنا .

ولا نستطيع الخروج من علم الله ، وكما لا تحملنا السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لا يحملنا علم الله .

أما هذا الإيمان الفطرى ، فينبغى للإنسان المحافظة عليه ومن إغواء شياطين **الإنس والجن** ، كما نحافظ على الجسد من ضرر الجراثيم والفيروسات .

درجات القلوب التى فى الصدور :

ويمكن تقسيم سلامة القلب من المرض على قدر استجابة القلب إلى داعى الله ، أو استسلامه إلى كيد الشيطان على النحو التالى : —

أولاً : — القلب السليم :

وهذه هى أعظم درجة من الصحة القلبية ، وهى درجة المتقين ، كما وصفهم الله تعالى بهذه الآية الكريمة :

﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾(٣) .

ثانياً : — ثم تأتى بعد ذلك درجة الذين استجابوا لله ولرسوله ، إذا دعاهم لما يحييهم من النور والقرآن العظيم ، وهذه هى درجة الذين آمنوا وعملوا الصالحات وعلى ربهم سيتوكلون ، فليس للشيطان عليهم سلطان قال تعالى :

﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾(٤) .

ثالثاً : ثم تأتى بعد ذلك ، ومبادىء المرض عند الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، قال الله تعالى :

﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً** ﴾(٥) .

(١) القصص آية رقم : ٥٠
(٢) القصص آية : ٥٦
(٣) الأعراف آية رقم : ٢٠١
(٤) النحل آية رقم : ٩٩
(٥) النساء آية رقم : ١٧

رابعاً : — ثم تأتى بعد ذلك حالة القلب المريض ، الذى لايزال فى حالة صحية ، تسمح له بلاستجابة إلى المؤثرات الخارجية القوية ، فوق العادية ثم تزول هذه الاستجابة بزوال المؤثر .

ويمكن الكشف على مثل هذا القلب ، كما يمكن للطبيب أن يختبر الفعل غير الإرادى المنعكس ، فإن الطبيب إذا مس قرنية العين — القرنية ، هى الجزء الشفاف أمام حدقة العين — فإنه إذا مس الرمدى قرينة العين بطرف خيط رفيع من القطن مثلاً ، تكون أو الحركة المرتدة المنتظرة أن ترمش وتنقبض جفون العينين معاً ، ويكون هذا دليل على أن جميع الأعصاب الموصلة من قرينة العين إلى الجهاز العصبى المركزى ، ومنه إلى عضلات الجفون لتنقبض ، أى أن الأعصاب والعضلات مازالت سليمة ، وهذه علامة طيبة ، كما أن الرجوع إلى الحق ، والإنابة والتضرع إلى الله تعالى علامة على أن القلب لا يزال **يستجيب ، ويذكر الله تضرعة ، وإن كان لم يتضرع إلا فى الشدائد . قال عز وجل : —**

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾[1] .

﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ وهكذا نرى أن مس الضر ربما كان علاجاً للفريق الآخر .

خامساً : — حالة القلب المريض المزمن فى المرض إلى درجة القسوة ، ومثل هذا القلب القاسى ، لا تنفعه هزات ا لبأساء ، ولا صدمات الضراء ليخشع أو أن يرجع إلى الله ، قال تعالى :

﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾[2]

الوقاية : —

وكما أنه يجب تحصين كل مولود ضد الأمراض المعدية ، حتى يكتسب الطفل المناعة لهذه الأمراض ، لكى لا تفتك ببدنة ويبقى جسمه سليماً ، كذلك يجب أن يلقن الأطفال مبادىء الإسلام ، منذ نعومة أظفارهم ، حتى إذا ما بلغوا أشدهم ، أقاموا الدين الذى اصطفاه لنا الله ، حتى لا يضيعوا الصلاة ، وحتى لا يتبعوا الشهوات ، وحتى لا يكون دينهم لعباً ولهواً ، وحتى لا تكون الشياطين لهم أولياء ، تدخل عليهم فى مجال الدم واللحم ، وتبث فى عروقهم سموم الرجس والفحشاء والمنكر ، كالخمر والميسر ، وهكذا يطغى الدنس على قلوبهم بما اكتسبوا من الإثم ، فيقسو القلب ويدخله المرض ، والقلب المريض

---

(١) النحل آية رقم : ٥٣

(٢) الأنعام آية رقم : ٤٣

لا يعقل ولا يسمع ولا يرى ، إذا يفقد بياضه وشفافيته ، ولا ينفذ إليه نور الهداية ، ويرجع الإنسان إلى طبيعته الطينية السوداء ، قبل أن يفيض الله تعالى عليه من نوره ، وقبل أن ينفخ الله سبحانه فيه من روحه ، ويصبح كالأنعام ، أو أضل سبيلاً ، إذ يرد الإنسان أجوف لا يتمالك ، ويكون مرتعاً للشياطين ، تستعينه وتستهوية ، ولا يصغى مثل هذا القلب المريض إلا إلى هواه ، قال تعالى :

﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾[1] وهذه هى أقصى درجات المضاعفات من المرض ، وليس بعدها إلا الهلاك .

العلاج : ـــ

ويتلخص العلاج فى الإنابة والرجوع إلى الله تعالى ، حتى لا يُعبد إلا اياه ، والتمسك بكتابه الكريم حتى لا نضل الطريق ، قال الله تعالى فى كتابه الحكيم : ـــ

﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾[2] .

وقال سبحانه : ـــ

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾[3] .

وقال جل ثناؤه : ـــ

﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[4] .

وقال تعالى :

﴿ . . . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين ﴾[5] .

والتوبة الخالصة براءة وطهور للقلب ، ورجوع إلى الفطرة ، وكأنها ميلاد جديد فينفذ نور الإيمان إلى القلب ، فيخرجه الله من الظلمات إلى النور ، فيمكن للإنسان أن يحارب أولياء الشيطان ، ويمكنه العمل بكتاب الله ، الذى يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله ، ويكون الميل كله لله ، ويكون الحب كله لله ، وتكون العبادة كلها لله ، وتكون الألوهية كلها لله ، ويكون لا إله إلا الله .

(١) الفرقان آية رقم : ٤٣
(٢) الزمر آية رقم : ٥٣
(٣) مريم آية رقم : ٦٠
(٤) طه آية رقم : ٨٢
(٥) الروم آية رقم : ٣١

٢ ـ والتفسير الثانى لكلمة « إله » يأتى من قولنا : أله الرجل إذا فزع من أمر نزل به : فيقال : ألهه بمعنى أجاره يجيره فألهه : أى أجاره وأغاثه وأمنه ، قال الله تعالى :

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء . . ؟ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾[1]

والله وحده هو الذى يغيث من يستجير به ، ولا يجرؤ مخلوق أن يحمى مخلوقاً من الخالق ، وما من خالق غير الله .

٣ ـ والتفسير الثالث لكلمة « إله » يعرف من قولنا : أله بمعنى تحير ، يقال أَلِه ـ يأله ، إذا تحير . والآلِهُ : هو المتحير .

ومن المجاز : حار الماء فى المكان وتحير ، واستحار إذا اجتمع ووقف . والألهانية ، فعلانية من أله : إذا تحير ، وفى قول وهب بن الورد : « إذا وقع العبد فى ألهانية الرب ومهيمنية الصديقين ورهبانية الأبرار ، لم يجير أحداً يعجبه ولم يحب إلا الله سبحانه » .
أى : إذا وقع العبد فى عظمة الله وجلاله ، وغير ذلك من صفات الربوبية ، وحرف همه الها ، أبغض كل شيء حتى ما « يميل » قلبه إلا إلى الله ، ذلك بأن الله هو الأول والآخر ، وهو الظاهر والباطن ، وهو الكبير المتعال الذى تأله العقول فى عظمته .

قال الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب ، الجزء الأول ، صفحة : ٨٥ : (فالعبد إذا تفكر فيه تحير ، لأن كل ما يتخيله الإنسان ويتصوره ، فهو بخلافه ، مع الاعتراف بالعجز عن الإدراك ، فههنا العجز عن درك الإدراك إدراك ، ولا شك أن هذا موقف عجيب ، تتحير العقول فيه) وأى شيء أكثر حيرة أن يكون سبحانه : ـ

﴿ . . . ليس كمثله شيء ﴾[2]

٤ ـ **ويجوز أن تشتق كلمة** ولاه من كلمة إله . وذلك لأن الألف من الحروف المتحركة ، ويمكن أن تكون قد أبدلت الواو همزة ، فيكون أصله : ولاة ، فأبدلت الواو فقيل إله ، كما قالوا : أشاح فى وشاح ، واشتق من ألوله وهو شدة الطرب والسرور أو شدة الحزن والخوف ، يقال : وله ، يله ويوله ولهاً إلى أمه وغيرها ، أى حسن واشتد وحيره ، كما يقال أله **الفصيل** إذا وله بأمه ، ويكون التفسير

١ ـ المؤمنون آية رقم : ٨٨
٢ ـ الشورى آية رقم : ١١

الرابع لكلمة أله ، أو ولاه أن الخلق يولهون إلى الله تعالى فى حوائجهم ، ويضرعون إليه فيما ينوبهم من الأهوال والشدائد ، قال الله تعالى : ـــ

﴿ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون ﴾[١]

قال الراغب الأصفهانى : وكل مخلوق ، واله نحو الله تعالى ، إما بالتسخير فقط ، كالجمادات والحيوانات وإما بالتسخير والإرادة معاً ، كبعض الناس ، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء : الله محبوب الأشياء كلها ، وعليه دل قول الله تعالى :

﴿ . . . وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾[٢] وجاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم ، الذى وضعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، تحت كلمة سبح : سبح يسبح سبحاً وسباحة : عام ومّر فى الماء . وسبح سبحاً : جرى :

﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾[٣]

ويقال : حف أى طف ، وسبحان الله الذى لا إله إلا هو ، مالك يوم الدين ، **الذى** قال فى كتابه المبين : ـــ

﴿ وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾[٤] ولما كان الاشتقاق ، هو أخذ كلمة من كلمة ، مع تناسب بينهما فى اللفظ والمعنى ، ولما كان من الممكن إشتقاق كلمات من كلمة « إله » وهى المركبة من ثلاث حروف ، لأنه يمكن جعل كل واحد من تلك الحروف الثلاثة إبتداء ، وبذلك يمكن أن نشتق منها الكلمات والأصول التالية : ـــ أولاً : ل أ هـ ، لا ه

١ ـــ يقال : لاه يليه ليها ، بمعنى علا وارتفع ، يقال : لاهت الشمس ، إذا علت وتوسطت كبد السماء ، وسميت الشمس ألاهة ، لارتفاعها فى السماء .

وقال الجوهرى : (كأنهم سموها ألاهة ، لتعظيمهم لها فى عبادتهم إياها) . هذا وقد سمى القمر مثل ذلك ، ويوجد من يعظم النار ، لأنها جوهر علوى كما يقولون ، ولكن :

---

١ ـــ الأنعام آية رقم : ٦٤
٢ ـــ الاسراء الآية رقم : ٤٤
٣ ـــ يس آية رقم : ٤٠
٤ ـــ الزمر آية رقم ٧٥

﴿ . . . أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ﴾[١] .

وهو الذى سخر الشمس والقمر وهو :

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[٢] .

والله سبحانه وتعالى هو المتعال على خلقه بالقهر وهو ﴿ القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴾[٣] .

﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾[٤] .

ذلك بأنه سبحانه ، العلى فوق كل شىء لقدرته وهو :

﴿ رفيع الدرجات ذو العرش ﴾[٥] .

وسبحان الله عظيم الصفات وسبحان ربى الأعلى .

ثانياً : ـــ لاه بمعنى تستر . يقال لاه يليه ليها . أى احتجب وسبحان من احتجب عن الخلق ، فلا عين تراه ، وهو الذى تخشع القلوب من كلمات كتابه .

﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾[٦] .

﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾[٧] .

وكيف تراه العيون وهو الذى :

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾[٨] .

ومع ذلك ، فإننا نرى آيات الله فى كل شىء قال تعالى :

﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ﴾[٩] .

ثالثا : أ هـ ل ، أهل ، يقال : هو أهل لكذا ، أى مستوجب ، ويقال : قد استأهل وهو مستاهل له . . . ومن غير الله أهل للألوهية . كلها ؟

﴿ . . . هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾[١٠] .

---

(١) يوسف آية : ٣٩
(٢) الرعد آية : ٩
(٣) الأنعام آية : ١٨
(٤) لقمان آية : ٣٠
(٥) غافر آية : ١٥
(٦) الحشر آية : ٢١
(٧) الأعراف آية : ١٢٣
(٨) الأنعام آية : ١٠٣
(٩) فصلت آية : ٥٣
(١٠) المدثر آية : ٥٦

رابعاً : هـ أ ل ، هاك ، والهول : هو المخافة من الأمر والله وحده ، هو الذى نرجو رحمته ونخاف عذابه .

قال تعالى : ﴿ أليس الله بكاف عبده ؛ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾(١)

﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٢)

خامساً : هـ ل ل ، هلل ، الهاء واللام أصل يدل على رفع الصوت (كما جاء فى كتاب مقاييس اللغة لابن فارس ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) واستهلال المولود ، هو صياحه ساعة ولادته ، واستهلال المطر ، هو صوت وقوعه على الأرض ، والله وحده هو الذى مستغيثاً به تعالى :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ (٣)

(جأر ـــ صاح)

ويفسر العلماء ﴿ وما أهل به لغير الله ﴾(٤) أى ما ذكر عليه اسم غير اسم الله وهو ما كان يذبح للأصنام ، لذلك حرم الله لحومها على المؤمنين كما حرم عليهم الميتة والدم المسفوح ، قال تعالى :

﴿ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله ﴾(٤) .

وقيل أيضاً للملبى فى حجة أو عمرة : مهل ، ويقال : أهل بالحج أى رفع صوته بالتلبية ، وقيل : الإهلال والتهلل ، أن يقال : لا إله إلا الله ، قال الراغب الأصفهانى ، المتوفى سنة ٥٠٢ هجرية : ومن هذه الجملة : « لا إله إلا الله » ركبت هذه اللفظة . التهلل وسبحان الله :

﴿ . . . عالم الغيب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ﴾(٥)

وهو الله الذى لا إله إلا هو ، وهو الذى قال فى كتابه الكريم :

﴿ وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا اياه . . ﴾(٦)

الله ٢٦٩٩

ذكر الاسم « الله » سبحانه وتعالى ألفين وستمائة وتسع وتسعين مرة فى القرآن الكريم ، كما ورد فى المعجم الفهرسى ، وزيادة ذكر « الله » مرة فى بسم الله الرحمن الرحيم ، باعتبار البسمله آية فى فاتحة الكتاب وفى الكتاب الحكيم آيات بينات محكمات ، ذكر فى أول كل منها الاسم الأعظم الله ومنها :

---

(١) الزمر آية : ٣٦
(٢) البقرة آية : ١١٢
(٣) النحل آية : ٥٣
(٤) البقرة آية : ١٧٣
(٥) سبأ آية : ٣
(٦) سورة الاسراء آية : ٦٧

١ ــ ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾(١) .

٢ ــ ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾(٢) .

٣ ــ ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾(٣) .

٤ ــ ﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا ﴾(٤)

٥ - ﴿ الله الذى رفع السموات بغير عمدٍ ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنونَ ﴾(٥) .

٦ ــ ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار ﴾(٦) .

٧ - ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع ﴾(٧) .

٨ ــ ﴿ الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾(٨)

٩ ــ ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ﴾(٩) .

---

(١) البقرة آية : ٢٥٥
(٢) البقرة آية : ٢٥٧
(٣) آل عمران آية : ٢
(٤) النساء آية : ٨٧
(٥) الرعد آية : ٢
(٦) الرعد آية : ٨
(٧) الرعد آية : ٢٦
(٨) ابراهيم آية : ٢
(٩) ابراهيم آية : ٣٢

١٠ ـ ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[١] .

١١ - ﴿ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴾[٢] .

١٢ - ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾[٣] .

١٣ ـ ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[٤] .

١٤ - ﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾[٥] .

١٥ - ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شىء عليم ﴾[٦] .

١٦ ـ ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ﴾[٧] .

١٧ - ﴿ الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾[٨] .

١٨ ـ ﴿ الله الذى يُرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾[٩]

١٩ ـ ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾[١٠] .

---

١ ـ طه آية : ٨
٢ ـ الحج آية : ٦٩
٣ ـ الحج آية : ٧٥
٤ ـ النور آية : ٣٥
٥ ـ النمل آية : ٢٦
٦ ـ العنكبوت آية : ٦٢
٧ ـ الروم آية : ١١
٨ ـ الروم آية : ٤٠
٩ ـ الروم آية : ٤٨
١٠ ـ الروم آية : ٥٤

٢٠ ـ ﴿ الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾[١] .

٢١ - ﴿ الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾[٢] .

٢٢ ـ ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾[٣] .

٢٣ ـ ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] .

٢٤ - ﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾[٥] .

٢٥ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً ، إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾[٦] .

٢٦ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾[٧] .

٢٧ ـ ﴿ الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ﴾[٨] .

٢٨ ـ ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾[٩] .

٢٩ ـ ﴿ الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز ﴾[١٠] .

٣٠ ـ ﴿ الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾[١١] .

---

(١) السجده آية : ٤
(٢) الصافات آية : ١٢٦
(٣) الزمر آية : ٢٣
(٤) الزمر آية : ٤٢
(٥) سورة الزمر آية : ٦٢
(٦) غافر آية : ٦١
(٧) غافر آية : ٦١
(٨) غافر آية : ٦٤
(٩) الشورى آية : ١٧
(١٠) الشورى آية : ١٩
(١١) الجاثيه آية : ١٢

٣١ ــ ﴿ الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾[١] .

٣٢ ــ ﴿ الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾[٢] .

٣٣ - ﴿ الله الصمد ﴾[٣] .

الذى

﴿ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾[٤] .

ومن أسرار القرآن العظيم أن نزلت فيه تسع وعشرون سورة لم يذكر فيها لفظ الجلالة (الله) وهى سور : القمر ــ الرحمن ــ الواقعة ــ القلم ــ القيامة ــ المرسلات ــ النبأ ــ عبس ــ **المطففين - الطارق - الفجر - البلد - الليل - الشرح - القدر - الزلزلة - القارعة - التكاثر - العصر - الفيل - قريش - الماعون - الكوثر - الكافرون - المسد - الفلق - الناس .**

وإذا تدبرنا القرآن وجدنا أن السور التى ذكر فيها اسم (الله) كثيراً وبعدد أكثر من عدد آيات هذه السور ، هى سور آل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة . كما نلاحظ أن لفظ الجلالة (الله) ذكر مرة واحدة فى أول الآية الرابعة من الثلاثين آية فى سورة السجدة ، وذكرت كلمة (الله) ثلاث مرات فى سورة يس مرتين فى الآية السابعة والأربعين .

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين ﴾[٥] .

والثالثة فى الآية الرابعة والسبعين .

﴿ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون ﴾[٦] .

وذكر اسم الجلالة (الله) مرة واحدة فى سورة (ق) فى الآية السادسة والعشرين :

﴿ الذى جعل مع الله إلهاً آخر فألقياه فى العذاب الشديد ﴾[٧] .

---

١ ــ التغابن آية : ١٣
٢ ــ الطلاق آية : ١٢
٣ ــ الإخلاص آية : ٢
(٤) سورة الاخلاص آية : ٣ ، ٤
(٥) سورة يس آية : ٤٧
(٦) سورة يس آية : ٧٤
(٧) سورة ق آية : ٢٦

وذكر الاسم الله مرة واحدة فى كل من سور الحاقة والمعارج والنازعات والتكوير والانفطار والانشقاق والأعلى والغاشية والشمس والتين والعلق والهمزة .

وذكر لفظ (الله) مرتين فى كل من سور :

الحجر — والنصر — الاخلاص — وفاتحة الكتاب .

وقد ذكر « الله الله » أى مرتين متتابعتين فى آية واحدة فى سورة الأنعام : فى قوله تعالى :

﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾(١) .

٢ - الرحمـــن

﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾(٢) .

﴿ الرحمن ﴾ من الأسماء الحسنى مختص بالله سبحانه لا يجوز أن يسمى به غيره ، **وهو يجرى غالباً** مجرى الصفة له تعالى ، نحو « بسم الله الرحمن الرحيم »

وقد يذكر موصوفاً ، كما قال الله : **﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾** .

والرحمن هو الاسم الدال على أن الرحمة قائمة به سبحانه وتعالى ، ومعناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التى لا غاية بعدها فى الرحمة ، والتى لا نظير له فيها ، ولذلك لا يثنى ولا يجمع .

والرحمن صيغة تعظيم من الرحمة كالرحيم ، لكن الرحمن من زيادة المعنى وأكبر تعظيماً ، لأن صيغة الرحمن تتناول جلائل النعم وعامها وأصولها .

واسم الرحمن قريب من اسم الله الجارى مجرى العلم — وإن كان اسم الرحمن مشتقاً من الرحمة أى أن « الرحمن » اسم وصفه لا ينافى أحدهما الآخر ، وجاء استعمال القرآن بالأمرين جميعاً .

ولم أر اسما من أسماء الله الحسنى حل محل اسم الجلالة فى القرآن الكريم ، أكثر من هذا الاسم .

---

٤ — الأنعام آية : ١٢٤

٥ — الاسراء آية : ١١٠

قال الله تعالى : ـ

١ ـ ﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن كل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾[١] .

٢ ـ ﴿ قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ﴾[٢] .

٣ ـ ﴿ فكلى واشربى وقرى عيناً فإما ترين من البشر أحداً فقولى إنى نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً ﴾[٣] .

٤ ـ ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾[٤] .

٥ ـ ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ﴾[٥] .

٦ ـ ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾[٦] .

٧ ـ ﴿ جنات عدن التى وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا ﴾[٧] .

٨ ـ ﴿ ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً ﴾[٨] .

٩ ـ ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾[٩] .

١٠ ـ ﴿ أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[١٠] .

١١ ـ ﴿ يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ﴾[١١] .

١٢ ـ ﴿ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾[١٢] .

١٣ ـ ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾[١٣] .

١٤ ـ ﴿ . . . وتخر الجبال هدًا أن دعوا للرحمن ولداً ﴾[١٤] .

١٥ ـ ﴿ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ﴾[١٥] .

١٦ ـ ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[١٦] .

١٧ ـ ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾[١٧] .

---

(١) الرعد آية : ٣٠
(٢) مريم آية : ١٨
(٣) مريم آية : ٢٦
(٤) مريم آية : ٤٤
(٥) مريم آية : ٤٥
(٦) مريم آية : ٥٨
(٧) مريم آية : ٦١
(٨) مريم آية : ٦٩
(٩) مريم آية : ٧٥
(١٠) مريم آية : ٧٨
(١١) مريم آية : ٨٥
(١٢) مريم آية : ٨٧
(١٣) مريم آية : ٨٨
(١٤) مريم الآيتان : ٩٠ - ٩١
(١٥) مريم آية : ٩٢
(١٦) مريم آية : ٩٣
(١٧) مريم آية : ٩٦

١٨ ــ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[١] .
١٩ ــ ﴿ . . . وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾[٢] .
٢٠ ــ ﴿ يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً ﴾[٣] .
٢١ ــ ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه بل عباد مكرمون ﴾[٤] .
٢٢ ــ ﴿ وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾[٥] .
٢٣ ــ ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾[٦] .
٢٤ ــ ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً ﴾[٧] .
٢٥ ــ ﴿ الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، الرحمن فاسأل به خبيرا ﴾[٨] .
٢٦ ــ ﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما
٢٧ ــ الرحمن . أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾[٩] .
٢٨ ــ ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾[١٠] .
٢٩ ــ ﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين ﴾[١١] .
٣٠ ــ ﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ﴾[١٢] .
٣١ ــ ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾[١٣] .
٣٢ ــ ﴿ أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾[١٤] .
٣٣ ــ ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾[١٥] .
٣٤ ــ ﴿ تنزيل من الرحمن الرحيم ﴾[١٦] .
٣٥ ــ ﴿ وإذا بُشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾[١٧] .
٣٦ ــ ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؛ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾[١٨] .

---

(١) طه آية : ٥
(٢) طه آية : ١٠٨
(٣) طه آية : ١٠٩
(٤) الأنبياء آية : ٢٦
(٥) الأنبياء آية : ٣٦
(٦) الأنبياء آية : ٤٢
(٧) الفرقان آية : ٢٦
(٨) الفرقان آية : ٥٩
(٩) الفرقان آية : ٦٠
(١٠) الفرقان آية : ٦٣
(١١) الشعراء آية : ٥
(١٢) يَس آية : ١١
(١٣) يَس آية : ١٥
(١٤) يَس آية : ٢٣
(١٥) يَس آية : ٥٢
(١٦) فصلت آية : ٢
(١٧) الزخرف آية : ١٧
(١٨) الزخرف آية : ١٩

٣٧ ـــ ﴿ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم إلا يخرصون ﴾[١] .
٣٨ ـــ ﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ﴾[٢] .
٣٩ ـــ ﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾[٣] .
٤٠ ـــ ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾[٤] .
٤١ ـــ ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾[٥] .
٤٢ ـــ ﴿ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾[٦] .

٤٣ ـــ ﴿ الرحمن علم القرآن ﴾[٧] .

٤٤ ـــ ﴿ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾[٨] .

٤٥ - ﴿ أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير ﴾[٩] .

٤٦ ـــ ﴿ أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ﴾[١٠] .

٤٧ - ﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين ﴾[١١] .

٤٨ ـــ ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾[١٢] .

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ذكرت فى فواتح السور غير التوبة و لم تكتب ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ فى أول سورة التوبة ، لأن النبى - ﷺ - لم يؤمر بذلك كما يؤخذ من حديث رواه الحاكم ، وأخرج فى معناه أن البسملة أمان - والسورة نزلت لرفع الأمن بالسيف والقتال ، كما ذكرت البسملة فى الآية الثلاثين . من سورة النمل :

(١) الزخرف آية : ٢٠
(٢) الزخرف آية : ٣٣
(٣) الزخرف آية : ٣٦
(٤) الزخرف آية : ٤٥
(٥) الزخرف آية : ٨١
(٦) ق آية : ٣٣
(٧) الرحمن الآيتان : ١ ـــ ٢
(٨) الملك آية : ٣
(٩) الملك آية : ١٩
(١٠) الملك آية : ٢١
(١١) الملك آية : ٢٩
(١٢) النبأ آية : ٣٨

وذكر اسم الرحمن سبعاً وخمسين مرة فى كتاب الله الكريم على النحو التالى : ذكر ﴿ **الرحمن** ﴾ ذكر مرتين فى فاتحة الكتاب وذلك باعتبار ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ الآية الأولى من سورة الفاتحة ، وفى الآية الثالثة من فاتحة الكتاب وهى :

﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ .

وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة البقرة :

﴿ **وإلهكم إله واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ .

٤ — وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الرعد فى الآية الثلاثين . وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الإسراء .

﴿ **قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى** ﴾ .

وأكثر سورة ذكر فيها الرحمن سورة مريم ، ذكر الرحمن ستة عشرة مرة فى الآيات ١٨ ، ٢٦ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٦ .

وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة طه فى الآيات ٥ ، ٩٠ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة الأنبياء فى الآيات ٢٦ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ١١٢ ، وذكر الرحمن خمس مرات فى سورة الفرقان فى الآيات ٢٦ ؛ ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ذلك بأن الرحمن ، سبحانه ذكر مرتين فى الآية الستين من سورة الفرقان .

وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى سورة الشعراء فى الآية الخامسة . وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى الآية الثلاثين من سورة النمل .
وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة يس فى الآيات ١١ ، ١٥ ، ٣٣ ، ٥٢ ، وذكر الرحمن سبع مرات ، فى سورة الزخرف فى الآيات ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٤٥ ، ٨١ . وذكر الرحمن مرة واحدة ، فى أول سورة الرحمن . وذكر الرحمن مرة واحدة فى سورة الحشر وذلك فى الآية الكريمة الثانية والعشرين .

وذكر الرحمن أربع مرات ، فى سورة الملك فى الآيات ٣ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٩ وذكر الله باسمه الرحمن مرتين ، فى سورة النبأ فى الآيتين ٥٦ ، ٥٧ وجاء فى كتاب « الأسماء والصفات » للامام أبى بكر بن على البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ ، طبعة الهند ، صفحة ٣٦ ما يلى : ــ

قال الحليمى رحمة الله فى معنى الرحمن ، أنه المزيح للعلل ــ وذلك أنه لما أراد من الجن والإنس أن يعبدوه ، يعنى لما أراد أن يأمر من شاء منهم بعبادته ، عرفهم وجوه العبادات ــ وبين لهم حدودها وشروطها ، وخلق لهم مدارك ومشاعر وقوى وجوارح ، فخاطبهم وكلفهم وبشرهم وأنذرهم وأمهلهم ، فصارت العلل مزاحه ، وحجج العصاة والمقصرين منقطعة . وقال أبو سليمان الخطابى رحمه الله « اختلف الناس فى تفسير الرحمن . ومعناه ، وهل هو مشتق من الرحمة ! فذهب بعضهم إلى أنه غير مشتق ، لأنه غير مشتق ، لأنه لو كان مشتقاً من الرحمة لا تصل بذكر المرحوم ، فجاز أن يقال الله رحمن بعباده ، كما يقال رحيم بعباده ، ولأنه لو كان مشتق من الرحمة ، لا تنكره العرب حين سمعوه ، إذا كانوا لا ينكرون رحمة ربهم . . وقد قال الله عز وجل :

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾[1] .

وذهب الجمهور من الناس ، إلى أنه مشتق من الرحمة ، مبنى على المبالغة ، ومعناه ذو الرحمة لا نظير له فيها .

وكتب أبو بكر البيهقى ، قال أخبرنا أبومحمد عبدالله بن يوسف الأصبهانى ، قال أخبرنا أبوبكر محمد بن الحسين القطان ، قال : أخبرنا أحمد بن يوسف السلمى ، قال : حدثنا عبدالرزاق قال : حدثنا معمر عن عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : قال الله عز وجل : ﴿ أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته ﴾[2] .

قال الخطابى رحمه الله : فالرحمن ذو الرحمة الشاملة ، التى وسعت الخلق فى آرزاقهم ، وأسباب معايشهم ومصالحهم ، وعمت المؤمن والكافر ، والصالح والطالح .

---

١ ــ الفرقان آية : ٦٠

٢ ــ انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ١٠ صـ ٤١٨ . كتاب الأدب باب من وصل وصله الله . انظر صحيح البخارى . كتاب الأدب . باب من وصل وصله الله . حـ ٨ صـ ٧٥٦

وقد ذهب الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، إلى أن اسم « الرحمن » قريب من اسم الله الجارى مجرى العلم ، وإن كان مشتقاً من الرحمة قطعاً . فبالأحرى أن يكون المفهوم من الرحمن نوعاً من الرحمة ، أبعد من مقدور العباد ، فالرحمن هو العطوف على العباد .

أولاً : بالايجاد .
ثانياً : بالهداية إلى الايمان وأسباب السعادة .
ثالثاً : بالإسعاد فى الآخرة .
رابعاً : الإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

والرحمن هو الخالق الذى يريد الخير لعباده ، فأنعم علينا بكتابه المبين .

والحمد لله الذى لا إله إلا هو الرحمن ، الذى علم القرآن ، وهو الذى خلق الإنسان ، وعلمه البيان .

٣ ـ الرحيـــــم

« اللهم إنى أسألك باسمك الطاهر الطيب المبارك الذى إذا استُرحِمت به رحِمت » . الحمد لله الذى أرسل رسوله رحمة للعالمين ، ونزّل القرآن رحمة للمؤمنين ، الرحيم من أسماء الله تعالى ، وهو اسم مشتق من الرحمة ، ومعنى الرحمة هو تخليص من رحمهم الله من الضر والضلال ، والإنعام عليهم بالهدى والمغفرة والإيمان ، والرّحيم وزنه فعيل بمعنى فاعل أى راحم ، وبناء فعيل للمبالغة كعالم وعليم ، وقادر وقدير ، أى أن الرحيم صيغة تعظيم من الرحمة .

والرحمة تقتضى الإحسان إلى المرحوم ، قال الله تعالى :
﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾[1] . والله يقسم رحمته كيف يشاء ، ويدخل رحمته من يشاء ، والرحمة من الله إنعام وإفضال ، ونحن لا نكاد نرى آثار رحمة الله لكثرتها ، ذلك بأن نعم الله لا تحصى ، ولكننا نحس إن أمسك الله بعض رحمته ، ونشعر وكأنها تنزع نزعاً .

---

١ ــ الأحزاب آية : ٤٣

قال الله تعالى :

﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ﴾[١] ولا يوجد شىء فى الوجود يعادل رحمة الله غير علمه عز وجل .

﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ﴾[٢] .

وأن الله يرحمنا فى هذه الحياة الدنيا التى لا نلبث فيها إلا قليلا ، وينعم الله علينا بشتى صنوف الإحسان ، ويفضل بعضنا على بعض ، فكيف تكون رحمة ربى فى الدار الآخرة ، التى هى خير للذين يتقون ، والتى هى دار القرار ؟

١ ـ ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنو وكانوا يتقون ﴾[٣] .

٢ ـ ﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾[٤] .

٣ ـ ﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾[٥] .

من أجل ذلك كتب الله على نفسه الرحمة ، وأرسل نبى الرحمة ، محمداً بن عبد الله ، شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وجعل طاعة خاتم النبيين والصلاة والسلام عليه سبباً فى تحصيل الرحمة ، التى هى سعادة الآخرة ، وجعل سبحانه ، نصيب الأتقى منها أكبر ، قال تعالى :

﴿ ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ﴾ فجعلها بشرى التقوى والإحسان ، قال تعالى :

﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾[٧]

وهو الذى لا يرد عذابه عن القاسية قلوبهم ، قال رسول الله ﷺ : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[٨] وقال الله تعالى : ﴿ فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾[٩] والرحيم من صفات الرحمن ، ويجوز أن يفيض الله على عباده بنصيب من الرحمة ، فيكون رحيماً بإذن الله ، وأكثر عباد الله نصيبا من هذه الرحمة ، هو سيدنا محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، قال الله تعالى فى كتابه الكريم :

---

١ ـ هود آية : ٩

٢ ـ غافر آية : ٧

٣ـ يوسف آية : ٥٧

٤ ـ النحل آية : ٤١

٥ ـ الاسراء آية : ٢١

٦ ـ الأعراف آية : ١٥٦

٧ ـ الأعراف آية : ٥٦

٨ ـ أخرجه البخارى فى صحيحه ح٢ ص ١٠٠ كتاب الجائز باب قول النبى يعذب الميت ببعض بكاء أهله .

٩ ـ الأنعام آية : ١٤٧ .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾[١] .

قال رسول الله ﷺ : « **إن الله عز وجل خلق مائة رحمة ، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق ، فبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة** » .

ورد هذا الحديث بهذا النص فى مسند ابن حنبل الجزء الخامس . كما ورد مع إختلاف فى النص لصحيح مسلم وفى سنن ابن ماجه . وورد اللفظ مطولاً فى تفسير الطبرى الجزء السابع ، حدثنا محمد بن المثنى ــ قال : حدثنا عبد الوهاب قال : حدثنا داود عن أبى عثمان ، عن سليمان قال : « **إن الله تعالى ذكره ، لما خلق السموات والأرض . خلق مائة رحمة ، كل رحمة ملء ما بين السماء والأرض فعنده تسع وتسعون رحمة ، وقسم رحمة بين الخلائق . فبها يتعاطفون ، وبها تشرب الوحوش والطير الماء ، فإذا كان يوم القيامة ، قصرها الله على المتقين وزادهم تسعاً وتسعين** »[٢] .

أما رحمة الله فهى رحمة واسعة ، ولا يمكن لمخلوق أن يحسبها ، أو أن يعقلها ، لكن بفضل الله وواسع رحمته ، يمكن لقلب المؤمن أن يؤمن بها ، وهذه الرحمة التى أودعها الله الرحماء من الخلق فى الدنيا ، **يصح** أن تقارن بالعلم الذى علمه الله تعالى عباده من الحكماء والعلماء ، أو أن **توازى** الرزق الذى رزقه الله عباده فى هذه الحياة الدنيا ، وكل من عند الله ، وببعض هذه الرحمة التى بين الخلائق ، تتابع الطير فى جو السماء ، وتتابع الحيتان فى الماء ، وتحنُّ الأمهات على أبنائها ، والحب ، وكل الحب الذى أوصى به سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، وبمثل هذه الرحمة التى وهبها الله لعباده ، يؤلف الله تعالى بين قلوب من يشاء ... و :

﴿ لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ﴾[٣] .

﴿ **ومن آياته** أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾[٤] .

كل هذا قليل من الرحمة ، التى أفاض الرحمن بها على عباده الرحماء ، وهى كما ترى لا يمكن أن تعد أو أن تحصى .

والرحمة التى وهبها الله عباده المتقين فى الآخرة ، خير وأبقى ، وهى مائة ضعف الرحمة السابقة ، وأنها لرزق الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الرحمة ، ماله من نفاذ . وفى يوم القيامة ، ترى المؤمنين والمؤمنات ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويسرون سروراً عظيماً ، ويخبرون بما بينهم من هذه الرحمة

١ ــ التوبة آية : ١٢٨ .

٢ ــ أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الزهد) باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ح ٢ ص ١٤٣٥ من رواية أبى سعيد ــ رضى الله عنه ــ قال فى الزوائد : حديث أبى سعيد بن صحيح رجال ثقات .
وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده (من حديث جندب البحلى) ح ٤ ص ٣١٢

٣ ــ الأنفال آية : ٦٣

٤ ــ الروم آية : ٢١

والحب ، والكافرون والمنافقون مالهم من نصيب من هذه الرحمة والحب والمودة ، حتى الأحباب منهم ويقصر الله هذه الرحمة على المتقين :

﴿ **الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين** ﴾[١] وببعض هذه الرحمة ، يتبادل أصحاب النعيم العشق مع الأزواج المطهرة من الحور العين ، والحور : هن الجميلات ، شديدات سواد العيون فى شدة بياضها ، العين : أى الحسان واسعات العيون ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، الحسان الأبكار ، الكواعب : جمع كاعب ، وهى الفتاة التى بدأ ثديها يستدير ، والتى تكعبت ثديها أى نهد الأتراب ، وهن الصواحب الأمثال الأكفاء ، العُرُب ــ بضم العين والراء ــ قاصرات الطرف ، والقصر : أى الحبس ، والطرف هنا **معناه** النظر ، والمراد حابسات أعينهن على أزواجهن ، لا ينظرون إلى غيرهم لجمالهم فى نظرهن ، وبجزء من هذه الرحمة ، ينزع الله ما فى صدور المتقين من غلٍّ ، إذا حصل ما فى الصدور ، ويخرج ما فى قلوبهم من بعض حقد للذين آمنوا ، ويألفون ويؤلفون ، ويصبحون إخوانا ، وتجرى من تحتهم الأنهار ، على سرر متقابلين ، وبذلك تكاد تضىء حكمةَ أحكم الحاكمين ، جل ثناؤه ، الذى أوحى لعباده بهذا الدعاء .

﴿ **ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾[٢] .

والله سميع الدعاء ، ثم يوفّى المتقين نصيبهم من الرحمة ، يوم القيامة ، غير منقوص ، وإنا لنطمع أن يكون أجرنا من الرحمة فى الآخرة ، بغير حساب ، وخالصات لوجه الله الكريم .

ولماكان ما أوتينا من العلم هو « كلمات » ولا علم لنا برحمة الله ، إلا إنها وسعت كل شىء ، وإلا أن تكون خزائن رحمة ربى مثل كلمات ربى ، و : ﴿ **قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾[٣] .

﴿ **ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ، إن الله عزيز حكيم** ﴾[٤] .

فإنه ليس لأحد منا ينجيه عمله ، إلا أن يتغمدنا الله برحمة منه وفضل ولا سبيل لنا إلا أن نسأله تعالى أن يرحمنا ، والله هو الغنى ذو الرحمة ، وهو خير الراحمين ، وهو أرحم الراحمين .

وهكذا نرى أن من عرف شيئاً عن رحمة الله ، اشتاق إلى الله ، ومن اشتاق إلى الله ، رحمه الله .

---

(١) الزخرف آية : ٦٧
(٢) الحشر آية : ١٠
(٣) الكهف آية : ١٠٩
(٤) لقمان آية : ٢٧

ومرة أخرى مع الاسم الكريم : الرحيـم

ذكر « **الرحيم** » مائة وأربعة عشر مرة فى القرآن الكريم على النحو التالى :

ــ الرحمن الرحيم :

ذكر الرحمن الرحيم ست مرات فى ست آيات من آى الذكر الحكيم وهى : الآية الأولى والثالثة من سورة الفاتحة ، والآية ١٦٣ من سورة البقرة ، والآية الثلاثين من سورة النمل ، والآية الثانية من سورة فصِّلت ، والآية الثانية والعشرين من سورة الحشر .

ــ التواب الرحيم

ذكر التواب الرحيم ست مرات فى الكتاب المبين :

﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم** ﴾ ٣٧ البقرة كما ذكر التواب الرحيم فى الآيات : ٥٤ ، ١٢٨ ، ١٦٠ من سورة البقرة وذكر التواب الرحيم مرتين فى سورة التوبة .

١١ ــ ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم** ﴾ ١٠٤ التوبة

١٢ ــ والآية ١١٨ من سورة التوبة .

﴿ **إن الله هو التواب الرحيم** ﴾

١٣ ــ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ؟ واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم ﴾ ١٢ الحجرات

وسبحانه ﴿ **تواباً رحيماً** ﴾ .

١٤ ــ الآية من سورة النساء :

١٥ ــ ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ، ولو أنهم إذا ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما** ﴾ ٦٤ النساء

وهو ﴿ **العزيز الرحيم** ﴾

ذكر العزيز الرحيم ثلاث عشرة مرة فى الكتاب العربى الكريم على النحو التالى : تسع مرات فى سورة الشعراء وهى ثمان مرات من الآيات : ٩ ، ٦٨ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٤٠ ، ١٥٩ ، ١٧٥ ، ١٩١ التى نصها جميعاً .

﴿ **... وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ .

والتاسعة فى الآية ٢١٧ من سورة الشعراء .

٢٤ ــ ﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾

وذكر العزيز الرحيم فى الآية الخامس من سورة الروم

٢٥ ــ ﴿ **بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾

٢٦ ــ ﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ ٦٠ سجدة

٢٧ ــ ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ ٥ يس

٢٨ ــ ﴿ **إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم** ﴾ ٤٢ الدخان .

﴿ **وهو الغفور الرحيم** ﴾

٢٩ ــ ﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم ﴾ ١٠٧ يونس

٣٠ ــ ﴿ **قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ ٩٨ يوسف

٣١ ــ ﴿ **نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم** ﴾ ٤٩ الحجر .

٣٢ ــ ﴿ **قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى ، فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ ١٦ القصص

٣٣ ــ ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم** ﴾ ٥٣ الزمر

٣٤ ــ ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ، والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم** ﴾ ٥ الشورى .

٣٥ ــ ﴿ **أم يقولون افتراه ، قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئا ، هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بينى وبينكم ، وهو الغفور الرحيم** ﴾ الأحقاف .

وهو الرحيم الغفور

ذكر الرحيم الغفور مرة واحدة فى كتاب الله العزيز وذلك فى الآية الثانية من سورة سبأ :

٣٦ ــ ﴿ **يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور** ﴾ .

غفور رحيم :

ذكر اسم « **غفور رحيم** » تسعاً وأربعين مرة فى القرآن الكريم فى الآيات التسع والأربعين التالية ، وهى الآيات :

١٧٣ ــ ١٨٢ ــ ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٦ من سورة البقرة . والآيات : ٣١ ــ ٨٩ ــ ١٢٩ من سورة آل عمران . والآية ٢٥ من سورة النساء ــ والآيات : ٣ ــ ٣٤ ــ ٣٩ ــ ٧٩ ــ ٩٨ من سورة الأنعام . والآيتين ١٥٢ ــ ١٦٧ من سورة الأعراف والآيتين ٦٩ ــ ٧٠ من سورة

الأنفال ــ والآيات ٥ ــ ٢٧ ــ ٩١ ــ ١٠٢ من سورة التوبة . والآية ٤١ من سورة هود والآية ٥٣ من سورة يوسف . والآية ٣٦ من سورة إبراهيم والآيات ٥ ــ ٢٢ ــ ٣٣ ــ ٦٢ من سورة النور . والآية ٢٨ من سورة الحديد . والآية ١٢ من سورة المجادلة ، والآية ٧ من سورة الممتحنة والآية ١٤ من سورة التغابن . والآية الأولى من سورة التحريم ، والآية ٢٠ من سورة المزمل .

وسبحانه .

غفورا رحيما .

ورد ذكرها خمس عشة ة مرة فى الخمس عشرة آية التالية :

الآيات : ٢٣ ــ ٩٦ ــ ١٠٠ ــ ١٠٦ ــ ١١٠ ــ ١٢٩ ــ ١٥٢ من سورة النساء . والآيتين ٦ ــ ٧٠ من سورة الفرقان . والآيات ٥ ــ ٢٤ ــ ٥٠ ٥٩ ــ ٧٣ من سورة الاحزاب ــ والآية : ١٤ من سورة الفتح .

وهو رءوف رحيم .

ذكرت كلمة رءوف رحيم ثمان مرات فى الثمان الآيات التالية الآية ١٤٣ من سورة البقرة ، والآية ١١٧ من سورة التوبة ، والآية السابعة من سورة النحل ، والآية ٤٧ من سورة النمل ، والآية ٦٥ من سورة الحج . والآية ٢٠ من سورة النور ، والآية ٩ من سورة الحديد ، والآية ١٠ من سورة الحشر وهى :

١٠٨ ــ ﴿ **والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم** ﴾ .

وهو رحيم ودود .

١٠٩ ــ ﴿ **واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود** ﴾ ٩٠ هود

وهو رب رحيم .

١١٠ ــ ﴿ **سلام قولاً من رب رحيم** ﴾ ٥٨ يس

وهو البر الرحيم

١١١ ــ ﴿ **إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم** ﴾ ٢٨ الطور .

وسبحانه رحيما :

١١٢ ــ ﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما** ﴾ ٢٩ النساء .

١١٣ ــ ﴿ **ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما** ﴾ ٦٦ الإسراء .

١١٤ ـ ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾ ٤٣ الأحزاب .

وهكذا ذكر اسم « **الرحيم** » **سبحانه ، فى القرآن العظيم مائة وأربع عشرة مرة بعدد سور القرآن العظيم** .

٤ ـ الملــك

﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾[١] .

تبارك الذى له ملك السموات والأرض ، وما بينهما وما فوقهن ، ولم يتخذ ولداً .

فاطر وبديع السموات والأرض ، وخلق كل شيء فقدره تقديراً . والإبداع هو الخلق أول مرة ، وإخراج الشيء مما لا نعلم إلى الوجود ، من أجل ذلك لا يعقل أن يملك ، بمعنى المُلك ، إلا الله الملك الحق المبين ، وهو سُبحانه المتصرف فى كل شيء بالإبداع والخلق والموت والحياة والنشور .

والملك الحق هو الغنى مطلقاً عن كل ما سواه ، وعن كل ما يحتاج إليه سواه ، أما من يحتاج إلى الغير فلا يصح أن يسمى مطلقاً ، إلا أن يؤتى ملكاً محدداً موقوتاً ، أو أن يكون ذلك مجازاً وهذا واضح جداً للمؤمنين اليوم ، ولجميع المخلوقات يوم القيامة ، ﴿ **يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار** ﴾ ١٦ غافر .

﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ ٦٧ الزمر .

وقد ذكر الملك فى بضع آيات من القرآن العظيم :

١ ـ ﴿ **الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين** ﴾

٢ ـ ﴿ **فتعالى الله الملك الحق** ﴾ ١١٤ طه .

٣ ـ ﴿ **فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾ ١١٦ المؤمنون .

٤ ـ ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام** ﴾ ٢٣ الحشر .

٥ ـ ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم** ﴾ ١ الجمعة .

٦ ـ ﴿ **قل أعوذ برب الناس ملك الناس** ﴾ ١ ـ ٢ الناس .

جاء فى صحيح البخارى الجزء التاسع ، كتاب التوحيد : قول الله تعالى : ﴿ **ملك الناس** ﴾ :

عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : **يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : « أنا الملك أين ملوك الأرض »**[٢] .

---

(١) المؤمنون آية : ١١٦ وطه آية : ١١٤

(٢) اخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٩ ص ١٤٢ . كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى . ﴿ أنا الرزاق ذو القوة المتين ﴾ .

﴿ **فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون** ﴾ ٨٣ يس والملكوت هو الملك العظيم الواسع المطلق ، كالرحموت للرحمة الواسعة ، والرهبوت للرهبة الشديدة ، وهو فعلوت من الملك ، فهذا الوزن فى اللغة يفيد المنتهى .

﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير** ﴾ ١ الملك واليد مجاز عن القدرة والإحاطة والملك ، فالذى يملك السمع والأبصار والأفئدة ، والموت والحياة ، والنشور والشفاعة ، والرحمة والرزق ، هو الله ، ونحن لا نملك مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ، من أجل ذلك ، فلا مُلك إلا لله ، ولا مَلك إلا الله ، مالك الملك لا شريك له .

وهنا دعاء عرفة : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

٥ ـــ القـــدوس

﴿ رب الملائكة والروح ﴾

القدوس بالضم والتشديد من أسماء الله تعالى الحسنى ، وهو اسم جميل مشتق من القدس أى الطهر .

والقدوس سبحانه ، هو الطاهر المنزه .

والتقديس والتطهير ، هو تنزيه الله عز وجل ، وقوله تعالى : ﴿ **ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك** ﴾[١] .

قال الزجاج : أى نطهر أنفسنا ، وكذلك نفعل بمن أطاعك ، نقدسه أى نطهره .

ذلك بأن القدس هو الطهر والنزاهة .

وقد ذكر القدوس مرتين فى كتاب الله الكريم ، مرة فى سورة الحشر ، والثانية فى الآية الأولى من سورة الجمعة : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم** ﴾[٢] .

عن قتادة عن مطرف عن عائشة رضى الله عنهم قالت : أن رسول الله ﷺ كان يقول فى ركوعه :

« سبُّوح قدوس رب الملائكة والروح »[٣] .

---

١ ـــ البقرة الآية : ٣٠

٢ ـــ الجمعة الآية ١

٣ ـــ أخرجه مسلم فى صحيحه . جـ ١ ص ٣٥٣ . كتاب الصلاة . باب . ما يقال فى الركوع والسجود . رقم ٢٢٣ / ٤٨٧ .

٦ ـ السـلام

﴿ التحيات لله والصلوات والطيبات ﴾

﴿ هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام ﴾(١) . ومعنى السلام فى اللغة ، السلامة والأمان ، والسلام هو الذى ليس فى الوجود سلامة إلا وكانت صادرة منه تعالى ، فسبحان السلام مانح السلامة فى الدنيا والآخرة ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وأسأل ربى « السلام » أن يصلى ويسلم على رسول السلام سيدنا محمد نبى الاسلام ، كان رسول الله ﷺ ، إذا أراد أن ينصرف من صلاته ، استغفر ثلاث مرات ثم قال : « اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام »(٢) .

اللهم أنت السلام

ومنك السلام

وإليك يرجع السلام

فحينا ربنا بالسلام

وأدخلنا دارك دار السلام

تباركت وتعاليت ياذا الجلال والإكرام

٧ ـ المـؤمـن

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾(٣) .

سبحان الذى شهد لنفسه بالوحدانية قبل شهادة خلقه ، والإيمان هو التصديق ، والله هو المؤمن المصدق لنفسه ، ومن أصدق من الله ــ قيلاً ، ومن أصدق من الله حديثًا .

وسبحان المؤمن الذى يعزى إليه الأمن والأمان ، فلا أمن ولا أمان إلا من عنده .

وسبحان المؤمن واهب الأمن ، والأمن ضد الخوف ، وسبحان الذى أطعمنا من جوع وآمنا من خوف .

وهنا مكان حسن لتتدبر الثلاث الآيات من سورة الأنعام : ﴿ وحاجه قومهُ ، قال : اتحاجونى فى الله وقد هدان . ولاأخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا ، وسع ربى كل شىء علما ، أفلا تتذكرون * وكيف أخاف ماأشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا * فأى الفريقين أحق بالأمن ، إن كنتم تعلمون * الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ ﴾(٤)

(١) الحشر الآية : ٢٣

(٢) اخرجه ابن ماجة في سننه جـ ١ ص ٢٩٨ . كتاب اقامة الصلاة . باب ما يقال بعد التسليم . رقم ٩٢٤ .

(٣) آل عمران الآية : ١٨ .

(٤) الأنعام الآيات ٨٠ ـ ٨٢

٨ ـ المهيمن

﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[1] .

سبحان المهيمن بعلمه ، وكمال قدرته على كل شيء ، والمهيمن هو الرقيب على كل شيء ، وهو الحافظ لكل شيء ، والخاضع لسلطانه كل شيء ، وهو القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، والمهيمن هو الشاهد المطلع على أفعال مخلوقاته .

قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه** ﴾[2] ، (مهيمناً عليه) : أى رقيباً على ما سبقه من الكتب ، يقر الحق ويظهر خطأ الباطل ، قال أهل اللغة : الهيمنة : القيام على الشيء والرعاية له ، والمهيمن : الشاهد ، وهو من آمن غيره من الخوف ، وقيل المهيمن : هو الشهيد لنفسه بالوحدانية .

وقال أهل التفسير فى المهيمن : أنه الأمين . قال أبو سليمان : وأصله مؤيمن فقلبت الهمزة هاء ، لأن الهاء أخف من الهمزة ، وهو على وزن مسيطر .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : مهيمناً عليه ، قال : مؤتمنًا عليه ومهيمنًا عليه . قال : المهيمن الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ومهيمنًا عليه : قال المهيمن الشاهد على ما قبله من الكتب .

قال أبو سليمان : فالله عز وجل المهيمن أى الشاهد على خلقه ، بما يكون منهم من قول وفعل .

كقوله تعالى : ﴿ **وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودًا إذ تفيضون فيه ..** ﴾[3] .

والإفاضة هى الاندفاع فى الشيء بقوة ، أى تفعلونه بسرعة . ولنتدبر باقى الآية الكريمة : ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين** ﴾[4] . وسبحان المهيمن الذى لا يغيب عنه من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

وقد ذكر الاسم المحيط « المهيمن » مرة واحدة فى الكتاب المبين .

---

(١) النساء الآية : ١
(٢) المائدة الآية : ٤٨
(٣) يونس الآية : ٦١
(٤) يونس الآية : ٦١

٩ ــ العزيــز

﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾[(١)] .

سبحان العزيز الذى لا يوجد مثله ، ويا من ليس له ضد ولا شبيه ، ويا من تشتد إليه الحاجة ، ويا من يصعب الوصول إليه . والعزيز ، سبحانه ، هو القوى ، الذى لا يجوز عليه مكر الماكرين ، وقد ذكر العزيز ثمانية وثمانين مرة فى كتاب الله الكريم ، وهو العزيز الرحيم ، وهو العزيز العليم ، وهو عزيز ذو انتقام ، وهو القوى العزيز ، وهو العزيز الغفار ، وهو العزيز الغفور ، وهو العزيز الحميد ، وهو العزيز الوهاب ، وهو عزيز مقتدر . ﴿ ... **وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار** ﴾[(٢)] .

١٠ الجبــــار

﴿ **الجبار المتكبر** ﴾[(٣)] .

سبحان الجبار القهار ، الذى قهر خلقه ، ويجبرهم على ما أراده ، إرادة حكيم فى لطف الخبير ، ذلك بأن من معانى الجبر ، القهر ، يقال : جبره وأجبره على الأمر يجبره ، أى أكرهه وقهره ونفذت مشيئته : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾[(٤)] . والجبار فعال من جبر ، إذا أغنى الفقير ، وأصلح الكسير ، وجَبْرُ الشيء : إصلاحه ، قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾[(٥)] .

والبال : الحال والشأن ، والبال : رخاء النفس ، والبال : القلب . يقال : ما يخطر فلان ببالى ، ويقال خطر الشيء ببالى ، وأخطره الله بباله . والجبار هو العالى ، الذى لا ينال ، قال ابن الأنبارى : الجبار فى صفة الله تعالى الذى لا ينال ، ومنه قيل للنخلة التى فاتت يد المتناول جبارة ، فسبحان الجبار الذى لا تصل العقول إلى الإحاطة بجلاله . وقال ابن عباس : الجبار هو الملك العظيم ، وقد ذكر « الجبار المتكبر » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب العزيز .

١١ ــ المتكبــر

﴿ **سبحان الله عما يشركون** ﴾[(٦)] .

سبحان الجبار المتكبر ، ذى الكبرياء ، الذى له الكبرياء فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم .

(١) الصافات الآية : ١٨٠
(٢) غافر الآية : ٤٢
(٣) الحشر الآية : ٢٣
(٤) الأنعام الآية : ١٨
(٥) محمد الآية : ٢
الحشر الآية : ٢٣

والكبرياء : هى الرفعة فى الدرجات والعظمة ، والعظمة والكبرياء لله . جاء فى الحديث الصحيح عن رب كل شيء : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى فمن نازعنى فى احداهما قصمته »(١) أى أهلكته .

وأعوذ بالله من كل قلب متكبر جبار ، ذلك بأن الكبر والكبرياء من صفات الله ، ولا يدخل الجنة من فى قلبه ذرة من كبر ، ويطبع الله على قلبه : ﴿ **كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار** ﴾(٢) . وسبحانه الجبار المتكبر عما يقولون علواً كبيراً .

وقد ذكر المتكبر تعالى مرة واحدة فى الكتاب المبين فى الآية الثالثة والعشرين من سورة الحشر : ﴿ **العزيز الجبار المتكبر** ﴾ .

١٢ ــ الخالــق

﴿ **وخلق كل شيء فقدره تقديرًا** ﴾(٣)

الخالق هو الفاطر وهو الموجود المبدع على غير مثال سبق . وأُحب أن أدخر هذا الاسم العظيم (الخالق) إلى الخلق فى عالم الملكوت ، عالم الخلق الأول :

يوم خلق الله السموات والأرض ، ويوم خلق الله الملائكة ، ويوم خلق الله الآجال حين يموت من مات ، ويوم ألقى الآفة على كل شيء مما ينتفع به الناس ، ويوم خلق الله آدم فى أحسن تقويم ، وأسكنه الجنة ، ويوم خلقنا فى ظهر آدم ، واستخرجنا وأخذ علينا الميثاق ، ثم أماتنا .

وهو الذى خلق بقضاء وأمر ، أو بقول وإرادة ، سبحانه ، قال تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ﴾(٤) .

والخالق والبعث كلاهما من أمر ربى ، والخالق الباعث ، سبحانه ، هو الذى خلق كل شيء فى عالم الغيب ، والخالق من الخلق ، وأصله التقدير المستقيم ، وقد ذكر « الخالق » فى نهاية سورة الحشر ، ثم لنتدبر الآيات السبع الآتية :

١ ــ ﴿ ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل ﴾(٥) .

٢ - ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون ﴾(٦) .

(١) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٣٩٧ . كتاب الزهد . رقم ٤١٧٤ . انظر سنن أبى داود جـ ٤ ص ٣٥٠ ، ٣٥١ . كتاب اللباس . باب ما جاء فى الكبر رقم ٤٠٩٠
(٢) غافر الآية : ٣٥
(٣) الفرقان الآية :٢٠
(٤) لقمان الآية : ٢٨
(٥) الانعام الآية : ١٠٢
(٦) النحل الآية : ١٧

٣ ــ ﴿ قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار ﴾[١] .
٤ ــ ﴿ وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون ﴾[٢] .
٥ ــ ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾[٣] .
٦ ــ ﴿ ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴾[٤] .
٧ ــ ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾[٥] .

١٣ ــ البـــارىء

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾[٦] .

أجمع أهل الذكر ، أن البُراية شى بين الخلق والتصوير ، وذلك وفقًا لترتيب الأسماء الحسنى ، الخالق البارىء المصور ، ذلك بأن التصوير مسبوق بالتقدير أولاً ، والبُراية بينهما .

والبارىء من البرء ، وهو خلوص الشىء من غيره ، كبرء المريض من مرضه ، والمدين من دينه ، وقد قرأت فى كتب الأسماء والصفات أن ندعو الله بهذا الاسم الحسن « البارىء » للسلامة من الآفات ، ويحتمل أن يكون معنى البارىء ، هو الذى يبرىء جوهر المخلوق من الآفات ،حتى يمكنه اجتياز هذه النقلة من عالم التقدير والخلق الأول ، إلى عالم الشهادة والظهور للاختيار فى عالم الملك .

أو بكلمات أخرى : أنه من كتب له الرحيل من عالم الغيب والملكوت ، إلى عالم الشهادة والملك ، للابتلاء والتنافس ، يجب عليه أن يحصن ضد الآفة ــ أى ينبغى له أن يحصل على هذه الحصانة والبراءة من الآفات من البارىء سبحانه ، أو أنه من قدر له أن يحمل وسام الحياة ، لا يستطيع ذلك ، إلا إذا منح براءة هذا الوسام من البارىء الحق ، وقد ذكر البارىء تعالى مرتين فى القرآن الكريم ، مرة فى سورة الحشر ، ثم لنتدبر ثلاث كلمات من الآية الرابعة والخمسين من سورة البقرة : ﴿ **فتوبوا إلى بارئكم** ﴾ .

١٤ ــ المصـــور

﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾[٧] .

سبحان الذى أنشأ الانسان على صور مختلفة ، متميزًا بعضها عن بعض فى الأشكال والأحجام والألوان ، ليتعارفوا ، وسبحان من صورنا فى الأرحام أطوارًا ، وتشكيلاً بعد تشكيل ، فى ظلمات البطن

---

(١) الرعد الآية : ١٦
(٢) فصلت الآية : ٢١
(٣) المؤمنون الآية : ١١٥
(٤) ق الآية : ٣٨
(٥) التين الآية : ٤
(٦) البينة الآية : ٧
(٧) آل عمران الآية : ٦

والرحم والمشيمة ، وهذا التشكيل يتم من تركيب ذرات بنى آدم ، التى سبق لها التقدير يوم أشهدهم الله ربنا على أنفسهم .

وفى عالم الشهادة ، يتم تركيب الصورة ، كما شاء الله على هيئة الأصل فى أحسن تقويم يوم الخلق الأول .

ثم بعد ذلك ، فلنتدبر الآيات البينات من سورة النجم :

﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ﴾

﴿ من نطفة إذا تمنى ﴾

﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾(١)

فما هى النشأة الأخرى ؟ يقول الامام الفخر الرازى محمد فخر الدين فى تفسيره الكبير ، مفاتيح الغيب : [والذى ظهر لى بعد طول التفكير والسؤال من فضل الله تعالى ، والهداية فيه إلى الحق ، أنه يحتمل أن يكون المراد من النشأة الأخرى : نفخ الروح الانسانية فيه ، وذلك لأن النفس الشريفة ، تخالط الأجسام الكثيفة المظلمة ، وبها كرم الله بنى آدم] .

وفى الأرحام كما يتم التصوير يتم نفخ الروح كما جاء فى الحديث الشريف ، فقد جاء فى صحيح مسلم بشرح النووى باب القدر . روى أن رسول الله ﷺ قال :

« إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال : يارب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء . ويكتب الملك »(٢) .

كما جاء فى نفس الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحدكم يُجمَع خلقه فى بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسَل الملك فينفخ فيه الروح »(٣) .

كما قيل فى معنى : (ثم أنشأناه خلقاً آخر) ، هو نفخ الروح ، غير خلق النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، وبهذا الخلق الآخر ، أو نفخ الروح ، أو النشأة الأخرى ، تميز الانسان عن أنواع الحيوانات . وبعد ، يجوز أن تكون النشأة الأخرى ، هى نفخ الروح ، وتخصص النشأة الآخرة للحشر .

﴿ فانظر كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾(٤) .

---

(١) النجم الآيات : ٤٤ ـــ ٤٧

(٢) اخرجه صحيح مسلم « كتاب القدر » باب « كيفية الخلق » جـ ٤ ص ٢٠٣٧ رقم ٣ / ٢٦٤٥ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الله بن مسعود .

(٣) اخرجه صحيح مسلم « كتاب القدر » باب « كيفية الخلق » جـ ٤ ص ٢٠٣٦ رقم ١ / ٢٦٤٣

(٤) العنكبوت الآية : ٢٠

١٥ ـ الغفار

﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾[١] .

الغفر والغفران فى اللغة ، معناهما الستر ، وسبحان الغفار الذى أظهر الجميل ، وستر القبيح ، والذنوب من جملة القبائح التى سترها الله تعالى ، وذلك لأن الله تعالى هو ساتر الذنب .

جاء فى كتاب الأسماء والصفات عن هذا الاسم الكريم : الغفار هو المبالغ فى الستر ، فلا يشهر الذنب لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وقيل لصحابى : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يُدنى من المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه قد هلك ، قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . قال : فيعطى كتاب حسناته »[٢] هذا للمؤمنين أما الكفار والمنافقون فلهم شأن آخر ، وقد ذكر الغفار فى تنزيل العزيز الحكيم خمس مرات فى الآيات :

١ ـ ﴿ وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾[٣] .

وقد ذكر العزيز الغفار ثلاث مرات فى القرآن الكريم .

٢ ـ ﴿ رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ﴾[٤] .

٣ ـ ﴿ خلق السموات والأرض بالحق ، يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار ﴾[٥] .

٤ ـ ﴿ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾[٦] .

٥ ـ ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾[٧] .

ونوصى بذكر هذا الاسم الكريم كثيراً . ففيه معانى الإنابة والرجوع إلى الله .

١٦ ـ القهار

﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾

القهر فى اللغة : هو الاستيلاء على الشىء ظاهرًا وباطنًا ، ولا موجود إلا هو مسخر تحت قهره وقدرته ، عاجز فى قبضته تعالى .

---

(١) الزمر الآية : ٥

(٢) اخرجه صحيح البخارى « كتاب المظالم » باب قوله تعالى : ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ جـ ٣ ص ١٦٨ فقد ورد الحديث عن رواية لابن عمر .

(٣) طه الآية : ٨٢

(٤) ص الآية : ٦٦

(٥) الزمر الآية : ٥

(٦) الزمر الآية : ٥٢

(٧) نوح الآية : ١٠

وإذا تدبرنا الأسماء الحسنى لله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار ، نجد أن مردَّ جميع الأفعال إلى إله (واحد) وإلى تدبير (واحد وليس للانسان إلا التسليم إلى الله ، وذلك العزيز الغفار الذى يكور الليل على النهار ، ويكور النهار على الليل ، هو الواحد القهار الذى إن أسلمنا له ما يريد كفانا ما نريد ، وإن لم نسلم له ما يريد أتعبنا فيما نريد ، ثم لا يكون إلا ما يريد سبحانه .

وقد ذكر « الواحد القهار » ست مرات فى القرآن الكريم :

١ ــ ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾[١]

٢ ــ ﴿ قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار ﴾[٢]

٣ ــ ﴿ وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ ٤٨ ابراهيم .

٤ ــ ﴿ قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار ﴾[٣] .

٥ ــ ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾[٤]

٦ ــ ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ﴾[٥] .

١٧ ــ الوهــاب

﴿ وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾[٦]

سبحان الله الوهاب : الكثير المواهب ، أى الكثير الهبات ، يقال : هذه هبة فلان وموهبته وهباته ومواهبه . والهبة هى العطيّة الخالية من العوض والغرض ، فإذا كثرت سمى صاحبها وهاباً ، ولا يكون حقيقة إلا الله تعالى .

ويقال للمولود له : شكرت الواهب وبورك لك فى الموهوب . ويقال : اللهم هب لى ذنوبى ، والله استوهبُ ذنوبى . أى استغفر ذنوبى .

والوهاب الحق ، هو الذى يملك ما يعطى ، ولا مالك فى الواقع سوى الله .. وقد ذكر الوهاب سبحانه ثلاث مرات فى الكتاب الحكيم :

١ ــ ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾[٧]

٢ ــ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾[٨]

٣ ــ ﴿ قال رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب[٩]

---

(١) يوسف الآية : ٣٩
(٢) الرعد الآة : ١٦
(٣) ص الآية : ٦٥
(٤) الزمر الآية : ٤
(٥) غافر الآية : ١٦
(٦) آل عمران : ٨
(٧) آل عمران : ٨
(٨) ص الآية : ٩
(٩) ص الآية : ٣٥

١٨ ـــ الـــرزاق

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾[١] .

سبحان الله الرازق رزقًا بعد رزق ، وهو تعالى المكثر الموسع للرزق ، والحمد لله الذى غذى نفوس الأبرار بغذاء القلوب ، وأوصل إليهم للرزق ، والحمد لله الذى غذى نفوس الأبرار بغذاء القلوب ، وأوصل إليهم نوره ، وهداهم إلى الإيمان ، ووفقهم إلى الطاعات ، وهو تعالى المتكفل بالرزق ، والقائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها ، وسبحان الذى يطعِم ولا يطعَم ، والرازق هو الذى خلق الرزق ، والمرزوق ، وخلق أسباب التمتع بهذا الرزق ، والرزق على قسمين .

١ ـــ ظاهر للأبدان كالأطعمة .

٢ ـــ باطن للقلوب كالعلم .

وهو سبحانه خالق الرزقين .

﴿ وفى السماء رزقكم وما توعدون ﴾[٢]

روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، أنه قال : أُمر الرزق بطلبك ، وأُمرت بطلب الجنة . اللهم يا رزاق ، إنا نسألك رضاك والجنة ، فلا عيش إلا عيش الآخرة . **﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾**[٣] .

قال القشيرى : من عرف أن الله هو الرازق ، أفرده بالقصد إليه . **﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، لا نسألك رزقاً ، نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾**[٤] .

وقد ذكر الرازق ، سبحانه وتعالى ، مرة واحدة فى القرآن الكريم .

١٩ ـــ الفتـــاح

﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾[٥] .

سبحان الفتاح الذى يفتح خزائن رحمته على عباده ، وهو الذى فتح على النفوس باب توفيقه ، وهو الذى رفع الحجاب عن قلوب أوليائه ، ويفتح قلوبهم وعيون بصائرهم ، ليبصروا الحق . وهو الذى يفتح الأبواب لهم إلى ملكوته سبحانه ؛ فيكون معنى الفتح الكشف والتبين .

وقيل فى معنى الفتاح : « الحاكم بين الخلائق » من الفتح وهو الحكم ، والفتاح هو الذى يفتح ما انغلق بين عباده ، ويميز الحق على الباطل ، ويعلى الحق ، ويخزى المبطل .

---

(١) الذاريات الآية : ٥٨

(٢) الذاريات الآية ٥٨

(٣) طه الآية : ١٣١

(٤) طه الآية : ١٣٢

(٥) الانعام الآية ٥٩

قال تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا ﴾(١) أى احكم .

ويكون الفاتح بمعنى الناصر ، لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾(٢)

وقد ذكر « الفتاح » مرة واحدة فى الكتاب العزيز :

﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾(٣) .

﴿ وسع ربنا كل شىء علمًا ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾(٤) .

٢٠ ـ العليم

﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾(٥)

سبحان البالغ فى العلم ، فعلمه تعالى شامل لجميع المعلومات ، محيط بها ، سابق على وجودها ، وسبحان الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عن علمه شىء .

وسبحان من عنده « علم » الساعة ، وسبحان « عالم » غيب السموات والأرض « علام » الغيوب ، وسبحان من « علم » آدم الأسماء كلها ، وصلى الله على سيدنا محمد . والله « أعلم » حيث يجعل رسالته . وقد ذكر « العليم » تعالى ، مائة وأربعة وخمسين مرة فى كتاب الله الكريم : « وهو عليم بالمتقين ، وهو عليم بما تفعلون ، والله بما تعملون عليم ، وهو عليم بما يصنعون ، والله عليم بما يعملون ، والله عليم بما تعملون ، والله عليم بالمفسدين ، والله عليم بالظالمين ، والله عليم بكل شىء ، والله عليم بذات الصدور ، وهو السميع العليم ، وهو العليم الحكيم ، وهو الحكيم العليم ، وهو العزيز العليم ، وهو الواسع العليم ، وهو العليم الخبير ، وهو العليم القدير ، وهو الفتاح العليم ، وهو العليم الحليم ، وهو سبحانه شاكر عليم » .

وحين أكتب « العليم » تعالى ، أذكر « الرحيم » سبحانه : ﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً »(٦) .

٢١ ـ القابض

والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾(٧) .

---

(١) الأعراف الآية : ٨٩
(٢) الأنفال الآية : ١٩
(٣) سبأ الآية : ٢٦
(٤) الأعراف الآية : ٨٩
(٥) يوسف الآية : ٧٦
(٦) غافر الآية : ٧
(٧) البقرة الآية : ٢٤٥

٢٢ ــ الباسط

﴿ بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ﴾[١] .

سبحان القابض الباسط ، والقبض عكس البسط ، والبسط من التوسعة ، ويجوز أن يكون معنى القبض الأخذ .

وقيل فى معنى القابض : المخرج للأرواح من الأشباح عند الموت . وقيل غير ذلك .

والقبض يكون معه الخوف .

سبحان موسع الرزق لمن يشاء من عباده . وسبحان مبسط النفوس بالسرور والفرح .

وقيل : هو الذى ينشر الأرواح فى الأجساد عند الحياة ، ويبسطها فى الأشباح عند البعث لعرض الأعمال .

والبسط يكون معه الإزجاء والرجاء والطمع .

وفى اللغة يقال : بسط بمعنى : نشر ، والبسطة معناها : السعة . والبسيط ، الواسع ، ويقل بسط فى العلوم أو فى الآفاق ، توسع فيها وجال فى مناحيها .

والباسط صفة من صفات الله ، لأنه يبسط الرزق لمن يشاء ، أى يوسعه ، ولكنها لم ترد نصًا فى القرآن ، بل وردت صورة الفعل فى سورة الرعد .

﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ﴾[٢] .

٢٣ ــ الخافض

٢٤ ــ الرافع

﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾[٣] .

سبحان الذى يخفض الكفار بالاشقاء ، ويرفع المؤمنين بالاسعاد ، وسبحان من يرفع أولياءه بالتقريب ، ويخفض أعداءه بالإبعاد ، وسبحان مالك يوم الدين .

وسبحان رب الواقعة الخافضة الرافعة ، أى خافضة لقوم إلى النار ، ورافعة آخرين إلى الجنة .

وسبحان من بيده الميزان ، يخفض ويرفع .

﴿ إذا وقعت الواقعة ﴾

﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾

﴿ خافضة رافعة ﴾[٤] .

---

(١) المائدة الآية : ٦٤

(٢) الرعد الآية : ٢٦

(٣) الرحمن الآية : ٧

(٤) الواقعة الآيات : ١ ــ ٣

٢٥ ـــ المعـــز

٢٦ ـــ المـــذل

﴿ وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾(١) .

سبحان من أعز الطائعين بطاعته .

وسبحان من أعز أولياءه بعصمته ، ثم غفر لهم برحمته ، ثم نقلهم إلى دار كرامته ، ثم أكرمهم برؤيته ومشاهدته .

وسبحان الذى يجعل من شاء ذا مال وذا إعزاز دنيوى ، بحيث يصير مرغوباً فيه قليل المثال .

وسبحان من أذل العاصين بمعصيته .

وسبحان من أذل أعداءه بحرمان معرفته ، وركوب محارمه ، ثم نقلهم إلى دار عقوبته ، وقابلهم بطرده ولعنته .

وسبحان الذى يجعل من شاء ذا وصف فى الدنيا بسببه يرغب عنه ، ويسقط من درجة الاعتبار .

فمن أطاع الله واجتنب معاصيه ، أعزه الله إذ ما من طاعة ، إلا والعز معها ، وما من معصيته ، إلا والذل معها . أفتعصيه ويعزك ؟ كلا . فقد ربط ـــ سبحانه ـــ العز بالطاعة ، فهى طاعة ونور وكشف حجاب ، وربط ـــ تعالى ـــ الذل بالمعصية ، فهى معصية وذل وظلمة وحجاب بينك وبينه تعالى .

٢٧ ـــ السمـــيع

﴿ ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ﴾(٢) .

سبحان الذى يسمع دعوات عباده وتضرعاتهم ، ولا يشغله نداء عن نداء ، ولا تمنعه اجابة دعاء شخص ، عن اجابة دعاء آخر ، وسبحان من يجيب المضطر إذا دعاه ، وسبحان من يكشف السوء ، وسبحان غافر الذنب عند الاستغفار ، وقابل التوب عند الانابة ، وقابل الأعذار عند العثرات ، وسبحان من يعلم ما تخفى الصدور ، ويسمع كل نجوى ، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وسبحان

---

(١) آل عمران الآية : ٢٦

(٢) الشورى الآية : ١١

الله السميع البصير ، المجيب الرقيب ، فيكون السماع بمعنى السمع أى الاجابة ، كقوله ﷺ : « اللهم إنى أعوذ بك من دعاء لا يسمع »(١) أى من دعاء لا يستجاب .

وقد يكون السماع بمعنى القبول كقولنا : سمع الله لمن حمده ، أى قبل الله حمد من حمده .

كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الأربع : من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع »(٢) .

وقد ذكر « السميع » تعالى خمسًا وأربعين مرة فى الكتاب العربى المبين ، فهو السميع العليم ، وهو السميع البصير ، وهو سميع الدعاء ، وهو سميع قريب .

٢٨ - البصــــير

﴿ لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ﴾(٣) .

سبحان الذى يدرك ويبصر خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وسبحان العالم بخفيات الأمور .

ومتى علمنا أن الله بصير ، وجب علينا أن نعبده كأننا نراه ، فإن لم نكن نراه ، فإن الله يرى ، فينبغى لنا ألا يرانا حيث نهانا ، إشفاقًا من قوله ﷺ : « من لم يكن له ورع يحجزه عن محارم الله تعالى لم يعبأ الله تعالى بشىء من عمله »(٤) . وقيل فى هذا المعنى : « إذا أردت أن تعصى الله فاعصه فى موضع لا يراك فيه » . ويكفى أن نعلم أن الله بصير بكل شىء نعمله .

وقد ذكر « البصير » سبحانه ، واحداً وأربعين مرة فى كتاب الله العزيز وهو : « السميع البصير ، وهو الخبير البصير ، وهو بصير بالعباد ، وهو بما تعملون بصير ، وهو بصير بما تعملون » .

﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض ، والله بصير بما تعملون ﴾(٥) .

٢٩ ـ الحكـــم

﴿ والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾(٦) .

الحكم بفتحتين ومعناه : الحاكم الذى لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه . وقيل فى معنى الحكم : هو الذى حكم على القلوب بالرضا ، وعلى النفوس بالإنقياد والطاعة . وقيل فى معناه : هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، والبار والفاجر ، ويبين لكل نفس ما عملت من خير وشر .

(١) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٢٦١ رقم ٣٨٣٧ .

(٢) اخرجه ابن ماجة فى سننه جـ ٢ ص ١٢٦١ . كتاب الدعاء . باب دعاء رسول الله رقم ٣٨٣٧ . وانظر كنز العمال رقم ٣٧٧٩ . والحاكم جـ ١ ص ١٠٤ .

(٣) الأنعام الآية : ١٠٣

(٤) اخرجه ابن عساكر جـ ٢ ص ٦٥ عن أنس بلفظ : « الورع سيد العمل من لم ين له ورع يرده عن معصية الله إذا خلابها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئان .

(٥) الحجرات الآية : ١٨

(٦) الرعد الآية : ٤١

وسبحان القائل فى كتابه الكريم : ﴿ **فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين** ﴾[١].

وقد ذكر الحكم مرة واحدة فى الذكر الحكيم : ﴿ **أفغير الله أبتغى حكمًا وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً** ﴾[٢] .

٣٠ ـ العـــدل

﴿ **وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً ، لا مبدل لكلماته** ﴾[٣] .

سبحان الله الحكم العدل ، والعدل هو فى اللغة مصدر أقيم مقام الاسم للزيادة ، أى البالغ فى العدل ، أى الذى لا يظلم أحداً .

والعدل مأخوذ من الاعتدال ، وهو الاستواء ، ويقع صفة للحكم والحاكم معاً ، فيقال حاكم عدل وحكم عدل .

وسبحان الكريم العفو ذى العدل ، الذى قد ملأ كل شيء عدله . ثم لنتدبر هذه الآية الكريمة من سورة النحل : ﴿ **وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم** ﴾[٤] .

٣١ ـ اللطيـــف

﴿ **ان ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم** ﴾[٥] .

سبحان من يعلم بخفيات الأمور ، ودقائق الأشياء وغوامضها ، وما رق منها وما لطف ، وهو المدرك العليم بذات الصدور ، ذلك بأنه تعالى هو خالق كل شيء .

﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾[٦] .

وقيل فى معانى اللطيف : هو الذى يريد بعباده الخير واليسر ، ويفيض لهم أسباب الصلاح والبِّر .

وقيل عن اللطيف ، هو البر بعباده الذى يلطف بهم من حيث لا يعلمون ، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون ، كقوله تعالى : ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء** ﴾[٧] .

وقد ذكر اللطيف سبع مرات فى الكتاب العربى المبين .

---

(١) الأعراف الآية : ٨٧
(٢) الأنعام الآية : ١١٤
(٣) الأنعام الآية : ١١٥
(٤) النحل الآية : ٧٦
(٥) يوسف الآية : ١٠٠
(٦) الملك الآية : ١٤
(٧) الشورى الآية : ١٩

٣٢ ـ الخبير

﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾(١) .

الخبير من الخبرة ، وهى العلم بالخبايا الباطنة ، علم اليقين ، ولا يعزب عنه شيء ، فلا يجرى فى الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرة ، ولا تطمئن نفس ولا تضطرب إلا ويكون علمها عند ربى .

وقد ذكر « الخبير » تعالى خمسًا وأربعين مرة فى الكتاب الكريم : فهو الحكيم الخبير ، وهو الخبير البصير ، وهو اللطيف الخبير ، وهو العليم الخبير ، وهو بما تعملون خبير ، وهو خبير بما تعملون ، وهو خبير بما تفعلون وهو خبير بما يصنعون .

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾(٢) .

٣٣ ـ الحليم

﴿ والله غنى حليم ﴾(٣) . ﴿ والله غفور حليم ﴾(٤) .

سبحان الحليم ذى الصفح والأناة ، الذى لا يحبس أنعامه وأفضاله عن عبادة لأجل ذنوبهم ، ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع ، ذلك بأنه تعالى هو الصفوح مع القدرة ، المتأنى الذى لا يعجل بالعقوبة .

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(٥) .

وكيف يعجل من لا يخاف الفوْت . قال تعالى : ﴿ يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان ﴾(٦) .

وإليكم هذا الدعاء عن رسول الله ﷺ : « لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين »(٧) . وسبحان الله الحليم ، الذى يمهل العاصى ، فإن تاب قبل توبته ، وإن أصر أخر العقاب عنه ، لعلمه تعالى أنه لا يخرج من ملكه .

وهذا دعاء للإنابة : « يا من عصمت المعصومين وحفظت المحفوظين ويا من أصلحت الصالحين ، إن عصمتنى ، تجدنى معصوماً ، وإن أهملتنى تجدنى مخذولاً ، ناصيتى بيدك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك .

(١) فاطر الآية : ١٤
(٢) الملك الآية : ١٤
(٣) البقرة الآية : ٢٦٣
(٤) البقرة الآية : ٢٢٥
(٥) النحل الآية : ٦١
(٦) الرحمن الآية : ٣٣
(٧) اخرجه صحيح مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب دعاء الكرب جـ ٤ ص ٢٠٩٢ ـ ٢٠٩٣ رقم ٨٣ / ٢٧٣٠ .

وقد ذكر الحليم سبحانه أحدى عشرة مرة فى الكتاب العربى الكريم : فهو غفور حليم ، وهو حليم غفور ، وهو عليم حليم ، وهو غنى حليم ، وهو تعالى ، شكور حليم .

٣٤ ـ العظيم

﴿ وهو العلى العظيم ﴾(١) .

العظيم صيغة مبالغة من العظم . والعظم هو الفخامة والعز والمجد والكبرياء . وسبحان الله العظيم المستحق لصفات العُلوّ والمجد ورفعة القدر ، وسبحان من ليس لعظمته بداية ، ولا لكنه جلاله نهاية وسبحان العظيم الذى لا تهتدى العقول لوصف عظمته ، ولا يحيط بكنهه بصيرة ، وسبحان العظيم بوجوب وجوده ، وسبحان العظيم ذى القوة المتين ، وهو القادر الذى لا يعجزه شىء ، فهو سبحان الله العظيم بتنزهه عن صفات خلقه ، ذو الثناء الفاخر ، كان النبى ﷺ يقول عند الكرب : « **لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش الكريم** »(٢) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من دخل على مريض لم يحضره أجله فقال : « **أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفى بإذن الله** »(٣) ، **ولله المثل الأعلى ، وإليكم هذه البشرى** للمؤمنين من محمد رسول الله . قوله ﷺ : « من تعلم وعلّم وعمل فذلك يدعى فى ملكوت السماء عظيماً »(٤) . وقد ذكر العظيم تعالى ، ست مرات فى القرآن الكريم : مرة فى سورة البقرة فى نهاية آية الكرسى ، وهى الآية ٢٥٥ ، ومرة فى الآية الرابعة من سورة الشورى ، ومرتين فى الآيتين ٧٤ ـ ٩٦ من سورة الواقعة ومرتين فى الآيتين : ٣٣ ، ٥٢ من سورة الحاقة . **﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾** .

٣٥ ـ الغفور

﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾(٥) .

سبحان ربى الغفور ، كثير المغفرة والستر . قال تعالى : ﴿ أنى أنا الغفور الرحيم(٦) .

وسبحان ربى الغفور الغفار ، وقيل فى معنى الغفور : هو كثير الغفر من جهة الكيفية ، فيغفر الذنوب العظام ، وقيل فى معنى الغفار : هو كثير العفو من جهة الكمية ، فيغفر الذنوب الكثيرة .

---

(١) الشورى الآية : ٤
(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٩٢ ، ٢٠٩٣ . كتاب الذكر والدعاء باب دعاء الكرب . رقم٨٣ / ٢٧٣٠ .
(٣) اخرجه الطبرانى فى الصغير جـ ١ ص ٢١ . انظر كنز العمال جـ ٩ ض ١٠٤ رقم ٢٥١٩٧
(٤) انظر اتحاف السادة المتقين جـ ١ ص ١٠٦ . وكنز العمال جـ ١٠ ص ١٦٤ رقم ٢٨٨٥٠
(٥) آل عمران آية : ١٣٥
(٦) الحجر آية : ٤٩

عن أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه أنه قال لرسول الله ﷺ : « علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى » . **قال : قل : « اللهم إنى ظلمت** نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى **مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم »**[1] . **رواه البخارى** .

كما روى البخارى هذا الدعاء أو « سيد الاستغفار » كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب **إلا أنت »**[2] ، وقد ذكر (الغفور تعالى) واحداً وتسعين مرة فى كتاب الله الكريم ، وهو الغفور الرحيم ، وهو الرحيم الغفور ، وهو الغفور الحليم ، وهو حليم غفور وهو العزيز الغفور ، وهو الغفور الودود ، وهو الغفور الشكور .

٣٦ ــ الشكور

﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾[3] . .

سبحان كثير الثناء ، الذى يجازى بيسير الطاعات كثير الدرجات ، وسبحان الذى يعطى العمل فى أيام معدودة ، نعيماً فى الآخرة غير محدود .

وقد ذكر الشكور تعالى أربع مرات فى القرآن المجيد :

١ ــ ﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ، إنه غفور شكور ﴾[4] .

٢ ــ ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، إن ربنا لغفور شكور ﴾[5] .

٣ ــ ﴿ ومن يقترف حسنة تزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور ﴾[6] .

٤ ــ ﴿ والله شكور حليم ﴾[7] .

٣٧ ــ العلى

﴿ فالحكم لله العلىِّ الكبير ﴾[8] .

سبحان العالى علو الجلال والكمال ، قال الحليمى فى معنى العلى : « إنه الذى ليس فوقه فيما يجب له من معالى الجلال أحد ، ولا معه من يكون العلو مشتركاً بينه وبينه ، لكنه العلى بالاطلاق » .

عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح دعاء قط **إلا استفتح « بسبحان ربى الأعلى العلى الوهاب »**[9] . **وجاء فى كتاب الأسماء والصفات ، أن رسول**

(١) اخرجه البخارى جـ ١ ص ٢١١ . كتاب الصلاة . باب الدعاة قبل السلام .
(٢) اخرجه البخارى جـ ٨ ص ٨٣ . كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار
(٣) فاطر آية : ٣٤ (٤) فاطر آية : ٣٠ (٥) فاطر آية : ٣٤
(٦) الشورى آية : ٢٣
(٧) التغابن آية : ١٧ (٨) غافر آية : ١٢
اخرجه الامام احمد فى مسنده جـ ٤ ص ٥٤

الله ﷺ ليلة أسرى به ، سمع تسبيحاً فى السموات العُلى : « سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » .

وقد ذكر العلى سبحانه ثمان مرات فى القرآن العظيم فى الآيات : ٢٥٥ البقرة ، ٦٢ الحج ، ٣٠ لقمان ، ٢٣ سبأ ، ١٢ غافر ، ٤ الشورى ، ٥١ الشورى ، ٣٤ النساء .

وهو العلى العظيم ، وهو العلى الكبير ، وأنه علىّ حكيم .

٣٨ ـ الكبيـــر

﴿ الكبير الذى لا تهتدى العقول لوصف عظمته ﴾

سبحان الكبير الذى فاق مدح المادحين ، ذلك بأن الله أكبر من مشاهدة الحواس وإدراك العقول ، ومن كل شىء .

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : كان يعلّمهم دعاء رُقْيَةً من الأوجاع كلها ومن الحمّى : « بسم الله الكبير ، نعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعّار وشر حر النار »[١] .

وذكر الكبير تعالى ، خمس مرات فى القرآن العظيم :

١ ـ ﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[٢]

٢ ـ ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾[٣] .

٣ ـ ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾[٤]

٤ ـ ﴿ قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ﴾[٥]

٥ ـ فالحكم لله العلى الكبير ﴾[٦]

٣٩ ـ الحفيـــظ

﴿ إن ربى على كل شىء حفيظ ﴾[٧]

سبحان الحفيظ ، وهو الحافظ ، والحفيظ معناه : صون الشىء من الزوال ، فسبحان الذى يحفظ السموات والأرض وما فيهما ، لتبقى مدة بقائهما ، فلا تزولا ولا تختلا .

قال الله عز وجل : **﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾[٨]** وقال جل وعلا : **﴿ وحفظاً من كل شيطان مارد ﴾[٩]** أى حفظناها حفظاً ، وهو الذى يحفظ عباده من المهالك ويقيهم مصارع الشر .

(١) اخرجه ابن ماجة جـ ٢ ص ١١٦٥ كتاب الطب . باب ما يعوذ به من الحمى . رقم ٢٣٥٦ ، انظر سنن الترمذى جـ ٣ ص ٢٧٣ كتاب الطب . باب ما جاء فى تبريد الحمى بالماء . رقم ٢١٥٧ .
(٢) الرعد آية : ٩
(٣) الحج آية : ٦٢
(٤) لقمان آية : ٣٠
(٥) سبأ آية : ٢٣
(٦) غافر آية : ١٢
(٧) هود آية : ٥٧
(٨) البقرة آية : ٢٥٥
(٩) الصافات آية : ٧

• قال الله عز وجل : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[١] أى بأمره .

وسبحان الذى يحفظ على الخلق أعمالهم ، ويحصى عليهم أقوالهم ، ويعلم نياتهم وما تكن صدورهم ، فلا تغيب عنه غائبة ، ولا تخفى عليه خافية ، وسبحان الذى يحفظ أولياءه ، فيعصمهم عن مواقعة الذنوب ، ويحرسهم من مكائد الشيطان ، ليسلموا من شره وفتنته .

وقد ذكر « الحفيظ » تعالى ثلاث مرات فى القرآن الحكيم :

١ ـ ﴿ إن ربى على كل شيء حفيظ ﴾[٢]

٢ ـ ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾[٣]

٣ ـ ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل ﴾[٤] .

٤٠ ـ المقيت

﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾[٥]

سبحان الذى يعطى الأقوات ، وقيل فى معنى **المقيت** : أى خالق الأقوات البدنية والروحانية وموصلها أى الأشباح والأرواح .

وصلى الله على سيدنا محمد الذى جعل من القوت ذكر **الحى** الذى لا يموت قال عليه الصلاة والسلام : « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى »[٦] .

وقال الأزهرى أن « المقيت » هو « المقتدر » بلغة قريش فيكون قوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقيتاً ﴾[٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾[٨] أى مطلقاً قادراً .

وقد ذكر « المقيت » تعالى مرة واحدة فى القرآن العزيز : ﴿ من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شيء مقيتًا ﴾[٩]

---

(١) الرعد آية : ١١
(٢) هود آية :٥٧
(٣) سبأ آية : ٢١
(٤) الشورى آية : ٦
(٥) النساء آية : ٨٥
(٦) اخرجه مسلم جـ ٢ ص ٧٧٤ . كتاب الصوم . باب النهى عن الوصال فى الصوم رقم ٥٧ / ١١٠٣ .
(٧) النساء آية : ٨٥
(٨) الكهف آية : ٤٥
(٩) النساء آية : ٨٥

٤١ ـ الحسيب

﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[(١)]
سبحان الكافى ، ويجوز أن يكون الحسيب من الحسب ، الذى هو الاكتفاء فيكون معناه الكافى سبحانه . ولنتدبر الآيتين : ﴿ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ﴾[(٢)]
﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[(٣)]
ويجوز أن يكون الحسيب من الحساب ، فيكون معناه المحاسب ، ولنتعلم هذه الآيات :
١ ـ ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾[(٤)]
٢ ـ ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ، ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[(٥)]
٣ ـ ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾[(٦)]
كما ورد عن سيدنا عمر : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا »[(٧)]
وقد ذكر الحسيب سبحانه ثلاث مرات فى القرآن العظيم :
١ ـ ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾[(٨)]
٢ ـ ﴿ إن الله كان على كل شىء حسيباً ﴾[(٩)]
٣ ـ ﴿ ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً ﴾[(١٠)]

٤٢ ـ الجليل

﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام ﴾
سبحان الجامع لجميع صفات الجلال ، ذو الجلال والاكرام ، وسبحان الذى جلّ قدره فى قلوب العارفين .

« والجليل » اسم من الجلال والعظمة ، ومعناه منصرف إلى جلال القدر وعظم الشأن ، ومعناه المستحق للأمر والنهى ، ومن حق البارىء جل ثناؤه على من أبدعه أن يكون أمره عليه نافذاً ، وطاعته له لازمة ، وهو الذى يصغر دونه كل جليل ، ويتضع معه كل رفيع .

وفى اللغة : ج ل ل ، و « جلال » الله عظمته ، ويقال فعلته من « جلالك » أى من أجلك ، وجلَّ (يجلّ) بالكسر (جلاله) أى عظم قدره ، فهو (جليل) و (أجلّه) فى المرتبة .

من ذلك نرى أن الجليل بحق هو الله ، ويجوز أن ندعوه تعالى بهذا الاسم .

---

(١) آل عمران آية : ١٧٣
(٢) الأنفال آية : ٦٢
(٣) الطلاق آية : ٣
(٤) الأنبياء آية : ٤٧
(٥) الأنعام آية : ٦٢
(٦) الانشقاق آية : ٨
(٧) اخرجه ابن كثير جـ ٤ ص ٤١٢ . سورة الحاقة آية ١٧
(٨) النساء آية : ٦
(٩) النساء آية : ٩
(١٠) الأحزاب آية : ١٠

٤٣ ـ الكريـــم

﴿ إن ربى غنى كريم ﴾[١] :

هو أحكم الحاكمين الغنى الأكرم ، الذى يعطى ما يشاء ، لمن يشاء وكيف يشاء ، بغير سؤال ، وإذا سئل أعطى .

قال رسول الله ﷺ : « إن ربكم عز وجل حيٌّ كريم يستحى من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردها صفراً » .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز اسمه ، كريم يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها » .

قال أهل اللغة فى معنى الكريم : أنه النَّفَّاحُ ، نسأله ، تعالى أن ينفحنا نفحة خير ، إنه على كل شىء قدير .

ويقال : أكرمه الله ، وكرمه الله ، وأكرم نفسه بالتقوى ، وأكرمها عن المعاصى ، وهو يتكرم عن الشوائن ، وإن أجل المكارم اجتناب المحارم .

ويقال : هو كريمة قومه ، وفى الحديث : « إذا أتاكم كريمة قوم فأكرموه »[٣] . وقد يتجمل المسلم بهذه الصفة ، ويوصف بالسخاء .

قال رسول الله ﷺ : « لا تقولوا لشجرة العنب الكرم ، فإن الكرم هو الرجل المسلم »[٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « السخى قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد عن النار . والبخيل بعيد عن الله ، بعيد عن الناس ، بعيد عن الجنة ، قريب من النار »[٥] .

قال الغنى الكريم :

﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾[٦] .

وإليكم هذا الوعد الكريم من الله :

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ﴾[٧] .

---

(١) النمل آية : ٤٠

(٢) اخرجه أبو داود فى سننه جـ ٢ ص ١٦٥ . كتاب الصلاة باب الدعاء . رقم ١٤٨٨ . والترمذى فى الدعوات . باب كرم الله تعالى .

(٤) اخرجه ابن ماجة فى سننه . جـ ٢ ص ١٢٢٣ . كتاب الأدب باب إذا أتاكم كريم قوم . رقم ٣٧١٢ .

(٥) اخرجه أبو داود فى سننه جـ ٥ ص ٢٥٥ . كتاب الأدب . باب فى الكرم وحفظ المنطق . رقم ٤٩٧٤ . ومسلم فى فضائل على بن أبى طالب حديث رقم ٢٤٠٨ .

انظر البخارى جـ ٨ ص ٥١ ، ٥٢ . كتاب الأدب . باب . قول النبى « إنما الكرم قلب المؤمن » .

(٥) اخرجه الترمذى فى سننه جـ ٣ ص ٢٣١ . أبواب البر والصلة . باب ٤٠ (ما جاء فى السماء) رقم ٢٠٢٧ .

(٦) الانعام آية : ١٦٠

(٧) البقرة آية : ٢٦١

تلك هى الحدود الدنيا من الأجور الكريمة ، ولكن باب الله مفتوح ، ومع الإخلاص لله تضاعف الأجور أضعافاً كثيرة :

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾[١] .

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾[٢] .

فأى حساب هذا ، وأى أجر عظيم ، إلا أن يكون من لدن الكريم الحق ، بل إنا لنطمع من « كريم العفو » ما هو أكثر من ذلك ، والحمد لله كثيراً على هذا الوعد الكريم ، وعد الله :

﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفوراً رحيماً ﴾[٣] بالفرقان وقد ثبت عن النبى ﷺ فى الأخبار عن كرم عفو الله تعالى ما هو أبلغ من ذلك . قال رسول الله ﷺ : « إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فيعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا أو عملت يوم كذا وكذا ، كذا وكذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، قال ، فيقال : فإن لك مكان كل سيئة حسنة ، قال : فيقول : رب قد عملت أشياء ما أراها ها هنا ، قال : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه »[٤] رواه مسلم فى الصحيح .

وقد ذكر الكريم المطلق الذى لا يضيع من لاذبه والتجأ إليه ، مرتين فى القرآن الكريم :

١ ــ ﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[٥]

٢ ــ ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾[٦] .

وأى شىء خدعك وجرأك على عصيانه ، سبحانه .

قال رسول الله ﷺ : « غره جهله » وقيل : غره حمقه ، وقيل : غره شيطانه . ونقول : غرنا ستورك المرخاة ، وإنا نغتر فى كرم الكريم ، وعفو الرحيم ، ونعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . وسبحان الله الكريم الأكرم ، كريم العفو وهو أكرم الأكرمين .

---

(١) الزمر آية : ١٠

(٢) غافر آية : ٤٠

(٣) الفرقان آية : ٧٠

(٤) اخرجه مسلم جـ ١ ص ١٧٧ . كتاب الإيمان . باب أدنى أهل الجنة منزلة . رقم ٣١٤ / ١٩٠ .

(٥) النمل آية : ٤٠

(٦) الانفطار آية : ٦

٤٤ ــ الرقيب

﴿ إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[١] .

سبحان الرقيب القريب ، الذى لا يخفى عليه شىء من أفعال العباد ، قال تعالى :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾[٢] .

وقد ذكر الرقيب سبحانه وتعالى ، ثلاث مرات فى الكتاب العربى الحكيم :

١ ــ ﴿ فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾[٣] .

٢ ــ ﴿ واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[٤] .

٣ ــ ﴿ وكان الله على كل شىء رقيباً ﴾[٥] .

٤٥ ــ المجيب

﴿ إن ربى قريب مجيب ﴾[٦] .

سبحان ربى القريب المجيب ، الذى يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ونسأله تعالى أن نستجيب له بطاعته ، سبحانه ، وطاعة رسوله ﷺ .

قال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾[٧] .

﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله ﴾[٨]

﴿ للذين استجابوا لربهم الحسنى ﴾[٩]

وقد ذكر « المجيب » تعالى فى الآية التالية :

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب ﴾[٥]

ثم لنقرأ خمس كلمات من النور :

﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾[١١] .

(١) النساء آية : ١
(٢) ق آية : ١٦
(٣) المائدة آية : ١١٧
(٤) النساء آية : ١
(٥) الأحزاب آية : ٥٢
(٦) هود آية : ٦١
(٧) الأنفال آية : ٢٤
(٨) الشورى آية : ٢٦
(٩) الرعد آية : ١٨
(١٠) هود آية : ٦١
(١١) الصافات آية : ٧٥

٤٦ ــ الواســـع

﴿ ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلماً ﴾(١) .

سبحان الواسع الرحمة . قال تعالى :

﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾(٢) .

وسبحان الواسع العلم ، المحيط علمه بكل شىء :

وقد ذكر الواسع العليم سبع مرات فى القرآن العظيم :

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ، إن الله واسع عليم ﴾(٣) .

﴿ والله يؤتى ملكه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾(٤) .

﴿ والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم ﴾(٥) .

٤ ــ ﴿ والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله واسع عليم ﴾(٦) .

٥ ــ ﴿ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾(٧) .

٦ ــ ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم ﴾(٨) .

٧ ــ ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم ﴾(٩) .

وسبحان الواسع المغفرة . قال تعالى :

﴿ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، إن ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى ﴾(١٠)

وسبحان الواسع الحكيم . قال تعالى :

﴿ وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته ، وكان الله واسعاً حكيماً ﴾(١١).

وقد ذكر الواسع سبحانه وتعالى ، تسع مرات فى الكتاب الحكيم .

(١) غافر آية : ٧
(٢) الأعراف آية : ١٥٦
(٣) البقرة آية : ١١٥
(٤) البقرة آية : ٢٤٧
(٥) البقرة آية : ٢٦١
(٦) البقرة آية : ٢٦٨
(٧) آل عمران آية : ٧٣
(٨) المائدة آية : ٥٤
(٩) النور آية : ٣٢
(١٠) النجم آية : ٣٢
(١١) النساء آية : ١٣٠

٤٧ ـ الحكيم

﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ﴾[١] .

سبحان المحسن فى التدبير ، الذى أصاب كل شىء قدره ، وسبحان الحكيم ذو الحكمة البالغة ، وكمال العلم وإحسان العمل ، وقيل إن الحكمة هى العلم مع العمل والعدل ، وقيل إن الحكمة مجموعة معان من العدل والتنظيم والتقويم والعلم .

« والحكيم » صيغة تعظيم لذى الحكمة ، فيكون معنى الحكيم ، العظيم فى حكمته .

وقد ذكر « الحكيم » سبحانه ، واحداً وتسعين مرة فى مجموع سور القرآن الكريم ، فهو العزيز الحكيم ، وهو العليم الحكيم ، وهو الحكيم العليم ، وهو الحكيم الخبير ، وهو التواب الحكيم ، وهو العلىّ الحكيم ، وهو الواسع الحكيم .

﴿ وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

٤٨ ـ الودود

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وُدا ﴾[٣] .

الودود من الود وهو الحب ، وسبحان المحب للمؤمنين ، وهو المحبوب لهم ، ومحبة الله لعباده ، رحمته إياهم ، ومحبة المؤمنين لله تعالى طاعته ، وطاعة الله رحمة من الله ، والله نور السموات والأرض ، فمن أصابه من ذلك النور ، فقد سبق له من الله الهدى ، وما أحب المؤمن لله ! وما أحبه لله !

وقيل فى معنى الودود ، أن عباده الصالحين يودونه ويحبونه ، لما عرفوا من كماله فى ذاته وصفاته وغفرانه تعالى .

وكلتا الصفتين مدح ، لأنه جلّ ذكره ، إذا أحب عباده المطيعين ، فهو فضل منه ، وإذا أحبه عباده العارفون ، فلما تقرر عندهم من كريم إحسانه .

وهنا مكان هذا الدعاء الجميل : « يا ودود ، يا ذا العرش المجيد يامبدىء يامعيد ، يا فعال لما يريد ، أسألك بنور وجهك ، الذى ملأ أركان عرشك ، وبقدرتك » ، التى قدرت بها على جميع خلقك ، وبرحمتك التى وسعت كل شىء ، لا إله إلا أنت ، يا مغيث اغثنى » .

وقد ذكر الودود سبحانه ، مرتين فى القرآن الكريم :

١ ـ ﴿ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود ﴾[٤] .

٢ ـ ﴿ وهو الغفور الودود ﴾[٥] .

---

(١) البقرة آية : ٢٦٩
(٢) آل عمران آية : ٦٢
(٣) مريم اية : ٩٦
(٤) هود آية ٩٠
(٥) والبروج آية ١٤

٤٩ ـ المجيـــد

﴿ **إنه حميد مجيد** ﴾[١] .

سبحان المجيد ، ذو الشرف التام الكامل ، المفيض على العباد بالمجد والعطايا ، والمجد هو الشرف العظيم الرفيع القدر ، والمجيد فى اللغة : هو الذى عظم كرمه .

وقيل فى معنى « المجيد » . سبحانه ، هو الشريف ذاته ، الجميل أفعاله ، الجزيل عطاؤه ، وقيل : البالغ المنتهى فى الكرم .

وقد ذكر « المجيد » ، تعالى مرّة واحدة فى القرآن المجيد ﴿ ... **رحمت الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد** ﴾[٢] .

٥٠ - الباعــث

﴿ **لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم** ﴾[٣] .

سبحان الله ، باعث النبيين ، مبشرين ومنذرين ، والحمد لله الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ، محمد رسول الله خير مبعوث .

وسبحان باعث الموتى . قال تعالى : ﴿ **وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾[٤] ويجوز أن يكون معنى الباعث ، مثير الساكن ، وسبحان باعث الهمم ، وباعث ما فى عالم الغيب .

جاء فى سنن ابن ماجة أن النبى ﷺ كان إذا آوى إلى فراشه ، وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن ثم قال : « اللهم قنى عذابك يوم تبعث أو تجمع عبادك »[٥].

وكان رسول الله يقول عند الاستيقاظ : « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور »[٦].

وهذا الاسم العظيم « الباعث » غير وارد بصيغة الاسم فى القرآن الكريم ، ثم لنقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً** ﴾[٧] .

---

(١) هود آية : ٧٣
(٢) هود اية : ٧٣
(٣) آل عمران : ١٦٤
(٤) الحج آية : ٧
(٥) اخرجه ابن ماجه جـ ٢ ص ١٢٧٦ كتاب الدعاء . باب ما يدعو إذا آوى إلى فراشه . رقم ٣٨٧٧ .
(٦) اخرجه البخارى جـ ٨ ص ٨٥ كتاب الدعوات . باب وضع اليد اليمنى تحت الخد الأيمن .
(٧) الاسراء آية : ٧٩

٥١ ـــ الشهيـــــد

﴿ قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ﴾(١)

سبحان الشهيد العليم بظواهر الأشياء ، وسبحان الخبير العليم ببواطن ، الأشياء ، وقيل الشهيد مبالغة فى الشاهد ، والشهادة ترجع إلى العلم مع الحضور .

وسبحان الذى كرم الإنسان بنعمة المشاهدة ، فرأى من آيات الله ما أفعم القلوب بالشهادة ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم .

قال تعالى :

﴿ **قل أى شيء أكبر شهادة ، قل الله ، شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ، أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى . قل لا أشهد . قل إنما هو إله واحد وإننى برىء مما تشركون** ﴾(٢) .

وقد ذكر « الشهيد » سبحانه تسعة عشر مرة فى القرآن العظيم ، والله شهيد على ما تعملون ، والله على كل شيء شهيد ، وأنه على كل شيء شهيد ، وكفى بالله شهيداً .

٥٢ ـــ الحـــق

﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾(٣)

سبحان الموجود اليقين الثابت ، والله ـــ سبحانه ـــ هو الحق ، ومنه الحق ، وإليه يرجع كل حق ، وصفات الله سبحانه حق ، والعدل حق ، والصدق حق ، يقال : أحق الله الحق ، أى أثبته وأظهره .

﴿ ويحق الله الحق بكلماته ﴾(٤) .

قال رسول الله ﷺ : أصدق كلمة قالها شاعر كبير : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل »(٥) .

وكان النبى ﷺ إذ تهجد من الليل يدعو : « اللهم لك الحمد أنت رب السموات والأرض وما فيهن ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن ، أنت الحق ، وقولك الحق ، ووعدك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك

---

(١) الاسراء آية : ٩٦
(٢) الأنعام آية : ١٩
(٣) النور آية : ٢٥
(٤) يونس آية : ٨٢
(٥) اخرجه البخارى « باب أيام الجاهلية » جـ ٥ ص ٥٣ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هرير

توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت »[١] . رواه البخارى فى الصحيح .

وقد ذكر « الحق » تعالى ست مرات فى القرآن الحكيم فى الآيات : ٦٢ : الأنعام ، ٣٢ : يونس ، ٦ : الحج ، ١٢ : الحج ، ١١٦ : المؤمنون ، ٢٥ : النور .

هذا وإن كانت كلمة الحق ، قد ذكرت مئات المرات فى القرآن المجيد ٢٢٧ مرة ، ثم نقرأ الآية : ﴿ **فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون** ﴾[٢] ، هدانا الله إلى الحق ، ونسأل الله أن نتبع الحق لوجه الحق وحده .

٥٣ ـ الوكيل

﴿ **وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا** ﴾[٣]

سبحان الوكيل الكافى لمن توكل عليه ، القائم بأمور العباد ، وهو الذى من استغنى به أغناه عما سواه ، وهو المتصرف فى الأمور على حسب إرادته ، وهو سبحانه ، الموكول إليه تدبير أمر كل شىء ، وقد ذكر « الوكيل » سبحانه ، ثلاث عشرة مرة فى الكتاب الحكيم ، وهو على كل شىء وكيل ، والله على ما نقول وكيل ، وكفى بالله وكيلاً وكفى بربك وكيلاً ، وتوكل على الله ، وكفى بالله وكيلاً .

﴿ **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً** ﴾[٤]

﴿ **وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾[٥]

﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين** ﴾[٦] .

---

(١) اخرجه البخارى جـ ٨ ص ٨٥ ، ٨٦ كتاب الدعوات باب النوم على الشق الأيمن . ط / الشعب .
(٢) يونس آية : ٣٢
(٣) الأحزاب آية : ٣
(٤) المزمل آية : ٩
(٥) ابراهيم آية : ١٢
(٦) آل عمران آية : ١٥٩

٥٤ - القــوى

﴿ إن ربك هو القوى العزيز ﴾(١) .

سبحان الخلاق العليم ، ذى القوة المتين ، والقوة لله جميعاً ، ولا قوة إلا بالله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولنقرأ هذه الآية الكريمة :

﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا : من أشد منا قوة ؟ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يجحدون ﴾(٢) .

وقد ذكر « القوى » سبحانه تسع مرات فى القرآن الكريم ، فهو تعالى قوى شديد العقاب : الآيات : ٥٢ - الأنفال ، ٢٢ - غافر .

وهو سبحانه : القوى العزيز ، الآيات : ٦٦ - هود ، ٤٠ الحج ، ٧٤ الحج ، ١٩ - الشورى ، ٢٥ - الحديد ، ٢١ - المجادلة ، ٢٥ - الأحزاب .

﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز ﴾(٣) .

٥٥ - المتين

﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٤) .

سبحان الله الرزاق ذى القوة المتين .

وسبحان الذى لا تتناقص قوته .

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى قوله تعالى : « المتين » يقول : « الشديد » وفى اللغة يقال : هو متين القوى .

ومن المجاز يقال : رأى متين .

واسمه تعالى « المتين » يدل على شدة القوة ، والقدرة ، والله - سبحانه - متم قدره ، وبالغ أمره .

وقد ذكر « المتين » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب المبين ﴿ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾(٥) .

---

(١) سورة هود آية : ٦٦
(٢) سورة فصلت آية : ١٥
(٣) سورة الحديد آية : ٢٥
(٤ ، ٥) سورة الذاريات آية : ٥٨

٥٦ ـ الولى

﴿ إن وليى الله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين ﴾[١] .

سبحان المتكفل بأمور العباد كلها ، وسبحان الذى يتولى الصالحين من عباده ، الناصر لمن أطاعه ، وذلك بأن الله هو الذى نصر أولياءه ، وقهر أعداءه وقيل : الولىّ : هو الذى أحب أولياءه ونصرهم على أنفسهم باجتناب المعاصى ، وقيل : هو المتولى لأمر عباده المختصين بإحسانه .

وفى اللغة : (ولى) الواو ، اللام ، والياء ، أصل صحيح يدل على القرب ، يقال : تباعد بعد وُلْى ، أى : تباعد بعد قرب ، ويجرز أن يكون من معانى الولى : القريب .

وقد ذكر « الولى » سبحانه ثلاث عشرة مرة فى الكتاب العربى المبين :

﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٢] ، والله ولى المؤمنين .

قال تعالى : ﴿ أم اتخذوا من دونه أولياء ، فالله هو الولى ﴾[٣] وقوله : ﴿ وهو الولى الحميد ﴾[٤] ، والله ولى المتقين ، ﴿ وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيرا ﴾[٥] ، وقوله تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ﴾[٦] ، وقوله : ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾[٧] ، وقوله : ﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾[٨] ، وقوله : ﴿ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون ﴾[٩] ، وقوله : ﴿ أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين ﴾[١٠] .

٥٧ ـ الحميـــد

﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾[١١] .

سبحان الحميد مستوجب الحمد ، أهل الثناء بما أثنى على نفسه ، وأحمد الله تعالى بجميع محامده ، والحمد لله صاحب الحمد ومستحقه ، فمن ذا الذى يستحق الحمد سواه ؟ بل له الحمد كله لا لغيره ، وهو الذى يحمد على كل حال ، وفى السراء والضراء ، ذلك بأنه سبحانه ، حكيم حميد ، وهو الذى اتصل

---

(١) سورة الأعراف آية : ١٩٦
(٢) سورة البقرة آية : ٢٥٧
(٣) سورة الشورى آية : ٩
(٤) سورة الشورى آية : ٢٨
(٥) سورة النساء آية : ٤٥
(٦) سورة المائدة آية : ٥٥
(٧) سورة الأعراف آية : ١٥٥
(٨) سورة سبأ آية : ٤١
(٩) سورة الأنعام آية : ١٢٧
(١٠) سورة يوسف آية : ١٠١
(١١) سورة الحج آية : ٢٤

حمد المؤمنين له - تعالى - فى أول أم الكتاب : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾[١] . فى الدنيا ، وفى الآخرة . ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾[٢] .

وإن أقوال أهل الجنة وأحوالها لا آخر لها .

اللهم إنا نسألك أن نحمدك ، كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك حمداً لا ينتهى .

وقيل فى معنى الحميد - سبحانه - : هو الذى يوفقك للخيرات ، ويحمدك عليها ، ويمحو عنك السيئات .

وقد ذكر « الحميد » - تعالى - سبع عشرة مرة فى القرآن المجيد ، وهو - سبحانه - الغنى الحميد ، وهو العزيز الحميد ، وهو حميد مجيد ، وهو حكيم حميد ، وهو الولى الحميد .

٥٨ - المحصى

﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عدداً ﴾[٣] .

سبحان الذى أحصى كل شىء - علمه ، وسبحانه المحيط بكل شىء جملة وتفصيلاً ، وسبحان العالم بخفيات الأمور ومحصيها ، وقيل المحصى من الإحصاء : وهو الإحاطة بحساب الأشياء ، وما شأنه التعداد . وفى اللغة يقال : أرضى محصاة ، أى كثيرة الحصى ، ويقال : هم أكثر من الحصى وحسناتك لا تحصى ، وهذا أمر لا أحصيه ، أى لا أطيقه ولا أضبطه .

وهذا الإسم الكريم لم يرد فى القرآن المبين بصيغة الإسم ، ومن شاء فليقرأ :

﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴾[٣] ﴿ لقد أحصاهم وعدَّهم عدًّا ﴾[٤] ، ﴿ .... وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾[٥] ، ﴿ وكل شىء أحصيناه كتاباً ﴾[٦] .

٥٩ - المبدىء

﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾[٧] .

سبحان الذى بدأ الخلق وابتداه ، وأظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود ، وفى اللغة ، يقال : أمر بدىءٌ أى أمر عجيب .

قال تعالى :

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٢
(٢) سورة يونس آية : ١٠
(٣) سورة الجن آية :
(٤) سورة مريم الآيتان ٩٣ ، ٩٤
(٥) سورة يس آية : ١٢
(٦) سورة النبأ آية : ٩
(٧) سورة البروج آية : ١٣

﴿ أمّن يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾[١] ، ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾[٢] .

٦٠ - المعيد

﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾[٣] .

سبحان الذى يعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ، ثم يعيدهم ، بعد الموت إلى الحياة . وفى اللغة يقال : فلان ما يبدىء وما يعيد ، إذا لم يكن له حيلة .

قال تعالى :

﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ، كما بدأنا أول خلق نعيده ، وعداً علينا ، إنا كنّا فاعلين ﴾[٤] .

٦١ - المحيى

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ﴾[٥] .

سبحان خالق الحياة ومعطيها لمن شاء ، وسبحان الذى أحيا قلوب المؤمنين بنوره ، والحمد لله الذى أرسل رسوله بالحق ، ونزل الكتاب لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين .

وسبحان الذى أنزل من السماء ماء ، وجعل من الماء كل شىء حى .

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها ، إن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شىء قدير ﴾[٦] .

﴿ أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ ﴾[٧] .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أصبحتم فقولوا : اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا ، وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير »[٨] .

---

(١) سورة النمل آية : ٦٤

(٢) سورة الروم آية : ٢٧

(٣) سورة الروم آية :

(٤) سورة الأنبياء آية : ١٠٤

(٥) سورة الحج آية : ٦

(٦) سورة الروم آية : ٥٠

(٧) سورة الأنعام آية : ٨

(٨) رواه الترمذى فى (أبواب الدعوات) باب : ماجاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى حـ ٥ ص ١٣٤ رقم ٣٤٥١ وقال : هذا حديث حسن .

ـ ورواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الدعاء) باب : مايدعو به الرجل إذا أصبح وإذا أمسى حـ٢ ص ١٢٧٢ رقم ٣٨٦٨

ـ ورواه ابن السنى رقم ٣٣ ، ٤٨ وابن حبان ٢٣٥٤ ومجمع الزوائد ١١٤/١٠ والإمام أحمد ٣٥٤١٢ .

٦٢ - المميت

﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾[١] .

سبحان الذى خلق الموت والحياة ، وسبحان الذى يخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد موتها .

وسبحان من أحيا العارفين بالطاعات والموافقات ، وأمات المذنبين بالمخالفات ، وسبحان خالق الموت وموجهه على من يشاء من الأحياء متى شاء ، وكيف شاء ، وسبحان من أحيا القلوب بذكره ، ونعوذ بالله السميع العليم من أن نكون فى غفلة عن ذكره تعالى ﴿ **وما يستوى الأحياء ولا الأموات** ﴾[٢] .

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا أوى إلى فراشه يقول : « اللهم باسمك أحيا ، وباسمك أموت ، وإذا أصبح قال : الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور »[٣] .

٦٣ - الحى

﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت ﴾[٤] .

سبحان الحى الموجود الواجب الوجود ، الباقى الدائم من أزل الأزل إلى أبد الأبد ، والأزل هو دوام الوجود فى الماضى ، والأبد هو دوام الوجود فى المستقبل ، وقيل أن معنى أزلية الله تعالى ، وأزلية صفاته سبحانه ، أنه موجود حيث لا زمان . وهو من أسماء الله القديم فى الأزل حيث لا موجود غيره تعالى ، والحى سبحانه هو الذى لا يموت . وهو تعالى : ﴿ **كل شىء هالك إلا وجهه** ﴾[٥] .

(يا حى أحيى قلوبنا بنور معرفتك ومحبتك فى الدنيا قبل الآخرة) جاء فى كتاب الأسماء والصفات لأبى بكر البيهقى ، صفحة ١٤ ، .

عن أبى أمامة الباهلى - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « اسم الله الأعظم لفى سور من القرآن ثلاث : البقرة وآل عمران وطه »[٦] .

ولنتدبر معاً الآيات الثلاث :

---

(١) سورة النجم آية ٤٤

(٢) سورة فاطر آية ٢٢

(٣) أخرجه أبو داود فى (الأدب) حـ٥ ص٣٠٠ رقم : ٥٠٤٩ والبخارى فى باب مايقول إذا نام حـ٨ ص٨٥ والترمذى فى (أبواب الدعوات) حـ٥ ص١٤٦ رقم : ٣٤٧٧ ، رواه ابن ماجه باختصار برقم ٣٨٨٠ .

(٤) سورة الفرقان آية ٥٨

(٥) سورة القصص آية ٨٨

(٦) أخرجه ابن كثير فى التفسير : تفسير آية الكرسى حـ١ صـ٤٥٤ وعزاه لأبن مردودية ، وأول الحديث « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاث : .... الحديث »

١ - ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾[١] .
٢ - ﴿ الٓمٓ . الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾[٢] .
٣ - ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ﴾[٣] .

وجاء فى نفس الصفحة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال : كنت مع رسول الله ﷺ جالساً فى الحلقة ورجل قائم يصلى ، فلما ركع وسجد تشهد ودعا ، فقال فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنّان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حى يا قيوم . . إنى أسألك » . فقال النبى ﷺ : « لقد دعا باسمه العظيم الذى إذا دُعِىَ به أجاب وإذا سئل به أعطى »[٤] .

وقد ذكر « الحى » خمس مرات فى الكتاب المبين :

٤ - ﴿ وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده ﴾[٥] .
٥ - ﴿ هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين ، الحمد لله رب العالمين ﴾[٦] .

ذلك بأن :

﴿ كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾[٧] .

فسبحان الحى الذى ليس لحياته زوال ، وسبحانك اللهم أنت الحىّ الذى لا يموت . والجن والإنس يموتون .

٦٤ - القيـوم

﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾[٨] .

سبحان القائم بنفسه ، الغنى عن غيره ، وعن رسول الله ﷺ أنه قال : « كان الله ولا شىء معه »[٩] .

وقيل القيوم هو الدائم الباقى الذى لا يزول ، فيكون تأكيداً للحىّ ، والقيوم هو الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ، وهو القائم بتدبير خلقه ، وهو مدبر السمـٰوات والأرض ، وهو المقيم لكلِ شىء ، وكل شىء قائم بأمره .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٥٥
(٢) سورة آل عمران الآيتان : ١ ، ٢
(٣) سورة طه آية : ١١١
(٤) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الصلاة) باب الدعاء جـ٢ صـ١٦٧ ، ١٦٨رقم : ١٤٩٥ وأخرجه النسائى فى (كتاب الافتتاح) باب الدعاء بعد الذكر .
(٥) سورة الفرقان آية ٥٨
(٦) سورة غافر آية ٦٥
(٧) سورة الرحمن الآيتان ٢٦ ، ٢٧

(٨) سورة البقرة آية ٢٥٥ وآل عمران آية رقم : ٢
(٩) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب بدء الخلق) جـ٢ صـ٢٠٧ طبع دار احياء الكتب العربية من رواية عمران بن حصين بلفظ : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض . . . » ورواه الطبرانى ايضا .

﴿ إن الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾[١] .

﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾[٢] .

..... إذا أنتم تخرجون ، قيام تنظرون ، إلى دار المقامة ، يوم تقوم الساعة ، ويوم يقوم الأشهاد ، ويوم يقوم الروح والملائكة صفاً ، ويوم يقوم الناس لرب العالمين .

وهو سبحانه « القائم » أى الرقيب على كل نفس بما كسبت .

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾[٣] .

وهو تعالى المقيم للعدل . وهو عز وجل القائم بالقسط :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط ﴾[٤] .

وإذا تدبرنا القرآن ، حيث تتلاقى معانى القيوم ، والقائم ، والقيام ، والقوام ، والمقيم ، وإذا علمنا أن من معانى « القائم » الرقيب ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ﴾[٥] ، ثم إذا قال المفسرون أن تفسير قائماً بالقسط ، أى مقيماً للعدل . فلقلوب المؤمنين أن تخشع ، ولجلودهم أن تقشعر لما نزل من الحق : ﴿ وعنت الوجوه للحى القيوم ، وقد خاب من حمل ظلماً ﴾[٦] .

« يا حى يا قيوم برحمتك نستغيث » ، « اللهم أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى ولا إلى أحد من خلقك ، طرفة عين ولا أقل من ذلك » .

وقيل أنه من معانى القيوم : الذى لا ينام .

وقد ذكر « قيِّم » السمٰوات والأرض ، وقيوم السمٰوات والأرض فى روايتين لدعاء للنبى ، وفى الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قام من الليل يصلى يقول : « اللهم لك الحمد أنت رب السمٰوات والأرض ، ولك الحمد أنت قيوم السمٰوات والأرض »[٧] .

وقد ذكر الحى « القيوم » مقلب القلوب ، ثلاث مرات فى القرآن المجيد ، نسأله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه القيم .

٦٥ - الواجـــد

﴿ وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ﴾[٨]

سبحان الذى لا يخرج من العدم إلى الوجود شيئاً إلا هو ، وسبحان الغنى فى كل شىء ، ولكل شىء وكل شىء حاضر لديه .

---

(١) سورة فاطر آية : ٤١
(٢) سورة الروم آية : ٢٥
(٣) سورة الرعد آية : ٣٣
(٤) سورة آل عمران آية : ١٨
(٥) سورة الرعد آية : ٣٣
(٦) سورة طه آية : ١١١
(٧) أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة برقم : ٨٧٤ من رواية ابن عباس ، ضمه حديث طويل .
(٨) سورة الحجر آية رقم : ٢١

وقيل الواجد : الذى لا يضل عنه شىء ولا يفوته شىء .

وقيل الواجد : مأخوذ من الوجدان بمعنى العلم . يقال : وجدت فلاناً فقيهاً . أى علمت كونه كذلك .

ويقال : وجدت طعم الشىء إذا أدركته ، ويجوز أن يكون الواجد بمعنى العليم .

وقيل : الواجد : هو الله يجد كل ما يطلبه ويريده ، ولا يعوزه شىء من ذلك ، ولا يعجزه شىء ولا يفوته شىء .

٦٦ - المـــاجد

(اللهم أنت الماجد المجيد الفعال لما يريد ، نسألك الأمن يوم الوعيد) .

سبحان الذى تعطف بالمجد وتكرم به ، وسبحان العظيم القدر ، العظيم الشرف ، الواسع الكرم .

ويجوز أن يكون الماجد بمعنى المجيد كالعالم بمعنى العليم .

عن أبى ذر رضى الله عنه ، عن النبى - ﷺ - عن ربه عز وجل قال : يقول : « يا عبادى كلكم مذنب إلا من عافيت ، فاستغفرونى أغفر لكم بقدرتى ، من علم منكم أنى ذو مقدرة على المغفرة فاستغفرنى غفرت له ولا أبالى ، وكلكم هالك إلا من هديت فسلونى الهدى أهديكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت فسلونى أرزقكم . يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم وحيكم وميتكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادى ، لم يزد ذلك فى ملكى جناح بعوضة . ولو اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادى لم ينقص ذلك من ملكى جناح بعوضة ولو أن أولكم وآخركم ورطبكم ويابسكم وحيكم وميتكم اجتمعوا فسأل كل سائل منكم ما سأل لم ينقص ذلك مما عندى شيئاً ، كما لو أن أحدكم مرّ على شفة البحر فغمس فيه إبرة ثم انتزعها ، ذلك بأنى جوّاد « ماجد » أفعل ما أشاء عطائى كلام وإذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون »[1] .

وهذا الإسم الكريم غير مذكور فى القرآن ، بل المذكور المجيد .

٦٧ - الواحـــــد

﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾[2] .

سبحان الواحد فى ذاته لا قسيم له .

وسبحان الواحد فى صفاته الأزلية ، لا نظير له .

وسبحان الواحد فى أفعاله ، لا شريك له .

أى أن « الواحد » هو الفرد ، المنفرد فى ذاته ، وصفاته ، وأفعاله :

---

(١) اخرجه الترمذى فى كتاب (القيامة) باب فضل الرفق رقم : ٢٦١٣ وقال : هذا حديث حسن

(٢) سورة ابراهيم آية رقم : ٥٢

فهو واحد فى ذاته لا يتجزأ ، ولا يتناهى .

واحد فى صفاته لا يشبه شىء ، ولا يشبهه شىء .

واحد فى أفعاله لا شريك له .

ومن عرف أنه « الواحد » أفرد قلبه له .

وأنقل إليكم هذا الدعاء : « اللهم إنى أسألك أن تملأ قلبى بحبك حتى لا يكون لى شغل ولا همّ سواك » .

وقد فُسِّرَ قوله عليه الصلاة والسلام : « إن الله وتر يحب الوتر »[٣] ، يعنى يحب القلب المنفرد له تعالى .

وإذا كان من تهواه فى الحسن واحداً
فكن واحداً فى الحب إن كنت تهواه

وفى الحديث ، أنه عليه الصلاة والسلام سمع رجلاً يقول فى دعائه : « اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله الواحد الأحد ، الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، فقال : (لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى)[١] . وقد ذكر « الواحد » إحدى وعشرين مرة فى الكتاب العظيم .

٦٨ - الصمد

﴿ الله الصمد ﴾[٢] .

سبحان الصمد الذى يصمد إليه فى الحوائج ، أى الذى يقصد إليه فيها . والصمد سبحانه ، هو المقصود فى الحوائج على الدوام ، ولا يقصد فى قضائها إلا هو ، والقصد هو اتجاه الإنسان بنفسه إلى المقصود علناً ، ومثله الاتجاه إلى المقصود بالقلب سراً ، وما ينبغى أن يكون القصد سراً أو علناً إلا لله وحده ، وما ينبغى للإنسان أن يتجه بنفسه أو بقلبه إلى غير الله ، وما ينبغى للإنسان أن يكون من المشركين .

وقيل الصمد : هو الذى أصمدت إليه الأمور ، فلا يقضى فيها غيره ، ولا يقضى دونه . وقد ذكر « الصمد » مرة واحدة فى القرآن المجيد فى سورة الإخلاص .

---

(١) أخرجه : رواه أبو نصر عن ابى هريرة : أنظر كنز العمال حـ٧ رقم : ١٩٥٣٢ ورواه الترمذى فى (أبواب الوتر) باب ما جاء الوتر ليس بحتم حـ١ صـ٢٨٢ رقم ٤٥٢ عن على - رضى الله عنه - مع زيادة : « فأوتروا ياأهل القرآن » .

وقال الترمذى : حديث على حديث حسن .

ورواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الصلاة) باب ماجاء فى الوتر حـ١ صـ٣٧٠ رقم : ١١٩٦ من رواية على - رضى الله عنه - مع تقديم وتأخير ، وبرقم ١١٧٠ عن عبدالله بن مسعود بمثل رواية الترمذى .

(٢) أخرجه ابن ابى شيبة فى مصنفه فى (كتاب الزهد) حـ١٤ ص٣١ عن بريدة ورواه ابن ماجه فى (كتاب الدعاء) حـ٢ صـ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ برقم : ٣٨٥٧ ورواه ابن حبان برقم : ٨٨٩

(٣) سورة الأخلاص آية ٢

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « والذى نفسى بيده » ﴿ قل هو الله أحد ﴾ السورة « إنها لتعدل ثلث القرآن »[١] . أخرجه البخارى .

« إن القرآن أنزل ثلثاً منها أحكاماً ، وثلثاً منها وعداً ووعيداً ، وثلثاً منها الأسماء والصفات . وقد جمع فى قل هو الله أحد ، أحد الأثلاث وهو الأسماء والصفات ، فقيل : « إنها ثلث القرآن » .

٦٩ ـ القــادر

﴿ فقدرنا فنعم القادرون ﴾[٢] .

سبحان الله القادر ، ذو القدرة التامة ، الذى لا يعجزه شىء ، بل يستتب له ما يريد على ما يريد .

﴿ .. وما كان الله ليعجزه من شىء فى السمٰوات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديراً ﴾[٣]

والقَدَر ـ بفتحتين ـ اسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر ـ سبحانه ـ وقدْر الشىء مبلغه ، بسكون الدال ـ وهو مصدر ـ قال الله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾[٤] أى ما عظموه حق عظمته ، والقدر ـ بالفتح ـ ما يقدِّره الله من القضاء .

وليلة القدر ، هى ليلة الشرف العظيم ، وفسِّر القدْر بالتقدير . وفى القرطبى : قال مجاهد فى : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ قال : ليلة الحكم . والمعنى : ليلة التقدير ، سميت بذلك ، لأن الله تعالى يقدر فيها ما يشاء من أمر إلى مثلها من السنة المقبلة ، من أمر الموت والأجل والرزق ، وغير ذلك .

جاء فى صحيح البخارى ، الجزء السادس ، صفحة ٧١ ، لما نزلت هذه الآية : ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أعوذ بوجهك »[٥] .

وقد ذكر « القادر » سبحانه وتعالى : سبع مرات فى كتاب الله الكريم .

ولنقرأ معاً هذه الآية البينة :

﴿ أوليس الذى خلق السمٰوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم ﴾[٦] .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى فضائل القرآن ، فضل سورة « قل هو الله أحد » حـ٦ صـ٢٣٣
(٢) سورة المرسلات آية : ٢٣
(٣) سورة فاطر آية : ٤٤
(٤) سورة الأنعام آية : ٩١ والزمر آية : ٦٧
(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه ٦/٧١ من رواية جابر بن عبدالله ـ رضى الله عنه .
(٦) سورة يس آية : ٨١

٧٠ - المقتــــدر

﴿ إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[1] .

سبحان ربى المقتدر ، ذو القدرة العظيم ، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه ، وعلى كل ممن أعطاه حظاً من قدره .

وهو المقتدر على جميع الممكنات ، والمقتدر يفيد معنى القادر مبالغة وأكثر تعظيماً وفى اللغة : ق د ر - قدر ، يقال : هو قادر مقتدر ذو قدرة ومقدرة ، وقدر الشىء مبلغه ، بسكون الدال وفتحها . والأمور تجرى بقدر الله ومقداره وتقديره وأقداره ، ومقاديره .

و (القدرُ) بالفتح لا غير ، ما يقدره الله من القضاء ، وإذا وافق الشىء قالوا : جاء على قدر ، ويقال : قدر الشىء أى قدره من التقدير ، وبابه ضرب وفى الحديث : « إذا غمَّ عليكم الهلال فأقدروا له »[٤] ، أى أتموا ثلاثين ، ويقال : مالى عليه مقدرة بكسر الدال وفتحها أى « قدرة » وسنة قولهم : المقدرة تذهب الحفيظة ، وقد ذكر « المقتدر » سبحانه وتعالى مرتين فى القرآن الكريم ، والمرتين فى سورة القمر . ﴿ .. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴾

كتب الفخر الرازى : وفى قوله : ﴿ عزيز مقتدر ﴾ لطيفه : وهى أن العزيز المراد منه الغالب ، لكن العزيز قد يكون ، يغلب على العدو ويظفر به ، وفى الأول يكون غير متمكن من أخذه ، لبعده إن كان هارباً ، ولمنعته إن كان محارباً .

قال : أخذ غالب لم يكن عاجزاً ، وإنما كان ممهلاً .

٧١ - المقـــدم ٧٢ - المؤخـــر

(اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شىء قدير) .

سبحان المقدم والمؤخر لما شاء كما شاء بحكمته ، وسبحان المقدم من شاء بالتقوى والإنابة والصدق والاستجابة ، وسبحان من أخر من شاء عن طاعته وعن فرقته ورده إلى حوله وقوته .

وسبحان الذى قدم الأبرار وأخر الفجار ، وسبحان الذى يقرب ويبعد ، فمن قربه فقد قدمه ، ومن أبعده فقد أخره .

وسبحان الذى يقدم بعض الأشياء على بعض بأمره ، إما بالوجود كتقديم الأسباب على مسبباتها ، أو بالشرف كتقديم الأنبياء والصالحين من عباده .

---

(١) سورة القمر الآيتان ٥٤ ، ٥٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصيام) حـ٣ صـ٣٣ وأخرجه مسلم فى (كتاب الصيام) باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال برقم : ١٠٨٠/٣

وصلى الله على سيدنا محمد الذى قدمه ربه على جميع خلقه : قال تعالى : ﴿ . . قل إنى أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾(١) . . وقال تعالى : ﴿ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوَّل المسلمين ﴾(٢) . وقال تعالى : ﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أوَّل المسلمين ﴾(٣) .

كان رسول الله ـ ﷺ ـ يدعو بهذا الدعاء : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى وما أنت به أعلم منى ، اللهم أغفر لى خطاياى وعمدى وجهلى وجدِّى وهزنى وكل ذلك عندى اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخروأنت على كل شىء قدير »(٤) .

ثم لنتدبر معاً هذه الآيات البينات : قوله تعالى :

﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدَّم وأخر ﴾(٥) ، وقوله تعالى :

﴿ قال لا تختصموا لدى وقد قدَّمت إليكم بالوعيد ﴾(٦) ، وقوله تعالى :

﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾(٧) .

٧٣ ـ الأول

(هو الأول قبل كل شىء بلا بداية) .

سبحان الأول قبل كل شىء بلا بداية ، والآخر بعد كل شىء بلا نهاية ، وسبحان الموجود الواجب الوجود ، الأول لكل ما سواه ، المتقدم على كل ما عداه ، وهذه الأولية وهذا التقدم ، ليس بالزمان ولا بالمكان ولا بأى شىء ، فى حدود العقل أو محاط العلم .

والله سبحانه « ظاهر باطن » فى كونه أولاً : هو الأول ، أظهر من كل ظاهر ، لأن العقول تشهد بأن المحدثات لها موجد متقدم عليها ، فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة .

وهو الأول « أبطن من كل باطن » لأنك إذا أردت أن تعرف حقيقة تلك الأولية عجزت ، لأن كل ما أحاط به عقلك وعلمك ، فهو محدود عقلك وعلمك ، فيكون متناهياً ، فتكون الأولية خارجة عنه ، وليس فى حدود العقل إلا أن يتدبر القرآن :

﴿ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ﴾(٨) .

قيل : ويجوز أن يكون معنى ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أنه هو « الأول » لم يكن قبله شىء .

---

(١) سورة الانعام آية : ١٤

(٢) سورة الأنعام آية : ١٦٣

(٣) سورة الزمر الآيتان : ١١ ، ١٢

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الدعوات) حـ٨ صـ١٠٥ ، ورواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب التعوذ من شر ماعمل ومن شر مالم يعمل حـ٤ صـ٢٠٨٧ رقم : ٢٧١٩/٧٠

(٥) سورة القيامة آية : ١٣

(٦) سورة ق آية : ٢٨

(٧) سورة ابراهيم آية : ٤٢

(٨) سورة الواقعة آية : ٦٠

٧٤ - الآخـــر

(هو الآخر بعد كل شىء بلا نهاية) .

سبحان الآخر الأبدى الباقى الدائم بلا نهاية ، وسبحان الله رب الآخرة والأولى .

﴿ الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وله الحمد فى الآخرة وهو الحكيم الخبير ﴾[١] .

عن رسول الله ﷺ أنه كان يدعو بهؤلاء الكلمات : « يا كائن قبل أن يكون شىء والمكون لكل شىء والكائن بعدما لا يكون شىء : أسألك بلحظة من لحظاتك الحافظات الغافرات الاجيات المنجيات »[٢] .

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ﴾ .

٧٥ - الظـاهـــر

(وأنت الظاهر فليس فوقك شىء) .

سبحان الظاهر وجوده لكثرة دلائله ، وهو البادى بالأدلة عليه وفى أفعاله ، فلا يمكن نجحد وجوده ، وهو الظاهر بحججه الباهرة ، وبراهينه النيرة ، وشواهد أحلامه الدالة على ثبوت ربوبيته ، وصحة وجدانيته .

« والظاهر » هو الغالب العالى ، ومنه قوله تعالى :

﴿ . . . فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾[٣] . أى : فأصبحوا غالبين عالين .

قيل أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ سأل النبى ﷺ عن تفسير : ﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ فقال له النبى ﷺ (ما سألنى أحد تفسيرها ، لا إله إلا الله ، والله أكبر وسبحان الله وبحمده استغفر الله لا حول ولا قوة إلا بالله الأول والآخر والظاهر والباطن بيده الخير يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير »[٤] .

---

(١) سورة سبأ آية : ١

(٢) أخرجه كنز العمال برقم : ٤٩٩٨

(٣) سورة الصف آية : ١٤

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسيره ، فى تفسير سورة الزمر حـ٧ صـ٦١ طبع دار الفكر ونبه على ضعفه .

٧٦ - الباطن

(وأنت الباطن . فليس دونك شىء) .

سبحان الباطن حقيقة ذاته ، فلا تكنهها العقول ، وسبحان من احتجب عن إدراك الحواس ، مع شدة ظهوره ، وكمال نوره ، وسبحانه من ليس له شبيه ولا ضد .

وسبحان الباطن على كل شىء رحمة وعلماً ، وسبحانه الذى أسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة ، ومالنا من دون الله من ولى ولا نصير .

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ هذا الدعاء :

« اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شىء خالق الحب والنوى منزل التوراة والانجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها . اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء أقض عنا الدين واغننا من الفقر »[١] .

وقد ذكر « الأول والآخر والظاهر والباطن » - سبحانه وتعالى - مرة واحدة فى القرآن العظيم ، فى الآية الثالثة من سورة الحديد :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾[٢] .

وكتب الفخر الرازى : سمعت والدى - رحمه الله - يقول : إنه كان يروى أنه لما نزلت الآية : ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ﴾ أقبل المشركون نحو البيت وسجدوا .

٧٧ - الوالى

﴿ وما لهم من دونه من وال ﴾[٣] .

سبحان المالك للأشياء ، والمتولى لها ، والمتصرف فيها كيف يشاء ، وهو المنفرد بالتدبير ، القائم على كل شىء ، ولا دوام ولا بقاء إلا بإذنه ، وكل شىء يجرى بحكمه وبأمره .

ويحتمل أن يكون الوالى بمعنى المنعم بالعطاء الدافع للبلاء . ولنتدبر الآية الحادية عشرة من سورة الرعد :

---

(١) أخرجه مسلم فى (كتاب الذكر والدعاء) بأرقام ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ورواه الترمذى برقم : ٣٤٨١ وابن ماجه رقم : ٣٨٣١

(٢) سورة الحديد آية : ٣

(٣) سورة الرعد آية : ١١

﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال ﴾[١] .

٧٨ - المتعـــالى

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾[٢] .

سبحان البالغ فى العلوّ ، المتعالى بوجوب وجوده ، رفيع الدرجات ذو العرش .

وقيل : المتعالى ، معناه الرفيع فى كبريائه وعظمته ، وعلا مجده عن كل ما يدرك أو يفهم من أوصاف خلقه ، فكل من اسمه المجيد والعلى والعظيم والكبير والمتعالى ، يدخل فى الذى يليه بمعناه طرداً وعكساً : فهو العظيم فى مجده ، المجيد فى عظمته ، العلى فى ذلك ، والمجيد العظيم فى علوّه ، الكبير فى مجده وعلوّه وعظمته ، العظيم المجيد العلى فى كبريائه ، وهو تعالى ، المتعالى فى ذلك كله .

قال رسول الله ﷺ : « بئس عبدٌ تخيل واختال ونسى الكبير المتعال »[٣] .

وقد ذكر « المتعالى » سبحانه ، مرة احدة فى الكتاب العظيم فى الآية التاسعة من سورة الرعد .

﴿ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴾ .

٧٩ - البر

﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾[٤] .

سبحان العطوف على عباده بلطفه ، الذى من على السائلين بعطائه . وعلى العابدين بجميل جزائه ، وسبحان الذى منه كل مبرة وإحسان . والبر بفتح الباء معناه : فاعل البر بكسرها ، أى الإحسان ، وهى كلمة جامعة لكل صفات الخير ، وهو من أسماء الله تعالى .

وفى اللغة « البر » هو الاتساع كما يرى المفسرون ، واللغويون أن البر هو الصلة والخير والاتساع فى الإحسان والصدق . ويجوز أن يكون معنى البر الكثير الطاعة ، وجمعه : أبرار . ومن المجاز : فلان يبر ربه ، أى : يطيعه ، وفى هذا يكون البر إسم جامع للطاعات وأعمال الخير المقربة إلى الله ، أو اسم جامع لجميل الخصال ولكل فعل مرضى .

وطاعة الله سبحانه هى عبادته تعالى وبر الوالدين والتوسع فى الإحسان إليهما ، والجنة تحت أقدام الأمهات .

(١) سورة الرعد آية : ١١
(٢) سورة الرعد آية : ٩
(٣) أخرجه الترمذى برقم ٢٤٥٠ فى أبواب صفة القيامة
(٤) سورة الطور آية : ٢٨

والبار :من يصدر عنه البر والطاعة وجمعه بررة . قال تعالى :

﴿ بأيدى سفرة كرام بررة ﴾[١] .

وأولى بالإنسان أن يكون مشتغلاً بأعمال البر ، واستباق الخيرات ، وأن لا يضمر الشر ، ولا يؤذى أحداً ، فإن البار هو الذى لا يؤذى . ولذا قيل : « البر شيء هين وجه طلق وكلام لين » وعن ابن عمر رضى الله عنهما . قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « البر لا يبلى والذنب لا ينسى والديان لاينام كما تزرع تحصد وكما تدين تدان »[٢] .

ورضاء الرب فى رضاء الوالدين ، فلا أقل من البر بهما وشدة الإحسان إليهما ، وبالقول الكريم والدعاء لهما :

وسبحان ربى الحنان المنان ، الذى من على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وهو الذى من على المؤمنين بأن جعلهم من أهل اليمين ، وهو الذى ألهمهم القيام بصالح الأعمال ، وهو الذى رزقهم القبول وقبول أحسن ما عملوا . . وهو الذى يتجاوز عن سيئاتهم .

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون ﴾[٣] .

فياله من بر من ذى المن والكرم . . . البر الرحيم .

قال تعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لى فى ذريتى إنى تبت إليك وإنى من المسلمين . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون ﴾[٤] .

وقال تعالى :

﴿ . . . إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم . إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾[٥] .

وقد ذكر « البر الرحيم » مرة واحدة فى سورة الطور من القرآن الكريم .

---

(١) سورة عبس الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٢) أخرجه العجلونى فى كشف الخفاء برقم ٩٠٢ وقال : رواه ابونعيم وابن عدى والديلمى عن ابن عمر ،، ورواه عبدالرزاق فى الزهد عن ابى قلابة مرسلا ، وأحمد عن ابى الدرداء موقوفا

(٣) سورة الزمر آية : ٣٥

(٤) سورة الأحقاف الآيتان : ١٥ ، ١٦

(٥) سورة الطور الآيات : ٢٦ ـ ٢٨

٨٠ - التواب

﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾[١] .

سبحان الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات وهو التواب الحكيم ، وسبحان الذى يقابل الدعاء بالعطاء ، والاعتذار بالاغتفار ، والإنابة بالاجابة . وفى اللغة ، يقال : تاب الله عليه ، أى غفر له وأنقذه من المعاصى . والتوبة لغة : الرجوع . يقال : تاب إذا رجع ، وآب أى رجع قال تعالى :

﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾[٢] .

ويقال : ناب بمعنى رجع ، قال تعالى : ﴿ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ﴾[٣] أى ارجعوا .

ويقال : ثاب بالمثلثة إذا رجع .

فتحصل أنه يقال : تاب ، وثاب ، وناب ، أناب ، وآب وكلها بمعنى : رجع .

والتوبة بالنسبة للعباد ، هى الندم على المعصية والرجوع إلى الطاعة ، والله تعالى يتوب على من يشاء من عباده برجوعه بالقبول .

وقيل : إذا تاب العبد إلى الله بسؤاله تاب الله عليه بنواله .

والتوبة الخالصة هى لقاء الله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾[٤] .

وقد ذكر « التواب » - سبحانه - أحد عشرة مرة فى القرآن الكريم .

٨١ - المنتقم

﴿ والله عزيز ذو انتقام ﴾[٥]

سبحان الذى نخشى نقمته لقدرته وعظمته وهو الذى نرجو رحمته .

وإنا ندعوه ، تعالى ، خوفاً وذمعاً ، قال تعالى :

﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴾[٦] .

---

(١) سورة التوبة آية : ١١٨
(٢) سورة الاسراء آية : ٢٥
(٣) سورة الزمر آية : ٥٤
(٤) سورة الكهف آية : ١١٠
(٥) سورة آل عمران آية : ٤
(٦) سورة الانسان الآيتان : ١٠ ، ١١

وقال تعالى :

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾[١] .

وقال تعالى :

﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾[٢]

وقال تعالى :

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾[٣] .

٨٢ - العفو

﴿ إن الله لعفو غفور ﴾[٤] .

الحمد لله الذى يمحو الذنوب ، ويتجاوز عن السيئات ، وهو المريد لمحو الزلة والتجاوز عنها بكرمه .

قال رسول الله ﷺ : « ... وأتبع السيئة الحسنة تمحها .. »[٥] . والعفو ، إزالة الأثر ، ومنه عفت الديار ، وأن الغفران يشعر بالستر ، والعفو بالمحو .

وقيل معنى العفو : الذى يعطى الكثير ، ويهب الجزيل ، مأخوذ من قولهم : عفا مال فلان أى كثر .

وفى اللغة يقال : هذا من عفو مالى أى من حلاله وطيبه . ويقال : خذ ما عفا وصفا ، وخذ عفوه وصفوه وعفوته وصفوته .

ويقال : أعطيته عفواً من غير مسألة : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾[٦] أى : فضل المال ، أى الفاضل عن الحاجة .

ويقول : أطعمونا من عوافيكم ، دامت بكم عوافيكم ، جمع عافى القدر وهو بقية المرق فيها .

ويقال : « على الكريم عافيته » أى سؤاله . ويقال : فى واديهم كلأ عاف ، وعشب واف ، أى كثير .

وقد ذكر : « العفو » سبحانه خمس مرات فى القرآن الكريم : أربع مرات مع الاسم « الغفور » والخامسة مع الاسم « القدير » .

---

(١) سورة الدخان آية : ١٦

(٢) سورة النور آية : ٣٧

(٣) سورة الاسراء آية : ٥٧

(٤) سورة الحج آية : ٦٠

(٥) أخرجه : الترمذى حـ٤ ص٣١٢ رقم ١٩٨٧ كتاب البر والصلة ـ باب ماجاء فى معاشرة الناس .

(٦) سورة البقرة آية : ٢١٩

١ - ﴿ .. إن الله لعفو غفور ﴾ (١) .
٢ - ﴿ .. وإن الله لعفو غفور ﴾ (٢) .
٣ - ﴿ .. إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ (٣) .
٤ - ﴿ فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفوا غفوراً ﴾ (٤) .
٥ - ﴿ إن تبدو خيراً أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فإن الله كان عفوا قديراً ﴾ (٥) .

٨٣ - الرءوف

﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ، والله رءوف بالعباد ﴾ (٦) .

سبحان ربى الرءوف الرحيم ، الذى كلف الثرى بما لم يكلف به المسكين ، وأخذ المقيم بما لم يأخذ به المسافر وخفف الفرائض فى حال الضعف .

والحمد لله الذى يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه .

وفى اللغة ، وفى معجم ألفاظ القرآن الكريم ، لمجمع اللغة العربية - يقال : رأف به ، أى أشفق عليه من مكروه يحل به . والرأفة : أشد الرحمة - والرأفة من الله : دفع السوء .

وإليكم هذا الدعاء الذى فيه سبعة أسماء : « اللهم افعل بى وبهم عاجلاً وآجلاً ، فى الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يامولانا ما نحن له أهل ، إنك أنت غفور حليم ، جواد كريم ، رءوف رحيم » .

وقد ذكر « الرءوف » سبحانه عشر مرات فى الكتاب الكريم وهو الرءوف الرحيم .

ثم لنتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ (٧) .

---

(١) سورة الحج آية : ٦٠
(٢) سورة المجادلة آية : ٢
(٣) سورة النساء آية : ٤٣
(٤) سورة النساء آية : ٩٩
(٥) سورة النساء آية : ١٤٩
(٦) سورة البقرة آية : ٢٠٧
(٧) سورة آل عمران آية : ٣٠

٨٤ ـ مالك الملك

﴿ تؤتى الملك من تشاء ﴾[١] .

سبحان الذى له التصرف المطلق ، مالك الملك الذى تنفذ مشيئته فى ملكه كيف يشاء ، وكما يشاء ، لا مرد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، والملك هنا بضم الميم ، مصدر بمعنى السلطان ، والقدرة . وقيل : الملك بمعنى المملكة . والمالك بمعنى القادر التام القدرة .

وتبارك الذى بيده الملك ، مالك الملك ، الذى يملك كل شىء ، مالك السمع والأبصار والأفئدة ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾[٢] .

وقد ذكر « مالك الملك » سبحانه ، مرة واحدة فى الكتاب العزيز . وذلك فى الآية المحكمة البينة ، السادسة والعشرين من سورة آل عمران : ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾[٣] .

٨٥ ـ ذو الجلال والاكرام

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾[٤] .

سبحان الذى لا جلال ولا كمال ولا شرف إلا وهو له . ولا كرامة ولا إكرام إلا وهو صادر منه . فالجلال له فى ذاته ، والكرامة فائضة منه على خلقه . وقيل : « ذو الجلال » اشارة إلى صفات الكمال .

﴿ والاكرام ﴾ اشارة إلى صفات التنزيه .

وقيل ﴿ الجلال ﴾ هو الوصف الحقيقى .

﴿ والاكرام ﴾ هو الوصف الاضافى .

وقيل : ﴿ الجلال ﴾ صفة ذاته ـ سبحانه .

﴿ والاكرام ﴾ صفة فعله ، تعالى .

جاء فى بعض الروايات أنه اسم الله الأعظم ، فقد قيل فى ذلك أنه كان ﷺ ماراً فى طريق ، إذ رأى أعرابيا يقول : « اللهم إنى أسألك باسمك الأعظم العظيم الحنان المنان مالك الملك ذو الجلال والاكرام » .

(١ ، ٣) سورة آل عمران آية : ٢٦

(٢) سورة غافر آية : ١٦

(٣) سورة آل عمران آية : ٢٦

(٤) سورة الرحمن آية : ٢٧

فقال النبى ﷺ : « إنه دعا باسم الله الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى »(١) .

وقد ذكر ﴿ ذو الجلال والاكرام ﴾ مرتين فى القرآن العظيم . والمرتين فى سورة الرحمن :

﴿ ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾(٢) .

﴿ تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام ﴾(٣) .

٨٦ - المقسط

﴿ وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾(٤) .

سبحان المقسط ، القائم بالقسط ، المقيم للعدل ، العادل فى الحكم . وسبحان الذى ينتصف للمظلوم من الظالم ، وكماله فى أن يضيف إلى ارضاء المظلوم إرضاء الظالم ، وذلك غاية العدل والانصاف ولا يقدر عليه إلا الله تعالى . ومثاله ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « بينما رسول الله جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه ، فقال عمر : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما الذى أضحكك ، قال : رجلان من أمتى جثياً بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من هذا ، فقال الله عز وجل : رد على أخيك مظلمته . فقال : يا رب لم يبق من حسناتى شىء ؟ فقال عز وجل للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شىء ، فقال : يا رب فليحمل عنى من أوزارى . . ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ، وقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم . . قال : فيقول الله عز وجل أى للمتظلم : ارفع بصرك فانظر فى الجنان ، فقال : يا رب أرى مدائن من فضة ، وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ أو لأى صديق هذا ؟ أو لأى شهيد هذا ؟ قال الله عز وجل : لمن أعطى الثمن . فقال : يا رب : ومن يملك ذلك ، قال : « أنت تملكه » . قال : بماذا يا رب ؟ فقال : « بعفوك عن أخيك » قال : يا رب قد عفوت عنه . قال الله عز وجل : « خذ بيد أخيك فأدخله الجنة » ثم قال ﷺ « اتقوا الله . اتقوا الله . وأصلحوا ذات بينكم ، فإن الله يعدل بين المؤمنين يوم القيامة »(٥) .

٨٧ - الجامع

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾(٦) .

سبحان الذى جمع الكمالات كلها ذاتا ووصفاً ، وفعلاً . فليس كذاته ذات ، ولا كصفاته ، صفات ، ولا كفعله فعل .

(١) أخرجه الطحاوى فى شكل الاثار حـ١ ص٦٢ عن أنس رضى الله عنه .
(٢) سورة الرحمن آية : ٢٧
(٣) سورة الرحمن آية : ٧٨
(٤) سورة يونس آية : ٥٤
(٥) أخرجه فى كنز العمال برقم ٤٣٠٩٨ وعزاه الى الحاكم عن أنس والحديث فى المستدرك للحاكم فى (كتاب الأهوال) حـ٤ صـ٥٧٦ وقد قال : « فإن الله يصلح بين المسلمين » .
(٦) سورة التغابن آية : ٩

وسبحان جامع الناس ليوم لا ريب فيه :

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ، ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

و « يوم يجمع » هو يوم القيامة ، يسمى بذلك ، لأن الله تعالى يجمع فيه بين الأولين والآخرين ، من الانس والجن ، وجميع أهل السماء والأرض ، وبين كل عبد وعمله ، وبين الظالم والمظلوم ، وبين كل نبى وأمته ، وبين ثواب أهل الطاعة ، وعتاب أهل المعصية .

« والتغابن » تفاعل من الغبن ، وهو فوت الحظ ، والمراد بالمغبون من غبن من منازله ومنازل ، أهله فى الجنة ، وهذا التغابن أى التفاعل ليس من أثنين . فالمغابنة بين الشخص ونفسه ، فيظهر يومئذ غبن كل مؤمن بتقصيره فى الإحسان ، والمغابنة على سبيل التجريد ، وسبحان الجامع الذى جمع بين قلوب الأحباب ، وألف بين القلوب :

قال تعالى :

﴿ ... واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾[1] .

وقال تعالى :

﴿ وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾[2] .

٨٨ - الغنى

﴿ وربك الغنى ذو الرحمة ﴾[3] .

سبحان الغنى الذى لا يحتاج إلى شىء فى ذاته ، ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وهو المستغنى عن كل ما سواه ، والمفتقر إليه كل ما عداه .

قال تعالى :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾[4] .

وقيل فى معنى « الغنى » : أنه الكامل بماله وبما عنده ، فلا يحتاج معه إلى غيره ، وربنا جل ثناؤه بهذه الصفة ، لأن الحاجة نقص ، والمحتاج عاجز عما يحتاج إليه إلى أن يبلغه ويدركه ، وللمحتاج إليه

---

(١) سورة آل عمران آية : ١٠٣
(٢) سورة الأنفال آية : ٦٣
(٣) سورة الأنعام آية : ١٣٣
(٤) سورة فاطر آية : ١٥

فضل بوجود ما ليس عند المحتاج ، فالنقص منفى عن الغنى المطلق بكل حال ، والعجز غير جائز عليه سبحانه ، ولا يمكن أن يكون لأحد عليه فضل .. إذ كل شىء سواه خلق له ، وبدع أبدعه لا تملكه من أمره شيئاً ، وإنما يكون كل شىء كما يريد الله خالق كل شىء .

والفقير ما سوى الله تعالى ، وهو « سبحانه » الغنى عن العالمين .

وروى عن النبى ﷺ أنه قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس »[1] .

فغنى النفوس هو العفاف فأن أبت
فجميع ما فى الأرض لا يكفيها

وأعلى درجة الغنى ، الاكتفاء بالموجود ، فلا غنى إلا غنى النفس . وقد يكون الإنسان فقيراً جداً ، وعند الناس متحملاً غنياً . كما قال تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ فسبحان الذى يعطى من يشاء ويكفيه ، ثم إذا شاء يرضيه .

وقد ذكر « الغنى » ثمان عشرة مرة فى الكتاب الكريم :

وهو الغنى الحميد وهو غنى حليم وهو غنى كريم وهو الغنى ذو الرحمة ، وسبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض .

قال تعالى :

﴿ .. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[2] .

وقال تعالى :

﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض إن عندكم من سلطان بهذا ؟ اتقولون على الله ما لاتعلمون ؟ ﴾[3] .

٨٩ - المغنى

﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾[4] .

سبحان معطى الغنى والكفاية لمن شاء من عباده ، على طبق ما اقتضته حكمته ، وسبقت به مشيئته ، فهو الذى يعطى السائلين سؤالهم .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ٢ ص٧٢٦ كتاب الزكاة باب ليس الغنى عن كثرة العرض رقم ١٠٥٧/١٢٠
(٢) سورة النمل آية : ٤٠
(٣) سورة يونس آية : ٦٨
(٤) سورة النجم آية : ٤٨

قال تعالى :

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴾(١) .

والمغنى الحق ، هو الذى لا حاجة له إلى أحد من الخلق أصلاً ، والذى يحتاج ومعه ما يحتاج إليه ، فهو غنى مجازاً .

ومن عرف أن الله تعالى هو الغنى المغنى .. استغنى بالاعتماد عليه .

قال تعالى :

﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾(٢) .

وقال تعالى :

﴿ ... وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾(٣) .

٩٠ - المانع

(اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت) .

سبحان الذى منع البلاء حفظاً وعناية ، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاء أو حماية .

وسبحان الذى يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب ، ولا يعطى الآخرة الا لمن يحب .

وهذا الاسم لم يرد فى القرآن لكنه مجمع عليه فقد ذكر فى كل من رواية الوليد ورواية زهير فى الحديث النبوى الشريف .

وجاء فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة (لاإله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد)(٤) .

وسبحان الذى يرد أسباب الهلاك والنقصان فى الأديان والأبدان ، بما يخالفه من أسباب الحفظ ، ومن فهم معنى « الحفيظ » فهم معنى المانع .

وأن المنع ايراد الحفظ ، وقد يكون الحفظ ايراد المنع .

وكل حافظ مانع ، وليس كل مانع حافظ إلا إذا كان مانعاً مطلقاً لجميع الأسباب المهلكة ـ فسبحان من قال :

(١) سورة ابراهيم آية : ٣٤

(٢) سورة الضحى آية : ٨

(٣) سورة التوبة آية : ٢٨

(٤) أخرجه البخارى بحاشية السندى حـ١ صـ١٥٣ كتاب الصلاة باب الذكر بعد الصلاة .

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم ﴾(١) .

٩١ - الضـــار

﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ﴾(٢) .

٩٢ - النافع

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾ .

سبحان الذى يُصيب من يشاء من عباده برحمته ، وهو الذى يملك الضر والنفع ، وهو على كل شىء قدير ، وقد يكون من الضر نفعاً ، أو نوعاً من أنواع العلاج ، للذين هم بربهم لا يشركون .

قال تعالى :

﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون . ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾(٣) .

وقال تعالى :

﴿ وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ﴾(٤) .

وسبحان الذى بيده أسباب كل شىء مسخرات بأمره .

﴿ .. وليس بضارهم شيئا الا بإذن الله .. ﴾(٥) وأكبر دليل قصة إبراهيم عليه السلام : أولا بإن السكين لا تقطع بنفسها فى ولده اسماعيل .

وثانيا : بأن النار لا تحرق نفسها ، بل كانت برداً وسلاماً على إبراهيم بأمر الله . اللهم إنا لا نسألك رد القضاء بل نسألك اللطف فيه . فى الدنيا ، ويوم القيامة .

---

(١) سورة يونس آية : ١٠٧
(٢) سورة يونس آية : ٤٩
(٣) سورة النحل الآيتان : ٥٣ ـ ٥٤
(٤) سورة الروم الآية : ٣٣
(٥) سورة البقرة الآية : ١٠٢

قال تعالى :

﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ [(١)] .

وقال تعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً الا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون ﴾ [(٢)] .

وقال تعالى :

﴿ قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ [(٣)] .

والحمد لله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

٩٣ - النــــور

﴿ الله نور السماوات والأرض ﴾ [(٤)] .

سبحان الذى نور قلوب الصادقين بتوحيده ، وسبحان الذى نور السماء والأرض بما خلق فيهما من الأنوار .

قال ابن عباس : « النور ، الهادى الرشيد الذى يرشد بهدايته من يشاء ، فيبين له الحق ويلهمه اتباعه » .

وقال الحليمى : « وهو الهادى لا يعلم العباد إلا ما علمهم ، ولا يدركون إلا ما يرهم إدراكه ، فالحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته » .

وقيل : « النور » الظاهر الذى ظهر كل الظهور ، فإن الظاهر فى ذاته المظهر بغيره ، سمى نوراً ، فهو مظهر لكل شىء ، ولكل موجود باخراجه من العدم إلى الوجود .

وقيل : هو الذى منه النور ، والعرب تسمى من منه الشىء باسم ذلك الشىء . وقيل : هو خالق الأنوار ، وقيل غير ذلك .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٥

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٨٨

(٣) سورة يونس الآية : ٤٩

(٤) سورة النور الآية : ٣٥

سأل ابن عباس النبى - ﷺ - « هل رأيت ربك ليلة أسرى بك ؟ قال : نعم نور أنى أراه »[(١)] .

وكان النبى - ﷺ - يدعو بهذا الدعاء بالغدو ، عند ظهور أول النهار وهو صلاة الفجر : « . . اللهم اجعل لى نوراً فى قلبى ونوراً فى قبرى ونوراً فى سمعى ونوراً فى بصرى ونوراً فى شعرى ونوراً فى بشرى ونوراً فى لحمى ، ونوراً فى دمى ، ونوراً فى عظامى ، ونوراً من بين يدى ، ونوراً من خلفى ، ونوراً عن يمينى ، ونوراً عن شمالى ، ونوراً من فوقى ، ونوراً من تحتى ، اللهم زدنى نوراً ، واعطنى نوراً واجعل لى نوراً »[(٢)] .

ولنتدبر آية النور ، من سورة النور ، من النور والكتاب المبين الذى أنزله نور السمٰوات والأرض :

﴿ الله نور السمٰوات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ﴾[(٣)] .

وقد قال ابن عباس رضى الله عنه ، قوله : « الله نور السمٰوات والأرض » يقول سبحانه وتعالى : هادى أهل السمٰوات والأرض مثل نوره :- مثل هداه فى قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافى يضىء قبل أن تمسه النار ، فإذا مسته النار ازداد ضوءاً على ضوء ، كذلك يكون قلب المؤمن يعمل الهدى قبل أن يأتيه العلم ، فإذا أتاه العلم ، ازداد هدى على هدى ، ونوراً على نور .

قال تعالى : **﴿ وما يعلم تأويله الا الله ﴾**[(٤)] . .

وقال تعالى : **﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾**[(٥)] .

٩٤ - الهادى

﴿ وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[(٦)] .

سبحان الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، وهو الذى هدى ما خلق لما أراد منه فى دينه ودنياه ، وجميع أمره .

وسبحان المرشد لعباده ، وهو الذى دل المؤمنين إلى الدين الحق .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص١٦١ كتاب الايمان باب قوله عليه السلام نوراني أراه . انظر سنن الترمذى حـ٥ صـ٣٦٩ رقم ٣٢٨٢ .

(٢) أنظر سنن الترمذى حـ٥ صـ٤٥١ كتاب الدعوات باب ٣٠ مايقول اذا قام من الليل الى الصلاة

(٣) سورة النور آية : ٣٥

(٤) سورة آل عمران آية : ٧

(٥) سورة النور آية : ٤٠

(٦) سورة الحج آية : ٥٤

وسبحان الذى يهدى القلوب إلى معرفته ، والنفوس إلى طاعته ، ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، وإن الهدى هدى الله .

وقد ورد عن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال :

« سألت عائشة - رضى الله عنها - بأى شىء كان نبى الله - ﷺ - يفتح الصلاة إذا قام من الليل ؟ قالت : « كان إذا قام من الليل كان يفتح صلاته بـ : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السمٰوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم »[1] .

وقد ذكر « الهادى » سبحانه بلفظ الاسم مرتين فى القرآن الكريم :

١ - ﴿ ... وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ .

اللهم إنا نسألك أن تهدينا إلى الصراط المستقيم .

٢ - ﴿ ... وكفى بربك هادياً ونصيراً ﴾ .

٩٥ - البديـــع

﴿ بديع السمٰوات والأرض أنى يكون له ولد ﴾[2] .

سبحان الخالق البديع فى ذاته ، ولا يماثله أحد فى صفاته ، ولا فى حكم من أحكامه ، أو أمر من أوامره فهو البديع المطلق ، الذى أبدع الخلق من غير مثال سبق ، وسبحان الذى أظهر عجائب صنعته ، وغرائب حكمته ، يقال هذا شىء بديع إذا كان عديم المثل .

وفى اللغة ب د ع - (أبدع) الشىء اخترعه لا على المثال ، والله بديع السمٰوات والأرض ، أى (مبتدعها) و (البديع) المبتدع أيضا ، وشىء (بدع) بالكسر أى مبتدع ، ومنه قول الله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾[3] .

أى ما أنا بأول رسول جاء بالتوحيد ، وذلك ، بأن البدع والبديع ، هو الذى لم يسبق له مثيل .

وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - سمع رجلا يقول :

---

(١) أخرجه مسلم حـ١ صـ٥٣٤ كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه - أنظر أبوداود فى كتاب الصلاة باب من ذكر أنه يرفع يديه اذا قام من الثنيتين ، وباب مايستفتح به الصلاة من الدعاء .

(٢) سورة الأنعام آية : ١٠١

(٣) سورة الأحقاف آية : ٩

« اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله الا أنت المنان بديع السمٰوات والأرض ، ذو الجلال والاكرام . أسألك الجنة وأعوذ بك من النار » فقال النبى - ﷺ - : « لقد كاد يدعو الله باسمه الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى »(١) .

وقد ذكر « البديع » سبحانه مرتين فى الكتاب العزيز :

١ - ﴿ بديع السمٰوات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾(٢)

٢ - ﴿ بديع السمٰوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء ، وهو بكل شىء عليم ﴾(٣) .

٩٦ - الباقى

﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾(٤) .

سبحان الموجود الواجب وجوده بذاته وهو الدائم الوجود ، الموصوف بالبقاء ، والبقاء لله تعالى ، هو بقاء أبدى أزلى . . من أبد الأبد . . إلى أزل الأزل .

وليست صفة بقائه ودوامه سبحانه وتعالى ، كبقاء الجنة والنار ودوامهما ، ذلك بأن الجنة والنار مخلوقتان كائنتان بعد أن لم تكونا .

فيكون بقاء الجنة والنار أبدياً غير أزلى .

والأبد بالنسبة إلى الجنة ، هو استمرار الوجود إلى ما شاء الله ، ومن شاء فليتدبر هذه الآية الكريمة :

﴿ وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السمٰوات والأرض إلا ما شاء ربك ، عطاء غير مجذوذ ﴾(٥) .

وقد قيل فى معنى الأزلى : هو ما لايكون مسبوقاً بالعدم وهذه الصفة من صفات الله وحده . كما أن كل شىء يستولى عليه الفناء وكل شىء هالك الا وجهه .

وقد قيل أن معنى أزلية الله تعالى وأزلية صفاته ، أنه موجود حيث لا مكان .

فسبحان الموجود الذى ليس لوجوده ابتداء ، وسبحان الباقى .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البيهقى فى السنن الكبرى ، وبلفظ : « لقد دعا » ابن ابى شيبه ، وأحمد ، وأبوداود والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم فى المستدرك ، وسعيد بن منصور فى سننه .

(٢) سورة البقرة آية : ١١٧

(٣) سورة الأنعام آية : ١٠١

(٤) سورة الرحمن آية : ٢٧

(٥) سورة هود آية : ١٠٨

٩٧ ـ الوارث

﴿ وإنا لنحن نحي ونميت ونحن الوارثون ﴾[١] .

سبحان من له ما فى السموات وما فى الأرض ، رب كل شيء ووارثه ورازقه وراحمه .

وسبحان الباقى بعد فناء خلقه ، الذى ليس لملكه أمد ، وإليه يرجع كل شيء والعمل الصالح يرفعه .

ثم لنتدبر هذا الدعاء من سورة الأنبياء :

﴿ ... رب لا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين ﴾[٢] .

يا الله ، أنت الوارث الحق المبين : ﴿ رب لا تذرنى فرداً .. ﴾
إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وإذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور نسألك أن تورثنا من الأرض من الكتاب القول الثابت ، والطيب من القول :

شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يا من قوله الحق وله الملك يوم ينفخ فى الصور ، يوم هم بارزون ، لايخفى على الله منهم شيء ..

لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴿ .. وأنت خير الوارثين ﴾ .

٩٨ ـ الرشيد

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾[٣] .

سبحان ربى الرشيد المرشد ، ملهم الرشد لأهل طاعته ، وهو الذى أرشد الخلائق إلى هدايته ، ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد .

قال الحليمى ـ رحمه الله ـ « الرشيد » هو المرشد ، سبحانه ، ومعناه الدال على المصالح والداعى إليها ، وهذا من قوله تعالى :

﴿ وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ .

وقال عز وجل :

﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾[٤] .

(١) سورة الحجر آية : ٢٣
(٢) سورة الأنبياء آية : ٨٩
(٣) سورة الكهف آية : ١٠
(٤) سورة الكهف آية : ١٧

فإن مهىء الرشد مرشد .
أى هاديا .
والرشد هو الصلاح ، وهو الاستقامة ، وهو خلاف الغىّ والضلال .

ومن دعاء للنبى عليه الصلاة والسلام : « اللهم إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها شملى ، وتلم بها شعثى وترد بها الفتن عنى وتصلح بها دينى وتحفظ بها غائبى وترفع بها شاهدى وتزكى بها عملى وتبيض بها وجهى وتلهمنى بها رشدى وتعصمنى بها من كل شىء .. إلى أن يقول - ﷺ - فى هذا الدعاء .. اللهم هذا الدعاء وعليك الاجابة وهذا الجهد وعليك التكلان »[١] وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ذى الحبل الشديد والأمر الرشيد .

٩٩ - الصبور

﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾[٢] .

سبحان الصبور ، الذى يملى ويمهل ، وينظر ولا يعجل ، ولا يعاجل ولا يسارع إلى الفعل قبل أوانه ، وينزل الأمر بقدر معلوم ولا يؤخرها عن آجالها .

وربما كان معنى الصبور ، هو الذى يسقط العقوبة بعد وجوبها ، وقد ينطلق على من يؤخرها ، فيكون كالحليم الذى لا يعجل بالعقوبة على من يعصاه .

وقد يكون معناه : ملهم الصبر لجميع خلقه .

وفى اللغة : الصبر هو حبس النفس عن الجزع ، وبابه ضرب قال الله تعالى :

﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾[٣] .

(واصبر نفسك) أى أحبسها . يقال : صبره أى حبسه وفى حديث النبى - ﷺ - فى رجل أمسك رجلاً وقتله آخر قال : « اقتلوا القاتل واصبروا الصابر »[٤] أى أحبسوا الذى حبسه للموت حتى يموت ، ويقال هو صبير القوم : للذى يصبر لهم ومعهم فى أمورهم وهو صبور ومصطبر ومتصبر .

ويقال استعبد الشىء إذا اشتد . ويقال : اصطبرت منه أى اقتصد منه . وفى حديث عثمان : « هذه يدى لعمار فليصطبر » وأصبرنى القاضى : أقصنى وملأ المكيال إلى أصباره ، وأدهق الكأس إلى أصبارها : حروفها وشربها بأصبارها . كلها

وفى الحديث : « سدرة المنتهى صبر الجنة » أى أعلاها .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه حـ٥ صـ٤٥٠ ، ٤٥١ كتاب الدعوات باب تابع لما يقول اذا قام من الليل إلى الصلاة . رقم ٣٤١٩
(٢) سورة هود آية : ١٠٥
(٣) سورة الكهف آية : ٢٨
(٤) أخرجه فى كنز العمال برقم ٣٩٨٣٩ وعزاه إلى ابى عبيد فى الغريب ، والبيهقى عن اسماعيل بن أمية مرسلا .

ولنتدبر القرآن : .

﴿ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾ (1) .

البحث السابق من كتاب (الأسماء الحسنى) لمؤلفه دكتور/ حسن عز الدين الجمل .

سورة الممتحنة

قال صاحب البصائر :

بصيرة فى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى ﴾ .

السورة مدنية بالاتفاق وآياتها ثلاثة عشر ، وكلماتها ثلاثمائة وأربعون ، وحروفها ألف وخمسمائة وعشر ، مجموع فواصل آياتها (لم نرد) على اللام منها آية : السبيل وعلى الدال آية : الحميد : ولها ثلاثة أسماء . سورة الممتحنة ، سورة الامتحان ، كلاهما لقوله فيها (فامتحنوهن) والثالث : سورة المودة . لقوله (تُلقون إليهم بالمودة) . (وتسرون إليهم بالمودة) . (بين الذين عاديتم منهم مودة) .

معظم مقصود السورة : النهى عن موالاة الخارجين عن ملة الإسلام ، والاقتداء بالسلف الصالح فى طريق الطاعة والعبادة ، وانتظار المودة بعد العداوة ، وامتحان المدعين بمطالبة الحقيقة ، وأمر الرسول بكيفية البيعة مع أهل الستر والعفة ، والتجنب من أهل الزيغ والضلالة فى قوله : ﴿ لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ تلقون إليهم بالمودة ﴾ وبعده : ﴿ تسرون اليهم بالمودة ﴾ الأول حال من المخاطبين . وقيل : أتلقون إليهم والاستفهام مقدر . وقيل : خبر مبتدأ ، أى أنتم تلقون . والثانى بدل من الأول على الوجوه المذكورة . والباء زيادة عند الأخفش . وقيل بسبب أن تودوا وقال الزجاج : تلقون إليهم أخبار النبى - ﷺ - وسره بالمودة .

قوله : ﴿ كانت لكم أسوة حسنة ﴾ وبعده : ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة ﴾ أنث الفعل الأول مع الحائل ، وذكر الثانى لكثرة الحائل ، وإنما كرر ، لأن الأول فى القول ، والثانى فى الفعل وقيل : الأول فى إبراهيم والثانى فى محمد - ﷺ - .

---

(1) سورة هود الآيات ١٠٣ - ١٠٥

مناسبتها لما قبلها :

١ - إنه ذكر هناك موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ، وذكر هنا نهى المؤمنين عن أتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشبهوا المنافقين .

٢ - إنه ذكر هناك المعاهدين من أهل الكتاب ، وذكر هنا المعاهدين من المشركين .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

معانى المفردات

تلقون إليهم بالمودة : أى ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التى بينكم وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أى من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أى لأجل إيمانكم با؟ ، ضل : أى أخطأ . وسواء السبيل : أى الطريق المستوى ، وهو طريق الحق ، إن يثقفوكم : أى يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الحذق فى إدراك الشىء وفعله ، ومنه رجل يثقف يقف ، بالسوء : أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودّوا لو تكفرون : أى وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أى قراباتكم ، يفصل بينكم : أى يفرق بينكم من شدة الهول .

المناسبة وإجمال المعنى

روى البخارى ومسلم وغيرهما : « أن سارة التى كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله - ﷺ - بنى عبد المطلب أن يعطوها ما يدفع حاجتها ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاءها حاطب بن أبى بلتعة (مولى عبد الله بن حُميد بن عبد العُزَّى) فأعطاها عشرة دنانير وكتب معها كتاباً إلى أهل مكة ، هذا صورته .

(من حاجب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة . إن رسول الله - ﷺ - يريدكم فخذوا حذركم ، فأخبره جبريل به ، فبعث إليها علياً وعماراً وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرساناً . وقال : أنطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع) فإن بها ظعينة (امرأة) معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقها ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال علىّ : والله ما كُذبنا ولا كذب رسول الله - ﷺ - وسلَّ سيفه وقال لها : أخرجى الكتاب ، أو ألقى ما معك من الثياب ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فأحضر رسول الله - ﷺ - حاطباً وقال له : ما حملك عليه ؟ فقال : يا رسول الله ، ما كفرتُ منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى النسب فيهم أن أصطنع إليهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن دينى ، فصدقه رسول الله - ﷺ - وقبل عذره ، فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال - ﷺ - : إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، فنزلت : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء** ﴾(1) - الآية .

أضواء كاشفة

يا أيها الذين اتصفتم بالايمان ، لا يليق بكم لأجل هذا الوصف ، أن تتخذوا عدو الله وعدوكم أولياء وأصدقاء ، ولوفى الظاهر ، فالله ينهانا عن موالاتهم والاسرار اليهم بأخبارنا ، ولوكان هذا فى الظاهر ، لا عن عقيدة وايمان : لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء حالة كونكم تلقون اليهم بالمودة ، وتسرون إليهم بها ، كما فعل أخوكم حاطب بن أبى بلتعة عن حسن نية ، لا تتخذوهم أولياء والحال أنهم كفروا بما جاءكم من الحق والقرآن ، فأنتم مؤمنون به مصدقون له ، وهم كافرون فبينكم عداوة شديدة فى العقيدة ، فكيف تلتقون ؟ هم كفروا بالله ورسوله ، والحال أنهم يخرجون الرسول وإياكم من دياركم وأموالكم وأوطانكم لا لشىء أبداً ، إلا لأنكم تؤمنون بالله ربكم ، عجبا كيف تجعلونهم أولياء وتسرون إليهم بالمودة ؟ !! إن كنتم خرجتم للجهاد فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، فلا تتخذوهم أولياء ، أى : لا تتولوا أعدائى إن كنتم أوليائى .

كيف تلقون إليهم بالمودة ، تسرون إليهم بأخبار الرسول سراً ، وأنا أعلم السر وأخفى ، نعم الله يعلم ما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، وأخطأ طريق الهدى والحق .

---

(1) أخرجه : البخارى فى المغازى باب غزوة الفتح ، والجهاد والسير باب - الجاسوس ، والتفسير (سورة الممتحنة) - وأخرجه مسلم . كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن ابى بلتعة حـ٤ صـ١٩٤١ - وانظر الترمذى حـ٥ صـ٣٨١ ، ٣٨٣ كتاب التفسير . باب ٦٠

كيف هذا مع أنهم إن يظفروا بكم ويدركوكم على أى وضع ، يكونوا لكم أعداء ، ويعاملوكم معاملة العدو اللدود ، ويبسطوا اليكم أيديهم بالضرب والسبى والقتل ، وألسنتهم بالشتم والسب والذم ، ولا عجب فإنهم يودون من صميم قلوبهم لو تكفرون .

وما لكم توادون أعداء الله وأعداءكم من أجل قرابتكم وأولادكم ؟ مع أنه لن تنفعكم أرحامكم ولا قراباتكم ، ولن تنفعكم أولادكم وأموالكم فى شىء ، يوم القيامة يفصل بينكم ويقضى بحكمه ، فاعملوا لأجل هذا اليوم ، وأنظروا ماذا قدمتموه لهذا الغد ، وأعلموا أن الله بما تعملون بصير فسيجازيكم على كل عمل .

التفسـير

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة ، قصة حاطب بن أبى بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضا ، وكان له بمكة أولاد ومال ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان فلما عزم رسول الله - ﷺ - على فتح مكة لما نقض أهلها العهد ، فأمر النبى - ﷺ - المسلمين بالتجهيز لغزوهم وقال : « اللهم عم عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا ، فكتب كتابا وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة ، يعلمهم بما عزم عليه رسول الله - ﷺ - من غزوهم ، ليتخذ بذلك عندهم يداً فأطلع الله تعالى على ذلك رسول الله - ﷺ - استجابة لدعائه ، فبعث فى أثر المرأة فأخذ الكتاب منها . وهذا بين فى هذا الحديث المتفق على صحته .

قال الامام أحمد بسنده عن مرة إن عبيد الله بن أبى رافع أخبره أنه سمع علياً - رضى الله عنه - يقول : بعثنى رسول الله - ﷺ - أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة قلنا : أخرجى الكتاب ، قالت : ما معى كتاب ، قلنا ، لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب ، قال : فأخرجت الكتاب من عقاصها فأخذنا الكتاب فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا فيه من حاطب بن أبى بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله - ﷺ - فقال رسول الله - ﷺ - : « يا حاطب ما هذا » قال : لا تعجل على ، انى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات ، يحمون أهليهم بمكة ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتى ، وما فعلت ذلك كفراً ، ولا ارتداداً عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنه صدقكم » .

فقال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال رسول الله - ﷺ - : « إنه شهد بدراً ، ومايدريك لعل الله أطلع إلى أهل بدر فقال : « أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »(١) . وزاد البخارى فى كتاب

(١) أنظر تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٣٤٥

المغازى فأنزل الله السورة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ . وقال فى كتاب التفسير قال عمرو ونزلت فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ وقال لا أدرى الآية فى الحديث أو قال عمرو قال البخارى قال على يعنى ابن المدينى قيل لسفيان : فى هذا نزلت ﴿ لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ فقال سفيان هذا فى حديث الناس حفظته من عمرو وما تركت منه حرفاً ولا أرى أحداً حفظه غيرى .

وقد أخرجاه فى الصحيحين من حديث حصين بن عبد الرحمن عن سعد بن عبيدة عن أبى عبد الرحمن السلمى عن على قال : بعثنى رسول الله - ﷺ - وأبا مرثد والزبير بن العوام وكلنا فارس وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله - ﷺ - فقلنا : الكتاب ؟ فقالت : ما معى كتاب فأنخناها فالتمسنا ، فلم نر كتاباً فقلنا : ما كذب رسول الله - ﷺ - لتخرجن الكتاب أو لنجردنك ، فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله - ﷺ - فقال عمر يا رسول الله : قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، فدعنى فلأضرب عنقه ، فقال النبى - ﷺ - : « ما حملك على ما صنعت ؟ » قال حاطب : والله ما بى الا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله - ﷺ - ، أردت أن تكون لى عند القوم يد.يدفع الله بها عن أهلى ومالى ، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله فقال : « صدق لا تقولوا له إلا خيراً » فقال عمر إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه فقال : « أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : أعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة ، أو قد غفرت لكم »[1] . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم . هذا لفظ البخارى فى المغازى فى غزوة بدر .

وقد روى من وجه آخر عن على قال ابن أبى حاتم بسنده عن الحارث عن على قال : لما أراد النبى - ﷺ - أن يأتى مكة أسر إلى أناس من أصحابه أنه يريد مكة منهم حاطب بن أبى بلتعة وأفشى فى الناس أنه يريد خيبر قال : فكتب حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله - ﷺ - يريدكم ، فأخبر رسول الله - ﷺ - قال فبعثنى - ﷺ - وأبا مرثد وليس منا رجل إلا وعنده فرس فقال : « ائتوا روضة خاخ فإنكم ستلقون بها امرأة معها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا حتى رأيناها بالمكان الذى ذكر رسول الله - ﷺ - فقلنا لها : هات الكتاب فقالت ما معى كتاب فوضعنا متاعها وفتشناها فلم نجده فى متاعها فقال أبو مرثد لعله ألا يكون معها فقلت : ما كذب رسول الله - ﷺ - ولا كذبنا فقلنا لها لتخرجنه أو لنعرينه ، فقالت أما تتقون الله ألستم مسلمين فقلنا : لتخرجنه أو لنعرينك قال عمرو بن مرة فأخرجته من حجزتها ، وقال حبيب بن أبى ثابت : أخرجته من قبلها فأتينا به رسول الله - ﷺ - فإذا الكتاب من حاطب بن أبى بلتعة ، فقام عمر فقال : يا رسول الله خان الله ورسوله فائذن لى فلأضرب عنقه فقال رسول الله - ﷺ - : « أليس قد شهد بدراً » قالوا بلى ، قال عمر بلى ، ولكنه قد نكث وظاهر أعداءك عليك ، فقال رسول الله

---

(١) أخرجه البخارى كتاب المغازى باب فضل من شهد بدرا جـ٣ ص٧ ط/ الحلبى

- ﷺ - : « فلعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم إنى بما تعملون بصير » ففاضت عينا عمر ، وقال : الله ورسوله أعلم ، فأرسل رسول الله - ﷺ - إلى حاطب فقال : « يا حاطب ما حملك على ما صنعت ؟ » فقال يا رسول الله إنى كنت امرأ ملصقاً فى قريش ، وكان لى بها مال وأهل ، ولم يكن أحد من أصحابك إلا وله بمكة من يمنع أهله ، وماله ، فكتبت بذلك إليهم ، ووالله يا رسول الله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صدق حاطب ، فلا تقولوا لحاطب إلا خيراً »[١] قال حبيب بن أبى ثابت فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة** ﴾ الآية .

قد ذكر ذلك أصحاب المغازى والسير فقال محمد بن اسحاق بن يسار فى السيرة حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير وغيره من علمائنا قال : لما أجمع رسول الله - ﷺ - المسير إلى مكة ، كتب حاطب بن أبى بلتعة كتاباً يخبرهم بالذى أجمع عليه رسول الله - ﷺ - من الأمر فى السير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، زعم محمد بن جعفر إنها من مزينة ، وزعم غيره انها سارة مولاة لبنى عبد المطلب ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه لقريش ، فجعلته فى رأسها ، ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وأتى رسول الله - ﷺ - الخبر من السماء بما صنع حاطب ، فبعث على بن أبى طالب والزبير بن العوام فقال : « أدركا أمرأة قد كتب حاطب معها كتاباً إلى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا لهم من أمرنا » فخرجا حتى أدركاها بالحليفه حليفة بنى أبى أحمد فاستنزلاها بالحليفة فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على بن أبى طالب : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله وما كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك ، فلما رأت الجد منه قالت : أعرض فأعرض فحلت قرون رأسها ، فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليه ، فأتى به رسول الله - ﷺ - فدعا رسول الله - ﷺ - حاطباً فقال : « يا حاطب ما حملك على هذا ؟ » فقال يا رسول الله : أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ، فقال رسول الله - ﷺ - : « وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » . فأنزل الله عز وجل فى حاطب : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة - إلى قوله - قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾[٢] . إلى آخر القصة .

وروى معمر عن الزهرى عن عروة نحو ذلك ، وهكذا ذكر مقاتل بن حيان أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، أنه بعث سارة مولاة بنى هاشم ، وأنه أعطاها عشرة دراهم ، وأن رسول الله - ﷺ - بعث فى أثرها عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهما - فأدركاها بالجحفة ، وذكر تمام القصة على نحو ما تقدم .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير حـ٤ صـ٣٤٥ ، ٣٤٦ تفسير سورة الممتحنة

(٢) انظر سيرة ابن هشام حـ٤ صـ٨٥٨ بعنوان . حاطب ابن أبى بلتعة يرسل لأهل مكة خطابا .

وعن السدى قريبا منه ، وهكذا قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغير واحد أن هذه الآيات نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة فقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾ يعنى المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين ، الذين شرع الله عداوتهم ومصارعتهم ، ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم** ﴾[1] وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً** ﴾[3] . وقال تعالى : ﴿ **لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه** ﴾[4] ولهذا قبل رسول الله - ﷺ - عذر حاطب ، لما ذكر أنه إنما فعل ذلك مصانعة لقريش ، لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد .

ويذكر هنا الحديث الذى رواه الامام أحمد بسنده عن حذيفة قال : ضرب لنا رسول الله - ﷺ - أمثالا واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر قال : فضرب لنا منها مثلا وترك سائرها قال : « إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداء ، فأظهر الله أهل الضعف عليهم ، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم ، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم يلقونه »[5] .

وقوله تعالى : ﴿ **يخرجون الرسول وإياكم** ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم ، لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم ، كراهة لما هم عليه من التوحيد ، وأخلاص العبادة لله وحده ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أن تؤمنوا بالله ربكم** ﴾ أى لم يكن لكم عندهم ذنب ، إلا ايمانكم بالله رب العالمين ، كقوله تعالى : ﴿ **وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** ﴾[6] وكقوله تعالى : ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله** ﴾[7] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى** ﴾ أى إن كنتم كذلك ، فلا تتخذوهم أولياء إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى باغين لمرضاتى عنكم ، فلا توالوا أعدائى وأعداءكم ، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم ، حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم .

---

(١) سورة المائدة آية : ٥١
(٢) سورة المائدة آية : ٥٧
(٣) سورة النساء آية : ١٤٤
(٤) سورة آل عمران آية : ٢٨
(٥) أخرجه : ابن كثير فى تفسيره جـ٤ صـ٣٤٧
(٦) سورة البروج آية : ٨
(٧) سورة الحج آية : ٤٠

وقوله تعالى : ﴿ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أى تفعلون ذلك ، وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ أى لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ وودوا لو تكفرون ﴾ أى ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً ، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ أى قراباتكم لا تنفعكم عند الله ، إذا أراد الله بكم سوءً ونفعهم لا يصل اليكم ، إذا أرضيتموهم بما يسخط الله ، ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم ، فقد خاب وخسر وضل عمله ، ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريبا إلى نبى من الأنبياء .

ولما كانت هذه الآيات الكريمة لها تعلق كبير بالولاء والبراء ، فإننا نسوق هذا البحث القيم ، الذى كتبه الشيخ محمد بن سعيد بن سالم القحطانى عن الولاء والبراء فى العهد المكى ، والعهد المدنى قال :

نتحدث هنا عن الولاء والبراء من خلال سيرة نبينا محمد - ﷺ - ، مستمدين ذلك من كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - وكتب السير والمغازى .

وقد اعتمدنا فى تقسيم الآيات إلى مكّى ومدنى ، على ما ذكره علماء التفسير وعلوم القرآن من أن المكى : - على الأشهر - هو ما نزل قبل الهجرة والمدنى ما نزل بعدها .

ومن المعروف أن المسلم منذ أن يعلن شهادة « لا إله إلا الله محمد رسول الله » فإن ذلك يعنى إفراد الله سبحانه وتعالى بالوحدانية والألوهية والربوبية ، وخلع كل ولاء وعبودية ، وطاعة وخضوع ، وخوف ورجاء ، لأى معبود أو متبوع أو مطاع من دون الله ، وقصد هذا الولاء والحب والتعظيم لله سبحانه وتعالى .

وقد نزل الوحى الإلهى أول ما نزل على المصطفى - ﷺ - فى غار حراء بقوله سبحانه :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذى علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[١] .

ثم بعد ذلك نزل قوله تعالى :

﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ﴾[٢] .

وبدأ المصطفى - ﷺ - ، يدعو الناس سراً إلى الإسلام ، وأسلم معه نفر قليل منهم أبو بكر الصديق ، وعلىّ بن أبى طالب ، وخديجة بنت خويلد زوجته - رضى الله عنهم - جميعاً ، وبدأ رسول الله - ﷺ - ، يغرس فى نفوس أصحابه محبة الله ومحبة رسوله ، والاجتماع على ذلك ، وإخلاص الحب والولاء والنصرة للمؤمنين ، وبغض الكفر والشرك وأهله ، وهذا هو لازم كلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

---

(١) سورة العلق الآيات : ١ - ٥

(٢) سورة المدثر آية : ١

وهنا نشأت الوشيجة الجديدة ، وشيجة العقيدة فى نفوس المؤمنين ، وبدأ يقر فى نفوسهم أن هذه هى الرابطة الحقيقية ، وهى الرابطة التى تطمئن لها نفس المؤمن ، ومع نمو هذه الغرسة الجديدة ، بدأت تذبل شجرة العصبية الجاهلية ، والروابط الجاهلية ، وبدأت نظرة الريب والاحتقار لتلك الروابط ، تكبر يوماً فيوماً فى نفس كل من آمن بالله ورسوله .

الملتقى الأول وأولى خطوات الطريق

اختار المصطفى - ﷺ - دار الأرقم ، لتلقين من آمن معه أمور هذا الدين ، ولقد كانت هذه الدار هى الملتقى الأول لأولئك القادة العظام ، كانت هى الدار التى بدأ يشع منها ذكر الله وتوحيده فى الأرض .

ترى ما هو حال المسلمين آنذاك ؟ وماذا بعد النطق بالشهادتين ؟ يجيب على ذلك الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله فيقول : إنه لم يكن للإسلام والمسلمين فى مكة شريعة ولا دولة ، ولكن الذين كانوا ينطقون بالشهادتين ، كانوا يسلمون قيادهم من فورهم للقيادة المحمدية ويمنون ولاءهن من فورهم للعصبة المسلمة ، وكان الرجل حين يدخل فى الإسلام يخلع على عتبته كل ماضيه فى الجاهلية ، ويبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها فى الجاهلية ، إنه يقف من كل ما عهده فى جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف . « لقد كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضى المسلم فى جاهليته وحاضرة ، فى إسلامه ونشأت عن هذه العزلة عزلة فى صلاته بالمجتمع الجاهلى من حوله وروابطه الاجتماعية أيضاً » .

« إنه قد انفصل نهائياً من بيئة الجاهلية ، واتصل نهائياً ببيئته الإسلامية ، حتى لو كان يأخذ من بعض المشركين ، ويعطى فى عالم التجارة والتعامل اليومى .

فالعزلة الشعورية شىء والتعامل اليومى شىء آخر .

وحين انخلع المسلم من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام ، فإنه أيضاً كان ينسلخ من القيادة الجاهلية ، وينزع ولاءه من الأسرة والعشيرة والقبيلة ، ويترجم ذلك إلى واقع وحقيقة يقوم عليها الإسلام ، وهذا هو الذى أزعج « الملأ » من قريش !

« أزعجهم زحف الإسلام وأزعجهم القرآن ، ولم يزعجهم من قبل أن (الحنفاء) اعتزلوا معتقدات المشركين وعباداتهم ، واعتقدوا بألوهية الله وحده ، وقدموا له الشعائر وحده ، فهذا لا يهم الطاغوت كما يفهم بعض الطيبين الخيرين اليوم الذين لا يدركون ولا يعرفون حقيقة الإسلام .

« إنما الإسلام هو تلك الحركة المصاحبة للنطق بالشهادتين ، ثم الانخلاع من المجتمع الجاهلى وتصوراته وقيمه وقيادته وسلطانه وشرائعه ، والولاء لقيادة الدعوة الإسلامية ، التى تريد أن تحقق الإسلام فى عالم الواقع ، ولذلك قاوم « الملأ » من قريش هذه الدعوة بشتى الأساليب ، والتقى المؤمنون على حب الله ورسوله ، فكان لقاء عميقاً ، لأن كلا منهم جاء إلى الله ورسوله يتلقى منه ، ويهتدى بهديه ، ويتوجه إليه ، وأحس كل منهم نحو أخيه برباط من نوع جديد ، يربطه بأخوته فى الله ، إنه يحبه كنفسه مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آحدة دم .

وأخذ القرآن الكريم ينزل حسب النوازل والحوادث على ما يشاء الله سبحانه وتعالى ، لتربية الأمة على أسس العقيدة ، فكان الولاء والبراء يزيد كلما ازدادت التكاليف ، وكان من الطرق التى سلكها القرآن فى عرض هذه العقيدة ضرب المثل ، لأنه كما يقال : بالمثال يتضح المقال ، ومعلوم أن كلام الله واضح ، ولكن سياق المثل ، يستثير فى الإنسان نوعاً من التفكر ، وتدبر العبرة والعظة ، لتغيير المسار الخاطىء ، والاتجاه فى الطريق الصحيح .

ومن هذه الأمثلة فى موضوعنا قوله تعالى :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾(١) .

وبتقرير هذه الحقيقة الضخمة فى النفوس ، كان المؤمنون أقوى من جميع القوى التى وقفت فى طريقهم ، وداسوا بها على كبرياء الجبابرة فى الأرض ، ودكوا الولاية وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ، مهما علا واستطال ، ومهما تجبر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل .

ومكث المصطفى - ﷺ - فى دعوته للناس بالسر ثلاث سنوات ، كما قال ذلك علماء السير والمغازى .

وبعد أن فشا ذكر الإسلام فى مكة ، وتحدث الناس به ، أمر الله عز وجل رسوله - ﷺ - أن يصدع بما جاء منه ، وأن يبادىء الناس بأمره ، وأن يدعو إليه ونزل قوله تعالى :

﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾(٢) .

وقال الله له :-

﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾(٣) .

وهنا بدأ الابتلاء للمسلمين ، وهذا الابتلاء الذى ظاهره الشدة ، هو فى حقيقته نعمة ، لأنه يتضح من خلاله ، الصادق من الكاذب ، والخبيث من الطيب . قال تعالى :

﴿ آلم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(٤) .

وحدث لأصحاب رسول الله - ﷺ - من الابتلاء والشدة الشىء الكثير ، حتى أنهم كانوا يذهبون للشعاب يستخفون بصلاتهم عن قومهم .

ردود الفعـــل

ماذا فعل المؤمنون تجاه العذاب الذى صبه عليهم أعداء الله ؟ ما هو رد فعل المسلمين تجاه ما فعل بهم عامة ، وما فعل ببلال وآل ياسر وغيرهم من المستضعفين خاصة ؟

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٤١
(٢) سورة الحجر آية : ٩٤
(٣) سورة الشعراء الآيتان : ٢١٤ - ٢١٥
(٤) سورة العنكبوت الآيات : ١ - ٣

إنه الصبر على الأذى والهجر الجميل . قال تعالى :-

﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ، وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلاً ﴾(١) .

وصبر المصطفى - ﷺ - ، وكانت تربيته الربانية كفيلة بتطهير نفوس المؤمنين معه ، فكانوا كل يوم يزدادون من سمو الروح ، ونقاء القلب ، ونظافة الخلق ، والتحرر من سلطان الماديات والشهوات . شيئاً كثيراً .

(كان - ﷺ - يأخذهم بالصبر على الأذى ، والصفح الجميل ، وقهر النفس ، مع أنهم قوم قد رضعوا حب الحرب ، وكأنهم ولدوا مع السيف ، وهم أمة من أيامها حرب البسوس، وداحس والغبراء ، وما يوم الفجار ببعيد !

ولكن رسول الله - ﷺ - قد كبح نخوتهم العربية ، فانقهروا لأمره ، وكفوا أيديهم وتحملوا من قريش ما يشيب منه النفوس فى غير جبن وفى غير عجز) . هذا بالنسبة لموقف المسلمين من أعدائهم .

أما ولاؤهم فيما بينهم ، فنقول : إن المصطفى - ﷺ - ، قد حرص على غرس ركيزتين أساسيتين فى نفوسهم هما :-

١ - الإيمان بالله ذلك الإيمان المنبثق من معرفته سبحانه ، وتمثل صفاته فى الضمائر وتقواه ، ومراقبته ، مع اليقظة والحساسية التى بلغت فى نفوسهم حداً غير معهود إلا فى النادر من الأحوال .

٢ - الحب الفياض والتكافل الجاد العميق ، حيث بلغت فيه الجماعة المسلمة مبلغاً ، لولا أنه وقع بالفعل لعدد من أحلام العالمين ، إن نقطة الحب فى الله التى التقى عليها هؤلاء المؤمنون ، كانت أيضاً لقاء على ما يتبع هذه الدعوة من جهد أوعزم ، وما يستتبع ذلك من ألم أوسرور ، وجعل العاطفة الإنسانية تحب وتبغض ، تبعاً لما يصيب الإسلام من خير أوشر .

ولكى يكون لهذا الكلام ما يدعمه من دليل ، وحتى نعلم ما هى نتائج تربية « دار الأرقم » أذكر موقفاً واحداً لصديق هذه الأمة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - .

وطىء أبو بكر رضى الله عنه فى مكة يوماً بعد ما أسلم ، وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه عتبة بن ربيعة ، فجعل يضربه بنعلين مخصوفين ، ويجرفهما لوجهه ثم نزا على بطن أبى بكر ، حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وحملت بنو تيم أبا بكر فى ثوب حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون فى موته فتكلم آخر النهار ، فقال : ما فعل رسول الله - ﷺ - ، فمسوا منه بألسنتهم وعزلوه ثم قالوا ، وقالوا لأمه أم الخير : انظرى أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إيّاه فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله - ﷺ - ؟ فقالت : والله ما لى علم بصاحبك فقال اذهبى إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : أنّ أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله قالت ما أعرف أبا بكر ولا محمد ابن عبد الله ، وأن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ذهبت قالت : نعم فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت والله أن قوماً نالوا منك هذا لأهل فسق وكفر ، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك منهم ، قال : فما فعل رسول الله - ﷺ - ، قالت : هذه أمك تسمع ! قال : فلا شىء عليك منها قالت : سالم صالح ، قال : أين هو؟ قالت : فى دار ابن الأرقم قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب أو آتى رسول الله - ﷺ - ، فأمهلها حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس

(١) سورة المزمل الآيتان : ١٠ - ١١

خرجنا به يتكىء عليهما حتى أدخلناه على رسول الله - ﷺ - ، يالله رجل مضروب ، مثخن بالجراح لا يتناول حتى شربة الماء ، وهو أشد ما يكون حاجة إليها حتى يرى رسول الله - ﷺ - ؟

حقاً إنها تربية دونها كل تربية ، وحقاً نقول إن ذلك الجيل الذى رباه المصطفى - ﷺ - ، جيل فريد على غير مثال سابق ولا لاحق .

سمات العلاقة بين المسلمين وأعدائهم فى العهد المكى :

إن المرحلة المكية كانت تقتضى أن تكون العلاقة بين المسلمين والمشركين علاقة غير قتالية ، علاقة بيان للحق وصبر على الأذى فيه ، واحتساب لكل ما عرفته رباع مكة ورمضاؤ ها ، والطائف وفجاجها من أذى للمصطفى - ﷺ - ، وعذاب واضطهاد لبلال وعمار وخباب وآل ياسر وغيرهم - رضى الله عنهم أجمعين -

ذلك أن ظروف تلك المرحلة كانت تقتضى أتخاذ الأساليب السلمية ، وعرض الحقائق الايمانية عرضاً مؤثراً ، عله يكون فى هذا وفيما أبداه المؤمنون الصابرون من تحمل وصبر ، ما يرجع لأصل اللب صوابهم ، وما أجدر ذلك باستجابة القوم لولا اتباع الهوى وسلطان المصالح الزائلة من زعامة ووجاهة ومكاسب مادية ، وما إلى ذلك .

والتربية النبوية فى هذا العهد ذات شأن عظيم ، ذلك أنها كانت تربية تقوم على ضبط النفس والصبر على الأذى وإعداد العدة مع حبس دواعى الانطلاق وكف حدة الأقدام ، وإحتمال جهل الجاهلين وبغى الطاغين ، وكل ذلك من غير ذل ولا استهزاء ولا يأس ولا وهن ، بل أن عيونهم قريرة ، وقلوبهم مطمئنة إلى نصر الله ، ونفوسهم مستعلية على شرك المشركين وضلالهم وفتنتهم .

ومن المهم فى هذا الموضوع أن نلاحظ الحكمة الربانية فى عدم فرضية القتال فى مكة ، فإنه إنما شرع فى العهد المدنى ، أما (حين كان المسلمون فى مكة ، فقد كان المشركون أكثر عدداً ، فلو أمر المسلمون - وهم أقل من العشر - بقتال الباقين لشق عليهم ، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ ، وكانوا نيفاً وثمانين ، قالوا : يارسول الله ألا نميل على أهل الوادى - يعنون أهل منى - ليالى منى فنقتلهم ؟ فقال رسول الله - ﷺ - « إنى لم أؤمر بهذا » .

ونحن حين نلتمس الحكمة فى هذه الحالة وفى غيرها من التكاليف الشرعية - كما يقول الاستاذ سيد قطب رحمه الله - لا نجزم بما نتوصل إليه ، لأننا حينئذ نتألى على الله مالم يبين لنا من حكمة ، ونفرض أسباباً وعللاً قد لا تكون هى الأسباب والعلل الحقيقية أو قد تكون .

ذلك أن شأن المؤمن أمام أى تكليف ، أو أى حكم من أحكام الشريعة ، هو التسليم المطلق ، لأن الله سبحانه هو العليم الخبير ، وإنما نقول هذه الحكمة ، والأسباب من باب الاحتهاء وعلى أنه مجرد إحتمال ، لأنه لا يعلم الحقيقة إلا الله ، ولم يحددها هو لنا ويطلعنا عليها بنص صريح .

وهذه الأسباب والعلل ذكرها الأستاذ سيد قطب رحمه الله فى كتابيه القيمين « فى ظلال القرآن » عند تفسير سورة النساء وفى « معالم فى الطريق » .

فصل الجهاد فى سبيل الله موجز فيما يلى :

١ ـ إن الكف عن القتال فى مكة ، ربما كان لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، فى بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة ومن أهداف التربية فى مثل هذه البيئة : تربية الفرد العربى على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم ، حين يقع عليه أو على من يلوذون به ، ليخلص من شخصه ويتجرد من ذاته ، فلا يندفع لأول مؤثر ولا يهتاج لأول مهيج ، ومن ثم يتم الاعتدال فى طبيعته وحركته ، ثم تربيته على أن يتبع نظام المجتمع الجديد والتقيد بأوامر القيادة الجديدة ، حيث لا يُتصرف إلا وفق ما تأمره ـ مهما يكن مخالفاً لمألوفه وعادته ـ وقد كان هذا هو حجر الأساس فى إعداد شخصية العربى المسلم لإنشاء « المجتمع المسلم »

٢ ـ وربما كان ذلك أيضاً ، لأن الدعوة السلمية أشد أثراً وأنفذ فى مثل بيئة قريش ذات العنجهية والشرف والتى قد يدفعها القتال معها ـ فى مثل هذه الفترة ـ إلى زيادة العناد ونشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة أمثال داحس والغبراء وحرب البسوس وحينئذ يتحول الاسلام من دعوة إلى ثارات تنسى معها فكرته الأساسية .

٣ ـ وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لانشاء معركة ومقتلة داخل كل بيت ، فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة هى التى تعذب المؤمنين ، وإنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء كل فرد ومعنى الاذن بالقتال ـ فى مثل هذه البيئة ـ أن تقع معركة ومقتلة فى كل بيت ثم يقال : هذا هو الاسلام ولقد قيلت حتى والاسلام يأمر بالكف عن القتال ، فقد كانت دعاية قريش فى المواسم ، أن محمداً يفرق بين الوالد وولده فوق تفريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولى ؟

٤ ـ وربما كان ذلك أيضا ، لما يعلم الله من أن كثيرين من المعاندين ، الذين يفتنون المسلمين عن دينهم ويعذبونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص بل من قادته ، ألم يكن عمر ابن الخطاب من بين هؤلاء ؟

٥ ـ وربما كان ذلك أيضاً ، لأن النخوة العربية فى بيئة قبلية من عادتها أن تثور للمظلوم الذى يحتمل الأذى ، ولا يتراجع وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم ، وقد وقعت ظواهر كثيرة ثبت صحة هذه النظرة فى هذه البيئة ـ فابن الدغنة لم يرض أن يترك أبا بكر ـ وهو رجل كريم ـ يهاجر ويخرج من مكة ورأى فى ذلك عاراً على العرب وعرض عليه جواره وحمايته . . وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبنى هاشم فى شعب أبى طالب .

٦ ـ وربما كان ذلك أيضاً ، لقلة عدد المسلمين حينذاك وانحصارهم فى مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة ، أو بلغت ولكن بصورة متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الحياد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها لترى ماذا يكون مصير الموقف ، ففى مثل هذه الحالة قد تنتهى المعركة المحدودة

إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة ـ حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيقتل منهم ـ ويبقى الشرك ولا يقوم للإسلام فى الأرض نظام ، ولا يوجد له كيان واقعى ، وهو دين جاء ليكون منهج حياة ونظام دنيا وآخرة .

٧ ـ إنه لم تكن هناك ضرورة قاهرة ملحة لتجاوز هذه الاعتبارات كلها والأمر بالقتال ودفع الأذى ، لأن الأمر الأساسى فى هذه الدعوة كان قائماً ومحققاً وهو « وجود الدعوة » ووجودها فى شخص الداعية محمد ـ ﷺ ـ وشخصه فى حماية سيوف بنى هاشم ، فلا تمتد إليه يد إلا وهى مهددة بالقطع ، ولذلك لا يجرؤ أحد على منعه من إبلاغ الدعوة وإعلانها فى ندوات قريش ، حول الكعبة ، ومن فوق جبل الصفا وفى الاجتماعات العامة ، ولا يجرؤ أحد على سجنه أو قتله ، أو أن يفرض عليه كلاما بعينه يقوله ، بل إنهم حين طلبوا إليه أن يكف عن سب آلهتهم وعيبها لم يكف ، وحين طلبوا إليه أن يسكت عن سب دين آبائهم وأجدادهم ، لم يسكت ، وحين طلبوا إليه أن يدهن فيدهنوا ، أى يجاملهم فيجاملوه ، بأن يتبع بعض تقاليدهم ليتبعوا بعض عبادته لم يدهن .

إن هذه الاعتبارات كلها . فيما نحسب ـ كانت بعض ما اقتضت حكمة الله ـ معه ـ أن يأمر المسلمين بكف أيديهم وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، لتتم تربيتهم ، واعدادهم ، وليقف المسلمون فى انتظار أمر القيادة فى الوقت المناسب ، وليخرجوا انفسهم من المسألة كلها ، فلا يكون لذواتهم فيها حظ . . لتكون خالصة لله ، وفى سبيل الله .

والناظر فى الفترة المكّية والتى كانت ثلاثة عشر عاماً كلها تربية وإعداد وغرس لمفاهيم لا إله إلا الله ، يدرك ما لأهمية هذه العقيدة من شأن فى عدم الإستعجال واستباق الزمن ، فالعقيدة بحاجة إلى غرس يتعهد بالرعاية والعناية والمداومة بحيث لا يكون للعجلة والفوضى فيها نصيب ، وما أجدر الدعاة إلى الله أن يقفوا أمام تربية المصطفى ـ ﷺ ـ لأصحابه على هذه العقيدة وقفة طويلة ، فيأخذوا منها العبرة والأسوة ، لأنه لا يقف فى وجه الجاهلية ـ أياً كانت قديمة أم حديثة أم مستقبلة ـ إلا رجال إختلطت قلوبهم ببشاشة العقيدة الربانية ، وعمقت جذور شجرة لا إله إلا الله فى نفوسهم ، فيصدق عليهم حينئذ أنهم :

﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾(١)

لا تهمهم قوة عدو ، ولا تنقصهم عزيمة باسل لأن الله هو وليهم وناصرهم :

﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾(٢) .

قال ابن اسحاق لما رأى رسول الله ـ ﷺ ـ ما يصيب أصحابه من البلاء ، وما هو فيه من العافية بمكانة من الله ثم من عمه أبى طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه » ، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أول هجرة فى الإسلام .

---

(١) سورة الاحزاب الآية : ٢٣

(٢) سورة الحج الآية : ٤٠

ثم أن لطف الله ورحمته غمرت المؤمنين المستضعفين وذلك بإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، حيث أعز الله به الإسلام ، ولذلك قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « إن إسلام عمر كان فتحاً ، وإن هجرته كانت نصراً ، وإن إمارته كانت رحمة ، ولقد كنا ما نصلى عند الكعبة حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلينا معه » إنها نعمة كبرى تجلت فى إسلام عمر ، الذى منح ولاءه ونصرته للمسلمين ، وصبر بغضه وعداوته وبراءة للكافرين ، كيف لا وهو الذى أشتبك مع القوم بعد إسلامه ثم قال : « افعلوا ما بدا لكم فوالله لو أن كنا ثلاث مائة رجل لقد تركناها ـ أى مكة ـ لكم أو تركتموها لنا » .

وسمع المؤمنون بإسلام عمر رضى الله عنه وهم فى الحبشة ، ففرحوا بذلك ورجع منهم من رجع إلى مكة ، ولكن قريشاً صبت عليهم ألواناً من العذاب والإضطهاد ، فلم يزدهم ذلك إلا صلابة فى العود ، وثباتاً على الحق ، وأملاً فى فرج من الله قريب .

ثم تعرض رسول الله ـ ﷺ ـ ومن معه لدرس آخر من دروس الابتلاء ، التى هى من سنن الدعوة إلى الله : ذلك الدرس هو موت أبى طالب عم رسول الله ، الذى كان مناصراً له وحامياً ، وموت زوجة رسول الله خديجة ـ رضى الله عنها ـ أول امرأة أسلمت ، وكانت مثالاً للمرأة المسلمة الصالحة ، وهنا يطمع أعداء الله فى رسول الله ـ ﷺ ـ ولكن الله أكبر من كل شىء ، ثم رأى المصطفى ـ ﷺ ـ أن يتجه إلى غير قريش عسى أن يجد مجيباً وناصراً ، فخرج إلى الطائف ، ولكن ثقيفاً خيبت أمله وآذته وسخرت منه ، فاتجه إلى ربه قائلاً : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وانت ربى ، إلى من تكلنى ، إلى بعيد يتجهمنى ؟ أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحلّ علىّ غضبك ، أو أن ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك ، ثم رجع إلى مكة .

وعلى الدعاة أن يقفوا طويلاً على قول المصطفى ـ ﷺ ـ :

« إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » فإن هم الداعية المسلم ، هو رضاء الله وكفى ، ثم بعد ذلك ليكن ما يكون من أمر الناس ، فإن ذلك ليس له كبير حسبان ، طالما أن الغاية هى رضاء الله »

بر الأقارب المشركين

ومن خلال تتبع القرآن المكى ، نجد أنه ـ رغم قطع الولاء سواء فى الحب أو النصرة ـ بين المسلم وأقاربه الكفار ، فإن القرآن أمر بعدم قطع صلتهم وبرهم ، والإحسان إليهم ، ومع ذلك فلا ولاء بينهم قال تعالى :

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً ، وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾(١)

قال البغوى : إن هذه الآية وآية لقمان وهى قوله تعالى :

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾(٢) .

نزلت فى سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ وأمه حمنة بنت أبى سفيان ، فقد كان سعد من السابقين الأولين للإسلام ، وكان باراً بأمه .

قالت له أمه : ما هذا الدين الذى أحدثت ؟ والله لا آكل ولا أشرب ، حتى ترجع إلى ما كنت عليه ، أو أموت ، فتعيرّ بذلك أبد الدهر ، يقال : ياقاتل أمه ، ثم إنها مكثت يوماً وليلة لم تأكل ، ولم تشربْ ، ولم تستظل ، فأصبحت قد جهدت ثم مكثت يوماً آخر وليلة ، لم تأكل ، ولم تشرب ، فجاء سعد إليها وقال : يا أماه ، لو كانت لك مائة نفس ، فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت دينى ، فكلى وإن شئت فلا تأكلى ، فلما يأست منه أكلت وشربت ، فأنزل الله هذه الآية وأمرة بالبر بوالدية ، والاحسان إليهما وعدم طاعتهما فى الشرك ، لأنه (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

لذلك فالولاء لله ودينه والمؤمنين شىء لا طاعة لمخلوق فى مخالفته ، وبر القريب المشرك شىء ، قد يكون من باب تأليفه وترغيبه فى الإسلام .

كيف كانت صورة البراء فى العهد المكى

١ ـ إن المسلم من حين أن يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وهو يحس بأنه قد دخل فى دين جديد غير دين آبائه وأجداده ، إنه يشعر فى اللحظة التى يجىء فيها إلى الإسلام ، أنه يبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التى عاشها فى الجاهلية ، وكان يقف من كل ما عاشه فى الجاهلية ، موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذى يحس أن كل هذا رجس ، لا يصلح للإسلام ، وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام الجديد ، ويمكننا أن نسمى هذا « بالعزلة الشعورية » فالمسلم قد انخلع من البيئة الجهلية ، وعرفها وتصورها وتصور عاداتها وروابطها ، وانخلع من عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد ، ومن تصور الجاهلية إلى تصور الإسلام عن الحياة والوجود ، وانضم إلى التجمع الإسلامى الجديد ، بقيادته الجديدة ، ومنح هذا التجمع وهذه القيادة كل ولائه وطاعته وحبه وتبعيته .

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٨
(٢) سورة لقمان آية : ١٥

٢ ـ بعد ذلك جاء الأمر بالإعراض عن الكفار :
﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾(١)

٣ ـ وجاء الأمر أيضاً بالصبر والهجر الجميل . قال تعالى :
﴿ واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً ﴾(٢)

وقال تعالى :
﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يؤمنون ﴾(٣)

ثم يذكّر الله سبحانه المؤمنين بفعل أبيهم إبراهيم ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم ـ ليأخذوا منه أسوة وقوة فيقول سبحانه :
﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون ، إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون ﴾(٤)

وإلى جانب هذا التذكير الربانى ، يضرب أيضاً المثل المحسوس والملموس ، فى حياة الناس لمن يوزّع ولاءه بين أرباب متفرقة ، ومن يكون ولاؤه لرب واحد ، واتجاه واحد .

قال تعالى :
﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً ، الحمدلله بل أكثرهم لا يعلمون)(٥)

فقد وضح الله فى هذا المثال القرآنى حال المشرك الذى لا يؤمن بالله ، ولا يكون ولاؤه وحبه لله وفى الله ، بحال العبد الذى تملكه جماعة مشتركين فى خدمته لهم ، لا يمكنه إرضاؤهم أجمعين ، وحال الموحد الذى يعبد الله وحده ، ويوالى فى الله وحده ، مثله كمثل عبد لمالك واحد ، قد سلم له ، وعلم مقاصده ، وعرف الطريق إلى رضاه ، فهو فى راحة من تشاحن الخلطاء فيه ، بل هو سالم لمالكه من غير منازع فيه ، مع رأفة مالكه به ، ورحمته له ، وشفقته عليه ، وإحسانه إليه ، وتوليته بمصالحه ، فهل يستوعب هذان العبدان ؟ لا إنهما لا يستويان **﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾**
وعلى طريقة القرآن فى اهتمامه بقضية اليوم الآخر ، لما لها من أثر عظيم فى قضية الإيمان : نجد القرآن الكريم يسوق مشهداً من مشاهد يوم القيامة ، لمن يكون ولاؤه لغير الله ، وكيف انقلب هذا الولاء إلى عداء وبغضاء ، ثم كيف أصبحت الخلة عداوة وشحناء .

---

(١) سورة النجم الآيتان : ٢٩ ـ ٣٠
(٢) سورة المزمل آية : ١٠
(٣) سورة الروم آية : ٦٠
(٤) سورة الزخرف الآيات : ٢٦ ـ ٢٨
(٥) سورة الزمر آية : ٢٩

قال تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين ﴾[١]

وقال تعالى :

﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين ﴾[٢]

وقال تعالى :

﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾[٣]

٤ - ثم جاء التصريح الكامل لأعداء الله ، بأن دينكم باطل لا ندخل فيه ، وديننا هو الحق الذى ندين الله به ، فلا نعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما نعبد .

لكم دينكم ولى دين[٤]

ولما رأى المشركون صلابة المسلمين واستعلائهم بدينهم ، ورفعة نفوسهم فوق كل باطل ، ولما بدأت خطوط اليأس فى نفوسهم من أن المسلمين يستحيل رجوعهم عن دينهم ، سلكوا مهزلة أخرى من مهازلهم ، الدالة على طيش أحلامهم ، ورعونتهم الحمقاء .

فقد دعوا رسول الله - ﷺ - إلى عبادة أوثانهم سنة ، ويعبدون معبوده سنة فأنزل الله سورة الكافرون :

بسم الله الرحمن الرحيم . ﴿ قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾[٥] ومثل هذه السورة آيات أخرى تشابهها فى إعلان البراء من الكفر وأهله مثل قوله تعالى :

﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾[٦]

وقوله تعالى :

﴿ قل إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين . قل إنى على بينة من ربى وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾[٧]

---

(١) سورة فصلت آية : ٢٩
(٢) سورة الزخرف آية : ٦٧
(٣) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ - ٢٩
(٤) سورة الكافرون اية : ٦
(٥) سورة الكافرون الآيات : ١ : ٦
(٦) سورة يونس آية : ٤١
(٧) سورة الأنعام الآيتان : ٥٦ ، ٥٧

وقوله تعالى :

﴿ يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴾[١]

بهذه النصاعة وهذا الوضوح ، جاءت هذه الآيات الكريمات ، لترسم معالم الطريق بين الصف الإسلامى ، والصف الكافر المشرك ، الذى لا يؤمن بالله ورسوله ، ومع هذا الوضوح القرآنى ، نجد أن بعض المتنسبين للعلم ، قد فهم من هذه الآيات ـ وخاصة سورة الكافرون ـ إنها إقرار من رسول الله ﷺ للكفار على دينهم الباطل ، وهذا زعم باطل ، مخالف لحقيقة الإسلام ، ودعوة رسول الإسلام ، ومضاد لدعوة الرسل جميعاً . يقول العلامة ابن القيم رحمه الله : « إن هذه السورة ـ سورة الكافرون ـ تشتمل على النفى المحصن ، وهذه خاصية هذه السورة ، فإنها سورة براءة من الشرك كما جاء فى وصفها .

« ومقصودها الأعظم البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين ، ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين تحقيقاً للبراءة المطلوبة ، مع تضمنها للإثبات بأن له معبوداً يعبده ، وأنتم بريئون من عبادته ، وهذا يطابق قول إمام الحنفاء .

﴿ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾[٢]

فانتظمت حقيقة لا إله إلا الله . « ولهذا كان النبى ـ ﷺ ـ يقرنها بسورة الاخلاص فى سنة الفجر ، وسنة المغرب ، وحين أخبر الله أن لهم دينهم وله دينه : هل هو إقرار ، فيكون منسوخاً ، أو مخصوصاً ؟ أولا نسخ فى الآية ولا تخصيص ؟

« هذه مسألة شريفة من أهم المسائل ، وقد غلط فى السورة خلائق ، وظنوا أنها منسوخة باية السيف ، لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم ، وظن آخرون : أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب .

وكلا القولين غلط محض ، فلا نسخ فى السورة ولا تخصيص ، بل هى محكمة وهى من السور التى يستحيل دخول النسخ فى مضمونها ، فإن أحكام التوحيد التى اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه .

« وهذه السورة أخلصت التوحيد ، ولهذا تسمى أيضاً سورة الإخلاص . ومنشأ الغلط : ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم . ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف فقالوا : منسوخة وقالت طائفة : زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم فقالوا هذا مخصوص . ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً . بل لم يزل رسول الله ـ ﷺ ـ فى أول الأمر وأشد عليه وعلى أصحاب أشد على الإنكار عليهم ، وعيب دينهم وتقبيحه ، والنهى عنه ، والتهديد والتوعيد فى كل وقت وفى كلِّ ناد . فكيف يقال : إن الآية اقتضت تقريراً لهم ؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل .

---

(١) سورة يونس الآيتان : ١٠٤ ، ١٠٥

(٢) سورة الزخرف الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقدم ، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً ، فإنه دين باطل فهو مختص لا نشرككم فيه ، ولا أنتم تشركوننا فى ديننا الحق .

« فهذه غاية البراءة والتنصل من موافقتهم فى دينهم ، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص ؟ !

أفترى إذاً جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال : لكم دينكم ولى دين .

بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده . وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع الرسول - ﷺ - أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به ، الداعين إلى غير سنته إذا قال لهم خلفاء الرسول وورثته لكم دينكم ولنا ديننا لا يقتضى هذا إقرارهم على بدعتهم ، بل يقولون لهم هذه براءة منها . وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان .

وزاد هذا الأمر إيضاحاً وبياناً : شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقال :

« قوله تعالى : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ اللام فى لغة العرب يدل على الاختصاص فأنتم مختصون فى دينكم لا أشرككم فيه ، وأنا مختص بدينى لا تشركوننى فيه كما قال تعالى :

﴿ لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ ٤١ يونس

وليس فى هذه الآية أنه رضى بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب . كما يظنه بعض الملحدين ، ولا أنه نهى عن جهادهم كما ظنه بعض الغالطين ، وجعلوها منسوخة . بل فيها براءته من دينهم ، وبراءتهم من دينه ، وأنه لا تضره أعمالهم ولا يجزون بعمله ولا ينفعهم ، وهذا أمر محكم لا يقبل النسخ ، ولم يرض الرسول بدين المشركين ، ولا أهل الكتاب طرفة عين قط .

« ومن زعم أنه رضى بدين الكفار ، واحتج بقوله تعالى :

﴿ قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين ﴾ ١ - ٦ الكافرون

فظن هذا الملحد أن قوله : ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ معناه أنه رضى بدين الكفار ، ثم قال هذه الآية منسوخة فيكون قد رضى بدين الكفار ، فهذا من أبين الكذب والإفتراء على محمد - ﷺ - فهو لم يرض قط إلا بدين الله الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه . . ونظير هذه الآية قوله تعالى :

﴿ وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون ﴾ ٤١ يونس

وقوله تعالى :

﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ ١٥ الشورى

وإذا قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك فقل إني برىء مما تعملون ﴾٢١٥ - ٢١٦ الشعراء

فبرأ من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين ، فكيف لا يبرئه من كفر الكافرين الذين هم أشد له معصية ومخالفة ؟ » .

ورحم الله عبد الله بن عباس حين قال فى شأن هذه السورة : « ليس فى القرآن أشد غيظاً لإبليس منها ، لأنها توحيد وبراءة من الشرك » . وقال الأصمعى : كان يقال لـ « قل يأيها الكافرون » و « قل هو الله أحد » المقشقشتان . أى أنهما تبرئان من النفاق .

فرج من الله قريب

قال ابن إسحاق : « فلما أراد الله - عز وجل - إظهار دينه وإعزاز نبيه - ﷺ - وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله - ﷺ - فى الموسم الذى لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب ، كما كان يصنع فى كل موسم ، فبينما هو عند العقبة لقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ، فقال لهم - ﷺ - من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : « أمن موالى اليهود » قالوا : نعم قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله - عز وجل - وعرض عليهم الاسلام ، وتلا عليهم القرآن ، فقال بعضهم لبعض : ياقوم تعلموا ، والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلاتسبقنكم إليه . فأجابوه فيما دعاهم إليه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام . وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك ، ثم انصرفوا إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا ، فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله - ﷺ - ودعوهم إلى الاسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله - ﷺ - أجل : بعد كل ذلك العناء وتلك المصابرة هيأ الله اللطيف الخبير من ينصر هذا الدين ويعلى كلمته ، وينشره فى الأرض بعد أن آوى رسول الله وأصحابه الأوائل . إنه لشرف دونه كل شرف أن يُسمّوا « الأنصار » أنصار الله ، أنصار نبيه ، أنصار دينه ، أنصار عباده المؤمنين ، وليسوا أنصار الجاهلية وطواغيتها وجبابرتها الذين هم فى أعين الناس كبار وهم فى حقيقة الأمر صغار وأقزام .

ولما كان العام المقبل وصل إلى مكة من الأنصار اثنا عشر رجلاً ، فلقوا رسول الله - ﷺ - بالعقبة الأولى فبايعوه ، وكانت البيعة على الاسلام وأرسل معهم رسول الله - ﷺ - مصعب بن عمير رضى الله عنه يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم فى الدين ، ويؤمهم فى الصلاة .

وقدم مصعب بن عمير - رضى الله عنه - ومعه وفد كريم من الأنصار فى موسم الحج ، فكانت بيعة العقبة الكبرى « حيث تساءلوا وهم خارجون من المدينة : حتى متى نترك رسول الله يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف ؟ « لقد بلغ الإيمان أوجه فى هذه القلوب الفتية ، وآن لها أن تنفس عن حماسها ، وأن تفك هذا الحصار الخانق المضروب حول الدعوة والداعية .

صيغة البيعة

تكلم رسول الله - ﷺ - فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب فى الاسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم »[١] ، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر . فاعترض أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله - ﷺ - ثم قال : « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »[٢] .

قال ابن هشام : الهدم الهدم : يعنى الحرمة ، أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم .

ثم قام أسعد بن زرارة فقال : رويداً يا أهل يثرب : فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة ، وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة فبينوا ذلك ، فهو أعذر لكم عند الله ، فقالوا يا أسعد : أمط عنا بيدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها ، ثم قاموا إليه رجلاً رجلاً فبايعوه[٣] .

أجل : (إنه الإيمان بالله والحب فيه ، والأخوة على دينه ، والتناصر باسمه ذلك كله كان يتدافع فى النفوس المجتمعة فى ظلام الليل بجوار مكة السادرة فى غيها ، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ، وسوف يمنعونه بأرواحهم ، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء) .

ترى : أى صورة أعظم من هذه الصورة لهذا الولاء الصادق ؟ لقد كانت بيعة على دين الله ومرضاته . وانظر إلى رد المصطفى - ﷺ - « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » هذه هى الصلة الحقيقية والوشيجة الصادقة لعلاقة المسلم بأخيه المسلم . لقد أصبح الدم واحداً . « أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » وهكذا تنقطع علائق الدم الجاهلى والتناصر الجاهلى والولاء الجاهلى ليحل محلها الولاء الإسلامى والوقوف فى الصف الإسلامى والبراءة من الكفر وأهله واعتناق الأخوة الجديدة التى أمر الله بها . إنها البديل الصالح لتلك الوشائج الجاهلية كما قال - ﷺ - : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[٤] .

وهكذا نصل إلى معرفة ما فعل الله بنبيه ودعوته ومن معه ، وما هيأ لهم من النصرة والمنعة والدار التى يقام فيها حكم الله وشريعته ومنهاجه فى الأرض . أرض الأنصار . أرض الذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

فإلى صورة جديدة مشرقة للولاء فى العهد المدنى .

---

(١) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠

(٢) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٣) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد جـ ٢ ص ٥٠ ، ٥١

(٤) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطى - جـ ١ ص ٤٤٠ برواية البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حبان ، عن بريدة ، عن أبى بردة ، عن أبى موسى ، وفى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - جـ ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٦٥/٢٥٨٥

الولاء والبراء فى العهد المدنى

لما أراد الله إظهار دينه ، وإعزاز عبده ورسوله محمد ـ ﷺ ـ ومن معه ، أمره بالهجرة لتكون مبدأ فاصلاً بين الحق والباطل ، وبين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان .

ولقد كانت الهجرة إيذاناً من المولى ـ جل وعلا ـ بقرب وعده الذى وعد به المؤمنين وهو وعد دائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : قال تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** ﴾ ٥٥ النور

ولقد وقع هذا التمكين الربانى بالفعل ولذلك نجد القرآن يذكّر المؤمنين بهذا التمكين والنصر فيقول :

﴿ **واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** ﴾٢٦ الأنفال .

وسيبقى هذا الوعد بالتمكين ما دام المسلمون ملتزمون بالشرط وهو عبادته وحده لا شريك له .

نبذة تاريخية

لما أذن الله بالهجرة : خرج المسلمون إلى المدينة زرافات ووحداناً ، ولم يبق منهم إلا رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر وعلىّ حيث أقاما بأمر منه ـ ﷺ ـ وإلا من احتبسه المشركون كرهاً .

ولما رأى المشركون أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ قد تجهزوا ، وخرجوا وساقوا الذرارى والأطفال والأموال إلى المدينة ، وعرفوا أنها دار منعة ، وأن أهلها أهل حلقة وشوكة وبأس : خافوا خروج رسول الله ـ ﷺ ـ ولحوقه بهم حيث سيشتد أمره وتقوى شوكته ، فلذلك اجتمعوا فى دار الندوة ولم يتخلف أحد من أهل الرأى والحجا منهم ليتشاوروا فى أمره .

وخرجوا من ذلك الاجتماع برأى واحد : وهو أن يقوم من كل قبيلة شاب ثم يضربوه ضربة رجل واحد ليتفرق دمه فى القبائل .

ولكن حماية الله ونصرته لنبيه ـ ﷺ ـ أكبر من مكر أولئك المجرمين ، فقد نزل جبريل عليه السلام على المصطفى ـ ﷺ ـ يأمره أن لا ينام فى مضجعه تلك الليلة .

وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه صاحبه الأمين أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ وبقى علىّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ حيث نام تلك الليلة فى فراش المصطفى ـ ﷺ ـ وينتهى الأمر بخسارة وذلة (الملأ) من قريش .

ووصل المصطفى ـ ﷺ ـ إلى دار الهجرة ، دار النصرة والمنعة ، حيث وجد « أنصار الله » فكانت هذه الهجرة نصراً للمؤمنين المهاجرين الذين وجدوا من يؤويهم وينصرهم ويشاركهم الأموال والمساكن وحتى الأزواج ، وكانت نصراً أيضاً للأنصار حيث قضى على الإحن والأحقاد الجاهلية بين أوسهم وخزرجهم ، وعلى كيد اليهود الذين كانوا يشيعون بينهم الفرقة والفتنة .

وكان أول عمل قام به رسول الله ـ ﷺ ـ فى المدينة هو بناء المسجد لينطلق منه النداء الربانى « الله أكبر الله أكبر » وليكون هذا المسجد الطاهر هو الملتقى التربوى للأمة المسلمة يتلقون فيه وحى الله عن رسول الله ، ويتعلمون أمور دينهم ، وهذا المسجد هو أيضاً مكان القيادة العسكرية الإسلامية التى انطلقت للجهاد فى سبيل الله .

وبعد ذلك : « آخى رسول الله ـ ﷺ ـ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك ، وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار آخى بينهم على المواساة ، يتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ **وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾ ٦ الأحزاب .

رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة » .

إن هذه الأخوة الإيمانية هى الوشيجة العظمى ، والرابطة الفريدة فى علاقات البشر بعضهم مع بعض ، فلقد أحس كل مؤمن ـ كما يقول الأستاذ محمد قطب ـ سواء كان مهاجريا أم أنصاريا برباط جديد يربطه بأخوته فى الله ، فكل واحد منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ، مع أنه ليس من قبيلته ولا بينهما آصرة دم بل أن آصرة الدم . حين كانت فى الجاهلية ـ لم تكن تنشىء فى نفس أحدهم ذلك الحب الصافى العجيب الذى يحسه الآن لأخيه فى العقيدة .

ترى ما الفرق بين لقاء الجاهلية ولقاء الإسلام ؟

لماذا لا توجد هذه المشاعر إلا على العقيدة ؟

والجواب : أن الأمر ليس سراً ، ولا سحراً ، ولكنه الاسلام يلتقى فيه الناس على العقيدة فى الله ، لأن كلاً منهم يحب الله ورسوله ، فلا تكون ذواتهم بارزة ولا متوفرة لاقتناص المصلحة من الآخر كما هى الحال فى العلاقات الجاهلية ، وإنما الجانب البارز هو الحب فى الله .

وقفة عند المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

إن هذه الأخوة جديرة بالدراسة والاعتبار ، ذلك أنه نتج عنها أمور عظيمة فى حياة المسلمين سواء فى مستوى « الأمة والدولة » أم على مستوى الأفراد فأما ما يتعلق بهم كأمة : فقد كانت هذه المؤاخاة هى الركيزة الأساسية فى تكوين مفهوم « الأمة المسلمة » أمة التقت على العقيدة فى الله ، وعاشت لأجل تلك العقيدة وليس لرابطة الدم أو الحسب والنسب أو الأرض أو اللون أو اللغة ، أو الجنس فيها أى حساب يذكر إذا تعارض ذلك مع العقيدة . والله سبحانه وتعالى هو صاحب المنة والفضل فى ذلك فهو القائل :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون . ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾
١٠٣ ـ ١٠٥ آل عمران

لقد أصبح المؤمنون أولياء بعضهم البعض ، كل منهم يحب أخاه كحبه لنفسه ، ويناصره ويجاهد من أجله ، ويؤثر على كل قريب وحبيب من مال أو أهل أو عشيرة أو ولد .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ ٧١ التوبة .

واشتد كيانهم فكانوا كالجسد الواحد ﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ثم شبّك - ﷺ - بين أصابعه ﴾[1] . وعن النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى »[2] .

ولقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المهاجرين والأنصار . فقال سبحانه عن المهاجرين :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون ﴾ ٨ الحشر .

ثم يثنى سبحانه على الأنصار بقوله :

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ ٩ الحشر .

بل إن الأمر أصبح أكبر من ذلك ، فهؤلاء الأنصار الذين آووا رسول الله - ﷺ - ومن معه وآزروهم ونصروهم وبذلوا لهم النفس والنفيس ابتغاء رضوان الله قد أصبح حبهم من العقيدة التى يدين بها المسلم ربه ، وبغضهم وكراهيتهم نفاق ففى الحديث الصحيح : « آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار »[3] .

وقال - ﷺ - : « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، فمن أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله »[4] وبهذه الأخوة تكون « المجتمع الاسلامى » ذلك المجتمع الذى تظلله راية لا إله إلا الله وتحكمه الشريعة الربانية ويسوده الحب والتفانى ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر ، الجهاد رهبانيته ، والدعوة إلى الله سبيله ومنهاج حياته ، القوى فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، والضعيف فيه قوى حتى يأخذ حقه ، ولاؤه لله ولرسوله والمؤمنين ، وبغضه وكراهيته لأعداء الله ولو كانوا أقرب قريب ، وجدوا حلاوة الإيمان وطعمه ، وعرفوا الكفر وأهله حتى أن أحدهم يحب أن يلقى فى النار ولا يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما قال - ﷺ - وهذا ما تحقق فيهم - « لا يجد أحد حلاوة الايمان حتى يحب

---

(١) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير - للسيوطى جـ١ ص ٤٤٠ برواية البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن حبان وفى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - جـ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٥/٦٥

(٢) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - جـ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٢٥٨٦/٦٦

(٣) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطى - جـ١ ص٣ برواية أحمد والبخارى ومسلم والنسائى ، عن أنس وفى صحيح مسلم - كتاب الايمان - جـ١ ص ٨٥ رقم ٧٤/١٢٨

(٤) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير للسيوطى - جـ١ ص ٣٩٦ برواية ابن أبى شيبة عن البراء .

المرء لا يحبه إلا لله ، وحتى أن يقذف فى النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد أن أنقذه الله وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما »[1] .

وبهذه المؤاخاة الايمانية وجد « التكافل الاجتماعى » وبرزت فيه صورة خالدة لم توجد قط إلا فيه وحده .

ومنها ما رواه البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله - ﷺ - بين عبدالرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فقال سعد لعبد الرحمن : إنى أكثر الأنصار مالاً ، فأقسم مالى نصفين ، ولى امرأتان فانظر إلى أعجبهما إليك فسمها لى أطلقها ، فإذا انقضت عدتها فتزوجها قال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، أين سوقكم ؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن ، ثم تابع الغدو حتى جاء يوماً وبه أثر صفرة ، فقال النبى - ﷺ - : « مهيم » ؟ قال : تزوجت . قال : « كم سقت إليها » ؟ قال : نواة من ذهب (وإن إعجاب المرء بسماحة سعد لا يعدله إلا إعجابه بنبل عبد الرحمن الذى زاحم اليهود فى سوقهم وبزهم فى ميدانهم ، واستطاع بعد أيام أن يكسب ما يعف به نفسه ويحصن به فرجه ، ذلك أن علو الهمة من خلائق الإيمان)[2] .

وخلاصة القول : إن هذه المؤاخاة (كانت تدريباً عملياً على الأخوة الإسلامية التى تبعثها تلك العقيدة فى نفوس المؤمنين بها « إنما المؤمنون إخوة » ١٠ الحجرات . وكان تدريباً ناجحاً فذاً فى نجاحه ، فريداً فى التاريخ .

وكانت كذلك تدريباً عملياً على « التكافل » وهو معنى من المعانى العميقة فى بناء الجماعة الإسلامية . القادرون يكفلون غير القادرين ، على أساس الأخوة فى الله من جانب وعلى أساس التصرف فى مال الله بما يرضى الله من جانب آخر) .

سمات الولاء والبراء فى العهد المدنى

لئن كانت سمات العهد المكى هى : بيان الحجة وإقامتها ، والصبر على الأذى وكف الأيدى ، والهجر الجميل ، فإن ذلك كان لحكمة ربانية منها : أن ذلك كان لتربية الأمة على هذا الدين الحنيف ، وصقل النفوس على ضوء منهاجه ، والتقيد الكامل بأمر الله ورسوله فى الفعل والترك على حد سواء .

ولكن الأمر أخذ صورة أخرى فى العهد المدنى ، فمن الهجرة إلى المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، إلى قيام الدولة المسلمة إلى الجهاد فى سبيل الله وهيمنة الشريعة الإسلامية .

وأول ما نذكره فى هذا العهد : هو الوثيقة التى كتبها رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار ، ومن تبعهم ، حيث وادع فيها اليهود ، وعاهدهم ، وتركهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط

---

(١) الحديث فى مسند أحمد - جـ ٣ ص ٢٤٨ بلفظ : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب العبد لا يحبه إلا الله - عز وجل - وأن يقذف فى النار أحب إليه من أن يعاد فى الكفر »

(٢) انظر البخارى - باب إخاء النبى - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار جـ ٥ ص ٣٨ طبعة دار الشعب .

عليهم . وقد أوردها ابن اسحاق دون سند وأوردها الامام أحمد فى مسنده ، وأوردها أصحاب السير والمغازى .

وسوف نقتصر على بعض فقراتها التى تخص موضوع الموالاة . جاء فى أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من محمد النبى - ﷺ - بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس »(١) .

« . . . وألّا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة (عظيمة) ظلم ، أو إثم أو عدوان ، أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً . ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يجبر عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وإن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم » .

« وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه ، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل ، وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد - ﷺ - وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين » .

وهذه الوثيقة هي الصورة الصادقة لحقوق الانسان « حيث وردت بما يجعل المجتمع الاسلامى مجتمعاً متلاحماً متماسكاً ، وكفلت - أيضا - حقوق أهل الديانات الأخرى ما داموا يعيشون تحت مظلة الحكم الاسلامى .

وقد لخص الامام ابن القيم - رحمه الله - صورة المجتمع المدنى آنذاك بقوله : (لما قدم النبى - ﷺ - المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام : قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ، ولا يظاهروا عليه ، ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم ، آمنون على دمائهم وأموالهم . وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة .

وقسم تاركوه ، فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه ، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن ، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم ، ومنهم من دخل معه فى الظاهر وهو مع عدوه فى الباطن ، ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون .

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه - تبارك وتعالى - . وقد اتضح لنا من خلال هذا البحث أن هناك ثلاثة أمور هامة هى سمات هذا العهد :

١ - كيد أهل الكتاب للإسلام ، ثم النهى والتحذير من موالاتهم وطاعتهم .

٢ - ظهور النفاق والمنافقين .

٣ - البراء من هؤلاء وأولئك : أى : المفاصلة التامة بين المسلمين وأعدائهم ولها صور ترد فى موضعها .

---

(١) انظر سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق الشيخ/ محمد محيى الدين عبد الحميد جـ٢ ص ١١٩ .

أولاً : كيد أهل الكتاب للإسلام وتحذير المسلمين من موالاتهم

تتفق نظرة المنصفين الباحثين فى التاريخ اليهودى : أن اليهود أمة حاقدة ، الخداع طبعها والغدر دينها ، ومحادة الله ورسله خلقها ولحكمة الله علمها انتقلت الرسالة من بين اسرائيل فكان خاتم الأنبياء هو محمد بن عبد الله الهاشمى القرشى العربى - ﷺ - وقد كان كيد اليهود - خاصة - قد بدأ منذ أن كان رسول الله - ﷺ - فى مكة حيث كانت تعاون قريشا فى أسئلة العناد التى توجه للمصطفى - ﷺ - وذلك مثل قولهم لقريش : اسألوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وغير ذلك مما هو معلوم من سورة الكهف .

ولما هاجر رسول الله - ﷺ - ومن معه إلى المدينة ، قامت قيامة اليهود ، فلم يهدأ لهم بال ، ولم يهنأ لهم عيش . ذلك أن قيام الدولة المسلمة فى الأرض له أثره الكبير عليهم ، فالإسلام هو الذى يكسر شوكتهم ، ويفضح مكنوناتهم ، وتحرير الناس من شرورهم ، ومزق شملهم وسيطرتهم وجبروتهم . ومن هنا لم يفتأوا يكيدون للإسلام ورسوله والمؤمنين وينصبون العراقيل فى وجه من يريد الإسلام وولد النفاق والمنافقون فى أحضانهم ، وخانوا الله ورسوله فلم يتقيدوا بالوثنية الآنفة الذكر ، وغدروا بالمسلمين فوالوا المشركين والكفار ، وآذوا رسول الله - ﷺ - وهموا بما لم ينالوا .

ولذلك عنى القرآن المدنى وخاصة أكبر سورة - وهى البقرة وآل عمران والنساء والمائدة - بكشف سترهم وفضحهم ، وبيان كيدهم . والآيات الكريمة فى هذا كثيرة جدا ولكننى أورد طرفا منها هنا ليتضح (للمسلمين) المخدوعين بهم اليوم ، الذين يوالونهم ويبجلوهم بل يقتدون بهم . ما عليه أعداء الذين هم قتلة الأنبياء ودعاة الفساد فى الأرض .

قال تعالى :

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾ ١٠٩ البقرة .

وفى سورة آل عمران :

﴿ ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ ٦٩ آل عمران .

﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) ٧٢ آل عمران .

﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قُل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ ١٣٥ البقرة .

﴿ ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ١٠٥ البقرة .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون** ﴾ ١١٨ آل عمران .

فهذه الآيات وغيرها مما فى مثل معناها : تبين كيدهم وما يتربصون به للإسلام وأتباعه . ولذلك جاءت آيات كثيرة فى تحذير المؤمنين ونهيهم عن الاستماع للكفار عامة ولأهل الكتاب خاصة ، أو طاعتهم أو اتخاذهم أولياء أو الركون إليهم . قال تعالى : ﴿ **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى ولا نصير** ﴾ ١٢٠ البقرة .

﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين . بل الله مولاكم وهو خير الناصرين** ﴾ ١٤٩ ـ ١٥٠ آل عمران .

﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾ ١٠٠ ـ ١٠١ آل عمران .

ورد فى سبب نزول هاتين الآيتين : أن شاس بن قيس اليهودى . وكان شيخاً قد غبر فى الجاهلية ، عظيم الكفر ، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ـ مر على نفر من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم ، يتحدثون فيه فغاظه ما رأى من جماعتهم وألفتهم ، وصلاح ذات بينهم فى الإسلام بعد الذى كان بينهم فى الجاهلية من العداوة فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد ، لا والله مالنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار ، فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم ذكرهم بعاث ـ أحد أيامهم فى الجاهلية ـ وما كان فيه ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار ، ففعل . وتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين ، فتقاولا وقال أحدهما لصاحبه : إن شئت رددتها جذعة ، وغضب الفريقان جميعاً وقالا : ارجعا السلاح السلاح ، موعدكم الظاهرة ـ وهى الحرة ، فخرجوا إليها ، وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية .

وبلغ رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين ، حتى جاءهم فقال : « يا معشر المسلمين : الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً »[(١)] .

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان ، وكيد من عدوهم ، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ، ثم انصرفوا مع رسول الله ـ ﷺ ـ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله فأنزل الله : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ الآية (٢) .

---

(١) الحديث فى تفسير الطبرى ـ تفسير سورة ال عمران جـ ٤ ص ١٦

(٢) الآية ١٠٠ من سورة آل عمران .

قال جابر بن عبد الله : ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله - ﷺ - فأومأ إلينا بيده ، فكففنا وأصلح الله - تعالى - ما بيننا فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله - ﷺ - فما رأيت يوماً أقبح

ولا أوحش أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم . ويوجه الله عباده المؤمنين ويرشدهم - بعد أن ذكر قصة بنى إسرائيل مع موسى - عليه السلام - فى قصة ذبح البقرة - بقوله :

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ ٧٥ - ٧٧ البقرة .

ثم يأتى التحذير الأقوى فى سورة المائدة :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ ٥١ المائدة .

﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون . يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ ٥٥ - ٥٧ المائدة .

إن هذه النصوص وغيرها : قد ربت المسلمين على معرفة كيد أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ، فقطعت ما فى نفوس بعض المسلمين من ود وولاء لهؤلاء الأعداء ، من أجل أن يكون الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين فقط .

ثانياً : النفاق والمنافقون

إن المؤمنين فى العهد المكى كانوا مبتلين ، يعذبون ، ويضطهدون ومع ذلك صبروا واحتسبوا فلم يكن فى مكة حينئذ إلا فريقان : فريق المؤمنين الصابرين ، وفريق الكفار والمشركين والجبابرة . ولم يكن هناك « منافقون » ، لأن النفاق طبيعته المراوغة والاحتيال وهذا الدين لم يكن يقدر عليه فى مكة إلا المؤمنون الصادقون .

أما فى المدينة ، وبعد قيام دولة المسلمين وهيمنة حكم الله وشرعه فقد وجد المنافقون وهذا أمر معهود من أصحاب النفوس الضعيفة الجبانة ، التى تخاف السلطة الإسلامية فتظهر لها الإسلام ، وتحب الكفر وأهله ، ولكنها لا تجرؤ على المصارحة به .

والمنافقون : (قوم أظهروا الإسلام ومتابعة الرسل ، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله ، فهم فى الدرك الأسفل من النار ، كما قال تعالى :

﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾ ١٤٥ النساء .

« فالكافرون المجاهرون أخف منهم ، وهم فوقهم فى دركات النار ، لأن الطائفتين اشتركتا فى الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد عليهم المنافقون بالكذب والنفاق . وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال تعالى فى حقهم :

﴿ هم العدو فاحذرهم ﴾ ٤ المنافقون

ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر . أى : لا عدو إلا هم ، ولكن لم يردها هنا حصر العداوة فيهم ، وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً ، وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم ، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها .

« فإن ضرر هؤلاء المخالطين المعاشرين لهم - وهم فى الباطن على خلاف دينهم - أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم ، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر أما هؤلاء فمعهم فى الديار والمنازل صباحاً ومساء ، يدلون العدو على عوراتهم ، ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم . . صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم تحل غضب الجبار ، وتوجب دخول النار .

« من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والإيمان وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان ، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالاً ، ويمشى على عقبه القهقرى إدباراً منه وهو يحسب ذلك إقبالاً » .

وكان من نعمة الله سبحانه وتعالى على هذه الأمة ألاَّ يتركها مختلطة بغير تمييز بين المؤمن والمنافق ، ذلك أن عدم التمييز يؤدى إلى ضياع القدوة الحسنة فى المجتمع الإسلامى ، ويؤدى أيضاً إلى دوبان الصورة الصادقة للمسلم الصادق .

« وفى المتسبين للإسلام أناس « نفعيون » لا هم لهم إلا الحصول على المال أو أى مأرب من مآربهم الدنيئة ، فإذا انتصر المؤمنون كانوا معهم ، وإذا أصيبوا كانوا عليهم ، ثم إن منهم أصحاب الأهداف الخبيثة والأغراض الهدامة ممن قد امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويتظاهرون لهم بأنهم معهم ، ولكنهم يخونوهم فى أحرج المواقف » .

ولما كان الأمر كذلك ، ميز الله الصادق من الكاذب عن طريق الابتلاء والامتحان . قال تعالى :

﴿ الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ . ١ - ٣ العنكبوت .

﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين . وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ ١٤٠ - ١٤١ آل عمران .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ ١٧٩ آل عمران .

أحل : إنه لابد من التمييز بين الخبيث والطيب ، فالابتلاء سنة ربانية فى تمحيص النفوس وصقلها على الحق ، ثم إنه سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء ، وفى حال العافية والبلاء ، فلله سبحانه على العباد فى كلتا الحالين عبودية بمقتضى الحال . . لا تحصل إلا بها ، ولا يستقيم القلب بدونها ، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد ، والجوع والعطش ، والتعب والنصب ، فتلك المحن والبلايا شرط فى حصول الكمال الإنسانى والاستقامة المطلوبة منه .

ولنتكلم هنا عن أبرز أفعال وصفات المنافقين فى كيدهم للدعوة الإسلامية .

١ ـ من أخطر ما ارتكبه المنافقون : موالاة اليهود والنصارى ضد المسلمين وقد فضحهم القرآن فى عدة مواضع ومنها سورة الحشر ، قال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً ابداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾ ١١ ـ ١٢ الحشر .

وقال تعالى :

﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون** ﴾ ١٤ المجادلة .

ذكر السدى ومقاتل : أنها نزلت فى عبد الله بن أبىّ وعبد الله بن نبتل المنافقين : فقد كان أحدهما يجالس النبى ـ ﷺ ـ ثم يرفع حديثه إلى اليهود . وهذه الآية كقوله تعالى :

﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾ ١٤٣ النساء .

ولقد نزلت سورة كاملة فيهم هى سورة « المنافقون » بيّن الله فيها أنهم يظهرون ما لايبطنون ، وأنهم يحرضون على إضعاف صف المسلمين .

﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ ٧ المنافقون .

وفيها أيضاً :

﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ ٨ المنافقون .

روى البخارى ومسلم فى سبب نزولها عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : « كنا غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال الأنصارى : يا للأنصار ، وقال المهاجرى : يا للمهاجرين ، فقال رسول الله ﷺ : « ما بال دعوى الجاهلية ؟ قالوا : يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار ، فقال : « دعوها فإنها فتنة » فسمعها عبد الله بن أبىّ فقال : قد فعلوها ، والله لئن رجعنا إلى

المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال عمر : دعنى أضرب عنق هذا المنافق : قال ﷺ : « دعه . لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه »(١) .

قال محمد بن اسحاق عن عاصم بن عمرو بن قتادة : أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أبيه أتى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله : إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالديه منى ، إنى أخشى أن تآمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمناً بكافر ، فأدخل النار . فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا »(٢) .

وذكر عكرمة وغيره : أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن أبى على باب المدينة ، واستل سيفه ، فجعل الناس يمرون عليه ، فلما جاء أبوه عبد الله بن أبى قال له ابنه : وراءك ، فقال : مالك ويلك ؟ قال : والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله - ﷺ - وكان إنما يسير ساقه - فشكى له عبد الله بن أبى ابنه ، فقال الابن : والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له ، فإذن له رسول الله - ﷺ - فقال : أما إذ أذن لك رسول الله - ﷺ - فجز الآن .

وحقاً ، إنها صورة رائعة لصدق الإيمان أن يقول الابن لرسول الله : إن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، إنه ما حمل هذا الابن على هذا الفعل إلا قوة الإيمان وعمق الولاء والبراء فى نفسه .

٢ - من أقبح صفاتهم : رفض التحاكم إلى شريعة الله ، والتحاكم إلى الطواغيت التى تحقق رغباتهم ، قال تعالى :

﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً . فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً . أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ . ٦٠ - ٦٣ النساء .

ورفضهم لحاكمية الله رفض للإيمان كما قال تعالى :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وان يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون ﴾ ٤٧ - ٥٠ النور .

ثم يضع الله ميزاناً دقيقاً فى هذه القضية بين المؤمن والمنافق . فأما المؤمن الصادق فإنه ينقاد إلى حكم الله ويرضى به ويقول : « سمعت وأطعت » .

---

(١) انظر البخارى - كتاب التفسير - جـ٦ ص ١٩١ ط الشعب

(٢) الحديث فى سيرة النبى - ﷺ - لابن هشام - تحقيق مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبد الحفيظ شلبى جـ٣ ص ٣٠٥

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ﴾ ٥١ سورة النور .

هذه هى صفة المؤمن ، أما المنافق فصفته الإعراض والاستكبار عن حكم الله .

٣ - من صفاتهم وأفعالهم الدنيئة : التخذيل فى صف المسلمين ، والتجسس للكفار وكشف عورات المسلمين لهم . قال الله عنهم : ﴿ الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ ١٦٨ آل عمران .

ولقد أصيب المسلمون فى غزوة أحد بالدهشة حين رجع ثلث الجيش بزعامة ابن أبىّ . وكذلك قعودهم عن غزوة تبوك وغيرها .

وفى موالاتهم للكفار يقول الله فى شأنهم .

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً . الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾[1] .

وأخبرنا سبحانه أنهم هم :

﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾[2] .

ولقد فضحتهم سورة التوبة خاصة فقد ورد فيها قوله تعالى :

﴿ إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون . ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون . ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ﴾[3]

ففى هذه الآيات بيان من الله للمؤمنين أن هؤلاء المنافقين لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، لأنهم جبناء مخذولون ولأسرعوا بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة . وقال الله فيهم أيضاً .

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استئذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين . رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[4] .

---

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء
(٢) الآية ١٤١ من سورة النساء
(٣) الآيات ٤٥ إلى ٥٠ من سورة التوبة
(٤) الآيتان ٨٦ ، ٨٧ من سورة التوبة

ولهم مواقف أخرى كثيرة ، ولكنه سبحانه وتعالى حذر المؤمنين منهم وبين لرسوله - ﷺ - أنه سبحانه وتعالى لو شاء لأراهم لرسول الله عيانا ولكنهم يعرفون بلحن القول ولو تشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول .

﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ﴾[1] .

ثالثا - البراء فى العهد المدنى

أى (المفاصلة التامة بين المسلمين وجميع أعدائهم) .

لئن كانت التربية فى العهد المكى تمتاز بضبط النفس والصبر على الأذى وتبليغ الدعوة واعداد العدة مع حبس دواعى الانطلاق وكف حدة الإقدام . فإن التربية فى المدينة مبنية على هذه الأسس ولكن فى شكل جديد حيث انطلق المؤمنون فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله والضرب على يد أعداء الله بقوة لا تعرف الضعف وعزيمة لا تعرف الوهن . من هنا كان الجهاد فى سبيل الله هو أبرز سمات هذا العهد الزاهر وهو أول صورة من صور البراء والمفاصلة بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فى العهد المدنى وبعد الهجرة النبوية والجهاد وجه جديد من وجوه الثبات على العقيدة واحتمال المشقات والأذى فى سبيل الذود عنها من الأعداء .

والحديث عن الجهاد طويل طويل وآياته كثيرة وكذلك الأحاديث النبوية فيه وفهم الناس لمقصده مختلف خاصة فى العصور المتأخرة ، فقد وجد من المسلمين أناس أصيبوا بالهزيمة النفسية أمام شبهات الكفار والملحدين والمستشرقين والمستغربين على حد سواء .

ففى الوقت الذى يقول فيه أعداء الله . إن دين الاسلام انتشر بالسيف وجد ممن ينتسبون للعلم والعلماء من يدافع - حسب زعمه - عن الإسلام ؟ فيلوى أعناق النصوص الشرعية لتوافق ما زعمه دفاعاً عن الإسلام ! ومن هنا يوضع الإسلام فى مقام الدفاع ويصور على أنه كالذى يقاتل فى معركة إنسحاب حيث كلما طرأت شبهة انبرى لها من يدافع .

والذى نعتقده ونراه الحق فى هذه القضية : أن هذه مهزلة سخيفة لم تحدث إلا فى القرون المتأخرة ، حين صارت الغلبة للكفروأربابه ، وأندحر المسلمون من مقام القيادة والجهاد إلى مقام الاستخذاء والضعف والدفاع والتبعية العمياء .

وقد كتب علماء فضلاء من علماء المسلمين حول هذا الموضوع ما يكفى ويشفى ويغنى . ومن المهم فى هذا المقام : أن نعرف هدى المصطفى - ﷺ - وسيرته مع أعداء الله وجهاده لهم . وللإمام ابن القيم - رحمه الله - تلخيص قيم نورده هنا بتمامه نظراً لأهميته .

قال - رحمه الله - فى زاد المعاد : (أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق ، وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة محمد

﴿ يأيها المدثر . قم فأنذر ﴾ .

فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ « يا أيها المدثر » ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب ثم أنذر العرب قاطبة ثم أنذر العالمين فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ويؤمر بالكف والصبر والصفح .

ثم أذن له فى الهجرة وأذن له فى القتال ، ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : (١) أهل صلح وهدنة . (٢) وأهل حرب . (٣) وأهل ذمة .

فأمر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . ولما نزلت سورة « براءة » نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا فى الإسلام وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان .

وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ، ونبذ عهودهم إليهم وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام:

١ - قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له فحاربهم وظهر عليهم .

٢ - وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم .

٣ - وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق فأمره أن يؤجلهم أربعة أشهر فإذا انسلخت قاتلهم . وهى الأشهر الأربعة المذكورة فى قوله :
﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين ﴾[1] .

فالحرم هاهنا أشهر التسيير أولها يوم الآذان وهو اليوم العاشر من ذى الحجة وهو يوم الحج الأكبر الذى وقع فيه التأذين بذلك . وآخرها العاشر من ربيع الآخر . وليست هى الأربعة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ﴾[2] .

فإن تلك : واحد فرد ، وثلاثة سرد . رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم . ولم يسير المشركين فى هذه الأربعة . فإن هذا لا يمكن لأنها غير متوالية ، وهو إما أجلهم أربعة أشهر ثم أمره بعد انسلاخها أن يقاتلهم فقتل الناقض لعهده وأجل من لا عهد له أوله عهد مطلق أربعة أشهر وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم وضرب على أهل الذمة الجزية .

---

(١) الآية ٥ من سورة التوبة
(٢) الآية ٣٦ من سورة التوبة

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول « براءة » على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .

ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام وصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ومسالم آمن وخائف محارب .

وقد ركز القرآن الكريم على أهداف الجهاد فى غير ما آية . فمنها قوله تعالى :

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ (١) .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم « ويكون الدين كله لله » لا يكون مع دينكم كفر .

وقال تعالى :

﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ (٢) .

وقال :

﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ (٣) .

إن الجهاد فى الإسلام : هدفه أن يعبد الله وحده فى الأرض وأن تهيمن شريعته ، ويتحرر الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن تأليه البشر إلى ألوهية الواحد الأحد ومن هدف الجهاد أيضاً إنقاذ المستضعفين فى الأرض .

﴿ ومالكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ﴾ (٤) .

واليك تفصيل صور البراء من كل طائفة وكيفية جهاد المسلمين لهم :

(أ) صور البراء من المشركين :

١ ـ بعد أن قامت الدولة المسلمة فى المدينة كان لابد من اجتثاث شجرة الشرك فى مكة وغيرها وقد نزلت سورة التوبة بقتال المشركين وتفصيل ذلك ورد بتلخيص ابن القيم الذى سبق ذكره .

قال تعالى :

---

(١) الآية ٣٩ من سورة الأنفال
(٢) الآية ٩ من سورة الصف
(٣) الآيتان ٤٠ ، ٤١ من سورة الحج
(٤) الآية ٧٥ من سورة النساء

﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وان توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم الى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون . كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتمعند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهموا باخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين . ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم ﴾[1] .

٢ ـ منعهم من دخول المسجد الحرام قال تعالى :

﴿ يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم ﴾[2] .

قال ابن كثير : كان نزول هذه الآية سنة تسع ولهذا بعث رسول الله ـ ﷺ ـ علياً صحبة أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ عامئذ وأمره أن ينادى فى المشركين .

« ألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان »[3] .

فأتم الله ذلك وحكم به شرعاً وقدراً .

٣ ـ منع النكاح بالمشركات : ذكر ابن جرير ـ وهو يتحدث عن صلح الحديبية ـ إنه جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ نسوة مؤمنات فأنزل الله عز وجل :

﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار . لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وءاتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا ءاتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾[4]

---

(١) الآيات ١ ـ ١٥ من سورة التوبة

(٢) الآية ٢٨ من سورة التوبة

(٣) الحديث فى صحيح البخارى ـ تفسير سورة براءة ـ جـ ٦ ص ٨١

(٤) الممتحنة آية : ١٠

قال فطلق عمر ـ رضى الله عنه ـ يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك .

٤ ـ منع اقامة المسلم فى دار الشرك وذلك بعد أن أعز الله دينه وعباده وقامت لهم دولة فحينئذ تحرم الإقامة بدار الشرك خشية على المسلم أن يفتن ، ولكى ينضم إلى جماعة المسلمين فهم إخوته وأولياؤه من دون الناس . قال ـ ﷺ ـ « أنا برىء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين » قالوا : يا رسول الله لم ؟ قال : « لا تراءى ناراهما »[1] .

(ب) البراء من أهل الكتاب

إن الجهاد هو أكبر مظاهر المفاصلة بين المسلمين وجميع أعدائهم ـ ومنهم أهل الكتاب ـ فإنه لابد أن نشير إلى بعض ما نزل فى مفاصلة أهل الكتاب إضافة إلى مبدأ جهادهم .

ومن ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران التى عنيت بهم كثيراً وكشفت ما لديهم .

﴿ يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . ياأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾[2] .

﴿ قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون . قل يأهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من أمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون ﴾[3] .

وفى سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ قل يأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل الينا وما أُنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل ﴾[4] .

ففى هذه الآيات وغيرها نجد التقريع لأهل الكتاب والتنديد بباطلهم ومخازيهم .

ثم يأتى النص القرآنى للرسول ـ ﷺ ـ وللمؤمنين من ورائه بأن يقولوا لأهل الكتاب إنهم ليسوا على شىء حتى يقيموا شرع الله ويحكموا كتابه .

﴿ قل يأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أُنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل اليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ .

وهذه الآية الكريمة من أعظم ما بين صورة البراء من أهل الكتاب . ولقد كان جهاد المصطفى ـ ﷺ ـ وأصحابه لأهل الكتاب : بنى قينقاع وبنى قريظة وبين بنى النضير . صورة واضحة بارزة فى مفاصلتهم وجهادهم والبراءة منهم .

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير ـ للسيوطى جـ ١ ص ٣٢٦ برواية أبى داود والترمذى والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن الكبرى ، عن قيس بن أبى حازم

وفى سنن أبى داود ـ كتاب الجهاد ـ جـ٣ ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٢) الآيتان ٧٠ ، ٧١ من سورة آل عمران

(٣) الآيتان ٩٨ ، ٩٩ من سورة آل عمران

(٤) الآيتان ٥٩ ، ٦٠ من سورة المائدة

(جـ) البراء من المنافقين

مفاصلة المنافقين والبراءة منهم تؤخذ من هدى رسول الله - ﷺ - معهم وفى ذلك يقول العلامة ابن القيم : (وأما سيرته - ﷺ - فى المنافقين : فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله وأن يجاهدهم بالعلم والحجة . وأمره أن يعرض عنهم ويغلظ عليهم وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ونهاه أن يصلى عليهم وأن يقوم على قبورهم وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم) .

وإنه لمن أبرز صفات المنافقين موالاة الكفار وكراهية دين الله والتخذيل فى صف المسلمين لذلك حين بين الله حالهم للمؤمنين : كان لابد من مفاصلتهم والبراءة منهم ونزل فى ذلك آيات توضح صور هذه المفاصلة وذلك البراء ومنها :

١ - الاعراض عنهم والغلظة عليهم : وقد جاء ذلك مقروناً بجهاد الكفار فالغلظة على المنافق من أنواع الجهاد قال تعالى :

﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ .

وهى نفس آية « ٩ من سورة التحريم » .

وسورة التوبة فضحتهم فضحاً عظيماً حتى أنها سميت (بالفاضحة) ، ففى صحيح البخارى عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة التوبة ؟ قال : التوبة هى الفاضحة ، مازالت تنزل : ومنهم ومنهم حتى ظنوا أنها لم تبق أحداً منهم إلا ذكر فيها »[(١)] .

وفى سورة النساء :

﴿ ويقولون طاعة فإذ برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذى تقول والله يكتب مايبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا ﴾[(٢)] .

٢ - النهى عن الصلاة عليهم أو القيام على قبورهم :

﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾[(٣)] .

قال ابن كثير : وهذا حكم عام فى كل من عرف نفاقه وان كان سبب نزول الآية فى عبدالله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين .

٣ - لا يقبل لهم عذر فى التخلف عن الجهاد ومن ثم عدم قبولهم فيه مرة أخرى قال تعالى

﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ﴾[(٤)] .

---

(١) انظر تفسير القرطبى - تفسير سورة براءة - جـ ٨ ص ٦١

(٢) الآية ٨١ من سورة النساء

(٣) الآية ٨٤ من سورة التوبة

(٤) الآية ٨٣ من سورة التوبة

﴿ يعتذرون اليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾(١) .

٤ - عدم الاستغفار لهم قال تعالى :

﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٢) .

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون . سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾(٣) .

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) ﴾

معانى المفردات

الأسوة : (بضم الهمزة وكسرها وبهما قرىء) من يؤتسى به كالقدوة لمن يقتدى به والجمع أسى ، براء واحد هم برىء كظرفاء وظريف :
أى : متبرئون ومنكرون لما تعملون ، وما تعبدون : أى من الأصنام والكواكب وغيرها ، البغضاء : أى البغض والكراهة ، لا تجعلنا فتنة للذين كفروا : أى : لا تسلطهم علينا فيفتنوننا بعذاب لا نحتمله .

من قولهم : فتن الفضة : أى : أذابها ، يرجو الله : أى يؤمل ثوابه ، واليوم الآخر : أى : مجيئه ، ومن يقول : أى : ومن يعص النصيحة .

(١) الآيات ٩٤ إلى ٩٦ من سورة التوبة
(٢) الآية ٨٠ من سورة التوبة
(٣) الآيتان ٥ ، ٦ من سورة المنافقون

المناسبة وإجمال المعنى :

بعد أن أنكر عليهم موالاتهم للكافرين وذكر لهم الموانع التى تمنع من ذلك كإخراجهم من الديار وتمنى الكفر لهم وصدهم عن هداية الدين وكفرهم بالرسول وبما جاء به وأنهم متى وجدوا سبيلاً لأذاهم يقول أو فكر سلكوه غير آبهين لصلة رحم ولا قربى أكد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم وأصحابه إذ تبرءوا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم : إنا براء منكم ، قال الفراء : يقول : أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم حين تبرأ من أهله ، لتعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرا الإيمان » .

أضواء كاشفة :

أسوة إبراهيم فى هذا :

كيف تتخذون أعدائى وأعداءكم أولياء ؟ ألا تقتدون بأبيكم إبراهيم ؟ قد كانت لكم أسوة حسنة ، وقدوة طيبة فى أبيكم إبراهيم الخليل والذين معه من المؤمنين إذ قالوا لقومهم : إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون فنحن لا نعتد بكم ولا نحفل بآلهتكم بل أنكرناكم وبدا بيننا وبينكم العداوة لا المحبة والبغضاء لا الصداقة فى كل وقت كل هذا حتى تؤمنوا بالله وحده وتكفروا بشرككم اقتدوا بأقوال إبراهيم وأفعاله إلا قوله لأبيه : لأستغفرن لك .

واستثناء قول إبراهيم هذا من الأسوة الحسنة ، لأنها واجب اتباعها وتقليد إبراهيم فيها حيث ذكر بعدها هذا الوعيد « ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد » .

واستغفار إبراهيم لأبيه حيث لم يعرف اصراره على الكفر وموته عليه بمعنى الدعاء له بالتوفيق جائز شرعاً بدليل قوله فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه والحكم فى الإسلام على هذا بالجواز حيث لم نعلم أن الكافر مصر على الكفر أو مات عليه فالاستغفار بهذا المعنى جائز لا واجب ولهذا استثنى من القدوة الواجب اتباعها وبعضهم أجاب عن هذا بقوله : إبراهيم عليه السلام استغفر حيث لم يعلم إصرار أبيه وقد كان وعده أما أنتم فتعرفون إصرار هؤلاء وفظاعة عنادهم وشدة كراهيتهم لكم فلا ينبغى أبداً أن تجاملوهم وتدعوا لهم بالخير بعد أن وصف الله لكم نياتهم ورأيتم أنتم أفعالهم وهذا تجريح حسن بلا شك .

لأستغفرن لك ربى والحال أنى لا أملك لك من الله شيئا فاعمل بما يرضيه فلن أغنى عنك من الله شيئا يا أبت !

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير .

ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا فتعذبنا على أيديهم أو بعذاب من عندك فيظنوا أنهم على حق ونحن على باطل فيفتنوا لذلك وللأسف ما يحصل اليوم هو هذا فيا رب لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا سيئاتنا ، وقنا عذاب الخزى فى الدنيا والآخرة ربنا انك أنت العزيز الحكيم .

لقد كان لكم فى إبراهيم ومن معه أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يقول عن ذلك

ولايقتدى بالصالحين فليعلم أن الله هو الغنى عنه وعن عمله المحمود فى السموات والأرض وهذا تهديد لمن لم يقتد بالقدوة الحسنة » .

التفسير

وهل الايمان إلا الحب فى الله والبغض فى الله إن الإيمان عقيدة لا تقبل المساومة ولا أنصاف الحلول لا مجال فيها للمراوغة أو المكر والخداع إنها صريحة واضحة والإيمان إذا باشرت بشاشته شغاف القلوب يكاد يجعل المستحيل ممكناً والملح الأجاج عذباً فراتاً سلسبيلا ومعيار ذلك الإيمان أن تحب فى الله وتبغض فى الله وتعطى فى الله وتمنع فى الله .

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبرى منهم « قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه » أى وأتباعه الذين آمنوا معه « إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم » أى : تبرأنا منكم « ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم » أى : بدينكم وطريقكم « وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً » يعنى وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم حتى تؤمنوا بالله وحده » .

أى : إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ أى : لكم فى إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا فى استغفار إبراهيم لأبيه فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وذلك أن بعض المؤمنين كانو يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله ـ عز وجل ـ ﴿ ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدةٍ وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ـ إلى قوله تعالى ـ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شىء ﴾ أى ليس لكم فى ذلك أسوة أى فى الاستغفار للمشركين هكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومقاتل بن حيان والضحاك غير واحد .

ثم قال تعالى مخبراً عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبرءوا منهم فلجأو إلى الله وتضرعوا إليه فقالوا : ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ .

أى : توكلنا عليك فى جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ، وإليك المصير أى : المعاد فى الدار الآخرة ﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ قال مجاهد : معناه لا تعذبنا بأيديهم ولا بعذاب من عندك فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا ، وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : لا تظهرهم علينا فيفتنوا بذلك يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحق هم عليه واختاره ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : لا تسلطهم علينا فيفتنونا وقوله تعالى ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أى : واستر ذنوبنا من غيرك واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ أى : الذى لا يضام من لاذ بجنابك ﴿ الحكيم ﴾ فى أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك

ثم قال تعالى ﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم هو مستثنى منه ما تقدم أيضاً ، لأن هذه الأسوة المثبتة هنا هى الأولى بعينها وقوله تعالى ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد وقوله تعالى ﴿ ومن يتول ﴾ أى : عما أمر الله به ﴿ فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعاً فإن الله لغنى حميد ﴾(١) . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الغنى الذى قد كمل فى غناه وهو الله هذه صفته لا تنبغى إلا له ليس له كفء وليس كمثله شىء سبحان الله الواحد القهار والحميد المستحمد إلى خلقه أى : هو المحمود فى جميع أقواله وأفعاله لا إله غيره ولا رب سواه .

(أسوة حسنة فى الولاء والبراء من الأمم الماضية)

(١) إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ :

لقد كان نبى الله إبراهيم عليه السلام . أسوة حسنة وقدوة طيبة وفى ولأئه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين وبرائه ومعاداته لأعداء الله ومنهم أبوه .

لقد كانت سيرة نبى الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ مع قومه كأى نبى رسول حيث دعاهم بالتى هى أحسن إلى عبادة الله وتوحيده وإقراره بالعباده والكفر بكل طاغوت يعبد من دون الله .

قال تعالى ﴿ واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً . ياأبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً . ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً . قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك . واهجرنى ملياً . قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياً . وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوا ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقياً . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له اسحق ويعقوب وكلا جعلنا نبياً ﴾(٢) .

تلك هى نقطة البدء فى دعوة خليل الرحمن ، دعوة بالحسنى متبرئاً بأقرب الناس إليه فإن لم يكن هناك تجاوب مع هذه الدعوة فالاعتزال لهذا الباطل وأصحابه عَلَّ فى ذلك ردعاً وزجراً وتفكراً فى هذا الأمر الجديد ونجاة للداعى من مشاركة أهل الباطل فى باطلهم إذا لابد له من مخالطتهم ومعاشرتهم وعدم تمكنه من الهجرة من أرضهم .

ثم يمضى القرآن فى بيان إبراهيم ـ عليه السلام ـ مبيناً أنه استخدم مع قومه كل حجة ودليل : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرءيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾(٣)

---

(١) الاية ٨ من سورة إبراهيم

(٢) الآيات ٤١ إلى ٤٩ من سورة مريم

(٣) الآيات ٦٩ إلى ٧٧ من سورة الشعراء

ولما لم يجدوا حجة وإنما هو التقليد الأعمى لفعل الآباء والأجداد قال لهم إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنا عدو آلهتكم هذه وهذا كما قال لوح عليه السلام فيما أخبر الله عنه بقوله : ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلى ولا تنظرون ﴾(١)

وقال هود عليه السلام :ـ ﴿ إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لاتنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ﴾(٢) وقال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾(٣)

وعقيدة إبراهيم ـ عليه السلام ـ هذه هى التى عبر عنها علماؤنا الأجلاء علماء سلف هذه الأمة بقولهم : لا مولاه إلا بالمعاداة كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله : لا تصح لموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين إنه قال لقومه : ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لى إلا رب العالمين ﴾(٤) فلم تصح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلا بتحقيق هذه المعاداة .

فإنه لا ولاء إلا لله ، ولا ولاء إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى : , ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون (٥)

أى جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية فى عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهى كلمة لا إله إلا الله وهى التى ورثها إمام الحنفاء ولأتباعه إلى يوم القيامة .

ويقول الامام الطبرى : قد كانت لكم يا أمة محمد أسوة حسنة فى فعل إبراهيم والذين معه فى هذه الأمور من مباينة الكفار ومعاداتهم وترك موالاتهم إلا فى قول إبراهيم ﴿ لأستغفرن لك ﴾

فإنه لا أسوة لكم فيه فى ذلك ، لأن ذلك كان من إبراهيم عن موعدة وعدها إياه قبل يتبين له أنه عدو الله فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه فتبرأوا من أعداء الله ، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده ويتبرءوا من عبادة ما سواه ، وأظهروا لهم العداوة والبغضاء .

وقد كان من نتيجة هذه المعاداة وهذا البراء القوى أن أجمع الطغاة على قتل إبراهيم ـ كما هو حال كل طاغية على مر عصور التاريخ فى إبادة الدعاة إلى الله ، لا لشىء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده . ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ٨ البروج ـ وجمعوا له ناراً عظيمة فكانت رعاية الله وحفظه تحوطان خليله الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ فصارت النار برداً وسلاماً عليه ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه فى الجحيم فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ ٩٧ ـ ٩٨ الصافات

---

(١) من الآية ٧١ من سورة يونس
(٢) من الآية ٥٤ إلى ٥٦ من سورة هـود
(٣) من الآية ٤ من سورة الممتحنة
(٤) من الآية ٧٥ إلى ٧٧ من سورة الشعراء
(٥) من الآية ٢٦ إلى ٢٨ من سورة الزخرف

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ، ولم تبق لهم حجة ولا شبهة إلى إستعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم فكادهم الرب ـ جل جلاله ـ وأعلى كلمته ودينه وبرهانه كما قال تعالى : ﴿ **قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين . قلنا يانار كونى برداً وسلاماً على إبراهيم . وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين** ﴾ ٦٨ ـ ٧٠ الأنبياءوتأتى التوجيهات الربانية لخاتم الأنبياء محمد ـ ﷺ ـ باتباع ملة إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ **ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ ١٢٣ النحل ﴿ **قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ ٩٥ آل عمران ﴿ **وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين** ﴾ ١٣٥ البقرة ﴿ **إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين** ﴾ ٦٨ آل عمران

﴿ **ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً** ﴾ ١٢٥ النساء

﴿ **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل** ﴾ ٧٨ الحج

﴿ **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه** ﴾ ١٣٠ البقرة

فهذه الأخبار من الله لأمة محمد ـ ﷺ ـ عن فعل إبراهيم عليه السلام من أجل الإقتداء به فى الإخلاص ، والتوكل على الله وحده ، وعبادة الله وحده والبراءة من الشرك وأهله ومعاداة الباطل وحزبه

(ب) أمثلة أخرى على طريق الحق والهدى :

إن دعوة الأنبياء واحدة . دعوة لعبادة الله وحده وإفراده بالعبودية والتأله والحب والرضى بحكمه وشرعه ، والبراءة من كل طاغوت معبود من دون الله سواء بالرغبة أو الرهبة .

﴿ **ولقد بعثنا فى كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾ ٣٦ النحل فإننا نجد أمثلة مشرقة ونماذج إيمانية رفيعة على طريق العقيدة الغراء إنهم المؤمنون ، أينما وحيثما كانوا وحلوا وفى أى عصر ومصر عاشوا يوردها ربنا ـ تبارك وتعالى ـ فى محكم تنزيله ، حتى تكون لنا أسوة حسنة . وتسلية لرسوله الكريم ـ ﷺ ـ عما كان يلاقيه هو وصحابته الأخيار .

وما أحوج الداعية المسلم ـ وهو الحريص على حب الخير لكل الناس ـ أن يتدبر هذه الأمثلة والنماذج الإيمانية فسيجد فيها العزاء والتسلية فيما يلاقيه من مشقة وعنت . وإذا كانت هذه سنة الله فى أنبيائه وعباده الصالحين أن يتعرضوا للأذى والعنت ـ وهم أكرم خلق الله على الله ـ فمن باب أولى أن يلاقى دعاة الهدى والخير صنوفاً شتى من الأذى والسخرية والاستهزاء والعذاب وسيجدون معية الله تصحبهم وترعاهم وحفظه وقدره يحوطهم وكل ما يلقونه إنما هو ابتلاء واختبار كما قال تعالى : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب** ﴾ ١٧٩ آل عمران وحين يثبت المؤمنين على الحق ، ويتوكلون على الله حق توكله ، ويخافونه وحده ، ولا يخافون إلا الله ، فسيكون هذا دافعاً عظيماً لدخول الناس فى

دين الله ، والاهتداء بهديه ، والاقتداء بهؤلاء الصادقين الذين ضحوا بكل غال ونفيس ، وزهدوا فيما عند الناس راغبين ومؤملين فيما عند الله .

ومن هذه الأمثلة التى نريد الحديث عنها باختصار ، نوح ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقد دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً فلم يؤمن معه إلا القليل ، والموقف الذى نريد أن نتحدث عنه من مواقفه ـ عليه السلام ـ هو موقفه مع ابنه الذى عصاه وأبى أن يستجيب لدعوة أبيه . قال تعالى : ﴿ **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودى وقيل بعداً للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين** ﴾[1]

إن الوشيجة التى يجتمع عليها الناس فى هذا الدين ليست وشيجة الدم والنسب ، وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، ولا الجنس والعنصر ، ولا الحرفة والطريقة إنها وشيجة العقيدة « أما الوشائج الأخرى فقد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد ويبين الله لنوح لماذا لا يكون ابنه من أهله ؟ « **إنه عمل غير صالح** ، فوشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما ﴿ **فلا تسألن ما ليس لك به علم** ﴾ إنه ليس من أهلك ولو كان هو ابنك من صلبك .

وهنا يأتى الإذعان الكامل والخوف من الله سبحانه وطلب مرضاته ورحمته . فيقول العبد الصالح نوح : ﴿ **رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين** ﴾[2]

لقد استعلى نبى الله على العاطفة ورضى بحكم الله ، فلا لحاجة ولا التواء ، ولا معذرة ولا تأويل ، بل تسليم مطلق ، واتباع لما يحب الله ويرضى ، وإعراض عما يكره ويبغض وولاء لمن يحب الله وبراء وعداء لمن حاد الله ولو كان أقرب قريب .

ولم يكن شأن نبى الله نوح ـ عليه السلام ـ هذا مقصوراً على هذا الابن الكافر ، بل أيضاً مع زوجته ، ويا له من امتحان عظيم فى الزوجة والابن هذه الزوجة تحدث عنها القرآن وعن نظيرة لها وشبيهة لفعلها وهى زوجة لوط ـ عليه السلام ـ فقد ابتلى هذان النبيان بزوجتين فاسدتين ضربهما الله لنا مثلاً فى كتابه العزيز فقال :

﴿ **ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين** ﴾ **١٠ التحريم**

على أن ما يجب التنويه عنه هنا ، أن هذه الخيانة فى الدين وليست فى الفاحشة ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع فى الفاحشة لحرمة الأنبياء ـ عليهم السلام ـ

---

(١) من الآية ٤٢ إلى ٤٧ من سورة هود

(٢) من الآية ٤٧ من سورة هود

أما امرأة نوح فكانت تفشى سره ، إذا آمن معه أحد أخبرت الجبابرة من قومها ، وامرأة لوط تخبر قومها بضيوف زوجها من أجل فعل السوء القبيح » .

وعلى النقيض من هذا الفعل المشين من هاتين المرأتين يضرب لنا القرآن مثلاً عالياً فى الإيمان والاستعلاء على الكفار من قبل إمرأة مؤمنة هى زوجة فرعون اللعين . قال تعالى : ﴿ **وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين** ﴾ ١١ التحريم إن هذه المرأة لم يصدها طوفان الكفر الذى تعيش فيه ، فى قصر فرعون عن طلب النجاة وحدها ، وقد تبرأت من قصر فرعون طالبة إلى ربها بيتاً فى الجنة وتبرأت من صلتها بفرعون فسألت ربها النجاة منه ، وتبرأت من عمله مخافة أن يلحقها من عمله شىء وهى ألصق الناس به . ﴿ **ونجنى من فرعون وعمله** ﴾[1] وتبرأت من قوم فرعون وهى تعيش بينهم ﴿ **ونجنى من القوم الظالمين** ﴾[2] إنه مثل للاستعلاء على عرض الدنيا فى أزهى صوره ، فقد كانت امرأة فرعون ، أعظم ملوك الأرض يومئذ ، فى قصر فرعون أمتع مكان تجد فيه امرأة ما تشتهى ، لقد استعلت على هذا بالإيمان ولم تعرض عنه فحسب ، بل اعتبرته شراً ودنساً وبلاء تستعيذ بالله منه .

إنها امرأة واحدة فى مملكة عريضة قوية . وقفت وحدها فى وسط ضغط المجتمع وضغط القصر ، وضغط الملك ، وضغط الحاشية ، ورفعت رأسها للسماء ، إنه التجرد الكامل من كل هذه المؤثرات والأواصر إن وقوف المرأة أمام ذلك الجبار من الأهمية بمكان ، علّ فى ذلك ما يدفع تثبيط الشيطان وحزبه لبعض دعاة الإسلام وهم يخافون أن يمسهم الناس بشىء لم يكتبه الله عليهم .

ألا فلنأخذ من قرآننا عبرة وعظة ، وشحنة عمل ، ومنهاج دينا وآخرة حتى نقوم بما كلفنا الله به وشرفنا بالإنتساب إليه وهى الدعوة إلى الله . يقول قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض وأبعده ، فوالله ما ضر إمرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها لتعلموا أن الله حكم عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه .

وهناك أيضاً نموذج آخر ، وعلم من أعلام دعاة صراط الله المستقيم . إنه مثل رفيع فى الولاء لله ودينه وعباده الصالحين فى النصرة والجهاد بقدر الطاقة لإعلاء كلمة الله ، والبراءة من الكفار بعد إقامة الحجة والبرهان عليهم ، إنه مؤمن آل فرعون .

لننظر فى موقفه وفى ولائه حين عزم الطاغية فرعون على قتل رسول الله موسى ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ لقد قال مؤمن آل فرعون كما حكاه القرآن عنه : ﴿ **وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب** ﴾ ٢٨ غافر

واسم هذا الرجل حبيب النجار والمشهور أنه كان قبطياً من آل فرعون . وكان يكتم إيمانه عن قومه القبط ، ولم يظهره إلا هذا اليوم حين قال فرعون : ﴿ **ذرونى أقتل موسى** ﴾ ٢٦ غافر فأخذت الرجل غضبة لله ـ عز وجل ـ و« أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر »[3] ولا أعظم من هذه الكلمة وهى

(١ ، ٢) من الآية ١١ من سورة التحريم

(٣) الحديث فى جمع الجوامع ـ الجامع الكبير ـ للسيوطى جـ ١ ص ١٢٨ برواية أبى داود وابن ماجه ، عن أبى سعيد ، وأحمد وابن ماجه والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الايمان ، عن أبى أمامة
وفى سنن أبى داود ـ كتاب الملاحم ـ جـ ٤ ص ٥١٤

قوله ﴿ أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ﴾ فانظر إلى ولاء هذا الرجل المؤمن لنبى الله موسى ونصرته له ، وتدبر برائه من الطاغية حتى وهو يصب عليه العذاب .

وأخيراً نقف مع الفتية الصلحاء ﴿ أصحاب الكهف ﴾ الذين تركو الأهل والولد والوطن والعشيرة حين علموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة ومجابهة قوم فنجوا بأنفسهم إلى ذلك الكهف الذى تجلت فيه معجزة عظيمة يسوقها الله لنا عبرة وعظة فى حفظه لعباده الصالحين : قال تعالى : ﴿ إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذاً شططاً . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً . وإذ إعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهىء لكم من أمركم مرفقاً ﴾ . ـ ١٦ الكهف لقد كان موقف هؤلاء الفتية صريحاً وواضحاً وحاسماً . وحين تتباين الطريقان ويختلف المنهجان لا يعود هناك سبيل إلى الالتقاء ولا للمشاركة فى الحياة . بل لابد من الفرار بالعقيدة

إنهم ليسوا رسلاً إلى قومهم فيواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها ، ويتلقوا ما يتلقاه الرسل ، إنما هم فتية تبين لهم الهدى فى وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها . وهم أيضاً لا يطيقون صد أراء قومهم ، وعبادة آلهتهم على سبيل التقية وإخفاء عبادتهم لله .

على أن الأرجح أن أمرهم قد كشف فلابد من الفرار بدينهم إلى الله ، وقد فروا إلى الكهف خشن ضيق ، مؤثرين له على كل زينة من زينة الحياة الدنيا .

إنهم يستروحون رحمة الله ويحسونها ظليلة فسيحة ممتدة ﴿ ينشر ﴾ تلقى ظلال السعة والبحبوحه والانفساح فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب ، تنتشر فيه الرحمة وتتسع خيوطها .

إنه الإيمان ، وما قيمة الظواهر ، وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التى تعارف عليها الناس فى حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك علماً آخر فى جنبات القلب المغمور بالإيمان ، المأنوس بالرحمن . عالماً تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان .

وهكذا تتعدد الأمثال فى جميع الوشائج والروابط ، وشيجة الأبوة فى قصة نوح ، ووشيجة النبوة والوطن فى قصة إبراهيم ، ووشيجة الأهل والعشيرة والوطن جميعاً فى قصة أصحاب الكهف ، ورابطة الزوجية فى قصص إمرأتى نوح ولوط وامرأة فرعون .

هكذا يمضى الموكب الكريم حتى تجىء الأمة الوسط ، فتجد هذا الرصيد من الأمثال والنماذج والتجارب ، فتمضى على النهج الربانى للأمة المؤمنة وتفترق العشيرة الواحدة والبيت الواحد حيث تفترق العقيدة ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ ٢٢ المجادلة

لقد جمعت هذه العشيرة صهيباً الرومى وبلالاً الحبشى ، وسلمان الفارسى وأبا بكر العربى القرشى تحت راية لا إله الا الله محمد رسول الله « وتوارت عصبية القبيلة والجنس والأرض وقال لهم ﷺ -

﴿ دعوها فإنها فتنة ﴾[1] وقال : ﴿ ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية ﴾[2] فانتهى أمر هذه الفتن ، وماتت نعرة الجنس . واختفت لوثة القوم ، واستروح البشر أرج الآفاق العليا ، ومنذ ذلك اليوم لم يعد وطن المسلم هو الأرض ، وإنما وطنه هو : ﴿ دار الاسلام ﴾ تلك الدار التى تسيطر عليها عقيدته ، وتحكم فيها شريعة الله وحدها .

وتبقى سيرة المصطفى -ﷺ- وسيرة صحابته الأخيار منار هدى وإصلاح لمن سلك ذلك السبيل ، ورضى بذلك النهج القويم .

أما من حاد عن ذلك وابتعد فالله ليس بوليه ، وإنما وليه الطاغوت ﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ ٢٥٧ البقرة

توجيهات إلهية

﴿ * عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٩ ﴾

معانى المفردات

عسى : كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت من الله فما بعدها واجب الوقوع ، أن تبروهم : أى : تفعلوا البر والخير لهم ، وتقسطوا إليهم : أى : تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ، المقسطين : أى : العادلين ، وظاهروا : أى : ساعدوا ، أن تولوهم : أى : أن تكونوا أولياء وأنصاراً لهم

المناسبة وإجمال المعنى

لما نهاهم عن موالاة الكفار وإلقاء المودة إليهم ، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه . حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقربائهم ، والتشدد فى معاداتهم ومقاطعتهم ، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ، ويتمنون أن يجدوا المخلص منه ـ أردف ذلك سبحانه أن سيغير من طباع المشركين ، ويغرس فى قلوبهم محبة الإسلام ، فيتم التواد والتصافى بينكم وبينهم .

وفى ذلك إزالة للوحشة من قلوب المؤمنين ، وتطييب لقلوبهم ، وقد أنجز الله وعده ، فأتاح للمسلمين فتح مكة ، فأسلم قومهم ، وتم لهم ما كانوا يريدون من التحاب والتواد ، ثم رخص لهم فى صلة الذين لم يقاتلوهم من الكفار ولم يخرجوهم من ديارهم ، ولم يظاهروا على إخراجهم

روى أحمد فى جماعة آخرين عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قُتَيلة بنت عبد العزى على إبنتها

(١ ، ٢) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب نصر الأخ ظالما أومظلوما جـ٤ ص ١٩٩٩ رقم ٦٣ ، ٦٤

أسماء بنت أبي بكر بهدايا - صناب (صباغ يتخذ من الخردل والزبيب) وأقط وسمن وهى مشركة ، فأبت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها حتى أرسلت إلى عائشة رضى الله عنها - أن تسأل رسول الله - ﷺ - عن هذا فسألت فأنزل الله : ﴿ لا ينهاكم الله ﴾ الآية . فأمر ها أن تقبل هديتها وتُدخلها بيتها ، وقال الحسن وأبو صالح : نزلت الآية فى خزاعة وبنى الحرث بن كعب وكنانة ومزينة وقبائل من العرب ، كانوا صالحوا رسول الله - ﷺ - على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه .(١)

أضواء كاشفة

وأما أنتم أيها المسلمون فلا يشق ذلك عليكم عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتموهم فى الدين من أقاربكم وأهليكم المشركين ، عسى الله أن يجعل بينكم وبينهم مودة وصلة وأخوة فى الإسلام ، والله على كل شىء قدير ، وهو الغفور لما فرط من الذنوب الرحيم بخلقه إذا تابوا وأنابوا .

وفى هذه الآية حدد علاقتنا بالكفار لقد نهانا عن مودتهم واصطفائهم بأخبار الحروب والأخبار التى تضر الأمة الإسلامية ، ولكن هل نحن منهيون عن البر بهم مادياً والقسط إليهم والعدل معهم ؟ ولقد أجاب الله عن ذلك جواباً شافياً فقال ما معناه : لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى أمر الدين وشأنه ، ولم يخرجوكم من دياركم ، لا ينهاكم الله عن الذين لم يفعلوا هذا أن تبروهم بالخير ، وتقسطوا إليهم بالعدل ، وتعاملوهم بالحسنى ماداموا لم يسيئوا إليكم فى الدين أو الدنيا إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن موالاة ومحبة من قاتلوكم فى الدين ، وجاهدوكم عليه بكل نفس ونفيس كما فعلت قريش مثلاً حيث قاتلوكم لأجل الدين ، وأخرجوكم من دياركم وأموالكم ، وظاهروا الغير وتعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عن موالاتهم ومحبتهم ومن يتولهم ويتخذهم أنصاراً وأحباباً فأولئك هم الظالمون .

التفسير

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿ **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ أى : محبة بعد البغضة ومودة بعد النفرة وألفة بعد الفرقة ﴿ **والله قدير** ﴾ أى : على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة والمتباينة والمختلفة فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة فتصبح مجتمعة متفقة كما قال تعالى ممتناً على الأنصار:﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها** ﴾ الآية (٢) . وكذا قال لهم النبى - ﷺ - « ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى ؟ » (٣) وقال الله تعالى : ﴿ **هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم** ﴾ (٤) ، وفى الحديث : « أحبب حبيبك هوناً ما فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوناً ما فعسى أن يكون حبيبك يوماً ما » (٥) . وقال الشاعر :

---

(١) الحديث فى تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - جـ ٨ ص ١١٦ وقال رواه أحمد جـ ٤ ص ٤

(٢) الآية ١٠٣ من سورة آل عمران

(٣) الحديث فى صحيح البخارى - باب غزوة الطائف جـ ٥ ص ٢٠٠ ط الشعب

(٤) الآية ٦٢ من سورة الأنفال

(٥) الحديث فى جمع الجوامع - الجامع الكبير - للسيوطى - جـ ١ ص ٢٣ برواية الترمذى وقال : غريب ، وابن جرير والبيهقى فى شعب الايمان ، عن أبى هريرة ، والطبرانى فى الكبير ، عن ابن عمر
وفى سنن الترمذى رقم ١٩٩٧ ط الحلبى من رواية أبى هريرة

وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وقوله تعالى : ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أى : يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه وأنابوا إلى ربهم وأسلموا له وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أى ذنب كان .

وقد قال مقاتل بن حيان إن هذه الآية نزلت فى أبى سفيان بن صخر بن حرب فإن رسول الله - ﷺ - تزوج ابنته فكانت هذه مودة ما بينه وبينه ، وفى هذا الذى قاله مقاتل نظر فإن رسول الله - ﷺ - تزوج بأم حبيبة بنت أبى سفيان قبل الفتح وأبو سفيان إنما أسلم ليلة الفتح بلا خلاف ، وأحسن من هذا ما رواه ابن أبى حاتم حيث قال : قرىء على محمد بن عزيز حدثنى سلامة حدثنى عقيل حدثنى ابن شهاب أن رسول الله - ﷺ - استعمل أبا سفيان بن صخر بن حرب على بعض اليمن فلما قبض رسول الله - ﷺ - أقبل فلقى ذا الخمار مرتداً فقاتله فكان أول من قاتل فى الردة وجاهد عن الدين قال ابن شهاب : وهو ممن أنزل الله فيه : ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ الآية .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن أبا سفيان قال : يارسول الله : ثلاث أعطينهن ، قال : « نعم » قال : تأمرنى أقاتل الكفار كما كنت أقاتل المسلمين ، قال « نعم » قال : ومعاوية تجعله كاتباً بين يديك ، قال « نعم » قال وعندى أحسن العرب وأجمله أم حبيبة بنت أبى سفيان أزوجكها - الحديث -[1]

وقوله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ ولم يظاهروا أى : يعاونوا على إخراجكم أى : لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم فى الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أن تبروهم ﴾ أى : تحسنوا إليهم ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أى : تعدلوا ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ قال الامام أحمد بسنده عن أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - قالت : قدمت أمى وهى مشركة فى عهد قريش إذ عاهدوا فأتيت النبى - ﷺ - فقلت : يارسول الله إن أمى قدمت وهى راغبة أفأصلها ؟ قال : « نعم صلى أمك » أخرجاه[2]

وقال الإمام أحمد بسنده عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبى بكر بهدايا ضباب وقرظ وسمن وهى مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها . فسألت عائشة النبى - ﷺ - فأنزل الله تعالى : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ﴾ إلى آخر الآية فأمرها أن تقبل هديتها وأن تدخلها بيتها . وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث مصعب بن ثابت به وفى رواية لأحمد وابن جرير قتيلة بنت عبد العزى بن سعد من بنى مالك ابن حسل وزاد ابن أبى حاتم فى المدة التى كانت بين قريش ورسول الله - ﷺ - وقال أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار بسنده عن عروة عن عائشة وأسماء أنهما قالتا : قدمت علينا أمنا المدينة وهى مشركة فى الهدنة التى كانت بين رسول الله - ﷺ - وبين قريش فقلنا يارسول الله إن أُمنا قدمت علينا المدينة وهى راغبة أفنصلها ؟ قال :

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم - كتاب فضائل الصحابة - ٤ ص ١٩٤٥ رقم ٢٥٠١/١٦٨

(٢) الحديث فى مسند أحمد جـ٦ ص ٣٤٤ ، ٣٤٧

« نعم فصلاها »(١) وقوله تعالى : ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ قال ﷺ : « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهاليهم وماولوا »(٢) وقوله تعالى : ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ﴾ أى : إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم وأخرجوكم وعاونوا على إخراجكم ينهاكم الله - عز وجل - عن موالاتهم ويأمركم بمعاداتهم .

ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال : ﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ كقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾

الممتحنة وبيعة النســاء

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾
وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ

(١) الحديث فى تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - جـ٨ ص١١٦ ، ١١٧
وقال المحقق : وقع لنا الحديث فى المسند من غير هذا الطريق انظر مسند أحمد - جـ٦ ص ٣٤٤ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ ، وانظر البخارى - كتاب الهبة - باب الهدية للمشركين جـ٣ ص ٢١٥

(٢) الحديث فى تفسير ابن كثير - تفسير سورة الممتحنة - جـ٨ ص ١١٧ وقال انظر ابن كثير جـ٧ ص ٣٥٥
وقال ابن كثير فى جـ٧ ص ٣٥٥ الحديث فى صحيح مسلم - كتاب الامارة - باب فضيلة الامام العادل جـ٦ ص ٧ والنسائى - كتاب آداب القضاة - باب فضل الحاكم العادل فى حكمه - جـ٨ ص ٣٢١ ، ٣٢٢

فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ
الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

لما كان هذا النص الكريم له تعلق وثيق ببعض الأحكام الشرعية ، فقد آثرنا أن نسجله على تلك الصفحات من كتاب « روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام » للشيخ الصابونى . قال فى تفسير هذه الآيات :

التحليل اللفظى :

مهاجرات : أى : من دار الكفر ، والهجرة فى اللغة الخروج من أرض إلى أرض ، وفى الشرع : الانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان وفى الحديث : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية »(1) المراد بعد فتح مكة ، حيث أصبحت دار إسلام كالمدينة وانقطعت الهجرة .

قال الأزهرى : وأصل الهجرة عند العرب خروج البدوى من باديته إلى المدن ، وسمى المهاجرون مهاجرين ، لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم ابتغاء مرضاة الله . ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال .

فامتحنوهن : الامتحان فى اللغة الاختبار . والمراد اختبارهن على الإيمان . بما يغلب على الظن ، أما حقيقة الإيمان فلا يمكن أن تعلم ؛ لأنه لا يطلع على القلوب إلا علام الغيوب ، فلنا الظاهر والله ـ سبحانه ـ يتولى السرائر ، ويدل عليه قوله (الله أعلم بإيمانهن) .

وآتوهم ما أنفقوا : يعنى أعطوا أزواجهن الكفار مثل ما دفعوا إليهن من المهور .
قال مقاتل : هذا إذا تزوجها مسلم ، فإن لم يتزوجها أحد ، فليس لزوجها الكافر شىء .

وقال قتادة : الحكم فى رد الصداق إنما هو فى نساء أهل العهد ، فأما من لا عهد بينه وبين المسلمين فلا يرد إليه الصداق . قال القرطبى : والأمر كما قاله .

أجورهن : يعنى مهورهن ، وسمى المهر أجراً ؛ لأنه فى الظاهر أجر البضع وأما فى الحقيقة فهو بذل وعطية لإظهار خطر المحل وشرفه .

بعصم الكوافر : جمع عِصمة ، وهى ما يعتصم به من عهد وسبب ، وأصل العصمة : الحبل ، وكل ما أمسك شيئاً فقد عصمه ، والمراد بالعصمة هنا النكاح . والكوافر : جمع كافرة .

---

(1) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب الامارة ـ باب لا هجرة بعد الفتح ـ جـ٣ ص١٤٨٨ رقم ٨٦/١٨٦٤

والمعنى : لا تعتدوا بنكاح زوجاتكم الكافرات فقد انقطعت العلاقة بينكم وبينهن .

قال ابن عباس : « من كانت له امرأة كافرة بمكة فلا يعتدن بها ، فليست له امرأة ، فقد انقطعت عصمتها لاختلاف الدارين .

قال الزجاج : إنها إن كفرت فقد زالت العصمة بينها وبين المؤمن ، أى : قد أنبتّ عقد النكاح .

واسألوا ما أنفقتم : أى : إن لحقت إمرأة منكم بأهل العهد من الكفار مرتدة فاسألوهم ما أنفقتم من المهر على نسائكم اللاحقات بهم .

وليسألوا ما أنفقوا : يعنى المشركين الذين لحقت أزواجهم بكم مؤمنات إذا تزوجن منكم ، فليسأل أزواجهن المهر .

والمعنى : عليكم أن تغرموا لهم الصداق كما يغرمون لكم .

فاتكم : سبقكم وانفلت من أيديكم .

فعاقبتم : قال الزجاج : أى : أصبتموهم فى القتال بعقوبة حتى غنمتم منهم .

ببهتان : البهتان : الكذب والباطل ، والافتراء الذى يتحيز من بطلانه ، ومنه حديث (فقد بهتّه)[1] أى : افتريت عليه ما لم يقله .

والمراد به فى الآية : اللقيط .

قال ابن عباس : لا يُلحقن بأزواجهن غير أولادهم .

وقال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول : هذا ولدى منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهم وأرجلهن . وهو قول الجمهور .

معروف : المعروف : ما يستحسنه الشرع ، وترتضيه العقول السليمة وهو ضد المنكر .

لا تتولوا قوماً أى : لا تتخذوهم أصدقاء ، وأولياء . تودوهم من دون المؤمنين ، والمراد بالقوم : اليهود ، أوجميع الكفرة .

يئسوا من الآخرة ، أى : يئسوا من ثواب الآخرة ، واليأس : انقطاع الأمل من الشىء ، وهوضد الرجاء .

المعنى الإجمـــالى

يقول الله تعالى ما معناه :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات المهاجرات من دار الكفر إلى دار الايمان ، فراراً بدينهن ، وحباً فى الله ورسوله ، فاختبروهن على هذا الإيمان ، لتعلموا هل هن راغبات فى الاسلام حقاً ، أم

(١) الحديث فى صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة ـ باب تحريم الغيبة جـ ٤ ص ٢٠٠١

أنهن هاربات من أزواجهن طمعاً فى دنيا ، أو حباً لرجل ، فإذا علمتم - أيها المؤمنون - بالدلائل والأمارات أنهن مؤمنات ، فلا يحل لكم ردهن إلى الكفار ﴾ لأنه الله تعالى لا يبيح مؤمنة لمشرك ، وعليكم أن تدفعوا لأزواجهن الكفرة ما أنفقوا عليهم من مهر ، ولا حرج عليكم أن تتزوجوا بهن بصداق جديد ، بعد أن تؤدوا لهن حقوقهن كاملة .

ومن كانت له امرأة كافرة لم تهاجر مع زوجها ، فلا يعتد بهذه الزوجة ، فقد زالت عصمة النكاح بينهما بسبب الكفر ، وانبتّ عقد النكاح ؛ لأن الإسلام لا يبيح الزواج بالمشركة ، ومن ارتدت بعد إسلامها ولحقت بدار الكفر ، فعاملوها معاملة المشركة ، فقد زال النكاح وانفصمت الروابط الزوجية بالردة ، وأصبحت غير صالحة لأن تبقى فى عصمة المؤمن ، ولكم أن تطالبوهم بما دفعتم من مهور نسائكم اللاحقات بالكفار ، كما يطالبونكم بمهور أزواجهم المهاجرات إليكم .

ذلكم هو حكم الله الذى شرعه لكم ، فلا تحيدوا عنه ولا تعتدوا بغيره ، لأن الله عليم حكيم ، لا يشرع إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وإن انفلت منكم - أيها المؤمنون - بعض النساء ، ولم يدفع لكم المشركون ما تستحقونه من مهورهن ، وأصبتموهم فى القتال ، وغنمتم منهم ، فأعطوا الأزواج من رأس الغنيمة ما أنفقوا من المهر قصاصاً ، واتقوا الله الذى صدقتم به ، وآمنتم بتشريعه الحكيم العادل .

وأما أنت - يا محمد - فإذا جاءك المؤمنات للبيعة ، فبايعهن على السمع والطاعة ، وأشرط عليهم ألا يشركن بالله شيئاً ، ولا يسرقن ، ولا يزنين ، ولا يئدن أولادهم ، كما كان يفعل أهل الجاهلية ، ولا يلحقن بأزواجهن لقيطاً من غير أولادهم ، ولا يعصينك فى طاعة أو معروف ، فإذا وافقن على هذه الشروط فبايعهم على ذلك ، وعلى سائر أحكام الإسلام ، واطلب لهن من الله الرحمة والمغفرة ، إذا وفين بالبيعة فإن الله غفور رحيم ، مبالغ فى المغفرة والرحمة لمن استقام وتاب وأناب .

سبب النزول

أولاً : روى عن ابن عباس أنه قال : إن مشركى مكة صالحوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام الحديبية ، على أن من أتاه من أهل مكة رده إليهم ، ومن أتى أهل مكة من أصحابه فهو لهم ، وكتبوا بذلك الكتاب وختموه ، فجاءت (سُبَيْعة بنت الحارث الأسلمية) بعد الفراغ من الكتاب ، والنبى - صلى الله عليه وسلم - بالحديبية ، فأقبل زوجها - وكان كافراً - فقال يا محمد : أردد علىّ امرأتى فإنك قد شرطت لنا أن ترد علينا من أتاك منا ، وهذه طينة الكتاب لم تجف بعد ، فنزلت هذه الآية الكريمة .

أقول : ذكر فى هذه الرواية أنها (سبيعة) والمشهور عند المفسرين أنها (أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط) كما نبه عليه القرطبى وابن الجوزى وغيرهما .

ثانياً : وروى أن ناساً من فقراء المسلمين ، كانوا يخبرون اليهود بأخبار المؤمنين ، ويواصلونهم فيصيبون بذلك من ثمارهم وطعامهم فنزلت الآية ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم** ﴾ الآية .

وجوه القراءات

أولاً : قوله تعالى : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ قرأ الجمهور (مهاجراتٍ) بالنصب على الحال ، وقرىء (مهاجراتٌ) بالرفع على البدل من المؤمنات ، فكأنه قيل : إذا جاءكم مهاجرات .

ثانياً : قوله تعالى : ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر) قرأ الجمهور : ﴿ تُمْسِكُوا ﴾ بضم التاء والتخفيف من الإمساك ، وقرأ أبو عمرو ويعقوب ﴿ تُمَسِّكوا ﴾ بضم التاء والتشديد من التمسيك ، وقرأ عكرمة والحسن ﴿ تَمَسَّكوا ﴾ بفتح التاء والميم والسين المشددة .

ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم ﴾ قرأ الجمهور ﴿ فعاقِبتم ﴾ وقرأ ابن مسعود والنخعى : ﴿ فعقبتم ﴾ بغير ألف وبالتخفيف . وقرأ ابن عباس والأعمش ﴿ فعقَّبتم ﴾ بتشديد القاف قال الزجّاج : والمعنى فى التشديد والتخفيف واحد ، أى : كانت العقبى لكم بأن غلبتم ، وقرأ مجاهد ﴿ فأعقبتم ﴾ .

وجوه الإعراب

١ ـ قوله تعالى : ﴿ إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ﴾ .

مهاجرات : حال منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة ؛ لأنه جمع مؤنث سالم .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ الله أعلمُ بإيمانهن ﴾ لفظ الجلالة مبتدأ .
وأفعل التفضيل ﴿ أعلم ﴾ خبره ، والجملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب .

٣ ـ قوله تعالى : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ أن : فى موضع نصب بتقدير حذف حرف الجر أى : منصوب بنزع الخافض ، والتقدير : ولا جناح عليكم فى أن تنكحوهن .

٤ ـ قوله تعالى : ﴿ ولا يأتين ببهتان ﴾ يفترينه : جملة فعلية وفى موضعها وجهان من الإعراب : النصب على الحال من المضمر فى ﴿ يأتين ﴾ والجر على الوصف لـ ﴿ بهتان ﴾ .

٥ ـ قوله تعالى : ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ .

من أصحاب القبور فى موضع نصب ، لأنه يتعلق بـ (يئس) وتقديره يئسوا من بعث أصحاب القبور ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى :

ما الفائدة فى امتحان المهاجرات مع أنهن مؤمنات ؟
الجواب : أن الامتحان إنما هو لمعرفة سبب الهجرة ، هل كان حباً فى الله ورسوله . أم كان من أجل الدنيا ؟

قال ابن زيد : وإنما أمرنا بامتحانهن ؛ لأن المرأة كانت إذا غضبت على زوجها بمكة قالت : لألحقن بمحمد .

وقد روى عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يستحلف المرأة فيقول : « بالله الذى لا إله إلا هو ، ما خرجت من بغض زوج ، بالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، بالله ما خرجت التماس دنيا ، بالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله »[1] . فإذا حلفت على ذلك أعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ولم يردها .

اللطيفة الثانية :

السر فى ذكر هذه الجملة الاعتراضية ﴿ **الله أعلم بإيمانهن** ﴾ هو بيان أنه يكفى لنا العلم الظاهر ، أما العلم الحقيقى الذى تطمئن به النفس وهو الإحاطة بحليّة الأمر ، ومعرفة حقيقة الإيمان فإن ذلك مما استأثر به علام الغيوب ، فنحن لنا الظاهر ، والله يتولى السرائر فسبحانه من إله عليم ، يعلم السر وأخفى .

اللطيفة الثالثة :

الحكمة فى عدم رد المهاجرات هى أن النساء أرق قلوباً ، وأسرع تقلباً ، وأشد فتنة من الرجال ، لأنه لا صبر لهن على تحمل البلاء والأذى فى سبيل الله ، فرحم الله ضعفهن ، ومنع من ردهن إلى الكفرة المشركين .

اللطيفة الرابعة :

أمر الله تعالى برد المهر على الزوج الكافر إذا أسلمت زوجته ، وذلك من الوفاء بالعهد الذى رعاه الإسلام .

قال القرطبى : وذلك لئلا يقع على الزوج خسران من الوجهين : (الزوجة والمال) ؛ لأنه لما منع من أهله بحرمة الإسلام ، أمر برد المال إليه وذلك من الوفاء بالعهد .

اللطيفة الخامسة :

قوله تعالى : ﴿ **لاهن حل لهم ولاهن يحلون لهن** ﴾ فيه إشارة إلى أنه لاصلة بين الايمان والكفر ، فإذا أسلمت الزوجة وزوجها كافر حرمت عليه لعدم التجانس بينهما ، فهى مؤمنه وهو كافر ، وقد قطعت العلاقة بينهما ، وهذا يدل على أن رابطة (العقيدة) أقوى من رابطة (النسب) فتدبره .

اللطيفة السادسة :

روى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما أخذ البيعة على النساء كانت (هند بنت عقبة) فى النساء المبايعات وهى زوجة (أبى سفيان) وكانت منتقبة خوفاً من أن يعرفها النبى ـ صلى الله عليه

---

(١) الحديث فى تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الممتحنة ـ جـ٨ ص١١٨ وقال : انظر تفسير الطبرى جـ٢٨ ص ٤٤

وسلم ـ لما صنعته بحمزة يوم أحد . فلما قرأ قوله تعالى : ﴿ ولا يسرقن ﴾ قالت هند : إن أبا سفيان زجل شحيح ، وإنى أصيب من ماله قوتنا ، فقال أبو سفيان : هو لك حلال ، فضحك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعرفها ، وقال ؛ أنت هند ؟ فقالت : عفا الله عما سلف ، أعف يا نبى الله عفا الله عنك[1] .

فلما قرأ : ﴿ ولا يزنين ﴾ قالت هند : أو تزنى الحرة ؟

فلما قرأ ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ قالت هند : ربيناهم صغاراً وقتلتموهم كباراً ، فضحك عمر ابن الخطاب حتى استلقى .. وكان حنظلة ولدها قتل يوم بدر .

فلما قرأ : ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، ولا تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

فلما قرأ : ﴿ ولا يعصينك فى معروف ﴾ قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى شىء .

اللطيفة السابعة :

قال الفراء : كانت المرأة فى الجاهلية تلتقط المولود فتقول لزوجها : هذا ولدى منك ، فذلك البهتان المفترى بين أيديهن وأرجلهن .

وقال الزمخشرى : « كنى بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها ، عن الولد الذى تلصقه بزوجها كذباً ؛ لأن (بطنها) الذى تحمله فيه بين اليدين ، و (فرجها) الذى تلده به بين الرجلين ، وقيل : كنى بذلك عن الولد الدعى (غير الشرعى) فنهين عن ذلك ؛ لأنه من شعار الجاهلية ، المنافى لشعار المسلمات » .

الأحكام الشرعية

• الحكم الأول :

هل كان عقد الصلح يشمل الرجال والنساء ؟

كان صلح الحديبية الذى تم بين الرسول ـ ﷺ ـ وبين مشركى قريش قد نص على أن من أتى محمداً من قريش رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من عند محمد لم يردوه عليه ، وقد جاءت (أم كلثوم بنت عقبة) بعد أن كتب عقد الصلح مهاجرة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وجاء أهلها يطلبونها فقالت : يا رسول الله : أنا امرأة ، وحال النساء إلى الضعف ما قد علمت ، فتردنى إلى الكفار يفتنونى عن دينى ، ولا صبر لى ؟ فقال ـ ﷺ ـ لأهلها : كان الشرط فى الرجال لا فى النساء ، فأنزل الله هذه الآية فامتحنها ـ ﷺ ـ ولم يردها إليهم[2] .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الممتحنة ـ جـ٨ ص ١٢٥ ، وقال : انظر تفسير الطبرى جـ٨ ص ٥١٢

(٢) انظر تفسير ابن كثير ـ تفسير سورة الممتحنة ـ جـ٨ ص ١٨ ، وقال المحقق : ساق ابن الأثير هذا الحديث من هذه الرواية فى ترجمة (عبد الله بن أبى أحمد بن جحش)

قال القرطبى : وقد اختلف العلماء هل دخل النساء فى عهد المهادنة لفظاً ، أو عموماً ؟

فقالت طائفة : قد كان شرط ردهن فى عقد المهادنة لفظاً صريحاً فنسخ الله ردهن من العقد ، ومنع منه ، وابقاه فى الرجال على ما كان . وقالت طائفة : لم يشترط ردهن فى العقد لفظاً ، وإنما أطلق العقد ردَّ من أسلم ، فكان ظاهر العموم اشتماله عليهن مع الرجال ، فبين الله تعالى خروجهن عن عمومه ، وفرق بينهن وبين الرجال لأمرين :

أحدهما : أنهن ذوات فروج يحرمن عليهم .
الثانى : أنهن أرق قلوباً ، وأسرع تعباً منهم ، فأما المقيمة على شركها فمردودة عليهم .

ثم قال : وأكثر العلماء على أن هذا ناسخ لما كان - عليه الصلاة والسلام - عاهد عليه قريشاً من أنه يرد إليهم من جاء منهم مسلماً ، فنسخ من ذلك النساء ، وهذا مذهب من يرى نسخ السنة بالقرآن .

أقول : ذكر الإمام الفخر نقلاً عن الضحاك أن العهد كان على غير الصيغة المتقدمة ، وأنه كان يشتمل على نص خاص بالنساء صورته كالتالى :

(لا تأتيك منا امرأة ليست على دينك إلا رددتها إلينا ، فإن دخلت فى دينك ولها زوج رددت على زوجها ما أنفق عليها ، وللنبى - ﷺ - من الشرط مثل ذلك) .

وعلى هذا الرأى تكون الآية موافقة للعهد ، مقررة له ، وهذا الذى تطمئن إليه النفس وترتاح ، وما عداه من الأقوال فيحتاج إلى تمحيص وتدقيق ، لأنها تنافى روح التشريع الإسلامى ، من جهة أن الوفاء بالعهد واجب على المسلمين ، ولا ينبغى لأحد الطرفين أن يستبد بتخصيص نصوصه أو إلغائها دون موافقة الطرف الثانى . فما ذهب إليه الضحاك هو الأولى .

يقول سيد قطب - رحمه الله - :

« ويظهر أن النص لم يكن قاطعاً فى موضوع النساء ، فنزلت هاتان الآيتان تمنعان رد المهاجرات المؤمنات إلى الكفار ، خشية أن يفتن فى دينهن وهن ضعاف ، ونزلت أحكام هذه الحالة الدولية معها ، تنظم التعامل فيها على أعدل قاعدة تتحرى العدل فى ذاته ، دون تأثر بسلوك الفريق الآخر ، وما فيها من شطط وجور على طريقة الإسلام ، فى كل معاملاته الداخلية والدولية » .

* **الحكم الثانى :**

ما هو حكم المشركة إذا خرجت إلينا مسلمة ؟

دلَّ قوله تعالى : ﴿ لا هنَّ حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ على أن المرأة إذا أسلمت وقعت الفرقة بينها وبين زوجها ، فلا تحل له ، ولا يحل لها . وقد اختلف الفقهاء هل تحصل الفرقة بالإسلام . أم باختلاف الدارين ؟ على مذهبين :

(أ) مذهب أبى حنيفة : أن الفرقة تقع باختلاف الدارين .

(ب) مذهب الجمهور (الشافعية والمالكية والحنابلة) أن الفرقة تقع بالإسلام وذلك عند انتهاء عدتها . فإن أسلم الزوج قبل انتهاء عدتها فهى امرأته .

دليل الحنفية :

(أ) قوله تعالى : ﴿ **فلا ترجعوهن إلى الكفار** ﴾ فلو كانت الزوجية باقية لكان الزوج أولى بها بأن تكون معه حيث أراد .

(ب) قوله تعالى : ﴿ **وآتوهم ما أنفقوا** ﴾ قالوا : ولو كانت الزوجية باقية لما استحق الزوج رد المهر ؛ لأنه لا يجوز أن يستحق البُضع وبدله .

(جـ) قوله تعالى : ﴿ **ولا جناح عليكم أن تنكحوهن** ﴾ ولو كان النكاح الأول باقياً لما جاز لأحد أن يتزوج بها .

(د) قوله تعالى : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ ؛ لأن معناه عندهم : لا تتمسكوا بعصمة الكافرة ، ولا تعتدوا بها ، ولا تمنعكم من التزوج بها .

(هـ) وقالوا أيضاً : لقد اتفق الفقهاء على جواز وطء (المسبيّة) بعد الاستبراء ، وإن كان لها زوج فى دار الحرب ، ولا سبب يبيح هذا إلا اختلاف الدار ، وقد قال - ﷺ - فى السبايا : (لا توطأ حامل حتى تضع ، ولا حائل « المرأة التى لا تحمل » حتى تستبرأ بحيضة)[1] .

أدلة الجمهـــور :

(أ) قالوا : إن سبب الفرقة هو الإسلام ؛ لأنها لم تعد صالحة لأن تكون فراشاً لكافر ، ولو كان اختلاف الدار هو سبب الفرقة ، لوجب أن تحصل الفرقة بمجىء المشركة إلينا ودخولها بعهد أمان ولو لم تسلم ، ولم يقل به أحد .

(ب) ما روى عن مجاهد أنه قال : (إذا أسلم الكافر وهى فى العدة فهى امرأته ، وإن لم يسلم فُرِّق بينهما) .

(جـ) ما روى عن ابن عباس أنه قال : (رد النبى - ﷺ - ابنته زينب على (أبى العاص بن الربيع) بالنكاح الأول ، وقد كانت زينب هاجرت إلى المدينة وبقى زوجها بمكة مشركاً ، ثم ردها عليه بعد إسلامه) .

قال القرطبى : « قوله تعالى : ﴿ **فلا ترجعوهن إلى الكفار ، لا هن حل لهم ، ولا هم يحلون لهن** ﴾ أى : لم يحل الله مؤمنة لكافر ، ولا نكاح مؤمن لمشركة .

وهذا أدل دليل على أن الذى أوجب فرقة المسلمة من زوجها ، إسلامها لا هجرتها ، فبين أن العلة فى عدم الحلّ الاسلام ، وليس باختلاف الدار .

والخلاصة : فإن الحنفية يقولون : إن أحد الزوجين إذا خرج من دار الحرب مسلماً وبقى الآخر

---

(١) الحديث فى مسند أحمد جـ٣ ص٦٢

حربياً فقد وقعت الفرقة بينهما ، ولا يرون العدة على المهاجرة ، ويبيحون نكاحها من غير عدة إلا أن تكون حاملاً ، عملاً بالآية الكريمة : ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن ﴾ حيث لم تلزمها العدة ، وقد بانت من زوجها بمجرد الهجرة .

والجمهور يقولون : لا تقع الفرقة إلا بإسلامها ، وأما بمجرد الخروج فلا ، فإن أسلمت قبل أن يدخل زوجها تنجزت الفرقة وبانت منه ، لأنه لا عدة عليها ، وإن أسلمت بعد الدخول بها توقفت إلى انقضاء العدة ، فإن أسلم قبل انقضاء العدة فهى زوجته ، وإلا بانت منه .

وحجتهم فى ذلك الأدلة التى سبقت وما روى أن (أبا سفيان) أسلم قبل زوجته (هند بنت عتبة) ثم أسلمت بعده بأيام فاستقروا على نكاحهما ، لأن عدتها لم تكن قد انقضت .

* **الحكم الثالث :**

هل يجوز الزواج بالمشركة الوثنية ؟

دل قوله تعالى : ﴿ **ولا تمسكوا بعصم الكوافر** ﴾ على حرمة النكاح بالكافرة المشركة ؛ لأن معنى الآية : ولا تمسكوا بعصم نسائكم المشركات أى : لا تعتدوا بنكاحهن فإنه باطل .

كما دل قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ** ﴾[1] على حرمة نكاح المشركة ، وقد اتفق العلماء على أن هذه الآيات خاصة بالمشركات من غير أهل الكتاب ؛ لأن الكتابيات يجوز الزواج بهن لقوله تعالى : ﴿ **والمحصنات من المؤمنات ، والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾[2] الآية .

قال ابن المنذر : ولا يصح عن أحد من الأوائل أنه حرم نكاح الكتابيات .

أقول : أجمع الفقهاء على حرمة الزواج بالمشركة - وهى التى لا تدين بدين سماوى - وعلى جواز النكاح بالنصرانية أو اليهودية من أهل الكتاب للنص السابق ، اللهم إلا ما روى عن ابن عمر - رضى الله عنهما - كان إذا سئل عن زواج الرجل بالنصرانية أو اليهودية قال :

« حرم الله المشركات على المؤمنين ، ولا أعرف شيئاً من الإشراك أعظم من أن تقول المرأة : ربها عيسى ، أو عبد من عباد الله » .

وهذا القول من عبد الله بن عمر محمول على (الكراهة) لا على (التحريم) ؛ لأن النص صريح بالحلّ ، ولعله خشى الفتنة على الرجل فى دينه ، أو خشى على الأولاد من التنصر فكرهه لذلك والله أعلم .

---

(١) الآية ٢٢١ من سورة البقرة
(٢) من الآية ٥ من سورة المائدة

* **الحكم الرابع :**

كيف كانت بيعة النبى - ﷺ - للنساء

بايع النبى ﷺ - النساء - بعد أن فتح مكة ، وكانت بيعته لهن بالشرائط المذكورة فى هذه الآية :
﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ﴾ .

وقد صح فى الحديث أن النبى - ﷺ - لم يصافح فى البيعة امرأةَ ، وإنما بايعهن بالكلام ، ودل ذلك على حرمة مصافحة النساء[1] .

وقد كانت بيعة الرجال أن يضع الرجل يده فى يد الرسول - ﷺ - ويبايعه على الإسلام والجهاد ، والسمع والطاعة ، وأما النساء فلم يثبت عنه - ﷺ - أنه صافح امرأة ، ولا وضع يده فى يدها ، إنما كانت البيعة بالكلام فقط ، ويدل عليه ما يلى :

النصوص الشرعية الدالة على حرمة المصافحة

أولاً : روى البخارى عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت :
« كان - ﷺ - يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ، بقول الله تعالى : **﴿ يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات ﴾** إلى قوله **﴿ غفور رحيم ﴾** قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات ، قال لها رسول الله - ﷺ - : قد بايعتك كلاماً ، والله ما مسّت يده يد امرأة قط فى المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك »[2] .

ثانياً : وروى الإمام أحمد عن (أميمة بنت رقيقة) قالت :
« أتيت رسول الله - ﷺ - فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن ، ألا نشرك بالله شيئاً . . الآية . . وقال : « فيما استطعتن وأطقتن » قلنا : الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا .

قلنا يا رسول الله : ألا تصافحنا ؟ قال : إنى لا أصافح النساء ، إنما قولى لامرأة واحدة قولى لمائة امرأة »[3] .

ثالثاً : وفى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها بعد أن ذكرت البيعة قالت « وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن ، قال لهن : « أنطلقن فقد بايعتكن » . ولا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ، غير أنه بايعهن بالكلام ، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن : « قد بايعتكن كلاماً » .

قال الحافظ بن حجر اقوله : « قد بايعتك كلاماً » أى : يقول ذلك كلاماً فقط لا مصافحة باليد ، كما جرت العادة بمصافحة الرجال عند المبايعة ، أقول : الروايات كلها تشير إلى أن البيعة كانت بالكلام ، ولم يثبت عنه - ﷺ - أنه صافح النساء فى بيعة أو غيرها ، ورسول الله - ﷺ - عندما يمتنع عن

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى - تفسير سورة الممتحنة - جـ ٦ ص ١٨٧ ط الشعب
(٢) الحديث فى مسند أحمد - جـ ٦ ص ٣٥٧
(٣) الحديث فى صحيح مسلم - جـ ١٤٨٩ رقم ٨٨ ، ٨٩

مصافحة النساء مع أنه المعصوم ، فإنما هو تعليم للأمة وإرشاد لها لسلوك طريق الاستقامة ، وإذا كان رسول الله - ﷺ - وهو الطاهر الفاضل ، الشريف ، الذى لا يشك إنسان فى نزاهته وطهارته ، وسلامة قلبه ، لا يصافح النساء ، ويكتفى بالكلام فى مبايعتهن ، مع أن أمر البيعة أمر عظيم الشأن ، فكيف يباح لغيره من الرجال مصافحة النساء ، مع أن الشهوة فيهم غالبة ؟ والفتنة غير مأمونة ، والشيطان يجرى فيهم مجرى الدم .

وكيف يزعم بعض الناس أن مصافحة النساء غير محرمة فى الشريعة الإسلامية ؟ « سبحانك هذا بهتان عظيم » .

* **الحكم الخامس :**

فالمراد من قوله تعالى : ﴿ ولا يعصينك فى معروف ﴾ ؟

اختلف العلماء فى المراد من الآية الكريمة على ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المراد به النوح على الميت ، قاله ابن عباس ، وروى عن النبى - ﷺ - مرفوعاً .

والثانى : أن المراد أن لا يدعون ويلاً ، ولا يخدشن وجهاً ، ولا يقطعن شعراً ، ولا يشققن ثوباً ، قال زيد بن أسلم .

والثالث : جميع ما يأمرهن به رسول الله - ﷺ - من شرائع الإسلام وآدابه وهذا هو الأرجح .

قال العلامة القرطبى : « والصحيح أنه عام فى جميع ما يأمر به النبى - ﷺ - وينهى عنه ، فيدخل فيه النوح ، وتخريق الثياب ، وجز الشعر ، والخلوة بغير محرم ، إلى غير ذلك ، وهذه كلها كبائر ، ومن أفعال الجاهلية ، وفى صحيح مسلم عن النبى - ﷺ - أنه قال : « أربع فى أمتى من أمر الجاهلية . . وذكر منها النياحة »[1] .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : امتحان المهاجرات المؤمنات للتعرف على سبب الهجرة .

ثانياً : نحن نحكم بالظاهر ، والله - جل وعلا - يتولى السرائر .

ثالثاً : حرمة نكاح المشركات اللواتى لا يؤمن بالله تعالى .

رابعاً : إسلام المرأة يقطع الصلة بينها وبين زوجها المشرك وتحرم عليه .

خامساً : البيعة للنساء تكون بالشرائط التى ذكرها القرآن الكريم .

سادساً : الطاعة لأولى الأمر تكون فى حدود ما شرع الله تعالى .

سابعاً : جواز نكاح الكتابيات اللاتى يؤمن بكتاب منزل من عند الله .

حكمة التشريع

حرمت الشريعة الإسلامية الغراء نكاح المشركات ، وحظرت على المسلم أن يُبقى فى عصمته

(١) الحديث فى صحيح مسلم - جـ٢ ص٦٤٤ رقم ٩٣٤/٢٩

امرأة لا تؤمن بالله ، ولا تعتقد بكتاب أو رسول ، وتنكر البعث والنشور ، وذلك لما يترتب على هذا الزواج من مخاطر دينية ، واجتماعية ، وأضرار عظيمة تلحق بالزوج والأولاد ، وبالتالى تهدد حياة الأسرة التى هى النواة لبناء المجتمع الأكبر .

وقد قضت السنة الإلهية أن تمتزج الأرواح بالأرواح ، وتتلاءم الأنفس مع الأنفس عند الزواج ، لينعم الزوجان فى حياة آمنة سعيدة ، يرفرف عليها الحب ، وتظللها السعادة ، ويخيم عليها التعاون والتفاهم ، والوئام .

ولما كان هذا الانسجام والتفاهم ، لا يكاد يوجد بين قلبين متنافرين ونفسين مختلفين ، لنفس مؤمنة خيرة ، ونفس مشركة فاجرة ، وكان هذا يؤدى بدوره إلى التنافر ، والخصام ، والنزاع ، لذلك حرم الإسلام الزواج بالوثنية المشركة ، وعدّه زواجاً باطلاً لا يستقيم مع شريعة الله .

فالمشركة التى ليس لها دين يزجرها عن الشر ، ويأمرها بالخير ، ويحرم عليها الخيانة ، ويوجب عليها الأمانة ، هذه الزوجة لا يمكن أن يسعد المرء فى حياته معها ، ولا تصلح أن تكون (رفيقة الحياة) لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر مع الفارق الكبير بين نفسيهما . والزوجية حالة امتزاج واندماج واستقرار ، ولا يمكن أن تقوم الحياة بدون هذا الامتزاج ، والإيمان هو قوام الحياة السعيدة ، الذى لا تقوم مقامه عاطفة أخرى ، فإذا خوى منه قلب لم يستطع قلب مؤمن أن يتجاوب معه ، ولا أن يأنس به ، ولا أن يسكن إليه ويطمئن فى جواره ، وصدق رسول الله - ﷺ - حين قال :

(الأرواح جنود مجندة ، ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف)[1] .

التفســـــير

يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات من دار الشرك إلى دار الإيمان ، فامتحنوهن بما يغلب على ظنكم أنهن صادقات فى إيمانهن ، ولم يأتين حباً فى الانتقال من دار إلى دار أو بغضاً فى زوج بل كان الدافع لهن هو حب الله ورسوله واعلموا أن الله أعلم بإيمانهن حقيقة ، فلا سبيل لكم إلى ما تطمئن به قلوبكم ، من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، ولكن هذا ما يمكن فعله ، فإن علمتم فيهن صدق الإيمان فلا ترجعوهن إلى الكفار .

- وهذا تقيد للشرط المطلق فى عقد الصلح - بل أبقوهن معكم وقد فرق الشارع الحكيم هنا بين الرجل والمرأة فإن الرجل قوى يمكنه أن يستقل ويترك دار الكفر ، والمرأة لا تقوى على الإغراء فيخشى معها الفتنة .

لا هن حل لهم حالاً ، ولا أزواجهم الكفار يحلون لهم فى المستقبل بأى شكل ما داموا مشركين ، وهن مؤمنات ، ويلزم على هذا أن تؤتوا الأزواج ما أنفقوا ، محل ذلك فى الأزواج الذين

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب خلق آدم جـ ٤ ص ١٦٢ ط الشعب

بيننا وبينهم عهد أما الحربيون فلا يلزمنا شىء لهم ، على أن هذا الأمر للندب ، وبشرط أن يطلبه الزواج وإلا فلا يجب شىء .

وهؤلاء المهاجرات لا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا أتيتموهن مهورهن وما حكم المرأة التى يتركها زوجها فى دار الشرك وهو مسلم ؟ الحكم أنه إذا أسلم الزوج ، وكان إسلامه حقيقياً فيجب فسخ عقد النكاح السابق بينه وبين المشركة الوثنية أما الكتابية فلا فسخ ؛ لأنه يجوز العقد عليها ابتداء ، ومحل قطع العلاقة الزوجية بين المسلم والمشركة مشروط بألا يجمعها الإسلام فى العدة .

﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ قال المفسرون : كان من ذهب من المسلمات مرتدات إلى الكفار من أهل العهد يقال للكفار : هاتوا مهرها ، ويقال للمسلمين إذا جاء أحد من الكافرات مسلمة مهاجرة . ردوا إلى الكفار مهرها ، وكان ذلك نصفة وعدلاً بين الناس ، ثم نسخ هذا الحكم ، ذلكم حكم الله يحكم بينكم بالعدل ، والله عليم حكيم .

وإن فاتكم شىء من أزواجكم وذهبن إلى الكفار ثم لم يعطوكم شيئاً من المهر فعاقبتم ، وأتت العاقبة لكم فغنمتم شيئاً منهم ، فآتوا الذين ذهبت أزواجهم ، ولم يأخذوا مهورهن مثل ما أنفقوا لفواته عليهم من جهة الكفار ، واتقوا الله فى كل شىء ، اتقوه فأنتم به مؤمنون ، ومن الواجب على المؤمن تقوى الله فى السر والعلانية ، وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإيتاء للكفار والمؤمنين ، وقد رفع هذا الحكم العام ، وأصبح الحكم شخصياً ليس على الإمام والمسلمين عامة .

يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على عدم الشرك بالله شيئاً وعدم السرقة ، والزنا ، وقتل الأولاد خوف الفقر أو العار كما كان يفعل فى الجاهلية من وأد البنات أحياء ، ولا يعصينك فى معروف عرف حسنه شرعاً وعقلاً من طاعة الله ورسوله والإحسان للناس ، وكل ما أمر به الشرع الشريف .

إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على هذا الأساس فبايعهن ، واستغفر لهن الله على ما فرط منهن ، وقد كانت مبايعة الرجال على الإسلام والجهاد ومبايعة النساء على ما ذكر فى الآية نزلت ، وقيل هما سواء فى كل ذلك ، ولعل السر فى مبايعة النساء لهذا أن النساء كثيراً ما يرتكبن مثل هذه الأعمال ، والثابت أن هذه الآيات نزلت فى مبايعة النبى - ﷺ - للنساء فى فتح مكة ، وكانت فيهن هند بنت عتبة ، ولها قصة مذكورة فى كتب السيرة ، بدئت هذه السورة بالنهى عن موالاة الكفار وخاصة اليهود ، وختمت بمثل ذلك تأكيداً لعدم موالاتهم وتنفيراً للمسلمين عنها .

يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً قد غضب الله عليهم ، ولعنهم ، وهم اليهود قد يئسوا من الآخرة وثوابها مع أنهم يوقنون بها ، وذلك لعنادهم مع النبى مع علمهم بصدقه ، هؤلاء يئسوا كما يئس الكفار حالة كونهم من أصحاب القبور ، وقيل كما يئس الكفار الأحياء من أصحاب القبور الذين ماتوا ، يئسوا من الرجوع إليهم والالتقاء بهم فى أى وقت .

سورة الصف

قال صاحب البصائر :

السورة مكية بالاتفاق . آياتها أربع عشرة . وكلماتها مائتان وإحدى وعشرون . وحروفها تسعمائة . ولها اسمان : سورة الصف لقوله : ﴿ **يقاتلون فى سبيله صفاً** ﴾ ، وسورة الحواريين ، لقوله : ﴿ **قال الحواريون نحن أنصار الله** ﴾ وقيل تسمى سورة عيسى .

معظم مقصود السورة : عتاب الذين يقولون أقوالاً لا يعملون بمقتضاها وتشريف صفوف الغزاة والمصلين ، والتنبيه على جفاء بنى إسرائيل ، وإظهار دين المصطفى على سائر الأديان ، وبيان التجارة الرابحة مع الرحيم الرحمن ، والبشارة بنصر الإيمان ، على أهل الكفر والخذلان ، وغلبة بنى إسرائيل على أعدائهم ذوى العدوان ، فى قوله : ﴿ **فأصبحوا ظاهرين** ﴾ والسورة محكمة ، خالية عن الناسخ والمنسوخ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب** ﴾ بالألف واللام ، وفى غيرها : ﴿ **افترى على الله كذباً** ﴾ بالنكرة .

لأنها أكثر استعمالاً مع المصدر من المعرفة ، وخصت هذه السورة بالمعرفة ، لأنه إشارة إلى ما تقدم من قول اليهود والنصارى .

قوله : ﴿ **ليطفئوا** ﴾ باللام ؛ لأن المفعول محذوف . وقيل : اللام زيادة . وقيل : محمول على المصدر .

قوله : ﴿ **يغفر لكم ذنوبكم** ﴾ جزم على جواب الأمر ، فإن قوله : ﴿ **تؤمنون** ﴾ محمول على الأمر أى : آمنوا وليس بعده : (من) ولا (خالدين) .

مناسبتها لما قبلها :

ووجه مناسبتها لما قبلها أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه ، وفى ذلك تأكيد للنهى الذى تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين .

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتى رسول الله - ﷺ - فيسأله : أى : الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يقم منا أحد فأرسل رسول الله - ﷺ - إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة (الصف) كلها .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

معانى المفردات

(لم) أى : لأى شىء تقولون قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ؟ والمراد بذلك التأنيب والتوبيخ ، على صدور هذا الكذب منهم ، كبر : أى : عظم ، والمقت : أشد البغض وأعظمه ، ورجل مقيت وممقوت إذا كان يبغضه كل أحد ، والمرصوص : المحكم ، قال المبرد : تقول : رصصت البناء إذا لاءمت بين أجزائه وقاربت حتى يصير كقطعة واحدة .

المناسبة وإجمال المعنى

قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لا شك فيه ، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به ، وإقرار برسالة نبيه ، فلما نزل الجهاد وكره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فأنزل الله الآية .

* أضواء كاشفة *

يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله لأى شىء تقولون مالا تفعلونه من الخير والمعروف ، ومدار التوبيخ والانكار فى الحقيقة عدم فعلهم ، وإنما وجه إلى قولهم أولاً للدلالة على أنهم مؤاخذون على شيئين الوعد وترك العمل « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان »[1] . كبر المقت عند الله وفى حسابه أن تقولوا مالا تفعلون ، نعم إن قولهم سنفعل الخير ثم لا يفعلون مقت خالص لا شوب فيه ، ومبغوض عند الله أشد البغض ، ومن هنا كان الخلف فى الوعد ، والكذب ، مذمومين شرعاً ، ولا يرضى عنهما الله ، أما الذى يرضى عنه الله فها هو ذا : ﴿ **إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص** ﴾ نعم إن الله يحبهم ويرضى عنهم ، لأنهم يقاتلون فى سبيله وابتغاء مرضاته ، يقاتلون بنظام ودقة وحكمة صافين أنفسهم مستعدين للقتال على حسب زمانهم ، حالة كونهم كالبنيان المرصوص الذى يحمى بعضه بعضاً ، البنيان المحكم الدقيق الذى لا فرجة فيه ولا خلل ، وهذه إشارة إلى إحكام الأمر فى القتال والاستعداد له استعداداً مناسباً مع الوحدة والاجتماع التام على الكلمة ، ومقاتلة العدو بقلوب ثابتة راسخة رسوخ البنيان الشامخ المحكم .

---

(١) الحديث فى الجامع الكبير للسيوطى جـ ١ ص ٣ بلفظ : « آية المنافق ثلاثة وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان » من رواية الأمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى والنسائى ، عند أبى هريرة ، وأبن النجار عن ابن مسعود وفى مسند أحمد جـ ٢ ص ٣٥٧ . وفى صحيح البخارى ـ كتاب الايمان ـ باب علامة المنافق ـ جـ ١ ص ١٦ ط الشعب .

التفسير

قوله تعالى ﴿ **سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ هذا إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ بأنه سبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، أى : من الحيوانات والنباتات كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً** ﴾[1] .

والتسبيح تنزيه لله ـ تعالى ـ عن كل ما لا يليق بذاته ، فهو ـ سبحانه ـ متصف بكل كمال منزه عن كل نقص . وكمالات الله لا تتناهى ، لا يحصرها عد ، ولا يحيط بها حد ، ومن ثم ، فقد جاء التسبيح فى الكتاب العزيز فى صور متنوعة وصيغ متعددة ، جاء بصيغة الماضى كما فى هذه الآية التى افتتح الله ـ تعالى ـ بها سورة (الصف) وجاء بصيغة المضارع كما فى قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم** ﴾[2] وكما فى قوله جل شأنه : ﴿ **يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير** ﴾[3] .

وجاء بصيغة الأمر كما فى قوله جل شأنه : ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾[4] وجاء بصيغة المصدر كما فى قوله تبارك اسمه : ﴿ **سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى** ﴾[5] وجاء بصيغة الصفة كما فى قوله ـ جل جلاله ـ : ﴿ **فلولا أنه كان من المسبحين . للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾[6] . وما ذلك كله إلا لعظم مكانة المسبحين عند الله ، وقد أمر تعالى بتسبيحه على كل حال : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون** ﴾[7] . وقد نادى نبى الله يونس ربه مهللاً ومسبحاً قال تعالى : ﴿ **وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين** ﴾[8] . هذا الإله العظيم الكبير الحقيق بالتنزيه ، هو العزيز الذى لا يغلب ، ﴿ **وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير** ﴾[9] الحكيم الذى لا يضع الأمور إلا فى نصابها ، المنزه عن العبث ، المتصف بالحكمة البالغة الباهرة ، ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾[10] سبحه الطير فى وكره ، ومجده الوحش فى قفره ، ومن آياته أن تقوم السموات والأرض بأمره ، سبحه كل سابح فى الماء ، ومحلق فى الهواء ، وسارب فى الخضراء ، ومستكن فى الأحشاء ، وذاهب فى لجج الماء ، ومستقر فى الصخرة الصماء .

---

(١) سورة الاسراء آية ٤٤
(٢) سورة الجمعة آية ١
(٣) سورة التغابن آية ١
(٤) سورة الأعلى آية ١
(٥) سورة الاسراء آية ١
(٦) سورة الصافات الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤
(٧) سورة الروم آية ١٧ ، ١٨
(٨) سورة الأنبياء آية ٨٧ ، ٨٨
(٩) سورة الأنعام آية ١٨
(١٠) سورة الاسراء آية ٤٤

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه
الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه
والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمداً فى خلاياه
والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربى ليس ينساه

فلو سألت السموات والأرض ومن فيهن وسألت العالم من عرشه إلى فرشه ، وقلت له من خالقك لأجابك بلسان الحال والمقال : أنا مخلوق للواحد الديان .

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى سل الليل والإصباح والطير شاديا
وسلْ هذه الأنسام والأرض والسما وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جنَّ هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم سوى الله يجريه كما شاء راوياً
ولو أن هذى الريح هاجت وأعصرت فمن غير ربى يمسك الريح ناهياً

ولعظم شأن التسبيح نسوق هذه الأحاديث النبوية الشريفة حتى نكون قد جمعنا بين ما جاء فى الكتاب الكريم ، والسنة المطهرة ، عسى الله أن ينفعنا بما نقرأ ونسمع .

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم »(١) رواه البخارى ومسلم ، والترمذى والنسائى وابن ماجه .

٢ - وعن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : (ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : يا رسول الله : أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، فقال : إن أحب الكلام إلى الله : (سبحان الله وبحمده)(٢) . رواه مسلم والنسائى والترمذى إلا أنه قال : سبحان ربى وبحمده . وقال حديث حسن صحيح .

٣ - وفى رواية مسلم : أن رسول الله - ﷺ - سئل أى الكلام أفضل ؟ . قال : (ما اصطفى « اختار ورضى » الله لملائكته ، أو لعباده ، سبحان الله وبحمده)(٣) .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١١٤ كتاب الدعوات . باب فضل التسبيح
انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التسبيح والتهليل رقم ٢٦٩٤/٣١
انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٥١ . كتاب الأدب . باب فضل التسبيح رقم ٣٨٠٦
انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٧٨ . كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٧ وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٥٤ ص ٢٠٩٣ ، ٢٠٩٤ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل سبحان الله وبحمده رقم ٢٧٣١/٨٥
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٥

(٣) انظر الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٩٣ . كتاب الذكر والدعاء . باب ٢٢ فضل سبحان الله وبحمده . رقم ٢٧٣١/٨٤ .

٤ - وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : من قال سبحان الله وبحمده ، كتب له مائة ألف حسنة وأربعة وعشرون ألف حسنة ، ومن قال لا إله إلا الله له بها عهد عند الله يوم القيامة »[١] . رواه الطبرانى بإسناد فيه نظر .

زاد فى رواية عن أيوب بن عتبة عن عطاء عنه بنحوه ، فقال رجل : كيف نهلك بعد هذا يا رسول الله ؟ قال : إن الرجل ليأتى يوم القيامة بالعمل لو وضع على جبل لأثقله فتقوم النعمة من نعم الله تكاد أن تستنفذ (تذهب) ذلك كله إلا أن يتطول (يتفضل وينعم ويسامح) الله برحمته .

٥ - وعن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة فى الجنة »[٢] رواه البزار بإسناد جيد .

٦ - وعن أبى أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : من هاله (شق عليه ، صعب عليه قيام الليل للعبادة) الليل أن يكابده ، أو بخل بالمال أن ينفقه ، أو جبن عن العدو أن يقاتله ، فليكثر من : « سبحان الله وبحمده ، فإنها أحب إلى الله من جبل ذهب ينفقه فى سبيل الله عز وجل »[٣] . رواه الفريانى والطبرانى واللفظ له .

٧ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « ومن قال سبحان الله وبحمده ، فى يوم مائة مرة غفرت له ذنوبه ، وإن كانت مثل زبد البحر »[٤] (كناية عن المبالغة فى الكثرة) رواه مسلم والترمذى . والنسائى .

٨ - وعن سليمان - بن يسار - رضى الله عنه - عن رجل من الأنصار أن النبى - ﷺ - قال : قال نوح لابنه : إنى موصيك بوصية وقاصرها لكى لا تنساها ، أوصيك باثنتين ، وأنهاك عن اثنتين : أما اللتان أوصيك بهما ، فيستبشر الله بهما ، وصالح خلقه ، وهما يكثران الولوج على الله ، أوصيك بلا إله إلا الله ، فإن السموات والأرض لو كانت حلقة قصمتها ، ولو كانتا فى كفة وزنتهما ، وأوصيك بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة الخلق ، وبها يرزق الخلق ، وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفورا . وأما اللتان أنهاك عنهما ، فيحتجب الله منهما ، وصالح خلقه ، أنهاك عن

---

(١) انظر الطبرانى فى معجمه الكبير جـ١٢ ص٤٣٧ رقم ١٣٥٩٧ .
انظر مجمع الزوائد جـ١٠ ص٨٧ كتاب الأذكار فصل فيمن قال لا اله إلا الله وسبحان الله وبحمده .
(٢) انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٤٧٧ . كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٥/٣٤٦٤ وقال : حديث حسن غريب صحيح .
انظر كشف الأستار عن زوائد الدار جـ٤ ص١٣ رقم ٣٠٧٩
(٣) انظر الطبرانى فى معجمه الكبير جـ٨ ص ٢٣٠ رقم ٧٨٠٠
انظر مجمع الزوائد جـ١٠ ص٩٤ كتاب الأذكار فصل ما جاء فى سبحان الله وبحمده وما ضم معه .
(٤) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص١١٤ كتاب الدعوات . باب فضل التسبيح .
انظر صحيح مسلم جـ٤ ص ٢٠٧١ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء رقم ٢٨/٢٦٩١ فى حديث أوله « من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له » .
انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٤٧٨ كتاب الدعوات . باب ٦٠ رقم ٣٤٦٦ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الشرك (أن تجعل لله شريكا فى ذاته ، أو فى صفاته أو فى أفعاله) والكبر[١] . (العظمة والغطرسة ، والعجب بالنفس ، وقلة الأدب ، وعدم الذوق فى المعاملة ، واحتقار الناس والتقصير فى واجباتهم) رواه النسائى واللفظ له والبزار والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو ، وقال الحاكم : صحيح الاسناد (الولوج : الدخول) .

٩ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله وأتوب إليه . من قالها كتبت له كما قالها ، ثم علقت بالعرش لا يمحوها ذنب عمله صاحبها حتى يلقى الله يوم القيامة وهى مختومة كما قالها »[٢] رواه البزار ورواته ثقات .

١٠ ـ وعن مصعب بن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال : حدثنى أبى قال : كنا عند رسول الله ـ ﷺ ـ فقال) : « يعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ، ألف حسنة ؟ » فسأله سائل من جلسائه : كيف يكسب أحدنا ألف حسنة ؟ » قال : « يسبح مائة تسبيحة ، فتكتب له ألف حسنة . أو يحط عنه ألف خطيئة »[٣] . رواه مسلم والترمذى .

١٠ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لأن أقول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلىّ مما طلعت عليه الشمس »[٤] . رواه مسلم والترمذى .

١١ ـ وعن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنه ـ قال : « قال رسول الله ـ ﷺ ـ : أحب الكلام إلى الله أربع : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لا يضرك بأيهن بدأت »[٥] . رواه مسلم وابن ماجة والنسائى وزاد : وهن من القرآن . ورواه النسائى أيضاً وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى هريرة .

١٢ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ مر به وهو يغرس غرساً ، فقال : « يا أبا هريرة ما الذى تغرس ؟ قلت : غراساً . « قال ألا أدلك على غراس خير من هذا ؟ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، تغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة »[٦] . رواه ابن ماجة بإسناد حسن ، واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح الاسناد .

---

(١) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٦ .

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ ٤ ص ١٤ رقم ٣٠٨١ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٣ كتاب الذكر والدعاء . باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٨/٣٧
انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٤٧٧ كتاب الدعوات . باب ٥٩ رقم ٣٤٦٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح . طبعة دار الكتب العلمية .

(٤) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٥/٣٢ .
انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٥٣٩ كتاب الدعوات . باب ١٢٩ رقم ٣٥٩٧ وقال : هذا حديث صحيح .

(٥) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٦٨٥ كتاب الآداب باب كراهية التسمية بالأسماء القبيحة رقم ٢١٣٧/١٢ .
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٥٠ رقم ٨٥٣ بلفظ إذا حدثتك بحديث .

(٦) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٥١ كتاب الأدب . باب فضل التسبيح رقم ٣٨٠٧
انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ١ ص ٥١٢ . كتاب فضيلة التسبيح .

١٣ ـ وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لقيت ابراهيم ـ عليه السلام ـ ليلة أسرى بى ، فقال : يا محمد أقرىء أمتك منى السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء ، وأنها قيعان (أمكنة مستوية مبسوطة منبسطة واسعة فى وطأة من الأرض يعلوها ماء السماء : أى المطر فتمسكه ، ويستوى نباتها . القيعان جمع قاع) وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »[١] رواه الترمذى والطبرانى فى الأوسط والصغير وزاد : ولا حول ولا قوة إلا بالله .

١٤ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، غرس له بكل واحدة منهن شجرة فى الجنة »[٢] رواه الطبرانى واسناده حسن .

١٥ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من هلل مائة مرة ، وسبح مائة مرة ، وكبّر مائة مرة ، كان خيراً له من عشر رقاب يعتقهن وسبع بدنات (جمع بدنة) ، وانما سميت بها الابل لعظم بدنها » . قال ـ تعالى ـ : ﴿ **والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون** ﴾ينحرهن »[٣] .

١٦ ـ وعن أم هانىء ـ رضى الله عنها ـ قالت : مر بى رسول الله ـ ﷺ ـ ذات يوم ، فقلت : يا رسول الله قد كبرت سنى ، وضعفت ، أو كما قالت : فمرنى بعمل أعمله وأنا جالسة ، قال : « سبحى الله مائة تسبيحة ، فإنها تعدل لك مائة رقبة تعتقينها من ولد إسماعيل ، واحمدى الله مائة تحميدة ، فإنها تعدل لك مائة فرس مسرجة ملجمة تحملين عليها فى سبيل الله ، وكبرى الله مائة تكبيرة ، فإنها تعدل لك مائة بدنة مقلدة متقبلة ، وهللى الله مائة تهليلة : قال أبو خلف : أحسبه قال : تملأ ما بين السماء والأرض ، ولا يرفع يومئذ لأحد عمل أفضل مما يرفع لك إلا أن يأتى بمثل ما أتيت »[٤] رواه أحمد بإسناد حسن ، واللفظ له والنسائى ولم يقل : ولا يرفع إلى آخره ، والبيهقى بتمامه .

١٧ ـ وعن أبى هريرة وأبى سعيد ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إن الله اصطفى من الكلام أربعاً : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فمن قال سبحان الله كتبت له عشرون حسنة ، وحُطت عنه عشرون سيئة ، ومن قال الله أكبر فمثل ذلك ، ومن قال لا إله الا الله فمثل ذلك ، ومن قال الحمد لله رب العالمين من قبل نفسه كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة »[٥] رواه أحمد وابن أبى الدين والنسائى واللفظ له .

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٢٤٦ . كتاب الدعوات باب ٥٩ رقم ٣٤٦٢ وقال : هذا حديث حسن غريب . من حديث ابن مسعود .

(٢) انظر الترغيب والترهيب جـ ٢ ص ٤٣٥

(٣) انظر الأدب المفرد لأبى عبد الله البخارى جـ ٢ ص ٩٢ رقم ٦٣٦

(٤) انظر عمل اليوم للنسائى ص ٢٤٩ ثم ٨٥٠ . انظر مسند الامام أحمد جـ ٦ ص ٣٤٤ مسند أم هانىء .

(٥) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٤٨ رقم ٨٤٦ . انظر مسند الامام أحمد جـ ٢ ص ٣٠٢

١٨ ـ وعن أبي مالك الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة برهان (أى أن العبد إذا سئل يوم القيامة عن مصرف ماله كانت صدقاته براهين . ويجوز أن يوسم المتصدق بسيماء يعرف بها فيكون برهاناً له على حاله ولا يسأل عن مصرف ماله) والصبر ضياء والقرآن حجة لك أوعليك ، (أى تنتفع به إن تلوته وعملت به ، وإلا فشاهد على تقصيرك) كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أوموبقها (أى كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله ـ تعالى ـ بطاعته فيعتقها من العذاب ، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقها ، أى يهلكها »[١] رواه مسلم والترمذى والنسائى .

١٩ ـ وعن رجل من بنى سُلَيْم قال : عدهن رسول الله ـ ﷺ ـ فى يدى أو فى يده . قال : « التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض ، والصوم نصف الصبر ، والطهور نصف الايمان »[٢] رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

٢٠ ـ وعن أبي ذر ـ رضى الله عنه ـ أن ناساً من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ قالوا للنبى ـ ﷺ ـ : يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم . قال : « أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به ؟ . إن بكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهى عن منكر صدقة ، وفى بضع أحدكم صدقة . قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجرا ؟ قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام (بطريق الزنا وهتك الأعراض ، وتمزيق حجاب العفاف) كان عليه وزر (ذنب) فكذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر »[٣] رواه مسلم وابن ماجه .

(الدثور : بضم الدال : جمع دثر بفتحها ، وهو المال الكثير) .

(والبضع : بضم الموحدة : هو الجماع وقيل هو الفرج نفسه) .

٢١ ـ وعن أبي سلمى ـ رضى الله عنه ـ راعى رسول الله ـ ﷺ ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : بخ بخ (كلمة تقال عند المدح والرضا بالشىء وتكرر للمبالغة والإحسان) لخمس ما أثقلهن (ترجح كفتها ويكثر أجرها) فى الميزان : لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله والله أكبر ، والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه (يطلب من الله العوض) ، ويسلمه ذخيرة عند ربه ولا يجزع ، ولا يقول ما يغضب الرب تبارك وتعالى »[٤] رواه النسائى واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وصححه ورواه البزار بلفظه من حديث ثوبان ، وحسن اسناده .

(١) انظر صحيح مسلم جـ١ ص٢٠٣ كتاب الطهارة . باب ١ رقم ٢٢٣/١ .
انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٥٠١ كتاب الدعوات . باب ٨٦ رقم ٣٥١٧ .

(٢) انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٥٠١ كتاب الدعوات باب ٨٧ رقم ٣٥١٩ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص٦٩٧ ، ٦٩٨ كتاب الزكاة باب ١٦ رقم ١٠٠٥/٥٢ .

(٤) انظر كشف الأستار هم زوائد البزار جـ٤ ص٩ رقم ٣٠٧٢ .
انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ١ ص٥١١
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص٧١ رقم ١٦٧
انظر صحيح ابن حبان جـ٢ ص١٠٠ رقم ٨٣٠

٢٢ ـ وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « خلق كل انسان من بنى آدم على ستين وثلاثمائة مفصل . فمن كبر الله وحمد الله ، وهلل الله ، وسبح الله واستغفر الله ، وعزل (أبعد عن طريق الناس) حجراً عن طريق المسلمين ، أو شوكة أو عظماً عن طريق المسلمين ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلثمائة ، فإنه يمسى يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار »[١] . رواه مسلم والنسائى .

٢٣ ـ وعن ابن أبى أوفى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال أعرابى : يا رسول الله : إنى قد عالجت القرآن (أخذت فى تلاوته فصعبت على قراءته قراءة تامة) فلم أستطعه ، فعلمنى شيئاً يجزى من القرآن (يعطينى ثواباً جزيلاً كأنى قرأت من القرآن) قال : « قل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فقالها وأمسكها بأصابعه ، فقال : يا رسول الله هذا لربى فمالى ؟ قال : تقول : « اللهم اغفر لى وارحمنى وعافنى وارزقنى ، واحسبه قال واهدنى ، ومضى الأعرابى فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : ذهب الأعرابى وقد ملأ يديه خيراً »[٢] . رواه ابن أبى الدنيا عن الحجاج بن أرطأة عن ابراهيم السكسكى عنه ، ورواه البيهقى مختصراً ، وزاد فيه : ولا حول ولا قوة إلا بالله . واسناده جيد .

٢٤ ـ وعن سعد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء أعرابى إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال : علمنى كلاماً أقوله ، قال : « قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، الله أكبر كبيراً . والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله رب العالمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العزيز الحكيم . قال : هؤلاء . فمالى ؟ . قال : قل : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، واهدنى ، وارزقنى »[٣] وزاد من حديث أبى مالك الأشجعى : وعافنى ، وفى رواية قال : فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك . رواه مسلم .

٢٥ ـ وروى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل بدوى إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله علمنى خيراً . قال : « قل : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر . قال : وعقد بيده أربعاً ، ثم ذهب وقال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ثم رجع فلما رآه رسول الله ـ ﷺ ـ تبسم ، وقال : تفكر البائس ، فقال : يا رسول الله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر هذا كله لله فمالى ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إذا قلت سبحان الله ، قال الله : صدقت ، وإذا قلت : الحمد لله ، قال الله : صدقت ، وإذا قلت : لا إله إلا الله ، قال الله صدقت ، وإذا قلت الله أكبر قال الله : صدقت فتقول : اللهم اغفر لى ، فيقول الله : قد فعلت ، فتقول : اللهم ارحمنى ، فيقول الله : قد فعلت ، وتقول : اللهم ارزقنى ، فيقول الله : قد فعلت ، قال : فعقد الأعرابى سبعاً فى يده »[٤] رواه ابن أبى الدنيا ، والبيهقى ، وهو فى المسند وسنن النسائى من حديث أبى هريرة بمعناه .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص٦٩٨ كتاب الزكاة باب ١٦ رقم ١٠٠٧/٥٤ .
انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص٢٤٧ ، ٢٤٨ رقم ٨٤٣ .

(٢) انظر السنن الكبرى للبيهقى جـ٢ ص٣٨١ كتاب الصلاة باب الذكر يقوم مقام القراءة إذا لم يحسن من القرآن شيئا .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٤ ص٢٠٧٢ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح رقم ٢٦٩٦/٣٣٠ .

(٤) رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى .

٢٦ ـ وعن سلمى أم بنى رافع ـ رضى الله عنها ـ مولى رسول الله ـ ﷺ ـ أنها قالت : يا رسول الله أخبرنى بكلمات ، ولا تكثر علىّ ، فقال : « قولى : الله أكبر عشر مرات ، يقول الله : هذا لى ، وقولى سبحان الله عشر مرات ، يقول الله : هذا لى ، وقولى : اللهم اغفر لى ، يقول الله قد فعلت ، فتقولين عشر مرات : ويقول قد فعلت »[1] . رواه الطبرانى ورواته محتج بهم فى الصحيح .

٢٧ ـ وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : استكثروا من الباقيات (الدائم ثوابها ونعيمها) الصالحات (المقبول ذكر الله بها ، الداعية إلى تبجيل الله وتقديسه) . قيل : وماهن يا رسول الله ؟ قال : « التكبير ، والتهليل ، والتسبيح ، والحمد لله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[2] رواه أحمد وأبو يعلى والنسائى واللفظ له ، وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٢٨ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « خذوا جنتكم . قالوا يا رسول الله عدو حضر ؟ قال : لا . ولكن جنتكم من النار . قولوا : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مجنبات ومعقبات . وهن الباقيات الصالحات »[3] رواه النسائى واللفظ له ، والحاكم والبيهقى .

وقال الحاكم : صحيح على شرط مسلم . (جنتكم) : بضم الجيم وتشديد النون : أى ما يستركم ويقيكم ، (ومجنبات) بفتح النون : أى مقدمات أمامكم ، وفى رواية الحاكم منجيات بتقديم النون على الجيم ، وكذا رواه الطبرانى فى الأوسط ، وزاد ولا حول ولا قوة إلا بالله ورواه فى الصغير من حديث أبى هريرة فجمع بين اللفظين فقال : ومنجيات ومجنبات ، واسناده جيد قوى . (ومعقبات) بكسر القاف المشددة أى تتعقبكم ، وتأتى من ورائكم .

٢٩ ـ وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « قل سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . فإنهن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا (تزيلها وتلقيها) كما تحط الشجرة ورقها ، وهى من كنوز الجنة »[4] رواه الطبرانى بإسنادين أصلحهما فيه عمر بن راشد .

٣٠ ـ وعن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنها ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن مما تذكرون من جلال الله : التسبيح والتهليل والتحميد . ينعطفن (يملن) نحو العرش . لهن دوىّ (صوت) كدوى النحل . تذكِّر بصاحبها ، أما يحب أحدكم أن يكون له ، أو لا يزال له من يذكر به »[5] . رواه ابن أبى الدنيا وابن ماجة واللفظ له ، والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

---

(١) انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ ٢٤ ص ٣٠٢ رقم ٧٦٦ .

(٢) انظر صحيح ابن حبان جـ ٢ ص ١٠٢ رقم ٨٣٧
انظر الحاكم فى مستدركه ج ١ ص ٥١٢ كتاب الدعاء باب بيان الباقيات الصالحات .
انظر مسند الامام أحمد ج ٣ ص ٧٥ .

(٣) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص ٢٥٠ رقم ٨٥٤ .
انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ١ ص ٥٤١ .

(٤) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ رقم ٣٨٠٧ .

(٥) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢٥٢ كتاب الأدب فضل التسبيح رقم ٣٨٠٩ .
انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ ١ ص ٥٠٠ كتاب الدعاء باب من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة .

٣١ ـ وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : إذا حدثتكم بحديث ، أتيناكم بتصديق ذلك فى كتاب الله : إن العبد إذا قال : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، وتبارك الله . قبض عليهن ملك فضمهن تحت جناحه ، وصعد بهن ، لا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن حتى يُحيَّا بهن وجه الرحمن . ثم تلا عبد الله : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾[١] رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد .

٣٢ ـ وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أخذ غصناً فنفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فلم ينتفض ، ثم نفضه فانتفض ، فقال ـ ﷺ ـ : « إن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها »[٢] رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

٣٣ ـ وعن معاذ بن عبد الله بن رافع ـ رضىَ الله عنه ـ قال : كنت فى مجلس فيه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن أبى عميرة ـ رضى الله عنهم ـ فقال ابن أبى عميرة : سمعت معاذ ابن جبل يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « كلمتان إحداهما ليس لها ناهية دون العرش ، والأخرى تملأ ما بين السماء والأرض . لا إله إلا الله ، والله أكبر ، فقال ابن أبى عميرة : أنت سمعته يقول ذلك ؟ قال نعم ، فبكى عبد الله بن عمر حتى اختضبت (ابتلت وغمرتْ) لحيته بدموعه ، وقال : هما كلمتان نعلقهما ونألفهما »[٣] نحفظهما ونكثر من ذكر الله بهما) رواه الطبرانى .

٣٤ ـ وروى عن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من قال لا إله إلا الله ، والله أكبر ، أعتق الله ربعه من النار ، ولا يقولها اثنين إلا أعتق الله شطره من النار ، وإن قالها أربعاً أعتقه الله من النار »[٤] رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط .

٣٥ ـ وعن عمران يعنى ابن حصين ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مايستطيع أحدكم أن يعمل كل يوم مثل أُحد ؟ قالوا : يارسول الله : ومن يستطيع أن يعمل كل يوم عملاً مثل أُحد ؟ قال : كلكم يستطيعه . قالوا يارسول الله : ماذا ؟ قال : سبحان الله أعظم من أُحد ، (ثوابها أكبر عند الله وأثقل من جبل أُحد) ولا إله إلا الله أعظم من أُحد ، والحمدلله أعظم من أُحد ، والله أكبر أعظم من أُحد »[٥] رواه ابن أبى الدنيا والنسائى والطبرانى والبزار .

٣٦ ـ وعن عبد الله ، يعنى ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يؤتى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يؤتى الإيمان إلا من أحب ، فإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان ، فمن ضنَّ بالمال أن ينفقه ، وهاب العدو أن يجاهده ، والليل أن يكابده ، فليكثر من قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »[٦] . رواه الطبرانى .

(١) انظر المستدرك على الصحيحين جـ٢ ص٤٢٥ .
(٢) انظر مسند أحمد جـ٣ ص١٥٢ معاذ بن عبد الله بن رافع .
(٣) انظر مجمع الزوائد . كتاب الأذكار باب ماجاء فى لا إله إلا الله والله أكبر جـ١٠ ص٨٦ .
(٤) انظر الترغيب والترهيب جـ٢ ص٥٣٤ .
(٥) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص٢٤٧ رقم ٨٤٢ بلفظ ايعجز أحدكم .
انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ١٨ ص١٧٤ ، ١٧٥ رقم ٣٩٨ .
نظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ٤ ص١٠ ، ١١ رقم ٣٠٧٥ .
(٦) انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ٩ ص٢٢٩ رقم ٨٩٩٠ .

٣٧ ـ وعن أبى المنذر الجهنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت يانبى الله : علمنى أفضل الكلام ؟ قال : « يا أبا المنذر قل : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيى ويميت وبيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، مائة مرة فى كل يوم ، فإنك يومئذ أفضل الناس عملاً . إلا من قال مثل ما قلت ، وأكثر من قول : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله ، إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنها سيد الاستغفار ، وإنها ممحاة للخطايا (مزيلة) أحسبه قال موجبة للجنة (مسببة دخول الجنة حتما)[(١)] رواه البزاز من رواية جابر الجعفر .

٣٨ ـ وعن عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، كتب له بكل حرف عشر حسنات »[(٢)] رواه ابن ابى الدنيا .

٣٩ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع النبى ـ ﷺ ـ يقول : من قال سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، قال الله : أسلم (انقاد وأطاع) عبدى واستسلم (فوض أمره لى)[(٣)] . رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد

٤٠ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قلت يارسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد . قلت وما الرتع ؟ قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر »[(٤)] رواه الترمذى

٤١ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أول من يدعون إلى الجنة الذين يحمدون الله ـ عز وجل ـ فى السراء والضراء »[(٥)] رواه ابن أبى الدنيا والبزار .

٤٢ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « التأنى من الله والعجلة من الشيطان ، وما أحد أكثر معاذير من الله ، وما من شىء أحب إلى الله من الحمد »[(٦)] رواه أبو يعلى ورجاله الصحيح .

٤٣ ـ وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « ما أنعم الله على عبد من نعمة فقال : الحمد لله ، إلا أدى شكرها ، فإن قالها ثانياً جدد الله له ثوابها ، فإن قالها الثالثة غفر الله له ذنوبه »[(٧)] رواه الحاكم وقال صحيح الاسناد .

---

(١) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ٤ ص٩ ، ١٠ كتاب الأذكار باب فى التسبيح والتحميد والتهليل رقم ٣٠٧٣ .
(٢) انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ١٢ ص٣٨٨ رقم ١٣٤٣٥ .
(٣) انظر كتاب المستدرك على الصحيحين للحاكم جـ١ ص٥٠٢ .
(٤) انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٤٩٧ ، ٤٩٨ كتاب الدعوات باب ٨٣ رقم ٣٥٠٩ وقال : هذا حديث حسن غريب .
(٥) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ٤ ص٢٨ كتاب الأذكار باب الحمد لله على كل حال . رقم ٣١١٤
(٦) انظر سنن الترمذى بلفظ الأناة من الله جـ٣ ص٢٤٨ كتاب البر والصلة . باب ما جاء فى التأنى والعجلة .
انظر كنز العمال جـ٣ ص١٠١ رقم ٥٦٧٥ .
(٧) انظر المستدرك على الصحيحين جـ١ ص٥٠٧ .

٤٤ - وروى عن أبي أمامة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « ما أنعم الله - عز وجل - على عبد نعمة فحمد الله - عز وجل - عليها إلا كان ذلك أفضل من تلك النعمة ، وإن عظمت »(١) رواه الطبراني .

٤٥ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم »(٢) . رواه أبو داود واللفظ له وابن ماجة والنسائى وابن حبان فى صحيحه .

* فضل سبحان الله وبحمده *

أولاً : محبوبة عند الله - جل وعلا -
ثانياً : تجلب آلاف الحسنات لذاكر الله بها ، وتكاد تؤدى شكر النعم على إنعامه وترجح كفة قائلها أمام وزن ما أنعم الله به على عباده ، إن شاء غفر له وسامحه وعفا عنه .
ثالثاً : تغرس له نخلة فى الجنة .
رابعاً : الفقير يكثر من تسبيح الله - تعالى - رجاء أن يشيد له فى الصالحات مكاناً عليا .
خامساً : تسبب غفران الخطايا وإن كثر عددها « مثل زبد البحر » .
سادساً : سبب بسط الرزق وسعته ، وإزالة الضيق وتفريج الكروب .
سابعاً : ثوابها يكتز بجوار العرش يدخر لطالبه .
ثامناً : أحب صيغة اختارها رسول الله - ﷺ -
تاسعاً : غراس الجنة بكل كلمة شجرة .
عاشراً : الإكثار من تسبيح الله بها تتحرر عشرة نفوس ذليلة ، ونحر إبل فى الإنفاق لله - تعالى .
الحادى عشر : بكل تسبيحة صدقة وذكر الله بها يؤدى الصدقات عن ٣٦٠ مفصلاً ، وهى الدروع الحصينة المانعة عذاب الله .
الثانى عشر : تلاوتها تنبىء عن تفويض العبد كل أعماله لربه ظاهرها وباطنها والشعور بالذلة والانقياد له ، والضعف والإستكانة ، وأنه وحده الفعال المنفذ القادر القهار .
الثالث عشر : بقدر تلاوتها ثمرات الجنة تدخر لذاكر الله .
الرابع عشر : الذاكرون أول زمرة يقدم لهم نعيم الله .
الخامس عشر : أعمالهم كاملة وأجورهم وافية ، والغافلون أعمالهم ناقصة قليلة البركة .
السادس عشر : تلاوتها . هذه الصيغ محمودة ومحبوبة ، وزائدة الثواب ومرجوة القبول لأنها من ألفاظ سيدنا المصطفى - ﷺ - قال - تعالى - ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾(٣)

---

(١) انظر مجمع الزوائد جـ١٠ ص٩٥ .
انظر كنز العمال رقم ١٧١٩٥ .
انظر الترغيب والترهيب جـ٢ ص٤٣٨ .
(٢) انظر عمل اليوم والليلة للنسائى ص١٥٧ رقم ٤٩٩ ولفظه : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أقطع » .
انظر سنن أبى داود جـ٥ ص١٧٢ رقم ٤٨٤٠ .
انظر سنن ابن ماجة جـ١ ص٦١٠ كتاب النكاح . باب خطبة النكاح رقم ١٨٩٤ بلفظ « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بالحمد . . »
(٣) سورة الضحى آية ٥ .

قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولاً لا يفي به . ولهذا استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً ، سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا . واحتجوا أيضا من السنة بما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال : « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا اؤتمن خان »(١) . وفى الحديث الآخر فى الصحيح : « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها »(٢) فذكر منهن إخلاف الوعد ولهذا أكد الله هذا الإنكار عليهم بقوله تعالى : ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ . وقد روى الإمام أحمد وأبو داود عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : قال : أتانا رسول الله - ﷺ - وأنا صبى ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمى : ياعبد الله : تعالى أعطك ، فقال لها رسول الله - ﷺ - « وما أردت أن تعطيه ؟ » قالت تمراً فقال « أما إنك لو لم تفعلى كتبت عليك كذبة »(٣)

وذهب الإمام مالك - رحمه الله - إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره تزوج ولك على كل يوم كذا ، فتزوج وجب عليه أن يعطيه مادام كذلك لأنه تعلق به حق آدمى وهو مبنى على المضايقة وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً وحملوا الآية على أنها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم فلما فرض نكل عنه بعضهم كقوله تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لما كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(٤) وقال - تعالى - ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ﴾(٥) الآية . وهكذا هذه الآية معناها كما قال على بن أبى طالب عن ابن عباس فى قوله - تعالى - ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ﴾ قال : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون لوددنا أن الله - عز وجل - دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إيمان به لا شك فيه ، وجهاد أهل معصيته الذين خالفوا الإيمان ولم يقروا به ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره ، فقال الله - سبحانه وتعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟ ﴾ وهذا اختيار ابن جرير .

وقال مقاتل بن حيان : قال المؤمنون لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به ، فدلهم الله على أحب الأعمال إليه ، فقال : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ١ ص١٥ كتاب الايمان . باب علامة المنافق طبعة الحلبى .
انظر صحيح مسلم جـ١ ص٧٨ كتاب الايمان باب بيان خصال المنافق رقم ١٠٧/٥٩ .
(٢) انظر صحيح البخارى جـ١ ـ ١٥ كتاب الايمان باب علامة المنافق .
انظر صحيح مسلم جـ١ ص٧٨ كتاب الايمان . باب بيان خصال المنافق رقم ١٠٦/٥٨ .
(٣) انظر سنن أبى داود جـ٥ ص٢٦٥ كتاب الأدب باب فى التشديد فى الكذب رقم ٤٩٩١ .
انظر مسند الامام أحمد جـ٣ ص٤٤٧ .
(٤) سورة النساء آية ٧٧ ، ٧٨ .
(٥) سورة محمد آية ٢٠ .

فولوا عن النبى - ﷺ - مدبرين فأنزل الله فى ذلك : ﴿ يأيها الذين امنوا لم تقولون مالا تفعلون ﴾ وقال : أحبكم إلى من قاتل فى سبيلى . ومنهم من يقول : أنزلت فى شأن القتال ، يقول الرجل قاتلت ولم يقاتل ، وطعنت ولم يطعن وضربت ولم يضرب ، وصبرت ولم يصبر .

وقال قتادة والضحاك نزلت توبيخاً لقوم يقولون قتلنا ، ضربنا ، طعنا ، وفعلنا ، ولم يكونوا فعلوا ذلك . وقال ابن زيد نزلت فى قوم من المنافقين كانوا يعدون المسلمين النصر ولا يفون بذلك . وقال مالك عن زيد بن أسلم : ﴿ لم تقولون مالا تفعلون ﴾ قال الجهاد . وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿ لم تقولون مالا تفعلون - إلى قوله - كأنهم بنيان مرصوص ﴾ فما بين ذلك فى نفر من الأنصار فيهم عبد الله بن رواحة قالوا فى مجلس : لو نعلم أى الأعمال أحب إلى الله لعملنا به حتى نموت . فأنزل الله تعالى فيهم فقال عبد الله بن رواحة لا أبرح حبيساً فى سبيل الله حتى أموت فقتل شهيداً .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن أبى حرب بن أبى الأسود الديلى عن أبيه قال : بعث أبو موسى إلى قراء أهل البصرة فدخل عليه منهم ثلثمائة رجل كلهم قد قرأ القرآن فقال : أنتم قراء أهل البصرة وخيارهم . وقال كنا نقرأ سورة نشبهها بإحدى المسبحات فأنسيناها غير أنى قد حفظت منها ﴿ يأيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ﴾ فتكتب شهادة فى أعناقكم ، فتسألون عنها يوم القيامة . لقد قرن الإسلام القول بالعمل ، وأوجب ذلك على المؤمنين كما قال - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾[1] فالإيمان والإسلام نطق باللسان وعمل بالأركان وتصديق بالجنان . ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل . وإن قوماً غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل .

كان المسيح بن مريم - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - يقول : « يابنى إسرائيل لا تأتونى تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضوارى ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله » .

لقد ألقى القرآن باللائمة على قوم أمروا ولم يأتمروا ، ونهوا غيرهم ولم ينتهوا . قال - عز من قائل - : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ لذلك فإن أنبياء الله ضربوا المثل الأعلى فى الإلتزام بالصدق قولاً وعملاً ، قال القرآن الكريم حكاية عن خطيب الأنبياء شعيب - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - : ﴿ قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾

كم تكون المسئولية خطيرة وجسيمة ، وكم يكون العقاب شديداً ومضاعفاً لقوم أمروا غيرهم ولم يأتمروا ونهوا الناس ولم ينتهوا . قال - تعالى - فى الحديث القدسى الجليل : « لقد خلقت خلقا ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، فبى حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم منهم حيران أبى يغترون أم علىّ يجترأون »

•

---

(١) سورة الكهف آية ١٠٧ .

يأيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا أبداً وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع ما تقول ويشتفى بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

وما أجمل قول القائل : .

ياواعظ الناس قد أصبحت متهماً إذ عبت منهم أموراً أنت تأتيها
تعيب دنيا وناساً عاملين لها وأنت أعظم منهم رغبة فيها

كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول لأهله : (ياآل عمر اتقوا الله فإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم) وكان يقول : (رحم الله امرءا أهدى إلىّ عيوبى) .

وقد رُويت أحاديث شريفة عن رسول الله ـ ﷺ ـ ترهب من أن يأمر بمعروف ، وينهى عن منكر ويخالف قوله فعله .

١ ـ عن أسامة بن زيد ـ رضى الله عنهما ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار ، فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون : يا فلان ، مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر وآتيه »[(١)] . رواه البخارى ومسلم . (الأقتاب : الأمعاء) .

٢ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاههم (تقطع شفاهم) بمقاريض من النار ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : الخطباء من أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون »[(٢)] رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت ، وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والبيهقى .

٣ ـ وعن الحسن ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة ما أردت بها » . قال : فكان مالك يعنى ابن دينار إذا حدث بهذا بكى ، ثم يقول : أتحسبون أن عينى تقر بكلامى عليكم ، وأنا أعلم أن الله سائلى عنه يوم القيامة . قال : ما أردت به ،

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٤٧ كتاب بدأ الخلق . باب صفة النار وأنها مخلوقة .
انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٢٠٢ كتاب الزهد والرقائق . باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله رقم ٥١/٢٩٨٩ .
(٢) انظر صحيح ابن حبان جـ ١ ص ١٣٥ .
انظر البيهقى فى شعب الايمان نسخة مصورة من المخطوطة ص ١١٩ . باب طلب العلم . فصل ما ينبغى للعالم والمتعلم أن يكون تعليمه لوجه الله تعالى .

فأقول : أنت الشهيد على قلبى لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ على اثنين أبداً »[(١)] رواه ابن أبى الدنيا والبيهقى باسناد وحيد .

٤ ـ وروى عن الوليد بن عقبة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن ناساً من أهل الجنة ينطلقون إلى اناس من أهل النار فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ، فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل »[(٢)] . رواه الطبرانى فى الكبير .

٥ ـ وعن أبى تميمة عن جندب بن عبد الله الأزدى صاحب رسول الله ـ ﷺ ـ ، ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه ، كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه »[(٣)] رواه الطبرانى وأسناده حسن ، ورواه البزار من حديث أبى برزة إلا أنه قال : مثل الفتيلة .

٦ ـ وعن عمران بن حصين ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن أخوف ما أخاف عليكم بعدى كل منافق عليم باللسان »[(٤)] رواه الطبرانى فى الكبير والبزار ، ورواته محتج بهم فى الصحيح .

٧ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن الرجل لا يكون مؤمناً حتى يكون قلبه مع لسانه سواء . ويكون لسانه مع قلبه سواء ، ولايخالف قوله عمله ، ويأمن جاره بوائقه »[(٥)] . رواه الأصبهانى .

٨ ـ وعن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنى لا أتخوف على أمتى مؤمناً ولا مشركاً . أما المؤمن فيحجزه (فيمنعه) إيمانه ، وأما المشرك فيقمعه كفره ، ولكن أتخوف عليكم منافقاً عالم اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويعمل ما تنكرون »[(٦)] رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط من رواية الحارث .

٩ ـ وعن الأعز بن أبى مالك قال : لما أراد أبو بكر أن يستخلف عمر ، بعث إليه فدعاه فأتاه فقال : إنى أدعوك لأمر متعب لمن وليه ، فاتق الله يا عمر بطاعته ، وأطعه بتقواه ، فإن التقى آمن محفوظ ، ثم إن الأمر معروض لا يستوجبه إلا من عمل به ، فمن أمر بالحق وعمل بالباطل ، وأمر بالمعروف وعمل بالمنكر يوشك أن تنقطع أمنيته ، وأن يحبط عمله ، فإن أنت وليت عليهم أمرهم ، فإن استطعت أن تجف يدك من دمائهم وأن تضمر بطنك من أموالهم ، وأن تُجفَّ لسانك عن أعراضهم فافعل ولا قوة إلا بالله » رواه الطبرانى ورواته ثقات .

---

(١) انظر جامع الأحاديث جـ٥ ص٥٩٢ رقم ١٨٨٤٠ .
انظر البيهقى فى شعب الايمان . باب العلم .
(٢) انظر مجمع الزوائد جـ١ ص١٨٥ باب فى من لم ينتفع بعلمه .
انظر المعجم الكبير للطبرانى جـ٢٢ ص١٥٠ رقم ٤٠٥ .
(٣) انظر مجمع الزوائد جـ١ ص١٨٤ باب فى من لم ينتفع بعلمه
(٤) انظر زوائد البزار جـ١ ص٩٧ رقم ١٦٨ عن عمر .
انظر الترغيب والترهيب جـ١ ص١٢٧
انظر كنز العمال رقم ٢٨٩٧٠ . اتحاف السادة المتقين جـ١٠ ص ٢٢ .
(٥) انظر حلية الأولياء للأصبهانى جـ٤ ص١٦٦ .
(٦) انظر المعجم الصغير للطبرانى جـ٢ ص٩٣ .

١٠ - وعن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « يبصر أحدكم القذاة فى عين أخيه وينسى الجذع فى عينه »(١) رواه ابن حبان فى صحيحه .

* فضل القتال فى سبيل الله *

قوله - تعالى -: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ فهذا اخبار من الله - تعالى - بمحبته عباده المؤمنين إذا صفوا مواجهين لأعداء الله فى حومة الوغى ، يقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله لتكون كلمة الله هى العليا ، ودينه هو الظاهر العالى على سائر الأديان .

قال الامام أحمد بسنده عن أبي سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفوا للصلاة ، والقوم إذا صفوا للقتال »(٢) . رواه ابن ماجه بسنده عن عبد الله بن الشخير قال : قال مطرف كان يبلغنى عن أبى ذر حديث كنت أشتهى لقاءه فلقيته . فقلت : يا أبا ذر : كان يبلغنى عنك حديث فكنت أشتهى لقاءك ، فقال لله أبوك فقد لقيت فهات : فقلت كان يبلغنى عنك أنك تزعم أن رسول الله - ﷺ - حدثكم « أن الله يبغض ثلاثة ويحب ثلاثة . قال أجل . فلا إخالنى أكذب على خليلى - ﷺ - قلت فمن هؤلاء الثلاثة الذين يحبهم الله عز وجل ؟ قال : رجل غزا فى سبيل الله خرج محتسباً مجاهداً فلقى العدو فقتل ، وأنتم تجدونه فى كتاب الله المنزل ثم قرأ : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾(٣) .

وعن كعب الأحبار أنه قال : يقول الله - تعالى - لمحمد - ﷺ - « عبدى المتوكل المختار ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، مولده بمكة وهجرته بطيبة ، وملكه الشام وأمته الحمادون يحمدون الله على كل حال ، وفى كل منزلة لهم دوى كدوى النحل فى جو السماء بالسحر ، يوضئون أطرافهم ويأتزرون على أنصافهم صفهم فى القتال مثل صفهم فى الصلاة » . ثم قرأ : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ رعاة الشمس يصلون الصلاة حيث أدركتهم ولو على ظهر دابة(٤) رواه ابن أبى حاتم .

---

(١) انظر صحيح ابن حبان جـ٧ ص٥٠٦
(٢) انظر مسند الامام أحمد جـ٣ ص ٨٠
(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ٨ ص١٣٣ طبعة الشعب .
انظر سنن الترمذى حديث رقم ٢٥٦٨ .
انظر مسند أحمد جـ٥ ص١٧٦ .
(٤) انظر الشفاء للقاضى عياض جـ١ ص١٥ ، ١٦ .
انظر تفسير ابن كثير جـ٢ ص١٣٤ طبعة الشعب .

وقال سعيد بن جبير فى قوله - تعالى - : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً ﴾ قال : كان رسول الله - ﷺ - لا يقاتل العدو إلا أن يصافهم ، وهذا تعليم من الله للمؤمنين . قال : وقوله - تعالى - : ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ أى : ملتصق بعضه فى بعض من الصف فى القتال . وقال مقاتل بن حيان : ملتصق بعضه إلى بعض . وقال ابن عباس : (كأنهم بنيان مرصوص) مثبت لا يزول ملصق بعضه ببعض . وقال قتادة : (كأنهم بنيان مرصوص) ألم تر إلى صاحب البنيان كيف لا يحب أن يختلف بنيانه . فكذلك الله - عز وجل - لا يحب أن يختلف أمره وإن الله صف المؤمنين فى قتالهم وصفهم فى صلاتهم فعليكم بأمر الله فإنه عصمة لمن أخذ به . أورد ذلك كله ابن أبى حاتم . وقال ابن جرير بسنده عن أبى بحرية قال : كانوا يكرهون القتال على الخيل ويستحبون القتال على الأرض لقول الله عز وجل : ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ﴾ قال : وكان أبو بحرية يقول : إذا رأيتمونى ألتفت فى الصف فجؤا فى لحيى [1] .

* بعض ما ورد من الآيات القرآنية *
فى فضل الجهاد بالنفس والمال

قال الله - تعالى - : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ البقرة - ٢٤٤ ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ البقرة - ٢٦١ ، ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين ﴾ آل عمران ١٦٩ - ١٧١ .

وقال - تعالى - : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ ، آل عمران ٢٠٠ .

وقال - تعالى - : ﴿ فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ النساء - ٧٤ .

وقال - تعالى - : ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ النساء - ٧٦ .

وقال - تعالى - : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً . درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ النساء ٩٥ - ٩٦ .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ٨ ص١٣٤ .
انظر تفسير الطبرى ٢٨/٥٧ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ المائدة ـ ٥٤ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ الأنفال ١٥ ـ ١٦ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ الأنفال ـ ٣٩ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ الأنفال ٤٥ ـ ٤٦ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ الأنفال ٦٠ ـ ٦١ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ الأنفال ٦٥ ـ ٦٦

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ التوبة ـ ٢٩ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ التوبة ٣٦ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ التوبة ـ ٤١ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ التوبة ـ ١١١ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾ الحج ـ ٧٨ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ محمد ـ ٤ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ الحجرات ـ ١٥ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ التوبة ـ ٧٣ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ البقرة ـ ٢١٦ .

وقال ـ تعالى ـ : ﴿ يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ﴾ الصف ١٠ ـ ١٣ .

وغير ذلك من الآيات القرآنية الواردة فى فضل الجهاد .

وأما الأحاديث الأربعون فهى هذه :

الحديث الأول

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها [1] وحسابهم على الله » رواه مسلم .

١ ـ ذكر القاضى عياض معنى هذا وزاد عليه وأوضحه فقال : اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان ، وأن المراد بهذا مشركوا العرب وأهل الأوثان ومن لا يوجد ، وهم كانوا أول من دعى إلى الإسلام وقوتل عليه ، فأما غيرهم ممن يقر بالتوحيد ـ كأهل الكتاب وإن كان توحيدهم غير صحيح ولا ينفعهم شيئا ـ فلا يكتفى فى عصمته بقوله لا إله إلا الله ، إذا كان يقولها فى كفره وهى من اعتقاده ، فلذلك جاء الحديث : « وأنى رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة » هذا كلام القاضى .

قلت ـ أى الامام النووى : ولابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به رسول الله ـ ﷺ ـ لما جاء فى الرواية الأخرى لأبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وهى مذكورة فى الكتاب ـ مسلم (٢١) : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بى وبما جئت به » والله أعلم .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ١ ص٥٢ ، ٥٣ كتاب الايمان باب ٨ رقم ٢١/٣٥ .
انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ١ ص١٣ كتاب الايمان باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة . طبعة الحلبى .

الحديث الثانى

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سئل رسول الله ـ ﷺ ـ : أى العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ورسوله » قيل ثم ماذا ؟ قال : « جهاد فى سبيل الله » . قيل : ثم ماذا ؟ قال : « حج مبرور »[١] رواه البخارى ومسلم .

١ ـ قال الحافظ بن حجر : فإن قيل : لم قدم الجهاد وليس بركن على الحج وهو ركن ؟ فالجواب : إن نفع الحج قاصر غالبا ، ونفع الجهاد متعد غالباً . أو كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين ، ووقوعه فرض عين إذ ذاك متكرر ، فكان أهم منه فقدّم .

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يا رسول الله أى الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله والجهاد فى سبيل الله »[٢] رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت : يا رسول الله أى العمل أحب إلى الله ـ تعالى ـ ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أى ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »[٣] رواه البخارى ومسلم .

٢ ـ محصل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما أختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال : أن الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين ، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه ، أو بما لهم فيه رغبة ، أو بما هو لائق بهم . أو كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل فى ذلك الوقت أفضل منه فى غيره .

فقد كان الجهاد فى ابتداء الإسلام أفضل الأعمال لأنه الوسيلة إلى القيام بها والتمكن من أدائها . وقد تضافرت النصوص على أن الصلاة ـ للنوافل ـ أفضل من الصدقة . ومع ذلك ففى وقت مواساة المضطر تكون الصدقة أفضل .

الحديث الثالث

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى رجل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : أى الناس أفضل ؟ قال : « مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله » . قال : ثم من ؟ قال : « مؤمن فى شعب من الشعاب يعبد الله ربه ، ويدع الناس من شره »[٤] رواه البخارى ومسلم .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ١ ص ١٤ كتاب الايمان باب ١٧ طبعة الحلبى

(٢) انظر صحيح مسلم جـ١ ص ٨٨ ، ٨٩ كتاب الايمان باب بيان أن الايمان بالله تعالى أفضل الأعمال رقم ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص ١٣٤ كتاب الجهاد والسير باب ١ .

(٤) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص ١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب أفضل الناس مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله . انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٣ كتاب الامارة . باب فضل الجهاد والمرابطة رقم ١٢٢ ، ١٨٨٨/١٢٣ .

١ - الحديث محمول على الاعتزال فى زمن الفتن والحروب - بين المسلمين - أو هو فيمن لا يسلم الناس منه ولا يصير عليهم ، أو نحو ذلك من الخصوص .

وقد كانت الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وجماهير الصحابة والتابعين والعلماء والزهاد مختلطين ، فيحصِّلون منافع الاختلاط كشهود الجمعة والجماعة ، والجنائز ، وعيادة المرضى ، وحِلَق الذكر ، وغير ذلك .

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : مر رجل من أصحاب النبى - ﷺ - بشعب - هو ما انفرج بين جبلين - فيه عيينة - تصغير عين - من ماء عذبة فأعجبته لطيبها ، فقال : لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشِّعب ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله - ﷺ - . فذكر ذلك لرسول الله - ﷺ - فقال : « لاتفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله فُواق الناقة - هو ما بين الحلبتين من الوقت - وجبت له الجنة »[1] رواه الترمذى وقال : هذا حديث حسن .

الحديث الرابع

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « لا تستطيعونه » . فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً ، كل ذلك يقول : « لا تستطيعونه » . ثم قال : « مثل المجاهد فى سبيل الله ، كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفْتُر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد فى سبيل الله »* . رواه البخارى ومسلم .

١ - قال الامام النووى : فى هذا الحديث عظيم فضل الجهاد ، لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله - تعالى - أفضل الأعمال ، وقد جعل المجاهد مثل من لا يفتر عن ذلك فى لحظة من اللحظات . ومعلوم أن هذا لا يتأتى لأحد ، ولهذا قال - ﷺ - : « لاتستطيعونه » . والله أعلم . شرح مسلم .

الحديث الخامس

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رجلاً قال : يا رسول الله دلنى على عمل يعدل الجهاد ؟ قال : « لا أجده » ثم قال : « هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر ، وتصوم ولا تفطر ؟ »[2] فقال ومن يستطيع ذلك ؟»[2] رواه البخارى .

١ - قال العلامة ابن حجر : هذه فضيلة ظاهرة للمجاهد فى سبيل الله ، تقتضى أن لا يعدل الجهاد شىء من الأعمال . قال عياض : اشتمل الحديث على تعظيم أمر الجهاد ، لأن الصيام وغيره مما ذكر من

---

(١) انظر سنن الترمذى جـ٤ ص١٥٥ كتاب فضائل الجهاد . باب ما جاء فى فضل الغدر والرواح فى سبيل الله رقم ١٦٥٠ .

(*) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص١٣٥ باب أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله .
انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٩٨ كتاب الامارة . باب فضل الشهادة فى سبيل الله رقم ١١٠/١٨٧٨ .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى . جـ٢ ص١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب ١ .

فضائل الأعمال قد عدلها كلها الجهاد ، حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها . فتح البارى .

الحديث السادس

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »(١) رواه البخارى .

١ - ليس فى سياق الحديث التصريح بأن العدد المذكور هو جميع درج الجنة من غير زيادة ، إذ ليس فيه ما ينفيها . ويؤيد ذلك أن فى حديث أبى سعيد المرفوع الذى أخرجه أبو داود وصححه الترمذى وابن حبان : « ويقال لصاحب القرآن اقراء وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها »(٢) . وعدد أى القرآن أكثر من ستة آلاف ومائتين ، والخلف فيما زاد على ذلك من الكسور .

الحديث السابع

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من رضى بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ، وجبت له الجنة » . فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علىّ يا رسول الله . فأعادها عليه ، ثم قال : « وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة فى الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » . قال : وما هى يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله »(٣) رواه مسلم .

١ - قال القاضى عياض - رضى الله عنه - يحتمل أن هذا على ظاهره وأن الدرجات هنا المنازل التى بعضها أرفع من بعض فى الظاهر ، وهذه صفة منازل أهل الجنة . كما جاء فى أهل الغرف أنهم يتراءون كالكوكب الدرى الشديد الإنارة ويحتمل أن المراد الرفعة بالمعنى فى كثرة النعيم وعظيم الإحسان ، مما لم يخطر على قلب بشر ولا يصفه مخلوق ، وأن أنواع ما أنعم الله به عليه من البر والكرامة يتفاضل تفاضلاً كثيراً ويكون تباعده فى الفضل كما بين السماء والأرض فى البعد قال القاضى : والاحتمال الأول أظهر . شرح مسلم .

الحديث الثامن

عن أبى بكر بن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قال : « سمعت أبى وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف » . فقام رجل رث الهيئة فقال : يا أبا موسى ، أأنت سمعت رسول الله - ﷺ - يقول هذا ؟ قال نعم ، فرجع إلى أصحابه فقال : اقرأ

---

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى . جـ٢ ص١٣٦ . كتاب الجهاد والسير باب درجات المجاهدين فى سبيل الله .

(٢) انظر سنن الترمذى جـ٤ ص١٦٣ كتاب فضائل القرآن . باب ١٨ رقم ٢٩١٤ .
انظر صحيح ابن خبان جـ٢ ص ٧١ رقم ٧٦٣

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠١ كتاب الامارة باب ما أعده الله للمجاهد . رقم ١١٦/١٨٨٤ .

عليكم السلام . ثم كسر جفن سيفه* فألقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل* رواه مسلم .

١ ـ قال النووى فى شرح مسلم : قال العلماء معناه أن الجهاد وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها .

وقال المناوى فى شرح الجامع : هو كناية عن الدنو من العدو فى الحرب بحيث تعلوه السيوف فيصير ظلها عليه . وقال أبواب الجنة ولم يقل الجنة لأن المراد أن الجهاد طريق لذلك ، وهذا التعبير أدل عليه .

الحديث التاسع

عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : أتى النبى ـ ﷺ ـ رجل مقنع بالحديد فقال : يا رسول الله : أقاتل أو أسلم ؟ قال : « أسلم ثم قاتل » . فأسلم ثم قاتل فقُتل ، فقال رسول الله ﷺ : « عمل قليلاً وأجر كثيراً »[1] . رواه البخارى ومسلم .

وعنه ـ رضى الله عنه ـ قال : جاء رجل من بنى النبيت ـ قبيل من الأنصار ـ فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك عبده ورسوله . ثم تقدم فقاتل حتى قتل ، فقال النبى ﷺ : « عمل هذا يسيراً وأجر كثيراً » رواه مسلم .

الحديث العاشر

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : انطلق رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لايقدمن أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا دونه » . فدنا المشركون ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » . قال عمير بن الحمام[1] يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : « نعم » . قال : بخ . بخ . فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « مايحملك على قولك بَخٍ . بَخٍ » قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » . فأخرج ثمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : إن أنا حييت حتى آكل ثمراتى هذه إنها لحياة طويلة . فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رضى الله عنه »* . رواه مسلم .

(*) جَفن السيف : أى : غمده .

(*) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٥١١ كتاب الامارة . باب ٤١ رقم ١٩٠٢/١٤٦ .

انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٥٠٩ كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد رقم ١٩٠٠/١٤٤ .

انظر صحيح مسلم جـ٣ ص ١٥١٠ ، ١٥١١ كتاب الامارة . باب ٤١ رقم ١٩٠١/١٤٥ .

قوله : (بخ . بخ) : كلمة تقال عند التعجب من الشيء واستحسانه وقوله (من قرنه) : هو جُعبة النُّشاب .

١ - عمير بن الحمام الأنصارى السلمى - رضى الله عنه - أول شهيد من الأنصار فى الاسلام فى حرب . كان رسول الله - ﷺ - قد آخى بينه وبين عبيدة بن الحارث المطلبى فاستشهدا يوم بدر . وقد روى هذا الحديث ابن اسحاق وزاد : أنه أخذ السيف فقاتل القوم وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد إلا التُّقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد
وخير ما قاد إلى الرشاد وكل حى فإلى نفاد .

الحديث الحادى عشر

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا يجتمع كافر وقاتله فى النار أبداً » . رواه مسلم(*)

يعنى : قاتل الكافر فى الجهاد فى سبيل الله .

١ - فى شرح مسلم قال القاضى عياض : يحتمل أن هذا مختص بمن قتل كافراً فى الجهاد ، فيكون ذلك مكفراً لذنوبه حتى لا يعاقب عليها ، وأن يكون عقابه بغير النار . أو يعاقب فى غير مكان عقاب الكفار ، ولا يجتمعان فى أدراكها . قال الطيبى : والأول هو الوجه وهو من الكناية التلويحية نفى الاجتماع فيلزم منه نفى المساواة بينهما . فيلزم ألا يدخل المجاهد النار أبداً ، فإنه لو دخلها لساواه .

وقوله أبداً بمعنى قط فى الماضى وعوض فى المستقبل تنزيلاً للمستقبل منزلة الماضى . قال الجوهرى . يقال : لا أفعله أبد الأبد وأبد الآبدين ، كما يقال دهر الداهرين وعوض العائضين . والمقام يقتضيه لأنه ترغيب فى الجهاد والحث عليه .

الحديث الثانى عشر

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله الا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى ، اللون لون دم والريح ريح مسك »(١) رواه البخارى ومسلم ومعنى كلم : جرح .

١ - الحكمة فى كون الدم يأتى يوم القيامة على هيئته أنه يشهد لصاحبه بفضله وعلى ظالمه بفعله . وفائدة رائحته الطيبة أن تنتشر فى أهل الموقف إظهاراً لفضيلته أيضاً ، ومن ثم لم يشرع غسل الشهيد فى المعركة .

(*) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٥ كتاب الامارة . باب ٣٦ رقم ١٨٩١/١٣٠ .

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى ط/الحلبى جـ٢ ص١٣٨ كتاب الجهاد والسير . باب من يجرح فى سبيل الله . انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٩٦ كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٨٧٦/١٠٥

الحديث الثالث عشر

عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يدخل على أم حرام بنت ملحان فتطعمه [١] . وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله ﷺ فأطعمته ثم جلست تفلى رأسه . فنام رسول الله - ﷺ - ثم استيقظ وهو يضحك . قالت : فقلت : يا رسول الله ما يضحكك ؟ قال : « ناس من أمتى عرضوا علىّ غزاة فى سبيل الله ، يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة أو مثل الملوك على الأسرة »[٢] .

قالت : فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم . فدعا لها ثم وضع رأسه فنام ، ثم استيقظ وهو يضحك . قالت : فقلت ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : « ناس من أمتى عرضوا على غزاة فى سبيل الله » ، كما قال فى الأولى قالت : فقلت : يا رسول الله أدع الله أن يجعلنى منهم . قال : « أنت من الأولين » . فركبت أم حرام بنت ملحان البحر فى زمن معاوية ، فصرعت عن دابتها حين خرجت من البحر فهلكت - رضى الله عنها - . رواه البخارى ومسلم .

ومعنى ثبج البحر : وسطه ومعظمه .

قال الحافظ المنذرى فى كتابه الترغيب والترهيب : كان معاوية - رضى الله عنه - قد أغزى عبادة بن الصامت قبرس ، فركب البحر غازياً وركبت معه زوجته أم حرام .

١ - قال النووى : اتفق العلماء على أنها كانت محرماً له - ﷺ - واختلفوا فى كيفية ذلك . فقال ابن عبد البر وغيره : كانت احدى خالاته من الرضاعة ، وقال آخرون : بل كانت خالة لأبيه أو لجده لأن عبد المطلب كانت أمه من بنى النجار .

٢ - قال ابن عبد البر : أراد - والله أعلم - أنه رأى الغزاة فى البحر من أمته ملوكاً على الأسرة فى الجنة ، ورؤياه وحى ، وقد قال تعالى فى صفة أهل الجنة : ﴿ على سُرُر متقابلين ﴾[٣] وقال : ﴿ على الأرائك متكئون ﴾[٤] والأرائك هى السرر فى الحجال . فتح البارى .

٣ - فى الحديث معجزات للنبى - ﷺ - منها اخباره ببقاء أمته بعده وأنه تكون لهم شوكة وقوة وعدد ، وأنهم يغزون وأنهم يركبون البحر وأن أم حرام تعيش إلى ذلك الزمان وأنها تكون معهم . وقد وجد - بحمد الله تعالى - كل ذلك . شرح مسلم .

٤ - كان ذلك سنة ثمان وعشرين ، وكان فى خلافة عثمان ومعاوية يومئذ أمير الشام . فتح البارى .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٨ ، ١٥١٩ كتاب الامارة باب ٤٩ رقم ١٦٠/١٩١٢

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص١٤٩ كتاب الجهاد والسير . باب غزو المرأة فى البحر ط/الحلبى

(٣) سورة الصافات آية ٤٤

(٤) سورة يس آية ٥٦

الحديث الرابع عشر

عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ أن اعرابياً أتى النبى ـ ﷺ ـ فقال : يا رسول الله الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليُذكر ، والرجل يقاتل ليُرى مكانه فمن فى سبيل الله ؟ فقال : رسول الله ـ ﷺ ـ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله »[(١)] . رواه البخارى ومسلم

١ ـ قال الحافظ بن أبى حمزة : الجواب هنا احتمل وجوهاً لكل واحد منها حكم أحدهما : وهو أعلاها بلا خلاف وهو أن يكون لله ولا يكون هناك غير ذلك .

والثانى : أن يكون المثير للقتال أحد الوجوه المذكورة فى الحديث ، أو الزيادة التى فى غيره ، وهى أن يقاتل طبعاً ، ثم عند الشروع يجرد النية أن تكون كلمة الله هى العليا ، فهذا هو الذى يعطيه نص الحديث . لأن المثير للشىء لا يُلتفت إليه إذا لم يُستصحب به الحال حتى يكون الفعل له ، لأن الحكم للأحداث فالأحداث .

الثالث : أن يكون لذلك المؤثر ولله معاً ـ على حدٍّ واحد ـ فهذا ليس من الله فى شىء . لما جاء أن الله ـ جل جلاله ـ إذا كان فى العمل شرك لغيره يقول الله يوم القيامة لصاحب العمل : « أنا أغنى الشركاء ، اذهب فاطلب الأجر من غيرى »[(٢)]

الرابع : أن يكون لأحد الوجوه المذكورة لا غير ، فهذا له ما يقتضيه فعله ونيته من إثم أو إباحة بحسب قواعد الشرع فى كل قضية . بهجة النفوس .

الحديث الخامس عشر

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[(٣)] رواه البخارى ومسلم .

١ ـ قال ابن دقيق العيد : يحتمل ـ الحديث ـ وجهين ، أحدهما أن يكون من باب تنزيل المغيَّب منزلة المحسوس تحقيقاً له فى النفس . لكون الدنيا محسوسة فى النفس مستعظمة فى الطباع ، فلذلك وقعت المفاضلة بها . وإلا فمن المعلوم أن جميع ما فى الدنيا لا يساوى ذرة مما فى الجنة . والثانى : أن المراد أن هذا القدر من الثواب خير من الثواب الذى يحصل لمن لو حصلت له الدنيا كلها لأنفقها فى طاعة الله ـ تعالى ـ .

---

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص١٣٩ كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة هى العليا .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٢ ، ١٥١٣ كتاب الامارة باب ٤٢ رقم ١٤٩/١٩٠٤
(٣) انظر صحيح البخارى جـ٢ ص١٣٦ كتاب الجهاد والسير . باب الغدوة والروحة فى سبيل الله ط/الحلبى .
انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٩٩ كتاب الامارة باب ٣٠ رقم ١١٢/١٨٨٠

قال ابن حجر : إن سبب التأخير عن الجهاد الميل إلى سبب من أسباب الدنيا ، فنبه هذا المتأخر أن هذا القدر اليسير من الجنة أفضل من جميع ما فى الدنيا .

الغدوة : الذهاب قبل الظهر ، والروحة : الرجوع بعده والمراد هنا : الذهاب والرجوع مطلقاً .

الحديث السادس عشر

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « تضمَّن الله[1] لمن خرج فى سبيله ، لا يخرجه إلا جهاداً فى سبيلى وإيماناً بى وتصديقاً برسلى ، فأنا ضامن أن أدخله الجنة ، أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة . والذى نفس محمد بيده ما كلم يكلم فى سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلِمَ ، لونه لون دم ، وريحه مسك ، والذى نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلف سرية تغزو فى سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ، ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عنى . والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل »[2] رواه مسلم .

ورواه البخارى بلفظ : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله وتصديق لكلماته ، أن يدخله الجنة أو يرده إلى مسكنه بما نال من أجر أو غنيمة » . الحديث .

١ - وفى الرواية الأخرى « تكفل الله » ومعناهما : أوجب الله تعالى له الجنة بفضله وكرمه سبحانه وتعالى . وهذا الضمان والكفالة موافق لقوله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[3] .

٢ - قال الإمام النووى : فى الحديث ما كان عليه - ﷺ - من الشفقة على المسلمين والرأفة بهم ، وأنه كان يترك بعض ما يختاره للرفق بالمسلمين وأنه إذا تعارضت المصالح بدأ بأهمها .

٣ - قال الحافظ بن حجر : ظاهر الحديث أنه إذا غنم لا يحصل له أجر ، وليس ذلك مراداً . بل المراد أو غنيمة معها أجراً نقص من أجر من لم يغنم . لأن القواعد تقتضى أن الجهاد عند عدم الغنيمة أفضل منه وأتم أجراً عند وجودها فالحديث صريح فى نفى الحرمان ، وليس صريحاً فى نفى الجمع .

الحديث السابع عشر

عن عبد الرحمن بن جبير - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما اغبرّت قدما عبد فى سبيل الله فتمسَّه النار[4] » رواه البخارى .

١ - قال ابن حجر : فى هذا إشارة إلى عظيم قدر التصرف فى سبيل الله ، فإذا كان مجرد مس الغبار للقدم يحرم عليها النار ، فكيف بمن سعى وبذل جهده واستنفذ وسعه .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٩٥ ، ١٤٩٦ كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٠٣/١٨٧٦

(٢) سورة التوبة آية ١١١

(٣) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٢٥ كتاب الجهاد والسير بباب ما غيرت قدماه فى سبيل الله .

وهذا ليس منحصراً بالجهاد فى سبيل الله ، بل كل طاعة يجاهد المسلم فيها نفسه داخله فى هذا المعنى . قال ابن أبى حمزة : وهو الأظهر كما ذهب إليه بعض الصحابة حيث قال لأخيه حين لقيه فى طريق المسجد قد اغبرت قدماه فسأله : أغير الصلاة أخرجك ؟ . قال : لا ، لم أخرج لغيرها . فقال : شهدت على رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « ما اغبرّت قدما رجل فى سبيل الله إلا حرمه الله على النار » . فقال له الرجل : ذلك خاص بالقتال ، فقال الصحابى : أفعال الخير كلها فى سبيل الله . وقد قال ـ عليه السلام ـ : فى الخارج للمسجد : « هو فى ذمة الله إن مات أدخله الله الجنة ، وإن رجع إلى منزله كان كالمجاهد رجع بالأجر والغنيمة » وهذا نص فى المسألة فيجب تعديه فى جميع وجوه البر ، ويكون الأول ـ أى الجهاد ـ منها أظهرها وأعلاها .

الحديث الثامن عشر

عن سهل بن سعد ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها[1] » رواه البخارى ومسلم .

١ ـ الرباط : ههنا مرابطة الغزو فى نحور العدو ، وحفظ ثغور الإسلام وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين . قال ابن قتيبة : أصل الرباط أن يربط هؤلاء خيلهم وهؤلاء خيلهم استعداداً للقتال ، قال الله ـ تعالى ـ : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل** ﴾[2] .

ولقد كان الرباط دأب السلف كالأوزاعى والشافعى وغيرهم من علماء هذه الأمة . وروى الحافظ بن عساكر فى ترجمة عبد الله بن المبارك أنه أرسل إلى الفضيل بن عياض من مكان مرابطته بطرسوس هذه الأبيات :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى العبادة تلعب
من كان يخضب خدّه بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله فى باطل ... فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوى غبار خيل الله فى ... أنف إمرىء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال ـ ناقل الرسالة ـ : فلقيت الفضيل بن عياض بكتابه فى المسجد الحرام ، فلما قرأه ذرفت عيناه وقال : صدق أبو عبد الرحمن ـ ابن المبارك ـ ونصحنى .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٤٣ . كتاب الجهاد والسير . باب فضل رباط يوم فى سبيل الله .
(٢) سورة الأنفال آية ٦٠ .

الحديث التاسع عشر

عن سلمان الفارسى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . وإن مات فيه جرى عليه عمله الذى كان يعمله[١] » ، وأجرى عليه رزقه ، وأمن الفتَّان »[٢] . رواه مسلم . يعنى فتنة القبر .

١ ـ قال الإمام النووى : هذه فضيلة ظاهرة للمرابط ، وجريان عمله عليه بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها أحد . وقد جاء جريحاً فى غير مسلم ـ عند أبى داود والترمذى وأحمد ـ : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة » .

الحديث العشرون

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه فى سبيل الله ، أشعث رأسه ، مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يُشفَّع[٣] رواه البخارى .

١ ـ قال ابن الجوزى : المعنى أنه خامل الذكر لا يقصد السمو ، فإن اتفق له السير سار . فكأنه قال : إن كان فى الحراسة استمر فيها ، وإن كان فى الساقة استمر فيها .

وطوبى : فعْلَى من كل شىء طيب . وقال بعضهم : المراد الدعاء له بالجنة ، لأن طوبى أشهر شجرها وأطيبه فدعا له أن ينالها .

الحديث الحادى والعشرون

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من خير معاش الناس لهم ، رجل يُمسك بعنان فرسه فى سبيل الله[٤] » . يطير على متنه . كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه . يبتغى القتل أو الموت مظَانَّه[٥] . أو رجل فى غنيمة فى رأس شعفة من هذه الشعف . أو بطن واد من هذه الأودية . يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة . ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين . ليس من الناس إلا فى خير »[ب] رواه مسلم . والشعفة : رأس الجبل .

(١) قال النووى : المعاش هو العيش وهو الحياة ، وتقديره . والله أعلم من خير أحوال عيشهم رجل ممسك .

(٢) هيعة : الصوت عند حضور الأعداء . والفزعة : النهوض إلى العدو . ومعنى يبتغى القتل مظانة : يطلبه فى مواطنه التى يرجى فيها لشدة رغبته فى الشهادة .

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٢٠ . كتاب الامارة باب ٥٠ رقم ١٩١٣/١٦٣ .

(٢) انظر سنن الترمذى جـ٤ ص١٤٢ . كتاب فضائل الجهاد رقم ١٦٢١ وقال : حديث حسن صحيح .

(٣) انظر مسند الامام احمد جـ٤ ص ١٥٠ ، ١٥٧ ، ٢٠٦ .

(٤) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٤١ ، ٤٢ . كتاب الجهاد باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله . وأول الحديث تعس عبد الدينار وعبد الدرهم .

(٥) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٣ ، ١٥٠٤ . كتاب الامارة . باب ٣٤ رقم ١٨٨٩/١٢٥ .

الحديث الثانى والعشرون

عن زيد بن خالد الجهنى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من جهز غازياً فى سبيل الله فقد غزا ، ومن خلف غازياً فى أهله بخير فقد غزا »[1] رواه البخارى ومسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - بعث إلى بنى لحيان : « ليخرج من كل رجلين رجل[2] ، ثم قال للقاعد : « أيكم خلف الخارج ، فى أهله فله مثل أجره » . رواه مسلم .

(١) أى حصل له أجر بسبب الغزو . وهذا الأجر يحصل بكل جهاد سواء قليله وكثيره ، ولكل خالف له فى أهله بخير من قضاء حاجة لهم وإنفاق عليهم أو ذب عنهم أو مساعدتهم فى أمر لهم . ويختلف قدر الثواب بقلة ذلك وكثرته . وفى الحديث الحث على الإحسان إلى من فعل مصلحة للمسلمين أو قام بأمر من مهماتهم .

(٢) قال النووى : اتفق العلماء على أن بنى لحيان كانوا فى ذلك الوقت كفاراً ، فبعث إليهم بعثاً يغزونهم وقال لذلك البعث ليخرج من كل قبيلة نصف عددها وهو المراد بقوله : « من كل رجلين رجل » .

الحديث الثالث والعشرون

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من احتبس فرساً فى سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده ، فإن شبعه وريّه وروثه وبوله فى ميزانه يوم القيامة[3] يعنى حسنات . رواه البخارى .

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قيل : يا رسول الله فالخيل ؟ قال : « الخيل لثلاثة : هى لرجل وزر ، وهى لرجل ستر ، وهى لرجل أجر فأما التى هى وِزر ، فرجل ربطها رياء وفخراً ونواء على أهل الإسلام[3] . فهى له وزر ، وأما التى هى له ستر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ، ثم لم ينس حق الله فى ظهورها ولا رقابها[4] . فهى له ستر . وأما التى هى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام ، فى مرج وروضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شىء ، إلا كتب له ، عدد ما أكلت حسنات ، وكتب له ، عدد أرواثها وأبوالها حسنات ، ولا تقطع طِوَلها فاستنّت شرفاً أو شرفين إلا كتب له ، عدد آثارها ، وأرواثها حسنات ، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت منه ولا يريد أن يسقيها ، إلا كتب الله له ، عدد ما شربت حسنات »[5] . رواه البخارى ومسلم .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٧ . كتاب الامارة باب ٣٨ رقم ١٨٩٥/١٣٦ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٧ . كتاب الامارة باب فضل اعانة الغازى فى سبيل الله . رقم ١٨٩٣/١٣٣
(٣) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٣٤ كتاب الجهاد والسير . باب من احتبس فرساً .
(٤) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٦٥ - ٣٦ . كتاب الجهاد والسير . باب الخيل لثلاثة .
(٥) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص٦٨١ كتاب الزكاة . باب اثم مانع الزكاة . رقم ٩٨٧/٢٤ .

طولها : حبلها الذى تربط به فى المرعى .

واستنت : عدت ومرحت .

وشرفاً : شوطاً .

(١) أى معاداة لأهل الإسلام .

(٢) المراد أنه يجاهد عليها .

(٣) هذا من باب التنبيه لأنه إذا كان يحصل له هذه الحسنات من غير أن يقصد سقيها فإذا قصده فأولى بأضعاف الحسنات .

الحديث الرابع والعشرون

عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله ، إلا باعد الله ، بذلك اليوم ، وجهه عن النار سبعين خريفاً »[1] . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال ابن الجوزى : إذا أطلق ذكر « فى سبيل الله » فالمراد به الجهاد .

وقال القرطبى : سبيل الله طاعة الله ، فالمراد من صام قاصداً وجه الله .

قال الحافظ بن حجر : ويحتمل أن يكون ما هو أعم من ذلك ، ثم وجدته فى « فوائد أبى الطاهر الذهلى » عن أبى هريرة بلفظ : « ما من مرابط يرابط فى سبيل الله فيصوم يوماً فى سبيل الله ، ولا يعارض ذلك أن الفطر فى الجهاد أولى ، لأن الصائم يضعف عن اللقاء . والفضل المذكور محمول على من لم يخش ضعفاً ، ولا سيما من اعتاده فصار ذلك من الأمور النسبية . فمن لم يضعفه الصوم عن الجهاد فالصوم فى حقه أفضل ليجمع بين الفضيلتين .

(٢) الخريف زمان معلوم من السنة والمراد به هنا العام . وتخصيص الخريف بالذكر دون باقى الفصول ، الصيف والشتاء والربيع ، لأن الخريف أزكى الفصول لكونه يجنى فيه الثمار . قال القرطبى : ورد ذكر السبعين لإرادة التكثير كثيراً .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٣٢ . كتاب الجهاد والسير باب فضل الصوم فى سبيل الله ط/الشعب . انظر صحيح مسلم جـ٢ ص٨٠٨ . كتاب الصيام . باب فضل الصيام فى سبيل الله . رقم ١١٥٣/١٦٧

الحديث الخامس والعشرون

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شىء غير الشهيد[١] فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات ، لما يرى من الكرامة »[٢] . وفى رواية : « لما يرى من فضل الشهادة » . رواه البخارى ومسلم .

(١) أما سبب تسميته شهيداً فقال النضر بن شميل : لأنه حى فإن أرواحهم شهدت وحضرت دار السلام ، وأرواح غيرهم إنما تشهدها يوم القيامة . وقال ابن الأنبارى : لأن الله ـ تعالى ـ وملائكته ـ عليهم الصلاة والسلام ـ يشهدون له بالجنة .

(٢) قال ابن بطال : هذا الحديث أحلّ ما جاء فى فضل الشهادة ، قال : وليس فى أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد فلذلك عظم فيه الثواب .

الحديث السادس والعشرون

عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأُقتل ، ثم أغزو فأُقتل ، ثم أغزو فأُقتل »[٣] . رواه البخارى ومسلم .

الحديث السابع والعشرون

عن عبد الله بن عمرو ـ رضى الله عنهما ـ : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « يُغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن »[٤] . رواه مسلم .

وعن قتادة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قام فيهم فذكر : أن الجهاد فى سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال » . فقام رجل فقال : يا رسول الله : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفَّر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « نعم ، إن قتلت فى سبيل الله وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر » . ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « كيف قلت ؟ قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « نعم ، وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلا الدَّيْن ، فإن جبريل قال لى ذلك »[٥] . رواه مسلم .

وروى البخارى ومسلم عن أبى هريرة فى حديث : « اجتنبوا السبع الموبقات »[٦] . إن منها : « التولى يوم الزحف » . أى : الفرار عند لقاء العدو .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٦ . كتاب الجهاد والسير باب ثمن المجاهد أن يرجع إلى الدنيا .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٩٨ . كتاب الامارة . باب فضائل الشهادة فى سبيل الله رقم ١٨٧٧/١٠٩

(٣) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢١ . كتاب الجهاد والسير . باب ثمن الشهادة ط/الشعب .

(٤) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٤٩٦ . كتاب الامارة باب ٢٨ رقم ١٨٧٦/١٠٣

(٥) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٠٢ . كتاب الامارة . باب ٣٢ رقم ١٨٨٦/١٢٠ .

(٦) انظر صحيح مسلم جـ ٣ ص ١٥٠١ . كتاب الامارة باب ٣٢ رقم ١٨٨٥/١١٧ .

(١) قوله - ﷺ - : « إلا الدين » فيه تنبيه على جميع حقوق الآدميين وأن الجهاد والشهادة وغيرهما من أعمال البر لا يكفر حقوق الآدميين وإنما يكفر حقوق الله - تعالى - .

(٢) قوله - ﷺ - : « نعم » ثم قال بعد ذلك : « إلا الدين فمحمول على أنه أوحى إليه به فى الحال ولهذا قال : « فإن جبريل قال لى ذلك » .

(٣) أى : المهلكات ، وسميت بذلك لأنها سبب لإهلاك مرتكبها . وبقية السبع : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات المؤمنات ، أى : رميهن بالزنا والفاحشة .

الحديث الثامن والعشرون

عن سَمُرة بن جندب - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « رأيت الليلة رجلين أتيانى فصعدا بى الشجرة وأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل ، لم أرَ قط أحسن منها . قالا لى : أمّا هذه الدار فدار الشهداء »[١] . رواه البخارى .

الحديث التاسع والعشرون

عن جابر بن عبد الله - رضى الله عنهما - قال : جىء بأبى إلى النبى - ﷺ - قد مثِّل به ، فوضع بين يديه ، فذهبت أكشف عن وجهه فنهانى قومى . فسمع صوت صائحة ، فقيل ابنة عمرو أو أخت عمرو[١] ، فقال : « لِمَ تبْكى ، أو فلا تبكى ، ما زالت الملائكة تظلُّه بأجنحتها »[أ] . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال الحافظ ابن حجر : الصواب بنت عمرو وهى فاطمة بنت عمرو كما فى الرواية الأخرى وهى عمة جابر .

(٢) قال القاضى عياض : يحتمل أن ذلك لتزاحمهم عليه لبشارته بفضل الله ورضاه عنه ، وما أعدَّ من الكرامة عليه ، إزدحموا عليه إكراماً له وفرحاً به .

الحديث الثلاثون

عن أنس - رضى الله عنه - قال : بعث رسول الله - ﷺ - زيداً وجعفراً وعبد الله بن رواحة ودفع الراية إلى زيد فأصيبوا جميعاً . قال أنس : فنعاهم رسول الله - ﷺ - قبل أن يجىء الخبر فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب ، ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله - خالد بن الوليد »[ب] . قال : فجعل يحدّث الناس وعيناه تذرفان . وفى رواية قال : « وما يسرهم أنهم عندنا » . رواه البخارى .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٠ كتاب الجهاد والسير . باب درجات المجاهدين ط/الشعب .
(أ) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٦ كتاب الجهاد والسير . باب ظل الملائكة على الشهيد .
انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٩١٧ ، ١٩١٨ . كتاب الفضائل باب فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام رقم ٢٤٧١/١٢٩ .
(ب) انظر كتاب صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢١ كتاب الجهاد والسير باب تمنى الشهادة .

(١) أطلع الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ذلك رسوله من يومهم ذلك ، فأخبر به أصحابه وقال : « لقد رُفعوا إلىّ فى الجنة فيما يرى النائم على سرر من ذهب » . وفى رواية : « مُثِّل لى جعفر وزيد وابن رواحة فى خيمة من دُرّ ، كل واحد منهم على سرير » .

الحديث الحادى والثلاثون

عن أنس ـ رضى الله عنه ـ : أن أم الربيع بن البراء وهى أم حارثة بن سراقة أتت النبى ـ ﷺ ـ فقالت : يا رسول الله : ألا تحدثنى عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر ـ فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه بالبكاء . فقال : « يا أم حارثة إنها جنّان فى الجنة ، وإن إبنك أصاب الفردوس الأعلى »[أ] . رواه البخارى .

(١) الفردوس هو البستان الذى يجمع كل شىء . وفى حديث البخارى : « فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة » ، قال ابن حبان : المراد بالأوسط السعة وبالأعلى : الفوقية .

الحديث الثانى والثلاثون

عن مسروق قال : سألنا عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن هذه الآية : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ، آل عمران ـ ١٩ فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ[١] فقال : « أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل . فاطّلع عليهم ربهم اطّلاعه فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث نشاء ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا : يا رب نريد أن تُرد أرواحنا فى أجسادنا حتى نُقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا »[١] . رواه مسلم .

(١) ليس فى رواية مسلم ذكر الرسول ـ ﷺ ـ ، وإنما زادها المؤلف ليتضح المعنى . قال ابن القيم الجوزية فى شرحه على أبى داود : كان ابن مسعود يشتد عليه أن يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ ، وكان إذا سماه أرعد وتغير لونه . وكان كثيراً ما يقول ألفاظ الحديث موقوفة ، وإذا رفع شيئاً منها تحرى فيه وقال : أو شبه هذا ، أو قريباً من هذا . فكأنه جرى على عادته فى هذا الحديث وخاف أن لا يؤديه بلفظه فلم يذكر رسول الله ـ ﷺ .

(٢) أى يخلق الله لأرواحهم بعد ما فارقت أبدانهم هياكل على تلك الهيئة تتعلق بها ، وتكون خلفاً على أبدانهم . وإليه الإشارة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ أحياء عند ربهم ﴾ فيتوسلون بها إلى نيل ما يشتهون من اللذائذ الحسية . والقناديل بمنزلة أوكار الطير . تحفه الأحوذى .

(أ) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ٢٤ . كتاب الجهاد والسير . باب من أتاه سهم غرب فقتله .

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٢ . كتاب الامارة . باب ٣٣ رقم ١٨٨٧/١٢١

الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من مات ولَم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق »(١) . رواه مسلم .

(١) المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلفين عن الجهاد فى هذا الوصف ، فإنّ ترك الجهاد أحد شعب النفاق . وفى هذا الحديث : أن من نوى فعل عبادة فمات فعلها لا يتوجه عليه من الذم ما يتوجه على من مات ولم ينوها .

الحديث الرابع والثلاثون

عن سهل بن حنيف - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من سأل الله - تعالى - الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »(٢) . رواه مسلم .

وعن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ -: « من طلب الشهادة صادقاً أعطيها ولو لم تُصبه »(٣) . رواه مسلم .

(١) ومعنى هذه الرواية مفسر من الرواية الأولى ، ومعناها جميعاً ، أنه إذا سأل الشهادة بصدق أعطى من ثواب الشهداء وإن كان على فراشه . وفيه استحباب سؤال الشهادة واستحباب نية الخير .

الحديث الخامس والثلاثون

عن عبد الرحمن بن أبى أوفى - رضى الله عنهما - : أن رسول الله - ﷺ - كان فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو ، انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس فقال : « أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا (٣) . واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » . ثم قال : « اللهم منزل الكتاب ومجرى السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم »(٤) . رواه البخارى ومسلم .

(١) قال ابن دقيق العبد : لما كان لقاء الموت من أشق الأشياء على النفس ، وكانت الأمور الغائبة ليست كالأمور المحققة لم يؤمن أن يكون عند الوقوع كما ينبغى فيكره التمنى لذلك ، ولما فيه لو وقع من احتمال أن يخالف الإنسان ما وُعد من نفسه . ثم أمر بالصبر عند وقوع الحقيقة .

(٢) فى هذا الدعاء التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث . فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية ، وهى الإسلام . وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهى الرزق . وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين .

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٧ . كتاب الامارة . باب ذم من مات ولم يغز رقم ١٩١٠/١٥٨ .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٧ كتاب الامارة . باب استحباب طلب الشهادة فى سبيل الله رقم ١٩٠٩/١٥٧
(٣) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٧ رقم ١٩٠٨/١٥٦
(٤) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٣٦٢ ، ١٣٦٣ . كتاب الجهاد والسير باب ٦ رقم ١٧٤٢/٢٠ .

الحديث السادس والثلاثون

عن أبى مسعود البدرى - رضى الله عنه - قال : جاء رجل إلى النبى - ﷺ - بناقة مخطومة[1] فقال : هذه فى سبيل الله . فقال رسول الله - ﷺ - : « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة[2] » رواه مسلم .

(١) مخطومة : أى فيها خِطام . وخطام البعير أن يؤخذ حبل من ليف ، أو شعر أو كتان فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يُشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ثم يقاد البعير .

(٢) يحتمل أن المراد له أجرى سبعمائة ناقة ويحتمل أن يكون على ظاهره ويكون له فى الجنة بها سبعمائة ناقة كل واحدة منهن مخطومة يركبهن حيث شاء للتنزه كما جاء فى خِيل الجنة .

الحديث السابع والثلاثون

عن عقبة بن عامر الجهنى - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - وهو على المنبر يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى » رواه مسلم .

وعن عقبة بن عامر أيضاً قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من عَلِمَ الرمى ثم تركه فليس منا أو فقد عصى »[3] . رواه مسلم .

وعن عقبة بن عامر أيضاً قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « ستُفتح عليكم أرضون ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو باسمه »[4] . رواه مسلم .

وعن سلمة بن الأكوع - رضى الله عنه - قال : مر النبى - ﷺ - على نفر ينتصلون فقال : « ارموا بنى اسماعيل فإن أباكم كان رامياً »[5] . رواه البخارى .

(١) فى الحديث والأحاديث بعده فضيلة الرمى والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد فى سبيل الله - تعالى - . وكذلك المنافقة وسائر أنواع استعمال السلاح ، وكذا المسابقة بالخيل وغيرها . والمراد بهذا كله التمرن على القتال ، والتدرب والتحذق فيه ، ورياضة الأعضاء لذلك .

الحديث الثامن والثلاثون

عن جابر - رضى الله عنه - قال : كنا مع النبى - ﷺ - فى غزاة فقال : « إن بالمدينة لرجالاً

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٠٥ . كتاب الامارة باب فضل الصدقة فى سبيل الله وتضعيفها رقم ١٨٩٢/١٣٢ .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٢٣ . كتاب الامارة . باب فضل الرمى والحث عليه رقم ١٩١٧/١٦٧ .

(٣) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٢٣ كتاب الامارة باب فضل الرمى والحث عليه . رقم ١٩١٩/١٦٩ .

(٤) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥٢٢ . كتاب الامارة . باب فضل الرمى والحث عليه رقم ١٩١٨/١٦٨ .

(٥) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٤٥ كتاب الجهاد والسير . باب التحريض على الرمى ط/الشعب .

ما سرتم مسيراً ولا قطعتم واديا ، إلا كانوا معكم . حبسهم المرض » . وفى رواية : « حبسهم العُذر »[1] وفى رواية : « إلا شركوكم فى الأجر »[2] . رواه مسلم ورواه البخارى عن أنس - رضى الله عنه - .

(١) قال المهلب : يشهد لهذا الحديث قوله - تعالى -: ﴿ **لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر** ﴾[3] . فإنه فاضل بين المجاهدين والقاعدين ، ثم استثنى أولى الضرر من القاعدين فكأنه ألحقهم بالفاضلين . وفى الحديث : أن المرء يبلغ بنيته أجر العامل إذا منعه العذر عن العمل .

الحديث التاسع والثلاثون

عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « ما من سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثى أجورهم . وما من سرية تخفق وتصاب إلا تمَّ أجورهم » . رواه مسلم .

(١) أما معنى الحديث ، فالصواب الذى لا يجوز غيره ، أن الغزاة إذا سلموا أو غنموا يكون أجرهم أقل من أجر من لم يسلم أو سلم ولم يغنم . وأن الغنيمة هى فىَ مقابلة جزء من أجر غزوهم ، فإذا حصلت لهم فقد تعجلوا ثلثى أجرهم المترتب على الغزو .

الحديث الأربعون

عن سليمان بريدة عن أبيه - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : « اغزوا باسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله . اغزوا فلا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال ، فأتيهن ما أجابوك ، فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين . ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن هم أبوْا فسلهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم . وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك . فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ٤ ص٣١ كتاب الجهاد والسير باب من حبسه العذر عن الغزو .
(٢) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٨ . كتاب الامارة باب من حبسه العذر عن الغزو رقم ١٩١١/١٥٩ .
(٣) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٥١٥ . كتاب الامارة باب بيان قد ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم . رقم ١٩٠٦/١٥٤ .

وإن حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا »[١] . رواه مسلم .

(١) السرية : قطعة من الجيش تخرج منه تُغير وترجع إليه . قال ابراهيم الحربى : هى الخيل تبلغ أربعمائة . وسميت سرية لأنها تسرى فى الليل ويخفى ذهابها .

(٢) قال العلماء : الذمة هنا العهد ، وتُخفروا بضم التاء يقال : أخفرت الرجل إذا نقضت عهده ، وخفرته أمّنته وحميته . قالوا وهذا نهى تنزيه ، أى : لا تجعل لهم ذمة الله ، فإنه قد ينقضها من لا يعرف حقها وينتهك حرمتها بعض الأعراب وسواد الجيش .

* طرف من ذكر موسى وعيسى - عليهما السلام

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

معانى المفردات

تؤذوننى : أى : تخالفون أمرى بترك القتال ، زاغوا : أى : أصرّوا على الزيغ والانحراف عن الحق الذى جاء به موسى - عليه السلام - ، أزاغ الله قلوبهم : أى : صرفها عن قبول الحق ، الفاسقين : أى : الخارجين عن الطاعة ، ومنهاج الصدق ، المصرّين على الغواية ، وأحمد : من أسماء نبينا محمد - ﷺ - قال حسان :

صلى الإله ومن يحف بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أنّب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله : « لم تقولون مالا تفعلون » ذكر هنا أن حالهم ، يشبه حال بنى إسرائيل مع موسى ، حين ندبهم إلى قتال الجبارين بقوله : « يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين »[٢] . فلم يمتثلوا أمره ، وعصوه أشد العصيان ، و « قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون » . وقالوا : « فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون »[٣] وأصروا على ذلك ،

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٣٥٧ . كتاب الجهاد والسير رقم ١٧٣١/٣ .

(٢) سورة المائدة الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٣) سورة المائدة الآية ٢٤ .

وآذوه أشد الإيذاء ، فوبخهم على ذلك ، بما جاء فى الآية الكريمة ، وقد صرفهم الله عن قبول الحق ، وألحق بهم الضيم والذل فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى .

ومثلهم أيضاً فى عصيانهم مثل بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى : إنى رسول الله وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه وقال : إنى مبشر برسول سيأتى من بعدى يسمى أحمد ، فعصوه وكذبوه ولم يمتثلوا أمره .

أضـواء كاشـفة

« **وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى ؟** » وهذا كلام مستأنف مكرر لما قبله من شفاعة ترك القتال ، ومخالفة أمر الرسول ، واذكر وقت قول موسى لقومه - والمراد ذكر ما حصل فى الوقت - يا قوم لأى شىء تؤذوننى بمخالفة أمرى ، وتخلفكم عن القتال حين ندبتم قتال الجبارين ، وقولكم : « **إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . . فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** » . يا قوم لم تؤذوننى ؟ والحال أنكم تعلمون علماً أكيداً أنى رسول الله إليكم ، فلما أصروا على الزيغ والانحراف عن الجادة ، أزاغ الله قلوبهم وصرفها عن الخير لاختيارهم العمى وتركهم الهدى مطلقاً ، ولا عجب فهم مالوا عن الحق أولاً باختيارهم ، وهذا بلا شك يؤثر فيهم ، فإذا استمروا على ذلك طمس الله على قلوبهم ، فأمالها عن الحق دائماً ، وكيف يهديهم ربهم إلى الصواب ؟ والله لا يهدى القوم الفاسقين ، فاحذروا يا أمة محمد أن تكونوا كهؤلاء ، واذكر إذ قال عيسى بن مريم : يا بنى إسرائيل ، إنى رسول الله إليكم ، حالة كونى مصدقاً لما تقدمنى من الكتب ، وخاصة التوراة وصاحبها موسى ، وحالة كونى مبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ، فشريعتى تؤيد الرسل السابقين واللاحقين ، وهذا الإسم الجليل - أحمد - من أسماء النبى - ﷺ - ، يقول حسان بن ثابت :

صـلى الإله ومن يحف بعرشـه والطيبون على المبـارك أحمـد

وبشارته - عليه السلام - بالنبى محمد - ﷺ - مما نطق به القرآن . وهو الصادق فى خبره . الذى لا يقبل الشك ، فهو الكتاب الوحيد الذى نقل بالتواتر عن صاحبه ، وقيد كتابة وحفظاً قبل لحوق النبى بالرفيق الأعلى ، وأما إنكار النصارى لتلك البشارة فأمر لا يعبأ به ، كشأنهم فى بقية عقائدهم ، على أن الإنجيل الذى وصل إلينا فيه البشارة ، وشأنها أن تكون كناية لا صريحة ، ففى إنجيل يوحنا طبع (نيويورك بأمريكا) الإصحاح السادس عشر آية ٧ « لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزِّى ، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم[٨] ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطيته ، وعلى بر ، وعلى دنيوية[٩] ، أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى[١٠] ، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا تروننى أيضاً[١١] ، وأما على دنيوية فلأن رئيس هذا العالم قد دين[١٢] ، إن لى أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن[١٣] ، وأما متى جاء ذلك ذاك روح الحق ، فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ، ويخبركم بأمور آتية[١٤] ، ذاك يمجدنى لأنه يأخذ ممالى ويخبركم » . هذه بشارة بالنبى المرسل ، الذى لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، يجىء والعالم يكفر بعيسى ، إذ يعتقد فيه الألوهية ، أو أنه ابن الله ،

مع أنه ابن مريم ، يجيء ليرشد الخلق إلى جميع الحق ، فمن غير محمد - ﷺ - جاء بهذا ؟ على أننا لا ننسى أن هذا ما سلم من التحريف والتغيير والتبديل والنصارى يؤولون فى هذا تأويلاً غير مستساغ ، ولفظ (البارا قليط) ورد كثيراً فى كتبهم قال يسوع المسيح : « إن البار قليط روح الحق الذى يرسله أبى - إلهى - يعلمكم كل شىء »(والبار قليط)لفظ يفيد معناه الحمد ، ولفظ المعزى السابق كناية عن خاتم الأنبياء ، ولذا جاءت البشارة فى إنجيل برنابا صريحة بلفظ محمد ، والظاهر أنها مترجمة عن البار قليط والمعزى . فلما جاء عيسى - عليه السلام - بالمعجزات الظاهرة قالوا هذا سحر مبين ، فانظر إلى الناس جميعاً وقد كذبوا برسلهم مع ظهور الآيات والمعجزات الدالة على صدق الرسل ، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وكانت عاقبة أمرهم خسراً ، فاحذروا يا أمة محمد مثل هذه العاقبة .

التفســـــير

هذا طرف من قصة الكليم موسى - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - يبين الله - تعالى - فيه مدى ما تحمله هذا النبى الكريم من قومه حتى كان نبينا محمد - ﷺ - يقول : « يرحم الله أخى موسى لقد أوذى أكثر من هذا فصبر »[1] وفى هذه الآية الكريمة يخبر تعالى قائلاً :

﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾ .

يقول الله تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران - عليه السلام - أنه قال لقومه (لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) ، أى لم توصلون الأذى إلى وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من الرسالة ؟ وفى هذا تسلية لرسول الله - ﷺ - فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال « رحمة الله على موسى : لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » وفيه نهى للمؤمنين أن ينالوا من النبى - ﷺ - أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال - تعالى - : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً »**[2] .

وقوله تعالى : **﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾** أى : فلما عدلوا عن أتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الشك والحيرة والخذلان . كما قال - تعالى - : **﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون »**[3] ، وقال - تعالى - : **﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾**[4] ، ولهذا قال تعالى فى هذه الآية **﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾** .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد جـ١ ص٤٤ ، ٤١١ .
(٢) سورة الاحزاب آية ٦٩ .
(٣) سورة الانعام آية ١١٠ .
(٤) سورة النساء آية ١١٥ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى إسمه أحمد ﴾ ، يعنى التوراة قد بشرت بى ، وأنا مصدق ما أخبرت عنه ، وأنا مبشر بمن بعدى ، وهو الرسول النبى الأمى العربى المكى أحمد . فعيسى - عليه السلام - هو خاتم أنبياء بنى إسرائيل ، وقد أقام فى ملأ بنى إسرائيل مبشراً بمحمد ، وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، الذى لا رسالة بعده ، ولا نبوة ، وما أحسن ما أورد البخارى ، الحديث الذى قال فيه حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيباً عن الزهرى قال أخبرنى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن لى أسماء أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب »[(١)] . ورواه مسلم من حديث الزهرى به نحوه .

وقال أبو داود الطيالسى : حدثنا المسعودى عم عمرو بن مروة عن أبى عبيدة عن أبى موسى قال سمى لنا رسول الله - ﷺ - نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال : « أنا محمد وأنا أحمد والحاشر والمقفى ونبى الرحمة والتوبة والملحمة »[(٢)] ورواه مسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به ، وقد قال الله - تعالى - : ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾[(٣)] ، قال ابن عباس : ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حى لتتبعنه ، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعنه وينصرنه ، وقال محمد ابن اسحاق حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله - ﷺ - أنهم قالوا : يا رسول أخبرنا عن نفسك قال « دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت بى كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام »[(٤)] وهذا إسناد جيد وروى له شواهد من وجوه أخر فقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية قال : قال رسول الله - ﷺ - :

« إنى عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبى ابراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين »[(٥)] وقال أحمد أيضاً حدثنا أبو النضر حدثنا الفرج بن فضالة حدثنا لقمان ابن عامر قال سمعت أبا أمامة قال : قلت يا رسول الله

---

(١) الحديث فى صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٢٨ كتاب الفضائل . باب فى أسمائه صل الله عليه وسلم رقم ٢٣٥٤/١٢٥ . انظر صحيح البخارى . كتاب الفضائل . باب فى أسماء ورسول الله جـ ٢ ص ٢٧٠ ط/الحلبى .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ١٨٢٨ ، ١٨٢٩ . كتاب الفضل . باقى أسمائه صل الله عليه وسلم رقم ٢٣٥٥/١٢٦ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨١

(٤) انظر تفسير البغوى جـ ١ ص ١١١ .
انظر كنز العمال حديث رقم ٣١٨٣٤ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٦٨ ، جـ ٦ ص ٤٢٥ ط/الشعب .
انظر مجمع الزوائد جـ ٨ ص ٢٢٣

ما كان بدء أمرك ، قال : « دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام » ، وقال أحمد أيضاً حدثنا حسن بن موسى سمعت خديجاً خدىً أخا زهير بن معاوية عن أبى إسحاق عن عبد الله بن عتبة عن عبد الله بن مسعود قال بعثنا رسول الله - ﷺ - إلى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود وجعفر وعبد الله بن رواحة وعثمان بن العاص وعمارة ابن الوليد بهديه ، فلما دخلا على النجاشى سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ، ثم قالا له إن نفراً من بنى عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا قال فأين هم قالا : هم فى أرضك فابعث إليهم ، فبعث إليهم فقال جعفر أنا خطيبكم اليوم ، فاتبعوه ، فسلم ولم يسجد . فقالوا له مالك لا تسجد للملك . قال إنا لا نسجد إلا لله - عز وجل - قال وما ذاك . قال إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا الله - عز وجل - وأمرنا بالصلاة والزكاة قال عمرو بن العاص : فإنهم يخالفونك فى عيسى بن مريم ، قال ما تقولون فى عيسى بن مريم وأمه . قال نقول كما قال الله عز وجل هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التى لم يمسها بشر ، ولم يعترضها ولد ، قال فرفع عوداً من الأرض ، ثم قال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان : والله ما يزيدون على الذى نقول فيه ما يساوى هذا ، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده ، أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذى نجد فى الإنجيل ، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم ، انزلوا حيث شئتم ، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه ، وأوضئه وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ، ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً وزعم أن النبى - ﷺ - استغفر له حين بلغه موته . وقد رويت هذه القصة عن جعفر ، وأم سلمة - رضى الله عنهما - وموضع ذلك كتاب السيرة . والمقصد أن الأنبياء - عليهم السلام - لم تزل تنعته وتحكيه فى كتبها على أممها ، وتأمرهم باتباعه ، ونصره ، ومؤازرته إذا بعث ، وكان ما اشتهر الأمر فى أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل ، والد الأنبياء ، بعده حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولا منهم ، وكذا على لسان عيسى بن مريم ، ولهذا قالوا أخبرنا عن بدء أمرك يعنى فى الأرض قال « دعوة أبى إبراهيم وبشارة عيسى بن مريم ورؤ يا أمى التى رأت » أى أظهرت فى أهل مكة أثر ذلك ، والإرهاص فذكره - صلوات الله وسلامه عليه - . وقوله تعالى : ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ قال ابن جريج وابن جرير (فلما جاءهم) أحمد أى : المبشر به فى الأعصار المتقادمة ، المنوه بذكره فى القرون السالفة . لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون (هذا سحر مبين) .

الله أكبر إن دين محمد وكتابه أقوى وأقوم قيلاً
لا تذكروا الكتب السوالف عنده طلع الصباح فاطفئوا القنديلاً

يقول الشيخ المراغى فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يابنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعد اسمه أحمد ﴾

يقول رحمه الله تعالى :

أى : واذكر لقومك ما قال عيسى ابن مريم لقومه : ياقوم إنى مرسل إليكم من الله وإنى مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعاً من تقدم منهم ومن تأخر .

﴿ ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ أى : وداعياً إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذى جاءت البشارة به فى التوراة . فقد جاء فى الفصل العشرين من السفر الخامس منها : أقبل الله من سينا وتجلى من ساعير وظهر من جبال فاران معه الربوات الأطهار عن يمينه ، « سينا مهبط الوحى على موسى ، وساعير مهبط الوحى على عيسى ، وفاران جبال مكة مهبط الوحى على محمد - ﷺ -.

وفيها فى الفصل الحادى عشر من هذا السفر : ياموسى : إنى سأقيم لبنى إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك ، أجعل كلامى فى فيه ويقول لهم ما آمره به والذى لا يقبل قول ذلك النبى يتكلم بأسمى أنا أنتقم منه ومن سبطه .

وكذلك جاء فى الانجيل ما هو بشارة به - ففى انجيل يوحنا فى الفصل الخامس عشر . قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى يعلمكم كل شىء .

وفيه أيضاً : قال المسيح من يحفظ كلمتى يحبنى وأبى يحبه ، وعنده تتميز المنزلة ، كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والفار قليط روح القدس الذى يرسله أبى ، هو يعلمكم كل شىء ، و يذكركم كل ما قلت لكم ، أستودعكم سلامى ، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإنى منطلق وعائد إليكم ، لوكنتم تحبونى تفرحون بمضيى إلى الأب .

وفيه أيضاً : إن خيراً لكم أن انطلق لأبى ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفاوقليط ، فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء فهو يوبخ العالم على خطيئة ، وإن لى كلاماً كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتى ويعرفكم جميع ما للأب .

(والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد فسره بعضهم بالحماد وبعضهم بالحامد ، ففى مدلوله إشارة إلى اسمه - عليه السلام أحمد)

كما لا يخفى على من كشف الله - تعالى - غشاوة التعصب عن عينيه ﴿ فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ﴾ أى : فحين جاءهم أحمد المبشر به بالأدلة الواضحة والمعجزات الباهرة فاجئوه بالتكذيب والإعراض عنه استكباراً وعناداً وقالوا : إن ما جئت به ما هو إلا ترّهات ، وأباطيل ، وسحر واضح لاشك فيه . ونحو الآية قوله تعالى﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ﴾[1] وقوله جل شأنه : : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيماً ﴾[2]

(١) سورة الأعراف آية ١٥٧ .

(٢) سورة الفتح آية ٢٩ .

أشرق النور فى العوالم لما بشرتها بأحمد الأنباء
جاء للناس والسرائر فوضى لم يؤلف شتاتهم لواء
وحمى الله مستباح وشرعه والحق والصواب وراء
تلك آى الفرقان أيها الله ضياء يهدى به من يشاء
ولجبريل جيئة وذهاب وهبوط إلى الثرى وارتقاء
نسخت لسنة النبيين والرسل كما ينسخ الضياءَ الضياءُ

الله متم نوره

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾
يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ
رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

معانى المفردات

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع لله ـ عز وجل ـ والمراد من إبطال نور الله بأفواههم إرادتهم إبطال الإسلام ، بنحو قولهم هذا سحر مفترى ، والله متم نوره : أى : : والله متم الحق ومبلغه غايته بالهدى أى بالقرآن ، ودين الحق : أى بالملة السمحة ، ليظهره : أى : ليعليه على الدين كله : على سائر الأديان .

المناسبه وإجمال المعنى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته ـ ﷺ ـ من المشركين وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات ، قالوا هذا سحر مفترى ، أردف ذلك ببيان أنهم دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ، ومبدع العالم ، وأقيمت لهم على ذلك الأدلة ، ونصب لهم المنار ، لكنهم ظلموا أنفسهم ، وجحدوا النور الواضح ، والبرهان الساطع .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

ثم بين أن السبب فى ذلك هو سوء استعدادهم وقدسيتهم لأنفسهم ، وأن مثلهم فى صد الدعوة عن الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالنفخ بفيه ، وأنى له بذلك ؟

فالله متم نوره ومكمل دينه مهما جد المشركون فى إطفائه ؛ فالرسول - ﷺ - ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم فى معاشهم ومعادهم وبالدين الحق الذى لا تجد العقول مطعنا فيه ولا طريقاً إلا الاعتراف بما جاء به من حكم وأحكام .

أضواء كاشفة

هنا تطرق الكلام إلى المكذبين بمحمد - عليه الصلاة والسلام - فقال الله معناه : أى الناس أشد ظلما ممن يدعى إلى الإسلام ، الذى هو دين الحق والعدل والكرامة ، الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ، فتكون إجابته على تلك الدعوة الافتراء على الله كذباً وزوراً بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحراً نعم لا أحد أظلم من هذا ، والله لا يهدى القوم الظالمين يريدون بهذا التكذيب أن يطفئوا نور الله بأفواههم وأنى لهم ذلك ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

هو الله الذى أرسل رسوله محمداً - صلى الله عليه وسلم - بمصدر الهداية والنور ، بالقرآن الذى يدعو إلى الهدى والفلاح ، أرسله بدين الحق والعزة والكرامة ، والشريعة السهلة الصالحة لكل زمان ومكان ، ليظهره على الدين كله ، وليعليه على جميع الأديان ، ولو كره المشركون ذلك ، لأنه هو الدين الوحيد الذى يدعو إلى التوحيد الخالص البرىء من شوائب الشرك ، وقد أنجز الله وعده وأظهر دينه بالحجة والبرهان على جميع الأديان . . الخ .

التفسير

قوله - تعالى - ﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام** ﴾ أى لا أحد أظلم ممن يفترى الكذب على الله ، ويجعل له أنداداً وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ولهذا قال تعالى ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ .

ثم قال - تعالى ﴿ **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم** ﴾ أى : يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم فى ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل ! كذاك ذلك مستحيل ، ولهذا قال - تعالى - ﴿ **والله متم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون** ﴾ وقد تقدم الكلام على هاتين الآيتين فى سورة براءة بما فيه كفاية .

التجارة المنجية

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن
كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ
قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

معانى المفردات

التجارة هنا : ما يقدمه المرء من عمل صالح لينال به الثواب كما قال ـ سبحانه ـ : **﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾**(١) .

طيبة : أى طاهرة مستلذه ، جنات عدن : أى : بساتين إقامة وخلود ، قريب : أى : عاجل وهو فتح مكة ، وحوارىّ الرجل : صفيه وخليله ، وأنصار الله : أى : الناصرون لدينه ، فأيدنا : أى قوينا وساعدنا ، على عدوهم : أى : الكفار ، ظاهرين : أى : غالبين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن حث فى الآيات السابقة على الجهاد فى سبيله ، ونهاهم أن يكونوا مثل قوم موسى ، فى التواكل والتخاذل إذ قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ، ونهاهم أيضاً عن أن يكونوا مثل قوم عيسى فى العصيان ، بعد أن أتى لهم بالأدلة الباهرة على صدق نبوته ـ ذكر هنا أن الإيمان بالله ، والجهاد بالمال والنفس ، فى سبيله تجارة رابحة ، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل والثواب

---

(١) سورة التوبة آية ١١١ .

الآجل ، فيظفر بالنصرة فى الدنيا والغلبة على العدو ، وأخذ الغنائم وكرائم الأموال ، ويحظى فى الآخرة بغفران الذنب ورضوان الرب ، والكرامة فى جنات الخلود ، والإقامة ولا فوز أعظم من هذا .

ثم ضرب لهم مثلاً بقوم عيسى فقد انقسموا فرقتين : فرقة آمنت به ، وهم حواريه ، وفرقة كفرت به ، وهم البقية الباقية منهم ، فأمد الله المؤمنين بروح من عنده فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين ، وغلبوهم بإذن الله ، كما هى سنة الله فى البشر كما قال :

﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾[1] وقال : **﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾**[2] .

أضـواء كاشـفة

يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة عظيمة الشأن كثيرة الربح ؟ ربحها عشرة أمثال وقد تزيد إلى سبعمائة مثل والله يضاعف بعد ذلك لمن يشاء ، وتلك تجارة رابحة وأى ربح أكثر من هذا ؟

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[3] ، الآية من سورة التوبة .

وكأنه قيل : ما هذه التجارة ؟ دلنا عليها فقيل : تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، بأموالكم وأنفسكم . والمعنى على أن المؤمنين يداومون على ذلك من باب قوله تعالى : **﴿ فاستقم كما أمرت ﴾**[4] .

ذلكم الإيمان والجهاد خير لكم من كل شىء إن كنتم تعلمون . أنه خير فهو خير إن تؤمنوا وتجاهدوا يغفر لكم ذنوبكم ويسترها ، أو يباعد بينكم وبينها ، ويدخلكم جنات عالية تجرى من تحتها الأنهار ، ويدخلكم مساكن طيبة جيدة حسنة لا عيب فيها ولا خوف عليكم فيها ، ولا أنتم تحزنون ، وهى فى جنات عدن لا زوال فيها ذلك هو الفوز العظيم . نعم هو الفوز العظيم والربح الكثير والفضل العميم .

ولكم إلى جانب ما ذكر نعمة أخرى جليلة أنتم تحبونها ، هى : نصر من الله على الأعداء ، وفتح قريب للأقطار والأمصار ، وانظر - وفقك الله - إلى عاقبة الإيمان الصحيح والجهاد فى سبيل الله .

يا أيها الذين آمنوا - والخطاب للنبى - ﷺ - ولأمته - آمنوا وجاهدوا يكن لكم الثواب الجزيل . وبشرهم يا محمد بذلك فأنت الصادق المصدق .

يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله وأعوانا لرسول الله ، كما كان الحواريون أنصاراً لعيسى حين طلب منهم ذلك وقال لهم : من أنصارى متوجهاً إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار نبى الله .

---

(١) سورة المجادلة آية ٢١ .
(٢) سورة محمد آية ٧ .
(٣) سورة التوبة آية ١١١ .
(٤) سورة هود اية ١١٢

ولما لحق عيسى بالرفيق الأعلى ، آمنت طائفة من بنى إسرائيل ، آمنت بالله الواحد الأحد ، وبعيسى بن مريم رسوله إليهم ، وكفرت طائفة أخرى ، حيث ادعت أنه الإله ، أو ابنه ، أو هو ثالث ثلاثة ، وغلب أهل الباطل على أهل الحق فلما جاء محمد - ﷺ - أيدنا به الذين آمنوا على عدوهم - الكافرين - فأصبحوا ظاهرين عليهم بالحجة والبرهان .

التفسير

قوله - تعالى - ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ﴾ .

سبب النزول

ورد فى حديث عبد الله بن سلام أن الصحابة - رضى الله عنهم - أرادوا أن يسألوا رسول الله - ﷺ - عن أحب الأعمال إلى الله - عز وجل - ليفعلوه . فأنزل الله - تعالى - هذه السورة ومن جملتها هذه الآية .

ثم فسر هذه التجارة العظيمة التى لا تبور ، التى هى محصلة للمقصود ، ومزيلة للمحذور ، فقال - تعالى - : ﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أى : من تجارة الدنيا والكد لها ، والتصدى لها وحدها . ثم قال - تعالى : ﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ أى : إن فعلتم ما أمرتكم به ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات ، والدرجات العاليات ، ولهذا قال - تعالى : ﴿ ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾ .

ومثل هذه الآية قوله جل شأنه : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا فى التورىٰة والإنجيل والقرءان ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذالك هو الفوز العظيم * التائبون العٰبدون الحٰمدون السٰئحون الراكعون السٰجدون الأٰمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحٰفظون لحدود الله وبشر المؤمنين »(١)

ومن الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال ، الدفاع عن أرض المسلمين ، بل إن هذا الدفاع من أهم فروض الأعيان .

كتب الدكتور عبد الله عزام تحت هذا العنوان :

(الدفاع عن أراضى المسلمين أهم فروض الأعيان)

فقال :

لقد اختار الله برحمته هذا الدين ليكون رحمة للعالمين ، وأرسل سيد المرسلين - ﷺ - ليكون خاتماً للنبيين بهذا الدين ونصر هذا الدين بالسيف ، والسنان بعد أن وضحه رسول الله - ﷺ - بالحجة

---

(١) سورة التوبة اية ١١١ ، ١١٢ .

والبيان . فقد قال - ﷺ - فى الحديث الصحيح الذى رواه أحمد والطبرانى : « بعثت بين يدى الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله - تعالى - وحده لا شريك له . وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »(١) .

وقد اقتضت حكمة الله أن يقيم صلاح الأرض على قانون الدفع فقال - سبحانه وتعالى - : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾(٢) .

أى : أن الله - عز وجل - تفضل على البشرية بأن سن لهم هذا الناموس ، وبين لهم هذا القانون ، (قانون الدفع) أو بعبارة أخرى ، الصراع بين الحق والباطل ، وذلك من أجل صلاح البشرية ، وسيادة الحق وانتشار الخير ، بل إن الشعائر التعبدية ودور العبادة محمية بهذا القانون . لقوله - تعالى - : ﴿ **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز** ﴾(٣) .

وهذا القانون « قانون الدفع » أو الجهاد قد احتل صفحات كثيرة من كتاب الله - عز وجل - لأن الحق لابد له من قوة تحميه . فكم من حق وضع بسبب خذلان أهله له ؟ وكم من باطل رفع لأن له أنصاراً ورجالاً يضحون من أجله ؟ .

والجهاد يقوم على ركنين أساسيين هما : الصبر الذى يظهر شجاعة القلب والجنان ، والكرم الذى هو بذل المال والروح - والجود بالنفس أقصى غاية الجود . ففى الحديث الصحيح الذى أخرجه أحمد « الإيمان الصبر والسماحة »(٤) .

يقول ابن تيمية (ولما كان صلاح بنى آدم لا يتم فى دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم ، بين سبحانه أن من تولى عن الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير** ﴾(٥)

ولذا فقد أشار - ﷺ - إلى شر الصفات وهى البخل والجبن التى تؤدى إلى فساد النفوس وتدمير المجتمعات . ففى الحديث الصحيح « شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع »(٦) . رواه أبو داود وهو صحيح .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد جـ٢ ص ٥٠ ، ٩٢ .
(٢) سورة البقرة آية ٢٥١ .
(٣) سورة الحج آية ٤٠ .
(٤) انظر مسند الامام أحمد جـ٤ ص ٣٨٥ مسند عمرو بن عبسة .
(٥) التوبة اية : ٣٩
(٦) انظر سنن أبى داود جـ٣ ص ٢٦ . كتاب الزهد . باب ما جاء فى الزهد فى الدنيا رقم ٢٥١١ .

ولقد مرت أزمان على سلفنا الصالح أخذوا بهذا القانون فسادوا الدنيا وأصبحوا أساتذة الأنام . كما قال الله - تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾[١] .

وكما قال - ﷺ - فى الحديث الصحيح : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ويهلك آخرها بالبخل والأمل »[٢] . رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط والبيهقى .

ثم جاءت ذرارى المسلمين ، وأهملت قوانين الله ونسيت ربها فنسيها ، وضيعوا أحكامه فضاعوا ، ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً** ﴾[٣] .

زين لهم سوء أعمالهم واتبعوا أهواءهم ، جاء فى الحديث الصحيح « أن الله يبغض كل جعظرى جواظ فى الأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار عالم الدنيا جاهل بالآخرة »[٤] .

ومن أهم الفرائض الغائبة ، والواجبة المنسية ، فريضة الجهاد . التى غابت عن واقع المسلمين ، فأصبحوا كغثاء السيل . كما قال - ﷺ - : « يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة إلى قصعتها قيل : يا رسول الله أمن قلة نحن يومئذ ؟ قال : لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن فى قلوبكم وينزع الرعب من قلوب أعدائكم لحبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » وفى رواية ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : « حبكم للدنيا وكراهيتكم للقتال »[٥] . رواه أحمد بإسناد جيد وأبو داود فى رواية وكراهية الموت وهو حديث صحيح .

وجهاد الكفر نوعان

١ - جهاد الطلب (طلب الكفار فى بلادهم) بحيث يكون الكفار فى حالة لا يحشدون لقتال المسلمين ، فالقتال فرض كفاية ، فأقل فرض الكفاية سد الثغور بالمؤمنين لإرهاب أعداء الله ، وإرسال جيش فى السنة على الأقل ، وعلى الإمام أن يبعث سرية إلى دار الحرب كل سنة مرة ، أو مرتين . وعلى الرعية إعانته ، فإن لم يبعث كان الإثم عليه ، وقد ساقها الفقهاء على الجزيت . قال الأصوليون : « الجهاد دعوة قهرية فتجب إقامته بقدر الإمكان حتى لا يبقى مسلم أو مسالم » .

٢ - جهاد الدفع . (دفع الكفار من بلادنا) وهذا يكون فرض عين ، بل أهم فروض الأعيان ويتعين فى حالات :

---

(١) سورة السجدة آية ٢٤ .

(٢) انظر كنز العمال جـ٣ ص ٤٤٨ رقم ٧٣٨٣ . وعزاه إلى أحمد فى الزهد والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى شعب الايمان عن ابن عمرو .

(٣) سورة مريم آية ٥٩ .

(٤) انظر كنز العمال جـ ١٦ ص ٤ رقم ٤٣٦٧٩ .

انظر السنن الكبرى للبيهقى جـ ١٠ ص ١٩٤ .

(٥) انظر مسند الامام أحمد جـ ٥ ص ٢٧٨ .

انظر سنن أبى داود جـ ٤ ص ٤٨٣ رقم ٣٢٩٧

(أ) إذا دخل الكفار بلدة من بلاد المسلمين .
(ب) إذا التقى الصفان وتقابل الزحفان .
(جـ) إذا استنفر الإمام أفراداً أو قوماً وجب عليهم النفير .
(د) إذا أسر الكفار مجموعة من المسلمين .

الحالة الأولى ـ دخول الكفار بلدة من بلاد المسلمين :

ففي هذه الحالة اتفق السلف والخلف وفقهاء المذاهب الأربعة والمحدثون والمفسرون فى جميع العصور الإسلامية إطلاقاً ، أن الجهاد فى هذه الحالة يصبح فرض عين على أهل هذه البلدة التى هاجمها الكفار ، وعلى من قرب منهم ، بحيث يخرج الولد دون إذن والده ، والزوجة دون إذن زوجها ، والمدين دون إذن دائنه ، فإن لم يكف أهل تلك البلدة أو قصروا أو تكاسلوا أو قعدوا يتوسع فرض العين على شكل دوائر الأقرب فالأقرب ، فإن لم يكفوا أو قصروا فعلى من يليهم ، ثم على من يليهم ، حتى يعم فرض العين الأرض كلها » .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأما قال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين واجب إجماعا ، فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دحضه فلايشترط له شرط (كالزاد والراحلة) بل يدفع بحسب الإمكان وقد نص على ذلك العلماء أصحابنا وغيرهم » . .
ويعلل ابن تيمية رأيه بعدم اشتراط الراحلة فى رده على القاضى الذى قال : إذا تعين فرض الجهاد على أهل بلد فمن شرط وجوبه الزاد والراحلة إذا كانوا على مسافة القصر قياسا على الحج ، قال ابن تيمية : « وماقاله القاضى من القياس على الحج لم ينقل عن أحد وهو ضعيف ، فإن وجوب الجهاد يكون لدفع العدو فيكون أوجب من الهجرة . ثم الهجرة لاتعتبر فيها الراحلة فبعض الجهاد أولى وثبت فى الصحيح عن حديث عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ أنه قال : (على المرء المسلم السمع والطاعة فى عسره ويسره ومنشطه ومكرهه وأثره عليه)[1] .

فأوجب الطاعة عمادها الاستنفار فى العسر واليسر وخصائص فى وجوبه مع الإعسار بخلاف الحج هذا فى قتال الطلب . وأما قتال الدفع . فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين واجب إجماعاً ، فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه وإليك نصوص مذاهب الفقهاء الأربعة التى تجمع على هذه القضية .

أولا : فقهاء الحنفية

قال ابن عابدين : « وفرض عين إن هجم العدو على ثغر من ثغور الإسلام فيصير فرض عين على من قرب منه ، فأما من وراءهم ببعد من العدو فهو فرض كفاية إذا لم يحتج إليهم ، فإن احتيج إليهم بأن

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٦٩ . كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء فى غير معصية ١٨٣٩/٣٨

عجز من كان يقرب العدو عن المقاومة مع العدو أو لم يعجزوا عنها ولكنهم تكاسلوا ولم يجاهدوا ، فإنه يشترط على من يليهم ، فرض عين كالصلاة والصوم لا يسعهم تركه وثم وثم إلى أن يفترض على جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً على هذا التدريج » .

وبمثل هذا أفتى الكسائى وابن نجيم وابن الهمام .

ثانياً ـ عند المالكية

جاء فى حاشية الدسوقى : ويتعين الجهاد بفجىء العدو . قال الدسوقى : « أى توجه الدفع بفجىء (مفاجئة) على كل أحد وإن امرأة أو عبداً أو صبياً ويخرجون ولو منعهم الولى والزوج ورب الدين » .

ثالثاً : عند الشافعية

جاء فى نهاية المحتاج للرملى : « فإن دخلوا بلدة لنا وصار بيننا وبينهم دون مسافة القصر فيلزم أهلها الدفع حتى من لا جهاد عليهم من فقير وولد وعبد ومدين وامرأة » .

رابعاً : عند الحنابلة

جاء فى المغنى لابن قدامة : ويتعين الجهاد فى ثلاثة مواضع :

١ ـ إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان .

٢ ـ إذا نزل الكافر ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم .

٣ ـ إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير .

ويقول ابن تيمية : « إذا دخل العدو بلاد المسلمين فلا ريب أنه يجب دفعه على الأقرب فالأقرب ، إذ بلاد الإسلام كلها بمنزلة البلدة الواحدة ، وأنه يجب النفير إليه بلا إذن والد ولا غريم ، ونصوص أحمد صريحة بهذا » وهذه الحالة تعرف بالنفير العام .

أدلة النفير العام ومبرراته

١ ـ قال الله عز وجل : ﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ . التوبة ٤١ ، وقد جاءت الآية قبلها ترتب العذاب والاستبدال جزاء لترك النفير ، ولا عذاب إلا على ترك واجب أو فعل حرام ، ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير** ﴾ . التوبة ٣٩

قال ابن كثير : أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ـ ﷺ ـ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وقد بوب البخارى (باب وجوب النفير وما يجب من الجهاد والسنية) وأورد هذه الآية وكان النفير العام بسبب أنه ترامى إلى أسماع المسلمين أن الروم يعدون على تخوم الجزيرة لغزو المدينة ، فكيف إذا دخل الكفار بلد المسلمين أفلا يكون النفير أولى ؟ قال أبو طلحة ـ

رضى الله عنه ـ فى معنى قوله تعالى ﴿ خفافاً وثقالاً ﴾ : كهولاً وشباباً ، ماسمع الله عذر أحد . وقال الحسن البصري : فى العسر واليسر .

يقول ابن تيمية فى مجموع الفتاوى : « فأما إذا أراد العدو الهجوم على المسلمين فإنه يصير دفعه واجباً على المقصودين كلهم وعلى غير المقصودين ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ﴾(١) ، كما أمر النبى ـ ﷺ ـ بنصر المسلم . وسواء كان الرجل من المرتزقة للقتال أو لم يكن وهذا يجب بحسب الإمكان على كل أحد بنفسه ، وماله ، مع القلة والكثرة ، والمشى والركوب ، كما كان المسلمون ، لما قصدهم العدو عام الخندق لم يأذن الله فى تركه لأحد » .

وقال الزهرى : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له : إنك عليل فقال « استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم يمكنى الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع » .

٢ ـ ويقول الله ـ عز وجل ـ : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ . التوبة ٣٦ . قال ابن العربى : كافة يعنى محيطين بهم من كل جانب وحالة .

٣ ـ ويقول الله ـ عز وجل ـ ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ . الأنفال ٤٠ . والفتنة هى الشرك كما قال ابن عباس والسدى وعند هجوم الكفار واستيلائهم على الديار فالأمة مهددة فى دينها ، ومعرضة للشك فى عقيدتها ، فيجب القتال لحماية الدين والنفس والعرض والمال .

٤ ـ قال ـ ﷺ ـ : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية فإذا استنفرتم فانفروا »(٢) . رواه البخارى .

فيجب النفير إذا استنفرت الأمة ، وفى حالة هجوم الكفار فالأمة مستنفرة لحماية دينها . ومدار الواجب على حاجة المسلمين أو استنفار الإمام كما قاله ابن حجر فى شرح هذا الحديث .

قال القرطبى : « كل من علم بضعف المسلمين عن عدوهم وعلم أنه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضاً الخروج إليهم » .

٥ ـ إن كل دين نزل من عند الله جاء للحفاظ على الضرورات الخمس : الدين ، والنفس ، والعرض ، والعقل ، والمال .

ولذا فيجب المحافظة على هذه الضرورات بأى وسيلة ومن هنا شرع الإسلام دفع الصائل ، والصائل : هو الذى يسطو على غيره قهراً يريد نفسه ، أو ماله ، أو عرضه .

(أ) الصائل على العرض : ولو كان مسلماً إذا صال على العرض وجب دفعه باتفاق الفقهاء ولو أدى إلى قتله ، ولذا فقد نص الفقهاء على أنه لا يجوز للمرأة أن تستسلم للأسر ولو قتلت إذا خافت على عرضها .

---

(١) سورة الأنفال آية ٧٢ .

(٢) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٢ ص١٣٥ كتاب الجهاد والسير باب ١ ط/الحلبى .
انظر صحيح مسلم جـ٣ ص١٤٨٨ . كتاب الامارة باب المبايعة بعد فتح مكة رقم ١٣٥٣/٨٥ .

(ب) أما الصائل على المال أو النفس فيجب دفعه عند جمهور العلماء ، ويتفق مع الرأى الراجح فى مذهب مالك والشافعى ولو أدى إلى قتل الصائل المسلم ، ففى الحديث الصحيح : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد »[1] . حديث صحيح رواه أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى .

قال الجصاص بعد هذا الحديث : « لا نعلم خلافاً أن رجلاً لو شهر سيفاً على رجل ليقتله بغير حق أن على المسلمين قتله » .

وفى هذه الحالة (الصيال) إذا قتل الصائل فهو فى النار ولو كان مسلماً وإذا قتل العادل فهو شهيد . هذا حكم الصائل المسلم . فكيف إذا صال الكفار على أرض المسلمين حيث يتعرض الدين والعرض والنفس والمال للذهاب والزوال ألا يجب فى هذه الحالة على المسلمين دفع الصائل الكافر والدولة الكافرة ؟ .

٦ - تترس الكفار بأسرى المسلمين .

إذا اتخذ الكفار أسرى المسلمين كترس أمامهم وتقدموا لاحتلال بلاد المسلمين يجب قتال الكفار ولو أدى إلى قتل أسرى المسلمين . يقول ابن تيمية فى مجمع الفتاوى : (بل لو كان فيهم الكفار) قوم صالحون من خيار الناس ولم يكن قتالهم إلا بقتل هؤلاء لقتلوا أيضاً ، فإن الأئمة متفقون على أن الكفار لو تترسوا بأسرى المسلمين وخيف على المسلمين إذا لم يقاتلوا فإنه يجوز أن نرميهم - ونقصد الكفار - ولو لم نخف على المسلمين جاز رمى أولئك المسلمين أيضاً على أحد قولى العلماء » . وفى صفحة ٤٥ يقول : « والسنة والإجماع متفقان على أن الصائل المسلم إذا لم يندفع صوله إلا بالقتل قتل ، وإن كان المال الذى يأخذه قيراطاً من دينار ، ففى الصحيح : « من قتل دون ماله فهو شهيد »[2] .

وذلك لأن حماية بقية المسلمين من الفتنة والشرك وحماية دينهم وعرضهم ومالهم أولى من إبقاء بعض المسلمين أحياء ، وهم الأسرى فى يد الكفار المتترس بهم .

٧ - قتال الفئة الباغية :-

يقول الله - عز وجل - : ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين** ﴾ . الحجرات ٩ .

فإذا فرض الله علينا قتال الفئة الباغية المسلمة حفظاً لوحدة كلمة المسلمين وحماية دينهم ، وأعراضهم ، وأموالهم ، فكيف يكون الحكم فى قتال الدولة الكافرة الباغية أليس هذا أولى وأجدر ؟

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ١ ص١٢٥ . كتاب الايمان رقم ١٤٠/٢٥٥ .
انظر سنن الترمذى جـ٤ ص٢١ كتاب الديات باب ما جاء فى من قتل دون ماله فهو شهيد رقم ١٤١٨ .

(٢) انظر الحديث السابق

٨ ـ حد الحرابة :ـ

قال ـ تعالى ـ : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ المائدة ٣٣ .

هذا حكم المحاربين من المسلمين الذين يخيفون عامة المسلمين ويفسدون فى الأرض . فيعبثون بأموال الناس وأعراضهم . ولقد فعل ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ بالعرينين كما جاء فى الصحيحين فكيف بالدولة الكافرة التى تفسد على الناس دينهم ومالهم وعرضهم أليس قتالها أوجب على المسلمين وأحرى ؟ .

هذه بعض الأدلة والمبررات للنفير العام إذا دخل الكفار أرض المسلمين . إن دفع العدو الكافر هو أوجب الواجبات بعد الإيمان وكما قال ابن تيمية : « فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شىء أوجب بعد الإيمان من دفعه » .

فرض العين وفرض الكفاية

فرض العين : هو الفرض الذى يجب على كل مسلم أن يفعله بنفسه ، كالصلاة والصوم فرض الكفاية : هو الفرض الذى إذا قام به البعض ، سقط عن الآخرين ومعنى فرض الكفاية : أى الذى إن لم يقم به من يكفى أثم الناس كلهم ، وإن قام به من يكفى ، سقط عن سائر الناس ، فالخطاب فى ابتدائه يتناول الجميع ، كفرض العين ، ثم يختلفان فى أن فرض الكفاية ، يسقط بفعل بعض الناس له ، وفرض العين لا يسقط بفعل غيره .

ولذا فقد عرف الفخر الرازى فرض الكفاية بأنه : يقصد حصوله من غير النظر بالذات إلى فاعله .

قال الشافعى : « إن الواجب الكفائى مطلوب على العموم ومراد به الخصوص » . والذى عليه جمهور الأصوليين ومنهم ابن الحاجب والآمدى وابن عبد الشكور ، أن فرض الكفاية يجب على الكل ، ويسقط بفعل البعض ، وبعض الناس الآن يجادلون فى حكم الجهاد ، فيعتبرونه فرض كفاية ، فالفرض يجب على الجميع ، ولكن يسقط بفعل البعض .

استئذان الوالدين والزوج والدائن

يتوقف حكم الاستئذان على حالة العدو :

١ ـ فإن كان فى بلاده ولا يحشد على الثغور وليس هنالك أثر على بلاد المسلمين ، فالثغور مشحونة بالجند ، ففى هذه الحالة الجهاد فرض كفاية ، ولابد من الاذن ، لأن طاعة الزوج والوالدين فرض عين ، والجهاد فرض كفاية ، وفرض العين مقدم على فرض الكفاية .

٢ - وإن هجم العدو على ثغر من ثغور المسلمين ، أو دخلوا بلدة إسلامية ، فهنا كما ذكرنا يصبح الجهاد فرض عين على أهل تلك البلدة ، وعلى من حولها ، وفى هذه الحالة يسقط الإذن ، فلا إذن لأحد على أحد ، حتى يخرج الولد دون إذن والده ، والزوجة دون إذن زوجها ، والمدين دون إذن دائنه .

وتبقى حالة سقوط استئذان الوالدين والزوج مستمرة ، حتى اخراج العدو من أرض المسلمين ، أو يتجمع عدد فيهم الكفاية لاخراج العدو ، ولو اجتمع كل المسلمين فى الأرض .

ويقدم الجهاد وهو فرض عين على طاعة الوالد ، وهى فرض عين ، لأن الجهاد حماية للدين ، وطاعة الوالدين حماية للنفس ، إذ أن الجهاد (مظنة حزنهما وتعبهما) والحفاظ على الدين مقدم على الحفاظ على النفس ، إذ الجهاد نفسه إتلاف لنفس المجاهد ، إذا استشهد من أجل حفظ الدين ، وحماية الدين يقين ، وتلف نفس الوالدين ظن ، واليقين مقدم على الظن .

مثال فرض العين والكفاية :

مثل قوم على شاطىء البحر يتنزهون ، وفيهم مجموعة تتقن السباحة ، ورأوا طفلاً يكاد يغرق ، وهو يصيح أنقذونى ، فلم يتحرك إليه أحد من السباحين ، وأراد سباح أن يتحرك لانقاذه ، فنهاه أبوه عن إنقاذه ، فهل يقول فقيه من فقهاء العصور كلها أنه يجب عليه طاعة والده وترك الطفل يغرق ؟ وهذا مثال أفغانستان اليوم إنها تستغيث ، فأطفالها يُذبحون ، وتُنتهك الأعراض فيها ، ويُقتل الأبرياء ، وتتناثر الأشلاء ، ويريد بعض الشباب الصادق أن يتحرك لانقاذهم ولمساعدتهم ، فيتعالى عليهم النكير ، كيف تذهب دون إذن والديك ؟

فإنقاذ الطفل الغريق ، فرض على كل السباحين الذين يرونه ، فقبل أن يتحرك أحد يتوجه خطاب وجوب الإنقاذ إلى الجميع ، فإن تحرك واحد لإنقاذه ، سقط الإثم عن الآخرين ، وإن لم يتحرك أحد ، فالإثم يلزم جميع السباحين ، وقبل أن يتحرك أحد لا إذن للوالدين ، ولو نهى الوالد ولده لإنقاذ الغريق ، فلا طاعة له ، لأن فرض الكفاية خطابه ابتداء كفرض العين ، وإنما يختلفان فى النهاية ، فإن قام به البعض ، سقط الإثم عن الآخرين ، وإن لم يقم به أحد أثم الجميع .

يقول ابن تيمية : « فأما إذا هجم العدو ، فلا يبقى للخلاف وجه ، فإن دفع ضررهم عن الدين والنفس والحرمة واجب إجماعياً » .

ودليل استئذان الوالدين فى فرض الكفاية ، وعدم استئذانهما فى فرض العين الجمع بين الحديثين التاليين :

أولاً : حديث البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - « جاء رجل إلى النبى - ﷺ - يستأذنه فى الجهاد فقال : « أحىّ والداك ؟ قال : نعم قال : ففيهما فجاهد » »[1] .

---

(١) اخرجه البخارى فى (كتاب الأدب) باب : لا يجاهد الا بإذن الأبوين جـ ٤ ص ٤٧ طبع دار احياء الكتب العربية .
واخرجه ابن حبان فى سننه فى باب : الاستحباب للمرء أن يؤثر بر الوالدين على الجهاد الفضل جـ ١ ص ٣٩٥ رقم ٤١٢

ثانياً : روى ابن حبان عن عبد الله بن عمرو - رضى الله عنهما - « جاء رجل إلى رسول الله - ﷺ - فسأله عن أفضل الأعمال قال : الصلاة ، قال : ثم مه قال : الجهاد ، قال : فإن لى والدين ، فقال : آمرك بوالديك خيراً ، فقال : والذى بعثك بالحق لأجاهدن وأتركهما قال : فأنت أعلم »[١] . قال الحافظ : وهو محمول على جهاد فرض العين توفيقاً بين الحديثين .

استئذان الشيخ والمربى

لم ينص أحد من الفقهاء سلفاً وخلفاً ، أن للشيخ أو المربى حق الاذن على تلميذه فى العبادات ، سواء كانت فروض كفاية ، أم فروضاً عينية ، ومن قال بغير هذا فليأتنا بنص شرعى أوبسلطان مبين . فلكل إنسان مسلم أن يذهب إلى الجهاد دون استئذان شيخه أو معلمه ، لأن إذن رب العالمين هو المقدم ، وقد أذن بل فرض الجهاد . قال ابن هبيرة : « إن من مكائد الشيطان أن يقيم أوثاناً فى المعنى ، تعبد من دون الله ، مثل أن يتبين له الحق ، فيقول : ليس هذا مذهبنا تقليداً لمعظم عنده قد قدمه على الحق » .

ولو كان هذا التلميذ يريد دراسة الهندسة ، أو الطب ، أو التاريخ فى الدول الغربية ، أو أمريكا ، حيث الفتن كقطع الليل المظلم ، وحيث الخضم المتلاطم من المغريات ، وبحور تسعير الشهوات ، وتأجج النزوات أقول : لو ذهب هذا التلميذ دون إذن شيخه ، لما أنكر عليه الشيخ ولا غيره ، ولكن إذا نفر للرباط ، أوخرج للجهاد ، تجد الألسنة عليه من كل جانب ، حيث يقال : كيف يخرج دون استئذان ؟ وقد فات شيخه أن يسمع لكلام النبوة الشريف « حرس ليلة فى سبيل الله تعالى أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها »[٢] .

وفى صحيح مسلم : « رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه . وإن مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان »[٣] .

« غدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[٤] متفق عليه .

على الشيخ وتلاميذه أن يبادروا بالأعمال ، ويستبقوا الخيرات ، ولا تفوتنهم نصيحة رسول الله - ﷺ - : « اغتنم خمساً قبل خمس : حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك »[٥] . وعليهم أن يسمعوا الحديث الصحيح « قيام ساعة فى الصف للقتال فى سبيل الله خير من قيام ستين سنة »[٦] رواه أحمد والحاكم والدارمى .

قال الشافعى : « أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله - ﷺ - لم يحل له أن يدعها لقول أحد » .

---

(١) أخرجه ابن حبان جـ٣ ص١١١ باب فضل الصلوات الخمس رقم ١٧١٩

(٢) أخرجه الحاكم جـ٢ ص٨١ باب الجهاد .

(٣) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٥٢٠ كتاب الامارة باب فضل الرباط فى سبيل الله عزوجل رقم ١٩١٣/١٦٣

(٤) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٥٠٠ كتاب الامارة باب فضل الغدوة والروحة فى سبيل الله . رقم ١٨٨١/١١٤ وابن ماجة رقم ٢٧٥٥

(٥) أخرجه كنز العمال جـ١٥ ص٨٧٩ رقم ٤٣٤٩٠ وعزاه إلى الحاكم والبيهقى وأحمد فى الزهد وإلى أبى نعيم فى الحلية .

(٦) أخرجه أحمد جـ٥ ص٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٢

الجهاد بالمال

لا شك أن الجهاد بالنفس أعلى مرتبة من الجهاد بالمال ، ولذا فلم يعف الأغنياء فى زمن رسول الله - ﷺ - من المشاركة بأنفسهم ، أمثال عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنهما - لأن صقل النفوس وتربية الأرواح ، إنما تتم على مستوى رفيع فى خضم المعركة ، ولذا فقد أوصى - ﷺ - أحد الصحابة قائلاً : « .. وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الاسلام »(١) حديث صحيح رواه أحمد .

ولذلك فعندما سئل رسول الله - ﷺ - أيفتن المرء فى قبره ؟ قال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة »(٢) حديث صحيح رواه النسائى ولذا فقد حذر رسول الله - ﷺ - من الانشغال بالدنيا عن الجهاد ، فقد أشار ذات مرة إلى سكة محراث ، وقال : « لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل »(٣) رواه البخارى فى صحيحه . وفى الصحيح : « إذا تبايعتم العينة ، وأخذتم بأذناب البقر ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلّط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »(٤) رواه أبو داود .

وفى الصحيح كذلك : « لا تتخذوا الضيعة فترغبوا فى الدنيا »(٥) رواه الترمذى . والضيعة : هى العقار أو الحرفة ، ففى هذه الأحاديث جمع رسول الله - ﷺ - متاع الدنيا وأسباب الانشغال : الزراعة ، التجارة بالربا . وحيلة (العينة) والانتاج الحيوانى والصناعة والحرفة (الضيعة) فالانشغال بهذه فى وقت ، يتعرض فيه الاسلام لمعركة الوجود أو الاجتثاث ، يعد حراماً وموبقة شرعية .

أما الجهاد بالمال ، فهو فرض إذا احتاج المجاهدون إليه ، فرض على النساء ، وفى أموال الصغار ، حتى لو كان الجهاد فرض كفاية ، كما قرر ذلك ابن تيمية .

ولذا يحرم على الناس الادخار فى حالة الحاجة للمال ، بل لقد سئل ابن تيمية سؤالا : « لو ضاق المال عن إطعام جياع ، والجهاد الذى يتضرر بتركه فقال : قدمنا الجهاد وإن مات الجياع ، كما فى مسألة التترس وأولى ، فإن هناك (التترس) نقتلهم بفعلنا وهنا يموتون بفعل الله » .

قال القرطبى : « اتفق العلماء على أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة ، فإنه يجب صرف المال إليها » . وقال مالك : « يجب على الناس فداء أسراهم ، وإن استغرق ذلك أموالهم ، وهذا إجماع أيضا » . والحفاظ على الدين مقدم على الحفاظ على النفوس ، والحفاظ على النفوس أولى من الحفاظ على الأموال ، فأموال الأغنياء ليست أغلى ولا أثمن من دماء المجاهدين .

فلينتبه الأغنياء إلى حكم الله فى أموالهم ، حيث الجهاد فى أشد الحاجة ودين المسلمين وديارهم معرضة للزوال ، والأغنياء غارقون فى شهواتهم ، ولو صام الأغنياء يوماً واحداً عن شهواتهم ، وأمسكوا أيديهم عن إتلاف الأموال فى كمالياتهم ، وحولوها إلى المجاهدين فى أفغانستان ، الذين يموتون برداً ، وتنقطع أقدامهم من الثلج ، ولا يجدون قوت يومهم ، ولا ذخيرة يدفعون بها عن أنفسهم ، ويحقنون بها دماءهم .

---

(١) أخرجه أحمد جـ ٣ ص ٨٢

(٢) أخرجه النسائى جـ ٤ ص ٩٩

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب ما جاء فى الحرج والمزارعة . باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بآلة الزرع .

(٤) أخرجه أبو داود جـ ٣ ص ٧٤٠ رقم ٣٤٦٢

(٥) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ كتاب الزهد باب ٢٠ رقم ٢٣٢٨

أقول : لو دفع الأغنياء مصروف يوم واحد للمجاهدين فى البوسنة ، لأحدثت أموالهم بإذن الله تغييراً كبيراً فى الجهاد نحو النصر ، ولقد أفتى كبار العلماء ، وعلى رأسهم الشيخ عبد العزيز بن لباز ، أن دفع الزكاة للمجاهدين من أعظم القربات ، وأفضل الصدقات .

الخلاصة :

أولاً : الجهاد بالنفس فرض عين على كل المسلمين فى الأرض .

ثانياً : لا إذن لأحد على أحد فى الجهاد فلا إذن للوالدين على الولد .

ثالثاً : الجهاد بالمال فرض عين ، ويحرم الادخار ما دام الجهاد بحاجة إلى مال المسلمين .

رابعاً : إن ترك الجهاد كترك الصلاة والصيام ، بل ترك الجهاد أشد فى هذه الأيام ، ونقل ابن رشد الاتفاق على أن الجهاد إذا تعين أقوى من الذهاب إلى حجة الفريضة .

أسئلة كبيرة وأسئلة مهمة

هل نستطيع تطبيق هذه الفتوى اليوم ؟

قد يقول قائل بعد هذا : قد علمنا أن الجهاد اليوم بالنفس فرض عين ، وأن الجهاد فرض كالصلاة والصيام ، بل الجهاد بالنفس مقدم على الصلاة والصيام كما يقول ابن تيمية : « فالعدو الصائل الذى يفسد الدين والدنيا لا شىء أوجب بعد الإيمان من دفعه » .

فالصلاة تؤخر وتجمع أو تختصر ركعاتها أو تتغير هيئتها بوجود الجهاد وفى الصحيحين : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس »(١) .

والمجاهد يفطر فى رمضان ، كما روى مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ أفطر وهو فى طريقه إلى فتح مكة وقال : « إنكم مصبحو عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا »(٢) .

وتبين لنا أنه لا يستأذن أحد فى أداء فريضة الجهاد إذا تعينت (أصبحت فرض عين) كما أنه لا يستأذن الوالد ، أو الشيخ ، أو السيد ، فى أداء فريضة الصبح قبل طلوع الشمس .

كذلك لا يستأذن أحد فى أداء فريضة الجهاد ، فإذا نام الأب وابنه فى مكان واحد ، وأراد الابن أن يصلى الفجر وأبوه نائم ، فهل يقول أحد بوجوب استئذان الابن لأبيه فى صلاة الفرض ؟ ولنفرض أن الأب قد نهى ابنه عن القيام للصلاة ، لأى سبب فى نفس الأب ، لئلا يزعج النائمين ـ الذين لا يصلون الفجر ـ أو لأن أباه لا يريد الصلاة ، فهل يطيع الابن أباه ؟ الجواب واضح « إنما الطاعة فى المعروف » . متفق عليه . « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق »(٣) حديث صحيح رواه أحمد والحاكم ، « لا طاعة لمن لم يطع الله »(٤) حديث صحيح رواه أحمد . وترك الجهاد معصية ، ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

(١) أخرجه مسلم جـ١ ص٤٣٦ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٢٠٢/٦٢٧

(٢) أخرجه مسلم جـ٢ ص٧٨٩ كتاب الصيام باب التخيير فى الصيام والفطر فى السفر رقم ١٠٢/١١٢٠

(٣) أخرجه أحمد جـ٥ ص٦٦ ، ٦٧ والحاكم جـ٣ ص٣٥٦ ، ٣٥٧ والألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٧٩ ، وصحيح الجامع والصغير رقم ٧٣٩٦

(٤) أخرجه أحمد جـ ٣ ص٢١٣

الاستئذان

أمر الاستئذان : ولزيادة الايضاح فى هذه المسألة نقول وبالله التوفيق : إن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يكونوا يستأذنون رسول الله - ﷺ - بعد عقد الراية واستنفار الأمة ، بل كان استئذان النبى - ﷺ - استشارة بعد عقد النية ، أو بعد تسجيل اسم الصحابى فى الغزوة ، ففى الحديث الصحيح الذى رواه أحمد والنسائى عن معاوية بن جاهمة السلمى « أن جاهمة أتى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، أردت الغزو وجئتك أستشيرك فقال : هل لك من أم ؟ فقال : نعم فقال : الزمها فإن الجنة عند رجليها »(١) .

وفى رواية : إنى إستكتبت فى غزوة كذا ، أى : كتبت اسمى . هذا عندما كان الجهاد فرض كفاية .

فأما إذا أصبح الجهاد فرض عين بعد الاستنفار ، فإن استئذان النبى - ﷺ - يصبح علامة نفاق فقد جاء فى محكم التنزيل : ﴿ **لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون** ﴾(٢) .

وأما الخلفاء الراشدون - أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ - رضى الله عنهم - فلا نعلم أن الصحابة والتابعين ، كانوا يستأذنوهم ، وما كان كل واحد يريد الغزو أو الجهاد ، يأتى إلى أبى بكر ليستأذنه ، فالمهم أن تعقد الراية وتخرج السرية .

وأمراء المؤمنين من بعد الخلفاء لا نعلم أن الذى كان ينوى الرّباط أو الجهاد ، يرسل إليهم يستأذنهم ، ولا نعلم أن واحداً من المسلمين فى التاريخ الإسلامى كله ، قد عوقب من قبل أمير المؤمنين ، بسبب الجهاد أو الغزو بدون إذنه ، وإنما يستأذن أمير الحرب وقائد المعركة فى الغزو والهجوم ، من أجل التنظيم والتنسيق ، وحتى لا يفسد المرء الذى يهجم على العدو خطة المسلمين .

وخصص بعض الفقهاء كالأوزاعى الاستئذان من الإمام فى حالة الجنود ، الذين يأخذون روايتهم من ديوان الجند . قال الرّملى فى نهاية المحتاج : « يكره الغزو بغير إذن الإمام أو نائبه ، ولا كراهة فى حالات :

١ - إذا فوّت الاستئذان المقصود .

٢ - أو عطل الإمام الغزو .

٣ - أو غلب على ظنه عدم الإذن كما بحث ذلك البلقينى » .

---

(١) أخرجه أحمد جـ٣ ص ٤٢٩ والنسائى جـ٦ ص ١١

(٢) التوبة الآيتان ٤٤ ، ٤٥

نعود فنقول : هذا كله إذا كان الجهاد فرض كفاية ، أما إذا أصبح الجهاد متعيناً (فرض عين) فلا إذن ولا استئذان . قال ابن رشد : « طاعة الإمام لازمة ، وإن كان غير عدل ما لم يأمر بمعصية ، ومن المعصية النهى عن الجهاد المتعين » ونزيد المسألة وضوحاً فنقول : إن الإذن والاستئذان فى فرض الكفاية ، إنما يكون بعد الكفاية ، أى بعد أن يكون عدد المجاهدين كافياً للقيام بالفرض ، أما قبل أن تحصل الكفاية ، فالخطاب موجه إلى الجميع ، ويجب على الكل ، ويسقط بفعل البعض ، ولا فرق بين فرض الكفاية . والعين ، قبل أن تتم الكفاية .

وقبل الكفاية : لا إذن ولا استئذان ، والإذن والاستئذان ، إنما يكون بعد العلم بكفاية المسلمين فى أرض المعركة للقيام بالفرض .

بعد هذا كله قد يقول قائل :

تيقنا الآن أن الجهاد فرض عين ، وأنه لا إذن ولا استئذان من أحد أبداً فى الجهاد ، ولكن هنالك أسئلة مهمة :

١ - هل يمكن تطبيق النفير عملياً فى هذه الأيام ؟

٢ - هل نجاهد وليس هنالك أمير واحد ؟

٣ - هل يقاتل المسلم وحده إذا قعد الناس ؟

٤ - هل نستعين بالكفار إذا كنا ضعافاً ؟

٥ - هل نقاتل مع المسلمين ليسوا على مستوى مقبول من التربية الاسلامية ؟

السؤال الأول

كيف نطبق النفير عملياً فى هذه الأيام ؟

يرى بعض الناس أن النفير كما يطلب الإسلام ، بحيث تخرج المرأة دون إذن زوجها ، والولد دون إذن والده ، هذا أمر عسير جداً لأسباب .

١ - إن أية بقعة إسلامية لا تتسع لعشر معشار المسلمين .

٢ - إن هذا يؤدى إلى الإخلال بعملية التربية الإسلامية ، التى تعتبر الأمل بإذن الله - عز وجل - فى إنقاذ الأمة .

٣ - إن هذا يؤدى إلى عملية تفريغ للبقاع الإسلامية ، إذ كل واحد يأتى للجهاد إنما يترك ثغرة للشيوعيين والبعثيين والقوميين والعلمانيين فى بلده

الجواب

لو طبق المسلمون أمر ربهم ، ونفذوا حكم شريعتهم فى النفير أسبوعاً واحداً لفلسطين ، فإن فلسطين ستتطهر نهائياً من اليهود ، وعندئذ لا نشغر أماكن الدعاة ، ولا تتدمر بيوتهم بخروج نسائهم ، ولكننا ننتظر فى كل مرة ونبقى ننظر إلى الإقليم الإسلامى ، الذى وقع تحت سيطرة الكفار ، حتى يبتلع ثم نؤنبه بخطب رنانة ودموع هتّانة وحوقلات حرى وتأوهات كثيرة .

إننا نفكر بالاسلام تفكيراً إسلامياً قوميا ، فلا تتعدى نظراتنا حدود الجغرافية ، التى رسمتها لنا معاهدة سايكس ـ بيكو ، أوخطها جون أنطون البريطانى أو الفرنسى .

إن ابن مدينة الرمثا الأردنية على حدود سورية ليشعر بالانتماء ، ويشتد بتفكيره الإسلامى إلى ابن العقبة الأردنية ـ التى تبعد أكثر من ستمائة كم ـ أكثر من ارتباطه بابن مدينة درعا السورية ، التى لا تبعد عشرة كيلومترات عن الرمثا ، مع أن ابن درعا وابن العقبة الاثنان مسلمان متعبدان ، بل قد يكون ابن درعا أكثر تدينا والتزاما من ابن العقبة ـ الأردنية .

السؤال الثانى

هل نجاهد وليس لنا أمير واحد ؟

نعم نجاهد وليس لنا أمير ، ولم يقل أحد أن عدم اتحاد المسلمين على أمير يسقط فرضية الجهاد ، بل لقد رأينا المسلمين أيام الحروب الصليبية والتتار ، يقاتلون مع أن أمراءهم مختلفون ، وفى كل بلد أمير أو عدة أمراء ، ففى حلب وفى دمشق أمير ، وفى مصر أكثر من أمير ، وبعضهم يستنجد بالصليبيين على إخوانه الأمراء ، كما حصل من شاور الذى استعان بالصليبيين على أمير آخر فى مصر (ضرغام) .

ولم يقل أحد من العلماء أن هذا الحال يسقط فريضة الجهاد للدفاع عن أرض المسلمين بل يضاعف واجبهم .

وكذلك الحال فى الأندلس التى كانت كما يقول الشاعر :

وتفرقوا شيعاً فكل محلة فيها أمير المؤمنين ومنبر

وقال آخر :

مما يزهدنى فى أرض الأندلس ألقاب معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

ولم يقل أحد من العلماء أنه لا جهاد فى هذا الحال ، بل كان أعيان العلماء فى مقدمة الصفوف فى الأندلس .

وقد تخلو المعركة من قائد شرعى معه الولاية من الأمير العام ، كما حدث يوم مؤتة ، فقام خالد ابن الوليد واستلم الراية ، وأنقذ الله به الجيش المسلم وأقره - ﷺ - وأثنى عليه .

وقد يكون الامام أو أمير المؤمنين غير موجود ، وهذا لا يسقط فرضية القتال والدفاع عن أرض المسلمين ، ولا ننتظر حتى تقوم الولاية الكبرى وتستأنف الخلافة .

لأن الولاية العامة . والخلافة لا تأتى نظرياً بالثقافة والدراسة ، بل الجهاد أسلم طريقة ، لكى تصبح الولاية الخاصة ، أى إمارة القتال ولاية عامة وخلافة .

والمجاهدون يختارون أميراً للجهاد من بينهم ، يصلح أمرهم ، ويلم شعثهم ، ويرد قويهم عن ضعيفهم ، ففى الحديث الصحيح عن عقبة بن عامر وكان من رهطه قال : « بعث رسول - ﷺ - سرية فسلمت رجلاً سيفاً قال ، فلما رجع قال : ما رأيت مثل ما لا منا رسول الله - ﷺ - قال : أعجزتم إذ بعثت رجلاً فلم يمض لأمرى أن تحصلوا مكانه من يمضى لأمرى »(١) .

فالرسول - ﷺ - حرضهم على تغيير أمير السرية الذى عقد له الراية بيده الشريفة ، فكيف إذا لم يكن أمير أصلاً ، إن الحاجة أشد إلى تأيد أمير للحرب .

قال ابن قدامة فى المغنى « فإن عدم الإمام لم يؤخر الجهاد ، لأن مصلحته تفوت بتأخيره » .

وإذا اختار الناس أميراً ، فيجب طاعته ، جاء فى فتح العلى المالك إذ فعل الشيخ ميارة إذا خلا الوقت من الأمير ، وأجمع الناس رأيهم على بعض كبراء الوقت ، يمهد سبيلهم ، ويرد قويهم عن ضعيفهم ، فقام بذلك قدر الجهد والطاقة .

فالظاهر أن القيام عليه لا يجوز والمعرض له يريد شق عصا الإسلام وتفريق جماعته ، ففى صحيح مسلم الحديث « إنها ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهو جميع فاقتلوه كائناً من كان »(٢) « من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد تفريق جماعتكم فاقتلوه »(٣) .

---

(١) أخرجه أبوداود كتاب الجهاد باب فى الطاعة رقم ٢٦١٠
(٢) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٤٧٩ كتاب الامارة باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع رقم ١٨٥٢/٥٩
(٣) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٤٨٠ رقم ١٨٥٢/٦٠

السؤال الرابع

هل يقاتل الإنسان إذا قعد الناس ؟.

نعم يقاتل ، لأن الله عز وجل يخاطب نبيه ـ ﷺ ـ قائلاً : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً »[1] .

فالآية تأمر الرسول ـ ﷺ ـ بأمرين واجبين (لأن الأمر بالوجوب) .

١ ـ القتال ولو وحده .

٢ ـ تحريض المؤمنين .

ويذكر رب العزة الحكمة من القتال ، وهو كف بأس الكفار لا يخشون وجودنا إلا بالقتال « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله »[2] . وبترك القتال يسود الشرك ، وهو الفتنة ، وينتصر الكفر ، وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم الآية على ظاهرها ، فعن أبى اسحق قال : قلت للبراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ : الرجل يحمل على المشركين أهو يلقى بيده إلى التهلكلة ؟

قال : لا لأن الله بعث رسوله ـ ﷺ ـ فقال : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك » إنما ذاك فى النفقة .

« وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل ، إذا تعين الجهاد على الأعيان ، لغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو لحلوله بالعقر ، فيجب على كافة الخلق الجهاد والخروج فإن قصروا عصوا ، فإذا كان النفير عاماً لغلبة العدو على الحوزة أو استيلائه على الأسارى ، كان النفير عاماً ووجب الخروج خفافاً وثقالاً ركباناً ورجالاً عبيداً وأحراراً ، من كان له أب من غير إذنه ، ومن لا أب له حتى يظهر دين الله ، وتحمى البيعة ، وتحفظ الحوزة ، ويخزى العدو ، ويستنقذ الأسرى ولا خلاف فى هذا .

فكيف يصنع الواحد إذا قعد الجميع ، يعمد إلى أسير واحد فيفديه ويغزو إن قدر وإلا جهز غازيا » .

بل إن قتال المرء وحده ، يرضى الله ويعجبه ، ففى الحديث الحسن الذى رواه أحمد وأبو داود قال ـ ﷺ ـ « عجب ربنا من رجل غزا فى سبيل الله فانهزم أصحابه فعلم ما عليه فرجع حتى أهرق دمه فيقول الله عز وجل لملائكته : انظروا إلى عبدى رجع رغبة فيما عندى وشفقة مما عندى حتى أهريق دمه »[3]

---

(١) سورة النساء آية ٨٤
(٢) سورة الانفال آية ٣٩
(٣) أخرجه أبو داود جـ٣ ص٤٢ رقم ٢٥٣٦

السؤال الخامس

هل نقاتل مع مسلمين ليسوا على مستوى مقبول من التربية الإسلامية ؟ هذا السؤال يثور من قبل بعض الناس ، وقسم منهم مخلصون ويتساءلون كيف نقاتل مع قوم ، فيهم الصادق ، وفيهم الكاذب ، وينتشر بينهم شرب الدخان والنسوار (كالدخان) وقد يبيع بعضهم سلاحه ؟ وهم أناس متعصبون لمذهبهم الحنفى ، وبعضهم يعلق الرقى والتمائم « وقبل أن أبين الحكم الشرعى أقول : أرونى شعباً مسلماً فى الأرض يخلو من هذه الأمور ؟ فهل نترك الكفار فى كل أراضى المسلمين ، لأن هذه الأمور موجودة ؟

الجواب

يجب القتال ، لأن القتال مبنى على دفع أعظم الضررين فهنالك القواعد الفقهية فى مجلة الأحكام العدلية رقم ٢٦ « يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام » وفى المادة ٢٧ « الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف » وفى المادة رقم ٢٨ « إذا تعارضت مفسدتان روعى أعظمهما ضرراً بارتكاب أحقهما » وفى المادة رقم ٢٩ « تختار أهون الشرين » : فلابد من اختيار أهون الشرين : أيهما أعظم شراً ، استيلاء الروس على أفغانستان ، وتحويلها إلى بلاد كفر ، يمنع فيها القرآن والإسلام ، أم الجهاد مع قوم فيهم ذنوب وأخطاء ؟

يقول ابن تيمية فى مجموع الفتاوى ٥٠٦/٢٨ ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة ، الغزو مع كل بر وفاجر ، فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، وبأقوام لا خلاق لهم ، كما أخبر بذلك النبى - ﷺ - لأنه إذا لم يتفق الغزو إلا مع الأمراء الفجار ، أو مع عسكر كثير الفجور ، فإنه لابد من أحد أمرين إما ترك الغزو معهم ، فيلزم من ذلك استيلاء الآخرين الذين هم أعظم ضرراً فى الدين والدنيا ، وأما الغزو مع الأمير الفاجر فيحصل بذلك دفع الأفجرين ، وإقامة أكثر شعائر الإسلام ، وإن لم يمكن إقامة جميعها ، فهذا هو الواجب فى هذه الصورة وكل ما أشبهها ، بل كثير من الغزو الحاصل مع الخلفاء الراشدين ، لم يقع إلا على هذا الوجه ، وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم « الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم »(١) فما داموا مسلمين يجب القتال معهم ، والهدف المعلن هو إقامة دين الله فى الأرض .

ولو قاتل المسلمون فى فلسطين لما ضاعت فلسطين ، رغم المفاسد التى كانت فى البداية .

أما قادة الجهاد الأفغانى فكلهم صائمون مصلون ، يقيمون الشعائر ، وينادون بالاسلام .

يجب القتال مع أى قوم مسلمين ما داموا مسلمين ، مهما كان فسقهم وفجورهم إذا كان القتال ضد الكفار أو الملحدين .

يقول الشوكانى فى نيل الأوطار ٤٤/٨ « وتجوز الاستعانة بالفساق على الكفار إجماعياً » .

---

(١) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٤٩٣ كتاب الامارة باب الخيل فى نواحيها الخير إلى يوم القيامة رقم ١٨٧٣/٩٨

سادساً : هل نستعين بالمشركين إذا كنا فى حالة ضعف يرى بعض الناس الاستعانة بأمريكا وبالدول الغربية فى الجهاد ضد اليهود فى فلسطين ، وهذا النوع من الاستعانة حرام باتفاق الفقهاء ، وتضييع لهدف الجهاد نهائيا ، وفى المسألة أحاديث متعارضة فمن الأحاديث المانعة للاستعانة :

١ ـ حديث فى صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم لمشرك يوم بدر : « فارجع فلن أستعين بمشرك » نيل الأوطار ١٢٨/٧

٢ ـ حديث آخر « إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين » رواه أحمد والطبرانى قال الهيثمى فى مجمع الزوائد : رجال أحمد والطبرانى ثقات وهنالك نص صحيح أن صفوان بن أمية ، قاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كافر .

قال النووى فى تهذيب الأسماء واللغات رقم ٢٦٣

« صفوان بن أمية شهد حنيناً مع النبى ـ ﷺ ـ كافرا » وقد استعار رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حنين دروع صفوان ابن أمية ، وقال له ـ ﷺ ـ (عارية مؤداة) حديث صحيح رواه الحاكم انظر صحيح الجامع ٣٨٦٢ وثبت عند أهل السير أن قزمان خرج مع النبى ـ ﷺ ـ يوم أحد وقتل ثلاثة من حملة لواء المشركين ، وقال ـ ﷺ ـ عن قزمان : (إن الله ليأزر هذا الدين بالرجل الفاجر) وبناء على هذا التعارض ، فقد اختلف الفقهاء فى الجمع بين الأحاديث منها : أن الاستعانة بالمشركين كانت ممنوعة ثم رخص فيها قال الحافظ فى التلخيص ، وهذا أقربها وعليه نص الشافعى (نيل الأوطار ٤٤/٨) .

وقد اتفق الفقهاء الأربعة على جواز الاستعانة بالكفار بشروط :

١ ـ أن يكون حكم الاسلام هو الظاهر ، أى يكون المسلمون أقوى من مجموع المشركين ، الذين استعانوا بهم ، والمشركين الذين يقاتلونهم بحيث لو اتفق الكفار جميعاً غلبهم المسلمون .

٢ ـ أن يكون الكافر حسن الظن بالمسلمين ، وتؤمن خيانتهم ، ويعرف ذلك من خلال معاملته

٣ ـ أن يكون المسلمون بحاجة إلى الكافر ، أو الكفار المستعان بهم .

(أ) رأى الحنيفية : قال محمد بن الحسن « لا بأس بأن يستعين المسلمون بأهل الشرك على أهل الشرك ، إذا كان حكم الاسلام هو الغالب » . وقال الجصاص « قال أصحابنا : لا بأس بالاستعانة بالمشركين على قتال غيرهم من المشركين ، إذا كانوا متى ظهروا كان حكم الاسلام هو الظاهر » .

(ب) المالكية : قال ابن القاسم « ولا أرى أن يستعينوا بهم يقاتلون معهم ، إلا أن يكون نواتيه أو خرقا ، فلا أرى بذلك بأساً » وقال مالك : « لا أرى أن يستعان بالمشركين على المشركين إلا أن يكونوا خدماً » .

(جـ) الشافعية : قال الرملى : « وللإمام أو نائبه الاستعانة بكفار ولو أهل حرب ، كأن يعرف حسن رأيهم فنياً ، ويشترط لجواز الاستعانة احتياجنا له لنحو خدمة أو قتال لقلتنا » .

(د) الحنبلية : قال ابن قدامة : « وعن أحمد ما يدل على جواز الاستعانة بالمشرك ، بل روى عن أحمد أنه يسهم للكافر من الغنائم ، إذا غزا مع الامام خلافاً للجمهور الذين لا يسهمون له » .

كثير من الكتاب يخطئون عندما يكتبون عن جواز السلم ، ويستشهدون بالنصوص القرآنية دون معرفة المراحل التاريخية للنصوص ، فلابد من معرفة التدرج فى النصوص الجهادية فى القرآن حتى نزلت آية السيف فى سورة التوبة : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين »[١] .

﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصدٍ ﴾[٢] .

فقد قرر ابن القيم فى زاد المعاد أن الجهاد كان محرماً فى مكة المكرمة ثم مأذوناً فيه عند الهجرة ثم مأموراً به مع من بادأهم بالقتال ثم مأموراً به مع المشركين كافة .

ويقول ابن عابدين/حاشية ابن عابدين : اعلم أن الأمر بالقتال نزل مرتبا ، فقد كان رسول الله - ﷺ - مأموراً أولا بالتبليغ والاعراض .

يقول تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[٣] ثم بالمجادلة بالأحسن ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[٤] ثم أذن لهم بالقتال ﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ﴾[٥] .

ثم أمروا بالقتال إن قاتلوهم ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين ﴾[٦] .

ثم أمروا بالقتال بشرط انسلاخ الأشهر الحرم ﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾[٧] . ثم أمروا به مطلقا ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[٨] . ولذا لابد من معرفة المرحلة الزمنية التى نزلت فيها الآية ، ولابد من الاشارة ابتداء أنه لا تجوز المفاوضات السياسية فى مراحل الدعوة الأولى قبل أن يقوم للدعوة كيان وسلطان يحمى مبادءها ، وإذا دخلت الدعوة الاسلامية فى أوائل مراحلها فى المفاوضات السياسية ، فإن المبادىء تتميع وتختلط وتلتبس على الناس مفاهيمها ، ولا يقوم لها قائمة ، وتضيع الدعوة فى غمرة الألاعيب السياسية والأحابيل الدولية .

وهذه الفترة تمثلها السورة الكريمة : ﴿ قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ ويمثل موقف المؤمن فيها ﴿ قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . إن وليى الله الذى نزل

---

(١) سورة التوبة آية ٣٦
(٢) سورة التوبة آية ٥
(٣) سورة الحجر آية ٩٤
(٤) سورة النحل آية ١٢٥
(٥) سورة الحج آية ٣٩
(٦) سورة البقرة آية ١٩١
(٧) سورة التوبة آية ٥
(٨) سورة البقرة آية ١٩٠

الكتاب وهو يتولى الصالحين ﴾[١] لابد من اعلان المبادىء واستعلاء الدعاة ، حتى يصلب عودهم على نار المحنة ، وتصقل أرواحهم فى الصبر على الفتنة ، وهكذا كان موقف رسول الله - ﷺ - الواضح والصحابة معه فى مكة المكرمة ، أما بعد قيام دولة الإسلام ، فلا مانع من عقد المعاهدات .

شروط عقد المعاهدة مع الكفار

اختلف الفقهاء فى جواز عقد صلح مع الكفار ، فمنهم من أجازه على صلح الحديبية ، ومنهم من أجازه إذا كان المسلمون فى ضعف شديد ، ومنهم من لم يجز الصلح أبدا وقالوا نسخت آية السيف كل معاهدة مع الكفار . ولكن نقول :

يجوز للمسلمين عقد معاهدة مع الكفار ، إذا كان ذلك مصلحة للمسلمين ولكن بشرط أن لا تتضمن المعاهدة شرطاً يبطل المعاهدة أو يفسدها ومنها :

١ - لا يجوز أن تتضمن المعاهدة شرطاً فيه اعتراف أو إقرار الكفار على شبر من أراض المسلمين (نهاية المحتاج ٨/٥٨) لأن أرض الإسلام ليست لأحد ، فلا يحق لأحد أن يفاوض عليها ، وهذا الشرط يبطل العقد لأن الأرض لله ، ثم للاسلام ، فلا يجوز لأحد أن يتصرف فى ملك غيره ولا بيع لابن آدم فيما لا يملك ، ولذا بالنسبة للروس لا يجوز التفاوض معهم حتى ينسحبوا من كل شبر من أراضى أفغانستان ولا مع اليهود أبداً فى فلسطين .

٢ - إذا تعين الجهاد بطل الصلح ، كما إذا دخل العدو أرض المسلمين ، أو كان طالباً لهم . جاء فى فتح العلى المالك ١/٢٨٩ فى الصلح والمعاهدة فى المعيار - فى باب الجهاد - ما نصه : « أوقع الخليفة الصلح مع النصارى والمسلمون لا يرون إلا الجهاد ، فمهادنته منقوضة ، وفعله مردود » وحيثما تعين الجهاد فى موضع لم نجر فيه الصلح ، كما لو كان العدو غالياً على المسلمين ، وكل ما نقل فى تعين فرض الجهاد مانع من الصلح لاستلزامه إبطال فرض العين الذى هو الجهاد المطلوب فيه الاستنقاذ . نقل القاضى ابن رشد الاتفاق على أن الجهاد إذا تعين أقوى من الذهاب إلى حجة الفريضة ، لأن الجهاد إن تعين كان على الفور والحج قد قيل فيه أنه على التراخى ، فالصلح المذكور يجب نقضه ، لأنه بمقتضى الشرع غير منبرم فحكمه غير لازم عند كل من حقق أصول الشريعة . والصلح المذكور فيه ترك الجهاد المتعين ، وترك الجهاد المتعين ممتنع وكل ممتنع غير لازم .

٣ - كل شرط تضمن تعطيل شريعة الله أو إهمال شعائره ، فهو باطل فلا يجوز للكفار أن يتدخلوا فى نظام الحكم ، لأن هذا إفساد للجهاد وهدفه .

٤ - لا يجوز أن يتضمن العقد شرطاً فيه إذلال للمسلمين أو يشعر بهذا كما جاء فى الحديث عن الزهرى . قال : لما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله - ﷺ - إلى عيينة بن حصن بن حنيفة بن بدر

---

(١) سورة الاعراف الآيتان ١٩٥ - ١٩٦

وإلى الحارث بن أبي عسوف المزنى ـ وهما قائدا غطفان ـ فأعطاهما ثلثى ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه فجرى بينه وبينهما الصلح ، ولم تقع الشهادة ، فلما أراد ذلك بعث إلى سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة فاستشارهما فيه فذكر الحديث مفصلا وفيه : قد علمنا أن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، فهل ترون أن ندفع إليهم شيئا من ثمار المدينة ؟ قالوا : يا رسول الله إن كنت قلت عن رأى فرأيك متبع ، كنا لا ندفع إليهم ثمرة إلا بشرى أو قرى ونحن كفار وقد أعزنا الله بالإسلام ؛ فسر النبى - ﷺ - بقولهم مرسل قوى .

وقد شعر الأنصار من هذا أن فيه إذلالا لهم ، ولذا جاء فى بعض الروايات : لا نعطيكم إلا السيف .

٥ ـ أن لا يتضمن العقد شرطاً يخالف الشريعه الاسلامية مثل :

(أ) إقرار المشركين السكن فى أرض الحرمين لأنه فى الحديث : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » .

(ب) أو إرجاع امرأة مسلمة إلى الكفار « فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن »[1] أما إرجاع المسلم إلى الكفار ، فقد اختلف الفقهاء فيه ، فبعضهم أجاز إرجاعه قياساً على شرط الحديبية ، ولكن الفقهاء الآخرين رجحوا عدم جواز هذا الشرط ، أما شرط الحديبية فهو خاص برسول الله - ﷺ - لأنه علم أن الله سيجعل لهم مخرجاً وهذا هو الراجح « عن البراء بن عازب قال : وادَع رسول الله - ﷺ - المشركين يوم الحديبية على ثلاث - من أتاهم من عند النبى - ﷺ - لن يردوه ، ومن أتى إلينا منهم ردوه إليهم ، قال - ﷺ - : من ذهب منا إليهم فأبعده الله » متفق عليه وزاد مسلم « ومن خرج منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً »[2]

٦ ـ ولا يجوز كذلك أن يتضمن العقد إظهار شعائر الكفار فى بلاد المسلمين ، مثل السماح لهم ببناء الكنائس والأديرة ، أو إرسال المبشرين الذين يفتنون المسلمين ويفسدون عقائدهم وخاصة فى جزيرة العرب .

« النصر والفتح القريب »

قوله تعالى : ﴿ وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب ، وبشر المؤمنين ﴾[3] .

هذا وعد منه سبحانه وتعالى بنصر المؤمنين نصراً مبينا مؤزراً ، كما أنه وعد بفتح قريب عاجل لهم ، وذلك كقوله جل شأنه : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾[4] ، وقوله تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿ وفتح قريب ﴾ أى عاجل فهذه الزيادة ، هى خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم جـ٣ ص١٤١١ كتاب الجهاد والسير . باب صلح الحديبية فى الحديبية رقم ١٧٨٤/٩٣

(٢) سورة الانفال اية ٦١

(٣) سورة الصف آية ١٣

(٤) سورة محمد آية ٧

(٥) سورة الحج آية ٤٠

ولقد أنجز الله تعالى وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فكان من النصر المبين ، والفتح القريب ، ما حدث يوم الفتح الأعظم ، يوم دخل الرسول - ﷺ - البلد الحرام فاتحاً منتصراً يعلن كلمة التوحيد عالية مدوية ، وكان لهذا الفتح قصة لابد أن يقف عند دروبها كل قائد ، ولابد أن تعيها الأمة الاسلامية ، لتسلك الطريق ، وتتبع النهج ، الذى صار عليه أستاذ الانسانية الأكبر ، وقائد المسلمين الأعظم ، وصاحب الرسالة العصماء ، مبعوث العناية الالهية وشمس الهداية الربانية ونحن نسجل أحداث هذا اليوم بكل فخار واعزاز ، وتلكم قصة الفتح الأعظم كاملة لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية .

فى كتاب الرسول القائد قال اللواء محمود شيت خطاب تحت عنوان :

« عودة المستضعفين »

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »[١] .

« فتح مكة »

الموقف العام

١ - المسلمون :

أتاحت هدنة الحديبية للمسلمين القضاء على اليهود عسكرياً فى المدينة وخارجها ، كما أتاحت لهم السيطرة على القبائل فى شمالى المدينة حتى حدود العراق والشام ، وانتشر الإسلام بين القبائل العربية كلها ، فأصبح المسلمون قوة لا تدانيها أية قوة فى بلاد العرب .

ولم يبق أمام المسلمين إلا فتح مكة ، تلك المدينة المقدسة التى انتشر الإسلام فيها أيضاً ، وما أسهل فتحها على المسلمين لولا عهد الحديبية الذى يحرص على الوفاء به الرسول - ﷺ - .

٢ - المشركون :

أدى انتشار الاسلام بين قسم كبير من القبائل ، ومن ضمنها قريش ، وبقاء القسم الآخر على الشرك إلى تفرق كلمتها ، واستحالة جمع هذه الكلمة على حرب المسلمين .

ولم يبق فى قريش زعيم مسيطر ، يستطيع توجيهها إلى ما يريد حين يريد .

المسلمون فيها لا يخضعون إلا لأوامر الإسلام ، والمشركون فيها بين متطرف يدعو للحرب مهما تكن نتائجها ، ومعتدل يعتبر الحرب كارثة تحيق بقريش .

أراد بنو بكر حلفاء قريش ، أن يأخذوا بثاراتهم القديمة من بنى خزاعة حلفاء المسلمين ، وحرضهم على ذلك ، متطرفو قريش بقيادة عكرمة بن أبى جهل وبعض سادات قريش ، وأمدوهم سراً بالرجال والسلاح ، فقامت بنو بكر بهجوم مباغت على بنى خزاعة ، فأوقعوا فيهم بعض الخسائر فى الأرواح والأموال ، ولما التجأت خزاعة إلى البيت الحرام ، طاردتهم بنو بكر مصممة على القضاء عليهم غير مكترثة بعهد الحديبية .

---

(١) سورة القصص آية ٥

وانتهت الهدنة بين قريش وحلفائها من جهة ، وبين المسلمين وحلفائهم من جهة أخرى ، وكان السبب في انتهائها قريش وبنو بكر .

إعلان الحرب

١ - المسلمون :

سارع عمرو بن سالم الخزاعى بالتوجه إلى المدينة ، حاملاً أخبار نقض قريش وبنى بكر لعهد الحديبية ، فلما وصلها قصد المسجد ، وقص على الرسول - ﷺ - وأصحابه ما أصاب خزاعة من بنى بكر وقريش فى مكة وخارجها ، فأجابه الرسول - ﷺ - : « نصرت يا عمرو بن سالم » .

وخرج بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة ، حتى قدموا المدينة ، فأخبروا النبى - ﷺ - بما أصابهم ، فعزم الرسول - ﷺ - على فتح مكة .

٢ - قريش :

قدر معتدلو قريش وعقلاؤهم ، ماذا يعنيه انتهاء الهدنة بينهم وبين المسلمين ، فقرروا إيفاد أبى سفيان إلى المدينة للتشبث بتثبيت العهد وإطالة مدته .

ولما وصل أبو سفيان « عسفان » فى طريقه إلى المدينة رأى بديل بن ورقاء وأصحابه عائدين من المدينة ، فخاف أن يكونوا قد جاءوا محمداً رسول الله - ﷺ - وأخبروه بما حدث ، مما يزيد مهمته التى جاء من أجلها تعقيداً ، إلا أن بديلاً نفى مقابلة النبى - ﷺ - ولكن أبا سفيان ، عرف من فضلات راحلة بديل التى فيها نوى التمر ، أنه كان فى المدينة .

ووصل أبو سفيان إلى المدينة فقصد دار ابنته أم حبيبة زوج الرسول - ﷺ - وأراد أن يجلس على الفراش فطوته دونه ، فقال لها : يا بنية ما أدرى أرغبت لى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ » قالت : « بل هو فراش رسول الله أنت مشرك نجس » . قال أبو سفيان : « والله لقد أصابك بعدى شر » .

واستشفع أبو سفيان بأبى بكر ليكلم الرسول - ﷺ - فأبى ، واستشفع بعمر بن الخطاب ، فأغلظ له فى الرد ، وقال : « أأنا أشفع لكم عند رسول الله - ﷺ - ؟ والله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به » .

ودخل أبو سفيان ، على على بن أبى طالب وعنده فاطمة ، فرد عليه على « والله يا أبا سفيان لقد عزم رسول الله - ﷺ - على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه » .

واستشفع أبو سفيان بفاطمة بنت النبى - ﷺ - أن يجير ابنها الحسن بين الناس ، فقالت : « افيجير أحد على رسول الله ﷺ » .

فاستنصح أبو سفيان علياً بعد أن اشتدت عليه الأمور ، فنصحه أن يعود من حيث أتى ، فقفل أبو سفيان عائداً إلى قريش ، ليخبرهم بما لقى من صدود ، ولم يبق هنالك شك فى إعلان الحرب .

الاســتعدادات

أمر الرسول - ﷺ - أصحابه بانجاز استعداداتهم للحركة ، وأرسل من يخبر قبائل المسلمين خارج المدينة ، بإنجاز استعداداتهم للحركة أيضاً ، كما أمر أهله أن يجهزوه . ولكنه لم يخبر أحداً بنواياه الحقيقية ولا باتجاه حركته .

بل أخفى هذه النوايا حتى لأقرب المقربين إليه ، ثم أرسل سرية أبي قتادة الأنصارى إلى بطن إخلم ، ليزيد من اسدال الستار الكثيف على نواياه الحقيقية .

دخل أبو بكر على ابنته عائشة زوج النبى - ﷺ - وهى تهيء جهاز الرسول ، فقال لها : « أى بنية . أأمركم رسول الله - ﷺ - أن تجهزوه ؟ قالت : نعم ، فتجهز . قال : « فأيه ترينه يريد ؟ قالت : والله لا أدرى » .

ولما اقترب موعد الحركة ، صرح الرسول - ﷺ - بأنه سائر إلى مكة ، وبث عيونه ليحول دون وصول أنباء حركته إلى قريش ، ولكن حاطب بن أبى بلتعة كتب رسالة أعطاها امرأة متوجهة إلى مكة يخبرهم فيها بنيات المسلمين فعلم الرسول - ﷺ - بهذه الرسالة ، فبعث علىَّ بن أبى طالب والزبير بن العوام ليدركا المرأة ويأخذا تلك الرسالة منها ، فأدركاها وأخذا الرسالة التى كانت معها .

ودعا رسول الله - ﷺ - حاطباً يسأله : ما حمله على ذلك ؟ قال حاطب : « يا رسول الله أما والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت أمرأ ليس له فى القوم من أهل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم » وقال عمر بن الخطاب : « يا رسول الله دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق » .

قال الرسول : « أما إنه قد صدقكم ، وما يدريك ؟ لعل الله قد أطلع على من شهد بدرا فقال : أعملوا ما شئتم » . . ؟

شفع لحاطب ماضيه الحافل بالجهاد ، فعفا عنه الرسول - ﷺ - وأمر المسلمين أن يذكروه بأفضل ما فيه .

وأنجز المسلمون استعداداتهم للحركة

* قـوات الطرفين *

١ - المسـلمون :

عشرة آلاف رجل بقيادة الرسول - ﷺ - .

٢ - المشـركون :

قريش وبنو بكر كل قبيلة لها قائد خاص .

فى الطريق إلى مكة

١ ـ ترك المسلمون المدينة فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة قاصدين فتح مكة ، وكان جيش المسلمين مؤلفاً من الأنصار والمهاجرين ، وسليم ومزينة ، وغطفان وغفار وأسلم ، وطوائف من قيس وأسد وتميم ، وغيرهم من القبائل الأخرى فى عدد وعُدد لم تعرفه الجزيرة العربية من قبل ، وكلما تقدم الجيش نحو هدفه ازداد عدده ، بانضمام مسلمى القبائل التى تسكن على جانبى الطريق إليه .

ومع كثافة هذا الجيش وقوته وأهميته ، فقد بقى سر حركته مكتوماً لا تعرف قريش عنه شيئاً إذ مع اعتقاد قريش بأن محمداً ـ ﷺ ـ فى حل من مهاجمتها ، ولكنها لم تكن تعرف متى وأين وكيف سيجرى الهجوم المتوقع ، ولشعور قريش بالخطر المحدق بها ، أسرع كثير من رجالها بالخروج إلى المسلمين ، لاعلان اسلامهم ، فصادف بعض هؤلاء العباس بن عبد المطلب عم النبى ﷺ وجيش المسلمين فى طريقه إلى مكة .

وصل الجيش مساء موضع « مر الظهران » على مسافة أربعة فراسخ فعسكر هناك وأمر الرسول ـ ﷺ ـ أن يوقد كل مسلم ناراً ، حتى ترى قريش ضخامة الجيش دون أن تعرف هويته ، فيؤثر ذلك على معنوياتها وتستسلم للمسلمين دون قتال ، وبذلك يؤمن الرسول ـ ﷺ ـ هدفه فى دخول مكة دون إراقة الدماء .

وأوقد عشرة آلاف مسلم نيرانهم ، ورأت قريش تلك النيران تملأ الأفق البعيد ، فأسرع أبوسفيان بن حرب ، وبديل بن ورقاء ، وحكيم بن خزام بالخروج باتجاه النيران ، حتى يعرفوا مصدرها ونوايا أصحابها وأهوائهم ، فلما اقتربوا من موضع معسكر المسلمين ، قال أبو سفيان لصاحبه بديل : « ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً » . فرد عليه بديل بن ورقاء ؛ « هذه والله خزاعة حمشتها الحرب » فلم يقتنع أبو سفيان بهذا الجواب فقال : « خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها » .

وكان العباس عم النبى ـ ﷺ ـ قد خرج من معسكر المسلمين راكباً بغلة الرسول ـ ﷺ ـ ليخبر قريشاً بالجيش الضخم ، الذى جاء لقتالها ، والذى لا قبل لها به ، حتى يؤثر على معنوياتها وليضطرها للتسليم دون قتال ، فيحقن بذلك دماءها ، ويؤمن لها صلحاً شريفاً ، ويخلصها من معركة فاشلة معروفة النتائج سلفاً ، لا يمكن أن تثيرها غير العصبية الجاهلية ، فسمع وهو فى طريقه حديث أبى سفيان وبُديل بن ورقاء فعرف العباس صوت أبى سفيان ، فناداه وأخبره بوصول جيش المسلمين ونصحه بأن يلجأ إلى الرسول ـ ﷺ ـ حتى ينظر فى أمره قبل أن يدخل الجيش مكة صباح غد ، فيحيق به وبقومه العقاب .

أردف العباس أبا سفيان على بغلة الرسول ـ ﷺ ـ وتوجها نحو معسكر المسلمين ، فلما وصل العباس المعسكر ودخله وأخذ يمر بنيران الجيش فى طريقه إلى خيمة الرسول ـ ﷺ ـ رآه المسلمون ، فلم ينكروا شيئا ، لأنهم عرفوا العباس ، فلما مرّ العباس بنار عمر بن الخطاب عرف أبا سفيان ، وأدرك أن العباس يريد أن يجيره ، فأسرع عمر إلى خيمة النبى ـ ﷺ ـ وطلب منه أن يأمره بضرب عنق أبى سفيان ولكن الرسول ـ ﷺ ـ طلب من عمه أن يأخذ أبى سفيان إلى خيمته ويحضره إليه صباح غد ، فلما كان

الصباح وجيء بأبي سفيان إلى النبي - ﷺ - أسلم ليحقن دمه ، فقال العباس : « يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً » .

قال الرسول - ﷺ - : « نعم ، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن »(١) .

وأراد الرسول - ﷺ - أن يستوثق من سير الأمور كما يحب بعيداً عن وقوع الحرب ، فأوصى العباس باحتجاز أبي سفيان فى مضيق الوادى ، حتى يستعرض الجيش الزاحف كله ، فلا تبقى فى نفسه أية فكرة للمقاومة .

قال العباس : « خرجت بأبي سفيان حتى حبسته بمضيق الوادى ، حيث أمرنى رسول الله ، ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة ، قال : يا عباس من هؤلاء فأقول سُليم ! فيقول : ما لى ولسليم ؟ ثم تمر به القبيلة ، فيقول : يا عباس من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة . فيقول : ما لى ولمزينة ؟ حتى نفدت القبائل ما تمر به قبيلة إلا سألنى عنها ، فإذا أخبرته قال : ما لى ولبنى فلان » .

« حتى مر الرسول - ﷺ - فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم الا الحدُق من الحديد فقال : سبحان الله ! يا عباس ، من هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله - ﷺ - فى المهاجرين والأنصار . قال : ما لأحد بهؤلاء من قبل ولا طاقة ؟ والله - يا أبا الفضل - لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً » .

« قال العباس : يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : نعم إذن » عند ذاك قال العباس لأبى سفيان : « النجاء إلى قومك ! » فأسرع أبو سفيان إلى مكة .

قبل دخول مكة

دخل أبو سفيان مكة مبهوراً مذعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً ، إذ انطلق اجتاح قريشاً وقضى عليها قضاءً لا تقوم لها قائمة بعده أبداً ، ورأى أهل مكة قوات المسلمين تقترب منهم ، ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد قرروا قراراً حاسماً ولا اتخذوا تدابير القتال الضرورية ، فاجتمعوا إلى ساداتهم ينتظرون الرأى الأخير ، فإذا بصوت أبي سفيان ينطلق بينهم مجلجلاً جازماً : « يا معشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لاقبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » .

دهشت امرأة أبي سفيان هند بنت عتبة ، التى كانت تشايع المتطرفين من مشركى قريش فى عداوتهم للمسلمين ، وهى تسمع من زوجها هذا الكلام .

فوثبت إليه وأخذت بشاربه تلويه وصاحت : اقتلوا الحميت الدسم الأحمس « أى هذا الزق المنتفخ »

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٦٢ باب بين العباس بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب فى شأن أبي سفيان .

قبح من طليعة قوم ولم يكترث أبو سفيان لسباب امرأته فعاود تحذيره : « ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم ، فإنه قد جاءكم ما لاقبل لكم به فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن . .) .

قالت قريش : قاتلك الله وما تغنى عنا دارك ؟ قال : « ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن » .

وأصبحت مكة تنتظر دخول المسلمين : اختفى الرجال وراء الأبواب الموصدة ، واجتمع بعضهم فى المسجد الحرام ، وبقى المتطرفون مصرين على القتال .

خطة الفتح

١ ـ كانت مجمل خطة الرسول لدخول مكة ما يلى :

(أ) الميسرة بقيادة الزبير بن العوام واجبها دخول مكة من شمالها .

(ب) الميمنة بقيادة خالد بن الوليد واجبها دخول مكة من جنوبها .

(جـ) قوات الأنصار بقيادة سعد بن أبى عبادة واجبها دخول مكة من الغرب .

(د) قوات المهاجرين بقيادة أبى عبيدة بن الجراح واجبها دخول مكة من الشمال الغربى من اتجاه جبل هند .

(هـ) مثابة اجتماع القوات بعد الفتح فى منطقة جبل هند .

٢ ـ كانت أوامر الرسول ﷺ لقواده بألا يقاتلوا إلا إذا اضطروا إلى القتال حتى يتم فتح مكة سلمياً وبدون قتال .

الفتح

١ ـ قبل شروع القطاعات فى دخول مكة ، سمع بعض المسلمين سعد بن عبادة يقول : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة . . لذلك رأى الرسول ـ ﷺ ـ حين بلغه ما قال سعد ، أن يأخذ الراية منه ، وأن يدفعها إلى ابنه قيس بن سعد ، فقد كان قيس أهدأ أعصاباً من أبيه ، وأكثر سيطرة على نفسه ، حتى يحول دون اندفاع سعد لإثارة الحرب .

دخلت قوات المسلمين مكة ، فلم تلق مقاومة ، إلا جيش خالد بن الوليد ، فقد تجمع متطرفو قريش مع بعض حلفائهم من بنى بكر فى منطقة « الخندمة » فلما وصلتها قطعات خالد أمطروها بوابل من نبالهم ، لكن خالداً لم يلبث أن فرقهم ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلا طريقهما وانفصلا عنه ، ولم يلبث صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل ، حين رأوا الدائرة تدور عليهم أن تركوا مواضعهم فى « الخندمة » وفروا مع قواتهم .

واستسلمت المدينة المقدسة للمسلمين وفتحت أبوابها لهم .

فى مكة

عسكر النبى - ﷺ - فى منطقة جبل هند بعد أن سيطرت قواته على جميع مداخل مكة ، فلما استراح وتجمعت أرتاله نهض والمهاجرين والأنصار بين يديه ، وخلفه وحوله ، حتى دخل المسجد الحرام ، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم طاف بالبيت العتيق ، وكان فى الكعبة ستون وثلاثمائة صنما ، يطعنها بالقوس وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » . « جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد » .

ثم دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها ، فرأى الصور تملؤها ، ومن بينها صورتان إبراهيم واسماعيل ، يستقسمان بالأزلام ، فمحا ما فى الكعبة من صور ، ثم صلى ودار فى البيت يكبر ، ولما أنهى تطهير البيت من الأصنام والصور ، وقف على باب الكعبة وقريش تنظر ماذا يصنع ، فقال : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو مال فهو تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء :

الناس من آدم ، وآدم من تراب ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير ﴾ . يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم ؟ .

قالوا : « خيراً أخ كريم وابن أخ كريم » .

قال : « فإنى أقول كما قال يوسف لإخوته : لا تثريب عليكم اليوم ، اذهبوا فأنتم الطلقاء »[١] .

طهر المسلمون البيت من الأصنام ، وأتم محمد - ﷺ - بذلك فى أول يوم فتح مكة ما دعا إليه منذ عشرين سنة ، أتم تحطيم الأصنام والقضاء على الوثنية فى البيت الحرام بمشهد من قريش ، ترى أصنامها التى كانت تعبد ويعبد آباؤها ، وهى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً .

وأقام محمد بمكة خمسة عشر يوما ، نظم خلالها شئون مكة ، وفقَّه أهلها فى الدين ، وأرسل بعض المفارز للدعوة إلى الإسلام ولتحطيم الأصنام من غير سفك للدماء .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٠ عفو رسول الله عن قريش .

خسائر الطرفين

١ - المسلمون :

شهيدان فقط .

٢ - المشركون :

ثلاثة عشر قتيلاً وبعض الجرحى .

سرايا الدعوة إلى التوحيد

الهدف :

١ - دعوة القبائل العربية المحيطة بمكة إلى الاسلام .
٢ - تحطيم الأصنام .

سرية خالد بن الوليد إلى العُزّى

بعث النبى - ﷺ - خالداً لخمس ليال بقين من رمضان - أى بعد خمسة أيام من فتح مكة - لهدم « العزى » فى ثلاثين فارساً من أصحابه ، فلما سمع سادتها بمسير خالد إليها ، علق عليها سيفه والتجأ إلى الجبل الذى هى فيه وهو يقول :

أيا عز شدى شدة لا شوى لها ... على خالد ألقى القناع وشمرى
ويا عز إن لم تقتلى اليوم خالداً ... فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

فلما انتهى إليها خالد هدمها وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانك ... إنى رأيت الله قد أهانك

وعاد خالد إلى النبى - ﷺ - بعد انتهاء واجبه .

سرية عمرو بن العاص إلى سواع

بعث رسول الله - ﷺ - فى شهر رمضان سنة ثمان للهجرة عمرو بن العاص إلى سواع صنم هُذيل ليهدمه . قال عمرو : « فانتهيت إليه وعنده السادن فقال : ما تريد ؟ قلت : أمرنى رسول الله - ﷺ - أن أهدمه ! فقال : لا تقدر على ذلك ! فقلت : لم ؟ فقال : تمنع ! فقلت : حتى الآن أنت فى الباطل ؟ ويحك هل يسمع أو يبصر ؟ ! فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ فقال : أسلمت لله » .

سرية سعد بن زيد الأشهلى إلى مناة

بعث رسول الله - ﷺ - فى شهر رمضان سنة ثمان للهجرة سعد بن أبى زيد الأشهلى إلى مناة ، وكانت بالمشلل للأوس والخزرج وغسان ، فخرج فى عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن فقال السادن : « ما تريد » ؟ قال : « هدم مناة » قال : « أنت وذاك ! » فأقبل سعد يمشى إليها هو وأصحابه ، فهدموا الصنم ولم يجدوا فى خزانتها شيئاً ، فانصرف إلى رسول الله - ﷺ - فى مكة ، وكان ذلك لست بقين من رمضان المبارك .

سرية خالد بن الوليد إلى جزيمة من كنانة

لما رجع خالد من هدم العزى ورسول الله - ﷺ - مقيم بمكة بعثه فى شوال سنة ثمان للهجرة إلى بنى جزيمة وكانوا بأسفل مكة ناحية « يلملم » بعثه « داعياً » إلى الإسلام ولم يبعثه « غازياً » فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ! فجعلوا يقولون : صبأنا . . صبأنا ! فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ثم دفع إلى كل رجل أسيره ، إذا كان يوم من الأيام أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره ، فلما علم النبى - ﷺ - بذلك قال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » .

وفى رواية أخرى أن خالداً خرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبنى سُليم ، فلما انتهى إلى بنى جزيمة قال : « ما أنتم ؟ » قالوا : مسلمون ، قد صلينا وصدقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذنا فيها ! .

فقال : « ما بال السلاح عليكم ؟ » فقالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، فأخذنا السلاح ! قال : « فضعوا السلاح » فلما وضعوه قال لهم : « استأسروا » فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم فكتف بعضاً وفرقهم فى أصحابه ، فلما كان فى السحر نادى خالد : « من كان معه أسير فليدافه » والمدافه : الإجهاز عليه بالسيف . فأما بنوسليم فقتلوا من كان فى أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسارهم ، فلما بلغ النبى - ﷺ - ذلك قال : « اللهم إنى أبرأ اليك مما صنع خالد » .

وبعث على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فورى لهم قتلاهم وما ذهب منهم » .

قال رسول الله - ﷺ - : « يا على ! اخرج إلى هؤلاء القوم ، فأنظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج على حتى جاءهم ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال ، حتى إنه ليدى لهم مبلغة الكلب ، حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال ، إلا وداه ، بقيت معه بقية من المال ، فقال لهم حين فرغ منهم : « إنى أعطيكم هذه البقية من المال احتياطيا لرسول الله - ﷺ - مما لايعلم وتعلمون ، فلما رجع وأخبر رسول الله ﷺ بما فعل ، قال له : « أصبت وأحسنت »(١) .

---

(١) أخرجه البخارى كتاب المغازى . باب بعث النبى ﷺ خالد بن الوليد إلى بنى جذيمة جـ٣ ص ٧١ بحاشية السندى . انظر سيرة ابن هشام جـ٤ ص ٨٨٤

ومن الواضح أن الرواية الأولى ، وهى الرواية التى رواها الامام البخارى ، فى صحيحه هى الصحيحة ، لأن صحيح البخارى هو أوثق المصادر فى روايته ، ولأنها أقرب للعقل والمنطق ، ولأن خالداً لو اقتنع باسلامهم لما تجرأ مطلقاً على قتلهم .

لقد قال بنو جزيمة : صبأنا . . صبأنا ، فحمل خالد هذه اللفظة على ظاهرها ، أى أنهم خرجوا من دين إلى دين ، فلم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام ، فالدليل على ذلك أنه قال لهم : « ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا » وهذا دليل قاطع على أنه لم يقتنع بأن كلمة : صبأنا هى بمعنى أسلمنا .

دروس من الفتح

١ ـ المباغتة :

حرص محمد ـ ﷺ ـ أشد الحرص ، على ألا يكشف نياته لأحد ، عندما أعتزم الحركة إلى مكة ، وكان سبيله إلى ذلك الكتمان الشديد .

لم يبح بنياته لأقرب أصحابه إلى نفسه أبى بكر ، بل لم يبح بنياته إلى أحب نسائه إليه عائشة بنت أبى بكر ، وبقيت نواياه سراً مكتوما ، حتى أنجز هو وأصحابه جميع استعدادات الحركة ، وحتى وصل أمره الانذارى إلى كافة المسلمين خارج المدينة وداخلها لإنجاز الاستحضارات ، ولكنه أباح بنواياه فى الحركة إلى مكة قبيل موعد خروجه من المدينة ، حيث لم يبق هنا مبرر للكتمان ، لأن الحركة أصبحت وشيكة الوقوع .

ومع ذلك فإنه بث عيونه وأرصاده ودورياته ، لتحول دون تسرب المعلومات عن حركته إلى قريش .

بث عيونه داخل المدينة ، ليقضى على كل خبر من أهلها إلى قريش ، وقد رأيت كيف أطلع على ارسال حاطب بن أبى بلتعة برسالته إلى مكة ، فاستطاع أن يحجز على تلك الرسالة قبل أن تصل إلى مثابتها .

وبث دورياته فى المدينة وخارجها ، ليحرم قريشاً من الحصول على المعلومات عن نوايا المسلمين ، وليحرم المنافقين والموالين لقريش من ارسال المعلومات إليها .

وبقى النبى ـ ﷺ ـ يقظا كل اليقظة ، حتى وصل ضواحى مكة ، ونجح بترتيباته فى حرمان قريش من معرفة تدابير المسلمين .

ولو انكشفت نيات المسلمين لقريش فى وقت مبكر ، لاستطاعت أن تحشد حلفاءها ، وتنظم قواتها ، وتقرر خطة مناسبة لمقاتلة المسلمين ، ولاستطاعت مقاومة النبى ـ ﷺ ـ وأصحابه أطول مدة ممكنة ، ولأوقعت بقواته خسائر فى الأرواح والأموال دون مبرر : « ولكن الله سلم » .

ليس من السهل أبداً ، أن يتحرك جيش كبير تبلغ قوته عشرة آلاف راكب وراجل إلى مكة ، دون أن تعرف قريش وقت حركته ونواياه ، حتى يصل ذلك الجيش إلى ضواحى مكة ، فيفلت الأمر من قريش ، ولا تعرف ما تصنع إلا أن تلجأ إلى التسليم .

إن ترتيبات الرسول - ﷺ - لحرمان قريش من معرفة نواياه ، أمنت له مباغتة ممتازة للغاية وأجبرت قريشا على الاستسلام دون قتال .

٢ - المعلومات :

يقرر القائد خطته بالنسبة إلى المعلومات ، التى يستطيع الحصول عليها عن نوايا العدو ، وعدد قواته وتنظيمه وتسليمه ومواضعه وأسلوب قتاله .

وكلما كانت المعلومات المتيسرة مفصلة وافية ، كانت خطة القائد دقيقة ، وكان احتمال نجاحها كبيراً .

لقد استطاع المسلمون أن يعرفوا من وفد بنى خزاعة أمر نقض الهدنة ، واستطاعوا معرفة تردد قريش فى قراراتها ، كما استطاعوا أن يعرفوا كل خبر مهم يدخل إلى المدينة أو يخرج منها فى أى وقت ما .

أما قريش فلم تستطع أن تحصل على أى نوع من المعلومات ، فى أى وقت كان قبل حركة الرسول - ﷺ - وأثناءها حتى وصوله ضواحى مكة .

حاول أبو سفيان أن يعرف نيات المسلمين من ابنته أم حبيبة زوج النبى - ﷺ - فلم يفلح وحاول أن يعرف ذلك من المسلمين فى المدينة ، ففشل وحاول أن يعرف شيئا من وفد خزاعة ، فأنكر الوفد ذهابه إلى الرسول - ﷺ - وهكذا بقيت قريش فى عماية من أمرها ، حتى وصل جيش المسلمين ضواحى مكة ، ونزل القضاء المحتوم بقريش وأثيب المسلمون بالفتح المبين .

٣ - بُعدُ النظر :

القائد الناجح هو الذى يتسم ببعد النظر بالاضافة إلى مزاياه الأخرى ، ويتخذ لكل أمر محتمل الوقوع التدابير الضرورية ، لمعالجته دون أن يترك مصائر قواته للأقدار .

إن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، هذا أمر مفروغ منه ، ولكن الله يكتب النصر لمن أعد له عدته ، واحتاط لكل احتمال كبير أو صغير قد يصادفه ، ولذلك يشدد العسكريون لإدخال أسوأ الاحتمالات فى حسابهم عند الإقدام على أية حركة عسكرية .

أمر الرسول - ﷺ - أن يحبس أبو سفيان فى مدخل الجبل إلى مكة ، حتى تمرّ به جنود المسلمين ، فيحدث قومه عما رآه عن نية ويقين ، ولكى لا يكون اسراعه فى العودة إلى قريش قبل أن تتحطم معنوياته تماماً ، سبباً لاحتمال وقوع أية مقاومة من قريش مهما يكن نوعها ودرجة خطورتها .

وفعلاً اقتنع أبو سفيان بعد أن رأى قوات المسلمين كلها أن قريشاً لا قبل لها بالمقاومة .

وقد أدخل الرسول - ﷺ - فى حسابه أسوأ الاحتمالات أيضاً ، عند تنظيم خطته لفتح مكة ، فقد كانت تلك الخطة ، تؤمن تطويق البلد من جهاته الأربع بقوات مكتفية بذاتها بإمكانها العمل مستقلة عن القوات الأخرى عند الحاجة ، وبذلك تستطيع القضاء على أية مقاومة فى أية جهة من مكة ، كما تؤمن توزيع قوات قريش إلى أقسام لمقاومة كل رتل من ارتال المسلمين على انفراد ، فتكون قوات قريش ضعيفة فى كل مكان .

لقد اتخذ النبى - ﷺ - هذه التدابير الفعالة ، على الرغم من اعتقاده بأن احتمال مقاومة قريش للمسلمين ضعيف جداً ، وذلك ليحول دون مباغتة قواته وايقاع الخسائر بها مهما تكن الظروف والأحوال .

إن هذا العمل من أروع أمثلة بُعد النظر الذى يجب أن يتسم به القائد .

٤ - التنظيم :

كان جيش الفتح يتألف من المهاجرين والأنصار ، ومسلمى أكثر القبائل العربية المعروفة يومذاك ، ألف رجل من بنى سليم ، وألف رجل وثلاثة رجال من مزينة ، وأربعمائة من بنى غفار ، وأربعمائة وألف من بنى جهينة ، وأربعمائة من أسلم ، وعدد من تميم وأسد وقيس ، وغيرها من القبائل الأخرى .

إن هذا التنظيم جعل المشركين يترددون فى مقاومة جيش المسلمين ، لأن كل قبيلة لها فيه عدد كبير ، بل إن كثيراً من القبائل تعتبر نجاح هذا الجيش نجاحاً لها على الرغم من اختلاف العقيدتين ؟ والأكثر من ذلك ، فإن انتصار هذا الجيش لا يعتبر فخراً لقبيلة دون أخرى ، كما أن فشل أية قبيلة فى التغلب عليه لا يعتبر عاراً عليها ، لأن هذا الجيش لم يكن لقبيلة دون أخرى بل لم يكن للعرب دون غيرهم ، بل كان للإسلام ولمعتنقى هذا الدين من العرب وغير العرب .

إنى أعتقد أن تنظيم هذا الجيش ، بهذا الأسلوب الذى لا يخضع إلا للعقيدة الموحدة فقط دون غيرها من المؤثرات جعل القبائل كلها لا تحرص على مقاومته حرصها على مقاومة قبيلة خاصة ، وجعل أكثر تلك القبائل لا تريد فشله إذا لم تكن تريد النصر له ، وهذا أدى إلى تردد القبائل فى مقاومته ، وامتناعها عن نقل المعلومات عنه إلى قريش أو غيرها ، كما أعتقد أن قوة هذا الجيش وحدها ، لم تكن المانع الوحيد لتردد القبائل فى قتاله ونقل معلوماته للعدو ، لأن قتاله أو نقل المعلومات عنه لعدوه ، معناه ايقاع الخسائر فى المسلمين ، تلك الخسائر التى تكون على القبائل كلها لا على قبيلة واحدة ، وبذلك يشمل الضرر القبائل كلها لا المسلمين وحدهم ، ومن يضمن ألا تكون أكثر الخسائر من منتسبى تلك القبيلة ، التى سببت للمسلمين هذه الخسائر إنها لعبقرية جديرة بالتأمل .

٥ - المعنويات :

لم تكن معنويات المسلمين فى وقت من الأوقات ، أعلى وأقوى مما كانت عليه أيام فتح مكة البلد المقدس عند المسلمين ، الذى يتوجهون إليه فى صلاتهم كل يوم ، ويحجون بيته كل عام .

« وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى »[1] .

وقد كانت أهمية مكة للمهاجرين أكثر من أنها بلد مقدس ، فهى بلدهم الذى تركوه فراراً بدينهم ، وتركوا فيه أموالهم وأقرباءهم ، وكل عزيز عليهم .

لذلك لم يتخلف أحد من المسلمين عن هذه الغزوة إلا القليل من ذوى الاعذار الصعبة .

أما معنويات قريش ، فقد كانت متردية للغاية ومن حقها أن تتردى ، فقد أثرت عليها عمرة القضاء كما رأيت ، كما أثر عليها انتشار الاسلام فى كل بيت من بيوت مكة تقريبا ، وبذلك فقدت مكة روح المقاومة وروح القتال .

كان حماس بن قيس من بنى بكر يعد سلاحه قبل دخول الرسول - ﷺ - مكة فسألته امرأته المشركة : « لماذا تعدّ ما أرى ؟ » قال : « لمحمد وأصحابه » قالت : « والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شىء » .

فإذا كان هذا حال معنويات المشركين فى مكة ، فكيف تستطيع المقاومة ، وكيف لا تتردد فى الاقدام على القتال ؟

إنى اعتبر أن فتح مكة قد تم للمسلمين من يوم عمرة القضاء ، لأن هذه العمرة أثرت على معنويات قريش أعظم التأثير .

إن عمرة القضاء فتحت قلوب قريش ، وغزوة الفتح فتحت أبوابها .

ومما زاد فى انحطاط معنويات قريش ، وشل كل روح للمقاومة فيها ما اتخذه الرسول - ﷺ - من ترتيبات ايقاد عشرة آلاف نار فى ليلة الفتح ، ومرور الجيش كله بأبى سفيان قائد قريش أو أكبر قائد فيها ، ودخول أرتال المسلمين من كل جوانب مكة .

لقد كانت معركة (الفتح) معركة معنويات لا معركة ميدان .

٦ - السلم :

حرص الرسول - ﷺ - منذ خروجه من المدينة حتى فتح مكة على نياته السلمية ، ليؤلف بذلك قلوب المشركين ويجعلها تقبل على الإسلام .

ايقاد النيران فى ليلة الفتح بشكل لم تعرف له العرب مثيلاً من قبل ، يستهدف القضاء على روح المقاومة فى قريش ، ويجبرها على التسليم دون قتال .

ومرور الجيش بأبى سفيان ، يستهدف اقناعه بعدم جدوى المقاومة ، ليعمل من جانبه على اقناع قريش بهذا الرأى .

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٥

« ومن دخل دار أبي سفيان أو أغلق عليه بابه أو التجأ إلى البيت الحرام فهو آمن كما قال الرسول ﷺ[١] ومعناه : منع تجمع الناس للمقاومة ، واجبارهم على الاستسلام . بل إن دخول ارتال المسلمين من كل جانب من جوانب مكة ، لا يعنى إلا إقناع قريش باستحالة المقاومة .

كما عهد - ﷺ - إلى أمرائه ، حين أمرهم أن يدخلوا مكة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم .

كل ذلك كان يستهدف السلم وحقن الدماء .

وبقى الرسول - ﷺ - مصراً على نياته السلمية بعد الفتح أيضاً ، فقد أصدر العفو العام عن قريش وقال لهم : « أذهبوا فأنتم الطلقاء »[٢] .

وكما حرص الرسول - ﷺ - على السلم الإجماعى حرص على السلم للأفراد ، فمنع القتل حتى لفرد من المشركين : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه »[٣] .

قتلت خزاعة حلفاء المسلمين رجلاً من هذيل غداة يوم الفتح ، لثأر سابق لها عنده ، فغضب الرسول أشد الغضب ، وقام فى الناس خطيباً ومما قاله : « يا معشر خزاعة ! ارفعوا أيديكم عن القتل ، فقد كثر إن نفع ، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا قدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله - أى دينه » .

ثم ورى بعد ذلك الرجل الذى قتلت خزاعة[٤] .

بل إن الرسول لم يقتل رجلاً من المشركين ، أراد اغتياله شخصياً ، وهو يطوف فى البيت بل تلطف معه ، فقد اقترب منه فضالة ابن عمير ، يريد أن يجد له فرصة لقتله ، فنظر إليه النبى - ﷺ - نظرة عرف بها طويته ، فاستدعاه وسأله : « ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ » قال : « لا شىء ! كنت أذكر الله » . فضحك النبى - ﷺ - وتلطف معه ووضع يده على صدره ، فأنصرف الرجل وهو يقول : « ما رفع يده عن صدرى ، حتى ما من خلق الله شىء أحب إلى منه »[٥] .

لقد كان الرسول يستهدف من حرصه على السلم ، تأليف قلوب الناس ، وتوحيد كلمتهم ، ليقبلوا طائعين على الإسلام ، فلم يكن من السهل على قريش أن تقبل بمصيرها الذى آلت إليه ، وهى كانت سيدة العرب غير منازع ، لأنها أعظمهم حضارة ، وأشدهم بأساً ، وأكثرهم مالاً ، وفى بلدها البيت الحرام .

ليس من السهل أن ترضى قريش بمصيرها هذا ، وتقبل على الإسلام طائعة ، وتحمل رايات الجهاد ، لو لم تعامل هذه المعاملة السلمية ، التى لم تكن تتوقعها ، وبذلك انقلب موقفها من أشد الناس

---

(١) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٦٢
(٢) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٠
(٣) سورة التوبة آية ٦
(٤) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٣ باب خطبة رسول الله ﷺ غداة الفتح .
(٥) أخرجه ابن هشام جـ ٤ ص ٨٧٤ . باب قصة فضالة الليثى .

عداوة للإسلام ، إلى أحرص الناس على رفع راية الإسلام ، : ﴿ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾[١] زد على ذلك أن « السلام » فى الإسلام دين ، أمر الله به فى محكم كتابه : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾[٢] .

٧ - الوفـــاء :

التاريخ العسكرى طافح بأعمال الظلم والانتقام ، التى قام بها المنتصرون ، ويندر أن نجد فى التاريخ كله وفاء يشابه وفاء الرسول - ﷺ - بل لا نجد مثيلاً فى التاريخ كله لهذا الوفاء .

رأى الأنصار دخول الرسول - ﷺ - بلده الحبيب ، بعد فراق طال أمده ، وشاهدوا التفاف قومه وأهله حوله ، فقال بعضهم لبعض : أترون رسول الله - ﷺ - إذ فتح الله عليه أرضه وبلده ، يقيم بها ؟ ولكن محمداً - ﷺ - ما لبث أن سألهم : « ما قالوا ؟ » فلما أباحوا له بما يخالج نفوسهم بعد تردد ، قال : « معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم » .

وقد كان من حقه أن يستقر بمكة ، وفيها أهله وقومه ، وفيها بيت الله الحرام ، ولكن وفاءه أبى عليه أن ينسى أصدقاء الشدة فى وقت الرخاء .

ورأى علىّ بن أبى طالب مفتاح الكعبة بيد الرسول - ﷺ - فقال له : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية » .

قال الرسول - ﷺ - : « أين عثمان بن طلحة ؟ » فلما جاء عثمان قال له : « يا ابن طلحة ، هاك مفتاحك اليوم يوم بر ووفاء »[٣] .

أما وفاؤه بعهوده وحرصه الشديد على التمسك بها فحديث معاد .

تلك أمثلة من وفاء الرسول - ﷺ - حتى قال أعداؤه عنه قبل أصدقائه : « أنه أوصل الناس وأحلمهم وأكرمهم وأوفاهم » .

٨ - التواضع :

السيطرة على الأعصاب فى حالتى النصر والفشل ، من أصعب الأمور التى يجب أن تتوفر فى القائد الممتاز ، وربما تكون السيطرة على الأعصاب فى حالة الهزيمة أسهل من السيطرة عليها فى حالة النصر ، فكم غير النصر من أخلاق القادة وجعلها تنقلب من حال إلى حال .

---

(١) سورة البقرة آية ٥

(٢) سورة الانفال آية ٦١

(٣) أخرجه ابن هشام جـ٤ ص ٨٧٠ . باب رده مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة .

ولكن نصر المسلمين يوم الفتح ، جعل الرسول - ﷺ - يتواضع لله ، حتى رآه المسلمون يوم ذاك ورأسه قد انحنى على رحله ، وبدأ عليه التواضع الجم ، حتى كادت لحيته تمس واسطة راحلته خشوعاً ، وترقرقت فى عينيه الدموع تواضعاً وشكراً لله .

إن قيمة هذا التواضع فى موقف يُعدّ أكبر نصر للمسلمين ، تتضاعف قيمته فى النفس ، إذا قارناه بمواقف العظمة والجبروت ، التى أبداها مختلف القادة فى مختلف الظروف ، عندما حازوا نصراً أقل قيمة من فتح مكة بكثير .

إن تواضع الرسول - ﷺ - درس عملى لكل قائد منتصر ، وما أصعب الظهور بهذا المظهر ساعة النصر .

٩ - العقيدة :

رأيت كيف طوت أم حبيبة زوج الرسول - ﷺ - فراش النبى - ﷺ - عن والدها أبى سفيان ، وقد جاءها من سفر قاصد بعد غياب طويل ، ذلك لأنها رغبت به عن مشرك نجس ولو كان هذا المشرك أباها الحبيب .

وعندما جاء أبو سفيان مع العباس عم النبى - ﷺ - ليواجه الرسول - ﷺ - رآه عمر بن الخطاب ، فترك خيمته واشتد نحو خيمة الرسول ، فلما وصلها قال : « يا رسول الله دعنى أضرب عنقه » . قال العباس : « يا رسول الله إنى قد أجرته » فلما أكثر عمر قال العباس : (مهلاً يا عمر ، ما تصنع هذا إلا أنه من بنى عبد مناف ، ولو كان من بنى عدى ما قلت هذه المقالة) فقال عمر : « مهلاً يا عباس ، فوالله اسلامك يوم أسلمت كان أحب لى من اسلام الخطاب لو أسلم » هذا صحيح ، فقد كان عمر يمثل عقيدة المسلمين الأولين الراسخة ، بينما كان العباس حديث عهد بالإسلام .

وكيف تبرز إقدام المهاجرين على الاشتراك فى غزوة الفتح ، تلك الغزوة التى لم يكن من المستبعد أن تصطرع فيها قوات المسلمين ، وقوات قريش قوم المهاجرين وأهلهم فى بلدهم الحبيب .

إن عقيدة المسلمين لا تخضع للمصلحة الشخصية ، بل هى رهن المصلحة العامة وحدها .

١٠ - تحطيم الأصنام :

فى مكة يوم الفتح ، وفى غير مكة بعيد الفتح ، قضى على عقيدة الإشراك فى أقوى معقل من معاقلها فى البلاد العربية كلها .

إن تحطيم الأصنام - وهى التى كان يعبدها المشركون ، ويقربون القرابين إليها دون أن تذود عن نفسها ، أو تصيب من حطمها بأذى ، كما كان يعتقد المشركون بها - نزع من نفوسهم إلى الأبد آخر اعتقاد فى قدسية هذه الأصنام وفائدتها .

١١ - القضايا الإدارية :

كان موقف إعاشة المسلمين فى غزوة الفتح جيداً ، فلم يشك منهم أحد من نقص الأرزاق قبل الفتح وبعده ، حتى عادوا إلى المدينة .

كما كان موقف النقلية جيداً أيضاً ، فقد كان لدى جيش المسلمين عدد كبير من الإبل والخيل ، أفادوا منها فى تنقلهم للركوب وحمل أمتعتهم .

أما تسليحهم فكان ممتازاً ويكفى أن تسمع وصف الكتيبة الخضراء ، التى كان فيها النبى - ﷺ - فقد كان أفرادها لا يرى منهم إلا الحُدقُ من كثرة الحديد .

لقد تأمنت كافة القضايا الإدارية للمسلمين فى غزوة الفتح ، بشكل لم يسبق له مثيل فى غزوات الرسول - ﷺ - السابقة .

إرشـــاد ربانى

قوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ .

هذا خطاب كريم من رب عظيم إلى الجماعة المؤمنة ، يقول فيها رافع السماء بلا عمد آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله فى جميع أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله ، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال : (**من أنصارى إلى الله**) أى من معين فى الدعوة إلى الله عز وجل ؟ (**قال الحواريون**) وهم أتباع عيسى عليه السلام (**نحن أنصار الله**) أى نحن أنصارك على ما أرسلت به ومؤازروك على ذلك ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس فى بلاد الشام فى الاسرائيلين واليونانيين ، وهكذا كان رسول الله - ﷺ - يقول فى أيام الحج : « من رجل يؤوينى حتى أبلغ رسالة ربى فإن قريشاً قد منعونى أن أبلغ رسالة ربى »[١] حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه وآزروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار وصار ذلك علما عليهم رضى الله عنهم وأرضاهم .

وقوله تعالى : ﴿ **فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة** ﴾ أى لما بلغ عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - رسالة ربه إلى قومه وآزره من الحواريين ، اهتدت طائفة من بنى اسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وغلت فيه طائفة ممن اتبعه ، حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة وافترقوا فرقاً وشيعاً فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ومن قائل : إنه الله وكل هذه الأقوال مفصلة فى سورة النساء .

---

(١) انظر تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٦٢ تفسيرة سورة الصف .

وقوله تعالى : ﴿ فأيدنا الذين امنوا على عدوهم ﴾ أى نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أى عليهم وذلك ببعثة محمد - ﷺ - كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله ، حدثنى أبو السائب حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال يعنى ابن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم فى بيت أثنا عشر رجلاً من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال : إن منكم من يكفر بى أثنتى عشرة مرة بعد أن آمن بى ، قال ثم قال : أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى : قال فقام شاب من أحدثهم سنا فقال : أنا ، فقال له : أجلس ثم أعاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا ، فقال له : أجلس ثم عاد عليهم ، فقام الشاب فقال : أنا فقال : نعم أنت ذاك . قال فألقى عليه شبه عيسى ، ورفع عيسى عليه السلام من روزنة فى البيت إلى السماء ، قال وجاء الطلب من اليهود ، فأخذوا شبيهه فقتلوه وصلبوه وكفر به بعضهم أثنتى عشرة مرة بعد أن آمنوا به فتفرقوا فيه ثلاث فرق ، فقالت فرقة كان الله فينا ما شاء ، ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليعقوبية .

وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء النسطورية ، وقالت فرقة كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ، ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء المسلمون فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً - ﷺ - « فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة » يعنى الطائفة التى كفرت من بنى اسرائيل فى زمن عيسى والطائفة التى آمنت فى زمن عيسى ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ بإظهار محمد - ﷺ - دينهم على دين الكفار . هذا لفظه فى كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة ، وهكذا رواه النسائى[1] عند تفسير هذه الآية من سننه عن أبى كريب عن محمد بن العلاء عن أبى معاوية بمثله سواء فأمة محمد - ﷺ - لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم كذلك ، وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح .

---

(١) النسائى

سورة الجمعة

بين يدى السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية بالاتفاق . وآياتها إحدى عشرة .
وكلماتها مائة وثمانون . وحروفها سبعمائة وعشرون . وتسمى سورة الجمعة لقوله : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ .

معظم مقصود السورة :

بيان بعث المصطفى وتعييد اليهود والشكاية منهم وإلزام الحجة عليهم والترغيب فى حضور الجمعة ، والشكاية من قوم بإعراضهم عن الجمعة وتقوية القلوب بضمان الرزق لكل حى فى قوله : ﴿ والله خير الرازقين ﴾ .

والسورة خالية من الناسخ والمنسوخ .

المتشابهات :

قوله : (ولا يتمنونه) وفى البقرة (ولن يتمنوه) . مناسبتها لما قبلها :

وذلك من وجوه :

١ ـ إنه ذكر فى السورة قبلها حال موسى مع قومه بإيذائهم له ، ناعيا عليهم ذلك وذكر فى هذه حال الرسول ـ ﷺ ـ وفضل أمته تشريفاً لهم ، ليعلم الفرق بين الاثنين .

٢ ـ إنه حكى فى السورة قبلها قول عيسى : « ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » وذكر هنا « هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم » اشارة إلى أنه هو الذى بشر به عيسى .

٣ ـ لما ختم السورة قبلها بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ختم هذه السورة بالأمر بالجمعة ، وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢)

معانى المفردات

القدوس : المنزه عن النقائص ، المتصف بصفات الكمال ، الأميين : هم العرب ، واحدهم أمى نسبة إلى الأم التى ولدته ، لأنه على الحال التى ولد عليها ، لم يتعلم الكتابة والحساب ، فهو على الجبلة الأولى .

يزكيهم : أى يطهرهم بتلاوة آياته ، آخرين : واحدهم آخر ، بمعنى غير ، لما يلحقوا بهم : أى لم يلحقوا بهم بعد وسيحلقون ، وهم من جاء بعد الصحابة إلى يوم الدين .

المناسبة وإجمال المعنى

يسبح لله كل ما فى السموات ، وما فى الأرض تسبيحاً متجدداً مستمراً ، لأنه صاحب الملك ، وبيده الأمر والخلق ، وهو القدوس المنزه عن كل نقص ، المتصف بكل كمال ، العزيز الذى لا يغلبه غالب ، الحكيم فى كل شىء .

وأول مظهر من مظاهر فضله ونعمه على خلقه ، إرسال الرسل وخاصة النبى محمداً - ﷺ - إماماً لهم ، وخاتماً للرسل كلهم ، ولا شك أن هذا من مظاهر عزته وحكمته هو الحق تبارك وتعالى ، الذى بعث فى العرب رسولاً من جنسهم أمياً مثلهم ، لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك فهو يتلو عليهم الآيات ، ويحملهم على طهارة النفس وزكاء الطبع ، ويخلق فيهم الضمير الحى والوازع الإلهى ، وهو الذى يعلمهم القرآن والحكمة النافعة المأخوذة من حديثه . وقوله وفعله ، فهو المثل الأعلى والقائد الأسمى ، الذى قاد أمته إلى الحياة الصميمة ، وأوصلهم إلى مناهل العلوم والمعارف فى التشريع والقضاء والسياسة والاقتصاد ، وإن كانوا من قبل لفى جاهلية جهلاء وضلالة عمياء ، وأى ضلال أكثر من ضلال العرب قبل الإسلام .!

يُعلِّم العرب الكتاب والحكمة ويزكيهم من دنس الرجس والشرك وسوء الفعل ، ويعلم آخرين منهم لم يلحقوا بهم وسيلحقون بهم ، هؤلاء هم الذين دخلوا فى الإسلام من العرب ومن غيرهم بعد الصحابة ، الذين ارتشفوا من معين النبوة مشافهة ، وما أروع كلمة « منهم » أى من الأمة الإسلامية ، إذ الإسلام لا يقر باختلاف الأجناس والألوان ، بل كل مسلم من أى جنس ولون ، فهو عضو فى أسرة الإسلام وأخو المسلم فى أى مكان ، وإن بعدت الدار وشط المزار .

ذلك الفضل العظيم فضل الله ونعمته ، يؤتيه من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم ، ولا حرج على فضل الله ، حيث فضل الرسول وقومه وجعلهم متبوعين بعد أن كانوا أوزاعاً لا وزن لهم ، ولا قيمة لهم عند غيرهم من الأمم ، وظل الحال كذلك فالعرب لعبوا ويلعبون دوراً مهماً فى العالم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ . هذا إخبار منه سبحانه وتعالى بأنه يسبح له ما فى السموات وما فى الأرض ، أى من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ، كما قال تعالى : ﴿ وإن من شىء إلا يسبح بحمده ﴾[1] ثم قال تعالى : ﴿ الملك القدوس ﴾ أى هو مالك السموات والأرض المتصرف فيهما بحكمه ، وهو المقدس ، أى المنزه عن النقائص ، الموصوف بصفات الكمال ﴿ العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذى لا يغلب ، بل هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير ﴿ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾[2] كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، عز كل ذليل ، ورضا كل بائس ، وغنى كل فقير ، وقوة كل ضعيف ، من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ، فهو ـ سبحانه ـ مفزع كل ملهوف ، يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن ناداه ، الحكيم الذى تنزه عن العبث وعن كل نقص ، فهو ذو الحكمة البالغة ، إذا قضى فلا راد لقضائه ، وإذا أراد قُضى المراد ، وإذا حكم فلا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ، فهو الجدير بأن يسبح لله كل من فى السموات والأرض ، إذ هو صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة . ولما كان للتسبيح فضل كبير عند الله ، فقد عقد الإمام المنذرى باباً تحت عنوان .

الترغيب فى جوامع من التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير

١ ـ عن جويرية ـ رضى الله عنها ـ : أن النبى ـ ﷺ ـ خرج من عندها ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة ، فقال : ما زلت على الحال التى فارقتك عليها ؟

قالت : نعم . قال النبى ـ ﷺ ـ : لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته ، رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة والترمذى .

وفى رواية لمسلم : سبحان الله عدد خلقه ، سبحانه الله رضاء نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته ، زاد النسائى فى آخره . والحمد لله كذلك .

---

(١) سورة الاسراء آية ٤٤

(٢) سورة المؤمنون آية ٨٨

وفى رواية له : سبحان الله وبحمده ولا إله إلا الله والله أكبر عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته .

ولفظ الترمذى : أن النبى - ﷺ - مر عليها - وهى فى المسجد ، ثم مر بها وهى فى المسجد قريب نصف النهار فقال : ما زلت على حالك ؟ فقالت : نعم ، فقال : أعلمك كلمات تقولينها : سبحان الله عدد خلقه وسبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله عدد خلقه ، ثلاث مرات ، سبحان الله رضا نفسه ، سبحان الله رضا نفسه ثلاث مرات وذكر زنة عرشه ومداد كلماته ثلاثاً ثلاثاً ، وقال : حديث حسن صحيح ، وفى رواية للنسائى : تكرار كل واحدة ثلاثاً أيضاً .

نوع آخـــر

١ - عن عائشة بنت سعد بن أبى وقاص عن أبيها رضى الله عنه أنه دخل مع رسول الله - ﷺ - على امرأة وبين يديها نوى أو حصى تسبح به ، فقال : أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل ؟ فقال : سبحان الله عدد ما خلق فى السماء ، سبحان الله عدد ما خلق فى الأرض ، سبحان الله عدد ما بين ذلك ، سبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك .

رواه أبو داود والترمذى ، وقال : حديث حسن[(١)] .

٢ - وروى الترمذى والحاكم أيضاً عن صفية - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - دخل عليها وبين يديها أربعة آلاف نواة تسبح بهن ، فقال : ألا أعلمك بأكثر مما سبحت به ؟ فقالت : بل علمنى ، فقال : قولى سبحان الله عدد خلقه ، وقال الحاكم : قولى سبحان الله عدد ما خلق من شىء ، وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من هذا الوجه من حديث هاشم بن سعيد الكوفى وليس إسناده معروف[(٢)] .

نوع آخـــر

١ - عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : رآنى النبى - ﷺ - ، وأنا أحرِّك شفتى ، فقال لى : بأى شىء تحرك شفتيك يا أبا أمامة ؟ فقلت : أذكر الله يا رسول الله ، فقال : ألا أخبرك بأكثر وأفضل من ذكرك بالليل والنهار ؟ قلت بلى يا رسول الله . قال تقول : سبحان الله عدد ما خلق ، سبحان الله ملء ما خلق سبحان الله عدد ما فى الأرض ، سبحان الله ملء ما فى الأرض والسماء ، سبحان الله عدد ما أحصى كتابه ، سبحان الله ملء ما أحصى كتابه ، سبحان الله عدد كل شىء ، سبحان الله ملء كل شىء ، الحمد لله عدد ما خلق ، والحمد لله ملء ما خلق ، والحمد لله عدد ما فى الأرض والسماء ، والحمد لله ملء ما فى الأرض والسماء ، والحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد كل شىء ، والحمد لله ملء كل شىء . رواه أحمد وابن أبى الدنيا واللفظ له ،

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص٥٢٥ رقم ٣٥٦٨ كتاب الدعوات . باب فى دعاء النبى ﷺ وتعوذه دبر كل صلاة أنظر سنن أبى داود . كتاب الصلاة . باب التسبيح بالحصى

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص٥١٩ رقم ٣٥٥٤ كتاب الدعوات باب ١٠٤

والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما باختصار ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين[١] .

ورواه الطبرانى بإسنادين أحدهما حسن ولفظه قال : أفلا أخبرك بشىء إذا قلته ، ثم دأبت الليل والنهار لم تبلغه ؟ قلت : بلى . قال تقول : الحمد لله عدد ما أحصى كتابه ، والحمد لله ملء ما أحصى كتابه ، والحمد لله عدد ما أحصى خلقه ، والحمد لله ملء ما فى خلقه ، والحمد لله ملء سماواته وأرضه ، والحمد لله عدد كل شىء ، والحمد لله على كل شىء ، وتسبح مثل ذلك وتكبر مثل ذلك .

نوع آخــر

١ ـ عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين ، فلم يدريا كيف يكتبانها ، فصعدا إلى السماء ، فقالا يا ربنا : إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟ قال الله ، هو أعلم بما قال عبده : ماذا قال عبدى ؟ قال : يا رب إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها .

رواه أحمد وابن ماجه[١] . وإسناد متصل ورواته ثقات .

إلا إنه لا يحضرنى الآن فى صدقة ابن بشير مولى العمر بنى جرح ، ولا عدالة (عضلت بالملكين) بتشديد الضاد المعجمة : أى اشتدت عليهما وعظمت واستغلق عليهما معناها .

نوع آخــر

١ ـ روى عن ابن عمر رضى الله عنهما ، قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : من قال : الحمد لله الذى تواضع كل شىء لعظمته ، والحمد لله الذى ذل كل شىء لعزته ، والحمد لله الذى خضع كل شىء لملكه ، والحمد لله الذى استسلم كل شىء لقدرته ، فقالها يطلب بها ما عند الله ، كتب الله له بها ألف حسنة ، ورفع له بها ألف درجة ، ووكل به سبعون ألف ملك ، يستغفرون له إلى يوم القيامة .

رواه الطبرانى[٢] .

نوع آخــر

١ ـ عن أبى أيوب ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رجل عند رسول الله ـ ﷺ ـ : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً . مباركاً فيه ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : من صاحب الكلمة ؟ فسكت الرجل ورأى أنه قد هجم من رسول الله ـ ﷺ ـ على شىء يكرهه فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : من هو ؟ فإنه لم يقل إلا صواباً فقال الرجل : أنا قلتها يا رسول الله أرجو بها الخير ، فقال : والذى نفسى بيده لقد رأيت ثلاثة عشر ملكاً

---

(١) أخرجه كنز العمال جـ١ رقم ٢٠٤٤

(٢) أخرجه ابن ماجة فى سننه جـ٢ ص١٢٤٩ كتاب الأدب باب فضل الحامدين رقم ٣٨٠١

يبتدرون كلمتك ، أيهم يرفعها إلى الله تبارك وتعالى ؟

رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى بإسناد حسن واللفظ له والبيهقى(١) .

٢ ـ وعن أنس رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ـ ﷺ ـ جالساً فى الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على النبى ـ ﷺ ـ والقوم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد النبىّ ـ ﷺ ـ : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فلما جلس الرجل قال : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا أن يحمد وينبغى له ، فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : والذى نفسى بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك كلهم حريص على أن يكتبها ، فما دريا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذى العزة ، فقال : اكتبوها كما قال عبدى . رواه أحمد ورواته ثقات والنسائى وابن حبان فى صحيحه إلا أنهما قالا : كما يحب ربنا ويرضى(٢) .

نوع آخـر

١ ـ عن سلمان رضى الله عنه عن النبى ـ ﷺ ـ قال : قال رجل : الحمد لله كثيراً ، فأعظمها الملك أن يكتبها فراجع فيها ربه عز وجل ، فقال : اكتبها كما قال عبدى . رواه الطبرانى بإسناد فيه نظر(٣) .

٢ ـ وروى أبو الشيخ وابن حبان عن طريق عطية عن أبى سعيد مرفوعاً أيضاً : إذا قال العبد الحمد لله كثيراً . قال الله تعالى : اكتبوا لعبدى رحمتى كثيراً(٤) .

نوع اخـر

١ ـ عن على رضى الله عنه : أن النبى ـ ﷺ ـ نزل عليه جبرائيل ـ عليه السلام ـ فقال : يا محمد إذا سرك أن تعبد الله ليلة حق عبادته أو يوماً ، فقل : اللهم لك الحمد حمداً كثيراً خالداً مع خلودك ، ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون علمك ، ولك الحمد حمداً لا منتهى له دون مشيئتك ، ولك الحمد حمداً لا آخر لقائله إلا رضاك . رواه البيهقى ، وقال : لم أكتبه إلا هكذا وفيه انقطاع بين على ومن دونه(٥) .

---

(١) أخرجه الطبرانى وذكره كنز العمال جـ٢ رقم ٣٥٧٠

(٢) أخرجه أحمد جـ٣ ص١٥٨

انظر مجمع الزوائد جـ١٠ ص٩٦ باب ما جاء فى الحمد .

(٣) أخرجه مجمع الزوائد جـ١٠ ص٩٦ ، ٩٧ باب ما جاء فى الحمد .

(٤) أخرجه مجمع الزوائد جـ١٠ ص٩٦ باب ما جاء فى الحمد .

(٥) أخرجه مجمع الزوائد جـ١٠ ص٩٦ باب ما جاء فى الحمد .

البعثة النبوية

قوله تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم ﴾ الأميون هم العرب ، كما قال تعالى : ﴿ وقل للذين أوتو الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾(١) . وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفى من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر ، كما قال تعالى فى قوله : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾(٢) وهو ذكر لغيرهم يتذكرون به ، وكذا قال تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾(٣) وهذا وأمثاله لا ينافى قوله تعالى : ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ﴾(٤) وقوله : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾(٥) وقوله تعالى إخباراً عن القرآن : ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾(٦) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم بعثته صلوات الله وسلامه عليه إلى جميع الخلق أحمرهم وأسودهم .

وهذه الآية هى مصداق إجابة الله لخليله إبراهيم ، حين دعا لأهل مكة أن يبعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فبعثه الله سبحانه وتعالى ، وله الحمد والمنة على حين فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وقد اشتدت الحاجة إليه وقد خص الله أهل الأرض عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، أى نزراً يسيراً ممن تمسك بما بعث الله به عيسى بن مريم عليه السلام ، ولهذا قال تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة . وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ . وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام ، فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها ، فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل شامل لجميع الخلق فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم ، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ورضا الله عنهم ، والنهى عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب . فى الأصول والفروع ، وجمع له تعالى وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله وأعطاه ما لم يعط أحد من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين وصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين وقوله تعالى ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ﴾ قال الإمام أبو عبد الله البخارى رحمه الله تعالى حدثنا عبد العزيز ابن عبد الله حدثنا سليمان بن بلال عن ثور عن أبى الغيث

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبى ـ ﷺ ـ فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قالوا من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفينا سلمان

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠
(٢) سورة الزخرف آية ٤٤
(٣) سورة الشعراء آية ٢١٤
(٤) سورة الأعراف آية ١٥٨
(٥) سورة الانعام آية ١٩
(٦) سورة الرعد آية ٣٦

الفارسي ، فوضع رسول الله - ﷺ - يده على سلمان الفارسي ثم قال : « لو كان الإيمان عند الثريا لناله رجال - أو رجل - من هؤلاء » ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير من طرق عن ثور بن يزيد الديلي عن سالم أبي الغيث عن أبي هريرة به[1] ، ففي هذا الحديث دليل على أن هذه السورة مدنية ، وعلى العموم لبعثته - ﷺ - إلى جميع الناس لأنه فسر قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم ﴾ بفارس ، ولهذا كتب كتبه إلى فارس والروم وغيرهم من الأمم ، يدعوهم إلى الله عز وجل وإلى اتباع ما جاء به ، ولهذا قال مجاهد وغير واحد في قوله تعالى : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قال هم الأعاجم وكل من صدق النبي - ﷺ - من غير العرب ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا ابراهيم بن العلاء الزبيدي حدثنا الوليد ابن مسلم حدثنا أبو محمد عيسى بن موسى عن أبي حازم عن سهل بن سعد الساعدي قال : قال رسول الله - ﷺ - « إن في أصلاب أصلاب أصلاب رجال ونساء من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب » . ثم قرأ : ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ يعني بقية من لقي من أمة محمد - ﷺ - وقوله تعالى : ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ يعني ما أعطاه الله محمداً - ﷺ - من النبوة ، وما خص به من أمته من بعثه - ﷺ - إليهم .

الحديث عن اليهود

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

معاني المفردات

حملوا التوراة : المراد كلفوا العمل بها وليس هو من الحمل على الظهر بل هو من الحمالة أي الكفالة .

---

(١) أخرجه كنز العمال جـ٢ ص٦٣٥ رقم ٤٩٥٤
انظر الترغيب والترهيب جـ٢ ص٤٤٣
انظر مجمع الزوائد جـ١٠ ص٩٧ باب ما جاء في الحمد .

أسفاراً : كتباً كباراً ، وسميت أسفاراً لأنها تسفر عن معناها إذا قرئت (**أولياء الله**) أحبابه .
(**تفرون منه**) تخافون منه .

وهذا مثل ضربه الله لليهود حيث أعطاهم التوراة ، ولم يعملوا بها ، فكانوا كالحمار الذى يحمل الكتب الكبار ، وفى ذكر هذا المثل هنا تحذير لأمة محمد ـ ﷺ ـ من أن يكونوا كاليهود ويدعون ولا يعملون ، ويحملون ولا ينتفعون .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أثبت الله سبحانه التوحيد والنبوة وذكر أن الرسول بعث للأميين ، قال اليهود : إن الرسول لم يبعث لنا ، فرد الله عليهم مقالهم بأنهم لو فهموا التوراة حق الفهم وعملوا بما فيها ، لرأوا فيها نعت الرسول والبشارة به وأنه يجب عليهم أتباعه ، وما مثلهم فى حملهم للتوراة وتركهم العمل بها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يجديه حملها نفعاً .

ثم رد عليهم مقالاً آخر إذ قالوا نحن أحباء الله وأولياؤه وإنه لن يدخلنا النار إلا أياماً معدودات ـ بأنه لو كان ما تقولونه حقاً لتمنيتم الموت ، حتى تخلصوا من هذه الدار دار الأكدار ، وتذهبوا إلى دار النعيم ، وإنكم لن تفعلوا ذلك فأنتم كاذبون فيما تدعون ، ولم تفرون منه ، وهو ملاقيكم ولا محالة ؟ وهناك ترجعون إلى ربكم فينبئكم بما قدمتم من عمل ، ويجازيكم عليه إن خيراً وإن شراً .

أضـواء كاشـفة

شبه الله سبحانه وتعالى اليهود ـ حيث حملوا التوراة وكلفوا بها وعملوا بما فيها وحفظوها ، ثم لم ينتفعوا بما فيها ـ كالحمار يحمل كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يعلم عنها شيئاً ، وخص الحمار بالذكر ، لأنه علم فى الجهالة والبلادة ، وهذا مثل منطبق على من لم يعمل بالقرآن وأحكامه ويعرض عنه . بئس المثل ﴿ **مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ .

وكان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الآخرة لهم دون سواهم ، وأنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، فنزل فى ذلك هذه الآية ، والمعنى: قل لهم يا محمد : (**يا أيها الذين هادوا واتبعوا موسى والتوراة إن زعمتم صادقين أنكم أولياء الله وأحباؤه من دون الناس إن كنتم صادقين**) فى هذا الزعم فتمنوا الموت الذى ينقلكم إلى دار الكرامة ، فتحظوا بالسعادة التى أعدها لكم ربكم)ولا يتمنونه أبداً بسبب ما قدمته أيديهم من الكفر والمعاصى وتكذيب الرسول ـ ﷺ ـ مع علمهم بصدقه ووصفه فى التوراة وفى حديث أن النبى ـ ﷺ ـ قال لما نزلت هذه الآية « والذى نفس محمد بيده لو تمنوا الموت ما بقى على ظهرها يهودى إلا مات »[1] . وفى هذا إخبار عن الغيب ومعجزة للنبى الكريم .

---

(١) أخرجه البخارى جـ٣ ص٢٠١ كتاب التفسير . تفسير سورة الجمعة .
انظر صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل فارس .
انظر سنن الترمذى جـ٥ ص٣٨٥ كتاب التفسير باب تفسير سورة الجمعة رقم ٣٣١٠ ورقم ٣٩٣٣ كتاب المناقب باب فى فضل العجم

قل لهم إن الموت الذى تفرون منه وتخافونه ، فإنه ملاقيكم حتماً ، إذ كل شىء هالك إلا وجهه ، ثم تردون أيها اليهود إلى عالم الغيب والشهادة ، الذى لا يخفى عليه منكم خافية ، فينبئكم بما كنتم تعملون ويجازيكم عليه . وقد تحداهم الله تبارك وتعالى بهذا لعلمه أنهم أحرص الناس على حياة .

قال تعالى : ﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾(١) .

التفسير

هذا إخبار منه ـ سبحانه وتعالى ـ عن اليهود الذين ورد ذكرهم فى كثير من آيات الكتاب الكريم خاصة سورة البقرة التى أفاضت فى الحديث عنهم وما قصة البقرة إلا دليل قاطع وبرهان ساطع على أن هذا الشعب شعب صلب الرقبة وحسبنا فى ذلك قوله تعالى : ﴿ ويسعون فى الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين ﴾(٢) وفى سورة الجمعة يخبر تعالى ذاماً لهؤلاء الناس الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها مثلهم فى ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً أى : كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدرى ما فيها فهو يحملها حملاً حسياً ولا يدرى ما عليه ، وكذلك هؤلاء فى حملهم الكتاب الذى أوتوه حفظوه لفظاً ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالا من الحمير لأن الحمار لا فهم له وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها ولهذا قال تعالى فى الآية الأخرى : ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾(٣) وقال تعالى هنا : ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾(٤) ، وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا ابن نمير عن مجالد عن الشعبى عن ابن عباس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً والذى يقول له أنصت ليس له جمعة »(٥) ثم قال تعالى : ﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾(٦) أى : إن كنتم تزعمون أنكم على هدى وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين أى فيما تزعمونه قال الله تعالى : ﴿ ولا يتمونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾(٧) . أى : بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾(٨) وقد قدمنا الكلام فى سورة البقرة على هذه المباهلة لليهود حيث قال تعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾(٩) .

---

(١) سورة البقرة آية ٩٦
(٢) سورة المائدة آية ٦٤
(٣) الأعراف آية ١٧٩
(٤) الجمعة آية : ٥
(٥) سند الامام احمد حـ١ ص٢١٠ مسند عبدالله بن عباس
(٦) الجمعة آية ٦
(٧) الجمعة آية ٧
(٨) الجمعة آية ٧
(٩) البقرة آية ٩٥ ، ٩٦

وقد ذكر القرآن الكريم مباهلة النصارى فى سورة آل عمران كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾(١) .

ومباهلة المشركين فى سورة مريم ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾(٢) وقد قال الإمام أحمد : حدثنا اسماعيل بن يزيد الزرقى حدثنا أبو يزيد حدثنا فرات عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو جهل لعنه الله إن رأيت محمداً عند الكعبة لآتينه حتى أطأ على عنقه قال : فقال رسول الله - ﷺ - « لو فعل لأخذته الملائكة عياناً ولو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله - ﷺ - لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً »(٣)

رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث عبد الرازق ، عن معمر ، عن عبد الكريم قال البخارى وتبعه عمرو بن خالد : عن عبيد الله بن عمرو ، عن عبد الكريم ، ورواه النسائى أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد الله الحلبى عن عبيد الله بن عمرو الرقى به أتم .

وقوله تعالى : ﴿ قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى فى سورة النساء : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾(٤) وفى معجم الطبرانى من حديث معاذ بن محمد الهزلى عن يونس عن الحسن عن سمرة مرفوعا « مثل الذى يفر من الموت كمثل الثعلب تطلبه الأرض بدين فجاء يسعى حتى إذا أعيى وانتهر دخل جحره فقالت له الأرض يا ثعلب دينى ، فخرج وله حصاص فلم يزل كذلك حتى تقطعت عنقه فمات »(٥)

صلاة الجمعة

هذا مشهد كريم ليوم كريم هو خير يوم طلعت فيه الشمس وفيه ساعة الإجابة وله أفضال كثيرة إنه يوم الجمعة ومن ثم فقد تناوله المفسرون بما له من فضل عظيم تناولا شافياً كافياً قال صاحب الروائع فى تفسير هذا المشهد ما نصه :

---

(١) ال عمران ٦١

(٢) سورة مريم ٧٥

(٣) البخارى تفسير سورة أقرأ

(٤) النساء ٧٨

(٥) سنن الترمذى

التحليل اللفظى

نودى : النداء : الدعاء بأرفع الصوت تقول : ناديته نداءً ومناداة .

وفى الحديث (فإنه أندى صوتاً منك)[١] أى أحسن وأعذب ، وقيل : أرفع وأعلى ، والمراد بالنداء هنا : الأذان والإعلام لصلاة الجمعة .

الجمعة : هو اليوم المعروف ، وهو يوم عيد المسلمين الأسبوعى .
قال الفراء : يقال (الجمعة) بسكون الميم . و(الجمعة) بضم الميم . (والجمعة) بفتح الميم فيكون صفة اليوم أى تجمع الناس . كما يقال : ضحكة للذى يضحكك الناس ففيها ثلاث لغات[٢] .

والأفصح الأشهر (الجمعة) بضم الميم ، قال ابن عباس : نزل القرآن بالتثقيل والتفخيم فاقرءوها جمعة .

وقد صار يوم الجمعة علماً على اليوم المعروف من أيام الأسبوع ، وسميت جمعة لاجتماع الناس فيها للصلاة ، وكانت العرب تسمى يوم الجمعة (عروبة) وأول من سماها جمعة (كعب بن لؤى) .

قال السهيلى : ومعنى العروبة : الرحمة فيما بلغنا عن بعض أهل العلم .

فاسعوا : السعى : العدو فى المشى والإسراع فيه ، والمراد منه فى الآية : امشوا إلى الصلاة بدون إفراط فى السرعة لقوله ـ عليه الصلاة والسلام : ﴿ إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون . وأتوها وأنتم تمشون ، وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلّوا . وما فاتكم فأتموا ﴾[٣] .

قال الفراء : المضى ، والسعى ، والذهاب ، بمعنى واحد واحتج بقولهم : هو يسعى فى البلاد يطلب فضل الله ، معناه يمضى يجدوا اجتهاد وليس معناه : العدو والركض .
واحتج أبو عبيدة بقول الشاعر :

أسعى على جُل بنى مالك . كل امرىء فى شأنه ساعى

وكان ابن مسعود : يقرؤها : (فامضوا إلى ذكر الله) ويقول : « لو كانت من السعى لسعيت حتى يسقط ردائى »[٤] .

---

(١) انظر لمعجم الكبير للطبرانى حـ٧ ص٢٦٨

(٢) سنن أبو داود .

(٣) القرطبى

(٤) زاد المسير

قال القرطبى : وقراءة ابن مسعود تفسير منه ، لا قراءة قرآن منزل ، وجائز قراءة القرآن بالتفسير فى معرض التفسير ، ذكر الله : المراد بذكر الله صلاة الجمعة ، بدليل قوله تعالى :﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض** ﴾ وقيل : المراد به الخطبة .

والصحيح الراجح : أن المراد به (الصلاة والخطبة) جميعاً لاشتمالهما على ذكر الله .

وذروا البيع : أى اتركوا البيع ، والمعاملة ، وسائر أمور التجارة والأعمال .

قال الألوسى : أى : اتركوا المعاملة فيعم البيع ، والشراء والإجارة وغيرها من المعاملات .

وقال القرطبى : وخص البيع لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق . **قضيت الصلاة** : أى : أديتم الصلاة وفرغتم منها . يقال : قضى الرجل عمله أى : أداه ، ومنه قوله تعالى ﴿ **فإذا قضيتم مناسككم** ﴾[1] أى : أديتموها . وقضى دينه أى وفاه ، وليس من قضاء الغائبة فى الصلاة ، وقد استدل الفقهاء بهذه الآية الكريمة على أن لفظ (القضاء) يطلق على (الأداء) وهو استدلال لطيف .

فانتشروا : أى : تفرقوا فى الأرض لإقامة مصالحكم ، والانتشار معناه : التفرق ومنه قوله تعالى : ﴿ **فإذا طعمتم فانتشروا** ﴾[2] . **وابتغوا** : أى : اطلبوا من الابتغاء بمعنى الطلب . قال تعالى : ﴿ **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾[3] **فضل الله** : المراد به : الرزق والتجارة والكسب الحلال .

وعن ابن عباس : لم يؤمروا بطلب شىء من الدنيا ، وإنما هو عيادة المرضى ، وحضور الجنائز ، وزيارة الأخ فى الله .

انفضوا إليها : بمعنى انصرفوا إليها . وتفرقوا عنك ، والانفضاض معناه : التفرق والانصراف ، قال ذو الرمة :

تكاد تنفض منهن الحياز يمسه

وأعاد الضمير إلى التجارة ، لأنها كانت أهم إليهم ، وقال الزجاج : المعنى : وإذا رأوا تجارة إنفضوا إليها أو لهواً انفضوا إليه . فحذف الثانى لدلالة الأول عليه مثل قوله تعالى : ﴿ **يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون** ﴾ وكما قال الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأى مختلف

---

(١) زاد المسير

(٢) الأحزاب : ٥٣

(٣) القصص ٧٧

وتركوك قائماً : أى : على المنبر تخطب ، قال بعض العلماء : وفيه دلالة على مشروعية القيام فى الخطبة .

خير الرازقين : لأنه يرزق من يؤمن به ويعبده . ومن يكفر به ويجحده . فهو يعطى من سأل سواء كان مؤمناً أم كافراً .

قال الطبرى : (والله خير الرازقين) يقول : والله خير رازق . فإليه فارغبوا فى طلب أرزاقكم ، وإياه فاسألوا أن يوسع عليكم من فضله دون غيره .

المعنى الإجمالى

يقول الله ـ تعالى ـ ما معناه : يا أيها المؤمنون يا من صدقتم بالله ورسوله ، إذا سمعتم المؤذن ينادى لصلاة الجمعة ويؤذن لها ، فاتركوا أعمالكم وأشغالكم ، ودعوا البيع والشراء ، وامضوا سراعاً إلى ذكر الله وعبادته ، وإلى أداء صلاة الجمعة مع إخوانكم المسلمين فإن ذلك خير لكم وأفضل وأرجى لكم عند الله ، وأعود عليكم بالخيرات والبركات إن كنتم من أهل العلم والفهم السليم ، فإذا أديتم الصلاة وفرغتم منها فانبثوا فى الأرض لقضاء مصالحكم واطلبوا من فضل الله ، فإن الرزق بيده ، وهو المنعم المتفضل الذى لا يخيب أمل السائل ، ولا يضيع عمل العامل ، ولا يمنع أحداً من فضله وإحسانه ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون .

ثم أخبراً تعالى أن هناك فريقاً من الناس يؤثرون الدنيا الفانية على الآخرة الباقية ، فإذا سمعوا بتجارة رابحة ، أو صفقة قادمة ، أو شىء من لهو الدنيا وزينتها ومهرجها تفرقوا عن رسول الله ـ عليه السلام ـ وانصرفوا إلى متاع الحياة وتركوا الرسول قائماً يخطب ، ولو عقلوا لعلموا أن ما عند الله خير وأبقى ، وأن ثوابه خير من اللهو والتجارة وأن الله ـ جل وعلا ـ هو خير الرازقين . يرزق من يشاء بغير حساب وما عند الله خير للأبرار . وصدق الله حيث يقول :

﴿ ما عندكم ينفذ وما عند الله باق . ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[1] .

سبب النزول

١ ـ أخرج الإمام أحمد والبخارى ومسلم والترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه أنه قال : « بينما النبى ـ ﷺ ـ يخطب يوم الجمعة قائماً ، إذ قدمت عير إلى المدينة . فابتدرها أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ حتى لم يبق منهم إلا إثنا عشر رجلاً أنا فيهم وأبو بكر وعمر . فأنزل الله تعالى : **﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها ﴾** إلى آخر السورة .

(١) النحل آية ٩٦

(ب) وروى ابن كثير عن أبى يعلى بسنده إلى جابر بن عبد الله أنه قال :

« بينما النبى - ﷺ - يخطب يوم الجمعة . فقدمت عير إلى المدينة . فابتدرها أصحاب رسول الله - ﷺ - حتى لم يبق مع رسول الله - ﷺ - إلا إثنا عشر رجلاً .

فقال رسول الله - ﷺ - : « والذى نفسى بيده لو تتابعتم حتى لم يبق منكم أحد لسال بكم الوادى ناراً » .

ونزلت هذه الآية : ﴿ وإذا رأوا تجارة . . . ﴾ .

(جـ) وروى أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط فى سبب هذا الانصراف أن أهل المدينة أصابهم جوع وغلاء سعر . فقدم (دحية) بعير تحمل ميرة وكان من عرفهم أن يدخل بالطبل والمعازف من درى بها . فدخلت بها فانفضوا إلى رؤية ذلك وسماعه . وتركوه - ﷺ - قائماً على المنبر فى اثنى عشر رجلاً قال جابر : أنا أحدهم . فنزلت ﴿ وإذا رأوا تجارة ﴾[1] .

وجـــوه القراءات

١ - قرأ الجمهور (من يوم الجمعة) بضم الجيم والميم . وقرأ الزهيرى والأعمش بضم الجيم وسكون الميم (الجمْعة) وهى لغة تميم وقرأ أبو العالية والنخعى (الجمَعة) بضم الجيم مع فتح الميم وهى ثلاث لغات .

قال الزجاج : من قرأ بتسكين الميم فهو تخفيف الجمعة لثقل الضمتين وأما فتح الميم فمعناها : الذى يجمع الناس ، كما تقول : « رجل لُعنه : يكثر لعنة الناس وضحكة : يكثر الضحك[2] .

٢ - قرأ الجمهور (إنفضوا إليها) بضمير المؤنث عائداً إلى التجارة وقرأ ابن أبى عبلة بضمير المذكر (انفضوا إليه) عائداً إلى اللهو .

قال الأخفش : وكلاهما جائز عند العرب وقرىء (انفضوا إليها) بضمير التثنية عائداً إلى التجارة واللهو .

٣ - قرأ الجمهور (فاسعوا إلى ذكر الله) وروى عن ابن مسعود وعمر أنهما كانا يقرآنها (فامضوا إلى ذكر الله) وقراءتها محمولة على أنها وجه من وجوه التفسير . لا أنها قراءة من القراءات وقد مر معك كلام القرطبى فتدبره[3]

---

(١) انظر صحيح البخارى حـ٨ ص٤٩٣

(٢) انظر الدر المنثور للسيوطى

(٣) أنظر البحر المحيط

وجوه الإعراب

١ - قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ .

(إذا) شرطية و (نودى) مبنى للمجهول ، و (من) بمعنى . (فى) أى : فى يوم الجمعة كقوله تعالى : ﴿ أرونى ماذا خلقوا من الأرض ﴾[١] أى : فى الأرض .

وجوّز أبو البقاء كون (من) للتبعيض .

وفى الكشاف : هى بيان لـ (إذا) وتفسير له ، وقد اعترض عليه فى هذا ، والصحيح أنها بمعنى (فى)[٢] .

٢ - قوله تعالى : ﴿ واذكروا الله كثيراً .... ﴾ .

(اذكروا) فعل أمر مبنى على حذف النون لأن مضارعه من الأفعال الخمسة ، والواو فاعل ، ولفظ الجلالة منصوب على التعظيم تأدباً و (كثيراً) صنعة لمفعول مطلق محذوف تقديره : (ذكراً كثيراً) .

وقد صرح به في سورة الأحزاب فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً ، وسبحوه بكرة وأصيلا ﴾[٣] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ وتركوك قائماً ﴾ .

قائماً منصوب على الحال وصاحب الحال هو النبى - ﷺ - المشار إليه بـ (تركوك) أى : تركوك أيها النبى حال كونك قائماً .

٤ - قوله تعالى : ﴿ قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة .. ﴾ (ما) اسم موصول مبتدأ ، و (خير) خبره ، والجملة (ما عند الله خير) مقول القول .

لطائف التفسير

اللطيفة الأولى :

يوم الجمعة كان يسمى فى الجاهلية يوم (العروبة) وأول من سماه جمعة (كعب بن لؤى) وروى فى سبب تسميته أن أهل المدينة اجتمعوا قبل قدوم النبى - ﷺ - فقالت الأنصار : لليهود يوم يجتمعون فيه بكل سبعة أيام وللنصارى مثل ذلك . فهلم فلنجعل يوماً نجتمع فيه فنذكر الله تعالى ونشكره . فقالوا يوم السبت لليهود ويوم الأحد للنصارى فاجعلوه يوم العروبة ، فاجتمعوا إلى أسعد بن زرارة فصلى بهم يومئذ ركعتين ، وذكرهم فسميت الجمعة حين اجتمعوا إليه فذبح لهم شاة فتغدوا وتعشوا منها فهى أول جمعة كانت فى الإسلام .[٤]

---

(١) تفسير الألوسى ٢٨/٩٩ والبحر المحيط
(٢) تفسير القرطبى
(٣) الأحزاب
(٤) الألوسى

اللطيفة الثانية :

فى التعبير لقوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله . . ﴾ لطيفة وهى أنه ينبغى للمؤمن أن يقوم إلى صلاة الجمعة بجد ونشاط وعزيمة وهمة . لأن لفظ (السعى) يفيد القصد والجد والعزم وليس المراد منه العدو فى المشى فإن ذلك منهى عنه . قال الحسن : «والله ما هو سعى على الأقدام ، ولكنه سعى بالقلوب وسعى بالنية ، وسعى بالرغبة ، ولقد نُهوا أن يأتوا الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار »(١)

اللطيفة الثالثة :

أطلق لفظ البيع (وذروا البيع) وقصد به جميع أنواع المعاملة من بيع ، وشراء ، وإجارة ، وغيرها من المعاملات فهو على سبيل المجاز المرسل .

قال أبو حيان : « وإنما ذكر البيع من بين سائر المحرمات ، لأنه أكثر ما يشتغل به أصحاب الأسواق ، إذ يكثر الوافدون من القرى إلى الأمصار ويجتمعون للتجارة إذا تعالى النهار ، فأمروا بالبدار إلى تجارة الآخرة ، ونهوا عن تجارة الدنيا حتى الفراغ من الصلاة »(٢)

اللطيفة الرابعة :

كان السلف الصالح يقتدون برسول الله ـ ﷺ ـ فى جميع أفعاله وحركاته وسكناته ، حتى ولو لم يدركوا السر فيه ، وذلك من فرط حبهم لرسول الله ـ ﷺ ـ فقد روى عن بعضهم أنه كان إذا صلى الجمعة خرج فدار فى السوق ساعة ، ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء الله تعالى أن يصلى ، فقيل له : لأى شىء تصنع هذا ؟ قال : إنى رأيت سيد المرسلين ـ ﷺ ـ هكذا يصنع ، وتلا هذه الآية : ﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾(٣)

اللطيفة الخامسة :

« كان عراك بن مالك إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : « اللهم إنى أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين »(٤)

اللطيفة السادسة :

فى قوله : ﴿ واذكروا الله كثيرا ﴾ لطيفة وهى أن الله ـ عز وجل ـ أمر بالسعى فى طلب الرزق والاشتغال بالتجارة ، ولما كان هذا قد يسوق الإنسان إلى الغفلة وربما دفعته الرغبة فى جمع المال إلى الكذب والغش والاحتيال ، أمر المسلم أن يذكر الله تعالى ، ليعلم أن الدنيا ومتاعها فانية ، وأن الآخرة وما فيها باقية ، وأن ما عند الله خير وأبقى ، فلا تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة كما قال تعالى فى وصف المؤمنين :

---

(١) تفسير القرطبى

(٢) البحر المحيط

(٣) ابن مردودية

(٤) الجامع لأحكام القرآن

﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾[١] وهذا هو السر فى الأمر بذكر الله كثيراً فتدبره .

اللطيفة السابعة :

الأصل فى (إذا) أنها للاستقبال ، والآية الكريمة نزلت بعد تلك الحادثة وبعد انفضاض الناس عن رسول ـ الله صلى الله عليه وسلم ـ لهذا فقد خرجت عن الاستقبال واستعملت فى الماضى ، على حد قول القائل :

ونَدمان يزيد الكأس طيباً سقيت (إذا) تغورت النجوم[٢]

« ما ورد فى فضائل يوم الجمعة »

(أ) يوم الجمعة أفضل الأيام وأشرفها على الاطلاق فقد روى مسلم فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة . وفيه أخرج منها . ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة »[٣] .

(ب) وروى مالك فى الموطأ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أهبط من الجنة ، وفيه تيب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهى مصخيه يوم الجمعة . من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة . إلا الإنس والجن . وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى ، يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه)[٤] .

(جـ) وروى أبو داود فى سننه أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض ، وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا على من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة علىّ . قالوا يا رسول الله : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟

يعنى (بليت) فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله ـ عز وجل ـ حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » .

الأحكام الشرعية

الحكم الأول : ما هو الأذان الذى يجب السعى عنده ؟

دل قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ على وجوب السعى إلى المسجد ، وترك البيع والشراء ، وقد اختلف العلماء فى الآذان الذى يجب السعى عنده .

---

(١) سورة النور آية ٣٧

(٢) روح المعانى

(٣) صحيح مسلم حـ٢ ص٥٨٥

(٤) رواه مالك فى الموطأ

١ ـ قال بعض العلماء : المراد به الأذان الأول الذى هو على المنارة .

٢ ـ وقال آخرون : المراد به الأذان الذى بين يدى الخطيب إذا صعد الإمام المنبر .

حجة الفريق الأول :

١ ـ أن المراد من النداء هو الإعلام ، والسعى إنما يجب عند الإعلام ، وهو (الأذان الأول) على المنارة ، الذى زاده عثمان ـ رضى الله عنه ، وذلك حين رأى كثرة الناس ، وتباعد مساكنهم عن المسجد ، فأمر بالتأذين الأول على دار له بالسوق يقال لها (الزوراء) وقد ثبت الأمر على ذلك من عهده إلى عصرنا هذا .

(ب) واستدلوا بما رواه البخارى فى صحيحه عن (السائب بن يزيد) ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : (كان النداء يوم الجمعة أوله إذا جلس الإمام على المنبر على عهد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ، فلما كان زمن عثمان ـ رضى الله عنه ـ وكثر الناس زاد النداء الثالث على الزوراء فثبت الأمر على ذلك) .

(جـ) وقالوا : السعى عند الأذان الثانى ، وقت صعود الخطيب المنبر ، يفوت على الناس سماع الخطبة التى من أجلها خفف الله تعالى الصلاة فجعلها ركعتين ، ولم تكن بالمسلمين حاجة إلى هذا فى زمن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقرب مساكنهم من المسجد ، ولحرصهم الشديد على أن يجيئوا من أول الوقت محافظة على أخذ الأحكام عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكان النداء الذى بين يدى الخطيب يسمعهم فيحضروا سراعاً ، ويدركون الخطبة من أولها لقرب المساكن من المسجد .

وهذا القول هو الظاهر المعتمد فى مذهب الحنفية . وقد نص عليه صاحب (الكنز) من أئمة فقهاء الحنفية فقال :

« ويجب السعى وترك البيع بالأذان الأول لقوله ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة** ﴾ الآية وإنما أعتبر لحصول الإعلام به . وهذا القول هو الصحيح فى المذهب .

وقيل : العبرة للأذان الثانى ، الذى يكون بين يدى الخطيب على المنبر لأنه لم يكن فى زمنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا هو ـ وهو ضعيف ـ لأنه لو اعتبر وجوب السعى لم يتمكن من السنة القبلية ومن الاستماع بل ربما يخشى عليه فوات الجمعة انتهى .

حجة الفريق الثانى :

١ ـ الأذان الذى يجب فيه السعى وترك البيع هو (الأذان الثانى) الذى يكون بين يدى الخطيب ، لأنه هو الأذان الذى كان فى زمنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو ـ عليه السلام ـ أحرص الناس على أن يؤدى المؤمنون الواجب عليهم فى وقته ، فلو كان السعى واجباً قبل ذلك لبينه لهم وجعل بين الأذان والخطبة زمناً يتسع لحضور الناس .

(ب) ما روى عن ابن عمر والحسن فى قوله تعالى : ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ﴾ قال : « إذا خرج الإمام وأذن المؤذن فقد نودى للصلاة »

قالوا : وهو التفسير المأثور فلا عبرة بغيره .

(جـ) وقالوا أيضا : إن المصلى يندب له أن يجىء مبكراً لفوائد جمة كما دلت على ذلك الأحاديث الكثيرة . ولكن تحريم البيع والشراء والحكم بالإثم شىء ، وإدراك الأمر المندوب شىء آخر .

ثم إن السنة القبلية ـ على فرض أنها بقيت مطلوبه فى الجمعة ـ فإنه لا يمكننا أن نوجب السعى قبل وقته لتحصيل سنة لم تثبت . فيبقى النداء الذى يحرم عنده البيع هو (النداء الثانى) الذى يكون عند صعود الخطيب المنبر . وهو الذى كان فى زمنه ـ عليه السلام وهذا المذهب هو رأى جمهور العلماء ، وقول عند فقهاء الحنفية ، ولعله يكون الأرجح ، والله تعالى أعلم .

الحكم الثانى : هل يفسخ البيع عند الأذان ؟

دل قوله ـ تعالى ـ ﴿ وذروا البيع ﴾ على حرمة البيع والشراء وسائر المعاملات عند الأذان ، وقد اختلف العلماء فى عقد البيع هل هو صحيح أم فاسد ؟ فقال بعضهم إنه فاسد لورود النهى (وذروا البيع) .

وقال الأكثرون إنه حرام ولكنه غير فاسد وهو يشبه الصلاة فى الأرض المغصوبة تصح مع الكراهة .

قال القرطبى فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن : « وفى وقت التحريم قولان : الأول : أنه من بعد الزوال إلى الفراغ من الصلاة . قاله الضحاك ، والحسن ، وعطاء .

الثانى : من وقت أذان الخطبة إلى وقت الصلاة . قاله الشافعى . قال : ومذهب مالك : أن يترك البيع إذا نودى للصلاة ويفسخ عنده ما وقع من البيع فى ذلك الوقت ولا يفسخ العتق والنكاح والطلاق وغيره ، إذ ليس من عادة الناس الاشتغال به كاشتغالهم بالبيع ، قالوا : وكذلك الشركة والهبة والصدقة نادر لا يفسخ . قال ابن العربى : والصحيح فسخ البيع لأن البيع إنما منع منه للاشتغال به فكل أمر يشغل عن الجمعة من العقود كلها فهو حرام شرعاً مفسوخ ردعاً .

ورأى بعض العلماء البيع فى الوقت المذكور جائزاً وتأوله النهى عنه ندباً واستدل بقوله تعالى : ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ وهذا مذهب الشافعى . فإن البيع عنده ينعقد ولا يفسخ .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : إن عامة العلماء على أن ذلك لا يؤدى إلى فساد البيع ، قالوا : لأن البيع لم يحرم لعينه ولكن ما فيه من الذهول عن الواجب ، فهو كالصلاة فى الأرض المغصوبة والثوب المغصوب . والوضوء بماء مغصوب ، وعن بعض الناس أنه فاسد . وقال القرطبى : والصحيح فساده وفسخه لقوله عليه الصلاة والسلام (كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد) أى مردود عليه والله أعلم .

الحكم الثالث : هل الخطبة شرط لصحة الجمعة ؟

دل قوله تعالى : ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ على أن الخطبة شرط لصحة صلاة الجمعة . لأن ذكر الله سواء قلنا إنه : (الموعظة) أو إنه (الموعظة والصلاة معاً) يدخل فيه خطبة الجمعة ، فلابد أن تكون شرطاً لصحة الصلاة . ولأن صلاة الجمعة إنما خففت من أجل الخطبة وسماع الموعظة ، وعليه تكون الخطبة واجبة ، وهذا مذهب جمهور الفقهاء .

غير أن فقهاء الحنفية قالوا : لا يشترط فى الخطبة أن تكون مشتملة على ما يسمّى (خطبة) عرفا ، لأن الله - تعالى - ذكر الذكر من غير تفصيل بين كونه طويلا ، أو قصيراً ، يسمى خطبة أو لا يسمى خطبة ، فكان الشرط هو الذكر مطلقاً ، ويكفى فيه أقل ما يطلق عليه اسم الذكر ، غير أن المأثور عنه - ﷺ - هو الذكر المسمى بـ (الخطبة) والمواظبة عليه فكان ذلك واجباً أو سنة ، لا أنه الشرط الذى لا يجزىء غيره .

فقهاء الشافعية والحنابلة :

يشترطون أن يأتى الخطيب بخطبتين مستوفيتين لشروط خاصة منها : حمد الله ، والصلاة على النبى - صلى الله عليه وسلم - وقراءة آية من كتاب الله - تعالى - والوصية بتقوى الله تعالى .

وزاد الشافعية الدعاء للمؤمنين والمؤمنات .

وفقهاء المالكية :

شرطوا فى الخطبة شرطاً واحداً وهى أن تكون مشتملة على تحذير أو تبشير مما يسمى فى العرف موعظة وخطبة .

قال فى الروضة الندية :

« ثم اعلم أن الخطبة المشروعة هى ما كان لقيادة - صلى الله عليه وسلم - من ترغيب الناس وترهيبهم ، فهذا فى الحقيقة روح الخطبة الذى لأجله شرعت ، وأما اشتراط الحمد لله ، أو الصلاة على رسوله ، أو قراءة شىء من القرآن ، فجميعه خارج عن معظم المقصود من شرعية الخطبة ، واتفاق مثل ذلك فى خطبته - صلى الله عليه وسلم - لا يدل على أنه مقصود متحتم وشرط لازم .

ولا يشك منصف أن معظم المقصود هو الوعظ دون ما يقع قبله من الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد كان عُرف العرب المستمر أن أحدهم إذا أراد أن يقوم مقاماً ، ويقول مقالاً ، شرع بالثناء على الله - وعلى رسوله - صلى الله عليه وسلم - وما أحسن هذا وأولاه - ولكن ليس هو المقصود ، بل المقصود ما بعده ولو قال : إن من قام فى محفل من المحافل خطيباً ، ليس له باعث على ذلك إلا أن يصدر منه الحمد ، والصلاة ، لما كان هذا مقبولا ، بل كل طبع سليم يمجه ويردّه ، إذا تقرر هذا عرفت أن الوعظ فى خطبة الجمعة هو الذى يساق إليه الحديث ، فإذا فعله الخطيب فقد فعل الأمر المشروع إلا أنه إذا قدم الثناء على الله وعلى رسوله ، أو استطرد فى وعظه القوارع القرآنية كان أتم وأحسن .

الحكم الرابع :

ما هو العدد الذى تنعقد به اجمعة ؟ .

لا خلاف بين الفقهاء أن الجماعة شرط من شروط صحة الجمعة ، لقوله عليه السلام : « الجمعة حق واجب على كل مسلم فى جماعة ، إلا أربعة : مملوك ، أو امرأة ، أو صبى ، أو مريض »[1] .

ولأن التسمية تقتضى ذلك ، فلا يقال لمن صلَّى وحده إنه صلى الجمعة . فلابد من الجماعة ، وقد اختلفوا فى العدد الذى تنعقد به الجمعة إلى خمسة عشر قولاً ذكرها الحافظ فى الفتح .

والآية الكريمة لم تنص على عدد معين ، وكذلك السنة المطهرة لم يرد فيها نص صريح صحيح على العدد الذى تنعقد به ، ولهذا اختلف الفقهاء على أقوال عديدة :

(أ) الحنفية قالوا : يكفى أربعة أحدهم الإمام ، وقيل ثلاثة .

(ب) الشافعية والحنابلة قالوا : لابد من جمع غفير أقله أربعون .

(جـ) المالكية قالوا : لا يشترط عدد معين بل تشترط جماعة تسكن بهم قرية ، ويقع بينهم البيع ، ولا تنعقد بالثلاثة والأربعة ونحوهم .

قال الحافظ ابن حجر : ولعل هذا المذهب أرجح المذاهب من حيث الدليل ، وهناك أحكام أخرى تطلب من كتب الفروع ، ضربنا صفحاً عنها لأن الآية الكريمة لا تدل عليها ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

أولاً : الجمعة فريضة على المسلمين المكلفين بالشروط المعروفة .

ثانياً : وجوب السعى للاستماع إلى الخطبة وأداء فريضة الجمعة .

ثالثاً : حرمة البيع والشراء وسائر المعاملات عند الأذان .

رابعاً : جواز الاشتغال بأمور التجارة والمعاش قبل الصلاة وبعدها .

خامساً : الرزق بيد الله ومع ذلك ينبغى أن يأخذ الإنسان بأسباب الكسب .

سادساً : لا ينبغى للمؤمن أن تشغله تجارة الدنيا عن تجارة الآخرة .

حكمة التشريع

الصلاة صلة العبد بربه ، وعبادة تشد القلب ، وتقوى الإيمان فيه . وهى إلى جانب هذا تزيد المجتمع ترابطاً وتآلفاً . يلتقى فيها أفراده على الخير ، ويتعاونون على البر والتقوى ، وإذا كانت الصلوات

---

(١) انظر سنن أبى داود حـ ص٦٤٤ كتاب الجمعة

الخمس فى كل يوم وليلة مفروضة فقد يُشغل المرء عن بعضها فى شغله الدنيوى الذى يُبعده عن المسجد، أو يتساهل فى عدم المجىء إليها، لذلك فقد فرض الله صلاة الجمعة فى كل أسبوع مرة واحدة ليسرع إلى الصلاة يستمع كلام الله وحديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وموعظة الخطيب، فيكون له زاداً إيمانياً، ويجتمع بإخوانه المؤمنين جميعاً. فيتفقد الغائب، ويعين المحتاج، ويعود المريض، ويصالح المتخاصمين. ويبذل نصحه للمقصرين، كما يتعلم الآداب الإسلامية فى الاجتماع من السلام، والاحترام، والبشاشة التى تجعل المجتمع فى سلام وأمان. لهذا كله فرض الله - سبحانه - صلاة الجمعة على كل مسلم، وأمره أن يسعى إليها، وحثه على أدائها. ا. هـ.

فضل يوم الجمعة والصلاة

إن يوم الجمعة سيد الأيام وأفضلها عند الله - تعالى - وصلاة الجمعة هى المؤتمر الاسلامى العظيم الذى يجمع الله فيه القلوب على ذكره ومعرفته والإرشاد إليه، حتى لقد بلغ من أهمية هذا اليوم والصلاة فيه أن المستر جلادستون رئيس وزراء بريطانيا وقف فى مجلس العموم يقول لأعضائه إننا لن تقوم لنا قائمة فى الشرق إلا إذا قضينا على تلك الأشياء أولها صلاة الجمعة وثانيها يوم عرفة وثالثها ذلك الكتاب، ورفع المصحف بيده أمام الأعضاء، فهب أحدهم مذعوراً وخطف المصحف من يده ومزقه فقال له رئيس الوزراء: ما أردت تمزيق ورقة أيها الأحمق إنما أردت تمزيقه من صدور المسلمين. ألا فليتنبه القضاة الغافلون، وليستيقظوا ليعلموا ماذا يراد بهم، لقد قال الحكيم الأفغانى جمال الدين كلمة حق قال:

« إن المسلمين قد ماتت عزائمهم، ومات فيهم كل شىء إلا شهواتهم » وقال طاغية الصهيونية موشى ديان:

« إن العرب لا يقرأون، وإذا قرأوا لا يفهمون، وإذا فهموا سرعان ما ينسون، ولا يتذكرون ثم قال: وإنهم مثل الكلاب التى تنبح ولا تعض »

أيها المسلمون أفيقوا لقد هجرت المساجد وقل فيها الراكع والساجد، وأصبحت تشكو لربها ظلم العباد، حتى بلغ من جرأة أحد الذين يحملون الأقلام المسمومة أنه قال فى عام ١٩٦٥ راقبوا أولادكم فى المساجد، ويومها رددت عليه فى خطبة الجمعة وقلت تراقبوهم فى المساجد أم فى المسارح، أليس هذا قلباً للأوضاع، وتذكرت قول أبى العلاء:

إذا وصف الطائى بالبخل مادرٌ ... وعيرقسا بالسفاهة باقلٌ
وقال السها للشمس أنت ضئيلة ... وقال الدجى للصبح لونك حائل
وطالت الأرض السماء سفاهة ... وفاخرت الشهب الحصى والجنادل
فياموت زر إن الحياة ذميمةٌ ... ويانفسى جدى إن دهرك هازل

﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما

فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم . ﴾[١]

على الأمة الإسلامية أن تنظر ثلاث نظرات إلى هذه الآيات الفذة حيث تكررت فيها كلمة إذ .

النظرة الأولى : استراتيجية العدد كم كان عدد جيش الحق « إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين »

النظرة الثانية : استراتيجية المكان من أين أدار معسكر الحق المعركة وأين كانت غرفة العمليات العسكرية . إذ هما فى الغار

النظرة الثالثة : استراتيجية العقيدة أى شعار رفعوه ، الاشتراكية ، أم الوطنية ، أم الإيمان بالأرض والتراب لم يكن إلا كلمة حق قال عنها الكتاب العزيز :

﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ ومن كان الله معه لا يخيب سعيه ولا يضل سؤله ، من كان الله معه فمن عليه ، ومن كان الله عليه فمن معه ، ومن وجد الله فماذا فقد . **﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ﴾ ﴿ ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴾**[٢]

أفيقوا أيها المسلمون واستيقظوا من سباتكم هل أنتم فى غفلة معرضون ، هل أصبحتم كما يقول القائل .

ناموا ولا تستيقظو ما فاز إلا النومٌ .
وصوموا ولا تتكلموا إن الكلام محرم .
إن قيل إن نهاركم ليل فقولوا مظلم .
أوقيل هذا شهدكم مر فقولوا علقم .

يا أمة الإسلام ، أرضيتم بالذل والهوان وأنتم الأعلون **﴿ أنفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾**

لقد ركز جلادستون على صلاة الجمعة ومن ثم فإننا نسوق هذا الحشد المقدس من أقوال الرسول ـ ﷺ ـ عن فضل هذا اليوم ، والصلاة فيه كما جاء ذلك فى كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى ـ رحمه الله تعالى :

كتاب الجمعة

الترغيب فى صلاة الجمعة والسعى إليها وماجاء فى فضل يومها وساعتها .

---

(١) التوبة آية ٤١

١ - عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة فاستمع وأنصت غفر له مابينه وبين الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام ومن مس الحصا فقد لغا . »[1] رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه . (لغا) قيل : معناه خاب من الأجر ، وقيل : أخطأ ، وقيل : صارت جمعته ظهراً ، وقيل : غير ذلك .

المعنى

- قال النووى : فيه فضيلة الغسل ، وأنه ليس بواجب للرواية الثانية ، وفيه إستحباب وتحسين الوضوء ، ومعنى إحسانه : الإتيان به ثلاثاً ثلاثاً ، ودلك الأعضاء ، وإطالة الغرة والتجميل ، وتقديم الميامن ، والإتيان بسننه المشهورة ، وفيه إن التنقل قبل خروج الإمام يوم الجمعة مستحب ، وفيه أن النوافل المطلقة لا حد لها لقوله ﷺ : « فصلى ما قدر له » وفيه الإنصات للخطبة ، وفيه أن الكلام بعد الخطبة قبل الإحرام بالصلاة لا بأس به .

- سكت : قال الله تعالى : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾[2] .

- قال العلماء : معنى المغفرة له أن الحسنة بعشر أمثالها ، وصار يوم الجمعة الذى فعل فيه هذه الأفعال الجميلة فى معنى الحسنة التى تجعل بعشر أمثالها : أى : سبعة أيام وثلاثة ، والمعنى : أن الله تعالى يكفر خطاياه الصغيرة التى يفعلها مدة عشرة أيام ، وفيه فضلها ، وبركتها ، والحث على القيام بها ، فإنها مكفرات للصغائر داعية إلى التحلى بالمكارم ، وهى نور الإيمان يبعث فى قلوب المتقين .

ومن مس الحصا فقد لغا : معناه : من وضع يده على الأرض متلاعباً أثناء الخطبة أبطل جمعته وقال النووى : فيه النهى عن مس الحصا وغيره من أنواع العبث فى حالة الخطبة ، وفيه إشارة إلى إقبال القلب والجوارح على سماع الخطبة ، والمراد باللغو هنا الباطل المزموم المردود .

٢ - وعنه (أبى هريرة) - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات ما بينهن . إذا إجتنبت الكبائر »[3] رواه مسلم وغيره .

المعنى

الفرائض : أداؤها يسبب غفران الصغائر ، وكذا أداء صلاة الجمعة يكفر ذنوب أسبوع ، وكذا صيام رمضان يستر عيوب عام كله مدة أجتناب الكبائر ، أى : عدم فعل الموبقات التى نهى الله عنها بوعيد شديد وزجر مؤلم ، قال الله تعالى : ﴿ ولله ما فى السموات وما فى الأرض ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾[4] . أى بعقاب ما عملوا من السوء وبالمثوبة الجنة لمن بعد عما يكبر عقابه ، أو يوجب الحد ،

---

(١) انظر صحيح مسلم ص٥٨٨
(٢) الاعراف آية ٢٠٤
(٣) صحيح مسلم
(٤) سورة النجم ٣١ ، ٣٢

وما فحش من العيوب ، إلا ماقل من الذنوب وصغر ، فإنه مغفور من مجتنب الكبائر ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ : أى : فلا تثنوا عليها بزكاء العمل وزيادة الخير أو بالطهارة عن المعاصى والرذائل ، والجمعة عيد المؤمنين خص الله به عز وجل هذه الأمة ، فيه يعتق الله ستمائة ألف عتيق من النار ، ومن مات فيه أعطى أجر شهيد ووقاه الله فتنة القبر ، وفيه الصلاة على النبى - ﷺ - ثوابها مضاعف ، وفرضت الجمعة بمكة ليلة الإسراء ، ولم تقم فيها لقلة المسلمين ولخفاء الإسلام إذ ذاك وهى أفضل الصلوات ، ونعمة جسيمة ، امتن الله بها على عباده المؤمنين من أمة سيدنا محمد - ﷺ - وكان يسمى فى الجاهلية بيوم العروبة ، ويسمى يوم المزيد لزيادة الخيرات فيه ، وكذا ليلته أفضل ليالى الأسبوع ، وأفضل منه يوم عرفه ، وأفضل الليالى ليلة مولده - ﷺ - وعند الإمام أحمد بن حنبل أفضل الأيام يوم الجمعة مطلقاً ، وعند الشافعية الأفضل يوم عرفة ، فيوم الجمعة ، فيوم عيد الأضحى ، فيوم عيد الفطر ، والليالى ليلة مولده المباركة - ﷺ - فليلة القدر فليلة الجمعة ، فليلة الإسراء ، وعنده - ﷺ - الأفضل ليلة الإسراء وقد رأى ربه بعيني رأسه - عليه الصلاة والسلام . وأول من فعلها بالمدينة الشريفة قبل الهجرة أسعد بن زرارة - رضى الله عنه - بمحل يقال له : نقيع الخضمات على ميل من المدينة . والأصل فى وجوبها قول الله تبارك وتعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع** ﴾ .

فأمر بالسعى وظاهره الوجوب ، وإذا وجب السعى وجب ما يسعى إليه ، ونهى عن البيع وهو مباح ولا ينهى عن المباح إلا لواجب . والمراد بذكر الله الصلاة وقيل الخطبة ، وهى ركعتان ، وليست ظهراً مقصورة . قال عمر - رضى الله عنه - « الجمعة ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم ، وقد خاب من افترى » ، أى : كذب ، رواه الإمام أحمد وغيره ونزل - ﷺ - قباء حينما قدم المدينة فأقام بها إلى الجمعة ، ثم دخل المدينة وصلى الجمعة فى واد لبنى سالم بن عوف .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون** ﴾ قال البيضاوى : نزلت فى الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات له ، وظاهر اللفظ يقتضى وجوبها حيث يقرأ القرآن مطلقاً ، وعامة العلماء على استحبابها خارج الصلاة واحتج به من لا يرى وجوب القراءة على المأموم .

وفى تفسير الجلالين : نزلت فى ترك الكلام فى الخطبة وعبر عنها بالقرآن لاشتمالها عليه ، وقيل : فى قراءة القرآن مطلقاً وعلق الصاوى عليه واجب عند مالك ومذهب الشافعى الجديد : الإنصات سنة ، والكلام مكرمة ، فيحرم الكلام فى مجلس القرآن للتخليط على القارىء بل يجب الإنصات والاستماع فإن أمن التخليط فلا حرمة .

- وهى فرض عين على كل مسلم ، بالغ ، عاقل ، ذكر ، حر ، مقيم ، صحيح ، وشروط صحتها :

أولا : إقامتها فى أبنية مصراً كانت أو قرية فلا تقام فى الصحراء وإن كان فيها خيام .

ثانيا : إقامتها بأربعين مسلمين أحراراً ، ذكوراً ، مستوطنين بمحل إقامتها ، لا يظعنون شتاء ولا صيفاً مكلفين .

ويحرم السفر ولو قصيراً على من تلزمه الجمعة بعد طلوع فجر يومها إلا إذا وثق أن يتمكن من صلاتها فى طريقه .

ثالثا : وقوعها فى وقت الظهر .

رابعا : وقوعها جماعة ولوفى الركعة الأولى بتمامها بأن يستمروا معه إلى السجود الثانى .

خامساً : أن لا يسبقها ولا يقارنها بتحرم جمعة أخرى بمحل اقامتها إلا إذا عسر اجتماع الناس بمكان واحد وان تعددت لحاجة فجمعة الكل صحيحة .

سادساً : تقدم خطبتين على صلاتها وشروطهما :

أولا : وقوعهما فى وقت الظهر . .

ثانيا : أن تكونا عربيتين .

ثالثا : أن لا يطول الفصل بغير الوعظ بين أركان كل منهما .

رابعا : ألا يطول الفصل بينهما وبين فراغهما والصلاة .

خامسا : وأن يكون الخطيب قائماً فيهما عند القدرة .

سادسا : وأن يكون متطهراً من الحدث والخبث .

سابعا : وأن يكون ساتر العورة .

ثامنا : وأن يسمع أربعين ممن تنعقد بهم الجمعة .

تاسعا : وأن يجلس بينهما ، ويسن كونه بقدر سورة الاخلاص .

* **وأركان الخطبتين :**

أولا : حمد الله تعالى فيهما .

ثانيا : والصلاة على النبى - ﷺ - فيهما ، ولا يكفى الضمير ولو مع تقدم ذكره على المعتمد .

ثالثا : والوصية بالتقوى فيهما .

رابعا : وقراءة آية مفهمة فى إحداهما وكونها فى الأولى أولى .

خامسا : والدعاء للمؤمنين والمؤمنات فى الثانية فى آخرها.

وسنن الخطبتين :

أولا : ترتيب أركانهما والإنصات فيهما لمن سمعهما .

ثانيا : كونه على منبر أومرتفع ثم يسلم على المسلمين . ثم يجلس فيؤذن بين يديه واحد .

ثالثا : وأن تكون الخطبة بلغة مفهمة متوسطة .

رابعا : وأن لا يلتفت فى شىء منهما .

خامسا : وأن يشغل يسراه بنحو سيف أوعصا ويمناه بحرف المنبر .

سادسا : وأن يقرأ فى جلوسه بينهما سورة الإخلاص .

وسنن الجمعة :

أولا : الغســل .

ثانيا : تنظيف الجسد .

ثالثا : تقليم الاظافر .

رابعا : نتف الإبط .

خامساً : حلق العانة .

سادسا : قص الشارب .

سابعا : تسريح اللحية ، وتخضيب الشيب بحمرة أو صفر للاتباع ، ويحرم بالسواد إلا لإرهاب الكفار ويكره نتف الشيب لأنه نور وقيل : حرام .

ثامنا : والتطيب بالمسك والاستياك والاكتمال وتراً ثلاثا .

تاسعا : والتزين بأحسن الثياب وأفضلها البياض .

عاشراً : والتبكير إلى المصلى ليأخذ مجلسه قبل ازدحام المصلين .

وهنا أشدد اللوم والعتاب على أولئك المتأخرين الذين يخطون الرقاب ويزاحمون الجالسين . هذا لعمرى مضيع الحسنات ومحبط الثواب فأسرع أخى وخذ لك مكاناً فى المجلس وسبح الله واستغفره وصل على حبيبه -ﷺ- تنجح وتربح .

والحادى عشر : المشى لها بسكينة ووقار .

الثانى عشر : والاشتغال بقراءة ، أوذكر أو استغفار ، ويندب للإمام التأخير إلى وقت الخطبة ، ويجتهد أن لا يتخطى رقاب الناس ، ولا يمر بين أيديهم وهم مصلون ، ويجلس بقرب حائط أو عمود حتى لا يمروا بين يديه ، ولا يقعد حتى يصلى التحية .

الثالث عشر : الإنصات بترك الكلام ، والذكر للسامع ، وترك الكلام دون الذكر لغيره .

الرابع عشر : إكثار الصلاة على النبى -ﷺ- .

الخامس عشر : الصدقة ، وإكثار الدعاء فى يومها ليصادف ساعة الإجابة ولا بأس بهذا الدعاء :

« اللهم إنا نسألك فقهاً فى الدين ، وزيادة فى العلم ، وكفاية فى الرزق ، وعافية وصحة فى البدن ، وتوبة قبل الموت ، وراحة عند الموت ، ومغفرة بعد الموت ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم ، يا أرحم الراحمين » .

وتسن قراءة سورة الكهف لقوله - ﷺ - : « من قرأها يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين(١) ومن دخل المسجد والإمام يخطب صلى ركعتين خفيفتين ثم يجلس » .

فائدة : من قرأ الفاتحة والإخلاص والمعوذتين سبعاً . . سبعاً عقب سلامه من الجمعة قبل أن يثنى رجليه وقبل أن يتكلم ، ثم قال : « اللهم يا غنى ، يا حميد ، يا مبدىء ، يا معيد ، يا رحيم ، يا ودود ، أغننى بحلالك عن حرامك ، وبفضلك عمن سواك ، وبطاعتك عن معصيتك أربع مرات أغناه الله تعالى ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وحفظ له دينه ودنياه ، وأهله وولده .

٣ - وروى عن الطبرانى فى الكبير من حديث أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك بأن الله عز وجل قال : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »(٢) .

٤ - وعن أبى سعيد - رضى الله عنه - أنه سمع رسول الله - ﷺ - يقول : « خمس من عملهن فى يوم كتبه الله من أهل الجنة ، من عاد مريضاً ، وشهد جنازة ، وصام يوماً ، وراح إلى الجمعة ، وأعتق رقبة »(٣) . رواه ابن حبان فى صحيحه

٥ - وعن يزيد بن أبى مريم - رضى الله عنه - قال : لحقنى عباية بن رفاعة بن رافع ، - رضى الله عنه - وأنا أمشى إلى الجمعة ، فقال : أبشر . فإن خطاك هذه فى سبيل الله ، سمعت أبا عبس يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « من أغبرّت قدماه فى سبيل الله فهما حرام على النار »(٣) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح ، ورواه البخارى وعنده قال عباية : أدركنى أبوعبس وأنا ذاهب إلى الجمعة ، فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من أغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار »(٤) .

وفى رواية : « ما أغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار » وليس عنده قول عباية ليزيد .

٦ - وعن أبى أيوب الأنصارى - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس من أحسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتى المسجد فيركع ما بداله ولم يؤذ أحداً ثم أنصت حتى يصلى كان كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » . رواه أحمد والطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه . ورواة أحمد ثقات .

---

(١) انظر الدر المنثور حـ٥ ص٣٥٥ باب سورة الكهف

(٢) انظر المعجم الكبير للطبرانى حـ٣

(٣) أنظر صحيح بن ماجة

(٤) أنظر سنن الترمذى حـ٤ ص١٤٦ فى كتاب فضائل الجهاد

٧ ـ وعن أبي الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من أغتسل يوم الجمعة ثم لبس من أحسن ثيابه ومس طيبا إن كان عنده ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينة ولم يتخط أحداً ولم يؤذه ثم ركع ما قضى له ثم انتظر حتى ينصرف الإمام غفر له ما بين الجمعتين »(١) رواه أحمد والطبرانى من رواية حرب عن أبي الدرداء .

٨ ـ وعن عطاء الخرسانى ـ رضى الله عنه ـ قال : كان نبيشة الهندلى ـ رضى الله عنه ـ يحدث عن رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ، ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذى أحداً فإن لم يجد الإمام خرج صلىّ ما بداله وإن وجد الإمام قد خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعته وكلامه إن لم يغفر له فى جمعته تلك ذنوبه كلها أن يكون كفارة الجمعة التى تليها »(٢) رواه أحمد .

٩ ـ وعن سلمان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ويدَّهن من دهنه ويمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين أثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »(٣) . رواه البخارى والنسائى .

وفى رواية للنسائى : « ما من رجل يتطهر يوم الجمعة كما أمر ، ثم يخرج من بيته حتى يأتى الجمعة وينصت حتى يقضى صلاته إلا كان كفارة لما قبله من الجمعة »(٤) . ورواه الطبرانى فى الكبير باسناد حسن نحو رواية النسائى ، وقال فى آخره :

إلا كان كفارة لما بينه وبين الجمعة الأخرى ما اجتنبت المقتلة وذلك الدهر كله »(٥) .

١٠ ـ وروى عن عتيق أبي بكر الصديق وعن عمران بن حصين ـ رضى الله عنهما ـ قالا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من اغتسل يوم الجمعة كفرت عنه ذنوبه وخطاياه فإذا أخذ فى المشى كتب له بكل خطوة عشرون حسنة فإذا انصرف من الصلاة أجيز بعمل مائتى سنة »(٦) . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، وفى الأوسط أيضاً عن أبي بكر رضى الله عنه وحده ، وقال فيه :

كان له بكل خطوة عمل عشرين سنة .

١١ ـ وعن أوس بن أوس الثقفى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « من غسل يوم الجمعة واغتسل وبكر وابتكر ومشى ولم يركب ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ كان له بكل خطوة عمل سنة أجر صيامها وقيامها »(٧) . رواه أحمد وأبو داود والترمذى .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد حـ٣ وصحيح بن خزيمة
(٢، ٣) انظر مسند الامام احمد
(٤) صحيح البخارى حـ٢٠ كتاب الجمعة
(٥) سنن النسائى و، كتاب الجمعة
(٦، ٧) انظر المعجم الكبير للطبراني وابوداود والترمذى

١٢ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - قال : « من غسل واغتسل ودنا وابتكر واقترب واستمع كان له بكل خطوة يخطوها قيام سنة وصيامها »(١) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

١٣ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : « عرضت الجمعة على رسول الله - ﷺ - جاءه بها جبريل عليه السلام فى كفه كالمرآة البيضاء فى وسطها كالنكتة السوداء ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ولكم فيها خير تكون أنت الأول وتكون اليهود والنصارى من بعدك ، وفيها ساعة لا يدعو أحد ربه فيها بخير هو له قسم إلا أعطاه ، أو يتعوذ من شر إلا دفع عنه ما هو أعظم منه ، ونحن ندعوه فى الآخرة يوم المزيد »(٢) . الحديث . رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد جيد .

١٤ - وعن أبى لبابة بن عبد المنذر - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « إن يوم الجمعة سيد الأيام ، وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر . وفيه خمس خلال : خلق الله فيه آدم . وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض . وفيه توفى الله آدم . وفيه ساعة لا يسأل الله فيها العبد شيئا الا أعطاه إياه ، ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا بحر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة »(٣) رواه أحمد وابن ماجه بلفظ واحد .

١٥ - وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق الله آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها »(٤) رواه مسلم ، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن خزيمة فى صحيحه ولفظه قال :

« ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة هدانا الله له ، وضل الناس عنه فالناس لنا فيه تبع فهو لنا ، واليهود يوم السبت ، والنصارى يوم الأحد ، إن فيه لساعة لا يوافقها مؤمن يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه » فذكر الحديث .

المعنى

- قال العراقى : المراد تفضيل الجمعة بالنسبة إلى أيامها ، وتفضيل يوم عرفه ، أو يوم النحر بالنسبة إلى السنة .

قال صاحب المفهم : صيغة خير وشر يستعملان للمفاضلة ولغيرها فإذا كانت للمفاضلة فأصلها أخير وأشرر على وزن أفعل ، وإذا لم يكونا للمفاضلة فهما من جملة الأسماء كما قال تعالى : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ وقال : ﴿ ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ قال : وهى فى حديث الباب للمفاضلة ومعناها فى هذا الحديث أن يوم الجمعة أفضل من كل يوم طلعت شمسه .

---

(١) سند الامام أحمد

(٢) الطبرانى فى الأوسط

(٣) سند الامام أحمد

(٤) رواه مسلم فى صحيحه

ـ وقال الشوكانى فى (فيه خلق آدم) فيه دليل على أن آدم لم يخلق فى الجنة بل خلق خارجها ثم أدخل فيها .

وقد قال جمع من العلماء منهم الرافعى ، وصاحب المغنى : إن ساعة الإجابة مخفية فى جميع اليوم كما أخفيت ليلة القدر . وقد روى الحاكم وابن خزيمة عن أبى سعيد أنه قال : سألت النبى ـ ﷺ ـ عنها فقال : قد علمتها ثم أنسيتها كما أنسيت ليلة القدر ، وقيل : إذا زالت الشمس ، وقيل : إذا أذن المؤذن لصلاة الجمعة ، وقيل : ما بين خروج الإمام إلى أن تقام الصلاة . وقيل : ما بين أن يحرم البيع إلى أن يحل . وقيل ما بين أن يجلس الإمام على المنبر إلى تنقضى الصلاة . وقيل : عند الجلوس بين الخطبتين . وقيل : من إقامة الصلاة إلى تمام الصلاة . وقيل : فى صلاة العصر ، والله أعلم بزمن وجودها رجاء التضرع ، وكثرة التذلل ، وخشية دائما فى ساعة كلها ، والإكثار من الصلاة والدعاء ، فيصادفها من اجتهد . ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر . قال القاضى عياض : فى شرح حديث : « خير يوم » الظاهر أن هذه الفضائل المعدودة ليست الذكر فضيلته لأن اخراج آدم ، وقيام الساعة لا يعد فضيلة وإنما هو بيان لما وقع فيه من الأمور العظام ، وما سيقع ليتأهب العبد فيه بالأعمال الصالحة لنيل رحمة الله ودفع نقمته .

وقال أبو بكر بن العزى فى كتابه الأحوزى فى شرح الترمذى الجميع من الفضائل وخروج آدم من الجنة هو سبب وجود الذرية ، وهذا النسل العظيم ووجود الرسل والأنبياء والصالحين والأولياء ولم يخرج منها طرداً بل لقضاء أوطار ، ثم يعود إليها ، وأما قيام الساعة فسبب لتعميل جزاء الأنبياء والصديقين والأولياء وغيرهم ، وإظهار كرامتهم وشرفهم ، وفى هذا الحديث فضيلة يوم الجمعة ومزيته على سائر الأيام .

قال النووى : لو قال لزوجته أنت طالق فى أفضل الأيام فيه وجهان لأصحابنا : أصحهما تطلق يوم عرفة ، والثانى يوم الجمعة لهذا الحديث ، وهذا إذا لم يكن له نية ، أما إذا أراد أفضل أيام السنة فيتعين يوم عرفه ، وإن أراد أفضل أيام الأسبوع فيتعين الجمعةَ ، ولو قال أفضل ليلة تعنيت ليلة القدر ، وهى منحصرة فى العشر الأواخر .

١٦ ـ وعن أوس بن أوس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقه ، فأكثروا من الصلاة على فيه ، فإن صلاتكم يوم الجمعة معروضة على ، قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك ، وقد أرمت : أى بليت ؟ فقال : إن الله ـ عز وجل وعلا ـ حرم على الأرض أن تأكل أجسامنا »[(١)] رواه أبو داود والنسائى . وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له ، وهو أتم ، وله علة دقيقة امتاز اليها البخارى وغيره .

١٧ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لا تطلع الشمس ولا تغرب على أفضل من يوم الجمعة وما من دابة إلا وهى تفزع يوم الجمعة إلا هذين الثقلين الجن والإنس »[(٢)] رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما .

---

(١) انظر سنن ابن ماجة حـ١ انظر سنن النسائى حـ٣ ص٩١ انظر سنن ابى داود حـ١ ص٦٣٥

(٢) انظر صحيح ابن حبان حـ٤ ص١٩١

١٨ ـ وعن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « تحشر الأيام على هيئتها ، وتحشر الجمعة زهراء منيرة أهلها يحفون بها كالعروس تهدى إلى خدرها تضىء لهم يمشون فى ضوئها ألوانهم كالبلج بياضاً وريحهم كالمسك ، يخوضون فى جبال الكافور ينظر اليهم الثقلان ، لا يطرفون تعجباً حتى يدخلون الجنة ، لا يخالطهم أحد إلا المؤذنون المحتسبون »[١] رواه الطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه ، وقال : إن صح هذا الخبر ، فإن فى النفس من هذا الإسناد شيئا .

١٩ ـ وعن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : « إن الله ـ تبارك وتعالى ـ ليس تبارك أحداً من المسلمين يوم الجمعة إلا غفر له »[٢] رواه الطبرانى فى الأوسط مرفوعاً فيما أرى بإسناد حسن .

٢٠ ـ وعن أبى هريرة وحذيفة ـ رضى الله عنهما ـ قالا : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أضل الله ـ تبارك وتعالى ـ عن الجمعة من كان قبلنا ، كان لليهود يوم السبت ، والأحد للنصارى فهم لنا تبع إلى يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا والأولون يوم القيامة المقضى لهم قبل الخلائق »[٣] رواه ابن ماجه والبزار ، ورجالهما رجال الصحيح إلا أن البزار قال : نحن الآخرون فى الدنيا الأولون يوم القيامة ، المغفور لهم قبل الخلائق وهو فى مسلم بنحو اللفظ الأول من حديث حذيفة وحده .

٢١ ـ وروى عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن يوم الجمعة ، وليلة الجمعة أربعة وعشرون ساعة ليس فيها ساعة إلا ولله فيها ستمائة ألف عتيق من النار . قال : فخرجنا من عنده فدخلنا على الحسن فذكرنا له حديث ثابت . فقال : سمعته فزاد فيه : كلهم قد استوجبوا النار »[٤] رواه أبو يعلى والبيهقى باختصار ولفظه : « لله فى كل جمعة ستمائة ألف عتيق من النار » .

٢٢ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ ذكر يوم الجمعة فقال : « فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه »[٥] وأشار بيده يقللها . رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه .

(وأما تعيين الساعة) : فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافاً كثيراً بسطته فى غير هذا الكتاب وأذكر هنا نبذة من الأحاديث الدالة لبعض الأقوال .

٢٣ ـ وعن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال لى عبد الله بن عمر ـ رضى الله عنهما ـ : أسمعت أباك يحدثك عن رسول الله ـ ﷺ ـ فى شأن ساعة الجمعة ؟ قال قلت : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « هى ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة »[٦] رواه مسلم وأبوداود وقال : يعنى على المنبر وإلى هذا القول ذهب طوائف من أهل العلم .

---

(١) رواه الطبرانى وابن خزيمة

(٢) الطبرانى فى الأوسط

(٣) رواه ابن ماجه والبزار

(٤) البيهقى وابويعلى

(٥) البخارى

(٦) رواه مسلم وأبوداود

٢٤ ـ وعن عمرو بن عوف المزنى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إن فى الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئا إلا أتاه الله إياه . قالوا يا رسول الله أية ساعة هى ؟ قال هى : حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها »[١] رواه الترمذى وابن ماجه .

٢٥ ـ وروى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « التمسوا الساعة التى ترجى فى يوم الجمعة بعد صلاة العصر إلى غيبوبة الشمس »[٢] رواه الترمذى .

٢٦ ـ وعن عبد الله بن سلام ـ رضى الله عنه ـ قال : قلت ورسول الله ـ ﷺ ـ جالس ، إنا لنجد فى كتاب الله تعالى : فى يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلى يسأل الله فيها شيئا إلا قضى الله له حاجته قال عبد الله : فأشار إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أو بعض ساعة فقلت صدقت أو بعض ساعة . قلت أى ساعة هى ؟ قال : آخر ساعات النهار ، قلت : إنها ليست ساعة صلاة ؟ قال : بلى إن العبد إذا صلى ثم جلس لم يجلسه إلا الصلاة فهو فى صلاة »[٣] . رواه ابن ماجه واسناده على شرط الصحيح .

٢٧ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قيل للنبى ـ ﷺ ـ أى شىء يوم الجمعة . قال : لأن فيها طبعت طينة أبيك آدم ، وفيها الصعقة ، وفيها البعثة ، وفيها البطشة ، وفى آخر ثلاث ساعات منها : ساعة من دعا الله فيها استجيب له »[٤] رواه أحمد من رواية على بن أبى طالب عن أبى هريرة ولم يسمع منه ورجاله محتج بهم فى الصحيح .

٢٨ ـ وروى عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « الساعة التى يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة آخر ساعة من يوم الجمعة قبل غروب الشمس أغفل ما يكون الناس »[٥] رواه الأصبهانى .

٢٩ ـ وعن جابر ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : الجمعة أثنتا عشرة ساعة لا يوجد عبد مسلم يسأل الله ـ عز وجل ـ شيئا إلا أتاه إياه فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر »[٦] رواه أبو داود والنسائى .

ورأى بعض أهل العلم من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ وغيرهم أن الساعة التى ترجى بعد العصر إلى أن تغرب الشمس وبه يقول أحمد واسحق ، وقال أحمد : أكثر الحديث فى الساعة التى ترجى فيها اجابة الدعوة أنها بعد صلاة العصر . قال : وترجى بعد الزوال ، ثم روى حديث عمرو بن عوف المتقدم . وقال الحافظ : أبو بكر المنذر :

اختلفوا فى وقت الساعة التى يستجاب فيها الدعاء من يوم الجمعة فروينا عن أبى هريرة قال : هى من بعد طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . ومن بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وقال الحسن

(١) انظر مسند أبويعلى حـ٦ ص١٥٧ ـ ٢٠١
(٢) انظر شعب الايمان للبيهقى
(٣) انظر صحيح مسلم حـ٢ ـ كتاب الجمعة
(٤) انظر مسلم
(٥) انظر مجمع الزوائد حـ١
(٦) انظر مجمع الزوائد حـ٢

البصرى ، وأبو العالية : هى عند زوال الشمس ، وفيه قول ثالث وهو أنه إذا أذن المؤذن لصلاة الجمعة روى ذلك عن عائشة وروينا عن الحسن البصرى أنه قال : هى إذا قعد الإمام على المنبر حتى يفرغ . وقال أبو بردة : هى الساعة التى اختار الله فيها الصلاة وقال أبو السوار العدوى : كانوا يرون الدعاء مستجاباً ما بين أن تزول الشمس إلى أن يدخل فى الصلاة ، وفيه قول سابع وهو أنها ما بين أن تزيغ الشمس يشير إلى ذراع وروينا هذا القول عن أبى ذر وفيه قول ثامن وهو أنها ما بين العصر إلى أن تغرب الشمس ، كذا قال أبو هريرة ، وبه قال طاوس ، وعبد الله بن سلام - رضى الله عنه . والله أعلم .

الترغيب فى الغسل يوم الجمعة

١ - عن أبى أمامة - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « إن الغسل يوم الجمعة ليسل الخطايا من أصول الشعر استلالاً »(١) . رواه الطبرانى فى الكبير ورواته ثقات .

٢ - وعن عبد الله بن أبى قتادة - رضى الله عنه - قال : دخل على أبى وأنا أغتسل يوم الجمعة فقال غسلك هذا من جنابة أو للجمعة ؟ قلت : من جنابة ؟ قال أعد غسلاً آخر إنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : من اغتسل يوم الجمعة كان فى طهارة إلى الجمعة الأخرى »(١) .

رواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده قريب من الحسن وابن خزيمة فى صحيحه .

المعنى

معناه أمره أبوه أن يعيد كرة الغسل مرة أخرى بنية غسل الجمعة ويعمل بسنة النبى - ﷺ - وكانت نيته غسل الحدث الأكبر وإزالته . قال العلماء : لابد من النية . أى : ينوى الجنب رفع الجنابة أو الحدث الأكبر . أما إذا نوى الحديثين فتحصل الازالة والعمل بالسنة ، ولو نوى غسل السنة لمسه يتدرج الحدث الأكبر فيه ، وبهذه المناسبة أذكر فرائض الغسل وسنته ومكروهاته وشروطه :

فروض الغسل وسنته

أولا : النية : وتكون النية مقرونة بأول الفرض ، وهو أول ما يغسل من أعلى البدن أو أسفله ، فلو نوى بعد غسل جزء وجب إعادته .

ثانياً : إزالة النجاسة إن كانت على بدنه .

ثالثاً : إيصال الماء إلى جميع الشعر والبشرة ، ولا فرق بين شعر الرأس وغيره ، والشعر المضفور إن لم يصل الماء إلى باطنه إلا بالنقض وجب نقضه . فالسيدة تتنبه لهذا الحكم ، وتعتنى بالغسل لتبنى عبادتها على صحة ، ويجب غسل ما ظهر من صمامى أذنيه أى : خرقيها ، ومن أنف مشقوق مقطع ظهر بالقطع ، بخلاف الباطن الذى كان منفتحاً قبل القطع فلا يجب غسله ، وإن ظهر بعد قطع ما كان

---

(١) انظر مجمع الزوائد حـ٢

ساتره ، ومن شقوق بدن كشقوق الرجلين القلاحين والماشين ، ويجب إيصال الماء إلى ما تحت القلفة وهى الجلدة التى تزال بالختان للأقلف / وإلى ما يبدو من فرج المرأة عند قعودها لقضاء حاجتها ، ويجب غسل ملتقى المنفذ المسمى : (السربة) فيسترخى ليصل الماء إلى ذلك ، وينبغى لمن يغتسل من نحو إبريق أن ينوى رفع الحدث بعد الاستنجاء لئلا يحتاج إلى مسه بعد ذلك فينتقض وضوءه ، أو إلى كلفة فى لف يده بخرقة .

وسنن الغسل : التسمية ، والوضوء قبله ، وينوى المغتسل سنة الغسل إن تجردت جنابته عن الحدث الأصغر ، وإلا نوى به الأصغر وإمرار اليد على ما وصلت إليه من الجسد ، وعند مالك ـ رحمه الله ـ يجب الدلك والموالاة ، وتقديم اليمنى من شقيه على اليسرى ، وإزالة القذر وتعهد غضوان جلده (معاطفة) ، والتثليث وتخليل الشعر .

ومكروهاته : الزيادة على ثلاث ، والإسراف فى الماء ..

وشروطه : عدم المنافى ، وعدم الحائل .

٣ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إذا كان يوم الجمعة فاغتسل الرجل ، وغسل رأسه ، ثم تطيب من أطيب طيبه ، ولبس من صالح ثيابه ثم خرج إلى الصلاة ولم يفرق بين اثنين ، ثم استمع الإمام غفر له من الجمعة إلى الجمعة ، وزيادة ثلاثة أيام »(١) رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

قال الحافظ : وفى هذا الحديث دليل على ما ذهب إليه مكحول ومن تابعه فى تفسير قوله : غسل واغتسل . والله أعلم .

٤ ـ وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم ، وسواك ، ويمس من الطيب ما قدر عليه »(٢) رواه مسلم وغيره .

٥ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن هذا يوم عيد جعله الله للمسلمين / فمن جاء الجمعة فليغتسل وإن كان عنده طيب فليمس منه وعليكم بالسواك »(٣) ، رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

الترغيب فى التبكير إلى الجمعة

/وما جاء فيمن يتأخر عن التبكير من غير عذر

١ ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنه ، ومن راح فى الساعة الثانية ، فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة ، فكأنما قرب كبشاً أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ،

---

(١) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٢ ص٣١

(٢) انظر مسلم حـ٢ ص٥٨١ بكتاب الجمعة

(٣) انظر سنن ابن ماجه حـ١

ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر »[١] .

رواه مالك والبخارى ومسلم . وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

٢ - وفى رواية البخارى ومسلم وابن ماجه : « إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة على باب المسجد يكتبون الأول فالأول ومثل المهجر كمثل الذى يُهدى بدنه ثم كالذى يُهدى بقرة ثم كبشاً ثم دجاجة ثم بيضة فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر »[٢] ورواه ابن خزيمة فى صحيحه بنحو هذه .

٣ - وفى رواية له : أن رسول الله - ﷺ - قال : « المستعجل إلى الجمعة كالمهدى بدنه ، والذى يليه كالمهدى بقرة ، والذى يليه كالمهدى شاه ، والذى يليه كالمهدى طيراً ، وفى أخرى له قال : على كل باب من أبواب المساجد يوم الجمعة ملكان يكتبان الأول فالأول كرجل قدم بدنه ، وكرجل قدم بقرة ، وكرجل قدم شاة ، وكرجل قدم طيراً ، وكرجل قدم بيضة ، فإذا قعد الإمام طويت الصحف »[٣] .

(المهجر) : هو المبكر الآتى فى أول ساعة .

٤ - وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - ضرب مثل يوم الجمعة ثم التبكير كأجر البقرة كأجر الشاة حتى ذكر الدجاجة)[٤] . رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

٥ - وعن أبى أمامه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « تقعد الملائكة يوم الجمعة على أبواب المساجد معهم الصحف يكتبون الناس فإذا خرج الإمام طويت الصحف ، قلت : يا أبا أمامة ليس لمن جاء بعد خروج الإمام جمعه ؟ قال : بلى ، ولكن ليس ممن يكتب فى الصحف »[٥] . رواه أحمد والطبرانى فى الكبير .

٦ - وفى رواية لأحمد - رضى الله عنه - سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « تقعد الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة فيكتبون الأول والثانى والثالث حتى إذا خرج الإمام رفعت الصحف »[٦] .

٧ - وعن علىّ ابن أبى طالب - رضى الله عنه - قال : « إذا كان يوم الجمعة خرجت الشياطين يريثون الناس إلى أسواقهم وتقعد الملائكة على أبواب المساجد يكتبون الناس على قدر منازلهم : السابق والمصلى والذى يليه حتى يخرج الإمام ، فمن دنا من الإمام فأنصت واستمع ، ولم يلغ كان له كفلان من الأجر ومن دنا من الإمام فلغا ولم ينصت ولم يستمع كان عليه كفلان من الوزر ومن قال صه

---

(١) صحيح مسلم

(٢) صحيح بن خزيمة حـ٣ كتاب الجمعة

(٣) صحيح بن خزيمة حـ٣ كتاب الجمعة

(٤) سنن ابن ماجة حـ١

(٥) أنظر مجمع الزوائد

(٦) مسند الامام أحمد

فقد تكلم ومن تكلم فلا جمعة له ، ثم قال : هكذا سمعت نبيكم - ﷺ - يقول »[1] رواه أحمد وهذا لفظه ، وأبو داود .

ولفظه : « إذا كان يوم الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترابيث أو الربائث ، ويثبطونهم عن الجمعة ، وتغدو الملائكة فيجلسون على أبواب المساجد ، ويكتبون الرجل من ساعة ، والرجل من ساعتين ، حتى يخرج الإمام ، فإذا جلس مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر فأنصت ولم يلغ كان له كفلان من الأجر ، فإن نأى حيث لا يسمع فانصت ولم يلغ كان له كفل من الأجر فإن جلس مجلساً لا يستمكن فيه من الاستماع والنظر فلغا ولم ينصت كان له كفلان من وزر ، فإن جلس مجلساً يستمكن فيه من الاستماع والنظر ولغا ولم ينصت كان له كفل من وزر ، قال ومن قال لصاحبه يوم الجمعة : أنصت فقد لغا ومن لغا ليس له فى جمعته شىء ، ثم قال فى آخر ذلك : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول ذلك »[2] .

(قال الحافظ) : وفى إسنادهما راوٍ لم يسمه .

(الربايث) : بالراء والباء الموحدة ، ثم ألف وياء مثناه تحت بعدها ثاء مثلثة : جمع ربيته وهى الأمر الذى يجلس المرء عن مقعده ويثبطه عنه ومعناه أن الشياطين تشغلهم وتفندهم عن السعى إلى الجمعة إلى أن تمضى الأوقات الفاضلة .

(قال الخطابى) : الترابيث ليس بشىء إنما هو (الربايث) وقوله : فيرمون الناس ، إنما هو فيربثون الناس ، قال وكذلك روى لنا فى غير هذا الحديث .

(قال الحافظ) : يشير إلى لفظ رواية أحمد المذكورة ، وقوله :

(صه) : بسكون الهاء وتكسر منونة ، وهى كلمة زجر للمتكلم : أى : اسكت . (والكفل) : بكسر الكاف : هو النصيب من الأجر أو الوزر .

٨ - وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد فيكتبون من جاء من الناس على منازلهم فرجل قدم جزوراً ورجل قدم بقرة ورجل قدم شاة ورجل قدم دجاجة ورجل قدم بيضة .

قال : فإذا أذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر طويت الصحف . ودخلوا المسجد يستمعون الذكر »[3] .

رواه أحمد بإسناد حسن ورواه النسائى بنحوه من حديث أبى هريرة .

(١) أنظر سنن ابن ماجه حـ١ ص٣٤٨ كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها رقم ١٠٩٣

(٢) انظر مجمع الزوائد حـ٢ ص١٧٦ باب التبكر الى الجمعة

(٣) أنظر مسند الامام أحمد حـ٥ ص٢٦٠ مسند أبوامامة

٩ - وعن عمرو بن شعيب - رضى الله عنه - عن أبيه عن جده عن النبى - ﷺ - أنه قال : « يُبعث الملائكة على أبواب المساجد يوم الجمعة يكتبون مجىء الناس فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام ، فتقول الملائكة بعضهم لبعض :

ما جلس فلاناً، فتقول الملائكة : اللهم إن كان ضالاً فاهده ، وإن كان مريضاً فاشفه ، وإن كان عائلاً فاغنه »(١).

رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

(العائل) : الفقير .

١٠ - وعن أبى عبيدة - رضى الله عنه - قال : قال عبد الله : سارعوا إلى الجمعة فإن الله يبرز إلى أهل الجنة فى كل يوم جمعة فى كثيب كافورٍ فيكونون منه فى القرب على قدر تسارعهم ، فيحدث الله عز وجل لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك . ثم يرجعون إلى أهليهم فيحدثونهم بما أحدث الله لهم ، قال : ثم دخل عبد الله المسجد فإذا هو برجلين يوم الجمعة قد سبقاه فقال عبد الله : رجلان وأنا الثالث إن شاء الله إن يبارك فى الثالث »(٢) .

رواه الطبرانى فى الكبير وأبو عبيدة اسمه عامر ولم يسمع من أبيه عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - وقيل سمع منه .

١١ - وعن علقمة - رضى الله عنه - قال : خرجت مع عبد الله بن مسعود يوم الجمعة فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة وما أربع رابع أربعة من الله ببعيد ، إنى سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله عز وجل على قدر رواحهم إلى الجمعات الأول ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم الرابع ، وما رابع أربعة من الله ببعيد »(٣) . رواه ابن ماجه وابن أبى عاصم وإسنادهما حسن .

(قال الحافظ) : رحمه الله : وتقدم حديث عبد الله بن عمرو عن النبى - ﷺ - قال :

« من غسل واغتسل ودنا وابتكر واقترب واستمع كان له بكل خطوة يخطوها قيام سنة وصيامها »(٤) وكذلك تقدم حديث أوس بن أوس نحوه .

١٢ - وروى عن سمرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أحضروا الجمعة وأدنوا من الإمام فإن الرجل ليكون من أهل الجنة فيتأخر عن الجمعة فيؤخر عن الجنة وإنه لمن أهلها »(٥) رواه الطبرانى والأصبهانى وغيرهما .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد حـ٢ ص٢٥٩ مسند ابوسعيد الخدرى

(٢) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٣ باب ذكر دعاء الملائكة للمتخلفين عن الجمعة

(٣) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب التبكير الى الجمعة

(٤) انظر سنن ابن ماجة حـ١ باب اقامة الصلاة

(٥) انظر مجمع الزوائد حـ٢

الترهيب من تخطى الرقاب يوم الجمعة

١ ـ عن عبد الله بن بُسر ـ رضى الله عنهما ـ قال : جاء رجل يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة والنبى ـ ﷺ ـ يخطب فقال النبى ـ ﷺ ـ : « اجلس فقد آذيت وآنيت »[1] . رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما وليس عند أبى داود والنسائى : وآنيت وعند ابن خزيمة : فقد آذيت وأوذيت ، ورواه ابن ماجه من حديث جابر بن عبد الله .

(آنيت) : بمد الهمزة وبعدها نون ثم ياء مثناة تحت . أى أخرت المجىء : وآذيت بتخطيك رقاب الناس .

٢ ـ وروى عن معاذ بن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة اتخذ جسراً إلى جهنم »[2] : رواه ابن ماجه والترمذى . وقال : حديث غريب ، والعمل عند أهل العلم .

٣ ـ وروى عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ قال : بينما رسول الله ـ ﷺ ـ يخطب إذ جاء رجل يتخطى رقاب الناس حتى جلس قريباً من النبى ـ ﷺ ـ فلما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ صلاته قال : « ما منعك يا فلان أن تجمع معنا ؟ قال يا رسول الله : قد حرصت أن أضع نفسى بالمكان الذى ترى . قال قد رأيتك تتخطى رقاب الناس وتؤذيهم ومن آذى مسلماً فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله عز وجل »[3] . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

٤ ـ وروى عن الأرقم بن الأرقم ـ رضى الله عنه ـ وكان من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إن الذى يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة ويفرق بين الاثنين بعد خروج الإمام كجار قصبه فى النار »[4] رواه أحمد والطبرانى فى الكبير .

المعنى

كجار قصبه فى النار : والجمع أقصاب : أى أمعاء وفيه كراهة التخطى يوم الجمعة وهى مختصة به ويحمل عليه مجالس العلم وغيرها ، ويؤيده أيضاً ما أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من تخطى حلقة قوم بغير إذنهم فهو عاص »[5] . قال العراقى : وقد استثنى من التحريم والكراهة الإمام أو من كان بين يديه فرجة لا يصل إليها إلا بالتخطى .

---

(١) انظر صحيح بن خزيمة حـ٣ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٢) انظر سنن ابن ماجه حـ١ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٣) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب النهى عن تخطى الرقاب والامام يخطب

(٤) انظر لمسند الامام أحمد حـ٣

(٥) انظر مسند الفردوس حـ٣ ص٥٥٥ رقم ٥٤٣

وقال النووى : إذا لم يجد طريقاً إلى المنبر أو المحراب إلا بالتخطى لم يكره لأنه ضرورة .

وقد خص الكراهة بعضهم بغير من يتبرك الناس بمروره ويسرهم ذلك ، ولا يتأذن لزوال علة الكراهة التى هى التأذى .

الترهيب من الكلام والإمام يخطب والترغيب فى الإنصات

١ - عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة : أنصت والإمام يخطب فقد لغوت »[(١)] ، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ، وابن ماجه وابن خزيمة .

(قوله) : لغوت : قيل معناه : خبت من الأجر ، وقيل : تكلمت ، وقيل : أخطأت ، وقيل : بطلت فضيلة حروبك ، وقيل : صارت جمعتك ظهراً ، وقيل : غير ذلك .

٢ - وعنه (أبى هريرة) - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « إذا تكلمت يوم الجمعة ، فقد لغوت وألغيت »[(٢)] يعنى والإمام يخطب ، رواه ابن خزيمة فى صحيحه .

٣ - وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب ، فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذى يقول له : أنصت ليس له جمعة »[(٣)] رواه أحمد والبزار والطبرانى .

٤ - وعن أبى بن كعب - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قرأ يوم الجمعة تبارك وهو قائم يذكر بأيام الله وأبو ذر يغمز أبى كعب فقال : متى أنزلت هذه السورة إنى لم أسمعها إلى الآن ، فأشار إليه أن أسكت ، فلما انصرفوا قال سألتك متى أنزلت هذه السورة فلم تخبرنى ؟ فقال أبى : ليس لك من صلاتك اليوم إلا ما لغوت . فذهب أبو ذر إلى رسول الله - ﷺ - وأخبره بالذى قال أبى ، فقال رسول الله - ﷺ - « صدق أبى »[(٤)] . رواه ابن ماجه بإسناد حسن .

ورواه ابن خزيمة فى صحيحه عن أبى ذر - رضى الله عنه - أنه قال : دخلت المسجد يوم الجمعة والنبى - ﷺ - يخطب فجلست قريباً من أبى بن كعب فقرأ النبى - ﷺ - سورة براءة فقلت لأبى : متى نزلت هذه السورة ؟ قال : فتجهمنى ولم يكلمنى ثم مكثت ساعة ، ثم سألته فتجهمنى ولم يكلمنى ثم مكثت ساعة ، ثم سألته فتهجمنى ولم يكلمنى فلما صلى النبى - ﷺ - قلت لأبى : سألتك فتجهمتنى ولم تكلمنى قال أبى : مالك من صلاتك إلا مالغوت فذهبنا إلى النبى - ﷺ - فقلت يا نبى الله : كنت

---

(١) انظر صحيح مسلم حـ٣ ص٥٨٣ كتاب الجمعة باب فى الانصات فى خطبة الجمعة

(٢) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٣ باب الزجر عن الكلام يوم الجمعة عند الخطبة

(٣) انظر سنن ابن ماجه

(٤) انظر سنن ابن ماجة

بجنب أبى وأنت تقرأ براءة ، فسألته متى نزلت هذه السورة ، فتجهمنى ولم يكلمنى ثم قال : مالك من صلاتك إلا مالغوت ، قال النبى - ﷺ - : « صدق أبى »[١] .

(قوله) فتجهمنى : معناه قطب وجهه وعبس ونظر إلىَّ نظر المغضب المفكر .

٥ - وعن أبى الدرداء - رضى الله عنه - قال : جلس رسول الله - ﷺ - يوماً على المنبر فخطب الناس ، وتلا آية وإلى جنبى أبى بن كعب فقلت له يا أبى : ومتى أنزلت هذه الآية ؟ قال : فأبى أن يكلمنى ثم سألته فأبى أن يكلمنى ، حتى نزل رسول الله - ﷺ - ، فقال أبى : مالك من جمعتك إلا ما لغيت ، فلما انصرف رسول الله - ﷺ - جئته فأخبرته ، فقلت : أى رسول الله إنك تلوت آية وإلى جنبى أبى بن كعب فقلت له : متى أنزلت هذه الآية ؟ فأبى أن يكلمنى حتى إذا نزلت زعم أبى أنه ليس لى من جمعتى إلا ما لغيت ، فقال : « صدق أبى : إذا سمعت إمامك يتكلم ، فأنصت حتى يفرغ »[٢] ، رواه أحمد من رواية حرب بن قيس عن أبى الدرداء ولم يسمع منه .

٦ - وروى عن جابر - رضى الله عنه - قال : قال سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - لرجل : لا جمعة لك ، فقال النبى - ﷺ - : (لم يا سعد ؟) قال : لأنه كان يتكلم وأنت تخطب فقال ﷺ - : « صدق سعد »[٣] رواه أبو يعلى والبزار .

٧ - وعن جابر أيضاً - رضى الله عنه - قال : دخل عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - المسجد والنبى - ﷺ - يخطب ، فجلس إلى جنب أبى بن كعب فسأله عن شىء أو كلمه بشىء فلم يرد عليه أبى بظن ابن مسعود أنها موجدة ، فلما انفتل النبى - ﷺ - من صلاته ، قال ابن مسعود يا أبى : ما منعك أن ترد علىَّ ؟ قال : إنك لم تحضر معنا الجمعة ، قال : لم ؟ قال تكلمت والنبى - ﷺ - يخطب ، فقام ابن مسعود : فدخل على النبى - ﷺ - فذكر ذلك له ، فقال رسول الله - ﷺ - : « صدق أبى ، صدق أبى ، أطع أبياً »[٤] ، رواه أبو يعلى بإسناد جيد وابن حبان فى صحيحه .

٨ - وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : كفى لغواً أن تقول لصاحبك أنصت إذا خرج الإمام فى الجمعة »[٥] ، رواه الطبرانى فى الكبير موقوفاً بإسناد صحيح ، وتقدم فى حديث على المرفوع .

ومن قال يوم الجمعة لصاحبه أنصت فقد لغا ومن لغا فليس له فى جمعته تلك شىء .

٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من اغتسل يوم الجمعة ومسَّ من طيب امرأته إن كان لها ولبس من صالح ثيابه ثم لم يتخط رقاب الناس ولم يلغ عند الموعظة كان كفارة لما بينهما ومن لغا وتخطى رقاب الناس كانت له ظهراً »[٦] ، رواه أبو داود

(١) انظر سنن ابن ماجه حـ١ ص
(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ٥ مسند أبوالدرداء
(٣) أنظر مجمع الزوائد
(٤) انظر مسند ابى يعلى مسند جابر
(٥) انظر مجمع الزوائد
(٦) انظر سنن أبوداود حـ١ كتاب الطهارة

وابن خزيمة فى صحيحه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبد الله بن عمرو ، ورواه ابن خزيمة فى صحيحه من حديث أبى هريرة بنحوه وتقدم .

١٠ ـ وعنه ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يحضُرُ الجمعة ثلاثة نفر فرجل حضرها بلغو فذلك حظه منها ، ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله ، إن شاء أعطاه ، وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهى كفارة إلى الجمعة التى تليها وزيادة ثلاثة أيام وذلك أن الله يقول : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها »[١] رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه وتقدم فى حديث على .

فمن دنا من الإمام واستمع ولم يلغ كان له كفلان من الأجر . والحديث .

الترهيب من ترك الجمعة لغير عذر

١ ـ عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ ﷺ ـ قال لقوم يتخلفون عن الجمعة : « لقد هممت أن آمر رجلاً يصلى بالناس ثم أحرِّق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم »[٢] رواه مسلم والحاكم بإسناد على شرطهما ، وتقدم فى باب الحمام حديث أبى سعيد ، وفيه ومن كان يؤمن بالله ، واليوم الآخر فليسع إلى الجمعة ومن استغنى عنها بلهو أو تجارة استغنى الله عنه ، والله غنى حميد ، رواه الطبرانى .

٢ ـ وعن أبى هريرة وابن عمر ـ رضى الله عنهم ـ أنهما سمعا رسول الله ـ ﷺ ـ يقول على أعواد منبره : « لينتهن أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين »[٣] .

رواه مسلم وابن ماجه وغيرهما .

(قوله) : ودعهم الجمعات . هو بفتح الواو ، وسكون الدال : أى تركهم الجمعات ورواه ابن خزيمة بلفظ تركهم من حديث أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى .

٣ ـ وعن أبى الجعد الضمرى وكانت له صحبة ـ رضى الله عنه ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه »[٤] رواه أحمد وأبو داود والنسائى والترمذى وحسنه ، وابن ماجه ، وابن خزيمة ، وابن حبان فى صحيحهما والحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

وفى رواية لابن خزيمة وابن حبان ، « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فهو منافق » . وفى رواية ذكرها رزين : وليستا فى الأصول : « فقد برىء من الله » .

(أبو الجعد) : اسمه أدرع وقيل جنادة ، وذكر الكرابيس أن اسمه عمر بن أبى بكر ، وقال الترمذى : سألت محمداً ، يعنى البخارى عن اسم أبى الجعد فلم يعرفه .

---

(١) انظر مسند ابى داود حـ١ كتاب الصلاة باب الكلام

(٢) انظر صحيح مسلم حـ١ ص٤٥٢ كتاب المساجد

(٣) انظر صحيح مسلم حـ٢ كتاب الجمعة باب التغليظ فى ترك الجمعة

(٤) انظر صحيح ابوخزيمة حـ٣ ذكر الختم على قلوب التاركين للجمعة

٤ ـ وعن أبى قتادة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من ترك الجمعة ثلاث مرات من غير ضرورة طبع الله على قلبه »(١) . رواه أحمد بإسناد حسن والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

٥ ـ وعن أسامة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « من ترك ثلاث جمعات من غير عذر كتب من المنافقين »(٢) رواه الطبرانى فى الكبير من رواية جابر الجعفى ، وله شواهد .

٦ ـ وعن كعب بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « لينتهين أقوام يسمعون النداء يوم الجمعة ثم لا يأتونها أو ليطبعن الله على قلوبهم ثم ليكونن من الغافلين »(٣) رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن .

٧ ـ وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ألا هل عسى أحدكم أن يتخذ الصبَّة من الغنم على رأس ميل أو ميلين فيتعذر عليه الكلأ فيرتفع ، ثم تجىء الجمعة فلا يجىء ولا يشهدها ، وتجىء الجمعة فلا يشهدها ، حتى يطبع على قلبه »(٤) رواه ابن ماجة بإسناد حسن ، وابن خزيمة فى صحيحه .

(الصبة) : بضم الصاد والمهملة ، وتشديد الباء الموحدة : هى السرية إما من الخيل أو الإبل أو الغنم : ما بين العشرين إلى الثلاثين تضاف إلى ما كانت منه ، وقيل : هى ما بين العشرة إلى الأربعين .

٨ ـ وعن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : قام رسول الله ـ ﷺ ـ خطيباً يوم الجمعة ، فقال : « عسى رجل تحضره الجمعة وهو على قدر ميل من المدينة فلا يحضر الجمعة ، ثم قال فى الثانية : عسى رجل تحضره الجمعة وهو على قدر ميلين من المدينة فلا يحضرها وقال فى الثالثة : عسى يكون على قدر ثلاثة أميال من المدينة فلا يحضر الجمعة ويطبع الله على قلبه »(٥) رواه أبو يعلى بإسناد لين .

وروى ابن ماجه عنه بإسناد جيد مرفوعاً : « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير ضرورة طبع الله على قلبه »(٦) .

٩ ـ وروى عن جابر ـ رضى الله عنه ـ أيضاً قال : خطبنا رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : « ياأيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له ، وكثرة الصدقة فى السر والعلانية ، ترزقوا وتنصروا وتجبروا ، واعلموا أن الله افترض

---

(١) انظر سنن ابى داود حـ١ كتاب الصلاة باب التشديد فى ترك الجمعة وصحيح بن خزيمة

(٢) انظر مستند الامام أحمد حـ٣ مسند جابر بن عبدالله

(٣) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب فيمن ترك الجمعة

(٤) انظر مجمع الزوائد حـ٢ باب فيمن ترك الجمعة

(٥) انظر سنن ابن ماجه

(٦) انظر صحيح ابن خزيمة حـ٣

عليكم الجمعة فى مقامى هذا ، فى يومى هذا فى شهرى هذا ، من عامى هذا إلى يوم القيامة ، فمن تركها فى حياتى أو بعدى وله إمام عادل ، أوجائر استخفافاً بها وجحوداً بها فلا جمع الله له شمله ولا بارك له فى أمره ، ألا ولا صلاة له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا بر له ، حتى يتوب ، فمن تاب تاب الله عليه »[١] ، رواه ابن ماجه ورواه الطبرانى فى الأوسط من حديث أبى سعيد الخدرى أخصر منه .

١٠ ـ وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : من ترك الجمعة ثلاث جمع متواليات فقد نبذ الاسلام وراء ظهره »[٢] .

رواه أبو يعلى موقوفاً بإسناد صحيح .

١١ ـ وعن حارثة بن النعمان ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « يتخذ أحدكم السائمة فيشهد الصلاة فى جماعة فتتعذر عليه سائمته ، فيقول : لو طلبت لسائمتى مكاناً هو أكلأ من هذا فيتحول ، ولا يشهد إلا الجمعة فتتعذر عليه سائمته فيقول : لو طلبت لسائمتى مكاناً هو أكلأ من هذا فيتحول ، ولا يشهد الجمعة ولا الجماعة فيطبع الله على قلبه »[٣] .

رواه أحمد من رواية عمر بن عبد الله مولى غفرة وهو ثقة عنده ، وتقدم حديث أبى هريرة عند ابن ماجه وابن خزيمة بمعناه .

(قوله) : أكلأ من هذا ، أى أكثر كلأ والكلأ : بفتح الكاف واللام وفى آخره : همزة غير محدودة : هو العشب الرطب واليابس .

١٢ ـ وعن محمد بن عبد الرحمن بن زرارة ـ رضى الله عنه ـ سمعت عمر ولم أر رجلاً منابه شبيهاً قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « من سمع نداء الجماعة فلم يأتها ثم سمعه فلم يأتها ثم سمعه ولم يأتها طبع الله على قلبه وجعل قلبه قلب منافق » .

رواه البيهقى .

وروى الترمذى عن ابن عباس : « أنه سئل عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولا يشهد الجماعة ولا الجمعة . قال : « هو فى النار »[٤] .

---

(١) مجمع الزوائد حـ٢ باب من ترك الجمعة

(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ٥ مسند حادثة ابن النعمان

(٣) انظر المطالب الغالية حـ١ باب صلاة الجماعة

(٤) سنن الترمذى حـ١ باب فيمن يسمع الأذان فلايجيب

الترغيب فى قراءة سورة الكهف وما يذكر معها ليلة الجمعة ويوم الجمعة

١ - عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن النبى - ﷺ - قال : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين »[١] ، رواه النسائى والبيهقى مرفوعاً ، والحاكم مرفوعاً وموقوفاً أيضاً ، وقال صحيح الإسناد ، ورواه الدارمى فى مسنده موقوفاً على أبى سعيد ، ولفظه قال :

« من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق ، وفى أسانيدهم كلها إلا الحاكم أبو هاشم يحيى بن دينار الرومانى ، والأكثرون على توثيقه ، وبقية الإسناد ثقات ، وفى إسناد الحاكم الذى صححه يضم بن حماد ، ويأتى الكلام عليه وعلى أبى هاشم .

٢ - وعن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ سورة الكهف فى يوم الجمعة سطع له نور تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء له يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين »[٢] . رواه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره بإسناد لا بأس به .

٣ - وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ حم الدخان ليلة الجمعة غفر له » .

وفى رواية : « من قرأ حم الدخان فى ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » . رواه الترمذى والأصبهانى ، ولفظه :

« من صلى بسورة الدخان فى ليلة بات يستغفر له سبعون ألف ملك » ، رواه الطبرانى والأصبهانى أيضاً من حديث أبى أمامة ، ولفظهما قال : قال رسول الله - ﷺ :

« من قرأ حم الدخان فى ليلة الجمعة أو يوم الجمعة بنى الله له بها بيتاً فى الجنة »[٣] .

٤ - وروى عنه - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ سورة يس فى ليلة الجمعة غفر له »[٤] ، رواه الأصبهانى .

٥ - وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - ﷺ - : « من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى عليه الله وملائكته حتى تغيب الشمس »[٥] رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير .

---

(١) انظر السنن الكبرى للبيهقى حـ٣ كتاب الجمعة

(٢) انظر الدر المنثور حـ٥ سورة الكهف

(٣) سنن الترمذى حـ٥ فضائل القرآن

(٤) انظر اتحاف السادة المتقين حـ٣

(٥) انظر اتحاف السادة المتقين جـ٣

بحث قيم للعلامة ابن القيم

قال رحمه الله تعالى : (فصل فى هديه - ﷺ - فى الجمعة . وذكر خصائص يومها) .

ثبت فى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أنه قال : « نحن الآخرون الأولون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا له ، والناس لنا فيه تبع اليهود غداً والنصارى بعد غدٍ »(١) .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ، وحذيفة - رضى الله عنهما - قالا : قال رسول الله - ﷺ - : « أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت وكان للنصارى يوم الأحد فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة فجعل الجمعة والسبت والأحد وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضى لهم قبل الخلائق »(٢) .

وفى « المسند » والسنن ، من حديث أوس بن أوس عن النبى - ﷺ - « من أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه قبض وفيه النفخة وفيه الصعقة فأكثروا علىَّ من الصلاة فيه فإن صلاتكم معروضة علىَّ » قالوا : يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ (يعنى : قد بليت) قال : « قال : « إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »(٣) .

ورواه الحاكم فى « المستدرك » وابن حبان فى « صحيحه » .

وفى جامع الترمذى من حديث أبى هريرة ، عن النبى - ﷺ - قال : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق الله آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة »(٤) .

قال : حديث حسن صحيح وصححه الحاكم .

وفى « المستدرك » أيضاً عن أبى هريرة مرفوعاً « سيد الأيام يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها ولا تقوم الساعة إلا يوم الجمعة »(٥) .

وروى مالك فى « الموطأ » ، عن أبى هريرة مرفوعاً « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم وفيه أهبط وفيه يتب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة وما من دابة إلا وهى مصيخه يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه »(٦) .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ٢ باب الجمعة

(٢) انظر سنن ابن ماجه جـ١ باب فرض الجمعة

(٣) انظر سنن ابن ماجه حـ١ باب فرض الجمعة

(٤) انظر سنن الترمزى جـ٢ باب فضل الجمعة

(٥) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم

(٦) انظر موطأ مالك جـ١ باب ماجاء فى الساعة التى فى يوم الجمعة

قال كعب : ذلك فى كل سنة يوم ، فقلت : بل فى كل جمعة ، فقرأ كعب التوراة ، فقال : صدق رسول الله - ﷺ - . . قال أبو هريرة : ثم لقيت عبد الله بن سلام ، فحدثته بمجلسى مع كعب ، قال : قد علمت أية ساعة هى ، قلت : فأخبرنى بها ، قال : هى آخر ساعة فى يوم الجمعة . فقلت : كيف وقد قال رسول الله - ﷺ - : « لايصادفها عبدٌ مسلمٌ وهو يصلى » .

وتلك الساعة لا يصلىَّ فيها ؟ فقال ابن سلام : ألم يقل رسول الله - ﷺ - : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة ، فهو فى صلاة حتى يصلى »(١) .

وفى صحيح ابن حبان مرفوعاً ، (لا تطلع الشمس على يوم خير من يوم الجمعة)(٢) وفى مسند الشافعى من حديث أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : أتى جبريل عليه السلام رسول الله - ﷺ - بمرآة بيضاء ، فيها وكتة . فقال النبى - ﷺ : (ما هذه ؟ فقال : « هذه يوم الجمعة فضلت بها أنت وأمتك والناس لكم فيها تبع اليهود والنصارى ، ولكم فيها خير ، وفيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يدعو الله بخير إلا استجيب له ، وهو عندنا يوم المزيد ، فقال النبى - ﷺ - : (يا جبريل ! ما اليوم المزيد ؟ قال : إن ربك اتخذ فى الفردوس وادياً أفيم فيه كثب من مسك فإذا كان يوم الجمعة أنزل الله - سبحانه - ما شاء من ملائكته ، وحوله منابر من نور عليها مقاعد النبيين وحف تلك المنابر بمنابر من ذهب مكللة بالياقوت والزبرجد ، عليها الشهداء والصديقون فجلسوا من ورائهم على تلك الكتب ، فيقول الله - عز وجل : « أنا ربكم قد صدقتكم وعدى فسلونى أعطكم . فيقولون : ربنا نسألك رضوانك ، فيقول : « قد رضيت عنكم ولكم ما تمنيتم ولدىَّ مزيد » فهم يحبون يوم الجمعة لما يعطيهم فيه ربهم من الخير ، وهو اليوم الذى استوى فيه ربك - تبارك وتعالى - على العرش وفيه خلق آدم وفيه تقوم الساعة .(٣)

رواه الشافعى عن إبراهيم بن محمد ، حدثنى موسى بن عبيدة ، قال : حدثنى أبو الأزهر معاوية بن إسحق بن طلَحة ، عن عبد الله . ابن عمير عن أنس بن مالك . ثم قال : وأخبرنا إبراهيم قال : حدثنى أبو عمران إبراهيم بن الجعد عن أنس شبيهاً به .

وكان الشافعى حسن الرأى فى شيخه إبراهيم هذا ولكن قال فيه الإمام أحمد رحمه الله : معتزلى جهمى قدرى كلُ بلاء فيه .

ورواه أبو اليمان الحكم بن نافع ، حدثنا صفوان : قال : قال أنس : قال النبى - ﷺ - : « أتانى جبريل فذكره » ورواه محمد بن شعيب عن عمر مولى غفرة ، عن أنس . ورواه أبو ظبية ، عن عثمان بن عمير ، عن أنس . وجمع أبو بكر بن أبى داود طرقه .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد جـ٥

(٢) انظر صحيح ابن حيان جـ٤ باب صلاة الجمعة

(٣) انظر مسند الشافعى

وفى مسند الإمام أحمد من حديث على بن أبى طلحة ، عن أبى هريرة ، قال : قيل للنبى - ﷺ - : لأى شىء سمى يوم الجمعة ؟ قال : « لأن فيه طبعت طينة أبيك آدم ، وفيه الصعقة ، والبعثة ، وفيه البطشة ، وفى آخره ثلاث ساعات فمنها ساعة من دعا الله فيها استجيب له »(١)

وقال الحسن بن سفيان النسوى فى « مسنده » حدثنا أبو مروان هشام ابن خالد الأزرق ، حدثنا الحسن بن يحى الخشنى ، حدثنا عمر بن عبد الله مولى غفرة ، حدثنى أنس بن مالك ، قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول :

« أتانى جبريل وفى يده كهيئة المرآة البيضاء فيها نكتة سوداء ، فقلت : ما هذه يا جبريل ؟ فقال : هذه الجمعة بعثت بها إليك تكون عيداً لك ولأمتك من بعدك . فقلت : وما لنا فيها يا جبريل ؟ قال : فيها خير كثير أنتم الآخرون السابقون يوم القيامة وفيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم يصلى يسأل الله شيئاً إلا أعطاه . قلت : فما هذه النكتة السوداء يا جبريل ؟ قال : هذه الساعة تكون فى يوم الجمعة وهو سيد الأيام ونحن نسميه عندنا يوم المزيد . قلت وما يوم المزيد يا جبريل ؟ قال : وذلك بأن ربك اتخذ فى الجنة وادياً أقيم من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الرب عز وجل من عرشه إلى كرسيه ويحف الكرسى بمنابر من النور فيجلس عليها النبيون وتحف المنابر بكراسى من ذهب فيجلس عليها الصديقون والشهداء ، وتهبط أهل الغرف من غرفهم فيجلسون على كثبان المسك لا يرون لأهل المنابر والكراسى فضلاً فى المجلس ثم يتبدى لهم ذو الجلال والإكرام تبارك وتعالى ، فيقول : سلونى فيقولون بأجمعهم : نسألك الرضى يارب فيشهد لهم على الرضى ثم يقول : سلونى ، فيسألونه حتى تنتهى نهمة كل عبد منهم قال : ثم يسعى عليهم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم يرتفع الجبار من كرسيه إلى عرشه ويرتفع أهل الغرف إلى غرفهم ، وهى غرفة من لؤلؤة بيضاء ، أو ياقوتة حمراء ، أو زمرده خضراء ، ليس فيها فصم ولا وصم منورة ، فيها أنهارُها ، أو قال : مطردة متدلية فيها ثمارها ، فيها أزواجها وخدمها ومساكنها قال : فأهل الجنة يتباشرون فى الجنة بيوم الجمعة ، كما يتباشر أهل الدنيا فى الدنيا بالمطر »(٢)

وقال ابن أبى الدنيا فى كتاب « صفة الجنة » : حدثنى أزهر بن مروان الرقاش ، حدثنى عبد الله بن عرارة الثيابانى ، حدثنا القاسم بن مطيب عن الأعمس ، عن أبى وائل ، عن حذيفة ، قال : قال رسول الله - ﷺ - : « أتانى جبريل وفى كفه مرآه كأحسن المرائى وأضوائها وإذا فى وسطها لمعة سوداء ، فقلت : ما هذه اللمعة التى أرى فيها ؟ قال : هذه الجمعة ، قلت : وما الجمعة ؟ قال : يوم من أيام ربك عظيم وسأخبرك بشرفه وفضله فى الدنيا وما يرجى فيه لأهله وأخبرك باسمه فى الآخرة فأما شرفه وفضله فى الدنيا فإن الله عز وجل جمع فيه أمر الخلق وأما ما يُرجى فيه لأهله فإن فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم أو أمة مسلمة يسألان الله تعالى فيها خيراً إلا أعطاهما إياه وأما شرفه وفضله فى الآخرة واسمه ، فإن الله تبارك وتعالى إذا صيرَّ أهل الجنة إلى الجنة وأهلى النار إلى النار ، جرت عليهم هذه الأيام وهذه الليالى ليس فيها

---

(١) مسند الامام أحمد جـ٥ مسند أبوهريرة

(٢) أنظر كنز العمال فى هذا المعنى جـ٧

ليل ولا نهار إلا قد علم الله عز وجل مقدار ذلك وساعاته ، فإذا كان يوم الجمعة حين يخرج أهل الجمعة إلى جمعتهم ، نادى أهل الجنة منادٍ ، يا أهل الجنة ! اخرجوا إلى وادى ووادى المزيد لا يعلم سعة طوله وعرضه إلا الله فيه كثبان المسك ، رؤوسها فى السماء قال : فيخرج غلمان الأنبياء بمنابر من نور ويخرج غلمان المؤمنين بكراسى من ياقوت فإذا وضعت لهم وأخذ القوم مجالسهم ، بعث الله عليهم ريحاً تدعى المثيرة ، تثير ذلك المسك وتدخله من تحت ثيابهم وتخرجه فى وجوههم وأشعارهم ، تلك الريح أعلم كيف تصنع بذلك المسك من امرأة أحدكم لو دفع إليها كل طيب على وجه الأبيض . قال : ثم يوحى الله تبارك وتعالى إلى حملة عرشه : ضعوه بين أظهرهم ، فيكون أول ما يسمعونه منه : (إلىَّ يا عبادى الذين أطاعونى بالغيب ولم يرونى وصدقوا رسلى واتبعوا أمرى ، سلونى فهذا يوم المزيد) فيجتمعون على كلمة واحدة : رضينا عنك فارض عنا فيرجع الله إليهم : « أن يا أهل الجنة إنى لو لم أرض عنكم لم أسكنكم دارى فسلونى فهذا يوم المزيد » فيجتمعون على كلمة واحدة : يا ربنا وجهك ننظر إليه فيكشف تلك الحجب فيتجلى له عز وجل فيغشاهم من نوره شىء لولا أنه قضى ألا يحترقوا ، لاحترقوا لما يغشاهم من نوره ثم يقال لهم : ارجعوا إلى منازلكم ، فيرجعون إلى منازلهم وقد أعطى كل واحد منهم الضعف على ما كانوا فيه ، فيرجعون إلى أزواجهم وقد خفوا عليهن وخفين عليهم مما غشيهم من نوره ، فإذا رجعوا ترادَّ النور حتى يرجعوا إلى صورهم التى كانوا عليها ، فتقول لهم أزواجهم : لقد خرجتم من عندنا على صورة ورجعتم على غيرها ، فيقول ذلك لأن الله عز وجل تجلى لنا .

فنظرنا منه قال : وإنه والله ما أحاط به خلق ، ولكنه قد أراهم من عظمته وجلاله ما شاء أن يريهم قال : فبذلك قولهم فنظرنا منه قال : فهم سيقلبون فى مسك الجنة ونعيمها فى كل سبعة أيام الضعف على ما كانوا فيه . قال رسول الله - ﷺ - : (فذلك قوله تعالى : ﴿ **فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾[1]

ورواه أبو نعيم فى « صفة الجنة » من حديث عصمة بن محمد ، حدثنا موسى بن عقبة ، عن أبى صالح ، عن أنس شبيهاً به .

وذكر أبو نعيم فى « ضفة الجنة » من حديث المسعودى عن المنهال عن أبى عبيدة ، عن عبد الله قال : سارعوا إلى الجمعة فى الدنيا فإن الله تبارك وتعالى يبرز لأهل الجنة فى كل جمعة على كثيب من كافور أبيض فيكونون منه سبحانه بالقرب على قدر سرعتهم إلى الجمعه ويحدث لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك فيرجعون إلى أهليهم وقد أحدث لهم .

فصل فى مبدأ الجمعة

قال ابن اسحاق : حدثنى محمد بن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه قال : حدثنى عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال : كنت قائد أبى حين كفَّ بصره فإذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان بها استغفر لأبى أمامة أسعد بن زرارة فمكث حينا على ذلك فقلت : إن هذا بى العجز ، ألا أسأله عن هذا ؟ فخرجت

(١) سورة السجدة آية ١٧

به كما كنت أخرج فلما سمع الأذان للجمعة استغفر له فقلت : يا أبتاه أرأيت استغفارك لأسعد بن زرارة كلما سمعت الأذان يوم الجمعة قال : أى بنى : كان أسعد أول من جمع بنا بالمدينة قبل مقدم رسول الله ﷺ فى هزم النبيت من حَرَّة بنى بياضة فى نقيع يقال له : نقيع الخضمات قلت : فكم كنتم يومئذ ؟ قال : أربعون رجلاً(١) .

قال البيهقى ومحمد بن اسحاق إذا ذكر سماعه من الراوى وكان الراوى ثقة استقام الإسناد وهذا حديث حسن صحيح الإسناد انتهى(٢) .

قلت : وهذا كان مبدأ الجمعة ثم قدم رسول الله - ﷺ - المدينة فأقام بقباء فى بنى غمرو بن عوف كما قاله ابن اسحاق يوم الأثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسسّ مسجدهم ، ثم خرج يوم الجمعة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف ، فصلاها فى المسجد الذى فى بطن الوادى ، وكانت أوّل جمعة صلاها بالمدينة وذلك قبل تأسيس مسجده .

قال ابن اسحاق : وكانت أوّل خطبه خطبها رسول الله ﷺ فيما بلغني عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، نعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل - أنه قام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

(أما بعد أيها الناس فقدموا لأنفسكم ، تعلمن والله ليصعقن أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ، ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه : ألم يأتك رسولى فبلغك ، وآتيتك مالا ، وأفضلت عليك ، فما قدمت لنفسك فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ، ثم لينظرن قدّامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقى وجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ، ومن لم يجد فبكلمة طيبة ، فإن بها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)(٣) .

قال ابن اسحاق : ثم خطب رسول الله ﷺ مرة أخرى فقال : إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله قد أفلح من زينه الله فى قلبه وأدخله فى الاسلام بعد الكفر فاختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث ، وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ، ولا تملوا كلام الله وذكره ، ولا تقس عنه قلوبكم ، فإنه من كل ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سمّاه الله خيرته من الأعمال ، ومصطفاه عن العباد ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتى الناس من الحلال والحرام ، فأعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، واتقوه حق تقاته ، وأصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابوا بروح الله بينكم ، إن الله يغضب أن ينكث عهده ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)(٤) .

(١) انظر سيرة بن هشام جـ٢ أول جمعة أقيمت

(٢) أنظر سيرة ابن هشام جـ٢

(٣) أنظر سيرة بن هشام جـ٢

(٤) السنن الكبرى للبيهقى حـ٣ كتاب الجمعة

وكان من هديه ﷺ تعظيم هذا اليوم وتشريفه وتخصيصه بعبادات يختص بها عن غيره ، وقد اختلف العلماء : هل هو أفضل أم يوم عرفه ؟ على قولين : هما وجهان لأصحاب الشافعي .

وكان ﷺ يقرأ فى فجره بسورتى ﴿ ألم تنزيل ﴾ و﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ويظن كثير ممن لا علم عنده أن المراد تخصيص هذه الصلاة بسجده زائدة ويسمونها سجدة الجمعة وإذا لم يقرأ أحدهم هذه السورة استحب قراءة سورة أخرى فيها سجدة ولهذا كره من كره من الأئمة المداومة على قراءة هذه السورة فى فجر الجمعة دفعاً لتوهم الجاهلين ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول : إنما كان النبى ﷺ يقرأ هاتين السورتين فى فجر الجمعة لأنهما تضمنتا ما كان ويكون فى يومها فإنهما إشتملتا على خلق آدم وعلى ذكر المعاد وحشر العباد وذلك يكون يوم الجمعة ، وكان فى قراءتهما فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها حيث اتفقت فهذه خاصة من خواص يوم الجمعة

الخاصية الثانية : استحباب كثرة الصلاة على النبى ﷺ فيه وفى ليلته لقوله ﷺ « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة وليلة الجمعة »[1] .

ورسول الله ﷺ سيد الأنام ويوم الجمعة سيد الأيام فللصلاة عليه فى هذا اليوم مزيه ليست لغيره مع حكمة أخرى وهى أن كل خير نالته أمته فى الدنيا والآخرة فإنما نالته على يده فجمع الله لأمته به بين خيرى الدنيا والآخرة فأعظم كرامة تحصل لهم فإنما تحصل يوم الجمعة ، فإن فيه بعثهم إلى منازلهم وقصورهم فى الجنة ، وهو يوم المزيد لهم إذا دخلوا الجنة ، وهو يوم عيد لهم فى الدنيا ، ويوم فيه يسعفهم الله بطلباتهم ، وحوائجهم ، ولا يرد سائلهم ، وهذا كله إنما عرفوه وحصل لهم بسببه وعلى يده فمن شكره وحمده وإداء القليل من حقه ﷺ أن نكثر من الصلاة عليه فى هذا اليوم وليلته .

الخاصية الثالثة : صلاة الجمعة التى هى من آكد فروض الاسلام ومن أعظم مجامع المسلمين وهى أعظم من كل مجمع يجتمعون فيه وأفرضه سوى مجمع عرفة ، ومن تركها تهاونا بها طبع الله على قلبه ، وقرب أهل الجنة يوم القيامة وسبقهم إلى الزيارة يوم المزيد بحسب قربهم من الإمام يوم الجمعة وتكبيرهم .

الخاصة الرابعة : الأمر بالاغتسال فى يومها وهو أمر مؤكد جداً ووجوبه أقوى من وجوب الوتر ، وقراءة البسملة فى الصلاة ، ووجوب الوضوء من مس النساء ، ووجوب الوضوء من مس الذكر ، ووجوب الوضوء من القهقهة فى الصلاة ، ووجوب الوضوء من الرعاف والحجامة ، والقىء ، ووجوب الصلاة على النبى ﷺ فى المشهد الأخير ، ووجوب القراءة على المأموم ، وللناس فى وجوبه ثلاثة أقوال : النفى ، والاثبات ، والتفصيل بين من به رائحة يحتاج إلى ازالتها فيجب عليه ، ومن هو مستغن عنه فيستحب له والثلاثة لأصحاب أحمد .

الخاصة الخامسة : التطيب فيه وهو أفضل من التطيب فى غيره من أيام الأسبوع .

الخاصة السادسة : السواك فيه وله مزية على السواك فى غيره .

---

(١) الدر المنثور جـ٥ تفسير سورة الكهف

الخاصة السابعة : التبكير للصلاة .
الخاصة الثامنة : أن يشتغل بالصلاة ، والذكر ، والقراءة ، حتى يخرج الإمام .
الخاصة التاسعة : الإنصات للخطبة إذا سمعها وجوبه فى أصح القولين فإن تركه كان لاغيا ومن لغا فلا جمعة له وفى (المسند) مرفوعا (والذى يقول لصاحبه : أنصت فلا جمعة له .

الخاصة العاشرة : قراءة سورة الكهف فى يومها فقد روى عن النبى ﷺ : « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضىء به يوم القيامة وغفر له ما بين الجمعتين »[1] .

وذكره سعيد بن منصور من قول أبي سعيد الخدرى وهو أشبه .

الحادية عشرة : أنه لا يكره فعل الصلاة فيه وقت الزوال عند الشافعى رحمه الله ومن وافقه وهو إختيار شيخنا أبي العباس بن تيمية ولم يكن اعتماده على حديث ليث عن مجاهد عن أبي الخليل عن أبي قتادة عن النبى ﷺ أنه كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة وقال : إن جهنم تسجر إلا يوم الجمعة وإنما كان اعتماده على أن من جاء إلى الجمعة يستحب له أن يصلى حتى يخرج الإمام وفى الحديث الصحيح : (لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدّهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى (١) رواه البخارى فندبه إلى الصلاة ما كتب له ولم يمنعه عنها الا فى وقت خروج الإمام ولهذا قال غير واحد من السلف منهم عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وتبعه عليه الإمام أحمد بن حنبل : خروج الإمام يمنع الصلاة وخطبته تمنع الكلام فجعلوا المانع من الصلاة خروج الإمام لا إنتصاف النهار .

وأيضا فإن الناس يكونون فى المسجد تحت السقوف ولا يشعرون بوقت الزوال والرجل يكون متشاغلا بالصلاة لا يدرى بوقت الزوال ولا يمكنه أن يخرج ويتخطى رقاب الناس وينظر إلى الشمس ويرجع ولا يشرع له ذلك .

وحديث أبي قتادة هذا قال أبو داود : هو مرسل لأن أبا الخليل لم يسمع من أبي قتادة والمرسل إذا اتصل به عمل وعضده قياس أو قول صحابى أو كان مرسله معروفا باختيار الشيوخ ورغبته عن الرواية عن الضعفاء والمتروكين ونحو ذلك مما يقتضى قوته عمل به .

وأيضا فقد عضده شواهد أخر منها ما ذكره الشافعى فى كتابه فقال : (روى عن اسحاق بن عبد الله عن سعيد بن أبي سعيد عن أبي هريرة أن النبى ﷺ نهى عن الصلاة نصف النهار حتى تزول الشمس إلا يوم الجمعة . هكذا رواه رحمه الله فى كتاب (اختلاف الحديث) ورواه فى (كتاب الجمعة) : حدثنا ابراهيم بن محمد عن اسحاق ورواه أبو خالد الأحمر عن شيخ من أهل المدينة يقال له : عبد الله بن سعيد المقبرى عن أبي هريرة عن النبى ﷺ وقد رواه البيهقى فى (المعرفة) من حديث عطاء بن عجلان عن أبي نضرة عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا : كان النبى ﷺ ينهى عن الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة ولكن اسناده فيه من لا يحتج به . قاله البيهقى قال : ولكن إذا انضمت هذه الأحاديث إلى حديث أبي قتادة أحدثت بعض القوة .

---

(١) الدر المنثور جـ٥ تفسير الكهف

قال الشافعى : من شأن الناس التهجير إلى الجمعة والصلاة إلى خروج الإمام قال البيهقى : الذى أشار إليه الشافعى موجود فى الأحاديث الصحيحة وهو أن النبى ﷺ رغب فى التبكير إلى الجمعة ، وفى الصلاة إلى خروج الإمام من غير استثناء ، وذلك يوافق هذه الأحاديث التى أبيحت فيها الصلاة نصف النهار يوم الجمعة ، وروينا الرخصة فى ذلك عن عطاء وطاووس والحسن ومكحول .

قلت : أختلف الناس فى كراهة الصلاة نصف النهار على ثلاثة أقوال أحدها : أنه ليس وقت كراهة بحال وهو مذهب مالك .

الثانى : أنه وقت كراهة فى يوم الجمعة وغيرها وهو مذهب أبى حنيفة والمشهور من مذهب أحمد .

والثالث : أنه وقت كراهة إلا يوم الجمعة فليس بوقت كراهة ، وهذا مذهب الشافعى .

الثانية عشرة : قراءة (سورة الجمعة) و (المنافقين) أو (سبح والغاشية) فى صلاة الجمعة فقد كان رسول الله ﷺ يقرأ بهن فى الجمعة ذكره مسلم فى صحيحه .

وفيه أيضا : أنه ﷺ كان يقرأ فيها بـ (الجمعة) و (هل أتاك حديث الغاشية) ثبت عنه ذلك كله .

ولا يستحب أن يقرأ من كل سورة بعضها أو يقرأ إحداهما فى الركعتين فإنه خلاف السنة وجهال الأئمة يداومون على ذلك .

الثالثة عشرة : أنه يوم عيد متكرر فى الأسبوع وقد روى أبو عبد الله ابن ماجه فى (سننه) من حديث أبى لبابة بن عبد المنذر قال : قال رسول الله ﷺ : « إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند الله وهو أعظم عند الله من يوم الأضحى ويوم الفطر فيه خمس خلال : خلق الله فيه آدم وأهبط فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفى الله آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئا إلا أعطاه ، ما لم يسأل حراما ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا سماء ولا أرض ولا رياح ولا جبال ولا شجر الا وهن يشفقن من يوم الجمعة »[(١)] .

الرابعة عشرة : أنه يستحب أن يلبس فيه أحسن الثياب التى يقدر عليها فقد روى الامام أحمد فى (مسنده) من حديث أبى أيوب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان له ولبس من أحسن ثيابه ثم خرج وعليه السكينة حتى يأتى المسجد ثم يركع إن بدا له ولم يؤذ أحداً ثم انصت إذا خرج إمامه حتى يصلى كانت كفارة لما بينهما »[(٢)] .

وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن سلام أنه سمع رسول الله ﷺ يقول على المنبر فى يوم الجمعة : « ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبى مهنته » وفى سنن ابن ماجه عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال : « ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعة سوى ثوبى مهنته » .

---

(١) انظر الدر المنثور جـ٥ تفسير سورة الكهف

(٢) انظر سنن ابن ماجه

الخامسة عشرة : أنه يستحب تجمير المسجد فى يوم الجمعة . فقد ذكر ابن ماجة فى سننه عن واثلة بن الأسقع أن النبى ﷺ قال : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم ، واتخذوا على أبوابها المطاهر ، وجمروها فى الجمع »(١) .

السادسة عشرة : أنه لا يجوز السفر فى يومها لمن تلزمه الجمعة قبل فعلها بعد دخول وقتها وأما قبله فللعلماء ثلاثة أقوال وهى : روايات منصوصات عن أحمد أحدها : لا يجوز ، والثانى يجوز ، والثالث يجوز للجهاد خاصة .

وأما مذهب الشافعى - رحمه الله - فيحرم عنده انشاء السفر يوم الجمعة بعد الزوال ولهم فى سفر الطاعة وجهان : أحدهما : تحريمه وهو اختيار النووى والثانى : جوازه وهو اختيار الرافعى وأما السفر قبل الزوال فللشافعى فيه قولان : القديم : جوازه ، والجديد : أنه كالسفر بعد الزوال .

وأما مذهب مالك فقال صاحب (التفريع) ولا يسافر أحد يوم الجمعة بعد الزوال حتى يصلى الجمعة ولا بأس أن يسافر قبل الزوال ، والاختيار : أن لا يسافر إذا طلع الفجر وهو حاضر حتى يصلى الجمعة .

وذهب أبوحنيفة إلى جواز السفر مطلقا وقد روى الدارقطنى فى (الأفراد) من حديث ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : « من سافر من دار اقامته يوم الجمعة دعت عليه الملائكة الا يصحب فى سفره »(٢) وهو من حديث ابن لهيفة . وفى مسند الإمام أحمد من حديث الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال : بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة فى سرية فوافق ذلك يوم الجمعة قال : فغدا أصحابه وقال : اتخلف وأصلى مع رسول الله ﷺ ثم الحقهم فلما صلى النبى ﷺ رآه فقال : ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟

فقال : أردت أن أصلى معك ثم ألحقهم فقال : « لو انفقت ما فى الأرض ما أدركت فضل غدوتهم »(٣) .

وأعلّ هذا الحديث : بأن لم يسمع من مقسم .

هذا إذا لم يخف المسافر فوت رفقته فإن خاف فوت رفقته وانقطاعه بعدهم جاز له السفر مطلقاً لأن هذا عذر يسقط الجمعة والجماعة ، ولعل ما روى عن الأوزاعى أنه سئل عن مسافر سمع أذان الجمعة وقد أسرج دابته فقال : ليمض على سفره محمول على هذا وكذلك قول ابن عمر رضى الله عنه : الجمعة لا تحبس عن السفر وإن كان مرادهم جواز السفر مطلقاً مسألة نزاع ، والدليل : هو الفاصل على أن عبد الرزاق قد روى فى (مصنفه) عن معمر عن خالد الحذاء عن ابن سيرين أو غيره أن عمر بن الخطاب رأى رجلاً عليه ثياب سفر بعدما قضى الجمعة فقال : ما شأنك قال : أردت سفراً فكرهت أن أخرج حتى أصلى فقال عمر : إن الجمعة لا تمنعك السفر ما لم يحضر وقتها فهذا قول من يمنع السفر بعد الزوال ولا يمنع منه قبله .

وذكره عبد الرزاق أيضاً عن الثورى عن الأسود بن قيس عن أبيه قال : أبصر عمر بن الخطاب رجلاً

(١ ، ٢ ، ٣) أنظر صحيح البخارى جـ٢ ص٤ كتاب الجمعة باب الرهبة للجمعة

عليه هيئة السفر وقال الرجل : إن اليوم يوم جمعة ولولا ذلك لخرجت فقال عمر : إن الجمعة لا تحبس مسافراً فأخرج ما لم يحن الرواح وذكره أيضاً عن الثورى عن ابن أبى ذئب عن صالح بن كثير عن الزهرى قال : خرج رسول الله ﷺ مسافراً يوم الجمعة ضحى قبل الصلاة .

وذكر عن معمر قال : سألت يحيى بن أبى كثير : هل يخرج الرجل يوم الجمعة ؟ فكرهه فجعلت أحدثه بالرخصة فيه فقال لى : قلما يخرج رجل فى يوم الجمعة إلا رأى ما يكرهه . لو نظرت فى ذلك وجدته كذلك .

وذكر ابن المبارك عن الأوزاعى عن حسان بن أبى عطية قال : إذا سافر الرجل يوم الجمعة دعا عليه النهار أن لا يُعان على حاجته ولا يصاحب فى سفره .

وذكر الأوزاعى عن ابن المسيب أنه قال : السفر يوم الجمعة بعد الصلاة قال ابن جريج : قلت لعطاء : أبلغك أنه كان يقال : إذا أمسى فى قرية جامعة من ليلة الجمعة فلا يذهب حتى يجمع ؟ قال : إن ذلك ليكره قلت : فمن يوم الخميس ؟ قال : لا ، ذلك النهار فلا يضره .

السابعة عشر : إن للماش إلى الجمعة بكل خطوة أجر سنة صيامها وقيامها قال عبد الرزاق : عن معمر عن يحيى بن أبى كثير عن أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « من غسّل واغتسل يوم الجمعة وبكر وابتكر ودنا من الإمام فأنصت كان له بكل خطوة يخطوها صيام سنة وقيامها وذلك على الله يسير »[(١)] رواه أحمد فى مسنده .

قال الإمام أحمد : غسّل بالتشديد : جامع أهله وكذلك فسّره .

الثامنة عشرة : أنه يوم تكفير السيئات فقد روى الإمام أحمد فى (مسنده) عن سلمان قال : قال لى رسول الله ﷺ : « أتدرى ما يوم الجمعة ؟ » قلت : هو اليوم الذى جمع الله فيه أباكم آدم قال : (ولكنى أدرى ما يوم الجمعة لا يتطهر الرجل فيحسن طهوره ثم يأتى الجمعة فينصت حتى يقضى الإمام صلاته ، إلا كانت كفارة لما بينه وبين الجمعة المقبلة ما اجتنبت المقتلة)[(٢)] .

وفى المسند أيضاً من حديث عطاء الخراسانى عن نبيشة الهذلى أنه كان يحدّث عن رسول الله ﷺ : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذى أحداً فإن لم يجد الإمام خرج صلى ما بدا له وان وجد الإمام قد خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضى الإمام جمعته وكلامه إن لم يغفر له فى جمعته تلك ذنوبه كلها أن تكون كفارة للجمعة التى تليها »[(٣)] .

وفى صحيح البخارى عن سلمانَ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر ويدهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين أثنين ثم يصلى ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى »[(٤)] .

وفى مسند أحمد من حديث أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ثم لبس ثيابه ومسّ طيباً إن كان عنده ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينه ولم يتخط أحداً ولم يؤذه وركع ما قضى له ثم انتظر حتى ينصرف الإمام غفر له ما بين الجمعتين »[(٥)] .

---

(١) مسند الامام احمد جـ٣ ، جـ٥
(٢) انظر مسند الامام أحمد جـ٥
(٣) انظر صحيح البخارى جـ٢
(٤) انظر مسند الامام احمد جـ٤
(٥) انظر مسند الامام أحمد جـ٥

الخاصة التاسعة عشرة : أن جهنم تسجّر كل يوم إلا يوم الجمعة ؛ لأنه أفضل الأيام عند الله ، ويقع فيه من الطاعات والعبادات والدعوات والابتهال إلى الله - سبحانه وتعالى - ما يمنع من تسجير جهنم فيه ، ولذلك تكون معاصي أهل الإيمان فيه أقل من معاصيهم في غيره ، حتى أن أهل الفجور يمتنعون فيه مما لا يمتنعون منه في يوم السبت وغيره .

العشـــرون : أن فيه ساعة الإجابة ، وهي الساعة التي لا يسأل الله عبد مسلم فيها شيئاً إلا أعطاه ففي (الصحيحين) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه . وقال : بيده يقللها »[1].

وفي المسند من حديث أبي لبابة بن عبد المنذر عن النبي ﷺ قال : « سيد الأيام يوم الجمعة وأعظمها عند الله ، وأعظم عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى ، وفيه خمس خصال : خلق الله فيه آدم ، وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفى الله - عز وجل - آدم ، وفيه ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه ما لم يسأل حراماً ، وفيه تقوم الساعة ، ما من ملك مقرب ولا أرض ولا رياح ولا بحر ولا جبال ولا شجر إلا وهن يشفقن من يوم الجمعة »[2].

وقد اختلف الناس في هذه الساعة : هل هي باقية أو قد رفعت ؟ على قولين حكاهما ابن عبد البر وغيره ، والذين قالوا : هي باقية ولم ترفع اختلفوا : هل هي في وقت من اليوم بعينه ؟ أم هي غير معينة ؟ على قولين ، ثم اختلف من قال بعدم تعيينها : هل هي تنتقل في ساعات اليوم أو لا ؟ على قولين أيضاً ، والذين قالوا بتعيينها اختلفوا على أحد عشر قولاً ، قال ابن المنذر : روينا عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : هي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، وبعد صلاة العصر إلى غروب الشمس .

الثاني : أنها عند الزوال ، ذكره ابن المنذر عن الحسن البصري وأبي العالية .

الثالث : أنها إذا أذن المؤذن بصلاة الجمعة ، قال ابن المنذر : روينا ذلك عن عائشة - رضي الله عنها - .

الرابع : أنها إذا جلس الإمام على المنبر يخطب حتى يفرغ ، قال ابن المنذر : رويناه عن الحسن البصري .

الخامس : قاله أبو بردة : هي الساعة التي اختار الله وقتها للصلاة .

السادس : قاله أبو السوار العدوي وقال : كانوا يرون أن الدعاء مستجاب ما بين زوال الشمس إلى أن تدخل الصلاة .

---

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجمعة) باب فى الساعة التى فى يوم الجمعة حـ ١ص ١٦٦ رقم ٤٩٥

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد (زيادة فى حديث أبى لبابة بن عبد المنذر البدرى ـــ رضى الله عنه)حـ ٣ ص ٤٣٠

السابع : قاله أبو ذر : إنها ما بين أن ترتفع الشمس شبراً إلى ذراع .

الثامن : أنها ما بين العصر إلى غروب الشمس قاله أبو هريرة وعطاء وعبد الله بن سلام وطاووس حكى ذلك كله ابن المنذر .

التاسع : أنها آخر ساعة بعد العصر وهو قول أحمد وجمهور الصحابة والتابعين .

العاشر : أنها من حين خروج الإمام إلى فراغ الصلاة ، حكاه النووي وغيره .

الحادي عشر : أنها الساعة الثالثة من النهار ، حكاه صاحب (المغني) فيه ، وقال (كعب) : لو قسم الإنسان جمعة في جمع أتى على تلك الساعة وقال عمر : إن طلب حاجة في يوم ليسير .

وأرجح هذه الأقوال : قولان تضمنتهما الأحاديث الثابتة ، وأحدهما أرجح من الآخر :

الأول : أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة ، وحجة هذا القول ما روى مسلم في (صحيحه) من حديث أبي بردة بن أبي موسى أن عبد الله بن عمر قال له : أسمعت أباك يحدّث عن رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة شيئاً ؟ قال : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة »[١].

وروى ابن ماجه والترمذي من حديث عمرو بن عوف المزني عن النبي ﷺ قال : « إن في الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا آتاه الله إياه » قالوا : يا رسول الله أية ساعة هي ؟ قال : « حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها »[٢].

والقول الثاني : أنها بعد العصر ، وهذا أرجح القولين ، وهو قول عبد الله بن سلام وأبي هريرة والإمام أحمد وخلق ، وحجة هذا القول ما رواه أحمد في (مسنده) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه وهي بعد العصر »[٣].

وروى أبو داود والنسائي عن جابر عن النبي ﷺ قال : « يوم الجمعة اثنا عشر ساعة ، فيها ساعة لا يوجد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه ، فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر »[٤].

وروى سعيد بن منصور في (سننه) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ اجتمعوا فتذاكروا الساعة التي في يوم الجمعة فتفرقوا ولم يختلفوا أنها آخر ساعة من يوم الجمعة .

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الجمعة) ح ٦ ص ١٤٠

(٢) أنظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ماجاء فى الساعة التى ترجى فى الجمعة حـ ١ ص ٣٦٠ رقم ١١٣٨ ورواه الترمذى فى سننه فى (أبواب الصلاة) حـ ٢ ص ٣٦١ رقم ٤٩٠ وقال : حديث عمرو بن عوف حديث حسن غريب .

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى هريرة — رضى الله عنه) حـ ٢ ص ٢٧٢

(٤) أنظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب الإجابة آية ساعة هى فى يوم الجمعة حـ ١ ص ٢٧٥ رقم ١٠٤٨ ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الجمعة) باب وقت الجمعة حـ ٣ ص ٩٩ ، ١٠٠

وفي سنن ابن ماجه : عن عبد الله بن سلام قال : قلت – ورسول الله ﷺ جالس – : إنا لنجد في كتاب الله (يعني التوراة) في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلي يسأل الله – عز وجل – شيئا إلا قضى الله له حاجته . قال عبد الله : فأشار إليّ رسول الله ﷺ أو بعض ساعة . قلت : صدقت يا رسول الله ، أو بعض ساعة . قلت : أي ساعة هي ؟ قال : « هي آخر ساعة من ساعات النهار » قلت : إنها ليست ساعة صلاة . قال : بلى إن العبد المؤمن إذا صلى ثم جلس لا يجلسه إلا الصلاة فهو في صلاة[1].

وفي مسند أحمد من حديث أبي هريرة قال : قيل للنبي ﷺ : لأي شيء سمّى يوم الجمعة ؟ قال : « لأن فيها طبعت طينة أبيك آدم ، وفيها الصعقة ، والبعْثة ، وفيها البطشة ، وفي آخر ثلاث ساعات منها ساعة من دعا الله فيها استجيب له »[2].

وفي سنن أبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة قال . قال رسول الله ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ؛ فيه خلق آدم ، وفيه أهبط ، وفيه يتب عليه ، وفيه مات ، وفيه تقوم الساعة ، وما من دابة إلا وهي مُصيخةٌ يوم الجمعة من حين تصبح حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس ، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله – عز وجل – حاجة إلا أعطاه إياها » قال كعب : ذلك في كل سنة يوم ؟ فقلت : بل في كل جمعة . قال : فقرأ كعب التوراة فقال : صدق رسول الله ﷺ قال أبو هريرة : ثم لقيت عبد الله بن سلام فحدثته بمجلسي مع كعب ، فقال عبد الله بن سلام : وقد علمت أية ساعة هي . قال أبو هريرة : فقلت : أخبرني بها ، فقال عبد الله بن سلام : هي آخر ساعة من يوم الجمعة . فقلت : كيف هي آخر ساعة من يوم الجمعة وقد قال رسول الله ﷺ : « لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي » وتلك الساعة لا يصلي فيها ؟ فقال عبد الله بن سلام : ألم يقل رسول الله ﷺ : « من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتى يصلي » ؟ قال : فقلت : بلى . فقال : هو ذاك قال الترمذي : حديث حسن صحيح وفي (الصحيحين) بعضه[3]

وأما من قال : إنها من حين يفتتح الإمام الخطبة إلى فراغه من الصلاة فاحتج بما رواه مسلم في (صحيحه) عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال : قال عبد الله بن عمر : أسمعت أباك يحدّث عن

---

(١) سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ما جاء فى الساعة التى ترجى فى الجمعة حـ ١ ص ٣٦٠ ، ٣٦١ رقم ١١٣٩

(٢) مسند أحمد (مسند أبى هريرة) حـ ٢ ص ٣١١

(٣) الحديث فى سنن أبى داود فى (كتاب الصلاة) باب فضل يوم الجمعة وليلة الجملة حـ١ ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ رقم ١٠٤٦
ورواه الترمذى بنحوه فى سننه فى (أبواب الصلاة) باب ماجاء فى الساعة التى ترجى فى يوم الجمعة حـ ٢ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ رقم ٤٩١ ثم قال : وفى الحديث قصة طويلة ، وهذا حديث حسن صحيح .
ورواه النسائى فى سننه بقصته كاملة فى (كتاب الجمعة) باب الساعة التى يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة حـ ٣ ، ص ١١٤ ، ١١٥

رسول الله ﷺ في شأن ساعة الجمعة ؟ قال : قلت : نعم سمعته يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن يقضي الإمام الصلاة »[١].

وأما من قال : هي ساعة الصلاة فاحتج بما رواه الترمذي وابن ماجه من حديث عمرو بن عوف المزني قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن في الجمعة ساعة لا يسأل الله العبد فيها شيئاً إلا أتاه الله إياه » قالوا : يارسول الله ! أية ساعة هي ؟ قال : « حين تقام الصلاة إلى الانصراف منها »[٢] ولكن هذا الحديث ضعيف ، قال أبو عمر بن عبد البر : هو حديث لم يروه فيما علمت إلا كثير من عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جده ، وليس هو ممن يحتج بحديثه ، وقد روى روح بن عبادة عن عوف عن معاوية بن قرة عن أبي بردة عن أبي موسى أنه قال لعبد الله ابن عمر : هي الساعة التي يخرج فيها الإمام إلى أن تقضي الصلاة فقال ابن عمر : أصاب الله بك .

وروى عبد الرحمن بن حجيرة عن أبي ذر أن امرأته سألته عن الساعة التي يستجاب فيها يوم الجمعة للعبد المؤمن فقال لها : هي مع رفع الشمس بيسير فإن سألتني بعدها فأنت طالق .

واحتج هؤلاء أيضاً بقوله في حديث أبي هريرة (وهو قائم يصلي) وبعد العصر لا صلاة في ذلك الوقت ، والأخذ بظاهر الحديث أولى . قال أبو عمر : يحتج أيضاً من ذهب إلى هذا بحديث علي عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا زالت الشمس وفاءت الأفياء وراحت الأرواح فاطلبوا إلى الله حوائجكم ؛ فإنها ساعة الأوابين . ثم تلا « فإنه كان للأوابين غفوراً »[٤].

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : الساعة التي تذكر يوم الجمعة : ما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، وكان سعيد ابن جبير إذا صلى العصر لم يكلم أحداً حتى تغرب الشمس ، وهذا هو قول أكثر السلف ، وعليه أكثر الأحاديث ، ويليه القول : بأنها ساعة الصلاة ، وبقية الأقوال لا دليل عليها .

وعندي أن ساعة الصلاة ساعة ترجى فيها الإجابة أيضاً ، فكلاهما ساعة إجابة ، وإن كانت الساعة المخصوصة هي آخر ساعة بعد العصر فهي ساعة معينة من اليوم لا تتقدم ولا تتأخر ، وأما ساعة الصلاة فتابعة للصلاة تقدمت أو تأخرت ؛ لأن لاجتماع المسلمين وصلاتهم وتضرعهم وابتهالهم إلى الله - تعالى - تأثيراً في الإجابة ، فساعة اجتماعهم ساعة ترجى فيها الإجابة ، وعلى هذا تتفق الأحاديث كلها ، ويكون النبي ﷺ قد حض أمته على الدعاء والابتهال إلى الله - تعالى - في هاتين الساعتين ، ونظير هذا قوله ﷺ وقد سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال : « هو مسجدكم هذا »[٥]

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الجمعة) حـ ٦ ص ١٤٠ (وقد سبق تخريجه)

(٢) سنن ابن ماجه رقم ١١٣٨ وسنن الترمذى رقم ٤٩٠ (وقد سبق تخرجه)

(٣) سنن ابن ماجه رقم ١١٣٨ وسنن الترمذى رقم ٤٩٠ (وقد سبق تخريجه)

(٤) رواه السيوطى فى الجامع الكبير وعزاه إلى البيهقي فى شعب الإيمان عن على - رضى الله عنه - والآية هى رقم ٢٥ من سورة الإسراء .

(٥) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الحج) باب فضل المساجد الثلاثة حـ ٩ ص ١٦٨ ، ١٦٩

وأشار إلى مسجد المدينة . وهذا لا ينفي أن يكون مسجد قباء الذي نزلت فيه الآية مؤسساً على التقوى بل كل منهما مؤسس على التقوى .

وكذلك قوله في ساعة الجمعة : « هي ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تنقضي الصلاة » لا ينافي قوله في الحديث الآخر : « فالتمسوها آخر ساعة بعد العصر » .

ويشبه هذا في الأسماء قوله ﷺ : « ما تعدون الرّقوب فيكم قالوا : من لم يولد له . قال : « الرقوب من لم يقدم من ولده شيئاً »[1] فأخبر أن هذا هو الرقوب إذا لم يحصل له من ولده من الأجر ما حصل لمن قدم منهم فرطاً ، وهذا لا ينافي أن يسمى من لم يولد له رقوباً .

ومثله قوله ﷺ : « ما تعدّون المفلس فيكم ؟ » قالوا : من لا درهم له ولا متاع . قال : « المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ويأتي وقد لطم هذا ، وضرب هذا ، وسفك دم هذا ، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته » الحديث[2] .

ومثله قوله ﷺ : « ليس المسكين بهذا الطّوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس ولا يتفطن له فيتصدق عليه »[3] .

وهذه الساعة هي آخر ساعة بعد العصر يعظمها جميع أهل الملل ، وعند أهل الكتاب هي ساعة الإجابة ، وهذا مما لا غرض لهم في تبديله وتحريفه وقد اعترف به مؤمنهم .

وأما من قال بتنقلها فى أيام الجمع بذلك بين الأحاديث ، كما قيل ذلك في ليلة القدر ، وهذا ليس بقوي ، فإن ليلة القدر قد قال فيها النبي ﷺ : « فالتمسوها في خامسةٍ تبقى ، في سابعةٍ تبقى في تاسعةٍ تبقى »[4] .

ولم يجيء مثل ذلك في ساعة الجمعة .

وأيضاً فالأحاديث التي في ليلة القدر ليس فيها حديث صريح بأنها ليلة كذا وكذا بخلاف أحاديث ساعة الجمعة فظهر الفرق بينهما .

وأما قول من قال : إنها رفعت فهو نظير قول من قال : إن ليلة القدر رفعت ، وهذا القائل إن أراد أنها كانت معلومة فرفع علمها عن الأمة فيقال له : لم يرفع علمها عن كل الأمة وإن رفع عن بعضهم ،

(١) رواه مسلم فى صحيحه (مسلم بشرح النووى) فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل من يملك نفسه عند الغضب حـ ١٦ ص ١٦١ عن عبد الله بن مسعود ، ولفظه : « ماتعدون الرقوب فقيم ؟ » قال : قلنا : الذى لا يولد له . قال « ليس ذاك بالرقوب ، ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا » قال : « فما تعدون الصرعة فيكم ؟ » قال : قلنا : الذى لا يصرعه الرجال . قال : « ليس بذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب »

(٢) رواه أحمد ٣٠٣/٢ ، ٣٣٤ ، ٣٧١

(٣) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب : المسكين الذى لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه حـ ١ ص ٢١٩ رقم ٦١٦ والحديث من رواية أبى هريرة ـــ رضى الله عنه .

(٤) رواه البخارى فى صحيحه بحاشية السندى حـ ١ ص ٣٤٤ فى (كتاب الصيام) بابه تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر ، إلا أنه قال : « فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » من رواية عباس رضى الله عنهما .

وإن أراد أن حقيقتها وكونها ساعة إجابة رفعت فقول باطل مخالف للأحاديث الصحيحة الصريحة ، فلا يعول عليه والله أعلم .

الحادية والعشرون : أن فيه صلاة الجمعة التي خصّت من بين سائر الصلوات المفروضات بخصائص لا توجد في غيرها : من الاجتماع ، والعدد المخصوص ، واشتراط الإقامة والاستيطان ، والجهر بالقراءة ، وقد جاء من التشديد فيها ما لم يأت نظيره إلا في صلاة العصر ففي السنن الأربعة من حديث أبي الجعد الضمري – وكانت له صحبة – أن رسول الله ﷺ قال : « من ترك ثلاث جمع تهاوناً طبع الله على قلبه »[1] قال الترمذي : حديث حسن ، وسألت محمد بن إسماعيل عن اسم أبي الجعد الضمري فقال : لم يعرف اسمه وقال : لا أعرف له عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث .

وقد جاء في السنن عن النبي ﷺ : « الأمر لمن تركها أن يتصدق بدينار ، فإن لم يجد فنصف دينار » رواه أبو داود والنسائي من رواية قدامة بن وبرة عن سمرة بن جندب ، ولكن قال أحمد : قدامة بن ويرة لا يعرف . وقال يحيى بن معين : ثقة . وحكى عن البخاري أنه لا يصح سماعه من سمرة[2] .

وأجمع المسلمون على أن الجمعة فرض عين إلا قولاً يحكى عن الشافعي أنها فرض كفاية ، وهذا غلط عليه ؛ منشؤه أنه قال : وأما صلاة العيد فتجب على كل من تجب عليه صلاة الجمعة ، فظن هذا القائل أن صلاة العيد لما كانت فرض كفاية كانت الجمعة كذلك ، وهذا فاسد ، هذا نص من الشافعي أن العيد واجب على الجميع ، فإن فرض الكفاية يجب على الجميع كفرض الأعيان سواء ، وإنما يختلفان بسقوطه عن البعض بعد وجوبه بفعل الآخرين .

الثانية والعشرون : ان فيه الخطبة التي يقصد بها الثناء على الله وتمجيده والشهادة له بالوحدانية ولرسوله ﷺ بالرسالة ، وتذكير العباد بأيامه وتحذيرهم من بأسه ونقمته ، ووصيتهم بما يقربهم إليه وإلى جناته ، ونهيهم عما يقربهم من سخطه وناره ، فهذا هو مقصود الخطبة والاجتماع لها .

الثالثة والعشرون : أنه اليوم الذي يستحب أن يتفرغ فيه للعبادة ، وله على سائر الأيام مزية بأنواع من العبادات واجبة ومستحبة ، فالله – سبحانه – جعل لأهل كل ملة يوماً يتفرغون فيه للعبادة

---

(١) انظر سنن أبي داود حـ ١ ص ٢٧٦ (باب التشديد فى ترك الجمعة) رقم ١٠٥٢
وأنظر سنن الترمذى حـ ٢ ص ٣٧٣ (باب ما جاء فى ترك الجمعة من غير عذر) رقم ٥٠٠ وقال أبو عيسى : حديث أبى الجعد حديث حسن .
ورواه النسائى فى سننه حـ ٣ ص ٨٨ (باب التشديد فى التخلف عن الجمعة)
وكذلك رواه ابن ماجه حـ ١ ص ٣٥٧ (باب فيمن ترك الجمعة من غير عذر) رقم ١١٢٥ .

(٢) سنن أبى داود حـ ١ ص ٢٧٧ رقم ١٠٥٣ وقال : أبو داود : وهكذا رواه خالد بن قيس وخالفه فى الإسناد ووافقه فى المتن .
وأنظر سنن النسائى (باب كفارة من ترك الجمعة من غير عذر) حـ ٣ ص ٨٩ .
ورواه ابن ماجه حـ ١ ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ رقم ١١٢٨ .

ويتخلون فيه عن أشغال الدنيا ، فيوم الجمعة يوم عبادة ، وهو في الأيام كشهر رمضان في الشهور ، وساعة الإجابة فيه كليلة القدر في رمضان ؛ ولهذا من صح له يوم جمعته وسلم سلمت له سائر جمعته ، ومن صح له رمضان وسلم سلمت له سائر سنته ، ومن صحت له حجته وسلمت له صح له سائر عمره ، فيوم الجمعة ميزان الأسبوع ، ورمضان ميزان العام ، والحج ميزان العمر . وبالله التوفيق .

الرابعة والعشرون : أنه لما كان في الأسبوع كالعيد في العام وكان العيد مشتملاً على صلاة وقربان ، وكان يوم الجمعة يوم صلاة جعل الله - سبحانه - التعجيل فيه إلى المسجد بدلاً من القربان وقائماً مقامه ، فيجتمع للرائح فيه إلى المسجد للصلاة ، والقربان ، كما في « الصحيحين » عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « من راح في الساعة الأولى ، فكأنما قرب بدنه ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن »[1].

وقد اختلف الفقهاء في هذه الساعة على قولين :

أحدهما : أنها من أول النهار وهذا هو المعروف في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما .

والثاني : أنها أجزاء من الساعة السادسة بعد الزوال ، وها هو المعروف في مذهب مالك ، واختاره بعض الشافعية ، واحتجوا عليه بحجتين :

إحداهما : أن الرواح لا يكون إلا بعد الزوال ، وهو مقابل الغدو الذي لا يكون إلا قبل الزوال ، قال - تعالى - : ﴿ **غدوها شهر ورواحها شهر** ﴾[2]. قال الجوهري : ولا يكون إلا بعد الزوال .

الحجة الثانية : أن السلف كانوا أحرص شيء على الخير ، ولم يكونوا يغدون إلى الجمعة من وقت طلوع الشمس ، وأنكر مالك التبكير إليها في أول النهار ، وقال : لم ندرك عليه أهل المدينة .

واحتج أصحاب القول الأول بحديث جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ : « يوم الجمعة ثنتا عشرة ساعة »[3].

قالوا والساعات المعهودة هي الساعات التي هي ثنتا عشرة ساعة ، وهي نوعان : ساعات تعديلية ، وساعات زمانية ، قالوا : ويدل على هذا القول أن النبي ﷺ إنما بلغ بالساعات إلى ست ، ولم يزد عليها ولو كانت الساعة أجزاء صغاراً من الساعة التي تفعل فيها الجمعة لم تنحصر في ستة أجزاء ، بخلاف ما إذا كان المراد بها الساعات المعهودة فإن الساعة السادسة متى خرجت ودخلت السابعة خرج الإمام ، وطويت الصحف ، ولم يكتب لأحد قربان بعد ذلك ، كما جاء مصرحاً به في

---

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ١٦٥ رقم ٤٩٣ فقد روى الحديث بأطول من هذا ، وأوله : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فطأنما قرب بدنة ... الحديث »

ورواه الترمذى فى سننه حـ ٢ ص ٣٧٢ رقم ٤٩٩

(٢) من الآية : ١٢ من سورة سبأ

(٣) أنظر سنن النسائى (باب وقت الجمعة) حـ ٣ ص ٩٩ وهذا جزء من الحديث .

سنن أبي داود من حديث علي – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة غدت الشياطين براياتها إلى الأسواق فيرمون الناس بالترابيث أو الربائث ، ويثبطونهم عن الجمعة ، وتغدو الملائكة ، فتجلس على أبواب المساجد فيكتبون الرجل من ساعة ، والرجل من ساعتين حتى يخرج الإمام »[1].

قال أبو عمر بن عبد البر : اختلف أهل العلم في تلك الساعات ، فقالت طائفة منهم : أراد الساعات من طلوع الشمس وصفائها ، والأفضل عندهم التبكير في ذلك الوقت إلى الجمعة وهو قول الثوري ، وأبي حنيفة والشافعي وأكثر العلماء ، بل كلهم يستحب البكور إليها .

قال الشافعي – رحمه الله – : ولو بكر إليها بعد الفجر وقبل طلوع الشمس كان حسناً ، وذكر الأثرم ، قال : قيل لأحمد بن حنبل: كان مالك بن أنس يقول : لا ينبغي التهجير يوم الجمعة باكراً ، فقال : هذا خلاف حديث النبي ﷺ وقال : سبحان الله !! إلى أي شيء ذهب في هذا والنبي ﷺ يقول : « كالمهذي جزوراً » . قال : وأما مالك فذكر يحيى بن عمر عن حرملة أنه سأل ابن وهب عن تفسير هذه الساعات : أهو الغدو من أول ساعات النهار ، أو إنما أراد بهذا القول ساعات الرواح ؟ فقال ابن وهب : سألت مالكاً عن هذا ، فقال : أما الذي يقع بقلبي ، فإنه إنما أراد ساعة واحدة تكون فيها هذه الساعات من راح من أول تلك الساعة أو الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو الخامسة أو السادسة ولو لم يكن كذلك ، ما صُلِّيت الجمعة حتى يكون النهار تسع ساعات في وقت العصر أو قريباً من ذلك ، وكان ابن حبيب ينكر قول مالك هذا ، ويميل إلى القول الأول ، وقال : قول مالك هذا تحريف في تأويل الحديث ومحال من وجوه .

وقال : يدلك أنه لا يجوز ساعات في ساعة واحدة : أن الشمس إنما تزول في الساعة السادسة من النهار ، وهو وقت الأذان وخروج الإمام إلى الخطبة ، فدل ذلك على أن الساعات في هذا الحديث هي ساعات النهار المعروفات ، فبدأ بأول ساعات النهار فقال : من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنه ، ثم قال : في الساعة الخامسة بيضة ثم انقطع التهجير وحان وقت الأذان فشرح الحديث بين في لفظه ، ولكنه حرف عن موضعه ، وشرح بالخلف من القول ومالا يكون ، وزهد شارحه الناس فيما رغبهم فيه رسول الله ﷺ من التهجير من أول النهار ، وزعم أن ذلك كله إنما يجتمع في ساعة واحدة قرب زوال الشمس ، قال : وقد جاءت الآثار بالتهجير إلى الجمعة في أول النهار . هذا كله قول عبد الملك بن حبيب ، ثم رد عليه أبو عمر ، وقال : هذا تحامل منه على مالك – رحمه الله تعالى – فهو الذي قال القول الذي أنكره وجعله خلقاً وتحريفاً من التأويل ، والذي قاله مالك تشهد له الآثار الصحاح من رواية الأئمة ، ويشهد له أيضاً العمل بالمدينة عنده ، وهذا مما يصح فيه الاحتجاج بالعمل ، لأنه أمر يتردد كل جمعة لا يخفى على عامة العلماء .

فمن الآثار التي يحتج بها مالك ، ما رواه الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن النبي

(١) أنظر سنن أبي داود (باب فضل الجمعة) حـ ١ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ رقم ١٠٥١

ﷺ قال : « إذا كان يوم الجمعة ، قام على كل باب من أبواب المسجد ملائكة ، يكتبون الناس الأول ، فالمهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنه ، ثم الذي يليه كالمهدي بقرة ، ثم الذي يليه كالمهدي كبشاً ، حتى ذكر الدجاجة والبيضة ، فإذا جلس الإمام طويت الصحف واستمعوا الخطبة »[1] قال : ألا ترى إلى ما في هذا الحديث ؟ فإنه قال : يكتبون الناس الأول فالأول ، فالمهجر إلى الجمعة كالمهدي بدنه ، ثم الذي يليه فجعل الأول مهجراً وهذه اللفظة إنما هي مأخوذة من الهاجرة والتهجير ، وذلك وقت النهوض إلى الجمعة ، وليس ذلك وقت طلوع الشمس ؛ لأن ذلك الوقت ليس بهاجرة ولا تهجير ، وفي الحديث : « ثم الذي يليه ثم الذي يليه » ولم يذكر الساعة . قال : والطرق بهذا اللفظ كثيرة مذكورة في « التمهيد » وفي بعضها « المتعجل إلى الجمعة كالمهدي بدنه » وفي أكثرها « المهجر كالمهدي جزوراً » الحديث . وفي بعضها ما يدل على أنه جعل الرائح إلى الجمعة في أول الساعة كالمهدي بدنه ، وفي آخرها كذلك ، وفي أول الساعة الثانية كالمهدي بقرة ، وفي آخرها كذلك . وقال بعض أصحاب الشافعي : لم يرد ﷺ بقوله : « المهجِّرُ إلى الجمعة كالمهدي بدنه » الناهض إليها في الهجير والهاجرة ، وإنما أراد التارك لأشغاله وأعماله من أغراض أهل الدنيا للنهوض إلى الجمعة ، كالمهدي بدنه ، وذلك مأخوذ من الهجرة وهو ترك الوطن والنهوض إلى غيره ، ومنه سمي المهاجرون ، وقال الشافعي – رحمه الله – : أحب التبكير إلى الجمعة ولا تؤتى إلا مشياً . هذا كله كلام أبي عمر . قلت : ومدار إنكار التبكير أول النهار على ثلاثة أمور : أحدها : على لفظة الرواح وأنها لا تكون إلا بعد الزوال ، والثاني : لفظة التهجير ، وهي إنما تكون بالهاجرة وقت شدة الحر ، والثالث : عمل أهل المدينة ، فإنهم لم يكونوا يأتون من أول النهار .

فأما لفظة الرواح : فلا ريب أنها تُطلق على المضي بعد الزوال وهذا إنما يكون في الأكثر إذا قُرنت بالغدو كقوله – تعالى – : ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ [سبأ : ١٢] وقوله ﷺ : « من غدا إلى المسجد وراح ، أعد الله له نزلاً في الجنة كلما غدا أو راح »[2] وقول الشاعر :

نروح ونغـــدو لحاجتنـــا وحاجة من عاش لا تنقضي

وقد يطلق الرواح بمعنى الذهاب والمضي ، وهذا إنما يجيء إذا كانت مجردة عن الاقتران بالغدو .

وقال الأزهري في « التهذيب » : سمعت بعض العرب يستعمل الرواح في السير في كل وقت ، يقال : راح القوم : إذا ساروا ، وغدوا كذلك ، ويقول أحدهم لصاحبه : تروَّح ، ويخاطب أصحابه فيقول : روحوا ، أي : سيروا ، ويقول الآخر : ألا تروحون ؟ ومن ذلك ما جاء في الأخبار الصحيحة الثابتة . وهو بمعنى المضي إلى الجمعة والخفة إليها ، لا بمعنى الرواح بالعشي .

(١) الحديث رواه ابن ماجه فى سننه (باب ما جاء فى التهجير إلى الجمعة) حـ ١ ص ٣٤٧ رقم ١٠٩٢ وقال : فى الزوائد : إسناد صحيح .
أنظر سنن النسائى (باب التبكير إلى الجمعة) حـ ٣ ص ٩٨

(٢) أنظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ١٣٢ رقم ٣٩٠ فقد رواه من حديث أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ فى (باب المشى إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات)

وأما لفظ التهجير فمن الهجير ، والهاجرة ، قال الجوهري : هي نصف النهار عند اشتداد الحر ، تقول منه : هجر النهار ، قال امرؤ القيس :

فدعها وسلِّ الهمَّ عنها بجسرة   ذمولٍ إذا صام النهار وهجَّروا

ويقال : أتينا أهلنا مهجرين ، أي في وقت الهاجرة والتهجير ، والتهجر : السير في الهاجرة ، فهذا ما يقرر به قول أهل المدينة .

قال الآخرون : الكلام في لفظ التهجير كالكلام في لفظ الرواح فإنه يطلق ويراد به التبكير .

قال الأزهري في « التهذيب » : روى مالك ، عن سلمى ، عن أبي صالح عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه »(١).

وفي حديث آخر مرفوع : « المهجِّرُ إلى الجمعة كالمهدي بدنه »(٢) قال : ويذهب كثير من الناس إلى أن التهجير في هذه الأحاديث تفعيل من الهاجرة : وقت الزوال ، وهو غلط ، والصواب فيه ما روى أبو داود المصاحفي عن النقد به شميل ، أنه قال : التهجير إلى الجمعة وغيرها : التبكير والمبادرة إلى كل شيء ، قال : سمعت الخليل يقول ذلك ، قاله في تفسير هذا الحديث .

قال الأزهري : وهذا صحيح وهي لغة أهل الحجاز ومن جاورهم من قيس ، قال لبيد :

راح القطين بهجر بعد ما ابتكروا   فما تواصله سلمى وما تذر

فقرن الهجر بالابتكار ، والرواح عندهم : الذهاب والمضي ، يقال : راح القوم : إذا خفوا ومروا أي وقت كان . وقوله ﷺ : « لو يعلم الناس ما في التهجير لاستبقوا إليه »(٣) أراد به التبكير إلى جميع الصلوات ، وهو المضي إليها في أول أوقاتها .

قال الأزهري : وسائر العرب يقولون : هجَّر الرجل : إذا خرج بالهاجرة ، قال : وهي نصف النهار .

ثم قال الأزهري : أنشدني المنذري فيما روى لثعلب ، عن ابن الأعرابي في « نوادره » ، قال : قال جفنة بن جواس الرَّبعي في ناقته :

هل تذكرين قسمي فتدري   أزمان أنت بعروض الجفر
إذ أنت مضرارٌ جواد الحضر   عليَّ إن لم تنهضي بوقري
بأربعين قدرت بقدر   بالخالدي لا بصاع حجر

---

(١) هذا جزء حديث فى اللؤلؤ والمرجان من رواية أبى هريرة — رضى الله عنه — فى (كتاب الصلاة) باب : تسوية الصفوف وإقامتها حـ ١ ص ٩٠ رقم ٢٥١ ولفظه : « لو يعلم الناس مافى النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا ، ولو يعلمون مافى التهجير ... » الحديث

(٢) أنظر سنن النسائى (باب التبكير إلى الجمعة) حـ ٣ ص ٩٨

(٣) سبق تخريجه .

وتصحبي أيانقاً في سفر يهجرون بهجير الفجر
ثمت تمشي ليلهم فتسري يطوون أعراض الفجاج الغبر
طيَّ أخي التجر برود التجر

قال الأزهري : يُهجرون بهجير الفجر ، أي : يبكرون بوقت السحر . وأما كون أهل المدينة لم يكونوا يروحون إلى الجمعة أول النهار ، فهذا غاية عملهم في زمان مالك – رحمه الله – وهذا ليس بحجة ولها عند من يقول : إجماع أهل المدينة حجة ؛ فإن هذا ليس فيه إلا ترك الرواح إلى الجمعة من أول النهار ، وهذا جائز بالضرورة . وقد يكون اشتغال الرجل بمصالحه ومصالح أهله ومعاشه وغير ذلك من أمور دينه ودنياه أفضل من رواحه إلى الجمعة من أول النهار ، ولا ريب أن انتظار الصلاة بعد الصلاة وجلوس الرجل في مصلاه حتى يصلِّ الصلاة الأخرى أفضل من ذهابه وعوده في وقت آخر للثانية . كما قال ﷺ : « والذي ينتظر الصلاة ، ثم يصليها مع الإمام أفضل من الذي يُصلي ثم يروح إلى أهله » وأخبر « أن الملائكة لم تزل تصلي عليه مادام في مصلاه » وأخبر « أن انتظار الصلاة بعد الصلاة مما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات وأنه الرباط » . وأخبر « أن الله يباهي ملائكته بمن قضى فريضة وجلس ينتظر أخرى »[1] .

وهذا يدل على أن من صلى الصبح ثم جلس ينتظر الجمعة فهو أفضل ممن يذهب ثم يجيء في وقتها ؛ وكون أهل المدينة وغيرهم لا يفعلون ذلك لا يدل على أنه مكروه . فهكذا المجيء إليها والتبكير في أول النهار والله أعلم .

الخامسة والعشرون : أن للصدقة فيه مزية عليها في سائر الأيام ، والصدقة فيه بالنسبة إلى سائر أيام الأسبوع ؛ كالصدقة في شهر رمضان بالنسبة إلى سائر الشهور . وشاهدت شيخ الإسلام ابن تيمية – قدس الله روحه – إذا خرج إلى الجمعة يأخذ ما وجد في البيت من خبز أو غيره ، فيتصدق به في طريقه سراً ، وسمعته يقول : إذا كان الله قد أمرنا بالصدقة بين يدي مناجاة رسول الله ﷺ ، فالصدقة بين يدي مناجاته – تعالى – أفضل وأولى بالفضيلة ، وقال أحمد بن زهير بن حرب : حدثنا أبي حدثنا جرير ، عن منصور ، عن مجاهد عن ابن عباس ، قال : اجتمع أبو هريرة وكعب ، فقال أبو هريرة : إن في الجمعة لساعة لا يوافقها رجل مسلم في صلاة يسأل الله – عز وجل – شيئاً إلا آتاه إياه ، فقال كعب : أنا أحدثكم عن يوم الجمعة : إنه إذا كان يوم الجمعة فزعت له السموات والأرض ، والبر والبحر والجبال والشجر والخلائق كلها إلا ابن آدم والشياطين ، وحفت الملائكة بأبواب المسجد

(١) أنظر أحاديث انتظار الصلاة فى اللؤلؤ والمرجان (باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة) حـ ١ ص ١٣١ رقم ٣٨٧ من رواية أبى هريرة .
وأنظر سنن أبى داود (باب فضل القعود فى المسجد) حـ ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ أرقام ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢
وفى سنن الترمذى (باب ماجاء فى القعود فى المسجد وانتظار الصلاة من الفضل) حـ ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١ رقم ٣٣٠
وفى سنن النسائى حـ ٢ ص ٥٥ ، ٥٦ وفى سنن ابن ماجه (باب لزوم المساجد وانتظار الصلاة) حـ ١ ص ٢٦٢ أرقام ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١

فيكتبون من جاء الأول فالأول حتى يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ، ممن جاء بعد ، جاء لحق الله ، لما كتب عليه ، وحق على كل حالم أن يغتسل يومئذ كاغتساله من الجنابة ، والصدقة فيه أعظم من الصدقة في سائر الأيام ، ولم تطلع الشمس ولم تغرب على مثل يوم الجمعة . فقال ابن عباس : هذا حديث كعب وأبي هريرة وأنا أرى إن كان لأهله طيب يمس منه .

السادسة والعشرون : أنه يوم يتجلى الله - عز وجل - فيه لأوليائه المؤمنين في الجنة وزيارتهم له فيكون أقربهم منه أقربهم من الإمام وأسبقهم إلى الزيارة أسبقهم إلى الجمعة ، وروى يحيى بن يمان عن شريك عن أبي اليقظان عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - ، في قوله - عز وجل - : ﴿ **ولدينا مزيد** ﴾[1] قال : « يتجلى لهم في كل جمعة » .

وذكر الطبراني في « معجمه » من حديث أبي نعيم المسعودي ، عن المنهال ابن عمرو عن أبي عبيدة قال : قال عبد الله : سارعوا إلى الجمعة ، فإن الله - عز وجل - يبرز لأهل الجنة في كل جمعة في كثيب من كافور فيكونون منه في القرب على قدر تسارعهم إلى الجمعة ، فيحدث الله - سبحانه - لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا قد رأوه قبل ذلك ، ثم يرجعون إلى أهليهم فيحدثونهم بما أحدث الله لهم ، قال : ثم دخل عبد الله المسجد ، فإذا برجلين ، فقال عبد الله : رجلان وأنا الثالث إن يشأ الله يبارك في الثالث .

وذكر البيهقي في « الشعب » عن علقمة بن قيس قال : رُحت مع عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - إلى جمعة فوجد ثلاثة قد سبقوه ، فقال : رابع أربعة ، وما رابع أربعة ببعيد . ثم قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس يجلسون يوم القيامة من الله على قدر رواحهم إلى الجمعة الأول ، ثم الثاني ، ثم الثالث ، ثم الرابع » . ثم قال : « وما رابع أربعة ببعيد »[2].

قال الدارقطني في كتاب « الرؤية » :

حدثنا أحمد بن سلمان بن الحسن ، حدثنا محمد بن عثمان بن محمد ، حدثنا مروان بن جعفر ، حدثنا نافع أبو الحسن مولى بني هاشم ، حدثنا عطاء بن أبي ميمونة ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة رأى المؤمنون ربهم ، فأحدثهم عهداً بالنظر إليه من بكر في كل جمعةٍ ، وتراه المؤمنات يوم الفطر ويوم النحر » .

حدثنا محمد بن نوح ، حدثنا محمد بن موسى بن سفيان السكري ، حدثنا عبد الله بن الجهم الرازي ، حدثنا عمرو بن أبي قيس ، عن أبي طيبة عن عاصم عن عثمان بن عمير أبي اليقظان ، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : « أتاني جبريل وفي يده كالمرآة البيضاء فيها كالنكتة السوداء فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الجمعة يعرضها الله عليك لتكون لك عيداً ولقومك من بعدك ، قلت : ومالنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير أنت فيها الأول ، واليهود والنصارى من

(١) من الآية : ٣٥ من سورة ق

(٢) أنظر سنن ابن ماجة (باب ماجاء فى التهجير إلى الجمعة) حـ ١ ص ٣٤٨ رقم ١٠٩٤

بعدك ، ولك فيها ساعة لا يسأل الله - عز وجل - عبد فيها شيئاً هو له قسمٌ إلا أعطاه ، أو ليس له قسم إلا أعطاه أفضل منه ، وأعاذه الله من شر ما هو مكتوب عليه ، وإلا دفع عنه ما هو أعظم من ذلك قال : قلت : وما هذه النكتة السوداء ؟ قال : هي الساعة تقوم يوم الجمعة وهو عندنا سيد الأيام ويدعوه أهل الآخرة يوم المزيد .

قال : قلت : يا جبريل وما يوم المزيد ؟ قال : ذلك أن ربك - عز وجل - اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض ، فإذا كان يوم الجمعة نزل على كرسيه ثم حُف الكرسي بمنابر من نور ، فيجيء النبيون حتى يجلسوا عليها ثم حف المنابر بمنابر من ذهب فيجيء الصديقون والشهداء حتى يجلسوا عليها ، ويجيء أهل الغرف حتى يجلسوا على الكُثُب قال : ثم يتجلى لهم ربهم - عز وجل - قال : فينظرون إليه ، فيقول : أنا الذي صدقتكم وعدي ، وأتممت عليكم نعمتي ، وهذا محل كرامتي فسلوني فيسألونه الرضا . قال : رضاي أنزلكم داري وأنا لكم كرامتي ، فسلوني ، فيسألونه الرضا قال فيشهد لهم بالرضا ثم يسألونه حتى تنتهي رغبتهم ، ثم يفتح لهم عند ذلك مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال : ثم يرتفع رب العزة ويرتفع معه النبيون والشهداء ، ويجيء أهل الغرف إلى غرفهم . قال : كل غرفة من لؤلؤة لا وصل فيها ولا فصم ياقوتة حمراء وغرفة من زبرجدة خضراء أبوابُها وعلاليها وسقائفها وأغلاقها منها ، أنهارها مطردة ، متدلية فيها أثمارها ، فيها أزواجها وخدمها . قال : فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا من كرامة الله - عز وجل - والنظر إلى وجهه الكريم فذلك يوم المزيد »[1].

ولهذا الحديث عدة طرق ذكرها أبو الحسن الدارقطني في كتاب « الرؤية » .

السابعة والعشرون : أنه قد فُسِّر الشاهد الذي أقسم الله به في كتابه بيوم الجمعة ، قال حميد بن زنجويه : حدثنا عبد الله بن موسى ، أنبأنا موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد ، عن عبد الله بن رافع ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة واليوم المشهود : هو يوم عرفة ، والشاهد يوم الجمعة ، ما طلعت شمس ولا غربت على أفضل من يوم الجمعة ، فيه ساعة لا يوافقها عبدٌ مؤمن يدعو الله فيها بخير إلا استجاب له ، أو يستعيذه من شر إلا أعاذه منه »[2].

ورواه الحارث بن أبي أسامة في « مسنده » عن روح ، عن موسى ابن عبيدة .

وفي « معجم الطبراني » من حديث محمد بن إسماعيل بن عياش ، حدثني أبي حدثني ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « اليوم الموعود : يوم القيامة والشاهد يوم الجمعة ، والمشهود : يوم عرفة ، ويوم الجمعة ادخره الله لنا ، وصلاة الوسطى صلاة العصر »[3] وقد روى من حديث جبير بن مطعم . قلت : والظاهر - والله أعلم - : أنه من

(١) أنظر مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الصلوات) باب فى فضل الجمعة ويومها حـ ٢ ص ١٥٠ ، ١٥١

(٢) أنظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة البروج) حـ ٤ ص ٤٩١ طبع دار إحياء الكتب العربية (الحلبى) من رواية ابن أبى حاتم بسنده عن أبى هريرة

(٣) الحديث فى المعجم الكبير للطبرانى فى (ما رواه شريح بن عبيد الحضرمى عن أبى مالك) حـ ٣ ص ٣٣٨ رقم ٣٤٥٨

الثامنة والعشرون : أنه اليوم الذي تفزع فيه السموات والأرض والجبال والبحار والخلائق كلها إلا الإنس والجن فروى أبو الجوَّاب عن عمار بن رزيق ، عن منصور ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : اجتمع كعب وأبو هريرة فقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجمعة لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه » .

فقال كعب : ألا أحدثكم عن يوم الجمعة ؟ إنه إذا كان يوم الجمعة ، فزعت له السموات والأرض والجبال والبحار والخلائق كلها إلا ابن آدم والشياطين وحفت الملائكة بأبواب المساجد فيكتبون الأول فالأول حتى يخرج الإمام ، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ، ومن جاء بعد لحق الله ، ولما كتب عليه ، ويحق على كل حالم أن يغتسل فيه كاغتساله من الجنابة ، والصدقة فيه أفضل من الصدقة في سائر الأيام ، ولم تطلع الشمس ولم تغرب على يوم كيوم الجمعة »

قال ابن عباس هذا حديث كعب وأبي هريرة وأنا أرى ، من كان لأهله طيب أن يمس منه يومئذ .

وفي حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وما من دابة إلا وهي تفزع ليوم الجمعة إلا هذين الثقلين من الجن والإنس »[(١)] وهذا حديث صحيح . وذلك أنه اليوم الذي تقوم فيه الساعة ويطوى العالم وتخرب فيه الدنيا ويُبعث فيه الناس إلى منازلهم من الجنة والنار .

التاسعة والعشرون : أنه اليوم الذي ادَّخره الله لهذه الأمة وأضل عنه أهل الكتاب قبلهم كما في « الصحيح » من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم خير من يوم الجمعة ، هدانا الله له ، وضل الناس عنه ، فالناس لنا فيه تبع هو لنا ولليهود يوم السبت وللنصارى يوم الأحد » وفي حديث آخر « ذخره الله لنا »[(٢)].

وقال الإمام أحمد : حدثنا علي بن عاصم ، عن حصين بن عبد الرحمن ، عن عمر بن قيس ، عن محمد بن الأشعث ، عن عائشة قالت : بينما أنا عند النبي ﷺ إذ استأذن رجل من اليهود فأذن له فقال : السَّام عليك قال النبي ﷺ : « وعليك » قالت : فهممت أن أتكلم ، ثم دخل الثانية فقال مثل ذلك ، فقال النبي ﷺ : « وعليك » قالت : فهممت أن أتكلم ، ثم دخل الثالثة فقال : السَّام تفسير أبي هريرة ، فقد قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة : سمعت على بن زيد ويونس بن عبيد يحدثان عن عمار مولى بني هاشم ، عن أبي هريرة ، أما علي بن زيد ، فرفعه إلى النبي ، وأما يونس فلم يَعدُ أبا هريرة أنه قال في هذه الآية : ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ قال : الشاهد : يوم الجمعة ، والمشهود يوم عرفة ، والموعود : يوم القيامة .

= وأنظر مجمع الزوائد حـ ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ وقال الهيثمي : وفيه محمد بن إسماعيل بن عياش عن أبيه ، قال أبو حاتم : لم يسمع من أبيه شيئا .

(١) أنظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (صلاة الجمعة) ذكر البيان بأن أفضل الأيام يوم الجمعة حـ ٤ ص ١٩١ رقم ٢٧٥٩

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد (مسند أبي هريرة ـــ رضى الله عنه) حـ ٢ ص ٥١٩

عليكم ، قالت : فقلت : بل السام عليكم وغضبُ الله – إخوان القردة والخنازير – أتحيون رسول الله بما لم يحيه به الله – عز وجل – ؟ قالت : فنظر إليّ فقال : صه إن الله لا يحب الفُحش ولا التفحش ، قالوا قوْلاً فرددناه عليهم فلم يضرنا شيئاً ، ولزمهم إلى يوم القيامة ، إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها ، وعلى قولنا خلف الإمام . آمين »[١].

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، **فهذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غدا والنصارى بعد غد**»[٢]

وفي « بيد » لغتان : بالباء وهي المشهودة ، وميد بالميم ، حكاها أبو عبيد . وفي هذه الكلمة قولان ، أحدهما : أنها بمعنى « غير وأشهد معنييها . والثاني : بمعنى « على » وأنشد أبو عبيد شاهداً له :

عمداً فعلت ذاك بَيْدَ أني ... إخال لو هلكت لم ترِنِّي

ترِنِّي : تفعلي من الرنين .

الثلاثون : أنه خِيرة الله من أيام الأسبوع ، كما أن شهر رمضان خيرته من شهور العام ، وليلة القدر خيرته من الليالي ، ومكة خيرته من الأرض ، ومحمد ﷺ خيرته من خلقه .

قال آدم بن أبي إياس : حدثنا شيبان أبو معاوية ، عن عاصم بن أبي النجود ، عن أبي صالح ، ىن كعب الأحبار . قال : إن الله – عز وجل – اختار الشهور واختار شهر رمضان ، واختار الأيام واختار يوم الجمعة ، واختار الليالي واختار ليلة القدر ، واختار الساعات واختار ساعة الصلاة ، والجمعة تكفر ما بينها وبين الجمعة الأخرى وتزيد ثلاثاً ، ورمضان يُكفر ما بينه وبين رمضان ، والحج يكفر ما بينه وبين الحج ، والعمرة تُكَفِّر ما بينها وبين العمرة ، ويموت الرجل بين حسنتين : حسنة قضاها وحسنة ينتظرها – يعني صلاتيه – وتصفد الشياطين في رمضان ، وتغلق أبواب النار ، وتفتح فه أبواب الجنة ، ويقال فيه : يا باغي الخير : هلم . رمضان أجمع ، وما من ليالٍ أحب إلى الله العمل فيهن من ليالي العشر .

الحادية والثلاثون : أن الموتى تدنو أرواحهم من قبورهم ، وتوافيها في يوم الجمعة ، فيعرفون زوارهم ومن يمر بهم ويسلم عليهم ويلقاهم في ذلك اليوم أكثر من معرفتهم بهم في غيره من الأيام ، فهو يوم تلتقي فيه الأحياء والأموات ، فإذا قامت فيه الساعة التقى الأولون والآخرون ، وأهل الأرض وأهل السماء ، والرب والعبد ، والعامل وعمله ، والمظلوم وظالمه ، والشمس والقمر ، ولم تلتقيا قبل ذلك قط ، وهو يوم الجمع واللقاء ، ولهذا يلتقي الناس فيه في الدنيا أكثر من التقائهم في غيره ، فهو

---

(١) مسند الإمام أحمد (مسند السيدة عائشة – رضى الله عنها) حـ ٦ ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجمعة) باب : هداية هذه الأمة ليوم الجمعة حـ ١ ص ١٦٦ رقم ٤٩٦

يوم التلاق . قال أبو التياح يزيد بن حميد : كان مطرف بن عبد الله يبادر فيدخل كل جمعة ، فأدلج حتى إذا كان عند المقابر يوم الجمعة ، قال : فرأيت صاحب كل قبر جالساً على قبره ، فقالوا : هذا مطرف يأتي الجمعة ، قال : فقلت لهم : وتعلمون عندكم الجمعة ؟ قالوا : نعم ، ونعلم ما تقول فيه الطير ، قلت : وما تقول فيه الطير ؟ قالوا : تقول : رب سلم سلم ، يومٌ صالح . وذكر ابن أبي الدنيا في كتاب (المقامات) وغيره عن بعض أهل عاصم الجحدري ، قال : رأيت عاصماً الجحدري في منامي بعد موته بسنتين ، فقلت : أليس قَدْ مُتَّ ؟ قال : بلى ، قلت : فأين أنت ؟ قال : أنا – والله – في روضة من رياض الجنة ، أنا ونفرٌ من أصحابي تجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني ، فنتلقى أخباركم . قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قا : هيهات ؛ بليت الأجسام ، وإنما تتلاقى الأرواح ، قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا لكم ؟ قال : نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة ، وليلة السبت إلى طلوع الشمس ، قال : قلت : فكيف ذلك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمته .

وذكر ابن أبي الدنيا أيضاً ، عن محمد بن واسع أنه كان يذهب كل غداة سبت حتى يأتي الجبانة فيقف على القبور فيسلم عليهم ويدعو لهم ثم ينصرف .

فقيل له : لو صيَّرت هذا اليوم يوم الإثنين ، قال : بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده .

وذكر عن سفيان الثوري ، قال : بلغني عن الضحاك ، أنه قال : من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس علم الميت بزيارته . فقيل له : كيف ذلك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

الثانية والثلاثون : أنه يكره إفراد يوم الجمعة بالصوم ، هذا منصوص أحمد ، قال الأثرم : قال لأبي عبد الله : صيام يوم الجمعة ؟ فذكر حديث النهي عن أن يُفرد ، ثم قال : إلا أن يكون في صيام كان يصومه ، وأما أن يُفرد ، فلا. قلت : رجل كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، فوقع فطره يوم الخميس ، وصومه يوم الجمعة وفطره يوم السبت ، فصار الجمعة مفرداً ؛ قال : هذا إلا أن يتعمَّد صومه خاصة ، إنما كره أن يتعمد الجمعة .

وأباح مالك ، وأبو حنيفة صومه كسائر الأيام ، قال مالك : لم أسمع أحداً من أهل العلم والفقه ومن يقتدي به ينهى عن صيام يوم الجمعة ، وصيامه حسن ، وقد رأيت بعض أهل العلم يصومه وأراه كان يتحراه قال ابن عبد البر : اختلفت الآثار عن النبي ﷺ في صيام يوم الجمعة فروى ابن مسعود – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ « كان يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وقال : قلما رأيته مفطراً يوم الجمعة »[1] وهذا حديث صحيح .

(١) مسند الإمام أحمد (مسند عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه) حـ ١ ص ٤٠٦
والنسائى (باب صوم النبى ﷺ) حـ ٤ ص ٢٠٤
والترمذى (باب ماجاء فى صوم يوم الجمعة) حـ ٣ ص ١٠٩ رقم ٧٤٢

وقد روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنه قال : ما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة قط . ذكره ابن أبي شيبة ، عن حفص بن غياث ، عن ليث بن أبي سليم ، عن عمير بن أبي عمير ، عن ابن عمر[١].

وروى ابن عباس ، أنه كان يصومه ويواظب عليه[٢]. وأما الذي ذكره مالك ، فيقولون : إنه محمد بن المنكدِر . وقيل : صفوان بن سليم .

وروي الداوردي ، عن صفوان بن سليم عن رجل من بني جشم أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « من صام يوم الجمعة كتب له عشرة أيام غرر زهر من أيام الآخرة لا يشاكلهن أيام الدنيا »[٢]

والأصل في صوم يوم الجمعة أنه عمل بر لا يمنع منه إلا بدليل لا معارض له .

قلت : قد صح المعارض صحة لا مطعن فيها البتة ، ففي « الصحيحين » : عن محمد بن عباد ، قال : سألت جابراً : أَنَهَى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة ؟ قال : نعم[٣].

وفي صحيح مسلم عن محمد بن عباد ، قال : سألت جابر بن عبد الله وهو يطوف بالبيت : أَنَهَى رسول الله ﷺ عن صيام يوم الجمعة ؟ قال : نعم ورب هذه البنية[٤].

وفي (الصحيحين) : من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يصومن أحدكم يوم الجمعة إلا أن يصوم يوماً قبله ، أو يوماً بعده »[٥] واللفظ للبخاري .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال : « لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي ، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين سائر الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم »[٦].

وفي صحيح البخاري ، عن جويرية بنت الحارث ، أن النبي ﷺ دخل عليها يوم الجمعة وهي صائمة ، فقال : « أصُمْتِ أمس ؟ » قالت : لا . قال : « فتريدين أن تصومي غداً ؟ » قالت : لا . قال : فأفطري »[٧].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (باب من رخص في صوم يوم الجمعة) حـ ٣ ص ٤٦

(٢) الحديث في كنز العمال (في الباب الثاني في صوم الفضل) من الإكمال حـ ٨ ص ٥٦١ رقم ٢٤١٧٢ وعزاه إلى أبي الشيخ ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة .

(٣) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الصيام) باب كراهة صيام الجمعة منفردا حـ ١ ص ٢٥٣ رقم ٧٠٠

(٤) أنظر صحيح مسلم بشرح النووي (كتاب الصيام) باب كراهة إفراد يوم الجمعة بصوم حـ ٨ ص ١٨ إلا أنه قال جابر : نعم ورب هذا البيت .

(٥) أنظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ٢٥٣ (باب كراهة صيام الجمعة منفردا) رقم ٧٠١

(٦) مسلم بشرح النووي (باب كراهة إفراد يوم الجمعة بصوم) حـ ٨ ص ١٨ ، ١٩

(٧) أنظر صحيح البخاري بحاشية السندي (كتاب الصيام) باب صوم يوم الجمعة حـ ١ ص ٣٤٠ ومصنف ابن أبي شيبة (كتاب الصيام باب ما ذكر في صوم الجمعة حـ ٣ ص ٤٤ ، ٤٥

وفي « مسند أحمد » عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لاتصوموا يوم الجمعة وحده »[1] .

وفي « مسنده » أيضاً عن جنازة الأزدي قال : دخلت على رسول الله ﷺ يوم جمعة في سبعة من الأزد ، أنا ثامنهم وهو يتغدّى ، فقال : « هلموا إليّ للغداء » فقلنا : يارسول الله إنا صيام . فقال : أصمتم أمس ؟ قلنا : لا . قال : فتصومون غداً ؟ قلنا : لا . قال فأفطروا . قال : فأكلنا مع رسول الله ﷺ قال : فلما خرج وجلس على المنبر دعا بإناء ماء فشرب وهو على المنبر والناس ينظرون إليه ، يريهم أنه لا يصوم يوم الجمعة[2]

وفي (مسنده) أيضاً عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يوم الجمعة عيد ، فلا تجعلوا يوم عيدكم يوم صيامكم إلا أن تصوموا قبله أو بعده »[3]

وذكر ابن أبي شيبةّ ، عن سفيان بن عيينه ، عن عمران بن ظبيان ، عن حكيم بن سعد ، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : من كان منكم متطوعاً من الشهر أياماً ، فليكن في صومه يوم الخميس ، ولا يصم يوم الجمعة ؛ فإنه يوم طعام وشراب وذكر ، فيجمع الله له يومين صالحين : يوم صيامه ويوم نسكه مع المصلين[4]

وذكر ابن جرير عن مغيرة عن إبراهيم : أنهم كرهوا صوم الجمعة ليقوُوا على الصلاة[2].

قلت : المأخذ في كراهيته : ثلاثة أمور ، هذا **أحدها** ، ولكن يشكل عليه زوال الكراهية بضم يوم قبله ، أو بعده إليه .

والثاني : أنه يوم عيد وهو الذي أشار إليه ﷺ وقد أورد على هذا التعليل إشكالان : **أحدهما** : أن صومه ليس بحرام وصوم يوم العيد حرام .

والثاني : أن الكراهة تزول بعدم إفراده . وأجيب عن الإشكالين ، بأنه ليس عيد العام بل عيد الأسبوع ، والتحريم إنما هو لصوم عيد العام وأما إذا صام يوماً قبله أو يوماً بعده فلا يكون قد صامه لأجل كونه جمعة وعيداً فتزول المفسدة الناشئة من تخصيصه ، بل يكون داخلاً في صيامه تبعاً ، وعلى هذا يحمل ما رواه الإمام أحمد - رحمه الله - في (مسنده) والنسائي ، والترمذي من حديث عبد الله بن مسعود - إن صح - قال : قلّما رأيت رسول الله ﷺ يفطر يوم الجمعة[6]. فإن صح هذا ، تعين

(١) مسند الإمام أحمد (مسند ابن عباس - رضى الله عنهما) حـ ١ ص ٢٨٨

(٢) مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الصيام) باب صوم الجمعة حـ ٣ ص ٤٤

(٣) مسند الإمام أحمد (مسند أبى هريرة - رضى الله عنه) حـ ٢ ص ٥٣٢

(٤) مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الصيام) باب ما ذكر فى صوم الجمعة حـ ٣ ص ٤٤ إلا أنه قال : « ويوم نسكه مع المسلمين » بدل « ويوم نسكه مع المصلين »

(٥) مصنف ابن أبى شيبة (كتاب الصيام) باب ما ذكر فى صوم يوم الجمعة حـ ٣ ص ٤٤

(٦) أنظر سنن النسائى (باب صوم النبى ، صلى الله تعالى عليه وسلم) حـ ٤ ص ٢٠٤
ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الصوم) باب ماجاء فى صوم يوم الجمعة حـ ٣ ص ١٠٩ رقم ٧٤٢

حملة على أنه كان يدخل في صيامه تبعاً لا أنه كان يفرده ؛ لصحة النهي عنه . وأين أحاديث النهي الثابتة في الصحيحين ، من حديث الجواز الذي لم يروه أحد من أهل الصحيح ؟ وقد حكم الترمذي بغرابته ، فكيف تعارض به الأحاديث الصحيحة الصريحة ثم يقدم عليها ؟

والمأخذ الثالث : سد الذريعة من أن يُلحق بالدين ما ليس فيه ويوجب التشبه بأهل الكتاب في تخصيص بعض الأيام بالتجرد عن الأعمال الدنيوية ، وينضم إلى هذا المعنى : أن هذا اليوم لما كان ظاهر الفضل على الأيام كان الداعي إلى صومه قوياً فهو في مظنة تتابع الناس في صومه واحتفالهم به ما لا يحتفلون بصوم يوم غيره ، وفى ذلك إلحاق بالشرع ما ليس منه . ولهذا المعنى – والله أعلم – عني عن تخصيص ليلة الجمعة بالقيام من بين الليالي لأنها من أفضل الليالي ، حتى فضلها بعضهم على ليلة القدر ، وحكيت رواية عن أحمد ، فهي في مظنة تخصيصها بالعبادة فحسم الشارع الذريعة وسدها بالنهي عن تخصيصها بالقيام . والله أعلم .

فإن قيل : ما تقولون في تخصيص يوم غيره بالصيام ؟ قيل : أما تخصيص ما خصصه الشارع كيوم الإثنين ويوم عرفة ويوم عاشوراء فسُنَّة ، وأما تخصيص غيره كيوم السبت والثلاثاء والأحد والأربعاء فمكروه ، وما كان منها أقرب إلى التشبه بالكفار لتخصيص أيام أعيادهم بالتعظيم والصيام فأشد كراهة وأقرب إلى التحريم .

الثالثة والثلاثون : أنه يوم اجتماع الناس وتذكيرهم بالمبدأ والمعاد ، وقد شرع الله – سبحانه وتعالى – لكل أمة في الأسبوع يوماً يتفرغون فيه للعبادة ، ويجتمعون فيه لتذكير المبدأ والمعاد والثواب والعقاب ، ويتذكرون اجتماعهم يوم الجمع الأكبر قياماً بين يدي رب العالمين ، وكان أحق الأيام بهذا الغرض المطلوب اليوم الذي يجمع الله فيه الخلائق ، وذلك يوم الجمعة فادّخره الله لهذه الأمة ؛ لفضلها وشرفها ، فشرع اجتماعهم في هذا اليوم لطاعته ، وقدّر اجتماعهم فيه مع الأمم لنيل كرامتهم ، فهو يوم الاجتماع شرعاً في الدنيا وقدراً في الآخرة ، وفي مقدار انتصافه وقت الخطبة والصلاة ، يكون أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم كما ثبت عن ابن مسعود من غير وجه أنه قال : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في منازلهم وأهل النار في منازلهم ، وقرأ : ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا** ﴾[1] وقرأ : ﴿ **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾[2] .

وكذلك هي في قراءته (مرجعهم) ولهذا كون الأيام سبعة إنما تعرفه الأمم التي لها كتاب ، فأما أمة لا كتاب لها فلا تعرف ذلك إلا من تلقاه منهم عن أمم الأنبياء ، فإنه ليس هنا علامة حسية يعرف بها كون الأيام سبعة بخلاف الشهر والسنة وفصولها ، ولما خلق الله السموات والأرض وما بينهما في ستة

= قال أبو عيسى : حديث عبد الله حديث حسن غريب .
وأنظر مسند أحمد ح ١ ص ٤٠٦

(١) سورة الفرقان ، الاية : ٢٤

(٢) الآية : ٦٨ من سورة الصافات .

أيام وتعرّف بذلك إلى عباده على ألسنة رسله وأنبيائه شرع لهم في الأسبوع يوماً يذكرهم فيه بذلك ، وحكمة الخلق وما خُلقوا له ، وبأجل العالم ، وطيّ السموات والأرض ، وعود الأمر كما بدأه - سبحانه - وعداً عليه حقاً ، وقولاً صدقاً ، ولهذا كان النبي ﷺ يقرأ في فجر يوم الجمعة سورتي : ﴿ **آلم تنزيل** ﴾ و ﴿ **هل أتي على الإنسان** ﴾ لما اشتملت عليه هاتان السورتان مما كان ويكون من المبدأ والمعاد وحشر الخلائق وبعثهم من القبور إلى الجنة والنار ، لا لأجل السجدة كما يظنه من نقص علمه ومعرفته ، فيأتي بسجدة من سورة أخرى ، ويعتقد أن فجر يوم الجمعة فضّل بسجدة ، وينكر على من لم يفعلها .

وهكذا كانت قراءته ﷺ في المجامع الكبار كالأعياد ونحوها بالسورة المشتملة على التوحيد والمبدأ والمعاد وقصص الأنبياء مع أممهم ، وما عامل الله به من كذّبهم وكفر بهم من الهلاك والشقاء ، ومن آمن منهم وصدقهم من النجاة والعافية .

كما كان يقرأ في العيدين بسورتي : ﴿ **قٓ والقرآن المجيد** ﴾ و ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ وتارة بـ ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى** ﴾ و ﴿ **هل أتاك حديث الغاشية** ﴾ وتارة يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة لما تضمنت من الأمر بهذه الصلاة وإيجاب السعي إليها وترك العمل العائق عنها ، والأمر بإكثار ذكر الله ليحصل لهم الفلاح في الدارين ؛ فإن في نسيان ذكره - تعالى - العطب والهلاك في الدارين ، ويقرأ في الثانية بسورة ﴿ **إذا جاءك المنافقون** ﴾ تحذيراً للأمة من النفاق المردي ، وتحذيراً لهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن صلاة الجمعة وعن ذكر الله ، وأنهم إن فعلوا ذلك خسروا ولابد ، وحضاً لهم على الإنفاق الذي هو من أكبر أسباب سعادتهم ، وتحذيراً لهم من هجوم الموت وهم على حالة يطلبون الإقالة ويتمنون الرجعة ولا يجابون إليها .

وكذلك كان ﷺ يفعل عند قدوم وفد يريد أن يسمعهم القرآن ، وكان يُطيل قراءة الصلاة الجهرية لذلك ، كما صلى المغرب بـ (**الأعراف**) وبـ (**الطور**) و (**ق**) وكان يصلي الفجر بنحو مائة آية .

وكذلك كانت خطبته ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، وذكر الجنة والنار ، وما أعدّ الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعدّ لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه ، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أموراً مشتركة بين الخلائق وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل في القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له ولا معرفة خاصة به ، ولا تذكيراً بأيامه ، ولا بعثاً للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة ، غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلي التراب أجسامهم ، فياليت شعري أيّ إيمان حصل بهذا ؟ وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به ؟

ومن تأمل خطب النبي ﷺ وخطب أصحابه وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد ، وذكر صفات الرب - جل جلاله - وأصول الإيمان الكلية ، والدعوة إلى الله وذكر آلائه - تعالى - التي

تحببه إلى خلقه ، وأيامه التي تخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه ، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبّوه وأحبهم ، ثم طال العهد وخفي نور النبوة ، وصارت الشرائع والأوامر رسوماً ، فقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به ، فجعلوا الرسوم والأوضاع سنناً لا ينبغي الإخلال بها ، وأخلُّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفِقَر وعلم البديع فنقص – بل عدم – حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها .

فمما حفظ من خطبه ﷺ أنه كان يكثر أن يخطب بالقرآن وسورة (ق) .

قالت أم هشام بنت الحارث بن النعمان : ما حفظت (قٓ) إلا من رسول الله ﷺ مما يخطب بها على المنبر[1].

وحُفظ من خطبته ﷺ من رواية علي بن زيد بن جدعان – وفيها ضعف – : « يا أيها الناس : توبوا إلى الله – عز وجل – قبل أن تموتوا ، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا ، وصلوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة في السر والعلانية تؤجروا وتحمدوا وترزقوا ، واعلموا أن الله – عز وجل – قد فرض عليكم الجمعة فريضة مكتوبة في مقامي هذا في شهري هذا في عامي هذا إلى يوم القيامة ، من وجد إليها سبيلاً ، فمن تركها في حياتي أو بعد مماتي جحوداً بها أو استخفافاً بها وله إمام جائر أو عادل فلا جمع الله شمله ، ولا بارك له في أمره ألا ولا صلاة له ، ألا ولا وضوء له ، ألا ولا صوم له ، ألا ولا زكاة له ، ألا ولا حج له ، ألا ولا بركة له حتى يتوب ، فإن تاب تاب الله عليه ، ألا ولا يَؤُمَّنَّ امرأة رجلاً ، ألا ولا يَؤُمَّنَّ أعرابي مهاجراً ، ألا ولا يؤُمَّنَّ فاجر مؤمناً إلا أن يقهره سلطان فيخاف سيفه وسوطه »[2].

وحفظ من خطبته أيضاً : « الحمد لله نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ارسله بالحق بشيرا ونذيرا بين يدى الساعة من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئاً »[3].

(١) سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب الرجل يخطب على قوس حـ ١ ص ٢٨٨ رقم ١١٠٠
وأنظر سنن النسائى (باب القراءة فى الخطبة) حـ ٣ ص ١٠٧
وأنظر صحيح مسلم بشرح النووى حـ ٦ ص ١٦٢

(٢) أنظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب فى فرض الجمعة حـ ١ ص ٣٤٣ رقم ١٠٨١ فى الزوائد : إسناده ضعيف ، لضعف على بن زيد بن جدعان ، وعبد الله بن محمد العدوى .
وقد رواه ابن ماجه عن جابر بن عبد الله .

(٣) سنن أبى داود (باب الرجل يخطب على قوس » حـ ١ ص ٢٨٧ رقم ١٠٩٧ من رواية ابن مسعود ـ رضى الله عنه .

فصــــل

في هديــه ﷺ في خطبـــه

كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول : « صبّحكم ومسّاكم » ويقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ويقول : « أما بعد : فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ثم يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك دَيْناً أو ضياعاً فإليَّ وعليَّ » رواه مسلم[١].

وفي لفظ : كانت خطبة النبي ﷺ يوم الجمعة يحمد الله ويثني عليه ثم يقول على إثر ذلك : وقد علا صوته . فذكره[٢].

وفي لفظ : يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ثم يقول : « من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وخير الحديث كتاب الله »[٣].

وفي لفظ النسائي : « وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار »[٤].

وكان يقول في خطبته بعد التحميد والثناء والتشهد : « أما بعد » . وكان يقصّر الخطبة ويطيل الصلاة ، ويكثر الذكر ، ويقصد الكلمات الجوامع ، وكان يقولْ : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته من فقهه »[٥].

وكان يعلّم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام وشرائعه ، ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي ، كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلي ركعتين .

ونهى المتخطي رقاب الناس عن ذلك وأمره بالجلوس .

وكان يقطع خطبته للحاجة تعرض ، أو السؤال من أحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها .

وكان ربما نزل عن المنبر للحاجة ثم يعود فيتمها ، كما نزل لأخذ الحسن والحسين – رضي الله

(١) صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الصلاة) باب خطبته ـــ ﷺ فى الجمعة حـ ٦ ص ١٥٣ ، ١٥٤ من رواية جابر بن عبد الله ـــ رضى الله عنه .

(٢) المصدر السابق ص ١٥٦

(٣) المصدر السابق ص ١٥٦

(٤) انظر سنن النسائى (كتاب صلاة العيدين) باب كيف الخطبة حـ ٣ ص ١٨٨ ، ١٨٩ فقد روى هذا ، وهو جزء حديث لجابر بن عبد الله ـــ رضى الله عنه .

(٥) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (باب صلاة الجمعة وخطبتها) حـ ٦ ص ١٥٨ فقد أورده جزءا من حديث عن عمار بن ياسر ـــ رضى الله عنهما .

عنهما — فأخذهما ثم رقى بهما المنبر فأتم خطبته ، وكان يدعو الرجل في خطبته : تعال يا فلان ، اجلس يا فلان ، صلِّ يا فلان ».

وكان يأمرهم بمقتضى الحال في خطبته ، فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها .

وكان يشير بأصبعه السبابة في خطبته عند ذكر الله — تعالى — ودعائه وكان يستسقى بهم إذا قحط المطر في خطبته .

وكان يمهل يوم الجمعة حتى يجتمع الناس ، فإذا اجتمعوا خرج إليهم وحده من غير شاويش يصيح بين يديه ، ولا لبس طيلسان ، ولا طراحة ولا سواد ، فإذا دخل المسجد سلم عليهم ، فإذا صعد المنبر استقبل الناس بوجهه وسلم عليهم ، ولم يدع مستقبل القبلة ، ثم يجلس ، ويأخذ بلال في الأذان ، فإذا فرغ منه قام النبي ﷺ فخطب من غير فصل بين الأذان والخطبة لا بإيراد خبر ولا غيره .

ولم يكن يأخذ بيده سيفاً ولا غيره ، وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر وكان في الحرب يعتمد على قوس وفي الجمعة يعتمد على عصا ، ولم يحفظ عنه أنه اعتمد على سيف ، وما يظنه بعض الجهال أنه كان يعتمد على السيف دائماً وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قام بالسيف فمن فرط جهله ؛ فإنه لا يحفظ عنه بعد اتخاذ المنبر أنه كان يرقاه بسيف ولا قوس ولا غيره ، ولا قبل اتخاذه أنه أخذ بيده سيفاً البتة ، وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس ، وكان منبره ثلاث درجات ، وكان قبل اتخاذه يخطب إلى جذع يستند إليه ، فلما تحول إلى المنبر حنَّ الجذع حنيناً سمعه أهل المسجد فنزل إليه ﷺ وضمّه ، قال أنس : حنَّ لما فقد ما كان يسمع من الوحي وفقده التصاق النبي ﷺ ولم يوضع المنبر في وسط المسجد ، وإنما وضع في جانبه الغربي قريباً من الحائط وكان بينه وبين الحائط قدر ممر الشاة .

وكان إذا جلس عليه النبي ﷺ في غير الجمعة أو خطب قائماً في الجمعة استدار أصحابه إليه بوجوههم ، وكان وجهه ﷺ قبلهم في وقت الخطبة .

وكان يقوم فيخطب ثم يجلس جلسة خفيفة ، ثم يقوم فيخطب الثانية ، فإذا فرغ منها أخذ بلال في الإقامة ، وكان يأمر الناس بالدنو فيه ، ويأمرهم بالإنصات ، ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه : أنصت فقد لغا ، ويقول : « من لغا فلا جمعة له »(١) وكان يقول : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذي يقول له : أنصت ليست له جمعة »(٢) رواه أحمد .

وقال أُبيّ بن كعب : قرأ رسول الله ﷺ يوم الجمعة (تبارك) وهو قائم فذكرنا بأيام الله ، وأبو

---

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجمعة) باب فى الإنصات يوم الجمعة فى الخطبة حـ ١ ص ١٦٥ رقم ٤٩٤ ورواه النسائى حـ ٣ ص ١٠٤ بمثل حديث الصحيحين = ورواه أبو داود حـ ١ ص ٢٩٠ رقم ١١١٢ وأنظر سنن ابن ماجه (باب ماجاء فى الاستماع للخطبة) حـ ١ ص ٣٥٢ رقم ١١١٠

(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ١ ص ٢٤٠ فقد رواه عن ابن عباس = رضى الله عنهما .

الدرداء أو أبو ذر يغمزني . فقال : متى أنزلت هذه السورة ؟ فإني لم أسمعها إلا الآن . فأشار إليه أن اسكت ، فلما انصرفوا قال : سألتك : متى أنزلت هذه السورة فلم تخبرني ، فقال : إنه ليس من صلاتك اليوم إلا ما لغوت ، فذهب إلى رسول الله ﷺ فذكر له ذلك وأخبره بالذي قال له أبي ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق أُبَيّ »[1].

وقال ﷺ : « يحضر الجمعة ثلاثة نفر : رجل حضرها يلغو وهو حظه منها ، ورجل حضرها يدعو فهو رجل دعا الله — عز وجل — إن شاء أعطاه وإن شاء منعه ، ورجل حضرها بإنصات وسكوت ولم يتخط رقبة مسلم ولم يؤذ أحداً فهي كفارة له إلى يوم الجمعة التي تليها وزيادة ثلاثة أيام ، وذلك أن الله — عز وجل — يقول : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) ذكره أحمد[2].

وكان إذا فرغ بلال من الأذان أخذ النبي ﷺ في الخطبة ولم يقم أحد يركع ركعتين البتة ، ولم يكن الأذان إلا واحداً ، وهذا يدل على أن الجمعة كالعيد لا سنة لها قبلها ، وهذا أصح قول العلماء ، وعليه تدل السنة ؛ فإن النبي ﷺ كان يخرج من بيته فإذا رقى المنبر أخذ بلال في أذان الجمعة ، فإذا أكمله أخذ النبي ﷺ في الخطبة من غير فصل ، وهذا كان رأي عين ، فمتى كانوا يصلون السنة ؟ ومن ظن أنهم كانوا إذا فرغ بلال — رضي الله عنه — من الأذان قاموا كلهم فركعوا ركعتين فهو أجهل الناس بالسنة ، وهذا الذي ذكرناه من أنه لا سنة قبلها هو مذهب مالك وأحمد في المشهور عنه وأحد الوجهين لأصحاب الشافعي .

والذين قالوا : إن لها سنة منهم من احتج بأنها ظهر مقصورة فيثبت لها أحكام الظهر ، وهذه حجة ضعيفة جداً ؛ فإن الجمعة صلاة مستقلة بنفسها تخالف الظهور في الجهر والعدد والخطبة والشروط المعتبرة لها ، وتوافقها في الوقت ، وليس إلحاق مسألة النزاع بموارد الاتفاق أولى من إلحاقها بموارد الافتراق ، بل إلحاقها بموارد الافتراق أولى لأنها أكثر مما اتفقا فيه . .

ومنهم من أثبت السنة لها هنا بالقياس على الظهر ، وهو أيضاً قياس فاسد ؛ فإن السنة ما كان ثابتاً عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو سنة خلفائه الراشدين ، وليس في مسألتنا شيء من ذلك ، ولا يجوز إثبات السنن في مثل هذا بالقياس ؛ لأن هذا مما انعقد بسبب فعله في عهد النبي ﷺ فإذا لم يفعله ولم يشرعه كان تركه هو السنة ، ونظير هذا أن يشرع لصلاة العيد سنة قبلها أو بعدها بالقياس ، فلذلك كان الصحيح أنه لا يسن الغسل للمبيت بمزدلفة ولا لرمي الجمار ولا للطواف ولا للكسوف ولا للاستسقاء لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يغتسلوا لذلك مع فعلهم لهذه العبادات .

ومنهم من احتج بما ذكره البخاري في (صحيحه) فقال : باب الصلاة قبل الجمعة وبعدها : حدثنا عبد الله بن يوسف ، أنبأنا مالك ، عن نافع ، عن ابن عمر أن النبي ﷺ « كان يصلي قبل

(١) انظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ماجاء فى الاستماع للخطبة حـ ١ ص ٣٥٢ رقم ١١١١

(٢) انظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب الكلام و الإمام يخطب حـ ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ رقم ١١١٢ من رواية أبى هريرة عن رسول الله ﷺ والآية هى رقم ١٦٠ من سورة الأنعام

الظهر ركعتين وبعدها ركعتين ، وبعد المغرب ركعتين في بيته ، وقبل العشاء ركعتين ، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصل ركعتين »[١] وهذا لا حجة فيه ولم يُرد به البخاري إثبات السنة قبل الجمعة ، وإنما مراده أنه هل ورد في الصلاة قبلها أو بعدها شيء ؟ ثم ذكر هذا الحديث ، أي : أنه لم يرد عنه فعل السنة إلا بعدها ولم يرد قبلها شيء .

وهذا ما فعل في كتاب العيدين ، فإنه قال : باب الصلاة قبل العيد وبعدها وقال أبو المعلي : سمعت سعيداً عن ابن عباس أنه كره الصلاة قبل العيد[٢]. ثم ذكر حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس « أن النبي ﷺ خرج يوم الفطر فصلى ركعتين لم يصل قبلهما ولا بعدهما ومعه بلال »[٣] فترجم للعيد مثل ما ترجم للجمعة وذكر للعيد حديثاً دالاً على أنه لا تشرع الصلاة قبلها ولا بعدها ، فدل على أن مراده من الجمعة كذلك ، وقد ظن بعضهم أن الجمعة لما كانت بدلاً عن الظهر وقد ذكر في الحديث السنة قبل الظهر وبعدها دلّ على أن الجمعة كذلك ، وإنما قال : « وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف » بياناً لموضع صلاة السنة بعد الجمعة وأنه بعد الانصراف ، وهذا الظن غلط منه ؛ لأن البخاري قد ذكر في باب التطوع بعد المكتوبة حديث ابن عمر - رضي الله عنه - : صليت مع رسول الله ﷺ سجدتين قبل الظهر وسجدتين بعد الظهر وسجدتين بعد المغرب وسجدتين بعد العشاء وسجدتين بعد الجمعة فهذا صريح في أن الجمعة عند الصحابة صلاة مستقلة بنفسها غير الظهر وإلا لم يحتج إلى ذكرها لدخولها تحت اسم الظهر ، فلما لم يذكر لها سنة إلا بعدها عُلِمَ أنه لا سنة لها قبلها ، ومنهم من احتج بما رواه ابن ماجه في (سننه) عن أبي هريرة وجابر قال : جاء سليك الغطفاني ورسول الله ﷺ يخطب فقال له : « أصليت ركعتين قبل أن تجيء ؟ » قال : لا . قالا : « فصلّ ركعتين وتجوَّزْ فيهما »[٤].

قال أبو البركات ابن تيمية : وقوله : (قبل أن تجيء) يدل على أن هاتين الركعتين سنة الجمعة وليستا تحية المسجد ، قال شيخنا حفيده أبو العباس : وهذا غلط ، والحديث المعروف في (الصحيحين) عن جابر قال : دخل رجل يوم الجمعة ورسول الله ﷺ يخطب فقال : (أصليت ؟) قال : لا . قال : « فصل ركعتين » وقال : « إذا جاء أحدكم الجمعة والإمام يخطب. فليركع ركعتين وليتجوز فيهما »[٥] فهذا هو المحفوظ في هذا الحديث ، وأفراد ابن ماجه في الغالب غير صحيحة ، هذا معنى كلامه .

---

(١) أنظر صحيح البخارى بحاشية السندى (باب الصلاة بعد الجمعة وقبلها) حـ ١ ص ١٦٧

(٢) ،(٣) صحيح البخارى بحاشية السندى (باب العيدين) باب الصلاة قبل العيد وبعدها حـ ١ ص ١٧٦

(٤) سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة) باب فيمن دخل المسجد والإمام يخطب حـ ١ ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ رقم ١١١٤ وأنظر سنن أبي داود حـ ١ ص ٢٩١ رقم ١١١٦

(٥) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الجمعة) باب التحية والإمام يخطب حـ ١ ص ١٦٨ وهذا مركب من حديثين متتاليين برقمى ٥٠٢ ، ٥٠٣ وليس فيهما « وليتجوز فيهما » وقد وردت هذه العبارة فى رواية أبى داود حـ ١ ص ٢٩٢ رقم ١١١٧ من رواية جابر — رضى الله عنه .

وقال شيخنا أبو الحجاج الحافظ المزي : هذا تصحيف من الرواة ، إنما هو (أصليت قبل أن تجلس) فغلط فيه الناسخ ، وقال : وكتاب ابن ماجه إنما تداولته شيوخ لم يعتنوا به بخلاف صحيحي البخاري ومسلم فإن الحفاظ تداولوهما واعتنوا بنضبطهما وتصحيحهما ، قال : ولذلك وقع فيه أغلاط وتصحيف .

قلت : ويدل على صحة هذا أن الذين اعتنوا بضبط سنن الصلاة قبلها وبعدها وصنفوا في ذلك من أهل الأحكام والسنن وغيرها لم يذكر واحد منهم هذا الحديث في سنة الجمعة قبلها ، وإنما ذكروه في استحباب فعل تحية المسجد والإمام على المنبر ، واحتجوا به على من منع من فعلها في هذه الحال ، فلو كانت هي سنة الجمعة لكان ذكرها هناك ، والترجمة عليها وحفظها وشهرتها أولى من تحية المسجد ، ويدل عليه أيضاً أن النبي ﷺ لم يأمر بهاتين الركعتين إلا الداخل لأجل أنها تحية المسجد ، ولو كانت سنة الجمعة لأمر بها القاعدين أيضاً ولم يخص بها الداخل وحده . ومنهم من احتج بما رواه أبو داود في (سننه) قال : حدثنا مسدّد قال : حدثنا إسماعيل ، حدثنا أيوب عن نافع قال ن: كان ابن عمر يطيل الصلاة قبل الجمعة ، ويصلي بعدها ركعتين في بيته ، وحدث أن رسول الله ﷺ « كان يفعل ذلك »[1] وهذا لا حجة فيه على أن للجمعة سنة قبلها وإنما أراد بقوله : إن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك أنه كان يصلي ركعتين بعد الجمعة في بيته ، لا يصليهما في المسجد ، وهذا هو الأفضل فيهما كما ثبت في (الصحيحين) عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته[2] وفي (السنن) عن ابن عمر أنه إذا كان بمكة فصلى الجمعة تقدم فصلى ركعتين ، ثم تقدم فصلى أربعاً ، وإذا كان بالمدينة صلى الجمعة ثم رجع إلى بيته فصلى ركعتين ولم يصل بالمسجد ، فقيل له ، فقال : كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك[3]. وأما إطالة ابن عمر الصلاة قبل الجمعة فإنه تطوع مطلق ، وهذا هو الأولى لمن جاء إلى الجمعة أنه يشتغل بالصلاة حتى يخرج الإمام .

قال أبو هريرة عن النبي ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة ثم أتى المسجد فصلى ما قدر له ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من خطبته ثم يصلي معه غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام »[4] وفي حديث نبيشة الهذلي : « إن المسلم إذا اغتسل يوم الجمعة ثم أقبل إلى المسجد لا يؤذي أحداً ، فإن لم يجد الإمام خرج صلى ما بدا له ، وإن وجد الإمام خرج جلس فاستمع وأنصت حتى يقضي الإمام

(١) أنظر سنن أبي داود (كتاب الصلاة) باب الصلاة بعد الجمعة حـ ١ ص ٢٩٤ رقم ١١٢٨

(٢) اللؤلؤ والمرجان (باب فضل السنن الراتبة قبل الفرائض وبعدهن وبيان عددهن حـ ١ ص ١٤٢ رقم ٤٢٣ ولفظه (وهو لفظ مسلم) : « صليت مع النبي ﷺ سجدتين قبل الظهر ، وسجدتين بعد الظهر ، وسجدتين بعد المغرب ، وسجدتين بعد العشاء ، وسجدتين بعد الجمعة ، فأما المغرب والعشاء ففي بيته »

ولفظ البخارى فى (باب التهجد بالليل) حـ ١ ص ٢٠٤ نفس اللفظ السابق ،

وأما لفظ الحديث الذى معنا فقد رواه أبو داود عن ابن عمر — رضى الله عنهما — حـ ١ ص ٢٩٥ رقم ١١٣٢ وفى سنن ابن ماجه حـ ١ ص ٣٥٨ رقم ١١٣١ وسنن الترمذى حـ ٢ ص ٣٩٩ رقم ٥٢١

(٣) أنظر سنن أبي داود (كتاب الصلاة) باب الصلاة بعد الجمعة حـ ١ ص ٢٩٤ رقم ١١٣٠

(٤) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (باب فضل من استمع وأنصت للخطبة) حـ ٦ ص ١٤٦

جمعته وكلامه ، إن لم يغفر له في جمعته تلك ذنوبه كلها أن تكون كفارة للجمعة التي تليها »[١] هكذا كان هدى الصحابة – رضي الله عنهم – .

قال ابن المنذر : روينا عن ابن عمر : أنه كان يصلي قبل الجمعة ثنتى عشرة ركعة .

وعن ابن عباس أنه كان يصلي ثماني ركعات ، وهذا دليل على أن ذلك كان منهم من باب التطوع المطلق ، ولذلك اختلف في العدد المروي عنهم في ذلك . وقال الترمذي في (الجامع) : وروى عن ابن مسعود أنه كان يصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً[٢] وإليه ذهب ابن المبارك والثوري .

وقال إسحاق بن إبراهيم بن هانىء النيسابوري : رأيت أبا عبد الله إذا كان يوم الجمعة يصلي إلى أن يعلم أن الشمس قد قاربت أن تزول ، فإذا قاربت أمسك عن الصلاة حتى يؤذن المؤذن ، فإذا أخذ في الآذان قام فصلى ركعتين أو أربعاً يفصل بينهما بالسلام ، فإذا صلى الفريضة انتظر في المسجد ، ثم يخرج منه فيأتي بعض المساجد التي بحضرة الجامع فيصلي فيه ركعتين ثم يجلس ، وربما صلى أربعاً ثم يجلس ، ثم يقوم فيصلي ركعتين أخريين ، فتلك ست ركعات على حديث علي ، وربما صلى بعد الست ستاً أخر ، أو أقل أو أكثر ، وقد أخذ من هذا بعض أصحابه رواية : أن للجمعة قبلها سنة ركعتين أو أربعاً ، وليس هذا بصريح بل ولا ظاهر ، فإن أحمد كان يمسك عن الصلاة في وقت النهي فإذا زال وقت النهي قام فأتم تطوعه إلى خروج الإمام ، فربما أدرك أربعاً وربما لم يدرك إلا ركعتين ، ومنهم من احتج على ثبوت السنة قبلها بما رواه ابن ماجه في (سننه) : حدثنا محمد بن يحيى ، حدثنا يزيد بن عبد ربه ، حدثنا بقية ، عن مبشر بن عبيد ، عن حجاج بن أرطاة ، عن عطية العوفي ، عن ابن عباس قال : « كان النبي ﷺ يركع قبل الجمعة أربعاً لا يفصل في شيء منهن »[٣] . قال ابن ماجه : باب الصلاة قبل الجمعة فذكره .

وهذا الحديث فيه عدة بلايا إحداها : بقية بن الوليد : إمام المدلسين ، وقد عنعنه ولم يصرح بالسماع .

الثانية : مبشر بن عبيد المنكر الحديث ، وقال عبد الله بن أحمد : سمعت أبي يقول : شيخ كان يقال له : مبشر بن عبيد كان بحمص أظنه كوفياً ، روى عنه بقية وأبو المغيرة ، أحاديثه أحاديث موضوعة كذب ، وقال الدارقطني : مبشر بن عبيد متروك الحديث ، أحاديثه لا يتابع عليها .

الثالثة : الحجاج بن أرطأة الضعيف المدلس .

الرابعة : عطية العوفي ، قال البخاري : كان هشيم يتكلم فيه ، وضعفه أحمد ، وقال البيهقي : عطية العوفي لا يحتج به . ومبشر بن عبيد الحمصي منسوب إلى وضع الحديث . والحجاج بن أرطأة

(١) أنظر مسند الإمام أحمد (حديث نبيشة الهذلي ــ رضى الله عنه) حـ ٥ ص ٧٥

(٢) أنظر سنن الترمذى (أبواب الجمعة) باب ماجاء فى الصلاة قبل الجمعة وبعدها حـ ٢ ص ٤٠١

(٣) أنظر سنن ابن ماجه (كتاب إقامة الصلاة) باب ماجاء فى الصلاة قبل الجمعة حـ ١ ص ٣٥٨ رقم ١١٢٩ وقال : فى الزوائد : إسناده مسلسل بالضعفاء ، عطية متفق على ضعفه . وحجاج مدلس ومبشر بن عبيد كذاب . وبقية ــ هو ابن الوليد ــ مدلس .

لا يحتج به . قال بعضهم : ولعل الحديث انقلب على بعض هؤلاء الثلاثة الضعفاء لعدم ضبطهم وإتقانهم ، فقال : قبل الجمعة أربعاً ، وإنما هو بعد الجمعة ، فيكون موافقاً لما ثبت في (الصحيح) .

ونظير هذا : قول الشافعي في رواية عبد الله بن عمر : العمري : (للفارس سهمان وللراجل سهم) قال الشافعي : كأنه سمع نافعاً يقول : للفرس سهمان وللراجل سهم ، فقال للفارس سهمان وللراجل سهم حتى يكون موافقاً لحديث أخيه عبيد الله ، قال : وليس يشك أحد من أهل العلم في تقديم عبيد الله بن عمر على أخيه عبد الله في الحفظ .

قلت : ونظير هذا ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في حديث أبي هريرة : « لا تزال جهنم يُلقى فيها وهي تقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيزوى بعضها إلى بعض ، وتقول : قط قط . وأما الجنة : فينشىء الله لها خلقاً »[1] فانقلب على بعض الرواة فقال : أما النار فينشىء الله لها خلقاً .

قلت : ونظير هذا حديث عائشة : « إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم »[2] وهو في (الصحيحين) فانقلب على بعض الرواة فقال : « ابن أم كلثوم يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال » .

ونظيره أيضاً عندي حديث أبي هريرة : « إذا صلى أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير ، وليضع يديه قبل ركبتيه »[3] وأظنه وهم - والله أعلم - فيما قاله رسوله الصادق المصدوق (وليضع ركبتيه قبل يديه) كما قال وائل ابن حجر : كان رسول الله ﷺ إذا سجد وضع ركبتيه قبل يديه ، وقال الخطابي وغيره :

وحديث وائل بن حجر أصح من حديث أبي هريرة .

وكان ﷺ إذا صلى الجمعة دخل إلى منزله فصلى ركعتين سنتها ، وأمر من صلاها أن يصلي بعدها أربعاً ، قال شيخنا أبو العباس بن تيمية : إن صلى في المسجد صلى أربعاً ، وإن صلى في بيته صلى ركعتين ، قلت : وعلى هذا تدل الأحاديث وقد ذكر أبو داود عن ابن عمر أنه كان إذا صلى في المسجد صلى أربعاً ، وإذا صلى في بيته صلى ركعتين .

وفي الصحيحين عن ابن عمر أن النبي ﷺ كان يصلي بعد الجمعة ركعتين في بيته[4] .

---

(١) فى صحيح مسلم بشرح النووى حـ ١٧ ص ١٨٢ رواية أبى هريرة ، ولكن بغير هذا اللفظ ، ولفظها : « تحاجت الجنة والنار ... ... » الحديث ، وأما لفظ : « لاتزال جهنم ... » الحديث فهو من رواية أنس بن مالك ص ١٨٤ من نفس المصدر .

(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الصيام) باب بيان أن الدخول فى الصوم يحصل بطلوع الفجر ... الخ حـ ٢ ص ٢٤٢ رقم ٦٦٣ مع إختلاف فى بعض الألفاظ .

(٣) أنظر سنن أبى داود (كتاب الصلاة) باب كيف يضع ركبتيه قبل يديه حـ ١ ص ٢٢٢ رقم ٨٤٠ إلا أنه قال : « إذا سجد أحدكم ... » الحديث . بدلا من « إذا صلى أحدكم ... » الحديث

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى (باب الصلاة بعد الجمعة) حـ ٦ ص ١٦٩ ، ١٧٠ وليس الحديث فى البخاري ، اللهم إلا الحديث السابق فى بيان ما كان يصلى رسول الله ﷺ من الرواتب ، وهو برقم ٤٢٣ فى اللؤلؤ والمرجان .

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربع ركعات »[1] والله أعلم .

عود على بدء

وبعد ما طالت مسيرتنا في رحاب التفسير لهذا النص الكريم نعيد هنا موجزاً لتفسيره فنقول وبالله التوفيق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (٩) فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ (١١) ﴾

المفــــردات :

﴿ **نودي للصلاة** ﴾ : أذن لها . ﴿ **يوم الجمعة** ﴾ : هو اليوم المعروف من أيام الأسبوع ، وتصلى فيه صلاة الجمعة . ﴿ **فاسعوا** ﴾ : فامضوا إلى ذكر الله بقصد حسن . ﴿ **وذروا البيع** ﴾ : اتركوه . ﴿ **قضيت الصلاة** ﴾ : أديت وفرغ منها . ﴿ **انفضوا إليها** ﴾ : أسرعوا لها .

أضــــواء كاشـــــفة

خاطب الله – سبحانه وتعالى – المؤمنين خاصة بهذا النداء تشريعاً لهم وتكريماً ، وليعلموا أن إيمانهم يقتضي الإسراع في إجابة هذا الطلب وتحقيق الأمر . يا أيها المؤمنون إذا أذن لصلاة الجمعة في يوم الجمعة فالواجب عليكم أن تسعوا إلى ذكر الله سعياً يتحقق به شهود الصلاة وحضورها من أولها لتحصلوا على الثواب كاملاً ، والمطلوب هو السعي بالإقدام والعمل مع الإخلاص بقلوب ذاكرة ونفوس راغبة في الحضور والمشاهدة بين يدي الله – جل جلاله – .

اسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع والشراء وما شابههما .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (باب الصلاة بعد الجمعة) حـ ٦ ص ١٦٨ إلا أنه قال : « فليصل أربعا » مكان « فليصل أربع ركعات »

ومن الذي تجب عليه الجمعة ويجب عليه السعي لها ؟ هم الرجال المقيمون الأحرار الذين لا عذر لهم ، وما المراد بهذا النداء ؟ هل هو الأذان الأول أو هو الأذان الذي بين يدي الخطيب ؟

الذي كان أيام النبي ﷺ أنه كان يؤذن المؤذن بين يديه ثم يقيم الصلاة ، والأذان الأول حصل أيام عثمان ، وعلى ذلك فالمراد هو الأذان الثاني لا الأول ، ولكن في الواقع أن الاستعداد المعقول في هذه الأيام يقتضي أن يترك البيع ونسعى للصلاة عند سماع الأذان الأول حتى يكمل الاستعداد للصلاة بهدوء وطمأنينة .

وقد ورد حديث عن النبي ﷺ : « من ترك الجمعة ثلاث مرات تهاوناً بها طبع الله على قلبه »(١) والجمعة كأي صلاة يلزمها الوضوء والطهارة ويسن لها الغسل .

فإذا قضيت الصلاة ، وفرغتم منها فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً رجاء أن تكونوا من الفالحين ، وروى عن بعضهم أنه كان يقول عقب صلاة الجمعة : اللهم إني أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتني فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين .

روى أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة ، فجاءت عير من الشام فانفتل الناس إليها حتى لم يبق إلا إثنا عشر رجلاً ، فأنزلت هذه الآية ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً** ﴾(٢).

قل لهم : ما عند الله من الثواب الجزيل والفضل العميم والرزق الواسع والبركة التي يعطيها بعض عباده خير من اللهو ومن التجارة التي تسرعون إليها قصداً ، والله وحده خير الرازقين ، فاطلبوا منه الرزق واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة .

---

(١) انظر سنن أبي داود حـ ١ ص ٢٧٦ رقم ١٠٥٢ وسنن الترمذى حـ ٢ ص ٣٧٣ رقم ٥٠٠ والنسائى حـ ٣ ص ٨٨ وابن ماجه حـ ١ ص ٣٥٧ رقم ١١٢٥

(٢) انظر اللؤلؤ والمرجان حـ ١ ص ١٦٧ رقم ٥٠٠ باب قوله تعالى : (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) من رواية جابر بن عبد الله ـــ رضى الله عنه .

ســــــورة المنافقـــــون

مقدمـــــــة

قال صاحب البصـائر :

السورة مدنية بالاتفاق . آياتها إحدى عشرة . كلماتها مائة وثمانون . حروفها سبعمائة وستة وسبعون . فواصل آياتها (نون) سميت سورة المنافقين بمفتتحها .

فعظم مقصود السورة : تقريع المنافقين وتبكيتهم ، وبيان ذلهم وكذبهم ، وذكر تشريف المؤمنين وتبجيلهم ، وبيان عزهم وشرفهم ، والنهي عن نسيان ذكر الحق – تعالى – والغفلة عنه ، والإخبار عن ندامة الكفار بعد الموت ، وبيان أنه لا تأخير ، ولا إمهال بعد حلول الأجل ، في قوله : ﴿ **ولن يؤخر الله نفساً** ﴾ ... الآية .

وليس فيها ناسخ ولا منسوخ .

المتشـــابهات :

قوله : ﴿ **ولكن المنافقين لا يفقهون** ﴾ وبعده : ﴿ **لا يعلمون** ﴾ ، لأن الأول متصل بقوله : ﴿ **ولله خزائن السموات والأرض** ﴾ وفي معرفتها غموض يحتاج إلى فطنة ، والمنافق لا فطنة له ، والثاني متصل بقوله : ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ أي : لا يعلمون بأن الله معز لأوليائه ومذل لأعدائه .

فضـــل الســـورة :

روى فيه من الأحاديث المردودة حديث أبيّ : من قرأها بريء من النفاق ، وحديث علي : « يا علي من قرأها أعطاه الله مثل ثواب من أنفق حمل بعير ديناراً في طاعة الله ، وخرج من الدنيا على رضا الله ، وله مثل ثواب من يقضي دين أبويه بعد موتهما ، وجعل الله اثنى عشر منافقاً فداه من النار » .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ
يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟
تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ
فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ
وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن
رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

معانى المفردات

﴿ **جاءك المنافقون** ﴾ : حضروا مجلسك . ﴿ **نشهد** ﴾ : نحلف ، ولا شك أن الحلف والشهادة كل فيهما إثبات لأمر معين . ﴿ **جنة** ﴾ : سترة ووقاية . ﴿ **فطبع** ﴾ : ختم عليها بالخاتم . ﴿ **خشب مسندة** ﴾ : أي خشب ممالة إلى الجدار . ﴿ **قاتلهم** ﴾ : لعنهم وطردهم . ﴿ **يؤفكون** ﴾ : يصرفون عن الحق إلى الباطل . ﴿ **لووا رءوسهم** ﴾ : عطفوها وأمالوها إلى غير جهة . ﴿ **ينفضوا** ﴾ : يتفرقوا . ﴿ **العزة** ﴾ : العزة .

روى البخاري عن زيد بن أرقم قال : كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول : « لا تنفقوا على من عند رسول الله حين ينفضوا » وقال : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » فذكرت ذلك لعمي فذكر عمي لرسول الله ﷺ فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبيّ وأصحابه ، فحلفوا ما قالوا ، وصدقهم رسول الله وكذبني ، فأصابني هم لم يصبني مثله ، فجلست في بيتي فأنزل الله – عز وجل – : « إذا جاءك المنافقون – إلى قوله – هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله – إلى قوله – : ليخرجن الأعز منها الأذل » . فأرسل إليّ رسول الله ﷺ ثم قال : « إن الله صدقك »[1] .

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب التفسير) تفسير سورة المنافقون حـ ٣ ص ٢٠٢ (أنظر صحيح البخارى بحاشية السندى)

أضـــــواء كاشـــــفة :

إذا جاءك المنافقون وحضروا مجلسك قالوا بألسنتهم : نشهد إنك لرسول الله ، والله يعلم إنك لرسوله حقاً والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، فالتكذيب من الله لهم ليس لقولهم : إنك لرسول الله ولكنه راجع إلى ادعائهم الصدق والموافقة في الشهادة بين اللسان والقلب ، ولا شك أنهم كاذبون في قولهم هذا لأنهم لا يؤمنون به بناء على أن الكذب ما خالف الاعتقاد .

اتخذوا أيمانهم التي تعودوا الحلف بها كذباً ، اتخذوها جنة لهم ووقاية ، فهم كلما ظهر منهم شيء يوجب المؤاخذة حلفوا عليه كاذبين عصمة لأموالهم ودمائهم – كما روى البخاري في سبب النزول – واتخاذ الأيمان جنة عبارة عن إعدادهم وتهيئتهم لها إلى وقت الحاجة ليحلفوا ويتخلصوا من المؤاخذة ، فهم صدوا عن سبيل الله من أراد الدخول في الإسلام واستمروا على ذلك ، وقرىء ﴿ **إيمانهم** ﴾ والمراد ماكانوا يظهرونه من إسلام ليكون وقاية لهم من القتل أو الأسر ، إنهم ما كانوا يعملون من النفاق وما يتبعه .

ذلك – والإشارة إلى أنهم أسوأ الناس عملاً ، أو إلى ما حكى من نفاقهم وكذبهم وأيمانهم – بسبب أنهم آمنوا نفاقاً وكذباً ، ثم كفروا ، أي : ظهر كفرهم من أقوالهم ، وأفعالهم ، فطبع على قلوبهم وختم عليها بالخاتم حتى لا يدخلها نور الحق ، فهم لا يفقهون الحق والطريق السوي .

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم لقوتها وتناسب أعضائها ، وإن يقولوا تسمع لقولهم لفصاحته وذلاقة ألسنتهم وحسن كلامهم في الدنيا ، والخطاب في الآية لكل من يصلح للخطاب ، وهو لسيد المخاطبين ﷺ وكانوا يحضرون مجلس الرسول كأنهم خشب مسندة ، شبهوا وهم جالسون مستندون إلى الحائط بالخشب المسندة ؛ إذ لا روح فيهم يعقل ، ولا بصيرة تبصر الخير والحق ، فهم كما نقول : **نضد أو** كراسي .

وهم لفرط هلعهم وشدة خوفهم من أن ينزل فيهم قرآن يفضحهم ، وسوء طويتهم ، يحسبون كل صيحة واقعة عليهم ، هم العدو الكاملون في العداوة ، إذ لا أحطَّ من العدو المنافق الذي يضحك لك ، وقلبه يتميز غيظاً منك ، فاحذرهم لكونهم أعدى الأعادي ، ولا تقربهم ، قاتلهم الله ، أي : لعنهم وطردهم من رحمته ، والكلام دعاء وطلب من ذاته – تعالى – أن يلعنهم هو ويطردهم ، أو هو تعليم للمؤمنين أن يدعوا على المنافقين بذلك ... أنى يؤفكون ؟ أي : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل والكفر الذي هم فيه .

وإذا قيل لهم : تعالوا إلى رسول الله يستغفر لكم عما فرط منكم أشاحوا برءوسهم وعطفوها كبراً وإعراضاً عن هذا الطلب واستهزاءاً به ! ... ورأيتهم يصدون جاهدين عن سبيل الله غيرهم وهم مستكبرون .

سواء عليهم استغفارك لهم وعدمه فإنهم لن ينتفعوا به ولن يؤمنوا ؛ لأن الله لن يغفر لهم ؛ إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ، ولا غرابة في وصفهم بالفسق والخروج عن حدود الدين والعرف ، **فهم** يقولون لأصحابهم من الأنصار : لا تنفقوا على من عند رسول الله من المهاجرين حتى ينفضوا ويتفرقوا عنه ؟ عجباً لهؤلاء ؟ : أما علموا أن في السماء الرزق وأن لله خزائن السموات والأرض وأنه هو الرزاق ذو القوة المتين ، ولكن المنافقين لا يفقهون ذلك ، يقولون : لئن رجعنا إلى المدينة من غزوة بني المصطلق ليخرجن الأعز منها – أرادوا أنفسهم – الأذل من المهاجرين وأصحاب رسول الله بئسما قالوا ، والحال أن العزة والقهر والغلبة لله على أعدائه ، ولرسوله العزة بنصرة دينه وإظهاره على الأديان كلها ، وللمؤمنين العزة بنصرهم على أعدائهم وخاصة من يقول هذا الكلام السابق ، ولكن المنافقين لا يعلمون ذلك .

أرأيت إلى المنافقين وإيمانهم الكاذب وأيمانهم وشهادتهم ؟ والله يعلم إنهم لكاذبون – انظر إليهم وقد اتخذوا أيمانهم جنة لهم ، وقد صدوا عن سبيل الله وساء عملهم ، وهم في المجالس كالخشب المسندة ويظنون أن كل صيحة واقعة عليهم ، وهم الذين يدعون غيرهم إلى الإمساك والشح لقصر عقولهم ، ويتعاهدون على إخراج المؤمنين ، معتزين بالباطل والغرور ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿ **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار** ﴾[1] .

كلمـــة عن النفـــاق

النفاق : ضد الإخلاص .. فإذا كان الإخلاص هو أن يقصد العبد بعمله وجه الله تعالى فإن النفاق على النقيض من ذلك . حيث يكون المقصود بالعمل غير الله ، ومن ثم لا يكون هناك إخلاص ، وعندها تختل الموازين وتنهار القواعد ويهتز المجتمع . فإذا كان الإخلاص هو حجر الأساس في بناء النفوس : فإن النفاق أكبر معول يحطم النفوس .

والنفاق : ضد الإيمان ، والمنافقون – في كل زمان ومكان – عالة على المجتمعات في السراء ، وسوس ينخر في عظام الأمة ساعة الضراء ، لا يعدون للجهاد عدة ، ولا يتمنون للمجاهدين عودة .

﴿ **يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم** ﴾[2] .

﴿ **يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير** ﴾[3] .

---

(١) من الآية : ١٤٥ من سورة النساء

(٢) من الآية ١٩٤ من سورة آل عمران .

(٣) الآية : ١٥٦ من سورة آل عمران .

﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾[١].

هذه أقوال أصحاب الرياء والنفاق في تثبيط الهمم وتحبيط العزائم : ﴿ لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً ﴾[٢].

إن الله – جل جلاله – يحب المخلصين ويبغض أهل الرياء المنافقين ، لقد حكم بالعذاب في جهنم على نماذج من الناس : أفواههم معسولة وقلوبهم أمر من الصبر .. يلقاك أحدهم عناقاً ، ويقسم أنه لا يطيق لك فراقاً .. ملاك في مظهره ، شيطان في مخبره ... يلقاك بوجه أبي ذر وقلب أبي جهل .

يقول الله – جل في علاه – : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ﴾[٣].

أقســـام النفـــاق

والنفاق أقسام ثلاثة : نفاق في العقيدة : يضمر صاحبه الكفر في قلبه ويظهر الإسلام على لسانه .

ونفاق في العبادة : يدخل منها على حرف غير متمكن ولا متثبت .

ونفاق في المعاملة : لا يعامل الناس بما يتفق وقواعد الأخلاق الإسلامية . وقد أفاض الكتاب العزيز والسنة المطهرة في بيان هذه الأقسام ، والتحذير منها ، نوضحها فيما يلي :

النفـــاق في العقيـــدة

يقول – جل جلاله – في هؤلاء :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾[٤].

ثم تبين الآيات الكريمة أن ما أصاب هؤلاء ليس مرضاً جسمانياً في عضو من أعضائهم ، أو مرضاً فسيولوجياً في قلوبهم ، إنما هو مرض من أخطر الأمراض ... إنه مرض النفاق :

﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾[٥].

---

(١) الآية : ١٦٨ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٤٧ من سورة التوبة .

(٣) الآيات : ٢٠٤ – ٢٠٦ من سورة البقرة .

(٤) الآيتان : ٨ ، ٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية : ١٠ من سورة البقرة .

ثم يشرح القرآن أعراض هذا المرض ويحكم على كل عرض منه ، فيقول عن هؤلاء :

﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ﴾[1].

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ﴾[2].

ثم يذكر عرضاً آخر فيقول :

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ﴾[3].

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ﴾[4].

ثم يذكر عرضاً ثالثاً فيقول :

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾[5].

فيصدر الحكم الصادق :

﴿ الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ﴾[6].

ثم يحكم على هؤلاء جميعاً بقوله – جل شأنه – :

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾[7].

ثم يصورهم في مثلين عجيبين : أحدهما للمنافقين الخلص ، الذين لا تشوب قلوبهم شائبة الإخلاص ، ولا تتفتح فيها نافذة تضيء لها طريق المعرفة ، فيقول – تعالي – :

﴿ مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون ﴾[8].

والمثل الآخر لقوم مترددين متحيرين لا يستقرون على حال ، ولا يثبتون على مبدأ ، فهم في غيِّهم يترددون ... ذلك لأن قلوبهم قد ارتابت وتحيرت ، فيقول :

﴿ أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا

(١) الآية : ١١ من سورة البقرة .
(٢) الآية : ١٢ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ١٣ من سورة البقرة .
(٤) تكملة الآية : ١٣ من سورة البقرة .
(٥) الآية : ١٤ من سورة البقرة .
(٦) الآية : ١٥ من سورة البقرة .
(٧) الآية : ١٦ من سورة البقرة .
(٨) الآيتان : ١٧ ، ١٨ من سورة البقرة .

أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾[١].

وتأتي سورة «النساء» لتضيف إلى هذه الأعراض التي ذكرناها أعراضاً أخرى لمرض النفاق .. ففي موطن الجهاد والخروج إلى القتال يقول الله في حق هؤلاء :

﴿ وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله عليّ إذ لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ﴾[٢].

ويحكم الله على هذا الفريق بقوله :

﴿ بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً * وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً * الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾[٣].

إذاً : فحياة هؤلاء استغلال وانتهاز الفرص ، وأنانية ، وحقد وحسد .

ثم يذكر القرآن عرضاً آخر لهذا الوباء الخطير والشر المستطير فيقول - سبحانه - :

﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يُراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً * مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ﴾[٤].

ثم يصدر الحكم الصادق على هؤلاء المنحرفين عن طريق الجادة فيقول :

﴿ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً ﴾[٥].

وبعد أن شخص الكتاب العزيز هذا الداء الوبيل : وصف الدواء ، مهما كان خطر الداء مستفحلاً ، ومهما سرى سريان النار في الحلفاء ، والسم الزعاف في الأحشاء .. إن الدواء الناجح ، والعلاج النافع لهذا المرض يتمثل في :

التوبة ، الإصلاح ، الاعتصام ، الإخلاص .

توبة نصوح إلى الله وإصلاح بين الناس واعتصام بحبل الله وإخلاص لدين الله ، قال - عز من قائل :

---

(١) الآيتان : ١٩ ، ٢٠ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان : ٧٢ ، ٧٣ من سورة النساء .

(٣) الآيات : ١٣٨ - ١٤١ من سورة النساء .

(٤) الآيتان : ١٤٢ ، ١٤٣ من سورة النساء .

(٥) الآية : ١٤٥ من سورة النساء .

﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾[١].

نفــــاق العبــــادة

وهذا النوع الخبيث من النفاق وصف القرآن الكريم أصحابه بأنهم إذا عبدوا الله لا يعبدونه عبادة الواثق المطمئن ، وإنما يدخلون العبادة على جزء يسير وحرف ضعيف ، وطرف غير ثابت : فإن أصابهم خيرٌ من مال وولد وصحة وجاه اطمأنوا لهذا الجزء اليسير من الدين ، وإن أصابتهم فتنة من مرض أو فقر أو ابتلاء انقلبوا على وجوههم خاسرين ، لا يعرفون لله حقاً ، ولا لرسوله واجباً .

لقد صورت الآية هؤلاء تصويراً قوياً ، فقال – سبحانه – :

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾[٢].

هؤلاء فقدوا أهم صفات الإنسانية الصحيحة : ألا وهي صفة الوفاء ، التي إذا فقدها الإنسان أصبح جسداً لا روح فيه .

النفاق رذيلة والإخلاص فضيلة

من المعلوم الثبوت أن النفاق مرض خطير من أمراض القلوب ، فما هو الحل السليم والقويم لإصلاح القلوب ؟ إنه بناء النفوس على البر والتقوى ، وكيف يكون ذلك كذلك ؟ نقول – وبالله التوفيق – :

الحمد لله رب العالمين ، جعل مع الصبر نصراً ومع الضيق فرجاً ، ومع كل شدة مخرجاً ومع العسر يسراً ، وجعل لكل بداية نهاية : فالليل مهما طال فلابد من طلوع الفجر ، والعمر مهما طال فلابد من دخول القبر .

وأشهد أن لا إله إلا الله : من استغفره ألبسه ثوب العزة وأغناه عن الناس .. قيل لتقي الدين الحسن البصري – رضي الله عنه – : ما سر زهدك في الدنيا ؟ فقال : أربعة أشياء : علمت بأن رزقي لا يأخذه غيري فاطمأن قلبي ، وعلمت أن عملي لا يقوم به غيري فاشتغلت به ، وعلمت أن الله مطلع عليّ فاستحييت أن يراني على معصية ، وعلمت أن الموت ينتظرني فأعددت الزاد للقاء الله !

يا أخا الإسلام :

سهرت أعين ونامت عيون	في شئون تكون أو لا تكون
إن رباً كفاك بالأمس ما كان	سيكفيك في غدٍ ما يكون

(١) الآية : ١٤٦ من سورة النساء .
(٢) الآية : ١١ من سورة الحج .

وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله ، وقف مواقف الأبطال في ساعات الشدة .. فعندما صمتت الألسنة ، ونطقت الأسنة ، وخطبت السيوف على منابر الرقاب : وقف في حومة الوغى ، يدفعه إيمانه وتحفزه عقيدته يقول :

« أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » .

سيدي أبا القاسم يا رسول الله :

الحق أنت ، وأنت إشراق الهدى ولك الكتاب الخالد الصفحات
من يقصد الدنيا بغيرك يلقها تيهاً من الأهوال والظلمات

صلى عليك الله يا علم الهدى ، ما هبت النسائم ، وما ناحت على الأيك الحمائم .

أما بعد :

فقد ألقيت نظرة في رحاب الكون ، وطاف الفكر بأرجاء الحياة ، فوجدت هذه الدنيا مليئة بالزخارف البراقة التي تخدع النفوس ، ورأيت لماديات الحياة تأثيراً قد بلغ مداه في الأعماق ، فانصرفت بعض النفوس عن طريق الجادة وتنكبت نفوس أخرى الصراط السوي ، فاهتزت واضطربت تلك .. ذلك لأن الدنيا إذا تملكت النفوس ، وتربعت على عرش القلوب : حجبتها عن رؤية الحقيقة العليا ، فترى هذه النفوس حائرة : مرة تتخبط في دياجير الظلام ، وتراها يائسة مرة أخرى .. فهي في حالة السراء جاحدة ، وفي حالة الغداء يائسة ، وكلا الأمرين أحلاهما مر :

﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً** ﴾[1]. ثم استثنى الله – جل شأنه – من هذا النوع نوعاً جديراً بالسعادتين : الدنيوية والأخروية ، فقال في شأنه :

﴿ **إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون * أولئك في جنات مكرمون** ﴾[2].

يا أخا الإسلام :

قد يكون بناء القصور وتشييد البروج وناطحات السحاب أمراً سهلاً يرجع إلى المهارة في فن العمارة ، ولكن : ما أصعب بناء النفوس ؛ فإن بناءها سر من الأسرار الذي لا يقوى عليه إلا الذين صبروا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله .. إذ أن هذه رسالة الأنبياء ، وغاية المخلصين ، وتجارة مع الله لكل من دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين .

(١) الآيات : ١٩ – ٢١ من سورة المعارج .

(٢) الآيات : ٢٢ – ٣٥ من سورة المعارج .

ولذلك فإن بناء النفوس وتشييدها على أساس الحق ، وتزكيتها بالصلاح والطهر ، مطلب عظيم ، وغاية عليا ، وهدف من أعز الأهداف .. وقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – في مسجد النبي – صلوات الله عليه – يقول لبعض الصحابة : « ليذكر لي كل منكم أعظم شيء يتمناه ، قال أحدهم : أتمنى أن يكون لي مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله ، وقال آخر : أتمنى أن يكون لي ملء المدينة خيلاً أغزو به في سبيل الله ، وقال ثالث : أتمنى أن يكون لي ألف عبد أعتقهم ابتغاء مرضاة الله .. وأخذ كل منهم يذكر ما يتمنى ، وأمير المؤمنين يدير النقاش بينهم ، ثم توجهوا إليه قائلين : فماذا تتمنى أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أتمنى ملء هذا المسجد رجالاً أمثال أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – !

طيب الله ثراك يا عمر : فقد أصبت كبد الحقيقة ، وتمنيت المطلب الأعظم ؛ فأمثال أبي بكر – من ذوي النفوس المطمئنة ، والأفئدة البصيرة ، هم الذين يملأون الكون أمناً وسلاماً ورحمة ووئاماً وإعزازاً وإكراماً ... لأنها نفوس كان الحق هدفها ، والخير غايتها ، والقرآن إمامها ، والرسول أستاذها ... نفوس كان أساسها توحيد الله ، وسلوكها طاعة الله !

إنه اليقين إذ عمر القلوب ، والإخلاص إذا أضاء النفوس !

﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾(١).

وما أعظم الإيمان في بناء النفوس ، وما أجل رسالة التوحيد في تقويمها :

﴿ ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها ﴾(٢).

« فاللهم إنا نسألك العافية في الدين والدنيا ، والعصمة من كل ذنب ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر .

العقيدة وأثرها في التربيـة

إذا بلغت النفس البشرية المؤمنة الذروة في الاقتناع فإنها تصير أشد ثباتاً من الجبال الشم ، والرواسي الشامخات ، وإن أجلَّ مثل يوضح لنا هذه القضية موقف الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – يوم أحاطت به الأشرار تحاول أن تطفىء جذوة الإيمان ، فماذا قال ؟ قال كلمته المشهورة التي طالما اهتزت لها أعواد المنابر ، ووصل رنينها إلى أعماق القلوب ، قال بلسان الحق :

« والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ! » .

---

(١) الآية : ١٩ من سورة الإسراء .

(٢) الآيات : ٧ – ٩ من سورة الشمس .

صدقت يا سيدي يا رسول الله حين قلت ، وعدلت حين حكمت ، وصبرت حتى ابتليت ، وشكرت عندما أعطيت ، وغفرت حينما ظُلِمت .. فعليك صلاة الله وسلامه ، يا من قلت :

« اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » .

إن أثر العقيدة في التربية بعيدُ المدى شديد القوى .. فالنفس صاحبة العقيدة : راسخة البنيان ، وطيدة الأركان ، لا تعبأ بكوارث الأيام وشدائد الحياة ، ولا تنوء تحت الهموم الثقال ، لأنها تحمل بين جنبيها عقيدة الحق : ﴿ **إنا كل شيء خلقناه بقدر** ﴾[1] .

ولأنها واثقة أن هذا الكون لا تهب فيه نسمة هواء ، ولا تطرف فيه عين ، ولا يحدث فيه حدث - صغير أو كبير - إلا بإذن الله :

﴿ **الله يعلم ما تحمل كل أنثى وماتغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار ۞ عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ۞ سواء منكم من أسر القولَ ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار** ﴾[2] .

التربيـــــة في مكـــة

إن الناظر المتأمل في الفترة التي قضاها الرسول ﷺ في مكة بعد البعثة - وهي ثلاثة عشر عاماً - يجد أنها قامت في نهجها على أساسين أكيدين ، ومبدأين راسخين :

المبدأ الأول : العقيدة ، وتتركز في الدعوة إلى الوحدانية ، والإيمان بالبعث .

المبدأ الثاني : يتمثل في تزكية النفس وتطهيرها بالقيم الأخلاقية والمثل العليا ، وفي ذلك المبدأ يقول القرآن الكريم :

﴿ **قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ۞ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ۞ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السُبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾[3] .

---

(١) الآية : ٤٩ من سورة القمر .

(٢) الآيات : ٨ - ١٠ من سورة الرعد .

(٣) الآيات : ١٥١ - ١٥٣ من سورة الأنعام .

مبـــدأ التوحيـــــد

وفي مبدأ التوحيد : تتضافر آيات الكتاب العزيز بأدلتها الصريحة الحازمة ،**القطعية الثبوت . وليس** ثمة أدنى شك أن التوحيد دين الفطرة .. قال – جل شأنه – :

﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾(١).

وخاطب القرآن ذوي الأفهام الباصرة فقال – سبحانه – :

﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴾(٢).

وقال – تعالى – وهو يخاطب ذوي العقول والبصائر :

﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾(٣).

ثم يؤكد هذا الجانب تأكيداً ينسجم تمام الانسجام مع ذوي الألباب فيقول – سبحانه – :

﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلٰه إذاً لذهب كل إلٰه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون * عالم الغيب والشّهادة فتعالى عمّا يشركون ﴾(٤).

فلو سألت العالم من عرشه إلى فرشه ، ومن سمائه إلى أرضه ، وقلت له : من خلقك ؟ لقال : أنا مخلوق للواحد الديان ! فما هذه المبدعات الإلٰهية والآحاد الكونية إلا كلمات ناطقات بلسان أقوى من لسان المقال بأن الله واحد لا شريك له :

﴿ قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إلى أنما إلٰهكم إلٰه واحد فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾(٥).

واسمع إلى قوله – جل جلاله – :

﴿ ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم ﴾(٦).

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الروم .

(٢) الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ من سورة الإسراء .

(٣) الآية : ٢٢ من سورة الأنبياء .

(٤) الآيتان : ٩١ ، ٩٢ من سورة المؤمنون .

(٥) الآيتان : ١٠٩ ، ١١٠ من سورة الكهف .

(٦) الآية : من سورة لقمان .

أخا الإسلام :

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقد ألقى القرآن باللائمة ونعى على الذين وصفوا الله بأن له ولداً ، فقال – سبحانه – :

﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة** ﴾(١).

وقال جل في علاه :

﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً * لقد جئتم شيئاً إدًّا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًّا * أن دعوا للرحمن ولداً * وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً** ﴾(٢).

وهذا نفر من الجن بعد أن استمع إلى القرآن الكريم أشرق قلبه بنور التوحيد فقال – سبحانه – :

﴿ **إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً * وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً** ﴾(٣).

والله – جل جلاله – تنزه عن الجسمية ، فليس – سبحانه وتعالى – بجسم ، ولا معدود ، ولا محدود ولا متبعض ، ولا متجزىء ولا متلون ، ولا متكيف ؛ ولا يسأل عنه بمتى كان ؛ لأنه خالق الزمان ، ولا بأين هو ؛ لأنه خالق المكان ، وما خطر ببالك : فالله – تعالى – بخلاف ذلك .. وفي ذلك يقول – تبارك وتعالى – قولاً فصلاً :

﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾(٤).

والوحدانية : هي نداء الفطرة السليمة التي لم تكدرها انحرافات الهوى ولم تغيرها اتجاهات مريضة .

وكأني بذلك الأعرابي الذي كان له صنم يعبده ويقدم له واجبات التقديس والولاء .. يأتي ذات يوم ليسجد أمام صنمه فيجد به بللاً غزيراً ، فيقف عاجباً : ما الذي أحدث البلل بهذا المعبود ؟ ويلتفت حواليه ، فيجد ثعلبين يلعبان بالقرب منه ، فيعلم أنهما (بالا) على صنمه !!

وعندئذ عاد إلى فطرته السليمة ، وأنشد قائلاً :

أَرَبٌّ يبول الثعلبان برأسه ؟ ... لقد ذل من بالت عليه الثعالب
فلو كان رباً كان يمنع نفسه ... فلا خير في رب نأته المطالب
برئت من الأصنام في الأرض كلها ... وآمنت بالله الذي هو غالب

---

(١) من الآية : ١٠١ من سورة الأنعام .
(٢) الآيات : ٨٨ – ٩٢ من سورة مريم .
(٣) الآيات : ١ – ٣ من سورة الجن .
(٤) من الآية : ١١ من سورة الشورى .

كل مولــود يولــد على الفطــرة

لقد أخبر الصادق الأمين ﷺ بأن :

« كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه »(١).

ويقول ربنا – تبارك وتعالى – في الحديث القدسي الجليل :

« إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً »(٢).

أخـا الإسـلام :

يكفي كلمة التوحيد شرفاً وقدراً أنها رسالة الأنبياء جميعاً ، قال – تعالى – :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾(٣).

وقال رسول الله ﷺ :

« أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي : لا إله إلا الله »(٤).

والعقيدة الصحيحة للمؤمن أن يؤمن إيماناً لا حدود له بأن الله خالق كل شيء ومقدره . يقول – تعالى – في الحديث القدسي الجليل :

يؤذيني ابن آدم : يسب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر ، أقلب الليل والنهار »(٥).

فليس لنا أن نلقي باللائمة على الأيام والليالي ، فإنها من خلق الله وهذا معنى قوله – تعالى – في الحديث : « وأنا الدهر » أي خالقه :

﴿ الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل ﴾(٦).

﴿ يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾(٧).

﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾(٨).

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب القدر) باب معنى (كل مولود يولد على الفطرة ... الخ) ص ٧٢٠ ، ٧٢١ رقم ١٧٠٢ من حديث أبي هريرة .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها) باب الصفات التى يعرف بها فى الدنيا أهل الجنة وأهل النار حـ ١٧ ص ١٩٧ – ١٩٩ وهو جزء حديث طويل من رواية عياض بن حمار المجاشعي ـــ رضى الله عنه .

(٣) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .

(٤) هذا جزء حديث رواه الإمام مالك فى موطئه فى (كتاب الحج) باب : جامع الحج من رواية طلحة بن عبيد الله بن كريز (أنظر تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطى حـ ١ ص ٣٦٩ طبع مطبعة صبيح ١٣٥٣ هـ)

(٥) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها) باب النهى عن سب الدهر ص ٥٨٤ رقم ١٤٤٩ من رواية أبى هريرة ـــ رضى الله عنه .

(٦) الآية : ٦٣ من سورة الزمر .

(٧) الآية : ٤٤ من سورة النور .

(٨) الآية : ٤٩ من سورة القمر .

أخـا الإســلام :

عش راضياً واترك دواعي الألـم   واعدل مع الظـالم مهما ظـلـم
نهـاية الدنيـا فنـاء فعـش   فيهـا كريماً واعتبرهـا عـدم

العقيــدة الصحيحــة

العقيدة الصحيحة : هي التي لا يخالج قلب صاحبها شك في قدرة الله وعظمته ، ويوم يتسرب الشك إلى قلبه فقد وقع تحت طائلة المقت والغضب ، وهذا هو حديث ربنا – جل في علاه – يقول فيه :

﴿ كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك ، أما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادتهم ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفواً أحد ﴾[1].

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له   طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
أني لأعجب ممن قد رأى طرفـا   من فيض جودك –ربي– كيف ينساك
والله ما سعدت روحي ولا فرحـت   في الدهر –ما بقيت– إلا بذكراك!

والعقيدة الصحيحة تقتضي من صاحبها ألا يسند الأمور لغير الله : فالله هو الخالق الذي لا يشاركه في خلقه أحد ، فمن أسند الأمور لغير الله في إيجادها وتقريرها وتدبيرها وتصريف شؤونها فقد أصيب في عقيدته بما يدعوه إلى وجوب تصحيحها :

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل ﴾[2].

وقد جاء في الحديث الشريف عن زيد بن خالد الجهني – رضي الله عنه – قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من المدينة ، فلما انصرف النبي ﷺ أقبل على الناس فقال لهم : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته : فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب »[3].

وفي هذا الحديث الشريف ما يرشد إلى أن الذين أسندوا فعل المطر إلى فضل الله ورحمته كانوا مؤمنين بالله :

﴿وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ﴾[4].

---

(١) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى (كتاب التفسير) باب تفسير : **﴿ قل هو الله أحد ﴾** حـ ٣ ص ٢٢٣
(٢) الآية : ١٠٢ من سورة الأنعام .
(٣) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب بيان كفر من قال : مطرنا بالنوء حـ ١ ص ١٤ رقم ٤٦
(٤) الآية : ٢٨ من سورة الشورى .

وأما الذين أسندوا إنزال المطر إلى كوكب من كواكب السماء فقد تنكبوا الجادة وحادوا عن الصراط السوي ؛ وغيرها من المخلوقات لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، فهي من باب أوْلى لغيرها كذلك .

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾(١).

أخـا الإسلام :

كـن عن همـومك معرضـاً ... وكِلِ الأمـور إلى القضـا
وانعـم بطـول سـلامة ... تسـليك عمـا قـد مضـى
فلربمـا اتسـع المضيـق ... وربمـا ضـاق الفضـا
ولـرب أمـر مسـخط ... لك في عواقبـه رضـا
الله يفعـل ما يشـاء ... فـلا تكـن متعرضـا

العقيدة ومراقبة الله تعالى

أخي القارىء الكريم :

لما كانت العقيدة هي مركز الدائرة الذي تدور حوله شعائر العبادات ، ومبادىء الأحكام وقواعد النظام فقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على أن يحيط ذلك المركز بسياج منيع وأسوار عالية لا **يستطيع الشك أن يلقى ببذوره فى ساحتها المقدسة ، أو أن يقتحم عليها حصونها المنيعة ، اقرأ معى قول الله تبارك وتعالى حيث يؤكد لعباده أنه محيط بكل شيء :**

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السمٰوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أين ما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾(٢).

فهذه الآية بجلالها وعظيم شأنها تملأ قلب المؤمن بمراقبة الله – تعالى – وهيمنة سلطانه ، واطلاعه على الخفايا والأسرار ومكنون الصدور والأخبار ، ثم اقرأ قوله – جل شأنه – :

﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾(٣).

ثم اسمع إلى موسى وهارون-عليهما السلام . وهما يقولان لرب العزة : **﴿ ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ﴾**(٤).

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة فصلت .
(٢) الآية : ٧ من سورة المجادلة .
(٣) من الآية : ٤ من صورة الحديد .
(٤) الآية : ٤٥ من سورة طه .

فإذا قال لهما عالم الغيب والشهادة : ﴿ **قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى** ﴾[١].

وما أجلّ قوله – تعالى – في الحديث القدسي الجليل : ﴿ **ما وسعني أرضي ولا سمائي وإنما وسعني قلب عبدي المؤمن** ﴾[٢].

فإذا ما حاول الشيطان أن يرسل وساوسه كالطفيليات التي تحاول أن تتغذى على حساب النبات الصالح – فعلى صاحب العقيدة الصحيحة أن يستعيذ بالله منه ولا يعبأ بوساوسه : ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾[٣].

يقول – صلوات الله وسلامه عليه – : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته »[٤].

وفي حديث آخر : « هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً : فليقل آمنت بالله »[٥].

الـــداء والـــدواء

صدقت يا سيدي يا رسول الله ، يا من كنت تشخص الداء وتصف الدواء ، فليس أمام وساوس الشيطان وحربه النفسية إلا أن يستعصم الإنسان بربه ، ويثبت قلبه بالقول الثابت ، فما تكون وساوسه بعد ذلك ؟ إنها كذبابة تحاول أن تحجب بجناحها ضوء الشمس أو نور القمر ، وما يكون كيده بإزاء قلب امتلأ بتوحيد الله ؟ إنه مهما حاول بوساوسه أن يغيّر أو يبدل هذه القلوب فإن مثله كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وسرعان ما يندحر مخذولاً محسوراً كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ، أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .

الله ربــي لا إلـــه ســـواه   هل في الوجود حقيقــة إلاه ؟!
يا من له وجــب الكمـــال لذاتــه   الكل غايــة فوزهــم لقيـــاه !

الإيمـــان والإخــــلاص

الإخلاص : شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

(١) الآية : ٤٦ من سورة طه .
(٢) أنظر كشف الخفاء للعجلوني حـ ٢ ص ٢٧٣ رقم ٢٢٥٦ وقال : ذكره فى الإحياء وقال العراقى : لم أر له أصلا .
(٣) من الآية : ٧٦ من سورة النساء .
(٤) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب الوسوسة فى الإيمان وما يقوله من وجدها حـ ١ ص ٢٦ رقم ٨٢ من رواية أبى هريرة .
(٥) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإيمان) بيان الوسوسة فى الإيمان حـ ٢ ص ١٥٣ فقد رواه من حديث أبى هريرة . وأول التحديث : « لايزال الناس يتساءلون ، حتى يقال : هذا خلق الله ... »

والرياء : شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

القلوب المخلصة ترسل أشعتها فتضيء للناس طريق النجاة ، والقلوب المرائية تفرز سواداً قاتماً وظلمة حالكة تتعثر المجتمعات في سراديب ضلالها .

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالإخلاص فقال للمبعوث رحمة للعالمين : ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين** ﴾[١] .

وقال : ﴿ **قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين * وأمرت لأن أكون أول المسلمين** ﴾[٢] .

وقال : ﴿ **قل الله أعبد مخلصاً له ديني** ﴾[٣] .

وقال – سبحانه – ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾[٤] .

فالإخلاص : هو الروح السارية في الإيمان عقيدة أو عبادة أو معاملة ، وبغير الإخلاص تصبح أعمال المسلم نواة لا روح فيها .

وليس أدل على ذلك من أن الله مدح المخلصين بقوله : ﴿ **إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً** ﴾[٥] .

وألقى القرآن باللوم الشديد والزجر العنيف على هؤلاء الذين يراءون الناس ولا يبتغون بأعمالهم ما عند الله فقال – سبحانه – : ﴿ **فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾[٦] .

فمـا هـو الإخـلاص ؟

الإخلاص : أن يقصد العبد بعمله وجـه الله وحده لا شريك له ، ومن ثم فقد أوصى الله رسوله أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين قال فيهم : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً** ﴾[٧] .

وقطع القرآن الحيل المراوغة التي أراد بها أهل الباطل أن يباعدوا بها بين النبي ﷺ وبين هؤلاء المخلصين المتواضعين ، فقال في كتابه العزيز :

﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه** ﴾[٨] .

---

(١) الآية : ٢ من سورة الزمر .

(٢) الآيتان : ١١ ، ١٢ من سورة الزمر .

(٣) الآية : ١٤ من سورة الزمر .

(٤) من الآية : ٥ من سورة البينة .

(٥) الآية : ١٤٦ من سورة النساء .

(٦) الآيات : ٤ – ٧ من سورة الماعون .

(٧) الآية : ٢٨ من سورة الكهف .

(٨) من الآية : ٥٢ من سورة الأنعام .

وأوصاه بهم خيراً فقال : ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ﴾[١].

لقد كان الرسول ﷺ يبسط لهؤلاء النفر رداءه ليجلسهم عليه ويلقاهم مرحباً بهم فيقول : (مرحباً بمن أوصاني ربي بهم خيراً) .

وهذه درجات المخلصين يبينها رسول الله ﷺ فيقول : « طوبى للمخلصين : أولئك مصابيح الهدى تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء »[٢].

إنمـــا الأعمـــال بالنيـــات

عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى : فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[٣].

وليس أمر الإخلاص في النية قاصراً على الدنيا وحدها ، بل إنه يمتد أثره إلى ما بعد الموت ، فالناس يبعثون على ما ماتوا عليه ، فإن كانت نياتهم مخلصة لله بعثوا يوم القيامة مع المؤمنين الناجين من عذاب الله ، وإن لم تكن النيات مخلصة فالويل والعذاب .

قالت أم المؤمنين عائشة – رضي الله عنها – : قال رسول الله ﷺ : « يغزو جيش الكعبة : فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأولهم وآخرهم ، قالت : قلت : يارسول الله ؛ كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يخسف بأولهم وآخرهم ،ثم يبعثون على نياتهم »[٤].

تأمل الحديث الشريف : تجد أن الجيش الذي سيغزو بيت الله الحرام سيخسف به قبل أن يحقق ما يريده من البغي والإفساد ، وسيموت معه قوم ليسوا منهم ، والنيات هي التي ستكون فيصلاً حاسماً وحازماً في الأمر ، وإن كان الجميع قد مات إلا أن مدار الجزاء على النية ، فالنية السيئة تهوي بصاحبها إلى أسفل الدركات ، والنية المخلصة ترفع أهلها إلى أعلى الدرجات .

بل لقد شاء الله الكريم بفيضه وجوده أن يجري الثواب ويمنح الحسنات لقوم لم يستطيعوا أن يشاركوا في الأعمال الجليلة ؛ لأن الأعذار منعتهم وكان في نياتهم لو استطاعوا لفعلوا ، هذا رسول الله ﷺ يخبر أصحابه فيقول لهم وهم في إحدى الغزوات : « إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم : حبسهم المرض »[٥].

(١) من الآية : ٥٤ من سورة الأنعام .

(٢) انظر حلية الأولياء حـ ١ ص ١٦ عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

(٣) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإمارة) باب قوله ﷺ : إنما الأعمال بالنية ... الخ ، حـ٢ ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ رقم ١٢٤٥ .

(٤) انظر اللؤلؤ والمرجان حـ ٣ ص ٨٠٩ رقم ١٨٣١ (كتاب الفتن وأشراط الساعة) باب الخف بالجيش الذى يؤم البيت .

(٥) انظر سنن ابن ماجه (كتاب الجهاد) باب من حبسه العذر عن الجهاد حـ ٢ ص ٩٢٣ رقم ٢٧٦٤ من رواية أنس بن مالك ، ورقم ٢٧٦٥ من رواية جابر ، إلا أنه قال فى آخر الحديثين : « حبسهم العذر » وأنظر صحيح البخارى طبع الشعب حـ ٤ ص ٣١ وصحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى حـ ٣ ص ١٥١٢ رقم ١٥٩ ، ١٩١١

وفي رواية « إلا شاركوكم في الأجر »[١].

ولذا قال القائل :

يا راحلين إلى البيت العتيق لقـد سـرتم جسوما وسرنا نحن أورواحا
لقد أقمنـا على عذر وعن قـدر ومن أقام على عذر فقد راحــا

والإخلاص في النفقة حتى على الأهل الذين تجب لهم النفقة يجعل لصاحبها ثواب الصدقة ، قال ﷺ : « إذا أنفق المسلم على أهله نفقة وهو يحتسبها : كانت له صدقة »[٢].

وكل ما يقصد الإنسان به وجه الله من الخير فهو صدقة وأجر وثواب وذخر ، وها هو ذا سعد بن أبي وقاص يروي لنا هذا المشهد فيقول : « جاءني رسول الله ﷺ يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي ، فقلت : يا رسول الله : إني قد بلغ بي من الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : لا ، قلت فالشطر يا رسول الله ؟ فقال : لا . قلت : فالثلث يا رسول الله ؟ قال : الثلث والثلث كثير - أو كبير - إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في (في) امرأتك »[٣] أي : فمها .

ولكون الإخلاص هو الأساس في قبول الأعمال : نسمع أبا هريرة - رضي الله عنه - يروي فيقول : قال رسول الله ﷺ :

« إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم »[٤] رواه مسلم .

ولقد كان المسيح - عليه السلام - يقول : « يا بني إسرائيل : لا تأتوني تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن البسواثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله » .

أخـا الإســلام :

ودع الكذوب فلا يكن لك صاحباً إن الكذوب يشين حرّاً يصحـب

---

(١) هذه الرواية هى الثانية فى المصدر السابق (ابن ماجه) رقم ٢٧٦٥

(٢) أنظر صحيح البخارى (طبع الشعب) حـ ١ ص ٢٢ (كتاب الإيمان) باب ماجاء أن الأعمال بالنية ، من رواية أبى مسعود — رضى الله عنه .
وأنظر صحيح مسلم تحقيق عبد الباقى حـ ٢ ص ٦٩٥ رقم ١٠٠٢/٤٨ من رواية أبى مسعود البدرى — رضى الله عنه .
والنسائى (كتاب الزكاة) بابه : أى الصدقة أفضل ؟ حـ ٥ ص ٦٩ .

(٣) أنظر صحيح البخارى ، طبع الشعب (كتاب الجنائز) باب رثى النبى ﷺ سعد بن خولة حـ ٢ ص ١٠٣ وصحيح مسلم تحقيق عبد الباقى (كتاب الوصية) باب الوصية بالثلث حـ ٣ ص ١٢٥٠ - ١٢٥١ رقم ١٦٢٨/٥
وأنظر صحيح الترمذى (كتاب الجنائز) باب ماجاء فى الوصية بالثلث والربع حـ ٣ ص ٢٢٤ رقم ٩٨٢ رواه باختصار ، ورواه فى (أبواب الوصايا) حـ ٣ ص ٢٩١ رقم ٢١٩٩ فى باب ماجاء فى الوصية بالثلث ، ذكره بطوله .
وفى سنن النسائى فى (كتاب الوصايا) باب الوصية بالثلث حـ ٦ ص ٢٤١ ، ٢٤٢

(٤) صحيح مسلم تحقيق عبد الباقى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم ظلم المسلم ... الخ ، حـ ٤ ص ١٩٨٧ رقم ٢٥٦٤/٣٤

يلقـاك يقسـم أنه بك واثـق ... وإذا توارى عنـك فهـو العقـرب
يسقيك من طرف اللسان حـلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعـلب

صدقت يا سيدي يا رسول الله ، يا من قلت : **(ولكن ينظر إلى قلوبكم)** .

فقد قال تعالى في الحديث القدسي الجليل : « الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده »(١).

أخـا الإسـلام :

إذا المرء لا يلقاك إلا تكلفـا ... فدعـه ولا تكثر عليه التأسـفا
فما كل من تهواه يهواك قلبـه ... ولا كل من صافيته لك قد صفـا
إذا لم يكن صفـو الوداد طبيعـة ... فلا خير في ود يجيء تكلفـا
ولا خـير في خـل يخون خليـله ... ويلقـاه من بعـد المـودة بالجفـا
وينكر عيشـاً قد تقـادم عهـده ... ويظهـر سرًّا كان بالأمس في خفا
سـلام على الدنيا إذا لم يكن بها ... صديق وفيّ يصدق الوعـد منصفا

صدقت يا سيدي يا رسول الله يا من قلت : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقيّ »(٢).

ويا من قلت : « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »(٣).

الإخـلاص في الجهـاد

إن الإخلاص يأخذ مكانته اللائقة به في كل شيء بل وفي أخطر الأشياء : في الجهاد الذي نسترخص الأرواح في أسواقه ، والذي نجود فيه بالمهج والنفوس .

لقد قال الصادق الأمين بعد أن هاجر إلى المدينة : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا

---

(١) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين (باب فضيلة الإخلاص) جـ ٤ ص ٣٧٦ بلفظ : « يقول الله تعالى : **﴿الإخلاص من سرى ، استودعته قلب من أحببت من عبادى﴾** عن الحسن مرسلا .

قال العراقى : حديث الحسن مرسلا رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى . ورواه أبو القاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب ــ رضى الله عنه ــ بسند ضعيف .

(٢) أنظر سنن أبى داود (كتاب الأدب) باب من يؤمر أن يجالس جـ ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٢ والحديث من رواية أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ، وأنظر سنن الترمذى (كتاب الزهد) باب ماجاء فى صحبة المؤمن جـ ٤ ص ٦٠٠ ، ٦٠١ رقم ٢٣٩٥ وقال الترمذى : هذا حديث حسن ــ ورواه أحمد فى مسنده ٣٨/٣ وابن حبان ٣٨٣/١ برقمى ٥٥٥ ، ٥٥٦

(٣) الحديث فى سنن أبى داود فى (كتاب الأدب) باب من يؤمر أن يجالس جـ٤ ص ٢٥٩ رقم ٤٨٣٣ من رواية أبى هريرة ــ رضى الله عنه .

ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الزهد) جـ ٤ ص ٥٨٩ رقم ٢٣٧٨ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

استنفرتم فانفروا »[1]. أي : لا هجرة من مكة بعد فتحها فقد صارت دار إسلام ولكن الأمر على الجهاد المقترن بالنية المخلصة ، فلو لم تكن هناك نية فلا جهاد هنا بمعناه الواسع : جهاد الكلمة ، جهاد النفس ، جهاد السيف .

استمع إلى الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وهو يُسأل فيجيب ببلاغة موجزة وبيان صريح :

عن أبي موسى الأشعري – رضي الله عنه – وقال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل بشجاعة ، ويقاتل حميه ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » متفق عليه .

الإخـــلاص في الصـــلاة

وتنتقل الآن من دور الإخلاص فى ساحة الجهاد وميادين القتال إلى دوره في الصلاة وكثرة الخطا إلى المساجد ، حيث يخبر الصادق الأمين – صلوات الله وسلامه عليه – فيقول :

(صلاة الرجل في جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعاً وعشرين درجة ، وذلك أن أحدهم إذا توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى المسجد لا يريد إلا الصلاة : لم يخط خطوة إلا رفع له بها درجة وحط عنه بها خطيئة حتى يدخل المسجد ، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلى فيه يقولون : اللهم ارحمه ، اللهم اغفر له ، اللهم تب عليه ، مالم يؤذ فيه ، ما لم يحدث فيه »[1].

تعال يا أخا الإسلام لتنهل من هذا الفيض الرباني وترشف من هذا الرحيق الصافي ، من الكوثر

---

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإمارة) باب المبايعة بعد فتح مكة على الإسلام والجهاد والخير حـ ١٣ ص ٧ ، ٨ فقد رواه عن ابن عباس — رضى الله عنهما .
ورواه ابن حبان فى صحيحه حـ ٧ ص ١٥٧ من حديث ابن عباس ، ص ١٧٩ من حديث عائشة — رضى الله عنها .
ورواه أحمد فى مسنده ٢٢٦/١ عن ابن عباس ، ٤٦٦/٦ عن صفوان بن أمية

المعسول ، والكرم الإلهي ، إليك ما قاله رسول الله ﷺ عن فضل الله العلي العظيم – جل جلاله – في الحديث القدس الجليل حيث يقول : « إن الله كتب الحسنات والسيئات » .

ثم بين ذلك : (فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله – تبارك وتعالى – عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها فعملها : كتبها الله عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله – تعالى – عنده حسنة كاملة ، وإن هم بها بعملها : كتبها الله سيئة واحدة »[١].

فبالإخلاص يصح الإيمان ، وبالتوحيد يرتفع البنيان ، وبالإيمان والتوحيد والإخلاص تبنى النفوس .

فما أعظم الإيمان في بناء النفوس .

فعليك يا أخي بالإخلاص لله في السر والعلن ..

إن لله عبـاداً فطنـا طلقـوا الدنيا وخافـوا الفتنـا
نظـروا فيهـا فلمـا علمـوا أنهـا ليسـت لحـيٍّ سـكنا
جعلوهـا لجـة واتخـذوا صـالح الأعمـال فيهـا سـفنا

كلمـة عـن الوفـاء

إذاً : وجب علينا أن نعقب على هذا الجانب بكلمة عن الوفاء ؛ لعظيم أثره وجليل خطره ، خصوصاً إذا كان مع الله ، فنقول وبالله التوفيق : إن الله – جل جلاله – أوصى في كثير من آياته بالوفاء في جميع العهود وشتى العقود فقال – سبحانه – : ﴿ **وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً** ﴾[٢] ﴿ **يأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[٣].

وقد أخذ مولانا – تبارك وتعالى – عقوداً على عباده وعهوداً على خلقه فأول عقد أبرم : ذلك الذي شهد العباد فيه لربهم بأنه الرب الواحد الذي لا شريك له ، وكان ذلك لعموم البشرية بمختلف أشكالها ونماذجها ، قال سبحانه : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾[٤].

وأخذ مولانا – تبارك وتعالى – عهداً على الأنبياء أن يؤمنوا وينصروا ذلك الرسول – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – الذي سيختم الله به الرسالات ، ومعنى نصرته : أن يوصوا أتباعهم إن هم أدركوا زمانه أن ينصروه ويؤيدوه . قال عز من قائل : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثق النبيين لما ءاتيتكم من**

---

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ... الخ حـ ١ ص ٢٥ ، ٢٦ رقم ٨١
(٢) من الآية : ٣٤ من سورة الإسراء .
(٣) من الآية : ١ من سورة المائدة .
(٤) الآية : ١٧٢ من سورة الأعراف .

كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال ءأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشهٰدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[١]

وأخذ الله على العلماء عهداً ، وأبرم معهم عقداً أن يبينوا للناس مانزل إليهم من ربهم ولايكتموا منه شيئاً فقال – سبحانه – : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتٰب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾[٢].

الوفـــــاء بالعهــــد

وهناك عقود كثيرة – غير هذه – أوصى الله برعايتها وصيانتها فقال سبحانه : ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عـٰهدتم ولا تنقضوا الأيمـٰن بعد توكيدها ﴾[٣].

وقال – جل شأنه – : ﴿ وبعهد الله أوفوا ﴾[٤].

فإذا أبرم المسلم عقداً ، وجب احترامه ، وإذا أعطى عهداً . وجب الإلتزام به .

ومن الإيمان : أن يكون المرء عند كلمة قالها ينتهي إليها كما ينتهي الماء عند شطآنه ، وأن يكون عند عهد قطعه على نفسه فيعرف بين الناس بالوفاء ، وبأن كلمته موثقة لا خوف من نقضها ولا مطمع في اصطيادها .

ولابد من الوفاء بالعهد ، كما أنه لابد من البر باليمين ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير ، وإلا فلا عهد في عصيان ولا يمين في مأثم ، فقد قال رسول الله ﷺ : « من حلف على يمين فرأى خيراً منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذي هو خير »[٥].

ومن ثم فلا تعهد إلا بمعروف ... فإذا وثق الإنسان عهداً بمعروف فليصرف همته في إمضائه مادامت فيه عين تطرف ، وليعلم أن منطق الرجولة وهدى اليقين لا يتركان له مجالاً للتردد والإنشاء ...

---

(١) الآيتان : ٨١ ، ٨٢ من سورة آل عمران .

(٢) الآية : ١٨٧ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية : ٩١ من سورة النحل .

(٤) من الآية : ١٥٢ من سورة الأنعام .

(٥) هذا جزء حديث فى اللؤلؤ والمرجان قاله النبى ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة حـ ٢ ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ رقم ١٠٧١ ورواه أبو داود فى سننه جزء حديث عن عبد الله بن عمرو — رضى الله عنهما — فى (كتاب الإيمان والنذور) باب اليمين فى قطيعة الرحم حـ ٣ ص ٢٢٨ رقم ٣٢٧٤
ورواه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب الكفارات) باب من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها حـ ١ ص ٦٨١ رقم ٢١٠٨ من رواية عدى بن حاتم .

سبحانك ربي عظمت رأفتك ، وجلت حكمتك ، وبلغت قدرتك ، ووسعت رحمتك ...

ما أجل الوفاء بالعهد ! ومن أعظم وفاء من الله بتنفيذ عقده الذي عقده مع المؤمنين ؟! عقد بيع وشراء ، أعطاهم الجنة بعدما اشترى منهم الأنفس والأموال وهي ملكه وهو خالقها . ثم قال – سبحانه – : ﴿ **وعداً عليه حقاً في التورىٰة والإنجيل والقرءان** ﴾.

ثم قال : ﴿ **ومن أوفى بعهده من الله** ﴾(١).

في مدرسة الوفاء بالعهود تربى خريجو المعاهد الإسلامية التي اتصفت بحميد السجايا وكريم الشمائل .

روى أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين !! لئن أشهدني الله مع النبي قتال المشركين ليرين ما أصنع !! فلما كان يوم « أحد » انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء – يعني أصحابه – وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء – يعني المشركين – ثم تقدم .. فاستقبله سعد بن معاذ فقال : يا سعد ابن معاذ : الجنة ورب النضر ! إني لأجد ريحها دون أُحُد !!! قال سعد فما استطعت يا رسول الله ما صنع ثم تقدم .. قال أنس : فوجدنا به بضعاً وثمانين ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ورمية بسهم ، ووجدناه وقد مثل به المشركون فما عرفه إلا أخته بشامة أو ببنانه ...

قال أنس : كنا نرى أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عـٰهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾(٢).

والقرآن العظيم يعقب على هذا الموقف فيقول : ﴿ **ليجزي الله الصـٰدقين بصدقهم ويعذب المنـٰفقين إن شاء أو يتوب عليهم** ﴾(٣).

فهؤلاء الذين قدروا الوفاء قدره ، وعرفوا لله حقه ، لا يعرف النفاق إلى قلوبهم سبيلاً ؛ لأنهم رجال أبطال وقفوا مواقف الشرف في ساعات العسرة وأوقات الشدة .

فعليك يا أخي أن تأخذ عنهم القدوة ، وتجعل منهم الأسوة الحسنة – رضي الله عنهم ورضوا عنه – .

---

(١) من الآية : ١١١ من سورة التوبة .

(٢) انظر تفسير ابن كثير (تفسير سورة الأحزاب) حـ ٣ ص ٤٧٥ طبع الحلبي فقد رواه ابن أبي حاتم ورواه الترمذى فى سننه فى (كتاب التفسير) تفسير سورة الأحزاب حـ ٥ ص ٣٤٩ رقم ٣٢٠١ وقال : هذا حديث حسن صحيح .
وروه البخارى باختصار فى (كتاب المغازى) باب غزوة أحد حـ ٣ ص ٢١ ، (البخارى بحاشية السندى ـــ طبع الحلبى) .
والآية رقم ٢٣ من سورة الأحزاب

(٣) من الآية : ٢٤ من سورة الأحزاب .

نفـــاق المعـــاملة

وهذا هو القسم الثالث من أقسام النفاق .. ويتمثل في صور سيئة تتعلق بالمعاملات ...

لقد دلت الأحاديث الصحيحة التي رويت عن المعصوم ﷺ أن هناك آيات وعلامات وأمارات من اتصف بها كان منافقاً .

وعندما نغربل هذه الصفات ونطرحها على بساط البحث نجدها تدور حول خمس صفات :

١ – إذا حدَّث كذب .

٢ – إذا وعد أخلف .

٣ – إذا أؤتمن خـــان .

٤ – إذا عاهد غدر .

٥ – إذا خاصم فجر .

ولعلك – أيها القارىء الكريم – تلمح أن هذه الصفات كلها على النقيض من صفات المؤمنين ؛ فالمؤمن إذا حدَّث صدق ، وإذا وعد وفى ، وإذا أؤتمن أدى ، وإذا عاهد أنجز ، وإذا خاصم لا يجور ولا يفجر .

قل لي بربك : لو وجدت هذه الخصال – خصال المنافقين – في أمة هل تقوم لها قائمة أو ترتفع لها راية ؟ اسمع معي إلى قول رسول الله ﷺ وهو يحث على الصدق ويحذر من الكذب فيقول : « عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[1] .

وما أروع هذا البيان الموجز الذي وصى به الرسول الأمين – صلوات الله وسلامه عليه – أحد طالبي الوصية فقال له : « لا تكذب » .

ولعل الوباء الذي استشرى والخطر الذي استفحل في هذه الحياة إنما يرجع إلى أصل واحد : هو الكذب ، فالكذاب خائن في وعده وفي عهده وفي أمانته وفي خصومته ... لا يقيم للقيم الأخلاقية وزناً ولا للمثل العليا قدراً لأنه يعيش في هذه الدنيا عيشة السائمة لا تبغى إلا أن تأكل وتملأ جوفها وهي تعلم أن هلاكها في سمنها .

(١) انظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب البر والصلة والآداب) باب قبح الكذب وحسن الصدق وفضله حـ ٣ ص ٧٠٦ رقم ١٦٧٥ فقد رواه من حديث عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ بلفظ : « إن الصدق يهدى إلى البر ... الحديث »

ورواه أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب فى التشديد فى الكذب حـ ٤ ص ٢٩٧ رقم ٤٩٨٩ مع تقديم وتأخير .

وأخرجه الترمذى فى سننه (واللفظ له) فى كتاب البر والصلة ، باب : ماجاء فى الصدق والكذب حـ ٤ ص ٣٤٧ رقم ١٩٧١ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

الصدق من صفات الرسل : ولقد لقب الرسول ﷺ قبل رسالته بأنه : « الصادق الأمين » ... هكذا شهد له بنو قومه ، حتى إنك ليأخذك العجب وتستولى عليك الدهشة عندما تتأمل هذا الموقف الذي وقفه ﷺ عند الهجرة : فقد خلف عليّ بن أبي طالب وراءه ليؤدي الودائع إلى أهلها ؛ إذ أن أهل مكة كانوا لا يأمنون أحداً على ودائعهم إلا الصادق الأمين ﷺ .

ولقد مدح الله إسماعيل - عليه السلام - بقوله : ﴿ **واذكر في الكتـٰب إسمـٰعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً * وكان يأمر أهله بالصلـٰوة والزكـٰوة وكان عند ربه مرضياً** ﴾(١).

وأمر الله عباده أن يكونوا مع الصادقين فقال عز من قائل : ﴿ **يـٰأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصـٰدقين** ﴾(٢).

وصف الله أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم أهل الصدق فقال : ﴿ **يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصـٰدقون** ﴾(٣).

إذاً : مدار الأمر كله يعود إلى الصدق في القول والإخلاص في العمل .

ويوم يتوفر هذا الجانب في نفس المؤمن : فلسوف ينتظم منهجه في الحياة ويستقيم خلقه بين الناس ...

فالصدق في الحديث مطابقة الخبر للواقع ، والصدق في الوعد : الوفاء به ، والصدق في الأمانة : أداؤها ، والصدق في العهد : الحرص على إنجازه ، والصدق في الخصومة : قول الحق ولو على نفسك .

وإننا لا ننسى هذا المشهد الرائع والموقف الجليل الذي وقفته أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - من رسول الله ﷺ وقد جاءها بعد ما نزل عليه الملك في « غار حراء » يأمره بالقراءة ودخل الرسول ﷺ على زوجته الوفية يرجف فؤاده ... فماذا كان قولها لتزيل عنه ما ألمَّ به ؟

لقد وصفته بكريم الشمائل وحميد السجايا وقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً » ودعمت قولها بتلك الحيثيات القوية : « إنك لتصدق الحديث ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق »(٤)... صلى عليك الله يا علم الهدى ...

ما يجب أن يكون عليه المسلم :

أخي المسلم : هذه صفات الرجال الذين يريدون أن يشيدوا صروح الكرامة في الحياة ، ويضيئوا

(١) الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ من سورة مريم .

(٢) الآية : ١١٩ من سورة التوبة .

(٣) من الآية : ٨ من سورة الحشر .

(٤) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الإيمان) باب : بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ـــ حـ ١ ص ٣٢ ، ٣٣ رقم ٩٩ فقد رواه عن عائشة رضي الله عنها .

شموس الهداية لأقوامهم ، ولكي يكون الإنسان من هؤلاء لابد أن يكون وفيًّا بعهده ، ولكي يكون كذلك لابد وأن يلتزمن بعنصرين :

العنصر الأول : الذكر .

العنصر الثاني : قوة العزيمة .

ولذلك ختم الله آية الوفاء بالعهد بقوله : ﴿ **وبعهد الله أوفوا ذلكم وصـٰكم به لعلكم تذكرون** ﴾[١].

وقال لرسول الله ﷺ ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾[٢].

وما أكل آدم من الشجرة إلا عندما نسي العهد ، قال – تعالى – : ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي** ﴾[٣].

ولقد أكد القرآن في آيات كثيرة على لفظ « الذكر » فختمها قائلاً : ﴿ **كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[٤]. ﴿ **قد فصلنا الآيـٰت لقوم يذكرون** ﴾[٥] إلى غير ذلك من الآيات .

فإذا قوي العزم قويت الإرادة ، فتجشم الإنسان كل الصعاب في سبيل الوفاء والأداء : قال تعالى : ﴿ **وما يلقـٰها إلا الذين صبروا وما يلقـٰها إلا ذو حظ عظيم** ﴾[٦].

الريـــاء وأثـــره في النفـــوس

إذا كان النفاق ضد الإيمان فإن الرياء ضد الإخلاص ، فكما لا يجتمع نفاق وإيمان في قلب واحد كذلك لا يجتمع رياء وإخلاص في قلب واحد ، وحيث قد علمنا النفاق وما يدور حوله ، وما يشتمل عليه من نفاق في العقيدة أو العبادة أو المعاملة ، فقد رأينا أن نذكر كلمة عن الرياء ، وهو : أن يقصد العبد بعمله غير وجه الله – تعالى – وفي هذا يحذر العلي العظيم هؤلاء المرائين ، فيقول في الحديث القدسي الجليل : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك : من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه »[٧].

---

(١) من الآية : ١٥٢ من سورة الأنعام .

(٢) من الآية : ١٥٩ من سورة آل عمران .

(٣) من الآية : ١١٥ من سورة طه .

(٤) من الآية : ٥٧ من سورة الأعراف .

(٥) من الآية : ١٢٦ من سورة الأنعام .

(٦) الآية : ٣٥ من سورة فصلت .

(٧) انظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزهد) باب تحريم الرياء حـ ١٨ ص ١١٥ فقد رواه عن أبى هريرة رضى الله عنه — واللفظ لمسلم .

ورواه ابن ماجه فى (كتاب الزهد) باب الرياء والسمعة حـ ٢ ص ١٤٠٥ رقم ٤٢٠٢

وجاء في الحديث أيضاً : « يخرج آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين يلبسون للناس جلود الضأن من اللبن ، ألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل : أَبِيَ يغترون ؟ أم عليّ يجترئون ؟ فبي حلفت لأبعثن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران »[1].

ومعنى قوله : « يختلون الدنيا بالدين » أي : ينتزعون خيرات الدنيا ويحصدونها باسم الدين .. ومعنى قوله : « يلبسون للناس جلود الضأن من اللهن » : هو كناية عن لينهم للناس ظاهراً وإضمار السوء باطناً وخداعاً ، فليس في قلوبهم محبة للعباد يحبون أنفسهم فقط ، ويخدعون الناس بإظهار حبهم قاصدين بذلك أغراضاً دنيوية كما يريدون احترام الناس لهم بتحسين ظواهرهم ، ومعنى قوله – جل جلاله – : « أبي يغترون » أي : يغترون بحلمي عليهم بتأخير عقوبتهم ؟

ومعنى قوله – تعالى – : « بي حلفت » أي : حلفت بي وحدي ، لا يستحقها غيري ، كما لا يجوز لأحد أن يحلف بغير الله – تعالى – وإن كان معظماً عند الناس ... قال رسول الله ﷺ : « لا تحلفوا – أيها الناس – بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليدع »[2] فكن قوي الثقة بالله فلا يميلن قلبك إلى رياء أو حب سمعه .

العزة في طلب الرزق

أخا الإسلام :

لا تخضعن لمخلوق على طمع
فإن ذلك نقص منك في الدين
لن يقبل العبد أن يعطيك خردلة
إلا بإذن الذي سواك من طين
فلا تصاحب غنياً تستعزُّ به
وكن عفيفاً وعظم حرمة الدين
واسترزق الله مما في خزائنه
فإن رزقك بين الكاف والنون

---

(١) أنظر سنن الترمذى (كتاب الزهد) حـ ٤ ص ٦٠٤ رقم ٢٤٠٤ فقد رواه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه .

(٢) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإيمان) حـ ١١ ص ١٠٥ ، ١٠٦ فقد رواه عن عبد الله بن مسعود بلفظ : « ألا إن الله عز وجل ـ ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت »

ورواه أبو داود فى (كتاب الإيمان والنذور) باب فى كراهية الحلف بالآباء حـ ٣ ص ٢٢٢ رقم ٣٢٤٩ من رواية عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه .

وأنظر سُنن الترمذى حـ ٤ ص ١١٠ رقم ١٥٣٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح

ورواه ابن ماجه مختصرا حـ ١ ص ٦٧٧ رقم ٢٠٩٤ وأنظر سنن النسائى حـ ٧ ص ٤

واستغن بالله عن دنيا الملوك
كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

لقد كان موقف الإيمان دائماً من أتباعه يدور حول الثقة بالله والاعتزاز بطاعته ... فالروح والرزق لا يملكها إلا الله - تبارك وتعالى - :

قال ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها »[١].

فيا أخي :

لا تعجلن فليس الرزق بالعجل
الرزق في اللوح مكتوب مع الأجل
فلو صبرنا لكان الرزق يطلبنا
لكنه خلق الإنسان من عجل !!

واعلم بأنه لا يمكن أن تحصل على شيء ليس لك ، ولا يمكن أن يضيع منك شيء هو لك ، فلا تنافق على حساب دينك أو كرامتك أو عزة نفسك ، واقصد بعملك وجه الله خالقك . قال - تعالى - : ﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إلـه إلا هو** ﴾[٢].

الرياء يفسد العمل ويحبطه :

لقد بلغ من موقف الوحي أنه أجاب على سؤال رجل جاء يسأل رسول الله ﷺ فيقول له : يا رسول الله إني أصلي طاعة لربي وليراني الناس . وإذا بالأمين جبريل - عليه السلام - ينزل بهذه الآية الكريمة : ﴿ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[٣].

فالرياء في العبادة خبث لا يليق ، كذلك الرياء في معاملة الناس . قال عز من قائل : ﴿ **يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً** ﴾[٤].

ولقد أخبر الصادق المعصوم ﴿ **أن من شر الناس يوم القيامة ذا الوجهين : يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه** ﴾[٥]. ولعلك ياأخي ترتعد منك الفرائص عندما تقرأ هذا الحديث النبوي الشريف الذي أودى الرياء فيه بقوم قدموا أعمالاً ولم يقصدوا بها وجه الله.. أودى بهم إلى النار وعذابها.. قال ﷺ :

(١) أنظر حلية الأولياء (فى ترجمة أحمد بن أبى الحوارى) حـ ١٠ ص ٢٧ عن أبى أمامة ــ رضى الله عنه .
(٢) من الآية ٣ من سورة فاطر .
(٣) من الآية : ١١٠ من سورة الكهف .
(٤) الآية : ١٠٨ من سورة النساء .
(٥) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٣٧٤ رقم ٢٠٢٥

« إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه : رجل استشهد فيأتى به فعرَّفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ... ولكنك قاتلت لأن يقال جريء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء ، فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار . ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه الله نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : جواد فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » . رواه مسلم[1].

أرأيت إلى الرياء كيف يحبط الأعمال مهما بلغت وجلت وعظمت ؟ أبعد القتال والعلم والإنفاق أعمال تقاس بها ؟ ومع ذلك فإن دخول الرياء فيها هشم أسوارها وحطم بنيانها وقوض أركانها وأزال قوتها وضيع ثوابها !!

نعوذ بالله من الريـــاء !!

لقد صدق الله رب العالمين حيث يقول : ﴿ **يأيها الذين ءامنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكفرين** ﴾[2].

إن النفس تسيل مرارة ، وإن الكبد تظل مقروحة عندما نقرأ هذا الحديث الشريف وتلك الآية الكريمة ... فالمراءونت يحاولون أن يخادعوا – حتى وهم واقفون بين يدي الله – ويحاولون أن يظهروا أنهم قدموا الأعمال ابتغاء مرضاته فيقول لهم الله – جل جلاله – : كذبتم ! إن هذه الكلمة لها وقع تكاد الجبال تخرله هدًّا وما ذاك إلا لاختلاط الرياء بالأعمال فأزال ثوابها كما يزيل المطر الغزير تراباً على حجر فيتركه أملس ناعماً لا شيء عليه .

تنبيـــه وتحـــذير :

واعلم أن المرائي لا يغيب أمره عن الناس مهما طال به عهد الرياء ، بل لابد أن تظهر حقيقته أمام الخلق في يوم ما . قال – صلوات الله وسلامه عليه – : « من سمع : سمع الله به . ومن يرائي : يرائي الله به »[3].

(١) الحديث فى صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الإمارة) باب : من قاتل للرياء والسمعة استحق النار جـ ١٣ ص ٥٠ ، ٥١ من حديث أبي هريرة – رضى الله عنه .

(٢) الآية : ٢٦٤ من سورة البقرة .

(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزهد والرقائق) باب تحريم الرياء حـ ٣ ص ٨٣٢ رقم ١٨٨٠ من حديث جندب – رضى الله عنه .

وأنظر سنن ابن ماجه (كتاب الزهد) باب الرياء والسمعة حـ ٢ ص ١٤٠٧ رقم ٤٢٠٧ .

والمعنى أن « سمع » بتشديد الميم معناه : أظهر عمله للناس رياء . ومعنى « سمع الله به » أي : فضحه يوم القيامة . ومعنى « من راءى راءى الله به » أي : من أظهر للناس العمل الصالح ليعظم عندهم راءى الله . أي : أظهر سريرته على رؤوس الخلائق .

ولقد كان أمير المؤمنين عمر – رضي الله عنه – يقول : « من تزين للناس بما يعلم الله منه خلاف ذلك هتك الله ستره وأبدى فعله » .

وما من شك في أن أخطر الأشياء التي يحبطها الرياء : العلم إذا كان المقصود به غير الله وغير ما عند الله ... قال ﷺ : « من تعلم علماً يبتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة – يعني ريحها »[١] رواه أبو داود .

ونصيحـــتي :

على كل مسلم مخلص أن يراعى الله في كل فعله ... يقول القرآن الكريم مظهراً هذه القضية :

﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العـٰلمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾[٢].

ولقد صدق رسول الله ﷺ عندما جعل دستور الحياة أمام الناس هذه الكلمات الفاضلة : « من أرضى الله **وأسخط** الناس كفاه الله ما بين الناس ، ومن أسخط الله بإرضاء الناس وكله الله إلى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته »[٣].

فـــائدة جليـــلة :

ونختتم هذا الباب بهذه الفائدة الشرعية الجليلة :

هناك من الأمور ما يتوهم الإنسان أنه رياء وليس برياء ، ومثل هذا ما روى **عن أبي ذر رضى الله** عنه – قال : قيل لرسول الله ﷺ : « أرأيت الرجل الذي يعمل من الخير ويحمده الناس عليه ؟ قال : « تلك عاجل بشرى المؤمنين » رواه مسلم[٤].

ومعنى هذا أن الناس إذا أثنوا بلسان الحق على من يفعل الخير فليس هذا رياء ، إنما هو من باب قول **الله ـ تبارك وتعالى ـ فى الحديث القدسى : « عبدى لم تشكرنى إن لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه » .**

اللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

---

(١) أنظر سنن أبى داود طبع دار الحديث بحمص (كتاب العلم) باب طلب العلم لغير الله تعالى حـ ٤ ص ٧١ رقم ٣٦٦٤ فقد أخرجه عن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه .
وأنظر سنن ابن ماجه (المقدمة) باب الانتفاع بالعلم والعلم به حـ ١ ص ٩٢ ، ٩٣ رقم ٢٥٢

(٢) سورة الأنعام ، الآيتان : ١٦٢ ، ١٦٣

(٣) رواه الترمذى فى سننه فى (كتاب الزهد) باب ٤٩ حـ ٤ ص ٣٤ رقم ٢٥٢٧ عن عائشة ـــ رضى الله عنها .
وأنظر صحيح ابن حبان (الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان) حـ ١ ص ٢٤٧ رقم ٢٧٧

(٤) أنظر صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (كتاب البر والصلة والآداب) حـ ٤ ص ٢٠٣٤ رقم ٢٦٤٢/١٦٦

الثبــــات على المبــــدأ

إذا علمنا أن النفاق والرياء هما من الأمراض الخطيرة التي تهدم الأمم وتقوض المجتمعات ، بل من أشدها خطراً .. فما العلاج ؟ وما السبيل إلى البناء القويم لهذه المجتمعات ؟

لم أجد أنجح ولا أنفع في بناء المجتمع أفضل من الثبات على المبدأ وأعني به مبدأ الحق والشرف والرجولة والاعتزاز بأوامر الله وطاعة رسوله ؛ ذلك لأن النفس لا تنحدر إلى الهاوية إلا إذا نسيت مبدأها وخانت عهودها .. عندئذ تتمرغ في ماديات مظلمة تتيه في بيداء هذه الحياة .

ولعل من أصدق الأمثلة على ذلك : قصة ثعلبة بن حاطب : الرجل الذي نسى مبدأه وخان عهده ، كان يلقب بـ « حمامة المسجد » وكفى بهذا اللقب شهادة له بحسن المواظبة وأداء الصلوات في أوقاتها ... ماذا حدث لتلك « الحمامة » وماذا جرى لثعلبة ؟ رووا أنه أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم : لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ، ووصلت القرابة .. فمات ابن عم له فورث منه مالاً فلم يف بشيء مما عاهد الله عليه ، فنزل قول الله – تعالى – : ﴿ **ومنهم من عـٰهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصـٰلحين * فلما ءاتـٰهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علـٰم الغيوب** ﴾[1].

أرأيت إلى هذه العاقبة الوخيمة التي مُنى بها ذلك الذي نسي أصله وخان عهد الله ؟! كان كل مطلبه الدنيا وما فيها من زخارف خداعة وبوارق لامعة ، أقبلت عليه فنسي ربه ! وبعد أن كان « حمامه » تأوي إلى بيت الله فتأنس بذكره . قصت أجنحتها فتمرغت في أوحال الدنيا .. وهكذا الدنيا إذا حلت : أو حلت ، وإذا كست : أو كست ، وإذا جلت : أو جلت . وكم من ملك رفعت له علامات فلما علا : مات !!

عظــة وعـــبرة :

كذلك من الدروس التي يجب أن يعيها المجتمع في الثبات على المبدأ : ألا يتنكر الإنسان لفضل الله عليه فيمنع النعمة أصحابها ويصير بذلك كنوداً آثماً .

لقد روى أبو هريرة – رضي الله عنه – عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن ثلاثة من بني إسرائيل : أبرص وأقرع وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً فأتى الأبرص قال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عني الذي قذرني الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لوناً حسناً وجلداً حسناً ، فقال : أي المال أحب إليك ؟ قال : الإبل فأعطاه ناقة عشراء ، وقال : بارك الله لك فيها . ثم أتى الأقرع فقال : أي شيء أحبّ إليك ؟ قال : شعر حسن

---

(١) الآيات : ٧٥ – ٧٨ من سورة التوبة .

ويذهب عني هذا الذي قذرني الناس ! فمسحه فذهب عنه وأعطى شعراً حسناً ، قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : البقر . فأعطي بقرة حاملاً وقال : بارك الله لك فيها ، ثم أتى الأعمى فقال : أي شيء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله عليّ بصري . فمسحه فرد الله عليه بصره قال : فأي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم فأعطى شاة والدة فأنتج هذان ، وولد هذا ، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، ثم إنه – أي : الملك – أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن بعيراً أتبلغ به في سفري ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأني أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ؟ فقيراً فأعطاك الله ؟ قال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر ، قال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

وأتى « الأقرع » في صورته فقال له مثل ذلك ، ورد عليه مثل ما رد الأول ، فقال : إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنت .

ثم أتى « الأعمى » في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله عليّ بصري فخذ ما شئت ودع ماشئت ، فوالله لا أجهدك اليوم ، أخذته لله فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك ! »[(١)].

إن هـذه تذكـــرة

إن أعظم الوصايا الغالية التي وصى بها رسول الله ﷺ قوله : « احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله »[(٢)].

أجل يا سيدي يا رسول الله ! يا صاحب الثبات على مبدأ الحق ، يا من وصفت المؤمن الصحيح فقلت :

« عجباً لأمر المؤمن : إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن ؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »[(٣)].

وإنني إذ أبرهن على هذه المبادىء الحقيقية أسوق هذه الدروس أمام المسلمين ليجدوا فيها العظة ، إنها دروس على ثلاثة نفر وقعوا في شدة فنجاهم الإخلاص ، لقد ثبتوا مع الله في طاعته ساعة الرخاء ، فتعرف الله عليهم ساعة الشدة .

(١) اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزهد والرقائق) حـ ٣ ص ٨٢٦ ، ٨٢٧ رقم ١٨٦٨

(٢) أنظر سنن الترمذى (كتاب صفة القيامة) حـ ٤ ص ٦٦٧ رقم ٢٥١٦ فقد رواه عن ابن عباس قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه ابن السنى فى عمل اليوم والليلة (باب ما يوصى به الغلام إذا عقل) ص ١٢٥ ، ١٢٦ رقم ٤٢٧

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى (كتاب الزهد) باب فى أحاديث متفرقة حـ ١٨ ص ١٢٥ فقد رواه عن صهيب

قال رسول الله ﷺ : انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار ، فقالوا إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله – تعالى – بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما ، فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أوقظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً ، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية **يتضاغون** عند قدمي فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

وقال الآخر : اللهم إنه كانت لي ابنة عم كان أحب الناس إليّ – وفي رواية – كنت أحبها كأشد مايحب الرجل النساء ، فأردتها على نفسها ، فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها – وفي رواية – : فلما قعدت بين رجليها قالت : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركت الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له ، وذهب فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين ، فقال : يا عبد الله أدِّ إليّ أجري ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله ؛ لا تهزأ بي فقلت : لا أهزأ بك ،**فأخذه** كله ، فاستاقه فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »(1) . متفق عليه .

هل تأملت – أيها القارىء الكريم – هذا الهدى النبوي والإرشاد المحمدي في هذه الصورة البيانية الرائعة ؟!

الإيمان وبناء النفوس

إذا كان الإيمان هو التصديق القلبي فلنعلم أن القلب هو محله ... بهذا نطق الكتاب الكريم قال – تعالى – : ﴿ **أولئك كتب في قلوبهم الإيمان** ﴾(2) .

وقال – جل شأنه – : ﴿ **وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾(3) .

---

(1) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار) حـ ٣ ص ٧٤٤ ، ٧٤٥ رقم ١٧٤٥ .

(2) من الآية : ٢٢ من سورة المجادلة .

(3) من الآية : ١٠٦ من سورة النحل .

وقال - سبحانه - : ﴿ **ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم** ﴾[١].

هل وقفت على الدور العظيم الذي قام به الإيمان في بناء النفوس ؟ فلولا الإيمان ما رأيت الرجل الأول من هؤلاء النفر الثلاثة ينتظر والديه النائمين حتى يقوما فيشربا نصيبهما من اللبن ويؤثرهما على أولاده ! ولولا الإيمان ما قالت تلك الفتاة لابن عمها : اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه ... هل كان هناك أحد يراها إلا الله ؟ ولولا الإيمان ما استجاب ابن عمها لندائها وخشي !

﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[٢].

ولولا الإيمان ما رد ذلك المالك أجر هذا الأجير بعد ما زاد ونما واستثمر ...

لا عجب ! فإن الإيمان هو صانع المعجزات وباني النفوس ، فلولا الإيمان ما كانت الأمانة ، وما كانت خشية الله ، وما كان البر في جميع صوره ، ولكنه سر من أسرار الله - جلت قدرته - يعمر به النفوس فتضيء وتشرق وتتلألأ وتتألق حتى تصير كالشمس في ضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها .

فاللهم أعط نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها .

من هذا كله نعلم أن القلوب هي المركز الأول الذي ينبني عليه صلاح الفرد ، وينبني على صلاح الفرد صلاح المجتمع ، وإنما يؤدي الإيمان ثمرته المرجوة ويؤتي أكله إذا كان مستشعراً عظمة الله وهيمنة سلطانه ، نعم : مستشعراً في سره وعلانيته حيث ينطق الحديث الشريف بهذه الحكمة النبوية :

« اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن »[٣].

والإيمان إذا حل قلب ملأه خشية ومعرفة ، قال - سبحانه - : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[٤]. نعم لا يتوكلون على غيره لأنه وليهم .

﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾[٥].

والمؤمنون الصادقون إنما هم أعلام شامخة الرءوس مشرئبة الأعناق ؛ لأنهم معتزون بالله .

---

(١) من الآية : ٧ من سورة الحجرات .

(٢) الآية : ٢٠١ من سورة الأعراف .

(٣) انظر سنن الترمذي (كتاب البر والصلة) باب ماجاء في معاشرة الناس حـ ٤ ص ٣٥٥ رقم ١٩٨٧ فقد رواه عن أبي ذر - رضي الله عنه .

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الآية : ٢ من سورة الأنفال .

(٥) الآيتان : ١٧٣ ، ١٧٤ من سورة آل عمران .

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[١].

كذلك يجعلون وجهتهم إليه – سبحانه – يعلمون أنه – جل جلاله – هو المتولي شئونهم .

﴿ الله ولي الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٢].

والمؤمنون الصادقون إذا سألوا أو استعانوا : سألوا الله ، وطلبوا العون منه ؛ لأنهم يعلمون أنه – تعالى – أقرب إلى العبد من حبل الوريد .

لذلك نلمح هذه الإشراقة المضيئة في القرآن الكريم عندما يعرض للمسائل التي كانت توجه إلى رسول الله ﷺ طالباً للبيان والمعرفة .

﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾[٣].

﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾[٤] ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌّ عن سبيل الله ﴾[٥].

يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾[٦].

﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾[٧]

﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ﴾[٨]

﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾[٩].

﴿ فأنت ترى في الإجابة عن هذه الأسئلة تصديراً بكلمة « قل » إلا في قوله – تعالى – : ﴿ وإذا سألك عبادى عني فإنى قريب ﴾[١٠].

وفى ذلك من قوة القرب إلى الله تعالى وشدة علمه وإحاطته مايجعلنا نتوجه إليه دائما فى السراء والضراء وحين البأس .

---

(١) من الآية : ١٠ من سورة فاطر .
(٢) من الآية : ٢٥٧ من سورة البقرة .
(٣) من الآية : ١٨٩ من سورة البقرة .
(٤) من الآية : ٢١٥ من سورة البقرة .
(٥) من الآية : ٢١٧ من سورة البقرة .
(٦) من الآية : ٢١٩ من سورة البقرة .
(٧) من الآية : ٢٢٠ من سورة البقرة .
(٨) من الآية : ٢٢٢ من سورة البقرة .
(٩) الآية : ١٠٥ من سورة طه .
(١٠) من الآية : ١٨٦ من سورة البقرة .

يارب أنت تهب الكثير ، وتجبر القلب الكسير ، وتغفر الزلات وتقول : « هل من تائب مستغفر أو سائل أقضي له الحاجات ! » بهذا الإيمان : تبنى النفوس على الكرامة والعزة ، وتشيد صروحها على المعرفة والأمانة ؛ لأنها دائماً في حال مراقبة أو مشاهدة : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وليس ثمة أدنى شك أن القلوب المؤمنة في حالة ذكر لربها لا تعرف الغفلة ... أسمعت إلى نوح - عليه السلام - عندما اشتد به الكرب وزاد عليه عناد قومه ، واتهم بأنه مجنون وازدجر ، ماذا قال ؟

﴿ **فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾(١).

ثم رأيت إلى أيوب - عليه السلام - في مرضه وشدته وكربه ومحنته يتوجه إلى خالقه فيقول : ﴿ **مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** ﴾(٢).

فيكون الجواب : ﴿ **فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين** ﴾(٣).

ثم استمع إلى صاحب الحوت : يونس - عليه السلام - وهو في بطن الحوت وفي ظلمة البحر وأعماقه ينادي ويهتف : ﴿ **لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾(٤).

فتأتي الإجابة أسرع من البرق : ﴿ **فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين** ﴾(٥).

وها هو ذا زكريا - عليه السلام - يريد ولداً صالحاً وغلاماً رضياً فيتوجه إلى الله : ﴿ **رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين** ﴾(٦).

فتأتي الإجابة : ﴿ **فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه** ﴾(٧).

ثم استمع إلى مؤمن من آل فرعون بعد ما بذل النصح والتوجيه وبين الطريق السوي يقابل من قومه بما لا يليق بالناصحين المخلصين ، فيقول لهم : ﴿ **فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد** ﴾(٨).

فتأتي الإجابة والنجدة من رب العزة الذي يغيث الملهوفين : ﴿ **فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب** ﴾(٩).

---

(١) الآيات : ١٠ - ١٢ من سورة القمر .
(٢) من الآية : ٨٣ من سورة الأنبياء .
(٣) من الآية : ٨٤ من سورة الأنبياء .
(٤) من الآية : ٨٧ من سورة الأنبياء .
(٥) الآية : ٨٨ من سورة الأنبياء .
(٦) من الآية : ٨٩ من سورة الأنبياء .
(٧) من الآية : ٩٠ من سورة الأنبياء .
(٨) من الآية : ٤٤ من سورة غافر .
(٩) الآية : ٤٥ من سورة غافر .

التفسير

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد أن المنافقين لكٰذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم ءامنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنىٰ يؤفكون ﴾

يقول – تعالى – مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوّهون بالإسلام إذا جاءوا النبي ﷺ فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ، ولهذا قال – تعالى – :

﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ أي : إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله ، فقال : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ثم قال – تعالى – : **﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾** أي : فيما أخبروا به ، وإن كان مطابقاً للخارج ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

وهذه حال المنافقين في كل زمان ومكان .

مرواوغة كالثعالب .

وخداع باطل .

يلقاك يقسم أنه بك واثق ... وإذا توارى عنك فهو العقرب

يسقيك من طرف اللسان حلاوة ... ويروغ منك كما يروغ الثعلب

جاء في الحديث القدسي الجليل : « لقد خلقت خلقاً ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر ، فبي حلفت لأتيحنهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران ، أبي يغترون أم علي يجترئون »[1] .

---

(١) رواه الترمذي حـ ٤ ص ٦٠٤ رقم ٢٤٠٤ بنحوه .

كان المسيح ابن مريم – عليه السلام – يقول : يا بني إسرائيل لا تأتوني تلبسون ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ، ولكن البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بخشية الله .

إن الله – تعالى – **وهو العليم بذات الصدور** يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، يقول في شأن هؤلاء :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون * وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون * وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون * وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون * أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين * مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صم بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾[1].

قوله – تعالى : ﴿ **اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله** ﴾ أي : اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة الآثمة ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتر بهم من لا يعرف جلية أمرهم فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الإسلام وأهله خبالاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال – تعالى – : ﴿ **فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾.

ولهذا كان الضحاك بن مزاحم يقرؤها [اتخذوا إيمانهم جنة] أي : تصديقهم الظاهر جنة ، أي : تقية يتقون به القتل . والجمهور يقرؤها (أيمانهم) جمع يمين .

وقوله – تعالى – : ﴿ **ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون** ﴾ أي : إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران واستبدالهم الضلالة بالهدى ، فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ، أي : فلا يصل إلى قلوبهم هدى ولا يخلص إليها خير فلا تعي ولا تهتدي .

والأيمان الكاذبة من سمات المنافقين فهم دائماً يحلفون على الكذب .

قال – تعالى – : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جنة**

---

(١) الآيات : ٨ – ٢٠ من سورة البقرة .

فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون * إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ﴾[١]

والخداع : من سمات المنافقين فهو في دمائهم يسري سريان النار في الحلفاء ، والسم الزعاف في الأحشاء .

قال – تعالى – في شأنهم :

﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً * بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً * الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً * وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً * الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً * إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً * يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً * إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً * ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً ﴾[٢].

إن المنافقين مخادعون حتى مع حلفائهم من اليهود ، قال – تعالى – : ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾[٣].

قوله – تعالى – : ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ أي : وكانوا أشكالاً حسنة وذوي فصاحة وألسنة ، وإذا سمعهم السامع يصغى إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك فى غاية الضعف والخور والهلع والجزع والجبن .

---

(١) الآيات : ١٤ – ٢٠ من سورة المجادلة .

(٢) الآيات : ١٣٧ – ١٤٧ من سورة النساء .

(٣) الآيتان : ١١ ، ١٢ من سورة الحشر .

ولهذا قال – تعالى – : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أي : كلما وقع أمر أو كائنه أو خوف يعتقدون – لجبنهم – أنه نازل بهم ، كما قال – تعالى – :

﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾(١). فهم جهامات وصور بلا معان ،

ولهذا قال – تعالى – : ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ أي : كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال ؟!

وقد روى الإمام أحمد – رضي الله عنه – بسنده عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : « إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين ، لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل صخب بالنهار »(٢).

وقد سميت سورة براءة بالفاضحة والمخزية والمقشقشة والبحوث ؛ لأنها كشفت أسرار المنافقين وما ينطوي عليه صدورهم من كفر وحقد على الإسلام ، وحسد لنبي الإسلام – عليه الصلاة والسلام – وما كانوا يتصفون به من تأليب القبائل على الإسلام ورسوله .

لقد انضموا دائماً إلى معسكرات الشرك ، ووقفوا مع أعداء الله في خندق واحد ، وقعدوا عن الجهاد وثبطوا الهمم .

قال – تعالى – : ﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول إئذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون * قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم

---

(١) الآية : ١٩ من سورة الأحزاب .

(٢) أنظر مسند أحمد (مسند أبي هريرة — رضى الله عنه) حـ ٢ ص ٢٩٣

قوماً فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون * ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون * ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون * إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم *ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين * ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدا فيها ذلك الخزى العظيم* يحذرالمنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ماتحذرون * ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين * المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ (١).

وقال – عز من قائل – :

﴿ يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير * يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ (٢).

---

(١) الآيات : ٤٢ – ٦٨ من سورة التوبة .

(٢) الآيات : ٧٣ – ٧٧ من سورة التوبة .

من مساوىء المنافقين

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

التفسير

وهذا موقف من مواقفهم المخزية وما أكثرها بل ما أقبحها أنهم الذين أخبر الله – تعالى – عنهم بقوله : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون** ﴾ فهذا إخبار منه – جلت قدرته – عن المنافقين عليهم لعائن الله إنهم : ﴿ **إذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم** ﴾ أي : صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك واحتقار لما قيل لهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون** ﴾ ثم جازاهم على ذلك فقال تعالى : ﴿ **سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا ابن أبي عمر العدني قال : قال سفيان : (لووا رءوسهم) قال ابن أبي عمر : حول سفيان وجهه على يمينه ونظر بعينه شذراً ثم قال : هو هذا[1].

وقد ذكر غير واحد من السلف أن هذا السياق كله نزل في عبد الله بن أبي بن سلول وقد قال محمد بن إسحق في السيرة : ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة يعني مرجعه من أحد وكان عبد الله بن أبي ابن سلول كما حدثني ابن شهاب الزهري له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر شرفاً له من نفسه ومن قومه وكان فيهم شريفاً إذا جلس النبي ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال : أيها الناس هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه وعزروه واسمعوا له وأطيعوا ثم يجلس

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ١٥٣/٨

حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع يعني مرجعه بثلث الجيش ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا اجلس أي عدو الله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنما قلت بجرا أن قمت أشدد أمره فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا : ويلك ويلك ؟ قال قمت أشدّد أمره فوثب على رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بَجْراً أن قمت أشدد أمره قالوا : ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ فقال : والله ما أبتغي أن يستغفر لي وقال قتادة والسدي : أنزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وذلك أن غلاماً من قرابته انطلق إلى رسول الله ﷺ فحدثه بحديث عنه وأمر شديد فدعاه رسول الله ﷺ فإذا هو يحلف بالله ويتبرأ من ذلك ، وأقبلت الأنصار على ذلك الغلام فلاموه وعزلوه . وأنزل الله فيه ما تسمعون ، وقيل لعدو الله : لو أتيت رسول الله ﷺ فجعل يلوي رأسه أي لست فاعلاً[1]، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا أبو الربيع الزهراني حدثنا حماد بن زيد حدثنا أيوب عن سعيد بن جبير أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل منزلاً لم يرتحل حتى يصلي فيه فلما كانت غزة تبوك بلغه أن عبد الله بن أبي ابن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك بل رجع بطائفة من الجيش وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع وهو غزوة بني المصطلق[2].

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق : حدثني محمد بن يحيى بن حبان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمر بن قتادة في قصة بني المصطلق فبينما رسول الله ﷺ مقيم هناك اقتتل على الماء جهجهاه بن سعيد الغفاري وكان أجيراً لعمر بن الخطاب وسنان بن يزيد قال ابن إسحق فحدثني محمد بن يحيى ابن حبان قال : ازدحما على الماء فاقتتلا . فقال سنان : يا معشر الأنصار وقال الجهجهاه : يا معشر المهاجرين وزيد بن أرقم ونفر من الأنصار عند عبد الله بن أبي فلما سمعها قال : قد ثاورونا في بلادنا والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، ثم أقبل على من عنده من قومه وقال هذا ما صنعتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم من بلادكم إلى غيرها فسمعها زيد بن أرقم – رضي الله عنه – فذهب بها إلى رسول الله ﷺ وهو غليم عند عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فأخبره الخبر فقال عمر – رضي الله عنه – يارسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه . فقال رسول الله ﷺ : (فكيف إذا تحدث الناس يا عمر أن محمداً يقتل أصحابه لا ولكن ناد يا عمر الرحيل) فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله ﷺ أتاه فاعتذر إليه وحلف بالله ما قال ؟ ما قال عليه : زيد بن أرقم وكان عند قومه بمكان فقالوا : يارسول الله عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل وراح رسول الله ﷺ مهجراً في ساعة كان لا يروح فيها فلقيه أسيد بن الحضير – رضي الله عنه – فسلم عليه بتحية النبوة ثم قال والله لقد رحت في ساعة

(١) سيرة ابن هشام ١٠٥/٢

(٢) تفسير الطبرى ٧١/٢٨

منكرة ما كنت تروح فيها فقال رسول الله ﷺ : (أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي ؟ زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل) قال فأنت يارسول الله العزيز وهو الذليل ثم قال أرفق به يارسول الله فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لِنتوجَّهُ فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً فسار رسول الله ﷺ بالناس حتى أمسوا وليلته حتى أصبحوا وصدر يومه حتى اشتد الضحى ثم نزل بالناس ليشغلهم بما كان من الحديث فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا ونزلت سورة المنافقين[١].

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ . أخبرنا أبو بكر بن إسحاق أخبرنا بشر بن موسى . حدثنا الحميدي حدثنا سفيان . حدثنا عمرو بن دينار سمعت جابر ابن عبد الله يقول : كنا مع رسول الله ﷺ في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال الأنصاري ياللأنصار وقال المهاجري ياللمهاجرين فقال رسول الله ﷺ : (ما بال دعوى الجاهلية ؟ دعوها فإنها منتنة)[٢]. وقال عبد الله بن أبي بن سلول وقد فعلوها : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل قال جابر : وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم رسول الله ﷺ ثم كثر المهاجرون بعد ذلك فقال عمر دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال النبي ﷺ (دعه لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)[٣].

وقال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر . حدثنا شعبة ، عن الحكم ، عن محمد بن كعب القرظي . عن زيد بن أرقم . قال : كنت مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك فقال عبد الله بن أبي : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال : فأتيت النبي ﷺ فأخبرته قال فحلف عبد الله بن أبي أنه لم يكن شيء من ذلك قال : فلامني قومي وقالوا : ما أردت إلى هذا ؟ قال فانطلقت فنمت كئيباً حزيناً قال : فأرسل إلى نبي الله ﷺ فقال : (إن الله قد أنزل عذرك وصدقك) قال : فنزلت الآية ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا** – حتى بلغ – **لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل** ﴾[٤].

ورواه البخاري عند هذه الآية عن آدم بن أبي إياس عن شعبة ثم قال : وقال ابن أبي زائدة : عن الأعمش . عن عمرو . عن ابن أبي ليلى . عن زيد عن النبي ﷺ ورواه الترمذي[٥] والنسائي عندها أيضاً من حديث شعبة به .

قال أبو عيسى الترمذي حدثنا عبد بن حميد حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن السدي عن أبي سعد الأزدي قال : حدثنا زيد بن أرقم قال : غزونا مع رسول الله ﷺ وكان معنا أناس من

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٩٠/٢ – ٢٩٢

(٢) البخارى – كتاب التفسير – تفسير سورة المنافقون ١٩٢/٦ ومسلم – كتاب الدرباب نصر الأخ ظالما أو مظلوما ١٩٥٨ ومسند أحمد ٣٩٢/٣

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٦٨/٣

(٤) البخارى تفسير سورة المنافقون ١٩٠/٦

(٥) رواه الترمذى فى تحفة الأحوذى تفسير سورة المنافقون الحديث رقم ٣٣٦٩ جزء ٢١٧/٩

الأعراب فكنا نبتدر الماء وكان الأعراب يسبقوننا إليه فسبق أعرابي أصحابه يملأ الحوض ويجعل حوله حجارة ويجعل النطع عليه حتى يجيء أصحابه قال : فأتى رجل من الأنصار الأعرابي فأرخى زمام ناقته لتشرب فأبى أن يدعه فانتزع حجراً فغاض الماء فرفع الأعرابي خشبته فضرب بها رأس الأنصاري فشجه فأتى عبد الله بن أبي رأس المنافقين فأضره وكان من أصحابه فغضب عبد الله بن أبي ثم قال : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا مْن حوله يعني الأعراب وكانوا يحضرون رسول الله ﷺ عند الطعام فقال عبد الله لأصحابه : إذا انفضوا من عند محمد فائتوا محمد بالطعام فليأكل هو ومن معه ثم قال لأصحابه لئن رجعنا إلى المدينة فليخرج الأعز منها الأذل . قال زيد وأنا ردف عمي قال : فسمعت عبد الله بن أبي يقول ما قال فأخبرت عمي فانطلق فأخبر رسول الله ﷺ فأرسل إليه رسول الله ﷺ فحلف وجحد قال فصدقه رسول الله ﷺ وكذبني قال فجاء إلى عمي فقال : ما أردت إلا أن مقتك رسول الله ﷺ وكذبك والمسلمون قال : فوقع عليّ من الغم ما لم يقع على أحد قط بينما أنا أسير مع رسول الله ﷺ في سفر وقد خففت برأسي من الهم إذ أتاني رسول الله ﷺ فعرك أذني وضحك في وجهي فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا ثم إن أبا بكر لحقني وقال : ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ قلت : ما قال شيئاً إلا أنه عرك أذني وضحك في وجهي فقال أبشر ثم لحقني عمر فقلت له مثل قولي لأبي بكر فلما أن أصبحنا قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين[1] .

وقد قال ابن أبي حاتم – رحمه الله– : حدثنا محمد بن عزيز الإيلي حدثني سلام حدثني عقيل أخبرت محمد ابن مسلم أن عروة بن الزبير وعمرو بن ثابت الأنصاري أخبراه أن رسول الله ﷺ غزا غزوة المريسيع وهي التي هدم رسول الله ﷺ فيها مناة الطاغية التي كانت بين قفا المشلل وبين البحر فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فكسر مناة فاقتتل رجلان في غزوة رسول الله ﷺ تلك أحدهما من المهاجرين والآخر من بهز وهم حلفاء الأنصار فاستعلى الرجل الذي من المهاجرين على البهزي فقال **البهزى : يامعشر الأنصار فنصره رجال من الأنصار وقال : المهاجرى يامعشر المهاجرين فنصره رجال من** المهاجرين حتى كان بين أولئك الرجال من المهاجرين والرجال من الأنصار شيء من القتال ثم حجز بينهم فانكفأ كل منافق أو رجل في قلبه مرض إلى عبد الله بن أبي ابن سلول فقال : قد كنت ترجى وتدفع فأصبحت لا تضر ولا تنفع قد تناصرت علينا الجلابيب وكانوا يدعون حديث الهجرة الجلابيب . فقال عبد الله بن أبي – عدو الله – : والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . قال مالك بن الدخش وكان من المنافقين[2] ألم أقل لكم لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا فسمع بذلك عمر بن الخطاب فأقبل يمشي حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أتأذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه يريدعمر عبد الله بن أبي فقال رسول الله ﷺ لعمر : (أوقاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟) قال عمر نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن عنقه فقال

---

(١) تحفة الأحوذى ـــ تفسير سورة المنافقون ٩/٢٦٥ رقم ٣٣٦٨

(٢) أسد الغابة ٥ :٣٣

رسول الله ﷺ : (اجلس) فأقبل أسيد بن حضير وهو أحد الأنصار ثم أحد بني عبد الأشهل حتى أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أئذن لي في هذا الرجل الذي قد أفتن الناس أضرب عنقه فقال رسول الله ﷺ : (أوقاتله أنت إن أمرتك بقتله ؟) قال : نعم والله لئن أمرتني بقتله لأضربن بالسيف تحت قرط أذنيه . فقال رسول الله ﷺ (اجلس) ثم قال رسول الله ﷺ : (آذنوا بالرحيل) فهجر بالناس فسار يومه وليلته والغد حتى متع النهار ثم نزل ثم هجر بالناس مثلها حتى صبح بالمدينة في ثلاث مسارها من قفا المشلل فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة أرسل إلى عمر فدعاه فقال له رسول الله ﷺ : (أي عمر أكنت قاتله لو أمرتك بقتله ؟) قال عمر : نعم . فقال رسول الله ﷺ : والله لو قتلته يومئذ لأرغمت أنوف رجال لو أمرتهم اليوم بقتله لقتلوه فيتحدث الناس أني قد وقعت على أصحابي فأقتلهم صبراً وأنزل الله عز وجل : ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا** – إلى قوله تعالى – **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة** ﴾.

وقال محمد بن إسحق بن يسار حدثني عاصم بن عمر بن قتادة أن عبد الله بن عبد الله بن أبي لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه فإن كنت فاعلاً فمرني به فأنا أحمل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار فقال رسول الله ﷺ : (بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا.)[1].

وذكر عكرمة وابن زيد وغيرهما أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه فلما جاء أبوه عبد الله بن أبيّ قال له ابنه :

وراءك : فقال مالك ويلك ؟ فقال : والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل فلما جاء رسول الله ﷺ وكان إنما يسير مساقة فشكا إليه عبد الله بن أبيّ ابنه . فقال ابنه عبد الله : والله يارسول الله لا يدخلها حتى تأذن له فأذن له رسول الله ﷺ فقال : أما إذا أذن لك رسول الله ﷺ فجز الآنَ ، وقال أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي في مسنده : حدثنا سفيان بن عيينة . حدثنا أبو هارون المدني قال : قال عبد الله بن عبد الله بن أبيّ ابن سلول لأبيه : والله لا تدخل المدينة أبداً حتى تقول رسول الله ﷺ الأعز وأنا الأذل . قال وجاء إلى النبي ﷺ فقال : يارسول الله بلغني أنك تريد أن تقتل أبي فوالذي بعثك بالحق ماتأملت وجهه قط هيبة له ولئن شئت أن آتيك برأسه لأتيتك فإني أكره أن أرى قاتل أبي .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٩٢

الناكثون الناكصون الناقضون

إنهم المنافقون الناكثون للعهود الناكصون على أعقابهم الناقضون للعقود الذين حدثنا الله – تعالى – عنهم في قوله : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون * ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علّام الغيوب * الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم * استغفر لهم أو لاتستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم * ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين * فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون * فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستئذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين * ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون * ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استئذنك اولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين * رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾[١].

إنهم أصحاب مسجد الضرار

إنهم المنافقون الذين اتخذوا مسجداً ضراراً قال – تعالى – في شأنه : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون * لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه * فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾[٢].

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٧٥ – ٨٧

(٢) سورة التوبة الآيات : ١٠٧ – ١١٠

تحذير وإرشاد

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ
ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ
أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ
وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ
خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

المفردات : ﴿ لا تلهكم ﴾ : لا تشغلكم . ﴿ أجلها ﴾ : الأجل : آخر العمر .

أضـــــواء كاشـــــفة

ياأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالمنافقين الذين يغترون بالأموال والأولاد ويشتغلون بتدبيرها ورعايتها عند ذكر الله ، ولاشك أن من أهم الأسباب التى تدفع الإنسان إلى النفاق أو التحلل من الدين ، هو الإنشغال بالدنيا وعوارضها ، والانهماك الشديد فى تحصيلها ورعايتها ، فذلك مما يشغل الإنسان عن ذكر الله وعن عبادته ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، لأنهم باعوا الباقية بالفانية ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وليس معنى هذا أننا نترك الدنيا بما فيها من الأموال والأولاد . ولكن المنهى عنه هو الاشتغال بها عن ذكر الله . أما اعطاء الدنيا حقها مع العبادة وذكر الله فهذا هو مطلوب الشرع الشريف ، وفى هذه الدائرة يتنافس المتنافسون .

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ انفقوا بعض ماجعلكم الله خلفاء فيه ، انفقوا بعضا يكن لكم حصنا ووقاية من عذاب الله ، انفقوا بعض المال يكن حصنا لكم ولمابكم حتى لاتذهب فى الدنيا ، ولاتعاقبوا عليها فى الآخرة ، انفقوا قليلا من المال من قبل أن يأتى أحدكم الموت أو مقدماته وأماراته فيقول حين يرى ماأعد للمتخلفين عن أوامر الله فيقول : رب لولا أخرتنى إلى أجل أى : إلى أجل قريب وأعطيتنى أمدا قصيرا فى الدنيا فأتصدق يبعض مالى ليكون وقاية لى من هذا العذاب واكن من العباد الصالحين .

ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها ، ولن يمهلها عين إذا جاء أجلهم لايستقدمون ساعة ولايستأخرون .

وهكذا كل مفرط فى دينه وعابث فى دنياه عند الاحتضار يكون نادما على مافرط سائلا الرب ـ سبحانه وتعالى ـ طول الأجل ، ولو مدة قصيرة يسيرة ليستعد وليستدرك مافاته ، ولكن هيهات هيهات ، قد كان ماكان وماهو آت آت والله خبير بما تعملون .

التفسـير

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ومخبراً لهم بأنه من النهي بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ثم حثهم على الإنفاق في طاعته فقال : ﴿**وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين**﴾.

فضـل النفقـة

قال تعالى : ﴿ **أنفقوا من ما رزقناكم** ﴾ .

وقال – جل شأنه – : ﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1].

وللنفقة مكانة عظيمة في الإسلام ولصاحبها قدم صدق عند الله كما له الأجر العظيم في الدنيا والآخرة ومن ثم فقد حث الرسول الكريم على النفقة ورغب فيها كما حذر من البخل ورهب منه ونحن نسوق هذا الحشد الكريم من الأحاديث النبوية الجليلة التي تبين لنا ما للنفقة والمنفقين من عظيم الأجر وكريم المثوبة .

١ – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : (من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل) رواه البخاري ومسلم[2].

بعدل : أي : بمقدار . طيب : حلال .

٢ – وفي رواية لابن خزيمة : إن العبد إذا تصدق من طيب تقبلها الله منه وأخذها بيمينه فرباها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو في يد الله أو قال في كف الله حتى تكون مثل الجبل فتصدقوا[3].

---

(١) سورة الحشر آية : ٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الزكاة ــ باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها رقم ٥٩٥

(٣) صحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ٩٣/٤ رقم ٢٤٢٦

٣ - وفي رواية صحيحة للترمذي قال رسول الله ﷺ : (إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم مهره حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد وتصديق ذلك في كتاب الله :

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

ورواه مالك[١] بنحو رواية الترمذي هذه عن سعيد بن يسار مرسلاً لم يذكر أبا هريرة .

٤ - وعن عائشة - رضي الله عنها - عن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوّه أو فصيله حتى تكون مثل أحد . رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه واللفظ له[٢].

٥ - وروى عن أبي برزة الأسلمي - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليتصدق بالكسرة تربو عند الله - عز وجل - حتى تكون مثل أحد » رواه الطبراني في الكبير[٣].

٦ - وروى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله - عز وجل - ليدخل باللقمة الخبز وقبصه التمر ، ومثله مما ينتفع به المسكين ثلاثة الجنة أبَّ البيت الآمر والزوجة تصلحه والخادم الذي يناول المسكين فقال رسول الله ﷺ : « الحمد لله الذي لم ينس خدمنا » رواه الحاكم والطبراني في الأوسط[٤].

المعنى : أي داوموا على ذكر الله وحمده وتسبيحه واستغفاره والصلاة على حبيبه ﷺ .

ويبين ﷺ أن الإنفاق لله يجلب سعة الرزق ويقضي الحاجات ويكون سبب الفوز والنجاح والشفاء ونيل المأمول .

(١) موطأ مالك ــ كتاب الصدقة ٩٩٥/٢ رقم ١ وسنن الترمذى ــ كتاب الزكاة ٤١/٣ رقم ٦٦٢

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١١١/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٤/٥

(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ١١٠/٣

(٤) المستدرك للحاكم ١٣٤/٤ ومجمع الزوائد ١١٢/٣

القبصه : بفتح القاف وضمها ، وإسكان الباء ، وبالصاد المهملة : هو ما يتناوله الآخذ برءوس أنامله الثلاث .

قال تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم * ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم * وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[1].

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأخذ من المسلمين صدقة ﴿ **تطهرهم** ﴾ من الذنوب ، وحب المال وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿ **وصل عليهم** ﴾ واعطف عليهم بالاستغفار لهم والدعاء ﴿ **إن صلاتك سكن لهم** ﴾ تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم وجمعها لتعدد المدعو لهم ﴿ **ويأخذ الصدقات** ﴾ يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله سبحانه من شأنه قبول توبة التائبين ، والتفضل عليهم .

اللهم إنا نتوجه إليك بسيدنا رسول الله ﷺ أن تقبل توبتنا ، فكما أن الصدقة المعطاة بإخلاص لك ، ومحبة في ثوابك تقبل كذلك نتوسل إليك بمحبتنا إلى سندنا الأقوى وحبيبنا وقرة عيوننا أن تتفضل علينا بالرحمة والقبول وتهب لنا توفيقاً يزيدنا طاعة وإقبالاً على الصالحات بمنّك وكرمك .

٧ – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله – عز وجل – » رواه مسلم والترمذي ، ورواه مالك مرسلاً[2] .

٨ – وروى عن ابن عباس – رضي الله عنهما – يرفعه قال : ما نقصت صدقة من مال وما مد عبد يده بصدقة إلا ألقيت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل ولا فتح عبد باب مسئلة له عنها غنى إلا فتح الله له باب فقر . رواه الطبراني[3] .

المعنى : الله تعالى منزه عن مشابهة الحوادث وليست له يد بالمعنى المفهوم من يدنا إنما هنا لتقريب الأفهام إن الله يعطف بالرحمة على المعطي ويزيده كرامة ويمده بإحسان ويضاعف ثوابه ويقبل عليه برعايته وبركاته .

مسئلة : سؤال . باب فقر : ذلة وضعة وشره نفس وطمع .

٩ – وروى عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهم – قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : **يا أيها الناس توبوا الى الله قبل أن تموتوا وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا وصلوا الذى بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له وكثرة الصدقة فى السر والعلانية تجبروا وتنصروا وترزقوا .**

(١) سورة التوبة الآيات : ١٠٣ – ١٠٥

(٢) صحيح مسلم ــ كتاب البر والصلة ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٨ وسنن الترمذى ــ كتاب البر والصلة ٣٧٦/٤ رقم ٢٠٢٩ وموطأ مالك ــ كتاب الصدقة ١٠٠٠/٢ رقم ١٢

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٤٠٥/١١ رقم ١٢١/٥٠

ومعنى تجبروا : تجب دعواتكم وتغتنوا وفي النهاية (وفي حديث الدعاء) . واجبرني واهدني : أي أغنني ، من جبر الله مصيبته : أي رد عليه ما ذهب منه وعوضه وأصله من جبر الكسر وفي أسماء الله – تعالى – الجبار : أي الذي يقهر العباد على ما أراد من أمر ونهي ، وقيل : هو العالي فوق خلقه .

١٠ – وروى عن عائشة – رضي الله عنها – أنهم ذبحوا شاة فقال النبي ﷺ : ما بقى منها ؟ قالت : ما بقى منها إلا كتفها . قال : بقى كلها غير كتفها ، رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح ومعناه : أنهم تصدقوا بها إلا كتفها[١].

المعنى : ... ... تصدق ﷺ بلحم الشاة كلها إلا كتفها القطعة الأمامية فقط ثم سأل ﷺ سؤال براعة وكمال : ما بقى منها ؟ وأجاب ﷺ ليعلم المسلمين أن الذي يذهب لله هو الباقي ثوابه الخالد بنعيمه الجزيل الأجر قال تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾[٢] وفيه الحث على الصدقة والإكثار من الإحسان .

١١ – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول العبد : مالي مالي إنما له من ماله ثلاث : ما أكل فافنى أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذاك فهو ذاهب وتاركه للناس » رواه مسلم[٣].

المعنى : مالي مالي : أحب مالي . فأبلى : أخلق وتقطع .

أو أعطى فاقتني : فأبقي . والمعنى يميل الإنسان إلى جمع المال ويشتاق إليه ولكن نصيبه من ماله ثلاثة :

(أ) يتنعم به المطعومات ويتذوقه ويتلذذ به .

(ب) أنواع الملابس والزينة والمركب والأثاث والأبهة .

(جـ) التصدق وتشييد المكرمات . فإذا لم يستفد الإنسان في حياته من هؤلاء فلا فائدة في ماله ، وهو ذاهب إلى ورثته . قال تعالى : ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي**

---

(١) سنن ابن ماجه ــ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ــ باب فرض الجمعة ٣٤٣/١ رقم ١٠٨١

(٢) الترمذي ــ كتاب صفة القيامة ٦٤٤/٥ رقم ٢٤٧٠ وقال : حديث حسن صحيح

(٣) سورة النحل الآيتان : ٩٦ ، ٩٧

صحيح مسلم ــ كتاب الزهد والرقائق ٢٢٧٣/٤ رقم ٢٩٥٩

للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون * قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون ﴾(١).

﴿ **زينة الله** ﴾ : من الثياب ، وما يتجمل به كالقطن والكتان والحيوان كالحرير والصوف والمعادن كالدروع ، ﴿ **الطيبات** ﴾ : المستلذات من المآكل والمشارب وفيه دليل على أن الأصل في المطاعم والملابس والمتجملات الإباحة .

﴿ **الفواحش** ﴾ : ما تزايد قبحه جهرها وسرها .

﴿ **الإثم** ﴾ : الذنب .

وقيل : شرب الخمر ﴿ **والبغي** ﴾ الظلم أو الكبر واجتنبوا الإلحاد في صفاته تعالى سبحانه والافتراء عليه تهكماً بالكفرة كقولهم : الله أمرنا بها .

قال الشاعر :

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها ... إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه ... وإن بناها بشر خاب بانيها
أين الملوك التي كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها
أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

وقال آخر :

غداً توفى النفس ما كسبت ... ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم ... وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

١٢ – وعن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا يارسول الله : ما منا أحد إلا ماله أحب إليه قال : فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخر » رواه البخاري والنسائي(٢).

١٣ – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل في فلاة من الأرض فسمع صوتاً في سحابه . اسق حديقة فلان فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شَرْجَةٌ من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقة يحول الماء بمسحاته فقال له : ياعبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان للإسم الذي سمع في السحاب الذي هذا ماؤه

(١) سورة الآيات : ٣١ – ٣٣

(٢) صحيح البخارى ـ كتاب الرقاق ـ باب ما قدم من ماله فهو له ١١٦/٨ وسنن النسائى ـ كتاب الوصايا باب الكراهية فى تأخير الوصية ٢٣٧/٦

يقول :اسق حديقة فلان لاسمكفما تصنع فيها ؟ قال : أما إذا قلت هذا ؟ فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثه وأرد ثلثه » رواه مسلم[١].

المعنى : يقص لك ﷺ حكاية المتصدق « فأتصدق بثلثه » يسوق الله له غيثاً ويبعث له مطراً ويرسل له ماء مسخراً من قبل الله يتوجه لزرعه ذلك الرجل الصالح المحسن ، وقد أسمعه الله كرامة له صوت ذلك الذي في السحاب : (اسق حديقة فلان) وسط صحراء لا نبات فيها ، والدرس من هذا الحديث العذب طلب الإنفاق لله وكثرة الصدقة والعمل لله والله يهب الأرزاق ويعطي البركة للمزكين . قال – تعالى – : ﴿ **وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد** ﴾[٢].

أين الملحدون المنكرون كرامة الأولياء وهذا رجل في بستانه شاهد عمله رجل آخر سمع صوتاً في السحابة ومشى مع مسيل الماء فسأل عن صاحب البستان فطابق الاسم المنادي فاستفهم : مما تصنع فيها ؟ فأجاب :

(أ) ينفق ثلث إيراد الحديقة لله .

(ب) وينفق على أهله وأسرته الثلث الثاني .

(جـ) ويشتري ما يلزم للزراعة من الثلث الأخير .

هل يتعظ المسلمون بهذا ، ملائكة الله تسوق الأمطار لسقى الصالحين وري أرضهم إن من نظام الله البديع أن سخر ملائكته لأعمال اقتضتها حكمته – سبحانه – ومنها الموكلون بالسحاب وقد سمعت الأمر (اسق حديقة فلان) .

قال – تعالى – :

(أ) ﴿ **أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون** ﴾[٣].

فأنت ترى نعم الله العظيمة ، ومنها : الماء العذب الذي نشربه ينزله الله من السحاب حسب إرادته تفضلاً على عباده ولو شاء لجعله ملحاً – من الأجيج الذي يحرق الفم . سبحانه نحمده ونشكر فضله ومن شكره الإنفاق في الخير والصدقة على المحتاجين وعمل البر وقال تعالى في بيان فضله ودلائل قدرته :

(ب) ﴿ **أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون** ﴾[٤].

(١) صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقاق – باب الصدقة في المساكين ٢٢٨٨/٤ رقم ٢٩٨٤

(٢) سورة الشورى الآية : ٢٨

(٣) سورة الواقعة الآية : ٦٨ – ٧٠

(٤) سورة النمل الآية : ٦٠

سبحانه لا يقدر على إنبات الحدائق المختلفة الأنواع المتباعدة الطباع غيره ، فأنفقوا حباً في ثوابه .

(جـ) وقال – تعالى – : ﴿ **أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾[1]. الجرز : الصحراء .

(د) وقال – تعالى – : ﴿ **وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لنحيي به بلدة ميتاً ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً** ﴾[2].

بشراً : مبشراً قدام المطر ليترعرع النبات . أناسي جمع إنسى أو إنسان .

(هـ) وقال – تعالى – : ﴿ **وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون** ﴾[3].

سقت لك هذه الآيات لتعلم أن ماء الأنهار من الله – تعالى – ، وأصله من السحاب عسى أن تتقي الله وتشكر له – سبحانه – فضله وإحسانه إليك وتجتهد في كثرة الإنفاق في عمل البر ، وتشييد المكرمات ، وفعل الصالحات وترسم أمامك حب الخير ، وأداء الزكاة ، ووفرة الصدقات واقتد بذلك الصالح الذي وجه الله السحاب فسقى زرعه . فحافظوا أيها المسلمون على الإنفاق رجاء وفرة ماء السماء .

قال – تعالى – :

(أ) ﴿ **وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾[4].

(ب) ﴿ **وما تنفقوا من خير يوف إليكم** ﴾[5] وأداء الزكاة خلة ثالثة للمتقين الكرماء في قوله تعالى :

(جـ) ﴿ **هدى ورحمة للمحسنين * الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾[6] وقال تعالى :

(د) ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[7].

﴿ **العدل** ﴾ : حب الحق والتوسط في الأمور وتوحيد الله والجود .

---

(١) سورة السجدة الآية : ٢٧
(٢) سورة الفرقان الآيتان : ٤٨ ، ٤٩
(٣) سورة الأعراف الآية : ٥٧
(٤) سورة الأنفال الآية : ٦٠
(٥) سورة البقرة الآية : ٢٧٢
(٦) سورة لقمان الآيات : ٣ – ٥
(٧) سورة النحل : ٩٠

﴿ الإحسان ﴾ : إحسان الطاعات ، وهو إما بحسب الكلمة كالتطوع بالنوافل أو بحسب الكيفية كما قال – عليه الصلاة والسلام – : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »[٨].

﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ : وإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه .

﴿ الفحشاء ﴾ : الإفراط في متابعة القوة الشهوية كالزنا فإنه أقبح أحوال الإنسان وأشنعها .

﴿ المنكر ﴾ : القبيح الذي نهى عنه الشارع وما ينكر على متعاطيه في إثارة القوة الغضبية .

﴿ البّغي ﴾ : (الاستعلاء والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم) .

وقال تعالى :

(هـ) ﴿ **إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾[١].

أنفق أيها المسلم لتندرج في سلك الذين شملهم برحمته ولتندمج في عقد المتقين المشمولين برعايته .

﴿ اتقوا ﴾ : اتقوا المعاصي .

﴿ محسنون ﴾ : في أعمالهم بالولاية والفضل ، أو مع الذين اتقوا الله لتعظيم أمره ، والذين هم محسنون بالشفقة على خلقه ومن الرأفة الزكاة وإخراج الصدقة وإذا إطلعت على أشعار العرب وجدت المروءة السامية والرغبة في الإحسان والتفاخر بالجود .

قال دعبل الخزاعي الشاعر المشهور لتعرف موسيقى طربه غليان قدره واعتماده على الله – تعالى – في طلب الرزق : .

بانت سليمى وأمسى حبلها انقضبا ... وزودك ولم يرثوا لك الوصبا
قالت سلامة أين المال ؟ قلت لها ... المال ويحك لاقى الحمد فاصطحبا
الحمد فرق مالي في الجفون فما ... أبقين ذماً ولا أبقين لي نشبا
قالت سلامة دع هذا اللبون لنا ... لصبية مثل أفراخ القطا زغبا
قلت احبسيها ففيها متعة لهم ... إن لم ينخ طارق يبغي القرى سغبا
لما احتبى الضيف وأعقلت حلوبتها ... بكى العيال وغنى قدرنا طربا
هذا سبيل وهذا فاعلمي خلقي ... فأرضي فه أو فكوني بعض من غضبا
مالا يفوت وما قد فات مطلبه ... فلن يفوتني الرزق الذي كتبا
أسعى لأطلبه والرزق يطلبني ... والرزق أكثر لي مني له طلبا
هل أنت واجد شيء لو عنيت به ... كالأجر والحمد مرتاداً ومكتسبا

وإن الله بعث لنا النعم لنتمتع بخيراتها وننفق ونأكل على شريطة استعمالها فيما يرضى قال الله تعالى :

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الإيمان رقم ٥
سورة النحل الآية : ١٢٨

﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين** ﴾[١] .

﴿ **فيما طعموا** ﴾ : مما لا يحرم عليهم .

﴿ **اتقوا** ﴾ : واثبتوا على الإيمان والأعمال الصالحة .

﴿ **ثم اتقوا** ﴾ : ما حرم عليهم كالخمر .

﴿ **آمنوا** ﴾ : أي : آمنوا بتحريمه .

﴿ **ثم اتقوا** ﴾ : ثم استمروا وثبتوا على اتقاء المعاصي .

﴿ **وأحسنوا** ﴾ : وتحروا الأعمال الجليلة واشتغلوا بها قال البيضاوي : باعتبار المراتب الثلاث في المبدأ والوسط والمنتهي . أو باعتبار ما تبقى فإنه ينبغي أن يترك المحرمات توقياً من العقاب والشبهات ، تحرزاً عن الوقوع في الحرام وبعض المباحات تحفظاً للنفس عن الخسة وتهذيباً لها عن دنس الطبيعة .

﴿ **المحسنين** ﴾ : فلا يؤاخذهم بشيء ، وفيه أن من فعل ذلك صار محسناً ومن صار محسناً صار لله محبوباً .

وإن من الإحسان العطف على الفقراء والإنفاق على البائسين وإخراج جزء من المال والمساعدة على فعل البر وإنشاء مشروعات الخير لتكسب المحامد وهذه تعاليم الله – تعالى – لبني إسرائيل . قال البيضاوي : إن بني إسرائيل لما فرغوا من فرعون واستقروا بمصر أمرهم الله – سبحانه وتعالى – بالمسير إلى أريحاء من أرض الشام وكان يسكنها الجبابرة الكنعانيون ، وقال : إني كتبتها لكم داراً وقراراً فاخرجوا إليها وجاهدوا من فيها فإني ناصركم ، وأمر موسى – عليه الصلاة والسلام – أن يأخذ من كل سبط كفيلاً عليهم بالوفاء بما أمروا به فأخذ عليهم الميثاق . واختار منهم النقباء . وسار بهم فلما دنا من أرض كنعان بعث النقباء يتجسسون الأخبار . ونهاهم أن يحدثوا قومهم . فرأوا أجراماً عظيمة وبأساً شديداً ، فهابوا ورجعوا . وحدثوا قومهم . ونكثوا الميثاق إلا كالبسا بن يوقنا من سبط يهوذا ويوشع بن نون من سبط أفرانيم بن يوسف .

قال – تعالى – : ﴿ **ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل * فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين** ﴾[٢] .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٩٣

(٢) سورة المائدة الآيتان : ١٢ ، ١٣

﴿ وعزرتموهم ﴾ : نصرتموهم وقويتموهم .
﴿ قرضاً حسناً ﴾ : بالإنفاق في سبيل الخير .
﴿ لعناهم ﴾ : طردناهم من رحمتنا . أو ضربنا عليهم الجزية ، أو مسخناهم .
﴿ مما ذكروا به ﴾ : من التوراة ، أو من اتباع محمد ﷺ قال ابن مسعود : (قد ينسى المرء بعض العلم بالمعصية) . وفيه تنبيه على أن العفو من الكافر الخائن إحسان . فضلاً عن العفو عن غيره .
احتوى الميثاق والمعاهدة على خمس مواد .
أولاً : أداء الصلاة ، ثانياً : الزكاة ، ثالثاً : الإيمان بالرسل . رابعاً : تأييدهم والعمل بشريعتهم وحبهم . خامساً : الإنفاق في عمل الخير وتشييد الصالحات . هذا عهد الله لأولاد آدم يعملون بقرآنه وإلا زال نعمته منهم وسلب فضله وأخذ خيره وبعث الجهل وفشا الشقاق وسادت الفوضى وانتزعت البركة ووقتئذ تتلى المواعظ فلا تتأثر القلوب ولا تتعظ الأفئدة ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ قال الشاعر :

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها ... على الناس طراً إنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ... ولا البخل يبقيها إذا هي تذهب

١٤ – وعن عديّ بن حاتم – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم ، فينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة . وفي رواية : من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فليفعل . رواه البخاري ومسلم[(١)].

١٥ – وعند عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « ليتق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة . رواه أحمد بإسناد صحيح[(٢)].

١٦ – وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : يا عائشة استتري من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشبعان . رواه أحمد بإسناد حسن[(٣)].

١٧ – وروى عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ على أعواد المنبر يقول : اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقيم **المعوج** وتدفع ميتة السوء وتقع من الجائع موقعها من الشبعان . رواه أبو يعلي والبزار وقدر روى هذا الحديث عن أنس وأبي هريرة وأبي ، والنعمان بن بشير

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الزكاة ـــ باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة رقم ٥٩٧
(٢) مسند أحمد ٣٨٨/١
(٣) مسند أحمد ٧٩/٦

وغيرهم من الصحابة – رضي الله عنهم –[١].

المعنى :

الصدقة : تدل على حسن الخاتمة وتبعد السوءات وتزيل المكاره .

وتسد رمق الجائع وتنفعه .

١٨ – وعن جابر – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لكعب بن عُجرة : يا كعب ابن عجرة : الصلاة قربان والصيام جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فبائع نفسه فموثق رقبته ومبتاع نفسه في عتق رقبته . رواه أبو يعلي بإسناد صحيح[٢].

المعـــنى :

تقربك من رحمة الله وتجلب رضاه .

والصيام جنة : وقاية له من السوء .

تطفىء الخطيئة : تزيل أثر الذنب .

غاديان : ذاهبان وقاصدان : أي هما صنفان صنف يعمل ليبعد من جهنم ويفك أسره من العذاب . وآخر يعمل سوءاً ويغضب (به) فيستحق العذاب ويحق عليه الذل والأسر .

١٩ – وعن كعب بن عجرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : يا كعب بن عجرة إنه لا يدخل الجنة لحم ودم نبتا على سحت النار أولى به . يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فغادٍ في فكاك نفسه فمعتقها ، وغادٍ فموثقها ، يا كعب بن عجرة : الصلاة قربان والصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يذهب الجليد على الصفا . رواه ابن حبان في صحيحه[٣].

المعـــنى :

السحت : أكل أموال الناس بالباطل كالرشوة والظلم والسرقة والنهب والمكس وكل مال أخذه بلا طريق شرعي يحرم الله عليه الجنة فلا يدخلها .

أي : ذاهب لإزالة العذاب بالعمل الصالح في حياته ، والثاني ذاهب إلى تمكين عرى الذل وإدخال جهنم بما يقترفه من الخطايا .

٢٠ – وعن معاذ بن جبل قال : كنت مع النبي ﷺ في سفر فذكر الحديث إلى أن قال فيه : ثم قال : يعني النبي ﷺ : ألا أدلك على أبواب الخير ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : « الصوم جنة والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح[٤].

---

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ٤٤٢/١ رقم ٩٣٣

(٢) أبو يعلى

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٣٦/٧

(٤) سنن الترمذى ــ كتاب الإيمان ــ باب ما جاء فى حرمة الصلاة ١٢/٥ رقم ٢٦١٦ وقال : حديث حسن صحيح

٢١ – وعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الصدقة لتطفىء غضب الرب تدفع منية السوء » . رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه(١).

المعـــنى :

الإحسان إلى الفقراء والإنفاق في الخير يبعد سوء الخاتمة ويرشد إلى المحامد ويضمن حسن العاقبة كما قال تعالى :

(أ) ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ : أي : حسن العاقبة لأهل التقوى .

(ب) ﴿ **وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام** ﴾(٢).

وقال تعالى لحبيبه ﷺ ليعلم أمته : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾(٣).

﴿ **بالغيب** ﴾ : غائبين عن عذابه ، أو عن الناس في خلواتهم ، ومن تطهر من دنس المعاصي ، وأنفق في الخير جازاه الله بالنعيم على تزكيته ، على أن عدم الإنفاق قد يجر إلى الإلحاد وعدم الصدقة وراءها قسوة القلب وغفلته عن الله وقد دعا النبي ﷺ الناس إلى توحيد الله والاستقامة في العمل : ﴿ **فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون** ﴾(٤) فامتناعهم عن الزكاة كما قال البيضاوي : لاستغراقهم في طلب الدنيا ، وإنكارهم للآخرة لبخلهم وعدم إشفاقهم على الخلق .

وإن الله – تعالى – أمر أزواج خير الخلق ﷺ : ﴿ **وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله** ﴾(٥).

أي : في سائر ما أمركن به ونهاكن عنه . وقد وعد – سبحانه – خصالاً عشرة يقوم بها رجال أبرار أطهار أخيار منها : ﴿ **والمتصدقين والمتصدقات** ﴾ في قوله – تعالى – : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾(٦).

فانظر رعاك الله إلى هذا الثواب الجزيل وقد ضمن الله حسنى الخاتمة للمنفق في البر .

---

(١) سنن الترمذي ٤٣/٣ رقم ٦٦٤ وقال : حديث حسن غريب والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣١/٥ رقم ٣٢٩٨

(٢) سورة ابراهيم الآية : ٢٣

(٣) سورة فاطر الآية : ١٨

(٤) سورة فصلت الآيتان : ٦ ، ٧

(٥) سورة الأحزاب الآية : ٣٣

(٦) سورة الأحزاب الآية : ٣٥

٢٢ – وعن أبي كبشة الأنماري – رضي الله عنه – أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث أقسم عليهن وأحدثكم حديثاً فاحفظوه ، قال : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبدٌ مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاً ، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر ، أو كلمة نحوها ، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه . قال : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل ، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ، ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً فهذا بأخبث المنازل ، وعبدٌ لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته **فوزرهما سواء** » رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي حديث حسن صحيح[1].

المعـــنى :

فوزرهما : ذنبهما . فقد بين طبيب النفوس ﷺ رغبات الإنسان في الحياة :

أولاً : رجل موفق مسدد الخطوات بر صالح وغني وعالم فاستعمل بماله ما يشيد له المكرمات الصالحات ونفعه الله بعلمه فأثمر في غرس المحامد وفعل المكارم فأفاد واستفاد .

ثانياً : عالم وفقير فعمل بعلمه . وتمنى لو اغتنى لفعل خيراً فثوابه ثواب من فعل .

ثالثاً : غني شرير أطلق عنان ماله في فعل المفاسد وارتكاب المحارم وطغى وبغى وقطع أقاربه وحرم المسكين فهذا في الدرك الأسفل من النار وأردأ عاقبة وبئس مآله .

رابعاً : رجل فقير ولكن نيته خبيثة منعه عن الموبقات ضيق يده ولم يخش الله ولم يرجه سبحانه ، ويتمنى لو يغتني لأجرم وسلك سبيل الدعارة فكأنه فعل ذلك وعوقب أشنع عقاب وباء بسوء العاقبة .

٢٣ – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق : كمثل رجلين عليهما جنتان من جديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها . قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول : بأصبعيه هكذا في جيبه يوسعها ولا تتوسع . رواه البخاري ومسلم والنسائي ولفظه :

مثل المنفق المتصدق والبخيل : كمثل رجلين عليهما جبتان ، أو جنتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما فإذا أراد المنفق أن ينفق اتسعت عليه الدرع أو مرت حتى تجنَّ بنانه وتعفو أثره ، فإذا أراد

---

(١) سنن الترمذي ــ كتاب الزهد ــ باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر ٥٦٢/٤ رقم ٢٣٢٥ وابن ماجه ــ كتاب الزهد باب النية ١٤١٣/٢ رقم ٤٢٢٨

البخيل أن ينفق قلصت ولزمت كل حلقة موضعها حتى أخذت بترقوته أو برقبته ، يقول أبو هريرة - رضي الله عنه - أشهد أنه رأى رسول الله ﷺ يوسعها ولا تتسع(1).

[الجنة] : بضم الجيم وتشديد النون : كل ما وقى الإنسان ويضاف إلى ما يكون منه .

[التراقي] : جمع ترقوة بفتح التاء وضمها لحن : وهو العظم الذي يكون بين ثغرة نحر الإنسان وعاتقه .

[وقلصت] : بفتح القاف واللام : أي : اجتمعت وتشمرت وهو ضد : استرخت وانبسطت .

[والجيب] : هو الخرق الذي يخرج الإنسان منه رأسه في الثوب ونحوه .

المعـــــنى :

قال النووي : معنى تقلصت : انقبضت ، ومعنى يعفو أثره : أي عَمِي أثر مشيه بسبوغها وكمالها ، وهو تمثيل لنماء المال بالصدقة والإنفاق ، والبخل بضد ذلك ، وقيل : هو تمثيل لكثرة الجود والبخل ، وأن المعطي إذا أعطى انبسطت يداه بالعطاء ، وتعود ذلك وإذا أمسك صار ذلك عادة له ، وقيل : معنى يمحو أثره : أي : يذهب بخطاياه ويمحوها ، وقيل : في البخيل قلصت ولزمت كل حلقة مكانها : أي يحمي عليه يوم القيامة فيكوي بها والصواب الأول والحديث جاء على التمثيل لا على الخبر عن كائن . وقيل : ضرب المثل بهما لأن المنفق يستره الله تعالى بنفقته ، ويستر عورته في الدنيا والآخرة كستر هذه الجنة لابسها ، والبخيل كمن لبس جنة إلى ثدييه فيبقى مكشوفاً بادي العورة مفتضحاً في الدنيا والآخرة . هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله - تعالى - .

٢٤ - عن مالك - رحمه الله - أنه بلغه عن عائشة - رضي الله عنها - أن مسكيناً سألها وهي صائمة ، وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : أعطيها إياه فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ، فقالت : أعطيها إياه . قالت : ففعلت ، فلما أمسينا أهدى لها أهل بيت أو إنسان ماكان يهدي لها شاة وكفنها فدعتها عائشة ، فقالت كلي من هذا خير من قرصك .

المعـــــنى :

لمولاة : لخادمة . معناه أن السيدة عائشة - رضي الله عنها - جادت بما عندها ثقة بالله واعتماداً على الرزاق جل وعلا وإجابة للسائل كما أمر ﷺ فأثابها الله - سبحانه - وعوضها خيراً وزادها براً وأجراً وإحساناً ونعيماً - (شاة وطعاماً وكل ما يلزم) فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم .

٢٥ - قال مالك : وبلغني أن مسكيناً استطعم عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وبين يديها عنب : فقالت لإنسان خذ حبة فأعطه إياها فجعل ينظر إليها ويعجب فقالت عائشة - رضي الله عنها - : أتعجب كم ترى هذه الحبة من مثقال ذرة ؟

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الزكاة - باب مثل المنفق والبخيل رقم ٦٠٠ وسنن النسائي - كتاب الزكاة - باب صدقة البخيل ٥/٧٢

المعـــنى :

أتصدق بهذا لأنال بوزنه حسنات من الله – جل وعلا سبحانه – المنفق المخلف ، قال تعالى :

(أ) ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾[1].

(ب) ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾[2] .

قال البيضاوي : يريد به الأمر في سائر الإنفاقات في سبيل الخيرات أو بآداء الزكاة على أحسن وجه والترغيب فيه بوعد العوض كما صرح به (وأعظم) من متاع الدنيا (واستغفروا الله) في مجامع أموالكم فإن الإنسان لا يخلو من تفريط .

٢٦ – وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : قال رجل : لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على سارق لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدثون تصُدق الليلة على زانية . قال : اللهم لك الحمد على زانية لأتصدقن بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون يُصدق الليلة على غني . قال : اللهم لك الحمد على سارق وزانية وغني فأُتى فقيل له : أما صدقتك على سارق : فلعله أن يستعف عن سرقته وأما الزانية : فلعلها أن تستعف عن زناها وأما الغني : فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله . رواه البخاري واللفظ له ومسلم والنسائي وقالا فيه[3]: فأُتى فقيل له أماً صدقتك فقد قبلت ثم ذكر الحديث

المعـــنى :

قال النووي في باب ثبوت أجر المتصدق : وإن وقعت الصدقة في يد فاسق ونحوه – وفيه ثبوت الثواب في الصدقة وإن كان الآخذ فاسقاً وغنياً ففي كل كبد حرى أجر وهذا في صدقة التطوع وأما الزكاة فلا يجزىء دفعها إلى غني .

٢٧ – وعن عقبة بن عامر – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس . قال يزيد : فكان أبو الخير مرثد : لا يخطئه يوم إلا تصدق فيه بشيء ولو بكعكة أو بصلة . رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم قال : صحيح على شرط مسلم[4] .

---

(١) سورة سبأ الآية : ٣٩

(٢) سورة المزمل الآية : ٢٠

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الزكاة ـــ باب ثبوت أجر المتصدق رقم ٦٠١ وسنن النسائي ـــ كتاب الزكاة ـــ باب إخراج الزكاة من بلد إلى بلد ٥/٥٥

(٤) مسند أحمد ٤/١٤٧ وصحيح ابن خزيمة ـــ كتاب الزكاة ٤/٩٤ رقم ٢٤٣١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٥/١٣٢ والمستدرك للحاكم ١/٤١٦

والمعـــــنى :

يوم القيامة تكون الصدقة ظلة على صاحبها وواقية له من عذاب الله وجنة من الهول ولو قلت مثل قطعة من الخبز أو البصل وهذا رجل يأخذ من بيته ما وجد ولا يبالي بحقارته رجاء أن توجد له في الصالحات ظلل تقيه أهوال يوم الحساب فاجتهد أخي أن تتصدق ليقيك الله شر ذلك اليوم .

٢٨ – وفي رواية لابن خزيمة أيضاً عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن أبي عبد الله المزني : أنه كان أول أهل مصر يروح إلى المسجد وما رأيته داخلاً المسجد قط إلا وفي كمه صدقة : إما فلوس وإما خبز وإما قمح . قال : حتى ربما رأيت البصل يحمله : قال : فأقول ياأبا الخير إن هذا ينتن ثيابك ، قال فيقول : يا ابن أبي حبيب أما إني لم أجد في البيت شيئاً لم أتصدق به غيره إنه حدثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ظل المؤمن يوم القيامة صدقته »[(١)].

٢٩ – وعنه – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : إن الصدقة لتطفيء عن أهلها حر القبور ، وإنما يستظل المؤمن يوم القيامة في ظل صدقته ، رواه الطبراني في الكبير والبيهقي وفيه ابن لهيعة[(٢)].

٣٠ – وعن الحسن – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : فيما يروى عن ربه – عز وجل – أنه يقول : يا ابن آدم . افرغ من كنزك عندي ولا حرق ولا غرق ولا سرق أو فيكه أحوج ما تكون إليه . رواه الطبراني والبيهقي وقال هذا مرسل وقد روينا عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله إذا استودع شيئاً حفظه »[(٣)].

المعنى : إدخر وجد وأنفق من مالك مدخراً ثواب ذلك عندى ، سبحانه يحفظ هذا من الضياع فلا يصيبه أى تلف ثم يثيبه ويقدم له الجزاء الأوفى عند موته ، يفتح له نعيم الجنة ويغدق عليه رحماته فيدرك جزاء إحسانه ويبعد عنه الحساب والأهوال .

٣١ – وروى عن ميمونة بنت سعد أنها قالت : يا رسول الله : أفتنا عن الصدقة ؟ فقال : إنها حجاب من النار لمن إحتسبها يبتغى بها وجه الله عز وجل . رواه الطبرانى[(٤)].

٣٢ – وعن أبى ذر ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ما يخرج رجل شيئاً من الصدقة حتى يفك عنها لحيى سبعين شيطاناً .

رواه أحمد والبزار والطبرانى وابن خزيمة فى صحيحه وتردد فى سماع الأعمش من بريدة والحاكم

(١) صحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ٩٥/٤ رقم ٢٤٣٢
(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٢٨٦/١٧ رقم ٧٨٨ والجامع لشعب الإيمان للبيهقى ٥٢٥/٦ رقم ٣٠٧٦
(٣) الجامع لشعب الإيمان ــ باب العحريض على صدقة التطوع ٥٢٠/٦ رقم ٣٠٧١
(٤) مجمع الزوائد ١٠٩/٣

والبيهقى وقال الحاكم : صحيح على شرطهما ، ورواه البيهقى أيضاً عن أبى ذر موقوفا عليه قال : ما خرجت صدقة حتى يفك عنها لحيا سبعين شيطاناً كلهم ينهى عنها[١]

٣٣ – وعن أنس – رضى الله عنه – قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحب أمواله إليه بيرحاء وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب قال أنس : فلما نزلت هذه الآية : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ ، قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إن الله تبارك وتعالى : يقول : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ ، وإن أحب أموالى إلىَّ بيرحاء ، وإنها صدقة أرجو برَّها وزخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، قال فقال رسول الله ﷺ : بخ ، ذلك مال رابح ذلك مال رابح . رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى[٢].

المعنى : [بيرحاء] :بكسر الباء وفتحها ممدوداً : اسم لحديقة نخل كانت لأبى طلحة رضى الله عنه وقال بعض مشايخنا : صوابه بَيْرحْى : بفتح الباء الموحدة والراء مقصوراً ، وإنما صحفه الناس . وقوله [رابح] روى بالباء الموحدة وبالياء المثناة تحت .

٣٤ – وعن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قلت : يا رسول الله : ما تقول فى الصلاة ؟ قال : تمام العمل ، قلت : يا رسول الله : تركت أفضل عمل فى نفسى أو خيره ؟ قال : ماهو ؟ قلت : الصوم ؟ قال : خيرٌ وليس هناك ، قلت يا رسول الله : وأى الصدقة وذكر كلمة . قلت : فإن لم أقدر ؟ قال : بفضل طعامك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال بشق تمرة قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : بكلمة طيبة . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : دع الناس من الشر ، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك . قلت : فإن لم أفعل ؟ قال : تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً . رواه البزار واللفظ له وابن حبان فى صحيحه أطول منه بنحوه والحاكم[٣].

المعنى : تمام العمل : حسن أدائها وإتمام أركانها وسننها .

بفضل طعامك : مازاد عن حاجتك وحاجة عيالك تصدق به تريد ألا تدع فيك من الخير شيئا :

أى : لابد للإنسان أن يكون فيه ذرة من خير ولا يخلو من محامد ، فهذا أبو ذر رضى الله عنه يكثر من – فان لم أفعل – فيسهل عليه ﷺ الجواب ويدعوه إلى عمل ولو قل من نصف تمرة أو

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى ٨٦/٧ رقم ٣١٩٩ والحاكم فى المستدرك ٤١٧/١ وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ومسند أحمد ٣٥٠/٥ وصحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة ١٠٥/٤ رقم ٢٤٥٧ وكشف الأستار عن زوائد البزار ٤٤٧/١ رقم ٩٤٣

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٥٨٢ وسنن الترمذى – كتاب تفسير القرآن ٢٢٤/٥ رقم ٢٩٩٧ وسنن النسائى ٢٣١/٦

(٣) كشف الأستار عن زوائد البزار – أبواب صدقة التطوع ٤٤٥/١ رقم ٩٤١

ألفاظ حسنة عذبة أو اجتناب الشرور وترك القبائح وإلا فياخيبة من لم يفعل ذلك ولم تكن فى صحيفته حسنات من الصالحات ويقول ﷺ : « تريد أن لا تدع فيك من الخير شيئاً » أى تود يا أبا ذر ألا يكون لك شيء من المكارم وإن حقر ـــ وفيه أن الإنسان يضرب بسهم صائب فى الإنفاق وتشييد الطيبات ، ويتصدق بما زاد عن طلباته الضرورية ويحسن القول ، ويتقى الله .

٣٥ – روى البيهقى ولفظه فى إحدى رواياته قال : سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجى العبد من النار ؟ قال : الإيمان بالله . قلت يا نبى الله : مع الإيمان عمل ؟ قال : أن تر فتح مما خولك الله وتر فتح مما رزقك الله . قلت يا نبى الله فإن كان فقيراً لا يجد ماير فتح ؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، قلت : إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر ؟ قال : فليعن الأخرق . قلت : يا رسول الله : أرأيت إن كان لا يُحسن أن يصنع؟ قال : فليعن مظلوماً قلت : يا نبى الله ! أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً ؟ قال : ما تريد أن تترك لصاحبك من خير ليمسك أذاه عن الناس قلت يا رسول الله : أرأيت إن فعل هذا يدخله الجنة ؟ قال : ما من عبد مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى تدخله الجنة[1].

المعنى : فليعن مظلوماً : فليزل آلام المكروب وأضرار المصاب ويبعد الباطل ويحق الحق ويغث المستغاث وينجد المتألم .

– ما تريد أن تترك لصاحبك : كفى هذا الضعف ألا تحب ألا يكون لك عمل صالح ومروءة تثاب عليها .

ليمسك : ليمنع ويصد .

ألا أخذت بيده : المعنى أن الخصلة المحددة تقوده إلى نعيم الجنة وتضيء له سبل الاحترام وفيه الحث على عمل البر والضرب بسهم فى تنفيذ أوامر الله واجتناب مناهيه .

٣٦ – وروى عن رافع بن خديج ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : الصدقة تسد سبعين باباً من السوء . رواه الطبرانى فى الكبير[2].

المعنى : الاحسان والانفاق لله تمنع الشرور وتصد الأذى وتقفل سبعين باباً من الضرر والهلاك والفقر والمرض وهكذا من الأعمال المؤلمة المؤذية ، وفيه الحث على عمل الخير ابتغاء وجه الله ليجاب الطلب ويزول الكرب ويفك العسير .

٣٧ – وعن أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطى الصدقة ، رواه البيهقى مرفوعاً وموقوفاً على أنس ولعله أشبه[3].

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى ـــ باب التحريض على صدقة التطوع ٥٠٤/٦ رقم ٣٠٥٧
(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٣٢٧/٤ رقم ٤٤٠٢
(٣) السنن الكبرى للبيهقى ١٨٩/٤

٣٨ – وعنه – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : تصدقوا فإن الصدقة فكاككم من النار . رواه البيهقى من طريق الحارث بن عمير عن حميد عنه(١).

وروى عن على بن أبى طالب – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : باكروا بالصدقة ، فإن البلاء لايتخطاها . رواه الطبرانى ، وذكره رزين فى جامعه وليس فى شىء من الأصول(٢).

المعنى : أسرعوا بتقديم صدقة لله فإنها تمنع المصائب ولا تغدوها الآلام وكم رأينا من مريض شفاه الله لإحسانه ومسألة عسيرة سهلها الله بالصدقة ودين زال لفعل الخير لله وآمال يسر الله وجوده بالانفاق وقد أجد فى قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وأتوا الزكاة** ﴾ دليلاً ناجحاً ودواء شافياً للوصول إلى نصر الله ولإغداق رحمته على المحافظ على أداء الصلاة والزكاة فهذا أمر منه – سبحانه وتعالى – بالكف عن القتال وإقامة الصلاة وإخراج الزكاة حتى يأتى نصر الله ويشرق فتح الله . الاستفهام تعجبى ! أى تعجب يا محمد من قومك كيف يكرهون القتال مع كونهم قبل ذلك كانوا طالبين له وراغبين فيه ، منهم :

عبد الرحمن بن عوف والمقداد بن الأسود وسعد بن أبى وقاص وقدامة بن مظعون ، وجماعة كانوا بمكة يتحملون أذى الكفار والله يأمرهم بالتحمل والصبر فلما هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة أمروا بالقتال وكراهتهم غلبت الرأفة عليهم أو لمحبتهم المعيشة قال الصاوى : ولما نزلت الآية أقلعوا عما خطر ببالهم وشمروا عن ساعد الصبر والاجتهاد وجاهدوا فى الله حق جهاده . ود لعلينا العكوف على عبادة الله مع الإخلاص فى إقامة هذين الركنين : الصلاة ، والزكاة ، قال تعالى : ﴿ **الذين أمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ من سورة النساء .

يسر الله للمسلمين الخروج إلى المدينة ، وبقى بعضهم إلى فتح مكة حتى شعروا بالعزة وجعل الله لهم من لدنه خير ولى وناصر وهو محمد ﷺ ولما خرج ﷺ استعمل عتاب أبى أسيد فرأوا منه الولاية والنصرة كما أرادوا . قال ابن عباس – رضى الله عنهما – كان ينصر الضعيف من القوى حتى كانوا أعز بها من الظلمة . هذه أوامر الله يا أخى للمستضعفين ﴿ **من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً** ﴾(٣).

والقرية : مكة : قوم ضعفوا عن الهجرة مستذلين ممتحنين ولكن حافظوا على أداء اثنتين : (الصلاة والزكاة) حتى استجاب الله دعاءهم . ونصرهم نصراً مؤزراً . قال البيضاوى : وإنما ذكر

---

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى – باب التحريض على صدقة التطوع ٥٢٩/٦ رقم ٣٠٨٢

(٢) مجمع الزوائد ١١٠/٣

(٣) سورة النساء الآية : ٧٥

الولدان مبالغةً فى الحث ، وتنبيهاً على تناهى ظلم المشركين بحيث بلغ أذاهم الصبيان وأن دعوتهم أجيبت بسبب مشاركتهم فى الدعاء حتى يشاركوا فى استنزال الرحمة واستدفاعه البلية ، وقيل : المراد به العبيد والإماء وهو جمع وليد .

ما أشبه حالتنا اليوم بحالة صدر الإسلام فى الضعف والذلة ولكن شتان بين عملنا وعمل رجاله الأبطال ــ رضوان الله عليهم .

إنهم أدوا أوامر الله بإخلاص وعزيمة قوية فصبروا ونجحوا ، وفتح الله لهم فتحاً مبيناً فبدل الله ذلهم عزاً ، وفقرهم غنى ونحن الآن فى هذا الزمان نرى تقصيراً فى حقوق الله ورجالاً نفوسهم غافلة عن طاعة الله وذكر الله والصلاة والزكاة لله . ألم يأن للمسلمين أن يتوبوا ويصلوا ويزكوا ويستقيموا رجاء أن الله يعزهم كما أعز أهل مكة ويرعاهم برحمته وإحسانه فإنه تعالى أمرهم بالقتال فجاهدوا واستبسلوا فى سبيل نصر دين الله ولكن دعانى إلى ذكر هذه الآيات حبى الشديد لأمر الله لأولئك الصابرين المحتسبين المستضعفين بالصلاة والزكاة حتى أراد الله فقواهم ، وأشرق شمس الإسلام وأضاء الحق وعم نوره . قال تعالى لحبيبه ﷺ : ﴿ **لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد * متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد * لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلاً من عند الله وما عند الله خير للأبرار** ﴾(1).

قال البيضاوى : الخطاب **للنبى** ﷺ ، والمراد أمته ، أو تثبيته على ما كان عليه **والمعنى** : لاتنظر إلى ما الكفرة عليه من السعة والحظ ولا تغتر بظاهر ما ترى من تبسطهم فى مكاسبهم ومتاجرهم ومزارعهم . روى أن المؤمنين كانوا يرون المشركين فى رخاء ولين عيش ، فيقولون : إن أعداء الله فيما **نرى من الخير وقد هلكنا من الجوع والجهد ، قال عليه الصلاة والسلام « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل مايجعل أحدكم أصبعه فى اليم فلينظر بم يرجع » أ . هـ بيضاوى .**

٤٠ – وعن الحارث الأشعرى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله أوحى إلى يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام بخمس كلمات أن يعمل بهن ، ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بهن فذكر الحديث إلى أن قال فيه : وأمركم بالصدقة ومثل ذلك كمثل رجل **أسره** العدو . فأوثقوا يده إلى عنقه وقربوه ليضربوا عنقه فجعل يقول : هل لكم أن أفدى نفسى منكم وجعل يعطى القليل والكثير حتى فدى نفسه ، الحديث رواه الترمذى وصححه ابن خزيمة واللفظ له ، وابن حيان فى صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح على شرطهما(2)

٤١ – وعن رافع بن مكيث وكان ممن شهد الحديبية رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

---

(1) سورة آل عمران الآيات : ١٩٦ – ١٩٨

(2) سنن الترمذى الحديث رقم ٢٨٦٣ وابن خزيمة ١٨٩٥/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٣/٨ والمستدرك للحاكم ٤٢١/١

حسن الملكة نماء وسوء الخلق شؤم والبرُ زيادة فى العمر والصدقة تطفىء الخطيئة وتقى ميتة السوء . رواه الطبرانى فى الكبير وفيه رجل لم يسم وروى أبو داود بعضه(١).

المعنى : حسن الملكة : الذكاء الوقاد

نماء وسوء : الغضب والكدر والشتم والشقاق والحسد وهكذا من النقائض .

شؤم : وبال ويجر السوء والأذى .

البر : فعل الخير وتشييد الصالحات والعمل المحمود يكون سبباً لزيادة العمر بمعنى أن الله يتكرم بحفظ صحة البار ويجعل له سيرة حسنة ، ويحفظ وقته من الضياع فى اللغو بل يبارك فيه والبر ضد العقوق فكأن إطاعة الوالدين والإحسان إليهما سبب طول العمر والبر : الصدق وفلان يبر خالقه ، ويتبرره : أى يطيعه وإنى أشاهد من أطاع الله متعه بكمال الصحه وحسن حاله وأزال ألامه وأطال عمره .

تطفىء : تزيل الذنب

تقى : تمنع سوء الخاتمة والهلاك بحالة شنيعه ردئية .

٤٢ – وعن عمرو بن عوف ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : إن صدقة المسلم تزيد فى العمر وتمنع ميتة السوء ويذهب الله بها الكبر والفخر . رواه الطبرانى من طريق كثير بن عبدالله عن أبيه عن جده عمرو بن عوف ، وقد حسنها الترمذى وصححها ابن خزيمة لغير هذا المتن(٢).

٤٣ ـ وعن عمر ـ رضى الله عنه ــ قال : ذكر أن الأعمال تباهى فتقول الصدقة : أنا أفضلكم . رواه ابن خزيمة فى صحيحه(٣).

٤٤ ـ وعن عوف بن مالك ـ رضى الله عنه ــ قال : خرج رسول الله ﷺ وبيده عصا وقد علق رجل قنو حشف فجعل يطعن فى ذلك القنو فقال : لو شاء رب هذه الصدقة بأطيب من هذا إن رب هذه الصدقة يأكل حشفاً يوم القيامة . رواه النسائى واللفظ له . وأبو داود وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما فى حديث(٤).

المعنى : قنو : عنق (سباطة) .

حشف : أردأ التمر .

فجعل يطعن : يضرب أى يذم ويبين ﷺ رداءه هذه الصدقة وقلة ثوابها عند الله وتمنى أن

(١) مجمع الزوائد للبيهقى ٢٢/٨

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٢٢/١٧ رقم ٣١

(٣) صحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ٩٥/٤ رقم ٢٤٣٣

(٤) سنن النسائى ٤٣/٥ وسنن أبى داود ٢٦١/٢ رقم ١٦٠٨ وصحيح ابن خزيمة ــ كتاب الزكاة ١٠٩/٤ رقم ٢٤٦٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٧١/٨

ذلك الرجل يتصدق بأحسن وأبدع منها لأنها ستقيه يوم القيامة وتكون طعاماً له يوم لا يجد شيئاً يصد عنه الأهوال ، ويدفع عنه الظمأ والجوع وفيه الحث على اختيار الطيب فى الانفاق والتصدق من الشيء المفيد المقيم ، قال تعالى : ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾(١).

٤٥ – وعن أبي هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ من جمع مالاً حراماً ثم تصدق به لم يكن له فيه أجر وكان إصره عليه . رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما والحاكم(٢)

٤٦ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : خير الصدقة ما أبقت غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول تقول امرأتك : انفق علىَّ أو طلقنى ، ويقول مملوكك : أنفق علىَّ أو بعنى ويقول ولدك إلى من تكلنا ؟ رواه ابن خزيمة فى صحيحه ولعل قوله : تقول امرأتك إلى آخره من كلام أبى هريرة مدرج(٣).

المعنى : ما أبقت : ما فادت وتركت أثراً بمنع السؤال وأزالت جوعاً ودفعت فقراً وقدمت عملاً يفيد .

٤٧ – وعنه – رضى الله عنه – أنه قال : يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : جهد المقل وابدأ بمن تعول . رواه أبو داود وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم(٤)

المعنى : طاقة أى إخراج شيء من قليل بمعنى أن الإنسان يرى نفسه فقيراً ولكن يجود من القليل ابتغاء ثواب الله وكرمه وانتظار فضله ثم أمر ﷺ باعطاء الصدقة لمن يهمك أمره بفتح الجيم وضمها .

٤٨ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : سبق درهم مائة ألف درهم فقال رجل : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال رجل له مال كثير أخذ من عرضه مائة ألف درهم تصدق بها ورجل ليس له إلا درهمان فأخذ أحدهما فتصدق به . رواه النسائى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحه واللفظ له والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم(٥)

[قوله] : من عرضه بضم العين المهملة وبالضاد المعجمة : أى من جانبه .

المعنى : يبين لك ﷺ ثواب الصدقة الخارجة من مال الفقير يضاعف أجرها مئات لأن الغنى يجود عن سعة وينفق من كثرة ولكن الفقير يدعوه إيمانه بربه إلى الإنفاق وينتظر رزق الله .

٤٩ – وعن أم بجيد – رضى الله عنها – أنها قالت : يا رسول الله إن المسكين ليقوم على

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٩٢

(٢) صحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة ١١١/٤ رقم ٢٤٧١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٥٢/٥

(٣) صحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة ٩٦/٤ رقم ٢٤٣٦

(٤) سنن أبى داود ٣١٢/٢ رقم ١٦٧٧ وصحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة ٩٩/٤ رقم ٢٤٤٤ والمستدرك للحاكم ٤١٤/١

(٥) سنن النسائى ٥٩/٥ وصحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة ٩٩/٤ رقم ٢٤٤٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٤/٥ والمستدرك للحاكم ٤١٦/١

بابى فما أجد له شيئاً أعطيه إيَّاه فقال لها رسول الله ﷺ : إن لم تجدى إلا ظلفاً محرقا فادفعيه إليه فى يده . رواه الترمذى وابن خزيمة .

وزاد فى رواية : لا تردى سائلك ولو بظلف محرق ، وابن حبان فى صحيحه وقال الترمذى : حديث حسن صحيح(١) .

﴿ الظلف ﴾ : بكسر الظاء المعجمة للبقر والغنم بمنزلة الحافر للفرس .

٥٠ ـ وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : تعبد عابد من بنى اسرائيل فعبد الله فى صومعة ستين عاماً فأمطرت الأرض فأحضرت فأشرف الراهب من صومعته فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً فنزل ومعه رغيف أو رغيفان فبينما هو فى الأرض لقيته امرأة فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمى عليه فنزل الغدير يستحم فجاء سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوزنت سيئته بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه البيهقي عن ابن مسعود موقوفاً عليه ولفظه(٢) .

إن راهباً عبد الله فى صومعته ستين سنة فجاءت امرأة فنزلت إلى جنبه فنزل إليها فواقعها ست ليال ثم سقط فى يده فهرب فأتى مسجداً فأوى فيه ثلاثاً لا يطعم شيئاً فأتى برغيف فكسره فأعطى رجلاً عن يمينه نصفه وأعطى آخر عن يساره نصفه فبعث الله إليه ملك الموت فقبض روحه فوضعت الستون فى كفة ووضعت الستة فى كفة فرجحت يعنى الستة ثم وضع الرغيف فرجح يعنى الرغيف الستة التى غشيها :

المعنى : أى تقرب إليها وجامعها .

يبين ﷺ أن الصدقة برغيف أو رغيفين كانت سبب زيادة الحسنات فرجحت كفة الصدقة أمام الفاحشة وتجلى عليه ربه بالرضوان والرحمة وعفا عنه وإن تعجب فعجب طاعة ستين سنة أمام هذه الكبيرة تضاءل وزنها وخف حجمها ولم تنفعه جزاء ارتكابه هذه الموبقة ولكن عاطفة الإحسان لله فى لمحة أدخلته فى جنة الله وطاشت دونها هذه الكبيرة وفيه الحث على الصدقة والتباعد عن الفاحشة وانتظار ثواب الله ووجود خشيته والطمع فى جزائه ـــ قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم** ﴾(٣) . قال البيضاوى : يعم المهاجرين والأنصار الذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرهم ﴿ **كفر عنهم سيئاتهم** ﴾ : سترها بالإيمان وعملهم الصالح . ط﴿ وأصلح بالهم ﴾ حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد قال

(١) سنن الترمذى ٤٣/٣ رقم ٦٦٥ وصحيح ابن خزيمة ـــ كتاب الزكاة ١١١/٤ رقم ٢٤٧٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٥٧/٥.

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٩٨/١

(٣) سورة محمد الآية : ٢

تعالى مبيناً حال الدنيا وأن الزكاة جزء من المال وفيها الخير كله : ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم * هأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم** ﴾ من سورة القتال(١).

﴿ **أجوركم** ﴾ : ثواب إيمانكم وتقواكم ﴿ **ولا يسألكم أموالكم** ﴾ : أى : جميع أموالكم بل يقتصر على جزء منها يسير كربع العشر أو العشر . ﴿ **فيحفكم** ﴾ : فيجهدكم بطلب الكل ، ﴿ **تبخلوا** ﴾ : فلا تعطوا ، ويخرج الله تعالى بالزكاة الأحقاد ويزيل الشقاق .

إن عبادة ذلك الرجل قاصرة عليه لا يتعدى ثوابها لغيره وهى لغنى حميد سبحانه فلم تنفع إزاء معصيته حاسبه الله عليها ولكن مر بخاطره الكرم وعلاج البخل والتحلى بالجود والسخاء : فتصدق برغيف أو اثنين ، فقبل الله صدقته فضاعف ثوابه فثقل ميزانه فرجحت عن الفاحشة فغفر الله له .

ومعنى ﴿ **ثم سقط فى يده فهرب** ﴾ أى : ندم واستغفر وأقر بذنبه فعفا الله عنه ومتعه بفضله ، قال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد** ﴾ .

﴿ **مصيبة** ﴾ : كجدب وعاهة فى الأرض . ﴿ **ولا فى أنفسكم** ﴾ : كمرض وآفة إلا مكتوبة فى اللوح المحفوظ مثبتة فى علم الله تعالى . ﴿ **نبرأها : نخلقها والضمير للأرض أو للمعصية أو للأنفس** . ﴿ **بما أتاكم** ﴾ : بما أعطاكم الله منها فإن من علم أن الكل مقدرهان عليه الأمر ، والمراد به نفى الأسى المانع عن التسليم لأمر الله . والفرح الموجب للبطر والاختيال . والمختال بالمال يضره به غالباً ، ومن يعرض عن الانفاق فإن الله غنى عنه وعن إنفاقه محمود فى ذاته لا يضره الإعراض عن شكره ولا ينفعه التقرب إليه بشكر من نعمه وفيه تهديد وإشعار بأن الأمر بالإنفاق لمصلحة المنفق .

آمنت بالله واعتقدت أن الصدقة تنفع صاحبها وتكون غفران ذنوبه وزيادة رزقه من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس .

---

(١) سورة محمد الآيتان : ٣٧ ، ٣٨

فوائد الصدقة كما أخبرنا النبى ﷺ

أولاً : تنمية الصدقة وزيادة أجرها وادخارها عند الغنى الوهاب (يقبلها بيمينه ثم يربيها)

ثانياً : يضع الله البركة فى المال الباق ويبعد عنه المصائب ويزيده نماء وربحاً ﴿ **ما نقصت صدقة من مال** ﴾ .

ثالثاً : الصدقة سبب زيادة الرزق ونصر الله وعنايته بالمتصدق ﴿ **ترزقوا وتنصروا وتجبروا** ﴾ .

رابعاً : يسخر الله للمتصدق ما يفيده من مسقى أرض ومساعدة ووجود مال ومحبة الأصدقاء ﴿ **اسق حديقة فلان** ﴾ وفيه يبارك الله فى ماء الأنهار لتروى الأرض المزكاة .

خامساً : تبعد صاحبها عن النار وتفك عنه ضيق الدنيا والآخرة ﴿ **اتقوا النار ولو بشق تمرة** ﴾ .

سادساً : الصدقة تزيل الخطايا وتغسل صحيفة صاحبها من الأدناس وتطهرها من الذنوب ﴿ **تطفىء الخطيئة** ﴾ . وقد أعلمنا قائد الحكمة ومبعث الرحمة عابداً راهباً أخطأ فأحسن فلم ينفعه عمله إلا صدقة رغيف أو رغيفين أطفأت خطيئة (رجح الرغيف) .

سابعاً : الصدقة تصد الرؤيا وتمنع الحوادث وتجلب حسن الخاتمة فيموت المحسن على فراشة مبشراً ينعم الله لا يموت برصاص ولا يقتله قاتل ولا يحسد ولا يذم ولا يقتل مؤامرة ولا يعاكسنه ﴿ **وتدفع سبعين باباً من ميتة السوء** ﴾ كالحسد والكيد والدس والتآمر والفقر وموت البغتة وهكذا من العواقب القبيحة الرذيلة السيئة .

ثامناً : الصدقة درع قوى يلبسه المحسن فيقيه عاديات الدهر وحوادث الزمان ﴿ **جنة تغشى أنامله وتعفو أثره** ﴾ .

تاسعاً : الصدقة كشجرة يستظل بها المحسن : ﴿ **يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد** ﴾ . وظل المؤمن يوم القيامة صدقته .

عاشراً : الصدقة تهدم حصون الشيطان وتكسر أنيابهم وتحطم قيودهم وترد كيدهم وتصد بغيهم . ﴿ **يفك عنها لحيا سبعين شيطاناً** ﴾ المعنى أن الشيطان يضع أنيابه ولحيه عند ما يهم المتصدق أن ينفذ الإنفاق فيوسوس له بالبخل والشح والفاقه ، وعدم احتياج هذا السائل وهكذا من الغواية فمن تصدق فك أغلاله وأزال وساوسه وأنفق لله فحماه الله من أذاهم ووقاه شرورهم وحفظه من إضلاله ، وأبعد عنه أضراره . قال تعالى يحكى عن الشيطان : ﴿ **قال فبما أغويتنى لأقعدن هم صراطك**

المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوما مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾[1].

أحد عشر : الصدقة تضع البركة فى العمر بإذن الله وتجلب الصحة وتدعو إلى الوئام وتجلب محبة الناس وتقيم حصوناً منيعة من قلوب الفقراء ليحفظوه بأنفسهم وليدعو له بخير . **وليصدوا عنه كل** باغ ويحرسوه ، ويتمنو خدمته وراحته ﴿ **صدقة المسلم تزيد فى العمر** ﴾ .

وإليك أيها الأخ أقدم آية عزاء يوم الاحتضار تبلغ أعالى الصدر . ﴿ **التراقى** ﴾ وتقول ملائكة الموت : أيكم يرقى بروحه ﴿ **ويظن** ﴾ المحتضر . ﴿ **الفراق** ﴾ وتلتوى ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما أو شدة فراق الدنيا بشدة خوف الآخرة . لماذا ؟ لأنه كان لا يتصدق ولا يزكى ماله ولا يؤدى حقوق الله من صلاة وغيرها ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى** ﴾[2]. من سورة القيامة . **(١)**

﴿ **ناضرة** ﴾ : بهية متهللة . ﴿ **ناظرة** ﴾ : مستغرقة مطالعة جماله بحيث تغفل عما سواه أو منتظرة إنعامه . ﴿ **باسرة** ﴾ : شديدو العبوس . ﴿ **فاقرة** ﴾ : داهية تكسر الفقار . ﴿ **المساق** ﴾ : **سوقه** إلى الله تعالى وحكمه . إن شاهدنا : ﴿ **فلا صدق** ﴾ : أى حال ذلك الرجل مؤلم لأنه كان بخيلا وشحيحاً لم يزك ولم يصل .

اللهم بلغنا رضاك لنراك

الإنفـاق خصـلة الأبرار

وقد أجمع العقلاء على حقارة الدنيا ورغب عنها المتقون الذين استبدلوا بحبها طاعة الله وأنفقوا فنالوا الجنة وفازوا بالتمتع بالأزواج المطهرة الحسان ، وأحاطتهم رحمة الله وعملهم رضوانه مع الأبرار الصالحين والله تعالى يعنيهم بقوله ﴿ **الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار * الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار** ﴾[3].

قال البيضاوى : حصر لمقامات السالك على أحسن ترتيب فإن معاملته مع الله إما توسل ، وإما طلب . والتوسل إما بالنفس وهو منعها عن الرذائل وحبسها على الفضائل والصبر يشملها وإما بالبدن وهو إما قولى : وهو الصدق وإما فعلى ، وهو القنوت الذى هو ملازمة الطاعة ، وإما بالمال وهو

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٦ - ١٨

(٢) سورة القيامة الآيات : ٢٢ - ٣٢

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٦ - ١٧

الإنفاق فى سبيل الخير وإما الطلب فبالاستغفار لأن المغفرة أعظم المطالب بل الجامع لها وتخصيص الأسحار لأن الدعاء فيها أقرب إلى الإجابة لأن العبادة حينئذ أشق والنفس أصفى والروع أجمع سيما للمجتهدين قيل إنهم كانوا يصلون إلى السحر ثم يستغفرون ويدعون .

وقد عد الله الإنفاق من صفات المؤمنين فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم * وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم** ﴾[١]. من سورة التوبة .

﴿ **عزيز** ﴾ : غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده . ﴿ **حكيم** ﴾ : يضع الاشياء فى مواضعها . ﴿ **طيبة** ﴾ : تستطيبها النفس أو يطيب فيها العيش وفى الحديث « إنها معقور من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت الأحمر » .

فأنت ترى المتقين والمزكين معدودين فى صفوف العظماء والأبطال الذين رضى الله عنهم وأرضاهم ، فحظوا بنعيم جنته ﴿ **ورضوان من الله أكبر** ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدى إلى نيل الوصول ، والفوز باللقاء إذ يتحلى الخالق العظيم جل وعلا ويقول : « أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم أبداً » حديث شريف . الصدقة من العمل الصالح ، وقد قال تعالى :

(أ) ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقا** ﴾[٢].وقد أخبر سبحانه وتعالى عن المنافقين الفاسقين البخلاء الذين يحضون الأنصار على عدم الإنفاق .

(ب) ﴿ **هم الذين يقولون لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لايفقهون** ﴾[٣]. سبحانه بيده الأرزاق والقسم .

(جـ) ﴿ **يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم** ﴾[٤]

﴿ **ليوم الجمع** ﴾ : الحساب والجزاء . ﴿ **التغابن** ﴾ : يغبه فيه بعضهم بعضا لنزول السعداء منازل الأشقياء لو كانوا سعداء وبالعكس مستعار من تغابن التجار . بمعنى أن الكفار يأخذون منازل المؤمنين فى النار لو ماتوا كفاراً . ويغبه المؤمنون الكافرين بأخذ منازلهم فى الجنة لو آمنوا والتغابن ليس على بابه لأن هذا سرور للمؤمنين .

---

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٧١ — ٧٢

(٢) سورة الطلاق الآية : ١١

(٣) سورة المنافقون الآية : ٧

(٤) سورة التغابن الآية : ٩

ولا يحض على طعام المسكين

إن أقبح العقائد الكفر بالله تعالى وأشنع الرذائل البخل **وقسوة القلب وهذه عبارة البيضاوى يفسر** حال رجل قدم كتابه بشماله فعذب عذابا عسيراً لماذا ؟ لسببين :

(أ) لا يؤمـــن بالله .

(ب) لا يحث على بذل طعام المسكين أو إطعامه .

نعوذ بالله من مال وراءه العقاب وحر المصائب والويلات لأن صاحبه بخيل وفى الحقوق شحيح فكل عمله قبيح وعاقبته سيئة ولن تجد أصدق حديثاً من كلام الله تعالى مبيناً حال المؤمنين الصالحين وحال الفاسقين الكافرين العصاة المذنبين . قال عز شأنه : ﴿ **فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابية ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانية خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين فليس له اليوم ههنا حميم ولا طعام إلا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون** ﴾[1].

﴿ **مالية** ﴾ : أى مالى وما يتبعنى . ﴿ **سلطانية** ﴾ : حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا . أو ملكى وتسلطى على الناس . ﴿ **فاسلكوه** ﴾ : فأدخلوه فيها بأن تلقوها على جسده ، وهو فيما بينها مرهق لا يقدر على حركة . قال الصاوى كأنه قيل : ما باله يعذب هذا العذاب الشديد ؟ فأجيب : لا يؤمن بالله ، ولا يحض ، وقال البيضاوى : تعليل على طريقة الاستئناف للمبالغة وذكر العظيم للإشعار بأنه هو المستحق للعظمة فمن تعظم فيها استوجب ذلك ولا يحض ويجوز أن يكون ذكر الحض للاشعار بأن تارك الحض بهذه المنزلة فكيف تارك الفعل . وفيه دليل على تكليف الكفار بالفروع . ﴿ **حميم** ﴾ : قريب يحميه . ﴿ **غسلين** ﴾ : غسالة أهل النار وصديدهم . ﴿ **الخاطئون** ﴾ : أصحاب الخطايا ، من خطىء الرجل إذا تعمد الذنب ، لا من الخطأ المضاد للصواب . ﴿ **إن شاهدنا** ﴾ : ﴿ **ولا يحض** ﴾ فكأن البخيل ويأمر الناس بالبخل متخلق بأخلاق الكفار فيعذبه الله انتقاماً منه على تقصيره فى الإنفاق لله ويااليته يسكت بل يدعو إلى التشبه به ليكون قوة سيئة فى الإجرام والأعسار وأداة منع وباب شر ، وطريق خير ، وبوق حرمان ، وقد قال الإمام على كرم الله وجهه : ألا أنبئكم بالعالم كل العالم من لم يزين لعباد الله معاصى الله ولم يؤمنهم مكره ، ولم يؤيسهم من روحه : أى العالم الكامل علماً من دعا إلى الله وحذر الناس من الوقوع فى المناهى ، ولم يقطع أملهم من رحمته وقال الشاعر :

فمـا يمـر خيـال الغـدر فى خلـــدى ولا تلـوح سمـات الشـرف خالى

---

(١) سورة الحاقة الآيات : ١٩ – ٣٧

قلبى سليم ونفسى حرة ويدى   مأمونه ولسانى غير ختال

اتصف المنفقون بمكارم الأخلاق كما أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز

اقرأ سورة المعارج تجد قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم** ﴾[١].

﴿ **هلوعاً** ﴾ : شديد الحرص قليل الصبر . ﴿ **الشر** ﴾ : الضر ، يجزع ويتكدر ويضجر . ﴿ **الخير** ﴾ : السعة والخيرات ، يبالغ بالإمساك والبخل :

قال البيضاوى : طبائع جبل الإنسان عليها ، استثنى سبحانه قيل لمضادة تلك الصفات لها من حيث إنها دالة على الاستغراق فى طاعة الحق والاشفاق على الحق والإيمان بالجزاء والخوف من العقوبة وكسر الشهوة وإيثار الآجل على العاجل وتلك ناشئة من الانهماك فى حب العاجل وقصور النظر عليها .

اندرج المنفقون فيمن كلمهم الله بتوفيقه فأدركوا لذة طاعة الله فى الجود وتشييد الصالحات بالإنفاق فتنزهوا عن الدناءة والأخلاق الذميمة وسمت صفاتهم الحميدة وعملوا بآداب الله بتنفيذ أوامره واتباع الرسول ﷺ وهو لنا قدوة حسنة .

انتقل بعد ذلك إلى قراءة سورة (المؤمنون) تجد استدراج الله تعالى للأغنياء والتنبيه على أن المال والبنين إمداد من الله وليس فيهما دليل على مسارعة الخير ، قال جل شأنه : ﴿ **أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون * إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون * ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون** ﴾[٢] من سورة المؤمنون .

﴿ **إنما نمدهم** ﴾ : أى أنما نعطيهم ، ونجعله لهم مدداً والخير غير معاتب عليه وإنما المعاتب عليه اعتقادهم أن ذلك خير لهم ــ وهذا فى الكفار ولكن أريد أن أشبه البخيل غير المنفق فى مشروعات الخير بأولئك الذين قست قلوبهم فخلت من الإيمان بالله المعطى المخلف . ﴿ **مشفقون** ﴾ : حذرون خائفون من عذاب الله .

---

(١) سورة المعارج الآيات : ١٩ – ٢٥

(٢) سورة المؤمنون الآيات : ٥٥ – ٦٢

وإن شاهدنا : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ : أى : يعطون ما أعطوه من الصدقات ، وقرىء : ﴿ يأتون ما أتوا ﴾ : أى : يفعلون ما فعلوا من الطاعات وقلوبهم خائفة ألا يقبل منهم وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذ به . ﴿ يسارعون ﴾ : أى : يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة ، فيبادرون بها أو يسارعون فى نيل الخيرات الدنيوية الموعودة على صالح الأعمال بالمبادرة إليها كقوله تعالى : ﴿ فأتاهم الله ثواب الدنيا ﴾[1] فيكون إثباتاً لهم ما نفى عنه أضدادهم . ﴿ سابقون ﴾ لأجلها فاعلون السبق . أو سابقون الناس إلى الطاعة ، أو الثواب أو الجنة . ﴿ وسعها ﴾ : قدر طاقتها . يريد به التحريض على ما وصف به الصالحين وتسهيله على النفوس . ﴿ كتاب ﴾ : يريد به اللوح أو صحيفة الأعمال . ﴿ بالحق ﴾ : بالصدق لا يوجد فيه ما يخالف الواقع . ﴿ لا يظلمون ﴾ : بزيادة عقاب أو نقصان ثواب . أ.هـ البيضاوى

وهل تجد اسمى صفة من الإقدام على الإنفاق ثقة بالله وإعتقاداً بحسن جزائه سبحانه وتعالى .

إعتراف أهل سقر بأعذارهم منها : ولم نك نطعم المسكين

يفصل الله بين الخلائق فيذهب العصاة والكفرة الفسقة إلى جهنم فيتحادث المجرمون : ﴿ ما سلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾[2]. من سورة المدثر) .

أيها المسلم : هذا إقرار من الجهنميين وكان من صفاتهم البخل وإنعدام الخير منهم ولا يعطون الفقراء .

(أ) لا يؤدون الصلاة الواجبة .

(ب) ولا يؤدون ما يجب إعطاؤه .

(جـ) يشرعون فى الباطل (مع الخائضين): الشارعين فيه .

(د) يكذبون بيوم القيامة .

أهل بيت رسول الله ﷺ يطعمون الطعام على حبه

سيدنا رسول الله ﷺ المثل الأعلى فى الكرم والقدوة الحسنة فى الانفاق فلا غرو أن يظهر أثر تعاليمه فى أهله وأقربائه . قال البيضاوى فى تفسيره :

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٤٨

(٢) سورة المدثر الآيات : ٤٢ – ٤٨

وعن بن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أن الحسن والحسين ــ رضى الله عنهما ــ مرضا فعادهما رسول الله ﷺ فى ناس ، فقالوا : لو نذرت على ولديك فنذر على وفاطمة ــ رضى الله عنهما ــ صوم ثلاث إن برئا فشفيا ، وما معهم شيء فاستقرض على من (شمعون الجندى) ثلاث أصوع من شعير ، فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص فوضعوها بين أيديهم ليفطروا فوقف عليهم مسكين فآثروه وباتوا ولم يزوقوا إلا الماء وأصبحوا صياماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام وقف عليهم يتيم فأثروه ثم وقف عليهم يتيم فأثروه ثم وقف عليهم فى الثالثة أسير ففعلوا مثل ذلك فنزل . جبريل ــ عليه السلام ــ بهذه السورة وقال : خذها يا محمد هناك الله فى أهل بيتك قال تعالى : ﴿ **إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً * ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً * إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً *ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قوارير من فضة قدروها تقديرا * ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً * عيناً فيها تسمى سلسبيلاً * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثوراً * وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبير * عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهوراً * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً** ﴾[1].

فهل تقتدى أيها المؤمن بأولئك الكرام الذين جادوا من قلة وأنفقوا فى ضيق اعتماداً على الله ، ورجاء رحمته ورضوانه .

وقال الصاوى فى تفسير : ﴿ **ويطعمون الطعام** ﴾ نزلت فى على بن أبى طالب وأهل بيته وذلك أنه أجر نفسه ليلة ليسقى نخلاً بشيء من شعير حتى أصبح وقبض الشعير وطحنوا ثلثه فجعلوا منه شيئاً ليأكلوه يقال له الحرير فلما تم نضجه أتى مسكين فأخرجوا إليه الطعام إلى آخره (على حبه) أى مع حبه وشهوته ففيه إيثار على النفس ويصح رجوع الضمير لله : أى على حب الله : أى لوجهه ، وابتغاء رضوانه وخص الثلاثة لأنهم من العواجز المعدمين الكسب . والأسير المحبوس بحق : أى وأولى المحبوس بباطل وعلى ــ رضى الله عنه ــ سأله سائل ، وهو راكع فى صلاته فطرح له خاتمه ﴿ **ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ فى الصلاة حرصاً على الاحسان ومسارعة إليه . قال البيضاوى : نزلت فى على رضى الله عنه ا.هـ. ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾[2] الآية .

٥١ – وعن المغيرة بن عبد الله الجعفى قال : جلسنا إلى رجل من أصحاب النبى ــ ﷺ يقال

(١) سورة الانسان الآيات : ٥ – ٢٢
(٢) سورة المائدة الآية : ٥٥

له خصفه بن خصفه : فجعل ينظر إلى رجل سمين فقلت له : ما تنظر إليه ؟ فقال : ذكرت حديثا سمعته من رسول الله ﷺ سمعته يقول : تدرون ما الشديد ؟ قلنا : الرجل يصرع الرجل . قال : إن الشديد كل الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب . تدرون ما الرقوب ؟ قلنا الرجل الذى لا يولد له . قال : إن الرقوب الرجل الذى له الولد ، لم يقدم منهم شيئاً ، ثم قال : تدرون ما الصعلوك ؟ قال قلنا : الرجل الذى لا مال له ؟ قال : إن الصعلوك كل الصعلوك الذى له المال لم يقدم منه شيئاً . رواه البيهقى[١].

الترغيب فى صدقة السر

١ – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ورجل قلبه معلق بالمساجد ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنى أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه . رواه البخارى ومسلم من أبى هريرة هكذا[٢].

٢ – وروى عن أنس – رضى الله عنه – قال : رسول الله ﷺ : لما خلق الله الأرض جعلت تميد وتكأفأفأرساها بالجبال فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال ، فقالت : ياربنا ! هل خلقت خلقاً أشد من الجبال ؟ قال : نعم الحديد . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الحديد ؟ قال : النار . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من النار ؟ قال : الماء . قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الماء ؟ قال : الريح قالوا : فهل خلقت خلقاً أشد من الريح ؟ قال : ابن آدم إذا تصدق بصدقة بيمينه فأخفاها من شماله[٣]

٣ – وعن معاوية بن حيدة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : إن صدقة السر تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى رواه الطبرانى فى الكبير[٤].

٤ – وعن أبى أمامة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : **صنائع المعروف : تقى** مصارع السوء ، وصدقة السر : تطفىء غضب الرب وصلة الرحم : تزيد فى العمر رواه الطبرانى فى الكبير[٥].

٥ – وروى عن أم سلمة – رضى الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ : صنائع

(١) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى – باب التحريض على صدقة التطوع ٥١٩/٦ رقم ٣٠٧٠
(٢) اللؤلؤ والمرجان – كتاب الزكاة – باب فضل إخفاء الصدقة رقم ٦١٠
(٣) مسند أحمد ١٢٤/٣ وتحفة الأحوذى ٣٠٧/٩ رقم ٣٤٢٨ وقال الترمذى : حديث غريب
(٤) المعجم الكبير للطبرانى ٤٢١/١٩ رقم ١٠١٨
(٥) المعجم الكبير للطبرانى ٣١٢/٨ رقم ٨٠١٤

المعروف : تقى مصارع السوء والصدقة خَفِيا : تطفىء غضب الرب وصلة الرحم : تزيد فى العمر وكل معروف صدقة وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة وأهل المنكر فى الدنيا هم أهل المنكر فى الآخرة وأول من يدخل الجنة أهل المعروف رواه الطبرانى فى الأوسط[1].

٦ – وعن أبى أمامة – رضى الله عنه – أن أبا ذر قال : يا رسول الله : ما الصدقة ؟ قال : أضعاف مضاعفة وعند الله المزيد ثم قرأ : من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيره . قيل يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال سر إلى فقير أو جهد من مقل ، ثم قرأ : إن تبدو الصدقات فنعما هى الآية . رواه أحمد مطولا والطبرانى واللفظ له . وفى إسنادهما على بن يزيد[2]

وعن أبى ذر – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : ثلاثة يحبهم الله وثلاثة يبغضهم الله . فأما الذين يحبهم : فرجل أتى قوماً فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينهم وبينه فمنعوه فتخلف رجل بأعقابهم فأعطاه سراً لا يعلم بعطيته إلا الله والذى أعطاه وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحب إليهم مما يُعدل به فوضعوا رءوسهم فقام يتملقنى ويتلو آياتى ورجل كان فى سرية فلقى العدو فهزموا فأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له . والثلاثة الذين يبغضهم الله : الشيخ الزانى والفقير المختال والغنى الظلوم . رواه النسائى وابن خزيمة فى صحيحة[3].

المعنى فقام يتملقنى : تجافى جنبه عن مضجعه وذهب لعبادة الله وذكره .

الشيخ الزانى : كبير السن هرم ومع ذلك يرتكب الفاحشة بمعنى أن عقابه أشد من غيره رجل ضعفت قوته وشهوته وكد ولم يكسر حدته فى الفاحشة .

الفقير المختال : لا يملك شيئاً ولكن يتكبر على الناس ويتجبر ويختال والمنهى عنه الخيلاء والعجب والغطرسه على الناس وهو محتاج .

الغنى الظلوم : صاحب الثروة والنعمة ولكن يتعدى على خلق الله ويسىء إليهم ويمنع حقوقهم ويضيع أموالهم عدوانا مع أنه فى سعة يمكنه أداء الحقوق كاملة ويتجبر ويقسو . ويطغى ويبغى .

سيدنا موسى عليه السلام يقول لفرعون : هل لك إلى أن تزكى ليعتبر المسلمون

قال تعالى : ﴿ **هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسعى * فحشر فنادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والأولى * إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى** ﴾ .

---

(١) مجمع الزوائد ١١٥/٣

(٢) مسند أحمد ٢٦٥/٥ والمعجم الكبير للطبرانى ٢٦٩/٨ رقم ٧٨٩١

(٣) سنن النسائى ٨٤/٥ وصحيح ابن خزيمة – كتاب الزكاة ١٠٤/٤ رقم ٢٤٥٦ ومسند أحمد ١٥٣/٥

إن شاهدنا العظه من دروس موسى عليه السلام لفرعون وتكبره على الناس فطمس الله معالمه وضيع ملكه لماذا ؟ لأنه طغى وبغى وعس فى الأرض وأفسد ولم يؤمن بالله ورسله ولم يعمل صالحا وساق الله تعالى لحبيبه هذا الحديث ليسليه على تكذيب قومه ويعظهم أن يعتبروا فيعملوا صالحا خشية أن يصيبهم مثل ما أصاب من هو أعظم منه كذلك دعوا الناس أن يعملوا بالكتاب والسنة ويصلوا ويتصدقوا خشية زوال هذه النعم وإنتشار نقم الله وعذابه بينهم .

﴿ **تزكى** ﴾ : أى هل لك ميل يا فرعون إلى أن تتطهر من الكفر وتبتعد عن الطغيان وتنقاد لأوامر الله وتتجنب الظلم وتترك الضلال والإفساد ، ﴿ **وأهديك إلى ربك** ﴾ :ارشدك إلى معرفته — عز وجل . ﴿ **فتخشى** ﴾ : بأداء الواجبات ، وترك المحرمات إذ الخشية إنما تكون بعد المعرفة . ﴿ **الآية** ﴾ : المعجزة ، وهى قلب العصا حيه فكذب فرعون موسى وعصى الله — عز وجل — ثم أدبر عن الطاعة ساعياً فى إبطال أمره . أدبر بعد ما رأى الثعبان مرعوباً مسرعاً فى مشيه . ﴿ **فحشر** ﴾ : فجمع السحرة أو جنوده . ﴿ **الأعلى** ﴾ : أى كل من يلى أمركم . ﴿ **نكال الآخرة** ﴾ : الإحراق فى جهنم . ﴿ **الأولى ؟** ﴾ : الاغراق فى الدنيا . قال تعالى : ﴿ **آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين** ﴾ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا . ﴿ **لغافلون** ﴾ : أى أتؤمن الآن وقد أيست من نفسك ولم يبق لك اختيار . ﴿ **المفسدين** ﴾ : الضالين المضلين عن الإيمان . ﴿ **ننجيك** ﴾ : ننقذك مما وقع فيه قومك من قعر البحر ونجعلك طافياً أو نلقيك على نجوة من الأرض ليراك بنو إسرائيل . ﴿ **ببدنك** ﴾ : عارياً من الروح أو كاملاً سوياً أو عرياناً من غير لباس أو بدرعك وكانت له درع من ذهب يعرفون بها لتكون لمن وراءك علامة .

إذ كان فى نفوس بنى اسرائيل من عظمته ما خيل إليهم أنه لا يهلك حتى كذبوا موسى عليه الصلاة والسلام حين أخبرهم بغرقه إلى أن عاينوه مطروحاً على ممرهم من الساحل أو لمن يأتى بعدك من القرون إذا سمعوا مآل أمرك عن شاهدك عبرة ونكالا عن الطغيان أو حجة تدلهم على أن الإنسان على ما كان عليه من عظم الشأن ، وكبرياء الملك مقهور مملوك بعيد عن مظان الربوبية فقد كف الله تزويرك وأماط الشبهة فى أمرك وذلك دليل على كمال قدرة الخالق جل وعلا وعلمه وإرادته ، وإن إزالة ملك هذا الطاغية معنى من معانى بغض الله وكراهته للظالمين . فالعدل يعمر والظلم يدمر وقديماً قيل : العدل أساس الملك قال تعالى : ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[٢]. أى الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك

(١) سورة النازعات الايات : ١٥ — ٢٦

(٢) سورة القصص الآية : ٥٠

فى اتباع الهوى فاللهم وفقنا لنتبع السيد المصطفى ﷺ ونترسم شرعه . وقال تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها** ﴾[١] أى أنماها بالعلم والعمل وفيه الحث على تكميل النفس والالتجاء إلى التضرع إلى الخالق جل وعلا رجاء السير على منهج الرسول ﷺ ﴿ **دساها** ﴾ : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق .

المنفق يعطيه الله حتى يرضى ويعافيه من العسر وييسر له اليسر

تزود ياأخى من أحاديث رسول الله ﷺ رجاء أن تتعود السخاء فيزيد الله رزقك ويقيك المكاره ويعينك على طاعته ويهيء لك طرق السداد والرشاد ويذلل لك سبل السعادة ومصداق ذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى * وما يغنى عنه ماله إذا تردى * إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى * فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى** ﴾[٢] من سورة الليل : أى أعطى الطاعة وجاد فى الخير وأحسن إلى الفقراء واتقى المعاصى وخاف الله وعمل صالحاً .

﴿ **بالحسنى** ﴾ : بكلمة التوحيد بمعنى أنه رجا الله ووثق به وخشيه . ﴿ **فسنيسره** ﴾ : فسنهيئه للخلة التى تؤدى إلى يسر وراحة كدخول الجنة . ﴿ **بخل** ﴾ : شح بما أمر به ولم يؤدى الزكاة ولم يتصدق بمعنى أنه لم يفعل الواجبات والنوافل . ﴿ **للعسرى** ﴾ : للخلة المؤدية إلى العسر والشدة كدخول النار ، ياأخى : ثق بهذا وتصدق وأفعل الخير ، والله يجازيك الجزاء الأوفى ويزيل عنك السوء ويحفظك ويشفيك ويلهمك الصواب والحكمة ولقد أخبرك جل وعلا أن مالك لا ينفعك إذا مت إلا إذا أنفقته فى مرضاة الله وإبتغاء ثوابه . ﴿ **تردى** ﴾ : هلك أو وقع فى حفرة جهنم . ﴿ **الهدى** ﴾ : تفضل من الله جل وعلا أن يبين الإرشاد إلى الحق . ﴿ **وإن لنا للآخرة والأولى** ﴾ **أى الله تعالى مالك الدنيا والآخرة ، يقول جل جلاله : نعطى فى الدارين ما نشاء لمن نشاء أو ثواب الهداية للمهتدين أو فلا يضرنا ترككم الاهتداء** . ﴿ **تلظى** ﴾ : تتلهب . ﴿ **لا يصلاها** ﴾ : لا يلزم مقاسياً شدتها . ﴿ **إلا الأشقى** ﴾ : الكافر الذى كذب الحق وأعرض عن الطاعة والفاسق لا يلزمها . ﴿ **الأتقى** ﴾ : الذى اتقى الشرك والمعاصى . ﴿ **يؤتى ماله** ﴾ : يصرفه فى مصارف الخير . ﴿ **ولسوف يرضى** ﴾ : وعد بالثواب الذى يرضيه . والآيات نزلت فى أبى بكر — رضى الله عنه — حين اشترى بلالا فى جماعة تولاهم المشركون فأعتقهم ولذلك : المراد بالأشقى أبو جهل أو أمية بن خلف أ.هـ بيضاوى .

---

(١) سورة الشمس الآيتان : ٩ ، ١٠

(٢) سورة الليل الآيات : ٥ — ٢١

هذا أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ منذ ظهر فجر الإسلام وسيرته أندى من المسك لأنه أنفق لله وأحب فى الله وهو جدير بكل ثناء ومدح :

فسر بنا فى ذمـــام الليـــل متعسفـــاً ... فنفحـة الطـــيب تهدينـــا إلى الملـــل
فالحب حيث العدد والأســد رابضـة ... حـول الكناس لها غـاب مـن الأسـل
قد زاد طـيب أحاديـث الكـرام بهـا ... ما بالكرائـم من حين وعـــن بخـــل
تبيـت نــار الهـوى منهـن فى كبـــد ... حـرى ونـار القـرى منهم على القـلـل

الغنى يخلد فى النعيم إذا ما أنفق ماله لله فى الصالحات والمال الكثير يجر إلى المعاصى

إذا أعطى الله الإنسان مالا وفيرا فصرفه فى وجوه الخير وفى الطيبات وأدى حقوق الله فيه فاز بعز الله وتمتع بالسعادة فى حياته ومماته . أما إذا بخل وقصر فى الزكاة ونأى عن الصدقات جرى مضاره فى شهواته وضيعه فى الموبقات وارتكب به الخطايا وامتلأت مجالسه بالغيبه والنميمه ، وباء بالخسران وقد أخبرنا سبحانه وتعالى عن (الأخنس بن شريق) وكان مغيبا أو (الوليد بن المغيرة) واعتيابه رسول الله ﷺ . قال تعالى :

(أ) ﴿ **ويل لكل همزة لمزة الذى جمع مالاً وعدده يحسب أن ماله أخلده كلا لينبذن فى الحطمة** ﴾ . وشاهدنا رجل ثرى اغتر بكثرة ماله فطغى واغتاب ونم وعادى رسول الله ﷺ ولم يؤمن به ﷺ ولم يعمل صالحاً فاستحق عذاب الله . ﴿ **وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة إنها عليهم مؤصدة فى عمد ممددة** ﴾[1]. تطلع على الأفئدة : تطو أوساط القلوب لأنها محل العقائد الزائفة ومنشأ الأعمال القبيحة . ﴿ **مؤصدة** ﴾ : مطبقة وموثقين فى أعمدة ممدودة مثل المقاطر التى تقطر فيها اللصوص أ.هـ بيضاوى .

انتقل أيها الأخ إلى سيرة أبى لهب فإنه ﷺ جمع أقاربه كما أمره سبحانه وتعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[2] فأنذرهم ، فقال أبو لهب تبالك ألهذا دعوتنا وأخذ حجراً ليرميه به فنزلت .

(ب) ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وماكسب** ﴾[3] : أى : مكسوبه بماله من النتائج والأرباح والوجاهه الأتباع أو عمله الذى ظن أنه سينفعه أو ولده عتبة ، وقد أفترسه أسد فى طريق الشام وقد أحدق به البعير ومات أبو لهب بالفرسة بعد وقعة بدر بأيام معدودة وترك ثلاثاً

---

(١) سورة الهمزة الآيات : ٥ – ٩
(٢) سورة الشعراء الآية : ٢١٤
(٣) سورة المسد الآيتان : ١ ، ٢

حتى أنتن ثم استأجروا بعض السودان حتى دفنوه ، فهو إخبار عن الغيب طابقة وقوعه . أ.هـ بيضاوى .

وشاهدنا رجل طمس الله على بصيرته فلم يؤمن برسول الله ﷺ وأخذه الغرور بماله فلم يشيد به الصالحات ولعل ذلك عبرة للمسلمين الأغنياء أن يقبلوا على طاعة الله ويعملوا صالحاً وينفقوا حبا فى الله ، فالإنسان بفطرته يحب المال ، ولكن يعالجها بالإنفاق والميل إلى فعل الخيرات قال تعالى :

(جـ) ﴿ **إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد * أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور * وحصل ما فى الصدور * إن ربهم بهم يومئذ لخبير** ﴾[١].

وعلى هذا الإنفاق من علامات المتقين كما أخبرنا الله تعالى فى محكم كتابه والبخل من شيم الأشرار كما رأيت . قال عز شأنه :

(أ) ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[٢].

(ب) ﴿ **يأيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾[٣].

(جـ) وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية * فى جنة عاليه * لاتسمع فيها لا غية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابى مبثوثة ﴾[٤].

(د) ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾[٥].

(هـ) ﴿ **فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ماهية * نار حامية** ﴾[٦].

---

(١) سورة العاديات الآيات : ٦ – ١١
(٢) سورة البقرة الآيتان : ٢ ، ٣
(٣) سورة الفجر الآيات : ٢٧ – ٣٠
(٤) سورة الغاشية الآيات : ٨ – ١٦
(٥) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ – ٨
(٦) سورة القارعة الآيات : ٦ – ١١

الترغيب فى الصدقة على الزوج والأقارب وتقديمهم على غيرهم

عن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنهما ـــ قالت : قال رسول الله ﷺ تصدقن يا معشر النساء ولو من حليكن قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود ، فقلت : إنك رجل خفيف ذات اليد وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة فائته فاسأله ، فإن كان ذلك يجزى عنى وإلا صرفتها إلى غيركم ، فقال عبد الله بل ائته أنت فانطلقت فإذا أمراة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ مثل حاجتها حاجتى وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة فخرج علينا بلال رضى الله عنه فقلت له : ائت رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك أتجزى الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام فى حجورهما ولا تخبره من نحن . قالت فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله فقال له رسول الله ﷺ : من هما ؟ فقال : امرأة من الأنصار وزينب ، فقال رسول الله ﷺ : أى الزيانب ؟ قال : امرأة عبد الله بن مسعود ، فقال رسول الله ﷺ : لهما أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة . رواه البخارى ومسلم واللفظ له[١]

٢ – وعن سلمان بن عامر ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم ثنتان : صدقة ، وصلة رواه النسائى والترمذى وحسنه وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحهما والحاكم وقال : صحيح الإسناد ولفظ ابن خزيمة قال : الصدقة على المسكين صدقة وعلى القريب صدقتان : صدقة ، وصلة[٢]

٣ – وعن حكيم بن حزام ـــ رضى الله عنه ـــ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن الصدقات أيها أفضل ؟ قال : على ذى الرحم الكاشح رواه أحمد والطبرانى وإسناد أحمد ، حسن[٣]. [الكاشح] بالشين المعجمة : هو الذى يضمر عداوته فى كشحه وهو خضره يعنى : أن أفضل الصدقة على ذى الرحم القاطع المضمر العداوة فى باطنه .

٤ – وعن أم كلثوم بنت عقبة ـــ رضى الله عنها ـــ أن النبى ﷺ قال : أفضل الصدقة : الصدقة على ذى الرحم الكاشح . رواه الطبرانى فى الكبير . ورجاله رجال الصحيح وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم[٤].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الزكاة ـــ باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين رقم ٥٨٤

(٢) سنن النسائى ٩٢٥٥ وسنن الترمذى ٣٨/٣ رقم ٦٥٨ وصحيح ابن خزيمة ٧٧/٤ رقم ١٣٨٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٣/٥. والمستدرك للحاكم كتاب الزكاة ٤٠٧/١

(٣) مسند أحمد ٤٠٢/٣ والمعجم الكبير للطبرانى ٢٢٦/٣ رقم ٣١٢٦

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ١٦٥/٤ رقم ٣٩٢٣ وابن خزيمو ٧٨/٤ رقم ٢٣٨٦ والحاكم فى المستدرك ٤٠٦/١ وأحمد فى سنده ٤١٦/٥

٥ – وعن أبى أمامة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ قال : إن الصدقة على ذى قرابة يضعّف أجرها مرتين . رواه الطبرانى فى الكبير من طريق عبيد الله بن زحر[١]

الترهيب من أن يسأل الإنسان مولاه أو قريبه من فضل ماله فيبخل عليه أو يصرف صدقته إلى الأجانب وأقرباؤه محتاجون

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : والذى بعثنى بالحق لا يُعذب الله يوم القيامة مَن رحم اليتيم ولان له فى الكلام ورحم يتمه وضعفه ولم يتطاول على جاره بفضل ما أتاه الله وقال : يا أمة محمد والذى بعثنى بالحق لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته ويصرفها إلى غيرهم والذى نفسى بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة . رواه الطبرانى . ورواته ثقات وعبد الله بن عامر الأسلمى[٢].

٢ – وعن بَهزِ بن حكيم عن أبيه عن جده ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قلت يا رسول الله : من أبر ؟ قال : أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ثم الأقرب فالأقرب وقال رسول الله ﷺ : لا يسأل رجل مولاه من فضل هو عنده فيمنعه إياه إلا دعى له يوم القيامة فضله الذى منعه شجاعاً أقرع . رواه أبو داود واللفظ له والترمذى وقال : حديث حسن . قال أبو داود : الأقرع الذى ذهب شعر رأسه من السم[٣].

المعنى : أمك : أى أكرم أمك واعتن بها وأغدق عليها من نعمتك وكرر ﷺ ثالثاً طالبا الوصايه بها والرأفة وشدة الإكرام والإحسان ويليها الأب .

مولاه : سيده : أى : خادم يطلب من مخدمه عليه نفقته وإطعامه وكسوته فيبخل إلا جاء هذا الخير والنعيم متمثلاً أفعى يأخذ بلهزمتيه ويعذبه . قال فى النهاية : الأقرع : الذى لا شعر على رأسه ، يريد حيه قد تمعط جلد رأسه وكثرة سمه وطول عمره أ.هـ .

وفيه إكرام الوالدين وتقديم الأم . قال الله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾[٤] وفيه الجود والسخاء وبذل الكرم خشية أن تمثل بافة يوم القيامة تعذب مانع الخير .

---

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٢٤٤/٨ رقم ٧٨٣٤

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١١٧/٣

(٣) أخرجه أبو داود ـــ كتاب الأدب ٣٥١/٥ رقم ٥١٣٩ والترمذى ـــ كتاب البر ٣٠٩/٤ رقم ١٨٩٧ وقال الترمذى : حديث حسن

(٤) سورة الاسراء آية : ٢٣

٣ – وعن جرير بن عبد الله البجلى ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ما من ذى رحم يأتى ذا رحمه فيسأله فضلاً أعطاه الله إياه فيبخل عليه إلا أخرج الله له من جهنم حية يقال لها شجاع يتلمظ فيطوّق به . رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير بأسناد جيد[١].

[التلمظ] تطعم ما يبقى فى الفم من آثار الطعام .

المعنى : يأتى ذا رحمه : أى ما من رجل له أقارب فقصده واحد منهم يطلب منه شيئاً مما أنعم الله به عليه فيشح ولا يعطيه إلا عذبه الله بنوع شديد فى الألم فيسلط عليه ثعباناً يدخل فى فمه ويقرصه ويحيط بجسمه فيؤلمه وفيه الحث على الجود وإعطاء ما يمكن إتقاء عذاب الله وحبا فى ثوابه وفى حديث أنس فى التنميك (فجل الصبى يتلمظ) أى يدير لسانه فى فمه ويحركه يتتبع أثر التمر واسم ما يبقى فى الفم من أثر الطعام . والخلاصة الترغيب فى بذل الصدقة للأقارب المحتاجين وتقديم من تعول . قال تعالى :

(أ) ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما أتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا * والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قرينا** ﴾ . ٣٨ من سورة النساء .

(ب) ﴿ **فآت ذا القربى حقه** ﴾[٢].

(جـ) ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً** ﴾[٣]

وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : أيما رجل أتاه ابن عمه يسأله من فضله فمنعه منعه الله فضله يوم القيامة . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط[٤] .

الترغيب فى القرض وما جاء فى فضله

١ – عن البراء بن عازب ــ رضى الله عنهما ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من منح منيحة لبن أو ورق أو هدى زقاقاً كان له مثل عتق رقبة . رواه أحمد والترمذى . واللفظ له ، وابن

(١) المعجم الكبير للطبرانى ٢/٣٦٦ رقم ٢٣٤٣
(٢) سورة الروم الآية : ٣٨
(٣) سورة الاسراء الآية : ٢٦
(٤) مجمع الزوائد ٨/١٥٤

حبان فى صحيحه ، وقال الترمذى : حديث حسن صحيح[١] ومعنى قوله : منح منيحة ورق ، إنما يعنى به قرض الدرهم وقوله : أو هدى زقاقاً : إنما يعنى به هداية الطريق وهو إرشاد السبيل

المعنى : منح منيحة : أعطى عطاء وفى النهاية : منحة الورق القرض ومنحة اللبن أن يعطيه ناقة أو شاة ينتفع بلبنها ويعيدها وكذلك إذا أعطاه لينتفع بوبرها وصوفها زماناً ثم يردها .

الزقاق بالضم : الطريق يريد من دل الضال أو الأعمى على طريقه ، وقيل أراد من تصدق بزقاق من النخل وهى السكة منها والأول أشبه لأن هدى من الهداية لا من الهدية .

٢ — وعن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — أن النبى ﷺ قال : كل قرض صدقة . رواه الطبرانى بإسناد حسن والبيهقى[٢].

المعنى : كل قرض صدقة : ما تعطيه من المال لتقضاه وما سلفت من إحسان قال تعالى : ﴿ **وأقرضوا الله قرضاً حسناً** ﴾ . وفى الغريب وسمى ما يدفع إلى الإنسان من المال بشرط رد بدله قرضا . قال تعالى : ﴿ **من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾[٣].

واعتقد أن بذل المال فى سبيل إرضاء الله — سبحانه وتعالى — يساوى بذل النفوس باخلاص لتجاهد فى نصر دينه وإذا تصفحت كتاب الله العزيز تجد فى سورة الصف . ﴿ **يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم * وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب * وبشر المؤمنين** ﴾[٤] من سورة الصف .

القرض كما قال العلماء الفقهاء فى كتب الفقه

وهو تمليك الشىء على أن يرد مثله وهو سنة مؤكدة وقد يجب للمضطر ويحرم لمن يستعين به على معصيته وأركانه أربعة : الصيغة والمقرض والمتعاقدان والصيغة نحو أقرضتك ويقول الآخذ : قبلت ويجوز إقراض كل ما يجوز فيه السلم مما ينضبط ، أما ما لا ينضبط فلا يجوز إقراضه نعم يجوز إقراض العجين كالخمير والخبز وزناً ، وأجازه بعضهم عدا ، وعليه العمل فى الأمصار ويرد المقترض مثل ما اقترض ولا يجوز قرضه نقد أو غيره بشرط جر منفعة للمقرض كأن يرد زيادة أو يرد ببلد آخر فلورد زائداً قدراً أو صفة بلا شرط فلا بأس ولا كراهة ولو شرط أجلاً فالشرط لغو وللمقرض مطالبته قبل

(١) مسند أحمد ٢٨٦/٤ وسنن الترمذى ٣٤٠/٤ رقم ١٩٥٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٧٨/٧

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٣٨٧/٢٢ رقم ٩٦٤ والجامع لشعب الإيمان ١٦٣/٧ رقم ٣٢٨٥

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٤٥

(٤) سورة الصف الآيات : ١٠ — ١٣

حلوله ويسن الوفاء بالتأجيل فإن شرط المقرض فى القرض الأجل لمنفعة تعود عليه فسد القرض ويقع الأقراض بشرط الاشهاد والكفيل والرهن . أ.هـ تنوير القلوب ٢٧٢ .

ومعنى السلم : بيع شيء موصوف فى الذمة بلفظ السلم أو السلف . قال ﷺ : « من أسلف فى شيء فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » . رواه الشيخان(١).

ومعنى مالا ينضبط : كالمعجونات والمطبوخات والخبز وكل ما دخلته النار وأثرت فيه إلا التمييز كسمن وعسل ولا فى الخفاف والنعال المركبة والجلود والسفرجل والبطيخ عداً ، ويصح فى الأخيرين وزناً . ويشترط فى الحبوب كالبرو الأرز وفى الثمار كالتمر والزبيب . ذكر نوعه ولونه وبلده وجرمه وكونه قديما أو جديداً . قال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه** ﴾(٢). قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ نزلت فى السلم . ذكرت لك هذا لعظيم ثواب فك ضيق المعسر . وزيادة أجر الكريم ذى المروءة الذى يفرج كرب أخيه وينفس عنه آلام احتياجه ويبعد فقره المدقع .

٣ – وعن أبى أمامة ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، رواه الطبرانى والبيهقى ، كلا هما رواية عتبة بن حميد(٣). ورواه ابن ماجه والبيهقى أيضاً كلاهما عن خالد بن يزيد بن أبى مالك عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت ليلة أسرى بى على باب الجنة مكتوباً الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، الحديث وعتبة بن حميد عندى أصلح حالا من خالد(٤).

٤ – وعن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ : قال : ما من مسلم يقرض مسلماً قرضاً مرتين إلا كان كصدقتها مرة . رواه ابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى مرفوعاً وموقوفاً(٥).

٥ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : من يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة . رواه ابن حبان فى صحيح ، رواه مسلم الترمذى ، وأبو داود(٦).

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب المساقاه ــ باب السلم رقم ١٠٣٤

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٢

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٢٩٧/٨ رقم ٧٩٧٦ والجامع لشعب الإيمان للبيهقى ١٦٣/٧ رقم ٣٢٨٦

(٤) سنن ابن ماجه ٨١٢/٢ رقم ٢٤٣١ والجامع لشعب الإيمان للبيهقى ــ فصل فى القرض ١٦٤/٩ رقم ٣٨٨

(٥) سنن ابن ماجه ٨١٢/٢ رقم ٢٤٣٠ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٤٩/٧ رقم ٥٠١٨

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٥١/٧ وصحيح مسلم ٢٠٧٤/٤ وسنن الترمذى ١٩٥/٥ رقم ٢٩٤٥ وسنن أبى داود ٢٣٥/٥ رقم ٢٩٤٦

الترغيب فى التيسير على المعسر وإنظاره والوضع عنه

١ – عن أبى قتادة ــ رضى الله عنه ــ أنه طلب غريماً له فتوارى عنه ثم وجده ، فقال : إنى معسر ؟ قال : آلله . قال : آلله : فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سره أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفس عن معسر أو يضع عنه . رواه مسلم وغيره ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد صحيح وقال فيه : من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة وأن يظله تحت عرشه فلينظر معسراً[1].

المعنى : غريماً : صاحب دين له ، والغرم : أداء شيء لازم ، والغارم : الذى يلتزم ما ضمنه وتكفل به ويؤديه .

فتوارى : اختفى ــ معسر : لا يمكن السداد الآن . كرب : أهوال . فلينفس : فليفرج وليزل ضيقه ويؤخر المطالبة .

٢ – وعن حذيفة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا : عملت من الخير شيئا ؟ قال : لا . قالوا : تذكر ؟ قال : كنت أداين الناس فآمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجوزوا عن الموسر قال : قال الله : تجاوزوا عنه . رواه البخارى ومسلم واللفظ له[2].

٣ – وفى رواية لمسلم وابن ماجه عن حذيفة أيضاً عن النبى ﷺ : أن رجلاً مات فدخل الجنة فقيل له : ما كنت تعمل ؟ قال : فإما ذَّكر وإما ذُكر ؟ فقال : كنت أبايع الناس فكنت أنظر المعسر وأتجوز فى السكة أو فى النقد فغفر له[3].

المعنى : أتسامح فى الاقتضاء والاستيفاء وقبول ما فيه نقص يسير ، والسكة : الدراهم والدنانير بمعنى أنى أتساهل ولا أدقق .

٤ – وفى رواية للبخارى ومسلم عنه أيضاً قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً ممن كان قبلكم أتاه الملك ليقبض روحه ، فقال : هل عملت من خير ؟ قال : ما أعلم . قيل له : أنظر ! قال : ما أعلم شيئاً غير أنى كنت أبايع الناس فى الدنيا فأنظر الموسر وأتجاوز عن المعسر ، فأدخله الله الجنة فقال أبو مسعود : وأنا سمعته يقول ذلك[4].

٥ – وعنه رضى الله عنه قال : أتى الله بعبد من عباده آتاه الله مالا ، فقال له : ماذا عملت فى

(١) صحيح مسلم ١١٩٦/٣ رقم ١٥٦٣ ومجمع الزوائد ١٣٤/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب المساقاه ــ باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٦

(٣) صحيح مسلم ــ كتاب المساقاه ــ باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ٢٨ وسنن ابن ماجه ــ كتاب الصدقات ــ باب إنظار المعسر ٨٠٨/٢ رقم ٢٤٢٠

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب المساقاه ــ باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٦

الدنيا ؟ قال : ولايكتمون الله حديثا ؟ قال : يارب آتيتنى مالا فكنت أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسِّر على الموسر وأنظر المعسر فقال الله تعالى : أنا أحق بذلك منك تجاوزوا عن عبدى فقال عقبة بن عامر وأبو مسعود الأنصارى : هكذا سمعناه من رسول الله ﷺ رواه مسلم هكذا موقوفاً على حذيفة ومرفوعاً عن عقبة وأبى مسعود(١).

المعنى : الجواز : التسامح وفى هذه الأحاديث فضل إنظار المعسر والوضع عنه إما كل الدين وإما بعضه : من كثير أو قليل أو فضل المسامحة فى الاقتضاء وفى الاستيفاء سواء استوفى من موسر أو معسر وفضل الوضع من الدين وأنه لا يحتقر شىء من أفعال الخير : فلعله سبب السعادة والرحمة . وفيه جواز توكيل العبيد والإذن لهم فى التصرف وهذا على رأى من يقول : شرع من قبلنا شرع لنا .

أيسر على الموسر : آخذ ما تيسر وأسامح بما تعسر .

٦ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : كان رجل يداين الناس وكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه لعل الله عز وجل يتجاوز عنا فلقى الله فتجاوز عنه . رواه البخارى ومسلم والنسائى ولفظه :

إن رسول الله ﷺ قال : إن رجلاً لم يعمل خيراً قط وكان يداين الناس فيقول لرسوله خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا فلما هلك . قال الله له : هل عملت خيراً قط ؟ قال : لا إلا أنه كان لى غلام وكنت أداين الناس فإذا بعثته يتقاضى . قلت له : خذ ما تيسر واترك ما عسر وتجاوز لعل الله يتجاوز عنا . قال الله تعالى : قد تجاوزت عنك(٢).

٧ – وعن أبى مسعود البدرى – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شىء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً وكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر . قال الله تعالى : نحن أحق بذلك تجاوزوا عنه . رواه مسلم والترمذى(٣).

٨ – وعن بريدة – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة . ثم سمعته يقول : من أنظر معسراً فله كل مثليه يوم صدقة ، فقلت يا رسول الله سمعتك تقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثله صدقة ، ثم سمعتك تقول : من أنظر معسراً فله كل يوم مثليه صدقة ؟ قال له : كل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين ، فإذا حل فأنظره فله بكل يوم مثليه صدقة . رواه الحاكم ورواته محتج لهم فى الصحيح(٤). وورواه أحمد أيضاً وابن ماجه والحاكم مختصراً : من

---

(١) صحيح مسلم – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ٢٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر رقم ١٠٠٧

(٣) صحيح مسلم – كتاب المساقاه – باب فضل إنظار المعسر ١١٩٥/٣ رقم ١٥٦١ وسنن الترمذى – كتاب البيوع – باب إنظار المعسر والرفق به ٥٩٠/٣ رقم ١٣٠٧

(٤) المستدرك للحاكم – كتاب البيوع ٢٩/٢

أنظر معسراً فله كل يوم صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره بعد ذلك فله كل يوم مثليه صدقة . وقال الحاكم : صحيح على شرطهما[١].

٩ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر فى الدنيا يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ومن ستر على مسلم فى الدنيا ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه . رواه مسلم وأبو داود والترمذى وحسنه وابن ماجه مختصراً والحاكم وقال : صحيح على شرطهما[٢].

١٠ – وروى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : من فرج عن مسلم كربة جعل الله تعالى له يوم القيامة شعبتين من نور على الصراط بضوئهما عالم لايحصيهم إلا رب العزة . رواه الطبرانى فى الأوسط[٣].

١١ – وعنه – رضى الله عنه – أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله يوم القيامة تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله .. رواه الترمذى[٤].

١٢ – وعن أبى اليسر – رضى الله عنه – قال : أبصرت عيناى هاتان ، ووضع أصبعين على عينيه وسمعت أذناى هاتان ، **ووضع أصبعين** فى أذنيه . ووعاه قلبى هذا – وأشار إلى نياط قلبه – رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً أو وضع له أظله الله فى ظله . رواه ابن ماجه والحاكم واللفظ له[٥].

١٣ – وروى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر . رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اصطناع المعروف .

١٤ – وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : من أنظر معسراً إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته . رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى فى الكبير والأوسط[٦].

١٥ – وعنه – رضى الله عنه – قال : خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول : هكذا

---

(١) مسند أحمد ٣٦٠/٥ وابن ماجه ٨٠٨/٢ رقم ٢٤١٨

(٢) صحيح مسلم ، ٣٠٧٤/٤ رقم ٢٦٩٩ وسنن أبى داود ٢٣٤/٥ رقم ٤٩٤٦ وسنن الترمذى ٣٢٦/٤ رقم ١٩٣٠ وسنن ابن ماجه ٨٢/١ رقم ٢٢٥ والمستدرك للحاكم ٣٨٣/٤

(٣) مجمع الزوائد ١٩٢/٨

(٤) الترمذى كتاب البيوع – باب ما جاء فى إنظار المعسر والرفق به ٥٩٠/٣ رقم ١٣٠٦ وقال : حديث حسن صحيح

(٥) سنن ابن ماجه ٨٠٨/٢ رقم ٢٤١٩ والمستدرك للحاكم ٢٩/٢

(٦) المعجم الكبير للطبرانى ١٥١/١١ رقم ١١٣٣٠

وأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض : من أنظر معسراً أو وضع له ، وقاه الله منفيح جهنم . رواه أحمد بإسناد جيد وابن أبى الدنيا فى اصطناع المعروف ولفظه قال :

دخل رسول الله ﷺ المسجد وهو يقول : أيكم يسره أن يقيه الله عز وجل من فيح جهنم ؟ قلنا : يارسول الله كلنا يسره قال : من أنظر معسراً أو وضع له وقاه الله عز وجل من فيح جهنم[1].

١٦ - وعن أبى قتادة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من نفس عن غريمه أو محى عنه كان فى ظل العرش يوم القيامة . رواه البغوى فى شرح السنة[2].

١٧ - وروى عن عثمان بن عفان - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أظل الله عبداً فى ظله يوم لا ظل إلا ظله أنظر معسراً أو ترك مغارم[3].

١٨ - وروى عن أسعد بن زرارة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : من سره أن يظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر أو ليضع عنه . رواه الطبرانى فى الكبير[4].

المعنى : ييسر : يوسع عليه وينتظر يسره أو لييسر عنه .

١٩ - وروى عن شداد بن أوس - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أنظر معسراً أو تصدق عليه أظله الله فى ظله يوم القيامة . رواه الطبرانى فى الأوسط[5].

المعنى : تصدق عليه : أبرأ ذمته أو سامحه أو زال دينه ليقيه الله العذاب ويظله بعدله وإحسانه وفيه الرأفة بالمدين وتأخير مطالبته حتى يقدر ، سيدنا رسول الله ﷺ يضع قانون جمعيات التعاون للمسلمين إقرأ هذا الباب أيها المسلم لتعلم وسيلة نجاتك يوم الحساب : مساعدتك المسلم فى تأخير دينه « من سره أن ينجيه الله ووعد ﷺ بالجزاء .

(أ) إزالـــة الكـــروب
(ب) استظلاله برحمة الله . هذا وقد نظر الله إلى وجهة رجل لم تنفعه صالحاته فى حياته سوى عاطفة مدانية الناس والصبر على أداء المعسر .

[أنظر المعسر] وقد رغب - ﷺ فى مضاعفة ثواب الدائن : « كل يوم مثليه صدقة » . هذا إلى جعله مصباحاً منيرا يهتدى بهديه ملايين الناس . (شعبتين من نور) ، ثم بين ﷺ أن الإنظار سبب إجابة الدعاء وكشف الكروب وبعث التوبة ومحو الذنوب : « أنظره

---

(١) مسند أحمد ٣٢٧/١
(٢) شرح السنة للبغوى ١٩٩/٨ رقم ٢١٤٣
(٣) مسند أحمد ٧٣/١
(٤) المعجم الكبير للطبرانى ٢٨٣/١ رقم ٨٩٩
(٥) الطبرانى الكبير ٢٨٣/١ رقم ٨٩٩

الله بذنبه إلى توبته » . هذا إلى أمنه من نار جهنم فلا يصطليها . « وقاه الله عز وجل من فيح جهنم » فتعاونوا أيها المسلمون على مديد المعونة وأقرضوا المحتاجين ، وساعدوا الفقراء الذين يريدون عملاً شريفاً فى الحياة واستجدوا وابذلوا مايجلب لكم سعادة الحياة بإيجاد المشروعات العظيمة النافعة التى تجلب لكم اليسر والرخاء والعيش الرغد قال تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾[1] من سورة المائدة .

أى على العفو والإعفاء ومتابعة الأمر ومجانبة الهوى .

والخلاصـــة :

مبادىء السعادة :

١ – يمد الغنى الفقير .

٢ – تقيم أعمالاً للعاطلين .

٣ – تؤلف نقابات .

٤ – تأخير دفع المحتاج .

٥ – وجود التبادل .

٦ – الدين المعاملة .

٧ – حـــب المنفعـــة .

٨ – الإحســـــان .

الترغيب فى الإنفاق فى وجوه الخير كرما والترهيب من الإمساك والادخار شحا

١ – عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً . رواه البخارى ومسلم ، وابن حبان فى صحيحه ولفظه[2].

إن ملكاً بباب من أبواب الجنة يقول : من يقرض اليوم يجز غداً وملك بباب آخر يقول : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً . ورواه الطبرانى مثل ابن حبان إلا أنه قال : بباب من أبواب السماء .

٢ – وعنه ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : يا عبدى : أنفق أُنفق عليك . وقال : يد الله ملأى لايغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما بيده وكان عرشه على الماء وبيده الميزان يخفض ويرفع . رواه البخارى ومسلم[3].

(١) سورة المائدة الآية : ٢

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الزكاة ــ باب المنفق والممسك رقم ٥٩١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٠/٥

(٣) اللؤلؤ والمرجان ــ كتاب الزكاة ــ باب الحث على النفقة رقم ٥٨٠

[لا نعيضها] بفتح أوله : أى لا ينقصها .

المعنى : يد الله : خزائنه لا تنفذ ، السح : الصب الدائم . قال النووى شارحاً قوله ﷺ فى رواية مسلم « يد الله ملأى » قال القاضى قال الإمام المازرى : هذا مما يتأول لأن اليمين إذا كانت بمعنى المناسبة للشمال لا يوصف بها البارى ــ سبحانه وتعالى ــ لأنها تتضمن إثبات الشمال وهذا يتضمن التحديد ويتقدس الله سبحانه عن التجسيم والحد وإنما خاطبهم رسول الله ﷺ بما يفهمونه ، وأراد الإخبار بأن الله تعالى لا ينقصه الانفاق ولا يمسك خشية الإملاق جل الله عن ذلك وعد ﷺ عن توالى النعم بسح اليمين لأن الباذل منا يفعل ذلك بيمينه . قال : ويحتمل أن يريد بذلك أن قدرة الله سبحانه وتعالى على الأشياء على وجه واحد لا يختلف ضعفاً وقوة ، وأن المقدورات تقع بها على جهة واحدة لا تختلف قوة وضعفاً كما يختلف فعلنا باليمين والشمال ، تعالى الله عن صفات المخلوقين ومشابهة المحدثين .

٣ – وعن أبى أمامة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : يا ابن آدم : إنك أن تبذل الفضل خير لك ، وأن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف وابدأ بمن تعول واليد العليا خير من اليد السفلى . رواه مسلم والترمذى[1].

[الكفاف] بفتح الكاف ما كف عن الحاجة إلى الناس مع القناعة لا يزيد على قدر الحاجة .
[الفضل] : مازاد على قدر الحاجة .

المعنى : الفضل : الزائد عن حاجتك وأهل بيتك وإنفاقه خير لك لبقائه لك ثوابا جزيلا عند ربك جل وعلا ، والبخل به تعب وكدر فى حفظه ويسألك الله عن عدم إنفاقه .

ولا تلام على كفاف : لا عتاب ولا حساب على الفقير الذى لا يملك شيئاً . [والكفاف] : القلة . فيه الدعوة إلى الاحسان والصدقة ، واطمئنان الفقير من العذاب على وجود النعم ﴿ **ولتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ . [وابدأ بمن تعول] : تجب نفقته عليك من أم وزوجة وأهل . قال النووى : فيه تقديم نفقة نفسه وعياله لأنها منحصرة فيه بخلاف نفقة غيرهم .

٤ – وعن أبى الدرداء ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : ما طلعت شمس قط إلا وبجنبيها ملكان يناديان : اللهم من أنفق فأعقبه خلفاً ، ومن أمسك فأعقبه تلفاً ، رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم بنحوه ، وقال : صحيح الإسناد . والبيهقى من طريق الحاكم ولفظه فى إحدى رواياته قال رسول الله ﷺ : ما من يوم طلعت شمسه إلا وبجنبيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غيرالثقلين يا أيها الناس : هلموا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت الشمس إلا وكان بجنبيها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم عط منفقاً خلفاً وأعط

(١) صحيح مسلم ــ كتاب الزكاة ــ باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح ٧١٨/٢ رقم ١٠٣٦ وسنن الترمذى ــ كتاب الزهد ــ باب ما جاء فى الزهادة فى الدنيا ٥٧٣/٤ رقم ٢٣٤٣

ممسكاً تلفاً ، وأنزل الله فى ذلك قرآناً فى قول الملكين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فى سورة يونس : والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وأنزل فى قولهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً : والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إلى قوله للعسرى(١).

٥ – وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى **تراقيهما فأما المنفق : فلاينفق إلا سبغت أو فرت** على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزمت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع . رواه البخارى ومسلم(٢).

والمعنى : [الجنة] : بضم الجيم : ما أجن المرء وستره والمراد به هنا : الدرع . ومعنى الحديث أن المنفق كلما أنفق طالب عليه ، وسبغت حتى تستر بنان رجليه ويديه والبخيل كلما أراد أن ينفق لزمت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع شبه ﷺ نعم الله تعالى ورزقه بالجنة وفى رواية : بالجنة فالمنفق كلما أنفق اتسعت عليه النعم وسبغت ، ووفرت حتى تستره سترا كاملا شاملا ، والبخيل كلما أراد أن ينفق منعه الشح ، والحرص ، وخوف النقص فهو بمنعه يطلب أن يزيد ما عنده وأن تتسع عليه النعم فلا تتسع ولا تستر منه ما يروم ستره والله سبحانه أعلم .

٦ – وعن قيس بن سلع الأنصارى — رضى الله عنه — أن إخوته شكوه إلى رسول الله ﷺ فقالوا إنه يبذر ماله وينبسط فيه . قلت : يا رسول الله آخذ نصيبى من التمره فأنفقه فى سبيل الله وعلى من صحبنى فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال : أنفق ينفق الله عليك ثلاث مرات ، فلما كان بعد ذلك خرجت فى سبيل الله ومعى راحلة وأنا أكثر أهل بيتى اليوم وأيسره . رواه الطبرانى فى الأوسط وقال : تفرد به سعيد بن زياد أبو عاصم(٣)

٧ – وعن أنس — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : الأخلاء ثلاثة . فأما خليل فيقول : أنا معك حتى تأتى قبرك وأما خليل فيقول : لك ما أعطيت وما أمسكت فليس لك فذلك مالك ، وأما خليل فيقول : أنا معك حيث دخلت ، **وحيث خرجت** فذلك عمله ، فيقول : والله لقد كنت من أهون الثلاثة على . رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرطهما ولا علة له(٤).

٨ – وعن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله . قالوا يا رسول الله : مامنا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ قال : فإن ماله ما قدم

---

(١) سند أحمد ١٩٧/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٨/٥ والمستدرك للحاكم ٤٤٥/٢ والجامع لشعب الإيمان — باب كراهية رد من جاء سائلا ٢٠/٧ رقم ٣١٣٩

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الزكاة — باب مثل المنفق والبخيل رقم ٦٠٠

(١) مجمع الزوائد ١٢٨/٣

(٤) المستدرك للحاكم — كتاب الإيمان ٧٤/١

ومال وارثه ما أخر . رواه البخارى والنسائى[١].

٩ – وعنه – رضى الله عنه – قال : دخل النبى ﷺ على بلال وعنده صبر من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : أعد ذلك لأضيافك قال : أما تخشى أن يكون لك دخان فى نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالاً : رواه البزار بإسناد حسن والطبرانى فى الكبير[٢] وقال : أما تخشى أن يفور له بخار فى نار جهنم .

١٠ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ عاد بلالاً ، فأخرج له صبراً من تمر ، فقال : ما هذا يا بلال ؟ قال : إدخرته لك يا رسول الله ، قال : أما تخشى أن يجعل لك بخار فى نار جهنم ؟ أنفق يا بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا . رواه أبو يعلى ، والطبرانى فى الكبير والأوسط بإسناد حسن[٣].

١١ – وعن أسماء بنت أبى بكر – رضى الله عنهما – قالت : قال لى رسول الله ﷺ : لا توكى فيوكأ عليك

وفى رواية : أنفقى ، أوْ انفعى أو انضحى ولا تحصى فيحصى الله عليك ولا توعى فيوعى الله عليك . رواه البخارى ومسلم وأبو داود[٤].

[انضحى] بالحاء المهملة ، وانضحى ، وأنفقى الثلاثة معنى واحد ، وقوله : لا توكى ، قال الخطابى : لاتدخرى والإيكاء : شد رأس الوعاء بالوكاء وهو الرباط الذى يربط به ، يقول : لا تمنعى مافى يدك فتنقطع مادة بركة الرزق عنك . أ.هـ.

١٢ – وعن بلال – رضى الله عنه – قال : قال لى رسول الله ﷺ : يا بلال : مت فقيراً ولا تمت غنياً . قلت : وكيف لى بذلك ؟ قال : ما رزقت فلا تخبأ ، وما سئلت فلا تمنع ، فقلت : يا رسول الله وكيف لى بذلك ؟ قال : هو ذاك أو النار ، رواه الطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ وابن حبان فى كتاب الثواب والحاكم ، وقال : صحيح الاسناد ، وعنده : قال لى : اتق الله فقيراً ، وتلقه غنياً[٥].

١٣ – وعن ابن مسعود – رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق ورجل أتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها .

(١) صحيح البخارى – كتاب الرقاق – باب ما قدم من ماله فهو له ١١٦/٨ وسنن النسائى – كتاب الوصايا باب الكراهية فى تأخير الوصية ٢٣٧/٦

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٠/٤ رقم ٣٦٥٣ ومجمع الزوائد ١٢٦/٣

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤٢/١ رقم ١٠٢٦

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب الزكاة – باب الحث على الإنفاق وكراهة الإحصاء رقم ٦٠٨ وسنن أبى داود – كتاب الزكاة – باب فى الشح ٣٢٤/٢ رقم ١٦٩٩ والترمذى ٣٤٢/٣ رقم ١٩٦٠

(٥) المعجم الكبير للطبرانى ٣٢٣/١ رقم ١٠٢١ والمستدرك للحاكم ٣١٦/٤

وفى رواية : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل أتاه الله القرآن ، فهو يقوم به أناء الليل وأناء النهار ورجل أتاه الله مالاً فهو ينفقه أناء الليل وأناء النهار . رواه البخارى ومسلم[1] والمراد بالحسد : هنا الغبطة وهو تمنى مثل ما للمغبط وهذا لا بأس به ، وله نيته فإن تمنى زوالها عنه فذلك حرام وهو الحسد المذموم .

١٤ - وعن طلحة بن يحيى عن جدته سعدى قالت : دخلت يوما على طلحة تعنى ابن عبيد الله : فرأيت منه ثقلاً ، فقلت له : مالك لعله رابك منا شيء فنعتبك ؟ قال : لا ، ولنعم حليلة المرء المسلم أنت ولكن إجتمع عندى مال ، ولا أدرى كيف أصنع به . قالت : وما يغمك منه ادع قومك فاقسمه بينهم ، فقال يا غلام : علىَّ بقومى فسألت الخازن كم قسم ؟ قال : أربعمائة ألف . رواه الطبرانى بإسناد حسن[2].

المعنى : [فنعتبك] : فتقدم لك العتبى ونزيل ما علق بك من جهتنا . [حليلة] : زوجة ، ونعم : كلمة مدح وثناء . [لا أدرى كيف] : لا أعلم على أى حال أوزعه خشية سؤال الله عنه يوم القيامة . [مايغمك] أى شيء جلب لك الغم والهم من وجوده .

سيدنا طلحة بن عبيد الله يخاف من وجود ماله ، ففرقه على أقاربه لله رجاء ثواب الله ليقابل ربه فقيراً ، فخيف سؤاله وينعم باله ويهنأ عيشه ويدوم صفاؤه ﴿ **يوم ينظر المرء ما قدمت يداه** ﴾ . بقومى : ائت بأقاربى وأهلى .

١٥ - وروى عن ابن مسعود — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : نشر الله عبدين من عباده أكثر لهما من المال والولد فقال لأحدهما : أى فلان ابن فلان ؟ قال : لبيك رب وسعديك . قال : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى أى رب . قال : وكيف صنعت فيما آتيتك ؟ قال : تركته لولدى مخافة العيلة . قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت قليلاً ، ولبكيت كثيراً أما إن الذى تخوفت عليهم قد أنزلت بهم ويقول للآخر : أى فلان ابن فلان ، فيقول : لبيك أى رب وسعديك ؟ قال له : ألم أكثر لك من المال والولد ؟ قال : بلى . أى رب قال : فكيف صنعت فيما آتيتك ؟ فقال : أنفقت فى طاعتك ووثقت لولدى من بعدى بحسن طولك . قال : أما إنك لو تعلم العلم لضحكت كثيراً ولبكيت قليلاً ، أما إن الذى قد وثقت به أنزلت بهم . رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط .

[العيلة] : بفتح العين المهملة ، وسكون الياء : هو الفقر . [الطول] : بفتح الطاء : هو الفضل والقدرة والغنى . [بحسن طَوْلك] : فضلك ونعمتك وعلمت أنك الرزاق المعطى فاعتمدت

---

(١) اللؤلؤ والمرجان — كتاب صلاة المسافرين قصرها — باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه رقم ٤٦٦
(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٤٨/٩

عليك سبحانك وأطعتك واتقيت الله فيه . هذا درس لأولئك الذين تكالبوا على الدنيا وطمعوا فى تراثها وجشعوا فيها .

الأول : رجل أعطاه الله المال ورزقه البنين فازداد جشعاً فى جمع المال وحرم الفقراء وبخل وشح فى حقوق الله فأخطأ طريق الهدى فمات وترك لأولاده الحسرة والندامة إذ نزع الله البركة من ماله ففنى وافتقر أولاده .

الثانى : خاف مقام ربه وأطاع الله فى أوامره واجتناب مناهيه وزكى وتصدق وأقام مشروعات الخير أو ساهم فيها وترك لأولاده تقوى الله فبارك الله فى ماله فنما ورزقهم الله السعادة والرزق الكثير والعيش الرغد وذلك مصداق قوله تعالى :

(أ) ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً** ﴾[1]. قال البيضاوى : أمر للأوصياء بأن يخشوا الله تعالى ، ويتقوه فى أمر اليتامى فيفعلوا بهم ما يحبون أن يفعل بذراريهم الضعاف بعد وفاتهم أو للحاضرين المريض عند الإيصاء بأن يخشوا ربهم ، أو يخشوا على أولاد المريض ويشفقوا عليهم ثم أمرهم بالتقوى التى هى غاية الخشية بعد ما أمرهم بها مراعاة للمبدأ أو المنتهى . وشاهدنا : الأمر بالتقوى وقول الحق . هذان ينفعان الذرية كما قال تعالى :

(ب) ﴿ **وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين فى المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً** ﴾[2] . قال البيضاوى : كنز من ذهب أو فضة روى ذلك مرفوعاً ، والذم على كنزهما فى قوله : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة** ﴾[3] . لمن لا يؤدى زكاتهما وما تعلق بهما من الحقوق .. واسمهما : أحدم وحديم .

[صالحا] تنبيه على أن سعيه ذلك كان لصلاحه ، قيل : كان بينهما وبين الأب الذى حفظا فيه سبعة آباء ، وكان شياحا واسمه كاشح (أشدهما) الحلم وكمال الرأى : (الرحمة) مرحومين من ربك ، وقال تعالى :

(جـ) ﴿ **إن وليى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين** ﴾[4] قال البيضاوى : ومن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلاً عن أنبيائه .

١٦ – وعن مالك الدار أن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أخذ أربعمائة دينار فجعلها

---

(١) سورة النساء الآية : ٩
(٢) سورة الكهف الآية : ٨٢
(٣) سورة التوبة الآية : ٣٤
(٤) سورة الأعراف الآية : ١٩٦

فى صرة فقال للغلام : أذهب بها إلى أبى عبيدة بن الجراح ثم تلهَّ فى البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع فذهب بها الغلام إليه ، فقال يقول لك أمير المؤمنين أجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : وصله الله ورحمه ثم قال : تعالى يا جارية اذهبى بهذه السبعة إلى فلان ، وبهذه الخمسة إلى فلان وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفذها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فوجده قد أعد مثلها لمعاذ بن جبل ، فقال : اذهب بها إلى معاذ بن جبل وتلهَّ فى البيت حتى تنظر ما يصنع فذهب بها إليه فقال يقول لك أمير المؤمنين اجعل هذه فى بعض حاجتك ، فقال : رحمه الله ووصله تعالى يا جارية اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، اذهبى إلى بيت فلان بكذا ، اذهب إلى بيت فلان بكذا فاطلعت امرأة معاذ وقالت : نحن والله مساكين فأعطنا فلم يبق فى الخرقة إلا ديناران فدحى بهما إليها ورجع الغلام إلى عمر فأخبره فسر بذلك فقال إنهم إخوة بعضهم من بعض ، رواه الطبرانى فى الكبير[1] ورواته إلى مالك الدارثقات مشهورون ، ومالك الدار لا أعرفه .

[تلهّ] : هو بفتح التاء المثناه فوق واللام أيضاً وتشديد الهاء : أى تشاغل . [فدحى بهما] بالحاء المهملة : أى رمى بهما .

وعن سهل بن سعد ــ رضى الله عنه ــ قال : كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وضعها عند عائشة فلما كان عند مرضه قال يا عائشة : ابعثى بالذهب إلى على ثم أغمى عليه وشغل عائشة ما به حتى قال ذلك مراراً كل ذلك يغمى على رسول الله ﷺ ويشغل عائشة مابه فبعث إلى على فتصدق بها وأمسى رسول الله ﷺ ــ فى حديد ، الموت ليلة الاثنين فأرسلت عائشة بمصباح لها إلى إمرأة من نسائها فقالت : أهدى لنا فى مصباحنا عن عكتك السمن فإن رسول الله ﷺ أمسى فى حديد الموت . رواه الطبرانى فى الكبير ، ورواته ثقات متجه بهم فى الصحيح ورواه ابن حبان فى صحيحه من حديث عائشة بمعناه[2].

المعنى : عكتك : وعاء من جلود مستدير يختص بالسمن أو العسل إن جلا كان يهدى النبى ﷺ العكة من السمن أو العسل هو بالسمن أخص . والمعنى أن سيدنا رسول الله ﷺ يحتضر ويقاسى آلام الموت لتتأسى به أمته فتعمل صالحاً ويتبع منهجه ، والسيدة عائشة رضى الله عنها تمرضه وتلازمه ، وتعتنى به ﷺ ثم فى حالة الشدة ينظر إلى سبعة دنانير كان حفظها لحاجة الفقراء ولإنفاقها فى مصالح المسلمين يأمر بإرسالها إلى الإمام على كرم الله وجهه ليتصدق بها .

١٨ – وعن عبد الله بن الصامت قال : كنت مع أبى ذر رضى الله عنه فخرج عطاؤه ومعه جارية له قال : فجعلت تقضى حوائجه ففضل معها سبعة فأمرها أن تشترى به فلوساً ، قال قلت : لو أخرته للحاجة تنوبك أو للضيف ينزل بك . قال : إن خليلى عهد إلىّ أن أيما ذهب أو فضة أوكى عليه

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٤/٣

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٤/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حيان ٨٨/٥

فهو جمر على صاحبه حتى يفرغه فى سبيل الله عز وجل . رواه أحمد ورجاله الصحيح(١).

ورواه أحمد أيضاً والطبرانى باختصار القصة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أوكى على ذهب أو فضة ، ولم ينفقه فى سبيل الله كان جمراً يوم القيامة يكوى به هذا لفظ الطبرانى ورجاله الصحيح(٢).

١٩ - وعن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال : أهديت للنبى ﷺ ثلاث طوائر فأطعم خادمه طائراً : فلما كان من الغد أتته بها ، فقال لها رسول الله ﷺ : ألم أنهك أن ترفعى شيئاً لغد : فإن الله يأتى برزق غدٍ . رواه أبو يعلى والبيهقى ، ورواه أبى يعلى ثقات .

٢٠ - وعن أنس - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ لا يدخر شيئاً لغدٍ . رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى كلاهما من رواية جعفر ابن سليمان الضبعى عن ثابت عنه(٣).

٢١ - وعن سمرة بن جندب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ كان يقول : إنى لألج هذه الغرفة ما ألجها إلا خشية أن يكون فيها مال فأتوفى ولم أنفقه . رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن(٤).

[الألج] : أى لأدخل . [والغرفة] بضم الغين المعجمة : هى العلية .

٢٢ - وعن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ قال : ما أحب أن لى أحداً ذهبا أبقى صبح ثالثة وعندى منه شىء إلا شيئاً أعده لدين .

رواه البزار من رواية عطية عن أبى سعيد وهو إسناد حسن وله شواهد . كثيرة(٥).

٢٣ - وعن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال لى أبو ذر يا ابن أخى كنت مع رسول الله ﷺ آخذاً بيده فقال لى ، يا أبا ذر ما أحب أن لى أحداً ذهباً وفضة أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه قيراطا . قلت : يا رسول الله : قنطاراً . قال يا أبا ذر : أذهب إلى الأقل وتذهب إلى الأكثر ، أريد الآخرة وتريد الدنيا قيراطاً فأعادها على ثلاث مرات . رواه البزار بإسناد حسن(٦).

٢٤ - وعنه - رضى الله عنه - أن النبى ﷺ التفت إلى أحد ، فقال والذى نفسى بيده :

---

(١) مسند أحمد ١٧٥/٥

(٢) مسند أحمد ١٦٥/٥ والطبرانى فى الكبير ١٦٣/٢ رقم ١٦٤١

(٣) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٩٩/٨

(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٣/٣

(٥) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٢/٤ رقم ٣٦٥٩

(٦) كشف الأستار عن زوائد البزار ٢٥٢/٤ رقم ٣٦٥٧

ما يسرُّنى أن أحداً تحول لآل محمد ذهبا أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه دينارين إلا دينارين أعدهما للدين إن كان . رواه أحمد وأبو يعلى وإسناد أحمد جيد قوى[١].

٢٥ – وعن قيس بن أبى حازم قال : دخلت على سعيد بن مسعود تعوده فقال ما أدرى ما يقولون ، ولكن ليت مافى تابوتى هذا جمر ، فلما مات نظروا فإذا فيه ألف أو ألفان : رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد حسن[٢].

٢٦ – وعن أبى أمامة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رجلاً توفى على عهد رسول الله ﷺ فلم يوجد له كفن فأتى النبى ﷺ فقال : انظروا إلى داخله إزاره فأجيب دينار أو ديناران فقال : كيتاًن .

وفى رواية : توفى رجل من أهل الصُّفة فوجد فى مئزره دينار فقال رسول الله ﷺ : كية ثم توفى آخر فوجد فى مئزره ديناران فقال ﷺ كيتَّان . رواه أحمد والطبرانى من طرق ورواه بعضها ثقات[٥].

٢٧ – وعن عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ قال : توفى رجل من أهل الصفة فوجدوا فى شملته دينارين فذكروا ذلك للنبى ﷺ فقال : كيتان . رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه[٣].

[قال الحافظ] : وإنما كان كذلك لأنه ادخر مع تلبسه بالفقر ظاهراً ومشاركته الفقراء فيما يأتيهم من الصدقة .

٢٨ – وعن سلمة بن الأكوع ـــ رضى الله عنه ـــ قال : كنت جالساً عند النبى ﷺ فأتى بجنازه ثم أتى بأخرى ، فقال : هل ترك من دين ؟ قالوا : لا . قال فهل ترك شيئاً ؟ قالوا : نعم ثلاثة دنانير فقال : بأصابعه ثلاث كيات ، الحديث . رواه أحمد بإسناد حسن جيد واللفظ له والبخارى بنحوه وابن حبان فى صحيحه[٤].

٢٩ – وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن أعرابياً غزا مع رسول الله ﷺ خيبر فأصابه من سهمه ديناران فأخذهما الأعرابى فجعلهما فى عباءة فخيط عليهما فمات الأعرابى فوجد الديناران فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال : كيتان . رواه أحمد وإسناده حسن لا بأس به فى المتابعات[٥].

---

(١) مسند أحمد ٥٣٠/٢ ومسند أبى يعلى ٨٤/٥ رقم ٢٦٨٤

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٢٥/٣

(٣) مسند أحمد ٢٥٣/٥ والمعجم الكبير للطبرانى ١٢٤/٨ رقم ٧٥٠٦

(٤) مسند أحمد ٤٠٥/١ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٠٩/٥

(٥) مسند أحمد ٥٠/٤ وصحيح البخارى ـــ كتاب السلم ـــ باب إذا أحال دين الميت ١١٧/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٠٩/٥

ترغيب المرأة فى الصدقة من مال زوجها إذا أذن وترهيبها منها مالم يأذن

١ – عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ولزوجها أجره بما اكتسب وللخدام مثل ذلك ، لا ينقص بعضهم من أجر بعض شيئاً . رواه البخارى ومسلم واللفظ له وأبو داود وابن ماجه والترمذى والنسائى وابن حبان فى صحيحه وعند بعضهم : إذا تصدقت بدل : أنفقت[1].

المعنى : [غير مفسدة] : غير مسرفة قد يعلم رضا الزوج به فى العادة قال النووى : إن المشارك فى الطاعة مشارك فى الأجر ، ومعنى المشاركة أن له أجرا كما لصاحبه أجر وليس معناه أن يزاحم فى أجره والمراد المشاركة فى أصل الثواب فيكون لهذا ثواب ولهذا ثواب ، وإن كان أحدهما أكثر ولايلزم أن يكون مقدار ثوابهما سواء بل قد يكون ثواب هذا أكثر وقد يكون عكسه فإذا أعطى المالك لخازنه أو إمرأته أو غيرهما مائة درهم أو نحوها ليوصلها إلى مستحق الصدقة على باب داره أو نحوه فأجر المالك أكثر وإن أعطاه رمانة أو رغيف ونحوهما مما ليس له كثير قيمة ليذهب به إلى محتاج فى مسافة بعيدة بحيث يقابل مشى الذاهب إليه بأجرة تزيد على الرمانة أو الرغيف ، فأجر الوكيل أكثر ، وقد يكون عمله قدر الرغيف مثلا ، فيكون مقدار الاجر سواء .

٢ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه . رواه البخارى ومسلم وأبو داود[2].

المعنى : [زوجها شاهد] : حاضر . قال النووى : هذا محمول على صوم التطوع والمندوب الذى ليس له زمن معين ، وهذا النهى للتحريم ، صرح به أصحابنا ، وسببه أن الزوج له حق الاستمتاع بها فى كل الأيام وحقه فيها واجب على الفور فلا يفوته بتطوع ولا بواجب على التراخى . فإن قيل فينبغى أن يجوز لها الصوم بغير إذنه فإن أراد الاستمتاع بها كان له ذلك ويفسد صومها فالجواب أن صومها يمنعه من الاستمتاع بها فى العادة لأنه يهاب انتهاك الصوم بالإفساد ، وقوله ﷺ : « وزوجها مشاهد » أى : مقيم فى البلد أما إذا كان مسافراً فلها الصوم لأنه لا يتأتى منه الاستمتاع إذا لم تكن معه .

٣ – وفى رواية لأبى داود أن أبا هريرة : سئل عن المرأة هل تتصدق من بيت زوجها ؟ قال :

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٦٠٣ وأبو داود ٣١٧/٢ رقم ١٦٨٧ وابن ماجه ٧٧٠/٢ رقم ٢٢٩٤ وسنن الترمذى ٤٩/٣ رقم ٦٧٢ والنسائى ٦٥/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٤٨/٥

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الزكاة ــ باب المرأة إذا تصدقت من بيت زوجها بإذنه رقم ٦٠٤ وسنن أبو داود ــ كتاب الصوم ــ باب المرأة تصوم بغير إذن زوجها ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٥٨

لا إلا من قوتها والأجر بينهما ولا يحل لها أن تتصدق من مال زوجها إلا بإذنه[١].

زاد رزين العبدرى فى جامعه : فإن أذن لها فالأجر بينهما ، فإن فعلت بغير إذنه فالأجر له والإثم عليها .

المعنى : قال النووى : معناه أن هذه النفقة والصدقة التى أخرجهما الخازن أو المرأة أو المملوك ونحوهم بإذن المالك يترتب على جملتها ثواب على قدر المال والعمل فيكون ذلك مقسوماً بينهما ، لهذا نصيب بماله ولهذا نصيب بعمله فلا يزاحم صاحب المال العامل فى نصيب عمله ، ولا يزاحم العامل صاحب المال فى نصيب ماله . واعلم أنه لابد للعامل وهو الخازن والزوجة والمملوك من إذن المالك فى ذلك فإن لم يكن إذن أصلا ، فلا أجر لأحد من هؤلاء الثلاثة بل عليهم وزر بتصرفهم فى مال غيرهم بغير إذنه والإذن ضربان : **أحدهما** : الإذن الصريح فى النفقة والصدقة .

والثانى : الإذن المفهوم من المراد العرف والعادة كإعطاء السائل كسرة ونحوها مما جرت العادة به واطرد العرف فيه ، وعلم بالعرف رضاء الزوج والمالك به فإذنه فى ذلك حاصل ، وإن لم يتكلم وهذا إذا علم رضاه لاطراد العرف وعلم أن نفسه كنفوس غالب الناس فى السماحة بذلك والرضا به فإن اضطرب العرف ، وشك فى رضاه أو كان شخصاً يشح بذلك وعلم من حاله ذلك أوشك فيه لم يجز للمرأة أو غيرها التصدق من ماله إلا بصريح إذنه .

٤ — وعن عبد الله بن عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — أن رسول الله ﷺ قال : لا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها . رواه أبو داود والنسائى من طريق عمرو بن شعيب[٢].

٥ — وعن أسماء — رضى الله عنها — قالت : قلت يا رسول الله : مالى مآل إلاّ ما أدخل على الزبير أفأتصدق ؟. قال : تصدق ولا توعى فيوعى عليك[٣].

المعنى : [لا توعى] : ولا تحفظى ولا تكترى وفى النهاية : أى لا تجمعى وتشحى بالنفقة فيشح عليك وتجازى بتضيق رزقك .

٦ — وعن عمر بن مرة قال : سمعت أبا وائل يحدث عن عائشة عن النبى ﷺ قال : إذا تصدقت المرأة من بيت زوجها كان لها أجرها . ولزوجها مثل ذلك لا ينقص كل واحد منهما من أجر صاحبه شيئاً ، له بما كسب ولها بما أنفقت رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن[٤].

---

(١) سنن أبى داود — كتاب الزكاة — باب المرأة تتصدق من بيت زوجها ٣١٨/٢ رقم ١٦٨٨

(٢) سنن أبى داود — كتاب البيوع والإجارات — باب عطية المرأة بغير إذن زوجها ٨١٦/٣ رقم ٣٥٤٧ وسنن النسائى — كتاب الزكاة — باب عطية المرأة بغير إذن زوجها ٦٥/٥

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان — كتاب الزكاة — باب الحث على الإنفاق وكراهية الإحصاء رقم ٦٠٨ وسنن أبى داود — كتاب الزكاة — باب فى الشح ٣٢٤/٢ رقم ١٦٩٩ والترمذى ٣٤٢/٣ رقم ١٩٦٠

(٤) الترمذى — كتاب الزكاة — باب فى نفقة المرأة من بيت زوجها ٤٩/٣ رقم ٦٧١

المعنى : قال النووى : واعلم أن المراد بنفقة المرأة والعبد والخازن النفقة على عيال صاحب المال وغلمانه ومصالحه وقاصديه من ضيف وابن سبيل ونحوهما وكذلك صدقتهم المأذون فيها بالصريح أو العرف .

٧ – وعن أبى أمامة — رضى الله عنه — قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى خطبته عام حجة الوداع : لا تنفق امرأة شيئاً من بيت زوجها إلا بإذن زوجها . قيل يا رسول الله : ولا الطعام ؟ قال : ذلك أفضل أموالنا . رواه الترمذى(١).

دستور ربة البيت فى تدبير المنزل وإدارة شئونه

أولاً : يرشد ﷺ الزوجة أن تحفظ مال زوجها وتدبر أمرها وتطيعه ، وتميل إلى حب الخير وفعل البر ، وتجلب رضا بعلها وتقصد وتراعى الواجب فتؤديه ولا تبذر وتنفق « غير مفسدة » . لتنال من الله الثواب الجزيل لأن الأجر فضل من الله تعالى يؤتيه من يشاء ثم يحثها ﷺ على أمور أربعة .

(أ) التصـــديق (جـ) طاعتـــــه

(ب) اسـتئذان الـزوج (د) حـــفظ مـالـه

وإذا نمت هذه العاطفة فى السيدة العاقلة ترعرعت على التقوى ، وشبت على الصالحات ، وسدد الله خطاها وأرغد عيشها وأحاطها بعزه ورحماته فتنمو دوحات الألفه ، وتشرق شمس السعادة بينهما فيعيشان قريرى العين مثلوجى الفؤاد ، والله يضع البركة فى أولادهما ، ويهب لهم النجابة :

نعـم الإلـــه على العبــاد كثـيرة وأمهلـــــن نجابـــــة الأولاد

ثانياً : إستفهام الدرة المكنونة السيدة أسماء — رضى الله عنه — من سيدنا رسول الله ﷺ لتستضىء بنوره الوهاج « أفأ تصدق » ؟ فقال لها عليه الصلاة والسلام : « **تصدقى** » . أمرها **بالتحلى** بالجود والميل إلى الكرم ، وأن تسبق فى ميدان المحامد والمكارم ليكون لها القدح المعلى فى أعمال الخير ، ونهاها أن تبخل وحذرها أن تشح ليزيد رزقهما ويكثر مالهما ويسمو ذكرهما ، فيفوزان بالنعيم المقيم ، والحياة البعيدة من شوائب الكدر ، ويتمتعان برضا المولى جل وعلا قال تعالى . ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا** ﴾(٢).

---

(١) الترمذي — كتاب الوصايا — باب لاوصية لوارث ٤/٤٣٣ رقم ٢١٢٠

(٢) سورة الكهف الآية : ٤٦

الترغيب فى إطعام الطعام وسقى الماء والترهيب من منعه

١ – عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـــ رضى الله عنهما ـــ أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير ؟ قال : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف ـــ رواه البخارى ومسلم والنسائى(١).

المعنى : [أى الإسلام] : يستفهم عن أحسن الأعمال التى توصله إلى كمال الإسلام ، فأجاب ﷺ باثنين لأن حال السائل يقتضيهما :

(أ) الجود ، وإطعام الفقراء والتحلى بالكرم وبذل الخير

(ب) إفشاء السلام على الصغير والكبير والجليل والحقير والراكب والماشى من المسلمين .

٢ – وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ قال قلت يا رسول الله : إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء ؟ فقال : كل شىء خلق من الماء . قال : فقلت : أخبرنى بشىء إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : أطعم الطعام وأفش السلام ، وصل الأرحام ، **وصل** بالليل والناس نيام تدخل الجنة بسلام . رواه أحمد ، وابن حبان فى صحيحه ، واللفظ له والحاكم ، وقال : صحيح الإسناد(٢)

٢ – وعن عبد الله بن عمرو ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : أعبدوا الرحمن ، وأطعموا ، وأفشوا السلام تدخلوا الجنة بسلام . رواه الترمذى(٣).

وعنه أيضاً ـــ رضى الله عنه ـــ عن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، فقال أبو مالك الأشعرى : لمن هى يا رسول الله قال : لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام وبات قائماً والناس نيام . رواه الطبرانى فى الكبير بإسناد أحمد(٤).

٥ – وعن أبى مالك الأشعرى ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : إن فى الجنة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدَّها الله ـــ تعالى ـــ لمن أطعم الطعام وأفشى السلام وصلى بالليل والناس نيام . رواه ابن حبان فى صحيحه(٥).

٦ – وعن حمزة بن صهيب عن أبيه ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال عمر لصهيب : فيك

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـــ كتاب الإيمان ـــ باب بيان تفاضل الإيمان رقم ٢٤ وسنن النسائى ـــ كتاب الإيمان ـــ باب أى الإسلام أفضل ١٠٦/٨

(٢) مسند أحمد ٢٩٥/٢ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١١٥/٤ والمستدرك للحاكم ١٦٠/٤

(٣) الترمذى ـــ كتاب الأطعمة ـــ باب فضل إطعام الطعام ٢٨٧/٤ رقم ١٨٥٥ وقال : حسن صحيح

(٤) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤٢/٣ رقم ٣٤٦٧

(٥) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٦٣/١ والجامع لشعب الإيمان ٥٣٧/٦ رقم ٣٠٨٩

سرف فى الطعام ، فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : خياركم من أطعم الطعام . رواه أبو الشيخ ابن حبان فى كتاب الثواب وفى إسناده عبد الله بن محمد ابن عقيل .

٧ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : الكفارات إطعام **الطعام ، وإفشاء السلام** ، والصلاة بالليل والناس نيام . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد[١]

٨ – وعن عبد الله بن سلام – رضى الله عنه – قال : أول ما قدم رسول الله ﷺ **إلى المدينة** انجفل الناس إليه فكنت فيمن جاءه فلما تأملت وجهه واستثبته علمت أن وجهه ليس بوجه كذاب قال : وكان أول ما سمعت من كلامه أن قال : أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام . رواه الترمذى[٢].

[أنجفل الناس] بالجيم : أى أسرعوا ومضوا كلهم . [إستثبته] : أى تحققته وتبينته .

٩ – وعن جابر – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : من موجبات الرحمة إطعام المسلم المسكين . رواه الحاكم وصححه ، والبيهقى متصلاً ومرسلاً من طريقه أيضاً إلا أنه قال[٣]:

إن من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان ، وقال : قال عبد الوهاب يعنى : الجائع ، ورواه أبو الشيخ فى كتاب الثواب إلا أنه قال : إن حق موجبات الجنة : إطعام المسلم السغبان .

[السغبان] بالسين المهملة والغين المعجمة بعدها باء موحدة

١٠ – وعن عائشة – رضى الله عنها – عن رسول الله ﷺ قال : إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد . رواه ابن حبان فى صحيحه[٤].

١١ – وروى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل ليدخل بلقمة الخبز وقبصة التمر ومثله مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة : الأمر به والزوجة المصلحة له والخادم الذى يناول المسكين وقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى لم ينس خدمنا . رواه الطبرانى فى الأوسط والحاكم[٥].

المعنى : أن الصدقة تسبب دخول ثلاثة الجنة :

(أ) صاحبهـــا .

(ب) زوجـــته .

(جـ) الذى وصل الصدقة والآمر به .

(١) المستدرك للحاكم – كتاب الأطعمة ١٢٩/٤

(٢) الترمذى – كتاب الأطعمة – باب فضل إطعام الطعام ٢٨٦/٤ رقم ١٨٥٤ وقال : حسن صحيح غريب

(٣) المستدرك الحاكم ٥٢٤/٢ والجامع لشعب الإيمان – باب ما جاء فى إطعام الطعام وسقى الماء ٥٤١/٦ رقم ٣٠٩٤

(٤) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ١٣٣/٥

(٥) مجمع الزوائد ١١٢/٣ والمستدرك للحاكم ١٣٤/٤

[القبصة] : لفتح القاف وضمها وبالصاد المهملة : هى ما يتناوله الآخذ برءوس أصابعه الثلاث .

١٢ – وعن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : تعبد عابد من بنى إسرائيل فعبد الله فى صومعته ستين عاماً وأمطرت الأرض فاخضرت فأشرف الراهب من صومعته فقال : لو نزلت فذكرت الله فازددت خيراً فنزل ومعه رغيف أو رغيفان فبينما هو فى الأرض لقيته امرأة ، فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمى عليه فنزل الغدير يستحم فجاء سائل فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له . رواه ابن حبان فى صحيحه(١).

١٣ – وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله علمنى عملاً يدخلنى الجنة ؟ قال : إن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع وأسق الظمآن الحديث . رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والبيهقى(٢).

١٤ – وعن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : من أطعم أخاه حتى يشبعه وسقاه من الماء حتى يرويه باعده الله من النار سبع خنادق ما بين كل خندقين مسيرة خمسمائة عام رواه الطبرانى فى الكبير وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب والحاكم والبيهقى . وقال الحاكم : صحيح الإسناد(٣).

١٥ – وعن أنس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : أفضل الصدقة أن تشبع كبداً جائعاً . رواه أبو الشيخ فى الثواب والبيهقى . واللفظ له والأصبهانى كلهم من رواية زربى مؤذن هشام عن أنس ولفظ أبى الشيخ والأصبهانى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عمل أفضل من إشباع كبد جائع(٤).

١٦ – وعن أبى سعيد – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : أيما مؤمن أطعم مؤمنا على جوع أطعمه الله يوم القيامة من ثمار الجنة وأيما مؤمن سقى مؤمنا على ظمأ سقاه الله يوم القيامة من الرحيق المختوم وأيما مؤمن كسا مؤمنا على عرى كساه الله يوم القيامة من حلل الجنة(٥) .

١٧ – وعن بى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم : مرضت فلم تعدنى قال يارب : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما

---

(١) الإحسان بترتيب أحاديث صحيح ابن حبان ٢٩٨/١
(٢) مسند أحمد ٢٩٩/٤ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٢٥٧/٦ والسنن الكبرى للبيهقى ٢٢٣/٤
(٣) مجمع الزوائد للهيثمى ١٣٠/٣ والحاكم فى المستدرك ١٢٩/٤ والبيهقى فى الجامع لشعب الإيمان ٥٤٣/٦ رقم ٣٠٩٦
(٤) الجامع لشعب الإيمان للبيهقى – باب ما جاء فى إطعام الطعام وسقى الماء ٥٤٢/٦ رقم ٣٠٩٥
(٥) سنن أبى داود – كتاب الزكاة ٣١٤/٢ رقم ١٦٨٢ وسنن الترمذى – كتاب صفة القيامة ٦٣٣/٤ رقم ٢٤٤٩

علمت أن عبدى فلاناً مرض فلم تعده أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمنى . قال يارب : كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلانا فلم تطعمه فلو أطعمته لوجدت ذلك عندى . يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقينى . قال يارب : وكيف أسقيك وأنت رب العالمين . قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندى . رواه مسلم(١).

١٨ — وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ : من أصبح منكم اليوم صائماً ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : أنا فقال : من أطعم منكم اليوم مسكيناً ؟ فقال أبو بكر : أنا . فقال : من تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا ، فقال من عاد منكم اليوم مريضاً ؟ قال أبو بكر : أنا ، فقال رسول الله ﷺ : ما اجتمعت هذه الخصال قط فى رجل إلا دخل الجنة . رواه ابن خزيمة فى صحيحه(٢).

المعنى : نبه النبى ﷺ على أمور أربعة توصلك إلى جنة الله وتسبب غفرانه وتجلب إحسانه :

(أ) صوم النفل
(ب) إطعام الفقير
(ج) المشى مع النعش لتشيع الجنازة للعظة والاعتبار
(د) زيارة المريض

١٩ — وروى عن عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — — قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الأعمال أفضل قال : إدخالك السرور على مؤمن أشبعت جوعته أو كسوت عورته أو قضيت له حاجة . رواه الطبرانى فى الأوسط ورواه أبو الشيخ فى الثواب من حديث ابن عمر منحوه ، وفى رواية له : أحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم أو تكشف عنه كربة أو تطرد عنه جوعاً أو تقضى عنه ديناً(٣).

٢٠ — وروى عن معاذ بن جبل — رضى الله عنه — عن النبى ﷺ قال : من أطعم مؤمنا حتى يشبعه من سغب أدخله الله باباً من أبواب الجنة لا يدخله إلا من كان مثله ، رواه الطبرانى فى الكبير(٤).

٢١ — وروى عن جعفر العبدى والحسن قالا : قال رسول الله ﷺ : إن الله عز وجل يباهى ملائكته بالذين يطعمون الطعام من عبيده . رواه أبو الشيخ فى الثواب مرسلاً .

٢٢ — ورد عن جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كنفه وأدخله جنته : رفق بالضعيف وشفقة على الوالدين وإحسان إلى المملوك وثلاث من كن فيه أظله الله عز وجل تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله : الوضوء فى المكاره والمشى إلى

(١) صحيح مسلم — كتاب البر والصلة والآداب — باب فضل عيادة المريض ١٩٩٠/٤ رقم ٢٥٦٩
(٢) صحيح ابن خزيمة ٣٠٤/٣ رقم ٢١٣١
(٣) مجمع الزوائد ١٣٠/٣
(٤) مجمع الزوائد للهيثمى ١٣٠/٣

المساجد فى الظلم وإطعام الجائع . رواه الترمذى بالثلاث الأول فقط[١].

٢٣ – وروى عن الحسن بن على ــ رضى الله عنهما ــ عن النبى ﷺ قال : لأن أطعم أخاً لى فى الله لقمة أحبُّ إلى من أن أتصدق على مسكين بدرهم ولأن أعطى أخاً لى فى الله درهماً أحب إلىَّ من أن أتصدق على مسكين بمائة درهم . رواه أبو الشيخ .

٢٤ – وعن على ــ رضى الله عنه ــ قال : لأن أجمع نفراً من إخوانى على صاع أو صاعين من طعام أحب إلىَّ من أن أدخل سوقكم فأشترى رقبة فأعتقها . رواه أبو الشيخ فى الثواب موقوفاً عليه . وفى إسناده ليث بن أبى سليم .

٢٥ – وعن كدير الضَّبِّىِّ أن رجلاً أعرابياً أتى النبى ﷺ فقال : أخبرنى بعمل يقربنى من الجنة ويباعدنى من النار ؟ فقال النبى ﷺ : أوهما أعملتاك ؟ قال : نعم : تقول العدل ، وتعطى الفضل . قال : والله لا أستطيع أن أقول العدل كل ساعة وما أستطيع أن أعطى الفضل ، قال : فتطعم الطعام وتفشى السلام ؟ قال : هذه أيضاً شديدة . قال : فهل لك إبلٌ ؟ قال : نعم . قال : فانظر إلى بعير من إبلك وسقاء ثم أعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماء إلا غباً فاسقهم فلعلك لا يهلك بعيرك ولا ينخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة قال : فانطلق الاعرابى يكبر فما انخرق سقاؤه ولا هلك بعيره حتى قتل شهيداً رواه الطبرانى والبيهقى ، ورواه الطبرانى إلى كدير رواه الصحيح ورواه ابن خزيمة فى صحيحه باختصار[٢].

٢٦ – وعن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : ما عملٌ إن عملت به دخلت الجنة ؟ قال : أنت ببلدٍ يجلب به الماء ؟ قال : نعم . قال : فاشتريها سقاء جديداً ثم اسق فيها حتى تخرّقها ، فإنك لن تخرِّقها حتى تبلغ بها عمل الجنة . رواه الطبرانى فى الكبير[٣].

٢٧ – وعن عبد الله بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إنى أنزع فى حوضى إذا ملأته لإبلى ورد على البعير لغيرى فسقيته فهل فى ذلك من أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن فى كل ذات كبد حراء أجراً . رواه أحمد ورواته ثقات مشهورون[٤].

٢٨ – وعن محمود بن الربيع أن سراقة بن جعشم . قال يا رسول الله الضالة ترد على حوضى فهل لى فيها من أجر إن سقيتها . قال اسقها فإن فى كل ذات كبد حرَّاء أجراً . رواه ابن حبان فى صحيحه ورواه ابن ماجه والبيهقى كلاهما عن عبد الرحمن ابن مالك بن جعشم عن أبيه عن عمه سراقة بن جعشم رضى الله عنه[٥].

---

(١) الترمذى ــ كتاب صفة القيامة ٦٥٦/٤ رقم ٢٤٩٤ وقال : حديث حسن غريب

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى ١٣٢/٣ والسنن الكبرى للبيهقى ١٨٦/٤ وصحيح ابن خزيمة ١٢٥/٤ رقم ٢٥٠٣

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ١٠٤/١٢ رقم ١٢٦٠٥

(٤) مسند أحمد ٢٢٢/٢

(٥) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٧٧/١ وابن ماجه ــ كتاب الأدب ١٢١٥/٢ رقم ٣٦٨٦ والسنن الكبرى للبيهقى ١٨٦/٤

٢٩ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : بينما رجل يمشى بطريق أشتد عليه الحر فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان منى فنزل البئر فملأ خفه ماء ، أمسكه بفيه حتى رق فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا يا رسول الله إن لنا فى البهائم أجراً ، فقال فى كل كبدٍ رطبة أجر . رواه مالك والبخارى ومسلم وأبو داود وابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال : فشكر الله له فأدخله الجنة(١).

٣٠ – وعن أنس بن مالك – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : سبع تجرى للعبد بعد موته وهو فى قبره : من علم علماً أو كرى نهراً أو حفر بئراً أو غرس نخلاً أو بنى مسجداً ، أو ورث مصحفاً أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته . رواه البزار وأبو نعيم فى الحلية(٢)

٣١ – وروى عن سعيد بن عبادة – رضى الله عنه – أنه أتى النبى ﷺ فقال : أى الصدقة أفضل إليك ؟ قال : سقى الماء . رواه البيهقى(٣).

٣٢ – وعن أنس – رضى الله عنه – أن سعداً أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ﷺ : إن أمى توفيت ولم توصى أينفعها أن أتصدق عنها ؟ قال : نعم وعليك بالماء . رواه الطبرانى فى الأوسط ورواته محتج بهم فى الصحيح(٤).

والمعنى : أن رسول الله ﷺ رغب فى إيجاد الآبار للمسلمين ليشربوا فيدوم الثواب ويزداد الأجر فهل للمسلمين أن يشتروا عدداً بخارية ويركبوها لجلب الماء للمحتاج وزوار الرسول ﷺ .

قال النووى : فيه الحث على الإحسان إلى الحيوان المحترم وهو مالا يؤمر بقتله كالكلب العقور والمرتد والفواسق ص ٣٣١ مختار الإمام مسلم .

٣٣ – وعن سعد بن عبادة – رضى الله عنه – قال : قلت يا رسول الله إن أمى ماتت فأى الصدقة أفضل ؟ قال : الماء فحفر بئراً وقال : هذه لأم سعد . رواه أبو داود . واللفظ له(٥).

٣٤ – وعن جابر – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : من حفر ماء لم تشرب منه كبد حرى من جن ولا إنس ولا طائر إلا آجره الله يوم القيامة . رواه البخارى فى تاريخه . وابن خزيمة فى صحيحه(٦).

(١) الموطأ للإمام مالك – كتاب صفة النبى – باب ما جاء فى الطعام والشراب رقم ٢٣ واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٤٤٧ وسنن أبى داود ٥٠/٣ رقم ٢٥٥٠ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٣٧٨/١

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار ٨٩/١ رقم ١٤٩ والحلية لأبى نعيم ٣٤٣/٢

(٣) الجامع لشعب الإيمان ٥٥٢/٦ رقم ٣١٠٦

(٤) مجمع الزوائد ١٣٨/٣

(٥) سنن أبى داود – كتاب الزكاة – باب فضل سقى الماء ٣١٣/٢ رقم ١٦٨١

(٦) البخارى فى التاريخ ٣٣٢/١/١ وصحيح ابن خزيمة ٢٦٩/٢ رقم ١٢٩٢

٣٥ – وعن على بن الحسن ابن شفيق قال : سمعت ابن المبارك وسأله رجل : يا أبا عبدالرحمن . قرحة فى ركبتى منذ سبع سنين وقد عالجت بأنواع العلاج وسألت الأطباء فلم انتفع به ؟ قال : أذهب فانظر موضعاً يحتاج الناس الماء فاحفر هناك بئراً فإنى أرجو أن تنبع هناك عين ويمسك عنك الدم ، ففعل الرجل فبرأ . رواه البيهقى ، وقال : وفى هذا المعنى حكاية شيخنا الحاكم أبى عبد الله رحمه الله .

فإنه قُرِح وجهه وعالجه بأنواع المعالجة فلم يذهب وبقى فيه قريباً من سنة فسأل الأستاذ الإمام أبا عثمان الصابونى أن يدعو له فى مجلسه يوم الجمعة فدعا له وأكثر الناس التأمين ، فلما كان يوم الجمعة الأخرى ألقت امرأة فى المجلس رقعة بأنها عادت إلى بيتها واجهدت فى الدعاء للحاكم أبى عبد الله تلك الليلة فرأت فى ضاحها رسول الله ﷺ كأنه يقول لها : قولى لأبى عبد الله يوسِّع الماء على المسلمين فجئت بالرقعة إلى الحاكم فأمر بسكاية بنيت على باب داره وحين فرغوا من بنائها أمر بصب الماء فيها وطرح الجمر فى الماء وأخذ الناس فى الشرب فما مر عليه أسبوع حتى ظهر الشفاء وزالت تلك القروح وعاد وجهه إلى أحسن ما كان وعاش بعد ذلك سنين .

المعنى : [قرحة] : جرح طال فتح موضعه يرشح ويؤلم . [فبرأ] : شفاه الله وجف . أرشده إلى عمل بر دائم يسبب له الدعوات الصالحة لعل الله ينظر إليه نظر رحمة وشفاء وقد كان جاء إلى جهة قفرة لاماء فيها يروى الناس فحفر بئراً عامة يشرب منها الإنسان والحيوان والنبات فتكرم الله جل وعلا بإزالة ألمه وشفاء دمله ــ وفيه الحث على إنشاء الآبار والمشاف والملاجىء والمصانع والمعامل وكل أعمال تجلب الخير وتسهل أسباب الرزق وتفتح أشغالاً للعاطلين وتزيل الشر عن الآمنين .

٣٦ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل بغلاف يمنعه ابن السبيل(١).

٣٧ – وعن إمرأة يقال لها بهية عن أبيها قالت : استأذن أبى للنبى ﷺ فدخل بينه وبين ممتعيه فجعل يقبل ويلتزم ثم قال : يا نبى الله ما الشيء الذى لا يحل منعه ؟ قال : الماء : قال : يا نبى الله ما الشيء الذى لا يحل منعه ؟ قال : الملح : قال يا نبى الله ما الشيء الذى لا يحل منعه ؟ قال : أن تفعل الخير خير لك . رواه أبو داود(٢).

٣٨ – وعن رجل من المهاجرين من أصحاب النبى ﷺ قال : غزوت مع رسول الله ﷺ ثلاثاً أسمعه يقول : المسلمون شركاء فى ثلاثٍ : الكلإ والماء والنار . رواه أبو داود(٣).

٣٩ – وروى عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : يا رسول الله ما الشيء الذى لا يحل

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ــ كتاب الإيمان رقم ٦٨

(٢) أبو داود ــ كتاب البيوع والإجارات ــ باب منع الماء ٧٥٠/٣ رقم ٣٤٧٦

(٣) أبو داود ــ كتاب البيوع والإجارات ــ باب منع الماء ٧٥٠/٣ رقم ٣٤٧٧

منعه ؟ قال : الماء والملح والنار ، . قالت قلت يا رسول الله هذا الماء ، وقد عرفناه ، فما بال الملح والنار ، قال يا حميراء . من أعطى ناراً فكأنما تصدق بجميع ما أنضجت تلك النار ومن أعطى ملحاً فكأنما تصدق بجميع ما طيبت تلك الملح ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث يوجد الماء فكأنما أعتق رقبة ، ومن سقى مسلماً شربة من ماء حيث لا يوجد الماء فكأنما أحياها . رواه ابن ماجه(١).

٤٠ – وروى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : المسلمون شركاء فى ثلاث : فى الماء والكلإ والنار وثمنه حرام . قال أبو سعيد يعنى : الماء الجارى . رواه ابن ماجه أيضاً(٢).

الترغيب فى شكر المعروف ومكافأة فاعله والدعاء له وما جاء فيمن لم يشكر ما أولى إليه .

١ – عن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : من استعاذ بالله فأعيذوه ومن سألكم بالله فأعطوه ومن استجار بالله فأجيروه ومن أتى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه . رواه أبو داود والنسائى(٣).

٢ – وعن جابر – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : من أعطى عطاء فوجد فليجز به فإن لم يجد فليثنى فإن من أثنى فقد شكر ومن كتم فقد كفر ومن تملَّى بما لم يعط كان كلابس ثوبى زور . رواه الترمذى عن أبى الزبير عنه(٤).

٣ – وعن أسامة بن زيد – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : من صنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء(٥).

وفى رواية : من أولى معروفاً أو أسدى إليه معروف فقال للذى أسداه : جزاك الله خيراً فقد أبلغ فى الثناء . رواه الترمذى .

٤ – وعن الأشعث بن قيس – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : إن أشكر الناس لله تبارك وتعالى أشكرهم للناس . وفى رواية : لا يشكر الله من لا يشكر الناس . رواه أحمد ورواته ثقات(٦).

---

(١) سنن ابن ماجه – كتاب الرهون – باب المسلمون شركاء فى ثلاث ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٧٤

(٢) سنن ابن ماجه – كتاب الرهون – باب المسلمون شركاء فى ثلاث ٨٢٦/٢ رقم ٢٤٧٢

(٣) سنن أبى داود – كتاب الزكاة – باب عطية من سأل بالله ٣١٠/٢ رقم ١٦٧٢ وسنن النسائى – كتاب الزكاة – باب من سأل بالله – عز وجل – ٨٢/٥

(٤) الترمذى – كتاب البر والصلة – باب فى التشبع بما لم يعطه ٣٧٩/٤ رقم ٢٠٣٤ وقال : حديث حسن غريب

(٥) الترمذى – كتاب البر والصلة – باب فى التشبع بما لم يعطه ٣٨٠/٤ رقم ٢٠٣٥ وقال : حديث حسن جيد غريب

(٦) مسند أحمد ٢١٢/٥

٥ – وعن عائشة – رضى الله عنه – أن رسول الله ﷺ قال : من أتى إليه معروف فليكافئ به ومن لم يستطع فليذكره فإن منْ ذكرهَ فقد شكره ومن تشبع بما لم يُعط فهو كلابس ثوبى زور . رواه أحمد[١].

٦ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : لا يشكر الله من لا يشكر الناس . رواه أبو داود والترمذى . وقال : صحيح[٢].

٧ – وروى عن طلحة يعنى ابن عبيد الله – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : من أولى معروفاً فليذكره فمن ذكره فقد شكره ومن كتمه فقد كفره . رواه الطبرانى . ورواه ابن أبى الدنيا من حديث عائشة رضى الله عنها[٣].

٨ – وعن النعمان بن بشير – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر والجماعة رحمة والفرقة عذاب رواه عبد الله بن أحمد فى زوائده بإسناد لا بأس به . ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اصطناع المعروف باختصار[٤].

٩ – وعن أنس – رضى الله عنه – قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ذهب الأنصار بالأجر كله ما رأينا قوماً أحسن بذلاً لكثير ولا أحسن مواساة فى قليل منهم ولقد كفونا المؤنة ، قال : أليس تثنون عليهم به وتدعون لهم ؟ قالوا : بلى . قال : فذاك بذاك . رواه أبو داود والنسائى واللفظ له[٥].

الاستعداد للموت قبل وقوعه

قوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون** ﴾ . هذا إرشاد مشوب بالتحذير فقد أمر الله تعالى بالاستعداد للسفر الطويل قال سبحانه : ﴿ **قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال** ﴾ . وقال عز من قائل : ﴿ **يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى**

---

(١) مسند أحمد ٩٠/٦

(٢) سنن أبى داود – كتاب الأدب – باب شكر المعروف ١٥٧/٥ رقم ٤٨١١ وسنن الترمذى – كتاب البر والصلة – باب الشكر لمن أحسن إليك ٣٣٩/٤ رقم ١٩٥٤

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٧٤/١ رقم ٢١١

(٤) مسند أحمد ٢٧٨/٤

(٥) سنن أبى داود – كتاب الأدب ١٥٨/٥ رقم ٤٨١٢

يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾(١) ولا يليق بالمسلم أن يسمع كل هذه التوجيهات الربانية والإرشادات الالهية ثم يظل فى غفلة إلى أن يفجأه مفرق الجماعات ومعلم البنين والبنات وعندما ينام على فراش الموت يقول رب ارجعون لعَلى أعمل صالحاً فيما تركت فيقال له كلا ، إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون . فإذا نفخ فى الصور . فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون .

تزود من التقـوى فإنـك راحـل ... وسـارع إلى الخيرات فيمـن يسـارع
فمـا المـال والأهلـون إلا ودائـع ... ولابـد يومـاً أن تـرد الودائـع

إن أجل الله لا يؤخر لو كنتم تعلمون فإذا ما ندمت فإنه لا ينفع الندم وإذا ما سألت الله التأخير إلى أجل قريب فإن الله تعالى يحذرك ويحذر أمثالك من هذا السؤال قال عز من قائل :

﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ فيقول لهم الله تعالى : **﴿ بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾** .

تـزود مـن حياتـك للمعـاد ... وقـم لله واجمـع خـير زاد
ولا تركـن إلى الدنيـا كثـيرا ... فإن المـال يجمـع للنفـاد
أترضـى أن تكـون رفيـق قـوم ... لهـم زاد وأنت بغـير زاد

قال تعالى : **﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال * وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ﴾**(٢).

إن الذين يتمنون العودة عند الموت قد خسروا أنفسهم فإن الله يقول لهم ولأمثالهم أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ويقول لهم ولأمثالهم ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها لأن الأجل معلوم وثابت لا يتقدم ولا يتأخر قال تعالى : **﴿ فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾**(٣)

تـزود من التقـوى فإنـك لا تـدرى ... إذا جـن ليـل هـل تعيـش إلى الفجـر

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٤
(٢) سورة ابراهيم الآيات : ٤٤ – ٤٦
(٣) سورة النحل الآية : ٦١

فكم من فتى أمسى وأصبح ضاحكاً وقدنسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر
وكم صغار يرتجى طول عمرهم وقد ادخلت أجسادهم ظلمة القبر
وكم من صحيح مات من غير علة وكم سقيم عاش حيناً من الدهر

إن الذى حكم بهذا الحكم هو الخبير العليم بحقائق الأشياء لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

التوبة

أيها المسلم الكريم بادر بالتوبة قبل الموت قبل أن تندم فلا ينفعك الندم .

عن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها . رواه مسلم[1] .

٢ - وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه . رواه مسلم[2] .

٣ - وعن صفوان بن عسال ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : إن من قبل المغرب لباباً مسيرة عرضه أربعون عاماً أو سبعون سنة فتحه الله عز وجل للتوبة يوم خلق السموات والأرض فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه[3] . رواه الترمذى .

المعنى : [يتوب مسىء النهار] : ليرجع إلى ربه مذنب يومه ، كذا سبحانه يقبل توبة من اقترف الذنوب ليلا ويستمر سبحانه على ذلك حتى تظهر علامات الساعة وقرب يوم القيامة . [من مغربها] أى تتغير الشمس ، وتطلع من جهة المغرب ، وتترك جهة الشرق ، كما قال تعالى : ﴿ **إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع * يوم تمور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً** ﴾[4] .

﴿ **لواقع** ﴾ : لنازل . ﴿ **تمور** ﴾ : تضطرب . وتصير الجبال هباء فلا تقبل توبة : وقد عد علماء التوحيد من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها بعد نزول سيدنا عيسى ــ عليه السلام ــ إلى الأرض : ويحكم بشريعة سيدنا محمد ﷺ ، ويكثر الأمن فى زمنه ، والخصب والرخاء والبركة

(١) صحيح مسلم ــ كتاب التوبة ــ باب قبول التوبة من الذنوب ٢١١٢/٤ رقم ٢٧٥٩
(٢) صحيح مسلم ــ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ــ باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ٢٠٧٦/٤ رقم ٢٧٠٣
(٣) سنن الترمذى ــ كتاب الدعوات ٥٤٦/٥ رقم ٣٥٣٦
(٤) سورة الطور الآيات : ٧ - ١٠

ويشرق نوره على المنارة البيضاء شرق دمشق وقت صلاة الصبح كذا قالوا . وأول الساعة من النفخة الثانية كما قال تعالى : ﴿ **لاتأتيكم إلا بغتة** ﴾ . ثم يخرج المهدى والدجال ويأجوج ومأجوج من السد الذى حجزهم به ذو القرنين وهم من ولد يافث ابن نوح عليه السلام كذا خروج الدابة كما قال الله تعالى : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون** ﴾(١) . أى : تكلمهم ببطلان الأديان ما عدا دين الإسلام . [فلا يغلقه حتى تطلع الشمس منه] : أى يقرب قيام الساعة كما قال تعالى : ﴿ **إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب** ﴾(٢) قال البيضاوى : أى : قبل حضور الموت لقوله تعالى : ﴿ **حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن** ﴾(٣) وبقوله ﷺ : « إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر »(٤).

فعدم قبول التوبة فى حالتين :

(أ) عند الاحتضـــار .

(ب) وعند تغيير شروق الشمس : حينئذ تسد أبواب الرحمة ويخرج دخان الفتن التى تؤذن بالعذاب وحلول الحساب وابتداء العقاب نسأل الله السلامة ونتوب إليه جل جلاله ونستغفره ونحمده سبحانه .

٤ – وعن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : للجنة ثمانية أبواب : سبعة مغلقة وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نحوه، رواه أبو يعلى والطبرانى بإسناد جيد(٥).

٥ – وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم . رواه ابن ماجه بإسناد جيد(٦).

المعنى : أى : فعلتم ذنوباً كثرت حتى ارتفعت درجاتها . ثم أدركتم الرجوع إلى الله جل وعلا .

٦ – وعن جابر ــ رضى الله عنه ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الإنابه . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : أى : الرجوع إلى الله جل وعلا وعقد النية على تشييد الصالحات .

---

(١) سورة النمل الآية : ٨٢

(٢) سورة النساء الآية : ١٧

(٣) سورة النساء الآية : ١٨

(٤) سنن الترمذى ــ كتاب الدعوات ٥/٥٤٧ رقم ٣٥٣٧ وسنن ابن ماجه ــ كتاب الزهد ٢/١٤٢٠ رقم ٤٢٥٣

(٥) مسند أبى يعلى ١/٢٣٢ والمعجم الكبير للطبرانى ١٠/٢٥٤ رقم ١٠٤٧٩

(٦) سنن ابن ماجه ــ كتاب الزهد ــ باب ذكر التوبة ٢/١٤١٩ رقم ٤٢٤٨

وعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قال رسول الله ﷺ : من سره أن يسبق الدائب المجتهد فليكف عن الذنوب . رواه أبو يعلى .

٨ – وروى عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن واهِ راقع فسعير من هلك على رقعه(١) .

٩ – وعن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الغرس فى آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته وإن المؤمن يسهو ثم يرجع فأطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين . رواه ابن حبان فى صحيحه(٢) .

[الآخيه] : مد الهمزة وكسر الخاء المعجمة بعدها ياء مثناة تحت مشددة : هى حيل يدفن فى الأرض مثنياً ويبرز منه كالعروة تشد إليها الدابة وقيل : هو عود يعرض فى الحائط تشد إليه الدابة .

١٠ – وعن أنس ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ قال : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون . رواه الترمذى وابن ماجه(٣)

١١ – وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن عبداً أصاب ذنبا ، فقال : يارب إنى أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال له ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ، ثم مكث ماشاء الله ثم أصاب ذنبا آخر وربما قال ثم أذنب ذنباً آخر فقال : يارب إنى أذنبت ذنباً آخر فاغفره لى . قال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فغفر له ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً آخر وربما قال ، ثم أذنب آخر فقال : يارب إنى أذنبت ذنباً فاغفره لى ، فقال ربه : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ماشاء . رواه البخارى ومسلم(٤) .

[قوله : فليعمل ماشاء] معناه والله أعلم : أنه مادام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ولم يعد إليه بدليل قوله : ثم أصاب ذنباً آخر فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره لا أنه يذنب فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده فإن هذه توبة الكذابين .

(١) مجمع الزوائد ٢٠١/١٠

(٢) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ٧/٢

(٣) سنن الترمذى ـ كتاب صفة القيامة ٦٥٩/٤ رقم ٢٤٩٩ وسنن ابن ماجه ـ كتاب الزهد باب ذكر التوبة ١٤٢٠/٢ رقم ٤٢٥١

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب التوبة ـ باب قبول التوبة من الذنوب رقم ١٧٥٤

١٢ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن قال ونزع واستغفر صقل منها وإن زاد زادت حتى يغلف بها قلبه فذلك الران الذى ذكر الله فى كتابه » . ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم** ﴾(١).

رواه الترمذى وصححه النسائى . وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم واللفظ له من طريقين قال فى أحدهما : صحيح على شرط مسلم . ولفظ ابن حبان وغيره : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة ينكت فى قلبه نكتة فإن هو نزع واستغفر وتاب صقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه الحديث .

١٣ – وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قالت قريش للنبى ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، فإن أصبح ذهبا اتبعناك فدعا ربه فأتاه جبريل عليه السلام فقال : إن ربك يقرئك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا فمن كفر منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح(٢).

المعنى : أى : طلب قبول التوبة ونزول الرحمة إنك يا الله غفور رحيم قال تعالى : ﴿ **حم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطولَ لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾ . من سورة غافر الآيات ١ – ٣ .

﴿ **الطول** ﴾ : الفضل بترك العقاب المستحق . ﴿ **المصير** ﴾ : يرجع إليه جل وعلا فى إثابة المطيع وتعذيب العاصى واختار ﷺ فتح باب رضوان الله وطلب عليه الصلاة والسلام إنعامه على عباده وإحسانه وتفضله ، ورغب عن المال لأنه عرض زائل فان . ماذا يفيدك أيها المسلم لو حول الله لك الجبال ذهبا ؟ ماذا تصنع بها ﴿ **وكل نفس ذائقة الموت** ﴾ وكل نعيم لا محالة زائل ؟ ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون** ﴾ سورة الأنعام الآية ٣٢ .

فهل تتوب إلى ربك جل وعلا وتقبل على الأعمال الصالحات وتكثر من ذكر الله والصدقات وتدخر ثوابها عند العزيز الوهاب فتتنعم بها فى آخرتك ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون * من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ سورة النحل ٩٦ – ٩٧ .

إن شاهدنا وعد الله حفظ النعيم للصالح التقى أن يمده بأفضاله وإكرامه وهو ما طلبه النبى ﷺ لأمته صلى الله عليك يا رسول الله علمت المطيعين المخلصين الزهد والقناعة والرغبة فى فعل البر والخير والإكثار من طاعة الله جل وعلا والإقبال عليه سبحانه بجليل الأعمال وكنت لنا المثل الأعلى فى ترك طعام الدنيا والإكثار من طاعة الله جل وعلا والإقبال عليه سبحانه بجليل الأعمال وكنت لنا المثل

(١) انظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٤١٨ حديث رقم ٤٢٤٤ « كتاب الزهد »
(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ٥ ص ٣٩ ، حـ ١٠ ص ١٩٦ .

الأعلى فى ترك طعام الدنيا ونبذه وتشيين المحامد والمكارم . وقد روى لنا الإمام مسلم فى حديث أبى هريرة « خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟ قال : الجوع يا رسول الله ، قال : وأنا الذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما قوموا فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار »[١] الحديث.

قال النووى : فيه ما كان عليه النبى ﷺ وكبار أصحابه من التقلل من الدنيا وما ابتلوا به من الجوع وضيق العيش فإذا حصل يسر أنفق فى طاعة الله من وجوه البر وإيثار المحتاجين وتجهيز السرايا : أى الجيش يحارب فى سبيل الله تعالى أ.هـ .

فلعلك فهمت سر الإعراض عن الجبال أن تكون ذهبا ورغبته ﷺ فى قبول التوبة وفعل الصالحات لله تعالى : نسأل الله الهداية والتوفيق .

١٤ – وعن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[٢]. رواه ابن ماجه والترمذى وقال الحديث حسن .

[يغَرغِر] : بغينين معجمتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبراء مكررة معناه مالم تبلغ روحه حلقومه فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به .

١٥ – وعن معاذ بن جبل – رضى الله عنه – قال : قلت يا رسول الله ، أوصنى ؟ قال : عليك بتقوى الله ما استطعت واذكر الله عند كل حجر وشجر وما عملت من سوء فأحدث له توبة ، السر بالسر والعلانية بالعلانية[٣] . رواه الطبرانى بإسناد حسن .

المعنى : [عليك بتقوى الله] : أى الزم الخوف من الله والعمل لإرضائه وتجنب سخطه واترك المعاصى وصحبة الأشرار . [ما استطعت] : قدر طاقتك ومدة إستطاعتك كما قال تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ سورة التغابن ١٦

أى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم واسمعوا مواعظه وأطيعوا أوامره وأنفقوا فى وجوه الخير خالصاً لوجهه .

[عند كل حجر وشجر] : أى : ومجده وعظمه سبحانه أى : تفكر فى صنعه تعالى وخلقه واحمده كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون** ﴾ سورة البقرة : ٢١ – ٢٢ .

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٦٠٩ حديث رقم ١٤٠ / ٢٠٣٨ مقدور الحرية من رواية لأبى هريرة

(٢) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٣ من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٤٢٠ حديث رقم ٤٢٥٣ أورده عن عبد الله بن عمرو .

أى : أطيعوا بارئكم ، وبارىء آبائكم ، وأجدادكم الأمم السابقة راجين أن تنخرطوا فى سلك المتقين الأبرار الفائزين بالهدى والفلاح المستوجبين جوار الله تعالى . نبه به على أن التقوى منتهى درجات السالكين وهى التبرى من كل شيء سوى الله تعالى إلى الله تعالى وأن العابد ينبغى أن لا يغتر بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالى : ﴿ **يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾ سورة السجدة : ﴿ **ويرجون رحمته ويخافون عذابه** ﴾ سورة الإسراء : ٥٧

﴿ **فراشاً** ﴾ مبسوطة منبثة (بناء) قبة مضروبة عليكم مرفوعة بلا عمد ﴿ **أنداداً** ﴾ أشباهاً وأمثالا فى إسناد الأفعال إلى غيره ، أى : وحدوه واعتقدوا أنه الفعال لكل شيء .

[فأحدث له توبة] : جدد له ندماً ورجوعا إلى الله جل وعلا . [والعلانية بالعلانية] : أى : أذنبت جهاراً فأعلن توبتك وأعلم الناس إقلاعك عما فعلت وأكثر من التضرع تنجح . قال تعالى :

(أ) ﴿ **وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون * وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون** ﴾ سورة القصص : ٦٩ - ٧٠ .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ سورة يونس : ١٠٠ .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ **قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون * فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة** ﴾ سورة الأعراف : ٢٩ .

(د) وقال تعالى : ﴿ **فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ﴾ سورة الحجر : ٩٨ - ٩٩

(هـ) وقال تعالى : ﴿ **نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخر خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** ﴾ سورة يوسف : ٥٦ - ٥٧

١٦ - وروى عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا تاب العبد من ذنوبه أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب » رواه الأصبهانى(١).

المعنى : [جوارحه] : أيديه وأرجله . [معالمه] : آثاره التى دب فيها للمعاصى ومشى فيها ، قال تعالى : ﴿ **من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ومابربك بظلام للعبيد** ﴾ سورة فصلت : ٤٦ . فاتق الله يا عبد الله ، وأسرع بالتوبة ، وأعمل بأوامر الله لتربح ، وأعلم أن عمرك محدود ولن تضمن طوله ، فقد وعدك الله جل وعلا أن ينسى الكتبة ما عملت من سوء ، ويبعد جوارحك عن الشهود عليك بما اقترفت من الذنوب ويضيع آثار مشيك للأذى أو لارتكاب المعاصى ،

(١) رواه كنز العمال كتاب التوبة فى فضلها والترغيب فيها حـ ٤ ص ٢٠٩ رقم ١٠١٧٩ .

وقد قال تعالى فى محكم كتابه : ﴿ **ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون * حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين** ﴾ سورة فصلت ١٩ - ٢٣ .

وقال تعالى : ﴿ **يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون * يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ سورة النور : ٢٤ - ٢٥ .

إن رسول الله ﷺ وصف لنا الدواء الناجع ألا وهو التوبة وعقد الخناصر على طاعته سبحانه وتقوية العزيمة فى عبادته وأشار إلى السلاح القاطع الذى يخرس كل شهود على العصيان ألا وهو الانابة إلى الله مع ذكره سبحانه وتأدية الواجبات والابتعاد عن السيئات قال تعالى :

(أ) ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ سورة الرحمن : ٤٦ .

(ب) ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ سورة الرحمن : ٦٠

(جـ) وفى سورة الواقعة ذكر سبحانه وتعالى : (أ) الزرع . (ب) الماء . (جـ) النار . أى : أنه هو السبب فى إيجاد أولئك قال جل شأنه ﴿ **فسبح باسم ربك العظيم** ﴾ . سورة الواقعة : ٩٦ . قال النسفى : أى : فنزه ربك عما لا يليق به أيها المستمع المستدل ، أي : قل : سبحان ربي العظيم أ.هـ . لأنه جدير بذلك .

١٧ - وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ : النادم ينتظر من الله الرحمة ، والمعجب ينتظر المقت ، واعلموا عباد الله أن كل عامل سيقدم على عمله ، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى حسن عمله وسوء عمله وإنما الأعمال بخواتيمها ، والليل والنهار مطيتان ، فأحسنوا السير عليهما إلى الآخرة وأحذروا التسويف فإن الموت يأتى بغته ، ولا يغترن أحدكم بحلم الله عز وجل فإن الجنة والنار أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ . رواه الاصبهانى[1] من رواية ثابت بن محمد الكوفى العابد .

المعنى : [النادم] : الباكى على خطاياه والحزين على تقصيره

المعجب المترفع المتكبر الذى يستحسن عمله الذى يتعاظم ويتفاخر . [المقت] : السخط والعذاب لأنه مراء كذاب . [كل عامل] : إنسان فى الحياة أو إنسانة سيقبل يوم القيامة ويرى صحائف أعماله أن خيراً وإن شرا كما قال تعالى :

(أ) ﴿ **والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم** ﴾ سورة الحديد : ١٩

---

(١) رواه كنز العمال كتاب جامع المواعظ حـ ١٥ ص ٩٣٦ رقم ٤٣٦٠٧ .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين * يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد** ﴾ سور المجادلة : ٥ - ٦

[حسن عمله وسوء عمله] : عند الاحتضار يبشر الله الصالح بنعيمه والطالح بالعذاب . [مطيتان] : موصلتان للأعمال لمن يريد التحصيل وتشييد المحامد فالإنسان خلق ليعمل وينتهز فرصة وجوده ، فيكد فى البر والخير ويجد فى المكارم كما قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور** ﴾ سورة تبارك : ١ - ٢ . [التسويف] :التأجيل في التوبة ونية التأخيرفى عمل صالح ، بل أسرعوا وتوبوا إلى الله وأعملوا صالحاً ففيه الترغيب فى الإنابة إلى الله والعمل بكتابه وسنة نبيه وترك الآمال والأمانى الكاذبة . [بغتة] : فجأة . [بحلم الله] : بتأجيل عقاب المذنب ، والحليم من أسماء الله تعالى ومعناه الذى لا يستخفه شيء من عصيان العباد ، ولا يستفزه الغضب عليهم سبحانه صبور مؤخر عقاب المسيء يمهل وينتظر الا نة « ويتوب الله على من تاب » . [شراك نعله] : أقرب شيء يملكه ومعنى الشراك أحد سيور اسعل التى تكون على وجهها وهذا على سبيل التقريب والتفهيم إلى أن النعيم أو العذاب مدرك بسرعة وبعد خروج الروح يرى المؤمن الطائع ثوابه وللعاصى عقابه فالعاقل من تاب إلى الله وأسرع فى الطاعة وجد فى العبادة ، ولا يعلم انتهاء العمر إلا الله جل جلاله فالنبى ﷺ يرغب المؤمن فى التوبة رجاء إدراك رحمة الله وثوابه ويبغضه فى القنوط ، وينفره من الكبر والغرور ، كما قال تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور * سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم** ﴾ سورة الحديد : ٢٠ - ٢١ .

﴿ **خيراً يره** ﴾ : يدرك جزاءه ويتمتع بنعمته . قال النفى : روى أن جد الفرزدق أتاه ـــ عليه السلام ـــ ليستقرئه فقرأ عليه هذه الآية فقال حسبى حسبى ، وهى أحكم آية وسميت الجامعة . والله أعلم .

وقال البيضاوى : ولعل حسنة الكافر وسيئة المجتنب عن الكبائر تؤثران فى نقص الثواب والعقاب وقيل الآية مشروطة بعدم الإحباط والمغفرة أو من الأولى مخصوصة بالسعداء والثانية بالأشقياء لقوله تعالى : ﴿ **يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم** ﴾ **الزلزلة : ٦ . أى : من مخارجهم من القبور إلى الموقف متفرقين بحسب مراتبهم .**

١٨ - وعن عبد الله بن مسعود ـــ رضى الله عنه ـــ عن النبى ﷺ قال : « التائب من

الذنب كمن لا ذنب له »[1]. رواه ابن ماجه والطبرانى كلاهما من رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ، ولم يسمع منه ، ورواه الطبرانى رواه الصحيح ، ورواه ابن أبى الدنيا والبيهقى مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس ، وزاد « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه » وقد روى بهذه الزيادة موقوفاً .

المعنى : [التائب] : النادم على فعله المقبل على ربه بطاعته يعفو عنه ربه سبحانه ويثيبه ويحط ذنوبه ويمحو خطاياه تفضلاً ويجعل صحيفته نقية مثل الذى ليست له ذنوب كما قال تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً** ﴾ الفرقان : ٧٠ - ٧١ .

﴿ **المستغفر من الذنب** ﴾ : الذى يطلب إزالة ذنوبه بطلب المغفرة مع إصراره على العصيان وعكوفه على الفسوق تهجم منه على عظمة الله وسخرية منه ومجون وطمع فى رحمة القادر القهار الجبار واستهزاء بالخالق المنتقم ، وقد حكى الله تعالى عن اليهود والمنافقين مدة رسول الله ﷺ يقسمون بمحبة رسول الله ﷺ واحترامه ونصره كذبا وخداعا ولكن يصرون على عداوته ويضمرون الخصام له فخزاهم الله ولم يقبل أى عمل لهم وفضحهم كما قال تعالى فى سورة المجادلة : ﴿ **ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ماهم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذابا شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ المجادلة : ١٤ - ١٩ .

قال البيضاوى : فتمرنوا على سوء العمل أو اصروا عليه إن الفساق الآن يتهاونون فى حقوق الله امتهانا بأنفسهم وتساهلاً واستهزاء بعقولهم الضالة التائهة الغافلة عن الله ، فترى العصاة يسوفون فى الصلاة ويؤجلون عمل الخير إلحاداً وإفساداً كما قال تعالى فيهم ﴿ **نسوا الله فنسيهم** ﴾ التوبة : ٦٧ .

قال فى الغريب . إذا نسب ذلك إلى الله فهو تركه إياهم استهانة بهم ومجازاة لما تركوه كما قال تعالى : ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾ الأعراف : ٥١ . وكما قال تعالى : ﴿ **ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون** ﴾ الحشر : ١٩ أى تركو ذكره عز وجل وما أمرهم به فتركهم سبحانه من ذكره بالرحمة والتوفيق . مسكين من لم يتب . وماذا ينتظر ؟ والله تعالى له رقيب وحسيب فليستيقظ الإنسان من سباته وليكثر من الاستغفار فى الأسحار رجاء غفرانه سبحانه : ما أحسن الخلوة فيذكر الإنسان هول الموقف وما أحاطه من نعم مولاه وماذا

(١) سنن ابن ماجه حـ ٢ ض ١٤١٩ - ١٤٢٠ « كتاب الزهد » باب « ذكر التوبة » حديث رقم ٤٢٥٠ من

عمل إستعداداً وغدا يتجلى الإله برأفته ورحماته فيظله برضوانه ويكون أحد السبعة ﴿ **ذكر الله خالياً ففاضت عيناه** ﴾.

١٩ - وعن حميد الطويل قال : قلت لأنس بن مالك ـــ رضى الله عنه : أقال النبى ﷺ : « الندم توبة ، قال : نعم »[١] رواه ابن حبان فى صحيحه .

المعنى : نعم : أجاب سيدنا أنس أن البكاء على التعقيد فى عمل الصالحات توبة والتضرع إلى المولى بالقول وإقلاع الإصرار على العصيان وشحذ العزيمة على الطاعة وتقوية الارادة الصارمة على العبادة مما يسبب قبول الله ويجلب رضاه وقد قال النبى ﷺ : يبسط يده . قال النووى : بسط إليه استعارة فى قبول التوبة ، وخوطب العرب بأمر حسبى يفهمونه وهو مجاز فإن يد الجارحة مستحيلة فى حق الله سبحانه وتعالى والعرب إذا رضى أحدهم بالشيء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه .

٢٠ - وعن عبد الله بن معقل قال : دخلت أنا وأبى على ابن مسعود رضى الله عنه فقال له أبى : سمعت النبى ﷺ يقول : الندم توبة ؟ قال : نعم[٢]. رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد .

٢١ - وعن عائشة ـــ رضى الله عنها عن رسول الله ﷺ قال : « ما علم الله من عبد ندامة على ذنب إلا غفر له قبل أن يستغفره منه »[٣] رواه الحاكم من رواية هشام زياد وهو ساقط وقال : صح الإسناد .

٢٢ - وعن ابن مسعود ـــ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ليس أحد أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك مدح نفسه وليس أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش وليس أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل . رواه مسلم[٤].

المعنى : [أغير] : شديد الانتقام بقوة وأكثر عقاباً ومعنى الغيرة الحمية والأنفة وشدة اليقظة : يقال رجل غيور وامرأة غيور . [الفواحش] : المعاصى ما ظهر منها وما بطن كالزنا والسرقة والحسد وهكذا من الأشياء القبيحة الفظيعة . [العذر] : التوبة والندم . قال النووى : قال القاضى : أى اعتذار العباد إليه من تقصيرهم وتوبتهم من معاصيهم فيغفر لهم سبحانه . قال تعالى : ﴿ **وهو الذي يقبل التوبة عن عباده** ﴾ سورة الشورى : ٢٥ .

وقد فسر ﷺ فى حديث مسلم « وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حرم الله » رواه أبو هريرة .

وفى رواية البخارى ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين قال القسطلانى : الفواحش كل

---

(١) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٤٢٠ حديث رقم ٤٢٥٢ من رواية عن ابن معقل قال : دخلت مع أبى على عبد الله فسمعته يقول : قال رسول الله ﷺ : « الندم توبة » فقال له أبى : أنت سمعت النبى ﷺ يقول : « الندم توبة » قال : نعم .

(٢) أنظر المرجع السابق .

(٣) أنظر صحيح مسلم حـ٤ ص ٢١١٤ حديث رقم ٣٥ / ٢٧٦٠ فقد ورد الحديث من رواية لابن مسعود

(٤) رواه صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١١٣ - ٢١١٤ رقم ٣٢،٣٣،٣٤،٣٥ / ٢٧٦ كتاب التوبة باب غيرة الله تعالى ، وتحريم الفواحش .

خصلة قبيحة من الأقوال والأفعال (المدح) المدح والثناء بذكر أوصاف الكمال . وزاد البخارى « ومن أجل ذلك وعد الله الجنة » يخبر ﷺ أن الله تعالى يحب الذى يتحلى بثلاثة :

(أ) المدح : أى يكون كثير التضرع والدعاء كما قال تعالى ﴿ **ادعونى استجب لكم** ﴾ وكما قال ﷺ : « الدعاء مخ العبادة »

(ب) شديد الغيرة باجتناب ما نهى الله عنه وترك المعاصى .

(جـ) التوبة والالتجاء إلى الله تعالى كما قال سبحانه : ﴿ **نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم * وأن عذابى هو العذاب الأليم** ﴾ الحجر : ٤٩ – ٥٠ .

[الكتاب] : الكتب السماوية المنزلة من السماء وحى من الله جل وعلا على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم لتستبين أوامره ، وتتجلى مقاصده ، فيعمل بها العبد ليتقرب إلى ربه ، وأشهرها أربعة : التوراة لسيدنا موسى ، والانجيل لسيدنا عيسى ، والزبور لسيدنا داود ، والفرقان لسيدنا محمد ﷺ كما أنه أرسل الرسل مهذبين ومرشدين ومعلمين ليبينوا للناس الحق فيتبعوه ، والباطل فيجتنبوه ، قال تعالى لحبيبه ﷺ ﴿ **منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك** ﴾ سورة غافر : ٧٨ .

وقال علماء التوحيد يجب معرفة خمسة وعشرين منهم وهم ساداتنا : آدم – إدريس – نوح – هود – صالح – إبراهيم – لوط – إسماعيل – إسحق – يعقوب – يوسف – أيوب – شعيب – موسى – هارون – ذوالكفل – داود – سليمان – إلياس – اليسع – يونس – زكريا – يحيى – عيسى – أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ .

وأولو العزم خمسة : أى الذين صبروا وتحملوا المشاق : (محمد إبراهيم موسى كليمه ... فعيسى فنوح هم أولو العزم فاعلم وإن الله تعالى ما أرسل الرسل إلا ليعرفوا الناس آلاءه وأنه تعالى جدير بكل ثناء وخليق بكل تذلل وخشوع وعبادة وطاعة وحقيق بالتوبة إليه كما قال جل شأنه : ﴿ **وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا يمّسهم العذاب بما كانوا يفسقون** ﴾ سورة الأنعام : ٤٨ – ٤٩ .

٢٣ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم »(١) رواه مسلم وغيره .

المعنى : [نفسى بيده] : يقسم ﷺ بالقادر الذى بيده تصاريف الأمور ذى الفضل والرحمة والحلم سبحانه وتعالى . [لذهب الله بكم] : لأماتكم وأفناكم وأوجد أمة أخرى تقع منها الخطايا وفى هذا بشرى بقبول التوبة والترغيب فى عدم اليأس وإرسال أشعة الرجاء والأمل فى نفوس العاصين ليتوبوا كما قال تعالى : ﴿ **قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله أن الله يغفر**

---

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٦ حديث رقم ١١ / ٢٧٤٩ من رواية لأبى هريرة .

الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون* واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴾ الزمر ٥٣ : ٥٩ .

٢٤ - وعن عمران بن الحصيه ــ رضى الله عنه ــ أن امرأة من جهنية أتت رسول الله ﷺ وهى حُبلى من الزنا فقالت : يا نبى الله ، أصبت حداً فأقمه علىَّ فدعا نبى الله ﷺ وليها قال : أحسن إليها ، فإذا وضعت فائتنى بها ففعل ، فأمرَ بها نبى الله ﷺ فشدُت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر : تصلى عليها يا نبى الله وقد زنت ؟ قال : تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم وهل وجدت توبة أفضل من أن جاءت بنفسها لله عز وجل[١]. رواه مسلم .

٢٥ - وعن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يحدِّث حديثاً لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين حتى عد سبع مرات ، ولكن سمعته أكثر ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كان الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها ، فلما قعد منها مقعد الرجل من إمرأته أُرعدت وبكت فقال : ما يبكيك أكرهتكِ ؟ قالت : لا ولكنه عمل ما عملته قط وماحملنى عليه إلا الحاجة ، فقال : تفعلين أنت هذا وما فعلته قط ، اذهبى فهى لك وقال : لا والله لا أعصى الله بعدها أبداً فمات من ليلية فأصبح مكتوباً على بابه : إن الله قد غفر للكفل »[٢] . رواه الترمذى وحسنه واللفظ له وابن حبان فى صحيحه إلا أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ أكثر من عشرين مرة يقول : فذكر بنحوه والحاكم والبيهقى من طريقه وغيرها وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

المعنى : [الكفل] : رجل زير . [لا يتورع] : يميل إلى عصيان الله تعالى وغشيان الفجور ويحب الفسوق . [أُرعدت] : ارتعش جسمها وبرد . [الحاجة] : الفقر الذى دعانى إلى التفريط في عرضي. [وما فعلته قط] : قد خفت الله من عصيانه وما بدت منك فاحشة . [والله لا أعصى الله] : هذا العزم بمثابة توبة قبلها الله تعالى فشكر له وسامحه وستر ذنوبه تفضلاً . لمحة رضى وثانية عطف من الزمن وجزء من الوقت أدركته سعادة الله ورضوانه ، فعفا عنه بسبب مرور خشيته رد ما من الزمن ، فالعاقل يتوب إلى الله فى كل لحظة ، رجاء أن يشمله كرم مولاه سبحانه كما شمل ذلك الرجل الفحاش طيلة عمره ويتوب الله على من تاب .

٢٦ - وعن ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : « كانت قريتان : إحداهما صالحة ،

---

(١) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٣٢٤ حديث ٢٤ / ١٦٩٦ من رواية عمران بن حصين .

(٢) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٦٨ ، ٦٩ حديث رقم ٢٦١٤ أورده من رواية لابن عمر وأنظر صحيح ابن حبان حـ ١ ٣٠١ ، ٣٠٢ فقد ورد الحديث رقم ٣٨٨ من رواية لابن عمر

والأخرى ظالمة . فخرج رجل من القرية الظالمة يريد القرية الصالحة فأتاه الموت حيث شاء الله فاختصم فيه الملك والشيطان فقال الشيطان : والله ما عصانى قط فقال الملك : إنه قد خرج يريد التوبة فقضى بينهما أن ينظر إلى أيهما أقرب فوجدوه إلى القرية الصالحة بشبر فغفر له . قال معمر : وسمعت من يقول : قرب الله إليه القرية الصالحة »[1] رواه الطبرانى بإسناد صحيح .

٢٧ - وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ أن نبى الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ومن يحول بينه وبين التوبة ! إنطلق إلى الأرض كذا وكذا فإنّ بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه ملك الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد فقبضته ملائكة الرحمة »[2] .

وفى رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها .

وفى رواية : فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربى وقال : قيسوا بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له .

وفى رواية : قال قتادة قال الحسن : ذُكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها . رواه البخارى ومسلم وابن ماجه بنحوه .

المعنى : [فقبضة ملائكة الرحمة] : أى تسلمته إلى نعيم الله وإحسانه بسبب غفران ذنوبه باهتمامه وسيره إلى بلد الصالحين المطيعين . هذا رجل تاب الله عليه بسبب عزمه على السير إلى هذه القرية ، فما بالك بمن أحب الصالحين وعاشرهم وأكرمهم وودهم وزارهم وحضر مجالسهم ودعا بدعواتهم الطيبة ؟ أرى أن الله كريم عظيم يقبله ويوفقه ويهديه إلى الخير ويغفر ذنوبه ، ومن أحب قوماً حشر معهم . حسبك قوله ﷺ « أنت مع من أحببت » نسأل الله السلامة .

قال النووي : في باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (ثم أفتاه العالم بأن له توبة) هذا مذهب أهل العلم وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمداً ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس ، وأماما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا فمراد قائله الزجر عن سبب التوبة لا أنه يعتقد بطلان

(١) انظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢١٣ فقد أورد الحديث من رواية لابن مسعود وقال : رواه الطبرانى موقوفاً ورجاله رجال الصحيح .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١١٨ « كتاب التوبة » حديث ٤٦ / ٢٧٦٦ من رواية لأبى سعيد ، وأنظر الأحاديث ٤٧ ، ٤٨ / ٢٧٦٦ .

توبته ، وهذا الحديث ظاهر فيه وإن كان شرعاً لمن قبلنا ، وفى الاحتجاج به خلاف ، فليس موضوع الخلاف وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره فإن ورد كان شرعاً لنا بلاشك وهذا قد ورد شرعنا به ، وهو قوله تعالى : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما * يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا * إلا من تاب** ﴾ الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

وأما قوله تعالى : ﴿ **ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها** ﴾ النساء : ٩٣ . فالصواب فى معناها أن جزاءه جهنم ، وقد يجازى به ، وقد يجازى بغيره ، وقد لا يجازى بل يعفى عنه ، فإن قتل عمداً مستحلاً له بغير حق ولا تأويل فهو كافر مرتد يخلد به فى جهنم بالإجماع ، وإن كان غير مستحل بل معتقداً تحريمه فهو فاسق عاصى مرتكب كبيرة جزاؤه جهنم خالدا فيها ولكن بفضل الله ــ تعالى ثم أخبر أنه لا يخلد من مات موحداً فيها فلا يخلد هذا ، ولكن قد يعفى عنه فلا يدخل النار أصلا ، وقد لا يعفى عنه بل يعذب كسائر العصاة الموحدين ثم يخرج معهم إلى الجنة ، ولا يدخل إلى النار فهذا هو الصواب فى معنى الآية .

٢٨ - وعن أبى عبد ربه أنه سمع معاوية بن أبى سفيان على الخير يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : إن رجلاً أسرف على نفسه فلقى رجلاً فقال : إن الآخر قتل تسعة وتسعين نفساً كلهم ظلماً ، فهل تجدلى من توبة ؟ فقال : إن حدثتك أن الله لا يتوب على من تاب كذبتك ههنا قوم يتعبدون فأتهم تعبد الله معهم فتوجه إليهم فمات على ذلك فاجتمعت ملائكة الرحمة وملائكة العقاب فبعث الله إليهم ملكاً فقال : قيسوا ما بين المكانين فأيهم كان أقرب فهو منهم فوجدوه أقرب إلى دير التوابين بأنملة فغفر له . رواه الطبرانى بإسنادين أحدهما جيد .

ورواه أيضاً بنحوه بإسناد لا بأس به عن عبد الله بن عمرو فذكر الحديث إلى أن قال : ثم أتى راهبا آخر فقال : إنى قتلت مائة نفس فهل تجد لى من توبة ؟ فقال : لقد أسرفت وما أدرى ولكن ههنا قريتان قرية يقال لها : نصرة والأخرى يقال لها : كفرة فأما أهل نصرة فيعملون عمل أهل الجنة لا يثبت فيها غيرهم وأما أهل كفرة فيعملون عمل أهل النار لا يثبت فيها غيرهم فانطلق إلى أهل نصرة فإن ثبت فيها ، وعملت عمل أهلها فلاشك فى توبتك فانطلق يومها حتى إذا كان بين القريتين أدركه الموت فسألت الملائكة ربها عنه ، فقال : انظروا إلى أى القريتين كان أقرب فاكتبوه من أهلها فوجدوه أقرب إلى نصرة بقيد أنملة فكتب من أهلها[1] .

٢٩ - وعن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد **ضالته** بالفلاه ،

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢١١ ، ٢١٢ فقد ورد الحديث عن عبدرب أنه سمع معاوية ، كما أورد أيضا رواية عبد الله بن عمرو قبله فى باب « مغفرة الله تعالى للذنوب العظام وسعة رحمته » .

ومن تقرب إلىَّ شبرا تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىَّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىَّ يمشى أقبلت إليه أهرول »[1] رواه مسلم واللفظ له والبخارى بنحوه .

المعنى : [عند ظن عبدى بى] : قال القاضى : معناه : بالغفران له إذا استغفر ، والقبول إذا تاب ، والإجابة إذا دعا ، والكفاية إذا طلب الكفاية ، وقيل المراد به الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح . [معه حيث يذكرنى] : أى معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية وأما قوله تعالى ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾ فمعناه بالعلم والإحاطة . [أفرح بتوبة عبده من أحدكم] : قال العلماء : فرح الله تعالى رضاه ، وقال المازرى : الفرح ينقسم إلى عدة وجوه : منها السرور والسرور يقاربه الرضا بالمسرور به فالمراد هنا : أن الله تعالى يرضى توبة عبده أشد مما يرضى واحد وجد ضالته بالغلاة فعبر عن الرضا بالفرح تأكيداً لمعنى الرضا فى نفس السامع ومبالغة فى تقريره .

بخ بخ .. أيها المسلم يحب الله لك التوبة : أى : ترجع إليه نادما مقصداً على درك الحسنات ، وتستعد للمستقبل فتعمل صالحاً ، ليشملك بعزه وبرضاه ، وتأمل فى الحديث . **رجل فى مفازه يملك** شيئاً نفيساً عزيزاً غالياً ثميناً فيفقده فلم يجده وضاع منه وصار يبحث عنه بجد وكد ثم وجده ما مقدار فرحه بالعثور على بغيته والحصول على ماله ؟ إنه لشديد الحبور — والله تعالى كثير الرضا عن التائب أكثر من الذى وجد ما يهوى :

(أ) ﴿ **أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم** ﴾ المائدة : ٧٤ .

(ب) ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين * قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين * قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون** ﴾ الأنعام : ٦٠ — ٦٤ .

إن شاهدنا مراقبة الله تعالى لعبده أن جعل له ملائكة تحفظ أعماله ومع ذلك يعفو سبحانه فيثق العبد بلطف سيده ويعتمد على عفوه وستره ﴿ **مولاهم** ﴾ : الذى يتولى أمورهم ويحكم بالحق : أى : العدل ، ثم ساق لهم بعض نعمه ﴿ **تضرعا وخفية** ﴾ : معلنين ومسرين ﴿ **كرب** ﴾ : غم ولكن تعودون إلى الشرك ولا توفون بالعهد . فانظر إلى مدى حلم الله بعباده . ﴿ **ضالته** ﴾ : الشيء المفقود . ﴿ **الفلاه** ﴾ : الصحراء أى الأرض القفر .

٣٠ - وعن يزيد بن نعيم قال : سمعت أبا ذر الغفارى — رضى الله عنه — وهو على المنبر

(١) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٢ حديث رقم ١ / ٢٦٧٥ من رواية لأبى هريرة .

بالفسطاط يقول : سمعت النبى ﷺ يقول : « من تقرب إلى الله عز وجل شبراً تقرب إليه ذراعاً ومن تقرب إليه ذراعاً تقرب إليه باعاً ، ومن أقبل إلى الله عز وجل ماشياً ، أقبل إليه مهرولاً ، والله أعلى وأجل ، والله أعلى ، وأجل ، والله أعلى وأجل »[١]. رواه أحمد والطبرانى . وإسناهما حسن .

٣١ – وعن شريح هو ابن الحارث قال : سمعت رجلاً من أصحاب النبى ﷺ يقول : قال النبى ﷺ : قال الله عز وجل : « يا ابن آدم قم إلىّ أمش إليك وأمشِ إلىَّ أهرول إليك »[٢] . رواه أحمد بإسناد صحيح .

٣٢ – وعن أنس بن مالك ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعِيرِه وقد أضله بأرض فلاة »[٣] . رواه البخارى ومسلم .

٣٣ – وفى رواية لمسلم : لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت عنه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك « أخطأ من شدة الفرح »[٤].

المعنى : [أيس منها] : جرى وراءها فلم يمسكها . [فاضطجع] : استراح ونام . [قد أيس] : زال أمله وقل رجاؤه فى العثور عليها . [فأخذ بخطامها : زمامها وقبض عليه . [أخطأ من شدة الفرح] : هذا تمثيل لنهاية السرور الصادر من العبد الذى وجد ناقته ليقرب لك رضا الله تعالى بتوبة عبده والرجوع إليه والأخذ فى طاعته والشروع فى العمل الصالح له .

٣٤ – وعن الحارث بن سويد عن عبد الله ـــ رضى الله عنه ـــ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوِّية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام فاستيقظ وقد ذهبت فطلبها حتى أدركه العطش ثم قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت ،فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده »[٥] . رواه البخارى ومسلم

---

(١) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ١٥٥ فقد أورد الحديث بلفظه .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٣ ص ٤٧٨ فقد أورد الحديث بلفظه عن سريج .

(٣) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ٩٩ « باب التوبة » فقد ورد الحديث من رواية لأنس
وأنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٥ حديث رقم ٨ / ٢٧٤٧ فيه رواية لأنس غير أنه جاء فيها « إذا استيقظ على بعيره » والصحيح إذا سقط على بعيره .

(٤) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٤ – ٢١٠٥ حديث رقم ٧ / ٢٧٤٧ من رواية لأنس

(٥) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ٩٩ فقد ورد الحديث من رواية للحارث بن سويد بألفاظ مختلفة .
وأنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٠٣ فقد ورد الحديث رواية للحارث بن سويد مع اختلاف فى بعض ألفاظه ، وقد صححت رواية هذا الكتاب على رواية مسلم .

المعنى : [الدوية] : بفح الدال المهملة وتشديد الواو والياء جميعاً : هى الفلاة القفر والمفازة .

٣٥ – وعن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحسن فيما بقى غفر له ما مضى ، ومن أساء فيما بقى أخذ بما مضى وبما بقى »[١] . رواه الطبرانى بإسناد حسن .

المعنى : [من أحسن فيما بقى] : أى تاب إلى الله وأخلص فى حياته الآتية المستقبلة سامحه الله وعفا عنه ما عمله فى الأزمان السابقة تفضلاً . [ومن أساء فيما بقى] : أخطأ فى مستقبله . [أخذ بما مضى وما بقى] : حاسبه الله على الأعمال الماضية والمستقبلة ففيه الترغيب فى التوبة رجاء ستر الله لما عمله سابقاً .

٣٦ – وعن عقبة بن عامر – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثل الذى يعملُ السيئات ثم يعمل الحسنات ، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى حتى تخرج إلى الأرض »[٢] . رواه أحمد والطبرانى بإسنادين . رواه أحدهما رواة الصحيح .

المعنى : [درع] : الزردية أى الواقية من الحديد أو النحاس . [خنقته] : ضيقت عليه وآلمته . [فانفكت] : انفرجت والمعنى : أن الحسنات تذهب السيئات وتفك المسلم من عقال ذنوبه وتدفع عنه السوء وتجعله فى بحبوحة الرخاء والسعادة ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾ سورة هود : ١١٤ .

٣٧ – وعن عبد الله بن عمرو – رضى الله عنهما – أن معاذ بن جبل أراد سفراً فقال يا رسول الله : أوصنى . قال : « أعبد الله لا تشرك به شيئا » قال : يا رسول الله ، زدنى قال : « إذا أسأت فأحسن قال : يا رسول الله زدنى ، قال : استقم وليحسن خلقك »[٣] . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : [فأحسن] : فاجتنب الخطأ وأجد فى عملك وأكثر من الصالحات . [وليحسن خلقك] : يزيد أدبك وتتحلى بمكارم الأخلاق وتتصف بالمحامد والمحاسن والكمال .

٢٨ – ورواه الطبرانى بإسناد ورواته ثقات : عن أبى سلمة عن معاذ قال : قلت : يا رسول الله ، أوصنى ، قال : « أعبد الله كأنك تراه وأعدد نفسك فى الموتى وأذكر الله عند كل حجر وعند كل شجر وإذا عملت سيئة فأعمل بجنبها حسنة السر بالسر والعلانية بالعلانية »[٤] وأبو سلمة لم يدرك معاذاً .

---

(١) أنظر كنز العمال حـ ٤ ص ٢٤٤ حديث رقم ١٠٣٥٧ فقد أورد الحديث عن ابن عساكر من رواية لأبى ذر .
(٢) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ١٤٥ فقد أورد الحديث من رواية لعقبة بن عامر
(٣) أنظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان حـ ١ ص ٣٧٠ – ٣٧١ فقد أورد الحديث من رواية لمعاذ تحت رقم ٥٢٥ .
(٤) أنظر مجمع الزوائد حـ ٤ ص ٢١٨ فقد ورد الحديث من رواية لمعاذ .

– ورواه البيهقى فى كتاب الزهد من رواية إسماعيل بن رافع المدنى ، عن ثعلبة بن صالح ، عن سليمان بن موسى ، عن معاذ قال : أخذ سيدى رسول الله ﷺ فمشى قليلاً ثم قال يا معاذ : أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث ووفاء العهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، ورحم اليتيم ، وحفظ الجوار ، وكظم الغيظ ، ولين الكلام ، وبذل السلام ، ولزوم الإمام ، والنفقه فى القرآن ، وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وقصر الأمل ، وحسن العمل ، وأنهاك أن تشتم مسلماً ، أو تصدق كاذباً ، أو تكذب صادقاً ، أو تعصى إماماً عادلاً ، وأن تفسد فى الأرض ـــ يا مُعاذ ، أذكر الله عند كل شجر وحجر وأحدث لكل ذنب توبة . السر بالسر والعلانية بالعلانية(١) .

المعنى : [كأنك تراه] : أى تستحضر أن الحق مطلع عليك ومراقب أفعالك [متظهر] : دوحة الخشوع بمعرفة جلالته وعظمته وتزداد خشيته سبحانه أمامك فتخلص العمل وتفرغ قلبك لمناجاته جل وعلا فدائماً تستمر على التذلل له والإحسان فى كل ما يسند إليك رجاء ارضاء من يراك . وفى الفتح وقد ندب أهل التحقيق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من التلبس بشىء من النقائص احتراما لهم واستحياء منهم فكيف بمن لا يزال الله مطلعاً عليه فى سره وعلانيته وفى مجلس العلم حضر جبريل عليه السلام فسأل النبى ﷺ عن الإحسان ؟ قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . [وأعدد نفسك فى الموتى] : أى ازهد ولا تطمع فى الدنيا بكثرة العمل واستعد للآخرة بقرب الأجل كأنك مع من ماتوا فيسألهم ربهم عن أعمالهم فكأنك تحت الطلب كما قال تعالى : **﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ، فأدّ ماعليك من الديون . [عند كل حجر] : أى : رأيت آثاره البديعة فى خلقه فسبحه وأحمده وأشكر له نعمه ، وأعلم أن كل صنعة لابد لها من صانع ويعدد الله لنا بعض صنائعه لنوحده كما قال تعالى :**

(أ) ﴿ أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ﴾ النمل : ٦٠

(ب) ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين ﴾ الحجر : ٢٢

(جـ) ﴿ وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً * لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً * ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ الفرقان : ٤٨ – ٥٠

يسوق الله تعالى هذه الدلائل ليتأمل العبد فى بدائع قدرته وجمال حكمته فيذكره .

---

(١) أنظر كنز العمال حـ ١٠ ص ٥٩٤ حديث رقم ٣٠٢٩١ باب « بعث معاذ » فقد هذا الحديث ضمن حديث طويل لمعاذ وقال رواه ابن عساكر وفيه ركن الشامى متروك .

﴿ فاعمل بجنبها حسنة ﴾ : بعدها عملاً صالحاً يمحو أثرها بعد التوبة . ﴿ تقوى الله ﴾ : خشية والرهبة منه بإخلاص القلب ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ .

قال النسفي : أي : في أوامره فلا تخالفوها وعبر عن الآخرة بالغد كأن الدنيا والآخرة نهادان وكرر بالتقوى تاكيدا أو اتقوا الله فى أداء الواجبات لأنه قرن بما هو عمل ، واتقوا الله فى ترك المعاصى لأنه قرن بما يجرى مجرى الوعيد وهو أن الله خبيز . وفيه تحريض على المراقبة لأن من علم وقت فعله أن الله مطلع على ما يرتكب من الذنوب يمتنع عنه . ﴿ صدق الحديث ﴾ : القول يطابق الواقع والأخبار توافق الحق . ﴿ وفاء العهد ﴾ : تنفيذ ما اتفق عليه كما قال تعالى . ﴿ وأوفو بعهد الله إذا عاهدتم ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ النحل ٩١

قال البيضاوى : أى البيعة لرسول الله ﷺ وأنا أقول : وأيضاً الوفاء بالعمل بكتاب الله تعالى وسنة رسوله والتحلى بمكارم الأخلاق .

﴿ أداء الأمانة ﴾ : المحافظة على الوديعة وتسليمها وحفظ الأسرار للأخبار والابتعاد عن السرقة والأذى وفعل الإضرار . ﴿ رحم اليتيم ﴾ : أى الرأفة بالذى مات والده وتقديم الخير والمساعدة له وإكرامه والعناية بشئونه ومراعاة تثمير ماله وحفظ وعدم إغتياله أو إضراره ، كما قال تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ الضحى : ٩ . ﴿ حفظ الجوار ﴾ : إكرام الجار ومراعاة حرمته وتقديم صنوف الخير له كما قال تعالى : ﴿ والجار ذى القربى والجار الجنب ﴾ أى : الذى قرب جداره وقيل : الذى له مع الجوار قرب واتصال بنسب أو دين ، والجنب البعيد الذى لأقرابة له وعنه عليه الصلاة والسلام « الجيران ثلاثة فجار له ثلاث حقوق : حق الجوار وحق القرابة وحق الإسلام ، وجار له حقان حق الجوار وحق الإسلام ، وجار له حق واحد وهو المشرك من أهل الكتاب »[1].

﴿ كظم الغيظ ﴾ : الإمساك عن الغضب وحبس الانتقام والكف عن إمضاء العقاب كما قال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ ﴾ . ﴿ لين الكلام ﴾ : طيبه وعذوبة ألفاظه وبديع أسلوبه وحسن خطابه ورشيق عباراته كما قال الشاعر :

فيـه السماحـة والفصاحـة والتقـى .والبـأس أجمـع والحجـى والخير

﴿ بذل السلام ﴾ : إفشاؤه كما قال ﷺ حينما سئل : « تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »[2] قال القسطلانى من المسلمين فلا تخص به أحداً تكبداً وتجبراً . (لزوم الإمام) : اتباع أوامر الحاكم وإستماع نصائحه وطاعته وعدم بث الفتن ضده كما قال تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ من سورة النساء .

---

(١) انظر كنز العمال جزء ٩ ص ٥١ حديث رقم ٣٤٨٩١ فقد أورد الحديث عن البزار وأبو الشيخ فى الثواب والحلية عن جابر .
(٢) سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٠٨٣ وهو جزء من الحديث رقم ٣٢٥٣ .

وملازمة العلماء ومجالسة الأخيار الأبرار الأصفياء وحضور الجماعات فى المسجد وإختيار الأصحاب فى الله لله .

﴿ **والتفقه فى القرآن** ﴾ : كفهم آياته والتبحر فى معرفة أسراره والعكوف على تلاوته والإكثار من ذكره والتفكر فى معناه كما قال تعالى :

(أ) ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾ البقرة : ٢٦٩

(ب) ﴿ **وقال تعالى : ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله** ﴾ لقمان : ١٢

(جـ) وقوله ﷺ « ومن يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين »

﴿ **حب الآخرة** ﴾ : الاستعداد ليوم القيامة والإيمان به لأنه لابد منه كما قال تعالى : ﴿ **وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور** ﴾ الحج : ٧

﴿ **الجزع من الحساب** ﴾ : الخوف من يوم تشتد فيه الأهوال وتعظم فيه المسئولية كما قال تعالى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لاتناصرون * بل هم اليوم مستسلمون * وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين * وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين * فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين * فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون * إنا كذلك نفعل بالمجرمين *** ﴾ الصافات : ٢٤ - ٣٤ .

أى : احبسوهم فى الموقف فإنهم مسئولون عن عقائدهم وأعمالهم .(مستسلمون) منقادون لعجزهم وانسداد الحيل عليهم يسأل الرؤساء والأتباع . وبين الله تعالى سبب عقابهم ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وماتجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلصين * أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * فى جنات النعيم** ﴾ الصافات : ٣٥ - ٤٣ .

أرأيت هذه الحكاية يمثلها الله تعالى لعباده المصدقين الآن العاملين بالكتاب والسنة ليخشوا الله ويستعدوا ليوم ، وصفه الرب جل جلاله ﴿ **لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ البقرة : الآيتان : ٢٨٤ - ٢٨٥ .

﴿ **قصد الأمل** ﴾ : عدم استرسال الأمانى الحلوة والركون إلى زخارف الدنيا بانتظار سعة الرزق وزيادة الأموال وتشييد القصور وتسويف فى عمل البر وفعل الخير وتأجيل غرس الصالحات وبذر الطيبات فالمؤمن يقنع ويجد ويعمل عملاً طيباً من وقته .

﴿ **وأنهاك أن تشتم مسلماً** ﴾ : يحذر من سب المسلم وأذاه والركون إلى الكاذب الفاجر أو يرد كلام الصالح المتقى ويغير أقواله افتراء عليه أو يعلن الحرب على رئيسه ويخاصمه ويوقد نار العداوة ويبث الفتن والمخالفة وقد اشترط ﷺ الطاعة بالعدل واتباع الحق . أما إذا خالف الإمام وفعل ما يغضب ربه فليجتنبه فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

بل الإنسان يركن إلى ربه ويخشاه ويؤدى حقوقه ، ولا يخاف إلا ربه وحده ، يريد ﷺ أن يتحلى المسلم بست عشرة صفة : الخوف الداعى إلى إيجاد الصالحات ، الصدق ، الوفاء ، الأمانة ، الشرف والضمير التقى ، مراقبة الخالق ، العطف على المسكين واليتيم ، حسن الجوار ، حبس النفس عن الغضب وطيب القول وإنشاء التحية وموافقة الأمير ، والتزود بتعليم الكتاب والسنة والاستياق إلى ملاقاة الرب جل وعلا مع الاعتقاد بالجزاء خيرا وإن شرا وعدم الغرور وكبح جماح الشيطان الغرور الذى يبعث الشر والجشع وجمع الدنيا والضرب لهم فى الأعمال الصالحة وإصابة المرمى فى تشييد المكارم ووجود آثارها ظاهرة جليلة (قيمة المرء ما يحسنه) قال المتنبى :

ومـن يجـد الطـريـق إلى المعـالى ... فـلا يـذر المطـى بلا سنـام
ولـم أر فى عيـوب النـاس شيئـاً ... كنقـص القادريـن عـلى التمـام

*****

ومن ينفق الساعات فى جمـع مـالـه ... مخافـة فقـر فالـذى فعـل الفقـر
عليكـم بدارى فاهدموهـا فإنهـا ... تراث كـريم لا يخـاف العواقـب
إذا هـم ألقـى بين عينيـه عزمـه ... وأعـرض عـن ذكـر العواقـب جانبـاً
ولـم يستشـر فى رأيـه غـير نفسـه ... ولم يرض إلا قائـم السيـف صاحبـا

٣٩ - وعن أبى ذر ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن »[1] . رواه الترمذى . وقال : حديث حسن .

المعنى : [اتق الله] : أى احسن لله سبحانه فى كل زمان ومكان وراقبه واعلم أنه مطلع عليك فلا تعصه . قال النووى : أى اتقه فى الخلوة كما تتقيه فى الجلوة بهذه الناس كما قال تعالى : ﴿ **ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم** ﴾ . الآية من سورة المجادلة . والتقوى كلمة جامعة لفعل الواجبات وترك المنهيات .

[اتبع السيئة الحسنة] : أى إذا أخطأت فتب واشفعها بفعل صالح ليزيل أثر ما بدر منك ويبعد ما تركته الهفوة من حفوة . قال النووى : أى إذا فعلت سيئة فاستغفر الله تعالى منها وافعل بعدها

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٢٣٩ حديث ٢٠٥٣ فقد أورد الحديث عن أبى ذر .

حسنة تمحها . هذه السيئة المتعلقة بحق الله تعالى ، أما السيئة المتعلقة بحق العباد من الغضب والغيبة والنميمة فلا يمحوها إلا الإستحلال من العباد ولابد أن يعني له جهة الظلامة فيقول قلت عليك كيت وكيت . وفى الحديث دليل على أن محاسبة النفس واجبة قال ﷺ « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » وقال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾ من سورة الحشر .

[بخلق حسن] : استعمل مع العالم حسن المعاملة بإظهار الأدب ولين الجانب والبشاشة واللطف والحلم . قال النووى : الخلق الحسن كلمة جامعة للإحسان إلى الناس وإلى كف الأذى عنهم . ولنا قدوة حسنة بسيدنا المصطفى ﷺ فقال له جبريل عليه السلام حين نزل قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ قال فى تفسير ذلك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطى من حرمك وقال تعالى :

(أ) ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾

(ب) ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾

كان ﷺ خلقه القرآن يأتمر بأمره ويتزجر بزواجره ويرضى لرضاه ويسخط لسخطه عليه الصلاة والسلام وفى الحديث بيان أن المرء يسود بثلاثة ويرقى إلى العلياء :

(أ) تقوى الله فى السر والعلانية .

(ب) فعل الخير وإيجاد البر الجالب لحسن المعاملة .

(جـ) مكارم الأخلاق والتحلى بآداب الشرع ولابن الوردى :

سارع إلى فعل الجميل وقلد الـ ... أعناق حسنى فالزمان عوارى
واجعل إلى الأخرى بدارك بالتقى ... تغنم فما الدنيا بدار قرار
وتوخ فعل المكرمات تبرعا ... فالمكرمات حميدة الآثار
كن عالماً فى الناس أو متعلماً ... أو سامعاً فالعلم ثوب فخار
من كل فن خذ ولا تجهل به ... فالحر مطلع على الأسرار
والعلم مهما صادف التقوى يكن ... كالريح إذ مرت على الأزهار
هل يستوى العلماء والجهال فى ... فضل أم الظلماء كالأنوار

*****

لا ظل للمرء عن تقى ورضا ... وإن أظلته أوراق وأفنان
لا تغتد بشباب ناعم خضل ... فكم تقدم قبل الشيب شبان

فالـروض يزدان بالأنـوار ناعمـه والحـر بالعـدل والإحسـان يزدان

*****

٤٠ – وروى أحمد بإسناد جيد عن أبى ذر ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما : أن النبى ﷺ قال : ستة أيام ثم أعقل يا أبا ذر ما يقال لك بعد فلما كان اليوم السابع قال : أوصيك بتقوى الله فى سر أمرك وعلانيته وإذا أسأت فأحسن ولا تسألن أحداً شيئاً وإن سقط سوطك ولا تقبض أمانة ، ولا تقض بين اثنين(١)

المعنى : [ستة أيام] : أى انتظر ستة أيام وتمهل ثم افهم الذى أقوله لك من حسن المواعظ ولباب الإرشاد . [وإن سقط سوطك] : أى اعتمد على الله وعلى نفسك فى قضاء مصالحك واترك التواكل والتباطؤ وتعهد شؤونك بنفسك وصغير الأمور ككبيرها وإن ركبت وسقطت عصاك فأنزل وخذها وقوفى نفسك العزيمة والإعتماد على النفس وقوة الإرادة . والسوط معروف وجمعه أسواط وسياط قال تعالى : ﴿ **سوط عذاب** ﴾ أى ألم سوط عذاب والمراد الشدة والمراد فى الحديث لاتتهاون ولا تطلب شيئاً من أحد ولو سقط مافى يدك فعلى حقارته هانة . [ولاتقبض أمانة] : لا تودع عندك أمانة خشية أن لا تقوم بحفظها وتؤديها كاملة تامة ينصح ﷺ بأربعة :

(أ) التقـوى

(ب) إتقان العمل والتوبة عند الإساءة ثم الإحسان

(جـ) الاعتماد على النفس

(د) عدم قبول الودائع إذ آنس الإنسان عدم حفظها وقد بين الله تعالى فوائد التقوى فى قوله عز شأنه :

١ – ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ . الطلاق .

٢ – ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم** ﴾ . التغابن .

٣ – ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ . الطلاق .

٤ – ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا** ﴾ . الطلاق .

٥ – ﴿ **ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا** ﴾ . الطلاق .

فأنت ترى سيدنا رسول الله ﷺ يشوق أبا ذر للدرس الجديد ويشوق المرغبات والمحسنات ويدعوه إلى العمل بما يقوله ﷺ وتفهمه وعض النواجز على إدراكه وفهمه رجاء أن يثمر أدب الشرع .

وإنمـا المـرء حـديث بعـده فكـن حديثاً حسناً لمـن وعـى

---

(١) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ١٨١ فقد أورد الحديث من رواية لأبى ذر .

مـا اعتـن لى بـأس يناجـى همتـى إلا تحـداه رجـاء فاكتمـى

٤١ – وعن أبى ذر – رضى الله عنه – قال : قلت يا رسول الله : أوصنى . قال : إذا عملت سيئة فأتبعها حسنة تمحها . قال : قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله ، قال : هى أفضل الحسنات[١] . رواه أحمد عن شمر بن عطية عن أشياخه عن أبى ذر .

المعنى : [أمن الحسنات لا إله إلا الله ؟] : سأله أبو الدرداء رضى الله عنه كلمة التوحيد فعدها ﷺ من أفضل أعمال البر ففيه التوبة والذكر والتسبيح والدعاء والصدقات وأنواع الطاعة تعد الحسنات فتجلب رضا الله تعالى وإحسانه .

٤٢ – وعن عبد الله – رضى الله عنه – قال : إن رجلاً أصاب من إمرأة قبلة وفى رواية جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إنى عالحت إمرأة فى أقصى المدينة وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها فأنا هاذا فاقض فى ما شئت فقال له عمر لقد سترك الله لو سترت نفسك . قال : فلم يرد النبى ﷺ شيئاً فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبى ﷺ رجلاً دعاه وتلا عليه هذه الآية ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين** ﴾[٢]. فقال رجل من القوم : يا نبى الله هذا له خاصة ؟ قال : بل الناس كافة[٣]. رواه مسلم وغيره .

المعنى : [دون أن أمسها] : أى شيئاً غير ملامستها ومجامعتها . [فأنا هاذا] : أنا واقف بين يديك خاضع لحكم الله فى تنفيذ حده . [لقد سترك الله] : أى فعلت هذا والله تعالى لم يفضحك بإظهار عملك للناس . [طرفى النهار] : الصبح والظهر والعصر . [زلفاً من الليل] : المغرب والعشاء ويدخل فيه ساعة السحر التهجد والإستغفار والندم والتضرع إلى القادر جل وعلا التواب . [إن الحسنات يذهبن السيئات] : أى الصالحات وفروع العبادة . قال النووى : معنى الحديث أى تناولت واستمتعت بها . والمراد بالمس الجماع . ومعناه استمتعت بها بالقبلة والمعانقة وغيرهما من جميع أنواع الاستمتاع إلا الجماع . [كافة] : أى كلهم .

هكذا تستعمل كافة حالا ، ولا يضاف فيقال : كافة الناس ولا الكافة وهذا تصريح بأن الحسنات تكفر السيئات . واختلفوا فى المراد بالحسنات هنا : فنقل الثعلبى أن أكثر المفسرين على أنها الصلوات الخمس واختاره ابن جرير وغيره من الأئمة . وقال مجاهد : هو قول العبد : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ويحتمل أن المراد الحسنات مطلقاً . [ذكرى للذاكرين] : عظة للمتعظين ﴿ **واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[٤].

٤٣ – وعن أبى طويل شطب الممدود أنه أتى النبى ﷺ فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها

(١) انظر مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ١٦٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى ذر .
(٢) سورة هود : آية ١١٤ .
(٣) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١١٦ – ٢١١٧ حديث رقم ٤٢ / ٢٧٦٣ من رواية لعبد الله بن مسعود بلفظه .
(٤) سورة هود : آية ١١٥

فلم يترك فيها شيئاً وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها : فهل لذلك من توبة ؟ قال : فهل أسلمت ؟ قال : فأما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله لك خيرات كلهن . قال : وغدراتى وفجراتى ؟ قال : نعم قال : الله أكبر ، فمازال يكبر حتى توارى(١) . رواه البزار والطبرانى واللفظ له وإسناده جيد قوى .

المعنى : [الحاجة] : الصغيرة ، [والداجة] : الحاجة الكبيرة . [تفعل الخيرات] : تعمل صالحاً وتجعل لك فى الطيبات ذكرا حسنا وتتقى الله وتجتنب المعاصى ليبدل الله ذنوبك حسنات كما قال تعالى : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً * ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا** ﴾(٢).

أو قد عزم الرجل على فعل الخير ومنها المحافظة على الصلاة وقد رأيت قول من أصاب قبلة هذه الآية لى أى صلاتى مذهبة لمعصيتى مختصة بى أو عامة للناس كلهم .

وقال القسطلانى : فيه عدم الحد فى القبله ونحوه وسقوط التعذير عمن أتى شيئاً منها وجاء تائباً نادماً .

وقال ابن المنذر : فيه أنه لاحد على من وجد مع أجنبية فى لحاف واحد

[عذراتى] : أفعالى الذميمة التى نقضت فيها العهد ونكثث وخُنت ، يقال : غدر به : نقض عهده . [فجراتى] : إرتكابى المعاصى وفعل الموبقات . من فجر العبد فجوراً : فسق وزنى وفجر الحالف فجوراً وكذب . وفى النهاية : التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله . الفجار جمع فاجر وهو المنبعث فى المحارم والمعاصى . [نعم] : أجاب ﷺ بغفران ذنوبه إذا تاب وأناب . [توارى] : إختفى عن أيمن الناظرين إليه ففيه الترغيب بالسرعة فى الرجوع إلى من فتح أبواب التوبة لعباده رجاء إدراك رحمته إنه غفور رحيم شكور ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ .

آيات الترغيب فى التوبة من الذنوب

١ - قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه** ﴾(٣).

٢ - وقال تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾(٤).

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٠٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية أبى طويل . وقال رواه الطبرانى والبزار

(٢) سورة الفرقان : الآيتان ٧٠ - ٧١ .

(٣) سورة التحريم : آية ٨ .

(٤) سورة النور : آية ٣١ .

٣ – وقال : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾(١).

٤ – وقال عز شأنه ﴿ أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ﴾(٢).

٥ – وقال عز شأنه ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليما ﴾(٣).

٦ – وقال تعالى : ﴿ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا ﴾(٤).

٧ – وقال تعالى : ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ﴾(٥).

٨ – وقال تعالى :﴿ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(٦).

٩ – وقال تعالى : ﴿ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾(٧).

١٠ – وقال تعالى : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفارا ﴾(٨) .

١١ – وقال تعالى : ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير ﴾(٩) .

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان ٢٥ – ٢٦ .

(٢) سورة المائدة : آية ٧٤ .

(٣) سورة النساء : الآيتان : ١٧ – ١٨ .

(٤) سورة الفرقان : الآية ٧١ .

(٥) سورة غافر : الآية ٧ .

(٦) سورة الفرقان : الآية ٧ .

(٧) سورة الزمر : الآية ٥٣ .

(٨) ،سورة نوح : الآية ١٠ .

(٩) سورة هود : الآيتان ٣ – ٤ .

حقيقـة التوبـة

قال الغزالى : التوبة عبادة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور : علم وحال وفعل .

أما العلم معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم القلب بسبب فوات المحبوب فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت محبوبه ندماً إذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابساً له وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر وأما بالماضى فيتلاقى مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر ، فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم والإيمان واليقين فان الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرف على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب بحيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان فى ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال والتلافى للماضى ثلاثة معان مرتبة فى الحصول ، بمنطلق اسم التوبة على مجموعها ، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالساق والمقدمة ، والترك كالثمرة . والتابع المتأخر وبهذا الإعتبار قال عليه الصلاة والسلام : « الندم توبة »[1] إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره وعن عزم يتبعه ويتلوه قيل فى حد التوبة إنه دومان الحشا لما سبق من الخطأ أو نار فى القلب تلتهب وصدع فى الكبد لا ينشعب أو خلع لباب الجفاء ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التسترى : التوبة تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال .

وأعلم أن وجوب التوبة ظاهر بقوله ﷺ من حديث مسلم : « يا أيها الناس توبوا إلى الله »[2] وقول الله تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[3].

وقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا** ﴾[4] والنصوح الخالص لله

---

(١) انظر مسند الإمام حـ ١ ص ٣٧٦ فقد ورد الحديث من رواية من ابن مسعود .

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٧٥ - ٢٠٧٦ « باب مستجاب الاستغفار والاستكثار منه » حديث رقم ٤٢ / ٢٧٠٣ من رواية لأبى بردة .

(٣) سورة النور : ٣١ .

(٤) سورة التحريم : آية ٨ .

تعالى الخالى من الشوائب ويدل على فضل التوبة قول الله تعالى : ﴿ **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين** ﴾[١].

قال الغزالى : وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسعى بنوره الذى بين يديه فى ظلمات الجهل ، مستغنيا عن قائد يقوده فى كل خطوة ، فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد فى خطوه ، وإما بصير يهدى إلى أول الطريق ثم يهتدى بنفسه . وكذلك الناس فى طريق الدين إما قاصر يفتقر إلى سماع نص من كتاب الله وسنة رسوله ، أو سعيد يتنبه بأدنى إشارة لسلوك طريق معوصه وقطع عقبات متعبة ويشرق فى قلبه نور الإيمان . ثم قال : معنى التوبة الرجوع عن الطريق المبعد عن الله المقرب إلى الشيطان ، ولا يتصور إلا من عاقل ولا تكمل غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة التى هى وسائل الشيطان إلى إغراء الإنسان والشهوات جنود الشيطان ، والعقول جنود الملائكة وتكمل الشهوات فى الصبا والشباب فإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات الملازمة للإنسان كما حكى الله تعالى عن إبليس ﴿ **لأحتنكن ذريته إلا قليلاً** ﴾[٢] وقد قيل :

فلا تحسبى هنداً لها العذر وحدها ... سجية نفس كل غانية هند

فالتوبة فرض عين فى حق كل شخص . وكل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد فى القرآن والاخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم ، فإن خلا فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب أو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، أو لا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نقص ولهذا قال عليه الصلاة والسلام « إنه ليغان على قلبى وإنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة »[٣] الحديث . ولهذا أكرمه الله تعالى : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾[٤] الفتح .

وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره ؟

وفى بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب :

أولاً : الإصرار والمواظبة .

ثانياً : وأن يستصغر الذنب .

---

(١) سورة البقرة : آية ٢٢٢ .

(٢) سورة الاسراء : آية ٦٢ .

(٣) أنظر كنز العمال حـ ١ ص ٤٧٦ فقد ورد الحديث برقم ٢٠٧٥ عن الأغر المزنى وانظر مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ٢٦٠ فقد ورد الحديث من رواية للأغر المزنى .

(٤) سورة الفتح : آية ٢ .

ثالثا : وأن يفرح بالصغيرة ويتيح بها .

رابعاً : وأن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإمهاله إياه كما قال تعالى : ﴿ **ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير** ﴾[1]

خامساً : أن يذكر الذنب بعد إتيانه أو يأتيه فى مشهد غيره .

سادساً : أن يكون المذنب عالماً يقتدى به .

وفى شروط التوبة :

١ – الندم : أى توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة وإنسكاب الدمع وطول البكاء والفكر .

٢ – أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغا قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع .

وفى بيان أقسام العباد فى دوام التوبة :

أولاً : أن يتوب العاصى ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه وتسمى التوبة النصوح .

ثانياً : تائب سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وترك كبار الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوبه ، يقترفها لا عن عمد وتجريد قصد ولكن يبكي بها ثم يندم وتسمى النفس اللوامة والأولى النفس الساكنة المطمئنة الراضية ، قال تعالى : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة** ﴾ من سورة النجم آية ٣٢ .

ثالثاً : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه الشهوة فى بعض الذنوب فتقدم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة ألا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة ، والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان ، وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها . وعند الفراغ يتندم وتسمى النفس المسولة ، وصاحبها من الذين قال الله فيهم ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ سورة التوبة آية ١٠٢ .

رابعاً : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك تنهماك الغافل فى اتباع شهواته ، فهذا من جملة المصرين وهذه النفس هى الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الخاتمة : وأمره فى مشيئة الله تعالى نسأل الله حسن الخاتمة .

ثم بين الغزالى أن الحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب بالتضرع إلى الله تعالى فى

(١) سورة المجادلة : آية ٨ .

سؤال المغفرة والعفو ، ويتذلل تذلل العبد الآبق ونعيم الخير للمسلمين والعزم على الطاعات ، وإما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار ، فيقول : ربى ظلمت نفسى وعملت سوءاً فاغفرلى ذنوبى ويكثر من ضروب الاستغفار ، وإما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات ، وفى الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوا :

أربعة من أعماق القلب وهي : التوبة أو العزم على التوبة ، وجب الإقلاع عن الذنب ، ويخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة له .

وأربعة من أعمال الجوارح وهى : أن تصلى عقب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة . وتقول : سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تتصدق بصدقة ، ثم تصوم يوما .

وفى بعض الآثار تسبغ الوضوء . وتدخل المسجد وتصلى ركعتين .

وفى بعض الأخبار تصلى أربع ركعات .

وكان بعض الصحابة يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا ، وبقى الاستغفار معنا فإن ذهب هلكنا ، قال تعالى : ﴿ **وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** ﴾ . سورة الأنفال آية ٣٣ .

فوائد التوبة كما قال ﷺ

١ – يتجلى الله تعالى على التائب برضوانه وإحسانه « يبسط يده » .
٢ – تفتح له أبواب رحماته فتدركه نعمه « باب مفتوح » .
٣ – تدل توبته على سعادته وإنعامه وقبوله .
٤ – يعد من خير الناس التواب .
٥ – يسعه حلم الله وعفوه « غفرت لعبدى » .
٦ – ويجلى قلبه بالتوبة ويزيل الصدأن « ألران » .
٧ – يدخل فى الصالحين الذين زهدوا فى الذهب واختاروا التوبة « الصفا ذهبا » .
٨ – يغير التائب صحائف أعماله بأحسن منها بتشييد الصالحات والمحامد « فأحدث توبة » .
٩ – يأمل التائب أن ينال من خيرات الله وكراماته « النادم يتنظر » .
١٠ – ربما تصادفه العناية بالسعادة بسبب التوبة فيدخل الجنة « الكفل » .
١١ – قد تكون العزيمة مسببة لغفران الكبائر « قاتل مائة » .
١٢ – يحظى بفرح ربه به « لله أفرح » .

١٣– يقبل الله تعالى على التائب أضعاف أضعاف إقبال عبده عليه بطاعته « أهرول »

١٤– يوسع التائب على نفسه ويزيل الضيق ويذهب الهم ويبعد الكروب « عمل حسنة فانفكت حلقة » .

١٥– يعمل التائب بسنة رسول الله ﷺ وبوصيته « إن أسأت فأحسن » وقد سمى علماء الصوفية النفس بحسب قربها إلى ربها بالطاعة وإخلاص العبادة والاستقامة :

(أ) المطمئنـــة (ب) اللوامـــة

(جـ) المسـولة (د) الأمـارة بالسـوء

هل تجدد معى التوبة لله ونعزم على طاعة الله والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ رجاء أن يقبلنا الله الذى غمرنا بنعمائه ، وحبانا بأفضاله ، الجدير بعبادته والإخلاص له والخوف منه كما قال تعالى : ﴿ **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم * قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون * قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾[1].

المعنى : ﴿ **مكباً** ﴾ : يعثر كل ساعة ويعصى ربه كل وقت ويخر على وجهه صاغرا غير معتمد على ربه الرزاق . ﴿ **سوياً** ﴾ : مطيعاً قائماً على الحق مرتكنا إلى القوى ربه . سالما من الأخطاء ، وتكرم الخالق جل وعلا بخلق الحواس لتنتفعوا بها فتسمعوا المواعظ وتنظروا صنائعه فتجلوه بحق وتتفكروا فى بدائع خلقه فتعتبروا وتتوبوا ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين** ﴾[2].

الترغيب فى الفراغ للعباده والإقبال على الله تعالى والترهيب من الاهتمام بالدنيا والانهماك عليها

١ – عن معقل بن يسار – رضى الله عنه – قال : « قال رسول الله ﷺ : يقول ربكم : يا ابن آدم تفرغ لعبادتى املأ قلبك غنى واملأ يدك رزقا . يا ابن آدم لا تباعد منى فأملأ قلبك فقرا واملأ يدك شغلا »[3]. رواه الحاكم وقال : صحيح الاسناد

المعنى : [يا ابن آدم] : يخاطب الله تعالى الإنسان الذى ركب عقلا يرشده إلى صالحه ومعاشه ومعاده وسعادته .. [تفرغ لعبادى] : تخل لطاعتى والعمل لى وابذل طاقتك فى رضاى ووقتك فى خدمتى . [أملأ قلبك غنى] : قناعة وبسطة ورخاء وسعة . [أملأ يدك رزقاً] :

(١) سورة الملك الآيات : ٢٢ ٢٤ .

(٢) سورة الملك : الآية ٢٥ .

(٣) أنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٤ ص ٣٢٦ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية معقل بن يسار وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

نعما : أى أكثر عليك الخير وأوفر لك الحاجات الكثيرة التى يهمك أمرها فى الدنيا فتشعر بكل سرور . [لاتتباعد] : أى لاتعصى أوامرى ولا تستعمل الفجور والطمع . [أملأ يدك شغلا] : أجعل أعمالك كثيرة بلا فائدة ، وأسلط عليك الدنيا تسخرك بجشعها .

٢ – وعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : تلا رسول الله ﷺ : « من كان يريد حرث الآخرة » الآية : قال : يقول الله : ابن آدم تفرغ لعبادتى أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلا ولم أسد فقرك(١). **رواه ابن ماجه والترمذى** ، واللفظ له ، وقال : حديث حسن وابن حبان فى صحيحه باختصار إلا أنه قال : ملأتُ يدك شغلا ، والحاكم والبيهقى فى كتاب الزهد وقال الحاكم : صحيح الاسناد .

المعنى : الآية : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب** ﴾ سورة الشورى آية ٢٠ ثوابها ، شبهن بالزرع من حيث أنه فائدة تحصل بعمل الدنيا ، ولذلك قيل الدنيا مزرعة الآخرة ، والحرث فى الأصل : إلقاء البذر فى الأرض ويقال للزرع الحاصل منه ﴿ **نزد** ﴾ نعطه بالواحد عشراً إلى سبعمائة مما فوقها ﴿ **نؤته منها** ﴾ أى : من الدنيا شيئا على حسب ما قسمناه له ، وليس له فى آخرته أجراً على أعماله إذ الأعمال بالنيات ا.هـ بيضاوى . وقال النسفى : ﴿ **نزد له فى حرثه** ﴾ بالتوفيق فى عمله ، أو التضعيف فى إحسانه ، أو بأن ينال به الدنيا والآخرة . وماله نصيب قط فى الآخرة . ﴿ **الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز** ﴾ سورة الشورى آية ١٩ فى إيصال المنافع وصرف البلاء من وجه يلطف إدراكه وهو بليغ البر بهم قد توصل بره إلى جميعهم وقيل : هو من لطف بالغوامض علمه وعظم من الجرائم حلمه ، أو من ينشر المناقب ويستر المثالب أو يعفو عمن يهفو ، أو يعطى العبد فوق الكفاية ، ويكلفه الطاعة دون الطاقة وعن الخبير لطف بأوليائه فعرفوه ، ولو لطف بأعدائه ما جحدوه ا.هـ نسفى . [ملأت صدرك شغلا] : أعمالا تفكر فى أدائها بلا ثمرة .

٣ – وعن أبى الدرداء – رضى الله عنه – عن النبى ﷺ قال : ما طلعت شمس قط إلا بُعث بجَنْبيها ملكان إنهما ليُسَمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يأيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألْهَى وما غربت شمس قط ! إلا وبجنبتيها ملكان يناديان : اللهم عجل لمنفق خلفاً وعجل لممسك تلفا (٢). رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه والحاكم واللفظ له . وقال : صحيح الاسناد ورواه البيهقى من طريق الحاكم ، ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : « ما من يوم طلعت شمسه إلا وكان بجنبيتها ملكان يناديان نداء يسمعه ما خلق الله كلهم غير الثقلين : يأيها الناس هلموا إلى ربكم إن ماقل وكفى خير مما كثر وألهى ولا آبت

(١) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٦ حديث رقم ٤١٠٧ من رواية لأبى هريرة
وأنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٢ ص ٤٤٣ مقدور الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٢) أنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٢ ص ٤٤٥ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبى الدرداء وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

الشمس إلا وكان بجنبيتها ملكان يناديان نداء يسمعه خلق الله كلهم غير الثقلين : اللهم أعط منفقا خلفاً وأعط ممسكاً تلفاً وأنزل الله عز وجل فى ذلك فى قول الملكين : **يأيها الناس هلموا إلى ربكم** ﴿ **والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾[1] وأنزل الله فى قولهما : « اللهم اعط منفقاً خلفاً وأعط ممسكاً تلفا » : ﴿ **والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى وما خلق الذكر والأنثى إلى قوله : للعسرى** ﴾ .

المعنى : [الثقلين] : الانس والجن . [هلموا إلى ربكم] : اقبلوا عليه بالطاعات . [ألهى] : شغل عن العبادة . [اللهم عجل لمنفق خلفاً] : الجواد كريم عوضاً وسعة وبسطة رزق . [وعجل لممسك تلفاً] : لبخيل شحيح خسارة وتلفا .

النبى ﷺ يخبر أن من ملائكة الرحمة اثنين يدعوان جل وعلا صباح مساء أن يخلف على الجواد ويعطى المحسن ويزيد فى رزق المتصدق الكريم ويبارك فى نعمه وفى أولاده ويعاقب البخيل بإقلال رزقه وينزع البركة مما أعطى ويصيبه التلف والدمار والبوار كما قال تعالى فى حكاية رجلين من بنى اسرائيل ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطرا فاشترى الكافر بها ضياعاً وعقاراً وصرفها المؤمن فى وجوه البر أو فى أخوين من بنى مخزوم : كافر وهو الأسود بن عبد الأشد ، ومؤمن وهو أبو سلمة عبد الله زوج أم سلمة يقل رسول الله ﷺ ﴿ **واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحدا** ﴾[2]

فالأول بخيل مقصر فى حقوق الله وفى وجوه الإحسان فسلط الله عليه الآفات فأهلكت ثمراته . المثل الثانى بستان نضير وحديقة فيحاء غناء لرجل صالح بصنعاء على بعد فرسخين منها يكرم الفقراء لله تعالى فورثه بنوه فضننوا على المساكين وقالوا لو فعلنا كأبينا ضاق علينا الأمر وحلفوا بالله ليقطعن الثمرة مبكرين ولم يستثنون والأمر للرازق الواحد القهار . كما قال تعالى في سورة القلم ﴿ **إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين (١٧) ولا يستثنون (١٨) فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون (١٩) فأصبحت كالصريم (٢٠)** ﴾ أى كالبستان الذى قطع ثماره بحيث لم يبق فيه شيء . هذان مثلان فى القرآن الكريم يضربهما الله للأغنياء أصحاب الثروة الواسعة رجاء أن يجودوا بمالهم وينفقوا فى وجوه البر وتشييد الصالحات وإلا تسلب منهم هذه النعم وتفنى الأموال وتزول الثروة :

حليف الندى يدعو الندى فيجيبه ... قريباً ويدعو الندى فيجيب
هو العسل الماذى لينا وشيمة ... وليث إذ يلقى العدو غضوب
جليم إذا ما سورة الجهل أطلقت ... حبى الشيب للنفس اللجوج غلوب

(١) يونس آية : ٢٥ .
(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٤٢ .

فتـى أريحـى كان يهتـز للنـدى كمـا اهتـز ماضـى الشفـرتين قضيب

[والله يدعو إلى دار السلام] : قال النسفى : دار السلام الجنة ، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها أو السلام السلامة لأن أهلها سالمون من كل مكروه وقيل : لفشوا السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم ، إلا قيلا سلاما سلاما . [يهدى] : يوفق إلى الإسلام أو طريق السنة فالدعوة عامة على لسان رسول الله ﷺ بالدلالة والهداية خاصة من لطف المرسل بالتوفيق والعناية ، والمعنى يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ولا يدخلها إلا المهديون . ﴿ **الذين أحسنوا الحسنى** ﴾ للذين آمنوا بالله ورسوله المثوبة الحسنى وهى الجنة ﴿ **وزيادة** ﴾ رؤية الرب عز وجل وقيل الزيادة : المحبة فى قلوب العباد ، وقيل الزيادة : مغفرة من الله ورضوان ﴿ **ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة** ﴾ ولا يغشى وجوههم غبرة فيها سواد ولا أثر هوان والمعنى ولا يرهقهم ما يرهق أهل النار ا.هـ

﴿ **والليل إذا يغشى (١) والنهار إذا تجلى (٢) وما خلق الذكر والانثى (٣) إن سعيكم لشتى (٤) فأما من أعطى واتقى (٥) وصدق بالحسنى (٦) فسنيسره لليسرى (٧) وأما من بخل واستغنى (٨) وكذب بالحسنى (٩) فسنيسره للعسرى (١٠)** ﴾ سورة الليل .

المعنى : مساعيكم فى الدنيا مختلفة هذا يعمل لله وذا للربا أعطى الطاعة واتقى المعصية ، وصدق بالكلمة الحسنى ، وهى مادلت على حق الكلمة كتوحيد ووصلت إلى خير فسنهيىء له طريق الجنة واليسر والسعادة . وهذا (بخل) بما أمر بهوشح في الواجبات واستلذ بالشهوات وناء عن البر بجانبه بالموبقات وابتعد عن الصالحات الموصلة إلى حسن العقبى ونعيمها (العسرى) نوصله إلى ما يتمنى من العسر والضيق والشدة لميله إلى ملذاته .

٤ – وروى عن أبى الدرداء ــ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « تفرغوا من هموم الدنيا ما استطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله عز وجل له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، وما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود والرحمة وكان الله بكل خير إليه أسرع »[1]. رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط والبيهقى فى الزهد

المعنى : [ما استطعتم] : بقدر استطاعتكم بكبح جماح النفس عن المعاصى وشره جمع المال بلا حق . [من كانت الدنيا أكبر همه] : نهاية ما يرجوه من كده وزع الله طلباته الجمة ونشر حاجاته وأكثر جشعه وشره . [جعل فقره بين عينيه] : مهما أعطى من المال يتخيل له الفقر والدعة والذل . [من كانت الآخرة أكبر همه] : يوم القيامة فيعمل لحسابه كما قال تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا (١٨) ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً (١٩) كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء**

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٤٧ فقد أورد الحديث من رواية لأبى الدرداء وقال : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه مهر بن سعيد بن حسان المصلوب وهو كذاب .

ربك وما كان عطاء ربك محظوراً (٢٠) انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا (٢١) ﴾ سورة الإسراء .

﴿ **ما نشاء** ﴾ بإرادة الله لا ما يشاء ذلك الطماع الشره . قال النسفى : أى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة تفضلنا عليه من منافعها بما نشاء لمن نريد نقيد المعجل بمشيئته والمعجل له بإرادته وهكذا الحال ترى كثيرا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضا منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة ، وأما المؤمن التقى فقد اختار غنى الآخرة فإن أوتى حظاً من الدنيا فيها وإلا فربما كان فى الفقر خيرا له . ﴿ **يصلاها** ﴾ يدخلها ﴿ **مذموما** ﴾ ممقوتا . ﴿ **مدحورا** ﴾ مطرودا من رحمة الله ﴿ **مؤمن** ﴾ مصدق لله فى وعده ووعيده ﴿ **مشكورا** ﴾ مقبولا عند الله تعالى مثاباً عليه . عن بعض السلف : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب وتلا الآية فإنه شرط فيها ثلاث شرائط فى كون السعى مشكوراً إرادة الآخرة والسعى فيما كلف ، والايمان الثابت ا.هـ . [جعل غناه فى قلبه] : رزقه القناعة والرضى والسرور بكل ما ينال والاستبشار وانتظار الفرج ويزول عنه اليأس . [جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه] : تقبل عليه وتزوره وتحبه وتساعده على مهام أموره فتروج تجارته وبذاع صيته وينتشر ذكره الطيب ويتبرك به ونهاية الحكام وتخشى سطوته الأشرار . وقد شاهدت رجلا صالحاً عالماً احترمه الناس لعمله الصالح ويجلوه فاهتدوا بأنواره ووثقوا بأقواله وكان حجة ثبتاً نبراساً منيراً فى دياجى الشبهات وحاول الأشرار أن يؤذوه وأطلقوا عليه من بنادقهم ناراً فحماه الله ووقاه ومرت الرصاصة بجوار أذنه سالما وبعد حين وقع المجرمون فى حادثة بعيدة منه فنالوا جزاءهم وأخذوا عقابهم الصارم . [كان الله عز وجل بكل خير إليه أسرع] : يوصل إليه أنواع البر والبركات بسرعة عاجلة .

٥ – وعن زيد بن ثابت – رضى الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ماكتب له ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة »[1]. رواه ابن ماجه ورواته ثقات ، والطبرانى ، ولفظه :

قال رسول الله ﷺ : « إنه من تكن الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه ، ويشتت عليه ضيعته ، ولا يأتيه منها إلا ما كتب له ، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه فى قلبه ، ويكفيه ضيعته وتأتيه الدنيا وهى راغمة »[2] . رواه فى حديث بإسناد لا بأس به ورواه ابن حبان فى صحيحه بنحوه وتقدم لفظه فى العلم .

---

(١) أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٥ باب الهم لدنيا حديث رقم ٤١٠٥ فقد أورد الحديث من رواية زيد بن ثابت وقال : فى الزوائد : إسناده صحيخ ، رجاله ثقات .

(٢) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٤٧ فقد أورد الحديث من حديث طويل لزيد بن ثابت ، وقال روى ابن ماجه بعضه – رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله وثقوا .

﴿ قوله : شتت عليه ضيعته ﴾ بفتح الضاد المعجمة وإسكان المثناة تحت : معناه فرق عليه حاله وصناعته ومعاشه وماهو مهتم به وشعبه عليه ليكثر كده ويعظم تعبه .

المعنى : [الدنيا همه] : جمع المال مقصده بلا إيجاد عمل صالح فى سعيه . [الآخرة نيته] : نهاية مايرجو فى حياته فيكثر من طاعة الله ابتغاء ثوابه . [أتته الدنيا وهى راغمة] : أقبلت عليه النعم الجمة مساقة منقادة قال فى النهاية : لما كان العاجز الذليل لا يخلو من غضب قالوا ترغم إذا غضب وراغمه إذا غاضبه . وقد فسر حديث أسماء « إن أمى قدمت على راغمة مشركة أفاضلها قال نعم » تريد أنها قدمت على غضبى لإسلامى وهجرتى متسخطة لأمرى أو كارهة مجيئها إلى لولا مسيس الحاجة وقيل : هاربة من قومها من قوله تعالى : ﴿ **يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة** ﴾ : أى مهربا ومتسعا فأنت ترى بشرى من رسول الله ﷺ للصالح التقى المؤمن العابد أن يبسط الله له رزقه ويجعل عيشه رغدا وييسر أموره ويقضى آماله ويذلل له مصاعب الدنيا فتكون له سهلة :

إذا صح عـــون الخالـــق المرء لم يجد عسيرا من الآمـــال إلا ميســـرا

٦ - وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه وجمع له شمله وأتته الدنيا وهى راغمة ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »[(١)]. رواه الترمذى عن يزيد الرقاشى عنه ويزيد قد وثق ولا بأس به فى المتابعات ورواه البزار ولفظه قال رسول الله ﷺ : « من كانت نيته الآخرة جعل الله الغنى فى قلبه وجمع له شمله ونزع الفقر من بين عينيه وأتته الدنيا وهى راغمة فلا يصبح إلا فقيرا ولا يمسى إلا فقيرا . ورواه الطبرانى بلفظ تقدم فى الاقتصاد .

٧ - وعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها[(٢)]. رواه أبو الشيخ بن حبان والبيهقى من رواية الحسن عن عمران واختلف فى سماعه منه .

المعنى : [وكَلَهُ الله إليها] : أى : تركه بلا مساعدة لتشغله الدنيا وتسخره وتستخدمه .

٨ - وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « من جعل الهموم همًّا واحداً كفاه الله هم دنياه ومن تشعبته الهموم لم يُبَال الله فى أى أودية الدنيا هلك »[(٣)] . رواه الحاكم والبيهقى من

(١) أنظر سنن الترمذى المجلد الرابع ص ٥٧ حديث رقم ٢٥٨٣ فقد أورد الحديث بلفظه عن يزيد بن أبان — وهو الرقاش — عن أنس بن مالك .

(٢) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٣٠٣ باب ما جاء فى العزلة فقد أورد الحديث من رواية عمران بن حصين وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه إبراهيم بن أشعث صاحب الفضيل وهو ضعيف ، وقد ذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : يقرب ويخطئ ويخالف ، وبقية رجاله ثقات .

(٣) أنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٢ ص ٤٤٣ فقد أورد الحديث من رواية لابن عمر وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وأنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٥ حديث رقم ٤١٠٦ فقد أورد الحديث من رواية ابن مسعود .

طريقه وغيرها وقال الحاكم : صحيح الاسناد ورواه ابن ماجه فى حديث عن ابن مسعود .

المعنى : [من جعل الهموم هماً واحداً] : الكد والتفكير لطلب شيء واحد وهو إرضاء الله جل وعلا وحده والسعى لطاعته والعمل له بإخلاص . [كفاه الله هم دنياه] : حفظه الله من جميع الهموم ووقاه وأبعد عنه مشاغل الدنيا . [تشعبته الهموم] : فرقته وشغلته كثرة الحاجيات قال الشاعر أبو الحسن التهامى :

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوا من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار
فالعمر نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال سار
فالدهر يخدع بالمنى ويعفى ان ... هنا ويهدم ما بنى ببوار
ليس الزمان وان حرصت مسالماً ... خلق الزمان عداوة الأصرار
ثوب الرياء يشف عما تحته ... وإذا التحفت به فإنك عار
شيئان ينقشعان أو لوهلة ... ظل الشباب وخلة الاشرار

الدنيا كثيرة المناجى متفرقة الحاجات وهمومها جمة ودواؤهما التقوى وحب العمل الصالح للآخرة كما قال تعالى : ﴿ **وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب** ﴾ ١٩٧ من سورة البقرة .

٩ - وفى رواية عن ابن مسعود أيضا قال : سمعت نبيكم ﷺ يقول : « من جعل الهموم هما واحداً هم المعاد كفاه الله هم دنياه ومن تشعبت به الهموم أحوال الدنيا لم يبال الله عز وجل فى أى أوديته هلك »[1].

المعنى : [هم المعاد] : نشر الخلائق ووجودهم للحساب ، ولجرير يمدح عمر بن عبد العزيز :

يعود الفضل منك على قريش ... وتفرج عنهم الكرب الشدادا
وقد أمنت وحشتهم برفق ... ويعيى الناس وحشك أن يصادا
وتدعو الله مجتهدا ليرضى ... وتذكر فى رعيتك المعادا

فسيدنا عمر يتقى الله ويعمل صالحاً ليوم القيامة ويخاف سؤال الله فى الرعية التى يدير أمورها .
[تشعبت به الهموم أحوال الدنيا] : تنتابه الوساوس وتكثر الأفكار المبعدة عن الله تعالى فيحرم من توفيق الله تعالى له فيضل ويخطىء ويسخره الشيطان للغواية .

(١) انظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٥ حديث رقم ٤١٠٦ .

١٠ – وروى عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من أصبح وهمه الدنيا فليس من الله فى شىء[1]. الحديث رواه الطبرانى .

المعنى : [وهمه الدنيا] : حبها وجمع المال لشهواتها وزخارفها وزينتها . [ليس من الله فى شىء] : فهو محروم من طاعة الله وليس له ثواب البتة .

١١ – وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « من أصبح حزينا على الدنيا أصبح ساخطاً على ربه »[2]. رواه الطبرانى .

المعنى : [حزينا] : كئيباً غضبان محملاً بأثقال الدنيا من كد وتعب من جراء حطامها وتقليل النعمة المتمتع بها والتكدير مما أصاب من خيرها وطلب الاستزادة وعدم حطامها وتقليل النعمة المتمتع بها والتكدير مما أصاب من خيرها وطلب الاستزادة وعدم القناعة . [ساخطا على ربه] : غير راض عن فعله يائساً من فرجه وروحه غير مستسلم لقضائه وقدره . ففيه أن يقنع ويحمد الله على ما أعطى ويشكر له فضله ويطلب الهداية ووضع البركة فيما منح عاملا يقول الامام على كرم الله وجهه :

وان ضاق رزق اليـــوم فاصبر إلى غد عسى نكبـــات الدهــــر عنك تزول

يريد النبى ﷺ أن يعلم المسلمين القناعة والرضا ومقابلة الشدائد بصدر رحب وثغر باسم ، ولا يفكر فى هموم الدنيا لحظة فإن مع العسر يسرا .

عســى الكــرب الـذى أمسيته فيـــه يكـــون وراءه فـــرج قـــريب

الثمرات التى يجنيها المطيع ربه سبحانه وتعالى

أولا : يملأ الله فؤاده سروراً وغنى وقناعة (تفرغ)

ثانيا : يقيه عاديات الزمان ويبعد عنه هموم الدنيا .

ثالثا : يكتسب رضا الله ودعوات الملائكة الصالحة (هلموا) .

رابعا : يبسط الله له رزقه ويمد له المعونة ويهب له الصحة التامة والنعمة العامة (كفاء الله) .

خامساً : يزيل عنه الأكدار ويرضيه ويفتح له طريق السعادة والسيادة لأنه عبد ﴿ **العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد** ﴾ ٩ من سورة البروج .

---

(١) انظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٤٨ باب فيمن أحب الدنيا فقد أورد الحديث بلفظه ضمن حديث طويل وقال : رواه الطبرانى وفيه يزيد بن ربيعة الرحبى وهو متروك .

(٢) انظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٤٨ باب فيمن أحب الدنيا فقد أورد الحديث بلفظه من حديث طويل لأنس بن مالك وقال رواه الطبرانى فى الصغير وفيه وهب بن راشد البصرى صاحب ثابت وهو متروك .

الآيات القرآنية الذامة الدنيا الحاثة على طاعة الله

(أ) قال الله تعالى : ﴿ قُل مَتَاعَ الدُّنْيَا قَلِيل وَالآخِرَةُ خَيْر لمن اتقَى وَلَاتُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴾ ٧٧ من سورة النساء ﴿ قليل ﴾ سريع التقضى . ولاتنقصون أدنى شيء من ثوابكم فلا ترغبوا عنه .

(ب) وقال تعالى : ﴿ ولله مافى السَّمٰوَاتِ وَمَافِي الأَرْضِ وكان الله بكل شيْءٍ محُيطاً ﴾ ٢٦ من سورة النساء

(جـ) وقال تعالى : ﴿ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ . ١٣٤ من سورة النساء .

﴿ ولله مافى السموات ومافى الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وان تكفروا فإن الله مافى السموات ومافى الأرض وكان الله غنياً حميداً (١٣١) ولله مافى السموات ومافى الأرض وكفى بالله وكيلا (١٣٢) إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين * وكان الله على ذلك قديرا (١٣٣) ﴾ . من سورة النساء .

(د) وقال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث * ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب (١٤) قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله * والله بصير بالعباد (١٥) الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار (١٦) الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار (١٧) ﴾ من سورة آل عمران .

﴿ المآب ﴾ أى المرجع وهو تحريض على استبدال ما عنده من اللذات الحقيقية الأبدية بالشهوات الفانية ، سبحانه يثب المحسن ويعاقب المسيء ، خبير بأحوال خلقه .

(هـ) وقال تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (٢٠) سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٢١) ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير (٢٢) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور (٢٣) الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد ﴾ (٢٤) من سورة الحديد .

(و) وقال تعالى : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم (٦٥) فاتقوا الله ما استطعتم

واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون (٦٦) ﴾ من سورة التغابن .

(ز) وقال تعالى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا (١٦) والآخرة خير وأبقى (١٧) إن هذا لفى الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى (١٩)** ﴾ من سورة الأعلى .

(حـ) وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً * إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٣٣)** ﴾ من سورة لقمان .

﴿ **لايجزى** ﴾ : لايقضى عنه . ﴿ **وعد الله** ﴾ : ثوابه وعقابه لا يمكن خلفه . ﴿ **الغرور** ﴾ : الشيطان بأن يرجيكم التوبة والمغفرة فيجرئكم على المعاصى .

الترغيب فى العمل الصالح عند فساد الزمان

١ - عن أبى أمية الشعبانى قال : سألتُ أبا ثعلبة الخشبى قال : قلت يا أبا ثعلبة تقول فى هذه الآية : ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ ؟ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وانتهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن مثل القبض على الجمر للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عملكم »(١). رواه ابن ماجه والترمذى وقال : حديث حسن غريب ، وأبو داود وزاد : قيل يا رسول الله : أجر خمسين رجلا منا أو منهم ؟ قال : أجر خمسين منكم .

المعنى : [خبيرا] : استفهمت من رجل بصير ثقة ثبت . [ائتمروا بالمعروف] : أى فليظهر كل منكم النصيحة لأخيه ويتشاور وليأمر بالمعروف ، وفى الغريب والائتمار قول الأمر ، ويقال للتشاور ائتمار لقبول بعضهم أمر بعض فيما أشار به ، قال تعالى : ﴿ **إن الملأ يأتمرون بك** ﴾ ا.هـ ، وقوله تعالى : ﴿ **وائتمروا بينكم بمعروف** ﴾ أى وليأمر بعضكم بعضاً بجميل الأفعال وحميد الخصال . [انتهوا عن المنكر] : ابتعدوا عن الموبقات واحجزوا أنفسكم عن القبائح . [شحا مطاعاً] : تقصيرا فى الواجبات وبخلا متبعاً وتقتيراً . [هوى متبعاً] : نفوساً مائلة إلى الشهوات . [دنيا مؤثرة] : مختارة محبوبة مقدمة على الآخرة بالميل فيها إلى الترف والدنايا والفجور . [**فعليك بنفسك**] : أى أصلح نفسك وكملها بآداب الدين واعمل صالحاً إذا فشا بخل الناس وكثرت المعاصى

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٣٢٣ « تفسير سورة المائدة » حديث رقم ٥٠٥١ فقد أورد الحديث من رواية لأبى أمية ، وقال : هذا حديث حسن غريب .

وأنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ صـ ١٣٣٠ - ١٣٣١ حديث رقم ٤٠١٤ فقد أورد الحديث عن أبى أمية بألفاظه مختلفة .

ومال الناس إلى حب الدنيا ولم يعملوا للآخرة . [دع عنك العوام] : اترك الناس . [ورائكم أيام الصبر] : إزاء هذا الصبر وحبس النفس على طاعة الله تعالى الأعلى : أى الرفيع سلطانه المنيع فى شأنه القوى القاهر المعبود بحق الصمد كما قال الله تعالى لحبيبه ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى** ﴾ ٤ من سورة **الضحى** . أى ما أعد الله لك فى الآخرة من المقام المحمود والحوض المورود والخير الموعود ، خير لك مما أعجبك فى الدنيا . هذا درس لنا يرغبنا الله فى الأعمال الصالحة اتقاء القارعة ﴿ **يوم يكون الناس كالفراش المبثوث (٤) وتكون الجبال كالعهن المنفوش (٥) فأما من ثقلت موازينه (٦) فهو فى عيشة راضية (٧) وأما من خفت موازينه (٨) فأمه هاوية (٩) وما أدراك ماهيه (١٠) نار حامية (١١)** ﴾ من سورة القارعة . الفراش الحشرات . قال النسفى : شبههم بالفراش فى الكثرة والانتشار والضعف والذلة والتطاير إلى الداعى من كل جانب كما يتطاير الفراش إلى النار ا.هـ . ﴿ **العهن** ﴾ : الصوف المصبوغ بالألون ﴿ **المنفوش** ﴾ : المتفرق أجزاؤه .

الصبر فيهن مثل القبض على الجمر : أى كبح جماح النفس عن المعاصى صعب مر ومحرق مثل القبض على النار ، ولكن فى ذلك ثوابا لمن اتقى الله واجتذب صحبة الفساق والأشرار فالعابد يعطيه الله أجر خمسين من عمل مثله ففيه الترغيب فى اجتناب المعاصى مهما زاد روادها وكثر الداعون لها كما قال تعالى : ﴿ **ألهاكم التكاثر (١) حتى زرتم المقابر (٢) كلا سوف تعلمون (٣)** ﴾ من سورة التكاثر .

أى شغلكم التبارى فى الكثرة والتباهى بها فى الأموال والأولاد عن طاعة الله حتى أدرككم الموت . ﴿ **كلا** ﴾ ردع وتنبيه على أنه لا ينبغى للناظر لنفسه أن تكون الدنيا جميع همه ولا يهتم بدينه . ﴿ **سوف تعلمون** ﴾ عند النزع سوء عاقبة ما كنتم عليه ثم فى القبور ثم لتسألن عن الأمن والصحة فيم أفنيتموها .

٢ – وعن معقل بن يسار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « العبادة فى الهرج كهجرة إلىَّ » . رواه مسلم والترمذى وابن ماجه(١)

[الهرج] : هو الاختلاف والفتن وقد فسر فى بعض الأحاديث بالقتل لأن الفتن والاختلاف من أسبابه فأقيم المسبب مقام السبب .

المعنى : [عبادة فى الهرج كهجرة إلىَّ] : أى طاعة الله واتباع أوامره والعمل بكتابه وسنة حبيبه ﷺ أثناء انتشار المعاصى مثل مفارقة وطنه واتباع رسوله ﷺ والسكن بجواره والقرب منه والعمل بشرعه واقتفاء أثره .

---

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٢٦٨ حديث ١٣٠ / ٢٩٤٨ من رواية لمعقل بن يسار أنظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣١٨ حديث رقم ٣٩٨٥ من رواية لمعقل بن يسار .

(أ) قال الله تعالى : ﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون** ﴾ . ٢٣ من سورة الأنعام .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾ ٣٤ من سورة يونس أى حال الدنيا العجيبة فى سرعة تقضيها وذهاب نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها ﴿ **زخرفها** ﴾ حسنها وبهجتها . ﴿ **حصيدا** ﴾ شبيها بما جنى وقطع كان لم يفن زرعها : أى لم يلبث . وشاهدنا إسراع المؤمن فى اكتساب العبادة خشية ذهاب زهرة الدنيا بموته .

آية ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ درس تربية وتكميل

ما أجمل معنى هذه الآية ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ تطلب من الإنسان أن يكمل نفسه ويؤدبها ويقبل على تعاليم ربه فيعمل بها ويعكف على التفقه فى السنة والتفهم فى الدين لتثمر دوحة عرفانه وتشرق شمس فعله وضاءة وضاحة الجبين .

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته ... أتطلب الربح فيما فيه خسران

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ماذا ينتظر الإنسان فى حياته ؟ ينتظر أن يعمل صالحاً فيرضى ربه فيهدأ باله ويرتاح ضميره وبعد الآية تقرأ حديث رسول الله ﷺ تجد إرشاداً إلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل واتباع النصائح ، واجتناب القبائح والتوصية بالحق والصبر وترك ميدان الجهلة تسرح وتمرح كالسائمة وعدم مجاراة العصاة الطغاة والإقبال على الطاعات فالله تعالى يقول : ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ فإذا أطاع العبد ربه سلم من العقاب ونال الثواب ، وربما صار قدوة حسنة وهداية ونبراساً لأهل زمانه وقد وعد ﷺ العابد العامل أن له أجراً مضاعفاً من الله جل جلاله ، مثل أجر أصحابه وأتباعه ﴿ **أجر خمسين منكم** ﴾ أى أيها الصحابة الأجلاء . لماذا ؟ لأنه فى وقت فشت فيه المعصية وضل عامة الناس وساء العمل . وازداد الفسوق . وعم الترف وكثرت الشهوات فلا حول ولا قوة إلا بالله : إن هذه الآية تطلب من كل فرد أن يصلح نفسه لتسعد الأمة ، وتتقدم إلى ذروة العلا وتنبه الوعاظ والعلماء أن يكونوا أسوة حسنة وعنواناً للأعمال الصالحة :

لو أنصف الناس استراح القاضى ... وبات كل عن أخيه راضى

قال أبو الأسود الدؤلى يصف أحوال الناس ويطلب من القادة العمل وتهذيب النفس وتأديبها :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم
وترى اللبيب محسدا لم يجترم ... شتم الرجال وعرضه مشتوم
وكذاك من عظمت عليه نعمة ... حساده سيف عليه صبروم
فاترك مجاراة السفيه فإنها ... ندم وغب بعد ذاك وخيم
فإذا جريت مع السفيه كما جرى ... فكلا كما فى جريه مذموم
وإذا عتبت على السفيه ولمته ... فى مثل ما تاتى فأنت ظلوم
يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم
نصف الدواء لذى السقام وذى الضنى ... كيما يصح به وأنت سقيم
وأراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبدا وأنت من الرشاد عديم
لاتنه عن خلق وتأتى مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا أنتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ماوعظت ويقتدى ... بالعلم منك وينفع التعليم
لا تكلمن عرض ابن عمك ظالماً ... فإذا فعلت فعرضك المكلوم
وحريمه أيضا حريمك فاحمه ... كيلا يباع لديك منه حريم
وإذا اقتصصتك من ابن عمك كلمة ... فكلومه لك إن عقلت كلوم
وإذا طلبت إلى كريم حاجة ... فلقاؤه يكفيك والتسليم
فإذا رأك مسلما ذكر الذى ... كلمته فكأنه ملزوم
ورأى عواقب حمد ذاك وذمه ... للمرء تبقى والعظام رميم
فارج الكريم وان رأيت حفاه ... فالعتب منه والكريم كريم
ان كنت مضطرا وإلا فاتخذ ... نفقاً كأنك خائف مهزوم
واتركه واحذر أن تمر ببابه ... دهر وعرضك ان فعلت سليم
فالناس قد صاروا بهائم كلهم ... ومن البهائم قائل وزعيم
عمى وبكم وليس يرجى نفعهم ... وزعيمهم فى النائبات سليم
وإذا طلبت من لئيم حاجة ... فألح فى رفق وأنت مديم
وألزم قبالة بينه وفنائه ... بأشد مالزم للغريم غريم
وعجبت للدنيا ورغبة أهلها ... والرزق فيما بينهم مقسوم
والأحمق المرزوق أعجب من رأى ... من أهلها والعاقل المحروم
ثم انقضى عجبى لعلمى أنه ... رزق موافٍ وقته معلوم

إن أبا الأسود الدؤلى كان فى صدر الإسلام وفى إبان عزه وعظمته وشروق شمسه الساطعة بالأعمال الصالحة وعاصر الإمام علياً كرم الله وجهه . ولكن أثبت لنا إن فى العالم حسداً وخصومة وغيبة ونميمة وسفاهة ووجه اللائمة على الوعاظ وطلب أن تعملوا بإرشادهم رجاء أن تنفع الموعظة . وهكذا من خلال الخير ونحن الآن وقد انتشرت المعاصى أضعافاً وضاعفة وساءت الحال وزاد الطغيان فالعاقل المؤمن من يكمل نفسه ويؤدبها بآداب الدين ويعمل بالآية ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ . ١٠٥ من سورة المائدة .

الترغيب فى المداومة على العمل وإن قل

١ - عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان لرسول الله ﷺ حصير وكان يحجزه بالليل فيصلى عليه ويبسطه بالنهار فيجلس عليه فجعل الناس يثوبون إلى النبى ﷺ فيصلون بصلاته حتى كثروا فأقبل عليهم فقال : (**يا أيها الناس خذوا من الأعمال ماتطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب الأعمال إلى الله مادام وإن قل**)[1] .

المعنى : ﴿ **حصير** ﴾ : فرش من نبات يسمى سمارا . ﴿ **تحجزه بالليل** ﴾ : من باب قتل منعه من التصرف ، قال القسطلانى : أى يتخذه كالحجرة ، وفى رواية يحتجز يجعله حاجزاً بينه وبين غيره من يحجزه ا.هـ . ﴿ **يبسطه** ﴾ : يفرشه . ﴿ **يثوبون** ﴾ : يرجعون . ﴿ **أقبل عليهم** ﴾ : أى توجه ﷺ نحوهم يعطيهم درساً . ﴿ **ما تطيقون** ﴾ : قدر طاقتكم ومقدار جهدكم فلا تحملوا أنفسكم صعاب الأعمال فالدين يسر لا عسر . ﴿ **لايمل** ﴾ : لاتنتهى رحماته ولا ينقص فضله لمن أطاعه وأجره جزيل وكنزه لا يفنى كما قال ﷺ : ﴿ **ملأى لايغيضها نفقة سحاء الليل والنهار** ﴾[2] وكما قال الله تعالى : ﴿ **ما عندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾ من سورة النحل .

﴿ **تملوا** ﴾ : تضعفوا فالانسان مركب من لحم ودم يحتاج إلى راحة من عناء عمله فإذا استمر فى العبادة عجز عن المواصلة وضعف عن الزيادة والنبى ﷺ يريد الترغيب فى العمل الصالح ما أمكن كما قال الله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ وقال القسطلانى : حتى تملوا : أى لا يقطع عنكم فضله حتى تتركوا سؤاله ا.هـ ، سيدنا رسول الله ﷺ يدعو العاملين إلى الجد والكد جهد الطاقة والسعى مدة الاستطاعة والأخذ بنصيب وافر فى الصالحات مع الراحة والاطمئنان والهدوء فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، ولأبى بكر المغرى :

(١) انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى حـ ١٠ ص ٣١٤ باب الجلوس على الحصير ونحوه رقم ٥٨٦١ من رواية عائشة رضى الله عنها .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ ٩ ص ١٥٠ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

وقيمـة المـرء مـا كان يحسنـه فاطلـب لنفسك ماتعلـو بـه وصل
وكل علـم جنـاه ممكـن أبـدا إلا إذا اعتصم الانسـان بالكسـل
وأفضـل الـبر مالا مـن يتبعـه ولا تقـدق شـىء من المطـل

إن أحب الأعمال إلى الله مادام وإن قل : الذى تستمر المواظبة عليه وخير الأمور الوسط وشر الأمور الشطط ففيه الترغيب فى إتقان العمل بتؤدة وتأن فإنه لا ينظر إلى زمنه ولكن ينظر إلى جودته .

٢ – وفى رواية : وكان آل محمد إذا عملوا عملاً أثبتوه .

٣ – وفى رواية قالت : إن رسول الله ﷺ . سئل أى الأعمال أحب إلى الله ؟ قال : « أدومه وإن قل » .

٤ – وفى رواية : أن رسول الله ﷺ قال : « سددوا وقاربوا واعلموا أن لن يدخل أحَدَكُمْ عَمَلُهُ الجنة ، وإن أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل »[1]. رواه البخارى ومسلم .

المعنى : [سددوا] : اقصدوا السداد وتحروا الصواب . [قاربوا] : كونوا مقاربين لفعل الخير . [لن يدخل أحدكم غمله الجنة] : بل بفضل الله ورحمته وليس المراد توهين العمل بل الاعلام بأن العمل إنما يتم بفضل الله ورحمته فلا ينبغى أن تتكلوا على أعمالكم ، وهذا الحديث لا يعارض قوله تعالى : ﴿ **ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون** ﴾ لأن العمل إنما حصل بتوفيق الله ورحمته . وقال النووى : ظاهر الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال والجمع بينها وبين الحديث أن التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها إنما هو برحمة الله وفضله فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل ، وهو من رحمة الله تعالى ا.هـ . عزيزى ص ٣٢٠ ج . يأمر النبى ﷺ أن يسيروا على منهج القرآن الكريم ويستضيئوا بأنواره الوضاءة رجاء السداد والإصابة واتباع الحكمة والرشد ، ومهما أحسن العابد العامل يكثر الخوف والرجاء كما قال تعالى فى أنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم : « يدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » ولا يغتر الإنسان بعمله فالنعيم من فضل الله تعالى . قال الشاعر :

مـن لـم تكـن حـلـل التقـوى ملابسـه عـار وإن كان مغمـوراً فى الحـلـل

*****

ومـن يطـع اللهـو عصـر الصبـا فذلك فى الشـيب لا يرجـع
وكـم فرحـة جلبـت ترحـة وكـم ضحـك بعـده مطمـع

*****

(١) انظر صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٢٢ فقد أورد الحديث من رواية لعائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٢٢ « وكتاب الرقاق » باب « القصد والمداومة على العمل فقد أورد الحديث بلفظه عن عائشة .

وأنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٧١ حديث رقم ٧٨ / ٢٨١٨ فقد أورد الحديث عن عائشة بألفاظه مختلفة .

لاتنسى فى الحصة أيام السقم فإن عقبى تارك الحزم الندم

(أ) وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون (١٥) أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون (١٦)** ﴾ من سورة هود .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا (٤٦) ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا (٤٧) وعرضوا على ربك صفا** ﴾ من سورة الكهف .

وقال النسفى ﴿ **زينة الحياة الدنيا** ﴾ لازاد القبر وعدة العقبى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للانسان . أو الصلوات الخمس أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ﴿ **خير عند ربك ثوابا** ﴾ جزاء لأنه وعد صادق وأكثر الأمال كاذبة يعنى أن صاحبها يأمل فى الدنيا ثواب الله ويصيب فى الآخرة ويوم نسير الجبال فى الجو بأن تجعل هباء منثورا منبثاً وليس على الأرض ما يسترها من الجبال والأشجار ، وحشرنا الموتى فلم نترك غادرة : أى تركه وعرضوا مصطفين ظاهرين :

(جـ) وقال تعالى :﴿ **فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ ٧٩ من سورة القصص .

خرج قارون على بغلة شهباء عليه الأرجوات وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه . قيل كانوا مسلمين ، وإنما تمنوا على سبيل الرغبة فى اليسار كعادة البشر . ولكن الصالحين يأبون أن يتشبهوا بالفساق قال تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون (٨٠)** ﴾ من سورة القصص . ﴿ **ويلكم** ﴾ دعاء بالهلكة ثم استعمل فى الردع والزجروا لبعث على ترك مالا يرضى . وأن شاهدنا أن العلماء عرفوا الثواب الباق للطاعات فطلقوا الدنيا وهانت عليهم فتفانوا فى العمل الصالح واقتدوا بالمثل الأعلى سيدنا محمد ﷺ (حصير يحجزه) .

٥ - وفى رواية له قال : سألت عائشة رضى الله عنها كيف كان عمل رسول الله ﷺ هل كان يخص شيئاً من الأيام ؟ قالت : لا ، كان عمله ديمه . وأيكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ يستطيع . روه البخارى[1] وفى رواية : كان أحب الأعمال إلى رسول الله ﷺ ماديم عليه .

٦ - وفى رواية له : سُئِلَتْ عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما : أى العمل كان أحب إلى رسول الله ﷺ قالا : ماديم عليه وإن قل[2].

(١) انظر صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٢٢ - ١٢٣ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعائشة .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ ٨ ص ١٢٢ فقد ورد الحديث من رواية لعائشة مع اختلاف يسير فى اللفظ .

٧ – وعن أم سلمة قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى كان أكثر صلاته وهو جالس ، وكان أحب العمل ماداوم عليه العبد وإن كان شيئاً يسيراً[١]. رواه ابن حبان فى صحيحه .

المعنى : [داوم عليه العبد] : الذى استمر عليه طيلة عمره . [يسيرا] : قليلا .

الترغيب فى الفقر وقلة ذات اليد

وما جاء فى فضل الفقراء والمساكين والمستضعفين وحبهم ومجالستهم

عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن بين أيديكم عَقَبَة كئوداً لاينجو منها إلا كل مخف »[٢]. رواه البزار بإسناد حسن .

٢ – وعن أم الدرداء عن أبى الدرداء رضى الله عنهما قال : قلت له : مالك لا تطلب كما يطلب فلان وفلان ؟ قال : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن وراءكم عقبة كؤودا لا يجوزها المثقلون فأنا أحب أن أتخفف لتلك العقبة »[٣] . رواه الطبرانى بإسناد صحيح .

[الكؤود] : بفتح الكاف وبعدها همزة مضمومة : هى العقبة الصعبة .

المعنى : [المثقلون] : أصحاب الغنى واليسار والأموال الوفيرة إلا بعد الحساب . [أتخفف] : أكون خفيف السؤال قال تعالى : ﴿ **ألم نجعل له عينين (٨) ولسانا وشفتين (٩) وهديناه النجدين (١٠) فلا اقتحم العقبة (١١) وما أدراك ما العقبة (١٢) فك رقبة (١٣) أو إطعام فى يوم ذى مسغبة (١٤) يتيما ذا مقربة (١٥) أو مسكينا ذا متربه (١٦) ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة (١٧) أولئك أصحاب الميمنة (١٨)** ﴾ من سورة البلد الله تعالى يمن على عبده ليعمل له عينين يبصر بهما المرئيات ولسانا يعبر به عما فى ضميره وشفتين يستر بهما ثغره ويستعين بهما على النطق والأكل والشرب والنفخ ، وهديناه طريق الخير والشر المفضيين إلى الجنة والنار فلم يشكر الإنسان تلك الأيادى والنعم بالأعمال الصالحة من فك الرقاب أو إطعام اليتامى والمساكين ثم بالإيمان الذى هو أصل كل طاعة وأساس كل خير ، بل غمط النعم وكفر بالمنعم والمعنى أن الإنفاق على هذا الوجه مرضى نافع عند الله لا أن يهلك مالا لبدا : أى كثيراً فى الرياء والفخار وعن الحسن : عقبة والله شديدة مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه الشيطان بخ بخ سيدنا رسول الله ﷺ يستعد لمجاوزة هذه العقبة ويتقلل من حطام الدنيا ويتزود بالتقوى لتقتدى به أمته .

---

(١) انظر صحيح ابن حبان جـ ٤ ص ٩٣ حديث ٢٤٩٨ فقد أورد الحديث من رواية أم سلمة .

(٢) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار جـ ٤ ص ٢٧٠ حديث رقم ٣٦٩٦ فقد ورد الحديث عن أم الدرداء عن أبى الدرداء بلفظه وقال محققة : قال الهيثمى فى الزوائد ورجاله رجال الصحيح غير أسد بن موسى (وموسى) بن مسلم الصغير وهما ثقتان .

(٣) انظر مجمع الزوائد جـ ٣ ص ٩٧ باب ما جاء فى السؤال فقد أورد الحديث بلفظه عن أم الدرداء وقال رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله رجال الثقات .

٣ - وروى عن أنس رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً وهو آخذ بيد أبى ذر ، فقال : يا أبا ذر : أعلمت أن بين أيدينا عقبة كؤوداً لا يصعدها إلا المخفون . قال رجل : يا رسول الله أمن المخفين أنا أم من المثقلين ؟ قال : عندك طعام يوم ؟ قال : نعم ، وطعام غد . قال : وطعام بعد غد ؟ قال : لا . قال : لو كان عندك طعام ثلاث كنت من المثقلين . رواه الطبرانى[1].

المعنى : [أمن المخفين أنا أم من المثقلين] : هل أنا من الذين أحمالهم خفيفة أم ثقيلة ؟ [طعام بعد غد] : اليوم الثالث .

هذا درس زهد وورع والاقبال على الله والاخلاص له وعدم الركون إلى زخارف الدنيا . يسأل أبو ذر حبيبه ومرشده ﷺ ليعلمه طريق النجاة وسبيل الخلاص . إن الذى يمر بسلام هو القانع الذى يحب طاعة الله ويتصدق ولا يغتر بالدنيا ولا يجمع إلا ماسد الرمق وازال الجوع . والمثقل من عنده طعام ثلاثة أيام فما حال الأغنياء الآن ؟ وما عملوه بأموالهم للنجاة من حساب الله ؟ [المثقلين] : الذى حمل نفسه فوق طاقتها وأثقلها من كثرة الحساب كما قال تعالى : ﴿ **ثم لتسئلن يؤمئذ عن النعيم** ﴾ وكما قال ﷺ : « وأصحاب الجد محبوسون » .

٤ - وعن أبى أسماء أنه دخل على أبى ذر وهو بالربذة وعنده امرأة سوداء مشنعة ليس عليها أثر المحاسن ولا الخلوق فقال : ألا تنظرون إلى ما تأمرنى هذه السويداء ؟ فأمرنى أن آتى العراق ، فإذا أتيتُ العراق مالوا على بدنياهم . وإن خليلى ﷺ عهد إلى أن دون جسر جهنم طريقاً ذا دحض ومزلة وإنّا أن نأتى عليه وفى أحمالنا اقتدار واضطمار أحرى أن تنجو من أن نأتى عليه ونحن مواقير »[2] . رواه أحمد ورواته رواة الصحيح .

[الدحض] : بفتح الدال وسكون الحاء المهملتين ، وبفتح الحاء أيضا وآخره ضاد معجمة هو الزلق .

المعنى : [الربذة] : قرية كانت عامرة فى صدر الاسلام ، وبها قبر أبى ذر الغفارى وجماعة من الصحابة وهى فى وقتنا دارسة لا يعرف بها رسم وهى عن المدينة فى جهة الشرق عن طريق حاج العراق نحو ثلاثة أيام ا.هـ مصباح . [مشنعة] : شعرها متفرق منتشر كذاع ص ٣١٩ - ٢ وفى ن ط : مسفعته ، وفى النهاية السفعة نوع من السواد ليس بالكثير وقيل سواد مع لون آخر . [المحاسن] : المحامد والجمال . [الخلوق] : العطر والرائحة الذكية . [مالوا علىَّ بدنياهم] : أقبلوا على بأعمالهم الكثيرة التى تشغلن عن طاعة الله . [عهد إلىَّ] : أفهمنى وأعلمنى أن غير الجسر عقبة صعبة وطريق كئود ذات زلق ووحل وزلل . [نأتى عليه] : نمر عليه خفافاً لا ثقالاً . [اقتدار

---

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٦٣ فقد أورد الحديث بلفظه عن أبى ذر وقال : رواه الطبانى فى الأوسط وفيه جنادة بن مروان قال أبو حاتم : ليس بالقوى ، وبقية رجاله ثقات .

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٥ ص ١٥٩ فقد أورد الحديث عن أبى ذر برواياته المتضمنه لهذه الرواية .

واضطمار] : قدرة على حمل أعبائه . [أجرى] : أولى بالفوز . [مواقير] : محملون أثقالاً ، من أوقر الدابة : أثقلها : ودابة وقرى .

٥ – وعن أبي سعيد الخدرى – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ قال : « إن الله عز وجل ليحمى عبده المؤمن الدنيا وهو يحبه كما تحمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه »[١] . رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

المعنى : [ليحمى] : ليحفظ . [الطعام والشراب] : زاد فى ن د[٢] : تخافون عليه . المعنى أن الله تعالى بلطفه وحكمته وقدرته يسلم المطيع من آفات الحياة ويقيه أضرارها ويبعده من همومها ، رزق القناعة والرضاء نضارة الصحة كعطف الأب على ابنه إذا مرض . أو عطف القريب على قريبه فيخشى عليه تناول الأكل ويلزمه الحمية ويراعيه ويعتنى بطلباته ، فالله أحق بالرأفة وهو تعالى : الرؤوف الرحيم ففيه الترغيب فى العبادة والتفويض إلى الله تعالى فى كل الأمور رجاء السلامة من أدران الدنيا : فالله خير حافظاً .

٦ – وعن رافع بن خديج رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أحب الله عز وجل عبداً أحماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء »[٣] . رواه الطبران بإسناد حسن ، ورواه ابن حبان فى صحيحه ، والحاكم بلفظ من حديث أبى قتادة وقال الحاكم : صحيح الإسناد .

المعنى : [أحب الله عز وجل] : أقبل عليه برضوانه لكثرة عبادته له سبحانه .

٧ – وعن ابن عباس – رضى الله عنهما – عن النبى ﷺ قال : « أطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء وأطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء »[٤] . رواه البخارى ومسلم ورواه أحمد بإسناد جيد من حديث عبد الله بن عمرو وإلا أنه قال فيه : وأطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء . .

المعنى : [أكثر أهلها الفقراء] : يخبر ﷺ أن الفقراء أسبق الناس إلى دخول الجنة لأن حسابهم يسير وأكثر الناس دخولا فى النار النساء وبين ﷺ السبب فى حديث البخارى : « قالوا : لم يارسول

---

(١) انظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٤ ص ٢٠٨ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبى سعيد الخدرى ، وقال : كذا قال عن أبى سعيد ، وفى حديث عمارة بن غزية عن قتادة بن النعمان والإسنادان عندى صحيحان .

(٢) هذه الزيادة فى الحاكم أيضا .

(٣) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٨٥ باب « إذا أحب الله تعالى عبدا » فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لرافع بن خريج ، وقال : رواه الطبرانى وإسناده حسن .

وأنظر المستدرك على الصحيحين للحاكم حـ ٤ ص ٢٠٧ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لقتادة وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

(٤) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٤٢ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لعمران بن حصين .

وأنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٩٦ حديث رقم ٩٤ / ٢٧٣٧ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس

وأنظر مسند الإمام حـ ٢ ص ١٧٣ فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله بن عمرو .

الله ؟ قال : يكفرن . قيل يكفرن بالله . قال يكفرن العشير ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى أحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً ، قالت ما رأيت منك خيراً قط » قال القسطلانى العشير : أى إحسان الزوج لأنها كالمصرة على كفران النعمة والاصرار على المعصية سبب العذاب . ا هـ ص ٢٣٩ جواهر البخارى .

٨ - وعن أبى سعيد الخدرى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ أنه قال : إن موسى صلوات الله وسلامه عليه قال : أى رب عبدك المؤمن تقتر عليه فى الدنيا ؟ قال : فيفتح له باب من الجنة فينظر إليها قال : يا موسى : هذا ما أعددت له ، فقال موسى : أى رب وعزتك وجلالك لو كان أَقْطَعَ اليدين والرجلين يسحب على وجهه منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة . وكان هذا مصيره لم يرِ بؤساً قط . قال : ثم قال موسى : أى رب عبدك الكافر توسع عليه فى الدنيا ؟ قال : فيفتح له باب من النار فيقال له : يا موسى : هذا ما أعددت له . فقال موسى : أى رب وعزتك وجلالك لو كانت له الدنيا منذ يوم خلقته إلى يوم القيامة وكان هذا مصيره كان لم ير خيراً قط . رواه أحمد من طريق ابن لهيعة عن دراج[١]

المعنى : [تفتر عليه] : تضيق رزقه وتقلل حاجاته . [بؤساً] : ضيقاً وشدة .

٩ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله عز وجل ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله عز وجل لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيوهم ، فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فتسلم عليهم ؟ قال : إنهم كانوا عباداً يعبدونى ولا يشركون بى شيئاً وتسد بهم الثغور ويتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء . قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . رواه أحمد والبزار ورواتهما ثقات ، وابن حبان فى صحيحه[٢].

المعنى : [المهاجرون] : الذين تركوا وطنهم وعاشوا مع رسول الله ﷺ فى المدينة أو فارقوا أوطانهم وذهبوا إلى بلاد الاسلام وطاعة الله موفورة . [يسد بالياء] : أى يكونون عرضة لصد هجمات الأعداء ، وحصوناً قوية منيعة لرد الخصوم الكفار الفجار ، وفى النهاية . [الثغر] : الموضع الذى يكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار وهو موضع المخافة من أطراف البلاد . [تتقى بهم المكاره] : يكونون سبباً لابعاد المخاوف وهم قواد مهرة يعتمد عليهم فى إزالة الكروب . [حاجته فى

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد حـ ٣ ص ٨١ والحديث عن أبى سعيد الخدرى .

(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ ٢ ص ١٦٨ والحديث عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص.
أنظر كشف الاستار عن زوائد البزار على الكتب الستة حـ ٤ ص ٢٥٦ رقم ٣٦٦٥ باب الفقر عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص .

صدره] : أى فقراء لهم مطالب ولا يشكون إلا لله . [قضاء] : أداء . [سلام عليكم] : بشارة بدوام السلامة كما قال تعالى : ﴿ **جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** * ﴾ من سورة الرعد . أى هذا الثواب بسبب صبركم على الشهوات أو على أمر الله ، [أو بسلام] : أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم والأول أوجه ا.هـ نسفى . [فنعم عقبى الدار] : أى أمدح هذه النتيجة التى أوصلتكم إلى الجنات ، نعم كلمة مدح وثناء ، وعقبى بمعنى عاقبة وثمرة مجناة كما قال تعالى : ﴿ **والعاقبة للتقوى** ﴾ .

١٠ - وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن حوضى ما بين عدن إلى عمان أكوابه عدد النجوم وماؤه أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل وأكثر الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين . قلنا : يا رسول الله صفهم لنا . قال : شعثُ الرءوس دُنْسُ الثياب الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهُمُ السدد الذين يعطون ما عليهم ولا يعطون مالهم . رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح ، وهو فى الترمذى وابن ماجه بنجوه(١). [السدد] : هنا : هى الأبواب .

المعنى : [شعث الرءوس] : رءوسهم متغيرة متلبدة ، وفى المصباح : شعث الشعر شعثاً : تغير وتلبد لقلة تعهده بالدهن ورجل أشعث وامرأة شعثاء ، وهو أشعث أغبر : أى من غير استحداد ولا تنظف ، والمعنى يهمهم طاعة الله وحده ولا يعتنون بأجسامهم مثل هذا الزمن الذى يحب خدمة نفسه ويترك طاعة الله تعالى كما وصف الله الكفار : ﴿ **إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار * والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم** ﴾ ١٢ من سورة محمد ﷺ . [دنس الثياب] : أى ملابسهم قذرة بالية . [المنعمات] : أى لا يتزوجون السيدات المترفة اللاتى لا يساعدنهن على تقوى الله . [يعطون ما عليهم] : يؤدون الواجب وحقوق الناس كاملة وحقوقهم مهضومة وأموالهم يطمع الناس فيها لتسامحهم ويعكوفهم على العبادة ، والمعنى وراد حوض رسول الله الذين يشربون من مائه العذب متحلون بصفات :

(أ) ليس عندهم شيء من طعام الدنيا يلهيهم عن ذكر الله وتسبيحه .

(ب) يتركون محال الفجور واللهو ، ويحضرون مجالس العلم ويعملون صالحاً ، ويقطعون صحبة الأشرار « المهاجرون » .

(جـ) يقبلون على تكميل أنفسهم بآداب الشرع ، ولا يتحملون ولا يعتنون بالمظاهر الكذابة « شعث » .

(د) سبداتهم مطيعة محتجبة بعيدة عن العصيان عابدة قانتة مطيعة « غير المتنعمة » .

(١) أنظر الطبرانى فى معجمه الكبير حـ ٢ ص ٩٦ رقم ١٤٣٧ ، ١٤٤٣ عن رواية ثوبان .
ورواه أحمد فى مسنده حـ ٥ ص ٢٧٥ -٢٧٦ عن رواية ثوبان وهى رواية طويلة .

(هـ) نفوسهم متواضعة لينة سهلة لايؤبه لهم ولا تحتدمهم الظلمة الجهلة ، ويعطون ما عليهم كاملا ولا يأخذون الذى استقر لهم طمعاً فى حلمهم وكرمهم .

فتى كان يدينه الغنى من صديقة ... إذا ماهو استغنى ويبعده الفقر
فتى لا يعد المال ربا ولا ترى ... به حفوة إن نال مالا ولا كبر
فتى كان يعطى السيف فى الروع حقه ... إذا ثوب الداعى وتشفى به الجزر
وهون وجدى أننى سوف أغتدى ... على إثره يوماً وإن نفس العمر

١١ - وعن أبى سلام الأسود أنه قال لعمر بن عبد العزيز : سمعت ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياض من اللبن وأحلى من العسل وأكاويه عدد النجوم من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين الشعث رءوساً ، الدنس ثياباً الذين لا ينكحون المنعمات ولا تفتح لهم السدد قال فقال عمر : لكنى قد نكحتُ المنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى السدد ، لا جرم أنى لا أغسل رأسى حتى يشعث ولا ثوبى الذى يلى جسدى حتى يتسخ . رواه الترمذى وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال : صحيح الاسناد[1] .

المعنى : [لم يظمأ] : لم يطرأ عليه عطش أبداً ولا يصيبه ألم ولا شدة وشرباً بفتح الشين المصدر ، وبضمها وبكسرها : اسم « فشاربون شرب الهيم » . [نكحت المنعمات] : سيدنا عمر تزوج النساء الجميلات اللائى وصفن بالنعيم والعز وقوبل بكل اجلال واحترام وخشى الناس بأسه ، ثم أراد أن يتقشف ويخشوشن ولقد ثبت أنه رفع ثوبه وخصف نعله كرسول الله ﷺ ولبس الثوب المرقع وفى حلية الأولياء مشى مرة وهو أمير المؤمنين فخلع نعله وعبر ما كان يملأ الشارع . [لا جرم أنى] : حقاً أنى . [يشعث] : يتغير ويتلبد والمعنى سأقبل على تكميل الباطن وأدع الظاهر .

١٢ - وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً ، فقيل : صفهم لنا ؟ قال : الدَّنِسَةُ ثيابُهُمُ الشعثة رءوسهم الذين لا يؤذن لهم على السدات ولا ينكحون المنعمات توكل بهم مشارق الأرض ومغاربها يعطون كل الذى عليهم ولا يعطون كل الذى لهم . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ورواته ثقات[2] . ورواه مسلم متخضراً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء أمتى المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً . ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً أيضا ، وقال : بأربعين عاماً .

(١) أنظر المستدرك على الصحيحين فى الحديث للحاكم حـ ٤ ص ١٨٤ كتاب اللباس باب بيان أوصاف حوض الكوثر عن رواية ثوبان .

(٢) انظر الترغيب والترهيب للمنذرى حـ ٤ ص ١٣٦ حديث رقم ١٢ « باب يدخل فقراء أمتى الجنة » عن رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب . وزاد فيه أن مسلماً رواه مختصراً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء أمتى المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة بأربعين خريفاً : ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً أيضاً ، وقال : بأربعين عاماً وحديث : « إن فقراء أمتى ... الخ » . وفى صحيح مسلم كتاب الزهد والرقاق حـ ٤ ص ٢٢٨٥ رقم ٣٧ / ٢٩٧٩ عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص .

المعنى : [خريفاً] : عاماً « سنة » . [لايؤذن لهم على السدات] : يقفون مدة طويلة على الأبواب إذا طلبوا السؤال فلا يعتنى بهم لتواضعهم وحلمهم وذهبت عنهم صفة التكبر والتجبر . [المنعمات يوكل] : المعنى نفوسهم خاضعة خاشعة لله فانية فى ذكره .

١٣ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : يجتمعون يوم القيامة ، فيقال : أين فقراء هذه الأمة : قال : فيقال لهم : ماذا عملتم ؟ فيقولون ربنا ابتلينا فصبرنا ووليت الأموال والسلطان غيرنا فيقول الله جل وعلا : صدقتم قال : فيدخلون الجنة قبل الناس ويبقى شدة الحساب على ذوى الأموال والسلطان . قالوا : فأين المؤمنون **يومئذ** ؟ قال : يوضع لهم كراس من نور ويظلل عليهم الغمام يكون ذلك اليوم أقصر على المؤمنين من ساعة من نهار . رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه(١).

المعنى : [ابتلينا فصبرنا] : أى أفقرتنا اختباراً لنا فأطعناك ورضيناك وحبسنا الأنفس عن الجزع ولم نعصك . [ووليت السلطان والأموال] : أى يارب أسندت إدارة الأموال الوفيرة والنعم الكثيرة لغيرنا من عبادك وكذا الحكم والأمر النافذ والسلطة القاهرة وجعلتنا فقراء فى الحياة الدنيا . [يبقى شدة الحساب على ذوى الأموال والسلطان] : يسألهم ربهم عز وجل فيم أنفقتم أموالكم ؟ وأين أضعتموها ؟ وما الصالحات التى شيدتموها ؟ ولماذا ملكتم فظلمتم ؟ وهكذا يسألون عن الصغير والكبير. قال تعالى : ﴿ **ألم تعلم أن الله يعلم مافى السماء والأرض إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير** ﴾ ٧٠ من سورة الحج . سبحانه لا يخفى عليه شيء وإن الاحاطة به واثباته فى اللوح المحفوظ أو الحكم بينكم على الله يسير أى سهل لأن علمه مقتضى ذاته المتعلق بكل المعلومات سواء . وشاهدنا احاطة الله بأعمال عبادة ليثيب المحسن ويعاقب المسيء كما قال تعالى : ﴿ **وما للظالمين من نصير** ﴾ نسأل الله السلامة : إن الدين يدعو إلى النظافة والنظافة من الإيمان فالمعنى أن هؤلاء الصالحين يحبون تحسين الباطن وتكميله وانشغاله بربه ، وإذا قربت إليهم أيها الأخ المسلم وجدت رائحتهم جميلة طاهرة نقية لأن الله تعالى جميل ويحب الجميل والنبى ﷺ جعل الطهارة اساساً لصحة الصلاة . وقال الله تعالى : ﴿ **وثيابك فطهر** ﴾ . [الغمام] : أى السحاب يكون عليهم كالظلة يقيهم حر الشمس المحرقة . [ذلك اليوم] : أى يوم القيامة يمر عليهم بسلامة لا يشعرون فيه بألم أو شدة ، الله أكبر التقشف والتقلل من حطام الدنيا والتباعد عن الرياسة والسلطة ينجى من شدائد يوم الحساب ، ويتمتع الزاهد الفقير بالأضواء المشرقة والنعيم المقيم كما قال الله تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا** * ﴾ من سورة الدهر والله تعالى أخبرنا فى كتابه ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾ ٨ من سورة الحشر .

---

(١) أنظر الترغيب والترهيب للمنذرى حـ ٤ ص ١٣٦ - ١٣٧ حديث رقم ١٣ « باب يدخل فقراء أمتى الجنة » عن رواية عبد الله بن عمرو بن العاص بلفظه .

قال البيضاوى : فإن كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم وقد جاهدوا فى الله حق جهاده بأنفسهم وأموالهم ا.هـ . وينال ثوابهم من هاجر فى سبيل نصر دين الله وأقام شعائره وعمل بكتابه وسنة رسوله وترك الأشرار العصاة ونبذ صحبتهم .

١٤ - وعن عبد الرحمن بن سلط قال : أرسل عمر بن الخطاب إلى سعيد بن عامر : إنا مستعلموك على هؤلاء تسير بهم إلى أرض العدو فتجاهد بهم . قال : فذكر حديثا طويلا قال فيه : قال سعيد : وما أنا بمختلف عن العنق الأول بعد إذ سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن فقراء المسلمين يزفون كما تزف الحمام فيقال لهم : قفوا للحساب ، فيقولون : والله ما تركنا شيئاً نحاسب به فيقول الله عز وجل : صدق عبادى فيدخلون الجنة قبل الناس بسبعين عاماً(١) . رواه الطبرانى وأبو الشيخ وابن حبان فى الثواب ورواتهما ثقات إلا يزيد بن أبى زياد .

المعنى : [مستعلموك] : أى نستفهم عن سير الأبطال المجاهدين . [العنق الأول] : الفوج : أى الطائفة المسرعة فى طاعة الله تعالى وفى المصباح : العنق ضرب من السير فسيح سريع من أعنق إعناقاً . [الحمام] : الطيور المغردة جميلة الصورة حسنة الهيئة يفرح بها أصحابها ويطربون بها .

١٥ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : كنت عند رسول الله ﷺ يوماً ، فطلعت الشمس فقال : يأتى قوم يوم القيامة نورهم كنور الشمس قال أبو بكر : نحن هم يا رسول الله ؟ قال : لا ولكم خير كثير ولكنهم الفقراء المهاجرون الذين يحشرون من أقطار الأرض . فذكر الحديث رواه أحمد والطبرانى وزاد ثم قال : طوبى للغرباء قيل : من الغرباء ؟ قال : أناس صالحون قليل فى ناس سوء كثير من يعصيهم أكثر ممن يطيعهم . وأحد أسنادى الطبرانى رواته رواة الصحيح(٢) .

المعنى : [يحشرون] : يوجدون من جميع جهاتها . [طوبى] : مكان فى الجنة يناله البعيد عن وطنه حباً فى رضا الله تعالى ورسوله وابتغاء فراق الأشرار العصاة . [ناس سوء] :أي رفاق عصاة فجرة طغاة ظلمة فيفارقهم الصالحون خشية العدوى والقدوة السيئة . [كثير من يعصيهم] : الذى يوافقهم فى المعاصى أكثر من الأبرار المطيعين .

١٦ - وعن أبى الصديق الناجى عن بعض أصحاب النبى ﷺ أنه قال : يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل الأغنياء بأربعمائة عام ـــ قال فقلت : إن الحسن يذكر أربعين عاماً ؟ فقال : عن أصحاب النبى ﷺ أربعمائة عام حتى يقول المؤمن الغنى : يا ليتنى كنت عيلا . قال : قلت يا رسول الله : سمهم لنا بأسمائهم ؟ قال : هم الذين إذا كان مكروه بعثوا إليه ، وإذا كان نعيم بعث إليه سواهم . وهم الذين يحجبون عن الأبواب(٣) . رواه أحمد من رواية زيد ابن الحوارى عنه .

---

(١) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٦١ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لعبد الرحمن بن سابط

(٢) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٥٨ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) أنظر مجمع الزوائد حـ ١٠ ص ٢٦٠ فقد أورد الحديث من رواية لأبى بكر الصديق وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير زيدبن أبى الحوارى وقد وثق على ضعفه .

المعنى : [عيلا] : مؤمناً فقيراً لا أملك شيئاً فى حياتى حتى يقل حساب ما أنعم على به فى دنياى . [إذا كان مكروه بعثوا إليه] : يرسلون للشدائد ويواجهون الصعاب لشدة إيمانهم بالله تعالى والثقة بنصره كما قال تعالى : ﴿ **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** ﴾ ويرسل غيرهم لكسب الأموال وجلب الخيرات وينل الأرزاق الواسعة العيش الرغد . [يحجبون عن الأبواب] : معناه لزهادتهم فى الدنيا يمنعون من الدخول على الحكام أى لا يحترمهم الناس لتواضعهم وخلع رداء الكبر عنهم « هينون لينون أيسار ذوو كرم » .

١٧ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم خمسمائة عام[١]. رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه وقال الترمذى : حديث حسن صحيح .

قال الحافظ : ورواته محتج بهم فى الصحيح ، ورواه ابن ماجه بزيادة من حديث موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر .

١٨ – وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : التقى مؤمنان على باب الجنة : مؤمن غنى ومؤمن فقير كانا فى الدنيا فأدخل الفقير الجنة وحبس الغنى ماشاء الله أن يحبس ثم أدخل الجنة فلقيه الفقير فقال : يا أخى ماذا حبسك ؟ والله لقد حبست حتى خفت عليك ، فيقول : يا أخى إنى حبستُ بعدك محبسا فظيعاً كريهاً ما وصلت إليك حتى سال منى من العرق مالو ورده ألف بعير كلها أكلةُ حمض النبات لصدرت عنه رِوَاءً[٢]. رواه أحمد بإسناد جيد قوى .
« الحمض » : ما ملح وأمر من النبات .

المعنى : حبس الغنى] : انتظر للحساب على أمواله . [ماذا حبسك] : أى شىء أبعدك عن دخول الجنة ؟ [محبساً فظيعاً] : حبساً شديد الأهوال .

١٩ – وعن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه أجمع ماكانوا ، فقال : إنى رأيت الليلة منازلكم فى الجنة ، وقرب منازلكم ثم إن رسول الله ﷺ أقبل على أبى بكر رضى الله عنه فقال يا أبا بكر : إنى لأعرف رجلا أعرف اسمه ، واسم أبيه وأمه لايأتى باباً من أبواب الجنة إلا قالوا : مرحبا مرحبا . فقال سلمان : من هذا المرتفع شأنه يا رسول الله ؟ قال : فهو أبو بكر بن أبى قحافة ، ثم أقبل على عمر رضى الله عنه فقال : يا عمر لقد رأيت فى الجنة قصراً من درة بيضاء لؤلؤة أبيض مشيد بالياقوت فقلت : لمن هذا ؟ فقيل : لغنى من قريش ، فظننت أنه لى فذهبت لأدخله ، فقال : يا محمد هذا لعمر بن الخطاب ، فما منعنى من دخوله إلا غيرتك يا

(١) أنظر صحيح ابن حبان حـ ٢ ص ٣٣ فقد ورد الحديث رقم ٦٧٤ من رواية لأبى هريرة .
وانظر سنن ابن ماجه حـ ٢ ص ١٣٨٠ رقم ٤١٢٢ فقد أورد الحديث عن رواية لأبى هريرة .
وأنظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٩٠٨ رقم ٢٤٥٨ فقد أورد الحديث من رواية أبى هريرة وقال هذا حديث حسن صحيح
(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ١ ص ٣٠٤ فقد أورد الحديث من رواية لابن عباس .

أبا حفص ، فبكى عمر وقال : بأبي وأمي عليك أغار يا رسول الله ؟ ثم أقبل على عثمان رضى الله عنه ، فقال يا عثمان إن لكل نبى رفيقاً فى الجنة وأنت رفيقى فى الجنة ، ثم أخذ بيد على رضى الله عنه فقال يا على : أوماترضى أن يكون منزلك فى الجنة مقابل منزلى ، ثم أقبل على طلحة والزبير رضى الله عنهما ، فقال : يا طلحة ويا زبير : إن لكل نبى حوارى وأنتما حوارِيَّ ، ثم أقبل على عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فقال : لقد بَطَّأَ بك عنا من بين أصحابى حتىَ خشيت أن تكون هلكت وعَرِقْتُ عرقاً شديداً ، فقلت : ما بطأ بك ؟ فقلت : يا رسول الله من كثرة مالى مازلت موقوفاً محاسباً أسأل عن مالى من أين اكتسبته وفيما أنفقته ، فبكى عبد الرحمن ، وقال : يا رسول الله هذه مائة راحلة جاءتنى الليلة من تجارة مصر فإنى أشهدك أنها على فقراء أهل المدينة وأيتامهم لعل الله يخفف عن ذلك اليوم(١). رواه البزار واللفظ له والطبرانى ورواته ثقات إلى عمار بن سيف وقد وثق .

« قال الحافظ » : وقد ورد من غير وجه ومن حديث جماعة من الصحابة عن النبى ﷺ : أن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه يدخل الجنة حبواً لكثرة ماله ، ولا يسلم أجودها من مقال ، ولا يبلغ منها شيء بانفراده درجة الحسن ، ولقد كان ماله بالصفة التى ذكر رسول الله ﷺ : نعم المال الصالح للرجل الصالح ، فأنى تنقص درجاته فى الآخرة أو يقصد به دون غيره من أغنياء هذه الأمة ؟ فإنه لم يرد هذا فى حق غيره إنما صح سبق فقراء هذه الأمة أغنياءهم على الإطلاق والله أعلم .

المعنى : [مرحبا] : وجدت مكاناً راحبا : أى واسعاً وسروراً وتشريفاً مباركاً . [غيرتك] : الحمية والأنفة والشهامة على حفظ الحريم . [أن يكون منزلك فى الجنة مقابل منزلى] : كذا ط و ع ص ٣٣٢ - ٢ ، وفى ن د : أن تكون منزلتك مقابل منزلتي . [حوارى] : أنصار مخلصين وأتباعاً صالحين . [بطأ] : أى أخرك . استفهم ﷺ عن سبب تأخيره ، ولم يلحق درجات الصالحين الأوائل حتى خاف ﷺ أن يهلك عبد الرحمن فأجاب رضى الله عنه بوفرة أمواله ، ودقة الحساب : من أى مكان أوجده ؟ وعلى من أنفقه ؟ وفى أى الوجوه صرفه ؟ ثم أثمر درسه ﷺ فأكثر سيدنا عبد الرحمن من أفعال البر ووجه خيرات مائة راحلة إلى الفقراء والأيتام ذخيرة عند ربه جل وعلا ورجا أن ينجيه من أهوال القيامة . انتبهوا يا أصحاب الأموال والضيعات فالله تعالى سيحاسبكم عليها . أنفقوا فى حياتكم وشيدوا أعمال البر وساعدوا على انشاء المشروعات المفيدة ، إن الوطن يناديكم أن توجدوا أعمالا حرة لأبنائه . شيدوا مصنوعات وأنشئوا الشركات الوطنية ، وحرام عليكم أن تودعوا الأموال فى المصارف مكدسة مخزونة بلا استثمار طيب وحلال ، وقد رأيتم سيدنا عبد الرحمن وهو صاحب المنزلة الرفيعة فى الدين ومع ذلك وقف ليسأل وتأخر عن زملائه وبعبارة أخرى « يدخل الجنة حبواً » : أى يدرج على بطنه ويزحف على الأرض لماذا ؟ لأنه كثير الغلات وافر الخيرات مع شهادة عدول له أنه رضى الله عنه سباق إلى المكارم جواد وكريم محسن « نعم المال الصالح للرجل

(١) انظر كنز العمال حـ ١٣ ص ٢٥٦ حديث رقم ٣٦٧٤٨ فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله ابن أبى أوفى ، وقال رواه ابن عساكر .

الصالح » : أى أمدح المال إذا وفق صاحبه لأعمال البر مثل سيدنا عبد الرحمن ، فأين الثريا والثرى من أغنياء زمننا هذا وما يفعلون بغناهم الآن ؟ هل استعدوا ليوم الحساب » .

٢٠ – وعن أسامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قُمتُ على باب الجنة فكان عامة من دخلها المساكين وأصحاب الجد محبوسون غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء[1]. رواه البخارى ومسلم

« الجد » بفتح الجيم : هو الحظ والغنى .

المعنى : [المساكين] : الفقراء . [محبوسون] : منتظرون للحساب على باب الجنة ــ فيم أنفقوا ؟ ومن أين جمعوا ؟

٢١ – وعن أبي أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : رأيتُ أنى دخلتُ الجنةَ فإذا أعالى أهل الجنة فقراء المهاجرين وذرارى المؤمنين وإذا ليس فيها أحد أقل من الأغنياء والنساء فقيل لى : أما الأغنياء فإنهم على الباب يحاسبون ويمحصون ، وأما النساء فألهاهن الأحمران : الذهب والحرير الحديث . رواه أبو الشيخ ابن حبان وغيره عن طريق عبد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم عنه[2].

المعنى : [ذرارى] : الصغار الذين لم يبلغوا الحلم . [يمحصون] : يزكون ويطهرون كما قال تعالى : ﴿ **وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين** ﴾ وليمحص مافى قلوبكم . فالتمحيص التزكية وأصله إزالة ما يشوبه من خبث وتخليص الشيء مما فيه من عيب كالفحص . [ألهاهن الأحمران] : غرهن التنعم والترف فقصرن فى حقوق الله .

٢٢ – وروى عن أنس رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال : اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين يوم القيامة فقالت عائشة : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً يا عائشة لا تردى مسكينا ولو بشق تمرة . يا عائشة حبى المساكين وَقربّيهم ، فإن الله يقربك يوم القيامة . رواه الترمذى ، وقال : حديث غريب ، وتقدم فى صلاة الجماعة حديث ابن عباس عن النبى ﷺ قال : أتانى الليلة آت من ربى ، وفى رواية : ربى فى أحسن صورة فذكر الحديث إلى أن قال : قال يا محمد . قلتُ لبيك وسعديك ، فقال : إذا صليت قل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وإذا اردت بعبادك فتنه فاقبضنى إليك غير مفتون . الحديث . رواه الترمذى وحسنه[3].

---

(١) انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٩٦ حديث رقم ٩٣ / ٢٧٣٦ فقد أورد الحديث من رواية لأسامة ابن زيد .

(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ ٥ ص ٢٥٩ فقد أورد الحديث عن رواية أبى أمامة .
أنظر مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦١ – ٢٦٢ فقد أورد الحديث عن رواية أبى أمامة .

(٣) أنظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٨ حديث رقم ٢٤٥٧ كتاب الزهد باب ما جاء أن فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم .

المعنى : [مسكينا] : المسكين الذى لاشئ له ، وهو أبلغ من الفقير . يدعو ﷺ أن يرزقه الله الهيبة والخشية ويبعد عنه زخارف الدنيا حتى يخلص لعبادته سبحانه . [لبيك وسعديك] : إجابة بعد إجابة وإسعاداً بعد اسعاد ثم أمر ﷺ بطلب ثلاثة :

(أ) الاعانة على تشييد الصالحات وإيجاد المحامد وغرس المكارم .

(ب) الابتعاد عن القبائح وهجر الموبقات وصحبة الأشرار .

(جـ) إكرام الضعفاء والتقرب إلى الصالحين ومودتهم وصحبة الأخيار الأبرار .

[فتنة] : اختباراً . [فاقبضنى إليك] : فالحقنى إلى الرفيق الأعلى سليماً من كل محنة .

٢٣ – وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم أحينى مسكينا وتوفنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين وإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة . رواه ابن ماجة إلى قوله : المساكين ، والحاكم بتمامه ، وقال صحيح الإسناد[1]. ورواه أبو الشيخ والبيهقى عن عطاء ابن أبى رباح سمع أبا سعيد يقول : يا أيها الناس : لا تحملنكم العسرة على طلب الرزق من غير حله فإنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : اللهم توفنى فقيراً ولا توفنى غنياً ، واحشرنى فى زمرة المساكين ، فإن أشقى الأشقياء من اجتمع عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة . قال أبو الشيخ : زاد فيه غير أبى زرعة عن سليمان بن عبد الرحمن ولا تحشرنى فى زمرة الأغنياء .

المعنى : [العسرة] : الضيق الشدة . [طلب الرزق من غير حلة] : جمع المال من وجوه الحرام خشية عذاب الله فى الآخرة لكم . قال تعالى :

(أ) ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ ١٦٨ من سورة البقرة .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله** ﴾ سورة البقرة

٢٤ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً : أحبوا الفقراء وجالسوهم وأحب العرب من قلبك وليردك عن الناس ما تعلم من نفسك . رواه الحاكم[2] وقال : صحيح الاسناد .

المعنى : [أحبوا الفقراء] : أظهروا مودتهم وقدموالهم الاكرام والاحترام . [العرب] : أصحاب النبى ﷺ وأهله وأتباعه ومن سلك سنته إلى يوم الدين . [ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك] : ليبعدك عن الناس تقصيرك فى حقوق الله وكل ما تعلمه من خلالك خيرها وشرها .

٢٥ – وعن عائذ بن عمرو : أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال فى نفر فقالوا :

---

(١) انظر سنن بن ماجه حـ ٢ ص ١٣٨١ رقم ٤١٢٦ كتاب الزهد باب مجالسة الفقراء من رواية أبى سعيد الخدرى .
أنظر المستدرك على الصحيحين حـ ٤ ص ٣٢٢ كتاب الرقاق من رواية أبى سعيد الخدرى .

(٢) أنظر المستدرك للحاكم حـ ٤ ص ٣٣٢ كتاب الرقاق من رواية أبو هريرة .

ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ، فأتى النبى ﷺ فأجاره فقال : يا أبا بكر : لعلك أغضبتهم ؟ لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، فأتاهم أبو بكر ، فقال : يا إخوتاه أغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخي . رواه مسلم(١) وغيره .

المعنى : [نفر] : جماعة . [فقالوا] : سادتنا سلمان وصهيب وبلال تهكموا بأبى سفيان فأنكر قولهم أبو بكر وسماه سيداً ، وأمر ﷺ أبا بكر أن يصلح هؤلاء السادة الأبرار لأن رضاهم من رضا الله جل وعلا كما قال تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ فذهب رضى الله عنه يستعطفهم ويستحيلهم عذراً ويتمنى رضاهم . أبو سفيان رجل كبير فى قومه ذو مكانة سامية ولكن احتقره هذا النفر لكفره وعناده وعداوته لله ورسوله فدافع عنه أبو بكر ولكن آسف واستغفر ربه والله غفور رحيم .

[لشيخ قريش] : حماه وهو رئيس قبيلة وصاحب كلمة نافذة وسلطان قوى وأنجب ابنه سيدنا معاوية رضى الله عنه رأس الدولة الأموية . [أغضبت ربك] : إذ تعديت على أوليائه . [أغضبتكم ؟] : هل تكدرتم من دفاعى عن أبى سفيان ؟ فأظهروا غضبهم من الدفاع عن أهل الكفر والله ولى المؤمنين ففيه محبة المسلمين وعدم الدفاع عن الفسقة الملحدين . [قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أخى] : أى ما أغضبتنا ، ثم ادعوا له بالغفران وزيادة الإحسان لأنه رضى الله عنه أخوهم فى الدين ، وهنا درس أخلاق ، يحمى رسول الله ﷺ أبا سفيان ثم يلزمه أبا بكر بإرضاء أصحابه فيسترضيهم ويطلبون له الخير والعز والسعادة .

٢٦ - وعن أمية عبد الله بن خالد بن أسيد قال : كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المسلمين . رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح(٢) وهو مرسل . وفى رواية : يستنصر بصعاليك المسلمين .

المعنى : [يستفتح] : يطلب الفتح والفوز . [صعاليك المسلمين] : فقرائهم ، ففيه أن الانسان يتبرك ويستبشر بالضعفاء كما قال ﷺ « هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم » .

٢٧ - عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كان ليعقوب أخ مؤاخ فى الله تعالى ، فقال ذات يوم : يا يعقوب ما الذى أذهب بصرك ؟ قال : البكاء على يوسف . قال : ما الذى قوس ظهرك ؟ قال : الحزن على بنيامين ، فأتاه جبريل فقال : يا يعقوب ! إن الله يقرئك السلام ، ويقول : أما تستحى أن تشكونى إلى غيرى ؟ قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله فقال جبريل : الله أعلم بما تشكو يا يعقوب ، ثم قال يعقوب : أى رب أما ترحم الشيخ الكبير ! أذْهَبْتَ

(١) انظر صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة ح ٤ ص ١٩٤٧ رقم ١٧٠ / ٢٥٠٤ كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل سلمان وصهيبه وبلال رضى الله عنهم .

(٢) انظر مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٢ من رواية أمية بن خالد بن عبد الله بن أسيد .

بصرى ، وقوست ظهرى ، فازدد على ريحانتى أشمه شمة قبل الموت ، ثم اصنع بى ما أردت قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن الله يقرئك السلام ، ويقول لك : أبشر ، وليفرح قلبك فوعزتى لو كانا ميتين لنشرتهما فاصنع طعاماً للمساكين فإن أحب عبادى إلي الأنبياء والمساكين ، وتدرى لم أذهبتُ بصرك وقوست ظهرك ، وصنع إخوة يوسف بيوسف ماصنعوا ؟ إنكم ذبحتم شاة فأتاكم مسكين يتيم وهو صائم فلم تطعموه منه شيئا قال : فكان يعقوب عليه السلام بعد ذلك إذا أراد الغداء أمر مناديا فنادى : ألا من أراد الغداء من المساكين فليتغذ مع يعقوب ، وإن كان صائماً أمر منادياً فنادى : ألا من كان صائماً من المساكين فليفطر مع يعقوب عليه السلام . رواه الحاكم ومن طريقة البيهقى عن حفص بن عمر بن الزبير عن أنس قال الحاكم[1] : كذا فى سماعى عن حفص بن عمر ابن الزبير ، وأظن الزبير وهم ؟ وأنه حفص بن عمر بن عبد الله بن أبى طلحة ، فإن كان كذلك فالحديث صحيح ، وقد أخرجه اسحاق بن راهويه فى تفسيره قال : أنبأنا عمرو ابن محمد حدثنا زافر بن سليمان عن يحيى بن عبد الملك عن أنس عن النبى ﷺ بنحوه .

المعنى : [مؤاخ] : صديق متفق معه على طاعة الله تعالى . [يا يعقوب] : يوم : يا يعقوب كذا د و ع ص ٣٢٤ - ٢ وفى ن ط : ذا يوم ليعقوب يا يعقوب . [أذهب بصرك] : لفقده وذهابه . [قوس ظهرك] : حناه . [أشكو بثى] : كشف ما انطويت عليه من الغم ، وفى الغريب : أى غمى الذى يبثه عن كتمان فهو مصدر فى تقدير مفعول أو بمعنى غمنى الذى بث فكرى نحو توزعنى الفكر . [رب أما ترحم الشيخ الكبير] : توسل به سبحانه وتعالى يعقوب فى الخلوة ودعاه وطلب الرأفة منه جل وعلا . [لنشرتهما] : لأحييتهما . [فاصنع طعاماً للمساكين] : أعمل موائد أكل لفقراء الله تعالى . [وتدرى] : هل تعلم ؟ [مسكين يتيم] : فقير مات أبوه .

٢٨ - وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : أوصانى خليلى رسول الله ﷺ بخصال من الخير : أوصانى بأن لا أنظر إلى من هو فوقى وأن أنظر إلى من هو دونى وأوصانى بحب المساكين والدنو منهم وأوصانى أن أصل رحمى وإن أدبرت . الحديث رواه الطبرانى وابن حبان فى صحيحه[2] .

المعنى : [فوقى] : الذى هو أعلى منى فى المال والجاه والصحة . [دونى] : أقل منى فى النعم والصحة . [الدنو منهم] : القرب منهم والعطف عليهم واكرامهم . [أن أصل رحمى] : أزور أقاربى وأمدهم بالمودة والعطاء وأن قاطعت أو تباعدت أو هجرت ينصح ﷺ أبا ذر أن يتبع مناهج أربعة هى منابع العز ومعين السعادة والسرور وكثرة الرزق .

(أ) الرضا بالقليل وعدم الفكر فى رقى من سما عليه خشية استصغار نعم الله التى فاز بها وتمتع بخيراتها ، فيغضب أو يحسد أو يغتاب أو يسخط .

(١) انظر المستدرك للحاكم حـ ٢ ص ٣٤٨ كتاب التفسير من رواية أنس بن مالك .

(٢) انظر مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٣ من رواية أبى ذر .
انظر الاحسان بصحيح بن حبان حـ ١ ص ٣٣٧ رقم ٤٥٠ من رواية أبى ذر باب ذكر وصية المصطفى ﷺ بصلة الرحم وإن قطعت .

(ب) يقارن نفسه بالذى هو أقل منه فى النعم رجاء الحمد والشكر والقناعة وكثرة العبادة كما قال تعالى : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

(جـ) حب الفقراء ومجالستهم .

(د) زيارة الأقارب والاحسان إليهم .

٢٩ – وعن حارثة بن وهب رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف مستضعف لو يُقسِمُ على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر . رواه البخارى وابن ماجه ومسلم(١).

« العتل » بضم العين والتاء وتشديد اللام : هو الجانى الغليظ .

« الجوّاظ » بفتح الجيم وتشديد الواو وآخره ظاء معجمة : هو الضخم المختال فى مشيته وقيل : القصير البطين وقيل الجموع المنوع .

٣٠ – وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : أهل النار كل جعظرى جواظ مستكبر جماع مناع . وأهل الجنة الضعفاء المغلوبون . رواه أحمد والحاكم(٢)، وقال : صحيح على شرط مسلم .

« الجعظرى » بفتح الجيم وإسكان العين المهملة وفتح الظاء المعجمة قال ابن فارس : هو المنتفخ بما ليس عنده .

المعنى : [جماع] : يحب جمع المال لطمعه وشرهه . [مناع] : لا يرجى خير منه . [الضعفاء المغلوبون] : الذين يغلب على أمرهم لقناعتهم ورضاهم .

٣١ – وعن حذيفة رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فى جنازة فقال : ألا أخبركم بشر عباد الله ؟ الفظ المستكبر . ألا أخبركم بخير عباد الله : الضعيف المستضعف ذو الطمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . رواه أحمد ورواته(٣) رواة الصحيح ! لا محمد بن جابر .

« الطمر » بكسر الطاء : هو الثوب الخلق .

المعنى : [الفظ المستكبر] : الخشن الجافى فظيع المعاملة قاسى الطبع . [لايؤبه له] : لايعتنى به .

---

(١) انظر سنن بن ماجه حـ ٢ ص ١٣٧٨ رقم ٤١١٦ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .
انظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢١٩٠ رقم ٤٦ / ٢٨٥٣ كتاب الجنة وصفة لغيرها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون ، والجنة يدخلها الضعفاء من رواية حارثة بن وهب .

(٢) انظر مسند الامام أحمد حـ ٤ ص ٣٠٦ من رواية عبد الله بن عمرو .
أنظر المستدرك للحاكم حـ ٢ ص ٤٩٩ باب التفسير سورة ن والقلم من رواية عبد الله بن عمرو .

(٣) انظر مسند الامام أحمد حـ ٥ ص ٤٠٧ من رواية حذيفة .

٣٢ - وعن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ألا أخبركم عن ملوك الجنة ؟ قلت : بلى قال : رجل ضعيف مستضعف ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . رواه ابن ماجه[1] ورواة إسناده محتج بهم فى الصحيح إلا سويد بن عبد العزيز .

٣٣ - وعن سراقة بن مالك بن جعشم رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : يا سراقة ألا أخبرك بأهل الجنة وأهل النار قلتُ : بلى يا رسول الله . قال : أما أهل النار فكل جعظرى جواظ مستكبر ، وأما أهل الجنة فالضعفاء المغلوبون . رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط ، والحاكم[2] وقال : صحيح على شرط مسلم .

٣٤ - وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : أحتجت الجنة والنار فقالت النار : فىَّ الجبارون والمتكبرون وقالت الجنة : فىَّ ضعفاء المسلمين ومساكينهم ، فقضى الله بينهما : إنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء ، وإنك النار عذابى أعذب بك من أشاء ولكليكما علىَّ ملؤها . رواة مسلم[3]

المعنى : [احتجت] : تخاصمتا بلسان المقال والحال . [الجبارون] : اختصصت بالمتكبر المتعظم بما ليس فيه والمتجبر الظالم الممنوع الذى لا يوصل إليه أو الذى لا يكترث بأمر الضعفاء من الناس وسقطهم ، وفسر القسطلانى ضعفاء الناس وسقطهم بالمحتقرين بين الناس الساقطين من أعينهم لتواضعهم لربهم ا هـ .

٣٥ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة[4]. رواه البخارى ومسلم .

المعنى : [العظيم] : فى الطول والجاه المنتفخة أو واجه الترف المتنعم الممتلىء صحة ، [السمين] : الأكول الشروب ، وزاد البخارى وقال اقرءوا « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » . قال البيضاوى : أى فنزدرى بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً .

أولا نضع لهم ميزانا توزن به أعمالهم لانحياطها ا هـ .

وقال النسفى : فلا يكون لهم عندنا وزن مقدار ا هـ .

٣٦ - وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : مر رجل على النبى ﷺ فقال لرجل عنده جالس : ما رأيك فى هذا ؟ قال رجل من أشراف الناس : هذا والله حَرِىٌّ إن خَطَبَ أن ينكح ، وإن شفع أن

(١) انظر سنن ابن ماجة حـ ٢ ص ١٣٧٨ رقم ٤١١٥ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .

(٢) رواه المستدرك للحاكم حـ ٣ ص ٦١٩ فى كتاب معرفة الصحابة من رواية سراقة بن مالك بن جعشم .

ورواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٥ من رواية سراقة بن مالك .

(٣) رواه صحيح مسلم فى كتاب الجنة وصفة لغيرها وأهلها باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء حـ ٤ ص ٢١٨٦ رقم ٣٤ / ٢٨٤٦ ، ٢٨٤٧ .

(٤) رواه صحيح مسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم حـ ٤ ص ٢١٤٧ رقم ١٨ / ٢٧٨٥ من رواية أبى هريرة .

يشفع ــ فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل ، فقال رسول الله ﷺ : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : يا رسول الله هذا رجل من فقراء المسلمين . هذا حرى إن أخطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع وإن قال لا يسمع لقوله فقال رسول الله ﷺ هذا خيرُ من ملء الأرض مثل هذا . رواه البخارى ومسلم وابن ماجه .

المعنى : [أشراف الناس] : سراتهم وساداتهم وعظمائهم . [حرى] : جدير وحقيق وأولى إن أراد زواج أى سيده أعطى ونكح وعقد العقد الشرعى عليها . [شفع] : رجا فى مسألة أجيب طلبه وقضيت حاجته . [أحرى أن خطب أن لا ينكح] : أحق ألا يزوج لفقره ولا يرجوه أحد لضعته وهوانه على الناس قال لايسمع ؟ والمعنى إن تكلم غضوا النظر عنه ، ولم ينصتوا لقوله وازدروا به واحتقروه فأخبر ﷺ أنه أفضل من ذلك المتكبر المتجبر الطاغية من ملايين ملايين تملأ الدنيا مثل ذلك الحقير لكفره أو لعصيانه ربه وظلمه . صلى الله عليك يا رسول الله تضرب مثلا أعلى للعزة والرفعة باتباع الدين والعمل بكتاب رب العالمين ليسمو الإنسان عند ربه ويحظى بالدرجات العالية ، وتضرب صفحاً عن حطام الدنيا وزخارفها الموجودة عند الفسقة العصاة المجرمين كما قال الله تعالى :

(أ) ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾

(ب) ﴿ **إن العزة لله جميعا** ﴾ وهكذا النفوس العامرة بالإيمان عالية سامية تشعر بعزة الله ونصره وقوته ، ولا تخشى بأس سواه .

١ – أى إذا طلب من الناس شيئاً أسرعوا فى إعطائه .

٢ – إذا وجد فى محفل يجلوه واحترموه ودخل موقراً معززاً .

٣ – هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل بسكنة فكانوا يأوون إلى موضع مظلل فى مسجد المدينة يسكنونه ا هـ نهاية .

٤ – يذكر محامده وبدائع خلاله .

٥ – مما طلعت عليه الشمس : أى كل ما يظهر على سطح الأرض ــ لماذا ؟ لأنه فقير مخلص لربه مطيع .

٦ – أخذه باستحقاق وإذ حرم نال ثواب صبره ورضاه بما قسم له .

٣٨ – وعنه رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : أنظر أرفع رجل فى المسجد قال : فنظرتُ ، فإذا رجل عليه حلة ، قلت : هذا قال : قال لى : انظر أوضع رجل فى المسجد قال : فنظرتُ فإذا رجل عليه أخلاق ، قال : قلتُ هذا قال : فقال رسول الله ﷺ : لهذا عند الله خير يوم

(١) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب فضل الفقر حـ ٨ ص ١١٨ – ١١٩ من رواية سهل بن سعد الساعدى .

القيامة من ملء الأرض مثل هذا . رواه أحمد(١) بأسانيد رواتها محتج بهم فى الصحيح ، وابن حبان فى صحيحه .

٣٩ – وعن مصعب بن سعد قال : رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلا على من دونه فقال رسول الله ﷺ : هل تُنصرُون وترزقون إلا بضعفائكم . رواه البخارى(٢) والنسائى وعنده : فقال النبى ﷺ : إنما تنصر هذه الأمة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم .

٤٠ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ابغونى فى ضعفائكم ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم . رواه أبو داود(٣) والترمذى والنسائى .

٤١ – وعن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : كنت فى أصحاب الصُّفَّةِ فلقد رأيتنا وما منا إنسان عليه ثوب تام ، وأخذ العرق فى جلودنا طرقا من الغبار والوسخ إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : ليبشر فقراء المهاجرين إذ أقبل رجل عليه شارة حسنة فجعل النبى ﷺ لا يتكلم بكلام إلا كلفته نفسه أن يأتى بكلام يعلو كلام النبى ﷺ فلما انصرف قال : إن الله عز وجل لا يحب هذا وحزبه يلوون ألسنتهم للناس لى البقر بلسانها المرعى كذلك يلوى الله عز وجل ألسنتهم ووجوههم فى النار(٤). رواه الطبرانى بأسانيد أحدها صحيح .

المعنى : [وأضرابه] : أى أمثاله . وفى النهاية ضرب الأمثال ، وهو اعتبار الشىء بغيره وتمثيله به والضرب المثال والضرباء الأمثال والنظراء وأحدهم ضريب ا هـ . [يلوون ألسنتهم للناس] : كناية عن الكذب وقال تعالى : ﴿ **يلوون ألسنتهم بالكتاب** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ليا بألسنتهم** ﴾ ويقال فلان لا يلوى على أحد إذا أمعن فى الهزيمة ، قال تعالى : ﴿ **إذ تصعدون ولا تلوون على أحد** ﴾ ا هـ غريب . [لى البقر] : ميلان الماشية بلسانها لتأكل فى المرعى . [يلوى الله عز وجل ألسنتهم] : يميلها فيقعون فى جهنم . لماذا ؟ لتجبرهم وتكبرهم وارتفاع صوته أمام حضرة النبى ﷺ أو أمام العلماء الفضلاء والسادة الاتقياء ويتطاولون على الناس باللسان البذىء والقول الدنىء تعاجباً وتظاهراً ورياء كما تمد البقر ألسنتها إلى الكلأ .

٤٢ – وعن **العرباض** بن سارية رضى الله عنه قال : كان النبى ﷺ يخرج إلينا فى الصفة

---

(١) انظر مسند الامام أحمد حـ ٥ ص ١٥٧ من رواية أبى ذر .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه حـ ٤ ص ٤٤ كتاب الجهاد والسير باب من استعان بالضعفاء والصالحين فى الحرب من رواية أبى هريرة .

(٣) رواه بو داود فى سننه حـ ٣ ص ٧٣ رقم ٢٥٩٤ من رواية أبى الدرداء

رواه الترمذى فى سننه حـ ٣ ص ١٢٣ رقم ١٧٥٤ من رواية أبى الدرداء .

رواه النسائى فى سننه حـ ٦ ص ٤٥ رقم ٣١٨٠ كتاب الجهاد باب من استعان بالضعفاء .

(٤) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦١ من رواية واثلة لن الاسقع .

وعلينا الحوتكيَّةُ فقال : لو تعلمون ما أدخر لكم مادخرتم على مازوى عنكم ولتفتحن عليكم فارس والروم . رواه أحمد(١) .

المعنى : [الحوتكية] : بحاء مهملة مفتوحة ثم واو ساكنة ثم تاء مثناة فوق قيل : هى عمة يتعممها الأعراب يسمونها بهذا الإسم ، وقيل : هو مضاف إلى رجل يسمى حوتكا كان يتعممها . والحوتك : القصير وقيل : هى خميصة منسوبة إليه وإلى القصر وهذا أظهر والله أعلم . [ما ادخر] : أى الذى كنز وعد ذخيرة لكم عند الله جل وعلا . [ما زوى] : أى (خفى) . [ولتفتحن عليكم فارس والروم] : أى والله ليفتح الله لكم بلاد فارس والروم فتدخلونها ظافرين وتحكمون أهلها فرحين مستشرين وتفوزون بثمراتها وتسعدون بخيراتها والمعنى أبشروا فالله سيكثر لكم الفتوح وتكونون سادة قادة .

٤٣ - وعن فضالة بن عبيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم من آمن بك وشهد أنى رسولك فحبب إليه لقاءك وسهل عليه قضاءك وأقلل له من الدنيا ومن لم يؤمن بك ويشهد أنى رسولك فلا تحبب إليه لقاءك ولا تسهل عليه قضاءك وكثر عليه من الدنيا . رواه أبى الدنيا والطبرانى(٢) وابن حبان فى صحيحه وأبو الشيخ ابن حبان فى الثواب ورواه ابن ماجه من حديث عمرو بن عيلان الثقفى وهو مختلف فى صحبته قال : قال رسول الله ﷺ : اللهم من آمن بى وصدقنى وعلم أنى ما جئت به الحق من عندك فأقلل ماله وولده وحبب إليه لقاءك وعجل له القضاء . ومن لم يؤمن بى ولم يصدقنى ولم يعلم أن ما جئت به الحق من عندك فأكثر ماله وولده وأطل عمره .

المعنى : [آمن بك] : صدق بوجودك واعترف بالرسالة فأعنه على طاعتك ليشتاق إلى مناجاتك ويرضى بأفعالك ويقنع ويصبر ويحلم ويسعد . [أقلل له من الدنيا] : اجعل رزقه قليلاً ليتيسر له العكوف على عبادتك ولتبعد عنه مشاغل الدنيا ولهوها ولعبها وزينتها .

دعاء مستجاب للمؤمن التقى :

(أ) الطاعة (ب) الرضا (جـ) الكفاف

والفاجر الشقى

(أ) عدم الخوف من الله تعالى (ب) السخط والتبرم من الحوادث

(جـ) جشعه على ملذات الدنيا وجمع المال بلا أعمال صالحة .

٤٤ - وعن محمود بن لبيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت والموت خير من الفتنة ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب . رواه أحمد بإسنادين(٣) رواه أحدهما محتج بهم فى الصحيح ومحمود له رؤية .

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده جـ ٤ ص ١٢٨ من رواية العرباض بن سارية .

(٢) رواه بن حبان فى صحيحه جـ ١ ص ٢١٥ من رواية فضاله بن عبيد .

(٣) رواه الامام أحمد فى مسنده جـ ٥ ص ٤٢٧ .

المعنى : [الموت] : الفناء والذهاب من الدنيا ولكن الموت خير من الاستمرار فى المعاصى والمحن والميل إلى الشهوات . [قلة المال أقل للحساب] : يوم القيامة يسأل الله تعالى عن المال فيم أنفقه ؟ ومن أين أكتسبه ؟ وقلته تخفف الحساب وتجعل صحيفة الإنسان نقية بيضاء من الذنوب والمؤمن يتذكر دائماً الموت ويحب العيش الكفاف .

٤٥ – وروى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قل ماله وكثرت عياله وحسنت صلاته ولم يغتب المسلمين جاء يوم القيامة وهو معى كهاتيه[1]. رواه أبو يعلى والأصبهانى .

المعنى : [عياله] : أفراد أسرته . [حسنت صلاته] : صلاها صلاة كاملة مستوفية الشروط والأركان والسنن . [ولم يغتب المسلمين] : ولم يذكر المسلمين بسوء . المعنى : الذى اتصف لصفات أربعة يجاور رسول الله ﷺ فى الجنة ويكون مكانه قريباً منه عليه الصلاة والسلام .

(أ) الزهد فى الدنيا والرضا بعيشه والقناعة برزقه .

(ب) رجل فيحب معيل منتج مثمر يكد فى حياته ، ويجمع لأهله وأولاده فيخدم أمته بوجود أولاد بررة مصلحين عاملين .

(جـ) يؤدى الصلاة فى أوقاتها تامة بخشوع .

(د) يسلم المسلمون من لسانه ويده .

هذه أربعة خصال تجعلك قريبا من رسول الله ﷺ .

٤٦ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره[2]. رواه مسلم .

المعنى : [أشعث] : المبلد الشعر المغبر . [أغبر مدفوع بالأبواب] : أى لا قدر له عند الناس فهم يدفعونه عن أبوابهم ويطردونه عنهم احتقاراً له ولو حلف على وقوع أجاب الله سؤاله لعظم منزلته عند الله تعالى . ا.هـ النووى .

فعليك يا أخى بمحبة الصالحين الزاهدين الورعين واطلب دعواتهم فإنها مستجابة كما قال ﷺ .

وفى الجامع الصغير (أشعث) ثائر الرأس مغبره قد أخذ فيه الجهد حتى أصابه الشعث وعلته الغبره ويكرمه الله باجابة سؤاله وصيانته من الخبث فى يمينه . وقال الحفنى أشعث : أى اشتغل بربه عن تعهد بدنه بالتنظيف حتى تغير لونه وشعث شعره ولو حلف بالله أو بنفسه بأن يقول والله أو وحياتى لابد من كذا وقيل المراد لو عبد الله لقبل عبادته فالقسم العبادة والبر القبول والأولى حمله على ظاهره فان أهل الدلال يقسمون عليه تعالى ملاحظين تلك النعمة التى أنعم بها عليهم من إجابتهم بعين ما طلبوا

(١) رواه مفتاح الترتيب لتاريخ الخطيب حـ ١١ ص ٢٥٩ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه كتاب البر والصلة والآداب باب فضل الضعفاء والخاملين حـ ٤ ص ٢٠٢٤ رقم ١٣٨ / ٢٦٢٢ من رواية أبى هريرة .

فقد نقل عن بعضهم أنه أراد أن يجامع زوجته فأخبرته بأن أولاده مستيقظون فدعا عليهم بالموت فماتوا جميعاً وكانوا سبعة فأخبر من هو أرقى منه بذلك فدعا عليه بالموت فمات وقال لو عاش لأمات ناساً كثيرين . وكان لسيدى أبى محمود الحنفى ولد ليس له غيره وكان إذا طلب من أحد شيئاً ولم يعطه قال له مت فيموت فدعا عليه أبوه فمات . نفعنا الله بهم جميعاً .

٤٧ – وعن أنس رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ربَّ أشعث أغبر ذى طمرين مصفح عن أبواب الناس لو أقسم على الله لأبره . رواه الطبرانى[١] فى الأوسط ورواته رواة الصحيح إلا عبد الله بن موسى القيمى .

المعنى : [أشعث] : جعد الرأس ، [أغبر] : غير الغبار لونه . [ذى طمرين] : تثنيه طمر وهو الثوب الخلق (تبنو عنه أعين الناس) أى ترجع وتغض عن النظر إليه احتقاراً له (لو أقسم) الانكسار ورثاثة الحال والهيئة من أعظم أسباب الاجابة . ا.هـ . [مصفح] : معرض ولم يذهب إليها تعففاً وقناعة وزهادة . من أصفحة رده .

٤٨ – وعن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن من أمتى من لو جاء أحدكم يسئله ديناراً لم يعطه ولو سأله درهماً لم يعطه ولو سأله فلساً لم يعطه فلو سأل الله الجنة أعطاها إياه ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره . رواه الطبرانى[٢] . ورواته محتج بهم فى الصحيح .

المعنى : [إن من أمتى] : أى يوجد فى أمتى أقعد يطلب من الناس فيحرم ، ولو طلب من ربه تعالى لأجابه ما هو أفضل وأبقى وهو النعيم المقيم . [فلساً] : الذى يتعامل به يقال أفلس الرجل كأنه صار إلى حال ليس له فلوس : كما يقال أقهر إذا صار إلى حال يقهر عليه ا.هـ . ففيه الترغيب فى إكرام الفقير السائل وطلب دعواته رجاء الفوز بالجنة .

٤٩ – وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه وأطاعه فى السر وكان غامضاً فى الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافاً فصبر على ذلك ثم نقر بيده فقال : عجلت منيته ، قلت بواكيه ، قل تراثه . رواه الترمذى[٣] من طريق عبيد الله بن زحر عن على بن يزيد عن القاسم إلى أمامة ثم قال : وهذا الإسناد عن النبى ﷺ قال : عرض علىَّ ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً أو قال : ثلاثاً أو نحو هذا فإذا جُعت تضرعت إليكَ وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن .

المعنى : [أوليائى عندى] : أى أن أحسن شىء يتمنى المؤمنون الاتقياء البررة أن ينال حظ ذلك الذى تحلى بخلال ستة :

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٤ كتاب الزهد باب ما جاء فى البله . من رواية أنس .
(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٦٤ كتاب الزهد باب فيمن لا يؤبه له .
(٣) رواه الترمذى فى صحيحه حـ ٤ ص ٥ – ٦ رقم ٢٤٥١ كتاب الزهد باب ماجاء فى الكفاف والصبر عليه .

(أ) مالــه قليــل .

(ب) يحســن الصــلاة .

(جـ) يخلــص فى العبــادة .

(د) يميل إلى الأعمال الصالحة التى تفعل فى السر .

(هـ) لا يحب الشهرة وإذاعة الصيت .

(و) عيشة كفاف خفيف الحساب .

[فى السر] : بعيداً عن الرياء . [غامضاً فى الناس] : يميل إلى العكوف فى عقر داره . [كفافاً] : الكفاف هو الذى لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة ومنه حديث عمر وددت أنى سلمت من الخلافة كفافاً لا علي ولا لى . [نقر بيده] : أى معه بيده الشريفة ﷺ وزاد من صفاته قرب منيته وقلة من ينعيه ويرثيه وقلة الارث ففيه الترغيب بالاقبال على الذكر والتسبيح والطاعة والتقليل من زخارف الدنيا ما أمكن . [بطحاء مكة] : الحصى الصغار الموجودة فى الجبال . لم يرض ﷺ بزهرة الدنيا لشدة قناعته وزهده وإعراضه عن الدنيا واختار ﷺ قليلاً يأكل يوماً فيشبع فيحمد ربه ويثنى عليه جل وعلا ، ولا يجد شيئاً يوماً فيجوع فيتضرع إلى ربه ويسأله سمو الدرجات وعظيم الرضوان ، وفى هذا المعنى يقول الإمام البوصيرى يمدح النبى ﷺ :

ظلمــت ســنة من أحيــا الظــلام إلى ... أن اشتكــت قدمــاه الضــر من ورم
وشــد من سغب أحشــاءه وطــوى ... تحــت الحجــارة كشــحا متــرف الأدم
وراودتـه الجبــال الشــم من ذهــب ... عــن نفســه فأراهــا أيما شــمم
وأكــدت زهــده فيهــا ضرورتــه ... إن الضــرورة لا تعــدو على العصــم
وكيف تدعــو إلى الدنيــا ضــرورة من ... لولاه لم تخــرج الدنيــا من العــدم

[تضرعت] : التجأت إليك طالبا بذل وخشوع . [ذكرتك] : سبحتك كثيرا .

٥٠ - وروى ابن ماجه والحاكم الحديث الأول إلا أنهما قالا : أغبط الناس عندى والباق بنحوه[١]. قال الحاكم : صحيح الإسناد كذا قال . [قوله : خفيف الحاذ] بحاء مهملة وذال معجمة مخففة : خفيف الحال قليل المال .

المعنى : [أغبط الناس عندي] : أى أكثر الناس غبطة وفى النهاية غبطت الرجل أغبطه غبطا : إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ماله ، وأن يدوم عليه ماهو فيه ، وحسدته أحسده حسداً إذا اشتهيت أن يكون لك ماله وأن يزول عنه ماهو فيه ومنه الحديث « على منابر من نور يغبطهم أهل الجمع واللهم غبطا لا هبطا » : أى أولنا منزلة نغبط عليها وجنبنا منازل الهبوط والضعة وقيل معناه : نسألك الغبطة : وهى النعمة والسرور ونعوذ بك من الذل والخضوع . ا.هـ .

(١) رواه ابن ماجه فى سننه حـ ٢ ص ١٣٧٨ - ١٣٧٩ رقم ٤١١٧ كتاب الزهد باب من لا يؤبه له .
رواه الحاكم فى مستدركه حـ ٤ ص ١٢٣ كتاب الأطعمة .

٥١ – وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر رضى الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله ﷺ يبكى فقال : ما يبكيك ؟ قال حديث سمعته من رسول الله ﷺ قال : اليسير من الرياء شرك ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الاتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا . قلوبهم مصابيح الدجى يخرجون من كل غبراء مظلمة . رواه ابن ماجه والحاكم[1] واللفظ له وقال صحيح ، ولا علة له .

المعنى : [اليسير] : القليل من العمل لغير الله إشراك وإلحاد . [عادى] : حاربهم وآذاهم وقدم لهم كل شرك قال تعالى : ﴿ **إن أولياؤه إلا المتقون** ﴾ . [المحاربة] : أظهر لله العداوة والعصيان من برز بروزاً : ظهر وبارز فى الحرب مبارزة وبرازا فهو مبارز وبرز الرجل فى العلم تبريزا : برع وفاق نظراءه . [لم يُفتقدُوا] : لم يُسأل عنهم لتواضعهم إلى ربهم لا يحبون المحافل التى تجتمع على غير طاعة الله تعالى . [من كل غبراء مظلمة] : ينجيهم الله تعالى من كل الفتن والظلمات كما فى حديث على رضى الله عنه « يوشك أن تغشاكم دواجى ظلمه » أى ظُلُمها واحدها داجية ا.هـ .

ولكن الصالحين يقيهم الله شرور الدنيا بأنوار إيمانهم بربهم قال تعالى :

(أ) ﴿ **قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** ﴾ ١٢٠ من سورة النحل .

(ب) وقال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب** ﴾ وشاهدنا الأبرار لا تنقطع محبتهم لله تعالى بخلاف محبة الأشرار الفساق أصحاب الشهرة والصيت الكاذب فأغراضهم لغير الله فاسدة لا ثواب لها .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم * إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك ... الآية** ﴾ من سورة البقرة .

ساقها الله للعقلاء الذين يتدبرون معنى القرآن ويعملون بأوامره فيعتزون به وحده . وشاهدنا النبراس الوهاج المتلألىء . المضىء فى قلوب من يتفكر فى بدائع صنع الله .

خلاصة أقواله ﷺ فى التخشن والزهد فى الدنيا وحب الفقراء

أولاً : تنجى قلة المال من شدائد يوم القيامة « عقبة » .

ثانياً : تسرع بالفوز ودرك النعيم « يصعدها المخفون » .

(١) رواه الحاكم فى مستدركه حـ ١ ص ٤ كتاب الايمان .
رواه بن ماجه فى سننه حـ ٢ ص ١٣٢٠ – ١٣٢١ كتاب الفتن باب من ترجى له السلامة من الفتن .

ثالثاً : مطية مسرعة ومركب وطىء وسيارة البهجة والسرور إلى طريق الجنة « ليست ذا دحض ومزلة » .

رابعاً : سبب إقبال الله تعالى على عبده الفقير وإغداقه بالرحمات وحفظه من الأكدار والهموم « حماه الدنيا » .

خامساً : بشره النبى ﷺ بدخول الجنة . وكان من السابقين « اطلعت فى الجنة » .

سادساً : يفوز بالنعيم والفوز الذى وثق به سيدنا موسى عليه السلام واختاره الله لعبده الصالح « بفتح له باب الجنة فينتظر إليه قال موسى أى رب ما أعددت له » .

سابعاً : يسبق أهل المحشر ويشرب من حوضه ﷺ « أكثر ورودا عليه الفقراء المهاجرين » .

ثامناً : يسبق الفقير الغنى الصالح بسنين عديدة « أربعين أو خمسمائة »

تاسعاً : تستقبل الملائكة الفقراء باحتفال العز والسرور « يزفون كما تزف الحمام » .

عاشراً : صحيفة الفقير نقية بيضاء من أوراق الدنيا لخفة ماله فيها « مؤمن فقير ومؤمن غنى » .

الحادى عشر : فاز الأصحاب بالسبق إلا سيدنا عبد الرحمن حتى قال ﷺ « لقد بطأ بك غناك من بين أصحابى » .

الثانى عشر : الفقير داخل فى زمرة دعوته ﷺ المستجابة « أحينى مسكيناً » .

الثالث عشر : حب الفقراء يجلب السعادة والنصر والصحة التامة والنعمة العامة « يستفتح بصعاليك » .

الرابع عشر : إكرامهم يدفع البلاء ويزيل كروب الدنيا ويجلب النضارة كما فى حديث سيدنا يعقوب « فاصنع طعاماً للمساكين » .

الخامس عشر : حركات الفقير وسكناته وكل أعماله حسنات له « ألا أخبركم عن ملوك الجنة » .

السابع عشر : أفضل خلق الله الفقير « خير من ملء الأرض » .

الثامن عشر : أهل الصفة قال الله تعالى عنهم ﴿ **أولئك فى ضعفائكم** ﴾

التاسع عشر : وجود الفقير يوسع الرزق للمنفق عليه ﴿ **ابغوني في ضعفائكم** ﴾

العشرون : الفقير سعيد ، لأنه اختار أن يجوع يوما ويشبع يوما مثل ما خير حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ « بطحاء مكة ذهبا » .

الحادى والعشرون : فليهنأ الفقير فأوقاته كلها فى طاعة وهى من دلائل رضوان الله ورحماته وهو مثل سيدنا رسول الله فى المعيشة « أشبع يوماً وأجوع يوماً » .

الثانى والعشرون : قلب الفقير الراضى ثريا وضاءة وشمس مشرقة تتفتح لها ينابيع الحكمة « مصابيح الدجى » .

الثالث والعشرون : ترفرف عليهم شادات السعادة وراحة الضمير وهناءة الحياة « إن غابوا لم يفتقدوا » فتجسد حقارة الدنيا عندهم محققة لا يهمهم زخارفها ولا يعتنون بمشاغلها ، رضى الله عنهم وحشرنا فى زمرتهم كما قال سيدنا سليمان عليه السلام **﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ . ١٩ من سورة النمل .**

أى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى وأن أوفق للعمل بكتابك إتماما للشكر واستدامة للنعمة يارب ، وقال تعالى :

(أ) **﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم (٧٤) * والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾** . من سورة الأنفال . أى من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار .

(ب) قال تعالى : **﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾** ٢١٨ من سورة البقرة .

(جـ) وقال تعالى : ﴿ زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ ٢١٢ من سورة البقرة

الترغيب فى الزهد فى الدنيا والاكتفاء منها بالقليل ، والترهيب من حبها والتكاثر فيها والتنافس وبعض ماجاء فى عيش النبى ﷺ فى المأكل والملبس والمشرب ونحو ذلك :

عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل إذا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس ؟ فقال : ازهد فى الدنيا يحبك الله وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس . رواه ابن ماجه(١) وقد حسن بعض مشايخنا إسناده

المعنى : [أحبنى الله] : رضى عنى وقبل عملى وأسعدنى . [أحبنى الناس] : اكرمونى وزادونى فى احترامى . [ازهد فى الدنيا] : ارض بقليل الشيء فيها ولا تكثر من حطامها ولا تحب زخارفها وارغب عن زينتها وأقبل على ربك بالعبادة وفى النهاية « أفضل الناس مؤمن مزهد » المزهد القليل الشيء . وحديث الزهرى سئل عن الزهد فى الدنيا فقال : هو أن لا يغلب الحلال شكره ولا الحرام صبره . أراد أن لا يعجز ويقصر شكره على ما رزقه الله من الحلال ولا صبره عن ترك الحرام .

[وازهد فيما فى أيدى الناس] : أى لا تنظر إلى مافى أيدى الناس وفى الجامع الصغير (ازهد) أى

---

(١) رواه بن ماجه فى سننه حـ ٢ ص ١٣٧٣ - ١٣٧٤ كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا .

أعرض عنها بقلبك ولا تحصل منها إلا على ما تحتاج إليه (يحبك الله) لأن الله تعالى يحب من أطاعه وطاعته لا تجتمع محبة الدنيا لأن حبها رأس كل خطيئة (وازهد فيما فى أيدى الناس) أى فيما عندهم من الدنيا (يحبك الناس) قال المناوى لأن طباعهم جعلت على حب الدنيا ومن نازع إنسانا فى محبوبة قلاه : ومن تركه له أحبه واصطفاه . قال الدارقطنى : أصول الحديث أربعة هذا منها .

وقال الحفنى : الزهد لغة لترك الشيء إحتقاراً له سواء كان محتاجا له أولا واصطلاحاً : ترك مازاد على حاجته من الحلال والورع ترك الحرام والشبهة فى الدنيا : أى الشاغلة عن طاعة الله تعالى المترتب عليها ضياع حقوق الخلق والحق وهى المعنية بحديث « تعس عبد الدنيار » الخ وحديث « الدنيا ملعونة » الخ ... أما المعينة على الطاعة فممدوحة كما فى حديث « نعمت الدنيا مطية المؤمن ، المؤمن بها يصل إلى الخير وينجو من الشر » . قال المناوى : وليس من الزهد ترك الجماع فقد قال سفيان بن عينيه كثرة النساء ليست من الدنيا فقد كان على كرم الله وجهه أزهد الصحابة وله أربع زوجات وتسع عشرة سرية . وقال ابن عباس : خير هذه الأمة أكثرها نساء ، وكان الجنيد شيخ القوم يحب الجماع ويقول إنى أحتاج إلى المرأة كما أحتاج إلى الطعام . (يحبك الناس) ولذا قيل لأهل البصرة ، من سيدكم ؟ فقالوا الحسن البصرى فقيل : **فيم سادكم ؟ فقالوا** احتجنا لعلمه واستغنى عن دنيانا .

حديث بديع جمع التربية الدينية والدنيوية فيغرس فى قلب المؤمن القناعة والرضا والصبر والحلم والكرم والإنفاق فى الخير وتشييد المحامد والمحاسن فيبعد عن اللهو والطمع والشر والبخل وهكذا من صفات المطرودين من رحمة الله تعالى وكلما زاد الإيمان بالله أقبل العبد على الطاعات وقلل من الدنيا وجعلها سوقاً رابحة نافعة لإيجاد صالح الأعمال فيها وفرصة سانحة لفعل المكرمات . وانظر رعاك الله إلى حال الكفار ، والفجار الذين غفلوا عن طاعة الله تعالى وسروا بنعيم الدنيا وبما بسط لهم فيها وقد حكى الله جل جلاله حادثهم ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع** ﴾ ٢٦ من سورة الرعد .

نعمة الدنيا فانية وماهى بجانب النعيم الباقى إلا متعة لا تدوم كعجالة الراكب وزاد الراعى قال البيضاوى : والمعنى أنهم أثروا بما نالوا من الدنيا ولم يصرفوه فيما يستوجبون به نعيم الآخرة واغتروا بما هو فى جنبه نزر قليل النفع يسرع الزوال . ا.هـ

٢ – وعن إبراهيم بن أدهم قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله دلنى على عمل يحبنى الله عليه ويحبنى الناس عليه ؟ فقال : أما العمل الذى يحبك الله عليه فالزهد فى الدنيا وأما العمل الذى يحبك الناس عليه فانبذ إليهم مافى يديك من الحطام . رواه ابن أبى الدنيا[1] هكذا نعضلها ، ورواه بعضهم عنه عن منصور عن ربّعى بن حراش قال : جاء رجل . فذكره مرسلا .

(١) رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى جـ ٤ ص ١٥٧ كتاب الترغيب فى الزهد فى الدنيا والاكتفاء منها بالقليل والترهيب من حبها والتكاثر فيها والتنافس .

المعنى : [فانبذ إليهم مافى يديك من الحطام] : أى أظهر السخاء والجود واجعل ما معك سهل الجنى قريب الفائدة يعود عليهم بالخير والبركة . ولسعيد بن حميد :

تمتع من الدنيا فانك فانى ... وإنك فى أيدى الحوادث عانى

******

لعمرى لقدما عضنى الجوع عضة ... فآليت أن لا أصنع الدهر جائعاً

فقولا لهذا اللائمى اليوم أعفنى ... فان أنت لم تفعل مغض الأصابعا

٣ – وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : الزهد فى الدنيا يريح القلب والجسد رواه الطبرانى(١).

المعنى : [الزهد فى الدنيا] : التقلل من جمع المال يسبب راحة الضمير وسعادة الحياة ويطرد الهموم ويبعد المشاغل والوساوس ويعطى الجسم الراحة التامة .

٤ – وعن الضحاك رضى الله عنه قال : أتى النبى ﷺ رجل فقال : يا رسول من أزهد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على **مايفنى** ولم يعُدَّ غداً فى أيامه وعد نفسه من الموتى . رواه أبن أبى الدنيا مرسلاً(٢).

المعنى : [يا رسول الله من أزهد الناس] : استفهام عن أكثر الناس قناعة وزهادة وفى الجامع الصغير : أى أكثرهم زهدا فى الدنيا . [لم ينس القبر] : يعنى الموت ونزول القبر ووحدته ووحشته وسؤال الملكين وظلمته فيستعد له بزرع الأعمال الصالحة فى حياته ليجنيها بعد مماته . [البلى] : الفناء والاضمحلال والتغير والانتقال من دنيا إلى أخرى سنة الله فى خلقه . [زينة الدنيا] : مع إمكان نيلها ما جتنب الزخرفة والبهجة وكمل باطن نفسه بآداب الشرع . [وآثر ما يبقى على **ما يفنى**] : اختار الآخرة وما ينتفع بها على الدنيا وما فيها . ترك الشهوات وأقبل على الطاعات . اجتنب مجالس السوء **ورغب فى مجالس الذكر والعلم وصاحب الأبرار الأخيار . [لم يعد غداً فى أيامه] : جعل الموت** نصب عينيه على توالى اللحظات فيسرع فى آداء حقوق الله وسداد الدين وترك المظالم ويبيض صحيفته بكثرة الاستغفار والصلاة على المختار وذكر الجبار القهار الغفور الوهاب . قال الشاعر أبو الفتح البستى يبين هوان الدنيا على الصالحين الذين فهموا لباب الدين :

زيادة المرء فى دنياه نقصان ... وربحه غير محض الخير خسران

وكل وجدان حظ لاثبات له ... فان معناه فى التحقيق فقدان

يا عامراً لخراب الدهر مجتهدا ... بالله هل لخراب العمر عمران

---

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا حـ ١٠ ص ٢٨٦ .
رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى حـ ٤ ص ١٥٧ – ١٥٨ كتاب الترغيب فى الزهد .

(٢) رواه الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى حـ ٤ ص ١٥٧ – ١٥٨ فى كتاب الزهد فى الدنيا .

ويا حريضاً على الأموال يجمعها أنسيت أن سرور المال أحزان
دع الفؤاد من الدنيا وزينتها وضفوها كدر والوصل هجران
وارع سمعك أمثالاً أفصلها كما يفصل ياقوت ومرجان
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
وكن على الدهر معواناً لذى أمل يرجو نداك فإن الحر معوان
وأشدد يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركان
من يتق الله يحمد فى عواقبه ويكفه شر من عزو ومن هانوا
من استعان بغير الله فى طلب فإن ناصره عجز وخذلان
من كان للخير مناعاً فليس له على الحقيقة إخوان وأخذان
من جاد بالمال مال الناس قاطبة إليه والمال للانسان فتان
كن ريق البشر إن الحر همته صحيفة وعليهما البشر عنوان
ورافق الرفق فى كل الأمور فلم يندم رفيق ولم يذممه إنسان
ولا يغرنك حظ جره حزن فالحزن هدم ورفق المرء بنيان
لا ظل للمرء يعرى من نهى وتقى وإن أظلته أوراق وأفنان
يا ظالماً فرحاً بالعز ساعده إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
يا أيها العالم المرضى سيرته أبشر فأنت بغير الماء ريان
ويا أخا الجهل لو أصبحت فى لجج فأنت ما بينها لا شك ظمآن
لا تحسبنى سروراً دائماً أبداً من سره زمن ساءته أزمان
يا رافلاً فى الشباب الوصف منتشيا من كأسه هل أصاب الرشد نشوان
ويا أخا الشيب لونا صمت نفسك لم يكن لمثلك فى الإسراف إمعان
وكل كسر فإن الدين يجبره وما لكسر قناة الدين جبران

٥ – وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله عز وجل ناجى موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة فى ثلاثة أيام فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم لما وقع فى مسامعه من كلام الرب عز وجل وكان فيما ناجاه ربه أن قال: يا موسى إنه لم يتصنع لى المتصنعون بمثل الزهد فى الدنيا ولم يتقرب إلى المتقربون بمثل الورع حرمت عليهم ولم يتعبد المتعبدون بمثل البكاء من خشيتى قال موسى: يارب البرية كلها ويا مالك يوم الدين وياذا الجلال والإكرام: ماذا أعددت

لهم وماذا جزيتهم قال : أما الزهاد فى الدنيا فإنى أبحتهم جنتى يتبوءون منها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته وفتشته إلا الورعون فإنى أستحييهم وأجلهم وأكرمهم فأدخلهم الجنة بغير حساب وأما البكاؤون من خشيتى فأولئك لهم لرفيق الأعلى لا يشاركون فيه . رواه الطبرانى والأصبهانى[1].

المعنى : [مقتهم] : أبغضهم أشد البغض عن أمر قبيح المعنى أنكر هذا الصوت المنكر منهم إزاء صوت الرب جل وعلا . [يتصنع لى] : يفعل ما فيه رضاى ويتزلف إلى ويتقرب . [الزهد] : الرغبة عن زينتها والتقلل من التعب فى جمع مالها . [الورع] : البعد عن الشبهات وتحرى الحلال . [البكاء من خشيتى] : الخوف من عقابه جل وعلا والشوق إلى ثوابه . [يارب البرية] : سيد العالم أجمع وخالقها . [أبحتهم جنتى] : جعلتها مباحة . [فإنى أستحييهم] : أترك سؤالهم حبا فى حيائهم . [الرفيق الأعلى] : أعلى مكان فى الجنة (الفردوس) .

٦ - وروى عن عمار بن ياسر رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما تزين الأبرار فى الدنيا بمثل الزهد فى الدنيا[2]. رواه أبو يعلى .

المعنى : [ما تزين الأبرار] : تحلى وتجمل وتكمل .

٧ - وروى عن عبد الله بن جعفر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : إذا رأيتم من يزهد فى الدنيا فادنوا منه فإنه **يُلقن الحكمة** . رواه أبو يعلى .

المعنى : [فادنوا منه] : تقربوا إليه وجالسوه فإنه يلهم الصواب ويلقن الرشاد ويقول الحق . قال المناوى : أى يعلم دقائق الاشادات الشافية لأمراض القلوب المانعة من اتباع الهوى ا.هـ .

وفى الجامع الصغير فى تفسير قوله تعالى : ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء** ﴾ . أى العلم النافع المؤدى إلى العمل ، قال العلقمى قال سفيان بن عينية : الزهد ثلاثة أحرف زاى وهاء ودال . فالزاى ترك الزينة والهاء ترك الهوى والدال ترك الدنيا بجملتها . وحقيقة الزهد الشرعية استصغار الدنيا بجملتها واحتقار جميع شأنها فمن كانت الدنيا عنده صغيرة حقيرة هانت عليه فالزاهد هو المستصغر للدنيا المحتقر بها الذى انصرف قلبه عنها تصغر قدرها عنده ، ولا يفرح لشىء منها ولا يحزن على فقده ولا يأخذ منها إلا ما أمر بأخذه مما يعينه على طاعة ربه ويكون مع ذلك دائم الشغل بذكر الله تعالى وذكر الآخرة .

قال الفضيل بن عياض : جعل الله الشر كله فى بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله فى بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها .

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير حـ ١٢ ص ١٢٠ - ١٢١ رقم ١٢٦٥٠ من رواية بن عباس .
رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا .

(٣) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا .

وقال أحمد وسفيان الثورى وغيرهما : الزهد قصر الأمل .

وقال بن المبارك : الزهد الثقة بالله . وقال أبو سليمان الدارانى : الزهد ترك ما يشغل عن الله . ا.هـ.

٨ – وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لا أعلمه إلا رفعه قال : صلاح أول هذه الأمة بالزهادة واليقين وهلاك آخرها بالبخل والأمل . رواه الطبرانى[1] وإسناده محتمل للتحسين ومتنه غريب .

المعنى : [أول] : أول وجود الاسلام وفى زهرته وفتوته . [اليقين] : سكون الفهم مع ثبات الحكم مع الثقة بوجود الله والتوكل عليه جل وعلا وعقد العزيمة على طاعته والتفانى فى الإخلاص له عز شأنه . [البخل] : التقصير فى آداء الحقوق وعدم الانفاق فى وجوه البر . [الأمل] : التسويف فى الأعمال الصالحة وحب المال إلى درجة الميل إلى تشييد القصور ووفرة الخيرات مع الترف والبذخ .

٩ – وروى عن أنس رضى الله عنه يرفعه قال : ينادى مناد : دعوا الدنيا لأهلها ، دعوا الدنيا لأهلها ، دعوا الدنيا لأهلها . من أخذ من الدنيا أكثر مما يكفيه أخذ حتفه وهو لا يشعر . رواه البزار[2]، وقال : لا يروى عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه .

المعنى : [أخذ حتفه] : هلاكه ، معناه الذى يسلم نفسه لمطامع الحياة والاسترسال فى آمال جنى الأموال وقع فى الهاوية ولا يدرى لماذا ؟ لأن أعمال الدنيا خالية من الثواب المدخر له بعد مماته فمهما جمع من زخارف الدنيا ومات لا ينفعه شىء إلا إذا شيد بماله قصور الصالحات التى أعد الله أجرها للمحسنين :

هى الدنيـــا تقـــول بمـــلء فيهـــا ... حـــذار حـــذار من بطـــش وفتكـــى

******

شـــباب بلا تقـــوى كفض بلا جـــنى ... يرى غير مأســـوف عليـــه فيحطـــب

١٠ – وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : خير الذكر الخفىُّ وخير الرزق أو العيش ما يكفى ، الشك من ابن وهب . رواه أبو عوانه[3] وابن حبان فى صحيحهما والبيهقى .

المعنى : [الذكر الخفى] : أى أفضل العباده التى تصدر من مطيع بعيد عن الرياء وحب الظهور والشهرة . [مايكفى] : الذى يسد الحاجة ويبعد الجوع .

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٨٦ كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهد فى الدنيا .

(٢) رواه كشف الاستار عن زوائد البزار للحافظ الهيثمى حـ ٤ رقم ٣٦٩٥ ص ٢٧٠ باب هوان الدنيا .

(٣) رواه بن حبان فى صحيحه حـ ٢ ص ٨٩ – ٩٠ رقم ٨٠٦ باب ذكر بيان بأن ذكر العبد ربه جل وعلا بينه وبين نفسه أفضل من ذكره بحيث يسمع صوته .

١١ - وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . رواه مسلم والنسائى[1]. وزاد : فما تركت بعد فتنة أضر على الرجال من النساء .

المعنى : [حلوة] : طعم جمع المال فيها لذيذ تميل النفس إلى زينتها ، يقال حلا بضمى يحلو . [خضرة] : نضرة زاهرة ذاهية . وفى البخارى فى باب المنافسة فى الدنيا قوله ﷺ « أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا » قال القسطلانى : فيه أن المنافسة فى الدنيا قد تجر إلى الهلاك فى الدين . اهـ . وفى باب فضل النفقة فى سبيل الله تعالى قوله ﷺ « خضرة حلوة ونعم صاحب المسلم لمن أخذه بحقه فجعله فى سبيل الله واليتامى والمساكين وابن السبيل » . قال القسطلانى : خضرة من حيث المنظر ، حلوة من حيث الذوق ، نعم المال لمن جمعه من حلال وأنفقه فى جميع أنواع الخير . [مستخلفكم فيها] : جاعلكم أولياء خلفاء فى إنفاق المال تتصرفون فيه تصرف المالك وفى الحقيقة الله تعالى المنعم المعطى الوهاب الرزاق ، قال تعالى : ﴿ **آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير** ﴾ ٧ سورة الحديد .

قال البيضاوى من الأموال التى جعلكم الله خلفاء فى التصرف فيها فهى الحقيقة له لا لكم أو التى استخلفكم عمن قبلكم فى تملكها والتصرف فيها وفيه حث على الانفاق وتهوين له عن النفس . اهـ .

[فاتقوا الدنيا] : احذروا الدنيا وابتعدوا عن ميل النساء واخشوا أن يمنعكن عن طاعة الله ، فاتقوا الدنيا . يأمرنا ﷺ باليقظة والحذر من ثنتين :

(أ) الدنيا لأنها رأس كل خطيئة وسبب كل نقص وحبها يجر الغفلة عن ذكر الله ومشاغلها جمة تلهى عن الله .

(ب) النساء لأنهن شرك الفتن وحبائل الشيطان قد يسببن قطيعة الرحم أو يمنعن فعل الخير أو يكن **لاهيات لاعبات مائلات مميلات لضعفاء الايمان وقد تقدم ثنتان فى الحديث هما سببان قويان فى** نصر الاسلام واشراق شمسه وبلوغ أوج عزه وطلوع كواكب نجمه متألقة فى سماء الرفعة والمجد : هما الزهد واليقين .

[أضر] : أكثر اضراراً . يحذر ﷺ من الميل إلى حب السيدات وإرخاء العنان لطلباتهن بلا تحكم الشرع بينهن ، قال تعالى :﴿ **إن كيدكن عظيم** ﴾ وقال تعالى ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ :

إن النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

كم شخص حن إلى المرأة فمال إليها وعصى الله فى طاعتها فدعته إلى فراق شقيقه وغضب قريبه

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٠٩٨ رقم ٩٩ / ٢٧٤٢ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب الرقاق .

والاكثار من غشيان الملاهى والتمتع لشراب الخمر وأكتب هذا وفى يدى صحيفة تنبىء عن رجل موظف يعول أسرة كبيرة كباراً وصغاراً ولكن أحب فتاة وراودها عن نفسها ولمس عفافها فحملت سفاحا ثم وضعت ولدا وقبل أن يظهر أمرها للنيابة ذهب إلى مقر وظيفته وودع رئيسه وزملاءه وذهب إلى بيته فقبل أولاده الصغار وقال لهم إنى سأموت ودخل فى حجرة وأحكم إقفال نوافذها ووجه فوهة البندقية على عنقه وانتحر فيتم أطفاله . لماذا ؟ خشى الفضيحة من عاره ولطخ جبين الانسانية بهتك عرض المرأة . ولقد صدق من قال : فتش عن المرأة فإن لها فى كل جناية أصبعاً .

[على الرجال من النساء] : قال العلقمى : فى الحديث إن الفتنة بالنساء أشد من الفتنة بغيرهن ويشهد له قوله تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء** ﴾ سورة آل عمران . فجعلهن من عين الشهوات وبدأبهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل فى ذلك . ويقع فى المشاهدة حب الرجل ولده من امرأته التى هى عنده محبوبة أكثر من حبه ولده من غيرها ومن أمثلة ذلك قصة النعمان ابن بشير فى الهبة وقد قال بعض الحكماء : النساء شر كلهن وأشر ما فيهن عدم الاستغناء عنهن . ومع أنها ناقصة العقل والدين تحمل الرجل على تعاطى مافيه نقص العقل والدين بشغله عن طلب أمور الدين وتحمله على التهالك على طلب الدنيا وذلك أشد الفساد . وقد أخرج مسلم من حديث أبى سعيد فى أثناء حديث « واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء » اهـ .

النساء أساس الخصومة بين المتحابين ومنبع الجرائم بين الأشرار والداء العضال الذى أعيا المصلحين الأطباء فى علاج الاتحاد والتآلف والتوادد والتحابب . هذا فى العموم . ولا يخلو كل عصر من فضليات النساء اللاتى لهن اليد الطولى فى تشييد قصور المحاق وإيجاد صالحات الأعمال وكن المثل الأعلى فى التربية السامية والكمال والآداب وأنجبن بنين وخدمن الوطن والدين أمثال السيدة خديجة والسيدة عائشة ومن على شاكلتهما وحذا حذوهما إلى الآن وبذا قال الشاعر :

ولو كان النساء كمثل هذى ... لفضلت النساء على الرجال

وقالت أخرى تبين فوائدها فى العالم

إن النساء رياحين خلقن لكم ... وكلكم يشتهى شم الرياحين

١٢ — وعن عمرة بنت الحارث رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : الدنيا حلوة خضرةٌ فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورُب متخوض فى مال الله ورسوله له النار يوم القيامة . رواه الطبرانى[1] بإسناد حسن

المعنى : [بحقها] : جمع فيها المال الحلال من وجوه شريفة وطرق شرعية . [متخوض] : أصل الخوض المشى فى الماء وتحريكه ثم إستعمل فى التلبس فى الأمر والتصرف فيه : أى رب متصرف

(١) رواه الطبرانى فى معجمه الكبير حـ ٢٤ ص ٣٤٠ — ٣٤١ من رواية عمرة بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية .
رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٤٧ كتاب الزهد باب الدنيا حلوة خضرة من رواية عمرة بنت الحارث .

فى مال الله تعالى بما لا يرضاه الله تعالى والتخوض تفعل منه وقيل هو التخليط فى تحصيله من غير وجهه كيف أمكن . اهـ .

المعنى أن الدنيا محبوبة مائلة إلى زينتها النفس ومشتاقة إلى كثرة خيراتها ولكن يختار المؤمن حلالها وطبها ليعمل صالحا به والفاجر العاصى يستعمل هذه النعم فى شهواته فيهوى بها فى جهنم ، لأن الذى وهب له هذه النعم سيحاسبه عليها وهل عمل بها حسب شرع حبيبه سيدنا رسول الله ﷺ ؟

١٣ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الدنيا حلوة خضرة فمن أخذها بحقها بارك الله له فيها ورب متخوض فيما اشتهت نفسه ليس له يوم القيامة إلا النار . رواه الطبرانى فى الكبير(١) ورواته ثقات .

المعنى : [متخوض] : تارك العنان لنفسه تدله على المعاصى وترتكب الشهوات الذميمة فينفق فى وجوه الشرور والعصيان وعقابه دخول جهنم والعياذ بالله تعالى .

١٤ - وعن البراء بن عازب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من قضى نهمته فى الدنيا حيل بينه وبين شهوته فى الآخرة ومن مد عينيه إلى زينة المترفين كان مهينا فى ملكوت السموات ومن صبر على القوت الشديد صبراً جميلاً أكنه الله من الفردوس حيث شاء . رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير(٢)

المعنى : [قضى نهمته] : أى أدرك طلب نفسه وذاق حلاوة ما يتمنى فى حياته . وفى النهاية النهمة : بلوغ الهمة فى الشيء ومنه النهم من الجوع . [حيل] : بعد . [مد عينيه إلى زينة المترفين : أى نظر إلى رغد المنعمين واطلع على خيراتهم وأن تضجر وحسد ولم يصبر على ما أعطاه الله تعالى . [كان مهيناً : واقعة عليه كل إهانة وأذى من الملائكة البررة . وفى النهاية ملكوت اسم مبنى من الملك كالجبروت والرهبوت من الجد والرهبة . [ومن صبر] : حبس نفسه على تحمل الجوع وقنع برزقه ورضى بالقليل ملكه الله أعلى جهة فى الجنة يتمتع بنعيمها جزاء صبره فى حياته .

١٥ - وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لا يصيب عبد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان عليه كريماً . رواه ابن أبى الدنيا وإسناده جيد وروى عن عائشة مرفوعا والموقوف أصح .

المعنى : [لا يصيب] : لا ينال العبد شيئاً من خيرات الدنيا إلا حاسبه الله عليه وأخذ منه درجات سامية كانت له فى آخرته .

١٦ - وروى عن ثوبان رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله : ما يكفينى من الدنيا ؟ قال

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٤٦ كتاب الزهد باب الدنيا حلوة خضرة .

(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٤٨ كتاب الزهد باب فيمن أحد الدنيا ـــ باب منه » من رواية البراء بن عازب .

ما سد جوعتك ووارى عورتك وإن كان لك بيت يظلك فذاك وإن كانت لك دابة فبخ . رواه الطبرانى [١] فى الأوسط .

المعنى : [وارى] : ستر . وعورة الرجل ما بين السرة و ركبة وعورة المرأة جميع جسمها إلا وجهها وكفيها . [فذاك] : هذا كافيك . [فبخ] : كلمة تقال عند المدح والرضا اهـ . أى العاقل يطلب فى حياته :

(أ) ما يقيه شر الجوع .

(ب) ما يكنه ويقيه شر الحر والبرد ويغطى سوءته .

(جـ) مركب وطىء سهل يجلب له الراحة ويوفر عليه التعب . ومازاد على ذلك ينفقه فى وجوه البر ادخارا عند الله جل وعلا .

١٧ - وعن أبى عسيب رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ ليلاً فمر بى فدعانى فخرجت إليه ثم مر بأبى بكر رحمه الله فدعاه فخرج إليه ثم مر بعمر رحمه الله فدعاه فخرج إليه فانطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار فقال لصاحب الحائط : أطعمنا فجاء بعذق فوضعه ، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه ، ثم دعا بماء بارد فشرب فقال : لتسئلن عن هذا يوم القيامة . قال : فأخذ عمر رحمه الله العذق فضرب به الأرض حتى تناثر البُسر قبل رسول الله ﷺ ، ثم قال : يا رسول الله إنا لمسئولون عن هذا يوم القيامة ؟ قال : نعم إلا من ثلاث : خِرقةٍ كف بها عورته أو كسرة سد بها جوعته أو حجر يدخل فيه من الحر والقر . رواه أحمد[٢] ورواته ثقات .

المعنى : [فانطلق حتى دخل حائطا] : أتى حائطاً والحائط ههنا : البستان من النخيل إذا كان عليه حائطا وهو الجدار وجمعه حوائط . [بعذق] : العرجون بما فيه من الشماريخ . [لتسئلن عن هذا] : والله ليسألنكم عن هذه الأكلة الجميلة الحلوة البديعة . [البُسر] : التمر ، تغرق أمام حضرته ﷺ . [إلا من ثلاث خرقة] : قطعة من نسيج تستر العورة ، أو قطعة من [خبز] : تطرد الجوع . [أو حجر يدخل] : والمعنى بيت على قدر منع الحر والبرد فقط ومازاد عن هذه الثلاثة يحاسب الله عليها حساباً عسيراً ففيه الترغيب فى طلب ثلاثة على قدرا الحاجة الواقية :

١ - ملبس ٢ - طعام ٣ - منزل

١٨ - وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ليس لابن آدم حق إلا في هذه الخصال : بيت يكنه وثوب يوارى عورته وجلف الخبز والماء . رواه الترمذى والحاكم وصححاه والبيهقى[٣] ولفظه : قال رسول الله ﷺ : كل شىء فضل عن ظل بيت وكسر خبز وثوب يوارى

(١) رواه مجمع الزوائد للهيثمى جـ ١٠ ص ٢٥٤ كتاب الزهد باب ما يكفى ابن ادم من الدنيا .

(٢) رواه أحمد فى مسنده جـ ٥ ص ٨١ . من رواية أبى عسيب .

(٣) رواه الحاكم فى مستدركه جـ ٤ ص ٣٢١ كتاب الرقاق .

رواه الترمذى فى سننه جـ ٤ ص ٣ رقم ٢٤٤٤ كتاب الزهد باب ماجاء فى الزهادة فى الدنيا .

عورة ابن آدم فليس لابن آدم فيه حق . قال الحسن : فقلت لحمران : ما يمنعك أن تأخذ ؟ وكان يعجبه الجمال يا أبا سعيد إن الدنيا تقاعدت بى

المعنى : [الجلف] : بكسر الجيم وسكون اللام بعدهما فاء : هو غليظ الخبز وخشنه وقال النضر بن شميل : هو الخبز ليس معه إدام . [فضل] : زيادة داعية إلى الترف يسأل الله معطيها فيم استعملها .

١٩ - وعن أبى عبد الرحمن الجبلى قال : سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص وسأله رجل فقال : ألستُ من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوى إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال فأنت من الأغنياء . قال : فإنى لى خادماً ؟ قال : فأنت من الملوك رواه مسلم[١] موقوفاً .

المعنى : [ألك امرأة] : زوجة ترجع إليها من عملك فتجد قرة عين وسرورا وحياة سعيدة . [ألك مسكن] : منزل تسكنه .

والمعنى ثنتان ملكتهما فعدك الله من الموسرين الأغنياء :

(أ) زوجة .

(ب) بيت ، والثالثة خادم يقضى له حاجاته لراحته فعده ﷺ من الملوك . .

٢٠ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ ما فوق الإزار وظل الحائط وحر الماء فضل يحاسب به العبد يوم القيامة أو يسأله عنه . رواه البزار[٢] ورواته ثقات إلا ليث بن أبى سليم وحديثه جيد فى المتابعات .

المعنى : [مافوق الإزار] : الرداء : أى الزائد عن ستر العورة . [فضل] : زيادة عن حق العبد يسأل عن نعيمها .

٢١ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أول ما يحاسب العبد يوم القيامة أن يقال له : ألم أصح لك جسمك وأروك من الماء البارد . رواه ابن حبان فى صحيحه والحاكم[٣] وقال : صحيح الاسناد .

المعنى : [ألم أصح لك جسمك] : ألم أعطك صحة ونضارة وأزيل ظمأك ؟

٢٢ - وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ : إن أردت اللحوق بى فليكفك من الدنيا كزاد الراكب وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلفى ثوباً حتى ترقعيه . رواه الترمذى والحاكم والبيهقى من طريقها وغيرها كلهم من رواية صالح بن حسان .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٢٨٥ رقم ٣٧ / ٢٩٧٩ .

(٢) رواه كشف الاستار عن زوائد البزار حـ ٤ ص ٢٤٧ رقم ٣٦٤٣ باب فيما يسأل العبد عنه .

(٣) رواه الترمذى فى سننه كتاب اللباس باب ما جاء فى توقيع الثوب حـ ٣ ص ١٥٥ رقم ١٨٣٩ .

المعنى : [اللحوق بى] : مرافقتى فى الجنة . [كزاد الراكب] : قدر زاد المسافر . [وإياك ومجالسة الأغنياء] : احذرى مجالسة أصحاب الأموال والثروة . [ولا تستخلفى ثوباً] : ولا تأتى بثوب جديد .

ثلاثة تقربك إلى رسول الله ﷺ .

(أ) التقليل من الدنيا (ب) مجالسة الفقراء لا المنعمين .

(جـ) التخش والتقشف والقناعة والزهد فى الملبس .

٢٣ - وعن أبى سفين عن أشياخه قال : قدم سعد على سلمان يعوده قال : فبكى فقال سعد : ما يبكيك يا أبا عبد الله ؟ توفى رسول الله ﷺ وهو عنك راضٍ ، وترد عليه الحوض وتلقى أصحابك ، فقال : ما أبكى جزعاً من الموت ولا حرصاً على الدنيا ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً قال : لتكن بلغة أحدكم من الدنيا كزاد الراكب وحولى هذه الأساود ، قال : وإنما حوله إجانة وجفنة ومطهرة فقال : يا سعد : أذكر الله عند همك إذا هممت وعند يديك إذا قسمت وعند حكمك إذا حكمت . رواه الحاكم[1] وقال : صحيح الاسناد كذا قال : (قوله : وهذه الأساود حولى) قال أبو عبيد أراد الشخوص من المتاع وكل شخص سواد من إنسان أو متاع أو غيره .

المعنى : [ما أبكى جزعاً] : خوفاً . [ولا حرصاً على الدنيا] : شدة الطمع . والمعنى يبكى سليمان خشية أن يسأله ربه عن هذه الأشياء التى تركها :

(أ) طست (ب) ما يوضع عليه الطعام (جـ) إبريق

[بُلَغَةُ] : ما يتبلغ ويتوصل به إلى الشيء المطلوب . [إجانة] : إناء يغسل فيه الثياب والجمع أجاجين . [جفنة] : مائدة والعرب تدعو السيد المطعام جفنة ، لأنه يضعها ويطعم الناس فيها : أى مضيفة للجود والاحسان . [مطهرة] : إداوة أى إناء التطهير والنظافة . [همك] : عزمك على إيجاد عمل . [قسمت] : وزعت : أى سو بالعدل وفرق بالحق . [حكمت] : إذا حضرت النزاع بين متخاصمين فاعدل .

٢٤ - وعن أنس رضى الله عنه قال : اشتكى سلمان فعاده سعد فرآه يبكى فقال له سعد : ما يبكيك يا أخى ؟ أليس قد صحبت رسول الله ﷺ ، أليس ، أليس ؟ قال سلمان : ما أبكى واحدة من اثنتين وأبكى خضّاً على الدنيا ولا كراهية الآخرة ولكن رسول الله ﷺ عهد إلينا عهداً ما أرانى إلا قد تعديت . قال : وما عهد إليك ؟ قال عهد إلينا أنه يكفى أحدكم مثل زاد الراكب ، ولا أرانى إلا قد تعديت ، وأما أنت يا سعد فاتق الله عند حكمك إذا حكمت وعند قسمك إذا قسمت : وعند همك إذا هممت قال ثابت : فبلغنى أنه ما ترك إلا بضعة وعشرين درهما مع نفيقة كانت عنده . رواه ابن ماجه[2] ورواته ثقات احتج بهم الشيخان إلا جعفر بن سليمان فاحتج به مسلم وحده .

---

(١) رواه الحاكم فى مستدركه حـ ٤ ص ٣١٧ كتاب الرقاق .

(٢) رواه ابن ماجه فى سننه حـ ٢ ص ١٣٧٤ رقم ٤١٠٤ كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا .

(قال الحافظ) : وقد جاء فى صحيح ابن حبان أن مال سلمان رضى الله عنه جمع فبلغ خمسة عشر درهما ، وفى الطبرانى : أن متاع سلمان بيع فبلغ أربعة عشر درهما .

المعنى : [ضناً] : بخلاً من ضن ضنانة .

إن الانسان خلق ليعمل فى هذه الحياة ويجد فى جنى ثمار الصالحات بما كسبت يداه فلا يمنع الزهد أن يتقن الموظف عمله أو يحترف الصانع أو يبيع التاجر ليربح وهكذا فالله تعالى يقول : ﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾

وهذا الشاعر نفسه تطمح إلى المعالى بكده وعرق جبينه ، يقول المتنبى :

ليس التعلل بالآمال من أربى ... ولا القناعة بالإقلال من شيمى
ولا أظن بنات الدهر تتركنى ... حتى تسد عليها طرقها هممى
والليالى التى أخنت على جدتى ... بحرقة الحال واعذرنى ولا تلم
أرى أناساً ومحصولى على غنم ... وذكر جود ومحصولى على الكلم

[بنات الدهر] : أى حوادثه . [محصولى] : أى حصولى على مواعيد .
فيريد أن المجد يرقى إلى العلياء بكده ويكسب المال بعرق جبينه ولا يرضى الصغائر :

لا تركن إلى الهوى ... واحذر مفارقة الهواء
يوما تسير إلى الثرى ... ويفوز غيرك بالثراء

ينهى الشاعر عن اتباع الشهوات ، ثم يحبب الانسان إلى التمتع بخيرات الدنيا فى وجوه الحلال ويرغبه بتشييد الصالحات ذخرا له بعد مماته (والباقيات الصالحات خير) .

قد عضنى نار النوائب ... ورأيت آمالى كواذب
والمرء يعشق لذة الدنيا ... فتفقره المصائب
وإذا تفرق درهما ... زبنته حين يلذ الشارب

******

لا تجد بالعطاء فى غير حق ... ليس فى منع غير ذى الود بخل
إنما الجود أن تجود على من ... هو للجود والندى منك أهل

إن الذى يرغب فى الزهد ــ ﷺ كان راعى غنم فى إبان صغره . ثم تاجر فربح مالا وفيرا ثم عكف على طاعة ربه حتى اصطفاه الله لرسالته فكان ملكا عادلا ورسولا أدى الرسالة بأمانة وشجاعة ، وكان رئيس القواد فأكثر الفتوح ودانت له المعمورة ومع وفرة النعم يقول ﷺ فى حديثه « أجوع يوما وأشبع يوما » ثم قفى أثره أصحابه الأبرار واتبع منهجه المسلمون الأخيار حتى إن

السيدة عائشة رضي الله عنها جاءها يوما آلاف الدنانير فوزعتها ولم تجد ما تفطر عليه . هذا هو معنى الزهد أيها السادة . وليس الزهد الميل إلى الكسل والبطالة والخلو من العمل وللشيخ عمر الأنسى :

إذا أنت لم تعمل بما أنت قائل ... فأنت أسير الجهل أو أنت تكذب
ولا تصحبنى زادا سوى البر والتقوى ... وإلا فشر الزاد ما أنت تصحب

ولأحمد الكيوانى :

يا مكثرا من ذم كل ذميم ... ابدأ بنفسك قبل كل ملوم
هل تنجح الآداب عند معاشر ... مع زهدهم فى العلم والتعليم

٢٥ – وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ ما طلعت شمس قط إلا بُعث بجنبيتها ملكان يناديان يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى . رواه أحمد . ورواته رواة الصحيح وابن حبان فى صحيحه والحاكم[١] وقال : صحيح الاسناد .

المعنى : [بجنبيتها] : بناحيتها . [الثقلين] : الانس والجن . [هلموا إلى ربكم] : اقبلوا على ربكم بطاعته وذكره . [كثر وألهى] : شغل عن عبادته .

٢٦ – وروى الطبرانى من حديث فضالة عن أبى أمامة قال : قال : رسول الله ﷺ : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر ، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير[٢]؟

المعنى : [النجد هنا] : الطريق ومنه قوله تعالى ﴿ **وهديناه النجدين** ﴾ : أى الطريقين طريق الخير وطريق الشر .

٢٧ – وعن فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : طوبى لمن هُدِى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع . رواه[٣] الترمذى ، وقال : حديث حسن صحيح والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

المعنى : [طوبى] : مكان فى الجنة تظله شجرة واسعة الظلال يستظل بها الذى وفق لآداب الاسلام وعمل بها .

---

(١) رواه بن حبان فى صحيحه حـ ٥ ص ١٣٩ ، حـ ٢ ص ٣٨ من رواية أبو الدرداء .
رواه الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ٤٤٥ ، رواه الامام أحمد فى مسنده حـ ٥ ص ١٩٧ .
(٢) رواه مجمع الزوائد للهيثمى حـ ١٠ ص ٢٥٦ كتاب الزهد .
(٣) رواه الامام أحمد فى مسنده حـ ٦ ص ١٩ .

٢٨ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعَّه الله بما آتاه . رواه مسلم والترمذى وابن ماجه[١].

المعنى : [الكفاف] : الذى ليس فيه فضل عن الكفاية . [قنَّعه] : أرضاه باليسير ، وفى النهاية : قنع يقنع قنوعا إذا رضى والقناعة كنز لا يفنى لأن الانفاق منها لا ينقطع كلما تعذر عليه شيء من أمور الدنيا قنع بما دونه ورضى ، ومنه الحديث « عز من قنع وذل من طمع ، لأن القانع لا يذله الطلب فلا يزال عزيزا » .

(١) رواه الامام مسلم فى صحيحه كتاب الزكاة باب ٤٣ رقم ١٢٥ ، رواه الامام أحمد فى مسنده حـ ٢ ص ١٦٨

تفسير سورة التغابن

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، إلا آخرها : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم** ﴾ إلى آخر السورة .

عدد آياتها : ثمان عشرة .

وعدد كلماتها : مائتان وإحدى وأربعون .

وحروفها : ألف وسبعون .

فواصل آياتها : (من درّ) وعلى الدال آية واحدة : حميد . وسميت سورة التغابن .

لقوله تعالى : ﴿ **ذلك يوم التغابن** ﴾ .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان تسبيح المخلوقات ، والحكمة فى تخليق الخلق ، والشكاية من القرون الماضية ، وإنكار الكفار البعث والقيامة ، وبيان الثواب والعقاب ، والإخبار عن عداوة الأهل والأولاد ، والأمر بالتقوى حسب الاستطاعة ، وتضعيف ثواب المتقين ، والخبر عن اطلاع الحق على علم الغيب فى قوله : ﴿ **عالم الغيب** ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ **يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض** ﴾ وبعده ﴿ **يعلم مافى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون** ﴾ إنما كرّر (ما) فى أول السورة ، لاختلاف تسبيح أهل الأرض وأهل السماء فى الكثرة والقلة ، والبعد والقرب ، من المعصية والطاعة ، وكذلك اختلاف ما يسرون وما يعلنون ، فإنهما ضدّان ، ولم يكرر مع (يعلم) لأن الكل بالإضافة إلى علم الله سبحانه جنس واحد ، لا يخفى عليه شيء .

قوله : ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً** ﴾ ومثله فى الطلاق سواء ، لكنه زاد هنا ﴿ **يكفر عنه سيئاته** ﴾ ، لأن هذه السورة بعد قوله : ﴿ **أبشر يهدوننا** ﴾ الآيات فأخبر عن الكفار بسيئات تحتاج إلى تكفير إذا آمنوا بالله ، ولم يتقدم الخبر عن الكفار بسيئات فى الطلاق ، فلم يحتج إلى ذكرها .

مناسبة السورة لما قبلها

١ – إنه فى السورة قبلها ذكر حال المنافقين ، وخاطب بعد ذلك المؤمنين ، وهنا قسم الناس قسمين مؤمن وكافر .

٢ - **نهى هناك** عن الاشتغال بالأولاد عن ذكر الله ، أن الأموال والأولاد فتنة .

٣ - فى السورة السابقة حث على الإنفاق فى سبيل الله . وفى ذكر التغابن حث عليه **أيضاً** .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ (١) هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ
ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ
فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ
حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ
أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ
ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩)
وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ (١٠)

معـانى المفردات

﴿ ألم يأتكم ﴾ : هذا استفهام للتعجب من حالهم . ﴿ والنبأ ﴾ : الخبر الهام . ﴿ ذاقوا وبال أمرهم ﴾ : أصل الوبال : الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، والأمر هنا المقصود به كفرهم . ﴿ البينات ﴾ : المعجزات . ﴿ تولوا ﴾ : أعرضوا ، ﴿ استغنى الله ﴾ : أى أظهر غناه عنهم ، إذ أهلكهم وقطع دابرهم ﴿ زعم ﴾ : أكثر ما يستعمل للادعاء الباطل ، ﴿ بلى ﴾ : كلمة للجواب تقع بعد النفى لإثبات ما بعده كما وقع فى الآية ﴿ لتبعثن ﴾ : أى لتحاسبن وتجزون بإعمالكم ﴿ والنور ﴾ : هو القرآن الكريم ﴿ والخبير ﴾ : هو العليم ببواطن الأمور ﴿ يوم الجمع ﴾ : يوم القيامة ، سمى بذلك لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد . ﴿ ويوم التغابن ﴾ : قال القرطبى : سمى يوم القيامة يوم التغابن ، لأنه غبن فيه أهل الجنة أهل النار . أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والنعيم بالعذاب ، يقال : غبنت فلاناً إذا بايعته أو شاربته فكان النقص عليه والغلبة لك .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض * له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير** ﴾ . أى ينزه الله تعالى ويمجده جميع مافى السموات والأرض من مخلوقات ، تنزيهاً دائماً مستمراً . كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه * والله عليم بما يفعلون * ولله ملك السموات والأرض وإلى الله المصير** ﴾[1].

وقوله تعالى : ﴿ **له الملك وله الحمد** ﴾ أى هو المتصرف فى جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلق ويقدر وقوله تعالى : ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ أى قادر سبحانه على كل شىء ، قدير يغنى ويفقر ، ويعز ويذل ، وإذا أراد شيئاً ، فإنما يقول له كن فيكون ، وهو كالدليل لما تقدم من أن الملك والحمد له سبحانه . قال تعالى : ﴿ **وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيراً** ﴾[2]

أخرج أبو داود والنسائى عن أبى عياش أن رسول الله ﷺ قال : « من قال إذا أصبح لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير كان له عدل رقبة من ولد إسماعيل وكتب له عشر حسنات وحط عنه عشر سيئات ورفع له عشر درجات وكان فى حرز من الشيطان حتى يمسى ، وإن قالها إذا أمسى كان له مثل ذلك حتى يصبح »[3].

---

(١) سورة النور الآيتان : ٤١ ، ٤٢ .

(٢) سورة الاسراء آية : ١١١

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٥ ص ٣١٧ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح رقم ٥٠٧٧ .

وأخرج الإمام مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال « كان رسول الله ﷺ إذا أمسى قال : أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . اللهم إنى أسألك من خير هذه الليلة وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إنى أعوذ بك من الكسل والهرم ، وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر ، وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله » .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من قال سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر »(٢).

وعنه أيضاً عن النبى ﷺ قال : كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن ، سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده »(٣). أخرجه البخارى .

وعنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه »(٤). أخرجه البخارى

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن * والله بما تعملون بصير** ﴾ أى هو سبحانه الخالق لكم على هذه الصفة وأراد منكم ذلك * فلابد من وجود مؤمن وكافر * وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال * وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء * ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله بما تعملون بصير** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير** ﴾ قوله : ﴿ **خلق السموات والأرض بالحق** ﴾ أى خلقهما للحق ، وهو أن يجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى كما قال تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون** ﴾(٥)وكقوله تعالى :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٠٨٨ كتاب الذكر والدعاء باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر مالم يعمل رقم ٢٧٢٣/٧٤ .

(٢) أخرجه البخارى حـ ٢ ص ١١٥ كتاب الدعوات باب فضل التسبيح .
أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليل بواب ثواب من قال سبحان الله العظيم ص ٢٤٥

(٣) أخرجه البخارى حـ ٤ ص ٣١١ كتاب التوحيد . باب قول الله تعالى ونضع الموازين القسط
أخرجه ابن ماجه كتاب الأدب باب فضل التسبيح حـ ٢ ص ١٢٥١ رقم ٣٨٠٦

(٤) أخرجه البخارى حـ ٢ ص ٢٢٣ كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده

(٥) سورة الجاثية الآيتان : ٢١ ، ٢٢ .

﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون** ﴾[١]. وقوله تعالى : ﴿ **وصوركم فأحسن صوركم** ﴾ أى خلقكم فى أحسن صورة وأجمل شكل ، فأتقن وأحكم خلقكم وتصويركم ، كقوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم** ﴾[٢]. فإن من نظر فى شكل الإنسان وهيئته وتناسب أعضائه ، علم أن صورته أحسن صورة بالنسبة لسائر الحيوان ، ومن حسن صورته أنه خلق منتصباً غير منكب على وجهه .

وقوله تعالى : ﴿ **وإليه المصير** ﴾ أى المرجع والمآب ، ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية ، فقال تعالى : ﴿ **يعلم مافى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور** ﴾ . فهو سبحانه عالم الغيب والشهادة الذى استوى فى علمه ما أسر العبد وما أظهر ، الذي علم ماكان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، كيف لا وهو الذى خلق وقدر ، « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[٣].

قوله تعالى : ﴿ **ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد** ﴾ : أى ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة ، نبأ الذين كفروا بالرسل من قبلكم ، كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم ، التى أصرّت على الكفر والعناد ، كيف حل بهم عقاب ربهم ، وعظيم نقمته ، وأرسل عليهم ألواناً من العذاب لا قبل لهم بها ، فمن صاعقه من السماء تجتاحهم ، إلى رجفة فى الأرض تهلكهم ، إلى صيحة تصم الآذان تبيدهم وتجعلهم كأمس الدابر ، وتمحوهم من صفحة الوجود ، إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم ، وحاق بهم ماكانوا به يستهزؤن ، وسيكون لهم عظيم النكال والوبال ، يوم تجزى كل نفس بما كسبت ، إن الله سريع الحساب .

وفى هذا الأسلوب تعجيب من حالهم ، وأنه قد كان لهم فى ذلك ، مذكر ، لو كانوا يستبصرون ، وعبرة لو كانوا يعتبرون .

ثم بين أسباب ماحل بهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ؟ فكفروا وتولوا واستغنى الله ، والله غنى حميد ﴾ أى أن ماحل بهم من سوء العذاب كان من جراء تكذيبهم بالرسل بعد أن جاءوهم بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، ﴿ **وقالوا : أبشر يهدوننا** ﴾ أنكروا أن يكون الرسول من البشر ﴿ **فكفروا** ﴾ أى بهذا القول ، إذ قالوه استصغاراً ولم يعلموا أن الله يبعث من يشاء إلى عباده ، وقيل : كفروا بالرسل ، وتولوا عن البرهان ، وأعرضوا عن الإيمان والموعظة . ﴿ **واستغنى الله** ﴾

(١) سورة الدخان الآيتان : ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) سورة التين آية : ٤ .

(٣) سورة الملك آية : ١٤ .

أى بسلطانه عن طاعة عباده ، قاله مقاتل : فبعد أن طال عنادهم ، وتمادوا فى غيهم ، أهلكهم الله بسلطانه وجبروته ، وقطع دابرهم ، واستغنى عن إيمانهم ، وهو الغنى عن العالمين جميعا ، والغنى عن إيمانهم وطاعتهم ، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده ، وقد حمد نفسه فى كتابه قبل أن يحمده الحامدون ، فقال فى كتابه : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾[1]

وجاء فى الحديث القدسى « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً . يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » رواه مسلم .

قال الامام النووى : دلت الأدلة السمعية والعقلية على أن الله مستغن فى ذاته عن كل شىء ، وأنه تعالى لا يتكثر بشىء من مخلوقاته ، وقد بين الله تعالى أن له ملك السموات والأرض وما بينهما . ثم بين أنه مستغن عن ذلك قال تعالى : ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ وهو قادر على أن يذهب هذا الوجود ويخلق غيره ، ومن قدر على أن يخلق كل شىء ، فقد استغنى عن كل موجود . ثم بين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن الشريك فقال تعالى : ﴿ **ولم يكن له شريك فى الملك** ﴾ ثم بين سبحانه وتعالى أنه مستغن عن المعين والظهير ، فقال تعالى : ﴿ **ولم يكن له ولى من الذل** ﴾ فوصف العز ثابت له أبداً ، ووصف الذل منتف عنه تعالى ، ومن كان كذلك فهو مستغن عن طاعة المطيع ، ولو أن الخلق كلهم أطاعوه كطاعة أتقى رجل منهم ، وبادروا إلى أوامره ونواهيه ولم يخالفوه ، لم يتكثر سبحانه وتعالى بذلك ، ولا يكون ذلك زيادة فى ملكه ، وطاعتهم إنما حصلت بتوفيقه وإعانته ، وطاعتهم نعمة منه عليهم ، ولو أنهم كلهم عصوه كمعصية أفجر رجل ـــ أبليس وخالفوا أمره ونهيه ، لم يضره ذلك ، ولم ينقص من كمال ملكه شيئا ، فإنه لو شاء أهلكهم وخلق غيرهم ، فسبحانه من لا تنفعه الطاعة ، ولا تضره المعصية . قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد . إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم ، وذلك على الله يسير** ﴾ . أى ادعى المشركون أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء ، فقالوا كما حكى الله عنهم ﴿ **أئذا كنا تراباً أئنالفى خلق جديد ؟** ﴾[3] وقالوا : ﴿ **من يحيى العظام وهى رميم** ﴾[4] . فأمر رسوله بالرد عليهم وإبطال زعمهم بقوله :

(١) سورة الفاتحة آية : ٢

(٢) سورة فاطر الآيات : ١٥ — ١٧ .

(٣) سورة الرعد آية : ٥ .

(٤) سورة يس آية : ٧٨ .

﴿ قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ أى قل لهم : إن البعث كائن لا محالة ، وإنكم وربى الذى برأ الخلق وأنشأهم من العدم ، ستحاسبن على أعمالكم وتجزون على الكثير والقليل والنقير والقطمير وذلك هين عليه يسير .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ ويستنبئونك أحق هو ؟ قل إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾[١] وقوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم ﴾ الآية[٢].

قوله تعالى : ﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير ﴾ .

بعد أن أبان لهم أدلة التوحيد والنبوة ، بما لا مجال معه للإنكار ـــ طالبهم بالإيمان بهما فقال :

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا ﴾ أى فصدقوا بالله ورسوله وكتابه الهادى لكم إلى سواء السبيل إذا تراكمت ظلمات الشبهات ، والمنقذ لكم من الضلالة إذا أحاطت بكم الخطيئات . كما قال تعالى : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾[٣] . ثم توعدهم على ما يأتون وما يذرون فقال : ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلا تخفى عليه أعمالكم ، وسيحاسبكم على ما كسبت أيديكم من خير ، أو اكتسبت من شر ، فراقبوه وخافوا شديد عقابه .

وقوله تعالى : ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ أى وتذكروا يوم يجمع الله الأولين والآخرين للحساب والجزاء فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ﴿ وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[٤]

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود وما نؤخره إلا لأجل معدود يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ﴾[٥]

وقوله تعالى : ﴿ ذلك يوم التغابن ﴾ فالكافرون قد اشتروا الدنيا بالآخرة ، فخسرت صفقتهم ، ولم يربحوا فيها ، والمؤمنون باعوا أنفسهم ، فربحت صفقتهم وماكانوا خاسرين . قال ابن

(١) سورة يونس آية : ٥٣ .
(٢) سورة سبأ آية ٣ .
(٣) سورة المائدة الآيتان : ١٥ ، ١٦ .
(٤) سورة الجاثية الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .
(٥) سورة هود الآيات : ١٠٣ – ١٠٥ .

عباس هو اسم من أسماء يوم القيامة وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، ومعناه كما قال القرطبى : أى أن أهل الجنة أخذوا الجنة ، وأخذ أهل النار النار على طريق المبادلة ، فوقع الغبن لأجل مبادلتهم الخير بالشر ، والجيد بالردىء ، والنعيم بالعذاب ، يقال : غبنت فلاناً إذا بايعته أو شاريته ، فكان النقص عليه والغلبة لك . قال المفسرون : فالمغبون من غبن أهله ومنازله فى الجنة ، ويظهر يومئذ غبن كل كافر بترك الإيمان ، وغبن كل مؤمن بتقصيره فى الإحسان .

وقال الحسن وقتادة : بلغنا أن التغابن فى ثلاثة أصناف : رجل علم علماً فعلمه وضيعه هو ، ولم يعمل به ، فشقى به ، وعمل به من تعلمه منه فنجا به ، ورجل اكتسب مالاً من وجوه يسأل عنها وشح عليه ، وفرّط فى طاعة ربه بسببه ، ولم يعمل فيه خيراً ، وتركه لوارث لا حساب عليه فيه ، فعمل ذلك الوارث فيه بطاعة ربه ، ورجل كان له عبدٌ فعمل العبد بطاعة ربه فسعد ، وعمل السيد بمعصية ربه فشقى :

ثم بين سبحانه وتعالى هذا التغابن وفصله بقوله : ﴿ **ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم** ﴾ أى ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته ، يمح عنه ذنوبه ، ويدخله جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار لا بثين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وذلك هو الفوز الذى لا فوز بعده ، لا نطوائه على النجاة من أعظم المهالك ، واجل المخاطر . ﴿ **والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير** ﴾ .

أى والذين جحدوا وحدانية الله ، وكذبوا بأدلته وآى كتابه ، الذى أنزله على عبده محمد ﷺ أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبداً ، وبئس النار مصيراً لهم .

كل شىء بقضاء

قال تعالى :

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ
وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ

وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ
وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

معانى المفردات

﴿ **المصيبة** ﴾ : ما ينال الإنسان ويصيبه من خير أو شر . ﴿ **بإذن الله** ﴾ : أى بقدرته ومشيئته . ﴿ **يهد قلبه** ﴾ : أى يشرحه لازدياد الخير والطاعة . ﴿ **فتنة** ﴾ : أى بلاء ومحنة . ﴿ **ومن يوق** ﴾ : أى من يحفظ نفسه ﴿ والشح ﴾ : البخل مع الحرص . ﴿ **والقرض الحسن** ﴾ : هو التصدق من الحلال بإخلاص وطيب نفس .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الناس قسمان : كافر ومؤمن ... أردف ذلك ببيان أن ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره ، ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول ، وذكر أن المؤمن ينبغى أن يتوكل على الله تعالى ، وألا يعتمد إلا عليه ، ثم ذكر سبحانه أن من الأولاد والزوجات أعداء لآبائهم وأزواجهم ، ويثبطونهم عن الطاعة ، ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته ، فعليكم أن تحذروهم ، ولا تتبعوا أهواءهم ، حتى لا يكونوا إخوان الشياطين ، ويزينون لكم المعاصى ، ويصدونكم عن الطاعة ، ثم أردف ذلك ببيان أن الانسان مفتون بماله وولده ، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما ، فعليه أن يتقى الله ما استطاع سبيلا ، ولينفق ذو سعة من سعته ، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشح ، فهو الفائز بخيرى الدنيا والآخرة ...

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم** ﴾ . يقول تعالى مخبراً بما أخبر به فى سورة الحديد : ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾[١]

(١) سورة الحديد الآية : ٢٢ .

وهكذا قال ههنا : ﴿ **ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله** ﴾ أى بإرادته وقضائه ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم** ﴾ أى ومن أصابته مصيبة ، فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله ، هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى فى قلبه ورزقه الله اليقين الصادق ، وأزلف عليه ما كان أخذ منه أو خيراً منه . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ يعنى يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . وقال ابن جبير فى قوله تعالى : ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾ عند المصيبة فيقول : ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾(١) .

وفى الحديث « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾ قال القرطبى : لا يخفى عليه تسليم من انقاد وسلم لأمره ، ولاكراهة من كرهه .

قوله تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول * فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾ أى وأطيعوا الله فيما شرع ، وأطيعوا رسوله فيما بلّغ ، وافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر ، فإن أعرضتم ، فإنما عليه أداء ما حُمّل من الرسالة ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة ، وهو قد أدى ما عليه ، ولا يكلف شيئا بعد ذلك .

قال الزهرى من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

وعن العرباض بن سارية قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا يا رسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا ، قال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة »(٣) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى » قيل ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى »(٤) رواه البخارى .

(١) سورة البقرة الآيتان : ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) أخرجه مسلم : حـ ٤ ص ٢٢٩٥ كتاب الزهد والرقائق . باب المؤمن أمره كله خير رقم ٢٩٩٩/٦٤ .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه حـ ٥ ص ٤٣ كتاب العلم ـــ باب ماجاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع رقم ٢٦٧٦ . وأخرجه أبو داود . كتاب السنة ـــ باب فى لزوم السنة
أخرجه ابن ماجه فى المقدمة ـــ باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهدين .

(٤) أخرجه البخارى حـ ٩ ص ١١٤ كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ **لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾ الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب ، فقالوا : أى رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة ، والجهاد ، والصيام ، والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، قال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما اقترأها القوم ، وذلقت بها ألسنتهم ، أنزل الله تعالى فى إثرها : ﴿ **آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير** ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت * ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ قال نعم ﴿ **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** ﴾ قال : نعم ﴿ **ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به** ﴾ قال نعم : ﴿ **واعف عنا واغفرلنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ قال نعم » رواه مسلم[١].

قوله تعالى : ﴿ **الله لا إله إلا هو * وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ الله لا إله إلا هو ، أى لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى ، فلا معبود بحق إلا هو ، ولا خالق غيره ، فعليه توكلوا ، كما قال سبحانه ﴿ **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا** ﴾[٢] وكقوله سبحانه : ﴿ **وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا** ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله * قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هنّ كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته ، قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[٥]

وعن أم سلمة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : « بسم الله ، توكلت على الله ، اللهم إنى أعوذ بك أن أَضِل أو أُضِل أو أزل أو أُزل ، أو أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يُجهل علىَّ » رواه أبو داود ورواه الترمذى وقال حسن صحيح وهذا لفظ أبى داود[٦].

(١) أخرجه مسلم حـ ١ ص ١١٥ ، ١١٦ كتاب الإيمان باب بيان أنه سبحانه وتعالى لم يكلف إلا ما يطاق رقم ١٢٥/١٩٩ .
(٢) سورة المزمل آية : ٩ .
(٣) سورة الفرقان : ٥٨ .
(٤) سورة الزمر آية : ٣٨ .
(٥) سورة الانفال آية : ٢ .
(٦) أخرجه : أبو داود فى سننه كتاب الادب باب ما يقول إذا خرج من بيته حـ ٥ ص ٣٢٧ رقم ٥٠٩٤ .
وأخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات . باب تعوذ من أن تجهل رقم ٣٤٢٣

وعن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال يعنى إذا خرج من بيته — بسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يُقال له هُديت وكُفيت ، ووُقيت ، وتنحى عنه الشيطان » رواه أبو داود والترمذى وقال الترمذى : حديث حسن . وزاد أبو داود : « فيقول — يعنى الشيطان — لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووُقى »(١)؟

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم * وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم** ﴾

سأل رجل ابن عباس عن هذه الآية قال : هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة وأرادوا أن يأتوا النبى ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبى ﷺ فلما أتوا النبى ﷺ رأوا الناس قد فقهوا فى الدين ، همّوا أن يعاقبوهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم — الآية**) **قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح**(٢).

قال القاضى أبو بكر العربى : هذا يبين وجه العداوة ، فإن العدو لم يكن عدوا لذاته ، وإنما كان عدواً بفعله ، فإذا فعل الزوج والولد فعل العدو كان عدواً ، ولا فعل أقبح من الحيلولة بين العبد وبين الطاعة ، كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾(٣) وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان قعد لابن آدم فى طريق الإيمان فقال له : أتؤمن وتذر دينك ودين آبائك فخالفه فآمن ثم قعد له على طريق الهجرة فقال له : أتهاجر وتترك مالك وأهلك فخالفه فهاجر ، ثم قعد له على طريق الجهاد ، فقال له : أتجاهد فتقتل نفسك فتنكح نساؤك ، ويقسم مالك ، فخالفه فقتل فحق على الله أن يدخله الجنة »(٤). وقعود الشيطان يكون بوجهين : أحدهما — يكون بالوسوسة

والثانى — بأن يحمل على ما يريد من ذلك الزوج والولد والصاحب ، قال الله تعالى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾(٥) وفى حكمة عيسى عليه السلام : من اتخذ أهلاً ومالاً وولداً كان للدنيا عبداً ، وفى صحيح الحديث بيان أدنى من ذلك فى حال العبد ، قال النبى ﷺ : « تعس عبد الدرهم تعس عبد الخميصة ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس وإذا شيك

---

(١) أخرجه : أنظر أبو داود حـ ٥ ص ٣٢٨ كتاب الأدب باب ما يقول إذا خرج من بيته رقم ٥٠٩٥ .
وأخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات باب ما يقول إذا خرج من بيته رقم ٣٤٢٢
(٢) أخرجه : انظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ٣٩١ كتاب التفسير — تفسير سورة التغابن — رقم ٣٣١٧ .
(٣) سورة المنافقون آية : ٩ .
(٤) أخرجه البخارى فى تاريخ البخارى الكبير حـ ٤ ص ١٨٧ ، ١٨٨ رقم ٢٤٣١
ورواه ابن حبان فى صحيحه حـ ٧ ص ٥٧ رقم ٤٥٧٤
(٥) سورة فصلت آية : ٢٥ .

فلا انتقش »[١] ولا دناءة أعظم من عبادة الدينار والدرهم ، ولا همّة أخس من همّة ترتفع بثوب جديد .

وقوله تعالى : ﴿ **فاحذروهم** ﴾ معناه على أنفسكم والحذر على النفس يكون بوجهين : إما ضرر فى البدن ، وإما لضرر فى الدين ، وضرر البدن يتعلق بالدنيا ، وضرر الدين يتعلق بالآخرة ، فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به وقوله : ﴿ **وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم** ﴾ روى الطبرى عن عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم** ﴾ قال : كان الرجل يريد أن يأتى النبى ﷺ فيقول له أهله . أين تذهب وتدعنا ؟ قال : فإذا أسلم وفقه قال : لأرجعن إلى الذين كانوا ينهون عن هذا الأمر ، فلأ فعلن ، قال ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم** ﴾ قال القرطبى : والآية عامة فى كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد ، وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم .

قوله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم** ﴾ أى إنما حبكم لأموالكم وأولادكم ابتلاء واختبار ، إذ كثيراً ما يترتب على ذلك الوقوع فى الآثام ، وإرتكاب كبير المحظورات .

وقدمت الأموال على الأولاد لأنها أعظم فتنة ، كما قال تعالى : ﴿ **كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى** ﴾[٢] وأخرج أحمد والطبرانى والحاكم والترمذى عن كعب بن عياض قل : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لكل أمة فتنة ، وإن فتنة أمتى المال »[٣] وروى عن بعض السلف : العيال سوس الطاعات .

وقال ابن مسعود : لا يقولن أحدكم : اللهم اعصمنى من الفتنة ، فإنه ليس أحد منكم يرجع إلى مال وأهل وولد إلا وهو مشتمل على فتنة ، ولكن ليقل : اللهم إنى أعوذ بك من مضلات الفتن .

وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدوا** ﴾ « من » للتبعيض ، لأن كلهم ليسوا بأعداء ولم يذكر « من » فى قوله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ لأنهما لا يخلوان من الفتنة واشتغال القلب بهما .

وقوله تعالى : ﴿ **والله عنده** ﴾ أى يوم القيامة ﴿ **أجر عظيم** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث * ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب * قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا**

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه كتاب الزهد ــ باب فى المكثرين رقم ٤١٣٥ ، ٤١٣٦ .

(٢) سورة العلق الآيتان ٦ ، ٧

(٣) أخرجه الترمذى حـ ٤ ص ٤٩٢ . كتاب الزهد . باب ــ ماجاء أن فتنة هذه الأمة فى المال رقم ٢٣٣٦ .
أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ٤ ص ١٦٠ .

عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله * والله بصير بالعباد ﴾[١]

قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾ أى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فاجتنبوه »[٢] ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ **واسمعوا وأطيعوا** ﴾ أى اسمعوا ما توعظون به وأطيعوا فيما تؤمرون به وتنهون عنه . قال قتادة : عليهما بويع النبى ﷺ على السمع والطاعة .

وقوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا خيراً لأنفسكم** ﴾ أى وابذلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات ، وفى الوجوه التى يكون فيها صلاح الأمة والملة ، وسعادة الدين والدنيا يكن ذلك خيراً لأنفسكم من الأموال والأولاد ، وهذا حث على البذل ، وبيان أن الامتثال خير لا محالة .

ثم زاد فى الحث على الانفاق فقال تعالى : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ . أى ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال — يكن من الفائزين بكل ما يرجو ، ونيل كل ما يبغى فى دينه ودنياه ، فيكون محبباً إلى الناس ، قرير العين برضاهم عنه وحنوّهم عليه ، سعيداً فى الآخرة بالقرب من ربه ، ومحبته ورضوانه ودخول جنته .

قال سفيان الثورى بسنده عن أبى الهياج الأسدى ، قال كنت أطوف بالبيت ، فرأيت رجلاً يقول : اللهم قنى شح نفسى ، لا يزيد على ذلك ، فقلت له فقال : إنى إذا وقيت شح نفسى ، لم أسرق ، ولم أزن ، ولم أفعل ، وإذا الرجل عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه .

ثم بالغ فى الحث على الإنفاق أيضاً فقال تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم** ﴾ أى إن تنفقوا فى طاعة الله ، متقربين إليه بإخلاص وطيب نفس — يضاعف لكم ذلك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، ويستر لكم ما فرط من زلاتكم ، قال تعالى : ﴿ **ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم** ﴾[١]

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ٢ ص ٢ ، ٥٠٨ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٠٢ .

(٤) سورة التوبة آية : ١٠٤ .

وقوله تعالى : ﴿ **والله شكور حليم** ﴾ فيثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بعقوبته على كثرة الذنوب والخطايا .

وقوله تعالى : ﴿ **عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم** ﴾ أى هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه ، فكل ما تعملون فهو محفوظ لديه فى أم الكتاب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، وهو سبحانه ذو العزة والقدرة ، النافذ الإرادة ، الحكيم فى تدبير خلقه على ما يعلم من المصلحة . كما قال تعالى : ﴿ **هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك * القدوس * السلام * المؤمن المهيمن * العزيز * الجبار * المتكبر * سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارىء المصور * له الأسماء الحسنى * يسبح له ما فى السموات والأرض * وهو العزيز الحكيم** ﴾[1].

« اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شىء ومليكه أشهد أن لا إله ألا أنت ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم »[2] من أدعية الرسول الكريم ﷺ رواه أبو داود والترمذى والطبرانى فى الأوسط .

(١) سورة الحشر الآيات : ٢٢ - ٢٤ .

(٢) أخرجه أبو داود جـ ٥ ص ٣٢١ كتاب الأدب باب ما يقول إذا أصبح رقم ٥٠٨٣
أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ٥٠٦ كتاب الدعوات باب ٩٥ رقم ٣٥٢٩ .

تفسير سورة الطلاق

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدينة بالاتفاق .

عدد آياتها : اثنتا عشرة آية .

وكلماتها : مائتان وأربعون .

وحروفها : ألف وستون .

فواصل آياتها : على الألف .

ولها اسمان : سورة الطلاق لقوله ﴿ **إذا طلقتم النساء فطلقوهن** ﴾ والثانى سورة النساء القصرى قاله عبد الله بن مسعود .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان طلاق السنة ، وأحكام العدة ، والتوكل على الله فى الأمور ، وبيان نفقة النساء حال الحمل والرضاع وبيان عقوبة المتعدين وعذابهم ، وأن التكليف على قدر الطاقة ، وللصالحين الثواب والكرامة ، وبيان إحاطة العلم ، والقدرة فى قوله تعالى : ﴿ **لتعلموا** ﴾ الآية .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً** ﴾ أمر بالتقوى فى أحكام الطلاق ثلاث مرات ، ووعد فى كل مرة بنوع من الجزاء ، فقال أولاً ﴿ **يجعل له مخرجاً** ﴾ : يخرجه مما أدخل فيه وهو يكرهه ، ويتيح له محبوبه من حيث لا يأمل . وقال فى الثانى : يسهل عليه الصعب من أمره ، ويتيح له خيراً مما طلقها ، والثالث وعد عليه أفضل الجزاء ، وهو ما يكون فى الآخرة من النعماء .

ومناسبتها لما قبلها :

لما وقع فى سورة التغابن ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم** ﴾ وكانت عداوة الأزواج قد تفضى إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضى إلى القسوة ، وترك الانفاق عليهم ، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسببهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ

مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ
ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ
ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ
مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ
ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ
مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ
أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ
ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾
أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ
وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ
فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ
أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ
لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

معانى المفردات

﴿ **طلقتم النساء** ﴾ : أى أردتم طلاقهن . ﴿ **لعدتهن** ﴾ : أى مستقبلين عدتهن بأن تطلقوهن فى طهر لا قربان فيه . ﴿ **وأحصوا العدة** ﴾ : أى اضبطوها وأكملوها ثلاثة قروء كوامل . ﴿ **والفاحشة المبينة** ﴾ : هى ارتكاب ما يوجب الحد ، أو البذاء على الأحماء أو على الزوج .

﴿ حدود الله ﴾ : شرائعه التى أمر بها ونهى عن تركها ، ﴿ ظلم نفسه ﴾ : أى أضرّ بها ، ﴿ والأمر ﴾ : هو الندم على طلاقها والميل إلى رجعتها . ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ : أى قاربن انتهاء العدة . ﴿ فأمسكوهن ﴾ : أى فراجعوهن . ﴿ بمعروف ﴾ : أى مع حسن عشرة . ﴿ أو فارقوهن بمعروف ﴾ : أى مع إعطاء الحق واتقاء المضارة ﴿ بالغ أمره ﴾ : أى منفذ حكمه وقضاءه فى خلقه يفعل ما يشاء . ﴿ قدرا ﴾ : أى تقديراً وتوقيتاً . ﴿ من وجدكم ﴾ : أى من وسعكم . ﴿ ولا تضاروهن ﴾ : أى فى النفقة والسكنى . ﴿ لتضيقوا عليهن ﴾ : أى لتلجئوهن إلى الخروج بشغل المكان أو بإسكان من لايردن السكنى معه ، ﴿ ائتمروا ﴾ : أى تآمروا وتشاوروا ، ﴿ بمعروف ﴾ أى : بجميل فى الأجر والإرضاع ، فلا يكن من الأب مماكسة ، ولا من الأم معاسرة ، ﴿ وإن تعاسرتم ﴾ : أى ضيق بعضكم على بعض بالمشاقة فى الأجر أو بطلب الزيادة . ﴿ قدر عليه ﴾ : أى ضيق ، ﴿ آتاه الله ﴾ : أى أعطاه ﴿ ما آتاها ﴾ : أى إلا بقدر ما أعطاها من الأرزاق قلّ أو وجلّ .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ .

﴿ **يا أيها النبى** ﴾ نداء للنبى ﷺ وخطاب له على سبيل التكريم والتنبيه ثم خاطب الأمة تبعاً ، فقال تعالى : ﴿ **إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** ﴾ قال البخارى عن سالم أن عبد الله بن عمر أخبره أنه طلق إمرأة له وهى حائض فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ منه ، ثم قال : « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر فإن بدا له أن يطلقها طاهراً قبل أن يمسها فتلك العدة التى أمر بها الله عز وجل » رواه أصحاب الكتب والمسانيد من طرق متعددة وألفاظ كثيرة وفى رواية قال ابن عمر. وقرأ النبى ﷺ ﴿ **يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** ﴾[1].

وقال الأعمش بسنده عن عبد الله فى قوله تعالى : ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ قال الطهر من غير جماع ، وروى عن ابن عمر وعطاء ومجاهد والحسن وابن سيرين وقتادة وميمون بن مهران ومقاتل بن حيان مثل ذلك ، وهى رواية عن عكرمة والضحاك وقال على عن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ قال لا يطلقها وهى حائض ولا فى طهر جامعها فيه ، ولكن يتركها حتى إذا حاضت وطهرت طلقها تطليقة قال ابن كثير : ومن هنا أخذ الفقهاء أحكام الطلاق وقسموه طلاق سنة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة أن يطلقها طاهرة من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان

---

(١) أخرجه البخارى حـ ٤ ص ٢٣٦ كتاب الأحكام باب هل يقضى الحاكم أو يفتى وهو غضبان .

حملها ، والبدعى هو أن يطلقها فى حال الحيض ، أو فى طهر قد جامعها فيه ، ولا يدرى أحملت أم لا ، وطلاق ثالث لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة وغير المدخول بها ، وقوله تعالى : ﴿ **وأحصوا العدة** ﴾ أى احفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة ، فتمتنع من الأزواج . ﴿ **واتقوا الله ربكم** ﴾ أى فى ذلك ، فلا تعصوه فيما أمركم به من الطلاق لعدتهن ، وفى القيام بما للمعتدات من حقوق . وفى وصفه تعالى بالربوبية مبالغة فى وجوب الامتثال لأمره ، لما فى لفظ الرب من التربية التى هى الإنعام والإكرام بوجوه متعددة غاية التعداد فيبالغون فى التقوى حينئذ خوفاً من فوت تلك التربية .

وقوله تعالى : ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن** ﴾ أى فى مدة العدة ، لها حق السكنى على الزوج مادامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ولا يجوز لها أيضا الخروج ، لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً . وقوله تعالى : ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ أى لا يخرجن من بيوتهن إلا أن تركب المرأة فاحشة مبينة ، فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة تشمل الزنا ، كما قاله ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب وغيرهم ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة أو بذت على أهل الرجل وآذتهم فى الكلام والفعال ، كما قاله أبى بن كعب وابن عباس وعكرمة وغيرهم .

قوله تعالى : ﴿ **وتلك حدود الله** ﴾ أى شرائعه ومحارمه ﴿ **ومن يتعد حدود الله** ﴾ أى يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها ﴿ **فقد ظلم نفسه** ﴾ أى بفعل ذلك وقوله تعالى : ﴿ **لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ أى إنما أبقينا المطلقة فى منزل الزوج فى مدة العدة ، لعل الزوج يندم على طلاقها ، ويخلق الله تعالى فى قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل ، قال الزهرى عن فاطمة بنت قيس فى قوله تعالى : ﴿ **لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً** ﴾ قالت هى الرجعة .

وقال القرطبى : الأمر الذى يحدثه الله أن يقلّب قلبه من بغضها إلى محبتها ، ومن الرغبة عنها إلى الرغبة فيها ، ومن عزيمة الطلاق إلى الندم عليها ، فيراجعها ، وقال جميع المفسرين : أراد بالأمر هنا الرغبة فى الرجعة . ومعنى القول : التحريض على طلاق الواحدة والنهى عن الثلاث ، فإنه إذا طلق ثلاثاً أضر بنفسه عند الندم على الفراق والرغبة فى الارتجاع ، فلا يجد عند الرجعة سبيلاً وقال مقاتل فى قوله : ﴿ **بعد ذلك** ﴾ أى بعد طلقه أو طلقتين ﴿ **أمراً** ﴾ أى المراجعة من غير خلاف .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله * ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر * ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب * ومن يتوكل على الله فهو حسبه * إن الله بالغ أمره * قد جعل الله لكل شىء قدراً** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا بلغن أجلهن** ﴾ أى قاربن انقضاء العدة ، كقوله تعالى : ﴿ **وإذا طلقتم**

النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن ـ الآية ﴾[١] أى قربن من انقضاء الأجل ولكن لم تفرغ العدة الكلية فحينئذ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ **بمعروف** ﴾ أى محسناً إليها فى صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أى من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل ، وسبيل حسن .

وقوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ أى على الرجعة إذا عزمتم عليها ، كما رواه أبو داود وابن ماجه عن عمران بن حصين أنه سئل عن الرجل يطلق المرأة ، ثم يقع بها ولم يشهد على طلاقها ولا على رجعتها ، فقال طلقت لغير سنة ، وراجعت لغير سنة ، وأشهد على طلاقها وعلى رجعتها ولا تعد[٢].

وقال ابن جريج كان عطاء يقول : ﴿ **وأشهدوا ذوى عدل منكم** ﴾ قال : لا يجوز فى نكاح ولا طلاق ولا رجاع إلا شاهدا عدل ، كما قال الله عز وجل إلا أن يكون من عذر .

وهذا الإشهاد مندوب إليه عند أبى حنيفة ، كقوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ وعند الشافعى واجب فى الرجعة مندوب إليه فى الفرقة ، وفائدة الإشهاد ألا يقع بينهما التجاحد ، وألا يتهم فى إمساكها ، ولئلا يموت أحدهما فيدّعى الباقى ثبوت الزوجية ليرث .

وقال القرطبى فى قوله تعالى : ﴿ **ذوى عدل منكم** ﴾ قال الحسن : من المسلمين . وعن قتادة **من أحراركم وذلك يوجب اختصاص الشهادة على الرجعة بالذكور دون الإناث ، لأن « ذوى »** مذكر ، ولذلك قال علماؤنا : لا مدخل للنساء فيما عدا الأموال .

وقوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الشهادة لله** ﴾ أى تقربا إلى الله فى إقامة الشهادة على وجهها ، إذا مست الحاجة إليها من غير تبديل ولا تغيير ، كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ... الآية** ﴾[٣] وقوله : ﴿ **ولا يأبى الشهداء إذا ما دعوا** ﴾[٤]

وقوله تعالى : ﴿ **ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾ أى هذا الذى أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة ، إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر ، وإنه شرع هذا ومن يخاف عقاب الله فى الدار الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ **وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا**

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

(٢) أخرجه : أبو داود كتاب الطلاق باب الرجل يراجع ولا يشهد حـ ٢ ص ٦٣٧ رقم ٢١٨٦
وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطلاق باب الرجعة حديث رقم ٢٠٢٥

(٣) سورة النساء آية : ١٣٥ .

(٤) سورة البقرة آية : ٢٨٢ .

آيات الله هزواً واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا إن الله بكل شيء عليم ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ أى ومن يتق الله فيما أمره به وترك مانهاه عنه ، يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أى من جهة لا تخطر بباله .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ حتى فرغ من الآية ، ثم قال : « يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا بها كفتهم ... » الحديث[٢].

ةقال عمران بن عثمان ﴿ **ومن يتق الله** ﴾ فيقف عند حدوده ، ويجتنب معاصيه ، يخرجه من الحرام إلى الحلال ، ومن الضيق إلى السعة ، ومن النار إلى الجنة . ﴿ **ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ من حيث لا يرجو وقال ابن عينيه : هو البركة فى الرزق . وقال ابن عباس : قرأ النبى ﷺ ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجا * ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ قال : « مخرجاً من شبهات الدنيا ومن غمرات الموت ومن شدائد يوم القيامة » (قاله القرطبى فى تفسيره) .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾ أى من فوض إليه أمره **كفاه** ما أهمه ، كما قال تعالى ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ قال ابن القيم « فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة . فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه »

وقال الربيع بن خيثم : « إن الله تعالى قضى على نفسه أن من توكل عليه كفاه * ومن آمن به هداه ، ومن أقرضه جازاه * ومن وثق به نجاه * ومن دعاه أجاب له . وتصديق ذلك فى كتاب الله » قال تعالى : ﴿ **ومن يؤمن بالله يهد قلبه** ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **ومن يتوكل على الله فهو حسبه** ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ **إن تقرضوا الله قرضاً حسنا يضاعفه لكم** ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ **ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم** ﴾[٦] وقال تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾[٧].

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣١ .

(٢) أخرجه أحمد حـ ٥ ص ١٧٨ .

(٣) سورة التغابن آية : ١١ .

(٤) سورة الطلاق آية : ٣ .

(٥) سورة التغابن آية : ١٧ .

(٦) سورة آل عمران آية : ١٠١ .

(٧) سورة البقرة آية : ١٨٦ .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عباس أنه ركب خلف رسول الله ﷺ يوما فقال له رسول الله ﷺ **« ياغلام إنى معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا** سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف »(١). ورواه الترمذى وقال حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ **إن الله بالغ أمره** ﴾ أى منفذ قضاياه وأحكامه فى خلقه بما يريده ويشاؤه ، لا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ﴿ **قد جعل الله لكل شىء قدراً** ﴾ تقديراً كقوله تعالى : ﴿ **وكل شىء عنده بمقدار** ﴾(٢)

قوله تعالى : ﴿ **واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللاتى لم يحضن * وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن * ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً * ذلك أمر الله أنزله إليكم * ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً** ﴾ .

قال أبو عثمان عمر بن سالم : لما نزلت عدة النساء فى سورة « البقرة » فى المطلقة والمتوفى عنها زوجها ، قال أبى بن كعب : يا رسول الله ، إن ناساً يقولون قد بقى من النساء من لم يذكر فيهن شىء : الصغار والكبار وذوات الحمل ، فنزلت ﴿ **واللائى يئسن ـــ الآية** ﴾ .

قال ابن كثير : يقول تعالى مبيناً لعدة الآية ، وهى التى قد انقطع عنها المحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضاً من الثلاثة قروء فى حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللائى لم يبلغن سن الحيض إن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **واللائى لم يحضن** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **إن ارتبتم** ﴾ فيه قولان ﴿ **أحدهما** ﴾ وهو قول طائفة من السلف كمجاهد والزهرى وابن زيد : أى إن رأين دماً وشككتم فى كونه حيضا أو استحاضة . والقول الثانى . ان ارتبتم فى حكم عدتهن ولم تعرفوه ، فهو ثلاثة أشهر ، وهذا مروى عن سعيد بن جبير ، وهو اختيار ابن جرير ، وهو أظهر

وقوله تعالى : ﴿ **وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن** ﴾ أى ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة فى قول جمهور العلماء من السلف والخلف ، كما هو نص هذه الآية الكريمة ، وكما وردت به السنة النبوية .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾ قال الضحاك : أى من يتقه فى طلاق السنة يجعل له من أمره يسراً فى الرجعة . وقال مقاتل ومن يتق الله فى اجتناب معاصيه يجعل له من أمره يسراً فى توفيقه للطاعة وقوله تعالى : ﴿ **ذلك أمر الله أنزله إليكم** ﴾ أى الذى ذكر من الأحكام أمر

(١) أخرجه الإمام أحمد حـ ١ ص ٢٩٣ ، ٣٠٧ ـــ ترمذى حـ ٤ ص ٥٧٦ كتاب صفة القيامة باب ٥٩ رقم ٢٥١٦ .
(٢) سورة الرعد آية : ٨ .

الله أنزله إليكم وبينه لكم ، وقوله : ﴿ **ومن يتق الله** ﴾ أى يعمل بطاعته ﴿ **يكفر عنه سيئاته** ﴾ أى يذهب عنه المحذور ﴿ **ويعظم له أجراً** ﴾ ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

قال أبو حيان : لما كان الكلام فى أمر المطلقات ، وأحكامهن ، من العدة وغيرها وكنّ لا يطلقهن أزواجهن إلا عن بغض لهن وكراهة ، جاء عقيب بعض الجمل ﴿ **الأمر بالتقوى** ﴾ حيث المعنى مبرزاً فى صورة شرط وجزاء فى قوله : ﴿ **ومن يتق الله** ... ﴾ إذ الزوج المطلق قد ينسب إلى مطلقته بعض ما يشينها ، وينفرِّ الخطاب عنها ، ويوهم أنه فارقها لأمر ظهر له منها . فلذلك تكرر قوله : ﴿ **ومن يتق الله** ﴾ فى العمل بما أنزله من هذه الأحكام ، وحافظ على الحقوق الواجبة عليه من ترك الضرار ، والنفقة على المعتدات .. وغير ذلك مما يلزمه يرتب له تكفير السيئات وإعظام الأجر » .

قوله تعالى : ﴿ **أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن * وإن كنّ أولات حَمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن * فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهنّ وائتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى * لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله * لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها * سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾

قال ابن كثير : يقول تعالى آمراً عباده ، إذا طلق أحدكم المرأة ، أن يسكنها فى منزل ، حتى تنقضى عدتها ، فقال : ﴿ **أسكنوهن من حيث سكنتم** ﴾ أى عندكم ﴿ **من وجدكم** ﴾ يعنى سعتكم حتى قال قتادة : إن لم تجد إلا جنب جنب بيتك فأسكنها فيه .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن** ﴾ قال مقاتل : يعنى يضاجرها لتفتدى منه بمالها ، أو تخرج من مسكنه . وقال الثورى عن منصور عن أبى الضحى ﴿ **ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن** ﴾ قال يطلقها فإذا بقى يومان راجعها . وقوله تعالى : ﴿ **وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن** ﴾ قال كثير من العلماء منهم ابن عباس وطائفة من السلف وجماعات من الخلف : هذه فى البائن **إن** كانت حاملاً ، أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً أو حائلا ، وقال آخرون : بل السياق كله فى الرجعيات ، وإنما نص على **الإنفاق** على الحامل وإن كانت رجعية ، لأن الحمل تطول مدته غالباً فاحتيج إلى النص على وجوب **الإنفاق** على الوضع ، لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة ، وقوله تعالى : ﴿ **فإن أرضعن لكم** ﴾ أى إذا وضعن حملهن ، وهن طوالق فقد بِنّ بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذ أن ترضع الولد ، ولها أن تمتنع منه ولكن بعد أن تغذيه باللبن ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به ، فإن **أرضعت** استحقت أجر مثلها ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما ينفقان عليه من أجره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهن** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وأتمروا بينكم بمعروف** ﴾ أى ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة ، كما قال تعالى : ﴿ **ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله**

بما تعملون بصير ﴾[١]. وكما قال سبحانه ﴿ **لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده** ﴾[٢].

وقوله تعالى : ﴿ **وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى** ﴾ أى وإن اختلف الرجل والمرأة ، فطلبت المرأة فى أجرة الرضاع كثيرا ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه ، فليسترضع له غيرها ، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية ، فهى أحق بولدها .

وقوله تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته** ﴾ أى لينفق على المولود والده ووليه بحسب قدرته . ﴿ **ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها** ﴾ أى ومن كان رزقه بمقدار القوت فحسب فلينفق على مقدار ذلك ، ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها** ﴾ أى لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى كما قال تعالى : ﴿ **على الموسع قدره وعلى المقتر قدره** ﴾[٣].

وقوله تعالى : ﴿ **سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾ أى بعد الضيق غنى ، وبعد الشدة سعة .

الأحكام الشرعية
فى هذه الآيات المباركات

قال صاحب كتاب روائع البيان تفسير آيات الأحكام فى هذه الآيات المباركات :

الحكم الأول : هل الطلاق مباح أو محظور ؟

لقد أباح الله تعالى الطلاق بقوله تعالى : ﴿ **إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن** ﴾ وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن من أبغض المباحات عند الله عز وجل الطلاق » .

وفى لفظ « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » رواه أبو داود وابن ماجه[٤] قال الحنفية والحنابلة : الطلاق محظور لما فيه من كفران نعمة النكاح وإنما أبيح للحاجة ، ويحمل لفظ المباح على ما أبيح فى بعض الأوقات ، التى تتحقق فيه الحاجة المبيحة .

وقد نقل عن ابن حجر أن الطلاق :

(أ) إما واجب كطلاق المولى بعد التربص مدة أربعة أشهر ، وطلاق الحكمين فى الشقاق بين الزوجين إذا لم يمكن الإصلاح .

(ب) أو مندوب كأن يعجز عن القيام بحقوقها ولو لعدم الميل إليها ، أو تكون غير عفيفة .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٣٦ .

(٤) أخرجه : أبو داود فى سننه كتاب الطلاق باب فى كراهية الطلاق حـ ٢ ص ٣٣١ رقم ٢١٧٨ أنظر سنن ابن ماجه حديث رقم ٢٠١٨ . كتاب الطلاق

(جـ) أو حرام وهو الطلاق البدعى .

(د) أو مكروه بأن سلم الحال عن ذلك كله للحديث .

الحكم الثانى : ماهو الطلاق السنى وماهى شروطه ؟

روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه طلّق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر للنبى ﷺ فتغيظ ، فقال : « ليراجعها ، ثم يمسكها حتى تطهر ثم تحيض فتطهر ، وإن بدا له أن يطلقها فليطلقها » قبل أن يمسّها فتلك العدة التى أمر الله عز وجل (رواه الستة ومالك والشافعى)[1]

ولهذا الحديث حصل الإجماع على أن الطلاق فى الحيض ممنوع . وفى الطهر مأذون فيه إذا لم يجامعها فيه .

والجمهور : على أنه لو طلق لغير العدة ، التى أمر الله ، وقع طلاقه وأثم ، وذلك لقوله ﷺ : « ثلاثة جدهن جد وهزلهن جد » : النكاح والطلاق والرجعة » رواه الترمذى وأبو داود[2]

واختلف الفقهاء فيما يدخل فى طلاق السنة :

فقال الحنفية : إن طلاق السنة من وجهين :

أحدهما : فى الوقت ، وهو أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها .

والآخر : من جهة العدد ، وهو أن لا يزيد فى الطهر الواحد على تطليقه واحدة .

وقال المالكية : طلاق السنة ما جمع شروطاً سبعة :

وهو أن يطلقها واحدة ، وهى ممن تحيض ، طاهراً ، ولم يمسها فى ذلك الطهر ، ولا تقدمه طلاق فى حيض ، ولا تبعه طلاق فى طهر يتلوه وخلا عن العوض .

وقال الشافعية : « طلاق السنة أن يطلقها كل طهر خاصة ، ولو طلقها ثلاثاً فى طهر لم يكن بدعة » .

وقال الحنابلة : « طلاق السنة أن يطلقها فى طهر لم يجامعها فيه » .

فالاتفاق واقع على أن طلاق السنة فى طهر لم يجامعها فيه ، وأما من أضاف كونها حاملاً ، فلما ورد فى حديث عبد الله بن عمر أن النبى ﷺ قال لعمر : « مُره فليراجعها ثم ليطلقها إذا طهرت ، أو وهى حامل » (رواه مسلم والنسائى وأبو داود)[3] وأما العدد والخلاف فيه فبحثه عند قوله تعالى : ﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾ .

(١) رواه البخارى فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٣٦ كتاب الأحكام . باب هل يقضى الحاكم أو يفتى وهو غضبان .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه حـ ٣ ص ٤٩٠ كتاب الطلاق ــ باب ــ ماجاء فى الجد والهزل فى الطلاق رقم ١١٨٤ . وأخرجه أبو داود رقم ٢١٩٤ ، وابن ماجة رقم ٢٠٣٩

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه كتاب الطلاق باق طلاق السنة حـ ٢ ص ٦٣٤ ، ٦٣٥ رقم ٢١٨٢ أخرجه مسلم فى كتاب الطلاق حديث رقم ١٤٧١ وأخرجه النسائى فى الطلاق حـ ٦ ص ١٣٨ .

(٤) سورة البقرة آية رقم : ٢٢٩ .

وأما قول المالكية : « وهى ممن تحيض » فهذا شرط متفق عليه . قال الفخر الرازى : والطلاق فى السنة إنما يتصور فى البالغة المدخول بها غير الآيسة والحامل ، إذ لا سنة فى الصغيرة وغير المدخول بها والآيسة ولا بدعة أيضا لعدم العدة بالأقراء .

وقال أبو بكر الجصاص : والوقت مشروط لمن يطلق فى العدة ، لأن من لا عدة عليها فأن كان طلقها قبل الدخول فطلاقها مباح فى الحيض ، وأما بقية الشروط فمختلف فيها وتنظر فى كتب الفروع .

الحكم الثالث : هل للمعتدة أن تخرج من بيتها ؟

دل قوله تعالى : ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ على أن المطلقة لا تخرج من مسكن النكاح مادامت فى العدة ، فلا يجوز لزوجها أن يخرجها ، ولا يجوز لها الخروج أيضا إلا لضرورة ظاهرة ، فإن أخرجت أثم ولا تنقطع العدة ، والرجعية والمبتوتة فى هذا سواء .

واختلف الفقهاء فى خروج المعتدة من بيتها لقضاء حوائجها على مذاهب .

(أ) قال مالك وأحمد : المعتدة تخرج فى النهار فى حوائجها ، وإنما تلزم منزلها بالليل .

(ب) وقال الشافعى : لا تخرج الرجعية ليلاً ولا نهاراً . وإنما تخرج المبتوتة فى النهار .

(جـ) وقال أبو حنيفة : المطلقة لا تخرج ليلاً ولا نهاراً . والمتوفى عنها زوجها لها أن تخرج فى النهار .

دليل المالكية والحنابلة :

استدل مالك وأحمد بحديث (جابر بن عبد الله) قال : « طلقت خالتى فأرادت أن تُجدُ نخلها ، فزجرها رجل أن تخرج ، فأتت النبى ﷺ فقال : « بلى فجدّى نخلك . فإنك عسى أن تصدّق أو تفعلى معروفاً »[1] رواه مسلم .

دليـل الشافعى :

واستدل الشافعى بالآية الكريمة ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن** ﴾ بالنسبة للمطلقة رجعيا ، فلا تخرج ليلاً ولا نهاراً .

وأما المبتوتة فاستدل بحديث (فاطمة بنت قيس) فقد ورد فى صحيح مسلم أن (فاطمة بنت قيس) قالت يا رسول الله : زوجى طلقنى ثلاثاً وأخاف أن يُقتحم علىّ قال : فأمرها فتحولت[2].

وفى البخارى عن عائشة أن (فاطمة بنت قيس) كانت فى مكان وحش فخيف على ناحيتها ، فلذلك أرخص . النبى ﷺ لها[3].

(١) أخرجه مسلم حـ ٢ ص ١١٢١ كتاب الطلاق باب جواز خروج المعتدة البائن رقم ١٤٨٣/٥٥

(٢) أخرجه مسلم : فى صحيحه حـ ٢ ص ١١٢١ كتاب الطلاق . باب المطلقة ثلاثا رقم ١٤٨٢/٥٣

(٣) أخرجه البخارى :

دليل الحنفية :

واستدل أبو حنيفة بعموم قوله تعالى : ﴿ **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ فقد حرمت على المطلقة أن تخرج ليلاً أو نهاراً ، سواء كانت رجعية أم مبتوتة ، وأما المتوفى عنها زوجها فتحتاج للخروج نهاراً لقضاء حوائجها ، ولا تخرج ليلاً لعدم الضرورة .

ولو أذن الزوج لزوجته بالخروج فهل لها أن تخرج ؟

قال الحنفية : ليس لها أن تخرج لأن السكنى حق للشرع مؤكد لا يسقط بالإذن ، حتى لو اختلعت على أن لا سكنى لها تبطل مؤنة السكنى عن الزوج ، ويلزمها أن تكترى بيته ، وأما أن يحل لها الخروج فلا .

قال الشافعية : إنهما لو اتفقا على الانتقال جاز ، إذ الحق لا يعدوهما ، فالمعنى لا تخرجوهن ولا يخرجن باستبدادهن .

وقد قال الفخر الرازى : فلم يكن لها الخروج وإن رضى الزوج ولا إخراجها وإن رضيت إلا عن ضرورة .

الحكم الرابع : ماهى الفاحشة التى تخرج بها المعتدة من المنزل ؟

لقد اختلف السلف فى المراد بالفاحشة فى قوله تعالى : ﴿ **إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ وتبعا لذلك اختلف الفقهاء .

فقال أبو حنيفة : يقول ابن عمر : خروجها قبل انقضاء العدة فاحشة ، فيكون معنى الآية : إلا أن يأتين بفاحشة مبينة بخروجهن من بيوتهن بغير حق .

والاستثناء عليه راجع إلى ﴿ **لا يخرجن** ﴾ والمعنى : لا يسمح لهن فى الخروج إلا فى الخروج الذى هو فاحشة ، ومن المعلوم أنه لا يسمح لهن فيه ، فيكون ذلك منعا عن الخروج على أبلغ وجه .

قال ابن الهمام : كما يقال : « لا تزن إلا أن تكون فاسقاً ، ولا تشتم أمك إلا أن تكون قاطع رحم ، ونحو ذلك وهو بديع وبليغ جداً » .

وقال أبو يوسف : بقول الحسن وزيد بن أسلم : هو أن تزنى فتخرج للحد ، أى لا تخرجوهن إلا إن زنين .

وعن ابن عباس قال : إلا أن تبذو على أهله ، فإذا فعلت ذلك حلَّ لهم أن يخرجوها ، كما ورد عن فاطمة بنت قيس أنها أخرجت لذلك . وعنه أيضا قال : جميع المعاصى من سرقة أو قذف أو زنا أو غير ذلك واختاره الطبرى .

وقال الضحاك : الفاحشة المبينة : عصيان الزوج .

وقال قتادة : إلا أن تنشز فإذا فعلت حل إخراجها .

قال أبو بكر الجصاص : هذه المعانى كلها يحتملها اللفظ ، وجائز أن يكون جميعها مراداً ، فيكون خروجها فاحشة ، وإذا زنـت أخرجت للحد ، وإذا بذت على أهله أخرجت أيضاً .

فأما عصيان الزوج والنشوز ، فإن كان فى البذاءة وسوء الخلق اللذين يتعذر القيام معها فيه فجائز أن يكون مراداً ، وإن كانت إنما عصت زوجها فى شيء غير ذلك ، فإن ذلك ليس بعذر فى إخراجها ...

الحكم الخامس : ما حكم الإشهاد فى الفرقة والرجعية ؟

قال أبو حنيفة : الإشهاد مندوب إليه فى الفرقة والرجعة ، لقوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم** ﴾ فإن الإشهاد فى البيع مندوب لا واجب ، فكذا هنا ، وهو قول مالك والشافعى وأحمد فى أحد قوليهما .

وقال الشافعى وأحمد فى القول الآخر : الإشهاد واجب فى الرجعة مندوب إليه فى الفرقة .

أدلـة الجمهـور :

١ – لما جعل الله تعالى للزوج الإمساك أو الفراق ، ثم عقبه بذكر الإشهاد ، كان معلوما وقوع الرجعة إذا رجع ، وجواز الإشهاد بعد ذلك ، إذ لم يجعل بالإشهاد شرطاً فى الرجعة .

٢ – لم يختلف الفقهاء فى أن المراد بالفراق المذكور فى الآية ، إنما هو تركها حتى تنقضى عدتها ، وأن الفرقة تصح وإن لم يقع الإشهاد عليها ، وقد ذكر الإشهاد عقيب الفرقة ثم لم يكن شرطا فى صحتها ، فكذلك الرجعة .

٣ – وأيضاً لما كانت الفرقة حقاً للزوج ، جازت بغير الإشهاد ، إذ لا يحتاج فيها إلى رضا غيره ، وكانت الرجعة أيضاً حقاً له وجب أن تجوز بغير إشهاد .

٤ – وأيضاً لما أمر الله بالإشهاد على الإمساك أو الفرقة احتياطا لهما ، ونفياً للتهمة عنهما إذا علم الطلاق ولم يعلم الرجعة ، أو يعلم الطلاق والفراق ، فلا يؤمن التجاحد بينهما ، ولم يكن معنى الاحتياط مقصوراً علي الإشهاد فى حال الرجعة أو الفرقة ، بل يكون الاحتياط باقياً وأن أشهد بعدهما وجب أن لا يختلف حكمهما إذا أشهد بعد الرجعة بساعة أو ساعتين .

الحكم السادس : ماهى عدة المرأة التى لا تحيض ؟

المرأة غير الحائض تشمل من بلغت من اليأس ، والصغيرة التى لم تر الحيض بعد ، أما من يئست من الحيض فعدتها ثلاثة أشهر بلا خلاف ، وكذا الصغيرة التى لم تحض ...

وأما المرأة إذا كانت تحيض ثم لم تر الحيض فى عدتها ولم يدر سببه : فقال الحنفية والشافعية : إن عدتها الحيض حتى تدخل فى السن التى لا تحيض أهلها من النساء ، فتستأنف عدة الآيسة ثلاثة أشهر .

ونقل عن على وعثمان ، وزيد بن ثابت وابن مسعود ، وقال مالك وأحمد : تنتظر تسعة أشهر لتعلم براءة رحمها ، لأن هذه المدة هى غالب مدة الحمل ، فإذا لم يبن الحمل فيها علم براءة الرحم ، ثم تعتد بعد ذلك عدة الآيسات ثلاثة أشهر . ونقل عن عمر أنه قضى بذلك .

الحكم السابع : ما المراد من قوله تعالى : ﴿ **إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر** ﴾ ؟

قال الجصاص : غير جائز أن يكون المراد به الارتياب فى الإياس ، لأنَّا إذا شككنا هل بلغت سن اليأس لم نقل عدتها ثلاثة أشهر .

واختلف أهل العلم فى (الريبة) المذكورة فى الآية على أقوال : اختار الطبري : أن يكون المعنى : « إن شككتم فلم تدروا ما الحكم فيهن ؟ فالحكم أن عدتهن ثلاثة أشهر » وهو قول الجصاص فقد قال : « وذكر الارتياب فى الآية ، إنما هو على وجه ذكر السبب الذى نزل عليه الحكم ، فكان بمعنى واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، ونقل هذا عن مجاهد .

وقال مجاهد : الآية واردة فى المستحاضة أطبق بها الدم لا تدرى ، أهو دم حيض أم دم عله .

وقال عكرمة وقتادة : من الريبة المرأة المستحاضة التى لا يستقيم لها الحيض ، تحيض فى أول الشهر مراراً ، وفى الأشهر مرة .

وقيل : إنه متصل بأول السورة والمعنى : لا تخرجوهن من بيوتهن إن ارتبتم فى انقضاء العدة . قال القرطبى : وهو أصح ما قيل فيه . وقال الزجاج : المعنى ان ارتبتم فى حيضهن ، وقد انقطع عنهن الدم وكن ممن يحيضن مثلهن .

الحكم الثالث : ماهى عدة الحوامل ؟

نصت الآية على أن الحامل تنتهى عدتها بولادتها ، ودل قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزوجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً** ﴾[1] على أن عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً ، فإذا كانت المتوفى عنها زوجها حاملاً ، فبأى الأجلين تأخذ ؟ ولم يختلف السلف والخلف أن عدة المطلقة الحامل أن تضع حملها ، واختلفوا فى المتوفى عنها زوجها .

قال الجمهور : عدة المتوفى عنها زوجها الحامل أن تضع حملها .

وقال على وابن عباس : ﴿ **وأولات الأحمال** ﴾ فى المطلقات ، وأما المتوفى عنها فعدتها أبعد الأجلين ، فلو وضعت قبل أربعة أشهر وعشر ، صبرت إلى آخرها .

حجـة الجمهـور :

استدل الجمهور بحديث سبيعة الاسلمية أنها كانت تحت (سعد بن خولة) وهو ممن شهد

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٤ .

بدراً ، فتوفى عنها فى حجة الوداع . وهى حامل ، فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته ، فلما تعلّت من نفاسها تجملت للخطّاب ، فدخل عليها رجل من بنى عبد الدار ، فقال لها : مالى أراك متجملة ، لعلك ترتجين النكاح ؟ إنك والله ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشراً ، قالت سبيعة : فلما قال لى ذلك ، جمعت علىّ ثيابى حين أمسيت ، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزوج إن بدا لى . (رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه وغيرهم)[1].

وعن ابن مسعود أنه بلغه أن علياً يقول : تعتد آخر الأجلين فقال : من شاء لا عنته . ما نزلت ﴿ أولات الأحمال ﴾ إلا بعد آية المتوفى قال أبو بكر الجصاص : أفاد قول ابن مسعود أن الآية مكتفية بنفسها فى إفادة الحكم على عمومها ، غير مضمنة بما قبلها من ذكر المطلقة فوجب اعتبار الحمل فى الجميع ، من المطلقات ، والمتوفى عنهن أزواجهن .

الحكم الرابع : هل للمطلقة ثلاثاً سكنى ونفقة ؟

لا خلاف بين العلماء فى إسكان المطلقات الرجعيات ، واختلفوا فى المطلقة ثلاثاً على أقوال :

- ذهب مالك والشافعى ورواية عن أحمد إلى أن لها السكنى ولا نفقة لها .
- وذهب أبو حنيفة وأصحابه أن لها السكنى والنفقة مادامت فى العدة .
- وذهب أحمد وغيره إلى أنها لا نفقة لها ولا سكنى .

دليـل المذهـب الأول :

قوله تعالى : ﴿ **وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن** ﴾ وذلك أن الله سبحانه لما ذكر السكنى أطلقها لكل مطلقة ، فلما ذكر النفقة قيدها بالحمل ، فدل على أن المطلقة البائن لا نفقة لها .

دليـل المذهـب الثانى :

١ – قوله تعالى : ﴿ **ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن** ﴾ وترك النفقة من أكبر الإضرار وفى إنكار عمر على فاطمة قولها ما يبين هذا .

٢ – ولأنها معتدة تستحق السكنى عن طلاق فكانت لها النفقة كالرجعية .

٣ – ولأنها محبوسة عليه لحقه فاستحقت النفقة كالزوجة .

٤ – أن السكنى لما كانت حقاً فى مال ، وقد أوجبها الله لها بنص الكتاب ، إذا كانت الآية قد

---

(١) أخرجه ابن ماجة حـ ١ ص ٦٥٣ ، ٦٥٤ كتاب الطلاق باب الحامل المتوفى عنها زوجها إذا وضعت حلت للأزواج رقم ٢٠٢٧ ، ٢٠٢٨ .

تناولت المبتوتة والرجعية ، فقد اقتضى ذلك وجوب النفقة ، إذا كانت السكنى حقاً فى مال وهى بعض النفقة .

دليـل المذهـب الثالث :

١ - حديث فاطمة بنت قيس : أنه طلقها زوجها فى عهد النبى ﷺ وكان أنفق عليها نفقة فلما رأت ذلك قالت : والله لأعلمنّ رسول الله ﷺ فإن كان لى نفقة أخذت الذى يصلحنى ، وإن لم تكن لى نفقة لم آخذ شيئاً .

قالت : فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : « لا نفقة لك ولا سكنى »وفى رواية « إنما السكنى والنفقة على من له عليها رجعة » . والحديث رواه مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى ومالك والدارقطنى وغيرهم[1]. وللعلماء فى مناقشة الأدلة كلام طويل ينظر فى كتب الفروع .

الحكم الخامس : على من يجب الرضاع ؟

قال المالكية : رضاع الولد على الزوجة مادامت الزوجية ألا تسرف الزوجة وموضعها ، فعلى الأب رضاعه يومئذ فى ماله ، فإن طلقها فلا يلزمها رضاعة ، إلا أن يكون غير قابل ثدى غيرها فيلزمها رضاعه .

وقال الحنفية : لا يجب الرضاع على الأم بحال .

وقيل : يجب الرضاع على الأم فى كل حال .

ما ترشد إليه الآيات الكريمة

١ - الطلاق السنى هو الطلاق الذى يكون فى طهر لم تجامع فيه المرأة .

٢ - الطلاق البدعى ما كان فى الطهر الذى جومعت فيه المرأة ، أو فى وقت الحيض .

٣ - السكنى واجبة للمطلقة على زوجها فلا يجوز له إخراجها حتى تنتهى العدة .

٤ - إذا خرجت المرأة من بيت زوجها قبل انتهاء عدتها ، فقد عصت الله وأثمت .

٥ - حدود الله تعالى يجب التزامها وعدم تعديها ، لأنها شريعة الله .

٦ - إقامة الشهادة حق لله تعالى على عباده ، لدفع الظلم عن الخلائق .

٧ - التوكل على الله والالتجاء إليه . ملاك الأمر كله ، وراحة النفس .

٨ - المرأة اليائسة من الحيض والصغيرة التى لم تحض ، إذا طلقتا فعدتهما ثلاثة أشهر .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٢ ص ١١٥ كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثا لا نفقة لها . رقم ١٤٨٠/٣٧ .

٩ – المرأة الحامل تنقضى عدتها بوضع الحمل .

١٠ – تقوى الله تعالى تيسّر أمور المؤمن فى الدنيا ، وتكفر السيئات ، وتعظم الأجر فى الآخرة .

١١ – المرأة المعتدة تسكن فى منزل زوجها حتى تنقضى عدتها .

١٢ – على الرجل أن لا يضيق على المعتدة فى النفقة أو السكنى ليجبرها على الخروج من منزله .

١٣ – نفقة الحامل تستمر حتى تضع الحمل ، وإن طالت المدة .

١٤ – للمرأة الحق الكامل فى أن تأخذ أجرة على إرضاع ولدها من الرجل .

١٥ – الإنفاق يكون بحسب مال الرجل غنى وفقراً .

١٦ – التكليف منوط بالقدرة التى مكن الله بها عبده .

حكمة التشريع

الأسرة لبنة من لبنات المجتمع الإسلامى ، وبها قوامه ، ففيها تلتقى النفوس على المودة والرحمة ، والتعاطف والستر ، وفى كنفه تنبت الطفولة وتدرج الحداثة ، ومنه تمتد وشائج الرحمة ، وأواصر التكافل ولكن الحياة الواقعية والطبيعة البشرية تثبت بين الفنية والأخرى ، أن هناك حالات لا يمكن معها استمرار الحياة الزوجية ، لذلك شرع الله الطلاق كآخر حل من حلول تتقدمه ، إن لم تجد كل المحاولات ، وأباح للرجل أن يركن إلى أبغض الحلال وهو الطلاق .

ولكن ليس من السنة أن يطلق الرجل فى كل وقت يريد ، فليس له أن يطلقها وهو راغب عنها فى الحيض ، وفى ذلك دعوة له ليتمهل ولا يسرع ليفصل عرى الزوجين ، ويتفكر فى محاسن زوجه لعلها تغلب سيئاتها . فتتغير القلوب ، وتعود إلى صفائها بعد موجة من الغضب اعترتها ، وسحابة غشيت المودة التى يكنها الزوج لزوجه .

والطلاق يقع حيثما طلق فى الوقت الذى بينه الشرع أو فى غيره ، لأن فك الزوجية ، وهدم اللبنة الأولى للمجتمع ليس لعباً تلوكة الألسنة فى كل وقت ، وعند أدنى بادرة ، بل هو الجد كل الجد ، فمن نطق به لزمته نتائجه وعصى الله ـــ جلت حكمته ـــ لأنه لم يقف عند حدوده ، ويتبع تعاليمه .

وأمر الله ـــ العليم الخبير ـــ بإحصاء العدة لضبط انتهائها ، ومعرفة أمدها بدقة لعدم إطالة الأمد على المطلقة ، والإضرار بها ، ولكيلا تنقص من مدتها ممالا يؤدى منها وهو التأكد من براءة رحم المطلقة من الحمل وجعل الله جل ثناؤه العدة تمكث المرأة فيها مدة من الزمن ينفق عليها مطلقها ،

ويسكنها فى بيته ، ليكون فى أمان واطمئنان وهى تحت نظره ، إن ظهر حملها ، فالولد ولده ، وإن لم يظهر الحمل فى مدة العدة ، فلم يعد بين الرجل وزوجه أية علاقة تربطهما ، هو بالنسبة إليها كسائر الرجال ، وهى بالنسبة إليه كسائر النساء ، لا تستطيع أن تطالبه بنسب ولا نفقة ولا غير ذلك .

وبهذا لم يظلم الإسلام المرأة ، حيث فرض لها النفقة ، والسكنى مادامت محبوسة لصالح الرجل ، وأمن الرجل من جهة زوجه حيث مكثت مدة يتبين معها شغل رحمها أو فراغه .

وأما الحوامل فقد جعل الله تعالى عدتهن الوضع ،طال أمد الحمل بعد الطلاق أم قصر ، وذلك لأن براءة الرحم بعد الوضع مؤكدة ، فلا حاجة إلى الانتظار .

وأمر الله عز وجل الرجال أن يسكنوا النساء مما يجدون هم من سكن وما يستطيعونه حسب مقدرتهم وغناهم ، لا أقل مما هم عليه فى سكناهم ، ونهاهم أن يعمدوا إلى الإضرار بهن بالتضيق عليهن فى فسحة المسكن ، أو فى المعاملة أثناء إقامتهن .

وخصت ذوات الأحمال بذكر النفقة مع وجوب النفقة لكل معتدة ، لتوهم أن طول مدة الحمل يحدد زمن الإنفاق ببعضه دون بقيته ، أو بزيادة المدة إذا قصرت مدة الحمل ، فأوجب النفقة حتى الوضع ، وهو موعد انتهاء العدة لزيادة الإيضاح التشريعى .

وأما الرضاع ، فلم يجعله الله سبحانه واجباً على الأم دون مقابل ، ومادامت ترضع الطفل المشترك بينهما ، فمن حقها أن تنال أجراً على رضاعه تستعين به على حياتها ، وعلى إدرار اللبن للطفل ، وهذا منتهى المراعاة للأم فى هذه الشريعة .

وفى الوقت ذاته أمر الأب والأم أن يأتمرا بينهما بالمعروف فى شأن هذا الوليد ، ويتشاورا فى أمره ، ورائدهما مصلحته — وهو أمانة بينهما — فلا يكون فشلهما هما فى حياتهما نكبة على الصغير والأمر منوط بالله فى الفرج بعد الضيق ، واليسر بعد العسر . فأولى لهما أن يعقدا به الأمر كله ، ويتجها إليه ، ويراقباه فى كل أمرهما ، وهو المانح المانع ، القابض الباسط .

والزوجان يتفارقان — فى ظل هذه التوجيهات القرآنية — وفى قلب كل منهما بذور للود لم تمت ، وربما جاءها ما ينعشها فى يوم من الأيام إلى أدب رفيع يريد الإسلام أن يصبغ به حياة الجماعة المسلمة ويشيع فيها أرجه وشذاه . ا.هـ.

(بحث فى)

بناء الأسرة المسلمة (للمؤلف)

مقدمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا وحبيبنا ونور قلوبنا محمد بن عبد الله ، طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضيائها ، المبعوث رحمة للبشرية جمعاء ليحررها من شرور أنفسها وسيئات أعمالها .

أما بعد :

وقفت فى معترك الحياة على ساحل مترامى الأطراف ،أتأمل ما تموج به المجتمعات الإنسانية من مشاكل ، تجعل الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن بعدهم عن منهج الله شديد ، وظللت أمحص وأفند وأقلب الأمور على مختلف الوجوه ، فوجدت أن العيب فينا وما ندرى والدواء معنا وما نشعر .

فالمشاكل كبيرها وصغيرها مردها إلى تلك التربية ، والنشأة الأولى التى درج عليها الإنسان منذ تفتحت عيناه على الحياة ، ويمكن أن نلخص الكثير من القول بالاستعانة بمن أوتى جوامع الكلم ، واصطفاه وبه واجتباه ، وفضله على كل خلق الله ، حيث قال الحبيب المصطفى : « كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه »(١).

من هنا مفتاح القضية وموطن العلة ، حيث يمكن تشخيص الداء ، ووصف الدواء من الخلية الأولى للمجتمع من الأسرة ، فإذا صلحت الأسرة صلح المجتمع كله ، وإذا فسدت فهذا هو الداء العضال ، والأمر الوبال على الأجيال المتعاقبة ، ولذلك فعندما ألقيت نظرة فاحصة على عناية الإسلام ببناء الأسرة وجدت قلبى يسجد أمام عظمة الله الحكيم الخبير ، ووجدت قلمى يقف عاجزا أمام وصف ذلك البناء الشامخ فى علوه المترامى فى أطرافه المتين فى أساسه المحكم فى هندسته ودقة صنعه .

فقد وضع الشرع الحكيم أساساً عريقا لذلك البناء فى مراسم الخطبة وعقد الزواج والزفاف ، ورسم له من الخطوط العريضة فى المباشرة الزوجية ما يضفى عليه البهجة والسعادة ، والطهر والعفاف ، فإذا ما أثمرت تلك العلاقة ثمرتها المرجوة ، فهناك من التشريعات والقوانين الألهية ما يحافظ على تلك الثمرة ويضمن لها الجو الصالح ، الذى تنمو وتترعرع فيه كأروع ما يكون الإنسان ، الذى يستحق الخلافة عن الله فى الأرض .

لقد جعل الإسلام من الأسرة سفينة تسير باسم الله مجريها ومرساها ، تجوب بحار الحياة المتلاطمة الأمواج ، وهى رافعة شراع الإيمان الذى يحميها من الغرق ، ويوجهها إلى الغاية السامية ، حاملة الأمانة ، ومؤدية الرسالة ، حتى تخرج من ضيق الدنيا وجورها إلى سعة الآخرة وعدلها .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ٢٠٤٧ كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة رقم ٢٦٥٨/٢٢ .

فإلى كل مسلم ومسلمة ، يريدان بناء أسرة مسلمة على تقوى من الله ، وإلى كل زوج وزوجة ، يريدان إصلاح حياتهما ، وإلى كل أب وأم ، يريدان تنشئة أبنائها على طاعة الله ورسوله ، ليكونوا قرة عين لهما ، إلى هؤلاء جميعاً أقدم هذا الكتاب « الإسلام وبناء الأسرة » ليكون لهم نبراساً يضيء حياتهم ويهديهم سواء السبيل : ﴿ **أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم** ﴾[1]

فلنرهف السمع جيداً لنعى كيف سعى الإسلام إلى بناء الأسرة على أساس متين ، وبالتالى بناء المجتمع الإسلامى بما يحقق له كل معانى العزة والرفعة ، والاستقرار والطمأنينة ، ولنكن على حذر من تلك البدع التى دخلت على مجتمعاتنا حيث كان الهدف الأول دائماً لكل أعداء الحق ، هو هدم قواعد بناء الأسرة المسلمة ، لأنهم بدراستهم لمنهج الإسلام السامى ، عرفوا أن مكمن القوة فى تلك القواعد الراسخة ، فأعملوا فيها معاول الهدم لتحقيق بغيتهم فى القضاء على ديننا الحنيف .

فاعتصموا أيها المسلمون بحبل الله المتين ، وابنوا أسرتكم على هدى من القرآن الكريم وسنة رسوله الحبيب ، ومن استمسك بالله ، فقد هدى إلى صراط الحميد ، ونجا من كيد الشيطان وأعداء الدين ، ولا أملك إلا أن أردد قول الحق العظيم : ﴿ **إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** ﴾[2].

الدعـوة إلى بنـاء الأسـرة

من نعم الله تعالى على عباده ، أنه شرع الزواج ليكون سنة محكمة من سنن المرسلين ، من لدن آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى : ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾[3].

ولكى يعمر البشر هذه الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾[4] فلابد أن يكون هناك سنن وشرائع ، تبين للناس كيف يقيمون الحياة الزوجية ، فى سلوك مستقيم ، وبناء متين ، ومن هنا فإن الإسلام نظم العلاقات ، وحدَّ الحدود ، وبين الحقوق ، ووضع الواجبات ، لتسير سفينة الحياة فى جو معتدل ، وتعيش الأسرة حياة راضية لا تسمع فيها لاغية .

والناظر فى كتاب الله ، يجد آية الزواج قد جاءت فتوسطت آيات دالة على وحدانية الله وآلائه

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠٩ .

(٢) سورة ق آية : ٣٧ .

(٣) سورة الرعد آية : ٣٨ .

(٤) سورة هود آية : ـــ٦١ .

على عباده قال تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[١].

إذا نظرت إلى سابقها ولا حقها وسياقها ، ما للزواج من صلة أكيدة بالكون الذى خلقه الله تعالى من العرش إلى الفرش ، وكأنه (أى الزواج) قد صار سنة كونية ، محكمة البنيان ، وطيدة الأركان .

فسابق هذه الآية يقول : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾[٢] ولا حقها يقول : ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾[٣] فالآية بين السباق واللحاق قد تبوأت مكانا عليا ، وذلك مادلّ عليه السياق ، ولقد سمى الله تعالى عقد الزواج (ميثاقاً غليظاً) قال تعالى : ﴿ **وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾[٤].

كما سمى الميثاق الذى أخذه من الأنبياء ﴿ **ميثاقاً غليظاً** ﴾ قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً** ﴾[٥].

وفى القرآن الكريم من الآيات ما يدل دلالة قاطعة ، على أن الزواج نعمة عظمى ، امتن الله بها على عباده ، من هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[٦].

وقوله تعالى : ﴿ **وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسبا وصهراً وكان ربك قديرا** ﴾[٧] وقوله تعالى : ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾[٨].

وليس الزواج مقصورا على عالم البشر إنما هو سنة مطردة فى الكون كله . قال تعالى : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾[٩]

---

(١) سورة الروم آية : ٢١ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٠

(٣) سورة الروم آية : ٢٢ .

(٤) سورة النساء آية : ٢١ .

(٥) سورة الأحزاب آية : ٧ .

(٦) سورة النساء آية : ١ .

(٧) سورة الفرقان آية : ٥٤ .

(٨) سورة النحل آية : ٧٢

(٩) سورة الذريات آية : ٤٩ .

وقال جل شأنه : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾(١)

وقد أعطى الله تعالى كل شيء وخلقه ثم هدى : قال تعالى : ﴿ **فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾(٢). وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾(٣)

وقد حث الصادق المعصوم على الزواج ، ورغب فيه ، وجاءت أحاديثه الشريفة ، مستفيضة ، فيها من النور النبوى ، ما يضيء الطريق لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

من ذلك قوله ﷺ :

١ - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « يا معشر الشباب من **استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له** وجاء » رواه البخارى ومسلم(٤).

٢ - وروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « من أراد أن يلقى الله طاهراً مطهرا فليتزوج الحرائر » رواه ابن ماجه **حديث ضعيف**(٥)

٣ - وعن أبى أيوب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « أربع من سنن المرسلين الحناء والتعطر والسواك والنكاح » رواه الترمذى(٦).

٤ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » رواه مسلم(٧).

٥ - وروى « الدنيا متاع ، ومن خير متاعها امرأة تعين زوجها على الآخرة » . « مسكين مسكين رجل لا امرأة له ، مسكينة مسكينة امرأة لا زوج لها »(٨).

٦ - وعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خير له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته وإن نظر إليها سرته ، وإن أقسم عليها

(١) سورة يس آية : ٣٦ .
(٢) سورة الشورى آية : ١١ .
(٣) سورة الحجرات آية : ١٣ .
(٤) أخرجه البخارى ومسلم : أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح . باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه . رقم ١٤٠٠/١ .
(٥) أخرجه ابن ماجه فى سننه حـ ١ ص ٥٩٨ كتاب النجاح . باب تزويج الحرائر والولود رقم ١٨٦٢ .
(٦) أخرجه الترمذى حـ ٣ ص ٣٩١ كتاب النكاح . باب ما جاء فى فضل التزويج والحث عليه . رقم ١٠٨٠ .
(٧) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٢ ص ١٠٩٠ كتاب الرضاع باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة رقم ١٤٦٧/٥٩ .
(٨) أخرجه الترغيب والترهيب حـ ٣ ص ٤١ .

أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »[١] رواه ابن ماجه .

٧ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما إن النبى ﷺ قال :« أربع من أعطيهن فقد أعطى خير الدنيا والآخرة : قلبا شاكرا ، ولسانا ذاكرا ، وبدناً على البلاء صابرا ، وزوجة لا تبغى حوباً فى نفسها وماله »[٢].

٨ - وعن ثوبان رضى الله عنه ، قال لما نزلت : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره فقال **بعض أصحابه : أنزلت فى الذهب والفضة لوعلمنا أى المال خير فنتخذه ؟ فقال : « لسان ذاكر ،** وقلب شاكر ، وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه » رواه الترمذى[٣]

٩ - وعن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من سعادة ابن آدم : المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح ، والمركب الصالح » . ومن شقاوة ابن آدم : « المرأة السوء ، والمسكن السوء ، والمركب السوء » (رواه الطبرانى ، والبزار والحاكم وصححه ورواه أحمد بسنده صحيح)[٤].

١٠ - وعن سعد بن أبى وقاص أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة من السعادة : المرأة الصالحة تراها تعجبك ، وتغيب فتأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون وطيئة فتلحقك بأصحابك ، والدار تكون واسعة كثيرة المرافق » وثلاث من الشقاوة : المرأة تراها فتسوءك ، وتحمل لسانها عليك ، وان غبت عنها لم تأمنها على نفسها ومالك ، والدابة تكون قطوفاً - بطيئة - فإن ضربتها أتعبتك ، وان تركتها لم تلحقك بأصحابك والدار تكون ضيقة قليلة المرافق (رواه الحاكم)[٥].

١١ - وعن أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ « من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه فليتق الله فى الشطر الباقى » رواه الطبرانى والحاكم وقال صحيح الاسناد[٦].

١٢ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم المجاهد فى سبيل الله ، والمكاتب الذى يريد الأداء ، والناكح الذى يريد العفاف » رواه الترمذى[٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه حـ ١ ص ٥٩٦ كتاب النكاح باب أفضل النساء رقم ١٨٥٧

(٢) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ١٥ رقم ٤٣٤١٦ .

(٣) أخرجه الترمذى حـ ٥ ص ٢٥٩ كتاب تفسير القرآن - تفسير سورة التوبة رقم ٣٠٩٤

(٤) أخرجه المتقى الهندى حـ ١١ رقم ٣٠٧٥٤ ، الحاكم حـ ٢ ص ١٩٢ كتاب النكاح
أخرجه الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ١٤٤ كتاب الفىء . وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه

(٥) الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ١٦٢ كتاب النكاح .

(٦) أخرجه الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ١٦١ كتاب النكاح . وقال حديث صحيح ولم يخرجاه

(٧) أخرجه الحاكم فى مستدركه كتاب النكاح حـ ٢ ص ١٦٠ . ورواه الترمذى برقم ١٦٥٥ .

١٣ - وعن أبى نجيح رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من كان موسراً لأن ينكح ثم لم ينكح فليس منى » رواه الطبرانى[١].

١٤ - وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : جاء رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ : فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم : أما أنا أصلى الليل أبداً وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر أبداً وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : « أنتم القوم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له لكنى أصوم وأفطر وأصلى ، وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى » رواه البخارى[٢].

١٥ - وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « تنكح المرأة على إحدى خصال : لجمالها وما لها وخلقها ودينها فعليك بذات الدين والخلق تربت يداك » رواه أحمد[٣].

١٦ - وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » متفق عليه[٤].

١٧ - وروى عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ : « من تزوج امرأة لعزها لم يزده الله إلا ذلاً ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله إلا فقراً ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله إلا دناءة ومن تزوج إمرأة لم يرد بها إلا أن يغض بصره ويحصن فرجه أو يصل رحمه بارك الله له فيها وبارك لها فيه » رواه الطبرانى[٥].

١٨ - وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن ، ولكن تزوجوهن على الدين ، ولأمة خرماء سوداء ذات دين أفضل » (رواه ابن ماجه)[٦]

(وخرماء أى مقتطعة الأطراف من خرمت الشيء خُرماً أى ثقبته)

١٩ - وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : « جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله : إنى أحببت إمرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد أما أتزوجها فنهاه ، ثم أتاه الثانية فقال له : مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة فقال له « تزوجوا الودود الولود فإنى مُكاثر بكم الأمم » رواه أبو داود[٧].

---

(١) أخرجه مجمع الزوائد حـ ٤ ص ٢٥١ والسنن الكبرى للبيهقى حـ ٧ ص ٧٨ .

(٢) أخرجه البخارى حـ ٣ ص ٢٣٧ كتاب النكاح . باب الترغيب فى النكاح .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ٣ ص ٨٠ .

(٤) انظر صحيح مسلم فى كتاب الرضاع باب استحباب نكاح ذات الدين حـ ٢ ص ١٠٨٦ رقم ٥٣/١٤٦٦ .

(٥) أخرجه الدرالمنثور حـ ١ ص ٢٥٧ وحلية الأولياء ٢٤٥/٥ .

(٦) أخرجه ابن ماجة حـ ١ ص ٥٩٧ كتاب النكاح . باب تزويج ذات الدين رقم ١٨٥٩

(٧) أخرجه الحاكم فى مستدركه كتاب النكاح حـ ٢ ص ١٦٢

وجل جلاله إذ يقول مرغبا فى الزوج ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾[١] وهذا أمر ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾[٢] وهذا ترغيب مع الدعوة إلى العدل. ﴿ **فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن** ﴾[٣] وهذا منع مع العضل ونهى عنه.

وقال تعالى فى وصف الرسل ومدحهم: ﴿ **ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية** ﴾[٤].

فذكر ذلك فى معرض الامتنان وإظهار الفضل: ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما** ﴾[٥] فسبحان من مدح أولياءه بسؤال ذلك فى دعائه.

وللـزواج فـوائـد

ومن حكمة الله تعالى البالغة أنه ما أمر بشيء وقال العقل ليته ما أمر، وما نهى عن شيء وقال العقل: ليته ما نهى، فحكمة الله عالية وغالبة، وحجة الله بالغة وواضحة

١ – أنه يلائم الفطرة الإنسانية ويوافقها وينسجم معها:

فقد روى البيهقى فى حديث سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه « ان الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية السمحة »[٦] ففى الزواج التحصن من الشيطان، وكسر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج، وفيه ترويح النفس **وإيناسها** بالمجالسة. والنظر والملاعبة بين الزوجين إراحة للقلب، وتقوية له على العبادة، فإن النفس ملول وهى عن الحق نفور.

قال تعالى: ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[٧] ومعنى لتسكنوا أى لتميلوا إليها وتألفوا بها، فإن الجنسية علة للضم، والاختلاف سبب للتنافر. ومعنى ﴿ **بينكم** ﴾ أى بين الرجال والنساء بسبب الزواج حال التعارف والتواد والتراحم، وقيل: ﴿ **مودة** ﴾ كناية عن الجماع ﴿ **ورحمة** ﴾ الولد.

---

(١) سورة النور آية: ٣٢.
(٢) سورة النساء آية: ٣.
(٣) سورة البقرة آية: ٢٣٢.
(٤) سورة الرعد آية: ٣٨.
(٥) سورة الفرقان آية: ٧٤.
(٦) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب فى (كتاب النكاح) حـ ٢ ص ٥٢٨ وعزاه إلى البيهقى
(٧) سورة الروم آية: ٢١.

ومن فوائد الزواج :

٢ - طلب الولد : لأنه المقصود بهذا العقد الشرعى والتمتع ، وفى طلب الولد قربة ولمرضاة الله تعالى ، فلا يجب الصالح أن يلقى الله عزباً . وفى الاستجابة لأمر الله بالزواج فوائد كثيرة من ناحية **الذرية حددها الإمام الغزالى بقوله :**

(أ) موافقة محبة الله بالسعى فى تحصيل الولد لإبقاء جنس الإنسان .

(ب) محبة رسول الله ﷺ فى تكثير من به مباهاته .

(جـ) طلب القبول بدعاء الولد الصالح بعده .

(د) طلب الشفاعة بموت الولد الصغير إذا مات قبله .

٣ - تفريغ القلب عن تدبير المنزل ، والتكفل بشغل المطبخ والكنس والفرش ، وتنظيف الأوانى ، وتهيئة أسباب المعيشة ، قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : الزوجة الصالحة ليست من الدنيا ، فإنها تفرغك للآخرة وإنما تفريغها بتدبير المنزل وبقضاء الشهوة جميعاً . وقال محمد بن كعب القرظى فى معنى قوله تعالى : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة** ﴾ قال المرأة الصالحة ومن فوائده :

٤ - مجاهدة النفس ورياضتها بالدعاية والولاية ، والقيام بحقوق الأهل ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن ، والسعى فى إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين ، والاجتهاد فى كسب الحلال لأجلهن والقيام بتربيته لأولاده ، قال عليه الصلاة والسلام : « يوم من وال عادل أفضل عند الله من سبعين سنة »[1] فكل مقاساه . بسبب الأهل والولد بمنزلة الجهاد فى سبيل الله تعالى ، ولذلك قال بشر : فضل على أحمد بن حنبل بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره . وقوله ﷺ « ما أنفقه الرجل على أهله فهو صدقة »[2] وإن الرجل ليؤجر فى اللقمة يرفعها فىّ امرأته أى فمها وعلى من وفقه الله تعالى للزواج ألا يقع فى تلك المحاذير .

أولاً : العجز عن طلب الحلال خشية التوسع للطلب والإطعام من الحرام ، وربما يتبع المتزوج هوى زوجته ، ويبيع آخرته بدنياه .

ثانياً : القصور عن القيام بحقهن ، والصبر على أخلاقهن ، واحتمال الأذى منهن وفى هذا خطر ، لأنه راع ومسئول عن رعيته ، قال عليه الصلاة والسلام : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول »[3] وقال تعالى : ﴿ **قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** ﴾[4] أمرنا أن نقيهم النار كما نقى أنفسنا .

---

(١) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٦ ص ١٢ رقم ١٤٦٢٤

(٢) أخرجه الإمام أحمد حـ ٥ ص ٢٧٣ وكنز العمال حـ ٦ رقم ٦٣٢٣

(٣) أخرجه : فى الصحيح

(٤) سورة التحريم آية : ٦ .

ثالثاً : أن يكون الأهل والولد شاغلاً له عن الله تعالى ، وجاذباً إلى طلب الدنيا ، وحسن تدبير المعيشة للأولاد ، بكثرة جمع المال وإدخاره لهم ، وطلب التفاخر والتكاثر بهم ، وكل ما شغل عن الله تعالى من أهل ومال وولد ، فهو مشئوم على صاحبه ، فينقل من التنعم المباح إلى الإغراق فى ملاعبة النساء ومؤانستهن ، والإمعان فى التمتع بهن ، قال إبراهيم بن آدهم رحمه الله : « من تعود أفخاذ النساء لم يجيء منه شيء » .

قواعـد البنـاء

إن الإسلام وهو يشيد قواعد بناء الأسرة ، وأرسى لها أسساً متينة الأعماق متصلة بحبل السماء ، حتى تكون ناطحة سحاب تجاوز النجوم فى العلياء ، فإذا كانت النجوم زينة السماء فإن الأسرة هى زينة المجتمعات ، وهى البهجة والنماء والأهل والأحباب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فإما نعيم دائم ، وإما عذاب ليس له دافع من الله ذى المعارج .

لقد أحكم الاسلام البناء للأسرة ، وشيدها على قواعد من الانتقاء لحجر الأساس ، لا يقوى بنّاء على مجاراته فى مثل هذا التوغل فى الأعماق ، فتعال معى أخى المسلم وأختى المسلمة لتريا ماهى الشروط المطلوبة فى الزوج المسلم والزوجة المسلمة ، وهى شروط وصفها الشارع الحكيم للبناء الراسخ العميق ، حتى لا يكون هشا تذروه أعاصير الحياة وعواصفها ، فيصبح المسلم يقلب كفيه على ما أنفق فيه وحسرة على ما فرط فى جنب الله .

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمّن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾[1] .

ولما كانت القاعدتان الأساسيتان فى بناء الأسرة ، هما الزوج والزوجة ، فقد وضع الشرع الحكيم لهما من المواصفات ما ينمى المودة والرحمة ومشاعر الخير والتواصل ، ويجعل الزواج بحق من أجل النعم التى امتن لها الله علينا ، حيث تسير السفينة يحوطها الحب والرضى والعطاء وتظلها سحائب الرحمة والإيمان .

﴿ فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾[2] .

أولاً : سمات الزوجة الصالحة فى الشرع الحكيم :

١ – إن أهم ما عنى به الاسلام لا ختيار الزوجة التى تعين على نوائب الدهر ، وتكون سكنا

---

(١) سورة التوبة آية : ١٠٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٧٤ .

وذخرا للرجل وخير متاع ينبغى التطلع إليه والحرص عليه هو دينها ، قال ﷺ : ﴿ **تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك** ﴾ رواه البخارى(١).

وقال صلوات ربى وسلامه عليه «**لا تزوجوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تزوجوهن لما لهن فعسى أن يطغيهن ولكن تزوجهن على الدين ولأمة خرماء ذات دين أفضل**»(٢) وحذر الرسول الحبيب من المرأة الجميلة التى لا يحوط جمالها هذا سياج الإيمان فقال ﷺ : « وإياكم وخضراء الدّمن قيل يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال : المرأة الحسناء فى المنبت السوء »(٣).

فلماذا شرع الدين فى المقام الأول لاختيار الزوجة ؟ لأن الدين هو الحصن المنيع والسراج المنير لظلمات الحياة وهو حبل الله المتين الذى ينجو به المرء من مكايد الكائدين وألسنة الحاقدين وعيون **الحاسدين وهو المحل الأساسى لتقيم الناس يوم الدين قال ﷺ ﴿ إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ﴾**(٤)

ونظراً لأن الإسلام هو دين الفطرة السيوية والمصلحة الاجتماعية فقد وضع عدة معايير أخرى إضافية لاختيار الزوجة لتحقيق الهدف الأسمى والسعادة القصوى من الزواج من تلك المعايير .

٢ - الأصل والشرف : وذلك بأن تكون الزوجة من أسرة عريقة عرفت بالصلاح والخلق وأصالة الشرف وأرومة الأصل ، فالناس معادن يتفاوتون فيما بينهم وضاعة وشرفاً ويتفاضلون فساداً وصلاحاً

قال ﷺ : « الناس معادن فى الخير والشر خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا »(٥).

وروى ابن ماجه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس »(٦).

وروى ابن ماجه عن عائشة رضى الله عنها مرفوعا : « تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء »(٧).

إن أصالة المرأة وبيئتها الكريمة ، تجعلها بعيدة عن الانحرافات النفسية وتغمر أولادها حناناً وتطبعهم بالعادات الأصيلة والأخلاق الاسلامية القويمة ، ترضعهم لبان المكارم والفضائل ، ويكتسبون منها بشكل فطرى خصال الخير ومكارم الأخلاق . خطب رسول الله ﷺ (أم هانىء)

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب النكاح) باب الأكفاء فى الدين حـ ٧ ص ٩ .

(٢) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٥٦٥ .

(٣) رواه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٥٨٧ .

(٤) رواه الإمام مسلم فى صحيحه حـ ٤ ص ١٩٨٧ كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله .

(٥) رواه مسلم حـ ٤ ص ٢٠٣١ ، ٢٠٣٢ كتاب البر والصلة باب الأرواح جنود مجندة رقم ٢٦٣٨/١٦٠ .

(٦) رواه العراقى فى تخريج أحاديث إحياء علوم الدين حـ ٢ ص ٤١ .

(٧) رواه العراقى فى تخريج أحاديث إحياء علوم الدين حـ ٤ ص ١٠٢ .

فاعتذرت إليه بأنها صاحبة أولاد فقال : « خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش ، أحناه على ولد فى صغره ، وأرعاه على زوج فى ذات يده »[١].

وتحقيقا لهذا الهدى النبوى أجاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن سؤال لأحد الأبناء لما سأله ما حق الولد على أبيه بقوله : « ان ينتقى أمه ويحسن اسمه ويعلمه القرآن » . فإذا ما تحقق هذان المعياران الاصيلان ، فهناك أيضاً معايير أخرى منها :

٣ – الجمال : لم يسقط الإسلام الجمال من حسان ، لأن النفس البشرية جبلت على عشق الجمال وهوايته ، وتتوق إليه ، لتحقيق السكن النفسى والارتواء العاطفى ، ففى الحديث الصحيح : « إن الله جميل يحب الجمال »[٢]. وقال ﷺ : « خير النساء من إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك ، وإذا أقسمت عليها برتك ، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك » رواه النسائى[٣].

وخطب المغيرة بن شعبة إمرأة فأخبر رسول الله ﷺ فقال له : « اذهب فانظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى تدوم بينكما المودة والعشرة ونصح الرسول رجلاً خطب إمرأة من الأنصار فقال له : « أنظر إليها فإن فى أعين الأنصار شيئاً »[٤].

٤ – تفضيل المرأة البكر : يستحسن أن تكون الزوجة بكراً ، فإن البكر ساذجة لم يسبق لها عهد بالرجال ، فيكون التزوج بها أدعى إلى تقوية عقدة النكاح ، ويكون حبها لزوجها الصق بقلبها ، لكون البكر مجبولة على الأنس والألفة بأول إنسان تكون فى عصمته وتلتقى معه وتتعرف عليه ، بعكس المرأة الثيب ، فقد لا تجد فى الزوج الثانى الألفة التامة والمحبة المتبادلة والتعلق القلبى الصادق لمقارنتها بين أخلاق الزوج الأول ومعاملة الثانى لها .

وهناك دلائل على هذا التفضيل من الهدى النبوى : لما تزوج جابر بن عبد الله ثيباً قال له رسول الله ﷺ : هلا بكرا تلاعبها وتلاعبك[٥] فأخبر جابر الرسول ﷺ بأن أباه قد ترك بنات صغار وهن فى حاجة إلى رعية إمرأة تقوم على شئونهن وأن الثيب أقدر على هذه الرعاية من البكر التى لم تدرب على تدبير المنزل .

وروى « عليكم بالأبكار فإنهن أعذب أفواهاً وأنتق أرحاماً وأقل جناً ، وأرضى باليسير »[٦].

والمقصود بعذوبة **الأفواه** طيب الكلام ، ونتق الأرحام : كثرة الأولاد وأقل جّنا أقل مكرا وخديعة .

---

(١) رواه البخارى حـ ٧ ص ٧ ورواه مسلم فى فضائل الصحابة رقم ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٢) رواه الإمام مسلم حـ ١ ص ٩٣ كتاب الإيمان باب تحريم الكبر رقم ٩١/١٤٧

(٣) أنظر تفسير ابن كثير حـ ١ ص ٥٠٣ تفسير سورة النساء آية ٣٤

(٤) رواه ابن ماجة فى سننه حـ ١ ص ٥٩٩ كتاب النكاح . باب النظر إلى المرأة إذا أراد أن يتزوجها رقم ١٨٦٥ .

(٥) رواه مسلم فى صحيحه حـ ٢ ص ١٠٨٧ كتاب الرضاع باب استحباب نكاح البكر رقم ٥٤ ، ٥٥ ، ٧١٥/٥٦ .

(٦) رواه البخارى حـ ٧ ص ٦ كتاب النكاح باب نكاح الأبكار .

وقد وضحت السيدة عائشة رضى الله عنها كل هذه المعانى عندما قالت للرسول ﷺ فيما رواه البخارى يا رسول الله أرأيت لو نزلت واديا فيه شجرة قد أكل منها وشجرة لم يؤكل منها فى أى منها كنت ترتع بعيرك ؟ قال عليه الصلاة والسلام فى التى لم يرتع فيها قالت رضى الله عنها (فأناهى) وتقصد بذلك بيان فضلها على باقى الزوجات باعتبار أن الرسول ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها[١].

٥ - تفضيل الزواج بالمرأة الولود :

لما كان الغرض الأسمى من الزواج هو الإنجاب ، فينبغى أن تكون الزوجة منجبة ، وتعرف بسلامة جسمها ، والنظر فى حال أمها ، وحال أخواتها المتزوجات ، وخالاتها وعماتها ، فإن كن من الصنف الولود فالأرجح أن تكون مثلهن فى الإنجاب ، وهذا ضرورى لمضاعفة أعداد الأمة المحمدية ، التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس ، وما ذاك إلا من الهدى النبوى ، وذلك حين جاءه رجل يقول له : يا رسول الله أنى أحببت إمرأة ذات حسب ومنصب ومال إلا أنها لا تلد ، أفأتزوجها : فنهاه ثم أتاه الثانية ، فقال : له مثل ذلك ، ثم أتاه الثالثة ، فقال : عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا الولود الودود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة »[٢].

٦ - تفضيل الاغتراب فى الزواج :

أى الابتعاد قدر الإمكان عن النساء ذوات النسب والقرابة ، حرصاً على نجابة الولد وضمانا لسلامة الذرية من الأمراض الوراثية ، وتوسيعاً لدائرة التعارف الأسرية وتوطيداً للروابط الاجتماعية ، ولذلك روى « لا تنكحوا القرابة فإن الولد يخلق ضاويا » أى نحيفاً ضعيف الجسم بليد الذكاء وروى « اغتربوا لا تضووا »[٣].

وقد أثبت علم الوراثة بعد أربعة عشر قرناً معجزة الرسول ﷺ وإخبار أنه الصادق ، حينما أثبت أن الزواج بالقرابة يجعل النسل ضعيفاً ويورث الأولاد صفات خلقية ذميمة .

هذه هى المعايير العامة وضعها الإسلام لاختيار الزوجة ، على أن يكون معروفا فى يقين كل مسلم أن المعيار الأهم والأكيد ، هو معيار الدين والأخلاق ، فمن فاز بتلك الزوجة فقد فاز بخير الدنيا والآخرة ، أما بقية المعايير فهى تختلف ظروف كل مسلم مقدم على الزواج مثلما تزوج جابر إمرأة ثيبا لتكون أقدر على رعاية أخوته البنات اللائى تركهن والده أمانة فى عنقه ، فهو قد فضل أداء الأمانة خير أداء على إرضاء ميوله الوجدانية ، ونزعاته الشخصية ، وهذا أمر محمود وسلوك رشيد ، يدل على أصالة التمييز فى هؤلاء الرجال الذين تخرجوا من مدرسة محمد ﷺ وعرفوا أن البر هو ما أطمأن إليه القلب ، ولم ينازعه منه ريب ، وعرفوا أن الخير فى أمة محمد إلى يوم القيامة ، وعرفوا أن توافر كل تلك

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه حـ ١ ص ٥٩٨ كتاب النكاح باب تزويج الأبكار رقم ١٨٦١ .

(٢) رواه الحاكم فى مستدركه كتاب النكاح حـ ٢ ص ١٦٢ .

(٣) رواه الغزالى فى إحياء علوم الدين حـ ٢ ص ٤١ وقال العراق فى تخريج الحديث : لم أجدله أصلا معتمدا . قلت إنما يعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب قد أضويتم فانكحوا فى النوابغ . رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث . وقال معناه تزوجوا الغرائب .

الصفات فى إمرأة واحدة أمر عسير المنال ولا يتفق مع ظروف الحياة ، لأن الكمال لله وحده فرجحوا كفة دينهم على دنياهم وساروا على نهج من هداهم وأرسى فى وجدانهم إن الزوجة الصالحة تعين على أمر الدين والدنيا وهذا مطلب الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

روى أن سيدنا داود ناجي ربه ومولاه فقال : « اللهم إنى أسألك أربعاً وأعوذ بك من أربع : أسألك لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً ، وبدنا على البلاء صابراً وزوجة تعيننى على أمر ديني ودنياى . وأعوذ بك من ولد يكون علىّ سيداً ، ومن مال يكون وبالاً علىّ ويتمتع به غيرى ، ومن جار سوء إن رأى خيراً أنكره وإن رأى سوء أذاعه ، ومن زوجة تشيبنى قبل المشيب » .

فاتقوا الله أيها الشباب المقدم على الزواج ، ولا يغرنكم الجمال الزائف ، أو المال الزائل ، أو الحب الطاغى ، وليكن جلَّ همكم هو الزوجة الصالحة فى المقام الأول ، وما توفر لها بعد ذلك من ميزات ، فهو فضل ونعمة من الله والله عليم بذات الصدور وبنياتكم ترزقون ﴿ **إن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله** ﴾[1].

قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : « النكاح رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته » فيجب على ولى أمر المرأة أن يختار لها رجلا ذا دين وذا خلق ، يفهم الإسلام فهما حقيقياً ، ويطبقه تطبيقا عمليا سلوكيا بكل فضائله السامية وآدابه الرفيعة ، وقد حدد لنا الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه الموازين الصحيحة لمعرفة الأشخاص ، وإظهار حقائق الرجال ، وذلك حينما جاءه رجل يشهد لرجل آخر .

فقال له عمر : أتعرف هذا الرجل ؟

فأجـاب : نعـم

قال : هل أنت جاره الذى يعرف مدخله ومخرجه ؟

فأجـاب : الرجـل : لا

قال عمر : هل صاحبته فى السفر الذى تعرف به مكارم الأخلاق .

فأجاب الرجل : لا .

فصاح به عمر : لعلك رأيته قائما قاعدا يصلى فى المسجد يرفع رأسه تارة ويخفضه أخرى . فرد الرجل نعم .

فقال له عمر : اذهب فإنك لا تعرف والتفت إلى الرجل وقال له : ائتنى بمن يعرفك ، فعمر رضى الله عنه لا ينخدع بالمظهر الخارجى للإنسان ، ولكنه يهمه أن يعرف الجوهر بموازين حقيقة تدل على الإيمان الحقيقى والخلق الطيب .

روى الترمذى عن رسول الله ﷺ أنه قال : إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٤ .

إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض »[(١)] وأى فتنة أعظم على المرأة المؤمنة من أن تقع تحت يد فاسق ، تشعر معه تحت سقف الزوجية بالاغتراب ، والله جعل الزواج سكنا ومودة ورحمة ، وأى فتنة أعظم من الزواج من رجل لا يعرف الله ، يسير بالمرأة إلى طريق الهاوية من سفور واختلاط وعدم مراعاة قواعد الفضيلة .

وأى فتنة وفساد أعظم من أن يتربى الأولاد على الانحراف والإباحية والفساد والمنكر .

وصدقت ياسيدى يا رسول الله عندما قلت : « من زوج كريمته من فاسق فقد قطع رحمها »[(٢)]. فاتقوا الله أيها الرجال فى بناتكن ولا تغرنكم الحياة الدنيا فهى متاع قليل والآخرة خير وأبقى والرجل الصالح التقى المؤمن يرتقى ببناتكن إلى مدارج العلى أما الفاسق فهو يهوى بهن إلى الهاوية وماأدراكم ماهى نار حامية .

قال ابن تيمية شيخ الإسلام رحمه الله : « ومن كان مصراً على الفسوق لا ينبغي أن يزّوج » .

وقال الرجل للحسن بن على : « إن لى بنتا فمن ترى أن أزوجها له ؟ قال : زوجها ممن يتقى الله فإن أحبها أكرمها وأن أبغضها لم يظلمها » . حقاً ما أحسن الرجل التقى فهو شخصية غنية بمكارم الأخلاق محوطا بعناية الله وعونه كما قال صلوات ربى وسلامه عليه : « ثلاثة كلهم حق على الله عز وجل عونه : المجاهد فى سبيل الله ، والناكح ليستعف والمكاتب يريد الأداء »[(٣)].

ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن التقوى ، هى فقط المعيار الوحيد فى اختيار الرجل ، بل هناك عدة معايير أخرى يشترك فيها مع المرأة مما سبق ذكره فيها : الاختيار على أساس الأصل والشرف ، والاغتراب فى الزواج ، ولكن المعيار الذى يتفرد به الرجل عن المرأة هو :

القدرة على القيام بأعباء المعيشة :

لأن الرجل هو رب الأسرة ، والمتصرف فى أمرها ، وله القوامة عليها ، ولن يكون ذلك إلا بقدرته على الإنفاق قال تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾[(٤)]

قال ﷺ : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » أى وقاية[(٥)].

(١) رواه الترمذى فى سننه حـ ٣ ص ٣٩٥ كتاب النكاح . باب ٣ رقم ١٠٨٥

(٢) رواه الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين حـ ٥ ص ٣٤٩ وقال العراق رواه ابن حبان فى الضعفاء من حديث أنس ورواه فى الثقات من قول الشعبى بإسناد صحيح .

(٣) رواه الحاكم فى مستدركه حـ ٢ ص ١٦٠ كتاب النكاح وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

(٤) سورة النساء آية : ٣٤ .

(٥) رواه مسلم حـ ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح رقم ١٤٠٠/١ .

والباءة مقصود بها ما يتطلبه الزواج من نفقات والتزامات المعيشة وهذا أفضل للرجل أن يكون هو صاحب الطول فى الإنفاق فلا يطمع فى الزواج من غنية تنفق عليه وتذله بمالها ، قال الإمام الغزالى فى كتابة (الإحياء) :

(قال بعضهم) من تزوج غنية كان له منها خمس خصال مغالاة الصداق ، وتسويف الزفاف وفوت الخدمة وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاقها لم يقدر على ذهاب مالها .

(وقال بعضهم) ينبغى أن تكون المرأة دون الرجل بأربع وإلا استحقرته : بالسن والطول والمال والحسب ، وأن تكون المرأة فوق أربع بالجمال والأدب والخلق والورع .

تلك هى قواعد البناء للأسرة المسلمة ، وهى لاشك قواعد وطيدة الأركان ، وقد أحاط الإسلام هذه القواعد بسياج منيع ، يسمى التكافؤ ، فلابد أن يكون ثمة تقارب بين الزوج والزوجة من حيث السن والمركز الاجتماعى والمستوى الثقافى والاقتصادى ، فإن التقارب فى هذه النواحى بما يعين على دوام العشرة وبقاء الألفة ، ولا أدّل على ذلك من موقف سيدنا رسول الله ﷺ من ابنته السيدة فاطمة فقد خطبها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما فقال : إنها صغيرة فلما خطبها علىّ زوجها إياه .

وإذا أراد ولى أمر فتاة أن يرجح معياراً من المعايير ، فليكن هو معيار الخلق والدين ، أسوة بسيد الخلق أجمعين ، ومن اتبعه بإحسان إلى يوم الدين ، وإليكم قصة سعيد بن المسيب فى زواج ابنته التى خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد ، فأبى سعيد أن يزوجه ، فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد ، حتى ضربه مائة سوط فى يوم بارد ، وصب عليه جرة ماء وألبسه جبة صوف ، ولكنه رفض خوفا من افتتان ابنته بالمال الجاه ، وفضّل أن يزوجها لرجل تقى هو عبد الله بن أبى وداعة الذى يحكى قصة زواجه قائلاً : « كنت أجلس إلى سعيد بن المسيب فتفقدنى أياماً فلما أتيته قال : أين كنت ؟ قلت توفيت أهلى فاشتغلت بها فقال : هلا أخبرتنا فشهدناها ، قال ثم أردت أن أقوم ، فقال : هل استحدثت إمرأة ؟ فقلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجنى وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة ؟ فقال أنا فقلت : وتفعل ؟ قال نعم فحمد الله تعالى ، وصلى على النبى ﷺ ، وزوجنى على درهمين أو قال ثلاثة . قال فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح فصرت إلى منزلى ، وجعلت أفكر ممن آخذ وممن استدين ، فصليت المغرب ، وانصرفت إلى منزلى ، فأسرجت وكنت صائماً فقدمت عشائى لأفطر وكان خبزاً وزيتاً ، وإذا ببابى يقرع فقلت : من هذا ! قال سعيد قال ففكرت فى كل إنسان أسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب وذلك أنه لم ير أربعين سنة إلا بين داره والمسجد

قال : فخرجت إليه فإذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له فقلت : يا أبا محمد لو أرسلت إلىّ لأتيتك فقال : لأنت أحق أن تؤتى قلت فما تأمر ؟ قال : إنك كنت رجلاً عزبا فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك ، وهذه إمرأتك ، وإذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم أخذ بيدها فدفعها فى الباب ، ورده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ، ثم تقدمت إلى القصعة

التى فيها الخبز والزيت ، فوضعتها فى ظل السراج لكيلا تراه ، ثم صعدت السطح ناديت الجيران فجاءونى وقالوا : ما شأنك ؟ قلت ويحكم زوجنى سعيد بن المسيب ابنته اليوم ، وقد جاء بها على غفلة فقالوا : أو سعيد زوجكها قلت نعم : قالوا : وهى فى الدار ؟ قلت نعم فنزلوا إليها وبلغ ذلك أمى فجاءت وقالت : وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلى ثلاثة أيام : قال : فأقمت ثلاثاً ثم دخلت بها فإذا هى من أجمل النساء ، وأحفظ الناس لكتاب الله ، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ وأعرفهم بحق الزوج .

قال : فمكثت شهراً لا يأتينى سعيد ولا آتيه ، فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته ، فسلمت عليه فرد علىّ السلام ، ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس ، فقال : ما حال ذلك الإنسان ، فقلت : بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو قال : إن رابك من أمر فدونك والعصا ، فانصرفت إلى منزلى فوجه إلىّ بعشرين ألف درهم .

هذا زواج مثالى ، سداه التقوى ، ولحمته العمل الصالح ، ورأس ماله : المودة والرحمة .

« إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، والدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة » . إن قصة سعيد بن المسيب مع تلميذه : عبد الله بن أبى وداعة مدرسة عظمى من مدارس الإسلام ، لقد آثر ما يبقى على ما يفنى ، فتقوى الله وحسن الخلق والعمل الصالح شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، لقد كان سعيد سعيداً بهذا الزواج ، قرير العين بتلك المصاهرة ، فالمال عرض زائل ، والتقوى قيمة ثابتة ، والجاه ظل حائل ، والإيمان قيمة راسخة ، والقصور ليست هى السعادة ، والرضا جبل باذخ شامخ لا تؤثر فيه العواصف ولا تحركه القواصف ، وما من شك فى أن عظمة الاسلام ترجع إلى اليسر وتبسيط الأمور لا تعقيد ولا نصب ولا تعب فى أمر يسّره الله تعالى .

« فأقلهن مهراً أيسرهن بركة ، فمن يمن المرأة خفة مهرها ويسر نكاحها وحسن خلقها ، ومن شؤم المرأة ثقل مهرها وعسر نكاحها وسوء خلقها » كما قال ﷺ : لقد دخل سعيد بن المسيب داره يوما فوجد ابنته (الرباب) التى زوجها عبد الله بن أبى وداعه وجدها جالسة وقد راحت فى تفكير عميق سألها : ماذا كنت تصغيهن يا رباب : قالت يا أبتى كنت أرتل القرآن الكريم ، قال : أفهمت ما رتلت ؟ قالت نعم إلا آية وقفت عندها قال : وما تلك الآية ؟ قالت : ﴿ **ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة** ﴾[1] لقد علمت أن حسنة الآخرة الجنة ، فما حسنة الدنيا قال لها : الرجل الصالح للمرأة الصالحة ، والمرأة الصالحة للرجل الصالح .

ولست أرى السعادة جمع المال ... ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخرا ... وعند الله للأتقى مزيد

(١) سورة البقرة آية : ٢٠١ .

وإدراك الـذى يـأتى قريـب ولكـن الـذى يمضـى بعيـد

ليعلم العقلاء أن السعادة ليست في سكني القصور ، ولا في الانتشاء باحتساء الكئوس المترعة ، ولا في الاستمتاع بالغيد الأماليد ، وإنما السعادة مملكة قائمة بالنفس ، صورها القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾[١]

وأخبر عنها الصادق المعصوم في قوله : « وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »[٢].

السعادة تزكية النفس وتطهيرها من الدنايا ، وسفاسف الأمور ، وإشراق العقل بنور الهدى ، وانتصار الذهن في نصره الحق . ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[٣] فعلى الباحثين عن السعادة أن يعلموا أن السعادة حقيقة ثابتة ، لا ترتكز على حياة أو مال أو سلطان ، إنما هي صرح شامخ أساسه العمل الصالح والإيمان الراسخ والقلب السليم ، وتلك هي أركان البناء الروحي للزواج ، فإن كان القادمون على الزواج يظنون أن قواعد البناء مادية فقط ، تتمثل في الإمكانات المادية لكل من الزوجين ، فهم خاطئون كل الخطأ ، واهمون كل الوهم ، لأن الأسرة هي روح المجتمع ونبضه ، هي دعامته وركيزته ، هي المادة والروح ، هي العقيدة والعمل ، فليتقوا الله ربهم وليكن البناء الروحي جُلَّ همهم وعلى الله قصد السبيل وبه الهداية ومنه التوفيق .

الخطبـــة

إن الخطبة هي الخطوات العملية لإرساء حجر الأساس للحياة الزوجية وبناء الأسرة ، وإذا كانت هناك دراسات كثيرة حول الطريقة المثلى لوضع دعائم أى بنيان من ناحية الوقت والتكلفة والجهد ، والأدوات التي تستخدم لذلك ، والمواد التى تعطى أفضل نتائج ممكنة ، فإن مدرسة محمد ﷺ قد حددت منهاجا سليماً لإرساء دعائم الأسرة ، يحفظ لها كيانها مدى الحياة ، ويصونها من كل عواصف قد تطرأ عليها خلال رحلتها وسط أمواج البشرية ، ومعترك طباع الحياة ، فما هى تلك الخطوات وماهي الضمانات التي وضعها الشرع الحكيم ، لتحقيق الضمانات لكل من الطرفين وإحاطة الأسرة بسياج متين على أساس من الخلق والدين ؟

أولا الأعمـال :

أول عمل يعمله الذى يرغب فى الزواج أن يستشير أقرب الناس إليه فيمن يخطبها ، فإن وافقوا يرسل إمرأة أمينة ، لتتعرف على حالتها لعل فيها عيباً يكون مستتراً ، ثم بعد ذلك يسأل من يختلط

(١) سورة التوبة آية : ١٠٠ .

(٢) رواه الترمذي كتاب الزهد باب الصحة والفراغ رقم ٢٣٠٦ .

(٣) سورة الشمس الآيتان : ٩ ، ١٠ .

بعشيرتها من جيران وأقارب عن أصلها وسلوكها على أن يراعى أن هناك شروطا فى المرأة التى تباح خطبتها منها :

أن تكون خالية من الموانع الشرعية التى تمنع زواجه منها فى الحال ، ألا يسبق غيره إليها بخطبة شرعية ، فإن كانت ثمة موانع شرعية ، كأن تكون محرمة عليه بسبب من أسباب التحريم المؤبدة أو المؤقته،أو كان غيره سبقه بخطبتها ، فلا يباح له خطبتها . بالنسبة للتحريم المؤبد ، فقد بينه الله عز وجل فى قوله تعالى : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين لا ما قد سلف إن الله كان غفورا رحيما والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتاب الله عليكم** ﴾[1] ويسبقها الآية الكريمة ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً** ﴾[2]

بالنسبة للموانع المؤقتة :

١ – تحرم خطبة المعتدة ، سواء أكانت عدتها عدة وفاة أو عدة طلاق ، وسواء أكان الطلاق طلاقاً رجعياً أم بائناً .

فإن كانت معتدة من طلاق رجعى ، حرمت خطبتها ، لأنها لم تخرج عن عصمة زوجها وله مراجعتها فى أى وقت شاء ، وان كانت معتدة من طلاق بائن حرمت خطبتها بطريق التصريح ، إذ حق المزوج لا يزال متعلقاً بها ، وله حق إعادتها بعقد جديد ففى تقدم رجل آخر لخطبتها اعتداء عليه ، واختلف العلماء فى التعريض بخطبتها ، والصحيح جوازه ، حتى يكون للمرأة فرصة للتفضيل والاختيار فى أحسن الظروف وليس وسط مهاوى اليأس والضياع ،وإن كانت معتدة من وفاة ، فإنه يجوز التعريض لخطبتها أثناء العدة دون التصريح ، لأن صلة الزوجية قد انقطعت بالوفاة ، فلم يبق للزوج حق يتعلق بزوجته ، التى مات عنها ، وإنما حرمت خطبتها على شعور أهل الميت وورثته من جانب آخر ، فالإسلام وهو يقيم دعائم بنيان جديد ، يأبى أن يقيمه على جرح مشاعر الآخرين ، بل يريد أن يحوط بسياج من الأمن المعنوى ، حتى لا يعرض لرياح النفوس البشرية ، التى يجتاحها الشكوك والأوهام إذا تمت الأمور على وجه السرعة . ولم يحسب لها حسابا ، فتأتى النتائج بأوخم العواقب قال تعالى فى كتابه الكريم : ﴿ **ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم فى أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن لا تواعدوهن سراً إلا أن تقولوا قولاً معروفا**

(١) سورة النساء الآيتان : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة النساء آية : ٢٢ .

ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفكسم فاحذروه﴾ الآية[١].

والمراد بالنساء المعتدات لوفاة أزواجهن ، لأن الكلام فى هذا السياق ، ومعنى التعريض أن يذكر المتكلم شيئا يدل به على شىء لم يذكره ، مثل أن يقول : « إنى أريد أن أتزوج » أو يقول : « لوددت أن ييسر لى إمرأة صالحة » أو يقول : « إن الله لسائق لك خيرا » والهدية إلى المعتدة جائزة وهى من التعريض .

وجائز أن يمدح نفسه ويذكر مآثره على وجه التعريض بالزواج ، وقد فعله أبو جعفر محمد بن على بن حسين . قالت سكينة بنت حنظلة : استأذن على بن محمد علىّ ولم تنفض عدتى من مهلك زوجى فقال : **قد عرفت قرابتى من رسول الله ﷺ وقرابتى من على وموضعى فى العرب .** قلت : غفر الله لك يا أبا جعفر إنك رجل يؤخذ منك تخطبنى فى عدتى ! قال : إنما أخبرتك بقرابتى من رسول الله ﷺ حرمت علىّ .

وخلاصة الآراء أن التصريح بالخطبة حرام لجميع المعتدات ، والتعريض مباح للبائن وللمعتدة من الوفاة ، وحرام في المعتدة من طلاق رجعي .

٢ - يحرم على الرجل أن يخطب على خطبة أخيه ، لما فى ذلك من اعتداء على حق الخاطب الأول وإساءة إليه ، وقد ينجم عن هذا التصرف الشقاق بين الأسر والاعتداء الذى يروّع الآمنين ، وهو أمر يأباه الإسلام ويرفضه ،لأنه يبنى مجتمعه على أساس من الحب والود والأمن والأمان ، كما أنه لا يرضي للمرأة أن تكون سلعة تباع وتشترى لمن يدفع أكثر ، فهى حجر الأساس المتين والركن الركين فى بناء الأسرة ، ولذلك فلها حرمتها ولها قداستها فى عبور الرجال إليها . عن عقبة بن لمار أن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن أخو المؤمن فلا يحل له أن يبتاع على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه حتى يذر »[٢] ومحل التحريم ما إذا صرحت المخطوبة بالإجابة ، أو صرح وليها الذى أذنت له ، حيث يكون إذنه معتبرا ، وتجوز الخطبة لو وقع التصريح بالرد ، أو وقعت الإجابة بالتعريض ، أو لم يعلم الثانى بخطبة الأول ، أو أذن الخاطب الأول للثانى .

حكى الترمذى عن الشافعى فى معنى الحديث : إذا خطب المرأة فرضيت به وركنت إليه ، فليس لأحد أن يخطب على خطبته .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٥ .

(٢) أخرجه البخارى ـــ كتاب البيوع ـــ باب لا يبيع على بيع أخيه رقم ١٠٨٣
أخرجه مسلم كتاب النكاح حديث رقم ٥١ .
أخرجه الترمذى حـ ٣ ص ٤٤٠ كتاب النكاح ـــ باب ما جاء أن لا يخطب الرجل على خطبة أخيه رقم ١١٣٤ .

موافقـة المـرأة على الخطبـة

لابد من موافقة المرأة على من يتقدم لخطبتها ، لإقامة الحياة الزوجية على أساس من التراضى بين الطرفين ، وهو أمر لابد منه لإشاعة الحب والوئام بين جنبات الأسرة ، وليس للأهل إرغام المرأة بحال من الأحوال على الاقتران بشخص لا يتحقق معه الوئام الروحى ، ولنا فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ : « الثيب أحق بنفسها من وليها والبكر تستأذن فى نفسها وإذنها صمتها »[(١)] رواه الجماعة

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا البكر حتي تستأذن قالوا : يا رسول : كيف إذنها ؟ قال : أن تسكت »[(٢)].

وعن خنساء بنت خدام : أن أباها زوجها وهي ثيب فأتت رسول الله ﷺ فرد نكاحها . أخرجه الجماعة إلا مسلماً[(٣)].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « آمروا النساء فى بناتهن »[(٤)].

ولاشك أن هذا يدل علي روعة الهدى النبوى ، لأن الأمهات أقرب الناس إلى معرفة ميول بناتهن وعن ابن عباس : « إن جارته بكراً أتت رسول الله ﷺ فذكرت له أن أباها زوجها وهى كارهة فخيرها النبى » رواه أحمد[(٥)].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ فقالت : إن أبي زوجنى ابن أخيه ليرفع بى خسيسة قال : « فجعل الأمر إليها فقالت قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس إلى الآباء من الأمر شيء »[(٦)]. رواه ابن ماجه

---

(١) أخرجه أبو داود حـ ٢ ص ٥٧٧ ، ٥٧٨ كتاب النكاح باب فى الثيب رقم ٢٠٩٩

(٢) أخرجه أبو داود حـ ٢ ص ٥٧٣ كتاب النكاح باب فى الاستئمار رقم ٢٠٩٢
أخرجه البخارى فى النكاح باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها . ومسلم فى النكاح رقم ١٤١٩ والترمذى فى النكاح رقم ١١٠٧ وابن ماجه فى النكاح رقم ١٨٧١

(٣) أخرجه أبو داود حـ ٢ ص ٥٧٩ كتاب النكاح باب فى الثيب رقم ٢١٠١

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٢ ص ٥٧٥ كتاب النكاح باب فى الاستئمار رقم ٢٠٩٥

(٥) أخرجه الامام أحمد فى مسنده حديث ٢٤٦٩ تحقيق الشيخ شاكر

(٦) أخرجه ابن ماجه كتاب النكاح . باب من زوج ابنته وهي كارهة رقم ١٨٧٤ .

استخارة الخطبة

يستحسن قبل الإقدام على الخطبة من كلا الطرفين أن يستخيرا ربهما فى شريك الحياة بعد جمع المعلومات الأولية عنه ، وذلك حتى يقيما بنياتهما على تقوى الله ، ويعلما أن للزواج قدسيته والتزامات وتبعات ، ما فرضت إلا ابتغاء مرضاة الله العظيم ورسوله المصطفى الحبيب ، الذى أرسله للناس بشريعة غرّاء تحميهم من الأهواء ونزعات الشيطان

وكيفية الاستخارة للمستخير كما يلى :

أن يصلى ركعتين من غير المكتوبة ثم يقول : **«بعد التشهد وقبل السلام»** « اللهم إنى استخيرك بعلمك ، واستقدرتك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب ، اللهم **أن كنت** تعلم أن هذا الأمر ــ ويسميه ــ خير لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله ، فاقدره لى وإن كنت تعلم أن هذا الأمر ــ ويسميه ــ شر لى فى دينى ودنياى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله ، فاصرفه عنى واصرفنى عنه ، واقدر لى الخير حيث كان ثم رضنى به ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله » .

فإذا ما انشرح الصدر إلى الزواج ، فليقدما على بركة الله وسنة رسوله ، فالزواج ليس رحلة ترفيهية ، ولكنه سنة نبوية ، فيجب أن يحاط بما يليق به من قدسيته ، وأن يبتعد الرجل المؤمن عن التقاليع الغربية والتقاليد الشيطانية ، فنحن أمة مسلمة رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا ، والرضا هو السمع والطاعة لكل ما أمر به الله والرسول وجعله منهاج حياتنا ونور صدورنا وربيع قلوبنا ، وحده يفلح المؤمنون ، ويحققون ما يصبون إليه من سعادة ورفاهية .

﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون ﴾[1].

ماذا يقول من جاء يخطب إمرأة من أهلها ؟ يستحب أن يبدأ الخطبة بالحمد لله والثناء عليه ، والصلاة على رسول الله ﷺ ويقول :

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله جئتكم راغباً فى فتاتكم فلانة ، أو فى كريمتكم فلانة بنت فلانة . جاء فى سنن أبى داود وابن ماجه وغيرهما

عن أبى هريرة رضى الله عنه وعن رسول الله ﷺ قال : « كل كلام لا يبدأ فيه بالحمد فهو أجذم » وفى بعض الروايات (كل أمر) ومعنى أجذم أى قليل البركة[2].

---

(١) سورة المؤمنون الآيات ١ ، ٢ ، ٣ .

(٢) أخرجه أبو داود حـ ٥ ص ١٧٢ كتاب الأدب باب فى الهدى فى الكلام رقم ٤٨٤٠ وابن ماجة كتاب النكاح حـ ١ ض ٦١٠ رقم ١٨٩٤ .

وجاء فى سنن أبى داود والترمذى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهى كاليد الجذماء »(١) ولاشك أن ذكر الله فى كل أمر يشيع الطمأنينة فى القلوب ، ويسبغ الخير والبركة على ذلك الأمر ، أما ما نراه من بدع فى مجتمعنا ، فهى أبعد ما تكون عن الإسلام ، وهى السر وراء ما يعترى الأسر من مشكلات تزلزل أركانها وتهدد أرجاءها بالزوال ، فاحذروا أيها المسلمون من تصدع البنيان واخلصوا العمل فإن الناقد بصير ، واذكروا الله يذكركم ، وابتعدوا عن كل ما حذر منه الحبيب المصطفى ، فقد استعاذ من صوت يطلق عند فرحة وصوت يطلق عند مصيبة ، ونحن بلاشك نملك البديل الأسمى والفرح الأعظم ، وهو ذكر الله ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾(٢)

النظر إلى المخطوبة :

لما كان الزواج هو بناء وطيد الأركان ، لذا فقد عنى الإسلام بدراسة المعالم والأرجاء وخطر الخلوة والاختلاط فى فترة الخطوبة ، أى سمح بعرض المرأة للزواج ، ولكنه فى إطار إيمانى جميل يحميها من همزات الشياطين وألسنة المتقولين ، فعلى كل من الرجل والمرأة رؤية بعضهما للآخر قبل الإقدام على الاقتران ، فالحازم لا يدخل مدخلا حتى يعرف خيره من شره قبل الدخول فيه .

وهذا النظر ندب إليه الشرع ورغب فيه :

فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه نكاحها فليفعل قال جابر : فخطبت امرأة من بنى سلمة فكنت أختبىء لها حتى رأيت منها بعض ما دعانى إليها »(٣) رواه أبو داود .

- وعن المغيرة بن شعبة : أنه خطب إمرأة فقال له رسول الله ﷺ « أنظرت إليها ؟ قال : لا ، قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » أى أجدر أن يدوم الوفاق بينكما(٤). رواه النسائى .

ولكن يجب على الرجل المؤمن ، أن يتقى الله ربه ، وليعرف أن هذا النظر ليس مطلقا ، ولكنه مقيد بتعاليم الإسلام ومبادئه الحكيمة ، فالشرع الحكيم لا يجيز للرجل أن ينظر من المرأة الأجنبية إلى غير الوجه والكفين أما ما عداهما فلم يجزه ، إذ لا تتعلق به ضرورة من ضرورات الآداب أو المعيشة ، فضلا عما فيه من الإثارة والفتن مما لا يرضاه الإسلام ، وهو يشيد بنيان أسرة على تقوى من الله .

---

(١) أخرجه أبو داود : حـ ٥ ص ١٧٣ كتاب الأدب باب فى الخطبة رقم ٤٨٤١ والترمذى فى النكاح . باب فى خطبة النكاح رقم ١١٠٦

(٢) سورة الرعد آية : ٢٨ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٢ ص ٥٦٥ ، ٥٦٦ كتاب النكاح باب كراهية أن يخطب الرجل على خطبة أخيه رقم ٢٠٨٢

(٤) أخرجه أحمد حـ ٢ ص ٢٤٦ .

فالنظرة إلى الوجه والكفين تكفى كما ذهب جمهور العلماء ، لأنه يستدل بالنظر إلى الوجه على الجمال أو الدمامة ، وإلى الكفين على خصوبة البدن أو عدمها .

وهى أشد ما تكون الحاجة إليهما فى الحياة الزوجية ، فتعرف بالوصف والاستيصاف والتحرى ممن خالطوها بالمعاشرة ، أو الحوار أو بواسطة بعض أفراد ممن هم موضع الثقة من الأقرباء كالأم والأخت ، وقد بعث النبى ﷺ أم سليم إلى امرأة فقال : « انظرى إلى عرقوبها وشمى معاطفها ، وفى رواية شمى عوارضها »(١) رواه أحمد . والمقصود بمعاطفها ناحيتا العنق ، والعوارض ! الأسنان فى عرض الفم وهى ما بين الأسنان والأضراس والمراد اختبار رائحة الفم

أما بالنسبة لنظر المرأة إلى الرجل ، فهذا الحق ثابت لها أيضاً ، لأنها شريكة له فى رحلة الحياة ، فلها أن تنظر إلى خاطبها ، فإنه يعجبها منه مثل ما يعجبه منها ، وقد تقدمت الأحاديث النبوية الشريفة التى تنهى عن إجبار المرأة على الزواج من رجل لا توافق عليه ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الله ، والله أمر بطاعتها لزوجها ، ولن تطيع المرأة رجلاً لا تشعر نحوه بالقبول أو تكون مرغمة عليه .

قال عمر : لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم فإنه يعجبهن منهم . مايعجبهم منهن .

ولذلك فرؤية كل من الرجل والمرأة للآخر ، قبل الإقدام على اجراءات الاقتران أمر ضرورى ، دعا إليه الشرع الإسلامى الحنيف ، إذ أن هذا النظر يكشف عما بينهما من خصائص روحية ، تارة تتفق ، وتارة تختلف ، وقد لا يكون للجمال فيها أى مدخل قال رسول الله ﷺ : « الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »(٢) رواه مسلم .

فالأرواح الطيبة تتوافق مع الأرواح الطيبة ، والأرواح الخبيثة تنسجم مع الأرواح الخبيثة ، فذلك عدل الله فى اختياره الذى ركبه فى الفطرة البشرية ، وحققه فى واقع الناس .

كما قال تعالى : ﴿ **الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات** ﴾(٣).

فإذا لم يكن هناك توافق وتكيف وانسجام روحى ونفسى فى الحياة ، فلا يكون ثمة معنى للحياة بوجه عام ، وهو يشيد البنيان ، فما كان ليقيم الدعائم على أساس من الاختلاف ، فهذا مآله إلى التفرقة والزوال ، ولكن الحكيم الخبير وضع لنا المنهاج القويم لنسير على هديه راشدين فنفوز بالسعادة فى الدارين .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد حـ ٣ ص ٢٣١ مسند أنس بن مالك

(٢) أخرجه مسلم : حـ ٤ ص ٢٠٣١ . كتاب البر والصلة باب الأرواح جنود مجندة رقم ٢٦٣٨/٥٩ .

(٣) سورة النور آية : ٢٦ .

حظـر الخلـوة بالمخطـوبة :

يحرم تحريماً تاماً الخلوة بالمخطوبة ، لأنها محرمة على الخاطب حتى يعقد عليها ، ولم يرد الشرع بغير النظر ، فبقيت على التحريم ، أما ما نراه حالياً من تهاون الناس فى هذا الشأن ، بحيث يسمحون لبناتهم أن يخالط الواحدة منهن خطيبها ، وتخلو معه دون رقابة ، بحجة أن يدرس كلا منهما سلوك الآخر قبل الزفاف ، فهذا مما تأباه الشريعة الإسلامية كلية ، لأنه لا يؤمن مع الخلوة مواقعة ما نهى الله عنه ، مما يؤدى إلى ضياع شرف المرأة ، وفساد عفافها ، وإهدار كرامتها ، وقد لا يتم الزواج ، فتكون قد أضافت إلى ذلك سوء سمعتها مما يؤدى إلى كساد سوق الزواج لها .

إن الأحاديث التى وردت على لسان الصادق المعصوم فى تحريم الخلوة ، تجل عن الحصر نذكر منها :

– عن جابر رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يخلون بامرأة ليس معها ذو محرم فإن ثالثهما الشيطان »[1]

وعن عامر بن ربيعة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يخلون رجل بامرأة لا تحل له فإن ثالثهما الشيطان إلا محرم » رواه أحمد[2].

وعن معقل بن يسار رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ قال : « لأن يطعن فى رأس أحدكم بنميط من حديد خير له من أن يمس إمرأة لا تحل له »[3] رواه الطبرانى .

وروى عن أبى أمامة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « إياك والخلوة بالنساء فو الذى نفسى بيده ماخلا رجل بإمرأة إلا ودخل الشيطان بينهما ولأن يزحم رجل خنزيراً متلطخاً بطين أو حمأه خير له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحل له »[4].

وفى هذا الحديث يطلب النبى ﷺ من المسلمين أن يتجنبوا الخلوة بالسيدات ، خشية إفساد الشيطان وإضلاله ورجاء العصمة ، والابتعاد عن الغواية ، والوقوع فى المكاره ، ثم يقسم ﷺ بالقاهر القادر الذى بيده تصاريف الأمور أن خلوة الرجل بالمرأة ، تجعل للشيطان ميدانا واسعاً ، يمرح فيه بالتحدث بالوقوع فى المعاصى ، ومقاربة الخنزير أسلم عاقبة من الجلوس بجوار المرأة ، والاحتكاك بها بلا نكاح شرعى ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾[5].

وعن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء .

---

(١) أخرجه الترغيب والترهيب حـ ١ ص ١٤٥ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد حـ ١ ص ٢٦ ، ٢٢٢ .

(٣) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٥ ص ١٣٠٦٥

(٤) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٥ رقم ١٣٠٣٥

(٥) سورة النور آية : ٥٢ .

فقال رجل من الأنصار : أفرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت » رواه البخارى ومسلم والترمذى[1].

وهذا الحديث يوضح كيف أن الهلاك يأتى من الاختلاط ، الذى يدعو إلى الطمأنينة ، حيث يؤتى الجذر من مكمنه والحمو أقارب زوج المرأة ، كعمه وأخيه وأبن أخيه وابن عمه ونحوهم ، ومعنى الحمو الموت : أى الخوف منه أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر من غيره ، والشر يتوقع منه ، والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة ، والخلوة من غير أن ينكر عليه ، وهذه عظة وعبرة للناس ، حتى يعلموا أن خلوة الخطيب بخطيبته تحفها المكاره والمخاطر ، لأنه أجنبى عنها حتى يعقد القرآن .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يخلون أحدكم بامرأة إلا مع ذى محرم »[2] وهكذا فإن ما نراه فى مجتمعاتنا من خروج الخطيب مع خطيبته بدون محرم ، هو بدعة ، لا يقرها الشرع والدين ، ولو كان هذا الخروج له فائدة فى دراسة سلوك كل منهما الآخر ، فلماذا نرى هؤلاء الناس يدب الشجار بينهما بعد الزواج ، وكثير ما يؤدى إلى الطلاق رغم طول مدة الخطبة بما فيها من دراسة مستفيضة ؟!!

فإن كنتِ ياأخى المؤمن تريد أن تؤسس بنيانك على تقوى من الله ورضوان ، وليس على شفا حفرة من النار ، فاجعل بدايتك كما أمر شرع الله ، ولا تتبع أهواء الذين ضلوا عن منهج الله ، لأنهم يبنون بنيانهم بمعصية الله ورسوله ، فكيف ينتظرون بعد ذلك الخير والبركة والطمأنينة ، فاعتصم بالله أخى المؤمن وكن كما أراد الله لك : ﴿ **ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك** ﴾[3].

حذار يا أخى أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ، فكيف إذا كانوا يفتنوك عن كل ما أنزل **الله إليك ، باتباع عادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان ، وما هى من الإيمان فى شىء فاعتصم بحبل الله المتين ، لأن التقوى هى السلاح الأقوى .**

العـدول عـن الخطبـة :

الخطبة مقدمة تسبق عقد الزواج ، وكثيرا ما يعقبها تقديم المهر كله أو بعضه ، وتقديم هدايا وهبات تقوية للصلات وتأكيدا للعلاقة الجديدة ، وقد يحدث أن يعدل الخاطب أو المخطوبة أو هما معا ، فهل يرد ما أعطى للمخطوبة ؟

---

(١) أخرجه البخارى كتاب النكاح ــ باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم رقم ٢١٤٥
أخرجه مسلم ــ كتاب السلام رقم ٢٠
أخرجه الترمذى كتاب الرضاع . باب ماجاء فى كراهية الدخول على المغيبات رقم ١١٧١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد حـ ١ ص ١٨ .

(٣) سورة المائدة آية : ٤٩ .

إن الخطبة مجرد وعد بالزواج ، فليست عقداً ملزماً ، والعدول عن انجازه حق من الحقوق ، التى يملكها كل من المتواعدين ، ولم يجعل الشارع لإخلاف الوعد عقوبة مادية ، يجازى بمقتضاها المخلف وإن عدّ ذلك خلقا ذميما ، ووصفه بأنه من صفات المنافقين ، إلا إذا كانت هناك ضرورة ملزمه تقتضى عدم الوفاء ، ففى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا أؤتمن خان »[١]

ولما حضرت الوفاة عبد الله بن عمر قال : « انظروا فلاناً (الرجل من قريش) فإنى قلت له فى ابنتى قولا كشبه العدة وما أحب أن ألقى الله بثلث النفاق وأشهدكم أنى قد زوجته » . وما قدمه الخاطب من المهر فله الحق فى استرداده ، لأنه دفع فى مقابل الزواج وعوضا عنه ، ومادام الزواج لم يوجد ، فإن المهر لا يستحق شيء منه ، ويجب رده إلى صاحبه إذ أنه حق خالص له ، وأما الهدايا فحكمها حكم الهبة .

والصحيح أن الهبة لا يجوز الرجوع فيها ، إذا كانت تبرعا محضا لا لأجل العوض ، لأن الموهوب له حين قبض العين الموهوبة دخلت فى ملكه ، وجاز له التصرف فيها ، فرجوع الواهب فيها انتزاع لملكه منه بغير رضاه ، وهذا باطل شرعا وعقلا ، فإذا وهب ليتعوض من هبته ويثاب عليها فلم يفعل الموهوب له جاز له الرجوع فى هبته وللواهب هنا حق الرجوع فيما وهب ، لأن هبته على جهة المعاوضة ، فلما لم يتم الزواج ، كان له حق الرجوع فيما وهب .

والأصل فى ذلك

١ - ما رواه أصحاب السنن عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يعطى عطية أو يهب هبة فيرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده »[٢].

٢ - وورد عنه أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « العائد فى هبته كالعائد فى قيئه »[٣]

٣ - وعن سالم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من وهب هبته فهو أحق بها مالم يثب منها » أى يعوض عنها[٤].

وطريقة الجمع بين هذه الأحاديث هى ما ذكره ابن القيم فى كتابة (إعلام الموقعين) قال : **ويكون الواهب الذى لا يحل له الرجوع هو من وهب تبرعاً محضا لا لأجل العوض ، والواهب الذى** له الرجوع هو من وهب ليتعوض من هبته ويثاب منها فلم يفعل الموهوب له وتستعمل سنن رسول الله ﷺ كلها ، ولا يضرب بعضها ببعض .

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ١ ص ٧٨ كتاب الإيمان . باب خصال المنافق رقم ٥٨/١٠٦ .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٣ ص ٨٠٨ كتاب البيوع والإجارات باب الرجوع فى الهبة رقم ٣٥٣٨ ، والترمذى فى الولاء والهبة رقم ٢١٣٣ والنسائى فى الهبة رقم ٣٧٢٠ وابن ماجة فى الهبات رقم ٢٣٧٧ .

(٣) أخرجه أبو داود حـ ٣ ص ٨٠٨ . كتاب البيوع باب الرجوع فى الهبة رقم ٣٥٣٨ .

(٤) أخرجه الدار قطنى فى سننه حـ ٣ ص ٤٣ ونصب الراية ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ والإمام أحمد حـ ١ ص ٢٥٠ .

رأى الفقهـاء :

– بالنسبة للمذهب الحنفى : يرى أن ما أهداه الخاطب لمخطوبته له الحق فى استرداده إن كان قائماً على حالته لم يتغير ، فالأسورة أو الخاتم أو العقد أو الساعة ونحو ذلك يرد إلى الخاطب إذا كانت موجودة ، فإن لم يكن قائماً على حالته بأن فقد أو بيع ، أو تغير بالزيادة ، أو كان طعاماً فأكل أو قماشاً مخيط ثوباً ، فليس للخاطب الحق فى استرداد ما أهداه أو استرداد بدل منه .

وللمالكية فى ذلك تفصيل : من أن يكون العدول من جهته أو جهتها فإن كان العدول من جهته ، فلا رجوع له فيما أهداه وإن كان العدول من جهتها فله الرجوع بكل ما أهداه سواء أكان باقياً على حاله أو كان قد هلك ، فيرجع ببدله إلا إذا كان (عُرف) أو شرط فيجب العمل به .

– وعند الشافعية : ترد الهدية سواء أكانت قائمة ، أو هالكة ، فإن كانت قائمة ، ردت هى ذاتها وإلا ردت قيمتها .

وهكذا تبين لنا الخطوة الأولى من الخطوات التى تؤدى إلى بناء الأسرة وهى (الخطبة) وفيها من كرامة الإنسان ما فيها . قال تعالى :﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من أتقى وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾[١]

وفى الخطبة إتيان البيوت من أبوابها ، وهذا هو صراط الله المستقيم ، الذى يدعو الناس إلى العمل فى ضوء الشمس دون خداع ، أو التواء ، أو سير فى الظلمات ، أو اتباع لخطوات الشيطان ، فعلى كل خاطب أن يتقى الله ويقدم الخير ، فتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقياء سعادة الدنيا والآخرة ..

﴿ **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون** ﴾[٢].

عقـد الـزواج

إن عقد الزواج هو الركن الركين فى الخطوات العملية لبناء الأسرة ، حيث وضع الإسلام النظام الملائم ، الذى يجعل اتصال الرجل بالمرأة لتكوين الحياة الزوجية اتصالا كريما مبنياً على رضاهما وعلى ايجاب وقبول كمظهرين لهذا الرضا وعلى إشهاد على أن كلا منهما قد أصبح للآخر ، هذا النظام هو الذى ارتضاه الله لقيام الأسرة الإسلامية والحياة الزوجية السليمة ، لرعاية ما يثمر عن تلك العلاقة من أبنائهم زينة الحياة الدنيا ، وأزهارها ، التى تحتاج إلى الرعاية والعناية الفائقة ، لأنهم دعائم المجتمع

(١) سورة البقرة آية : ١٨٩ .

(٢) سورة النحل آية : ٩٧ .

المسلم وعدته فى المستقبل ، أما فيما عدا ذلك . من أنظمة لا تصال الرجل بالمرأة ، فقد هدمها الإسلام ، وبرىء منها الله ورسوله ، ولكى نعرف عظمة الشرع الحكيم فى بناء الأسرة على دعائم وطيدة الأركان ، فلابد من القاء نظرة على نظام النكاح فى الجاهلية ، والتى قضى عليها الاسلام ، واجتثها من جذورها ، لأنها تعد من النسل للضياع ، وتجعل المرأة كلأً مباحاً لكل راتع .

الأنكحة التى هدمهـا الإسلام :

فمن ذلك : نكاح الخدن : كانوا يقولون ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لؤم ، وهو المذكور فى قول الله تعالى : ﴿ **ولا متخذات أخدان** ﴾[1] ومنها نكاح البدل : وهو أن يقول الرجل للرجل أنزل لى عن أمراتك وأنزل لك عن امراتى وأزيدك (رواه الدارقطنى عن أبى هريرة بسند ضعيف جدا)

وذكرت السيدة عائشة رضى الله عنها غير هذين النوعين فقالت : « كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء :

١ – نكاح الناس اليوم : يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثم ينكحها .

٢ – نكاح الاستبضاع : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها ، فإذا تبين أصابها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد .

٣ – ونكاح آخر : يجتمع الرهط « ما دون العشرة على المرأة ، فيدخلون كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليال ، أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع ، حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم : قد عرفتم ماكان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يافلان تسمى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع الرجل منه .

٤ – ونكاح رابع : يجتمع ناس كثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن دخل عليها ، وهن البغايا ينصبن على أبوابهن رايات ، تكون علماً ، فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ووضعت ، جمعوا لها ودعوا لهم القافة جمع قائف (وهو من يشبهن بين الناس) فيلحق الولد بالشبه ويدعى ابنه لا يمتنع من ذلك .

فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله الانكاح الناس اليوم ، وهذا النظام الذى أبقى عليه الإسلام لا يتحقق إلا بتحقق أركانه من الإيجاب والقبول ، وبشرط الإشهاد ، وبهذا يتم العقد ، الذى يفيد حل استمتاع كل من الزوجين بالآخر على الوجه الذى شرعه الله وبه تثبت الحقوق والواجبات التى تلزم كل منهما .

(١) سورة المائدة آية : ٥ .

حكـم الـزواج

(واجب ــ مستحب ــ محرم ــ مكروه)

الزواج الواجب : يجب الزواج على من قدر عليه وتاقت نفسه إليه وخشى العنت لأن صيانة النفس وإعفافها عن الحرام واجب ولا يتم ذلك إلا بالزواج .

قال القرطبى : المستطيع الذى يخاف الضرر على نفسه ، ودينه من العزوبة لا يرتفع عنه ذلك بالتزوج ، لا يختلف فى وجوب التزويج عليه ، فإن ثاقت نفسه إليه وعجز عن الانفاق على الزوجة ، فإنه يسعه قول الله تعالى : ﴿ **وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله** ﴾[1]. وليكثر من الصيام لما رواه الجماعة عن ابن مسعود رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ قال : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء »[2].

الزواج المستحب : أما من كان تائقاً له وقادرا عليه ولكنه يأمن على نفسه من اقتراف ما حرم الله عليه ، فإن الزواج يستحب له ويكون أولى من التخلى للعبادة ، فإن الرهبانية ليست من الإسلام فى شىء .

روى الطبرانى عن سعيد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله أبدلنا بالرهبانية الحنيفية ، السمحة »[3].

روى البيهقى من حديث أبى أمامة أن النبى ﷺ قال : « تزوجوا فإنى مكاثر بكم الأمم ولا تكونوا كرهبانية النصارى »[4]

وقال عمر لأبى الزوائد : « إنما يمنعك من التزوج عجز أو فجور وقال ابن عباس : لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج » .

ويحرم فى حق من يخل بالزوجة فى الوطء مع عدم قدرته عليه وتوقانه إليه

قال القرطبى : فمتى علم الزوج أنه يعجز عن نفقة زوجته أو صداقها ، أو شىء من حقوقها ، وكذلك لو كانت به علة تمنعه من الاستمتاع ، كان عليه أن يبين ، كيلا يغير المرأة من نفسه ، وكذلك لا يجوز أن يغترها بنسب يدعيه ، ولا مال ولا صناعة يذكرها وهو كاذب فيها .

---

(١) سورة النور آية : ٣٣ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ٢ ص ١٠١٨ كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت له نفسه رقم ١٤٠٠/١ .

(٣) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب فى (كتاب النكاح) حـ ٢ ص ٥٢٨ وعزاه إلى البيهقى .

(٤) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى حـ ٧ ص ٧٨ .

وكذلك يجب على المرأة إذا علمت من نفسها العجز عن قيامها بحقوق الزوج ، أو كان بها علة تمنع الاستمتاع من جنون أو جذام أو برص أو داء فى الفرج ، لم يجز لها أن تغرّه وعليها أن تبين ما بها فى ذلك ، كما يجب على بائع السلعة أن يبين ما بسلعته من العيوب ، ومتى وجد أحد الزوجين بصاحبه عيباً فله الرد ، فإن كان العيب بالمرأة ردها الزوج وأخذ ما كان أعطاها من الصداق .

الزواج المكروه :

ويكره فى حق من يخل بالزوجة فى الوطء والإنفاق ، حيث لا يقع ضرر بالمرأة ، بأن كانت غنية وليس لها رغبة قوية فى الوطء ، فإن انقطع بذلك عن شىء من الطاعات أو الاشتغال بالعلم اشتدت الكراهة .

النهى عن التبتل للقادر على الزواج

عن ابن عباس : أن رجلاً شكا إلى رسول الله ﷺ العزوبة فقال : « ألا أختصى فقال ليس منا من خصى أو اختصى » رواه الطبرانى[1].

وقال سعد بن أبى وقاص : رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل ولو أذن له لا ختصينا . رواه البخارى . أى لو أذن بالتبتل لبالغنا فى التبتل ، حتى يفضى بنا الأمر إلى الاختصاء .

قال الطبرى : التبتل الذى أراده عثمان بن مظعون ، تحريم النساء والطيب وكل ما يتلذذ ، فلهذا أنزل فى حق ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين** ﴾ .

تقديم الزواج على الحج :

وان احتاج الإنسان إلى الزواج أو خشى العنت بتركه ، قدمه على الحج الواجب ، وإن لم يخف قدم الحج عليه ، وكذلك فروض الكفاية كالعلم والجهاد تقدم على الزواج ، إذا لم يخشى العنت .

الإعراض عن الزواج وسببه :

تبين مما تقدم أن الزواج ضرورة لا غنى عنها ، وأنه لا يمنع منه إلا العجز أو الفجور ، كما قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وأن الرهبانية ليست من الإسلام فى شىء ، وأن الإعراض عن الزواج يفوّت على الإنسان كثيراً من المنافع والمزايا .

---

(١) أخرجه البخارى حـ ٧ ص ٥ كتاب النكاح باب ما يكره من التبتل والخصاء

وكان هذا كافيا فى دفع الجماعة المسلمة على تهيئة أسبابه ، وتيسير وسائله ، حتى ينعم به الرجال والنساء على السواء ، ولكن على العكس من ذلك ، خرجت كثير من الأسر عن سماحة الإسلام وسمو تعاليمه ، فعقدوا الزواج ، ووضعوا العقبات فى طريقه ، وخلقوا بذلك التعقيد أزمة ، تعرّض بسببها الرجال والنساء لآلام العزوبة وما يتبعه من الاستجابة إلى العلاقات الطائشة والصلات الخليعة

وظاهرة أزمة الزواج لا تبدو فى مجتمع القرية ، كما تبدوا فى مجتمع المدنية. إذ أن القرية لا تزال الحياة فيها بعيدة عن الإسراف وأسباب التعقيد إذا استثنينا بعض الأسر الغنية ــ بينما تبدو الحياة فى المدنية معقدة كل التعقيد .

ومعظم أسباب هذه الأزمة ترجع إلى التغالى فى المهور وكثرة النفقات ، التى ترهق الزوج ويعيا بها .

هذه من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن تبذّل المرأة وخروجها بهذه الصورة المثيرة ألقى الريبة والشك فى مسلكها وجعل الرجل حذرا من اختيار شريكة حياته ، بل إن بعض الناس عزف عن الزواج ، إذ لم يجد المرأة التى تصلح فى نظره للقيام بأعباء الحياة الزوجية ، لذا لابد من العودة إلى تعاليم الإسلام الرشيدة فيما يتصل بتربية المرأة وتنشئتها على الفضيلة والعفاف والاحتشام ، وترك التغالى فى المهر ، وتكاليف الزواج حرصاً على إقامة الأسرة على دعائم متينة من تقوى الله ورسوله ، وحتى لا تكون فتنة فى الأرض وفساد كبير .

أركان العقد وشروطه

ولعقد الزواج أركان وشروط تحدثت عنها كتب الفقه ونبينها فيما يلى :

أما أركان العقد فهى : « الايجاب والقبول »

فالايجاب : هو ما صدر أولاً من أحد المتعاقدين للتعبير عن إرادته فى إنشاء الصلة الزوجية .

والقبول : هو ماصدر ثانياً من المتعاقد الآخذ من العبارات الدالة على الرضا والموافقة .

أما ما ذكره الفقهاء من شروط العقد فهى :

١ – تمييز المتعاقدين :

فإن كان أحدهما مجنوناً أو صغيراً لا يميز ، فإن الزواج لا ينعقد .

٢ – اتحاد مجلس الإيجاب والقبول :

بمعنى ألا يفصل الإيجاب والقبول بكلام أجنبى ، أو بما يعد فى العرف إعراضا وتشاغلاً عنه بغيره .

٣ – ألا يخالف القبول بكلام أجنبى : أو بما يعد فى العرف إعراضاً وتشاغلاً عنه بغيره .

٤ - **ألا يخالف القبول الإيجاب :**

إلا إذا كانت المخالفة إلى ماهو أحسن للموجب ، فإنها تكون أبلغ فى الموافقة ، فإذا قال للواجب : زوجتك ابنتى فلانة على مهر قدره مائة جنيه ، فقال القابل : قبلت زواجها على مائتين انعقد الزواج ، لاشتمال القبول على ماهو أصلح .

٥ - سماع كل من المتعاقدين بعضهما من بعض ما يفهم أن المقصود من الكلام ، هو إنشاء عقد الزواج ، وإن لم يفهم من كل منهما معانى مفردات العبارة ، لأن العبرة بالمقاصد والنيات .

ألفاظ الإنعقاد :

اتفق العلماء على انعقاد الزواج بكل لفظ يفيد معنى النكاح مثل زوجتك أو نكحتك .

أما القبول فإنه ينعقد بكل لفظ يفيد الرضا والموافقة مثل : قبلت ـــ وافقت ـــ أمضيت ـــ نفذت .

واختلف العلماء إذا استعمل فى الإيجاب لفظ غير الفاظ الزواج ، مثل الهبة أو البيع أو التمليك أو الصدقة فأجازه الأحناف والثورى وأبو ثور وأبو عبيد وأبو داود ، لأنه عقد يعتبر فيه النية ، ولا يشترط فى صحته اعتبار لفظ الخصوص ، بل المعتبر فيه أى لفظ اتفق إذا فهم المعنى الشرعى مشاركة ، لأن النبى ﷺ زوج رجلاً امرأة فقال : « قد ملكتها بما معك من القرآن » رواه البخارى[(1)].

ولأن لفظ الهبة انعقد به زواج النبى ﷺ فكذلك ينعقد به زواج أمته ، قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن** ﴾ إلى قوله ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى** ﴾[(2)].

وذهب الشافعى وأحمد وسعيد بن المسيب وعطاء ، إلى أنه لا يصح إلا بلفظ التزويج أو الانكاح وما اشتق منهما ، لأن ما سواهما من الألفاظ كالتمليك والهبة لا يأتى على معنى الزواج .

واتفق العلماء على جواز العقد بغير اللغة العربية وذلك إذا كان العاقدان أو أحداهما لا يفهم العربية .

أما إذا كانا يفهمان منها ، فقد اختلف العلماء فى جواز العقد بغير العربية ، فأجازه البعض ولم يجزه البعض الآخر .

ويجوز زواج الأخرس بإشارته إن فهمت ، كما يصح بيعه لأن الإشارة معنى مفهم ، وان لم

---

(١) أخرجه البخارى كتاب النكاح ـــ باب تزويج المعسر رقم ١١٥٠ .

(٢) سورة الأحزاب آية : ٥٠ .

تفهم إشارته لا يصح منه ، لأن العقد بين شخصين ، ولابد من فهم كل واحد منهما ما يصدر من صاحبه .

وإذا غاب أحد طرفى العقد ، وأراد أن يعقد الزواج ، فعليه أن يرسل رسولاً ، أو يكتب كتاباً إلى الطرف الآخر ، يطلب الزواج إذا كان له رغبة فى القبول ، أن يحضر الشهود ويسمعهم عبارة الكتاب أو رسالة الرسول ، ويشهدهم فى المجلس على أنه قبل الزواج ، ويعتبر القبول مقيداً بالمجلس .

شـروط صيغـة العقـد :

اشترط الفقهاء لصياغة العقد شروطاً منها :

أن تكون بلفظين وضعا للماضى ، أو وضع أحدهما للماضي والآخر للمستقبل مثل : أن يقول العاقد الأول : زوجتك ابنتى ويقول القابل : قبلت أو يقول : أزوجك ابنتى فيقول : قبلت .

وذلك لأن الصيغة التى إختارها الشارع الحكيم لإنشاء العقود ، هى صيغة الماضى ، لأن دلالتها على حصول الرضا من الطرفين قطعية ، ولا تحتمل أى معنى آخر ، بخلاف الصيغ الدالة على الحال أو الاستقبال ، فإنها لا تدل قطعاً على حصول الرضا وقت التكلم .

فلو قال أحدهما : أزو جك ابنتى ؟ وقال الآخر : أقبل فإن الصيغة منهما لا ينعقد بها الزواج : لاحتمال أن يكون المراد من هذه الألفاظ مجرد الوعد . بالزواج مستقبلاً ليس عقداً له فى الحال .

ومن شروط صيغة الزواج أن تكون منجزة ، أى مطلقة غير مقيدة بقيد ، وذلك مثل أن يقول الرجل للخاطب : زوجتك ابنتى ، فيقول الخاطب : قبلت ، فهذه صيغة منجزة ، فإن كانت الصيغة مقيدة بشرط غير محقق فى الحال قبل أن يقول الخاطب : إن التحقت بالوظيفة تزوجت ابنتك . فيقول الأب : قبلت فإن الزواج بهذه الصيغة لا ينعقد .

كذلك لا ينعقد الزواج بالصيغة الدالة على زمن محدد ، كأن يتزوج مدة شهر ، أو أكثر أو أقل فإن الزواج لا يحل لأن المقصود منه دوام المعاشرة للتوالد والمحافظة على النسل وتربية الأولاد .

ومن ثم فإنه لا يجوز الزواج المؤقت للتحليل ، أو زواج المتعة .

وهناك شروط أخرى قد تقترن بها صيغة العقد ، وللفقهاء فيها أحكام نبينها فيما يلى :

قد يكون هذا الشرط من مقتضيات العقد ، أو يكون منافياً ، أو يكون مما يعود نفعه على المرأة ، أو يكون شرطاً قد نهى الشارع عنه .

ولكل حالة من هذه الحالات حكم خاص بها :

١ – الشروط التى يجب الوفاء بها :

من الشروط ما يجب الوفاء بها ، وهى ما كانت من مقتضيات العقد ومقاصده ، ولم تتضمن تغييرا لحكم الله ورسوله ، كاشتراط العشرة بالمعروف ، والإنفاق عليها وكسوتها وسكناها بالمعروف ، وأن لا يقصرّ من شىء من حقوقها ، ويقسم لها كغيرها ، وأنها لا تخرج من بيته إلا بإذنه ، ولا تنشز عليه ، ولا تصوم تطوعاً بغير إذنه ، ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه ، ولا تتصرف فى متاعه إلا برضاه ونحو ذلك .

٢ – الشروط التى لا يجب الوفاء بها :

ومنها ما لا يجب الوفاء بها مع صحة العقد ، وهو ما كان منافياً لمقتضى العقد ، كاشتراط ترك الإنفاق والوطء ، أو كاشتراط أن لا مهر لها أو يعزل عنها ، أو اشتراط أن تنفق عليه ، أو تعطيه شيئاً ، أو لا يكون عندها فى الأسبوع إلا ليلة ، أو شرط لها النهار دون الليل .

فهذه الشروط كلها باطلة فى نفسها ، لأنها تنافى العقد ، ولأنها تتضمن إسقاط حقوق تجب بالعقد قبل إنعقاده ، فلم يصح أما العقد فى نفسه ، فهو صحيح .

٣ – الشروط التى فيها نفع للمرأة :

ومن الشروط التى ما يعود نفعه وفائدته إلى المرأة ، مثل أن يشترط لها ألا يخرجها من دارها أو بلدها ، أو لا يسافر بها أو لا يتزوج عليها ونحو ذلك .

فمن العلماء من رأى أن الزواج صحيح ، وأن هذه الشروط ملغاه ولا يلزم الزوج الوفاء بها .

ومنهم من ذهب إلى وجوب الوفاء بما اشترط للمرأة والأول مذهب أبى حنيفة والشافعى وكثير من العلماء ، واستدلوا بما يأتى :

أن رسول الله ﷺ قال : « على شروطهم إلا شرطاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالا »[١]

وقوله ﷺ : « كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط »[٢].

قالوا : وهذا ليس فى كتاب الله ، لأن الشرع لا يقتضيه .

والرأى الثانى : مذهب عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبى وقاص ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ، وعمر بن عبد العزيز ، وجابر بن زيد ، وطاووس ، والأوزاعى ، واسحاق ، والحنابلة .

---

(١) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٤ رقم ١٠٩٤٨

(٢) أخرجه البخارى حـ ٢ ص ١١٩ كتاب الشروط باب الشروط فى الولاء وباب المكاتب وما لايحل من الشروط .

واستدلوا بما يأتى : يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾[١].

وقول الرسول ﷺ : « المسلمون على شروطهم »[٢] وما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن عتبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج »[٣].

ومن الشروط ما نهى الشارع عنها ، ويحرم الوفاء بها : وهى اشتراط المرأة عند الزواج طلاق ضرتها .

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يحل أن تنكح امرأة بطلاق أخرى » رواه أحمد[٤].

فهذا النهى يقتضى فسادا لمنهى عنه ، ولأنها شرطت عليه فسخ عقده وإبطال حقه وحق إمرأته ، فلم يصح ، كما لو شرطت عليه فسخ بيعه . فإن قبل فما الفارق بين هذا وبين اشتراطها أن لا يتزوج عليها . أجاب ابن القيم رحمه الله عن هذا فقال : الفرق بينهما أن فى اشتراط طلاق الزوجة من الإضرار بها وكسر قلبها ، وخراب بيتها ، وشماتة أعدائها ، فليس فى اشتراط عدم نكاحها ونكاح غيرها وقد فرق النص بينهما . فقياس أحدهما على الآخر فاسد .

شـــروط صحـة الـزواج

يشترط لصحة الزواج شرطان :

أحدهما : ألا تكون المرأة التى يراد زواجها محرمة عليه .

وثانيهما : الإشهاد .

وهناك تفصيل لكل منهما :

المحرمـات من النسـاء

يشترط فى المرأة التى يراد زواجها ألا تكون محرمة على من يريد زواجها ، سواء أكان هذا التحريم مؤبداً أم مؤقتاً .

---

(١) سورة المائدة آية : ١ .
(٢) أخرجه المتقى الهندى فى كنز العمال حـ ٢ رقم ١٠٩١٧ .
(٣) أخرجه البخارى كتاب الشروط باب الشروط فى المهر عند عقدة النكاح رقم ١٣١١
ومسلم ـــ كتاب النكاح حديث رقم ٦٣ .
ترمذى ـــ حـ ٣ ص ٤٣٤ كتاب النكاح باب ماجاء فى الشرط عند عقدة النكاح رقم ١١٢٧
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده حـ ٢ ص ١٧٦ .

فما هو التحريم المؤبد :

هو الذى يمنع المرأة أن تكون زوجة فى جميع الأوقات ، وماهو التحريم المؤقت ؟

هو الذى يمنع المرأة أن تكون زوجة بسبب حالة خاصة قائمة بها ، فإن زالت تلك الحالة زالت تلك الحرمة وصارت حلالا :

فما هى أسباب التحريم المؤبد :

أسباب ثلاثة هى :

١ – النسب ٢ – المصاهرة ٣ – الرضاع

وقد ورد ذكر الأنواع الثلاثة فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا * حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف** ﴾[1].

المحرمات من النسب هن :

١ – الأمهات ٢ – البنات ٣ – الأخوات ٤ – العمات

٥ – الخالات ٦ – بنات الأخ ٧ – بنات الأخت .

المحرمات بسبب المصاهرة هن :

١ – أم زوجته وأم أمها ، وأم أبيها ، وإن علت لقول الله تعالى : ﴿ **وأمهات نسائكم** ﴾ .

ولا يشترط فى تحريمها الدخول بها ، بل مجرد العقد عليها يحرمها .

٢ – وابنة زوجته التى دخل لها .

ويدخل فى ذلك بنات بناتها ، وبنات أبنائها وإن نزلن لأمهن من بناتها ، لقول الله تعالى : ﴿ **وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم** ﴾ .

والربائب : جمع ربيبة ، وربيب الرجل ولد إمرأته من غيره ، سمى ربيباً له ، لأنه يربيه كما يربى ولده (أى يوسه)

---

(١) سورة النساء الآيتان : ٢٢ ، ٢٣ .

٣ – زوجة الابن ، وابن ابنه ، وابن بنته ، وإن نزل ، لقول الله تعالى : ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ .

الحلائل : جمع حليلة . وهى الزوجة .

٤ – زوجة الأب : يحرم على الابن التزوج بحليلة أبيه بمجرد عقد الأب عليها ولم يدخل بها ، وكان هذا النوع من الزواج فاشيا فى الجاهلية ، وكانوا يسمونه زواج المقت ، وسمى الولد منها مقيتا أو مقتيا ، وقد نهى الله عنه وذمه ونفر منه .

المحـرمات بسـبب الرضــاع :

حرم الشرع الحكيم بسبب الرضاع كل **مايحرم بسبب النسب وبيانه كما يلى :**

والذى يحرم من النسب هو : الأم ، والبنت ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، وهى التى بينها الله تعالى فى قوله : ﴿ **حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة** ﴾ وعلى هذا فتنزل المرضعة منزلة الأم ، وتحرم على المرضع هى وكل من يحرم على الابن من قبل أم النسب .

فتحـرم :

١ – المرأة المرضعة لأنها بإرضاعها تعد أما للرضيع .

٢ – وأم المرضعة لأنها جدة له .

٣ – أم زوج المرضعة ــ صاحب اللبن ــ لأنها جدة كذلك .

٤ – أخت الأم لأنها خالة الرضيع .

٥ – أخت زوجها ــ صاحب اللبن ــ لأنها عمته .

٦ – بنات بنيها وبناتها لأنهن بنات أخوته وأخواته .

٧ – الأخت سواء أكانت أختاً لأب وأم ، وأختاً لأم ، أو أختاً لأب .

بمـا تثبـت الحـرمة بالرضــاع :

فيما مضى تبين لنا أنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب فهل كل رضاع يكون سبباً فى الحرمة ؟

إن للفقهاء فى ذلك أقوالاً وأدلة يحسن بنا أن نفصلها وإليك بيانها :

١ – **القول الأول** : إن قليل الرضاع وكثيره سواء فى التحريم ، أخذاً بإطلاق الأرضاع فى الآية

ولما رواه البخارى ومسلم عن عقبة بن الحارث قال : تزوجت أم يحيى بنت أبى إهاب فجاءت أمة سوداء فقالت : (قد أرضعتكما) . فأتيت النبى ﷺ ــ فذكرت له ذلك فقال : وكيف ؟ وقد قيل ؟! دعها عنك[١].

فترك الرسول ﷺ السؤال عن عدد الرضعات وأمره بتركها ، دليل على أنه لا اعتبار إلا بالارضاع ، فحيث وجد اسمه وجد حكمه ، لأنه فعل يتعلق به التحريم ، فيستوى قليله وكثيره كالوطء الموجب له ، ولأن انشاز العظم وإنبات اللحم يحصل بقليله وكثيره .

وهذا مذهب على وابن عباس وسعيد بن المسيب والحسن البصرى والزهرى وقتادة وحماد والأوزاعى والثورى وأبى حنيفة ومالك ورواية عن أحمد :

٢ - **القول الثانى** : إن التحريم لا يثبت بأقل من خمس رضعات متفرقات لما رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت « كان فيما نزل من القرآن ﴿ **عشر رضعات معلومات يحرمن** ﴾ ثم نسخن بخمس معلومات ، فتوفى رسول الله ﷺ ، وهن فيما يقرأ من القرآن[٢]» وهذا تقييد لإطلاق الكتاب والسنة وتقييد المطلق بيان لا نسخ ولا تخصيص .

ولو لم يعترض على هذا الرأى بأن القرآن لا يثبت إلا متواتراً وإنه لو كان كما قالت عائشة ، لما خفى على المخالفين ، ولاسيما الإمام على وابن عباس يقول : لو لم يوجه إلى هذا الرأى هذه الاعتراضات لكان أقوى الأراء ، ولهذا عدل الإمام البخارى عن هذه الرواية . وهذا مذهب عبد الله بن مسعود وإحدى الروايات عن عائشة وعبد الله بن مسعود وإحدى الروايات عن عائشة وعبد الله بن الزبير وعطاء وطاووس والشافعى وأحمد فى ظاهر مذهبه وابن حزم وأكثر أهل الحديث .

القول الثالث : إن التحريم يثبت بثلاث رضعات فأكثر . لأن النبى ﷺ قال : « لا تحرم المصة ولا المصتان » . وهذا صريح فى نفى التحريم بما دون الثلاث ، فيكون التحريم منحصراً فيما زاد عليهما .

والمرضعة التى ينبت بلبنها التحريم ، هى كل إمرأة ذرَّ اللبن من ثدييها ، سواء أكانت بالغة أم غير بالغة ، وسواء أكانت يائسة من المحيض أم غير يائسة ، وسواء أكان لها زوج أم لم يكن ، وسواء أكانت حاملاً أم غير حامل .

مسـألة لابـد من مراعاتهـا :

فى حديث عن النبى ﷺ قال : « إنما الرضاعة من المجاعة »[٣]. ذلك لأن اللبن إنما ينبت اللحم وينشر العظم فى تلك المدرة التى حددها الله تبارك وتعالى فى قوله : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن**

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الرضاع) باب شهادة النساء فى الرضاع حـ ٧ ص ٤٦٣٧ وانظره فى البخارى .
(٢) أخرجه مسلم حـ ٢ ص ١٠٧٥ كتاب الرضاع باب التحريم بخمس رضعات رقم ١٤٥٢/٢٤ .
(٣) أخرجه مسلم حـ ٢ ص ١٠٧٨ كتاب الرضاعة باب وإنما الرضاعة من المجاعة رقم ١٤٥٥/٣٢ .

حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾[١] فإذا ما أنبت اللبن اللحم ، وانشر العظم ، ولا يكون ذلك إلا فى الحولين ، فقد صار الرضيع جزءاً ممن رضع معه أو اشترك فى تلك المرضع ، ولعن الله ناكح جزئه وفى تلك المسألة أعنى بها سن الرضاعة أحكام للفقهاء نذكرها فيما يلى :

قال ﷺ : « لا رضاع إلا فى الحولين »[٢] وروى مرفوعا إلى النبى ﷺ « لا رضاع إلا ما أنشز العظم وأنبت اللحم »[٣].

وإنما يكون ذلك لمن هو فى سن الحولين ينمو باللبن عظمه وينبت عليه لحمه .

وعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق **الأمعاء وكان قبل الفطام**»[٤] . ولو فطم الرضيع قبل الحولين واستغنى بالغذاء عن اللبن ، ثم أرضعته إمرأة ، فإن ذلك الرضاع ثبت به الحرمة عند أبى حنيفة والشافعى ، لقول الرسول ﷺ « إنما الرضاعة من المجاعة » .

وقال مالك : ما كان من الرضاعة بعد الحولين كان قليله وكثيره لا يحرم شيئاً إنما هو بمنزلة الماء . وقال : إذا فصل الصبى قبل الحولين أو استغنى بالفطام عن الرضاع فما ارتضع بعد ذلك لم يكن للإرضاع حرمة .

المحـرمات مؤقتـاً

الجمع بين المحرمين : يحرم الجمع بين الأختين ، وبين المرأة وعمتها ، وبين المرأة وخالتها ، كما يحرم الجمع بين كل إمرأتين بينهما قرابة لو كانت احداهما رجلا لم يجز له التزوج بالأخرى .

ودليل ذلك : قوله تعالى : ﴿ **وان تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف** ﴾ ما ورد البخارى ومسلم عن أبى هريرة : أن النبى ﷺ نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها[٥].

ما رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى وحسنه عن فيروز الديلمى أنه أدركه الإسلام وتحته أختان فقال له رسول الله ﷺ « طلق أيتهما شئت »[٦].

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٣٣ .

(٢) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى (كتاب الرضاع) باب ماجاء فى تحديد ذلك بالحولين حـ ٧ ص ٤٦٢

(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى فى .كتاب الرضاع) حـ ٧ ص ٤٦١ باب : رضاع الكبير .

(٤) أخرجه : الترمذى حـ ٣ ص ٤٥٨ رقم ١١٥٢ كتاب الرضاع باب ماجاء فى شهادة المرأة الواحدة فى الرضاع

(٥) أخرجه : الترمذى حـ ٣ ص ٤٣٢ كتاب النكاح باب ٣٠ رقم ١١٢٥

(٦) أخرجه الترمذى حـ ٣ ص ٤٣٦ كتاب النكاح باب ماجاء فى الرجل يسلم وعنده أختان رقم١١٢٩ ، ١١٣٠
أخرجه أبو داود ــ كتاب الطلاق ــ باب من أسلم وعنده نساء أكثر من أربع أو أختان رقم ٢٢٤٣
أخرجه ابن ماجة ــ كتاب النكاح ــ باب الرجل يسلم وعنده أختان رقم ١٩٥٠

وعن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ أن يتزوج الرجل المرأة على العمة أو على الخالة وقال : « إنكم إذا فعلتم ذلك قطعتم أرحامكم »(١).

فإن الجمع بينهما يولد التحاسد ، ويجر إلى البغضاء ، لأن الضرتين قلما تسكن عواصف الغيرة بينهما .

وهذا الجمع بين المحارم كما هو ممنوع من الزواج ، فهو ممنوع فى العدة ، فقد أجمع العلماء على أن الرجل إذا طلق زوجته طلاقا رجعيا ، فلا يجوز له أن يتزوج اختها ، أو أربعا سواها ، حتى تنقضى عدتها ، لأن الزواج قائم وله حق الرجعة فى أى وقت .

زوجة الغير ومعتدته

كذلك يحرم على المسلم الزواج بزوجة الغير والمعتدة من غيره ، وكذلك المطلقة ثلاثا لا تحل لمن طلقها ، حتى تنكح زوجاً غيره نكاحا صحيحاً ، لقوله تعالى : ﴿ **الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾(٢) ثم قال تعالى بعد ذلك ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون** ﴾(٣).

كذلك يحرم على المحرم أن يعقد النكاح ، لنفسه أو لغيره ، بولاية أو وكالة ،ويقع العقد باطلا لا تترتب عليه آثاره الشرعية . لقوله ﷺ : « لا ينكح المحرم ولا ينكح ولا يخطب »(٤) رواه الترمذى .

وقال الأحناف بجواز عقد النكاح للمحرم لأن الإحرام لا يمنع صلاحيه المرأة للعقد عليها وإنما يمنع الجماع لا صحة العقد .

حكم الإشهاد على الزواج

بعد ما تبين لنا المحرمات من النساء ، وذكرنا أن ذلك شرط من شروط صحة العقد ، نذكر هنا الشرط الثانى ، وهو الإشهاد على الزواج .

(١) أخرجه الإمام أحمد حـ ٢ ص ١٧٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ .
(٢) البقرة آية ٢٢٩ .
(٣) البقرة آية ٢٣٠ .
(٤) أخرجه الترمذى كتاب الحج ــ باب ماجاء فى كراهية تزويج المحرم رقم ٨٤٠
أخرجه مسلم كتاب الحج رقم ٤١ – ٤٥
أخرجه أبو داود كتاب المناسك ــ باب المحرم يتزوج رقم ١٨٤١ ، ١٨٤٢ .

ذهب جمهور العلماء إلى أن الزواج لا ينعقد إلا بنية ، ولا ينعقد حتى يكون الشهود حضور حالة العقد ، ولو حصل إعلان عنه بوسيلة أخرى .

عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « البغايا اللاتى ينكحن أنفسهن بغير بينه »(١) رواه الترمذى .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدل »(٢).

وهذا النفى يتوجه إلى الصحة ، وذلك يستلزم أن يكون الإشهاد شرطاً ، لأنه قد استلزم عدمه عدم الصحة وما كان كذلك فهو شرط .

ثالثاً : وعن إبى الزبير المكى ، أن عمر بن الخطاب أتى بنكاح لم يشهد عليه إلارجل وإمرأة فقال : « هذا نكاح السر ولا أجيزه ولو كنت تقدمت فيه لرجمت » .

والأحاديث وإن كانت ضعيفة إلا أنه تقوى بعضها بعضاً .

قال الترمذى : والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ ، ومن بعدهم من التابعين وغيرهم ، قالوا : « ولا نكاح إلا بشهود » لم يختلف فى ذلك من معنى منهم إلا قوم من المتأخرين من أهل العلم . ولأنه يتعلق به حق غير المتعاقدين ، وهو الولد ، فاشترطت ويشترط فى الشهود : العقل والبلوغ وسماع كلام المتعاقدين مع فهم أن المقصود به عقد الزواج ، فلو شهد على العقد صبى أو مجنون أو أصم أو سكران لم يجز واشترط الشافعي فى الشهود العدالة ، لقوله ﷺ : « لا نكاح إلا بولى وشاهدى عدل »(٣)

وعند الشافعية أنه إذا عقد الزواج بشهادة مجهول الحال ، ففيه وجهان ، والمذهب أنه يصح لأن الزواج يكون فى القرى والبادية ، وبين عامة الناس ممن لا يعرف حقيقة العدالة ، فاعتبار ذلك يشق ، فاكتفى بظاهر الحال ، وكون الشاهد مستوراً لم يظهر فسقه ، فإذا تبين بعد العقد أنه كان فاسقاً ، لم يؤثر ذلك العقد ، لأن الشرط فى العدالة من حيث الظاهر ألا يكون ظاهر الفسق وقد تحقق ذلك .

والشافعية والجنابلة يشترطون فى الشهود الذكورة ، فإن عقد الزواج بشهادة رجل وامرأتين ، لا يصح ، لما رواه أبو عبيد عن الزهرى أنه قال : « قضت السنة عن رسول الله ﷺ : « أن لا يجوز شهادة النساء فى الحدود ولا فى النكاح ولا فى الطلاق » .

والأحناف لا يشترطون هذا الشرط ، ويرون أن شهادة رجل وإمرأتين كافية ، لقوله تعالى : ﴿ واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من

(١) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٣ ص ٤١١ رقم ١١٠٣ كتاب النكاح باب ماجاء لانكاح ببينة
(٢) أخرجه أحمد ، حـ ٤ ص ٣٩٤ ص ٤١٣ ، حـ ١ ص ٢٥٠ .
(٣) أخرجه أحمد حـ ٤ ص ٣٩٤ ، ٤١٣ ، حـ ١ ص ٢٥٠ .

الشهداء﴾ (١) ولأنه مثل البيع فى أنه عقد معاوضة ، فينعقد لشاهدين من الرجال ، ويصير عقد الزواج لازماً ، إذا استوفى أركانه ، وشروط صحته ، وشروط نفاذه .

وإذا لزم فليس لأحد الزوجين ، ولا لغيرهما حق نقض العقد ،ولا فسخه ولا ينتهى إلا بالطلاق أو الوفاة وهذا هو الأصل فى عقد الزواج .

الزنـا والزنـاة

قال تعالى :

﴿ سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون . الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ (قرآن كريم من سورة النور)(٢) .

قال ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن »(٣). حديث صحيح .

قال العلماء الفقهاء

لا يحل للرجل أن يتزوج بزانية ، ولا يحل للمرأة أن تتزوج بزان ، إلا أن يحدث كل منهما توبة ودليل هذا :

١ – أن الله جعل العفاف شرطاً يجب توفره فى كل من الزوجين قبل الزواج . قال تعالى :

﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذى أخدان﴾(٤).

أى إن الله كما أحل الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى ، أحل زواج العفيفات من المؤمنات والعفيفات من أهل الكتاب ، فى حال كون الزواج أعفاء غير مسافحين ولا متخذى أخدان .

---

(١) سورة البقرة آية : ٢٨٢ .

(٢) سورة النور الآيات : ١ – ٣ .

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ ١ ص ٧٧ كتاب الإيمان ــ باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى رقم ١٠٤ / ٥٧ .

(٤) المائدة آية ٥ .

٢ - وذكر ذلك فى زواج الإماء عند العجز عن طوّل الحرة فقال : ﴿ **فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** ﴾[١].

٣ - يؤيد هذا ما جاء صريحا فى قوله تعالى : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾[٢].

ومعنى ينكح : يعقد . وحرم ذلك أى وحرم على المؤمنين ، أن يتزوجوا من هو متصف بالزنا أو بالشرك ، فإنه لا يفعل ذلك إلا زان أو مشرك .

٤ - ما رواه عمر بن شعيب عن أبيه عم جده أن مرثد بن أبى مرثد الغنوى ، كان يحمل الأسارى بمكة ، وكان بمكة بغى يقال لها عناق ، وكانت صديقته قال : فجئت النبى ﷺ فقلت : يا رسول الله أأنكح عناقاً : قال : فسكت عنى فنزلت : ﴿ **والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك** ﴾ فدعانى فقرأها علىَّ ، وقال : « لاتنكحها »[٣] رواه أبو داود والترمذى والنسائى .

٥ - وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الزانى المجلود لا ينكح إلا مثله »[٤] رواه أحمد وأبو داود .

قال الشوكانى : هذا الوصف مخرج الغالب باعتبار من ظهر منه الزنا ، ومنه دليل على أنه لا يحل للرجل أن يتزوج بمن ظهر منها الزنا ، وكذلك لا يحل للمرأة أن تتزوج بمن ظهر منه الزنا .

ويدل على ذلك الآية المذكورة فى الكتاب الكريم ، لأن فى آخرها : ﴿ **وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾ فإنه صريح فى التحريم .

الزنـا والـزواج :

وثمة فرق كبير بين الزواج ، والعملية التناسلية .

فإن الزواج هو نواة المجتمع ، وأصل وجوده ، وهو القانون الطبيعى الذى يسير العالم على نظامه ، والسنة الكونية التى تجعل للحياة قيمة وتقديراً ، وأنه هو الحنان الحقيقى والحب الصحيح ، وهو التعاون فى الحياة والاشتراك فى بناء الأسرة وعمار العالم .

---

(١) سورة النساء آية : ٢٥ .

(٢) سورة النور آية : ٣ .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه حـ ٢ ص ٥٤٢ ، ٥٤٣ كتاب النكاح باب قوله تعالى : ﴿ **الزانى لا ينكح إلا زانية** ﴾ رقم ٢٠٥١ . وأخرجه الترمذى . فى كتاب التفسير باب تفسير سورة النور رقم ٣١٧٦ .

(٤) أخرجه أبو داود حـ ٢ ص ٥٤٣ كتاب النكاح رقم ٢٠٥٢ .

علة الإسلام فى تحريم نكاح الزنا :

والإسلام لم يرد للمسلم أن يلقى بين أنياب الزانية ، ولا المسلمة أن تقع فى يد الزانى ، وتحت تأثير روحه الدنيئة ، وأن تشاركه تلك النفس السقيمة ، وأن تعاشر ذلك الجسم الملوث بشتى الجراثيم ، المملوء بمختلف العلل والأمراض ، وللإسلام — فى كل أحكامه وأوامره وفى كل محرماته ونواهيه ، لا يريد غير إسعاد البشر والسمو بالعالم إلى المستوى الأعلى ، الذى يريد الله أن يبلغه الجنس البشرى .

وجه الشبه بين الزنا والمشركين :

والمسلم المتأدب بأدب القرآن الكريم ، المتبع لسنة أفضل الخلق أجمعين سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، لايمكن أن يعيش مع زانية لا تفكر تفكيره ، ولا يستطيع أن يعاشر إمرأة لا تحيى حياته المستقيمة ، ولا يستطيع الارتباط برابطة الزواج مع كائنة لا تشعر شعوره ، وهو يعلم أن الله تعالى قال عن الزواج : ﴿ **خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾[1].

فأين المودة التى تحصل بين المسلم والزانية ؟.. وأين النفس من تلك النفس التى تسكن إليها نفس المؤمن الصحيح الإيمان ؟

وأن المسلم الذى لا يستطيع نكاح الزانية — كما بينا لفساد نفسها وشذوذ عاطفتها — لا يمكن كذلك أن يعيش مع شريكة لا تعتقد اعتقاده ، ولا تؤمن إيمانه ، ولا ترى فى الحياة ما يراه ، لا تحرم ما يحرمه عليه دينه من الفسق والفجور ، ولا تعترف بالمبادىء الإنسانية السامية التى نص عليها الإسلام ، لها عقيدتها الضالة واعتقادتها الباطلة ، لها التفكير البعيد عن تفكيره ، والعقل الذى لا يمت إلى عقله بصلة ، قال تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن * ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون** ﴾[2]

التوبـة تجـب مـا قبلهـا :

فإن تاب كل من الزانى والزانية ، توبة نصوحا بالاستغفار والندم والإقلاع عن الذنب ، واستأنف كل منهما حياة نظيفة مبرأة من الاثم ، ومطهرة من الدنس ، فإن الله يقبل توبتهما ، ويدخلهما برحمته فى عباده الصالحين .

﴿ **والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون**

(١) سورة الروم آية : ٢١ .
(٢) سورة البقرة آية : ٢٢١ .

ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(١)

سئل ابن عمر عن رجل فجر بامرأة ... أيتزوجها ؟
قال : إن تابا وأصلحا .

وأجاب بمثل هذا جابر بن عبد الله ، وروى ابن جرير أن رجلاً من أهل اليمن أصابت أخته فاحشة فأمَرَّت الشفرة على أوداجها ، فأدركت قداوَوها حتى برأت ، ثم أن عمها انتقل بأهله حتى قدم المدينة ، فقرأت القرآن ونسكت ، حتى كانت من أنسك نسائهم ، فخطبت إلى عمها وكان يكره أن يدلها ، ويكره أن يغش على ابنة أخيه فأتى عمر بن الخطاب فذكر ذلك له . فقال عمر : لو أفشيت عليها لعاقبتك ، إذا أتاك رجل صالح ترضاه فزوجها إياه .

وفى رواية أن عمر قال : أتخبر بشأنها ؟.. تعمد إلى ما ستره الله فتبديه والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار ، بل أنكحها بنكاح العفيفة المسلمة .

وقال عمر : لقد هممت ألا أدع أحداً أصاب فاحشة فى الإسلام أن يتزوج محصنة . فقال له أبى بن كعب : يا أمير المؤمنين ، الشرك أعظم من ذلك ، وقد يقبل منه إذا تاب .

ويرى أحمد أن توبة المرأة تعرف بأن تراود عن نفسها فإن أجابت فتوبتها غير صحيحة ، وإن امتنعت فتوبتها صحيحة .

وقد تابع فى ذلك ما روى عن ابن عمر . وقال أصحابه ألا ينبغى لمسلم أن يدعو إمرأته إلى الزنا ويطلبه منها ، لأن طلبه ذلك منها إنما يكون خلوة ولا تحل الخلوة بأجنبيه ، ولو كان فى تعلمهما القرآن فكيف يحل فى مراودتها على الزنا ؟

ثم لا يأمن أن إجابته إلى ذلك أن تعود إلى المعصية ، فلا يحل التعرض لمثل هذا ، لأن التوبة من سائر الذنوب ، وفى حق سائر الناس ، وبالنسبة إلى سائر الأحكام على غير هذا الوجه ، فكذلك يكون هذا ، وإلى هذا ذهب الإمام أحمد ، وابن حزم ورجحه ابن تيمية وابن القيم .

إلا أن الإمام أحمد ضم إلى التوبة شرطاً آخر ، وهو إنقضاء العدة ، فمتى تزوجها قبل التوبة أو إنقضاء عدتها ، كان الزواج فاسداً ويفرق بينهما .

ومذهب الحنفية ، والشافعية والمالكية ، أنه يجوز للزانى أن يتزوج الزانية ، والزانية يجوز لها أن تتزوج الزانى فالزنا لا يمنع عندهم صحة العقد .

قال ابن رشد : « سبب اختلافهم فى مفهوم قوله تعالى : ﴿ **والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين** ﴾

---

(١) سورة الفرقان الآيات : ٦٧ – ٧٠ .

هل خرج مخرج الذم أو مخرج التحريم ؟

وهل الإشادة فى قوله تعالى : ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ إلى الزنا أو النكاح ؟

وإنما صار الجمهور لحمل الآية على الذم لا على التحريم . لما جاء فى الحديث : أن رجلاً قال للنبى ﷺ فى زوجته : أنها لا ترد يد لامس . فقال له النبى ﷺ : « طلقها » فقال له : إنى أحبها فقال له : « أمسكها » . ثم أن المجوزين اختلفوا فى زواجها فى عدتها .

فنهى مالك احتراماً لماء الزوج ، وصيانة لاختلاط النسب الصريح بولد الزنا .

وذهب أبو حنيفة والشافعى إلى أنه يجوز العقد عليها من غير إنقضاء عدة ، ثم ان الشافعى يجوز العقد عليها وإن كانت حاملاً ، لأنه لا حرمة لهذا العمل .

وقال أبو يوسف ، ورواية عن أبى حنيفة : لا يجوز العقد عليها ، حتى تضع الحمل ، لئلا يكون الزوج قد سقى ماؤه زرع غيره .

ونهى رسول الله ﷺ « أن توطأ المسبيّة الحامل حتى تضع مع أن حملها مملوك له » .

فالحامل من الزنا أولى ألا توطأ حتى تضع ، لأن ماء الزانى وإن لم يكن له حرمة ، فماء الزوج محترم ، فكيف يسوغ له أن يخلطه بماء الفجور ؟

ولأن النبى ﷺ همّ بلعن الذى يريد أن يطأ أمته الحامل من غيره ، وكانت مسبية مع إنقطاع الولد عن أبيه وكونه مملوك له ، وقال أبو حنيفة فى الرواية الأخرى يصح العقد عليها ولكن لا توطأ حتى تضع .

الحقــوق الزوجيــة والواجبــات

أقام الإسلام الميزان عادلا فى الحقوق والواجبات لا فى الزواج وحده ، وإنما فى كل قضاياه ومسائله فما من قضية من قضايا الإسلام ، وما من مسألة تتعلق بأحوال العباد ، إلا وأقام الإسلام الوزن بالقسط ، ولم يخسر الميزان ، فلكل من العباد حقوق ، وعلى كل واجبات ، وإذا كانت الأسرة هى اللبنة الأساسية فى بناء المجتمع فقد أسسها الإسلام على تقوى من الله ورضوان ، وهيأ لها وسائل السعادة وسبل الرقى فبناها على الإيمان والإسلام والإحسان وشيدها على المحبة والمودة والرحمة ، وجعل الشركة بين الزوجين رأس مالها مودة ومحبة ، ورحمة وثقة واحترام متبادل ، فالمسلمون أخوة وهم كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ، إنهم تتكافىء دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، فما أجمل أن تقرأ هذه الآيات **﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾**[١]

---

(١) سورة الروم آية : ٢١ .

وما أعظم أن تقف أمام هذه الآية الجليلة ، لتعرف سابقها ولاحقها وسباقها ، إنها وضعت بين آيات السنن الكونية ، ونواميس الكون ، وقوانين الخلق ، فسباقها قوله جل ذكره : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾(١)

ولاحقها قوله تبارك اسمه ﴿ **ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾(٢)

وسباقها ، يؤخذ من السباق واللحاق ، وهو ما يفيد أن الزواج سنة من سنن الكون ، فهو بين خلق البشرية ، وخلق الكون علوية وسفلية ، ومن ثم قال تعالى : ﴿ **ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** ﴾(٣).

وجاء قوله جل جلاله : ﴿ **سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾(٤) أما الفرد الصمد الذى لا يوصف بالزوجية ، فهو الواحد الأحد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، تنزه عنه الشريك ذاته ، وتقدست عن مشابهة الأغيار صفاته ، بالبر معروف ، وبالإحسان موصوف ، معروف بلا غاية ، وموصوف بلا نهاية ، واحد لا من قلة ، وموجود لا من علة ، واحد بلا عدد ، وقائم بلا عمد ، ودائم بلا أمد . علا فقهر ، وملك فقدر ، وبطن فخبر ﴿ **بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ** ﴾(٥)

إن من صفات الله تعالى العليا ، ومن أسمائه الحسنى ، الحكم العدل ، لذا قسم الحقوق والواجبات ، بالعدل القويم ، والقسطاس المستقيم ، فيا معشر المسلمين ﴿ **أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين** ﴾(٦) ويا أيها الأزواج والزوجات ، ليعرف كل منكم ماله من حقوق ، وما عليه من واجبات ، وهاكم بيان الحقوق والواجبات .

---

(١) سورة الروم آية : ٢٠ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٢ .

(٣) سورة الذاريات آية : ٤٩ .

(٤) سورة يس آية : ٣٦ .

(٥) سورة الأنعام الآيات ١٠١ - ١٠٤ .

(٦) سورة الشعراء الآيات : ١٨١ - ١٨٣ .

قال العلماء الفاقهون

إذا وقع عقد الزواج صحيحاً نافذاً ، ترتبت عليه آثاره ووجبت بمقتضاه الحقوق الزوجية وهى :

١ - حقوق واجبة للزوجة على زوجها .

٢ - حقوق واجبة للزوج على زوجته .

٣ - حقوق مشتركة بينهما .

وقيام كل من الزوجين بواجبه ، والاضطلاع بمسئولياته ، هو الذى يوفر أسباب الاطمئنان ، والهدوء النفسى ، وبذلك تتم السعادة الزوجية .

الحقوق المشتركة بين الزوجين

١ - حل العشرة الزوجية ، واستمتاع كل من الزوجين بالآخر ، وهذا الحل مشترك بينهما ، فيحل للزوج من زوجته ما يحل لها منه ، وهذا الاستمتاع حل للزوجين ، ولا يحصل إلا بمشاركتهما معاً ، لأنه لا يمكن أن ينفرد به أحدهما .

٢ - حرمة المصاهرة : أى أن الزوجة ، تحرم على آباء الزوج وأجداده وأبنائه ، وفروع أبنائه وبناته ، كما يحرم هو على أمهاتها وبناتها وفروع أبنائها وبناتها ...

٣ - ثبوت التوارث بينهما بمجرد إتمام العقد ، فإذا مات أحدهما بعد إتمام العقد ، ورثه الآخر ، ولو لم يتم الدخول .

٤ - ثبوت نسب الولد من الزوج صاحب الفراش .

٥ - المعاشرة بالمعروف ، فيجب على كل من الزوجين ، أن يعاشر الآخر بالمعروف ، حتى يسودهما الوئام ويظلهما السلام .

الحقوق الواجبة للزوجة على زوجها

حقوق مالية : وهى المهر والنفقة .

حقوق غير مالية : مثل العدل بين الزوجات ، إذا كان الزوج متزوجاً بأكثر من واحدة ، ومثل عدم الإضرار بالزوجة .

المهـــر

من الحقوق المادية للمرأة على زوجها المهر ، فمن عدالة الإسلام وعظمة أحكامه ، أن أعطى المرأة حق التملك ، قال تعالى : ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله** ﴾[١].

وقال جل شأنه فى حقها فى الميراث : ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا** ﴾[٢].

وقال جل شأنه فى شأن المهر : ﴿ **وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً** ﴾[٣] أى وآتوا النساء مهورهن عطاء مفروضاً لا يقابله عوض ، فإذا أعطين شيئا من المهر بعد ماملكن من غير إكراه ولا حياء ولا خديعة ، فخذوه سائغاً لا غصة فيه ولا إثم معه .

فإذا أعطت الزوجة شيئاً من مالها حياء أو خوفا أو خديعة ، فلا يحل أخذه ، قال تعالى : ﴿ **وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاًأتأخذونه بهتانا وإثما مبيناً وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾[٤]

وفى المهر تطيب لنفس المرأة ، فإنه هدية خالصة ، وفى الهدية ما يؤكد المحبة ويقويها ، جاء فى الحديث : « تهادوا تحابوا »[٥].

قـدر المهـر

لما كان الاسلام صالحاً لكل زمان وفى كل مكان ، فإنه لم يحدد للمهر قدرا لا يحيد عنه الزوجان ، إذ الناس يختلفون فى الغنى والفقر ، ويتفاوتون فى السعة والضيق .

وقد جاءت النصوص دالة على أن المهر شىء له قيمة ، فيجوز أن يكون خاتماً . من حديد ، أو قدحاً من تمر ، أو تعليما لكتاب الله إذا تراضى عليه المتعاقدان .

---

(١) سورة النساء آية : ٣٢ .

(٢) سورة النساء آية : ٧ .

(٣) سورة النساء آية : ٤ .

(٤) سورة النساء آية : ٢٠ .

(٥) أخرجه أحمد حـ ٢ ص ٤٠٥ .

١ – عن عامر بن ربيعة أن امرأة من بنى فزارة تزوجت على نعلين فقال رسول الله ﷺ : « أرضيت عن نفسك ومالك بنعلين ؟ فقالت : نعم فأجازه »[١] رواه أحمد .

٢ – وعن سهل بن سعد أن النبى ﷺ جاءته إمرأة فقالت : يا رسول الله إنى وهبت نفسى لك ، فقامت قياماً طويلاً فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة فقال رسول الله ﷺ هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟ فقال : ما عندى إلا ازارى هذا فقال النبى ﷺ إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك فالتمس شيئا فقال : ما أجد شيئاً فقال : التمس ولو خاتماً من حديد ، فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبى ﷺ : هل معك من القرآن شيء قال : نعم سورة كذا وسورة كذا لسور يسميها ، فقال النبى ﷺ قد زوجتكها بما معك من القرآن »[٢] رواه البخارى ومسلم .

٣ – وعن أنس : أن أبا طلحة خطب أم سليم فقالت : « والله ما مثلك يرد ولكنك كافر وأنا مسلمة ولا يحل لى أن أتزوجك فإن تسلم فذلك مهرى ولا أسألك غيره فكان ذلك مهرها »

وفى الأحاديث السابقة دلالة على أن المهر يجوز بالشيء القليل وبالمنفعة وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين ، ولم ينكر عليه أحد ، بل عد ذلك من مناقبه **وفضائله** .

وقد تزوج عبد الرحمن بن عوف على صداق خمسة دراهم وأقره النبى ﷺ . وإذا كان المهر لاحد لأقله ، فإنه كذلك لاحد لأكثره ، فإن عمر رضى الله عنه لما نهى عن التغالى فى المهور ، وألا يزيد على أربعمائة درهم ونزل عن منبره ، فاعترضه إمرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطارا** ﴾[٣] فقال : نعم عفوا كل الناس أفقه من عمر ، ثم رجع فركب المنبر ، **فقال : « إنى كنت قد نهيتكم أن لا تزيدوا فى صدقاتهن على أربعمائة درهم ، فمن شاء أن يعطى** من ماله ما أحب . وعن عبد الله بن مصعب أن عمر قال : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلت الزيادة فى بيت المال ، فقالت إمرأة : ماذاك لك قال : ولم ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : ﴿ **وآتيتم احداهن قنطارا** ﴾

وقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسند حـ ٣ ص ٤٤٥ .

(٢) أخرجه البخارى كتاب النكاح باب تزويج المعسر رقم ١١٥٠
ومسلم كتاب النكاح رقم ٧٦ .
والترمذى حـ ٣ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ كتاب النكاح رقم ١١١٤ .

(٣) سورة النساء آية : ٢٠ .

المغـالاة فى المهـور

لما كانت السمة العامة للإسلام اليسر ودفع الحرج فإنه رغب فى تيسير الزواج ، إذ بالزواج تتيسر العفة ، ويلجأ الشباب إلى حياة الطهر والنقاء حتى تعيش الأمة فى حياة صافية بعيداً عن ذئاب البشر الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، فجعل أقل النساء مهراً أعظمهن بركة ، وجعل خفة المهر من يمن الزواج .

عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال : « إن أعظم النكاح بركة أيسره مؤنة »(١).

وقال : « يمن المرأة خفة مهرها ، ويسر نكاحها ، وحسن خلقها ، وشؤمها غلاء مهرها ، وعسر نكاحها ، وسوء خلقها »(٢).

وقد جعل كثير من الناس هذه التعاليم وحاد عنها وتعلق بعادات الجاهلية من التغالى فى المهور ، ورفض التزويج إلا إذا دفع الزوج قدراً كبيراً من المال يرهقه ويضايقه كأن المرأة سلعة يساوم عليها ويتجر بها .

النفقـــة

من حق الزوجة على زوجها أن يقوم بالإنفاق عليها ، وقد ثبت وجوب ذلك بالكتاب والسنة والإجماع .

وتتمثل النفقة فى ما تحتاج إليه المرأة من طعام ومسكن وخدمة ودواء وكسوة وإن كانت غنية قال تعالى : ﴿ **وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس إلا وسعها** ﴾(٣).

المراد ﴿ **بالمولود له** ﴾ : الأب ، والرزق فى هذا الحكم : الطعام الكافى .. والكسوة : اللباس والمعروف : المتعارف فى عرف الشارع من غير تفريط ولا إفراط .

وقال تعالى : ﴿ **اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن** ﴾(٤)

وقال تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً** ﴾(٥).

---

(١) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٦ ص ٨٢ ، ١٤٥

(٢) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٦ ص ٧٧ ، ٩١ بلفظ يمن المرأة تيسير خطبتها وتيسير صداقها .

(٣) سورة البقرة الآية ٢٣٣ .

(٤) سورة الطلاق الآية ٦ .

(٥) سورة الطلاق الآية ٧ .

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال فى حجة الوداع : « .. فاتقوا الله فى النساء ، فإنكم اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .. » الحديث[١].

وروى البخارى ومسلم عن عائشة ــ رضى الله عنها : أن هنداً بنت عتبة قالت : يارسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح ، وليس يعطينى وولدى إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم ، قال : « خذى ما يكفيك وولدك بالمعروف »[٢].

وعن معاوية القشيرى رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا فى البيت »[٣].

أما الإجماع فقد قال ابن قدامة : اتفق أهل العلم على وجوب نفقات الزوجات على أزواجهن إذا كانوا بالغبن إلا الناشز منهن .

الترغيب فى النفقة

وردت عن النبى ﷺ أحاديث ترغب الزوج فى الإنفاق على أهله وقد رأينا أن نذكرها حتى تعم الفائدة ، ويرفع الحرج من صدور الأزواج ، فإن العرف لا يضيع بين الله والناس ، قال ــ تعالى : ﴿ **ماعندكم ينفد وما عند الله باق** ﴾[٤] وقال جل شأنه ﴿ **وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يأولى الألباب** ﴾[٥].

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك »[٦] رواه مسلم

ــ وعن جابر أن النبى ﷺ قال : « أول ما يوضع فى ميزان العبد ، نفقته على أهله »[٧] (أخرجه الطبرانى فى الأوسط وقال المنادى صحيح) .

---

(١) أنظر صحيح مسلم ح ٢ ص ٨٨٩ كتاب الحج باب حجة النبى ﷺ رقم ١٢١٨/١٤٧

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٣٣٨ كتاب الأقضية . باب قضية هند رقم ١٧١٤/٧

(٣) أنظر مسند أحمد حـ ٤ ص ٤٤٧ .

(٤) سورة النحل آية ١٩٦ .

(٥) سورة البقرة آية ١٩٧ .

(٦) أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ٦٩٢ كتاب الزكاة باب فضل النفقة على العيال والمملوك رقم ٩٩٥/٣٩ .

(٧) اخرجه الطبرانى في الأوسط وقال المنادى صحيح .

ــ وعن سعد بن أبى وقاص ــ رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال له : « ... وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعل في فيّ امرأتك »[١] رواه البخاري ومسلم .

ــ وعن ابن مسعود البدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إذا أنفق الرجل على أهله نفقة وهو يحتسبها كانت له صدقة »[٢] رواه البخارى ومسلم .

ــ وعن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة ، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة »[٣] رواه أحمد .

ــ وعن عبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى وأبدأ بمن تعول . أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك »[٤] رواه الطبرانى .

ــ وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المعونة تأتى من الله للعبد على قدر المئونة وإن الصبر يأتي من الله على قدر المصيبة »[٥] رواه البيهقى والبزار وغيرهما .

ــ عن أبى هريرة رضى الله عنه ــ أن النبى ﷺ قال : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »[٦] رواه البخارى .

ــ وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت »[٧] رواه أبو داود والنسائى .

ــ عن الحسن رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع ! حتى يسأل الرجل عن أهل بيته »[٨] رواه ابن حبان .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : جاءتنى مسكينة تحمل ابنتين لها فأطعمتها ثلاث تمرات فأعطيت كل واحدة منهما تمرة ، ورفعت إلى فيها تمرة ، لتأكلها فاستطعمتها ابنتاها فشقت التمرة التى كانت تريد أن تأكلها بينهما فأعجبنى شأنها فذكرت الذى صنعت لرسول الله ﷺ فقال : « إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو اعتقها بها من النار »[٩] رواه مسلم .

(١) أنظر صحيح البخارى حـ ١ ص ٢٢ . كتاب الإيمان . باب ماجاء إن الأعمال بالنية .
(٢) أنظر صحيح البخارى حـ ١ ص ٢١ ، ٢٢ كتاب الإيمان . باب ماجاء إن الأعمال بالنيات .
(٣) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ١٣١ ، ١٣٢ .
(٤) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٤٤٠ .
(٥) أنظر كشف الأستار عن زوائد البزار حـ ٢ ص ١٩٥ رقم ١٥٠٦
(٦) أنظر صحيح البخارى حـ ٢ ص ١٤٢ كتاب وجوب الزكاة . باب قول الله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى وأتقى وصدق بالحسنى ...** ﴾
(٧) أنظر سنن أبى داود حـ ٢ ص ٣٢١ كتاب الزكاة . باب فى صلة الرحم . رقم : ١٦٩٢
(٨) أنظر صحيح ابن حبان حـ ٧ ص ١٢ .
(٩) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٢٧ . كتاب البر والصلة . باب فضل الإحسان إلى البنات رقم : ٢٦٣٠/١٤٨

وروى الطبراني عن عدى بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مسلم يكون له ثلاث بنات فينفق عليهن حتى يبِنَّ أو يمتن إلا كن له حجاباً من النار فقالت له امرأة : أو بنتان قال : وبنتان »[١].

لماذا وجبت النفقة للزوجة ؟

هناك أصل عام يقول : « كل من احتبس لحق غيره ومنفعته فنفقته على من احتبس لأجله » ومن هذا المنطلق يقرر الإسلام وشريعته الغراء أن النفقة واجبة على الزوج لزوجته إذ الزوجة وقد وقع عقد الزواج صحيحاً تكون بمقتضى ذلك مقصورة على زوجها لاتتعداه إلى غيره ، ومحبوسة لحقه حتى تتحقق الحكمة من الزواج بالعصمة والعفة قال تعالى : ﴿ **هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾[٢].

وقال تعالى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله** ﴾[٣]

وقال عز وجل : ﴿ **والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾[٤] وطاعة الزوجة لزوجها واجبة عليها كذلك قرارها في بيته وتدبير منزله وحضانة الأطفال وتربية الأولاد قال ﷺ : « والرجل في بيته راع وهو مسئول عن رعيته والمرأة فى بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيتها »

لقد اقتضى منطق العدالة الإسلامية أن يقوم الزوج بالإنفاق على زوجته مقابل احتباسها عليه وطاعتها له والإرعاء لما له وحضانة أولاده ، والقيام على تدبير شأنه ، فلكل حقوق وعلى كل واجبات وقد صدق الحكم العدل إذ يقول : ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** ﴾[٦] وإذ يقول (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)[٧]

ويشترط لوجوب النفقة شروط ذكرها الفقهاء فيما يلى :

(١) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٥٣٨١

(٢) سورة البقرة من الآية ١٨٧ .

(٣) سورة البقرة من الآية ٢٢٣ .

(٤) سورة المؤمنون الآيات من ٥ – ٧ وكذلك سورة المعارج ٢٩ – ٣١ .

(٥) انظر مسند الإمام أحمد حـ ٢ ص ٥ مسند عبد الله بن عمر .

(٦) سورة البقرة آية ٢٢٨ .

(٧) سورة النساء آية ٣٤ .

١ – أن يكون عقد الزواج صحيحاً .
٢ – أن تسلم نفسها إلى زوجها .
٣ – أن تمكنه من الاستمتاع بها .
٤ – الا تمتنع من الانتقال حيث يريد الزوج إلا إذا كان الزوج يريد الإضرار بها بالسفر أو لا تأمن على نفسها أو مالها .
٥ – أن يكون من أهل الاستمتاع .

فإذا لم يتوافر شرط من هذه الشروط فإن النفقة لا تجب . ذلك أن العقد إذا لم يكن صحيحاً بل كان فاسداً فإنه يجب على الزوجين المفارقة دفعاً للفساد .

وكذلك إذا لم تسلم نفسها إلى زوجها ، أو لم تمكنه من الاستمتاع بها ، أو امتنعت من الإنتقال إلى الجهة التى يريدها ففى هذه الحالات لا تجب النفقة حيث لم يتحقق الاحتباس الذى هو سببها ، كما لا يجب ثمن المبيع إذا امتنع البائع من تسليم المبيع ، أو سلم فى موضع دون موضع .

ولأن النبى ﷺ تزوج عائشة رضى الله عنها ودخلت عليه بعد سنتين ولم ينفق عليها إلا من حين دخلت عليه ، ولم يلتزم نفقتها لما مضى .

قال الفقهاء :

إذا ارتد الزوج بعد الدخول لم تسقط نفقتها لأن امتناع الوط وبسبب من جهته وهو قادر على إزالته بالعودة إلى الإسلام بخلاف ما إذا ارتدت الزوجة فإن نفقتها تسقط لأنها منعت الاستمتاع بمعصيته من قبلها فتكون كالناشز .

حقوق غير مادية

سبق الحديث عن الحقوق المادية للمرأة وبيان وجوبها على الرجل وقد ذكرنا فى ذلك وجوب المهر والنفقة وهنا نتحدث عن الحقوق غير المادية للمرأة على زوجها ومن تلك الحقوق :

حسن المعاشرة

قال تعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** ﴾[1].

---

(١) سورة النساء آية ١٩ .

ومن مظاهر إكتمال الخلق ونمو الإيمان أن يكون المرء رفيقا مع أهله يقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقا وخياركم خياركم لنسائهم »(١).

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله »(٢) رواه الترمذى .

وليس إكرام الرجل لزوجته مظهراً من مظاهر الضعف ، كما يظن البعض ، بل هو سمة من سمات الكرم وقوة الشخصية .

قال ﷺ : « ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم »(٣)

إن المسلم فى بيته سمح النفس ، كريم الشمائل ، حميد السجايا ، لا يتنكف أن يلاحظ أهله ، ولا تخلو معاملته لأهله من دعابة رقيقة .

قالت عائشة رضى الله عنها : « تسابقنى رسول الله ﷺ فسبقته فلبثنا حتى إذا أرهقنى اللحم سابقنى فسبقنى » فقال : « هذه بتلك »(٤) رواه أحمد .

وعن عائشة رضى الله عنها أيضا قالت : قال رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »(٥).

ويبين الرسول ﷺ كيف يعامل الرجل زوجته معاملة تطابق فطرتها وتوافق ماجبلت عليه فيقول : « إن المرأة خلقت من ضلع فإن أقمتها كسرتها فدارها تعش بها »(٦)

وعن أبى هريرة رضى الله عن أن رسول الله ﷺ قال : « استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج مافى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا

(١) أنظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٤٦٦ . كتاب الرضاع . باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها . رقم ١١٦٢ ط / دار الكتب العلمية .

(٢) أنظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ١٠ ، ١١ . كتاب الإيمان . باب ماجاء فى استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه . رقم ٢٦١٢ ط / دار الكتب العلمية .

(٣) أنظر اتحاف السادة المتقين ٣٦٤/٥ وبن عساكر ٢٣٣/٤ . وسلسلة الأحاديث الضعيفة للألبانى حـ ٢ ص ٢٤١ رقم ٨٤٥ .

(٤) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٤ ص ٣٤ ، ٣٩، ٢٦٤ .

(٥) أنظر صحيح ابن ماجة حـ ١ ص ٦٣٦ كتاب النكاح . باب حسن معاشرة النساء . رقم ١٩٧٧ .

(٦) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٦١ كتاب بدء الخلق . باب . قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ...** ﴾

بالنساء »[1] رواه البخاري ومسلم .

واسمع معى إلى تلك الحكمة النبوية التى تفيض إصلاحاً واستقامة ، وتشع نوراً وبهاءاً ، وتطل على بيوت المسلمين كالشمس في عليائها ، تبدد غياهب الظلمات ، وتضيء جنبات الحياة ، يقول — ﷺ : « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها آخر »[2] رواه مسلم .

ومعنى يفرك : بسكون الفاء والراء أيضا أى : يبغض .

الحقوق فى حديث موجز

وتعال معى لترى النبى الكريم يبين حقوق المرأة على زوجها فى حديث موجز المبنى لكنه عظيم المغزى ، والمعنى ، والمرمى ، وقد جاء هذا البيان جواباً عن سؤال وقد عودنا المصطفى ﷺ — أن يجيب إجابة شافية كافية وافية ، فجزاك الله عنا يا رسول الله خير ما جزى به نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته .

عن معاوية بن جندب رضى الله عنه قال : قلت : يا رسول ، ما حق زوجة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت »[3] . (رواه أبو داود)

لا تقبح (بتشديد الباء) أى : لا تسمعها مكروه ، ولا تشتمها ، ولا تقل قبحك الله .
سيدى أبا القاسم يا رسول الله :

يا من له الأخـــــلاق ما تهوى العــــــلا
منها ومـــــا يتــــعشق الكرمـــــاء
زانـــــتك فى الخلـــق العــــظيم شمائــــل
يغــــرى بهن ويولــــــع الكرمــــــاء
وإذا سخــــوت بلـــــغت بالجود المدى
وفعـــــلت مالا تفعــــل الأنـــــواء

(١) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٦١ . كتاب بدء الخلق . باب قوله تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ... ﴾
أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٩١ . كتاب الرضاع . باب الوصية بالنساء . رقم ١٤٦٨/٦٢ .
(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٩١ كتاب الرضاع . باب الوصية بالنساء . رقم ١٤٦٩/٦٣ .
(٣) أنظر سنن أبى داود حـ ٢ ص ٦٠٦ . كتاب النكاح . باب فى حق المرأة على زوجها . رقم ٢١٤٢ .

وإذا عفـــوت فقـــادراً ومقـــــدراً
لا يستهين بعفـــــوك الجهـــــــلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيـــــا هما الـــــــرحماء
وإذا أخـــــذت العهـــــد أو أعطيتـــــه
فجميـــــع عهـــــدك ذمـــــة ووفـــــاء
وإذا خطـــــــبت فللمنابـــــــر هزة
تعـــرو النــــدى وللقلـــــوب بكـــــاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبــــــــــــة
للحــــق لا ضغـــــن ولا شحنـــــاء
لو أن إنسان تخير ملـــــــــــــــة
ما اختـــــار إلا ديـــــنك الفقـــــراء
المصلحـــــــون أصابـــــــع جمعت يدا
هى أنت بل أنت اليـــــــد البـــــــيضاء
يا من له عز الشفاعـــــــة وحـــــــده
وهـــــو المنـــــزه مالـــــه شفعـــــاء
عرش القيامـــــــــــة أنت تحت لواءه
والحوض أنت حيالـــــــه السقـــــاء

يارسول الله لقد بينت لنا سنن الهدى والرشاد ، ووضعت لنا الأسس القويمة ، والأصول المستقيمة وأنت تخطب خطبة الوداع حتى نزلت عليك البشريات الأربع (اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا)(١)

نعم قد أكمل الله دينه ، فدين الله لاينقص أبداً ، وأتم علينا نعمته فليس نعمة الله حكراً ولا ضيقا إنما ستظل سمحة أبداً ، ورضى لنا الإسلام دينا (فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا)(٢).

---

(١) سورة المائدة من الآية ٣ .

(٢) سورة الجن آية ١٤ .

عن عمرو بن الأحوص الجشمى رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ ــ فى حجة الوداع يقول : بعد أن حمدا الله وأثنى عليه وذكر ووعظ ثم قال : « ألا واستوصوا بالنساء خيراً فإنما هن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، الا إن لكم على نسائكم حقا ، ولنسائكم عليكم حقا ، فحقكم عليهن أن لايوطئن فرشكم من تكرهون ، ولايأذن فى بيوتكم لمن تكرهون ، الا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن كسوتهن وطعامهن »[١] رواه ابن ماجه والترمذى .

معانى مفردات الحديث :

فاحشه : معصية ثابتة بيقين ، بعيدة عن التهم الكاذبة .

مُبَــرِّح : غير مهلك لم يؤذ بكر .

فلا تبغوا : فلا تطلبوا غير الطاعة طريقاً .

لا يوطئن فرشكم : لا يكون الفراش لأجنبى وطاء سهلاً يتمتع بلذته .

كسوتهن وطعامهن : أى : القيام بالكسوة . وإلا طعام أى : الغذاء

قال تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما اتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثير ﴾**[٢] .

ومعنى **﴿ بفاحشة مبينة ﴾** كالنشوز وسوء العشرة **﴿ بالمعروف ﴾** بالإنصاف فى الفعل والاجمال فى القول فلا تفارقوهن لكراهة النفس فإنك قد تكره ماهو أصلح دينا وأكثر خيراً ، وقد تحب ماهو بخلافه ، وليكن نظركم إلى ماهو أصلح للدين وأدنى إلى الخير ، وعسى فى الأصل علة الجزاء فأقيم مقامه والمعنى : فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن **﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾**[٣]

نفـاذ البصـيرة

لكى تكون حكيما فى المعاشرة ثابت الفكر صائب الرأى فى معاملة أهلك ، لابد أن تضع نصب عينيك قول الله تعالى : **﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾**[٤].

(١) أنظر صحيح الجامع (سنن الترمذى) حـ ٣ ص ٤٦٧ كتاب الرضاع باب ماجاء فى حق المرأة على زوجها . رقم ١١٦٣
وأنظر سنن ابن ماجة كتاب النكاح . باب حق المرأة على الزوج رقم ١٨٥١

(٢) سورة النساء آية ١٩

(٣) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٤) سورة النساء من الآية ١٩

وقوله ﷺ : ﴿ **استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج مافى الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء** ﴾ (١)

فعلى المسلم ألا يكره زوجته الصالحة الطائعة ، فإن لها محامد ومساوىء وليكن لأخلاقها الحسنة فى نفسه ما يغفر مساوئها ، فلكل جواد كبوة ، ولكل عالم هفوة ولكل صارم نبوة .

إذا كنت فى كل الأمـــور معاتبـــاً .·. صديـقك لم تلـق الـذى لا تعاتبـه
فعش واحـداً أوصل أخـاك فإنـــه .·. مقـــارف ذنب مرة ومجانبـــه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القـذى .·. ظمئت وأى الناس تصفـو مشاربـه
ومن ذا الـذى ترضى سجاياه كلهـا .·. كفـى المرء نبـلا أن تعـد معايبـه

فإذا ما كانت الزوجة سيئة فمنطق الإنصاف يقتضى الا تنسى أن لها حسنات فهى قاضية حاجاتك ، مرضعة أولادك ، غاسلة ثيابك ، طاهية طعامك (ان الحسنات يذهبن السيئات)

وعين الرضا عن كل شر غضيضة . كما أن عين البغض تبدى المساوىء

صيــانة العــرض

ومن حق المرأة على زوجها أن يصون عرضها ، ويحفظها من القيل والقال ، وكل ما يخدش الشرف ويسيىء إلى العرض ، ويمتهن كرامتها ، ويعرض سمعتها لقالة السوء ، وهذا من الغيرة التى يحبها الله .

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ان الله يغار ، وان المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى العبد ما حرم عليه »(٢).

وروى أن سعد بن عبادة قال : لو رأيت رجلاً مع امرأتى لضربته بالسيف غير مصفح فقال الرسول : « أتعجبون من غيرة سعد ! لأنا أغير منه ، والله أغير منى ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن »(٣).

---

(١) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٦١ . كتاب بدء الخلق . باب قوله تعالى : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ...** ﴾

(٢) أنظر صحيح البخارى حـ ٧ ص ٤٥ كتاب النكاح باب الغيرة .

(٣) أنظر صحيح البخارى حـ ٧ ص ٤٥ كتاب النكاح باب الغيرة . ط / الشعب
أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١١٣٦ كتاب اللعان رقم ١٤٩٩/١٧ واللفظ له

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة لا يدخلون الجنة : العاق لوالديه والديوث ورجلة النساء »[١]

والديوث : هو الذى لا يبالى من دخل على أهله .
ورجله النساء : هى التى تتشبه بالرجال .

الاعتدال مطلوب فى الغيرة

﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾[٢]

وقال الصادق المعصوم ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ، ولاتجسسوا ، ولاتجسسوا ، ولاتناجشوا ، ولاتباغضوا ، ولاتدابروا ، ولاتحاسدوا ، وكونوا عباد الله إخوانا »[٣].

وكما يجب على الرجل أن يغار على زوجته فإنه يطلب منه أن يعتدل فى هذه الغيرة فلايبالغ فى إساءة الظن بها ، ولا يسرف فى تقصى كل حركاتها وسكناتها ، ولايحصى جميع عيوبها ، فإن ذلك يفسد العلاقة الزوجية ويقطع ما أمر الله به أن يوصل .

يقول الرسول ﷺ : « إن من الغيرة ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله ، ومن الخيلاء ما يحبه الله ، ومنها ما يبغضه الله : فأما الغيرة التى يحبها الله فالغيرة فى الريبة ، والغيرة التى يبغضها الله فالغيرة فى غير ريبة ، والإختيال الذى يحبه الله اختيال الرجل بنفسه عند القتال ، والإختيال الذى يبغضه الله الإختيال فى الباطل »[٤] وقال علي كرم الله وجهه . لا تكثر الغيرة على أهلك فترامى بالسوء من أجلك .

المباشرة الزوجية

قال تعالى : **﴿ فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم**

---

(١) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٣٨٠٧ ، ٤٣٨١٩ ، ٤٣٨٤٢
(٢) سورة الحجرات الآية ١٢
(٣) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ١٩٨٥ كتاب البر والصلة باب تحريم الظن والتجسس رقم ٢٥٦٣/٢٨ .
(٤) أنظر كنز العمال حـ ٣ رقم ٧٠٦٦ .

ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾[١]

وقال سبحانه : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾[٢] ثم قال : ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ماكتب الله لكم** ﴾[٣]

وللفقهاء فى المباشرة الزوجية أقوال يجمل أن نبينها فيما يلى :

قال ابن حزم : فرض على الرجل أن يجامل امرأته التى هى زوجته وأدنى ذلك مرة فى كل طهر إن قدر على ذلك ، وإلا فهو عاصى لله تعالى .

برهان ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ . وذهب جمهور العلماء إلى ما ذهب إليه ابن حزم من الوجوب على الرجل إذا لم يكن له عذر .

وقال الشافعى : لا يجب عليه لأنه حق له فلا يجب عليه كسائر الحقوق ونص أحمد على أنه مقدر بأربعة أشهر لأن الله قدره فى حق المولى بهذه المدة فكذلك فى حق غيره .

وإذا سافر عن امرأته فإن لم يكن له عذر مانع من الرجوع فإن أحمد ذهب إلى توقيته بستة أشهر وسئل : كم يغيب الرجل عن زوجته قال : ستة أشهر يكتب إليه فإن أبى أن يرجع فرق الحاكم بينهما .

وقد ثبت فى السنة أن جماع الرجل زوجته من الصدقات التى يثيب الله عليها . روى مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « ... ولك فى جماع زوجتك أجر .. قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟.. قال : أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه فيها وزر ... فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر »[٤].

ويستحب المداعبة ، والملاعبة ، والملاطفة ، والتقبيل والانتظار حتى تقضى المرأة حاجتها .

روى أبو يعلى عن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال : « إذا جامع أحدكم أهله فليصدقها فإذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها »[٥].

---

(١) سورة البقرة الآيتان ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٢) ، (٣) سورة البقرة من الآية ١٨٧

(٤) أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ٦٩٧ ، ٦٩٨ كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف رقم ١٠٠٦/٥٣ .

(٥) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٨٣٨ .

التستر عند الجماع

أمر الإسلام ستر العورة فى كل حال إلا إذا اقتضى الأمر كشفها فعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال : قلت : يا نبى الله ... عوراتنا ما نأتى منها وما نذر ؟.. قال : « احفظ عورتك إلا من زوجتك ، أو ماملكت يمينك » . قلت : يا رسول الله ، إذا كان القوم بعضهم من بعض قال : « إن استطعت ألا يراها أحد فلا يراها » . قال : قلت : إذا كان أحدنا خالياً ؟ قال : « فالله أحق أن يستحيا منه »[١] رواه الترمذى وقال حديث حسن ومن الحديث جواز كشف العورة عند الجماع ، مع ذلك لا ينبغى أن يتجرد الزوجان تجرداً كاملاً .

عن ابن عمر أن النبى ﷺ : قال : « إياكم والتعرى ، فإن معكم من لايفارقكم ، إلا عند الغائط ، وحين يفضى الرجل إلى أهله ، فاستحيوهم وأكرموهم »[٢]. رواه الترمذى وقال حديث غريب .

التسمية عند الجماع

يسن أن يسمى الإنسان ويستعيذ عند الجماع . روى البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله ، قال : بسم الله — اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإن قدر بينهما فى ذلك ولد ، لن يضر ذلك الولد الشيطان أبداً »[٣].

إتيان الرجل من غير المأتى (حرام)

إتيان المرأة فى دبرها تنفر منه الفطرة ، ويأباه الطبع ، ويحرمه الشرع قال الله تعالى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾ والحرث موضع الحرث أى بالإتيان فى الفرج خاصة !

قال ثعبان

إنما الأرحـــام أرضون لنـــا محترثـــات

فعلينـــا الـــزرع فيها وعلى الله النبات

وهذا كقول الله : ﴿ **فأتوهن من حيث أمركم الله** ﴾ . ومما رواه البخارى ومسلم : أن اليهود كانت على عهد رسول الله ﷺ — تزعم أن الرجل إذا أتى امرأته من دبرها لا فى قبلها جاء الولد

---

(١) أنظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ١٠٢ كتاب الأدب باب ماجاء فى حفظ العورة . رقم ٢٧٩٤ .

(٢) أنظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ١٠٤ كتاب الأدب . باب ماجاء فى الإستتار عند الجماع . رقم ٢٨٠٠ . ط / دار الكتب العلمية .

(٣) أنظر صحيح البخارى حـ ٤ ص ١٤٩ كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس ط / الشعب
أنظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٥٨ كتاب النكاح باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع رقم ١٤٣٤/١١٦ .

أحول ، وكان الأنصار يتبعون اليهود فى هذا ، فأنزل الله ـــ عز وجل ـــ ﴿ **نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾[١]

أى أنه لا حرج فى إتيان النساء بأى كيفية ، مادام ذلك فى الفرج ومادمتم تقصدون الحرث . وقد جاءت الأحاديث صريحة فى النهى عن إتيان المرأة فى دبرها ، روى أحمد ، والترمذى ، وابن ماجه ، أن النبى ﷺ قال : « لا تأتوا النساء فى أعجازهن . أو قال فى أدبارهن »[٢] ورواته ثقات

وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبى ﷺ قال : فى الذى يأتى امرأته فى دبرها ... « هى اللوطية الصغرى » وعن أحمد وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ملعون من أتى امرأة فى دبرها »[٣].

قال ابن تيمية : ومتى وطئها فى الدبر وطاوعته عزرا جميعا وإلا فرق بينهما كما يفرق بين الفاجر ومن يفجر به .

ولقد صدق الله العظيم إذ يقول (فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)

حرمة التكلم بما يجرى بين الزوجين أثناء المباشرة :

فعن أبى سعيد ـــ رضى الله عنه ـــ أن النبى ﷺ قال : « إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة : الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرها »[٤] رواه أحمد .

وعن أبى هريرة ـــ رضى الله عنه ـــ أن رسول الله ﷺ ، أقبل عليهم بوجهه فقال : « مجالسكم . هل منكم الرجل إذا أتى أهله أغلق بابه وارخى ستره ، ثم يخرج فيحدث فيقول : فعلت بأهلى كذا فعلت بأهلى كذا ؟.. فسكتوا ، فأقبل على النساء فقال هل منكن من تحدث ؟.. فجثت فتاة كعاب على إحدى ركبتيها ، وتطاولت ليرها الرسول ﷺ وليسمع كلامها ،فقالت : أى والله.. إنهم يتحدثون ، وإنهن ليحدثن . فقال : هل تدرون ما مثل من فعل ذلك ؟ إن مثل من فعل ذلك مثل شيطان وشيطانة . لقى أحدهما صاحبه بالسكة ، فقضى حاجته منها ـــ والناس ينظرون إليه »[٥] (رواه أحمد وأبو داود)

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(٢) أنظر سنن الترمذى حديث رقم ١١٦٤ . ومسند الإمام أحمد حـ ١ ص ٨٦ ، حـ ٥ ص ٢١٣ ، ٢١٥ .

(٣) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٢ ص ٢٧٩ .

(٤) أنظر مسند الإمام أحمد حـ ٦ ص ٣٨ .

(٥) أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٨٧٩ .

تعدد الزوجات

لما كان الإسلام ديناً عالميا دائماً إلى أن تقوم الساعة لا يحويه مكان ولا يحده زمان ـــ لما كان ذلك كذلك ـــ اقتضى أن تكون صيدليته شاملة وافية كافية ، فيها لكل داء داوءه الذى يستطب به ، ومن هذه الأدوية التى اشتملت عليها صيدليته المباركة تعدد الزوجات ، فإن هذا التعدد قد يكون دواء لأمراض كثيرة ، وقد يكون فيه الحل لأزمات متعددة قد تكون الزوجة مريضة لا تقوى على القيام بحقوق الزوج ، أو قد تكون مسنة أقعدها السن عن تلبية رغبات زوجها ، وقد تكون عاقراً لا تلد ، فهل من الأفضل أن يقع الانفصال بينهما فتترك بيت الزوجية ؟

لقد رأى الإسلام بإباحة التعدد أن تظل الزوجة الأولى فى عش الزوجية هانئة فى رعاية زوجها ، ذلك أهدى سبيلا وأهدى مقيلا ، ففى إباحة التعدد وفاء لها حتى لا تصير شريرة طريدة ، أضف إلى ذلك ما يقع من حروب واستشهاد للرجال فى الميادين فماذا يكون الحل لو كثرت الأرامل بعد موت الرجال . لاحل إلا بإباحة التعدد لتعيش فى بيت الزوجية النساء اللائى فقدن الأزواج . وقد تستدعى حال الرجل حتى يعيش عفيفاً أن يتزوج على امرأته لسد حاجته خشية أن ينحرف فيخطىء الحساب ، فيأتى بأوخم العواقب ، فهل من الخير أن تكون المرأة التى تسد حاجته وتكسبه العفة والطهر فى بيت آمن مستقر ، وحياة هادئة مطمئنة . هل من الخير أن تكون تلك المرأة خليلة أم حليلة ؟ .

إن الإسلام يقيم الحياة على أساس الطهر والنقاء بعيداً عن العبث والخلل والإنحراف (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين)[1]

لقد سد الإسلام كل ثغرة قد يكون فيها منفذ إلى الحرام فأباح التعدد كى يسد ويقيم الأسوار العالية الحصينة حول منطقة الزناكى لا يقرب تلك الجناية أحد ، لذا فإن الله تعالى لم يقل ولا تزنوا إنما قال : ﴿ **ولا تقربوا الزنا** ﴾ والفرق بعيد بين المعنيين إذ لو قال : (ولا تزنوا) لكان قرب الزنا مباحاً من النظر واللمس والخلوة وغير ذلك من مقدمات الزنا ، لكن اقتضت حكمة التشريع أن ينهى عن القرب حتى لا يقع الإنسان فى الجريمة ، إذ من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ألا إن حمى الله محارمه ، ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام فليس ثمة أدنى شك فى أمر النهى عن القرب نهى عن الزنا من باب أولى كما أن النهى فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تقل لهما أف** ﴾ فى حق الوالدين نهى عما هو أشد من التأفف كالضرب مثلاً .

من أجل ذلك أباح الإسلام التعدد ، ولم يترك الأمر فوضى إنما حدد المعالم ، وبين المناهج ووضح المسالك ، فقال : ﴿ **ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾[2] أى : أقرب ألا تجوروا أو تظلموا .

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٩ .

(٢) سورة النساء من الآية ٣ .

فمن حق المرأة على زوجها إذا تزوج عليها أن يكون عادلاً فى المعاملة .

العدالة بين الزوجين

عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « من كانت عنده امرأتان فلم يعدل بينهما جاء يوم القيامة وشقه ساقط »[1] رواه الترمذى وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم وماولوا » [2] رواه مسلم .

من الإحسان فى المعاملة عند تعدد الزوجات أن يعدل بين زوجاته ولا يفضل واحدة منهن على غيرها لأن الله تعالى أمر بالاقتصار على زوجة واحدة عند الخوف من الجور فى قوله جل شأنه ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾[3] وهذا يقتضى الأمر بالعدل بين الزوجات عند التعدد .

فإن لم يعدل استحق على عمله هذا أن يعد فى الدنيا من الممقوتين ويحشر فى الآخرة مع الظالمين .

والعدل الذى يطالب به الزوج فى هذه الحالة هو التسوية بين الزوجات فى كل ما يستطيعه ، ويدخل تحت قدرته من الحقوق ، كالتسوية فى النفقة ، وإحسان المعاملة ، ولطف العشرة من غير ميل إلى إحداهن ، ومضارة ما سواها . أما المساواة بينهن فى المحبة والميل القلبى فليست بمطلوبه ، لأن ذلك ليس فى مقدور الإنسان فلا يطالب به شرعاً كما يرشد إلى ذلك قول عائشة ــ رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ ــ يقسم فيعدل ويقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يريد ــ ﷺ الميل الباطنى والمحبة القلبية .

ومن العدل الذى يستطيعه الزوج أن يسوى بين زوجاته فى المبيت ، وذلك بأن يبيت عند كل واحدة منهن بمقدار المدة التى يبيتها عند الأخرى ، ولا فرق فى هذا بين البكر والثيب ، والجديدة والقديمة ، والمسلمة والكتابيه ، وصاحبة العذر وغيرها ، لأن سبب وجوب القسم فى المبيت هو الزوجية ، وهى قدر مشترك عند هؤلاء جميعا ، فتجب التسوية بينهن فى ما يترتب عليها وهو المبيت . والقسم فى المبيت واجب فى حال الصحة والمرض ، فلو مرض الزوج وأراد أن يقيم فى بيت إحداهن فلا يجوز له ذلك إلا إذا رضى به سائر أزواجه لأن النبى ﷺ كان يقسم بين أزواجه وهو مريض ولما ثقل عليه المرض استأذن أزواجه أن يمرض فى بيت عائشة فأذن له .

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٤٤٧ كتاب النكاح باب ماجاء فى التسوية بين الضرائر رقم ١١٤٠ .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة . باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٧/١٨

(٣) سورة النساء من الآية ٣ .

وفي الصحيحين عن عائشة ــ رضي الله عنها قالت :« لما ثقل رسول الله ﷺ استأذن أزواجه أن يمرض فى بيتى فأذن له ولولا أن القسم واجب فى حال المرض ما كان ــ عليه الصلاة والسلام ــ فى حاجة إلى إذن زوجاته ليقيم فى بيت عائشة ، ولا يجب القسم على الزوج فى حالة السفر فإذا أراد السفر كان له أن يختار مَن زوجاته من تسافر معه لأنه هو الذى يقدر مشقة السفر ويعرف من تصلح له منهن ومن لا تصلح وربما كان ترك بعضهن لازماً لتدبير المنزل ، لكن الأفضل أن يقرع بينهن فيسافر بمن خرجت قرعتها لما فيها من تطييب النفوس وصفاء القلوب ، وهذا ما كان يفعله النبى ﷺ عند إرادة السفر قالت السيدة عائشة ــ رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه فمن خرج سهمها خرج بها معه »[1] ولا تحتسب مدة السفر من أيام القسم حتى لو سافر بواحدة من زوجاته ثم قدم من السفر وطلبت الزوجة الأخرى أن يقيم عندها مقدار مدة السفر لم يلزمه ذلك .

والغرض من هذا ألا يؤذى واحدة بإيثار الأخرى عليها وأن يعمل مافى وسعه ليرضيهن جميعا ، والأصل فى ذلك قول النبى ﷺ « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل »[2] وقوله ﷺ « إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين . الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وماولوا »[3] .

شبهة مردودة

يدعى البعض أن تعدد الزوجات لا أساس له فى الإسلام ذلك لأن الله تعالى قيده بالعدل فى قوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾[4] ثم نفى استطاعة ذلك العدل فى قوله تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾[5] وهذا الإدعاء باطل ، باطل . ومردود ومرفوض من أساسه إذ لو صح ذلك لوقع التناقض فى كتاب الله وليصح أن يقال إن بعض الآيات يناقض البعض الآخر والله تعالى يرد على هؤلاء فى قوله : ﴿ **وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم** ﴾[6] .

---

(١) انظر كنز العمال حـ ٧ رقم ١٨٣٣٧

(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ٢ ص ٣٤٧

وأنظر سنن أبى داود . حـ ٢ ص ٦٠١ . كتاب النكاح . باب القسم بين النساء . رقم ٣١٣٣ .

(٣) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٤٥٨ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل رقم ١٨٢٧/١٨ .

(٤) سورة النساء آية ٣ .

(٥) سورة النساء آية ١٢٩ .

(٦) سورة النمل آية ٦ .

وبقوله : ﴿ **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾(١) .

وبقوله : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها** ﴾(٢) وبقوله : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾(٣).

فكيف يبيح الله تعالى التعدد بقوله : ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾(٤) ثم يلغيه

بقوله : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولوحرصتم** ﴾ إن هذا الكلام على حد القول الذى حرم التعدد يعتبر ضرباً من العبث فكيف يلعب بكتاب الله وهو المنزه عن العبث . إن الرد على هؤلاء يسير وواضح . فالجهة بين العدلين منفكة وبعيدة فالمراد بالعدل فى الآية الأولى وهى قوله تعالى : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** ﴾ العدل المساوى الذى سبق بيانه من النفقة والمبيت والسكنى وغير ذلك ، أما العدل فى الآية الثانية وهى قوله تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولوحرصتم** ﴾ فإن المقصود به العدل القلبى الذى ليس فى استطاعة الإنسان ، والذى أخبر عنه الصادق المعصوم ـــ ﷺ بقوله : « **فلا تؤاخذنى فيما تملك ولا أملك** » (٥)

لذا قال تعالى : ﴿ **فلا تميلوا كل الميل** ﴾ ولم يقل (ولا تميلوا بعض الميل) فكل الميل منهن عنه إذ يمكن الاحتراز عنه أما بعض الميل القلبى فقد يكون فوق الطاقة والاستطاعة لذا جاء التعقيب بعد ﴿ **فلا تميلوا كل الميل** ﴾ بقوله تعالى : ﴿ **فتذروها كالمعلقة** ﴾ .

والمراد بالمعلقة هى التى أساء زوجها عشرتها فلا هى مزوجة ولا هى مطلقة ، قال تعالى : بعد ذلك ﴿ **وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما** ﴾(٦) وإذا علمنا ذلك فإن التعدد فى الإسلام

أمر مباح مع العدالة المادية التى يستطيع الإنسان أن يقوم بها فإن عجز عن العدالة فعليه أن يسلك الطريق الذى وضحه الله تعالى فى قوله : ﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا** ﴾(٧)

---

(١) سورة هود آية ١ .

(٢) سورة محمد آية ٢٤ .

(٣) سورة النساء آية ٨٢ .

(٤) سورة النساء آية ٣ .

(٥) أنظر سنن أبى داود جـ ٢ ص ٦٠١ . كتاب النكاح . باب القسم بين النساء . رقم ٢١٣٤ . وكذلك أخرجه النسائى ، فى عشرة النساء باب ميل الرجل إلى بعض نسائه (٦٤/٧) . والترمذى فى النكاح (التسوية بين الضرائر) رقم ١١٤٠ . وابن ماجة فى النكاح باب القسمة بين النساء رقم ١٩٧١ .

(٦) سورة النساء آية ١٢٩ .

(٧) سورة النساء آية ٣ .

الزواج المثالى

ونعنى به أعظم زواج على وجه البسيطه ، إنه زواج الصادق الأمين محمد ﷺ من العفيفة الطاهرة خديجة بنت خويلد ــ رضى الله عنها ــ والذى استمر ربع قرن من الزمان عاش فيها الزوجان عيشة راضية لا تسمع فيها لاغية ، ولنبدأ القصة من أولها :

يروى ابن الأثير وابن هشام أن السيدة خديجة كانت تاجرة وكانت ذات شرف ومال ، تتأجر

الرجال فى مالها وتضاربهم إياه بشىء تجعله لهم منه فلما بلغها عن رسول الله ﷺ صدق الحديث وعظم الأمانة وكرم الأخلاق أرسلت إليه ليخرج فى مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره ومعه غلامها ميسرة .

وقد قبل محمد بن عبد الله هذا العرض فرحل إلى الشام عاملاً فى مالها ومعه ميسرة ، فحالفه التوفيق فى هذه الرحلة أكثر من غيره وعاد إلى خديجة بأرباح مضاعفة فأدى لها ما عليه فى أمانة تامة ونبل عظيم .

شهادة ميسرة له

وجد ميسرة من خصائص النبى ﷺ وعظيم أخلاقه ماملأ قلبه دهشة وإعجاباً ، رأى الصدق فى صورته الحقيقية ورأى الأمانة مجسمة فى معاملته رآه سمحاً إذا باع ، سمحاً إذا اشترى ، سمحاً إذا قضى ، سمحاً إذا اقتضى ، رأى فيه الأمانة فى أسمى معانيها .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة وإنها لشهادة حق وما زاد ميسرة على الحقيقة شيئاً .

أدلى ميسرة بهذه الشهادة إلى السيدة خديجة فوجدت فى نفسها قلبا طهوراً طيباً فتمكنت من القلب كل تمكن .

لقد أعجبت بصدقه وأمانته ــ وكفى بهما ــ إنه رأس مال ضخم ، ورصيد لا يلحق به ولا يشق له غبار .

لقد نالت خديجة بركة عظيمة بفضل هذا الصادق الأمين فأرسلت إليه صديقتها نفيسة بنت منبه تخطبه لنفسها ، ورأى الرسول فى خديجة سيدة ذات خلق كريم ، وعقل راجح ، رغم فارق السن بينه وبينها ، كان عنده من العمر خمس وعشرون سنة ، وكانت تزيد عليه بخمس عشرة سنة ولم ينظر إلى مالها ولا إلى جمالها ولا إلى حسبها وإنما نظر إلى عقلها وخلقها ، وهكذا عظماء الرجال .

على قدر أهـل العـــزم تأتى العـــزائم
وتــأتى على قدرالكــرام المكـــارم
وتعظـــم فى عين الصغير صغيرهـــا
وتصـغرفى عين العــظيم العظـــائم

كلم الرسول أعمامه ، فوافقوا على هذا الزواج ، فخطبوها له من عمها عمر بن اسد ، فرحب بذلك الزواج الميمون المبارك .

وكانت خديجة قبل ذلك قد تزوجت برجلين ، الأول منهما (عتيق بن عائد التميمى) ثم خلفه عليها (أبو هالة التميمى) وبعد موتهما طرق كثير من الرجال بابها لتكون لهم زوجا ، فلم تفتح بابها ، لأنها رأت فيهم **طلاب** مال خديجة حتى اذا ما انتهى مالها فلن تكون أمامهم خديجة .

إنهم يتعاملون بلغة الأرقام ، ويتفاهمون بمبدأ الصعود والهبوط كسماسرة الأسواق ، لكنها رأت فى محمد الإنسان الصادق الأمين ، فخطبته لنفسها ورأى فيها محمد السيدة العفيفة الطاهرة ، فرضيها زوجا .

وليلة زفافه بها وقف عمه أبو طالب يلقى خطبة الزواج . وقف يقول : الحمدُ لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ،وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وبلداً حراما ، وجعلنا الحكام على الناس . أما بعد فإن محمدا بن عبد الله ابن أخى لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح به براً وفضلاً وكرما وعقلاً ومجداً ونبلاً ، وإن كان فى المال قلاً ، فالمال ظل زائل ، وعارية مسترجعة وإن لمحمد رغبة من خديجة ولها فيه مثل ذلك وما طلبتم من الصداق فعلى .

دعوة باطلة

نعم إنها دعوى لأنه لم يقم عليها دليل يثبت صحتها . وباطلة لأنها جاءت بدافع الحقد والحسد على رسول الإسلام ، ونبعت من قلوب تفرز البغضاء كما يفرز الكبد عصارة الصفراء ، لذلك رأينا ونحن نتكلم عن زواج المصطفى ﷺ بالسيدة خديجة ــ رضى الله عنها ــ أن نعقب بهذا البحث ، لنلجم ألسنة الحاسدين الحاقدين الذين يحاولون أن يثيروا غبار الشبهات الباطلة على التعدد فى أزواج رسول الله ﷺ وهم بذلك ينضحون مافى قلوبهم من زيغ . فلو تحول الناس جميعاً إلى كناسين ليثيروا التراب على السماء يثيرونه على أنفسهم وتبقى السماء هى السماء . ضاحكة السن بسامة المُحَّيا .

ماضر شمس الضحى فى الأفـــق ساطعـــة

أن لا يرى نورهـــــا من ليس ذا بصر

نعم يا أعداء الله من المستشرقين ومن لف لفهم من المستغربين وأدعياء الثقافة ، وأبناء القرر الثقافي أن الرسول لن يغيره أن تنبح عليه هذه الأصوات ، فستظل القافلة سائرة مهما كانت الذئاب تعوى .

ومـــاضر الـــورود ومـــا عليها

إذا المزكـــوم لم يطعـــم شذاهـــا

وها نحن **أولا نسلط مدفعية الإسلام الثقيلة على هذه المواقع فنأتى عليها جميعا** ، فنذرها قاعاً صفصفا .

إن قصة زواجه ﷺ من خديجة ــ رضى الله عنها ــ كما ذكرنا سابقاً توضح للإنسان وضوحاً لا تلتبس معه الرؤية . أن رسول الله ﷺ لم يكن فى اعتباره الاهتمام بأسباب المتعة الجسدية ومكتملاتها ، فلو كان مهتما بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع فيمن هى أقل منه سناً ، أو فيمن ليست أكبر منه على أقل تقدير ، ويتحلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها بين جماعتها وقومها حتى إنها كانت تلقب فى الجاهلية بالعفيفة الطاهرة .

ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً وقد ناهز النبى ﷺ الخمسين من العمر دون أن يفكر خلالها بالزواج بأية امرأة أخرى .

وما بين العشرين والخمسين من عمر الإنسان هذا الزمن الذى تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء . والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية .

ولكن محمدا ﷺ تجاوز هذه الفترة من العمر دون أن يفكر كما قلنا بأن يضم إلى خديجة مثلها من الإناث : زوجة أو أمة ، ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء دون أن يخرق بذلك عرفاً أو يخرج على مألوف . هذا فضلا عن أنه تزوج خديجة وهى أيم وكانت تكبره بما يقارب مثل عمره .

وفى هذا ما يلجم أفواه أولئك الذين يأكل الحقد أفئدتهم على الإسلام وقوة سلطانه من المبشرين والمستشرقين وعبيدهم الذين يسيرون من ورائهم ، ينعقون بما لا يسمعون إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون إنهم يعرفون بما لا يعرفون ويحاولون أن يطاولوا السماء وأن يمدوا إلى الشمس يدا شلاء .

إنهم يمضغون الهواء . ويفتلون من الرمال حبالا

لقد ظنوا أنهم واجدون فى موضوع زواج النبى ﷺ مقتلاً يصاب منه الإسلام ويمكن أن تشوه منه سمعة المصطفى ﷺ .

وتخيلوا أنه بمقدروهم أن يجعلوه عند الناس فى صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذة الجسد ، الغارق في معيشته المنزلية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

حاشا لله يا رسول الله .

والله ماعلمنا عليك من سوء ، إنها فرية مافيها مرية (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً) .

يريدون أن يلصقوا به ﷺ صورة الرجل الشهوانى الغارق فى لذات الجسد . وموضوع زواجه ﷺ هو وحده الدليل الكافى على عكس ذلك تماماً .

فالرجل الشهوانى لا يعيش إلى الخامسة والعشرين من العمر فى بيئة مثل بيئة العرب فى جاهليتها عفيف النفس دون أن ينساق فى شيء من التيارات الفاسدة التى تموج حوله .

الرجل الشهوانى لا يقبل بعد ذلك أن يتزوج من أيم لها ما يقرب من ضعف عمره ، ثم يعيش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مما حوله وأن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من سبيل إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب ثم الكهولة ويدخل فى مدارج الشيخوخة .

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ ثم من غيرها فإن لكل منهن قصة . ولكل زواج حكمة وسبب يزيدان من إيمان المسلم بعظمة محمد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه .

زواجة بالسيدة سودة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة سودة بنت زمعه ــ رضى الله عنها ــ وكانت زوجاً للسكران بن عمرو وكان قد أسلم قديماً وهاجر إلى أرضى الحبشة الهجرة الثانية ومات حين قدما مكة ولو عادت إلى أهلها بعد موت زوجها لعذبوها وفتنوها عن دينها فكفلها ﷺ وهو المثل الأعلى للهمة والنجدة والمروءة ، وكانت مسنة ولم يكن معه غيرها ومكث معها خمس سنين إلى أن تزوج بالسيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ فى السنة الأولى من الهجرة فترى من هذا أنه ﷺ لم يتزوج السيدة سودة إلا لإيوائها وتعويضها خيراً من زوجها الذى مات معها حريصا على إيمانه فاراً بعقيدته وتآلفاً لقومها وقوم زوجها الذين أسلموا ونالوا صحبته ﷺ .

فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة عائشة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة عائشة — رضى الله عنها — بنت أبى بكر الصديق — رضى الله عنه — وكلنا بعلم من هو أبو بكر الصديق الذى كان معه (ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا)

وإذا علمنا أنه لم يتزوجها إلا وهو ابن خمس وخمسين سنة وعلمت أنه لم يرد إلا مكافأة أبيها وإحكام الرابطة بينهما وقد كانت — رضى الله عنها — واسطة فى نقل الأحكام والتشريعات إلى سواد الأمة الإسلامية خصوصاً ما يتعلق منها بالنساء . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا !!

زواجه بالسيدة حفصة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — وكانت زوجاً لخنيس بن حذافة ، ومات عنها من جراح أصابته ببدر ، وتزوجها رسول ﷺ — مكافأة لها وحباً فى أبيها الذى سره كل السرور هذا النسب الشريف ، ورغبة فى إيوائها وتعويضها عن فقد زوجها الذى قتل فى سبيل الله وهو يدافع عن الله ورسوله ودينه . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة زينب بنت جحش (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة زينب بنت جحش ، وهى ابنة عمته وكان قد زوجها لمولاه زيد بن حارثة ليرفع من شأن الأسير الكسير ، ويعلى من قدره ويجعله أصلاً لمصاهرة بنى هاشم ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾

وقد تزوجها ﷺ بعد طلاقها من زيد بوحى من الله تعالى للتشريع ﴿ **لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً** ﴾[1]

وقد كان زواجه بها إعفاء من إهمال يصيبها بعد طلاق يذلها فيقضى عنها الخاطبين الذين لا يتقدمون مختارين إلى مطلقات الأحرار فما بالك بمطلقات الأرقاء . قل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

زواجه بالسيدة زينب بنت خزيمة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة زينب بنت خزيمة وكانت زوجاً لعبد الله بن جحش — رضى الله عنهما — فقتل عنها يوم أحد فتزوجها ﷺ إيواء لها وجبراً لمصابها فى زوجها وحفظا لدينها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة أم سلمة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة أم سلمة (هند بنت أبى أمية) وكانت زوجاً لابن عمها عبد الله بن عبد الأسد وكانا أسلما قديما وهاجرا إلى الحبشة ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة فمات أبو سلمة من جرح أصابه فى غزوة أحد فتزوجها ﷺ فأواها وحفظها ، فترى من هذا أنه ﷺ تزوجها ليعوضها خيراً من زوجها الذى فقدته وكانت كثيرة الأولاد فآواها وآوى أولادها وقام لشئونها جزاء لها على هجرتها وإيمانها وثباتها ووفائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة أم حبيبة (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة أم حبيبة (رملة بنت أبى سفيان) وكانت زوجا لعبيد الله ابن جحش وقد هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ثم تنصر زوجها ومات هناك وثبتت هى على إسلامها وأبت أن تتنصر معه وخالفته وإختارت الإسلام عليه فأتم الله تعالى لها : الإسلام والهجرة والصحبة وأكمل لها الشرف بزواجها من رسول الله ﷺ .

وقد خطبها ﷺ حين سمع بانقطاعها وفقد نصرائها . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة ميمونة بنت الحارث الهلالية بعد وفاة زوجها وسنها — رضى الله عنها — زهاء خمسين سنة وقد تزوجها إيواء لها وتألفاً لقومها وقد أسلم لسبب هذا الزواج كثير من قومها ، منهم : ابن أختها سيف الإسلام خالد بن الوليد . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة جويرية بنت الحارث (رضى الله عنها)

وتزوج بالسيدة جويرية بنت الحارث بن ضرار وكانت زوجاً لمانع بن صفوان المصطلقى وقد قتل كافراً يوم المريسيع وأخذت سبية ضمن سبايا وأسرى بنى المصطلق وكانت سيدة بنى المصطلق وبنت سيدهم فأعتقها ﷺ وتزوجها فلما سمع المسلمون بذلك اعتقوا مافى أيديهم من سبى بنى المصطلق عن بكرة أبيهم ، وحسن إسلامهم .

فترى من ذلك أنه لم يتزوجها سوى رغبة فى إسلام قومها وقد أنقذها من الأسر وأعتقها من الرق وأعزها من الذل . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

زواجه بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب (رضى الله عنه)

وتزوج بالسيدة صفية بنت حيى بن أخطب سيد بنى النضير . قتل أبوها مع بنى قريظة وكان زوجها لسلام بن شكم القرظى ثم فارقها فتزوجها كنانة بن أبى الحقيق وقتل عنها يوم خيبر فأخذت ــ **رضى الله عنها** ــ فى السبى فخيرت بين العودة إلى قومها وزواجها بالرسول فاختارت الخيرة فأعتقها ﷺ وتزوجها رغبة فى إسلام قومها (اليهود) وقد أسلم كثير منهم . فقل لى بربك أين الشهوة والميل إلى النساء فى هذا ؟!

حكمــــة راشـــدة

ويتضح مما تقدم أن الرسول ﷺ لم يتزوج إحداهن إلا لأسباب دينية ومقاصد أخروية لاتمت إلى الشهوة بسبب ولا تتصل إلى الميل للنساء بصلة .

هذا عدا أن هناك حكمة لهذا التعدد من أجل الحكم وهى نشر الأحكام الخاصة بالنساء والتى لا يستطيع تبليغها الرجال كالطهارة والغسل والحيض والنفاس والولادة والرضاع إلى غير ذلك من الأحكام التى لا يستطيع إفهامها للنساء على وجهها الأكمل سوى النساء ، ولا يمكن بحال أن تقوم بمهمة تبليغ الأحكام لسائر نساء المسلمين على اختلاف طبقاتهم فى ذلك الحين امرأة واحدة بل عدة نساء من عدة قبائل وبذلك يتم ما أراده الله تعالى من إظهار نوره وبسط شرائعه ، قال تعالى : ﴿ **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيرا** ﴾(١)

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

وقد ثبت أنهن أذعن عنه ﷺ علماً وفضلاً وفقهاً ولو كان ﷺ يريد بالتعدد ما يريده سائر الملوك والأمراء من التمتع واللذة ليس غير لانتخب الحسان الأبكار والكواعب والأتراب ولم يتجه صوب هؤلاء **الثيبات** المكتهلات ..

فهل بعد هذا لمبشر — عتل زنيم — أن يقول ﷺ إنه شهوانى يميل إلى النساء ؟ فى حين أن فى ديانتهم ومعتقداتهم ما ننزه ألسنتنا عن ذكره وأقلامنا عن تدوينه ؟

فسبحان من هدانا لدين الحق ، دين النور ، دين الفطرة ، وأظهره على الدين كله ولو كره الكافرون .

﴿ خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله ﴾

وفضلاً عن ذلك فلم تكن علاقاته — عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم — بزوجاته كعلاقة أى زوج مهما دنا بأى زوجة مهما غلت ؟ فقد عاشرهن السنين الطوال فلم تفلت من لسانه الكلمة النابية بل الكلمة الرقيقة ، ولم تبد على سماته النظرة القاسية بل النظرة الحانية . وما من رجل بلغ ما بلغ من المروءة والدقة وسعة إلا واستمال رضاه إلى غضب فى ساعة ما ، وبدا منه التذمر والتضمر إزاء تصرف ما ، وبدرت منه بوادر الشر ونذر السوء حيال عمل ما .

ولكن الرسول ﷺ الذى أوتى جماع الفضائل وبعث ليتمم مكارم الأخلاق... الرسول الذى أرسل من البشر ليعلى من أقدار البشر ويرفع من شأنهم ويسمو بنوعهم لم يكن كذلك ولم يكن هذا منه ﷺ جبناً أو ضعفاً بل كان كمالاً وجلالا .

وننتقل بعد ذلك إلى موقف آخر يتعلق بزواج الرسول ﷺ وهو قصة التخيير فما هى تلك القصة ؟

قصة التخيير

قال تعالى : **﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما ﴾** الآيات من سورة الأحزاب[1].

---

(١) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار . حـ ٢ ص ١٨٤ رقم ١٤٨٠ .

(٢) سورة الأحزاب الآيتان ٢٨ ، ٢٩ .

إن رسول الله ﷺ لم يرد الحياة متعة فانية ولا زخارف براقة لأن قلبه كان مليئاً بالقناعة والرضا والإيمان والحكمة لقد خيره الله بين أن يكون نبياً عبداً أو نبياً ملكاً فاختار أن يكون نبياً عبداً وقال فى ذلك « أجوع يوماً فأذكرك وأشبع يوماً فأشكرك » ورفض الحياة فى زخارفها ومباهجها ومفاتنها ولو أرادها مملكة ونعيماً وخدما وحشما وترفا لكان له فى ذلك .

وروادتـــه الجبـــال الشم من ذهب
عن نفسه فأراهـــــــــا أيما شمم
وأكـــدت زهـــده فيها ضرورتــــه
إن الضرورة لاتعـــدو على الـــعصم
وكيـــف يدرك فى الدنيـــا حقيقتـــه
قوم نيـــام تسلـــوا عنـــه بالحلـــم ؟

كيف يقال على هذا النبى ﷺ أنه نظر إلى الحياة على أنها متعة جسدية وهو الذى كان يمكث فى بيته شهرين ولم توقد فى بيته نار يطبخ عليها ؟

إن الله تعالى خاطب نبيه ﷺ بهاتين الآيتين فى أمر عرض له من أزواجه عندما طلبن منه زينة الحياة الدنيا فلو كان الرسول يسعى لمتعة جسدية وشهوة نسائية لوفر لهن هذه المطالب وأكثر منها ، كما يفعل أصحاب الرغبات والشهوات ولكن ماذا حدث ؟

أسمع إلى العلامة ابن كثير ، يفسر هذا المشهد القرآنى ، يقول رحمه الله : « هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ أن يخير نساءه بين أن يفارقهن فيذهب إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها ، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ، ولهن عند الله فى ذلك الثواب الجزيل ، فاخترن ـــ رضى الله عنهن وأرضاهن ـــ الله ورسوله والدار الآخرة ـــ فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

قال البخارى بسنده عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، أن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ زوجة النبى ﷺ أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه قالت : فبدأ بى رسول الله ﷺ فقال : « إنى ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلى حتى تستأمرى أبويك » وقد علم أبوى لم يكونا يأمرانى بفراقه . قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال ﴿ **يا أيها النبى قل لأزواجك** ... ﴾ الآيات إلى تمام الآيتين . فقلت له : **ففى** أى هذا استأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

أرأيت ياأخا الإسلام لم كان التخيير وفيم كان ؟؟

لأنهن أردن الحياة الدنيا وزينتها ، فخيرت بين الحياة الدنيا وزينتها والتسريح الجميل وبين الله ورسوله والدار الآخرة .

ومعنى ﴿ **أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا** ﴾ أى : أعطيكن حقوقكن وأطلق سراحكن .

لو كان هذا الإنسان الكامل والمثل الأعلى طالب متعة وصاحب رغبة شهوانية ، هل كان يمانع فى أنه يأتى لهن بزينة الحياة الدنيا ليستمتع بمفاتن النساء ومباهج الحياة ؟

سبحانك ربى ، لقد بعثته أسوة حسنة وقدوة طيبة . إن هذا البيت بيت النبوة ، لقد قال الله تعالى لنساء هذا البيت ﴿ **واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً** ﴾ .

بيت يهبط فيه الأمين جبريل ورفقاؤه من كبار الملائكة . بيت يتلقى الوحى من رب السماء .

بيت قرآنى يفوح من أريج القرآن عطراً وريحاناً .

إنه البيت الذى قال الله تعالى فى شأنه : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا** ﴾[1].

حقـوق الزوج

قال تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله** ﴾[2].

إن ميزان الإسلام عادل فى كل قضاياه وبين الحقوق والواجبات يقيم الإسلام الوزن بالقسط ولا يخسر الميزان ، فكما أن للزوجة حقوق على زوجها قد سبق بيانها فإن منطق العدالة يقتضى أن يكون للزوج حقوقا على زوجته حتى لايطغى الميزان فيخطىء الحساب فيأتى بأوخم العواقب .

وهاهو الصادق الأمين صلوات ربى وسلامه عليه حدثنا عن مكانة الزوج بالنسبة للزوجته .

عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ قالت : سألت رسول الله ﷺ : أى الناس أعظم حقاً على المرأة ؟ قال : زوجها ، قلت : فأى الناس أعظم حقاً على الرجل ؟ قال :أمــه »[3]رواه البزار .

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٢) سورة النساء آية ٣٤ .

(٣) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار . حـ ٢ ص ١٧٦ . رقم ١٤٦٢ .

وعن أم سلمة — رضى الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة »[١] رواه الترمذى .

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صلت المرأة خمسها وحصنت فرجها وأطاعت بعلها دخلت من أى أبواب الجنة شاءت »[٢] رواه ابن حبان والإمام أحمد .

وروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : جاءت امرأة إلى النبى ﷺ قالت : يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك ، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال فإن يصيبوا أجروا وإن قتلوا كانوا أحياء عند ربهم يرزقون ونحن معشر النساء نقوم عليهم فمالنا من ذلك ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : « أبلغى من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله »[٣] رواه البزار .

— وعن قيس بن سعد — رضى الله عنه — قال : أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فقلت : رسول الله ﷺ أحق أن يسجد له ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت : إنى أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فأنت أحق أن يسجد لك ، فقال لى : « أرأيت لو مررت بقبرى أكنت تسجد له ؟ فقلت لا . فقال : لا تفعلوا لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن لما جعل الله لهم عليهن من الحق »[٤] رواه أبو داود .

ولفظ ابن ماجه فقال رسول الله ﷺ : « لا تفعلوا فإنى لو كنت آمراً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها والذى نفسى محمد بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها »[٥].

وعن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح »[٦] رواه البخارى ومسلم .

وفى رواية لهما قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشه فتأبى عليه إلا كان الذى فى السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها »[٧].

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٣ ص ٤٦٦ . كتاب الرضاع باب حق الزوج على المرأة رقم ١١٦١ .
انظر سنن ابن ماجة حـ ١ ص ٥٩٥ . كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٤ .

(٢) انظر مسند الإمام أحمد حـ ١ ص ١٩١ . وصحيح ابن حبان حـ ٦ ص ١٨٤ والبزار حـ ٢ ص ١٨١ رقم ١٤٧٣ .

(٣) انظر كشف الأستار عن زوائد البزار حـ ٢ ص ١٨١ رقم ١٤٧٤ .

(٤) انظر سنن أبى داود حـ ٢ ص ٦٠٤ رقم ٢١٤٠ .

(٥) انظر سنن ابن ماجة حـ ١ ص ٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة رقم ١٨٥٣ .

(٦) انظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح . باب تحريم امتناعها من فراش زوجها . رقم ١٢٢/١٤٣٦ .

(٧) انظر صحيح مسلم حـ ٢ ص ١٠٦٠ كتاب النكاح . باب تحريم امتناعها من فراش زوجها . رقم ١٢١/١٤٣١

وعن ابن عمر — رضى الله عنهما — قال : رسول الله ﷺ « اثنان لا تجاوز صلاتهما رءوسهما : عبد أبق من مواليه حتى يرجع ، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع »[١]. رواه الطبرانى .

وقد فضل الفقهاء الحقوق الواجبة للزوج على زوجته تفصيلاً لا يدع لبساً أو غموضا وإليك بيان تلك الحقوق :

١ - الطاعة

للزوج حقوق على زوجته يجب عليها مراعتها والقيام بها وأول هذه الحقوق الطاعة ، فالأسرة هى الجماعة الأولى التى تتكون منها الأمة ، وبصلاحها تصلح الأمة وبفسادها تفسد ، لا ينتظم أمر جماعة من الجماعات ولا يستقيم حالها إلا إذا كان لها رئيس يدير أمورها ويصرف شئونها ويوجهها إلى الغاية الصحيحة فى الحياة ، ولما كانت المرأة قد أعدتها الفطرة الإلهية للحمل والولادة والعناية بشئون البيت ووهبتها خِلقة لا تقوى على الكفاح الخارجى فى الحياة فى حين أنها وهبت الرجل قوة فى البدن والعزم والعمل وطبيعة تمكنه أن يعيش فى البيت ويعمل خارجه ويتردد على الأسواق ويختلط بالناس فيعرف من شئون الحياة وسياسة الاجتماع مالا تعرف لذلك كان أجدر منها بمرتبة الرئاسة ، وله عليها حق الطاعة فعليها أن تطيعه فيما هو من شئون الزوجية فى غير ما نهى الله عنه إذ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . والأصل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم** ﴾[٢] فإنه سبحانه جعل للزوجات من الحقوق مثل ما عليهن من الواجبات وجعل للأزواج درجة على الزوجات وهذه الدرجة هى درجة الرئاسة البيتية والقومية على شئون الزوجة وما يلزم لرعاية الأولاد وتربيتهم وقد أثبت جل شأنه هذه القوامة فى الآية الأخرى بقوله عز وجل ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾[٣]

وبين السبب فى تحميل الرجال مسئولية الهيمنة والقوامة وهو ما أودعه فيهم من القوة فى البدن والقدرة على الكفاح وتحصيل المال وما كلفهم به من الإنفاق على البيت والقيام بكل ما تحتاج إليه الزوجة والأبناء والأسرة .

ومجال الناحية الخلقية فى هذا أوسع من مجال الناحية القانونية ولذلك كثرت الأحاديث التى تحث الزوجة على طاعة زوجها .

---

(١) انظر كنز العمال حـ ٩ رقم ٢٥١٠٧ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

(٣) سورة النساء آية ٣٤ .

٢ - القرار فى البيت

قال الفقهاء ومن حق الزوج على زوجته القرار فى البيت : قال تعالى ﴿ **وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله** ﴾[١] .

وقال جل شأنه : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً** ﴾[٢]

هذه أحكام الله ، والله تعالى إذا قضى فلا راد لقضائه وإذا حكم فلا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ، وهو الحكم العدل المقسط ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤتى من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[٣] لذا قال سبحانه ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾[٤]

قال الفقهاء : ومن حق الزوج على زوجته أن تقيم معه فى المسكن الذى أعده لهما متى أوفاها عاجل صداقها ، وكان المسكن الذى أعده لها مسكنا شرعيا تتوفر فيه أسباب الراحة والاستقرار والكرامة لأن عقد الزواج يتضمن تعهد كل منهما بالقيام بمطالب الزوجية ، ومطالب الزوجية تقتضى قرار الزوجة فى المنزل حتى تستطيع التفرغ لما شرع الزواج له من إنجاب الأولاد والعناية بهم وتهيئة وسائل الراحة لأفراد الأسرة جميعاً ، خصوصاً وأن خروج المرأة مدعاة للفتنة ولو فتح هذا الباب لاختل نظام الأسرة ، وسرى الشك إلى الزوج فى سلوك زوجته ، وفى هذا من الفساد ما لا يخفى ، لذلك على الزوجة أن تبقى فى منزل الزوجية وألا تخرج منه إلا إذا أذن لها الزوج فى ذلك أو كان هناك ضرورة تدعوها إلى الخروج كأداء فريضة الحج بشرط أن تكون فى صحبة ذى محرم ، وكزيارة أبويها وأقاربها المحارم .

وقد نص الفقهاء على أن للزوجة الحق فى أن تزور أبويها مرة فى كل أسبوع وأن تزور من عداهما من المحارم مرة فى كل سنة ، والذى ينبغى فى هذا الموضوع أن يترك تقدير مرات الزيارة وفتراتها للعرف مع مراعاة حال الزوجة وحال أقاربها وحال زوجها فقد يقضى العرف بأن خروجها مرة فى كل

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .

(٣) سورة النساء آية ٤٠ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٣٦ .

أسبوع لزيارة أبويها لاداعى إليه وقد يكون فى خروجها كل أسبوع لزيارتهما فتح لباب الفتنة خصوصاً إذا كانت الزوجة شابة أو كان الزوج من ذوى المكانات فى الهيئة الاجتماعية .

وفى جميع الحالات التى يباح للزوجة فيها الخروج لا يجوز لها شرعاً أن تخرج على وجه ينافى الأدب ، ويجافى الفضيلة ، ويدعو إلى الفتنة ، كأن تخرج متزينة متعطرة أو كاشفة عن شىء مما أوجب الله عليها ستره كالشعر والعنق والصدر والذراعين والساقين ، وغير ذلك مما يكون من شأنه أن يدعو الرجال إلى التطلع إليها والافتتان بها ، لقول الله تعالى : ﴿ **ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى** ﴾[1] ومن التبرج على ماجاء فى بعض الروايات المشية بتكسر وحركات مثيرة، كما كان يفعله نساء الجاهلية الأولى ، ومن التبرج أيضاً أن تلبس المرأة ثوباً رقيقاً لا يحجب رؤية ما تحته أو يصف ما تحته ويحدد أجزاء جسمها .

روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ــ رضى الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ قال : « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد . نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات على رؤوسهن أمثال أسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا كذا . ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس »[2]

وأخرج الحاكم عن أبى موسى ــ رضى الله عنه ــ عن النبى ﷺ قال : « أيما امرأة استعطرت فخرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهى زانية وكل عين زانية »[3].

ومما يتناوله حق الطاعة والقرار فى البيت أن تصون المرأة نفسها عما يدنس شرفها وشرف زوجها وأن تحافظ على كرامتها ، وأن ترعى أولادهما وتحسن تربيتهم ، وأن تحفظ مال زوجها فلا تعط أحداً منه شيئاً لم تجر العادة بإعطائه إلا بإذن زوجها ، وألا تأذن لأحد فى دخول بيته من غير رضاه ، وأن تحسن عشرته كما يجب عليه أن يحسن عشرتها ، وبذلك يسود الوئام بين الزوجين ويعيشان فى هناء وسعادة .

هذا ومما ينبغى أن تعلمه المرأة أن ملازمتها لبيتها وعدم خروجها إلا بإذن زوجها أو لضرورة أو حاجة لا يراد منه ــ كما يشيعه أعداء الفضيلة ــ حبسها فى المنزل أو التضييق عليها ، وإنما يراد منه تفريغها لخدمة البيت والإشراف على شئونه التى هى من خصائصها ورعاية الأولاد فى الطفولة التى

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٤ .

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٦٨٠ كتاب اللباس والزينة . باب النساء والكاسيات العاريات المائلات المميلات . رقم ٢١٢٨/١٢٥ .

(٣) انظر المستدرك على الصحيحين حـ ٢ ص ٣٩٦ تفسير سورة النور .

هى من شأنها والمحافظة على كرامتها وحمايتها من الأضرار والمفاسد التى تنشأ عن كثرة الخروج ومزاحمة الرجال .

وعلى الجملة فإن ملازمة المرأة لبيتها يخلصها من آفات كثيرة وبلايا عديدة ، وإن إيجاب الشرع ذلك عليها هو لفائدتها وراحتها والسير بها إلى ما يوجب لها الرفعة وعلو الشأن والراحة والهناء ، وحسبه فخراً أن الله تعالى جعله من أحسن ما توصف به المرأة فقال تعالى : ﴿ **حور مقصورات فى الخيام** ﴾[(١)] وحث عليه النبى ﷺ فى كثير من الأحاديث ومن ذلك ما رواه الترمذى أن الرسول ﷺ قال : « إن المرأة إذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها »[(٢)]. وأخرج البزار عن أنس قال : جاءت النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن يا رسول الله : ذهبت الرجال بالفضل والجهاد فى سبيل الله فهل لنا من عمل ندرك به المجاهدين ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « من قعدت منكم فى بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين فى سبيل الله »[(٣)].

ولو أن عقلاء الأمة حرصوا على هذا المبدأ الإسلامى وعلموه لأزواجهم وبناتهم وألزموهن به لقضوا على التبرج وفساد الأخلاق وصانوا بذلك أعراضهم ، وحفظوا أنسابهم وحموا الأسرة من التفكك والانحلال هذا ، ومما ينبغى التنبيه عليه هنا أن التزام الزوجة بالطاعة والانقياد لزوجها يقابله واجب على الزوج ، وهو الإنفاق على الزوجة ، فإذا قام الزوج بالواجب عليه وامتنعت الزوجة من طاعة زوجها بدون عذر كان ذلك نشوزاً مانعا لاستحقاقها النفقة ، فللزوج أن يمتنع من الإنفاق عليها إلى أن تعود إلى طاعته .

٣ - التأديب

ومن الحقوق التى جعلها الشارع الحكيم للزوج حق تأديب الزوجة وتهذيبها بالمعروف اللائق بمكانها ، كما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **الرجال قوامون على النساء بما فضل بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان عليا كبيراً** ﴾[(٤)].

جعلت الآية **النوع الأول** : الصالحات ، وهن اللاتى وصفهن الله تعالى بقوله : ﴿ **فالصالحات**

---

(١) سورة الرحمن آية ٧٢ .

(٢) أنظر كنز العمال حـ ١٥ رقم ١٣٠٥١ ، ١٣٠٥٦

(٣) أنظر كشف الأستار عن زوائد البزار حـ ٢ ص ١٨٢ . كتاب النكاح رقم ١٤٧٥ .

(٤) سورة النساء آية ٣٤ .

قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾ وهؤلاء لسن فى حاجة إلى تأديب ، فقد بلغن بصلاحهن وخضوعهن لله ولأزواجهن وحفظ ما يجب حفظه من أسرار الزوجية مرتبة تسمو عن التعرض لهن .

والنوع الثانى : غير الصالحات ، وهن اللاتى يحاولن الخروج عن حقوق الزوجية والنشوز عن طاعة أزواجهن وعصيانهن لهم ، وهؤلاء فى حاجة إلى الإصلاح والتهذيب والتأديب ليردهن إلى الصواب لأن تركهن فى غيهن يسبب شقاء البيت ويعرض الحياة الزوجية للتدهور والانحلال . وقد رسم الله فى هذه الآية الطريق لهذا الإصلاح والتهذيب ، ووكل ذلك إلى الزوج بحكم الإشراف والرياسة ومخالطته لزوجته واطلاعه على ما ظهر من شأنها وما بطن ، ولم يكل ذلك إلى غيره من الولاة والقضاة صوناً لما بينهما من الذيوع والانتشار .

ولما كانت طبائع النساء تختلف بإختلاف البيئة وتنوع التربية وكان من الذنوب الصغيرة والكبيرة ، شرع الله تعالى من أساليب التهذيب ووسائل التأديب ثلاثا ليختار الزوج منها ما يلائم الذنب وحال الزوجة .

الوسيلة الأولى : الموعظة الحسنة ، وهذه تلائم المرأة التى تكفيها الإشارة أو الكلمة أو الذنب الصغير والرجل أدرى بما يؤثر فى زوجته .

الوسيلة الثانية : الهجر فى المضجع ، وقد اختلف العلماء فى المراد به فقيل : المراد أن يبيت فى حجرة غير التى تبيت فيها وقيل : أن يبيت فى فراش غير فراشها وقيل غير ذلك ، ومادام المقصود من الهجر التأديب فليترك ذلك للزوج يفعل ما يراه أدعى إلى كبح جماحها وردها إلى صوابها ، وقد حدد العلماء مدة الهجر فى المضجع بمالا يبلغ مدة الإيلاء المقدرة شرعاً بأربعة أشهر .

الوسيلة الثالثة : الضرب ، وهو علاج الشرسات اللاتى لا يجدى فيهن الوعظ ولا الهجر ، ولا يصلح مثلهن إلا به ، وقد جعله الشارع الحكيم آخر الوسائل الإصلاحية التى يملكها الرجل ، وبذلك كان كالدواء الأخير الذى لا يلجأ إليه إلا عند الضرورة ، والضرب الذى يملكه الزوج هو الضرب الذى لا يكون شديداً ولا شائناً ، ففى السنة أن رسول الله ﷺ خطب الناس فى حجة الوداع فحمد الله وأثنى عليه ، وذكر ووعظ ثم قال : « استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن ضرباً غير مبرح فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا »[1].

ولو استعمل الرجل وسائل التأديب واستنفد طرق العلاج التى يملكها بما فيها وسيلة الضرب ولم يجد ذلك فى إصلاح الزوجة لجأ إلى المرحلة الرابعة كما قال تعالى : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا**

---

(١) انظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٤٩٥٥ ، ٤٤٩٨٦ .

حكماً من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً ﴾[١].

على ما سيأتى بيانه ـــ ان شاء الله ـــ فى الكلام عند التفريق بين الزوجين للضرر الناشىء عن الشقاق .

وقد أساء بعد المتعلمين تعليماً مدنياً وفهم أن يكون الضرب وسيلة من وسائل العلاج ووصفوه بأنه علاج صحراوى جاف لا يتفق مع التحضر والرق الذى وصلت إليه المرأة ، وما ينبغى أن يكون لها من الاحترام والتكريم ، وقد فات هؤلاء الناقدين أن الإسلام ليس تشريعاً لإقليم خاص ولا لبيئة خاصة وإنما هو تشريع عام لكل الناس ولجميع البيئات فلابد أن يضع من العلاج مايلائم كل طائفة ويصلح لكل نوع .

وأن الضرب ليس هو كل ما شرعه الإسلام من علاج ، وإنما هو واحد من ثلاثة هو آخرها فى الذكر ، كما هو آخرها فى الالتجاء إليه . والخبير بأحوال النساء يعلم أن منهن من لا يصلح حالها إلا بهذا النوع من التأديب ، ولو أن هؤلاء المنكرين وسعوا دائرة أفقهم وعرفوا أن الناس أصناف وأنواع وأن علاج كل صنف يختلف عن علاج الصنف الآخر لما شعروا بمرارة ولا غضاضة من هذا النوع من التأديب .

أحكام تتعلق بالأسرة

وبعد الحديث عن الحقوق الزوجية وتقسيمها إلى مشتركة وخاصة بالزوج وخاصة بالزوجة يهمنا أن يشمل هذه الأحكام التى تتعلق بالأسرة كما جاءت فى كتاب « المجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء لفضيلة الشيخ / محمد محمد المدنى يقول رحمه الله : منزلة الأسرة فى الإسلام

١ – الأسرة هى المجتمع الصغير الذى يتربى فيه الإنسان وينشأ من أول عهده بالحياة فى أحضانه يتطبع بطابعه ويرى الأشياء بعينه ويتعرفها عن طريق أحكامه وميوله واتجاهاته وماله من أيماء حية يستحسن ما يراه حسناً أو يستقبح ما يراه قبيحاً إلى غير ذلك .

ولذلك أدرك علماء الاجتماع أن البيت هو الينبوع الأول الذى يمد الأمة بالرجال والنساء وأنه إذا كان هذا الينبوع طيباً صافياً خالياً من الشوائب المفسدة كان إمداده خيراً على الأمة وزاداً لها من الأفراد الصالحين الطيبين الذين يصبون فى مجتمعها الأكبر لبنات قوة وحلقات تعاون ودعاة فضيلة ودعائم نظام ومصادر سعادة وإذا كان هذا الينبوع مشوباً بالشوائب قائماً على الفوضى والإهمال فإن إمداده يكون شراً على الأمة وخطراً على مقوماتها ونكداً ووبالاً على مجتمعها .

(١) سورة النساء آية ٣٥ .

وهذا المعنى يقرره القرآن الكريم حيث يقول ﴿ **والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا** ﴾[١]

فهذا مثل ضربه الله تعالى لكل مصدر من المصادر التى تمد الناس ، فإذا كان هذا المصدر طيباً كان إمداده طيباً وإذا كان خبيثاً كان إمداده خبيثاً وقد ضرب الله لنا مثلاً آخر بعد أن بين مصائر الكافرين والمؤمنين فقال جل ذكره : ﴿ **ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء * ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار** ﴾[٢].

٢ - لذلك عنى الإسلام عامة — كتاباً وسنة وفقها وحكما وقضاء بهذا الينبوع الأول من ينابيع المجتمع فوضع له عن طريق التشريع والإرشاد والتوجيه مجموعة من القوانين والنظم هى خير ما أخرج للناس فى هذا الجانب الحيوى الأساسى من شئون الإصلاح الاجتماعى .

وسورة النساء قد أخذت من هذا بحظ وافر ولا عجب فهى السورة التى تبنى المجتمع الإسلامى على أسس الاستقرار والفضيلة والسعادة الكاملة . وقد قدمنا بعض الأمثلة من توجيهها لأفراد الأسر إلى المبادىء السليمة والسبل الراشدة وهنا نتحدث عن الأحكام التى شرعتها فى هذا الجانب .

١ - لم تقتصر سورة النساء على معالجة شئون الأسرة من ناحية الزوجية ولكنها بدأت من الأساس فأمرت بإنصاف اليتامى والسفهاء باعتبارهم أضعف أفراد الأسرة وجعلت لهم من المجتمع الأكبر رقيباً يقوم لليتيم بما يعوضه من رعاية الأب ويقوم للسفيه بما يعوضه عما فقد من الرشد ثم أمرت برعاية النساء فى حقوقهن المالية فأبطلت ما كان عليه الجاهلية من حرمانهن وجعلت للنساء نصيباً مفروضاً مما ترك الوالدان والأقربون فى نص قوى مفيد لأن هذا الحق ثابت للنساء على نحو مستقل كثبوته للرجال ثم شرعت نظام الميراث كاملاً على نحو يقطع دابر النزاع ويحقق لكل عضو فى الأسرة نصيباً يوازى مسئولياته وما عهد إليه به من شئون نفسه ومجتمعه الصغير ومجتمعه الكبير وقد تقدم القول فى ذلك فيما مضى من الأحكام .

٢ - أما أحكام الأسرة من ناحية الزوجية فإننا نجد أن أول ما عنيت به السورة هو وجوب إعطاء النساء مهرهن نحلة وإبطالها بذلك ما كان فى الجاهلية منذ أخذ الأولياء صداق من تحت أيديهن من النساء أو احتجاز الأزواج لهذا الصداق أو لبعضه دون وفاء به تهاوناً بحقهن وطمعاً فيهن .

---

(١) سورة الأعراف آية ٥٨ .

(٢) سورة إبراهيم الآيات ٢٤ - ٢٩ .

ولاشك أن تشريع هذا الحكم هو أول خطوة عملية فى اصلاح نفس الزوجة وإشعارها أنها وقد انفصلت عن أسرتها النسبية واتجهت إلى تأسيس أسرة زوجية قد أعطيت ما يساعدها على ذلك وقد اعترف لها بحق ما لى تكون فيه آخذة وتشعر فيه بمبادىء الاستقلال من الأسرة السابقة وأنها لم تنتقل إلى البيت الجديد كسلعة قبض وليها ثمنها أو استولى عليها زوجها دون أن يبذل فى سبيلها .

إن مما يصلح المرأة أن تشعر بأنها مطلوبة مرغوب فيها وأن هناك من يبذل الكثير من ماله رمزاً لحاجته إليها ورغبته فيها وقد جعل الصداق على الرجل تحقيقاً لهذه الغاية الحسنة التى هى تكريم المرأة واعتبار ما تزهى بها وتعتز بحكم أنوثتها وذلك مالا يوجد فى النظم التى تجعل المرأة بإذلة كأنها هى الطالبة للرجل فيفرضون عليها أن تدفع من المال ما يسمونه باسم « الدولة » وقد يكلفونها مالا تستطيع وربما ظلت الفتاة سنوات طوالاً تدخر من المال ما تقدمه لمن يخطبها وفى ذلك إشعار لها من أول حياتها بأنها محتاجة إلى رجل وأنها يجب أن تبذل فى سبيل رجل .

فلاشك أن حكم الله فى ذلك هو العدل ﴿**ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**﴾[1].

حماية الاسرة من الرذيلة

وعنيت سورة النساء بحماية الأسرة من الرذيلة عن طريق حماية الزوجة والأنثى عامة من جريمة الإناث وحماية الزوج والرجل عامة من جريمة الذكران وهما الجريمتان اللتان ذكر حكمهما فى قوله تعالى : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم** .. ﴾ الآية .

ابطال عادة إرث النساء

وعنيت بحماية المرأة من أن تتعرض بعد موت زوجها إلى ظلم ذوى قرباه بأن تورث كما يورث المتاع ، طمعاً فيها أو فى فداء تقدمه وذلك لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ﴾[2] وقد كان من عادة العرب فى الجاهلية . أن الرجل إذا مات كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وان شاءوا زوجوها وان شاءوا لم يزوجها فهم أحق بها من أهلها ، وكان الرجل إذا مات جاء وارثه فألقى على امرأته ثوبه فمنعها من الناس ، فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها عن الزواج حتى تموت فيرثها . كذلك كانت المرأة فى البيئة العربية الجاهلية فأنقذها الله تعالى وكرمها وأعتقها من هذا الاستعباد فجعل لها الحق فى نفسها وفى مالها وأعطاها نصيباً من ميراث زوجها فكان ذلك انقلابا عظيما فى تاريخ حقوق النساء .

(١) سورة المائدة آية ٥٠ .

(٢) سورة النساء آية ١٩ .

تحريم عضل الزوجات :

٥ - وعنيت السورة بحماية الزوجات من أن يعضلهن أزواجهن بغير مبرر . وأصل العضل التضييق والمنع وكان الرجل فى الجاهلية ربما تزوج امرأة فلم تعجبه فيعضلها أى يضيق عليها ويمنعها حقوقها الزوجية ويذرها كالمعلقة لا هى بالمتزوجة ولا بالمطلقة حتى تعطيه ما قدم لها من صداق أو بعضه أو أكثر ، بل وصل ذلك بهم إلى حد أن صار قانونا معمولاً به فكان الرجل يكتب بينه وبين من فارقها كارهاً لها كتاباً ويشهد عليها الشهود يشترط عليها فيه ألا تتزوج إلا بإذنه فإذا خطبها خاطب فإن أعطت زوجها الأول وأرضته أذن لها ، وإلا أعضلها أى منعها ورفض خاطبها وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ ولاتمسكوهن ضراراً لتعتدوا ﴾ . ونحن نشاهد فى عصرنا آثاراً من هذه العادات الجاهلية وفينا من إذا(١) كره المرأة ضيق عليها وأساء عشرتها لتفتدى منه بإبرائه من مؤخر صداقها ، ومنهم من لا يكتفى بذلك بل يطلب فى مقابل طلاقه لمن يكرهها ويمسكهاضراراً المال الكثير فداء لها وهذا ظلم لا يرضاه الله ولا يليق بمن وضعت فى يده أمانة الزوجية وكلف بصونها ومراقبة الله فيها .

وقد استثنت الآية من ذلك حالة صدور فاحشة مبينة أى واضحة من الزوجة وأباحت هذا الاستثناء أن يمسك الرجل المرأة حتى تفتدى بمال أو تتنازل عن بعض صداقها كالمؤخر مثلاً .

والفاحشة المبينة ليست شيئاً معيناً كالزنا مثلاً فكل ما يصدر من المرأة مما يؤذى العرض أو الكرامة أو يأباه العرف السليم فهو فاحشة تستحق المرأة إذا ارتكبته أن يضيق عليها لأنها حينئذ هى المعتدية وهى التى أساءت إلى الزوجية وخرجت على حدودها . وإنما وصف الفاحشة بكونها « مبينة » لكى لا يتوسع الأزواج فيعدّوا الهفوات والأخطاء اليسيرة على زوجاتهم فالمفروض أن المرأة تخطىء أحيانا ولكن هناك فرقا بين خطأ وخطأ فلاينبغى التشديد فى احتساب كل شىء على النساء ولكن ينبغى أن تكون الحماية الزوجية قائمة على كثير من التسامح فالله تعالى ينصف بهذا كلا من الرجل والمرأة فإذا كانت المرأة صالحة قائمة بواجبها غير مفسدة ولا مفحشة حرم على الرجل مضايقتها والتطلع إلى أن يأخذ شيئا من مالها أو صداقها فداء لها ، وإن كانت المرأة ظالمة مفسدة مفحشة تجعل حياة زوجها شقية أو تقرب من ذلك فإنها حينئذ تستحق أن تعامل بالتضييق وأن تطالب بتعويض الرجل ما أنفقه أو بعض ما أنفقه ، وكثير من النساء من تتطلع إلى الطلاق لمتتزوج بغير زوجها فالرجل مظلوم مع مثل هذه الزوجة ومن حقه أن يعوض .

حق كل من الزوجين على صاحبه

٦ - وعنيت سورة النساء بالحياة الزوجية من حيث حسن المعاشرة فأوجب معاشرة النساء بالمعروف ، وبين أن عاطفة الحب أو الكره ليستا دائماً أمارة على المستقبل السعيد أو الشقى وذلك

(١) سورة البقرة آية ٢٣١ .

قوله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾[١].

كما عنيت ببيان الأساس الذى يجب أن تقوم عليه حقوق كل من الرجال والنساء فبينت أن للرجل على المرأة حق الرياسة وعليها أن تطيعه وتحفظ غيبه واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلوا الله من فضله ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴾[٣].

وتتلخص الأحكام التى جاءت بها هذه الآيات فيما يلى :

١ – على الرجل أن يعاشر زوجته بالمعروف .

٢ – على المرأة أن تطيع زوجها لرياسته وأن تحفظ كل ما أمر الله بحفظه فى نفسها وبيت زوجها فقد جعلها الله أمينة على ذلك

٣ – على الرجال والنساء كليهما أن يرضخا لحكم الله فى تهيئة كل منهما على الوضع المناسب للمقصود منه فلا يتطلع النساء إلى ماخص الله بالرجال وجعلهم مفضلين فيه ولا يتطلع الرجال إلى ما خص الله به النساء وجعلهن مفضلات فيه .

نشوز المرأة وكيف يعالج :

٧ – قد رسمت سورة النساء الخطة التى تتبع فى حالة وقوع خلاف بين الزوجين وإذا تدبرنا الأقسام التى يكون عليها هذا الخلاف وجدناها ثلاثة ووجدنا السورة قد عرضت لكل قسم منها وأعطت الحكم المناسب له .

فالحالة الأولى : هى حالة الزوجة التى يخشى منها النشوز

وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى : ﴿ واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً ﴾[٤]

ومن هنا أخذ الاصطلاح المشهور عن النشوز وهو فى الأصل الارتفاع ويراد به هنا أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه . وسمى استعصاؤها عليه نشوزاً لما كان خلاف النساء يرجع غالبا على أن ترفع المرأة وتعاليها عن قبول رياسة زوجها وطاعته .

---

(١) سورة النساء الآية ١٩ .

(٢) سورة النساء آية ٣٢ .

(٣) سورة النساء آية ٣٤ .

(٤) سورة النساء آية ٣٤ .

وفى الآية معنى يجب أن نلتفت إليه وأن نوجه به وجهة الإسلام فى وضع هذه العقوبات بين يدى الأزواج على زوجاتهم وخطته فى تنفيذها على سنة التدرج .

ذلك أن الآية تقول ﴿ **واللاتى تخافون نشوزهن** ﴾ فلا ترتب الحكم على وقوع النشوز ولكن على توقعه فخوف وقوع الشيء هو توقع حصوله وإنما يكون هذا التوقع أو هذا الخوف من الوقوع إذا ظهر فى أفق الزوجية بوادر تدل على أن المرأة تتجه إلى التخلص من سيطرة الزوج ورياسته وتسير فى الطريق المؤدية إلى عصيانه .

ولما كانت الأوائل تدل عادة على الأواخر وكان شأن الخلاف أن يبدأ صغيراً ثم يكبر تدريجياً حتى يصبح جفاء مستحكماً وبغضا ليس من السهل أقتلاعه من القلوب فإن الله تعالى يرشد إلى المبادرة بالعلاج وألا ينتظر الأزواج حالة النشوز الفعلى ليبدءوا علاجهم ولهذا وضعت خطة هذا العلاج متمشية مع المعروف من أطوار الخلاف .

الخطوة الأولى :

(فعظوهن)

فالبوادر الأولى الموحية بأن الزوجة سائرة فى طريق المخالفة والمغاضبة والاستعصاء يناسبها الخطوة الأولى وهى خطوة النصح والإرشاد فى رفق ولين وتلك هى المذكورة بقوله تعالى ﴿ **فعظوهن** ﴾ وينبغى أن يفهم أن هذه الخطوة الأولى المناسبة للبوادر الأولى لا تقف عند بذل هذا الوعظ والنصح مرة واحدة فإن الشأن أن هذه المرحلة تطول بعض الوقت وأنها تقابل فى الحين بعد الحين بالتذكير وما يناسب كل حالة من النصح والتحذير ، بل قد يكون من أساليب الوعظ والإصلاح أن يتسامح الرجل أحياناً وأن يغفر عن قدرة وتمكن لتعرف الزوجة فضله فى ذلك وأنه ليس متهدئاً مندفعاً من أول الأمر فإن ذلك يصلح كثيراً من النساء اللواتى لاتصلحهن الشدة والعنف .

الخطوة الثانية :

﴿ **واهجروهن فى المضاجع** ﴾

فإذا لم تنجح الخطوة الأولى فمعنى ذلك أن طوراً آخر من أطوار الخلاف أو مقدمة أخرى من مقدمات هذا النشوز المتوقع قد بدأت تفعل فعلها ومن المناسب لذلك أن يظهر الرجل بمظهر الممتعض وأن يعبر عن هذا الامتعاض بطريقة صامتة ولكنها بليغة فى صمتها ، مؤثرة تأثيراً كبيرا فى المرأة فإن أكبر ما تقوى به المرأة أن ترى زوجها دائماً بها شديد الميل إليها فإذا وجدت منه ما يدل على الإنصراف عنها وعدم التأثير بأنوثتها أحست بأنها بدأت تدخل فى منطقة مد الخط وأن عليها الا تسترسل ولذلك أمر الله تعالى بالهجران فى المضاجع ليظهر هذا الموقف السلبى من الرجل فى أقصى

مداه ولتشعر به المرأة واضحاً وهذا هو لسر فى أن التعبير جاء بقوله ﴿ **واهجروهن فى المضاجع** ﴾ ولم يأت بمثل واهجروا مضاجعهن ، لأن هجر المضجع ــ مع كونه هجراً ــ إلا أنه على صورة تساعد على تقبله حيناً من الوقت ولكن فى المضجع أشد أفصاحاً عن انصراف النفس ، لأنه هجر مع قرب الدواعى وتيسرها .

الخطوة الثالثة :

﴿ **واضربوهن** ﴾

ولكن ينبغى أن يعلم أن أسلوب الهجران الزوجى لا يمكن أن يستمر طويلاً فإن له بمقتضى الطبيعة البشرية مدى لا يحتمل الزوجان أكثر منه فهو إما أن يؤدى الغاية منه سريعاً وإما أن يعلم أنه هو أيضا غير مفيد فى تطويع هذا الإباء وتقويم هذا الاعوجاج وهنا تأتى الخطوة الثالثة لأن الخلاف قد انتقل من طور البوادر الأولى وامتحن بالخطوة الثانية فأسفر الامتحان عن ثباته وتمكنه وأنه يوشك أن يعصف بالزوجية وأن يجر إلى مشكلات الفرقة والشقاق وقد يكون فى هذه الأسرة أولاد وقد تحدث خصومات تجر إلى خصومات وكوارث تجر إلى كوارث وهكذا كما شأن الطلاق الذى هو عند الله أبغض الحلال لما يحمله الناس من أثقال .

رد على وهم :

وهذه الخطوة الثالثة هى تأديب المرأة بالضرب وبعض المولعين بنقد الإسلام يستفظعون هذا اللون من العقوبة ويعتبرونه توحشا ويقولون أنه يصلح للقرون الأولى لا العصور المدنية والحضارة ، ولكنهم فى هذا النقد غير متصفين وقد أثرت عليهم فيه عوامل خاصة بالبيئة التى طغى فيها النساء حتى أصبحن هن الحاكمات على الرجال والمتحكمات فى شئون الأسرة فقد درج هؤلاء على المبالغة فى تدليل المرأة واسباغ ألوان من الاحترام عليها حتى أفسدوا ذوقها وأذواق من يتصلون بها فإن لكل شىء حدا ، والإسلام لاينكر على المرأة كرامتها ولكنه يقف بها عند حدها الذى رسمه لها ملاحظا فيه دورها فى المجتمع ووظيفتها التى تتناسب وطبيعتها وحاجة الناس إليها وهذا الدور يقتضى أن تكون تحت قوامة الزوج لما بيناه من أن ذلك هو الموافق للطبيعة ولما اكتسب كل من الرجل والمرأة من صفات خلقية ، فهل ترى الإسلام يقرر ذلك ويجعله مبدأ من مبادئه ويترتب عليه سائر أحكامه ثم لايحفظه بما يكفل تنفيذه واستقراره والخضوع له ؟ وهل تراه يترك المرأة تنساق على هذا النحو الذى وصفناه فى المراحل الثلاث الى إفساد زوجية وتشريد أبناء وتحطيم قلب وتخريب بيت وجر لألوان من المشكلات كل ذلك فى سبيل أن يعفيها من لطمة أو صفعة من زوجها ؟ وأى ذلك أخف على المجتمع ضررا ، بل عليها وهى على زوجها وأولادها : أحدوث ذلك كله أم الحيلولة دونه بهذا اللون من التأديب .

ثم إن الضرب المأذون فيه إنما هو الضرب الخفيف فقد وصفته السنة بأنه « غير مبرّح » وقد ألف للناس أن يؤدبوا بمثله أبناءهم صغارا وكبارا فلا يكون ذلك وحشية ولا إهانة وإنما هم صوروه كذلك لأنهم ضخموه ثم نقدوه لأنهم ضخموا إحساس المرأة به ولو رجعوا إلى الطبيعة لولتهم على أن تمتع من له الرياسة بلون يكون له حق العقوبة به حين لا يجدى غيره ويصلح به ما يخشى فساده هو أمر ضرورى لمصلحة الرئيس والمرءوس كليهما ففى بعض الأحيان يجب علينا أن نحمى أبناءنا وأحبابنا من أنفسهم ومن مصير سيىء ينتظرهم وهم عنه غافلون ، وما هذا النقد وأمثاله إلا انسياق مع الأوهام ومحاولة يقصد بها بعض الناس أن يثبتوا لأنفسهم صفات التهذيب والتمدن ولو على حساب الطبيعة والواقع وما تصلح عليه الحياة .

هذه الخطوات الثلاث التى يخطوها الأزواج فى اصلاح الزوجات اللاتى يخافون نشوزهن .

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أنه لا يجوز أن ينتقل من خطوة إلى خطوة إلا إذا لم تنجح الخطوة السابقة وذلك هو قوله تعالى بعد ذكر هذه الخطوات ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً** ﴾[1] ومعنى ذلك أن المرأة إذا فاءت بالنصح والوعظ إلى رشدها وأخذت فى طريق الطاعة والتزام الوضع الذى وصفه الله فإنه لا يجوز للزوج أن يبغى السبيل الثانية أو يقفز إلى السبيل الثالثة وإلا كان ظالماً متجنياً متعرضاً لعقوبة الله إذا ظهر أنه أساء استعمال هذه السلطة التى جعلها فى يده للإصلاح بالمعروف ، لا للتحكم ولا للإذلال .

وما أبلغ ما ذيلت الآية فى ذلك حيث تقول ﴿ **إن الله كان علياً كبيراً** ﴾ أى : فهو أعلى منكم سلطانا وأكبر قدرة فلو تجاوزتم حدودكم فيمن جعل الله تحت أيديكم فإن الله أقدر على عقوبتكم ، وسلطانه أعلى من سلطانكم .

(ب) نشوز الرجل وكيف يعالج .

وهذه هى الحالة الثانية من أحوال الخلاف بين الزوجية وقد جاءت هذه الحالة وعلاجها فى قوله تعالى : ﴿ **وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا * ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً * وإن يتفرقا يغن الله كلا من سعته وكان الله واسعاً حكيماً** ﴾[2]

١ - تقدم تفسير النشوز وهو بمعناه الذى ذكر فى المرأة مقصود هنا فقد يحتج الرجل إلى لون

---

(١) سورة النساء من آية ٣٤ .

(٢) سورة النساء الآيات ١٢٨ - ١٣٠ .

من ألوان الترفع على المرأة والاستكبار وقد عطف على هذا شيء آخر هو الإعراض وهو ميل الرجل عن المرأة لا لتكبر منه أو ترفع ولكن بسبب آخر قد يكون كراهية لها مبعث طبيعي يرجع إلى نقص فيها ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى الزوج نفسه واعتلال ذوقه وعدم اتفاق أخلاقها فليست المرأة دائماً هى العلة فى عدم التوافق بل قد يرجع ذلك إلى الرجل .

فإن امرأة خافت من بعلها أحد هذين أى توقعته وبدرت البوادر الدالة عليه فلا جناح عليهما أن يتفاهما فيتصالحا على وجه من الوجوه ومعنى ذلك أن الله تعالى يريد من الزوجين أن يحاولا حل مشكلتهما بأنفسهما دون أن يدخلا بينهما أحداً فإن ذلك أقرب إلى أن يصلا إلى هذا الحل لو اتجها إلى سر الكراهية اتجاها مباشراً وكان الإخلاص لهما رائداً فإذا لم توصلهما هذه الخطوة إلى حل المشكلة فليس فى الكلام ما يمنع من أن يستعينا ببعض أقاربهما أو أصدقائهما لأن الآية تقول : ﴿ **فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا** ﴾ وأحداث الصلح أو التصالح يكون بإحدى الطريقتين إما بالتفاهم المباشر وإما بتوسيط من يعينهما على ذلك ...

٢ – وفى الآية بعد بيان هذا الحكم إرشاد للزوجين كليهما بأن يؤثرا الصلح بينهما على وجه من الوجوه دون أن يترافعا أو يتخاصما فإن العادة جرت بأن نفور الرجل من المرأة يكون لأسباب ــ فى الغالب ــ من النوع الحساس والتخاصم فى مثل هذه الحالة يكون عرضاً لإسرار الأمر فى صورة صادقة أو كاذبة على القاضى أو من يقوم مقامه وقد يؤدى الموقف إلى كثير من المشكلات بين أقارب الزوج والزوجة وربما تعرض الزوج فى سبيل عرض مشكلته إلى ما يسىء الزوجة فى نفسها ويسىء أقاربها تبعاً لذلك فيغضبون ويفكرون فى الانتقام من الزوج وربما تعصب للزوج أيضاً أقاربه فيتسع مجال النزاع .

ولهذا أرشد الله كلاً من الزوجين إلى ماهو خير وأولى بهما وهو التفاهم بينهما والتراخى فقال تعالى : ﴿ **والصلح خير** ﴾ ولعل فى هذا ما يوحى بأن الشارع لا ينظر بعين الرضا إلى ما يدعو إليه بعض الناس فى عصرنا من التزام أن يكون الطلاق أمام القضاء وألا بإذن به القاضى إلا إذا كان له أسباب تبرزه .

والحق أن هذه الدعوة منافية للمصلحة وأنه لو استجيب لها لجرت على المجتمع كثيراً من الوبال ، وحسبنا أن المرأة التى يحكم لزوجها بطلاقها ستكون بعد هذا الحكم منظوراً إليها من الناس بنظرات الشك والتظنن فلا تكاد تجد من يقبل عليها من الأزواج .

ولا يصح أن يعترض على ذلك بأن الإسلام يبيح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها للضرر وثابت فى سبيل إثبات الضرر كثيراً ما أفاضت وتعرضت لأسرار وأن الأزواج يلاقون من ذلك الشىء الكثير فلا يضرهم ولا يجعل الناس ينظرون إليهم نظرات التظنن أو الاحتقار ــ نقول : لايصح أن

يعترض بذلك . هذا قياس مع الفارق كما يقولون فإن وضع المرأة فى المجتمع يجعل شرفها وأمرها كله عرضة للتأثر السريع ولا كذلك الرجل .

٣ – ثم حذرتهما الآية من العقبات النفسية التى قد تحول بينها وبين إتمام هذه الصلح فالعادة جرت بأن الصلح يحتاج إلى تقابل من الطرفين وتلاق فى منتصف الطريق فهذا يضحي ببعض التضحية والآخر يبادل تضحيته بمثلها أو بأكثر منها ولكن النفوس يحضرها الشح والعفن ، فليس من اليسير أن تبذل أو أن تتنازل ، فعلى الزوجين أن يقاوما فى نفسهما هذه المواقع النفسية وعلى الرجل فى ذلك القسط الأوفر فإنه بحكم وصفه من أول الأمر هو الطرف الباذل ثم هو الذى نشز أو أعرض أو اتجه إلى هذا النشوز والإعراض فبدرت منه بوادر ، فمن حق الزوجة عليه أن يرضيها وألا ينسى مكانتها منه وما فيها معه ولذلك يقول عز وجل ﴿ **وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾[1].

٤ – ولما كان أكثر ما يبعث على الكراهية نشوزا أو إعراضا فى قلب الرجل هو اتجاه إلى زوجة أخرى فإن الآية الثانية جاءت بإرشاد مبنى على هذا الغرض : ذلك أن من المحال على الرجل أن يعدل بين أمرأتين لأن العدل ميزان يقتضى أن يكون هناك تكافؤ تام بين طرفين فإن استطاع الرجل أن يحقق هذا التكافؤ بين الزوجتين فيما بعد من مظاهر السعادة الزوجية كالنفقة والكسوة والمبيت والبشاشة وحسن المعاملة ، فإنه لا يستطيع أن يحقق هذا التكافؤ أو هذا التوازن فى الميل القلبى والمحبة الروحية التى من شأن المرأة أن تحس بهما بمقتضى غريزة الأنثى فالله تعالى لا يتحدث عن غير المستطاع فإنه لا تكليف إلا فى حدود الاستطاعة ولكنه يقرر أولاً هذه الطبيعة ليكون تقريرها تمهيدا لما يأتى بعدها .

ثم ينهى عن أن يميل الرجال كل الميل عن زوجاتهم إذا كرهنهن فإن ذلك من شأنه أن يجعل المرأة كالمعلقة فلاهى بزوجة تنال حقوقها الزوجية كاملة ، ولاهى بمطلقة تلتمس السعادة الزوجية فى تجربة أخرى ، ولاشك أن الإنسان يستطيع أن يعالج نفسه فى هذا الشأن فيصل إلى تلطيف حدته العاطفية ويخفى جانباً كبيراً من ميله النفسى وذلك بأن يجد نقصه العاطفى بالتلطف فى المعاشرة والتحايل بمختلف أساليب الرقة واللباقة لكيلا يجرح شعور المرأة فهذا فى الحقيقة نهى عن الاسترسال فى عاطفة البغض وعن تعذيتها بما يقويها ويجعل الزوج يميل كل الميل عن زوجته فيؤذيها .

وقد جاء ختام هذه الآية أيضاً ترغيباً للرجال فى الإصلاح ومحاولة كل ما يؤدى إليه تحذيراً من الخروج على أمر الله بالظلم والتمادى فى الإساءة وذلك ما يؤخذه من قوله تعالى ﴿ **وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً** ﴾[2].

---

(١) سورة النساء آية ١٢٨ .

(٢) سورة النساء آية ١٢٩ .

أى فهو يغفر لكم ما عسى أن يكون من انسياق أحيانا مع دواعى الميل القلبى إذا كنتم تجاهدون ذلك حسب أستطاعتكم رحمة بكم .

٥ – وقد جاءت الآية الثالثة بعد ذلك بالخطوة الأخيرة حين يتعذر الصلح ولا يكون هناك الا التفرق بين الزوجين والتماس كل منهما حياة أهدأ فى ظل زوجية جديدة وهذا هو قوله تعالى : ﴿ **وإن يتفرقا يغني الله كلاً من سعته وكان الله واسعاً حكيماً** ﴾[١].

ومما ينبغى الالتفات إليه أن سورة النساء فى هذا كله وفى غيره من أحكام الزوجية لم تذكر الانفصال الزوجى إلا فى هذه الآية . وهى آخر آية عرضت فيها السورة لشأن زوجى ثم هى لم تذكر طريقة الطلاق ولا أحكامه وتفاصيله كما جاء فى سورة البقرة مثلاً ، وذلك لأنها السورة التى تبنى نظام المجتمع فهى تشرع كل ما يتصل بهذا البناء أما إذا انتهى الأمر إلى أن يتفرق كل من الزوجين عن صاحبه فهذا ما تمر به السورة مراً وما تركته يفتح باب الأمل فى أن يغنى الله كلا من سعته حتى لا يتحطم فرد من المجتمع لهذه المصيبة إذا نزلت به وحتى يدرك من يقع له ذلك أن هذا هو مصلحته وفيه الخير المرجو له فإن الرجاء فى استقبال حياة جديدة خير من العيش فى حياة كلها كراهية ونزاع ولذلك تذكر الآية فى ختامها ما يبعث الأمل وهو وصفه تعالى بأنه كان ــ ومايزال ــ (واسعاً) وتذكر أيضا ما يدل على أن الافتراق فى مثل هذه الحالة هو عين الحكمة وذلك هو وصفه تعالى بقوله ﴿ **حكيماً** ﴾ . وإذا فهذا أيضا بناء فى المجتمع أما تفاصيل هذا الافتراق وأساليبه وأحكامه التشريعية فقد تركته سورة النساء لغيرها .

(جـ) حالة الشقاق بين الزوجين :

وتلك هى الحالة الثالثة من حالات الخلاف بين الزوجين وقد جاء حكمها فى قوله تعالى : ﴿ **وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيراً** ﴾[٢].

وقد تقدم أن الحالة الأولى هى حالة الخوف من نشوز الزوجة وأن الحالة الثانية هى حالة الخوف من نشوز الزوج أو إعراضه ، وأن التشريع لهاتين الحالتين انبنى على اعتبار كل منهما مشكلة تحل عن طريق أحد الزوجين وما يتوسل به إلى إصلاح الآخر من تأديب أو تصالح ، أما هذه الحالة فهى حالة الشقاق الذى يخاف أن يكون بين الزوجين على المعنى الذى ذكرناه فى نظيرته من أن المراد بالخوف توقع الحصول بسبب ما يبدر من بوادر تؤذن بذلك ، وقد جاء التبعيد عن هذا الخلاف بأسلوب

(١) سورة النساء آية ١٣٠ .
(٢) سورة النساء الآية ٣٥ .

إضافة الشقاق إلى ﴿ بينهما ﴾ وذلك قوله تعالى : ﴿ **شقاق بينهما** ﴾ فقد أضيف الشقاق إلى الظرف وقالوا إنه إما بمعنى : شقاق بينهما أو بمعنى أن البين جعل كأنه يحدث منه شقاق .

والتفسير الثانى هو الأقوى لأنه يريد أن يقول : (**إن خفتم شقاقاً**) ما فابعثوا حكما ـ الآية . فإن الشقاق اليسير يترك للزوجين ولا يحتاج الأمر فيه إلى بعث حكمين وإنما المراد هو خوف أن يصبح الشقاق هو قاعدة التعامل بين الزوجين وهذا ما يفيده جعل البين نفسه مصدرا للشقاق كأن مجرد النسبة القائمة بينهما أصبح هو بذاته مثار الشقاق والنزاع .

وهذه الصورة من صور الخلاف تأتى فى المرتبة الوجودية عادة بعد حالة نشوز المرأة واستنفاذ كل الوسائل من الرجل فى سبيل إصلاحها ومعنى ذلك أن كل العقوبات لم تفد تقويم النشوز وأن الأمر بعد ذلك قد دخل فى دور عناد وشقاق كما جاء فى آية أخرى تقول ﴿ **فإن خفتم ألا يقيما حدود الله** ﴾[1] وعدم إقامة الزوجين حدود الله تبدو فى إخراجهما الزوجية عن كونها مودة ورحمة وسكنا على ما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[2] ولهذا جاءت بها السورة بعد حالة نشوز المرأة وبعد بيان خطوات العلاج فهى تفرض أن هذا كله لم ينجح وأن الأمر صائر إلى شقاق ذات البين .

العدل فى سورة النساء

إن سورة النساء قد أسهمت بنصيب واضح فى تقرير مبدأ العدل فى القضاء وفى الشهادة وكل المبادىء والأحكام التى أتت بها يمكن إرجاعها إلى مبدأ العدل .

١ – فالمساواة التى تحدثت عنها فى أول آية منها هى أساس العدل ولولاها لاضطرب ميزانه . ﴿ **يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[3].

٢ – واعتقاد الوحدانية عدل فى الاعتقاد وفيه إنصاف للعقل لأن العقل يحكم بأن للكون صانعا واحدا تبدو آثار قدرته وربوبيته فى كل ما خلق وفى كل ما جعل وفى كل ما أنعم فلابد للعقل من أن يحكم بأن الإله المستحق للعبادة والخضوع دون شريك له هو هذا الخالق الواحد ولذلك جاء فى وصية لقمان لابنه ﴿ **يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾[4]

---

(١) سورة البقرة من الآية ٢٢٩ .

(٢) سورة الروم الآية ٢١ .

(٣) سورة النساء الآية ١ .

(٤) سورة لقمان الآية ١٣ .

وجاء فى سورة النساء ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾[١] وما هذا إلا لأن الشرك قد أخل بميزان العدل إخلالا عظيماً وخرج على مقتضى العقل خروجا بعيدا فلم يعد أهلاً لأن يغفر له ويتجاوز عن ذنبه وفى هذه السورة أيضاً قوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما ﴾[٢].

٣ – والتضامن الاجتماعى الذى تقرره السورة فى الآيات التى تبدأ بقوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وماملكت أيمانكم ﴾[٣] هو أيضا مظهر من مظاهر عدل الإسلام لأنه لا يمكن أن يتحقق التوازن على وجه يكفل الاستقرار إلا بذلك ، ولا يمكن أن يقبل فى العقول أن يكون أحد أعضاء المجتمع متخما بالمال والنعم وبجانبه من هو مستحق لبعض ذلك ليعيش. ثم يعفى هذا المترف المنعم من أن يعاون أخاه بشىء من ماله إن ذلك لا يمكن أن يحكم به عاقل ولا يمكن أن يرتضيه نظام يقوم على العدل والتعاون .

وتجد السورة حينما تحدثت عن النساء فى أول آية جاء فيها الحديث عن النساء تقول : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا ﴾ . فالأمر إذن فى جواز التعدد أو عدم جوازه منوط بالعدل وجوداً وعدما .

وهكذا كل حكم من الأحكام فى هذه السورة أو فى غيرها إنما يستهدف العدل ويقوم على العدل وهذا أمر منطقى وإلا لما شرح ولما ألزم به الناس فى شريعة العدل .

وصدق الله العظيم القائل فى محكم كتابه ﴿ الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان ﴾[٤].

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

(٢) سورة النساء من آية ٤٨ .

(٣) سورة النساء آية ٣٦ .

(٤) سورة الشورى آية ١٧ .

جزاء الظالمين وإرشاد المؤمنين

قال تعالى :

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا
عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ
ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

معانى المفردات

﴿ **وكأين من قرية** ﴾ : أى : كثير من أهل القرى .

﴿ **عتت** ﴾ : أى تجبرت وتكبرت

﴿ **نكراً** ﴾ : أى : منكراً عظيماً .

﴿ **وبال أمرها** ﴾ : أى : عاقبة عتوّها .

﴿ **خسراً** ﴾ : أى خسارة فى الآخرة .

﴿ **ذكراً** ﴾ : أى : قرآناً .

﴿ **رسولاً** ﴾ : أى : وأرسل رسولاً .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر بأن الطلاق لايكون إلا فى أوقات خاصة ، وبأنه يجب انقضاء العدة حتى تحل المرأة لزوج آخر ، وذكر مدة العدة وما يجب للمعتدة من النفقة والكسوة ، ونهى عن تجاوز حدود الله ، وأن من يتجاوزها فقد ظلم نفسه ، توعد هنا من خالفوا أمره ، وكذبوا رسله ، وسلكوا غير ما شرعه ، وأنذرهم بأن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السالفة التى كذبت رسلها ، فأخذها عزيز مقتدر ، وأصبحت كأمس الدابر وصارت مثلاً فى الآخرين .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذابا نكرا . فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا . أعد الله لهم عذاباً شديداً** ﴾

يقول تعالى متوعدا لمن خالف أمره وكذب رسله وسلك غير ما شرعه ، ومخبرا عما حل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى : ﴿ **وكأين من قرية عتت عن أمر ربها** ﴾ أى : تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ومتابعة رسله ﴿ **فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد * وماظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ومازادوهم غير تتبيب * وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * ان فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود * وما نؤخره إلا لأجل معدود * يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد** ﴾(١).

وقوله تعالى : ﴿ **فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً * أعد الله لهم عذاباً شديداً** ﴾ أى فى الدار الآخرة مع ما عجل لهم من العذاب فى الدنيا .

ثم نبه سبحانه المؤمنين إلى تقوى الله حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم فقال تعالى : ﴿ **فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا** ﴾ أى : فخافوا أيها المؤمنون عقاب الله ، فأنتم أصحاب العقول الراجحة ، والفطر السليمة ، واحذروا أن يحل بكم ما حل بمن قبلكم ، وتذكروا فإن الذكرى تنفع المؤمنين . كقوله تعالى عن الخاسرين ﴿ **لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يخوف الله به عباده ، يا عباد فاتقون** ﴾(٢) ثم بين سبحانه ما يكون مذكراً لهم وداعياً لتقوى الله فقال

(١) سورة هود الآيات ١٠٠ - ١٠٥

(٢) سورة الزمر من الآية ١٦

تعالى : ﴿ ... قد أنزل الله إليكم ذكراً * رسولاً يتلوا عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ أى قد أنزل الله إليكم يا ذوى البصائر ذكراً لكم وهو القرآن الكريم يذكركم به ، لتستمسكوا بحبله المتين ، وتعملوا بطاعته .

قال القرطبى وقيل : الذكر هنا الشرف ، نحو قوله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾[2]. ثم بين هذا الشرف فقال : ﴿ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ كما قال تعالى : ﴿ هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وان الله بكم لرءوف رحيم ﴾[3] وكما قال سبحانه : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[4] أى من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم وقد سمى الله تعالى الوحى الذى أنزله نوراً لما يحصل به الهدى كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب فقال تعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ماكنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ﴾[5].

ثم بين سبحانه جزاء الإيمان والعمل الصالح فقال تعالى : ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾

أى : ومن يصدق بالله وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، ويعمل بطاعته ـــ يدخله جنات تجرى من تحت أشجارها الأنهار ما كثين فيها أبداً ولا يبغون عنها حولا ، وقد وسع الله لهم فيها الأرزاق من مطاعم ومشارب مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . قال تعالى : ﴿ مثل الجنة التى وعد المتقون تجرى من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها ، تلك عقبى الذين اتقوا ﴾[6]

وقال تعالى : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين . ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب * وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون * وتلك الجنة التى أورثتموها بما كنتم تعملون * لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون ﴾[7].

وقال تعالى : ﴿ هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب * جنات عدن مفتحة لهم الأبواب متكئين

(١) سورة الأنبياء آية ١٠ .
(٢) سورة الزخرف آية ٤٤ .
(٣) سورة الحديد آية ٩ .
(٤) سورة البقرة الآية ٢٥٧ .
(٥) سورة الشورى آية ٥٢ .
(٦) سورة الرعد آية ٣٥ .
(٧) سورة الزخرف الآيات ٧١ - ٧٣ .

فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصرات الطرف أتراب هذا ما توعدون ليوم الحساب . إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾[١].

قوله تعالى : ﴿ **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً** ﴾[٢].

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة وسلطانه العظيم ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ **الله الذى خلق سبع سموات** ﴾ كقوله تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ؟** ﴾[٣] وقوله تعالى : ﴿ **ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ﴾[٤] وقوله : ﴿ **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن** ﴾[٥].

وقوله تعالى : ﴿ **ومن الأرض مثلهن** ﴾ أى سبعاً أيضاً كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » وفى البخارى « خسف به إلى سبع أرضين »[٦]. قال العلامة ابن كثير : ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة وأعرق فى النزع وخالف القرآن والحديث بلا مستند .

قال ابن جرير بسنده عن ابن عباس ـــ رضى الله عنه ـــ فى قوله تعالى : ﴿ **سبع سموات ومن الأرض مثلهن** ﴾ قال لوحدثتكم بتفسيرها لكفرتم ، وكفركم تكذيبكم بها .

قال الأستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوى رحمه الله فى كتابه (الإسلام فى عصر العلم) ما نصه : والعلم لا يعرف إلى الآن ماهى السموات السبع ومن قبل لم يعرف أن السماء فوق هواء الأرض سوداء حالكة والشمس طالعة بالنهار الا بعد قرون تزيد على العشرة من نزول الآية القرآنية التى تنص على هذه الحقيقة العجيبة . وكان الواجب إذ لم يجدوا فى العلم تفسيرا لعدد السموات أن يلتمسوا لعدد السبع تفسيراً فى القرآن كتاب الله . فهذا من صميم تفسير القرآن بالقرآن ولو أنهم اتجهوا هذا الاتجاه لكان من المؤكد أن يصلوا إلى تفسير صحيح ، فالتفسير غير بعيد ممن يلتمسه مستعيناً باللغة من ناحية وبالآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع من ناحية أخرى .

أما اللغة فتقول إن السماء ماعلا الأرض ، وعلم البديع يقول إن بين السماء والأرض مقابلة

---

(١) سورة ص الآيات ٤٩ – ٥٤ .
(٢) سورة الطلاق الآية ١٢ .
(٣) سورة نوح آية ١٥ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٩ .
(٥) سورة الإسراء آية ٤٤ .
(٦) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٢٣٢ . كتاب المساقاه . باب تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها رقم ١٦١٢/١٤٢ .

حتى عدوا هذه المقابلة من بديعيات قوله تعالى : ﴿ **وقيل يا أرض أبلعى ماءك وياسماء اقلعى** ﴾(١). فإذا ضممنا إلى هذا قوله تعالى فى آخر سورة الطلاق ﴿ **الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن** ﴾ أى : سبعاً . كما هو المتبادر وكما اتفق عليه جمهور المفسرين . تبين المقصود من السموات السبع فى القرآن . أنه مادام هناك ست أرضين غير أرضنا ، وكل أرض يقابلها سماء ، فهناك إذن غير السماء المقابلة لأرضنا ست سموات أخرى ، لكل أرض سماؤها ، فهل هذا معنى بعيد ؟ أم هل فى هذا التفسير تكلف ما ، أو تحميل للآى مالا تتحمل كما يخشى على القرآن من يقول بمنع المطابقة بين الآيات

الكونية فى القرآن وبين ما يتصل بمعناها من يقينيات العلم الحديث ؟ إذا كان القرآن قد سبق العلم الحديث بتقرير حقائق كونية لم يكشفها العلم إلا بعد عصر القرآن ، مثل جرى الشمس جرياً ليس هو ما بين الشروق والغروب فى رأى العين ، ومثل ليل للسماء غير الليل المعروف فى الأرض ، فلا غرابة فى أن يخبرنا ويخبر الإنسانية التى أنزل لهدايتها بحقائق لم يكشف عنها علماء الفطرة إلى اليوم مثل وجود حياة فى السماء تشبه الحياة على الأرض ، ومثل أن هناك أرضين سبعاً وسموات سبعاً كما نصت عليه آية سورة الطلاق لتعليم الإنسانية إذا آن الأوان ، ومكن الله العلم من الكشف عنها ﴿ أن الله على كل شىء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ﴾ ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **يتنزل الأمر بينهن** ﴾ قال مجاهد : يتنزل الأمر من السموات السبع إلى الأرضين السبع . وقال الحسن : بين كل سماءين أرض وأمر . والأمر هنا الوحى قال القرطبى فيكون قوله ﴿ **بينهن** ﴾ إشارة إلى بين هذه الأرض العليا التى هى أدناها وبين السماء السابعة التى هى أعلاها . وقيل : الأمر القضاء والقدر وهو قول الأكثرين . فعلى هذا يكون المراد بقوله تعالى ﴿ **بينهن** ﴾ إشارة إلى ما بين الأرض السفلى التى هى أقصاها وبين السماء السابعة التى هى أعلاها والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **لتعلموا أن الله على كل شىء قدير** ﴾ يعنى أن من قدر على هذا الملك العظيم فهو على ما بينهما من خلقه أقدر ، ومن العفو والانتقام أمكن ، وإن استوى كل ذلك فى مقدوره سبحانه وتعالى . وقوله : ﴿ **وأن الله قد أحاط بكل شىء علما** ﴾ فلا يخرج شىء عن علمه وقدرته .

قال تعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾(٢) وقال جل فى علاه : ﴿ **لله ملك السموات والأرض ومافيهن * وهو على كل شىء قدير** ﴾(٣)

قال الامام الطحاوى ــ رحمه الله ــ فى صفات المولى سبحانه : خلق الخلق بعلمه وقدر لهم أقدارا ، وضرب لهم آجالا ، ولم يخف عليه شىء قبل أن يخلقهم وعلم ماهم عاملون قبل أن يخلقهم ،

---

(١) سورة هود الآية ٤٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٣) سورة المائدة آية ١٢٠

وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته ، وكل شيء يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ لا مشيئة العباد ، إلا ما شاء لهم فما شاء لهم كان ومالم يشأ لم يكن ، يهدى من يشاء ، ويعصم ويعافى ، فضلاً ، ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلى عدلا ، وكلهم يتقلبون فى مشيئته ، بين فضله وعدله ، وهو متعال عن الأضداد والأنداد ، لاراد لقضائه ولا معقب لحكمه ولا غالب لأمره ، آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلا من عنده .

لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً . ﷺ .

تفسير سورة التحريم

مقدمـة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية آياتها اثنتا عشرة

وكلماتها : مائتان وأربعون .

وحروفها : ألف وستون .

وفواصل آياتها : (منار) على الألف آية فحسب (أبكارا) .

سميت سورة التحريم ، لمفتتحه (لم تحرم)

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : عقاب الرسول ﷺ فى تحريم ما أحل الله له ، وتعيير الأزواج الطاهرات على إيذائه وإظهار سره ، والأمر بالتحرز والتجنب من جهنم ، والأمر بالتوبة النصوح والوعد بإتمام النور فى القيامة ، والأمر بجهاد الكفار بطريق السياسة ، ومع المنافقين بالبرهان والحجة ، وبيان أن القرابة غير نافعة بدون الإيمان والمعرفة ، وأن قرب المفسدين لا يضر مع وجود الصدق والإخلاص ، والخبر عن الفتوة وتصديق مريم بقوله : ﴿ **وصدقت بكلمات ربها** ﴾ .

المتشابهات : قوله تعالى : ﴿ **خيراً منكن مسلمات مؤمنات** ... ﴾ ذكر الجميع بغير واو ، ثم ختم بالواو ، فقال ﴿ **وأبكارا** ﴾ لأنه استحال العطف على ﴿ **ثيبات** ﴾ فعطفها على أول الكلام . ويحسن الوقف على ﴿ **ثيبات** ﴾ لما استحال عطف ﴿ **أبكاراً** ﴾ عليها . وقول من قال إنها واو الثمانية بعيد . والله أعلم . أ.هـ

مناسبتها لما قبلها :

(١) أن سورة الطلاق فى حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبى ﷺ تعليما لأمته أن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بسياسة اللين كما عاملهن النبى ﷺ بذلك ، وأن ينصحوهن نصحاً مؤثراً .

(٢) أن كلتيهما افتتحت بخطاب النبى ﷺ .

(٣) تلك فى خصام نساء الأمة ، وهذه فى خصومة نساء النبى ﷺ . وقد أفردن بالذكر تعظيماً لمكانتهن .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾
قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ
ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ
وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾
إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ
وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ
أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ
وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

معانى المفردات

﴿ **ما أحل الله لك** ﴾ : شرب العسل ، ﴿ **تبتغى** ﴾ : تطلب . ﴿ **تحلة أيمانكم** ﴾ : تحليلها بالكفارة . ﴿ **الله مولاكم** ﴾ : ناصركم ومتولى أموركم ، ﴿ **نبأت به** ﴾ : أخبرت به غيرها . ﴿ **أظهره الله عليه** ﴾ : أطلعه الله تعالى على إفشائه . ﴿ **صغت قلوبكما** ﴾ : مالت عن حقه ﷺ عليكما . ﴿ **تظاهرا عليه** ﴾ : تتعاونا عليه بما يسوءه . ﴿ **هو مولاه** ﴾ : وليه

وناصره . ﴿ **ظهير** ﴾ : فوج مظاهر معين له . ﴿ **مسلمات** ﴾ : خاضعات لله بالطاعة . ﴿ **مؤمنات** ﴾ : مصدقات بتوحيد الله مخلصات . ﴿ **قانتات** ﴾ : مطيعات خاضعات لله . ﴿ **تائبات** ﴾ : أى : مقلعات عن الذنوب . ﴿ **عابدات** ﴾ : أى : متعهدات متذللات لأمر الله وأمر رسوله ﷺ . ﴿ **سائحات** ﴾ : أى : صائمات ، وسمى الصائم بذلك من حيث أن السائح لا زاد معه ولا يزال ممسكاً حتى يجد الطعام ؟ كالصائم لا يزال كذلك حتى يجيء وقت الإفطار .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك والله غفور رحيم** ﴾ .

قال ابن كثير : اختلف فى سبب نزول صدور هذه السورة فقيل نزلت فى شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرمها فنزل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضات أزواجك** ﴾ الآية .

روى النسائى بسنده عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ؟** ﴾ إلى آخر الآية[١].

وقال ابن جرير بسنده : أن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ كان يقول فى الحرام يمين تكفرها . وقال ابن عباس (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)[٢] يعنى أن رسول الله ﷺ حرم جاريته فقال الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك** ﴾ ؟ إلى قوله : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ فكفر يمينه فصير الحرام يميناً ورواه البخارى ومسلم والدارقطنى وقال ابن حجر فى الفتح : « اى إذا قال الرجل لأمراته أنت علىَّ حرام لا تطلق وعليه كفارة يمين والغرض من حديث ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ قوله فيه (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة)[٣] فإن فيه إشارة إلى سبب نزول أول هذه السورة إلى قوله فيها ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم** ﴾ وقد وقع فى بعض حديث ابن عباس عن عمر فى القصة الآتية فى الباب الذى يليه « فعاتبه الله فى ذلك وجعل له كفارة اليمين » ا.هـ.

---

(١) سورة التحريم آية ١ .

(٢) أنظر صحيح البخارى حـ ٣ ص ٢٠٥ . كتاب التفسير . تفسير سورة المتحرم . ط / الحلبى .

(٣) سورة الأحزاب آية ٢١ .

وقال ابن كثير : ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء ممن قال بوجوب الكفارة على من حرم جاريته أو زوجته أو طعاماً أو شراباً أو ملبساً أو شيئاً من المباحات وهو مذهب الإمام أحمد وطائفة ، وذهب الشافعى إلى أنه لا تجب الكفارة فيما عدا الزوجة والجارية إذا حرم عينيهما أو أطلق التحريم فيهما فى قول فأما إذا نوى بالتحريم طلاق الزوجة **أو عتق الأمة نفذ فيهما** ا.هـ.

وقال أبو حنيفة أنه إن نوى الطلاق أو الظهار كان ما نوى . فإن لم ينو شيئاً كانت يميناً وكان الرجل مولياً من امرأته .

قال ابن كثير : وفى الصحيح أن ذلك كان فى تحريمه العسل كما قال البخارى عند هذه الآية . عن عائشة قالت كان النبى ﷺ وعلى آله وسلم يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير إنى أجد منك ريح مغافير . قال « لا ولكنى كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً »[1]. وفى رواية مسلم « وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه أن يوجد منه الريح » يعنى الريح الخبيثة ولهذا قلن له أكلت مغافير لأن ريحها فيه شيء . والمغافير (صمغ حلو له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العُرفُط يكون بالحجاز)[2].

فقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك** ﴾ ؟ أى : يا أيها النبى لم تمتنع عن شرب العسل الذى أحله الله لك ، تلتمس بذلك رضا أزواجك ؟

وفى ندائه ﷺ بيأيها النبى فى مفتتح العتاب حسن تلطف وتنويه بشأنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ أى : والله غفور لذنوب التائبين من عباده ، وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك ، وإنما عاتبه سبحانه على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه تعظيما لقدره الشريف ، وإجلالاً لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جريا ما ألف من لطف الله به ، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى يعدّ كالذنب وإن لم يكن فى نفسه كذلك .

قوله تعالى : ﴿ **قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم** ﴾ أى قد شرع لكم أيمانكم بالكفارة عنها وذلك فى قوله تعالى : ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون** ﴾ .

---

(١) أنظر صحيح البخارى حـ ٣ ص ٢٠٥ . كتاب التفسير . تفسير سورة المتحرم

(٢) أنظر تفسير ابن كثير . حـ ٤ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧ . تفسه سورة التحريم .

وقوله تعالى : ﴿ والله مولاكم ﴾ أى والله متولى أموركم ينصركم على أعدائكم ومسهل لكم سبل الفلاح فى دنياكم وأخراكم ـ ﴿ وهو العليم الحكيم ﴾ أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم ، الحكيم فى تدبير أموركم .

ثم ساق ماهو كالدليل على علمه سبحانه فقال جل فى علاه :

قوله تعالى : ﴿ **وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض ، فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير** ﴾ أى واذكر حين أسر النبى ﷺ إلى حفصة أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، وقال لن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً ، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر ، وأطلعه الله على مادار بين حفصة وعائشة بما كان قد طلب من حفصة أن تكتمه ـ أخبر حفصة ببعض الحديث الذى أفشته وهو قوله لها : كنت شربت عسلا عند زينب فلن أعود وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله وقد حلفت ، فلم يخبرها به تكرّماً منه ، لما فيه من مزيد خجلتها ، ولأنه ﷺ ماكان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حد امتناعه عن تناول ما أحل الله له .

وقوله : ﴿ **فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير** ﴾ أى : فلما أخبر النبى ﷺ حفصة بما دار بينهما وبين عائشة من الحديث ، قالت من أنبأك بهذا ؟ ظناً منها أن عائشة قد فضحتها بإخبارها رسول الله ﷺ : قال الحبيب المصطفى : أخبرنى ربى العليم بالسر والنجوى ، الخبير بما فى الأرض والسماء لا يخفى عليه شىء فيهما .

قوله تعالى : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير * عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً** ﴾ .

أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له ، حتى خرج حاجاً فخرجت معه ، فلما رجعت وكنّا ببعض الطريق ، عدل إلى الأراك لحاجة له ، قال فوقفت له حتى فرغ ، ثم سرت معه فقلت له : يا أمير المؤمنين من اللتان تظاهرتا على النبى ﷺ من أزواجه فقال : تلك حفصة وعائشة ، قال فقلت : والله إن كنت لأريد أن أسألك عن هذا منذ سنة فما أستطيع هيبة لك ، قال فلا تفعل ، ما ظننت أن عندى من علم فاسألنى ، فإن كان لى علم خبّرتك به . قال ثم قال عمر : والله إن كنّا فى الجاهلية ما نعد للنساء أمراً ، حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ، قال : فبينا أنا فى أمر أتيأمّره إذ قالت إمرأتى : لو صنعت كذا وكذا ، قال فقلت لها : مالك ولما هاهنا ، فيما تكلفك فى أمر أريده ؟ فقالت لى عجباً لك يا ابن الخطاب ، ما تريد أن تُراجع أنت ، وإن ابنتك لتراجع رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان . فقام عمر فأخذ رداءه مكانه حتى دخل على حفصة ، فقال لها : يا بنية

إنك لتراجعين رسول الله ﷺ حتى يظل يومه غضبان ؟ فقالت حفصة : والله إنّا لنراجعه . فقلت : تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله ، وغضب رسوله ، ﷺ . يا بنية لا يغرنك هذه التى أعجبها حسنها حب رسول الله ﷺ يريد عائشة — قال ثم خرجت حتى دخلت على أم سلمة لقرابتى منها فكلمتها ، فقالت أم سلمة . عجباً لك يا ابن الخطاب دخلت فى كل شىء حتى تبتغى أن تدخل بين رسول الله ﷺ وأزواجه فأخذتنى والله أخذاً كسرتنى عن بعض ماكنت أجد ، فخرجت من عندها وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر ، وإذا غاب كنت آتيه بالخبر ، ونحن نتخوف مَلِكاً من ملوك غسان ذُكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا ، فقد امتلأتْ صدورنا منه ، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب ، فقال افتح افتح فقلت جاء الغسانى ؟ فقال : بل أشد من ذلك ، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه ، فقلت رغم أنف حفصة وعائشة . فأخذت ثوبى فخرجت حتى جئت ، فإذا رسول الله ﷺ فى مشربة له يرقى عليها بعجلة ، وغلام لرسول الله ﷺ أسود على رأس الدرجة ، فقلت له : قل هذا عمر بن الخطاب . فأذن لى فقصصت على رسول الله ﷺ هذا الحديث ، فلما بلغت حديث أم سلمة تبسم رسول الله ﷺ وإنه لعلى حصير ما بينه وبينه شىء ، وتحت رأسه وسادة من أدم حشوها ليف ، وإن عند رجليه قرظاً مصبوراً ، وعند رأسه أهب معلقة ، فرأيت الحصير فى جنبه فبكيت ، فقال ، مايبكيك ؟ فقلت : يا رسول الله إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله ، فقال : أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » ؟ .

وفى رواية الإمام أحمد : فقلت يا رسول الله أطلقت نساءك ؟ فرفع رأسه إلىّ وقال « لا » فقلت : الله أكبر ، لو رأيتنا يا رسول الله وكنا معشر قريش قوما نغلب النساء فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن من نسائهم ، فغضبت على إمرأتى يوماً فإذا هى تراجعنى ، فأنكرت أن تراجعنى ، فقالت : ما تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى ﷺ ليراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل فقلت : قد خاب من فعل ذلك منكن وخسرت ، أفتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسوله فإذا هى قد هلكت ، فتبسم رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله قد دخلت على حفصة فقلت لا يغرنك أن كانت جارتك هى أوسم أو أحب إلى رسول الله ﷺ منك فتبسم أخرى ، فقلت استأنس يا رسول الله ؟ قال « نعم » فجلست فرفعت رأسى فى البيت فوالله ما رأيت فى البيت شيئاً يرد البصر إلا أهبة مقامه ، فقلت : أدع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك فقد وسع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله ، فاستوى جالساً ﷺ وقال : « أفى شك أنت يا ابن الخطاب ؟ أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا » فقلت : استغفر لى يا رسول الله ، وكان أقسم أن لا يدخل عليهن شهراً من شدة موجدته عليهن حتى عاتبه الله عز وجل .

فقوله تعالى : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ أى : إن تتوبا من ذنبكما وتقلعا عن مخالفة رسوله ﷺ فتحبا ما أحب وتكرها ماكرهه فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير ، وأديتما ما يجب عليكما نحوه — ﷺ من إجلال وتكريم لمنصبه الشريف

ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه فلا يضره أذى مخلوق فقال ﴿ **وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** ﴾ اي وإن تتعاونا على العمل على ما يؤذيه ويسوؤه من الإفراط فى الغيرة وإفشاء سره — فلن يضره ذلك ، فإن الله ناصره فى أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه ، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون .

ثم حذرهما بما يلين من قناتهما ، ويخفض من غلوائهما ، ويطمئن من كبريائهما فقال : ﴿ **عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا** ﴾ .

قال القرطبى قيل : هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ ، لو طلقهن فى الدنيا أن يزوجه فى الدنيا نساء خيراً منهن ، والله سبحانه كان عالماً بأنه كان لا يطلقهن ، ولكن أخبر عن قدرته ، على أنه إن طلقهن أبدله خيرا منهن تخويفا لهن . وهو كقوله تعالى : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ﴾ وهو إخبار عن القدرة وتخويف لهم ، لا أن فى الوجود من هو خير من أصحاب رسول الله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ **مسلمات** ﴾ قال سعيد بن جبير مخلصات . وقيل مسلمات لأمر الله وأمر رسوله . ﴿ **مؤمنات** ﴾ مصدقات بما أمرن به ونهين عنه . ﴿ **قانتات** ﴾ مطيعات والقنوت الطاعة . ﴿ **تائبات** ﴾ أى من ذنوبهن ، قاله السدى ، ﴿ **عابدات** ﴾ أى كثيرات العبادة لله تعالى . ﴿ **سائحات** ﴾ صائمات قاله ابن عباس والحسن وابن جبير .

وقوله تعالى : ﴿ **ثيبات وأبكارا** ﴾ أى منهن ثيب ومنهن بكر وسميت الثيب ثيباً لأنها راجعة إلى بيت أبويها ، وأما البكر فهى العذراء ، سميت بكراً لأنها على أول حالتها التى خلقت بها .

روى البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبى ﷺ فى الغيرة عليه : فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن فنزلت هذه الآية .

ارشاد وتوجيه

قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَ
امَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ
وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا
وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾ (الآيات من ٦ - ٨)

معانى المفردات

﴿ قوا أنفسكم ﴾ : أى اجعلوا لها وقاية من النار بترك المعاصى . ﴿ وأهليكم ﴾ : أى يحملهم على ذلك بالنصح والتأديب . ﴿ والوقود ﴾ : بفتح الواو : ما توقد به النار ، ﴿ والحجارة ﴾ : هى الأصنام التى تعبد لقوله تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون** ﴾ . ﴿ **ملائكة** ﴾ : هم خزنتها التسعة عشر ، ﴿ **غلاظ** ﴾ : أى غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا . ﴿ **شداد** ﴾ أى أقوياء الأبدان . ﴿ **والتوبة النصوح** ﴾ : هى الندم على مافات والعزم على عدم العودة إلى مثله فيما هو آت .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر سبحانه بعض نساء النبى ﷺ بالتوبة عما فرط من الزلات ، أمر المؤمنين عامة بوقاية أنفسهم وأهليهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة يوم يقال للكافرين : لاتعتذروا فقد فات الأوان ثم أمر المؤمنين أن يقللوا عن زلاتهم ، وأن يتوبوا توبة نصوحاً ، فيندموا على ما فرط منهم من الهفوات ، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت ليكفر الله عنهم سيئاتهم ، ويدخلهم جنات النعيم .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾

أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله : ليُعلِّم بعضكم بعضا ما تتقون به النار وتدفعونها عنكم ، إنه طاعة الله تعالى وامتثال أوامره ، ولتعلموا أهليكم من العمل بطاعته ما يقون به أنفسهم منها ، واحملوهم على ذلك بالنصح والتأديب .

قال القرطبى : روى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ـــ رضى الله عنهما ـــ إنه قال فى هذه الآية : قوا أنفسكم وأمروا أهليكم بالذكر والدعاء حتى يقيهم الله بكم .

وقال على وقتادة ومجاهد : قوا أنفسكم وأفعالكم وقوا أهليكم بوصيتكم فعلى الرجل أن يصلح نفسه بالطاعة ، ويصلح أهله إصلاح الراعى للرعية ففى صحيح الحديث أن النبى ﷺ قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالإمام الذى على الناس راع وهو مسئول عنهم ، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم » . وعن هذا عبر الحسن فى هذه الآية بقوله : يأمرهم وينهاهم .

وقال بعض العلماء : لما قال ﴿ **قوا أنفسكم** ﴾ دخل فيه الأولاد ، لأن الولد بعض منه ، كما دخل فى قوله تعالى ﴿ **ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم** ﴾ فلم يفردوا بالذكر إفراد سائر القرابات . فيعلمه الحلال والحرام ، ويجنبه المعاصى والآثام إلى غير ذلك من الأحكام . وقال عليه الصلاة والسلام « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع »[1] رواه أبو داود وغيره وكذلك يخبر أهله بوقت الصلاة ووجوب الصيام ووجوب الفطر إذا وجب مستنداً فى ذلك إلى رؤية الهلال . وقد روى مسلم أن النبى ﷺ كان إذا أوتر يقول « قومى فأوترى يا عائشة »[2] وروى أن النبى ﷺ قال « رحم الله امرأً قام من الليل فأيقظ أهله فإن لم تقم رش وجهها بالماء . رحم الله امرأة قامت من الليل تصلى وأيقظت زوجها فإذا لم يقم رشت على وجهه من الماء »[3].

وأخرج البخارى بسنده عن هند بنت الحارث الفراسية « أن أم سلمة زوج النبى ﷺ قالت : استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول : « سبحان الله ، ماذا أنزل الله من الخزائن ، وماذا أنزل من **الفتن ؟** من يوقظ صواحب الحجرات ـــ يريد أزواجه ـــ لكى يصلين ؟ رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة »[4].

قال ابن بطال : فى هذا الحديث أن الفتوح فى الخزائن تنشأ عنه فتنة المال بأن يتنافس فيه فيقع

(١) أنظر سنن أبى داود حـ ١ ص ٣٣٤ كتاب الصلاة . باب : متى يؤمر الغلام بالصلاة . رقم ٤٩٥ .

(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ١ ص ٥١١ كتاب صلاة المسافرين باب صلاة الليل وعدد ركعات النبى ﷺ . رقم ٧٤٤/١٣٤ .

(٣) أنظر سنن أبى داود حـ ٢ ص ٧٣ . كتاب الصلاة . باب قيام الليل حديث رقم ١٣٠٨ . وكذلك أخرجه النسائى فى قيام الليل رقم ١٦١١ وابن ماجه فى إقامة الصلاة . باب فى من أيقظ أهله من الليل رقم ١٣٣٦ .

(٤) أنظر صحيح البخارى حـ ٢ ص ٦٢ (ط / الشعب) . كتاب التهجد . باب تحريض النبى ﷺ على صلاة الليل والنوافل من غير إيجاب .

القتال بسببه وأن يبخل به فيمنع الحق أو يبطر صاحبه فيسرف ، فأراد ﷺ تحذير أزواجه من ذلك كله وكذا غيرهن ممن بلغه ذلك .

قال ابن حجر : واختلف فى المراد بقوله (كاسية وعارية) على أوجه أحدها : كاسية فى الدنيا بالثياب لوجود الغنى ، عارية فى الآخرة من الثواب لعدم العمل فى الدنيا ثانيها : كاسية بالثياب ولكنها شفافة لا تستر عورتها فتعاقب فى الآخرة بالعرى جزاء على ذلك . ثالثها : كاسية من نعم الله ، عارية من الشكر الذى تظهر ثمرته فى الآخرة بالثواب ، رابعها : كاسية جسدها لكنها تشد خمارها من ورائها فيبدو صدرها فتصير عارية فتعاقب فى الآخرة . خامسها : كاسية من خلعة التزوج بالرجل الصالح ، عارية فى الآخرة من العمل ، فلا ينفعها صلاح زوجها كما قال تعالى : ﴿ **فلا أنساب بينهم** ﴾ ذكر هذا الأخير الطيبى ورجحه لمناسبة المقام ، واللفظة وإن وردت فى أزواج النبى ﷺ لكن العبرة بعموم اللفظ ، وفى الحديث الندب إلى الدعاء ، والتفرع عند نزول الفتن ولاسيما فى الليل لرجاء وقت الإجابة وكذلك ينصح الرجل لأهله .

وقوله تعالى : ﴿ **عليها ملائكة غلاظ شداد** ﴾ يعنى الملائكة الزبانية غلاظ القلوب لا يرحمون إذا استرحموا ﴿ **شداد** ﴾ أى : شداد الأبدان ، وقيل : غلاظ فى أخذهم أهل النار ، شداد عليهم . قال ابن عباس : ما بين منكبى الواحد منهم مسيرة سنة ، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم .

وقوله تعالى : ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ أى : لا يخالفونه فى أمره من زيادة أو نقصان . ﴿ **ويفعلون ما يؤمرون** ﴾ أى : فى وقته ، فلا يؤخرونه ولا يقدمونه .

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾

أى : يقال للكفرة يوم القيامة لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون وإنما تجزون اليوم بأعمالكم كما قال تعالى : ﴿ **فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون** ﴾ وكما قال سبحانه وتعالى عنهم ﴿ **فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين** ﴾ .

أسـرتك أيهـا المسـلم

من أخطر المشاكل التى تواجه المسلم الواعى المخلص لدينه ، الشاعر بثقل الأمانة التى يحملها ، كيفية تربية أبنائه تربية اسلامية سليمة ، وتوجيههم توجيها مؤمنا متزناً ، بعيداً عن الأزمات النفسية ، والانحرافات العقيدية ، والأمراض الاجتماعية والسلوكية .

فالأسرة المسلمة اليوم تتأرجح بين تيارين هادمين ، تيار القديم الفاسد الجاهل المريض ، الذى

يعود إلى عصور من التخلف الإيمانى ، والتأخر الحضارى والتفكير العامى الوليد من العادات الجاهلية . والتقاليد الاجتماعية الناتجة عن تطور أعمى غير موجه ، وتيار جديد القلق المضطرب الذى يدعو إلى عبادة المادة ، والابتعاد عن الهداية الإلهية ، مقدماً ثقافة فكرية وإجتماعية غريبة فى جوانب كثيرة منها مقومات أمتنا عقيدة وحضارة وتاريخاً وأهدافاً .

والحقيقة المنطقية الواضحة تفهمنا أن التيار الأول هو الذى أسلمنا إلى النيار الثانى ، فكان الأخير من القوة والهيمنة فى ظل عصر الاستعمار الطويل لبلادنا الإسلامية بحيث كاد أن يكتسح أمامه كل خير ، ويمحو فى مجتمعنا بقايا جذور الإيمان القوية .

والحقيقة المنطقية الواضحة تفهمنا أن التيار الأول هو الذى أسلمنا إلى التيار الثانى ، فكان الأخير من القوة والهيمنة فى ظل عصر الاستعمار الطويل لبلادنا الإسلامية بحيث كاد أن يكتسح أمامه كل خير ، ويمحو فى مجتمعنا بقايا جذور الإيمان القوية .

ولو درس المسلم العاقل ما فعله المستعمرون فى بلاد الإسلام من تخطيط علمى منظم لإفساد شبابنا ، وزعزعة الإيمان فى نفوسهم بشتى الطرق ، وتشكيكهم فى تاريخهم وتراثهم ، ونشر الاتجاهات الإباحية والحياة المائعة الضائعة الهادمة بينهم ، إضافة إلى ما فعلوه من تحطم قوى الحضارة النامية فى بلادهم ، وإعاقة تقدمها فى جميع مجالات الحياة ، لعلم أن المصيبة كبيرة ، والمشكلة خطيرة . وأنه لم يعد يكفى أن نوجه إلى أبنائنا كلمات عامة شفهية ... صلوا ... اقرؤا القرآن ... خافوا الله .

بل لابد من خطة هادفة فى داخل البيت ناضجة تستطيع أن تقتلع جذور هذه المشكلة إلى حد أن لا تكون خطراً على مستقبل الأبناء والبنات .

وفى سبيل الوصول إلى الملامح العامة لهذا التخطيط الإسلامى التربوى الناضج لابد من الخروج من هذه المقدمة العامة إلى عرض المشاكل الخاصة فى داخل الأسرة . لأن القاعدة العلمية فى البحث تعلمنا تعيين المشكلة أولاً ، ثم محاولة فهمها وتحديد أجزائها ، ثم وضع الحلول المناسبة لكل جزئية من جزئياتها ، كى يتكامل الحل فى النهاية ، فيقضى بذلك على المشكلة ، دون تهريج وفوضى ، أو الدوزان فى حلقة مفرغة .

(**المشكلة الأولى**) جهل رب الأسرة بالمبادىء العامة للإسلام

فأولى المشاكل فى رأيى جهل رب الأسرة بالمبادىء العامة للإسلام وأهدافه الخاصة فى بناء الحياة ، وعدم الاطلاع على سيرة النبى عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، ليفهم دروسها وعبرها ، وصورها الحياتية المملوءة بالحركة والقوة والإيمان . ولا يقف جهله عند هذا الحد . بل هو يجهل واقع المجتمع الإسلامى ومشاكله وأوضاعه وتطوراته . ويجهل المخططات الاستعمارية المتنوعة لإفساد الأسرة المسلمة ، وزعزتها وتحطيمها فى النهاية .

وهذا الجهل يسوق إلى سوء التوجيه ، وفساد التقدير ، ويؤدى إلى ضياع الأسرة فى متاهات هذه الحياة الصاخبة بالأحداث ، المنعمة بالتيارات إذن لم يفد الأسرة حماس ربها للإسلام ، ولم يخدمها حتى حرصه على أداء الفرائض ، ولم يؤثر فى مجرى تفكير أفرادها تفكيره المشوه عن الدين ، غير المبنى على أساس من الوعى والتفقه والمعرفة الواضحة البعيدة عن العقلية العلمية .

فلابد إذن للمسلم الذى يريد أن ينشىء أولاده إنشاءاً إسلامياً على أساس من الإيمان والتقوى والجهاد المتكامل فى الحياة ، أن يعيد النظر فى موقفه الفاسد هذا ، بمعايشة الفكر الإسلامى ، والمطالعة المستمرة فيه والاطلاع على كل جديد حسب ثقافته وطاقته الفكرية ، ومعرفة الطرق الهادمة لمقومات الأسرة المسلمة .

سوء معاملة الأبوين للولد

(**المشكلة الثانية**) عدم إدراك رب الأسرة اليوم للتربية المجدية التى يجب أن تتبع فى مثل هذه الأوضاع الأسرية المعقدة .

فكثير من أرباب الأسر مازالوا ينطلقوا من مكامن العنجهية والقسوة فى معاملة الأولاد ظناً منهم أن هذا هو الطريق الطبيعى لتوجيه الأولاد توجيهاً سليماً .

ومن الأمور التى يكاد يجمع علماء التربية عليها ، أن الولد إذا عومل من قبل أبويه ومربيه المعاملة القاسية ، وأدب من قبلهم بالضرب الشديد ، والتوبيخ القارع ، وكان دائما الهدف فى التحقير والازدراء ، والتشهير والسخرية ، فإن ردود الفعل ستظهر فى سلوكه وخلقه ، وإن ظاهرة الخوف والانكماش ستبدو فى تصرفاته وأفعاله ، وقد يؤول به الأمر إلى الانتحار حيناً أو إلى مقاتلة أبويه أحياناً ، أو إلى ترك البيت نهائياً تخلصاً مما يعانيه من القسوة الظالمة ، والمعاملة الأليمة .

والإسلام بتعاليمه القويمة الخالدة ، يأمر كل من كان فى عنقه مسئولية التوجيه والتربية ، ولاسيما الأباء والأمهات منهم ، يأمرهم جميعاً أن يتخلقوا بالأخلاق العالية ، والمعاملة الرحيمة ، حتى ينشأ الأولاد على الاستقامة ، ويتربوا على الجرأة واستقلال الشخصية ، وبالتالى حتى يشعروا أنهم ذوو تقدير واحترام وكرامة .

قال الله تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾[١] الآية .

وقال تعالى : ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[٢]

---

(١) سورة النحل آية ٩٠ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه البخارى : « ان الله يحب الرفق فى الأمر كله »[١]

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »[٢].

أن هؤلاء مازالوا يجهلون التركيب النفسى والاجتماعى الجديد لهذا الجيل الناشىء عن الأمراض الحضارية الجديدة .

وآخرون مازالوا يعتقدون أن طريق محاربة المجلات الخلاعية فى البيت هو التمزيق والصراخ والسب والضرب .

وهم مازالوا يؤمنون أن طريق الإهانة والحبس للأولاد فى غرف البيت هو الطريق الصحيح لمنع الأولاد عن ارتياد الأفلام التى لا يريدونهم الذهاب إليها .

وطائفة أخرى من الآباء المسلمين ، مازالوا يظنون أن التخطيط لتربية إسلامية يتحقق عن طريق **تحفيظ الأولاد ايات أو أحاديث ، أو تكليفهم بقراءة كتاب معين قراءة دون هضم مضمون ، والشوق إلى معانيه .**

وكل ما يفعله هؤلاء أن يصدروا أوامر صارمة فى صباح أو مساء إلى الأولاد والبنات ، دون تفكير جدى فى نقلها من عالم النظريات إلى عالم الواقع الحى ، وإلى عالم السلوك العملى .

إن مثل هذا التخطيط الناجح الذى نتحدث عنه لابد أن يعتمد على الحب والتخطيط واليقظة الدائمة .

الحب

لأن رب الأسرة إذا أراد أن تقبل آراؤه فى هذا الوسط الاجتماعى المعقد ، عليه أن يحبب نفسه إلى أولاده منذ صغرهم . ولقد ثبت فى علم النفس أن الطفل من بداية تفتق قوة الفهم فيه ، يحاول أن يتقمص أحب الناس إليه ، أى يحاول أن يتخذه مثالاً يقلده ، ويتخذها مناراً لحياته . فإذا كان هذا المحب والده ، تقمص شخصيته وطرح كل الشخصيات الأخرى ، فإذا كان الأب مسلماً يريد أن يربيه تربية إسلامية أفلح فى ذلك من خلال شحنات الحب التى يغمر ولده بها . فحب الإسلام يبدأ بدخول كيانه من خلال حبه لوالده . ثم مع الأيام يتمكن من نفسه أكثر فأكثر فيظهر على شخصيته وسلوكه مستقلاً عن حبه لوالده ، وبذلك تنجح التجربة ، وتؤتى ثمارها المرجوه .

(١) ، (٢) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٢٨٥ كتاب البر والصلة . باب ماجاء فى رحمة المسلمين . رقم ١٩٢٤ وانظر سنن أبى داود كتاب الأدب باب فى الرحمة .

إن المسلم إن لم يحول نفسه إلى مثال لابنه ، **فسيتخذ مثالا آخر فى المدرسة أو فى الشارع أو فى** بطون الكتب والمجلات وقد يكون ذلك المثال فاسداً فيبدأ الفساد يسرى فى كيانه ، فلا يفيد معه الكلام النظرى الذى يطلقه فى التوجيه الدينى فى ليل أو نهار .

جاء رجل إلى عمر بن الخطاب ـــ رضى الله عنه ـــ يشكو إليه عقوق ابنه ، فأحضر عمر الولد وأنبَّه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى ، قال : فما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب (أى القرآن) ، قال الولد : يا أمير المؤمنين إن أبى لم يفعل شيئا من ذلك ، أما أمى فإنها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سمانى جُعلا (أى : خنفساء) ، ولم يعلمنى من الكتاب حرفاً واحداً .

فالتفت عمر إلى الرجل وقال له : جئت إلىّ تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقْك ، وأسأت إليه قبل أن يسىء إليك ؟!.

وهكذا حمَّل عمر الرجل حين أهمل تربية ابنه مسؤولية عقوق ولده له . ألا فليأخذ الآباء من هذا الخبر العظة والعبرة فى الملاطفة لأولادهم ، وحسن المعاملة لهم ، والرفق بهم ، واتباع الطريق الأقوم فى تربيتهم وتوجيههم .

المشكلة الثالثة وهناك أمر آخر فى غاية الأهمية ، وهو معاملة رب الأسرة لأم أولاده معاملة خالية من السكون الزوجى ، والأخلاق الإسلامية الكريمة . فكثير من هؤلاء لا يترددون فى إهانة زوجاتهم أمام أولادهم ، ولا يقدرون جهودهم فى الحياة البيتية تقديراً جيداً ، ولا يقيمون لهن وزناً فى تسيير أمور الأسرة والمشاركة فى حل مشاكلها . وقد يتجاوز ذلك إلى الظلم الصارخ ، وحجب الحقوق الزوجية عنهن ، تلك التى قررها الإسلام لهن الأمر الذى يقود إلى نتيجتين خطرتين (**أولاهما**) أنه يسقط بأخلاقه الرديئة وعدم ذوقه الاجتماعى فى نظر أولاده من حيث كونه مثالاً . فلا ينسجمون بذلك مع أفكاره الإسلامية بل يرونها لسوء تطبيقه ، وقصر مداركه ، أفكاراً مثالية لا ظل لها فى الواقع ، ولا أثر لها على السلوك . (**ثانيهما**) إن الزوجة المظلومة تحاول شعورياً أولا شعورياً أن تثأر من زوجها بطريقة وضع الحواجز بين أولادها . لا بل أحيانا تحاول أن تكره إليهم والدهم حتى ينحازوا إليها ويدافعوا عنها ، بل يصل الأمر أحياناً إلى درجة أنها تحاول أن تصور لهم أن سبب ظلمة لها وتعد به عليها هو تدينه ، فإن أرادوا أن يكونوا منفتحين مرنين فى الحياة يجب أن لا يسلكوا سبيل والدهم ، وتنتهى هذه المأساة بعدم تعاون الزوجة مع زوجها .

وهكذا يخفق هذا المسكين بسوء إرادته ، وأرادة تصرفاته فى تربية أولاده تربية جيدة ، من حيث كان منتهى أمله الوصول إلى ذلك الهدف النبيل .

ما السبب إذن فى انحراف أولاد كثير من المسلمين ؟

وقد يتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ هذه الكلمات سؤال فى غاية الخطورة والأهمية فتقول : ما السبب إذن فى انحراف أولاد كثير من المسلمين الذين لا يجهلون الإسلام فحسب بل هم لا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويعيشون مأساته فى هذا العصر ، وقد أوتوا قدراً من حسن التوجيه ، وجودة التقدير ويعاملون نساءهم معاملة كريمة ؟ أقول :

لأبد أن هناك أسباباً أخرى وراء ذلك ، من أخطرها الزوجة ... نعم زوجته !! وهذا الأمر يرجع إلى الخطبة ، ويتقدم الزواج ، فالمفروض على المسلم الصالح الذى يريد أن يتزوج التأكد من أسرة البنت التى يريد الاقتران بها . ويدرسها دراسة دقيقة من حيث الانسجام الفكرى ، والتخلق بالأخلاق الإسلامية فالمرأة لها دور كبير فى التربية التى نتحدث عنها ورحم الله من قال : الأم مدرسة إذا أعددتها ... **أعددت** شعباً طيب الأعراق

فالأم فى تحمل المسئولية كالأب سواء بسواء ، بل مسؤوليتها أهم وأخطر ، باعتبار أنها ملازمة لولدها منذ الولادة إلى أن يشب ويترعرع ، ويبلغ السن التى تؤهله ليكون إنسان الواجب ورجل الحياة . والرسول ﷺ قد أفرد الأم بتحمل المسئولية حين قال « والأم راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها » وإذا قصرت الأم فى الواجب التربوى نحو أولادها وإذا أهمل الأب مسؤولية التوجيه والتربية نحو أولاده ، لانصرافه وقت الفراغ إلى اللهو وارتياد القهوات مع الأصحاب والخلان ، فلاشك أن الأبناء سينشؤون نشأة اليتامى ، ويعيشون عيشة المشردين بل سيكونون سبب فساد وأداة إجرام للأمة بأسرها .

ولله درمن من قال :

ليس اليتيم من انتهى أبواه من   هم الحياة وخلفاه ذليلاً
إن اليتيم هو الذى تلقى له   أمّاً تخلّت أو أبّاً مشغولا

ويزداد الأمر سوءاً عندما يقضى الأبوان جلّ وقتهما فى حياة الإثم والغواية ، ويتقلبان فى أتون الشهوات والملذات ، ويتخبطان فى طريق الانحلال والإباحية ، فلاشك أن انحراف الولد يكون أبلغ وأخطر ، وتدرجه فى الإجرام يكون آكد وأعظم .

تحمـل المسئوليـة

والإسلام فى دعوته إلى تحمل المسئوليات ، حمل الآباء والأمهات مسؤولية كبرى فى تربية الأبناء ، وإعدادهم الإعداد الكامل لحمل أعباء الحياة وتهددهم بالعذاب الأكبر إذا هم فرطوا وقصروا وخانوا : قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً * وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[١].

والرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أكد فى أكثر من أمر وأكثر من وصية بضرورة العناية بالأولاد ، ووجوب القيام بأمرهم ، والاهتمام بتربيتهم . وإليكم طائفة من أوامره وتوجيهاته :

« والرجل راع فى أهله ومسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ... » رواه البخارى ومسلم[٢].

« أدّبوا أولادكم وأحسنوا أدبهم » رواه ابن ماجه[٣]

« علموا أولادكم أوأهليكم الخير وأدبوهم » رواه عبدالرازق وسعيد بن منصور[٤] .

« مروا أولادكم بامتثال الأوامر ، واجتناب النواهى ، فذلك وقاية لهم من النار » رواه ابن جرير[٥].

« أدبوا أولادكم على ثلاث خصال : حب نبيكم ، وحب آل بيته ، وتلاوة القرآن ، فان حملة القرآن فى ظل عرش الله ، يوم لا ظل إلا ظله » رواه الطبرانى[٦]

– ومن العوامل الكبيرة التى تؤدى إلى انحراف الولد أيضاً قد يكون عن طريق دخول الكتب والمجلات التى تحمل أفكاراً وأخلاقاً مخالفة للإسلام إلى داخل الأسرة .

ولا يكون علاج ذلك بتمزيق هذه الكتب وتلك المجلات ، والاعتداء على الأولاد بالسب والضرب . فإن ذلك يؤدى إلى عكس المراد إذ يلجأون بعد ذلك إلى إخفائها وقراءتها ، بل يطلبونها بشغف أكثر ، وإصرار أكبر .

---

(١) سورة التحريم آية ٦ .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ ٣ ص ١٤٥٩ كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل ، رقم ١٨٢٩/٢٠ .

(٣) انظر سنن ابن ماجة جـ ٢ ص ١٢١١ .

أنظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٥٤٠٩ .

(٤) انظر مصنف عبد الرزاق حـ ١١ رقم ٤٧٤١ .

(٥) انظر تفسير الطبرى حـ ١٧ ص ١٢٤ .

(٦) انظر كنز العمال حـ ١٦ رقم ٤٥٤٠٩ .

والعلاج الصحيح ، أن يستعرض معهم موضوعات تلك الكتب والمجلات وصورها فيبين تفاهتها ومخالفتها الصريحة للإسلام الذى حببه إليهم من قبل ورباهم عليه . ثم يبين لهم بأسلوب قريب إلى عقولهم ، محبب إلى نفوسهم الأضرار التى تنتج من مثل هذه الكتب وتلك المجلات .

ثم هذا لا يكفى ! بل عليه أن يقدم إليهم بديلاً ويعوضهم بكتب ومجلات أخرى مناسبة ، إسلامية وعلمية وأدبية وقصصية ، تملأ فراغهم ، وتغذيهم بالثقافة الصحيحة والفكر الاجتماعى النير والقصص الإنسانية الرائعة .

– ومن العوامل الكبيرة التى تؤدى إلى إنحراف الولد ، رفاق السوء والخلطة الفاسدة ، ولاسيما إن كان الولد بليد الذكاء ، ضعيف العقيدة ، متميع الخلق فسرعان ما يتأثر بمصاحبة الأشرار ، ومرافقة الفجار وسرعان ما يكتسب منهم أحط العادات واقبح الأخلاق ، بل يسير معهم فى طريق الشقاوة بخطى سريعة حتى يصبح الإجرام طبعاً من طباعهم ، والانحراف عادة متأصلة من عاداتهم ويصعب بعد ذلك ردّه إلى الجادة المستقيمة ، وإنقاذه من وهدة الضلال وهوة الشقاء .

والإسلام بتعاليمه التربوية وجه الآباء والمربين إلى أن يراقبوا أولادهم مراقبة تامة ، وخاصة فى سن التميز والمراهقة ، ليعرفوا من يخالطون ويصاحبون ، وإلى أين يغدون ويروحون ؟ وإلى أى الأماكن يذهبون ويرتادون ؟

كما وجههم أن يختاروا لهم الرفقة الصالحة ، ليكتسبوا منهم كل خلق كريم وأدب رفيع ، وعادة فاضلة .

وإليكم توجيهات الإسلام وتحذيراته من قرناء الشر ، ورفاق السوء والفساد ، قال تعالى : **﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً * ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً ﴾**[١].

وقال أيضاً : **﴿ قال قرينه ربنا ما أطغيته * ولكن كان فى ضلال بعيد ﴾**[٢] .

وقال كذلك : **﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾**[٣].

وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذى « المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يخالل »[٤]

وقال أيضاً : فيما رواه البخارى ومسلم « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٢٧ – ٢٩ .

(٢) سورة ق الآية ٢٣ .

(٣) سورة الزخرف آية ٦٧ .

(٤) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٥٠٩ كتاب الزهد ــ باب ٤٥ رقم ٢٣٧٨ .

المسك ، ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك أو تشترى منه ، أو تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، أو تجد منه ريحاً منتنة »[1].

فما أجدر الآباء والمربين أن يأخذوا بهذه التوجيهات الكريمة ، حتى تنصلح أحوال أولادهم ، وتسمو أخلاقهم ، ويظهر فى المجتمع أدبهم ، وحتى يكونوا فى الأمة أداة خير ، ورسل إصلاح ، ودعاة هداية فينصلح المجتمع بصلاحهم ، وتفتخر الأمة بكريم فعالهم ، وجميل صفاتهم .

تلكم هى أهم العوامل الأساسية فى انحراف الولد ، وهى عوامل ضارة وخطيرة — كما علمت — فإن لم يتدارك المربون هذه العوامل ، وإن لم يستأصلوا أسبابها ، وإن لم يأخذوا بالعلاج الناجع الذى وصفه الإسلام فى الإصلاح والتربية ، فإن الأولاد سينشؤون على الفساد ، ويتربون على الإجرام ، بل يكونون أداة هدم وتخريب لكيان المجتمع ، واستقرار الأمة ، وأمن البشرية ومن الصعوبة بمكان ردهم إلى الجادة ، وتفهيمهم الحق ، والسير بهم نحو معالم الخير ، وطريق الهدى ، والصراط المستقيم .

فما أجدر الآباء والمربين أن يمشوا على سنن الإسلام ، ومنهجه القويم فى تربية الأولاد ، ومعالجة انحرافهم ، وتقويم سلوكهم ، وإصلاح نفوسهم وتثبيت عقيدتهم ، وتلقينهم مبادىء الخير والفضيلة والأخلاق ، حتى يروا أبناءهم كالملائكة فى طهر أرواحهم ، وصفاء نفوسهم ، ونقاء سريرتهم ، وأمتثالهم لأمر ربهم ، بل يكونون قدوة صالحة لغيرهم فى كل مكرمة وفضيلة ، وإنتاج وتضحية ، وخلق وعمل صالح .

﴿ ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماماً ﴾[2]

﴿ رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفرلى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾[3].

نقل هذا البحث من رسالة أسرتك أيها المسلم للدكتور محسن عبد الحميد ، ومن كتاب تربية الأولاد فى الإسلام .

قوله تعالى :

﴿ ياأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى

---

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٢٦ كتاب البر والصلة باب استحباب مجالسة الصالحين رقم ٢٦٢٨/١٤٦ .
(٢) سورة الفرقان آية ٧٤ .
(٣) سورة ابراهيم الآيتان ٤٠ ، ٤١ .

من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير ﴾

أى يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ! توبوا إلى الله من ذنوبكم توبة صادقة خالصة ، روى ابن جرير بسنده عن سماك بن حرب قال : سمعت النعمان بن بشير قال : سمعت عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يقول : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً) قال يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه

وقال قتادة : التوبة النصوح : الصادقة الناصحة ، وقيل : الخالصة ، يقال : نصح أى : أخلص له القول .

وقال الحسن : التوبة النصوح أن يبغض الذنب الذى أحبه ويستغفر منه إذا ذكره .

وقال الكلبى : التوبة النصوح الندم بالقلب ، والاستغفار باللسان والإقلاع عن الذنب .

وقال أبو بكر الوراق : هوان تضيق الأرض عليك بما رحبت ، وتضيق عليك نفسك ، كالثلاثة الذين خلفوا :

وقال أبو بكر الدقاق المصرى : التوبة النصوح هى رد المظالم ، واستحلال الخصوم ، وإدمان الطاعات .

وقال ذوالنون : التوبة النصوح علامتها : قلة الكلام ، وقلة الطعام ، وقلة المنام .

وقال رويم : هو أن تكون لله وجهاً بلا قفا ، كما كنت له عند المعصية قفاً بلا وجه .

وقال فتح الموصلى : علامتها ثلاث : مخالفة الهوى ، وكثرة البكاء ، ومكابدة الجوع والظمأ .

قال القرطبى : وأصل التوبة النصوح من الخلوص ، يقال : هذا عسل ناصح إذا خلص من الشمع .

وقوله تعالى : ﴿ **عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم** ﴾ وعسى من الله — جل فى علاه — موجبة بمنزلة التحقيق . وهذا إجماع من الله لعباده في قبول التوبة ، منه وتكرماً ، لأن العظيم إذا وعد وفىّ .

﴿ **ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ أى ويدخلكم فى الآخرة حدائق وبساتين ناضرة تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ **يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه** ﴾ أي ولا يخزيهم معه يعنى يوم القيامة ﴿ **نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم** ﴾ أى نور هؤلاء المؤمنين يضىء لهم على الصراط ويسطع أمامهم وخلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم .

وفى الحديث الصحيح « أن النبى ﷺ سئل : كيف تعرف أمتك يوم القيامة من بين الأمم ؟ فقال : « إنهم يأتون غراً محجلين من آثار الوضوء »(١) أى تسطع جباههم وأيديهم بالنور من آثار الطهور فيعرفهم بذلك رسول الله ﷺ .

وقوله تعالى : ﴿ يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ﴾ قال ابن عباس — رضى الله عنهما : هذا دعاء المؤمنين حين أطفأ الله نور المنافقين يدعون ربهم به أشفاقاً حتى يصلوا إلى الجنة . ﴿ واغفر لنا ﴾ أى وامح عنا ما فرط من الذنوب ﴿ إنك على كل شىء قدير ﴾ أى : إنك أنت سبحانك القادر على كل شىء ، من المغفرة والعقاب ، والرحمة والعذاب .

بحث فى التوبة وذكر شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

قال الإمام الشيخ أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسى فى « منهاج القاصدين » : إعلم : أن الذنوب حجاب عن المحبوب ، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب .

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم ، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب ، لم يندم على الذنوب ، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد ، وإذا لم يتوجع لم يرجع .

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾

وقال سبحانه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾

وقال جل فى علاه : ﴿ إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾

وقال النبى ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإنى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة »(١).

وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود — رضى الله عنه — أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من رجل فى أرض دوية مهلكة ، معه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت ، فطلبها حتى أدركه العطش ، ثم قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ وعنده راحلته ، عليها زاده وطعامه وشرابه ، فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »(٢).

---

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٧٦ كتاب الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار رقم ٢٧٠٢/٤٢ .
(٢) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠١٢ كتاب التوبة باب الحض على التوبة رقم ٢٦٧٥/٢ .

والأحاديث كثيرة ، والإجماع منعقد على وجوب التوبة ، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى ، فيجب الهرب منها على الفور .

التوبة واجبة على الدوام

والتوبة واجبة على الدوام ، فإن الإنسان لا يخلو عن معصية ، لو خلا عن معصية بالجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه ، وإن خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى ، لو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور فى العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله ، وكل ذلك نقص ، ولا يسلم أحد من هذا النقص ، وإنما الخلق يتفاوتون فى المقادير ، وأما أصل ذلك ، فلابد منه ولهذا قال ﷺ : « إنه ليغان على قلبى ، فأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة »[1] ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله : ﴿ **ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر** ﴾[2] فأما غيره فكيف يكون حاله ؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة قال الله تعالى : ﴿ **وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون** ﴾[3].

وفى الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر »[4].

شروط التوبة

واعلم : أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً ، وذلك الندم يورث العلم بأن تكون المعاصى حائلاً بين الإنسان وبين محبوبه . والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب ، وعلامته طول الحزن والبكاء ، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعز عليه ، طال بكاؤه ، واشتدت مصيبته ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه ؟

وأى عقوبة أشد من النار ؟ وأى سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصى ؟ وأى مخبر أصدق من رسول الله ؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه لاشتد فى الحال حزنه ، وليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب أعلم من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض أدل على الموت من المعاصى على سخط الله ، والتعرض بها للنار .

---

(١) أنظر صحيح مسلم حـ ٤ ص ٢٠٧٥ كتاب الذكر والدعاء . باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه رقم ٢٧٠٢/٤١ .

(٢) سورة الفتح آية ٢ .

(٣) سورة الشورى آية ٢٥ .

(٤) أنظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ٥١ كتاب الدعوات . باب فضل التوبة والاستغفار رقم ٣٥٣٧ .

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة ، أو بغير شرطها مثل أن يكون صلاها فى ثوب نجس ، أو بنية غير صحيحة ، لجهله بذلك فيقضيها كلها . وكذلك إن كان عليه صوم ، أو زكاة أو حج ، أو غير ذلك من الواجبات يقضيها كلها ، ويفتش على ذلك ويتداركه .

وأما المعاصى ، فينبغى أن يفتش من أول بلوغه عن معصية صدرت منه ، وينظر فيها ، فما كان من ذلك فيما بينه وبين الله تعالى ، فالتوبة منه الندم والاستغفار .

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه ، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتى الحسنات بمقدار تلك السيئات قال تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ وقال النبى ﷺ : « أتبع السيئة الحسنة تمحها »[1].

مثال ما ذكرنا :

أن يكفر سماع الملاهى بسماع القرآن ، ومجالس الذكر ، ويكفر مس المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال ، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة ، فإن الأمراض إنما تعالج بضدها ، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ، ففيها أيضاً معصية الله تعالى ، لأنه نهى عن ظلم العباد ، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه تعالى ، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك فى المستقبل ، والاتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بماله الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين ، ويكفر قتل النفوس بالعتق .

هذا فيما يتعلق بحق الله تعالى ، فإذا فعل ذلك ، لم يكفه حتى من مظالم الناس .

ومظالمهم إما فى النفوس ، أو الأموال ، أو الأعراض ، أو إيذاء القلوب .

أما الأول : فإنه إذا قتل خطأ ، أوصل الدية إلى مستحقها إما منه أو من عاقلته ، وإن قتل عمداً ، وجب عليه القصاص بشروطه ، فعليه أن يبذل نفسه لولى الدم ، إن شاء قتله ، وإن شاء عفا عنه ، ولا يجوز له إخفاء أمره ، بخلاف ما لوزنا ، أو سرق ، أو شرب الخمر أو باشر ما يجب فيه حد لله تعالى ، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه ، بل عليه أن يستر نفسه ، فإن رفع أمره إلى الولى حتى أقام عليه الحد ، وقع ذلك موقعه وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل قصة ماعز والغامدية .

وكذلك حد القذف ، لابد فيه من تحكيم المستحق فيه .

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٤ ص ٣١٢ ، ٣١٣ كتاب البر والصلة . باب ماجاء فى معاشرة الناس رقم ١٩٨٧ .

الثانى : المظالم المتعلقة بالأموال ، نحو الغصب ، والخيانة ، والتلبيس فى المعاملات ، فيجب عليه رد ذلك إلى أصحابه والخروج منه . وليكتب إلى أصحاب المظالم ، وليؤد إليهم حقوقهم ، ويستحلهم ، فإن كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه ، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات ، لتؤخذ منه فى القصاص يوم القيامة فتوضع فى موازين أرباب المظالم ، فإنها إن لم تف بذلك أخذ من سيئاتهم ، فتوضع فوق سيئاته .

هذا حكم المظالم الثابتة فى الذمة والأموال الحاضرة ، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته ، تصدق عنه وإن اختلط الحلال بالحرام ، عرف قدر الحرام بالاجتهاد ، وتصدق بمقداره .

الثالث : الجناية على الأعراض ، وإيذاء القلوب ، فعليه أنه يطلب كل واحد منهم ، وليستحله ، وليعرفه قدر الجناية ، فإن الاستحلال المبهم لا يكفى ، وربما لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال ، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى ، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه ، أو كزنى بجارته ، فليجتهد فى اللطف به والإحسان إليه ، ثم ليستحله مبهماً ، ولابد أن يبقى فى مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة ، وكذلك من مات من هؤلاء فإنه يفوت أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا يوم القيامة ، ولاخلاص إلا برجحان الحسنات .

– ومن شروط التوبة الصحيحة العزم على أن لا يعود فى المستقبل إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً . مثال ذلك المريض الذى يعلم أن الفاكهة تضر فى مرضه ، فيعزم عزماً جزماً أن لا يتناول شيئا من الفاكهة مادام فى مرضه ذلك ، فإن هذا العزم يتأكد فى الحال ، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ، ولكن لايكون تائباً مالم يتأكد عزمه فى الحال ، ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب فى أول مرة إلا بالعزلة ، والصمت ، وقلة الأكل والنوم ، وإحراز قوت حلال ، ويترك الشبهات والشهوات من المأكولات والملبوسات .

بيان أقسام العباد فى دوام التوبة

الناس فى التوبة أربع طبقات :

الطبقة الأولى : تائب يستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، ويتدارك ما فرّط من أمره ، ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه ، إلا الزلات التى لا ينفك عنها البشر فى العادات ، فهذه هى الاستقامة فى التوبة ، وصاحبها هو السابق بالخيرات .

وتسمى هذه التوبة : النصوح ، وتسمى هذه النفس : المطمئنة وهؤلاء يختلفون ، منهم من سكنت شهوته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ، ومنهم من تنازعه نفسه وهو ملىء بمجاهدتها .

الطبقة الثانية : تائب قد سلك طريق الاستقامة فى أمهات الطاعات وكبائر الفواحش ، إلا أنه لا ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد ، ولكنه يبتلى بها فى مجارى أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ، وكلما أتى شيئا منها لام نفسه ، وندم وعزم على الاحتراز من أسبابها ، فهذه هى النفس اللوامة لأنها تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذميمة ، فهذه رتبة عالية أيضاً ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهى أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمى ، فقلما ينفك عنه ، وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره ، حتى يثقل ميزانه ، فترجح حسناته ، فأما أن تخلو كفة السيئات ، فبعيد .

وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله سبحانه وتعالى إذ قال : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة** ﴾[1].

الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ، ثم تغلبه شهوته فى بعض الذنوب ، فيقدم عليها لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وترك جملة من الذنوب مع القدرة عليها والشهوة لها ، وإنما قهرته شهوة واحدة أو شهوتان ، وهو يود لو أقدره الله على قمعها ، وكفاه شرها ، فإذا انتهت ندم لكنه يعد نفسه بالتوبة عن ذلك الذنب ، فهذه النفس تسمى المسوله وصاحبها من الذين قال الله فيهم ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** ﴾[2] فأمر هذا من حيث مواظبته على الطاعات وكراهيته لما يتعاطاه مرجو لقوله تعالى : ﴿ **عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ وعاقبته مخطره من حيث تأخيره وتسويفه ، فربما يختطف قبل التوبة ، فإن الأعمال بالخواتيم ، فعلى هذا يكون الخوف من الخاتمة ، وكل نفس يمكن أن يتصل به الموت ، فتكون الخاتمة ، فليراقب الأنفاس ، وليحذر وقوع المحذور .

الطبقة الرابعة : أن يتوب ويجرى مدة على الاستقامة ، ثم يعود إلى الذنوب منهمكا من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أن يتأسف على فعله ، فهذا من المصرين ، وهذه النفس هى الأمارة بالسوء . ويخاف على هذا سوء الخاتمة .

فإن مات هذا على التوحيد ، فإنه يرجى له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفى لا يطلع عليه ، إلا أن التعويل على هذا لا يصلح . فإن من قال : إن الله تعالى كريم ، وخزائنه واسعة ، ومعصيتى لا تضره ، ثم تراه يركب البحار فى طلب الدينار ، فلو قيل له . فإذا كان الحق كريماً ، فاجلس فى بيتك لعله يرزقك ، استجهل قائل هذا وقال : إنما الأرزاق بالكسب ، فيقال له : هكذا النجاة بالتقوى .

---

(١) سورة النجم آية ٣٢ .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٢

فيما ينبغى للتائب فعله

وقد ذكرنا أن التائب ينبغى له أن يأتى بحسنات تضاد ما عمل من السيئات ، تمحوها وتكفرها ، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان والجوارح على حسب السيئات ، فما كان للقلب ، فنحو التضرع والتذلل ، وأما اللسان ، الاعتراف بالظلم والاستغفار مثل أن يقول : رب ظلمت نفسى فأغفرلى

روى فى الحديث الصحيح ، أن النبى ﷺ قال : « ما من رجل يذنب ذنباً ، فيتوضأ ويحسن الوضوء ، ثم يصلى ركعتين ، ويستغفر الله عز وجل ، إلا غفر له »[1].

وأما الجوارح بالطاعات ، والصدقات ، وأنواع العبادات .

فصل فى دواء التوبة وطريق علاج حل عقد الإصرار

اعلم : أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء ، إذ لا معنى للدواء إلا مناقضة أسباب الداء . ولا يبطل الشيء إلا بضده ، وسبب الإصرار الغفلة والشهوة ، ولا تضاد الغفلة إلا بالعلم ، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة .

والغفلة رأس الخطايا ، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر .

والأطباء لهذا المرض هم العلماء ، لأنه مرض القلوب ، ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان ، وإنما صار مرضها أكثر لأمور :

أحدها : أن المريض لا يدرى أنه مريض .

الثانى : أن عاقبته غير مشاهدة فى هذا العالم ، بخلاف مرض الأبدان فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع منه ، وما بعد الموت غير مشاهد ، فقلّت النفرة عن الذنوب وإن علمها مرتكبها ، فلذلك نراه يتكل على فضل الله فى مرض القلب ، ويجتهد فى علاج البدن من غير اتكال .

الأمر الثالث : وهو الداء العضال فقد الطبيب ، فإن الأطباء هم العلماء ، وقد مرضوا فى هذه الأعصار ، لأن الداء المهلك هو حب الدنيا ، وقد غلب هذا الداء على الأطباء ، فلم يقدروا على تحذير

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ٢١٣ كتاب تفسير القرآن رقم ٣٠٠٦

الخلق استنكافاً من أن يقال لهم : فما لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم ؟ فبهذا السبب عم الداء وانقطع الدواء .

فإن قيل : فما الذى ينبغى للواعظ سلوكه من الخلق ؟

فالجواب : أن ذلك يطول ، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة فى ذلك ، وهى أربعة أنواع :

الأول : أن يذكر مافى القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين ، وما ورد فى الأخبار والآثار من ذلك ، ويمزج ذلك بمدح التائبين .

النوع الثانى : حكايات الأنبياء عليهم السلام والسلف الصالح ، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب كحال آدم عليه السلام ... ولم يورد القرآن هذه الأشياء إلا للاعتبار .

النوع الثالث : أن يقرر عندهم ، أن تعجيل العقوبة فى الدنيا متوقع وأن كل ما يصيب العبد من المصائب ، فهو سبب جناياته ، فرب عبد يتساهل فى أمر الآخرة يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله . والذنوب قد يتعجل فى الدنيا شؤمها ، كما قال النبى ﷺ : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » اخرجه أحمد .

وقال الفضل بن عياض : إنى لأعصى الله ، فأعرف ذلك فى خلق حمارى وخادمى .

وقال الحسن ـــ رحمه الله : الحسنة نور فى القلب ، وقوة فى البدن ، والسيئة ظلمة فى القلب ، ووهن فى البدن .

النوع الرابع : ذكر ما ورد من العقوبات فى آحاد الذنوب ، كشرب الخمر والزنى ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والغيبة .

وهذا الذى ذكرناه هو علاج الغفلة ، فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها الصبر ، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره ، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته ، أو غفلته عن مضرته ، فلابد من مرارة الصبر ، وكذلك يعالج الشهوة فى المعاصى ، كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه فى السعى وراء الشهوة ، فينبغى أن يستحضر المخوفات التى جاءت فى كتاب الله تعالى . وسنة رسوله ﷺ فإذا أشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة .

---

(١) انظر سنن الترمذى حـ ٥ ص ٤٠٤ كتاب تفسير القرآن باب ٧٤.
انظر النسائى فى الكبرى كتاب التفسير ، عمل اليوم والليلة ص ١٣٩ . باب ما يفعل من بلى بذنب وما يقول .
انظر سنن ابن ماجة ـــ الزهد باب المدلومة على العمل .

والذى يهيج الشهوة من خارج ، هو حضور المشتهى ، والنظر إليه وعلاجه . الجوع والصوم الدائم ، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ، ولا يصبر إلا عن خوف ، ولا يخاف إلا عن علم ، ولا يعلم إلا عن بصيرة ، فأول الأمر حضور مجالس الذكر ، والاستماع بقلب مجرد عن الشواغل ، ثم التفكر فيما قيل ، فينبعث الخوف ، ويسهل الصبر ، وتتيسر الدواعى لطلب العلاج ، وتوفيق الحق سبحانه وتعالى من وراء ذلك كله . (ا.هـ) .

كل مسؤول عن عمله

قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ
ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا
ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ
رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا
وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

معانى المفردات

﴿ **اغلظ عليهم** ﴾ : أى شدد . ﴿ **ضرب المثل** ﴾ : ذكر حال غريبة لتعرف بها حال أخرى تشاكلها فى الغرابة ، ﴿ **تحت عبدين** ﴾ : أى فى عصمتهما . ﴿ **فخانتاهما** ﴾ : أى نافقتا فأخفتا الكفر وأظهرتا الإيمان . ﴿ **فلم يغنيا عنهما** ﴾ : أى لم يفيداهما ولم يجزيا عنهما من الله شيئاً . ﴿ **نجنى من فرعون وعمله** ﴾ : أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك منه ومن عمله . ﴿ **احصنت فرجها** ﴾ : أى حفظته وصانته . ﴿ **القانتين** ﴾ : أى الطائعين المخبتين لله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتوبة النصوح ، أمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلظة لهم فى القول والعمل ، وذكر أن جزاءهم فى الآخرة جهنم وبئس القيل والمأوى وبعد ذلك ذكر أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقبول الإيمان ، ولى جوهرها صفاء ونقاء فلا تجدى فيها العظة والعبرة ، ولا مخالطة المؤمنين الاتقياء ، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وإمرأة لوط . كذلك إذا كان جوهر النفس نقياً خالصاً من كَدورة الكفر والنفاق فمجاورتها للكفرة وعشرتها إياهم لا تغير من حالها شيئاً وضرب لذلك مثل امرأة فرعون . وكذلك مريم ابنة عمران التى عفت فأتاها الله الشرف والكرامة ، وأنجبت عيسى ، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه وكانت من العابدين القانتين .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ .

يقول تعالى : آمراً رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء بإقامة الحدود عليهم ﴿ **واغلظ عليهم** ﴾ أى فى الدنيا . ﴿ **ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾ أى فى الآخرة بئس المأوى والمقيل .

مـراتب الجهـاد

قال العلامة ابن القيم : لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل فى الجنة كما لهم الرفعة فى الدنيا فهم الأعلون فى الدنيا والآخرة كان رسول الله ﷺ فى الذروة العليا منه فاستولى على أنواعه كلها فجاهد فى الله حق جهاده بالقلب والجنان والدعوة والبيان ، والسيف والسنان ، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده ، ولهذا كان أرفع العالمين ذكراً وأعظمهم عند الله قدراً وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه وقال تعالى : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا * فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً** ﴾[1] فهذه سورة مكية أمره فيها بجهاد الكفار بالحجة والبيان وتبليغ القرآن ، وكذلك جهاد المنافقين إنما هو بتبليغ الحجة وإلا فهم تحت قهر أهل الاسلام . قال تعالى : ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾

(١) سورة الفرقان الآيتان ٥١ ، ٥٢ .

فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار وهو جهاد خواص الأمة وورثة الرسل والقائمون به أفراد فى العالم والمشاركون فيه والمعاونون عليه وإن كانوا هم الأقلين عدداً فهم الأعظمون عند الله قدراً . ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه كان للرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ من ذلك الحظ الأوفر وكان لنبينا ـ صلوات الله وسلامه عليه من ذلك اكمل الجهاد وأتمه ولما كان جهاد أعداء الله فى الخارج فرضا على جهاد العدو نفسه فى ذات الله ، كما قال النبى ﷺ « المجاهد من جاهد نفسه فى ذات الله والمهاجر من هاجر مانهى الله عنه »[(١)] كان جهاد النفس مقدما على جهاد العدو فى الخارج ، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصاف منه وعدوه الذى بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه فى الله ، بل لايمكنه الخروج الى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج فهذان عدوان قد امتحن العبد بجهادهما وبينهما عدو ثالث لايمكنه جهادهما الا بجهاده وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما ويخذله ويزحف به ولايزال يخيل له مافى جهادهما من المشاق وترك الحظوظ وفوت اللذات والمشتهيات ولايمكنه ان يجاهد دينك العدوين إلا بجهادهما فكان جهاده هو الأصل لجهادهما وهو الشيطان قال تعالى : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾[(٢)] والأمر باتخاذه عدوا تنبيه على استفراغ الواسع فى محاربته ومجاهدته كأنه عدو لايفتر ولايقصر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس فهذه ثلاثة أعداء أمر العبد بمحاربتها وجهادها . وقد يلى العبد بمحاربتها فى هذه الدار وسلطت عليه امتحانا من الله له وابتلاء فأعطى الله العبد مددا وعدة وأعوانا وسلاحا لهذا الجهاد . واعطى أعداءه مددا وعدة وأعوانا وسلاحا وبلا أحد الفريقين بالآخر وجعل بعضهم لبعض فتنة ليبلوا أخبارهم ويمتحن من يتولاه ويتولى رسله ممن يتولى الشيطان وحزبه كما قال تعالى : ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ ولو يشاء الله لا نتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض ﴾[(٤)] وقال تعالى : ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم ﴾[(٥)] .

فأعطى عباده الأسماع والأبصار والعقول والقوى وأنزل عليهم كتبه وأرسل رسله وأمدهم بملائكته وقال لهم إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا وأمرهم من أمره بما هو من أعظم العون لهم على حرب عدوهم وأخبرهم أنهم إن امتثلوا ما أمرهم به لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوهم وأنه إن سلطه عليهم فلتركهم بعض ما أمروا به ولمعصيتهم له ، ثم لم يؤيسهم ولم يقنطهم بل أمرهم أن يستقبلوا أمرهم ويداووا جراحهم ويعودوا إلى مناهضة عدوهم فينصرهم عليهم ويظفرسم بهم فأضربهم أنه مع المتقين منهم ومع المحسنين ومع الصابرين ومع المؤمنين وأنه يدافع عن عباده المؤمنين مالا يدفعون عن أنفسهم ، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوهم ولولا دفاعه لتخطفهم عدوهم واجتاحهم ، وهذه

---

(١) انظر كنز العمال حـ ٤ رقم ١١٢٦١ ، ٢١٢٦٦

(٢) سورة فاطر آية ٦

(٣) سورة الفرقان آية ٢٠ .

(٤) سورة محمد آية ٤ .

(٥) سورة محمد آية ٣١ .

المدافعة عنهم بحسب إيمانهم وعلى قدره ، فإن قوى الإيمان قويت المدافعة فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته وكما أن حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر فحق جهاده أن يجاهد نفسه ليسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله فيكون كله لله وبالله لا لنفسه ولا بنفسه ، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده ومعصية أمره وارتكاب نهيه فإنه يعد الأمانى ويمنى الغرور ، ويعد الفقر ويأمر بالفحشاء وينهى عن التقى والهدى والعفة والصبر وأخلاق الإيمان كلها ، فجاهده بتكذيب وعده ومعصية أمره فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان وعدة يجاهد بها أعداء الله فى الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله لتكون كلمة الله هى العليا .

إذا عُرف هذا فالجهاد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس : أربع مراتب أيضاً . أحدها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذى لا فلاح ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به ومتى فاته علمه شقيت فى الدارين الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها . الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعلمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله . الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعلَّم وعمل فذاك يدعى عظيماً فى ملكوت السماء .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان : أحدهما : جهاده على دفع ما يلقى إلى العبد من الشبهات والشكوك الفارحة فى الإيمان . الثانية : جهاده على دفع ما يلقى إليه من الإرادات والشهوات .

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب بالقلب واللسان والمال والنفس وجهاد الكفار أخص باليد وجهاد المنافقين أخص باللسان (ا.هـ) (من كتاب زاد المعاد فى هدى خير العباد)

قال تعالى :

قال ابن القيم : اشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال : للكفار ومثلين للمؤمنين .

فيتضمن مثل الكفار أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه ، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب ، أوصلة صهر ، أو سبب من أسباب الاتصال . فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدى رسله ، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان ، لنفعت الوصلة التى كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما ،

فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل : ادخلا النار مع الداخلين . قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله ، وخالف أمره ، ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبى ، ولو كان بينهما فى الدنيا أشد الاتصال . فلا اتصال فوق إتصال النبوة والأبوة والزوجية فلم يغنى نوح عن ابنه ، ولا إبراهيم عن أبيه ، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئاً . قال الله تعالى : ﴿ **لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم** ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ **واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا إن وعد الله حق** ﴾(٢) وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة : أن ما تعلقوا به من دون الله من قرابة ، أو صهر ، أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة أو يجيرهم من عذاب الله ، أو يشفع لهم عند الله وهذا أصل ضلال بنى آدم وشركهم ، وهو الشرك الذى **لايغفره** الله .

وأما المثلان اللذان للمؤمنين . فأحدهما امرأة فرعون .

ووجه المثل : أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً ، إذا فارقه فى كفره وعمله فمعصيته لا تضر المؤمن المطيع شيئاً فى الآخرة وان تضرر بها فى الدنيا بسبب العقوبة التى تحل بأهل الأرض ، إذا أضاعوا أمر الله فتأتى عامة . فلم يضر إمرأة فرعون اتصالها به ، وهو من أكفر الكافرين.ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين .

وقولها ﴿ **رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة** ﴾ قال العلماء اختارت الجار قبل الدار . وقولها ﴿ **ونجنى من فرعون وعمله** ﴾ أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك من عمله ، وقولها ﴿ **ونجنى من القوم الظالمين** ﴾ وهذه المرأة هى آسية بنت مزاحم ــ رضى الله عنها ــ روى ابن جرير بسنده عن القاسم بن أبى بزة قال : كانت امرأة فرعون تسأل من غلب ؟ فيقال غلب موسى وهارون فتقول آمنت برب موسى وهارون ، فأرسل إليها فرعون فقال انظروا أعظم صخرة تجدونها فإن مضت على قولها فألقوها عليها ، وإن رجعت عن قولها فهى امرأتى ، فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت بيتها فى الجنة فمضت على قولها وانتزعت روحها وألقيت الصخرة على جسد ليس فيه روح . وروى أنها ضحكت حينما رأت بيتها فى الجنة فقال فرعون ــ لعنه الله ــ ألا تعجبون من جنونها ؟ إنا نعذبها وهى تضحك ، فقبض الله روحها فى الجنة ــ رضى الله عنها .

قوله تعالى : ﴿ **ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها** ﴾ أى حفظته وصانته والإحصان هو العفاف والحرية ﴿ **فنفخنا فيه من روحنا** ﴾ أى بواسطة الملك وهو جبريل فإن الله بعثه إليها فتمثل لها فى صورة بشر سوى وأمره الله تعالى أن ينفخ بغيه فى جيب درعها فنزلت النفخة فولجت فى فرجها

(١) سورة الممتحنة آية ٤ .
(٢) سورة لقمان آية ٣٣ .

فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ﴿ **وصدقت بكلمات ربها وكتبه** ﴾ أى بقدره وشرعه ، ﴿ **وكانت من القانتين** ﴾

وهذا المثل الثانى للمؤمنين : مريم التى لا زوج لها ، لا مؤمن ولا كافر فذكر سبحانه ثلاثة أصناف النساء : المرأة الكافرة التى لها وصلة بالرجل الصالح ، والمرأة الصالحة التى لها وصلة بالرجل الكافر . والمرأة العزب التى لا وصلة بينها وبين أحد . .

فالأولى : لاتنفعها وصلتها وسببها .

والثانية : لا تضرها وصلتها وسببها .

والثالثة : لايضرها عدم الوصلة شيئاً .

ثم فى هذه الأمثال من الأسرار البديعة مايناسب سياق السورة . فإنها سبقت فى ذكر أزواج النبى ﷺ وتحذيرهن من التظاهر عليه ، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ، ويردن الدار الآخرة . لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بهما .

ولهذا ضرب فى هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة .

قال يحيى بن سلام : ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة ، ثم ضرب لهما المثل الثانى يحرضهما على التمسك بالطاعة .

وفى ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً : اعتبار آخر ، وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قذف أعداء الله اليهود لها ، ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه ، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاه على نساء العالمين .

فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه .

وفى هذا أيضا **تسلية لعائشة** أم المؤمنين — إن كان السورة نزلت بعد قصة إلا فك — وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون ، إن كانت قبلها .

فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف ، والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد ، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذى منهن ، وكذب عليهن وأسرار التنزيل فوق هذا وأجل منه ، ولاسيما أسرار الأمثال التى لا يعقلها إلا العالمون .

« اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً »

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فضيلة الداعية الكريم والمخلص الأمين الأستاذ/ أحمد يحيى رئيس المكتب المصري الحديث للطباعة والنشر - السلام عليكم ورحمة الله

نتلمف أجزاء رحاب التفسير لفضيلة العالم شيخ الدعاة وإمام العصر الشيخ عبد الحميد كشك وكذا مؤلفاته القيمة ذات الفائدة لكل مسلم - جزاكم الله على مساهمتكم في إخراج هذا التفسير وكذا كل من ساهم في تعميم هذه الفائدة الكبرى - تحياتنا ودعواتنا لكم وللشيخ بطول العمر وإليكم هذه الأبيات تحمل التحيه والإعزاز والتقدير لكم :

شَيْخَ الدُّعَاةِ إِلَيْكَ مِنْ تِبْيَانِي … كُلَّ الدُّعَاءِ يَا فَارِسَ المَيْدَانِ
يَا مَنْ مَلأْتَ قُلُوبَنَا مِنْ سُنَّةٍ … لِلْمُصْطَفَى وَتَلَوْتَ مِنْ قُرْآنِ
وَجَمَعْتَ آلافَ القُلُوبِ عَلَى الهُدَى … حَتَّى اهْتَدَى مَنْ عَاشَ فِي الطُّغْيَانِ
كَانَ اللِّقَاءُ بِجُمْعَةٍ مَيْمُونَةٍ … جَمَعَتْ مِنَ الأَحْبَابِ وَالخِلَّانِ
عَبْدُ الحَمِيدِ إِمَامُهُمْ وَخَطِيبُهُمْ … وَطَبِيبُهُمْ مِنْ هِزَّةِ الأَحْزَانِ
سَحَرَ القُلُوبَ حَدِيثُهُ فَتَرَنَّمَتْ … تَبْكِي عَلَى مَا كَانَ مِنْ عِصْيَانِ
حَتَّى إِذَا اشْتَدَّ النَّحِيبُ بِجَمْعِنَا … مَسَحَ الدُّمُوعَ بِرَاحَةِ الإِيمَانِ
عَيْنُ الحَيَاةِ يَضُمُّنَا فِي جَنَّةٍ … مِعْطَارَةِ النَّسَمَاتِ وَالأَلْوَانِ
حَوْلَ ابْنِ كِشْكٍ نَشْتَهِي كَلِمَاتِهِ … فَهِيَ الدَّوَاءُ لِشِدَّةِ الأَزْمَانِ
وَلَقَدْ رَشَفْنَا مِنْ بِحَارِ عُلُومِهِ … فَيْضًا مِنَ الأَنْوَارِ وَالتِّبْيَانِ
حَتَّى شَعَرْنَا بِالمَلَائِكِ حَوْلَنَا … وَكَأَنَّنَا فِي جَنَّةِ الرِّضْوَانِ
يَا شَيْخَنَا صَبْرًا عَلَى كُلِّ الأَذَى … فَالأَمْرُ أَمْرُ الوَاحِدِ الدَّيَّانِ
سَتَظَلُّ يَا عَبْدَ الحَمِيدِ إِمَامَنَا … رَغْمَ العِدَاءِ وَصَوْلَةِ الطُّغْيَانِ
سَتَظَلُّ فِي عَيْنِ الحَيَاةِ خَطِيبَنَا … وَالمُرْشِدَ المَحْفُوظَ بِالقُرْآنِ
وَسَتَشْهَدُ الدُّنْيَا بِأَنَّكَ فَارِسٌ … يَا بْنَ الكِرَامِ وَسَيِّدُ الفُرْسَانِ
فَاهْنَأْ بِتَفْسِيرِ الرِّحَابِ عَلَى هُدَى … وَاشْرَحْ لَنَا آيَ الكِتَابِ الحَانِي
قَسَمًا فَهَذَا جَوْهَرٌ يَا سَيِّدِي … بَلْ إِنَّهُ فَيْضٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَلَأَنْتَ خَيْرُ مُفَسِّرٍ وَمُوَضِّحٍ … لِكِتَابِ رَبِّي وَاسِعِ الرِّضْوَانِ
يَا عَابِرَ البَحْرِ العَمِيقِ فَلَا تَهُنْ … إِنَّ الرِّجَالَ قَلَائِلٌ بِزَمَانِي
يَا قَاهِرَ الظُّلُمَاتِ نِلْتَ مَكَانَةً … بِقُصُورِ رَبِّي فِي نَعِيمِ جِنَانِ
سِرْ لِلأَمَامِ فَإِنَّ رَبِّي حَافِظٌ … لِلصَّالِحِينَ، وَرَافِعُ الشَّانِ
مَهْمَا ظَلَامُ الحَاقِدِينَ يَعُمُّنَا … فَاللَّهُ يَحْمِي فِتْيَةَ الإِيمَانِ
سَتَظَلُّ فِي كُلِّ القُلُوبِ إِلَى المَدَى … صَوْتَ الحَقِيقَةِ شَامِخَ البُنْيَانِ
هَذِي تَرَانِيمِي إِلَيْكَ نَسَجْتُهَا … بِمَشَاعِرِي، وَحَفَرْتُهَا بِكِيَانِي
فَلَأَنْتَ فِي قَلْبِي وَمِلْءُ خَوَاطِرِي … رَمْزُ الصُّمُودِ عَلَى مَدَى الأَزْمَانِ
سَتَظَلُّ يَا عَبْدَ الحَمِيدِ نَشِيدَنَا … يَشْدُو بِهِ وَيَتِيهُ كُلُّ لِسَانِ

ابنكم عبد الرحمن أحمد سلام - معيد بكلية التربية ببنها
قسم الصحة النفسية

الأجزاء السابقة تطلب من

المكتب المصرى الحديث للطباعة والنشر
القاهرة ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت ٣٩٣٤١٢٧
الاسكندرية ٧ شارع نوبار المنشية ت ٤٨٢٦٦٠٢
فاكسيمللى القاهرة ٣٤٧٥٤٢٧ (٠٠٢٠٢)

محتويات المجلد الثامن

من الجزء الثامن والعشرون

من آخر سورة الممتحنة (١٠ ـ ١٣) حتى آخر سورة التحريم

تفسير سورة الملك

مقدمة

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها ثلاثون آية .

وكلماتها : ثلاثمائة وثلاثون

وحروفها : ألف وثلثمائة وثلاث عشرة .

مجموع فواصل آياتها (تمر) . على الميم اثنان : (أليم) (مستقيم)

اسمائها :

ولها فى القرآن والسنن سبعة أسماء : سورة الملك ، لمفتتحها ، والمنجية لأنها تنجى قارئها من العذاب ، والمانعة ، لأنها تمنع من قارئها عذاب القبر — والدافعة ، لأنها تدفع بلاء الدنيا وعذاب الآخرة من قارئها وعذاب الآخرة من قارئها ، والشافعة ، لأنها تشفع فى القيامة لقارئها ، والمجادلة ، لأنها تجادل منكراً ونكيراً ، فتناظرهما كيلا يؤذيا قارئها ، السابع : المخلصة ، لأنها تخاصم زبانية جهنم ، لئلا يكون لهم يد على قارئها .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان استحقاق الله الملك ، وخلق الحياة والموت للتجربة ، والنظر إلى السموات للعبرة ، واشتعال النجوم والكواكب للزينة ، وما أعد للمنكرين من العذاب ، والعقوبة وما وعد به المتقون من الثواب ، والكرامة وتأخير العذاب عن المستحقين بالفضل والرحمة ، وحفظ الطيور فى الهواء بكمال القدرة ، واتصال الرزق إلى الخليقة ، بالنوال والمنة ، وبيان حال أهل الضلالة ، والهداية ، وتعجل الكفار بمجيء القيامة وتهديد المشركين بزوال النعمة بقوله تعالى : ﴿ **يأتيكم بماء معين** ﴾.

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **فارجع البصر** ﴾ وبعده : ﴿ **ثم ارجع البصر كرتين** ﴾أى : الكرة الأولى وقيل : هى ثلاث مرات : أى : ارجع البصر — وهذه مرة — ثم ارجع البصر كرتين فمجموعها ثلاث مرات . قال أبو القاسم الكرمانى : ويحتمل أن يكون أربع مرات ، لأن قوله تعالى : ﴿ **ارجع** ﴾ يدل على سابقة مرة .

قوله تعالى : ﴿ ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض ﴾ ، وبعده : ﴿ أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ خوفهم بالخسف أولاً ، لكونهم على الأرض ، وأنها أقرب عليهم من السماء ، ثم بالحصب من السماء ، فلذلك جاء ثانية .

فضل السورة

فيه حديث حسن عن النبى ﷺ أنه قال : إن سورة من كتاب الله ماهى إلا ثلاثون آية ، شفعت لرجل ، فأخرجته يوم القيامة من النار ، وأدخلته الجنة ، وهى سورة تبارك .

وأخرج أحمد بسنده عن أبى هريرة — رضى الله عنه — عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذى بيده الملك » ورواه أهل السنن الأربعة من حديث شعبة ، وقال الترمذى هذا حديث حسن[1] .

مناسبة السورة لما قبلها

إنه لما ضرب مثلاً للكفار بتلك المرأتين اللتين قدر لهما الشقاء وإن كانت تحت عبدين صالحين ، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم وقد كتب لهما السعادة وإن كان أكثر قومهما كفاراً — افتتح هذه السورة بما يدل على إحاطة علمه — عز وجل — وقهره وتصرفه فى ملكه على ما سبق به قضاؤه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ
وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ
ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ
ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ
وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ

(١) مسند أحمد ٣٢١/٢ وسنن الترمذى — كتاب فضائل القرآن — باب فضل سورة الملك ١٦٤/٥ رقم ٢٨٩١ وسنن ابن ماجه — كتاب الأدب — باب ثواب القرآن ١٢٤٤/٢ رقم ٣٧٨٦ .

كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ
لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ
خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ
ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا
فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

معانى المفردات

﴿ **تبارك** ﴾ : تعالى وتمجد أو تكاثر خيره . ﴿ **بيده الملك** ﴾ : له الأمر والنهى والسلطان . ﴿ **خلق الموت** ﴾ : أوجده أو قدره أزلاً . ﴿ **ليبلوكم** ﴾ أى : ليختبركم والمراد ليعاملكم معاملة المختبر لأعمالكم . ﴿ **أحسن عملا** ﴾ أى : أخلصه لله . ﴿ **العزيز** ﴾ أى : الغالب لا يعجزه عقاب من أساء ﴿ **الغفور** ﴾ أى : كثير المغفرة والستر لذنوب عباده . ﴿ **طباقاً** ﴾ أى : طبقة بعد طبقة . ﴿ **تفاوت** ﴾ أى : اختلاف وعدم تناسب ، والفطور الشقوق ، واحده فطر . ﴿ **كرتين** ﴾ أى : رجعتين أخريين فى ارتياد الخلل ، والمراد بذلك التكرير والتكثير : أى : رجعة بعد رجعة . ﴿ **ينقلب** ﴾ أى : يرجع ، ﴿ **خاسئاً** ﴾ صاغراً ذليلاً ، ﴿ **حسير** ﴾ أى : كليل منقطع لم يدرك ما طلب . والحاسر : المعيا لنقاد قواه . ﴿ **مصابيح** ﴾ واحدها (مصابح) وهو السراج والمراد بها الكواكب . ﴿ **والرجوم** ﴾ واحدها (رجيم) (بالفتح) وهو ما يرجم ويرمى به . ﴿ **أعتدنا** ﴾ أى : هيأنا . ﴿ **عذاب السعير** ﴾ أى : عذاب النار المسعرة الموقدة ﴿ ألقوا فيها ﴾ أى : طرحوا فيها كما يطرح الحطب فى النار . ﴿ **والشهيق** ﴾ تنفس كتنفس المتغيظ قاله المبرد : ﴿ **تفور** ﴾ أى : تغلى بهم كغلى المرجل قاله ابن عباس : ﴿ **تميز** ﴾ أى : ينفصل بعضها من بعض . ﴿ **الغيظ** ﴾ شدة الغضب . قاله الراغب : ﴿ **فوج** ﴾ أى : جماع . ﴿ **خزنتها** ﴾ واحدها خازن ، وهم مالك وأعوانه ، ﴿ **ينذر** ﴾ أي : رسول **ينذركم** بأس الله وشديد عقابه . ﴿ **إن أنتم إلا فى ضلال كبير** ﴾ أى : ما أنتم إلا فى ضلال بعيد عن الحق والصواب . ﴿ **فسحقاً** ﴾ أى : بعداً لهم من رحمة ربهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ، وهو العزيز الغفور** ﴾ .

يمجد تعالى نفسه الكريمة ويخبر أن بيده الملك أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله ولهذا قال تعالى : ﴿ **وهو على كل شىء قدير** ﴾ قال ابن عباس : بيده الملك يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويحيى ويميت ، ويغنى ويفقر ، ويعطى ويمنع . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب** ﴾[١].

ثم شرع سبحانه يفصل بعض أحكام الملك وآثار القدرة ، فقال تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾

قال ابن كثير : استدل بهذه الآية من قال إن الموت أمر وجودى لأنه مخلوق ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم كما قال تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم** ﴾[٢] فسمى الأول وهو العدم موتاً وسمى هذه النشأة حياة .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن قتادة فى قوله تعالى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة** ﴾ قال كان رسول الله ﷺ يقول : إن الله أذل بنى آدم بالموت وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء[٣].

قوله تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ أى : ليعاملكم معاملة من يُختبر حاله وينظر أيكم أخلص فى عمله ، فيجازيكم بذلك بحسب تفاوت مراتبكم وأعمالكم .

وقال السدى فى قوله تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ أى : أكثركم للموت ذكراً وأحسن استعداداً ، ومنه أشد خوفاً وحذراً .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون** ﴾[٤].

وفى الآية ترغيب فى الطاعات وزجر عن المعاصى كما لا يخفى على ذوى الألباب .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨ .

(٣) تفسير الطبرى ٢/٢٩ .

(٤) سورة الأنبياء الآية : ٣٥ .

الإخلاص واتباع السنة شرط قبول العمل

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال تعالى : ﴿ **ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ وهو كما قال الفضيل بن عياض ــ رحمه الله ــ أخلصه وأصوبه فإن العمل إذا كان خالصاً ، ولم يكن صواباً : لم يقبل . وإذا كان صواباً ، ولم يكن خالصاً : لم يقبل . حتى يكون خالصاً صواباً والخالص . أن يكون لله ، والصواب : أن يكون على السنة .

فالعمل الصالح : لابد أن يراد به وجه الله تعالى فإن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه وحده ... وهذا هو التوحيد الذى هو أصل الإسلام وهو دين الله الذى بعث به جميع رسله ، وله خلق الخلق ، وهو حقه على عباده . أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

ولابد ــ مع ذلك ــ أن يكون العمل صالحاً ، وهو ما أمر الله به ورسوله وهو الطاعة . فكل طاعة عمل صالح ، وكل عمل صالح طاعة وهو العمل المشروع المسنون إذ العمل المشروع المسنون : هو المأمور به أمر إيجاب ، أو استحباب وهو العمل الصالح . وهو الحسن . وهو البر وهو الخير ، وضده المعصية ، والعمل الفاسد ، والسيئة والفجور والظلم .

وقال ابن القيم ــ رحمه الله ــ قال بعض السلف : مامن فعله وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان : لم ؟ وكيف ؟ أى : لم فعلت ؟ وكيف فعلت ؟ فالأول سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه ، هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل ، وغرض من أغراض الدنيا من محبة الروح من الناس أو خوف ذمهم ، أو استجلاب محبوب عاجل ، أو دفع مكروه عاجل ؟ أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية ، وطلب التودد والتقرب إلى الرب سبحانه وتعالى وابتغاء الوسيلة إليه ؟

والثانى : سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام فى ذلك التعبد ، أى : هل كان ذلك العمل بما شرعته لك على لسان رسولى ، أم كان عملاً لم أشرعه ولم أرضه ؟

فالأول سؤال عن الإخلاص ، والثانى عن المتابعة ، فإن الله سبحانه وتعالى لا يقبل عملاً إلا بهما .

قوله تعالى : ﴿ **وهو العزيز الغفور** ﴾ أى : هو سبحانه العزيز العظيم المنيع الجناب وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب بعد ماعصاه وخالف أمره وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز ، وإثبات العزة والغفران له سبحانه يتضمن كونه قادراً على كل المقدورات عالماً بكل المعلومات ، ليجازى المحسن والمسيء بالثواب والعقاب ، ويعلم المطيع من العاصى فلا يقع خطأ فى إيصال الحق إلى من يستحقه ، ثوابا كان أو عقاباً كما قال تعالى : ﴿ **تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير** ﴾(١)

(١) سورة غافر الآيات : من ١ إلى ٣ .

ثم ذكر سبحانه دلائل قدرته فقال تعالى :

أى : هو الذى أوجد سبع سموات بعضها فوق بعض فى جو الهواء بلا عماد ، ولا رابط يربطها مع اختصاص كل منها بحيز معين ، ونظم ثابتة لا تتغير . قال تعالى : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش * وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى * يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾[١].

وقوله تعالى : ﴿ **ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت * فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾ أى : لا ترى أيها الرائى تفاوتاً وعدم تناسب ولا نقص ولا عيب ولا خلل ﴿ **فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾ أى : أنك إذا كررت النظر لم يرجع إليك البصر بما طلبته من وجود الخلل والعيب ، بل يرجع إليك صاغراً ذليلاً لم ير ما يهوى منهما ، حتى كأنه طرد وهو كليل من طول المعاودة وكثرة المراجعة .

قال تعالى : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج** ﴾[٢] أى : من شقوق .

وبعد أن بين سبحانه خلوّ السموات من العيب ذكر أنها الغاية فى الحسن والبهاء فقال تعالى : ﴿ **ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح** ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت وهى التى يراها الناس مضيئة بالليل يهتدون بها فى ظلمات البر والبحر كما قال تعالى : ﴿ **وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون** ﴾[٣]

وقوله تعالى : ﴿ **وجعلناها رجوماً للشياطين** ﴾ قال ابن كثير : الضمير فى قوله وجعلناها عائد على جنس المصابيح لاعلى عينها لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء بل بشهب من دونها وقد تكون مستمدة منها والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ **وأعتدنا لهم عذاب السعير** ﴾ أى : جعلنا للشياطين هذا الخزى فى الدنيا وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى كما قال تعالى : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لايسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾[٤]

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها الله زينة للسماء ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها . فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم[٥].

---

(١) سورة الرعد الآية : ٢ .
(٢) سورة ق الآية : ٦ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٧ .
(٤) سورة الصافات الآيات من ٦ إلى ١٠ .
(٥) تفسير الطبرى ٣/٢٩ .

قال العلامة ابن كثير : يقول رب العزة : ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير** ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ **إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً** ﴾ قال ابن جرير يعنى الصياح ﴿ **وهى تفور** ﴾ قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحب القليل فى الماء الكثير .

وقوله تعالى : ﴿ **تكاد تميز من الغيظ** ﴾ أى : يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم . ﴿ **كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير** ﴾ يذكر تعالى عدله فى خلقه وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه كما قال تعالى : ﴿ **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا** ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ **حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين** ﴾[٢] وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة وندموا حيث لا تنفعهم الندامة فقالوا ﴿ **لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** ﴾ أى : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزله الله من الحق لما كنا على ماكنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم . قال الله تعالى : ﴿ **فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾ قال الأمام أحمد بسنده عن أبى البحترى الطائى قال أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم »[٣] وفى حديث آخر : « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

وعـد ووعيـد

قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

(١) سورة الإسراء الآية : ١٥ .
(٢) سورة الزمر الآية : ٧١ .
(٣) مسند أحمد ٤/٢٦٠ .

معانى المفردات

﴿ بذات الصدور ﴾ أى : بما فى النفوس ، ﴿ اللطيف ﴾ : هو العالم بالأشياء التى يخفى علمها على العالمين . ﴿ الخبير ﴾ أى : بظواهر الأشياء وبواطنها . ﴿ ذلولا ﴾ أى : سهلة منقادة يسهل عليكم السير فيها والانتفاع بها وبما فيها . ﴿ مناكبها ﴾ : جوانبها . أو طرقها وفجاجها . ﴿ إليه النشور ﴾ : إليه تبعثون من القبور .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أوعد الكفار بما أوعد ، وبالغ فى ترهيبهم بما بالغ – وعد المؤمنين بالمغفرة والأجر الكريم وذكر سبحانه أنه عليم بما يصدر منهم فى السر والعلن ، ثم أقام الدليل على ذلك بأنه هو الخالق ، فلا يخفى عليه شىء من أمرهم ، بل يصل علمه إلى ظواهر أمورهم وبواطنها ، ثم عدد نعماءه عليهم ، فذكر أنه ذلل لهم الأرض وهيأ لهم فيها منافع من زروع وثمار ومعادن ، فليتمتعوا بما أوتوا ثم إلى ربهم مرجعهم ، وإليه بعثهم ونشورهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس فكيف عن المعاصى ويقوم بالطاعات حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير أى تكفر عنه ذنوبه ويجازى بالثواب الجزيل . كما قال تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ * من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾(١) وكقوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾(٢) وكقوله جل فى علاه : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾(٣)

---

(١) سورة ق الآيات من : ٣١ حتى ٣٥ .
(٢) سورة الرحمن الآية : ٤٦ .
(٣) سورة النازعات الآيتان : ٤٠ ، ٤١ .

وفى الحديث الصحيح إن الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك(٤).

ثم نبه سبحانه إلى أنه مطلع على السرائر فقال :

قوله تعالى : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أى : إن عملكم وقولكم على أى سبيل وجد فالله عليم به ، فداوموا أيها الخاشعون على خشيتكم وأنيبوا أيها المغترون إلى ربكم ، وكونوا على حذر من أمركم .

وقوله : ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ كالعلة والسبب لما قبله . فهو سبحانه محيط بمضمرات النفوس وأسرارها الخفية المستكنة فى الصدور ، فكيف لا يعلم ما تسرون وما تجهرون به . قال تعالى : ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى** ﴾(٥).

ثم نصب الأدلة على إحاطة علمه بجميع الأشياء فقال تعالى : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ أى : كيف لا يعلم السر والجهر من أوجد بحكمته ، وواسع علمه ، وعظيم قدرته ، جميع الأشياء ، وهو النافذ علمه إلى ما ظهر منها وما بطن وهو اللطيف الخبير .

قال القرطبى : قال أهل المعانى : إن شئت جعلت (مَن) اسماً للخالق — جل وعز — ويكون المعنى : ألا يعلم الخالقُ خلقه . وإن شئت جعلته اسماً للمخلوق ، والمعنى : الا يعلم الله من خلق . ولابد أن يكون الخالق عالماً بما خلقه وما يخلقه . قال سعيد بن المسيب : بينما رجل واقف بالليل فى شجر كثير وقد عصفت الريح فوقع فى نفس الرجل أترى الله يعلم ما يسقط من هذا الورق ؟ فنودى من جانب الغيضة بصوت عظيم ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ أى : إن ربكم هو الذى سخر لكم الأرض وذللها لكم ، فجعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأوجد فيها من العيون ، لسقيكم وسقى أنعامكم وزروعكم وثماركم ، وسلك فيها السبل . كما قال تعالى : ﴿ **وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها**

---

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥ .

(٥) سورة طه الآيتان : ٧ ، ٨ .

فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾[(١)] وكما قال سبحانه : ﴿ **والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين ، وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾[(٢)]

وقوله : ﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئا إلا أن ييسره الله لكم ولهذا قال تعالى ﴿ **وكلوا من رزقه** ﴾ فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل كما قال الإمام أحمد بسنده عن عمر بن الخطاب إنه سمع رسول الله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتروح بطانا[(٣)] فأثبت لها رواحاً وغدوا لطلب الرزق مع توكلها على الله عز وجل وهو المسخر المسير المسبب .

وقوله تعالى : ﴿ **وإليه النشور** ﴾ أى : المرجع يوم القيامة . وقيل : معناه أن الذى خلق السماء لا تفاوت فيها ، والأرض ذلولاً قادر على أن ينشركم .

عظمة الله تعالى المطلقة

قال تعالى :

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم
مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ
صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنۡ
هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي
غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ
وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ

---

(١) سورة الأنبياء الآيات : ٣١ .

(٢) سورة الحجر الآيات : من ١٩ حتى ٢١ .

(٣) مسند أحمد ٣٠/١ .

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا
الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

معانى المفردات

﴿ **أأمنتم** ﴾ الأمن ضد الخوف . ﴿ **من فى السماء** ﴾ هو ربكم الأعلى . ﴿ **تمور** ﴾ أى : تهتز وتضطرب . ﴿ **حاصبا** ﴾ أى : ريحاً شديدة فيها حصباء تهلككم . ﴿ **نذير** ﴾ أى : انذارى وتخويفى . ﴿ **نكير** ﴾ أى : انكارى عليهم بإنزال العذاب بهم . ﴿ **صافات** ﴾ أى : باسطات أجنحتهن فى الجو حين طيرانها تارة ، ويقبضن . أى : ويضممنها تارة أخرى . ﴿ **جند** ﴾ أى : عون ﴿ **ينصركم** ﴾ أى : يساعدكم فيدفع العذاب عنكم ﴿ **من دون الرحمن** ﴾ أى : من غيره . ﴿ **فى غرور** ﴾ أى : فى خداع من الشيطان الذى يغركم بأن لا عذاب ولا حساب . ﴿ **أمسك رزقه** ﴾ أى : بإمساك المطر وغيره من الأسباب التى ينشأ منها الرزق . ﴿ **لجوا** ﴾ أى : تمادوا . ﴿ **فى عتو** ﴾ أى : تكبر وعناد عن قبول الحق ﴿ **نفور** ﴾ أى : إعراض وتباعد منه ﴿ **مكباً على وجهه** ﴾ أى : واقعاً عليه . ﴿ **سوياً** ﴾ أى : معتدلا منتصباً. ﴿ **الأفئدة** ﴾ العقول واحدها فؤاد . ﴿ **ذرأكم** ﴾ أى : خلقكم . ﴿ **الوعد** ﴾ أى : الحشر الموعود . ﴿ **إنما العلم** ﴾ أى : العلم بوقته . ﴿ **زلفة** ﴾ أى : مزدلفاً قريباً . ﴿ **سيئت** ﴾ أى : تبين فيها السوء والقبح إذ علتها الكآبة والفترة ، ويقال ساء الشىء يسوء إذا قبح . ﴿ **تدعون** ﴾ أى : تطلبونه وتستعجلونه استهزاء وإنكاراً . ﴿ **أرأيتم** ﴾ أى : أخبرونى . ﴿ **غوراً** ﴾ أى : غائراً فى الأرض لا تناله الدلاء . ﴿ **معين** ﴾ أى : جاء سهل المأخذ تصل إليه الأيدى .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكافرين من نار تلظى ، ووصف هذه النار بما تشيب من هوله الولدان — أردف ذلك بترهيبهم بأنهم لا يأمنون أن يحل بهم فى الدنيا مثل ماحل بالمكذبين بالرسل من قبلهم : من خسف عاجل تمور به الأرض موراً ، أو ريح حاصب تهلك الحرث والنسل ، ولا تبقى منهم ديارا ولا نافخ ناراً . ثم لفت أنظارهم إلى باهر قدرته ، وعظيم منته على عباده ، فطلب منهم أن يروا الطير وهى تبسط أجنحتها فى الجو تارة وتضمها أخرى بتسخير الله وتعليمه ماهى فى حاجة إليه ثم أردفه بتوبيخهم على عبادتهم غيره تعالى يبتغون منه نصراً ورزقاً ، منكرا عليهم ما اعتقدوه ، مبينا لهم أنهم لا يصلون إلى ما أمّلوه ، وإلا فليبينوا هذا الناصر والمعين والرازق إذا هو أمسك رزقه . أما وقد وضح الحق لذى عينين فهم فى لجاج وعناد بعد وضوح الحجة وتبين المحجة . ثم ضرب مثلاً يبين حالى المشرك والموحد ، ثم أعقب هذا بذكر الدلائل على تفرده بالألوهية بذكر خلق الإنسان فى الأرض وإعطائه نعمة السمع والبصر ، وأرشد إلى أن القليل من الناس شكور لهذه النعم .

ثم أردف هذا بذكر سؤال المشركين للرسول عن ميقات البعث استهزاء به ، وإجابته إياهم بأن علمه عند الله وليس له من علمه شىء ، وإنما هو نذير مبين وذكر حين تقوم الساعة ويعرف المشركون قرب وقوع ماكانوا ينكرون تعلو وجوههم غبرة ، ترهقها قترة ، ويقال لهم : إن ماكنتم تستعجلون قد وقع ولا مرد له ، فماذا أنتم فاعلون ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إنا آمنا بربنا وتوكلنا عليه ، وستعلمون غداً من الهالك ؟ ثم أمره أن يقول لهم : إن غار ماؤكم فى الأرض ولم تصل إليه الدلاء ، فمن يأتيكم بماء عذب زلال تشربونه ؟

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور** ﴾ قال ابن عباس : المعنى أأمنتم عذاب من فى السماء إن عصيتموه أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون ﴿ **فإذا هى تمور** ﴾ أى : تتحرك بكم حين الخسف ، وتبتلعكم وتمور فوقكم جيئة وذهاباً .

وقوله تعالى : ﴿ **أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير** ﴾ أى : أم أمنتم الله العلى الكبير أن يرسل عليكم حجارة من السماء ، كما أرسلها على قوم لوط وأصحاب الفيل ؟ ﴿ **فستعلمون كيف نذير** ﴾ أى : فستعلمون عند معاينة العذاب ، كيف يكون إنذارى وعقابى للمكذبين .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن**

ربكم لرءوف رحيم ﴾[1] وهذا من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ويؤجل ولا يعجل كما قال تعالى : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جا أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً** ﴾[2]

قوله تعالى : ﴿ **ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير** ﴾ أي : ولقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة والقرون الغابرة من أرسلناهم من رسلنا فحاق بهم من سوء العذاب مالا مردّ له ، وحل بهم من البأس مالم يجدوا له دافعاً على شدة هوله وعظيم فظاعته .

قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير** ﴾ أى : غفلوا عن قدرتنا ولم ينظروا إلى الطير فوقهم وهى باسطات أجنحتهن فى الجو حين طيرانها تارة ، وقابضات لها أخرى وما يمسكهن فى الجو حين الصف والقبض على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها إلا واسع الرحمة من براهن على أشكال وخصائص هو العليم بها ، وألهمهن حركات تساعد على الجرى فى الهواء المسافات البعيدة لتحصيل أقواتهن ، والبحث عن أرزاقهن ؟

﴿ **إنه بكل شيء بصير** ﴾ أى : أنه سبحانه عليم بدقيق الأشياء وجليلها فيعلم كيف يبدع خلقها على السنن التى هو عليم بفائدتها لعباده .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أولم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[3].

آلهـــى :

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له ... طـوبى لمـن عاش بين النـاس يهواك
إنى لأعجـب ممـن قد رأى طرفـــاً ... من فيض جودك ـــ ربى ـــ كيف ينساك
والله ما سعـدت روحـى ولا فرحت ... فى الدهر ـــ ما بقيت ـــ إلا بذكراك

قوله تعالى : ﴿ **أمَّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن * إن الكافرون إلا في غرور * أمَّن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجو في عتو ونفور** ﴾ يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره ويبتغون عنده نصراً ورزقاً منكراً عليهم فيما اعتقدوه ومخبراً لهم أنه

(١) سورة النحل الآيات من ١٤٥ حتى ١٤٧ .
(٢) سورة فاطر : ٤٥ .
(٣) سورة النحل الآية : ٧٩ .

لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال تعالى : ﴿ **أمّن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن** ﴾ أي : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن الكافرون إلا فى غرور** ﴾ أى : ما الكافرون فى اعتقادهم أن آلهتهم تنفع أو تضر إلا فى جهل عظيم ، وضلال مبين ، حيث ظنوا الأوهام حقائق فاعتزوا بالأوثان والأصنام . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم ، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ، ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ، إن ولى الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون** ﴾(١).

قوله تعالى : ﴿ **أمّن هذا الذى يرزقكم أن أمسك رزقه ، بل لجو فى عتو ونفور** ﴾ أى : من هذا الذى إذا قطع عنكم رزقه يرزقكم بعده ؟ أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق وينصر إلا الله ــ عز وجل ــ وحده لا شريك له ، أى : وهم يعلمون ذلك ومع هذا يعبدون غيره ولهذا قال تعالى : ﴿ **بل لجو** ﴾ أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ **فى عتو ونفور** ﴾ أى : فى معاندة واستكبار ونفور على إدبارهم عن الحق لا يسمعون له ولا يتبعونه . كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾(٢)

قوله تعالى : ﴿ **أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أمّن يمشى سوياً على صراط مستقيم ، قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ، قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾ هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى منكبا على وجهه أى : يمشى منحنياً لا مستوياً على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب بل تائه حائر ضال ﴿ **كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران** ﴾(٣) أهذا أهدى ﴿ **أمّن يمشى سوياً ؟** ﴾ أى : منتصب القامة ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أى : على طريق واضح بين وهو فى نفسه مستقيم وطريقه مستقيم ؟ هذا مثلهم فى الدنيا وكذلك يكونون فى الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشى سوياً على صراط مستقيم مفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم وبئس المصير .

أخرج أحمد بسنده عن نفيع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل يا رسول الله : كيف

---

(١) سورة الأعراف الآيات : من ١٩١ حتى ١٩٨ .

(٢) سورة فاطر الآية : ٣ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٧١ .

يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم ؟ » . رواه أيضاً البخارى ومسلم(١).

وقوله تعالى : ﴿ **قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾ هو سبحانه ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ أى : العقول والإدراك ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾ أى : قلما تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم فى طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره كما قال تعالى : ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾(٢)

قوله تعالى : ﴿ **قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾ أى : هو سبحانه بثكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ﴿ **وإليه تحشرون** ﴾ أى : تجمعون بعد هذا التفرق والشتات يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم . كما قال تعالى : ﴿ **قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ولله ملك السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون ، وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون** ﴾(٣)

قوله تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل إنما العلم عند الله وإنما أنا نذير مبين * فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون** ﴾ أى : ويسألون الرسول استهزاء وتهكما : متى ما تعدنا به من الخسف والحاصب فى الدنيا ، والحشر والعذاب فى الآخرة إن كنت صادقاً فيما تدعى وتقول ؟

فأمر رسوله أن يجيبهم فإن علم ذلك عند بارىء النسم فقال : ﴿ **قل إنما العلم عند الله * وإنما أنا نذير مبين** ﴾ أى : وإنما أنا منذر من عند ربى أبين لكم شرائعه ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ **فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا** ﴾ أى : فلما رأوا العذاب الموعود قريباً — وكل آت قريب وإن طال زمنه — ساءهم ذلك وعلت وجوههم الكآبة والخسران ، وغشيتها القترة والسواد ، إذ جاءهم من أمر الله مالم يكونوا يحتسبون قال تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون وبدا لهم سيئات ماكسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون** ﴾(٤) ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ **هذا الذى كنتم به تدعون** ﴾ أى : تستعجلون . كما قال تعالى : ﴿ **يوم هم على النار يفتنون ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون** ﴾(٥)

---

(١) مسند أحمد ١٦٧/٣ واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٧٨٩

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٣) سورة الجاثية الآيات : من ٢٦ حتى ٢٨ .

(٤) سورة الزمر الآيتين ٤٧ ، ٤٨

(٥) سورة الذاريات الآيتان : ١٣ ، ١٤ .

قوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ، قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين ، قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ . أى : قل لهم يا محمد ـــ يريده مشركى مكة ، وكانوا يتمنون موت النبى ـــ ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ **أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون** ﴾[١]: أرأيتم إن متنا أو رحمنا فأخرت آجالنا فمن يجيركم من عذاب الله ، فلا حاجة بكم إلى التربص بنا ولا إلى استعجال قيام الساعة . ﴿ **قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا** ﴾ أى : قل لهم آمنا بالله الواحد ، وعليه عتمدنا فى جميع أمورنا ، لا على الأموال والرجال ، ﴿ **فستعلمون من هو فى ضلال مبين** ﴾ أى : فسوف تعلمون عن قريب من هو فى الضلالة نحن أم أنتم ؟ وفيه تهديد للمشركين .

وقوله تعالى : ﴿ **قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً** ﴾ أى : ذاهباً فى الأرض إلى أسفل فلا ينال بالفؤس الحداد ، ولا السواعد الشداد والغائر عكس النابع ولهذا قال تعالى : ﴿ **فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، أى : لا يقدر على ذلك إلا الله وحده ـــ عز وجل ـــ فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة فلله الحمد والمنة قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون** ﴾[٢].

« اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »

سياحة مباركة فى سورة الملك

الحمد لله والصلاة على نبينا وحبيبنا محمد ﷺ .

أما بعـد

فإن سورة الملك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التى تعالج موضوع العقيدة فى أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسية ثلاثة وهى « إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة ، وإقامة الأدلة على وحدانية رب العالمين ، ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور قال تعالى : ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير** ﴾ . هذا هو التوحيد الخالص فلا قدرة لأحد سواه ، ولا ملك بيد غيره ، فهو سبحانه كل شىء قائم به ، وكل شىء خاشع له ، قوة كل ضعيف ، ورضا كل قنوط ، ومفزع كل ملهوف ، وأمان كل خائف ، وشفاء كل سقيم ، وغنى كل فقير » من تكلم سمع نطقه ، ومن سكت علم سره ، ومن عاش فعليه رزقه ، ومن مات فإليه منقلبه ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور** ﴾

(١) سورة الطور الآية : ٣٠ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١٨ .

وهـذا دليـل لقدرة الفائقة التي لا سلطان لأحد عليها ولا يد لمخلوق فيها . ثم يقيم الدليل على وحدانيته بأنه خالق الموت والحياة ، وهل هناك على ظهر البسيطة من يحيى أو يميت سواه . اسأل العالم من أقصاه إلى أقصاه ، هل من الجبابرة أو الأكاسرة أو القياصرة أو الأباطرة أو أصحاب الصولجان من استطاع أن يدفع الموت عن نفسه ﴿ **قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾[١] فسبحان من أمره قضاء وحكمه ورضاه أمان ورحمة ، وكيف يجرؤ مجترىء فيقول : أنا أحيى وأميت . إنه إن قالها فقد سفه نفسه ، وضل رشده وزلت قدمه وتعثر قلمه .

﴿ **ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾[٢]

لما رأى الخليل تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وسلوكه مسلك التلبيس والتمويه على الرعاع ، وكان بطلان جوابه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد ، انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى لا تجرى فيها المغالطة ولا يتيسر للطاغية أن يخرج عنها بمكابرة أو مشاغبة فقال : ﴿ **إن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب** ﴾ فلوى خليل الله عنقه حتى أراه عجزه وأخرس لسانه .

وأراد ربك أن يقيم الأدلة الواقعية على أنه الواحد الذى يحيى ويميت فأقام لنا هذا المشهد الواقعى قال سبحانه : ﴿ **أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير** ﴾[٣]

ولما قال إبراهيم الخليل للنمروذ : ﴿ **ربى الذى يحيى ويميت** ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ **رب أرنى كيف تحيى الموتى * قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبى** ﴾[٤]

وإنما كان السؤال من الله وكانت الإجابة بإثبات الإيمان من إبراهيم حتى لا يتوهم قلب مريض أن سؤال إبراهيم كان سؤال شك بل كان سؤالا للاطمئنان كيف يكون إحياء الموتى أمام الجبابرة القساة : ﴿ **قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم** ﴾[٥]

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٨ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٩ .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٦٠ .

لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، لا محيى إلا أنت ، ولا مميت سواك .

ثم يؤكد هذه الأدلة بدليل مشاهد أمام العين نصبه الله فى الآفاق الكونية ، وفى سورة تبارك قال سبحانه : ﴿ **الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين** ﴾ .

الجـزاء يوم البعـث

وينتقل بنا النظم الكريم من إثبات الوحدانية لصاحب العظمة المطلقة وصاحب الكمال المطلق ، إلى ساحات الجزاء يوم البعث فيقول تعالى : ﴿ **وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير** ﴾ .

وبعد نيران الوعيد يشرق علينا نور الوعد

﴿ **إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير** ﴾ هذا وعد من الله للذين يخافون الله وهم لم يروا ذاته ، وهذا سر عظمة المؤمنين أن يخافوا بالغيب ويؤمنون بالغيب ، وإلا لما كان للإيمان فضل إذا كان حسياً يقع تحت حاسة البصر أو السمع أو اللمس أو الشم أو الذوق : قيل للإمام على يا إمام . هل رأيت ربك ؟ قال :وكيف أعبد مالا أرى . قالوا : فكيف رأيته ؟ قال الإمام : سبحانه ربى إن كانت العيون لا تراه بمشاهدة العيان فإن القلوب تراه بحقيقة الإيمان . وقيل لأبى بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ يا صديق بم عرفت ربك ؟ قال : عرفت ربى بربى ولولا ربى ما عرفت ربى قالوا : فكيف عرفته ؟ قال الصديق : العجز عن الإدراك إدراك والبحث فى ذات الله اشراك . ما جزاء هؤلاء الذين يخشون ربهم بالغيب . لهم مغفرة لذنوبهم ، ومكفرة لسيئاتهم ولهم أجر كبير فى الآخرة .

جاء فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ يبين أجر الذين يخشون ربهم بالغيب حيث قال ﷺ : « سبعة يظلهم الله تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله تعالى ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل قلبه معلق

بالمساجد ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من الدمع »[١].

فأنت ترى فى هؤلاء السبعة نوعين ممن يخشون الله بالغيب ، هذا الذى دعته امرأة لنفسها فما خاف إلا الله ، وهذا الذى تصدق بالمال فلم يعلن ذلك على الناس ليحمدوه ، إنما تصدق ابتغاء مرضاة من لا يغفل ولا ينام .

وينتقل بنا النظم الكريم إلى علم الله الذى لا حدود له ، وإلى سمع الله الذى لا نهاية له فيقول سبحانه : ﴿ **وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾ .

فسبحان من علم ما كان وعلم ما يكون ، وعلم مالا يكون لو كان كيف كان يكون ، وسبحان من يسمع ويرى دبيب أرجل النملة السمراء فى الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، وسبحان من أمره بالكاف والنون وكيف يغيب عن مسمع الله أو بصره شىء وهو الذى قال : ﴿ **وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر واخفى** ﴾[٢] وهل هناك أخفى من السر ؟

نعم إنها ذات الصدور أى النيات التى لم يتلفظ بها العبد بل عقد عليها النية وأضمرها، وكيف لا يعلم ذات الصدور وهو الذى قال : ﴿ **يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور** ﴾[٣]

وكيف لا يرتبط بكل شىء علماً وهو الذى جمع الكائنات كلها تحت مفاتح علمه وغيبه : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾[٤]

وكيف تخفى عليه خافية ؟ أو تغرب عن علمه شاردة ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ماجرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾[٥]

وكيف يعلو صوت على كبريائه وعظمته وهو القاهر فوق عباده .

وكيف يستغشى جاهل أو غافل ثوبه ليستخفى منه وهو القائل : ﴿ **ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور** ﴾[٦] ﴿ **ألم تر أن الله يعلم مافى السماوات ومافى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم** ﴾[٧] نعم ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠

(٢) سورة طه الآية : ٧ .

(٣) سورة غافر الآية : ١٩ .

(٤) سورة الأنعام الآية : ٥٩ .

(٥) سورة الأنعام الآية : ٦٠ .

(٦) سورة هود الآية : ٥ .

(٧) سورة المجادلة الآية : ٧ .

لطيف يعلم دقائق الأشياء ، وخبير يدرك حقائق الكائنات على هذا المنهج القرآنى ربى الرسول أصحابه ، رباهم على مراقبة البصر العلوى لهم فى تحركاتهم وسكناتهم .

أو ما سمعت إلى تلك الإجابة الشافية الكافية الوافية التى أجاب بها سيد الخلق وحبيب الحق عن سؤال جبريل . ما الإحسان ؟ فماذا كان الجواب أيكون الإحسان صدقة ؟ أيكون إتقان شىء ؟ أيكون إخلاص العمل ؟ لقد كانت إجابة الرسول ﷺ عن الإحسان أرحب أفقاً وأوسع دائرة وأصلب عوداً : لقد بين أن للإحسان مقامين أحدهما مقام المشاهدة والآخر مقام المراقبة .

فقال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ولذا قال أحد الناس لسفيان الثورى — رضى الله عنه : دلنى على نصيحة إن عملت لا أجترىء على معصية الله ، فقال سفيان الثورى : تذكر خمسة أشياء :

١ – أيليق بك أن تعصى الله وهو يرزقك .

٢ – أتظن أنك تعصى الله وهو لا يراك .

٣ – أتستطيع أن تعصى الله خارج ملكه .

٤ – أتستطيع إن أتاك الموت أن تطلب تأجيله

٥ – أتقدر يوم القيامة إذا ذهب بك إلى النار أن تدفع العذاب عنك ؟ قال : لا أستطيع شيئاً من ذلك .

قال : سفيان : فكيف تجترىء بالمعصية على من رزقك ورآك وأنت فى ملكه ، وكتب عليك الموت ولا تستطيع أن تدفع عذابه عنك .

قال الرجل : والله لا أعصيه مادمت حياً .

ثم ينتقل بنا النظم الكريم إلى الامتنان الإلهى فيقول سبحانه : ﴿ **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾

ويواصل النظم الكريم مسيرته المباركة فيذكر نعمة جليلة أنعم الله بها على عباده ألا وهى تذليل الأرض وتمهيدها وتسخيرها وإصلاحها للعباد يقول جل شأنه : ﴿ **ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون** ﴾[1]

وقال سبحانه : ﴿ **وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[2]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٠ .

(٢) سورة الرعد الآيتان : ٣ ، ٤ .

وقال عز من قائل : ﴿ **والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾[١]

وقال تبارك اسمه : ﴿ **قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين** ﴾[٢]

وقال عز وجلّ : ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾[٣]

إلهى ، لا يسعنا إلا أن نثنى عليك بما أنت أهله ، فلك الشكر على ما أوليت ولك الثناء الجميل، وكيف يستطيع لسان أن يؤدى شكرك وأنت الذى قلت وقولك الحق فى سورة النعم وهى سورة النحل :

﴿ **أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعلى عما يشركون ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون ، خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون ، خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ، والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ، هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وماذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم** ﴾[٤]

---

(١) سورة الذاريات الآية : ٤٨ .
(٢) سورة فصلت الآيتان : ٩ ، ١٠ .
(٣) سورة الأنعام الآية : ٩٩ .
(٤) سورة النحل من الآية : ١ ـ ١٨

أخا الإسلام قف عند هذه المشاهد الكريمة التى تفيض فيها يد الرحمن جوداً وكرماً وسخاءاً ونعمة .

تأمــل فى نبــات الأرض وانظــر
إلى آثــار ما صنــع المليــك
عيــون من لجين شاخصــات
بأبصــار هى الذهــب السبيــك
على قضــب من الزبرجــد شاهــدات
بأن الله ليــس لــه شريــك

كيف يستطيع العبد أن يؤدى شكر نعمتك ولك فى كل نفس يتردد فى صدره نعمة وآلاء وفضل .

﴿ **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** ﴾ ومناكب الأرض جهاتها وجوانبها المختلفة . وفى القصير بالمشى ما يفيد عدم الاندفاع وراءها فإن من سكر بحب الدنيا كان أشد ممن سكر بالشراب ، فإن من سكر بحب الدنيا فلن يفيق إلا عندما يصطدم رأسه بجدار القبر بين معسكر الموتى حيث تذهب السكرة ، وتحل الفكرة ، فإن الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا ، فإذا ما انتبهوا ندموا ، فإذا ندموا لا ينفع الندم .

غــداً تــوفى النفــوس ماكســبت ويحصــد الزارعــون مازرعــوا
إن أحســنوا أحســنوا لأنفســهم وإن اســاءوا فبــئس ماصنعــوا

سبحانك يا صاحب الحكمة البالغة ، يا من أمرت بالمشى فى الدنيا وأمرت بالسبق والاستبان والإسراع إلى الدار الآخرة . ألست أنت القائل وقولك الحق : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين** ﴾[١]

ألبست أنت القائل ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾[٢]

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٣٣ .
(٢) سورة المائدة الآية : ٤٨ .

وأنت القائل : ﴿ **تعرف فى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك * وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾[١]

هذا إذا كان الحديث حديث الدنيا : فانتشار ومشى : ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾[٢]

وإلقاء باللائمة على الذين يؤثرون العاجلة على الباقية : ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين** ﴾[٣].

ثم ماذا بعد المشى فى مناكبها ؟ أيتمرغ أين آدم فى طينها ويتقلب فى حمئها المسنون ؟ لا . ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم** ﴾[٤] إن هناك إشارة تنبيهيه يقول فيها مولانا جل ذكره : ﴿ **وإليه النشور** ﴾ والنشور هو البعث والإحياء بعد الموت والخروج من القبور ، وهذا دليل قاطع على أن الحياة لا يمكن أن تدوم لأحد . فما الإنسان فى جيل إلا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى الزمان إلا لبنة فى بناء وما الزمان إلا مقدمة محدودة لعالم البقاء . فالحياة أمل يخيفه أمل ، وأمل يحققه عمل ، وعمل ينهيه أجل ، وبعد ذلك يجزى كل امرىء بما فعل .

﴿ **أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير** ﴾

وبعد ما بين العلى الحكيم آلاءه العظمى ونعمه التى لا تحصى حيث جعل الأرض ذلولاً كالدابة المذللة لراكبها ، وأعطانا من القوى ما نستطيع أن نمشى عليها ، ونطرق مجالاتها ومناكبها ونستعمرها ونثقب فى بطنها وتستخرج منها المعادن والطاقات التى لا تعدو لا تحصى ، ونلتمس الرزق فى خباياها . إذا به سبحانه وتعالى يذكر هذه الآيات على سبيل الوعيد ، فما السر فى أن يقرن آية الأرض بآيات الوعيد ـــ نعم . إن السر رهيب إذا عرف ، وخطير إذا وقفنا عند حقيقته ، فالآية السابقة تستدعى الشكر للمنعم جل جلاله ، فإذا ما جحدنا شكره وأنكرنا فضله فما جزاء الجحود خسف وتدمير

---

(١) سورة المطففين الآيات : من ٢٤ حتى ٢٦ .

(٢) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٣) سورة الجمعة الآية : ١٠ .

(٤) سورة المؤمنون الآيتان : ١١٥ ، ١١٦ .

ورجم بالحصباء وعذاب شديد . ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد** ﴾[١]

إن هناك أمم كانت عاتية ولربها عاصية ملكت الأرض فلم تحسن قيادتها بل ظلمت وتجبرت ﴿ **وقالوا من أشد منا قوة** ﴾ ونسوا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآيات الله يجحدون ، وعن آلائه يعرضون ، واستهزءوا بالرسل وأنكروا الرسالات ، بل وهددوهم بالنفى إلا أن يكفروا مثلهم ، وهنا حق الوعيد « ان الله لا يعجل كعجلة أحدكم ، ان الله يملى **للظالم** حتى إذا أخذه لم يفلته » اقرءوا أن شئتم : ﴿ **وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد** ﴾[٢] واقرءوا : ﴿ **أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون * أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم** ﴾[٣]

خسف الأرض آية
من آيات الله

إننى وأنا أخط سطور هذه الآيات اطلعت على بحث نشرته إحدى المجلات المصرية عن الزلازل ، ولما كان هذا بحثاً علميا يتعلق بخسف الأرض فإذا هى تمور وتدور وتضطرب ، رأيت من باب التتمة للفائدة أن أنقل هذا البحث فى هذا الموطن ليقول العلم كلمته :

يقول كاتب البحث : « لقد كان سكان إقليم بريتنزا بجنوب إيطاليا متجمعين حول الموائد لتناول وجبة العشاء الخفيفة التى يتناولونها عادة فى الساعة السابعة ، فى نفس الوقت الذى ينتبهون فيه جيداً لمتابعة أهم أحداث العالم التى ينقلها التليفزيون فى أهم نشراته الإخبارية وإذا بهم يتحولون إلى أهم حدث يتطلع إليه سكان العالم بالأسف والأسى ، ففى تمام الساعة السابعة و ٣٦ دقيقة تحولت ١٥٠ مدينة وقرية فى الجنوب الإيطالى إلى ما يشبه الأطلال ، وبالرغم من أن مجموع الذين اشتركوا فى عمليات الإنقاذ بلغ سبعة عشر ألف وخمسمائة رجل ، بغض النظر عن حالة الفوضى التى سادت الإنقاذ ، فإن ذلك لم يحل دون وقوع عدد كبير من الضحايا .

وتشير التقارير النهائية إلى أن عدد القتلى سوف يصل إلى ثلاثة آلاف وحوالى ألفى مفقود وثمانية آلاف جريح . أما المشكلة الكبرى فهى تشرد حوالى ربع مليون إنسان ، ولم تكف المدارس والمنازل والأكواخ الصيفيه وعربات السكك الحديدية فى توفير المأوى للآلاف المشردة .

---

(١) سورة إبراهيم الآية : ٧ .

(٢) سورة هود الآية : ١٠٢ .

(٣) سورة النحل الآيتان : ٤٥ ، ٤٦ .

إذن فما هو الزلزال ؟

ويستطرد كاتب هذا البحث فيطرح بهذا السؤال ثم يجيب قائلاً :

الزلزال هو عبارة عن اهتزازات خاطفة سريعة تنتاب الأرض من حين لآخر وتترك وراءها فى معظم الأحيان شقوقاً وتصدعات تحدث فى قشرة الأرض ، وتغير معالمها الجغرافية والعمرانية تغييراً ملحوظاً وقد يحدث مع وقوع الزلازل انهيار للجبال وهياج لأمواج البحار والمحيطات والأنهار بالإضافة إلى دمار واسع للمنشآت وضياع الكثير من الأرواح .

ونحن نضيف هنا قوله تعالى : ﴿ **تدمر كل شىء بأمر ربها** ﴾[1] ويضيف كاتب المقال قائلاً :

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومى أستاذ الجيوفيزياء بكلية العلوم بجامعة القاهرة إن هناك نوعين من الأسباب التى تؤدى إلى حدوث الزلزال ، فهناك الزلازل البركانية التى تنتج عن نشاط بركانى ، وقد تسبق ثورة البركان أو تعقبها ، وكانت هذه هى النظرية السائدة فى الماضى ، وأرجع العلماء إليها سبب حدوث الزلازل حتى وقعت زلازل فى مناطق ليست بها براكين ، هنا اتجه العلماء للبحث عن سبب آخر لحدوث الزلازل وهى الزلازل الحركية . أى التى تحدث نتيجة حركة صخور القشرة الأرضية وهذه هى أكثر أنواع الزلازل حدوثاً وأكثرها تأثيراً على حياة الناس والمنشآت .

والزلازل الحركية تحدث نتيجة كسر فى صخور القشرة الأرضية ، وعند حدوث الكسر تتحرك الصخور بالنسبة لبعضها البعض . ومن هنا نشعر بهذه الحركة . وقد توصل العالم الجيولوجى الشهير (ريدا) فى عام ١٩٠٦ إلى أن هذه الكسور تحدث نتيجة لضغوط تتعرض لها القشرة الأرضية سواء من باطن الأرض أو من خارجها ، وعند تعرض الصخور لهذه الضغوط الهائلة تصبح فى حالة إجهاد ، وتظل على ذلك إلى أن يبلغ الضغط درجة لا يتحملها الصخر ، ويختزن الصخر تلك الضغوط بداخله عبر ملايين السنيين ، وينتشر ذلك الضغط المختزن إلى الصخور وطبقات القشرة الأرضية المجاورة ، وعند نقطة الذروة لا يستطيع الصخر اختزان مزيد من الطاقة فيتصدع وتنطلق الطاقة المختزنة على هيئة موجات تسبب اهتزازا لسطح الأرض تتناسب قوته مع مقدار الطاقة المختزنة .

وهناك عدة عوامل تساعد على تولد تلك الطاقة التى تختزنها الصخور ثم ينتج عنها الزلزال . من بينها الحركة الدائمة للكرة الأرضية والمواد الإشعاعية التى تصل إليها أو تصدر منها . وكذلك انصهار أجزاء معينة داخل القشرة الأرضية مما يؤدى إلى حدوث اختلال الخواص الطبيعية للصخور .

فالصخور الذى تتعرض للحرارة فى باطن الأرض يكون وزنه أو كثافته أقل من ذلك الذى لا يتعرض للحرارة فوق سطح الأرض .

---

(١) سورة الأحقاف الآية : ٢٥ .

وعندما تكون هناك مناطق جبلية تجاورها سهول منبسطة يحدث انتقال للضغط من المناطق المرتفعة إلى المناطق السهلة مما يسبب الزلازل والهزات الأرضية ، فعادة ما تحدث الزلازل فى المناطق السهلة التى تحيطها سلاسل جبلية عظيمة مثل جبال الهيمالايا ، وسلسلة الجبال فى غرب أمريكا وجبال أطلس فى المغرب العربى .

وتتركز أحزمة الزلازل فى المناطق المتباينة الارتفاع وقد وجد العلماء أن هناك ثلاثة أحزمة رئيسية للزلازل تحيط بالكرة الأرضية !

١ - الحزام الزلزالى الأول : يطوق المحيط الهادى . ويمتد من شيلى وبيرو فى أمريكا الوسطى فالمكسيك فكاليفورنيا فكذا ثم جزر اليابان فأندونيسيا فالفلبين . وهذه المناطق تتركز فيها سلاسل جبلية عظيمة وتجاورها مناطق سهلة قليلة الارتفاع .

٢ - الحزام الزلزال الثانى : يمر بشمال أفريقيا وينحرف لحسن الحظ عند منتصف ليبيا ثم يمر بأسبانيا فإيطاليا فاليونان فتركيا فإيران ثم شمال الهند وبورما والصين .

٣ - الحزام الزلزالى الثالث : يمر بمناطق متفرقة فى المحيط المتجمد الشمالى وسيبريا ووسط وشرق أفريقيا ، ويمس مصر فى طرفها الجنوبى الشرقى ولكنه لا يمثل خطراً كبيراً لقلة ارتفاع جبال تلك المنطقة .

وهناك نظرية علمية تقول : إنه حيث تلتقى وتتصادم تكثر الزلازل ومن المعروف أن قارات الأرض فى حالة حركة نسبية وبطيئة وتحسب بملايين السنين .

وعند مدينة الأصنام (بالجزائر) تتصادم كتلة القارة الإفريقية مع كتلة القارتين الأوروبية والأسيوية فتتجه القارة الأفريقية غرباً بينما تتجه كتلة القارتين الأوروبية والأسيوية نحو الشرق ، حينئذ تحدث بعض الاضطرابات الجيولوجية التى أدت إلى حدوث ثمانى هزات أرضية شهيرة فى منطقة البحر المتوسط منذ عام ١٩٤٦ حتى الآن .

هل يمكن التنبؤ بالزلازل ؟

هذا السؤال يشغل بال الكثير من العلماء المتخصصين فى ذلك المجال وأيضاً البشر الذين يقطنون المناطق التى يكثر وقوع الزلازل بها .

ويقول الدكتور عبد الرحيم بيومى : إنه من رابع المستحيلات التنبؤ بمكان وزمان وقوع الزلزال .

فنحن لا نعرف أين ستختزن الطاقة التى ستسبب الزلزال ، ثم أين سينكسر الصخر الذى يختزن تلك الطاقة ، وبالتالى لا يمكن تحديد مكان وزمان وقوع الزلزال . إلا أنه يمكن القول بأن هناك مناطق تحيطها أحزمة زلزالية معروفة حددها العلماء ، والمناطق التى وقعت فيها زلازل هى أكثر عرضة لوقوع مزيد من الزلازل .

وهناك محاولات لعلماء الصين واليابان والولايات المتحدة للتنبؤ بوقوع الزلازل ، فهم يلاحظون أن الثعابين تخرج من الشقوق والجبال قبل وقوع الزلزال ، كما تصدر القطط والخيول أصوات معينة تدل على الفزع والخوف ويحدث ميل بسيط فى سطح الأرض كما يتغير المنسوب الطبيعى للمياه الجوفية .

وقد حدث عام ١٩٦٤ م وبعد هزة أرضية اجتاحت مدينة بكين أن خرج متحدثاً أكاديميا يقول : إن الصين لن تشهد زلازل خلال السنوات الخمس أو الأربع القادمة على الأقل ، ولم يكد يمر يوم واحد حتى وقع زلزال عنيف اجتاح مدينة بكين !! ففقد الناس الثقة فى إمكانية التنبؤ بالزلازل حتى ولو كان علمياً ! وما تم التوصل إليه من أجهزة حتى الآن . ترصد الزلازل بعد وأثناء حدوثها فقط ، وليس قبل ذلك وكل الدلائل التى يتم تجميعها قبل حدوث الزلزال سواء كانت طبيعية أو بأجهزة علمية ؛ لا تعطى فترة كافية للاستعداد لتجنب الزلزال .

وقد نشأ فى الفترة الأخيرة علم حديث عن الزلازل وعلاقتها بالمنشآت فى أمريكا واليابان والصين ، وأصبحوا يبنون المنشآت ذات القيمة الاقتصادية والاستراتيجية بطريقة تقلل من الدمار الناتج عن حدوث الزلزال ، وأفضل مثل لذلك هو الكوبرى المعلق الذى يمر عبر خليج مدينة سان فرانسيسكو الأمريكية لمسافة ١٠٥ ميلاً ، فقد تم تصميمه بطريقة هندسية تساعد على امتصاص الهزات الناتجة عن الزلزال .

ولقد زار الدكتور بيومى تلك المدينة منذ عشرين عاماً ، وقد حدث زلزال فى ذلك الوقت ، وتأرجح الكوبرى يميناً ويساراً ولم يتحطم رغم أن طوله حوالى ٢٢ كم ، ويساعد ذلك العلم الجديد على ابتكار أنواع معينة من حديد التسليح والأسمنت ومواد البناء ، وأيضاً يتم تصميم المبانى بطريقة هندسية تجعلها تمص الزلازل ولا تسقط ..

مقيـاس الـزلزال

هناك عدة مقاييس لتقدير الزلازل وأشهرها مقياس ريشتر وفى مقياس ريشتر يتم تفسير قوة الطاقة الناتجة عن الزلزال إلى درجات ، وكل درجة تعادل مائة « أرج » وهى وحدة لقياس الطاقة الناتجة عن الزلزال . ومقياس ريشتر مقسم إلى ١٢ درجة وهناك علاقة بين تقدير قوة الزلزال وبين الدمار الذى يخلفه ، فإذا قلنا إن ذلك الزلزال قوة درجة واحدة على مقياس ريشتر فمعنى هذا أن قوة الزلزال ضعيفة لا ينتج عنها أى دمار ولا يشعر به الانسان ولا تسجله المراصد . أى : أن الطاقة التى خرجت من الصخور وقت وقوع الزلزال ضئيلة جداً ولم تسبب أى اهتزاز للصخور والمنشآت والأرواح .

لقد كان زلزال شان تسى الذى وقع فى الصين عام ١٥٥٦ هو أخطر الزلازل التى عرفتها البشرية ، فقد راح ضحيته ما يزيد على ٨٣٠ ألف شخص بل إن العلماء يرجحون أن يكون ذلك الزلزال هو أسوأ كارثة طبيعية فى تاريخ البشرية . وغالباً ما تكون زلازل الصين ذات عدد ضخم من الضحايا نظراً للكثافة السكانية بها (حوالى ألف مليون نسمة) كما شهدت الصين بعد ذلك فى عام ١٩٦٦ م فى مدينة هيسنج ناى ومدينة هابشنج عام ١٩٧٥ م فى مدينة ناتج شان عام ١٩٧٦ م زلازل رهيبة ، ففى الزلزال الأخير فقط فقد ٦٥٠ ألف نسمة أرواحهم طبقاً لإحصائية الأمم المتحدة ...

وقد أطلق عدد من علماء أمريكا واليابان والصين أخيراً نظرية جديدة تقول : إن أحزمة الزلازل يمكن أن تهاجر إلى مناطق أخرى غير المناطق المعروفة حالياً .

ويرد الدكتور عبد الرحيم بيومى قائلاً : إذا اعتبرنا أن السلاسل الجبلية تقع فى نطاق أحزمة الزلازل فى العالم باعتبارها أسباب حدوث الزلازل كما أوضحنا ، فإن مصر ليست بها مثل هذه السلاسل الجبلية الشاهقة التى تؤدى إلى حدوث الزلازل ، لذا فإنه لم يثبت علمياً حتى الآن أن مصر يمكن أن تتعرض لزلازل عنيفة فى المستقبل القريب . وذلك مالم تظهر أدلة علمية أخرى تثبت عكس ما هو قائم . كما أن الزلازل التى تعرضت لها القاهرة والإسكندرية والزقازيق والمنوفية كانت زلازل ضعيفة لم تترك أى دمار خطير ، ولم تزد قوة أى زلزال فى مصر على أربع درجات على مقياس ريشتر . ا.هـ .

مسألة فى العقيـدة

وبعد هذا الطواف فى مناكب الأرض وبيان انتقام الله تعالى وآيات وعيدة وما يجرى على أهل الأرض من زلازل وخسوف ومسخ لابد لنا من وقفة هنا تتعلق بقوله تعالى : ﴿ **أأمنتم من فى**

السماء ﴾ كيف نفهم هذه الآية وأخواتها مثل قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[١] ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾[٢] ، ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام** ﴾[٣] **ومثل قوله** ﷺ : « **ان قلوب بنى آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء** »[٤]

كيف نفهم هذه النصوص وأمثالها ونقول وبالله التوفيق : إن الراسخين فى العلم يقفون من هذه الآيات موقف الايمان المحض قائلين ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾[٥] ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾[٦] إذ أن هذه الآيات جميعها راجعة إلى أصلها المحكم فى قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شىء وهو السميع البصير** ﴾[٧] وفى سورة الاخلاص ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد** ﴾[٨].

وما فتح على المسلمين أبواب الخلاف والفرقة إلا اختلافهم فى عقائد كانت أولى ما تكون بالتسليم لله دون تأويل أو تعطيل أو تشبيه أو تمثيل فعلى المؤمن إذا قرأ مثل هذه الآيات أن يقول ﴿ **آمنا به كل من عند ربنا** ﴾[٩] فالقاعدة الأصيلة فى هذه العقائد أن الله ـــ تبارك اسمه ـــ لا يحويه مكان لأنه خالق المكان ، ولا يسأل عنه بمتى كان ، لأنه لا يجرى عليه زمان ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير * هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم** ﴾[١٠] هو الأول فلاشىء قبله ، والآخر فلاشىء بعده ، والظاهر فلاشىء فوقه ، والباطن فلاشىء دونه ، أحاط بكل شىء علما وأحصى كل شىء عددا ، سبحانه علا فقهر ، وبطن فخبر ، وملك فقدر فهو سبحانه ليس كمثله شىء وما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك …

اعلم يا أخى أن مسائل العقيدة أحد من السيف وأدق من الشعرة لذلك يجب العلم بها ويحظر الخلاف عليها ، اعلم أن الله تعالى ليس كمثله شىء وليس له كفوا أحد ، فإياك أن يتبادر إلى ذهنك وأنت تقرأ الآيات السابقة الذكر أن الله تعالى له جارحة وأصبع تماثل أو تشابه من بعيد أو قريب الحوادث إنما القول الحق أن تؤمن بما قاله الله تعالى وتقول فيها ما قاله الإمام مالك في قوله تعالى :

---

(١) سورة طه الآية : ٥ .

(٢) سورة الفتح الآية : ١٠ .

(٣) سورة الرحمن الآية : ٢٧ .

(٤) صحيح مسلم ٤/٢٠٤٥ رقم ٢٦٥٤ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٦) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(٧) سورة الشورى الآية : ١١ .

(٨) سورة الإخلاص الآيات : من ١ حتى ٤ .

(٩) سورة آل عمران الآية : ٧ .

(١٠) سورة الحديد الآيات : من ١ حتى ٣ .

﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ قل مثل ذلك فى قوله تعالى : ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ وفى قوله : ﴿ **ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام** ﴾ فاليد والوجه معلومان ، والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة والايمان به واجب إنك إن فعلت ذلك فعد سلمت من الزلل ، ولقيت الله بقلب سليم ويكون جزاؤك عند الله الفلاح ، لأنك آمنت وصدقت وأذعنت وأيقنت وفوضت وسلمت واعتقدت ، فحكم الله لك الفلاح قال تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون** ﴾(١)

عالم الطير

قال الله تعالى : ﴿ **أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير . أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور * أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو ونفور * أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى أم من يمشى سوياً على صراط مستقيم** ﴾

فى هذا المشهد الربانى الكريم يوجه القرآن الكريم أنظار البشرية إلى عالم من العوالم الشتى الكثيرة المختلفة التى لها نظامها وآجالها وأرزاقها وأقدارها ، إنه عالم الطير : ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون** ﴾(٢)

وتأمل معنى قول رسول الله ﷺ وهو يعلم البشرية القناعة والرضا فى طلب الرزق فضرب لهم مثلاً بعالم الطير فقال ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »(٣).

ومعنى قوله تعالى : ﴿ **صافات** ﴾ أى : صافات أجنحتها وهذا أكثر حالاتها ولذا عبر عنه بالصفة ، أما ﴿ **يقبضن** ﴾ فمعناه قبض الأجنحة فى بعض الحالات لا فى أكثرها ولذا عبر عنه بالفعل الذى يفيد التجدد والحدوث وبين سر العظمة الإلهية فى هذا العالم العجيب فقال : ﴿ **مايمسكهن إلا الرحمن** ﴾ وفى الإمساك قدرة وفى التعبير بالرحمن رحمة فليس الإمساك هنا جبروتاً أو قهراً أو قوة إنما هو رحمة فياضة لتقوم الطير برسالتها وجمع أرزاقها لأفراخها فى أعشاشها وتسبيح ربها ﴿ **ألم تر أن الله يسبح له من فى السماوات والأرض ، والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه** ﴾(٤).

فى سورة النحل يقول تعالى عن هذا العالم : ﴿ **ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾(٥).

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ١ .
(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٨ .
(٣) مسند أحمد ٣٠/١ .
(٤) سورة النور الآية : ٤١ .
(٥) سورة النحل الآية : ٧٩ .

اعلم يا أخى أن عالم الطير فيه من الحقائق والأسرار ودقائق الأخبار ماينبىء عن عظمة الخالق الكبير فقد نطق العلم مخبراً عن هذه الأسرار كيف جهز الله الطير بها لتلائم حياته فى هذه الدنيا التى تعيش فيها ويطير فى أجوائها ؟

يقول علماء الكون أن الجهاز الهضمى للطيور يختلف اختلافاً كبيراً عن الجهاز الهضمى فى الحيوانات ، مما يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن المقصد ، ويوضح جميل الصبغة ، إذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب خال من الأسنان عظمى التركيب هو المنقار الذى يستخدم فى التغذية بدلاً من الفم والشفتين والأسنان عند سائر الحيوان ، إذ يبتلع الطير غذاءه بلا مضغ وتختلف مناقير الطيور باختلاف أنواع غذائها .

فالطيور الجارحة ــ كالبوم والحدأة ــ ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف وذلك لتمزيق اللحوم ، بينما الأوز والبط لهما مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة تلائم البحث عن الغذاء فى الطين تحت الماء ، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش .

أما الدجاج والحمام وباقى الطيور التى تلتقط الحب من الأرض فمناقيرها صغيرة مدببة لتؤدى هذا الغرض .

بينما منقار البجعة مثلاً طويل طولا ملحوظاً ويمتد من أسفله كيس كبير يشبه الجراب ليكون كشبكة الصياد إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسى .

ومنقار الهدهد وأبى قردان طويل مدبب أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان التى غالبا ما تكون تحت سطح الأرض .

ويقول العلم إنه يمكن للإنسان أن يعرف غذاء الطير من النظرة إلى منقاره .

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب فلما لم يعط أسناناً فقد خلقت له حويصلة وقانصة تهضم الطعام . ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام .

تأمل معى من الذى هيأ لعالم الطير هذا النظام وأرشده إلى أن يسلك سبل الحياة كما قال سيد المرسلين ﷺ : « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدوا خماصاً وتروح بطاناً »[1].

هل تستطيع الطبيعة الصماء أو الصدفة العمياء أن توجد هذا النظام البديع والاتفاق الحكيم .

﴿ مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير ﴾

قال تعالى : **﴿ أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور ﴾** .

(١) مسند أحمد ١/٣٠ .

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها من الآيات أنه تعالى بعد ما بين آيات قدرته فى الأنفس والآفاق والكونيات . وهذا الكوكب الأرضى ، وجه مولانا هذا السؤال إلى كل من استعان بغيره أو طلب المدد من سواه ، فقال لهم فى أسلوب إنكارى بعد أمن التى تدل على الهمزة والاستفهام وكأنه تعالى يقول : من هذا الذى هو جند لكم يوفر النصر ، ويرعى الأنفس والثمرات والأموال غير الله ، وعبر هنا بلفظ الرحمن لإفادة النعم والآلاء التى يغدقها بخالص رحمته وعميم فضله ، والجواب أنه لا أحد .

فمن الذى يستطيع أن يدعى أن بيده الملك وأنه قدير على كل شيء من غير الله يستطيع ذلك .

بل من الذى يستطيع أن يدعى أنه خلق السماوات والأرض وزين السماء بنجومها وجعل الأرض ذلولا ؟ هذه أدلة قاطعات يشاهدها من كان لديه قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

وحيث بطل هذا الادعاء فمن زعم ذلك فهو كافر خدعه كفره ، وضال ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴿ **إن الكافرون إلا فى غرور** ﴾ وهذا أسلوب يفيد القصد فإن حرف (إن) هنا يفيد النفى أى ما الكافرون إلا فى غرور وخداع وغش .

ثم يقول مولانا تبارك اسمه ﴿ **أمّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور** ﴾

ووجه مناسبة هذه الآية لما قبلها أن الذى يملك النصر وحده هو الذى يملك الرزق وحده فهو صاحب الآيات والآلاء ، آيات القدرة وآلاء الرحمة .

وقوله جل وعلا : ﴿ **إن أمسك رزقه** ﴾ لها معنيان فإما أن تكون (ان) نافية بمعنى ما أمسك رزقه أى : ما حجب الرزق عنكم ليلاً ولا نهاراً : سماء يفيض بالماء ، وأرض تفيض بالخيرات والنبات ، والمعنى الثانى أن تكون (ان) شرطية على اضمار جواب الشرط من ، باب الايجاز والمعنى إن أمسك رزقه هلكتم .

﴿**بل لجوا في عتو ونفور**﴾ وهذا تعقيب على السؤال السابق أنهم يعلمون أن الله بيده مفاتيح الرزق .

قال جل شأنه : ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمّن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون** ﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿ **ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله** ﴾(٢)

فقد أقروا بأنه هو الرازق إذن فلماذا انصرفوا ؟ لأنهم لجوا وتمادوا فى عتو وكبر ونفور : وشرور وبطر للحق وغمط للمعايير .

---

(١) سورة يونس الآية : ٣١

(٢) سورة العنكبوت ية : ٦٣

ثم يقول تعالى بعد ذلك : ﴿ **أفمن يمشى مكباً على وجهه أهدى ٭ أمن يمشى سوياً على صراط مستقيم** ﴾ وقد جاءت هذه الآية الكريمة نتيجة فاصلة بين أتباع الحق والسائرين وراء الباطل ، فمن أقر واعترف بآيات الله فى كونه وأن لهذا الكون إله واحد ، مشى سوياً على صراط مستقيم ، ومن عمى ولج فى باطله مشى مكباً على وجهه ، قال تعالى : ﴿ **وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين كانت أعينهم فى غطاء عن ذكرى وكانوا لا يستطيعون سمعاً** ﴾[1]

قال سبحانه بعد ذلك : ﴿ **قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ٭ قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾

مازال النظم الكريم يواصل زحفة المبارك فى إسباغ النعم التى لا تعد ولا تحصى : ﴿ **وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾[2]

وهذا أمر يخاطب الله به كل من يعقل الخطاب بقوله : ﴿ **قل** ﴾ هو الذى أنشأكم بعد ما كنتم فى عالم العدم ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحيكم ثم إليه ترجعون** ﴾[3] ﴿ **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾[4]

فهذه الآيات المعرفة ووسائل العلم : سمع وبصر وفؤاد مدرك ، وكان الواجب أن تقابل هذه النعم بالشكر ، ولكن يالالأسف يعقب المولى على أحوال العباد بما هو واقع حالهم فيقول سبحانه : ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾

وقوله تعالى : ﴿ **قل هو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون** ﴾ وذرأكم بمعنى كثركم ونشركم ، وإليه تحشرون بمعنى المصير والمآل إليه وحده لا شريك له ، وتلك قضية العقيدة التى لا شك فيها ولا ريب .

ثم قال تعالى بعد ذلك : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ والمقصود بالوعد هنا اليوم الموعود وهو يوم القيامة ومتى اسم استفهام يراد به على لسانهم الا ستبعاد والاستحالة والتحدى بدليل قولهم بعد ذلك : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾

قال تعالى : ﴿ **إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً** ﴾[5].

وقال جل شأنه : ﴿ **يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى**

---

(١) سورة الكهف الآيتان : ١٠٠ ـ ١٠١

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٤ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٨ .

(٤) سورة النحل الآية : ٧٨ .

(٥) سورة المعارج الآيتان : ٦ ، ٧ .

ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لاريب فيها * وأن الله يبعث من في القبور ﴾[1].

قوله تعالى : ﴿ **فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذى كنتم به تدعون** ﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار رأوا أن الأمر كان قريباً لأن كل ماهو آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، فأحاط بهم ذلك وجاءهم من أمر الله مالم يكن لهم فى بال ولا حساب ﴿ **وبداهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون** ﴾[2].

وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ **هذا الذى كنتم به تدعون** ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ **قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم * قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين . قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين** ﴾ ...

وهكذا قضينا هذه السياحة المباركة فى سورة الملك التى تسمى المنجية والتى قال فيها رسول الله ﷺ : « إن سورة فى القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له ، وهى : تبارك الذى بيده الملك . رواه أبو داود والترمذى وحسنه واللفظ له ، والنسائى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد[3]. ا.هـ (من كتاب سياحة مباركة فى سورة الملك للمؤلف) .

---

(١) سورة الحج الآيات : من ١ حتى ٧ .

(٢) سورة الجاثية الآية : ٣٣ .

(٣) مسند أحمد ٣٢١/٢ وسنن الترمذى ــ كتاب فضائل القرآن ــ باب فضل سورة الملك ١٦٤/٥ رقم ٢٨٩١ وسنن ابن ماجه ــ كتاب الأدب ــ باب ثواب القرآن ١٢٤٤/٢ رقم ٣٧٨٦ وسنن أبى داود ١١٩/٢ رقم ١٤٠٠ .

تفسير سورة القلم

مقدمة

قال صاحب كتاب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : اثنتان وخمسون

وكلماتها : ثلاثمائة

وحروفها : ألف ومائتان وست وخمسون

فواصل آياتها : (من)

ولها اسمان : سورة ن ، وسورة القلم . وهذا أشهر .

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : الذب عن النبى ﷺ ، وعذاب ما نعى الزكاة ، وتخويف الكفار بالقيامة ، وتهديد المجرمين بالاستدراج ، وأمر الرسول ﷺ بالصبر ، والإشارة إلى حال يونس ـــ عليه السلام ـــ فى قلة الصبر ، وقصد الكفار رسول الله ﷺ ليصيبوه بالعين كما فى قوله تعالى : ﴿ **ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ الآية .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **حلاّف مهين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **زنيم** ﴾ تسعة أوصاف ، ولم يدخل بينها واو العطف فيدل على ضعف القول بواو الثمانية ﴿ **فأقبل** ﴾ بالفاء سبق بيانه . ﴿ **فاصبر** ﴾ سبق .

مناسبة السورة لما قبلها

١ - أنه ذكر فى آخر (الملك) تهديد المشركين بتغوير الأرض ، وذكر هنا ما هو كالدليل على ذلك وهو ثمر البستان الذى طاف عليه طائف فأهلكه وأهلك أهله وهم نائمون .

أنه ذكر فيما قبل أحوال السعداء والأشقياء ، وذكر قدرته الباهرة وعلمه الواسع ، وأنه لو شاء لخسف بهم الأرض أو أرسل عليهم حاصبا وكان ما أخبر به هو ما أوحى به إلى رسوله ، وكان المشركون ينسبونه فى ذلك مرة إلى الشعر ، وأخرى إلى السحر وثالثة إلى الجنون ـــ فبرأه الله فى هذه السورة مما نسبوه إليه ، وأعظم أجره على صبره على أذاهم وأثنى على خلقه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾
بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

تفسير المفردات

﴿ **يسطرون** ﴾ أى : يكتبون . ﴿ **ممنون** ﴾ أى : مقطوع . ﴿ **المفتون** ﴾ : المجنون لأنه فُتن : أى : ابتلى بالجنون .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ن والقلم ومايسطرون * ماأنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ قال العلامة ابن القيم : الصحيح أن (ن) ، (ق) ، (ص) من حروف الهجاء التى يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور ، وهى أحادية ، وثنائية وثلاثية ، ورباعية ، وخماسية ، ولم تجاوز الخمسة ، ولم تذكر قط فى أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن ، أما مقسماً به ، واما مخبراً عنه ، ماخلا سورتين سورة (كهيعص ، ون) كقوله تعالى : ﴿ **آلم ذلك الكتاب** ﴾ ﴿ **آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم * نزل عليك الكتاب** ﴾ ،وكقوله : ﴿ **آلمص * كتاب أنزل إليك** ﴾ ﴿ **آلمر * تلك آيات الكتاب** ﴾ وهكذا إلى آخره ، ففى هذا تنبيه على شرف هذه الحروف ، وعظم قدرها وجلالتها . إذ هى مبانى كلامه وكتبه التى تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله ، وهدى بها عباده ، وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ونهيه ، ووعيدهُ ، ووعده ، وعرفهم بها الخير والشر ، والحسن ، والقبيح ، وأقدرهم على التكلم بها ، بحيث يبلغون بها أقصى مافى أنفسهم ، بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة ، وأوصله إلى المقصود ، وأدلة عليه ، وهذا من أعظم نعمه عليهم . كما هو من أعظم آياته . ولهذا عاب سبحانه على من عبد إلهاً لا يتكلم . وامتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم . فكان فى ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته ، وكمال إحسانه وإنعامه ، فهى أولى أن يقسم بها من الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والنجوم ، وغيرها من المخلوقات . فهى دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه ، وصدق رسله .

وقد جمع سبحانه بين الأمرين ـــ أعنى القرآن ونطق اللسان ـــ وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه كما قال : ﴿ **الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان علمه البيان** ﴾[1] فهذه الحروف علم القرآن ، وبها علم البيان ، وبها فضل الإنسان على سائر الحيوان ، وبها أنزل كتبه ، وبها أرسل رسله ، وبها جمعت العلوم وحفظت ، وبها انتظمت مصالح العباد فى المعاش والمعاد ، وبها يتميز الحق من الباطل ، والصحيح من الفاسد ، وبها جمعت أشتات العلوم ، وبها أمكن تنقلها فى الأذهان ، وكم جلب بها من نعمة ودفع بها من نقمة ؟ وأقيلت بها من عثرة وأقيمت بها من حرمة ، وهدى بها من ضلالة ، وأقيم بها من حق ، وهدم بها من باطل ؟ فآياته سبحانه فى تعليم البيان كآياته فى خلق الإنسان ، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل فى لحم ولا عصب . فسبحان من هذا صنعه فى هؤلاء يخرج من قصبة الرئة ، فينضم فى الحلقوم وينفرش فى أقصى الحلق ، ووسطه وآخره ، وأعلاه ، وأسفله ، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا وفى الشفتين ، والخيشوم فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له . فإذا هو حرف .

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هى كلمات قائمة بأنفسها ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض وإذا هى كلام دال على أنواع المعانى ، أمراً ، ونهياً وخبراً ، واستخباراً ونفياً ، وإثباتاً ، وإقراراً وإنكاراً وتصديقا وتكذيبا ، وإيجابا ، واستحبابا ، وسؤالا وجواباً . إلى غير ذلك من أنواع الخطاب ، نظمه ونثره ، ووجيزه ، ومطوله ، على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى فى هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره ، فى مجار قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله ، ثم تأليفه وتوصيله فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين ، فهذا شأن الحرف المخلوق .

وأما الحرف الذى به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل . وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور . كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية . فهى دالة على كمال قدرته سبحانه ، وكمال علمه ، وكمال حكمته وكمال رحمته ، وعنايته بخلقه ، ولطفه وإحسانه . وإذا أعطيت الإستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد ، والخلق والأمر ، والتوحيد والرسالة . فهى من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله وأن القرآن كلام الله . تكلم به حقاً وأنزله على رسوله وحياً . وبلغه كما أوحى إليه صدقاً ، ولا تهمل الفكرة فى كل سورة افتتحت بهذه الحروف . واشعالها على آيات هذه المطالب وتقريرها . وبالله التوفيق .

السر فى القسم بالقلم

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿ **القلم وما يسطرون** ﴾ فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذى هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحى . وقيد به الدين . وأثبتت به

(١) سورة الرحمن الآيات : من ١ حتى ٤ .

الشريعة وحفظت به العلوم . وقامت به مصالح العباد فى المعاش والمعاد فوطدت به الممالك . وأثبتت به السبل والمسالك وأقام فى الناس أبلغ خطيبَ وأفصحه . وأنفعه لهم وأنصحه . وواعظا تشفى مواعظه القلوب من السقم . وطبيباً يبرىء بإذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد ، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشى المرقوم . ويودعها حكمة فتصير بوادر الفهوم والأقلام نظام للأفهام . وكما أن اللسان بريد القلب ، فالقلم بريد اللسان ويولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم والقلم بريد القلب ورسوله وترجماته ولسانه الصامت .

مراتب الأقلام ، وقلم القدر

والأقلام متفاوتة في الرتب . فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق . كما فى سنن أبى داود عن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : أكتب ، قال : يارب ، وما أكتب ؟ قال : أكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة »[1] واختلف العلماء . هل القلم أو المخلوقات أو العرش ؟ على قولين . ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمدانى أصحهما أن العرش قبل القلم لما ثبت فى الصحيح من حديث عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام ، وعرشه على الماء »[2] فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش . والتقدير وقع عند أول خلق القلم لحديث عباده هذا .

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها . وقد قال غير واحد من أهل التفسير أنه القلم الذى أقسم الله به .

قلـم الوحـى :

القلم الثانى قلم الوحى ، وهو الذى يكتب به وحى الله إلى أنبيائه ورسله . وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم .والعالم خدم لهم . وإليهم الحل والعقد والأقلام كلها خدم لأقلامهم وقد رفع النبى ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام : فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التى يدير بها أمر العلوى والسفلى .

(١) أنظر منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود ــ كتاب القدر ٣/٢٥٥

(٢) صحيح مسلم ــ ٤/٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣ .

قلم الفقهاء والمفتين :

والقلم الثالث قلم التوقيع عن الله ورسوله . وهو قلم الفقهاء والمفتين وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه . فإليه التحاكم فى الدماء والأموال والفروج والحقوق . وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذى حكم به بين عباده وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام . وأقلام العالم خدم لهذا القلم .

قلم طب الأبدان :

القلم الرابع قلم طب الأبدان التى تحفظ بها صحتها الموجودة . وترد إليها صحتها المفقودة . وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان . وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة .

قلم التوقيع عن الملوك :

القلم الخامس التوقيع عن الملوك ونوابهم ، وسياس الملك ، ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام ، والمشاركون للملوك فى تدبير الدول . فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم .

قلم الحساب :

القلم السادس قلم الحساب ، وهو القلم الذى تضبط به الأموال ، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها ، وهو قلم الأرزاق ، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل الذى تضبط به المقادير ومابينها من التفاوت والتناسب . ومبناه على الصدق والعدل . فإذا أكذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة .

قلم الحكم :

القلم السابع قلم الحكم الذى تثبت به الحقوق ، وتنفذ به القضايا ، وتراق به الدماء ، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة ويثبت به الإنسان وتنقطع به الخصومات وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص ، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول ، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته ، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه .

قلم الشهادة :

القلم الثامن قلم الشهادة ، وهو القلم الذى تحفظ به الحقوق ، وتصان عن الإضاعة ، وتحول بين الفاجر وإنكاره ، ويصدق الصادق ، ويكذب الكاذب ، ويشهد للمحق بحقه ، وعلى المبطل بباطله ، وهو الأمين .

قلـم التعبـير :

القلم التاسع قلم التعبير ، وهو كاتب وحى المنام ، وتفسيره ، وتعبيره ، وما أريد منه ، وهو قلم شريف جليل مترجم للوحى المنامى ، كاشف له ، وهو من الأقلام التى تصلح للدنيا والدين ، وهو يعتمد على طهارة صاحبه ونزاهته ، وأمانته وتحريه الصدق ، والطرائق الحميدة ، والمناهج السديدة ، مع علم راسخ ، وصفاء باطن ، وحسن مؤيد بالنور الإلهى ، ومعرفة بأحوال الخلق وهيأتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام ، وأعمها جولانا ، وأوسعها تصرفا ، وأشدها تشيئاً بسائر الموجودات : علويها وسفليها ، وبالماضى والحال والمستقبل ، فتعرف هذا القلم فى المقام هو محل ولايته وكرسى مملكته وسلطاته .

قلم تواريخ العالم :

القلم العاشر قلم تواريخ العالم ووقائعه . وهو القلم الذى تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه فى الخيال ، وينقشه فى النفس ، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده . فهو قلم المعاد الروحانى ، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم فى صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصيرتك .

قلـم اللغـة :

القلم الحادى عشر قلم اللغة ، وتفاصيلها من شرح المعانى ألفاظها ونحوها وتصريفها وأسرار تراكيبها ، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها وأنواع دلالتها على المعانى وكيفية الدلالة ، وهو قلم التعبير عن المعانى باختيار أحسن الألفاظ وأعذبها وأسهلها وأوضحها . وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها .

القلـم الجامـع :

القلم الثانى عشر القلم الجامع ، وهو قلم الرد على المبطلين ، ورفع سنة المحقين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم وتهافتهم وخروجهم عن الحق ، ودخولهم فى الباطل ، وهذا القلم فى الأقلام نظير الملوك فى الأنام ، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل ، المحاربون لأعدائهم . وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال . وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل ، وعدم لكل مخالف للرسل . فهم فى شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام فى شأن .

فهذه الأقلام التى فيها انتظام مصالح العالم ، ويكفى فى جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به ، وأن الله سبحانه وتعالى أقسم به فى كتابه وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم ، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم ، ولقد أبدع أبو تمام إذ يقول فى وصفه :

لك القلم الأعلى الذى بشباته ... يصاب من الأمر الكلى والمفاصل
له ريقه طل ، ولكن وقعها ... بآثاره فى الغرب والشرق وابل
لعاب الأفاعى القاتلات لعابه ... وأرى الجنا اشتارته أيد عواسل
له الخلوات اللاء لولا نجيها ... لما احتفلت للملك تلك المحافل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب ... وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت ... عليه شعاب الفكر وهى حوافل
أطاعته أطراف القنا ، وتقوضت ... لنجواه — تقويض الخيام — الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكر وأقبلت ... أعاليه فى القرطاس وهى أسافل
وقد رفدته الخنصران وسددت ... ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ... ضنىً وسميناً خطبه وهو ناحل

والمقسم عليه بالقلم والكتابة فى هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه وهو قوله تعالى : ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ . أى : ولست والحمد لله بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون .

قال ابن القيم : وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها ، فإن ما سطر الكتاب بالقلم من أنواع العلوم التى يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون ، ولا تصدر إلا عن عقل وافر ، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذى هو فى أعلى درجات العلوم ؟ بل العلوم التى تضمنها ليس فى قوى البشر الاتيان بها ، ولاسيما من أمى لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه مع كونه فى أعلى أنواع الفصاحة ، سليماً عن الاختلاف ، بريئاً من التناقض ، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا فى صعيد واحد أن يأتوا بمثله ، ولو كانوا فى عقل رجل واحد منهم فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه ، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر إلا فك .

فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته ، وعرفهم من الحق مالا تهتدى عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء وخضعت له ألباب الأولياء ، وتلاشت فى جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والاذعان ، طائعة مختارة وهى ترى عقولها أشد فقرا وحاجة إلى ما جاء به ، ولا كمال لها إلا بما جاء به ! فهو الذى كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدى . ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق .

وهذه مؤلفاتهم وكتبهم فى الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر لك التفاوت بينها . ويكفى فى عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل ، والقلوب بالإيمان والتقوى . فكيف يكون

متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه ، وسيرته ، وحال أتباعه ؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم . فغض عنه الجنون بنعمته عليه .

ثم أخبر سبحانه عن كمال حالتى نبيه ﷺ فى دنياه وأخراه فقال تعالى : ﴿ **وإن لك لأجراً غير ممنون** ﴾ أى : غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر ونكر الأجر تنكير تعظيم كما قال تعالى ﴿ **إن فى ذلك لعبرة** ﴾ ﴿ **إن فى ذلك لآية** ﴾ ﴿ **إن فى ذلك لذكرى** ﴾ ﴿ **إن للمتقين مفازا** ﴾ وهو كثير وإنما كان التنكير للتعظيم لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف ، ولا يناله التعبير . ثم قال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾

وهذه من أعظم آيات ثبوته ورسالته لمن منحه الله فهماً . ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ فأجابت بما شفى وكفى فقالت : كان خلقه القرآن . **فهم** سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك ومن هذا قال ابن عباس وغيره . أى على دين عظيم ، وسمى الدين خلقاً ، لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة ، وإرادات زاكية . وأعمال ظاهرة وباطنة ، موافقة للعدل والحكمة ، والمصلحة وأقوال مطابقة للحق ، تصدر تلك الأقوال ، والأعمال عن تلك العلوم والإرادات ، فتكتسب النفس بها أخرقاً ، هى أزكى الأخلاق وأشرفها ، وأفضلها ــ فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن ، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلا له **وتبياناً**، وعلومه علوم القرآن ، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن ، وإعراضه وتركه لما منع القرآن ، ورغبته فيما رغب فيه ، وزهده فيما زهد فيه ، وكراهته لما كرهه ، ومحبته لما أحبه ، وسعيه فى تنفيذ أوامره ، وتبليغه . والجهاد فى إقامته ، فترجمت أم المؤمنين السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها : « كان خلقه القرآن »[1] وفهم هذا السائل عن هذا المعنى ، فاكتفى به واشتفى .

ويقول ابن القيم : فإذا كانت أخلاق العباد ، وعلومهم ، وإرادتهم ، وأعمالهم ، مستفادة من القلم وما يسطرون ، وكان فى خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم ، إذ وصلوا به إلى ذلك ، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذى أعطاه أعلى الأخلاق وأفضل العلوم ، والإرادات ، التى لا تهتدى للقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة ؟ فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته ؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون ، هو أم هم ؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك فى الدنيا . ويزداد علمهم فى البرزخ ، وينكشف ، ويظهر الظهور فى الآخرة ، بحيث تتساوى أقدام الخلائق فى العلم به .

قوله تعالى : ﴿ **فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون * إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾ .

---

(١) صحيح مسلم ــ كتاب صلاة المسافرين ــ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه ٥١٢/١ رقم ٧٤٦ ومسند أحمد ٢١٦/٦

أى : ستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ؟ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ **سيعلمون غداً من الكذاب الأشر** ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ **وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين** ﴾[٢] . قال ابن جريج : قال ابن عباس فى هذه الآية : (**ستعلم وتعلمون يوم القيامة**) . وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بأيكم المفتون** ﴾ أى : المجنون . وكذا قال مجاهد : وقال قتادة : وغيره فى قوله : ﴿ **بأيكم المفتون** ﴾ أى : أولى بالشيطان ومعنى المفتون ظاهر أى الذى قد افتتن عن الحق وضل عنه وقوله : ﴿ **فستبصر ويبصرون** ﴾ تقديره فستعلم ويعلمون أو فستخبر ويخبرون بأيكم المفتون . ثم قال تعالى : ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** ﴾[٣] أى : هو يعلم تعالى أى الفريقين منكم ومنهم هو المهتدى ويعلم الحزب الضال عن الحق . قال تعالى : ﴿ **فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾[٤]

من أخلاق النبى ﷺ

يقول الدكتور : أحمد محمد الحوفى فى كتابه القيم « من أخلاق النبى » ما ملخصه :

(تمهيد)

ما الأخلاق؟

هذه الأخلاق التى تحدث القدماء والمحدثون بها ، والتى لا يعرى إنسان من لبوسها لأن منها الطيب ومنها الخبيث ، كالصدق والكذب ، والأمانة والخيانة ، والعفة والفجور والشجاعة والجبن ، هل هى فى حاجة إلى تعريف ؟

نعم ، إنها معروفة لنا جميعاً ، ولكنها تحتاج إلى تعريف يكشف عن أصلها وعن ينبوعها .

ولعل أسهل ما تعرف به أنها عادة مقصودة مرادة ، وإن شئت فقل إنها عزيمة مكررة معتادة ، توجه إلى الخير أو إلى الشر .

وذلك لأن العادة كثيراً ما تكون عفوية غير مقصودة سواء أكانت حسنة أم قبيحة ، فلا تسمى خلقاً .

وكذلك العزيمة قد تدفع إلى العمل مرة أو بضع مرات ، فلا تدخل فى نطاق الأخلاق ، كالذى يعلم أن صديقه مريض فيعتزم على زيارته ، ويسرع بتنفيذ عزيمته ، والذى يرى شخصا فى البحر

---

(١) سورة القمر الآية : ٢٦ .

(٢) سورة سبأ الآية : ٢٤ .

(٣) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٤) سورة النجم الآيتان : ٢٩ ، ٣٠ .

مشرفاً على العزق ، فيسارع إلى نجدته ، فإن عمل كل من هؤلاء لم يتكرر تكرراً ينبىء عن عادة مقصودة أو عزيمة معتادة .

ولابد من عنصر الاختيار والحرية ، لأن الذى يبذل ماله مضطراً مجبراً لا يسمى سخياً .

لهذا نقول : إن العزيمة اعتادت عملاً صار خلقاً ، فالذى تعود الصدق يسمى صادقاً ، فصار الصدق خلقاً من أخلاقه ، والذى تعود الأمانة يسمى أميناً ، والأمانة خلق من أخلاقه . والعفيف هو الذى تسيطر عليه العفة فى جميع حالاته ، والفاجر هو الذى تستعبده شهوته فلا يستطيع أن يردعها ومعنى هذا أن ميلاً من الميول طبع الشخص بطابعه زمناً طويلاً ، فصار خلقاً ثابتاً له .

فإذا كانت الميول الغلابة على شخص خيرة كلها كانت أخلاقه فاضلة ، وإذا كانت الميول المسيطرة عليه شراً كلها كانت أخلاقه ذميمة فاسدة ، وبين هذا العلو وذاك السفل درجات متفاوتات وطبقات متعددة .

ولعله قد تبين من هذا أن الأخلاق نفسية أو معنوية ، وأن مظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السلوك ، فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر .

أما الغاية التى يتوخاها ذو الأخلاق الفاضلة فهى السعادة التى يشعر بها وينعم وهذا هو ما أراده الغزالى بقوله : « وغاية هذا الخلق أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً ، فالسخى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع يستلذ التواضع .

ولقد سبق الإمام الغزالى إلى تحديد الخلق بما يكاد يتفق وهذا التعريف ، فقال : إنه هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة .

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً .

وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقاً سيئاً وإنما قلنا إنها هيئة راسخة ، لتتحقق المداومة على الفعل ، لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ .

وإنما اشتراطنا أن تصدر عنه الأفعال بسهولة من غير روية ، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال إن خلقه السخاء والحلم ...

لمحة إلى المذاهب الأخلاقية

اختلف الباحثون منذ القدم إلى اليوم فى الأساس الذى يقوم عليه صرح الأخلاق فتعددت آراؤهم ، ولم تسلم من النقد .

وأريد قبل أن أعرض للأساس الإسلامى للأخلاق ، أن ألم بهذه المذاهب فى إيجاز يغنى عن التفضيل .

١ – العـــرف :

لكل أمة عرفها ونظمها وعاداتها التى تتوسم الخير فى اتباعها ...

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاق ، فما وافق العرف كان خيراً ، وما خالفه كان شراً ، وما سكت العرف من كان الناس فيه مخيرين بين أن يفعلوه أو يتركوه .

لكن هذا المقياس مضطرب مختل ، لأن العرف لاثبات له ، فهو يتغير باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف لا يقره العقل ، ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفاً عند العرب فى الجاهلية ، فحرمها الإسلام ، وكانت الغارات عرفاً عندهم ، فحظرها الإسلام ، وكان الاسترقاق عرفاً عند الأمم القديمة ، فلما جاء الإسلام ضيق روافد الرق ، وفسح الطريق لتحرير الأرقاء .

ثم إن الاستمساك بالعرف صمود وتحجر ، وتعويق عن التقدم والتطور وتقبل الآراء الجديدة ، وهو إلى هذا كله معاداة للإصلاح والمصلحين .

٢ – المنفعـة الماديـة :

ذهب جماعة إلى أن المنفعة المادية أساس الأخلاق وأجهدوا أنفسهم فى التفكير والتدليل والتعليل . فالأعمال التى تحقق للجماعات مآرب مادية أو منافع عاجلة أو آجلة ، يصفونها بأنها من الأخلاق الفاضلة ، وكل خلق فاضل لابد أن يدور حول هذا المحور .

وأنهم بهذا ليتنكرون للأساس الروحى ، ويعدونه نزعات فردية ، لا تصلح أن تكون أساساً عاماً للناس كافة .

وهنا يكمن الخطر والضرر والتعادى والتدابر . فإن صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، وصلة الجماعة بالجماعة إذا ما قامت على أساس النفع المادى فقد قامت على الأنانية ، والأثرة ، والشره ، والغش ، وانتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذى يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخرون خصوماً له ، فلا تعاطف ولا تآلف ، ولا محبة ولا إيثار ولا إخاء ، ولا ثقة ولا سلام ...

٣ – الســعادة الشخصيـــة :

يرى أصحاب هذا المذهب أن السعادة هى اللذة والخلو من الألم ، فاللذة هى أساس الأخلاق ،

وهى بحور الأعمال ، والعمل يكون خيراً بقدر ما يحقق من لذة ، ويكون شراً بقدر ما يسبب من ألم .

وقد كان من أكبر الدعاة إلى السعادة الشخصية أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م) إذ رأى أن السعادة أو اللذة الشخصية هى غاية الإنسان ، وليس فى الحياة خير سواها ، وليس بها شر إلا الألم ، ونفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية ، لأن قيمتها فى السعادة التى تصحبها .

والحق أن فى هذا المذهب مجافاة للصواب فى كثير من الأعمال والأحوال ، فإن الأخيار يحتملون ألواناً من العذاب والألم ليحققوا الخير لغيرهم ، والآباء والأمهات كثيراً ما يشقون ، وكثيراً ما يطرحون لذاتهم ليسعدوا أبناءهم .

وإن المجاهدين ليفتدون أديانهم ، والشجعان ليشترون حرية أوطانهم بدمائهم وأرواحهم ، وهم لا يتوقون إلى شىء غير إعلاء كلمة الله ، وحماية الأوطان ، فأين هى السعادة الشخصية أو اللذة التى قام عليها هذا المذهب ؟

نعم إن فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطن سعادة ، ولكنها ليست السعادة التى ينادى بها أنصار مذهب اللذة أو السعادة الشخصية .

ثم إن هذا المذهب قائم على الأثرة ، وإنها لشر يأباه الخلق الكريم ، لأن الذى يفعل الخير لغير مجلبة للذة أثر يفعل خيراً لنفسه لا للناس فهو يجود أو يشجع أو يعف ليكسب ثناء ، أو ليشعر بالقدرة والتعالى والتفوق وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، لأن الفاضل فى رأى أبيقور لا يعنيه شىء من الخير الذى يصيبه الناس ، أو من الشر الذى يحيق بهم ، إلا القدر الذى يمس سعادته أو شقاءه .

٤ - السعـادة العامـة :

إذا كان أبيقور قد أسس مذهبه الأخلاقى على السعادة الفردية ، فإن آخرين قد أسسوا مذهبهم على السعادة العامة ، فذهبوا إلى أن الواجب على الإنسان تحقيق أعظم قسط من السعادة للناس .

وهم يرون أن الفضائل تعد فضائل ، لأنها تثمر لذات أكثر مما تثمر من آلام ، فهى فضائل وإن آلمت بعض الناس ، وهى فضائل وإن آذت الفاعل نفسه ، ويرون أن الرذائل رذائل لأن آلامها تفوق لذاتها .

ومن أكبر الدعاة إلى هذا المذهب بنتام (١٧٤٨ - ١٨٣٢) وجون ستيوارت مل (١٨٠٦ - ١٨٧٣) م .

يقول بنتام : وضعت الفطرة الإنسان تحت حكم اللذة والألم ، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا ، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا فى الحياة .

لكن هذا المذهب مع تساميه على سابقة ومع قربه إلى المثل الأعلى يكلف فاعل الخير أو الشر أن يحسب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل ، سواء أكان من

الناس أم من الحيوان ، وليس هذا بمستطاع ثم إن السعادة العامة ليست مقياساً محدداً ثابتاً ، لأن المحور هو اللذة والألم ، وهما يختلفان باختلاف الأشخاص وباختلاف الملابسات ...

على أن السعادة العامة مقياس مؤقت لاثبات له ولا أمان فيه ، لأن الناس ينظرون إلى مصلحة المجتمع نظرات متباينة ، وهذه النظرات المتباينة تختلف من عصر إلى عصر ، بل تختلف فى العصر الواحد من بيئة إلى بيئة .

٥ - الضمــير :

أقام زينون الفيلسوف اليونانى (٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م) مذهبه الأخلاق على الضمير ، ثم عزز هذا الفيلسوف الألمانى كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) .

وأساس هذا المذهب أن فى كل إنسان قوة فطرية يميز بها الخير من الشر كأنها إلهام ، ولهذا يتفق الناس على أن الصدق والشجاعة والعفة والأمانة فضائل ، ويجمعون على أن الكذب والجبن والفجور والخيانة رذائل .

فنحن حينما نصف عملاً بأنه خير أو شر لا ننظر إلى لذة ولا إلى ألم ، كما يذهب مذهب السعادة ، بل نحكم بفطرتنا غير ناظرين إلى نتائج العمل .

وسواء أكان الضمير قوة من قوى الشعور أو قدرة من قدر العقل فإنه يتطلب من الإنسان أن يصغى إلى صوت ضميره ، وأن يطيع أمره ونهيه .

ولكن هذا المذهب لا يسلم من عيب ، لأن الناس يختلفون فى حكمهم على الأعمال أختلافاً كبيراً ، وكثيراً ما تتباين أحكامهم حتى على البديهيات . فالسرقة الخفية كانت فى إسبرطة عملاً ممدوحاً يُمَرَّن عليه الشباب لتدريبهم على الحيلة فى الحرب ، والاسترقاق كان فى العالم القديم مباحاً ، وشرب الخمر ولعب الميسر ، وغارة بعض القبائل على بعض كانت من مظاهر السيادة عند العرب فى الجاهلية .

وشتان ما يبين أحكام الضمير المتقلبة والأحكام التى ترجع إلى الإدراك ، كالحكم على الفحم بأنه أسود ، وكوصف القطن بأنه أبيض .

ومن عيوب هذا المذهب أن الضمير فى حاجة إلى تربية وتكوين ، لأنه كثيراً ما يغشّيه الهوى ، وتسيره المنفعة الخاصة ، وكثيرا ما تسيطر عليه أحكام البيئة والعصر والأحداث ، فإذا رُبّى تربية دينية كان رقيباً على النفس وإن لم يرب هذه التربية كان خافت الصوت ضعيف السلطان .

على أن الضمير مهما يكن صوته قوياً دائم الهتاف بالإنسان أن يصغى إليه ليطيعه فيعمل الخير ، وليتجنب الشر ، فإن فى الإنسان قوة أخرى تستطيع أن تقاوم هذا الصوت وتعصيه ، وهى العزيمة

التى كثيراً ما ترفض نصائح الضمير ، وتطغى على العقل . فلابد من سلطان أقوى من الضمير ، يخضع له الضمير والعقل والعزيمة جميعاً .

٦ - الوسطيـــة :

كان مذهب الوسطية أكثر المذاهب شيوعاً وأعظمها تأثيراً على الدارسين والباحثين منذ وضع أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) مقياساً للأخلاق وأساساً للفضائل أنها وسط بين طرفين ، واعتدال بين رذيلتين .

ومثل أرسطو للحد الأوسط بأن الاعتدال أو العفة وسط بين الفجور والخمود ، والسخاء وسط بين الإسراف والبخل ، والحلم وسط بين الشراسة والفتور ، والبشاشة وسط بين السخرية والغظاظة ، والصداقة وسط بين الملق والشراسة .

ولقد أعجب بهذا المذهب كثير من العلماء ، وجاراه كثير من فلاسفة المسلمين ، ولعل مرد هذا إلى أنه يدعو إلى الاعتدال ، والاعتدال خلة يرضاها الإسلام ويحمدها الناس ، لأنه يدل على الاتزان وعلى سلامة التقدير وصواب التدبير والبعد عن الشطط ...

لكن هذه النظرية ليست سليمة من القصور والعيوب

١ - ولقد يتضح قصورها إذا ما طبقتاها على كل فضيلة من الفضائل ، فالشجاعة مثلاً ليست وسطاً بين التهور والجبن ، وإن كان التهور رذيلة والجبن رذيلة بل الشجاعة فضيلة حينما كانت وكيفما كانت ، مادامت سنداً للحق ، ودفاعاً عن العرض والمال والحياة ، وحماية للضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقوياء .

ولن تكون الشجاعة فى حال من أحوالها هذه/مزعومة ، ولن تكون فى مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور ، لأن التهور ليس شجاعة انحرفت عن الوسطية إلى طرف التهور كما يقول مذهب الوسطية ، إنما التهور رذيلة ، لأنه حمق وخرق وخطل فى التدبير ، وعجز عن ضبط النفس ، وغفلة عن الحزم وعن تدبر العواقب .

فليست الشجاعة دائما ألا يخاف المُقِدم ، فإنها كما تكون فى الإقدام ، تكون فى الإحجام ، وكما تكون فى الاستهانة بالمخاوف ، تكون فى توقى بعض المخاوف وفى تقديرها للتغلب عليها لا للاستكانة لها .

وهذه الشجاعة درجات ، أولاها فضيلة ، وعلياها فضيلة بل أفضل الفضيلة وهى الفداء والبطولة والاستشهاد .

وكذلك الكرم تتفاوت درجاته من جود بالقليل إلى جود بالكثير إلى جود بالأكثر إلى جود

بالمال كله ، ولكل حالة من هذه الحالات بواعثها وأهدافها ، فقد يجود الشخص فى سبيل الخير بالعشرة أو المئة ويسمى كريماً ، لأن طاقته لا تحتمل أكثر من هذا ، أو لأن الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا ، وقد يجود الشخص بالآلاف أو بمئات الآلاف ولا يسمى مسرفاً ، لأن ثراءه يتسع لهذا السخاء ، أو لأن مصلحة الأمة توجب هذا السخاء وتقتضيه ...

وهل يستطيع الناس أن يصفوا بالإسراف غنياً لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء ، أو يشيد به مدرسة أو مسجداً أو مصنعاً أو يشترى به سلاحاً للدفاع عن الوطن ؟

إن هذا الغنى يوصف بأنه بلغ القمة فى الأريحية والسخاء .

وهذا الذى نقوله فى نقد الوسطية فى الفضائل كلها نقول مثله فى نقد الوسطية فى الرذائل كلها ، كالجبن ، والبخل ، والفجور وغيرها .

٢ - على أن نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها ، فكيف تعرُف ؟ ومن الذى يحكم فإن هذه النقطة هى الاعتدال دون غيرها ؟ وهل الوسط بين الرذيلتين محدود أو ممكن التحديد مثل منتصف طريق معروف الطول ؟ وأين ذلك المقياس الذى يعين المنتصف الذى عناه أرسطو وسواه ؟ وقد ذكر أرسطو أن إدراك الوسط فى كل شيء أمر صعب جداً ، كما أن استكشاف مركز دائرة لا يتيسر لجميع الناس .

٣ - ثم إن بعض الفضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل فالصدق ليس وسطاً بين الكذب وشيء آخر ، إنما الصدق صدق فحسب ، والعدل ليس وسطاً بين الجور وشيء آخر ، بل العدل عدل خالص والجور جور خالص ، والعفة ليست وسطا بين الفجور والخمود ، بل العفة هى العفة ...

٤ - أما الاستدلال على أن الكرم وسط بين البخل والإسراف بقوله تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك * ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً** ﴾[(١)] فإنه موضع نظر

وذلك أن الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى : ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا * إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً** ﴾[(٢)].

وبهذا أمر الله عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل بعد أن أمرهم في آية سابقة بالأخذ بيد آبائهم وأمهاتهم ، ونهاهم عن التبذير وهو البعثرة في السرف والإنفاق في المعاصي وفي غير الحق ، كما روى عن عبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعن مجاهد وقتادة وابن زيد . أما الإنفاق في الحق فقد قال فيه مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق ما كان تبذيراً ، ولو أنفق مدًّا في باطل كان تبذيراً .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الإسراء الآيات : من ٢٦ حتى ٢٨ .

ثم نهى الله عن البخل بالمال فى الحقوق التى أوجبها فى أموال الأغنياء ، ونهى عن العطاء الذى لا يبقى عند صاحبه شيئاً ، فلا يجد ما يعطيه إذا سئل فيلومه سائلوه ويلوم نفسه .

والذى يصح استنباطه من هذا أن القرآن الكريم أمر بفضيلة هى الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ، ونهى عن رذيلة هى البخل وعن رذيلة أخرى هى التبذير أو الإسراف والمراد بالإسراف ابتذال المال فيما لا يصح أن يبتذل فيه ، من معصية وترف وأبهة ورشوة وما يماثلها .

وليس فى الآيات ما يفهم أن الكرم وسط بين رذيلتين ، بل الذى يفهم أن القرآن ينهى عن رذيلتين هما الشح والإسراف ، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف بإختلاف مقدرة المنفقين ، فقد يكون إنفاق شخص معتدلاً وهو أقرب إلى البذل الكثير ، وقد يكون إنفاق شخص آخر معتدلاً وهو أقرب إلى الحرص والتقتير ، وقد ينفق الشخص ماله كله فى الحق وهو براء من التبذير .

كذلك الآية الكريمة : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ۝ وكان بين ذلك قواما** ﴾[1] لاتعنى الوسطية بين الجود والشح ، أو بين السخاء والتقتير ، بل تذم الإسراف ، وتذم الشح ، وتدعو إلى العدل ، ليس الاعتدال حداً وسطاً بين الإسراف والبخل ، بل هو شيء آخر لا صلة له ببخل أو إسراف .

٧ - القـــوة :

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة ، مثل هوبز ونيتشه ، ورأوا أن للأقوياء الأعلياء أخلاقاً لا يليق لها العبيد ، وأن للضعفاء المسترقين أخلاقاً لا تليق بالأقوياء ، وهم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها إلى القوة ، فالشجاعة والبطولة والعظمة والتفوق وأشباهها مظاهر للقوة ، والأخلاق التى لا تبدو فى مظاهر القوة راجعة إليها ، فالصبر محمود ، لأن القوى هو الذى يحتمل الشدة ، ويطيق المكروه ، ويثبت أمام البلاء ، ولا يتخاذل ولا يجزع ، لأن الجزع والتخاذل من أخلاق الضعفاء ...

وإن هذا المذهب لمعيب ، لأنه يقسم البشر طبقتين ، ويفصل بينهما فصلاً لا تقره الإنسانية ، ويقيم بين الأقوياء والضعفاء سوراً لا ينفذ منه تراحم ولا تواد ولا تعاطف ، ويجعل الناس بعضهم أعداء لبعض يبطش قويهم بضعيفهم ، ويخنع ضعيفهم لقويهم ، وإن أدى البطش والخنوع إلى هلاك الضعفاء وانقراضهم .

وليس من شك فى أن بلايا استعمار الأقوياء للضعفاء ، واستئثارهم بخيرات بلادهم ، واستهانتهم بحياة الملايين منهم ، راجعة كلها أو بعضها إلى هذا المذهب البغيض .

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٧ .

الأخــلاق الإسلاميــة ينبوعهــا

أما وقد تبين أن تلك المنابع لم تخل من ضيق وكدرة وانقطاع فى الطريق وغيض ، فإن علينا أن نمد النظر إلى ينبوع آخر ، ينبوع ثرٌّ لا ينضب ، متدفق لا يغيض ، نقى لا يترنق ، مسترسل لا يتوقف مبَّرأ من العيوب والنقائص على تعاقب الأزمان والأجيال .

فمــا هــذا الينبــوع ؟

إنه الإسلام الذى لا يهدى إلى الاخلاق الفضلى والمثل العليا سواه . إنه القرآن الكريم المنزل من عند الخالق ــ سبحانه وتعالى ــ الذى يعلم السر والنجوى وما هو أخفى ، العليم بمصالح عباده جميعاً : ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾(١) وهو الذى ﴿ **يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب** ﴾(٢)

محــورها

ما الفضيلة العظمى التى تدور الفضائل كلها فى فلكها الرحيب ؟

ما المحور المركوز الثابت الذى تستدير الفضائل حوله منجذبة إليه كما تدور الأرض حول أمها الشمس ؟

إنــه التقــوى

فمــاذا تعنــى التقــوى ؟

١ – للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه ، وهى بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية .

هى الإساس الوطيد الذى لا يتبدل ولا يميد ، ولا يخضع للأهواء والمقاييس الفردية أو المقاييس العامة التى تتحول وتتغير ...

ومامن شك فى أن الذى يتقى ربه يحبه ، ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه ، فيحيا فى طهارة نفس ، وصلاح عمل ، وبراءة تدبير ، وثراء من الخير والحق ، وينفر من كل شر ، ويتحامى كل رذيلة ونقيصة .

ولن يكون التقى ــ وهو يعلم أن الإسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها ــ إلا كريماً شجاعاً عادلاً أميناً عفيفاً صادقاً وفياً رحيما غيوراً متحلياً بكل فضيلة ، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والعذر والكذب ومن كل رذيلة .

---

(١) سورة الملك الآية : ١٤ .

(٢) سورة الرعد الآية : ٤١ .

٢ – وقد ترددت مادة التقوى فى القرآن الكريم بهذا المعنى تسعاً وثلاثين ومئتى مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثاً وثمانين ، ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاث مرات وكلمة الأتقى مرتين ...

٣ – ونستطيع أن نستنبط للتقوى ــ مع هذه الدلالة العامة التى تجمع كل فضيلة ، وتنفى كل رذيلة ــ معانى جزئية تتصل بها فضائل معينة كما نجدها تسبق بعض الفضائل أو تتلوها معقبة عليها .

(أ) فالكرم متصل بها فى قوله تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى** ﴾[1]. وقوله : ﴿ **وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى** ﴾[2] .

(ب) والشجاعة متصلة بها فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[3] وقوله سبحانه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾[4].

(جـ) والعدل مرتبط بها فى قوله تعالى : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله * واعلموا أن الله مع المتقين** ﴾[5]

وفى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا * اعدلوا هو أقرب للتقوى * واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون** ﴾[6].

(د) والعفة ذات علاقة بها فى قوله تعالى : ﴿ **يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً** ﴾[7]

(هـ) والصدق صلة بها فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[8] وفى قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً** ﴾[9]

(و) والوفاء بالعهد شعبة منها فى قوله تعالى : ﴿ **فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها * وكان الله بكل شئ عليماً** ﴾[10].

(١) سورة الليل الآيات : من ٥ حتى ٧ .
(٢) سورة الليل الآيتان : ١٧ ، ١٨ .
(٣) سورة التوبة الآية : ١٢٣ .
(٤) سورة آل عمران الآية : ٢٠٠ .
(٥) سورة البقرة الآية : ١٩٤ .
(٦) سورة المائدة الآية : ٨ .
(٧) سورة الأحزاب الآية : ٣٢ .
(٨) سورة التوبة الآية : ١١٩ .
(٩) سورة الأحزاب الآية : ٧٠ .
(١٠) سورة الفتح الآية : ٢٦ .

عن الحسن : إن كلمة التقوى هى الوفاء بالعهد ، وقد أضيفت الكلمة إلى التقوى لأنها سبب التقوى وأساسها .

وفى قوله تعالى : ﴿ **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون** ﴾[١]

(ز) والرحمة غصن من درجتها ، فى قوله تعالى : ﴿ **وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً** ﴾[٢].

فقد أمر الله الأوصياء بأن يخشوا الله فيخافوا على من فى حجورهم من اليتامى ، ويشفقوا عليهم ، كما يخافون على أبنائهم ويشفقون عليهم لو أنهم تركوهم ضعافاً .

(ح) والعفو جزء منها فى قوله تعالى : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[٣].

(ط) والصبر جانب من جوانبها فى قوله تعالى : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وماصبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون** ﴾[٤].

وفى قوله تعالى : ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[٥].

(ى) والأمانة فرع من التقوى فى قوله تعالى : ﴿ **فليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه** ﴾[٦].

(ك) وقوة العزيمة ومضاء الإرادة ، مظهر من مظاهر التقوى فى قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[٧].

(ل) وأداء الدين والوفاء به متصل بالتقوى فى قوله تعالى : ﴿ **فليؤد الذى أوتمن أمانته وليتق الله ربه** ﴾ .

(م) وإصلاح ذات البين مرتبط بها فى قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون** ﴾[٨].

(ن) والتسامح مع الزوجات المطلقات قبل الدخول ، والسخاء فى معاملتهن المالية وثيق الاتصال

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٥٦ .

(٢) سورة النساء الآية : ٩ .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٣٣ ، ١٣٤

(٤) سورة النحل الآيات : من ١٢٦ حتى ١٢٨ .

(٥) سورة يوسف الآية : ٩٠ .

(٦) سورة البقرة الآية : ٢٨٣ .

(٧) سورة الأعراف الآيات : من ١٩٩ حتى ٢٠١ .

(٨) سورة الحجرات الآية : ١٠ .

بالتقوى فى قوله تعالى : ﴿ **وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوا الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى * ولا تنسوا الفضل بينكم * إن الله بما تعملون بصير** ﴾[1].

(س) والكسب الحلال متصل بهما فى قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا** ﴾[2].

خصائص الأخلاق الإسلامية

تتميز الأخلاق الإسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص :

١ - الخير المطلق :

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية أن يكفل الخير الكامل الشامل المبرأ من الأثرة ، أو من إيثار فريق من الناس على فريق ، أو من الاستجابة لنوازع الأهواء ومقتضيات البيئة والملابسات .

تحقق الخير المحض للفرد والناس جميعاً ، فى كل البيئات ، وفى جميع الحالات ، وفى كل الأوقات ، فأمر بالفضيلة ورغب فيها ، لأنها خير يجب أن يفعل ، ونهى عن الرذيلة ، وبغضها إلى الناس ، لأنها شر يجب أن يترك ، وتسامى الإسلام بفاعلى الخير وتاركى الشر من أن يتوقعوا جزاء من الناس لأن الجزاء الأوفى من الله وحده ، وسما بهم عن إتخاذ الخير سلماً إلى شهرة أو مجد أو مباهاة أو تسلط أو شعور باللذة والاستمتاع ، أو اجتلاب منفعة مادية عاجلة و بعيدة المنال ، لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله .

والآيات التى تقرر هذه الحقيقة كثيرة جداً ، منها قوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾[3] وقوله تعالى : ﴿ **لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾[4] وقوله : ﴿ **وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله** ﴾[5].

٢ - الصلاحية العامة واليسر :

تمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس فى كل زمان ومكان ، وبأنها سمحة سهلة

(١) سورة البقرة الآية : ٢٣٧ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٧٨ .

(٣) سورة الروم الآية : ٣٩ .

(٤) سورة النساء الآية : ١١٤ .

(٥) سورة البقرة الآية : ٢٧٢ .

ميسورة ، ليس فيها أرهاق ولا إعنات ولا تكليف بما لا يطاق ، بل الإسلام سنَّ أخلاقاً فاضلة تستريح إليها النفوس النقية ، وتهش لها الضمائر الحية ، وتؤيدها العقول السليمة . وقد صدق المولى سبحانه فى قوله : ﴿ **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** ﴾(١) وفى قوله : ﴿ **لا يكلف الله نفساً إلا وسعها** ﴾(٢).

لهذا أعفى من فريضة الجهاد العاجزين عن القتال ، وأباح للمسافر وللمريض أن يرجىء صوم رمضان إلى زمن مقبل ، وبين العقوبة لا تكون إلا على ذنب مقصود متعمد ...

هذه السهولة وهذه الصلاحية محققان فى الأخلاق الإسلامية ، على حين أن مذهب العرف ضيق المجال ، متغير الأحكام فى البيئات والأعصار ، وعلى حين أن مذهب السعادة الشخصية أنانية بغيضة ، وقاصر عن الاتساع من الأعمال الخيرة والبطولة والفداء .

ثم إن مذهب السعادة العامة عسير ضيق ، ومقياسة مضطرب لا حدود له ولا استقرار . أما المذهب الذى يختص بأخلاق القوة طائفة من الناس هم السادة الأقوياء ، ويستبقى أخلاق اللين لطائفة أخرى هم العبيد والأرقاء والضعفاء ، فإن الإسلام ينكره أشد الإنكار ، لأن الإسلام دين المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى الثواب والعقاب ، وفى الحسنات والسيئات ، فهو لا يقر التفرقة ولا يرتضيها .

ثم إن الإسلام يحض على الأخلاق التى تمثل القوة كالشجاعة والكرم والعفو والحلم ويحض على الأخلاق التى تمثل الدعة والسماحة واللين كالرحمة والصبر والإيثار وطيب العشرة ...

وقد اتضح من دراسة المذاهب الأخلاقية أن الخير الذى تقصده أو الفضيلة التى تدعو إليها إما شخصية فردية ، وهذه أثرة يرفضها الإسلام ، وإما عامة ولكنها قاصرة عن الصلاحية الشاملة أو لدائمة ، وكثيراً ما تحيد عن الصلاح بتضليل من الأقوياء المنتهزين ، أو بتأثير من الانحراف العام .

أما الفضائل الإسلامية فإنها صالحة للأفراد والجماعات فى اليسر والعسر ، فى الشدة والرخاء ، وليس فيها تفريق بين زمان وزمان ، ولا بين فريق وفريق ، ولا بين حال وحال .

ولقد جاءت الأحاديث النبوية الشريفة موضحة سهولة التكليف الإسلامى ويسره قال عليه الصلاة والسلام : « دع ما يريبكُ إلى ما لا **يريبك** فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبه » رواه البخارى(٣).

وقال ﷺ : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » متفق عليه(٤). وعن عائشة ـــ رضى

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٢٨٦ .

(٣) صحيح البخارى كتاب البيوع ٦٦/٣ وسنن الترمذى ٦٦٨/٤ رقم ٢٥١٨ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٣١ .

الله عنها ــ قالت : قال رسول الله ﷺ : « ان الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله »(١).

٣ - الثبــات :

الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين ، وكفيلة بالخير المطلق ، وصالحة للناس جميعاً ، فهى إذن تتسم بالثبات والدوام والاستقرار ، لأن المشرع الحكيم راعى فيها كفالة الخير الدائم العام .

وإن النظرة إلى المذاهب الوضعية لتكشف عن تقلبها واضطرابها وقصور صلاحيتها ولهذا تعددت فى العصر الواحد وفى مختلف الأعصار .

٤ - الإلــزام المســتجاب :

ماالذى يبتغيه واضع القانون حينما يضعه للناس ؟

وماالذى يريده العالم حين يضع مذهباً فى الأخلاق ؟

إنهما يريدان من الناس أن يخضعوا لما وضع لهم فى السر والعلن ، وفى الوحدة والاجتماع ، وفى النعماء والبأساء .

ولكن ماالذى يحدث فى كثير من الأحيان ؟

ألا يتحايل الناس على القانون ، ويتسللون من قيوده إذا ماواتتهم فرصة للتحايل والفرار ؟

ألا يعصون نداء المذهب الأخلاق إذا ما أمنوا ألا يعابوا بهذا العصيان ؟ ألا تعرض لبعض الناس ألوان من الإغراء تتوارى أمامها رهبة القانون ، وتضعف مثل الفلاسفة ؟

ذلك بأن الوازع هنا خارجى لا سلطان له على دخائل النفوس ، وأعماق الوجدان ، فإذا ما غفلت عينه عن الرقابة تمردت الأهواء والنزعات .

أما الأخلاق الدينية فإنها تستمد من ينبوعها قوة ناقدة تلزم بها فى العلن والخفاء ، وفى السراء والضراء ، لأن الرقيب عليها هو الله الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

وإن هذا الإلزام لمحبوب مطاع ، لأنه أمر أو نهى من الله ــ جل جلاله ــ قد ربى المجتمع عليه ، وأخذ نفسه به ، وخضع له ، وأيقن أن خضوعه يحقق الخير للأفراد أو الجماعات ، ويقرب من ثواب الله .

ومعنى هذا أن الأخلاق الدينية تستند إلى سلطان روحى يمدها بأعظم الدوافع على الاستمساك بها والاعتصام ، ويحفز الناس إلى عمل الخير حفزاً منوطاً بالثواب ويردعهم عن فعل الشر ردعاً مرهوب العقاب .

---

(١) صحيح مسلم ــ كتاب البر والصلة ٢٠٠٣/٤ رقم ٢٥٩٣ .

وإنه ليسترعى الانتباه أن القرآن الكريم لم يأمر بعمل الخير أمراً مطلقاً قائماً على الإلزام المجرد من التعليل والترغيب ، ولم ينه عن الشر نهياً مطلقاً مبنياً على التحذير والترهيب المستغنى بنفسه عن التوضيح .

اقرأ قوله تعالى فى الأمر بغض البصر وصيانة الفرج : ﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم * إن الله خبير بما يصنعون** ﴾[1] واقرأ قوله تعالى فى الدعوة إلى صلح الزوجين : ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين** ﴾[3] والآيات التى تتضمن هذا كثيرة جداً .

٥ - الرقابة المحيطة :

على أن الأخلاق الإسلامية أمنع حصانة من الأخلاق الوضعية ، لأن الهيمنة عليها أشد وأقوى ، فلا يجترىء إنسان على مخالفتها إلا بعد تردد وإحجام ثم يندم على ما اجترح وبأسى ، وقد يجره الندم إلى توبة نصوح لا رجعة بعدها إلى الآثام .

وذلك أن عليها رقيباً عتيداً من الدين نفسه ، ورقيباً من الضمير الحى الذى أيقظه الدين ورباه ، ورقيباً من العقل السليم الذى صقله الدين وهداه .

غـــايتها

تبين أن الأخلاق الإسلامية منفردة بأن الدين منبعها ، وبأن التقوى محورها ، وبأنها ممتازة على المذاهب الأخلاقية بخصائصها وإنها لمتميزة أيضاً بغايتها . وماعسى أن تكون الغاية من المثل الأعلى الذى تشربت إليه الإنسانية فى جميع عصورها ، لأنه يحقق لها الحق والخير والعدل ، وما يكفله الحق والخير والعدل من محبة وسلام وإيثار وتعاطف ورخاء وتقدم وتعاون على البر والتقوى ؟

ماذا عسى أن يفعله الروح الطاهر الذى يسرى فى كل نفس وفى كل جمع قوة دافعة إلى الكمال ، مانعة من العيب والنقص ؟

(١) سورة النور الآية : ٣٠ .

(٢) سورة النساء الآية : ١٢٨ .

(٣) سورة المائدة الآيات : من ٩٠ حتى ٩٢ .

ماالذى يبتغيه الأتقياء الفضلاء من مرضاة الله عنهم فى الدنيا وفى الآخرة ؟

إنهـا السعـادة

السعادة التى تظلل الفرد ، وتظلل الأمة .

السعادة المحققة ، لا الأوهام الملفقة .

السعادة الماثلة ، لا الأطياف الزائلة .

السعادة التى تجعل الحياة الدنيا جنة صغيرة يجتازها الناس إلى الحياة الآخرة ، وهى الجنة الكبيرة التى ينعمون فيها بما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

شغف النبى ﷺ بمكارم الأخلاق

اصطفاه الله من أكُرم دوحة ، وتعهده فى طفولته وشبابه إلى أن اختاره ليكون مبشراً ونذيراً ، فرباه أشرف تربية ، وأدبه أحسن تأديب .

أدبه بمثل قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو ٭ وأمر بالعرف ٭ وأعرض عن الجاهلين** ﴾[١] و ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ٭ وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى** ﴾[٢] و ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾[٣] و ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** ﴾[٤] و ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** ﴾[٥] .

وكان القرآن الكريم منهل أخلاقه ، قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة ــ رضى الله عنها ــ فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ ، فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت كان خلقه القرآن[٦].

فيكف لا يكون فى القمة من حلو الشمائل وحميد السجايا ؟

لقد كان ﷺ فى هذه القمة ، ولكنه مشغوف بالاستزادة ، حتى أنه كان يقول فى دعائه : « اللهم كما حسَّنت خَلْقى فحسِّن خلقى ، اللهم جنبنى منكرات الأخلاق . اللهم اهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت »[٧].

(١) سورة الأعراف الآية : ١٩٩ .

(٢) سورة النحل الآية : ٩٠ .

(٣) سورة لقمان الآية : ١٧ .

(٤) سورة النحل الآية : ١٢٥ .

(٥) سورة فصلت الآية : ٣٤ .

(٦) صحيح مسلم ــ كتاب صلاة المسافرين ٥١٢/١ رقم ٧٤٦ ومسند أحمد ٢١٦/٦

(٧) مسند أحمد ٨٦/٦ .

وقد ناط مكارم الأخلاق برسالته ، فقال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[١] وكان ﷺ لا يفتأ يحض المسلمين على التحلى بالفضائل وينفرهم من الرذائل .

وله فى هذا أحاديث كثيرة منها :

« إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجالس يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، الموطأون أكنافاً ، الذين يألفون ويؤلفون »[٢].

وقوله : « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل الظامى بالهواجر »[٣].

وقوله : « من سعادة المرء حسن الخلق »[٤]

وقوله : « أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق »[٥] .

وقوله : « اكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً »[٦].

وسئل : أى الأعمال أفضل ؟ قال : خلق حسن[٧] .

وقيل له : أى المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال أحسنهم خلقاً[٨] .

والذى يفهم من هذه الأحاديث ومن غيرها أن النبى ﷺ ربط الأخلاق الفاضلة بالتدين وبالتقوى أوثق رباط ، ويفهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يمحق الحسنات ، ويبطل الطاعات ، فقد قيل له : إن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : لا خير فيها ، هى من أهل النار[٩].

وبلغ من كلفه ﷺ بمكارم الأخلاق أنه أطلق من السبى بنت حاتم الطائى لكرم أخلاق أبيها . وقال بعد أن أطلق سراحها « فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق » .

كان ﷺ شغوفاً بمكارم الأخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبطاعة الله وتقواه ، فكان المثل الأعلى فى كل فضيلة ، وكان خليقاً بثناء الله تعالى عليه فى كتابه الكريم كقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق**

(١) السنن الكبرى للبيهقى ١٠/١٩٢ .
(٢) سند الترمذى ٤/٣٧٠ رقم ٣٠١٨ .
(٣) مسند أحمد ٦/١٣٣ والمستدرك للحاكم ١/٦٠ .
(٤) الخرائطى فى مكارم الأخلاق عن جابر — باب الحث على الأخلاق الصالحة والترغيب فيها .
(٥) مسند أحمد ٢/٣٩٢ .
(٦) سند أبى داود ٥/٦٠ رقم ٤٦٨٢ وسند الترمذى ٣/٤٥٧ رقم ١١٦٢ .
(٧) مسند أحمد ٤/٣٨٥ .
(٨) الجامع الصغير للسيوطى رقم ١٢٩٢ .
(٩) السنن الكبرى للبيهقى ٤/١٦٦ .

عظيم ﴾[١] وقوله : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك** ﴾[٢] وقوله : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم** ﴾[٣] وقوله : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾[٤] وقوله : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[٥]

وحسبه من هذا التشريف الإلهى أن الله تعالى أقسم بحياته فى قوله : ﴿ **لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون** ﴾[٦] ولم يقسم الله بحياة أحد غير محمد ــ عليه الصلاة والسلام ــ وحسبنا من وصف أصحابه له قول على بن أبى طالب : « إنه كان أجود الناس كفاً ، وأجرأ الناس قلباً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه »

خلـق الشجاعـة

« لم يكن النبى ﷺ شجاعاً فحسب ، بل كان المثل الأعلى فى الشجاعة ، إذ كان شجاعاً فى السلم ، وشجاعاً فى الحرب ، وشجاعاً في وحدته ، وفى قلة من أنصاره ، وشجاعاً فى جماعته ، وفى كثرة من أعوانه ، وكان شجاعاً فى جهره بالحق ، وفى دفاعه عن العقيدة ، مهما تكن عاقبة الشجاعة . وإذا كان التاريخ القديم والحديث قد سجل فى صفحاته أسماء كثير من الشجعان الذين تضرب بشجاعتهم الأمثال ، فإنه لم يستطع أن يسجل لواحد منهم ما سجله لرسول الله ﷺ من ضروب الشجاعة المثلى فى مصادرها وفى مظاهرها وفى غاياتها .

مصـادرهـا :

أما مصادر شجاعته فهى وراثته وفطرته وتربية الله له ، وحسبنا أن نذكر قوله تعالى : ﴿ **انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾[٧] . وقوله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى**

---

(١) سورة القلم الآية : ٤ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

(٣) سورة الحاقة الآيات : من ٣٨ حتى ٤٠ .

(٤) سورة الأحزاب الآية : ٢١ .

(٥) سورة آل عمران الآية : ٣١ .

(٦) سورة الحجر الآية : ٧٢ .

(٧) سورة التوبة الآية : ٤١ .

سبيل الله فيقتلون ويقتلون * وعداً عليه حقاً فى التوارة والأنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾[١]

مظـاهـرها :

أما مظاهر شجاعة الرسول ﷺ فإنها متعددة الألوان متنوعة الضروب ، تجمعها شجاعة الرأى ، وشجاعة الحرب .

١ – شـجاعة الـرأى :

١ – فقد ضاقت قريش بدعوته إلى الإسلام ، وبتسفيه أحلامها وعيب آلهتها فمشوا إلى عمه أبى طالب وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين .

فعظم أبو طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه فقال لمحمد : ياابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا ، فأبق علىّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أن عمه تخلى عنه ، وأنه خاذله ، وأنه قد ضعف عن نصرته فقال : ياعم ، والله لوضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . ثم استعبر رسول الله فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب . فقال : أقبل ياابن أخى فأقبل عليه ، فقال : أذهب ياابن أخى فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء[٢]

٢ – وعرض عتبة بن ربيعة على قريش – بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب أن يعرض على الرسول أموراً لعله يقبل بعضها فيكف عن دعوته ، فوافقته قريش ، فقام إليه عتبة فقال : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة والعلاء فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال له رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالاً .

(١) سورة التوبة الآية : ١١٤ .

(٢) سيرة ابن هشام ١/٢٨٥ .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة قال له رسول الله ﷺ : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم

قال الرسول : فاسمع منى

قال : أفعل

فقال الرسول ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه** ﴾ ومضى رسول الله يقرؤها عليه ، وعتبة منصت ، وقد ألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله إلى آية السجدة من السورة ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش . أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم(١).

٢ - الشجاعة فى الحرب :

وقد تجلت شجاعته ﷺ الحربية منذ مطلع شبابه ، فإنه لما كان فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة هاجت حرب الفجار بين قريش ومعها كنانة وبين قيس عيلان ، وشهد رسول الله ﷺ بعض وقائعها ، إذ أخرجه أعمامه معهم . وحدث رسول الله بقوله : كنت أنبل على أعمامى . ﴿ **أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها** ﴾(٢)

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١ .

(٢) سيرة ابن هشام ١٩٨/١ .

ثم بعد النبوة كان ﷺ يشارك فى المواقع ، ويقدم إقدام البطل ، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع ، ويتعرض لما يتعرض له أتباعه وجنوده ، على حين أنه كان يستطيع أن يعفى نفسه من هذه المشاركة العملية اعتماداً على أنه النبى ، فيتوارى أو يتحصن ، أو يتخذ مكانه فى مؤخرة الجيش ، ولو أنه فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى إليها تثريب أو ملام ، لو أنه آثر هذا المسلك لرضى المسلمون به مرضاة خالصة ، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم ، ويشترون سلامته بأرواحهم .

الغاية من شجاعته :

وأما الغاية من شجاعته فإنها إعلاء كلمة الله ، والدفاع عن التوحيد الخالص ، وحماية الإسلام من عدوان المشركين ، وتحرير الناس من أغلال الوثنية ، وإرهاق الاستعباد ، وأصفاد الفساد ، ومخازى العقائد والنظم ومفاسد الأخلاق ، لتحل محلها أسمى عقيدة ، وأصلح نظام فى السياسة والإدارة والمعاملات والاجتماع .

جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما القتال فى سبيل الله ، فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمّية ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله[(١)]

فلم تكن الشجاعة التى اتصف بها النبى ﷺ والتى حرض عليها ، وأقرها وامتدحها ، شجاعة القوى المقدام المدل بقوته ، المفاخر بها بين الناس ولا شجاعة الثائر المهتاج الذى أشعله الغضب لغير الحق ، بل كانت الشجاعة المثلى التى لا تتوخى غير إعزاز دين الله وإعلاء كلمته ، والذود عن محارمه ، والدفاع عن الحقوق التى صانتها الشريعة وحمتها ، ولهذا قال ﷺ « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد »[(٢)] .

وكانت الغاية النبيلة تقضى بأن تكون الوسائل نبيلة ، فقد عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين ، وهو فى قلة من الأعوان وحاجة إلى فرد واحد يزيد عدد من معه ، فأبى وقال : لن أستعين بمشرك[(٣)]

الإشادة بشجاعته ﷺ

لقد كان المسلمون يعجبون بشجاعة رسول الله إعجاباً يصغر فى عيونهم شجاعتهم ، ويهون بسالتهم .

يقول الإمام على : كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٤٤ .

(٢) سنن أبى داود ١٢٨/٥ رقم ٤٧٧٢ وسنن الترمذى فى الديات حديث رقم ١٤٢١ وابن ماجه فى الحدود حديث رقم ٢٥٨٠ .

(٣) سنن الترمذى ــ كتاب السير ١٢٨/٤ رقم ١٥٥٨ .

ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ، وهو أقربنا إلى العدو ، فكان يومئذ أشد بأساً .

ويقول أنس بن مالك . كان النبى ﷺ أشجع الناس ، فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق بعضهم نحو الصوت ، يريدون أن يتعرفوا الخبر ، فإذا النبى ﷺ عائد على فرس ليس عليه سرج ، وفى عنقه سيفه ، وكان قد سبقهم إلى الخروج فعرف الصوت ، فلما قابلهم قال لهم : لن تُراعوا ، لن تُراعوا »[١].

وقال عمران بن حصين : مالقى رسول الله ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب .

حضه على الشجاعة

كان النبى ﷺ قدوة المسلمين فى شجاعته الحربية ، وغير الحربية ، وكان يحضهم على الشجاعة ، ويحببها إليهم بأقوال ، ويوضح لهم الغاية النبيلة التى يجب أن يتوخوها فى جهادهم ، وله فى هذا المجال أحاديث كثيرة منها :

١ – من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد[٢].

٢ – أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر[٣]

قيل : يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله[٤].

٤ – « إن فى الجنة مئة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض »[٥]

٥ – « لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »[٦].

٦ – « لولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل »[٧]

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٨٩ .

(٢) سند أبى داود ١٢٨/٥ حديث رقم ٤٧٧٢ وسنن الترمذى فى الديات حديث رقم ١٤٢١ وسنن ابن ماجه فى الحدود حديث رقم ٢٥٨٠ .

(٣) سنن أبى داود فى الملاحم ٥١٤/٤ رقم ٤٣٤٤ والترمذى فى الفتن حديث رقم ٢١٧٥ وابن ماجه فى الفتن حديث رقم ٤٠١١ .

(٤) صحيح البخارى ــ كتاب فضل الجهاد والسير ١٨/٤ .

(٥) صحيح البخارى ــ كتاب فضل الجهاد والسير ١٩/٤ .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٣٤ .

(٧) صحيح البخارى ــ كتاب دعاء النبى ﷺ إلى الإسلام ٦٤/٤

٧ – قال فى يوم بدر : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة »[٦].

خلــق الكــرم

كرم النبى ﷺ

لم يشغف العرب فى الجاهلية والإسلام ، بأكثر من شغفهم بالشجاعة والكرم فكان الأمراء والملوك أشد حرصاً على أن يذيع فى الناس كرمهم وشجاعتهم ، وكان شعراؤهم يشيدون بفعالهم ، ويختصون هاتين الفضيلتين بالتنويه ، محقين حيناً ، ومبطلين حيناً ، ومبالغين أحياناً .

لكن كرم النبى ﷺ كان لوناً آخر جديداً لم يعرفه العرب ، ولم يألفه غيرهم .

١ – فلم يكن جوده لكسب محمدة أو اتقاء منقصة ، ولم يكن للمباهاة أو الاستقلال ، أو لاجتلاب المادحين ، بل كان فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاة الله .

كان فى حماية الدين ، وفى مؤازرة الدعوة ، وفى محاربة الذين يصدون عن سبيل الله .

وكان الإنفاق على الفقراء من المسلمين الذين فقدوا أموالهم فى سبيل الله أو عجزوا عن الكسب وكان فى رعاية اليتامى والأيامى ، وكان فى تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكيهم على مال ، وكان فى اجتذاب من يرى تألف قلوبهم من غير المسلمين ، ليتقوى باجتذابهم إلى الإسلام .

٢ – وكان من كرم النبى ﷺ إيثاراً على نفسه وأهله ، فهو يعطى أحوج ما يكون إلى ما يعطيه ، ويبذل الكثير ، وهو محتاج إلى القليل ، لأنه لا يستطيع أن يصبر ، ولأنه يحيا حياة الزهاد ، ولأنه الملاذ الرفيق والأب الشفيق الذى تشغله حاجات بنيه أضعاف ما تشغله حاجات نفسه .

وهذه هى الدرجة العليا من الكرم التى امتدحها الله تعالى فى قوله : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[١].

لهذا قالت السيدة عائشة : « ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكن كنا نؤثر على أنفسنا »[٢].

٣ – وكان ينفق فى سبيل الله ما استطاع أن ينفق ، وهو يستقل ما أنفق ، وكان يعطى العطاء الجزل ، فلا يستكثر ما أعطى ، وما سئل عن شىء قط على الإسلام إلا أعطاه ، وما سئل شيئاً قط فقال لا .

(٦) سيرة ابن هشام ٢٧٩/٢ .

(١) سورة الحشر الآية : ٩ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٨٧١ .

أتاه رجل فسأله ، فأعطاه غنماً سدت ما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة[١].

وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها .

ولما قفل من حنين جاءه الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه ، فوقف وقال : أعطونى ردائى ، لو كان لى عدد هذه العضاة (شجر شائك كثير فى الصحراء) نعماً لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً[٢].

٤ – وبلغ من الكرم أنه كان يستحيى أن يرد سائله خالى اليدين معتذراً بالفاقة .

جاءه رجل فسأله ، فقال : ما عندى شيء ، ولكن ابتع علىَّ ، فإذا جاءنا شيء قضيناه .

فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، قد أعطيته من قبل ، فما كلفك الله مالا تقدر عليه .

فكره النبى ﷺ ذلك ، فقال رجل من الأنصار : يا رسول الله : أنفق ولا تخشى من ذى العرش إقلالا ، فأبتسم النبي ، وعرف البشر في وجهه ثم قال : بهذا أمرت[٣].

وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة ، لا يمسك شيئاً .

قال ابن عباس : كان النبى ﷺ أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل عليه السلام يلقاه كل ليلة فى رمضان حتى ينسلخ ، يعرض عليه النبى ﷺ القرآن ، فإذا لقيه جبريل – عليه السلام – كان أجود بالخير من الريح المرسلة[٤] قال الزين بن المنير : وجه التشبيه بين أجودتيه ﷺ بالخير وبين أجودية الريح المرسلة أن المراد بالريح ريح الرحمة التى يرسلها الله تعالى لإنزال الغيث العام الذى يكون سبباً لإصابة الأرض الميتة وغير الميتة ، أى فيعم خيره وبره من هو بصفة الفقر والحاجة ومن هو بصفة الغنى والكفاية أكثر مما يعم الغيم الناشئة عن الريح المرسلة ﷺ .

يامـــن له الأخــلاق ما تهـــوى العـــلا
منهـــا ومـــا يتعشـــق الكـــرمـــاء
زانتــك فى الخلـــق العظيـــم شمائـــل
يغـــرى بهـــن ويولـــع الكـــبراء

(١) صحيح مسلم – كتاب الفضائل ١٨٠٦/٤ رقم ٢٣١٢ .

(٢) صحيح البخارى – كتاب الجهاد والسير ٢٧/٤ ومسند أحمد ٨٢/٤ .

(٣) مختصر الشمائل المحمدية للترمذى صفحة ٣٨١ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٩٠ .

فإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت مالا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً ومقدراً
لايستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا خطبت فللمنابر هزة
تعرو الندى وللقلوب بكاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة
للحق لاضغن ولاشحناء
لو أن إنسانا تخير ملة
ما أختار إلا دينك الفقراء

حضه على الكرم ﷺ

لطالما حض النبى ﷺ على الكرم بمعناه الذى يرتضيه الإسلام ، من بذل فى تقوية الجيش ، أو فى الدفاع عن الدعوة ، أو فى البر بالفقراء .

من هذا قوله :

١ - قال رجل للنبى ﷺ : أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تتصدق وأنت صحيح حريص ، تأمل الغني وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان »(١)

٢ - سأل رجل النبى ﷺ : أى الاسلام خير ؟ يريد أن يعرف أى خصال الإسلام خير — فقال له : « تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف »(٢)

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١١ .

(٢) صحيح البخارى — كتاب الإيمان ١١٥١ .

٣ – عدّ من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة رجلاً تصدق فأخفى ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه (متفق عليه)[١]

٤ – وقال لأسماء بنت أبى بكر الصديق : « أنفقى ولا تحصى فيحصى الله عليك . ولا توعى فيوعى الله عليك » (متفق عليه)[٢].

٥ – « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً »[٣].

٦ – من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[٤].

٧ – « إذا طبختم اللحم فأكثروا المرق ، فإنه أوسع وأبلغ للجيران » (الجامع الصغير)[٥]

٨ – « ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه »

خلق العدل

المراد بالعدل هنا إعطاء كل ذى حق حقه بغير تفرقة بين المستحقين ومؤاخذة المسىء أو المقصر على قدر إساءته وتقصيره بدون إعنات أو محاباة .

مظاهره :

استقى النبى ﷺ العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية وكانت فطرته السليمة مهيأة للعدل منذ شبابه ، فقد اشترك فى حلف تعاهد أصحابه على مقاومة الظلم وإنصاف المظلومين .

وذلك أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف الفضول قبل البعثة بعشرين سنة ، وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه وناصروه على ظالمه حتى ينصفوه .

وقد شهد النبى ﷺ هذا الحلف ، وقال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٠٨ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٩١ .

(٤) مسند أحمد ١٧٤/٢ .

(٥) الجامع الصغير للسيوطى ٣٩٧/١ رقم ٧٤١ .

ما أحب أن لى به حُمْر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت »[١] (سيرة ابن هشام)

ثم إن النبى ﷺ هو المبلغ للشريعة ، والمهيمن عليها ، والمنفذ لها ، وهو القاضى الأول الذى يطمئن المسلمون إلى أحكامه ، ويقتدون بها ، فمن يعدل إذا هو لم يعدل ؟

أما مظاهر عدله فإنها متعددة متنوعة ، منها :

١ – لما نزل قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ ناداهم بطناً بعد بطن ، فقال : يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

يابنى عبد مناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .

يا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .

يا فاطمة بنت محمد ، سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً[٢]

٢ – كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هم أحق منهم ، فكان يجِلُّ العباس اجلال الوالد والوالدة ، ولكنه لم يفضله فى عطاء .

٣ – شكت إليه ابنته فاطمة ما تلقى من مشقات فى أعمالها بمنزلها ، وطلبت منه خادماً من السَّبى يكفيها مئونة العمل ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال لها : لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع[٣]

فآثر عليها فقراء المهاجرين الذين كانوا يقيمون بسقيفه المسجد ، وليس لها مرتزق .

كان يُعِّدلُ صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قِدْحُ يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزيَّه وهو ناتىء من الصف ، فطعن فى بطنه بالقدح ، وقال : استو يا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، **وقد بعثك الله بالحق ، فأقدنى (أى دعنى أقتص منك)** .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه ، وقال : « استقد يا سواد ، فعانقه سواد ، وقبَّل بطنه ، فقال الرسول ، ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فلم آمن القتل ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله ﷺ بخير » (سيرة ابن هشام ، وتاريخ الطبرى)[٤].

٥ – سرقت امرأة مخزومية ، فأحزن قريشاً شأنها ، فقالوا : « ومن يكلم فيها رسول الله ؟

(١) سيرة ابن هشام ١٤١/١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٣ .

(٣) الحلية لأبى نعيم ٤١/٢ .

(٤) سيرة ابن هشام ٢٧٨/٢ .

ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه ؟ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ، وجاء فى خطبته قوله : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » (متفق عليه)[1].

٦ - قسم رسول الله ﷺ غنائم هوازن على المهاجرين ، والمؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فتذمر الأنصار ، وكثرت منهم القالة ، حتى ظنوا أن الرسول حابى قومه ، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم ، لما صنعت فى **هذا الفىء الذى أصبت .**

قال الرسول ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى .

قال : فاجمع لى قومك .

فخرج سعد فجمع الأنصار ، فأتاهم رسول الله ﷺ فخطب فيهم بقوله : يا معشر الأنصار ، مقالة بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها علىَّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى الله ورسوله أمنّ وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المنُّ والفضل .

قال : أما والله لوشئتم لقلتم ، فلصدقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مكذَّباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلاً فواسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناءَ أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قسماً وحظاً »[2].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٠٠ .

(٢) صحيح البخارى ـــ كتاب المغازى ٢٠٠/٥ .

حضه على العدل والمساواة ﷺ

جاء الإسلام والناس طبقات ، والعرب درجات ، فسوى بينهم مساواة حقيقية واقعية لم يعرف العالم مثلها من قبل ولا من بعد ، فلا عبرة بالحسب ولا بالمال ولا بالجاه ولا باللون ، بل العبرة بالأخلاق الفضلى وبالتدين الصحيح ، قال تعالى : ﴿ **ان أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[١].

١ — وقال عليه الصلاة والسلام : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ولا فضل لعربى على عجمى ، ولا عجمى على عربى ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ فليبلغ الشاهد الغائب » (كنز العمال)[٢].

٢ — وقال ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته »[٣].

وقال ﷺ : « لايقضين حكمٌ بين اثنين وهو غضبان » (متفق عليه)[٤].

٤ — وقال : « الظلم ظلمات يوم القيامة »[٥]

وقال : « من كانت له امرأتان فمال إلى احدهما دون الأخرى جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل »[٦].

٦ — وقال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد »[٧].

٧ — إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته[٨] .

خلـق العفـة

العفة فضيلة تقى الإنسان من أن يرتكب بيده أو بلسانه أو بشهوته مالا يحل له وربما تمنعه من الحلال إباء وأنفة .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١٣ .
(٢) كنز العمال ٩٥/٣ رقم ٥٦٥٥ .
(٣) صحيح البخارى ــ كتاب المظالم ١٥٩/٣ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١١٩ .
(٥) صحيح البخارى ــ كتاب المظالم ١٦٠/٣ .
(٦) مسند أحمد ٣٤٧/٢ .
(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٠٠ .
(٨) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٦٨ .

مظـاهرها :

بلغ عليه الصلاة والسلام أعلى الدرجات فى جميع ضروب العفة وأنواعها فقد كان المثل الأعلى فى الفضائل كلها ، والعفة موصولة ببعضها كالأمانة والعدل والقناعة والإيثار والزهد .

١ - أما عفته عن الفاحشة فإنها من البديهيات التى لا تحتاج إلى تفصيل . وقد عصم الله نبيه من الفاحشة منذ طفولته ، فلم يزل قط ، ولم يهم بفاحشة قط ، حتى إن يده لم تمس يد امرأة إلا إذا كانت زوجة أو محرماً أو ملك يمين .

وقد سن للمسلمين أدب الطريق ، فنهاهم عن الجلوس فى عرض المارة ، فإنه لا مندوحة من أن تمر نسوة يستحيين من تطلع الأنظار إليهن ، أو تمر بعض نساء يبدو منهن — من غير قصد — شيء من زينتهن ، فإن اضطروا إلى الجلوس بقارعة الطريق كان عليهم أن يلتزموا آدابه ، ومنها أن يغضوا أبصارهم ، فلا يعلقوها بهذه أو بتلك .

قال — عليه الصلاة والسلام — لا تجلسوا على ظهر الطريق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وردو السلام ، واهدوا الضال ، وأعينوا الضعيف[١].

٢ - وكان الرسول ﷺ عفيف اللسان حتى فى أشد حالات الخصام ، لم يعرف البذاء والسباب سبيلاً إلى شفتيه .

لما رحل عن ثقيف قال له أحد أصحابه : يا رسول الله ادع عليهم ، فقال اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم ، وكذلك فعل لما سئل الدعاء على دوس[٢].

وسأله بعض أصحابه أن يدعو على قريش بعد غزوة أحد ، فقال إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً ، اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

فلم يشأ أن يدعو عليهم بالهلاك مع أنهم أعداؤه .

ولقد اقتصر من الدعاء على المشركين فى غزوة الأحزاب بقوله : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اللهم اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم »[٣].

لم يدع عليهم بالهلاك المدمر أو بالإبادة القاضية ، وكان يستطيع أن يدعو بذلك .

---

(١) الخرائطى فى مكارم الأخلاق عن ابن عباس

(٢) صحيح البخارى — كتاب المغازى ٥/٢٢٠ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب المغازى ٥/١٤٢ .

حضـه على العفـة ﷺ

حرص رسول الله ﷺ على تكوين المجتمع الفاضل ، فأمر المسلمين بالعفة فى كثير من أحاديثه كقوله :

١ – أن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال[١]

٢ – اليد العليا خير من اليد السفلى . (اللؤلؤ والمرجان)[٢]

٣ – لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه[٣] (متفق عليه) .

٤ – ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس[٤] (متفق عليه)

٥ – سأل ناس من الأنصار رسول الله فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفذ ما عنده فقال : « ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله ، وما أعطى أحد عطاء خير واوسع من الصبر » (متفق عليه)[٥].

٦ – معاشر الشباب ، عليكم بالباءه ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فالصوم وجاء[٦].

٧ – ذكر من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله[٧].

خلـق الصـدق

أجمع الذين عرفوا النبى ﷺ وخالطوه منذ صباه على أنه صادق أمين لم يسمعوا من فمه أكذوبة قط ، ولم يشكوا فى خبر من أخباره ، أو يستريبوا فى قول من أقواله .

١ – فالسيدة خديجة لم تجد ما تهدىء به روعه حين أتاها خائفاً بعد أن نزل عليه الملك يقول ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق** ﴾ خيراً من قولها له : أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ، ووالله إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكلَّ ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق[٨].

---

(١) سنن ابن ماجه ـــ كتاب الزهد ١٣٨٠/٢ رقم ٤١٢١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٢ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٨ .

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٤ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٢٧ .

(٦) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٨٨٤ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦١٠ .

(٨) صحيح البخارى ـــ كتاب التفسير ٢١٤/٦ .

٢ – وقريش أعلنت أنه صادق حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهرة وصعد الصفا فقال : ياصباحاه ، فاجتمعوا إليه ، فقالوا : مالك ؟ قال : أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوننى ؟ قالوا : بلى ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وماكسب * سيصلى ناراً ذات لهب** ﴾[1].

٣ – على أنهم وإن كذبوه فى دعوى النبوة لم يجرؤ أحد منهم على وصفه بالكذب فى سواها ، فقد قال أبو جهل للنبى ﷺ إننا لا نكذبك وما أنت فينا بمكذب ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون** ﴾[2].

٤ – ولما سأل هرقل امبراطور الروم أبا سفيان فى ركب من قريش بعد صلح الحديبية : « هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال ، لا ، فقال : ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله »[3] (الحديث بقوله فى البخارى)

٥ – جاء فى وصف على بن أبى طالب لرسول الله ﷺ أنه كان أصدق الناس لهجة[4]

الرسـالة

لقد صدق رسول الله ﷺ فى تبليغه عن ربه ، لكن قريشا التى وثقت واطمأنت إلى صدقه فى صلاتها به ومخالطتها له ، ناقضت نفسها ، فكذبت نبوته ، وأنكرت رسالته .

١ – فلو أن الذين كذبوه احتكموا إلى ثقتهم به وتجاربهم معه لعلموا أن الذى يصدقهم الأحاديث والأقوال لا يستطيع أن يكذب على الله .

ولو أنهم كشفوا عن قلوبهم ماران عليها من حجب العناد والضلال والحرص على منافع الدنيا وشهواتها لأيقنوا أن النبى يدعوهم إلى الحق والخير والارتفاع عن وهاد الوثنية والشرك إلى أوج التوحيد الخالص الذى تقتضيه الفطرة الصحيحة والعقل السليم .

لكنهم عموا عن هذا كله ، وعموا عن البينات الدالة على صدق الرسول ولم يتبصروا فى قوله تعالى : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾[5].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٤ .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٣ .

(٣) صحيح البخارى — كتاب بدء الوحى ٧/١ .

(٤) سنن الترمذى — كتاب المناقب ٥٩٩/٥ رقم ٣٦٣٨ .

(٥) سورة الحاقة الآيات : من ٤٤ حتى ٤٧ .

لأنه لو كان مدعياً للنبوة ما نفى عن نفسه الكذب بهذا التصوير المرعب الذى لا يتفق ومكانة المدعى الكاذب .

٢ – على أن النبى – وهم يعلمون أنه لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يجلس إلى معلم يتلقى عنه – قد جاءهم بكتاب من عند الله ، فيه تشريع جديد ، وفيه أخبار صحيحة عن الماضين ، وفيه أخبار بأمور ستقع وقد وقعت فعلاً ، فمن أين جاء النبى بهذا الكتاب ، وهو كما قال تعالى : ﴿ **وماكنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون** ﴾(١) .

من أين جاء النبى بالقرآن وقد عاش فيهم أربعين سنة لم يحدثهم فيها بنبوة ولا رسالة ﴿ **قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به** ۞ **فقد لبثت فيكم عمراً من قبله** ۞ **أفلا تعقلون** ﴾(٢)

٣ – وقد كانت تقع أحداث جسام يتطلع فيها النبى ﷺ إلى الهداية ، ويتشوف إلى الحكم الفاصل ، فينتظر وهو ملهوف حتى ينزل عليه الوحى بالقضاء الحاسم .

ويكفى أن أشير هنا إلى قصة الإفك التي نسجها بعض المنافقين حول زوجته السيدة عائشة ، وأبطأ الوحى ، والمسلمون فى قلق ، والنبى فى قلق ، والنبى ﷺ نفسه حائر لا يقول إلا أنه لا يعلم عنها إلا الخير ، ثم بعد شهر كامل نزل الوحى بتبرئتها مما افتروا عليها .

فلو أن النبى كاذب – كما يدعون – لسارع منذ اليوم الأول إلى تبرئة زوجته وحماية عرضه ، ولكان من السهل عليه أن ينسب إلى السماء ما يدعيه ، ليكف المتخرصون عن أراجيفهم ، وليطمئن المسلمون إلى براءة زوجة نبيهم وهى أم من أمهاتهم .

وليس يصح أن ينسى أحد أن هذا المقام لا يحتمل الصبر والانتظار : لأن الفرية مصوبة إلى أعز ما يتصل بالإنسان الحر وهو العرض ، ولأن هذا العرض موصول بالإسلام صلة ترفعه أو تضعه ، فهو عرض النبى نفسه ﷺ وعرض صديقه أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – وعرض إحدى أمهات المسلمين .

ولا يصح أن يتغافل أحد فى هذا المأزق عن أن النبى ﷺ عربى من أشرف قبيلة فى العرب ، والعرب أصحاب غيرة على أعراضهم ، وخيانة لنسائهم لم يكن ما بين الأمم نظير ومثال .

٤ – على أن الوحى كان ينزل أحياناً بمالم يكن النبى يتوقعه ، فيأذن له في شيءلايقبل عليه ، كتحريمه بعض الطعام على نفسه . أو يعاتبه فى عمل عمله ، كإذنه لبعض المسلمين الذين استأذنوه فى أن يتخلفوا من غزوة تبوك ، معتذرين بالسفر البعيد أو بالمرض ، وهم في الحقيقة كاذبون ، قال تعالى : ﴿ **لو كان عرضاً قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة** ۞ **وسيحلفون بالله لو**

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٤٨ .

(٢) سورة يونس الآية : ١٦ .

استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون * عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾[١].

٥ – والعجب العجيب أن الله تعالى تحداهم أن يأتوا ولو بسورة من مثل القرآن ، وكان التحدى صارخا ، وكانوا ذوى بلاغة وبيان ، فعجزوا ، عجزا فاضحاً ، ولكنهم حاولوا أن يستردوا خزيهم فاتهموا النبى بأنه شاعر ، وبأنه كاهن ، وبأنه ساحر ، ولم يسائلوا أنفسهم لم قدر هو على ما يعجزون عنه وفيهم الشعراء والكهان والسحرة ؟ أو لعلهم ساءلوا أنفسهم ولكن العناد أملى لهم فى الغي والضلال .

وشيء آخر بأنهم بأذواقهم ومقدرتهم على وزن الكلام ، وتمييز بعضه من بعض كانوا يجدون فرقاً كبيراً من القرآن وكلام النبى ﷺ ، فالقرآن الذى أعجزهم هو القمة العليا فى البلاغة ، ولكن كلام النبى على كثرة رسائله وخطبه وأحاديثه لم يصل إلى هذه القمة ، ولم يدع النبى نفسه ولم يدع أحد من المسلمين لكلامه أنه على درجة من درجات الإعجاز .

فأنى له أن يكذب عليهم فيفتعل كلاماً معجزاً ينسبه إلى الله ، وهو لا يستطيع أن يحاكى هذا الكلام ؟

٦ – ثم إن لنا أن نسأل عن السبب الذى كانوا يظنون أنه يدفع النبى إلى الكذب ؟ لقد احتمل فى دعوته أفدح المخاطر ، وأقسى الشدائد . وصبر على مالا يطاق ثلاثة وعشرين عاماً ، لم ينعم فيها براحة ولا أمن ولا اطمئنان ، ثم كان معه عشرات الألوف من أتباعه يتعرضون لفقد الأرواح والأموال وللقلق الدائم على الحياة ، وهو لم يجن من وراء دعوته ما يجنيه أصحاب الدعاوى من رغد وثراء وأبهة وسلطان .

فلو أنه كان كاذباً – كما يدعون – لآثر على دعواه الرضا بما عرضه عليه قومه من المال والملك حينما يئسوا من تراجعه عن الدعوة إلى الإسلام الذى يسفه عقولهم ويلغى أديانهم ، ويبطل كثيرا من عاداتهم ومعتقداتهم ، ويهدد مصالحهم الشخصية بالزوال .

ولو لم يكن صادقا لأقام نفسه ملكاً على الجزيرة العربية بعد أن دانت له ، وبعد أن وافته القبائل لتعلن إسلامها ، وتدين له بالولاء .

ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وقد كان ميسوراً عليه . بل آثر أن يقضى حياته زاهدا مبغضا لمظاهر الجاه والسلطان .

٧ – على أن زعماء قريش الذين تولوا معارضة الدعوة حينا من الدهر لم يلبثوا أن آمنوا بها ، وأشربتها نفوسهم ، وكافحوا دونها بدمائهم وأموالهم ، لأنهم أيقنوا أن محمداً الذى لم يكذب عليهم قط لم يكذب على الله قط ، وليس بصاحب بهتان ولا طالب مال أو جاه .

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ٤٢ ، ٤٣ .

حضه ﷺ على الصدق

للرسول ﷺ كثير من الأحاديث فى الأمر بالصدق وتزيينه ، وفى النهى عن الكذب وتقبيحه ، منها قوله :

١ – « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقاً ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(١).

٢ – « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أوتمن خان »(٢).

٣ – « البيعان بالخيار مالم يتفرقا ، فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما محقت بركة بيعهما » (متفق عليه)(٣).

٤ – « تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهلكة ، فإن فيه النجاة ، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهلكة » (كنز العمال)(٤).

٥ – « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وجلس وكان متكئا فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت »(٥).

« كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هولك به مصدق ، وأنت له به كاذب »(٦).

خلق الأمانة

أمانة الرسول ﷺ كفضائله ، كلها شاملة كاملة متعددة المظاهر :

١ – وليس من شك فى أن مظهرها العظيم هو نهوضه بتبليغ الرسالة التى ائتمنه الله عليها ، وكلفه أن يقوم بها ، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ ، وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام ، واحتمل فى سبيلها أشق ما يحتمله بشر .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٥ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٣٨ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩٨٠ .

(٤) كنز العمال ٣٤٤/٣ رقم ٦٨٥٦

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٤ .

(٦) مسند أحمد ١٨٣/٤ .

٢ — وقد عرف العرب أمانة الرسول قبل بعثته ، فكانوا يسمونه الأمين ، ولهذا رحبوا بتحكيمه فيما كان يهم من نزاع ، وارتضوا ما قضى به فى شأن وضع الحجر الأسود ... (تاريخ الطبرى)

٣ — كان رسول الله ﷺ « إذا أصاب غنيمة أمر بلالاً فنادى ثلاثاً فى الناس فيجيئون بغنائمهم ، فيقسمها ويخمسها ، فجاءه رجل بعد ذلك بزمام من شعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبنا من الغنيمة ، فقال : أسمعت بلالا ينادى ثلاثاً ؟ قال : نعم ، قال فما منعك أن تأتينى به ؟ فاعتذر إليه ، فقال النبى ﷺ لن أقبله منك حتى تكون أنت الذى توافينى به يوم القيامة »[(١)]

٤ — استعمل رسول الله ﷺ عاملاً — ابن اللتيبة — على الصدقة ، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال : يا رسول الله هذا لكم ، وهذا أهدى إلىّ ، فقال له : أفلا قعدت فى بيت أبيك وأمك ، فنظرت أيهدي إليك أم لا .

ثم قام عشية بعد الصلاة فقال : أما بعد ، فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول : هذا من عملكم ، وهذا أهدى إلىّ ؟ أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه ، فنظر هل يهدى له أم لا ؟

فوالذى نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، إن كان بعيراً جاء له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار ، وإن كانت شاة جاء بها تيعر[(٢)] (خ)

٥ — قال جابر بن عبد الله : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد ضحى ، فقال : صل ركعتين ، وكان لى عليه دين فقضانى وزادنى[(٣)].

٦ — أتى رجل إلى النبى ﷺ يتقضاه ، فأغلظ ، فهمّ به أصحابه وأرادوا أن يؤذوه ، فقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالاً ، ثم قال : أعطوه سناً مثل سنه (أى جملاً سنه مثل الذى له) قالوا : يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سنه ، فقال : اعطوه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء[(٤)].

حضه ﷺ على الأمانة

قال عليه الصلاة والسلام :

١ — « أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك »[(٥)] (أخرجه أبو داود والترمذى) .

(١) سنن أبى داود — كتاب الجهاد رقم الحديث ٢٧١٢ .
(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٢٠٢ .
(٣) مسند أحمد ٣١٩/٣ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٠٣٢ .
(٥) سنن أبى داود — كتاب البيوع ٨٠٥/٣ رقم ٣٥٣٥ والترمذى فى البيوع حديث رقم ١٢٦٤

٢ – « من انتهب فليس منا »[١].

٣ – « من ظلم قيد شبر من الأرض طُوقه من سبع أرضين »[٢].

٤ – « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها وهى مسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ، وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أمه وهو مسؤول عن رعيته ، فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته »[٣].

٥ – ومن أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله »[٧](خ)

٦ – « أربع من كن فيه كان منافقاً خالصا ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا أؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »[٥].

خلـق الصـبر

قضى رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى التوحيد الخالص عبدة الأوثان واليهود والنصارى ، دعوة قوية لا يخفت صوتها ولا ينقطع صداها ، وهم يجدون فى هذه الدعوة تسفيهاً لعقولهم ولآلهتهم ، وتقويضا لسلطانهم ونفوذهم ونظمهم ، فيحشدون قواهم لوأدها أو لتعويق انتشارها ، فلا يزداد الرسول إلا حماسة لدعوته وإصرارا عليها ، وكلما أمعنوا فى إيذائهم له تعالى على الأذى ، فاحتمله فى ثبات وجلد وصبر ، ثم أذن الله له فى الجهاد فجاهد حتى كتب الله لدينه النصر ، فصار أعداء الأمس أصدقاء اليوم ، وأقبل المشركون على دين الله أفواجا يحملون شعاره ، ويرضعون مناره ، ويفدونه بأغلى ما يُفتدى به عزيز .

١ – لقد صبر الرسول ﷺ على جراح الألسنة ، وإنها لأليمة فى مجتمع يحرص على الثناء وحسن الأحدوثة أيما حرص ، وينفر من المذمة والهجاء أيما نفور ، لأن الألسنة تقوم فيه مقام الصحف والإذاعة ووسائل الإعلام فى المجتمع المعاصر ، حتى كان بعض السَّراة يغدق على الشعراء استدراراً لمدائحهم واتقاء لهجائهم .

وكان رسول الله ﷺ فى مطلع الدعوة أشد ما يكون شوقاً إلى أن يسمعوا قومه ، ليرفعهم من

(١) سنن الترمذى ـــ كتاب السير ١٥٤/٤ رقم ١٦٠١ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٠٣٩ .

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٩٩ .

(٤) صحيح البخارى ـــ كتاب الاستقراض ١٤٤/٣ .

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٣٧ .

الضلالة إلى الهدى ، وكان موسوماً بينهم بالعقل والحكمة والصدق والأمانة والعفة ، لم يسمعوا منه كذبة قط ، ولم يتناقلوا عنه نقيصة قط .

ولكنهم عاندوا الحق ، واستكبروا أن يتخلوا عما ألفوا عليه آباءهم ، فجرتهم الخصومة الحمقاء إلى أن يعمدوا إلى الافتراء ، فإذا هم يتهمون الرسول ﷺ بأنه حالم يهذى بما تراءى له فى المنام ، وإذا هم يصوبون إليه تهمة باطلة يعلمون أنه منها براء ، فينسبون إليه الكذب والادعاء . وإذا هم يلصقون به ما تعارفوا عليه فى شعرائهم من تخيل ومبالغة ومهارة فى التأثير والاستهواء ثم يتمادون فى السفه فيتهمونه بالجنون وهو سيد العقلاء .

٢ – وكثيراً ما آذوه بأفعال قبيحة مصدرها الحنق والطيش والسفه والاستهانة يريدون أن يصدوه عن سبيل الله ، ويريدون أن يوئسوه من نجاح دعوته ، وأن يفضوا أتباعه من حوله ، فكان يتلقى قبائحهم بالصبر الذى يشق طريقه إلى النصر ، وبالجلد الذى يغلب بحكمته جهلهم ، ويفوت عليهم أغراضهم ، إذ كان الصبر العظيم دليلاً على أن الرسول صادق مبلغ عن ربه وإلا ما احتمل هذا العدوان ، وهو لا يطلب ملكاً ، ولا يبتغى جاهاً ، ولا يتطلع إلى مال ، فجعل الناس يقبلون على الإسلام فرادى وجماعات وجعلوا يتحملون أذى المشركين فى شجاعة وثبات وهم يودون أن يفتدوا رسول الله ﷺ مما يحتمل من عدوان وإعنات .

وهذه بعض صور من صبر الرسول على الإيذاء .

(أ) قال ابن مسعود : كنا مع رسول الله ﷺ فى المسجد وهو يصلى ، فقال : أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان ، فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟ فقام عقبة بن أبى معيط ، وجاء بذلك الفرث ، فألقاه على النبى وهو ساجد ولم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على حماية النبى لأنهم كانوا حينئذ ضعافاً ، ولم يزل الرسول ﷺ ساجداً حتى جاءت فاطمة ــ رضى الله عنها ــ بنت النبى ﷺ فرمت القذر بعيدا عنه(١).

(ب) انتهزت قريش وفاة السيدة خديجة ــ وكانت للرسول مصدر حنان وخير معين ــ ووفاة عمه أبى طالب ــ وكان له عضداً ونصيراً ــ وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، فأمعنت فى الأذى وطمعت فيما لم تكن تطمع فيه وأبو طالب حى فاعترضه سفيه من قريش ، فحثا على رأسه تراباً ، فدخل الرسول ﷺ على بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل التراب عنه وتبكى ، وهو يقول لها ، لا تبك يا بنيه فإن الله مانع أباك »(٢)

(جـ) لما مات أبو طالب واشتدت قريش فى إيذاء النبى خرج إلى الطائف ، فعمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادتها ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، واستنصرهم على من خالفوه من قومه ، فقال له أحدهم : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟ وقال الآخر : أنزع أستار الكعبة وأرميها إن

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٧٢ .
(٢) سيرة هشام ٥٨/٢ .

كان الله قد أرسلك ، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أكلمك فقام الرسول من عندهم يائساً من ثقيف ، وقال لهم : أما وقد فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى ، لأنه خشى أن يعلم قومه بما حدث له فيزدادو جرأة عليه ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى بستان فاستظل بكرمة فيه

فلما اطمأن قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ،ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك أو يحل سخطك ، لك العتبى ولا حول ولا قوة إلا بك[1].

٣ — ثم هاجر النبى من مكة إلى المدينة ، فتعقبوه ، وتتابعت محاربتهم له ، وكثيراً ما جمعوا جموعهم من قبائل شتى ، للقضاء على المجتمع المثالى بالمدينة .

ولقد غدر يهود المدينة بعهدهم مع رسول الله ، فانضموا إلى المشركين تارة ، وحرضوهم على حربه تارة .

وكانت الحروب بين المسلمين وأعدائهم متصلة متلاحقة ، فلا يكاد يتخففون من سلاحهم حتى ينذرهم الأعداء بحرب ، فيسارع المسلمون إلى حمل السلاح ولقد انتصر النبى ﷺ فى بدر والخندق وغيرهما ولكنه فقد كثيراً من خلصائه وأحبابه فصبر

٤ — وقد كان الصبر شيمته وهو يفقد فلذات كبده وأغلى ثمره وبضعاً من نفسه ، فإنه فقد قبل البعثة طفليه القاسم وعبد الله — الملقب بالطاهر والطيب — ثم فقد بعد البعثة كريماته زينب ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن .

ثم رزقه الله بإبراهيم ، بعد شوق طويل إلى الولد ، ففرح به أعظم الفرح ، ووجد فيه عوضا عمن فقد ، وأمَّل أن يبقيه الله ، ليسعد به فى شيخوخته ، وليكون له عقبا وذكرى ، ولكن إبراهيم لم يبلغ ستة عشر شهراً أو ثمانية عشر حتى مرض . فلما كان فى الاحتضار أخبر النبى ﷺ فاعتمد على عبد الرحمن بن عوف لشدة ألمه ، ومشى حتى رأى إبراهيم فى حجر أمه ، وهو يصعد آخر أنفاسه ، فوضعه فى حجره والحزن يعتصر قلبه العظيم ، وقال : إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئا ، ثم صمت وبكى .

فلما أيقن أن إبراهيم قد ودع الحياة سال الدمع من عينيه وهو يقول : يا إبراهيم لولا أنه أمر حق ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك أشد من هذا .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى ٣٥/٦ .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال يا بن عوف ، إنها رحمة ، ثم أتبعها بأخرى ، فقال النبي ﷺ : العين تدمع والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[(١)].

حضه على الصبر ﷺ

لقد علم النبي ﷺ المسلمين الصبر عملاً ، وعلمهم الصبر إرشاداً وقولاً فحضهم على الصبر ، وحببه إليهم ، ونفرهم من الجزع ، وبغضه لهم وله في هذا أحاديث كثيرة منها :

١ - « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أؤجرني في مصيبتي ، وأعقبني خيراً منها ، إلا فعل الله به ذلك »[(٢)].

٢ - « ما من مسلم يصيبه أذى إلا حاتَّ عنه خطاياه كما يحات ورق الشجر[(٣)].

٣ - « أتى بعض المسلمين رسول الله وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة ، فشكوا إليه فقالوا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمّراً الوجه ثم قال : إن من قبلكم ليؤتى بالرجل فيحفر له في الأرض حفيرة[(٤)] ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه »

٤ - « إن الله تعالى قال » إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه ــ يريد عينيه ــ فصبر عوضته منهما الجنة[(٥)].

٥ - « الصبر نصف الايمان »[(٦)].

٦ - « الصبر ضياء »

٧ - ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية »[(٧)]

٨ - « عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له »[(٨)].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٥٣٢ .

(٢) مسند أحمد ٣٠٩/٦ .

(٣) صحيح البخارى ــ كتاب الطب ١٤٩/٧ .

(٤) مسند أحمد ٣٩٥/٦ .

(٥) مسند أحمد ١٤٤/٣ .

(٦) المستدرك للحاكم ٤٤٦/٢ .

(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٦٥ .

(٨) صحيح مسلم ٢٢٩٥/٤ رقم ٢٩٩٩ ومسند أحمد ٣٣٢/٤ .

خُلــق الحِـــلم

كان الرسول ﷺ المثل الأعلى فى الحلم لأن الله تعالى أدبه فأحسن تأديبه ، وأمره بقوله : ﴿ **خذ العفو * وأمر بالعرف * وأعرض عن الجاهلين * وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله * إنه سميع عليم * إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا * فإذا هم مبصرون** ﴾[(١)] وبقوله : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾[(٢)].

ففى الآية الأولى أمر بالحلم وبالاستعاذة بالله عند الغضب والنزوع إلى الانتقام وفى الآية الثانية مساواة بين كظم الغيظ والبذل فى سبيل الله والعفو عن الناس . فإذا علمنا أن كظم الغيظ أقل شأنا من الحلم تبينت فضيلة الحلم ، لأن كظم الغيظ تحلم وتكلف للحلم ...

وكان عليه الصلاة والسلام القدوة فى سعة الصدر وسماحة النفس التى تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها أكثر الناس ، وفيهم الأقوياء والضعفاء ، والحمقى والعقلاء ، والأقارب والبعداء ، وفيهم الذين يسألون أو يجادلون ليتبينوا ، والذين لا يريدون من الجدال الا اللجاج والعناد ، والحلم فى كل حال من هذه الحالات هو القوة النفسية التى لا تغنى قوة غناءها .

كان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التى جذبت إليه النفوس وألّفت حوله القلوب ، وصدق الله العظيم فى قوله : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾[(٣)].

– جاءه أعرابى يطلب شيئاً ، فأعطاه ، ثم قال له : هل أحسنت إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كفوا .

ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئا ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال له النبى : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى شىء من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال الأعرابى : نعم .

فلما كان الغداة أو العشى جاء ، فقال النبى : إن هذا الأعرابى قال ما قال **فزدناه** ، فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟

---

(١) سورة الأعراف الآيات : من ١٩٩ حتى ٢٠١ .

(٢) سورة آل عمران الآية : ١٣٤ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٥٩ .

قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال الرسول : إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها من بين يديها ، فأخذ لها من قمام الأرض ، فردها هوناً هوناً حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها ، واستوى عليها[1].

أرأيت إلى رسول الله ﷺ ـــ كيف يحلم على من أعطاه فجحد عطاءه ؟ أرأيت إليه كيف يعطيه ثانية فيسمع رضاه ودعاءه ؟

طلب منه أصحابه فى موقعة أحد أن يدعو على المشركين الذين شجوا وجهه ، وكسروا رباعيته حتى سال الدم على وجهه الشريف ، فقال : « إنى لم أبعث لعانا ، ولكنى بعثت داعياً ورحمة ، اللهم أغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . (اللؤلؤ والمرجان)[2].

حدث أنس قال : كان رسول الله يمشى يوماً وأنا معه ، فأدركه أعرابى فجذبه جذباً شديداً ، وكان على النبى برد نجرانى غليظ الحاشية فنظرت إلى عنق رسول الله ﷺ قد أثرت فيه حاشية البردة من شدة جذبه .

وقال الأعرابى : يا محمد ، احمل لى على بعيرىَّ هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لى من مالك ولا من مال أبيك .

فسكت النبى ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويقاد منك يا أعرابى ما فعلت بى ؟

قال الأعرابى . لا قال الرسول : ولم ؟ قال الأعرابى : لأنك لاتكافىء السيئة بالسيئة ، فضحك رسول الله ﷺ ، ثم أمر أن يحمل للأعرابى على بعير شعير ، وعلى الآخر تمر .

غضب الحليم

لكن من الأحداث مالا يسعه الصدر الرحيب ، ولا يطيقه الحليم ، فلابد من غضب غير أن هذا الغضب هو اللائق بالعظيم .

لقد كان الرسول ﷺ صاحب رسالة ، ومبلغ دين ، وحامى حقيقة ، فمن حقه أن يحلم على ما يصيبه هو فى سبيل دعوته ، ولكنه لا يستطيع أن يحلم على ما يصيب الدعوة نفسها قال تعالى : ﴿ **يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير** ﴾[3].

(١) كشف الأستار عن زوائد البزار ١٥٩/٣ رقم ٢٤٧٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١١٧٠ .

(٣) سورة التوبة الآية : ٧٣ .

هنا كان رسول الله ﷺ يغضب ، ولم يكن له بد من أن يغضب لأن غضبه لم يكن للدنيا ، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق ، وكما قالت السيدة عائشة ، ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها[١] يكن غضب الرسول ﷺ لائق برسالته وبعظمته ، فهو غضب لا يتجاوز حد الاعتدال بحال من الأحوال .

حضه على الحلم

كانت أحاديث رسول الله ﷺ التى تحض على الحلم مظهراً قولياً من حلمه العملى . مثال ﷺ :

١ – « ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله »[٢].

« ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له الولد ، ويجعلون له أنداداً ، وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم »[٣](خ).

٣ – « قال رجل لرسول الله يا رسول الله مرنى بعمل وأقلل : قال : لا تغضب ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب »[٤](خ).

٤ – قال لأصحابه : « ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[٥].

٥ – « من كظم غيظاً وهو يقدر على انفاذه ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً »[٦] (الجامع الصغير) .

خلق الرحمة

تعددت مظاهر رحمته ﷺ وتنوعت ، فوسعت المسلمين ، وغير المسلمين ، واتسعت للأصدقاء والأعداء ، وشملت الاحرار والأرقاء ، وامتدت إلى الكبار وإلى الصغار ، واستوعبت الأناسى والحيوان .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٥٠٢ .
(٢) مسند أحمد ١٢٨/٢ .
(٣) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٣١/٧ .
(٤) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٣٥/٧ .
(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٦ .
(٦) الجامع الصغير للسيوطى رقم ٨٩٩٧ .

قدم عليه رجل يطلب البيعة على الهجرة ، وقال ما جئتك حتى أبكيت والدىَّ فقال ارجع إليهما فاضحكهما كما أبكيتهما[١].

جاء آخر إليه ليستشيره فى الجهاد ، فقال : ألك والده ؟ قال : نعم قال : فالزمها ، فإن الجنة عند رجليها[٢].

شكا إليه رجل أنه يتأخر عند صلاة الصبح مع الجماعة ، لأن فلاناً يطيل بالناس فغضب رسول الله ﷺ وقال إن منكم منفرين فأيكم صلى بالناس فليتجوز — فليخفف — فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة[٣].

وقال ﷺ إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز — أخفف — فى صلاتى ، كراهية أن أشق على أمه[٤].

ولما فتح مكة ﷺ قال : يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[٥].

وكان ﷺ يداعب الأطفال ، ويجلسهم فى حجره ، وكان يصُفُّ عبدالله وعبيدالله وغيرهما من أولاد عمه العباس ، ويقول : من سبق إلىَّ فله كذا ، فيستبقون إليه ، فيقعدون على صدره ، فيقبلهم ، ويلتزمهم[٦].

أبصره الأقرع بن حابس يقبل الحسن ، فقال إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ، فقال رسول الله ﷺ أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ، من لايَرحم لا يُرحم[٧].

أكل يوماً رطباً فى يمينه ، فحفظ النوى فى يساره ، فمرت شاة ، فأشار إليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسرى ، وهو يأكل بيمينه ، حتى فرغ وانصرفت الشاة .

رأى حماراً قد وسِم فى وجهه ، فأنكر ذلك ، ونهى عن وسم الحيوان فى وجهه ، وعن ضربه على وجهه[٨] (تيسير الوصول) .

سافر مع بعض أصحابه ، فرأوا حُمّرة معها فرخان لها ، فأخذوهما فجاءت تفرش ، فلما رآها رسول الله قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا إليها ولدها (والحمرة نوع من الطير كالعصفور)[٩].

(١) سنن النسائى — كتاب البيعة ١٤٣/٧ .
(٢) سنن النسائى — كتاب الجهاد ١١/٦ .
(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٦٧ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٧١ .
(٥) سيرة ابن هشام — فتح مك — ٥٥/٤ .
(٦) مسند أحمد ٢١٤/١ .
(٧) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٩٧ .
(٨) صحيح مسلم — كتاب اللباس والزينة حديث رقم ٢١١٧ وسنن أبى داود — كتاب الجهاد حديث رقم ٢٥٦٤ .
(٩) سنن أبى داود — كتاب الجهاد ١٢٥/٣ رقم ٢٦٧٥ .

حضه على الرحمة

كثيراً ما أمر رسول الله ﷺ بالرحمة ، وكثيراً ما نهى عن القسوة ، وهو فى أمره وفى نهيه يضرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون .

قال ﷺ :

١ – من لا يرحم لا يرحم[١] (خ).

٢ – من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا[٢].

٣ – « إن الله يحب الرفق فى الأمر كله » (خ)[٣]

٤ – من أحب أن ينسأ له فى أثره ، ويوسع عليه فى رزقه فليصل رحمه[٤]

٥ – « إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها ... »[٥].

تجلى من الوقفات القصار أمام أخلاق الرسول ﷺ أنه برسالته الخالدة ، وبأدبه الإلهى ، وبأخلاقه القرآنية الإنسان الكامل والمثل الأعلى ، ومالك الفضائل المتآزره فى أعلى صورها ، فى سلمه وحربه ، وفى بيته وبين صحبه ، وفى رضاه وغضبه ، وفى سره وجهره ، وفى وحدته واجتماعه ، ومع أعدائه وأتباعه ، ومع الأقوياء والضعفاء ، ومع الأحرار والأرقاء ، ومع الرجال والنساء وفى كل شأن من شؤونه جل أو صغر .

ولهذا أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بما لم يثن به على نبى من أنبيائه ، فقال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾[٦]

---

(١) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٩/٨ .

(٢) سنن أبى داود ٢٣٢/٥ رقم ٤٩٤٣ .

(٣) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ١٤/٧ .

(٤) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٦/٧ .

(٥) صحيح البخارى ــ كتاب الأدب ٧/٨ .

(٦) سورة القلم الآية : ٤ .

قال تعالى :

فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾
مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

معانى المفردات

﴿ **ودوا لو تدهن** ﴾ : أحبوا لو تلاينهم وتصانعهم . ﴿ **فيدهنون** ﴾ : فهم يلاينونك ويصانعونك . ﴿ **حلاف** ﴾ : كثير الحلف فى الحق والباطل . ﴿ **مهين** ﴾ : حقير فى الرأى والتمييز . ﴿ **هماز** ﴾ عيّاب أو مغتاب للناس . ﴿ **مشاء بنميم** ﴾ : بالسعاية والإفساد بين الناس . ﴿ **عتل** ﴾ : فاحش لئيم ، أو غليظ جاف . ﴿ **زنيم** ﴾ : دعيٌّ ملصق بقومه أو الشرير . ﴿ **أساطير الأولين** ﴾ : أباطيلهم المسطرة فى كتبهم . ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ : سنلحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الأنف .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه مقالة المشركين فى الرسول — أردفه بما يقوى قلبه ويدعو إلى التشديد مع قومه ، مع قلة العدد وكثرة الكفار فنهاه عن طاعتهم عامة ، ثم أعاد النهى عن طاعة المكذبين الذين اتصفوا بالأخلاق الذميمة التى ذكرت فى هذه الآيات خاصة ، دلالة على قبح سيرتهم ، وضعة نفوسهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **فلا تطع المكذبين * ودوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ . وَدُّوا لَوْ تُدهنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ .

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك القرآن العظيم ، والشرع المستقيم ، والخلق العظيم ﴿ فلا تطع المكذبين . ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ قال ابن عباس : ودوا لو ترخص لهم فيرخصون لك . وقال مجاهد : المعنى ودوا لو ركنت إليهم وتركت الحق فيما لئونك . وقال الحسن : ودوا لو ترفض بعض أمرك فيرفضون بعض أمرهم . قال القرطبى كل هذه الأقوال صحيحة : - أن شاء الله تعالى - على مقتض اللغة والمعنى ، فإن الأدهان اللين والمصانعة . وقيل : مجاملة العدو مما يلته ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾(١) . وكقوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ . هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ . عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ . أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ . إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴾ .

أى : ولا تطع المكثار من الحلف بالحق والباطل ، والكاذب يتقى بأيمانه الكاذبة التى يجترىء بها على الله - ضـ ـه ومهانته أمام الحق ، وفيه دليل على عدم استشعاره الخوف من الله .

والكذب أس كل شر ، ومصدر كل معصية ، وكفى مزجرة لمن اعتاد الحلف من جعله المولى فاتحة المثالب ، وأس المعايب .

والمهين : الضعيف القلب ، قال مجاهد ، وقال ابن عباس : الكذاب . وقيل معناه : الحقير عند الله تعالى . وقال الرُّمانى : المهين الوضيع لإكثاره من القبيح وهو فعيل من المهانة بمعنى القلة . وهى هنا القلة فى الرأى والتمييز .

وقوله تعالى ﴿ هَمَّازٍ ﴾ قال ابن زيد : الهماز الذى يهمز الناس بيده ويضربهم . واللماز باللسان قال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ وقال ابن عباس وقتادة : يعنى الاغتياب .

وقوله تعالى : ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ يعنى : الذى يمشى بين الناس ويحرش بينهم ، وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهى الحالقة للدين وقد ثبت فى الصحيح عن حذيفة أنه بلغه أن رجلاً ينم الحديث . فقال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يدخل الجنة نمام »(٤) . (رواه مسلم) .

وأخرج البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال :

---

(١) سورة هود الآية : ١١٣

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٣

(٣) سورة النساء الآية : ٨٩

(٤) انظر صحيح مسلم « كتاب الايمان » باب « بيان غلظ تحريم النميمة » فقد ورد الحديث بلفظه رقم ١٠٥/١٦٨ من رواية لحذيفة .

« إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة »(١) .

وقال الامام أحمد بسنده عن أسماء بنت يزيد بن السكن : أن الرسول ﷺ قال : « ألا أخبركم بخياركم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى - عز وجل » ثم قال : « ألا أخبركم بشراركم المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة ، الباغون للبرآء العنت »(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ أى : يمنع ما عليه وما لديه من الخير . ﴿ معتد ﴾ فى تناول ما أحل الله له يتجاوز فيها الحد المشروع ، ﴿ أثيم ﴾ أى : ذى إثم ، أى : يتناول المحرمات .

وقوله تعالى : ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ قال القرطبى رحمه الله : العتل الجافى الشديد فى كفره ، وقال الفراء : هو الشديد الخصومة بالباطل ، وقيل : إنه الذى يَعتل الناس فيجرهّم إلى حبس أو عذاب . مأخوذ من العَتل وهو الجرّ ، ومنه قوله تعالى : ﴿خذوه فاعتلوه ﴾(٣) . والعتل : الغليظ الجافى وقال معمر : هو الفاحش اللئيم .

وفى صحيح مسلم عن حارثة بن وهب أنه سمع النبى - ﷺ - قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ قالوا : بلى ، قال : كل ضعيف متضعَّف لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ قالوا : بلى ، قال : كل عتل جواظ مستكبر » والجواظ : قيل هو الجموع المنوع . وقيل : الكثير اللحم المختال فى مشيته .

وأما (الزنيم) فقال البخارى بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - (عتل بعد ذلك زنيم) قال : « رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاه »(٤) ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة ذات الزنمة من بين أخواتها .

وإنما الزنيم فى لغة العرب هو الدعى من القوم قاله ابن جرير وغير واحد من الأئمة .

وقال العوفى عن ابن عباس : الزنيم الدعى ، ويقال : الزنيم رجل كانت به زنمة يعرف بها ، ويقال : هو الأخنس بن شريق الثقفى ، قال محمد بن اسحاق : نزلت فى الأخنس بن شريق ، لأنه حليف ملحق فى بنى زهرة ، فلذلك سمى زنيماً . وقال ابن عباس : فى هذه الآية نُعت ، فلم يعرف حتى قتل فعرف ، وكان له زنمة فى عنقه معلقة يعرف بها .

وقوله تعالى : ﴿ أن كان ذا مال وبنين . إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ يقول تعالى : هذا مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل - وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ

---

(١) انظر صحيح البخارى : جـ٢ ص ١٢٤ باب عذاب القبر من الغيبة والبول فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس مع تقديم وتأخير وزيادة .

(٢) انظر مسند الامام أحمد جـ٦ ص ٤٥٩ فقد ورد الحديث من رواية لأسماء بنت يزيد بن السكن .

(٣) سورة الدخان من الآية : ٤٧

(٤) انظر صحيح البخارى جـ٦ ص١٩٨ تفسير (ن والقلم) فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

مأخوذ من أساطير الأولين كقوله تعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه سقر . وما أدراك ما سقر . لا تبقى ولا تذر . لواحة للبشر . عليها تسعة عشر ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ قال ابن عباس : معنى (سنسمه) سنخطمه بالسيف قال : وقد خطم الذى نزلت فيه يوم بدر بالسيف : فلم يزل مخطوما إلى أن مات .

وقال أبو العالية ومجاهد : (سنسمه على الخرطوم) أى : على أنفه ، ونسود وجهه فى الآخرة فيعرف بسوء وجهه . والخرطوم الأنف من الإنسان .

قال القرطبى ـ رحمه الله ـ : وهذا كله نزل فى الوليد بن المغيرة ولانعلم أن الله ـ تعالى ـ بلغ من ذكر عيوب أحد ما بلغه منه ، فألحق به عاراً لا يفارقه فى الدنيا والآخرة ، كالسم على الخرطوم .

قصة أصحاب الجنة

قال تعالى :

إِنَّا بَلَوْنَـٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾
وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ
كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾
فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾
وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ
مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ
رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ
إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾
كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

---

(١) سورة المدثر الآيات : ١١ ـ ٣٠

معانى المفـردات

﴿ بلوناهم ﴾ امتحناهم بألوان من البلاء والآفات .

﴿ الجنة ﴾ : البستان .

﴿ ليصر منها ﴾ أى : ليقطعن ثمار نخليها .

﴿ مصبحين ﴾ : أى : وقت الصباح .

﴿ ولا يستثنون ﴾ : أى : يستثنون عما هموا به من منع المساكين .

﴿ فطاف عليها طائف من ربك ﴾ أى : طرقها طارق من عذاب ربك ، إذ أرسل عليها صاعقة من السماء أحرقتها .

﴿ كالصريم ﴾ أى : كالليل البهيم فى السواد بعد أن احترقت .

﴿ فتنادوا ﴾ أى : نادى بعضهم بعضا .

﴿ أن اغدوا ﴾ أى : اخرجوا غدوة مبكرين .

﴿ حرثكم ﴾ أى : بستانكم .

﴿ صارمين ﴾ أى : قاصدين الصرم وقطع الثمار .

﴿ يتخافتون ﴾ أى : يتشاورون فيما بينهم بطريق المخافتة والمناجاة حتى لا يسمعهم أحد .

﴿ على حرد ﴾ أى : على منع .

﴿ الضالون ﴾ أى : قد ضللنا طريق جنتنا وما هذه هى .

﴿ محرومون ﴾ أى : حرمنا خيرها بجنايتنا على أنفسنا .

﴿ أوسطهم ﴾ أى : أرجحهم رأياً .

﴿ تسبحون ﴾ أى : تذكرون الله وتشكرونه على ما أنعم به عليكم .

﴿ يتلاومون ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضا على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين .

﴿ طاغين ﴾ أى : متجاوزين حدود الله .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ فيما سلف أن ذا المال والبنين كفر وعصى وتمرد لما آتاه الله من النعم ـ أردف هذا ببيان أن ما أوتيه إنما كان ابتلاء وامتحاناً ليرى أيصرف ذلك فى طاعة الله وشكره ، أم يكفر بها ؟ كما أن أصحاب الجنة لما أتوا بهذا القدر اليسير من المعاصى دمر الله جنتهم ، فما بالك بمن حاد الله ورسوله ، وأصر على الكفر والمعصية .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ إنَّا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ .

قال العلامة ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى اليهم من الرحمة العظيمة ، وأعطاهمْ من النعمة الجسيمة ، وهو بعثة محمد - ﷺ - اليهم فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أى : أختبرناهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهى البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه ﴿ إذا أقسموا ليصر منها مصبحين ﴾ أى : حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلا ، لئلا يعلم بهم فقير ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ، ولا يتصدقوا منه بشىء ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله فى أيمانهم فقال تعالى : ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أى : أصابتها آفة سماوية ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ أى : كالليل الأسود وقال السدى : مثل الزرع إذا حصد أى هشيما يبساً . ﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أى : لما كان وقت الصبح نادى بعضهم بعضا ليذهبوا إلى الجذاذ أى : القطع . ﴿ أن أغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أى : تريدون الصرام . ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أى : يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم . ثم فسر الله - سبحانه - وتعالى عالم السر والنجوى ما كانوا يتخافتون به فقال تعالى : ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون . ألا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ أى : يقول بعضهم لبعض لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم . قال الله تعالى : ﴿ وغدوا على حرد قادرين ﴾ قال مجاهد : ﴿ وغدوا على حرد ﴾ أى : جد ، وقال عكرمة : على غيظ ، ﴿ قادرين ﴾ أى : عليها فيما يزعمون ويرمون . ﴿ فلما رأواها قالوا إنا لضالون ﴾ أى : فلما وصلوا اليها وأشرفوا عليها وهى الحالة التى قال الله - عز وجل - قد استحالت عن تلك النضارة والزهرة وكثرة الثمار إلى أن صارت سوداء مدلهمه لا ينتفع بشىء منها ، فاعتقدوا انهم قد أخطأوا الطريق ولهذا قالوا : ﴿ إنا الضالون ﴾ أى : قد سلكنا اليها غير الطريق ، فتهنا عنها ، ثم رجعوا عما كانوا فيه . وتيقنوا أنها هى فقالوا : ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أى : بل هى هذه ولكن نحن لاحظ لنا ولا نصيب ﴿ قال أوسطهم ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - أى أعد لهم وخيرهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ ؟ أى : هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ، ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع وندموا واعترفوا حيث لا ينجح ولهذا قالوا : ﴿ إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أى : يلوم بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاذ ، فما كان جواب بعضهم لبعض إلا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ أى : اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ قيل : رغبوا فى بذلها لهم فى الدنيا وقيل : احتسبوا ثوابها فى الدار الآخرة والله أعلم .

وقال ابن كثير : ثم قد ذكر بعض السلف أن هؤلاء قد كانوا من أهل اليمن ، قال سعيد بن جبير : كانوا من قرية يقال لها : ضروان على ستة أميال من صنعاء ، وقيل كانوا من أهل الحبشة ، وكان أبوهم قد خلف لهم هذه الجنة وكانوا من أهل الكتاب ، وقد كان أبوهم يسير فيها سيرة حسنة فكان ما يستغل منها يرد فيها ما تحتاج إليه ويدخر لعياله قوت سنتهم ويتصدق بالفاضل ، فلما مات وورثه بنوه قالوا : كان أبونا أحمق إذ كان يصرف من هذه شيئا للفقراء ، ولو أنا منعناهم لتوفر ذلك علينا ، فلما عزموا على ذلك عوقبوا بنقيض قصدهم ، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية رأس المال ، والربح ، والصدقة ، فلم يبق لهم شىء .

قال الله ـ تعالى ـ ﴿ كذلك العذاب ﴾ أى : هكذا عذاب من خالف أمر الله ، وبخل بما آتاه الله وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير ، وذوى الحاجات وبدل نعمة الله كفراً ﴿ **ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ أى : هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم وعذاب الآخرة أشق وأبقى ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيهم وثابوا إلى رشدهم .

وفى هذا نعى عليهم بالغفلة ، وأنهم ليسوا من أرباب النُهى والمعرفة .

قصة حذوان شعراً (للشيخ الصاوى شعلان) :

الحرص قد يجعل الأحرار عبدانا
وقد يصوغ من الأموال أوثانا !
إذا رأيت قلوبا بالندى بخلت
فاصنع بها فى أثاث البيت جدرانا !
كم قصة فى كتاب الله ناطقة
يعيدها الناس فى دنياهم الآنا !
أصحاب جنة ضروان وقصتها
قد أنزل الله فيها الوحى قرآنا !
قد كان صاحبها فى الفضل ذا شيم
أندى من الروض أزهاراً وأفنانا !
فما بكى حوله الأيتام من سغب
ولا شكا عنده المضعوف حرمانا !
لا يكتفى بزكاة الزرع يبذلها
حتى يضيف إلى الاحسان إحسانا !
وأشرق الصبح فياض الندى عبقاً
يختال نوراً وأنداء وريحانا !!
وأقبل الشيخ يمشى فى مهابته
متوجاً بوقار الشيب جذلانا !!
يحدو خطاه إلى البستان راعشة
وما يزال شباب القلب ريانا !!
رأى عجائب صنع الله قد رسمت
ما يسحر اللُب أطيافاً وألوانا !!
والورد فى الحلل الخضراء تحسبه
زمرداً ضم ياقوتاً ومرجاناً !!

ترى الفواكه مما يشتهون بها
طلعاً وطلحاً وأعناباً ورماناً !!
والطير ترسل فى تسبيح خالقها
ما يعجز الفصحاء اللسن تبيانا !!
ما صور الله لا يرقى له بشر
سبحانه فى علاه ألف سبحانا !!
وكان للشيخ أبناء قد أزدهروا
وأورقوا فى ربيع العمر عتيانا !!
وحين شارف قرباً من بهاتيه
وإن يوماً وشيك البين قد حانا !!
أوصى بنيه بأن تبقى مكارمه
إرثا يقيم لهم فى المجد تبينا !!
لا تنبتوا الشح بعدى فى مزارعكم
لا تجعلوا جنتى بالحرث نيرانا !!
فما احتجزت عن الأهلين ثروتها
يوم الحصاد ولا أهملت جيرانا !!
لا يستر الخز فى بدء ولا حضر
من كان من حلية المعروف عريانا !!
النمل تبنى قراها فى تماسكها
والنحل تجنى رحيق الشهد أعوانا !!
والنهر يسقى العطاشى من مناهله
رياً ورزقاً ويبقى النهر ملآنا !!
وفارق الشيخ دنيا لا يدوم بها
غير الثناء لأهل الفضل عنوانا !!
فبدل الاخوة الأبناء سنته
وارتد إيمانهم بالعهد كفرانا !!
وأضمروا خطة نكراء غادرة
كانت عواقبها ويلاً وخذلانا !!
وأقسموا أن يهبوا مصبحين إلى
جمع الثمار ولا يألون كتمانا !!
كى لا يراعوا بمسكين يطالعهم
فى طمرة لاهث الأنفاس جوعانا !!

فأرسل الملك الجبار نقمته
جزاء ما أضمروا بغياً وعدوانا !!
ألقت بأشجارهم صرعى فما تركت
حتى لأغصانها الأوراق أكفانا !!
غدوا على حرثهم صبحاً فما وجدوا
فى الحقل نبتاً ولا فى الأرض بستانا !!
ضل الطريق بهم بل ضل مذهبهم
وصار مبصرهم فى النور حيرانا !!
وقال أوسطهم إنى نصحت لكم
فلم أجد بينكم للنصح آذانا !!
الله يعلم ما تخفى الصدور وما
يكون سراً يراه الله اعلانا !!
ماذا ظننتم بعلام الغيوب إذن
أكان جهلاً بكم أم كان نسيانا !!
خزائن الله ملأى لانفاد لها
سبحانه قال : « كن » فالأمر قد كانا !!
إن الألى حرموا المسكين قد رجعوا
أذلّ مسكنة منه وحرمانا !!
وقد مضى قدر لم يمحه ندم
مكر البخيل يحيل الربح خسرانا !!
إن رمت جنة رضوان فكن حذراً
ولا تكن واحداً من أهل ضروانا !!

الصراع بين النفس والمال

عندما نطالع آيات الله ، ونصافح كلماته فى كتابه ، ونتعبد بتلاوته ، نطالع دروساً ونفوساً . نعم : ما أجمل القرآن إذا عرض الدروس على النفوس ، واستخلص العواقب ، واستنتج العبر ، انه الكلام الوحيد الذى نلتمس فيه الحكمة البالغة ، والعبرة النافذة ، التى لا نجد لها تفسيراً أعظم من كلام رسول الله - ﷺ - فاستمع اليه - ﷺ - وهو يقول فى هذا المجال الذى نحن بصدده : « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس » وأمامنا فى هذا المجال ستة مواقف فى القرآن الكريم نتبين منها عبرة الحياة ، ونستخلص فيها نتائج الدنيا إذا اخترقت مجال اليدين إلى مجال القلب وتربعت فيه ، هنا تكون الهاوية وما أدراك ما هى نار حامية .

الدرس الأول

ما ذكره القرآن الكريم عن هذا الحبر الكبير الذى عرف فى بنى اسرائيل بعلمه الغزير ، والذى قضى أيامه ولياليه بجوار كليم الله موسى حتى جاء اليوم الذى أرسله فيه نبى الله موسى مبعوثاً ليبلغ أمر الله إلى أهل مدين ، وذهب اليهم بقلب نقى تقى ، ووعظهم واستمعوا اليه بآذانهم ولسان قلوبهم يقول : سمعنا وعصينا ، بدلا من أن يقولوا سمعنا وأطعنا ، وواصل الحبر مواعظه وإرشاداته وواصلوا هم خداعه وإغراءه بالمادة ، وعرض زينة الحياة الدنيا عليه ، حتى سألوه يوماً : كم يعطيك موسى لقاء ما تبذل من جهد فى تبليغ هذه الرسالة قال لهم : إنما أقصد الأجر من الله . قالوا : فإن أموالنا كثيرة ولن نبخل بها عنك فى سبيل ألا نسمع منك شيئا حتى لا تفسد علينا بيعنا وشراءنا ، وفكر العالم كثيراً وتردى فى صراع عنيف حتى وصل مجال انعدام الوزن عندما سأل نفسه : موسى أم المال ؟ الله أم الشيطان ؟ الدنيا أم الآخرة ؟ وأخيراً هداه هواه إلى اختيار المال والشيطان والدنيا ، فزلت قدمه بعد ثبوتها ، وأصبح فى الأرض حيران استهوته الشياطين فهوى بعد أن اتبع الهوى ، تمرغ فى طين الأرض بعد ما تربع على قبة الفلك إن هذا العالم هو « بلعام بن باعوراء » عالم بنى اسرائيل الذى قص الله علينا قصته فى سورة الأعراف حيث قال الله تعالى : **﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعنا بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث . ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون . ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾**[1] .

فتأمل معى ما احتوى هذا المشهد القرآنى من أسرار وعجائب ، إنه نبأ ولا يستعمل القرآن لفظ النبأ الا إذا كان المقام خطيراً ، والخبر عظيما جليلا ، فما بالك برجل آتاه الله آياته وآيات الله يكفيها شرفاً أنها نسبت إلى الله وأضيفت اليه ـ سبحانه ـ تذهب النفس كل مذهب فى تفسيرها وتفصيلها وبيانها ، فقد اشتملت على الحكم الالهية ، والمواعظ والارشادات والتوجيهات الربانية ، فماذا حدث هل تركها ؟ هل ابتعد عنها ؟ كلا . لو كان الأمر كذلك لجاز أن يعود اليها بعد زمان طال أو قصر ، لكن القرآن أعطى معنى يدل على أن العود بالنسبة اليه محال قال تعالى : ﴿ فانسلخ منها ﴾ فما معنى الانسلاخ ؟ إن السلخ فى الأصل كشط الجلد من اللحم وهو يعطينا أنه لا عودة ، فكما أن عودة الجلد إلى اللحم بعد سلخه أمر محال كذلك عودة هذا الذى أظلم قلبه بحب الدنيا ، عودته إلى آيات الله أمر محال ، لقد كانت الآيات بالنسبة اليه وقاية وعناية له من غضب الله ، كما أن الجلد وقاية وعناية باللحم فلما أنسلخ من الآيات أصبح عرضة لغضب الله . لقد كانت الآيات تزينه وتجمله ، فلما أنسلخ منها أصبح مشوهاً دميم المنظر قميئاً فماذا كانت النهاية ؟ كانت النهاية **﴿ فكان من الغاوين ﴾** .

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ١٧٥ - ١٧٧

لماذا لم يكن من المغويين انما كان من الغاوين لأنه أصبح أستاذاً فى الغواية دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ فأتبعه الشيطان ﴾ ولم يقل فتبع الشيطان أى : إنه أصبح بعد الضلال والانسلاخ من الآيات متبوعاً فصار الشيطان له تابعاً .

وهذا يذكرنا بقول القائل :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتقى

بى الحال حتى صار إبليس من جندى

ثم ماذا ؟ قال الله تعالى : ﴿ **ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه** ﴾ إنما عبر القرآن بلفظ أخلد لأنه يعطينا معنيين : الميل والاطمئنان إلى ما مال إليه فهو عندما أخلد إلى الأرض مال إليها مطمئناً بها وبدلاً من أن يقول القرآن أخلد إلى الدنيا قال : أخلد إلى الأرض وهذا هو قدر الدنيا وقدر من مال اليها ، هو فى الهاوية وفى الحضيض فما الدنيا إلا أرض تدمر من مال اليها مطمئناً بها قلبه إذا حلت أوحلت ، وإذا كست أوكست ، وإذا جلت أوجلت ، وإذا أينعت نعت ، وكم من ملك دفعت له علامات فلما علا مات نعم إنه اتبع هواه وما الهوى إلا نوازع النفس إلى مسالك الشر . ما شأن هؤلاء وما صفاتهم ، وما حالهم الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا هواهم ما حالهم فى الدنيا ؟ إنهم فى تعب دائم وعذاب نفس مستمر قال تعالى : ﴿ **فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث** ﴾ إن تشبيه حالهم بالكلب فى أخس حالاته ، لا فى أمانته وحراسته ، إنما فى تعبه وشقائه ، فهو دائما يلهث أى يخرج لسانه ، ويتنفس بصعوبة فى كل حالاته ، سواء زجرته وقسوت عليه ، أم ارحته وعطفت عليه ، كذلك هؤلاء الذين اتبعوا الهوى أخلدوا إلى الأرض إذا لم تعطهم الدنيا طلبوها ، وإذا اعطتهم طلبوا المزيد منها ، ولو كان لأحدهم واديان من مال لا تبغى ثالثا ، ولا يملأ جوفه الا التراب .

وهذا مثل ضربه الله لكل من كذب بآيات الله وأخلد إلى الأرض واتبع هواه وأمرنا الله أن نقصه على الناس ليتفكروا ويتذكروا ويعملوا ثم يعقب الله بعد ذلك قائلا : ﴿ **ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون** ﴾ .

أى : أن حال هؤلاء القوم بئس الحال ، ومثلهم بئس المثل ، وما ظلمهم الله لأن الله بين وأرشد فكان منه الإيجاد والإمداد والإرشاد ، ولكنهم قابلوا ذلك كله بالجحود والإنكار والعتو والنفور ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾[1] .

الدرس الثانى

ومن دروس القرآن الكريم مع النفوس الشاردة يحدثنا الكتاب العزيز عن شخصية أخرى أخلد صاحبها إلى الأرض واتبع هواه بعدما اقتحمت الدنيا قلبه فأظلم وأدلهم ومال وانتكس وفى أوحال الحياة

---

(١) سورة آل عمران الآيتان : ٨ـ٩

ارتكس إنه « ثعلبة بن حاطب » الذى قال الله فيه وأمثاله : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقاً فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب** ﴾[1] .

يقول العلامة ابن كثير : يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قاله ولا صدق فيما ادعى ، فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن فى قلوبهم إلى يوم يلقون الله - عز وجل - يوم القيامة ، عياذاً بالله من ذلك .

وقد ذكر كثير من المفسرين منهم ابن عباس والحسن البصرى أن سبب نزول هذه الآية الكريمة ثعلبه ابن حاطب الأنصارى ، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا وابن أبى حاتم من حديث أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة بن حاطب الانصارى أنه قال لرسول الله - ﷺ - : ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : فقال رسول الله - ﷺ - : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . قال : ثم قال مرة أخرى فقال : أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسير الجبال معى ذهبا وفضة لسارت . قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فقال رسول الله - ﷺ - : « اللهم أرزق ثعلبة مالا » قال : فاتخذ غنماً فنمت كما ينمى الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات الا الجمعة وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار . فقال رسول الله -ﷺ- : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله ، اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة فأخبروه بأمره فقال : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة وأنزل الله - جل ثناؤه : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** ﴾[2] ونزلت فرائض الصدقة فبعث رسول الله - ﷺ - رجلين على الصدقة من المسلمين رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم ، وكتب لهم كيف يأخذان الصدقة من المسلمين وقال لهما : مرا بثعلبة وبفلان - رجل من بنى سليم - فخذا صدقاتهما فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة واقرآه كتاب رسول الله - ﷺ - فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه الا أخت الجزية ، ما أدرى ما هذا ؟ انطلقاً حتى تفرغا ثم عودا إلى فانطلقا ، وسمع بهما السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب عليك هذا وما نريد أن نأخذ هذا منك فقال : بلى خذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له . فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذوا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أريانى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه الا جزية ما هذه الا أخت الجزية ، إنطلقا حتى أرى رأيى ، فانطلقا حتى أتيا النبى - ﷺ - فلما رآهما قال : « يا ويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ودعا للسلمى بالبركة ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى فأنزل الله - عز وجل - (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن - الآيات) قال : وعند رسول الله - ﷺ رجل من أقارب

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٧٥ -

(٢) سورة التوبة من الآية : ١٠٣

ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبى - ﷺ - فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله - ﷺ - هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى ، فلما أبى رسول الله - ﷺ - أن يقبل صدقته رجع إلى منزله ، فقبض رسول الله - ﷺ - ولم يقبل منه شيئا ، ثم أتى أبا بكر - رضى الله عنه - حين استخلف فقال قد علمت منزلتى من رسول الله - ﷺ - وموضعى من الأنصار فأقبل صدقتى ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله - ﷺ - وأبى أن يقبلها ، فقبض أبو بكر ولم يقبلها ، فلما ولى عمر - رضى الله- أتاه فقال : يا أمير المؤمنين ، أقبل صدقتى ، فقال : لم يقبلها رسول الله - ﷺ - ولا أبو بكر ، وأنا أقبلها منك ؟ فقبض عمر ولم يقبلها ، فلما ولى عثمان - رضى الله عنه - أتاه فقال أقبل صدقتى فقال : لم يقبلها رسول الله - ﷺ - ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك . فلم يقبلها منه . فهلك ثعلبة فى خلافة عثمان .

قال رسول الله - ﷺ - « يتبع الميت ثلاثة : أهله وماله وعمله . فيرجع اثنان : ويبقى واحد : يرجع أهله وماله ويبقى عمله »[1] متفق عليه .

الدرس الثالث

من هذه الدروس مع النفوس التى جرفها المال فانحرفت ما جاء فى سورة الكهف فى قوله تعالى :

﴿ واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه ابداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها متقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا . لكنا هو الله ربى ولا أشرك بربى أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً . فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً . أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بثمرة فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول يا ليتنى لم أشرك بربى أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وماكان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقباً ﴾[2]

المعنى : واضرب للفريقين الكافر والمؤمن مثلا : رجلين أحدهما كافر مغرور بدنياه ، والثانى موحد بالله جعلنا لأحدهما وهو الكافر بستانين من الأعناب المتنوعة ، وجعلنا النخل محيطة بهما ، وجعلنا وسطهما زروعاً حتى يجمعا بين القوت والفاكهة ، وهما بهذا الوضع لهما الشكل الأنيق والموضع السليم .

كلتا الجنتين آتت أكلها كاملاً غير منقوص شيئاً ، وقد فجر الله وسط كل حديقة نهراً على حدة

---

(١) انظر صحيح مسلم جـ٤ ص٢٢٧٣ كتاب الزهد والرقائق جايت رقم ٥/٢٩٦٠ فقد أورده من رواية لأنس بن مالك

(٢) سورة الكهف الآيات : ٣٢ - ٤٤

ليسقيها بلا تعب ومشقة ، ويزيدهما بهاء وروعة ، وكان لهذا الكافر ثمر ومال من غيرهما إذ كان من الأثرياء الكبار .

فقال يوماً لصاحبه : وهو يحاوره ويجادله شأن كل غنى مغرور مع مؤمن فقير صالح ، وقد روى انهما أخوان ورثا مالاً ، أما الكافر فاستغله فى أرض ودار وزوجة وخدم وحشم ، وأما المؤمن فأنفق نصيبه فى سبيل الله .

قال الكافر : أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً وأكثر خدماً وولداً ، ودخل مع صاحبه جنته الواسعة العريضة ، دخلهاوهو ظالم لنفسه معجب بما أوتى ، مفتخر به كافر النعمة ، معرض بذلك نفسه لسخط الله وهو أفحش أنواع الظلم .

وماذا قال :

قال لطول أمله وشدة حرصه وكثرة غروره بها (قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً) وما أظن الساعة قائمة فيما سيأتى وأقسم لئن رجعت إلى ربى على سبيل الفرض ، أو كما يزعم صاحبنا المؤمن لأجدن جنة خيراً من هذه الجنة مرجعا وعافية . وما علم هذا المغرور أن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة والا لما سقى الكافر منها جرعة ماء ، وإن الإنسان قد يعطى استدراكاً . قال تعالى : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾[1] .

ماذا قال المؤمن ؟

قال وهو يحاوره : يا أيها الإنسان . أكفرت بالذى خلق أباك الأول من تراب ثم خلقك أنت من نطفة ثم سواك فعدلك رجلاً سوياً ؟ !

أبعد هذا تقول : ما أظن الساعة قائمة ، لكن هو الله ربى وحده لا شريك له ، له الحكم واليه ترجعون .

يا أخى : هلا إذا دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ، الأمر ما شاء الله لا غير .

إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فى هذه الدنيا الفانية فعسى ربى أن يؤتينى خيراً من جنتك وأبقى يوم القيامة .

وأما جنتك فيرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح أرضاً قاحلة ملساء لا شيء فيها أو يصبح ماؤها غائرا لا تدركه الأيدى بأى شكل ولا تستطيع له طلباً فضلا عن إدراكه ، وقد كان فأحيط بثمره وهلك كل ماله فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ويعض بنان الندم على ما فرط منه ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً ، ولم تكن له فئة تنصره من دون الله إذ هو القادر وحده على دفع العذاب ، وما كان هو فى حد ذاته منتصراً بنفسه .

---

(١) سورة الأنعام الآيتان : ٤٤ ـ ٤٥

هناك : وفى هذه الحال التى يؤمن فيها البر والعاجز النصرة من الله وحده ، والسلطان لله وحده ، هو الحق تبارك وتعالى خير ثواباً وخير عقبى للعباد المتقين .

الدرس الرابع

من دروس المال والنفوس يتمثل أمامنا فى صورة رجل طغى وبغى عندما كثر ماله فماذا فعل وكيف كانت عاقبته ؟ اليك ما قاله القرآن الكريم : ﴿ **إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ان الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندى أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرون من دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾[١] .

هذه قصة المال والغرور بالعلم وكيف كان مآلها بعد قصة التملك والسلطان وكيف كانت نهايتها ؟

كان قارون من قوم موسى ، وكان ذا مال وفير ، والمقصود المهم من القصة هو ما يأتى :

اذكر وقت أن قال له قومه على جهة الوعظ والإرشاد :

لا تفرح ـ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ـ ولا تنس نصيبك من الدنيا ـ وأحسن كما أحسن الله اليك . ولا تبغ الفساد فى الأرض .

وهذه خمسة أصول مهمة ، ومن تمسك بها وعمل بمقتضاها نجا من الدنيا وما فيها .

وانظر إلى قارون وقد أبى أن يقبل هذا النصح ـ لأنه غير موفق ـ بل زاد عليه بقوله إنما أوتيته على علم عندى !! والمعنى : أنه أوتيه على علم عنده بوجوه الكسب وطرق الزيادة وإنماء المال ، كأنه قال إنما أوتيت هذا المال لفضل علمى وتمام مجهودى وتجاربى ، فليس لأحد حق له فى هذا المال . وكأنه ينكر انعام الله عليه بتلك الأموال لاستحقاقه لها عن جدارة فهو حر التصرف فيها .

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الدراسات القرآنية الاستنباطية أن نذكر ما قاله نبى الله سليمان عندما وجد عرش بلقيس أمامه لم يقل إنما أوتيته على علم عندى . إنما تذكر نعمة الله وكبرياءه وجلاله فقال

---

(١) سورة القصص الآيات : ٧٦ ـ ٨٣

﴿ هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾[١] .

ولقد رد الله عليه أبلغ رد حيث قال : ﴿ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ .

أى : أو لم يعلم هذا الأحمق المغرور أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدناً وأكثر مالاً . ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أى : لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم لأنه عالم بكل بشىء .

هذا حال قارون مع ماله ، ومواقفه عن وعظه وغروره بنفسه ، واستمع إلى الناس ، وقد أنقسموا إلى فريقين .

أما الفريق الأول فيقول : وقد خرج قارون فى أكمل زينته وتمام أبهته : يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون ، وإنه لذو حظ عظيم ، نظر هؤلاء إلى من فوقهم فتمنوا أن يكونوا مثل قارون فى غناه وأبهته ، ونسوا أن لله فى خلقه شئوناً ، وأن السعادة والخير ليس فى المال الكثير ، والجاه العريض ، وإنما الخير والسعادة شىء وراء ذلك كله ، ما دام العبد موصولاً بربه ، راضيا مرضيا ، ولقد عالج القرآن الكريم هذا الداء علاجاً حاسماً لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعلم خطره إذ من يمد عينيه إلى مال غيره ويتمناه ، يعود وقد امتلأ قلبه حسداً وحقداً ، وناهيك بهذه الأخطار التى ينشأ عنها معظم الجرائم : اقرأ معى قوله تعالى لنبيه الكريم : ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾[٢] .

أما الفريق الثانى فيقول ناصحا لأصحابه : ويلكم (هذه كلمة زجر) ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا فالسعادة فيه ، ولا يلقاها الا الصابرون ، أى : ولا يلقى هذه الحقائق ويعمل بها الا الصابرون ، ولا شك أن هذه الحقائق هى الايمان والعمل الصالح . وإدراك ما يوصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

نهاية محتومة

وقد جاءت نهاية قارون مؤيدة لما ذهب اليه العلم والبصر بالدنيا والآخرة فخسف الله بقارون وبداره وماله وبمجموعه الأرض . ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ .

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن ﴾ . وى هى كلمة تفيد التعجب . ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ نعم الله وحده هو الذى يعطى ويمنع ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، فلم يعط انساناً لعقله وعلمه ، ولم يحرم آخر لجهله وسوء رأيه ، بل الأمر كله لله .

---

(١) سورة النمل من الآية : ٤٠

(٢) سورة طه من الآية : ٣

وقالوا : ﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا ﴾ . ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ حقيقة وما هم فيه فى الدنيا فهو استدراج لهم ، وفتنة لغيرهم ﴿ تلك الدار الآخرة ﴾ وما فيها من نعيم مقيم دائم لا تعب ولا مشقة معه يجعلها ربك ﴿ للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾ .

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقول الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد

الدرس الخامس

ننتقل بالقارىء الكريم إلى الدرس الخامس من الدروس المستفادة التى سبق أن قدمنا أربعة منها وقد بين الله هذا الدرس فى سورة ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾ قال تعالى : ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون. فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين. أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين. فانطلقوا وهم يتخافتون. أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا إنا لضالون. بل نحن محرومون. قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون. قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون . كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ فانظر ياأخى نظرة المتأمل مدى الخطر المترتب على نطق اللسان بالسوء ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ وكيف تجاوب اللسان مع النية ؟ ﴿ ولا يستثنون ﴾ أى : صمموا وعزموا دون أن ينطقوا بالمشيئة المهيمنة أو يستثنوا نصيب الفقراء ، وكيف قطعوا على أنفسهم عهداً أن يقوموا فى الصباح قبل أن تبرز الغزالة من خدرها ، وقبل أن يتنفس الصباح ويسفر الفجر فعاملهم الله بالعقاب من حيث لم يحتسبوا ، وكانوا وقتها نائمين والعقاب يقظ ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ ثم انظر وقد عزموا على أن يقطعوها هم ، فأحرقتها النار فأصبحت كالصريم ، وكيف قاموا من سباتهم ﴿ فتنادوا مصبحين أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ هوكيف أسروا النجوى فى أنفسهم وأقبل بعضهم على بعض ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ وغدوا فى زعمهم قادرين على المنع فماذا كانت المفاجأة كانت رهيبة ومهيبة تنخلع من هولها الأفئدة ، لقد ضلوا عن طريق جنتهم فى زعمهم لأنها أصبحت أثراً بعد عين ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ ثم تابوا إلى رشدهم ﴿ بل نحن محرومون ﴾ ثم قال أعقلهم : ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ فقالوا بعد فوات الأوان : ﴿ سبحان ربنا إنا كنا طاغين ﴾ قالوا والندم يكوى النفوس ويسيل النفس مرارة ولوعة : ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ أى : لعل الله يعطينا بدلاً هو خير منها ، بتوبتنا من زلاتنا ، ويكفر عنا سيئاتنا ، إنا راجون عفوه ، طالبون الخير منه ، ﴿ كذلك العذاب ﴾ أى : وهكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه وأنعم به عليه ومنع حق البائس الفقير .

﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أى : أن عذاب الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا ، فما عذاب هذه إلا هلاك الأموال والثمرات ، وعذاب تلك نار وقودها الناس والحجارة ، فلو كانوا من ذوى العلم والمعرفة لارتدعوا عن غيهم وتابوا إلى رشدهم .

الدرس السادس

يقول فيه مولانا تبارك وتعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالاً ممدودا وبنين شهودا. ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآيتنا عنيدا . سأرهقه صعودا . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ● إن هذا إلا قول البشر ● سأصليه سقر ● وما أدراك ما سقر ● لا تبقى ولا تذر ● لواحة للبشر عليها تسعة عشر ﴾.

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله وبدلها كفراً . وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ﴾ أى : خل بينى وبين من أخرجته من بطن أمه وحيداً لا مال له ولا ولد ، ثم بسطت له الرزق والجاه العريض ، فكفر بأنعم الله عليه .

وفى هذا وعيد شديد على تمرده وعظيم عناده واستكباره لما أويته من بسطة المال والجاه ، والمراد بهذا الذى يقص الله علينا شأنه هو الوليد بن المغيرة وكان يقول : أنا الوحيد بن الوحيد ، ليس لى فى العرب نظير ولا لأبى نظير ، وقد تهكم الله به وبلقبه ، وصرفه عن الغرض الذى كانوا يقصدونه من مدحه والثناء عليه إلى ذمه وعيبه ، فجعله وحيداً فى الشر والخبث .

وقوله تعالى : ﴿ ثم يطمع أن أزيد ﴾ أى : ثم هو بعد ذلك يرجو أن يزيد ماله وولده وفى هذا استنكار لشديد حرصه وتكالبه على جمع حطام الدنيا كما هو شأن الإنسان فقد جاء فى الحديث « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »[1] ﴿ كلا ﴾ أى : لا أفعل ولا أزيد قال مقاتل مازال الوليد بعد نزول الآية فى نقص من ماله وولده حتى هلك .

ثم علل هذا بقوله : ﴿ إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أى : أنه كان معانداً لآيات المنعم ، آيات القرآن التى نزل بها الوحى على لسان رسوله - ﷺ - ومن ثم قال فيها ما قال ومعاندة الحق جديرة بزوال النعم .

روى أن النبى - ﷺ - قام فى المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب . شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير ﴾ فلما فطن النبى - ﷺ - إلى استماعه أعاد القراءة فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى عليه ، ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبون قريش كلها ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزيناً فقال الوليد : ما لى أراك حزيناً يا ابن أخى ؟

---

(١) انظر مسند الأمام أحمد جـ ٥ ص١١٧ فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

فقال : وما يمنعني أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك ، ويزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنك تدخل على ابن أبي كبشه وابن أبي قحافة لتنال من فضل طعامهم ؟ فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أني من أكثرهم مالاً وولداً ؟ وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ؟ ثم اتى مجلس قومه مع أبي جهل فقال لهم : تزعموان أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ قالوا اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟ قالوا : اللهم لا ، ثم قالوا : فما هو ؟ قال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، فهو ساحر وما يقوله سحر بأثره عن مسليمة وأهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين منه ، فنزلت هذه الآيات

أحكام إلهية عادلة

قال تعالى :

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ
كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾
إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ
لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ
فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ
إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟
يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ
أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ

لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن
تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ
مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟
ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

﴿ تدرسون ﴾ أى : تقرءون .
﴿ تخيرون ﴾ أى : تختارون
﴿ أيمان ﴾ عهود .
﴿ بالغة ﴾ أى : متناهية فى التوكيد موثقة
﴿ أيهم بذلك زعيم ﴾ أى : أيهم بذلك الحكم وأن لهم فى الآخرة ما للمسلمين فيها
﴿ فذرنى ﴾ بقول ذرنى وإياه : أى : كِلْهُ إلَيَّ فإنى أكفيكه .
﴿ سنستدرجهم ﴾ يقال : أستدرجه إلى كذا : إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه .

﴿ وأملى لهم ﴾ أى : أمهلهم وأطيل لهم المدة
﴿ المغرم ﴾ المغرم : الغرامة المالية
﴿ مثقلون ﴾ أى : مكلفون أحمالاً ثقالاً فهم بسببها يعرضون عنك .
﴿ الغيب ﴾ هو ما كتب فى اللوح المحفوظ واستأثر الله بعلمه .
﴿ يكتبون ﴾ أى : يحكمون على الله بما شاءوا .
﴿ حكم ربك ﴾ هو إمهالهم وتأخير نصرتك عليهم
﴿ صاحب الحوت ﴾ هو سيدنا يونس عليه السلام .
﴿ مكظوم ﴾ أى : مملوء غيظاً
﴿ فاجتباه ﴾ أى : اصطفاه
﴿ يزلقونك ﴾ أى : يزلون قدمك ، يقولون : نظر إلَيَّ نظرة كاد يصرعنى
﴿ والذكر ﴾ القرآن الكريم
﴿ ذكر ﴾ أى تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه .

المناسبة وإجمالي المعنى

بعد أن ذكر سبحانه ـ حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوه وخالفوا أمره ، أعقب هذا ببيان أن لمن اتقاه وأطاعه جنات النعيم التي لا تبيد ولا تغني في الدار الآخرة ، ثم رد على من قال من الكفار : إن الله فضلنا عليكم في الدنيا فلابد أن يفضلنا عليكم في الآخرة ، فإن لم يحصل التفضيل فلا أقل من المساواة ، فرد الله عليهم ما قالوا وأكد فوز المتقين ، ثم خوف الكفار من هول يوم القيامة وخوفهم مما في قدرته من القهر فقال لرسوله : خلِّ بيني وبين من يكذب بهذا القرآن ، إنا سندنيهم من العذاب درجة فدرجة ، ونورطهم فيه بما نوليهم من النعيم ، ونرزقهم من الصحة والعافية ، فتزداد معاطيهم من حيث لا يشعرون .

ثم قال لرسوله : ماذا ينقمون منك ؟ أأنت تسألهم أجراً على تبليغ الرسالة ؟ أم عندهم علم الغيب فهم يكتبون منه ما يحكمون به ؟ كلا لا هذا ولا ذاك ، إذاً فالقوم معاندون ، فلم يبق إلاأن تصبر لحكم ربك

ثم نهى رسوله أن يكون كيونس ـ عليه السلام ـ حين غضب على قومه ففارقهم ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت ، ثم أخبر رسوله بأن الكافرين يحسدونه على ما آتاه الله من النبوة ويقولون : إنه لمجنون تنفيراً منه ومن دعوته ، وما القرآن إلا ذكر للعالمين .

التفسير

قوله تعالى ﴿ إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم . **أفنجعل المسلمين كالمجرمين . مالكم كيف تحكمون . أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون . أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون . سلهم أيهم بذلك زعيم . أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين** ﴾ .

لما ذكر سبحانه وتعالى ـ حال أهل الجنة الدنيوية وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا ربهم ، وخالفوا أمره ، بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم ، التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقضي نعيمها . ثم قال تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين** ﴾ ؟ أي : أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ما لكم كيف تحكمون** ﴾ ؟ أي : كيف تظنون ذلك قال تعالى ﴿ **أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقاً لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون** ﴾[1]

---

(١) السجدة الآيات : ١٨ ـ ٢٠ .

ثم قال تعالى : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ يقول تعالى : أفبأيديكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمنا حكماً مؤكداً كما تدعونه ؟ وقوله تعالى : ﴿ أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ أى : أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة أنه سيحصل لكم ما تريدون وتشتهون ثم قال تعالى : ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ ؟ أى : قل لهم : من هو المتكفل بهذا ؟ ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أى : من الأصنام والأنداد ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

وقصارى هذا الحجاج - نفى جميع ما يمكن أن يتعلقوا به فى تحقيق دعواهم ، فنبه أولاً إلى نفى الدليل العقلى بقوله : ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ ثم إلى نفى الدليل النقلى بقوله : ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون ﴾ ثم إلى نفى الوعد بذلك - ووعد الكريم دين عليه - بقوله : ﴿ أم لكم أيمان علينا ﴾ ثم إلى نفى التقليد الذى هو أوهن من حبال القمر بقوله : ﴿ أم لهم شركاء ﴾ . قوله تعالى : ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون ﴾ .

قال البخارى بسنده عن أبى سعيد الخدرى قال سمعت النبى - ﷺ - يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً »(1)

وقوله تعالى : ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ أى : فى الدار الآخرة بإجرامهم وتكبرهم فى الدنيا فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود فى الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه فى الآخرة إذا تجلى الرب - عز وجل - فيسجد له المؤمنون ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد بل يعود ظهر أحدهم طبقا واحداً كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه عكس السجود كما كانوا فى الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون .

قوله تعالى : ﴿ فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون . وأملى لهم إن كيدى متين . أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ .

هذا تهديد شديد لهم أى : دعنى وإياه منى ومنه وأنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده فى غيه وأنظره ، ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ولهذا قال تعالى : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أى : وهم لا يشعرون بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة وهو فى نفس الأمر إهانة كما قال تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾(2) وكما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ؟ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾(3) ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ وأملى لهم إن كيدى

---

(1) انظر صحيح البخارى جـ٦ ص١٩٨ تفسير صورة (ن والقلم) فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .

(2) المؤمنون الآيتان : ٥٥ - ٥٦

(3) الأنعام آيتان : ٤٤ - ٤٥ .

متين ﴾ أى : وأؤخرهم وأنظرهم وأمدهم وذلك من كيدى ومكرى بهم ولهذا قال تعالى : ﴿ إن كيدى متين ﴾ أى : عظيم لمن خالف أمرى وكذب رسلى وأجترأ على معصيتى .

وفى الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال : « إن الله ـ تعالى ـ ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته »[١] ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾[٢] وقوله تعالى : ﴿ أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ . أى : أتسأل أيها الرسول هؤلاء المشركين بالله على ما آتيتهم من النصيحة والدعوة إلى الحق أجراً دنيوياً ؟ فهم من غرم ذلك الأجر مثقلون بأدائه ، فتحاموا لذلك قبول النصيحة والمعنى أن أمرهم العجيب فإنك لتدعوهم إلى الله بلا أجر نأخذه منهم ، بل ترجوا ثواب ذلك من ربك ، وهم مع ذلك يكذبونك فيما جئتهم به من الحق جهلاً وعناداً . ﴿ أم عندهم الغيب . فهم يكتبون ﴾ أى : عندهم اللوح المحفوظ الذى فيه نبأ ما هو كائن ، فهم يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل على قولهم .

ولما بالغ فى تزييف طريق الكافرين ، وزجرهم عما هم عليه ، أمر رسوله بالصبر على أذاهم فقال تعالى : ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ أى : فاصبر يامحمد على قومك فإن الله ـ سبحانه ـ سيحكم لك عليهم ويجعل العاقبة لك ولأتباعك فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾[٣]

وقوله تعالى : ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ يعنى ذا النون وهو يونس ـ عليه السلام ـ حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان من ركوبه فى البحر والتقام الحوت له ، وشرود الحوت به فى البحار وظلمات غمرات اليم ، وسماعه تسبيح البحر بما فيه للعلى القدير ، الذى لا يرد ما أنفذه من التقدير فحينئذ نادى فى الظلمات : ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ﴾[٤] وقال ههنا : ﴿ إذ نادى وهو مكظوم ﴾ قال ابن عباس وهو مغموم وقال عطاء الخراسانى مكروب .

وقوله تعالى : ﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ وقد قال الأمام أحمد بسنده عن عبد الله قال :

---

(١) البخارى : جـ٦ ص٩٣ ، ٩٤ تفسير سورة « هود » فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لأبى موسى .
(٢) هود الآية : ١٠٢ .
(٣) طه الآية : ١٣٠ .
(٤) الأنبياء الآيتان : ٨٧ ـ ٨٨ .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ « لا ينبغى لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى »(١) وهذا الحديث فى الصحيحين عن أبى هريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما ﴿ ليزلقونك ﴾ لينقذونك ﴿ بأبصارهم ﴾ أى : يعيبونك بأبصارهم يعنى يحسدونك لبغضهم إياك لولا وقاية الله لك وحمايته إياك منهم .

• قال ابن كثير وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله ـ عز وجل ـ كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق كثيرة متعددة قال مسلم فى صحيحه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : العين حق ولو كان شىء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا »(٢) وقال ابن ما جه بسنده عن أبى أمامة أن سعد بن سهل بن حنيف قال : مر عامر بن ربيعه بسهل من حنيف وهو يغتسل فقال لم أر كاليوم ولا جلد مخبأة فما لبث أن لبط به فأتى به رسوله الله ـ ﷺ ـ فقبل له أدرك سهلاً صريعاً قال : « من تتهمون به » قالوا : عامر بن ربيعه قال : « علام يقتل أحدكم أخاه ؟ « إذا رأى أحدكم من أخيه ما يعجبه فليدع له بالبركة » ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره وأمره أن يصب عليه(٣) وقد رواه النسائى ومالك ابن انس كلاهما عن الزهرى بهِ .

وقال الإمام أحمد عن أبى سعيد أو جابر بن عبد الله أن رسول الله ـ ﷺ ـ اشتكى فأتاه جبريل فقال : « بسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك من حسد كل حاسد وعين بسم الله يشفيك »(٤)

وقوله تعالى : ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ أى : يزدرونه بأعينهم ويؤذونه بألسنتهم ويقولون : إنه لمجنون أى : لمجيئه بالقرآن قال الله تعالى : ﴿ وماهو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى : يقولون ما قالوا : وما هو إلا تذكير وبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، أفيكون من أنزل عليه مثل هذا وهو مطلع على أسراره ، محيط بجميع حقائقه خيراً ، ممن ينطبق عليه مثل هذا الوصف الذى قالوه ، أم يكون مثل هذا من أدل الدلائل على كمال الفضل والعقل ؟

والله أعلم بالصواب ، واليه المرجع والمآب ـ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى إله وصحبه وسلم ـ .

---

(١) سند الامام أحمد جـ ١ ص٢٤٢ فقد ورد الحديث بلفظه من رواية لابن عباس .

(٢) مسلم جـ ٤ ص١٧١٩ باب الطب والمرض والرقى فى حديث رقم ٤٢ / ٢١٨٨ من رواية لابن عباس .

(٣) ابن ماجه جـ ٢ ص١١٦٠ باب العين حديث رقم ٣٥٠٩ فقد أورد الحديث من رواية لأبى أمامة ابن سهل بن ضيف .

(٤) مسند الامام أحمد جـ ٥ ص٣٢٣ فقد ورد الحديث من رواية لعبادة وهى إحدى رواياته .

تفسير سورة الحاقة

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، وآياتها اثنتان وخمسون ، وكلماتها : مائتان وخمس وخمسون ، وحروفها : ألف وأربعمائة وثمانون .

مجموع فواصل آياتها (نم له) على اللام منها آية واحدة (بعض الأقاويل) ولها اسمان : سورة الحاقة ، لمفتتحها ، وسورة السلسلة ، لقوله تعالى : ﴿ فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا ﴾

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : الإخبار عن صعوبة القيامة ، والإشارة بإهلاك القرون الماضية ، وذكر نفخة الصور ، وانشقاق السموات ، وحال السعداء والأشقياء وفق قراءة الكتب وذل الكفار مقهورين فى أيدى الزبانية ، ووصف الكفار القرآن بأنه للكفار كهانة وشعر ، وبيان أن القرآن تذكرة للمؤمن وحسرة للكافر ، والأمر بتسبيح الركوع فى قوله تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه ﴾ بالفاء ، وبعده (وأما) بالواو ، لأنه الأول متصل بأحوال القيامة وأهوالها فاقتضى الفاء للتعقيب ، والثانى متصل بالأول ، فأدخل الواو ، لأنه للجمع .

قوله : ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ خص ذكر الشعر بقوله : ﴿ ما تؤمنون ﴾ لأن من قال القرآن شعر ، ومحمد - ﷺ - شاعر - بعدما علم اختلاف آيات القرآن فى الطول والقصر ، واختلاف حروف مقاطعه فلكفره وقلة إيمانه ، فإن الشعر كلام موزون مقفى وخص ذكر الكهانة بقول : ﴿ ما تذكرون ﴾ لأن من ذهب إلى أن القرآن كهانة ، وأن محمداً - ﷺ - كاهن فهو ذاهل عن ذكر كلام الكهان ، فإنه أسجاع لا معانى تحتها ، وأوضاع تنبو الطباع عنها ولا يكون فى كلامهم ذكر الله تعالى .

مناسبة السورة لما قبلها :

١ - أنه وقع فى ن ذكر يوم القيامة مجملاً ، وهنا فصّل نبأه وذكر شأنه العظيم .

٢ - إنه ذكر فيا قبلها من كذب بالقرآن وما توعده به ، وهنا ذكر أحوال أمم كذبوا الرسل وما جرى عليهم ، ليزدجر المكذبون المعاصرون له - ﷺ -

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ
وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا
بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا
فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم
مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾
فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ
حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾

معانى المفردات

﴿ **الحاقة** ﴾ من حق الشيء ، إذا ثبت ووجب : أى : الساعة الواجبة الوقوع الثابتة المجيء ، وهى يوم القيامة .

﴿ **ما الحاقة** ﴾ أى : أىّ شيء هى ؟ تفخيماً لشأنها ، وتعظيما لهولها .

﴿ **وما أدراك ما الحاقة** ﴾ أى : أى شيء أعلمك ما هى ؟ فلا علم لك بحقيقتها إذ بلغت من الشدة والهول أن لا يبلغها علم المخلوقين

﴿ **بالقارعة** ﴾ هى الحاقة التى تقرع قلوب الناس بالمخافة والأهوال

﴿ **بالطاغية** ﴾ هى الواقعة التى جاوزت الحد فى الشدة والقوة والمراد بها الصاعقة .

﴿ **صرصر** ﴾ الصرصر : الشديد الصوت التى لها صرصرة .

﴿ **عاتية** ﴾ أى : بالغة منتهى القوة والشدة

﴿ **سخرها عليهم** ﴾ أى : سلطها عليهم

﴿ **حسوماً** ﴾ أى : متتابعة وأحدها حاسم .

﴿ **صرعى** ﴾ واحدهم صريع أى : ميت .

﴿ أعجاز ﴾ واحدها عجز ، وهو الأصل .
﴿ خاوية ﴾ أى : خالية الأجواف لا شىء فيها .
﴿ باقية ﴾ والباقية : البقاء .
﴿ المؤتفكات ﴾ أى : المنقلبات وهى قرى قوم لوط ، جعل الله عاليها سافلها بالزلزلة .
﴿ الخاطئة ﴾ الخطأ .
﴿ رابية ﴾ من ربا الشىء إذا زاد أى : الزائدة فى الشدة .
﴿ طغى الماء ﴾ تجاوز حده وارتفع .
﴿ حملناكم ﴾ أى : حملنا آباءكم وانتم فى أصلابهم .
﴿ الجارية ﴾ السفينة التى تجرى فى الماء .
﴿ تعيها ﴾ أى : تحفظها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ﴾ .

الحاقة من أسماء يوم القيامة ، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ولهذا عظم الله أمرها فقال : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ ثم ذكر ـ تعالى ـ إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال ـ تعالى ـ : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية . وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ ذكر ـ سبحانه ـ من كذب بالقيامة ، والقارعة القيامة ، سميت بذلك لأنها تقرع الناس بأهوالها وثمود قوم صالح ، وكانت منازلهم بالحجر بين الشام والحجاز قال محمد بن إسحاق : وهو وادى القرى ، وكانوا عرباً .

(وأما عاد فقوم هود ، وكانت منازلهم بالأحقاف . والأحقاف : الرمل بين عمان إلى حضرموت واليمن كله ، وكانوا عرباً ذوى خلق وبسطة .

وقوله تعالى : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وهى الصيحة التى أسكتتهم ، والزلزلة التى أبادتهم كما قال ـ تعالى : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية ﴾ أى : بريح باردة تحرق ببردها كإحراق النار ، مأخوذ من الصر وهو البرد وقيل : إنها الشديدة الصوت وقال مجاهد : الشديده السموم وقوله : ﴿ عاتية ﴾ أى : عتت على خُزانها فلم تطعهم ، ولم يطيقوها من شدة هبوبها غضبت لغضب الجبار .

(١) سورة فصلت الآية : ١٧ .

قوله ـ تعالى : ﴿ سخرها عليهم ﴾ أى : أرسلها وسلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ أى : متتابعة لا تفتر ولا تنقطع وقوله : ﴿ فترى القوم فيها ﴾ أى : فى تلك الليالى والأيام ﴿ صرعى ﴾ جمع سريع ، يعنى موتى ﴿ كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أى : كأنهم أصول نخل بالية كما قال ـ تعالى : ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ قوله تعالى ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أى : هل تحس من أحد من بقاياهم أو مما ينتسب إليهم بل بادوا عن آخرهم ولم يجعل الله لهم خلفاً كما قال ـ تعالى : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾[١]

قوله تعالى ﴿ وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة . فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ . أى : وجاء فرعون ومن تقدمه من الأمم التى كفرت بآيات الله كقوم نوح وعاد وثمود والقرى التى أئتفكت بأهلها ، وصار عاليها سافلها بسبب خطيئتها ومعصيتها .

ثم بين هذه الخطيئة بقوله تعالى : ﴿ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾ أى : فعصى هؤلاء الذين تقدم ذكرهم رسل الله الذين أرسلوا إليهم ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وأذاقهم وبال أمرهم بعقوبة زائدة على عقوبة سائر الكفار ، كما زادت قبائحهم على قبائح غيرهم .

قوله تعالى : ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أُذن واعية ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ طغا الماء كثر وذلك بسبب دعوته نوح ـ عليه السلام ـ على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير الله فاستجاب الله له وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح فى السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته ﴿ والجارية ﴾ هى السفينة الجارية والمحمول فى الجارية نوح وأولاده ، وكل من على وجه الأرض من نسل أولئك .

وقوله : ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ يعنى سفينة نوح ـ عليه السلام ـ جعلها الله تذكرة وعظة لهذه الأمة حتى أدركها أوائلهم .

وقيل لنجعل تلك الفعلة من إغراق قوم نوح وإنجاء من آمن معه موعظة لكم كما فى قوله ـ تعالى ـ فى ختام « قصة » نوح فى سورة هود ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[٢]

ولهذا قال سبحانه ههنا ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أى : تحفظها وتسمعها أذن حافظة لما جاء من عند الله .

قال قتادة : الأذن الواعية أذن عقلت عن الله ـ تعالى ـ وانتفعت بما سمعت من كتاب الله ـ عز وجل ـ كقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[٣]

---

(١) سورة مريم آية : ٩٨ .

(٢) سورة هود آية : ٤٩ .

(٣) سورة ق آية : ٣٧ .

مقدمات القيامة ومشاهدها

قال - تعالى :

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً
وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ
وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾
يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ
هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾
فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ
الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾
هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ
ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ
طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾
لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾

معانى المفردات

﴿ نفخة واحدة ﴾ هى النفخة الأولى .
﴿ حملت الأرض والجبال ﴾ أى : رفعت من أماكنها
﴿ فدكتا دكة واحدة ﴾ أى : ضرب بعضها ببعض حتى أندفعت وصارت كثيبا مهيلا .

﴿ الواقعة ﴾ النازلة وهى يوم القيامة
﴿ انشقت السماء ﴾ أى : فتحت أبوابها
﴿ واهية ﴾أى : مسترخية ضعيفة القوة

﴿ أرجائها ﴾ أى : جوانبها
﴿ ثمانية ﴾ أى : ثمانية أشخاص
﴿ خافية ﴾ أى : سريرة .

﴿ هاؤم ﴾ أى : خذوه
﴿ ظننت ﴾ أى : علمت
﴿ ملاق ﴾ أى : معاين

﴿ راضية ﴾ أى : يرضى بها صاحبها
﴿ عالية ﴾ أى : مرتفعة المكان
﴿ والقطوف ﴾ ما يجتنى من التمر واحدها قطع (بكسر القاف وسكون الطاء) .

﴿ دانية ﴾ أى : قريبة
﴿ هنيئاً ﴾ أى : بلا تنغيص ولا كدر .
﴿ أسلفتم ﴾ أى : قدمتم
﴿ الخالية ﴾ الماضية .

﴿ القاضية ﴾ أى : القاطعة للحياة فلم أبعث بعدها .
﴿ هلك ﴾ بطل .
﴿ سلطانية ﴾ طجتى أو تسلطى وقوق .

﴿ فغلوه ﴾ أجعلوا الغل فى يديه وعنقه .
﴿ الجحيم صلوه ﴾ أدخلوه أو أحرقوه فيها .
﴿ فاسلكوه ﴾ فادخلوه فيها .

﴿ لا يخفى ﴾ لا يحث ولا يحرض .

﴿ حميم ﴾ أى : قريب مشفق يحميه من العذاب .

﴿ غسلين ﴾ صديد أهل النار .

﴿ الخاطئون ﴾ الكافرون .

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن قصّ ـ سبحانه ـ قصص الهالكين ، ونبه بها على ثبوت القدرة والحكمة وبها ثبت إمكان وقوع يوم القيامة ـ شرع يذكر تفاصيل أحوال اليوم وما يكون فيه من أهوال ، ثم بعد ذلك فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

التفسير

قوله ـ تعالى : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة . فيومئذ وقعت الواقعة . وانشقت السماء فهى يومئذ واهية . والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية** ﴾ .

قال ابن كثير : يقول ـ تعالى ـ مخبراً عن أهوال يوم القيامة ـ وأول ذلك نفخة الفزع ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهى هذه النفخة ، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد .

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ **وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** ﴾ أى : بسطتا بسطة واحدة . ومنه اندك سنام البعير إذا انفرش فى ظهره ، كقوله ـ تعالى : ﴿ **يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار** ﴾[1]

وقوله ﴿ **فيومئذ وقعت الواقعة** ﴾ أى : قامت القيامة كما قال ـ تعالى ـ ﴿ **إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجت الأرض رجا . وبست الجبال بسًا . فكانت هباء منبثًا** ﴾[2]

---

(١) سورة إبراهيم آية : ٤٨ .

(٢) سورة الواقعة الآيات : ١ ـ ٦ .

قوله ـ تعالى : ﴿ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾ أى : انصدعت وتفطرت كما قال ـ سبحانه ـ ﴿ إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وقيل : تنشق لنزول ما فيها من الملائكة ودليله قوله ـ تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيرا ﴾[1]

وقوله ـ تعالى : ﴿ فهى يومئذ واهية ﴾ أى : ضعيفة قال القرطبى : قيل إنها تصير بعد صلابتها بمنزلة الصوف فى الوهى : ويكون ذلك لنزول الملائكة وقيل : الهول يوم القيامة قال ـ تعالى : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ الملك يعنى الملائكة ، اسم للجنس . ومعنى على أرجائها أى : على اطرافها حين تنشق لأن السماء مكانهم .

وقوله ـ تعالى : ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله وقال ابن زيد : هم ثمانية أملاك . وعن الحسن . الله أعلم كم هم . ثمانية أم ثمانية آلاف .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن جابر قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أذن لى أن أحدثكم عن ملك حملة العرش بُعْدُ ما بين شحمة أذنه وعنقه بخفق الطير سبعمائة عام » قال ابن كثير وهذا اسناد جيد رجاله كلهم ثقات ورواه أبو داود بلفظ « أذن لى أن أحدث عن ملك من ملائكة الله ـ تعالى ـ من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عنقه مسيرة سبعمائة عام .

وقوله ـ تعالى : ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ أى : تعرضون على عالم السر والنجوى الذى لا يخفى عليه شىء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر ، كما قال ـ تعالى : ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾[2] قال القرطبى : وليس ذلك عرضاً يعلم به مالم يكن عالماً به ، بل معناه الحساب وتقرير الأعمال عليهم للمجازاة .

قال الأمام أحمد بسنده عن أبى موسى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات : فأما عرضتان فجدال ومعاذير وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فى الأيدى فآخذ بيمينه وآخذ بشماله » .

وقال ابن أبى الدنيا بسنده عن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قال : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، فإنه أحق عليكم فى الحساب غداً ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر » ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ .

---

(١) سورة الفرقان الآيتان : ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) سورة الكهف من الآية : ٤٨ .

ونحو الآية قوله - تعالى : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾(١) وكقوله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة . شرا يره ﴾(٢)

قوله - تعالى - ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابية . إنى ظننت أنى ملاق حسابية . فهو فى عيشة راضية . فى جنة عالية . قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ .

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتى كتابه يوم القيامة بيمينه وفرحه بذلك وأنه من شدة فرحه يقول لكل من لقيه : ﴿ هاؤم اقرءوا كتابيه ﴾ أى : خذوا اقرءوا كتابية ، لأنه يعلم أن الذى فيه خير وحسنات محضة ، لأنه ممن بدل الله سيئاته حسنات .

وفى الصحيح عن ابن عمر حين سئل عن النجوى فقال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول « يدنى الله العبد يوم القيامة فيقرره بذنوبه كلها حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الله - تعالى - إنى سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته بيمينه ، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »(٣)

وقوله - تعالى - ﴿ إنى ظننت أنى ملاق حسابية ﴾ أى : قد كنت موقناً فى الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة كما قال - تعالى - ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ .

قال الحسن فى هذه الآية : إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل وإن المنافق أساء الظن بربه فأساء العمل .

وقوله - تعالى - ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ أى : مرضية كما قال - تعالى - ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا . خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ﴾(٤)

وفى الصحيح عن النبى ﷺ - « إنهم يعيشون فلا يموتون أبداً ، ويصحون فلا يمرضون أبداً ، وينعمون فلا يرون بؤساً أبداً ، ويشبون فلا يهرمون أبداً »(٥) .

وقوله - تعالى : ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى : رفيعة قصورها ، حسان حورها نعيمة دورها ، دائم حبورها ، وقد ثبت فى الصحيح « أن الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض »(٦) .

وقوله تعالى ﴿ قطوفها دانية ﴾ أى : قريبة يتناولها أحدهم وهو نائم على سريره .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٤٧ .

(٢) سورة الزلزلة الآيتان : ٧ - ٨ .

(٣) انظر صحيح مسلم كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل - حديث ٢٧٦٨/٥٢ من رواية لابن عمر .

(٤) سورة الكهف الآيتان : ١٠٧ - ١٠٨ .

(٥) صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢١٨٢ كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فى دوام نعيم أهل الجنة فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة برقم ٢٨٣٧/٢٢ .

(٦) البخارى جـ ٤ ص ١٩ كتب فضل الجهاد باب درجات المجاهدين فى سبيل الله فقد ورد الحديث من رواية أبى هريرة مع اختلاف يسير .

وقوله ـ تعالى ـ ﴿ كلواواشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ أى : يقال لهم ذلك تفضلا عليهم وامتنانا وإنعاما وإحسانا ﴿ هنيئاً ﴾ لا تكدير فيه ولا تنغيص ﴿ بما أسلفتم ﴾ قدمتم من الأعمال الصالحة ﴿ فى الأيام الخالية ﴾ أى : فى الدنيا كما قال ـ تعالى : ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . ونزعنا ما فى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾(١)

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . ياليتها كانت القاضية . ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانية . خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه . إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين . فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام الا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ .

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطى أحدهم كتابه فى العرضات بشماله فحينئذ يندم غاية الندم ﴿ فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ﴾ أى : فيقول إذا رأى قبائح أعماله : ياليتنى لم أعط كتابى . قال المفسرون : وذلك لما يحصل له من الخجل والافتضاح فيتمنى عندئذ أنه لم يعط كتاب أعماله قال ـ تعالى ـ : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾(٢) .

وقوله : ﴿ ولم أدر ما حسابيه) أى : ولم أعلم أى شىء حسابى الذى أحاسب به ، إذ كله وبال ونكال .

وقوله : ﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾أى : ليت الموتة التى متها فى الدنيا كانت نهاية الحياة ، لم أبعث بعدها ولم ألق ما أنا فيه من نكال وسوء منقلب كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا ﴾(٣) .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ ما أغنى عنى ماليه ﴾ أى : لم يدفع عنى مالى الذى كنت أملكه فى الدنيا من عذاب الله ولا من بأسه شيئا كما فى قوله تعالى ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم . يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾(٤) .

---

(١) سورة الأعراف الآيتان : ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) سورة الكهف : ٤٩ .

(٣) سورة النبأ من الآية : ٤٠ .

(٤) سورة المائدة الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧ .

وقوله ﴿ هلك عنى سلطانية ﴾قال ابن زيد : يعنى سلطانية فى الدنيا الذى هو الملك . أى : ذهب ملكى وتسلطى على الناس وبقيت فقيرا ذليلا .

ثم ذكر سبحانه سوء منقلبه فقال :

﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه ﴾ أى : فيقال لزبانية جهنم خذوه فضعوا الغل فى عنقه ، ثم أدخلوه فى النار الموقدة لقاء كفره بالله واقترافه عظيم الآثام .

﴿ ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ﴾أى : ثم أدخلوه فى سلسلة طولها سبعون ذراعاً تلف على جميع جسمه حتى لا يستطيع تحركاً ولا انقلابا .

قال مقاتل : لو أن حلقة منها وضعت على ذرة جبل لذاب كما يذوب الرصاص .

وقوله ﴿ فاسلكوه ﴾ قال سفيان : بلغنا أنها تدخل عنقه فيها ثم يُجر فيها .

ونحو الآيات قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون . فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[1] .

ثم بين سبحانه سبب استحقاق هذا العذاب فقال :

﴿ إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ﴾ أى : افعلوا ذلك به جزاء له على كفره بالله فى الدنيا وإشراكه به سواه ، وعدم القيام بحق عبادته وأداء فرائضه .

﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾أى : ولا يحث الناس على إطعام أهل المسكنة والحاجة ، فضلا عن بذل المال لهم .

وقوله : ﴿ فليس له اليوم هاهنا حميم ﴾أى : فليس له يوم القيامة من ينقذه من عذاب الله ـ تعالى ـ كما جاء فى سورة أخرى ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون . قالوا وهم فيها يختصمون . تالله إن كنا لفى ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين . وما أضلنا إلا المجرمون . فما لنا من شافعين . ولا صديق حميم ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أى : وليس له طعام إلا ما يسيل من لحوم أهل النار من الدم والصديد الذى لا يأكله إلا من مرن على اجتراح السيئات ودسى نفسه وأحاطت به الخطايا .

---

(١) سورة غافر الآيتان : ٧١ ـ ٧٢ .

(٢) سورة الشعراء الآيات : ٩٤ ـ ١٠١ .

قسم صادق

قال ـ تعالى ـ :

فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ
شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ
لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ
لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ
لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

معانى المفردات

﴿ ما تبصرون ﴾ : هى المشاهدات ، ﴿ وما لا تبصرون ﴾ : هى المغيبات .

﴿ تقول ﴾ التقول : الافتراء ، وسمى بذلك لأنه قول متكلف ، والأقاويل : الأقوال المفتراه واحدها قول على غير قياس .

﴿ لأخذنا منه ﴾ أى : لأمسكناه ، ﴿ باليمين ﴾ أى : بيمينه .

﴿ الوتين ﴾ عرق يخرج من القلب ويتصل بالرأس .

﴿ حاجزين ﴾ أى : مانعين .

﴿ حق اليقين ﴾ أى : عين اليقين .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن أقام الدليل ـ سبحانه ـ على إمكان القيامة ، ثم على وقوعها ، ثم ذكر أحوال المؤمنين السعداء والكافرين الأشقياء ـ أردف ذلك بتعظيم القرآن والرسول المنزل عليه هذا القرآن ، وأكد هذا بأن محمدا لا يستطيع أن يفتعله ، إذ لو فعل ذلك لأبطلنا حجته ، وأمتنا دعوته ، أو سلبناه قوة البيان فلا يتكلم بهذا الكذب أو قتلناه فلم يستطع نشر الأكاذيب .

ثم ذكر أن القرآن عظة لمن يتقى الله ويخشى عقابه ، وإنه حسرة على الكافرين حينما يرون ثواب المؤمنين ، وإنه لحق لا ريب فيه . ثم أمر رسوله بأن يقدس ربه العظيم ويشكره على ما آتاه من النعيم ، وعلى ما أوحى به إليه من القرآن العظيم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون ﴾ قال قتادة المعنى : أقسم بالأشياء كلها ما يبصر منها وما لا يبصر ، وقال عطاء : ما تبصرون من آثار القدرة ، وما لا تبصرون من أسرار القدرة .

﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ أى : إن هذا القرآن كلام الله ووحيه أنزله على عبده ورسوله محمد - ﷺ - .

﴿ وما هو بقول شاعر ﴾ لأن محمدا لا يحسن قول الشعر ﴿ قليلا ما تؤمنون ﴾ أى : تؤمنون بذلك القرآن إيمانا قليلا ، والمراد أنهم لا يؤمنون أصلاً ، فالعرب تقول : قلما يأتينا ، يريدون أنه لا يأتينا . وقد يكون المراد بالقلة أنهم قد يؤمنون فى قلوبهم ثم يرجعون عنه سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿ ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون ﴾ أى : وليس بقول كاهن كما تزعمون لأنه سب الشياطين وشتمهم ، فلا يمكن أن يكون بإلهامهم ولكنكم لما لم تستطيعوا فهم أسرار نظمه - قلتم : أنه من كلام الكهان .

ثم أكد ما تقدم بقوله :

﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أى : بل هو تنزيل من رب العالمين نزل به الروح الأمين على رسوله - ﷺ - .

قال العلامة ابن القيم عن هذه الآيات المباركات : هذا أعم قسم وقع فى القرآن ، فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ويدخل فى ذلك الملائكة كلهم والجن والانس والعرش والكرسى ، وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته ، وهو - سبحانه - يصرف الأقسام كما يصرف الآيات : ففى ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله وهو كلامه ، لا كلام شاعر ، ولا مجنون ولا كاهن .

ومن تأمل المخلوقات ، ما يراه منها وما لا يراه واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته فى مجارى الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه وهو أصدق الكلام وأنه حق ثابت ، كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق . كما قال تعالى : ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾[1] أى : إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون فهذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق ، كما فى الحديث « أنه لحق مثل ما أنك ههنا » فكأنه سبحانه يقول : إن القرآن حق كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون بعينه ، ومبدأ خلقه ونشأته ، وما يشاهدونه من أحواله ظاهراً وباطنا ، ففى ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب ، وثبوت صفاته ، وصدق ما أخبر به رسوله ، وما لم يباشر قبله ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الايمان قلبه .

ثم ذكر - سبحانه - المقسم عليه فقال : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ وهذا رسوله البشرى محمد - ﷺ - وفى إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل . فمن أنكر أن يكون الله قد تكلم

---

(١) سورة الذاريات آية : ٢٣ .

بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة . ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولا ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكى فى سورة التكوير .

ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم فى نسبة كلامه - تعالى إلى غيره ، وأنه لم يتكلم به ، بل قاله من تلقاء نفسه ، كما بين كذب من قال : ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ فمن زعم أنه قول البشر فقد كفروسيصليه الله سقر .

ثم أخبر - سبحانه - أنه تنزيل من رب العالمين وذلك يتضمن أموراً : ﴿ أحدها ﴾ أنه تعالى فوق خلقه كلهم ، وأن القرآن نزل من عنده . ﴿ والثانى ﴾ أنه تكلم به حقيقة لقوله ﴿ من رب العالمين ﴾ ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير . ونظيره قوله تعالى ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ . ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ . ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

وتأمل كيف أضافه - سبحانه - إلى رسول بلفظ القول ، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام فى قوله ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله ، فيقول قلت : كذا وكذا . والمرسل يقول للرسول : قل لهم : كذا وكذا كما قال تعالى : ﴿ قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة ﴾ ونظائره . فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال : قال الرسول كذا وهذا قول الرسول أى : قاله مبلغا - وهذا قوله مبلغا عن مرسله ، ولا يجىء فى شىء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا ، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا ، ولا أنه بكلام رسول كريم ، ولا فى موضع واحد ، بل قيل للصديق - وقد تلا آية - هذا كلامك وكلام صاحبك فقال ليس بكلامى ولا كلام صاحبى . هذا كلام الله .

(الأمر الثالث) ما تضمنه قوله ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أنه ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى : لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، وعذرهم ما يضرهم . بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة . فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلى ما لا يليق به - تعالى - : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ .

البرهان القاطع على صدق الرسول محمد - ﷺ -

قوله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ .

يقول ابن القيم : ثم أقام - سبحانه - البرهان القاطع على صدق رسوله . وأنه لم يتقول عليه فيما قاله : وأنه لو تقول عليه لما أقره ، ولعاجله بالاهلاك ، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقول عليه ، وافترى عليه وأضل عباده ، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم ، وأظهر فى الأرض الفساد والجور والكذب ، وخالف الخلق فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقره على ذلك ؟ بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ويظفره بأهل الحق : بسفك دماهم ،

ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلا : إن الله أمرنى : بذلك وأباحه لى ؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ، فيصدقه بإقراره ، وبالآيات المسلتزمة لصدقه التى دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها ، فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه الذى هو شر الخلق على الاطلاق ، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من غفل ، وحكمة ، وحجى ، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله .

وقوله تعالى : ﴿ **ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ يقول سبحانه : لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوجه إليه لما أقررناه ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه .

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئا من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة . فإن كذبا على الله ليس ككذب على غيره ، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه .

﴿ **ثم لقطعنا منه الوتين** ﴾ والوتين : نياط القلب ، وهو عرق يجرى فى الظهر حتى يتصل بالقلب ، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه ثم قال ـ سبحانه ـ : ﴿ **فما منكم من أحد عنه حاجزين** ﴾ أى : لا يحجزه منى أحد ولا يمنعه منى .

ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور** ﴾(١) .

وفى معنى هذه الآية للناس قولان : أحدهما قول مجاهد ومقاتل : إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، حتى لا يشق عليك . والثانى قول قتادة : إن يشأ الله ينسك القرآن ويقطع عنك الوحى . وهذا القول دون الأول لوجوه .

(أحدها) أن هذا خرج جوابا لهم وتكذيباً لقولهم : إن محمداً كذب على الله وافترى عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن جواب ، وهو أن الله تعالى ـ قادر لا يعجزه شىء ، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتى بشىء منه ، بل يصير القلب كالشىء المختوم عليه فلا يوصل إلى ما فيه ، فيعود المعنى إلى أنه لو افترى على لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن هذا الكلام لا يصدر من قلب مختوم عليه ، فإن فيه من علوم الأولين والآخرين ، وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة ، والعلم الذى لا يعلمه إلا الله

(١) سورة الشورى آية : ٣٤ .

فالبيان التام ، والجزالة ، والفصاحة والجلالة والأخبار بالغيوب ما لم يمكن من ختم على قلبه أن يأتى به ولا ببعضه ، فلولا أنى أنزلته على قلبه ويسرته بلسانه ـ لما أمكنه أن يأتيكم بشىء منه . فأين هذا المعنى إلى المعنى الذى ذكره الآخرون ؟ وكيف يلتئم مع حكاية قولهم ، وكيف يتضمن الرد عليهم ؟

(الوجه الثانى) أن مجرد الربط على قلبه بالصبر على أذاهم يصدر من المحق والمبطل ، فلا يدل ذلك على التمييز بينهما ، ولا يكون فيه رد لقولهم فإن الصبر على أذى المكذب لا يدل بمجرده على صدق المخبر .

(الثالث) أن الرابط على قلب العبد لا يقال له ختم على قلبه ، ولا يعرف هذا فى عرف المخاطب ولا لغة العرب ، ولا هو المعهود فى القرآن بل المعهود استعمال الختم على القلب فى شأن الكفار فى جميع موارد اللفظ فى القرآن كقوله : ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ ونظائره ، وأما ربطه على قلب العبد بالصبر كقوله : ﴿ **وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض** ﴾ والانسان يسوغ له فى الدعاء أن يقول : اللهم اربط على قلبى ، ولا يحسن أن يقول : اللهم اختم على قلبى .

(الرابع) أنه ـ سبحانه ـ حيث يحكى أقوالهم (أنه افتراه) لا يجيبهم عليه هذا الجواب ، بل يجيبهم بأنه لو افتراه لم يملكوا له من الله شيئا ، بل كان يأخذه ولا يقدرون على تخليصه .

(الخامس) أن هذه الآية نظير ما نحن فيه وأنه لو شاء لما أقره ولا مكنه وتفسير القرآن من أبلغ التفاسير .

قوله تعالى : ﴿ **وإنه لتذكرة للمتقين** ﴾ .

أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقى ، فيبصر ما ينفعه فيأتيه ، وما يضره فيجتنبه ، ويتذكر به أسماء الرب وصفاته وأفعاله فيؤمن ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه ، وآياته فى أوليائه وأعدائه ونفسه ، وما يزكيها ويطهرها ويعليها ، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها . ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار ، وعلم الخير والشر . فهو التذكرة على الحقيقة ، تذكرة حجة للعالمين ، ومنفعة وهداية للمتعلمين .

ثم قال ـ سبحانه ـ ﴿ **وإنا لنعلم أن منكم مكذبين** ﴾ أى : لا يخفون علينا فسنجازيهم بتكذيبهم .

قوله ـ تعالى ـ ﴿ **وإنه لحسرة على الكافرين** ﴾ أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليهم من أعظم الحسرات ، حين لا ينفعهم التحسر . وهكذا كل من كذب بحق وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه ، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله ، حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتى ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان**

خذولا ﴾(١) وكقوله ﴿ أن تقول نفس ياحسرتى على مافرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين . أى : الحق اليقين وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول ، وبالله التوفيق :

ذكر الله ـ سبحانه ـ فى كتابه مراتب اليقين وهى ثلاثة :

حق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين . لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾ فهذه ثلاث مراتب لليقين أولها علمه وهو التصديق التام به ، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة فقدح فى تصديقه ، كعلم اليقين بالجنة مثلاً ، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين ، فهذه مرتبة العلم ، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله ، وتيقنهم صدق المخبر .

(المرتبة الثانية) عين اليقين وهى مرتبة الرؤية والمشاهدة كما قال تعالى ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ وبين هذه المرتبة والتى قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة : فاليقين للسمع . وعين اليقين للبصر ، وفى المسند للامام أحمد مرفوعاً « ليس الخبر كالمعاينة » وهذه المرتبة هى التى سألها ابراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين . فكان سؤاله زيادة لنفسه وطمأنينة لقلبه .

(المرتبة الثالثة) مرتبة حق اليقين ، وهى مباشرة الشىء بالاحساس به . كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم فى الدنيا فى مرتبة علم اليقين ، وفى الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها فى مرتبة عين اليقين ، وإذا أدخلوها وباشروا نعيمها فى مرتبة حق اليقين . ومباشرة المعلوم تارة يكون بالحواس الظاهرة وتارة يكون بالقلب ، فلهذا قال ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ فإن القلب يباشر الايمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها ، فحينئذ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين ، وهذا أعلى مراتب الايمان وهى الصديقين التى تتفاوت فيها مراتب المؤمنين .

ثم ختم السورة الكريمة بقوله ـ تعالى ـ : ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ وهى جديرة بهذه الخاتمة ، لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله . وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده فى الدنيا والآخرة ، وذكر عظمته ـ تعالى ـ فى ارسال رسوله ، وإنزال كتابه ، وأنه ـ تعالى ـ أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقولاً عليه ، مفترى عليه ، يبدل دينه ، وينسخ شرائعه ، ويقتل عباده ويخبر عنه بما لا حقيقة له ، وهو ـ سبحانه ـ مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ، ويأخذ أعداءه ويرفع قدره ، ويعلى ذكره ، فهو سبحانه العظيم الذى تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح الكذب والظلم فسبحان ربنا العظيم ، وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيرا .

سبحانك اللهم وبحمدك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جدك ، وجل ثناؤك ولا إله غيرك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد .

---

(١) سورة الفرقان الآيات : ٢٧ ـ ٢٩ .
(٢) سورة الزمر الآية : ٥٦ .

تفسير سورة المعارج

مقدمة :

يقول صاحب البصائر : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادى

السورة : مكية .

آياتها : أربع وأربعون آية .

كلماتها : مائتان وثلاث عشرة .

وحروفها : سبعمائة وسبع وخمسون .

فواصل آياتها : (جعلناهم) .

أسماء السور :

للسورة ثلاثة أسماء : الأول سأل ، لمفتتحها . والثانى الواقع ، لقوله (بعذاب واقع) الثالث (ذى المعارج) .

مقصود السورة :

بيان جرأة الكافر فى استعجال العذاب ، وطول القيامة وهولها ، وشغل الخلائق فى ذلك اليوم المهيب ، واختلاف حال الناس فى الخير والشر ومحافظة المؤمنين على خصال الخير ، وطمع الكفار فى غير مطمع ، وذل الكافرين فى يوم القيامة فى قوله ﴿ **ترهقهم ذلة** ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ **إلا المصلين** ﴾ عد عقيب ذكرهم الخصال المذكورة أول سورة المؤمنين ، وزاد فيها ﴿ **والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾ لأنه وقع عقيب قوله ﴿ **لأماناتهم وعهدهم راعون** ﴾ وإقامة الشهادة أمانة ، يؤديها إذا احتاج إليها صاحبها ، لاحياء حق ، فهى إذا من جملة الأمانة وقد ذكرت الأمانة فى سورة المؤمنين ، وخصت هذه السورة بزيادة بيانها ، كما خصت بإعادة ذكر الصلاة حيث قال ﴿ **والذين هم على صلاتهم يحافظون** ﴾ بعد قوله ﴿ **الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون** ﴾ .

مناسبتها لما قبلها : السورة نزلت بعد سورة الحاقة ، وهى كالتتمة لها فى وصف القيامة وعذاب النار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾
تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا
جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ﴿٨﴾
وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ
لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي
تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ
أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾

معانى المفردات

﴿ **سأل سائل** ﴾ : دعا داع .

﴿ **ليس له دافع** ﴾ : أى : أنه واقع لا محالة .

﴿ **المعارج** ﴾ : واحدها مِعْرج ، وهو المِصعد . (بكسر الميم) .

﴿ **والروح**) : هو جبريل ـ عليه السلام ـ أمين الوحى .

﴿ **كالمهل** ﴾ المهل : وردىء الزيت وهو ما يكون فى قعر الاناء منه .

﴿ **كالعهن** ﴾ العهن : الصوف المصبوغ ألواناً .

﴿ **حميم**) الحميم : القريب .

﴿ **يبصرونهم** ﴾ : أى : يبصر الأحماد الأحماء ويرونهم .

﴿ **يود** ﴾أى : يتمنى ، ﴿ **المجرم** ﴾ المذنب ، ﴿ **وصاحبته** ﴾زوجته ، ﴿ **وفصيلته** ﴾ هى عشيرته ، ﴿ **تؤويه** ﴾ : أى تضمه ويأوى إليها ﴿ **كلا** ﴾ هى كلمة تفيد الزجر عما يطلب ، ﴿ **لظى** ﴾هى النار ﴿ **للشوى** ﴾الشوى واحدها شواه ، وهى جلدة الرأس تنتزعها النار انتزاعاً فتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ، ﴿ **تدعو** ﴾ أى : تجذب وتحضر ، ﴿ **تولى** ﴾ أى : أعرض عن الطاعة ، ﴿ **جمع فأوعى** ﴾ أى : جمع المال فجعله فى وعاء .

التفسير

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع . من الله ذى المعارج . تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة .** ﴾ .

قال العوفى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله : ﴿ **سأل سائل بعذاب واقع** ﴾ قال ذلك سؤال الكفار عن عذاب الله وهو واقع بهم كقوله تعالى : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون . يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** ﴾[1] .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **واقع . للكافرين** ﴾ أى : مرصد معد للكافرين .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ليس له دافع** ﴾ أى : لا دافع له إذا أراد الله كونه ولهذا قال تعالى : ﴿ **من الله ذى المعارج** ﴾ قال ابن عباس : ذو الدرجات وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ذى المعارج يعنى العلو والفواضل .

وقال مجاهد : ذى المعارج معارج السماء . وقالت قتادة : ذو الفواضل والنعم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **تعرج الملائكة والروح إليه** ﴾ قال عبد الرازق عن معمر عن قتادة تعرج تصعد والروح قيل : هو جبريل عليه السلام ـ وذكر من باب عطف الخاص على العام وقيل : ﴿ الروح ﴾ اسم جنس لأرواح بنى آدم فإنها إذا قبضت يصعد بها إلى السماء .

وقوله تعالى : ﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله : ﴿ **فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة** ﴾ قال منتهى أمره من أسفل الأرضين إلى منتهى أمره من فوق السموات خمسين ألف سنة . وقوله تعالى فى ﴿ آلم تنزيل ﴾ فى ﴿ **فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ يعنى بذلك نزول الأمر من سماء الدنيا إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء فى يوم واحد فذلك مقدار ألف سنة . وقيل : هو يوم القيامة قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو يوم القيامة جعله الله على الكافرين مقدار خمسين ألف سنة ، ثم يدخلون النار للاستقرار . (رواه ابن أبى حاتم) .

قال القرطبى : وهذا القول أحسن ما قيل فى هذه الآية ـ إن شاء الله ، بدليل ما رواه قاسم بن أصبغ من حديث أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » فقلت : ما أطول هذا ؟ فقال النبى ـ ﷺ ـ : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى

---

(١) سورة العنكبوت الآيتان : ٥٣ ـ ٥٤ .

يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا »[١] . واستدل النحاس على صحة هذا القول بما رواه سُهيل عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - أنه قال : « ما من رجل لم يؤد زكاة ماله إلا جعل شجاعاً من نار تكوى به جبهته وظهره وجنباه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى الله بين الناس »[٢] .

قال : فهذا يدل على أنه يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿ **فاصبر صبراً جميلا . إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً** ﴾ .

أى : اصبر يا محمد على أذى قومك . والصبر الجميل هو الذى لا جزع فيه ، ولا شكوى لغير الله ، كقوله تعالى : ﴿ **واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **إنهم يرونه قريبا** ﴾ يريد أهل مكة يرون العذاب بالنار بعيدا ، أى غير كائن . ﴿ **ونراه قريباً** ﴾ لأن ما هو آت فهو قريب .

قوله تعالى : ﴿ **يوم تكون السماء كالمهل . وتكون الجبال كالعهن . ولا يسأل حميم حميماً** ﴾ .

أى : إن العذاب واقع بالكافرين ، يوم تكون السماء كالمهل ، كأنها عكر الزيت . والمراد أنها تكون واهية ضعيفة غير متماسكة كما قال تعالى : ﴿ **فهى يومئذ واهية** ﴾ .

وقوله : ﴿ **وتكون الجبال كالعهن** ﴾ أى : وتكون الجبال هشة غير متلاحمة فكأنها الصوف المنفوش إذا طيرته الريح . كقوله تعالى : ﴿ **القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة . يوم يكون الناس كالفراش المبثوث . وتكون الجبال كالعهن المنفوش** ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **ولا يسأل حميم حميما** ﴾ أى : ولا يسأل قريب مشفق قريباً عن حاله ، ولا يكلمه لابتلاء كل منهما بما يشغله كما قال تعالى : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون** ﴾[٥] وكقوله : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه . وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾[٦] .

وقوله : ﴿ **يبصرونهم** ﴾ أى : يتعارفون ثم يفر بعضهم من بعض بعد ذلك . قال القرطبى : وليس فى القيامة مخلوق إلا وهو نصب عين صاحبه من الجن والانس . فيبصر الرجل أباه وأخاه وقرابته وعشيرته ولا يسأله ولا يكلمه ، لاشتغالهم بأنفسهم . وقال ابن عباس : يتعارفون ساعة ثم لا يتعارفون بعد تلك الساعة .

---

(١) انظر مسند الامام أحمد جـ ٣ ص ٧٥ فقد أورد الحديث عن رواية لأبى سعيد الخدرى .

(٢) انظر الترغب والترهيب للمنذرى جـ ١ ص ٥٣٧ كتاب الزكاة باب الترهيب من منع الزكاة . . . الخ فقد أورد الحديث رقم ٢ من رواية للنسائى .

(٣) سورة المزمل الآية : ١٠ .

(٤) سورة القارعة الآيات : ١ - ٥ .

(٥) سورة المؤمنون آية : ١٠١ .

(٦) سورة عبس الآيات : ٢٤ - ٢٧ .

وقيل : يبصر المظلوم ظالمه ، والمقتول قاتله .

وقوله تعالى : ﴿ يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التى تؤويه . ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه ﴾ .

أى : يتمنى الكافر لو ينفع أعز الناس إليه فدية لينجيه من ذلك العذاب ، فيود لو كان أبناؤه ، أو زوجته ، أو أخوه ، أو عشيرته التى تضمه إليه ، أو أهل الأرض جميعا فداء له ليخلص من ذلك العذاب . هيهات .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أى : لا يقبل منه فداء ولو جاء بأهل الأرض ، أو بأعز ما يجده من مال ولو بملء الأرض ذهبا ، أو بولده الذى كان حشاشة كبده فى الدنيا ، أو بزوجته وعشيرته . كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾(١) وكقوله : ﴿ والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ إنها لظى . نزاعة للشوى . تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى ﴾ أى : أنها النار الشديدة الحرارة التى تنزع جلدة الرأس وتفرقها ثم تعود إلى ما كانت عليه ، وهذه النار تجذب إليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر أنهم فى الدنيا يعملون عملها ، من بين أهل المحشر فدرسوا أنفسهم إذ كذبوا بقلوبهم ، وتركوا العمل بجوارحهم ، وجمعوا المال بعضه على بعض وكنزوه ولم يؤدوا حق الله فيه ، وتشاغلوا به عن فرائضه من أوامر ونواه .

وقوله : ﴿ تدعو من أدبر وتولى ﴾ أى : تدعو لظى من أدبر فى الدنيا عن طاعة الله وتولى عن الايمان ودعاؤها أن تقول : إلىَّ يا مشرك إلىّ يا كافر ، وقال ابن عباس : تدعو الكافرين والمنافقين بأسمائهم بلسان فصيح : إلىَّ يا كافر ، إلىّ يا منافق ، ثم تلتقطهم كما يلتقط الطير الحب .

وقوله : ﴿ وجمع فأوعى ﴾ أى : جمع المال فجعله فى وعائه ومنع منه حق الله ـ تعالى ـ .

---

(١) سورة آل عمران آية : ٩١ .
(٢) سورة الرعد من الآية : ١٨ .

من طبائع النفس الانسانية
وذكر أصحاب الجنة

قال تعالى :

*إِنَّ الْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١)
إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ (٢٣) وَالَّذِينَ فِي أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤)
لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم
مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ (٢٨) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ (٢٩)
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٣١) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ هُم
بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَائِمُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٣٤) أُولَٰئِكَ فِي جَنَّٰتٍ
مُّكْرَمُونَ (٣٥)

معانى المفردات

﴿ هلوعا ﴾ الهلع : سرعة الحزن عند مس المكروه ، وسرعة المنع عند مس الخير . وسأل محمد ابن طاهر ثعلبا عن الهلع فقال : قد فسره الله ولا يكون تفسيرا أبين من تفسيره ـ سبحانه ـ يعنى قوله (إذا مسه) الآية .

﴿ جزوعا ﴾ الجزع : حزن يصرف الانسان عما هو بصدده ويقطعه عنه .

﴿ الخير ﴾ : المال والغنى .

﴿ حق معلوم ﴾ : نصيب معين يوجبونه على أنفسهم تقربا إلى الله وإشفاقا على المحتاجين .

﴿ المحروم ﴾ : الفقير الذى لا يسأل الناس فيظن أنه غنى .

﴿ يصدقون بيوم الدين ﴾ : أى : يصدقون به تصديقا يكون له الأثر فى نفوسهم .

﴿ مشفقون ﴾ أى : خائفون .

﴿ حافظون ﴾ أى : كافّون لها عن الحرام .

﴿ راعون ﴾ أى : لا يخلون بشىء من حقوقها .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ أنه هو ذو المعارج والدرجات العالية ، والنعم الوفيرة التى يسبغها على عباده ـ أردف هذا بذكر المؤهلات التى توصل إلى تلك المراتب ، وتبعد عن ظلمة المادة التى تدخل النفوس فى النار الموقدة التى تنتزع الشوى ، وبين أنها عشر خصال تفكه من السلاسل التى تقيده بها غرائزه التى فطر عليها ، وعاداته التى ألفها وركن إليها وهى ترجع إلى شيئن : الحرص ، والجزع .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إن الانسان خلق هلوعا . إذا مسه الشر جزوعا . وإذا مسه الخير منوعا ﴾ .

أى : أن الانسان جبل على الهلع ، فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فإذا اقتصر أو مرض أخذ فى الشكاة والجزع ، وإذا صار غنيا أو سليما معافى منع معروفه وشح بماله ، وما زال إلا لاشتغاله بأحواله الجسمانية العاجلة ، وقد كان من الواجب أن يكون مشغولا بأحوال الآخرة . كقوله تعالى : ﴿ لا يسأم الانسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط . ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربى إن لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقهم من عذاب غليظ . وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه . وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾[1] .

وقد استثنى ـ سبحانه ـ من هذه الحال من اتصفوا بالصفات الآتية :

---

(١) سورة فصلت الآيات : ٤٩ ـ ٥١ .

﴿ إلا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ قال النخعى : المراد بالمصلين الذين يؤدون الصلاة المكتوبة . وقال ابن مسعود : يصلونها لوقتها ، فأما تركها فكفر وقوله : ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون ﴾ أى : على مواقيتها . وقال عقبة بن عامر : هم الذين إذا صلوا لم يلتفتوا يمينا ولا شمالا . والدائم الساكن كما وصفهم فى صدر سورة « المؤمنون » ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾ . وقال ابن جريج والحسن : هم الذين يكثرون فعل التطوع .

وقال القرطبى : مداومتهم عليها أن يحافظوا على أدائها لا يُخلُّون بها . ولا يشتغلون عنها بشىء من الشواغل .

وقوله : ﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم ﴾ ، أى : فى أموالهم نصيب مقرر لذوى الحاجات وهو الزكاة ﴿ للسائل والمحروم ﴾ أى : للفقير الذى يسأل ويتكفف الناس ، والمحروم الذى يتعفف عن السؤال فيظن أنه غنى فيحرم ، كقوله تعالى : ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ (١) .

وقوله : ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أى : يؤمنون بيوم الحساب والجزاء ، ويصدقون بمجيئه تصديقا جازما لا يشوبه شك أو ارتياب ، فيستعدون له بالأعمال الصالحة .

وقوله : ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ أى : خائفون وجلون كما وصفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله : ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (٢) ووصفهم بقوله ـ سبحانه ـ : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾ (٣) .

وبقوله : ﴿ والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ (٤) .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ أى : لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله ـ تبارك وتعالى ـ : .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ أى : يكفونها عن الحرام ويمنعونها أن توضع فى غير ما أذن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال تعالى : ﴿ الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ أى : يقتصرون على ما أحل الله لهم من الزوجات المنكوحات ، والرقيقات المملوكات .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٧٣ .
(٢) سورة الزمر من الآية : ٩ .
(٣) سورة السجدة الآية : ١٦ .
(٤) سورة الفرقان الآيات : ٦٤ - ٦٦ .

قوله تعالى : ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ أى : فإنهم غير مؤاخذين لأن وضع الشهوة فيما أباح الله من الزوجات والمملوكات حلال يؤجر عليه الانسان ، لما فيه من تكثير النسل والذرية .

وقوله تعالى : ﴿ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ أى : فمن طلب لقضاء شهوته غير الزوجات والمملوكات ، فقد تعدى حدود الله وعرض نفسه لعذاب الله .

قال الطبْرى : من التمس لفرجه منكحاً سوى زوجته أو ملك يمينه ، ففاعلوا ذلك هم العادون ، الذين تعدوا حدود ما أحل الله لهم ، إلى ما حرمه عليهم ، فهم الملومون .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أى : يؤدون الأمانات ويحفظون العهود ، فإذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذاعاهدوا لم يغدروا وهذه صفات المؤمنين وضدها صفات المنافقين كما ورد فى الحديث الصحيح « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » . وفى رواية « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وقوله تعالى : ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أى : محافظون عليها لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ولا يكتمونها كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾[١] ـ الآية . وكما قال سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ . . الآية[٢] . وقال سبحانه : ﴿ ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾[٣] .

فالمؤمن التقى يشهد بالحق على القريب والبعيد ، ولا يكتم الشهادة ولا يغيرها بل يؤديها على وجهها الكامل ، بحيث تصان بها حقوق الناس ومصالحهم وخص سبحانه الشهادة بالذكر مع إندراجها فى الأمانات ، تنبيهاً على فضلها وخطرها لأن فى إقامتها إحياء للحقوق ، وفى تركها تضييع للحقوق .

قوله تعالى : ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ هذا هو الوصف الثامن من أوصاف المؤمنين الذين وفقهم الله إلى تطهير نفوسهم من خلق الهلع المذموم ، أى : يراعون شرائط الصلاة ويلتزمون آدابها ، ولا سيما الخشوع والتدبر ومراقبة الله فيها ، وإلا كانت حركات صورية لا يجنى العبد ثمرتها ، فإن فائدة الصلاة أن تكف عن المحارم كما قال تعالى : ﴿ اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴾[٤] وكما قال ـ سبحانه ـ ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾[٥] .

---

(١) سورة النساء من الآية : ١٣٥ .
(٢) سورة المائدة من الآية : ٨ .
(٣) سورة البقرة من الآية : ٢٨٣ .
(٤) سورة العنكبوت الآية : ٤٥ .
(٥) سورة فاطر من الآية : ١٨ .

قال ابن كثير افتتح ـ سبحانه ـ الكلام بذكر الصلاة واختتمه بذكرها فدل على الاعتناء بها والتنويه بشرفها كما تقدم فى أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ سواء ولهذا قال هناك : ﴿ أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ وقال عنهما : ﴿ أولئك فى جنات مكرمون ﴾ أى : أولئك المتصفون بتلك الأوصاف الجليلة ، والمناقب الرفيعة مستقرون فى جنات النعيم ، التى أكرمهم الله فيها بأنواع الكرامات ، مع الإنعام والتكريم بأنواع الملاذ والمشتهيات ، لا تصافهم بمكارم الأخلاق .

وعن أبى الدرداء ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة : من حافظ على الصلوات الخمس : على وضوئهن ، وركوعهن ، وسجودهن ، ومواقيتهن ، وصام رمضان ، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، وآتى الزكاة طيبة بها نفسه ، وأدى الأمانة » قيل : يا رسول الله ، وما أداء الأمانة ؟ قال : « الغسل من الجنابة ، إن الله لم يأمن ابن آدم على شىء من دينة غيرها »[(١)] رواه الطبرانى بإسناد جيد .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ : أى العمل أحب إلى الله تعالى ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أى ؟ قال : ثم « بر الوالدين » قلت : ثم أى ؟ قال : ثم « الجهاد فى سبيل الله » قال : حدثنى بهن رسول الله ـ ﷺ ـ ولو استزدته لزادنى »[(٢)] . (متفق عليه)

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « صلاة الرجل فى جماعة تضعف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمساً وعشرين ضعفاً ، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخط خطوة إلا رفعت له بها درجة وخط عنه بها خطيئة ، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مصلاه . يقول : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة »[(٣)] . رواه البخارى .

« فاعرف نفسك يا عبد الله ، واعلم أن حظك من الإسلام ، وقدر الإسلام عنك بقدر حظك من الصلاة وقدرها عندك ، واحذر أن تلقى الله ولا قدر للإسلام عندك ، فإن قدر الإسلام فى قلبك كقدر الصلاة فى قلبك ، وقد جاء فى الحديث عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد فى سبيل الله »[(٤)] ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ، فكذلك الصلاة من الإسلام فانظروا ـ رحمكم الله ـ واعقلوا وأحكموا الصلاة واتقوا الله فيها ، وتعاونوا عليها ، وتناصحوا فيها بالتعليم من بعضكم لبعض فإن الله تعالى ـ قد أمركم أن : تعاونوا على البر والتقوى ، والصلاة أفضل البر . وقد جاء فى الحديث : « أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون منه الصلاة ، وليصلين أقوام لا خلاق لهم أى : لا نصيب لهم من الدين ولا من الخير والصلاح .

(١) انظر مجمع الزوائد جـ ١ ص ٤٧ باب فيما بنى عليه الاسلام فقد ورد الحديث من رواية أبى الدرداء . وقال رواه الطبرانى فى الكبير وإسناده جيد .

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ١ صـ ٩٠ كتاب الإيمان باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال حديث رقم ١٣٩/٨٥ فقد أورد الحديث بلفظه .

(٣) البخارى انظر صحيح البخارى جـ ١ صـ ١٦٦ فقد أورد الحديث بلفظه من رواية لأبى هريرة .

(٤) أنظر البخارى فى التاريخ جـ ٧ صـ ٤٢٦ فقد ورد الحديث برقم ١٨٦٨ باب مبارك من رواية لمعاذ بن جبل .

وجاء فى الحديث : « أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله : صلاته فإن تقبلت منه صلاته ، تقبل منه سائر عمله ، وإن ردت عليه صلاته رد سائر عمله » .

« فصلاتنا آخر ديننا وهى أول ما نسأل عنه غداً من أعمالنا . . فتمسكوا رحمكم الله - بآخر دينكم » . (رسالة الصلاة لأحمد بن حنبل) .

قال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - « من سره أن يلقى غداً مسلماً ، فليحافظ على هؤلاء الصلوات ، حيث ينادى بهن ، فإن الله شرع لنبيكم - ﷺ - سنن الهدى ، وإنهن من سنن الهدى ، ولو أنكم صليتم فى بيوتكم كما يصلى هذا المتخلف فى بيته لتركتم سنة نبيكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتهم ، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور ثم يعمد إلى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بكل خطوة يخطوها حسنة ، ويرفعه بها درجة ، ويحط عنه بها سيئة ، ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم النفاق ، ولقد كان الرجل يؤتى به ، يهادى بين الرجلين حتى يقام فى الصف »[٢] رواه مسلم .

من أحوال المعاندين

قال تعالى :

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ
كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ
بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾
فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ
مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ
ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

(٢) صحيح مسلم جـ١ صـ٤٥٣ كتاب المساجد باب صلاة الجماعة من سنن الهدى فقد أورد الحديث من رواية لعبد الله .

معانى المفــردات

﴿ قبلك ﴾ : أى : الجهة التى تليك .

﴿ مهطعين ﴾ أى : مسرعين نحوك ، مادى أعناقهم إليك ، مقبلين بأبصارهم عليك ، ليظفروا بما يجعلونه هزوا .

﴿ عزين ﴾ أى : فرقاً شتى خلقاً خلقاً .

﴿ بمسبوقين ﴾ أى : بمغلوبين .

﴿ الأجداث ﴾ القبور واحدها جدث .

﴿ سراعاً ﴾ السراع واحدهم سريع .

﴿ والنصب ﴾ (بضمتين) كل شىء منصوب كالعلم والراية ، وكذا ما ينصب للعبادة ، وهو المراد هنا .

﴿ يوفضون ﴾ أى : يسرعون .

﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ أى : ذليلة .

﴿ ترهقهم ﴾ أى : تغشاهم .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن وعد الله المؤمنين بجنات النعيم مع الكرامة والإجلال ـ أردف ذلك بذكر أحوال الكافرين مع الرسول ـ ﷺ ـ : وأبان لهم خطأهم فيما يرجون من جنات النعيم على ما هم عليه من كفر وجحود ، ثم توعدهم بالهلاك ، ولن يستطيع أحد دفعه عنهم يوم يخرجون من قبورهم مسرعين كأنهم ذاهبون إلى معبوداتهم الباطلة من الأصنام والأوثان ـ وقد كان من دأبهم أن يسرعوا حين الذهاب إليها ـ وهم فى هذا اليوم تكون أبصارهم ذليلة وترهق وجوههم قترة ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

التفســـــير

قوله تعالى : ﴿ **فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين** ﴾ : فما بالهم يسرعون إليك ، ويجلسون حواليك ، عن يمينك وعن شمالك جماعات متفرقة ، نافرين منك ، لا يلتفتون إلى ما تلقيه عليهم من رحمة الله وهديه ، ونصحه وإرشاده ، وما فيه سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

قال القرطبى : نزلت فى جمع من المنافقين المستهزئين ، كانوا يحضرونه - ﷺ - ولا يؤمنون به . ونحو الآية : قوله تعالى : ﴿ **فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة ، فرت من قسورة ، بل يريد كل امرىء منهم أو يؤتى صحفاً منشرة ، كلا بل لا يخافون الآخرة** ﴾[١] .

قوله تعالى : ﴿ **أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم ، كلا** ﴾ . أى : أيطمع هؤلاء وهم نافرون من الرسول - ﷺ - معرضون عن سماع الحق أن يدخلوا جنتى كما يدخلها المؤمنون المخبتون الذين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ؟ كلا ! لا مطمع لهم فى ذلك مع ما هم فيه .

قال القرطبى : قال المفسرون : كان المشركون يجتمعون حول النبى - ﷺ - ويستمعون كلامه فيكذبونه ويكذبون عليه ، ويستهزئون بأصحابه ويقولون : لئن دخل هؤلاء الجنة لندخلنها قبلهم ، ولئن أعطوا منها شيئاً لنعطين أكثر منه ، فنزلت ﴿ أيطمع .. ﴾ الآية .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا خلقناهم مما يعلمون** ﴾ أى : إنهم يعلمون أنهم مخلوقون من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، كما خلق سائر جنسهم فليس لهم فضل يستوجبون به الجنة ، وإنما تستوجب بالإيمان والعمل الصالح ورحمة الله تعالى . .

روى أن مطرف بن عبد الله رأى المهلب ، ابن أبى صُفرة يتبختر فى مُطرِف خزٍّ وجبة خز فقال له : يا عبد الله ، ما هذه المشية التى يبغضها الله ؟ فقال له : أتعرفنى ؟ قال نعم ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة . فمضى المهلب وترك مشيته . نظم الكلام محمود الوراق فقال :

عجبت من معجب بصورته ... وكان فى الأصل نطفة مذرة
وهو غدا بعد حسن صورته ... يصير فى اللحد جيفة قذرة
وهو على تيهه ونخوته ... ما بين ثوبيه يحمل العذره

وقال آخر :

هل فى ابن آدم غير الرأس مكرمة ... وهو بخمس من الأوساخ مضروب
أنف يسيل وأذن ريحها سهك ... والعين مُرمصة والثغر ملهوب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... قصّر فإنك مأكول ومشروب

---

(١) سورة المدثر الآيتان : ٤٩ - ٥٣ .

والنجوم ، وربوبيته ما بين الجهتين ، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه ، ثم قال ـ تعالى ـ : ﴿ **إنا لقادرون ، على أن نبدِّل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين** ﴾ أى : لقادرون على أن نذهب بهم ونأتى بأطوع لنا منهم وخيراً منهم كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **إن يشأ يذهبكم أيها الناس ، ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديراً** ﴾(1) .

وقوله ﴿ **وما نحن بمسبوقين** ﴾ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه ، ولهذا عُدِّىَ بعلى دون إلى ، كما فى قوله ﴿ **وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم** ﴾ فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عدَّاه بعلى ، بخلاف سبقه إليه . فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه . فالأول بمعنى غلبته وقهرته عليه ، والثانى بمعنى وصلت إليه قبله .

قوله تعالى : ﴿ **فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون** ﴾ ، وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم الحجة فلم يقبلوها ، ولم يخافوا بأس الله ، ولا صدقوا رسالته فى خوضهم بالباطل ولعبهم ، فالخوض فى الباطل ضد التكلم بالحق ، واللعب ضد السعى الذى يعود نفعه على ساعيه . فالأول ضد العلم النافع . والثانى ضد العمل الصالح . فلا تكلم بالحق ولا عمل بالصواب ، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لابد له من هذين الأمرين .

ثم ذكر ـ سبحانه ـ حالهم عند خروجهم من القبور فقال ـ تعالى ـ : ﴿ **يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون** ﴾ أى : يسرعون والنسب : العلم والغاية التى تنصب ، فيؤمونها . وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه ، فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعى ، يؤمون الصوت ، لا يعرضون عنه يمنة ولا يسرة كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له** ﴾(2) أى : يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته ، لا يعرجون عنه . قال الزجاج : المعنى لا عوج لهم عن دعائه ، أى : لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده .

ثم قال ـ سبحانه ـ : ﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾ فوصفهم بذل الظاهر وهو خشوع الأبصار ، وذل الباطن وهو ما يرهقهم من الذل خشعت عنه أبصارهم وقريب من هذا قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾(3) ونظيره قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾(4) ، وضد هذا قوله تعالى ﴿ **ولقاهم نضرة وسروراً** ﴾(5) فالنضرة عز الظاهر وجماله ، والسرور عز الباطن وجماله ومنه قوله ﴿ **فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾(6) فجمع هؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ، ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن .

---

(1) سورة النساء : الآية : ١٣٣ .
(2) سورة طه من الآية : ١٠٨ .
(3) سورة القيامة الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ .
(4) سورة يونس من الآية : ٢٧ .
(5) سورة الإنسان من الآية : ١١ .
(6) سورة آل عمران من الآية : ١٠٦ والآية ١٠٧ .

قوله تعالى : **فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون ، على أن نبدل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين ﴾** .

أى : أقسم برب الكواكب ومشارقها ومغاربها ، إنا لقادرون على أن نخلق أمثل منهم يستمعون دعوة الداعى ونصح الناصح ، ونهلك هؤلاء ، ولن يعجزنا ذلك ، لكن مشيئتنا اقتضت تأخير عقوبتهم .

• **قال العلامة ابن القيم** : أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب ، وهى إما مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب ، فكذلك جمع فى موضع ، وأفرد فى موضع وثنى فى موضع ، فقال تعالى : ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ فقيل : هما مشرق الصيف والشتاء ، وجاء فى كل موضع ما يناسبه ، فجاء فى سورة الرحمن ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات ، فذكر فيها الخلق والتعليم ، والشمس والقمر ، والنجوم والشجر ، والسماء والأرض ، والحب والثمر ، والجن والإنس ، ومادة أبى البشر وأبى الجن ، والبحرين ، والجنة والنار ، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين ، وجنتين دونهما ، وأخبر أن فى كل جنة عينين فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين ، والمغربين .

وأما سورة ﴿ **سأل سائل** ﴾ فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها ، وصحة تعلقها بإعادتهم بعد العدم . فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع ، إذ هو أدل على المقسم عليه ، سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها ، أو مشارق الشمس ومغاربها ، أو كل جزء من جهتى المشرق والمغرب . فكل ذلك آية ودلالة على قدرته ـ تعالى ـ على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون . فيأتى بهم فى نشأة أخرى ، كما يأتى بالشمس كل يوم من مطلع ، ويذهب بها فى مغرب .

وأما فى سورة ﴿ **المزمل** ﴾ فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد ، لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته ، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده ، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده ، فليس للمشرق والمغرب رب سواه ـ فكذلك ينبغى أن لا يتخذ إله ولا وكيل سواه ، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله : ﴿ **وما رب العالمين** ﴾ ؟ فقال : ﴿ **رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون** ﴾ .

وفى ربوبيته ـ سبحانه ـ للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته للسموات وما حوته من الشمس والقمر

ثم ذكر سبحانه أن ذلك العذاب الذى وقعوا فيه ، كانوا قد أنذروا به ولم يأتهم بغتة فقال : ﴿ **ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون** ﴾ أى : ذلك اليوم وما فيه من أهوال كانوا قد أنذروا فى الدنيا أنهم ملاقوه وكانوا به يكذبون ، فلا عذر لهم فيما سيموا به من سوء العذاب .

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ، ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

اللهم إنى أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

تفسـير سورة نوح

مقدمـة

السورة مكّية .

عدد آياتها : ثمان وعشرون آية .

وكلماتها : مائتان وأربع وعشرون .

وحروفها : تسعمائة وتسع وخمسون .

فواصل آياتها : (منا) على الميم آية أليم .

سميت سورة نوح لذكره فى مفتتحها ومختتمها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : أمر نوح بالدعوة ، وشكاية نوح من قومه ، والاستغفار لسعة النعمة ، وتحويل حال الخلق من حال إلى حال ، وإظهار العجائب على سقف السماء ، وظهور دلائل القدرة على بسيط الأرض ، وغرق قوم نوح ، ودعاؤه عليهم بالهلاك ، وللمؤمنين بالرحمة ، وللظالمين بالتبار والخسارة فى قوله : ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا تبارا** ﴾ .

المتشابهات :

(قال نوح) بغير واو ، ثم قال (وقال نوح) بزيادة الواو ، لأن الأول ابتداء دعاء ، والثانى عطف عليه .

قوله ﴿ **ولا تزد الظالمين إلا ضلالا** ﴾ وبعده ﴿ **إلا تبارا** ﴾ ، لأن الأول وقع بعد قوله : ﴿ **وقد أضلوا كثيراً** ﴾ ، والثانى بعد قوله : ﴿ لا تذر على الأرض ﴾ فذكر فى كل مكان ما اقتضاه ، وما شاكل معناه .

مناسبة السورة لما قبلها ..

(١) أنه قال فى السورة السابقة : ﴿ **إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم** ﴾ .

وذكر هنا قصة بقوم نوح المشتملة على إغراقهم إلا من قد آمن ، وإبدالهم بمن هم خير منهم ، فكأنها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى .

(٢) تواخى مطلع السورتين فى ذكر العذاب الموعود به الكفار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى :

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم
مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا
فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا
ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي
أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾
يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ
وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾
أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ
الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

معانى المفـردات

﴿ إن أجل الله ﴾ وقت مجىء عذابه إن لم تؤمنوا .
﴿ فراراً ﴾ تباعداً ونفاراً عن الإيمان .
﴿ استغشوا ثيابهم ﴾ بالغوا فى التغطى بها كراهة لى .

﴿ أصروا ﴾ تشددوا وانهمكوا فى الكفر .
﴿ يرسل السماء ﴾ المطر الذى فى السحاب .
﴿ مدراراً ﴾ غزيراً متتابعاً . .
﴿ لا ترجون لله وقاراً ﴾ لا تعتقدون أو لاتخافون عظمة الله .
﴿ خلقكم أطواراً ﴾ مدرجاً لكم فى حالات مختلفة .
﴿ سموات طباقاً ﴾ كل سماء مقبية على الأخرى .
﴿ الشمس سراجاً ﴾ مصباحاً مضيئاً يمحو الظلام .
﴿ أنبتكم من الأرض ﴾ أنشأكم من طينتها .
﴿ الأرض بساطا ﴾ فراشاً مبوسطاً للاستقرار عليها .
﴿ سبلاً فجاجاً ﴾ طرقاً واسعات .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون** ﴾ .

يقول ـ تعالى ـ مخبراً عن نوح ـ عليه السلام ـ : أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ولهذا قال تعالى : ﴿ **أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إنى لكم نذير مبين** ﴾ أى : بين النذارة ، ظاهر الأمر واضحه . ﴿ **أن اعبدوا الله واتقوه** ﴾ أى : اتركوا محارمه واجتنبوا مآثمه . (وأطيعون) فيما أمركم به وأنهاكم عنه . ﴿ **يغفر لكم من ذنوبكم** ﴾ أى : إذا فعلتم ماأمركم به وصدقتم ماأرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم .

قال ابن جرير من هنا بمعنى عن والتقدير : يصفح لكم عن ذنوبكم ، وقيل : إنها للتبعيض أى : يغفر لكم الذنوب العظام التى وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام والله أعلم .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **ويؤخركم إلى أجل مسمى** ﴾ أى : يمد فى أعماركم ويدرأ عنكم العذاب الذى إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم .

قال ابن كثير : وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزداد بها فى العمر حقيقة كما ورد به الحديث « صلة الرحم تزيد فى العمر » .

وقوله - تعالى - : ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ أى : بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة فإنه إذا أمر - تعالى - بكون ذلك لا يرد ولا يمانع فإنه العظيم الذى قد قهر كل شىء ، والعزيز الذى دانت لعزته جميع المخلوقات .

قوله - تعالى - : ﴿ **قال رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً . ثم إنى دعوتهم جهاراً . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً** ﴾ .

يخبر - تعالى - عن عبده ورسوله نوح - عليه السلام - أنه اشتكى إلى ربه - عز وجل - ما لقى من قومه ، وما صبر عليهم فى تلك المدة الطويلة ، التى هى ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما بين لقومه ووضح لهم ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم فقال : ﴿ **رب إنى دعوت قومى ليلاً ونهاراً** ﴾ أى : لم أترك دعاءهم فى ليل أو نهار امتثالاً لأمرك وابتغاء طاعتك ﴿ **فلم يزدهم دعائى إلا فراراً** ﴾ أى : كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه . ﴿ **وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم** ﴾ أى : سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ﴿ **واستغشوا ثيابهم** ﴾ قال ابن عباس : تنكروا له لئلا يعرفهم ، وقال سعيد بن جبير : غطوا رءوسهم لئلا يسمعوا مايقول ﴿ **وأصروا** ﴾ أى : استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم ﴿ **واستكبروا استكباراً** ﴾ أى : واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد له .

قوله - تعالى - : ﴿ **ثم إنى دعوتهم جهاراً . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً** ﴾ أى : ثم إنى يا رب دعوتهم إلى عبادتك مرة بعد أخرى بأساليب مختلفة : فحيناً أدعوهم جهراً فى مجتمعاتهم ، وحيناً أنفرد ببعضهم سراً .

قوله - تعالى - : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾ .

أى : قلت لهم : سلوا الله المغفرة من ذنوبكم السالفة بإخلاص الإيمان ﴿ **إنه كان غفاراً** ﴾ يغفر الذنوب ويعفو عن السيئات وهذا منه ترغيب فى التوبة ، وقد روى حذيفة بن اليمان عن النبى - ﷺ - أنه قال : « الاستغفار ممحاة للذنوب » وقال الفضيل : يقول العبد أستغفر الله ، وتفسيرها : أقلنى .

وقوله : ﴿ **يرسل السماء عليكم مدراراً** ﴾ أى : يرسل ماء السماء عليكم (مدراراً) ذا غيث كثير .

قال مقاتل : لما كذبوا نوحاً زماناً طويلاً حبس الله عنهم المطر ، وأعقم أرحام نساءهم أربعين سنة ، فهلكت مواشيهم وزروعهم ، فصاروا إلى نوح - عليه السلام - واستغاثوا به فقال : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ أى : لم يزل كذلك لمن أناب إليه . ثم قال ترغيباً فى الإيمان ﴿ **يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً** ﴾ قال قتادة : علم نبى الله - ﷺ - إنهم أهل حرص على الدنيا فقال : « هلموا إلى طاعة الله فإن فى طاعة الله درك الدنيا والآخرة » .

ونحو هذه الآية قول النبى هود لقومه : ﴿ **ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين** ﴾ .

قال القرطبى : - فى هذه الآية والتى فى « هود » دليل على أن الاستغفار يستنزل به الرزق والأمطار . **قال الشعبى** : خرج عمر يستسقى فلم يزد على الاستغفار حتى رجع ، فأمطروا فقالوا :

ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التى يستنزل بها المطر ثم قرأ : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ .

وقال ابن صبيح : شكا رجل إلى الحسن الجدوبة فقال له : استغفر الله ، وشكا آخر إليه الفقر فقال له : استغفر الله . وقال له آخر : ادع الله أن يرزقني ولداً ، فقال له : استغفر الله ، وشكا إليه آخر جفاف بستانه ، فقال له : استغفر الله . فقلنا له فى ذلك ؟ فقال : ما قلت من عندى شيئاً ، إن الله تعالى يقول فى سورة نوح : ﴿ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً . لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ .

قوله ـ تعالى ـ : ﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجا . والله جعل لكم الأرض بساطا . لتسلكوا منها سبلا فجاجا ﴾ .

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس : أى : ما لكم لا تخشون لله عقاباً وترجون منه ثواباً . وقال الحسن : ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرون له نعمة . وقيل : ما لكم لا توحدون الله ، لأن من عظمة فقد وحده . ثم دلهم على ذلك فقال :

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ أى : جعل لكم فى أنفسكم آية تدل على توحيده قال ابن عباس : ﴿ أطواراً ﴾ يعنى نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، أى : طوراً بعد طور إلى تمام الخلق كما قال تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1] وكما قال جل فى علاه ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾[2] .

ألا إننا كلنا بائد ** وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم ** وكل إلى ربه عائد
فواعجبا كيف يعصى الإله ** أم كيف يجحد الجاحد
وفى كل شىء له آية ** تدل على أنه واحد

---

(١) سورة المؤمنون الآيتان : ١٢ ـ ١٤ .
(٢) سورة الحج الآيات : ٥ ـ ٧ .

ثم تابع نوح مخاطبة قومه لافتاً أنظارهم إلى قدرة الله فوقهم ، فقد خلق الكواكب السيارة ، وجعل القمر يسير فى مدراتها لينير لهم الأرض ليلاً ، وجعل الشمس سراج النهار فقال : ﴿ **ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً** ﴾ ذكر لهم دليلاً آخر ، أى : ألم تعلموا أن الذى قدر على هذا ! فهو الذى يجب أن يعبد ، ومعنى (طباقا) بعضها فوق بعض ، كل سماء مطبقة على الأخرى كالقباب ، قاله ابن عباس والسدى .

وقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً** ﴾ أى : وجعل القمر بروجاً ومنازل وفاوت فى نوره ، فجعله يزداد حيناً حتى يتناهى ثم يبتدىء ينقص حتى يستسر ليدل ذلك على مضى الشهور والأعوام ، وجعل الشمس كالسراج يزيل ظلمة الليل .

كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾[(١)] .

وقوله : ﴿ **والله أنبتكم من الأرض نباتاً** ﴾ أى : والله أنبت أباكم آدم من الأرض ، وقد يكون المعنى : أنه أنبت كل البشر من الأرض ، لأنه سبحانه خلقهم من النطف وهى متوالدة من الأغذية المتوالدة من النبات المتوالد من الأرض .

وجعلهم نباتاً لأنهم ينمون كما ينمو النبات ويلدون ويموتون ، وأيديهم وأرجلهم كأفرع النبات ، وعروقهم المتشعبة فى الجسم والتى يجرى فيها الدم وينتشر فى الأطراف ، تشبه ما فى الشجر ، وأحوالهم مختلفة كأحوال النبات ، فمنه الحلو والمر والطيب والخبيث ، واستعدادهم مختلف كاستعداد النبات فلكل أمرىء خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وقوله : ﴿ **ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً** ﴾ أى : ثم يعيدكم فى الأرض كما كنتم تراباً ، ويخرجكم منها متى شاء أحياء كما كنتم بشراً . كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[(٢)] .

ثم أخذ يعدد النعم التى أعدها للإنسان فى الأرض وذكر أن الأرض مهيأة مسخرة لأمره كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء ، ويظهر مواهبه لاستخراج ما فى بطنها من المعادن المختلفة ، وخيراتها المتنوعة فقال :

﴿ **والله جعل لكم الأرض بساطاً** ﴾ أى : والله بسط لكم الأرض ومهدها ، وثبتها بالجبال الراسيات .

ثم يبين حكمة هذا فقال :

﴿ **لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً** ﴾ أى : لتستقروا عليها وتسلكوا فيها أين شئتم ، من نواحيها وأرجائها وأقطاها المختلفة .

وقصارى ما سلف ـ أن نوحاً ـ عليه السلام ـ أمر قومه بالنظر فى علوم الأنفس ، والآفاق من معدن ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، وسماء ، وأرض وشموس ، وأقمار .

---

(١) سورة يونس الآية : ٥ .

(٢) سورة طه الآية : ٥٥ .

موقف قوم نوح ـ عليه السلام ـ منه

قال تعالى :

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾
وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا
يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا
خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ
نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ
وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

معانى المفردات

﴿ خساراً ﴾ الخسار الخسران .
﴿ كباراً ﴾ أى : كبيراً عظيماً .
﴿ لا تذرن ﴾ أى : لا تتركن .
﴿ ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا ﴾ أسماء أصنام كانوا يعبدونها .
﴿ مما خطيئاتهم ﴾ أى : من أجل ذنوبهم وآثامهم .
﴿ أغرقوا ﴾ أى : بالطوفان .
﴿ ناراً ﴾ أى : عذاباً فى القبر .
﴿ دياراً ﴾ أى : أحداً .
﴿ تباراً ﴾ أى : هلاكاً .

المناسبة وإجمال المعنى

أخبر - سبحانه - عن نوح أنه أعلم ربه وهو العليم الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة ، أنه مع ما استعمله من الوسائل والأساليب المختلفة ، المشتملة على الترغيب طوراً ، والترهيب طوراً آخر ، كذبوه وعصوه واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر ربه ، ومتع بمال وولد وقالوا : لا نترك آلهتنا التى عبدناها نحن وآباؤنا من قبل ، ونتبع بشراً مثلنا .

وبعد أن ذكر - سبحانه - مقالة نوح وشكواه إليه - أردفه بما جازاهم به من الغرق والعذاب .

ثم أخبر - سبحانه - بدعاء نوح على قومه ، وعلل هذا بأنهم يضلون الناس وأنهم لو نسلوا لم يلدوا إلا الكفرة الفجرة ، ثم دعا لنفسه ولوالديه ولمن دخل بيته من المؤمنين والمؤمنات بالمغفرة ، ودعا على قومه بالتبار والهلاك .

التفســـــير

قوله - تعالى - : ﴿ **قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً** ﴾ .

لم تؤثر كلمات نوح فى نفوس القوم ولم يستجيبوا لنصيحته ، ولم يأبهوا لإنذار الله لهم ، وأنكروا عليه أن يكون نبياً لعدة أسباب منها :

أنه إنسان مثلهم يأكل ويشرب ، فكيف يكون نبياً من كان بشراً مثلهم ، فالنبى - فى نظرهم - يجب أن يكون ملكاً لا بشراً .

وأن الذين اتبعوه هم المستضعفون ويقصدون بذلك الفقراء من العمال والمزارعين وأصحاب المهن الوضيعة ، وهؤلاء - فى نظرهم - قد اتبعوا دون روية ولا تفكير ، وهم ليسوا من ذوى الفضل .

واتهام نوح ومن آمن معه بالكذب ، ولم يكونوا متأكدين من اتهامهم هذا بل كانوا يبنونه على الظن ...

قال - تعالى - : ﴿ **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين** ﴾ .

ويصور القرآن الكريم فى آية أخرى مدى استعلاء القوم ورفضهم الاستجابة لدعوة نوح ووصمهم له بالضلال ، كما يصور نوحاً الصابر الملاطف الذى يحاول انتزاع هذا الوهم من عقولهم فيقول لهم : يا قوم ليس بى ضلالة كما تزعمون ، ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم ما أرسلنى به من الوصايا والأحكام التى تصلح بها أمركم ، وأنى ناصح لكم بما فيه سعادتكم ومحذركم مما فيه شقاؤكم ، وقد علمنى الله مالا تعلمون .

قال تعالى : ﴿ **قال الملأ من قومه إنا لنراك فى ضلال مبين * قال يا قوم ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون * أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون** ﴾[1] .

---

(١) سورة الأعراف الآيات : ٦٠ - ٦٣ .

تهديد نوح

لم تترك دعوة نوح فى قومه إلا أثرا ضئيلا كما صرح القرآن فقال تعالى : ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾[١] .

أما الأكثرون فقد تبرموا من دعوته وكذبوه ، ووصموه بالجنون وحالوا بينه وبين تبليغ رسالته بأنواع التخويف والأذى . قال تعالى : ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ﴾[٢] .

كما هددوه بالرجم ﴿ قالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين ﴾[٣] .

وبعد أن بذل نوح غاية جهده فى سبيل هداية قومه ، وبعد أن ضاقت فى وجهه كل السبل لإصلاحهم ، عندئذ لجأ إلى ربه يشكو قومه :

﴿ قال نوح رب إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ﴾ .

أى : قال نوح : رب إنهم عصونى فيما أمرتهم به ، وأنكروا مادعوتهم إليه ، واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم واغتروا بأولادهم ، فكان ذلك زيادة فى خسرانهم وخروجا عن محجة الصواب ، وبعدا عن رحمة الله .

﴿ ومكروا مكراً كبارا ﴾ أى : مكرا كبيرا ، فاحتالوا فى الدين ، وصدوا عن سبيل الله بأساليب شتى ، وأغروهم بأذى نوح ـ عليه السلام ـ .

﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾ أى : قال بعضهم لبعض : لا تتركوا عبادة آلهتكم وتعبدو رب نوح ، ولاسيما هذه الأصنام التى هى أكبر المعبودات وأعظمها .

وقد انتقلت هذه الأصنام إلى العرب فيما بعد .

أخرج البخارى وابن المنذر وابن مردوية عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ قال : صارت هذه الأوثان فى العرب بعد فكان :

ود : لكلب .
سواع : لهذيل .
يغوث : لقطيف بالجرف عند سبأ .
يعوق : لهمدان .
نسر : لحمير آل ذى الكلاع .

---

(١) سورة هود من الآية : ٤٠ .
(٢) سورة القمر الآية : ٩ .
(٣) سورة الشعراء الآية : ١١٦ .

وهناك أصنام أخرى لأقوام آخرين :

اللات : لثقيف بالطائف .

العزى : لسليم وغطفان وجشم .

مناه : لخزاعة بقديد

أساف : لأهل مكة .

نائلة : لأهل مكة

هبل : لأهل مكة وهو أكبر الأصنام وأعظمها عندهم ومن ثم كان يوضع فوق الكعبة .(١) .

وقال ابن جرير بسنده عن محمد بن قيس قال ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم ـ الذين كانوا يقتدون بهم ـ لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

قال القرطبي : وبهذا المعنى فسر ماجاء فى صحيح مسلم من حديث عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة بالحبشة تسمى مارية ، فيها تصاوير لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **وقد أضلوا كثيرا** ﴾ أى : وقد ضل بعبادة هذه الأصنام التى استحدثت على صور هؤلاء النفر كثير من الناس فقد استمرت عبادتها قرونا كثيرة كما قال الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ فى دعائه ﴿ **واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس** ﴾(٣) .

ثم دعا نوح على قومه لتمردهم وعنادهم فقال : ﴿ **ولاتزد الظالمين إلا ضلالا** ﴾ أى ولاتزد الظالمين لكفرهم بآياتك إلا ضلالا وطبعا على قلوبهم ، وقصارى القول بان دعا عليهم بالخذلان ، وإن دعا لنفسه بالنصر وظهور دينه كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ **رب انصرنى بما كذبون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾ .

يقول ـ تعالى ـ ﴿ **مما خطيئاتهم** ﴾ أى : من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿ **أغرقوا فأدخلوا نارا** ﴾ أى : نقلوا من تيار البحار الى حرارة النار ﴿ **فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا** ﴾ أى : لم يكن لهم معين ولا مغيث ولامجير ينقذهم من عذاب الله كقوله ـ تعالى ـ : ﴿ **لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم** ﴾(٤) .

---

(١) البخارى جـ٦ صـ١٩٩ كتاب التفسير تفسير سورة إنا أرسلنا فقد ورد الحديث من رواية لابن عباس .

(٢) مسلم حـ١ صـ٣٧٥ ، ٣٧٦ كتاب المساجد باب النهى عن بناء المساجد على القبور .. الخ فقد ورد الحديث من رواية لعائشة

(٣) سورة ابراهيم من الآيتين : ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) سورة هود من الآية : ٤٣ .

وقوله - تعالى - : ﴿ وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ أى : يارب لاتترك على وجه الأرض منهم أحدا ولا ديارا .

قال السدى : الديار الذى يسكن الدار فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين حتى ولد نوح لصلبه الذى اعتزل أبيه ﴿ قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾[1] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال - رسول الله ﷺ : « لو رحم الله من قوم نوح أحدا لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل ، فلما بلغها الماء صعدت به منكبها ، فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها ، فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيدها ، فلو رحم الله منهم أحدا لرحم هذه المرأة »[2] قال ابن كثير : وهذا حديث غريب رجاله ثقات .

وقوله - تعالى : ﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى : إنك يارب إن أبقيت منهم أحدا أضلوا عبادك . أى : الذين تخلقهم بعدهم ﴿ ولايلدوا إلا فاجرا كفارا ﴾ أى : فاجرا فى الأعمال كافر القلب ، وذلك لخبرته بهم ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

روى أن الرجل منهم كان ينطلق بابنه إليه ويقول له : احذر هذا فإنه كذاب ، وإن أبى أوصانى بمثل هذه الوصية ، فيموت الكبير وينشأ الصغير على ذلك .

وبعد أن دعا على الكفار ، دعا لنفسه ولأبويه وللمؤمنين والمؤمنات بالمغفرة فقال :

﴿ رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ .

دعا لنفسه ولوالديه وكانا مؤمنين . قال الكلبى : كان بين نوح وبين آدم عشرة آباء كلهم مؤمنون وكذا قال ابن عباس . وقوله : ﴿ ولمن دخل بيتى مؤمنا ﴾ أى : مسجدى ومصلاى مصلياً مصدقا بالله . وكان إنما يدخل بيوت الأنبياء من آمن منهم فجعل المسجد سببا للدعاء بالمغفرة . وهذا قول ابن عباس : « بيتى » مسجدى ، وعن ابن عباس - أيضا - أى : ولمن دخل دينى ، فالبيت بمعنى الدين ، ورواية ثالثة عنه - أيضا - : يعنى صديقى الداخل الى منزلى . ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ عامة إلى يوم القيامة كدعوة النبى ابراهيم - عليه السلام - : ﴿ ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴾[3] .

قوله - تعالى - : ﴿ ولا تزد الظالمين ﴾ أى : الكافرين (إلا تبارا) إلا هلاكا فهى عامة فى كل كافر ومشرك . قال مجاهد (إلا تبارا) إلا خسارا أى : فى الدنيا والآخرة .

﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾

(١) سورة هود من الآية : ٤٣ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير حـ١ صـ٢٦٤ تفسير سورة نوح ط/الشعب فقد أورد الحديث عن ابن عباس ، عن رواية لابن ابى حاتم ، وقال : هذا حديث غريب ، ورجاله ثقات .

(٣) سورة ابراهيم الاية : ٤١ .

وبعد فراغنا من تفسير سورة نوح - على نبينا وعليه الصلاة والسلام - رأينا أن نسوق هذا الموضوع القيم والذى يتعلق بأهمية الدعوة والتبليغ ، ومامن شك من أنها أعظم وأشرف عمل يقوم به المسلم فى رسالة الأنبياء والمرسلين الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه . يقول الشيخ عبدالله ناصح علوان فى كتابه . . . .

« وجوب تبليغ الدعوة »

فضل الدعوة والداعية

إذا كان هذا - أخى الداعية - هو حال البشرية اليوم من الفساد والانحلال والشقاء حيث لم تنج بقعة من الأرض من العفن والميوعة ، ومبادىء الكفر والضلال ، إذا علمت هذا فعليك أن تعلم - أيضا - ماهى أبعاد مسئوليتك فى الإصلاح والتغيير ، وماهو عظم واجبك فى التبليغ والدعوة ؟

أعلم - رحمك الله - أن الدعوة إلى الإسلام أصبحت فى هذا العصر فريضة شرعية ، وضرورة حتمية على كل من انتسب الى أمة الاسلام : شيبا وشبابا ، رجالا ونساء ، صغارا وكبارا ، حكاما ومحكومين خاصة وعامة . . كل يقوم بهذه المهمة على حسب حاله ، وحسب طاقته ، وحسب إيمانه ، وحسب تحسسه بواقع المسلمين ، وأحوال المجتمعات البشرية .

والأصل فى هذه الوظيفة الدعوة العامة قوله - تبارك وتعالى : ﴿ **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم** ﴾[1]

والقاعدة فى هذا المهمة التبليغية الشاملة قوله تبارك اسمه : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[2] .

وعبارة ﴿ **كنتم خير أمة** ﴾ فى الآية تشمل المسلمين جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ومستوياتهم .

وعبارة ﴿ **أخرجت للناس** ﴾ فى الآية نفسها تعبير يلفت النظر ، حيث يشير الى اليد الخالقة المدبرة التى أخرجت أمة الإسلام من ستار الغيب إخراجا ، ودفعتها الى الظهور واثبات الذات دفعا ، لتبليغ دعوة الله فى العالمين .

ولاشك أن هناك نصوصا كثيرة من القرآن والسنة وعمل الأمة تدل دلالة قطعية على حتمية التبليغ ، وفريضة الدعوة نقتطف باقة منها وبالله التوفيق .

---

(١) سورة التوبة الآية : ٧١ .
(٢) سورة آل عمران من الآية : ١١٠ .

فمن نصوص القرآن الكريم :

أ ـ قال تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾(١) .

فاللام فى قوله : ﴿ ولتكن ﴾ للأمر ، والأمر يقتضى الوجوب ﴿ وأمة ﴾ فى الآية يقصد منها ـ كما يدل عليه السياق ـ طائفة من العلماء والدعاة موظفة لمهمة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وساهرة على حراسة الرأى العام فى كل بقعة من المجتمع الاسلامى ، وإن كان ذلك واجبا ـ فى الأصل ـ على كل فرد من الأمة ، كل على حسب طاقته واستعداده وإيمانه . . يقول « ابن كثير » ـ رحمه الله ـ فى تفسير هذه الآية : « والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة كل بحسبه ، كما ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وفى رواية : « وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل »(٢) .

فالذى تدل عليه الآية : أن تبليغ الدعوة ، وحراسة الرأى العام . . واجب على طائفة من العلماء والدعاة الموظفين من قبل الإمام على أعمال الحسبة ، وإن كان ذلك واجبا فى الأصل على كل فرد من أفراد الأمة .

ب ـ قال تعالى : ﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾(٣) .

أقسم الله ـ سبحانه ـ فى هذه السورة بالعصر الذى بعث الله فيه نبيه لشرفه على كل العصور ، أقسم وأكد : إن جنس الإنسان لفى ضياع وخسران إلا من تحقق :

بالايمان بالله .

والعمل الصالح .

والتواصى بالحق .

والتواصى بالصبر .

فالذى تدل عليه السورة : أن أى إنسان فى هذه الحياة إذا لم يكن مؤمنا بالله الواحد الأحد ، وإذا لم يكن سالكا سبيل العمل الصالح ، وإذا لم يكن متواصيا مع المؤمنين بالتمسك بالحق والمجاهرة به ، وإذا لم يكن صابرا على المحنة والبلاء ، راضيا بما قدر الله عليه ، فإنه يكون لامحالة خاسرا ضالا ضائعا !!

فالدعوة الى الله إذن من أوجب الواجبات فى نظر الإسلام ، بل هى واجبة على كل إنسان بحسبه .

---

(١) سورة آل عمران من الآية : ١٠٤ .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ١ صـ٦٩ كتاب الايمان باب كون النهى عن المنكر من الايمان ـ فقد ورد الحديث من رواية لأبى سعيد .

(٣) سورة العصر .

ـ قال الله تعالى : ﴿ **والمؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[١] **الآية** . . وقال ـ سبحانه وتعالى ـ فى السورة نفسها : ﴿ **المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف** ﴾[٢] .

ومما يستفاد من النصين أن الله ـ سبحانه ـ ميز بين المؤمنين والمنافقين فى مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال القرطبى فى تفسيره : « فجعل الله ـ تعالى ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ، فدل على ان أخص أوصاف المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ورأسها الدعاء إلى الإسلام » .

ودل على أن أخص أوصاف المنافقين : الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، ورأسها : الدعاء إلى الكفر ! !

فهذا التميز بين المؤمنين والمنافقين فى مسألة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر !

كما يبدو من الآيات ـ دليل قاطع على أن تبليغ الدعوة على سبيل الوجوب ، لسمة هذه الأمة بالايمان والخيرية والتبليغ . . فاذا تخلت عن سمتها وخصيصتها فإنها تتسم بصفات المنافقين وتنحدر الى أخلاق اليهود المجرمين أعاذ الله هذه الأمة منهم .

د ـ وقال تعالى : ﴿ **ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين** ﴾[٣] .

وقد سرد الإمام الغزالى هذه الآيات وعقب عليها وقال : « فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان واليوم الآخر حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر » وقد نزلت هذه الآية ـ كما ذكر ابن كثير ـ فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب : كعبدالله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة ، وغيرهم وأصبح معنى الآية : لايستوى من تقدم ذكرهم من أهل الكتاب بالذم والإجرام ، وبين من أسلم منهم وأقروا بالإيمان ، بل الذين أسلموا منهم كانوا مستقيمين يتلون كتاب الله ، ويقيمون الصلاة ، ويؤمنون باليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين .

هـ ـ وقال ـ تعالى ـ : ﴿ لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون** ﴾[٤] .

---

(١) سورة التوبة من الآية : ٧١ .
(٢) سورة التوبة من الآية : ٦٧ .
(١) سورة آل عمران الآيتان : ١١٣ ـ ١١٤ .
(٤) سورة المائدة الآيتان : ٧٨ ـ ٧٩ .

يخبر - تعالى - فى هاتين الآيتين أنه لعن الكافرين من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب عصيانهم لله ، وإعتدائهم على خلقه ، وكانوا أيضا لاينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، بل كانوا يخالطون أهل المعاصى ، ويجلسون معهم ويرضون بمنكرهم !!

وهذا مابينه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى الحديث الذى رواه الامام أحمد : « لما وقعت بنو اسرائيل فى المعاصى نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم فى مجالسهم وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم »[١] .

ومما يدل عليه هذا النص القرآنى أن أمة الاسلام إذا لم تقم بوظيفة حراسة الرأى العام ، ولم تنصح الناس الى مافيه خيرهم ، ولم تبلغ دعوة الله - عز وجل - ولم تأمر بالمعروف ، ولم تنه عن المنكر فإن الله - سبحانه - يضرب قلوب بعضها ببعض ، ويلعنها كما لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل بسبب إهمالها لواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبسبب تساهلها فى حق دعوة الله - سبحانه - ، وحراسة الرأى العام المسلم .

- وقال - تعالى - : **﴿ ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾**[٢] .

يؤكد - سبحانه - فى هاتين الآيتين أنه ينصر من ينصره ، وذلك فى اتباع هواه ، وإعزاز دينه ، والجهاد فى سبيله ، وهؤلاء الذين ينصرون الله - عز وجل - ، لهم فى الحياة الدنيا مهمة ، وفى مجال العمل التبليغى رسالة ، فمهمتهم الأولى حين يمكن الله لهم فى الأرض أن يعبدوا الله ويوحدوه ، ورسالتهم فى إطار هذا التمكين أن يأمروا بالمعروف ، وينهوا عن المنكر ، ويدعوا الناس إلى الخير . فهذه هى مهمتهم ، وتلك هى رسالتهم فلا يجوز أن يتساهلوا فيها ويتخلوا عنها حتى يستأهلوا نصر الله - عز وجل - ، وحتى يزيدهم الله فى الأرض عزة وقوة وتمكينا ، وإذا حادوا عن تحقيق هذه المهمة ، وتقاعسوا عن أداء هذه الرسالة فإن الله - سبحانه - يجعل بأسهم بينهم شديدا ، ويسلط عليهم عدوهم ، فيستنفذ بعض مافى أيديهم ، ويزيدهم فى الحياة ذلة ووهنا وتمزيقا .

ومما يوجه اليه هذا النص القرآنى : أن هذه الأمة إذا لم تقم بمسئوليتها فى التزام منهج الله - عز وجل - وإذا لم تؤد رسالتها فى التبليغ والدعوة ، فان الله - سبحانه - يعرض عنها ويتخلى عن نصرتها ، ويذيقها وبال أمرها ، ويبدلها من بعد أمن خوفا ، ومن بعد عزة ذلا ، وسوف تبقى على هذه الحالة المتردية حتى تعود إلى هدى ربها ، وأصالة دينها ، ولينصرن الله من ينصره إلى غير ذلك من هذه النصوص القرآنية المستفيضة التى تدل على وجوب تبليغ الدعوة فى أرض الله .

● **ومن نصوص السنة الشريفة**

أ - روى الشيخان عن عبادة بن الصامت - رضى الله عنه - قال : « بايعنا رسول الله - ﷺ - على

---

(١) أنظر الامام أحمد حـ١ صـ٣٩١ فقد ورد الحديث من رواية لعبدالله .

(٢) سورة الحج من الآية : ٤٠ والآية ٤١ .

السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، وعلى أثره علينا ، وألا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان ، وعلى أن نقول الحق أينما كنا ، لا نخاف فى الله لومة لائم »[١] .

ماذا تعنى كلمة : (بايعنا) ؟ وماذا تعنى عبارة « أن نقول الحق أينما كنا » أليست تعنى أن كل من انتمى الى جماعة المسلمين أن يعطى البيعة والعهد للأمير على أن يسمع ويطيع فى العسر واليسر ، وان لا ينشق عن أمير الجماعة إلا اذا أمر بالمعصية ، أو دعا الى كفر بواح وأن يقول الحق أيما كان ، وان لا يخاف فى الله لومة لائم .

أليس يدل هذا الحديث : على التزام جماعة المسلمين وجوب النصح العام ، وحتمية التبليغ والدعوة أينما كانت هذه الجماعة ، وحيثما حلت ووجدت ؟

ب ـ روى البخارى والترمذى عن النعمان بن بشير ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « مثل القائم على حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا (اقترعوا) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وماأرادوا هلكوا جميعا ، وان أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا »[٢] .

مثل النبى ـ ﷺ ـ فى هذا الحديث حال رقابة المجتمع للفرد ورقابة الفرد للمجتمع بحال جماعة ركبت فى سفينة ، فأرادت طائفة منها أن تعبث بأمن السفينة وركابها ، فكل من فى السفينة إذا تركوا هذه الطائفة العابثة تفعل ماتشاء هلك كل من فى السفينة ، واذا منعوها وأخذوا على يديها نجا كل من فى السفينة !

أليس يدل هذا التمثيل النبوى ، على أن كل مسلم فى هذا الوجود له وظيفة اجتماعية فى الأخذ على يد العابثين المفسدين ، والوقوف فى وجه المارقين الظالمين .. حتى تسلم لأمة الإسلام عقيدتها وأخلاقها ، ويتحقق لها كيانها وعزتها ، وانها اذا تساهلت فى ذلك أصابها الله بالذل والهوان والتمزق . ؟

ج ـ روى أبو داود والترمذى عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول مادخل النقص على بنى اسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا اتق الله ودع ماتصنع به فانه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد (وهو على حاله) (أى من المنكر) فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال ﴿ **لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل .. الآية** ﴾ . ثم قال ـ عليه الصلاة والسلام : « كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه (أى لتجبرنه) على الحق أطراً ولتجبرنه على الحق قصرا »[٣]

هذا الحديث يدل دلالة واضحة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على كل فرد فى الأمة .

---

(١) انظر صحيح البخارى حـ٩ صـ٩٦ .. كتاب الأحكام « باب كيف يبايع الامام الناس فقد ورد الحديث من رواية لعبادة بن الصامت مع اختلاف يسير .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ٣ صـ١٨٣ كتاب فى المظالم والغصب باب هل يقرع فى القسمة والاستفهام فيه فقد ورد الحديث عن رواية النعمان بن بشير .

(٣) انظر سنن ابى داود حـ٤ صـ٥٠٨ باب الأمر والنهى فقد ورد الحديث برقم ٤٣٣٦ .

ووجه الاستدلال

استحقاق الأمة جميعا لعنة الله اذا تقاعست فى واجب التغيير والتبليغ والدعوة .

صيغ الردع ، والزجر ، ولام الوجوب فى قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ « كلا والله لتأمرن بالمعروف . . . . . » .

فهذه الصيغ كلها ـ كما هو معلوم ـ تدل على الوجوب .

تنافر القلوب وتمزقها بضرب بعضها ببعض بسبب التخلى عن الوظيفة الاجتماعية المتمثلة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

د ـ روى الشيخان عن زينب بنت جحش ـ رضى الله عنها ـ ان النبى ـ ﷺ ـ دخل عليها فزعا يقول : « لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلق بين أصبعيه : الابهام والتى تليها ، فقلت : يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث »[١] مما يدل عليه هذا الحديث ، أن الأمة بأسرها صلحاؤها وفجارها يعمها الدمار والهلاك لكونها لم تقم بمهمة التبليغ ومسئولية التغيير ، وواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فالصالحون منها يشملهم الهلاك لكونهم سكتوا عن استشراء الفساد والمنكر ، ورضوا بواقع الذل والمهانة !!

هـ ـ روى مسلم والترمذى وابن ماجة . . عن أبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان »[١] .

« فمن » فى قوله عليه الصلاة والسلام : « من رأى منكم منكرا » ـ لفظ من ألفاظ العموم ، ويشمل هذا اللفظ كل من استطاع تغيير المنكر باليد أو اللسان أو القلب ، سواء أكان منكرا من العامة أو الخاصة ، إذا فقهوا الخطر الذى يترتب عليه تفشى المنكر فى المجتمع الاسلامى .

ومما يدل عليه الحديث : أن تغيير المنكر واجب على حسب الاستطاعة ، فيبدأ المسلم بالتغيير باليد إن استطاع ، فان لم يستطع فباللسان ، وإن لم يستطع فبالقلب ، وذلك أضعف الايمان .

وتغيير المنكر بالقلب معناه ان ينكر بقلبه على أهل الفسوق والعصيان إذا رآهم متلبسين بالفسق والمعصية ، وذلك بمقاطعتهم ، والانسحاب من مجالسهم وتمعّر وجهه من أفعالهم .

أ ـ ووجه الاستدلال الذى يدل على الوجوب :

أن تغيير المنكر أمر واجب على كل الأحوال وعلى حسب الاستطاعة : اليد أولا ، ثم اللسان ثانيا ،

(١) انظر صحيح البخارى حـ٩ صـ٦٠ ط/الشعب كتاب الفتن باب قول النبى ـ ﷺ ـ « ويل للعرب من شر قد اقترب مقدور والحديث عن رواية عن زينب ابنة جحش .

(٢) انظر صحيح مسلم حـ١ ص٦٩ باب كون النهى عن المنكر من الايمان حديث رقم ٤٩/٧١ .

ثم القلب ثالثا : فاذا لم يتم التغيير بأى مرحلة من هذه المراحل الثلاثة . . فالإثم واقع ، والخروج من دائرة الإيمان متحقق .

وهذا ما تدل عليه الرواية الثانية التى رواها مسلم : « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[1] . الى غير ذلك من نصوص السنة المستفيضة التى تدلل على وجوب تبليغ الدعوة فى أرض الله .

الدليل من عمل الأمة

انطلاقا من خصيصة الإسلام الأولى : تكون الدعوة إنسانية عالمية . واستشعارا بمسئولية المسلمين فى حمل رسالة الاسلام الى الدنيا وإيمانا باعتقاد المؤمنين جميعا حين يخوضون غمرات الدعوة والجهاد أنهم على احدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . .

بناء على هذا كله انطلق المسلمون الأولون ومن تبعهم بإحسان فى مجاهل الأرض ، يمدون الأمم ، ويكرمون الانسان ، ويفرضون المعرفة ، ويشيدون فى العالمين صرح الحضارة ، وينبتون الأرض خيرا وعسلا ولبنا ، ويطبعون فى ضمير الزمان مبادىء التوحيد ، والعدل ، والحق ، والحرية ، والمساواة .

انطلقوا يعلنون للدنيا انهم دعاة حق ، ومصابيح هدى ، وحملة رسالة ، وأئمة خير وإصلاح .

واليكم باقة من مواقفهم الدعوية ، ومآثرهم الجهادية :

ـ أرسل سعيد بن أبى وقاص ـ رضى الله عنه ـ جماعة من الأشراف دعاة إلى « يزدجرد » ملك الفرس ، وكان منهم ، النعمان بن مقرن ، وعمر بن معد يكرب ، والمغيرة بن زرارة . . . فلما وصلوا اليه بالمدائن سألهم « يزدجرد » : ماجاء بكم ودعاكم الى غزونا ، والولوغ ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟

فتكلم النعمان بن مقرن . فقال :

« إن الله رحمنا ، فأرسل لنا رسولا يأمرنا بالخير ، وينهانا عن الشر ، ووعدنا على إجابته خيرى الدنيا والآخرة ، فلم يدع قبيلة إلا قاربه منها فرقة ، وتباعد عنه منها فرقة ، ثم أمر ان نبتدىء بمن خالفه من العرب ، فبدأنا بهم ، فدخلوا معه على وجهين : مكره عليه فاغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمر أن نبتدىء بمن جاورنا من الأمم ، فندعوهم إلى الإنصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسَّن الحسن ، وقبح القبيح ، فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه : الجزية ، فان أبيتم فالمناجزة (أى القتال) .

---

(١) انظر صحيح مسلم حـ١ صـ٦٩ ، ٧٠ باب كون النهى عن المنكر من الايمان حديث رقم ٨٠/٥٠ .

فإن أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتم الجزاء (أى دفعتم الجزية) قبلنا منكم ومنعناكم (أى : دفعنا عنكم) وإلا قاتلناكم . . . » .

- ولما نزل « رستم » قائد الفرس أرض القادسية أرسل الى سعيد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - أن ابعث إلينا رجلا نكلمه فأرسل اليه ربعى بن عامر فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب ، وبسط النمارق (السجاد) والوسائد منسوجة بالذهب ، فأقبل ربعى على فرسه ، وسيفه فى خرقه ، ورمحه مشدود بعصب ، فلما انتهى الى البساط وطئه بفرسه ، ثم نزل وربطها بوسادتين شقهما خطوة حتى أفسد مامر عليه من البسط - ثم دنا من رستم - وجلس على الأرض ، وركز رمحه على البساط ، وقال : إنا لانقعد على زينتكم . . فقال رستم : ماجاء بكم ؟

قال ربعى : « الله جاء بنا ، وهو ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، فأرسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه ، ومن أبى قاتلناه حتى تقضى الى الجنة أو الظفر » .

فقال رستم : قد سمعنا قولكم ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟ فقال ربعى : « نعم ، وإن مما سن لنا رسول الله - ﷺ - ألا تمكن الاعداء اكثر من ثلاث ، فنحن ممتنعون عنكم ثلاثا ، فانظر فى أمرك ، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل :

الاسلام وندعك وأرضك .

او الجزاء (أى : الجزية) فنقبل منك ، ونكف عنك ، وإن احتجت إلينا نصرناك .

أو المنابذة (أى القتال) فى اليوم الرابع إلا أن تبدأنا (أى بقتال وأنا كفيل على أصحابى » .

هذا غيض من فيض مما ذكره التاريخ من مواقفهم الدعوية المشرفة ومآثرهم الجهادية الخالدة . هؤلاء الرجال ، ومن سلك سبيلهم باحسان ، هم الذين حملوا على كواهلهم أعباء الدعوة ، وهم الذين استعذبوا فى سبيلها أسمى آيات الصبر والفداء والتضحية ، وهم الذين واصلوا ليلهم بنهارهم ، وراحتهم بتعبهم ، حتى حققوا لهذا الدين انتصاره ، ولهذا الاسلام إنتشاره .

فماهو إلا ربع قرن من الزمان من بعثة الرسول - ﷺ - حتى قامت للمسلمين فى عهد الخلفاء الراشدين دولة عتيدة وسلطان ، وامتدا لهم فى رحاب الأرض كيان مرموق وسيادة ، وأخضعوا لحكمهم المملكتين الكبيرتين العظيمتين : فارس والروم ، وامتد ظلهم الى بلاد السند شرقا ، والى بلاد الخزر ، وأرمينية ، وبلاد الروس شمالا ، ودخلت فى عدلهم بلاد الشام ، ومصر ، وبرقة ، وطرابلس ، وبقية إفريقية ، وذلك كله فى خمس وثلاثين سنة .

وفى عهد بنى أمية استبحر ملكهم ، وامتد سلطانهم إلى أن دخلوا بلاد السند ، ومعظم بلاد الهند ، وبلاد التركستان ، ووصلوا إلى حدود الصين شرقا ، ودخلوا بلاد الأندلس بأوروبة غربا . . . .

ومما يدل على وجوب تبليغ الدعوة القاعدة الأصولية التى تقول :

« مالايتحقق الواجب إلا به فهو واجب » .

إن بلاد الاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما هو معلوم - يجب أن تكون محررة صافية إلا من مسلم صادق ، أو ذمى معاهد ، وماعداهم من مرتدين ، أو ملحدين ، أو شيوعيين ، أو مستعمرين ، أو صهيونين .... فلايصح أن يقر لهم فى بلاد الإسلام قرار ، ويكون لهم فيها وجود واستقرار .

فالمؤمنون لايتحققون بصفة العزة الإسلامية فى دار الاسلام ، وأرض المسلمين ، إلا أن يقوموا قومة رجل واحد فى التوعية ، وتبليغ الدعوة والالتفاف تحت راية واحدة والارتباط بالجماعة المسلمة ، حتى اذا كونوا فيما بينهم القاعدة الصلبة وأصبحوا مهيئين لخوض معارك الجهاد ، طهروا أرض الإسلام من كل مرتد أفاك ، أو ملحد مفسد ، أو مستعمر غاشم ، أو شيوعى مجرم ، أو يهودى آثم .. عندئذ يعلم أعداء الاسلام فى كل مكان أنهم لاحياة لهم فى أرض الاسلام إلا بإسلام أو ذمة !!

أما أن يكون فى أرض الاسلام زنادقة ، وباطنيون ، وفرق ضالة تدعى الاسلام زورا وتقبة كالقرامطة ، والقاديانية ، والاسماعيلية وغيرهم ممن على شاكلتهم .

أما أن يكون فى بلاد الاسلام أحزاب كافرة ، ودعاة الى مبادىء هدامة كالشيوعية والوجودية ، والقومية .

أما أن يكون هذا كله فذلك دليل على أن المسلمين فقدوا صفة أساسية من صفاتهم ، وهى إظهار العزة على الكافرين التى من مظهرها تبليغهم الدعوة ، ومجاهدتهم بالسيف إذا هم أعرضوا .

ومن يوم مافقدت الشخصية الاسلامية هذه الصفة من العزة والاستعلاء على الكافرين ، تفكك المجتمع الاسلامى من مشرقه الى مغربه ، وأصيب بالذلة والدمار والتخلف . حتى استطاع اليهود بمعاونة (الماسونية) فى بلاد الاسلام أن يقوضوا عرش الخلافة الاسلامية ، وأن ينكسوا الوحدة السياسية ، وأن يزرعوا فى أرض الاسلام الفساد ، واستطاع الباطنيون أن يسيطروا على بقعة من أرض الاسلام ، وأن يجعلوا أعزة أهلها أذلة ، واستطاع الشيوعيون ان يضعوا أيديهم على كثير من بلاد المسلمين ، وان يذيقوا أهلها القتل والتشريد والدمار .. واستطاع اللادينيون أن يتحكموا فى أقطار ينتسب أهلها الى الاسلام ، وأن يبعدوا الاسلام عن نظام الحكم ومناهج الحياة ، واستطاع النصارى أن يستولوا على أجمل البقاع فى بلاد الاسلام وأن يجعلوها تحت حكمهم وسيطرتهم ، واستطاع اليهود أن يقيموا دولة فى فلسطين ، وأن يغتصبوا المسجد الاقصى وأن يفعلوا بالمسلمين الافاعيل ، واستطاع آخرون وآخرون أن يفعلوا الكثير والكثير !!

وفى الحقيقة لاتحل مشاكل المسلمين فى هذا العصر إلا اذا وجد الجيل المؤمن الواعى الداعية المجاهد الذى يحقق بإيمان وشجاعة العزة للمؤمنين والحاكمية للاسلام فى كل مجتمع يؤمن أهله بـ لا إله إلا الله محمدا رسول الله .

وهذا فى الواقع لايتأتى إلا أن يستشعر الجيل المسلم فى العصر الحديث معنى الواجب الذى كلفهم

الشرع به ، ومعنى المسئولية التى حملهم الاسلام إياها . فإقامة حكم الله فى الأرض هو من أعظم المسئوليات وتحرير بلاد الإسلام من الإلحاد والكفر والانحلال هو من أقدس الواجبات ألا فلينهض الجيل الحاضر اليوم بمسئوليته وواجبه لأنه كما ذكر علماء الأصول : « مالايتحقق الواجب إلا به فهو واجب » وإلا فإن الحساب عند الله عسير ، وإن المسئولية يوم القيامة كبيرة .

(فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون)

ثم ماذا عن تبليغ الدعوة والجهاد والاكراه ؟

إذا كان الاسلام أوجب تبليغ الدعوة على المسلمين ، وإذا كان لم يكره أحدا من الناس على اعتناقه والدخول فيه ، فلماذا شرع الجهاد ، وماهو الهدف ؟

إن للجهاد فى الاسلام أهدافا محددة تبلغ من صميم الواقع وعالمية الدعوة ، ونظام العهود والمواثيق نلخصها فى النقاط التالية :

(١) رد الظلم والعدوان عن أرض الاسلام :

لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا إن الله لايحب المعتدين** ﴾[١] .

(٢) الإخلال بالعهود والمواثيق :

لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لاأيمان لهم لعلهم ينتهون** ﴾[٢] .

(٣) إزالة العقبات التى تعترض الدعوة :

لقوله سبحانه : ﴿ **وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير** ﴾[٣] .

وبناء على هذا النص يجب قتال من يعترض طريق الدعوة الاسلامية ومن يصد عن سبيل الله ، ومن يمنع وصول الاسلام الى الشعوب بل النص فى جملته يأمر المسلمين أن يزيحوا عن طريق الدعوة ومن يصد عن سبيل الله ، ومن يمنع وصول الإسلام إلى الشعوب أو حاكم متأله يحول بين قومه وبين الهداية ، حتى تصل دعوة الإسلام الى الأمم والشعوب نقية صافية واضحة ، ثم بالتالى الشعوب هى التى تقرر مصيرها : إن شاءت أن تدخل فى الإسلام عن طواعية واختيار ، وإن شاءت أن تبقى على دينها وتدفع الجزية الى الدولة الاسلامية مقابل حمايتها من العدوان .

فتبين مما عرضناه من أهداف الجهاد فى الإسلام : أن الاسلام لم يجبر أحداً على الدخول فيه ، وإنه لم

(١) سورة البقرة آية : ١٩٠ .
(٢) سورة التوبة آية : ١٢ .
(٣) سورة الأنفال آية : ٣٩ .

ينتشر بحد السيف كما يزعم أعداء الاسلام وإنما شرع الجهاد - كما سبق ذكره - من أجل إزاحة الطواغيت والمتألهين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويمنعون وصول الاسلام الى شعوبهم .

ومما يؤكد أن الاسلام لم يكره أحدا على الدخول فيه ، ولم ينتشر بحد السيف هذه النصوص : قال تعالى : ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** ﴾[١] .

لو كان الاسلام يفرض وجوده واعتناقه بالقوة لما قبل رسول الله - ﷺ - من صاحب « أيلة » ومن أهل « جرباء » ومن أهل « أذرح » بعد ان انسحب أمامه جحافل الروم يوم خرج لقتالهم فى تبوك ، فإن طبيعة النصر تدفع المرء الى الظفر بأكبر قسط منه ، ولكن الرسول - ﷺ - أبى أن يحارب أيلة ، وأهل جرباء ، وأهل أذرح لما وجد جنوحهم للسلم امتثالا لقوله تعالى : ﴿ **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله** ﴾[٢] .

والجزية التى دفعوها ليست لقاء إصرارهم على دينهم وإنما هى عوض عما يبذله المسلمون من جهد ومشقة فى سبيل حمايتهم .

وهذا التخيير الذى فرضه الإسلام على المحاربين بين قبول الإسلام أو الجزية دليل واضح على منع الإكراه فى الدين .

فضل الدعوة والداعية

إن الدعوة الإسلامية تميزت على غيرها من الدعوات بالفضائل التالية :

(١) أنها خاتمة (٢) إنها عالمية (٣) أنها ذات خصائص .

أما أنها خاتمة :

فلكونها ، جمعت فى طياتها دعوة الرسل جميعا ، وزادت عليها بالتشريع المتكامل الأبدى المتجدد على مر العصور إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما أنها عالمية :

فلكونها ذات صبغة إنسانية عامة فى تشريعها ومبادئها ، فهى رحمة للعالمين ، وهى هداية للناس كافة وهى منهاج للبشرية عامة .

أما أنها ذات خصائص :

فلكونها تختص بالمزايا التالية :

---

(١) سورة البقرة من الآية : ٢٥٦ .

(٢) سورة الأنفال من الآية : ٦١ .

أ ـ الربانية : لأنها نزلت من حكيم حميد .
ب ـ الشمول : لأنها تتزلت بمنهج الحياة .
ج ـ التجدد : لكونها تحمل فى طبيعتها عوامل نموها وامتدادها الى يوم الدين .
د ـ التوازن : لكونها وفقت بين المادة والروح ، وحققت مصلحة الفرد والجماعة وأعطيت لكل ذى حق حقه فى الحياة .
هـ ـ اليسر : لكون تكاليفها تتوافق مع طاقة الانسان وتنسجم مع مسئولياته .
و ـ البساطة : لكون مبادئها واضحة بسيطة مفهومة يستحب لها كل ذى عقل ، وينشرح لها كل ذى فطرة .
ز ـ الخلود : لكون نصوصها أصيلة ثابتة خالدة لايتطرق اليها قصور ، ولايعتريها تحريف .

وإن دعوة تحمل فى طياتها مزايا الربانية ، والعالمية ، والشمول ، وتحمل فى مبادئها خصائص التجدد ، واليسر ، والبساطة ، وتحمل فى طبيعتها ظواهر التوازن ، والاصالة والاستمرار ، فهى دعوة تستحق البقاء وتستأهل الخلود ، وتفى بحاجات الزمن . . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

فضل الداعية إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ

لو استعرضنا نصوص القرآن والسنة فى تكريمها للدعاة وفى الرفع من منزلتهم ، وفى الإشادة بفضلهم . . لوجدناها أكثر من أن تحصى :

١ ـ الدعاة هم خير الناس .

لقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ الآية .

٢ ـ الدعاة هم الشهداء على الناس :

لقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[١]

فأمة الاسلام هى الأمة الداعية الوسط التى تشهد يوم القيامة على أنها بلغت رسالة الاسلام ، وأقامت بينها موازين العدل والقسط ، ووضعت لها التصورات الصحيحة المستمدة من الرسالة الخالدة فى كل مايتصل ببناء الفرد والأسرة والمجتمع ، وفى كل مايرتبط بهداية الأمم والشعوب والانسانية .

٣ ـ الدعاة هم المفلحون فى الدنيا والآخرة

لقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويؤمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك المفلحون ﴾ .

---

(٢) سورة فصلت الآية : ٣٣ .

هذه الأمة الداعية إلى الخير ، والآمرة بالمعروف ، والناهية عن المنكر ، هى الأمة المفلحة الفائزة فى الدنيا والآخرة ، المفلحة فى الدنيا لكونها نفذت منهج الله عز وجل ـ فى الدعوة والجهاد ، والعمل فى سبيل الاسلام ، فنالت أعلى مراتب العز والمجد والسؤدد والشرف العظيم .

والمفلحة فى الآخرة لكونها بلغت الدنيا الرسالة وأدت الأمانة ، ونصحت الأمة وجاهدت فى الله حق جهاده ، فاستأهلت النعيم الخالد المقيم فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

فهنيئا للدعاة الهداية ماأعد الله لهم من منزلة رفيعة ومقام كريم فى الدنيا والآخرة .

٤ ـ الدعاة أحسن الناس حديثا :

لقوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ﴾[٢]

ألا فليكثر الدعاة من أحاديث الإسلام ، وليسيروا فى طريق الدعوة إلى الله وليبلغوا دعوة الحق والقوة والحرية ، فإنهم فى المقام الأرفع والمنزل الأكرم .

٥ ـ الدعاة ورثة الأنبياء :

لما روى الخمسة وصححه ابن حبان والحاكم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « العلماء ورثة الأنبياء »[٣] وهل هناك شرف أعظم ممن يدانى الأنبياء فى المنزلة والكرامة ؟ وما العلماء والدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ إلا ممن اقتفوا أثر رسول الله ـ ﷺ ـ فى دعوة الأمم إلى الخير ، وهداية البشرية إلى الصراط السوى ، فهم ورثة الأنبياء ، وهم الواقفون على ثغرة الإسلام وهم المجاهدون لإعلاء دين الله ، وهم يحيون بكتاب الله الموتى ، ويفتحون بالإسلام قلوبا غلفا ، وأعينا عمياً ، وآذاناً صما ، وهم الذين يعيدون مجد المسلمين إلى الدنيا بعد أن غاب هذا الاسلام عن الشهود والوجود .

فهل أدرك الدعاة إلى الله فضلهم ، وعرفوا فى هذه الحياة منزلتهم ؟

٦ ـ أهل السماء والأرض يستغفرون للدعاة :

لما روى الترمذى عن أبى امامة مرفوعاً . . أن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»[٣].

والصلاة ـ كما هو معلوم ـ من الله رحمة ، ومن الملائكة استغفار ، ومن العبد دعاء . وهذه منزلة قلما يدركها أحد إلا من تصدى للدعوة وسار فى طريق الهداية والإصلاح والتبليغ .

ألا فليعلم الدعاة مقامهم ، ويدركوا فى هذا الوجود منزلتهم ؟ فهنيئا لهم ، ولمن يسير على دربهم كم ينالوا من شرف ؟ وكم يسطر لهم فى صحفائهم من أجر ومثوبة ؟ . . . . . أهـ .

---

(١) سورة البقرة من الآية : ١٤٣ .

(٢) انظر صحيح البخارى حـ١ ص٢٧ كتاب العلم ، انظر ابن ماجة حـ١ ص٨١ حديث رقم ٢٢٣ .

(٣) انظر سنن الترمذى المجلد الرابع ط/دار الفكر صـ١٥٤ حديث رقم ٢٨٢٦ فقد أورد الحديث عن أبى أمامة وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح .

سورة الجن

بين يدى السورة

قال صاحب البصائر : السورة مكية . آياتها ثمان وعشرون عند الكل إلا مكة فإنها فى عدّهم سبع عدّوا (لن يجيرنى من الله أحد) وأسقطوا (ملتحدا) فى غير رواية البزى

وفى رواية البزى : لم يعدَّ (لن يجيرنى من الله أحد) ولم يعد (ملتحدا) فصار فى روايته سبعاً وعشرين . وفى الرواية الأخرى : ثمانيا وعشرين . وكلماتها مائتان وخمس وثمانون . وحروفها تسعمائة وتسع وخمسون . فواصل آياتها على الألف . سميت سورة الجن لاشتمالها على الجن فى قوله : ﴿ **يعوذون برجال من الجن** ﴾ وقوله : ﴿ **نفر من الجن** ﴾ معظم مقصود السورة : عجائب علوم القرآن وعظمة سلطان الملك **الديان** وتعدّى الجن على الإنسان ومنعهم عن الوصول إلى السماء بالطيران والرشد والصلاح لأهل الإيمان وتهديد الكفار بالجحيم والنيران وعلم الله تعالى **بالاسرار** والإعلان وكيفية تبليغ الوحى من الملائكة إلى الأنبياء بالإتقان وحصر المعلومات فى علم خالق الخلق فى قوله : ﴿ **وأحصى كل شىء عدداً** ﴾ .

السورة محكمة : لا ناسخ فيها ولا منسوخ .

المتشابه

قوله : ﴿ **وأنه** ﴾ : (كرر مرات أن وأنه) واختلف القراء فى اثنتى عشرة منها وهى من قوله : (وأنه تعالى) إلى قوله : ﴿ **وأنا منا المسلمون** ﴾ : ففتحها بعضهم عطفا على ﴿ **أوحى إلى انه** ﴾ وكسرها بعضهم عطفا على قوله : ﴿ **فقالوا إنا سمعنا** ﴾ وبعضهم فتح (أنه) عطفا على (أنه) وكسر (إنا) عطفا على (إنا) وهو شاذ .

فضل السورة

عن أبى : من قرأها أعطى بعدد كل جن وشيطان صدق بمحمد وكذب به عتق رقبة وعن على : يا على من قرأها لا يخرج من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة وله بكل آية قرأها ثواب الزاهدين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ
إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً
وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ
وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا
ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ
لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ
أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾
وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ
ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا
ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ
حَطَبًا ﴿١٥﴾

معانى المفردات

﴿ أوحى ﴾ الوحى هو ما يلقى إلى الأنبياء من عند الله وفيه معنى الخفاء والسرعة ، والإيحاء أن تلقى إلى غيرك ما تريده عن طريق الإيماء أو الإشارة أو الرسالة أو الكتابة أو الإلهام ﴿ **نفر** ﴾ النفر العدد القليل هو من الثلاثة إلى العشرة ﴿ **استمع** ﴾ أصغى ﴿ **عجباً** ﴾ المراد يثير العجب ويدعو للغرابة والدهشة ﴿ **جد ربنا** ﴾ يقال : جد هذا فى عينى أى عظم فالمراد تعالى جلال ربنا وعظمته وقيل : الجد الملك والسلطان ﴿ **يقول سفيهنا على الله شططا** ﴾ السفيه من عنده خفة وطيش تنشأ عن حق وجهل والقول الشطط الذى تخطى صاحبه فيه حد العدل والحق ﴿ **يعوذون** ﴾ يطلبون النجاة والعون ﴿ **رهقا** ﴾ طغيانا وإثما أو ذلة وخوفا لا يطاق ﴿ **لمسنا السماء** ﴾ طلبنا بلوغها واستماع أخبارها ﴿ **حرسا** ﴾ لفظ يدل على الجمع والمراد عليها حراس من الملائكة شداد ﴿ **شهبا** ﴾ جمع شهاب وهو شعلة من نار ساطعة ﴿ **رصدا** ﴾ يرصده ويرقبه لينقض عليه ﴿ **رشدا** ﴾ المراد خيرا

ورحمة ﴿ **نعجز الله** ﴾ لن نفوته ونفلت من قدرته ﴿ **بخساً** ﴾ أى إنتقاصا من حقه فى الثواب فيعطى أقل مما له ﴿ **ولا رهقا** ﴾ لايخاف ظلما غير محتمل ﴿ **تحروا رشدا** ﴾ أى : طلبوا الأحرى والأهدى من الطريقين ﴿ **القاسطون** ﴾ قسط : ظلم وجار ، وأقسط : أزال الظلم والجور

أضواء كاشفة

لقد ثبت فى الصحاح أن الجن استمعوا للنبى ﷺ وهو يصلى بأصحابه ويقرأ القرآن بصوت أمال الجن فصرفهم إليه فلما استمعوا وفهموا حقائق من كلام الله انطلقوا إلى أهليهم يبشرونهم ويحملون إليهم ما عرفوه ولقد أوحى الله إلى النبى بهذا ليطمئن خاطره وتستمر نفسه كما هى قوية شديدة فى دعوتها فإن أعرض عنها المشركون فهاهم أولاء الجن يؤمنون ويدعون غيرهم للإيمان بها نزلت هذه الآية مرة بالإجمال فى سورة الأحقاف قال تعالى : ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين ۞ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب إليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين** ﴾[(١)].

ومرة بالتفصيل كما هنا نزلت فيما نزلت تبكيتا لقريش والعرب حيث تباطؤوا عن الإيمان وكانت الجن أسرع منهم فى قبول الدعوة مع أنهم من غير جنس البشر ، أما القرشيون والعرب فقد كذبوا حسداً من عند أنفسهم وبغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، قل لهم يامحمد : لقد أوحى الله إلىّ أنه استمع نفر من الجن إلى القرآن فقالوا لقومهم عند رجوعهم إليهم : إنا سمعنا قرآنا جليل الشأن بديعاً يدعوا إلى العجب لأنه مخالف لكلام البشر بل ولكل الكتب السابقة فى نظامه وأسلوبه وأغراضه ومعانيه وهو كتاب يهدى إلى الرشد وإلى الخير والحق وإلى الصراط المستقيم فنشأ عن ذلك أننا آمنا به وبمن أنزل عليه بعد ما آمنا بالقوى القادر الذى أنزله على عبده محمد ولن نشرك بعد هذا بربنا أحداً من خلقه أيا كان ﴿ **وأنه تعالى جد ربنا** ﴾ أى : وصدقنا أن الحال والشأن ارتفع عظمة وجلال ربنا أى : عظمته وتعالى سلطانه فهو صاحب الملك والسلطان تبارك اسمه وتعالى سره مااتخذ صاحبة ولا اتخذ ولدا ، وكأن الجن حينما سمعوا القرن نبهم ذلك الى خطأ كان يعتقده الكفرة من الجن حيث شبهوا الله بالحادث المحتاج الى الصاحبة والزوجة والذى يجوز عليه الأنفصال ويحتاج إلى الأولاد كيف يكون ذلك مع أنه المتعالى الغنى عن كل شىء .

آمنا بالله وصدقنا بأن ما كان يقوله سفيهنا فى حقد سبحانه وتعالى **كان** شططا وخروجا عن حد العقول لفرط بعده عن الحق إذ كان ينسب الصاحبة والولد إليه – عز وجل –

وهاهم يعتذرون عن تقليدهم لسفيههم وقائدهم فى الشر فيقولون : آمنا بالله وصدقنا بخطئنا فى

(١) سورة الأحقاف الآيات من ٢٩ إلى ٣٢ .

ظننا الذى لأجله اعتقدنا ما اعتقدنا فى نسبة ما لا يليق بالله لأننا كنا نظن أن من المستحيل أن يقول واحد من الإنس والجن على الله قولا كاذبا فيه كنسبة الصاحبة والولد له – جل شأنه .

كان الرجل من العرب إذا أمسى فى واد مقفر وخاف على نفسه نادى بأعلى صوته يا عزيز هذا الوادى – يريد رئيس الجن فيه – أعوذ بك من سفهاء قومك **فلما** سمع الجن ذلك أستكبروا وزادهم هذا إرهاقا وتعنقا وعتواً ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا** ﴾ بمعنى آمنا بالله، وآمنا بأنه كان رجال من الإنس يلجئون إلى الجن يستعيذون بهم فكان الجن يزدادون بذلك عتوا واستكبارا وقيل : إن معنى الآية : وأنه كان رجال من الإنس يستجيرون برجال منهم وهم الكهان والمنجمون والعرافون يستجيرون بهم من أذى الجن فيزداد الكهان والعرافون عتواً واستكبارا وهذا علاج جاء على لسان إخواننا الجن لرد البشر إلى الصواب فى اعتقادهم فى الجن وعلى ذلك فكاذب من يقول : إن بعض الناس يستخدم الجن أو إن للجن عملا نافعا أو ضارا فى حياتنا يقول **الالوسى:** ولعل تعلق الإيمان بهذا باعتبار ما يشعر به من كون ذلك ضلالا موجبا لزيادة الرهق

وآمنا بأن الإنس ظنوا خطأ كما ظننتم أن الله لن يبعث أحداً من الرسل إلى أحد من العباد وقيل : المعنى أوحى إلىّ أن الجن ظنوا كما ظننتم أيها الكفرة أن الله لن يبعث أحداً من خلقه بعد موته

ونخبركم بأننا طلبنا بلوغ السماء لنسمع كلام أصحابها كما كنا فوجدناها قد ملئت حرساً قويا من الملائكة أعد لطرد من يسترق السمع وملئت شهباً رصدت لمن يريد السمع فتحرقه

ونخبركم كذلك بأننا كنا نقعد منها مقاعد كثيرة لا ستراق السمع قبل بعثة النبى ﷺ فمن يستمع الآن يجد **لـه** شهابا خاصاً به رصد لأجله لايخطئه وهذه الشهب لا يمنع وجودها الآن وقبل الآن وكونها ظاهرة طبيعية لا يمنع أنها أعدت بعد البعثة لذلك مع صفتها الأصلية وكثرت لهذا الغرض ويفيد ذلك قوله : ﴿ **ملئت** ﴾ وآمنا بأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض بحراسة السماء أم أراد بهم رشدا وخيراً وآمنا بأنا منا الصالحون أى فى أنفسهم الطيبون فى المعاملات مع غيرهم المائلون للخير بطبعهم ومنا غير ذلك وهم كثير كنا طرائق مختلفة حيث وكلنا إلى أنفسنا

وآمنا بأنا لن نعجز الله ولن نفلت منه أبدا أينما كنا فى الأرض ولن نعجزه هاربين منها إلى السماء فالكل فى قبضته وتحت تصرفه

وآمنا بأنا كما سمعنا الهدى أى : القرآن آمنا به من غير تلعثم وتردد فمن يؤمن بربه وبما أنزله – عز وجل – فلا يخاف نقصا ولا يخاف ظلماً إذ لا يظلم ربك مثقال ذرة وفى الواقع أن ربك لايظلم **أحدا بل الكل يأخذ جزاء ولكن نصت الآية على أن المؤمن لاينقص من حسناته ولا يبخس شىء من عمله .**

وبعد سماع القرآن آمنا بأنا منا المسلمون ومنا القاسطون الجائرون على طريق الهدى ، فأما المسلمون المهديون فأولئك قوم توخوا العدل والحق وقصدوه واتبعوه وآمنوا وعملوا به وأما القاسطون الجائرون عن سنة الحق والعدل والكرامة التى هى سنن الإسلام فأولئك قوم مأواهم جهنم بل كانوا لها حطباً ووقوداً .

تلك حقائق إسلامية أوردها القرآن على لسان الجن فكانت دواء لكثير من أمراضنا وتصحيحا لكثير من أفهامنا وهى تتلخص فيما يأتى :

١ – أن الجن سمعوا قرآنا يدعو إلى العجب فآمنوا به ولن يشركوا بالله أحداً .

٢ – أنه تعالى جده وعظمت عظمته لا يمكن أن يتخذ صاحبة ولا ولداً .

٣ – أنه كان يقول بذلك بعض سفهائنا وهو قول خارج عن كل الحدود

٤ **وأنا** كنا نظن أنه لا يعقل أن يقول أحد من الخلق على الله كذبا ولكن تبين لنا ذلك فنعتذر

٥ – وأنه مما يدعو إلى العجب أن رجالا من الإنس كانوا يستجيرون برجال من الجن فازدادوا منا وفجورا لذلك ، أو أنه كان رجال من الإنس يستجيرون بإخوانهم من الإنس ليمنعوا عنهم ضرر الجن فازدادوا ظلما وفحشا مع أن الجن لا حول لهم ولا طول فليطمئن الإنس ولايستعيذون إلا بالله من الإنس والجن .

٦ – أن الخلق كانت تظن خطأ أن الله لن يبعث أحدا من رسله ولا أحدا بعد موته

٧ – وأنا طلبنا بلوغ السماء لنعرف خبرا فمنعنا فليطمئن الإنس فليس الجن يعرف أى خبر عن السماء .

٨ – وأنا كنا نقعد قبل ذلك فى بعض الأماكن نسترق السمع أما الآن فلن يكون ذلك .

٩ – وانا أجهل الخلق بالغيب فلسنا نعرف أشر أريد بالناس أم أريد بهم خير ؟!.

١٠ – وأنا منا الصالحون ومنا غير ذلك .

١١ – وأنا عرفنا أن الله قادر على كل شيء فلن نعجزه فى الأرض ولا فى السماء

١٢ – وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن فسيأخذ حقه كاملا غير منقوص .

١٣ – وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فالمسلمون فى الخير وإلى الخير صائرون وأما القاسطون فأولئك فى ضلال وإلى جهنم صائرون .

مبحث فى عالم الجن والشياطين

قال الشيخ (عمر سليمان الأشقر) فى كتابه تحت هذا العنوان (عالم الجن والشياطين)

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد

فقد يظن بعض الناس أن الكتابة فى هذا الموضوع من قبيل الترف العلمى ويحبذ هؤلاء أن يمر الإنسان بهذا الموضوع مروراً عابراً فلا يأخذ من تفكيره إلا القليل وهؤلاء يظنون أن الفائدة المرجوة من وراء هذه الدراسة محدودة وأن الجهل به لا يضير

وأنا لن أذهب بعيدا فعالم البشر اليوم يبذلون من المال ما يبنى المدن ويشيد الدول ويقضى على الفقر فى بقاع شاسعة من العالم تضم ألوف الملايين فى البحث عن إمكانية الحياة والأحياء فى الكواكب القريبة منا وقد قام العلماء فى هذا السبيل بجهود جبارة كلفتهم من الوقت والمال الكثير فما بالكم بعالم من الأحياء العقلاء يعيشون معنا فى أرضنا ويخالطوننا فى مساكننا ويأكلون ويشربون معنا وقد يفسدون علينا تفكيرنا وقلوبنا وقد يدفعوننا إلى أن نحطم أنفسنا بأنفسنا وأن يسفك بعضنا دم بعض وقد يعبدوننا لأنفسهم أو لأى مخلوق كى يجلبوا لنا غضب ربنا فيحل بنا سخطه ويترك بنا غضبه ثم تكون عاقبة الشاردين عن ربهم ناراً تلظى

إن المعلومات التى جاءتنا بها النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الموثقة فى هذا الجانب لا تقدر بمال .

فهى تكشف لنا أسرار هذا العالم : عالم الجن وتمدنا بفيض من المعلومات تكشف تفاصيل حياتهم كما تخبرنا عما يكنه بعض هؤلاء من عداء تجاه الإنسانية وما يقومون به من جهود متلاحقة لا تنقطع لإضلالنا وتدميرنا وحسبك دليلاً ينبيك عن أهمية الأمر أن تتبع الآيات التى تحدثت عن الجن والشياطين لتعلم عظم المساحة التى **شغلتها هذه النصوص من كتاب الله** .

ومن يطالع هذه النصوص يعلم أن حياة الإنسان ليست إلا صراعاً بينه وبين الشيطان ، الشيطان يريد أن يقضى عليه بأن يوبقه ويهلكه والإنسان الذى أمده الله بنوره يجاهد كى يستقيم على صراط ربه ويقيم غيره على هذا الصراط وفى سبيل ذلك لابد له من أن يصارع هذا العدد فى حنايا نفسه وخطرات

قلبه وآماله وأحلامه وتطلعاته لابد له أن يتفحص أهدافه وغاياته القريبة والبعيدة باستمرار كي يتبين مدى قربه وبعده من ربه ومدى تخلصه من عدوه الذى يحاول أن يحتنكه ويقوده كما يقود الزارع حماره .

ولقد جمعت النصوص التى تحدثت عن هذا العالم وكلام الأئمة الأعلام عليها وتأملت فى ذلك كله فجاء هذا الكتاب فى ستة فصول .

الفصل الأول تعريف وبيان بهذا العالم : أصلهم وخلقهم وأسمائهم وأصنافهم وطعامهم وشرابهم وزواجهم ومساكنهم ودوابهم وقدراتهم التى وهبهم الله إياها وستجد فى غضون هذا الفصل الأدلة التى تثبت وجودهم وترد على المنكرين

والفصل الثانى بيان الغاية التى خلقوا من أجلها وطريقة تبليغهم التعاليم الربانية وعموم رسالة محمد ﷺ

أما الفصل الثالث فهو صلب هذه الرسالة وفيه عدة مباحث :

الأول : أسباب العداء بين الإنسان والشيطان والتدليل على قوته وعمقه وتحذير الله لنا من هذا العدو .

الثانى : الأهداف القريبة والبعيدة للشيطان .

الثالث : أساليب الشيطان فى إضلال الإنسان .

الرابع : قيادته للمعركة وجنده فيها .

الخامس : مصائد الشيطان التى يكيد بها الإنسان .

وختمت هذا الفصل بالحديث عن وسوسة الشيطان التى هى سلاحه فى إفساد النفوس وزرع الفساد فى القلوب .

والفصل الرابع تعرضت فيه لعدة قضايا تضلّ بها الشياطين العباد :

الأولى : تمثل الشياطين وتكليمها لبعض العباد وما ترتب على ذلك من الفساد

الثانية : تحضير الأرواح ومدى صحة ذلك وعلاقة هذا بالشياطين

الثالثة : مدى معرفة الجن بعالم الغيب وما ترتب على اعتقاد الناس بأن الجن يعلمون الغيب من فساد

الرابعة : الجن والأطباق الطائرة

وفى الفصل الخامس تحديد للأسلحة التى لابد للمسلم أن يتسلح بها وهو يخوض المعركة مع الشيطان .

وفى الفصل السادس والأخير : تحدثت عن الحكمة من خلق الشيطان

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا المؤلف كاتبه وناشره وقارئه وأن يجزل للجميع المثوبة وأن يعيذنا من الشيطان وأن يتولانا بعونه ورعايته إنه نعم المولى والنصير وصلى الله على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفصل الأول

تعريف وبيان الجن :

الجن عالم آخر غير عالم الإنسان وعالم الملائكة بينهم وبين الإنسان قدر مشترك من حيث الاتصاف بصفة العقل والإدراك ومن حيث القدرة على اختيار طريق الخير والشر ويخالفون الإنسان فى أمور أهمها أن أصل الجان مخالف لأصل الإنسان

وسموا جناً لاجتنانهم ، أى : استتارهم عن العيون ﴿ **إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم** ﴾[١]

أصلهـم :

أخبرنا الله – جل وعلا – أن الجن قد خلقوا من النار فى قوله : ﴿ **والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾[٢] وفى سورة الرحمن ﴿ **وخلق الجان من مارج من نار** ﴾[٣] وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وغير واحد فى قوله : (مارج من نار) طرف اللهب وفى رواية من خالصه وأحسنه وقال النووى فى شرحه على مسلم : (المارج اللهب المختلط بسواد النار)

وفى الحديث الذى أخرجه مسلم عن عائشة عن النبى ﷺ قال : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار وخلق آدم مما وصف لكم)[٤] متى خلقوا ؟

لاشك أن خلق الجن متقدم على خلق الإنسان لقوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم** ﴾[٥] **فقد نص فى الآية أن الجان مخلوق قبل الإنسان ويرى بعض السابقين أنهم خلقوا قبل الإنسان بألفى عام وهذا لا دليل عليه من كتاب ولا من سنة .**

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٢٧ .

(٢) سورة الحجر الآية : ٢٧

(٣) سورة الرحمن الآية : ١٥ .

(٤) صحيح مسلم – كتاب الزهد والرقائق – باب فى أحاديث متفرقة ٢٢٩٤/٤ رقم ٢٩٩٦

(٥) سورة الحجر الآيتان : ٢٧ ، ٢٨ .

أسماء الجن فى لغة العرب :

قال ابن عبد البر : الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان على مراتب :

١ - فإذا ذكروا الجن خالصا قالوا : جنى

٢ - فإذا أرادوا أنه مما يسكن مع الناس قالوا : عامر والجمع عمار

٣ - فإن كان مما يعرض للصبيان قالوا : أرواح

٤ - فإن خبث وتعرض قالوا : شيطان

٥ - فإن زاد أمره على ذلك وقوى أمره قالوا : عفريت .

أصناف الجن :

يقول الرسول ﷺ فى هذا : (الجن ثلاثة أصناف : فصنف يطير فى الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون)[1]

لا مجال للتكذيب بعالم الجن :

أنكرت قلة من الناس وجود الجن إنكاراً كلياً وزعم بعض المشركين : أن المراد بالجن أرواح الكواكب .

وزعمت طائفة من الفلاسفة : أن المراد بالجن **نوازع** الشر فى النفس الإنسانية وقواها الخبيثة كما أن المراد بالملائكة نوازع الخير فيهم .

وزعم فريق من المحدثين (بفتح الدال المخففه) : أن الجن هم الجراثيم والميكروبات التى كشف عنها العلم الحديث .

وقد ذهب الدكتور محمد البهى (فى تفسير سورة الجن) : أن المراد بالجن الملائكة فالجن والملائكة عنده عالم واحد لا فرق بينهما ومما استدل به : أن الملائكة مستترون عن الناس إلا أنه أدخل فى الجن من يتخفى من عالم الإنسان فى إيمانه وكفره وخيره وشره (تفسير سورة الجن ص ٨)

عدم العلم ليس دليلا :

وغاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم وعدم العلم ليس دليلاً ، وقبيح بالعاقل أن ينفى الشىء لعدم علمه بوجوده وهذا مما نعاه الله على الكفرة : (**بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه**) سورة يونس ٢٩ .

---

(١) المستدرك للحاكم - كتاب التفسير ٤٥٦/٢ .

وهذه المخترعات الحديثة التى لا يستطيع أحد أن يكابر فيها أكان يجوز لإنسان عاش منذ مئات السنين أن ينكر إمكان حصولها لو أخبره صادق بذلك ؟

وهل عدم سماعنا للأصوات التى يعج بها الكون فى كل مكان دليل عدم وجودها حتى إذا إخترعنا (الراديو) واستطاع التقاط ما لا نسمع صدقنا بذلك ؟!

والصحيح :

والقول الحق أن الجن عالم ثالث غير عالم الملائكة والبشر وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة ليسوا بأعراض ولا جراثيم وأنهم مكلفون مأمورون منهيون .

الأدلة :

١ - التواتر :

يقول ابن تيمية « مجموع الفتاوى ١٠/١٩ » : لم يخالف أحد من طوائف المسلمين فى وجود الجن ولا فى أن الله أرسل محمداً - ﷺ - إليهم وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن ، أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين وإن وجد فيهم من ينكر ذلك وكما يوجد فى المسلمين من ينكر ذلك **كالجهيمة** والمعتزلة وإن كان جمهور الطائفة وأئمتها مقرين بذلك .

وهذا لأن وجود الجن تواترت به أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالضرورة ومعلوم بالضرورة أنهم أحياء عقلاء فاعلون بالإرادة بل مأمورون منهيون ليسوا صفات وأعراضا قائمة بالإنسان أو غيره ، كما يزعمه بعض الملاحدة فلما كان أمر الجن مقواتسماً عن الأنبياء تواتراً تعرفه العامة والخاصة لم يمكن طائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكرهم .

وقال فى ص ١٣ « جميع طوائف المسلمين يقرون بوجود الجن وكذلك جمهور الكفار كعامة أهل الكتاب ، وكذلك عامة مشركى العرب وغيرها من أولاد حام ، وكذلك جمهور الكنعانيين واليونان من أولاد يافث فجماهير الطوائف تقر بوجود الجن »

٢ - النصوص القرآنية والحديثية :

كقوله تعالى : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ سورة الجن ١

وقوله : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ سورة الجن ٦

وهى نصوص كثيرة سيأتى ذكر غالبها فى ثنايا هذه الرسالة إن شاء الله .

٣ – المشاهدة والرؤية :

كثير من الناس فى عصرنا وقبل عصرنا شاهد شيئاً من ذلك وإن كان كثير من الذين يشاهدون ويسمعونهم لا يعرفون أنهم جن ، إذ يزعمون أنهم أرواح ، أو رجال الغيب أو رجال الفضاء .

وقد حدثنا الثقاة فى القديم والحديث عن مشاهداتهم فهذا عالم جليل يدعى الأعمش يقول : تروح إلينا حنى ، فقلت له : ما أحب الطعام إليكم ؟ فقال : الأرز ، قال : فأتيناهم به فجعلت أزى اللقم ترفع ولا أرى أحدا ، فقلت : فيكم من هذه الأهواء التى فينا ؟ قال : نعم ، فقلت : فما الرافضة فيكم ؟ قالوا : شرنا .

قال ابن كثير بعد سوقه لهذه القصة : عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزى ، فقال : هذا إسناد صحيح إلى الأعمش . ثم قال : وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة العباس بن أحمد الدمشقى قال : سمعت بعض الجن وأنا فى منزل لى بالليل ينشد :

قلوب براهـا الحب حتى تعلقـت ... مذاهبهـا فى كل غـرب وشارق
تهيـم بحب الله والله ربهـا ... معلقـة بالله دون الخلائـق

ا.هـ كلام ابن كثير .

القول : وقد حدثنى كثير من الثقات عن مخاطبتهم للجن ورؤيتهم لهم . وسيأتى ذكر شىء من ذلك عند حديثنا عن قدرتهم على التشكل لعبور مختلفة ، إن شاء الله تعالى .

٤ – أصلهم الذى خلقوا منه :

أخبر الرسول – ﷺ أن الملائكة خلقوا من نور والجن خلقوا من نار ففرق بين الأصليين وهذا يرد على الذين لا يفرقون بين الجن والملائكة .

رؤية الحمار والكلب للجن

إذا كنا لا نرى الجن فإن بعض الأحياء يرونهم كالحمار والكلب ففى مسند أحمد وسنن أبى داود بإسناد صحيح عن جابر مرفوعاً : « إذا سمعتم نباح الكلاب ونهيق الحمير بالليل فتعوذوا بالله من الشيطان فإنهن يرون مالا ترون »[1]

---

(١) مسند أحمد ٣٠٦/٣ وسنن أبى داود – كتاب الأدب – باب ما جاء فى الديك والبهائم ٣٣٢/٥ رقم ٥١٠٣

وهذا ليس غريباً فقد تحقق العلماء من قدرة بعض الأحياء على رؤية مالا نراه فالنمل يرى الأشعة فوق البنفسجية ولذلك فإنه يرى الشمس حال الغيم والبومة ترى الفأر فى ظلمة الليل البهيم .

الشـيطان والجـان

الشيطان الذى حدثنا الله عنه كثيرا فى القرآن من عالم الجن ، كان يعبد الله فى بداية أمره ، وسكن السماء مع الملائكة ، ودخل الجنة ثم عصى ربه عندما أمره أن يسجد لآدم استكباراً وعلواً وحسداً ، فطرده الله من رحمته .

والشيطان فى لغة العرب يطلق على كل عاتٍ متمرد ، وقد أطلق على هذا المخلوق لعتوه وتمرده على ربه

وأطلق عليه لفظ (الطاغوت) ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت * فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ (سورة النساء ٧٦) وهذا الاسم معلوم عند غالبية أمم الأرض بنفس اللفظ كما يذكر العقاد فى كتابه (إبليس) وإنما سمى طاغوتاً لتجاوزه حده وتمرده على ربه وتنصيبه لنفسه إلهاً يعبد .

وقد يئس هذا المخلوق من رحمة الله ولذا أسماه الله (بإبليس) والبلس فى لغة العرب من لا خير عنده وأبلس يئس وتحير .

ويذكر جمع من علماء السلف أن اسمه قبل أن يعصى (عزازيل) والله أعلم بمدى صحة ذلك .

الشيطان مخلوق :

الذى يطالع ما جاء فى القرآن والحديث عن الشيطان يعلم أنه مخلوق يعقل ويدرك ويتحرك و ... ليس كما يقول بعض الذين لا يعلمون : « أنه روح الشر متمثلة فى غرائز الإنسان الحيوانية التى تصدفه ، إذا تمكنت من قلبه عن المثل الروحية العليا » (دائرة المعارف الحديثة ص ٣٥٧) .

أصـــله :

سبق القول بأن الشيطان من الجن وقد نازع فى هذه المسألة بعض المتقدمين والمتأخرين وحجتهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين** ﴾ سورة البقرة ٣٤ وأمثال هذه الآية التى يستثنى فيها إبليس من الملائكة ، والمستثنى لا يكون إلا من جنس المستثنى منه عادة .

وقد نقلت لنا كتب التفسير والتاريخ أقوال جملة من العلماء يذكرون أن إبليس كان من الملائكة وأنه كان خازناً للجنة أو للسماء الدنيا وأنه كان من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة .. إلى آخر الأقوال ، قال ابن كثير فى تفسير (٣٢٩٧/٤)

(وقد روى فى هذا آثار كثيرة عن السلف وغالبها من الإسرائيليات التى تنقل لينظر فيها والله أعلم بحال كثير منها ومنها ما يقطع بكذبه لمخالفته للحق الذى بأيدينا وفى القرآن غنية عن كل ماعداه من الأخبار المتقدمة لأنها لاتكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد الذين دونوا الحديث وحرروا وبينوا صحيحه من حسنه من ضعيفه من منكره وموضوعه ومتروكه ومكذوبه وعرفوا الوضاعين والكذابين والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال . كل ذلك صيانة للجناب النبوى والمقام المحمدى خاتم الرسل وسيد البشر ﷺ أن ينسب إليه كذب أو يحدث عنه بما ليس فيه » وما احتجوا به من أن الله استثنى إبليس من الملائكة ... ليس دليلاً قاطعاً لاحتمال أن يكون الاستثناء منقطعاً ، بل هو كذلك حقاً للنص على أنه من الجن فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم** * **فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه** ﴾ سورة الكهف ٥٠ .

وقد ثبت لدينا بالنص الصحيح أن الجن غير الملائكة والإنس فقد أخبر المصطفى ﷺ : ﴿ **أن الملائكة خلقوا من نور وأن الجن خلقوا من نار وأن آدم خلق من طين** ﴾ والحديث فى صحيح مسلم[1]

قال الحسن البصرى : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين (البداية والنهاية ٧٩/١) والذى حققه ابن تيمية : أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله) (مجموع الفتاوى ٣٤٦/٤) .

هل الشيطان أصل الجن أم واحد منهم ؟

ليس لدينا نصوص صريحة تدلنا على أن الشيطان أصل الجن أو واحد منهم وإن كان هذا الأخير أظهر لقوله تعالى : ﴿ **إلا إبليس كان من الجن** ﴾ سورة الكهف ٥٠

وابن تيمية يذهب إلى أن الشيطان أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس . (راجع مجموع الفتاوى ٢٣٥/٤ ، ٣٤٦) .

---

(٢) صحيح مسلم – كتاب الزهد الرقائق – باب فى أحاديث متفرقة ٢٢٩٤/٤ رقم ٢٩٩٦ .

طعام الجن وشرابهم :

الجن والشيطان منهم ، يأكلون ويشربون ، ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ أمره أن يأتيه بأحجار يستجمر بها وقال له : « ولا تأتينى بعظم ولا بروثة » ولما سأل أبو هريرة الرسول ﷺ بعد ذلك عن سر نهيه عن العظم والروثه ، قال : « هما من طعام الجن وإنه أتانى وفد **نصيبين** – ونعم الجن – فسألونى الزاد فدعوت الله لهم : أن لايمروا بعظم ولا روثة إلا وصبروا عليها طعاماً »[(١)] وفى سنن الترمذى بإسناد صحيح « لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن »[(٢)] صحيح الجامع (١٥٤/٢) وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود « أتانى **داعى** الجن فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن ، قال : فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم وسألوه الزاد فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم لحمها وكل **بعرة** علف لدوابكم ، فقال النبى ﷺ – : « فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد إخوانكم »[(٣)].

وقد أخبرنا الرسول – ﷺ – أن الشيطان يأكل بشماله وأمرنا بمخالفته فى ذلك ما روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمنه وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله »[(٤)].

وفى المسند أيضاً « إذا دخل الرجل بيته فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ههنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله ، قال : أدَركتم المبيت وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء » وأخرجه مسلم أيضاً[(٥)]، ففى هذه النصوص دلالة قاطعة على أن الشياطين تأكل وتشرب .

وكما أن الإنس منهيون عن أكل مالم يذكر اسم الله عليه من اللحوم فكذلك الجن المؤمنون جعل لهم الرسول – ﷺ – طعاماً كل عظم ذكر اسم الله عليه فلم يبح لهم متروك التسمية ويبقى متروك التسمية لكفرة الجن : الشياطين فإن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر عليه اسم الله ولأجل ذلك ذهب بعض العلماء إلى أن الميتة طعام الشيطان لأنه لم يذكر اسم الله عليها .

واستنتج ابن القيم من قوله تعالى : ﴿**إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان**﴾ سورة المائدة ٩٠) أن المسكر شراب الشيطان فهو يشرب من الشراب الذى عمله أولياؤه بأمره وشاركهم فى عمله فيشاركهم فى شربه وإثمه وعقوبته .

---

(١) صحيح البخارى – كتاب مناقب الأنصار – باب ذكر الجن ٥٨/٥ .

(٢) سنن الترمذى – كتاب الطهارة – باب ما جاء فى كراهية ما يستنجى به ٢٩/١ رقم ١٨ .

(٣) صحيح مسلم – كتاب الصلاة – باب الجهد بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠

(٤) صحيح مسلم – كتاب الأشربة – باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٨/٣ رقم ٢٠٢٠

(٥) صحيح مسلم – كتاب الأشربة – باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٨/٣ رقم ٢٠١٨ ومسند أحمد ٣٤٦/٣ .

هل يتزاوج الجن ويتكاثرون :

الذى يظهر أن الجن يقع فيهم النكاح وقد استدل بعض العلماء على ذلك بقوله تعالى فى أزواج أهل الجنة : ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولاجان** ﴾ سورة الرحمن ٥٦ وذكر صاحب (لوامع الأنوار البهية) حديثاً نحتاج إلى نظر فى إسناده ، يقول : (إن الجن يتوالدون كما يتوالد بنو آدم وهم أكثر عدداً)[1] رواه ابن أبى حاتم وأبو الشيخ فى العظمة عن قتادة وسواء أصح هذا الحديث أم لم يصح فإن الآية صريحة فى أن الجن يتأتى منهم الطمث وحسنا هذا دليلاً .

وقد زعم قوم أن الجن لا يأكلون ولا يشربون ولا يتناكحون وهذا القول تبطله الأدلة من الكتاب والسنة التى سقناها .

وبعض العلماء ذكر أن الجن أنواع منهم من يأكل ويشرب ومنهم من ليس كذلك ، يقول وهب بن منبه « الجن أجناس : فأما خالص الجن فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتوالدون ويتناكحون ويموتون ، قال : **وهذه هى السحالى والغول** وأشباه ذلك » أخرجه ابن جرير .

وهذا الذى ذكره وهب يحتاج إلى دليل ولا دليل وقد حاول بعض العلماء الخوض فى الكيفية التى **يأكلون** منها هل هو مضغ وبلع أو تشمم واسترواح والبحث فى ذلك خطأ لا يجوز لأننا لا نعلم بالكيفية ولم يخبرنا الله ورسوله ﷺ .

زواج الإنس من الجن :

لازلنا نسمع أن فلاناً من الناس تزوج جنيه أو أن إمرأة من الإنس خطبها حتى وقد ذكر السيوطى آثاراً وأخباراً عن السلف والعلماء تدل على وقوع التناكح بين الإنس والجن يقول ابن تيمية : « وقد يتناكح الإنس والجن ويولد بينهما ولد وهذا كثير معروف » .

وعلى فرض إمكان وقوعه فقد كرهه جمع من العلماء كالحسن وقتادة والحكم وإسحق والإمام مالك – رحمه الله – لايجد دليلاً ينهى عن مناكحة الجن ، غير أنه لم يستحبه وعلل ذلك بقوله : « ولكنى أكره إذا وجدت امرأة حامل فقيل من زوجك ؟ قالت : من الجن فيكثر الفساد » .

وذهب قوم إلى المنع من ذلك واستدلوا على مذهبهم بأن الله امتن على عباده من الإنس بأنه جعل لهم أزواجاً من جنسهم : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ سورة الروم ٢١ فلو وقع فلا يمكن أن يحدث التآلف والانسجام بين الزوجين لاختلاف الجنس فتصبح الحكمة من الزواج لاغية إذ لا يتحقق السكن والمودة المشار إليهما فى الآية الكريمة .

وعلى كل فهذه مسألة يزعم بعض الناس وقوعها فى الحاضر والماضى فإذا حدثت فهى شذوذ ــ قلما ــ يسأل فاعلها عن حكم الشرع فيها وقد يكون فاعلها مغلوباً على أمره لايمكنه أن يتخلص من ذلك .

ومما يدل على إمكان وقوع التناكح بين الإنس والجن أن حور الجنة قال الله فيهن ﴿ **لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان** ﴾[1] فدلت الآية على صلاحيتهن للإنس والجن على حد سواء .

هل تموت الشياطين :

لاشك أن الجن ومنهم الشياطين يموتون ، إذ هم داخلون فى قوله تعالى : ﴿ **كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ سورة الرحمن ٢٦ – ٢٨ .

وفى صحيح البخارى عن ابن عباس أن النبى ﷺ كان يقول : « أعوذ بعزتك الذى لا إله إلا أنت ، الذى لا يموت والجن والإنس يموتون »[2] أما مقدار أعمارهم فلا نعلمها إلا ما أخبرنا الله عن إبليس اللعين أنه سيبقى حياً إلى أن تقوم الساعة : « قال : فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : ﴿ **إنك من المنظرين** ﴾ سورة الأعراف ١٤ – ١٥ .

أما غيره فلا تدرى مقدار أعمارهم إلا أنهم أطول أعماراً من الإنس . ومما يدل على أنهم يموتون أن خالد بن الوليد قتل شيطانة العزة (الشجرة التى كانت تعبدها العرب) وأن صحابياً قتل الجن الذى تمثل بأفعى .

مساكن الجن وأماكنهم وأوقات تواجدهم :

الجن يسكنون هذه الأرض التى تعيش فوقها ويكثر تواجدهم فى الخراب **والفلوات** ومواضع النجاسات كالحمامات والحشوش والمزابل والمقابر ولذلك ــ كما يقول ابن تيمية : يأوى إلى كثير من هذه الأماكن التى هى مأوى الشياطين : الشيوخ الذين تقترن بهم الشياطين وقد جاءت الأحاديث التى تنهى عن الصلاة فى الحمام لأجل ما فيها من نجاسة ولأنها مأوى الشياطين وفى المقبرة لأنها ذريعة إلى الشرك مع أن المقابر قد تكون مأوى للشياطين .

ويكثر تواجدهم فى الأماكن التى يستطيعون أن يفسروا فيها كالأسواق فقد أوصى الرسول ﷺ أحد أصحابه قائلا : (**لاتكونن** إن إستطعت أول من **يدخل** السوق ولا آخر من يخرج منها فإنها معركة الشيطان وبها ينصب رايته) رواه مسلم فى صحيحه[3] .

---

(١) سورة الرحمن الآية : ٥٦ .

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان – كتاب الذكر والدعاء حديث رقم ١٧٣٦

(٣) صحيح مسلم – كتاب فضائل الصحابة – باب من فضائل أم سلمة ١٩٠٦/٤ رقم ٢٤٥١

والشياطين تبيت فى البيوت التى يسكنها الناس وتطردها التسمية وذكر الله وقراءة القرآن خاصة سورة البقرة.وآية الكرسى منها وأخبر الرسول ﷺ أن الشياطين تنتشر وتكثر بحلول الظلام ولذا أمرنا أن نكف صبياننا فى هذه الفترة وهو حديث متفق عليه(١).

والشياطين تهرب من الأذان ولاتطيق سماع صوته وفى رمضان **تصفد الشياطين** .

من مجالس الشياطين :

تحب الشياطين الجلوس بين الظل والشمس ولذا نهى الرسول ﷺ عن الجلوس بينهما وهو حديث صحيح مروى فى السنن وغيرها .

دواب الجن(٢).

فى حديث ابن مسعود فى صحيح مسلم أن الجن سألوا الرسول ﷺ : الزاد ، فقال لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع فى أيديكم لحماً وكل بعرة علف لدوابكم)(٣)

فأخبر أن لهم دواب وأن علف دوابهم بعردواب الإنس .

حيوانات تصاحبها الشياطين :

من هذه الحيوانات الإبل ، يقول الرسول ﷺ : (الإبل خلقت من الشياطين وإن وراء كل بعير شيطاناً) رواه سعيد بن منصور فى سننه بإسناد مرسل حسن ومن أجل ذلك نهى الرسول ﷺ عن الصلاة فى مبارك الإبل ، ففى مسند أحمد ، وسنن أبى داود أن الرسول ﷺ قال : (لاتصلوا فى مبارك الإبل فإنها من الشياطين وصلوا فى مرابض الغنم فإنها بركة ..)(٤) وفى سنن ابن ماجة بإسناد صحيح : (ولاتصلوا فى أعطان الإبل ، فإنها خلقت من الشياطين)(٥)

وهذه الأحاديث ترد على من قال بأن علة النهى عن الصلاة فى مبارك الإبل نجاسة أبوالها وروثها فالصحيح أن روث وبول ما يؤكل لحمه غير نجس .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣١٠

(٢) مسند أحمد ٤١٤/٣ ، ومسند أبى داود - كتاب الأدب - باب فى الجلوس بين الظل والشمس ١٠٦٤/٥ رقم ٤٨٢١

(٣) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب الجهد بالقراءة على الجن ٣٣٢/١ رقم ٤٥٠

(٤) مسند أحمد ٣٥٢/٤ وسنن أبى داود - كتاب الصلاة - باب النهى عن الطلاة فى مبارك الإبل ٣٣١/١ رقم ٤٩٣

(٥) سنن ابن ماجه - كتاب المساجد والجماعات - باب الصلاة فى أعطان الإبل ومراح الغنم ٢٥٣/١ رقم ٧٦٩

قبح صورة الشيطان :

الشيطان قبيح الصورة وهذا مستقر فى الأذهان وقد شبه الله ثمار شجرة الزقوم التى تثبت فى أصل الجحيم برؤوس لما علم من قبح صورهم وأشكالهم ﴿ **إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين** ﴾[١]

وقد كان النصارى فى القرون الوسطى يصورون الشيطان على هيئة رجل أسود ذى لحية مدببة وحواجب مرفوعة وفم ينفث لهباً وقرون وأظلاف وذيل (دائرة المعارف الحديثة ٣٧٥ .

الشيطان له قرنان :

ففى صحيح مسلم عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « لا تحروا بصلاتكم طلوع الشمس ولا غروبها فإنها نطلع بين قرنى شيطان »[٣] وفى البخارى ومسلم عنه : « إذا طلع حاجب الشمس فدعوا الصلاة حتى تغيب ، ولا تتَحَيَّنُوا بصلاتكم طلوع الشمس ، ولا غروبها ، فإنَّها تطلع بين قرنى شيطان »[٢]

والمعنى أن طوائف من المشركين كانوا يعبدون الشمس ويسجدون لها عند طلوعها وعند غروبها ، فعند ذلك ينتصب الشيطان فى الجهة التى تكون فيها الشمس حتى تكون عبادتهم له .

وقد نهينا عن الصلاة فى هذين الوقتين ، والصحيح أن الصلاة فى هذين الوقتين جائزة إذا كان لها سبب كتحية المسجد ، ولا تجوز بلا سبب كالنفل المطلق ، لقوله ﷺ (لاتَحسَّنُوا) أى لاتتقصدوا ومما ورد فيه ذكر قرن الشيطان حديث البخارى عن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : رأيت رسول الله ﷺ يشير إلى المارق ، فقال : « ها إن الفتن ههنا ، إن الفتن ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان » . والمراد بقوله « حيث يطلع قرن الشيطان » أى جهة الشرق[٣]

قـدراتـهم :

أعطى الله الجنَّ قدرة لم يعطها للبشر ، وقد حدثنا الله عن بعض قدراتهم ، فمن ذلك سرعة الحركة والانتقال :

فقد تعهد عفريت من الجن لنبى الله سليمان بإحضار عرش ملكة **اليمن** إلى بيت المقدس فى مدة لاتتجاوز قيام الرجل من جلوسه ، فقال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك

---

(١) صحيح مسلم – كتاب صلاة المسافرين – باب الأوقات التى نهى عن الصلاة فيها ١/٥٦٧ رقم ٨٢٨

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٤٧٦

(٣) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب صفة إبليس وجنوده ٤/١٥٠ طبقة الشعب

طرفك (قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوي أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب : ﴿ **أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقراً عنده قال : هذا من فضل ربى ...** ﴾ سورة النمل ٣٩ – ٤٠ .

سبقهم الإنسان فى مجالات الفضاء :

ومنذ القدم كانوا يصعدون إلى أماكن متقدمة فى السماء ، فيسترقون أخبار السماء ، ليعلموا بالحدث قبل أن يكون ، فلما بعث الرسول ﷺ زيدت الحراسة فى السماء : ﴿ **وأنا لمسنا السماء ، فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا ، وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصداً** ﴾ سورة الجن ٨ – ٩ .

... وقد وضح الرسول ﷺ كيفية استراقهم السمع ، فعن أبى هريرة يبلغ به النبى ﷺ « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كالسلسلة على صفوان ، قال عليٌّ وقال غيره : ينفذهم ذلك ، فإذا **فزع** عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الذى قاله الحق ، وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترقو السمع ، ومستمعو السمع هكذا ، واحد فوق آخر ، ووصف سفيان بيده ، وفرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض ، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه ، وربما لم يدركه حتى يرمى بها إلى الذى يليه ، إلى الذى هو أسفل منه ، حتى يلقوها إلى الأرض ، وربما قال سفيان : حتى تنتهى إلى الأرض فتلقى على فم الساحر فيكذب معها مائة كذبة ، فيصدق ، فيقولون : ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكذا وكذا ، **فوجدناه** حقاً للتى سمعت من السماء » رواه البخارى فى صحيحه[1].

خـرافـة جاهليـة :

وهذا العلم عن السبب الذى من أجله يرمى بشهب السماء قضى على خرافة يتناقلها أهل الجاهلية ، فعن **عبدالله** بن عباس قال : أخبرنى رجل من أصحاب النبى ﷺ من الأنصار ، **أنهم** بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله ﷺ رمى بنجم فاستنار فقال لهم رسول الله : « ماذا كنتم تقولون فى الجاهلية إذا رمى بمثل هذا » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ، ومات رجل عظيم . فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكنَّ ربنا ــ تبارك وتعالى ــ اسمه ــ إذا قضى أمراً سبح حملة العرش ، ثم سبح أهل السماء الذي يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح أهل السماء الدنيا ، ثمَّ قال الذي يلون جملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ماذا قال . قال **فيستخبر** بعض أهل السموات بعضا » ، حتى يبلغ الخبر هذه السماء

(١) صحيح البخارى – كتاب التفسير – باب تفسير سورة الحجر ١٠٠/٦ .

الدنيا . فتخطف الجنُّ السمع ، فيقذفون إلى **أوليائهم** ، ويرمون به فما جاءوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يَقْرِفون فيه ويزيدون » رواه مسلم فى صحيحه(١) .

علمهم بالأعمار والتصنيع :

أخبرنا الله أنه سخر الجن لنبِّيه سليمان ، فكانوا يقومون له بأعمال كثيرة تحتاج إلى قدرات ، وذكاء ، ومهارات ، ﴿ **ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه * ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له مايشاء من محاريب * وتماثيل * وجفان كالجواب * وقدور راسيات** ﴾ سورة سبأ ١٣ .

ولعلهم قد توصلوا منذ القدم إلى إكتشاف مثل (الراديو والتلفزيون) . فقد ذكر ابن تيمية — (مجموع الفتاوى ٣٠٩/١١) أن بعض الشيوخ الذي كان لهم اتصال بالجن أخبره وقال له : « إن الجن يرونه شيئاً براقاً مثل الماء والزجاج ، ويمثلون له فيه ما يطلب منه من الأخبار به ، قال فأخبر الناس به ، ويوصلون إلى كلام من استغاث بى من أصحابى ، فأجيبه فيوصلون جوابى إليه » .

قدرتــهم على التشــكل :

للجن قدرة على التشكل بأشكال الإنسان والحيوان ، فقد جاء الشيطان المشركين يوم بدر فى صورة سراقة بن مالك ، ووعد المشركين بالنصر ، وفيه أنزل : ﴿ **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم * وقال لاغالب لكم اليوم من الناس * وإنى جار لكم** ﴾ سورة الأنفال آية ٤٨

ولكن عندما التقى الجيشان وعاين الملائكة تتنزل من السماء ولى هاربا : ﴿ **فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه * وقال : إنى برىء منكم * إنى أرى مالا ترون * إنى أخاف الله** ﴾ سورة الانفال ٤٨ . وقد جرى مع أبى هريرة قصة طريفة رواها البخارى وغيره ، قال أبو هريرة : وكلنى رسول الله بحفظ زكاة رمضان ، فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت : والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال : إنى محتاج ، وعلى عيال ، ولى حاجة شديدة ، قال فخليت عنه ، فأصبحت فقال النبى ﷺ : يا أبا هريرة ، ما فعل أسيرك البارحة ، قال : قلت ، يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا ، فرحمته ، فخليت سبيله قال أما إنه كذبك وسيعود ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ إنه سيعود ، فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت : الأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم لا تعود ، ثُمّ تعودَ ! قال : دعنى أعلمك كلمات **ينفعك** الله بها ، قلت ماهو ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى • **الله لا إله إلا هو الحى القيوم** ﴾

---

(١) صحيح مسلم — كتاب السلام — باب الطيرة والفأل وما يكون فيه من الشؤم ١٧٥٠/٤ رقم ٢٢٢٩

حتى تختم الآية ، فأنّك لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله ، فأصبحت ، فقال لى رسول الله ﷺ : ما فعل أسيرك البارحة ؟ قلت يا رسول الله زعم أنّه يعلمنى **كلمات ينفعنى الله بها فخليب سبيله ، قال : ماهى ؟ قلت قال لى : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى من أولها حتى تختم الله لا إله إلا هو الحى القيوم ، وقال لى : لن يزال عليك من الله حافظ ، ولايقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شىء على الخير ، قال النبى : أما إنه صدقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال ياأبا هريرة ؟ قال : لا ، قال : ذاك شيطان » فقد تشكل هذا الشيطان فى صورة إنسان**[1] .

وقد يتشكل فى صورة حيوان : جمل ، أو حمار ، أو بقرة ، أو كلب ، أو قط . خاصة الكلاب السود ، ولذا أخبر الرسول ﷺ أن مرور الكلب الأسود يقطع الصلاة ، وعلل ذلك بأن (الكلب الأسود شيطان) يقول ابن تيمية : « الكلب الأسود شيطان الكلاب ، والجن تتصور بصورته كثيرا » ، وكذلك بصورة القط الأسود ، لأن السواد أجمع للقوى الشيطانية من غيره ، وفيه قوة الحرارة .

حيـات البيـوت :

تتشكل الجان بشكل الحيات وتظهر للناس ، ولذا نهى الرسول ﷺ عن قتل حيات البيوت ، خشية أن يكون هذا المقتول جنيا قد أسلم ، ففى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ بالمدينة نفراً من الجنّ قد أسلموا فمن رأى شيئاً من هذه العوامر فليؤذنه ثلاثا ، فإن بدا له بعد فليقتله ، فإنه شيطان »[2].

وقد قتل أحد الصحابة حّية من حيات البيوت ، فكان فى ذلك هلاكه ، روى مسلم فى صحيحه : أن أبا السائب دخل على أبى سعيد الخدرى فى بيته ، فوجده يصلى ، قال : فجلست أنتظره حتى يقضى صلاته ، فسمعت تحريكاً فى عراجين فى ناحية البيت ، فالتفت ، فإذا حّية ، فوثبت لأقتلها ، فأشار إلى أن اجلس ، فجلست ، فلما انصرف أشار إلى بيت فى الدار ، فقال : أترى هذا البيت ؟ قلت : نعم . قال : كان فيه فتى منّا حديث عهد بعرس ، قال : فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق ، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار ، فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً ، فقال له رسول الله ﷺ : « خذ عليك سلاحك ، فإنى أخشى عليك قريظة ، فأخذ الرجل سلاحه ، ثمّ رجع ، فإذا إمرأته بين البابين قائمة ، فأهوى إليها بالرمح ليطعنها به ، وأصابته غيره ،

---

(١) صحيح البخارى – كتاب الوكالة – باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا ١٣٣/٣

(٢) صحيح مسلم – كتاب السلام – باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ رقم ٢٢٣٦ .

فقالت له : اكفف عليك رمحك ، وادخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش ، فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ، ثم خرج ، فركزه فى الدار ، فاضطربت عليه ، فما يدرى أيهما كان أسرع موتاً : الحية أم الفتى ؟ قال : فجئنا إلى رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له ، وقلنا ادع الله يحييه لنا ، فقال : « استغفروا لصاحبكم » ، ثم قال : « إن بالمدينة جناً قد أسلموا ، فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام ، فإن بدالكم بعد ذلك فاقتلوه ، فإنما هو شيطان »[1].

تنبيهـــات :

١ – هذا الحكم ، وهو النهى عن قتل هذه الحيوانات خاص بالحيات دون غيرها .

٢ – وليس كل الحيات ، بل الحيات التى نراها فى البيوت دون غيرها ، أما التى نشاهد خارج البيوت فنحن مأمورون بقتلها .

٣ – إذا رأيت حيات البيوت فنؤذنها أى نأمرها بالخروج ، كأن نقول : أقسمت عليك بالله أن تخرجى من هذا المنزل ، وأن تبعدى عنا شرّك وإلا قتلناك فإن رؤيت بعد ثلاثة أيام قتلت .

٤ – والسبب فى قتلها بعد ثلاثة أيام أننا نكون قد تأكدنا أنها ليست جنا مسلماً ، لأنها لو كانت كذلك لغادرت المنزل ، فإن كانت أفعى حقيقية فهى تستحق القتل ، وإن كانت جناً كافراً متمردا فهو يستحق القتل ، لأذاه وإخافته أهل المنزل .

٥ – يستثنى من جنان البيوت نوع يقتل بدون استئذان ، ففى صحيح البخارى عن أبى لبابة أن الرسول – ﷺ – قال : (لا تقتلوا الجنان ، إلا كلَّ أبترذى طفيتين ، فإنه يسقط الولد ، ويذهب البصر فاقتلوه)[2]

وهل كل الحيات من الجنّ أم بعضها ؟ يقول الرسول ﷺ إن الحيات مسيخ الجنّ كما مسخت القردة والخنازير من بنى إسرائيل » رواه الطبرنى[3] وأبو الشيخ فى العظمه بإسناد صحيح ، راجع الأحاديث الصحيحة ١٠٤/٣ .

الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم من العروق :

ففى صحيح البخارى عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى اندم »[4] وفى الصحيحين عن صفية بنت حيي زوج النبى ﷺ قالت : « كان رسول

(١) صحيح مسلم – كتاب السلام – باب قتل الحيات وغيرها ١٧٥٧/٤ رقم ١٤١ .

(٢) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب قوله تعالى : **وبث فيها من كل دابة** ١٥٦/٤

(٣) المعجم الكبير للطبرانى ٣٤١/١١ رقم ١١٨٤٦

(٤) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب صفة الشيطان ١٥٠/٤ .

الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلا ، فحدثته ، ثمَّ قمت لأنقلب ، فقام معى ليقلبنى (يرونى) ، وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ، فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ﷺ أسرعا ، قال النبى ﷺ : على رسلكما إنها صفية بنت حيي ، فقالا : سبحان الله يا رسول الله !! قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شراً ، أو قال : شيئاً »(1).

ضعفـــهم وعجـــزهم :

الجن والشياطين فيهم جوانب قوة ، وجوانب ضعف ، قال تعالى : ﴿ **إن كيد الشيطان كان ضعيفا** ﴾ سورة النساء ٧٦ ، وسنعرض لبعض هذه الجوانب التى عرفنا الله ورسوله بها .

لاسلطان لهم على عباد الله الصالحين :

لم يعط الرب سبحانه الشيطان — القدرة على **إجبار** الناس ، وإكراههم على الضلال والكفر ، ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان * وكفى بربك وكيلا** ﴾ سورة الإسراء ٦٥ . ﴿ **وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو فى شك** ﴾ سورة سبأ ٢١ . ومعنى ذلك أن الشيطان ليس له طريق يتسلط به عليهم لا من جهة الحجة ، ولا من جهة القدرة ، والشيطان يدرك هذه الحقيقية ، قال : ﴿ **رب بما أغويتنى لأزيننَّ لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ سورة الحجر ٣٩ — ٤٠ .

وإنما يتسلط على العباد الذين يرضون بفكره ، ويتابعوه عن رضا وطواعيه : ﴿ **إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾ سورة الحجر ٤٢ . وفى يوم القيامة يقول الشيطان لأتباعه الذين أضلهم وأهلكهم : ﴿ **وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى** ﴾ سورة إبراهيم ٢٢ .

وفى الآية الأخرى : ﴿ **إنما سلطانه على الذين يتولونه * والذين هم به مشركون** ﴾ سورة النحل ١٠٠ . والسلطان هو تسلطه عليهم بالإغواء والإضلال ، وتمكنه منهم ، بحيث يؤزهم على الكفر والشرك ويزعجهم إليه ، ولايدعهم يتركونه كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً** ﴾ سورة مريم ٨٣ ، ومعنى تؤزهم تحركهم وتهيجهم .

وسلطان الشيطان على أوليائه ليس له فيه حجة وبرهان ، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته إياهم ، لما وافقت **أهواءهم** وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ، ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته ، فلما أعطوا بأيديهم ، واستأسروا له سُلِّط عليهم عقوبةً لهم . فالله لا يجعل للشيطان

(1) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٠٤ .

على العبد سلطانا ، حتى جعل له العبد سبيلاً إليه بطاعته والشرك به ، فجعل الله حينئذ له عليه تسلطاً وقهراً .

وقد يسلط على المؤمنين بسبب ذنوبهم :

ففى الحديث « إن الله تعالى مع القاضى مالم يجر ، فإذا جار تبرأ منه ، وألزمه الشيطان » رواه الحاكم ، والبيهقى بإسناد حسن (أنظر صحيح الجامع ٢/١٣٠) .

ويروى لنا أبو الفرج ابن الجوزى — رحمه الله — عن الحسن البصرى — رحمه الله — قصة طريفة ، وبغض النظر عن مدى صحتها إلا أنها تصور قدرة الإنسان على قهر الشيطان إذا أخلص دينه لله ، **وكيف** يصرع الشيطان الإنسان ؟ إذا ضل وزاغ ، يقول الحسن : (كانت شجرة تعبد من دون الله ، فجاء إليه رجل ، فقال : لأقطعن هذه الشجرة ، فجاء ليقطعها غضباً لله فلقيه إبليس فى صورة إنسان ، فقال : ما تريد ؟ قال : أريد أن أقطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله ، قال إذا أنت لم تعبدها فما يضرك من عبدها ؟ قال : لأقطعنها ، فقال له الشيطان : هل لك فيما هو خير لك ؟ لاتقطعها ، ولك ديناران كل يوم إذا أصبحت عند وسادتك . قال : فمن أين لى ذلك ؟ قال أنا لك . فرجع ، فأصبح فوجد دينارين عند وسادته ، ثم أصبح بعد ذلك ، فلم يجد شيئاً . فقام غضبا ليقطعها ، فتمثل له الشيطان فى صورته ، وقال : ما تريد ؟ قال : أريد قطع هذه الشجرة التى تعبد من دون الله تعالى . قال : كذبت ، مالك إلى ذلك من سبيل ، فذهب ليقطعها فضرب به الأرض ، خنقه حتى كاد يقتله ، قال : أتدرى من أنا ، أنا الشيطان ، جئت أول مرة غضباً لله ، فلم يكن لى عليك سبيل ، فخدعتك بالدينارين ، فتركتها ، فلما جئت غضباً للدينارين سلطت عليك) (تلبيس إبليس ٤٣) .

وقد حدثنا الله فى كتابه عن شخص آتاه الله آياته ، فعلمها ، وعرفها ، ثم إنه ترك ذلك كله ، فسلط الله عليه الشيطان ، فأغواه ، وأضله ، وأصبح عبرة تروى ، وقصة تتناقل ، ﴿ **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا * فانسلخ منها * فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها * ولكنّه أخلد إلى الأرض * واتبع هواه * فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث * أو تتركه يلهث * ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا * فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** ﴾ (سورة الأعراف ١٧٥ — ١٧٦) . وواضح أن هذا مثل لمن عرف الحق وكفر به كاليهود الذين يعلمون أن محمداً مرسل من ربه ، ثم هم يكفرون به .

---

(١) المستدرك للحاكم — كتاب الأحكام ٤/٩٣ والسنن الكبرى للبيهقى — كتاب آداب القاضى — باب فضل من ابتلى بشيء من الأعمال ١٠/٨٨ .

أما هذا الذى عناه الله هنا ، فقال بعضهم : هو بلعام بن باعورا ، كان صالحاً ثم كفر ، وقيل : هو أميه بن أبى الصلت من المتألهين فى الجاهلية ، أدرك الرسول — ﷺ — ولم يؤمن به جسداً ، وكان يرجو أن يكون هو النبى المبعوث ، وليس عندنا نص صحيح يعرفنا بالمراد من الآية على وجه التحديد . وهذا الصنف (الذى يؤتى الآيات ثم يكفر) صنف خطر به شَبَه من الشيطان ، لأنَّ الشيطان كفر بعد معرفته الحق ، ولقد تخوف الرسول ﷺ هذا النوع من أمته ، روى الحافظ أبو يعلى عن حذيفة بن اليمان قال : قال رسول الله ﷺ : (إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى إذا رأيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك) قال : قلت يا رسول الله : أيهما أولى بالسيف : الرامى أم المرمى ؟ قال (بل الرامي) قال ابن كثير : وهذا إسناد جيد (انظر تفسير ابن كثير ٢٥٢/٣)[١]

خوف الشيطان وهربه من بعض عباد الله :

إذا تمكن العبد فى الإسلام ، ورسخ الإيمان فى قلبه ، وكان وقَّافاً عند حدود الله فإنَّ الشيطان يفرق منه ، ويفرُّ منه ، كما قال الرسول ﷺ : لعمر بن الخطاب : (إن الشيطان ليفرق منك يا عمر) ، رواه أحمد ، وابن حبان بإسناد صحيح[٢] (صحيح الجامع ٧٤/٢) . وقال فيه أيضا : « إنى لأنظر شياطين الجن والإنس فروا من عمر » رواه الترمذى بإسناد صحيح[٣] (صحيح الجامع ٣٢٩/٢) : وليس ذلك خاصاً بعمر ، فإن من قوى إيمانه يقهر شيطانه ويذله ، كما فى الحديث : (إن المؤمن لينفى شياطينه كما ينحنى أحدكم بغيره فى السفر) ، رواه أحمد[٤] قال ابن كثير فى (البداية ٧٣/١) بعد سوقه لهذا الحديث : (ومعنى لينص شيطانه : ليأخذ بناحيته فيغلبه ، ويقهر ، كما يفعل بالبعير إذا شرد ثم غلبه) .

وقد يصل الأمر أن يؤثر المسلم على قرينه الملازم له فيسلم ، أخرج الأمام أحمد فى مسنده ، ومسلم فى صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : (وإياى ، ولكن الله أعانى عليه فلا يأمرنى إلا بخير) وفى رواية إبن عباس عن الإمام أحمد بإسناد على شرط الصبح : (ولكن الله **أعانى** عليه فأسلم) وفى رواية عائشة عن مسلم (ولكن ربى **أعانى** عليه حتى أسلم)[٥]

---

(١) تفسير ابن كثير — طبعة الشعب ٥٠٩/٣

(٢) مسند أحمد ٣٥٣/٥ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان — كتاب المناقب ٢٠/٩ رقم ٦٨٥٣

(٣) سنن الترمذى — كتاب المناقب — باب مناقب عمر ٦٢٢/٥ رقم ٣٦٩١

(٤) مسند أحمد ٣٨٠/٢ .

(٥) مسند أحمد ٣٨٥/١ وصحيح مسلم — كتاب صفات المنافقين — باب تحرين الشيطان ٢١٦٧/٤ رقم ٢٨١٤ .

تسخير الجن لسليمان :

سخر الله لنبيه سليمان فى جملة ما سخر الجن ، والشياطين يعملون له ما يشاء ، ويعذب ويسجن العصاة منهم : ﴿ **فسخرنا له الريح تجرى بأمره رُخاءً حيث أصاب * والشياطين كل بناءٍ وغواص * وآخرين مقرنين فى الأصفاد** ﴾ سورة ص ٣٦ – ٣٨ وقال فى سورة سبأ : ﴿ **ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه * ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات** ﴾ سورة سبأ ١٢ – ١٣ .

وهذا التسخير على هذا النحو إستجابة من الله لعبده سليمان عندما دعاه وقال : ﴿ **وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى** ﴾ سورة ص ٣٥ . وهذه الدعوة هى التى **منعت** نبينا محمد ﷺ من ربط الجن الذى جاء بشهاب من نار ، يريد أن يرميه فى وجهه ، ففى صحيح مسلم عن أبى الدرداء قال : قام رسول الله ﷺ يصلى ، فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك » ، ثم قال : (ألعنك بلعنة الله ثلاثاً) ، وبسط يده كأنه يتناول شيئا ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله ! قد سمعناك تقول فى الصلاة شيئا ، لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت . يدُك ، فقال : (إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله فى **وجهى** ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله المقاله ، فلم يستأخر ، ثم أردت أخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقا يلعب به ولدان أهل المدينة) وقد تكرر هذا أكثر من مرة ففى صحيح مسلم أيضاً عن أبى هريرة أن الرسول ﷺ قال : (إن عفريتا من الجن جعل يتفلت علي البارحة ليقطع عليَّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه ، فذعتُّه ، فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون ، أو كلكم ، ثم ذكرت قول أخى سليمان رب أغفر لى ، وهب لى ملكا **لاينبغى لأحد من بعدى فرده الله خاسئاً**)

كذب اليهود على سليمان :

يزعم اليهود وأتباعهم الذين يستخدمون الجن بواسطة السحر أن نبى الله سليمان كان يستخدم الجن بها وقد ذكر غير واحد من علماء السلف أن سليمان لما مات كتبت الشياطين كتب سحر وكفر وجعلتهما تحت كرسيه ، وقالوا : كان سليمان يستخدم الجن بهذه ، فقال بعضهم : لولا أن هذا حصد جائر لما فعله سليمان ، فأنزل الله قوله : ﴿ **ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتو الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون** ﴾ سورة البقرة ١٠١ .
ثم بين أنهم أتبعوا ما كانت تتلوه الشياطين على عهد سليمان **وبرأ** سليمان من السحر والكفر :

---

(١) صحيح مسلم – كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب جواز لعن الشيطان أثناء الصلاة ٣٨٤/١ رقم ٥٤١

﴿ واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ﴾ سورة البقرة ١٠٢ .

عجزهم عن الإتيان بالمعجزات :

لا تستطيع الجن الإتيان بمثل المعجزات التي جاءت بها الرسل تدليلاً على صدق ما جاءت به .

فعندما زعم بعض الكفرة أن القرآن من صنع الشياطين قال تعالى : ﴿ **وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغى لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون** ﴾ سورة الشعراء ٢١٠ - ٢١٢ .

وتحدى الله بالقرآن الإنس والجن : ﴿ **قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن * لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ سورة الإسراء ٨٨ .

لايتمثلون بالرسول ﷺ فى الرؤيا :

والشياطين **تعجز** عن التمثيل فى صورة الرسول ﷺ فى الرؤيا ففى الحديث الذى يرويه الترمذى فى سننه بإسناد صحيح : (**من رآنى فإنى أنا هو * فإنه ليس للشيطان أن يتمثل بى**)[(١)]

وهو فى الصحيحين بلفظ : (**من رآنى فقد رأى الحق ، فإن الشيطان لا يتزيا بى**)[(٢)]، (**الجامع الصحيح ٣٩٣/٥**) .

والظاهر من الأحاديث آن الشيطان لايتزيا بى بصورة الرسول ﷺ الحقيقية ولا يمنعه هذا من التمثيل فى غير صورة الرسول ﷺ والزعم بأنه رسول الله :

ولذلك فلا يجوز أن يتيح بهذا الحديث على أن كل من رأى الرسول ﷺ فى المنام أن رآه حقا ، وإلا إذا كانت صفته هى الصفة التى روتها لنا كتب الحديث ، وإلا فكثير من الناس يزعم أنه رآه على صورة مخالفة للصورة المروية فى كتب الثقات .

لايستطيعون أن يتجاوزوا حدوداً معينة فى أجواز الفضاء :

قال تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس * إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس * فلا تنتصران** ﴾ سورة الرحمن ٣٣ - ٣٥ .

---

(١) سنن الترمذى - كتاب الرؤيا - باب فى تأويل الرؤيا ٥٣٧/٤ رقم ٢٢٨٠

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤٦١

فمع قدراتهم وسرعة حركتهم لهم مجالات لايستطيعون أن يتعدوها ، وإلا فإنهم هالكون .

لايستطيعون فتح باب أغلق وذكر اسم الله عليه :

أخبر بذلك الرسول ﷺ حيث يقول : (أجيفوا الأبواب ، وأذكروا اسم الله عليها فإن الشيطان لا يفتح باباً أجيف عليه) رواه أبو داود ، وأحمد ، وابن حبان ، والحاكم بإسناد صحيح[1] والجامع الصحيح ٢٢٩/١ .

وفى الحديث المتفق عليه : (فإن الشيطان لايفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، وأذكروا اسم الله وخمروا آنيتكم ، وأوكوا **أسقيتكم**، وأطفئوا سرجكم فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، ولا يكشف غطاءً ، ولا يحلُّ وكاءً)[3].

الغايــة مـن خلقــهم

خلق الجن للغاية نفسها التى خلق الإنس من أجلها : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ سورة الذاريات الآية ٥٦ .

فالجن على ذلك مكلفون بأوامر ونواهى ، فمن أطاع رضى الله عنه وأدخله الجنة ، ومن عصى وتمرد فله النار ، يدل على ذلك نصوص كثيرة .

ففى يوم القيامة يقول الله مخاطباً كفرة الجن والإنس **موبخاً** مبكتاً : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا * وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين** ﴾ سورة الأنعام الآية ١٣٠

ففى هذه الآيات دليل على بلوغ شرع الله الجن ، وأنه قد جاءهم من ينذرهم ويبلغهم . والدليل على أنهم سيعذبون فى النار قوله تعالى : ﴿ **قال ادخلوا فى أمم قدخلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار** ﴾ سورة الأعراف الآية ٣٨ .

وقال : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس** ﴾ سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

وقال : ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ سورة السجدة الآية ١٣ .

---

(١) سنن أبى داود - كتاب الأشربة ١١٧/٤ رقم ٣٧٣١ ومسند أحمد ٣٠٦/٣ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب الطهارة ٢٨٤/٢ رقم ١٢٦٩ والحاكم فى المستدرك - كتاب الأدب ٢٨٤/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣١٠

(٣) مسند أحمد ٣٠١/٣

والدليل على أن المؤمنين من الجن يدخلون الجنة قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربّه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان** ﴾ سورة الرحمن الآية ٤٦ - ٤٧ .

وفى الآية السابقة امتنان من الله على مؤمن الجن بأنهم سيدخلون الجنة ولولا أنهم ينالون ذلك لما أمتن عليهم به . يقول ابن مفلح فى كتابه الفروع : (الجن مكلفون فى الجملة إجماعاً يدخل كافرهم النار إجماعاً ، ويدخل مؤمنهم الجنة وفاقاً لمالك والشافعى ــ رضى الله عنهما ــ لا أنهم يصيرون تراباً كالبهائم ، وإن ثواب مؤمنهم النجاة من النار خلافاً لأبى حنيفة ، والليث بن سعد ومن وافقهما . قال : وظاهر الأول أنهم فى الجنة **كغيرهم** بقدر ثوابهم خلافاً لمن قال لا يأكلون ولا يشربون فيها كمجاهداً أو أنهم فى ربض الجنة ، أى حول الجنة (كعمر بن عبد العزيز) ، قال ابن حامد فى كتابه : (الجن كالإنس فى التكليف والعبادات) (لوامع الأنوار ٢/٢٢٢ - ٢٢٣) .

تكليفهم بحسبهم :

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤/٢٣٣) ، (الجن مأمورون بالأصول والفروع بحسبهم ، فإنهم ليسوا مماثلين للإنس فى الحدّ والحقيقة ، فلا يكون ما أمروا به ونهوا عنه مساوياً لما على الإنس فى الحدّ ، لكنهم مشاركون الإنس فى جنس التكليف بالأمر والنهى ، والتحليل والتحريم ، وهذا ما لم أعلم فيه نزاعاً بين المسلمين) .

شبهه والرد عليها :

يورد بعض الناس شبهة فيقولون : أنتم تقررون أن الجن خلقوا من نار ، ثمّ تقولون إن كافرهم يعذب فى نار جهنم ، ومسترق السمع يقذف بشهب من نار ، فكيف تؤثر النار فيهم وقد خلقوا منها ؟

والجواب أن الأصل الذى خلقوا منه النار ، أمّا بعد خلقهم فليسوا كذلك ، إذا أصبحوا خلقاً مخالفاً للنار ، يوضح هذا أن الإنسان خلق من تراب ، ثم بعد إيجاده أصبح مخالفاً للتراب ، ولو ضربت إنساناً بقطعة مشوية من الطين فقد تقتله ولو رميته بالتراب لآذاه ، ولو دفنته فيه فإنه يختنق ، فمع أنه من تراب إلا أن التراب يؤذيه ، فكذلك الجن .

لا نسب بين الجن ورب العزة :

هذا الذى ذكرناه مع أن الجن خلق من خلق الله ، وعباد من جملة عباده خلقهم لطاعته ، وكلفهم بشرعته ، يقضى على الخرافات التى تنشأ عن الإنحراف فى القصور ، وعن ضمور العلم وكثرة

الجهل ، فمن ذلك ما شاع عند اليهود ومشركى العرب ، من أن الله تعالى وتقدس خطب من سروات الجن وتزوج منهم ؟ وكان الملائكة ثمرة هذا الزواج ، وقد حكى الله هذه الخرافة وبين بطلانها ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً * ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون * سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين** ﴾ سورة الصافات الآية ١٥٨ - ١٦٠ .

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآيات : (قال مجاهد : قال المشركون الملائكة بنات الله ـــ تعالى عما يقولون ـــ فقال أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ فمن أمهاتهنَّ ؟ قالوا بنات سروات الجن ، وبمثل قول مجاهد قال قتادة وابن زيد ... وقال العوفى عن ابن عباس : « زعم أعداء الله أنه ـــ تبارك وتعالى ـــ هو وإبليس أخوان ـــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

كيف يبلّغون وحى الله إليهم ؟

بما أنهم مكلفون فلابد أن يبلغهم الله وحيه ويقيم عليهم الحجة ، فكيف حصل ذلك ؟ هل لهم رسل منهم كما للبشر رسل منهم ، أم أن رسلهم هم رسل البشر ؟

إن قوله تعالى : ﴿ **يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ...؟** ﴾ (سورة الأنعام الآية ١٣٠) يدل على أن الله أرسل إليهم رسلاً . ولكنها لم تصرح بأن هؤلاء الرسل من الجن أم من الإنس ، لأن قوله (منكم) يحتمل كلا الأمرين ، فقد يكون المراد أن رسل كل جنس منهم ، وقد يراد أن رسل الإنس والجن من مجموع الجنسين فيصدق على أحدهما وهم الإنس وقد اختلف العلماء من ذلك على قولين :

الأول : أن للجن رسلا منهم ، وممن قال بهذا القول الضحاك ، وقال ابن الجوزى : وهو ظاهر الكلام . وقال ابن حزم لم يبعث إلى الجن بنى من الإنس البتّة قبل محمد ـــ ﷺ .

الثانى : أن رسل الجن من الإنس قال السيوطى فى (لقط المرجان) : (جمهور العلماء سلفاً وخلفاً على أنه لم يكن من الجن قط رسول ولابنى كذا روى عن ابن عباس ومجاهد والكلبى وأبى عبيد) . (لوامع الأنوار ٢٢٣/٢ - ٢٢٤)

ومما يرجح أن رسل الإنس هم رسل الجن قول الجن عند سماع القرآن : ﴿ **إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى** ﴾ سورة الأحقاف ٣٠ ولكنه ليس نصاً من المسألة وذه المسألة لايبنى عليها عمل ، وليس فيها نص قاطع ، ولذلك لا ينبغى أن نطيل فيها أكثر من ذلك .

عموم رسالة محمد ﷺ الإنس والجن :

محمد ﷺ مرسل إلى الجن والإنس ، يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٩/١٩) (وهذا أصل

متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين ، وسائر طوائف المسلمين : أهل السنة والجماعة ، وغيرهم رضى الله عنهم أجمعين) بدل على ذلك تحدى القرآن .

الجن والإنس : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله * ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ سورة الإسراء ٨٨ . وقد سارع فريق من الجن إلى الإيمان عندما استمعوا القرآن : ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن * فقالوا : إنا سمعنا قرآنا عجباً يُهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ..** ﴾ سورة الجن ١١-٢ .

وهؤلاء الذين استمعوا القرآن وآمنوا هم المذكورون فى سورة الأحقاف : ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن * فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا : يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين ﴾ سورة الأحقاف ٢٩ – ٣٢ . استمعوا للقرآن وآمنوا به ورجعوا دعاة يدعون قومهم إلى التوحيد والإيمان ويبشرونهم وينذرونهم .

وقصة هؤلاء الذين استمعوا للرسول ﷺ يرويها البخارى ومسلم عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « انطلق رسول الله ﷺ فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا : مالكم ؟ فقالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بينكم وبين خبر السماء فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها يبتغون ما هذا الذى حال بينهم وبين خبر السماء ، فانصرف أولئك النفر الذين توجهوا نحو تهامة إلى رسول الله ﷺ وهو بنخلة عامداً إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن – قالوا : استمعوا له فقالوا : هذا والله الذى حال بينكم وبين خبر السماء ، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم وقالوا يا قومنا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ، وأنزل الله على نبيه ﴿ **قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ سورة الجن ١ . وإنما أوحى إليه قول الجن[١] .

وفـود الجـن :

تلك كانت بداية معرفة الجن برسالة محمد ﷺ استمعوا لقراءة القرآن بدون علم الرسول ﷺ

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢٥٩ ومسند أحمد ٢٥٢/١

فآمن فريق منهم وانطلقوا دعاة هداة . ثم جاءت وفود الجن بعد ذلك تتلقى العلم من الرسول ﷺ وأعطاهم الرسول ﷺ من وقته وعلمهم مما علمه الله وقرأ عليهم القرآن وبلغهم خبر السماء ... وكان ذلك فى مكة قبل الهجرة ، روى مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده عن علقمة قال : قلت لعبد الله بن مسعود ــ رضى الله عنه هل صحب رسول الله ﷺ ليلة الجن منكم أحد ؟ فقال : ما صحبه منا أحد ، ولكنا فقدناه ذات ليلة بمكة فقلنا : اغتيل ؟ استطير ؟ ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ، فلما كان وجه الصبح ــ أو قال ــ فى السحر إذا نحن به يجىء من قبل حراء فقلنا يا رسول الله ، فذكروا له الذى كانوا فيه فقال : « إنه أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم » قال : فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم[1] وفى رواية عن الطبرى عن ابن مسعود : « بتُّ اليلة أقرأ على الجن واقفا بالحجون » . ومما قرأه عليهم ﷺ سورة الرحمن ، يقول ﷺ : « لقد قرأتها **يعنى** سورة الرحمن » على الجن ليلة الجن ، فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله : ﴿ **فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟** ﴾ قالوا : ولا بشىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » رواه البزار والحاكم وابن جرير بإسناد صحيح[2] (الجامع الصحيح ١/٣٠) ولم تكن تلك الليلة هى الليلة الوحيدة بل تكرر لقاؤه ــ ﷺ بالجن بعد ذلك ، وقد ساق ابن كثير فى تفسير سورة الأحقاف ــ الأحاديث التى وردت بشأن اجتماعه ﷺ بالجن وفى بعضها أن ابن مسعود كان قريباً من الرسول ﷺ فى إحدى تلك الليالى ، وقد ورد فى بعض الروايات فى صحيح البخارى أن بعض الجن الذين أتوه كانوا من ناحية من نواحى اليمن من مكان يسمى « نصيبين » ، فقد روى البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « أتانى وفد نصيبين ــ ونعم الجن ــ فسألونى الزاد ، فدعوت الله لهم ألا يمروا بعظم ولا **روثه** إلا وجدوا عليها طعاماً »[3].

دعـوتهم للانـس :

وفى بعض الأحاديث الصحاح أن بعض الجن كان له دور فى هداية الإنس ، ففى صحيح البخارى أن عمر بن الخطاب سأل رجلاً كان كاهنا فى الجاهلية عن أعجب ماجاءته به جنيته قال : « بينما أنا يوماً فى السوق جاءتنى أعرف فيها الفزع فقالت » :

ألــم تــر الجــن وإبلاسهــا ... وبأسهــا بعــد إنكاسهــا
ولحقـوهـا بالقـلاص وأحلاسـها

(١) صحيح مسلم – كتاب الصلاة – باب الجهر بالقراءة فى الصبح والقراءة على الجن ١/٣٣٢ رقم ٤٥٠

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار – كتاب التفسير – سورة الرحمن ٣/٧٤ رقم ٢٢٦٩ والمستدرك للحاكم – كتاب التفسير – تفسير سورة الرحمن ٢/٤٧٣ ، وتفسير الطبرى – سورة الرحمن آية رقم ١٦ – ٢٧/٧٢ .

(٣) صحيح البخارى – كتاب المناقب الأنصار – باب ذكر الجن ٥/٥٨

قال : عمر رضى الله عنه ــ صدق ، بينما أنا نائم عند آلهتهم إذ جاء رجل بعجل ، فذبحه ، **فصرخ** به صارخ لم أسمع صارخاً قط أشد صوتاً منه ، يقول : ياجليح ، أمر نجيح ، رجل فصيح ، يقول : لا إله إلا الله ، قال : فوثب القوم فقلت : لا أبرح حتى أعلم علم ما وراء هذا ، ثم نادى : يا جليح أمر نجيح رجل فصيح يقول : لا إله إلا الله فقمت فما نشبنا أن قيل هذا بنى » . قال ابن كثير فى تفسير سورة الأحقاف بعد أن ساق هذا الحديث : « هذا سياق البخارى ، وقد رواه البيهقى من حديث ابن وهب بنحوه ، ثم قال : مظاهر هذه الرواية يوهم أن عمر ــ رضى الله عنه ــ بنفسه سمع الصارخ يصرخ من العجل الذى **ذبح** ، وكذلك هو صريح فى رواية ضعيفة عن عمر ــ رضى الله عنه ، وسائر الروايات تدل على أن الكاهن هو الذى أخبر بذلك عن رؤيته وسماعه ، والله أعلم ثم قال : وهذا الرجل (الكاهن) هو سواد بن قارب »[1].

أمرهم بالخير وشهادتهم للمسلم :

أخبر الرسول ﷺ بأن قرينه من الجن أسلم فلا يأمره إلا بخير . وقد قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه لأبى صعصعة الأنصارى : « إنى أراك تحب البادية والغنم ، فإذا كنت فى غنمك وباديتك فأذنت بالصلاة فأرفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة » . قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ (رواه البخارى) فقد أخبر أن الجن يشهدون يوم القيامة لمن يسمعون صوت أذان »[2].

مراتبهم فى الصلاح والفساد :

وهم فى هذا طوائف : فمنهم الكامل فى الاستقامة والطيبة وعمل الخير ، ومنهم من هو دون ذلك ، ومنهم البله المغفلون ، ومنهم الكفرة ، وهم الكثرة الكاثرة ، يقول الله سبحانه فى حكايته عن الجن الذين استمعوا إلى القرآن : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا** ﴾ سورة الجن ١١ ، أى : منهم الكاملون فى الصلاح ، ومنهم أقل صلاحاً ، فهم مذاهب مختلفة كما هو حال البشر .

ويقول الله عنهم : ﴿ **وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ۞ فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ۞ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً** ﴾ سورة الجن ١٤ - ١٥ . أى : أن منهم المسلمين والظالمين أنفسهم بالكفر فمن أسلم منهم فقد قصد الهدى بعمله ، ومن ظلم نفسه فهو حطب جهنم .

---

(١) صحيح البخارى - باب السلام عمر بن الخطاب ٦١/٥ وانظر ابن كثير طبعة الشعب ٢٨١/٧
(٢) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب ذكر الجن وثوابهم وعقابهم ١٥٤/٤٠ .

طبيعـة الشيطـان :

أعطى الله الجن القدرة على الإيمان والكفر ، ولذلك كان الشيطان عابداً مع الملائكة ثم كفر . فلما تحول إلى الكفر ورضى به أصبح محباً للشر طالباً له ، يتلذذ بفعله والدعوة إليه ، ويحرص عليه بمقتضى خبث نفسه وإن كان موجباً لعذابه . (قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين)[1] وهذا يكون فى الإنسان ، فالإنسان إذا فسدت نفسه أو مزاجه يشتهى ما يضره ويلتذ به بل يعشق ذلك عشقاً يفسد عقله ودينه وخلقه وبدنه وماله ، وحسبك أن تتأمل فى حال شارب الخمر والدخان ، فإن هذين **تقتلان** شاربيهما ويفتكان بهما ولا يستطيعان منهما خلاصاً إلا بشق الأنفس .

هـل يسـلم الشـيطان ؟

يظهر من حديث رسول الله ﷺ الذى يخبر فيه أن الله أعانه على شيطانه فأسلم فلا يأمره إلا بخير أن الشيطان يمكن أن يسلم بدليل أن شيطان الرسول ﷺ أسلم إلا أن بعض العلماء يرفض ذلك ويقول الشيطان لا يكون مؤمناً ، منهم شارح الطحاوية (٤٣٩) ووجه قوله : (فأسلم) أى **فانقاد** واستسلم .

وبعض العلماء يرى أن الرواية (فأسلمُ) برفع الميم ، أى فأنا أسلم منه ومع أن شارح الطحاوية يرى أن رواية الرفع تحريف للفظ إلا أن فى شرح النووى على مسلم قال : « هما روايتان مشهورتان » وعزى إلى الخطابى أنه رجع رواية الضم . وممن يرى أن الشيطان يمكن أن يسلم ابن حبان قال معلقاً على الحديث : (فى هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى ﷺ أسلم حتى أنه لم يكن يأمره إلا بخير إلا أنه كان يسلم منه وإن كان كافراً) .

وما ذهب إليه شارح الطحاوية من أن الشيطان لا يكون إلا كافراً فيه نظر ، فإن كان يرى أن الشيطان لا يطلق إلا على كافر الجن فهذا صحيح ، وإن كان يرى أن الشيطان لا يمكن أن يتحول إلى الإسلام فهو بعيد جداً ، والحديث حجة عليه .

ما أسباب العداء بين الإنسان والشيطان ؟

العداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور يعود تاريخه إلى اليوم الذى شكل الله فيه آدم قبل أن ينفخ فيه الروح ، **فأخذ** الشيطان يطيف به ، ويقول : لئن سلطت عليك أهلكنك ففى صحيح مسلم عن أنس أن رسول الله ﷺ قال : « لما صوَّر الله آدم فى الجنة ، تركه ما شاء الله أن يتركه

(١) سورة ص الآيتان : ٨٢ ، ٨٣ .

فجعل إبليس يُطيف به ، ينظر مما هو ، فلما رآه أجوف عرف أن خلق خلقاً لايتمالك »[١].

فلما نفخ الله فى آدم الروح ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء فشمله الأمر ، ولكنه تعاظم فى نفسه واستكبر ، وأبى السجود لآدم : (قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين)[٢]. لقد فتح أبونا آدم عينيه ، فإذا به يجد أعظم تكريم ، يجد الملائكة ساجدين له ، ولكنه يجد عدوا رهيباً يتهدده وذريته بالهلاك والإضلال .

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره ، وحصل على وعد من الله بإبقائه حياً إلى يوم القيامة : ﴿ **قال فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال إنك من المنظرين** ﴾ سورة الأعراف ١٤ - ١٥ . وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بنى آدم والكيد لهم : ﴿ **قال فبما أغويتنى لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ سورة الأعراف ١٦ - ١٧ . وقوله هذا يصور مدى الجهد الذى يبذله لإضلال ابن آدم ، فهو يأتيه من كل طريق ممكن ، عن اليمين والشمال ، ومن الأمام ، ومن الخلف أى من جميع الجهات قال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية : (ثم لآتينهم من الجهات الأربع التى يأتى منها العدو فى الغالب ، وهذا مثل لوسوسته إليهم ، وتسويله لهم ما أمكنه وقدر عليه) كقوله : ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك * وأجلب عليهم بخيلك ورجلك** ﴾ . سورة الإسراء ٦٤ .

تحذير الله لنا من الشيطان :

وقد أطال القرآن فى تحذيرنا من الشيطان لعظيم فتنته ، ومهارته فى الإضلال ودأبه وحرصه على ذلك ، قال تعالى : ﴿ **يا بنى آدم لايفتننكم الشيطان** .. ﴾ سورة الأعراف ٢٧ . وقال : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾سورة فاطر ٦ . وقال : ﴿ **ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً** ﴾ سورة النساء ١١٩ . وعداوة الشيطان لا تحول ولا تزول لأنه يرى أن طرده ولعنه واخراجه من الجنة كان بسبب أبينا آدم ، فلابد أن ينتقم من آدم وذريته من بعده : ﴿ **قال : أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا** ﴾ سورة الإسراء ٦٢ .وأرباب السلوك وعلماء الأخلاق اعتنوا بذكر النفس وعيوبها وآفاتها وقصَّروا فى التعرف على عدوهم اللدود ، مع أن الله حذرنا منه كثيراً ، وأمرنا بالاستعاذة منه ، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس فى موضع واحد ، وإنما جاءت الإستعاذة من شرها فى خطبة النكاح فى قوله ﷺ : « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا »[٣].

---

(١) صحيح مسلم - كتاب البر والصلة - باب خلق الإنسان خلقا لايتمالك ٢٠١٦/٤ رقم ٢٦١١

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٢ .

(٣) سنن ابن ماجه - كتاب النكاح ٦١٠/١ رقم ١٨٩٣

ما أهداف الشيطان ؟

الهدف البعيد :

هناك هدف وحيد يسعى الشيطان لتحقيقه فى نهاية الأمر ، هو أن يلقى الإنسان فى الجحيم ويحرمه من الجنة ﴿ **إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ سورة فاطر ٦ .

الأهداف القريبة :

١ - إيقاع العباد فى الشرك والكفر :

وذلك بدعوتهم إلى عبادة غير الله والكفر بالله وشريعته : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر * فلما كفر * قال إنى برىء منك** ﴾ سورة الحشر ١٦ . وروى مسلم فى صحيحة عن عياض بن حمار أن النبى ﷺ خطب ذات يوم ، فقال فى خطبة : (يا أيها الناس إن الله تعالى أمرنى أن أعلمكم ماجهلتم مما علَّمنى يومى هذا ، كل مال نحلته عبدا حلال ، وإنى خلقت عبادى **حنفاء** كلهم ، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وأمرتهم أن يشركوا بى مالم أنزل به سلطاناً)[١]

٢ - إذا لم يستطع تكفيرهم فيوقعهم فى الذنوب :

فإذا لم يستطع إيقاعهم فى الشرك والكفر ، فإنه لا ييئس ، ويرضى بما دون ذلك من إيقاعهم فى الذنوب والمعاصى ، وغرس العداوة والبغضاء فى صفوفهم ، ففى سنن الترمذى وابن ماجه بإسناد حسن (ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد فى بلدكم هذا أبداً ، ولكن ستكون له طاعة فى بعض ما تحقرون من أعمالكم ، فيرضى بها)[٢]. وفى صحيح مسلم وغيره : (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ولكن فى التحريش بينهم)[٣] أى : بإيقاع العداوة والبغضاء بينهم وإغراء بعضهم ببعض ، كما قال تعالى : ﴿ **إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ، ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ؟** ﴾ . سورة المائدة ٩١ . وهو يأمر بكل شر ﴿ **إنما يأمركم بالسوء والفحشاء * وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** ﴾ . سورة البقرة ١٦٩ .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب الجنة وصفة نصيحها - باب الصفات التى يعرف بها الدنيا ٤/٢١٩٧ رقم ٢٨٦٥

(٢) سنن ابن ماجة - كتاب المناسك - باب الخطبة يوم الغر ٢/١٠١٥ رقم ٣٠٥٥ وسنن الترمذى كتاب الفتن - باب ما جاء فى تحريم الدماء والأموال ٣/٣١٢ رقم ٢٢٤٨

(٣) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحرين الشيطان ٤/٢١٦٦ رقم ٢٨١٢ وسنن الترمذى - كتاب البرو الصلة - باب ماجاء فى التباغض ٣/٢٢١ رقم ٢٠٠٢

وخلاصة الأمر فكل عبادة محبوبة لله فهى بغيضة إلى الشيطان ، وكل معصية مكروهة للرحمن فهى محبوبة للشيطان .

٣ - صدّه العباد عن طاعة الله :

وهو لا يكتفى بدعوة الناس إلى الكفر والذنوب والمعاصى بل يصدهم عن فعل الخير ، فلا يترك سبيلاً من سبل الخير يسلكه عبد من عباد الله إلا قعد فيه ، يصدهم ويميل بهم ، ففى الحديث : (إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء آبائك ؟! فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : (تهاجر وتدع أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس فى الطول ، الطول الحبل الطويل ، يشد أحد طرفيه فى وتد أو غيره ، والطرف الآخر فى يد الفرس ليدور فيه ، ويرعى ولا يذهب لوجهه) . فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : (تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟! فعصاه فجاهد ، فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، ومن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة)[٣]. رواه أحمد والنسائى وابن حبان بإسناد صحيح (صحيح الجامع ٧٢/٢) ومصداق ذلك فى كتاب الله ما حكاه الله عن الشيطان أنه قال لرب العزة : ﴿ **فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم * ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ سورة الأعراف ١٦ ، ١٧ . وقوله : ﴿ **لأقعدن لهم صراطك** ﴾ : أى على صراطك ، فهو منصوب بنزع الخانض أو هو منصوب بفعل مضمر ، أى لألزمنَّ صراطك ، أو لارصدَنّه ، أو لأعوجنه . وعبارات السلف فى تفسير الصراط متقاربة ، فقد فسره ابن عباس بأنه الدين الواضح ، وابن مسعود بأنه كتاب الله ، وقال جابر : هو الإسلام ، وقال مجاهد : هو الحق . فالشيطان لا يدع سبيلا من سبل الخير إلا قعد فيه يصد الناس عنه .

٤ - إفســاد الطاعــات :

إذا لم يستطع الشيطان أن يصدهم عن **الطاعات**، فإنه يجتهد فى إفساد العبادة والطاعة ، كى يحرمهم الأجر والثواب ، فقد جاء أحد الصحابة إلى الرسول ﷺ يقول له : إن الشيطان قد حال بينى وبين صلاتى وقراءتى ، يلبسها علىَّ . فقال رسول الله ﷺ : « ذلك شيطان يقال له : خَنْزب ، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه : **واتفل** على يسارك ثلاثا » . قال : ففعلت ذلك ، فأذهبه الله عنى رواه

(١) مسند أحمد ٤٨٣/٣ وسنن النسائى - كتاب الجهاد - باب مالمن أسلم وهاجر وجاهد ٢١/٦ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - كتاب الجهاد ٥٧/٧ رقم ٤٥٧٤ .

مسلم فى صحيحه[1] فإذا دخل العبد فى صلاته أجلب عليه الشيطان يوسوس له ويشغله عن طاعة الله ويذكره بأمور الدنيا ، ففى صحيح مسلم ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « إن الشيطان إذا سمع النداء بالصلاة ، أحال له ضراط ، حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجع فوسوس ، فإذا سمع الإقامة ذهب حتى لا يسمع صوته ، فإذا سكت رجع فوسوس » رواه مسلم[2].

وفى رواية : « فإذا قضى التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول له : أذكر كذا ، أذكر كذا ، لما لم يكن يذكر من قبل حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى » رواه البخارى ومسلم[3].

كل مخالفة للشيطان فهى طاعة لله :

يقول تعالى : ﴿ **إن يدعون من دونه إلا إناثاً * وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنه الله وقال : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً** ﴾ . سورة النساء ١١٧ - ١١٨ . فكل من عبد غير الله من صنم أو وثن أو شمس وقمر أو هوى أو إنسان أو مبدأ فهو عابد للشيطان ، رضى أم أبى ، لأن الشيطان هو الآمر بذلك والمرغب فيه ، ولذلك فإن عباد الملائكة يعبدون الشيطان فى الحقيقة ﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً * ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا : سبحانك * أنت ولينا من دونهم * بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون** ﴾ سورة سبأ ٤٠ - ٤١ يعنى أن الملائكة لم تأمرهم بذلك ، وإنما أمرتهم بذلك الجن ، ليكونوا عابدين للشياطين الذين يتمثلون لهم ، كما يكون للأصنام شياطين .

الخلاصـــة :

والشيء الذى نخلص إليه أن الشيطان يأمر بكل شيء ، ويحث عليه ، وينهى عن كل خير ، ويخوف منه ، كى يرتكب الأول ، ويترك الثانى . كما قال تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا** ﴾ سورة البقرة ٢٦٨ . وتخويفه إيانا الفقر بأن يقول : إن أنفقتم أموالكم أفتقرتم ، والفحشاء التى يأمرنا بها : هى كل فعلة فاحشة خبيثة من البخل والزنا وغير ذلك

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب التعوذ من شيطان الوسوسة فى الصلاة ١٧٢٨/٤ رقم ٢٢٠٣

(٢) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ٢٩١/١ رقم ٣٨٩

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢١٦

٥ - الإيذاء البدني والنفسي :

كما يهدف الشيطان إلى إضلال الإنسان بالكفر والذنوب ، فإنه يهدف إلى إيذاء المسلم في بدنه ونفسه ، ونحن نسوق بعض ما نعرفه من هذا الإيذاء .

(أ) مهاجمة الرسول ﷺ :

أخبر الرسول ﷺ بمهاجمة الشيطان له ومجيء الشيطان بشهاب من نار ليرميه في وجه الرسول ﷺ .

(ب) الحلم من الشيطان :

للشيطان القدرة أن يرى الإنسان في منامه أحلاماً تزعجه وتضايقه بهدف إحزانه وإيلامه . فقد أخبر الرسول ﷺ أن الرؤى التي يراها المرء في منامه ثلاثة : رؤيا من الرحمن ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا حديث نفسي (صحيح الجامع ١٨٤/٣ ، ١٨٥) وفي صحيح البخاري أن الرسول ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها ، فإنما هي من الله ، فليحمد الله عليها ، وليحدث بها ، وإذا رأى غير ذلك مما يكره ، فإنما هي من الشيطان ، فليستعذ بالله ، ولا يذكرها لأحد ، فإنها لا تضره »[١].

(حـ) إحراق المنازل بالنار :

وذلك بواسطة بعض الحيوانات التي يغريها بذلك ففي سنن أبي داود وصحيح ابن حبان بإسناد حسن أن الرسول ﷺ قال : « إذا نمتم فأطفئوا سُرُجكم ، فإن الشيطان يدلُّ مثل هذه (الفأرة) على هذا (السراج) فيحرقكم »[٢]

(د) تخبط الشيطان للإنسان عند الموت :

وقد كان الرسول ﷺ يستعيذ من ذلك فيقول : « اللهم إني أعوذ بك من التردي ، والهدم ، والغرق ، والحرق ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت ، وأعوذ بك أن أموت في سبيلك

---

(١) صحيح البخاري - كتاب التعبير - باب رؤيا الصالحين ٣٩/٩

(٢) سنن أبي داود - كتاب الأدب - باب في إطفاء النار بالليل ٤٠٨/٥ رقم ٥٢٤٧ والإحسان بترتيب صحيح ابن حبان - باب آداب النوم ٤٢١/٧ رقم ٥٤٩٤

مدبراً وأعوذ بك من الموت لديغاً » رواه النسائى والحاكم بإسناد صحيح ، (صحيح الجامع ٤٠٥/١)[١].

(هـ) إيذاؤه الوليد حين يولد :

يقول الرسول ﷺ : « كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » رواه مسلم[٢] (صحيح الجامع ١٧١/٤) . وفى صحيح البخارى : « كل بنى آدم يطعن الشيطان فى جنبيه باصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم ، ذهب يطعن ، فطعن فى الحجاب »[٣]. وفى البخارى أيضا : « ما من بنى آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان غير مريم وابنها »[٤]. والسبب فى حماية مريم وابنها من الشيطان استجابة الله دعاء أم مريم حين ولدتها : ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ سورة آل عمران ٣٦ . فلما كانت صادقة فى طلبها استجاب الله لها فأجار مريم وابنها من الشيطان الرجيم ، وممن أجاره الله أيضاً بن ياسر ، ففى صحيح البخارى أن أبا الدرداء قال : « أفيكم الذى أجاره الشيطان على لسان نبيه ، قال المغيرة : الذى أجاره الشيطان على لسان نبيه يعنى عمار »[٥].

(و) مرض الطاعون من الجن :

أخبر الرسول ﷺ أن « فناء أمته بالطعن والطاعون ، وخز أعدائكم من الجنِّ وفى كل شهادة » ، رواه أحمد والطبرانى بإسناد صحيح[٦] (صحيح الجامع ٩٠/٤) ، وفى مستدرك الحاكم « الطاعون وخز أعداكم من الجن ، وهو لكم شهادة » . ولعل ما أصاب بنى الله أيوب كان بسبب الجن كما قال : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بِنُصْبٍ وعذاب** ﴾ . سورة ص ٤١ .

---

(١) سنن النسائى – كتاب الاستعاذة – باب الاستعاذة من التردى والهرم ٢٨٣/٨ والمستدرك للحاكم – كتاب الفضائل – باب فضل عيسى ١٨٣٨/٤ رقم ١٤٧ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الفضائل – باب فضائل عيسى ١٨٣٨/٤ رقم ١٤٧

(٣) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب صفة إبليس وجنوده ١٥١/٤

(٤) صحيح البخارى – كتاب التفسير – باب تفسير سورة آل غمران ٤٢/٦

(٥) سحيح البخارى – كتاب مناقب المهاجرين – باب مناقب عمار ٣١/٥

(٦) مسند أحمد ٣٩٥/٤ ومجمع الزوائد – كتاب الجنائز – باب فى الطاعون ٣١١/٢ المستدرك للحاكم – كتاب الإيمان ٥٠/١ .

(ز) بعض الأمراض الأخرى :

قال ﷺ للمرأة المستحاضة : « إنما هذه ركضة من ركضات الشيطان » ، رواه الأربعة بإسناد حسن[1] (صحيح الجامع ١٩٦/٣) .

(ى) مشاركته لبنى آدم فى طعامهم وشرابهم ومساكنهم :

ومن الأذى الذى يجلبه الشيطان للإنسان أنه يعتدى على طعامه وشرابه فيشركه فيهما ، ويشركه فى المبيت فى منزله ، يكون ذلك منه إذا خالف العبد هدى الرحمن ، أو غفل عن ذكره ، أما إذا كان ملتزماً بالهدى الذى هدانا الله إليه ، لا يغفل عن ذكر الله ، فإن الشيطان لا يجد سبيلاً إلى أموالنا وبيوتنا . فالشيطان لا يستحل الطعام إلا إذا تناول منه أحد دون أن يسمى ، فإذا ذكر اسم الله عليه ، فإنه يحرم على الشيطان ، روى مسلم فى صحيحه عن حذيفة ، قال : كنا إذا حضرنا مع النبى ﷺ طعاماً لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده ، وإنا حضرنا معه مرة طعاماً . فجاءت جارية كأنها تدفع ، فذهبت لتضع يدها فى الطعام ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها ، ثم جاء أعرابى كأنما يدفع فأخذ بيده . فقال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان ليستحل الطعام ، أن لا يذكر اسم الله عليه وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها ، فأخذت بيدها ، فجاء بهذا الاعرابى ليستحل به ، فأخذت بيده ، والذى نفسى بيده إن يده فى يدى مع يدها »[2]. وقد أمرنا الرسول ﷺ أن نحفظ أموالنا من الشيطان وذلك بإغلاق الأبواب ، وتخمير الآنية وذكر اسم الله فإن ذلك حرز لها من الشيطان يقول ﷺ : « أغلقوا الأبواب ، واذكروا اسم الله ، فإن الشيطان لا يفتح باباً مغلقاً ، وأوكوا قربكم ، وأذكروا اسم الله ، وخمروا آنيتكم ، وأذكروا اسم الله ، ولو أن تعرضوا عليها شيئاً ، واطفئوا مصابيحكم » رواه مسلم[3]. ويأكل الشيطان ويشرب مع الإنسان إذا أكل وشرب بشماله ، وكذلك إذا شرب واقفاً ، ففى مسند أحمد عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من أكل بشماله أكل معه الشيطان ، ومن شرب بشماله شرب معه الشيطان »[4]. وفى المسند أيضاً عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أن النبى ﷺ رأى رجلاً يشرب قائماً ، فقال له : « قه » ، قال : لم ؟ قال : « أيسرك أن يشرب معك الهر ؟ » قال : لا ، قال : « فإنه قد شرب معك من هو شرٌّ منه الشيطان » ، وكى تطرد الشيطان من المنزل لا تنسى أن تذكر اسم الله عند دخول المنزل[5]، وقد

---

(١) سنن الترمذى – كتاب الطهارة ٨٣/١ رقم ١٢٨ وقال : حديث حسن صحيح وسنن أبى داود كتاب الطهارة ١٩٩/١ رقم ٢٨٧ ومسند أحمد ٤٣٩/٦ ، ٤٦٤ .

(٢) صحيح مسلم – كتاب الأشربة – باب آداب الطعام والشراب ١٥٩٧/٣ رقم ٢٠١٧

(٣) صحيح مسلم – كتاب الأشربة – باب الأمر بتغطية الإناء ١٥٩٥/٣ رقم ٩٧

(٤) مسند أحمد ٧٧/٦

(٥) مسند أحمد ٣٠١/٢

أرشدنا الرسول ﷺ لذلك ، حيث يقول : « إذا دخل الرجل بينه فذكر اسم الله حين يدخل وحين يطعم ، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء هنا ، وإن دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال : « أدركتم المبيت ، وإن لم يذكر اسم الله عند طعامه قال أدركتم المبيت والعشاء »[1].

(ط) مس الشيطان للإنسان « الصراع » :

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٢٧٦/٢٤) : « دخول الجن فى بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة ، قال الله تعالى : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ . سورة البقرة ٢٧٥ وفى الصحيح عن النبى ﷺ : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[2]. وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل : « قلت لأبى : إن أقواماً يقولون : إن الجن لا يدخل فى بدن المصروع فقال : ابن تيمية : « هذا الذى قاله مشهور ، فإنه يصرع الرجل فيتكلم بلسان لا يعرف معناه ، ويُضْرب على بدنه ضرباً عظيماً لو ضرب به جمل لأثر به أثراً عظيماً ، والمصروع مع هذا لا يحس بالضرب ، ولا بالكلام الذى يقوله ، وقد يجُرُّ المصروع ، وغير المصروع ، ويجر البساط الذى يجلس عليه ، ويحول الآلات ... ويجرى غير ذلك من الأمور من شاهدها أفادته علماً ضرورياً ، بأن الناطق على لسان الإنس ، والمحرك لهذه الأجسام جنس آخر غير الإنسان . » ويقول رحمه الله : « وليس فى أئمة المسلمين من ينكر دخول الجن فى بدن المصروع وغيره ، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك ، فقد كذب على الشرع وليس فى الأدلة الشرعية ما ينفى ذلك » : وذكر فى (جـ ١٢/١٩) أن ممن أنكر دخول الجن بدن المصروع طائفة من المعتزلة كالجبائى وأبى بكر الرازى .

قـائـد المعـركـة

إبليس هو الذى يخطط للمعركة مع بنى الإنسان ويقودها ، ومن قاعدته يرسل البعوث والسرايا فى الاتجاهات المختلفة ، ويعقد مجالس يناقش جنوده وجيوشه فيما صنعته ويثنى على الذين أحسنوا وأجادوا فى الإضلال وفتنة الناس . روى الإمام مسلم فى صحيحه عن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « إن الشيطان يضع عرشه على الماء ، ثم يبعث سراياه فى الناس ، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجىء أحدهم فيقول : مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا ، فيقول إبليس : لا والله ما صنعت شيئاً ويجىء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله ، قال : فيقربه ويدينه

---

(١) مسند أحمد ٣٤٦/٣

(٢) صحيح البخارى – كتاب بدء الخلق – باب صفة إبليس ١٥٠/٤

ويقول : نعم أنت »(١). وفى مسند الإمام أحمد قال الرسول ﷺ لابن صائد (وكان يشك ﷺ أنه الدجال) : « ماترى ؟ » قال : أرى عرشاً على البحر حوله الحيات ، فقال رسول الله ﷺ : « صدق ذاك عرش إبليس »(٢). والشيطان له خبرة طويلة مديدة فى مجال الاضلال ، ولذلك فإنه يجيد وضع خططه ، ونصب مصايده وأحابيله ، فهو لم يزل حياً يضل الناس منذ وجد الإنسان إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة : ﴿**قال** : رب ، **فأنظرنى إلى يوم يبعثون ، قال : فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم**﴾ سورة الحجر ٣٦ - ٣٨ . وهو دؤوب على القيام بالشر الذى نذر نفسه له ، لايكل ولا يمل ، ففى الحديث : « إن الشيطان قال : وعزتك وجلالك لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » . رواه أحمد والحاكم بإسناد حسن (صحيح الجامع ٢/٧٢) .

الجنـــود :

وله فريقان من الجنود : فريق من الجان ، وفريق من بنى الإنسان .

جنـوده مـن الجـن :

الشيطان له جنود وأعوان من الجن ، ففى القرآن ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورَجلك** ... ﴾ سورة الاسراء ٦٤ . فله جنود يهاجمون راكبين راجلين يرسلهم على العباد يحركونهم إلى الشر تحريكاً ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً** ﴾ سورة مريم ٨٢ .

لكل إنسان قرين :

كل إنسان يلازمه شيطان لا يفارقه كما فى حديث عائشة عند مسلم قالت : « خرج النبى ﷺ من عندى ليلاً ، فغرت عليه ، فجاء فرأى ما أصنع ، فقال مالك يا عائشة : أغرت ؟ قلت : ومالى لا يغار مثلى على مثلك ؟ فقال : أقد جاءك شيطانك ؟ قلت : يا رسول الله ، أو معى شيطان ؟ قال : نعم ، قلت : ومع كل إنسان شيطان ؟ قال : نعم ، قلت ومعك يا رسول الله ؟ قال : نعم ، ولكن ربى أعاننى عليه حتى أسلم »(٤). وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ

(١) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحرين الشيطان ٢١٦٧/٤ رقم ٦٧ ، ٦٨
(٢) مسند أحمد ٦٦/٣
(٣) مسند أحمد ٢٩/٣ والمستدرك للحاكم - كتاب التوبة والإنابة ٢٦١/٤
(٤) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين - باب تحرين الشيطان وبعثة سراياه لفتنة الناس ٢١٦٨/٤ رقم ٢٨١٥ ومسند أحمد ١١٥/٦

« ما منكم من **أحد** إلا وقد وُكِّلَ به قرينه من الجن ، وقرينه من الملائكة » . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياى لكن الله أعاننى عليه فأسلم ، فلا يأمرنى إلا بخير »(١)

وفى القرآن ﴿ **ومن يَعْشُ عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين** ﴾ سورة الزخرف ٣٦ . كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم** ﴾ سورة فصلت ٢٥ .

أولياؤه من الإنس :

الشيطان عدو الإنسان الأول الذى يسعى فى إهلاكه ، ومع ذلك فإن غالبية البشر اتخذوه ولياً ، يسيرون على خطاه ، ويرضون بفكره ، وما أقبح هذا بالإنسان العاقل أن يتخذ عدوه وليا ﴿ **أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا** ﴾ سورة الكهف ٥٠ . ولقد خسروا باتخاذه ولياً خسراناً مبيناً : ﴿ **ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً** ﴾ سورة النساء ١١٩ . خسروا لأن الشيطان سيدسّى نفوسهم ويفسدها ، ويحرمهم من نعمة الهداية ، ويرمى بهم فى الضلالات والشبهات ﴿ **والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ سورة البقرة ٢٥٧ . وخسروا لأنه سيقودهم إلى النار فى يوم القيامة ، ﴿ **إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ سورة فاطر ٦ . وهؤلاء أولياء الشيطان يتخذهم الشيطان مطية وجنوداً ينفذ بهم مخططاته وأهدافه .

كيده وخذلانه لأوليائه :

يتولى كثير من الناس الشيطان ، ولكنه يكيد لهم ويوردهم الموارد التى فيها هلاكهم وعطبهم ، ويتخلى عنهم ويسلمهم ويقف يشمت بهم ، ويضحك منهم ، فيأمرهم بالقتل والسرقة والزنا ويدل عليهم ويفضحهم ، فعل ذلك بالمشركين فى معركة بدر عندما جاءهم فى صورة سراقة بن مالك ووعدهم بالنصر والغلب ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم ﴾ سورة الأنفال ٤٨ . فلما رأى عدو الله الملائكة نزلت لنصرة المؤمنين ، ولى هارباً وأسلمهم ، كما قال حسان بن ثابت :

دَلاهم بُغرُورٍ ثمَّ أسلمهم   إن الخبيث لمن والاه غرّارُ

وكذلك فعل بالراهب الذى قتل المرأة وولدها ، وأمره بالزنا ثم يقتلها ، ثمّ دل أهلها عليه ، وكشف أمره لهم ، ثم أمره بالسجود له ، فلما فعل فرَّ عنه وتركه ، وفى يوم القيامة يقول لأوليائه بعد

---

(١) صحيح مسلم – كتاب صفات المنافقين – باب تحرين الشيطان وبعثة سراياه لفتنة الناس ٢١٦٧/٤ رقم ٢٨١٤ ومسلم أحمد ٣٨٥/١

دخوله ودخولهم النار : ﴿ **إنى كفرت بما أشركتمون من قبل** ﴾ سورة إبراهيم ٢٢ فأوردهم شر الموارد ثم تبرأ منهم كل البراءة .

الشيطان يجند أولياءه لخدمته ومحاربة المؤمنين :

الناس فريقان : أولياء للرحمن ، وأولياء للشيطان ، وأولياء الشيطان هم الكفرة على اختلاف مللهم ونحلهم ﴿ **إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون** ﴾ سورة الأعراف ٢٧ . والشيطان يسخِّر هؤلاء لتضليل المؤمنين بما يلقونه من الشبه والشكوك ﴿ **وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون** ﴾ سورة الأنعام ١٢٧ . وما هذه الشبهات التى يقوم بها المستشرقون والصليبيون واليهود والملحدون إلا من هذا القبيل . ويدفعهم لإيذاء المؤمنين نفسياً ﴿ **إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا** ﴾ سورة المجادلة ١٠ . فقد كان يدفع المشركين للتناجى حين وجود المسلمين على مقربة منهم فيظن المسلم أنهم يتآمرون عليه ... بل يدفعهم إلى حرب المسلمين وقتالهم ﴿ **الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً** ﴾ سورة النساء ٧٦ . وهو دائما يخوف المؤمنين أولياءه : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ سورة آل عمران ١٧٥ . وأولياؤه جمع كبير ﴿ **ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين** ﴾ سورة سبأ ٢٠ .

أساليب الشيطان فى إضلال الإنسان :

لا يأتى الشيطان إلى الإنسان ويقول له : اترك هذه الأمور الخيرة ، وافعل هذه الأمور السيئة ، كى تشقى فى دنياك وأخراك ، لأنه لو فعل فلن يطيعه أحد ، ولكنه يسلك سبلاً كثيرة يغرر بها بعباد الله .

١ - تزيين الباطل :

هذا هو السبيل الذى كان الشيطان ولا يزال يسلكه لإضلال العباد ، فهو يظهر الباطل فى صورة الحق ، والحق فى صورة الباطل ولا يزال بالإنسان يحسن له الباطل ، ويكرهه بالحق ، حتى يندفع إلى فعل المنكرات ويعرض عن الحق ، كما قال اللعين لرب العزة : ﴿ **رب بما أغويتنى لأزينَّ لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ سورة الحجر ٣٩ - ٤٠ . يقول ابن القيم فى هذا الصدد : « ومن مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده ، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله ، فيزين له الفعل الذى يضره حتى يخيل إليه أنه أنفع الأشياء ، وينفر من الفعل الذى هو أنفع

الأشياء له ، حتى يخيل إليه أنه يضره ، فلا إله إلا الله ، كم فتن بهذا السحر من إنسان ! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان ! وكم جلا الباطل وأبرزه فى صورة مستحسنة ، وشنع الحق وأخرجه فى صورة مستهجنة ! وكم بهرج من الزيوف على الناقدين ، وكم روج من الزغل على العارفين ! فهو الذى سحر العقول حتى ألقى أربابها فى الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة ، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك ، وألقاهم من المهالك فى مهلك بعد مهلك ، وزين لهم عبادة الأصنام ، وقطيعة الأرحام ، ووأد البنات ، ونكاح الأمهات ، ووعدهم بالفوز بالجنات مع الكفر والفسوق والعصيان ، وأبرز لهم الشرك فى أعظم صورة التعظيم ، والكفر بصفات الرب تعالى وعلوه وتكلمه بكتبه فى قالب التنزيه ، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التودد إلى الناس ، وحسن الخلق معهم ، والعمل بقوله ﴿ **عليكم أنفسكم** ﴾ سورة المائدة ١٠٥ . والإعراض عما جاء به الرسول ﷺ فى قالب التقليد ، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنفاق والإدهان فى دين الله فى قالب العقل المعيشى الذى يندرج به العبد بين الناس (اغاثة اللهفان ١/١٣٠) ، وبهذا السبيل كاد إبليس اللعين لآدم – عليه السلام – إذ زين له الأكل من الشجرة التى حرمها الله عليه ، فمازال به يزعم له أن هذه هى شجرة الخلد وأن الأكل منها يجعله خالداً فى الجنة أو ملكاً من الملائكة حتى أطاعه ، فخرج من الجنة . وانظر إلى أولياء الشيطان اليوم كيف يستخدمون هذا السبيل فى إضلال العباد . فهذه الدعوات إلى الشيوعية والاشتراكية .. يزعمون أنها هى المذاهب التى تخلص البشرية من الحيرة والقلق والضياع والجوع .. وهذه الدعوات التى تدعو إلى خروج المرأة كاسية عارية باسم الحرية ، وتدعو إلى هذا التمثيل السخيف الذى تداس فيه الأعراض والأخلاق وتنتهك فيه الحرمات باسم الفن . وتلك الأفكار المسمومة التى تدعو إلى ايداع المال فى البنوك بالربا لتحقيق الأرباح باسم التنمية والربح الوفير ، وتلك الدعوات التى تزعم أن التمسك بالدين رجعية وجمود وتأخر ، والتى تسم دعاة الاسلام بالجنون والعمالة لدول الشرق والغرب .. الخ .

كل ذلك امتداد لسبيل الشيطان الذى كاد به آدم منذ عهد بعيد ، وهو تزيين الباطل وتحسينه ، وتقبيح الحق وتكريه الناس به ، ﴿ **تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم** ﴾ (سورة النحل ٦٣) .

وهو والله سبيل خطر لأن الإنسان إذا زين له الباطل حتى رآه حسناً فإنه يندفع بكل قواه لتحقيق مايراه حقاً وإن كان فيه هلاكه ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ (سورة الكهف ١٠٣ – ١٠٤) . وهؤلاء يندفعون لصد الناس عن دين الله ومحاربة أولياء الله ، وهم يظنون أنفسهم على الحق والهدى ، ﴿ **وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ (سورة الزخرف ٣٧) وهذا هو السبب الذى من أجله اثر الكفار الدنيا وأعرضوا عن الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين**

أيديهم وما خلفهم ﴾(سورة فصلت ٢٥) . فالقرناء هم الشياطين ، زينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروها ، ودعوهم إلى **التكذيب** بالآخرة ، وزينوا لهم ذلك حتى أنكروا البعث والحساب والجنة والنار .

١ - تسمية الأمور المحرمة بأسماء محببة :

ومن تغرير الشيطان بالإنسان وتزيينه الباطل أن يسمى الأمور المحرمة التى هى معصية لله بأسماء محببة للنفوس خداعاً للإنسان وتزويراً للحقيقة ، كما سمى الشجرة المحرمة بشجرة الخلد كى يزين لآدم الأكل منها ﴿ **قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** ﴾[1]. يقول ابن القيم : « ومنه ورث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التى تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح وسموا أخاها بلقمه الراحة ، وسموا الربا بالمعاملة ، وسموا المكوس بالحقوق السلطانية .. » واليوم يسمون الربا الفائدة ، والرقص والغناء والتمثيل والتماثيل فناً .

٢ - الإفــراط والتفــريط :

يقول ابن القيم فى هذه المسألة : « وما أمر الله - عز وجل - بأمر إلا وللشيطان فيه نزعتان : إما تقصير وتفريط ، وإما إفراط وغلو ، فلا يبالى بما ظفر من العبد من الخطيئتين ، فإنه يأتى إلى قلب العبد فيشاقّ ، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة ، فثبطه وأقعده ، وضربه بالكسل والتوانى والفتور ، وفتح له **باب** التأويلات والرجاء وغير ذلك ، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة .

وإن وجد عنده حذراً وجدّا ، وتشجيراً ونهضة ، وأيس أن يأخذه من هذا الباب ، أمره بالاجتهاد الزائد ، وسوّل له أن **هذا** لايكفيك ، وهمتك فوق هذا ، وينبغى لك أن تزيد على العاملين ، وأن لاترقد إذا رقدوا ، ولا تفطر إذا أفطروا ، وأن لا تفتر إذا فتروا ، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات ، فاغسل أنت سبعاً ، وإذا توضأ للصلاة ، فاغتسل أنت لها ، ونحو ذلك من الإفراط والتعدى ، فيحمله على الغلوّ والمجاوزة ، وتعدى الصراط المستقيم ، كما يحمل الأول على التقصير دونه وألا يقربه ، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم : هذا بألا يقربه ولا يدنو منه ، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه ، وقد فتن بهذا أكثر الخلق ، ولا ينجى من ذلك إلا علم راسخ ، وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط والله المستعان » (الوابل الصيب ص ١٩) .

---

(١) سورة طه الآية : ١٢٠

٣ - تثبيطه العباد عن العمل ورميهم بالتسويف والكسل :

وله فى ذلك أساليب وطرق ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم » القافية : مؤخر الرأس » إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها ، فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »[١].

وفى البخارى ومسلم : (إذا استيقظ أحدكم من منامه فتوضأ ، فليستنثر ثلاثا ، فإن الشيطان يبيت على خيشومه)[٢]. وسئل الرسول ﷺ عن رجل نام ليلة حتى أصبح ، فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه » رواه البخارى[٣]. وهذا الذى ذكرناه تكسيل وتثبيط من الشيطان بفعله ، وقد تثبط الإنسان بالوسوسة وسبيله فى ذلك أن يحبب للإنسان الكسل ويسوف العمل ويسند الأمر إلى طول الأمل ، يقول ابن الجوزى فى هذا ، « كم قد خطر على قلب يهودى ونصرانى حب الإسلام ، فلا يزال إبليس يثبطه ، ويقول : لاتعجل وتمهل فى النظر ، فيسوفه حتى يموت على كفره ، وكذلك يسوف العاصى بالتوبة فيعجل له غرضه من الشهوات ويمنيه الإنابة كما قال الشاعر :

لا تعجل الذنب لما تشتهى وتأمل التوبة من قابل

وكم من عازم على الجدّ سوفه ! وكم ساع إلى مقام فضيلة ثبطه ! فلربما عزم الفقيه على إعادة درسه فقال : استرح ساعة ، أو انتبه العابد فى الليل يصلى ، فقال له : عليك وقت ، ولا يزال يحبب الكسل ، ويسوف العمل ، ويسند الأمر إلى طول الأمل . فينبغى للحازم أن يعمل على الحزم ، والحزم تدارك الوقت ، وترك التسويف ، والإعراض عن الأمل ، فإنَّ المخوف لا يؤمن ، والفوات لايبعث ، وسبب كل تقصير ، أو ميل إلى شرّ طول الأمل ، فإن الإنسان لا يزال يحدث نفسه بالنزوع عن الشر والإقبال على الخير ، إلا أنه بعد نفسه بذلك ، ولا ريب أن من أمَّل أن يمشى بالنهار سار سيراً فاترا . ومن أمَّل أن يصبح عمل فى الليل عملاً ضعيفاً ، ومن صور الموت عاجلاً جدَّ ... ، وقال بعض السلف : أنذركم (سوف) فإنها من أكبر جنود إبليس ، ومثل العامل على الحزم والساكن لطول الأمل ، كمثل قوم فى سفر فدخلوا قرية ، فمضى الحازم فاشترى ما يصلح لتمام سفره ، وجلس متأهبا للرحيل ، وقال المفرط : سأتأهب فربما أقمنا شهراً ، فضرب بوق الرحيل فى الحال ، فاغتبط المحترز (المتوقى الحازم) وتحير الأسف المفرط ، فهذا مثل الناس فى الدنيا منهم المستعد المستيقظ ، فإذا جاء

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤

(٢) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٣٨

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ١٤٨/٤

ملك الموت لم يندم ، ومنهم المغرور المسوف يتجرع مرير الندم وقت الرحلة ، فإذا كان فى الطبع حب التوانى وطول الأمل ، ثم جاء إبليس يحث على العمل بمقتضى مافى الطبع صعبت المجاهدة ، إلا أنه من انتبه لنفسه علم أنه فى صف حرب ، وأن عدوه لا يفتر عنه ، فإن فتر فى الظاهر بطَّن له مكيدة وأقام له كميناً » (تلبيس إبليس ٤٥٨) .

٤ - الوعـد والتمنيـة :

وهو يعد الناس بالمواعيد الكاذبة ويعللهم بالأمانى المعسولة ، كى يوقعهم فى وهدة الضلال : ﴿ **يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً** ﴾ (سورة النساء ١٢٠) يعد الكفرة فى قتالهم المؤمنين بالنصر والتمكين والعزة والغلبة ، ثم يتخلى عنهم ويولى هارباً : ﴿**وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم * فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنى برىء منكم**﴾ (سورة الأنفال ٤٨) . ويعد الأغنياء الكفرة بالثروة والمال فى الآخرة بعد الدنيا ، فيقول قائلهم : ﴿ **ولئن رددت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً** ﴾ (سورة الكهف ٣٦) ، فيدمر الله جنته فى الدنيا فيعلم أنه كان مغروراً مخدوعاً . ويشغل الإنسان بالأمانى المعسولة التى لا وجود لها فى واقع الحياة ، فيصده عن العمل الجاد المثمر ، ويرضى بالتخيل والتمنى وهو لا يفعل شيئاً .

٥ - إظهار النصح للإنسان :

يدعو الشيطان المرء إلى المعصية يزعم أنه ينصح له ويريد خيره ، وقد أقسم لأبينا على أنه ناصح له ﴿ **وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين** ﴾ (سورة الأعراف ٢١) وقد روى **وهب بن منبه** هذه القصة الطريفة عن أهل الكتاب (هذه القصة وأمثالها من الإسرائيليات لاتصدق ولاتكذب ويجوز التحديث بها يقول الرسول ﷺ - « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج »[1]) . نسوقها لنعلم أسلوباً من أساليب الشيطان فى إضلاله العباد ، وكى نحذر نصحه ، ونخالفه فيما يدعونا إليه . يقول وهب : « إن عابداً كان فى بنى اسرائيل ، وكان من أعبد أهل زمانه ، وكان فى زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكراً ليس لهم أخت غيرها ، فخرج البعث على ثلاثتهم ، فلم يدروا عند من يخلفون أختهم ، ولا من يأمنون عليها ، ولا عند من يضعونها ، قال : فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بنى إسرائيل ، وكان ثقة فى أنفسهم ، فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده ، فتكون فى كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غزاتهم ، فأبى ذلك عليهم ، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم ، قال : فلم يزالوا به حتى أطاعهم . فقال : أنزلوها فى بيت حذاء صومعتى . قال : فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا

---

(١) سنن أبى داود - كتاب العلم - باب الحديث عن بنى إسرائيل ٤/٦٩ رقم ٣٦٦٢

فتركوها ، فمكثت فى جوار ذلك العابد زماناً ينزل إليها بالطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد إلى الصومعة ، ثم يأمرها فتخرج من بيتها ، **فتأخذ** ما وضع لها **من** طعام ، قال : فتلطف له الشيطان ، فلم يزل يرغبه فى الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهاراً ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلو مشيت بطعامها حتى نضعه على باب بيتها كان أعظم أجراً . قال فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ، ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها ، قال : فلبث على هذه الحالة زماناً ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير والأجر وحضه عليه ، وقال لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظم لأجرك . فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه فى بيتها ، فلبث على ذلك زماناً . ثم جاءه إبليس فرغبه فى الخير وحضه عليه ، فقال : لو كنت تكلمها وتحدثها **فتأنس** بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشة شديدة ، فلم يزل **به** حتى حدثها زماناً يطلع إليها من فوق صومعته .

ثم أتاه إبليس **بعد** ذلك فقال : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هى على باب بيتها فتحدثك كان أنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها وتحدثه ، وتخرج الجارية من بيتها حتى تقعد على باب بيتها . فلبثا زماناً يتحدثان . ثم جاءه إبليس فرغبه فى الأجر والثواب فيما يصنع بها ، وقال : لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريباً من بيتها فحدثتها كان آنس لها . فلم يزل به حتى فعل . فلبثا زماناً على ذلك . ثم جاءه إبليس ، فقال : لو **دخلت البيت معها فحدثتها ولم تتركها تبرز وجهها لأحد كان أحسن بك ، فلم يزل به حتى دخل البيت** فجعل يحدثها نهارها كله ، فإذا **مضى** النهار صعد صومعته . ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها . فلم يزل به إبليس يحسنها فى عينه **ويسول له** حتى وقع عليها ، فأحبلها فولدت له غلاماً . فجاء إبليس فقال : أرأيت إن جاء أخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لا آمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك ، فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها ففعل ، فقال له : أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها ، خذها واذبحها مع ابنها ، فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها فى الحفرة مع ابنها ، وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوى عليهما ، وصعد إلى صومعته يتعبد فيها ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ، حتى أقبل إخوتها من الغزو ، فجاؤوا فسألوا عنها فنعاها لهم وترحم عليها وبكاها . وقال : كانت خير إمرأة ، وهذا قبرها ، فانظروا إليه . فأتى إخوتها القبر ، فبكوا أختهم وترحموا عليها فأقاموا على قبرها أياماً ، ثم انصرفوا إلى أهاليهم ، فلما جنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم ، جاءهم الشيطان فى النوم على صورة رجل مسافر ، فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها فأكذبه الشيطان . وقال : لم يصدقكم أمر أختكم إنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلاماً فذبحه وذبحها معه فزعاً منكم ، وألقاهما فى حفرة احتفرها خلف باب البيت الذى

كانت فيه عن يمين من دخله ، فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعا .

وأتى الأوسط فى منامه فقال مثل ذلك . ثم أتى أصغرهم ، فقال له مثل ذلك . فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم : لقد رأيت الليلة عجباً فأخبر بعضهم بعضاً بما رأى . فقال كبيرهم : هذا حلم ليس بشىء فأمضوا بنا ودعوا هذا عنكم قال أصغرهم : والله لا أمضى حتى آتى إلى هذا المكان فأنظروا فيه . قال : فانطلقوا جميعاً حتى أتوا البيت الذى كانت فيه أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفرة كما قيل لهم فسألوا عنها العابد فصدَّق قول إبليس فيما صنع بهما فاستعدوا عليه ملكهم فأنزل من صومعته وقدم ليصلب فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتنك بالمرأة حتى أحبلتها وذبحتها وابنها فإن أنت أطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك وصورك خلصتك مما أنت فيه فكفر العابد فلما كفر بالله تعالى خلى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه وهذه القصة يرويها المفسرون عند قوله تعالى : ﴿ **كمثل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إنى برىء منك** ﴾ (سورة الحشر ١٦) . ويذكروا أن المعنى الإنسان هذا العابد وأمثاله . والله أعلم .

٦ - التـدرج فى الضـلال :

ومن القصة السابقة نعلم أسلوباً من أساليب الشيطان فى الإضلال وهو أن يسير بالإنسان خطوة لا يكل ولا يمل كلما روضه على معصية ما قاده إلى معصية أكبر منها حتى يوصله إلى المعصية الكبرى فيوثقه ويهلكه. وتلك سنة الله فى عباده أنهم إذا زاغوا سلط عليهم الشيطان وأزاغ قلوبهم ﴿ **فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم** ﴾ (سورة الصف ٥)

٧ - إنساؤه العبد ما فيه خيره وصلاحه :

ومن ذلك ما فعله بآدم فمازال يوسوس له حتى أنساه ما أمره به ربه ﴿ **ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً** ﴾[1] **وقال صاحب موسى لموسى** : ﴿ **فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره** ﴾ (سورة الكهف ٦٣) .

ونهى الله رسوله أن يجلس هو أو واحد من أصحابه فى المجالس التى يستهزأ فيها بآيات الله ولكن الشيطان قد ينسى الإنسان مراد ربه منه فيجالس هؤلاء **المستهزئين** ﴿ **وإذا رأيت الذين يخوضون فى**

---

(١) سورة طه الآية : ١١٥

آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ (سورة الانعام ٦٨) .

وطلب نبى الله يوسف إلى السجين الذى ظن بأنه **سينجو** من القتل ويعود لخدمة الملك أن يذكره عند مليكه فأنسى الشيطان هذا الإنسان أن يذكر لملكه نبى الله يوسف فيمكث يوسف فى السجن بضع سنين ﴿ **وقال للذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين** ﴾ سورة يوسف ٤٢ .

وإذا تمكن الشيطان من الإنسان تمكنا كليا فإنه ينسيه الله بالكلية ﴿ **استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون** ﴾ (سورة المجادلة ١٩) ، والمراد بهؤلاء المنافقون ، كما تدل عليه الآية السابقة لهذه الآية وسبيل التذكر هو ذكر الله لأنه يطرد الشيطان ﴿ **واذكر ربك إذا نسيت** ﴾ (سورة الكهف ٢٤) .

٨ - تخويف المؤمنين أولياءه :

ومن وسائله أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه فلا يخافونهم ولا يأمرونهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان وقد أخذنا سبحانه عنه بهذا فقال : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾ (سورة آل عمران ١٧٥) .

والمعنى : يخوفكم بأوليائه قال قتادة : « يعظمهم فى صدوركم ، ولهذا قال فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين فكلما قوى إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان وكلما ضعف إيمانه قوى خوفه منهم » .

٩ - دخوله إلى النفس من الباب الذى تحبه وتهواه :

يقول ابن القيم فى هذا الموضوع (إغاثة اللهفان ١٣٢/١) « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم حتى يصادف نفسه ويخالطه ويسألها عما تحبه وتؤثره فإذا عرفه استعان بها على العبد ودخل عليه من هذا الباب وكذلك علم إخوانه وأولياءه من الإنس إذا أرادوا أغراضهم الفاسدة من بعضهم بعضاً أن يدخلوا عليهم من الباب الذى يحبونه ويهوونه فإنه باب لا يخذل عن حاجته من دخل منه ومن رام **الدخول** من غيره فالباب عليه مسدود وهو عن طريق مقصده مصدود » .

ومن هنا دخل الشيطان على آدم وحواء كما قال تعالى : ﴿ **وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** ﴾ (سورة الأعراف ٢٠) يقول ابن القيم « فسام عدو الله الأبوين فأحس منهما إنياساً وركوناً إلى الخلد فى تلك الدار فى النعيم المقيم فعلم أنه لا

يدخل عليهما من غير هذا الباب فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، وقال : مانهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » .

١٠ – إلقـاء الشبهـات :

ومن أساليبه فى إضلال العباد زعزعة العقيدة بما يلقيه من شكوك وشبهات وقد حذرنا الرسول ﷺ من بعض هذه الشبهات التى يلقيها ففى حديث البخارى ومسلم : « يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ ومن خلق كذا ؟ حتى يقول من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته »[١] ولم يسلم الصحابة – رضوان الله عليهم من شبهاته وشكوكه وجاء بعضهم إلى الرسول ﷺ **يشكون مايعانونه من شكوكه ووساوسه ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله « إلى النبى فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا مايتعاظم أحدنا أن يتكلم به ! قال : « أوقدو صبرتموه ؟ » قالوا : نعم . قال : « ذلك صريح الإيمان »[٢] .**

ومراد الرسول ﷺ بقوله : « ذلك صريح الإيمان » أى دفع وسوسة الشيطان وكراهيتهم واستعظامهم لها .

وانظر إلى شدة ما كان يعانيه الصحابة من شكوكه . روى أبو داود فى سننه عن ابن عباس : أن النبى ﷺ جاءه رجل فقال : « إنى أحدث نفسى بالشىء لأن أكون حممه أحب إلىّ من أتكلم به فقال : الحمد الله الذى رد أمره إلى الوسوسة »[٣] ومن جملة ما يلقيه فى النفوس مشككاً ما حدثنا الله عنه فى قوله : **﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفى شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾[٤] .**

والمراد بالتمنى هنا حديث النفس والمراد أن النبى ﷺ كان إذا حدث نفسه ألقى الشيطان فى حديثه على جهة الحيلة فيقول : لو سألت الله عز وجل أن يغنمك ليتسع المسلمون أو يتمنى إيمان الناس جميعاً فينسخ الله ما يلقيه الشيطان بوسواسه فى أمنية النبى ﷺ وذلك تنبيه إلى الحق وتوجيه إلى مراد

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٨٢

(٢) صحيح مسلم – كتاب الإيمان – باب بيان الوسوسة فى الإيمان ١١٩/١ رقم ١٣٢

(٣) سنن أبى داود – كتاب الأدب – باب فى رد الوسوسة ٣٣٦/٥ رقم ٥١١٢

(٤) سورة الحج الآيات : ٥٢ حتى ٥٤

الله .. وما قيل من أن مراد الآية أن الشيطان يدخل فى القرآن ما ليس منه ففيه بعد ويرده أن الرسول ﷺ معصوم فى التبليغ .

يقول شقيق (أحد العلماء الأعلام) : مبينا لبعض الشبهات التى يقذفها الشيطان فى نفس الإنسان : « ما من صباح إلا قعد لى الشيطان على أربع مراصد : من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى فيقول : لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فإقرأ : ﴿ **وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ (سورة طه ٨٢) . وأما من خلفى فيخوفنى الضيقة علىٰ من أخلقه ، فإقرأ : ﴿ **وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها** ﴾ (سورة هود ٦) . ومن قبل يمينى يأتينى من قبل النساء فاقرأ : ﴿ **والعاقبة للمتقين** ﴾ (سورة الأعراف ١٢٨) .

ومن قبل شمالى فيأتينى من قبل الشهوات ، فاقرأ : ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾ (سورة سبأ ١٠٤) .

١ - ٤ الخمر والميسر والأنصاب والأزلام :

قال تعالى : ﴿ **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون** ﴾ (سورة المائدة ٩٠ - ٩١) . والخمر كل ما يسكر والميسر القمار والأنصاب كل ما نصب يعبد من دون الله : من حجر أو شجر أو وثن أو قبر أو علم .

والأزلام : القداح كانوا يستقسمون بها الأمور أى يطلبون بها علم ما قسم لهم .

وهذه قد تكون أقداماً أو سهاماً أو حصيات أو غير ذلك ، يكون مكتوباً على واحد منها أمرنى ربى وعلى الآخر نهانى ربى فإذا شاء أحدهم زواجا أو سفراً أو نحو ذلك أدخل يده فى الشىء الذى فيه هذه القداح أو السهام فإن خرج الذى فيه الأمر بالفعل فعل وإن خرج الآخر ترك .

فالشيطان يمضى الناس على هذه الأربع لأنها ضلال فى نفسها وتؤدى إلى نتائج وخيمة وآثار سيئة فالخمر تفقد شاربها عقله فإذا فقد عقله فعل الموبقات وارتكب المحرمات وترك الطاعات وآذى عباد الله ذكر ابن كثير فى تفسيره عن عثمان بن عفان قال : « اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجلاً فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته إمرأة غويَّة فأرسلت إليه جاريتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى إمرأة وضيئة عندها غلام وباطية خمر فقالت : إنى والله ما دعوتك لشهادة ولكنى دعوتك لتقع علىّ أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر فسقته كأساً فقال : زيدونى فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع

هى والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه » . رواه البيهقى وصحح ابن كثير إسناده[١].

وروى أصحاب السنن أن رجلاً من الأنصار صنع طعاماً لبعض الصحابة ثم سقاهم خمراً قبل أن ينزل تحريمها فلما سكروا تفاخزوا فتعاركوا وأصاب سعد بن أبى وقاص من هذا العراك أذى ، فقد ضربه أحدهم بلحى بعير فأصاب أنفه فأثر فيه أثراً صاحبه طيلة حياته وتقدم أحد الصحابة يصلى بالناس وهو سكران قبل نزول تحريم الخمر فقرأ[٢]: (قل يأيها الكافرون أعبد ما تعبدون) فأنزل الله ﴿ **لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ (سورة النساء ٤٣) وقد رأينا الرجل الذى بلغ من الكبر عتياً عندما يشرب الخمر سيتصرف تصرفات المجانين ويضحك منه الكبار والصغار ويفترش الطريق تدوسه الناس بأقدامها .

والميسر مرض خطير كالخمر إذا تأصل فى نفس الإنسان صعب الشفاء منه ، وهو سبيل لضياع الوقت والمال والميسر ينشىء الأحقاد ويدفع إلى الحرام .

والشيطان يدعو إلى إقامة النصب كى تتخذ بعد ذلك آلهة تعبد من دون الله وقد انتشرت عبادة الأنصاب قديما وحديثا والشياطين تلازم هذه الأصنام وتخاطب عبادها فى بعض الأحيان وتريهم بعض الأمور التى يجعل عابديها يثقون بها فيقصدونها بالحاجات ويدعونها فى الكربات ويستنصرون بها من الحروب ويقومون لها الذبائح والهدايا ويرقصون حولها ويطربون ويقيمون لها الأعياد والاحتفالات وقد أضل بهذا الكثير كما قال إبراهيم داعياً ربه : ﴿ **واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيراً من الناس** ﴾ (سورة إبراهيم ٣٥ - ٣٦) . ولا تزال عبادة القبور منتشرة بين المسلمين يقصدونها بالدعاء والألطاف والذبائح وانتشرت بدعة جديدة اليوم - يضحك بها الشيطان على بنى الإنسان - تلك هى نصب الجندى المجهول يزعمون أنه رمز الجندى المقاتل ويكرمونه بالهدايا والورود والتعظيم وكلما زار البلاد زعيم جاء هذا النصب وقدم له هدية وكل هذا من عبادة الأنصاب التى هى من عمل الشيطان .

الاستقسام بالأزلام :

الأمور المستقبلية من مكنون علم الله ولذلك شرع لنا الرسول ﷺ الاستخارة إذا أردنا سفراً أو زواجاً أو غير ذلك نرجو من الله أن يختار لنا خير الأمور .

وأبطل الاستقسام بالأزلام فإن السهام والقداح لا تعلم أين الخير ولا تدريه فاستشارتها خلل فى

---

(١) سنن البيهقى - كتاب الأشربة - باب ما جاء فى تحريم الخمر ٢٨٧/٨

(٢) سنن أبى داود - كتاب الأشربة - باب تحريم الخمر ٨٠/٤ رقم ٣٦٧١ وسنن الترمذى - كتاب التفسير - باب سورة النساء ٣٠٥/٤ رقم ٥٠١٦

العقل وقصور فى العلم ومثل ذلك زجر الطير كان من يريد سفراً إذا خرج من بيته ومر بطائر زجره فإن تيامن كان سفراً ميموناً وإن مرّ عن شماله كان سفراً مشئوماً .. وكل ذلك من الضلال .

٥ - السحر :

ومما تضل به الشياطين أبناء آدم السحر فهم يعلمونهم هذا العلم الذى لا يضر ولا ينفع ويكون هذا العلم سبيلاً للتفريق بين المرء وزوجه والتفريق بين الزوجين يعتبره الشيطان من أعظم الأعمال التى يقوم بها جنوده .

قال تعالى : ﴿ **وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾ (سورة البقرة ١٠٢) .

هل للسحر حقيقة :

اختلف العلماء فى ذلك فمن قائل : إنه تخييل لا حقيقة له ، ﴿ **فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى** ﴾ (سورة طه ٦٦) ومن قائل أن له حقيقة كما دلت عليه آية البقرة والصحيح أنه نوعان : نوع هو تخييل يعتمد على الحيل العلمية وخفة الحركة ونوع له حقيقة يفرق به بين المرء وزوجه ويؤذى به .

سحر اليهود للرسول ﷺ :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سحر رسول الله ﷺ يهودىّ من يهود بنى زريق يقال له لبيد ابن الأعصم حتى كان رسول الله ﷺ تخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله . حتى إذا كان ذات يوم دعا رسول الله ﷺ ثم دعا ثم دعا أى دعا ربه مرات ثم قال : يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما **استفتيته** فيه ؟ (أى أجابنى فيما طلبت) .

جاءنى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال الذى عند رأسى للذى عند رجلى أو الذى عند رجلى للذى عند رأسى : ما وجع الرجل ؟

قال : مطبوب (أى مسحور) .

قال : من طبّه ؟

قال : لبيد بن الأعصم .

قال : فى أى شىء .

قال : فى مشط ومشاطة - أى شعر سقط عند التسريح - وجف طلعة ذكر (أى غشاء الطلع)

قال : فأين هو ؟

قال : فى بئر ذى أروان

قالت : فأتاها رسول الله ﷺ فى أناس من أصحابه ثم

قال : يا عائشة والله لكأن ماءها فقاعة **الحناء** ولكأن نخلها رؤوس الشياطين .

فقلت : يا رسول الله أفلا أحرقته ؟

قال : « لا أما أنا فقد عافانى الله وكرهت أن أثير على الناس شرّاً ، فأمرت بها فدفنت » رواه البخارى ومسلم(١)

ولايقال : إن السحر فيه ﷺ يوجب لبساً فى النبوة والرسالة لأن أثر السحر لم يتجاوز ظاهر الجسم الشريف فلم يصل إلى القلب والعقل فهو كسائر الأمراض التى قد تعرض له والتشريع محفوظ بحفظ الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ سورة الحجر ٩

٦ - ضعف الإنسان :

فى الإنسان نقاط ضعف كثيرة هى فى الحقيقة أمراض والشيطان يعمق هذه الأمراض فى نفس الإنسان بل تصبح مداخله إلى النفس الإنسانية ومن هذه الأمراض : الضعف واليأس والقنوط والبطر والفرح والعجب والفخر والظلم والبغى والجحود والكنود والعجلة والطيش والسفه والبخل والشح والحرص والجدل والمراء والشك والريبة والجهل والغفلة واللدد فى الخصومة والغرور والإدعاء الكاذب والهلع والجزع والمنع والتمرد والطغيان وتجاوز الحدود وحب المال والافتنان بالدنيا ،.. فالإسلام يدعو إلى إصلاح النفس والتخلص من أمراضها وهذا يحتاج إلى جهد يبذل ويحتاج إلى صبر على مشقات الطريق أما إتباع الهوى وما تمليه النفس الأمارة بالسوء فإنه سهل ميسور فالأول مثله مثل من يصعد بصخرة إلى أعلى الجبل ومثل الثانى كمن يدحرج صخرة من أعلى الجبل إلى أسفله ولذلك كانت الاستجابة للشيطان كثيرة ووجد دعاة الحق صعوبة وأى صعوبة فى الدعوة إلى الله تعالى :

ونحن نسوق إليك بعض كلام السلف لنوضح كيف يستغل الشيطان نقاط الضعف فى الإنسان :

- حكى المعتمد بن سليمان عن أبيه أنه قال : « ذكر لى أن الشيطان الوسواس ينبعث فى قلب ابن آدم عند الحزن والفرح فإذا ذكر الله خنس » .

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٤١٢

وقال وهب بن منبه : « قال راهب للشيطان وقد بدا له : أى أخلاق ابن آدم أعون لك عليهم ؟ قال : الحدة (صفة تعترى الإنسان كالغضب) إن العبد إذا كان حديداً قلبناه كما يقلب الصبيان الكرة » ويذكر ابن الجوزى أيضاً عن ابن عمر أن نوحاً سأل الشيطان عن الخصال التى يهلك بها الناس فقال : « الحسد والحرص » وليس بعيداً عنا ما فعله الشيطان بيوسف وإخوته وكيف أوغر صدور الإخوة على أخيهم وقد قال يوسف : **﴿ وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ﴾** سورة يوسف ١٠٠ .

٧ - النســاء وحــب الدنيــا :

وقد أخبرنا الرسول ﷺ أنه ما ترك بعده فتنة أشد على الرجال من النساء ولذلك أمرت المرأة بستر جسدها كله إلا الوجه والكفين وأمر الرجال بغض أبصارهم ونهى الرسول ﷺ عن الخلوة بالمرأة وأخبر أنه ما خلى رجل بإمرأة إلا كان الشيطان ثالثهما وفى سنن أبى داود بإسناد صحيح (المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان)[1].

ونحن اليوم نشاهد عظم فتنة خروج غالب النساء كما وصفهن الرسول ﷺ كاسيات عاريات وقامت مؤسسات فى الشرق والغرب تستخدم جيوشاً من النساء والرجال لترويج الفاحشة بالصورة المرئية والقصة الخليعة والأفلام التى تحكى الفاحشة وتدعو لها .

أما حب الدنيا فهو رأس كل خطيئة وما سفكت الدماء وهتكت الأعراض وعصبت الأموال وقطعت الأرحام ... إلا لأجل حيازة الدنيا والصراع على طعامها الفانى وحرصاً على متعها الزائلة .

٨ - الغنــاء والموسـيقى :

الغناء والموسيقى طريقان يفسد الشيطان بهما القلوب ويخرب النفوس يقول ابن القيم : (ومن مكايد عدو الله ومصايده التى كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين : سماع المكاء والتصدية والغناء بالآلات المحرمة الذى يصد القلوب بها عن القرآن ويجعلها عاكفة على الفسوق والعصيان فهو قرآن الشيطان والحجاب الكثيف عن الرحمن وهو رقبة اللواط والزنى ، كادبة الشيطان النفوس المبطلة ، وحسنه لها مكراً وغروراً وأوحى لها الشبه الباطلة على حسنه فقلبت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً ..) إغاثة اللهفان ٢٤٢/٨ . ومن عجب أن بعض الناس الذين يدّعون التعبد يتخذون الغناء والرقص والتمايل طريقاً للتعبد ويتركون السماع الرحمانى ويذهبون إلى السماع الشيطانى وقد عدَّ ابن القيم فى (الإغاثة ٢٥٦/١) لهذا السماع بضعة عشر اسماً : اللهو واللغو والباطل والزور

(١) سنن أبى داود - أبواب الرضاع ٣١٩/٢ رقم ١١٨٣

والمكاء والتصدية ورقية الزنا وقرآن الشيطان ومنبت النفاق فى القلب والصوت الأحمق والصوت الفاجر وصوت الشيطان ومزمور الشيطان والسمود .

٩ - تهاون المسلمين فى تحقيق ما أمروا به :

إذا إلتزم المسلم بإسلامه فإن الشيطان لا يجد سبيلاً لإضلاله والعبث به فإذا تهاون وتكاسل فى بعض الأمور فإن الشيطان يجد فرصة قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ (سورة البقرة ٢٠٨) . فالدخول فى الإسلام فى كل الأمور هو الذى يخلف من الشيطان فمثلاً إذا كانت صفوف المصلين مرصوصة فإن الشياطين تتراقص بين صفوف المصلين فإذا تركت فرج بين الصفوف فإن الشياطين تتراقص كأنها أولاد الحذف قيل يا رسول الله : وما أولاد الحذف ؟ قيل جُرْد « بأرض اليمن » رواه أحمد والحاكم بإسناد صحيح[1] (صحيح الجامع ٣٨٤/١) وفى الحديث الآخر « أقيموا صفوفكم وتراصوا فوالذى نفسى بيده إنى لأرى الشياطين بين صفوفكم كأنها غنم عفر » رواه أبو داود الطيالسى بإسناد صحيح[2]. (صحيح الجامع ٣٨٤/١)

كيف يصل الشيطان إلى نفس الإنسان :

الوســوسة :

الشيطان يستطيع أن يصل إلى فكر الإنسان وقلبه بطريقة لا ندركها ولا نعرفها يساعده على ذلك طبيعته التى خلق عليها وهذا الذى نسميه بالوسوسة وقد أخبرنا الله بذلك إذ سماه ﴿ **الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس** ﴾ سورة الناس ٤ - ٥ قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ **الوسواس الخناس** ﴾ الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس .

وقد ثبت فى صحيح البخارى أن الرسول ﷺ قال : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[3].

وبهذه الوسوسة أضل آدم وأغراه بالأكل من الشجرة : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان ۞ قال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى** ﴾ (سورة طه ١٢٠) .

وقد تتمثل الشياطين فى صورة بشر وقد يحدثون الإنسان ويسمعونه ويأمرونه وينهونه بمرادهم .

---

(١) مسند أحمد ٢٩٦/٤ والمستدرك للحاكم - كتاب فضائل القرآن ٥٧٣/١

(٢) مسند أبى داود الطيالسى ٢٨٢/٩ رقم ٢١٠٨

(٣) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس ١٥٠/٤

الفصـل الرابـع
تمثـل الشـياطين

أحياناً تأتى الشياطين الإنسان لا بطريق الوسوسة بل تتراءى له فى صورة إنسان وقد يسمع الصوت ولا يرى الجسم وقد تتشكل بصور غريبة .

وهى أحياناً تأتى الناس وتعرفهم بأنها من الجن وفى بعض الأحيان تكذب فى قولها فتزعم أنها من الملائكة وأحياناً تسمى نفسها برجال الغيب أو تدعى أنها من عالم الأرواح .

وهى فى كل ذلك تحدث بعض الناس **وتخبرهم** بالكلام المباشر أو بواسطة شخص منهم يسمى الوسيط تتلبس وتتحدث على لسانه وقد تكون الإجابة بواسطة الكتابة .

وقد تقوم بأكثر من ذلك فتحمل الإنسان وتطير به فى الهواء وتنقله من مكان إلى مكان وقد تأتى له بأشياء ويطلبها ولكنها لا تفعل هذا إلا بالضالين الذين يكفرون بالله رب الأرض والسموات أو يفعلون المنكرات والموبقات . وقد يتظاهر هؤلاء بالصلاح والتقوى ولكنهم فى حقيقة أمرهم من أضل الناس وأفسقهم وقد ذكر القدامى والمحدثون من هذا شيئاً كثيراً لا مجال لتكذيبه والطعن فيه لبلوغه مبلغ التواتر فمن ذلك ما ذكره ابن تيمية عن الحلاج قال : (وكان صاحب سيمياء وشياطين تخدمه أحياناً كانوا معه (بعض أتباعه) على جبل أبى قبيس فطلبوا منه حلاوة فذهب إلى مكان قريب وجاء بصحن حلوى فكشفوا الأمر فوجدوا ذلك قد سرق من دكان حلاوى باليمن حمله شيطان تلك البقعة) .

قال : « ومثل هذا يحدث كثيراً لغير الحلاج ممن له حال شيطانى ونحن نعرف كثيراً من هؤلاء فى زماننا وغير زماننا مثل شخص هو الآن (فى زمن ابن تيمية) بدمشق كان الشيطان يحمله من جبل الصالحية إلى قرية حول دمشق فيجىء من الهواء إلى طاقة البيت الذى فيه الناس فيدخل وهم يرونه ونجىء بالليل إلى باب الصغير (باب من أبواب دمشق الستة التى كانت يومئذ) فيعبر منه هو ورفيقه وهو من أفجر الناس .

وآخر كان بالشوبك (قلعة حصينة فى أطراف الشام) من قرية يقال لها الشاهدة يطير فى الهواء إلى رأس الجبل والناس يرونه وكان شيطان يحمله وكان يقطع الطريق .

وأكثرهم شيوخ الشر يقال لأحدهم (البوشى أبى المجيب) ينصبون له خركاه فى ليلة مظلمة **ويصنعون** خبزاً على سبيل القربان فلا يذكرون الله ولا يكون عندهم من يذكر الله ولا كتاب فيه ذكر الله ثم يصعد ذلك البوشى فى الهواء وهم يرونه ويسمعون خطابه للشيطان وخطاب الشيطان له ومن ضحك أو سرق من الخبز ضربه الدف ولا يرون من يضرب به .

ثم إن الشيطان يخبرهم ببعض ما يسألونه عنه ويأمرهم بأن يقربوا له بقراً وخيلاً وغير ذلك وأن يخنقوها خنقاً ولا يذكرون اسم الله عليها فإذا فعلوا قضى حاجتهم !!.

ويذكر ابن تيمية أيضاً عن « شيخ أخبره نفسه أنه كان يزنى بالنساء ويتلوط الصبيان وكان يقول : يأتينى كلب أسود بين عينيه نكتتان بيضاوان ، فيقول لى : فلان ابن فلان نذر لك نذراً وغداً نأتيك به . . ا قضيت حاجته لأجلك فيصبح ذلك الشخص يأتيه بذلك النذر ويكاشفه هذا الشيخ الكافر » .

ويذكر عن هذا الشيخ أنه قال : « وكنت إذا طلب فى تغيير مثل (اللاذن) (صمغ يستعمل عطراً ودواءً) أقول حتى أغيب عن عقلى وإذا باللاذن فى يدى أوفى فمى وأنا لا أدرى من وضعه .

قال : وكنت أمشى وبين يدى عمود أسود عليه نور .

قال : فلما تاب هذا الشيخ وصار يصلى ويصوم ويجتنب المحارم ذهب الكلب الأسود وذهب التغيير فلا يأتى بلاذن ولا غيره .

ويحكى عن شيخ آخر كان له شياطين يرسلهم يصرعون بعض الناس فيأتى أهل ذلك المصروع ويعطون ذلك الشيخ دراهم كثيرة وكان أحياناً تأتيه الجن بدراهم وطعام تسرقه من الناس حتى أن بعض الناس كان له تين فى كوارة فيطلب الشيخ من شياطينه تيناً فيحضرون له فيطلب أصحاب الكوارة التين فوجدوه قد ذهب .

ويذكر عن آخر أنه كان مشتغلاً بالعلم فجاءته الشياطين وأغوته وقالوا له : نحن نسقط عنك الصلاة ونحضر لك ما تريد فكانوا يأتونه بالحلوى أو الفاكهة حتى حضر عند بعض الشيوخ العارفين بالسنة فاستتابه وأعطى أهل الحلاوة ثمن حلاوتهم التى أكلها ذلك المفتون بالشيطان » (جامع الرسائل لابن تيمية فى ١٠٩/١٩٤) وبين بعض طرق الشيطان فى الإغواء فقال فى (مجموع الفتاوى ٣٠٠/١١) .

« أنا أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع وإنما يخاطبه الشيطان الذى دخل فيها وأعرف من يخاطبهم الشجر والحجر وتقول هنيئاً لك يا ولى الله فيقرأ آية الكرسى فيذهب ذلك وأعرف من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول خذنى حتى يأكلنى الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل فى الإنسان ويخاطبه بذلك ومنهم من يكون فى البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس وكذلك فى أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تمر به أنوار أو تحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه فإذا قرأ آية الكرسى مرة بعد مرة ذهب ذلك كله » .

ويقول رحمه الله : « وأعرف من يخاطبه فخاطب ويقول له : أنا من أمر الله ويعد بأنه المهدى الذى بشربه الرسول ﷺ ويظهر له الخوارق مثل أن يخطر بقلبه تصرف فى الطيرالجراد فى الهواء فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يميناً وشمالاً ذهب حيث أراد وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشى أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه فى الظاهر وتحمله إلى مكة وتأتى به وتأتيه بأشخاص فى صور جميلة وتقول له هؤلاء الملائكة المقربون جاءوا لزيارتك فيقول فى نفسه : كيف تصوروا بصور المرذان ؟ فيرفع رأسه فيجدهم بلحى ويقول له : علامة أنك المهدى أنك تنبت فى جسدك شامة فتثبت ويراها وغير ذلك وكله من مكر الشيطان » .

وبين رحمه الله (٤١/١٩) « أن أهل الضلال والبدع الذين فيهم زهد وعبادة على غير الوجه الشرعى ولهم أحياناً مكاشفات وتأثيرات يأوون كثيراً إلى مواضع الشياطين التى نهى عن الصلاة فيها لأن الشياطين تتنزل عليهم بها وتخاطبهم الشياطين ببعض الأمور كما تخاطب الكهان وكما كانت تدخل فى الأصنام وتكلم عابدى الأصنام وتعينهم فى بعض المطالب كما تعين السحرة وكما تعين عباد الأصنام وعباد الشمس والقمر والكواكب إذا عبدوها بالعبادات التى يظنون أنها تناسبها من تسبيح لها ولباس وبخور وغير ذلك فإنه قد تنزل عليهم شياطين يسمونها روحانية الكواكب وقد تقضى بعض حوائجهم » .

الذين تخدمهم الشياطين يتقربون إليها بالمعاصى :

هؤلاء الذين يزعمون الولاية والحقيقة أن الشياطين تخدمهم - لابد أن يتقربوا إلى الشياطين بما تحبه من الكفر والشرك كى يقضوا بعض أغراضه ويذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى) أن كثيراً من هؤلاء يكتبون كلام الله بالنجاسة وقد يقلبون حروف كلام الله - عز وجل - إما حروف الفاتحة وإما حروف قل هو الله أحد وإما غيرهما - ويذكر أنهم قد يكتبون كلام الله بالدم أو بغيره من النجاسات وقد يكتبون غير ذلك مما يرضاه الشيطان أو يتكلمون بذلك . فإذا قالوا أو كتبوا ما ترضاه الشياطين أعانتهم على بعض أغراضهم إما تغوير ماء من المياه وإما أن يحمل فى الهواء إلى بعض الأمكنة وإما أن يأتيه بمال من أموال بعض الناس كما تسرقه الشياطين من أموال الخائنين ومن لم يذكر اسم الله عليه وتأتى به وإما غير ذلك .

دجـال الغيـب :

يذكر شارح الطحاوية « أن من الشياطين ما يسميه الناس رجال الغيب وأن بعض الناس يخاطبون وتحصل لهؤلاء خوارق يزعمون بها أنهم أولياء الله ، وأن بعض هؤلاء يعين المشركين على المسلمين ويقول : إن الرسول أمره بقتال المسلمين مع المشركين لكون المسلمين عصوا» .

ويعقب شارح الطحاوية على ذلك قائلاً : « هؤلاء فى الحقيقة إخوان المشركين وذكر أن الناس من أهل العلم فى رجال الغيب ثلاثة أحزاب :

١ - حزب يكذبون بوجود رجال الغيب ولكن قد عاينهم الناس وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بمالأوه وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم .

٢ - وحزب عرفوهم ورجعوا إلى القدر واعتقدوا أن تم فى الباطن طريقاً إلى الله غير طريقة الأنبياء .

٣ - وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليًا خارجا عن دائرة الرسول ، فقالوا : يكون الرسول هو محمداً للطائفتين فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه .

ثم قال مبيناً حقيقة هؤلاء وأتباعهم : والحق أن هؤلاء من أتباع الشياطين وأن رجال الغيب هم الجن ويسمون رجالاً كما قال تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ (سورة الجن ٦) . وإلا فالإنس يؤنسون أى يشهدون ويرون وإنما يحتجب الإنس أحياناً لا يكون دائم الاحتجاب عن أبصار الإنس ومن ظنهم من الإنس فمن غلطه وجهله .

ثم بين السبب فى الاختلاف فيهم وفى افتراق هذه الأحزاب الثلاثة : هو عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن وبين أنه يجب عرض أفعال الناس وأقوالهم وحالهم على الكتاب والسنة فماوافقهما كان صالحاً وما خالفهما كان غالطاً ومهما فعل الإنسان وتبدى من حاله لا يكون مؤمناً ولا ولياً لله - وإن طار فى الهواء ومشى على الماء مالم يكن ملتزماً بالكتاب والسنة (شرح العقيدة الطحاوية ٥٧٢/٥٧١) فلابد أن يكون عند العبد الميزان الذى يفرق به بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان والصالحين والطالحين وإلا ضل وزاغ وظن أعداء الله أولياءه . هذا الميزان هو الكتاب والسنة فإذا كان العبد ملتزماً بهما فنعم وإلا فإنه ليس على شيء ولو رأيناه يحيى الأموات ويحول المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة .

يقول ابن تيمية : (ومن لم يميز بين الأموال الرحمانية والنفسانية اشتبه عليه الحق بالباطل ومن لم ينوّر الله قلبه بحقائق الإيمان واتباع القرآن لم يعرف طريق المحق من المبطل واللابس عليه الأمرالحال كما التبس على الناس حال مسيلمة صاحب اليمامة وغيره من الكذابين فى زعمهم أنهم أنبياء وإنما هم كذابون) جامع الرسائل ص ١٩٧ .

وقد ألف ابن تيمية كتاباً عظيماً إذا عرفته تبين لك الفارق الكبير بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بحيث لا يشتبه عليك بعد ذلك أمر أولياء الشيطان وقد أسماه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .

حكم استخدام الجن :

الذى يظهر أن الله استجاب لسليمان ووهب له ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده فإذا حصل طاعة من الجن لأحد من الإنس فلا يكون على سبيل التسخير وإنما برضى الجن وهل يجوز ذلك ؟ يقول ابن تيمية فى (مجموع الفتاوى ٣٠٧/١١) :

الجن مع الإنس على أحوال :

فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ويأمر الإنس بذلك فهذا من أفضل أولياء الله تعالى وهو فى ذلك من خلفاء الرسول ﷺ ونوابه .

ومن كان يستعمل الجن فى أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس فى أمور مباحة له وهذا كأن يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم عليهم ويستعملهم فى مباحات له فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك وهذا إذا قدر أنه من أولياء الله فغايته أن يكون فى عموم أولياء الله مثل النبى الملك مع العبد الرسول : كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما فى الشرك وإمّا فى قتل معصوم الدم أو فى العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من الظلم وإما فى فاحشة كجلب لا من يطلب منه الفاحشة فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر وإن استعان بهم على المعاصى فهو عاصى : إما فاسق وإما مذنب غير فاسق .

وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات مثل أن يستعين بهم على الحج أو يطيروا به عند السماع البدعى أو أن يحملون إلى عرفات ولا يحج الحج الشرعى الذى أمره الله به ورسوله ، وأن يحملوه من مدينة إلى مدينة ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به » .

تحضير الأرواح

إنتشر فى عصرنا القول بتحضير الأرواح وصدق بهذه الفرية كثير من الذين يعدهم الناس عقلاء وعلماء .

وتحضير الأرواح المزعوم سبيله ليس واحداً فمنه ماهو كذب صراح يستعمل فيه الإيحاء النفسى والمؤثرات المختلفة والحيل العلمية ومنه ماهو استخدام للجن والشياطين .

وقد كشف الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين فى كتابه (الروحية الحديثة) كثيراً من ضراع هؤلاء وتزويرهم للحقيقة فمنهم لا يجرون تجاربهم كلها إلا فى ضوء أحمر خافت هو أقرب إلى الظلام وظواهر التجسيد المباشر ونقل الأجسام وتحريكها تجرى فى الظلام الدامى ولا يستطيع المراقب أن يتبين مواضع الجالسين ولا مصدر الصوت ولا يستطيع كذلك أن يميز من تفاصيل المكان كجدرانه أو أبوابه أو نوافذه .

وتكلم الدكتور محمد عن (الخباء) وهو حجرة جانبية معزولة عن الحاضرين أو جزء من الحجرة التى يجلسون فيها تفصل بحجاب كثيف وهذا المكان المنفصل معد لجلوس الوسيط الذى تجرى على يديه ظواهر التجسد المزعوم ومن هذا المكان المحجوب بستار يضاف إلى حجاب الظلام السابق تخرج الأرواح المزعومة متجسدة وإليه تعود بعد قليل ولا يسمح للحاضرين بلمس الأشباح .

ويرى الدكتور أن الروحيين لا يعدمون فى مثل هذا الجو المظلم قوالب علمية يصبون فيها حيلهم .

والتدليس على الناس بالحيل طريقة قديمة معروفة يضل بها شياطين الإنس عباد الله يطلبون الوجاهة عند الناس كما يطلبون مالهم فقد ذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١١/٤٥٨) عن فرقة فى عصره كانت تسمى (البطائحية) . أنهم كانوا يدعون علم الغيب والمكاشفة كما يدعون أنهم يَرَوْن ويُرُوْن الناس رجال الغيب ثم يكشف شيئاً عن دجلهم فقد كانوا يرسلون بعض النساء إلى بعض البيوت يستخبرون عن أحوال أهلها الباطنة ثم يكاشفون صاحب البيت بما علموه زاعمين أن هذا من الأمور التى اختصوا بالاطلاع عليها ووعدوا رجلاً ـــ كانوا يمنونه بالملك ـــ أن يروه رجال الغيب فصنعوا خشباً طوالاًوجعلوا عليها من يمشى كهيئة الذى يلعب بأكر الزجاج فجعلوا يمشون على جبل المزة وذلك المخدوع ينظر من بعيد فيرى قوماً يطوفون على الجبل وهم يرتفعون عن الأرض وأخذوا منه مالاً كثيراً ثم انكشف له أمرهم . ودلسوا على آخر كان يدعى (قفجق) إذ أدخلوا رجلاً فى القبر يتكلم وأوهموا أن الموتى تتكلم وأتوابه إلى مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنه الرجل الشعرانى الذى بجبل لبنان ولم يقربوه منه بل من بعيد لتعود عليه بركته وقالوا أنه طلب منه جملة من المال فقال

(قفجق) : الشيخ يكاشف وهو يعلم أن خزائنى ليس فيها هذا كله وتقرب قفجق وجذب الشعر فانقلع الجلد الذى الصقوه على جلده من جلد الماعز . وقد بين الدكتور محمد محمد حسين أن الوسيط وهو شخص يزعم الروحيون أن فيه استعداداً فطرياً يؤهله لأن يكون أداة يجرى عن طريقها التواصل – غالباً ما يكون دجالاً كبيراً وغشاشا مدلساً وبين كيف أن كثيراً من هؤلاء الوسطاء لا يكون على خلق ولا دين بل إن الروحانيين لا يشترطون فى الوسيط شيئاً من ذلك وقد ذكر حادثة جرت معه شخصياً تبين له بعد تحقيق منه فى الموضوع أن الوسيط كان دجالاً كاذباً .

وبين كيف أن بعض الحضور يكونون متواطئين مع المحضرين وكيف يحترس فى إنتقاء الذين يسمح لهم بحضور مثل هذه الجلسات وكيف يعللون فشلهم إذا وجد فى الحضور بعض الأذكياء النبهاء .

استخدام الجن والشياطين :

أفاض الدكتور محمد محمد حسين فى الكشف عن الطريق الأول الذى يزعم الروحانيون أنهم يحضرون به الأرواح وهو طريق الدجل والكذب واستعمال المؤثرات النفسية والحيل العلمية .

وأشار بمجرد إشارة إلى الطريق الثانى وهو استخدام الجن والشياطين وأرى أن غالبية الدعوات التى يزعم فيها تحضير الأرواح هى من هذا القبيل .

تحضير الأرواح دعوة قديمة :

وبناء على ذلك فهذه الدعوى ليست جديدة بل هى قديمة وقديمة جداً وقد نقلنا فيما سبق كيف كان بعض الناس يتصلون بالجن بل حفظت لنا كتب ثقات أن بعض الناس كانوا يزعمون أن أرواح الموتى تعود إلى الحياة بعد الموت ، يقول ابن تيمية « ومن هؤلاء (أى أهل الحال الشيطانى من الكفرة والمشركين والسحرة ونحوهم) من إذا مات لهم ميت يعتقدون أنه يجىء بعد الموت يكلمهم ويقضى ديونه ورد ودائعه ويوصيهم بوصايا فإنهم تأتيهم تلك الصورة التى كانت فى الحياة وهو شيطان تمثل فى صورته فيظنونه إياه » (جامع الرسائل ص ١٩٤/١٩٥) .

تجربة معاصرة :

هذه تجربة حصلت مع الكاتب أحمد عز الدين البيانونى ذكرها فى كتاب الإيمان بالملائكة حرصت على نقلها بنصها يقول فى هذا الموضوع .

لقد شغل « استحضار الأرواح » المزعوم أفكار الناس فى الشرق والغرب فكتبت فيه مقالات

بلغات مختلفات نشرت فى مجالات عربية وغير عربية وألفت فيه مؤلفات وبحث فيه باحثون وجربه **مجربون** اهتدى بعد ذلك العقلاء منهم إلى أنه كذب وبهتان ودعوة إلى كفر وطغيان . إن استحضار الأرواح الذى يزعمه الزاعمون كذب ودجل وخداع وما الأرواح المزعومة إلا شياطين تتلاعب بالإنسان وتخادعه .

وليس فى استطاعة أحد أن يستحضر روح أحد فالأرواح بعد أن تفارق الأجساد تصير إلى عالم البرزخ .

ثم هى إما فى نعيم أو فى عذاب وهى فى شغل شاغل عما يدّعيه مستحضر الأرواح .

وقد دُعيت أنا إلى ذلك من قبل هذه الأرواح وجربته بنفس تجربة طويلة وظهر لى أنه كذب ودجل وخداع على أيدى شياطين تتلاغب **غرمتهم** من ذلك تضليل الناس وخداعهم وموالاة من يواليهم .

بـدء التجـربـة :

عرفت منذ أكثر من عشر سنوات تقريباً رجلاً يزعم أنه يستخدم الجن فى أمور صالحة فى خدمة الإنسان وذلك بواسطة وسيط من البشر . ويزعم أنه توصل إلى ذلك بتلاوات وأذكار طويلة قضى فيها زمناً طويلاً وله عليها بعض من يزعم أنه على معرفة بهذا العلم ! جاءنى الوسيط ذات يوم يبلغنى دعوة فلان وفلانة من الجن لحديث هام لى فيه شأن عظيم .

فذهبت فى الموعد المحدد متوكلاً على الله تعالى فرحاً بذلك لأطّلع فى هذه التجربة على جديد .

كيف بدأت المخادعة ؟

من أول أساليب الخداع التى سُلكت معى أن طريقة الاستحضار ، استغفار وتهليل وأذكار مما يجعل الإنسان لأول وهلة يظن أنه يتحدث مع أرواح علوية صادقة طاهرة .

دخلت بيت الوسيط وخلونا معاً فى غرفة وجلس هو على فراش وبدأنا بدلالته **طبعاً** نستغفر ونهلل – حتى أخذته إغفاءة فاضجعته أنا على فراشه وسجّيته بغطاء كما علمنى أن أفعل ، وإذا بصوت خافت ، يسلم صاحبه علىّ ويظهر حفاوته بى وحبه ويعرفنى أنه مخلوق يزعم أنه ليس من الملائكة ولا من الجن ولكنه خلق آخر من نوع آخر وُجد بقوله تعالى « كن » فكان .

وهذا على زعمه أن الجن لا يصدرون إلا عن أمره وأن بينه وبين الله تعالى فى تلقى الأوامر أربعة وسائط فقط خامسهم جبريل – عليه السلام – وأخذ يثنى علىّ ويقول : إنهم سيقطعون كل علاقة لهم

بالبشر وسيكتفون بلقائى لأنى على زعمهم الخصوصية فى هذا العصر وموضع العناية من الله تعالى وأن الله تعالى هو الذى اختارنى لذلك . ووعدنى بوعود رائعة فيها العجب العجاب

واستسلمت لهذه التجربة الجديدة والدعوة الخادعة متوكلاً على الله عز وجل سائلاً الله تعالى أن يعصمنى من الزلل وأن يهدينى إلى الحق المبين مستضيئاً بنور العلم سالكاً سبيل الاستقامة والحمد لله تعالى ولما انقضى اللقاء الأول دعانى إلى لقاء آخر فى موعد آخر ثم دلنى هو نفسه على تلاوة خاصة لإيقاظ الوسيط من غيبته .

وكان ذلك وجلس الوسيط وعرك عينيه كأنه انتبه من نوم عميق ولا علم له بشيء مما جرى ورجعت فى الموعد المحدد أيضاً وتم بيننا لقاء بعد لقاء مدة طويلة وفى كل لقاء تتجدد الوعود الحسنة ويوصف لى المستقبل الرائع الذى ينتظرنى والنفع الذى تلقاه الأمة على يدى .

تطـور الموضــوع :

وتطور الأمر فأخذ كثير من الأرواح يزورنى فى كل لقاء بمقدمات من الأذكار وبغير مقدمات فقد أكون مع الوسيط على طعام أو على تناول كأس من الشاى فتأخذه الإغفاءة المعهودة فيميل رأسه إلى الأمام وتلتصق ذقنه بصدره ويحدثنى الزائر الذى يزعم أنه من الملائكة أو من الجن أو من الصحابة أو من الأولياء حديثاً يغلب عليه طابع الاحترام والإجلال والتبرك بزيارتى وتبشيرى بالمستقبل الزاهر المبارك ثم ينصرف ويجىء غيره وغيره .

مـن هـم الزائـرون :

زارنى فيما زعموا أفراد من الملائكة وأفراد من الجن وأبو هريرة – رضى الله عنه – من الصحابة وطائفة من الأولياء أمثال أبى الحسن الشاذلى – رضى الله عنه – وطائفة من أهل العلم والفضل المشهود لهم بالعلم والولاية أمثال الشيخ أحمد الترماتينى – رحمه الله تعالى . وبعض من أدركتهم من أهل العلم والفضل ثم درجتهم الوفاة ومنهم والدى – رحمه الله تعالى – وبشرونى بزيارة والدى إياى فى وقت عينوه وانتظرت الموعد بلهف ولما كان الموعد المنتظر كلفونى أن أقرأ سورة « الواقعة » جهراً فقرأتها ولما فرغت من قراءتها قالوا : سيحضر والدك بعد لحظات فاسمع ما يقول ولا تسأله عن شىء !!

بـدء انتبـاهى :

وبعد دقائق جاءنى يزعم أنه أبى فسلم علىّ وأظهر سروره بلقائى وفرحه بى على صلتى بهذه الأرواح وأوصانى أن أعتنى بالوسيط وأهله وأن أرعاه رعاية عطف وإحسان إذ لا مورد له من المال إلا من هذا الطريق .

وختم حديثه بالصلوات الابراهيمية وأنا أعلم أنه رحمه الله تعالى كان شديد الولع بالصلاة على النبى ﷺ ولاسيما الإبراهيمية وكان من العجب أن لهجة المتحدث شبيهة لحدٍ ما بلهجة الوالد . ثم سلم وانصرف .

وأخذت أتساءل فى نفسى : لم أوصونى أن لا أسأله عن شيء ؟ فى الأمر سر ولا شك !

السر الخفى الذى انكشف لى آنذاك أنه ليس بوالدى ولكنه قرينه من الجن الذى صحبه مدة حياته فجاءنى يمثل لى صوته وتشبه بخصوصية من خصوصياته أوصونى أن لا أسأله عن شيء لأن القرين من الجن مهما عرف من شأن والدى وحفظ من أحواله فلن يستطيع أن يحفظ كل جزئية يعرفها الولد من أبيه فحذرونى أن أسأله عن شيء حق ذلك فلا يجبنى فيفتضح الأمر ثم سلكوا معى فى لقائى مع الآخرين أن لا يعرّفونى بأسمائهم إلا عند إنصرافهم فيقول أحدهم : أنا فلان ويسلم وينصرف على الفور .

وفى ذلك من السر ما ذكرت : فلو أخبرنى واحد منهم عن نفسه وهو مشهود له بالعلم فيحدث معه فى اشكال علمى يعجز عن الجواب وانكشف الأمر .

وقد أتانى آت مرة يناقشنى فى إباحة كشف وجه المرأة وأنه ليس بعورة فرددت عليه وردَّ علىَّ رداً ليس فيه رائحة العلم واحتدم الجدال بيننا .

فقلت له : وبماذا تجيب عن أقوال الفقهاء الذين قالوا : إن وجه المرأة عورة أو يجب ستره خشية الفتنة ؟

وإنتهى الجدال إلى غير جدوى ثم أخبرنى أنه هو الشيخ أحمد الترماتينى وانصرف فانكشف لى أنه الكذب لاشك فيه لأن الشيخ المذكور من كبار فقهاء الشافعية والسادة الشافعية يقولون : المرأة كلها عورة ولو عجوزاً شمطاء .

فلو أنه كان هو الشيخ المذكور وانكشف له من العلم جديد وهو فى عالم البرزخ لأخبرنى بذلك وأرشدنى إلى دليله . ولكنه الكذب والخداع وإرادة التضليل وأبى الله تعالى – والحمد لله – إلا هداى وثباتى على الحق والهدى فكشف المرأة وجهها ولاسيما فى هذا الزمان الفاسد والمجتمع المريض أمر لا يقره ذو عقل ودين .

انكشـاف الحقيقـة :

ولم تزل تنكشف الحقيقة على وجهها مرة بعد مرة وفى تجربة بعد تجربة حتى تحقق عندى أن الأمر كله كذب وبهتان ودجل وطغيان لا أساس له من تقوى ولا قائمة له على دين :

فالوسيط الذى يعتنون بشأنه ويوصون بحسن رعايته وإكرامه تارك صلاة ولا يأمرونه بها — وهو يحلق لحيته ولا يأمرونه بإطلاقها ثم هو يأكل أموال الناس بالباطل وبالوعود الخادعة ولا مورد له إلا من هذا الطريق الخبيث .

جاءنى رجل بعد ما عرف صلتى بهذا الوسيط يشكو إلىّ أنه خدعه فأخذ منه ثلاثمئة ليرة سورية وهو فقير وفى أشد الحاجة إليها .

فألزمت الوسيط بردها إليه فاستجاب لذلك حرصاً منه ومن شياطينه على بقاء صلتى بهم .

والوسيط وأسرته تقوم حياتهم على الكذب فى أكثر شؤونهم .

الخاتمـــة :

وقد حاولت هذه الأرواح بعدما إنكشف لى أمرها أن تسلك معى مسلك التهديد فلم يزلزل ذلك من قلبى شيئاً والحمد لله تعالى . وقد كنت كتبت فى هذه المدة الطويلة مما حدثونى به ما ملأ دفترين كبيرين جمعت فيهما أكثر ما حدثونى به . ولما ظهر الباطل ظهوراً لا يحتمل التأويل قطعت الصلة بهم وحكمت عليهم بما حكمت وأحرقت الدفترين اللذين امتلآ بالكذب والخداع . فهذه الأرواح التى تدعى أنها أرواح رجال من الصحابة والأولياء والصالحين كلها شياطين لا ينبغى لمؤمن عاقل أن ينخدع بها وجميع الصور التى اعتادها مستحضر الأرواح كذب وباطل .

سواء فى ذلك طريقة الوسيط التى ذكرتها وجربتها وطريقة المنضدة والفناجين التى ذكرها لى بعض من جربها ووصل إلى النتيجة التى وصلت إليها . ومن عجيب الأمر أنى قرأت بعد ذلك كتباً مؤلفة فى هذا الموضوع فإذا بالمجدين العاقلين وصلوا إلى مثل ما وصلت إليه وحكموا على تلك الأرواح أنها قرناء بنى آدم من الجن كما هدانى الله تعالى إلى ذلك من قبل والحمد لله .

وقد أديت بكلمتى هذه النصح الواجب والله الهادى إلى سواء السبيل .

خطر هذه الدعوات :

هذه الدعوات التى تزعم أن بمكانها تحضير الأرواح اتخذها شياطين الجن والإنس سبيلاً لإفساد الدين فهذه الأرواح التى تحضر وهى فى الحقيقة شياطين تتكلم بكلام يحطم الدين وينسفه وتقر مبادىء ومثل ومناهج جديدة تعارض الحق كل المعارضة ففى واحدة من هذه الجلسات زعمت الروح (الشيطان) على لسان الوسيطة أن جبريل قد حضر هذه الجلسة ولما كان الحضور لا يعرفون جبريل قالت : (ألا تعرفون جبريل الذى كان ينزل بالقرآن على محمد ؟ إنه يبارك هذا الاجتماع وينقل

الدكتور محمد محمد حسين عن مجلة (عالم الروح) من مقال لها بعنوان (حديث الروح الكبير هوايت هوك) مايأتى :

« يجب أن نتخذ فى هذه الحركة . فى هذا الدين الجديد . يجب أن تسودنا المحبة . ويجب أن تكون لنا قدرة على الاحتمال والتفاهم » . رسالتى (الروح المتحدث هنا أى الشيطان) أن أواسى المحروم وأساعد الإنسان على تحرره فى نفسه من الله تعالى : (وصدق فهذه رسالته أى يجعله يكفر بالله) الإنسان إله مكسو بعناصر الأرض (هكذا ينضج فى الإنسان ويكذب عليه ليضله) وهو لن يدرك مافى مقدوره هو مالم يحس بجزئه الملائكى الإلهى الروحية ستكون أقدر من غيرها على تأسيس دين جديد واسع للعالم كله) . وينقل عن هذه المجلة أيضاً تعريفاً بالمنظمة التى أسست لهذه الغاية لأن هذه المنظمة ستكون لكل البشرية وعن طريقها سوف يوضح لنا سكان العالم الروحى طريقة جديدة للحياة ويعظوننا فكرة جديدة عن الله ومشيئته ، إنهم سوف يأتون لنا بالسلام والطمأنينة الروحية وبسعادة النفس والقلب سوف يحطمون الحواجز بين الشعوب والأفراد وبين العقائد والأديان (هكذا) ... إن العضوية فى هذه المنظمة بدون نظر للوطن أو اللون أو الدين أو المذهب السياسى .

وتزعم الأرواح أنها رسل مرسلة من عند الله فالدكتور يذكر أن محمد فريد وجدى نقل عن هذه الأرواح (أى الشياطين) قولها « نحن مرسلون من عند الله كما أرسل المرسلون قبلنا غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم فإلهنا هو إلههم إلا أن إلهنا أظهر من إلههم وأقل فى صفات البشرية وأكثر صفات إلهية .. لا تخضع لأى عقيدة مذهبية ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لا تستند إلى العقل » .

وهم يزعمون أن الرسل والأنبياء ما هم إلا وسطاء على درجة عالية من الوساطة وأن المعجزات التى جرت على أيديهم ليست إلا ظواهر روحية كالظواهر التى تحدث فى حجرة تحضير الأرواح ويزعمون أنهم يستطيعون أن يعيدوا أحداث كل ما نسب للمسيح من أرواح وقد قامت بعض الصحف بحملة دعائية كبيرة زعمت أن أحد محضرى الأرواح فى أمريكا يستطيع أن يقوم بمثل معجزات المسيح فهو يعيد البصر إلى الأعمى والنطق إلى الأبكم والحركة للمشلول بقى أن تعلم أن هذا الطبيب المزعوم طفل فى العاشرة من عمره يدعى (ميشيل) وعندما يأتيه المريض يضع أنامله عليه ويتمتم ببعض الأدعية والكلمات فتحدث المعجزة . ويقولون : إن هذا الطفل ورث الموهبة الروحانية عن والده وهو لا يتقاضى من المال عما يقوم به عن أعمال (راجع ملحق جريدة القبس الكويتيه ١٩٧٧/١٠/١٧) . ووراثة هذا الطفل لهذه الأعمال من أبيه تذكرنا لقصة تروى فى بعض نواحى فلسطين يقول الرواة إن أحد الرجال الذين كانوا يظهرون الصلاح والتقى كان يفعل عجباً فقد كان – فى ذلك الوقت الذى لم تظهر فيه الطائرة والسيارة – ينطلق إلى الحج فى ليلة عرفة فيشهد ذلك اليوم مع الحجيج ويسلمهم رسائل من أقاربهم وذويهم ويأخذ منهم رسائل إلى أقاربهم ويعود فى الليلة

الأخرى وكان كثير من الناس يعتقد فيه الصلاح والخير رغم أنه ما كان يقوم بمناسك الحج ولا يمكث فى منى المدة المقررة ولا يرمى **الجمرات** ثم شاء الله أن يكشف باطله ويظهر أمره للناس فعندما جاءه الموت استدعى ابنه الأكبر وأخبره أن جملاً سيأتيه ليلة عرفة ويحمله إلى عرفات فى كل عام ولما جاء الجمل وركبه الابن وسار مسافة وقف وتحدث إلى الأبن وأخبره أنه شيطان وأن أباه كان يعبده ويسجد له وفى مقابل ذلك يخدمه مثل هذه الخدمات ولما رفض الابن السجود له واستعاذ بالله منه تركه فى الصحراء وقدر الله له الرجوع وكشف حقيقة أبيه الكافر .

وقد أشار إلى هذه القصة البيانونى فى كتابه الملائكة بأخصر مما أثبتناها هنا .

هل يمكن استحضار الأرواح :

لقد وضعت مجلة (سنيتفيك أمريكان) جائزة مالية ضخمة لمن يقيم الحجة على صدق الظواهر الروحية ولاتزال الجائزة قائمة لم يظفر بها أحد رغم انتشار الروحيين ونفوذهم وبراعتهم فى **أمريكا** وقد ضم إلى هذه الجائزة جائزة أخرى تبرع بها الساحر الامريكى رننجر نفسه ولم يظفر بها أحد أيضاً .

ولكن ما موقف الإسلام من إمكان إحضار روح المتوفى ؟ إن التأمل فى النصوص التى وردت فى هذا تجعل الباحث يعتقد جازماً أن ذلك مستحيل فقد أخبرنا الله تعالى أن الروح من عالم الغيب الذى لا سبيل إلى إدراكه ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ سورة الإسراء ٨٥ .

وأخبر أنه يتوفى الأنفس وأنه يمسك النفوس عند الموت ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** ﴾ سورة الزمر ٤٢ . وقد وكل الله الأنفس ملائكة يعذبونها إن كانت شقية كافرة وينعمونها إن كانت صالحة تقية وقد بين لنا الرسول ﷺ كيف يقبض ملك الموت الأرواح وما يفعل بها بعد ذلك .

والأرواح إذ كانت مُمسكة عند ربها موكل بها حَفَظَة أقوياء مهرة ، فلا يمكن أن تنفلت منهم وتهرب لتأتى إلى هؤلاء الذين يتلاعبون بعقول العباد . وبعض هؤلاء يزعم أنه حضر روح عبد من عبيد الله الصالحين من الأنبياء والشهداء ، فكيف يتركون جنان الخلد إلى حجرة التحضير المظلمة فقد أخبرنا الله أن الشهداء أحياء عند ربهم ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون** ﴾ سورة آل عمران ١٦٩ . وقد بين الرسول ﷺ (أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى رياض الجنة تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها وتأوى إلى قناديل معلقة فى سقف عرش الرحمن)[1]. فكيف يزعم دجالو العصر أنهم يحضرون أرواح هؤلاء ؟ كيف ؟ (كبرت

كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً)(٢).

شبهة وجوابها :

يقولون فكيف تعللون معرفة الأرواح بأخلاق وأعمال الرجل الذى تزعم أنها كانت تسكنه ؟

قلنا هذا الذى يزعم أنه روح شيطان ولعل هذا الشيطان هو القرين الذى كان يلازم الإنسان وقد ذكرنا النصوص التى تدل على أن لكل إنسان شيطاناً فهذا القرين الملازم للإنسان يعلم عنه الكثير من أخلاقه وعاداته وصفاته ويعرف أقاربه وأصدقاءه .

فعندما يختبر ما أسهل أن يجيب لأنه على علم ودراية فإن قيل : كيف تفسرون الإجابات العلمية التى قد يحصل عليها من الأرواح نقول : سبق أن بيّنا أن الشياطين والجن لديهم القدرات العلمية التى تمكنهم من الإجابة والإفادة .

ولكنها إفادة تحمل فى طياتها الإضلال العظيم فهم لا يفيدوننا إلا بمقدار كى نثق بهم ثم يوجهوننا الوجهة الضالة السيئة التى توبقنا فى ديننا وأخرانا .

تخلى الشياطين عن أتباعها :

هؤلاء الذين يدُعون (الروحانيون) ويزعمون أنهم يحضرون الأرواح ويعالجون بها كاذبون وما هذه الأرواح إلا شياطين وقد تتخلى الشياطين عن هؤلاء فتذلهم وتخذلهم . نشرت جريدة القبس الكويتية فى ملحقها بتاريخ ٧٨/٦/١٢ مقالاً جاء فيه : بريطانيا بأسرها تتحدث هذه الأيام عن العالم الروحانى (بيتر غودونى) الذى كان يتمتع بمواهب (روحانية) خارقة يستطيع بواسطتها أن يشفى المرضى من الأمراض المستعصية ويكشف الأشياء المفقودة ويسخر الأرواح لخدمة الإنسان .

وكان بيتر غودوين يتمتع بمقدرة فريدة يستطيع بواسطتها التواجد فى أكثر من مكان فى وقت واحد فقد كان يشاهده أصدقاؤه فى لندن مثلاً ، ويشاهده آخرون فى نفس اللحظة فى ليفربول وآخرون فى مانشستر بينما يؤكد فريق رابع أنه لم يكن فى هذا المكان ولا ذاك وإنما كان يجلس فى منزله بين زوجته وأولاده .

وأحياناً كانت أجساده الايثرية المختلفة تجتمع فى مكان واحد فيكون جالساً بين أصدقائه مثلاً ، وفجأة .. تدخل عليهم جميعاً شخصيته الأخرى .. وتشاركهم الجلسة وتأتى شخصيته الثالثة والرابعة والخامسة بعدها ويصبح بيتر غودوين عبارة عن خمس شخصيات تجالس الحضور وتتحدث إليهم أو

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الإمارة – باب بيان أن أرواح الشهداء فى الجنة ١٥٠٢/٣ رقم ١٨٨٧

تتحدث مع بغضها البعض بينما يكون الجميع مبهوروين وفجأة خسر بيتر غودوين كل شىء وتحول إلى إنسان عادى ولم يعد بقادر على شفاء المرضى ولا اكتشاف الأشياء المفقودة ولا كشف المستقبل ولا تسخير الأرواح لخدمة الناس .

وقد بدأت مأساة غودوين عندما حاول استغلال المواهب التى منحها الله له لتحقيق مكاسب مادية وهو قد أصبح ينظر إلى الماضى القريب ويقول : إن ما حدث لى لم يكن فى الحسبان فقد غضبت الأرواح منى وسلبتنى بركاتها .

بدايـــة القصـــة :

والقصة أن بيتر غودوين حاول أن يقيم مراكز للعلاج الروحى فى طول بريطانيا وعرضها وأن ينشىء مركزاً فى كل مدينة كبيرة فى بريطانيا ولذلك نشر إعلاناً فى صحيفة بوثماوت المسائية يطلب فيه من ربين للأبحاث الروحية بدوام كامل أو بنصف دوام ، المشروع يحقق دخلاً يعادل ٤٠ – ٥٠ جنيهاً فى الأسبوع .

وبعد أن نشر بيتر غودوين إعلانه بدأت الطلبات تنهال عليه ومن بين الذين استجابوا للطلب كاتب فى التاسعة والعشرين من عمره اسمه روبين لاسى ، وإمرأة فى الخامسة والستين من عمرها اسمها جين بارتليث ورجل فى الثلاثين اسمه ارتر جفرى ولكن ما أن بدأ بيتر غودوين بإجراء المقابلات حتى بدأت متاعبه يقول روبين لاسى : « فوجئت عندما حضرنا للمقابلة أن بيتر غودوين نفسه غير موجود وأن التى تجرى المقابلة إمرأة خمسينية يساعدها شاب وإمرأة صغيرة السن فاتنة الجمال .. ووزعت علينا أسئلة وطُلب منا الإجابة عليها ومن بين الأسئلة :

هل شاهدت أرواحاً فى حياتك ؟ هل تؤمن بنتائج الأرواح ؟

هل تتناول المخدرات ؟ هل سبق أن زرت مستشفى للأمراض العصبية ؟

وقالت لنا المرأة الخمسينية : أن بيتر غودوين سيقيم مركزاً روحياً فى كل مدينة فى بريطانيا وأنه سيدربنا على العلاج الروحى بحيث نصبح قادرين على العمل فى هذه المراكز ثم يرسل الزبائن إلينا على أن نتقاضى خمسة جنيهات استرلينية عن الجلسة الواحدة ونعالج ما يعادل ٤٠ شخصاً فى الأسبوع .. بشرط أن يقتطع بيتر غودوين لنفسه نصف أول خمسة آلاف جنيه استرلينى والنصف الباق لنا ... وقد أصيب معظمنا بخيبة الأمل من ذلك وتعالت صيحات الاحتجاج ضد ذلك من الأشخاص الذين تقدموا بطلبات وغادر معظمنا الغرفة دون أن يكمل تعبئة الطلبات .

ماذا يقول شهود العيان :

ومع ذلك فقد تم إختيار البعض وسمح لهم بمقابلة بيتر غودوين فى غرفة أخرى وقد دامت مقابلة الشخص الأول ٢٠ دقيقة بدأت تتقلص وعندما جاء دور الشخص الأخير استمرت المقابلة خمس دقائق وفى النهاية اختيار بضعة أشخاص على أن يتولى بيتر غودوين تدريبهم . ومن الأشخاص الذين تم اختيارهم جين بارتليث وهى مهندسة ديكور متقاعدة وزوجها ارثر بارتليث .. تقول جين : « لم أستوعب شيئاً مما علمه بيتر غودوين لى كان دائماً بادى الاضطراب أثناء التدريب وفى الآونة الأخيرة صار يلجأ إلى تسجيل محاضراته على أشرطة تسجيل ويتحدث فيها عن آفاق الإنسان فى الحياة وطلب منامرة أن نصنع تماثيل من الطين تشبه الإنسان وعلمنا قراءة بعض التعاويذ عليها ولكن كل ذلك لم يجد شيئاً .. وزودنا بيتر غودوين بملاحظات لم نفهم منها شيئاً » .

أما ارثر جفرى وزوجته انجيلا فقد كانا من ضمن الأشخاص الذين تم اختيارهم تقول انجيلا : « فى البداية أحسسنا بأن الجو العلمى هو السائد فى الدروس والمحاضرات ولكن غودوين كان دائم الاضطراب وبدأ يفقد تأثيره شيئاً فشيئاً وبعد بضعة أيام أصبح مجرد إنسان عادى ، مثلنا لا يتمتع بأية مقدرة خارقة وقد لمسنا ذلك لأنه لم يعد يمارس أعاجيبه أمامنا بل أصبح يسجل محاضراته على شريط تسجيل ونسمعها نحن من الشريط دون أن نراه ولذلك أمتنعنا جميعاً عن حضور المحاضرات وتوقفنا عن دفع المصاريف التى كنا ندفعها له بمعدل عشرة جنيهات استرلينية للدرس الواحد »

ومن مكتبة فى باسنكسشوك فى هانز ، قال بيتر غودوين الرجل الذى خسر ثقة الأرواح به : « كانت خطتى تقضى أن أنمى قوى تلاميذى الروحية ثم أمنحهم شهادة تثبت ذلك لكى يتمكنوا من ممارسة عملهم فيستفيدوا بذلك ويفيدوا وأستفيد وعلى الرغم من أننى تلقيت عدة رسائل روحية بأن لا أستغل المواهب التى منحنى الله إياها للكسب المادى إلا أننى لم استمع فكانت النتيجة أن بدأت مقدرتى تتلاشى إلى أن اختفت تماماً . أما كيف حدث ذلك فإننى لا أعرف حتى الآن » .

تعليقنا على هذه الحادثة :

١ - ما زعمه هذا الرجل من أنه كان يحضر الأرواح لا دليل عليه ومما يدل على أنه كان يحضر الشياطين أنه أمر أتباعه بصنع تماثيل وقراءة تعاويذ معينة وهذا ما يرضى الشيطان ويغضب الرحمن .

٢ - إذا قلنا إن هذه الأرواح شياطين تحل لنا ظاهرة وجود (بيتر) فى أكثر من مكان فى وقت واحد لأن الشياطين لديها القدرة على التشكل بشكل الإنسان .

وهذا كان يحدث فى الماضى ولا يزال يحدث فإبليس جاء المشركين فى غزوة بدر فى صورة سراقة بن مالك ويحكى ابن تيمية من هذا شيئاً كثيراً ، وأنا أسوق شيئاً من كلامه ليتبين للقارىء أن هذا موجود من

قديم يقول ابن تيمية عن نفسه « إن طائفة من أصحابى ذكروا أنهم استغاثوا بى فى شدائد أصابتهم ، أحدهم كان خائفاً من الأرمن والآخر كان خائفاً من التتر فذكر كل منهم أنه لما استغاث بى لاتى فى الهواء وقد دفعت عنه عدوه فأخبرتهم (المخبر ابن تيمية) أنى لم أشعر بهذا ولا دفعت عنكم شيئاً وإنما هذا شيطان تمثل لأحدكم فأغواه لما أشرك بالله تعالى » .

يقول : « وهكذا جرى لأكثر من واحد من أصحابنا المشائخ مع أصحابهم يستغيث أحدهم بالشيخ فيرى الشيخ قد جاء وقضى حاجته ويقول ذلك الشيخ : إنى أعلم بهذا فيتبين أن ذلك كان شيطاناً » .

ويقول أيضاً : « وقد قلت لبعض أصحابنا لما ذكر لى أنه استغاث باثنين كان يعتقد هما وأنهما أتيناه فى الهواء ، وقالا له : طيب قلبك نحن نرفع هؤلاء عنك ونفعل ونصنع .

قلت له : فهل كان من ذلك شيء ؟ فقال : لا . فكان هذا مما دله على أنهما شيطانان فإن الشياطين وإن كانوا يخبرون الإنسان لقضية أو قصة فيها صدق فإنهم يكذبون أضعاف ذلك كما كانت الجن يخبرونه الكهان » .

٣ – إن شياطين بيتر تخلت عنه كما تتخلى الشياطين التى تتصور بصورة الشيوخ عمن وعدتهم الحماية والنصر وكما تخلى الشيطان عن الراهب بعد أن وعده بالنصر وفى ذلك إذلال لهذا الذى كان بالأمس موضع احترام الناس وتقديرهم .

٤ – زعم (بيتر) أن هذه الأرواح تأييد من الله كذب لا دليل عليه .

الجن وعلم الغيب

شاع لدى كثير من الناس أن الجن يعلمون الغيب ومردة الجن يحاولون أن يؤكدوا هذا الفهم الخاطىء عند البشر وقد أبان الله للناس كذب هذه الدعوى عندما قبض روح نبيه سليمان ـــ وكان قد سخر له الجن يعملون بين يديه بأمره – وأبقى جسده منتصباً وأستمر الجن يعملون وهم لا يدرون بأمر وفاته حتى أكلت دابة الأرض عصاه المتكىء عليها فسقط فتبين للناس كذبهم فى دعواهم أنهم يعلمون الغيب : ﴿ **فلما قضينا عليه الموت ، مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته ، فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين** ﴾ سورة سبأ ١٤ .

وقد سبق القول كيف كانوا يسترقون خبر السماء وكيف زيد فى حراسة السماء بعد بعثة الرسول ﷺ فقلما يستطيع الجن استراحة السمع بعد ذلك .

العرافون والكهان :

وبذلك يعلم عظم الخطأ الذى يقع فيه عوام الناس باعتقادهم أن بعض البشر كالعرافين والكهان يعلمون الغيب فتراهم يذهبون إليهم يسألونهم عن أمور حدثت من سرقات وخبايات وأمور لم تحدث مما سيكون لهم ولأبنائهم ولقد خاب السائل والمسئول فالغيب علمه عند الله لا يظهر الله عليه إلا من شاء من عباده الصالحين : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً** ﴾ سورة الجن ٢٦ - ٢٨ .

والاعتقاد بأن فلاناً يعلم الغيب إعتقاد آثم ضال يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة التى تجعل علم الغيب لله وحده .

أما إذا تعدى الأمر إلى إستفتاء أدعياء الغيب فإن الجرعة تصبح من العظم بمكان ، ففى صحيح مسلم عن بعض أزواج النبى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة »[1].

وتصديق هؤلاء كفر كما فى المسند عن أبى هريرة أن النبى - ﷺ قال : « من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد »[2].

قال شارح العقيدة الطحاوية : (والمنجم يدخل فى اسم (العراف) عند بعض العلماء وعند بعضهم هو فى معناه - ثم قال - فإذا كانت هذه حال السائل فكيف المسئول ؟) . ومراده إذا كان السائل لا تقبل له صلاة أربعين يوماً وإذا كان الذى يصدق الكاهن والعراف يكفر بالمنزل على الرسول ﷺ فكيف يكون حكم الكاهن والعراف ؟

سؤال العرافين والكهنة على وجه الإمتحان :

يرى ابن تيمية أن سؤال الكهنة بقصد إمتحان حالهم وإختيار باطنهم يميز صدقهم من كذبهم - جائز واستدل بحديث الصحيحين : « أن النبى ﷺ سأل ابن صياد ، فقال : ما يأتيك ؟ فقال : يأتينى صادق وكاذب . قال : ما ترى ؟ قال : أرى عرشاً على الماء ، قال : فإنى قد خبأت لك خبيئاً ، قال الدخ ، الدخ . قال : أخسأ فلن تعدو قدرك فإنما أنت من إخوان الكهان »[3]. فأنت ترى أن الرسول ﷺ سأل هذا الدعيّ ليكشف أمره ويبين للناس حاله .

(١) صحيح مسلم - كتاب السلام - باب الطيرة والفأل ١٧٥١/٤ رقم ٢٢٣٠

(٢) مسند أحمد ٤٢٩/٢

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٨٥١

المنجمون :

وصناعة التنجيم التى مضمونها : الأحكام والتأثير ، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية أو التمريج بين القرى الفلكية والفوايل الأرضية : صناعة محرمة بالكتاب والسنة ، بل هى محرمة على لسان جميع المرسلين قال تعالى : ﴿ **ولا يفلح الساحر حيث أتى** ﴾ طه ٦٩ .

وقال تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتو نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت** ﴾ سورة النساء ٥١ قال عمر بن الخطاب : الجبت السحر . (شرح العقيدة **الطحاوية** ٥٦٨)

شبهـــة :

قد يزعم قائل أن العرافين والكهنة والمنجمين يصدقون أحياناً والجواب أن صدقهم فى كثير من الأحيان يكون من باب التلبيس على الناس فإنهم يقولون للناس كلاماً عاماً يحتمل وجوهاً من التفسير فإذا حدث الأمر فإنه يفسره لهم تفسيراً يوافق ما قيل .

وصدقهم فى الأمور الجزئية إما أنه يرجع إلى الفراسة والتنبؤ وإما أن تكون هذه الكلمة الصادقة مما خطفه الجن من خبر السماء . ففى الصحيحين ومسند أحمد عن عائشة ، قالت : سئل رسول الله ﷺ عن الكهان ؟ فقال (ليسوا بشىء) . فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشىء يكون حقاً ! فقال رسول الله ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرها فى أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة »(١)

وإذا كانت القضية التى صدق فيها من الأمور التى حدثت كمعرفته بالسارق أو معرفته باسم الشخص الذى يقدم عليه لأول مرة وأسماء أبنائه **وأسرته** فهذا قد يكون بحيلة ما كالذى يضع شخصاً ليسأل الناس وتكون عنده وسيلة لاستماع أقوالهم قبل أن يمثلوا بين يديه أو يكون هذا من فعل الشياطين وعلم الشياطين بالأمور التى حدثت ووقعت ليس بالأمر المستغرب .

الكهنة رسل الشيطان :

يقول ابن القيم (الإغاثة ٢٧١/١) : « الكهنة رسل الشيطان ، لأن المشركين يدعون إليهم ويفزعون إليهم فى أمورهم العظام ويصدقونهم ويتحاكمون إليهم ويرضون بحكمهم كما يفعل أتباع الرسل بالرسل فإنهم **يعتقدون** أنهم يعلمون الغيب ويخبرون عن المغيبات التى لا يعرفها غيرهم فهم عند

---

(١) صحيح البخارى – كتاب الطب – باب الكهانة ١٧٦/٧ وصحيح مسلم – كتاب السلام – باب تحريم الكهانة واتيان الكهان ١٧٥٠/٤ رقم ٢٢٢٨ ومسند أحمد ٨٧/٦

المشركين بهم بمنزلة الرسل فالكهنة رسل الشيطان حقيقة أرسلهم إلى ضربة من المشركين وشبههم بالرسل الصادقين حتى إستجاب لهم حزبه ومثل رسل الله بهم لينفر عنهم ويجعل رسله هم الصادقين العالمين بالغيب ولما كان بين النوعين أعظم التضاد قال رسول الله ﷺ : « من أتى كاهناً ، فصدَّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » .

فإن الناس قسمان : أتباع الكهنة وأتباع الرسل فلا يجتمع فى العبد أن يكون من هؤلاء وهؤلاء بل يبعد عن الرسول ﷺ بقدر قربه من الكاهن ويكذِّب الرسول بقدر تصديقه للكاهن . أقول : ومن يدرس تواريخ الأمم يعلم أن الكهان والسحرة كانوا يقومون مقام الرسول ولكنهم رسل الشيطان فالسحرة والكهنة كانت لهم الكلمة المسموعة فى أقوالهم يحلون ويأخذون المال ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضى الشياطين ويأخذون المال ويأمرون بأنواع من العبادة والطقوس ترضى الشياطين ويأمرون بقطيعة الأرحام وانتهاك الأعراض .

واجب الأمة نحو هؤلاء :

ما يدعيه المنجمون والعرافون والسحرة ضلال كبير ومنكر لا يستهان به وعلى الذين أعطاهم الله دينه وعلمهم كتابه وسنة نبيه أن ينكروا هذا الضلال بالقول ويوضحوا هذا الباطل بالحجة والبرهان وعلى الذين فى يدهم السلطة أن يأخذوا على يد هؤلاء الذين يدَّعون الغيب من العرافين والكهنة وضاربى الرمل والحصى والناظرين فى اليد (والفنجان) وعليهم أن يمنعوا نشر **خزعبلاتهم** فى الصحف والمجلات وتعاقب من يتظاهر **بصناعته** وضلالاته فى الطرقات وقد ذم الله بنى إسرائيل لتركهم التناهى عن المنكر : ﴿ **كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون** ﴾ .

وفى السنن عن النبى ﷺ برواية الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : (إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمّهم الله بعقاب منه)[1].

الجن والأطباق الطائرة :

كثر الحديث فى هذه الأيام عن الأطباق الطائرة فلا يكاد يمر أسبوع إلا ونسمع أن شخصاً أو عدة أشخاص رأوا طبقاً طائراً رأوه فى الجو محلقاً أو على الأرض جاثماً أو رأوا مخلوقات مخالفه لشكل الإنسان يخرج منه ووصل الأمر إلى الإدعاء بأن بعض هذه المخلوقات طلبت إلى بعض الناس مصاحبتها إلى الطبق وأجرت فحوصاً عليه .

---

(١) سنن الترمذى – كتاب الفتن – باب ماجاء فى نزول العذاب وإذا لم يغير المنكر ٤٦٧/٤ رقم ٢١٦٨ وسنن أبى داود – كتاب الملاحم – باب الأمر والنهى ٥٠٩/٤ رقم ٤٣٣٨

ولا يدعى هذه الدعوى أناس مغمورون فحسب بل يزعم ذلك رجال بارزون أمثال رئيسى الولايات المتحدة الأمريكية فإنه يعتقد أنه لمح شيئاً طائراً لم يتعرف على ماهيته فى سماء ولاية جورجيا عام ١٩٧٣ .

وهو يبدى إهتماماً خاصاً بالمخلوقات الأخرى التى بدأت تغزو الأرض فقد أمضى الرئيس الأمريكى (كما نشرت الصحف) أمسية يناقش أحد العلماء المقتنعين بأن الإنسان ليس المخلوق الوحيد فى الكون وكان يرافق الرئيس كارتر (فرانك برس) مستشاره للشئون العلمية وبعد ذلك شاهد كارتر داخل المرصد القومى أفلاماً توجز آخر ما توصلت إليه الأبحاث حول المخلوقات التى تعيش خارج نطاق الأرض وقام بعرض هذه الأفلام (كارل ساجان) مدير معمل الدراسات الكونية بجامعة (كورنل) الذى ترجع إليه دائماً وكالة الفضاء الأمريكية فى الأمور المتعلقة بالمخلوقات التى تعيش خارج نطاق كوكب الأرض . (راجع جريدة السياسة الكويتية العدد ٣٣٩٩ - ٧٧/١٢/٥) .

وينسب ملحق الهدف الكويتية الصادر بتاريخ ٧٨/٣/٢٣ إلى الرئيس الصينى الأسبق (ماوتسى تونج) أنه كان يؤمن بوجود مخلوقات غيرنا فى الكواكب الأخرى .

ويذكر كاتب المقال أن حوالى ٦١٪ من الشعب الأمريكى مقتنعون بذلك وتزعم الصحف الأمريكية أن قرابة نصف مليون أمريكى شاهدوا هذه الأطباق وبعض هؤلاء استطاع أن يتصل بهم إتصالاً مباشراً .

وقد قام المخرج السينمائى الأمريكى (ستيفن سبيلبرج) بإخراج فيلم سينمائى بعنوان (مواجهة من النوع الثالث) بلغت تكاليفه اثنان وعشرون مليوناً من الدولارات الأمريكية .

وقد وضع الفيلم بعد تجميع المعلومات من الذين شاهدوا الأطباق الطائرة أو اتصلوا بها :

وقد عرض الفيلم لأول مرة فى البيت الأبيض وأن الرئيس الأمريكى أول مشاهديه وبعد خروج هذا الفيلم إقتنعت وكالة الفضاء الأمريكية بضرورة البحث فى هذا المجال وخصصت مليون دولار لأبحاث عام سنة ١٩٧٩ وقد أطلقت على المشروع السرى اسم (سيتى) ويتلخص فى إطلاق أجهزة خاصة للفضاء الخارجى للبحث عن رسائل لاسلكية قادمة من كواكب أخرى .

ويمكننا بعد هذا العرض أن نقرر ما يأتى :

١ - لا مجال للتكذيب بوجود مخلوقات غريبة غير الإنسان إذ تواترت الرؤية من عشرات الألوف بل مئات الألوف وقد تابعت ما قيل فى هذا الموضوع فترة طويلة فكنت أحد مقالاً كل أسبوع تقريباً أو أكثر أو أقل حول رؤية جماعة أو شخص بشىء من هذا .

٢ – أن الناس احتاروا فى تفسير حقيقة هذه الأطباق وحقيقة المخلوقات التى تستخدمها خاصة وأن سرعة هذه الأطباق خيالية تفوق سرعة أى مركبة اخترعها الإنسان .

٣ – أنا أجزم بأن هذه المخلوقات هى من عالم الجن الذى يسكن أرضنا هذه والذى تحدثنا عنه فيما سبق وبينا ما لديه من قدرات وإمكانيات تفوق قدرة البشر ولقد أعطى سرعة تفوق سرعة الصوت والضوء كما أعطى القدرة على التشكل وهو يستطيع أن يتراءى للإنسان فى صور وإشكال مختلفة .

وبذلك يتبين لنا فضل الله علينا إذ عرفنا بهذه الحقائق ، خاصة ونحن نشعر بالحيرة والقلق لدى الذين لا يعلمون ما علمناه وبذلك نوفر طاقاتنا العقلية وقدراتنا العلمية وأموالنا كى نوجهها وجهة نافعة .

وقد يتساءل بعضنا عن السر فى ظهور هذه الأطباق فى أيامنا هذه وعدم ظهورها فى العصور الخالية فالجواب أن الجن يلبسون لكل عصر لبوسه وهذا العصر عصر التقدم العلمى ولذلك فإنهم يضللون البشر بالطريقة التى تثير انتباههم وتشد نفوسهم والناس اليوم يتطلعون إلى معرفة شىء عن الفضاء الواسع وعن إمكانية وجود مخلوقات فيه غيرهم .

الفصل الخامس

أسلحة المؤمن فى حربه مع الشياطين

أولاً : الحذر والحيطة :

هذا العدو الخبيث الماكر حريص على ضلال بنى آدم وقد علمنا أهدافه ووسائله فى الإضلال فبمقدار علمك بهذا العدو : أهدافه ووسائله ، والسبل التى يصلنا بها تكون **نجاتنا** منه ، أما إذا كان الإنسان غافلاً عن هذه الأمور فإن عدوه **يأسره** ويوجهه الوجهة التى يريد . وقد صور ابن الجوزى هذا الصراع بين الإنسان والشيطان تصويراً بديعاً حيث يقول : « واعلم أن القلب كالحصن وعلى ذلك الحصن سور وللسور أبواب وفيه ثلم « الثلمة فى السور الموضوع المتهدم منه » وساكنه العقل والملائكة تتردد على ذلك الحصن وإلى جانبه رَبَض . « الربض المكان الذى يؤوى إليه » فيه الهوى والشياطين تختلف إلى ذلك الربض من غير مانع والحرب قائم بين أهل الحصن وأهل الربض والشياطين لا تزال تدور حول الحصن تطلب غفلة الحارس والعبور من بعض الثلم فينبغى للحارس أن يعرف جميع أبواب الحصن الذى قد وكل بحفظه وجميع الثلم ألا يفتر عن الحراسة لحظة فإن العدو لا يفتر ، قال رجل للحسن البصرى : أنام إبليس ؟ قال : لو نام لوجدنا راحة .

وهذا الحصن مستنير بالذكر مشرق بالإيمان وفيه مرآة صقيلة يتراءى فيها صور كل ما يمر به فأول ما يفعل الشيطان فى الربضين إكثار الدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة وكمال الفكر برد الدخان ، وصقل الذكر يجلو المرآة وللعدو حملات فتارة يحمل فيدخل الحصن فيكر عليه الحارس فيخرج وربما دخل مغاث وربما أقام لغفلة الحراس وربما ركدت الريح الطاردة للدخان فتسود حيطان الحصن وتصدأ المرآة فيمر الشيطان ولا يدرى به وربما جرح الحارس لغفلته وأسروا متخداما وأقيم يستنبط الحيل فى موافقة الهوى ومساعدته وربما صار كالفقيه فى الشر (تلبيس إبليس ٤٩) .

ثانيا : الالتزام بالكتاب والسنة :

أعظم سبيل للحماية من الشيطان هو الالتزام بالكتاب والسنة علماً وعملاً فالكتاب والسنة جاءا بالصراط المستقيم والشيطان يجاهد كى يخرجنا من هذا الصراط قال تعالى : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولاتتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** ﴾ سورة الأنعام ١٥٣ .

وقد شرح الرسول ﷺ هذه الآية وبينها فقد « خط ﷺ خطاً بيده ثم قال : (هذا سبيل الله مستقيماً) وخط عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس فيها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ثم قرأ « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله » رواه الأمام أحمد والحاكم وصححه[1] .

فاتباع ما جاءنا من عند الله من عقائد وأعمال وأقوال وعبادات وتشريعات وترك كل ما نهى عنه يجعل العبد فى حرز من الشيطان ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولاتتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ سورة البقرة ٢٠٨ . والسلم هو الإسلام وقيل : طاعة الله وفسره مقاتل بأنه العمل بجميع الأعمال ووجوه البر وعلى ذلك فقد أمرهم بالعمل بجميع شعب الإيمان وشرائع الإسلام ما استطاعوا ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، فالذى يدخل فى الإسلام مبتعد عن الشيطان وخطواته والذى يترك شيئاً من الإسلام فقد اتبع بعض خطوات الشيطان ولذلك كان تحليل ما حرّم الله وتحريم ما أحل الله أو الأكل من المحرمات والخبائث . كل ذلك من اتباع خطوات الشيطان التى نهينا عنها ﴿ **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين** ﴾ سورة البقرة ١٦٨ .

إن الالتزام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً يطرد الشيطان ويغيظه أعظم إغاظة روى مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده وابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا قرأ ابن

---

(١) مسند أحمد ٤٦٥/١ والحاكم فى المستدرك – كتاب التفسير٣١٨/٢

آدم السجدة فسجد أعتزل الشيطان يبكى ، يقول : ياويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت **بالسجود** فعصيت فلى النار »(١)

ثالثاً : الالتجاء إلى الله والاحتماء به :

خير سبيل للاحتماء من الشيطان وجنده هو الالتجاء إلى الله والاحتماء بجنابه والاستعاذة به من الشيطان فإنه عليه قادر فإذا أجار عبده فأنى يخلص الشيطان إليه ، قال تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾ سورة الأعراف ١٩٩/٢٠٠ .

وقد أمر الله رسوله ﷺ **بالاستعاذة** بالله من همزات الشياطين وحضورهم ﴿ **وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون** ﴾ سورة المؤمنون ٩٧/٩٨ . وهمزات الشياطين : نزغاتهم ووساوسهم فالله يأمرنا **بالاستعاذة** به من العدو الشيطانى لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يبتغى غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم .

يقول ابن كثير فى تفسيره (٢٨/١) « والاستعاذة هى الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجناية من شر كل ذى شر ..، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أى : أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم لا يضرنى فى دينى ودنياى أو يصدنى عن فعل ما أمرت به أو يحثنى على فعل مانهيت عنه فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه الأذى وأمر **بالاستعاذة** به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه » .

وقد كان ﷺ يكثر من **الاستعاذة** بربه من الشيطان بصيغ مختلفة فكان يقول بعد دعاء الاستفتاح فى الصلاة « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه »(٢) روى ذلك أصحاب السنن الأربعة وقد فسر همز الشيطان بالموتة وهى الخنق والنفخ بالكبر والنفث بالشعر .

---

(١) صحيح مسلم – كتاب الإيمان ٨٧/١ رقم ٨١ وسنن ابن ماجه – كتاب الصلاة – باب سجود القرآن ٣٣٤/١ رقم ١٠٥٢ ومسند أحمد ٤٤٣/٢

(٢) سنن الترمذى – كتاب الصلاة – باب ما يقوله عند افتتاح الصلاة ١٠/٢ رقم ٢٤٢ وسنن أبى داود – كتاب الصلاة – باب مايستفتح به الصلاة من الدعاء ٤٨٦/١ رقم ٧٦٤ وسنن ابن ماجه – كتاب إقامة الصلاة ٢٦٥/١ رقم ٨٠٧ ومسند أحمد ٤٠٣/١

الاستعاذة عند دخول الخلاء :

وكان إذا دخل الخلاء يستعذ من الشياطين ذكورهم وإناثهم كما فى الصحيحين عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — قال : كان النبى ﷺ إذا دخل الخلاء قال : « اللهم إنى أعوذ بك من الخبث والخبائث »(١) وفى مسند أحمد وسنن أبى داود بإسناد صحيح عن زيد بن أرقم قال : قال رسول الله ﷺ : « إن هذه الحشوش محتضرة فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل : أعوذ بالله من الخبث والخبائث »(٢).

الاستعاذة عند الغضب :

واستب رجلان عند النبى ﷺ فغضب أحدهما غضباً شديداً حتى يخيل إلىَّ (إلى راوى الحديث) أن أحدهما يتمزع أنفه من شدة غضبه فقال النبى ﷺ : « إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد من الغضب » فقالوا : ما هى يا رسول الله ؟ قال : يقول : « اللهم إنى أعوذ بك من الشيطان الرجيم » رواه البخارى ومسلم وأبو داود وأحمد وهذا لفظ أحمد(٣)

وقد علم الرسول ﷺ أحد أصحابه أن يقول : « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة لا إله إلا أنت ربَّ كل شيء ومليكه أعوذ بك من شر نفسى ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم » رواه الترمذى بإسناد صحيح(٤) (صحيح الجامع ٥٦/٦) .

الاستعاذة عند الجماع :

وحثنا على الاستعاذة حين يأتى الرجل أهله بأن يقول : « بسم الله اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه لو قضى بينهما ولد من ذلك لم يضره الشيطان أبداً » متفق عليه(٥) . وإذا

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٢١١

(٢) مسند أحمد ٣٦٩/٤ وسنن أبى داود — كتاب الطهارة — باب ما يقول الرجل إذا دخل الخلاء ١٦/١ رقم ٦

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ١٦٧٧ وسنن أبى داود — كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب ١٤٠/٥ رقم ٤٧٨١ ومسند أحمد

(٤) سنن الترمذى — كتاب الدعوات — ٥٤٢/٥ رقم ٣٥٢٩

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩١٠

نزل المرء وادياً أو منزلاً فعليه أن يستعيذ بالله لا كما كان يفعل أهل الجاهلية يستعيذون بالجن والشياطين فيقول قائلهم : أعوذ بزعيم هذا الوادى من سفهاء قومه فكانت العاقبة أن أستكبرت الجن وآذتهم كما حكى الله عنهم ذلك فى سورة الجن ﴿ **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ سورة الجن ٦ . أى : الجن زادت الإنس رهقاً أما المسلم فأنظر إلام أرشده الرسول ﷺ حيث يقول : « لو أن أحدكم إذا نزل منزلاً قال : أعوذ بكلمات الله التامة من شرِّ ما خلق لم يضره فى ذلك المنزل شيء حتى يرتحل منه ، رواه ابن ماجه بإسناد صحيح[1] .

التعوذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار :

يقول الرسول ﷺ : « إذا نهق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان الرجيم » رواه الطبرانى فى معجمه الكبير بإسناد صحيح[2] (راجع صحيح الجانع ٢٨٦/٨) وقد سبق أن الحمار إذا نهق بالليل فيكون قد رأى شيطاناً

التعوذ حين قراءة القرآن :

قال تعالى : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ سورة النحل ٩٨/٩٩ . وقد بين ابن القيم الحكمة فى الاستعاذة بالله من الشيطان حين قراءة القرآن (إغاثة اللهفان ١٠٩/١) فقال :

١ – إن القرآن شفاء لما فى الصدور يذهب لما يلقيه الشيطان فيها من الوساوس والشهوات والإرادات الفاسدة فهو دواء لما أمره الشيطان فيها فأمر أن يطرد مادة الداء ويخلى منه القلب ليصادف الداء محلاً خالياً فيتمكن منه ويؤثر فيه كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلباً خالياً فتمكنا

فيجيء هذا الدواء الشافى إلى القلب قد خلا من مزاحم ومضاد له فينجح فيه .

٢ – ومنها أن القرآن مادة الهدى والعلم والخير فى القلب كما أن الماء مادة النبات والشيطان نار يحرق النبات أولاً فأولاً فكلما أحس بنبات الخير من القلب سعى فى إفساده وإحراقه فأمر أن يستعين

---

(١) سنن ابن ماجة – كتاب الطب – باب الفزع والأرق وما يتعوذ منه ١١٧٤/٢ رقم ٣٥٤٧

(٢) المعجم الكبير للطبرانى ٤٥/٨ رقم ٧٣١٢

بالله عز وجل منه لئلا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن ، والفرق بين هذا الوجه والوجه الذى قبله أن الاستعاذه فى الوجه الأول لأجل حصول فائدة القرآن وفى الوجه الثانى لأجل بقائها وحفظها .

٣ – ومنها أن الملائكة تدنو من قارىء القرآن وتستمع لقراءته كما فى حديث أسيد بن حضير لما كان يقرأ ورأى مثل الظلة فيها المصابيح فقال عليه الصلاة والسلام : تلك الملائكة والشيطان ضد الملك وعدوه[1].

فأمر القارىء أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضره خاص ملائكته فهذه منزلة لا يجتمع فيها الملائكة والشياطين .

٤ – ومنها أن الشيطان يجلب على القارىء بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره وتفهمه ومعرفة ما أراد به المتكلم به سبحانه فيحرص بجهده على أن يحول بين قلبه وبين مقصود القرآن فلا يكمل انتفاع القارىء به فأمر عند المشروع أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .

٥ – ومنها أن القارىء يناجى الله تعالى بكلامه والله أشد أذنا للقارىء الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته والشيطان إنما قراءته الشعر والغناء . فأمر القارىء أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله تعالى واستماع الرب قراءته .

٦ – ومنها : أن الله سبحانه أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته والسلف كلهم على أن المعنى : إذ تلا ألقى الشيطان فى تلاوته .. فإذا كان هذا فعله مع الرسل عليهم الصلاة والسلام ــ فكيف بغيرهم ولهذا يغلّوا القارىء تارة ويخلط عليه القراءة ويشوشها عليه فيخبط عليه لسانه أو يشوش عليه ذهنه وقلبه فإذا حضر عند القراءة لم يعدم منه القارىء هذا أو هذا وربما جمعها له

٧ – ومنها أن الشيطان أحرص ما يكون على الإنسان عندما يهم بالخير أو يدخل فيه فهو يشتد عليه حينئذ ليقطعه عنه » .

تعويذ الأبناء والأهل :

وقد كان الرسول ﷺ يعوذ الحسن والحسين فيقول : « أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة ومن كل عين لامة ثم يقول : هكذا كان أبى إبراهيم ﷺ يعوذ إسماعيل واسحق »[2]

(١) مسند أحمد ٨١/٣

(٢) أخرجه البخارى فى الأنبياء ١٧٩/٤ والترمذى فى الطب حديث رقم ٢٠٦١ وابن ماجة فى الطب حديث رقم ٣٥٢٥ باب ما عوذ به النبى ﷺ وأحمد فى مسنده ٢٣٦/١

قال أبو بكر بن الأبنارى : « الهامة واحد الهوام ويقال هى كل نسمة تهم بسوء واللامة الملمة وإنما قال لامة ليوافق لفظ هامة فيكون أخف على اللسان » (تلبيس إبليس ٤٧) .

خير ما يتعوذ به المتعوذون :

وخير ما يتعوذ به المتعوذون سورتا الفلق والناس فعن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إن الناس لم يتعوذوا بمثل هذين : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾ رواه النسائى[1].

فقـه عظـيم :

حكى عن بعض السلف أنه قال لتلميذه : « ما تصنع بالشيطان إذا سوَّل لك الخطايا ؟ قال : أجاهده . قال : فإن عاد ، قال : أجاهده قال : فإن عاد ؟ قال : أجاهده ، قال هذا يطول ، أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أو **منعك** من العبور ما تصنع ، قال : أكابده جهدى وأرده : هذا أو يطول ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك (تلبيس إبليس ٤٨) وهذا فقه عظيم من هذا العالم الجليل فإن الاحتماء بالله والالتجاء إليه هو السبيل القوى الذى يطرد الشيطان ويبعده وهذا ما فعلت أم مريم إذا قالت : ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ سورة آل عمران ٣٦ .

شبهـــة :

يقول بعض الناس إننا نستعيذ بالله ومع ذلك فإننا نحس بالشيطان يوسوس ويحرضنا على الشر ويشغلنا فى صلاتنا .

والجواب أن الاستعاذة كالسيف فى يد المقاتل فإن كانت يده قوية أصاب من عدوه فضلاً وإلا فانه قد لا يؤثر فيه ولو كان السيف صقيلاً حديداً .

وكذلك الاستعاذة إذا كانت من تقى ورع كانت ناراً تحرق الشيطان وإن كانت من مخلط ضعيف الإيمان فلا تؤثر فى العدو تأثيراً قوياً قال أبو الفرج ابن الجوزى رحمه الله : (واعلم أن مثل إبليس مع المتقى والمخلط كرجل جالس بين يديه طعام ولحم فمرَّ به كلب فقال له اخسأ فذهب فمر بآخر بين يديه طعام ولحم فكلما أخسأه (طرده) لم يبرح فالأول مثل المتقى يمر به الشيطان فيكفيه فى طرده الذكر والثانى مثل المخلط لا يفارقه الشيطان لمكان تخليطه نعوذ بالله من الشيطان) (تلبيس إبليس ٤٨) فعلى المسلم الذى يريد النجاة من الشيطان **واحابيله** أن يشتغل بتقوية إيمانه والاحتماء بالله ربه والالتجاء إليه ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(١) سنن النسائى – كتاب الاستعاذة ٢٥١/٨

رابعا ـ الاشتغال بذكر الله :

ذكر الله من أعظم ما ينجي العبد من الشيطان وسيأتي ذكر الحديث الذي يأمر فيه نبي الله يحيى نبي اسرائيل بخمس خصال ومن هذه « وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدوّ في أثره سراعا حتى إذا أتى إلي حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان الا بذكر الله »[1] يقول ابن القيم في (الوابل الصيب ص ٦٠) : فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله ـ تعالى ـ وأن لا يزال لهجاً بذكره فانه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه وإذا ذكر الله ـ تعالى ـ انخس عدو الله وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع (طائر أصغر من العصفور) وكالذباب ولهذا سمي (الوسواس الخناس) أي : يوسوس في الصدور فإذا ذكر الله خنس . أي : كف وأنقبض وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا سها وغفل وسوس فاذا ذكر الله ـ تعالى ـ خنس .

ويقول ابن القيم (ص ١٤٤) : « الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً وأحاطوا به ، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه الا بذكر الله ـ عز وجل ـ » .

ثم ساق رحمه الله حديث عبد الرحمن بن سمرة ، قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً وكنا في صفة بالمدينة فقام علينا وقال : إني رأيت البارحة عجباً : رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بُره بوالديه فردَّ ملك الموت عنه ، ورأيت رجلاً قد بسط عليه عذاب القبر فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشه الشياطين فجاءه ذكر الله ـ عز وجل ـ فطرد الشيطان عنه ، ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلاً من أمتي يلتهب ـ وفي رواية : يلهث ـ عطشاً ، كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان ، فأسقاه وأرواه ، ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوساً حِلَقاً حِلَقاً كلما دنا إلى حلقة طرد فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي ، ورأيت رجلاً من أمتي بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجته وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور ورأيت رجلاً من أمتي يتقي بيده وهج النار وشرره ، فجاءته صدقته ، فصارت ستره بينه وبين النار ، وظللت على رأسه ، ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءته صلته لرحمه فقالت : يا معشر المسلمين ، أنه كان وصولا لرحمه فكلموه ، فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم ، ورأيت رجلاً من أمتي قد أحتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، فاستنقذه من أيديهم ، وأدخله في ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلاً من أمتي جاثيا على ركبتيه ، وبينه وبين الله ـ عز وجل ـ حجاب ، فجاءه حَسنُ خُلُقه ، فأخذ بيده ، فأدخله على الله ـ عز وجل ـ

(١) سنن الترمذي ـ كتاب الأمثال ـ باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٨/٥ رقم ٤٨٦٣ وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

ورأيت رجلاً من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله ـ عز وجل ـ فأخذ صحيفته فوضعها فى يمينه ، ورأيت رجلاً من أمتى خفَّ ميزانه ، فجاءه أفراطه (جمع فرط ، والمراد به : من مات له من الأطفال) فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه فى الله ـ عز وجل ـ فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتى قد أهوى فى النار ، فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله ـ عز وجل ـ فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السَّعفة فى ريح عاصف ، فجاءه حسن ظنه بالله ـ عز وجل ـ فسكَّن رعدته ومضى ، ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط ، ويحبو أحيانا ، ويتعلق أحياناً ، فجاءته صلاته علىَّ فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب ، وأدخلته الجنة »[1] رواه الحافظ أبو موسى المدينى فى كتاب « الترغيب فى الخصال المنجية ، والترهيب من الخلال المروية ، وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له ، وقال : هذا حديث حسن جداً ، رواه عن سعيد بن المسيب ، عمرو بن آزر ، وعلى بن زيد بن جدعان ، وهلال أبو جبله ، وكان شيخ الاسلام ابن تيميه ـ قدس الله روحه ـ يعظمٍّ شأن هذا الحديث ، وبلغنى عنه أنه كان يقول : شواهد الصحة عليه والمقصود منه قوله ﷺ : ورأيت رجلاً من أمتى قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله ـ عز وجل ـ فطرد الشيطان عنه » فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعرى ، وقوله فيه : « وآمركم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو ، فانطلقوا فى طلبه سراعاً ، وانطلق حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه » .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه الا بذكر الله ـ عز وجل ـ وفى الترمذى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال ـ يعنى إذا خرج من بيته ـ بسم الله ، توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، يقال له : كُفِيتَ وهُديتَ ووُقِيتَ ، وتنحى عنه الشيطان فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدى وكُفى ووقى » ؟ رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن[2] .

وصح عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : « من قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسى »[3] وذكر سفيان عن أبى الزبير ، عن عبد الله بن ضمرة ، عن كعب قال : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، قال الملك : هديت وإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كفيت ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال الملك : حفظت ، فيقول الشياطين بعضهم لبعض : ارجعوا ، ليس لكم عليه سبيل ، كيف لكم بمن كفى وهدى وحفظ ؟

وقال أبو خلاد المصرى : من دخل فى الاسلام ، دخل فى حصن ، ومن دخل المسجد فقد دخل فى

---

(١) أخرجه الترمذى فى نوادر الأصول .
(٢) سنن أبى داود ـ كتاب الأدب ـ باب ما يقول إذا خرج من بيته ٥/٣٢٨ رقم ٥٠٩٥ ، وسنن الترمذى ـ كتاب الدعوات ـ باب ما يقوله إذا خرج من بيته ٥/٤٩٠ رقم ٣٤٢٦
(٣) مجمع الزوائد ١٠/١٢١

حصنين ، ومن جلس فى حلقة يذكر الله عز وجل فيها ، فقد دخل فى ثلاثة حصون ، وقد روى الحافظ أبو موسى فى كتابه من حديث أبى عمران الجونى ، عن أنس ، عن النبى - ﷺ - قال : إذا وضع العبد جنبه على فراشه ، فقال : بسم الله ، وقرأ فاتحة الكتاب ، أمِنَ من شر الجن والانس ومن كل شىء » ذكره السيوطى فى « الجامع الكبير » ونسبه للبزار والديلمى ، قال الهيثمى فى « المجمع » : وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ووثقه ابن حبان ، وبقية رجاله رجال الصحيح (محقق الوابل الصيب) . وفى « صحيح البخارى » عن ابن سيرين ، عن أبى هريرة قال : قال رسولُ الله - ﷺ - زكاة رمضان أن احتفظ بها ، فأتانى آت ، فجعل يحثو الطعام فأخذته ، فقال : دعنى فإنى لا أعود . . فذكر الحديث ، وقال : فقال فى الثالثة : أعلِّمك كلمات ينفعك الله بهن ، إذا أويت إلى فراشك ، فأقرأ آية الكرسى من أولها إلى آخرها ، فانه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخلى سبيله ، فأصبح ، فأخبر النبى - ﷺ - بقوله ، فقال : « صدقك وهو كذوب »[(١)] وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى الانسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : أختم بخير ، ويقول الشيطان : أختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه - يعنى النوم - طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد موتها ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قض عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكها من أحد من بعده ، الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه »[(٢)] .

وفى « الصحيحين » : من حديث سالم بن أبى الجعد ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله - ﷺ - « أما إن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا فيولد بينهما ولد لا يضره شيطان أبداً »[(٣)] . وذكر الحافظ أبو موسى ، عن الحسن بن على قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ، ومن كل لص عاد : **آية الكرسى وثلاث آيات من الأعراف ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض . . ﴾** الاعراف (٥٤ - ٥٦) ، وعشراً من الصافات (١ - ١٠) ، وثلاث آيات من الرحمن ﴿ **يا معشر الجن والانس . .** ﴾ (الرحمن : ٣٣ - ٣٤) وخاتمة سورة الحشر : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن** ﴾ (الحشر : ٢١ - ٢٤) . وقال محمد بن أبان : بينما رجل يصلى فى المسجد ، إذا هو بشىء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك منى بأس إنما جئتك فى الله تعالى ، ائت عروة فسله : ما الذى يتعوذه ؟ - يعنى من إبليس الأباليس - قال : قُلْ آمنتُ بالله العظيم وحده ، وكفرت بالجبت والطاغوت ، واعتصمتُ بالعروة الوثقى ، لا انفصام لها ، والله سميع عليم ، حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى .

---

(١) صحيح البخارى - كتاب فضائل القران - باب فضل البقرة ٢٣٢/٦

(٢) مسند أبى يعلى الموصلى - سند جابر ٣٢٦/٣ رقم ١٧٩١ ومجمع الزوائد ١٢٠/١٠ وابن السنى فى عمل اليوم والليلة رقم ١٢ والحاكم فى المستدرك ٥٤٨/١

(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان حديث رقم ٩١٠

وقال بشر بن منصور : عن وهيب بن الورد قال : خرج رجل إلى الجبانه بعد ساعة من الليل ، قال : فسمعتُ حِسًّا - أو صوتا - شديداً ، وجيء بسرير حتى وضع ، وجاء شيء حتى جلس عليه ، قال : واجتمعت اليه جنوده ، ثم صرخ فقال : من لى بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله - عز وجل - من الأصوات ، فقال واحد : أنا أكفيكه ، قال : فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر ، ثم أوشك الرجعة ، فقال : لا سبيل إلى عروة ، وقال : ويلكم وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص اليه معهن ، قال الرجل : فلما أصبحت ، قلت لأهلى : جهزونى ، فأتيتُ المدينة ، فسألت عنه حتى دُلِلْتُ عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : أشيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرنى ، فأخبرته بما رأيت وما سمعت ، فقال : ما أدرى ، غير أنى أقول إذا أصبحت : آمنتُ بالله العظيم ، وكفرتُ بالجبْتِ والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى التى لا أنفصام لها ، والله سميع عليم . إذا أصبحت قلت ثلاث مرات ، وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات . وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال : قال جبريل للنبى ﷺ : إن عفريتاً من الجن يكيدك فإذا أويت إلى فراشك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن برٌّ ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ من الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن »(١) . وقد ثبت فى « الصحيح » أن الشيطان يهرب من الأذان . قال سهيل بن أبى صالح : أرسلنى أبى إلى بنى حارثه ومعى غلام - أو صاحب لنا ، فنادى منادٍ من حائط باسمه ، فأشرف الذى معى على الحائط ، فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبى ، فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، لكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإنى سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « إن الشيطان إذا نودى بالصلاة ، وَلَّى وله حُصَاصُ » وفى رواية : « إذا سمع النداء وَلَّى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين . . » الحديث(٢) . وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى رجاء عن أبى بكر الصديق قال : قال رسول الله - ﷺ - « استكثروا من لا اله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال : قد أهلكتهمُ بالذنوب ، وأهلكونى بقول : لا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم ، أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون »(٣) .

وذكر أيضا عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : بينا رجل مسافر ، إذْ مرَّ برجل نائم ، ورأى عنده شيطانين ، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية ما لنا اليه سبيل ، فذهب إلى النائم ، فلما دنا منه رجع فقال : صدقت ، فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرنى على أى آية نمت ؟ قال : على هذه الآية : ﴿ إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم

---

(١) عمل اليوم والليلة لابن السنى رقم ٦٣٧
(٢) صحيح مسلم - كتاب الصلاة - باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ١/٢٩٧ رقم ١٨
(٣) مسند أبى يعلى الموصلى عن أنس بن مالك .

استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمرَ والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلقُ والأمرُ تبارك الله رب العالمين ﴾ (الأعراف : ٥٤) وقال أبو النضر هاشم بن القاسم : كنت أرى في داري . . فقيل : يا أبا النضر تحوَّل عن جوارنا ، قال : فاشتد ذلك عليَّ ، فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربي ، وأبي أسامة ، فكتب إليَّ المحاربي : إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها فنزل بهم ركب ، فشكوا ذلك إليهم ، فدعوا بدلو من ماء ، ثم تكلموا بهذا الكلام فصبوه في البئر ، فخرجت نار من البئر ، فطفئت على رأس البئر ، قال أبو النضر : فأخذت توراً من ماء ، ثم تكلَّمت فيها بهذا الكلام ، ثم تتبعت به زوايا الدار ، فرششته ، فصاحوا بي : أحرقتنا ، نحن نتحول عنك ، وهو : بسم الله ، أمسينا بالله الذي ليس منه شيء ممتنع ، وبعزة الله التي لا ترام ولا تضام ، وبسلطان الله المنيع نحتجب ، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة ، ومن شر شياطين الانس والجن ، ومن شر كل معلن أو مسر ، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار ، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شركل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ، أعوذ بالله : بما أستعاذ به موسى ، وعيسى ، وإبراهيم الذي وفى ، من شر ما خلق ،ذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر ما يبغى ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ والصافات صفا ، فالزاجرات زجراً ، فالتاليات ذكرا ، إن الهكم لواحد ، رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق ، إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان مارد ، لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحوراً ولهم عذاب واصب ، إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ (الصافات : ١ ـ ١٠) . فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد : يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى . وأحب أن أختم هذا الموضوع بحديث لم يذكره ابن القيم ، وهذا الحديث يدل على أن ذكر الله في كل أمر من الأمور يذل الشيطان ويصغر أمره ويرده خائباً خاسئاً ، روى الامام أحمد تميمة سمع أحد الصحابة يحدث أنه كان رديف رسول الله ﷺ قال : عثر بالنبي ﷺ حماره ، فقلت تعس الشيطان ، فقال النبي ﷺ : « لا تقل تعس الشيطان فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم ، وقال : بقوتي صرعته ، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب » قال ابن كثير في (البداية ٦٥/١) تفرد به أحمد وإسناده جيد[1] .

خامسا ـ لزوم جماعة المسلمين :

ومما يبعد المسلم عن الوقوع في أحابيل الشيطان أن يعيش في ديار الاسلام ويختار لنفسه الفئة الصالحة التي تعينه على الحق وتحضه عليه ، وتنهاه عن السيئات ، وتذكره بالخيرات ، فإن في الاتحاد والتجمع قوة وأي قوة ، يقول الرسول ﷺ : « من أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فإن الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح . ورجاله ثقات والحديث

(١) مسند أحمد ٥٩/٥

صحيح وله طرق ،(١) والجماعة جماعة المسلمين ، وامام المسلمين ولا قيمة للجماعة فى الاسلام ما لم تلتزم الحق : الكتاب والسنة ، ففى الحديث : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو ، لا تقام فيهم الصلاة ، الا استحوذ عليهم الشيطان ، فعليكم بالجماعة ، فإنما أكل الذئب من الغنم القاصية » إسناده حسن . رواه أبو داود والنسائى وغيرهما(٢) وروى أبو داود فى سننه من حديث معاوية بن أبى سفيان أنه قام فقال ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال : « ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، ثنتان وسبعون فى النار ، وواحده فى الجنة وهى الجماعة » . رواه أبو داود بإسناد جيد (٣) .

سادسا ـ كشف مخططات الشيطان ومصائده :

على المسلم أن يتعرف على سبله ووسائله فى الإضلال ويكشف ذلك للناس ، وقد فعل ذلك القرآن ، وقام بهذه المهمة الرسول ـ ﷺ ـ خير قيام ، فالقرآن عرفنا الأسلوب الذى أغوى الشيطان به آدم . والرسول ـ ﷺ ـ كان يعرف الصحابة كيف يسترق الشيطان السمع ويلقى بالكلمة التى سمع فى أذن الكاهن أو الساحر ومعها مائة كذبة ، يبين لهم ذلك كى لا ينخدعوا بأمثال هؤلاء وبين لهم كيف يوسوس لهم ويشغلهم فى صلاتهم وعباداتهم ، وكيف يحاول الشيطان أن يوهمهم بأن وضوءهم قد فسد والأمر ليس كذلك ، وكيف يفرق بين المرء وزوجه ، وكيف يوسوس للمرء فيقول له : من خلق كذا من خلق كذا حتى يقول من خلق ربك .

سابعا ـ مخالفة الشيطان :

يأتى الشيطان فى صورة ناصح حريص على الانسان ، فعلى المرء أن يخالف ما يأمر به ، ويقول له : لو كنت ناصحاً أحداً لنصحت نفسك ، فقد أوقعت نفسك فى النار ، وجلبت لها غضب الجبار ، فكيف ينصح غيره من لا ينصح نفسه ، يقول الحارث بن قيس : (إذا أتاك الشيطان وأنت تصلى فقال إنك ترائى فزدها طولا) (تلبيس إبليس ٣٨) وهذا فقه منه رحمه الله وإذا علمنا أن امرأ ما يحبه الشيطان ويتصف به فعلينا أن نخالفه ، فمثلا الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله لذا وجبت علينا مخالفته ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ (ليأكل أحدكم بيمينه ، وليشرب بيمينه ، وليأخذ بيمينه ، فان الشيطان يأكل بشماله ، ويشرب بشماله ، ويعطى بشماله ، ويأخذ بشماله) رواه ابن ماجه باسناد صحيح(٤) (صحيح الجامع ٨٧/٥) .

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب الفتن ـ باب ما جاء فى لزوم الجماعة ٤٦٥/٤ رقم ٢١٦٥

(٢) سنن أبى داود ـ كتاب الصلاة ـ باب التشديد فى ترك الجماعة ٣٧٧/١ رقم ٥٤٧ وسنن النسائى كتاب الصلاة ـ باب التشديد فى ترك الجماعة ١٠٦/٢ .

(٣) سنن أبى داود ـ كتاب السنة ـ باب شرح السنة ٥/٥ رقم ٤٥٩٧

(٤) سنن ابن ماجه ـ كتاب الأطعمة ـ باب الأكل باليمين ١٠٧/٢ رقم ٣٢٦٦

والشيطان يشاركنا فى الشرب إذا شربنا ونحن وقوف ولذا أرشدنا الرسول ﷺ إلى الشرب ونحن جلوس . ورغبنا الرسول - ﷺ - فى القيلولة معللاً ذلك بأن الشياطين لا تقبل (قيلوا فان الشياطين لا تقبل) رواه أبو نعيم فى الطب بإسناد حسن (صحيح الجامع ١٤٧/٤)

وحذرنا القرآن من الاسراف وقد عدّ المبذرين اخوان الشياطين ، وما ذلك الا لأن الشياطين تحب اضاعة المال وانفاقه فى غير وجهه . ومن الاسراف الاكثار من الأثاث والفراش الذى لا لزوم له ، يقول - ﷺ - (فراش للرجل ، وفراش لامرأته ، وفراش للضيف ، والرابع للشيطان) رواه مسلم وأبو داود والنسائى[٢] باسناد صحيح (صحيح الجامع ٨/٤) .

ومن هذا المنطلق أمرنا الرسول - ﷺ - بإن نميط الأذى عن اللقمة التى تسقط من أحدنا ، ولا نتركها للشيطان ، يقول - ﷺ - « إن الشيطان يحضر أحدكم عند كل شيء من شأنه حتى يحضره عند طعامه ، فإذا اسقطت اللقمة فليمط ما كان بها من أذى ، ثم ليأكلها ولا يدعها للشيطان ، فإذا فرغ فليلعق أصابعه ، فإنه لا يدرى فى أى طعامه البركة » رواه مسلم فى صحيحه (صحيح الجامع) ٧٥/٢) .

مراكب الشياطين وبيوت الشياطين :

هذه المراكب الجمال والخيل والحمير فى القديم ، والسيارات وأمثالها فى الحديث جعلت لمنفعة بنى الإنسان ، فإذا كان صاحبها غير شاغل لها كلها ومرَّ على قوم يحتاجون إلى الانتقال إلى المكان المنطلق إليه صاحب المراكب فعليه ان يسمح لهم باستخدامها وإلا كانت مراكب للشياطين ، ففى الحديث « تكون إبل للشياطين وبيوت للشياطين ، فأما إبل الشياطين ، فقد رأيتها يخرج أحدكم بجنيبات معه قد اسمنها فلا يعلو بعيراً منها ، ويمر بأخيه قد انقطع به فلا يحمله ، وأما بيوت الشياطين فلم أرها » رواه أبو داود بإسناد صحيح [٣] .

ولعل بيوت الشياطين المعنية فى الحديث هى هذه السيارات التى يمر أصحابها بأولى الحاجة فلا يركبونهم ، وهذه الخيول والدواب التى يقامر عليها ويراهن عليها تعدّ من مراكب الشياطين ، ويقول الرسول - ﷺ - « الخيل ثلاثة : ففرس للرحمن ، وفرس للشيطان ، وفرس للانسان ، فأما فرس الرحمن . فالذى يربط فى سبيل الله ، فعلفه وروثه وبوله فى ميزانه ، وأما فرس الشيطان فالذى يقامر أو يراهن عليه ، وأما فرس الانسان فالفرس يرتبطها الانسان يلتمس بطنها فهى ستر من الفقر » رواه أحمد بإسناد صحيح[٤] (صحيح الجامع) ١٣٧/٣) .

---

(١) صحيح مسلم - كتاب اللباس والزينة - باب كراهة ما زاد على الحاجة من الفراش واللباس ١٦٥١/٣ رقم ٤١ وسنن أبو داود - كتاب اللباس - باب فى الفرش ٣٧٩/٤ رقم ٢١٤٢ وسنن النسائى - كتاب النكاح - باب الفرش ١٣٥/٦

صحيح مسلم - كتاب الاشربة - باب استحباب لعق الأصابع ١٦٠٧/٣ رقم ١٣٥

(٣) سنن أبى داود - كتاب الجهاد - باب فى الجنائب ٦٠/٣ رقم ٢٥٦٨

(٤) مسند أحمد ٦٩/٤

العجلة من الشيطان :

من الصفات التى يحبها الشيطان العجلة لما توقع الانسان به من أخطاء ، يقول الرسول ـ ﷺ ـ « التأنى من الرحمن والعجلة من الشيطان » رواه البيهقى فى شعب الايمان بإسناد حسن (صحيح الجامع[1] ٥٧/٣) فعلينا أن نخالف الشيطان فى ذلك ونتبع ما يرضى الرحمن ، ولذلك قال الرسول ﷺ لأحد أصحابه « إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة » .

التثاؤب :

ومما يحبه الشيطان من الإنسان التثاؤب ولذا أمرنا الرسول ـ ﷺ : بكظمة ما أستطعنا ، يقول ـ ﷺ ـ : « التثاؤب من الشيطان ، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع ، فإن أحدكم إذا قال : ها ، ضحك منه الشيطان » متفق عليه ، ذلك لأن التثاؤب علامة الكسل ، والشيطان يعجبه ويفرحه من الإنسان كسله وفتوره ، إذ بذلك يقل عمله وبذله الذى يرفعه عند ربه .

ثامنا ـ التوبة والأستغفار :

ومما يواجه به العبد كيد الشيطان أن يسارع بالتوبة والأوبة إلى الله إذا أغواه الشيطان ، وهذا دأب عباد الله الصالحين ، قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ﴾ (سورة الأعراف : ٢٠١) وقد فسر الطائف أو الهم بالذنب أو اصابة الذنب ، وقوله : ﴿ تذكروا ﴾ أى عقاب الله وجزيل ثوابه ، ووعده ووعيده ، فتابوا وأنابوا واستعاذوا بالله ورجعوا إليه من قريب . ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه . وهذا يدل على أن الشيطان يكاد يجعل الانسان فى عماية لا يرى الحق ولا يبصره بما يلقيه عليه من غشاوة وما يغشى به القلب من الشبهات والشكوك . وأخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ أن الشيطان قال لرب العزة « وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم فقال الرب : وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى » رواه أحمد فى مسنده والحاكم فى مستدركه (صحيح الجامع ٧٢/٢) .

هذه حال عباد الله الرجوع من قريب والتوبة والانابة إلى الله ولهم فى ذلك أسوة فى أبيهم آدم ، فإنه لما أكل من الشجرة تلقى من ربه كلمات فتاب عليه توجه آدم وزوجه إلى الله قائلين : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ (سورة الأعراف : ٢٣) أما أولياء الشيطان فقد قال الله فيهم : ﴿ وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾ (سورة الأعراف : ٢٠٢) والمراد

---

(١) البيهقى فى شعب الايمان وأبويعلى الموصلى من حديث أنس ، والترمذى من حديث سهل رقم ٢٠١٢ كتاب البر والصلة .
صحيح مسلم ـ كتاب الايمان ـ باب الأمر بأن الايمان بالله ورسوله وشرائع الدين ٤٨/١ رقم ٢٥
اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٨٨٥

(٢) مسند أحمد ٢٩/٣ والمستدرك للحاكم ـ كتاب التوبة والانابة ٢٦١/٤

بإخوانهم هنا : إخوان الشياطين من الإنس كقوله : ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ (سورة الاسراء : ٢٧) وهم أتباعهم والمستمعون لهم ، القابلون لأوامرهم ، يمدونهم فى الغىّ : أى : بالتزيين والتحسين للذنوب والمعاصى بلا كلل ولا ملل . كقوله : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ (سورة مريم : ٨٣) .

تاسعا ـ أزِل اللبس والغموض الذى يدخل الشيطان منه إلى النفوس :

لا تقف مواقف الشبهة ، وإذا حدث ذلك فوضح للناس حالك حتى لا تدع للشيطان فرصة الوسوسة فى صدور المسلمين ، ولك أسوة فى رسول الله ـ ﷺ ـ فى هذا ، روى البخارى ومسلم فى صحيحيهما عن صفية بنت حيي زوج النبى ـ ﷺ ـ قالت : « كان رسول الله ﷺ معتكفاً فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت لأنقلب ، فقام معى لِيَقلبنى (ليردنى إلى منزلى) وكان مسكنها فى دار أسامة بن زيد ـ فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا رسول الله ـ ﷺ ـ أسرعاً ، فقال رسول الله ﷺ : « على رسلكما إنها صفية بنت حيي » فقالا : سبحان الله يا رسول الله ، قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرًا أو قال شيئا »[1] قال الخطابى : « وفى هذا الحديث من العلم استحباب أن يحذر الانسان من كل أمر من المكروه مما تجرى به الظنون ، ويخطر بالقلوب ، وأن يطلب السلامة من الناس باظهار البراءة من الريب .

ويحكى فى هذا عن الشافعى ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « خاف النبى ـ ﷺ ـ أن يقع فى قلوبهما شىء من أمر فيكفرا ، وإنما قاله ـ ﷺ ـ شفقة منه عليهما لا على نفسه » (تلبيس إبليس : ٤٦) ومما أرشدنا الله إليه القول الحسن مع الآخرين حتى لا يدخل الشيطان بيننا وبين أخواننا فيوقع العداوة والبغضاء ، قال تعالى : ﴿ وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم ﴾ (سورة الاسراء : ٥٣) وهذا أمر تساهل فيه بعض الناس فتراهم يقولون الكلام الموهم والذى يحتمل وجوها عدة بعضها سيء ، وقد يرمى أحدهم أخاه بألفاظ يكرهها ويناديه بألقاب يمقتها فيكون ذلك مدخلاً للشيطان فيفرق بينهم ويحل العداء محل الوفاق والألفة .

علاج الصرع

إن الشيطان قد يصيب الإنسان وهو ما نسميه الصرع أو مس الجن ، وهنا سنحاول أن نبين أسباب الصرع وعلاجه :

أسباب الصرع :

بين ابن تيمية (المجموع ٣٩/١٩) « أن صرع الجن للإنس قد يكون عن شهوة وهوى وعشق كما

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٤٠٤

يتفق للإنس مع الإنس . . ، وقد يكون ـ وهو الأكثر ـ عن بغض ومجازاة مثل أن يؤذيهم بعض الإنس ، أو يظنوا أنهم يتعمدون اذاهم إما ببول على بعضهم ، وإما بصب ماء حار ، وإما بقتل بعضهم ، وإن كان الإنس لا يعرف ذلك ، وفى الجن جهل وظلم فيعاقبونه بأكثر مما يستحقه ، وقد يكون عن عبث منهم وشر يمثل سفهاء الإنس » .

واجبنا تجاه هؤلاء :

إن الجن عباد مأمورون متعبدون بالشريعة ، فإذا استطاع المسلم أن يصل إلى مخاطبتهم ، كما يحدث مع الجن الذى يصرع الانسان وجب القيام بذلك .

فإذا كان صرع الجن للإنس من الباب الأول (عن شهوة وهوى) فهو من الفواحش التى حرمها الله تعالى على الإنس والجن ، ولو كانت برضا الطرف الآخر ، فكيف مع كراهته ، فانه فاحشة وظلم . فيخاطب الجن بذلك ، ويعرفون أن هذا فاحشة محرمة ، أو فاحشة وعدوان لتقوم الحجة عليهم بذلك ، ويعلموا أنه يحكم فيهم بحكم الله ورسوله الذى أرسله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن .

وما كان من الثانى (إيذاء بعض الإنس لهم) فإذا كان الإنس لم يعلم فيخاطبون بأن هذا لم يعلم ، ومن لم يتعمد الأذى لا يستحق العقوبة ، وإن كان قد فعل ذلك فى داره وملكه عرفوا بان الدار ملكه فله أن يتصرف فيها بما يجوز ، وأنتم ليس لكم أن تمكثوا فى ملك الإنس بغير إذنهم ، بل لكم ما ليس من مساكن الإنس كالخراب والفلوات .

ويقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٤٢/١٩) : « والمقصود أن الجن إذا اعتدوا على الإنس أخبروا بحكم الله ورسوله ، وأقيمت عليهم الحجة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، كما يفعل بالإنس ، لأن الله يقول : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ (سورة الاسراء : ١٥) وقال : ﴿ يا معشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ ؟ (سورة الانعام : ١٣٠) .

النهى عن قتل حيات البيوت :

يقول ابن تيمية : « ولهذا نهى النبى ـ ﷺ ـ عن قتل حيات البيوت حتى تؤذن ثلاثا ، وقد ساق ابن تيمية تلك النصوص التى تبين السبب الذى من أجله نهى عن قتل حيات البيوت فقال : (وذلك أن قتل الجن بغير حق لا يجوز ، كما لا يجوز قتل الإنس بلا حق ، والظلم محرم فى كل حال ، فلا يحل لأحد أن يظلم أحداً ولو كان كافراً ، بل قال تعالى : ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ (سورة المائدة : ٨) فإذا كانت حيات البيوت قد تكون جنا فتؤذن ثلاثا ، فإن ذهبت وإلا قتلت فإنها إن كانت حية قتلت ، وان كانت جنية فقد أصرت على العدوان بظهورها للإنس فى صورة حية تفزعهم بذلك ، والعادى هو الصائل الذى يجوز دفعه بما يدفع حذره ولو كان قتلاً ، وأما قتلهم بدون سبب يبيح ذلك فلا يجوز » .

سب الجان وضربهم :

وذكر ابن تيمية أن واجب المؤمن نصرة أخيه المظلوم وهذا المصروع مظلوم ، ولكن النصرة تكون بالعدل كما أمر الله ، فإذا لم يرتدع الجنى بالأمر والنهى والبيان ، فإنه يجوز نهره وسبه وتهديده ولعنه ، كما فعل الرسول - ﷺ - مع الشيطان عندما جاء بشهاب ليرميه فى وجه الرسول - ﷺ - فقال عليه السلام : « أعوذ بالله منك ، ألعنك بلعنة الله - ثلاثا » .

وذكر أنه قد يحتاج فى إبراء المصروع ودفع الجن عنه إلى الضرب ، فيضرب ضرباً كثيراً جداً ، والضرب إنما يقع على الجنى ولا يحسه المصروع ، حتى يفيق المصروع ويخبر أنه لم يحس شيئا من ذلك ، ولا يؤثر فى بدنه ويكون قد ضرب بعصا قوية على رجليه نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ضربة أو أكثر أو أقل ، بحيث لو كان على الإنس لقتله ، وإنما هو على الجنى ، والجنى يصيح ويصرخ ، ويحدث الحاضرين بأمور متعددة ، ويذكر ابن تيمية أنه فعل هذا وجربه مرات كثيرة يطول وصفها .

الاستعانة على الجان بالذكر وقراءة القرآن :

وخير ما يستعان به على الجنى الذى يصرع الإنسان ذكر الله وقراءة القرآن ، ومن أعظم ذلك قراءة آية الكرسى ، « فإن من قرأها لن يزال عليه من الله حافظ ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح » كما صح الحديث بذلك وهو فى صحيح البخارى[1] .

يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ١٩/ ٥٥) : « ومع هذا فقد جرب المجربون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير فى دفع الشياطين وابطال أحوالهم ما لاينضبط من كثرته وقوته ، فإن لها تأثيرا عظيما فى دفع الشياطين عن نفس الإنسان وعن المصروع وعمن تعينه الشياطين ، مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب ، وأرباب سماع المكاء والتصدية ، إذا قرئت عليهم بصدق دفعت الشياطين وبطلت الأمور التى يخيلها الشيطان ، ويبطل ما عند اخوان الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطانى ، إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجهال من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هى من تلبيسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين » .

طرد الرسول - ﷺ - للجن من بدن المصروع :

فعل ذلك الرسول - ﷺ - أكثر من مرة ، ففى مسند أبى داود الطيالسى ومسند الامام أحمد عن أم أبان بنت الوازع بن زارع بن عامر العبدى ، عن أبيها أن جدها الزارع انطلق إلى رسول الله - ﷺ - فانطلق معه بابن له مجنون ، أو ابن أخت له - قال جدى : فلما قدمنا على رسول الله - ﷺ - قلت : ان معى ابناً أو ابن أخت لى - مجنون ، أتيتك به تدعو الله له ، قال : (ائتنى به) قال : فانطلقت به اليه وهو

(١) صحيح البخارى - كتاب بدء الخلق - باب صفة إبليس وجنوده ٤/ ١٤٩

فى الركاب ، فأطلقت عنه ، وألقيت عنه ثياب السفر ، وألبسته ثوبين حسنين ، وأخذت بيده حتى انتهت به إلى النبى - ﷺ - فقال : « أدنه منى ، أجعل ظهره مما يلينى » قال بمجامع ثوبه من أعلاه وأسفله ، فجعل يضرب ظهره حتى رأيت بياض ابطيه ويقول : « اخرج عدو الله ، أخرج عدو الله » فأقبل ينظر نظر الصحيح ليس بنظره الأول . ثم أقعده رسول الله - ﷺ - بين يديه ، فدعا له بماء فمسح وجهه فدعا له . فلم يكن فى الوفد أحد بعد دعوة رسول الله - ﷺ - يفضل عليه[1] وفى المسند أيضا عن يعلى بن مرة قال : رأيت من رسول الله - ﷺ - ثلاثا ما رآها أحد قبلى ، ولا يراها أحد بعدى ، لقد خرجت معه فى سفر حتى إذا كنا ببعض الطريق مررنا بامرأة جالسة معها صبى لها ، فقالت يا رسول الله : هذا الصبى أصابه بلاء وأصابنا منه بلاء ، يؤخذ فى اليوم لا أدرى كم مرة ، قال : « ناولينيه » فرفعته إليه ، فجعله بينه وبين واسطة الرحل ، ثم فغر « فاه » ، فنفث فيه ثلاثا ، وقال : « بسم الله ، أنا عبد الله ، اخسأ عدو الله » ، ثم ناولها إياه ، فقال : « القينا فى الرجعة فى هذا المكان ، فأخبرينا ما فعل » ، قال : فذهبنا ورجعنا فوجدناها فى ذلك المكان معها ثلاث شياه ، فقال : « ما فعل صبيك » فقالت : والذى بعثك بالحق ما حسسنا منه شيئا حتى الساعة فاجترر هذه الغنم ، قال « أنزل خذ منها واحدة ورد البقية »[2] .

فقد أخرج الرسول - ﷺ - الجنى بالأمر والنهر واللعن ، ولكن هذه لا تكفى وحدها ، فإن لقوة الايمان وثبات اليقين وحسن الصلة بالله أثر كبير فى هذا ، يدلك على ذلك الواقعة التالية :

الإمام أحمد يأمر الجنى بالخروج فيستجيب :

روى أن الإمام أحمد كان جالساً فى مسجده ، إذ جاءه صاحب له من قبل الخليفة المتوكل ، فقال : إن فى بيت أمير المؤمنين جارية بها صرع ، وقد أرسلنى اليك لتدعو الله لها بالعافية : فأعطاه الإمام أحمد نعلين من الخشب ، وقال : أذهب إلى دار أمير المؤمنين ، واجلس عند رأس الجارية ، وقل للجنى : قال لك أحمد : أيما أحبُّ اليك : تخرج من هذه الجارية ، أو تصفع بهذا النعل سبعين ؟ فذهب الرجل ومعه النعل إلى الجارية وجلس عند رأسها وقال كما قال له الامام أحمد . فقال المارد على لسان الجارية : السمع والطاعة لأحمد ، لو أمرنا أن نخرج من العراق لخرجنا منه ، إنه أطاع الله ، ومن أطاع الله أطاعه كل شىء . ثم خرج من الجارية فهدأت ورزقت أولاداً . فلما مات الإمام ، عاد لها المارد ، فاستدعى لها الأمير صاحباً من أصحاب أحمد ، فحضر ومعه ذلك النعل ، وقال للمارد : أخرج والا ضربتك بهذه النعل . فقال المارد : لا أطيعك ولا أخرج ، أما أحمد بن حنبل فقد أطاع الله فأمرنا بطاعته .

ما ينبغى أن يكون عليه المعالج :

وينبغى للمعالج أن يكون قوى الايمان بالله معتمداً عليه ، واثقاً بتأثير الذكر وقراءة القرآن ، وكلما قوى إيمانه وتوكله قوى تأثيره ، فربما كان أقوى من الجنى فأخرجه . وربما كان الجنى أقوى فلا يخرج ،

(١) أبو داود الطيالسى ومسند أحمد

(٢) مسند أحمد ٤/١٧٠

وربما كان المخرج للجنى ضعيفاً فتقصد الجن ايذاءه ، فعليه بكثرة الدعاء والاستعانة عليهم بالله ، وقراءة القرآن خاصة آية الكرسى .

الرقى والتعاويذ :

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ : (مجموع الفتاوى ٢٤/٢٧٧) « وأما معالجة المصروع بالرقى والتعويذات فهذا على وجهين :

فإن كانت الرقى والتعاويذ مما يعرف معناها ، ومما يجوز فى دين الاسلام أن يتكلم به الرجل ، داعيا الله ، ذاكراً له ، ومخاطباً لخلقه ، ونحو ذلك ، فانه يجوز أن يرقى بها المصروع ، ويعوذ ، فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ « أنه أذن فى الرقى ما لم تكن شركاً » وقال : « من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل »[١] .

وإن كان فى ذلك كلمات محرمة ، مثل أن يكون فيها شرك ، أوكانت مجهولة المعنى ، يحتمل أن يكون فيها كفر ، فليس لأحد أن يرقى بها ولا يعزم ، ولا يقسم ، وان كان الجنى قد ينصرف عن المصروع بها ، فإن ما حرمه الله ورسوله ضرره أكثر من نفعه ، وذكر فى موضوع آخر (مجموع الفتاوى ١٩/٤٦) أن أرباب العزائم الشركية كثيراً ما يعجزون عن دفع الجنى ، وكثيراً ما تسخر منهم الجن إذا طلبوا منهم قتل الجنى الصارع للإنس أوحبسه ، فيخيلوا إليهم أنهم قتلوه أوحبسوه ويكون ذلك تخييلاً وكذباً .

استرضاء الجن :

وبعض الناس يحاولون استرضاء الجن الذى يصرع الانسان بالذبح له ، وهذا من الشرك الذى حرمه الله ورسوله ، وروى أنه نهى عن ذبائح الجن .

وقد يزعم بعض الناس أن هذا من باب التداوى بالحرام ، وهذا خطأ كبير ، فالصواب أن الله لم يجعل الشفاء فى شىء من المحرمات ، وعلى القول بجواز التداوى بالمحرمات كالميتة والخمر ، فلا يجوز أن يستدل بذلك على الذبح للجنى ، لأن التداوى بالمحرمات فيه نزاع لبعض العلماء ، أما التداوى بالشرك والكفر فلا خلاف بين العلماء فى تحريمه ، ولا يجوز التداوى به باتفاق .

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب السلام ـ باب استحباب الرقية من العين ٤/١٧٢٦ رقم ٦١

حقيقة الصراع

فى ختام هذا الفصل أحب أن أثبت فصلا هاماً من كلام ابن القيم صور فيه رحمه الله حقيقة الصراع وطبيعته ، يقول ابن القيم ما ملخصه (الوابل الصيب/٢٧) : « أختار الله الإنسان من بين خلقه فكرمه واصطفاه وجعله محلا للإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والرجاء ، وابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه » ثم يقول ابن القيم ما نصه : « فهو أى الشيطان » يدخل عليه من الأبواب التى هى من نفسه وطبعه فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد : ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح فى قضاء وطرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة ، وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح فى طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا . هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمده بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذى يريد هلاكه ، فأرسل اليه رسوله ، وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر ، أمره الملك بأمر ربه ، وبين له ما فى طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة ، وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله - عز وجل - والمحفوظ من حفظه الله - تعالى - وجعل له مقابل نفسه الأمّارة نفساً مطمئناً ، إذا أمرته النفس الامارة بالسوء ، نهته النفس المطمئنة ، وإذا نهته الامارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة . فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منها ، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهراً لا تقوم وجه إبداً .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نوراً وبصيرة ، وعقلاً يرده عن الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر ، فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية ، وقطاع الطريق ان سرت خلف هذا الدليل . فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه ، ويمشى خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، وتسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين أتيت ، والعجب أنه يعلم من أين أتى ، ويعرف الطريق التى قطعت عليه ، وأخذ فيها ، ويأبى إلا سلوكها ، لأن دليله تمكن منه ، وتحكم فيه ، وقوى عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له ، وزجره إذا دعاه ، ومحاربته إذا أراد أخذه ، يتمكن منه ، ولكن هو مكنه من نفسه ، وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده فى يد عدوه ، فيباشره ثم يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة ، ثم يطلب الخلاص ، فيعجز عنه ، فلما أن بلى العبد بما بلى به ، أعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأى حصن شئت منها ، ورابط إلى الموت ، فالأمر قريب ، ومدة المرابطة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم ، وقد أرسل اليك رسله ، فنقلوك إلى داره ، واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدو ، وأطلقت فى دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك فى أصعب الحبوس وأنت تراه .

فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه ، وأيسر من الروح والفرج ، وأنت فيما اشتهت نفسك ، وقرَّت عينك ، جزاء على صبرك فى تلك المدة اليسيرة ، ولزومك الثغر للرباط ، وما كانت إلا ساعة ثم انقضت ، وكأن الشدة لم تكن . فان ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه ، فليتدبر قوله ـ عز وجل ـ ﴿ **كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار** ﴾ (سورة الأحقاف : ٣٥) وقوله عز وجل : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها** ﴾ (سورة النازعات : ٤٦) وقوله عز وجل : ﴿ **قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين ؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون** ﴾ (سورة المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٤) وقوله تعالى : ﴿ **يوم ينفخ فى الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرقاً ، يتخافتون بينهم إن لبثتم الا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون ، إذ يقول أمثلهم طريقة أن لبثتم إلا يوما** ﴾ (سورة طه : ١٠٢ ـ ١٠٤) وخطب النبى ـ ﷺ ـ أصحابه يوماً ، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال ، وذلك عند الغروب قال : (إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه) رواه أحمد فى المسند ، والترمذى فى سننه وقال الترمذى حديث حسن صحيح[1] فليتأمل العاقل للناصح لنفسه هذا الحديث ، وليعلم أى شى حصل له من هذا ، الوقت الذى قد بقى من الدنيا بأسرها ، ليعلم أنه فى غرور وأضغاث أحلام ، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوى شيئا ، ولو طلب الله ـ تعالى ـ والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موفوراً وأكمل منه ، كما فى بعض الآثار : ابن آدم ، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً ، ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً .

وقال بعض السلف : ابن آدم ، أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة ، وكنت من نصيب الدنيا على خطر ، وان بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته أنتظاماً .

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ يقول فى خطبته : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى . وإن لكم معاداً يجمعكم الله ـ عز وجل ـ فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، فخاب وشقى عبد أخرجه الله ـ عز وجل ـ من رحمته التى وسعت كل شيء ، وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله ـ تعالى ـ واتقى ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباق ، وشقاوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيِّعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولاممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ؟

والمقصود أن الله ـ عز وجل ـ قد أمد العبد فى هذه المدة اليسيرة بالجنود ، والعدد ، والامداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يَفْتَكُّ نفسه إذا أسر . وقد روى الامام أحمد ـ رضى الله عنه ـ والترمذى من حديث الحارس الأشعرى عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمر يحيى

---

(١) مسند أحمد ١٣٣/٢ وسنن الترمذى ـ كتاب الفتن ٤٨٣/٤ رقم ٢١٩١

بن زكريا - ﷺ - بخمس كلمات : أن يعمل بها ، ويأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، وأنه كاد أن يبطىء بها ، فقال له عيسى - عليه السلام/ - أن الله - تعالى - أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بني اسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي وأعذب ، فجمع يحيى الناس في بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، وقعدوا على الشرف ، فقال : إن الله - تبارك وتعالى - أمرني بخمس كلمات أن أعملهن ، وآمركم أن تعملوا بهن .

وخامس هذه الخمسة التي أمرهم بها الذكر (وآمركم أن تذكروا الله - تعالى - فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله - تعالى -) قال الترمذي هذا حديث حسن صحيح [1] ومما أمرهم به في الحديث الصلاة : (وآمركم بالصلاة ، فإذا صليتم ، فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت » الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان : أحدهما : التفات القلب عن الله - عز وجل - إلى غير الله - تعالى - والثاني : التفات البصر . وكلاهما منهي عنه . ولا يزال الله مقبلا على عبده مادام العبد مقبلا على صلاته ، فاذا التفت بقلبه أو بصره ، أعرض الله - تعالى - عنه . وقد سئل رسول الله - ﷺ - عن التفات الرجل في صلاته فقال : « اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . وفي أثره : يقول الله - تعالى - : « إلى خير مني ، إلى خير مني » ؟ ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه ، مثل رجل قد استدعاه السلطان ، فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه ، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالا ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ، لأن قلبه ليس حاضراً معه ، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه ؟ فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلت عنقه له ، واستحى من ربه تعالى أن يقبل على غيره ، أو يلتفت عنه وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية : إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة ، وان ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله - عز وجل - ، والآخر ساه غافل . فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله ، وبينه وبينه حجاب ، لم يكن إقبالا ولا تقريباً ، فما الظن بالخالق عز وجل ؟

وإذا أقبل على الخالق - عز وجل - ، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس ، والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها ، فكيف يكون ذلك اقبالا وقد ألهته الوساوس والأفكار ، وذهبت به كل مذهب ؟ والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه ، فإنه قد قام في أعظم مقام ، وأقربه وأغيظه للشيطان ، وأشده عليه ، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه ، بل لا يزال به يعده ويمّنيه وينسيه ، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة ، فيتهاون بها ويتركها . فإن عجز عن ذلك منه ، وعصاه العبد ، وقام في ذلك المقام ، أقبل عدو الله - تعالى - حتى يخطر بينه وبين نفسه ، ويحول بينه وبين قلبه ،

---

(١) مسند أحمد ١٣٠/٤ وسنن الترمذي - كتاب الأمثال - باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ١٤٨/٥ رقم ٢٨٦٣ وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب .

فيذكره فى الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها ، حتى ربما كان قد نسى الشىء والحاجة ، وأيس منها ، فيذكرها إياها فى الصلاة ليشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله - عز وجل - فيقوم بها بلا قلب ، فلا ينال من إقبال الله ، - تعالى - وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه - عز وجل - الحاضر بقلبه فى صلاته ، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه ، وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة ، فإن الصلاة إنما تكفرْ سيئات من أدى حقها ، وأكمل خشوعها ، ووقف بين يدى الله - تعالى - بقلبه وقالبه . فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه ، وأحس بأثقال قد وضعت عنه . فوجد نشاطاً وراحة وروحاً ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها ، لأنها قرة عينيه ، ونعيم روحه ، وجنة قلبه ، ومستراحة فى الدنيا ، فلا يزال كأنه فى سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها ، لا منها ، فالمحبون يقولون : نصلى فنستريح بصلاتنا ، كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم : « يا بلال أرحنا بالصلاة » ولم يقل : أرحنا منها ، وقال - ﷺ - « جعلت قرة عينى فى الصلاة » فمن جعلت قرة عينه فى الصلاة ، كيف تقر عينه - ﷺ - بدونها ، وكيف يطيق الصبر عنها ؟

وقد روى أن العبد إذا قام يصلى قال الله - عز وجل - : ارفعوا الحجب ، فإذا التفت قال : أرخوها ، وقد فسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله - عز وجل - إلى غيره ، فإذا التفت إلى غيره ، أرخى الحجاب بينه وبين العبد ، فدخل الشيطان وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها فى صورة المرآة ، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله - تعالى - وبين ذلك القلب ، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فر إلى الله - تعالى - وأحضر قلبه فر الشيطان ، فإن التفت حضر الشيطان ، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه فى الصلاة .

كيف يجعل المصلى قلبه حاضراً فى الصلاة ؟

وإنما يقوى العبد على حضوره فى الصلاة واشتغاله فيها بربه - عز وجل - إذا قهر شهوته وهواه ، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة ، وأسره الهوى ، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه ، كيف يخلص من الوساوس والأفكار ؟ والقلوب ثلاثة :

قلب خال من الايمان وجميع الخير ، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من القاء الوساوس إليه ، لأنه قد أتخذه بيتا ووطنا ، وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن .

القلب الثانى : قلب قد استنار بنور الايمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية ، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ، فالحرب دول وسجال . وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة ، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر ، ومنهم من هو تارة وتارة .

القلب الثالث : قلب محشو بالايمان قد استنار بنور الايمان ، وانقشعت عنه حجب الشهوات ، وأقلعت عنه تلك الظلمات ، فلنوره فى صدره إشراق ، ولذلك الاشراق ايقاد لو دنا منه الوسواس احترق به ، فهو كالسماء التى حرست بالنجوم ، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن ، وحراسة الله - تعالى - له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبد الملائكة ، ومستقر

الوحى ، وفيها أنوار الطاعات ، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والايمان ، وفيه أنوارها ، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو ، فلا ينال منه شيئا الا خطفه ، وقد مثل ذلك بمثال حسن .

وهو ثلاثة بيوت :

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره .

وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره ، وليس جواهر الملك وذخائره .

وبيت خال صفر لا شىء فيه ، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت ، فمن أيها يسرق ؟

فإن قلت : من البيت الخالى ، كان محالا ، لأن البيت الخالى ليس فيه شىء يسرق ، ولهذا قيل لابن عباس - رضى الله عنه - ان اليهود تزعم أنها لا توسوس فى صلاتها ، فقال : وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟

وان قلت يسرق من بيت الملك ، كان ذلك كالمستحيل الممتنع ، فإن عليه من الحرس واليزك « يزك ويسك (بالتركية) : بمعنى المنع والخطر والزجر » مالا يستطيع اللص الدنو منه ، كيف وحارسه الملك بنفسه ، وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث فهو الذى يشن عليه الغارات . فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل ، ولينزله على القلوب ، فإنها على منواله .

فقلب خلاصة الخير كله ، وهو قلب الكافر والمنافق ، فذلك بيت الشيطان ، قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذه سكناً ومستقرا ، فأى شىء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه .

وقلب قد امتلأ من جلال الله - عز وجل - وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه ، فأى شيطان يجترىء على هذا القلب ؟ وإن أراد سرقة شىء منه ، فماذا يسرق ، وغايته أن يظفر فى الأحايين منه بخطفه ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لابد منها ، إذ هو بشر ، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع .

وقد ذكر عن وهب بن منبه - رحمه الله تعالى - أنه قال : فى بعض الكتب الإلهية : « لست أسكن البيوت ، ولا تسعنى ، وأى شىء يسعنى والسموات حشو كرسىَّ ؟ ولكن أنا فى قلب الوارع التارك لكل شىء سواى » وهذا معنى الأثر الآخر « ما وسعتنى سمواتى ولا أرضى ، ووسعنى قلب عبدى المؤمن » وقلب فيه توحيد - الله تعالى - ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعده ، وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعى الهوى والطبع .

وقلب بين هذين الداعيين فمرة يميل بقلبه داعى الإيمان والمعرفة والمحبة لله - تعالى - وإرادته وحده ، ومرة يميل بقلبه داعى الشيطان والهوى والطباع ، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع ، وله منه منازلات ووقائع ، ويعطى الله النصر من يشاء « وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » (سورة آل عمران/ ١٢٦) وهذا لا يتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه ، فيدخل إليه الشيطان ، فيجد

سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به ، فإن أسلحته هى الشهوات والشبهات والخيالات والأمانى الكاذبة ، وهى فى القلب ، فيدخل الشيطان فيجدها عتيدة فيأخذها ويصول بها على القلب فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها ، انتصف من الشيطان ، وإلا فالدولة لعدوه عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، فإذا أذن العبد لعدوه ، وفتح باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به فهو الملوم

فنفسك لُمْ ولا تَلُم المطايا ومُت كمدا فليس لك اعتذارُ

الحكمة من خلق الشيطان

الشيطان منبع الشرور والآلام ، فهو القائد إلى الهلاك الدنيوى والأخروى ، ورافع الراية فى كل وقت ومكان ، يدعو الناس إلى الكفران ، ومعصية الرحمن فهل فى خلقه من حكمة ؟ وما هذه الحكمة ؟

أجاب عن هذا السؤال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ فى كتابه (شفاء العليل ص ٣٢٢) فقال : (فى خلق إبليس وجنوده من الحكم ما لا يحيط بتفصيله إلا الله)

١ ـ ما يترتب على مجاهدة الشيطان وأعوانه من إكمال مراتب العبودية :

فمنها أن يكمل لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة عدو الله وحزبه ومخالفته ومراغمته فى الله ، وإغاظته وإغاظة أوليائه ، والاستعاذة به منه ، واللجوء إليه أن يعيذهم من شره وكيده ، فيترتب على ذلك من المصالح الدنيوية والأخروية ما لم يحصل بدونه ... والموقوف على الشىء لا يحصل بدونه

٢ ـ خوف العباد من الذنوب :

ومنها خوف الملائكة والمؤمنين من ذنبهم بعدما شاهدوا من حال إبليس ما شاهدوه ، وسقوطه من المرتبة الملكية إلى المنزلة الإبليسية يكون أقوى وأتم ، ولا ريب أن الملائكة لما شاهدوا ذلك حصلت لهم عبودية أخرى للرب تعالى ، وخضوع آخر ، وخوف آخر ، كما هو حال عبيد الملك إذا رأوه قد أهان أحدهم الإهانة التى بلغت منه كل مبلغ ، وهم يشاهدونه فلا ريب أن خوفهم وحذرهم يكون أشد .

٣ ـ جعله الله عبرة لمن اعتبر :

ومنها أن الله جعله عبرة لمن خالف أمره ، وتكَّبر عن طاعته ، وأصر على معصيته ، كما جعل ذنب أبى البشر عبرة لمن ارتكب نهيه ، أو عصى أمره ، ثم تاب وندم ، ورجع إلى ربه ، فابتلى أبوى الجن والإنس بالذنب ، وجعل هذا الأب عبرة لمن أصر واقام على ذنبه ، وهذا الأب عبرة إن تاب ورجع إلى ربِّه فلله كم فى ضمن ذلك من الحكم الباهرة ، والآيات الظاهرة .

٤ ـ جعله فتنة واختباراً لعباده :

ومنها أنه محك امتحن الله به خلقه ، ليتبين به خبيثهم من طيبهم ، فإنه سبحانه خلق النوع الإنسانى من الأرض ، وفيها السهل والحزن ، والطيب والخبيث ، فلابد أن يظهر ما كان فى مادتهم ، كما فى الحديث الذى رواه الترمذى مرفوعاً : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على مثل ذلك ، منهم الطيب والخبيث والسهل والحزن وغير ذلك[1] ، فما كان فى المادة الأصلية فهو كائن فى

(١) سنن الترمذى ـ كتاب تفسير القرآن ـ باب من سورة البقرة ٥/٢٠٤ رقم ٢٩٥٥

المخلوق منها ، فاقتضت الحكمة الإلهية إخراجه وظهوره ، فلابد إذاً من سبب يظهر ذلك ، وكان إبليس محكاً يميز به الطيب من الخبيث كما جعل أنبياءه ورسله محكاً لذلك التمييز ، قال تعالى : ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ (سورة آل عمران/ ١٧٩) فأرسل رسله إلى المكلفين ، وفيهم الطيب والخبيث ، فإنضاف الطيب إلى الطيب ، والخبيث إلى الخبيث واقتضت حكمته البالغة أن خلطهم فى دار الامتحان ، فإذا صاروا إلى دار القرار يميز بينهم ، وجعل لهؤلاء داراً ولهؤلاء داراً على حدة حكمة بالغة وقدرة باهرة .

٥ - إظهار كمال قدرته سبحانه بخلق الأضداد :

ومن هذه الحكم أن يظهر كمال قدرته فى خلق مثل جبريل والملائكة وإبليس والشياطين ، وذلك من أعظم آيات قدرته ومشيئته وسلطانه فإنه خالق الأضداد كالسماء والأرض ، والضياء والظلام ، والجنة والنار ، والماء والنار ، والحر والبرد ، والطيب والخبيث .

٦ - الضد يظهر حسنه الضد :

ومن هذه الحكم أن خلق أحد الضدين من كمال حسن ضده ، فإن الضد إنما يظهر حسنه بضده ، فلولا القبيح لم تعرف فضيلة الجميل ، ولولا الفقر لم يعرف قدر الغنى .

٧ - والابتلاء به سبيل إلى تحقيق الشكر :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه ، يحب أن يشكر بحقيقة الشكر وأنواعه ولا ريب أن أولياءه نالوا بوجود عدو الله إبليس وجنوده ، وامتحانهم به من أنواع شكره مالم يكن ليحصل لهم بدونه ، فكم بين شكر آدم وهو فى الجنة قبل أن يخرج منها وبين شكره بعد أن ابتلى بعدوه ، ثم اجتباه ربه وتاب عليه وقبله .

٨ - فى خلق إبليس قيام سوق العبودية :

ومنها أن المحبة والإنابة والتوكل والصبر والرضا ونحوها - أحب العبودية إلى الله سبحانه ، وهذه العبودية إنما تتحقق بالجهاد وبذل النفس لله ، وتقديم محبته على كل ما سواه ، فالجهاد ذروة سنام العبودية ، وأحبها إلى الرب سبحانه ، فكان فى خلق إبليس وحزبه قيام سوق هذه العبودية وتوابعها التى لا يحصى حكمها وفوائدها وما فيها من المصالح إلا الله .

٩ - وترتب على ذلك ظهور آياته وعجائب قدرته :

ومن هذه الحكم أن فى خلق من يضاد رسله ويكذبهم ويعاديهم من تمام ظهور آياته وعجائب قدرته ولطائف صنعه ما وجود أحب إليه وأنفع لأوليائه من عدمه كظهور آية الطوفان ، والعصا ، واليد ، وفلق البحر ، وإلقاء الخليل فى النار ، وأضعاف أضعاف ذلك من آياته ، وبراهين قدرته ، وعلمه ، وحكمته ، فلم يكن بُدٌّ من وجود الأسباب التى يترتب عليها ذلك .

١٠ - الخلق من النار آية :

ومن هذه الحكم أن المادة النارية فيها الإحراق والعلو والفساد ، وفيها الإشراق والإضاءة والنور ،

فأخرج منها ـ سبحانه ـ هذا وهذا ، كما أن المادة الترابية الأرضية فيها الطيب والخبيث ، والسهل والحزن ، والأحمر والأسود والأبيض ، فأخرج منها ذلك كله حكمة باهرة وقدرة قاهرة ، وآية داله على أنه ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1]

١١ ـ ظهور متعلقات أسمائه :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الخافض الرافع المعز المذل الحكم العدل المنتقم ، وهذه الأسماء تستدعى متعلقات يظهر فيها أحكامها ، كأسماء الإحسان والرزق والرحمة ونحوها ، ولابد من ظهور متعلقات هذه وهذه .

١٢ ـ ظهور آثار تمام ملكه وعموم تصرفه :

ومن هذه الحكم أنه سبحانه الملك التام الملك ، ومن تمام ملكه عموم تصرفه وتنوعه بالثواب والعقاب والإكرام والإهانة والعدل والفضل والإعزاز والإذلال ، فلابد من وجود من يتعلق به أحد النوعين كما أوجد من يتعلق به النوع الآخر .

١٣ ـ وجود إبليس من تمام حكمته تعالى :

ومن هذه الحكم أن من أسمائه الحكيم ، والحكمة من صفاته ـ سبحانه ـ وحكمته تستلزم وضع كل شيء موضعه الذى لا يليق به سواه ، فاقتضت خلق المتضادات ، وتخصيص كل واحد منها بما لا يليق به غيره من الأحكام والصفات والخصائص ، وهل تتم الحكمة إلا بذلك فوجود هذا النوع من تمام الحكمة كما أنه من كمال القدرة .

١٤ ـ حمده تعالى على منعه وخفضه :

ومنها أن حمده ـ سبحانه ـ تام كامل من جميع الوجوه ، فهو محمود على عدله ومنعه وخفضه ورفعه وانتقامه وإهانته ، كما هو محمود على فضله وعطائه ورفعه وإكرامه ، فله الحمد التام الكامل على هذا وهذا ، وهو يحمد نفسه على ذلك كله ، ويحمده عليه ملائكته ورسله وأولياؤه ، ويحمده عليه أهل الموقف جميعهم ، وما كان من لوازم كمال حمده وتمامه ، فله فى خلقه وإيجاده الحكمة التامة ، كما له عليه الحمد التام ، فلا يجوز تعطيل حمده كما لا يجوز تعطيل حكمته .

١٥ ـ وبخلقه يظهر الله لعباده حلمه وصبره .

ومنها أنه ـ سبحانه ـ يجب أن يظهر لعباده حلمه ، وصبره ، وآفاته ، وسعة رحمته ، وجوده ، فاقتضى ذلك خلق من يشرك به ، ويضاده فى حكمه ، ويجتهد فى مخالفته ، ويسعى فى مساخطه ، بل يشبهه الله ـ سبحانه وتعالى ـ وهو مع ذلك يسوق إليه أنواع الطيبات ، ويرزقه ويعافيه ، ويمكن له من أسباب ما يلتزمه من أصناف النعم ، ويحبب دعاءه ، ويكشف عنه السوء ، ويعامله من بره وإحسانه بضد ما يعامله هو به من كفر وشركه وإساءته فلله كم فى ذلك من حكمة وحمد .

ويتحبب إلى أوليائه ويتعرف بأنواع كمالاته ، كما فى الصحيح عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : لا أحد أصبر

على أذى يسمعه من الله ، يجعلون له الولد وهو يرزقهم[١] وفى الصحيح عنه - ﷺ - فيما يروى عن ربه : (شتمنى ابن آدم ، وما ينبغى له ذلك ، وكذبنى ابن آدم ، وما ينبغى له ذلك ، أمَّا كذبه إياى ، فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوًا أحد ، وأما تكذيبه إياى ، فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس بأول الخلق باهون عليه من إعادته[٢] ، وهو سبحانه مع هذا الشتم له والتكذيب له يرزق الشاتم المكذب ، ويعافيه ، ويدفع عنه ، ويدعوه إلى جنته ، ويقبل توبته إذا تاب إليه ، ويبدله بسيئاته حسنات ، ويلطف به فى جميع الأحوال ، ويؤهله لارسال رسله ، ويأمرهم أن يلينوا له القول ، ويرفقوا به ، قال الفضيل بن عياض : (ما من ليلة يختلط ظلامها إلا نادى الجليل - جل جلاله - من أعظم منى جوداً ، الخلائق لى عاصون ، وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم ، كأنهم لم يعصونى ، وأتولى حفظهم ، كأنهم لم يذنبوا ، أجود بالفضل على العاصى ، وأتفضل على المسىء .

من ذا الذى دعانى فلم ألبه ؟ ومن ذا الذى سألنى فلم أعطه ؟ أنا الجواد ، ومنى الجود ، أنا الكريم ومنى الكرم ، ومن كرمى أنى أعطى العبد ما سألنى ، وأعطيه مالم يسألنى ، ومن كرمى انى اعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين عنى يهرب الخلق ، وأين عن بابى يتنحى العاصون ؟

وفى أثر إلهى : « إنى والأنس والجن فى نبأ عظيم : اخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى »[٣]

وفى أثر حسن : ابن آدم ما أنصفتنى : خيرى إليك نازل ، وشرُّك إلى صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم ، وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلى بالمعاصى وأنت فقير إلى ، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلى منك بعمل قبيح) وفى الحديث الصحيح (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم)[٤]

خلق الله خلقه بحيث يظهر فيهم أحكام أسمائه وصفاته وآثارها :

فالله سبحانه لكمال محبته لأسمائه وصفاته اقتضى حمده وحكمته أن يخلق خلقاً يظهر فيهم أحكامها وآثارها ، فالمحبة للعفو خلق من يحسن العفو عنه ، ولمحبته للمغفرة خلق من يغفر له ويحلم عنه ويصبر عليه ولا يعاجله ، بل يكون يحب أمانه وامهاله ، ولمحبته لعدله وحكمته خلق من يظهر فيهم عدله وحكمته .

ولمحبته للجوء والإحسان والبر خلق من يعامله بالإساءة والعصيان ، وهو سبحانه يعامله بالمغفرة والإحسان فلولا خلق من يجرى على أيديهم أنواع المعاصى والمخالفات لفاتت هذه الحكم والمصالح وأضعافها وأضعاف أضعافها ، فتبارك الله رب العالمين وأحكم الحاكمين ، ذو الحكمة البالغة والنعم

---

(١) سورة الشورى آية : ١١

(٢) صحيح مسلم - كتاب صفات المنافقين وأحكامهم - باب لا أحد أصبر على أذى من الله ٢١٦٠/٤ رقم ٤٩

(٣) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب تفسير سورة الإخلاص

(٤) الديلمى فى مسند الفردوس ١٦٦/٣ رقم ٤٤٣٩ والترمذى فى نوادر الأصول

(٥) صحيح مسلم - كتاب التوبة - باب سقوط الذنوب والاستغفار توبة ٢١٠٦/٤ رقم ١١

السابقة الذى وصلت حكمته إلى حيث وصلت قدرته ، ولى فى كل شىء حكمة باهرة كما أن له فيه قدرة قاهرة وهدايات .

وبعد : فقد ترتب على خلق هذا اللعين حكم كثيرة وحصلت محبوبات لله وافرة :

فكم حصل بسبب هذا المخلوق البغيض للرب المسخوط له من محبوب له تبارك وتعالى ، يتصل فى حبه ما حصل به من مكروه ، والحكيم الباهر الحكمة ـ هو الذى يحصل أحب الأمرين إليه باحتمال المكروه الذى يبغضه ويسخطه إذا كان طريقا إلى حصول ذلك المحبوب . ووجود الملزوم بدون لازمة محال ، فإن يكن قد حصل بعدو الله إبليس من الشرور والمعاصى ما حصل فكم حصل بسبب وجوده ، ووجود جنوده من طاعة هى أحب إلى الله وأرضى له من جهاد فى سبيله ، ومخالفة هوى النفس وشهوتها له ، ويحتمل المشاق والمكاره فى محبته ومرضاته ، وأحبُّ شىء للحبيب أن يرى محبه يتحمل لأجله من الأذى والوصب ما يصدق محبته .

من أجلك قد جعلت خدى أرضاً للشامت والحسود حتى ترضى

ومن أثر إلهى (بغيتى ما يتحمل المتحملون من أجلى) فلله ما أحب إليه احتمال محبيه أذى أعدائه لهم فيه ، وفى مرضاته ، وما أنفع ذلك الأذى لهم وما أحمدهم لعاقبته ، وماذا ينالون به من كرامة حبيبهم وقربه قرة عيونهم به ، ولكن حرام على منكرى محبة الرب تعالى أن يشموا لذلك رائحة أو يدخلوا من هذا الباب أو يذوقوا من هذا الشراب

قل للعيون العمى للشمس أعين سواك يراها فى مغيب ومطلع
وسامح بؤساً لم يؤهل لحبهم فما يحسن التخصيص فى كل موضع

فإن إ أغضب هذا المخلوق ربه فقد أرضاه فيه أنبياؤه ورسله وأولياؤه وذلك الرضا أعظم من ذلك الغضب ، وإن أسخطه ما يجرى على يديه من المعاصى والمخالفات فإنه سبحانه أشد فرحاً بتوبة عبده من الفاقد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه إذا وجدها فى المفاوت المهلكات ، وإن أغضبه ما جرى على أنبيائه ورسله من هذا العدو اللعين فقد سرّه وأرضاه ما جرى على أيديهم من حربه ومعصيته ومراغمته وكبته وغيظه وهذا الرضاء أعظم عنده وأبرّ لديه من فوات ذلك المكروه المستلزم لفوات هذا المرضى المحبوب . وإن أسخطه أكل آدم من الشجرة فقد أرضاه توبته وإنابته وخضوعه وتذلله بين يديه وانكساره له .

وإن أغضبه إخراج أعدائه لرسوله ـ ﷺ ـ من حرمه وبلدته ذلك الخروج ، فقد أرضاه أعظم الرضا دخوله اليها ذلك الدخول .

وإن أسخطه قتلهم أولياءه وأحبابه وتمزيق لحومهم وإراقة دمائهم فقد أرضاه نيلهم الحياة التى لا أطيب منها ولا أنعم ولا ألذ فى قربه وجواره .

وإن أسخطه معاصى عباده فقد أرضاه شهود ملائكته وأنبيائه ورسله وأوليائه سعة مغفرته وعفوه وبرّه وكرمه وجوده والثناء عليه بذلك وحمده وتمجيده بهذه الأوصاف التى حمده بها وأثنى عليه بها أحب إليه وأرضى له من فوات تلك المعاصى وفوات هذه المحبوبات .

واعلم أن الحمد هو الأصل الجامع لذلك كله ؟ فهو عقد نظام الخلق والأمر ؟ والرب تعالى له الحمد كله بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه ، فما خلق شيئاً ولا حكم بشيء إلا وله فيه الحمد فوصل حمده إلى حيث وصل خلقه وأمره حمداً حقيقياً يتضمن محبته والرضا به وعنه والثناء عليه والإقرار بحكمته البالغة فى كل ما خلقه وأمر به ، فتعطيل حكمته غير تعطيل حمده . . . فكما أنه لا يكون إلا حميداً فلا يكون إلا حكيما ، فحمده وحكمته كعلمه وقدرته ، وحياته من لوازم ذاته ولا يجوز تعطيل شىء من صفاته وأسمائه ومقتضياتها وآثارها ، فإن ذلك يستلزم النقص الذى يناقض كماله وكبريائه وعظمته .

لأنه يحب سبحانه أن يكون ملاذاً ومعاذاً لأوليائه :

وفى هذا يقول ابن القيم : كما أن من صفات الكمال وأفعال الحمد والثناء أنه يجود ويعطى ويمنح ، فمنها أن يعيذ وينصر ويغيث فكما يحب أن يلوذ به اللائذون يحب أن يعوذ به العائذون ، وكمال الملوك أن يلوذ بهم أولياؤهم ويعوذوا بهم كما قال أحمد بن حسين الكندى فى ممدوحه .

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يجبر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ولو قال ذلك فى ربِّه وفاطره لكان أسعد به من مخلوق مثله .

والمقصود أن ملك الملوك يحب أن يلوذ به مماليكه وأن يعوذوا به كما أمر رسوله أن يستعيذ به من الشيطان الرجيم فى غير موضع من كتابه ، وبذلك يظهر تمام نعمته على عبده إذا أعاذه وأجاره من عدوه فلم يكن إعاذته وإجارته منه بأدنى النعمتين والله تعالى يحب أن يكمل نعمته على عباده المؤمنين ويريهم نصره لهم على عدوهم وحمايتهم منه وظفرهم به ، فيالها من نعمة كمل بها سرورهم ونعيمهم ، وعدل أظهره فى أعدائه وخصمائه

وما منها إلا له فيه حكمة يقصر عن إدراكها كل باحث

الحكمة فى بقاء إبليس إلى آخر الدهر :

أجاب ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن ذلك فى (شفاء العليل ص ٣٢٧) ووضحه

امتحان العباد :

فمما ذكره ـ رحمه الله تعالى ـ أنه سبحانه جعله محكاً ومحنة يخرج به الطيب من الخبيث ووليه من عدوه ، ولذا اقتضت حكمته إبقاءه ليحصل الغرض المطلوب بخلقه ولو أماته لفات ذلك الغرض ، كما أن الحكمة اقتضت بقاء أعدائه الكفار فى الأرض إلى آخر الدهر ولو أهلكهم البتة لتعطلت الحكم الكثيرة فى إبقائهم فكما اقتضت حكمته امتحان أبى البشر اقتضت امتحان أولاده من بعده به ، فتحصل السعادة لمن خالفه وعاداه ، وينحاز إليه من وافقه ووالاه .

وأبقاه مجازاة له على صالح عمله السابق :

ومنها أنه كلمه وحكمته أنه لا نصيب له فى الآخرة وقد سبق له طاعة وعباده جزاه بها فى الدنيا بأن أعطاه البقاء فيها إلى آخر الدهر فإنه سبحانه لا يظلم أحداً حسنة عملها ، فأما المؤمن فيجزيه بحسناته فى

الدنيا وفى الآخرة ، وأما الكافر فيجزيه بحسنات ما عمل فى الدنيا فإذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له شىء كما ثبت هذا المعنى فى الصحيح عن النبى - ﷺ - .

أملى له ليزداد إثماً :

وبقاؤه إلى يوم القيامة لم يكن كرامه فى حقه ، فإنه لو مات كان خيراً له وأخف لعذابه وأقل لشرّه ، ولكن لما غلظ ذنبه بالإصرار على المعصية ومخاصمة من ينبغى التسليم لحكمه والقدح فى حكمته والحلف على اقتطاع عباده وصدهم عن عبوديته كانت عقوبة الذنب أعظم عقوبة بحسب تغلظه فأبقى فى الدنيا وأملى له ليزداد هذا إثما على إثم ذلك الذنب فيستوجب العقوبة التى لا تصلح لغيره ، فيكون رأس أهل الشر فى العقوبة كما كان رأسهم فى الشر والكفر . ولما كان مادة كل شر فعنه تنشأ جوزى فى النار مثل فعله ، فكل عذاب ينزل بأهل النار يبدأ فيه ثم يسرى منه إلى أتباعه عدلاً ظاهراً وحكمه بالغة .

أبقاه ليتولى المجرمين :

ومن حكم إبقائه إلى يوم الدين أنه قال فى مخاصمته لربه ﴿ **أرأيتك هذا الذى كرمت علىَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلا** ﴾ (سورة الإسراء/٦٢) وعلم الله - سبحانه - أن فى الذرية من لا يصلح لمساكنته فى داره ، ولا يصلح إلا لما يصلح له الشوك والروث أبقاه له ، وقال له بلسان القدر هؤلاء أصحابك وأولياؤك فاجلس فى انتظارهم وكلما مرَّ بك واحد منهم فشأنك به فلو صلح لى ما ملكتك منه فإنى أتولى الصالحين ، وهم الذين يصلحون لى وأنت ولى المجرمين من الذين غنوا عن موالاتى وابتغاء مرضاتى ، قال تعالى : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾ (سورة النحل/٩٩ - ١٠٠) فأمّا إماتة الأنبياء والمرسلين فلم يكن ذلك لهوانهم عليه ولكن ليصلوا إلى محل كرامته ويستريحوا من نكد الدنيا وتعبها ومقاساة أعدائهم وأتباعهم وليحيى الرسل بعدهم ، يرى رسولا بعد رسول ، فإماتتهم اصلح لهم وللأمة ، أمّا هم فلراحتهم من الدنيا ولحوقهم بالرفيق الأعلى فى أكمل لذة وسرور ولا سيما وقد خيرهم ربهم بين البقاء فى الدنيا واللحاق به ، وأمّا الأمم فيعلم أنهم لم يطيعوهم فى حياتهم خاصة بل أطاعوهم بعد مماتهم كما أطاعوهم فى حياتهم وإن أتباعهم لم يكونوا يعبدونهم بل يعبدون الله بأمرهم ونهيهم ، والله هو الحى الذى لا يموت ، فكم فى إماتتهم من حكمة ومصلحة لهم وللأمة ، . هذا وهم بشر ولم يخلق الله البشر فى الدنيا على خلقه قابلة للدوام بل جعلهم خلائف فى الأرض يخلف بعضهم بعضاً فلو أبقاهم لفاتت المصلحة والحكمة فى جعلهم خلائف ولضاقت بهم الأرض ، فالموت كمال لكل مؤمن ولولا الموت لما طاب العيش فى الدنيا ولا هناء لأهلها بها ، فالحكمة فى الموت كالحكمة فى الحياة .

إلى أى مدى نجح الشيطان فى إهلاك بنى آدم ؟

عندما رفض الشيطان السجود لآدم وطرده الله من رحمته وجنته وغضب عليه ولعنه ، أخذ على نفسه العهد أمام ربِّ العزة بأن يضلنا ويغوينا ، ويعبدنا لنفسه ﴿ **لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ولأضلنهم ولأمنينهم . . .** ﴾ (سورة النساء/ ١١٨ - ١١٩) .

﴿ قال أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا ﴾ (سورة الإسراء/٦٢)

فإلى أى مدى حقق الشيطان مراده من بنى الإنسان ؟

إن المسِّرح نظره فى تاريخ البشرية يهوله ما يرى من ضلال الناس وكيف كذبوا الرسل والكتب وكفروا بالله ربهم وأشركوا به مخلوقاته كما قال تعالى : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ (سورة يوسف/١٠٣) ولذا حق عليهم غضب الله وانتقامه ﴿ ثمَّ أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون ﴾ (سورة المؤمنون/٤٤) وفى الحاضر حيثما نظرنا أبصرنا أولياء الشيطان تعج بهم الحياة ، يرفعون رايته وينادون بمبادئه ، ويعذبون أولياء الله ، ويدلنا على مدى تحقيق الشيطان لمراده أن الله يأمر آدم يوم القيامة أن يخرج من ذريته بعث النار ، فلما يستفسر عن مقدار هذا البعث يقول له : تسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة ، وفى رواية تسعمائة وتسعة وتسعون فى النار وواحد فى الجنة .

وبذلك يصدق ظنه فى هذه الذرية التى لم تعتبر بما جرى لأبيها ، ولا بما جرى لأسلافها ، ويبقى هذا اللعين يقودها إلى هلاكها ، بل أحيانا تسابقه إلى الجحيم ، وما أقبح أن يصدق ظن العدو فى عدوه ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين ﴾ (سورة سبأ/٢٠) قبيح بالإنسان أن يتحقق فيه ظن الشيطان فيطيع هذا العدو ويعصى ربه الرحمن ، ولقد بلغ الأمر حداً لا يوصف ولا يتصور ، فهذه طائفة فى العراق وفى جهات أخرى تطلق على نفسها : عباد الشيطان ، وبعض الكتاب نراهم يحلفون (بحق الشيطان) فما أعجب أمرهم .

لا تفكر بكثرة الهالكين :

حريٌّ بالعاقل اللبيب أن لا يغتر بكثرة الهالكين ، فالكثرة ليس لها اعتبار فى ميزان الله ، إنما الاعتبار بالحق ولو قلَّ عدد متبعيه .

فكن من اتباع الحق الذين رضوا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، الذين عرفوا الشيطان واتباع الشيطان فحاربوهم بالبغض القلبى ، وبالكلمة من اللسان ، وبالكتابة باليد ، وبالعمل بالحق وبمحاربتهم بالحجة والبرهان والسيف والسنان ، وقبل ذلك بالالتجاء إلى الرحمن والتمسك بدينه .

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » (سورة البقرة/٢٠٨ - ٢٠٩) نسأل الله أن يجعلنا بمنه وكرمه من الذين دخلوا فى السلم دخولاً كلياً وصلى وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

التفسير

يقول تعالى آمراً رسوله - ﷺ - أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه وانقادوا له فقال تعالى : ﴿ **قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدى إلى الرشد** ﴾ أى يهدى إلى السداد والنجاح ﴿ **فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا** ﴾ وهذا المقام شبيه لقوله تعالى ﴿ **وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **وأنه تعالى جد ربنا** ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **جد ربنا** ﴾ أى فعله وأمره وقدرته ، وقال الضحاك عن ابن عباس : جد الله آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه ، وروى عن مجاهد وعكرمة : جلال ربنا ، وقال قتاده : تعالى جلاله وعظمته وأمره وقال السدى : تعالى أمر ربنا ، وعن أبى الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج : تعالى ذكره ، وقال سعيد بن جيد : (تعالى جد ربنا) أى : تعالى ربنا ، فأما ما رواه ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن زيد الكوفى حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس قال : الجد أب ولو علمت الجن أن فى الإنس جداً ما قالوا تعالى جد ربنا فهذا إسناد جيد وقوله تعالى : ﴿ **ما اتخذ صاحبة ولا ولداً** ﴾ أى : تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد أى قالت الجن تنزه الرب - جل جلاله - حين أسلموا وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد ثم قالوا : ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا** ﴾ قال مجاهد وعكرمه وقتاده والسدى : ﴿ **سفيهنا** ﴾ يعنون إبليس ﴿ **شططاً** ﴾ قال السدى عن أبى مالك : ﴿ **شططاً** ﴾ أى : جوراً وقال ابن زيد : أى ظلماً كبيرا ويحتمل أن يكون المراد لقولهم سفيهنا اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً ولهذا قالوا : ﴿ **وأنه كان يقول سفيهنا** ﴾ أى قبل إسلامه ﴿ **على الله شططا** ﴾ أى : باطلاً وزورا ولهذا قالوا : ﴿ **وأنا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذبا** ﴾ أى ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالؤ ن على الكذب على الله تعالى فى نسبة الصاحبة والولد إليه فلما سمعنا هذا القرآن وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله فى ذلك وقوله تعالى : ﴿ **وأنه كان رجال من الأنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً** ﴾ أى : كنا نرى أن لنا فضلا على الإنس لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البرارى وغيرها كما كانت عادة العرب فى جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشىء يسوءهم كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه فى جوار رجل كبير وذمامه وخفارته فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً أى خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة واكثر تعوذا بهم كما قال قتاده : ﴿ **فزادوهم رهقاً** ﴾ أى : إثما وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة وقال الثورى عن منصور عن إبراهيم : ﴿ **فزادوهم رهقاً** ﴾ أى : إزدادت الجن عليهم جرأة وقال السدى : كان الرجل يخرج بأهله فيأتى الأرض فينزلها فيقول : أعوذ بسيد هذا الوادى من الجن أن أضر أنا فيه أو مالى أو ولدى أو ماشيتى قال قتاده : فإذا عاذ بهم من دون الله رهقهم الجن الأذى عند ذلك .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد بن يحيى بن سعيد القطان ، حدثنا وهب بن جرير ، حدثنا أبى ، حدثنا الزبير بن حرب عن عكرمه قال : كان الجن يفرقون من الإنس كما يفرق الإنس منهم أو أشد فكان الإنس إذا نزلوا وادياً هرب الجن فيقول سيد القوم نعوذ بسيد أهل هذا الوادى فقال الجن نراهم يفرقون منا كما نفرق منهم فدنوا من الإنس فأصابوهم بالخبل والجنون وذلك قول الله - عز وجل - ﴿ **وأنه كان رجال**

من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ أى إثماً : وقال أبو العالية والربيع وزيد بن أسلم : ﴿ رهقا ﴾ أى خوفاً وقال العوفى عن ابن عباس : ﴿ فزادوهم رهقا ﴾ أى إثماً وكذا قال قتاده : وقال مجاهد : زاد الكفار طغيانا .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا فروة بن المغراء الكندى ، حدثنا القاسم ابن مالك ـ يعنى المزنى ـ عن عبد الرحمن بن اسحاق عن أبيه عن كروم بن أبى السائب الأنصارى ، قال : خرجت مع أبى من المدينة فى حاجة وذلك أول ما ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ بمكة فآوانا المبيت إلى راعى غنم فلما انتصف الليل جاء ذئب فأخذ حملاً من الغنم فوثب الراعى فقال ياعامر الوادى جارك فنادى مناد لا نراه يقول ياسرخان أرسله . فأتى الحمل يشتد حتى دخل فى الغنم لم تصبه كدمه وأنزل الله تعالى على رسوله بمكة : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً ﴾ ثم قال : وروى عن عبيد بن عمير ومجاهد وأبى العالية والحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى نحوه . وقد يكون هذا الذئب الذى أخذ الحمل وهو ولد الشاة كان جنيا حتى يرهب الأنس ويخاف منه ثم رده عليه لما أستجار به ليضله ويهينة ويخرجه عن دينه والله تعالى أعلم . وقوله تعالى : ﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا ﴾ أى : لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً . قال الكلبى وابن جرير .

ويخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ـ ﷺ ـ وأنزل على القرآن وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً وحفظت من سائر أرجائها وطردت الشياطين عن مقاعدها التى كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق وهذا من لطف الله ـ تعالى ـ بخلقه ورحمته بعباده وحفظه لكتابه العزيز ولهذا قال الجن : ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أى : من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصدا له لا يتخطاه ولا يتعداه بل يمحقه ويهلكه ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ أى : ما ندرى هذا الأمر الذى قد حدث فى السماء لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ، وهذا من أدبهم فى العبادة حيث سندوا الشر إلى غير فاعل والخير أضافوه إلى الله ـ عز وجل ـ وقد ورد فى الصحيح « والشر ليس إليك » وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ولكن ليس بكثير بل فى الأحيان بعد الأحيان كما فى حديث العباس بينما نحن جلوس مع رسول الله ـ ﷺ ـ إذ رمى بنجم فاستنار فقال : ما كنتم تقولون فى هذا ؟ فقلنا كنا نقول يولد عظيم يموت فقال « ليس كذلك ولكن الله إذا قضى الأمر فى السماء وذكر تمام الحديث[1] وهذا هو السبب الذى حملهم على تطلب السبب فى ذلك فأخذوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها فوجدوا رسول الله ـ ﷺ ـ يقرأ بأصحابه فى الصلاة فعرفوا أن هذا هو الذى حفظت من أجله السماء فآمن من آمن منهم وتمرد فى طغيانه من بقى . ولا شك أنه لما حدث هذا الأمر وهو كثرة الشهب فى السماء والرمى بها هال ذلك الإنس والجن وانزعجوا وارتاعوا لذلك وظنوا أن ذلك لخراب العالم كما قال السدى لم تكن السماء تحرس إلا أن يكون فى الأرض بنى أودية لله ظاهر فكانت الشياطين قبل محمد ـ ﷺ ـ

(١) مسند أحمد ١/ ٢١٨

قد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر فلما بعث الله محمداً - ﷺ - وقد اتخذت المقاعد فى السماء الدنيا يستمعون ما يحدث فى السماء من أمر فلما بعث الله محمداً - ﷺ - نبياً رسولاً رجموا ليلة من الليالى ففزع لذلك أهل الطائف فقالوا هلك أهل السماء لما رأوا من شدة النار فى السماء واختلاف الشهب فجعلوا يعتقون أرقاءهم ويسيبون مواشيهم فقال لهم عن يالى بن عمرو بن عمير .

ويحكم يامعشر أهل الطائف أمسكوا عن مالكم وانظروا إلى معالم النجوم فإن رأيتموها مستقرة فى أمكنتها فلم يهلك أهل السماء إنما هذا من أجل ابن ابى كبشة يعنى محمداً - ﷺ - وان نظرتم فلم تروها فقد هلك أهل السماء فنظروا فرأوها فكفوا عن أموالهم وفزعت الشياطين فى تلك الليلة فأتوا إبليس فحدثوه بالذى كان من أمرهم فقال أئتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها فأتوه فشم فقال صاحبكم بمكة فبعث سبعة نفر من جن نصيبين فقدموا مكة فوجدوا نبى الله ﷺ قائماً يصلى فى المسجد الحرام يقرأ القرآن فدنوا منه حرصاً على القرآن حتى كادت كلاكلهم تصيبه ثم أسلموا فأنزل الله تعالى أمرهم على رسوله - ﷺ .

ويقول تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم : ﴿ **وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك** ﴾ أى : غير ذلك ﴿ **كنا طرائق قدداً** ﴾ أى : طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : ﴿ **كنا طرائق قدداً** ﴾ أى : منا المؤمن ومنا الكافر وقال أحمد بن سليمان النجار فى أماليه : حدثنا الحسن بن أسلم بن سهل تحل ، حدثنا على بن الحذاء بن سليمان وهو أبو الشعثاء الحضرمى شيخ مسلم حدثنا أبو معاوية قال : سمعت الأعمش يقول تزوج إلينا جنى فقلت له ما أحب الطعام اليكم ؟ فقال الأرز قال فأتيناهم به فجعلت أرى اللقم ترفع ولا أرى أحداً فقلت فيكم من هذه الأهواء التى فينا ؟ قال نعم ، فقلت فما الرافضة فيكم ؟ قال شرنا ، عرضت هذا الإسناد على شيخنا الحافظ أبى الحجاج المزنى فقال هذا إسناد صحيح إلى الأعمش .

وذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة العباس بن أحمد الدمشقى قال سمعت بعض الجن وأنا فى منزل لى بالليل ينشد :

قلوب براها الحب حتى تعلقت مذاهبها فى كل غرب وشارق
تهيم بحب الله والله ربها معلقة بالله دون الخلائق[1]

وقوله تعالى : ﴿ **وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً** ﴾ أى تعلم أن قدرة الله حاكمة علينا وأنا لا نعجزه فى الأرض ولو أمعنا فى الهرب فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا : ﴿ **وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به** ﴾ يفتخرون بذلك وهو فخر لهم وشرف رفيع وصفه حسنه وقولهم : ﴿ **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً** ﴾ قال ابن عباس وقتاده وغيرهما : فلا يخاف أن ينقص من حسناته ،

(١) تهذيب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر ٢٢٤/٧
(٢) انظر تفسير ابن كثير طبعة الشعب ٢٦٩/٨

أي : يحمل غير سيئاته كما قال تعالى : ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضما ﴾ ﴿ وأنا منّا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ أي : منا المسلم ومنا القاسط وهو الجائر عن الحق الناكب عنه بخلاف المقسط فإنه العادل .

﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ أي : طلبوا لأنفسهم النجاة ﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ﴾ أي وقود تسربهم .

توجيهات إلهية للرسول - ﷺ -

وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ
وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا
تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ
لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا
وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾
إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ
نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي
أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن
رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا
رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

معانى المفردات :

على الطريقة : على ملة الإسلام
غدقاً : كثيرا نافعاً
لنفتنهم : لنختبرهم فيه
يسلكه : يدخله
صعدا : يعلو العذب فيه وقيل شاقاً .
المساجد : أماكن السجود والمراد المواضع المعدة للعبادة والصلاة
لبدا : جمع لبدة مأخوذ من تلبد القوم إذا تجمعوا وعلية قولهم لبدة الأسد للشعر المتراكم حول عنقه .
يجيرنى : ينفعنى ويدفع عنى
ملتحداً : أى ملتجأ ألتجىء إليه أوحرزاً ومعدلا .
أمدا : زمناً بعيدا
يسلك : المراد يقيم ويبث
رصداً : حراسا وحفظه

أضواء كاشفة :

قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن وأوحى إلىَّ أن الحال والشأن لو استقام الإنس والجن على ملة الإسلام التى هى الطريقة المحكمة التى فيها خير الدنيا والآخرة أن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء كثيراً ومباركاً فيه **﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾**(١)

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم .. لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾(٢)

لو استقام الخلق لأتتهم الدنيا وكثرت أرزاقهم ثم أتت مرحلة أخرى هى مرحلة الأختبار والابتلاء ليظهر أهم من الشاكرين أم من الذين يكفرون بالنعم ؟ وهذا معنى قوله تعالى : لنفتننهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه ولا يقبل على عبادته فإنه يدخله عذاباً يعلوه فيكون هو فيه ، عذاب والعياذ بالله شديد وبئس هذا المصير .

وأوحى إلىَّ أن المساجد لله وحده لا تعبدوا فيها أحدا من خلقه وانظر إلى نظرية القرآن فى الخلق وإلى علاجه المحكم لأمراض قد تظهر فيها بعد انظر إلى قوله إن المساجد لله فقط ليست لمخلوق مهما كان وإياكم ثم إياكم أن تعبدوا فيها أحداً غير الله .. ياسبحان الله !

وأوحى إلى أنه لما قام عبد الله ورسوله ـ محمد ـ ﷺ ـ يدعو الناس إلى الخير وإلى الهدى والنور ،

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٩٦
(٢) سورة المائدة الآية : ٦٦

لما قام يدعوه كادوا أى الإنس والجن يكونون عليه متراكمين متكتلين ليطفئوا نور الله فأبى الله إلا أن ينصره ويظهر دينه ولوكره المشركون وقد كان ذلك كذلك .

قل لهم : يامحمد : مالكم ؟ وماذا فعلت ؟ إنما أدعو ربى وأعبده وحده ولا أشرك به شيئاً فليس هذا بأمر يضركم أويدعو إلى ما تفعلون :

قل لهم : ما لكم تقفون منى هذا الموقف ؟ إنى لا أملك لكم ضرا ولا نفعاً والذى يملك ذلك هو الله فلم أكن مقصراً فى حقكم فى شىء .

قل لهم : وماذا أعمل لولم أدعكم إلى الخير فعاقبنى الله بالسوء إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن يدفع عنى العذاب أحد ولن أجد من دونه ملتجأ فأنا مكلف ومأمور بهذا العمل من الله ولو تأخرت لعاقبنى فما لكم تفعلون معى هذا ؟

قل لهم : إنى لا أملك لكم شيئاً إلا أن أبلغ بلاغاً جاءنى من الله لكم ، هذا البلاغ هو القرآن الذى يهدى إلى التى هى أقوم إلا بلاغاً من الله ورسالاته التى هى أوامره ونواهيه الدينية فمن سمع البلاغ ووعاه وامتثل جميع الأوامر والنواهى وتقبل الرسالات الإلهية وتدبرها كانت له الجنة خالداً فيها أبدا .

ومن يعص الله ورسوله فى رسالاته وبلاغه فيعرض عن سماعها وتدبرها والعمل بهما فإن له نار جهنم خالداً فيها جزاء وفاقا لتكذيبه وإعراضه وسوء صنيعه .

لا يزال المشركون سادرين فى ضلالهم مغرورين بأنفسهم وبقوتهم يستهزئون بك وبوعيدك وبمن معك حتى يروا العذاب فإذا رأوه فسيعلمون من هو أضعف ناصراً ومن هو أقل عددا ، وسيعلمون : أى الفريقين خير مقاماً وأحسن نديا فاحذروا يا آل مكة هكذا .

وكان المشركون حينما يسمعون هذا التهديد بالعذاب يوم القيامة ينكرونه ويستهزئون به فأمر النبى - ﷺ - أن يقول لهم : قل لهم : ما أدرى وقت هذا العذاب أما نفس العذاب فواقع لا محالة غير أنى لست أدرى أقريب هو أم بعيد؟ قد جعل له ربى زمناً طويلاً .

هو عالم الغيب وحده لا يطلع على غيبه أحداً إلا من إرتضاه من رسول فإنه يطلعه على بعض غيوبه مما يحتاج إليه فى رسالته ويكون من الخير الاضطلاع عليه أما غير ذلك فلا يرقى إلى غيبه مخلوق من إنس أوجن أوملك وكيف يكون ذلك ؟ « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو »

والخلاصة : أن الله عنده علم الغيب ولا يطلع عليه أحداً من خلقه إنسيا كان أوجنياً حكيماً أوكاهناً أوغيرهما إلا من ارتضى من رسله الذين هم أصحاب الشرائع السماوية فإن الله أطلعهم على بعض غيوبه فكانت التوراة والزبور والأنجيل والقرآن وما فيهم . ذلك هو الغيب الذى أطلع الله عليه بعض خلقه بواسطة الوحى به على لسان الأمين جبريل ﴿ **وما هو على الغيب بضنين** ﴾ فالمراد بالغيب القرآن أى ما هو يمتهم عليه حتى يتصور أنه غير أوبدل .

ويريد الله أن يعلمنا أن هذا الغيب وصل إلى الرسول عن طريق محكم جداً وبلغته الرسل بأمانة

ودقة وحكمة لم يكن معه نسيان أو إهمال أو خطأ فى شىء ألا ترى إلى قوله ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ .

فإنه يسلك من بين يدى الرسول ومن خلفه حرساً شداداً يحفظون من الوساوس والاختلاط والذهول والنسيان حتى لا يترك بعض ما أوحى إليه أو يقعد فى تبليغه ﴿ إن علينا جمعه وقرآنه ﴾ وهذا ما يسمى فى عرف علماء التوحيد بالامانة والعصمة ٢٣ ـ ٢٧

كل ذلك ليعلم ربك علم ظهور وانكشاف ـ أى يتحقق هذا فى الخارج ويشاهد الجميع ـ أن قد أبلغوا أن الرسل رسالات ربهم أو ليعلم أن قد أبلغ جبريل زعيم الملائكة رسالات ربهم والحال أن الحق تبارك وتعالى أحاط بما لديهم كله إحاطة العليم الخبير الناقد البصير وأحصى كل شىء من هذا الكون حالة كونه معدوداً مميزاً عن غيره فهل يعقل أن يتطرق إلى الرسل شك فى زيادة أو نقص ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ؟[١]

وانظر إلى ختام السورة بإبراز أن الغيب الإلهى محاط بسور لا يقربه إلا المرتضى المختار من الرسل الكرام أما الجن والكهان ومن يدعى علم الغيب أولئك كذبه فجره لا يعرفون أنفسهم .

التفسير

قوله تعالى ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً لنفتنهم فيه ﴾ اختلف المفسرون فى معنى هذا على قولين « أحدهما » وأن لو استقام الفاسقون على طريقة الإسلام وعدلوا إليها واستمروا عليها ﴿ لأسقيناهم ماء غدقا ﴾ أى كثيرا والمراد بذلك سعة الرزق كقوله تعالى : ﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾[٣] وعلى هذا يكون معنى قوله ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أى : لنختبرهم كما قال مالك عن زيد بن أسلم لنفتنهم لنبتليهم لنعلم من يستمر على الهداية ممن يرتد إلى الغواية .

قال العوفى عن ابن عباس : « وأن لو استقاموا على الطريقة » يعنى بالاستقامة الطاعة وقال مجاهد : « وأن لو استقاموا على الطريقة قال الإسلام وكذا قال سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعطاء والسدى ومحمد بن كعب القرظى : وقال قتاده :ـ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ يقول لو آمنوا كلهم لأوسعنا عليهم من الدنيا .

---

(١) سورة الحجر الآية : ٩
(٢) سورة المائدة الآية : ٦٦
(٣) سورة الأعراف الآية : ٩٦

وقال مجاهد : « وأن لو استقاموا على الطريقة » أى : طريقة الحق وكذا قال الضحاك وكل هؤلاء أو أكثرهم قالوا فى قوله : « لنفتنهم فيه » أى : لنبتليهم به .

وقال مقاتل : نزلت فى كفار قريش حين منعوا المطر سبع سنين ،

والقول الثانى : « وأن لو استقاموا على الطريقة » الضلالة « لأسقيناهم ماء غدقا » أى : لأوسعنا عليهم الرزق استدراجا كما قال تعالى : ﴿ فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾(١) وكقوله : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون ﴾(٢) ؟ وهذا قول أبى مجليز لاحق بن حميد فإنه قال فى قوله تعالى : ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ أى : طريقة الضلالة رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وحكاه البغوى عن الربيع ابن أنس وزيد بن أسلم والكلبى وابن كيسان وله اتجاه ويتأيد بقوله لنفتنهم فيه .

وقوله تعالى : ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾ أى : عذابا مشقا شديدا موجعا مؤلما . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة وقتادة وابن زيد : « عذابا صعدا » أى : مشقة لا راحة معها ، وعن ابن عباس : جبل فى جهنم وعن سعيد بن جبير بئر فيها(٣) .

﴿ وأن المساجد لله فلاتدعوا مع الله أحدا ﴾ قال قتادة : كانت اليهود والنصارى اذا دخلوا كنائسهم وبيعهم أشركوا بالله فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده(٤) . وقال ابن ابى حاتم : ذكر على بن الحسين حدثنا إسماعيل بن بنت السدى أخبرنا رجل سماه عن السدى عن ابن مالك أو أبى صالح عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال : لم يكن يوم نزلت هذه الآية فى الأرض مسجد إلا المسجد الحرام ومسجد إيليا بيت المقدس(٥) وقال الأعمش : قالت الجن : يارسول الله ائذن لنا فنشهد معك الصلوات فى مسجدك فأنزل الله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ يقول صلوا لاتخالطوا الناس(٦) وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا مهران حدثنا سفيان عن اسماعيل بن أبى خالد عن محمود عن سعيد بن جبير ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾ قال : قالت الجن للنبى - ﷺ - كيف لنا أن نأتى المسجد ونحن ناءون ؟ أى بعيدون عنك وكيف نشهد الصلاة ونحن ناءون عنك ؟ فنزلت ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا ﴾(٧) .

وقال سفيان عن خصيف عن عكرمة نزلت فى المساجد كلها(٨) ، وقال سعيد بن جبير نزلت فى

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٤٤

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٥٦

(٣) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٠/٨

(٤) تفسير الطبرى ٧٣/٢٩

(٥) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧٠/٨

(٦) انظر تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

(٧) تفسير الطبرى ٧٣/٢٩

(٨) تفسير ابن كثير - طبعة الشعب ٢٧١/٨

أعضاء السجود أى هى لله فلا تسجدوا بها لغيره ، وذكروا عند هذا القول الحديث الصحيح من رواية عبدالله بن طاوس عن أبيه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أمرت أن أسجد على سبعة أعظم على الجبهة ـ أشار بيده إلى أنفه ـ واليدين والركبتين وأطراف القدمين »[١] وقوله تعالى : ﴿ **وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ قال العوفى : عن ابن عباس يقول : لما سمعوا النبى ـ ﷺ ـ يتلو القرآن كادوا يركبون من الحرص لما سمعوه يتلو القرآن ودنوا منه فلم يعلم بهم حتى أتاه الرسول فجعل يقرئه ﴿ **قل أوحى الىّ أنه استمع نفر من الجن** ﴾ يستمعون القرآن ، هذا قول وهو مروى عن الزبير بن العوام ـ رضى الله عنه ـ[٢] ، وقال ابن جرير حدثنى محمد بن معمر حدثنا ابن هشام عن أبى عوانة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الجن لقومهم : ﴿ **لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونوا عليه لبدا** ﴾ قال لما رأوه يصلى وأصحابه يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده قال عجبوا من طواعيه أصحابه له قال : فقالوا لقومهم : ﴿ **لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونوا عليه لبدا** ﴾[٣] وهذا قول ثان وهو مروى عن سعيد بن جبير أيضا ، وقال الحسن لما قام رسول الله ـ ﷺ ـ يقول لا إله إلا الله ويدعو الناس الى ربهم كادت العرب تلبد عليه جميعا[٤] ، وقال قتادة فى قوله : ﴿ **وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا** ﴾ قال تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناواه[٥] .

وهذا قول ثالث وهو مروى عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقول ابن زيد وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر لقوله بعده : ﴿ **قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا** ﴾ أى : قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق واجتمعوا على عداوته ﴿ **إنما أدعو ربى** ﴾ أى إنما أعبد ربى وحده لا شريك له وأستجير به وأتوكل عليه ﴿ **ولا أشرك به أحدا** ﴾[٦] ، وقوله تعالى : ﴿ **قل إنى لا ملك لكم ضراً ولا رشدا** ﴾ أى : إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ وعبد من عباد الله ليس الىّ من الأمر شيئا فى هدايتكم ولاغوايتكم بل المرجع فى ذلك كله الى الله عزوجل ، ثم أخبر عن نفسه ايضا أنه لا يجيره من الله أحد أى لوعصيته فإنه لايقدر أحد على إنقاذى من عذابه ﴿ **ولن أجد من دونه ملتحدا** ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدى : لا ملجأ وقال قتادة أيضا ﴿ **قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا** ﴾ أى لا نصير ولاملجأ وفى رواية لا ولى ولا موئل .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا بلاغا من الله ورسالاته** ﴾ قال بعضهم : هو مستثنى من قوله : ﴿ **قل إنى لا أملك لكم ضرا ولارشدا . . إلا بلاغا** ﴾ ويحتمل أن يكون استثناء من قوله : ﴿ **لن يجيرنى من الله أحد** ﴾ أى : لايجيرنى منه ويخلصنى إلا إبلاغى الرسالة التى أوجب أداءها علىّ كما قال تعالى : ﴿ **يأيها**

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب الصلاة ـ باب السجود على سبعة أعظم ١/١٩٥ ـ ومسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب اعضاء السجود ١/٣٥٤ رقم ٢٣٠

(٢) تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٨/٢٧١

(٣) تفسير الطبرى ٢٩/٧٤

(٤) تفسير الطبرى ٢٩/٧٥

(٥) تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٨/٢٧١

(٦) تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٨/٢٧٢

الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾[١] . . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا ﴾ أى : أنا أبلغكم رسالة الله فمن يعص بعد ذلك فله جزاء على ذلك نار جهنم خالدين فيها ابدا أى لامحيد لهم عنها ولا خروج لهم منها[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا ﴾ ؟ أى : حتى اذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس مايوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذ من أضعف ناصرا وأقل عددا ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ؟ أى : بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية وهم أقل عددا من جنود الله ـ عز وجل ـ قوله تعالى : ﴿ قل إن أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا ﴾ يقول تعالى : آمرا رسوله ـ ﷺ ـ أن يقول للناس أنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدرى أقريب وقتها أم بعيد ، وفى هذه الآية الكريمة دليل على أن الحديث الذى يتداوله كثير من الجهلة من أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لايؤلف تحت الأرض كذب لا أصل له ولم نره فى شيء من الكتب وقد كان ـ ﷺ ـ يسأل عن وقت الساعة فلا يجيب عنها ولما تبدى له جبريل فى صورة اعرابى كان فيما سأله أن قال : يامحمد فأخبرنى عن الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » ولما ناداه ذلك الاعرابى بصوت جهورى فقال : يامحمد متى الساعة ؟ قال : « ويحك إنها كائنة فيما أعددت لها ؟ » قال أما إنى لم اعد لها كثير صلاة ولاصيام ولكن أحب الله ورسوله قال : « فأنت مع من أحببت » قال أنس فما فرح المسلمون بشيء فرحهم بهذا الحديث . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن مضاء حدثنا محمد بن جبير حدثنى أبوبكر بن ابى مريم عن عطاء بن أبى رباح عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « يابنى آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذى نفسى بيده إنما توعدون لآت » وقد قال أبوداود فى آخر كتاب الملاحم : حدثنا موسى بن سهل حدثنا حجاج بن إبراهيم حدثنا وهب حدثنى معاوية بن صالح عن عبدالرحمن بن جبير عن أبيه عن أبى ثعلبة الخشنى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : (لن تعجز الله هذه الأمة من نصف يوم) انفرد به أبو داود ثم قال ابو داود حدثنا عمرو بن عثمان حدثنا أبوالمغيرة حدثنى صفوان عن شريح بن عبيد عن سعد بن أبى وقاص عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « إنى لأرجو أن لاتعجز أمتى عند ربها أن يؤخرهم نصف يوم » قيل لسعد وكم نصف يوم ؟ قال « خمسمائة عام » انفرد به أبوداود[٣].

وقوله تعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول ﴾ هذه كقوله تعالى : ﴿ ولايحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾[٤] وهكذا قال ههنا : إنه يعلم الغيب والشهادة وأنه لا يطلع أحدا من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلق تعالى عليه ولهذا قال : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول ﴾ وهذا يعم الرسول الملكى والبشرى .

ثم قال تعالى : ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ أى : يخصه بمزيد معقبات من

(١) سورة المائدة الآية : ٦٧
(٢) انظر تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٨/٢٧٢
(٣) سنن أبى داود ـ كتاب الملاحم ٤/٥١٧ رقم ٤٣٥٠
(٤) سورة البقرة الآية : ٢٥٥

الملائكة يحفظونه من أمر الله ويساوقونه على مامعه من وحى الله ولهذا قال : ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا** ﴾ وقد اختلف المفسرون فى الضمير الذى فى قوله (ليعلم) إلى من يعود ؟ فقيل إنه عائد الى النبى - ﷺ - قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ قال أربعة حفظة من الملائكة مع جبريل (ليعلم) محمد - ﷺ - ﴿ **أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا** ﴾[(١)] ورواه ابن ابى حاتم من حديث يعقوب القمى به . وهكذا رواه الضحاك والسدى ويزيد بن أبى حبيب[(٢)] .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتاده : ﴿ **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم** ﴾ قال ليعلم نبى الله أن الرسل قد بلغت عن الله وأن الملائكة حفظتها ورفعتها عن الله ، وكذا رواه سعيد بن أبى عروبة عن قتادة واختاره ابن جرير ، وقيل غير ذل كما رواه العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا من ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا** ﴾ قال هى معقبات من الملائكة يحفظون النبى - ﷺ - من الشيطان حتى يتبين الذين أرسل إليهم وذلك حين يقول ليعلم أهل الشرك أن قد أبلغوا رسالات ربهم[(٣)] .

وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد : (ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم) قال ليعلم من كذب الرسل ان قد أبلغوا رسالات ربهم وفى هذا نظر .

وقال البغوى : قرأ يعقوب (ليعلم) بالضم أى ليعلم الناس أن الرسل قد بلغوا ، ويحتمل أن يكون الضمير عائدا الى الله - عز وجل - وهو قول حكاه ابن الجوزى فى زاد المسير ، ويكون المعنى فى ذلك انه يحفظ رسله بملائكته ليتمكنوا من اداء رسالاته ويحفظ ماينزله إليهم من الوحى ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ويكون ذلك كقوله تعالى : ﴿ **وماجعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ **وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾ أى أمثال ذلك من العلم بأنه تعالى يعلم الأشياء قبل كونها قطعا لامحالة ، ولهذا قال بعد هذا : ﴿ **وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا** ﴾ .

---

(١) تفسير الطبرى ٢٩/٧٧
(٢) تفسير ابن كثير- طبعة الشعب ٨/٢٧٤
(٣) تفسير الطبرى ٢٩/٧٧

سورة المزمل

قال صاحب البصائر :

« السورة مكية سوى آية واحدة من آخرها وآياتها ثمان عشرة فى عَدّ الكوفة وتسعة عشر فى البصرة وعشرون فى الباقين ، وكلماتها مائتان وخمس وثمانون وحروفها ثمانمائة وست وثلاثون . والمختلف فيها ثلاث آيات : المزمل ، شيبا ، (إليكم رسولا) . فواصل آياتها على الألف ، إلا الآية الأولى فإنه باللام والأخيرة ، فإنها (بالراء) . مجموعها (رال) ، سميت سورة المزمل لافتتاحها .

معظم مقصود السورة : خطاب الانبساط مع سيد المرسلين والأمر بقيام الليل وبيان حجة التوحيد والأمر بالصبر على جفاء الكفار وتهديد الكافر بعذاب النار وتشبيه رسالة المصطفى برسالة موسى والتخويف بتهويل القيامة والتسهيل والمسامحة فى قيام الليل والحث على الصدقة والإحسان والأمر بالاستغفار من الذنوب والعصيان فى قوله : ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

الناسخ والمنسوخ :

فيها من المنسوخ ست آيات : ثلاث من أول السورة : (إن ربك يعلم) ، (واهجرهم هجرا) ، وقوله : (وذرنى والمكذبين) وقوله : (إن هذه تذكرة) ن آية السيف .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فاقرءوا ماتيسر من القرآن ﴾ ، وبعده : ﴿ ماتيسر منه ﴾ ، لأن الأول فى الفرض ، وقيل : فى النافلة ، وقيل : خارج الصلاة ، ثم ذكر سبب التخفيف ، فقال : ﴿ سيكون منكم مرضى ﴾ ثم أعاد فقال : ﴿ ماتيسر منه ﴾ والأكثرون على أنه فى صلاة المغرب والعشاء .

فضل السورة :

حديث أُبَيّ المعلوم ضعفه : من قرأها (دفع عنه العسر فى الدنيا والآخرة وحديث على : ياعلىّ من قرأها) أعطاه الله ثواب العلماء وله بكل آية قرأها سِترٌ من النار .

« إرشادات إلهية لزعيم الدعوة الإسلامية »

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾
أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾
إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا
طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ
وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ
وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ
قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا
أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا
مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾
فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ
مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ
إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

معانى المفردات :

المزمل : المتلفف بثيابه يقال : تزمل وتدثر ثم قلبت التاء زايا فى المزمل، ودالا فى المدثر .
ورتل القرآن : المراد اقرأه بتثبت وتؤدة .
ثقيلا : شاقا
ناشئة : مايحدث فيه ويتجدد مأخوذ من نشأ اذا حدث وتجدد .
أشد وطئا : أصعب وقعا .
وأقوم : أعدل
سبحاً طويلاً : عملا كثيرا سريعا ، وأصل السبح العوم على وجه الماء أو سرعة الجرى ، ثم استعمل فى العمل السريع الكثير .
وتبتل : انقطع إليه إنقطاعا .
وذرنى : اتركنى
النعمة : التنعم والترفه
أنكالا : جمل نكال وهو القيد الثقيل
ذا غصة : ماأعده الله فى تلك الدار من طعام منكر فظيع
ترجف الأرض : تضطرب وتتزلزل
كثيبا : تلاً من رمل متناثر جمعته الريح بعد تفرق .
مهيلا : هو ماإذا حرك أسفله سال من أعلاه وتتابع .
وبيلا : ثقيلا شديدا
منفطر : متصدع ومتشقق
تذكرة : عبرة وعظة .

أعد الله نبيه الكريم لتحمل أكبر رسالة فى الوجود ، الرسالة العامة الى جميع الخلق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولكنه بشر بينه وبين الملك تنافر فى الطبيعة المادية ، لذلك اضطرب ، وخاف عند أول لقاء ، وذهب الى خديجة كأنه محموم ، وقال زملونى زملونى !! وماعلم أن هذا الذى لقيه فى الغار هو جبريل الذى نزل على موسى وعيسى ، وكانت هذه الرسالة الى قوم وثنيين مشركين متعصبين مقلدين ، وكان النبى يعرف عنهم ذلك فكان كأنه يخشاهم ، ويشعر بخطورة هذه الدعوة فى هذا المجتمع ! فناداه الله بهذا النداء وبقوله فى السورة الثانية : يأأيها المدثر من باب الملاطفة والملاينة وتأنيسا له على عادة العرب فى اشتقاق اسم من صفة المخاطب التى هو عليها ، وكانت هاتان السورتان ـ المزمل والمدثر ـ من أوائل القرآن نزولاً ، ويروى أن الوحى لما نزل على النبى للمرة الثانية وحده متزملا فى قطيفة فقال له : ياأيها المزمل قم الليل ، وجاء مرة أخرى وكان متدثرا فقال : ياأيها المدثر قم فأنذر .

أضواء كاشفة :

يأأيها المزمل ـ المتلفف بكساء وقد اضطجع فى ركن داره ـ قم الليل إلا قليلا منه ، وهو نصفه (هذا إشارة الى أن نصفه بدل من قليلا ، ووصفه بالقلة للإشارة الى أن النصف الذى أحياه بمنزلة الكل)او انقص منه قليلا بحيث يزيد على الثلث أو زد عليه قليلا قليلا بحيث لايزيد على الثلثين ، فالنبى ـ عليه السلام ـ أمر بان يقوم من الليل ساعات تتراوح بين الثلث والثلثين ، وهو التهجد ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محموداً** ﴾ .

يأأيها المزمل دع ماأنت فيه وانشط لقيام الليل والصلاة فيه ، ولقراءة القرآن وترتيله وتدبر معناه ، هذا خطاب للنبى ويدخل معه فى ذلك أمته وخاصة أصحاب الدعوات والمبادىء والافكار ، والشارع الأعظم يقصد بهذه الارشادات والتوجيهات التربية الاسلامية الكاملة ، تربية الجسم وتعويده على تحمل المشاق والمكاره ، وتربية النفس بسموها وبعدها عن شوائب المادة وقوتها بحيث تحكم على الجسم ونوازع الشر فيه ، إذ لا شك أن قيام الليل شاق على النفس لكنه يؤدبها ويهذبها ، ويعودها الصبر ، وهو كذلك مما يقوى الأجسام ويساعدها على العمل والثبات فى معترك الحياة .

والنبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ تنتظره فى دعوته مشاق ومشاق ومتاعب وتكاليف ودرعه الواقى فى ذلك هو تعويد جسمه تحمل المشاق ، وتقوية روحه بالعمل الصالح وتلاوة القرآن .

ياليت قومى يعلمون ذلك فيعملون على تحقيقه ، ويفرحون لإرادة الله ذلك لهم .

يأأيها المزمل قم الليل إلا نصفه أو قلل منه قليلا أو زد عليه قليلا ، ورتل القرآن فى تهجدك ترتيلا ، واقرأه بتثبت وتدبر ، وتؤدة وتأن فإن القرآن جلاء للقلوب ، وحياة النفوس . ولقد امتثل النبى أمر ربه ، وتأدب بأدب القرآن ، وسهر الليل وجاهد النفس واقتدى به أصحابه حتى شحبت ألوانهم وضعفت أجسامهم ، وتورمت أقدامهم حتى كأنهم تخطوا الحدود المرسومة فأنزل الله ﴿ **طه : ماأنزلنا عليك القرآن لتشقى** ﴾ .

ولقد أخذ القرآن يذكر سبب هذا الأمر فقال مامعناه : يامحمد إنك تحمل أكبر رسالة ، وتدعو الناس الى أضخم دعوة ، دعوة الحق والحرية والكرامة ، وسيكون لك أعداء وسيكون لمن يدعو بعدك بدعوتك أعداء ، لهذا أمرناك باعداد نفسك وجسمك الى تحمل هذه الرسالة ، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا وقعه شديدا وطؤه على الكفار والمشركين ، ولاينفع فى هذا الا تقوية الجسم والروح ، وتدبر القرآن الكريم وتفهم معناه .

وكأن سائلا سأل شاكا فى أن قيام الليل وتدبر القرآن مما يساعد على تحمل مشاق الدعوة فقال : أن مايحدث فى الليل من قيام وصلاة وقراءة قرآن وتدبر له هو أشد وطئا ، وأصعب على النفس الانسانية ، وهذا بلا شك مما يساعدها على تحمل المشاق ويقويها فتصبر على المكروه ، ولاشك أن الليل حيث السكون والصفاء مما يساعد على تدبر القرآن وتفهم معناه .

إن لك فى النهار عملا كثيرا متواصلا سريعا فلم يبق إلا الليل ، فاغتنم جزءا منه يكن لك خير كثير ، وفضل كبير .

واذكر اسم ربك وتوكل عليه وحده ، وانقطع عما سواه ، فلن ينفعك غيره ، وهكذا المؤمن الكامل لايتوكل إلا عليه ، ولايعتمد على سواه ، ولاينقطع عنه ، كل ذلك لأنه رب المشرق والمغرب ومابينهما ، لاإله غيره ، وكيف يكون غير ذلك ! وكل مافى الكون شرقه وغربه ، شاهد عدل على وحدانية الله ، وأنه لاإله غيره ، ولا معبود سواه ، إذا كان الأمر كذلك فاتخذه وكيلا ، واعتمد عليه وحده فى دعوتك الخلق الى الاسلام .

وسيصادفك ـ وكل من يدعو بدعوتك الى يوم الدين ـ ماتكره من أذى الناس ، العلاج فى ذلك هو الصبر إنه سلاح المؤمن وعدة المسلم ، والهجر الجميل ، وانظر الى علاج القرآن حيث جعل دعامته الصبر والسلوان والهجر الجميل .

أما المكذبون المغرورون أولو النعمة والترف فالله يقول فيهم ذرنى والمكذبين أولى النعمة والترف وأمهلهم قليلا ، فان للكون سنة لاتختلف ، إن عاقبة هؤلاء المكذبين المغرورين سيئة ، والله يمهل قليلا ولايهمل ، هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فالله يقول : ان لدينا أنكالا وقيوداً أثقالا ، وجحيما أعدت لهم ، وطعاما ذا غصة ، هو طعام الزقوم ، الطعام البشع الكريه التى تغص منه النفوس ، وبعد هذا كله فهناك عذاب أليم لهم للغاية .

أذكر يوم ترجف الأرض وتضطرب ، وتتزلزل الجبال وتتحرك ، وكانت صلدة ثابتة جامدة لايقوى عليها شىء ، ولكنها فى هذا اليوم تكون تلاً من الرمل كثيبا مهيلا ، وليس هذا الاضطراب فى الأرض فقط بل فيها وفى السماء ﴿**إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت**﴾[1] . ﴿ **إذا السماء انشقت** ﴾[2] .

ولقد أخذ القرآن يهددهم بما حل بغيرهم ، وكانوا أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فقال : إنا أرسلنا الى فرعون رسولا هو موسى ، فعصى فرعون وقومه رسولهم فكانت عاقبة أمرهم خسرا ، وأخذهم ربك أخذ عزيز مقتدر ، أخذا شاقا . . على نفوسهم حيث أغرقهم ونجى موسى ومن معه .

إذا كان الأمر كذلك فكيف تتقون ـ إن دمتم على كفركم ـ يوما شديد الهول ، عظيم الخطر ، يوما يجعل الولدان من شدة أهواله شيباً والسماء فى هذا اليوم تنفطر وتتشقق ، بعد أن كانت آية فى الأحكام والدقة ﴿ **ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت** ﴾[3] كل ذلك كان وعده مفعولا .

إن هذه الإرشادات والتوجيهات التى سيقت فى تلك الآيات تذكرة وعبرة وعظة ، وهل هناك تذكرة أقوى من هذا ؟ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا هو الإيمان والتمسك بالقرآن ، وتعود الصبر على المكاره والسلوان .

---

(١) سورة التكوير الآيتان : ١ ، ٢
(٢) سورة الانشقاق الآية : ١
(٣) سورة الملك الآية : ٣

التفسير

يأمر الله - تعالى - رسوله - ﷺ - أن يترك التزمل وهو التغطى فى الليل وينهض الى القيام لربه - عز وجل - كما قال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون ﴾[١] وكذلك كان - ﷺ - ممتثلا ماأمره الله تعالى به من قيام الليل وقد كان واجبا عليه وحده كما قال تعالى : ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا ﴾[٢] وههنا بين له مقدار مايقوم فقال تعالى : ﴿ ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا ﴾ .

قال ابن عباس والضحاك والسدى : ﴿ ياأيها المزمل ﴾ يعنى ياأيها النائم .

وقال قتادة : المزمل فى ثيابه ، وقال إبراهيم النخعى : نزلت وهو متزمل بقطيفة ، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس : ﴿ ياأيها المزمل ﴾ قال : يامحمد زملت القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل ﴿ أو انقص منه قليلا أو زد عليه ﴾ أى : أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة أو نقصان قليل لاحرج عليك فى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ أى إقرأه على تمهل فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ - صلوات الله وسلامه عليه - : قالت عائشة - رضى الله عنها - كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها .

وفى صحيح البخارى عن أنس أنه سئل عن قراءة رسول الله - ﷺ - فقال كانت مدا ثم قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) يمد بسم الله ويمد الرحمن ويمد الرحيم[٣] ، وقال ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن أم سلمة - رضى الله عنها - أنها سئلت عن قراءة رسول الله - ﷺ - فقالت : كان يقطع قراءته آية آية (بسم الله الرحمن الرحيم - الحمدلله رب العالمين - الرحمن الرحيم - مالك يوم الدين) رواه أحمد وأبوداود والترمذى[٤] .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبدالرحمن عن سفيان عن عاصم عن ذر عن عبدالله بن عمرو عن النبى - ﷺ - قال : « يقال لقارىء القرآن أقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » ورواه أبوداود والترمذى من حديث سفيان الثورى به وقال الترمذى : حسن صحيح[٥] .

---

(١) سورة السجدة الآية : ١٦

(٢) سورة الاسراء الآية : ٧٩

(٣) صحيح البخارى - كتاب فضائل القران باب مد القراءة ٦/٢٤١

(٤) مسند الإمام أحمد ٦/٣٠٢ وسنن ابى داود - كتاب الحروف ٤/٢٩٤ رقم ٤٠٠١ وتحفة الأحوذى أبواب فضائل القرآن - باب ماجاء كيف كانت قراءة النبى ٨/٢٤٠ رقم ٣٠٩١

(٥) مسند أحمد ٢/١٩٢ وسنن ابى داود - كتاب الصلاة - باب استحباب الترتيل ٢/١٥٣ رقم ١٤٦٤ وتحفة الأحوذى - أبواب فضائل القرآن ٨/٢٣٢ رقم ٣٠٨١

وجاء فى الحديث « زينوا القرآن بأصواتكم[١] - وليس منا من لم يتغن بالقرآن[٢] ، ولقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود[٥] يعنى أبا موسى فقال أبوموسى : لو كنت أعلم أنك كنت تسمع قراءتى لحبرته لك تحبيرا ، وعن ابن مسعود أنه قال : « لا تنثروه نثر الرمل ولاتهذوه هذّ الشعر ، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ولايكن همّ أحدكم آخر السورة » رواه البغوى ، وقال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة حدثنا عمرو بن مرة سمعت أبا وائل قال : جاء رجل الى ابن مسعود فقال : قرأت المفصل الليلة فى ركعة ، فقال هذا كهذّ الشعر لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله - ﷺ - يقرن بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل سورتين فى كل ركعة[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا ﴾ قال الحسن وقتادة : أى العمل به ، وقيل : ثقيل وقت نزوله من عظمته ، كما قال زيد بن ثابت - رضى الله عنه - أنزل على رسول الله - ﷺ - وفخذه على فخذى فكادت ترض فخذى .

وقال الامام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن ابى حبيب عن عمرو بن الوليد عن عبدالله بن عمرو قال : سألت النبى - ﷺ - وآله وسلم - فقلت : يارسول الله هل تحس بالوحى ؟ فقال رسول الله - ﷺ - : « أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يوحى الىّ إلا ظننت أن نفسى تقبض » تفرد به أحمد[٤] .

وفى صحيح البخارى : عن عبدالله بن يوسف عن مالك عن هشام عن ابيه عن عائشة - رضى الله عنها - أن الحارث بن هشام سأل رسول الله - ﷺ - كيف يأتيك الوحى ؟ فقال : « أحيانا يأتينى فى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على فيفصم عنى وقد وعيت عنه ماقال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى مايقول » .

قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحى - ﷺ - فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وجبينه ليتفصد عرقا هذا لفظه[٦] .

وقال الامام أحمد : حدثنا سليمان بن داود أخبرنا عبدالرحمن عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : إن كان ليوحى الى رسول الله - ﷺ - وهو على راحلته فتضرب بجرانها[٧] وقال ابن جرير حدثنا ابن عبدالأعلى حدثنا ابن ثور عن معمر عن هشام بن عروة عن أبيه ان النبى - ﷺ -

---

(١) سنن ابى داود - كتاب الصلاة - باب استحباب الترتيل فى القراءة ٢/١٥٥ رقم ٤٦٨ - والثانى - كتاب الافتتاح ٢/١٧٩ وابن ماجه رقم ١٣٤٢

(٢) صحيح البخارى - كتاب التفسير - باب حسن الصوت بالقراءة ٦/٢٤١ ومسلم - كتاب الصلاة ١/٥٤٦ رقم ٢٣٦

(٣) صحيح البخارى - كتاب التوحيد ٩/٨٨ أو سنن أبى داود - كتاب الصلاة ٢/١٥٦ رقم ١٤٦٩ ومسند أحمد ١/١٧٢

(٤) صحيح البخارى - كتاب الصلاة باب الجمع بين السورتين فى ركعة ١/١٨٦

(٥) مسند أحمد ٢/٢٢٢

(٦) صحيح البخارى - كتاب بدء الوحى ١/٤

(٧) مسند أحمد ٦/١١٨

كان اذا أوحى اليه وهو على ناقته وضعت جرانها فما تستطيع ان تحرك حتى يسرى عنه[١] وهذا مرسل (الجران هو باطن العنق) ، واختار ابن جرير انه ثقيل من الوجهين معا كما قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم كما ثقل فى الدنيا ثقل يوم القيامة فى الموازين[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ **إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا** ﴾ قال أبو اسحاق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : نشأ قام بالحبشية ، وقال عمر وابن عباس وابن الزبير : الليل كله ناشئة ، وكذا قال مجاهد وغير واحد .

يقال : نشأ إذا قام من الليل وفى رواية عن مجاهد بعد العشاء ، وكذا قال ابو مجلز وقتادة وسالم وأبوحازم ومحمد بن المنكدر والغرض أن ناشئة الليل هى ساعاته وأوقاته وكل ساعة منه تسمى ناشئة وهى الانات ، والمقصود ان قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة ولهذا قال تعالى : ﴿ **هى أشد وطأ وأقوم قيلا** ﴾ أى : أجمع للخاطر فى أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش .

وقال الحافظ أبويعلى الموصلى : حدثنا ابراهيم ابن سعيد الجوهرى حدثنا ابوأسامة حدثنا الأعمش أن أنس بن مالك قرأ هذه الآية : ﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأصوب قيلا ﴾ فقال له رجل إنما نقرؤها وأقوم قيلا ، فقال له إن أصوب وأقوم وأهيأ وأشباه هذا واحد[٣] .

ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن لك فى النهار سبحا طويلا** ﴾ قال ابن عباس وعكرمة وعطاء بن أبى مسلم : الفراغ والنوم ، وقال أبوالعالية ومجاهد وأبومالك والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس وسفيان الثورى : فراغا طويلا ، وقال قتادة : فراغا وبغية ومتقلبا ، وقال السدى : (سبحا طويلا) تطوعا كثيرا ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿ **إن لك فى النهار سبحا طويلا** ﴾ قال : لحوائجك فأفرغ لدينك الليل قال : وهذا حين كانت صلاة الليل فريضة ثم ان الله ـ تبارك وتعالى ـ منّ على عباده فخففها ووضعها وقرأ : ﴿ **قم الليل إلا قليلا** ﴾ إلى آخر الآية ثم قال : ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه** ـ حتى بلغ ـ **فاقرءوا ماتيسر منه** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا** ﴾ وهذا الذى قاله كما قاله . والدليل عليه مارواه الامام أحمد فى مسنده حيث قال : حدثنا يحيى حدثنا سعيد هو ابن ابى عروبة عن قتادة عن زرارة بن اوفى عن سعيد ابن هشام انه طلق امرأته ثم ارتحل الى المدينة ليبيع عقارا له بها ويجعله فى الكراع والسلاح ثم يجاهد الروم حتى يموت ، فلقى رهطا من قومه فحدثوه أن رهطا من قومه ستة أرادوا ذلك على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فقال « أليس لكم فىّ أسوة حسنة ؟ » فنهاهم عن ذلك فأشهدهم على رجعتها ثم رجع الينا فأخبرنا أنه اتى ابن عباس فسأله عن الوتر فقال ألا انبئك بأعلم أهل الأرض بوتر رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ قال : نعم : قال :

---

(١) تفسير الطبرى ٨٠/٢٩
(٢) تفسير الطبرى ٨٠/٢٩
(٣) تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ٢٧٨/٨

ائت عائشة فسلها ثم ارجع الىّ فاخبرنى بردها عليك قال فأتيت على حكيم بن أفلج فاستلحقته إليها فقال ما أنا بقاربها إنى نهيتها ان تقول فى هاتين الشيعتين شيئا فكانت فيهما إلا مضياً ، فأقسمت عليه فجاء معى فدخلنا عليها فقالت : حكيم وعرفته قال : نعم قالت : من هذا معك ؟ قال سعيد بن هشام قالت من هشام ؟ قال ابن عامر قال فترحمت عليه وقالت نعم المرء كان عامرا قلت يا أم المؤمنين أنبئينى عن خلق رسول الله ـ ﷺ ـ ؟ قالت ألست تقرأ القرآن قلت بلى قالت فان خلق رسول الله ـ ﷺ ـ كان القرآن فهممت أن أقوم ثم بدا لى قيام رسول الله ـ ﷺ ـ قلت : يا أم المؤمنين أنبئينى عن قيام رسول الله ـ ﷺ وآله وسلم ـ قالت : ألست تقرأ هذه السورة (يا أيها المزمل ؟) قلت بلى قالت فان الله افترض قيام الليل فى أول هذه السورة فقام رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه حولا حتى انتفخت أقدامهم وأمسك الله خاتمتها فى السماء أثنى عشر شهرا ثم أنزل الله التخفيف فى آخر هذه السورة فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة ، فهممت أن أقوم ثم بدا لى وتر رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت : يا أم المؤمنين انبئينى عن وتر رسول الله ـ ﷺ ـ قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره فيبعثه الله لما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ثم يتوضأ ثم يصلى ثمان ركعات لايجلس فيهن إلا عند الثامنة ، فيجلس ويذكر ربه تعالى ويدعو ثم ينهض ومايسلم ، ثم يقوم ليصلى التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ثم يدعوه ثم يسلم تسليما يسمعنا ، ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك إحدى عشرة ركعة يابنىّ فلما أسن رسول الله ـ ﷺ ـ وأخذ اللحم أوتر بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم فتلك تسع يابنى ، وكان رسول الله ـ ﷺ وآله وسلم ـ اذا صلى صلاة أحب أن يداوم عليها وكان اذا شغله عن قيام الليل نوم أو وجع أو مرض صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة ولا أعلم نبى الله ـ ـ قرأ القرآن كله فى ليلة حتى أصبح ولاصام شهراً كاملا غير رمضان ـ فأتيت ابن عباس فحدثته بحديثها فقال صدقت أما لو كنت أدخل عليها لأتيتها حتى تشافهنى مشافهة هكذا . رواه الامام أحمد بتمامه[1] وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من حديث قتادة بنحوه[2] . « طريق اخرى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى هذا المعنى » قال ابن جرير : حدثنا ابن وكيع حدثنا زيد بن الحباب وحدثنا ابن حميد حدثنا مهران قالا جميعا : واللفظ لابن وكيع عن موسى بن عبيده حدثنى محمد بن طحلاء عن ابى سلمة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : كنت أجعل لرسول الله ـ ﷺ ـ حصيرا يصلى عليه من الليل فتسامع الناس به فاجتمعوا فخرج كالمغضب وكان بهم رحيما فخشى أن يكتب عليهم قيام الليل فقال : (أيها الناس اكلفوا من الأعمال ماتطيقون فان الله لايمل من الثواب حتى تملوا من العمل وخير الأعمال ماديم عليه)[2] ونزل القرآن : ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ﴾ حتى كان الرجل يربط الحبل ويتعلق فمكثوا بذلك ثمانية أشهر فرأى الله مايبتغون من رضوانه فرحمهم فردهم الى الفريضة وترك قيام الليل[3] .

وروواه ابن ابى حاتم من طريق موسى بن عبيده الزبيدى وهو ضعيف والحديث فى الصحيح[4] بدون

---

(١) مسند أحمد ٥٤/٦

(٢) مسلم ـ كتاب الصلاة ـ باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ٥١٢/١ رقم ١٣٩

(٣) تفسير الطبرى ٧٩/٢٩

(٤) صحيح البخارى ـ كتاب الرقاق ـ باب القصد والمداومة على العمل ١٢٢/٨ ومسند أحمد ٤٠/٦ ، ٦١ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ٢٤١ ، ٢٦٧

زيادة نزول هذه السورة وهذا السياق قد يوهم ان نزول هذه السورة بالمدينة وليس كذلك وإنما هى مكية وقوله فى هذا السياق : ان بين نزول أولها وآخرها ثمانية أشهر غريب فقد تقدم فى رواية أحمد ان بينهما سنة .

وقال ابن ابى حاتم أبوسعد الأشج حدثنا ابو أسامة عن مسعر عن سماك الحنفى سمعت ابن عباس يقول : أول مانزل المزمل كانوا يقومون نحوا من قيامهم فى شهر رمضان وكان بين أولها وآخرها قريب من سنة ، وهكذا رواه ابن جرير عن ابى كريب عن ابى أسامة به وقال الثورى ومحمد بن بشر العبدى كلاهما عن مسعر عن سماك عن ابن عباس كان بينهما سنة ، وروى ابن جرير عن أبى كريب عن وكيع عن اسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس مثله[١] .

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن قيس بن وهب عن ابى عبدالرحمن قال : لما نزلت ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ قاموا حولا حتى ورمت أقدامهم وسوقهم حتى نزلت ﴿ **فاقرءوا ماتيسر منه** ﴾ قال : فاستراح الناس وكذا قال الحسن البصرى والسدى[٢] . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا عبيدالله ابن عمر القواريرى حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن زرارة بن أوفى عن سعيد بن هشام قال : فقلت : يعنى لعائشة أخبرينا عن قيام رسول الله - ﷺ - قالت : ألست تقرأ ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ ؟ قلت بلى قالت فانها كان قيام رسول الله - ﷺ - وأصحابه حتى انتفخت أقدامهم وحبس آخرها فى السماء ستة عشر شهرا ثم نزل ، وقال معمر عن قتادة : (قم الليل إلا قليلا) قاموا حولا أو حولين حتى انتفخت سوقهم وأقدامهم فانزل الله تخفيفها بعد فى آخر السورة .

وقال ابن جرير ، حدثنا يعقوب القمى عن جعفر عن سعيد هو ابن جرير قال : لما أنزل الله - تعالى - على نبيه - ﷺ - ﴿ **يأيها المزمل** ﴾ قال : مكث النبى - ﷺ - على هذه الحال عشر سنين يقوم الليل كما امره وكانت طائفة من أصحابه يقومون معه فأنزل الله - تعالى - عليه بعد عشر سنين ﴿ **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** - الى قوله تعالى : **وأقيموا الصلاة** ﴾ فخفف الله - تعالى - عنهم بعد عشر سنين[٣] ، رواه ابن ابى حاتم عن ابيه عن عمرو بن رافع عن يعقوب القمى به ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ **قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا** ﴾ فشق ذلك على المؤمنين ثم خفف الله - تعالى - عنهم ورحمهم فأنزل بعد هذا ﴿ **علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله** - إلى قوله تعالى - **وأقيموا الصلاة** ﴾ فوسع الله تعالى وله الحمد ولم يضيق[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا** ﴾ أى : أكثر من ذكره وانقطع اليه وتفرغ لعبادته

---

(١) تفسير الطبرى ٢٩/٨٠
(٢) تفسير الطبرى ٢٩/٧٩
(٣) تفسير الطبرى ٢٩/٧٩
(٤) تفسير الطبرى ٢٩/٧٩

اذا فرغت من اشغالك وماتحتاج اليه من أمور دنياك كما قال تعالى : ﴿ فاذا فرغت فانصب ﴾[١] أى : إذا فرغت من مهماتك فانصب فى طاعته وعبادته لتكون فارغ البال قاله ابن زيد بمعناه أو قريب منه ، وقال ابن عباس ومجاهد وابوصالح وعطية والضحاك والسدى : ﴿ وتبتل اليه تبتيلا ﴾ أى : اخلص له العبادة ، وقال الحسن : اجتهد وابتل اليه نفسك . وقال ابن جرير : يقال للعابد فتبتل ومنه الحديث المروى نهى عن التبتل يعنى الانقطاع الى العبادة وترك التزوج[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾ أى : هو المالك المتصرف فى المشارق والمغارب لا إله إلا هو ، وكما افردته بالعبادة فافرده بالتوكل فاتخذه وكيلا كما قال فى الآية الاخرى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾[٣] وكقوله : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وآيات كثيرة فى هذا المعنى فيها الأمر بإفراد العبادة والطاعة لله وتخصيصه بالتوكل عليه . وقوله تعالى : ﴿ واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾ يقول تعالى آمرا رسوله - ﷺ - بالصبر على مايقوله من كذبه من سفهاء قومه وان يهجرهم هجرا جميلا وهو الذى لاعتاب معه ثم قال له متهددا لكفار قومه ومتوعدا وهو العظيم الذى لايقوم لغضبه شىء ﴿ وذرنى والمكذبين أولى النعمة ﴾ أى : دعنى والمكذبين المترفين أصحاب الأموال فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم وهم يطالبون من الحقوق ماليس عند غيرهم ، ﴿ ومهلهم قليلا ﴾ أى : رويدا كما قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ ﴾ ولهذا قال ههنا : ﴿ إن لدينا أنكالا ﴾ وهى القيود قاله ابن عباس وعكرمة وطاوس ومحمد بن كعب وعبدالله بن بريدة وأبوعمران الجونى وأبومجلز والضحاك وحماد بن ابى سليمان وقتادة والسدى وابن المبارك والثورى وغير واحد : ﴿ وجحيما ﴾ وهى السعير المضطرمة ﴿ وطعاما ذا غصة ﴾ قال ابن عباس : ينشب فى الحلق فلايدخل ولايخرج . ﴿ وعذابا أليما . يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أى : تزلزل . ﴿ وكانت الجبال كثيبا مهيلا ﴾ أى : تصير ككثبان الرمل بعد ماكانت حجارة صماء ثم إنها تنسف نسفا فلايبقى منها شىء إلا ذهب حتى تصير الأرض قاعا صفصفا لاترى فيها عوجا أى واديا ولا أمتا أى رابية ومعناه لاشىء فينخفض ولا شىء يرتفع . ثم قال تعالى مخاطبا لكفار قريش : والمراد سائر الناس ﴿ إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم ﴾ أى : بأعمالكم . ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا ﴾ .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى والثورى : ﴿ أخذا وبيلا ﴾ أى : شديدا ، أى : فاحذروا أنتم ان تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ماأصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما قال تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن أنتم كذبتم رسولكم لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران ، ويروى عن ابن عباس ومجاهد . وقوله تعالى : ﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ يحتمل أن يكون يوماً معمولا لتتقون كما حكاه ابن جرير عن قراءة ابن مسعود فكيف تخافون ايها الناس يوما يجعل الولدان شيباً إن كفرتم بالله ولم تصدقوا به ؟ ويحتمل ان يكون معمولا لكفرتم فعلى الأول كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثانى كيف

(١) سورة الشرح الآية : ٧
(٢) تفسير الطبرى ٨٣/٢٩
(٣) سورة هود الآية : ١٢٣

يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحتموه ، وكلاهما معنى حسن ولكن الأول أولى والله أعلم ، ومعنى قوله : ﴿ يوماً يجعل الولدان شيبا ﴾ أى : من شدة أهواله وزلازله وبلابله وذلك حين يقول الله تعالى لآدم : إبعث بعث النار فيقول من كم ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة .

قال الطبرانى : حدثنا يحيى بن أيوب العلاف حدثنا سعيد بن أبى مريم حدثنا نافع بن يزيد حدثنا عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قرأ : ﴿ يوما يجعل الولدان شيبا ﴾ قال : « ذلك يوم القيامة وذلك يوم يقول الله لآدم قم فابعث من ذريتك بعثا الى النار ، قال من كم يارب ؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وينجو واحد » فاشتد ذلك على المسلمين وعرف ذلك رسول الله - ﷺ - ثم قال حين أبصر ذلك فى وجوههم « إن بنى آدم كثير ، وأن يأجوج ومأجوج من ولد آدم وإنه لايموت منهم رجل حتى ينتشر لصلبه ألف رجل ففيهم وفى أشباههم جنة لكم » هذا حديث غريب[1] .

وقوله تعالى : ﴿ السماء منفطر به ﴾ قال الحسن وقتادة : أى بسببه من شدته وهوله ، ومنهم من يعيد الضمير على الله تعالى ، وروى عن ابن عباس ومجاهد : وليس بقوى لأنه لم يجر له ذكر ههنا .

وقوله تعالى : ﴿ كان وعده مفعولا ﴾ أى : كان وعد هذا اليوم مفعولا ، أى : واقعاً لامحالة وكائنا لامحيد عنه .

يقول تعالى : ﴿ إن هذه ﴾ أى : السورة ﴿ تذكرة ﴾ أى : يتذكر بها أولو الألباب ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ﴾ أى : فمن شاء الله - تعالى - هدايته كما قيد فى السورة الأخرى ﴿ وماتشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما ﴾ .

طرف من سيرة المزمل - ﷺ -

الحمدلله وحده ، والصلاة والسلام على خير رسله ، محمد بن عبدالله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين ، ومن سلك سبيلهم واستن بسنتهم إلى يوم الدين .

وبعد فعلى فترة من الرسول ، ضاعت فيها معالم الحق ، وضل البشر سواء السبيل ، بعث الله رسوله سيدنا محمدا - ﷺ - بالهدى ودين الحق ، ففتح الله به للانسانية فتحا جديدا ، عرفت على أضوائه طريق الرشاد ، ودخلت الحياة من مدخلها الصحيح ، فتحررت من اصار الذل ، وحطمت اغلال العبودية ، وتقدمت باسم الله وعلى بركة الله ، وتحت راية الاسلام ، تنشىء حضارة سامقة ، وتكتب تاريخا عبق بأطيب الشذى .

ومن كان فى ريب من ذلك فليس عليه إلا أن يتجرد من الهوى ، وينمى عوامل الجنوح ، ويقرأ

---

(١) مسند أحمد ٣٨٨/١

تاريخ ماقبل الإسلام ومابعده فى مشرق الأرض ومغربها ، وسيجد بعد الجولات النزيهة ان دعوة الاسلام وليس سواها هى التى فتحت القلوب والآذان ، والعقول والأبصار ، وإن كان كل مانراه اليوم من حركات إصلاحية أو وثبات علمية قامت على قواعد الفكر الاسلامى .

فإذا احتفل المسلمون فى ذكرى مولد الرسول الكريم فليكن احتفالهم عوداً إلى المعين الذى لاينضب ، يجددون العهد أن يكونوا حيث يرضى الله ، وتهدف إليه رسالة الإسلام ، استجابة صادقة واستلهاما أمينا ، يفتح الله بهما الطريق إلى العزة والكرامة ، ويهدى بهما الله إلى الصراط الذى لايضل عليه المسار .

ولنا فى سوابق التجارب عبرة وعظة ، والتجارب الواعظات ينبغى أن تكون موضع تأمل وتدبر الذين يبتغون الرشاد ، ويتطلعون إلى الهدى ، فيلقون السمع ، ويفتحون القلب ، وخير التجارب تلك التجربة الرائدة التى عاشها الرسول - ﷺ - فهى حافلة بالكفاح ، حافلة بالأمل ، حافلة بألوان النصر العزيز .

يارســـول اللــــه

ماتفقدت الانسانية فضيلة نادرة إلا وجدتها نفحة من أدبك ، أو لمحة من خلقك أو ومضة من نورك ، أو خطوة من سلوكك ، أو لفتة من هديك ، أو شعاعا من توجيهك ، أو عبرة من تاريخك ، أو قبسا كنت تبعث به فى الليالى الحالكة ، والسبل الملتوية ، والمعالم المشتبهة ، والساعات الكالحة ، والأوقات الحرجة ، والمحن الصارخة ، والظروف البغيضة ، والشدائد الكريهة . . .

وسيظل تاريخك خالدا خلود الأبد ، باقياً بقاء الدهر ، مُدوياً دَوِىَّ الأذان ، مضيئاً كالصبح ، يتحدى الفناء ، ويصارع الأحداث ، ويغالب الأيام ، ويكافح الزمن ، ويحارب الطغيان ، ويخضع الجبابرة ، ويقضى على الفساد ، ويعلن المساواة ، وينادى بالحب ، ويتعقب الاستبداد ، ويشرع الاشتراكية ، ويقصم ظهور المتكبرين فى الأرض بغير الحق . . لا لأنك رسول رب السماء ، والأرض - الذى يحتمى ببطشه ، ويعتز ببأسه ، ويقاتل بسيفه ، وينطق بلسانه ، ويصونه من بغى المتسلِّطين ، وعدوان المفسدين ، الذى لايتغافل عن الملحوظين بعنايته ، المشمولين بلطفه ، المحفوفين برضوانه ، المغمورين برحمته ، ولكن لأنك كنت المثل الأعلى الذى ترتقى اليه البشرية عند نموها ، وتتطلع له فى تقدمها ، وتحاول أن تحتذيه ، كلما ثاب إليها الرشد ، أو عاودها الحلم ، ويتعظ فيها العقل ، وتحركت أسباب الفقه والمعرفة ، وألهمها ربها السداد والتوفيق .

والحديث فيك يارسول الله حبيب إلى النفس ، خفيف على السمع ، لذيذ رجعه كأنه الموسيقى للقلوب الظامئة ، والأفئدة الملتاعة ، والجوانح الحرى ، والأكباد المحترقة ، والأرواح المتشوقة ، لاينتهى له مدى ، ولاينقطع له جرس ، ولاينضب له معين . . ينشده الأديب فيجد فى حديثك الحكمة الغالية ، والبلاغة الرائعة ، والأسلوب القوى ، والتصوير الدقيق ، والألفاظ الفخمة ، والمنطق الحلو ، والبيان العذب ، والوجدان الصادق ، والنمط الذى لايصل إليه أساطين الكلام ، ودهاقين القول ، وجهابذة

الحديث ، وأساتذة الأدب . . ويتصفحه المصلح الاجتماعى فلايعثر فيه إلا على هدى نافع ، ودستور قويم ، وتهذيب صحيح وتقويم واضح وتوجيه سديد . . وهكذا كل جوانبك ـ يارسول الله شامخة ، وجميع جهاتك عامرة آهلة بالخصوبة ، غنية كل الغنى بالبر والمعروف ، والأمن والسلامة ، والرضا والاطمئنان ، وأنا أجد فى حديثى عنك لذة لنفسى ، ومتعة لخاطرى ، وغذاء لروحى ، وضياء لقلبى ، وشفاء لغليلى ، وإرواء لظمئى ، وإرضاء لضميرى ، فلاأسلك فى الكتابة فيك سبيل التاريخ الجامد ، ولاطريق الحوادث المألوفة ولانهج السيرة المعروفة ، ولاماتعود الناس ان يرددوه عنك ، أو يذكروه لك ، أوينسبوه إليك أو يذيعوه عنك . .

وليس هذا تخيلا يتخيله شاعر ، ولاوهما يدور بخلد فيلسوف لأن الخليقة لم تعرف رجلا لفت جيد الزمن ، وشغل أذهان الناس وحير ألباب المفكرين ، وتطلعت الدنيا إلى مافيه من أخلاق نبيلة وسجايا عظيمة ، وخلال طيبة ، وسلوك حميد ، وأدب جم ، قبل أن تعرف أنت ، فتعرف طبها وعلاجها ، وشفاءها ودواءها ، ومثلها العليا . . والدراسة التى تناولتك ـ يارسول الله ـ والآداب التى أخذت عنك ، والسلوك الذى رسمته ، والمنهج الذى بينته ، والأخلاق التى رغبت فيها ، ودعوت إليها هى الدستور الذى كانت البشرية بحاجة إليه لينير لها الطريق إلى مستقبل أفضل ، وغاية أكرم ، ومجد أنبل ، وسعادة أعظم ، وأمن أشمل ، وعدالة أكمل ، واصلاح أعمق ، وبخاصة إذا نظرنا إلى تلك البلبلة التى كان عليها العرب ، حينئذ ـ وإلى تلك الجهالة التى كانت تضرب بجرانها فى الجزيرة ، ولاسيا فى المسائل الدينية وقد كانوا فيها أشبه ببحر يموج ، أو بركان يغلى ، لاهدف يصح لهم أن يتجهوا إليه ، ولا غاية يمكن أن يقفوا عندها ، ولكنهم كانوا يعبدون الكواكب ، ويؤلهون القوة ، ويعظمون الجماد ، ولا يدينون للحق ، أو يفتحون قلوبهم للهداية ، أو ينظرون بعيونهم نحو النور أو يوجهون أفئدتهم إلى الصواب ، يشتغلون بالخرافة ويتعلقون بالباطل ، ويهتمون الاهتمام كله بالأخذ بالثأر ، والمعاقرة للخمر ، وإشباع الشهوات النازلة ، والميول الساقطة ، وليس لهم من المعارف مايساعدهم على أن تكون لهم حضارة تجعلهم فى صفوف الدول الناهضة ، أو الأمم المتقدمة ، المتطلعة إلى العمران والاصلاح ، والانتعاش واليقظة ، والسير إلى الغايات المحمودة . . وفى الحق ! إن للدهر أن يطأطىء رأسه لك ـ يارسول الله ـ إجلالا لما كان من تاريخك ، وإعجاباً بما كان من خلالك ، وإكباراً لما كنت عليه من خلق عظيم ، تجاوز حدود التقدير والاحترام . . ونحن لانشك فى أن أصحاب الدعاوى ، وأرباب المبادىء ، وحملة المشاعل ، وقادة الأمم ، وزعماء الاصلاح ـ فى كل زمان ومكان ـ لايصلون إلى غاياتهم ، أو يبلغون أهدافهم ، بنصاعة بيانهم ، وقوة حجتهم ، وسداد رأيهم ، واستقامة نهجهم ، وخلابة منطقهم ، وروعة بلاغتهم ، بمقدار مايساعدهم على ذلك سلطانهم المرهوب ، وقوتهم المخيفة ، وبأسهم المسلّط ، أو نصرة تقف إلى جانبهم ، من قرابة قريبة ، أو ولاء مسعف ، أو عصبية تدافع ، أو مال يغرى بالإقبال والرغبة ، ويعمل على تمكين النفوذ والجاه ، وإشاعة الإرهاب والخوف ، وأنت لم تنصرك عصبية ، ولم يساعدك مال كان فى يدك ، ولانفوذ أتيح لك ، غير أن سيرتك كانت قرآناً ، وحياتك كانت برهاناً ، وقد استقبلت الإنسانية حديثك الطيب استقبالها للأحداث الهامة ، والأمور الغريبة ، والمعجزات الكبرى ، وآمنت بسبب ماعرفت منك ـ أن لله سرّا يخفى على الفطنة ، ويدق على الفهم ، ويتسامى على المنطق ، ويتجاوز حدود العادات ، ويأبى

أن يخضع للمألوف ، ولايسع الناس أمامه إلا أن يردوه إلى خالق السموات والأرض ، ومدبر الكون الواسع ، والملك الفسيح العريض !!

وفيك - يارسول الله - تحكم الفقر ، وتمكن اليتم ، واستبد الجوع والحرمان ، الذى جرت به العادة مع الأطفال الذين تحيط بهم تلك الحياة ، وتلعب بهم الأحداث ، وتهز كيانهم هذه الأعاصير ، أن يموت فيهم النزوع إلى المجد ، والرغبة فى الكمال والتطلع إلى الأهداف البعيدة ، والأغراض النبيلة ، والغايات السامية ، وأنت - يارسول الله - لم يقل قائل : إن همتك كانت واهنة ، وأن عزيمتك كانت فاترة ، أو أن نهوضك كان كسيحاً أو أن نزوعك كان ضعيفاً ، أو أن طموحك كان ميتاً ، ، أو أن قناتك لانت لغامز ، أو أن نفسك ذلت لجبار ، أو أن عودك انحنى لمتسلط ، أو أن جهادك للإصلاح وقف فى منتصف الطريق أو حولته عن القصد غايات ، أو منعته عن نهايته موانع ..

وفى سلوكك منذ كنت ناعم الأظفار ، غض الإهاب ، صغير السن ، من سمت طيب - وخلق قويم ، وعقل بصير ، وفكر ناضج ، ورجولة مبكرة ، وعظمة لاتصنع فيها ولا احتيال - مايدل على ان مستقبلا باسما كان ينتظرك ، ومجدا تالدا كان يترقبك وجاها عظيما كان على موعد معك ، وأن الإرهاص الذى يسبق المعجزة يسارع إليك ، ليؤذن بالنهاية الكريمة ، والمصير العزيز ، والختام الحميد ، والتاريخ الذى يرويه الآباء للأبناء !

فلما بلغت مبلغ الرجال وكنت تقرى الضيف وتحمل الكل ، وتؤازر الحق ، وتنطق بالصدق ، وتعين على المعروف وتنصر المظلوم ، وتخفف ويلات المكروبين ، وتمتلىء نفسك الكبيرة بالمعانى النبيلة ، والعواطف السامية ، والأمانى الطيبة ، والنوايا الصادقة ، والغرائز المهذبة ، والخلال الكريمة ، والسجايا المحببة ، هالهم امرك ، وعناهم شأنك ، وظنوا ان الأيام سوف تتمخض فيك - لامحالة - عن قيصر الروم ، أو كسرى الفرس ، أو فرعون مصر ، أو حاكم مستبد قاهر ممن كانوا يسمعون عنهم من الأساطير والأخبار ، إلا أنك حين جهرت بدينك الصحيح ، ويقينك السليم ، وإيمانك القوى ، وكشفت بذلك كله - عن الحق الصراح - والسلوك السوى ، والعدل المحض ، والنهج القويم ، تضاءل فى أنظارهم كبرياء الظالمين ، وغطرسة أولئك المتعالين المتكبرين ، وتهاوت تيجان الملوك والسلاطين . وآمنوا أن هذه الدنيا التى كانت لهؤلاء لاتزيد إلى جانبا ماأعطاك الله إياه جناح بعوضة ، ولاقلامة ظفر ، ولكنها غبار يتطاير ، أو سراب يخدع ، أو وهم لاينطلى إلا على الأغرار البله ...

والعجيب الغريب أن تكون - يارسول الله - مع هذه المكانة التى كنت عليها من العظمة والمجد والسؤدد والشرف ، والجاه والرفعة ، والسيادة والعزة ، والسلطان والنفوذ ، متواضعاً غاية التواضع ، حليماً إلى أقصى نهايات الحلم ، جامعاً للمكارم كلها ، تبذل وتعطى ، وتسخو وتجود ، وتنقذ من يتورط فى شدة ، أو يشرف على هلكه ، أو يعانى جرحاً ، وربما نسيت إساءة المسىء وآثرت غيرك على نفسك ، وقابلت الشر بالخير ، والأذى بالصفح والعفو ، واللؤم بالكرم .. وكم أعلنت فى كل مناسبة أنك بشر تأكل الطعام وتمشى فى الأسواق ، وناديت فى القاصى والدانى بهذا الأدب الرفيع : (إنكم لاتسعون الناس

بأرزاقكم ، وأموالكم فسعوهم باخلاقكم)[١] لتعطيهم الأمثال منك ، والقدوة بك ، والاتباع لك ، وحاشا لخلقك ألا يكون إلا كذلك ، وماعاب أحد لك صنيعا ، أو انتقد لك سلوكك ، ولم تكن جباراً فى الأرض ، ولاقاسياً على الناس ، بل كانت دعايتك بالحسنى وهدايتك بالرفق ، واصلاحك بالحزم ، وإرشادك بالحجة وتوجيهك بالمنطق ، ونصحك باللين ، وسياستك بالحلم ، ومعاملتك بالأدب ، وحكومتك بالقسطاس ، وغضبك لله ، وغيرتك للحق ، وانحيازك إلى جانب الفضيلة ، وجهادك للإصلاح ، وحياتك للخير ، وهدفك أن تعلو كلمة السماء . .

وهكذا تكون العظمة التى لم يفرضها أصحابها بالباطل ، أو ينتهبها أهلوها بسلطان السيف ، ورهبة الملك ، وحكم القانون .

وصلى الله عليك ـ يارسول الله ـ كلما جرى ذكرك على لسانى ، أو خطر طيفك ببال إنسان ، أو ترسَّم أحد خطاك ، أو التمس مسلم هدايتكَ ، وسار على نهجك ، فإنك بحق سيد الناس وخير الخلق على الإطلاق ، ولاينكر عليك ذلك جاحد ولايمارى فيه مكابر ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[١] .

محمد صلى الله عليه وسلم

« محمد » إن هذه الكلمة ـ وحدها ـ مجردة عما يقترن بها ، أو يساق معها ، أو يجيء فى إثرها من الأوصاف والنعوت ، والأحداث والجهود ، تشيع فى الجو الذى تسبح فيه ، والفم الذى ينطق بها ، معنى من معانى السحر ، لايمكن لكائن من كان من الناس ، أن يحدده التحديد الذى يكشف عن حقيقته فى فن الموسيقى الخلابة ، ولا البلاغة الأخاذة ، ولا الجاه الذى لايتطاول إليه جاه ، أو يمكن أن يزاحمه كبرياء وجبروت المحكمين ، وغرور المخدوعين ، أو أحلام المتطلعين ، لأن المسلطين الذى يضفى على أبناء آدم أردية المهابة ، وثياب العزة ، ومسوح الإجلال والاحترام ، خلقه هو ، خلق « محمداً » لتذوب أمامه النعوت ، وتتهاوى بين يديه الأوصاف وتقصر عن الإحاطة بكماله الألفاظ ، وتقف موقف العجز عن التنوية به ، أو الكشف عنه ، بلاغة البلغاء ، وأساليب الأدباء ، ومنطق اللسن المقاويل ، ويكفى أن تمر بخاطر الواجم ، أو تجرى على لسان الواهم ، أو تملأ قلب الواعى أو فؤاد المتحدث ، أو يقع عليها نظر قارىء فى ثنايا سطور ، أو فى صفحة من كتاب ، حتى يجد أنه ـ ﷺ ـ تأخذه المهابة من جميع جهاته ، وتصيب جسمه القشعريرة التى تصيبه إذا وجد نفسه فى حضرة عظيم من العظماء الذين تملأ مجالسهم الهيبة الربانية التى لاتكون مستمدة من غطرسة مصنوعة ، ولا أبهة مكذوبة ، ولامجد مختلق ، أو نفوذ مدعى ، أو جبروت موضوع ، وإنما هى من صنع الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ، وفى تاريخه ـ ﷺ ـ مايدل على أن تيجان الملوك ، وعروش الجبابرة ، وكبرياء من كانت للدنيا بأيديهم ، والسيوف بأيمانهم ، والسلطان بحوزتهم تتساقط بين يديه ، أو يصيبها الشلل ، والجمود أمامه ، فلايجرؤ

---

(١) مسند ابى يعلى الموصلى ـ والحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى شعب الإيمان من حديث ابى هريرة

(٢) سورة القلم الآية : ٤

قوى أن يهدده ، ولايتطاول جبار أن يخيفه ، ولايمكن لشرير مهما كانت شراسته ، وحمقه أن يهز كيانه أو يزلزل بنيانه ، أو يملأ يقينه الذى كان عامراً بخالقه ، ولا أن يحسب حسابه ، أو يخشى بأسه ، أو ترتعد فرائصه منه ، وذلك لأن الذى أرسله بالبينات ، وأيده بالمعجزات ، جعله هو فى نفسه قدوة هذه الانسانية فى أخلاقه الكريمة وأدبه الجم وذكائه اللماح وعبقريته الفذة وعقله الكبير ، وقلبه الرحيم وعطفه الفطرى وحبه للخير وميله إلى البر ، وحبه على الناس وتفانيه فى الإصلاح وارتباطه بربه وتعلقه بالسماء ، وهكذا لم تبلغ لفظة من ألفاظ الأعلام ، ولا أسم من أسماء المعانى ولاكلمة من الكلمات فى ضخامة جرسها ودوى صوتها ونباهة شأنها وشهرة دلالتها وإيمان الخليقة بها - بعد لفظ الجلالة - ما بلغته تلك اللفظة « محمد » التى يتيمن بها المسلم ويعتز بها الموحد ويفاخر بها الإنسان ، ويشرف بالانتساب إليها كل من تكامل له عقله ، ونضج فيه وعيه ، وصح عنده دينه وارتقى إدراكه وشعوره ، وسلم بصره وذوقه ، وترَدده ألسنة الملايين فى بقاع الأرض وأنحاء هذا الكون ، تلذذاً بذكرها وارتياحاً لنغمتها وسروراً بمرورها على البال وخطورها بالذهن . .

ولقد عاصرت أحداث التاريخ وصيحات المصلحين ودعوات الهداية ، والتقويم على الحجة الواضحة ، والجادة الصحيحة ، فكان منها الشعاع الكاشف والضياء المساعد والنور الذى ترى به البشرية مواضع أقدامها فى طريق الخير وسبيل الحق ودرب السداد والصواب والسلامة والنجاة والرشاد والفلاح والتقدم والعمران والحضارة والنهوض والعلم والعرفان . .

ولايعنينا من هذا العنوان أن نسترسل به مع الحوادث وأن نرجع بك إلى ماعساك أن تكون قد حفظته من بطون الكتب ، أو سمعته من أفواه الرواة والقصاص ، ولا أن ننتهى بك إلى تاريخ أنت تعرفه وتعيه ، وإنما يعنينا أن نستشف ماتعطيه تلك النفس التى لايتسع لها هذا الفضاء المحدود ولاتلك الأرض المرسومة ولا هذه السماء المرفوعة ولا ذلك الكون الفانى ، وهى التى حام الفلاسفة حولها بحثاً ودرساً وتحليلاً وتعليلاً فما وصلوا إلى شىء وراء كونها خلاصة هذه الخلق وسر هذا الوجود ، ومعنى الانسانية فى هذا الإنسان الذى أرسله لتقويمها وتهذيبها ، وهدايتها وارشادها وتكريمها وإجلالها وحريتها من ذل الأسر ورق العبودية وضراوة الإقطاع وكابوس الظلم وفوضى النظم والدساتير لتكون له السيادة فى الأرض والقيادة لما فى الدنيا من باغم وناغم : ﴿ **ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا** ﴾[٢] .

ولعل هذه الجوانب فى حياته - ﷺ - من العظمة الخارقة وبخاصة فيما يتناول تلك السرعة فى انتشار العرب من وهدة التردى إلى قمة النهوض والسمو كانت موضع الدهشة عن كثير من المؤلفين القدامى فأضفوا عليه من النعوت والخلال مايتجاوزون حدود البشرية ، وهو الذى كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، ويعلن أن له مالبنى آدم من مزايا وخلال .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٧٠

وقد كنا نحمد لهؤلاء الذين يكتبون عنه طريقتهم فى الكتابة ، وأساليبهم فى الدراسة ومنهجهم فى البحث لو أنهم كانوا يحاولون أن يؤرخوا له من الحوادث وأن يجعلوا معينهم فى ذلك سيرته مع أصحابه وتواضعه لأهله وحبه لقومه وحدبه على البائسين ورفقه بالضعفاء وإيثاره لغيره ومحاولته القضاء على عناصر الفساد فى الأرض .

فإن هذا كله صدى لهمته الكبيرة وشخصيته العظمى وضميره النقى ودخيلته الطاهرة ونحيزته الشريفة ورغبته الخالصة من شوائب الفضول والزيف والتمويه والكذب والرياء والنفاق ذلك لأنه نمط لا غبار عليه فى البحث إذ هو يجرى على طريقة علم النفس الإنسانى فى تحليل السجايا والطباع وفهم الغرائز والميول ، لو خلا من تلك المبالغات التى يلتجىء إليها بعض أصحاب هذه الدراسات .

وستظل الأجيال والعصور تدرس جوانب هذه العظمة لتأخذ منها نماذج من النبل وشواهد من المكارم وملامح من البر وأساليب من الكمال ومقاييس من الخير لا تجدها الأفكار الواعية ولا العقول الناضجة إلا فى صفحاته الناصعة من تاريخه الخالد أو سيرته التى تفوح بالعطر ، وتنفح بشذى المسك ولا يرى الناس شرفاً كهذا الذى يلتمسونه منه ، ولا قربى تشفع لهم عند الله أحسن من كونهم يجعلونه وسيلتهم إليه .

وحسب « محمد » - ﷺ - أن اسمه مأخوذ من « الحمد » الذى هو نهاية جهد كل إنسان فى سعيه وآخر كدحه فى عمله وقصارى إعلان الشكر لبارئه ، إذا ترادفت عليه نعمه وغمرته آلاؤه وشمله عفوه وأحاطت به وسائل رحمته .

إذ لا يجد سبيلاً إلى الاعتراف بهذا الفضل الذى أثقل كاهله وأسعفته أسبابه وراء قوله : (**الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين**)، وليس بعد هذا الشرف الذى حظى به والمكانة التى ارتقى إليها ، واسمه نردده فى السر والنجوى والجهر والعلن مقروناً بالإجلال والاحترام : ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً** ﴾[1] .

وفى هذا كله وسام الشرف وشارة المجد وعنوان الإجلال الذى ليس بعده ولا قبله . .

يتيم رعاه الله

هل رأيت ذلك اليتيم وقد جلَّلت وجهه سحابة من الحزن أو غمامة دكناء من الشعور بالمذلة والانكسار ، إن مَرِح زملاؤه أو لعبوا أو أخذتهم نشوة من الفرح فطربوا أو جرى فى وجوههم دم الطفولة البريئة أو ماء الصبا الرقراق ، كان هو - مع ذلك كله - كأنه العود الصغير من الزرع ، جف عنه الرى وانقطع عنه الغذاء فسارع إليه الذبول وتخلت عنه الحياة إلا أنه ظل فى مكانه من الحقل يحسبه الناس حياً ويظنونه متهيئاً لمستقبل حافل بالأمانى والأحلام وهو هيكل لا يحس .

إن كنت قد رأيته ففاضت عينك بالدموع وثار قلبك من الجزع وملأت الحسرة نفسك وأسفت على تلك الإنسانية المعذبة يتخلى عنها المجتمع الظالم ، فلا يمسح عنها العبرات ولا يأخذ بيدها إلى سبيل النجاة من المهالك والسلامة من الأذى والبغض للدنيا والنفور من الحياة فذلك هو اليتيم .

وإذا كان للنجاح فى هذا الميدان الصاخب والمعترك المائج والميدان الذى يتصارع فيه على البقاء كل

(١) سورة الأحزاب : ٥٦

كائن حى وسائل من القوة ووشائج من الحيلة فإن إنكسار النفس باليتم وهوانها على الناس لا يجعل هذا النجاح نجاحاً ولا يضفى عليه الثوب الذى يظهر فيه بمظهر البهجة أو الارتياح أو لون اللذة والاغتباط .

وقد رأينا كثيراً من هؤلاء الذين فقدوا العائل وعدموا الراعى كان اليتم هو حجر العثرة فى طريقهم أو العقبة الكأداء فى سبيلها .

فكيف وقد كان « محمد » - ﷺ - مع اليتم الذى ابتلاه الله به فقيراً من المال محروماً من الغنى على أنه لو لقى مع هذا الشظف الذى كان يقاسيه مجتمعاً مهذباً أو بيئة رحيمة أو إنسانية راقية لكان له منها عزاء أو وجد فى جوارها الدواء .

وقد حدث التاريخ : أن أباه فارق هذه الدنيا بعد حمل أمه به بشهرين أثنين ، وأن أمه قد لحقت به بعد أربع سنوات من وضعه ، وأن أمه لما رأت أن تجرى على سنة العرب الذين كانوا يدفعون بأبنائهم للمراضع لينشأ الناشىء منهم على الخشونة والنبل والإباء والشرف والنجابة والشمم ، لم تجد له من ترضى بضمه إليها وولت كل امرأة بوجهها عنه بعد أن عرفت أنه لا أب له من أهل الثراء ، ولا أم له من أرباب الغنى ، وأن المرأة التى تقبل على نفسها أن تأخذه إنما تتقرب للأوثان ، أو ترمى بجهدها الذى تبذله فى وجه الشيطان ، لأن لقمة العيش لا تشترى بالمعروف والحياة لا تستقيم إلا لمن يدفع لها الثمن من المال . . ولولا أن « حليمة السعدية » صادفها الجد العاثر والفأل العاطب ، ما قبلت على نفسها أن تأخذه أو تعود إلى منزلها بصفقة المغبون ، اللهم إلا أن يكون رضاها به لدفع ما عساه أن يوجه إليها من تهمة الخيبة وعار شؤم الرجوع من غير شىء .

وقد ظل الطفل عند أمه « حليمة » وانتهى رضاعة وحبا ومشى وأكل وحده ولبس وحده ، وكان المفروض فى أمثاله من الأطفال أن يلحقوا بذويهم من الآباء والأمهات ليجدوا هنالك من رعاية الوالد وحنان الأم ما لا يمكن بحال من الأحوال أن يجدوه إلا عندهما ، وتلفت الطفل ليجد هذين فلم يجد ، فبقى فى بيت « حليمة » يمرح مع ابنها ويروح ويغدو إلى أن جاء إليه الملك « جبريل » ليشق صدره الشريف ويخرج منه تلك العلقة السوداء التى يتسرب منها الشيطان إلى النفس ، وينفذ منها إبليس إلى خواطر الناس ، ليلقى فيها ما يريد من هواجس الشر .

وكان مع « محمد » - ﷺ - فى هذه الحادثة ابن « حليمة » الذى كان فى سنه والذى كان لفرط حبه له وتعلقه به يود ألا يفارقه ، وكانت حليمة لهذه العاطفة التى كان ابنها يكنها لمحمد لا تفكر أن يعود « محمد » إلى أهله ، وبخاصة بعد أن وجدت أن قدمه عليها كانت يمناً وعيشة فى بيتها كان بركة ، وأن المراعى لغنمها قد أخصبت فزاد اللبن وكثر الخير وأن اليوم الذى لا ترى فيه هذا الطفل يملأ بيتها بنور وجهه هو اليوم الذى يكثر فيه شؤمها ويزداد بؤسها .

إلا أنها لم تفسر هذا الحادث الذى حدث لمحمد بشىء سوى أنه نكاية بها أو مؤامرة عليها وهى مشكلة - إن وقعت - لا تستطيع أن تعتذر منها لأهل هذا الطفل لذلك لم تجد مخلصاً من ذلك الضيق وراء رده لهم وتسليمه إليهم وبراءة ذمتها من أمانة كانت تتحملها . وراح الطفل إلى جده الشيخ « عبد المطلب » وكان هذا الطفل عند جده أحب الناس إليه ، يرأمه ويعطف عليه ويوفر له أسباب الهناءة والسعادة ويملأ قلبه بالرضا والارتياح . ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير لا يزال يشعر بالفراغ الواسع الذى

تخلف عن فقده لأبيه وأمه . . وعلى الرغم من الانكسار الذى كان يلازمه ما هانت نفسه ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائماً أبداً يشعر أنه يعيش فى دنيا غير دنيا الناس ويحيا فى عالم غير هذا العالم الذى يرفع درجات أهله بالمادة الحقيرة والحطام الفانى والعرض الزائل ، وما رآه راءٍ من زملائه وأقرانه إلا وحمله ترَفعه عن السفاسف وبعده عن الدنايا على أن يحترمه احتراماً يليق بأمثاله الذين يتعشقون المجد ويطلبون السؤدد .

وسبب ذلك يرجع إلى أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية قط ، وكأنما كان ينظر من عالم الغيب إلى ذلك الموقف الذى سيقفه من تلك الخرافات وهذه الحرب التى سيعلنها شعواء على تلك الخزعبلات فكان سلوكه الذى يسلكه ومعاملته التى يعامل بها من حوله على طراز من الأدب ومثال من الكمال .

ولقد حدث نفسه : أنه رفع ثوبه عن جسمه ليجمع فيه شيئاً من الحصى والحجارة ـ كما يفعل الأطفال ـ فوجد هاتفاً يزجره فى عنف بالغ وإزعاج مرعب وخوف انخلعت له نفسه فلم يَعُد بعد ذلك إلى مثلها .

وحدث أيضاً : أنه أستأذن أخاه من « حليمة السعدية » أن يترك له الغنم فى المرعى ليذهب هو ـ وحده ـ إلى عرس كان فيه لهو وطرب مما اعتاد الناس حينئذ أن يفعلوه ، فلما ذهب إلى هنالك أخذته سِنة من النوم لم ينتبه منها إلا بعد انقضاء العرس .

وفى هذا كله دليل على حفظ الله له ورعايته إياه وعنايته به .

أما تلك العظمة التى كانت تملأ جوانب نفسه فإنها تظهر كذلك فى كثير من خلاله التى كانت تسيطر عليه والتى كانت لا ترده أبداً موارد الصغار ، أوتنزل به إلى حيز الاسفاف ، ولقد كان لجده « عبد المطلب » بساط لا يجلس عليه غيره ولا يعتقده سواه وهو تقليد كان عند العرب توارثوه عن الآباء والجدود ، فإن تعدى متعد ذلك التقليد ، اعتبروه متمرداً على الأوضاع ، خارجاً على الحدود .

وقد حكوا : أن « محمداً » فى طفولته كان يتمرد على تلك السنة ويتجاوز ذلك التقليد ويسارع إلى المكان قبل أن يحتله جده « عبد المطلب » فإن وبخه أحد أو لامه لائم قال لهم عبد المطلب : دعوه ، فإن دم السيادة يجرى فى عروقه وروح المجد يملأ جوانحه والنزوع إلى الرفعة يدفع به نحو المكان العالى .

وكان الذى يملأ قلب عبد المطلب بهذا اليقين أنه رأى فى منامه رؤ يا فسَّرها له العارفون بتأويل الأحلام : أن رجلاً من صلبه تدين له العرب بالطاعة وتعرف له بالفضل وتذعن له بالشرف وتؤمن له بالسلطان .

وكذلك كان يفعل الطفل مع عمه « أبى طالب » بعد أن انتقلت كفالته إليه بموت « عبد المطلب » وهى روح إن دلت على شىء فهى إنما تدل على أن تلك النفس العالية كانت تسبق الزمن وتستعد للمستقبل وترعاها عناية خفية عن أنظار البيئة التى يعيش فيها . وربما خطر ببال إنسان أن يسأل : ولماذا اختارت العناية الإلهية هذا المخلوق الذى طحنته الحوادث وعركته الخطوب ولوَّعته صروف الزمن ونشأ تلك النشأة المليئة بالشدائد والأهوال ؟

وهو سؤ ال يعرف الاجابة عليه من يدرك أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يشأ إلا أن يشرب رسوله تلك الكأس المترعة من أول يوم لتنطبع نفسه على الرحمة ويتعوَّد قلبه على العطف وتمتزج روحه باللين ويتسع

صدره لما عساه أن يصادفه بعد ذلك من محن وهكذا يتربى الأبطال وينشأ العظماء ويحيا حياة القسوة من يريد أن تنقاد له الحوادث وتخضع له الظروف وتطاوعه الأيام والليالى .

على أن الأب والأم والناس جميعاً لم تكن إلا أسباباً ظاهرية للحدب والعطف والرعاية والشفقة والصيانة والحفظ والإرشاد والنصح ولو شاء الله لجعل أسباباً غيرها تؤدى عملها ، وتقوم بوظائفها ، تباركت آلاؤه لا نحصى الثناء عليه ولا ندرك أسراره فى خلقه ولا نفقه من قضائه وقدره إلا ما يكشفه لنا النظر الكليل والفهم المحدود والعقل القاصر وننتهى بعد هذا المطاف إلى الإيمان العميق والتسليم المطلق ، ونعوذ به من شر الوسواس الخناس . .

كان عصامياً

من أدبه الذى كان يؤدب به أمته ، وهديه الذى كان يهدى به المسلمين ، ألا يكون الرجل عالة على غيره ، وألا يقعد أحد وغيره يعمل له ، لأن اليد العليا خير من اليد السفلى ، وكان مما يتحدث به عن الأنبياء والمرسلين ! أنهم كانوا يأكلون من عمل أيديهم .

لذلك لم يعرف عنه منذ طفولته أنه استراح إلى صدقة يُتَصَدَّقُ بها عليه ، أو معونة يبذلها باذل له ، وظل حياته كلها ـ قبل البعثة ـ يعمل بالأجرة فى رعى الغنم تارة وفى التجارة تارة أخرى ليأكل من كده ويرزق من كدحه حتى لا يكون عنواناً سيئاً للأفراد الذين يعيشون على حساب غيرهم أو الجماعات التى تُشِيعُ الكسل والنوم فى الأمم .

وكان وهو فى كفالة عمه « أبى طالب » بعد أن أحس من نفسه القدرة على مزاولة البيع والشراء ـ فى التاسعة من عمره ـ يتعلق به ويلح عليه ليأخذه معه ، وكان عمه يستقبل منه تلك الرغبة بالارتياح وبخاصة بعد أن تبين له إنما يفعل هذا فراراً من التواكل وهرباً من أن ينبت لحمه من غيره .

وأول مرة تعلق به هذا التعلق هى تلك المرة التى استقبله فيها « بحيرا الراهب » فى الطريق إلى الشام وحذره من اليهود ،وأفهمه أنهم سيقتلونه إن ظفروا به ، لأن فى كتبهم نعته ، وفى شرائعهم تحديد المصير الذى يترقبهم على يديه ، وهم لهذا يجدون فى طلبه ليقطعوا عليه الرسالة وهم بذلك يكررون مأساة فرعون مع أطفال مصر حتى لا تتحقق نبوءة الكهنة الذين أخبروه أن ملكه سيزول على يد غلام يولد فى هذا الوادى ، فأمر بقتل كل مولود ذكر ، ولكن ذلك كله لم يحل دون قضاء الله وقدره ، وزال ملكه على يد « موسى » الذى تربى فى بيته ونشأ فى جواره . ولم يزل ـ ﷺ ـ على هذا الخلق يعمل لأصحاب رءوس الأموال بين مكة والشام ، وهو فى هذه الآونة الرجل المحترم والإنسان الكريم على الناس ، يتسابقون إلى طلبه ، ويتنافسون فى وده ، لأن الأمانة التى تحلَّى بها والصدق الذى غلب عليه والخبرة التى حذقها والبصر الذى كان له والخلال الطيبة التى كانت العامل الأول فى إعجابهم به وحديثهم عنه جعلتهم يعتبرون الظفر به مغنماً من المغانم التى يكون حصولهم عليها عنوان الجد السعيد والحظ الموفور . .

والسيدة « خديجة » لم تكن من دهماء الناس ولا عامة الشعب لأنها من أشراف قريش وأغنياء العرب ، وكثير من وجوه أهل مكة كان يتمنى أن يطلب يدها ويخطب ودها .

وكانت هى تقابل ذلك بالدفع والامتناع والكبرياء والصلف ، إلا أنها لم تملك أمام هذا الخلق

العظيم والأدب العالى والرأى السديد والفكر الواعى والأمانة النادرة والقلب النقى والرجولة الصحيحة إلا أن تعرض نفسها على هذا الرجل الذى لم تجد له مثيلاً بين أهلها وذويها وقومها وعشيرتها ، وليس ذلك لما بينهما من فارق السن ـ إذ كانت فى الأربعين وكان فى الخامسة والعشرين ـ ولكن لهذه المعانى النبيلة والسجايا الخليلة .

على أنه ـ ﷺ ـ لم يعرف عنه أنه ـ وقد أسلمت إليه « خديجة » هذا القياد وجعلت فى يده هذا المال ـ كان مستغلاً لنفوذه أو مغتصباً لحق سواه بل كانت يده فى هذا المال يد الأمين ونفوذه نفوذ الوكيل وتصرفه تصرف العامل لم يظهر عليه بذخ ولم يبد منه سرف ولم يخطر ـ يوماً ـ فى شكل الأعيان والوجوه ، وقد أرسله الله رسولاً وفتحت له الدنيا أبوابها فلم يخدعه زخرف من زخارفها ولم يفتنه شىء منها .

وهذه عائشة ـ رضى الله عنها ـ تحكى لنا هذا الخلق وتسجل عليه هذا الطبع وتصف لنا فيه ذلك الزهد إذ تقول : « ما شبع آل محمد ـ ﷺ ـ منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض »(١) .

ولعل بعد هذا السرد الذى سردناه من حياته ـ ﷺ ـ قبل أن يبعث الله به رسولاً إلى الناس تدرك أنه كان يأبى كل الإباء أن يعيش كَلًّا على أحد ، أو عالة على إنسان وتلك هى التى يسميها علماء الأخلاق « العصامية » ممجدين لشأنها معتزين بالإتصاف بها .

وكأنما كانت إرادته سبحانه وتعالى تقضى أن ينشأ يتيماً فقيراً لتكون هذه العصامية أبرز صفاته وأوضح خلاله ، وليكون ذلك امتحاناً لرجولته وتربية له وإعداداً لهذا المستقبل الحافل الذى كان ينتظره .

وإن الذى يقرأ تاريخه الرائع ومواقفه الخالده وثباته العجيب وبطولته الفذة وجهاده الذى كان مثلا للمجاهدين يؤمن أن ذلك لا يكون .إلا لإنسان عركته الحوادث هذا العراك وامتحنته الخطوب هذا الامتحان ، وهكذا كان العصاميون من عظماء الرجال .

وفى جزيرة العرب كانت موارد الرزق محدودة وأسباب العيش غير متنوعة وأبواب الكسب لا تكاد تتجاوز رعى الغنم والإبل وشيئاً من الزراعة فى بعض الجهات ، وكان ذلك باعثاً لقصار الهمم والعزائم أن يحترفوا قطع الطريق أو اغتصاب ما لا يملكونه من متاع سواهم ، ولهذا ظهرت بينهم جماعات السلب والنهب أمثال « عروة بن الورد » و « الشنفرى » وغيرهما ممن يسمون فى الإصطلاح « بالصعاليك » فكان هؤلاء أبغض الناس إليه ، بل كان لا يقل فى بغضه لهم وكراهيته إياهم عن بغضه للذين يستجدون إحسان غيرهم .

وعلى رغم كون دينه حث على التصدق والبذل وزكاة الأموال والزروع ، كان يرى أن هذا الذى يؤخذ من أموال الأغنياء على هذا الأسلوب قذر يتعفف عنه المسلم ، ويترفع عن أخذه كل ذى همة عالية ، وخير للرجل أن يأخذ حبله إلى الجبل فيحتطب فيبيع حتى لا يسأل الناس أعطوه أم منعوه ، ثم يقول :

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى معيشة النبى وأهله ٥٧٩/٤ رقم ٢٣٥٧

(٢) سنن الترمذى ـ كتاب الزهد ـ باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل ٥٩٠/٤ رقم ٢٣٨٠ وسنن ابن ماجة ـ كتاب الأطعمة ١١١١/٢ رقم ٣٣٤٩

« بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه »[٢] ، ويقول : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه »[١] .
ليعلم المسلم أن الذى يعيش لشهوته لا يساوى فى نظر هذا الدين أحقر الأشياء .

اعتكافه وخلوته

فى كتب السيرة كلها شبه إجماع على أنه ـ ﷺ ـ كان قبل مبعثه ميالا إلى الخلوة تواقاً إلى العزلة شديد الشغف بالانقطاع عن الناس لا يحب الصخب ولا يألف الضوضاء ولا يميل إلى الاندماج فى مجتمعات اللهو ، ولا محافل الهذر فلما تكامل وعيه ونضج عقله ودق تفكيره وقوى شعوره بالكون وخالقه والحياة ونظامها والعالم وما فيه من حيوان وإنسان ، وكان قد عرف شيئاً عن ملة أبيه « إبراهيم » ـ عليه السلام ـ صارت العبادة همة والانقطاع إلى الله ـ جل جلاله ـ شغله الشاغل .

أما حقيقة شريعة « إبراهيم » التى كان يتعبَّد بها ويعبد الله على نسقها فأمر يدخل فى باب الحدس والتخمين والظن والاجتهاد لأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها كانت شريعة تضمنت هدياً واعياً وإرشاداً قوياً وأن القرآن تحدث عنها بكونها : ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾[٢] واليهود يزعمون : أنها صورة مكررة من التوراة ، والنصارى كذلك يزعمون أنها صورة طبق الأصل من الإنجيل .

وبالغ هؤلاء وهؤلاء فى أن « إبراهيم » كان على تلك الملّة التى هم عليها ترويجاً لدينهم الذى مسخوه بالعبث وغيروه بالهوى وبدلوه بالبهتان وحرفوه بالباطل وأدخلوا فيه ما ليس فيه ، وفضح القرآن دعواهم المزورة وافتراءهم الكاذب حينما قال : ﴿ ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾[٣] .

وشريعة السماء على كل حال تهذيب وتقويم وهداية ونور ولا يمكن إلا أن تكون علاجاً للبشرية وصلاحاً لحال الإنسانية فى هذا الظلام الدامس الذى كان يخيم على الأفئدة فجعلها الوسيلة بينه وبين الله الذى امتلأ قلبه به ويقينه منه .

وهنالك تحول هربه من الناس وفراره من صخب المحافل وبعده عن ضوضاء الدهماء واعتزاله لكل مكان يضم أهل الشرك أو عُبَّاد الأوثان ، إلى تفكير عميق فى إنقاذ تلك الإنسانية الضالة والبشرية المعذبة فتطلع ببصره إلى السماء أملاً فى قبس ترسله أو ضياء يكشف له معالم الطريق ، وساقته قدماه إلى مكان عال يجعله مع الكواكب فى ارتفاعها والنجوم فى مداراتها فكان فى غار حراء يغذى فكره بالعزلة وينمى حسه بالخلوة ويرقق شعوره بالاعتكاف وطابت له هذه الإقامة ولذّت له تلك العبادة ، ورأى أن هذا العالم الروحى الذى تفتح له قلبه وانشرح به صدره وطاف فيه خياله لم تكن لتعدله لذة أو تساويه حياة ، ولذلك صار كلما فرغ زاده ذهب إلى أهله فتزود زاداً آخر ليواصل السير ويداوم العبادة ، وكانت هذه الفترة من عمر « محمد » ـ ﷺ ـ إلى جانب كونها رصيداً روحياً ضخماً امتلأ به يقينه مما ساعده على أن يهزأ بالحوادث وكانت سبباً فى أن تكون صلته بالله خير ما يُمتع به فؤاده ، ولذلك يقول فى بعض أحاديثه : « وجعلت قرة

---

(١) سنن ابن ماجه ـ كتاب الأطعمة ـ باب الاقتصاد فى الأكل ٢/١١١١ رقم ٣٣٤٩
(٢) سورة الأنعام الآية : ١٦١
(٣) سورة آل عمران الآية : ٦٧

عيني في الصلاة »[1] لأنها صلة بينه وبين ربه حيث يناجيه بحاجته ويبثه شوقه ويطلب منه الرضا ولم تكن الصلاة وحدها هي هذه الفرصة التي أرضى الله فيها خواطره وحقق بها أمانيه من ذلك الارتباط الذي يبتغيه والتعلق الذي ينشده ، بل شرع له الصوم الذي هو إمساك عن الأكل والشرب والجماع واللذة وفيه يتجلى كبح النفس بالطاعة وكفها بالحرمان وتهذيبها بالرياضة وتأديبها بالجوع ، وهو - كما ترى - سمو بالروح ، وترفع عن المادة ، وبعد عن الناس واتصال بالله لا يقل عن ذلك الذي يكون بالخلوة وتجيء من طريق التجرد عن الدنيا .

وكانت الشريعة في جملتها عناية بالروح وتطهيراً للقلب وتزكية للنفس وتربية للجوارح وكانت النية في العبادات وهي معنى وجداني بحت شرطاً في صحتها وعاملاً من عوامل قبولها ، ويحاسب الله الناس عليها يوم القيامة كما يحاسب على الأعمال سواءًا بسواءٍ « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[2] . بل إن في هذه الشريعة كثيراً من المعاني التي ترضى نزوعه - ﷺ - إلى الخلوة وميله إلى التأمل في صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ، وحث صارخ على النظر في النجوم والكواكب والصحارى والبحار والليل والنهار ، والاعتبار باختلاف الألوان والألسنة والحظوظ والأرزاق والصحة والمرض والشقاوة والسعادة ، وهي سياحة طويلة في ملكوته وسفر مترام في مدى قدرته ليكون وراء ذلك كله التسليم له بالربوبية والإذعان له بالعبودية والإيمان بأنه وحده « لا شريك له ، له الملك وله الحمد » .

ومن شعائر هذا الدين الاعتكاف في المساجد . . وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله أحد هؤلاء السبعة .

الرجل الذي تعلق قلبه بالمساجد فهو لا يغادرها إلا على شوق العودة إليها والاعتكاف فيها ، وكان - ﷺ - إذا جاء العشر الأواخر من رمضان شمر عن ثيابه واعتزل أهله ، واعتكف في المسجد .

ومن غريب المصادفات أن يكون المعتكف الأول للرسول الكريم - غار حراء - الذي كان يتردد عليه ويلتجيء إليه كلما حزبه أمر أو اشتد به هم ، هو الابتداء للفرج الذي أصابه وللخير الذي أغدقه الله عليه ، إذ عليه جاءه جبريل الأمين بالرسالة وبشره بالاختيار ، وبلغه عن ربه قوله : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[3] ثم توالى الغيث واسترسل .

قصة القراءة

جاء في البخاري وغيره من الكتب الصحاح عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « أول ما بدىء به - ﷺ - الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ثم حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلى

(١) سنن النسائي - كتاب عشرة النساء - باب حب النساء ٦٢/٧ ومسند أحمد ٣٧٣/٦ ، ٤١٧

(٢) صحيح مسلم - كتاب الإمارة - باب بيان قدر ثواب من غزا فغنم ومن لم يغنم ١٥١٥/٣ رقم ١٥٥

(٣) سورة العلق الآيات : من ١ - ٥.

خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارىء ؟ فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ؟ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى فقال : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم** ، فرجع بها رسول الله ـ ﷺ ـ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ : لقد خشيت على نفسى فقالت خديجة : كلا والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به « ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى » ابن عم خديجة ـ وكان امرأ قد تنصَّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل ما شاء الله له أن يكتب ـ وكان شيخاً كبيراً قد عمى ـ فقالت خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نَزَّل على موسى ياليتنى فيها جذعاً ، ليتنى حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : أو مخرجيَّ هم ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى »(١) .

وفى هذه القصة دليل قاطع على أن الطابع التى تتميز به تلك الشريعة عن سواها من الشرائع أنها شريعة العلم بالأحكام والفقه فى الدين والدراية الواسعة بما فى هذا الكون من أسرار خفية ، وقوى كامنة وخيرات سخرها الله للإنسان وذللها للناس ولذلك كان أول ناقوس قرع سمعه ـ ﷺ ـ هو طلب القراءة : « اقرأ » ، ومتى أزال المرء عن نفسه غشاوة الجهل وقبس من نور العلم واهتدى بالمعرفة ، كان من السهل عليه إلى حد بعيد أن يتجه إلى الخير وأن يسلك سبيل الصواب وأن يكون فى كل تصرفاته وأعماله على سنن الحق ومنطق الصدق وشرعة الإنصاف وكأنما العلم فى هذه الدنيا هو الشعاع الهادى والمصباح المنير .

وهنا لفتة جميلة لا يمر بها الذهن المرور العابر ، أو يخطر بها الخطور الخاطف ولكنه يتأملها تأمل الفاحص ويتروى فى أخذ العبرة منها تروِّى العاقل ، وتلك هى تكرار الأمر بالقراءة المرة تلو الأخرى ، ليفهمه ـ ﷺ ـ وتفهم أمته معه أن الذى يطلب الأمر العظيم لابد أن يحتال له ، ويجدَّ فيه من غير ملالة ولا سأم ، وألا يكون الإخفاق فيه ، أو عدم الحصول عليه سبيلاً إلى اليأس منه أو قطع الرجاء فيه فمن جد وجد ومن زرع حصد .

ومن أراد العلا عفواً بلا تعب قضى ولم يقض من إدراكها وطراً

وكل إنسان يدعو إلى مكرمة أو يحاول تقويم معوج أو ينادى بمبدأ من المبادىء أو يوجه جماعة من الجماعات إلى طريقة مثلى وخطة سليمة أو عمل نافع من شأنه أن تصادفه العقبات وتواجهه المصاعب وتقف فى سبيله العراقيل ، فيوطن نفسه على اقتحام ذلك كله ، والاستهانة بالجهد المبذول والتعب الحاصل والشدائد الطارئة التى يكون من أهونها المطاردة من الوطن ، والمفارقة للأهل والأصدقاء ولقد كان حديث « ورقة بن نوفل » للنبى ـ ﷺ ـ وقوله له : « ليتنى حياً إذ يخرجك قومك . . لم يأت رجل قط بمثل ما أتيت

(١) صحيح البخارى ـ كتاب بدء الوحى ١/٥

به إلا عودى » بمثابة التأويل لهذا الضم الذى حصل من جبريل إلى حد أن بلغ منه الجهد ، فإن التاريخ الذى مر به - ﷺ - والشدائد التى لاقاها والخصومات التى قامت فى وجهه والحروب التى خاض غمارها من أعداء الدعوة كانت تطبيقاً لتلك الصورة التمثيلية الرائعة التى مثّلها أمين الوحى وتصديقاً - كذلك - لقول « ورقة بن نوفل » : لم يأت رجل بمثل ما أتيت به إلا عودى » . . ولكن محمداً - ﷺ - على الرغم من الجهد الذى لاقاه من جبريل والخوف الذى اعتراه والهلع الذى أصابه وتنبؤ ورقة بإخراج قومه له وعداوتهم إياه لم يثْن ذلك من عزمه أو يفتل طموحه أو يطفىء نار الشوق إلى الغاية التى كان يترقبها وظل بعد ذلك يود أن تتكرر الحادثة وكان بصره دائماً يتطلع إلى السماء وقلبه دائماً مرتبط بغار حراء رجاء أن يتجلى الله عليه وتحفه الرحمة منه فلما فتر عنه الوحى ظلت جوانحه تغلى وفؤاده يخفق وعروقه تتمزق وأخذ اليأس من الدنيا يعاوده والكراهية للحياة تعتريه . . إلا أن كلمات خديجة التى وجهتها إليه فى ساعة الفزع - إذ قال لها لقد خشيت على نفسى - كانت فى أذنه فى كل وقت أشبه بالموسيقى الحلوة والنغم الحبيب يذكرها بينه وبين نفسه : « لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتَقْرى الضيف وتعين على نوائب الحق » ويحاول أن يطمئن إلى أن ربه أكرم من أن يخذله أو يخزيه مع ما هو عليه من خلال وما هو فيه من طاعة .

والبطولة التى تبدت فى موقف خديجة - مع أن الزوجة أجدر بالجزع وأحق من غيرها بالفزع - تدل على أن العزيمة القوية والإيمان الصادق والعقل الراجح والرأى السديد وهى بطولة تجعلنا لا نشك فى أن المرأة الكاملة للرجل بلسم جراحه ، وراحة نفسه ، وظلّ له إذ اشتدت عليه حرارة الشمس ، أو تضاعف عليه لفح الحياة ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾[1] فإن العاقل يفهم معنى قوله تعالى : « لتسكنوا إليها » تمام الفهم ، من مثل هذا الموقف الذى وقفته خديجة منه - ﷺ - والرجل تصيبه المتاعب وتعتريه الهموم وتتراكم عليه المصائب فتضيق الدنيا فى وجهه وتلتوى المسالك أمامه ، فلا يشع له بصيص النور إلا فى وجه شريكة حياته التى تمسح دموعه وتداوى آلامه وتحمل همَّه وتجفِّف مصابه ، بما تكنه له من ود ، وتضمره من إخلاص ، وترجوه من خير ، وتحلم به من أمان وآمال .

ما ودّعك ربُّك !!

على الرغم من الخوف الذى اعتراه - ﷺ - والفزع الذى أصابه والهزة العنيفة التى كادت تقصف بقواه ، لولا ما كان من أمر « ورقة » وعزاء « خديجة » فإن شعوره بالشوق الحار إلى معاودة الوحى إياه وملاقاة جبريل له - كانت تُقَصُّ عليه مضجعه ، وتملك عليه تفكيره كله ، فكان دائم الرغبة إلى تكرار ما حدث ورجوع ما كان وبلغ من حنينه إلى الملك وحبه له وظمئه إلى مشاهدته أن كان يزرع الأرض بقدميه صاعداً إلى حراء أو هابطاً منه متلفتاً هاهنا ، علّ صوتاً يسمعه ، أو نداءً يقرع أذنه أو بشيراً يقابله أو هاتفاً يناجيه أو نوراً يسطع عليه ليطمئن خاطره ، ويذهب قلقه وتتبدد وساوسه وينقض بأسه أو تنقشع

(١) سورة الروم الآية : ٢١

عن تلك السحابة من الحزن الذى كان يلازمه من جراء قالة المرجفين وحديث الشامتين الذين كانوا يملأون مكة أن محمداً قد تركه ربه وبغضه مولاه وانصرف عنه ذلك الملك الذى كان يزعم أنه ينقل له خبر السماء ويبلغه التحيات المباركات عن خالق الكون كله ، ولا يؤلم المرء أو يحز فى نفسه أو يسىء إلى شعوره ويكدر خواطره مثل الشدة بعد الفرج والإحجام بعد الإقدام ، والنقمة بعد النعمة والشر يجىء بعد الخير .

وقد ظل هذا الحرمان الذى ابتُلى به مدة يختلف المؤرخون فى تحديدها على أقوال متضاربة وآراء متباينة من أربعين يوماً إلى ثلاث سنوات إلا أنهم لا يختلفون فى أنها أشد أيام مرت به وأوجع شدائد صادفته وآلم فترات عاشها فى الحياة .

ونحن من جانبنا إنما نتصورها أسلوباً من أساليب التشويق الذى يقول عنه علماء التربية : إنه أحسن الوسائل للتعلق بالمطلوب والتلقى له والحرص عليه ووعيه وعياً لا يخامره شك ، ولا يداخله ريب وقد كانت كل خطوات جبريل معه - ﷺ - تربية وتهزيباً وتعليماً وتوجيهاً وإرشاداً ليكون منها بعد ذلك كله أحسن المواعظ والعبر « لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » .

على أن الوحى بعد هذه الفترة قد أروى ظمأه وشفى غيظه وأذهب غليله وأرضى خاطره وبدَّدَ همومه وأحزانه بما أسبغه عليه من بر وأضفاه عليه من معروف وأشاعه فيه من أمل ورجاء : **﴿ والضحى * والليل إذا سجى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فآوى * ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلا فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث ﴾**[1] ومحمد - ﷺ - بإجماع المنصفين من فحول البلاغة لا يدانيه أديب ولا يدرك شأوه فصيح ولا يجرى فى حلبته إنسان وقد وجد فى هذا الخطاب الذى وُجِّه إليه والأسلوب الذى تحدث به الوحى نمطاً من القول ولوناً من ألوان التعبير ، لا عهد له به من قبل ، سحره تصويره وخلبه بيانه ، وامتلأت منه نفسه بما له من روعة وما فيه من حسن ارتفع إلى سماء عالية فلم يسعه إلا أن يقف منه موقف الذاهل إعجاباً بتمكنه من التأثير عليه تمكناً أنساه ما كان يعانيه قبل ذلك من حرارة الحرمان ولوعة الفراق .

ولقد رأى - ﷺ - قوله سبحانه : « والضحى والليل - الآيات » خطاباً يلامس وجدانه ويثير أحاسيسه فهو يقسم له بالضحى والليل وبهما يذكر محمد ليل همه وظلام حيرته وضيق صدره وجرح نفسه وتراكم هواجس وكأنما يتخيل باقترانهما ومجىء الضحى آخذاً بتلابيب الليل : أن مع العسر يسراً ، وبعد كل ضيق فرج فيتطامن ويهدأ ويسكن ويسكت .

وفى ذلك العرض الإجمالى لتاريخه : **﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى ﴾** تأخذه الدهشة لأنه تصوير ناطق وتعبير صادق لم ينحرف عن الواقع وكأنما كان حاضراً معه ، فينتقل من تلك الدهشة التى تبعث الرهبة فى نفسه والمهابة فى قلبه إلى قوله : **﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر ﴾** فيجد الحنان الذى يملأ جوانحه لهؤلاء الضعاف ويستريح الراحة كلها

---

(١) سورة الضحى الآيات من ١ - ١١

هذه الوصية الأكيدة التى يوصيه بها ربه لأنه ذاق اليتم ، وعرف مرارة الحرمان التى قد تحمل صاحبها على ذل السؤال وكأنما يناجيه فؤاده بأن شيئاً من ذلك كله لا يكون منه ، ثم يعود إلى ذلك الصوت الذى يهز ضميره : ﴿ وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ فيحمد الله على هذا الوعد الحلو والبشارة الصادقة .

وهكذا جو من البهجة والرضا والسعادة والأمل والغبطة والارتياح ينسى بها كل شدة كانت وكل كرب كدَّر صفوه وأتعب خاطره وهو ما بين الاحتفال بشأنه والعناية بأمره والوعد له والرعاية التى تحيط به من كل جانب فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض .

لكنه - ﷺ - مع ذلك كله كان يقف فى الميدان وحده إلى أن آمنت به زوجته خديجة وصارت تصلى الصلاة التى علَّمه إياها جبريل وتسبقها بالوضوء والطهارة وتقرأ ما يقرأ من القرآن وانحصر تفكيرها كله فى الوقوف إلى جانبه بما لها وأهلها وذوى قرابتها ، وانقلبت عاطفتها له من زوجة تنظر إليه كزوج إلى مؤمنة مخلصة صادقة ، تود أن تملأ قلبه بمعان أخرى أكثر من معانى الزوجية فترضاه وترجو أن يشملها بما أفاض الله به عليه من الهدى والإرشاد وكان إحساسه منها بذلك كله يشد أزره ويقوى ساعده ويبعث فى نفسه الإيمان بأنه منتصر لا محالة طال الأمد أو قصر . .

ثم آمن به من الغلمان « على بن أبى طالب » الذى كان يتربى فى بيته والذى أراد النبى - ﷺ - بصنيعه - معه أن يرد لعمه أبى طالب بعض جميله عليه إذ كفله صغيراً بعد انتهاء كفالة عبد المطلب . . ولم يتدنس على - كذلك - بشىء من دنس الجاهلية - لذلك قيل عنه كرم الله وجهه !!

وآمن به - أيضاً - مولاه « زيد بن حارثة » ، وآمن « أبو بكر » وكان وجيهاً فى قريش يهابونه ويحترمونه ويكبرون رأيه وتفكيره فكان لإيمانه أثر بارز وفائدة عظمى حيث قفى على أثره « عثمان بن عفان » ، و « طلحة بن عبيد الله » ، و « عبد الرحمن بن عوف » ، و « سعد بن أبى وقاص » وغيرهم ممن قوى بهم ظهر النبى وصار حديث الإسلام يتهامس به العرب فى كل مجلس .

تَبَّتْ يَدَا أبى لهب

كان أبو لهب اللعين عَمًّا للنبى - ﷺ - يجمعه به آصرة الرحم والقرابة ووشيحة الحسب والنسب واللحم والدم والعرب بطبيعتهم كانوا أشد الناس غيرة على أرحامهم وأكثر حمية لأهليهم وذوى قرابتهم ولا يحتملون فيهم أذى ولا يقبلون أن يلحق بهم ضرر أو ينالهم مكروه معظم ما كان يقع بينهم من حروب ، تراق فيها الدماء وتزهق النفوس يرجع سببه الأصيل إلى الحمية للقرابة والدفاع عن العرض أو الانحياز إلى جانب النسب .

والعقل البشرى لا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا الرجل - على ما بينه وبين النبى من القرابة - يحقد عليه هذا الحقد - ويبغضه هذا البغض ويشتغل بعداوته والصد عنه والتنفير منه وإقامة الأشواك والعقبات فى طريقه إلى هذا الحد ؟!

ولقد دفعت الحمية لمحمد - ﷺ - والغيرة عليه والعصبية له « الحمزة بن عبد المطلب » وهو أخ لأبى لهب أن يعلن إيمانه بابن أخيه رداً على ما بلغه عن أبى جهل من تطاوله على محمد وسخريته منه .

فهل يدور بخلدنا أن القرابة غير القرابة والوشيحة غير الوشيحة والدم غير الدم ؟ أم أن الجهل هو الذى يطمس على البصائر ويحول بينها وبين أن ترى الحق وتتبع سبيل الرشاد ؟

ويكفى أن التاريخ الذى لا يظلم أنزل كل إنسان المنزلة التى تليق به والمكانة التى تناسبه وهذا هو أبو لهب يكوى بميسم من نار إلى جانب ذلك التشنيع الذى أصابه والعار الذى لحق به وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد وهو ازدراء وتنكيل لم يكن محمد ليقدر عليه ولا يستطيع أن يلحقه بأبى لهب، ولو كان أحد من العرب صنع ذلك الصنيع بأبى لهب لزمجر وغضب، وأقام الدنيا وأقعدها، ثم جعل الأرض ترتوى بدم القتلى، وبخاصة لذلك الازدراء الذى يجعل زوجته من الابتذال والمهانة بتلك المثابة، وللمرأة عند زوجها تقدير عظيم واحترام بالغ يجعلانه يجود لها بنفسه ويبذل فى سبيلها أغلى ما يملكه، لكن الذى فعل بأبى لهب ذلك هو جبار السموات والأرض، لهذا فإن أبا لهب ذهل ودهش، ولم يملك إلا الحقد الدفين والكيد الخفى والعداوة الكاشمة أما زوجته فقد صنعت ما تصنعه المرأة وذهبت من غيظها بسَلَى جزور ورمت به النبى - ﷺ - وهو ساجد لربه فى إحدى صلواته .

وسبب هذه القصة الطريفة أنه - صلى الله عليه وسلم - بعد أن فتر عنه الوحى وترضاه الله بعودته إليه، وكان قد آمن به أبو بكر وعثمان وسعد بن أبى وقاص وغيرهم من ذوى المكانة فى العرب، وكانت الدعوة لا تزال فى الخفاء لا يجرأ أحد على إعلانها، ولا يستطيع إنسان أن يرفع رايتها، واتخذ المسلمون دار « الأرقم بن أبى الأرقم » مخبأهم الذى يجتمعون فيه ويتدارسون لئلا يتعرضوا للأذى أو يستهدفوا للضرر وظلوا على ذلك ثلاث سنوات حتى نزل عليه الوحى بقوله جل جلاله : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾[1] عسى أن يكثر بهم سواده، أو تتمكن منزلته بينهم أو تقوى آصرته فى جوارهم فلم يسعه إلا أن يمتثل أمر مولاه، وفى هذه الآونة صعد الصفا ونادى : « يا صباحاه » ! وهى الكلمة التى كانوا يقولونها عند الدعوة للحرب والنفير للقتال وكانوا يرون تلبيتها والاجتماع بها من أوجب الواجبات وأقدس الأمور فلما سالت عليه شعاب الحى من كل ناحية وغصَّ بهم المكان، قال لهم : « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيَّ ؟ » وهنالك قالوا له : « نعم .. ما جربنا عليك كذباً ! » فقال - ﷺ - : « إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ! .. إنكم لتموتون كما تنامون ولتبعثون كما تستيقظون ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءً، وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً » وإلى هنا كان المنطق الفطرى يقضى بصحة الموقف وسلامة العاقبة وقبول الدعوى أو رفضها، لأن محمداً - ﷺ - قد أتى البيوت من أبوابها وخاطبهم بالعاطفة والعقل فى آن واحد وأخذ منهم صكا على أنفسهم بأنه صادق غير كاذب فلم يكن إصرارهم على الباطل بعد ذلك كله إلا مكابرة وعناداً كان الأليق بهم أن يتحاشوهما ولذلك كان هذا الرد من أبى لهب على الرسول الكريم : « تبا لك : ألهذا جمعتنا ؟ » ومع كونه تصويراً للطيش ودليلاً على الحمق لا يستحق إلا هذا الردع القاسى والرد المؤلم : ﴿ **تبت يدا أبى لهب وتب .. ما أغنى عنه ماله**

---

(١) سورة الشعراء الآية : ٢١٤

وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾[1] وكانت تمشى بالنبى عند قريش لتؤلبهم عليه وكأنها بذلك تحمل الحطب لتشعل به النار ، وكأن فى عنقها حبلاً من ليف لتحزم به ذلك الحطب وهو تصوير - كما ترى - يسمو على كل تصوير .

وقد كان فى الشعر الجاهلى هجاء يتناول الأخلاق والأعراض ، وينال من العلية والسفلة والكبار والرؤساء والعظيم والحقير وكان العرب يثورون الثورة العارمة لهذا الهجاء إلا أنه كان فى الكثير الغالب من النوع المبتذل أو الأدب المكشوف ، يعيب المتكلم به أكثر مما يعيب المقول فيه .

وهذا الهجاء الذى أصاب أبا لهب كان من طراز جديد ، لأنه لم يعد أن أظهره مع ماله وولده فى هيئة الذليل الحقير أمام عقاب الله له يوم القيامة ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ وأن امرأته التى هان شأنها وذهبت كرامتها وابتذل عرضها لا تعدو أن تكون فى صورة ﴿ حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ﴾ وأمام هذا التهديد المقلق والهجاء المقذع والتنكيل الشديد بأبى لهب بدأت دعوة محمد - ﷺ - ترفع رأسها وابتدأ وابتدأ المسلمون - كذلك - يسفّهون معبودات المشركين ويعيبون آلهتهم الباطلة ويعلنون أن الإسلام حق لا مرية فيه ، حتى إذا ما بلغ عددهم الثلاثين ، وكان « الحمزة بن عبد المطلب » ، و« عمر بن الخطاب » وهما دعامتان قويتان للمسلمين ، قد أسلما ، نزل عليه ﷺ قوله تعالى : ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾[2] وهنالك أخذت الدعوة طوراً آخر تجاوزت به مرحلة الهمس إلى مرحلة الإعلان .

رَجُــلانِ

رجلان كانت الدعوة الإسلامية تترقب بفارغ الصبر لحظة انحيازهما إليها ، ووقوفهما إلى جانبها يدافعان عنها ويشدان من أزرها ويجعلان كفتها ترجح على كفة الشرك والمشركين كلاهما بألف رجل أو يزيد لأن بطولته النادرة وشجاعته الفذة وصراحته البالغة من شأنها أن تجعل قريشاً تسكت عن « محمد » - ﷺ - وتخشى بأسه وتحسب لحربه ألف حساب ، أولهما « الحمزة بن عبد المطلب » - سيد الشهداء - وثانيهما « عمر بن الخطاب » - رضى الله عنه .

أما الحمزة هذا فكان سبب إسلامه غيرته على الرسول وحميته له وغضبه لأجله وكراهيته أن تنال منه يد آثمة مهما كان شأنها وقد رووا أن أبا جهل - قبحه الله وأخزاه - تلاقى بالنبى ﷺ عند الصفا فازدراه وسخر منه ، ثم لطمه على وجهه وسرى ذلك الخبر فى شعاب مكة وقابله الناس بالبشاعة والاستنكار والوجوم والسخط وعدم الرضا والارتياح ، وكان « الحمزة » فى لهو عن ذلك كله لاشتغاله بالصيد والقنص والرياضة فى الصحراء بعيداً عن العمران فلما رجع من رحلته وحضر من سفره وانتهى إليه هذا الخبر المؤلم لم يستطع الصيد ولم يقدر على الأغفاء ولم يحتمل مع كفره وكونه جندياً من جنود المعارضة لابن أخيه أن يسكت على هذا الضيم الذى أصابه فى أهله فذهب إلى المسجد وأخذ بتلابيب أبى جهل وضربه بالقوس

---

(١) سورة المسد الآيات من : ١ ـ ٥

(٢) سورة الحجر الآية : ٩٤

على ناصيته ولما شجت رأسه وسال دمه وأراد بعض أصحاب أبى جهل أن يثأروا له أمرهم أن يكفوا ، وقال لهم : أنا الباغى وعلى الباغى تدور الدوائر وأفهمهم أنه تطاول على ابن أخيه ظلماً وعدواناً .

وفى هذا الوقت لم يسع « الحمزة » إلا أن يواصل سعيه لشفاء غليله من أبى جهل وفريق المشركين أجمعين فذهب إلى ابن أخيه وأعلنه أنه منذ هذا اليوم قد صار جندياً من جنود الله فى ميدان الدعوة إلى دينه ، والدفاع عن شريعته ثم ظل إلى جانبه - ﷺ - وكان الرسول يحبه حباً لا مزيد عليه ولأن الذى قتله (وحشى) - عبد جيد بن مطعم - فى غزوة أُحد كان لا يحب أن يراه على الرغم من أنه أسلم بعد ذلك - والإسلام يجب ما قبله - ولذلك يحكى هذا القاتل عن نفسه : أنه كان أشد الناس ألماً لما كان من الرسول له وظل ذلك يحز فى قلبه ، وكان يود مخلصاً أن يرضى عنه الرسول ، ﷺ فقيض الله له أن يقتل مسيلمة فى خلافة أبى بكر فاطمأن خاطره ورجا من الله سبحانه وتعالى أن يكون ذلك إرضاءًا للنبى - ﷺ -

وثانى الرجلين « عمر بن الخطاب » الذى لم يجد الزمن بمثله فى تاريخ الاسلام والمسلمين عدالة وإنصافاً وصرامة على الباطل وتمسكاً بالحق ودفاعاً عن الدين ودفعاً لراية القرآن واعتزازاً لكلمة الله ، وإرهاباً للمشركين وإذلالاً للمعاندين وتوطيداً لدولة محمد - ﷺ - وقد كان فى كفره درعاً للشرك وسيفاً للشيطان وقوة لخصوم الدعوة وكان السبب الذى جعله يفيق من غوايته ويثوب إلى رشده ويشرح الله صدره للإسلام أنه أخذته الحمية لما فعل « الحمزة » بخاله أبى جهل فهام على وجهه وأخذ طريقه إلى « محمد » ليقتله وبينما هو فى الطريق لقيه أحد أصحابه فقال له : إلى أين يا عمر ؟ فأخبره الخبر ، فأنكر عليه القصد وقال له : كان أولى بك أن تعمل ذلك بأهل بيتك لقد صبئت أختك هى وابن عمك زوجها ! وما كان (عمر) يدرى من أمر هذا قليلاً ولا كثيراً فغلى دمه فى عروقه وبدا على وجهه الغيظ وحوّل قصده إلى أخته وابن عمه ودخل عليهما فى بيتهما وحوّل قصده إلى أخته وابن عمه ودخل عليهما كالأسد الهصور ولما أشبعهما ضرباً نظر إلى وجه أخته الذى كان يسيل منه الدم فسكن ثائره وهدأت حدته وكانت قد أخفت بعض صحائف من « القرآن » .

فقال لها : ما هذا الذى واريته عنى ؟ قالت له : إنه كلام رب العالمين فطلب منها أن تواصل القراءة ليسمع هو إلى ذلك فظلت تقرأ فى سورة (طه) إلى أن وصلت إلى قوله تباركت أسماؤه : ﴿ **إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى** ﴾[1]

وهنالك تطامن الأمر من (عمر) ، وزال غضبه وتحولت غلظته إلى رقة وكراهيته إلى محبة وجحوده إلى إيمان وأحس كأن الأرض تميد به وأن السماء تنطبق عليه وأن يوم الحساب قد حضر وأنه قذف به فى جهنم فصاح بأعلى صوته أين الطريق إلى محمد ؟ لأقتبس من نوره وأروى الظمأ من رحيقه وأمتع النفس بعذب بيانه وكان المسلمون يترقبون فى كل وقت من « عمر » أن يفتك بهم أو يتطاول عليهم لذلك أخذ كل

---

(١) سورة طه الآيات : من ١٤ - ١٦

منهم يقول : أنا أكفيكم شره وأرد عنكم عدوانه وقال النبى - ﷺ - « بل علىّ به فإنى أقدر عليه منكم » واستقبله النبى بقوله له : « أما آن لك أن تهتدى يا عمر ؟ » .

وكان رد عمر بالاذعان والتسليم والايمان والانقياد واعلان الشهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأشاع خبر انضمامه إلى معسكر المسلمين الذعر والهلع فى نفوس المشركين وأخذ المسلمون يطوفون معه على مجالس قريش ومنتدياتها ليوقعوا فى قلوبهم الرعب ولم يرض « عمر » منذ أعلن إسلامه أن يكون المسلمون فى خفية بدينهم وقال للنبى - ﷺ - : « يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ . قال له : نعم يا عمر ، فقال له : علام نرضى الدنية فى ديننا ؟ وهنالك أمر - ﷺ - بالجهر بالدعوة .

وتاريخه - رضى الله عنه - حافل بالأمجاد ، ملىء بالمكارم يعطى الصورة الرائعة عن الحاكم الاسلامى العادل ، والجندى المجهول فى مؤازرة الحق ، ومعاونة الانصاف ، وفى الوقت الذى رغم أنف كثير من المؤمنين على أبى بكر لأن تكون الخلافة له من دونهم كان هو يسانده ويساعده وينصح له ويشير عليه كان « أبو بكر » لا ينسى له ذلك ولا يغمطه بل كان دائماً أبداً كلما أنار له الطريق أو فتح فى وجهه المغلق يقول له أمام الأشهاد : « لقد كنت أولى بها منى يا عمر » ولا يرى أن ذلك يضيع كرامته أو ينزل بقدره ، أو يحمل الناس على أن يتمردوا عليه .

ولعمر فضل التحرر والانطلاق وعدم الجمود فى الشريعة الاسلامية لأنه كان - حتى والوحى ينزل - إذا لم ينقدح فى ذهنه الحكم أو لم تظهر فيه حكمة التشريع يسأل ويستوضح ولا يرضى أن يأخذه قضية مسلمة بل كان هو بنفسه مدرسة للمسلمين تعلموا منها حرية الرأى والعلة تدور مع الحكم وجوداً وعدما وأمثال ذلك من القوانين التى تدل على أن هذا الدين صالح لكل زمان ومكان .

والله يا عمىّ . . !!

كان لزاما على « محمد » - ﷺ - وقد أمره ربه بإعلان الدعوة ونشر الرسالة . وبخاصة بعد أن انضم إلى معسكره بعض الكبار أمثال « أبى بكر » « وعمر » « وعثمان » « وحمزة بن عبد المطلب » وهم قوم لهم منازلهم المرموقة ومكانتهم المحترمة ، وبعد أن صار أبو جهل واضرابه من المعاندين يشتغلون ليل نهار فى مناوأته والكيد له والتنفير منه والتشويه لدعوته لذلك أخذ يبرز فى المحافل ويذهب إلى الأسواق فيستجيب له من يستجيب .

وكانت تلك الحال أشبه بحرب باردة قامت بينه وبين قريش فصارت تؤمن إيماناً لا يخامره شىء من الريب أن مجد زعمائها مقضى عليه وجاههم فى سبيله إلى الزوال وسلطانهم آخذ فى التقلص وجبروتهم ستحطمه الأيام المقبلة لأن الدين الجديد الذى جاء به محمد - ﷺ - وإن لم يكن ملكا سيقوم على أنقاض ملكهم ولا سلطاناً سينازعهم السيادة - إلا أنه يذيب الفوارق ، ويمزج بين الطبقات وينفر من التسلط ولا يحترم الذين يقوم مجدهم على النفوذ الكاذب والثروة المغتصبة والغنى من غير الطريق المشروع ولا يملك للأنانية الجوفاء ولا الأثرة البغيضة .

وقد كانت السدانة على البيت الحرام والرياسة على العرب وحق الفصل فى الخصومة والحكم فى الديات والتقدم فى المجتمعات سمات بارزة تميزهم على غيرهم وإذا استرسل ذلك الداعى فى دعوته فسوف يكونون سوقة بين الناس لا يمتازون عن غيرهم بفضل ولا يتقدمون بجاه ولا يشرفون بحسب ولا نسب لأن « محمدا » يقول : « الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى »(١) وهنالك أجمعوا أمرهم على الوقوف فى وجه « محمد » مهما كلفهم ذلك كله من ثمن وشرعوا يتخذون مختلف الأساليب فلما أعيتهم الحيل كلها لم يجدوا إلا الالتجاء إلى « أبى طالب » ظنا منهم أنه هو الذى يحمى ظهره ويقف بجانبه فإذا تخلى عنه صار من السهل عليهم أن يردوه أو يمنعوه من المضى فى سبيله .

وكان الالتجاء إلى « أبى طالب » فى لين وسياسة وترغيب وإغراء حينا أو فى شكل تهديد ووعيد وسخط وغضب حينا آخر فمرة يعرضون عليه أن يتبنى بعض الفتيان الذين فيهم وسامة وحسن ، وقوة وجلد على أن يسلم لهم ابن أخيه ليفعلوا به ما يريدون فيقول لهم أبو طالب :

« بئس الرأى ما ترون » ومرة أخرى يمتزج الوعيد بالوعد والرغبة بالرهبة والأمن بالتخويف والرضا بالغضب ، إذ يقولون له : إن كان ابن أخيك يريد ملكا ملكناه علينا وإن كان يريد المال أعطيناه حتى لا يرجو مزيدا وعليه بعد ذلك أن يكف عن آلهتنا التى ازدراها ومعبوداتنا التى حقرها وإلا فإن لنا معك ومعه حساباً آخر وسلوكا جديداً وأبو طالب أمام هذا القول يقف موقف الحيرة ويظل يفكر فى أهله وقومه كما يفكر فى ابن أخيه الذى لا يصح له أن يسلمه أو يخذله أو يخيب رجاءه فيه وفى تيار هذه الوجدانات المتناقضة والعواطف المضطربة ، يذهب إلى (محمد) ـ ﷺ ـ ليأمره أن يكف عن إيلامه لهم وعدوانه عليهم وإحراجه إياهم وقد عرض عليه ذلك العرض السخى الذى عرضوه والعدة الطيبة التى وعدوه بها وفهم ـ ﷺ ـ من حديث عمه أنه ينوى أن يتخلى عنه ، فلا يقف له دونهم فاغرورقت عيناه بالدموع ، وأفهمه أنه يحتمى بربه ويستعين بخالقه ويعوّل على القوى القادر ، ثم قال له فى لهجة المطمئن الواثق : (والله يا عمى ، لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما رجعت عن هذا الأمر أو أهلك دونه)(٢) فرق قلب « أبى طالب » وقال له يا بن أخى قل ما شئت فوالله لا أتخلى عنك ولا أخذلك ولا أسلمك لهم . . !

ومن حق الأديب البارع والفيلسوف الماهر والناقد البصير أن يقف أمام هذه الجملة التى نبعت من فيض إيمان « محمد » بربه وصدرت عن قلب امتلأ بجلال مولاه فلم يعد فيه فراغ لسفاسف الحياة ، ولا لدنيا الناس ولا لأكاذيب الجاه أو السلطان .

ترى هل كان يتروى فى نسجها ويتأنق فى صوغها ويفكر قليلاً أو كثيراً فى تأليفها ، لتنطلق انطلاق السهم وتدوى دوى المدفع وتسير مسير الشمس فلا فم إلا وهو مرددها ولا أذن إلا هو واعيها ولا عقل إلا وهو مكبرها ويعجب بها أم أنها صدرت عن طبع وانحدرت عن سجية وحدثت من غير تكلف شأنها

---

(١) الدر المنثور للسيوطى سورة الحجرات ٧/٥٨٠

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٣٢٦ ودلائل النبوة للبيهقى ٢/١٨٧ وسيرة ابن هشام ١/٣٣٠

شأن الشهيق والزفير ، وهى وحدها تطوى ذلك التاريخ طيّا فى ماضيه وحاضره وتبرز لهذه الأمة سيرة المنقذ واضحة لا غموض فيها بسيطة لا تكلف معها .

وفى الحق أن اليقين الذى عمرت به نفسه والايمان الذى أنار بصيرته والثقة التى لا حد لها فى خالق الخلق وبارىء النسم ومصرف الكون تجعله يسخر من كل هذه المظاهر وما الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض والسماء والجاه والسلطان والنفوذ والحكم والرياسة والملك أو ما يسوى ذلك وذلك ؟ أليست كلها من خلقه جل جلاله ؟ ونتيجة حتمية لقوله : « كن » ولو شاء لأزالها وسلبها بهجتها على أن الذى امتلأت يداه بأعظم من الشمس والقمر لا يفرح بها ولا يطرب لحيازتها وقد ملأ « محمد - ﷺ - يديه برضا ربه عنه وحب مولاه له وأفعم قلبه الكبير به وهى ثروة - كما يرى - لا يكون القمر والشمس معها إلا هباء منثوراً وما المال والملك ومتاع الحياة الدنيا على اختلاف أنواعه إلا كمالا نفسياً يطلبه المرء ليجبر به نقصاً كان به أو يغطى عواراً لحقه « ومحمد » - ﷺ - كما جاء فى سورة الضحى - صنعه خالقه على عينه وأدبه سيده بأدبه وتعهده مولاه بعنايته ، وطهره بارئه من رجس الشيطان فكان قلبه نقياً وفؤاده سليماً وضميره متيقظاً وروحه عالية وهمته بعيدة وعقله رشيداً وإيماناً حمياً . . وكل هذه معان إذا أضفى الله - سبحانه وتعالى - رداءها على إنسان صار بها من الأبرار المقربين لا يف فى غرض ولا ينحرف فى قصد ولا يلتوى فى سنن ولا يقصر فى واجب ولا ينام عن مكرمة ولا يقف دون غاية .

وهذه الكلمة التى قالها (محمد) - ﷺ - إلى جانب كونها سخرية بما كان لهم من أهداف واحتقار لما كان لديهم من دنيا وازدراء لما كان عندهم من موازين ترسم للمصلح الاجتماعى التصميم الجازم الذى يصير عليه والعزيمة القوية التى يتحلى بها وإلا كان جهده هزيلاً وعناؤه ضائعاً وسعيه خائباً . . وذلك هو المنطق الذى وصل به الرسول الكريم إلى القمة وانتهى به إلى الغاية مع قلة عدده وكثرة خصومه .

عنت ومكابرة . . !!

التجأت قريش مع النبى - ﷺ - إلى العنت والمكابرة بعد أن فشلت فى كل محاولة وخابت فى كل سعى وأخفقت فى كل جهد ظناً منها أن العنت والمكابرة ينطليان على الأغرار فيتسرب اليأس إلى نفوسهم ويسرى الوهن إلى أفئدتهم ولا يكون هذا الرسول فى نظرهم إلا صورة للرجل المحرور ، أو الإنسان الأحمق ، الذى يقذف بالدعاوى طويلة عريضة من غير دليل يؤيدها أو برهان يصدقها ولم يدر بخلدهم أن زيفهم سينكشف وأن سحابة الصيف لابد أن تنقشع : ﴿ **فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض** ﴾[1] كما لم يدر بخلدهم أن الخصم الذى يلتجىء إلى السلاح الهزيل يعلن من أول وهلة عن ضيق عطفه وسفاهة رأيه وطيش عقله وأنه لا يزيد شيئاً - فى ميزان الحق - عن دموع المرأة التى تفزع إليها حينما يدركها الإعياء ويصيبها الهزيمة وهم أهل لدد ، وأرباب بيان ودهاقين منطق وأصحاب بلاغة رائعة وما كان يظن ظان أنهم سينحدرون هذا الانحدار أو يسفون ذلك الاسفاف أو يتهافتون إلى هذا الحد .

---

(١) سورة الرعد الآية : ١٧

والذى يتبع « القرآن الكريم » ليقف على ما كان منهم من عنت ومكابرة يجد الأعاجيب من أغاليطهم والأكاذيب فى دعاواهم ولعل ذلك كله يبرز بصورة واضحة إذ كانوا يتهمونه فيما يقوله عن ربه وينقله إليهم من وحيه ويزعمون أنه يمليه رومى كان يصنع السيوف بمكة لمولاه « عامر بن الحضرمى » وقد قوى هذا الزعم عندهم أن ذلك الرومى من جنس له تشريع ولقومه ثقافة ومعرفة وأن هذا الذى يجىء به - ﷺ - فيه من المنطق وله من سيما التربية والتهذيب وعليه من مسحة الأخلاق والأدب ما يروج لتلك الشبهة المدعاة وتناسوا أن ذلك الكلام الذى يقرؤه « محمد » من معين عربى بحت وبيان لعربى محض ليست عليه سحنة الترجمة ولا فيه طابع النقل وقد كان أولى بهم وهم نقدة الكلام وأصحاب الذوق الأدبى ودهاقين البلاغة أن يلتفتوا إلى البون الواسع بين الجنسين ﴿ **لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** ﴾[(١)] لكن ذلك على حد قول القائل : « كاد المريب أن يقول خذونى » ليحق الله الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين .

ولهذا كانت محاولاتهم مفضوحة حتى بينهم وبين أنفسهم وليس أدل على فضيحتهم من أن « القرآن » لسحر بيانه وعذوبة منطقه وقوة أسره ودقة تصويره كان يستهويهم جماله ويبهرهم نسجه ويأخذهم حسنة فلا يملكون أن يتحولوا عنه أو يميلوا إلى سواه وكانوا لذلك يختلسون الخطى ويتحينون أن تسنح لهم فرصة التنكر ، ليستمعوا منه بعضاً عما يقرؤه الرسول - ﷺ - حتى إذا ما فشا عليهم ذلك وعرف عنهم وخافوا أن تتمكن منهم الفرقة وأن يتحولوا جميعاً إلى مفتونين بجرسه مأخوذين بسحر ألفاظه تعاهدوا على الكف وأكدوا بينهم المواثيق على ألا يفعلوا ثم كانت النتيجة المزرية أن كان يتلاقى كبارهم متلبسين بالجريمة فإذا تعاتبوا ادعى كل منهم أنه كان يتجسس على أخيه !!

ولما كان الكتاب الكريم قد تضمن من أنباء السابقين ، قصصاً جاء بها للاتعاظ وهو نوع من التربية الحكيمة الذى يأخذ به أرقى الأمم والشعوب فى تنشئة أبنائهم كما قال سبحانه ﴿ **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** ﴾[(٢)].

وظنوا - هم - أن « محمداً » يؤلف ذلك كله من خياله ويخترعه من وهمه قصداً إلى التلهى ليلتف حوله الفارغون من العمل المتعطلون عن الوظائف بعثوا « النضر بن الحارث » ليطوف على أهل القصص من الروم والفرس ، ليعارض « محمداً » ويحول الناس عنه : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين** ﴾[(٣)] وفاتهم أن الذى يقصه « القرآن » برهان قائم على أن « محمداً » لا يدعى ما يجىء به ولا يزعم ما يحكيه :

﴿ **وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكنا أنشأنا قرونا**

---

(١) سورة النحل الآية : ١٠٣
(٢) سورة يوسف الآية : ١١١
(٣) سورة لقمان الآية : ٦

فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين . وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ [١] .

وهو تاريخ ليس عندهم علمه ولا بأيديهم كتبه ولا بين ظهرانيهم رواته : **﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾**[٢] .

وما كانوا يصدقون أن يكون الرسول من أبناء آدم بل كانوا يتوهمون أنه لا يكون إلا من الملائكة **﴿ وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ﴾** ؟ ونسوا أن الجنس أميل إلى جنسه وأن الانسان يأنس للانسان **﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾**[٣] .

فلما تبين لهم تفاهة هذا الظن وهزال هذا الرأى اتجهوا اتجاهاً آخر **﴿ وقالوا : لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾**[٤] يقصدون الوليد بن المغيرة بمكة أو أبا مسعود بن عمير سيد ثقيف الطائف وقد قطع الله عليهم السبيل بقوله : **﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾**[٥] .

أما معارضتهم للقرآن ودعواهم الإتيان بمثله على الرغم من أن كبارهم نصحوا لهم بالسكوت عنه والتسليم له ، ووصفوا بالحلاوة والطلاوة والاغداق وكثرة الثمر فإن حديثه يطول وحسبنا أن نقول : إنه تحداهم فعجزوا عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ولم يبق بعد ذلك كله إلا حديثه عن عالم الغيب من الجنة والنار والصراط والميزان والجزاء على الأعمال يوم القيامة وإعادة الأجسام بعد فنائها التى تعرض لها - ﷺ - فى دعوته ، ليوقع الرهبة فى نفوسهم والهلع فى قلوبهم عسى أن يتخوفوا المصير ويحذروا سوء العاقبة وقد كانت هذه - أيضا - محل تندر عندهم ومجال تكذيب وشك ولا سيما الشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم ليأكل منها أهل النار فيشتد بهم الظمأ ولا يجدون ماء يرتوون به مبالغة فى العذاب والإيلام **﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم ﴾**[٦] والتى جاء ذكرها فى آية أخرى فى قوله جل جلاله : **﴿ إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾**[٧] ولم يعقلوا أن تعيش شجرة فى النار أو تبقى على شدة اللهب وسبب ذلك أنهم قاسوا الدنيا على الآخرة وقدرة المخلوق على قدرة الخالق وما علموا أنه - سبحانه - على كل شىء قدير .

وقد كان (لخباب بن الأرت) دين على كافر من هؤلاء المعاندين فلما طالبه به وألح فى الطلب وكان ذلك الكافر يريد أن يتخلص منه قال له يا خباب سأدفع لك هذا الدين يوم البعث مع أن عقلاءهم تحدثوا به وحكماءهم رددوه على ألسنتهم ولم ينكره هذا الإنكار الا الملاحدة الذين كانوا يقولون - كما حكا عنهم القرآن **﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ﴾**[٨] .

---

(١) سورة القصص الآية ٤٤ : ٤٦
(٢) سورة النجم الآية : ٤
(٣) سورة الأنعام الآية : ٩
(٤) سورة الزخرف الآية : ٣١
(٥) سورة الأنعام الآية : ١٢٤
(٦) سورة الدخان الآيات : ٤٣ : ٤٦
(٧) سورة الصافات الآيتان : ٦٤ : ٦٥
(٨) سورة المؤمنون الآية : ٣٧

المُعَذَّبُونَ

لما لم تفلح قريش فى رد « محمد » - ﷺ - عن طريقه الذى سلكه ولا عن دعوته التى آلى على نفسه أن يمضى فيها إلى النهاية وقد خاب ظنها فى « أبى طالب » الذى كانت ترجو أن ينتصر لها ويضرب بسيفها أو يسلم لهم ابن أخيه إستعملت معه أقذر الأساليب فى الإيلام وأحقر الوسائل فى الكيد ولم تكتف بالسخرية منه والاستهزاء به ولا بإلقاء الأوساخ عليه وهو مار فى الطريق أو ساجد فى الصلاة أو أن يكون ذلك كله من الصبيان والنساء لا من الكبار المرموقين كعقبة بن أبى معيط أو أبى جهل وهما من المستهزئين الذين نكل الله بهم وانتقم له منهم وأراه مصارعهم الذليلة ونهايتهم المحزنة . إستعملت أقذر الأساليب لتصرف عنه أصحابه وتفرق من حوله أتباعه ليقف هو وحده بعد ذلك أشبه بالخليع المعيل ولقد نجحت فى ذلك كله إلى حد ما وأصبحت مكة ومنها من يعرفه ولا ينكره ويحترمه ولا يحقره لا تفتح أبوابها له ولا تأهل مجالسها به ولا تقبل كفارها بحال من الأحوال أن يعلن فيها محمد دعوته أو يرفع عقيدته أو يقول : لا إله إلا الله ، كما أصبح المسلمون هنالك مهددين بالردة أو معرضين لأقسى أنواع الإيلام والأذى ولقد ارتد فريق من هؤلاء الضعاف الذين أحسوا أنهم معرضون للموت وهكذا يكون العنت القذر والكيد الوضيع والخصومات الفاجرة .

إلا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لم يكن ليشك أنه هو والمسلمون معه سيلاقون الهوان ويحتملون الضيم ويمتحنون أشد أنواع الامتحان ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله** ﴾[1] . إلا أن الأيمان الصادق والعقيدة الراسخة أو الاذعان القوى حينما يمتلىء بها القلب لا يبالى صاحبها بالعذاب ولا يأبه بالموت ، وقديما آمن السحرة بموسى بعد أن عمرت ضمائرهم بهديه وضاءت بصائرهم بدينه فلما هددهم بالقتل لم يكترثوا لتهديده .

﴿ **قالوا : لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى** ﴾[1] .

وكذلك فعل أصحاب العزائم القوية من أصحاب محمد - ﷺ - فلم يفرطوا فى دينهم أو ينفضوا عن نبيهم على الرغم من الجوع والعطش والمشقات التى كانت تترادف .

فهذا هو « بلال الحبشى » مؤذن رسول الله وقد كان مملوكاً لأمية بن خلف الجمحى يلاقى من مولاه هنا ما لا تحتمله الجبال ولا تصبر عليه البغال ثم لا يؤثر فى عقيدته ولا يصرفه عن طيته ولا يجعل قناته تلين لغامزه إذ يخرجه « أمية بن خلف » إلى الرمضاء فى وهج الظهيرة ويأمره أن يلقى بجسده العارى فوقها ثم

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٤

(٢) سورة طه الآية : ٧٣

يكلفه حمل الحجر الثقيل ويقول له : « ستظل كذلك حتى تموت أو ترجع عن دين » محمد فلا يكون رده عليه إلا أن يقول : « أحدٌ أحدٌ » .

والتاريخ يحدثنا أن « أبا بكر » ـ رضى الله عنه ـ أنقذ كثيراً من الموالى أمثال « بلال » هذا ، إذ كان يشتريهم ثم يعتقهم .

ولعل إسلام الموالى وتعرضهم لهذه القسوة من أسيادهم دليل واضح على أن هذا الدين يتخطى الحواجز ويقطع الحديد ولا يغلب سلطانه جبروت الطغاة ولا إرادة المتكبرين فى الأرض بغير الحق .

وكانت قصة التعذيب هذه كالمؤامرة العامة التى تحالفوا على إنجازها من غير محاباة ولا استثناء ولذلك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتها ولا حى من الأحياء من عارها ، حتى « عمر بن الخطاب » انحدر فى ذلك قبل أن يسلم فنكل بجارية له وبالغ فى تعذيبها وطلب إليها أن تعود إلى عبادة اللات والعزى . ولم يفك خناقها ويحل وثاقها إلا شراء « أبى بكر » لها .

أما آل ياسر « عمار » وأبوه وأمه فإنهم صورة أخرى للفداء والتضحية والثبات على المبدأ والتمسك بالحق والتفانى فى ذات الله والاستهانة بكل شدة فى سبيل العقيدة التى تعمر القلب وتملأ الصدر ويحيا بها الروح فى دنيا من السعادة والبهجة والرضا استبد بهم بنو مخزوم يسومونهم الظلم ويحملونهم على الكفر وينكلون بهم التنكيل الذى تأباه الانسانية وتعافه الكرامة وتنفر منه الأخلاق والذى كان أقله التعذيب بلفح الشمس وحرارة الرمضاء الأمر الذى لم تقو عليه بنية الرجل المتهدم « ياسر » أبو عمار فلفظ أنفاسه فى زفير الحر وظمأ الكبد وجوع البطن وإيلام الروح ونصب النفس ولا سيما وقد رأى زوجته يطعنها أبو جهل اللعين فى قلبها الطعنة النجلاء التى تودى بحياتها ولبس بعد ذلك كله أسى تجيء به نفوس ناكبة عن الرشد جانحة إلى الباطل منغمسة فى الشر متناسية للأخلاق متلاعبة بأبسط قوانين الانسانية .

ولعل رسول الله ـ ﷺ ـ كان ألمه أشد وهمه أكثر وعذاب نفسه أنكى وأوجع لأنه لا يملك لهؤلاء جميعاً سوى الرثاء والإشفاق والحسرة والعناء والمضامنة واللوعة وإن كان يقول لآل ياسر : « صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة »[1] .

أو يقول لخباب بن الأرت ـ الذى تضجر من قسوة تلك المحنة فطلب منه أن يدعو الله ـ سبحانه وتعالى ـ بكشف الغمة وتفرج الكربة : (يا خباب إنكم تتعجلون ، لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشط بأمشاط الحديد فلا يرده ذلك عن دينه)[2] الحديث .

وفى الحق إنها المحنة بلغت نهايتها فى الشناعة وغايتها من البشاعة والعرب الذين كانوا يغيثون الملهوف ويتدلون المعروف ويحسنون الجوار وينكرون الظلم ويأبون القسوة ، يتلوث تاريخهم بتلك المخازى وينحدر إلى ذلك المستوى .

---

(١) المستدرك للحاكم ٣٨٨/٣ والبيهقى فى الدلائل ٢٨٢/٢ ومجمع الزوائد ٢٩٣/٩ وسيرة ابن هشام ٣٩٥/١

(٢) صحيح البخارى ـ كتاب بدء الخلق ـ باب علامات النبوة ٢٤٤/٤

أسئلة فى الذهن ينهال بعضها فى إثر بعض وتتزاحم فى الرأس دون أن تظفر بالجواب ؟ .

لكن الذى يعلم قذف النمرود لابراهيم ـ عليه السلام ـ فى النار ويتصور قصة أصحاب الأخدود التى ورد ذكرها فى القرآن ؛ ﴿ **قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود** ﴾[1] .

يؤمن أن الانسان هو الانسان فى كل زمان ومكان كما يؤمن أن الفضائل التى كان العرب يتمدحون بها لم تكن لها من الأصالة فى النفس والتمكن من القلب والرسوخ فى الخاطر ما يجعلها تمتزج بالدم وتتغلغل فى الروح فتصور الأفعال على مقتضاها صدورها عن العقيدة .

وذلك هو السر فى أن للتربية الدينية فى الأمم والجماعات جلالها واحترامها وقوتها وسلطانها وثباتها وتمكنها لأن الدين ينمى الوازع ويوقظ الضمير ويطهر القلب ويرتفع بالنفس عن الغرض والهوى والحاجة والغاية والشهرة والميل .

وهم كانوا فى حاجة إلى ذلك كله لتجرى منهم تلك الأخلاق مجرى الروح من الجسم .

هجرة إلى الحبشة

على الرغم من نكاية قريش بمحمد ـ ﷺ ـ وإيذائهم له وسخريتهم به وقطعهم الطريق عليه ، كلما هم بدعوة إنسان ، أو أعلن دينه فى محفل من المحافل أو مجتمع من المجتمعات لم يجرءوا على أن يتجاوزوا ذلك إلى قتله لأن عمه « أبا طالب » كان واقفاً لهم بالمرصاد وبنو هاشم كلهم من ورائه والاقدام على مثل هذا الطيش ويعرض قريشاً لحرب لا قبل لها بها ولا طاقة لها بمثلها فكان من الضرورى ـ عندهم ـ أن يصبوا جام غضبهم على أصحابه وأن يقضوا لهم بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله .

وهنالك أذن النبى ـ ﷺ ـ للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة وقال لهم : (إن بها ملكاً لا يظلم جاره[2] فتسللوا فى ظلام الليل ولما انتهى خبر تسللهم إلى قريش أسرعت لتقطع عليهم المنافذ وتردهم إلى مكة لتواصل الحملة عليهم وتتمادى فى تعذيبهم وتسد عليهم كل مسلك ليعودوا إلى ما كانوا عليه من الوثنية والشرك ولكن قضاء الله كان أسرع من إرادتهم ولطفه كان أسبق من حيلتهم .

غير أنهم لم يكادوا يصلون إلى الحبشة ويستقر بها قرارهم ، حتى كان الكفار قد أرسلوا إلى النجاشى « عبد الله بن أبى ربيعة » المخزومى .

« وعمرو بن العاص » وحملوهما من الهدايا للملك وللبطارقة ما عساه أن يساعدهما على الوصول إلى الغرض الذى جاءوا من أجله .

---

(١) سورة البروج الآيات : من ٤ ـ ٧

(٢) البيهقى فى دلائل النبوة ٢٨٥/٢ وتاريخ الطبرى ٣٣٠/٢ وسيرة ابن هشام ٣٩٧/١

وقد تقبل الملك والبطارقة الهدايا بالغبطة والرضا ، والسرور والارتياح فكان ذلك مشجعاً للرسولين ـ ابن أبى ربيعة وابن العاص ـ أن يقولا له : « إنه قد فر منا قوم ، تركوا دينهم الذى كانوا عليه واعتنقوا دينا جديدا يعادى الأديان كلها ويقول فى عيسى وأمه مريم قولاً لا يليق بهما » . .

اهتز الملك والبطارقة لهذا القول واعتبروه عدوانا على المسيحية وافتياناً على مقدساتهم المرعية فانتدبوا واجداً من ذلك الوفد الآبق ليناقشوه فيما نسب إليهم .

فإذا « جعفر بن أبى طالب » ينبرى لهم ويبين بياناً شافيا : أن هذين الرجلين إنما أرادا الإيقاع والدس وأن حقيقة الأمر : أن محمداً ـ ﷺ ـ جاء إليهم بعد أن طفح الكيل ، وطال الليل ، واشتد الظلم وساد البغى فى الأرض بغير الحق وفشا بين الناس الربا وكثر الزنا واسترق القوى الضعيف فكف جماح الطيش وكبح لجام الظلم وسوى بين الناس فى المعاملة وقضى على الرق ونهى عن الزنا وحرم الربا ودعا إلى أن يكون المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا .

ثم قرأ « جعفر بن أبى طالب » سورة « مريم » وفيها الاشادة بعيسى وجهده والثناء على ما كان له من هدى وتقويم وتنزيه « مريم » عن الفواحش والشهادة لها بطهارة العرض ، ونقاء النفس وبراءة الساحة وشرف المحتد وحينئذ أبى « النجاشى » والبطارقة كل الإباء أن يفرطوا فى المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة أو ليسمحوا لأى إنسان من كان أن ينالهم بسوء .

وظل هؤلاء المسلمون فى الحبشة يلاقون الرعاية والكرم والعناية والاهتمام حتى كانت الهجرة إلى المدينة وترامى إليهم إجماع الناس عليها وخروج النبى ـ ﷺ ـ وصاحبه « أبى بكر » فلحقوا بهم وشاركوهم النزوح إلى ذلك الوطن الجديد .

أما ما كان من أمر « النجاشى » والبطارقة بعد جلاء الحال لهم ـ هكذا ـ فإنهم بعثوا من قبلهم وفداً يستطلع الخبر من مكة ويدرس ذلك الحدث الذى حدث وينظر مدى تلاقيه مع المسيحية على محجة واحدة من السلوك القويم والسنن الواضح والهداية السليمة ، ثم مع هذا وذاك يشكر « محمداً » وأصحابه على ذلك التنويه العظيم بعيسى بن مريم وأمه ، وبالإنجيل الذى جاء به . وكان من هذا الوفد أن تأثر إلى حد بعيد بشريعة « محمد » ـ ﷺ ـ وأعجبه ما تأخذ به البشرية من إصلاح وما تسلكه من هدى وتعمل له من نهوض وما كاد يستمع للقرآن الكريم من النبى حتى شعر بسحره وأدرك سيطرته الغلابة على النفس وهيمنته القوية على الضمير واستدراره الغريب للدمع وسلطانه القاهر للفؤاد ولما خنقته العبرة وفاض ماءُ عينه أعلن إيمانه بمحمد وبدينة وإلى هذا يشير قوله تعالى : ﴿ **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى . ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾[1] .

---

(١) سورة المائدة الآيتان : ٨٢ : ٨٣

وفى هذه الأيام التى كانت قريش تعانى الهزيمة التى أصابتها من المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة ثم من إيمان هذا الوفد الوافد ، كذلك كان إسلام « حمزة بن عبد المطلب » ، وإسلام « عمر بن الخطاب » بعد ذلك بثلاثة أيام فطاش صوابهم أكثر وأكثر ، وأخذت منظماتهم الارهابية تزاول من جديد نشاطها فى التنكيل بالمسلمين والاسلام .

ولحق ذلك الرجل الطيب « أبا بكر » الذى كان ـ على الرغم من حبه لمحمد ومبادرته إلى اعتناق دينه ـ محترما لديهم ، موقرا فيهم ، لا يريدون أن ينالوا منه أو يعتدوا عليه ولم يجد بدا من الخروج هائماً على وجهه من الألم لا يدرى أهو ذاهب إلى الحبشة ليلحق هنالك بإخوانه من المسلمين أم هو ذاهب إلى مكان آخر .

ويرجع ذلك إلى أنه كان يقرأ القرآن أمام بيته فيتهافت عليه النساء والصبيان وقد خشيت قريش أن يكون ذلك من أبى بكر غزواً داخلياً لها فضيقت عليه الخناق وأقامت فى وجهه المتاريس وكأنه فى هذه اللحظة قد تمثلت له الآية : ﴿ **إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾[1] فأخذ طريقه إلى حيث يفارق تلك الوجوه وينأى بعرضه عن تلك الأقذار .

إلا أن رجلاً من هؤلاء الذين كانت تمتلىء نفوسهم بحبه لقيه وعز عليه أن يفارق مكة ، أو أن تخلو عرصاتها منه ، فسأله ولما عرف من أمره ما عرف ، أخذ بتلابيبه وقال له : « لا تفعل يا أبا بكر فوالله مثلك لا يخرج ولا يُخرج » ثم طاف به على مجالس قريش وقال لهم : « ليبلغ الشاهد الغائب أن هذا الرجل فى جوار « ابن الدغنة » لا يتعرض له أحد بسوء إلا كان ذلك تعرضا لابن الدغنة وعدوانا عليه » لكنهم اشترطوا على « ابن الدغنة » أن يظل أبو بكر فى قراءته للقرآن متخفيا فى داخل بيته حتى لا تعود الفتنة جذعة !

وكان الرجل يقرأ القرآن فى داخل بيته فيقتحم الأطفال والنساء الجدران ويدخلون إليه ليستمعوا لما يتلو وحينئذ عادت شكوى قريش منه وخوفها من الافتتان به فراحوا إلى « ابن الدغنة » الذى هدده بسحب جواره منه ولم يكن من هذا الرجل ـ الذى لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة مجتمعة لرجح ـ إلا أن يقول له : « افعل ما بدالك فإننى فى جوار من هو أقوى منك ومنهم ، ينصرنى ويؤيدنى ويكلؤنى ويرعانى ولا يتخلى عن جوارى . . . »

الحصار الاقتصادى

أساليب حرب الناس بعضهم لبعض كثيرة متنوعة ربما كان أهونها أن تكون وجهاً لوجه أو أن تكون حارة لا باردة وفى العصور الحديثة تلجأ الدول الكبرى فى استذلال الدول الصغرى ـ لتنال غرضها منها

---

(١) سورة النساء الآية : ٩٧

وتصل إلى غايتها التى تقصد إليها إلى ما يسمى فى لغة علماء الاقتصاد السياسى « الحصار الاقتصادى » . وهى وسيلة من وسائل الحرمان والتجويع والحيلولة بين الدولة وبين تبادل السلعة أو شرائها أو الانتفاع بها بوجه من الوجوه سدا لحاجتها وقضاءا لمصلحتها وإقامة للأسوار والحواجز دونها لتصبح أمام الضرورة الملحة والحاجة القائمة مضطرة للتنازل عن كرامتها وعزة نفسها وإبائها فلا تعارض فى سلطان يفرض عليها أو رغبة ظالمة توجه إليها كما يفعل الآن أرباب الجشع الاستعمارى والعار الأجنبى مع الشعوب التى تريد أن تتحرر من سيطرتهم أو تتخلص من نفوذهم .

وهو بعينه الذى حدث من كفار مكة مع النبى - ﷺ - والمسلمين معه حينما وجدوا أنهم استنفذوا كل جهد فى إرغامهم وبذلوا كل محاولة فى إذلالهم وقطعوا كل أمل فى إلجائهم وأن المطاردة والعنف والاستهزاء والتعذيب وغير ذلك وذلك .

لا يقف التيار الجارف الذى كانت تسير به دعوة « محمد بن عبد الله » إلى نفوس الرجال والنساء والصبيان والأطفال وأن فيهم من يتسللون إلى بيوت المسلمين ليستمعوا إلى القرآن الذى كان يترك فى نفوسهم يُقض مضاجعهم ويطارد النوم عن أجفانهم ويثير الوساوس فى قلوبهم والبلابل فى أفئدتهم .

وقد حدث الرواة : أنهم بعد أن عقدوا المجالس للمشورة وتبادلوا الرأى لعلاج موقفهم مع « محمد » انتهوا إلى معاهدة مكتوبة تربط ما بينهم وتعيد إلى حد بعيد سلوكهم مع المسلمين وكانت تلك المعاهدة تقضى ألا يزوجوهم أو يجيروهم أو يغيثوا اللهيف الذى يستصرخ بهم أو يفزع إليهم وألا يتبادلوا وإياهم منفعة من المنافع على وجه من الوجوه وأن يكون حالهم معهم حال المنبوذين واستتبع ذلك أن ينفصل كل من الفريقين فى الدار التى يعيشون فيها فكان هؤلاء المنبوذون فى شعب بنى هاشم وبنى عبد المطلب وظل الأمر هكذا ثلاث سنوات كاملة .

وقد بدا على المسلمين من هذه المحنة الهزال من الجوع والشحوب من الألم والحرمان والاصفرار من الحبس وفشت فيهم الأمراض والأوبئة ولم يكن من حق المسلمين أمام هذا الضغط والحصار أن يتجولوا أو ينتقلوا إلا فى داخل هذا السور المضروب أو السجن المحدد ، اللهم إلا فى الأشهر الحرم ليطوفوا بالبيت إذا أرادوا أو يحجوا إذا ما ابتغوا وكان النبى - ﷺ - لا يجد متنفسه إلا فى موسم الحج حين يستقبل الوافدين على البيت فيعرض عليهم الاسلام وكانت دعوته تجد طريقها إلى أفئدتهم بسهولة وكان ما يعانيه هو وأصحابه حينئذ سبباً فى عطف القلوب عليهم وميل كثير من الناس إليهم وقد سرى ذلك كله إلى صفوف خصومهم فكاد يبدد جمعهم ويفرق كلمتهم ويشيع بينهم التفكك والتخاذل .

ووقف بعض هؤلاء ليقول لقريش : إنه ليس من المروءة ولا من الرجولة ولا من الذوق والأدب أن نتمتع نحن بحقوقنا المشروعة وأن نحس بقيمة الحياة فى مرية وأن ننعم بدنيانا التى بأيدينا فى الوقت الذى يشقى إخواننا فى النسب وزملاؤنا فى الوطن وشركاؤنا فى حرم بيت الله .

فلما ذكره أبو جهل بما فى الصحيفة أبدى تمرده عليها وعدم اعترافه بها ، وقال له لم نكن حاضرين لكتابتها ولا راضين عن قيودها ثم أمن على قوله آخر وآخر ، وهكذا ، حتى كادت الصحيفة تذوب من شدة ما وجه إليها من اعتراض ورميت به من قسوة ووصفت به من مجانبة للصواب وكان النبى - ﷺ - قد وصل إليه من العلم عن طريق الوحى أن الأرضة أكلت هذه الصحيفة الظالمة والوثيقة الغاشمة فأخبر بذلك بعض أصحابه ولم يلبث الخبر أن تطاير للمشركين أنفسهم فظنوا لأول وهلة أنها إشاعات يريد المسلمون بها بلبلة الخواطر استدرارا لعطف الناس عليهم وتمهيدا لرضا قريش بعودة المياه إلى مجاريها بينهم وبين المسلمين ولكن خبيثاً من خبثائهم تسلل إلى الصحيفة فى مكانها من الكعبة ثم جاء يعلن أن ذلك الخبر لا ريب فيه وهنالك ذهلت قريش ذهولاً شنيعاً وبخاصة حينما ترامى إليها أن « محمداً » يقول : إن الأرضة لم تبق منها إلا لفظة « باسمك اللهم » وفى هذه اللحظة حاصوا حيصة حمر الوحش وأخذوا يروحون ويجيئون ويفكرون فيما عساه أن يكون . أو ما عساه أن يتميز أمام هذا الموقف الذى وقعتهم أياه الحوادث وصيرتهم إليه الأقدار على اعتبار أنه خذلان لهم وتقهقر إلى الوراء فى حرب المسلمين والقضاء على روحهم المعنوية التى كانت تدفعهم دائما أبداً إلى الغيرة على « محمد » والعصبية له والوقوف إلى جانبه والدفاع عنه والدعوة لدينه وإعلان رايته خفاقة مدوّية وقد أصبح بنو هاشم وبنو عبد المطلب يحسون بأن الصراع بينهم وبين قريش قبلى أو عصبى لا أثر للدين ولا للعقيدة فيه وصار همُّ « أبو طالب » الاهتمام بابن أخيه فى صحوة أو نومه وليله أو نهاره حتى لا تمتد إليه يد آثمة أو تتطاول عليه نفس خبيثة أو يقتله سيف ظالم ورسول الله - ﷺ - يتابع الدعوة الخافتة والجهود المكتومة وأصبح ذلك الموقف أشبه بالاعلان الصامت لذلك الدين الذى أرادوا طمس معالمه وقبره فى مهده منذ أول يوم ولادته ورأت قريش أنه لا مناص من التصريح بنقض الصحيفة المكتوبة والمعاهدة المعقودة واضطرت صاغرة إلى التنازل عن كبريائها وعاد الاتصال ورفعت قيود حظر التجول وتبادلوا السلع والحاجات الا أن النفوس كانت مع ذلك كله لا تزال تشعر بالجفوة والقلوب لا تزال تحس باللوعة والعيون لا تزال تتبادل النظر الشزر والجوانح لا تزال منطوية على الكراهية والبغضاء .

والمسلمون كانوا يشعرون أنهم فى دار غربة وهوان يتمنون من صميم أفئدتهم أن يبدلهم الله قوما خيراً من أولئك الذين يرونهم قذى فى أعينهم أو شجىّ فى حلوقهم ووطناً أحسن من هذا الوطن الذى يضيق بهم ويضيقون به حتى لقد كانت الهجرة إلى الحبشة تراودهم ليتخلصوا من ذلك العنت الذى يلاقونه .

أما محمد - ﷺ - فإنه نفض يديه من قريش وقطع أمله من مكه وظل - كذلك - يضيق ذرعاً بتلك البيئة المريضة والأرض الجدبة وكان يغدو إذا غداً ويروح إذا راح متمنياً ما يتمناه من كل معه من المسلمين أن يستبدله الله من قريش أهلاً بأهل وجيراناً بجيران .

عام الحزن

كان سند النبى - ﷺ - فى دعوته ودرعه التى يتلقى بها الأحداث ، وساعده التى يذود بها الأذى وركنه الركين الذى يعتمد عليه فى أول عهده بالرسالة حيث لم يكن حوله من سواء المسلمين من يشدُّ أزره ويقوى ظهره إذ كان يُحسُّ من نفسه بالغربة والوحشة والضعف وقلة الحيلة اثنان من الناس كلاهما بعدد ضخم وقوة هائلة .. امرأة هى خديجة ، ورجل هو عمه أبو طالب .

وخديجة لم تكن له زوجة ككل امرأة تكون تحت رجل لا هم لها إلا أن تتمتع به وتلوذ بكنفه وتحتمى بظله وتترامى بين أحضانه وتطلب فيه دائما أبداً الغنى والمال والصحة والعافية والمركز والجاه وأن يكون قلبه فى كل آن متلهفاً عليها إن غابت أو حضرت ، فإن رأت شيئاً من ذلك كله قد تحول أو نقص أو رأت أنه لم يعد فيه ما يأخذ انتباهها ، ويملك اعجابها ويشغل بالها وتفكيرها فترت شواغلها به وبردت حرارتها له ، وماتت أحاسيسها التى كانت متأججة وجعلته من تحفها القديمة أو ثيابها البالية لأنه لم يعد فتى أحلامها الذى تحن إليه وتنجذب نحوه ، لم تكن « خديجة » تلك الزوجة بل كانت أمه وأخته وأهله وعشيرته وأحب الناس إليه وكان هو عندها كل شىء تطلبه وكل حلم يدور بوهمها ويخطر ببالها ويسبح بخيالها تؤمن إيماناً جازماً بأنه يكمل نقصها ويحمل نفسها ويرضى تطلعها ويشفى أوجاعها ويملأ دنياها باليمن والبركة والسعادة والسرور لذلك كان عندها نور عينيها ونبض فؤادها وحياتها الدائبة وأملها الذى لا ينتهى فما لها فى يده وثقتها فى نفسه وقومها من حوله وأهلها وأطوع له من ظله وكأنه بها وحدها فى ألف ساعد وساعد وألف نصير ونصير وكلما غدا أو أراح كان ظلها يتابعه بالأنس والبهجة والأمل والحب والصحة والعافية والشجاعة والاقدام والظفر والغنم والفراغ الذى كانت تملؤه من قلبه لم يكن حل من قبل وهى مع هذا وهذا أم أولاده ما عدا « ابراهيم » الذى كان بعد ذلك من «مارية» القبطية .

وكان موتها عند النبى - ﷺ - فاجعة كبرى ، ومصيبة عظمى شعر بعده أن الأيام تتنكر له والمحن تصطلح عليه والمصائب تواجهه والحوادث تحاربه وزاد من الألم فى نفسه أن لم يمض على موتها هذا ثلاثة أيام حتى مات عمه « أبو طالب » كذلك ، فكان هذا العام عام الحزن - كما سماه المسلمون وسماه النبى - وأى حزن وراء هذا وأية فاجعة بعد تلك الفاجعة ولذلك روى عنه - ﷺ - أنه كان يقول : « اجتمعت على هذه الأمة فى هذه الأيام مصيبتان لا أدرى أنا بأيهما أشد جزعاً »(١) .

ونحن نعلم أن قريشا بعد موت « أبى طالب » ابتدأت تعامله معاملة أخرى . وتقف منه موقفاً جديداً وتحشد كل ما تملك من وسائل وما تستطيع من حيلة لفشل حركته وتعطل سيره وتعوق ركبه وإن

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٤/٣

كانت هذه الشدائد التى كان يلاقيها والمحن التى كان يصادفها دفعت عجلة الزمن وحركت عقرب الساعة ولفتت أذهان كثيرين إلى الدخول فى الاسلام والإيمان لمحمد - ﷺ - وهكذا الشر يأتى بالخير والضيق يكون وراءه الفرج القريب .

وعلى الرغم من أن قريشاً انتهزت فرصة موت عمه الذى كان درعه وسيفه ومِجَنّه وترسه وبرهنت بهذا على أنها تحررت من الذوق وجف معنى الحياء فيها وأصبحت تفكر فى الحد من نشاطه والقطع لأوصاله والقضاء على تحركه وانتقاله وكان هو مع هذا كئيب النفس يحاول جهده كله أن يعيش فى ذلك الجو من الحزن الذى خلّفه له موت خديجة وأبى طالب لا لأنه يئس من الدعوة وقطع رجاءه فى نصر ربه له ولكن لأنه وهو يستجيب لبشريته كان يتألم كما يتألم الناس ولذلك لم يكن أحد يراه على الحال التى كان عليها من التسلل إلى المجتمعات والتسرب للمحافل وكان دخول من يدخل فى الإسلام أشبه بالعمل الآلى والتجاوب العاطفى لم يكن لأحد فيه جهد ولا فضل .

وكأنما أراد الله - جلت قدرته - أن يبرهن للنبى - ﷺ - من طرف خفى أن هذا الصنيع الذى يصنعه قريش لا يمكن بحال من الأحوال أن يرد قدراً أو يدفع إرادة أو يحول دون تبليغ الرسالة .

وبينما الرسول الكريم من شدة ما ناله من الحزن وكثرة ما أصابه من عناء التفكير مستغرق فى ذهوله سابح فى خياله رأى نفسه متكئاً إلى جذع شجرة يقرأ « القرآن » والجن حوله يستمعون إليه فى صمت وينصتون إليه فى إعجاب ويتأملون قوله ويتدبرون هديه وكأنما هو كان ضالتهم المنشوده وحاجتهم التى ظلوا يبحثون عنها من زمن طويل وقد سجل القرآن قصتهم هذه وتغلغل الهدى فى نفوسهم : ﴿ **وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً** ﴾(١) .

وكان فى الحديث الذى صدر منهم والتفكير الذى بدأ عليهم مسحة من العقل والمنطق ، تدل على أنهم يجيدون التفكير إلى حد بعيد وبخاصة فى مثل قولهم : ﴿ **وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هرباً وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً** ﴾(٢) وكان هذا الحدث فى نظر العرب جميعاً من الذهول والغرابة بمثابة بعيدة حملتهم على أن يستغلوا بالتأمل والتفكير فى أشياء كانت لا تخطر عليهم ببال ولا تمر لهم بذهن وكان فى مقدمة ذلك فهمهم للجن وتصورهم لهم وحديثهم عن إيمانهم بالله وبحثهم عن المعرفة وجريهم وراءها وكانوا إلى هذه اللحظة يظنون فى ذلك الظنون .

وقد تناقلوا هذه القصة وأخذوا يتحدثون بأن لمحمد - ﷺ - محيطاً وراء محيطهم وأن دعوته إن لم تجد منهم انتباها ورغبة وتلقياً وقبولاً فستجد فى سواهم رضوا أم سخطوا وأنه إن كان - اليوم - يتودد إليهم فى

---

(١) سورة الجن الآيات من ٣-٥

(٢) سورة الجن الآيات من ١٢ - ١٤

هديه ويلاطفهم فى دعوته ويصفح عنهم فى ايذائهم له ومطاردتهم إياه فسيجىء اليوم الذى يكونون فيه مرغمين ويكون الأمر والنهى والحل والعقد له هو وحده وأنهم إن كانوا يقولون : أمر ابن أبى كبشة ـ أبوه من الرضاع ـ استهزاءا به وسخرية منه فلابد لهم أن يقولوا صدقا وحقاً .

وسترى البشرية كلها هذا النصر الذى يسعى إليه والسلطان الذى يتمكن له : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾[١] وحينئذ يعاودهم الندم حيث لا ينفع .

مع ثقيف بالطائف

إصغاء الجن للنبى ـ ﷺ ـ واستماعهم إليه وإعجابهم به . وتبليغ قومهم ما دعوه منه كان بالطائف وقد كانت الطائف آهلة بالوجوه والأعيان من ثقيف وكانت خيراتها من التين والعنب وسائر أنواع الفاكهة يتهادى بها الركبان ويتحدث بها الرائح والغادى وقد اختار الرسول الكريم أن تكون وجهته إليها ودعوته فيها بعد أن نقض يديه من قريش بمكة وأصبح لا يرجو عندهم خيراً ولا يترقب فى جوارهم أمنا ولا يجد بينهم هدوءاً واستقراراً .

وكان المنظور ـ وللطائف تلك المزايا ولمناخها هذا الاعتدال ولأهلها ذلك الرزق الواسع ـ أن يكون منهم من دماثة الأخلاق وحسن المعاملة وقوة الادراك وسهولة القياد ما يحقق منهم أمل النبى ـ ﷺ ـ الذى أمله منذ اللحظة الأولى لتحول وجهه إليهم إلا أن الذى أخلف الظن وجعله لا يعود من هنالك بطائل أن الطائف كانت كعبة للوثنية ومركزاً مرموقا من مراكز الشرك لأن فيها « اللات » وهى احدى نبات الله « اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ـ كما يزعمون ـ وعصبيتهم لها واعتقادهم فيها لا يمكن أن يفارق نفوسهم أو يغيب عن أذهانهم .

وتقص الأنباء أنه ـ ﷺ ـ حينما انتهى إلى الطائف واستقر بين ظهرانى ثقيف واستقبلوه استقبال الطارىء وأنسوا به أنسهم بالضيف واطمأنوا إليه اطمئنانهم لرجل حصيف الرأى بعيد النظر قوى الحجة واضح الدليل متكامل البيان استمعوا إلى دعوته إلى الله وتخويفه من المآل وتحذيره من العقاب ونصحه بالطاعة ونهيه عن المعصية ومجاهرته بضرورة المساواة ونبذ العبودية وبغض الظلم .

ثم لم يكد يصل بهم إلى أن البشرية الضالة والإنسانية المتخبطة هى التى تنحرف عن السنن وتلتوى عن القصد إذ تعبد حجراً أو تبتهل إلى جماد لا يضر ولا ينفع ورب الناس حاضر بين يديهم يرفع الضر ويكشف البلوى ويلبى دعوة الداعى إذا دعاه حتى فهموا أنه يريد بذلك أن ينتقل بهم إلى دين يحول بينهم وبين ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم فأغروا به السفهاء منهم وسلطوا عليه الصبيان .

ومازالوا به حتى أدركه الإعياء وأنهكه الجهد وخارت قواه ووجد نفسه وقد أغمى عليه ، وهو مستند إلى حائط بستان من بساتين الطائف .

---

(١) سورة النساء الآية : ٦٥

وبعد أن أخذ يضيق مما به ويصحوا من تلك الغاشية التى أصابته ابتدأ يقول مناجيا ربه : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس ! يا أرحم الراحمين ! . . أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ولكن عافيتك هى أوسع لى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك)[1] .

وهو دعاء - وإن كان عنواناً على الجزع والهلع والهوان والضعف والشدة والعسر - الا أنه تسجيل لذلك العنف الذى قوبل به ، والنذالة التى صنعوها معه وقد كان - ﷺ - يؤمن أن نصر الله يلاحقه وعنايته تسابقه ودفعه الأذى عنه ولا يمكن الا أن يكون لذلك يخاطبه خطاب المطمئن إلى وعده الواثق من لطفه الطامع فى رحمته حتى إذا ما خشى أن يكون قد تجاوز حدود الأدب معه ، سارع إلى مرضاته : (إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى) وقد كانت هذه الكلمة شعاره فى أمثال هذه الشدائد .

وقد جاء إليه جبريل عقب هذه الحادثة من غير توان ، فقال له - بعد أن سلم عليه - « إن الله قد سمع الذى قلته وسمع ما ردوا به عليك وهذا أخى ملك الجبال إن شئت أن يطبق عليهم الأخشبين فعل » .

ولكنه قال له : (لا . . يا أخى جبريل فانى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئاً)[2] .

ولعمرى لو أن انساناً آخر مع هذا الذى أصابه منهم أو ناله من إيلامهم لما وقف هذا الموقف الكريم أو عاملهم بهذا الظرف وتلك الرأفة ولكنه كان يعلم - منذ ضمه « جبريل » عند أول عهده به وقال له : (اقرأ) ومنذ قال له (ورقه بن نوفل) : (لم يأت رجل بمثل ما أتيت به ألا عودى » . أنه معرض لذلك كله ولابد له أن يلاقيه .

وقد كان فى البستان الذى اتكأ إلى جداره بعض أصحابه من الأطفال فرق قلبهم له وثارت فى النفوس منهم الشفقة عليه وبخاصة بعد أن سمعوا منه ذلك التضرع الباكى والتوسل الحزين فلم يجدوا من العزاء له إلا أن يشيروا على خادم لهم أن يقدم له عنقوداً من العنب وشربة من الماء فتناوله منه شاكراً له ولهم هذا الصنيع حتى إذا ما أخذ فى الأكل سمى الله فملك ذلك على الخادم اعجابه وحمله هذا الإعجاب أن يسأله بعض أسئلة انتهت بايمانه به وانقطاعه له وقد عاتبه مخدوموه فلم يأبه بهم أو يلتفت اليهم أو يفكر فى أن قطع لما كان بينه وبينهم من صلة الخدمة التى يتعيش منها .

ومضى رسول الله - ﷺ - ومضى معه ذلك الغلام وثالث هو مولاه (زيد بن حارثة) الذى كان معه .

ظل الرسول يفكر فى المكان الذى يتجه اليه بعد ذلك ولم يكن قد رسم الخطة التى يختطها أو الجهة

---

(١) سيرة ابن هشان - باب سفر الرسول إلى ثقيف ٧١/٢ والطبقات الكبرى لابن سعد ٢١١/١ ومجمع الزوائد ٣٥/٦
(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٣٧/٣

التى يحوّل إليها وجهه ولم يكن هنالك مفر من الرجوع إلى مكة التى كان يرجو ألا يعاود الرجوع إليها وهو لا يأمن على نفسه إذا رجع إلى مكة أن يضاعفوا له الايذاء ويواصلوا له الكيد ويدبروا له الشر وهو لم يبق فيه من الاحتمال ما يواجه له عدوانهم المنتظر ولا إيلامهم المترقب .

فكلف مولاه « زيداً » أن يسبقه إلى مكة ليبحث له عن رجل من أهل المروءة والنجدة والكرم والإباء والتفضل والأريحية . ليجيره من هؤلاء الناس فكان ذلك الرجل هو (المطعم بن عدى) الذى قبل أن يؤمنه ريثما ينكشف الغيم الذى يحيط به أو يبدو لمحمد وجهاً جديداً يتحول إليه .

وكان حدثاً من الأحداث أن يجير (المطعم بن عدى) رجلا لا يجد فى مكة كلها إلا قلوبا تغلى بالحقد عليه والكراهية له والنفور منه على أن « محمداً » - ﷺ - لم يكن ليفكر فى البقاء هنالك حتى يعرض « المطعم بن عدى » نفسه لسخطهم عليه من هذا الجوار الذى منحه لمحمد بل كان يرجو أن يبد له الله خيراً من مكة ومن أهلها .

الاسراء والمعراج

كان لتلك المعاملة القاسية التى عاملت بها قريش النبى - ﷺ - إلى درجة أن ضاق ذرعاً بمكة وأهلها فقطع الرجاء من دعوتهم ونقض يديه من جوارهم وتطلع بفؤاده المكدود ونفسه الكثيبة وقلبه الحزين إلى جو آخر يتنفس فيه الهواء النقى وينظر فيه إلى وجوه باسمة مشرقة لا تكفر له ولا تعبس لرؤيته وظل على ذلك زمنا طويلا يترقب الفرج وينتظر طلائع رحمة الله وقد كانت ذلك - مضافا إليه موت (خديجة) وموت (أبى طالب) وتلك المقاطعة الظالمة التى حاصرته بها قريش هو والمسلمين معه فى شعب بن هاشم ثلاث سنوات - سبباً فى اجهاد عنيف ونصيب قاس هدّ ركنه وفتور عظيم أصابه وتعب ليس قبله ولا بعده لحق به والأجسام إذا لم تخلد إلى السكون بعد الكدح والراحة بعد العناء والنوم بعد الصحو الطويل والسهر الدائم كلت وملت !

وقد جعل - سبحانه وتعالى - تلك الرحلة الممتعة ، ترضية لخاطره - ﷺ - ومتعة لنفسه ولذة لروحه وإظهاراً لمكانته عنده ومنزلته لديه حتى لا يتسرب إليه الشك فى أنه أفضل خلقه وأكرم أنبيائه ورسله وهو عمل أشبه بما يصنعه الملك من ملوك الدنيا إذا ما وفد عليه زائر عزيز فإنه يطوف به على قصوره الفخمة وضياعه الواسعة حيث يستقبله الناس هنالك بما يدل على اغتباطهم به وفرحهم بقدومه وإذا كانت الرحلات إلى جانب ما يكون فيها من المتعة للنفس والترويح عن الخاطر تزيد فى المعرفة وتطبق العلم على العمل فقد كان ما رآه - ﷺ - من مظاهر الكون ، واختلاف الألوان والأشكال والجزاء على أعمال الخير أو الشر وعقبى الظالم أو المتكبر والمنحرف أو المقترف تأكيداً للحقائق وتصويراً للمعاناه .

وقد ورد حديث الاسراء والمعراج بصورتين مختلفتين باختلاف الرواة فالذى يرويه « مالك بن صعصعة » غير الذى يرويه أنس بن مالك وإن كان كلاهما يتفق على أن الإسراء تقدمه ايقاظ جبريل له وشق صدره وصب وعاء من علم وحكمة فيه كما يتفق كل منهما على أن الرسل كانوا موزعين على أبواب

السماوات يستأذن عليهم « جبريل » فيقول القائل منهم : « من يطرق الباب »؟ فيرد عليه جبريل قائلا : « أنا جبريل » فيقول سادن الباب : « ومن معك ؟ » فيقول له : « محمد » فيقول ذلك السادن : « أو قد أرسل إليه ؟ » فيقول جبريل : « نعم » فيقول السادن « أهلاً بالأخ الصالح والنبى الصالح »(١) .

وأنت إذا تصورت هذا الاستقبال كله لم يرد فى خيالك ـ شيئا ما ـ عن هذا الذى تسمع به عن استعراض الجيوش لاستقبال الملوك وعظماء الدول احتفالا بقدومهم وابتهاجا بضيافتهم .

ولا تنس أنه صلى بهم فى بيت المقدس وفيهم أبوه « آدم » وأبوه « ابراهيم » وأولو العزم من الرسل وهو دليل آخر على الحفاوة البالغة والتكريم الواسع المدى .

ويقول رواة الحديث : (إن جبريل ـ عليه السلام ـ لم يتجاوز السماء السابعة ، أما هو ـ ﷺ ـ فانه ارتفع إلى (سدرة المنتهى) ورأى نبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة ثم تجاوزه إلى (البيت المعمور) وهكذا رأى ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وفى ذلك أيضا دليل آخر على أن قدره وراء هؤلاء جميعاً بما فيهم « جبريل » الذى لا يستطيع أن يتجاوز قدره أو يتخطى مكانه .

والإسراء : هو السير بالليل ومثله « السرى » وزن « هدى » وهو قطعه ـ ﷺ ـ المسافة من « المسجد الحرام » إلى « بيت المقدس » على الدابة المسماه بالبراق وكان العرب لا يقطعونها إلا فى شهر كامل يذهبون وآخر يجيئون ولذلك هالهم الأمر واستعظموا ذلك الحديث وطالبوه بالدليل على صدقه فأخبرهم أن بالطريق عيراً لبنى فلان وأخرى لبنى فلان ومن أوصافها كيت وكيت . . فطالبوه بوصف بيت المقدس فأخذ يصفه كأنما هو حاضر أمامه وهو يتحدث إليهم عن جدرانه ونوافذه وأبوابه .

وفى الحديث عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : (لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر فجلا الله لى بيت المقدس فطففت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه . .)(٢)

والقرآن الكريم تعرض لذكر الإسراء دون المعراج إذ يقول : (سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير)(٣) والسبب فى ذلك أنه تعالى كان يعلم أنه لم يكن عندهم من الكفاية والفهم ما يساعدهم على تلقى مثل هذا الخبر بالقبول وأنه مهما أتى بالأدلة على حصوله فإنهم لا يصدقونه .

على أنهم أنكرو الاسراء ـ كما علمت ـ وقالوا : لعلها رؤ يا نائم أو أوهام حالم وارتد بعضهم عن الاسلام بسببها : (وما جعلنا الرؤ يا التى أريناك الا فتنة للناس)(٤) والمعراج : هو الصعود ومنه قوله تعالى فى سورة المعارج .

---

(١) مسند أحمد ١٥٧/١ والبيهقى فى الدلائل ٣٧٢/٢

(٢) أخرجه الشيخان من حديث الزهرى وأحمد عن ابن شهاب والسيوطى عن جابر فى الخصائص الكبرى ٣٩٣/١ تحقيق الدكتور الهراس .

(٣) سورة الاسراء الآية : ١

(٤) سورة الاسراء الآية : ٦٠

(تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)[١] وقد صعد به (جبريل) من غير سلم ولا آلة أخرى يعرج عليها بل بقوة إلهية كانت تجذبه إلى فوق كأنه كان يمتطى « مصعداً » مما صنعه العلم الحديث الآن .

وللعلماء أختلاف فى حصوله للنبى ـ ﷺ ـ هل كان بجسمه وروحه أم أنه كان بروحه فقط والذين يؤيدون أنه كان بروحه فقط يقولون : إن نظرية الضغط الجوى هى التى تحدد ذلك لأن الإنسان إذا ارتفع إلى طبقة خاصة من الجو خرج دمه من مسام جسمه فمات وقد ثبت أنه ـ ﷺ ـ لم يمت من المعراج فدل هذا على أن المعراج كان بالروح فقط .

والذين يقولون : إنه كان بالروح والجسم يبطلون هذا الدليل بأنه قياس غائب على شاهد وهو باطل ، ويقولون : أنه كان معجزة من معجزاته ـ ﷺ ـ والمعجزة : هى الأمر الخارق للعادة . . ويستدلون بأن الله سبحانه وتعالى فى تسجيل هذه الحادثة قال : (سبحان الذى أسرى بعبده) والعبد : اسم للروح والجسم ولو كان بالروح فقط لما كان جديراً بالذكر ولما كان أكثر من خيال الشعراء أو أوهام الفلاسفة أو أحلام النائم) .

وفى عروجه ـ ﷺ ـ إلى السماء فرضت الصلاة خمسين صلاة فى اليوم والليلة ومازال « محمد » يذهب إلى ربه ليسأله التخفيف ـ بناء على نصيحة موسى ـ حتى كانت خمسا لا خمسين .

ومن عجيب الأمر فى حديث المعراج أنه يخص « موسى » باغرائه « محمداً » بالرجوع إلى ربه وخصه كذلك بالبكاء ، لأن رسولا بعث بعده يدخل الجنة من أمته أكثر من الذين يدخلون من أمة « موسى » .

بيعة العقبة

لم يعرف عنه ـ ﷺ ـ أنه سكت عن الدعوة أو تهاون فى أداء الرسالة ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد لا يثنيه صعب ولا يرده مستعص ولا يثنى عزيمته قاس غليظ . . وقد كان خصومه كلما حاول واحد منهم أن يغلق فى وجهه سبيلا مهد هو بجلده وكفاحه سبيلا آخر حتى لا تتوقف به عجلة المسير ولا تنقطع به حركة الجهاد .

ونحن نعلم أنهم منذ أول يوم وقفوا له وحاولوا أن يعوقوا ركبه وأن يعطلوا وظيفته ، وأن يردوه على وجهه فى كل قصد يقصده وكل طريق يبتدىء منه الخطى فإن علموا أن وافداً جاء يسأل عنه أو غريباً يسعى فى طلبه أخبروه عنه الأخبار الكاذبة وحدثوه الأحاديث الملفقة حتى لا يصل إليه أو يؤمن به .

وقد حدثوا : أن الأعشى الشاعر جاء اليه ليعلن إسلامه ومعه قصيدته التى قطعها : « ألم تغمض عيناك ليلة أرمدا) لينشدها بين يدى النبى ـ ﷺ ـ فاعترضه « عامر بن الطفيل » وقال له : يا أبا بصير إنه يحرم الزنا

(١) سورة المعارج الآية : ٤

فقال له : ما لى به من حاجة فقال له : ويحرم الخمر ، قال له : أغيب عنه إلى العام القابل حتى أرتوى منها ثم أجىء إليه وفى طريقه وهو عائد مات .

وفى الأسواق التى يقيمونها للتجارة وللأدب كعكاظ « وذى المجنة » كان يدب فى أزقتها ويندس فى طرقاتها ويمشى فى مسالكها ليدعو إلى دينه وينوّه برسالته ولا تخلو هذه الحركة كلها من فائدة حتى ولو أعرض عنه الناس أو واجهوه بالبرود وعدم الاكتراث فإنهم سيتحدثون إلى أهليهم وذويهم بما صادفوه فى أسفارهم وما لاقوه فى غربتهم ولذلك كانت الأبواق من كل جهة وفى كل مكان تتحدث عن حدث جديد ورسالة جديدة وكان ذلك بمثابة التهديد لما سيكون من تبليغ ومعرفة واذعان وقبول .

والمؤرخون يعتبرون أن بوادر انتصار الاسلام ودخول دعوته فى مرحلة جادة قوية فى أفق أوسع ونطاق أرحب كان من « بيعة العقبة » وهى منسك من مناسك الحج حيث ترمى الجمار وهى عقبة أولى وثانية وثالثة .

وتفصيل ذلك : أنه - ﷺ - كما كان يدعو فى الأسواق كان كذلك فى أيام الحج فيلتقى بالناس فى موسم الحج ويتعرف على كبارهم وذوى المكانة فى أهليهم وعشيرتهم ولما بدا له أن يفعل ذلك والتقى بنفر من « الأوس » بايعوه على السمع والطاعة والنصرة والكف عن المحارم وكان عدد هذا النفر ستة فسط .

ثم حضر فى العام الذى بعده فى موسم الحج - أيضا أثنا عشر رجلاً ، بايعوه عند (العقبة الثانية) لهم ولنسائهم الذين تركوهم فى المدينة وفى العام الثالث حضر من الأوس والخزرج وفد ثالث مؤلف من ثلاثة وسبعين رجلا بايعوه عند العقبة الثالثة على كل نصرة وعلى حرب الأسود والأبيض ورغبوا إليه أن يتخذ « المدينة » موطنا له لتطلع منها شمس الدعوة رائعة وهاجة على العالم كله من غير أن يحجب نورها حجاب أو يقف فى سبيلها جهول أو يصد انبساط ضيائها أحمق .

ولما سرى خبر هذا العرض الطيب ذهب جماعة من قريش إلى أولئك الضيوف الحاجين إلى بيت الله الحرام ا وعتبوا عليهم أشد العتب أنهم يأخذون عدوهم من بينهم ليحموه فى بلدهم ويصونوه من خصم يطلبه أو غريم يبحث عنه فى الوقت الذى يفكرون هم فى قتله ليستريح العالم من شروره .

وقد أكد الوفد لقريش أن شيئا من ذلك لا يكون وحينئذ تسلل هذا الوفد إلى المدينة وشاع الخبر فى أثرهم أنهم خدعوا قريشا بهذا الرد الذى ردوا به عليهم وأن الخطة التى دبروها مع (محمد) والعهد الذى أخذوه عليه هى أن يتخذ (المدينة) منارة للرسالة وموطناً للدعوة وأنه هو جاد فى ذلك وأنهم هم جادون فى نصرته والعمل فى صفوفه .

وكان النبى - ﷺ - منذ بايع الوفد الأول ، قد أرسل اليهم « مصعب بن عمير » يعلمهم القرآن وينير لهم بعض المسائل التى تشتبه عليهم فى الدين .

وكان اليهود بالمدينة يهددون الأوس والخزرج بأنهم سيظفرون بهم وينتصرون عليهم بالنبى الجديد الذى سيسارعون إلى اعتناق دينه عندما يصل اليهم خبره فكان هذا عاملاً من عوامل سريان الدعوة بسرعة

إلى صفوف الأوس والخزرج حتى لا يسبقهم اليهود باتباعه والإيمان به وبذلك يتمكنون منهم ويظهرون عليهم ويكيدون لهم .

ولم يكن شيء من ذلك خافيا على قريش فأخذت تتوجس من الخوف وتضطرب من الفزع وتدرس من جديد الموقف الذى يجب عليها أن تقفه من (محمد) حتى لا يفلت من يدها ليستعد للوثبة عليها والنيل منها ولا يصدم ما دام ماضيا فى سبيله هذا المعنى ـ أن يزحف عليهم بجيش من العرب لا قبل لهم برد ولا طاقة لهم بالوقوف فى طريقه .

ونحن نعلم من سيرنا مع الحوادث ووقوفنا على الخطوات التى سلكوها معه من قبل ـ على الرغم من الكيد العنيف والأذى المتلاحق ـ أنهم كانوا يتهيبون قتله ويعتبرون الإقدام عليه إقداماً على عمل طائش وتصرف خاطىء أو غير سديد لذلك تجنبوه ولم يقبلوا مشورة من كل يشير عليهم به تفاديا من عداوة بنى هاشم وبنى عبد المطلب لكنهم أصبحوا مع « محمد » على حال تحتم عليهم أن يفكروا فى قتله لأنه بسلوكه الذى يسلكه ونهجه الذى ينتهجه منعه إلى قتلهم من غير شك والحصانة تقضى إذا تجهز لك عدوك أن تتجهز له وإذا خطا خطوة إلى حربك أن تخطو مثلها إلى حربه : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وقد أيقنت قريش بذلك كله منذ أدبر عنها وفد الثلاثة والسبعين وأن عليها أن تحتاط للشر قبل أن يقع الا أن هذا الشر الذى سيقع شر شائك ودفعه بمثله أكثر شوكاً والحرج الذى تتوقعه من قتل (محمد) قائما لكن محمداً سيقتلها إن لم تبادر هى بقتله لذلك وضعت هذا الموقف موضع الدرس وأخذت تقلبه على وجوهه كلها . لتجعل بنى هاشم وبنى عبد المطلب أمام الأمر الواقع ـ كما يقولون ـ حتى لا يفكروا فى الثأر له إذا قتل .

فقال قائل : نربطه على ظهر بعير أهوج يضل به فى الصحراء ليموت من الجوع والعطش فسفهوا رأيه وقالوا له : إنه لا يعد بمنطقة الحلو وبيانه العذب أن يجمع عليه الجموع التى تتأثر بقوله وتشفق لحاله وتعطف عليه وتفك هذا الوثاق الذى يعانيه .

وقال آخر : نحبسه فردوا عليه يشبه ماردوا به على سابقه .

وكان رأى أبى جهل : أحزم هذه الآراء وأحكمها لأنه قضى أن يأخذوا من كل قبيلة فتى جلداً قويا ثم يجمعوا هؤلاء الفتيان ليضربوه ضربة رجل واحد وبذلك يتفرق دمه فى قبائل العرب جميعاً فلا يستطيع قومه أن يثأروا له .

وبينما كانوا يعملون ـ جادين ـ لانجاز ما وصلوا إليه من تفكير كان المسلمون فى الحبشة ، والمسلمون فى مكة قد أخذوا طريقهم إلى « المدينة » وكان على ـ كرم الله وجهه ـ فى المكان الذى كان ينام فيه رسول الله ـ ﷺ ـ نائما على سريره وكان الرسول مع (أبى بكر) قد خرجا من مكة .

الهجـــرة

لم يكن من الحتم على « محمد » ـ ﷺ ـ أن يبقى بمكة وقد تبين له أنها لم تعد صالحة للدعوة ولا مرجواً

من أهلها الخير وبخاصة بعد أن أوصى الله ـ سبحانه وتعالى ـ إليه هذا الشر الذى يبيتونه له والغدر الذى تنطوى نفوسهم عليه بل إن بقاءه مع هذه الاعتبارات كلها عبث لا يليق به وخطأ ليس له أن يفعله .

ولا يصح أن تؤول هذه الهجرة بأنها فرار من الميدان أو هرب من المسئولية لأن الفرار إنما يكون فراراً إذا تأكد صاحبه أن الصمود نبل والبقاء شجاعة والمنازلة بطولة والحرب مصلحة والاستماتة فناء فى الحق وكذلك المسئولية انما تكون مسئولية إذا كانت جديرة بالتحمل .

لكن المسألة لا تعدوا أن يكون الجو غير ملائم والظروف ليست مناسبة والشأن فى ذلك شأن طلب الثمرة من الأرض السبخة أو الباحث عنها فى غير أوانها فإن المنطق يحكم عليه بالطيش ويصفه بالغته وهكذا كان كفار مكة كالأرض السبخة التى تلفظ الحب وتنكر البذور و لايجدى معهم محاولة ولا جهد .

على أن الرسول الكريم لم يكن مرسلا اليهم وحدهم مرتبطا بعجلتهم أو تتعمد مصيره بهم أو يعيش تحت رحمتهم ـ كما يقولون ـ وإنما هو مرسل للأحمر والأسود والعرب والعجم يسافر ويقيم ويتحمل ومن حقه أن يجعل مكة مقراً له وفى هذه الهجرة ظهر أنه ـ ﷺ ـ من كبار الساسة الذين لا يغلب دهاؤهم ولا يضعف احتمالهم ولا تضيع جهودهم ولا يخدع لأيهم ولا يطيش صوابهم وقد تبين ذلك كله فى أمور : منها تركه عليا ـ كرم الله وجهه ـ مكانه متغطيا ببردته الخضراء التى كانوا يعرفون أنها تلازمه ولا تفارقه ليظنوا انه لا يزال فى مكانه نائما كعادته فإن حاولوا أن يداهموا كان الأمر على غير ما يتوقعون والشأن على خلاف ما يقصدون وحيل بين ما يشتهون ولذلك ذهلوا حينما علموا أن النائم « على » وكانت هذه أول هزيمة أصابتهم فى الصميم وجعلت روحهم المعنوية هزيلة كئيبة ولم يشكوا عندها أنه قد سقط فى أيديهم .

ومنها أنه لم يترك مكانه لعلى الا وهم يرصدونه أمام بيته . . وقد طلع عليهم وهم فى سنة من النوم فرمى التراب على وجوههم ، وفوق رؤوسهم قائلا : (شاهت الوجوه) إذلالاً لهم واحتقاراً لشأنهم ولذلك تكامن كبرياؤهم وتضاءلت عظمتهم وبدأ على وجوههم الصغار والخزى .

ومنهم أنه لم يخرج من مكة الا فى النهار ليسجل عليهم فشل محاولاتهم التى حاولوها وبطلان تآمرهم الذى اجتمعوا له وفكروا فيه ودرسوه دراسة خاصة وقلبوه على وجه يحتمله وذلك لأنه نام فى غار « ثور » إلى الصبح حيث عاد إلى مكة ليصحب معه « أبا بكر » وقد ظل هو وأبو بكر ثلاثة أيام فى الغار حتى أحضر خادم « أبى بكر » البعيرين اللذين ركبهما « أبو بكر » وصاحبه . . وكان القصد من لقائهما فى الغار ـ الذى لا يبعد عن مكة الا بساعة واحدة من الزمن ـ ألا يدركهما القوم إذا ما حدوا المسير فى طلبهما » ومنها أيضا ، أن « أسماء بنت أبى بكر » التى كانت تجىء إليهما بالطعام ، « وعبد الله » ابنه الذى كان يأتيهما بحديث المشركين عنهما وكان يعفى على مواضع أقدامهما بغنم « أبى بكر » التى كان يرعاها له مولاه « عامر بن فهيره » وكان هذا كله غاية التضليل وأقصى ما تكون التعمية . . وكل هذه أساليب الرجل الداهية وخطط السياسى المحنك وطرق لايهتدى إليها إلا انسان رتبه الحوادث والأيام .

أما عناية الله التى أغنت عن مضاعفة من الدروع ـ كما يقول البوصيرى فى قصيدته البردة ـ فهى التى

جعلت الحمام يصنع العش ويملؤه من بيضه ويرقد فوقه للتفريخ وجعلت العنكبوت تنسج خيوطها هذا النسيج الدقيق .

وكان من تلك العناية أن أعمى الله بصيرة المشركين فلم يدركوا من أمره - ﷺ - شيئا مع أنه كان فى موقع أنظارهم وكان « أبو بكر » كلما اشتد به الخوف وزاد عليه الهلع والفزع ، قال له صاحبه) « لا تحزن إن الله معنا » .

وقد دلت تلك المخاطرة التى أقدم عليها رسول الله - ﷺ - حينما كان لابد له أن ينأى عن تلك الوجوه الكالحة .

ويباعد ما بينه وبين تلك النفوس الخبيثة على أنه كان مطمئنا كل الاطمئنان إلى أن أعداءه لا يستطيعون أن ينالوا منه ولا أن يظفروا به ولا أن يستعدوا عليه وإلا لكان همُّه أن يهرب وكفى أو أن ينجو فحسب ولكننا رأيناه يخرج بالليل ثم يعود بالنهار ورأيناه يحثو فى وجههم التراب غير مبال بما يستهدف له من انتقامهم أومايتعرض له من سخطهم .

وفى كتب التاريخ : أنهم بعد أن أصابهم هذا الحادث بدوار فى رؤوسهم رصدوا جائزة مغرية لمن يجىء بخبر « محمد » - حيا أو ميتا - أو من يدلهم على الطريق الذى سلكه والجهة التى انتهى إليها وكانت تلك الجائزة مائة بعير هى نصاب من المال لا يعدم أن يرفع الذى يحرزه من ذات الصدع إلى ذات الرجع لذلك تقدم « سراقة بن مالك » المدلجى الكنانى لهذه المهمة وقال لهم : « أنا ضمين لكم بذلك » وهنالك ركب فرسه إلى حيث سار « محمد » و « أبو بكر » على الرغم من أنهما سلكا طريقاً مهجوراً لا يعرفه أحد ولا يمشى فيه انسان وكان السبب فى ترك المسافرين له ، وعدم خطوره لهم ببال أنه غير ممهد ولا قريب المسافة ، وما كان لسراقة أن يعرفه لولا أنه سمع رجلا يغنى بهذا البيت .

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

فأخذ يتقصى منه خبر هذين الرفيقين وماذا عساه أن يكون لهما من نبأ حمل الشاعر على أن يسجله وجعل ذلك وغيره من الناس يتناقلونه والناس إنما يتناقلون الطريف من الحوادث أو الغريب من الأخبار .

ولابد أن يكون الفضول قد دفع غير (سراقة) أن يسأل لكن (سراقة) كان أسرع من سواه وطار إلى القوم ثم ركب إلى حيث يمر بخيمة « أم معبد » وربما سألها - كما سألتها قريش بعد - وعرف أن رجلين أضناهما الجوع وأنهكهما المسير وأعياهما التعب قدما إلى خيمتها يسألانها طعاما أو شراباً ولم يكن عندها شىء من الزاد أو الماء ولم يكن بخيمتها غير شاه هزيلة كان ضرعها من الهزال والجوع لم يدر قطرة واحدة من اللبن منذ زمن بعيد وأن أحد هذين الرجلين طلب الشاه فقرأ على ضرعها بعض الأدعية ثم احتلبها فحلبت فشرب هو وصاحبه وأعطى بقية الذى حلبه لصاحبة الخيمة . . وارتحل الرجلان وخلفا وراءهما هذا الحديث المروى .

ولم يشك « سراقة » فى أن يكون هذان الرجلان « محمداً وأبو بكر » الذى يصاحبه فى كل شىء .

فى الطريق إلى المدينة

على الرغم من أن الطريق الذى سلكه رسول الله - ﷺ - لم يكن مألوفاً للمسافر إلى المدينة ولا معروفاً لقوافل التجارة التى كانت تنتقل من هنا وهناك فقد كان حادث خيمة « أم معبد » هو المفتاح الأول فى أن يضع « سراقة » يده على الخيط الموصل لكنه لم يكن وصولاً ساراً ولا هداية نافعة إذ أن فرسه لم تكد تصل به إلى حيث كان « محمد وأبو بكر » حتى ساخت قوائمها فى التراب وتوقفت حركتها وكأنما أصابها ذهول أو اعتراها شيء لا تدرى ما هو فظلت مكانها لا تحاول أن تغادره إلى الأمام ولا إلى الوراء ثم بعد غيبوبة طويلة عن الوجود انتزعت قوائمها بعنف انفجر له مكان تلك القوائم بصوت مزعج وحركة مخيفة ، ذهل لها « سراقة » ولم يسعه الا أن يطلب الأمان من « محمد » فأمنه - ﷺ - على أن يتأخر فى الرجوع إلى قريش ريثما تكون الرحلة قد انتهت أوقاربت الانتهاء حتى لا يستطيعوا أن يدركوه .

وقد طلب (سراقة) كتابا يثبت وصوله إلى الضَّالة المنشودة وحصوله على الغرض المطلوب رجاء أن يكون شفيعاً له فى استحقاق الجائزة المرصودة فرغب النبى إلى (أبى بكر) أن يكتب لسراقة هذا الكتاب فكتبه ومضى (سراقة) إلى قريش ليخبرهم خبره فظنوه يتوهم أو يتخيل إلا أنه بعد أن أطلعهم على الكتاب الذى كتبه (أبو بكر) بيده أطمأنوا إلى صدقه وأذعنوا لقوله ثم عاتبوه على البطء فى العودة الذى حال بينهم وبين ادراكه والحيلولة بينه وبين دخول المدينة فاعتذر بوعورة الطريق والتواء المسالك والخوف الذى يكتنف المسافر ولم يخبرهم عن السبب الذى حمله على التأخير حتى لا يتهموه بمجاملة (محمد) أو العمل على مرضاته لأنه وهب له حياته وكان فى استطاعته أن يأخذه بذنبه أو يقوده أسيرا .

وعلى كل حال فقد كان يهون المسافة التى كان طولها مملاً بغيضاً أن « أبا بكر » وهو العالم بأنساب العرب وأخبارهم كان يقص من التاريخ ويروى من حوادث الأيام ما يطرد الهم ويشيع المرح والأنس فى نفس النبى - ﷺ - فلا يحس تعبا ولا يشعر بألم ولا يدركه إعياء ولا فتور .

ومع ما كانت عليه تلك الرحلة من المشقة التى ظل محمد - ﷺ - يعانيها هو وأبو بكر فإنها كانت مشقة حبيبة إلى نفسهما سهلة الوقع عليهما لإحساسهما العميق بأن المدينة سوف تكون الدار الطيبة والبيئة الصالحة والتربة الخصبة والوطن العزيز الذى تجد الدعوة فيه من الازدهار والكمال والثبات والاستقرار ما كانت تتوق اليه فلا تجده وتتطلع إليه فلا تكاد تقرب منه .

وقد كان من العوامل المهمة فى الاستهانة بالمتاعب عامل آخر لا يصح اغفاله فى تاريخ الهجرة والحديث عنها وهو أن « محمداً » - ﷺ - فى كل خطوة يخطوها وفى كل مكان يمر به كانت تتفتح له قلوب الناس وتترامى بين يديه أفئدتهم وتحفه من كل جانب ضمائر تتأجج بنار الشوق وتشتعل بلهب الحب وتخف من مكانها لاستقباله والحفاوة به وتطلب منه أن يعرج عليها وينزل بين ظهرانيها .

ولم يكد يصل إلى « قباء » وبينها وبين المدينة ثلاثة أميال - حتى وجد أهلها صفوفا على الطريق يتشوقون إليه . ويتلهفون عليه ويرجون رجاء حاراً أن ينزل فى رحابهم ويقيم بينهم وكان ذلك فى الضحى والشمس تلفح بنارها الوجوه ولا يقوى على استقبالها والصبر على لذعها القوى الا من يتناسى أذاها وألمها

فى سبيل حاجته الملحة وهدفه النبيل وغرضه الأسمى وكان على رأس أهل « قباء » أشرافهم ، ورؤساؤهم من بنى « عمرو بن عوف » .

وكان فى هذا الوقت نفسه ينتظر هذا الانتظار ويترقب هذا الترقب ويصطف على جوانب الطرق أهل المدينة من لدن طلوع الشمس إلى غروبها إلا أنه آثر أن يستريح فى « قباء » وأن يبنى فيها مسجداً تقام فيه الصلوات وكان هذا المسجد أول مسجد فى الاسلام أعلن فيه المسلمون عبادتهم[1] ثم اجتمعت كلمتهم على نصرة الرسول ورفع راية الاسلام والجهاد الحق فى سبيل الله فهو ذلك المسجد الذى امتدحه الله إذ يذم غيره حين يقول فى سورة التوبة : (والذين اتخذوا مسجداً ضرارا وكفراً وتفريقاً بين المسلمين وارصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين)[2] وهو هذا الذى أسس على التقوى من أول يوم . . وأهله هم هؤلاء الذين يصفهم (القرآن) بأنهم يحبون أن يتطهروا وإذا تحدث المؤرخون عن تبائه ـ ﷺ ـ لهذا المسجد وأنه خطب بالناس هنالك خطبة الجمعة وصلى بالناس وفهمنا نحن أنه كان بناء على الطريقة المألوفة باللبن أو الحجارة اعتمادا على أن المدة التى أقامها بقباء كانت ثلاثة أيام وهى لا تتسع للبناء بمعناه الواسع فإنه كان ـ على كل حال ـ رمزاً للانتقال بالدين من مرحلة العقيدة والايمان إلى مرحلة العمل ، وهى المرحلة التى كانت المدينة السبب الأصيل فى وجودها ، ولولا الهجرة إليها لما ظفر الاسلام بهذا الغنم إلا بعد عنف عنيف وجهد شاق .

أما المسجد الثانى بعد مسجد (قباء) هذه فقد كان بالمدينة ـ وهو المسمى بالحرم المدنى ـ ومن حديثه الرائع أن الرسول ـ ﷺ ـ لما دخل المدينة بين تهليل أهلها وفرحهم كانوا يتنازعون زمام ناقته ليأخذوها إلى حيث ينزل ضيفاً عليهم وكان كلما أنتزع أحد زمامها يقول لهم الرسول : (خلو زمامها فإنها مأمورة) ثم لا يزالون ـ كذلك ـ ولا يصرفهم النبى الا بهذه الكلمة حتى مع أخوال جده « عبد المطلب » ـ بنى النجار ـ الذين مات أبوه عندهم وفى حين أن طمعهم فى نزوله كان شديداً لتلك القرابة القريبة بينهم وبينه : فإنه قال لهم كذلك : (خلوا زمامها فإنها مأمورة)[3] .

وأنهى أمر تلك المأمورة بأن بركت على مقربة من دار « أبى أيوب الأنصارى » ثم قامت فبركت على باب دار « ابى أيوب الأنصارى » ثم قامت وعادت ثانية إلى موضعها الأول :

كان تفسير ذلك أن المكان الأول هو مكان المسجد والمكان الثانى هو مكان ضيافته ـ ﷺ ـ فإن « أبا أيوب » حمل رحله ونزل به عنده وكان له شرف تلك الضيافة دون أهل المدينة .

وكان من طريف ما يروى عن تلك الضيافة أن دار « أبى أيوب » كانت ذات طابقين أثنين فاختار النبى الطابق الأول وألح « أبو أيوب » أن يختار ـ ﷺ ـ الطابق الثانى رفعاً لشأنه وتكريماً لأمره ولم يكف عن الحاحه فى ذلك الا بعد أن أقنعه الرسول أن زواره كثيرون .

(١) سيرة ابن هشام ١٥٨/٢ طبعة الأردن
(٢) سورة التوبة الآيتان : ١٠٧ ـ ١٠٨
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٣٦/١ والبيهقى فى الدلائل ٥٠٣/٢ ومجمع الزوائد ٦٣/٦

فى المدينة

وصل - ﷺ - إلى المدينة ومعه المسلمون وكلهم خاوى الوفاض بادى الانقاض كما يقول الحريرى فى المقامات وما منهم إلا من له فى مكة ابن أو أب أو أخ أو زوجة أو أم أو أخت أو انسان عزيز عليه أن يفارقه أو يرى نفسه بعيداً عنه إلى جانب أنهم لا يملكون زاداً يتبلغون به ولا ماء يشربونه ولا داراً يأوون اليها .

والفقر إذا ما تناول الناس فى ناحية من هذه النواحى كان هو الموت الأحمر ولكنه القدر القاسى يأبى إلا أن يضيف إلى مرارة الاغتراب وفراق الأهل والأصحاب مرارة الحاجة الشديدة والبؤس المحقق والمسلمون فى المدينة إن اتسعت صدورهم ودورهم لضيافة النازلين عليهم لا تتسع أموالهم وأرزاقهم وإن كانوا يؤثرونهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة لهذا كان النبى - ﷺ - يهتم كل الاهتمام بأن يأخذ كل واحد من المهاجرين فى عمل يكسب منه قوته حتى لا يكون عالة على أخيه من الأنصار على الرغم من أن الأنصار لم يتركوا بابا من أبواب البر بإخوانهم إلا ولجوه عليهم وفتحوه لهم ليشعروا إنهم لم تنأ بهم الدار أو تنقطع بهم الأسباب أو توصد فى وجوههم السبل أو تقتر عليهم الأرزاق .

ولم يمض وقت طويل على هذه التجربة المريرة التى مر بها المهاجرون حينئذ إلا وهم لا يقلون فى ثرائهم وكثرة أموالهم وانتعاشهم الاقتصادى عن السكان الأصليين - فى المدينة من المسلمين وغيرهم وكانت أروع صورة أعلنها رجل من المهاجرين فى هذا الوقت تلك التى أعطاها من نفسه عبد الرحمن بن عوف وقد أخذت المؤاخاة والامتزاج والشركة بين الفريقين من المكيين والمدنيين تتحكم أواصرها وتسود أسبابها إذ آخى النبى - ﷺ - بينه وبين (سعيد بن الربيع) الأنصارى وقد عرض « سعد » عليه أن يقاسمه أهله وأمواله فأبى ذلك وقال له : « بارك الله لك فى أهلك وأموالك دلنى على السوق » فدله على السوق وكان يتجر فى الأقط والسمن ثم ما لبث أن كان من الأغنياء وكان من أكثر المسلمين بذلا فى سبيل الله إلى درجة أنه ساهم فى تجهيز جيش العسرة أعظم المساهمة .

وهكذا يخبر التاريخ عن المهاجرين أنهم لم يكونوا مثالاً من أمثلة البطالة والتواكل والعجز والاستجداء لكنهم اشتغلوا بالتجارة والزراعة وفرضوا أنفسهم فى المجتمع الجديد سادة لا سوقة .

ومن المعروف فى هذه الآونة أن « محمداً » - ﷺ - جعل بعد وصوله إلى المدينة بئراً اشتراها المسلمون من يهودى بأربعين ألف درهم ليكون الانتفاع بمائها لجميع المسلمين حتى لا يشعر المهاجرون أنهم دخلاء أو غرباء لكن هذا كله لا يعنى أن النبى - ﷺ - ومن كان معه من أهل مكة اطمأنت ضمائرهم كل الأطمئنان فى بلد ، هم وافدون عليه نازحون إليه تعاودهم ما بين آونة وأخرى فكرة أنهم قد انتهت بهم المطاردة عنده وأن حياتهم هنالك ليس فيها من الاستقرار والاطمئنان ما يحملهم على الرضا بالأمر الواقع أو تنسيهم بلداً فيه البيت الذى جعله الله للناس مثابة وأمنا وهم فى المدينة لا يعدو حالهم أن يكون أشبه بحال المسافر الذى ينتظر الأوبة ويرجو لقاء أهله وعشيرته حتى رسول الله - ﷺ - الذى كان يظهر حنينه ويبدى تشوقه ولهفه وإن كان بنى المسجد وبنى بيوت زوجاته لاصقة به ليغرس فى قلوب الذين هاجروا معه الحب لهذا الوطن الجديد والاطمئنان إليه والرضا به « وكل مكان ينبت العز طيب » .

وقد أخذت جذور الدعوة الاسلامية تمتد وتتمكن وشرع الله الآذان والصلاة والصيام والزكاة وبين معالم كثيرة مما يتعلق بالحلال والحرام وكان للمؤاخاة التى ربطها النبى - ﷺ - بين المهاجرين والأنصار والمعاهدة التى جمعت بين اليهود والمسلمين الأثر البالغ فى تكوين جماعة من شأنها أن تجعل قريشا فى مكة تخشى بأس المسلمين وتخاف أن تحدثهم نفوسهم باعلانهم الحرب عليهم وغزوهم فى عقر دارهم انتقاماً لأموالهم المسلوبة وأهلهم المعذبين ودينهم المضطهد وحريتهم المحاربة وكرامتهم المضيعة لذلك أخذت حمى الخوف والهلع والجزع والفزع تسرى فى أفئدة طواغيت للشرك هناك مما عساه أن يلحق بهم أو يطرأ عليهم فلم يكن لهم شاغل وراء الاستعداد للاجهاز على تلك الدولة التى يؤسسها « محمد » - ﷺ - فى المدينة لهذا كانت لا تفتأ تتحسس أخباره وتحاول أن تعرف تحركاته ونواياه وتبذل لذلك كله ما تبذل لترى إلى أى مدى تبلغ قوته إذا هى حاربته أو خرجت لملاقاته وكان رسول الله - ﷺ - كذلك - يتبع أخبارهم ويعرف ما يبيتون له وكان عمه « العباس » هنالك يكتب له تحركاتهم وشرورهم التى يضمرونها .

وكان التشريع السماوى والأدب النبوى يسيران جنباً إلى جنب فى تكوين الوحدة الاسلامية والمبادىء الانسانية والأخلاق النبيلة لتتلاقى القلوب ويجتمع الشمل وتذوب الفوارق ، وتسود المحبة وينسى كل انسان عصبيته لأهله وذويه أمام دينه الذى كان له منه نسب وصهر .

وليست هذه المعانى بالأمر اليسير فى نظر مشركى « مكة » الذين كانوا يشغلون أنفسهم بمحمد والمسلمين معه فقد كان الصراع فى أفئدتهم على أشده من جراء هذا الزحف الذى يجىء به الغد المنتظر على الرغم من علمهم الذى لا شك فيه أن عناصر أخرى تشاركهم عداوة هذا الدين الذى يدعو به « محمد » وأصحابه ، لكن قريشا كانت على يقين أن هذه العناصر لا تلبث أن تصير هباء إذا هبت عليها الريح العاصف من غضبة أولئك الذين عاهدوا (محمداً) على أن يقفوا بجانبه ويدافعوا عنه ويردوا كيد المشركين إلى وجوههم إن حدثتهم نفوسهم أن ينالوا منه أو يلحقوا به شيئا من الأذى والهوان .

عنت اليهود

كان النبى - صلى الله عليه وسلم - قد طمأن اليهود على مستقبلهم وحريتهم وكرامتهم وأفهمهم أنه سوف لا يتعرض لعقائدهم وعباداتهم وأنهم سيكونون - معه - فى تقديرهم واحترام ملكيتهم وحق تنقلهم وتصرفاتهم فى أموالهم وطقوسهم كالمسلمين والمعاهدة التى وقعها وإياهم تضمن لهم هذه المعانى كلها لا يبخس فيها ولا ينحرف عنها ولا تحدثه نفسه بنقضها أو الخروج عليها .

لكن البوادر التى كانت تبدو فى المناسبة تلو المناسبة تدل دلالة لا تقبل الريب والشك على أن نفوسهم تغلى بالحقد وجوانحهم تتأجج بالكراهية وأنهم يستعدون لجولة مفضوحة .

﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ﴾(١)

(١) سورة آل عمران الآية : ١١٨

ويقول أساتذة التاريخ الاسلامى : أنهم كانوا يطمعون أن يسيطروا على « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويسخروه للدعوة اليهودية ، لا يتحرك إلا بإرادتهم ولا يدعو إلا بما يرسمونه له من المبادىء والآداب والدساتير والنظم فلما رأوا أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً وأن حركته وسكونه وقوله وفعله وتوجيهه وإرشاده وهديه وتعاليمه وأوامره ونواهيه إنما يتلقاها من السماء ويأخذها عن رب « موسى » و « عيسى » والأنبياء من قبلـه وأنه ماض فى خطة هو فيها مسخر لا مخير ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[1] لا تحركه شهواته ولا يدفعه طموحه أخذوا ينفضون أيديهم من الآمال التى علقوها على طيه فى أيديهم ووضعه فى جيوبهم وتملكهم لزمامه وحينئذ بدت الأحقاد والضغائن .

على أن اليهود إلى جانب ذلك كانوا فى المدينة رجال أعمال ومال يحتكرون الأسواق ويحذقون أساليب الربح ويتفننون فنون التجارة ويحولون التراب إلى ذهب والمهاجرون من مكة زاحموهم فى الأسواق ونافسوهم فى التجارة وضيقوا عليهم مجال العمل فلم يعد لهم من الربح والاستغلال والاحتكار مثل الذى كان لهم من قبل وهم الذين يجعلون المال إلههم من دون الله لذلك ضاقوا ذرعا بمحمد وأصحابه لأنهم عكروا صفو حياتهم ونغصوا عليهم العيش الذى كانوا يتمتعون به . . ومن وراء هذا وهذا كان « عبد الله بن أبى بن سلول » على وشك أن يراه الناس :

يلمع التاج فوق هامته على جبين كأنه الذهب

لأن اليهود كانوا يعدون العدة لتتويجه ملكا عليهم ـ وإن لم يكن يهوديا فقد كان عميلا لهم يعيش بعواطفهم ويجعل نفسه ذيلاً فى مؤخرتهم فلما أشرق على المدينة نور الرسالة وسطعت شمس الهداية ذهبت تلك السحب وزال هذا الضباب وخابت ظنون وأحلام أوحت بها الأمانى الكاذبة والأوهام الباطلة .

وقد حدث أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان ذاهبا لزيارة « سعد بن عبادة » الخزرجى الأنصارى لمرضه وفى طريقه إلى بيت «سعد » رأى جمعاً فيهم « ابن أبى » ـ ويظهر أنه كان لا يزال على الكفر ـ ورأى النبى أن يسلم عليهم وأن يتحدث إليهم وكان فى حديثه شىء من الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والأمر والنهى والحلال والحرام فما كان من « ابن أبى » إلا أن قال له : هذا كلام تبذله لمن يطلبه وتذيعه لمن يتشوق إليه وتجلس فى بيتك لتقوله لمن يفد عليك لأنك تؤذى به الأحاسيس وتثير به العواطف وتهيج به حفائظ الناس ولما انتهى الرسول إلى بيت « سعد » وسلم عليه رأى فى وجهه الألم وعدم الارتياح فقال له : أرى فى وجهك يا رسول الله تغيراً ينبىء عن غضب لأمر لم يصادف منك رضا وارتياحا فأخبره الرسول الخبر فقال له سعد : اعذره يا رسول الله لأنك جئت إلينا ونحن ننظم له الخرز لنتوجه علينا وكان مجيئك تبديدا لأحلامه وخيبة لظنونه وضياعا لما كان يرجوه ولهذا كان الدور الذى قام به « عبد الله بن أبى » ـ رأس المنافقين ـ من الكيد للاسلام واشعال نيران الفتنة فى كل مناسبة وإقامة العقبات والعراقيل فى وجه الدعوة لا يستهان به فى رأى المنصفين معه علماء السيرة النبوية وربما كان هو وحده وراء التمرد الذى كان صلى الله عليه وسلم يقاومه فى صفوف المنافقين تارة ويقاومه فى صفوف اليهود مرة أخرى .

---

(١) سورة النجم الآية : ٣

وفى هذه الآونة كان المسلمون يصلون إلى بيت المقدس وكان هذا ذريعة لأن يُعيِّر اليهود « محمدا » وأصحابه أنهم يستقبلون قبلتهم ولا يتبعون شريعتهم وكان لهذا القول وقعه السيء على نفس « محمد » وأصحابه فهو لذلك يترقب بفارغ الصبر أن يحول الله وجهه إلى البيت الحرام بمكة الذى تهفو إليه مشاعره ويرتبط به وجدانه وكان لشدة ـ طمعه فى أن يحقق الله هذا الرجاء يتطلع بوجهه إلى السماء ترقباً للوحى الذى ينزل عليه وهنالك نزلت الآية : ﴿ قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾(١) وبذلك اطمأن خاطره واستراح قلبه وانقطعت قالة اليهود وأصبحوا يفكرون فى أشياء أخرى جديدة يبلبلون بها الأفئدة ويشككون بها الناس وينغصون بها الصفو على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول الدكتور « هيكل » فى كتابه (حياة محمد) : « وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لددا وأكبر مكرا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة وفى هذه الحرب تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين جمعتها اليهود صفوفا متراصة يهاجمون به محمدا ورسالته وأصحابه المهاجرين والأنصار ودسوا من أحبارهم من أظهر إسلامه وجلس بين المسلمين باديا فى غاية الورع والتقوى ثم لم يلبث الحين بعد الحين أن يعتنى من الشكوك والريب ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يزعزع فى نفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التى يدعو إليها وانضم إلى اليهود ـ فى ذلك كله ـ جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا نفاقا وبلغ من تعنتهم ـ اليهود ـ أن كانوا ينكرون ما فى التوراة ويسألون محمدا : إذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله ؟ وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم » .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى غاية الحرج مع المنافقين لأنهم ـ فى الغالب ـ كانوا من أهل المدينة ولقرابتهم وأهليهم عنده حق الرعاية والاحترام وليس من الكياسة أن يغضبهم وأن يحول موقفهم معه إلى موقف العدو اللدود فيكثر بذلك خصومه الذين يناوئونه لهذا كان يعاملهم برفق ويكل أمرهم إلى ذويهم وقد أراد « عمر بن الخطاب » ـ رضى الله عنه ـ أن يفتك بعبد الله بن أبى بن سلول فمنعه الرسول وقال له : (أترضى أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه) . وكان لعبد الله بن أبى ولد من خيار صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعى « عبد الله » أيضا ـ فاستأذن الرسول أن يقتل أباه بيده حتى لا تأخذه الغيرة على قاتله فيقتله ويرتكب حراما ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (لا تقتله ولا يقتله سواك)(٢)

وكان من الحزم القضاء على أصل الداء ـ اليهود ـ الذين مكنّوا للنفاق فى المجتمع الاسلامى .

بعد الاستقرار

انتهى المطاف بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين معه بالمدينة واستقبلهم أهلها بالهشاشة

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٤٤

(٢) الاصابة لابن حجر ٣٢٧/٢ مجمع الزوائد ٣١٨/٩ تاريخ الطبرى ٦٠٨/٢

والبشاشة والسرور والرضا والارتياح والاطمئنان واتجه كل واحد من المهاجرين إلى العمل الذى يناسبه من التجارة أو الزراعة ليصل على لقمة العيش التى تمسك أوده وتقيم صلبه فلا يكون عالة على غيره ولا عبئا على سواه إلا أن الأمر لم يكن لينتهى إلى هذا الحد فيرضى كل منهم الرضا كله ويستريح الراحة التى لا يشكو بعدها أينا ولا تعبا وبخاصة الرسول الكريم الذى يخطط لحياة طويلة وسياسة دائمة ودولة يستطيع بها أن يكبح جماح الظلم ويبعد طغيان الكفر ويقضى على فساد الحكم وفوضى السلوك والأخلاق .

وفى مكة التى هاجر من وجه أهلها لا يزال بها الخطر الذى يتحين له فرصة الإيلام والايذاء والجبروت والتعدى - والمطاردة والقهر والقضاء على دعوته والإجهاز على من يقفون معه أو يؤمنون به وكذلك كان الحال فى المدينة التى ظن أنه سيجد فيها جوا نقى وحالا أهدأ لكنه واجه اليهود بها يضمرون الشر ويكتمون العداوة ويلهبون فى قلوب المنافقين نيران البغضاء ويرسمون لهم خطوط التمرد والعصيان واشاعة التفكك فى صفوف المسلمين حتى لا تقوى لمحمد شوكة ولا تقوم للإسلام دولة وينتهى الحال بهجرة أخرى عن المدينة كالهجرة التى كانت من مكة وقد راود هذا الحلم أفكار بعض اليهود فقالوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - لماذا لم تهاجر إلى (بيت المقدس) كما فعل الأنبياء والمرسلون من قبل ؟ ومن أجل هذا كله فالنبى - صلى الله عليه وسلم - كان فى المدينة على حال لا يحسد عليها وقد حمله هذا على أن يلتزم المبدأ القائل : « اطلب الموت توهب لك الحياة » وطلبه الموت كان ممثلا فى تلك الخطة التى سار عليها :

أراد أن يُفهم قريشاً أنه لا يصح لها أن تستمر على موقف القوة الذى تقفه منه فتعامله معاملة الضعيف الفار من وجهها الهارب من عدوانها الناجى بدينه منها فتظل على تفكيرها فى قتله أو الظفر به ولم يجد وسيلة لذلك أحسن من أن يرسل السرايا من المسلمين لتقطع عليهم طريق التجارة إلى الشام ولتشيع هنالك الفزع والخوف فلا يجرؤ أحد على اقتحامه أو السير منه إلا بقوة مدججة بالسلاح وحينئذ يحسبون حساب الحركة والانتقال أو يتحولون بتجارتهم إلى طريق آخر أكثر مشقة وأبعد مدى وفى هذا تعطيل رحلاتهم وكساد تجارتهم وإيلام لنفوسهم وإثارة لحفيظتهم وأكد النبى - صلى الله عليه وسلم - بالأحلاف التى ربط بها بينه وبين القبائل والأقوام المختلفة التى تستوطن هذا الطريق ذلك المعنى الذى قصد به حرب العصابات التى تشنها جماعاته على قوافل التجارة وكان الهدف الذى يرمى إليه أن تفكر قريش فى تسوية حسابها معه - كما يقولون - اعتداء يستطيع المسلمون فى مكة فى ظلها أن يعيشوا فى سلامة من شرهم وبعد عن إيذائهم ويترتب على ذلك أن المنافقين واليهود فى المدينة يكفون عن نوايا السوء التى يضمرونها والخطط الخبيثة التى يرسمونها ولم يمض عامان كاملان على اغترابه فى المدينة حتى كان فى استطاعته أن يلتقى بهم وجها لوجه ملاقاة الند للند وكان له جيش يستطيع به أن يتهدد لقاءهم ويشرد جموعهم ويشيع فى صفوفهم الهلع والرعب .

وبعد ثمانية أشهر من إقامته بالمدينة بعث بعمه « حمزة بن عبد المطلب » فى ثلاثين راكبا من المهاجرين فالتقوا بأبى جهل بن هشام فى ثلاثمائة من أهل مكة كان « حمزة » هو وجماعته على استعداد لقتلهم لولا أن حجز بينهم جهنى كان موادعاً للطرفين وسار « عبيدة بن الحارث » عقب هذه المسيرة فى

ستين راكبا ليقطعوا الطريق على « أبى سفيان » ومائتين كانوا معه وقد انسحب أبو سفيان ومن كان معه وخرج كذلك « سعد بن أبى وقاص » فى ثمانية.

وهكذا خروج يتبعه آخر وآخر ، إلى أن أصبحت قريش تفكر تفكيراً جاداً فى سلامة تجارتها وأمن طريقها وبخاصة وقد رأوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخرج بنفسه لملاقاة (أمية بن خلف) وملاقاة (أبى سفيان) .

ويقول بعض كتاب السيرة : أنه كان - صلى الله عليه وسلم - لا ينتدب لهذه العملية إلا المهاجرين بحجة أنهم هم المعتدى عليهم من أهل مكة الذين غنموا أموالهم واغتصبوا حقوقهم وخربوا ديارهم وأوقعوا الأذى بأهلهم وإلى جانب ذلك فربما كان فى هذه القوافل بعض من يربطهم بهم دم أو قرابة فيحول ذلك بين قتالهم وإزهاق أرواحهم ويثير فيما بينهم عاطفة النسب وروح الاتصال ووشائج الارتباط وعلى كل حال فقد كان هذا الموقف ضرورياً لأنه على الأقل منع قريشاً من مواصلة عدوانها وحملها على أن تحسب للمسلمين بالمدينة - من المهاجرين وغيرهم - ألف حساب . ثم تنتهى إحدى السرايا إلى نهاية تثير بعض النفوس وتوقف المسلمين موقف النقد وإن كان نقداً لا قيمة له ويرجع ذلك إلى أن « عبد الله بن جحش الأسدى » بعثه النبى - صلى الله عليه وسلم - فى رجب من السنة الثانية للهجرة ومعه جماعة من المهاجرين لينزل بنخلة بين مكة والطائف ليترصد أخبار قريش لكنه لم يكتف بهذا التخطيط الذى رسمه له الرسول وإنما إنتهى به الأمر إلى أخذ عير بما تحمله من عروض التجارة المختلفة وقتل « عمرو بن الحضرمى » الذى كان يقودها هو وجماعة معه وقد جاء إلى النبى بتلك العير وأسيرين وكان هذا الحديث الذى أحدثه « عبد الله بن جحش » مثار أحاديث رددها المشركون والمنافقون على السواء كلها كانت لمزاً جارحاً وطعناً حقيرا ورمياً للرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه لم يحترم الأشهر الحرم التى كانت لها قدسيتها عند الناس منذ الجاهليه لم يسفكوا فيها دما ولم يعتدوا على حرمة من المحرمات وقد أخذ بعض من تعطفهم العواطف على « عبد الله » يلتمسون له العذر ويصححون له الوضع وقال فريق منهم : إن القتل كان حيث كانت اللحظات الأخيرة من رجب قد تصرمت . وأثار ذلك القول الرسول نفسه - بعد أن وصل إلى أذنيه دوى المرجفين - فأبدى غضبه من (عبد الله بن جحش) وقال له : (لم آمرك بقتال ولا بسفك دم) . ولما حمى وطيس هذه الفتنة واتخذها المشركون والمنافقون ذريعة للطعن والتشويش نزل قوله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ؟ قل : قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾[1] .

يستعرض سلوكهم السىء وتاريخهم الأسود وماضيهم الملوث ومواقفهم المرذولة وكان هذا الخطأ الذى ارتكبه « عبد الله » لا يساوى شيئا إلى جانب صدهم عن دين الله ومحاربتهم للحق وانحرافهم عن الجادة والتوائهم عن الصراط السوى وكأنما كان ذلك المنطق الذى سمعوه والأسلوب الذى جوبهوا به بمثابة الصواعق تصيب أفئدتهم ونفوسهم وتنزل على رؤوسهم لأن من أحمق الحمق وأكبر الكبائر أن يرى الرجل القذى فى عين أخيه ثم لا يرى الجذع فى عين نفسه .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٧

شبهة ندفعها

ربما ظن بعض الناس من تلك السرايا التى كان يرسلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جماعة المهاجرين ، الواحدة تلو الأخرى مكونة من هذا العدد الضئيل لتقطع الطريق على المسافرين من قريش إلى الشام أو الآيبين منها من أجل تجارتهم التى كانت الوسيلة الوحيدة لجلب أرزاقهم ونماء أموالهم ، ووفرة أقواتهم : إن هذه حرب عدوانية لا يصح للداعية أو المصلح الاجتماعى أن يلتجىء إليها أو يجعلها معتمدة فى نشر أفكاره وبث تعاليمه والاقناع بأنها الحق الصلاح والرأى والصواب . . وقد بالغ قوم فى هذه الشبهة فزعموا أن دين « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ انتشر بالسيف وتمكن بالعنف وارتفعت رايته بالقوة وأخذ به معتنقوه حين لم يجدوا بدا من الدخول فيه والايمان به والوقوف إلى جانبه ليردوا عن أنفسهم طغيان القوة وجبروت السلطان وبطش الكثرة الكاثرة ممن وضعوا أرواحهم لمطامعه وانتصارا لمبادئه وتأكيدا لطموحه فى السيادة والملك وهو قول إنما يقول به من يتجرد من المنطق ويجافى الحق ويجانب الصواب ويناقش مناقشة الأطفال ويحاول بلغة المجانين ويزعم أن دعوة محمد كانت تسلطا أو ملكا أو رياسة أو قيادة لجماعة من البشر يريد أن يسخرهم لمطامعه العدوانية وشهواته المسفة وكبريائه المصنوع كما كان الفراعين والقياصرة والأكاسرة الذين علوا فى الأرض بغير الحق فى حين أن دعوته هذه كانت : (فطرة الله التى فطر الناس عليها) .

لا تعاند الطبع ، ولا تخالف الذوق ولا تعارض التقدم ولا تقود الانسان إلا إلى الصلاح والفلاح ولا يمكن للبشرية أن تسعد السعادة التامة دون أن تلتمس منها الرشد وتستمد منها الهداية وتجعل منها طب نفوسها وعلاج أمراضها .

ومع أنها كذلك فما صح أنه أرغم عليها أحد أو ألجأ اليها انسانا وكتابه الكريم ينادى بأعلى صوته يقول له لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى وهو فى الوقت الذى يجعل الأخذ بهذا الدين والايمان به قائماً على الاختيار لا الاضطرار يشرع للمسلم القتال دفاعاً عن عرضه أو ماله أو نفسه أو دينه . .

وإذا نحن حققنا النظر فى تلك الحرب التى كانت تدير رحاها السرايا التى أشاعت الخوف فى الطريق إلى الشام أو منها وجدنا أنها لا تخلو من أن يكون الباعث عليها واحداً من هذه الأمور الأربعة التى جعلناها أسباباً واضحة تبرر التحام الجيوش فى ساحات القتال ، فأموالهم فى مكة قد اغتصبت ودينهم يناله الايلام والايذاء والمطاردة والصد ونفوسهم مهددة بالقضاء فهم يقفون من كفار مكة الموقف الذى لا بديل عنه ويساقون إلى حربهم بحكم الدفاع الذى لابد منه وحيثما انتهى قرار المسلمين بالمدينة واتخذوها الموطن الدائم كانت بحكم هذه الاقامة الدولة التى يحمون حوزتها ويدافعون عن حدودها ويرون من يغير عليها وتلك الطريق التى كانت تسلكها قريش وتنتهك حرمتها كانت فى حدود الدولة وكان عليها لتمر منها أو تستخدمها لمصلحتها ـ أن تستأذن عليها كما تقضى بذلك الأعراف الدولية .

على أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ظل يكتفى منها بهذا النفر القليل الذى يثير الرعب ويشيع الفزع فلم يجعلها حربا بمعنى الكلمة تتخذ لها الأهبة ويوفر لها الاستعداد من الذخيرة والسلاح والرجال لأن القصد الأول كان تعرفها أخبار قريش وتحركاتها واستعدادها لمواصلة القضاء على المسلمين وكبت نشاطهم والحد من تحركهم واتساع نطاق دعوتهم والمنصفون من المؤرخين إنما يعيبون على المصلحين أو أصحاب الدعوات التقدمية الحرب الهجومية إذ هى التى يشتم منها القسر والقهر والاكراه والالجاء والالزام الذى لا اختيار معه ولا يدع مجالا للمنطق والتفكير والترجيح والموازنة كما يفعل الذين يذعنون للحق ويؤمنون بالصواب أما الحرب الدفاعية التى ترد العدوان وتصد الباطل وتذود شرور الاستبداد وطيش الرعونة وسفاهة الحمقى فإنها مسلمة بالبداهة والفطر لا ينكرها عقل ولا باباها ذوق ولم تكن حروب الاسلام فى يوم من الأيام هجوماً ولا بطشاً وإنما كانت لدفع الظلم ورد البغى وكبح جماح الباطل ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف فى كتابه « الدولة الاسلامية » : « إن النبى لم يقم بحرب هجومية إطلاقاً حتى فى أثناء المعارك الكبيرة التى وقعت بينه وبين قريش فإن موقعة « بدر » التى حدثت فى السنة الثانية للهجرة حدثت داخل حدود إقليم المدينة وعلى إثر تحدّى المكيين للنبى وتسييرهم قوافلهم بأراضى المدينة ممتهنين حق السيادة اليثربية ، فأبو سفيان حين مر بقافلة فى المنطقة اليثربية كان يتحدى أهل يثرب بقوته ويستضئل شأن النبى ولهذا خرج النبى إليه وأراد أن يصادر هذه القافلة أو أن يحاربها وكان أمرها يشغله منذ خرجت من الشام حتى رأى فى منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن إحدى الطائفتين ستكون لهم والطائفة الأولى هى القافلة والطائفة الثانية هى قوات قريش التى كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ومنع النبى من مصادرتها .

« ووقعة » أحد فى السنة الثالثة وقعت فى جوار المدينة مباشرة وعلى نحو ميلين منها وكان المكيون فيها مهاجمين يطالبون بثأر بدر ثم إن النبى خرج فى السنة الرابعة إلى « بدر الثانية » لوعد بالحرب كان بينه وبين المكيين يوم أحد فلما كان العام الخامس وهو العام الذى وقعت فيه موقعة « الخندق » كان النبى مستقراً فى يثرب وعدوه هو الذى جاء إليه متحدياً منتهكاً لحقه فى السيادة كما كان الحال فى عام أحد وقد حرص حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكيين وكان فتحاً خلا من القتال بوجه عام ومع ذلك فإن النبى حرض على الجهاد ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين إلا أن الجهاد لم يكن يقصد به إلا الدفاع وإعزاز الدولة الاسلامية بحيث يعيش فى أمن عام وإتاحة الفرصة للمبادىء أن تسير حجة بحجة وبرهانا ببرهان . دون أن تقف القوى المسلمة المادية فى طريقها فتصدها وتعطل من سيرها .

ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يحملوا السيف ليرغموا غيرهم على الاسلام ولكن ليدافعوا عنه عدوان الكفر وجبروت الظلم وتسلط الجبارين . وتشويش المرجفين وعناد الحمقى وسفه المحرومين على أن دعوى الاكراه والارغام والالجاء إذا صح فى هذه الآونة أن يرددها مدّعٍ مغرض فهل يمكن أن يرددها الآن عاقل بعد أن أثبت التقدم الحضارى والنضوج الذهنى والازدهار العلمى أنه يغزو العقول والأفئدة وبعد أن اعترف فلاسفة الدنيا أنه الذى يجب أن تأخذ الانسانية بتعاليمه لأنه الدين الذى لا تنهض بسواه ولا يصلح حالها إلا به .

ويقول الدكتور هيكل : (وما دامت الحرب فى مطرق الناس فتهذيب فكرتها فى النفوس وحصرها فى أدق الحدود هى غاية ما تحتمل نظرة البشر وما يحقق للانسان اتصال تطورنا فى سبيل الخير والكمال وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون إلا للدفاع عن النفس وعن العقيدة وعن حرية الرأى والدعوة إليه وهذا ما قرره الاسلام ونزل به القرآن ومن غريب أمر هؤلاء الذين يخوضون فى حديث هذا الاكراه المزعوم أو الموهوم ممن يتهمون الاسلام بالعنف واراقة الدماء واشعال نيران الحروب فى سبيل إعلاء كلمته وانضواء الناس تحت رايته إنهم ينسون ما جاء به من إرشاد وما أعلنه من هداية وما تضمنه من آداب وما رسمه من خطوط وما دعا إليه من خير لم يتخلف به عن تقدم وعمران ومدنية وحضارة وإصلاح ونفع وكنا نود فى هذا الوقت الذى يرمونه بالقسر والقهر والعنف والتسلط والارغام والضغط واراقة الدماء وإزهاق النفوس أن يغمروا جانبه أو يلمزوا تكاليفه أو يتهموا أساليبه فى الأخذ بيد الانسانية إلى البر والمعروف لتنطلى دعوى اتهامه والاختلاق عليه لكن شيئاً من ذلك لم يكن ولا يمكن أن يكون . . ولو كان عندهم قليل من الانصاف لقارنوا تلك الدماء التى أراقها محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ للتمكين لدينه ونشر دعوته بما أزاقوه هم باسم (عيسى) و (موسى) وبما لوثوا به وجه الأرض وظهرها وتلك الأموال الطائلة التى كانوا يزودون بها الحملات التبشيرية للصد عن الاسلام وتحويل القلوب والأنظار عنه : ﴿ **إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون**﴾(١) .

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الويلات التى تعانيها البشرية هنا وهنالك لا تحتمى إلا باليهودية والمسيحية وهمامتهم براء ما فى ذلك شك . أما الاسلام فهو لا يزال سلاحا على الانسانية والناس .

اليهـود فى الطريق

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعانى شدة فى طريق دعوته إلى الله وإبلاغ رسالته إلى الناس أفدح ولا أعظم من تلك الشدة التى كان يعانيها من المنافقين واليهود غير أن حال المنافقين كان شائكاً لأنهم يعلنون الاسلام وليس من حقه أن يدخل إلى قلوبهم ولا أن يهتك سرائرهم ولا أن يعاملهم الا بظاهر مايبدو منهم ولكن اليهود كانوا يزعمون فى أنفسهم أنهم أصحاب دعوة سماوية أخرى لا تقل فى تقديرها واحترامها عن دعوة « محمد » وهم لهذا يحب أن يجعلوه مطية طيعة لأهوائهم وأغراضهم أو يزيلوه عن الطريق ليكونوا وحدهم فى الميدان لا ترتفع عليهم صيحة ولا يزاحمون منافس . وسياستهم التى يسلكونها ـ فى كل زمان ومكان ـ تقوم على الكيد المشوب بالذلة والخنوع المختلط بالضعف والتواضع الذى يصل إلى حد الهوان فى سبيل الوصول إلى أغراضهم فإن أمكنتهم الفرصة من عدوهم أخذوه بالعنف وعاملوه بالقسوة وأرغموه على أن يركب حد السيف ، يقول الدكتور هيكل :

« فقد كان بيثرب يومئذ المسلمون من مهاجرين وأنصار وكان بها المشركون من سائر الأوس والخزرج

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٣٦

وكان بين هؤلاء وأولئك ما علمت ثم كان بها اليهود يقيم منهم « بنو قينقاع » داخلها ويقيم « بنو قريظة » فى « فدك » و « بنو النضير » على مقربة منها وإلى هؤلاء يهود خيبر ، أما المهاجرون والأنصار فقد ألف الدين الجديد بينهم بأوثق رباط وإن بقيت فى نفس « محمد » بعض المخاوف أن تثور البغضاء القديمة بينهم يوما ما مما جعله يفكر فى وسيلة للقضاء على كل شبهة من هذا النوع تفكيرا كان له أثره بعد ، وأما المشركون من سائر الأوس والخزرج فقد ألفوا أنفسهم بين المسلمين واليهود ضعافا نهكتهم الحروب الماضية فاتجه همهم للوقيعة بين هؤلاء وأولئك وأما اليهود فبادروا بادىء الرأى إلى حسن استقبال « محمد » ظناً منهم أن فى مقدورهم استمالته إليهم وإدخاله فى دينهم والاستعانة به على تهويد جزيرة العرب حتى تقف فى وجه النصرانية التى أجلت اليهود ـ شعب الله المختار كما يزعمون عن فلسطين أرض الميعاد وانطلق كل على أساس تفكيره يمهد لأسباب النجاح لبلوغه غايته » .

ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف : « كان المسلمون إلى يوم بدر يخشون مواطنيهم من أهل المدينة فلا يستطيعون رد الاعتداء على من يعتدى عليه منهم فلما عادوا منتصرين امتلأت نفوسهم بالجرأة ووجدوا أن مصلحتهم تقتضيهم رد العدوان وتأديب المعتدى وإلقاء الرعب فى قلوبهم ممن تحدثهم أنفسهم بإفساد أمور الدولة الاسلامية الناشئة فى يثرب .

وكان « أبو عفك » ـ وهو يهودى من بنى عمرو بن عوف ـ يرسل الأشعار يطعن بها على « محمد » وعلى المسلمين ويحرض قومه على الخروج عليهم وظل كذلك إلى ما بعد بدر يغرى بهم الناس فأخذ « سالم بن عمير » نفسه بالقضاء عليه وذهب إليه فى داره ليلا وقتله وكذلك قتل « عمير بن عوف » امرأة من بنى أمية بن زيد تسمى « عصماء بنت مروان » وكانت تعيب الاسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه ولم يكتف « عمير » بقتلها بل تحدى قومها حين سألوه فى هذا ، فكان لجرأته أثر كبير إذ ظهر الاسلام فى بنى خطمة ـ وهم قوم زوج عصماء هذه ـ ومن ثم ظهر منهم من كان يخفى اسلامه .

كذلك كان كعب بن الأشرف اليهودى شاعراً شيطاناً أخذ نفسه بالكيد للمسلمين وإرسال الأشعار فى التحريض عليهم ولقد ساءته نتيجة « بدر » وآلمت نفسه حتى لقد قال حين علم بها : « هؤلاء أشراف العرب ملوك الناس ـ يعنى قريشا ـ والله لئن كان « محمد » أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ثم ذهب إلى مكة يرثى أصحاب « القليب » ويحرض قريشاً على الثأر وينشد فى ذلك الأشعار وعاد إلى المدينة فأخذ يسب بنساء المسلمين حتى امتلأت النفوس بالغيظ منه وحتى أجمع المسلمون على قتله فذهب إليه جماعة استدرجوه حتى خلوا به وقتلوه وزاد هذا الحادث من مخاوف اليهود ولكنه لم يسكتهم عن « محمد » ولا عن المسلمين حتى فاضت النفوس أى فيض » .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقظاً لحيلهم بصيراً بكيدهم عالما بما تمتلىء به قلوبهم العفنة وضمائرهم الخبيثة وطواياهم الفاسدة ونواياهم الشريرة ولقد رأيناه يأخذهم بحذق ويقلم أظافرهم بحكمة ويقص أجنحتهم ببراعة ويستريح من كيدهم بمهارة وينتهى بهم إلى الاذلال الذى كتبه الله عليهم ولم تكن مانعتهم حصونهم التى أحكموا بناءها . وقد كان بنو (قينقاع) بداخل المدينة يعملون فى صياغة الذهب

والحلى وكان المال الذى فى أيديهم يملأ نفوسهم بالخيلاء ورؤ وسهم بالكبر وظنوا أنهم يستطيعون أن يسيروا على جماجم المسلمين ويطئوا بأرجلهم أشلاءهم لأن اقتصاد المدينة وتجارتها وأسواقها بأيديهم هم لا يزاحمهم فى ذلك كله أحد ، وفى ذات يوم قدمت إلى بعض أسواقهم امرأة من المسلمين لتشترى شيئاً من الذهب فتطاول أحدهم عليها وعبث بخبائها وعرى ثوبها عن جسدها فأخذت الغيرة رجلاً من المسلمين فقتل ذلك اليهودى الذى تطاول على المرأة المسلمة . وكانت هذه هى الشرارة الأولى فى إشعال نار حرب بين يهود بنى قينقاع والمسلمين على الرغم من المعاهدة القائمة بين المسلمين وسائر اليهود وقد أعلنوا عدم التزامهم بهذه المعاهدة وتحديهم للنبى - ﷺ - والمسلمين معه وقالوا للنبى ﷺ :

(لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس) ولم يكن هناك بد من أن يضرب - محمد صلى الله عليه وسلم - ضربته الأولى ليزيل عن المدينة شبح الفوضى التى تهددها والرعب الذى يسيطر عليها وحينئذ حاصر « بنى قينقاع » خمسة عشر يوماً لا يخرجون من بيوتهم ولا يدخل إليهم أحد فى بيوتهم وكان هذا الشلل الاقتصادى الذى نالهم والفزع الشديد الذى أصابهم داعياً إلى أن يظهر « عبد الله بن أبى بن سلول » - رأس المنافقين - على شاشة المسرح ويقول للنبى - صلى الله عليه وسلم - : « إنهم حلفائى وأنا لا أحب أن تؤذينى فى حلفائى » وقد أعرض عنه النبى - صلى الله عليه وسلم فلم يصغ إليه ولم يأبه به إلا أن « عبادة بن الصامت » رجاه أن يضيق الخرق على الواقع ويستجيب لرجاء « ابن أبى » ليصبح هو والمشركون الموالون لبنى قينقاع دينين لاحسانه ورحمته وكان الرأى الذى انتهى إليه النبى هو استئصال شأفتهم وإبادتهم جميعا إلا أن الرأى الذى استقر عليه بعد ذلك كان خروجهم من المدينة تاركين أموالهم وأقواتهم وديارهم وكان هذا الخروج إلى « وادى القرى » ثم إلى « أذرعات » على حدود الشام وبهذا الخروج أصبحت المدينة فى مأمن من الفتن الداخلية والدسائس التى تحاك هنالك وإن كان يهود بنى النضير وبنى قريظة على حدودها القريبة .

وكان طبيعياً بعد هذا الذى حل ببنى قينقاع أن ينكمش غير المسلمين وأن يصيبهم الرعب لكن « أبا سفيان » جمع مائتى رجل وأغاروا فى خارج المدينة على رجلين فقتلوهما وحرقوا بعض البيوت والنخيل يقصدون بذلك إلى إشاعة الفزع فى قلوب الناس وقد ندب الرسول بعض أصحابه ليلحقوا بهم فوجدوهم يلوذون بالفرار ويرمون فى الطريق بما كان معهم من المتاع والطعام وكان أكثر الطعام سويقاً لذلك سميت هذه المطاردة بغزوة السويق وبعد دلك بقليل قتل « كعب بن الأشرف » فكان ذلك نهاية إذلال اليهود .

أما ما كان من أمر « بنى النضير » فهو لا يعدو أن يكون صورة - كذلك - من صور الخداع واللؤم والمكيدة والغدر والذلة والضعف فإن النبى - صلى الله عليه وسلم - ذهب إليهم يستعين بهم على دفع دية قتيلين قتلهما أحد المسلمين بطريق الخطأ وكان القتيلان من حلفائها وحلفائه - بنى عامر - وقد أظهروا الاستعداد كل الاستعداد لتحقيق طلبه فى دفع دية القتيلين لكنهم أخذوا يسوفون ويروحون ويجيئون ليدبروا أمر قتله بحجر يلقيه أحدهم فوق رأسه من سطح المنزل الذى يستند إلى جواره إلا أن الله أخبره بما يدبرون له فتسلل من مكانه دون أن يحس به أحد ثم أخذ سمته إلى المدينة ولما طال غيابه لحق به أصحابه

وهم لا يعرفون من أمر تسلله شيئاً وكان هذا التصرف منه محل دهش واستغراب حملهم على الايمان بنفاذ بصيرته ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهنالك أرسل النبى « محمد بن مسلمة » يحمل إنذاره إليهم أن أخرجوا من بلادى لأنكم نقضتم عهدى وهممتم أن تغدروا بى وفى هذه الأونة أخذتهم الحيرة والارتباك وبينما هم يتهيأون للرحيل جاء إليهم رسول من « ابن أبى » يأمرهم بعدم الخروج لأنه سيقف إلى جانبهم ومعه ألفان من قومه يدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم قبل أن يصل إليهم أحد من المسلمين وقد أخذوا يقلبون هذا العرض الذى يعرضه ابن أبى على وجوهه وانتهوا إلى عدم الثقة فيه لأنه قال مثل هذا القول لبنى قينقاع ولم يغن عنهم شيئاً « وبنو قريظة » الذين هم على مقربة منهم لا يستطيعون أن يقدموا لهم صنيعاً لأنهم يرتبطون مع « محمد » بمعاهدة تجعلهم يقفون إلى جانبه لا إلى جانبهم وقال كبيرهم « حيى بن أخطب » : سأرسل إلى « محمد » إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا وليصنع بنا ما يريد ، وسنحتمى بحصوننا وأموالنا وأقواتنا وأسلحتنا فلما حاصرهم المسلمون عشرين يوما أذاقوهم فيها الويل والدمار سألوا « محمد » أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم ليخرجوا من غير أذى يلحق بهم رضى النبى أن يخرجوا ولكل ثلاثة منهم حمل بعير من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره فخرجوا ومعهم « حيى بن أخطب » الذى كان يغريهم بالعصيان ونزل منهم من نزل بخيبر وذهب الباقون إلى أذرعات وأسدل الستار على قوتين ضاربتين من قوى البشر التى كانت تناوىء الدعوة وتكيد للاسلام وتصد عن سبيل الله وتبغى فى الأرض الفساد ولم يجد اليهود بعد ذلك ـ وعلى رأسهم حيى بن أخطب ـ طريقاً يسلكونه للانتقام لأنفسهم من « محمد » ومن حوله المسلمون معه إلا أن يؤلبوا عليه قريشاً والمشركين جميعاً لتتلاقى وإياه فى حرب تكون قضاء عليه وعلى دعوته ولهذا خرج « حيى بن أخطب » و « سلام بن أبى الحقيق » ومعهم من بنى وائل « هوذة بن أبى قيس » و « أبو عمار » حتى قدموا على قريش بمكة فسأل أهلها حُيَيًّا عن قومه فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة ينتظرون مجيئكم إليهم لتسيروا إلى « محمد » وأصحابه وسألوه عن بنى قريظة فقال :

أقاموا بالمدينة مكرا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ولم تصدق قريشا شيئاً من ذلك فسألته « أديننا خير أم دينه ؟ فقال : لا بل دينكم أنتم وإلى هذا تشير الآية : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا** ﴾[1] .

ولم يزل « حيى بن أخطب » يسعى سعيه ويعمل عمله حتى مر غلى « كعب بن أسد » ليغريه أن يحمل بنى قريظة على الغدر بمحمد والتخلى عنه إذا ما جاءت الأحزاب إلى المدينة وكان « بنو قريظة » قد عاهدوا المسلمين أن يقفوا إلى جانبهم بكل أنواع المعونة والمساعدة وقد تردد كعب أن يستجيب لحيى لكن حييا لم يزل به حتى استماله واتصل نبأ هذا الغدر بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبعث « سعد بن معاذ » سيد الأوس و « سعد بن عبادة » سيد الخزرج ومعهما « عبد الله بن رواحة » و « خوت بن جبير » ليقفوا على جلية الأمر فلما رأوا منهم روح الشر وقال : « كعب بن أسد » : « من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبينه

---

(١) سورة النساء الآيتان : ٥١ ، ٥٢

ووجد المسلمون أنهم قطعوا عنهم المدد والمعونة وفتحوا الطريق إلى الأحزاب ليدخلوا المدينة لم يجدوا بدا من أن يتمهلوا لهم فحاصروهم خمساً وعشرين ليلة طالبوا بعدها بالخروج إلى أذرعات تاركين ما يملكون ولم يرض النبى ولا المسلمون هذا العرض وعرض عليهم الرسول أن يختاروا رجلاً يحكمونه بينه وبينهم فاختاروا « سعد بن معاذ » فحكم بقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية[1].

ويقول الدكتور هيكل تعليقاً على هذا الحكم : « ولعل » « سعد » ذكر أن الأجزاب لو انتصرت بخيانة بنى قريظة لما كان أمام المسلمين لا أن يُستأصلوا وأن يقتلوا وأن يُمثل بهم فجزاهم بمثل ما عرَّضوا المسلمين له » .

وقد كان للقضاء على بنى قريظة أثر بالغ فى قوة المسلمين وخوف المشركين منهم والاهتمام كل الاهتمام بوجود جبهة متينة لصد عدوانهم وعندئذ اتجهت الأنظار إلى يهود خيبر الذين وفد عليهم فلول اليهود الأخرى من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وإلى جانبهم على القرب يهود تيماء ووادى القرى وكانوا يترقبون ما بين وقت وآخر أن يغزوهم المسلمون لذلك كان الاستعداد بينهم قائماً على قدم وساق فتارة يفكرون فى الدخول فى حلف مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليزيلوا من نفوس المسلمين وبخاصة الأنصار وأغلق بها من العداوة التى غرسها « حيى بن أخطب » من جراء تأليبه العرب لاقتحام المدينة وتارة أخرى يفكرون فى تكتل يهودى عام يضمهم ومعهم وادى القرى وتيماء .

وقد كان المسلمون سبقوا من قبل بقتل زعيمين من زعمائهم هما « سلام بن أبى الحُقيق » و « اليسير بن زرّام » وبهذا القتل حصلت خلخلة فى صفوف اليهود إلا أن كثيرين من قريش مع ذلك كله ـ كانوا يتوقعون أن تدور الدائرة على المسلمين وذلك لمناعة حصون خيبر وقيامها فوق جبال صخرية وكان أبرز زعماء أهل خيبر فى هذا الوقت « سلام بن مشِكم » الذى أشار عليهم أن يوزعوا أنفسهم على الحصون فيجعلوا الأموال والعيال فى حصن والذخائر فى حصن والمقاتلة فى ثالث وهكذا وضيق المسلمون الحصار عليهم وهم يستميتون فى الدفاع عن أنفسهم وقتل « سلام بن مشكم » فتولى قيادتهم « الحارث بن أبى زينب » وما زالوا صامدين مستبسلين والأيام يتابع بعضها بعضا وقد أرسل النبى إليهم « أبا بكر » ثم رجع من غير جدوى وأرسل بعده « عمر » فرجع كذلك فأرسل « عليا » ودعا له بالنصر وقد خرج إليه رجل من اليهود فضربه فسقط ترسه فتناول بابا كان عند الحصن فتترس به ولم يزل يقاتل حتى اقتحم الحصن واقتحم المسلمون بعده وهكذا توالى اقتحام الحصون كلها حتى سقطت « خيبر » وصالحهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم على البقاء فى أراضيهم يزرعونها بالنصف لأنه لم يكن فى المسلمين من يحسن القيام على فلاحة الأرض وزراعتها وقد قبل يهود فدك ووادى القرى هذا المبدأ فقد صالحوه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مثل ما حصل ليهود خيبر من غير حرب ولكن يهود تيماء قبلوا دفع الجزية وسنرى من متابعة الحوادث أن أمرها بعد الفتح سيئول إلى الاذعان والخضوع .

(١) صحيح البخارى ـ كتاب الجهاد ـ باب إذا نزل العدو على حكم رجل ١٦٥/٦ ومسلم ١٣٨٨/٣ وعبد الرزاق فى مصنفه ٣٧٠/٥

غزوة بدر الكبرى

يرى المؤرخون ممن تصدوا للكتابة عن حياة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومواقفه التى وقفتها فى وجه الشرك أن هذه الغزوة كانت حداً فاصلاً بين عهدين مختلفين كل الاختلاف عهد الاستكانة والرضا والمصافحة والاغضاء والالتجاء إلى أسلوب السياسة وعهد القوة الرادعة والبطش المزعج والبأس المخيف والموقف الذى يحس صاحبه معه بالتمكن والاعتزاز والثقة فإن المسلمين لم تنته بهم الجولة ـ ولم يفزعوا من تفريق شمل الكافرين الذين لاذوا أمامهم بالفرار والهلع والخوف والجزع حتى أخذت نشوة الانتصار تدب فى مفاصلهم ثم صارت بعد ذلك تشعرهم بأن هذا الرصيد من الايمان الذى يملأ جوانحهم لا يمكن أن تقف له قوى الغدر ولا جيوش البغى ولا محافل الكفر ولا وسائل الدمار والموت وأن هذه الحرارة التى تصنعها العقيدة لا تستطيع حرارة البخار ولا الكهرباء أن تتغلب عليها أو تسقط حسابها من الاعتبار فلقد كان عدد المقاتلين الذين خرجوا لملاقاة أبى سفيان ـ أولا ـ ولملاقاة هذا الجيش الذى دفعت به مكة كلها ـ ثانيا ـ لا يتجاوز ثلث خصومهم ومع ذلك كان النصر إلى جانبهم والفوز من نصيبهم وقضى الله بهذه الجولة أن يملأ الخوف نفوس الصناديد الأبطال ممن أرادوا أن يخفت صوت الحق وتنتكس راية القرآن و « محمد » ينفض يده من كل بارقة أمل تحثه نفسه بها .

ونحن نعلم أن أسلوب حرب العصابات التى آلت على نفسها أن يعكر الصفو على أهل مكة فلا تطمئن بعض الاطمئنان أبدا على تجارتها إلى الشام ظلت حدته تتزايد وأمره يتضاعف ثم كان ما كان من سرية « عبد الله بن جحش » التى أثارت قالة السوء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين معه أنهم لا يقدسون حرمات الأشهر التى لا يحل فيها القتال وأن الرسول بعد هذا أغرى أصحابه بالعير التى خرج بها « أبو سفيان » إلى الشام بتجارة كان معظم أصحاب الأموال فيها ولم يكتف من جانبه بهذا الإغراء حتى خرج معهم يترقب فى الطريق أبا سفيان ومن معه وهم ذاهبون إلى الشام لكن الفرصة كانت قد تفلتت منه . إذ أن أبا سفيان مر قبل أن يأخذ النبى وأصحابه مكانهم من الطريق ولم يكن لهم بد بعد ذلك كله إلا ترقب أوبة العير عند رجوعها من الشام وكانت أنباء هذا التآمر على أبى سفيان وعيره تطايرت إليه فكان عليه أن يغير طريقه حتى لا يظفر به خصومه وفى الوقت نفسه كان استأجر من يسبقه إلى مكة يستنفر الناس جميعا لحماية تجارتهم التى توشك أن تقع فى قبضة « محمد » وأصحابه وعلى الرغم من أن كثيرا من رجالات مكة لم يطاوعهم وجدانهم أن يخرجوا لقتال « محمد » وأصحابه لاقتناعهم بالظلم ما حققوا المطاردة التى وقعت عليه وروابط النسب التى لا تخلو من أن تكون قائمة بينهم وبين الذين كانوا معه من المسلمين وبخاصة بعد أن تبين لهم أن السبب الذى من أجله كانت الدعوة إلى الحرب والخروج لملاقاة المسلمين قد زال فإن أبا سفيان كان قد وصل إلى مكة بالتجارة لم يصبها ـ أو يصيبه ـ أذى إلا أن الدعوة إلى الخروج ولقاء « محمد » وأصحابه وإشعال نار الحرب والقضاء على هؤلاء الذين يحاولون أن يستعملوا مع ركب المسافرين بالتجارة إلى الشام أسلوب العصابات قد لقيت استجابة عند بعض الذين يحبون الاصطياد فى الماء العكر أمثال « أبى الجهل » الذى سفه رأى « أبى سفيان » وهو يدعو الى عدم الخروج ما دام السبب غير قائم « وعتبة بن ربيعة الذى قال : « إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئاً والله لئن

أصبتموه لا يزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابوه فذلك الذى أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه لما لا تريدون » .

وعلى كل حال فقد رجحت كفة أبى جهل فى الدعوة إلى الخروج وذهب الفريقان إلى « جبهة القتال » وفى نفوسهما من الحماسة والحمية والأستبسال والشجاعة الشىء الكثير إلا أن الفرق ما بينهما بعيد كل البعد محمد وأصحابه تثور بهما عقيدة تحارب وإيمان يطارد ومبدأ يريد أن ينطلق إلى غايته لكن قريشاً وكفار مكة معها يثور بها طيش جاهلى ووثنية هوجاء وحقد ظالم وشتان ما بين اليزيدين فى الندى ولما نزل المسلمون للتجمع الذى يسبق الهجوم كانوا ـ بادىء ذى بدء ـ بعيدا عن الماء الذى يسمى بدرا فناقش بعض المسلمين النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أهذا النزول بعيداً عن الماء وحى أوحى به الله إليك لا تنحرف عنه ولا تستطيع أن تخالفه ، أم هى المكيدة والخدعة والسياسة والحنكة والحزم التى يتطلبها الحرب ؟ فقال الرسول : لم يكن ذلك وحياً ولكنه الاجتهاد والرأى فقال له « الحباب بن المنذر » : السياسة والحزم أن نضع أيدينا على ناصية بدر تستقى منها وتشرب دوابنا ونحول بينها وبين المشركين ويكون ذلك تضييقاً عليهم وحرباً لهم[١] ، وهنالك استراح النبى لهذا الرأى واستراح له المسلمون وبنوا حوضاً على فم البئر لتسعفهم بالماء حتى لا يعوقهم الاحتياج منها وبينما هم يمرحون ويتصفون ابتهاجا بهذا الموقع « الاستراتيجى » الذى اتخذوه إذ اندفع « الأسود بن عبد الأسد المخزومى » من بين صفوف قريش يريد هدم الحوض الذى بناه المسلمون وهنالك يضربه « حمزة بن عبد المطلب » ضربة فى ساقه فيسقط ودمه يشخب ويدعو ذلك « عتبة بن ربيعة » أن يخرج من بين الصفوف ليطلب مبارزة المسلمين ولما تقدم له بعض الشبان الذى كانت الحمية تغلى فى عروقهم امتنع أن ينازله ونادى بأعلى صوته : « يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من المقاتلين » وكان « عتبة » يحيط به أخوه شيبة وابنه الوليد فتصدى « حمزة » لشيبة فقتله وتصدى « على » للوليد فقتله ، وتصدى « عبيدة بن الحارث » لعتبة وانتهى بالاجهاز عليه وبذلك كانت قريش قد خسرت ثلاثة من أعز أبطالها وخيرة فرسانها[٢] فلم تجد بدا من أن تلقى بكل ثقلها فى المعركة وتعطى للحرب حظها من الاهتمام فتزاحف الناس والتقى الجيشان صبيحة الجمعة السبعة عشر من رمضان والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على رأس المسلمين ينظم صفوفهم ويحدد مواقفهم ويملأ نفوسهم إيماناً بالله وثقة بنصره وتمكيناً لدينه ورفقا لمراميه وإعزازا لمن يقفون إلى جانب نبيه ، قائلا : (اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها ، تحاول أن تكذب رسولك . اللهم فنصرك الذى وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد)[١] .

وما زال يهتف بهذا الدعاء حتى أشفق عليه « أبو بكر » أن يناله مكروه من هذا الجهد الذى يبذله والاعياء الذى يعانيه فقال له : « هوِّن عليك يا رسول الله ، فإن الله منجز لك ما وعدك وكان الرسول ـ

(١) المستدرك للحاكم ٤٤٦/٣ والطبقات الكبرى لابن سعد ١٥/٢

(١) تاريخ الطبرى ٤٤١/٢ والبيهقى فى دلائل البقرة ٣٥/٣

من هذا التعب ـ قد أخذته سنة من النعاس رأى فيها مصارع الصناديد من قريش واطمأن كل الاطمئنان إلى نصر الله فتقدم إلى صفوف المسلمين ـ من جديد ـ ليقول لهم : (والله لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة)[١] وكان لهذا القول فى نفوس المسلمين أثره البالغ . وكان « سعد بن معاذ » قد رأى أن يبنى للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عريشا ليقوم فيه بعيدا عن مخاطر الحرب وعدوانها حتى إذا ما كان النصر فى جانب قريش استطاع أن يعود إلى المدينة ليواصل كفاحه وجهاده والاستمرار فى نشر دعوته إلى الناس وقد لقيت هذه الفكرة استحساناً وقبولاً ومن هذا العريش كان يخرج إلى صفوف المسلمين المرة تلو الأخرى ليطمئن كل الاطمئنان على سير القتال وكان من اغتباطه لسير المعركة وارتياحه لاستبسال أصحابه واعتقاده أن النصر فى النهاية سيكون فى جانبه ربما جرى على لسانه قول القائل :

نفلّق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أحقّ وأظلما أو قرأ قوله سبحانه ﴿ سيُهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[٢] .

ويقول الأستاذ « أحمد ابراهيم الشريف » : « سمت روح المسلمين المعنوية بتحريض الرسول ونزول القرآن يبشرهم بأن الملائكة تشد أزرهم فاندفعوا يقاتلون وقد جعلوا همهم سادة قريش يريدون استئصال شأفتهم جزاء ما عذبوهم وأخرجوهم ولأنهم رأس الكفر لو قتلوا الضعف غيرهم ولوجد الاسلام طريق الدعوة ممهداً لا تقف فى طريقها مطامع الزعماء وكبرياء الرؤساء . . وما لبثت قريش حين رأت كثيرا من ساداتها يسقطون قتلى بأيدى المسلمين أن ولت الأدبار لا تلوى على شىء . والمسلمون يضربون فى أعناقها وأدبارها ويأسرون من رجالها من لم يسعفه حسن فراره بالنجاة وبلغ عدد القتلى من قريش سبعين قتيلا فيهم معظم سادة قريش وعلى رأسهم أبو جهل كما استأسر سبعون . . وهكذا كانت هزيمة قريش تامة ساحقة أما المسلمون فقد اندفعت منهم فرقة تطارد الفارين وقامت أخرى بجمع الغنائم والتفت الثالثة بالعريش تحمى النبى مخافة أن يرتد إليه العدو » .

ومن الحديث فى « بدر » أو عن بدر لا نسمع إلا بطولة نادرة امتلأت بها نفوس المسلمين الذين طوّحوا بالكفر وأذلوا أهله وأطاحوا بدولته .

طرف كانت فى بدر

كان فى صفوف المشركين فى بدر « أمية بن خلف » وقد وقع فى أيدى المسلمين أسير هو وابنه وأراد « عبدالرحمن بن عوف » أن يحميها من عدوان من عدوا أن تحدثه نفسه بالنيل منها أو التطاول عليهما وكان (بلال) رقيقا مملوكا لأمية ولقى منه من صنوف العنت وألوان التعذيب بسبب اعتناقه الاسلام ودخوله فى دين « محمد » ما لم يلقه أحد فى سبيل عقيدة أعتنقها أو مبدأ التزمه أو شريعة انضوى تحت رايتها وكم تركه فى الرمضاء المحرقة متجرداً من ثيابه لتلفحه نارها ويؤذيه لهيبها ثم لا يكتفى بذلك دون أن يلقى بالحجر

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٢٢
(٢) سورة القمر الآية : ٤٥

الثقيل على بطنه رجاء أن يحمله ذلك التعذيب والايلام على المروق عن الاسلام والبقاء على وثنية الكفر وضلالة الشرك والسجود للأصنام التى لا تضر ولا تنفع ولا تحس ولا تدرك . وما إن وقعت عينا « بلال » على طلبته التى يرجوها وضالته التى كان يترقب فرصة الظفر بها حتى هجم عليها ليشفى غليله منها ويروى ظمأه إليها ويقتص لهذا الذى لقيه من جبروت المالك وعسف التسلط وجهل الضال وكبرياء الأحمق فلما زجره « عبد الرحمن بن عوف » المرة بعد المرة نادى بأعلى صوته قائلا رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا ، فلما ألح بلال فى الهجوم عليه وألح عبد الرحمن فى الزجر له قال عبد الرحمن لبلال : « يا بن السوداء هو أسيرى ومالى » ولكن بلالاً كرر الإلحاح وقال يا أنصار الله : رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا »[1] وأحاط الناس بأمية وابنه فى يدى ابن عوف وسبقت ضربة إلى ابن أمية وأخرى إلى أمية نفسه فكانا فى خبر كان .

وكان من هؤلاء الأسرى كثيرون كانت لهم سوابق سيئة فى معاملة المسلمين بمكة لم يقبل منهم المسلمون الفداء وأبو إلا أن تجزَّ رؤسهم وتباح دماؤهم وتكون نهايتهم على أيديهم مثل « عقبة بن أبى معيط » . و « النضير بن الحارث » وذلك للايلام والأذى الذى كان منهم وبخاصة « النضر » الذى كان يشترى كتب الأسمار والخرافات ويحكى منها للسذج وضعاف العقول ثم يقول : أليست هذه خيرا مما يزعم محمد أنه يوحى به إليه ؟ وتشير إلى قصته الآية من سورة لقمان : ﴿ **ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين** ﴾[2] .

وكان من طريف أمر الأسلام أن جاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ شاعر هو « أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحى » وقال : لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدق بى عليهن ولك علىَّ ألا أقاتلك أو أعين عليك فلما أطلق سراحه نكث عهده وأخلف وعده وخرج لحربه وحرب المسلمين فى « أحد » فوقع فى أيدى المسلمين وأنتهى أمره بالقتل .

وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد أبدى رغبة شديدة فى الترفق بمن كانت لهم مواقف نبيلة سابقاً مع المسلمين قبل الهجرة وبخاصة إن كانوا من « بنى هاشم » الذى ساعدوه ووقفوا إلى جانبه مدى ثلاثة عشر عاما بمكة قبل الهجرة وكان فى هؤلاء الذين أوصى ـ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهم ولم يرغب فى قتلهم عمه « العباس » إلا أن حذيفة ـ أو أبا حذيفة ـ لما بلغه أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤكد الوصية بعمه ـ وكان فى القتلى أبوه « عتبة بن ربيعة » وعمه (شيبة) وأخوه (الوليد) قال : أيقتل أهلونا وينجو العباس ؟ وهنالك تغير وجه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهذا القول ولم يسعه إلا أن يشكو لعمر قولة حذيفة فقال عمر : « لقد نافق حذيفة دعنى أقتله » وكان حذيفة يقول : شككت فى نفسى ورجوت أن استشهد فى سبيل الله لأكفر عن هذه الكلمة ومات ـ رضى الله عنه ـ فى حرب اليمامة فى خلافة « أبى بكر » وحذيفة هذا هو الذى بدا عليه الغضب حين بلغه مقتل أبيه عتبة فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (هل آلمك مقتل أبيك) فقال : (لا ولكنى كنت أرجو فيه رجاحة عقل وبعد نظر

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ٩٦/٥

(٢) سورة لقمان الآية : ٦

وحسن تفكير أن يكون له ميل إلى رسول الله وحب فى دينه واستجابة لدعوته ووقوف إلى جانبه وود عن شريعته لكنه آثر سبيل الكفر وطريق الغواية ودخل جهنم من أوسع أبوابها .

ومن الصور العاطفية التى تفيض بالحنين والحب فى هؤلاء الأسرى الذين ضاقت عليهم شباك الأرض تلك الصورة التى كانت بين « زينب » ابنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين زوجها فإن زوجها « العاص بن الربيع » وقع أسيرا فى أيدى المسلمين ولم يكن هنالك بدا من أن يلاقى الذى يلقاه أمثاله من معسكر الكفر الذى كان كل هم الرجل منهم أن ينكل بالرسول وبالمسلمين وبدعوة الحق حتى إذا ما انتهى به المصير إلى تلك النهاية بدت عليه الكآبة وأحاطت به الذلة وشعر بأنه أحقر من لا شىء فى العدد فلما رأت « زينب » ما لحق به دفعت بقلادة كانت أمها « خديجة » قد نحلتها إياها حين بنى بها « العاص » وذلك فداء لزوجها وكان هذا الصنيع الرقيق مثيراً لوجدان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم فلم يسعه الا أن يقول للمسلمين هل لكم أن تردوا قلادتها وتخلوا لها أسيرها بها) وقد خلّ المسلمون سبيله وعاد إلى مكة وخرج على رأس عير فى تجارة لبعض أرباب الأموال من قريش وفى عودته من الشام التقى به جماعة من المسلمين فأخذوا ما معه وهنالك التجأ إلى « زينب » ليرد المسلمون إليه ما أخذوه منه وعملت « زينب » على ردّ أمواله إليه فقد كان أجيراً على العمل لا يملك من الأموال شيئاً ـ على الرغم من أن صلة الزوجين بينهما قد انقطعت لأن الرسول فرق بينهما بحكم اختلاف الدين و « مضى العاص بن الربيع » إلى مكة ولما أبرأ ذمته من الأموال التى كانت فى يده عاد الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى المدينة وأعلن إسلامه وعادت إليه « زينب » واستأنف معها فى ظلال الاسلام عيشاً أرغد وحياة أهنأ وصلة أقوى فما كانت ولعل السبب فى تمسكه بها وحدبه عليها وترامى عاطفته نحوها إلى هذا الحد لا ترجع إلى رابطة الزوجين وكفى ولكن إلى أنها ابنة رسول الله وأنها ـ كذلك ـ ابنة خالته لأن أمه (هالة بنت خويلد الأسدية) أخت « خديجة » ـ أم المؤمنين ـ وكان « العاص هذا ممن عرفوا فى مكة بالأمانة والاستقامة وحسن الخلق وكان النبى يثنى عليه فى صهره وكثيراً ما حاول المشركون أن يحملوه على ترك « زينب » فلم يتركها وازداد تعلقا بها .

وكان من الصور التى تفيض بالانسانية المهذبة والمروءة النادرة أن قتلى المشركين الذين لم يجدوا من قومهم وذويهم من يدفن جثتهم ويوارى فى التراب أجسامهم صنع المسلمون بهن ضنيع الانسانية والمروءة إذ جمعوا أشلاءهم وأجسامهم وجعلوهم فى قليب ـ بئر ـ ثم هالوا عليهم التراب وقد ظل المسلمون بعد أن انتهت المعركة يوما كاملا وليلة كاملة لا يغادرون مكان المعركة وبينما المسلمون بالليل يسودهم الهدوءوالسكون يستغرق فى نومه منهم من أتعبه العمل وأنهكته الحركة وأعياه الكر والفر فى ميدان القتال ، كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقفاً على القليب الذى يضم جثث الموتى مناجيا تلك الجثث قائلا : (يا أهل القليب ، يا عقبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام يا فلان يا فلان ـ يذكر من فى القليب واحداً واحداً ـ : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنى وجدت

ما وعدنى ربى حقا ؟) قال المسلمون : « يا رسول الله أتنادى قوماً جيّفوا ؟ فقال عليه الصلاة والسلام (ماأنتم باسمع لما أقول منهم) ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوا [١]

ولقد كانت هذه الجولة بين المشركين والمسلمين ـ على الجملة ـ من الأيام الحالكة السواد على دولة الكفر والجماعة المناوئة لمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولأصحابه معه ولقد كان « أبو لهب » الذى فضحه القرآن الكريم فى السورة التى تلعنه وتهتك عرضه : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب . ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾[٢] من الذين استأجروا من ينوب عنه فى الخروج إلى قتال المسلمين فلما انتهت إليه نبأ هزيمة دولة الباطل وجيش الشرك وأصحاب دعوة الشيطان دارت به الأرض الفضاء وأصابه دوار حاد مرض بعده أيام ثم مات ولم يكن هو وحده الذى تلقى كالصاعقة وقع انتصار المسلمين فى غزوة بدر فإن كثيرا منهم من كان يقول تعقيباً أو تعليقاً على هذا الانتصار : « بطن الأرض أحسن من ظهرها ».

ويقول الدكتور هيكل : « ناحت من بعد قريش على قتلاها شهراً كاملاً وجززن شعر رؤوسهن وكان يؤتى براحلة الرجل أو بفرسه فينحن حولها ولم يخالفهن فى هذا إلا « هند بنت عتبة » زوج أبى سفيان ولقد مشى نساء منهن يوما إليها فقلن لها :

« ألا تبكين على أبيك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟ فقالت : أنا أبكيهم فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بنا ويشمت بنا نساء بنى الخزرج . لا والله حتى أثار من محمد وأصحابه والدهن علىَّ حرام حتى نغزو محمداً . . والله لو أعلم أن الحزن يذهب من قلبى لبكيت ولكن لا يذهب إلا أن أرى ثأرى بعينى من قتلة الأحبة ، ومكثت لا تقرب الدهن ولا تقرب فراش « أبى سفيان » وتحرض الناس حتى كانت موقعة (أحد) أما (أبوسفيان) فنذر بعد بدر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً) وقد فعل وفعلت زوجته هند بنت عتبة .

بعد بدر

ترك انتصار المسلمين ببدر أثره السيىء فى نفوس المشركين والمنافقين واليهود على السواء : ﴿ قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم ﴾[١] لكن هذا الانتصار من ناحية أخرى كان عنواناً على طور جديد من القوة والبأس والمهابة والسلطان والعنفوان والشدة إلى درجة أن الشعراء الذين كان يهجون « محمداً » ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويحرضون عليه أعداءه ، خرست ألسنتهم وخفضت أصواتهم وأصبحوا يسرون فى أنفسهم ما كانوا يباهون بالجهر به . والإعلان له وقد أصبح « محمد » وأصحابه يطاولون بأعناقهم ويجاهرون بينهم وينادون بأعلى صوتهم أنهم على الحق وكلمتهم هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى وأن أحداً من الناس لا يستطيع أن يحجب النور الذى يحملونه بأيمانهم مهما غلت مراجل الحقد فيهم وازداد لهيب الكراهية فى أفئدتهم وكان « كعب ابن الأشرف » . الشاعر اليهودى . قد وقف بمكة ليرثى قتلى القليب ليثير فى نفوسهم أهليهم وقرابتهم الغيظ الافين والألم المكبوت والضغن المتمكر

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ٥/٩٧
(٢) سورة المسد الآيتان : ١ ، ٢
(١) سورة آل عمران الآية : ١١٨

وهو الذى قال الكلمة المشهورة : هؤلاء أشراف الناس وملوك العرب والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها . . لكن هذا كله من المشركين والمنافقين وخصوم « محمد » جميعاً يشبه ما يسمونه حركة المذبوح وليس من الممكن لمحمد ولأصحابه أن يرجعوا إلى الوراء أو تقف بهم عجلة المضى فى الطريق إلى النهاية « جلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية فى الحجر بالبيت الحرام - بعد مصاب أهل بدر بيسير وكان « عمير » شيطانا من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله وأصحابه ويلقون منه العناء وكان ابنه « وهب » فى أسارى بدر فقال صفوان : « والله ما فى العيش بعدهم خير » . فقال عمير : « والله صدقت . ولولا دينى وعيالى لركبت إلى « محمد » حتى أقتله فقال صفوان : على كل ذلك ، قال عمير : فاكتم علىّ شأنى وشأنك » . ثم انطلق عمير إلى المدينة من غير علم صفوان ، فرآه « عمر » فأخبر به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : (أدخله علىّ) فأقبل « عمر » حتى أخذ بحمالة سيفه ولبيه بهافلما دخل على النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : (أرسله يا عمر أدن يا عمير ما الذى جاء بك ؟ قال : جئت من أجل الذى فى أيديكم - يعنى ابنه وهباً - فأحسنوا إليه ، قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال : أصدقنى بالذى جئت به ؟ قال : ما جئت إلا لذلك . قال : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية بالحجر ثم قص عليه ما دار بينهما من حديث . فقال عمير : أشهد أنك رسول الله . فقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقهوا أخاكم وعلموه القرآن وأطلقوا له أسيره ففعلوا وقال عمير : يا رسول الله إنى كنت جاهداً على إطفاء نور الله وأنا أحب أن تأذن لى فى القدوم إلى مكة لأدعوهم إلى الله ورسوله وإلى الإسلام فلعل الله أن يهديهم وإلا آذيتهم فى دينهم فأذن له فلحق بمكة وأسلم على يديه ناس كثيرون »[1] .

وتدل كتب السيرة من غير استثناء على أن هذا الأثر العميق الذى تركته « غزوة بدر » فى النفوس لم يكن فى مكة وحدها وإنما كان فى مكة والمدينة ولذلك فإن معسكر الكفر قد تحول كله إلى جهة حامية الوطيس لا حديث لها إلا عن الثأر والقتال وتأديب « محمد » وأصحابه ولهذا فقد اجتمعوا فى دار الندوة ليقرروا ما يمكن أن يواجهوا به هذا الموقف الجديد ، وكانت الخطوة الأولى هى التنازل عن أرباح القافلة التى كان يقودها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام والتى كانت هدف « محمد » وأصحابه فى أول الأمر وهو مبلغ كبير فى هذا الوقت ثم أخذوا يتصلون بحلفائهم من الأحابيش وغيرهم وباليهود الذين امتلأت نفوسهم بالحقد والكراهية لمحمد والذين آمنوا معه وانتهى ذلك كله باللقاء المعروف فى « أحد » .

أما « محمد » وأصحابه فإنهم لا يزالون فى نشوة الظفر والنصر لم يدر بخلدهم شبح المعارك ولا معنى الكرة الأخرى التى تنتظرهم من وراء السحب والحجب وفى الطريق إلى المدينة - وهم منصرفون من ميدان المعركة - كان الذى يعنيهم ويشغل تفكيرهم هو توزيع الغنائم وقسمة هذه الأسلاب التى أخذوها من عدوهم ولم يكن هنالك مبدأ مقرر ولا تشريع متبع ولا عرف معمول به وكان المسلمون فى هذه الحرب طوائف ثلاث : جماعة المطاردة التى كانت تلاحق العدو وحده وهو لائذ بالفرار وجماعة المقاتلين التى كانت تصارع الموت وتتلقى الضربات والذين كانوا فى حراسة الرسول - صلى الله عليه وسلم - حتى لا يدهمه

(١) سيره ابن هشام ٣١٦/٢ ودلائل النبوة للبيهقى ٤١٧/٢ والاصابة ٣٧/٣

العدو أو يلحق به السوء فأى هذه الطوائف ، يأخذ الغنائم أو يظفر منها بنصيب الأسد ؟ وصحح الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذا الخلاف ونزل قوله جل جلاله : ﴿ **يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾(١) ليفهم المسلمون أن القصد الأول والأخير هو إعلاء صوت الحق ويمكن راية الإسلام ثم تبع ذلك فيما بعد البيان لتوزيعها على أربابها . المستحقين لها : ﴿ **واعلموا أنما غنتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شىء قدير** ﴾(٢) .

فكان عليهم أن يجعلوا الخمس لهذه الجهات الاتى حددتها الآية الكريمة ثم يوزع الباقى بعد هذا الخميس كما يرى القائد العام للجيش وقد كان التوزيع على هذا النحو للراجل نصف ما يأخذه الفارس وللورثة حصة من استشهد وكذلك لاحظ التوزيع من أسهم فى المعركة دون أن يحضرها ومن كُلِّف بأمر خاص بعيداً عن ميدانها .

أما الأسرى فإن حالهم كان موزعاً بين الفداء الذى كان يتراوح بين الألف إلى عشرة آلاف أو الترك إذا كان الأسير لا يمكن ما يفدى به : ﴿ **فإمامنا بعد وإما فداء** ﴾(٣) وربما كان فداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ولم يكن هذا الرأى فى الأسرى فداؤه أن يعلم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة ولم يكن هذا الرأى فى الأسرى هو الفكرة الأولى فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما عرض الرأى ـ بادىء ذى بدء ـ على أصحابه كان رأى « عمر » القتل والإبادة ليكون فى هذا الصنيع الردع والزجر وكان من رأى « أبى بكر » الفداء لما بينهم وبين المسلمين من الرحم والقرابة وقد كان الرأى الذى انتهى إليه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الحد الوسط وقد أخذ المسلمون الفداء ممن استطاعه وتركوا من لم يقدر عليه ولم يستطعه وفى بعض الأحايين كانوا ـ شفاءًا لغليلهم وذهاباً لغيظهم وثأراً لإحن قديمة بينهم وبين الأسير ـ يرون أنه لا بديل من قتله فيقرهم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك ولا يعارض فيه وقد أخذ « عمر بن الخطاب » بوثاق « العباس بن عبد المطلب » فشدد عليه فظل « العباس » يئن ليلةً كاملة فتألم الرسول أشد الألم فبلغ ذلك الأنصار فعملوا على حل وثاقه وإطلاقه من غير فدية فأبى الرسول إلا أن يسوى بينه وبين الأسرى وقال له : (أفد نفسك وابنى أخيك . . عقيل ونوفل) فاشتكى له أنه لا يجد ما يدفعه فقال له : (ادفع من الذى تركته لأم الفضل عند خروجك من مكة) فقال له : ومن أخبرك به ؟ قال : (أخبرنى الله)(٤) قال : أشهد أنك رسول الله ودفع عن نفسه مائة أوقية وعن كل واحد من ولدى أخيه ثمانين وجرى فى خاطر « العباس » أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أرهقه بهذا المال الذى ألزمه بدفعه فنزل فى ذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم** ﴾(٥) فسر بذلك «العباس» ولم يعد بعد ذلك إلا جندياً مخلصاً من جنود

(١) سورة الأنفال الآية : ١
(٢) سورة الأنفال الآية : ٤١
(٣) سورة محمد الآية : ٤
(٤) جمع الزوائد ٨٦/٦
(٥) سورة الأنفال الآية : ٧٠

الإسلام يدافع عنه وينادى به ويرغب فيه ويبذل له ويقف إلى جنب رسوله وقوف المؤمن المخلص الذى جرى الدين فى لحمه ودمه وخالط روحه مخالطة امتزاج فلم يكن منه إلا ما يكون من المؤمن الصادق .

حديث أحـــــــد

كان ما أصاب المشركين فى بدر حافزاً قوياً لأن تتجمع قلوبهم وتتلاقى أهواءهم ويبذلوا كلَّ ما يملكونه لتعادل ميزان القوى وردِّ الاعتبار الذى كان لهم من قبل وكان أول شىء تناولوه بالتفكير أن تباع العير التى كان يسوقها « أبو سفيان » بالتجارة من الشام والتى كانت الشرارة الأولى فى بدر ثم يُحصل ثمنها فى تجهيز جيش جرار للقضاء على شوكة المسلمين ووقف زحفهم على طريق التجارة والحدِّ من محاولاتهم النيل من أهل مكة أو العدوان عليهم وبخاصة بعد هذا الذى حصل لسادتهم وكبار القادة منهم الذين عرفوا فيما بعد بأهل القليب والذين يمكن أن يكون قتلهم إغراء لمحمد وأصحابه لغزو مكة نفسها وتطهيرها من أشرافها وأرباب البيوتات فيها .

ولم يمض شهر واحد حتى كان « أبو سفيان » قد اتصل بحلفاء قريش ـ فى كل جهة ـ ليعدوا أنفسهم للقاء « محمد » والقضاء عليه وعلى من يقفون إلى جانبه من المؤمنين بدعوته المتفانين . فى السير على دربه وساعده على الاستبسال والمضى الجاد فيما يدعو إليه من تكوين جبهة قوية للخروج إلى القتال أن ظهر على المسرح العنصر النسائى من أمثال « هند بنت عتبة » وغيرها من زوجات وأخوات كبار الرؤوس فيهم وكانت « هند » بالذات من العوامل القوية فى إذكاء الحماسة وإشعال نيران الحمية والغيرة وكان من ضحاياها فى « بدر » أبوها . . وأخوها وعمها وكذلك كان « جبير بن مطعم بن عدى » قد فقد عمه « طعيمة بن عدى » وكان الغلام الحبشى « وحشى » قد اشتهر بمهارة فائقة وفروسية نادرة وإقدام لا تراجع فيه وأنه لا يخطىء مقاتل فريسته فوعده بالعتق مولاه جبير بن مطعم بن عدى كذلك استأجرته « هند » واتفق معه الطرفان على أن تكون فريسته أو هدفه « حمزة بن عبد المطلب » لأنه كان حبيباً عزيزاً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتله فى الميدان إيلام بالغ .

وكان «العباس بن عبد المطلب» عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمكة يرسل إلى ابن أخيه أخبار تلك التحريكات التى تتحركها قريش خطوة خطوة حتى لا يؤخذ على غرة أو يفاجأ مفاجأة بما لم يكن فى خلده وحياته وقد عرض الرسول الأمر على أصحابه ولم يشأ أن ينفرد بالرأى دونهم ولكنه أراد أن يشركهم فى الخطة التى يأخذ بها والأسلوب الذى يسلكه ويسير عليه ويقف به الموقف الذى يواجهه به هذا التآمر الذى يهيىء له «أبو سفيان » وغيره من رؤساء الكفر وطواغيت الشرك للنيل من الدعوة التى يحمل رايتها « محمد » وأصحابه وكان كثير من كبار الرجال من أصحابه قد رأوا أن الخطة المثلى التى يواجهون بها هذا الغزو المرتقب أو الزحف المنتظر هى التحصن بالمنازل والبيوت فى المدينة حتى إذا ما جاء الجيش الملكى بقيادة أبى سفيان وغيره ووجه فى المدينة من الصبيان والنساء والرجال من داخل المنازل وأسطح البيوت ومن الشوارع بما يشبه حرب العصابات وتزعم هذا الرأى « عبد الله بن أبى بن سلول » ولاقى ارتياحاً وقبولاً عند المحنكين من ذوى الأسنان الذين لم يكن فى عقيدتهم ريب ولا شك إلا أن جماعة ممن فاتهم شرف الاشتراك فى « بدر » من الشبان والمتطلعين إلى الاستشهاد ألحوا فى الخروج وملاقاة العدو خارج المدينة حتى

جاء بعضهم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال له : « يا رسول الله إن إبنى أصابته القرعة فخرج فى بدر وكان من الشهداء فى جوار الأنبياء والصديقين وقد رأيته فى النوم ينعم فى الجنة وأكان مما أوصانى به أن أسارع فى اللحاق به لأكون معه فى الجنة . وأنا أرجو يا رسول الله أن أموت فى سبيل الله لألحق بإبنى فى الجنة » .

وكانت فكرة الخروج وملاقاة العدو فى الميدان هى الفكرة التى انتهى إليها رأى الأغلبية فلم يسع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن ينزل على هذا الرأى الذى هو السواد الأعظم وما هو إلا أن دخل بيته ولبس لامته استعداداً لخوض المعمعة وخرج إلى قومه ليعلن إليهم أنه جاد فى أمره حتى استقبله بعض أصحاب هذا الرأى بما يفيد الرجوع عنه قائلين : إخلع لامتك يا رسول الله فإننا سنتحصن بالمنازل والبيوت ونرميهم من داخل حصوننا وسطوح دورنا وقد ظنوا أنهم يرضونه بهذا الرأى الذى كان يميل إليه فى بادىء الأمر ولكنه قال لهم :

(ما ينبغى لنبى لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ، انظروا ما آمركم به فاتبعوه والنصر لكم ما صبرتم)(١) .

ويقول صاحب كتاب الدولة الإسلامية الأولى : « تقدم النبى بالمسلمين متجهاً إلى « أحد » حيث عسكرت قريش ببعض سفوحه ورفض أن ينضم إليه كتيبة من اليهود كانوا حلفاء لعبد الله بن أبي ، حذر أن توقع الاضطراب فى نفوس الجيش وموقف اليهود مشكوك فيه بعد الذى ظهر من خيانتهم وبعد ما امتلأت به النفوس من حقد وفى الطريق انخذل عنه « عبد الله بن أبى » بثلث الناس وعاد إلى المدينة محتجاً بأنه خالف رأيه واتبع رأى الغلمان ممن لم يحسنوا استعمال الرأى . وكذلك همت طائفتان أخريان من الأنصار أن تتراجعا متأثرة برأى « ابن أبى » لولا أن ذكرتا إيمانهما فصبرتا وبقى الرسول ومعه سبعمائة من المسلمين المؤمنين ليقاتلوا ثلاثة آلاف من أهل مكة كلهم موتور وكلهم على ثأره حريص !

وقد جعل الرسول ظهره إلى جبل « أُحد » وصف أصحابه فى مواجهة العدو ووضع خمسين من الرماة على مرتفع . وقال لهم : (احموا ظهورنا فإننا نخاف أن يجيئونا من وراء ، وألزموا مكانكم لا تبرحوه وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ، ولا تدفعوا عنّا وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل ، فإن الخيل لا تقدم على النبل وألزموا أماكنكم حتى يأتيكم أمرى)(٢) .

وفى تشديد النبى على الرماة وفى تراجع بعض الناس عنه وفى المناقشة التى دارت قبل الخروج ما يثير التفكير والتأمل فى أمر الجبهة اليثربيه قبل بدء القتال فقد بدأت الجبهة اليثربيه فى المعركة مفككة ورأينا كيف أن المسلمين لم يكونوا موحدى الكلمة فى الاستعداد لمقاتلة العدو لقد كانت كلمتهم موحدة فى بدر وكان أمرهم جميعاً وكانوا مثال الطاعة والنظام والحرص على تنفيذ أمر القيادة كما كانوا يقدرون قوة العدو . ويدركون تفوقه عليهم ويعدون أنفسهم للصبر على الشدة وتمتلىء نفوسهم مع ذلك باليقين بالنصر وها هم

(١) صحيح البخارى ١٢٠/٥

(٢) مصنف عبد الرزاق ٣٦٤/٥ وأحمد فى الفتح الربانى ٥١/٢٢ ومجمع الزوائد ١٠٧/٩ وابن سعد فى الطبقات ٣٨/٢ والبيهقى فى الدلائل ٣٠٨/٣

أولاء اليوم تختلف كلمتهم فمنهم من يرى البقاء بالمدينة والتحصين بها ومنهم من يرى الخروج ومناصرة العدو حيث هو بظاهر المدينة وقد أنستهم حماستهم أن يقدروا قيمة العدو ويعملوا حسابه لتفوقه في العدد وأن يدركوا ما تضطرب به نفسه من الحقد والحرص على الثأر ليوم « بدر » وعلى كل حال فقد ابتدأت المعمعة حامية الوطيس على الرغم من عدم تعادل القوتين وتكافؤ الطرفين وكان « أبو دجانة » قد أخذ سيف الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ[٢] ـ وجعل يحصد به الرؤوس وهو رجل قد اشتهر بالشجاعة والإقدام والفروسية وكان هو وحمزة « يمثلان فى جيش المسلمين القوة التى لا تقهر ولا يستطيع أحد أن يردهما أو يقف فى طريقهما إذا كانت الانتصارات والهزائم فى الحروب تتوقف على النظام والطاعة والإيمان والعقيدة وأن شيأً واحداً من هذه كلها قد يكون شيئاً قوياً فى نهاية محمودة أو غير محمودة فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو الذى لا ينطق عن الهوى قد رسم للمسلمين وهو لا يشك فى صدق إيمانهم ـ الدستور الصحيح للنظام والطاعة التى يحتاجها النصر وهو يعلم مدى الفائدة التى تعود منها وفى هذه الكلمات البسيطة التى يخاطب بها الرماة الخمسين ما يدل على مقدار بصره الدقيق بالتكتيك الحربى الذى لا يعرفه إلا كبار القواد والساسة فإن المحنة لم تحل بالمسلمين فى أحد إلا بسبب هذه المخالفة حيث بدأت بوادر النصر فترك هؤلاء أمكنتهم وسارعوا إلى انتهاب الغنائم وكان كشف هذه الثغرة تمهيداً لالتفاف جناح جيش العدو بقيادة (خالد بن الوليد) حول المسلمين وإعمال السيف فيهم بعد أن انضم إليه الفارون من أهل مكة وبذلك أصبح جيش « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ هدفاً ميسوراً للمشركين ينالون منه ويقبضون على ناصيته وبفرار المسلمين وانطلاق الصوت المغرض : « إن محمداً قد مات » كان جيش « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الحال التى تستحق الرثاء والأسف إذ كان كبار المسلمين من أمثال « أبى بكر » و « عمر » و « على » قد نفضوا أيديهم من نصر الله لهم ولم يكن لهم تفكير إلا فى النجاة من الموت أو الأسر ، ومن خلال تلك السحابة الدكناء التى اشتبه فيها الحق والباطل تبين « كعب بن مالك » وجه « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنادى بأعلى صوته : « يا معشر المسلمين ، أبشروا هذا رسول الله نبينا فأشار إليه الرسول أن يسكت لكن المسلمين لم يلبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر ففرحوا به ، والتفوا حوله ووقفوا إلى جانبه يدافعون عنه ومن جوله أبو بكر وعمر وعلى والزبير بن العوام ورهط من كثير غيرهم وكان أبو دجانه الترس الواقى الذى وقف إلى جانبه يتلقى الرميات المصوبة إليه ويردها عنه وقد تقدم أمية ابن خلف يريد قتله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلاً : « لا نجوت إن نجا محمد » فطعنه الرسول بحربة « الحارث ابن الصمة » طعنة ولىَّ بعدها ثم مات[١] .

وانجلت هذه المعركة عن شدائد شديدة عاناها الرسول وإصابات بالغة لقيها وطارت قريش لنصرها سروراً وفرحاً حتى قال أبو سفيان : « يوم بيوم بدر موعدنا العام القابل » . وكان قد وقر فى ذهن « أبى سفيان » أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى القتلى هو وأبو بكر وعمر وعلى وكبار الصحابة فلما تبين له أنهم لا يزالون على قيد الحياة حزن حزناً شديداً .

ولما خلا الميدان من المشركين وأخذوا طريقهم إلى مكة خرج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ساحة المعركة ليتفقد موتاه ليأمر بدفنهم وإهالة التراب عليهم فراعه عمه « الحمزة » فى القتلى قد مثل به ـ وكانت

---

(٢) سيرة ابن هشام ٩٧/٣ طبعة الأردن

(١) سيرة ابن هشام ١٢٢/٣ طبعة الأردن

هند بنت عتبة زوج أبى سفيان قد بقرت بطنه وأخذت كبده لتلوكها - فلما رآه على تلك الحال غضب غضباً شديداً وقال : (لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم)(١) فأنزل الله عليه قوله : ﴿ **وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به . ولئن صبرتم لهو خير للصابرين واصبروما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون** ﴾(٢) فهدأ - صلى الله عليه وسلم - وقال : (أصبرو أحتسُب)(٣) ونهى عن المثلة .

وكان من طريف أخبار أحد أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لما التقى ببعض هؤلاء الذين فروا من الميدان وعاتبهم فى ذلك الفرار كان ردهم عليه أنهم قد انتهى إلى مسامعهم خبر موته فلم يجدوا بعد ذلك سبباً لصمودهم واستمرارهم فى المعركة الدائرة بينهم وبين العدو وهنالك نزلت الآيات : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين ، وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين** ﴾(٤) .

ولم يشأ النبى إلا أن يترك لهم المدارسة للحالة وأخذ العظة والعبرة رجاء ألا تتكرر المأساة فيما بعد أمام هذا العدو الذى يتربص بهم الدوائر فى كل موقف وكل مبارزة يتاح لهم أن يلتقوا به فيها ولذلك فإنه لم يعرف عن المسلمين أن تكررت هذه المأساة فيما بعد مأساةالخروج على أوامر القائد ومخالفة تخطيطه الذى يرسمه للمعركة مع العدو وربما كان الذى استفاده المسلمون من هذه المحنة وبخاصة بعد شماتة المنافقين واليهود بهم من أحسن الدروس فى تعليمهم الجرأة على عدوهم وكيفية الاستعداد للوقوف فى وجهها وقوفاً يشيع فى نفسه الرعب .

قاتل حمـــزة

كان خروج المشركين إلى « أُحد » مسبوقاً بحوافز كثيرة وتصميم أكيد استعداد تام لغسل العار الذى لحق بهم من جراء الهزيمة التى حلت بهم ببدر ولذلك فإنهم تأهبوا لها بكل ما يمكن أن يتأهبوا به من عتاد ومال ورجال ولم يكن ذلك قاصراً على الرجال وحدهم وإنما شاركت الرجل المرأة وكان الصراع بينها وبينه قوياً على هذا الخروج فالرجال يرون أن الميدان لهم والحرب تبعته يتحملونها ومن العيب أن تحمل المرأة السلاح إلا إذا فنى الرجال ولم يبق من يزود عن العرض ويأخذ بالثار ويذب عن الحمى ويدافع عن الحريم والمرأة تريد أن تشفى غليلها وتثأر لقتلاها وترى مصارع أعدائها وبعد صراع فى الرأى ومحاولة استعملت المرأة فيها أسلوبها الخداع وعواطفها المشبوبة وفؤادها الملتاع خرجت « هند بنت عتبة » ومعها عدد من النسوة لا يقل عن خمسة عشرة وحملت معهن صنماً على جمل ليبارك نواياهن ويقرن بهن التوفيق فى سعيهن ويجعل النصر لهن على العدو وكان هؤلاء النسوة ومعهم هند يردِّدن الأناشيد الحماسية التى تلهب فى قلوب

---

(١) الدار المنثور للسيوطى - تفسير سورة النحل الآية ١٢٦

(٢) سورة النحل الآيتان : ١٢٦ ، ١٢٧

(٣) رواه الترمذى فى كتاب التفسير - سورة النحل ٥/٢٩٩ وأحمد فى مسنده الفتح الربانى ١٨/١٩٢ والحاكم فى المستدرك ٢/٣٥٩

(٤) سورة آل عمران الآيات : ١٤٤ - ١٤٦

الرجال نيران الاستبسال والشجاعة حتى لا يتردد أحد فى إقدامه وكره على الخصوم الكرة القاضية .

وإذا كان لكل واحدة منهن ثأر تطلبه فإن هند بنت عتبة كان لها أكثر من ثأر لأنها كانت تندب أباها وأخاها وعمها ولهذا كانت أكثر النساء إلحاحاً فى الخروج إلى المعركة مع العلم بأنها لم تكن من السوقة ولا النساء اللائى ينطلى عليهن التبذل والاختلاط بالرجال فى ميدان كر وفر إلا أن المصائب لا قانون لها ولا يمكن لدستور أن يتحكم فيها أو يوجِّه خط سيرها لذلك كان خروج من خرجن إلى ميدان المعركة فى « أحد » خارجاً عن القانون مغايراً للمألوف .

وقد ساعد « هند إلى جانب مصابها الفادح أن تيسر لها أن تضع يدها على فتى مفتول الذراعين حديد النظر جرىء القلب غير هياب ولا وجل طمعت أن تغريه بالمال ليأخذ لها بالثأر الذى يشفى غليلها ويروى ظمأها ويمسح دموعها ويريح نفسها وكان ذلك الفتى هو الغلام الحبشى « وحشى » عبد « جبير بن مطعم بن عدى » وهو فارس لا تخطىء ضربته ولا يخيب قصده ولا ينبو سيفه ولا ينجو منه منازله وقد اطمأنت كل الاطمئنان لأنه وعدها أن يقتل عدوها اللدود « حمزة بن عبد المطلب » وكان وحشى هذا قد وعده كذلك سيده « جبير بن مطعم » أن يعتقه إن هو قتل « حمزة بن عبد المطلب » لأنه قاتل عمه « طعيمة بن عدى » وعلى هذا فإن وحشياً الحبشى يهزه إلى الحرب ويغريه بقتل « حمزة » عاملان قويان المال الذى وعدت به « هند » والعتق الذى وعد سيده « جبير بن مطعم » .

لكننا قبل أن يأخذ حديثنا عن وحشى نهايته يجدر بنا أن نقف وقوفا قصيراً عند « حمزة » الذى تحاك له هذه المؤامرات كلها لترى هل كان يستحق كلَّ هذا الاهتمام من خصومه ؟

فى الحق أن « حمزة بن عبد المطلب » لم يكن مجرد إنسان فى صفوف محمد يغار على دينه ويدافع عن عقيدته ويحارب خصومه ويخيف عدوه ويرد عنه كيد الكائدين وإنما هو عمه ـ أولا ـ وإلى جانب هذا فهو من القلوب النقية التى تحيطه بالحب وتخصه بالرعاية وتمحضه الود الصادق والاخلاص النادر وكان منذ نشأته ملازماً للرسول لا يفارقه إلا على الكره منه وكان مع هذا كله من الفرسان المغاوير الذين تعتز ببطولتهم الجبهة الإسلامية كلها ويحدث موته فيها اهتزازاً يتصدع له جدار دعوة « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتركيز على اختفاء وجهه من الميدان ـ إلى جانب كونه إيلاما بالغاً لمحمد ـ ثغرة واسعة ـ وفجوة فسيحة فى الصف اليثربى وبخاصة بعدما تبين بلاؤه فى « بدر » وقتله لرجالات قريش الذين كان قتلهم الجرح الذى لا يندمل وقد صدَّقَ ذلك كله فجيعة الرسول عليه وتهديده إذا نصره الله على قريش وأمكنه منهم أن يمثل بثلاثين رجلاً فى مقابل المثلة بحمزة وحده وكذلك جاء فى قصة إسلام « وحشى » من قول الرسول له : هل تستطيع أن توارى وجهك عنى فإنى لا أحب أن أراك ؟ فى حين أنه قد جاء إليه ليعلن إسلامه أو أنه كان أعلنه حينئذ .

وقد اتفقت كتب السيرة والتاريخ على هذا الحديث الذى يمكنه عن قتله لحمزة إذ سأله النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسأله غيره كذلك : « قال عبيد الله بن عدى سألت أنا وآخر وحشياً قلت جئناك لتحدثنا عن قتلك « حمزة » كيف قتلته ؟ قال وحشى : أما إنى سَأحدثكُما كما حدثت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سألنى عن ذلك . . كنت غلاماً لجبير ابن مطعم وكان عمه طعيمه ابن عدى قد أصيب يوم بدر فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير إن قتلت حمزة عم « محمد » بعمى فأنت عتيق فخرجت مع

الناس وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة قلما أخطىء بها شيئاً فلما التقى الناس مثل الجمل الأورق يهد الناس بسيفه هدّا ما يقوم له شىء فوالله إنى لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه » سباع ابن عبد العُزَّى » فلما رآه « حمزة » قال : له هلم إلىَّ يا بن مقطعة البظور فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه وذهب لينوء نحوى فغلب وتركته وإياها حتى مات ثم أتيته فأخذت حربتى ثم رجعت إلى المعسكر فقعدت فيه ولم يكن لى بغيره حاجة وإنما قتلته لأعتق فلما قدمت مكة أعتقت ثم أقمت حتى إذا افتتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكة هربت إلى الطائف فمكثت بها فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليسلموا رَميَّت علىَّ المذاهب فقلت : ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد فوالله إنى لفى ذاك من همى إذ قال لى رجل : ويحك ! إنه والله ما يقتل أحداً من الناس دخل فى دينه وتشهده شهادة الحق فلما قال ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمدينة . فلم يرعه إلا بى قائماً على رأسه أتشهد بشهادة الحق فلما رآنى قال : أوحشى ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : أقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ فحدثته كما حدثتكما فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ! غيب عنى وجهك فلا أرَينَّك ! فكنت أتنكب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيث كان لئلا يرانى ، حتى قبضه الله فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتى التى قتلت بها حمزة . فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائماً فى يده السيف وما أعرفه فتهيأت له وتهيأ له رجل من الأنصار فضربه بالسيف فربك أعلم أينا قتله فإذا كنت قتلته ، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد قتلت شر الناس »(١) .

ومن هذه القصة يظهر لنا أن الرجل الذى يتمكن الشر من نفسه ويغلب الانحراف على طبعه لا يلبث إذا خالطت الهداية قلبه ، أن يكون صلبا فى الحق ، مستميتاً فيه مدافعاً عنه لا يتزحزح ولا يشك ولا يرتاب وفى حرص « وحشى » على أن يرضى عنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشغله نفسه زمناً طويلاً بهذا الرضا ، دلالة على أن عقيدته راسخة وإيمانه ثابت وربما كان أول المؤمنين بأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حينما قال له غيب وجهك عنى لم يقلها كرها لأن يراه فى صفوف المسلمين يعلن إيمانه الذى ملأ قلبه ، وأخذ عليه هواجسه وأحلامه ولكن قالها تعبيراً عن كامن اللوعة المكبوتة فى نفسه على عمه الذى كان يحبه ويقف بجانبه ويساعده فى التمكين لكلمة السماء حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وكان قتله خسارة وما بعدها خسارة للإسلام والمسلمين من غير شك !!

بين أحد والأحزاب

على الرغم من صمود النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى نهاية معركة أحد والمسلمون قد انفضوا من حوله بعد شعورهم بأن مقاومتهم للعدو ووقوفهم فى وجهه ضرب من العبث ولون من ألوان الانتحار ، حتى لقد كاد صموده هو نفسه يكون عبثاً وانتحاراً لأنه بعد انفضاض المسلمين من الميدان كان يعرض

(١) صحيح البخارى ـ كتاب المغازى ١٢٨/٥ ورواه أحمد فى مسنده انظر الفتح الربانى ٢١/٥٩ والطبرى فى تاريخه ١٦/٢° والبيهقى فى الدلائل ٣/٢٤١

نفسه للموت بغير ثمن وللهزيمة بدون جدوى ، وقد كان الأجدر به والهزيمة تحل بالجيش لا محالة أن يهىء لنفسه طريقاً للفرار كما فعل كثير من أصحابه حرصاً على حياته من الهلاك وإبقاء على روحه التى لم يكن ليملكها وحده ولكنها كانت ملكاً للبشرية التى يعمل لها ويكدح لانقاذها ويعيش ليأخذ بيدها ويكافح للنهوض بها وتوجيهها إلى مستقبل أفضل ، وحياة أحسن وسلوك أمثل إلا أنه أراد أن يضرب المثل للناس على أنه وهو يحمل أعباء الرسالة ومسئولية الدعوة إلى الله لا يعنيه أن يكون إلى جانبه قوة من الناس تسانده وجيش من المحاربين وما ضده لأنه لا يود أن ينتصر بالسيف ولا أن يغلب بالقوة ولا أن يظهر بالبطش ولا أن يعلو بالعدد والعدة وهو الذى يعتمد على المنطق ويدعو إلى الحق ويقود الإنسانية إلى التى هى أقوم ومثله لا يثقل ميزانه أن ينتصر فى معركة أو يغلب فى جولة أو يضطر خصمه معه إلى أن ينزل على حكم القوة ، أو إرادة التسلط والنفوذ لأن هذا هو أسلوب المفلسين من الحجة والبرهان أو الصواب والحق .

على أن انصراف خصومه عنه مع هذا العنصر الساحق الذى أصابوه كان من المعجزات التى أيده الله بها والخوارق التى سخرها له ، فلقد وقفت له قلة قليلة تناوشه ونفر ضئيل يحاربه فنال منه بعض الذى يحب لا كل الذى يحب أما بقية الجيش فإنها كانت على يقين أنه قتل وليس هنالك بعد الذى كان ما يدعو إلى حرب شاملة . أو معركة حامية ، فلما تبين لهم بعد الانصراف من الميدان أن « محمداً » لا يزال على قيد الحياة ندموا أشد الندم أنهم لم يتخلصوا منه ، ولم يقضوا عليه القضاء الأخير ، ولذلك كثرت دراستهم لهذا الموقف وحطوا رحالهم وهم فى طريقهم إلى مكة دون أن يتريثوا وأجمعوا الرأى على أن يأخذوا طريقهم إلى « يثرب » لتأديب « محمد » ومن معه بعمل حاسم يحملهم على ألا يفكروا فى الوقوف فى وجه أهل مكة أثناء مرورهم بالتجارة من الشام أو إليها .

ولم يكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشك فى أن خمر الانتصار الذى حصلت عليه قريش ـ وبخاصة بعد قول « أبى سفيان » فى نهاية المعركة ، يوم بيوم بدر والموعد فى بدر مرة أخرى فى العام المقبل » ـ سيحملها على التمرد والطغيان الغرور وأن ذلك سيسوقها لا محالة إلى الطمع فى الدخول إلى يثرب التى يتحصن بها محمد والمسلمون معه لقطع الطريق على المارة من مكة أو إلى مكة بالتجارة ولهذا فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرد أن يظهر بمظهر المقهور الذى خرج من المعركة مثخناً بالجراح حتى لا يزداد طمع عدوه فيه ولكنه أقام فى الطريق من غير أن يواصل السير إلى المدينة وظل بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان أبو سفيان هو وأصحابه بالروحاء على بعد سبعة وثلاثين ميلا بعد أن لامته قريش على انصرافه دون أن يقضى على « محمد » وأصحابه ، وقد أراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ببقائه على الطريق أياماً أن تفهم قريش أنه لا يزال على أتم الاستعداد للقائهم ودفع عداوتهم وإشاعة الرعب فى قلوبهم وقد حاولت جماعات متفرقة من المشركين الالتقاء ببعض جماعات من المسلمين كان نصيبها من تلك اللقاءات الفرار والهزيمة وكان ذلك كله مضافاً إليه تنكيل « محمد » باليهود وإشاعته الخوف والفزع فى نفوس المنافقين عاملاً قوياً حاراً فى أن تعاود قريش واليهود والمنافقون تأليب خصوم الإسلام واستعراض عضلاتهم جميعاً فى مبارزة جديدة عرفت فيما بعد ذلك بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق .

ويقول الدكتور هيكل فى كتابه « حياة محمد » : فلما كان الغد من يوم أحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذن مؤذن النبى فى المسلمين بطلب العدو واستنفرهم لمطاردته على ألا يخرج إلا من حضر

الغزوة وخرج المسلمون فوقع فى روع أبى سفيان أن أعداءه جاءوا من المدينة بمدد جديد فخاف لقاءهم وبلغ محمد حمراء الأسد وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء فمر به « معبد الخزاعى » وكان قد مر بمحمد ومن معه فسأله عن شأنهم فأجابه معبد ـ وكان لا يزال على الشرك .

« إن محمداً قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط . وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه وكلهم أشد ما يكونون عليكم حنقاً ومنكم للثأر طلباً » .

على أن (أبا سفيان) فكر من جانبه فيما يكون لفراره من « محمد » ، ومن عدم مواجهته إياه بعد انتصاره عليه من الأثر أفلا تقول العرب فى قريش ما كان يود أن تقوله فى محمد وأصحابه ؟ ولكن هبه رجع إلى « محمد » فهزمه المسلمون إذا ليكونن ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبداً ! فلجأ إلى الحيلة فبعث مع ركب من « بنى عبد القيس » يقصدون المدينة يبلغون « محمداً » أنه قد أجمع السير إليه وإلى أصحابه ليتأصل بقيتهم ، فلما أبلغ الركب الرسالة إلى محمد بحمراء الأسد لم يتضعضع عزمه ، ولم تهن قوته ، بل ظل فى مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ليدل قريشاً أنه على عزمه وأنه منتظر رجعتهم وأخيراً فترت همة أبى سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة ، ورجع (محمد) إلى المدينة وقد استرد كثيراً من مكانته .

وفى هذا الموقف الذى وقفه المسلمون مع النبى بحمراء الأسد وغيرها لإرهاب العدو وتخويفه نزل قوله سبحانه ثناء عليهم : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم** ﴾[1] ولم يمض عام واحد على « أحد » حتى كان الموعد الذى هدَّد « أبو سفيان » بلقاء المسلمين فيه « ببدر » قد حان فخرج أبو سفيان إلى بدر وخرج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن هدَّد أنه لا يتخلف عن الخروج ولو أدى ذلك إلى أن يخرج وحده وكان لهذا التهديد أثره فى حماسة المسلمين وإقدامهم البالغ بعد أن كان فيهم فتور وتردد وقد أقام ثمان ليال ينتظر أبا سفيان لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع معتمداً على أن العام لم يكن خصباً وقال : يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون اللبن وإن عامكم هذا عام جدب فارجعوا فرجع الناس أما المسلمون فإنهم اتجروا فى سوق بدر وعادوا بربح عظيم لعله هو المقصود فى آخر الآيات السابقة بقوله جل شأنه : ﴿ **فانقلبوا بنعمة من الله وفضل** ﴾ ويقول المؤرخون : إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرجع إلى المدينة بعد هذه الرحلة الميمونة التى كانت إلى بدر الثانية والتى انقلب المسلمون بعدها بنعمة من الله وفضل إلا وقد صنع من التطهير العام فى الطريق وإشاعة الرعب فى نفوس المتمردين ولم يكن له أن يصنعه فى سنوات وكان أبرز ما صنع هو جلاء بنى النضير الذى كان بعد جلاء بنى قينقاع الضربة القاصمة التى وجهت إلى اليهود جبهة المعارضة للرسول وأصحابه ثم كانت بعد ذلك غزوة الخندق أو الأحزاب التى لم تجن من ورائها بعد التجمع ومحاصرة المدينة والفشل الذى منيت به إلا القضاء على بنى قريظة وبذلك كله صار المركز القوى للإسلام والمسلمين .

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٧٢ ـ ١٧٤

حديث الإفك

كانت غزوة « المريسيع » - أو بنى المصطلق - إحدى العمليات الحربية التى أراد بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يثبت لأعدائه من المشركين والمنافقين أن هزيمة « أحد » لم تفت فى عضده ولم تضعف شوكته لكن المنافقين الذين أصبحوا يخافون قوته ويرهبون بأسه لا يزالون يعملون من طريق حرب الاشاعات على تشويه سمعته وتلفيق الأكاذيب له وامتلاء الجو من حوله بالضباب والدخان لتكوين هذه الحرب النفسية تقويضاً لبنائه الضخم وتلويثاً لتاريخه الناصع وقد أمكنتهم الفرصة المتاحة من أن يصلوا إلى غرضهم هذا من أيسر الطرق وأقربها إذا انقطعت « عائشة » - رضى الله عنها - عن الركب لداع ضرورى وقد أركبها راحلته رجل كان - أيضاً - تأخر كما تأخرت وكان هذا ذريعة للإفاضة فى حديث غير كريم القصد منه تعكير الصفو وأثارة الفتنة . والقصة - كما ترويها صاحبتها - « عن عائشة » - رضى الله عنها - قالت : كان - صلى الله عليه وسلم - إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فأقرع بيننا فى غزاة غزاها فخرج سهمى فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب فأنا أحمل فى هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل فقمن حين آذنوا فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت التمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلن ولم يغشهن اللحم وإنما يأكلن العلقة من الطعام فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدى بعدما استمر الجبيش فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىَّ فبينا أنا جالسة غلبتنى عيناى فنمت وكان « صفوان بن المعطل السلمى » ثم الذكوانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء يدها فركبتها فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا معرسين فى حر الظهيرة فهلك من هلك ! وكان الذى تولى الإفك « عبد الله بن أبى سلول » فقدمنا المدينة فاشتكيت بها شهراً والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك ويبنما فى وجعى أنى لا أرى من النبى - صلى الله عليه وسلم - اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض إنما يدخل فيسلم فيقول : كيف تيكم ؟ لا أشعر بشىء من ذلك حتى نقهت « فخرجت أنا و « أم مسطح » قبل « المناصع » تبرزنا - لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية أوفى التنزه فأقبلت أنا و « أم مسطح بنت ابى رهم » نمشى فعثرت فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ! فقلت لها : بئسما قلت ! أتسبى رجلاً شهد بدراً ؟ فقالت : يا هنتاه ! ألم تسمعى ما قالوا ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضى فلما رجعت إلى بيتى دخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : كيف تيكم ؟ فقلت : إئذن لى إلى « أبوىَّ » .

قالت : وأنا أريد حينئذ أن أتيقن الخبر من قبلهما فأذن لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتيت أبوىَّ فقلت لأمى ما يتحدث الناس به ؟ فقالت : يا بنية هوّنى على نفسك الشأن ! فوالله لقلما كانت امرأة

قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها ! فقلت : سبحان الله : ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم أصبحت فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « على بن أبى طالب » و « أسامة بن زيد » حين استلبث الوحى يستشيرهما فى فراق أهله فأما « أسامة » فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الود لهم فقال أسامة : أهلك يا رسول الله ! ولا نعلم إلا خيراً ، وأما « على » فقال : يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك ! فدعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « بريرة » فقال : يا بريرة ، هل رأيت فيها شيأ يريبك ؟ فقالت : بريرة : لا والذى بعثك بالحق ! ما رأيت منها أمراً أغمصه عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتى الداجن فتأكله . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : من يعذرنى من رجل بلغنى أذاه فى أهلى ؟ فوالله ، ما علمت على أهلى إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلى إلا معى . فقام « سعد بن معاذ » فقال : يا رسول الله ، أنا والله أعذرك منه ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ، فقام « سعد بن عبادة » ـ وهو سيد الخزرج ـ وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية فقال : كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك فقام « أسيد بن الحضير » فقال : كذبت لعمر الله . لتقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المنبر فنزل فخفضهم حتى سكنوا وسكت وبكيت يومى لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالق كبدى ، قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى معى ، فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فجلس ولم يجلس عندى من يوم قيل لى ما قيل قبلها وقد مكث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشىء . قلت ، فتشهد ثم قال : يا عائشة ، لقد بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ! وإن كنت ألممت بذنب ثم تبت تاب الله عليك ! فلما قضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ! وقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال والله ما ادرى ما أقول لرسول الله فقلت لأمى : أجيبى عنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما قال ، قالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ قلت : وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن ، فقلت : والله ، لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث الناس وقر فى أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى لبريئة لا تصدقوننى بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم إنى لبريئة لا تصدّقونى والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ! ثم تحولت على فراش وأنا أرجو أن يبرئنى الله ولكن والله ما ظننت أن الله ينزل فى شأنى وحياً يتلى ولأنا أحقر فى نفسى من أن يتكلم القرآن فى أمرى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها فوالله ما دام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحى فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات فلما سُرّى عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى : يا عائشة ، إحمدى الله فقد برأك الله ! فقالت لى أمى : قومى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقلت : لا والله لا أقوم إليه

ولا أحمد إلا الله ! فأنزل الله - عز وجل - ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم .. الآيات ،[١] فلما أنزل الله - عز وجل - هذا فى براءتى ، قال أبو بكر الصديق - رضى الله عنه - وكان ينفق على « مسطح بن أثاثة » لقرابته منه : « والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قال لعائشة ! فأنزل الله - عز وجل - : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى .. إلى قوله والله غفور رحيم ﴾[٢] ، فقال أبو بكر : بلى ، والله إنى لأحب أن يغفر الله لى فرجع إلى « مسطح » الذى كان يجرى عليه .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سأل « زينب بنت جحش » عن أمرى ، فقال : يا زينب ما علمت ؟ ما رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت عليها إلا خيراً ! قالت : وهى التى كانت تساميني فعصمها الله بالورع »[٣]

وفى هذه القصة عظات وعبر :

منها أن الشدائد كانت تلاحقه - صلى الله عليه وسلم - فى كل خطوة من خطوات دعوته إلى الله - سبحانه وتعالى - فى نفسه وفى أهله وفى سبيل إعلان هذه الدعوة وإبلاغها إلى الناس ومع ذلك كله فإنها لم تستطع أن تصرف جهده أو تثنى عزمه أو أن تشيع اليأس فى نفسه أو تعوق خطوه أو تنال من ثقته بربه أو تشوه تاريخه أو تقف فى وجهه ليتحول عن السنن الذى هو ما صير فيه ..

ومنها - كذلك - أن مع العسر يسراً - كما يقول الله - سبحانه وتعالى - فإن عائشة - رضى الله عنها - لما شهدت لها السماء وبرأها الوحى ، ونوّهت بها الآيات البينات صار الإيمان بطهرها عقيدة ورميها بالزنا كفراً - والعياذ بالله - : ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ﴾[٤]. ومن أن المولى - جلا وعلا - لا يتخلى عن أوليائه فى أحرج الأوقات وأحلك الظروف مهما كانت قوى العدوان تلاحقهم وعناصر الشر تحاربهم والخصوم يكيدون لهم ويتفقون عليهم وقد كان مسطح الذى أذاع هذا الفحش وعبد الله بن أبى الذى تولى كبره ، ومن أخذوا عنهما هذه الفرية يظنون أنهم أصابوا من محمد - صلى الله عليه وسلم - مقتلاً أو كشفوا له هناة ولكن الله قد رد كيدهم فى نحرهم : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾[٥] ولو علم هؤلاء الذين رموا عائشة - رضى الله عنها - بهذا الإفك أنها ستحصل على هذه الشهادة من رب الأرباب بنزاهة العرض وطهارة الجانب وشرف القدر وسمو المنزلة لما كان منهم إلا الخرس ولكنه الحمق الذى جعلهم يسعون إلى حتفهم لظلفهم ويقدمون على سلوك يكون من ورائه لهم الويل والخزى والأسى والأسف والحسرة والخيبة والصغار والهوان .

ومنها - وهى أهم من ذلك كله وأعظم - أن الذى يهتم بكشف الأستار وافتضاح الأعراض يتخبط فى

---

(١) سورة النور الآية : ١١

(٢) سورة النور الآية : ٢٢

(٣) صحيح البخارى - كتاب المغازى - ١٤٨/٥ - ١٥٣ وكتاب التفسير - باب قوله : لولا إذ سمعتموه ٤٥٢/٨ ومسلم فى كتاب التوبة ٢١٢٩/٤ وعبد الرزاق فى مصنفه ١١٠/٥ والترمذى فى كتاب التفسير ١٣/٥

(٤) سورة النور الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٥) سورة النور الآية : ١١

منطقة ويلتوى فى سيره ولا يبالى أن تمشى به رجله إلى حتفه وتنتهى به إلى خاتمة لا يرضاها وغاية لا يحمدها أم أنها ستصل به إلى شاطىء الأمان ومواطن السلامة والعافية ، فإن هذا الرجل الذى اهتم به مروجوا هذه القالة وجعلوا منه بطلا لتلك الأسطورة ظهر من مجريات الحوادث والأمور ـ فيما بعد ـ أن إسناد دور البطولة إليه فى هذه الخرافة الملفقة والفرية المصنوعة لم يصادفه التوفيق ولم يقترن به الصواب والسداد لأنه رجل « غرهاة » كما تقول كتب المعاجم وقواميس اللغة ويفسرونه بأنه لا يرغب فى النساء ولا يتوق إليهن ولا يُخشى عليهن منه لأنه يفقد الفحولة ولا يوجد عنده الميل الجنسى ولا يمكن أن يشتاق إلى المرأة أو يحن إليها أو يطلبها أو يرى أنها ترضى فيه نزوعاً أو تشفى غليلاً ولذلك فإن عبد الله بن أبى وهو المقصود بقوله سبحانه : ﴿ **والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم** ﴾[1] لم يؤمن بأنه شفى غيظ نفسه من محمد وأصحابه بهذا الإفك حتى راح يؤلب النفوس ويثير القلوب ويقدم للفتنة وقوداً آخر وآخر مصوراً ذلك كله فيما سجله القرآن الكريم من حزازته ﴿ **هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾[2] وكأنما كان يعتقد أنه « كقابض على الماء خانته فروج الأصابع » .

الخندق أو الأحزاب

مع تلك المجابهات الكثيرة التى كانت بين المشركين والمسلمين والذعر الذى بدأ يدب فى قلوب خصوم محمد ـ ﷺ ـ من مواقف البطولة التى كانوا يرونها غير مرة من أصحابه ـ (رضوان الله عليهم) فإن العداوة التى كانت بادية فى سلوكهم معه ، ونواياهم نحوه ، لم تكن لتنقطع بوادرها ، أو تخفى ظواهرها أو تنتهى نتائجها المتكررة فى كل يوم وكل مناسبة وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب هذه هى أبرز تلك المسرحيات التى تجلى فيها بشكل واضح تيقظ موامرتهم بالنبى ـ ﷺ ـ ووضح وضعهم الشاذ بالنسبة له حين تيقظت خصومهم الحقيرة المتمثلة فى تحركاتهم المريبة هنا وهنالك لحشد الجيوش واتخاذ العدة وإشعال نار الحرب وإعلان التغير العام على هذا الذى جعل الآلهة إلهاً واحداً ، ويقول المرحوم الشيخ محمد الخضرى : « لم يقر لعظماء بنى النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم ، وإرث المسلمين لها بل كان فى نفوسهم دائماً أن يأخذوا ثأرهم ويستردوا بلادهم فذهب جمع منهم إلى مكة ، وقابلوا رؤساء قريش وحرضوهم على حرب رسول الله ووعدوهم المساعدة فوجدوا منهم قبولا لما طلبوه ثم جاءوا إلى قبيلة غطفان وحرضوا رجالها كذلك وأخبروهم بمبايعة قريش لهم على الحرب فوجدوا منهم إرتياحاً فتجهزت قريش وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة العبدى ، وعددهم أربعة آلاف وتجهزت غطفان يرأسهم عيينه بن حصن جازى إحسان الرسول إليه كفراً فإنه أقطعه أرضا يرعى فيها سوائمة حتى إذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم عليه وكان معه ألف فارس وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المرى وهم أربعمائة وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رضيلة وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعمائة وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدى وعدة الجميع

(١) سورة النور الآية : ١١
(٢) سورة المنافقون الآيتان : ٧ ، ٨

عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبوسفيان ، فلما بلغه عليه السلام أخبار التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع أيمكث فى المدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار ؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بعمل الخندق وهو عملى لم تكن العرب تعرفه فأمر ـ عليه السلام ـ المسلمين بعمله وشرعوا فى حفره شمالى المدينة من الحرة الشرقية إلى الحرة الغربية بعمله وهذه هى الجهة التى كانت عورة تؤتى المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو من الحرب جهتها وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة فى حفر الخندق لأنهم لم يكونوا فى سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ويقول الاستاذ أحمد إبراهيم الشريف فى الإعداد الذى سبق غزوة الأحزاب هذه :

« اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين فى يثرب فى نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا إلى خيبر بعد إجلائهم عن المدينة ، وأرادوا لها أن تكون مجاملة نهائية ، ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ، وفى سبيل ذلك لم يدخروا جهدا من حيلة أومكر أو مال . . . وتنفيذاً لهذه الفكرة خرج نفر منهم من بينهم حيى بن أخطب ، وسلام بن أبى الحقيق وأخوة كنانة ومعهم جماعة من يهود خيبر حتى قدموا على قريش بمكة ، وقد بدأوا بقريش لأنها التى تحمل لواء المعارضة ولأنها القوة المعادية للمدينة ، وهى التى بينها وبين المسلمين حرب معلنة لم تنته لكن قريشا كانت قد بدأت تمل الحرب وبدأت جبهتها الداخلية تتضعضع وأخذ الحصار الأقتصادى يؤثر فيها تأثيراً كثيرا جعلها تفكر فى إعادة النظر فى موقفها تجاه هذه الدولة الجديدة التى نشأت فى يثرب وأخذت عليها طرق تجارتها وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والنمو لذلك بدت مترددة غير واثقة ، فليس بينها وبين محمد خلاف إلا على الدعوة التى يدعو بها وليس بعيداً أن يكون على حق مادامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسموا . . . وأرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسألت حييا عن قومه من بنى النضير فقال : تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى محمد وأصحابه وسألوه عن بنى قريظة فقال : أقاموا ومازال بقريش يسهل لهم الأمر ويرغبهم حتى أخذ معهم موعداً بعد أشهر يكون قد جمع لهم فيها الأحزاب من كل قبائل العرب . . . . بلغت أنباء هذا المسير محمدًا والمسلمين معه فى المدينة ففزعوا وقد رمتهم العرب كلها عن قوس واحدة وإذا كانت قريش قد انتصرت فى أحد ولم تكن فى أكثر من ثلاثة آلاف فماذا يصنع المسلمون المقابلة هذه القوة التى تبلغ أكثر من ثلاثة أمثال قوة قريش حينئذ ؟ لم يكن من سبيل سوى التحصن بالمدينة ولكن أيكفى التحصن أمام هذه القوة الساحقة ثم إن النبى لا يريد المغامرة وليست البطولة هى التى يحرص عليها فالحرب عنده وسيلة لا غاية وهو ـ وإن كان سريع النهضة لضرب العدو ـ رقيق التنظيم ماهراً فى القيادة فإنه ليس على مثال قواد الحرب وأربابها يسعى وراء تحقيق مجد حربى وإنما هو نبى يريد سيادة مبدأ وتحقيق رسالة ويحرص على السلم مادام له عن القتال مندوحة وقد أقبلت قريش وأحزابها وهى ترجو يوماً كيوم أحد ولكنها لم تجد جيش المسلمين ينتظرها فى مساحة مكشوفة مثل يوم أحد وإنما ووجهت بتنظيم جديد وفاجأها الخندق فأخذها العجب إذ لم تكن تتوقع هذا النوع من الدفاع المجهول وكان الوقت شتاءً والجو بارداً والرياح شديدة وأدركت قريش وأحزابها أنهم مقيمون أمام الخندق طويلا يتعرضون لهذا الجو القاسى الذى تعجز خيامهم عن حمايتهم منه ومحمد وأصحابه بخندقهم ولدتهم الحيرة ومساكنهم وراءهم فهم يستطيعون الصبر طويلاً أفليس الخير للاحزاب أن يعودوا أدراجهم لكن جمع هؤلاء العرب لحرب محمد مرة أخرى ليس بالأمر

المين ، قدر اليهود هذا كله وخاف حيى بن أخطب مغبتها فقال لزعماء الأحزاب إنه سيقنع بنى قريظة بنقض عهدهم مع محمد والانضمام إليهم ومتى منعت معونتها عن محمد انقطعت عنه الميرة وفتح الطريق أمام جيش الأحزاب وسرت قريش بما تعهد به حيى وسارع هو إلى تنفيذ خطته فاقنع زعيم بنى قريظة كعب بن أسد بذلك ومازال حتى ثارت يهوديته وأعلن نقضه للعهد وعاد حيى يبشر الأحزاب لتستعد للهجوم وعلم الرسول بذلك فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير ليقفوا على جلية الأمر ، وليحاولوا رد اليهود إن كانوا قد فكروا فى الخيانة وهنالك طلب زعيمهم كعب بن أسد أن يردوا إخوانهم من بنى النضير إلى ديارهم إن كانوا يريدون منهم أن يلزموا موقفهم الأول وأراد سعد بن معاذ أن يقنعهم بالعدول عن هذا الموقف مخافة أن يحل بهم ما حل ببنى النضير لكنهم لم يقتنعوا وقال كعب : من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ؟ واشتدت المناقشة وكاد الفريقان يتشاتمان . . . ورجع رسل محمد إليه ، واشتد البلاء وعظم الخوف ورأى المسلمون طريق قريظة وقد فتح للاحزاب ولما لم يكن من الحكمة مواجهة هذا العدو فإن الحيلة إذن خير ما يلجأ إليه القائد البصير فى مثل هذا الموقف لذلك بعث النبى إلى غطفان يعدها بثلث ثمار المدينة إن هى ارتحلت ولما لم يكن لغطفان هدف إلا المال فقد بدأت تميل إلى هذا العرض ثم إنه أرسل نعيم بن مسعود وكان قد أسلم حديثا ولم يعلم الناس بإسلامه وكان صديقا لقريش كما كان صديقا لليهود ليصل بالحيلة إلى تفكيك وحدة الأحزاب وكان داهية ذكيا فأفهم اليهود أن غطفان وقريش لا تطيقان البقاء وربما انسحبا وظلوا هم وحدهم يواجهون محمداً وأصحابه فلا يستطيعون ، ونصح لهم أن يطلبوا من قريش رهنا من رجالهم يكونون بأيديهم ضمانا لهم ألا تتركهم الأحزاب لهذا المصير[1] وقال لقريش : إن بنى قريظة ندموا على نقض عهد محمد وسيأخذون رجالا باسم رهائن يقدمونها لمحمد ليضرب أعناقها ، فلما طلبت قريش والأحزاب من بنى قريظة خوض المعركة طلبوا منهم الرهائن وعندئذ تأكد لأبى سفيان أنهم سيغدرون وعرض أمر الهجوم السريع على غطفان فترددت فلما كان الليل عصفت ريح شديدة وهطل المطر غزيراً وقصفت الرعد واشتدت العاصفة بما لم ير له مثيل من قبل حتى امتلأت نفوس الأحزاب بالرعب وخيل إليهم أن محمداً سوف يستغل هذه الفرصة فيها جمعهم ويوقع بهم فقام طليحة بن خويلد الأسدى وصاح إن محمداً قد بدأكم بشر النجاه النجاه وكان أبو سفيان أول من أجاب النداء ولبى داعى الفرار وصاح بقريش إلى مرتحل أيها الناس فارتحلوا فقد نقضت قريظة عهدها وبدأكم محمد بشر ما تكرهون وهكذا هزم الله الأحزاب وكفى المسلمين القتال .

وفى هذه الغزوة لم يكن عدد المسلمين مشجعا على الوقوف فى وجه الأحزاب الذين جاءوا للإجهاز عليهم وإسكات صوتهم وتفريق شملهم وتنكيس رايتهم إلى الأبد حتى لا تزحم طريقهم هذه الدولة الجديدة فى يثرب وهنالك تمر القوافل التجارية وهم يخشون الخشية كلها من تعرضها لها وعدوا بها عليها إلا أن المسلمين مع هذه القلة كان فى قلوبهم إيمان وبين جوانحهم عقيدة نماها لديهم وأكدها فى نفوسهم

(١) مصنف عبد الرزاق ٣٦٨/٥ والبيهقى فى الدلائل ٤٤٥/٣ والواقدى فى المغازى ٤٨٠/٢

تلك الشقة التى لا حد لها فى نصر الله لهم والتى كان الرسول - ﷺ - يعلنها إليهم ويبشرهم بها ويؤكد لهم أن الله - سبحانه وتعالى - قد وعده بها ولا يخلف الله وعده ونحن نستطيع أن ندرك من غير شك - أن الرسول - ﷺ - أثبت مما لا ريب ليه أنه قائد حربى محنك استطاع بدهائه وذكائه وعقله الكبير أن يعصف بهذا العدو الضخم الذى حشده عدوه وواجهه به خصومه وتبين ذلك واضحا كل الوضوح فى أمرين اثنين ، كان أولهما استخدام هذا الرجل الحصيف نعيم بن مسعود الذى استطاع أن يجعل الثقة مفقودة بين الأحزاب وبنى قريظة إلى درجة أن فكرت قريش ممثلة فى القائد العام أبى سفيان أن تعدل عن الحرب ثم تنجو بنفسها مكتفية بهذا النصر الذى أحرزته فى أحد وقد حصل ذلك بعد حرب الاستنزاف التى صادفتها من البقاء الطويل وقيام العواصف التى اقتلعت الخيام وأشاعت الرعب على أن الخندق كان ضمانا إلى حد ما فى صيانة جيش المسلمين من هجوم عدوهم وتطاول خصومهم وإن كان بعض الفرسان اقتحمه وأراد بهذا الاقتحام أن يمهد لغيره أن يقتحمه غير أن عملية لم تكن من اليسر بحيث يستطيعها كل أحد وثانى هذين الأمرين تلك المبارزة التى أراد مقتحموا الخندق أن يشيعوا بها الرعب والفزع فى نفوس أصحاب محمد - ﷺ - إلا أنها لم تحقق غرضها ولم تصل بأصحابها إلى النتيجة المطلوبة وكان على بن أبى طالب - رضى - الله عنه صاحب الفضل فى أنها خيبت ظنونهم وأحبطت أعمالهم ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً إذ تقدم عمرو بن ودَّ طلبا للمبارزة وتقدم له على فقتله وكان بعد ذلك قرار المشركين وكانت هذه هى الضربة الأولى والفضل فى الحروب دائما أبداً للضربة الأولى وأظن أنه قد كان من الطبيعى جدا بعد هذه الغزوة أن يفهم خصوم محمد - ﷺ - أنهم سوف لا تقوم لهم قائمة بعد وأنه لم يبق إلا أن يقول قائلهم فى صوت عال أو خافت إن الإسلام قد أصبح قوة ضاربة لا يمكن قهرها ولا القضاء عليها .

قصـــة زينب

لم يقتصر مؤامرات المشركين ، ولا دسائس المنافقين فى الكيد للرسول - ﷺ - على الحروب الميدانية التى أثاروا عجاجها ورسموا منهاجها وأشعلوا نيرانها وأراقوا فيها دماء كريمة عزيزة ولكن هذا الكيد كان يمتد بهم إلى أقصى الغايات وأبعد المسافات فيتناول العرض والشرف والسلوك والطباع والأخلاق والعادات وأمهات المؤمنين اللاتى كن أطهر من ماء السماء وأنقى عرضا من حبات الندى وكأنما هو مخطط قد رسمت له الحدود والأبعاد وأعدت لتنفيذه الأوقات والمناسبات والظروف الملائمة وتتناول الرسول - ﷺ - نفسه إذا دعت الضرورة إلى ذلك فيتهمه بالسحر والكهانة والشعر وأن ما ينزل به جبريل الأمين أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه حتى إذا ما تبين لهم تفاهة ما يقولون وخرافة ما يدعون وكذب ما يزعمون حاولوا أن يتخذوا لهم ميدانا آخر للهجوم ومناسبة أخرى للطعن واللمز والتشويه والتجريح وقد كان زواجه - ﷺ - بأكثر من واحدة مادة خصبة للحديث العفن والتشنيع المفضوح والانتهاش الساقط وفى كل مناسبة من المناسبات التى تأخذ فيها هذه الأحاديث طريقها إلى الأفواه والأسماع يكون وراءها منافق أو يهودى والمستشرقون فى العصر الحديث ورثوا عن المنافقين واليهود ما كانوا يقومون به وأتقنوا التنقيص والطعن واختلاق العيوب والمساوىء وقصة زينب بنت جحش واحدة من هذه القضايا التى أخذوا على عاتقهم استخدامها فى الطعن على الرسول وإبرازه فى صور الشخص الأنانى الذى لا يعنيه إلا نفسه هو فقط يشبع شهواتها ويلبى رغباتها ويستجيب لنزوعها وميولها أو الرجل الشهوانى الذى ينس عقله ورشده وتفكيره

وخلقه ومنطقة وأدبه وعرضه ودينه لينزل على إرادة الغريزة والطبع والهوى والميل متناسيا الأعراف والتقاليد والدساتير والنظم والقصة هكذا كما يرويها الشيخ محمد الخضرى : (وفى هذا العام ـ يقصد السادس الهجرى الذى كانت فيه غزوة الأحزاب وبنى قريظة والمصطلق تزوج عليه السلام زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول ـ ﷺ ـ خطبها له فتأفف أهلها من ذلك لمكانتها من الشرف العظيم فإن العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ويعتقدون ألا كفء من سواهم لبناتهم وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف فلما نزل قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا** ﴾(١) لم يروا بدا من القبول فلما دخل عليها زيد أرته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله فاشتكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها إى أن ضاقت نفسه فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربا من العبث أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسماً للنزاع من جهة وحفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ولكن رسول الله خشى من لوم اليهود والعرب عليه فى زواجه بزوج ابنه فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله وأخفى فى نفسه ما أبداه الله فبت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم الزوج من زوجة المتبنى ﴿ **لئلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا** ﴾(٢) ومن هذا الحين صار اسم زيد (زيد بن حارثه) بدل زيد بن محمد ويقول جهال المؤرخين وذوو المقاصد السافلة منهم : فى هذه القصة أقوالا لا تجوز إلا على من ضاع رشده ولم يفقه حقيقة ما يقول فإنهم يذكرون أن الرسول توجه يوما لزيارة زيد فرأى زوجته مصادفة لأن الريح رفعت الستر عنها فوقعت فى قلبه فقال : سبحان الله فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها فتوجه وأخبر الرسول بعزمه فنهاه عن ذلك ويكذب هذا أن نساء العرب لم تكن تعرف ستر الوجوه وزينب بنت عمته وقد مضى على إسلامها نحو عشر سنوات ورسول الله هو الذى زوجها زيدا فلو كان له فيها رغبة عن حب أو عشق لتزوجها هو ولا مانع يمنعه من ذلك ومن هنا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه : إنه مرسل من ربه ويتلو عليهم صباح مساء ﴿ **ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا** ﴾(٣) ثم هو بعد ذلك يدخل بيت رجل من متبعيه وينظر إلى زوجته ثم يشتهى زواجها ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا وأبعدهم عن الدنايا حتى مدحه الله بقوله ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾(٤) أما الدكتور هيكل فى كتابه حياة النبى ـ فإنه يقول : (يكفى لهدم كل هذه القصة التى قرأت عنها من أساسها أن تعلم أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ـ عليه السلام ـ وأنها ربيت بعينة وعناية وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى وأنه كان يعرفها ويعرف أهى ذات مفاتن أم لا قبل أن تتزوج زيداً وأنه شهدها فى نموها تحبو من الطفولة إلى الشباب وأنه هو الذى خطبها لزيد مولاه إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٦٠

(٢) سورة الأحزاب الآية : ٣٧

(٣) سورة طه الآية : ١٣١

(٤) سورة القلم الآية : ٤

مر ببيت زيد ولم يكن هو فيه رأى زينب فبهره حسنها وقال : سبحان مقلب القلوب أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب فالقاها فى قميصها ممتدة فانقلب قلبه فجأة ولو أن شيئا من حبها علق بقلبه لخطبها لنفسه لا لزيد ويثبت التاريخ أيضا أن محمداً خطب ابنة عمته لمولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية وهى مع ذلك ابنة عمة الرسول وأن تكون تحت عبد رقيق اشترته خديجة ثم أعتقه محمد ورأى فى ذلك على زينب عاراً كبيرا وكان ذلك عاراً كبيرا عند العرب فلم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من موال وإن أعتقوا لكن محمد يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبية وحدها وأن يدرك الناس جميعا أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتمل هذا الخروج على تقاليد العرب. وهذا الهدم لعاداتها مضحية فى ذلك بما يقول الناس عنها مما تخش سماعه وليكن زيد مولاه والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه هو الذى يتزوجها فيكون مستعدا للتضحية التى أعد الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء فلما سارت زينب إلى زوجها لم يسلس قيادها ولا لأن إباؤها واشتكى زيد إلى النبى ذلك وطلب طلاقها وقال له النبى : أمسك عليك زوجك إلا أن زيداً لم يطق فطلقها وكان الشارع الحكيم قد اراد أن يبطل ما كانت تدين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها ومن إعطاء الدعى جميع حقوق الإبن ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا ومن من العرب يستطيعه وينقض به تقاليد الأجيال السابقة إن محمداً نفسه على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله فى أمره قد وجد على نفسه الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هده العادة القديمة المتأصلة فى نفوس العرب لكن محمداً كان القدوة فى كل ما أمر الله به وما طلب منه أن يبلغ رسالته فليخش ما يقول الناس فذلك لا شىء إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبنى والادعاء هذه رواية التاريخ الصحيح) وربما كان من المستحسن أن ننقل لك صورة من تفكير بعض المستشرقين وتصورهم لهذه القصة عن كتاب حياة محمد للمستشرق (إميل درمنغم) الذى ترجمه إلى العربية (محمد عادل زعيتر) لترى إلى أى حد كان هذا الإسفاف وتلك الخرافات : « شعر محمد فى العقد الأخير من عمره بكبير ميل إلى النساء فقد أثارت عائشة الفتاة التى تزوجت به فى السنة التاسعة من عمرها عوامل الميل إلى النعيم الجنس فى زوج خديجة الطاهرة الذى ظل وفيا لها عشرين سنة مع زيادة سنها عن سنه كثيرا فلما بلغ محمد المدينة وصار رئيس دولة وقائد حرب أقام لنفسه بيتاً كبيوت سادات العرب فأبرم كهؤلاء السادات عقود نكاح كثيرة عن ميل جنسى أوعن سياسة وكان له بضع سرارى جميلات عرضت عليه هدية أو نالها سببا وقد زاد لذلك الميل الجنسى القوى الذى كان محصورا قبل زمن أبواب بيته النافذة إلى فناء المسجد بالتدريج فكان كل باب منها خاصاً لسكن إحدى زوجاته . . . وقد دخل محمد ذات يوم بيت زيد بن حارثه بعد الفراغ من غزوة بنى النضير وكان محمد يحب مولاه العتيق زيد بن حارثه كثيرا وكان قد تبناه فكان زيد بن محمد وكان يستشيره فى كل أمر وكان زيد فى ذلك اليوم غائباً عن بيته فوجد محمد نفسه تجاه زينب بنت جحش التى كانت أجمل فتيات قومها والتى كانت زوجة لزيد وكانت زينب هذه سافرة وشبه عارية وعاملة على زينتها وإدارة بيتها فأثر هذا الجمال الغض الفياض فى نفس النبى ـ ﷺ ـ فقال : سبحان مقلب القلوب ولم ينطق

بغير هذه الكلمة ثم انصرف وقد قصت زينب على زوجها زيد ما رأت فحار فى الأمر وكان زيد المخلص لمولاه النبى مزاجه المتقد فرأى ألا يمسك عليه زوجه فأعرب عن عزمه على طلاق زينب وذكر له أنه لا يستطيع العيش معها فقال محمد : أمسك عليك زوجك بيد أن زيدا أدرك أن ذلك لا يعبر عما يخفيه ـ محمد فى نفسه فأصر على حل عقدة النكاح متعللاً بأنه أضحى كارها لزينب فطلقها بعد بضعة أيام فلما انقضت عدة زينب أرسلت إلى محمد من يقول له : إن زيداً طلقها إرضاءً له وكان محمد راغباً فى الزواج من زينب على استحياء .

ونحن نرى من هذا الرأى الذى يمثله « درمنغم » يتجافى مع الحقيقة كل المجافاة ويتجرد من الذوق إلى أبعد حد لأنه لا يجعل الرسول فى مصاف النخبة الممتازة من البشرية التى ارتفعت بها عناية الله عن هذا المستوى البشرى السافل إلى أفق يجعل منهم القدوة الصالحة للإنسانية ولكنه ينزل بهم إلى المستوى الترابى الحقير الذى يعيش الناس فيه لحيوانيتهم الطائشة وآدميتهم الرعناء فلا يمنعهم شىء وراء شهوة البطن والفرج على أن محمداً ـ ﷺ ـ الذى مرت به فترة الشباب وهو أكمل ما يكون قوة وأنضج ما يكون حيوية وأقصى ما يكون جنسياً وأعظم ما يكون فراغاً لم يُعرف عنه الميل الذى يجعله أسير شهوته يجرى وراءها ويبحث عنها وينسى فى سبيلها كرامته وخلقه شأن أولئك الذين كانت المرأة تقودهم وتتحكم فى سلوكهم وتملك عليهم كل شعورهم ولقد طلبته خديجة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وهى فى الأربعين وسعت إليه دون أن يسعى إليها . . وفى الوقت الذى جرت حوادث قصة زينب لم يكن فى فراغ جنسى حتى يتصور العقل أن يكون عنده هذا الشبق والميل العارم فقد كان فى حريمه حفصة الشابة الجميلة فى الثمانى عشرة من عمرها وعائشة الصغيرة العزيزة التى كانت تملأ جوانب قلبه كلها فأى شىء كانت تزيده زينب التى كانت ميسورة له منذ الطفولة حتى هذه اللحظة المزعومة رهى ـ مع ذلك كله ـ ابنة عمته ، اللهم لا شىء فلم يبق يعد ذلك كله إلا أن المسألة لا تغدو أن يكون هذا منهجاً سماويا خاصا أردا به صاحبه أن ينفذ على شكل لا يحمل على التردد ولا يكون شاقاً على الناس ولا يمثل قصته على خشبة المسرح إلا أشخاص لا يدخل فى روع المجتمع أنهم من السوقة أوممن لا يصح أن تكون لهم قيادة للجماعة الانسانية التى يعيشون معها ولو أن أصحاب هذا الدور التشريعى الذى أريد به أن يكون انتقالا بالمجتمع من سلوك إلى سلوك غير الرسول ـ « ـ وزيد بن حارثه مولاه وصفيه وموضع ثقته وزينب عمته لكان لهذه الثورة على هذا الوضع البغيض شأن آخر فى تقبل الناس إياها وتركهم لها وإقلاعهم عنها وعدم ارتياحهم إليها ولكن القضاء عليها بهذه الصورة كان حزماً فى الأسلوب وحكمة فى التشريع وصوابا لا يعدله صواب ولهذا فإنه لم يثبت أن أحداً غضب من أجل أن تنحل منه هذه النبوة المزودة أو هذا النسب اللصيق أو هذه الوشيجة التى لا تعتمد على شىء وإنما قابلوا هذا الصنيع بالارتياح كل الارتياح ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾[1] إلا أن الخصومة لا منطق لها والحقد يتجاوز معايير السدا والحكمة والذوق والأدب .

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٤

صلح الحديبية وبيعة الرضوان

إلى هذا التاريخ كانت سنوات ست قد مضت على المناوشات الحادة بين قريش ومعها حلفاؤها من العرب والمنافقين واليهود وبين النبى - ﷺ - والمسلمون معه وكانت قريش إلى هذه الفترة نهكتها الحرب وقلمت أظافرها الهزائم التى لحقت بها فلم يعد لديها من سلاح تواجه به محمداً إلا الحقد الذى تغلى جوانحها ونوايا الشر التى تخفيها فى ضمائرها حتى لقد جلس أبو سفيان يوماً من الأيام فى نادى قومه يكاد الغيظ يفيض منه فقال ، ألا رجل يأخذ محمدا على غرة فى مسيرة إلى السوق أو إلى دار بعض أصحابه أو إلى المسجد فيضربه ضربة تقضى عليه ليريحنا منه ومن خطره علينا بعد تلك الدماء التى أريقت من قومنا وأهلينا وذوى المكانة فينا فتقدم إليه رجل وقال له أنا ذلك الذى تنشده وهنالك أعطاه أبو سفيان الأموال والزاد والراحلة ليقوم له بتلك المهمة وفى صباح اليوم السادس من هذه الرحلة كان ينحنى على النبى - ﷺ - ليضربه بخنجره الذى سقط منه فلم يستطع أن ينال من الرسول مكروهاً ولما وجد أن قدرته قد ذهبت وأن خطره قد هوى وأن قلبه قد امتلأ بالخوف وأن رجليه لا تحملانه وأن الأرض موشكة أن تنشق لتبتلعه وأن أسيد بن حضير يجذبه جذبة تنخلع لها نفسه أعلن ندمه وأسفه على ما أقدم عليه فقال له النبى أصدقنى حديثك وخبرنى خبرك فلم يخف عنه شيئاً وأنباه أنه موفد من قبل أبى سفيان لقتله وأنه يعترف منذ هذه اللحظة أن أبا سفيان وقومه على الباطل وأن الرسول على الحق وقد بعث النبى - ﷺ - رجلين من أصحابه ليقتلا أبا سفيان هما عمرو بن أميه الضمرى - وكان من فتاك العرب فى الجاهلية - وسلمة بن أسلم وقد عرف أبو سفيان وهو يطوف بالبيت فاستعدى عليه أهل مكة فهرب هو وصاحبه وقتل فى طريقه وهو فار رجلا من تيمه ورجلا من بنى الديل ولقى آخرين من قريش بعثتهما يتجسسان على محمد وأصحابه فقتل أحدهما وعاد بالآخر أسيراً إلى المدينة وكأن الله - سبحانه وتعالى - أراد أن يبقى أبو سفيان على قيد الحياة يسلم حتى بيديه مفاتيح مكة فيما بعد .

ولم تكن هذه السنوات الست بالأمر الهين اليسير على نفوس المسلمين الذين فارقوا البيت الحرام ومكة التى تضم اهليهم وذوى قرابتهم وإخوانهم وأخواتهم بل لم يكن النبى - ﷺ - أكثر منهم جلدا ولا أشد منهم احتمالا أو أقل شوقاً ولهفة إلى أن يجد نفسه وقد مكنه الله من الأرض العزيزة عليه ومن البيت الحبيب إليه حتى بلغ من حنينه هذا ومن شدة تعلقه بهذا المكان الذى بزغت شمسه قبل أن تطلع الشمس وتنشر ضياءها على هذه الدنيا أن رأى فى منامه - ﷺ - أنه دخل مكة ولم يكن يذيع فيهم ذلك النبأ ويبشرهم أنه سبحانه سوف يحقق لهم هذا الحلم ﴿ **لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين** ﴾(١) حتى ويثبت أفئدتهم من بين أضلاعهم تطوف بالبيت وتتملى من نوره ويتيمم بغباره وتملأ خياشيمها بريّاهُ ثم ظلوا يتحينون الفرصة ويترقبون أن يحقق الله لهم ما يرجون أن يكون إلا أنهم كانوا على يقين أن قريشاً لا تفتح لهم أبواب مكة يطوفون بالبيت الحرام عن رضا نفس وطيب خاطر وسوف تصدهم صداً عنيفاً إذا علمت أنهم سيدخلونها عليهم بحكم السيف وسلطان الحرب وقد

---

(١) سورة الفتح الآية : ٢٧

كانت قريش لا تفكر فى حرب محمد - ﷺ - لأنها تعانى من حروبها الماضية وتقاسى مما خسرته فيها من عتاد ورجال وكذلك كان الرسول - ﷺ - لا يرغب فى حربها ولا يميل إلى مناوشتها ولا يهىء نفسه لمواجهتها إلا أنه مع ذلك كله كان ينتظر أن يحقق الله ما وعده به ولا يشك بعض الشك فى أنه منجزه إياه وكان يرجو أن يصل إلى غرضه باللين والسياسة والحزم والكياسة ويقول الدكتور هيكل : « إنهم المجتمعون بالمسجد ذات صباح إذ أنبأهم النبى بما ألهم فى رؤ ياه الصادقة ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام أن شاء الله آمنين محلقين رؤ وسهم ومقصرين لا يخافون فما كاد القوم يستمعون إلى رؤ يا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم وحتى تنقل نبأ هذه الرؤ يات إلى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام أيحاربون فى سبيله ؟ أيحملون قريشاً عنه عنوة أم تفتح قريش له طريقه صاغرة مذعنه ؟

أذّن محمد فى الناس بالحج وطلب إلى القبائل من غير المسلمين الخروج معه فأبطأ عليه كثير من الأعراب وخرج فى أول ذى القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب يتقدمهم على ناقته القصواء وكان عدد الذين خرجوا ألفاً ونصف وساق معه الهدى وسبعين بدنه وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالاً فلما بلغ ذا الحليفة قص الناس الرؤ وس ولبوا بالحج وغرلوا الهدى ومن بينها بعير أبى جهل الذى أخذوه فى بدر ولم يحمل أحد سلاحاً إلا ما يحمله المسافرين من سيف مغمد وبلغ قريش أمر محمد فامتلأت بالمخاوف وجعلوا يقلبون هذا الأمر على وجوههم حتى لقد حسبوه حيلة أراد بها محمد أن يحتال لدخول مكة ولم يثنهم ما علموا من إحرام خضوعهم بالعمرة وإذاعتهم فى أنحاء الجزيرة أنهم لا تحركهم إلا العاصفة الدينية عن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول مكة بالغاً ما بلغ الثمن الذى يدفعونه كذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمه بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه مائتين وعسكر بذى طوى ليحول بين محمد وأم القرى . . . . أما محمد فإنه تابع مسيرته حتى إذا كان بعسفان لقيه رجل فسأله عن قريش فقال له : « لقد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلد النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً » فقال ﷺ - ياويح قريش لقد أهلكتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافدين وإ لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة فما تظن قريش فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[1] ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع إنه لم يخرج من المدينة غازيا وإنما خرج محرما يريد بيت الله يؤدى عنده إلى الله فرضه وهو لم يتخذ للحرب عدتها فلعله إن حارب فلم ينتصر جعلت قريش مكة تبدو على مرمى النظر فنادى فى الناس قائلا من يخرج بنا على غير طريقهم التى هم بها وخرج رجل يسلك بهم طريقاً وعرا بين شعاب مضنية حتى أفضت به إلى سهل عند منقطع الوادى سلكوا فيه ذات اليمين حتى خرجوا على ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة فلما رأت خيل قريش ما صنع محمد وأصحابه ركضوا راجعين أدراجهم مدافعين عن مكة إذا داهمها المسلمون . . ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة النبى فقال قائل خلأت القصواء فقال ما خلأت ولكن حبسها حابس الفيل لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها ثم دعا الناس إلى النزول فقالوا يارسول الله ما بالوادى ماء ننزل عليه فأخرج سهماً من كنانته وأعطاه رجلاً فنزل به إلى بئر من الآبار المنثورة فى تلك الأنحاء فغرزه فى الرمال

(١) سيرة إبن هشام ٣٢٣/٣

فى قاع البئر فجاش الماء فاطمأن الناس ونزلوا ، ولكن قريشا كانت لهم بالمرصاد فهل يعدون لها عدة النزال .

وقف المعسكران يفكران فى الخطة التى تتبع . . . أما محمد فظل على خطته فى السلم والجنوح إليه إلا أن تهاجمه قريش أو تغدر به وهنالك لا يبقى من انتصار السيف مفر وأما قريش فترددت ثم فكرت فى أن توفد إليه من رجالها من يتعرف قوته ويصده عن دخول مكة وجاءه بديل ابن ورقاء فى رجال من خزاعة يسألونه ما الذى جاء به فلما اقتنعوا أن لم يأت محاربا رجعوا إلى قومهم ليبلغوهم ذلك لكنهم لم يصدقوا وبعثوا رجلاً من بنى عامر فعاد بمثل ما عاد به بديل فلم يصدقوا فبعثوا سيد الأحابيش الحليس بن علقمة فلما رآه النبى مقبلاً أمر بالهدى أن تطلق أمامه لتكون تحت نظره دليلاً على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم إنما جاءوا حاجين معظمين للبيت فأيقن الحليس أن قريشاً ظالمة وعاد إليهم ليقول لهم سبحان الله ما ينبغى لهؤلاء أن يُصَدُّوا أتحج لحم وخدام وحمير ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ،هلكت قريش ورب الكعبة فاسترضوه وطلبوا إليه أن ينظرهم . . . وأرسلوا عروة بن مسعود الثقفى فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء معاملتهم لمن سبقه من رسلهم فاكدوا له أنه عندهم غير متهم وقد خرج إلى محمد وذكر له أن مكة بيضته وأنه إن نالها بهؤلاء الأوشاب كان ذلك العار الخالد وكان عروة يتناول ـ أثناء الحديث ـ لحية الرسول وكان المغيرة ابن شعبه يضرب يد عروة كلما تناول لحية النبى ، ورجع عروة إلى قريش فقال لهم : « يامعشر قريش إنى والله ما رأيت ملكا فى قوم مثل محمد وأصحابه وإنهم لم يسلموه لشىء أبداً فروا رأيكم » .

وطالت المحادثات على النحو الذى قدمناه ففكر محمد فى أن رسل قريش قد لا يكون لديهم من الإقدام ما يقنعون به قريشاً بالرأى الذى يرى فبعث من جانبه رسولاً يبلغهم رأيه لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لولا أن منعته الأحابيش فخلوا سبيله وخرج جماعة من سفهاء مكة ـ أربعون أو خمسون ـ يريدون العبث بمعسكر المسلمين فأخذوا أخذاً وجىء بهم إلى النبى فأطلق وثاقهم وعفا عنهم .

وقد أراد عليه السلام أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى فدعا عمر بن الخطاب ليذهب إليهم فاعتذر بأنه ليس له هنالك من ينصره ويحميه من عداوتهم إذا أرادوا الاعتداء عليه وقال للنبى إن عثمان أعز بها منى فخرج عثمان ولقيه أبان بن سعيد فأجاره وأبلغهم رسالته فلم يأبهوا بها ولكنهم أذنوا له فى دخول البيت والطواف به فأبى إلا أن يكون مع محمد وأجابت قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة وطال إحتباس عثمان هنالك وترامى إلى المسلمين أنه قتل غيلة وغدراً ودخل فى روع النبى ـ ﷺ ـ أن قريشاً قتلت عثمان فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه ووقف تحت شجرة فى هذا الوادى فبايعوه جميعا على ألا يفروا حتى الموت وكلهم حماسة للإنتقام ممن غدر وقتل وهى بيعة الرضوان التى نزل فيها قوله تعالى فى سورة الفتح ﴿ **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً** ﴾(١) وبهذه البيعة اهتزت السيوف فى أغمادها وتبدى للمسلمين جميعاً أن الحرب آتية لا ريب فيها وجعل كل ينتظر يوم الظفر أويوم الاستشهاد

---

(١) سورة الفتح ا : ١٨

ثم لم يطل بهم الوقت حتى جاء عثمان بنفسه إليهم وأبلغ محمداً ما قالت قريش واتصل الحديث وعادت المفاوضات بين الفريقين مرة أخرى وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له ائت محمد وصالحه على أن يرجع ليعود فى العام المقبل « وإلى هنا ينتهى الحديث عن قصة هذا الصراع الذى تسميه كتب التاريخ والسيرة بغزوة الحديبية والجانب الآخر منها يتمثل فى الموقف الذى وقفه سهيل بن عمرو المفوض الرسمى من قبل قريش فى إبرام المعاهدة بينها وبين محمد وقد كان فيه من الطرافة بالبسملة ـ بسم الله الرحمن الرحيم ـ فيأبى سهيل إلا أن يكون ذلك باسمك اللهم على ما تعود الناس قبل الإسلام عليه « هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله » فلا يرضى بذلك سهيل ثم يقول لو آمنا بك رسول الله ما كان بيننا وبينك خلاف وإنما أنت محمد بن عبدالله ويستجيب الرسول لذلك ويأمر عليا أن يكتبه وتنتهى المعاهدة بعد الاتى وأخذ ورد إلى نصوص أربعة :

الأول : أن يرجع محمد وأصحابه عن دخول مكة هذا العام على أن يعود فى العام المقبل ليطوف بالبيت ويبقى بمكة ثلاثة أيام .

الثانى : أن تعقد هدنة عدم الاعتداء بين الطرفين إلى مدى عشر سنوات أو أربع بعض الروايات ـ يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه

الثالث : أنه من أراد أن يدخل فى حلف جانب من الجانبين دخل ويجرى على الحليف ما يجرى على حليفه من صون حرماته وعدم الاعتداء عليه .

الرابع : أن من جاء إلى محمد من أهل مكة رده ـ ولو كان مسلما ـ ومن جاء إليهم لا يردونه .

ويقول الأستاذ أحمد إبراهيم الشريف : والشرط الأخير هو الذى أغضب المسلمين وأثار إعتراضهم لكن محمد أمضى العقد واعتبر الوصول إلى السلم هدفا يصغر إلى جانبه كل شىء وعدَّ هذا فتحاً مبينا وقد كان محمد أبعد نظرا من رجاله ومن خصومه على السواء وإن بدا لأول وهلة أن قريشاً ذهبت فى الصلح بالكفة الراجحة إلا أن الأيام أثبتت غير هذا فقد أتاح هذا العقد لمحمد ورجاله أن يدخلوا مكة فى العام المقبل واضطرت قريش إلى إخلاء مكة لهم ثلاثة أيام فأثر هذا تأثيرا كبيراً فى موقفها الداخلى والخارجى كما أن العقد أتاح لبعض القبائل فرصة الدخول فى عقد محمد صراحة وبخاصة خزاعة التى كان جزءا كبير من الأحابيش فى بطولنها وبذلك جذب محمد إليه جزء كبيراً من هذه القوة فأضعف ذلك مركز قريش الحربى ثم إن محمداً قد أتيحت له فرصة للعمل بحرية على أن يقضى نهائيا على اليهود ببلاد العرب وبذلك يأمن شرهم ودسائسهم وبدأت القبائل التى كانت تناوئه من غطفان وسليم ومزينة وغيرها تسعى للانضمام إليه »

والحق أن هذا الشرط الأخير فى تلك المعاهدة كان مشكلة المشاكل لأن كثيراً من المسلمين الذين كانوا يُعذَّبون بمكة جاءوا إلى النبى هرباً من ذلك الجحيم الذى يعيشون فيه فردهم بحكم الوفاء ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً** ﴾[1] ولم يجف مداد هذه المعاهدة وسهيل لا يزال فى موقفه بجوار النبى ـ ﷺ ـ حتى جاء ـ يرسف فى قيده ـ أبو جندل بن سهيل

(١) سورة النحل الآية : ٩١

ابن عمرو هذا فضربه سهيل وجعل يرده ليرجع معه وجعل أبو جندل يصرخ ويقول يامعشر المسلمين أأرد إلى المشركين وأفتن فى دينى والنبى يقول له : اصبر يا أبا جندل واحتسب فإنا لا نغدر وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجاً .

ووفد - كذلك - من مكة الى المدينة ابوبصير فأرسل اليه سيده رجلين ليأخذاه من النبى فلما سلمه إليهما قال له يارسول الله أتردنى إلى المشركين فقال له نحن لانغدر . . وفى الطريق قتل أبو بصير أحد الرجلين وفرّ الآخر وذهب أبوبصير حتى نزلت العيص على ساحل البحر وهو طريق قريش التجارى، وكان عهد محمد وقريش أن يظل هذا الطريق آمنا فلما ذهب أبوبصير إلى هنالك وسمع إخوانه بمكة هربوا إليه وجعلوا وإياه يقطعون الطريق على قريش ويظفرون بكل مايمر بهم من قوافل وبذلك أحست قريش بالخطر الذى يتهددها من جراء وجود هذا الشرط فى معاهدة الصلح التى أبرمها مع محمد مبعوثهم سهيل بن عمرو فذهبوا الى محمد يرجون منه أن يعتبر هذا الشرط لاغيا وأن يقبل كل من يفر إليه من أهل مكة حتى لايزداد خطر أبى بصير وعصابته على قوافل تجارتهم التى تمر إلى الشام وهكذا أثبتت الأيام بعد نصر النبى ﷺ وأنه لم يكن ليأخذ بهذا الشرط الأخير الذى كان مثار اعتراض وسخط عن ضعف منه أو عدم بعد للأمور وإدراك لعواقبها وإنما كانت سياسة رشيدة ونظرا بعيدا وكياسة حازمة مهدت له أن يوجه سياسته من مركز القوة وأن يبعث برسائله إلى الملوك والرؤساء وهو مطمئن إلى أنه لايواجه تكتل خصوم ولا احتشاد أعداء ولاكيد جماعات لها نفوذ أو سلطان وقد كانت هذه الفترة بالذات فترة تمكن الدولة الإسلامية وصلابة عودها وارتفاع رايتها لأن المعاهدات إنما تكون بين قوتين متكافئتين وهذا يعنى أن قريشا قد أصبحت تحسب - من جديد - لمحمد حسابا جديدا كالحساب الذى يكون بين الند والند يكون محمد - - قد اطمأن إلى وضعه اطمئنانا يساعده على ألا يتهيب قوة أو يخشى جبروتا أو يرهب طغيانا ولذلك فإن الخطوة التى تحرك بها صلح الحديبية فى القضاء على فلول اليهود التى كانت فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى دلت على أنه ماكان ليقدم على هذا الصنيع الذى صنعه لو لم تكن الأرض من تحت قدميه مطمئنة ثابته .

بعد الحديبية

كان صلح الحديبية بمثابة علامة النصر فى الطريق أمام محمد - لأنه بهذا الصلح قد صار بمأمن من المؤمرات والخيانات والغدر والتحرش به من هنا وهنالك لأن عدواته كانت متمثلة فى معسكرين قويين يخشى بأسهما ويخاف مايعدانه له من كيد وخصومة هذأ المعسكران هما قريش واليهود . . أما قريش فإنها أصبحت قريرة العين مطمئنة كل الاطمئنان بهذه المعاهدة التى حقنت دماءها وأبقت على شبابها وكبار القادة منها وجعلتها آمنة على تجارتها التى هى شريان حياتها وأما اليهود فاننا نعلم كيف أن الرسول - ﷺ - قد أخذهم بالشدة وعاملهم بالعنف وأشعرهم بالذلة التى تليق بهم والتى تخالط دمائهم وتكون الجزء المهم فى حقيقتهم ولم تكن لهم قوة يعتمدون عليها بعد ذلك كله إلا فى خيبر والفلول الأخرى التى فرت اليها واختارت البقاء إلى جوارها وقد مر بنا الحديث عنهم أيضا تحت عنوان « اليهود فى الطريق » ولسنا بحاجة الى تكرار ذلك مرة اخرى . . إلا أن لكل شىء إذا ماتم نقصانه - كما يقول الشاعر الأندلسى - فإن

المنافقين لايزالون على المسرح يمثلون دورهم الحقير فى خذلان الدعوة وإشاعة عوامل الهزيمة ويقول الشيخ عبدالمتعال الصعيدى : « فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدأ المنافقون لأن قريشا انصرفت عن الحرب إلى السلم وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التى عطلتها الحرب لتستعيد مافقدته من أموال وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التى وقعت فيها باستمرار صانع الحرب تلك السنين الخمس وانقطاع تجارتها فيها الى الشام وهى أهم مواردها المالية فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ولم تعد محتاجة إلى تحسسهم لها ولا إلى مايدبرونه من فتن ومؤامرات فسكتوا » عما كانوا يدبرونه من قبل لأنهم كانوا آلات فى يد قريش أيضا فلايتحركون إلا اذا حركتهم ولا يمكنهم أن يقدموا على شىء من أنفسهم » .

ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف : « لقد كان يعادى محمدا قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى فى شبه جزيرة العرب فأما القوة الأولى فهى قوة قريش فى مكة بما لها من نفوذ أدبى ومادى وأما القوة الثانية فهى قوة اليهود بمالها من علم وذكاء وقدرة على الدس والوقيعة وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه وقد استطاع محمد أن يثبت أمام القوتين وأن يخرج من حربه معهما مجتمعين قويا حتى لقد أصبح زمام المبادأة فى يده وقد استطاع ببعد نظره وحسن سياسته وما أظهره من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية فأمن به قريشا وأمن الجنوب كله لكنه لم يأمن ناحية الشمال حيث تجمعت فلول اليهود فى خيبر وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهودى وادى القرى . . تيماء لغزو يثرب وإذا كانوا قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الخندق فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية واليهود أشر من قريش عدواة لمحمد لأنهم أحرص على دينهم من قريش ولأن فيهم علما ومكرا أكثر مما فى قريش وليس من اليسير أن يوادعهم لصلح كصلح الحديبية ولأن يطمئن إليهم وقد سبقت منهم وبينه خصومات لم ينتصروا فى إحداهما فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم إذا وجدوا فرصة مناسبة أو استطاعوا أن يمدوا لهم مددا من قوى خارجية وإذن فلابد من القضاء على قوة هؤلاء اليهود قضاء أخيرا حتى لاتقوم لهم من بعد بلاد العرب قائمة أبدا وكذلك فعل فإنه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية إلا خمس عشرة ليلة على قول آخر حتى أمر الناس بالتجهيز لغزو خيبر على ألا يغزو معه إلا من شهد الحديبية وقد حرص - محمد - على ذلك حتى لايكون معه أحد غير مطمئن إلى قوة نفسه وسمو روحه وبعد تفكير عن الكسب المادى ومحمد لايريد أن يضم إلى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنيمة وكانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأسا وأوفرها مالا وأكثرها سلاحا وأعظمها دربة على القتال لذلك وقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلعة إلى هذه الغزوة حتى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ولم يتم له الغلب فيها وكان كثيرون يتوقعون ان تدور الدائرة على المسلمين لما عرف من قوة حصون خيبر وقيامها فوق الصخور والجبال ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال وكان المسلمون يدركون تمام الإدراك ويقدرون نتائجه حق التقدير لذلك ذهبوا مستقتلين لايعرف التردد سبيلا إلى نفوسهم وكان النبى يدرك - كذلك - قيمة هذا الموقف ويقدر أنه لو فشل أمام خيبر فسيتغير ميزان القوى من جديد وربما حدثت نكسة أعادت الى أعدائه قوتهم وحماستهم لقتاله والهجوم عليه ثم إنه كان يدرك أنه مابقيت لليهود شوكة فى شبه جزيرة

العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا دون تمام الغلب له وحائلا دون تمام الوحدة التى يعمل لها والتى يسعى لإقرارها حتى يتم تكوين الأمة التى يريدها نواه لمجتمع إنسانى فاضل تحت لواء الإسلام .. وبانتهاء سلطان اليهود خففت حدة البغضاء التى كانت فى صدور المسلمين لهم وبخاصة الأنصار وتغير الموقف نهائيا فى جزيرة العرب لصالح المسلمين وهكذا كان صلح الحديبية فتحا مبينا أتاح للنبى فرصة إحكام خطته وبدا بوضوح لأصحابه إنه الرجل العبقرى الفذ الذى اكتملت له بصيرة القلب إلى جانب تأييد السماء » ..

وهذه الفقرة الأخيرة من كلام الأستاذ الشريف فيها بيت القصيد لأن الرسول - ﷺ - إجتمع له الى جانب بصيرة القلب تأييد السماء ولهذا كان سلوكه حازما ونهجه حكيما وتصرفه صوابا وعمله سدادا يؤيده الوحى وتؤازره عناية الله وهذه هى عقيدة المسلم التى لايتحول عنها ولايرتاب فيها ولقد كان وقوفه - ﷺ - لهذه القوى الجبارة والخصومات الفاجرة دليلا على أنه لايقف وحده وإنما كانت معه إرادة الله التى هى السلاح الذى لايفل والجيش الذى لايغلب ولولا ثقته بهذا الجانب المتين الذى كان ظهره إليه واعتماده عليه لخانته الأسباب وخفى عليه الصواب وكان له تاريخ آخر غير هذا التاريخ .

وقد كان لأصحابه فى تلك الأدوار البطولية المواقف الرائعة والعمل الجاد والجهد المشكور حتى فى غير ميدان الكر والفر وهو مانسميه نحن الآن بالحرب النفسية كما فعل نعيم بن مسعود فى السفارة بين قريش وبنى قريظة فى غزوة الأحزاب المسماة بالخندق وهى السفارة التى كانت سببا فى فقدان الثقة بينهما فقدانا كان له أثره البارز فى هزيمة الأحزاب أو بعبارة أدق فى خيبة التجمع الذى أرادت الأحزاب من ورائه الدخول الى المدينة والقضاء على محمد وأصحابه حتى لاتقوم له قائمة الى الابد .

وماكانوا يظنون على الباغى تدور الدوائر وليس أكثر من هذا الرعب الذى ملأ قلوبهم والفزع الذى تحطمت به نفوسهم الى درجة أنهم وصل بهم الحال أن يتصوروا الخوف فى كل شىء وقد حدث أن النبى - ﷺ - لما انتهى العام الذى تضمنته المعاهدة وخرج مع أصحابه يريد دخول مكة ليقضى العمرة التى ساق لها الهدى فى عامه السابق وعلمت قريش بقدومه أخذهما الهلع وظنت أنه - ﷺ - سيغدر بها ويغزوها فى عقر دارها وربما كان سوء الظن الذى يملأ نفوسهم سببا فى أن يأمر الرسول أصحابه فى طوافهم بالبيت أن يظهروا حركة ونشاطا يدلان على القوة لتمتلىء نفوسهم بالرعب والخوف فقد روى أنه لما دخل المسجد اضطجع بردائه وأخرج عضده اليمنى ، وقال : « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة »[1] وكان عدد المسلمين فى هذه العمرة ألفين كانوا فى نشاطهم وطوافهم وقوة تحركهم يمثلون الهول الطارق الذى زلزلت له أفئدة قريش وقد علا بلال ظهر الكعبة وأذن للصلاة ، وكان هذا المنظر الرائع الذى يملأ قلوب المسلمين بالثقة والاعتزاز مغريا لعبدالله بن رواحة أن يقذف فى وجه قريش بصيحة الحرب لولا أن صدَّه عن ذلك عمر بن الخطاب وقال له رسول الله - ﷺ - مهلا يابن رواحة ، وقل : لا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وخذل الأحزاب وحده فنادى بها ابن رواحة رافعا صوته وردَّدها المسلمون بعده فتجاوبت بأصدائها

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/٢٠

جوانب مكة وارتفعت رهبتها الى قلوب الذين كانوا بالجبال هربا من هذا المشهد الذى كان يثير فى نفوسهم الحقد والكراهية وكانت أم الفضل زوجة عمه العباس قد قذفت أختها ميمونة التى أحبت الاسلام وآمنت به ورغبة العباس فى الزواج منها فلما تقدم اليه سهيل بن عمرو أن يخرج بعد انتهاء الأيام الثلاثة قال له الرسول ماذا عليكم لو أعرسنا بينكم وأولمنا وأشركناكم معنا طعام الوليمة ؟ فقال له : لاحاجة لنا لطعامكم . . إلا أن هذه الأيام التى اقامها النبى - ﷺ - والمسلمون معه كانت نموذجا طيبا للسلوك القويم والخلق الكريم والأدب الرفيع والمعاشرة الحسنة حملت كثيرا من العقلاء أن يعلنوا دخولهم فى دين محمد حتى لقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش وأحد أبطالها المغاوير ينادى فى بطن مكة قائلا : « لقد استبان لكل ذى عقل أن محمدا ليس بشاعر ولاساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذى لب أن يتبعه » وأسلم بعد ذلك عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثيرون غيرهم وكان لإسلام هؤلاء جميعا الأثر البارز فى أن كانت مكة قاب قوسين أو أدنى من الفتح الأكبر الذى تدك فيه معالم الشرك وتتهاوى فيه الأصنام ويصبح من المألوف إلى حد بعيد أن تكون هنالك عقيدة وراء « لا إله إلا الله محمدا رسول الله » ولهذا كان المسلمون فى غاية الاطمئنان الى أن الزمن فى صالحهم - كما يقولون - لم يتعجلوه ولم يسبقوا حوادثه لفتح مكة بعد أن تهيأت الأذهان لهذا الفتح وبخاصة وهم يعلمون أن الأجل الذى نصت عليه معاهدة الحديبية لايزال بعيد المدى اللهم إلا اذا حصل جديد يحملهم حملا على أن يحملوا السلاح قبل الأوان .

حديث أبى سفيان

بعد رجوع المسلمين من الحديبية فى أواخر السنة السادسة كان همه - ﷺ - أن ينتقل بدعوته الى خارج نطاق الجزيرة فى الروم وفارس ومصر وغيرها من البلاد النائية عنه ، وكان من هؤلاء الكثيرين الذين كتب إليهم يدعوهم بدعاية الاسلام قيصر ملك الروم وكان نص الخطاب الذى أرسله إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبدالله الى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين - الفلاحين - يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون »[1] .

ولما وصل الكتاب إلى قيصر هذا أراد أن يتقصى الحقيقة وأن يتأكد من المصير الذى يمكن أن يصير اليه حتى اذا - مااستجاب للداعى ودخل فى هذا الدين واختط لنفسه طريقا جديدا كان قويما مستقيما أم ليس فيه من الاستقامة شىء وهذا هو شأن الرجل الذى تتفتح نفسه للحق وتتجه للصواب وترحب بالنور

---

(١) متفق عليه

الذى يضىء لها الطريق ويكشف لها مواضع أقدامها فى الدرب الذى تسلكه فكان منه أن قال « أنظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه وكان أبوسفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ولما قدموا عليه فى القدس قال لترجمانه : « سلهم أيهم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى فقال أبوسفيان : أنا ـ لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره ـ فقال قيصر : أدن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى وقد جعلكم خلفه ، كيلا تحملوا من رد كذبه عليه إذا كذب ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم ، قال : هو فينا ذو نسب قال : هل تكلم هذا القول أحد منكم قبله ، قال : لا .. قال : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا قال فهل كان من آبائه من ملك ؟ قال : لا ، قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . قال : فهل يزيدون أم ينقصون ؟ قال : بل يزيدون ، قال : هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟ قال : لا ، قال : هل يغدر إذا عاهد ؟ قال : لا ونحن الآن منه فى ذمة لاندرى ماهو فاعل فيها ، قال : فهل قابلتموه ؟ قال : نعم ، قال : فكيف حربكم وحربه ؟ قال : الحرب بيننا وبينه مرة لنا ومره علينا ، قال : فيم يأمركم ؟ قال : يقول : اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئا وينهى عما كان يعبد آباؤنا ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة فقال الملك : إنى سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت انه لا فلو كان أحد قال هذا القول قبله ، لقلت رجل يأتم بقول قيل قبله وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال فزعمت أن لا فقلت ماكان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله وسألتك هل كان من آبائه من ملك فقلت لا فلو كان من آبائه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه وسألتك أشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل وسألتك هل يزيدون أم ينقصون فقلت بل يزيدون وكذلك الايمان حتى يتم وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه فقلت لا وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم وان الحرب بيننا وبينه سجال وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة وسألتك بماذا يأمر فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وسألتك هل يغدرفذكرت أن لا وكذلك الرسل لاتغدر فعلمت أنه نبى وقد علمت أنه مبعوث ولم أظن أنه فيكم وإن كان ماكلمتنى به حقا فسيملك موضع قدمى هاتين ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك .. قال أبو سفيان فعلت أصوات الذين عنده وكثر لفظهم فلا أدرى ماقالوه وأمر بنا فأخرجنا فلما خرج أبوسفيان مع أصحابه قال : لقد بلغ أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر ولما سار قيصر إلى حمص أذن لعظماء الروم فى دسكرة له ثم أمر بأبوابها أن تغلق ثم قال : يامعشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى فحاصوا حيصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة فلما رأى قيصر نفرتهم قال ردوهم علىَّ فقال لهم : إنى قلت مقالتى لأختبر بها شدتكم على دينكم فسجدوا له ورضوا عنه فغلبه حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام .

وهذه وثيقة تاريخية لها تقديرها واحترامها فى تاريخ النبى محمد ـ لأنها تنطوى فى حوارها وجدلها السيرة العطرة التى يعتز بها المسلمون إذا ذكرت النبوات وتحدث الناس عن الرسالات فلقد كانت الأسئلة التى وجهها قيصر فى صميم الدعوة والدعاة إلى درجة أنها تصلح لأن تكون دستورا أو بمعنى أصح ميزانا توزن به أعمال الذين يتصدون لقيادة الجماهير وتوجيه الانسانية وإنقاذ المتورطين فى سلوكهم أو المتخبطين فى سيرهم ومن هذا الدستور أو الميزان نعرف أن كان الداعى من هؤلاء الذين ينشدون المجد ويطلبون الملك ويبغون الريادة أم إنه من أولئك الذين يحملون المصابيح ويجعلون من أنفسهم زيتا لها ليضيئوا للبشرية سبيل الخير وطريق البر ويأخذوا بأيديها الى حيث يكون النجاح والفلاح دون أن يترقبوا على ذلك أجرا إلا رحمة الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض .

ونحن ننظر الى هذه الوثيقة من ناحيتين اثنتين أشخاصها الذين أداروا دفة هذا الحوار ثم الحوار نفسه ، أما الحوار فهو ـ كما رأينا ـ لم يترك شبهة تخطر بالبال وتتوارد على الذهن إلا أشبعها بحثا وناقشها من كل ناحية وجعل الجواب عنها مسلما لبراءة العقول لذلك كانت النتيجة المترتبة عليه ضرورية لامفر من التزامها ولاريب فى تزيفها عليها كما تترتب النتيجة على المقدمات فى قانون المنطق السليم إلا أن رجوع قيصر كان لعمى فى بصيرته سببه أنه آثر الفانية على الباقية والدنيا على الدين والشيطان على الرحمن وانحرافه عن السفن والتواؤه عن القصد لايطعن فى علم المقدمات وسلامة الترتب والترتب .

وأما الأشخاص الذين أداروا ذمة الحوار ومثلوا هذا المنطق فهما أبوسفيان وقيصر وكلاهما لايمكن أن يحابى محمدا ولا أن يحابى دينه لذلك كان لرأى كل منهما ميزانه بين الآراء وقد كان أبوسفيان من أساطين الكفر وكبار المعارضين وكان يعينه ـ حينئذ ـ أن يقول كلمة مغموزه ، أو رأيا ملتويا أو يحكم حكما قاسيا يرسله كالصاروخ الموجه ليكيد به محمدا وأصحابه ولكنه آثر الجانب الذى يتناسب مع رجولته الضخمة وبسالته الفذة وعقله الكبير وشرفه العظيم ونسبه النبيل ومكانته فى قومه والقاضى أو الشاهد إنها معا تبه لشرف مركزه وقداسة وضعه لم يذكر شيئا فى هذا الوقت إلا الصدق فى القول والإنصاف فى الحكم والسداد فى الرأى وعدم الميل الى جانب الهوى او الغرض لأن ذلك يزرى بالمروءة والشرف ويدنس العرض والخلق وأبوسفيان مهما كانت خصومته لمحمد واختلافه معه فى الرأى لاينسى أنه ذلك الرجل الذى كانت له السيادة فى العرب ولايليق بمثله أن يُسف أو أن ينزل الى مستوى السوقة لذلك كله كان جديرا من النبى ـ ﷺ ـ فى يوم فتح مكة أن يعطيه هذا الأمان الكبير المقرون بأن ينادى مناديه من دخل دار أبى سفيان فهو آمن وكان هذا سببا فى الدهش البالغ الذى أصاب الناس فى هذا اليوم وهم كانوا لايزالون يزعمون أنه باق على موقف العناد والمعارضة ولم يفهموا أن التيار الجارف لايعترضه إلا الذى يبلغ به الحق غايته .

فتـــح مكـــة

لاتزال إلى هذا التاريخ مسافة الزمن الذى تضمنته معاهدة الحديبية والذى اتفق على أن يكون إحدها هدنة قائمة بين النبى - وبين قريش ولايشعل أحدهما حربا ولايعتدى على حليفا إلا أن غزوة مؤتة التى جاءت فى أعقاب الحديبية وخرج فيها مائة ألف أو أكثر من الروم والعرب الموالين لهم لثلاثة آلاف فقط من المسلمين كانت نهايتها على خلاف ماكان يرجو محمد وأصحابه ولهذا أغرت هذه النهاية قريشا بالمسلمين من جديد - وعاد وضعهم معهم - أو كاد يعود - الى مثل ماكان عليه قبل الأحزاب وكان من نصوص معاهدة الحديبية - كما نعلم - أن من أراد الدخول فى حلف أحد الطرفين المتعاقدين دخل وكان من أثر ذلك أن دخلت بنو بكر فى حلف قريش ودخلت خزاعة فى حلف رسول الله وكان بين بنى بكر وخزاعة حزازات قديمة وثارات من سالف العهود أثارها وبعث كامن حقدها ماوصل اليه معسكر محمد وأصحابه فى مؤتة التى لم يكن طيشهم فيها من فضل الأفضل الانسحاب من غير أذى يلحق بهم ولاضرر يلقونه وأخذت بنو بكر تتحرش بخزاعة وتنال منها وكانت قريش تساعد بنى بكر بالمال والسلاح فى الخفاء متناسية أن ذلك خرق لمعاهدة الحديبية زاعمة أن أحدا لايعرف هذا التحرك المستتر الذى تتحركه لكن بعض الأفراد من خزاعة ذهبوا الى النبى - ﷺ بالمدينة وأخبروه خبر هذا النكث للعهد وناشدوه أن يدرك حلفاءه ويقول الشيخ الخضرى في كتابه « نورا يتبعنى » : « إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه وأزال موانعه وقد كان عليه السلام يعلم أنه لاتنزل العرب حتى تنزل قريش ولاتنقاد البلاد حتى تنقاد مكة فكان يتشوق لفتحها ولكن كان يمنع من ذلك العهود التى أعطاها قريشا فى الحديبية - وهو سيد من وفى - ولكن إذا أراد الله أمرا هيأ أسبابه وقد علمت أن خزاعة دخلت فى عهد رسول الله وبكر دخلت فى عهد قريش وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية كمنت نارها بظهور الاسلام فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء الرسول - ﷺ - على مسمع من رجل خزاعى فقام هذا الخزاعى وضربه فحرك ذلك كامن الأحقاد وتذكر بنو بكر ثأرهم فشدوا العزيمة لحرب خصومهم واستعانوا بأوليائهم من قريش فأعانوهم سرا بالعتاد والرجال ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون فقتلوا منهم مايربوا على العشرين ولما رأى ذلك حلفاء الرسول - خزاعة - أرسلوا وفدا منهم برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله بما فعل بهم بنو بكر وقريش فلما حلوا بين يديه وأخبروه الخبر قال : « والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى » . أما قريش فإنهم لما رأوا أن ماعملوه نقضٌ للعهود التى أخذت عليهم ندموا على مافعلوا ، وأرادوا مداواة هذا الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ويزيد فى المدة فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسبقه أحد حتى إذا جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين حبيبة وقد اراد أن يجلس على فراش رسول الله فطوته عنه فقال يابنية أرغبت به عنى أم رغبت لى عنه ؟ فقالت : ماكان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس فقال لها : لقد أصابك بعدى شر ثم خرج من عندها وأتى النبى فى المسجد فعرض عليه ماجاء له . فقال عليه السلام : هل كان من حدث ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك .

قام أبو سفيان ومشى إلى أكابر المهاجرين من قريش ، علهم يساعدونه على مقصده ، فلم يجيره منهم معينا ، وكلهم قالوا جوارنا فى جوار رسول الله ، فرجع إلى قومه ولم يصنع شيئاً ، فاتهموه بأنه خانهم . واتبع الاسلام ، فتنسك عند الأوثان ، لينفى عن نفسه هذه التهمة .

أما رسول الله ﷺ فانه تجهز للسفر وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة ، فقال يا رسول الله أو ليس بينك وبين قريش عهد ؟ قال : نعم ، ولكنهم عندوا ونقضوا ، ثم استنفر عليه السلام الأعراب الذين كانوا حول المدينة . وقال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينه ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش ، كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول عليه السلام لا يريد أن يقيم حربا بمكة ، بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بحرمتها ، فدعا مولاه جل ذكره ، وقال اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبعثها فى بلادها ، فقام حاطب بن أبى بلتعه أحد الذين شهدوا بدراً ، وكتب كتابا إلى قريش ، يخبرهم بأمر رسول الله - ﷺ - وأرسله مع جارية لتوصله إلى قريش على عجل ، فأعلم الله رسوله بذلك ، فأرسل فى أثرها عليا والزبير والمقداد ، وقال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فإن ظعينة معها كتاب ، فخذوه منها ، فانطلقوا حتى الروضة ، فوجدوا بها المرأة ، فقالوا لها أخرجى الكتاب أو لنلقين عنك الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتوا به رسول الله فقال عليه السلام : يا حاطب ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل على ، إنى كنت حليفاً لقريش ، ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم ، فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتى ، ولم أفعله ارتداداً عن دينى ، ولارضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام : أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً فقال إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وفى هذا نزل قوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين امنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾** ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم ، وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مجاهد ، ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعوانه ودعا : ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، شقيق عبيدة بن الحارث شهيد بدر ، وصهره عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، شقيق أم المؤمنين أم سلمة ، وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما فرحا شديداً ، وقال : (لاتثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) وقد قابل عليه السلام فى الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجراً بأهله وعياله ، فأمره بأن يعود معه إلى مكة ، ويرسل عياله إلى المدينة ، ولما وصل عليه السلام مر الظهران ، أمر بإيقاد عشرة آلاف نار ، وكانت قريش قد بلغها أن محمدا زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته ، فأرسلوا أبا سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يلتمسون الخبر عن رسول الله ، فأقبلوا يسيرون حتى أتوا مرّ الظهران ، فإذا هم بنيران كأنها نيران عرفة ، فقال

أبو سفيان ما هذه لكأنها نيران عرفة ، فقال بديل بن ورقاء نيران بنى عمرو ، فقال أبو سفيان عمرو أقل من ذلك ، فرآهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم فأتوا بهم رسول الله فأسلم أبو سفيان ، وقال للعباس احبس أبا سفيان عند خطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين ، فحبسه العباس فجعلت القبائل تمر كتيبة كتيبة ، وهو يسأل عنها ويقول مالى ولها ، حتى إذا مرت به قبيلة الأنصار وحامل رايتها سعد بن عبادة ، فقال سعد يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الكعبة ، فقال أبو سفيان يا عباس حبذا يوم الزمار ، ثم جاءت كتيبة وهى أقل الكتائب فيها رسول الله وأصحابه وحامل الراية الزبير بن العوام ، فأخبر أبو سفيان رسول الله بمقالة سعد ، فقال رسول الله : كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ، ثم أمر عليه السلام أن تركز رايته بالحجون ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة من كدى ، ودخل هو من أعلاها من كداء ، ونادى مناديه من دخل داره وأغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، واستثنى من ذلك جماعة عظمت ذنوبهم وآذوا الاسلام وأهله عظيم الأذى ، فأهدر دمهم وإن تعلقوا بأستار الكعبة ، منهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، الذى اسلم وكتب لرسول الله الوحى ثم أرتد وافترى على الله الكذب ، فكان يقول : إن محمداً كان يأمرنى أن أكتب عليم حكيم ، فأكتب غفور رحيم ، فيقول كل جيد ، ومنهم عكرمه بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وكعب ابن زهير ، ووحشى قاتل حمزة ، وهند بنت عقبة زوج أبى سفيان ، وقليل غيرهم ، ونهى عن قتل أحد سوى هؤلاء إلا من قاتل ، فأما جيش خالد بن الوليد فقابله الزعر من قريش يريدون صده ، فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرين ، وقتل من جيشه أثنان ودخلها عنوة من هذه الجهة ، وأما جيش رسول الله - ﷺ - فلم يصادف مانعاً ، وهو عليه السلام راكب راحلته منحن على الرحل ، تواضعا لله وشكراً على هذه النعمة ، حتى تكاد جبهته تمس الرحل وأسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان ، حتى وصل إلى الحجون موضع رايته ، وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة ، وميمونة ، فاستراح قليلا ، ثم سار وبجانبه أبو بكر يحادثه ، وهو يقرأ سورة الفتح : حتى أتى البيت ، وطاف سبعاً على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه وكان حول الكعبة إذ ذاك ، ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل عليه السلام يطعنها بعود فى يده ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل) ، (وما يبدىء الباطل وما يعيد) ثم أمر بالآلهة التى كانت بها فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وابراهيم فى أيديهما الأزلام فقال عليه السلام : قاتلهم الله لقد علموا ما استقسما بها قط ، وهذا أول يوم طهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة ، وبطهارة الكعبة المقدسة ، من هذه الأدناس ، سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب .

وإلى هنا تكون عصابة الشرك ، فى مكة وغيرها ، قد تهاوت أعلامها ، وزالت دولتها ، ولم يعد فى امكانها أن تعامل محمداً بالأسلوب القديم ، الذى كانت تعامله به ، والذى كان يقوم على العنف والشدة والقسوة والغلظة وعدم المبالاة ، ولكنها الآن تخطب وده ، وتعمل جهدها كله ، لتكتسب رضاه ، وتقيم علاقاتها معه على المعاهدات المتكافئة ، والعهود المرعية ، فاذا شعرت أنها أخلت بشرط من الشروط ، أو خرجت على نص من نصوص المعاهدة ، بعثت كبيراً من ساستها ، أو عظيما من قوادها يرجوا محمداً - ﷺ - أن يتغاضى عن هفوة المسىء ، وحماقة المعتدى ، ولقد رأينا كيف إنها مادت الأرض من تحت

أقدامها وتهددها الأخطار وأحاط بها الهلع والفزع ، لأن خيانتها قد تكشفت وإمدادها لبنى بكر بالسلاح والمال فى اشتباكها مع بنى خزاعة ، قد عرف أو وصل أمره إلى النبى - ﷺ - فلم تشأ أن تسكت على ذلك أو تصبر ، وراحت ترسل قائدها لعناد النبى وحربه ليؤكد من جديد عهد الحديبية ، فلما لم يجدها ذلك كله نقيراً ولا قطميراً ، أسلم للأمر الواقع ، ودخل محمد عليها مكة ، فلم يقاوم دخوله ، أن تعترض طريقه ، أو تشهر فى وجهه سيفاً ، باستثناء تلك المناوشة البسيطة التى قوبلت بها كتيبة خالد بن الوليد ، ولم يكن دخول جيش محمد وحده فى هذا اليوم هو كل شىء ، ولكن الذى كان هو كل شىء وأعظم من كل شىء .

أولا : أيطلب النبى - ﷺ سادن الكعبة عثمان بن طلحة ليأخذ منه مفتاح الكعبة ثم يدخلها دخول الظافر المنتصر .

ثانيا : تتحطم على مرآى ومسمع منهم تلك الأصنام ، التى يؤلهونها ويعبدونها من دون الله ةلم يكن منهم إلا الرضا والاستسلام .

ثالثا : أن يعلن إليهم أنه فى موقف القوة الذى يسمح له بالعفو عنهم - والعفو عند المقدرة ، فيقول : إذهبوا فأنتم الطلقاء .

رابعا : أن تتوافد عليه وفود الرجال والنساء ، تبايعه على الاسلام والطاعة والبذل والعطاء ، فى حين أنهم لم يستطيعوا صد هذا التيار الزاحف ، وهذه كلها معان تدل على أنه - ﷺ - كان يتحدث من موطن القوة لا موطن الضعف ، وتلك لحظة من اللحظات التاريخية النادرة عوضه الله بها عن كل شدة كان يلاقيها ، وكل إيذاء أصابه نصراً عزيزاً ، أرض به خاطره ، وأثلج صدره ، وأراح فؤاده ، ورفع رأسه ، وبيض وجهه ، وبوأه مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ونسى الرسول احن هؤلاء وعداوتهم ، ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس ، ويعلق الدكتور هيكل على هذا الموقف فيقول : (ما أجمل العفو عند المقدرة ، وما أعظم هذه النفس التى سمت كل السمو ، فارتفعت فوق الحقد والانتقام ، وأنكرت كل عاطفة دنيا ، وبلغت من النبل فوق ما يبلغ الانسان ، هؤلاء قريش يعرف محمد منهم من ائتمروا به ، ومن عذبوه هو وأصحابه من قبل ذلك ، ومن قاتلوه فى بدر وفى أحد ، ومن حاصروه فى غزوة الخندق ، ومن ألبوا عليه العرب جميعاً ، ومن لو استطاعوا قتله وتمزيقه لما ونوا عن ذلك لحظة ، هؤلاء قريش فى قبضة محمد وتحت قدميه ، أمره نافذ فى رقابهم ، وحياتهم جميعا معلقة بيده وفى سلطانه ، هذه الألوف المدججة بالسلاح تستطيع أن تبيد أمة وأهلها فى لمحة الطرف ، لكن رسول الله ليس بالرجل الذى يعرف العداوة ، أو يريد أن تقوم بين الناس ، وليس هو بالجبار ولا المتكبر ، لقد أمكنه الله من عدوه ، فصفح وعفا ، وضرب بذلك للعالم كله مثلا فى البر والوفاء بالعهد ، وفى سمو النفس سموا لا يبلغه أحد) .

والقارىء لأبناء هذه الغزوة وأحاديثها ، يعثر على كثير من الأخبار الطريفة ، والمفارقات الحلوة ، التى تنبىء عن اخلاص المؤمنين كدينهم ، ودعوة نبيهم ، إخلاصا يفوق حدود الوصف ، وتنبىء كذلك عن العصبية للجنس ، أو الدم ، أو الجاه والحكم .

وربما كان من أروع الصور للاخلاص للدين وللرسول - ﷺ - ما صنعته أم المؤمنين حبيبة بأبيها أبي سفيان ، الذى ظن أنه سيجد فى جوارها من الحنان والرحمة ، والاجلال والاحترام ، ما يخفف عنه ما يحمله فوق كاهله من هموم ، وما لاقاه فى طريقه من عناء ، ولكنه رأى أن آبويه لها ، لا قيمة لها ، إلى جانب ما تحتفظ به لرسول الله من قداسة ، وما ترعاه له من حرمة ، وان الحقوق التى يمليها الدين لها عندها الاعتبار الأول ، وقد قدم لنا أبو سفيان صورة للرجل الكبير ، الذى تقوم كبرياؤه على الزيف ، وتعتمد على الباطل ، وتنحاز إلى جذب الشيطان ، وتغتصب جاهها وسلطانها من الغوغاء والأوباش ، ثم لا تلبث إذا ما جد الجد ، وانتصر الحق على الباطل ، أن يتضاءل حجمها ، ويتهاوى كبرياؤها ، وتبدو على حقيقتها أقل من لا شيء فى العدد .

يمر به صديقه العباسى بن عبد المطلب على نيران المسلمين ، ليدخل فى نفسه الرعب ويعلق هو على هذا المنظر المذهل فيقول : إنها كنيران عرفة ويراه عمر فيقول : عدو الله أبو سفيان ، الحمد لله الذى أمكن منه بغير عقد ولا عهد ، ويهم بقتله ، ويمنعه العباس قائلا له : إنه فى جوارى ، ويدخل على النبى - ﷺ - ليعلن اسلامه ، حقنا لدمه ، وابقاء على نفسه ، ويبتدره الرسول بقوله : أما آن لك أن تعلم أنه لا إله الله فيقول بلى وأن محمدا رسول الله فيقول : أما هذه ففى النفس منها شىء ، فيعالجه صاحبه العباس بقوله : أشهد قبل أن تضرب عنقك ، فيشهد ، ويتجه العباس الى رسول الله بقوله : إن أبا سفيان يحب الفخر ، فاجعل له ذكراً ، ليظفر منه فيها بعد بتلك الكلمة (من دخل دار أبى سفيان فهو آمن) وإلى أن تزول دولة الظلم وسلطان الباطل (إن الباطل كان زهوقاً) .

ويفر الهاربون من العدالة ، عكرمة ، وصفوان ، ووحشى قاتل حمزة ، فى أحد ، وعبد الله بن الذبعرى ، وكعب بن زهير ، وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، ثم تضيق عليهم الأرض بما رحبت ، فلا يجدون سبيلا أقوم من أن يسلموا رقابهم إلى رسول الله - ﷺ - ليحق عليهم بالحرية ، وتقول أكلة الكبود . هند ، بعد أن وقفت بين يدى رسول الله وأعلنت اسلامها (والله يارسول الله ماكان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن أذلوا من أهل خبائك ، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء إلى أن يعزوا من أهل خبائك) ويتنكر كعب بن زهير ، ليقف بين يدى الرسول عقب صلاة الفجر بالمسجد ، ليقول له لو جاء اليك كعب عائذاً لائذا ، تقبل منه يا رسول الله ، فيقول له : نعم أقبل منه ، فيقول له : مكان العائذ بك ، كعب يا رسول الله ، وينشده قصيدته المعروفة بانت أسماء ، والتى يقول فيها :

أنبئت أن رسول اوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول
إن الرسول لنور يستضاء به
مهند من سيوف الله مسلول

غزوة تبوك

كان رسول الله ﷺ بعد فتح مكة وإذلاله لطواغيت الشرك وقادة الكفر ، وتهافت القبائل والبطولة على مبايعته على الاسلام ، ودخولهم فى دين الله افواجا ، وتحطيمه للأصنام التى كانت فى الكعبة ،

وغيرها ، قد أصبح له شأن دونه شأن الأباطرة والاكاسرة والملوك والسلاطين ، وصار زحفه يزداد يوما بعد يوم ، بحكم نشر الدين واعلان العقيدة ، وعموم الدعوة إلى الناس جميعا ، وهنالك دب الخوف إلى نفوس الروم والفرس ، وهما الدولتان الكبيرتان اللتان يتهددها الغزو الاسلامى حينئذ ، وقد بلغه أن الروم تجمع الجموع للوقوف فى وجهه ، والحد من تحركه ، والعمل على ألا يتجاوز نطاق دعوته من البلاد والناس وراء ماتجاوزته ، لأن ذلك سيجعلها فى خبر كان لا محالة ، طال الزمان أو قصر ، فأعلن - ﷺ - النفير العام فى المسلمين ، لأنه علم أن الروم لا يناجذونه وحدهم ، ولكن ينضم اليهم من لا يزال على الشرك من العرب والاعراب ، الذين كان محمد - ﷺ - قد أرغمهم - ماداموا لم يختاروا الاسلام - على أن يدفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويقول المؤرخون إن النبى - ﷺ - كان مما أخذ نفسه به مع المسلمين ، إذ أراد الخروج إلى غزو ، ألا يصارحهم بالجهة التى سينتهى إليها الجيش ، حتى لا يتسرب نبأ ذلك إلى العدو ، فيتأهب له ، لكنه فى هذه المرة قد آثر الإعلان والمصارحة ، والسبب فى هذه المخالفة أن السفر شاق ، لأنه إلى تبوك فى الشام ، والجو شديد الحرارة والثمار على وشك أن تنضج ، وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة مدعاة إلى التعلل بها ، وتغليب جانب البقاء على جانب الخروج ، وبهذا كان الاعتذار مفتوحا على مصراعيه ، وبدأ النفاق فى أوضح صورة وأجلى مظاهره ، على الرغم من التهديد الصريح ، الذى كان يقرع أذانهم فى مثل قوله سبحانه : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين** ﴾[1] وقوله أيضا : ﴿ **يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير** ﴾[2] على ان هنالك من المسلمين من ابدى غاية الاخلاص فى الجهاد ، ونهاية البذل فى سبيل الله ، مثل عثمان ، وأبى بكر ، وعمر ، وعبدالرحمن بن عوف ، وأولئك الذين كانوا لا يجدون الظهر التى يركبونها ، فجاءوا الى الرسول ليوفر لهم الظهر التى يركبونها ، فلما قال لهم : (لا أجد ماأحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون)[3] ويظهر من أحداث غزوة تبوك : انها كانت خر ماطفح به الكيل فى نفوس المنافقين ، إذا ظهرت كراهيتهم ، لأن ينتصر ﷺ أو ليتمكن نفوذه ويقوى سلطانه بشكل لا إلتواء فيه ولا خفاء فانهم لم يتركوا لونا من ألوان الاعتذار ولا اسلوبا يعللون به تخلفهم وعدم وخروجهم ، إلا سلكوه والتجأوا إليه ، وفى سورة التوبة تسجيل لهذه الألوان وتلك الأساليب ، وإن كانت كلها لم تخف عن النبى ﷺ .

ولكنه علمها وأطلعه الله عليها ، وكان ذلك افتضاحا لحالهم ، وكشفا لسوءاتهم ، وقد حمل ذلك كله جماعة من المتخلفين أن يصارحوه ﷺ أن يتخلفهم ، لم يكن لعذر يلتمسونه التماساً ، أو يزورونه كذبا وبهتانا ، وإنهم لهذا يتركون الأمر له ، ليقض فيهم بما يجد أنه يتناسب مع تلك الجريمة ، وقد ربطوا أنفسهم بسارية المسجد ، وقاطعهم الناس حتى زوجاتهم ، ثم نزلت فيهم الآية : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين**

---

(١) سورة التوبة آية : ٢٤

(٢) سورة التوبة الآيتان : ٣٨ ، ٣٩

(٣) سورة التوبة الآية : ٩٢

خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾[1] .

ويقول الدكتور هيكل : وانطلق الجيش بعد ذلك قاصداً تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر هذا الجيش وقوته ، فأثرت الانسحاب بجيشها ، الذى كانت وجهته إلى حدودها ، ايتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها ، فلما انتهى المسلمون إلى تبوك ، وعرف محمد أمر انسحاب الروم ونمى اليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود ، يتحدى من شاء أن يناله أو يقاومه ، ويعمل لكفالة هذه الحدود ، حتى لا يتخطى بعد ذلك أحد ، وكان يوحنا بن رؤ ية صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود ، قد وجه اليه النبى رسالة أن يذعن أو يغزوه ، فأقبل (يوحنا) وعلى صدره صليب من ذهب ، وقدم الهدايا ، وتقدم بالطاعة ، وصالح محمداً وأعطاه الجزية ، كما صالحه أهل جرباء وأذرح ، واعطوه الجزية ، وكتب رسول الله لهم كيف آمن ، هذا نص أحدها ، وهو ما كتب به إلى يوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليوحنا بن رؤ بة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ذمة الله ومحمد النبى ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فإنه لا يحول ما له دون نفسه ، وأنه طيب لمحمد أخذه من الناس ؛ وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقا يرونه من بر أو بحر » وإيذانا بالموافقة على هذا العهد ، أهدى محمد إلى يوحنا رداء من نسيج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية بعد أن أتفق على أن يتدفع أيلة جزية ، قدرها ثلاثمائة دينار كل عام .

لم يكن محمد بحاجة إلى القتال ، بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود معه ، وبعد أمنة عودة الجيش البيزنطية من هذه الناحية لولا خيفة انتقاض أكيد بنى عبد الملك الكندى النصرانى أمير دومة ومعاونته جيوش الروم ، إذا جاءته من ناحيته ، لذلك بعث اليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس ، وأنقلب هو بجيشه راجعا ، إلى المدينة ، وأسرع خالد بالانقضاض على دومة فى غفلة من مليكها ، الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر ، حتى أخذ حسانا ، وأخذ أكيدر أسيراً ، وهدده بالقتل أن لم تفتح دومة أبوابها ، وفتحت المدينة الأبواب فداء لأميرها ، وساق خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بر وأربعمائة درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبى فى عاصمته ، وهنالك عرض على اكيدر الاسلام فأسلم وأصبح حليفا له .

ولم يكن عود محمد على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام إلى المدينة بالأمر الهين ، فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له ، ولم يقيموا كبيروزن لما حققه محمد بهذه الاتفاقات ، من تأمين حدود شبه الجزيرة ، واقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا اليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة وتحملوا فى قطعها ما تحملوا من

---

(١) سورة التوبة الآية : ١١٨

الأذى ، وها هم أولاء يعودون لم يغنموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوا أن أقاموا بتبوك قرابة عشرين يوما ، وكأنهم لهذا قطعوا الصحراء فى شدة بتبوك فى حيث كانت ثمار المدينة قد طابت وأن يستمتع الناس بها ، وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد ، فينتقل من ملأ الايمان قلوبهم نبأهم اليه ، فيأخذ المستهزئين بالشدة حينا وباللين حينا ، والجيش يسير قافلا إلى المدينة ومحمد يحفظ النفو س ، حتى إذا انتهى اليها لم يلبث ابن الوليد أن لحقه بها ومعه أكيدر وما حمل من دومة من أبل وشاء وبرود روع ، وعلى اكيد رحلة من ديباج موشى بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها .

وهنالك اضطرب الذين تخلفوا عن اتباعه اضطرابا ، رد المستهزئين إلى صوابهم ، وجاء المتخلفون يعتذرون وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب ، وأعرض محمد عما صنعوا تاركاً لله حسابهم ، لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا بتخلفهم ، وأقروا بذنبهم ، هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال ابن أمية ، وقد أمر محمد فأعرض عنهم المسلمون خمسين يوما ولا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، ومنذ ذلك اليوم بدأ محمد يشتد فى معاملة المنافقين شدة لم يألفوها من قبل ، وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ويجب تلافيه وعلاجه ، وهم إذا ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم ، وذلك ما لم يقم بنفس محمد ريب فيه ، بعد أن وعده ربه لينصرن دينه وليعلين كلمته ، كان المنافقون خطراً عظيما ، ولقد كان له من قبل حيث كان الاسلام محصوراً بالمدينة وما حولها أن تشرق بنفسه على ما يجرى بين المسلمين ، أما وقد انتشر الدين فى أنحاء بلاد العرب جميعاً ، وها هو ذا يشارف الانتقال منها فكل تهاون مع المنافقين ، شر تخشى مغبته ، وخطر ما اسرع ما يستشرى ، إذا لم تجتث جرثومته .

بنى جماعة مسجداً بذى أوان على بعد ساعة من المدينة ، وإلى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين ، يحاولون أن يحرفوا كلام الله عن مواضعه ، وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضرارا وكفرا ، وطلبت هذه الجماعة إلى النبى أن يفتتح المسجد بالصلاة فيه ، وكان طلبهم هذا قبل تبوك فاستمهلهم حتى يعود ، فلما عاد وعرف من أمر السجد وحقيقته ما قصد اليه من اقامته ، أمر باحراقه ، فضرب بذلك مثلا ارتعدت له فرائض المنافقين ، فخافوا وانكمشوا ولم يعد لهم من يحميهم الا عبد الله بن أبى شيخهم وقائدهم ، على أن عبد الله لم يعمر بعد تبوك غير شهرين ، مرض أثرهما وتوفى ، وبغزوة تبوك تمت كلمة ربك فى شبه الجزيرة كلها ، وأمن محمد كل عادية عليها ، وأقبل سائر أهلها وفودا عليه يقدمون الطاعة ويعلنون لله الاسلام ، فكانت هذه الغزوة بذلك خاتمة غزوات النبى عليه السلام .

والواقع أن سورة التوبة كانت السجل الواعى لغزوة بتوك ، وقد عرفت لكل لون من ألوان النفاق ، الذى صهر به هؤلاء ، الذين كان لهم ظاهر وباطن يغاير كلاهما الآخر ، فى حقيقته المكشوفة ، حتى لقد كانت هذه السورة تسمى عند علماء التفسير بالفاضحة ، لأنها فضحت أمرهم ، وهتكت أسرارهم ، ولقد كان النبى - ﷺ - عنيفاً فى معاملتهم ، كما ثبت ذلك مع الذين أتخذوا مسجد ضرارا ، وكما ثبت مع الذين خلفوا الا أن ذلك كله كان فى آخر المطاف ، حيث لم يبق فى قوس الصبر منزع كما يقولون ، والا فإن الباب كان مفتوحاً لهم على مصراعيه لا فى الاستئذان الكثير ، الذى عاتبه الله عليه بقوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم

حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين لا يستئذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون ﴾[١] . ولكن فى لصق العيون والنقائض به ، ثم بالمسلمين معه كذلك ، ، وهذه آيات هذه السورة تقول : ﴿ ومنهم من يلمزك فى الصدقات . . ومنهم الذين يؤذون النبى ﴾ وعلى الجملة فإن هذه الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المجابهة والالتحام ، إلا أنها كانت مجابهة والتحاما لهؤلاء الذين كانوا مرضى القلوب والأفئدة ، إذ تبينوا للرسول - ﷺ - والمسلمين على حقيقتهم من غير زيف ولا طلاء ولا بهرج ، وفى الوقت الذى تكامل للدولة الاسلامية نفوذها ، والذى لايمكن لأحد أن ينكره أو يزاحمه ، كانوا هم قد تكاملت لهم عناصر الهزال والضعف ، الذى لا يكون بعده سوى الفناء والموت ، وكذلك تكون نهاية المرضى . . وربما تغاضى رسول الله - ﷺ - عن بعض المنافقين ، فلم يأخذهم بالشدة ارضاء لذويهم أو بعض قرابتهم ، وكان عمله هذا من صميم الحزم والكياسة وقد كان هذا المعنى واضحا تمام الوضوح فى عبدالله بن أبى ، الذى طالما هم بعض المسلمين بقتله ، فلم يرض الرسول من ذلك لم يشجع عليه ، وحيث وفاته صلى عليه صلاة الجنازة ، ارضاء لأبنه الذى كان من خيار الصحابة وإن كان - ﷺ - قد نهى عن مثل هذه الصلاة فيما بعد بقوله سبحانه : ﴿ **ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون** ﴾[٢] وقد كان لهذه الصلاة وقع طيب فى نفوس الخزرج ، الذين كانوا يحبون عبدالله، ويعترفون له بالفضل عليهم ، ومهما كان الحال من اللين أو الشدة ، فى معاملة المنافقين ، فإن أحداً لا يشك فى أنهم أصبحوا منذ تبوك ، يعاملون بعنف ، ويؤخذون بشدة لا تقل عن تلك التى كان يعامل بها المشركون ، وقد كان المشركون أنفسهم يتنفسون الصعداء إلى ماقبل تبوك ، لكنهم بعدها أخذوا يشعرون بالعزلة والذلة ، والمهانة والضعف ، ويشعرون بأن الأرض تميد من تحتهم ، وقد أرسل الرسول - ﷺ - أباب بكر ، فى أخريات ذى القعدة من السنة التاسعة ليحج بالناس ، ولم يشأ أن يخرج هو بنفسه ، لأنه كان غير راض عن حج المشركين الى بيت الله الحرام ، مع أن ذلك كان مألوفا فى الجاهلية ، وقد سبق له ان استنقرهم للحج فى غزوة الحديبية ، ولهذا نزلت الآيات الأولى من سورة التوبة تنبذ اليهم عهدهم ، وتمنع أن يدخل البيت مشرك ﴿ **يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم** ﴾[٣] وذهب على بن أبى طالب ممثلا رسميا عن النبى - ﷺ - ليعلن ذلك الانذار الرسمى الذى تضمنه أوائل السورة من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج لأكبر : ﴿ **أنى الله برىء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فأعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم** ﴾ وبهذه المرحلة من القوة والعزة والنفوذ والسلطان ، التى وصل اليها الاسلام ، كان من الوضع الذى يسمح بأن يصدر أوامره ونواهيه من مركز القوة ، التى يحسب لها الناس ألف حساب ، فلا يستطيع أحد أن يعارضها أو يقف فى وجهها ، إلا إذا تجرد من العقل أو كان مغامرا بروحه التى بين جنبيه ، وهيهات أن يكون هنالك شىء من ذلك كله إلا عند المجانين .

---

(١) سورة التوبة الآيات : ٤٣ - ٤٥
(٢) سورة التوبة الآية : ٨٤
(١) سورة التوبة آية : ٢٨

حجة الوداع

بعد هذا الاعلان الصارخ الذى تولى اذاعته على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ والذى اردفه بأنه لا يدخل البيت مشرك ، ولا يطوف به عريان كان ، لابد لهؤلاء جميعاً أن ينكمشوا، وأن يؤمنوا إيمانا لا شك فيه ، أن الدولة المسلمة لا حياة فيها الا من يدين بدينها ، ويدافع عن حوزتها ، ويبذل جهده كله للدفاع عن رايتها ، وان وجود غير المسلم مهما اتسع صدر الدولة له ، واحسنت اليه ، وضمنت له البقاء الطيب والعيش الناعم ، والاستقرار الآمن ، فانه فى النهاية أشبه بالواغل المتطفل ، أو الغريب المقحم ، أو الحاقد الموتور ، تحيط به الريبة ويكتنفه الشك ، وتترمى حوله الظنون ، ولا يطمئن اليه المسلم ، وربما كانت هذه قضية اتفقت عليها مباىء علم الاجتماع ، ولهذا جاء فى القرآن الكريم (ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم)[1] وقد رأينا أن الحروب والخلافات التى تثيرها الأفراد والجماعات ، ويستعصى فيها الوئام والصلح ، ترجع عن طريق مباشر أوغير مباشر ، إلى هذا السبب الذى ينتهى فى آخر أمره إلى الدين والصراع الذى كان بين اليهودية والنصرانية غير منكور ولا بعيد ، لذلك كله أدركت هذه الفلول المشركة فى اطراف الجزيرة أو فى داخلها ، أنه لا علاج لتلك العلة المستعصية الا بالدخول فى هذا الدين ، وأن وجودها خارج نطاقه حكم عليها بالاذلال والهوان ، إلى الأبد ، وعندئذ أخذت الوفود من نجران ، وعبد القيس ، وبنى حنيفة ، وكنده ، وأزد شنوءه ، وهمزان ، وثعلبة ، وغسان ، وبنى أسد ، وبطون وقبائل كثيرة ، تتوافد عليه ﷺ لتعصم دماءها من السفك وقومها من الازدراء ، وحياتها من الامتهان ومستقبلها من الضياع ، تعاهده على الاسلام الذى يرفع أهله من ذات الصدع إلى ذات الرجع ، وهنالك كان رسول الله ـ ﷺ ـ قد اطمأن الاطمئنان على الاطمئنان ، إلى أنه لا يحج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأعلن أنه فى هذا العام الحادى عشر سيخرج إلى حج بيت الله الحرام ، ودب حنين المصاحبة له ، وشرف المرافقة إلى الافئدة المؤمنة والقلوب الممتلئة بنور اليقين ، وخرج معه تسعون ألف ، أو أربعون ألف ومائة ألف فى بعض الروايات ، زمشوا تميد الأرض من تحتهم ، وترقص النجوم من فوقهم ، ويمتلىء الجو كله من حولهم بالبهجة والسرور ، ويتقدمهم رسول الله ﷺ- على ناقته القصواء قائلا : « لبيك اللهم لبيك ـ لبيك لا شريك لك لبيك ـ إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

وهم بصوت واحد يرددون قوله ، ويصيحون إلى نغمته الحلوة ، ومقاطعه الرتيبة ، وموسيقاه ، التى تنساب فى النفوس انسياب الحياة فى الاحياء ، ولما دخل مكة وشاهد البيت قال : « اللهم زده تشريفا وتعظيما ، ومهابة وبرا ، وطاف به سبعا ، واستلم الحجر الأسود ، وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ، ثم شرب من ماء زمزم ، وسعى بين الصفا والمروة سبعا كذلك ، وكان إذا صعد الصفا والمروة يقول : « لا اله إلا الله الله أكبر لا اله إلا الله وحده انجز وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده » فى الثامن من ذى الحجة توجه إلى منى فبات بها وفى التاسع توجه إلى عرفات وخطب خطبته المشهورة ، وهى خطبة الوداع لهذه

---

(١) سورة آل عمران آية : ٧٣

الأمة ، التى كافح من أجلها ، وجاهد لتحريرها ، وحارب فى سبيلها وظل ثلاثا وعشرين سنة ، يرسم لها المستقبل الأفضل ، والسلوك الأكرم ، والعيش الاحسن ، والحياة التى تمتلىء بالسعادة ، وتطفح بالبهجة ، وتجود على الناس بالرخاء والاطمئنان ، ونصها الذى اجمعت عليه كتب التاريخ والسيرة .

(الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد الا اله الا الله وحده لا شريك له واشهد أن محمداً عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذى هو خير .

أما بعد . . . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا فى شهركم هذا ألا هل بلغت اللهم فاشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن ربا الجاهلية موضوع وأن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب وأن دماء الجاهلية موضوعة وأول دم أبرأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارق وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . . أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم .

أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليوطئوا عدة ما حرم الله وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم . ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم فاشهد أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهون بيوتكم إلا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكون لأنفسهن شيئا اتخذتموهم بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً ألا هل بلغت اللهم فاشهد » .

أيها الناس إنما المؤمنون أخوة ولا يحل لأمرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم أشهد فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدى كتاب الله الا هل بلغت اللهم فاشهد . . أيها الناس إن ربكم واحد وأن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم فاشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب .

أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله »[1] .

---

(١) أخرجه : ابن ماجة فى سننه جـ٢ ص ٩٠٥ كتاب الوصايا ـ باب لا وصية لوارث ـ رقم ٢٧١٢

وفى هذا اليوم نزل قوله تعالى جل شأنه : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا ﴾[١] وأدى - ﷺ - مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل راجعا إلى المدينة ، ولما بدت له من بعيد معالمها الشامخة ، كبر ثلاثا وقال : (لا إله إلا الله وحده لا شريك له . له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير أيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الاحزاب وحده)[٢].

والواقع الذى لا شك فيه أن هذه الخطبة كانت وثيقة تاريخية رائعة ، حدد فيها النبى - ﷺ - المعالم الصحيحة للمجتمع المتماسك القوى ، الذى يسوده التعاون والوفاء والحب والبر ، والرحمة والتعاطف والخير والسعادة ، والأمن والطمأنينة والاستقرار والتقدم ، وكانت الدعامة الأولى لهذا كله صون الدماء والأموال : (إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام) فإن الجماعات والشعوب ، والأمم لا تسودها الفوضى والانحلال ، ويسيطر عليها القلق والاضطراب ، وتتحول إلى أحراش وغابات تسكنها الوحوش الضارية والذئاب المفترسة ، إلا إذا رخصت فيها الدماء على الناس ، إلى هذا الحد الذى لا يجد فيه القاتل من يضرب على يديه ، ويحول بينه وبين سفك الدم الحرام ، ولهذا كانت الكلمة القرآنية : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ تشبه الدستور العادل والقانون الصحيح ، والنظام الذى لابد منه لوجود البيئة المترابطة بالحق ، المتواصلة بالبر ، المتماسكة بالعدل ، المتضاربة فى القلوب والأفئدة ، حتى يمكن أن تحصل على السعادة التى تنشدها ، والاستقرار الذى تطلبه ، وكذلك كانت للأموال هذه الاعتبارات ، لأن المال عصب الحياة ، فاذا لم يكن لها تلك الحرمة ، كانت الحياة جحيما . والعيش لونا من ألوان التعاسة أن لم يكن هو التعاسة بذاتها .

وكانت الدعامة الثانية أداء الأمانة (فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من أئتمنه عليها ، وفى القرآن الكريم : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾[٣] والأمانة أو أداء الأمانة عنوان من عناوين الثقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات ، ووجود هذه الثقة أمر ضرورى للتكتل الأسرى ، والشعب الذى لابد منه لقيام حياة اجتماعية بين الناس ، والانسان مدنى بالطبع كما يقول : ابن خلدون وغيره من فلاسفة علم الاجتماع ، ولا يمكن لإنسان أن يعامل إنسانا تنعدم الثقة بينه وبينه ، وبهذا تتفكك الروابط ، وتنقطع الأواصر ، وتذوب الوشائج ، ولا يقوم بين الناس اجتماع ، وهنالك تتعطل المصالح ، ويصيبها الشلل والموت ، وهكذا إذا مشينا مع الخطبة خطوة خطوة ، وجدناها تفيض بالنصح الخالص ، الذى لا يصدر الا من قلب قد امتلأ بالحب والبر ، والشفقة والعطف ، والرغبة الملحة فى الفلاح والنجاح ، والسداد والرشاد لمن يوجه اليه القول ونصحه بالتقويم ، ويأخذ بيده إلى سلوك السبيل السوى ، والصراط المستقيم ، فهى تعلن الحرب الساخنة على الربا وأهله لما فيه من مفاسد ، تهدد كيان الأمم والشعوب ،

(١) المائدة الآية : ٣

(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه جـ ٣ ص ٢٨٥ كتاب الحج باب ما جاء فيما يقول عند التقول من الحج والعمرة رقم ٩٥٠ ، وأخرجه البخارى كتاب باب ٣٦ ومسلم برقم ٤٢٨ كتاب الحج .

(٣) النساء آية : ٥٨

وتضر بالعلاقات القائمة بين الناس ، ويبدو بالذى يتهاون فى دينه حتى ولو بارتكاب الصغائر ، التى يعتادها مستهينا لشأنها مستخفاً لها ، وهى الخطوة الأولى إلى جحود القلب ، وظلام البصيرة ، وقسوة الفؤاد ، والجرأة على الله ، وسوء الآدب معه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ومعظم النار من مستصغر الشرر « إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » وطاعة الله رياضة للنفس على التزام أوامره واجتناب نواهيه ، التزاما لا تهاون فيه ولا تغافل ، ولا تباطؤ ولا تراخى ، ولا نقص ولا زيادة ، كذلك فإن حصل خلل فى دقة الامتثال ودقة التطبيق ودقة الالتزام ، كان ذلك كله هو الثغرة التى ينفذ منها الشيطان إلى ضمير المؤمن ، ليقوده إلى المعصية ، ثم إلى الغضب عليه ، ثم إلى الطرد من رحمته والعياذ بالله .

وفى الخطبة مقدار عظيم من الاهتمام بالمرأة لأنها نصف المجتمع ، وبخاصة حيث تكون زوجة ، فإن وضعها يكون شائكا ، لأن حياتها مع الرجل ، وهى قائمة على الحب المتبادل والوفاء من كليهما للآخر ، والثقة المتوفرة بينهما تحتاج إلى صون حرماته ، والمحافظة على عرضه (ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة » وهى على كل حال بالنسبة للرجل مخلوق ضعيف « وإنما النساء عندكم عوان لا يمكن لأنفسهم شيئا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً » الا إنها مع هذا الضعف ، تستطيع أن تكون شيئاً ذا أهمية فى سعادة البيت ، كما تستطيع أن تكون شيئا ذا أهمية فى ذلك النعيم الواسع ، الذى ينشده الرجل من البناء بها ، أو الحياة معها ، وهذه السعادة وذلك النعيم ، لا يمكن وجودها الا إذا لاحظ الرجل من جانبه هذا الوضع التركيبى ، أو الخلقى لهذا المخلوق الضعيف المسمى بالمرأة ، الوضع الذى يحتم على الرجل أن يعاشرها بالمعروف ﴿ فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظاً ﴾[1] وليس أدل على روح الاخلاص وحب الخير والرغبة الصادقة فى الاصلاح من قوله ـ ﷺ ـ فى أول الخطبة :

(اسمعوا منى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا) ورحمه الله وصلى وسلم عليه ، فقد كان موقفه هذا بحق موقف وداع . .

انتهى هذا البحث من كتاب (من فيض الرسالة) لفضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم أبو الخشب خاتمة سورة المزمل) .

---

(١) النساء الآيات : ١٩ ـ ٢١

تخفيف من الله الغفور الرحيم

* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

معانى المفردات

(أدنى من ثلثى الليل) : المراد أقل منه
(لن تحصوه) : تطيقوه .
(فتاب عليكم) : رجع بالتيسير عليكم .

أضواء كاشفة

هذه الآية ترجع إلى أول السورة ، حيث كان الأمر فيها للنبى ـ وكذلك صحبه ـ بأن يقيم ساعات طوالا فى الليل ، تتراوح بين الثلث والثلثين ، وقد امتثل النبى لذلك بل وبولغ فى هذا ، وبعد عشر سنين من هذا الأمر ، نزل التخفيف على الأمة ، وانتقل الأمر من الواجب إلى المباح ، لما ستذكر الآية الشريفة ، فلقد خفف الله عن الأمة الاسلامية ، حيث اتسع العدد ، وأصبح فيها المريض وذو الحاجة ، والمسافر والمقاتل ، وهؤلاء بلا شك لا يطيقون القيام ، فجعله الله مندوباً ، من شاء فعله ، فاستحق ثوابه ، ومن شاء ترك هذا الفضل الكبير ، والله هو العالم بكل شىء .

إن ربك يعلم أنك قمت وامتثلت أمر ربك ، أنت وطائفة من قومك ، قمتم أدنى من ثلثى الليل ، وقمتم نصفه وثلثه ، وكان معك صحبك ، والمراد بالعلم أن الله سيجازيكم على ذلك أحسن الجزاء .

والله وحده هو الذى يقدر الليل والنهار ، وهو الذى يعلم المصلحة وقد علم أن المدة السابقة كافية للتربية الاسلامية ، وقد جاء معكم أناس لا يستطيعون ذلك العمل . فالله علم أنكم كجماعة لن تطيقوا قيام الليل على سبيل الواجب ، أما كأفراد فمنكم من يقدر وأكثركم لا يقدر ، والأحكام الشرعية تبنى على الأعم الأغلب . فالله قد رجع عليكم بالتيسير والتخفيف ، قد رجعتم إليه بالشكوى والدعاء ، فأقرءوا ما تيسر من القرآن فى قيام الليل ، أو فى الصلاة فى ساعة من ساعات الليل ، علم الله أن الحال والشأن صون منكم مرض ضعاف ، لا يستطيعون قيام الليل ، وآخرون منكم مسافرون يضربون فى الأرض ، يبتغون من فضل الله بالتجارة ، والسعى على تحصيل الرزق من طريق الحلال ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، هؤلاء وهؤلاء لا يستطيعون قيام الليل ، فالله خفف عنكم فإقرءوا ما تيسر منه ، وأقيموا الصلاة كاملة الأركان ، مستوفاة الشروط وآتوا الزكاة ـ أى الزكاة الواجبة بناء ، على أن هذه الآية نزلت بالمدينة ، أو هى زكاة الفطر ، أو مطلق انفاق على أن السورة مكية ـ وأقرضوا الله قرضا حسناً ، فالله غنى قادر سيجازيكم على الدرهم عشراً ، بل ربما ضاعفه إلى سبعمائة ضعف ، فأقرضوه يكن خيراً لكم وأفضل ، وما تقدموا لأنفسكم من خير مطلقاً تجدوا ثوابه عند الله كاملا ، وتجدوه عند الله هو خيراً من العمل ، مهما كان صعباً وأعظم أجراً ، واستغفروا الله على ما فرط منكم ، فإن من أمراض القلوب الرياء وحب السمعة ، وكثيراً ما كان ذلك فى الصدقة فاستغفروا الله مما يكون قد حصل ، إن الله غفور رحيم .

التفسير

قوله تعالى : (إن هذه) أى السورة (تذكرة) أى يتذكر بها أولوا الألباب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ أى ممن شاء الله تعالى هدايته ، كما قيده فى السورة الأخرى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيماً ﴾[1] ثم قال تعالى : ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ .

أى تارة هكذا وتارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل ، لأنه يشق عليكم ، ولهذا قال : ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ أى تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أى الفرض الذى أوجبه عليكم ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ أى من غير تحديد بوقت ، أى ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال فى سورة الاسراء ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾[2] أى بقراءتك ﴿ ولا تخافت بها ﴾ وقد استدل أصحاب الامام أبى حنيفة ، ـ رحمه الله ـ بهذه الآية وهى قوله : (فاقرءوا ما تيسر من

(١) سورة الانسان آية : ٣٠
(٢) سورة الاسراء آية : ١١٠

القرآن ﴾ على أنه لا يجب تعيين قراءة الفاتحة فى الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه واعتضدوا بحديث المسىء صلاته الذى فى الصحيحين « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن »[١]

وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو فى الصحيحين أيضا أن رسول الله - ﷺ - قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »[٢] وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج فهى خداج فهى خداج غير تمام »[٣] وفى صحيح ابن خزيمة عن أبى هريرة مرفوعاً « لا تجزى صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن »[٤]

وقوله تعالى : ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ﴾ أى علم أن سيكون من هذه الأمة ، ذوو أعذار فى ترك قيام الليل ، من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين فى الأرض يبتغون من فضل الله فى المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين لما هو الأهم فى حقهم من الغزو فى سبيل الله ، وهذه الآية بل السورة كلها مكية ولم يكن القتال شرع بعد ، فهى من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الأخبار ، بالمغيبات المستقبلة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ أى قوموا بما تيسر عليكم منه ، قال ابن جرير ، حدثنا يعقوب حدثنا ابن عليه عن أبى رجاء محمد قال قلت للحسن ابن أبا سعيد ما تقول فى رجل قد استظهر القرآن كله عن ظهر قلبه ولا يقوم به إنما يصلى المكتوبة ، قال يتوسد القرآن لعن الله ذاك . قال الله تعالى للعبد الصالح : (وإنه لذو علم لما علمناه)[٥] وقال تعالى : ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾[٦] قلت يا أبا سعيد قال الله تعالى : ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ قال نعم ولو خمس آيات ، وهذا ظاهر من مذهب الحسن البصرى ، أنه كان يرى حقا واجبا على حملة القرآن ، أن يقوموا ولو بشىء منه فى الليل ، ولهذا جاء فى الحديث أن رسول الله - ﷺ - سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه »[٧] فقيل معناه : نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قيام الليل) وفى السنن « أوتروا يا أهل القرآن » وفى الحديث الآخر « من لم يوتر فليس منا »[٨] وأغرب من هذا ما حكى عن أبى بكر بن عبد العزيز من الحنابلة من إيجابه قيام شهر رمضان فالله أعلم .

وقال الطبرانى حدثنا أحمد بن سعيد فرقد الحداد حدثنا أبو أحمد محمد بن يوسف الزبيدى حدثنا عبد الرحمن عن محمد بن عبد الله بن طاوس من ولد طاوس عن أبيه عن طاوس عن ابن عباس عن النبى - ﷺ - : « فاقرءوا ما تيسر منه » قال « مائة آية » وهذا حديث غريب موجود فى معجم الطبرانى - رحمه الله تعالى[٩] .

---

(١) أخرجه البخارى جـ١ ص١٨٢ كتاب الصلاة باب وجوب القراءة للامام والمأموم .
(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٢ ص٢٥ كتاب أبواب الصلاة - باب ما جاء أنه لا صلاة الا بفاتحة الكتاب رقم ٢٤٧
(٣) أخرجه مسلم جـ١ ص٢٩٦ كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة فى كل ركعة رقم ٣٩٥/٣٨
(٤) أخرجه ابن خذيمة جـ١ ص٢٤٨ رقم ٤٩٠
(٥) سورة يوسف ية : ٦٨ (٦) سورة الانعام اية : ٩١
(٧) أخرجه مسلم جـ١ ص٥٣٧ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب ما روى فيمن نام الليل اجمع حتى أصبح رقم ٢٠٥/ ٧٧٤
(٨) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٢ ص٣١٦ كتاب أبواب الصلاة - باب ما جاء أن الوتر ليس بختم رقم ٤٥٣ ، ٤٥٤ - وقال محققه أخرجه النسائى وصححه الحاكم .
(٩) أخرجه مجمع الزوائد عن ابن عباس جـ٧ ص١٣٠ تفسير المزمل وقال أخرجه الطبرانى . وفيه عبد الرحمن بن طاووس ولم أعرفه .

وقوله تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أى أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا دليل لمن قال أن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم تبين الا بالمدينة ، والله أعلم .

وقد قال ابن عباس وعكرمة ومجاهد والحسن وقتادة وغير واجب من السلف ، إن هذه الآية نسخت الذى كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، واختلفوا فى المدة التى بينهما على أقوال وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - ﷺ - قال لذلك الرجل : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » قال هل على غيرها ؟ قال : « لا إلا أن تطوع »(١)

وقوله تعالى : ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ يعنى من الصدقات فان الله يجازى على ذلك أحسن الجزاء وأوفره ، كما قال تعالى : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ .

أى جميع ما تقدموه بين أيديكم ، فهو لكم حاصل ، وهو خير مما ابقيتموه لأنفسكم فى الدنيا .

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو خثيمة حدثنا جرير عن الأعمش عن إبراهيم عن الحارث بن سويد قال : قال عبد الله : قال رسول الله : « أيكم ما له أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا يا رسول الله ما منا من أحد الا ماله أحب اليه من مال وارثه قال : « اعلموا ما تقولون » قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ؟ قال : « إنما مال أحدكم ما قدم ومال وارثه ما أخر »(٣) ورواه البخارى من حديث حفص ابن غياث والنسائى من طريق أبى معاوية كلاهما عن الأعمش به ثم قال تعالى : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » أى أكثروا من ذكره واستغفاره فى أموركم كلها فانه غفور رحيم لمن استغفره .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ٤١ كتاب الايمان باب بيان الصلوات التى هى أحد أركان الاسلام رقم ١١/٨

(٢) سورة البقرة آية : ٢٤٥

(٣) أخرجه الامام أحمد جـ ١ ص ٣٨٢

ســورة المدثر

بين يدى السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية ، ووياتها ست وخمسون فى عدّ العراقى والبزّى وخمس وخمسون فى عد المكى ، وكلماتها مائتان وخمس وخمسون وحروفها ألف وعشر .

المختلف فيها اثنان : (يتساءلون عن المجرمين) فواصل آياتها (رُدنها) على الدال آية : (ثم يطمع أن أزيد) .

سميت المدثر : لمفتتحها .

مقصود السورة : ـ أمر النبى صلى الله عليه وسلم بدعوة الخلق إلى الإيمان ، وتقرير صعوبة القيامة على (الكفار) وأهل العصيان ، وتهديد وليد بن المغيرة بنقض القرآن ، وبيان عدد زبانية النيران وأن كل أحد رهن بالاساءة والإحسان ، وملامة الكفار على إعراضهم عن الإيمان ، وذكر وعد الكريم على التقوى بالرحمة والغفران فى قوله : (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) .

المنسوخ فيها آية واحدة : (ذرنى ومن خلقت وحيداً) من آية السيف .

المتشابهات :

قوله : ﴿ إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر ﴾ أعاد (كيف قدر) مرتين وأعاد (قدّر) ثلاث مرات ، لأن التقدير : إنه ـ أى الوليد ـ فكر فى شأن محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتى به وقدر ماذا يمكنه أن يقول فيهما . فقال الله سبحانه : (فقتل كيف قدّر) أى القول فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ثم قتل كيف قدر) أى القول فى القرآن .

قوله : ﴿ كلاّ إنه تذكرة ﴾ أى تذكير وعدل إليها للفاصلة .

وقوله : ﴿ إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ وفى عبس (إنها تذكرة) لأن تقدير الآية فى هذه السورة : إن القرآن تذكرة وفى عبس : إن آيات القرآن تذكرة وقيل : حمل التذكرة على التذكير لأنها بمعناه .

فضل السورة :

فيه الحديث الضعيف عن أُبّى : من قرأها أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وكذب به بمكة وحديث علىّ : يا علىّ من قرأها أعطاه الله ثواب المتحابين فى الله وله بكل آية قرأها مائة شفاعة[1] .

---

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾
وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾
عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾

معانى المفردات

(المدثر) : ـ لابس الدثار وهو ما فوق الشعار الذى يلبس فوق الجسد مباشرة .
(وثيابك) : المراد قلبك ونفسك .
(الرجز) : ـ هو العذاب والمراد هنا أسبابه .
(نقر فى الناقور) : ـ نفخ فى الصور .
(لا تمنن) : ـ المراد لا تعط ، يقال : منّ الأمير على فلان إذا أنعم عليه وأعطاه .

أضــواء كاشــفة

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى أول اتصاله بالوحى ولقائه له ، يتأثر بذلك كثيراً ، وكان يتزمل بعده ويتدثر ، حتى انقطع عنه الوحى حيناً ، ثم جاءه على شوق منه إليه ، وربما كان هذا التخلف ليهدأ روعه ، وتسكن نفسه ، ويتطلب تلك المناجاة الإلهية ، وقيل أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كان يصيبه من أذى قومه ما يجعله يفكر فى مصيرهم ، ويعتزل مجتمعهم ، ويجلس متدثراً بدثاره فى بيته ، فجاءه الوحى يخصه على ترك العزلة وعلى التشمير للدعوة .

يا أيها المدثر الذى اشتمل بدثاره لمن لا يهمه أمر ، ولا يعنيه شأن ، والمستغرق فى أفكاره ، والمتهيب للقاء الوحى ، قم نشيطاً من مضجعك ، ولا تجعل لليأس سبيلاً إلى قلبك ، فإن العناية الإلهية أعدتك لرسالة سامية خالدة ، ولنشر دين عام ، هو خاتم الأديان ، قم فأنذر الناس بذلك الدين ، وخوفهم عاقبة الكفر به ، هذه الرسالة التى كلف النبى بها ، والتى جاءت لتهدى الناس إلى الطريق الحق ، وتجعلهم يعبدون الله الواحد الأحد بعد الأصنام والأوثان ، والصاحبة والولد ، ليست بالأمر الهين السهل .

تصور أنك تحاول أن تقنع شخصاً بترك ما يعتقده وورثه عن آبائه ، لذلك أرشد الله نبيه إلى طريق النجاح فى تلك الدعوة الإسلامية ، وأنها لأسلحة جبارة لو استخدمت استخداماً صحيحاً ، لكسب صاحبها المعركة بلا شك وهى :

١ ـ « وربك فكبر » نعم مهما يكن من شىء فكبر ربك وحده ، ولا تشرك به غيره ، واختص ربك بالكبرياء والعظمة ، وخلص عقلك من أوهام الشرك وعبادة مالا ينفع بل يضر .

٢ ـ « وثيابك فطهر » تطهير الثياب كناية عن تطهير النفس عما تذم به من الأفعال ، ولذلك قالت العرب : فلان طاهر الثوب ، أو نقى الثياب ، أو طاهر الجيب ، يريدون بذلك وصفه نفسه بالنقاء من المعايب وسيء الأخلاق ، ولا غرابة فى ذلك ، فالثياب مما يلازم الإنسان فى جميع أدوار حياته ، وقد يطلقون الثياب ويريدون ذات النفس أو القلب وعليه قول عنترة :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم

وعلى ذلك فالمراد بالآية تحرير نفسه الشريفة من سيء الأخلاق ، ورديء العادات ، بحيث يكون صبوراً قوىّ الهمة ، عظيم النفس ، متحليا بالمثل العليا .

٣ ـ « والرجز فاهجر » أى اترك كل ما يؤدى بك إلى العذاب من المعاصى والآثام ، وحرر جوارحك من كل ما يغضب ربك :

ألست معى فى أن هذه الكلمات ، جمعت أمهات الفضائل ، لتحرير العقل من ربقة الشرك ، وتقويم النفس بكريم الخلق ، وإصلاح البدن بهجر المآثم والمحارم .

وهذه الأوامر للنبى ، ليس معناها أنه يفعل ضدها لا : بل هو من باب « فاستقم كما أمرت »[1] أى دُم على ما أنت عليه من عبادة الواحد الأحد ، ومن تحلى نفسك بالخلق الشريف ، ومن هجرك لكل ما يغضب الله .

٤ ـ أرباب الدعوات ، وأصحاب الرسالات ، لابد فيهم من أخلاق وصفات ، مضى ذكر بعضها ، وهنا يشير القرآن إلى صفة مهمة ، تستحق الإفراد بالذكر وهى : الجود وعدم البخل ، واستكثار العطاء ، فإن البخل وشح النفس ، مما ينفر الناس عن صاحب الدعوة ، حقيقة الجود مما يدخل فى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) ولكنه خص بالذكر ، لأثره المهم فى جذب قلوب الناس فحقاً صدق الله « ولا تمنن تستكثر » أى لا تعط عطاء مهما كان كثيراً وأنت تقدر فى نفسك أنه كثير ، بل أعتقد أنه قليل وأعط عطاء من لا يخاف الفقر بحال .

٥ ـ « ولربك فاصبر » أى إذا كان الأمر كذلك ، وقد قمت بالواجب عليك ، واتبعت نصائح ربك ثم وجدت من قومك إعراضاً وتكذيباً وإيذاء ، فاصبر لأجل ربك ، ولتبليغ رسالاته ، وتلقين وحيه ، فإن الصبر هو عدة المسلم ، وطريق الوصول إلى ما يريد .

قم يا محمد فأنذر وبلغ رسالة ربك كلها ، وإن لم تفعل هذا فما بلغت رسالته ، والله عاصمك من الناس ، فإذا أبوا إلا التكذيب ، فاعلم أن وراءهم يوماً ثقيلاً ، يوماً عبوساً قمطريراً ، فإذا نقر فى الناقور ، ونفخ فى الصور ، فذلك يومئذ إذ يحصل هذا يوم عسير جداً ، شديد على الكافرين غير يسير .

---

(١) سورة هود آية : ١١٢

التفسير

ثبت فى صحيح البخارى من حديث يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن جابر أنه كان يقول أول شىء نزل من القرآن (يا أيها المدثر) وخالفه الجمهور ، فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولا قوله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾[١] ، إلخ ، قال البخارى حدثنا وكيع عن على بن المبارك ، عن يحيى ابن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن فقال : (يا أيها المدثر) قلت يقولون : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله عن ذلك وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً فرفعت رأسى ، فرأيت شيئاً ، فأتيت خديجة فقلت : دثرونى وصبوا على ماء بارداً ـ قال ـ فدثرونى وصبوا على ماء باردا ـ قال : فنزلت ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر ﴾[٢] .

هكذا ساقه من هذا الوجه وقد رواه مسلم من طريق عقيل ابن شهاب عن أبى سلمة ، قال أخبرنى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه : « فبينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء قاعد على كرسى بين السماء والأرض فجئت منه حتى هويت إلى الأرض فجئت إلى أهلى فقلت زملونى فزملونى فأنزل ﴿ يا أيها المدثر . قم فأنذر ـ إلى ـ فاهجر ﴾[٣] ، قال أبو سلمة والرجز الأوثان ـ ثم حمى الوحى وتتابع هذا لفظ البخارى وهذا السياق هو المحفوظ ، وهو يقيض أنه قد نزل الوحى مثل هذا لقوله : (فإذا الملك الذى كان بحراء) وهو جبريل حين أتاه بقوله : ﴿ إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾[٤] ثم إنه حصل بعد هذا فترة ثم نزل الملك بعد هذا ، ووجه الجمع أن أول شىء نزل بعد فترة الوحى هذه السورة ، كما قال الإمام أحمد حدثنا حجاج ليث حدثنا عقيل عن ابن شهاب قال سمعت أبا سلمة بن عبد الرحمن يقول : أخبرنى جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ثم فتر الوحى عنى فترة فبينا أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى قاعد على كرسى بين السماء والأرض ، فجئت منه فرقا حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلى فقلت لهم زملونى زملونى زملونى فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ﴾ ثم نزل الوحى وتتابع ، أخراجه من حديث الزهرى[٥] وقال الطبرانى حدثنا محمد

(١) سورة العلق الآيات : ـ ١ ـ ٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٣ ص ٢٠٩ كتاب التفسير باب تفسير المدثر أنظر توضيح مسلم جـ ١ ص ١٤٤ كتاب الإيمان باب بدء الوحى رقم ١٦١/٢٥٧

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص ١٤٣ كتاب الإيمان باب بدء الوحى رقم ١٦١/٢٥٥

(٤) سورة الغلق الآيات : من ١ ـ ٥

(٥) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٠

ابن على بن شعيب السمسار ، حدثنا الحسن بن بشر البجلى ، حدثنا المعافى بن عمران عن إبراهيم ابن يزيد ، سمعت ابن أبى مليكة يقول سمعت ابن عباس يقول : إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاماً ، فلما أكلوا منه قال ما تقولون فى هذا الرجل ؟ فقال بعضهم ساحر ، وقال بعضهم ليس بساحر ، وقال بعضهم كاهن ، وقال بعضهم ليس بكاهن ، وقال بعضهم شاعر ، وقال بعضهم ليس بشاعر ، وقال بعضهم بل سحر يؤثر فأجمع رأيهم على أنه سحر يؤثر ، فبلغ ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - فحزن وقنع رأسه وتدثر ، فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ قم فأنذر ﴾ أى شمر عن ساق العزم وأنذر الناس ، وبهذا حصل الإرسال كما حصل بالأول النبوة (وربك فكبر) . أى عظم .

وقوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال الأصلح الكندى عن عكرمة عن ابن عباس أنه أتاه رجل فسأله عن هذه الآية (وثيابك فطهر) قال لا تلبسها على معصية ولا على غدرة ، ثم قال أما سمعت قول غيلان بن سلمة الثقفى .

فإنى بحمد الله لا ثوب فاجر لبست ولا من غدرة أتقنع

وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال فى كلام العرب نقى الثياب وفى رواية بهذا الإسناد فطهر من الذنوب ، وكذا قال إبراهيم والشعب وعطاء وقال الثورى عن رجل عن عطاء عن ابن عباس فى هذه الآية ﴿ وثيابك فطهر ﴾ قال من الإثم وكذا قال إبراهيم النخعى ، وقال مجاهد : (وثيابك فطهر) قال نفسك ليس ثيابه ، وفى رواية عنه (وثيابك فطهر) أى عملك فأصلح ، وكذا قال أبو رزين وقال فى رواية أخرى (وثيابك فطهر) أى لست بكاهن ولا ساحر ، فأعرض عما قالوا ، وقال قتادة : (وثيابك فطهر) أى طهرها من المعاصى ، وكانت العرب تسمى الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لدنس الثياب ، وإذا وفى وأصلح إنه لمطهر الثياب ، وقال عكرمة والضحاك لا تلبسها على معصية وقال الشاعر :

وإذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

وقال العوفى عن ابن عباس : (وثيابك فطهر) يعنى لا تكن ثيابك التى تلبس من مكسب غير طائب ويقال لا تلبس ثيابك على معصية ، وقال محمد بن سيرين : (وثيابك فطهر) أى اغسلها بالماء ، قال ابن زيد كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر وأن يطهر ثيابه ، وهذا القول اختاره ابن جرير وقد تشمل الآية جميع ذلك مع طهارة القلب فإن العرب تطلق الثياب عليه كما قال أمرؤ القيس :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجملى
وإن تك قد ساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل

وقال سعيد بن جبير : (وثيابك فطهر) وقلبك ونيتك فطهر .

وقال محمد بن كعب القرطبى والحسن البصرى : وخلقك فحسن .

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٠

وقوله تعالى : (والرجز فاهجر) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس والرجز وهو الأصنام فاهجر ، وكذا قال مجاهد وعكرمة وقتادة الزهرى وابن زيد : إنها الأوثان ، وقال ابراهيم والضحاك : (والرجز فاهجر) أى اترك المعصية وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشىء من ذلك ، كقوله تعالى: ﴿ **يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ **وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين** ﴾[2] وقوله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ قال ابن عباس لا تعط العطية تلتمس أكثر منها ، وكذا قال عكرمة ، ومجاهد وعطاء وطاوس وأبو الأحوص وابراهيم النخعى والضحاك وقتادة والسدى وغيرهم ، وروى عن ابن مسعود أنه قرأ (ولا تمنن أن تستكثر) وقال الحسن البصرى : لا تمنن بعملك على ربك تستكثره ، وكذا قال الربيع بن أنس واختاره ابن جرير ، وقال خصيف عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ قال لا تضعف أن تستكثر من الخير ، قال : تمنن فى كلام العرب تضعف . وقال ابن زيد : لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها ، عليه عوضاً من الدنيا ، فهذه أربعة أقوال والأظهر القول الأول والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ **ولربك فاصبر** ﴾ أى اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل ، قاله مجاهد ، وقال ابرهيم النخعى اصبر عطيتك لله عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والشعبى وزيد بن أسلم والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس والسدى وابن زيد (الناقور) الصور ، قال مجاهد : وهو كهيئة القرن ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أسباط ابن محمد عن مطرف عن عطية العوفى عن ابن عباس (فإذا نقر فى الناقور) فقال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ ؟) فقال أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : (قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا) وهكذا رواه الإمام أحمد عن أسباط به ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن ابن فضيل وأسباط كلاهما عن مطرف به .

ورواه من طريق أخرى عن العوفى عن ابن عباس به[3]

وقوله تعالى : ﴿ **فذلك يومئذ يوم عسير** ﴾ أى شديد (على الكافرين غير يسير) (على الكافرين غير يسير) أى غير سهل عليهم كما قال تعالى : ﴿ **يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾[4] . وقد روى عن زرارة ابن أوفى قاضى البصرة أنه صلى بهم الصبح فقرأ هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ **فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير** ﴾ شهق شهقة ثم خر ميتاً ـ رحمه الله تعالى ـ

---

(١) الأحزاب الآية : ١

(٢) الأعراف الآية : ١٤٢

(٣) رواه أحمد فى مسنده جـ١ ص٣٢٦ مسند عبد الله بن عباس .

(٤) القمر الآية : ٨

مصير زعماء الضلال

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣)
وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ
صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ
نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ
هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨)
لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا
عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا
وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١)

معاني المفردات

(ذرني) دعني واتركني .

ممدوداً) : مبسوطاً موسعاً .

(شهوداً) : حضوراً لا يفارقونه .

(مهدت تمهيداً) : بسطت له الدنيا بسطاً .

(كلا) : كلمة روع وزجر .

(عنيداً) : معانداً لها ومكابراً .

(سأرهقه صعوداً) : سأكلفه وأحمله عذاباً شاقاً صعباً كصعوبة من يحاول صعود جبل صعب .
(قدر) : هيأ الأمر فى نفسه ودبره .
(عبس وبسر) : العبوس تقلص عضلات الوجه أو الحاجبين عند ألم أو حزن .
والبسور أشد من من العبوس .
(سقر) : اسم من أسماء جهنم وهو من سقرته الشمس إذا لوحته وآمته .
(فتنة) : ابتلاء واختباراً .
(ولا يرتاب) : ولا يشك .
(مرض) : شك ونفاق .
(مثلا) : المثل هو القول السائر على ألسنة الخلق ويكون فى أمر عجيب وشأن خطير والمراد أن عدة الخزنة أمر عجيب كالمثل .
(جنود ربك) : أنصاره وأعوانه والمراد هنا صّنف من الخلق .
(ذكرى للبشر) : موعظة وعبرة .

أضـــواء كاشـــفة

لقد رسم الله سبحانه وتعالى الخطوط لنجاح الدعوة المحمدية باستكمال العقل وتحرره من الشرك ، وباستكمال النفس بالخلق الكامل والمثل العليا ، وتطهير الجوارح بالبعد عن المعاصى والمحارم ، ولقد ذكر صنفين لهما وضع خاص ، هما الجود والصبر ، وبعد ذلك بين ما يلاقيه الكفار يوم القيامة ، ثم أراد أن يشجع الرسول على التبليغ ، فذكر أحد زعماء الشرك وتوعده الشعر التى هى لواحة للبشر ، هذه هى دعائم نجاح الرسول فى ذعوته ، وتلك سنة الله فى الدعوات كلها ، لا يستقيم لها أمر إلا بهذا ، ذرنى ومن خلقت وحدى بلا شريك معى ، اتركه لى وثق أنى قادر عليه ، فقد خلقته وحيداً ، لا مال له ، ولا ولد ، ولا حول له ولا قوة ، حتى إذا أنعمت عليه بالمال والولد ، قام يكفر بى ويكذب رسلى ، لقد مهدت له الدنيا ووسعتها عليه توسيعا ، ثم بعد ذلك يطمع أن أزيده من نعمى ، أو ثم يطمع أن أزيده كلا إنه كان لآياتنا القرآنية معانداً ومكابراً ، وماذا يكون جزاؤه ؟ سأرهقه صعوداً أى سأحمله من العذاب نوعاً شاقاً عليه تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد فى الجبل فى طريق وعر ، وكأن سائلاً سأل كيف كانت حالته فى معاندة الآيات حتى استحق هذا العذاب ؟ فأجيب : إنه فكر فيها وقدر ، وهيأ فى نفسه أمراً وأجل فيها رأيا بقوله ليرضى الباطل وأهله .

فقتل كيف قدر ؟ ثم قتل كيف قدر ؟ وهذا كما يقولون : قاتله الله ما أشجعه فى معرض التعجب والاستعظام مدحاً للشخص للذى يقولون فيه هذا الكلام ، وكأنه بلغ حداً يجعل حساده يقولون له هذا ، ثم شاع هذا الاستعمال وحرّف نوعاً ما ، حتى صار يقوله كل معجب بشخص أو كل محب له ، أما العبارة فى الآية فليس المقصود منها المدح إنما هى للتعجب المشوب بالذم ، أو المدح الذى فيها للتهكم

والاستهزاء ، ثم بعد أن فكر وقدر نظر فى جمهور الندى نظر المفكر الساهم ، ثم قطب وجهه وقلص عضلات حاجبيه واشتد ذلك التقطيب . متهيئاً للكلام والحكم القطعى فى شأن الرسول والقرآن ، ولما كان قوله محض افتراء ونهاية الاعراض عن الحق والإيمان ، وكان ناشئاً عن كبر وغمط للحقوق عبر عنه القرآن بقوله : « ثم أدبر واستكبر » فماذا قال ؟ قال : إن هذا الكلام الذى سمعته ما هو إلا سحر يؤثر عن السحرة من البابليين والأشوريين والمصريين ، ثم أكبر رأيه بأنه سحر معروف وليس من كلام الله بقوله : ما هذا إلا مثل قول البشر الذين عاشوا فى القرون الماضية . ما جزاء هذا ؟ سأرهقه صعوداً ، سأصليه سقراً . وما أدراك ؟ ما سقر ؟ أى أىّ شىء أعلمك ؟ ما سقر ؟ وهذا استفهام يراد به التعجب من هول سقر ، وأنه مهما فكر فيها المفكر ، لا يمكنه أن يعرف من أمرها إلا ما عرفه الوحى من أنها لا تبقى على شىء يلقى فيها إلا أهلكته ، ولا تذر أحداً من الفجار يفلت منها وهى لواحة للبشر ، تجعل أجسامهم قطعاً سوداً متغيرة ، عليها تسعة عشر ، وهم خزنتها الموكلون بخدمتها وهل هم تسعة عشر ملكاً أو صنفاً أو صفاً أو نقيباً الله أعلم بذلك كله وليس لنا أن نبحث فى ذلك بل ندع الأمر إلى الله وخاصة بعد قوله تعالى : ﴿ ما أدراك ما سقر ؟ ﴾ على أن المخاطب بذلك سيد البشر ز وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة أى ليسوا بشراً وهذا رد على من قال : سأكفيكم أمر سبعة عشر فأكفونى أمر الأثنين وعلى قول أبى جهل لما سمع هذه الآية لقريش : ثكلتكم أمهاتكم أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء ؟! فيرد الله عليهم ، ليس هؤلاء بشراً ، بل هم ملائكة ، فاسألوا عنهم عاداً وثمود وأهل قرى قوم لوط ، فإنهم يعرفون الملائكة وقوتهم . وما جعلنا عدتهم ـ تسعة عشر ـ إلا ابتلاء واختباراً للناس وكانت فتنة وضلالاً وإعراضاً ، أما المؤمنون بالنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المسلمين وأهل الكتاب ، فازدادوا يقيناً على يقينهم ، ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ، بل هم متيقنون ، وكان ذلك ليقول الذين فى قلوبهم شك ونفاق كالمنافقين ، وليقول الكافرون بالوحى : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ أى ماذا أراد الله بهذا القول ـ عدتهم تسعة عشر ـ الذى يشبه المثل فى الغرابة والبداعة ، فيخوفنا بواسطته من سقر وخزنتها التسعة عشر .

مثل ذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ممن أراد لهم بذلك ، لأنهم على استعداد للخير أو للشر ، وقد ساروا بمحض إختيارهم فى أحد السبيلين ، وما يعلم جنود ربك إلا هو ، نعم لا يعلم خلقه إلا هو وجنود ربك ، التى هى وسائط فى تنفيذ إرادته وأحكامه من الأمور الغيبية التى نؤمن بها فقط .

وما سقر ووصفها بهذا إلا ذكرى وموعظة للبشر ، فيخافون ربهم ويبتعدون عن عقابه وعذابه ، أما حقيقتها فشىء لا يعلمه إلا الله .

يكاد المفسرون يجمعون على أن قصة التهديد السابقة نزلت فى الوليد بن المغيرة ، فإنه كان كثير المال والولد ، عظيم الجاه قوى النفوذ ، فيروى أن بساتينه كانت ممتدة بين مكة ، والطائف لا ينقطع لها ثمر ، وكان له عشرة أولاد ، يحضرون مجلسه لكبر سنهم ورجاحة عقولهم ، ويقيمون معه لا يغادرون مكة لغناهم وثرائهم ، ولما اشتد الأمر ورأى زعماء الشرك أن دعوة النبى محمد ـ صلى الله عليه ولسم ـ آخذة فى الانتشار ، وأن محمداً سيجتمع بوفود العرب وسيكلمهم فى الإسلام ، اجتمعوا للتشاور فيما يقولون ليردوا

به العرب عن الإسلام ، فقال قائل نقول : إنه شاعر ، وقال آخر : لا إنه كاهن وقال ثالث : لا . إنه مجنون وقال رابع : لا إنه كذاب ! كل هذا والوليد يسمع ولا يتكلم فقالوا له : مالك لا تتكلم ؟ فقال لقد سمعت محمداً يقرأ كلاماً ما هو بكلام الإنس ولا الجن ، وإن له لحلاوة ، وأن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه ، وما يقول هذا بشر فكان لهذا الكلام وقع شديد على المجتمعين ، وقالوا لقد صبأ الوليد - أى ترك دين آبائه وأجداده ولتصبأن معه قريش . فخرج الوليد وتفرق الجمع وكلهم حزن أسيف . ولكن أبا جهل ذهب لدار الوليد يحتال عليه ، وأخذ يكلمه بكلام يثير فيه الخمية الجاهلية ، والنخوة المادية فقال له : لقد تركنا قريشاً تجمع لك مالاً حتى تكفيك تعرضك لمحمد وماله فقال الوليد : لقد علمت قريشاً أنى من أكثرها مالاً فهل أنا محتاج لكسر محمد اليتيم ؟! قم بنا إلى دار الندوة ولأتولن كلاماً أصحح به وضعى . اجتمع الناس فقال الوليد : إن محمداً ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب وأنتم تعلمون هذا ولا سبيل إلى إنكاره ، فقالوا له : فماذا نقول عنه إذاً يا عبد شمس ؟ - ولقد وصف القرآن الوليد فى تلك اللحظة الرهيبة وصفاً دقيقاً جداً - فقال : إن الوليد فكر وقلب وجوه الرأى فيما يقوله ، وقدر الرأى وقلبه على وجوهه ، ثم قاطعه الوحى بقوله « قتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر » معجباً من أمره ناعياً عليه سوء فعله ثم نظر الوليد فى القوم بعد تفكيره ثم عبس وبسر أى قطب حاجبيه تغطيباً شديداً وقال لهم : قولوا : إنه ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، ففرحت قريش بذلك فرحاً شديداً واغتم النبى صلى الله عليه وسلم وحزن ورجع إلى بيته وتدثر بدثاره وجلس فكانت هذه السورة ، وأمره الله أن يدع الوليد ومن على شاكلته فالله يكفيكه فى الدنيا ، وليعذبنه عذاباً شديداً فى الآخرة بنار هى سقر تسوِّد الوجوه ، وتشوى اللحم .. إلخ ما فى الآيات .

التفســــير

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث : الذى أنعم الله عليه بنعم الدنيا ، فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفراً ، وقابلها بالجحود بآيات الله ، والافتراء عليها ، وجعلها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حين قال تعالى : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ﴾ أى خرج من بطن أمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى (مالاً ممدوداً) أى واسعاً كثيراً ، قيل : ألف دينار ، وقيل : مائة ألف دينار ، وقيل : أرضاً يشغلها ، وقيل : غير ذلك ، وجعل له بنين شهوداً ، وقال مجاهد لا يغيبون أى حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات ، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم ، وهم قعود عند أبيهم ، يتمتع بهم ، ويتجلى بهم ، وكانوا فيما ذكر السدى وأبو مالك وعاصم بن عمر بن قتادة ثلاثة عشر وقال بن عباس ومجاهد كانوا عشرة ، وهذا أبلغ فى النعمة وهو إقامتهم عنده (ومهدت له تمهيداً) أى مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك (ثم يطمع أن أزيد كلا إنه كان لآياتنا عنيداً) أى معانداً وهو الكفر على نعمه بعد العلم قال، الله تعالى : ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ وقال الإمام أحمد حدثنا حسن على أبى سعيد عن رسول الله - صلى الله

عليه وسلم ـ قال : (ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره والصعود جبل من نار ستصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوى به كذلك فيه أبداً)(١) .

وقد رواه الترمذى عن عبد بن حميد عن الحسن بن موسى الأشيب به ، ثم قال غريب لا تعرفه إلا من حديث ابن لهيعة عن دراج كذا قال : وقد رواه ابن جرير عن يونس عن عبد الله ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن دراج وفيه غرابة ونكارة ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة وعلى ابن عبد الرحمن المعروف بعلان المقرى قال حدثنا منجاب أخبرنا شريك عن عمار الدهنى عن عطيه العوفى عن أبى سعيد عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (سأرهقه صعوداً) قال : « هو جبل فى النار من نار يكلف أن يصعده فإذا وضع يده ذابت وإذا رفعها عادت فإذا وضع رجله ذابت وإذا رفعها عادت »(٢) .

ورواه البزار وابن جرير من حديث شريك به وقال قتادة عن ابن عباس صعوداً : صخرة فى جهنم يسحب عليها الكافر على وجهه وقال السدى صعوداً صخرة ملساء فى جهنم يُكلف أن يصعدها وقال مجاهد « سأرهقه صعوداً » أى مشقة من العذاب وقال قتادة عذاباً لا راحة فيه واختاره ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿ إنه فكر وقدّر ﴾ أى إنما أرهقناه صعوداً أى قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر ، أى تروى ماذا يقول فى القرآن حين سئل عن القرآن ، ففكر كيف يختلق من المقال (وقدر) أى تروى (فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر) وعاد عليه (ثم نظر) أى أعاد النظر والتروى (ثم عبس) أى قبض بين عينيه وقطب (وبسر) أى كلح كره ومنه قول توبة ابن حمير :

وقد رابنى صدود رأيته وإعراضها عن حاجتى وبسورها

وقوله : ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أى صرف عن الحق ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن (فقال إن هذا إلا سحر يؤثر) أى هذا سحر ينقله محمد عن غيره ممن قبله ، ويحكيه عنهم ، ولهذا قال : ﴿ إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أى هذا ليس كلام الله ، وهذا المذكور فى هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومى أحد رؤساء قريش ـ لعنه الله ـ وكان من خبره فى هذا ما رواه العوفى عن ابن عباس قال دخل الوليد بن المغيرة عن أبى بكر ابن أبى قحافة فسأله عن القرآن ، فلما أخبره خرج على قريش ، فقال يا عجباً لما يقول ابن أبى كبشة ، فوالله ما هو بشعر ولا بسحر ولا بهذى من الجنون ، وإن قوله لمن كلام الله ، فلما سمع بذلك النفر من قريش ائتمروا فقالوا والله لئن صبأ الوليد لتصبئن قريش فلما سمع بذلك أبو جهل من هشام قال أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال للوليد ألم تر إلى قومك ؟ قد جمعوا لك الصدقة فقال ألست أكثرهم مالاً وولداً فقال له أبو جهل يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبى قحافة لتصيب من طعامه ، فقال الوليد أقد تحدث به عشيرتى فلا والله لا أقرب ابن أبى قحافة ولا عمر ولا ابن أبى كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً ـ إلى قوله ـ لا تبقى ولا تذر ﴾ وقال قتادة : زعموا أنه قال والله لقد نظرت فيما قال الرجل ، فإذا هو ليس بشعر وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وأنه ليعلوا وما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر فأنزل الله

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ٣ ص٧٥ مسند أبى سعيد الخدرى .

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسير جـ٤ ص٤٤٢ فى تفسير سورة المدثر .

﴿ فقتل كيف قدّر ﴾ الآية (ثم عبس ويسر) قبض ما بين عينيه وملح ، وقال ابن جرير حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا محمد بن ثور عن معمر عن عباد بن منصور عن عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام ، فأتاه فقال أى عن إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال لم قال يعطونكه ، فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله ، قال قد علمت قريش أنى أكثرها مالاً ، قال قل فيه قولاً يُعلِمُ قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له ، قال : فماذا أقول فيه فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار منى ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، وقال والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه ، قال فدعنى حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره ، فنزلت ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيداً - حتى بلغ - تسعة عشر ﴾ وقد ذكر محمد ابن اسحاق وغير واحد نحواً من هذا وقد زعم السدى أنهم لما اجتمعوا فى دار الندوة ليجمعوا رأيهم على قول يقولونه فيه قبل أن يُقدم عليهم وفود العرب للحج يصدوهم عنه فقال قائلون : شاعر وقال آخرون ؛ ساحر ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : مجنون ، كما قال قائلون : شاعر ، وقال آخرون : ساحر ، وقال آخرون : كاهن ، وقال آخرون : مجنون ، كما قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾[(١)] كل هذا والوليد يكفر فيما يقوله فيه ، ففكر وقدر ونظر وعبس وبسر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر .

قال الله تعالى : ﴿ سأصليه سقر ﴾ أى سأغمره فيها من جميع جهاته ثم قال تعالى : ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم تبدَّل غير ذلك وهم فى ذلك لا يموتون ولا يحييون ، قاله ابن بريدة وأبو سفيان وغيرهما ، وقوله تعالى : ﴿ لواحة للبشر ﴾ قال مجاهد أى للجلد وقال أبو رزين : تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ، وقال زيد ابن أسلم : تلوح أجسادهم عليها ، وقال قتادة (لواحة للبشر) أى حرّاقة للجلد ، وقال ابن عباس : تحرق بشدة الإنسان ، وقوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أى من مقدمى الزبانية عظيم خلقهم غليظ خلقهم ، وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة إبراهيم بن موسى حدثنا أبى زائدة أخبرنا حارث عن عامر عن البراء فى قوله تعالى : ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ قال إن رهطاً من اليهود سألوا رجلاً من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن خزنة جهنم فقال الله ورسوله أعلم ، فجاء رجل فأخبر النبى - صلى الله عليه وسلم - ، فأنزل الله تعالى عليه ساعتئذ (عليها تسعة عشر) فأخبر أصحابه وقال (أدعهم أما إنى سائلهم عن تربة الجنة إن أتونى إما أنها دور مكة بيضاء) فجاءوه فسألوه عن خزنة جهنم فأهوى بأصابع كفيه مرتين وأمسك الإبهام فى الثانية ثم قال : (أخبرونى عن تربة الجنة ، فقالوا أخبرهم يا ابن سلام فقال كأنها خبزة بيضاء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أما إن الخبز إنما يكون من الدرمك)[(٢)] .

هكذا وقع عند ابن أبى حاتم عن البراء والمشهور عن جابر ابن عبد الله ، قال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده حدثنا منده حدثنا أحمد بن عبيدة ، أخبرنا سفيان ويحيى بن حكيم حدثنا سفيان عن

---

(١) الإسراء آية : ٤٨

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ٤ ص٤٤٣ ، ٤٤٤

مجالد عن الشعيب عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال جاء رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال يا محمد : غلب أصحابك اليوم فقال (بأى شىء) قال سألتهم يهود وهل أعلمكم نبيكم عدة خزنة أهل النار ؟ قالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (أفغلب قوم يسألون عما لا يعلمون فقالوا لا نعلم حتى نسأل نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ على بأعداء الله لكنهم قد سألوا نبيهم أن يريهم الله جهرة » فأرسل إليهم فدعاهم قالوا يا أبا القاسم كم عدة خزنة أهل النار ؟ قال : (هكذا) وطبق كفيه ثم طبق كفيه مرتين وعقد واحدة ـ وقال لأصحابه (إن سألتم عن تربة الجنة هى الدرمك) فلما سألوه فأخبرهم بعدة خزنة أهل النار قال لهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ما تربة الجنة) فنظر بعضهم إلى بعض فقالوا : أخبره يا أبا القاسم فقال : (الخبز من الدرمك) وهكذا رواه الترمذى عند هذه الآية عن ابن أبى عمر عن شيبان به وقال هو والبزار لا يعرف من حديث مجالد وقد رواه الإمام أحمد عن على بن المدينى عن سفيان بنقصه الدرمك فقط(١) .

قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أى خزنتها (إلا ملائكة) أى زبانية غلاظا شداداً ، وذلك رد على مشركى قريش حين ذكر عدد الخزنة ، فقال أبو جهل يا معشر قريش : أما تستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم فتغلبونهم ، فقال الله تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أى شديدى الخلق لا يقاومون ولا يغالبون ، وقد قيل أن أبا الأشدين واسمه كلده بن أسيد بن خلف قال يا معشر قريش : اكفونى منهم اثنين وأنا أكفيكم منهم خمسة عشر ، إعجاباً معه بنفسه وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون ، كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه .

قال الهيلى وهو الذى دعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى مصارعته ، وقال إن صرعتنى آمنت بك ، فصرعه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مراراً فلم يؤمن ، قال وقد نسب ابن إسحق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب ، وقد قيل : أنه لا منافاة بين ما ذكراه والله أعلم وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ أى إنما ذكرنا عدتهم أنهم تسعة عشر اختباراً منا للناس (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أى يعلمون أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله .

وقوله تعالى : ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أى إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق إخبار نبيهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ (ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض) أى من المنافقين (والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً) أى يقولون ما الحكم فى ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى : ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ أى من مثل هذا وأشباهه ، يتأكد الإيمان فى قلوب أقوام ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة ، وقوله تعالى : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ - أى ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى ، لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط ، كما قد قاله طائفة من أهل الضلالة والجهالة من الفلاسفة اليونانيين ومن شايعهم من الملتين الذين

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٤

سمعوا هذه الآية ، فأرادوا تنزيلها على العقول العشرة والنفوس التسعة ، التى اخترعوا دعواها وعجزوا عن إقامة الدلالة على مقتضاها ، فأفهموا صدر هذه الآية وقد كفروا بآخرها وهو قوله : ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ وقد ثبت فى حديث الإسراء المروى فى الصحيحين وغيرهما عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال فى صفة البيت المعمور الذى فى السماء السابعة (فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[١] وقال الإمام أحمد حدثنا أسود حدثنا إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن مورق عن أبى ذر قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (إنى أرى مالا ترون وأسمع مالا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولا تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى »[٢] ، فقال أبو ذر لوددت أنى شجرة تورق ، ورواه الترمذى وابن ماجة من حديث إسرائيل وقال الترمذى حديث حسن غريب ويروى عن أبى ذر موقوفاً وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا حسين ابن عرفة المصرى حدثنا عروة بن مروان الرقى حدثنا عبيد الله بن عمرو وعن عبد الكريم بن مالك عن عطاء بن أبى رباح عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « ما فى السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعاً سبحانك ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لم نشرك بك شيئاً »[٣] وقال محمد بن نصر المروزى فى كتاب الصلاة حدثنا عمر بن زرارة أخذنا عبد الوهاب عن عطاء عن سعيد عن قتادة عن صفوان بن محرز عن حكيم بن حزام قال بينما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا ما نسمع من شىء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أسمع أطيط السماء وما تلام أن تئط ، ما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك راكع أو ساجد »[٤] .

وقال أيضاً حدثنا محمد بن عبد الله بن مهران حدثنا أبو معاذ الفضل بن خالد النحوى حدثنا عبيد ابن سليمان الباهلى سمعت الضحاك بن مزاحم يحدث عن مسروق بن الأجدع عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ما فى السماء الدنيا موضع قدم إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » وذلك قول الملائكة (وما منا إلا له مقام معلوم ، وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون) . وهذا مرفوع غريب جداً ثم رواه عن محمود بن آدم عن أبى معاوية عن الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال : إن من السموات سماء ما فيها موضع شبر إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه قائم ثم قرأ (وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون)[٥] .

ثم قال حدثنا أحمد بن بشار حدثنا أبو جعفر محمد بن خالد الدمشقى المعروف بابن أمه حدثنا المغيره

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم رقم ١٦٢/٢٥٩

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ٥ ص ١٧٣

أنظر الترمذى فى جـ ٤ ص ٤٨٢ كتاب الزهد باب فى قول النبى لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا رقم ١٣١٢

أنظر ابن ماجة فى كتاب الزهد باب الحزن والبكاء .

(٣) أخرجه ابن ماجة كتاب الهد باب الحزن والبكاء

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٥

(٥) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٥

ابن عمر بن عطية من بنى عمرو بن سوف حدثنى سليمان بن أيوب عن سالم بن عوف حدثنى عطاء بن زيد ابن مسعود من بنى الحكم حدثنى سليمان بن عمرو بن الربيع من بنى سالم حدثنى عبد الرحمن بن العلاء من بنى ساعدة عن أبيه العلاء بن سعد وقد شهد الفتح وما بعده أن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال يوماً لجلسائه « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا وما تسمع يا رسول الله ؟ قال « أطت السماء وحق لها أن تئط إنه ليس فيها موضع قدم إلا وعليه ملك قائم أو راكع أو ساجد وقالت الملائكة (وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون)(١) ثم قال حدثنا إسحق بن محمد بن اسماعيل العدوى حدثنا عبد الملك بن قدامة عن عبد الرحمن عن عبد الله بن دينار عن أبيه عن عبد الله بن عمر أن عمر جاء والصلاة قائمة وتقر ثلاثة جلوس أحدهم أبو جحش الليثى فقال قوموا فصلوا مع رسول الله - صلى الله عليه سلم - فقام اثنان وأبى أبو جحش أن يقوم وقال لا أقوم حتى يأتى رجل هو أقوى منى ذراعيه وأشد منى بطشاً ، فيصرعنى ثم يدس وجهى فى التراب قال عمر فصرعته ودسست وجهه فى التراب فأنى عثمان بن عفان فحمزنى عنه فخرج عمر مغتصباً حتى انتهى إلى رسول الله - صلى الله عليه سولم - : فقال « ما رأيك يا أبا حفص ؟ » فذكر له ما كان منه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « إن رضى عمر رحمه الله على ذلك لوددت أنك جئتنى برأس الخبيث فقام عمر فوجه نحوه فلما أبعد ناداه فقال « اجلس حتى أخبرك بغناء الرب تبارك وتعالى عن صلاة أبى جحش إن الله تعالى فى السماء الدنيا ملائكة خشوع لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت رفعوا رؤوسهم ثم قالوا ربنا ما عبدناك حق عبادتك وإن لله فى السماء الثانية ملائكة سجود لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة فإذا قامت الساعة رفعوا رءوسهم وقالوا سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك » فقال له عمر وما يقولون يارسول الله ؟ فقال « أما أهل السماء الدنيا فيقولون سبحان ذى الملك والملكوت وأما أهل السماء الثانية فيقولون سبحان ذى العزة وأما أهل السماء الثالثة فيقولون سبحان الحى الذى لا يموت فقلها ياعمر فى صلاتك ، فقال عمر يارسول الله فكيف بالذى كنت علمتنى وأمرتنى أن أقوله فى صلاتى ؟ فقال « قل هذا مرة وهذا مرة »(٢) وكان الذى أمره به أن يقوله « أعوذ بعفوك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك جل وجهك » هذا حديث غريب جداً بل منكر نكارة شديدة وإسحاق المروزى روى عنه البخارى وذكره ابن حبان فى الثقاب وضعفه أبو داود والنسائى والقصيلى والدارقطنى وقال أبو حاتم الرازى كان صدوقا إلا أنه ذهب بصره فربما لقن وكتبه صحيحه وقال مرةً هو مضطرب وشيخه عبد الملك بن قدامه أبو قتاده الجمحى تكلم فيه أيضاً والعجب من الإمام محمد بن نصر كيف رواه ولم يتكلم عليه ولا عرف بحاله ولا تعرض لضعف بعض رجاله غير أنه رواه من وجه آخر عن سعيد بن جبير مرسلاً بنحوه ، ومن طريق أخرى عن الحسن البصرى مرسلاً قريبا منه ثم قال محمد بن نصر حدثنا محمد بن عبد الله بن مهراد أخبرنا النقد عباد بن منصور قال سمعت عدى ابن ارطاة وهو يخطبنا على منبر المدائن قال سمعت رجلا من أصحاب النبى قال « إن لله تعالى ملائكة ترعد فرائصهم من خيفته ما منهم ملك تقطر منه دمعة من عينه إلا وقعت على ملك يصلى وإن منهم ملائكة سجوداً منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رءوسهم ولا يرفعونها إلى يوم القيامة وإن منهم ملائكة

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٥

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٦

ركوعا لم يرفعوا رءوسهم منذ خلق الله السموات والأرض ولا يرفعونها إلى يوم القيامة فإذا رفعوا رءوسهم نظروا إلى وجه الله عز وجل قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك » وهذا إسناد لا بأس به(١)

وقوله تعالى : ﴿ وما هى إلا ذكرى للبشر ﴾ قال مجاهد وغير واحد (وما هى) أى النار التى وصفت ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ .

مبحث فى رحاب قوله تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾

عالم الملائكة فى ضوء الكتاب والسنة

وكما سبق أن تناولنا عالم الجن بالتفصيل والبيان الشامل كما جاء على لسان العلماء ، وكان ذلك مستمداً من كتاب الله وسنة رسوله فإننا هنا نتناول عالم الملائكة المكرمين تناولاً مفصلاً ، كما جاء فى كتاب الله تعالى ، وكما ورد فى سنة نبيه ﷺ نقول وبالله التوفيق .

يقول الشيخ « عمر سليمان الأشقر » فى كتابه « عالم الملائكة الأبرار فى ضوءالقرآن والسنة » :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعد : فالإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد لا يتم الإيمان إلا به ، والملائكة عالم من عوالم الغيب التى امتدح الله المؤمنين بها تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ .

وقد بسطت النصوص من الكتاب والسنة هذا الموضوع ، وبينت جوانبه ، ومن طالع هذه النصوص فى هذا الجانب ، يصبح الإيمان بالملائكة عنده واضحاً ، وليس فكرة غامضة ، وهذا مما يعمق الإيمان ويرسخه ، فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الاجمالية ، وما أطالت النصوص التفصيل والتوضيح فى هذا الموضوع ، إلا لأن العقل الإنسانى لا يستطيع التوصل إلى ما يهمه معرفته عن الملائكة بنفسه فحواس الإنسان أعجز من أن ترى الملائكة وتسمع أحاديثهم ، ولا شك أن هذا العجز فى صلح الإنسان ، فلو كان الإنسان يسمع ويرى كل ما يحيط به ، لما أطاق الحياة ، وحسبنا أن نتصور أن إنسانا تلتقط أذنه ما يلتقطه المذياع من أصوات لنعلم البلاء الذى يحل بهذا المسكين ، الذى لابدَّ أن يصاب بالذهول والجنون ولا يظن أحد أن دراسة هذا الأصل من فضول العلم ، فإن الحقائق التى تسوقها النصوص فى هذا الموضوع لها تأثير كبير فى نفى الخرافة والزيف عن العقول فى هذا الموضوع ، فقد انتشر منذ القديم بألوهية الملائكة أو أن الملائكة بنات الله ، ويرى بعض الفلاسفة أن الملائكة هم الأفلاك التى نراها فى الفضاء .

وهذه الحقائق التى جاءت بها النصوص تعمق فى نفوسنا الإيمان بالإله المعبود المهيمن على هذا الوجود ، الذى وضع جنوده من الملائكة للقيام على مختلف أمور الكون وعلاقة الملائكة بنا تكوينا وإيمانا

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسير سورة المدثر جـ ٤ ص ٤٤٦

ومراقبة . . . توحى للإنسان بأهميته وقيمته وتنفى من فكرة القول بتناهية وحقارته ، وبذلك يقدر قدر نفسه ويسعى جاهداً لتحقيق الدور العظيم الذى عليه أن يقوم به .

ولو ذهبنا نعدد الآثار الطيبة التى يجنيها المرء من إيمانه بالملائكة ودراسة النصوص التى تتحدث عنهم ، لطال القول فى هذه المقدمة ، إلا أننى أترك للقارىء أن يعيش مع النصوص ، فتمده ـ حين يتأمل فيها ـ بموجباتها وآثارها .

والله تعالى المسئول أن ينفع بهذا البحث وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم إنه نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول

١ ـ صفات الملائكة وقدراتهم

سنحاول فى هذا الفصل أن نتبنى من خلال النصوص الصحيحة صفات الملائكة الخلقية والخلقية ثم نتحدث عن القدرات التى وهبهم الله إياها .

الصفات الخَلْقية وما يتعلق بها

مادة الخلق :

عرفنا الرسول ﷺ فى الحديث الذى ترويه عائشة بنت أبى بكر ـ رضى الله عنها وعن أبيها ـ أن المادة التى خلقوا منها هى النور فقال ﷺ : (خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم) رواه مسلم فى صحيحه[١]

ولم يبين لنا الرسول ـ ﷺ ـ أى نور هذا الذى خلقوا منه ولذلك فإننا لا نستطيع أن نخوض فى هذا الأمر لمزيد من التحديد ، لأنه غيب لم يرد فيه ما يوضحه أكثر من هذا الحديث .

وما روى عن عكرمة أنه قال : (خلقت الملائكة من نور العزة وخلق إبليس من نار العزة) وما روى عن عبد الله بن عمرو أنه قال : (خلق الله الملائكة من نور الذراعين والصدر) لا يجوز الأخذ به وعلى فرض صحته عن هؤلاء العلماء الأفاضل فهم غير معصومين ولعلهم قد اشتقوا من الاسرائيليات . (راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة/١٩٧) وأما ما ذكره ولى الله الدهلى فى الحجة البالغة (ص ٣٣) من (أن الملأ الأعلى) ثلاثة أقسام : قسم علم الحق أن نظام الخير يتوقف عليهم فخلق أجساماً نورية بمنزلة نار موسى فنفخ فيها نفوساً كريمه .

وقسم اتفق حدوث فراج فى النجارات اللطيفة من العناصر استوجب فيضان نفوس شاهقة شديدة الرفض (أى الترك) للألوات البهيمية . وقسم هم نفوس إنسانية المأخذ من الملأ الأعلى مازالت تعمل أعمالاً منجية تفيد اللحوق بهم حتى طرحت عنها جلابيب أبدانها فانسلكت فى سلكهم وعثرت منهم .

ـ فلا يوجد دليل صحيح على صحة هذا التقسيم ـ بهذا التفصيل والتحديد .

---

(١) أخرجه الامام مسلم جـ ٤ ص ٢٢٩٤ كتاب الزهد والرقائق باب فى أحاديث متفرقة رقم ٦٠/ ٢٩٩٦

متى خلقوا ؟

لا ندرى متى خلقوا فالله سبحانه لم يخبرنا بذلك ؟ ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أبى البشر ، فقد أخبرنا الله أنه أعلم ملائكته أنه سيجعل فى الأرض خليفة ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾(١) والمراد بالخليفة آدم عليه السلام ، وأمرهم بالسجود له حين خلقه ﴿ **فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾(٢)

عظم خلقهم :

قال تعالى فى ملائكة النار : ﴿ **يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾(٣)

وسأكتفى بسوق الأحاديث التى تتحدث عن ملكين كريمين فحسب .

عظم خلق جبريل :

روى الإمام أحمد فى سنده عن عبد الله بن مسعود قال : رأى رسول الله - ﷺ - جبريل فى صورته وله ستمائة جناح ، كل جناح منها قد سدّ الأفق . يسقط من جناحه التهاويل (الأشياء المختلفة الألوان) من الدر واليواقيت(٤)

وفى سنن الترمذى باسناد صحيح ، أن الرسول - ﷺ - قال فى جبريل : (رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض)(٥)

وقال فى وصفه : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين** ﴾(٦)

والمراد بالرسول الكريم هنا : جبريل ، وذى العرش : رب العزة سبحانه .

عظم خلقه حَمَلة العرش

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : (أذن لى أن أحدّث عن أحد حملة العرش ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام)(٧)

ورواه ابن حاتم وقال : (تخفق الطير) قال محقق مشكاة المصابيح ، إسناده صحيح .

وروى الطبرانى فى معجمه الأوسط بإسناد صحيح عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : (اذن لى أن أحدث عن أحد حملة العرش . رجلاه فى الأرض السفلى ، وعلى قرنه العرش ، وبين شحمة أذنيه وعاتقه خفقان الطير سبعمائة عام ، يقول : (أى الملك) : سبحانك حيث كنت)(٨)

---

(١) البقرة آية : ٣٠

(٢) الحجر آية : ٢٩

(٣) التحريم آية : ٦

(٤) أخرجه الامام أحمد : جـ ١ ص ٤٦ مسند عبد الله بن مسعود

(٥) مسلم : فى صحيحه جـ ١ ص ١٥٩ كتاب الإيمان باب معنى قول الله عز وجل « لقد رآه نزلة أخرى » رقم ٢٨٧ / ١٧٧

(٦) التكوير الآيات : ١٩ - ٢١

(٧) أخرجه أبو داود فى سننه جـ ٥ ص ٥٦ كتاب السنة - باب فى الجهمية رقم ٤٧٢٧

(٨) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ١ ص ٨٠

للملائكة أجنحة

للملائكة أجنحة كما أخبرنا الله تعالى ، فمنهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة أو أربعة ومنهم من له أكثر من ذلك : ﴿ **الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد فى الخلق ما يشاء إن الله على كل شىء قدير** ﴾[1]

والمعنى أن الله جعلهم أصحاب أجنحة ، بعضهم له جناحان وبعضهم له ثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك .

جمالهم

خلقهم الله على صور جميلة كريمة كما قال تعالى فى جبريل : ﴿ **علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى** ﴾[2]

قال ابن عباس : ﴿ ذو مرة ﴾ ذو منظر حسن ، وقال قتادة : ذو خلق طويل حسن وقيل : ذو مرة : ذو قوة ولا منافاة بين القولين فهو قوى وحسن المنظر وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال ، كما تقرر عندهم وصف الشياطين بالقبح ، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك ، انظر إلى ما قالته النسوة فى حق يوسف الصديق عندما رأينه : ﴿ **فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم** ﴾[3]

هل بين الملائكة والبشر شبه فى الشكل والصورة ؟

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه عن جابر رضى الله عنه قال : عرض على الأنبياء ، فإذا موسى ضرب من الرجال ، كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى بن مريم ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها (صاحبكم يعنى نفسه)[4] فهل هذا الشبه كائن بين صورة جبريل الحقيقية وصورة دحيه الكلبى ، أم هو بين الصورة التى يكون بها جبريل عندما يتمثل فى صورة بشر؟ الأرجح هو الأخير، لأن جبريل كان يتمثل فى صورة دحيه كثيرا .

تفاوتهم فى الخلق والمقدار

الملائكة ليسوا على درجة واحدة فى الخلق والمقدار ، فبعض الملائكة له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وجبريل له ستمائة جناح ، ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة معلومة ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾[5] وقال فى جبريل : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين** ﴾ أى له مكانة ومنزلة عالية رفيعة عند الله .

وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر ، ففى صحيح البخارى عن رفاعة بن رافع : أن

---

(١) فاطر ا : ١

(٢) النجم الآيتان ٥/٦

(٣) يوسف الآية : ٣١

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص١٥٣ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات رقم ٢٧١/١٦٧ (انظر الترمذى جـ٥ ص٥٦٤ كتاب المناقب باب فى صفة النبى ﷺ رقم ٣٦٤٩

(٥) الصافات اية : ١٦٤

جبريل جاء للنبى ﷺ فقال : ما تعدون من شهد بدراً فيكم ؟ قلت : خيارنا ، قال : وكذلك من شهد بدراً من الملائكة هم عندنا خيار الملائكة)[(١)]

لا يوصفون بالذكورة والأنوثة

من أسباب ضلال بنى آدم فى حديثهم عن عوالم الغيب ، أن بعضهم يحاول إخضاع هذه العوالم لمقاييسه البشرية الدنيوية ، فنرى واحداً من هؤلاء يعجب فى مقال فى صحيفة سيارة ، من أن جبريل كان يأتى الرسول ـ « ـ بعد ثوان من توجيه سؤال إلى الرسول يحتاج إلى جواب من الله ، فكيف يأتى بهذه السرعة الخارقة ، والضوء يحتاج إلى ملايين السنوات الضوئية ، ليصل إلى بعض نجوم السماء .

وما درى هذا المسكين أن مثله كمثل بعوضة ، تحاول أن تقيس الطائرة بمقياسها الخاص ، لو تفكر فى الأمر لعلم أن عالم الملائكة لها مقاييس تختلف تماماً عن مقاييسنـ نحن البشر .

ولقد ضل فى هذا المجال مشركو العرب ، الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناث واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر ، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله .

وناقشهم القرآن فى هاتين القضيتين ، فبين أنهم ـ فيما ذهبوا إليه لم يعتمدوا على دليل صحيح ، وأن هذا القول قول متهافت ، ومن عجب أنهم ينسبون لله البنات ، وهم يكرهون البنات ، وعندما يبشر أحدهم أنه رزق بنتاً ، يظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، وقد يتوارى من الناس خجلاً من سوء ما بشر به ، وقد يتعدى هذا المأفون طوره فيدس هذه المولودة فى التراب ، ومع ذلك كله ينسبون لله الولد ، ويزعمون أنهم إناث وهكذا تنشأ الخرافة وتتفرع فى عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهى . استمع إلى الآيات التالية تحكى هذه الخرافة وتناقش أصحابها ﴿ فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ، ولد الله وانهم لكاذبون ، اصطفى البنات على البنين ، ما لكم كيف تحكمون ، أفلا تذكرون ، أم لكم سلطان مبين ﴾[(٢)]

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها ، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم : ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ سنكتب شهادتهم ويسألون ﴾[(٣)]

لا يأكلون ولا يشربون

أشرنا من قبل أنهم لا يوصفون بالذكورة والأنوثة ، وكذلك هم لا يحتاجون إلى طعام البشر

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٥ ص ١٠ كتاب المغازى باب شهود الملائكة بدرـ ط/ دار إحياء الكتب العربية

(٢) الصافات الآيتان : ١٤٩ ـ ١٥٦

(٣) الزخرف آية : ١٩

وشرابهم ، فقد أخبرنا الله أن الملائكة جاءوا إبراهيم فى صورة بشر ، فقدم لهم الطعام ، فلم تمتد أيديهم إليه ، فاوجس منهم خيفة ، فكشفوا له عن حقيقتهم ، فزال خوفه واستغرابه : ﴿ **هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ، إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ، فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فاوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم** ﴾[(١)] وفى آية أخرى قال : ﴿ **فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ، قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط** ﴾[(٢)]

لا يملون ولا يتعبون

والملائكة يقومون بعبادة الله وطاعته ، وتنفيذ أوامره ، بلا كلل ولا ملل ، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك ، قال تعالى فى وصف ملائكته : ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[(٣)] ومعنى لا يفترون : لا يضعفون . وفى الآية الأخرى ﴿ **فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾ تقول العرب : سئم الشىء أى ملّه .

منازلهم

منازل الملائكة ومساكنها السماء ، كما قال تعالى : ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم** ﴾[(٤)] وقد وصفهم الله تعالى بأنهم عنده : ﴿ **فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون** ﴾[(٥)] وينزلون إلى الأرض بأمر الله لتنفيذ مهمات نيطت لهم ، ووكلت إليهم : ﴿ **وما نتنزل إلا بأمر ربك** ﴾[(٦)] ويكثر نزولهم فى مناسبات خاصة ، كليلة القدر ﴿ **ليلة القدر خير من ألف شهر ، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر** ﴾[(٧)]

عددهم

الملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الذى خلقهم ﴿ **وما يعلم جنود ربك إلا هو** ﴾[(٨)]

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم ، فاسمع ما قاله ﷺ فى البيت المعمور الذى فى السماء السابعة : (فإذا هو يدخله فى كل يوم سبعون ألف ملك ، لا يعودون إليه آخر ما عليهم)[(٩)] رواه البخارى ومسلم وفى صحيح مسلم عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : (يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام

---

(١) الذاريات الآيات : ٢٤ - ٢٨
(٢) هود آية : ٧٠
(٣) الأنبياء آية : ٢٠
(٤) الشورى آية : ٥
(٥) فصلت آية : ٣٨
(٦) مريم آية : ٦٤
(٧) القدر الآيتان : ٣ ، ٤
(٨) المدثر آية : ٣١
(٩) أخرجه البخارى ومسلم : مسلم جـ ١ ص ١٥٠ كتاب الإيمان باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلاة رقم ٢٦٤ /١.

سبعون ألف ملك يجرونها)[١] فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك . وإذا تأملت فى النصوص الواردة فى الملائكة التى تقوم على الانسان ـ علمت مدى كثرتهم ـ فهناك ملك موكل بالنطفة ، وملكان لكتابة أعمال كل إنسان ، وملائكة لحفظه ، وقرين ملكى لهدايته وإرشاده .

أسماؤهم

للملائكة أسماء ، ونحن لا نعرف من أسماء الملائكة إلا القليل وهنا بعض الآيات التى ورد فيها أسماء بعض الملائكة :

١ ، ٢ ـ جبريل وميكائيل :

قال تعالى : ﴿ **قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين** ﴾[٢] وجبريل هو الروح الأمين المذكور فى قوله تعالى : ﴿ **نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين** ﴾[٣] وهو الروح المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم** ﴾[٤] وهو الروح الذى أرسله إلى مريم : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا** ﴾[٥]

٣ ـ إسرافيل :

ومن الملائكة إسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل وميكائيل واسرافيل هم الذين كان يذكرهم الرسول ﷺ فى دعائه كلما استيقظ من الليل) (اللهم رب جبريل وميكائيل واسرافيل أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدى لما اختلف فيه من الحق أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم)[٦]

٤ ـ مالك :

ومنهم مالك خازن النار ﴿ **ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون** ﴾[٧]

---

(١) أخرجه مسلم : جـ ٤ ص ٢١٨٤ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فى شدة حر نار جهنم رقم ٢٦ / ٢٨٤٢

(٢) البقرة ا : ٩٧ / ٩٨

(٣) الشعراء الآية : ١٩٣ / ١٩٤

(٤) القدر آية : ٤

(٥) مريم آية : ١٧

(٦) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ٤٥١ ، ٤٥٢ رقم ٣٤٢٠ كتاب الدعوات باب ما جاء فى الدعاء عند افتتاح الصلاة بالليل مسلم فى كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه ، أبو داود فى كتاب الصلاة باب ما يستفتح به الصلاة من الدعاء النسائى ، قيام الليل وتطوع النهار باب بأى شىء تستفتح صلاة الليل ابن ماجه فى كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها : باب ما جاء فى الدعاء إذا قام الرجل من الليل .

(٧) الزخرف آية : ٧٧

٥ ـ رضوان :

قال ابن كثير : (وخازن الجنة ملك يقال له رضوان ، جاء مصرحاً به فى بعض الأحاديث)

٦ ، ٧ ـ منكر ونكير :

ومن الملائكة الذين سماهم الرسول ـ ﷺ ـ منكر ونكير ، وقد استفاض فى الأحاديث ذكرهما فى سؤال القبر .

٨ ، ٩ ـ هاروت وماروت

ومنهم ملكان سماهما الله باسم (هاروت وماروت) قال تعالى : ﴿ **وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ، وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر** ﴾[١] ويبدو من سياق الآية أن الله بعثهما فتنة للناس فى فترة من الفترات وقد نسجت حولهما فى كتب التفسير أساطير كثيرة ، لم يثبت شىء منها فى الكتاب والسنة ، فيكتفى فى معرفة أمرهما مادلت عليه الآية الكريمة .

عزرائيل :

وقد جاء فى بعض الآثار تسمية ملك الموت باسم عزرائيل ، ولا يوجد فى القرآن ولا فى الأحاديث الصحيحة تسميته بهذا الاسم .

رقيب وعتيد :

يذكر بعض العلماء أن من الملائكة من اسمه رقيب وعتيد ، استدلالاً بقوله تعالى : ﴿ **إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾[٢] وما ذكروه غير صحيح ، فالرقيب والعتيد هنا وصف للملكين اللذين يسجلان أعمال العباد ، ومعنى رقيب وعتيد : أى ملكان حاضران شاهدان لا يغيبان عن العبد وليس المراد أنهما اسمان للملكين .

* هل تموت الملائكة ؟

الملائكة يموتون كما يموت الإنس والجن ، وقد جاء ذلك صريحاً فى قوله تعالى : ﴿ **ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[٣] فالملائكة تشملهم الآية لأنهم فى السماء ، يقول ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (هذه هى النفخة الثانية ، وهى نفخة الصعق ، وهى التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، كما جاء مصرحاً به مفسراً فى حديث الصور المشهود ، ثم يقبض أرواح الباقين ، حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولاً وهو الباقى آخراً بالديمومة والبقاء ، ويقول : لمن الملك اليوم ؟

---

(١) البقرة آية : ١٠٢

(٢) ق الآيتان : ١٧ / ١٨

(٣) الزمر آية : ٦٨

ثلاث مرات . ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول : ﴿ لله الواحد القهار ﴾ ومما يدل على أنهم يموتون قوله تعالى : ﴿ كل شىء هالك إلا وجهه ﴾[1]

وهل يموت أحد منهم قبل نفخة الصور ؟ هذا ما لا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه لعدم وجود النصوص المثبتة له أو النافية .

الصفات الخُلُقية

ـ الملائكة كرام بررة :

وصف الله الملائكة بأنهم كرام بررة ﴿ بأيدى سَفَرة ، كرام بررة ﴾[2] أى القرآن بأيدى سفرة : أى الملائكة : لأنهم سفراء الله إلى رسله وأنبيائه قال البخارى : (سفرة : الملائكة ، سفرت أصلحت بينهم) وجعلت الملائكة إذا نزلت بوحى الله تعالى وتأديته كالسفر الذى يصلح بين القوم ، وقد وصف الله هؤلاء الملائكة بأنهم ﴿ كرام بررة ﴾ أى خَلْقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن هنا ينبغى لحامل القرآن أن يكون فى أفعاله وأقواله على السداد والرشاد .

وروى الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق ، له أجران)[3] أخرجه الجماعة

ـ استحياء الملائكة :

من أخبار الملائكة التى أخبرنا الرسول ـ ﷺ ـ بها : الحياء ففي الحديث الذى يرويه مسلم فى صحيحه عن عائشة أن الرسول ـ ﷺ ـ كان مضجعاً فى بيتها كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه ، فاستأذن أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، فتحدث . . ثم استأذن عثمان ، فجلس الرسول ـ ﷺ ـ وسوّى عليه ثيابه ، فدخل ، فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر ، فلم تهش له ، ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك ، فقال : (ألا أستحى من رجل تستحيى منه الملائكة)[4]

قُدراتهم

ـ قدرتهم على التشكل :

أعطى الله الملائكة القدرة على أن يتشكلوا بغير أشكالهم ، فقد أرسل الله جبريل إلى مريم فى صورة بشر : ﴿ واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ، فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾[5] وإبراهيم عليه السلام ـ جاءته الملائكة فى صورة بشر ، ولم يعرف أنهم ملائكة حتى كشفوا له عن حقيقة أمرهم .

---

(١) القصص آية : ٨٨

(٢) عبس الآيتان : ١٥ ـ ١٦

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه : كتاب فضائل الصحابة باب فضل عثمان رقم ٣٦/ ٢٤٠١

(٥) مريم الآيتان : ١٦ ـ ١٩

وجاءوا إلى لوط فى صورة شباب حسان الوجوه ، وضاق لوط بهم وخشى عليهم من قومه ، فقد كانوا قوم سوء يفعلون السيئات ويأتون الذكران من العالمين ﴿ **ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم ، وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب** ﴾(١)

يقول ابن كثير : (تبدى لهم الملائكة فى صورة شباب حسان امتحانا واختباراً ، حتى قامت على قوم لوط الحجة ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر) وقد كان جبريل يأتى الرسول - ﷺ - فى صفات متعددة ، فتارة يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى (صحابى كان جميل الصورة) وتارة فى صورة اعرابى .

وقد شاهده كثير من الصحابة عندما كان يأتى كذلك .

ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، فجلس إلى رسول الله - ﷺ - وأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه وقال : يامحمد أخبرنى عن الاسلام ، وفى الحديث أنه سأله عن الايمان والإحسان والساعة وأماراتها .

وقد أخبر الرسول فيما بعد أن السائل جبريل جاء يعلم الصحابة دينهم .(٢)

ورأت عائشة الرسول واضعاً يده على معرفة فرس دحية الكلبى يكلمه فلما سألته عن ذلك قال - ﷺ - ذاك جبريل وهو يقرؤك السلام(٣)

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن الرجل الذى قتل تسعاً وتسعين نفساً ، وأنه لما هاجر تائباً جاءه الموت فى منتصف الطريق إلى الأرض التى هاجر إليها ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فحكّموا فيه ملكاً جاءهم فى صورة آدمى ، يقول عليه السلام (فجاءهم الملك فى صورة آدمى ، فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا مابين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له) ولابد أنهم حكموه بأمر الله ، فأرسل الله لهم هذا الملك فى صورة ادمى(٤) .

- عظم سرعتهم :

أعظم سرعة يعرفها البشر هى سرعة الضوء ، فهو ينطلق بسرعة (١٨٦) ألف ميل فى الثانية الواحدة .

أما سرعة الملائكة فهى فوق ذلك ، وهى سرعة لا تقاس بمقاييس البشر .

كان السائل يأتى إلى الرسول - ﷺ - فلا يكاد يفرغ من سؤاله حتى يأتيه جبريل بالجواب من رب العزة سبحانه وتعالى ، واليوم لو وجدت المراكب التى تسير بسرعة الضوء فإنها تحتاج إلى (مليار) سنة ضوئية حتى تبلغ بعض الكواكب الموجودة فى آفاق هذا الكون الواسع الشاسع .

---

(١) هود اية : ٧٧

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب الإيمان والإسلام والإحسان

أخرجه أبو داود كتاب السنة . باب فى القدر . والنسائى فى كتاب بالإيمان باب بعث الاسلام

أخرجه الترمذى جـ٥ ص٨ كتاب الإيمان باب ماجاء ف. وصف جبريل رقم ٢٦١٠ ماجه فى المقدمة بالإيمان

(٣) أخرجه مسلم جـ٤ ص١٨٩٥ كتاب فضائل الصحابة باب فى فضل عائشة رقم ٩٠/ ٢٤٤٧

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص٢١١٨ كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله رقم ٤٦/ ٢٧٦٦

- علمهم :

والملائكة عندهم علم وفير علمهم الله إياه ، ولكن ليس عندهم القدرة التى أعطيت للإنسان فى التعرف على الأشياء ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾(١)

فالإنسان يتميز بالقدرة على التعرف على الأشياء واكتشافه سنن الكون ، والملائكة يعلمون ذلك بالتلقى المباشر عن الله سبحانه وتعالى .

ولكن الذى علمهم الله إياه أكثر مما يعرفه الانسان ومن العلم الذى أعطوه علم الكتابة ، ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾(٢)

اختصام الملأ الأعلى

والملائكة تتحاور فيما بينها فيما خفى عليها من وحى ربها ، ففى سنن الترمذى ومسند أحمد عن ابن عباس أن الرسول ﷺ قال : « أتانى الليلة ربى تبارك وتعالى فى أحسن صورة ، فقال : يامحمد هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا ، فوضع يده بين كتفى ، حتى وجدت بردها بين ثديى ، فعلمت ما فى السموات وما فى الأرض ، فقال : يامحمد : هل تدرى فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : نعم ، فى الكفارات والدرجات » .

(والكفارات : المكث فى المساجد بعد الصلوات ، والمشى على الاقدام الى الجماعات ، واسباغ الوضوء فى المكاره)

قال : صدقت يامحمد ، ومن فعل ذلك عاش بخير ، ومات بخير ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه .

وقال : يامحمد إذا صليت فقل : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات وحب المساكين ، وأن تغفرلى وترحمنى وتتوب علىّ ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون .

والدرجات : افشاء السلام ، وإطعام الطعام ، والصلاة بالليل والناس نيام .(٣)

قال ابن كثير فى هذا الحديث : (هذا حديث المنام المشهور ، ومن جعل يقظة فقد غلط)

وقال الحسن : صحيح وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور فى القرآن فى قوله تعالى ﴿ ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين ﴾(٤)

---

(١) البقرة الآيتان : ٣١ - ٣٢

(٢) التكوير الآيتان : ١٠ - ١٢

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ١ ص ٣٦٨ ، ٣٧٥ ، جـ ٤ ص ٦٦ انظر سنن الترمذى جـ ٥ ص ٣٤٢ كتاب تفسير القرآن - سورة ص رقم ٣٢٣٣

(٤) سورة ص الآيتان : ٦٩/ ٧٠

فإن الاختصام المذكور فى الحديث قد فسره الرسول ﷺ والإختصام المذكور فى القرآن فسرته الآيات بعده : ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين ... ﴾[1] فالاختصام المذكور فى القرآن كان فى شأن آدم ـ عليه السلام ـ وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه فى تفضيله عليه .

منظمون فى كل شئونهم

الملائكة منظمون فى عبادتهم وقد حثنا الرسول ـ ﷺ ـ على الاقتداء بهم فى ذلك فقال .

(ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟) قالوا : وكيف يصفون عند ربهم ؟ قالا : (يكملون الصف الأول فالأول يتراصون فى الصف) رواه الجماعة « إلا البخارى »[2]

وقد فضلنا الله على بقية الأمم بأن (جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة) الحديث فى صحيح مسلم .

وفى يوم القيامة يأتون صفوفاً منتظمة ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً ﴾[3]

ويقفون صفوفاً بين يدى الله تعالى : ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ﴾[4] والروح جبريل وانظر إلى دقة تنفيذهم للأوامر ، فى صحيح مسلم وفى مسند أحمد عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : (آتى باب الجنة فاستفتح ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأقول : محمد ، فيقول : بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك)[5]

ويمكن أن نلاحظ دقة تنفيذهم للأوامر من استعراض حديث الاسرار إذ كان جبريل يستأذن فى كل سماء ولا يفتح له إلا بعد الاستفسار .

---

(١) سورة ص الآيات : ٧١/ ٧٤

(٢) أخرجه مسلم جـ١ ص٣٢٢ كتاب الصلاة باب الأمر بالسكون فى الصلاة رقم ١١٩/ ٤٣٠

(٣) الفجر آية : ٢٢

(٤) النبأ آية : ٣٨

(٥) أخرجه مسلم جـ١ ص١٨٨ كتاب الإيمان ـ باب اختباء النبى ﷺ دعوة الشفاعة لأمته رقم ٣٣٤/ ١٩٨.

الفصل الثانى

٢ ـ عبادة الملائكة

نظرة فى طبيعة الملائكة

الملائكة مطبوعون على طاعة الله ، ليست لديهم القدرة على العصيان ﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[١]

فتركهم للمعصية ، وفعلهم للطاعة جبِلّة ، لا يكلفهم أدنى مجاهدة لأنه لا شهوة لهم .

لعل هذا هو السبب ، الذى دعا فريقاً من العلماء إلى القول بأن الملائكة ليسو بمكلفين ، وأنهم ليسوا بداخلين فى الوعد والوعيد .

ويمكن أن نقول : إن الملائكة ليسو بمكلفين بنفس التكاليف ، التى كلف بها ابناء آدم ، أما القول بعدم تكليفهم مطلقاً ، فهو قول مردود ، فهم مأمورون بالعبادة والطاعة ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون** ﴾[٢] وفى الآية أنهم يخافون ربهم ، والخوف نوع من التكاليف الشرعية ، بل هو من أعلى أنواع العبودية ، كما قال فيهم : ﴿ **وهم من خشية ربهم مشفقون** ﴾[٣]

مكانة الملائكة :

خير ما يوصف به الملائكة ، أنهم عباد الله ، ولكنهم مكرمون ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن دعوى المشركين فى أن الملائكة بنات الله ، دعوى باطلة ، لا نصيب لها من الصحة ، وقد أكذب الله القائلين لهذا القول ، وبين حقيقة الملائكة ومكانتهم فى اكثر من موضع ، قال تعالى : ﴿ **وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون الا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ، ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين** ﴾[٤] الملائكة عباد يتصفون بكل صفات العبودية ، قائمون بالخدمة منفذون للتعاليم ، وعلم الله بهم محيط ، لا يستطيعون أن يتجاوزوا الأوامر ، ولا أن يخالفوا التعليمات الملقاة إليهم ، خائفون وجلون ، وعلى احتمال أن بعضهم تعدى طوره ، فإن الله يعذبه جزاء تمرده .

ومن تمام عبودية الملائكة أنهم لا يتقدمون بين يدى ربهم مقترحين ، ولا يعترضون على أمر من أوامره ، بل هم عاملون بأمره ، مسارعون مجيبون ﴿ **لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون** ﴾[٥] وهم لا يفعلون إلا ما يؤمرون به ، فالأمر يحركهم والأمر يوقفهم ففى صحيح البخارى عن ابن عباس قال :

---

(١) التحريم آية : ٦
(٢) النحل آية : ٥٠
(٣) الأنبياء آية : ٢٨
(٤) الأنبياء الآيات : ٢٦ ـ ٢٩
(٥) الأنبياء آية : ٢٧

قال رسول الله ﷺ لجبريل (ألا تزورنا أكثر مما تزورنا ؟) قال : فنزلت : (وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا ومابين ذلك وماكان ربك نسياً)[١]

نماذج من عبادتهم

الملائكة عباد الله ، مكلفون بطاعته ، وهم يقومون بالعبادة والتكاليف بيسر وسهولة ونورد هنا بعض العبادات التى حدثنا الله أو رسوله - ﷺ - أنهم يقومون بها .

التسبيح

الملائكة يذكرون الله تعالى ، وأعظم ذكرهم التسبيح ، يسبحه تعالى حملة عرشه ، ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحونه بحمد ربهم** ﴾[٢] كما يسبحه عموم ملائكته : ﴿**والملائكة يسبحون بحمد ربهم**﴾[٣] وتسبيحهم لله دائم لا ينقطع لا فى الليل ولا فى النهار ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[٤] ولكثرة تسبيحهم ، فإنهم هم المسبحون فى الحقيقة ، وحق لهم أن يفخروا بذلك ﴿ **وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون** ﴾[٥] وما كثرة تسبيحهم إلا لأن التسبيح أفضل الذكر ، روى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر ، قال سئل رسول الله ﷺ أى الذكر أفضل ؟ قال : (ما اصطفى الله لملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده)[٦]

صلاتهم

كان النبى ﷺ يحث أصحابه على الاقتداء بالملائكة فى الاصطفاف للصلاة : (ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ؟) وعندما سئل عن كيفية اصطفافهم قال : (يتمون الصف الأول فالأول ويتراصون فى الصف) رواه البخارى[٧]

وفى القرآن عن الملائكة : ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾[٨] وهم يقومون ويركعون ويسجدون ، ففى

---

(١) مريم آية : ٦٤
(٢) غافر آية : ٧
(٣) الشورى آية : ٥
(٤) الأنبياء آية : ٢٠
(٥) الصافات الآيتين : ١٦٥/ ١٦٦
(٦) أخرجه مسلم جـ ٤ ص٢٠٩٣ كتاب الذكر والدعاء باب فضل سبحان الله وبحمده رقم ٨٤/ ٢٧٣١
(٧) اخرجه البخارى :
(٨) الصافات آية : ١٦٥

شكل الآثار للطحاوى والطبرانى فى المعجم الكبير عن حكيم بن حزام قال :

(بينما رسول الله فى أصحابه إذ قال لهم : أتسمعون ما أسمع ؟ قالوا : ما نسمع من شىء ، قال : إنى لأسمع أطيط السماء ، وما تلام أن تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم)[٢]

حجّهم

وللملائكة كعبة فى السماء السابعة يحجون اليها ، هذه الكعبة التى أسماها الله تعالى البيت المعمور ، وأقسم به فى سورة الطور ﴿والبيت المعمور﴾[٢]

قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : (ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال فى حديث الاسراء بعد مجاوزته السماء السابعة : (ثم رفع بى إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم[٣]) يعنى يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم ، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وَجَد إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور ، لأنه بانى الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل) وذكر ابن كثير أن البيت المعمور بحيال الكعبة ، أى فوقها لو وقع لوقع عليها ، وذكر أن فى كل سماء بيتاً يتعبد فيه أهلها ويصلون إليه والذى فى السماء الدنيا يقال له : بيت العزة .

وهذا الذى ذكره ابن كثير من أن البيت المعمور بحيال الكعبة مروى عن على بن أبى طالب ، أخرج ابن جرير من طريق خالد بن عرعرة أن رجلاً قال لعلى : ما البيت المعمور ؟ فقال : (بيت فى السماء يقال له الضّراح ، وهو بحيال الكعبة من فوقها ، حرمته فى السماء كحرمة البيت فى الأرض ، يصلى فيه كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، ولا يعودون فيها أبداً) .

خوفهم من الله وخشيتهم له

ولما كانت معرفة الملائكة بربهم كبيرة ، كان تعظيمهم له ، وخشيتهم له عظيمة ، قال الله فيهم :

﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾[٤]

ويبين شدة خوفهم من ربهم ما رواه النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إذا اراد الله أن يوصى بالأمر تكلم بالوحى أخذت السموات منه رجفة ، أو قال رعدة شديدة خوفاً من الله عز وجل ، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه الله تعالى من وحيه بما أراد) .[٥]

---

(١) أخرجه البخارى جـ ٤ ص١٣٢ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة

(٢) الطور آية : ٤

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ١ ص١٤٥ ، ١٤٦ كتاب الإيمان باب لإسراء برسول الله ﷺ رقم ٢٥٦ / ١٦٢

(٤) الأنبياء آية : ٢٨

(٥) أخرجه ابن عاصم فى السنة جـ ١ ص٢٢٧

الفصل الثالث

٣ ـ الملائكة والإنسان

الملائكة وآدم

ـ سؤالهم عن الحكمة من خلق الانسان :

عندما أراد الله سبحانه أن يخلق آدم ، أعلم ملائكته بمراده ، فسألوه عن الحكمة من وراء ذلك ، لأنهم علموا أنه سيقع من بنى آدم إفساد وسفك دماء ، وعصيان وكفر ، فأخبرهم سبحانه أن من وراء خلقه لآدم حكم لا يعلمونها : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون** ﴾[٢]

ـ سجودهم له عند خلقه :

أمر الله ملائكته بالسجود لآدم ، حين يتم خلقه ، وتنفخ فيه الروح ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين** ﴾[٣]

وقد استجابوا لأمر الله إلا إبليس ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين** ﴾[٣]

ـ توجيه الملائكة لآدم :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (خلق الله آدم على صورته ، طوله ستون ذراعاً ، فلما خلقه قال : إذهب فسلم على أولئك النفر ، وهم نفر من الملائكة جلوس ، فاستمع ما يحيونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله قال : (فزادوه ورحمة الله)[٤] متفق عليه

ـ غسل الملائكة آدم عند موته :

عندما توفى آدم ، لم يعرف أولاده كيف يفعلون به ، فأعلمتهم الملائكة ، ففى مستدرك الحاكم ، ومعجم الطبرانى الأوسط . بإسناد صحيح عن أبىّ رضى الله عنه عن النبى ﷺ : (لما توفى آدم ، غسلته الملائكة بالماء وتراً وألحدوا له وقالوا : هذه سنة آدم فى ولده)[٥]

---

(١) البقرة آية : ٣٠

(٢) ص الآيتان : ٧١/ ٧٢

(٣) الأيتان : ٧٣/ ٧٤

(٤) أخرجه مسلم جـ ٤ ص٢١٨٣ كتاب الجنة وصفة نعيمها . باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير رقم ٢٨/ ٢٨٤١

(٥) أخرجه : الحاكم فى مستدركه جـ٢ ص٤٤٥ كتاب التاريخ

وقد ثبت فى صحاح الحديث أن الملائكة غسلت شهيداً من هذه الأمة هو حنظلة بن أبى عامر الذى استشهد فى معركة أحد ، فقد قال الرسول ﷺ لأصحابه بعد مقتل حنظلة : (إن صاحبكم تغسله الملائكة - يعنى حنظلة) فسأل الصحابة زوجته فقالت : إنه خرج لما سمع الهائعة وهو جنب فقال رسول الله ﷺ (لذلك غسلته الملائكة)[1] رواه الحاكم والبيهقى فى السنن واسناده حسن .

الملائكة وبنى آدم

علاقة الملائكة بذرية آدم علاقة وثيقة ، فهم يقومون عليه عند خلقه ، ويكلفون بحفظه بعد خروجه إلى الحياة ، ويأتونه بالوحى من الله ، ويراقبون أعماله وتصرفاته ، وينزعون روحه إذا جاء أجله . وسنتناول ذلك بشىء من التفصيل والبيان :

- دورهم فى تكوين الانسان :

روى مسلم فى صحيحه عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إذا مرّ بالنطفة إثنين وأربعون ليلة بعث الله تعالى إليها ملكاً ، فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ، ثم قال : أى ربِّ : ذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما يشاء ويكتب الملك)[2]

وفى صحيحى البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق : (إن أحدكم يجمع خلقه وهو فى بطن أمه أربعون يوماً ، ثم يكون فى ذلك علقة مثل ذلك ، ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات تكتب : رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أم سعيد)[3]

وفى الصحيحين أيضاً عن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : (وكل الله تعالى بالرحم ملكاً فيقول : (أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة ، فإذا أراد أن يقضى خلقها قال : أى رب ذكر أم أنثى ؟ أشقى أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيكتب كذلك فى بطن امه)[4]

- حراستهم لابن آدم :

قال تعالى : ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ، له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾[5] وقد بين ترجمان القرآن ابن عباس ، أن المعقبات من الله هم الملائكة ، جعلهم الله ليحفظوا الانسان من أمامه ومن ورائه ، فإذا جاء قدر الله الذى قدر أن يصل إليه ، خلوا عنه .

---

(١) أخرجه : الحاكم فى مستدركه جـ٣ ص٢٠٤
(٢) أخرجه مسلم جـ٤ ص٢٠٣٧ كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمى رقم ١/ ٢٦٤٥
(٣) أخرجه مسلم جـ٤ ص٢٠٣٦ كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمى رقم ١/ ٢٦٤٣
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص٢٣٨ كتاب القدر رقم ٥/٢٦٤٦
(٥) الرعد الآيتان : ١٠/١١

وقال مجاهد : (ما من عبد إلا له ملك موكل بحفظه فى نومه ويقظته من الجن والانس والهوام فما منها شىء يأتيه إلا قال له الملك وراءك ، إلا شىء أذن الله فيه فيصيبه)

وقال رجل لعلى بن أبى طالب : إن نفرا من مراد يريدون قتلك ، فقال على : إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر ، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه ، إن الأجل جنة حصينة) .

والمعقبات المذكورة فى آية الرعد هى المرادة بالآية الأخرى ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾[١] فالحفظة الذين يرسلهم الله يحفظون العبد حتى يأتى أجله المقدر له .

- يبلغون وحى الله إلى رسله وأنبيائه :

وقد أعلمنا الله أن جبريل يكاد يختص بهذه المهمة : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه ﴾[٢]

وقال : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾[٣]

وقد يأتى بالوحى غير جبريل - وهذا قليل - كما فى الحديث الذى رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس قال : (بينما جبريل قاعد عند النبى - ﷺ - سمع نقيضات من فوقه ، فرفع رأسه ، فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ، لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط الا اليوم ، فسلم وقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته)[٤].

وفى التاريخ لابن عساكر باسناد صحيح عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : « أتانى ملك فسلم على ، نزل من السماء لم ينزل قبلها ، فبشرنى أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[٥] .

وفى مسند أحمد والترمذى والنسائى عن حذيفة أن الرسول - ﷺ - قال : « أما رأيت العارض الذى عرض لى قبيل ؟ هو ملك من الملائكة لم يهبط إلى الأرض قط قبل هذه الليلة ، أستأذن ربه عز وجل أن يسلم على ، ويبشرنى أن الحسن والحسين سيداً شباب أهل الجنة ، وأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة »[٦] .

---

(١) الأنعام آية : ٦١

(٢) البقرة آية : ٩٧

(٣) الشعراء الآيتان : ١٩٣/ ١٩٤

(٤) أخرجه مسلم جـ١ ص٥٥٤ كتاب صلاة المسافرين وقصورها باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة رقم ٢٥٤/ ٨٠٦

(٥) أخرجه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ٤/ ٣١٧

(٦) أخرجه احمد فى مسنده جـ٥ ص٣٩١

وفى المسند وسنن الترمذى بإسناد صحيح عن أبى بن كعب أن رسول الله - ﷺ - قال : « أتانى جبريل وميكائيل ، فقعد جبريل عن يمينى ، وميكائيل عن يسارى ، فقال جبريل : يا محمد : اقرأ القرآن على حرف ، فقال ميكائيل : استزده ، فقلت زدنى ، فقال : اقرأه على ثلاثة أحرف ، فقال ميكائيل ، استزده فقلت : زدنى ، كذلك حتى بلغ سبعة أحرف ، فقال : اقرأه على سبعة أحرف ، كلها شاف كاف »[1] .

ليس كل من جاءه ملك فهو رسول أو نبى :

ليس كل من جاءه ملك يعتبر رسولاً أو نبياً ، فهذا وهم ، فالله قد أرسل جبريل إلى مريم ، كما أرسله إلى أم إسماعيل عندما نفذ الماء والطعام منها .

ورأى الصحابة جبريل فى صورة أعرابى ، وأرسل الله ملكاً إلى ذلك الرجل الذى زار أخاً فى الله يبشره بأن الله يحبه لحبه أخيه . وهذا كثير وإنما المراد التنبيه .

كيف كان يأتى الوحى الرسول ﷺ ؟

سأل الحارث بن هشام رضى الله عنه ، الرسول - ﷺ - فقال : « يا رسول الله ، كيف يأتيك الوحى ؟

فقال الرسول ﷺ :

« أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده علىَّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلاً فيكلمنى فأعى ما يقول »[2].

فجبريل كان يأتى الرسول - ﷺ - ويتصل به وهو فى حالته الملكية ، وهذه شديدة على الرسول - ﷺ - والحالة الثانية كان جبريل ينتقل من حالته الملكية إلى البشرية ، وهذه أخف على الرسول - ﷺ - وقد رأى الرسول - ﷺ - جبريل على صورته التى خلقه الله عليها مرتين ، مرة بعد البعثة بثلاث سنوات كما ثبت ذلك فى صحيح البخارى أن الرسول - ﷺ - قال : « بينما أنا أمشى ، إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت ، فقلت : زملونى »[3] . والمرة الثانية رآه عندما عرج به إلى السماء ، وهاتان المرتان مذكورتان فى سورة النجم : ﴿ علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده جـ٥ ص٤١ ، ١١٤ مشكل الآثار للطحاوى ٤/١٨٩ الأحاديث الصحيحة للالبانى ٨٤٣

(٢) أخرجه مسلم جـ٤ ص١٨١٧ كتاب الفضائل - باب عرق النبى ﷺ - فى البرد وحين يأتيه الوحى - رقم ٨٧/٢٣٣٣ .

(٣) أخرجه مسلم جـ١ ص١٤٣ كتاب الايمان باب بدء الوحى رقم ٢٥٥/١٦١

نزلة أخرى عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى ﴾[١] .

ـ لا تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحى :

لم تقتصر مهمة جبريل على تبليغ الوحى من الله تعالى ، فقد كان يأتيه فى كل عام فى رمضان فى كل ليلة من لياليه ، فيدارسه القرآن[٢] حديث صحيح رواه البخارى فى صحيحه .

ـ إمامته للرسـول :

وقد أم جبريل الرسول ، كى يعلمه الصلاة ، كما يريدها الله تعالى :

ففى صحيح البخارى أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « نزل جبريل فأمنى فصليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، ثم صليت معه ، يحسب بأصابعه خمس مرات »[٣] وفى مسند أحمد وسنن النسائى وأبى داود عن ابن عباس أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « أمنى جبريل عند البيت مرتين ، فصلى بى حين زالت الشمس ، وكانت قدر الشراك ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشىء مثله ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى العشاء حين غاب الشفق ، وصلى بى الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم ، فلما كان الغد ، صلى بى الظهر حين كان ظل الشىء مثله ، وصلى بى العصر حين كان ظل الشىء مثليه ، وصلى بى المغرب حين أفطر الصائم ، وصلى بى العشاء إلى ثلث الليل ، وصلى بى الفجر فأسفر . ثم التفت إلىَّ وقال : يا محمد : هذا وقت الأنبياء من قبلك ، والوقت ما بين هذين الوقتين »[٤] .

ولم يعلمه كيفية الصلاة عملياً وأوقاتها فحسب ، بل علمه الوضوء ، ففى مسند أحمد ومستدرك الحاكم عن زيد بن حارثة أن الرسول ـ ﷺ ـ قال : « أتانى جبريل فى أول ما أوحى إلى ، فعلمنى الوضوء والصلاة ، فلما فرغ من الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه »[٥] .

ـ رقيته للرسول ﷺ :

روى مسلم فى صحيحه والترمذى فى سننه وغيرهما عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « أتانى جبرٰيل فقال : يا محمد اشتكيت ؟ قلت : نعم ، قال : بسم الله أرقيك ، من كل ما يؤذيك ، من شر كل ذى نفس ، وعين حاسد ، بسم الله أرقيك ، والله يشفيك »[٦] .

---

(١) النجم الآيات : ٥ ـ ١٧
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ج ٢ ص ١٢٨ كتاب بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة .
(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٤ ص ١٢٨ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .
(٤) أخرجه البخارى بمعناه جـ ١ ص ١٣١ باب مواقيت الصلاة .
(٥) أخرجه السيوطى فى جمع الجوامع برقم ٢٧٠
(٦) أخرجه الترمذى جـ ٣ ص ٣٠٣ كتاب الجنائز باب ما جاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٢
كما أخرجه ابن ماجة ـ كتاب الطب باب ماعوذ منه النبى ﷺ رقم ٣٥٢٣

أعمال أخرى :

ومن ذلك أنه حارب مع الرسول فى بدر والخندق ، وصحب الرسول ﷺ فى الأسراء وغير ذلك .

ـ تحريك بواعث الخير فى نفوس العباد :

وكل الله لكل انسان قريناً من الملائكة ، وقريناً من الجن ، ففى صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « مامنكم من أحد إلا وقد وكّل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة » قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : « وإياى ، ولكن الله أعاننى عليه فأسلم فلا يأمرنى الا بخير »[١] ولعل هذا القرين من الملائكة غير الملائكة الذين أمروا بحفظ أعماله ، قيضه الله له ليهديه ويرشده .

وقرين الانسان من الملائكة ، وقرينه من الجن يتعاوران الانسان ، هذا يأمره بالشر ويرغبه فيه وذاك يحثه على الخير ويرغبه فيه ، فعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم . وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان ، فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد من ذلك شيئا فليعلم أنه من الله وليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم)[٢] .

وانظر إلى الحديث التالى ، كى تعرف كيف يتسابق القرين الجنى ، والقرين الملكى على توجيه الانسان ، ذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أوى الانسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : أختم بخير ، ويقول الشيطان : (ختم بشر . فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه النوم طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فاذا استيقظ ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإذا قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد ما أماتها ، ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن نزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه ، طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه)[٣] .

---

(١) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٦٧ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان رقم ٢٨١٤/٦٩

(٢) أخرجه الترمذى جـ ٥ ص ٢٠٤ كتاب التفسير باب تفسير سورة البقرة رقم ٢٩٨٨

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه رقم ٢٣٦٢

الترغيب والترهيب جـ ١ ص ٤١٥

وهذه الأحاديث توجهنا إلى الاكثار من الأعمال الخيرة ، التى تصلح نفوسنا ، وتقرب الملائكة منا ، ففى قرب الملائكة منا خير عظيم ، فقد (كان رسول الله ﷺ أجود الناس ، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان يلقاه فى كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة)(١) رواه البخارى عن ابن عباس .

ـ حفظ أعمال بنى آدم :

الملائكة موكولون بحفظ أعمال بنى آدم من خير وشر ، وهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون ﴾(٢) وقد وكل الله بكل إنسان ملكين حاضرين ، لايفارقانه ، يحصيان عليه أعماله وأقواله : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾(٣) .

ومعنى قعيد أى مترصد ، ورقيب عتيد ، أى مراقب معد لذلك لايترك كلمة تفلت ، والظاهر أن الملائكة الموكلة بالإنسان ، تكتب كل مايصدر عن الانسان من أفعال وأقوال ، لايتركون شيئا ، لقوله تعالى : ﴿ مايلفظ من قول ﴾ .

ولذلك فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كل ماصدر منه ، ولذلك فان الكفار ينادون عندما يرون كتاب أعمالهم يوم القيامة قائلين : ﴿ ياويلتنا ماهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ووجدوا ماعملوا حاضرا ، ولا يظلم ربك أحدا ﴾(٤)

وفى مسند أحمد عن بلال بن الحارث المزنى ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ﴿ إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى مايظن أن تبلغ مابلغت يكتب الله ـ عز وجل ـ له بها رضاءه الى يوم يلقاه ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ولايظن أن تبلغ مابلغت ، يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه ﴾(٥) . فكان علقمة يقول : كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث .

وذكر ابن كثير فى تفسيره عن الحسن البصرى أنه تلا هذه الآية ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ ثم قال : يا بن آدم : بسطت لك صحيفة ، ووكل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك والآخر عن

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة جـ ٤ ص ١٢٨ .
(٢) سورة الانفطار الآيتان : ١٠ ـ ١١
(٣) سورة ق الآيات : ١٦ ـ ١٨
(٤) سورة الكهف آية : ٤٩
(٥) أخرجه الترمذى جـ ٤ ص ٤٨٢ كتاب الزهد باب خ من تكلم بكلمة يضحك بها على الناس رقم ٢٣١٤

يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ السيئات ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾(١) .

ثم يقول الحسن : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك . وذكر ابن كثير أيضا عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ قال : يكتب كل ماتكلم به من خير أو شر حتى إنه ليكتب قوله : أكلت ، شربت ، ذهبت ، جئت ، رأيت . حتى اذا كان يوم الخميس عرض قوله وعمله فأقر منه ماكان فيه من خير أو شر والقى سائره ، وذلك قوله تعالى : ﴿ يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾(٢) .

وذكر ابن كثير عن الإمام أحمد أنه كان يئن فى مرضه ، فبلغه عن طاوس أنه قال : يكتب الملك كل شىء حتى الأنين ، فلم يئن أحمد حتى مات ، رحمه الله .

ـ صاحب اليمين يكتب الحسنات والآخر السيئات

فى معجم الطبرانى باسناد حسن عن أبى أمامه أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ﴿ إن صاحب الشمال ليرفع القلم ست ساعات عن العبد المسلم المخطىء ، فإن ندم واستغفر الله منها ألقاها وإلا كتبت واحدة ﴾(٣) .

هل تكتب الملائكة أفعال القلوب ؟

استدل شارح الطحاوية على أن الملائكة تكتب أفعال القلوب بقوله تعالى : ﴿ يعلمون ماتفعلون ﴾(٤)

واستدل أيضا بالحديث المتفق عليه ، يقول رسول الله ـ ﷺ ـ : (قال الله عزوجل : إذا هم عبدى بحسنة فلم يفعلها فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرا)(٥) .

وفى الحديث الآخر المتفق عليه أيضا : (قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به ، فقال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرائى)(٦) .

---

(١) سورة الاسراء الآيتان : ١٣ ، ١٤
(٢) سورة الرعد آية : ٣٩
(٣) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ٢٠٧ ، الطبرانى فى المعجم الكبير جـ ٨ ص ٢١٨ ، سلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى/١٢٠٩
(٤) سورة الانفطار آية : ١٢
(٥) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١١٧ كتاب الايمان باب إذا هم العبد بحسنة رقم ٢٠٤/١٢٨ب (٦) أخرجه مسلم جـ ١ ص ١١٧ ، ١١٨ كتاب الايمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت رقم ٢٠٥/١٢٨

شـــبهة

قد يقال ألا يتناقض علم الملائكة بإرادة الإنسان وقصده مع قوله تعالى : ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[١] .

فالجواب : أن هذا ليس من خصائص علم الله تعالى ، فهو وإن خفى عن البشر ، فلا يعلم واحدهم ما فى ضمير أخيه ، فلا يلزم أن يخفى عن الملائكة .

وقد يقال إن الملائكة تعلم بعض ما فى الصدور ، وهو الإرادة والقصد ، أما بقية الأمور كالاعتقادات ، فلا دليل على كونها تعلمها .

دعوة العباد إلى فعل الخير

فى صحيح البخارى ، عن أبى هريرة ، أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً)[٢] .

وذكر ابن حجر فى شرحه للحديث رواية أخرى عن أبى الدرداء وفيها : (ما من يوم طلعت فيه الشمس إلا وبجنبتها ملكان يناديان يسمعه خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم ، إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا غربت شمسه إلا وبجنبتها ملكان يناديان)[٣] فذكر مثل حديث أبى هريرة السابق .

ابتلاء بنى آدم

وقد يرسل الله بعض ملائكته لابتلاء بنى آدم واختبارهم ، ففى البخارى ومسلم عن ابى هريرة ـ رضى الله عنه ـ انه سمع النبى ﷺ يقول : (إن ثلاثة من بنى اسرائيل : ابرص وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فأرسل اليهم ملكا فأتى الأبرص ، فقال : أى شىء أحب إليك ، فقال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قدرنى الناس ، فمسحه ، فذهب عنه قذره ، واعطى لونا حسنا وجلدا حسنا . قال : فأى المال أحب اليك ، قال : الابل ، أو قال البقر ، فأعطى ناقة عشراء (أى حامل) .

فقال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ، فمسحه ، فذهب عنه ، وأعطى شعرا حسنا . قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : البقر فاعطى بقرة حاملا ، وقال : بارك الله لك فيها . فأتى الأعمى فقال : أى شىء أحب اليك ؟ قال : أن يرد الله الىَّ بصرى ، فأبصر الناس ، فمسحه فرد الله اليه بصره ، قال : فأى المال أحب اليك ؟ قال : الغنم . فأعطى شاة والدا فأنتج وولّد هذا .

---

(١) سورة غافر آية : ١٩

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص ٧٠٠ كتاب الزكاة ـ باب فى المنفق والممسك رقم ٥٧/١٠١٠

(٣) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب ٤٩/٢

فكان لهذا واد من الأبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم .

ثم أتى الأبرص فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلابلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك . أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن ، والمال ، بعيرا أتبلغ به فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فقيرا فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت .

وأتى الأقرع فى صورته وهيئته ، فقال له مثل ماقال لهذا ، ورد عليه مثل مارد هذا . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ماكنت .

وأتى الأعمى فى صورته وهيئته ، فقال : رجل مسكين وابن سبيل ، انقطعت بى الحبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك : شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ماشئت ودع ماشئت ، فوالله لاأجهدك اليوم بشىء أخذته لله عز وجل ، فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك)(١) .

الملائكة تنزع روح الانسان

اختص الله بعض ملائكته بنزع أرواح العباد ، عندما تنتهى آجالهم التى قدرها الله لهم ، قال تعالى : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴾(٢)

والذين يقبضون الأرواح أكثر من ملك قال تعالى : ﴿ وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا الى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾(٣) .

وتنزع الملائكة أرواح الكفرة والمجرمين ، نزعا شديدا عنيفا بلا رفق ولاهوادة قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾(٤) .

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾(٥) .

وقال تعالى : ﴿ فكيف إذ توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾(٦) أما المؤمنون فان الملائكة تنزع أرواحهم نزعا رقيقا .

(١) اخرجه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص٢٢٧٥ ، ٢٢٧٦ كتاب الزهد والرقائق رقم ٢٩٦٤/١٠
(٢) سورة السجدة آية : ١١
(٣) سورة الانعام الآيتان : ٦١-٦٢
(٤) سورة الانعام آية : ٩٣
(٥) سورة الانفال آية : ٥٠
(٦) سورة محمد آية : ٢٧

تبشيرهم المؤمنين عند النزع

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن ، فان الملائكة تتنزل عليه تبشره وتثبته قال تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون ﴾[(١)]

وهى تبشر الكفرة بالنار وغضب الجبار وتقول لهم : ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾[(٢)] .

موسى يفقأ عين ملك الموت

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (جاء ملك الموت إلى موسى بن عمران ، فقال له : أجب ربك . قال : (فلطم موسى عين ملك الموت ففقأها) قال : (فرجع الملك الى الله ، فقال : إنك أرسلتنى الى عبدلك لايريد الموت ، وقد فقأ عينى) قال : « فرد الله إليه عينه ، وقال : ارجع إلى عبدى فقل : الحياة تريد ؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور ، فما توارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة » .

وفى البخارى : فله بما غطت يده لكل شعرة سنة) قال ثم مه ؟ قال : ثم تموت . قال : فالآن من قريب)[(٣)] .

وملك الموت إنما جاء موسى فى صورة انسان كما فى رواية صحيحة فى المسند وهو الذى فعله موسى لأن الأنبياء يخيرون قبل أن تقبض أرواحهم بين الدنيا وبين ماعند الله . وقد يبادر بعض الناس الى التكذيب بمثل هذه الرواية ، لأن عقولهم لا تستسيغها، وقد نسوا أن أول صفات المؤمنين ، أنهم يؤمنون بالغيب كما ذكر الله ذلك فى مطلع سورة البقرة ، فإذا صحَّ الخبر عن الله أو عن رسوله فليس هناك إلا التصديق ﴿ والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ومايذكر إلا أولوا الألباب ﴾[(٤)]

سؤالهم العبد فى القبر ومايكون منهم فى المحشر والجنة والنار

سيأتى فى مبحث الايمان باليوم الآخر إن شاء الله تعالى ، مايكون من الملائكة نحو العباد بعد الموت من سؤال الملكين للعبد فى قبره ، وهذان هما منكر ونكير ، وأن منهم ملائكة ينعّمون العباد فى قبورهم ، وآخرين يعذبون الكفرة والمجرمين ، واستقبالهم للمؤمنين فى يوم القيامة ، ونفخ إسرافيل فى الصور ، وحشرهم الناس للحساب ، وسوقهم الكفرة إلى جهنم ، والمؤمنين إلى الجنة ، وقيامهم على تعذيب الكفار فى النار . وسلامهم على المؤمنين فى الجنة .

---

(١) سورة فصلت الآيتان : ٣٠ - ٣١
(٢) سورة الانعام آية : ٩٣
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص١٨٤٣ كتاب الفضائل باب من فضائل موسى عليه السلام رقم ٢٣٧٢/١٥٨
(٤) سورة آل عمران آية : ٧

الملائكة والمؤمنون

تحدثنا فى المبحث الماضى عن الدور الذى كلف الله الملائكة القيام به تجاه بنى آدم كلهم ، مؤمنهم وكافرهم ، فما ذكرناه من تشكيلهم للنطفة ، وحراستهم للعباد ، وتبليغ الوحى ، ومراقبتهم للعباد وكتابة الأعمال ، ونزع الأرواح ، لاتختص بقسم من بنى آدم دون قسم ، ولابمؤمن دون كافر .

وللملائكة بعد ذلك دور مختلف مع المؤمنين والكفار ، وسنتناول دورهم وموقفهم من الفريقين بالبيان والتوضيح .

محبتهم للمؤمنين

روى البخارى ومسلم فى صحيحهما عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله تعالى اذا أحب عبدا نادى جبريل : إن الله قد أحب فلانا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادى جبريل فى السماء : إن الله قد أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ، ويوضع له القبول فى الأرض)[1] .

تسديد المؤمن

روى الترمذى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال : (من سأل القضاء وكل إلى نفسه ، ومن أجبر عليه ينزل الله عليه ملكا فيسدده)[2] .

أما كيفية تسديده فالله أعلم به .

ومن هذا الباب مارواه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة ، تلد كل امرأة غلاما يقاتل فى سبيل الله فقال الملك : قل إن شاء الله ، فلم يقل ونسى ، فأطاف بهن ، ولم تلد إلا امرأة منهن نصف إنسان قال النبى ﷺ : لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان أرجى لحاجته)[3] .

فالملك سدد نبى الله سليمان ، وأرشد الى الأصوب والأكمل .

صلاتهم على المؤمنين

أخبرنا الله أن الملائكة تصلى على الرسول ﷺ : (إن الله وملائكته يصلون على النبى)[4] وهم

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص٢٠٣٠ كتاب البر والصلة باب إذا أحب الله عبداً حببه إلى عباده رقم ٢٦٣٧/١٥٧

(٢) أخرجه الترمذى فى صحيحه جـ٣ ص٦١٣ ، كتاب الاجتماع باب ما جاء عن رسول الله - ﷺ - فى التاخى رقم ١٣٢٣ أنظر ابن ماجه كتاب الأحكام رقم ٢٣٠٩

(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه جـ٣ ص١٢٧٦ كتاب الايمان باب الاستثناء رقم ١٦٥٤/٢٥

(٤) سورة الاحزاب آية : ٥٦

يصلون على المؤمنين أيضا ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيما ﴾(١)

• والصلاة من الله تعالى : ثناؤه على العبد عند ملائكته ، حكاه البخارى عن أبى العالية وقال غيره : الصلاة من الله عزوجل الرحمة ، وقد يقال : لامنافاة بين القولين . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس والاستغفار لهم ، وهذا ماسنوضحه فيما يأتى .

نماذج الأعمال التى تصلى الملائكة على صاحبها

ـ معلم الناس الخير :

روى الطبرانى والترمذى باسناد صحيح عن أبى أمامة أن الرسول ﷺ قال : (إن الله وملائكته حتى النملة فى جحرها ، وحتى الحوت فى البحر ، ليصلون على معلم الناس الخير(٢) .

ـ الذين يؤمون المساجد للصلاة :

فى صحيح مسلم : (إن الملائكة تصلى على الذى يأتى المسجد للصلاة فتقول : اللهم صلّ عليه ، اللهم أرحمه ، مالم يؤذ فيه مالم يحدث فيه)(٣) .

ـ الذين يصلون فى الصف الأول :

فى سنن ابى داود وابن ماجة ومسند أحمد عن البراء ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول) . وفى سنن الترمذى (إن الله ملائكته يصلون على الصف المقدم)(٤) .

ـ الذين يمكثون فى مصلاهم بعد الصلاة :

روى ابو داود فى سننه باسناد صحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (الملائكة تصلى على أحدكم مادام فى مصلاه الذى صلى فيه ولم يحدث ، أو يقم : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه)(٥) .

ـ الذين يسّدون الفرج بين الصفوف :

فى سنن ابن ماجة ، ومسند أحمد ، ومستدرك الحاكم باسناد حسن عن عائشة أن الرسول ﷺ قال : (إن الله تعالى وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف ، ومن سد فرجة رفعه الله بها درجة)(٦)

---

(١) سورة الأحزاب آية : ٤٣

(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ١ ص ١٢٤

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص ٤٦٠ كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم ٢٧٦/٦٤٩

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده جـ٤ ص ٢٦٩ ، ٢٨٤ وعبدالرازق فى مصنفه رقم ٢٤٥٠

(٥) أخرجه أبوداود فى سننه جـ١ ص ٣١٩ رقم ٤٦٩

(٦) أخرجه ابن ماجه فى سننه برقم ٩٩٥ ، أحمد جـ٦/٦٧ ، ٨٩ ، ١٦٠ والبيهقى فى السنن جـ٣ ص ١٠١ ، ١٠٣ والحاكم ١٢٤/١

- الذين يتسحرون :

وفى صحيح ابن حبان ومعجم الطبرانى الأوسط باسناد حسن عن ابن عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - قال : (إن الله وملائكته يصلون على المتسحرين)(١)

- الذين يصلون على النبى ﷺ :

روى أحمد فى مسنده ، والضياء فى المختارة عن عامر بن ربيعة باسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال : (مامن عبد يصلى على إلا صلت عليه الملائكة ، مادام يصلى على ، فليقل العبد من ذلك أو ليكثر)(٢)

- الذين يعودون المرضى :

روى ابن حبان فى صحيحه باسناد صحيح عن على أن رسول الله ﷺ قال : (مامن امرىء مسلم يعود مسلما إلا ابتعث الله سبعين ألف ملك ، يصلون عليه فى أى ساعات النهار كان ، حتى يمسى ، وأى ساعات الليل كان حتى يصبح)(٣) وفى رواية لأبى داود والحاكم (مامن رجل يعود مريضا ممسيا ، إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يصبح ، ومن أتاه مصبحا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى يمسى)(٤) .

- هل لصلاة الملائكة علينا من أثر :

يقول تعالى : ﴿ هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾(٥)

الآية تفيد أن ذكر الله لنا فى الملأ الأعلى ، ودعاء الملائكة للمؤمنين واستغفارهم لهم له تأثير فى هدايتنا وتخليصنا من الظلمات التى تعنى الكفر والشرك ، والذنوب والمعاصى ، إلى النور ، الذى يعنى وضوح المنهج والسبيل ، وبالتعرف على طريق الحق الذى هو الإسلام ، وتعريفنا بمراد الله منا ، وإعطائنا النور الذى يدلنا على الحق فى الأفعال والأقوال والأشخاص .

- التأمين على دعاء المؤمنين :

الملائكة يؤمنون على دعاء المؤمنين ، وبذلك يكون الدعاء أقرب إلى الإجابة ، ففى سنن ابن ماجة عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال : (دعوة المرء مستجابة لأخيه بظهر الغيب ، عند رأسه ملك يؤمن على دعائه ، كلما دعا له بخير قال : آمين ، ولك مثله)(٦) ولما كان الدعاء المؤمن عليه حريا بالاجابة فانه

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده جـ٣ ص ١٢ ، والهيثمى فى مجمع الزوائد جـ٣ ص ١٥٠ ,ابن حبان برقم ٨٨٠ والالب لبانى سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ١٦٥٤

(٢) أخرجه الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين ٤٨/٥ وأبونعيم فى الحلية ١٨٠/١

(٣) أخرجه ابن حبان فى صحيحه ٢٦٨/٤ رقم ٢٩٤٧

(٤) أخرجه أبوداود ٤٧٥/٣ رقم ٣٠٩٨ والحاكم فى المستدرك ٣٤١/١

(٥) سورة الاحزاب آية : ٤٣

(٦) أخرجه ابن ماجه فى سننه جـ٢ ص ٩٦٧ رقم ٢٨٩٥

لاينبغى للمؤمن أن يدعو على نفسه بشر ، ففى صحيح مسلم عن أم سلمة قال . قال رسول الله ﷺ : (لاتدعو على أنفسكم إلا بخير ، فان الملائكة يؤمنون على ماتقولون) .(١)

استغفارهم للمؤمنين :

أخبرنا الله أن الملائكة يستغفرون لمن فى الأرض ﴿ **تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم** ﴾(٢) .

وأخبر فى آية سورة غافر أن حملة العرش والملائكة الذين حول العرش ، ينزهون ربهم ، ويخضعون له ، ويخصون المؤمنين التائبين بالاستغفار ، ويدعونه بأن ينجيهم من النار ، ويدخلهم الجنة ، ويحفظه من فعل الذنوب والمعاصى :

﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ، ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ، فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، وقهم عذاب الجحيم ، ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم ، وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم** ﴾(٣) .

ـ شهودهم مجالس العلم وحلق الذكر وحفهم أهلها بأجنحتهم :

ففى صحيحى البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « إن الله تبارك وتعالى ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا : هلموا إلى حاجتكم . قال فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا (٤) .

وفى صحيح مسلم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ : (ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده)(٥) .

وفى مسند الامام أحمد والسنن عن أبى الدرداء مرفوعا : (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع)(٦) أى تتواضع له .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٢ ص ٦٣٤ كتاب الجنائز باب فى أغماض الميت والدعاء له ، إذا حضر رقم ٩٢٠/٧
(٢) سورة السورى آية : ٥
(٣) سورة غافر الآيات : ٧ ـ ٩
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٦٩ ، ٢٠٧٠ كتاب الذكر والدعاء ـ باب فضل جمالى الذكر رقم ٢٦٨٩/٢٥
(٥) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠٧٤ كتاب الذكر والدعاء باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن ، وعلى الذكر رقم ٢٦٩٩/٣٨
(٦) أخرجه الامام أحمد فى مسنده جـ ٤ ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١

فالأعمال الصالحة كما ترى ، تقرب الملائكة منا وتقربنا منهم ، ولو استمر العباد فى حالة عالية من السمو الروحى ، لو صلوا إلى درجة مشاهدة الملائكة ، ومصافحتهم كما فى الحديث الذى يرويه البخارى وغيرهما عن أنس رضى الله عنه عن النبى - ﷺ :

« لو أنكم إذا خرجتم من عندى تكونون على الحال الذى تكونون عليه ، لصافحتكم الملائكة بطرق المدينة »[1] .

« وفى سنن الترمذى عن أبى هريرة بإسناد صحيح : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحالة التى أنتم عليها عندى ، لصافحتكم الملائكة بأكفّهم ، ولزارتكم فى بيوتكم ، ولو لم تذنبوا ، لجاء الله بقوم يذنبون كى يغفر لهم »[2] .

- تسجيل الملائكة الذين يحضرون الجمعة :

وهؤلاء الملائكة يسجلون بعض أعمال العباد ، فيسجلون الذين يثمون الجُمع الأول ، فالأول . ففى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : « إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول ، فإذا جلس الامام طووا الصحف وجاءوا يستمعون الذكر »[3] .

ويسجلون ما يصدر عن العباد من أقوال طيبة ، ففى صحيح البخارى وغيره عن رفاعة بن رافع قال : « كنا يوماً نصلى وراء النبى - ﷺ - فلما رفع رأسه من الركعة قال : « سمع الله لمن حمده ، قال رجل وراءه : ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف ، قال : من المتكلم ؟ قال : أنا . قال : لقد رأيت بضعاً وثلاثين ملكاً يبتدرونها أيهم يكتبها »[4] .

فهؤلاء الكتبة من الملائكة غير الملكين الذين يسجلون صالح أعماله وطالحها بالتأكيد لأنهم بضعة وثلاثين ملكاً .

- تعاقب الملائكة فينا :

وهؤلاء الملائكة الذين يطوفون فى الطرق يلتمسون الذكر ويشهدون الجمع والجماعات ، يتعاقبون فينا ، فطائفة تأتى وطائفة تذهب ، وهم يجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، ففى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله - ﷺ - قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل

---

(١) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٠٦ كتاب التوبة باب سقوط الذنوب بالاستغفار والتوبة رقم ٢٧٤٩/١١
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢١٠٧ كتاب التوبة باب فضل ودام الذكر والفكر فى أمور الآخرة رقم ٢٧٥٠/١٢
(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه جـ ٢ ص ٥٨٧ كتاب الجمعة باب فضل التهجر فى يوم الجمعة رقم ٨٥٠/٢٤
(٤) أخرجه الامام أحمد فى مسنده جـ ١ ص ٣٣٣ ، جـ ٢ ص ١٨ ، ١٤٧

وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة العصر وصلاة الفجر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم ، فيقول : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون »(١) .

ولعل هؤلاء هم الذين يرفعون أعمال العباد إلى ربهم . ففى البخارى ومسلم ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : « قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ بأربع كلمات ، فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، ويرفع إليه عمل النهار قبل الليل ، وعمل الليل قبل النهار »(٢) ـ الحديث .

وقد عظم الله شأن صلاة الفجر ، لأن الملائكة تشهدها . قال : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾(٣) .

- تنزلهم عندما يقرأ المؤمن القرآن :

ومنهم من يتنزل من السماء حين يقرأ القرآن فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مربده (الجُرن) إذ جالت (وبثت) فرسه فقرأ ثم جالت أخرى فقرأ ثم جالت أيضا قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحى فقمت إليها ، فاذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ما أراها فقال : فغدوت على رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله بينما أنا البارحة عند جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى فقال رسول الله ﷺ : (أقرأ ياابن حضير) قال : فقرأت ثم جالت أيضا فقال رسول الله ﷺ : (اقرأ ياابن حضير) قال : فانصرفت وكان يحيى قريبا منها خشيت أن تطأه فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج عرجت فى الجو حتى ماأراها فقال رسول الله ﷺ (تلك الملائكة كانت تستمع لك ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ماتستتر منهم)(٤) رواه البخارى ومسلم ، ايبلغون الرسول ﷺ عن أمته السلام :

روى الامام أحمد والنسائى عن عبدالله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : (إن لله ملائكة سياحين يبلغونى عن أمتى السلام)(٥) .

وفى معجم الطبرانى الكبير باسناد حسن عن عمار بن ياسر أن الرسول ﷺ قال : (إن الله تعالى ملكا أعطاه سمع العباد فليس من أحد يصلى على إلا بلغنيها وإنى سألت ربى ألا يصلى على عبد صلاة إلا صلى عليه عشر أمثالها)(٦)

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص٤٣٩ كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب فضل صلاة الصبح والعصر رقم ٢١٠ـ٦٣٢ ـ انظر صحيح البخارى جـ٢ ص٢١٣ كتاب بدء الخلق باب ذكر الملائكة .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص١٦٢ كتاب الايمان ـ باب فى قوله عليه السلام ـ الله الله لا ينام رقم ٢٩٥/١٧٩

(٣) سورة الاسراء آية : ٧٨

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص٥٤٨ ، ٥٤٩ كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب نزول السكينة لقراءة القرآن رقم ٢٤٢/٧٩٦

(٥) أخرجه الامام أحمد فى مسنده جـ١ ص٤٥٢ ، جـ٢ ص٢٥١
انظر السنن الكبرى للنسائى جـ٣ ص٤٣ كتاب الصلاة ـ باب السلام على النبى ﷺ .

(٦) أخرجه السيوطى فى جمع الجوامع رقم ٦٩٤٧
أخرجه الذهبى فى ميزان الاعتدال ترجمة اسماعيل بن ابراهيم رقم ٨٢٩ جـ١ ص٢١٣

تبشيرهم المؤمنين : فقد حملوا البشرى إلى إبراهيم فإنه سيرزق بذرية صالحة ﴿ هل أتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين فقربه إليهم قال ألا تأكلون فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾(١) وبشرت زكريا بيحيى ﴿ فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ان الله يبشرك بيحيى ﴾(٢) وليس هذا مقصورا على الأنبياء والمرسلين بل قد تبشر المؤمنين ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : (زار رجل أخا له فى قرى أخرى فأرصد الله له على مدرجته (طريقة) ملكا فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخا لى فى هذه القرية .

قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال :(لا غير انى أحببته فى الله عز وجل . قال : فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما احببته فيه)(٣)

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (أتانى جبريل فقال : يارسول الله ! هذه خديجة قد أتتك معها إناء فيه ادام أو طعام أو شراب فإذا هى قد أتتك فأقرأ عليها السلام من ربها ومنى وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخب فيها ولانصب)(٤) .

الملائكة والرؤيا فى المنام : روى البخارى فى صحيحه فى باب التهجد عن عبدالله بن عمر رضى الله عنها قال : (كان الرجل فى حياة النبى ﷺ اذا رأى رؤ يا قصّها على رسول الله ﷺ فتمنيت أن أرى رؤ يا فأقصها على رسول الله ﷺ وكنت غلاما شابا وكنت أنام فى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فرأيت فى النوم كأن ملكين أخذانى فذهبا بى إلى النار فإذا هى مطوية كطى البئر وإذا لها قرنان وإذا فيها أناس قد عرفتهم فجعلت أقول : أعوذ بالله من النار قال : فلقينا ملك آخر فقال لى : لاترع)(٥) أى لا تخف .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : (قال لى رسول الله ﷺ : (أريتك فى المنام يجيء بك الملك فى سرقة من حرير فقال لى : هذه امرأتك فكشفت عن وجهك الثوب فاذا أنت هى فقلت : إن يك هذا من الله يتمه)(٦) .

يقاتلون مع المؤمنين ويثبتونهم فى حربهم : وقد أمد الله المؤمنين بأعداد كثيرة من الملائكة فى معركة بدر قال تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾(٧) وقال تعالى : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنت أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن

(١) سورة الذاريات الآيات : ٢٤ ـ ٢٨
(٢) سورة آل عمران آية : ٣٩
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٩٨٨ كتاب البر والصلة وآداب باب فضل الحب فى الله رقم ٢٥٦٦/٣٧
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل خديجة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ رقم ٢٤٣٢/٧١
(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ ٢ ص ٦١ كتاب الجمعة باب التهجد بالليل .
(٦) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٨٨٩ ، كتاب فضائل الصحابة باب فضل عائشة رقم ٢٤٣٨/٧٩
(٧) سورة الانفال آية : ٩

يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾[١] .

وقد قال الرسول ﷺ : فى يوم بدر : « هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب »[٢] وقد بين الله الحكمة والغاية من هذا الا مداد وهو تثبيت المؤمنين والمحاربة معهم وقتال اعداء الله وقتلهم بضرب أعناقهم وأيديهم قال تعالى : ﴿ وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ﴾[٣]

وقال تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة إنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾[٤] .

وقال فى سورة آل عمران : ﴿ وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ﴾[٥] . وقد رأى الرسول - ﷺ - الملائكة فى يوم بدر ففى صحيح البخارى أن رسول الله - ﷺ - لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق رضى الله عنه وهما يدعوان أخذت الرسول - ﷺ - سنة من النوم ثم استيقظ مبتسما فقال : (أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع)[٦] .

وقد سمع أحد المقاتلين من المسلمين ، صوت ضربة لملك يضرب أحد الكفار وصوته ، وهو يزجر فرسه ، ففى صحيح مسلم عن ابن عباس (بينا رجل من المسلمين يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً قال : فنظر إليه فإذا هو قد حطم وشق وجهه كضربة السوط ، فأخضر ذلك أجمع فجاء الأنصارى فحدث ذلك رسول الله - ﷺ - فقال صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة)[٧] .

وقد حاربت الملائكة فى مواقع أخرى ففى غزوة الخندق أرسل الله ملائكته : قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها ﴾[٨] . والمعنى بالجنود التى لم يروها الملائكة كما ثبت فى الصحاح وفى غيرها أن جبريل جاء الرسول - ﷺ - بعد رجوع الأحزاب وعلى ثنايا جبريل النقع (الغبار) وكان الرسول - ﷺ - يغتسل فقال للرسول - ﷺ - (أوضعتم سلاحكم فإنا لم نضع سلاحنا بعد فقال إلى أين فأشار إلى بنى قريظة)

---

(١) سورة آل عمران الآيات : ١٢٣ - ١٢٥

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٥ ص١٠٣ باب شهود الملائكة بدراً .

(٣) سورة الانفال آية : ١٠

(٤) سورة الانفال آية : ١٢

(٥) سورة آل عمران الآيتان : ١٢٦ - ١٢٧

(٦) أخرجه ابن كثير جـ٣ ص٥٦٣ ، دلائل النبوة للبيهقى جـ٣ ص٥٤

(٧) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٣ ص١٣٨٥ - كتاب الجهاد والسيرة باب الامداد بالملائكة فى غزوة بدر رقم ١٧٦٣/٥٨

(٨) سورة الأحزاب آية : ٩

حمايتهم للرسول ﷺ : روى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم قال : فقيل نعم فقال : واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك ، لأطأن على رقبته ، أو لأعفرن وجهه فى التراب قال : فأتى رسول الله - ﷺ - وهو يصلى يزعم ليطأ على رقبته ، قال فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبه ، ويتقى بيديه قال : فقيل له : مالك ، فقال إن بينى وبينه لخندقاً من نار وهولا واجنحة فقال رسول الله - ﷺ - (لودنا منى لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)[1] . ورواه البخارى فى صحيحه بأخصر من رواية مسلم فى كتاب التفسير .

حمايتهم ونصرتهم لصالحى العباد وتفريج كربهم : وقد يرسلهم الله لحماية بعض عباده الصالحين من غير الأنبياء والمرسلين ، وقد يكون من هذا ما حصل لرجل ذكر ابن كثير خبره ، ففى تفسير ابن كثير عند قوله تعالى : ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ قال : ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة رجل حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينورى المعروف بالدقى الصوفى ، قال هذا الرجل : كنت أكارى على بغل لى من دمشق إلى بلد الزبدانى ، فركب معى ذات مرة رجل ، فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة ، فقال لى : خذ فى هذه فإنها أقرب ، فقلت : لا خبرة لى فيها ، فقال : بل هى أقرب ، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر ، ودار عميق ، وفيه قتلى كثيرة ، فقال لى : أمسك رأس البغل حتى أنزل ، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه ، وسل سكينا معه وقصدنى ، ففررت من بين يديه . وتبعنى ، فناشدته الله وقلت : خذ البغل بما عليه ، فقال هو لى ، وإنما أريد قتلك ، فخوفته الله والعقوبة ، فلم يقبل ، فاستسلمت بين يديه ، وقلت : إنى أريد أن تتركنى حتى أصلى ركعتين ، فقال : عجل فقمت فارتَجّ على القرآن ، فلم يحضرنى منه حرف واحد ، فبقيت واقفا متحيراً ، وهو يقول : هيه أفرغ ، فأجرى الله على لسانى قوله : (امّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء) فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادى وبيده حربة ، فرمى بها الرجل فما أخطأت فؤاده ، فخر صريعا ، فتعلقت بالفارس ، وقلت بالله من أنت ؟ فقال : أنا رسول الذى يجيب المضطر إذ دعاه ويكشف السوء .

قال فأخذت البغل والحمل ورجعت سالماً ، ومن ذلك أرسل الله جبريل لاغاثة أم اسماعيل فى مكة ففى صحيح البخارى عن ابن عباس فى قصة مهاجرة إبراهيم بابنه اسماعيل وأمه هاجر إلى أرض مكة (وهى قصة طويلة) أن أم اسماعيل ، سعت سعى الانسان المجهود بين الصفا والمروة سبع مرات ، تبحث عن الماء فلما أشرفت على المروة ، سمعت صوتا ، فقالت : (صه) تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت : قد اسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فقال لها الملك : (لا تخافى الضيعه فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وان الله لا يضيع أهله)

---

(١) أخرجه مسلم جـ ٤ ص ٢١٥٤ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب قوله : إن الانسان ليطغى .. أن رآه استغنى رقم ٢٧٩٧/٣٨

وفى سنن النسائى بإسناد صحيح أن هذا الملك الذى جاءها هو جبريل (إن جبريل لما ركض زمزم بعقبه جعلت أم إسماعيل ، تجمع البطحاء رحم الله هاجر لو تركتها كانت عينا معينا)[١] .

شهود الملائكة لجنازة الصالحين : قال الرسول ﷺ فى سعد بن معاذ (هذا الذى تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفا من الملائكة ، لقد ضُمَّ ضمة ، ثم فُرج عنه)[٢] رواه النسائى عن ابن عمر باسناد صحيح .

اظلالها للشهيد بأجنحتها : فى صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما قتل أبى ، جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكى ، وينهونى ، والنبى ﷺ لا ينهانى ، فجعلت عمتى فاطمة تبكى ، فقال النبى ﷺ : (تبكين أولا تبكين ، مازالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه)[٣] .

وبهذا ينتهى المبحث الخاص بعالم الملائكة فى ضوء الكتاب والسنة .

خاتمة سورة المدثر
الحديث عن أهل سقر

قال تعالى :

كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾
نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾
إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي
سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ
مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ
شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ

(١) أخرجه السيوطى فى جمع الجوامع رقم ٦٤٥٥ وكنز رقم ٣٤٧٦٧
(٢) أخرجه النسائى فى السنن الكبرى جـ٤ ص١٠٠ ، ١٠١ كتاب الجنائز باب صفة الغير وضغطته .
(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢/٩١ فى كتاب (الجنائز) باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج فى كفنه .

مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ
أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾
فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ
الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

معانى المفردات

﴿ إذا أدبر ﴾ دبر وأدبر بمعنى ولى وانصرم ﴿ إذا أسفر ﴾ أضاء وظهر ﴿ الكبر ﴾ جمع كبرى أنثى الأكبر ﴿ رهينة ﴾ يقال رهن الشيء رهناً ورهينة ، وهو الشيء المرهون وثيقة لشيء آخر ﴿ ما سلككم ﴾ ما أدخلكم ﴿ المصلين ﴾ الصلاة فى اللغة الدعاء والدين ، وشرعاً تطلق على الصلاة المعروفة ، والمراد المعنى اللغوى لا الشرعى ﴿ نخوض مع الخائضين ﴾ نكذب مع المكذبين ، وأصل الخوض الذهاب فى الماء ثم نقل إلى الذهاب فى الكلام ، ثم غلب على الاكثار من باطل الكلام . ﴿ اليقين ﴾ الموت ﴿ التذكرة ﴾ المراد القرآن ﴿ مستنفرة ﴾ نافرة من نفسها ﴿ قسورة ﴾ أسد ﴿ صحف منشرة ﴾ الصحف القراطيس التى تكتب وتتداولها أيدى الناس والمنشرة المبسوطة المفتوحة .

أضواء كاشفة

لقد تكلم المشركون فى خزنة جهنم وعددهم ، واتخذوا ذلك مادة لسخريتهم واستهزائهم ، فضلوا ضلالاً بعيداً ، والقرآن هنا يزجرهم عن ذلك ويردعهم بكلمة زاجرة هى (كلا) ثم أقسم بالقمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر على أن سقر هى إحدى الكبر ، أما قسمه بهذه الأشياء فإنه للفت أنظار المشركين إلى تلك الآثار الباهرة ، التى تدل على قدرة الله القادرة ، على أن هذا التقلب والتغيير من حال إلى حال ، ومن نور إلى ظلام ، ثم منه إلى ضياء دليل على جواز البعث والانتقال من حال الفناء إلى حال الحياة .

أقسم بالقمر ونوره كيف ينشأ صغيراً ، ثم يكبر ، ثم يعود صغيراً حتى المحاق ، وهذا الليل بجحافله وسكونه وهدوئه ، وموت الطبيعة فيه ، ثم يأتى الصبح بأضوائه اللامعة ووجهه المشرق وحياته الحافلة ، أقسم بهذا كله على أن جهنم المعدة للمكذبين ، الذين يتخذون القرآن عضين ، هى إحدى الكبر من جهة أنها نذير للبشر لمن شاء منكم أيها البشر أن يتقدم للخير ، ولمن شاء أن يتأخر بفعل الشر ، نعم هى نذير لهؤلاء الذين يخافون يوماً عبوساً قمطريراً .

هذا إنذار للعامبين والعصاة المذنبين ، مع العلم أن كل نفس بما كسبت مرهونة ، أى أن النفس مرهونة بعملها ، فإن كان خيراً ، فك رهنها وحبسها ، وإن كان شراً ، فستظل حتى تستوفى عقابها ، وعلى ذلك فالعصاة نفوسهم مرهونة بعملهم الشر ، والمؤمنون أصحاب اليمين ليست نفوسهم مرهونة ، لأنهم أدوا ما عليهم ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ . فإنهم فى جنات مكرمون ، على سرر متقابلون ، يتجاذبون أطراف الحديث ، ويتساءلون ، أى يسأل بعضهم بعضاً عن المجرمين المكذبين ، ما حالهم ؟ ولعلهم يعرفون الجواب ، ولكن هذا يساق زيادة فى تبكيت المجرمين وإيلامهم ، وإمعاناً فى سرور المؤمنين أصحاب اليمين ، يتساءلون عنهم ، فيطلون عليهم ، وهم فى جهنم فيقولون لهم : ما سلككم فى سقر ؟ وما الذى أدخلكم فى جهنم ؟ قالوا لهم : الذين سلكنا أننا لم نك من المصلين ، ولم نك ندعو الله رب العالمين ، بل كنا ندعو غيره ونشرك به سواه ، وأنا لم نك نطعم المسكين المحتاج ؟ بل كنا ننفق للدنيا وللرياء ، وكنا نكذب مع المكذبين ، ونخوض مع الخائضين فى هراء الكلام وفاسده ، وكنا نكذب بيوم القيامة ، ولا نصدق به ، وظللنا على هذا الحال ، حتى أتانا اليقين الذى لا شك فيه كالموت ، وهذا العذاب الذى نقاسيه اليوم .

إذا كان الأمر كذلك ، فما تنفع هؤلاء شفاعة الشافعين ، ومن ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟ وهذا رد عليهم فى دعواهم أن الآلهة تشفع عند الله لهم .

عجباً لهؤلاء بعد هذا البيان الساطع ، فما لهم عن القرآن معرضين ؟ أى شىء حصل لهؤلاء ، حتى يعرضوا عن كلام رب العالمين ، مالك يوم الدين .

مالهم يعرضون ويفرون ؟ كأنهم حمر - المراد حمر الوحش - نافرة من نفسها وطبعها - وقد فرت من أسد ، إن أمر هؤلاء لعجب .

بل - وهذا إضراب عن إعراضهم ونفورهم مما فيه سعادتهم وخيرهم كالحيوان - واستمع لما هو أعجب وأغرب ، بل يريد كل امرىء منهم أن تنزل عليه صحف من السماء مبسوطة ، تأمره باتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

كلا وألف كلا ، بل هم لا يخافون الآخرة ، ولا يرجونها أصلاً ، فهذا هو السبب ، وطلبهم الصحف المنشرة ضرب من العبث واللهو ، فأعرض عن هذا ولا تسمع لهم فى شىء .

كلا ، إن القرآن تذكرة وعظة لمن يريد الآخرة ، ويؤمن بالغيب ، وفيه استعداد للخير ، فمن شاء ذكره واتعظ به وآمن ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله ذلك بالقهر والالجاء ، لكن الله ترك الايمان والكفر لاختيار العبد ، الذى هو مناط الثواب والعقاب ، وقيل المعنى : وما يذكرون فى حال من الأحوال إلا فى حال أن يشاء الله لهم ذلك ، إذ الأمر كله له ، هو الله أهل لأن يتقى ويحذر عقابه فلماذا لا تتقون ؟ وهو أهل للمغفرة فلماذا لا تصلحون أعمالكم ؟ وتتوبون لربكم وتثوبون لرشدكم ؟ !!

التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر ، والليل إذ أدبر ﴾ أى ولى ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أى أشرق ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أى العظائم يعنى النار ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وغير واحد من السلف ﴿ نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ أى لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدى للحق أو يتأخر عنها ويولى ويردها .

ويحدثنا العلامة ابن القيم فى كتابه ﴿ التبيان فى أقسام القرآن ﴾ فيقول :

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ .

أقسم سبحانه بالقمر الذى هو آية الليل ، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه . وحكمته وعلمه ، وعنايته بخلقه ـ ما هو معلوم بالمشاهدة . وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها ، مما لا نراه من الملائكة ، وما فيها ما نراه من الشمس والقمر والنجوم ، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر : من الليل والنهار ، وكل ذلك آية من آياته ، ودلالة من دلائل ربوبيته . ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين ، وجدهما من أعظم الآيات فى خلقهما ، وجرمهما ، ونورهما ، وحركتهما على نهج واحد ، لا ينيان ولا يفتران دائبين ، ولا يقع فى حركتهما إختلاط بالبطء ، والسرعة ، والرجوع ، والاستقامة ، والانخفاض ، والارتفاع ، ولا يجرى أحدهما فى فلك صاحبه ، ولا يدخل عليه فى سلطانه ، ولا تدرك الشمس القمر ، ولا يجىء الليل قبل انقضاء النهار ، بل لكل حركة مقدرة ، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر . كما أن له تأثيراً ومنفعة لا يشركه فيها الآخر . وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر ، وأمر آمر ، وتدبير مدبر ، بهرت حكمته العقول ، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل ، وفرق ما علمه الناس من الحكم التى فى خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم ، ولا تنتهى إلى مباديها أو هامهم ، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما ، وكمال حكمته ولطف تدبيره ، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا : ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾(1) .

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق ، يبدو فيه النور كخيط متسخن ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره ، فيصير أضوأ شىء وأحسنه وأجمله ، ثم يأخذ فى النقصان حتى يعود إلى حاله الأول ، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين ، وحساب آجال العالم : من مواقيت حجهم ، وصلاتهم ، ومواقيت أجائرهم ، ومداييناتهم ، ومعاملاتهم التى لا تقوم مصالحهم إلا بهما ، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة .

وقد ذكر سبحانه ذلك فى ثلاث آيات من كتابه : أحدها قوله : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾(2) .

---

(1) آل عمران آية : ١٩١
(2) البقرة آية : ١٨٩

والثانية قوله : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون** ﴾(١) .

والثالثة قوله : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلاً** ﴾(٢) . فلولا ما يحدثه الله سبحانه فى آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه ، لم يعلم ميقات الحج ، والصوم والعدد ، ومدة الرضاع ، ومدة الحمل ، ومدة الاجارة ، ومدة آجال الحاملات .

فإن قيل : كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التى تحفظ بطلوع الشمس وغروبها ، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس ، قيل : هذا وإن كان ممكناً ، إلا أنه يعسر ضبطه ، ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس ، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور ، وأوساطها ، وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس ، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس ، وأقل اضطراباً واختلافاً ، ولا يحتاج إلى تكلف حساب ، وتقليد من لا يعرف من الناس لمن يعرفه . فالحكمة البالغة التى فى تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر وأنفع وأصح . وأقل اختلافاً من تقديرها بسير الشمس ، فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه ، فى مصالح دينهم ودنياهم ، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب ، وكمال حكمته وعلمه وتدبيره ، فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية ، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها ، فهى آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية ، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين : بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير ، ولا يمكن عدمها .

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً ، وافتقاره الى محل يقوم به ، وسيره دائباً لا يفتر ، مسير ، مسخر ، مدبر ، وهبوطه تارة وارتفاعه تارة ، وأفوله تارة ، وظهوره تارة ، وذهاب نوره شيئا فشيئا ، ثم عوده إليه كذلك ، وسبب ضوئه جملة واحدة ، حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف ـ علم قطعاً أنه مخلوق مربوب مسخر ، تحت أمر خالق قاهر مسخر له ، كما يشاء ، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً ، وأن هذه الحركة فيه لابد أن تنتهى إلى الانقطاع والسكون . وأن هذا الضوء والنور ، لابد أن ينتهى إلى ضده ، وأن هذا السلطان ، لابد أن ينتهى إلى العزل ، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين ، ويذهب بهما حيث شاء ، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التى عبدوها من دونه ، كما يرى عباد الكواكب انتثارها ، وعباد السماء انفطارها ، وعباد الشمس تكويرها ، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها فى النار ، أحقر شىء وأذله وأصغره ، كما أرى عباد العجل فى الدنيا حاله ومبارد عباده تسحقه وتمحقه ، والريح تمزقه وتذروه وتنسفه فى اليم ، وكما أرى الأصنام فى الدنيا صورها مكسرة مخردلة ملقاة بالأمكنة القذرة ، ومعاول الموحدين ، قد هشمت منها تلك الوجوه ،وكسرت تلك الرؤوس ، وقطعت تلك الأيدى والأرجل ، التى كانت لا يوصل إليها بغير التقبيل والاستلام ، وهذه سنة الله التى لا تبدل ، وعادته التى لا تحول ، أنه يرى عابد غيره حال معبوده فى الدنيا والآخرة . وإن كان المعبود غير راض بعبادة

(١) يونس آية : ٥
(٢) الإسراء آية : ١٢

غيره ويريه تبريه منه ، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه : ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة** ﴾[(١)] ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين :

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها - لو تأملت خطها - ألا كل شىء ما خلا الله باطل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير ، وجعل التغيير فى الشمس ، ولو شاء لغيرهما معاً ، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة ، ولكن يرى عباده آياته فى أنواع تصاريفها ، ليدلهم على أنه الله الذى لا إله إلا هو الملك الحق المبين ، الفعال لما يريد ﴿ **ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين** ﴾[(٢)] . وأما تأثير القمر فى ترطيب أبدان الحيوان والنبات ، وفى النبات ، وجزر البحر ومده ، وبحرانات الأمراض ، وتنقلها من حال إلى حال ، وغير ذلك من المنافع ، فأمر ظاهر .

وما أقسامه سبحانه بالليل إذا أدبر ، فلما فى ادباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد ، فإنه مبدأ ومعاد يومى مشهود بالعيان ، بينما الحيوان فى سكون الليل قد هدأت حركاتهم ، وسكنت أصواتهم ونامت عيونهم ، وصاروا إخوان الأموات ، إذا أقبل من النهار داعيه وأسمع الخلائق مناديه ، فانتشرت منهم الحركات وارتفعت منهم الأصوات ، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور ، يقول قائلهم : (الحمد لله الذى أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور) فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذى يبدىء ويعيد . فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار ؟ .

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر ، والصبح إذا تنفس وأسفر ، فهزم جيوش الظلام بنفسه ، وأضاء أفق العالم بقبسه ، وفل كتائب الكواكب بعساكره ، وأضحك نواص الأرض بتباشيره وبشائره . فيالهما آيتان شاهدتان بوحدانية منشئهما ، وكمال ربوبيته وعظم قدرته وحكمته . فتبارك الذى جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً لسلطان الليل والنهار . فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله ، فكيف كان الناس يسعون فى معاشهم ؟ ويتصرفون فى أمورهم ، والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانت تهينهم الحياة ، مع فقد لذة النور وروحه ، وأى ثمار ونبات وحيوان كان يوجد ؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات ؟ ولولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار ، مع علم حاجتهم إلى الهدوء ، لراحة أبدانهم وجموم حواسهم . فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ، ما هدأوا ولا قروا ولا سكنوا ، بل جعله أحكم الحاكمين سكناً ولباساً ، كما جعل النهار ضياء ومعاشاً ، ولولا الليل وبرده ، لاحترقت أبدان الحيوان والنبات من دوام شروق الشمس عليها ، وكان يحرق عليها من نبات وحيوان ، فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين ، أن جعلها سراجاً يطلع على العالم فى وقت حاجتهم إليه ، ويغيب فى وقت استغنائهم عنه ، فطلوعه لمصلحتهم وغيبته لمصلحتهم ، وصار النور والظلمة على تضادهما ، متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه . فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً إلى يوم القيامة ، والليل سرمداً إلى يوم القيامة ، لفاتت مصالح العالم ، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده .

---

(١) الأنفال آية : ٤٢

(٢) الأعراف آية : ٥٤

وتأمل حكمته سبحانه فى ارتفاع الشمس ، وانخفاضها لاقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة ، وما فى ذلك من مصالح الخلق ، ففى الشتاء تفور الحرارة فى الشجر والنبات ، فيتولد منها مواد الثمار ، ويكثف الهواء ، فيتولد منه السحاب وينعقد ، فيحدث المطر الذى به حياة الأرض . ونماء أبدان الحيوان والنبات ، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع . وفى الصيف يخرم الهواء ، فينضج الثمار ، وتشتد الحبوب ، ويجفف وجه الأرض ، فيتهيأ العمل ، وفى الخريف يصفو الهواء ، وتبرد الحرارة ، ويمتد الليل ، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية ، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين ، ففى هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود ، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبى .

والمقصود أن بحركة هذين النيرين ، تتم مصالح العالم ، وبذلك يظهر الزمان ، فإن الزمان مقدار الحركة ، فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها ، والسنة القمرية مقدرة بسير القمر ، وهو أقرب إلى الضبط ، واشترك الناس فى العلم به . وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما فى منازلهما ، لما فى ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير ، فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب فى موضع واحد لا تتعداه ، لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات ، فكان نفعها يفقد هناك ، فجعل الله سبحانه طلوعها دولاً بين الأرض ، لينال نفعها وتأثيرها البقاع ، فلا يبقى موضع من المواضع ، التى يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها ، واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة ، ويأخذ كل منهما من صاحبه ، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة ، فلو زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً . أو أكثر ، لاختل نظام العالم وفسد أكثر النبات والحيوان ، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح ، ولو استويا دائماً ، لما اختلفت فصول السنة ، التى باختلافها مصالح العباد والحيوان ، فكان فى هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ، ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم ، ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه ، كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون ، والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[2] . وقال تعالى : ﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ﴾[3] . فهذه ثلاثة مواضع ، يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية ، وما ينشأ عنها ، كان من مقتضى عزته وعلمه ، وأنه قدره بهاتين الصفتين . وفى هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره وعلمه بالمغنيات .

---

(١) يس الآيتين : ٣٧ - ٣٨
(٢) فصلت الآيات : ٩ - ١٢
(٣) الأنعام آية : ٩٦

وأقسم سبحانه بهذه الأشياء الثلاثة وهى القمر ، والليل إذا أدبر ، والصبح إذا أسفر ـ على المعاد لما فى القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه ، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته ، وعنايته بخلقه ، وإبداء الخلق وإعادته ، كما هو مشهود فى إبداء النهار والليل وإعادتهما ، وفى إبداء النور وإعادته فى القمر ، وفى إبداء الزمان وإعادته ، الذى هو حاصل بسير الشمس والقمر ، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما ، وإبداء فصول السنة وإعادتها ، وإبداء ما يحدث فى تلك الفصول وإعادته ، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد ، الذى أخبرت به الرسل كلهم عنه ، فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها ، وجعلها للفطر تارة ، وللسمع تارة ، وللمشاهدة تارة ، فجعلها آفاقية ، ونفسية ومنقولة ، ومعقولة ومشهودة بالعيان ، ومذكورة بالجنان ، فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴿ **واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً** ﴾[1] .

ولما أقام الحجة وبين المحجة ، ارتهن كل نفس يكسبها ، وآخذها بذنوبها ، واستثنى من أولئك من قبل هداه ، واتبع رضاه ، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وسلكوا غير سبيل المجرمين ، الذين ليسوا من المصلين ، ولا من مطعمى المسكين ، وهم من أهل الخوض مع الخائضين ، المكذبين بيوم الدين ، فهذه أربع صفات ، أخرجتهم من زمرة المفلحين ، وأدخلتهم فى جملة الهالكين :
(الأولى) : ترك الصلاة ، وهى عمود الإخلاص للمعبود .

(الثانية) : ترك إطعام المسكين الذى هو مراتب الإحسان للعبيد ، فلا إخلاص للخالق ، ولا إحسان للمخلوق ، كما قال تعالى : ﴿ **الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾[2] وقال : ﴿ **ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون** ﴾[3] ، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[4] .

وقال : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[5] وقرن سبحانه بين هذين الأصلين فى غير موضع فى كتابه : فأمر بها تارة ، وأثنى على فاعليها تارة ، وتوعد بالويل والعقاب تاركها تارة ، فإن مدار النجاة عليهما ، ولا فلاح لمن أخل بهما .

الصفة الثالثة والرابعة : الخوض بالباطل ، والتكذيب بالحق ، فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان ، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق ، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص والإحسان ، والتصديق بالحق ، والتكلم به ، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم ، ويقينهم وكلامهم ، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركاً ، وبالإحسان إساءة ، وباليقين شكاً وتكذيباً ، وبالكلام النافع خوضاً فى الباطل . فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين ، أى لم يكن لهم من شفيع فيهم ، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع ، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأساً وجفلوا عن سماعها كما تجفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة .

---

(١) الفرقان آية : ٣
(٢) الماعون الآيتان : ٦ ، ٧
(٣) التوبة آية : ٥٤
(٤) الأنفال آية : ٣
(٥) السجدة آية : ١٦

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره ، وإقامة الحجة عليهم ، بإثبات المشيئة لهم ، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية ، وأن ذلك إليه لا إليهم ، فالأول عدله ، والثانى فضله ، فالأول يوجب السعى والطلب ، والحرص على ما ينجيهم ، كما يفعلون ذلك فى مصالح دنياهم . بل أشد ، والثانى يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم ، والله المستعان ، وعليه التكلان .

قوله تعالى : ـ ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ : يقول تعالى مخبراً أن (كل نفس بما كسبت رهينة) أى معتقلة بعملها يوم القيامة ، قال ابن عباس وغيره (إلا أصحب اليمين) فإنهم (فى جنات يتساءلون عن المجرمين) أى يسألون المجرمين وهم فى الغرفات وأولئك فى الدركات قائلين لهم : ﴿ ما سلككم فى سقر ، قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين ﴾ أى ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا . ﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أى نتكلم فيما لا نعلم : وقال قتادة : كلما غوى غاو غوينا معه . ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعنى الموت كقوله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾[1] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أما هو ـ يعنى عثمان بن مظعون ـ فقد جاءه اليقين من ربه) قال الله تعالى : ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أى من كان متصفاً بمثل هذه الصفات ، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنفع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً ، فإنه له النار لا محالة خالداً فيها ، ثم قال تعالى : ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ﴾ أى فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك ، عما تدعوهم إليه وتذكرهم به معرضين ﴿ كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ أى كأنهم فى نفارهم عن الحق وإعراضهم عنه حمر من حمر الوحش ، إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد .

وقال حماد بن سلمة بسنده عن ابن عباس : الأسد بالعربية ويقال له بالحبشية قسورة وبالفارسية شير ، وبالنبطية أوبا .

وقوله تعالى : ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ أى بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب ، كما أنزل الله على النبى صلى الله عليه وسلم قال مجاهد وغيره كقوله تعالى : ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾[2] ، وفى رواية عن قتادة : يريدون أن يؤتوا براءة بغير عمل فقوله تعالى : ﴿ كلا بل لايخافون الآخرة ﴾ أى إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها وتكذيبهم بوقوعها . ثم قال تعالى : ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أى حقاً إن القرآن تذكرة ﴿ فمن شاء ذكره وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾كقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أى هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . قاله قتادة .

---

(١) الحجر آية : ٩٩
(٢) الأنعام آية : ١٢٤

وقال الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) وقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معى إله فمن اتقى أن يجعل معى إلهاً كان أهلاً أن أغفر له »(١) .

هل عرفت ما للقرآن الكريم من مكانة فى اللوح المحفوظ ؟ قال تعالى : ﴿ حم ، والكتاب المبين ، إنا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون ، وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾(٢) .

وهل تأملنا بقلوبنا قول الله جل جلاله عن الكتاب العزيز والقرآن العظيم : ﴿ كلا إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ﴾ أى من شاء الوصول إلى دار السعادة والنعيم ، فليذكر ما فى هذا الكتاب من مواعظ وهداية ، وقصص وعقيدة وأحكام وتشريع ووعد ووعيد ، صدقت يا ربنا ﴿ إنّ هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾(٣) .

فضل القرآن يوم الحشر

وليس فضل القرآن مقصوراً على الدنيا وحدها ، إنما فضله ، يتعدى إلى ما بعد الموت ، من بعث وحشر ونشر وحساب ، وميزان وصراط وجنة ونار . نعم إنه تذكرة فمن شاء ذكره ، ونحن هنا بصدد الحديث عن فضل القرآن فى رحاب قوله تعالى فى ختام سورة المدثر : ﴿ كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره ﴾ فتقول :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، المبعوث رحمة للعالمين ، يا خير خلق الله على الاطلاق . نشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وكشفت الغمة ومحوت الظلمة وجاهدت فى الله حق جهاده حتى أتاك اليقين .

وبعد : فإن ماديات الحياة قد تطغى على روحانياتها ، وهنا تتمرغ النفس فى ظلمات بعضها فوق بعض ، وتحاول أن تجد لها منفذاً تنفذ منه لتنشق النسيم العاطر ، نسيم الروح فتطاردها الدنيا ، وعندئذ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم .

ومن هنا فإن الاسلام يضع معالم الهداية على طريق يؤدى إلى عالم الخلود ، فينادينا سبحانه وتعالى منبها ومحذراً ومذكراً : ﴿ إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾(٤) .

إنها أمارات كبرى ، وعلامات خطيرة ، تختل لها قوانين الكون ، ليجعلها الله تذكرة ، وتعيها أذن واعية .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد جـ٣ ص١٤٢

(٢) الزخرف الآيات : ١ ـ ٤

(٣) الإسراء آية : ٩

(٤) الانفطار الآيات : ١ ـ ٥

أنظر يا أخا الاسلام إلى هذه السماء المتقنة الصنع ، التى أخبر الله عنها بقوله : ﴿ **وما لها من فروج** ﴾[١] وأخبر عنها بقوله : ﴿ **أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها** ﴾[٢] وأخبر عنها بقوله : ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها** ﴾[٣] هذه السماء التى تحدى بها الله البشرية جمعاء بقوله : ﴿ **الذى خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور** ﴾[٤] ثم يزيد التحدى تحدياً فيقول : ﴿ **ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير** ﴾[٥] .

سبحانك اللهم أنت الواحد ... كل الوجود على وجودك شاهد
يا من له عنت الوجوه بأسرها رهباً ... وكل الكائنات توحد
أنت الاله الواحد الحق الذى ... كل القلوب له تقر وتشهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى ... وإلى علاك علا الجبين الساجد

هذه السماء ، التى من أخص خصائصها أن ليس لها فروج ، ولا شقوق ، ولا فطور ، أول ما تصب به عند البعث أنها تشقق ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ، الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً** ﴾[٦] .

هذه حال السماء فما حال الكواكب التى تسير فى أفلاكها بنظام دقيق بديع ، هذا الخلق العظيم الذى لم يستطع العلم بجبروته أن يقتحم عليه أسراره المنيعة ، والذى عندما أراد العلم أن يرفع رأسه فخوراً بما اكتشفه من هذا العالم الغامض ، قال إننا لم نكتشف إلا جزءاً يسيراً ، هذا الجزء اليسير يشتمل على ألف مليون مجموعة شمسية ، كل مجموعة تحتوى على ألف مليون نجم ، أقل نجم فى هذه المجموعة شمسنا تلك التى تنير الكوكب الأرضى ، وباقى العالم لا يعلمه إلا من أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، وهذا الموقف يذكرنى بنشيد كنا نردده فى مراحل التعليم الأولى ونحن براعم لم تتفتح بعد . كان نشيد الصباح الذى نردده كما يلى :

انظر لتلك الشجرة ... ذات الغصون النضرة
كيف نمت من حبة ... وكيف صارت شجرة
فانظر وقل من ذا الذى ... يخرج منها الثمرة
ذاك هو الله الذى ... أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة
أنظر إلى الشمس التى ... جذوتها مستعرة

(١ ، ٢) سورة ق آية : ٦

(٣) سورة النازعات آية : ٢٧

(٤ ، ٥) سورة الملك آية : ٤ ـ ٤

(٦) سورة الفرقان الايتان : ٢٥ ـ ٢٦

فيها ضياء وبها حرارة منتشرة
من ذا الذى أوجدها فى الجو مثل الشررة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة
أنظر إلى المرء وقل من شق منه بصره
من الذى جهزه بقوة مبتكرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرته مقتدرة
انظر إلى الليل فمن أوجد فيه قمره
وزانه بأنجم كالدرر المنتشرة
ذاك هو الله الذى أنعمه منهمرة
ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

هذه بعض مظاهر القدرة ، وبعض مشاهد الخلق الذى أبدعته يد الله :

سل الواحة الخضراء والماء جارياً
وهذى الصحارى والجبال الرواسيا
سل الروض مزداناً سل الزهر والندى
سل الليل والاصباح والطير شادياً
سل هذه الأنسام والأرض والسما
وسل كل شىء تسمع الحمد ساريا
فلو جن هذا الليل وأمتد سرمداً
فمن غير ربى يرجع الصبح ثانياً
ولو غاض هذا الماء فى القاع هل لكم
سوى الله يجريه كما نشاء راوياً

سبحانك يا صاحب العزة القائمة والمملكة الدائمة ، أرأيت إلى هذه الكواكب يا أخا الاسلام ، كيف تنثر وهى تسير فى أفلاكها كما تسير السفينة فى ساحات البحار ، وفى مساحات شاسعات تنثر هذه الكواكب كما تنثر حبات العقد إذا انفرط سلكه ؟ إنه إنذار شديد اللهجة بأن هناك محكمة ، وبأن هناك يوماً يجعل الولدان شيباً .

ويأتى المشهد الثالث من مشاهد القيامة ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وإذا البحار فجرت** ﴾ هذا مشهد أرضى بعد المشاهد العلوية من انشقاق السماء وانتثار الكواكب ، يلتقى المشهد الأرضى بالمشاهد العلوية إيذانا وإعلاناً ببدء حياة جديدة ، تختلف كل الاختلاف عن الحياة الغائبة الزائلة ﴿ **وإذا البحار**

فجرت ﴾[١] وما أدراك ما البحار ، خلق عظيم ، الداخل فيه مفقود والخارج منه مولود ، والناس فيه دود على عود .

ومعنى تفجير البحار هنا ، يقول على بن أبي طلحة عن ابن عباس : فجر الله بعضها فى بعض ، وقال قتادة اختلط عذبها بملحها ، وقال آخرون ملئت . ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾[٢] وهذا هو الموقف المحتوم والمصير المعلوم ، فبعد انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، يأتى الدور على القبور ، وهى مساكن الموتى ، وأرحام ستدفع ما فيها للولادة الثانية ، فالولادة الأولى كانت من بطون الأمهات ، وتأتى الولادة الثانية من أرحام القبور . ومعنى (بعثرت) كما قال ابن عباس رضى الله عنه بعثت ، وقال السدى : تحرك تبعثر ، فيخرج من فيها ، وهذا مصداق قوله تعالى : ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[٣] ومصداق قوله جل شأنه : ﴿ واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير ﴾[٤] ثم تأتى النتيجة المترتبة على تلك المقدمات وهى قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ماقدمت وأخرت ﴾[٥] وهذه هى الجملة الواقعة جوابا للشرط (إذا) أى إذا ماتقدمت من الخير ففعلته وأدته ، وماسوقت فيه من الأعمال فلم تؤده ، ومن هنا ، فإنّآيات الكتاب العزيز عندما تحث على أى عمل من أعمال الدنيا ، تخاطب المسلم بأسلوب رقيق فيه طمأنينة ورحمة ، وعدم عجلة وسرعة ، قال تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض[٦] فلم يقل تعالى : فسارعوا ولاسابقوا وقال تعالى : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ﴾[٧] فالأمر هنا بالمشى لا بالمسارعة ولا بالمسابقة ، أما إذا كان الأمر أمر الآخرة ، فإن أسلوب القرآن ، يدعو الى التعجيل بفعل الخير . والمسابقة فيه والمسارعة ، قال تعالى : ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾[٨] .

وقال سبحانه : ﴿ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾[٩] وقال جل شأنه : ﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[١٠] وقال تبارك اسمه : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾[١١] .

---

(١) الانفطار آية : ٣
(٢) الانفطار آية : ٤
(٣) الزمر آية : ٦٨
(٤) ق الآيات : ٤١ - ٤٤
(٥) الانفطار آية : ١٠
(٦) الجمعة آية : ١٠
(٧) الملك آية : ١٥
(٨) الصافات آية : ٦١
(٩) المطففين آية : ٢٦
(١٠) الحديد آية : ٢١
(١١) آل عمران آية : ١٣٣

هذا لتعلم كل نفس أنها بمسيس الحاجة إلى ما قدمت من خير ، وأنه لا يليق بها أن تؤخر فعل الخيرات .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾[١] وقال تعالى ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودلو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾[٢] وبعد هذه المقدمات يخاطب الله العباد خطاب تحذير وتذكير :

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾[٣] .

قال ابن عمر : غره والله جهله ، وروى عن ابن عباس والربيع بن خيثم والحسن مثل ذلك . وقال قتادة : (ما غرك بربك الكريم) شىء ما غر ابن آدم غير هذا العدو الشيطان .

وقال الفضيل بن عياض : لو قال لى ما غرك بى لقلت ستورك المرخاة .

وقال أبو بكر الوراق : لو قال لى ما غرك بربك الكريم لقلت غرنى كرم الكريم .

وقال بعض أهل الإشارة إنما قال بربك الكريم دون سائر أسمائه وصفاته ، كأنه لقنه الإجابة ، وهذا الذى تخيله هذا القائل ليس بطائل ؟ لأنه إنما أتى باسمه الكريم ، لينبه على أنه لا ينبغى أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة وأعمال الفجور .

وقوله تعالى : ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك ﴾ أى ما غرك بالرب الكريم (الذى خلقك فسواك فعدلك) .

أى جعلك سوياً مستقيماً معتدل القامة منتصباً فى أحسن الهيئات والأشكال ، قال الإمام أحمد بسنده عن بشر بن جحاش القرشى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة »[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ ، قال مجاهد فى أى شبه أب أو أم أو خال أو عم . وقال ابن جرير بسنده عن موسى بن على ابن رباح قال حدثنى أبى عن جدى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال له : ما ولد لك ؟ قال يا رسول الله ما عسى أن يولد لى إما غلام وإما جارية ، قال فمن يشبه ؟ قال يا رسول الله من عسى أن يشبه ؟ إما أباه وإما أمه . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

---

(١) المائدة آية : ٤٨

(٢) آل عمران آية : ٣٠

(٣) الانفطار الآيات : ٦ ـ ٨

(٤) أخرجه الالبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٠٩٩ وبرقم ١١٤٣

عندها : (مه لا تقولن هكذا إن النطفة إذا استقرت فى الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم ، أما قرأت هذه الآية فى كتاب الله تعالى : (فى أى صورة ما شاء ركبك)[٢] قال : شكلك .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله إن إمرأتى ولدت غلاماً أسود . قال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : فما ألوانها ؟ قال : حمر . قال : فهل فيها من أورق ؟ قال : نعم ، قال : فأنى أتاها ذلك ؟ قال : عسى أن يكون نزعة عرق[٣] .

قال : وهذا عسى أن يكون نزعة عرق ، وقد قال عكرمة فى قوله تعالى : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ إن شاء فى صورة القرد وإن شاء فى صورة خنزير .

قال قتادة : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ قال : قادر والله ربنا على ذلك ، ومعنى هذا القول أن الله تعالى قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه ، وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم ، معتدل تام ، حسن المنظر والهيئة . وقوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾[٤] أى إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى ، تكذيب فى قلوبكم بالميعاد والجزاء والحساب .

---

(١) أخرجه الألبانى فى سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ١٠٩٩ وبرقم ١١٤٣

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره ٣٦٥/٨

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص١١٣٧ كتاب اللعان رقم ١٥٠٠/٢٠

(٤) الانفطار آية : ٩

تفسير سورة القيامة

مقـــدمة :

قال العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى فى «بصائر ذوى التمييز» :

السورة مكية ، وآياتها أربعون ، وكلماتها مائة وتسع وتسعون ، وحروفها ثلاثمائة واثنتان وخمسون .

فواصل آياتها (يقراه) .

سميت سورة القيامة ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان هول القيامة ، وهيبتها ، وبيان إثبات البعث ، وتأثير القيامة فى أعيان العالم ، وبيان جزاء الأعمال ، وآداب سماع الوحى ، لوعد باللقاء والرؤية ، والخبر عن حال السَّكرة ، والرجوع إلى بيان برهان القيامة ، وتقرير القدرة على بعث الأسواق فى قوله تعالى :

﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ على أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ .

المتشابهات

قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم أعاد ، فقال : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ فيه ثلاثة أقوال : أحدها : إنه سبحانه اقسم بهما ، والثانى : لم يقسم بهما ، والثالث : أقسم بيوم القيامة ، ولم يقسم بالنفس اللوامة .

قوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴾ وكرره فى الآية الثانية ﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ والقَمَرُ ﴾ ، الأول عبارة عن بياض العين . بدليل قوله : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وخَسفَ القَمَرُ ﴾ وفيه قول ثان ـ وهو قول الجمهور من المفسرين ـ أنهما بمعنى واحد . وجاز تكراره لأنه أخبر عنه بغير الخبر الأول . . . قوله : ﴿ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ﴾ كررها مرتين ، بل كررها أربع مرات فإن قوله : ﴿ أَوْلَى لَكَ ﴾ تمام الذم ، بدليل قوله : ﴿ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴾ ، فإن جمهور المفسرين ذهبوا إلى أنه للتهديد ، وإنما كررها لأن المعنى : أولى لك الموت ، فأولى لك العذاب فى القبر ، ثم أولى لك أهوال القيامة ، فأولى لك عذاب النار . نعوذ بالله منها .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه ذكر فى السورة السابقة قوله : ﴿ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الآخِرَةَ ﴾ وكان عدم خوفهم منها لإنكارهم البعث ، وذكر هنا الدليل عليه بأتم وجه ، فوصف يوم القيامة وأحواله ، ثم ما قبل ذلك من خروج الروح من البدن ثم ما قبل ذلك من مبدأ الخلق .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن
نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ
أَمَامَهُۥ (٥) يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ (٨)
وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ
(١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ
ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ
بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ (٢١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ
(٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (٢٥)

معانى المفردات

(لَا أُقْسِمُ) يرى قوم أن (لَا) نافية ردٌّ لكلام قد تقدم وجواب لهم ، فهم لما أنكروا البعث قيل لهم ، ليس الأمر على ما ذكرتم ، ثم أقسم بيوم القيامة ، وبالنفس اللوامة : أن البعث حق لا شك فيه . ويرى جمع من المفسرين : إنها للنفى على معنى أنى لا أعظمه بإقسامى به حق إعظامه ، فإنه حقيق بأكثر من هذا وهو يستأهل فوق ذلك . (النَّفْسِ اللَّوَّامَة) قال مجاهد هى التى تلوم نفسها على مافات وتندم على الشر لِمَ فَعَلْتَهُ ؟ وعلى الخير لِمَ لَمْ تَسْتَكْثِرْ منه ؟

(بَلَى) كلمة يجاب بها إذا كان الكلام منفياً ، فالمراد بها هنا نعم فجمعها بعد تفرقها .

(بَنَانَهُ) البنان : واحده بنانة وهى الأصابع .

(لِيَفْجُرَ): ليدوم على فجوره فى الحاضر والمستقبل لا ينزع عنه .

(بَرِقَ) تحير فزعاً .

(خَسَفَ الْقَمَر) ذهب ضوءه .

(أَيْنَ الْمَفَر) أى : إلى أين الفرار .

(الْوَزَرَ) : الملجأ ، وأصله الجبل المنيع .

(يُنَبَّأ) أى : يخبر .

(بَصِيرَهُ) أى : حجة شاهدة على ما صدر منه .

(مَعَاذِيرَهْ) المعاذير : ما يعتذر به .

(لِتعجلَ بِهِ) أى : لتأخذه على عجل مخافة أن يتفلت منك .

(قُرْآنَه) أى : قراءته أى : إثباتها فى لسانك .

(قَرَأْنَاه) أى : قرأه جبريل عليك .

(فَاتَّبِع قُرْآنَهُ) أى : فاستمع قراءته ، وكررها حتى يرسخ فى نفسك .

(بَيَانَهُ) أى : تفسير ما فيه من الحلال والحرام وبيان ماأشكل معانيه .

(الْعَاجِلَةَ) دار الدنيا ، (نَاضِرةُ) أى : مهللة بشراً بما ترى من النعيم ، (نَاظرة) أى : تنظر إلى ربها عيانا بلا حجاب ، (بَاسرةُ) أى : شديدة العبوس كالحة متغيرة مسودة ، (تَظُنُّ) أى : تستيقن ، (فَاقِرَة) أى : داهية عظيمة تكسر فقار الظهر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيوْمِ الْقِيَامَةِ . وَ لاَ أُقْسِمُ بِالنفسِ اللَّوَّامَةِ . أَيحسْبُ الإنْسَانُ أَنَ لَّن تجْمَع عِظَامَهُ . بَلى قادِرِين عَلَى أن نُّسَوِّى بَنَانَهُ ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بيوم القيامة ، وعظيم أهواله ، وبالنفس اللوامة ، التى تندم على الشر لم فعلته ، وعلى الخير لم لم تستكثر منه وقسمه سبحانه وتعالى بيوم القيامة وتفخيم شأنه ، ولله أن يقسم بما شاء من خلقه . قال سعيد بن جبير . سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيوْمِ الْقِيَامَة ﴾ قال : يقسم ربك بما شاء من خلقه .

وقال العلامة ابن القيم : فقد تضمن الأقسام ثبوت الجزاء ، ومستحق الجزاء ، وذلك يتضمن إثبات الرسالة ، والقرآن ، والمعاد ، وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ، ويقررها أبلغ التقرير ، لحاجة النفوس إلى معرفتها ، والايمان بها ، وأمر رسوله أن يقسم عليها كما قال تعالى : ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحق هُوَ ؟ قُل إِى وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَق ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينا السَّاعة ، قُلْ بَلَى وَربى لَتأْتِينكُمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ زَعَمَ الذِينَ كَفَرُوا أن لَنْ يُبْعَثُوا قُل بَلَى وَربى لَتُبْعثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِير ﴾ فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها ، يأمر نبيه أن يُقْسِمَ عَلى مَا أَقْسَمَ عَلَيْه هُوَ سبحانه وتعالى من النبوة والقرآن والمعاد .

فأقسم سبحانه لعباده ، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم ، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه ، فأبى الظالمون إلا جحوداً وتكذيباً .

واختلف فى النفس المقسم بها ههنا ، هل هى خاصة أو عامة ؟

على قولين بناء على الأقوال الثلاثة فى اللوامة ـ فقال ابن عباس : كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة ، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون أزداد إحساناً ، ويلوم المسىء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته .

والقول الثانى : أنها خاصة . قال الحسن : هى النفس المؤمنة وأن المؤمن ـ والله ـ لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حاله ، لأنه يستقصرها فى كل ما تفعل فيندم ويلوم نفسه ، وأن الفاجر يمضى قدما لا يعاتب نفسه .

والقول الثالث : إنها النفس الكافرة وحدها ، قاله قتادة ومقاتل .

وهى النفس الكافرة التى تلوم نفسها فى الآخرة على ما فرطت فى أمر الله .

قال شيخ الإسلام ابن تيميه : والأظهر أن المراد نفس الانسان مطلقاً فإن نفس كل إنسان لوامة ، كما أقسم ـ سبحانه ـ بجنس النفس فى قوله : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ فإنه لابد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمره ثم هذا اللوم قد يكون محمودا وقد يكون مذموماً ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ . قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ فهذا اللوم غير محمود . فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله : ﴿ إِنَّ الانسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ﴾ وعلى جزائها كقوله : ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وعلى تباين عملها كقوله : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ وكل نفس لوامة ، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر ، وترك الخير . فتبادر إلى التوبة ، والنفس الشقية بالضد من ذلك .

مناسبة الجمع بين القسمين فى الذكر

وجمع ـ سبحانه وتعالى ـ فى القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة ، ومحل الكسب ، وهو النفس اللوامة ، ومنه ـ سبحانه ـ بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرضها الخير والشر ، ويدلها عليه ، ويرشدها إليه ، ويلهمها إياه ، فيجعلها مريدة للخير ، مرشدة له ، كارهة للشر مجانبة له ، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه ، ولأنها متلومه مترددة ، لا تثبت على حال واحدة ، فهى محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها فى معاشها ومعادها فتؤثره ، وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة ، ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها فى القيامة لنفسها عليه لوماً بحق ، قد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه .

ففى صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن ، وإنها لا غنى لها عن ذلك ،

ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة ، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما فى الذكر .

وقوله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِين عَلَى أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ ﴾ أى : أيظن ابن آدم أن لن نقدر على جمع عظامه بعد تفرقها ؟ بلى نحن قادرون على ذلك وأعظم منه ، فنحن قادرون على أن نسوى بنانه وأطراف يديه ورجليه ونجعلها مستوية. قال ابن القيم :

وفى ذكر البنان لطيفة ، وهى أنها أطرافه ، وآخر ما يتم به خلقه فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه ، مع دقتها وصغرها ولطافتها ، فهو على دون ذلك أقدر ، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والارمام ، قيل : إنا نجمع ونسوى أكثرها تفرقاً وأدقها أجزاء ، وآخر أطراف البدن ، وهى عظام الأنامل ومفاصلها . وقالت طائفة : المعنى نحن قادرون على أن نسوى أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير ، وحافر الحمار لا نفرق بينها ولا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتى لما يريد من الحوائج . وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين .

والمعنى على هذا القول : إنا فى الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرقة ، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها .

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول ، وهو الاستدلال بقدرته ـ سبحانه ـ على جمع العظام التى فرقها ولم يجمعها . والأول استدلال بقدرته ـ سبحانه ـ على جمع عظامه بعد تفريقها ، وهما وجهان حسنان ، وكل منهما له ترجيح من وجه ، فيرجح الأول أنه هو المقصود ، هو الذى أنكره الكفار ، وهو إجراء على نسق الكلام وأطراده ، ولأن الكلام لم يسق تجمع العظام وتفريقها فى الدنيا ، وإنما سيق لجمعها فى الآخرة بعد تفرقها بالموت . ويرجح القول الثانى ـ ولعله قول جمهور المفسرين ، حتى أن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة ، وهى تفريق البنان مع انتظامها فى كف واحد . وارتباطها بعضها ببعض فهى متفرقة فى عضو واحد ، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى ، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة ، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة ، وكلها فى كف واحد ، قد جمعها ساعد واحد ، فلو شاء ـ سبحانه ـ لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التى حصلت بتفريقها ، ففى هذا أعظم الأدلة على قدرته ـ سبحانه ـ على جمع عظامه بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُر أَمَامَهُ . يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴾ ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور ، وأنه لا يرعوى ولا يخاف يوماً يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حيا ، بل هو مريد للفجور ما عاش ، فيفجر فى الحال ، ويريد الفجور فى غد وما بعده . وهذا ضد الذى يخاف الله والدار الآخرة ، فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع فى الحال ، ولا يعزم فى المستقبل على الترك ، بل هو عازم على الاستمرار ، وهذا ضد التائب المنيب .

ثم نبه ـ سبحانه ـ على الحامل له على ذلك ، وهو استبعاده ليوم لقيامه وليس هذا استبعادا لزمنه مع إقراره بوقوعه ، بل هو استبعاد لوقوعه ، كما حكى عنه فى موضع آخر قوله : ﴿ ذَلِكَ رَجْع بَعِيد ﴾ أى : بعيد وقوعه ، وليس المراد : أنه واقع بعيد زمنه . هذا قول جماعة من المفسرين منهم ابن عباس وأصحابه قال ابن عباس : يقدم الذنب ويؤخر التوبة . وقال قتادة وعكرمة : قدما قدما فى معاصى الله لا ينزع من فجوره . ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن حال الانسان إذا شاهد اليوم الذى كذب به .

فقال تعالى : ﴿ فَإِذَا بَرِقَ البَصَرُ ، وَخَسَفَ القَمرُ وَجُمعَ الشَّمْسُ والْقَمرُ يَقولُ الإنسَانُ يَوْمئِذ أَيْنَ الْمفر . كَلَّا لَاوَزَرَ إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذ الْمُسْتَقرُّ ﴾ .

أى : إذا تحير البصر ودهش فلم يطرف من شدة الهول ومن عظم ما يشاهد كما قال تعالى : ﴿ قُلُوبٌ يَوْمئِذٍ وَاجِفَةٌ . أَبْصَارُهَا خَاشعَةٌ ﴾

وقوله : ﴿ وَخَسَفَ الْقَمرُ ﴾ أى : ذَهَبَ ضَوْءُهُ ، كما نعقله من حاله فى الدنيا ، إلا أن الخسوف فى الدنيا انجلاء ، وفى الآخرة لا يعود ضوءه .

وقوله : ﴿ وَجُمِعُ الشَّمْسُ وَالْقَمرُ ﴾ أى : أدرك كل واحد منهما صاحبه وطلعا من المغرب أسودين مكورين مظلمين على ما روى عن ابن مسعود وقد كان هذا مستحيلا فى الدنيا كما جاء فى قوله : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لها أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْل سَابِقُ النَّهار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ يَقُولُ الإنسانُ يَوْمئِذ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴾ أى : إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حنئذ يريد أن يفر ويقول : أين المفر أى : هل من ملجأ أو موئل قال الله تعالى : ﴿ كَلَّا لَاوَزَر . إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمِئَذَ الْمُسَتَقَرُّ ﴾ قال المفسرون : أى : لا نجاة ، ليس لكم مكان تعتصمون فيه ولهذا قال سبحانه : ﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمئِذٍ الْمُسَتَقرُّ ﴾ أى : المرجع والمصير . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمُ مِن قَبْل أن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَردَّ لَهُ مِنَ الله مالكم مَن مَّلْجَأ يَوْمئِذٍ وَمَالكُم مَن نكِير ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر ، بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ .

أى : يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى : ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ولهذا قال ههنا : (بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) أى هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر كما قال تعالى : ﴿ أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ قال مجاهد (ولو ألقى معاذيره) ولو جادل عنها فهو بصير عليها . وقال قتاده وابن زيد والحسن البصرى (ولو ألقى معاذيره) أى حجته . قال ابن كثير والصحيح قول مجاهد وأصحابه كقوله تعالى : ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ وكقوله

تعالى : ﴿ يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ .

(توجيه وإرشاد)

قوله تعالى : ﴿ لاتحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾ .

هذا تعليم من الله ـ عز وجل ـ لرسوله ﷺ فى كيفية تلقيه الوحى من الملك فإنه كان يبادر إلى أخذه ويسابق الملك فى قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له وتكفل الله له أن يجمعه فى صدره وأن ييسره لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه فى صدره والثانية تلاوته والثالثة تفسيره وايضاح معناه .

ولهذا قال تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أى بالقرآن كما قال تعالى : ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علماً ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أى : فى صدرك (وقرآنه) أى : أن تقرأه (فإذا قرأناه) أى : إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى : ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ أى : فاستمع له ثم اقرأه كما أقرأك .

وقوله تعالى : ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أى : بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ونلهمك معناه على ما أردنا وشرعنا . قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحى يلقى منه شدة وكان إذا نزل عليه عرف فى تحريكه شفتيه يتلقى أوله ويحرك به شفتيه خشية أن ينسى أوله قبل أن يفرغ من آخره . فأنزل الله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ وعند البخارى فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب قرأه كما وعده الله عز وجل .

قال العلامة ابن القيم : ومن أسرار السورة إنها تضمنت التأنى والتثبت فى تلقى العلم ، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه ، بل من آداب الرب التى أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقى الوحى ، بل يصبر إلى أن يفرغ أمين الوحى جبريل من قراءاته ثم يقرأه بعد فراغه عليه . فهكذا ينبغى لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضى كلامه ، ثم يعيده عليه . أو يسأل عما أشكل عليه منه ، ولا يبادر قبل فراغه .

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى فى ثلاثة مواضع من كتابه هذا أحدها ، والثانى(ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدنى علما) والثالث (سنقرئك فلا تنسى إلا ماشاء الله) فضمن لرسوله ﷺ أن لا ينسى ماأقرأه إياه . وهذا يتناول القراءة وما بعدها .

قوله تعالى : ﴿ **كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة . وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظره . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقره** ﴾ .

أى : إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ من الوحى والقرآن العظيم انهم إنما همهم إلى الدار الدنيا العاجلة وهم لا هون متشاغلون عن الآخرة .

قال ابن القيم :

وقد ذم الله ـ سبحانه ـ فى هذه السورة من يؤثر العاجلة على الآجلة وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وايثاره ما يبقى ، ورتب كل ذم ووعيد فى هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة ، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة ، وايثاره لها ، واستعجاله لتمتع به فى الآجله أكمل ما يكون . وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة ، والرب سبحانه وصف نفسه يضد ذلك ، فلم يعجل على عبده ، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقى ، وأيقن بالموت ، وهو إلى هذه الحال مستمر على التكذيب والتولى ، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله ، ويحدث له الذكر شيئا بعد شىء ، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال وينبه على مبدأه : من كونه نطفة من منى يمنى ، ثم علقة ، ثم خلقا سويا ، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة ولا بالعقوبة إذا كذب خبره ، وعصى أمره ، بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناه ولهذا ذم الانسان بالعجلة بقوله تعالى : ﴿ **وكان الإنسان عجولا** ﴾ . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾ .

أى فوجوه المؤمنين المخلصين حين تقوم الساعة مضيئة مشرقة ، تشاهد عليها نضرة النعيم . (إلى ربها ناظرة) أى : تنظر إلى ربها عياناً بلا حجاب ، قال جمهور العلماء : المراد بذلك ما تواترت به الأحاديث الصحيحة من أن العباد ينظرون إلى ربهم يوم القيامة .

قال ابن كثير : وهذا ـ بحمد الله مجمع عليه من الصحابة والتابعين وسلف هذه الأمة ، كما هو متفق عليه بين أئمة الاسلام وهداة الأنام .

روى البخارى فى صحيحه « إنكم سترون ربكم عياناً »[1] وروى الشيخان عن أبى سعيد وأبى هريرة : « أن ناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال هل تضارون فى رؤية الشمس والقمر ليس دونها سحاب ؟ قالوا لا . قال : فإنكم ترون ربكم كذلك » .

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ٨ ص١٤٦ ، ١٤٧ كتاب الرقاق باب « الصراط جسر جهنم » فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة

وفى الصحيحين أيضاً عن جرير قال : كنا عند النبى ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا لا تضامون ولا تضارون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قال : (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها) وزاد مسلم « يعنى العصر والفجر » وقال ابن بطال قال المهلب : قوله : « فإن استطعتم أن لا تغلبوا عن صلاة » أى فى الجماعة . قال : وخص هذين الوقتين لاجتماع الملائكة فيهما ورفعهم أعمال العباد لئلا يفوتهم هذا الفضل العظيم . قال الخطابى : هذا يدل على أن رؤية المولى سبحانه وتعالى قد يرجى نيلها بالمحافظة على هاتين الصلاتين .

وروى مسلم عن صهيب عن النبى ﷺ قال « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال ، يقول الله تعالى تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار ؟ قال فينكشف الحجاب ، فماأعطوا شيئاً أحب اليهم من النظر إلى ربهم وهى الزيادة »(٢) ثم تلا هذه الآية : ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ هذه وجوه الكفار تكون يوم القيامة كالحة ، عابسة ، باسرة تستيقن انها هالكة وهذا المقام كقوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

صورة من مشاهد الموت

قال تعالى :

كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾
وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾
وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ
لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ
يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ
﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

(١) انظر البخارى جـ ١ ص ١٠٩ باب ـ فضل صلاة الفجر

(٢) انظر صحيح البخارى جـ ١ ص ١٦٣ كتاب الايمان باب « إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ، فقد ورد الحديث من رواية لصهيب

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

معانى المفردات

(التراقى) العظام المكتفة ثغرة النحر عن يمين وشمال واحدها ترقوة .
(من راق) أى من يرقيه وينجيه مما هو فيه .
(الفراق) أى من الدنيا حبيبته .
(التفت الساق بالساق) أى التوت عليها حين هلع الموت وفلقه ، والمراد أنه اشتد عليه الخطب .
(المساق) المرجع والمآب .
(فلا صدق ولا صلى) أى فلا آمن بقلبه ولا عمل ببدنه .
(يتمطى) أى يتبختر افتخاراً .
(أولى لك) أى ويل لك وهو دعاء عليه بأن يليه ما يكره .
(فأولى) أى فهو أولى بك من غيرك .
(سدى) . أى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يكلف فى الدنيا ولا يحاسب .
(نطفة) أى ماء قليلا وجمعها نطاف ونطف .
(يمنى) أى يراق ويصب فى الرحم .
(علقة) أى قطعة دم جامد .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال القيامة وما يرى فيها من عظيم الأهوال ووصف سعادة السعداء وشقاوة الأشقياء ، بين أن الدنيا لها نهاية ونفاد ثم تكون مرارة الموت وآلامه ، وأن الكافر قد أضاع الفرصة فى الدنيا ، فلا هو صدق بأوامر دينه ، ولا هو أدى فرائضه .

ثم أقام الدليل على صحة البعث من وجهين :

١ ـ أنه لابد من الجزاء على صالح الأعمال وسيئها ، وثواب كل عامل بما يستحق والا تساوى المطيع والعاصى ، وذلك لا يليق بالحكيم العادل جل وعلا .

٢ ـ أنه كما قدر على الخلق الأول وأوجد الانسان من منى يمنى ، فأهون أن يعيده خلقاً آخر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **كلا إذا بلغت التراقى وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق** ﴾ .

(كلا) ردع وزجر : أى ازدجروا وتنبهوا إلى ما بين أيديكم من الموت ، فافلعوا عن ايثار الدنيا على الآخرة ، فستنقطع الصلة بينكم وبينها وتنتقلون إلى الدار الآخرة التى ستكونون فيها مخلدين أبداً .

ثم وصف الحال التي تفارق فيها الروح الجسد فقال :

﴿ إذا بلغت التراقى) أى إذا بلغت الروح أعالى الصدر ، وأشرقت النفس على الموت كقوله تعالى : ﴿ فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ﴾ .

وقوله : ﴿ وقيل من راق ﴾ أى وقال أهله : من يرقيه ليشفيه مما نزل به ؟
قال قتادة : التمسوا له الأطباء فلم يغنوا عنه من قضاء الله شيئا .
﴿ وظن أنه الفراق ﴾ أى وايقن المحتضر أن ما نزل به نذير الفراق من الدنيا والمال والأهل والولد ، وسمى هذا اليقين ظناً لأن المرء ما دامت روحه متعلقة ببدنه يطمع فى الحياة لشدة حبه لهذه العاجلة فلا يحصل له يقين الموت ، بل الظن الغالب مع رجاء الحياة .

وقوله : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ أى التوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكهما ، قال قتادة : أما رأيته إذا أشرف على الموت يضرب برجله على الأخرى ، وقال عكرمة (والتفت الساق بالساق) أى الأمر العظيم بالأمر العظيم . وقال مجاهد بلاء ببلاء وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ هما ساقاك إذا التفتا وفى رواية عنه ماتت رجلاه فلم تحملاه وقد كان عليها جوالا .

وفى رواية عن الحسن . هو لفهما فى الكفن .

وقوله تعالى : ﴿ إلى ربك يومئذ المساق ﴾ أى المرجع والمآب كقوله تعالى : ﴿ ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ شعراً :

الموت فى كل حين ينشر الكفنا
ونحن فى غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها
وان توشحت من أثوابها الحسنا
ابن الأحبة والجيران ما فعلوا
اين الذين هم كانوا لنا سكنا
سقاهم الموت كأساً غير صافية
فصيرتهم لأطباق الثرى رُهُنا

خطب عمر بن العزيز أخر خطبة خطبها فقال فيها : أما بعد « إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للفصل بين عباده ، فقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التى

وسعت كل شىء ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيرثها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، وفى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله ، قضي نحبه وانقضى أجله فتدعونه فى صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وسكن التراب ، وواجه الحساب ، غنياً عما خلف ، فقيراً إلى ما أسلف ، فأتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقيته ، وإنى لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما أعلم عندى ، ولكن استغفر الله وأتوب اليه ، ثم رفع طرف ردائه وبكى حتى شهق ثم نزل ، فما عاد إلى المنبر بعدها حتى مات رحمة الله عليه .

قوله : تعالى : ﴿ **فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى** ﴾ .

قال ابن كثير :

هذا اخبار منه سبحانه عن الكافر الذى كان فى الدار الدنيا مكذباً للحق بقلبه متولياً عن العمل بقلبه فلا خير فيه باطنا ولا ظاهراً ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطي** ﴾ أى جذلاناً أشراً بطراً كسلانا لا همة له ولا عمل كما قال تعالى : ﴿ **وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين** ﴾ وكما قال سبحانه : (إنه كان فى أهله مسرورا إنه ظن أن لن يحور بلى إن ربه كان به بصيراً) .

وقوله تعالى ﴿ **أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى** ﴾

أى ويل لك مرة بعد مرة ، وأهلكك الله هلاكاً أقرب لك من كل شر وهلاك .

ويرى بعض المفسرين أن معنى ﴿ **أولى** ﴾ أحرى فيكون المراد ، النار أولى بك وأحرى .

ثم كرر هذا الوعيد فقال :

﴿ **ثم أولى لك فأولى** ﴾ أى يتكرر هذا الدعاء عليك مرة أخرى فأنت جدير بهذا .

ثم أقام سبحانه الدليل على البعث من وجهين فى قوله تعالى:

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ● ألم يك نطفة من منى يمنى ● ثم كان علقة فخلق فسوى ● فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ● أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ .

الدليل الأول :

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى** ﴾ أى لا يترك الإنسان فى الدنيا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك فى قبره مهملاً لا يحاسب ، بل هو مأمور منهى محشور إلى ربه ، فخالق الخلق لا يساوى الصالح المزكى نفسه بصالح الأعمال ، والطالح المدسى نفسه باجتراح السيئات والآثام كما قال تعالى ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين** ﴾ .

وإذا فلابد من دار للثواب والعقاب والبعث والقيامة .

والدليل الثانى :

قوله تعالى ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ أى أما كان الإنسان نطفة ضعيفة من ماء مهين يمنى يراق من الأصلاب فى الأرحام ؟ ﴿ **ثم كان علقة فخلق فسوى** ﴾ أى فصار علقة ثم مضغة ثم شكل ونفخ فيه الروح فصار خلقاً سوياً سليم الأعضاء ذكراً أو أنثى بإذن الله وتقديره ؟ . ولهذا قال تعالى ﴿ **فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى** ﴾ ثم قال تعالى ﴿ **أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟** ﴾ أى أليس الذى أنشأ هذا الخلق السوى من هذه النطفة المذرة بقادر على أن يعيده كما بدأه ؟ فتلك أهون من البدء فى قياس العقل كما قال تعالى ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

وقد جاء من طرق عدة أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال : سبحانك اللهم وبلى وأخرج أحمد وأبو داود وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ من قرأ منكم : « والتين والزيتون ، **وانتهى إلى آخرها** : أليس الله **بأحكم الحاكمين فليقل : بلى** وأنا على ذلكم من الشاهدين ، ومن قرأ لا أقسم بيوم القيامة فانتهى إلى : أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ، **فليقل بلى** ، وقرأ المرسلات فبلغ فبأى حديث بعده يؤمنون « **فليقل** : آمنا بالله»[1]

بحث فى خلق النطفة

قال الدكتور محمد على البار فى كتابه القيم خلق الانسان بين الطب والقرآن ما ملخصه :

« إن بداية خلق الانسان - إذا تجاوزنا المرحلة الطينية - هى النطفة قد ورد ذكر النطفة فى القرآن الكريم فى اثنى عشر موضعاً . . كما ذكرت أحياناً باسم الماء المهين والماء الدافق . . وتذكر أحيانا باسم المنى وليست هذه الألفاظ مترادفة متطابقة المعنى - كلا - فهى تختلف فى التفاصيل فلفظ المنى مثلاً يشمل النطفة ويزيد عليها بالماء الذى يحتويها . . وهكذا .

والنطفة أنواع ثلاثة :

١ - النطفة المذكرة : وهى الحيوانات المنوية الموجودة فى المنى والتى تفرزها الخصية .

٢ - النطفة المؤنثة : وهى البويضة التى يفرزها المبيض مرة فى الشهر .

٣ - النطفة الأمشاج : وهى النطفة المختلطة من الحيوان المنوى الذى يلقح بالبويضة . أى (البويضة الملقحة) .

المنى :

ويطلق لفظ المنى على الأفرازات التناسلية للرجل والتى تفرزها الخصية والبروستاتا والحويصلة المنوية . . والمنى مكون من شقين !

---

(١) إنظر مسند الإمام أحمد جـ٢ ص٢٤٩ فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة

الأول : هو الحيوانات المنوية التى تتكون من القنوات المنوية فى الخصية .. وهى ذاتها المسماة بالنطفة .

والثانى هو السائل المنوى الذى يحمل هذه الحيوانات ويغذيها والتى تسبح فيه حتى تصل إلى الرحم ..

وقد ورد لفظ المنى فى القرآن الكريم فى ثلاثة مواضع .. وهى

١ - قوله تعالى ﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟** ﴾ القيامة

٢ - وقوله تعالى ﴿ **وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى** ﴾ النجم

٣ - ﴿ **أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون** ﴾ الواقعة .

ما من كل الماء يكون الولد :

والعجيب حقاً (ولا عجب فى الواقع لأن خالق النطفة ومنشئها هو الذى يتحدث عنها) إن القرآن الكريم قد ميز بين النطفة فجعل النطفة جزءاً من المنى فى قوله تعالى ﴿ **ألم يك نطفة من منى يمنى** ﴾ وفى الحديث الشريف « ما من كل الماء يكون الولد وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء أخرجه مسلم . إن هذا الحديث الشريف إعجاز كامل فلم يكن أحد يعلم أن جزءاً يسيراً من المنى هو الذى يخلق منه الولد .. فلم يكن أحد يتصور أن فى القذفة الواحدة من المنى ما بين مائتين إلى ثلاثمائة ميليون حيوان منوى وأن حيواناً منوياً واحداً فقط هو الذى يقوم بتلقيح البويضة .

فالحديث صريح فى أنه ليس من كل الماء يخلق الولد .. وانما من جزء يسير منه .. وأنى لمن عاش قبل أربع عشر قرناً أن يعلم هذه الحقيقة التى لم تعرف إلا فى القرن العشرين إذا لم يكن علمه قد جاء من لدن العليم الخبير وقد دلت على معنى هذا الحديث آية قرآنية كريمة . قال تعالى ﴿ **الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين** ﴾ .. قال المفسرون السلالة هى الخلاصة وخلاصة الماء المهين هى التى يكون منها الولد .. فهناك انتقاء بعد انتقاء من مئات الملايين من الحيوانات المنوية .. فأول ما تخرج يكون عشرين بالمائة منها غير صالح للتلقيح ، ثم يموت فى المهبل عدد كبير منها .. ثم يموت على عنق الرحم عدد آخر ... ثم تذهب مجموعة منها إلى قناة الرحم اليمنى وأخرى إلى قناة الرحم اليسرى ولا تدرى فى أى منها تكون البويضة .. فتهلك تلك التى ذهبت إلى غير مكان البويضة .. ولا يصل فى النهاية إلى البويضة إلا ما يقرب من خمسمائة حيوان منوى فقط وهنا يقع اختيار وانتقاء واصطفاء آخر لحيوان منوى واحد فقط من بين هؤلاء ليتم به تلقيح البويضة وصدق الله العظيم .. وصدق رسوله الكريم الذى يقول « ما من كل الماء يكون الولد .. وإذا أراد الله خلق شىء لم يمنعه شىء » رواه مسلم .[1]

(١) انظر صحيح مسلم جـ٢ ص١٠٦٤ كتاب النكاح باب حكم العزل حديق رقم ١٤٣٨/١٣٣ فقد ورد برواية لأبى سعيد

وهناك اختيار واصطفاء أيضاً للبويضة . . فمبيض الطفلة وهى لاتزن جنيناً فى بطن أمها يحتوى على ستة ملايين بويضة . . فإذا ما خرجت إلى الدنيا مات الكثير منها . . وتستمر هذه البويضات فى أندثارها حتى بلغت القناة المحيض لم يبق منها إلا ثلاثين ألفاً . . وما ينمو منها ويخرج من المبيض لا يزيد عن أربعمائة بويضة فى حياة المرأة كلها . . وفى كل شهر تنمو مجموعة من البويضات ولكن يد القدرة تختار واحدة فقط لتكمل نموها وتخرج لملاقاة الحيوان المنوى السعيد فى الثلث الوحشى لقناة الرحم . .

وهناك اختيار واصطفاء للحيوان المنوى وهناك اختيار واصطفاء للبويضة . بل أن هناك اختيارا واصطفاءاً للبويضة الملقحة والكرة الجرثومية . . فليست كل بويضة تلقحت تصبح جنيناً كاملاً . . كلها فإن الأبحاث الحديثة جداً تقول : إن ٧٨ بالمائة من كل حمل يجهض ويتم اسقاطه . وأن ما يقرب من ٥٠ بالمائة تسقط قبل أن تعلم الأم أنها حامل مصداقاً لحديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه حيث يقول : « إذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكاً فقال يارب مخلقة أوغير مخلقة . فإن قال غير مخلقة مجتها الأرحام دماً » أخرجه ابن أبى حاتم .

ولم تعرف الحيوانات المنوية ومكونات المنى إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث علم دور الحيوانات المنوية فى ايجاد الانسان على ضوء المعلومات الطبية الحديثة وهذا وحده أحد المعجزات العديدة بل التى لا حصر لها بين دفتى الكتاب المجيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

ولم تكتف الآية الكريمة بذلك بل إنها قالت أن خلق الزوجين الذكر والأنثى هو من النطفة التى تمنى . . حيث يقول سبحانه فى نفس الآية الكريمة فجعل منه ﴿ أى المنى ﴾ الزوجين الذكر والأنثى كما يقول فى الآية الكريمة التى فى سورة النجم ﴿ **وإنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى** ﴾ .

فالذكورة والأنوثة فى الجنين يحددها الحيوان المنوى الذى تختاره القدرة الألهية المبدعة فإذا أرادت المشيئة الطليقة ايجاد ولد ذكر لقح حيوان منوى يحمل شارة الذكورة البويضة وإن أراد سبحانه وتعالى أن يخلق أنثى جعل الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة هو الذى يلقح بويضة المرأة .

قال تعالى ﴿ **يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور . أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير** ﴾ .

الذكورة والأنوثة من الذى سيحدد نوع الجنين وجنسه ذكراً أم أنثى ؟ سؤال قديم اختلفت الأجابات حوله . . وجاء القرآن الكريم بفصل الخطاب ولا غرابة فإن الذى خلق أعلم بخلقه ﴿ **ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير** ﴾

يقول المولى ـ عز وجل ـ فى سورة القيامة !

﴿ **أيحسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من منّى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى** ﴾ ؟

ويكون الجواب الوحيد على هذا السؤال بلى إنه على كل شىء قدير .

كما يقول تعالى فى سورة النجم : ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى ﴾ والنطفة التى تمنى هى نطفة الرجل - هى الحيوان المنوى كما نسميه اليوم باصطلاح العلم الحديث .

وقد رأينا فيما سبق كيف أن كل خلية فى جسم الانسان تحتوى على ثلاثة وعشرين زوجاً من الجسميات الملونة . وأن منها زوجاً واحداً هو المسؤول عن جنسه الشخصى وجنسه ذكر أم أنثى كل خلية من خلايا الجسم تنبئك بذلك . . فخلايا الرجل تحتوى على الجسميات الملونة XY بينما خلايا الخصية انقساما اختزالياً فإن ناتج هذا الانقسام هو خلايا أو حيوانات منوية تحتوى على X فقط أو Y فقط أن هذه الحيوانات المنوية مذكرة أو حيوانات منوية مؤنثة ، فالحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة Y يختلف عن الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة X . . وقد استطاع العلماء أن يفرقوا بينهما فى الشكل والمظهر كما فرقوا بينهما فى الحقيقة والمخبر فللحيوان المنوى المذكر وميضاً ولمعاناً فى رأسه بينما الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة يفقد ذلك اللمعان والنور ليس هذا فحسب ولكن الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة أسرع حركة وأقوى شكيمة فى الغالب من زميله الذى يحمل شارة الأنوثة .

وبما أن الأم (البويضة) تعطى دائماً شارة الأنوثة فإن الحيوان المنوى هو الوحيد الذى يحدد بإرادة الله نوع الجنين ذكر أم أنثى . . إذ أنه يحمل شارة الذكورة أو يحمل شارة الأنوثة . . فإذا لقح الحيوان المنوى المذكر البويضة كان الجنين ذكراً بإذن الله . أما إذا لقح البويضة حيوان منوى يحمل شارة الأنوثة فإن نتيجة الحمل هى أنثى بإذن الله وتبقى الآية بعد ذلك كله إعجازاً علمياً كاملاً .

﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى ﴾ .

فالنطفة التى تمنى زوجان : حيوان منوى مذكر وحيوان منوى مؤنث والنطفة التى تمنى تقرر نوعية الجنين وجنسه وصدق الله العظيم .

هل للمرأة دور فى تحديد الذكورة والأنوثة ؟

لقد قررت الآيات الكريمة السابقة أن الذى يحدد ذكورة الجنين أو أنوثته هو الله سبحانه وتعالى بواسطة النطفة التى تمنى ويبدو أن ليس للمرأة من دور واضح فى تحديد الذكورة والأنوثة . . ولكن الحديث الشريف الذى أخرجه مسلم فى صحيحه يقول أن للمرأة دور فى ذلك حيث يقول ﷺ لليهودى الذى سأله عن الولد فقال ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكر بإذن الله وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنث بإذن الله »(١) . . قال اليهودى صدقت وإنك لنبى .

وتضمن الحديث عدة قضايا : أولها صفة ماء الرجل وهو أبيض وصفة ماء المرأة وأنه أصفر . .

والقضية الثانية : هى إذا علا ماء الرجل أذكر بإذن الله وإذا علا ماء المرأة أنث بإذن الله .

ونحن نعلم أن إفرازات المهبل حامضية بينما إفرازات عنق الرحم قلوية . كما نعلم أن إفرازات عنق

---

(١) المرجع السابق

(١) إنظر صيحى مسلم جـ٢ ص١٠٦٤ كتاب النكاح باب حكم العزل حديق رقم ١٤٣٨/١٣٣ فقد ورد برواية لأبى سعيد

الرحم تكون ثخينة ولزجة فى غير وقت الإبياض . . أما عند خروج البويضة من المبيض فإن هذه الافرازات ترف وتخف لزوجتها لتسمح للحيوانات المنوية بالولوج بسهولة .

ونحن إلى الآن لا نعلم دور هذه الإفرازات فى تشجيع الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الذكورة أو الحيوان المنوى الذى يحمل شارة الأنوثة . . ويحتاج الأمر إلى مزيد من الأبحاث لتحديد دور هذه الإفرازات فى تحديد الذكورة أو الأنوثة . وذلك بواسطة تأثيرها على الحيوانات المنوية المذكرة أو المؤنثة . .

ونحن نقول مع ابن القيم (التبيان فى أقسام القرآن) : « ومع هذا كله فهذا جزء سبب وليس بموجب . . والسبب الموجب مشيئة الله فقد يسبب بضد السبب . وقد يرتب عليه ضد مقتضاه ولا يكون فى ذلك مخالفة لحكمته كما لا يكون تعجيزاً لقدرته . . وقد أشار فى الحديث إلى هذا بقوله « أذكر وأنث بإذن الله » وقد قال تعالى : **﴿ لله ملك السموات والأرض ، يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً . إنه عليم قدير ﴾** .

فأخبر سبحانه وتعالى أن ذلك عائد إلى مشيئته . وأنه قد يهب الذكور فقط والإناث فقط وقد يجمع للوالدين بين النوعين معاً . وقد يخليهما عنهما معاً . وأن ذلك راجع إلى مشيئته فهو متعلق بعلمه وقدرته » .

الشبه :

وأما الشبه فموضوع آخر تحدثت عنه الأحاديث النبوية أيضاً فقد يشبه الولد أباه وقد يشبه أمه أو أخواله . . وقد يشبه أحد أجداده . . وقد لا يشبه أياً من آبائه . . فقد جاء فى صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه أن عبد الله بن سلام سأل النبى ﷺ عن الشبه فقال النبى ﷺ « وأما الشبه فى الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له . وإذا سبقت كان الشبه لها » قال عبد الله بن سلام رئيس أحبار اليهود آنذاك أشهد أنك رسول الله فآمن رضى الله عنه .

فالسبق فى الحديث يحدد الشبه فإذا سبق ماء الرجل كان الشبه له وإذا سبق ماء المرأة كان الشبه لها . وهذا لا ينفى أن الولد قد لا يشبه أياً من الوالدين . . كما جاء فى حديث الفزارى الذى أخرجه البخارى ومسلم وأصحاب السنن الأربعة وأحمد والدارقطنى وفيه أن رجلاً من بنى فزارة جاء إلى النبى ﷺ يعرض نفى ولده لأن امرأته ولدت غلاماً أسود فقال النبى ﷺ : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال فما ألوانها ؟ قال أحمر فقال رسول الله ﷺ : هل فيها من أوراق (أى أسمر) قال إن فيها لورقاً . قال فأنى أتاها ذلك ؟ قال عسى أن يكون نزعة عرق »[1] ولم يرخص له فى الانتفاء منه .

وقد دل هنا الحديث على سعة علمه ﷺ مع قدرته التى لا تدانى فى الحوار والاقناع بحيث أرجع

---

(١) انظر صحيح البخارى جـ٧ ص٦٨ ، ٦٩ بكتاب الطلاق « باب إذا عرض بنفس الولد » فقد ورد الحديث من رواية لأبى هريرة .

السائل إلى ما يعهده من إبله سائلاً إياه عن ألوانها حتى إذا قرر السائل الحقيقة بنفسه كانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه . وتزيل ما قد ران على قلبه من ظلال الشك القائمة فى زوجته التى لم يكن لها من ذنب إلا أنها ولدت غلاماً أسود . .

وقد قال أغلب العلماء والأئمة على أنه إذا لم يكن له قرينة يستدل بها على زنى الزوجة فليس له أن يتهمها إذا جاءت بولد لا يشبه أحد أبويه .

وعلم الوراثة الحديث يؤكد أن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر بل بعيد كل البعد عن كلا الأبوين . كما حدث للفزارى الذى جاءته امرأته بغلام أسود . .

والخلاصة أن عوامل الشبه لأحد الوالدين أو للأسلاف أو بظهور صفات جديدة ـ كما حدث للفزارى أمر بالغ التعقيد . . وتعمل فيه الجينات بصورة خفية ومعقدة . . وبعضها يتبع قوانين مندل حسب الصفة السائدة أو متنحية وبعضها لا يتبعها وحتى تلك التى تعتبر خاضعة لقوانين الوراثة قد تتخلف عن تلك القوانين ويعتبر الجنين عندئذ كامل التعبير أو ناقص التعبير ولا يزال العلم الحديث يجهل الكثير الكثير من الحقائق التى تحدد الشبه فى الولد .

ولا ندرى إلى الآن ما هو دور السبق فى ماء الرجل أو ماء المرأة فى الشبه من الناحية العلمية ـ وحتى يتسع مدى العلم فى هذا الباب فإننا نقبل الحديث الشريف بقلوب مطمئنة واثقة بصدق المصطفى صلوات الله عليه الذى لا ينطق عن الهوى والذى لا يقول إلا حقاً . . وينبغى أن يحفز ذلك العلماء المختصين فى هذا الباب لدراسته فقد تنفتح لهم أبواب وتكشف لهم كشوفات . . وهذا معلم من معالم البحث التى ينبغى أن يدرسها العلماء المسلمون المختصون فى هذا الفرع من العلم . أ. هـ .

تفسير سورة الإنسان

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية . وآياتها إحدى وثلاثون . وكلماتها مائتان وأربعون وحروفها : ألف وخمسون .

ونواصل آياتها : على الألف .

ولها ثلاثة أسماء .

سورة (هل أتى) لمفتتحها ، وسورة الإنسان لقوله (على الإنسان) وسورة الدهر ، لقوله : (حين من الدهر) .

مقصود السورة :

بيان مدة خلقة آدم ، وهداية الخلق بمصالحهم ، وذكر ثواب الأبرار ، فى دار القرار ، وذكر المنة على الرسول - ﷺ - وأمره بالصبر وقيام الليل ، والمنة على الخلق بإحكام خلقهم ، وإضافة كلية المشيئة إلى الله فى قوله (يدخل من يشاء فى رحمته) .

مناسبتها لما قبلها :

أنه ذكر فى السورة السابقة الأهوال التى يلقاها الفجار يوم القيامة وذكر فى هذه ما يلقاه الأبرار من النعيم المقيم فى تلك الدار .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ
إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾
إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ
يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾

يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ
حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً
وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا
وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ
كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا
كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ
مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا
وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن
فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم
مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

معاني المفردات

(هل) أي : قد ، (حين) أي : طائفة محدودة من الزمان .
(الدهر) الزمان غير المحدود ، (أمشاج : أي : أخلاط واحدها مشج (بفتحتين) .

(نبتليه) أى : نختبره ، (السبيل) الطريق أى : بنصب الدلائل وإنزال الآيات .

أعتدنا : أى هيأنا وأعددنا .

الأغلال : واحدها غُل (بالضم) وهو القيد .

السعير : النار الموقدة .

الأبرار : واحدهم بر وجمع البار البررة الأبرار وهم أهل الطاعة والإخلاص والصدق .

والكأس : هى الإناء الذى فيه الشراب وقد يطلق الكأس على الخمر نفسها .

والمزاج : ما يمزج به ، أى يكون شوبها وخلطها بماء الكافور ، وجعلت كالكافور لما فيه من البياض وطيب الرائحة والبرودة . (يوفون بالنذر) أى يؤدون ما أوجبوه على أنفسهم من الطاعات .

شره : أى : شدائده .

مستطيراً : أى : قاشياً منتشراً فى الأقطار .

عبوساً : أى : تعبس فيه الوجوه .

قمطريراً : أى : شديد العبوس .

وقاهم : أى : دفع عنهم .

لقاهم : أى : أعطاهم .

نضرة : أى : حسناً وبهاء .

سروراً : أى : حبوراً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ أى كان فى العدم ـ لم يكن له ذكر ولا وجود كقوله تعالى ﴿ أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً ﴾ قال المفسرون (هل أتى) بمعنى قد أتى كما تقول : هل أكرمتك ، هل وعظتك ؟ ومقصودك بأنك قد أكرمته ووعظته ، والمراد بالإنسان الجنس ، وبالحين مدة لبثه فى بطن أمه . والغرض من الآية تذكير الإنسان بأصل نشأته ، فقد كان منسياً لا يفطن له ، وكان فى العدم جرثومة فى صلب أبيه ، وماء مهيناً لا يعلم به إلا الذى يريد أن يخلقه ، ومر عليه حين من الدهر كانت الكرة الأرضية خالية منه ، ثم خلقه الله ، وأبدع تكوينه وإنشاؤه ، بعد أن كان مغموراً ومنسياً لا يعلم به أحد .

وبعد أن قرر أن الإنسان مر عليه وقت لم يكن موجوداً ، أخذ يشرح كيف أفاض عليه نعمة الوجود ، واختبره بالتكاليف الشرعية بعد أن متعه بنعمة العقل والحواس فقال تعالى :

﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ .

قال ابن جرير الطبرى فى تفسيره : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) . إنا خلقنا ذرية آدم من نطفة يعنى من ماء الرجل وماء المرأة . والنطفة كل ماء قليل فى وعاء كان ذلك ركية أو قربة أو غير ذلك .

وقوله تعالى ﴿ أمشاج ﴾ واحدها مشج ومشيج يقال منه إذا مشجت هذا بهذا خلطته وهو مشوج به ، ومشيج أى مخلوط . . وهو اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

وروى بسنده عن عكرمة قوله : أمشاج نبتليه قال : ماء الرجل وماء المرأة يشمج أحدهما بالآخر وروى أيضاً قوله ماء الرجل وماء المرأة يختلطان . وكذا قال ابن عباس والربيع بن أنس والحسن البصرى ومجاهد وكثير من المفسرين القدامى والمحدثين .

وقال تعالى ﴿ **نبتليه** ﴾ أى لنختبره بالتكاليف الشرعية ، والأوامر الإلهية لننظر أيشكر أم يكفر ؟ وهل يستقيم فى سيره أم ينحرف ويزيغ ؟ وقوله ﴿ **فجعلناه سميعاً بصيراً** ﴾ أى فجعلناه من أجل ذلك عاقلاً مميزاً ذا سمع وبصر ، ليسمع الآيات التنزيلية ، ويبصر الدلائل الكونية على وجود الخالق الحكيم .

النطفة الأمشاج فى علم الأجنة

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه (خلق الإنسان بين الطب والقرآن) :

وتخرج البويضة من المبيض مرة واحدة فى الشهر ـ وعليها التاج المشع كأنها عروس تتهادى وتبعث شيئاً من أريجها لتلك الحيوانات المنوية الضارية أذيالها بقوة والسابحة عبر الإفرازات . . وتقطع المفاوز والمخاطر لعلها تحظى ولو بنظرة إلى هذه العروس الفتانة الجميلة وتسير تلك الحيوانات المنوية (نطفة الرجل) باحثة عن البويضة (نطفة المرأة) لا تدرى أين هى : عن يمين أو يسار فتخترق مجموعة منها القناة الرحمية اليمنى وتسير مجموعة أخرى عبر القناة الرحمية اليسرى (تدعى أيضاً قناة فالوب) وهى تمنى النفس بلقاء المحبوب . . فيهلك من يهلك فى تلك المفاوز وعبر تلك المخاطر دون أن يحظى ولو بنظرة من تلك المحبوبة وتشاء القدرة الإلهية المبدعة أن يقترب من البويضة مئات الحيوانات المنوية بينما تحتوى الدفعة الواحدة من المنى لمئات الملايين تهلك معظمها قبل الوصول إلى البويضة وتختار القدرة المبدعة واحداً من ملايين الحيوانات المنوية لتوصله سالماً إلى البويضة فتهش له مرحبة وتفتح له كوة فى صدارها حتى يلج من خلال ذلك الجدار المصمت المحاط بالتاج المشع ـ فإذا ما ولج أوصدت الباب وأحكمت الرتاج وأضافت إلى الجدار جداراً آخر حتى تمنع عنها أى راغب وتصد بابها دون كل لامس إن هذا الوصف يبدو خيالياً ولكنى سأنقل لك عبارة أستاذ علم الأجنة والتشريح فى جامعة عين شمس القاهرة الأستاذ الدكتور شفيق عبد الملك بنصها حيث يقول فى كتابه علم تكوين الأجنة . . « وتبدأ عملية الإخصاب خطواتها بدور الحيوان المنوى الذى إذا أحس بقرب البويضة سرعان ما يفرز مادة خاصة لها قدرة على إذابة جزء من المنطقة

الدائرية بدورها إجابة لذلك مادة أخرى لزجة القوام على سطحها فى منطقة اقتراب الحيوان المنوى تحية وترحيباً به من جهة ، ومساعدة وتسهيلاً لإمكان تعلقه والتصاقه بسطحها من جهة أخرى ـ رجاء إمكان الحيوان المنوى إذابة ما بقى فى المنطقة الدائرية المشعة وكذا المنطقة التى تليها وتحيط بالبويضة . وهى المنطقة الشفافة تمهيداً لوصول الحيوان المنوى إلى غشاء البويضة ونقلها ليدخل البويضة وإذا ما ثقبها ودخلها يغلق الثقب حالاً ولن يسمح لحيوان منوى آخر بالدخول فى البويضة ولذلك يكون نصيب العدد الكثير من الحيوانات المنوية التى حاولت ثقب البويضة والدخول فيها ولم تفلح أن تظل ملتصقة ومعلقة بمنطقة البويضة الشفافة حتى تتلاشى ، وإذا ما دخل الحيوان المنوى إلى البويضة هشت له نواتها ومكمن السر فيها لتكون النواة الأولية للأنثى أو الطليعة للأنثى كما أن نواة الحيوان المنوى المتجمعة فى رأسه تفعل الشىء ذاته وتكون الأولية للذكر .

وعند دخول الحيوان المنوى تكمل نواة الأنثى إنقسامها الاختزالى الذى بدأته منذ كانت جنيناً فى رحم أمها . . أى منذ عشرات السنين ـ وتتقابل النوتان المذكرة والمؤنثة وجهاً لوجه ويقوم مريكيز الحيوان المنوى بتكوين أشعة مغزلية فى قطبى الخلية الأمشاج وعندئذ يحصل أول انقسام عادى فى الخلية الأمشاج . . وتنتقل نصف الكروموسومات (الجسيمات الملونة) فى كل من الذكر والأنثى إلى جهة كما ينتقل النصف الآخر إلى الجهة المقابلة . . وسرعان ما ينزل بينهما جدار يفصل بينهما ليكون أول خليتين تامتين من هذه النطفة الأمشاج .

مرحلة الانشقاق والانقسام
فى النطفة الأمشاج

حالما يتم التخصيب وتتكون النطفة الأمشاج من الحيوان المنوى والبويضة . . تصنع يد القدرة للبويضة الملقحة جداراً سميكاً مصمتاً لا يمكن لأى حيوان منوى آخر اختراقه كما أنها تخلع عنها تاجها المشع الذى كان يغرى الحيوانات المنوية بالاقتراب منها ومنذ تلك اللحظة تبدأ بالعمل الجاد وتبدأ بالانشطار : الخلية تصبح خليتان والخليتان أربع وهكذا دواليك حتى تتكون مئات الخلايا على هيئة ثمرة التوت عندئذ تسمى التوتة فإذا ما كبرت الكرة قليلاً صار ما بداخلها مجوفاً وبه سائل رقيق وعندئذ تدعى بالتكور الجرثومى أو البلاستولا .

وفى هذه الأثناء لا تكف البويضة الملقحة أو النطفة الأمشاج عن الحركة (تتحرك النطفة الأمشاج بواسطة شعيرات قناة الرحم وتقلصات جداره . وليست لها وسيلة للحركة الذاتية) .

وإن كانت حركة بطيئة فهى تنتقل من الثلث الوحشى لقناة الرحم (قناة فالوب) حيث يتم التلقيح وتتجه عبر القناة الرحمية حتى تقترب من الرحم وفى خلال خمسة أيام أو أسبوع على الأكثر تكون قد وصلت إلى الرحم وهناك تنظر أين تتوسد وتتغرز .

وتوجهها يد العناية الإلهية إلى أن خير مكان لها هو النصف العلوى من الرحم وخاصة جداره الخلفى ـ وهناك تنشب وتعلق فى جدار الرحم الذى قد استعد لاستقبالها بفرش الطنف والوسائد وجعل جداره مليئاً بالأوعية الدموية حتى يغذيها وينميها .

وعندما تنغرز الكرة الجرثومية تكون قد تحولت من نطفة الأمشاج إلى علقة وتبدأ عندئذ مرحلة جديدة فى حياة الجنين .. وهى مرحلة العلقة : ـ أ. هـ .

قوله تعالى :

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ، إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا ﴾

ثم ذكر أنه بعد أن ركبه وأعطاه الحواس الظاهرة والباطنة بين له سبيل الهدى وسبيل الضلال فقال (**إنا هديناه السبيل**) أى بيناه ووضحناه وبصرناه به كقوله تعالى ﴿ **ألم نجعل له عينين ولساناً وشفتين وهديناه النجدين** ﴾ أى بينا له طريق الخير وطريق الشر .

وقوله : ﴿ **إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ أى فهو فى ذلك إما شقى وإما سعيد كما جاء فى مسند الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن النبى ـ ﷺ ـ قال لكعب بن عجرة : « أعاذك الله من إمارة السفهاء » قال وما إمارة السفهاء ؟ قال «أمراء يكونون من بعدى لا يهتدون بهداى ، ولا يستنون بسنتى فمن صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم ، فأولئك ليسوا منى ولست منهم ولا يردون على حوضى ، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فأولئك منى وأنا منهم وسيردون على حوضى ، يا كعب بن عجرة : الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة ، والصلاة قربان ـ أو قال برهان ـ يا كعب بن عجرة : إنه لا يدخل الجنة لحم نبت من سحت ، النار أولى به ، يا كعب بن عجرة : الناس غاديان فمبتاع نفسه فمعتقها ، وبائع نفسه فموبقها »(١) ، وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « ما من خارج يخرج إلا ببابه رايتان : راية بيد ملك ، وراية بيد شيطان فإن خرج لما يحب الله اتبعه الملك برايته فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته ، وإن خرج لما يسخط الله اتبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته » .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا اعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالاً وسعيراً** ﴾ ، أى إنا هيأنا لمن كفروا بنعمتنا وخالفوا أمرنا وسلكوا سبيل الضلال ـ سلاسل بها يقادون إلى الجحيم ، وأغلالاً بها تشد أيديهم إلى أعناقهم كما يفعل بالمجرمين فى الدنيا ، وناراً بها يحرقون . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون** ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ **إن الله لعن الكافرين** وأعد لهم سعيراً خالدين فيها أبداً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ .

وبعد أن ذكر ـ سبحانه ـ ما أعده للكافرين بين ما أعده للشاكرين من شراب شهى ولباس بهى فقال تعالى :

---

(١) إنظر مسند الإمام أحمد جـ٣ ص٣٢١ فقد ورد الحديث من رواية لجابر بن عبد الله

﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ .

أى : إن الذين بروا بطاعتهم ربهم ، فأدوا فرائضه ، واجتنبوا معاصيه ـ يشربون من خمر كان مزاج ما فيها من الشراب كالكافور طيب رائحة وبرداً وبياضاً .

وهذا المزاج من عين يشرب منها عباد الله المتقون وهم فى غرف الجنات ، يسوقونها إليهم سوقاً سهلاً إلى حيث يريدون ، وينتفعون بها كما يشاءون ، ويتبعهم ماؤها إلى كل مكان يحبون وصوله إليه .

قال مجاهد : يقودونها حيث شاءوا ، وتتبعهم حيث مالوا . ثم ذكر ما لأجله استحقوا الكرامة قال تعالى :

﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ .

أى : يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر :

قال الإمام مالك بسنده عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه »[1] ورواه أيضاً البخارى من حديث مالك . وقوله تعالى : **﴿ ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾** أى ويتركون المجرمات التى نهاهم عنها خيفة من سوء الحساب يوم المعاد وهو اليوم الذى شره مستطير أى منتشر عام على الناس إلا من رحم الله . كقوله تعالى : **﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾** .

وقوله تعالى : **﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾** أى ويطعمون الطعام فى حال محبتهم وشهوتهم كقوله تعالى **﴿ وآتى المال على حبه ﴾** وكقوله تعالى **﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾** .

وفى الحديث الصحيح « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى »[2] ، أى فى حال محبتك للمال وحرصك عليه وحاجتك إليه ولهذا قال تعالى : **﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ﴾** المسكين هو العاجز عن الاكتساب واليتيم : الذى مات كاسبه ، والأسير : المأخوذ من قومه ، المملوكة رقبته ، الذى لا يملك لنفسه قوة ولا حيلة .

(١) انظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٥٩ باب النذر فى الطاعة فقد ورد الحديث بلفظه عن عائشة

(٢) انظر صحيح مسلم جـ ٢ ص ٧١٦ باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح حديث ١٠٣٢/٩٢ فقد ورد هطا الجزء من حديث طويل لأبى هريرة

والمراد من إطعام الطعام ، الإحسان إلى المحتاجين ، ومواساتهم بأى وجه كان وإنما خص الطعام لكونه أشرف أنواع الإحسان لا جرم أن عبر به عن جميع وجوه المنافع .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا** ﴾ أى نطعمكم رجاء ثواب الله ورضاه (لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) أى لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ولا أن تشكرونا عند الناس قال مجاهد وسعيد بن جبير أما والله ما قالوه بألسنتهم ولكن علم الله به من قلوبهم فأثنى عليهم به ليرغب فى ذلك راغب .

قال تعالى : ﴿ **وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنْتُم لا تُظلمون** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **إنا نخافُ مِن ربِّنا يوماً عبُوساً قَمْطرِيراً** ﴾ أى إنما نفعل هذا لعل الله أن يرحمنا ويتلقانا بلطفه فى اليوم العبوس القمطرير . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما عبوساً أى ضيقاً ، قمطريراً أى طويلاً ، قال ابن جرير والقمطرير هو الشديد ، وذلك أشد الأيام وأطولها فى البلاء .

قال الله تعالى : ﴿ **فوقاهُم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسروراً وجزاهم بما صَبرُوا جنَّة وحريرا** ﴾ .

أى آمنهم الله سبحانه مما خافوا منه (**ولقاهم نضرة**) أى وأعطاهم نُضرة فى وجوههم كما قال تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ (وسروراً) أى فى قلوبهم فقد جمع لأولوياته بين جمال الظاهر والباطن : فزين وجوههم بالنضرة وبواطنهم بالنظر إليه سبحانه فلاأجمل لبواطنهم . ولا أنعم ، ولا أحلى - من النظر إليه ، ولا أجمل لظواهرهم من نضرة الوجه ، وهى إشراقه وتحسينه وبهجته .

وقوله تعالى : ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنَّةً وحريراً** ﴾ أى بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم جنّة وحريراً أى منزلاً رحباً وعيشاً رغداً ، ولباساً حسناً . وأخبر سبحانه أن ملائكته تسلم عليهم فى الجنة بصبرهم كما قال) ﴿ **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعمَ عُقْبى الدَّار** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ، ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قواريرا من فضة قدّروها تقديرا ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً عيناً فيها تسمى سلسبيلا** ﴾ .

يخبر تعالى عن أهل الجنة وما هم فيه من النعيم المقيم وما أسبغ عليهم من الفضل العميم فقال تعالى : ﴿ **متكئين فيها على الآرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً** ﴾ أى متكئين فى الجنة على السرر فى الحجال ، ليس لديهم حر مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل جو واحد معتدل دائم سرمدى ، فهم لا يبغون عنها

حولا . وقوله : ﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ أى أن ظلال أشجار الجنة قريبة من الأبرار ، مظللة عليهم زيادة فى نعيمهم . كقوله تعالى : ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ وكقوله ﴿ وظل ممدود ﴾ وكقوله ﴿ إن المتقين فى ظلال وعيون ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون ، هم وأزواجهم فى ظلالٍ على الأرائِك مُتَّكِئُون ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ أى سخرت للقائم والقاعد والمتكىء . قال مجاهد : إن قام ارتفعت منه بقدر ، وإن قعد تدلت له حتى ينالها ، وكذلك إذا اضطجع ، لا يردُّ اليد عنها بُعدٌ ولا شوك .

وعن البراء بن عازب قال : إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين وعلى أى حال شاءوا .

وبعد أن وصف ـ سبحانه ـ طعامهم ولباسهم ومسكنهم ـ وصف شرابهم وأوانيه فقال تعالى : ﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قواريرا من فضة قدَّروها تقديراً ﴾ أى يدبر عليهم خدمهم كؤوس الشراب والأكواب من الفضة . وقد تكونت وهى جامعة لصفاء الزجاجة وشفيفها ، وبياض الفضة ولينها كفايتهم وريهم . وذلك ألذ لهم وأخف عليهم ، فهى ليست بالملآى التى تفيض ، ولا بالناقصة التى تغيض .

وقوله تعالى : ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مِزاجها زنجبيلاً ﴾ أى (كان مزاجها زنجبيلا) فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل وهو حار ليعتدل الأمر وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ومن هذا تارة ، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منها حرفاً . كما قاله قتادة وغير واحد ، وقوله : ﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ أى الزنجبيل عين فى الجنة تسمى سلسبيلاً . وسميت بذلك لسلاسة سيلها وحدة جريانها ، وكذلك لسلاستها فى الحلق .

وقوله تعالى : ﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثورا ، وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً عاليهم ثياب سندس خضرٌ وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً . إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ .

أى : ويطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة (مخلدون) أى على حالة واحدة مخلدون عليها لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن . وقوله : ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أى إذا رأيتهم فى انتشارهم فى قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً وقد وصفهم سبحانه أيضاً بقوله : ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت ثَمّ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ أى وإذا رأيت يا محمد (ثم) أى هناك يعنى فى الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحيرة والسرور (رأيت نعيماً وملكاً كبيراً) أى مملكة الله هناك عظيمة وسلطاناً باهراً .

وثبت فى الصحيح أن الله تعالى يقول لآخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً إليها فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها »(١) .

وقوله تعالى : ﴿ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ﴾ أى لباس أهل الجنة فيها الحرير ومنه سندس وهو رفيع الحرير كالقمصان وهو مما يلى أبدانهم ، والاستبرق منه ما فيه بريق ولمعان وهو مما يلى الظاهر كما هو المعهود فى اللباس (وحلوا أساور من فضة) وهذه صفة الابرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى :﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ . ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلى قال بعده : (وسقاهم ربهم شراباً طهوراً) أى طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون ، ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما فى صدورهم من غلٍ إخواناً على سرر متقابلين ، لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أى يقال لهم ذلك تكريماً لهم وإحساناً إليهم كما قال تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ . وكقوله تعالى : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أى جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير . وكما حكى سبحانه عن أهل الجنة : ﴿ وقالوا الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

توجيهات ربانية

قال تعالى :

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ
مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ
ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ
وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا
شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ

(١) إنظر صحيح البخارى جـ ٤ ص ١٣٩ باب صفة الجنة والنار فقد ورد هذا الجزء من الحديث من حديث طويل لعبد الله

سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾
يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

معانى المفردات

تنزيلاً : أى أنزلناه عليك مفرقاً منجماً .
حكم ربك : هو تأخير نصرك على الكفار إلى حين .
والآثم : هو الفاجر المجاهر بالمعاصى .
والكفور : هو المشرك المجاهر بكفره .
(بكرة وأصيلا) أى : أول النهار وآخره . والمراد بذلك جميع الأوقات .
(اسجد) أى : صل .
(سبحه) أى : تهجد .
(وراءهم) أى : أمامهم .
(شددنا أسرهم) أى : أحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب والعروق .
(بدلنا أمثالهم) أى : أهلكناهم ، وبدلنا أمثالهم فى شدة الخلق .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الآخرة ، وبين عذاب الكفار على سبيل الاختصار ، وثواب المطيعين على سبيل الاستقصاء أردف ذلك ذكر أحوال الدنيا ، وقدم أحوال المطيعين ، وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته على أحوال المتمردين والمشركين .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ، فاصبر لحكم ربك ،ولا تطع منهم آثما أو كفورا ﴾** .

يقول تعالى ممتنا على رسوله صلى الله عليه وسلم بما أنزله عليه من القرآن العظيم ﴿ تنزيلا ﴾ أى : أنزلناه مفرقاً منجماً على مدى ثلاث وعشرين سنة ، ليكون أسهل لحفظه وتفهمه ودراسته ، ولتكون الأحكام آتية وفق الحوادث التى تجد فى الكون ، فتكون تثبيتا لايمان المؤمنين وزيادة فى تقوى المتقين قال تعالى **﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً ﴾** .

وقد يكون المعنى : نزلنا عليك ولم تأت به من عندك كما يدعيه المشركون ، ويراد من ذلك تثبيت قلب رسوله صلى الله عليه وسلم وشرح صدره ، وأن الذى أنزل عليه وحى لا كهانة ولا سحر وبذا تزول الوحشة من قول الكفار : إنه كهانة أو سحر . وقوله تعالى ﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ أى كما أكرمك بما أنزل عليك فاصبر على قضائه وقدره واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره . ﴿ **ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً** ﴾ أى لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل اليك ، بل بلغ ما أنزل إليك من ربك وتوكل على الله ، فإن الله يعصمك من الناس . ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **يا أيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ، واتبع ما يوحى اليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا** ﴾ أى أول النهار وآخره والمراد بذلك جميع الأوقات كما قال تعالى ﴿ **واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والأصال ولا تكن من الغافلين** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى** ﴾ .

أذكار الصباح والمساء

قال ابن القيم فى كتابه « الوابل الصيب من الكلم الطيب » (فى ذكر طرفى النهار) « وهما ما بين الصبح وطلوع الشمس ، وما بين العصر والغروب . قال سبحانه وتعالى ﴿ **يا يها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً** ﴾ والأصيل : قال الجوهرى هو الوقت بعد العصر إلى المغرب وقال تعالى : ﴿ **وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار** ﴾ فالابكار أول النهار والعشى آخره ، وقال تعالى ﴿ **فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب** ﴾ وهذا تفسير ما جاء فى الأحاديث : من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسى ، أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ، وأن محل هذه الاذكار بعد الصبح وبعد العصر .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من قال حين يصبح وحين يمسى سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به ، إلا أحد قال مثل ما قال أو زاد عليه »[1] .

(١) انظر صحيح مسلم جـ ٤ ص ٢٠٧١ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء رقم ٢٩/٢٦٩٢ فقد ورد الحديث برواية عن أبى خريرة

وفى صحيحه أيضاً عن ابن مسعود قال : كان نبى الله صلى الله عليه وسلم إذا أمسى قال « أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . رب أسألك خير ما فى هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها . رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، رب أعوذ بك من عذاب فى النار ، وعذاب فى القبر . وإذا أصبح قال ذلك أيضاً : أصبحنا وأصبح الملك لله . . . »[١] .

وفى السنن عن عبد الله بن حبيب قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « قل » قلت : يا رسول الله ، ما أقول ؟ قال (قل هو الله أحد) والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاث مرات تكفيك من كل شىء قال الترمذى : حديث حسن صحيح . (وهذا اللفظ لأبى داود) . وفى الترمذى أيضاً عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه يقول : إذا أصبح أحدكم فليقل : اللهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا وبك نحيا ، وبك نموت واليك النشور وإذا أمسى فليقل : اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » قال الترمذى حديث حسن صحيح .

وفى صحيح البخارى عن شداد بن أوس عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم قال « سيد الاستغفار : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فا غفرلى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها حين يمسى فمات من ليلته دخل الجنة ، ومن قالها حين يصبح فمات من يومه دخل الجنة »[٢] .

وفى سنن الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم مرنى بشىء أقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت . قال : قل : اللهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض ، رب كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه ، وأن اقترف على نفسى سوءاً أو أجره إلى مسلم . قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك »[٣] قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى أيضاً عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من عبد يقول فى صباح كل يوم ومساء كل ليلة بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ـ ثلاث مرات ـ فيضره شىء » قال الترمذى : حديث حسن صحيح[٤]

وفيه أيضاً عن ثوبان وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يمسى وإذا يصبح : رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا كان حقاً على الله أن يرضيه »

(١) إنظر صحيح مسلم جـ ٤ ص٢٠٨٨ كتاب الذكر والدعاء باب فضل التهليل والتسبيح ـ رقم ٧٥ / ٢٧٢٣ فقد ورد الحديث برواية لعبد الله

(٢) إنظر صحيح البخارى جـ ٤ ص٩٨ « كتاب الدعوات » باب أفضل الاستغفار فقد ورد الحديث من رواية لشداد بن أوس

(٣) إنظر سنن الترمذى كتاب الدعوات جـ ٥ ص١٣٤ رقم ٣٤٥٢

(٤) إنظر سنن الترمذى كتاب الدعوات جـ ٥ ص١٣٢ رقم ٣٤٤٨

وقال : حديث حسن صحيح[١] .

وفى الترمذى أيضاً عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«من قال حين يصبح أو يمسى : اللهم إنى أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت ، وأن محمداً عبدك ورسولك أعتق الله ربعه من النار ، ومن قالها مرتين اعتق نصفه من النار ومن قالها ثلاثا أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار ، ومن قالها أربعاً أعتقه الله من النار »[٢] .

وفى سنن أبى داود عن عبد الله بن غنام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :«من قال حين يصبح : اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك ، لك الحمد ولك الشكر . فقد أدى شكر يومه . ومن قال مثل ذلك . حين يمسى فقد أدى شكر ليلته »[٣] .

وفى السنن وصحيح الحاكم عن عبد الله بن عمر قال : لم يكن النبى صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح « اللهم إنى أسألك العافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم أستر عوراتى وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى »[٤] قال وكيع يعنى الخسف . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ هذه الآية كقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وكقوله ﴿ يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ والمقصود أن يكون عابداً لله ذاكراً له فى جميع الأوقات ، فى الليل والنهار ، والصباح والمساء ، بقلبه ولسانه ، ليتقوى على مجابهة أعدائه كما قال تعالى : ﴿ ولقد تعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

هديه - صلى الله عليه وسلم - فى قيام الليل

قال ابن القيم فى الزاد :

وقد اختلف السلف والخلف فى أنه هل كان فرضاً عليه أم لا ، والطائفتان احتجوا بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ قالوا فهذا صريح من عدم الوجوب ، قال الآخرين أمره بالتهجد فى هذه السورة كما أمره فى قوله تعالى ﴿ يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا ﴾ ولم يجىء ما ينسخه عنه ، وأما قوله تعالى ﴿ نافلة لك ﴾ فلو كان المراد به التطوع لم يخصه بكونه نافلة لك وانما المراد بالنافلة الزيادة

(١) إنظر سنن الترمذى كتاب الدعوات جـ ٥ ص١٣٣ رقم ٣٤٤٩
(٢) المرجع السابق
(٣) انظر سند ابى داود جـ ٥ ص٣١٤ كتاب الأدب باب مايقول إذا اصبح وإذا أمس
(٤) انظر المستدرك للحاكم جـ ١ ص٣١٣ كتاب باب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر

ومطلق الزيادة لا يدل على التطوع قال تعالى ﴿ **ووهبنا له اسحاق ويعقوب نافلة** ﴾ أى زيادة على الولد . وكذلك النافلة فى تهجد النبى صلى الله عليه وسلم زيادة فى درجاته وفى أجره ، ولهذا خصه بها فإن قيام الليل فى حق غيره مباح ومكفر للسيئات وأما النبى صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فهو يعمل فى زيادة الدرجات وعلو المراتب وغيره يعمل فى التكفير . قال مجاهد : إنما كان نافلة للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكانت طاعته نافلة أى زيادة فى الثواب ولغيره كفارة لذنوبه . قال ابن المنذر فى تفسيره بسنده عن مجاهد قال ما سوى المكتوبة فهو نافلة من أجل أنه لا يعمل فى كفارة الذنوب وليست للناس نوافل انما هى للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة والناس جميعاً ما سوى المكتوبة لذنوبهم فى كفارتها .

قال ابن القيم : والمقصود أن النافلة فى الآية لم يرد بها ما يجوز فعله وتركه كالمستحب والمندوب وانما المراد بها الزيادة فى الدرجات وهذا قدر مشترك بين الفرض والمستحب فلا يكون قوله (نافلة لك) نافياً لما دل عليه الأمر من الوجوب .

ولم يكن صلى الله عليه وسلم يدع قيام الليل حضراً ولا سفراً وكان إذا غلبه النوم أو وجع صلى من النهار اثنتى عشرة ركعة فسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول فى هذا دليل على أن الوتر لا يقضى لفوات محله فهو كتحية المسجد وصلاة الكسوف والاستقاء ونحوها لأن المقصود أن يكون آخر صلاة الليل وتراً كما أن المغرب آخر صلاة النهار فإذا انقضى الليل وصليت الصبح لم يبلغ الوتر موقعه هذا معنى كلامه .

وكان قيامه ﷺ بالليل احدى عشرة ركعة أو ثلاث عشرة كما قاله ابن عباس وعائشة فإنه ثبت عنهما هذا وهذا ففى الصحيحين عنها ما كان رسول الله ﷺ يزيد فى رمضان ولا غيره على احدى عشرة ركعة .

وفى الصحيحين أيضا كان رسول الله ﷺ يصلى من الليل ثلاث عشرة ركعة يوتر من ذلك بخمس لا يجلس فى شىء إلا فى آخرهن . والصحيح عن عائشة الأول والركعتان فوق الأحدى عشر هما ركعتا الفجر جاء ذلك مبينا فى هذا الحديث بعينه وكان رسول الله ﷺ يصلى ثلاث عشرة ركعة بركعتى الفجر ذكره مسلم فى صحيحه[1] . وقال البخارى فى هذا الحديث كان رسول الله ﷺ يصلى بالليل ثلاث عشرة ركعة ثم يصلى إذا سمع النداء بالفجر ركعتين خفيفتين . .

(فصل فى سياق صلاته ﷺ بالليل ووتره وذكر صلاة أول الليل) .

قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ : ما صلى رسول الله ﷺ العشاء قط فدخل علىّ إلا صلى أربع ركعات أو ست ركعات ثم يأوى إلى فراشه . وقال ابن عباس لما بات عنده صلى العشاء ثم جاء ثم صلى ثم نام. ذكرهما ـ أى الحديثين ـ أبو داود وكان إذا استيقظ بدأ بالسواك ثم يذكر الله تعالى (يقول : لا إله

(١) إنظر صحيح مسلم جـ١ ص٥٠٨ كتاب الصلاة باب صلاة الليل

إلا أنت سبحانك اللهم استغفرك لذنبى وأسألك رحمتك ، اللهم زدنى علما ولا تزغ قلبى بعد إذ هديتنى وهب لى من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ، وكان يقول إذا انتبه من نومه « الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ثم يقول وربما قرأ العشر الآيات من آخر آل عمران من قوله تعالى ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض** ﴾ إلى آخرها وقال اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت إلهى لا إله إلا أنت . . .) ثم بعد ذلك يتطهر ثم يصلى ركعتين خفيفتين كما فى صحيح مسلم عن عائشة قالت كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل افتتح بركعتين خفيفتين وأمر بذلك فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال « إذا قام أحدكم من الليل فليفتتح صلاته بركعتين خفيفتين رواه مسلم . وكان يقوم إذا سمع الصارخ وهو الديك وهو انما يصيح فى النصف الثانى وكان يقطع ورده تارة ويصليه تارة وهو الأكثر . كما قال ابن عباس فى حديث مبيته عنده أنه ﷺ استيقظ فتسوك وتوضأ وهو يقول (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة ثم قام فصلى ركعتين أطال فيهما القيام والركوع والسجود ثم انصرف فنام حتى نفخ ثم فعل ذلك ثلاث مرات بست ركعات كل ذلك يستاك ويتوضأ ويقرأ هؤلاء الآيات ثم أوتر بثلاث فأذن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول اللهم اجعل فى قلبى نورا وفى لسانى نورا واجعل فى سمعى نورا واجعل فى بصرى نورا واجعل من خلفى نورا ومن أمامى نورا واجعل لى من فوقى نورا ومن تحتى نورا اللهم أعطنى نورا » رواه مسلم ولم يذكر ابن عباس افتتاحه بركعتين خفيفتين كما ذكرته عائشة فأما أنه كان يفعل هذا تارة وهذا تارة وأما أن تكون عائشة حفظت ما لم يحفظ ابن عباس وهو الأظهر لمواظبتها له ولمراعاتها ذلك ولكونها أعلم الخلق بقيامه الليل وابن عباس انما شاهده ليلة المبيت عند خالته وإذا اختلف ابن عباس وعائشة فى شىء من أمر قيامه بالليل فالقول ما قالت عائشة .

وكان قيامه بالليل ووتره أنواعا فمنها هذا الذى ذكره ابن عباس .

والنوع الثانى الذى ذكرته عائشة أنه يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين ثم يتمم ورده إحدى عشرة ركعة يسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة .

النوع الثالث : ثلاث عشرة ركعة كذلك . النوع الرابع يصلى ثمان ركعات يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بخمس سرداً متوالية لا يجلس فى شىء إلا فى آخرهن . النوع الخامس : تسع ركعات يرد منهن ثمانياً لا يجلس فى شىء منهن إلا فى الثامنة يجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويدعوه ثم ينهض ولا يسلم ثم يصلى التاسعة ثم يقعد ويتشهد ويسلم ثم يصلى ركعتين جالساً بعد ما يسلم . النوع السادس : يصلى سبعاً كالتسع المذكورة ثم يصلى بعدها ركعتين جالساً . النوع السابع : أنه كان يصلى مثنى مثنى ثم يوتر بثلاث لا يفصل بينهن فهذا رواه الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنه كان يوتر بثلاث .

النوع الرابع : ما رواه النسائى عن حذيفة أنه صلى مع النبى ﷺ فى رمضان فركع فقال فى ركوعه سبحان ربى العظيم مثل ما كان قائما ثم جلس يقول رب اغفر لى ، رب اغفر لى مثل ما كان قائما فما صلى إلا أربع ركعات حتى جاء بلال يدعوه إلى الغداة . وأوتر أول الليل ووسطه وآخره وقام ليلة تامة بآية يتلوها ويرددها حتى الصباح وهى قوله تعالى ﴿ **إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم** ﴾[1] وكانت صلاته بالليل ثلاثة أنواع . أحدها وهو أكثرها صلاته قائماً . الثانى أنه كان يصلى قاعداً ويركع قاعداً . الثالث أنه كان يقرأ قاعداً فإذا بقى يسير من قراءته قام فركع قائماً . والانوع الثلاثة صحت عنه ﷺ . ا.هـ .

قوله تعالى : ﴿ **إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا** ﴾ أى إن هؤلاء المشركين بالله يحبون الدنيا وتعجبهم زينتها وينهمكون فى لذاتها الفانية ، ويدعون خلف ظهورهم العمل لليوم الآخر وما لهم فيه النجاة من أهواله وشدائده .

قوله تعالى : ﴿ **نحن خلقناهم وشددنا أسرهم وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا** ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد فى قوله تعالى ﴿ **وشددنا أسرهم** ﴾ أى وشددنا خلقهم ﴿ **وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا** ﴾ أى وإذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم فأعدناهم خلقاً جديداً ، وهذا استدلال بالبداءة على المرجعة كما قال تعالى ﴿ **إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان الله على ذلك قديرا** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز** ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ **إن هذه تذكرة** ﴾ يعنى هذه السورة تذكرة وقد كان ﷺ يقرأ يوم الجمعة فى صلاة الصبح ﴿ **ألم تنزيل** ﴾ السجدة ، ﴿ **وهل أتى على الانسان ؟** ﴾ رواه مسلم . قال ابن تيمية رحمه الله كان ﷺ يقرأ هاتين السورتين فى فجر الجمعة لأنهما تضمنتا ما كان ويكون فى يومها فإنهما اشتملتا على خلق آدم وعلى ذكر المعاد وحشر العباد وذلك يكون يوم الجمعة وكان فى قراءتها فى هذا اليوم تذكير للأمة بما كان فيه ويكون والسجدة جاءت تبعاً ليست مقصودة حتى يقصد المصلى قراءتها حيث اتفقت .

وقوله تعالى : ﴿ **فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا** ﴾ أى فمن شاء الخير لنفسه فى الدنيا والآخرة ، فليتقرب إلى ربه بالطاعة ، ويتبع ما أمره به ، وينته عما نهاه عنه ، ليحظى بثوابه ، ويبتعد عن عقابه .

وقوله تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله** ﴾ أى وما تشاءون اتخاذ السبيل الموصلة إلى النجاة ولا تقدرون على تحصيلها إلا إذا وفقكم الله لاكتسابها ، وأعدكم لنيلها فلا يقدر أحد أن يهدى نفسه ولا يدخل فى الايمان ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿ **إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما** ﴾ أى عليم بمن يستحق الهداية فييسرها له ويقيض له أسبابها ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة ولهذا قال تعالى ﴿ **إن الله كان عليما حكيما** ﴾ ثم قال جل فى علاه ﴿ **يدخل من يشاء فى رحمته**

---

(١) إنظر سنن النسائى كتاب الصلاة باب ما يقول فى قيامه جـ ٢ ص ١٩٩ - ٢٠٠

والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ أى يهدى من يشاء ويضل من يشاء فمن يهده فلا مضل له . ومن يضلل فلا هادى له .

« اللهم أنت الملك ، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنبى جميعا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، واهدنى لأحسن الأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس اليك ، والمهدى من هديت ، أنا بك وإليك لا منجا ولا ملجأ منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، استغفرك وأتوب إليك » .

تفسير سورة المرسلات

مقدمة

قال صاحب البصائر عن هذه السورة الكريمة :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمسون .

وكلماتها : مائة وإحدى وثمانون .

وحروفها : ثمانمائة وستة عشر .

مجموع فواصل آياتها : (عبرتم لنا) على اللام الفصل فى الموضعين ، وعلى الراء (القصر) (صفر) ، وعلى الباء (شعب) (واللهب) .

وسميت سورة المرسلات ، لمفتتحها .

معظم مقصود السورة :

القسم بوقوع القيامة ، والخبر عن إهلاك القرون الماضية ، والمنة على الخلائق بإيجادهم فى الابتداء ، وإدخال الأجانب فى النار ، وصعوبة الحق إياهم ، وأنواع كرامة المؤمنين فى الجنة والشكاية عن الكفار بإعراضهم عن القرآن فى قوله ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

المتشابهات :

قوله ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ مكرر عشر مرات : لأنه كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأولى ، فلا يكون تكرارها مستهجنا . ولو لم يكرر كان متوعدا على بعض دون بعض . وقيل : إن من عادة العرب التكرار والإطناب ، كما من عادتهم الاقتصار والإيجاز وبسط الكلام فى الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الايجاز .

قال البخارى بسنده عن ابن مسعود - رضى الله عنه قال بينما نحن مع رسول الله ﷺ فى غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ والمرسلات ﴾ فإنه ليتلوها وإنى لأتلقاها من فيه وإن فاه لرطب بها . . . الحديث »(١) .

ومناسبتها لما قبلها : أنه هنا أقسم على تحقيق ما تضمنته السورة قبلها من وعيد الفجار ، ووعد المؤمنين الأبرار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ
فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا
النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ
أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾
وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ
نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾
فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا
فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

معانى المفردات

﴿ والمرسلات عرفا فالعاصفات عصفا والناشرات نشرا ﴾ المراد الرياح .

﴿ فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ﴾ المراد الملائكة .

(١) انظر صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن سورة المرسلات جـ٣ ص ٢١١ ، ٢١٢

﴿ عذراً أو نذراً ﴾أى : فالملائكة الملقيات الى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق ، وانذار لهم بعقاب الله إن هم خالفوا أمره .

﴿ إن ما توعدون لواقع ﴾ أى : أقسم بهذه الأقسام إن ما وعدتم به من قيام الساعة لكائن لا محالة .

﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أى : ذهبت ضوؤها .

﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى : انفطرت وتشققت .

﴿ أقتت ﴾ أى : عين لها الوقت الذى تحضر فيه للشهادة على أممها .

﴿ أجلت ﴾ أى : أخرت وأمهلت .

﴿ الفصل ﴾ أى : الفصل بين الخلائق .

﴿ ويل ﴾ عذاب وخزى .

﴿ من ماء مهين ﴾ أى : من نطفة قذرة حقيرة .

﴿ فى قرار مكين ﴾ أى : فى الرحم .

﴿ إلى قدر معلوم ﴾ أى : إلى مقدار معين من الوقت عند الله .

﴿ فقدرنا ﴾ أى : على خلقه وتصويره كيف شئنا .

﴿ كفاتا ﴾ ما يكفت ، أى يضم ويجمع .

﴿ رواسى ﴾ أى : جبالاً ثوابت .

﴿ شامخات ﴾ أى : مرتفعات .

﴿ فراتا ﴾ أى : عذباً .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والمرسلات عرفاً ، فالعاصفات عصفا ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا عذراً أو نذراً إنما توعدون لواقع** ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بالمرسلات وهى الرياح كما قال تعالى : ﴿ **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾ وقيل ﴿ **والمرسلات عرفا** ﴾ . أى أقسم بالرياح حين تهب متتابعة يقفو بعضها إثر بعض ، ﴿ **فالعاصفات عصفا** ﴾ هى الرياح كما يقال عصفت الرياح إذا هبت بتصويت ، وكذا الناشرات هى الرياح التى تنشر السحاب فى آفاق السماء كما يشاء الرب تبارك وتعالى .

وأقسم سبحانه وتعالى بهذه الأمور لمكان العبرة والآية ، والدلالة الباهرة على ربوبيته ووجدانيته ، وعظم قدرته ، ففى الرياح من العبر هبوبها وسكونها ، ولينها وشدتها ، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها

وتصريفها ، وتنوع منافعها ، وشدة الحاجة إليها . فللمطر خمسة رياح : ريح ينشر سحابه وريح يؤلف بينه ، وريح تلقحه ، وريح تسوقه حيث يريد الله ، وريح تذرو أمامه وتفرقه ، وللنبات ريح ، وللسفن ريح ، وللرحمة ريح ، وللعذاب ريح ، الى غير ذلك من أنواع الرياح . وذلك تقضى بوجود خالق مصرف لها مدبر لها ، يصرفها كيف يشاء ويجعلها رخاء تارة ، وعاصفة تارة ، ورحمة تارة ، وعذابا تارة ، فتارة يحيى بها الزرع والثمار ، وتارة يغطيها بها ، وتارة ينجى بها السفن ، وتارة يهلكها بها ، وتارة ترطب الأبدان وتارة تذيبها ، وتارة عقيما ، وتارة لاقحة ، وتارة جنوبا ، وترة دبورا ، وتارة صبا ، وتارة شمالا ، وتارة حارة ، وتارة باردة ، وهى مع غاية قوتها ألطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السموات والأرض . إذا قطع عن الحيوان الذى على وجه الأرض هلك ، كبحر الماء الذى إذا فارقه حيوان الماء هلك ، يحبسها الله سبحانه إذا شاء ويرسلها إذا شاء ، وهى من روح الله تأتى بالرحمة ، ومن عقوبته تأتى بالعذاب وهى أقوى خلق الله . . كما رواه الترمذى فى جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الأرض جعلت تميد . فخلق الجبال ، فقال بها عليها ، فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا يا رب ، هل من خلقك شيء أشد من الجبال ؟ قال نعم ، الحديد ، قالوا : يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد قال النار قالوا يارب فهل من خلقك شيء اشد من النار ؟ قال نعم : الماء قالوا : يا رب فهل من خلقك أشد من الماء ؟ قال نعم . الريح . قالوا : يا رب فهل من خلقك أشد من الريح ؟ قال نعم ، ابن آدم ، تصدق بصدقه بيمينه يخفيها عن شماله » ورواه أحمد فى سنده[1] .

قوله تعالى : ﴿ فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً عذراً أو نذراً ﴾ يعنى الملائكة فإنها تنزل بأمر الله على الرسل تفرق بين الحق والباطل والهدى والغى ، والحلال والحرام ، وتلقى إلى الرسل وحياً فيه ، إعذار إلى الخلق وانذار لهم عقاب الله أن خالفوا أمره .

وقوله تعالى : ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ هذا هو جواب القسم أى أن ما توعدون به من أمر القيامة كأمر الحساب والجزاء ، كائن لا محالة . قال المفسرون : أقسم تعالى بخمسة أشياء : تنبيهاً على جلالة قدر المقسم به ، وتعظيماً لشأن المقسم عليه ، فأقسم بالرياح التى تحمل الرحمة والعذاب ، وتسوق للعباد الخير أو الشر ، وبالملائكة الأبرار ، الذين يتنزل بالوحى للإعذار والإنذار ، أقسم على أن أمر القيامة حق لا شك فيه ، وأن ما وعد الله تعالى به المكذبين ، من مجيء الساعة والثواب والعقاب ، كائن لا محالة فلا ينبغى الشك والامتراء .

وقال ابن القيم رحمه الله « ويظهر ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ أن القسم فى هذه الآيات وقع على النوعين : الرياح ، والملائكة . ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح ، فإنها من

(١) انظر مسند الإمام أحمد جـ ٤ ص ٢١٠ فقد ورد الحديث من رواية عن بشر بن حجاش

روح الله ، وقد جعلها الله تعالى نشورا ، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة ، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة . ولهذا - والله أعلم - فصل أحد النوعين من الآخر بالواو وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء » ا. هـ .

قوله تعالى : ﴿ فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ أى : فإذا ذهب ضوء النجوم . كقوله تعالى ﴿ وإذا النجوم طمست ﴾ كقوله ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أى وإذا السماء انفطرت وتشققت ، كقوله تعالى ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ وكقوله ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وقوله ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أى وإذا الجبال فرقتها الرياح ، فلم يبق لها عين ولا أثر كقوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا ﴾ وكقوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى اتقن كل شىء ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ أى : وإذا جعل للرسل وقت للفصل والقضاء بينهم وبين الأمم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ﴾ وكقوله تعالى ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ الآية وكقوله ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لأى يوم أجلت ﴾ أى : ويقال حينئذ : لأى يوم أخرّت الأمور المتعلقة من تعذيب الكفار واهانتهم ، وتنعيم المؤمنين ورعايتهم ، وظهور ما كانت الرسل تذكره من أمور الآخرة وأحوالها وفظاعة أهوالها .

والمراد بهذا تهويل أمر هذا اليوم وتعظيم شأنه ، كأنه قيل : أى يوم هذا الذى أجل اجتماع المرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم . ثم بين ذلك اليوم فقال تعالى ﴿ ليوم الفصل ﴾ أى ليوم يفصل الله فيه بين الخلائق ، وهو اليوم الذى أجل اجتماع الرسل له . وقوله ﴿ وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ أى : وما أعلمك بيوم الفصل وشدته وعظيم أهواله ؟

ثم صرح بالمراد وأبان من سيقع عليهم النكال والوبال حينئذ فقال ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : عذاب وخزى لمن كذب بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وبكل ما ورد على ألسنة أنبيائه وأخبروا به .

قوله تعالى : ﴿ ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين . كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

يقول تعالى ﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ يعنى من المكذبين للرسل أى : ألم نهلك من كذب الرسل قبلكم ، ونعذبهم فى الدنيا بشتى أنواع العذاب فتارة بالغرق كما حدث لقوم نوح وقوم فرعون ، وأخرى

بالزلزال كما كان لقوم لوط إلى أشباه ذلك من المثلات التى حلت بالاسم قبلكم ، جزاء لهم على قبيح أعمالهم وسيء أفعالهم ، وأن سننا فى المكذبين لا تبديل فيها ولا تغير ، فاحذروا أن يحل بكم مثل ما حل بهم وتندموا ، ولات ساعة مندم .

وقوله تعالى : ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾أى : ثم نحن نفعل بأمثالهم من الآخرين ، ونسلك بهم سبيلهم لأنهم فعلوا مثل أفعالهم كقوله تعالى ﴿ **أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، دمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها** ﴾ .

﴿ **كذلك نفعل بالمجرمين** ﴾أى : إن سنتنا فى جميع المجرمين واحدة ، فكما أهلكنا المتقدمين لاجرامهم وتكذيبهم ـ نفعل بالمتأخرين الذين حذوا حذوهم واستنوا سنتهم .

وقوله : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى : هؤلاء وإن عذبوا فى الدنيا بأنواع من العذاب ، فالطامة الكبرى معدة لهم يوم القيامة ، والتكرير للتوكيد شائع فى كلام العرب كما تقدم فى سورة الرحمن .

وقال القرطبى : كرر الويل فى هذه السورة عند كل آية لمن كذب بشىء لأنه قسمه بينهم على قدر تكذيبهم ، فجعل لكل مكذب بشىء عذاباً سوى عذابه بتكذيب شىء آخر ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون ، ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ .

ثم قال تعالى ممتنا على خلقه ومحتجا على الاعادة بالبداءة ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾ أى ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة البارىء عز وجل .

أخرج الامام أحمد بسنده عن بشر بن حجاش قال إن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله ﷺ « قال الله تعالى يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت أتصدق وأنى أوان الصدقة »(١) .

وقوله تعالى: ﴿ **فجعلناه فى قرار مكين** ﴾ يعنى جمعناه فى الرحم وهوقرار الماء من الرجل والمرأة والرحم معد لذلك حافظ لما أودع فيه من الماء . ﴿ **الى قدر معلوم** ﴾يعنى إلى مدة معينة من ستة أشهر إلى تسعة أشهر ولذا قال تعالى ﴿ **فقدرنا فنعم القادرون** ﴾ أى ونحن قد قدرنا ذلك فنعم المقدرون ، إذ خلقناكم فى أحسن الصور والهيئات ـ أفلا يستحق ذلك الخالق منكم الشكر لا الكفران والاعتراف بوجدانيته وارساله للرسل والاقرار بالبعث ؟ لكنكم كفرتم أنعمه ، ونكلتم عن الاعتراف بوحدانيته وعبدتم الأصنام والأوثان ، وأنكرتم يوم الفصل والجزاء ، فسترون فى هذا اليوم عاقبة ما أجترحتم ولذا قال سبحانه ﴿ **ويل**

---

(١) إنظر تفسير ابن كثير والبنون جـ ٩ ص ١٠٦ مطبعة المنار ١٣٤٧ هـ

يومئذ للمكذبين ﴾ أى خزى وعذاب لمن كذب بهذه المنن العوالى .

ألا إننا كلنا بائد وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
فيا عجبا كيف يعصى الإلـ ـه أم كيف يجحد الجاحد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

من آيات الله الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته
(القرار المكين)

يقول الدكتور محمد على البار فى كتابه « خلق الانسان بين الطب والقرآن » تحت هذا العنوان « القرار المكين » .

قال تعالى **﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون ﴾** . وقال تعالى **﴿ ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ﴾** لقد سمى الله تعالى الرحم القرار المكين .. الذى تنمو فيه النطفة الأمشاج حتى تصير جنينا ثم حملا ثم تخرج طفلا كامل الخلقة سوى التكوين .. لذا فلابد أن يكون الرحم محروسا ومهيأ لأن يكون القرار المكين كما أنه الفراش الوثير لتلك النطفة فالعلقة ..

وأول شىء نلاحظه هو أن الرحم موضوع فى الحوض الحقيقى لهيكل المرأة الذى يحمى الرحم من كل عدوان خارجى ثم نجد الأربطة والصفاقات المختلفة التى تمسك بالرحم .. ومع ذلك تسمح له بالحركة والنمو حتى أن حجمه ليتضاعف أكثر من ثلاثة آلاف مرة فى نهاية الحمل .. إذ أن حجم رحم الأنثى البالغة لا يتسع لأكثر من ميليلترين ونصف بينما يتسع حجم الرحم ذاته فى نهاية الحمل لسبعة آلاف ميليليتر .. ومع ذلك يبقى الرحم فى مكانه والأربطة ممسكة به .. كما نلاحظ عضلات الحوض والعجان وهى تحفظ الرحم فى مكانه كما تحفظ الأعضاء الأخرى الهامة الموجودة فى الحوض كالمثانة والمستقيم والقناة الشرجية ... ولولا ذلك الضغط المستمر من عضلات العجان لسقطت أعضاء الحوض مثل الرحم والمثانة والقناة الشرجية ولبرزت إلى الخارج ... وذلك ما نشاهده فعلا عند تمزيق عضلات العجان فى حالة الولادة المتعسرة أوفى الأمراض التى تصيب عضلات العجان مما يؤدى الى سقوط هذه الأعضاء .

وبعد ذلك نرى النسيج الخلوى الضام الذى يحيط بعنق الرحم وبالجزء العلوى من المهبل ويربط أجزاءه بالمثانة من الأمام ... وبالمستقيم من الخلف يساند مساندة فعالة فى جعل الرحم قرارا مكينا لنمو النطفة الانسانية فى أدوارها المختلفة كما أننا نلاحظ توازناً عجيباً بين الضغط المود فى تجويف البطن وتجويف

الحوض بحيث يمسك بالأعضاء فى أماكنها .

وأعضاء الحوض تساند بعضها بعضاً . . واتصال الرحم بالعنق اتصال الرحم بالعنق واتصال عنق الرحم بالمهبل لما يساعد مساعدة فعالة فى ثبات الرحم فى مكانه .

ثم إن الرحم بذاته مكون من ثلاث طبقات : خارجية من البريتون وداخلية تكون غشاء الرحم .

وبينهما الطبقة العضلية الثخينة والمكونة ذاتها من ثلاث طبقات من العضلات . . ولهذه العضلات أهمية خاصة فى منع النزيف من الرحم وخاصة بعد الولادة . . إذ لولا انقباضها الشديد لتفجرت الأوعية الدموية المتفتحة أنهارا من الدم حتى تودى بحياة الأم . . ولكن الله هيأ هذه العضلات العاصرة لتقفل هذه الفوهات المتدفقة بالدماء عقب الولادة مباشرة .

كما أن الرحم يستقر كذلك نتيجة افراز هرمون الحمل البرجستون إذ أن هذا الهرمون يجعل انقباضات الرحم بطيئة ومتئدة عكس هرمون الأنوثة الأستروجين الذى يجعل انقباضات الرحم نزقة هاشة باشة للمنى . . كما وصفها الفخر الرازى بقوله : « إن الرحم إذا كان قد انقطع عنه الطمث قريباً وكان خالياً من الفضول المانعة له عن فعله أشتد شوقه إلى المنى حتى أن الانسان يحس فى وقت الجماع وكان الرحم يجذب أحليله إلى داخله كما تجذب المحجمة الدم . . ولا يمكن أن يحصل ذلك أثناء الحمل مثلا . . لأن هرمون البروجسرون (هرمون الحمل) يمنع الرحم من مثل ذلك الطيش . . ويأمره بالسكينة والوقار . . فإن بداخله درة مكنونة لو فعل بها ذلك لقذفها إلى الخارج .

وقد أوضح العلم الحديث أن هرمون الحمل البروجسترون يقوم ضمن وظائفه العديدة بتيسير حركة مفاصل الحوض حتى يتسع ويؤثر على الأربطة المتينة المحكمة فيه ويقول لها أرخى من قبضتك قليلاً فتسمع له وتطيع وترخى من قبضتها الحديدية فيزداد الحوض اتساعا حتى يتسنى للرحم أن يكبر ويتضاعف حجمه آلاف المرات .

فإذا قرب موعد الولادة انضم رسول آخر من الغدة النخامية يسمى هرمون الارتخاء فيقول للحوض اتسع فيتسع وعند ذاك يمر الطفل فى ذلك الطريق الضيق الذى احتار فيه القدماء كيف تسنى له أن يمر به دون أن ينحشر انحشاراً مميتاً فيه . .

فانظر إلى رحمة الله وهى ترعاك فى كل طور من أطوار حياتك منذ كنت نطفة مغلقة فعظاماً فلحماً يكسو العظام . . فخلقا من بعد خلق . . والمشيمة تمدك بالغذاء والدماء . . وتدفع عنك الأذى فاذا حان موعد خروجك إلى الدنيا . . هيألك الأسباب وأرخى لك العظام وجعلها طبيعة لينة . . وأمر الرحم بالانقباض فانقبض انقباضات متتالية ومتقطعة حتى لا تزداد عن حدها فتؤدى إلى الضغط عليك ضغطاً يؤدى إلى وفاتك . . وهيأ الطريق لخروجك فى ذلك الحيز الضيق الذى لا يمكن أن تخرج منه لولا رحمته . . ثم تخرج لتجد غذائك جاهزاً فى ثدى أمك مع المضادات للأمراض والميكروبات تسقيك اياه من

ثديها مع ذلك اللبن الذى يخرج من بين فرث ودم ثم يرعاك طفلا ويافعا . . فإذا بلغت أشدك استكبرت وعتوت وساقتك الأوهام والخيالات إلى نكران تلك النعم التى تهطل عليك فى كل لحظة وآن . . وأنت عنها غافل سادر .

فما أحراك بالسجود شكراً لله على عظيم مننه وآلائه . . وما أحراك أن تطيع فلا تعص أبداً . . ولكنها النفس الأمارة بالسوء . . ولكنه الشيطان عدو الإنسان يوسوس فى آناء الليل وأطراف النهار . . ولابد من أوبة . . ولابد من توبة . . قبل فوات الأوان . . فإن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار . . ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل . . أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ **ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا وجعلنا فيها رواسى شامخات وأسقيناكم ماء فراتاً ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ .

أى : ألم نجعل الأرض مهاداً لكم ، فتكفتكم وتجمعكم فيها أحياء على ظهرها وأمواتاً فى بطنها ، فالأحياء يسكنون فى منازلهم ، والأموات يدفنون فى قبورهم .

قال مجاهد وقتادة والشعبى فى هذه الآية : « ألم نجعل الأرض كفاتا احياء وأمواتا » بطنها لأمواتكم وظهرها لاحيائكم .

(وجعلنا فيها رواسى شامخات) أى : وجعلنا جبالا ثوابت عاليات على ظهرها لئلا تميد بكم .

وهذه الجبال بالطبقة الصوانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها وتلك الطبقة تضم فى جوفها كرة النار المشتعلة التى فى باطنها ، وظاهرها هذه القشرة التى نحن عليها .

وقوله تعالى : ﴿ **وأسقيناكم ماء فراتا** ﴾ أى : واسقيناكم ماء عذباً تشربون منه ، إما آتياً من السحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها ، واما من العيون النابعات منها ويمدها الثلج الذى يذوب شيئاً فشيئاً فوق ظهر الأرض متنزلا إلى بطنها ، متجهاً إلى عيونها الجارية .

(ويل يومئذ للمكذبين) أى : عذاب عظيم فى الآخرة لمن كفر بهذه النعم .

من صور الوعيد والوعد

قال تعالى :

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾
لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ
صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ
لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ
وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾
إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ
هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُواْ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ
حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

معانى المفردات

لا ظليل : أى : لا يقى من حر الشمس .

الشرر : ما يتطاير من النار .

كالقصر : أى : كالدار الكبيرة المشيدة .

جمالة : واحدها جمل .

فكيدون : أى : فاحتالوا علىَّ .

ظلال : واحدها ظل ، وهو أعم من الفىء ، فإنه يقال ظل الليل ، ظل الجنة ، ولكل موضع لم تصل إليه الشمس ظل ، ولا يقال فىء الا لما زالت عنه الشمس ويعبر بالظل أيضا عن الرفاهية ، وعن العزة .

عيون : أى : أنهار .

اركعوا : أى : صلوا .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر ـ سبحانه ـ أن للمكذبين بالله وأنبيائه واليوم الآخر العذاب فى يوم الفصل والجزاء ـ بين هنا نوع ذلك العذاب بما يحار فيه أولو الألباب ، ويخر من هو له كل مخبت أواب ثم أخبر بأن الويل للمكذبين بهذا اليوم ، يوم لا ينطقون من شدة الدهشة والحيرة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار فيعتذرون ثم أعقبه بذكر ما يكون للمؤمنين من السعادة والكرامة حينئذ ، ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال : (كلوا وتمتعوا قليلاً) ولا نصيب لكم فى الآخرة ، لأنكم كافرون .

ثم ذكر أن الكفار إذا أمروا بطاعة الله والخشوع له أبوا وأصروا واستكبروا استكباراً ، وإذا لم يؤمنوا بالقرآن والنبى الذى جاء به مع تظاهر الأدلة على صدقه ، فبأى كلام بعده يصدقون ؟

التفسير

قوله تعالى : **﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب لا ظليل ولا يغنى من اللهب إنها ترمى بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ﴾**

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة : « انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون » كقوله تعالى : **﴿ فويل يومئذ للمكذبين ، الذين هم فى خوض يلعبون يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التى كنتم بها تكذبون ، أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ، اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾**[1]

(١) الطور الآيات من ١١ ـ ١٦

وقوله : ﴿ انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب ﴾ يعنى : لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته أن له ثلاث شعب : شعبة عن يمينهم ، وشعبة عن شمالهم ، وشعبة من فوقهم ، والمراد أنه محيط بهم من كل جانب كما جاء فى الآية الأخرى : ﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ، يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ .

وقوله : ﴿ لا ظليل ولا يغنى من اللهب ﴾ أى : ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو فى نفسه ، ولا يغنى من اللهب يعنى ولا يقيهم حر اللهب .

وقوله : ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر ﴾ أى : يتطاير الشرر من لهيبها كالقصر قال ابن مسعود كالحصون .

وقوله : « كأنه جمالة صفر » قال مجاهد وقتادة والحسن كالابل السود وقال سعيد بن جبير : (جمالة صفر) يعنى حبال السفن .

فهذه النار يتطاير منها شرر متفرق فى جهات كثيرة كانه القصر عظماً وارتفاعاً ، وكأنه الجمال الصفر لوناً وكثرة وتتابعاً وسرعة حركة .

(ويل يومئذ للمكذبين) بهذا اليوم الذى لا يجدون فيه لدفع العذاب عنهم محيص .

قوله تعالى : ﴿ هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ويل يومئذ للمكذبين ﴾ أى : هذا يوم لا يتكلمون من الحيرة والدهشة ، ولا يؤذن لهم فى الاعتذار لأن ليس لديهم عذر صحيح ، ولا جواب مستقيم كقوله تعالى : ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع الا همساً ﴾ وقوله : ﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون ﴾ ، ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بما دعتهم اليه الرسل ، فأنذرتهم عاقبته .

قوله تعالى : ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين فإن كان لكم كيد فكيدون ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

أى : هذا يوم يفصل فيه بين الخلائق ، ويتميز فيه الحق من الباطل ، فيؤتى كل عامل جزاء عمله من ثواب وعقاب ، ويفصل بين العباد بعضهم مع بعض ، فيقتص من الظالم للمظلوم ، وترد له حقوقه .

وقوله : ﴿ جمعناكم والأولين ﴾ أى : جمعنا بينكم وبين من تقدمكم من الأمم فى صعيد واحد ليمكن الفصل بينكم ، فيقضى بهذا على هذا ، ولولا ذلك ما أمكن ، إذ لايقضى على غائب .

وقوله : ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ أى : فإن كان لكم حيلة فى دفع العذاب عنكم فاحتالوا ، لتخلصوا أنفسكم من العذاب .

وفى هذا تقريع لهم على كيدهم للمؤمنين فى الدنيا ، وإظهار لعجزهم وقصورهم حينئذ .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ بالبعث لأنه قد ظهر لهم عجزهم وبطلان ما كانوا عليه فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إن المتقين فى ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا وأشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات وترك المحرمات : إنهم يوم القيامة يكونون فى جنات وعيون أى : بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم وهو الدخان الأسود المنتن ، وقوله : ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أى : ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا كقوله تعالى : ﴿ وفاكهة مما يتخيرون ﴾ وكقوله : ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ .

وقوله : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أى : يقال لهم ذلك على سبيل الاحسان اليهم . كقوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ .

وقوله : ﴿ انا كذلك نجزى المحسنين ﴾ أى : هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل .

قوله تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ، كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ويل يومئذ للمكذبين واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ، ويل يومئذ للمكذبين ، فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ .

قوله : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ الذين عرضوا أنفسهم للعذاب الدائم بالتمتع القليل وكذبوا بما أخبرهم الله أنه فاعل بهم .

ثم خاطب المكذبين مهدداً لهم فقال تعالى :

﴿ كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون ﴾ أى : كلوا بقية آجالكم ، وتمتعوا بقية أعماركم ، وهى قليلة المدى ، وسنستن بكم سنة من قبلكم من مجرمى الأمم الخالية التى متعت إلى حين ، ثم انتقمنا منهم بكفرهم وتكذيبهم لرسلنا .

﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ كما قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أى : إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه ولهذا قال تعالى : ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ؟ ﴾ أى : إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأى كلام يؤمنون به ؟ كقوله تعالى : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾ .

قال ابن حاتم بسنده عن اسماعيل بن أمية قال سمعت رجلاً أعرابيا بدويا يقول سمعت أبا هريرة يرويه إذا قرأ والمرسلات عرفا ـ فقرأ (فبأى حديث بعده يؤمنون) فليقل آمنت بالله وبما أنزل .

« اللهم أنت ربى لا اله الا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىَّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى إنه لا يغفر الذنوب الا أنت » .

« رضينا بالله ربا وبالاسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، اللهم أسلمت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، والجأت ظهرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجا منك الا اليك ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، وبنبيك الذى أرسلت » .

عبد الحميد كشك

في رحاب التفسير

الجزء الثلاثون

من سورة النبأ
إلى سورة الناس

المكتب المصري الحديث

تفسير سورة النبأ

مقدمة عن السورة الكريمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : أربعون آية .

وكلماتها : مائة وثلاثة وسبعون .

وحروفها : ثمانمائة وست وعشرة .

فواصل آياتها : (منا) وعلى الميم (العظيم) .

ولها اسمان : عم يتساءلون لقوله (يتساءلون) ، والنبأ ، لقوله (عن النبأ العظيم) .

مقصود السورة .

معظم مقصود السورة : ذكر القيامة ، وخلق الأرض والسماء ، وبيان نفع الغيث ، وكيفية النشر والبعث ، وعذاب العاصين وثواب المطيعين من المؤمنين ، وقيام الملائكة فى القيامة مع المؤمنين ، وتمنى الكافر المحال فى قوله (ياليتنى كنت تراباً) .

المتشابهات :

قوله : ﴿ كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون ﴾ قيل : التكرار للتأكيد .

وقيل الأول عند النزع ، والثانى فى القيامة .

قوله ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ وبعده (جزاء من ربك عطاء حسابا) لأن الأول للكفار ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ فيكون جزاؤهم على وفق أعمالهم . والثانى للمؤمنين وجزاؤهم وافيا كافياً . فلهذا قال (حساباً) أى وافيا .

مناسبة السورة لما قبلها من وجوه :

١ ـ اشتمالها على إثبات القدرة على البعث الذى ذكر فى السورة السالفة أن الكافرين كذبوا به .

٢ ـ أن فى هذه وما قبلها تأنيباً وتقريعا للمكذبين ، فهناك قال (ألم نخلقكم من ماء مهين) وهنا قال (ألم نجعل الأرض مهاداً) .

٣ ـ أن فى كل منهما وصف الجنة والنار وما ينعم به المتقون ، ويعذب به المكذبون .

٤ ـ أن فى هذه تفصيل ما أجمل فى تلك عن يوم الفصل ، فهناك قال (لأى يوم أجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل) وهنا قال (إن يوم الفصل كان ميقاتا) إلى آخر السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا
سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا
﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾
وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا
وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا
﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ
فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ
فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَابِثِينَ فِيهَا
أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً
وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ
أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

معانى المفــردات

(عم يتساءلون) أى : عن أى شىء يتساءلون .

(النبأ) الخبر الذى يعنى به نهتم بشأنه ، والمراد خبر البعث من القبور والجزاء يوم الحساب .

(كلا) كلمة تعيد رد ما تقدم من الكلام ونفيه .

(المهاد) (بكسر الميم) والمهد : المكان الممهد المذلل .

(الأوتاد) وأحدها وتد ؟ وهو ما يدق فى الأرض ليربط إليه الحبل الذى تشد به الخيمة .

(الأزواج) واحدها زوج ، ويطلق على الذكر والأنثى .
(السبات) (بضم السين) قطع الحركة لتحصيل الراحة .
(اللباس) : ما يلبسه الإنسان ليستر به جسمه ويغطيه .
(معاشا) : أى : وقتا لتحصيل أسباب المعاش والحياة .
(سبعا شدادا) : أى : سبع سموات قوية محكمة لا فطور فيها ولا تصدع .
(السراج) : ما يضىء وينير .
(الوهاج) : المتلألىء والمراد به الشمس .
(المعصرات) : السحائب والغيوم إذا أعصرت أى حان وقت أن تعصر الماء فيسقط منها .
(الثجاج) كثير الإنصباب عظيم السيلان ، والمراد به المطر .
(الحب) ما يقتات به الإنسان كالحنطة والشعير .
(النبات) ما تقتات به الدواب من التين والحشيش .
(الجنات) واحدها جنة ، وهى الحديقة والبستان فيه الشجر أو النخيل ، والجنات الألفاف : الملتفة الأغصان ، لتقاربها وطول أفنانها ، ولا واحد لها كالأوزاع والأخياف .
(يوم الفصل) هو يوم القيامة ، وسمى بذلك لأن الله يفصل فيه بحكمه بين الخلائق .
(ميقاتا) أى : حداً تنتهى عنده الدنيا .
(الصور) فى الأصل البوق الذى ينفخ فيه فيحدث صوتا ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوه أن يهرعوا إليه ويجتمعوا عند النافخ .
(الأفواج) واحدها فوج وهو الجماعة .
(وفتحت السماء) أى : انشقت وتصدعت .
(وسيرت الجبال) أى : زالت من أماكنها وتفتت صخورها .
(سرابا) أى : كالسراب ، فحص بعد تفتحها ترى كأنها جبال وليست بجبال ، بل غباراً متراكما .
(المرصاد) موضع يرتقب فيه خزنتها المستحقين لها .
(للطاغين) أى : للذين طغوا فى مخالفة ربهم ومعارضة أوامره .
(والمآب) المرجع .
(لابثين) أى : مقيمين .
(أحقابا) واحدها حقب ، وواحد الحقب حقبة : وهى مدة من الزمان .
(والبرد) برد الهواء ، وقد يراد به النوم ، ومن أمثالهم « منع البردُ البردَ » أى أصابه من شدة البرد ما منعه النوم .
(الحميم) الماء الحار المغلى .
(غساقاً) أى : قيحا وصديداً .
(وفاقاً) أى : وفق أعمالهم السيئة .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ عم يتساءلون . عن النبأ العظيم ، الذى هم فيه مختلفون كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون ﴾ .

يقول تعالى منكرا على المشركين فى تساؤلهم عن يوم القيامة انكاراً لوقوعها (عم يتساءلون عن النبأ العظيم) أى : عن أى شىء يتساءلون من أمر القيامة وهو النبأ العظيم يعنى الخبر الهائل المفظع الباهر . قال قتادة : (النبأ العظيم) البعث بعد الموت وقال مجاهد هو القرآن قال ابن كثير والأظهر الأول لقوله تعالى : ﴿ الذى هم فيه مختلفون ﴾ اختلفوا فى أمره ، فمن قائل إنه مستحيل كما حكى الله عنهم (هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) . ومن شاك فيه بقوله : ﴿ ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ كلا سيعلمون ﴾ أى ليس الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون الذى يذكرون البعث بعد الموت ، ثم توعدهم بأنهم سيعلمون إذا ما عاينوا بأنفسهم حقيقة ما كانوا ينكرون . قال تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ، وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ، هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون ﴾ ثم أكد هذا الوعيد .

بقوله تعالى : ﴿ ثم كلا سيعلمون ﴾ وفى تكرير الزجر مع الوعيد إيماء إلى غاية التهديد .

ثم شرع سبحانه يبين عظيم قدرته وآيات رحمته التى غفل عنها هؤلاء المنكرون .

فقال تعالى : ﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ، والجبال أوتادا ، وخلقناكم أزواجا ، وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشاً ﴾ .

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا ﴾ أى فكيف تنكرون أو تشكون أيها الجاحدون فى البعث والنشور وقد رأيتم ما يدل عليه من قدرة الله التامة وعلمه المحيط بكل شىء وحكمته الباهرة التى تقتضى ألا يكون ما خلق من الخلق عبثا ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ من ينعم بهذه النعم لا يمكن أن يهملها ، ويتركها سدى ، أنظروا إلى الأرض التى جعلها الله لكم ممهدة ، وموطأة الأكناف للناس والدواب ، يقيمون عليها ، ويفترشونها ، وينتفعون بها وبخيراتها ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سمٰوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

ألا ينظرون إلى عظمة هذه الأرض ، التى منها خلقوا ، وفيها سيعودون ومنها سيخرجون تارة أخرى شاءوا أم أبوا ؟ ألا ينظرون إلى أسرار التربة التى فى هذه الأرض ، وما فيها من عجائب صنع الله جعل

لكم الأرض مهداً ، وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى كلوا وارعوا أنعامكم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى .

قوله تعالى : ﴿ والجبال أوتادا ﴾ أى جعلنا الجبال للأرض كالأوتاد كى لا تميل بأهلها أو تميد وتضطرب بسكانها ، ولولا الجبال التى خلقها الله بحكمته لكانت الأرض دائمة الاضطراب لما فى جوفها من المواد الدائمة الجيشان ، والمعادن المختلفة الأشكال والألوان

قال تعالى : ﴿ وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ أى وجعلناكم أصنافا ذكورا وإناثا ليتمتع كل منكم بالآخر وليتم الائتناس والتعاون على سعادة المعيشة وحفظ الحياة بالإنسان والتوليد وتكملها بالتربية والتعليم قال تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

ثم قال تعالى :

﴿ وجعلنا نومكم سباتا ﴾ السبات الموت والمسبوت الميت ، من السبت وهى القطع ، والنوم أحد الموتتين ، وهو من نعم الله الكبرى على الناس قال تعالى ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ فإن نوم بضع ساعات فى اليوم يربح القوى من تعبها وينشطها من كسلها ويعيد إلى الجسم ما فقد منه من حيوية ونشاط ، ولو لم يكن النوم موتاً واليقظة بعثاً لم يتم هذا التجديد لقوى الإنسان بل لفقد الإنسان الطاقة على العمل . فالمراد قد يعين على الزاد والشراب أياماً ولكنه لا يطيق الصبر على السهر . والسهر ينضى الجسم ويبليه فالله تبارك وتعالى جعل نومنا فى الليل قطعا للحركة وايقافا للعمل لتحصل الراحة فى فترة النوم من كثرة الترداد والسعى فى المعاش فى سحابة النهار .

ولقد شبه الرسول ﷺ الموت بالنوم واليقظة بالبعث والنشور فكما أننا ننام ولا ندرى كيف نمنا ونستيقظ ولا ندرى كيف انقضت تلك الساعات الطوال فإننا كذلك سنموت ولا ندرى كيف متنا ونبعث وكأننا استيقظنا بعد غفوة طويلة قال النبى الكريم فى هذا التشبيه البليغ « والله إنكم لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتسألن عما كنتم تعملون ، ولتجزون بالإحسان إحسانا وبالسوء سوءا وإنها لجنة أبداً أو نار أبداً » .

سبحان الله الذى جعل النوم سباتا وجعل الليل سكنا ولباسا وجعل النهار نشورا ، وله الحمد فى السموات والأرض وهو بكل شىء عليم .

ثم قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أى غطاءً وسترة يستر كل شىء بظلمته وسواده ، ويغشى الناس بظلامه ، وسواده كما قال تعالى ﴿ والليل إذا يغشاها ﴾ .

قال قتادة ﴿ وجعلنا الليل لباساً ﴾ أى سكناً .

والليل ساتر للناس والأجسام يغطيها كما يغطى اللباس الجسم ويستره وللناس ساتر للناس فى هذا الستر فوائد اللباس ، فكما أن اللباس يقى الجسم من الحر والبرد ويستر العورات عن النظر ، فكذلك

الليل يستر الانسان فيه عن الناس ، ويبعده عن الأعمال الشاقة المجهدة وبالظلام ينام نوماً عميقاً هادئاً يحفظ جسمه من التعب والنصب ولولا هذا اللباس من الظلام لما نام الإنسان هذا المنام ، ولما أصابه هذا الهدوء ، ففى الظلام تستريح الأعصاب . ويستريح النظر ، ويتجدد الفكر ، وينمو العقل ويتعمق المرء فى التفكير الرقيق والنهار ﴿ إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾ . ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾ ﴿ ذلكم الله فأنى تؤفكون فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ قوله تعالى ﴿ **وجعلنا النهار معاشاً** ﴾ إن الله تبارك وتعالى كما جعل النوم فى الليل موتاً أصغر وقطعا للحياة جعل النهار يقظة ، وحياة ، وقت معاش ، وحركة ، يستيقظ الناس فيه ويتقلبون فى حوائجهم ومكاسبهم ، والله سبحانه جعل النهار مشرقاً نيراً مضيئاً تنبعث منه الحياة وتدب فيه أصولها ، ليتمكن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات والصناعات والزراعة وغيرها فلله الفضل والمنة .

فلو جعل علينا الليل سرمداً إلى يوم القيامة فمن يأتينا بنهار غيره عز وجل ومن من الناس يستطيع أن يحرك هذه الشمس الجبارة من مكانها أو ينقلها فى سمائها وعليائها لتنقل لنا الدفء والضياء وتبعث فى الكون الحياة والنشاط قال تعالى ﴿ **قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ﴾ والشمس آية النهار ، كما أن القمر آية الليل ﴿ **ومن آياته الشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون** ﴾ .

قوله تعالى ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا سراجاً وهاجاً ، وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ، لنخرج به حباً ونباتاً ، وجنات ألفافا** ﴾ وقوله : ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً** ﴾ وهذه آية كبرى من آيات الله البينات أو براهينه الساطعات ، النيرات ، وهى السموات السبع التى بناها الله جل فى علاه فوقنا ، وهى فى عظمتها واتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب المختلفة الثابتة منها والسيارة . وهذه السموات السبع محكمة النسج قوية البنيان لا يؤثر فيها كر الغداة ولا مر العشى ، ليس فيها تصدع ولا فطور فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير .

قال تعالى ﴿ **تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ، الذى خلق سبع سموات طباقا ، ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير ، وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير** ﴾ .

ولولا هذا البناء المحكم الشديد لهذه السموات السبع وأن الله جعلها سقفا محفوظاً ، وظلا ممدودا ، فلولا لطف الله لهلك من فى الأرض كلهم أجمعون بسقوط نجم واحد من أنجمها الزاهرة وهبوط كوكب

واحد من كواكبها الباهرة وأصغر كوكب من كواكبها يفوق الأرض حجماً ووزناً واتساعا فلله الفضل والمنة أن بنى فوقنا السموات السبع بناء محكماً شديدا سبحانه إذ أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . قال تعالى ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ .

وقوله تعالى ﴿ **وجعلنا سراجاً وهاجاً** ﴾ أى الشمس ، فالله تبارك وتعالى خلق هذه الشمس العظيمة ، وجعلها منيرة مشرقة على جميع العالم وضوءها يتوهج لأهل الأرض كلهم أجمعين ويقال توهجت النار إذا تلمظت فتوهجت بضوئها وحرها ، ومعنى الوهاج المتلألىء الوقاد ، وقد جعل الله سبحانه وجلت قدرته الشمس سراجاً للعالم ، وقادا متلألئاً بالنور يستضيئون به ، وينعمون بنوره ، والنعمة فيه عامة لجميع الخلق قال مقاتل : جعل فيه نوراً وحراً ، والوهج يجمع النور والحر ، والنور والحر سران من أسرار الحياة الإنسانية ، ونعمتان من نعم الله العظمى . أودعهما الله فى هذا الكوكب ليطرد بهما الأمراض ، وينقى بهما الأرض ويطهرها ومن عليها من الناس والدواب ، وينبت بهما النبات ، ويخرج بهما الحب ، والزيتون والنخيل ومن كل الثمرات ولعظمة هذا الكوكب الذى يجرى بحسبان ويسجد تحت عرش الرحمن فقد أقسم الله به ليلفت إلى عظمته الأنظار فقال تعالى ﴿ **والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون** ﴾ وقال تعالى الخالق العظيم : ﴿ **والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ وقال عز من قائل : ﴿ **هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ، إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السموات والأرض لآيات لقوم يتقون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً** ﴾ .

وهذه نعمة أخرى من نعم المولى سبحانه وتعالى التى لا تعد ولا تحصى إذا أنزل عز وجل بقدرته وبفضله من السحب والغيوم المتكاثفة كالجبال والتى تتحلب بالمطر أنزل منها ماء كثير الانصباب عظيم السيلان تجرى به السيول والوديان ، وحيث يرسله الله إلى البلد الميت فيحييه ويحيى به أهله .

وألثج شدة الانصباب قال قتادة : الثجاج هنا المتدفق المنصب . والمراد هنا تتابع القطر من المطر حتى يكثر الماء فيعظم به النفع لسائر المخلوقات فى الأرض .

ومن معنى المعصرات الرياح التى تعصر السحائب فيتنزل المطر وهى رواية عن ابن عباس رضى الله عنهما قال تعالى ﴿ **الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون** ﴾ وقال تعالى ﴿ **وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا** ﴾ . ثم بين سبحانه عظيم نفع الماء وجليل فائدته فقال تعالى :

﴿ **لنخرج به حبا ونباتاً ، وجنات ألفافا** ﴾ أى لنبدل بوساطته جدب الأرض خصبا ، فتخرج من الأرض حبا يقتات به الناس كالحنطة والشعير ، ونباتا تقتات به الدواب ، وحدائق ذات أغصان ملتفة .

وقد جمع الله سبحانه فى هذه الآية جميع أنواع ما تنبته الأرض ، فإن ما يخرج منها إما أن يكون ذا ساق أولاً ، والأول إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التف فهو الحديقة ، والثانى إما أن يكون له أكمام فيها حب ، وإما أن يكون بغير ذلك وهو النبات ، وقدم الحب لأنه غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الإنسان ، وأعقبه بذكر النبات ، لأنه غذاء بقية أنواع الحيوان ، وآخر الحدائق لأن الفاكهة مما يستغنى عنها الكثير من الناس .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ .

قال تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتا ، يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً ، وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا** لا يذوقون فيها بردا ولا شراباً إلا حميا وغساقاً جزاء وفاقا إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا **كذابا ، وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا** ﴾ .

بعد أن بين الله سبحانه وتعالى للناس بهذه الدلائل المشاهدة قدرته الباهرة وعظمته القاهرة ليلزمهم الحجة ، فى أمر البعث والنشور ، حتى لا يجدوا سبيلا إلى نكرانه وجحوده ، هددهم أشد التهديد ببيان أن الساعة آتية لا محالة ولا ريب فيها ، وفيها فصل الخطاب بين الحق والباطل والحساب والجزاء لكل عامل فقال تعالى : ﴿ **إن يوم الفصل كان ميقاتا** ﴾ أى أن يوم القيامة كان فى تقدير الله عز وجل وحكمته حداً فاصلاً به فى الدنيا أو حداً للخلائق ينتهون إليه ، وكان ميقاتا لما وعد الله من الثواب والعقاب وهو ميقات لكل الخلائق يجتمعون فيه فى فصل الحكومات وقطع الخصومات وهو يوم القيامة مؤقت بأجل معدود لا يزاد عليه ولا ينقص منه ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل كما قال سبحانه ﴿ **وما نؤخره إلا لأجل معدود** ﴾ والحاكم المطلق فيه رب الأرض والسماوات وعالم السر والنجوى من لا تغيب عنه غائبة فى الأرض ولا فى السماء ﴿ **إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين** ﴾ ثم بين سبحانه هذا اليوم وزاد فى تفظيعه وتهويله فقال تعالى : ﴿ **يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجاً** ﴾ أى يوم ينفخ فى الصور فتأتون زمراً زمراً كل أمة مع رسولها بدليل قوله تعالى ﴿ **يوم ندعو كل أناس بإمامهم** ﴾ ونحو الآية قوله تعالى ﴿ **ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون** ﴾ وقوله ﴿ **يوم يدع الداع إلى شىء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر** ﴾ والنفخ فى الصور فى هذه الآية هو النفخة الأخيرة التى عندها يكون النشر والحشر .

وقوله تعالى ﴿ **وفتحت السماء فكانت أبوابا** ﴾ أى طرقاً ومسالك لنزول الملائكة كما قال تعالى ﴿ **ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيراً** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وسيرت الجبال فكانت سراباً** ﴾ أى أن الجبال لا تكون فى ذلك اليوم على ثباتها المعروف بل يذهب ما كان لها من قرار ، وتعود كأنها سراب يُرى من بعد فإذا قربت منه لم تجد شيئاً لتفرق أجزائها وانبثاث جواهرها .

أحوال الجبال يوم القيامة

وقد ذكر الإمام الرازى رحمه الله فى تفسيره أحوال الجبال فقال : اعلم أن الله تعالى ذكر فى مواضع من كتابه أحوال الجبال على وجوه مختلفة ويمكن الجمع بينها على الوجه الذى نقوله وهو :

١ ـ أن أول أحوالها الاندكاك وهو قوله ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ .

٢ ـ الحالة الثانية لها أن تكون ﴿ كالعهن المنفوش ﴾ وهو قوله ﴿ يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ﴾ .

٣ ـ الحالة الثالثة : أن تصير كالمهل وذلك أن تنقطع وتتبدد بعد أن كانت كالعهن وهو قوله ﴿ إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثاً ﴾ .

٤ ـ الحالة الرابعة : أن تنسف لأنها مع الأحوال المتقدمة تفارق مواضعها والأرض تحتها غير بارزة فتنسف عنها بإرسال الرياح عليها وهو المراد بقوله ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجا ولا أمتاً ﴾ .

٥ ـ والحالة الخامسة : أن الرياح ترفعها عن وجه الأرض فتصيرها شعاعاً فى الهواء كأنها غبار فمن نظر إليها من بعد حسبها لتكاثفها أجساماً جامدة وهى بالحقيقة مارة إلا أن مرورها بسبب الرياح بها صيرها مندكة متفتتة وهى قوله ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء إنه خبير بما تفعلون ﴾ .

ثم بين أن تلك الحركة حصلت بقهره وتسخيره فقال ﴿ ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾

٦ ـ الحالة السادسة : أن تصير سراباً بمعنى لا شىء فمن نظر إلى مواضعها لم يجد فيها شيئاً . كما أن من يرى السراب من بعد إذا جاء الموضع الذى كان يراه فيه لم يجد شيئا والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ إن جهنم كانت مرصادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا ﴾ .

أى : إن دار العذاب وهى جهنم مكان يرتقب فيه خزانتها من يستحقها بسوء أعماله ، وخبث عقيدته وأفعاله .

روى ابن جرير وابن المنذر عن الحسن أنه قال : لا يدخل أحد الجنة حتى يجتاز النار ، فإن كان معه جواز نجا ، وإلا احتبس .

وقوله ﴿ للطاغين مآبا ﴾ أى إنها مرجع للذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد . ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ أى أنهم سيمكثون فيها دهورا متلاحقة يتبع بعضها بعضا فكلما انقضى زمن لهم تجدد لهم زمن آخر كما قال تعالى ﴿ يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ .

ثم بين سبحانه أحوالهم فيها فقال :

﴿ لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا ، إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا ﴾ أى : لا يذوقون فى جهنم برداً يبرد السعير عنهم . إلا الغساق ولا شرابا يرويهم من شدة العطش إلا الحميم ، فهم لا يذوقون مع شدة

الحر ما يكون فيه راحة من ريح باردة ، أو ظل يمنع من نار ، ولا يجدون شرابا فيسكن عطشهم ، ويزيل الحرقة من بواطنهم ولكن يجدون الماء الحار المغلى ، وما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق ، وسائر الرطوبات المستقذرة قال الربيع بن أنس : الحميم فهو الحار الذى قد انتهى حره وحموه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم وقال ابن جرير ومثل المراد بقوله ﴿ لا يذوقون فيها برداً ﴾ يعنى النوم .

وقوله تعالى : ﴿ جزاء وفاقا ﴾

أى : أن هذا الحال الذى صاروا إليه ، وهذه العقوبة التى نزلت بهم ما هى إلا نتيجة أعمالهم الفاسدة التى كانوا يعملونها فى الدنيا وقال مقاتل : وافق عذاب النار الشرك لأنهما عظيمان فلا ذنب أعظم من الشرك ولا عذاب أعظم من النار .

والوفاق الجارى على المقدار ، فالجزاء وفاق لأنه جار على مقدار الأعمال فى الاستحقاق ، والعقاب من جنس العمل فلم ينزل الله بهم أليم عذابه وشديد عقابه إلا لأنهم أتوا بخسيس المعاصى ، وارتكبوا عظيم الآثام وكبير الذنوب والإجرام .

قوله تعالى : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآياتنا كذابا وكل شىء أحصيناه كتابا فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾

بعد أن بين ـ سبحانه ـ على طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذى أعده لهؤلاء الآثمين . وأنه تعالى جعله وفق إجرامهم وكفاء أعمالهم المنكرة شرع هنا جل وعلا بتفصيل أنواع جرائمهم فقال تعالى ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾ .

لقد فعلوا ما فعلوا من المنكرات ، وارتكبوا ما ارتكبوا من الموبقات وأتوا ما أتوا من المعاصى . واجترحوا ما اجترحوا من السيئات لأنهم كذبوا بيوم الحساب ، وما كانوا يتوقعون أن يقفوا ذلك الموقف الرهيب بين يدى رب العالمين فيجازيهم بأعمالهم ، وقد أمضى كل شىء عليهم ولو آمنوا بهذا الحساب لخافوا الله وحسبوا لهذا اليوم حسابه ، وأعدوا له عدته . ولكنهم كذبوا به فرتعوا فى الباطل ، وغاصوا فى الغى والضلال . ومن أمن العقوبة أساء الأدب وانتهى إلى سوء المنقلب .

وقوله : ﴿ وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾ أى أنهم مع تكذيبهم بيوم الحساب فقد كذبوا بجميع حجج الله ودلائله على عظيم خلقه التى أنزلها على رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام . وكذبوا بكل البراهين الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد . وأنكروا ما جاء به القرآن الكريم فهم كفرة فجرة ، لذا عقابهم شديدا موافقا لما أتوا به من الكفر والضلال وعظيم الآثام .

وقوله تعالى : ﴿ وكل شىء أحصيناه كتابا ﴾ أى إنا علمنا جميع ما عملوا علماً ثابتاً لا يعتريه تغيير ولا تحريف ، فلا يمكنهم أن يجحدوا شيئا مما كانوا يصنعون فى الحياة الدنيا حين يرون ما أعد لهم من أنواع العقوبات ، لأنا قد أحصينا ما فعلوه إحصاء لا يزول منه شىء ولا يغيب ، وإن غاب عن أذهانهم ونسوه كما قال تعالى ﴿ أحصاه الله ونسوه والله على كل شىء شهيد ﴾ وقال تعالى ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ .

وبعد أن بين قبائح أفعالهم لكفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآيات - رتب عليه هذا الجزاء فقال تعالى ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ أى فذوقوا ما أنتم فيه من العذاب الأليم ، فلن نزيدكم إلا عذابا من جنسه كما قال تعالى ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ روى قتادة عن عبد الله بن عمر وأنه قال : لم ينزل على أهل النار آية أشد من هذه الآية ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ﴾ قال تعالى ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا ، ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

معانى المفردات

(مفازا) : أى : فوزا بالنعيم والثواب

(حدائق) : أى : بساتين فيها أنواع الثمر والشجر .

(أعنابا) : واحدها عنب .

(كواعب) : واحدها كاعب ، وهى التى نهد ثدياها وتكعبا .

(الاتراب) إحداهن ترب ، وهى التى سنها من سن صاحبتها .

(والكأس) : أناء من بلور للشراب .

(دهاقاً) : ممتلئة .

(اللغو) : الباطل من الكلام

(حسابا) : أى : كافيا لهم .

(الخطاب) : المخلصة والمكالمة .

(الروح) : جبريل عليه الصلاة والسلام .

(المآب) المرجع .

(الانذار) : الاخبار بالمكروه قبل وقوعه .

(المرء) : الإنسان ذكراً كان أو أنثى .

(ما قدمت يداه) : ما عمله فى حياته الأولى .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن بين حال المكذبين ، أردفه ما يفوز به المتقون من الجنات التى وصفها ووصف ما فيها ، وذكر إنها عطاء من الله تعالى ، وفى هذا استنهاض لعوالى الهمم بدعوتهم إلى المثابرة على أعمال الخير ، وأزديادهم من القربان والطاعات ، كما أن فيها إيلاما لأنفس الضالين المكذبين ثم أتبعه بأن هذا اليوم حق لا ريب فيه ثم عاد إلى تهديد المعاندين وتحذيرهم من عاقبة عنادهم ، وأنهم سيعلمون غداً ما قدمته أيديهم وحينئذ يندمون ، ولات ساعة مندم ، ويبلغ من أمرهم أن يقولوا : ليتنا كنا ترابا لم نصب حظاً من الحياة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا . وكواعب أترابا . وكأساً دهاقا لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن للمتقين مفازاً** ﴾ .

فالفوز بالكرامة فى دار المقامة ، ونيل الثواب فى جنة النعيم ، جعله الله عز وجل جزاء من صدق مع الله واستحيا من الله حق الحياء واتقى محارم الله وخاف عقابه ، وتزود بالتقوى ، وخير الزاد التقوى ، وقد لبسوا فيها جلبابا سابغا أنجاهم اللهيه من النار . وكتب لهم الفوز بالجنة .

وقد بين الله تبارك وتعالى صفات المتقين فى كتابه العزيز لتعليم من لم يكن يعلم من هم المتقون الذى يعنيهم القرآن فى العديد من آياته البينات والقرآن يفسر بعضه بعضاً .

قال تعالى من سورة البقرة : ﴿ الٓمٓ . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة و آتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على

ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ، ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفى أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ .

فالمتقون هم الفائزون بروضات الجنات المستحقون هذا الفوز بفضل من الله وبرحمة منه فوهبهم ومنحهم هذا الفوز جزاء تقواهم لله عز وجل .

ثم فصل الله تعالى هذا الفوز وبين طرفاً مما سيصيب هؤلاء الأطهار الأبرار من النعيم المقيم فقال تعالى :

﴿ حدائق وأعناباً ﴾ أى : بساتين من النخيل والأعناب ومختلف الأشجار لها أسوار محيطة بها ، وفيها الأعناب اللذيذة الطعم ، مما تشتهيها النفوس ، وتقر به العيون .

ثم وصف سبحانه ما فى الحدائق والجنات فقال تعالى :

﴿ وكواعب أتراباً ﴾ أى : وحورا كواعب لم تتدل ثديهم ، وهن أبكار عرب أتراب .

والتمتع بالنساء على هذه الشاكلة مما يتمثله المرء فى الدنيا على نحو من اللذة ، وإن كنا لا نعلم كنهه فى الآخرة ، وعلينا أن نؤمن به وأنه متمتع يفوق ما هو مثله من لذات هذه الحياة ، وأنه يشاكل أحوال العالم الأخروى .

وقوله : ﴿ وكأسا دهاقاً ﴾ أى : وكأساً من الخمر مترعة ملأى متتابعة على شاربيها لا يصدعون عنها ولا ينزفون فهى لذة للشاربين .

وقوله : ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ﴾ أى : ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ، وليس فيها كذب وبهتان ولازور وعصيان .

قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما الا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ بل هى جنة الرحمن برئت من كل عيب ونقصان .

أن هؤلاء السعداء الذين أكرمهم الله بجنة الخلد سوف لا يسمعون كلاماً فاسداً باطلا أو مشوشاً مخلوطا بالزور والبهتان وستكون النعم الواصلة اليهم صافية خالية من زحمة أعدائهم أيضا . وعن سماع كلامهم الفاسد وأقوالهم الكاذبة الباطلة وسيعيشون فى الجنة إخواناً على سرر متقابلين ، لا لغو ولا رفث ولا حقد ولا ضغينة ولا حسد قال تعالى :﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾

الكل يرتع فى جنة الله والكل سعيد بفضل الله والكل يجد ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وليس هناك ما يكدر صفة المحبة ولا يعكر نقاء القلوب الطاهرة التى تعلقت بالله واتقت الله فحظيت بالنعيم المقيم فى الجنة التى عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، جعلنا الله منهم والمسلمين أجمعين .

وقوله تعالى : ﴿ **جزاء من ربك عطاء حساباً** ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه جازاهم الله به وأعطاهموه بفضله ومنه وإحسانه ورحمته عطاء حساباً أى : كافيا وافيا سالماً كثيراً .

قوله تعالى : ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطاباً ، يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا ذلك اليوم الحق فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا** ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيها وأنه الرحمن الذى شملت رحمته كل شىء الملك الحق المبين .

وقوله ﴿ **لا يملكون منه خطابا** ﴾ أى : لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه كقوله تعالى : ﴿ **من ذا الذى يشفع عنده الا بإذنه** ﴾ وكقوله تعالى ﴿ **يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا** ﴾ .

اختلف المفسرون فى المراد بالروح ههنا ما هو؟

على أقوال (أحدها) أنهم بنوا آدم ، الثانى : أنهم خلق من خلق الله على صور بنى آدم وليسوا بملائكة ولا بشر وهم يأكلون ويشربون (والثالث) هو جبريل ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ قال ابن كثير والأشبه عندى والله أعلم أنهم بنو آدم .

وقوله تعالى : ﴿ **الا من أذن له الرحمن** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه** ﴾ وكما ثبت فى الحديث الصحيح « ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل » .

وقوله تعالى : ﴿ **وقال صوابا** ﴾ أى : قال حقاً وصواباً وعدلا ، من الحق لا إله إلا الله . وقوله تعالى : ﴿ **ذلك اليوم الحق** ﴾ أى : الكائن لا محالة « فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا » أى : من شاء من العباد تاب وأناب ورجع إلى ربه ويدنيه من كرامته وثوابه ، ويباعد بينه وبين عقابه وأليم عذابه فإذا اتخذ المرء عند ربه مرجعا ومآبا فقد فاز ونجا وتعلق بأسباب الرجاء .

وقال ابن عباس المراد : فمن شاء الله به خيراً هداه حتى يتخذ إلى ربه مآبا .

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً** ﴾

لقد أنذرهم الله عز وجل فى هذه الآية من عذاب يوم القيامة . إن هم مضوا فى كفرهم وضلالهم ، ولم يثوبوا إلى رشدهم ، ولم يعودوا إلى ربهم ، تائبين خائفين من عذاب هذا اليوم الذى سيقع حتماً ، ولتحقق وقوعه صار قريبا وكل ما هو آت آت كقوله تعالى : ﴿ **كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها** ﴾ .

وإنما سمى الله هذا التخويف انذاراً لأنه تعالى بهذا الوصف قد خوف ، منه نهاية التخويف وهو معنى الإنذار . وإنهم سيجدون مقدمات هذا العذاب إذا فارقت الروح الجسد ووسد المرء فى صدع من الأرض بقبر غير موسد ولا ممهد ، وقد خلع الأسباب وفارق الأصحاب وواجه الحساب ، عندها ينكشف له ما كان ينتظره ، ويرى نعيم القبر أوعذابه ، ولا يزال منه فى ألم إلى أن يلاقى ربه عز وجل .

وقوله تعالى : ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ أى : سيرى وينتظر جزاء ما قدمت يداه ، فإن قدم الطاعة انتظر الثواب ، وأن قدم المعصية انتظر العقاب ، وطوبى له إن قدم عمل الأبرار ، وويل له إن قدم عمل الفجار .

غـداً تـوفى النفـوس مـا كسبت ويحصـد الـزارعـون مـا زرعـوا
فـإن احسنـوا أحسنـوا لانفسهم وأن أسـاءوا فبئس مـا صنعـوا

قال ابن كثير : (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) أى يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها وقديمها وحديثها ، وكقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ويقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً ﴾ .

إن شدة ما يلقاه الكافر فى ذلك اليوم العسير عليه وهو ما سيراه حين يرى عذاب الله ونقمته وبطشه وينظر إلى أعماله الفاسدة وإلى سيئاته وقد سطرت عليه بأيدى السفرة ، الكرام البررة ، بحيث لم يغادروا صغيرة ولا كبيرة الا سجلوها وسطروها فى كتاب أعماله الذى سيعرض عليه ويقال له (اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) ويقول : « مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً » .

إن كل هذا وغيره من الأهوال التى سيراها الكافر ستجعله يقول : ﴿ يا ليتنى كنت ترابا ﴾ فيود أنه لو كان ترابا فى الدار الدنيا ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، ويقول : ليتنى لم أبعث للحساب وبقيت كما كنت ترابا ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ياليتها كانت القاضية ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا ﴾ قال ابن كثير : وقيل بينها بحكمة العدل الذى لا يجور حتى أنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء . فإذا فرغ من الحكم فيها قال لها كونى ترابا فتصير ترابا فعند ذلك يقول الكافر (يا ليتنى كنت تراباً) أى : كنت حيواناً فأرجع إلى التراب ، وقد ورد معنى هذا فى حديث الصور المشهور وورد فيه أثار عن أبى هريرة وعبد الله بن عمرو وغيرهما .

اللهم يا رحيم يا ودود ، ويا حميد ، يا مجيد ، يا حى ، يا قيوم ، نسألك أن تجعل خير أعمالنا أواخرها ، وخير أعمالنا خواتمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، ونسألك أن تجعل القبور بعد فراق الدنيا خير منازلنا ، وافسح بها ملاحدنا ، وارحم فى موقف العرض عليك ذل مقامنا ، وثبت على الصراط أقدامنا ، ونجنا من كرب يوم القيامة ، وبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه .

عقيدة المؤمن فى
الإيمان باليوم الآخر

يقول الشيخ أبو بكر الجزائرى فى كتاب عقيدة المؤمن تحت هذا العنوان « الركن الخامس من أركان الإيمان الإيمان باليوم الآخر » .

تعريف :

ما المراد باليوم الآخر ؟

إن المراد من اليوم الآخر أمران : الأول : فناء العالم وانتهاء هذه الحياة بكاملها . والثانى : إقبال الحياة الآخرة وابتداؤ ها . فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية ، إذ هو يوم واحد لا ثانى فيها البتة فالإيمان باليوم الآخر مقتضى للتصديق بإخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا ، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أهوال واختلاف أحوال ، كما هو مقتض كذلك لتصديق الله تعالى فى أخباره عن الحياة الأخرة ، وما فيها من نعيم وعذاب ، وما يجرى فيها من أمور عظام ، كبعث الخلائق ، وحشرهم وحسابهم ، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التى قاموا بها فى هذه الحياة الدنيا .

إمكان الفناء ممكن ؟

هل الفناء ممكن ؟

والجواب : نعم . الفناء ممكن ، لأن العالم ليس أزلياً أبداً ، وما لم يكن أزلياً فهو حادث ، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له ، التى لا تنفك عنه بحال ، وطروء الفناء على الحادثات مشاهد فى هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل . إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً حدوث العالم ، إن التغير الجارى ، والمستمر على العوالم دال على حدوثها ، وإن حدوثها دال على فنائها ، كما أن قانون الطاقة المتاحة وهى نظرية علمية فى غاية الصحة وقد أثبتت حدوث العالم وبالتالى قد أثبتت وجود الله تعالى الأزلى ، الموجد لكل موجود ، وكما أثبتت حدوث العالم أثبتت إمكان فنائه أيضاً إذ حقيقة هذا القانون العلمى الهائل هى أن الحرارة تنتقل دائما من وجود حرارى إلى آخر غير حرارى ، واستمرار هذه العملية سيترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات ، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل ، فتنتهى العمليات الكيماوية الطبيعية ، وعندها تنتهى الحياة تلقائيا ، وبهذا بطلت أزلية العالم أى قدمه اللابتدائى ، لو كان أزليا لفقد طاقته منذ زمان بعيد ، وانتهت بذلك الحياة .

وثبت أيضا إمكان فنائه اللازم له ، والذى هو فى طريقه إليه لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة ولابد أن يأتى عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام وعندها تتوقف العمليات الكمياوية الطبيعية ، وتنتهى الحياة ، ويعم الفناء هذا الكون كله .

وبناء على هذا فاليوم الآخر ممكن الوقوع وهو مرتقب جداً ومنتظر أبناؤه ، وهو اليوم الذى لا يأتى بعده يوم من أيام هذه الحياة وذلك لخراب العالم وفنائه .

إمكان المعاد .

هل المعاد ممكن ؟

ولم لا يكون ممكنا واثباته لا يوجب أى تناقض عقلى أبداً وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقليا فهو من قبيل الجائز بالامكان .

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضا عقليا ؟ وإذا كان الجواب ، لا ، أبداً . فالمعاد إذاً وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذى طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز .

وشىء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب ، إذ المستحيل ما أوجب قصور وقوعه تناقضاً عقليا كتصور وقوع الشىء موجوداً غير موجود .

والواجب ما أوجب عدم قصور وقوعه تناقضاً عقليا كتصور وجود مصنوع بدون صانع ، أو مخلوق بدون خالق ، أو معلول بدون علة ، فهو أى المعاد إذا ممكن جائز ، وهكذا ثبت بالقياس العقلى ، والبرهان المنطقى امكان البعث وجواز وقوعه .

أدلة البعث :

لقد سلك القرآن الكريم فى إثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هى غاية فى الوضوح والسهولة منها :

- إن الشىء إذا لم يكن ، ثم كان وأعدم كانت إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أعدمه وأفناه ، فالذى بنى داراً ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا فى حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت .

والذى صنع آلة من الآلات مخترعاً لها لا يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت إذا هو كسرها بإرادته واختياره ليحولها إلى آلة أفضل منها قبل ورود هذا المسلك من الاستدلال فى سورة الروم إذ قال تعالى : ﴿ **وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ . كما ورد فى سورة يس فى قوله تعالى : ﴿ **قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم** ﴾ .

والاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما ، فالنوم يعتبر موتاً مصغراً ، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضا فكما تتم عملية النوم للانسان والحيوان ، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما ، جاء هذا الاستدلال فى قول الله تعالى من سورة الانعام) ﴿ **وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ، ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ .

ـ الاستدلال بالأرض الميته بسبب المحل ، والجدب ، والقحط ، حيث تنعدم فيها الحياة تماماً ، ثم ينزل بها الغيث ، أو تسقى بالماء فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهارا . قال تعالى من سورة فصلت : ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء آهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى . إنه على كل شىء قدير ﴾ .

ـ الاستدلال بالقدرة الكافية التى بها خلق آدم من تراب ، وذريته من نطفة على إمكان المعاد والبعث ، وتقرير وقوعها . قال تعالى من سورة الحج : ﴿ يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ﴾ .

ـ والاستدلال بالقدرة على خلق العوالم على إمكان إعادة حياة الناس بعد موتهم ، وفناء أجسامهم ، قال تعالى من سورة المؤمن ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وقال عز من قائل من سورة النازعات : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ .

وقال تعالى من سورة يس ، رداً على من قال :

من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم . بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

ـ الاستدلال باختلاف سلوك الناس فى هذه الحياة بالخير والشر والصلاح والفساد على وجود حياة أخرى يجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر لعدم استكمال المجازاة فى هذه الحياة ، قال تعالى من سورة آل عمران : ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ، فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور ﴾ .

وقال تعالى فى سورة يونس : ﴿ إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴾ .

وقال تعالى من سورة الليل : ﴿ إن سعيكم لشتى ، فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ، وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ .

ـ الاستدلال بالتكاليف الشرعية على وجود حياة أخرى يتم فيها الجزاء على القيام بتلك التكاليف ،

وعلى تركها وإهمالها ، إذ لم يتوافر جزاء كاف فى هذه الحياة الدنيا عى تلك التكاليف ، قال تعالى من سورة الملك : ﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ، الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ وقال تعالى من سورة المؤمنون : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

أدلة أخرى :

١ ـ شعور كل أفراد البشر فى جميع العصور والدهور ، وسواء منهم المتحضرون ، أو المتبدون ، شعور الجميع بوجود حياة ثانية يلقى الإنسان جزاء عمله الذى قام به فى هذه الحياة الدنيا من خير أو شر ، وصلاح وفساد ، هذا الشعور العام دال على وجود المعاد والحياة الثانية ، إذ لا يمكن أن يعم هذا الشعور كل أفراد البشر ولا يكون له حقيقة فى نفس الأمر ، ولا صورة له فى الخارج ، وهو شعور كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام والشراب الذى دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه ، وماء لعطشه .

٢ ـ ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح ، ومخاطبتها ، ورؤ يتها دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجثمانية .

٣ ـ رؤ ى الناس المتعددة التى واكبت الحياة الإنسانية ولم يخل منها زمان ولا مكان هذه الرؤ ية لأموات الناس فى المنام والحديث معهم ومعرفة أحوالهم وسؤ الهم ، وأخبار الأموات من رآهم فى منامه بأمور غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية .

آخر الأدلة :

وآخر الأدلة ؟ وأعظمها على البعث ، والجزاء ، والحياة الآخرة إخبار الله تعالى ، وإخبار رسوله ﷺ أن من آمن بالله وملائكته ، وكتبه ورسله لا يجد داعيا للشك ، ولا مثاراً للجدل والنزاع فى ثبوت المعاد ، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء ، إذ إخبار الله تعالى كلها صدق وحق ، فقد أخبر تعالى بآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر . كما أخبر رسوله بآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله ، فكيف يعقل إذا أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية وعن كل ما يجرى من بعث ، وحساب وجزاء ، ثم لا يصح شىء من ذلك ولا يثبت ، اللهم إن هذا باطل لا يصلح ، ومحال لا يقبل ولا يعقل .

إن حتمية الفناء ، ووجود معاد كامل ، وحياة أفضل تحوى نعيما لنمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحالت ، وجحيما للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات مما أخبر الله تعالى به ، وقرره فى كل كتبه ، وعلى ألسنة جميع رسله فالشك فيه ضرب من المرض العقلى ، والهبوط الشخصى ، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

الحكمة فى المعاد :

إن الحكمة من المعاد الأخروى الذى هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم وفنائهم أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم ، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى الذى كسبوه فى هذه الدنيا ، لأن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، قال تعالى : ﴿ **كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** ﴾ .

فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتا كبيراً فى أرزاقهم ، وآجالهم وأعمالهم ، وفى سعادتهم ، وشقائهم فمنهم الظالم الغشوم ، ومنهم المظلوم المهضوم ، ومنهم الصحيح السليم ، ومنهم المريض السقيم ، ومنهم الغنى الثرى ، ومنهم الفقير الشقى ، ومنهم الذليل ، ومنهم المحسن ، ومنهم المسىء ، إلى غير هذا التفاوت والاختلاف فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ولا يبعثون لكان ذلك منافيا للحكمة ، مجانباً للعدل والرحمة . ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء ، وحكم بهما فهما كائنان لا محالة . فقد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقسم عليهما فى قوله من سورة التغابن : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾ .

وقال تعالى من سورة النحل : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى ، وعداً عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون** ﴾ .

وجوب الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم فى الكون ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها ، وابتداء حياة أخرى وهى الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مدهشة ، من بعث الخلق وحشرهم ، وحسابهم ومجازاتهم .

هذا الإيمان ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تبنى عقيدة المؤمن ، فلا تتم إذا عقيدته إلا به ، ولا تصح إلا عليه ، قال تعالى : ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** ﴾ الآية . ولأهمية هذا المعتقد فى حياة المؤمن ، ولآثاره الكبرى فى استقامة الفرد وصلاحه عنى القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى ، فقد ذكره فى عشرات السور منه ، وفى مئات الآيات ، مرة بوصفه ، والحديث عنه كقوله تعالى : ﴿ **فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة ، وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه ، فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول يا ليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية**

ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانية ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام الا من غسلين لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ .

ومرة بتقريره ، وتأكيد مجيئه ، كقوله تعالى : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾(٢) ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾(٣) .

ومرة بإتيان الهداية والفلاح للموقنين به ، وذلك كقوله تعالى ، ﴿ وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾(٤) .

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد ، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر والخير ، هو ذكره مقروناً بالإيمان بالله تعالى ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾(٥) .

وقوله تعالى : ﴿ ذلكم يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾(٦) .

وقوله تعالى : ﴿ ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾(٧) وقوله تعالى : ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾(٨) فى عدة آيات من كتاب الله تعالى .

فدلت العناية الالهية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح ، وعليهما يدار استقامة المرء فى هذه الحياة ، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئا ، وأن من عدمهما فقد عدم كل خير ، وأن من افتقدهما ، فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة فى نفسه وأصبح من شر البرية .

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر ، هو رأس كل عقيدة ، وأساس كل إيمان ، وعليه مدار استقامة الإنسان ، وصلاح خلقه ، وطهارة روحه وبدونه ، فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه ولا لغيره ، وهو شر كله لا يؤمن جانبه ، ولا يطمأن اليه ، ولا تسكن النفوس عنده ، وذلك لما انعدم عنده من أصول الخير ، وينابيع الفضيلة والكمال . . اهـ .

---

(١) الحج الآيتان : ٦ - ٧
(٢) التغابن آية : ٧
(٣) الطلاق آية : ٢
(٤) البقرة الآيتان : ٤ - ٥
(٥) البقرة آية : ٦٢
(٦) البقرة آية : ٢٣٢
(٧) النساء آية : ٣٨
(٨) النساء آية : ٥٩

تفسير سورة النازعـــات

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ست وأربعون آية .

وكلماتها : مائة وتسع وسبعون .

وحروفها : سبعمائة وثلاث وخمسون .

فواصل آياتها : (هم) على الميم آية واحدة (ولأنعامكم) .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : القسم على نفخة الصور ، وكيفية البعث والنشور ، وإرسال موسى إلى فرعون ، والمنة بخلق السماء والأرض ، وتحقيق هول القيامة ، وبيان حال من آثر الدنيا ، والخبر عن حال أهل الخوف ، واستعجال الكافرين بالقيامة ، وتعجبهم منها فى حال البعث فى قوله تعالى : ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا) الآية .

المتشابهات :

قوله : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ ، وفى عبس ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ لأن الطامة مشتقة من طممت البئر إذا كبستها (أى ردمتها بالتراب) وسميت القيامة طامة ، لأنها تكبس كل شىء وتكسره . وسميت الصاخة ـ والصاخة : الصوت الشديد ـ لأن من شدة صوتها يحيا الناس ، كما ينتبه النائم بالصوت الشديد ، وخصت النازعات بالطامة : لأن الطم قبل الصخ ، والفزع قبل الصوت ، فكانت هى السابقة ، وخصت (عبس) بالصاخة ، لأنها بعدهما وهى اللاحقة .

مناسبتها لما قبلها .

ووجه اتصالها بما قبلها أنه هناك أنذر بالعذاب يوم القيامة ـ وهنا أقسم على أن البعث حق لا ريب فيه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ﴿٣﴾
فَالسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾
تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾
يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا
تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾
هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾
اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ
إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ الْءَايَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ
أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ
نَكَالَ الْءَاخِرَةِ وَالْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

معانى المفردات

(والنازعات غرقا) أى (أقسم) الله بالملائكة تنزع أرواح الكفار من أقاصى أجسامهم ، نزعا شديدا مؤلما بالغ الغاية .

(والناشطات نشطا) الملائكة تسل أرواح المؤمنين برفق .

(والسابحات سبحا) الملائكة تنزل مسرعة لما أمرت به .

(فالسابقات سبقا) الملائكة تسبق بالأرواح الى مستقرها نارا أو جنة .

(فالمدبرات أمرا) الملائكة تنزل بالتدبير المأمور به .

(يوم ترجف الراجفة) لتبعثن (جواب القسم) يوم تضطرب الأجرام بالصيحة الهائلة (نفخة الموت) .

(تتبعها الرادفة) نفخة البعث التى تردف الأولى .

(واجفة) مضطربة أو خائفة وجلة .

(أبصارها خاشعة) ذليلة منكسرة من الفزع .

فى الحافرة : إلى الحالة الأولى (الحياة) .

كنا عظاما نخرة : بالية متفتتة .

كرة خاسرة : رجعة غابنة .

زجرة واحدة : صيحة واحدة (نفخة البعث) .

هم بالساهرة : هم أحياء على وجه الأرض .

طوى : اسم الوادى المقدس .

طغى : عتا وتجبر وكفر بالله العظيم .

تزكى : تطهر من الكفر والطغيان .

الآية الكبرى : معجزة العصا واليد البيضاء .

يسعى : يجدُّ فى الافساد والمعارضة .

فحشر : جمع السحرة أو الجند .

نكال : عقوبة . . . أو بعقوبة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً ، يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ﴾ .

أقسم المولى سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة وأصنافهم ، فهم النازعات التى تنزع الأرواح من الأجساد ، والناشطات التى تنشطها أى تخرجها بسرعة وخفة ، والسابحات التى تسبح فى الهواء فى طريق ممرها إلى ما أمرت به ، كما تسبح الطير فى الهواء فالسابقات التى تسبق وتسرع إلى ما أمرت به ، لا تبطىء عنه ولا تتأخر فالمدبرات أمور العباد التى أمرها ربها بتدبيرها .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ﴿ النازعات ﴾ الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف وقوله : ﴿ غرقا ﴾ الاغراق فى النزع ، هو أن يجتذبه إلى آخره ، ومنه إغراق النزع فى جذب القوة ، بأن يبلغ بها غاية المد ، فيقال : أغرق فى النزع ، ثم صار مثلاً لكل من بالغ فى فعل حتى وصل إلى آخره .

﴿ والناشطات نشطاً ﴾ الملائكة التى تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة ، فالنزع الجذب بشدة ، والنشط الجذب برفق ولين .

قال تعالى فى شأن المتقين : ﴿ الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ﴾[١] وقال سبحانه : (فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم ﴾[٢] .

(١) النحل آية : ٣٢

(٢) الواقعة الآيتان : ٨٨/ ٨٩

وقال عز من قائل فى شأن الكافرين : ﴿ ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ قال ابن مسعود : هى الملائكة ، وروى عن على ومجاهد وسعيد بن جبير مثل ذلك ، وقال قتادة : هى النجوم ، وقال عطاء : هى السفن .

قال ابن القيم رحمه الله : والصحيح أنها الملائكة ، والسياق يدل عليه ، وأما السفن والنجوم فإنما تسمى جارية وجوارى ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ الجوار الكنس ﴾[٤] ولم يسمها سابحات ، وإن أطلق عليها فعل السباحة ، كقوله تعالى : ﴿ وكل فى فلك يسبحون ﴾[٥] ويدل عليه ذكره السابقات بعدها والمدبرات بالفاء ، وذكره الثلاثة الأول بالواو ، لأن السبق والتدبير ، مسبب عن المذكور قبله ، فإنها نزعت ونشطت وسبحت ، فسبقت الى ما أمرت به فدبرته .

وقوله تعالى : ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ روى عن على ومسروق ومجاهد وأبى صالح والحسن البصرى يعنى الملائكة ، قال الحسن سبقت إلى الايمان والتصديق به ، وفسرت ﴿ السابقات سبقاً ﴾ بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته .

وأما ﴿ المدبرات أمراً ﴾ فأجمع المفسرون على أنها الملائكة ، قال مقاتل : هم جبريل ، وميكائيل ، واسرافيل ، وملك الموت : يدبرون أمر الله تعالى فى الأرض ، وهم ﴿ المقسمات أمراً ﴾ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : هم الملائكة ، وكلفهم الله بأمور عرفهم العمل بها والوقوف عليها ، بعضهم لبنى آدم يحفظون ويكتبون ، وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات ، والخسف والمسخ ، والرياح والسحاب .

قال ابن القيم رحمه الله : فالدنيا وما فيها ، والجنة والنار ، والموت وأحكام البرزخ ـ وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء من ذلك ، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذى لا يتم الإيمان إلا به .

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق ـ وهو البعث المستلزم لصدق الرسول وثبوت القرآن ، أو أنه من القسم الذى أريد به التنبيه على الدلالة ، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسماً عليه

---

(١) الأنعام آية : ٩٣
(٢) الأنفال آية : ٥٠
(٣) الشورى آية : ٣٢
(٤) التكوير آية : ١٦
(٥) يس آية : ٤٠

بعينه ، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه ، وإن لم يذكر لفظا ، ولعل هذا مراد من قال أنه محذوف للعلم به ، لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً ، فإن المقسم به إذا كان دالاً على المقسم عليه مستلزماً ، استغنى عن ذكره بذكره ، وهذا غير كونه محذوفا لدلالة ما بعده عليه فتأمله » .

والخلاصة : أن الله تبارك وتعالى أقسم فى الآيات الخمس ، بطوائف من الملائكة ، موكلين بأعمال جسام من أمور سائر المخلوقات فى هذا الكون ، على أن الخلق لابد يبعثون ، ويحاسبون ، فى اليوم الآخر ، والله سبحانه لم يخلق هذا الخلق عبثاً ، ولم يتركه سدى ، فهو عز وجل الخالق المطلق ، وهو العظيم والمدبر ، وهو المحاسب ، وهو المقدر ، وهو على كل شىء قدير ، بيده الأمر وله الحكم واليه ترجعون .

فإن إقسامه سبحانه وتعالى بهذه الأشياء ، لظهور دلالتها على ربوبيته ووحدانيته وعلمه ، وقدرته وحكمته ، فالأقسام بها فى الحقيقة أقسام بربوبيته وصفات كماله فتأمله .

قوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ﴾ أى تتحرك الأرض ، وتضطرب الجبال ، ويسمع لها دوى عظيم وسميت راجفة من الرجف ، وهو الاضطراب الشديد ، لأن بها يضطرب الأمر ويختل النظام ، وينتهى العالم إلى نهايته ، التى حددها له خالقه ـ عز وجل ـ .

والراجفة صيحة عظيمة ، فيها تردد واضطراب كالرعد إذا تمخض وتكون يوم النفخة الأولى من صور اسرافيل ، كقوله تعالى : ﴿ يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلا .... السماء منفطر به كان وعده مفعولا ﴾[١] . ثم تتبعها الرادفة أى النفخة الثانية التى تعقب النفخة الأولى ، وهى التى يبعث الله معها الخلق ، وهو كقوله تعالى : ﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾[٢] .

وقد قال الامام أحمد بسنده عن الطفيل بن أبى كعب عن أبيه ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه فقال رجل : يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتى كلها عليك ؟ قال إذا يكفيك الله ما أهمك من دنياك وآخرتك »[٣] وقد روى الترمذى وابن جرير وابن حاتم من حديث سفيان الثورى بإسناده مثله ، ولفظ الترمذى : كان رسول الله (ﷺ) : إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه »[٤] .

قوله تعالى : ﴿ قلوب يومئذ واجفة ، أبصارها خاشعة ﴾ .

(١) المزمل الآيات : ١٤ ـ ١٨

(٢) الزمر آية : ٦٨

(٣) أخرجه فى الفتح الربانى للساعاتى جـ٢٤ حديث رقم ٦

(٤) أخرجه الترمذى فى (كتاب صفة القيامة) باب ٢٣ رقم ٢٤٥٧ جـ٤ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ عن الطفيل بن أبى بن كعب عن أبيه ، ووردت به العبادات مكررة مرتين ... وهو حديث طويل ، والمردى هنا جزؤه .
قال أبوعيسى : هذا حديث حسن صحيح

أى فى هذا اليوم ، ستكون قلوب الكفار مضطربة قلقة خائفة ، لأنهم أبصروا ما كانوا ينكرون ، ورأوا ما كانوا يوعدون ، فالقلوب الواجفة ، هى القلقة المضطربة اضطرابا شديدا ، والخائفة خوفا عظيما ، فلا تهدأ ولا تسكن ، لما ترى من هول يوم القيامة ، وعذاب الآخرة ﴿ **أبصارها خاشعة** ﴾ أى ذليلة كئيبة كاسفة من هول ذلك المشهد العظيم .

والويل ثم الويل لأولئك المكذبين بيوم الدين ، وقد حكى الله عنهم أقوالا استبعدوا بها أمر البعث والنشور ، واستهزءوا فيها بالرسول (ﷺ) وبالمؤمنين معه فقال :

﴿ **يقولون أئنا لمردودون فى الحافرة ، أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة** ﴾ .

أى يقول هؤلاء المنكرون للبعث من مشركى قريش ، ومن قال بقولهم فى إنكار المعاد ، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهى القبور وبعد تمزق أجسادهم ، وتفتت عظامهم ونخورها ، ولهذا قالوا ﴿ **أئذا كنا عظاماً نخرة** ﴾ وهو العظم إذا بلى ودخلت الريح فيه ، فهم يتعجبون كيف أنهم سيعودون بعد أن أصبحوا عظاماً بالية متفتتة ، ليس فيها حرارة ولا حياة ، إن هذا لغريب وعجيب ؟ فى نظرة هؤلاء الكفار ، الذين ليس لهم نظرة يقين .

﴿ **قالوا تلك إذاً كرة خاسرة** ﴾ هذا هو القول الثالث الذى حكاه الله عز وجل عن الكفار ، فقد قالوا مستهزئين بالنبى وبوعده وبالبعث والنشور ، تلك إذا كرة خاسرة : على معنى ، إن صح ما يقوله محمد لنا وأن هناك حساباً وثواباً وعقاباً وحياة ، بعد أن صرنا ترابا ، فنحن إذا خاسرون ، وتلك رجعة خاسرة أصحابها . حيث لم نعمل لها ولم نصدق بها .

وقوله تعالى : ﴿ **فإنما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة** ﴾ أى لا تحسبوا تلك الكرة صعبة على الله عز وجل ، فإنها سهلة هينة فى قدرته ، ما هى إلا صيحة واحدة ، فإذا هم أحياء على وجه الأرض ، بعد ما كانوا أمواتاً فى جوفها ، وما هو إلا أمر من رب العزة ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل ، فينفخ فى الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون مجموعون لميقات يوم معلوم ، كما قال سبحانه : ﴿ **وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شىء قدير** ﴾[1] .

وكقوله تعالى : ﴿ **وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر** ﴾[2] .

---

(١) النحل لآية : ٧٧

(٢) القمر آية : ٥٠

قصة موسى وفرعون

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ، إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى اذهب إلى فرعون إنه طغى فقل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى فأراه الآية الكبرى فكذب وعصى ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ بعد أن حكى الله عز وجل حال كفار مكة ، وإصرارهم على إنكار البعث وتماديهم فى الغى والضلال واستهزائهم بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد شق ذلك على النبى ـ عليه الصلاة والسلام ـ وآلمه كفرهم وعنادهم ، بعد هذا ساق له قصة موسى مع طاغية مصر فرعون اللعين ، لتكون كالتسلية ، للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى نفس الوقت تهديداً للمشركين ، فليس هم أقوى وأشد من فرعون وجنوده .

فقد أخبر تعالى رسوله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن عبده ورسوله موسى ـ عليه السلام ـ أنه ابتعثه إلى فرعون وأيده الله بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك ، وكذب بما جئت به ، ولهذا قال جل فى علاه فى آخر القصة : (إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) .

فقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ أى هل سمعت بخبره ﴿ إذ ناداه ربه ﴾ أى كلمه نداء ﴿ بالواد المقدس ﴾ أى المطهر ﴿ طوى ﴾ وهو اسم الوادى ، فقال له رب العزة : ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أى تجرد وتمرد وعتى ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ أى قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك ، تزكى به وتسلم وتطيع ﴿ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴾ أى أدلك إلى عبادة ربك ﴿ فتخشى ﴾ أى فيصير قلبك خاضعاً له مطيعاً خاشعا بعد ما كان قاسياً خبيثا بعيداً عن الخير .

قال ابن القيم : ففى هذا من لطف الخطاب ولينه من وجوه :

﴿ أحدها ﴾ : اخراج الكلام مخرج العرض ، ولم يخرجه مخرج الأمر والالزام وهو الطف .

﴿ الثانى ﴾ : قوله : ﴿ إلى أن تزكى ﴾ والتزكى النماء والطهارة ، والبركة والزيادة ، فعرض عليه أمرا ، يقبله كل عاقل ، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل .

(الثالث) : قوله : ﴿ تزكى) ولم يقل أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه . وعلى هذا يخاطب الملوك .

(الرابع) قوله : ﴿ وأهديك ﴾ أى أكون دليلاً لك . وهاديا فتزكى أنت كما تقول للرجل . هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت ؟ وهذا أحسن من قولك له أعطيك .

(الخامس) قوله : ﴿ إلى ربك ﴾ فإن فى هذا ما يوجب قبول ما دل عليه ، وهو أنه يدعوه

ويوصله إلى ربه وفاطره ، وخالقه الذى أوجده ، ورباه بنعمه : جنينا وصغيرا وكبيرا وآتاه الملك ، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام ، كما تقول لمن خرج عن طاعة سيده : ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك ؟ وتقول للولد : ألا تطيع أباك الذى رباك .

(السادس) قوله ﴿ فتخشى ﴾ أى إذا اهتديت إليه وعرفت خشيته ، لأن من عرف الله خافه ، ومن لم يعرفه لم يخفه . فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته ، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية .

(السابع) أن فى قوله : ﴿ هل لك ﴾ فائدة لطيفة . وهى أن المعنى هل لك فى ذلك حاجة أو أرب ؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك ، لأن الداعى إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة الداعى ، فكأنه يقول : الحاجة لك وأنت المتزكى ، وأنا الدليل لك ، والمرشد لك إلى أعظم مصالحك ، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد ، وادعى أنه رب العالمين ، هذا وهو يعلم أنه ليس بالذى خلق فسوى ولا قدر فهدى ، فكذب الخبر ، وعصى الأمر ، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر ، فحشر جنوده ، فأجابوه ، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى ، واستخفهم فأطاعوه ، فبطش به جبار السموات والأرض بطشة عزيز مقتدر ، وأخذه نكال الآخرة والأولى ، ليعتبر بذلك من يعتبر ، فاعتبر من خشى ربه من المؤمنين وحق القول على الكافرين اهـ .

قوله تعالى : ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾يعنى فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق ، حجة قوية ودليلا واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله . ﴿ فكذب وعصى ﴾ أى فكذب بالحق وخالف ما أمره به من الطاعة ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ أى فى مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعه السحرة ، ليقابلوا ما جاء به موسى من المعجزات الباهرات . ﴿ فحشر فنادى ﴾ أى فى قومه ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ قال ابن عباس ومجاهد : وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ما علمت لكم من إله غيرى بأربعين سنة قال الله تعالى : ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أى انتقم الله منه انتقاما ، جعله به عبرة ونكالا لأمثاله من المتمردين فى الدنيا ﴿ ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون ﴾[1] قال ابن كثير وهذا هو الصحيح فى معنى الآية أن المراد بقوله تعالى : ﴿ نكال الآخرة والأولى ﴾ أى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ .

أى إن فيما اقتصصناه من أمر موسى وفرعون ، وما أحله الله بفرعون من الخزى ، ورزق موسى من العلو لعبرة لمن يخشى ، وذلك أن يدع التمرد على الله تعالى ، والتكذيب لأنبيائه ، خوفا من أن ينزل به ما أنزل بفرعون ، وعلماً بأن الله تعالى ينصر أنبياءه ورسله ، فاعتبروا معاشر المكذبين لمحمد بما ذكرناه ، أى أعلموا أنكم إن شاركتموهم فى هذا المعنى الجالب للعقاب شاركتموهم فى حلول العقاب بكم .

(١) القصص آية : ٤١

قال تعالى :

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾
وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾
أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ
مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ
ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ
وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ
ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ
يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

معانى المفردات

﴿ **أشد خلقا** ﴾ : أى أصعب إنشاء .

﴿ **والبناء** ﴾ : ضم الأجزاء المتفرقة بعضها الى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بنية واحدة .

﴿ **والسماء** ﴾ قامة كل شىء .

﴿ **فسواها** ﴾ أى جعل كل جزء موضوع فى موضعه .

﴿ **أغطش ليلها** ﴾ أى أظلمه .

﴿ **ضحاها** ﴾ أى نورها وضياء شمسها .

﴿ **دحاها** ﴾ أى مهدها وجعلها قابلة للسكنى .

﴿ مرعاها ﴾ أى نباتها .

﴿ متاعا لكم ﴾ أى متعة ومنفعة لكم ولأنعامكم .

﴿ الطامة الكبرى ﴾ أى الداهية العظمى التى تطم على الدواهى أى تغلب وتعلو .

﴿ وبرزت الجحيم ﴾ أى كانت فى مكان بارز يراها كل من له عينان .

﴿ طغى ﴾ أى تكبر وتجاوز الحد .

﴿ آثر ﴾ أى قدم وفضل .

﴿ المأوى ﴾ المستقر .

﴿ مقام ربه ﴾ أى جلاله وعظمته .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن قص سبحانه على المشركين قصص موسى عليه السلام مع فرعون ، وأومأ بهذا القصص إلى أنهم لا يعجزون الله ، أخذ يخاطب منكرى البعث ، وينههم إلى أنه لا ينبغى لهم أن يجحدوه ، فإن بعثهم هين إذا أضيف إلى خلق السموات ، التى تدل بحسن نظامها وجلالها على حكمة مبدعها ، وعظيم قدراته ، وواسع حكمته ، وإلى خلق الأرض ، ومدها وبسطهما ، وتهيئتها لما يراد منها ، وأخرج منها شراب الحيوان وأقواتهم ، وأرسى الجبال فجعلها رواسى للأرض ، لئلا تميد بأهلها ، وأودعها من المنافع ما يتم به مصالح الحيوان الناطق والبهيم ، فمن قدر على ذلك كله ، كيف يعجز عن إعادتكم خلقاً جديداً ؟

فتأمل دلالة المقسم به المذكور فى أول السورة على المعاد والتوحيد ، وصدق الرسل كدلالة هذا الدليل المذكور ، وإذا كان هذا هو المقصود لم يكن محتاجا إلى جواب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ .

أى أأنتم أيها الناس ، وقد خلقتم من ماء مهين ضعافا عاجزين ، لا تملكون لأنفسكم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ، أصعب ابداعا وإنشاء ، أم هذه السماء التى ترون خلقها ، وبديع تركيبها وعظمة شأنها ؟ إنكم لا تنازعون فى أنها أشد منكم خلقا ، ومع ذلك لم نعجز عن إبداعها ، فكيف تظنون أنا نعجز عن إعادتكم بعد موتكم ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ لخلق السموات والأرض

أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾[١] وكقوله تعالى : ﴿ أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾[٢] وكقوله : ﴿ أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلا لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً ﴾[٣] .

وبعد أن أشار الله - عز وجل - إلى عظم خلق السموات إجمالا شرع يبين ذلك تفصيلا فقال ﴿ بناها ، رفع سمكها فسواها ﴾ أى ضم أجزاءها المتفرقة ، وربطها بما يمسكها حتى حصل عن جميعها بنية واحدة ، فقد أبدع فى خلق الكواكب ، وجعل كل كوكب منها على نسبة من الآخر ، وجعل لكل منها ما يمسكه فى مداره ، حتى كان من مجموعها ما يشبه البناء ، وهو ما نسميه بالسماء .

وقد جعلها سبحانه ذاهبة فى العلو صعداً ، وعدلها فوضع كل جزء منها فى موضعه الذى يستحقه ويحسن أن يكون فيه قال تعالى : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾[٥] وقال تعالى : ﴿ والسماء وما بناها ﴾[٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ أى وجعل ليلها مظلماً بمغيب كواكبها ، وأبرز نهارها ، وعبر عن النهار بالضحى ، لأنه أشرف أوقاته وأطيبها ، وفيه من انتعاش الأرواح بما ليس فى سائرها .

وتعاقب الليل والنهار واختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات ، يهىء الأرض للسكنى ومن ثم قال تعالى :

﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾[٧] .

أى ومهد الأرض بعد ذلك ، وبسطها للسكنى ، وسير الناس والأنعام عليها ، وقد كانت مخلوقة غير مدحوَّة قبل ذلك ، فلا تخالف هذه الآية ما جاء فى سورة فصلت من قوله : ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها

---

(١) سورة غافر آية : ٥٧
(٢) سورة يس آية : ٨١
(٣) سورة الاسراء آية : ٩٩
(٤) سورة ق آية : ٦
(٥) الذاريات آية : ٤٧
(٧) الشمس آية : ٥
(٧) النازعات آية : ٣٠

وللأرض أئتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ﴾[1] .

فإن هذه الآية تدل على أن خلق السموات ، كان بعد خلق الأرض ، والآية التى نحن بصددها تشير إلى أن الله تعالى دحا الأرض ومهدها لسكنى الناس بعد أن خلق السماء .

فالآيتان ترشدان إلى أن الله تعالى ، خلق الأرض أولا ، ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فمهدها ودحاها ، فآية فصلت حكاية للخلق الأول ومبدئه وهذه حكاية للاصلاح الذى كان بعد الخلق .

وقوله تعالى : ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ أى فجر منها العيون والينابيع والأنهار ، وأنبت فيها النبات ، سواء أكان قوتا لبنى آدم كالحب والثمر ، أم قوتا للأنعام والماشية كالعشب والحشيش .

وقوله تعالى : ﴿ والجبال أرساها ﴾ أى وثبت الجبال فى أماكنها ، وجعلها كالأوتاد ، لئلا تميد بأهلها وتضطرب بهم .

ثم بين سبحانه الحكمة فى ذلك فقال :

﴿ متاعا لكم ولأنعامكم ﴾ أى إنما جعلنا ذلك كله ، ليتمتع به الناس والأنعام من الإبل والبقر والغنم .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ﴾[2] .

أفلا يكون خالقكم وواهبكم ما به تحيون ، ورافع السماء فوقكم ، وممهد الأرض تحتكم ـ قادر على بعثكم ؟ وهل يليق به أن يترككم سدى ، بعد أن دبر أمركم هذا التدبير المحكم ، ووفرّ لكم هذا الخير الكثير . .

سبحانك اللهم أنت الواحد   كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى   وإلى علاك عنى الجبين الساجد

قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ، يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ .

أى فإذا وقعت الواقعة وجاءت الداهية الكبرى التى يصغر أمامها كل حدث ، وينسى صاحبها كل شىء إلا هى وأهوالها ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل

(١) سورة فصلت الآيات : ٩ : ١٢
(٢) النحل آية : ١٠

مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[(١)] تلك هى الطامة الكبرى ، يكون يوم القيامة ويوم بعث الناس ونشورهم ووقوفهم بين يدى رب العزة والجبروت للحساب ﴿ وترى كل أمة جاثية ، كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾[(٢)] يوم يتذكر الإنسان أعماله حيث يراها مكتوبة أمامه فى كتابه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴿ وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾[(٣)] . ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلاً ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا ﴾[(٤)] فقوله تعالى : ﴿ يوم يتذكر الإنسان ما سعى ﴾ أى حينئذ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره .

قوله تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ .

أى ظهرت للناظرين ، فرآها الناس عيانا بيانا ، وتضطرب النفوس ، ويستغيث الجميع من هولها . قال تعالى : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون ، من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ، فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود إبليس أجمعون ﴾[(٥)] .

قوله تعالى : ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى ﴾ أى فمن تكبر وتجبر ، وتجاوز الحدود ، وعتا وتمرد وآثر لذات الدنيا الفانية ، وشهواتها الزائلة ، وقدمها وفضلها على أمر دينه وآخرته ، فإن الجحيم هى المأوى ، أى فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ، ومشربه من الحميم ، بئس الشراب وساءت مرتفقا .

وقوله تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى ﴾ أى فمن خاف القيام بين يدى رب العزة ، وخاف حكم الله تعالى فيه ، ونهى نفسه عن هواها ردها الى طاعة مولاها .

قال بعض المفسرين : ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ هو نهى عما حرم الله عليها وقال مقاتل : هو الرجل يهم فيذكر مقامه للحساب فيتركها .

---

(١) سورة الحج الآيتان : ١ ، ٢
(٢) الجاثية آية : ٢٨
(٣) الفجر الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤
(٤) الفرقان الآيات : ٢٧ ـ ٢٩
(٥) الشعراء الآيات : ٩٠ ـ ٩٥

وقوله تعالى : (فإن الجنة هى المأوى ﴾ أى منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء ، كما قال تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾الآيات [١] .

منزلة الخوف

قال الامام ابن القيم فى كتابه « مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) « ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الخوف » .

وهى من أجل منازل الطريق وأنفعها للقلب ، وهى فرض على كل أحد . قال الله تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾[٢] وقال تعالى : ﴿ فإياى فارهبون ﴾[٣] وقال : ﴿ فلا تخشوا الناس واخشون ﴾[٤] ومدح أهله فى كتابه وأثنى عليهم فقال : ﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون - إلى قوله - أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾[٥] .

وفى المسند والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت قلت « يا رسول الله ، قول الله : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾[٦] أهو الذى يزنى ، ويشرب الخمر ، ويسرق ؟ قال : لا ، يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه » .

قال الحسن : عملوا والله بالطاعات ، واجتهدوا فيها ، وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمنا « والوجل » و « الخوف » و « الخشية » و « الرهبة » ألفاظ متقاربة غير مترادفة .

قال أبو القاسم الجنيد : الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس .

وقيل الخوف : اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف .

وقيل الخوف : قوة العلم بمجارى الأحكام . وهذا سبب الخوف . لا أنه نفسه .

وقيل الخوف : هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره . « والخشية » أخص من

---

(١) الرحمن آية : ٤٦ - ٧٨

(٢) آل عمران آية : ١٧٥

(٣) النحل آية : ٥١

(٤) المائدة آية : ٤٤

(٥) المؤمنون الآيات : ٥٧ - ٦١

(٦) المؤمنون آية : ٦٠ والحديث رواه أحمد فى مسنده (مسند عائشة رضى الله عنها) جـ ٦ ص ٢٠٥ ورواه الترمذى فى (كتاب التفسير) : تفسير سورة المؤنون جـ٥ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ رقم ٣١٧٥

الخوف ، فإن الخشية للعلماء بالله ، قال تعالى ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[١] فهى خوف مقرون بمعرفة وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنى أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية »[٢] فالخوف حركة ، والخشية انجماع وانقباض وسكون ، فإن الذى يرى العدو والسيل ونحو ذلك : له حالتان .

إحداهما : حركة للهرب منه ، وهى حالة الخوف .

والثانية : سكونه وقراره فى مكان لا يصل إليه فيه ، وهى الخشية .

وأما « الرهبة » فهى الإمعان فى الهرب من المكروه ، وهى ضد « الرغبة » التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب فيه .

وأما «الوجل » فرجفان القلب وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته .

وأما « الهيبة » فخوف مقارن للتعظيم والإجلال ، وأكثر ما يكون مع المحبة والمعرفة ، والإجلال : تعظيم مقرون بالحب .

فالخوف لعامة المؤمنين ، والخشية للعلماء العارفين ، والحبيبة للمحبين ، والإجلال للمقربين . وعلى قدر العلم والمعرفة ، يكون الخوف والخشية ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلمكم بالله ، وأشدكم له خشية » . وفى رواية « خوفا » وقال « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى »[٣] .

قال أبو حفص : الخوف سوط الله : يُقوّم به الشاردين عن بابه . وقال : الخوف سراج فى القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر ، وكل أحد إذا خفته هربت منه ، إلا الله عز وجل ، فإنك إذا خفته هربت إليه .

فالخائف هارب من ربه إلى ربه .

قال أبو سليمان : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب .

وقال ابراهيم بن سفيان : إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها . وطرد الدنيا عنها .

وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف . فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق .

والخوف ليس مقصوداً لذاته ، بل هو مقصود لغيره ، ولهذا يزول بزوالِ الخوف ، فإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . ا . هـ .

---

(١) فاطر آية : ٢٨

(٢) رواه البخارى جزء حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة رسول الله ﷺ فى (كتاب النكاح) جلب الترغيب فى النكاح جـ ٧ ص ٢ بلفظ : « أما والله إن لأخشاكم لله وأتقاكم له » ورواه مسلم فى الفضائل وأبو الجود ف المقدمة

(٣) أخرجه الترمذى فى (كتاب الزهد) باب قول النبى ـ ﷺ ـ لو تعلموا ما أعلم لضحكتم قليلا . جـ ٤ ص ٥٥٦ رقم ، ٢٣١ من رواية أبى ذر ـ رضى الله ـ عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ ضمن حديث طويل .

علم الساعة

بعد أن يبين الله سبحانه وتعالى بالبرهان العقلى إمكان القيامة ، ثم أخبر عن وقوعها ، ثم ذكر أحوالها العامة ، ثم ذكر أحوال الأشقياء والسعداء فيها بعد هذا كله قال تعالى :

﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

كان المشركون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة عناداً وعتواً واستهزاء ، ويطلبون إليه أن يعجل بها ، كأن الأمر فيها إليه صلى الله عليه وسلم . قال تعالى فى آية أخرى : **﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ﴾**(١) .

فقالوا على سبيل الاستهزاء (أيان مرساها) أى متى قيامها وظهورها ؟ وقوله تعالى : **﴿فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها ﴾** أى ليس علمها إليك ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذى يعلم وقتها على التعيين : **﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة . يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ﴾**(٢) وقال ههنا (إلى ربك منتهاها) ولهذا لما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »(٣) .

وقوله تعالى : **﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾** أى إنما بعثتك لتنذر الناس وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشى الله وخاف مقامه ووعيده ، أتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك ، وخالفك ، ونحو الآية قوله تعالى : **﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد ﴾**(٤) .

وقوله تعالى : **﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾** أى إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر ، يستقصرون مدة الحياة الدنيا ، حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم ، أو ضحى من يوم ، قال قتادة : هذا وقت الدنيا فى أعين القوم حين عاينوا الآخرة ، ونحو الآية قوله تعالى : **﴿ قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ، قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾**(٥) .

« اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك وبك منك ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، أهل الثناء والمجد ، أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد ، لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

(١) الشورى آية : ١٨ (٢) الأعراف آية : ١٨٧
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب الإيمان) باب الإيمان والإسلام والإحسان ... الخ جـ١ ص ١٥٧ - ١٦٠ وانظر البخارى (كتاب الإيمان) باب : سؤال جبريل النبى ﷺ - عن الإيمان ... الخ جـ١ ص ٢٠ ، ٢١
(٤) سبأ آية : ٤٦ (٥) المؤمنون الآيات : ١١٢ - ١١٦

تفسير سورة
عبس

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : اثنتان وأربعون آية .

وكلماتها : مائتان وثلاث وثلاثون .

وحروفها : خمسمائة وثلاث وثلاثون .

وفواصل آياتها : (هما) وعلى الميم آية (ولأنعامكم) .

وسميت عبس لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان حال الأعمى ، وذكر شرف القرآن ، والشكاية من أبى جهل ، وإنكاره البعث والقيامة ، وإقامة البرهان من حال النبات على البعث ، وإحياء الموتى ، وشغل الخلق فى العرصات ، وتفاوت خال أهل الدرجات ، والدركات فى قوله : (وجوه) إلى آخرها .

المتشابه

قوله (الصاخة) سبق فى النازعات .

مناسبة السورة لما قبلها .

إنه سبحانه ذكر هناك أنه منذر من يخشاها ـ وذكرهنا من ينفعه إلا نذار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ
يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ
أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ
إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾
بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ
خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾
ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

معانى المفردات

عبس : قطب وجهه الشريف ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

تولى : أعرض بوجهه الشريف ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

لعله يزكى : يتطهر بتعليمك من دنس الجهل .

يذكر : يتعظ .

له تصدى : تتعرض له بالاقبال عليه .

جاءك يسعى : وصل إليك مسرعا ليتعلم .

عنه تلهى : تتلهى ـ تتشاغل .

كلا : حقا أو إرشاد بليغ لترك المعاودة .

إنها تذكرة : إن آيات القرآن موعظة وتذكير .

فى صحف : منتسخه من اللوح المحفوظ .

مرفوعة : رفيعة القدر والمنزلة عند الله تعالى .

بأيدى سفرة : ملائكة ينسخونها من اللوح المحفوظ .

بررة : مطيعين له تعالى أو صادقين .

قتل الإنسان : لعن الكافر أو عذب .

فقدره : أطوارا أو هيأه لما يصلح له .

السبيل يسره : سهل له طريقى الهدى والضلال .

فأقبره : أمر بدفنه فى قبر تكرمة له .

أنشره : أحياه بعد موته .

لما يقض ما أمر : لم يفعل ما أمره الله به بل قصّر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى وما عليك أن لا يزكى وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ، كلا إنها تذكرة** ﴾ .

يكاد يجمع المفسرون على أن هذه الآيات الكريمة نزلت فى الصحابى الجليل عبد الله ابن أم مكتوم ، وهو ابن خال السيدة خديجة رضى الله عنها ، وكان أعمى ، وهو من الصفوة المختارة من المهاجرين الأولين .

وتتلخص قصته هنا : فى أنه رضى الله عنه أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو بمكة المكرمة يخاطب بعض عظماء قريش وقد طمع فى إسلامهم ، فبينما هو يخاطبهم إذ أقبل ابن أم مكتوم ، وكان ممن أسلم قديما ، فجعل يسأل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن شىء ويلح عليه ، وود النبى صلى الله عليه وسلم أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة القوم ، طمعا ورغبة فى هدايتهم ، وعبس فى وجه ابن أم مكتوم وأعرض عنه وأقبل عليهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **عبس وتولى أن جاءه الأعمى** ﴾ .

قال العلماء : إنما أتى بضمائر الغيبة (عبس وتولى) تلطفاً به ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإجلالا له ، لما فى المشافهة بتاء الخطاب ما لا يخفى من الشدة والصعوبة ، وكان بعد نزول آيات العتاب إذا جاءه يقول له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : مرحباً بمن عاتبنى فيه ربى ، ويبسط له رداءه . وقوله

تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ أى وما يعلمك ويخبرك يا محمد لعل هذا الأعمى الذى عبست فى وجهه ، يتطهر من ذنوبه بما يتلقاه عنك من العلم والمعرفة ! ﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أى أو يتعظ بما يسمع فتنفعه موعظتك ، وقوله : ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ أى أما من استغنى عن كلام الله وعن الإيمان ، بما له من الثروة والمال ﴿ فأنت له تصدى ﴾ أى فأنت تتعرض له وتصغى لكلامه ، وتهتم بتبليغه دعوتك . وقوله : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أى ولا حرج عليك أن لا يتطهر من دنس الكفر والعصيان ، ولست بمطالب بهدايته إنما عليك البلاغ .

وقوله تعالى : ﴿ وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى ﴾ أى وأما من يقصدك ويؤمك ليهتدى بما تقول له ، فأنت عنه تتشاغل .

قال ابن كثير : ومن هنا أمر الله رسوله ، أن لا يخص بالانذار أحداً ، بل يساوى فيه بين الشريف والضعيف ، والفقير والغنى ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء والصغار والكبار ، ثم الله تعالى يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

قوله تعالى : ﴿ كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره ، فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدى سفرة كرام بررة ﴾ .

أى هذه السورة ، أو الوصية بالمساواة بين الناس فى إبلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، وقال قتادة فى قوله : (كلا إنها تذكرة) يعنى : القرآن (فمن شاء ذكره) أى فمن شاء من عباد الله اتعظ بالقرآن واستفاد من إرشاداته وتوجيهاته ، فهذا القرآن قد بلغ فى العظمة إلى هذا الحد العظيم ، فأى حاجة به إلى أن يقبله هؤلاء الكفار ، فسواء قبلوه أو لم يقبلوه ، فلا تلتفت إليهم ، قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ فى صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة ، بأيدى سفرة كرام بررة ﴾ .

هذا إخبار من المولى عز وجل عن جلالة قدر القرآن ، وعظيم شأنه بقوله تعالى : ﴿ فى صحف مكرمة ﴾ أى هو فى صحف مكرمة عند الله كما قال تعالى : ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾[2] فوصفه بما يقتضى حسنه ، وكثرة خيره ومنافعه وجلالته ، فإن الكريم هى البهى ، الكثير الخير ، العظيم النفع ، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ، ووصف به كلامه ، ووصف به عرشه ، ووصف به ما كثر خيره ، وحسن منظره من النبات وغيره .

وقوله : ﴿ مرفوعة مطهرة ﴾ أى عالية القدر والمكانة ، منزهة عن أيدى الشياطين ، وعن كل دنس ونقص ، كما قال تعالى : ﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾[3] .

---

(١) سورة فصلت الآيتان : ٤١ - ٤٢ (٢) الواقعة آية : ٧٧ (٣) الزخرف آية : ٤

وقوله : ﴿ بأيدى سفرة ﴾ هم الملائكة والسفرة يعنى بين الله تعالى وبين خلقه من المرسلين .

﴿ كرام بررة ﴾ أى مكرمين معظمين عند الله تعالى ، اتقياء صلحاء كما وصفهم بقوله : ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾(١) وبقوله : ﴿ عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾(٢) .

قال ابن كثير : ومن ههنا ينبغى لحامل القرآن ، أن يكون فى أفعاله على السداد والرشاد .

قال الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذى يقرؤه وهو عليه شاق له أجران » أخرجه الجماعة من طريق قتادة به(٣) .

قوله تعالى : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره من أى شىء خلقه ، من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ، كلا ، لما يقض ما أمره ﴾ .

يقول تعالى ذاما لمن أنكر البعث والنشور من بنى آدم ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ قال ابن عباس : ﴿ قتل الإنسان ﴾ أى لعن الإنسان ، وهذا لجنس الإنسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم ، قال ابن جريج : ﴿ ما أكفره ﴾ أى ما أشد كفره ، وقال ابن جرير : ويحتمل أن يكون المراد أى شىء جعله كافراً ، أى ما حمله على التكذيب بالمعاد ، قال تعالى : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾(٤) .

ألا إننا كلنا بائد ... وأى بنى آدم خالد
وبدؤهم كان من ربهم ... وكل إلى ربه عائد
فياعجبا كيف يعصى الإ ... له أم كيف يجحد الجاحد
وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحد

فقوله تعالى : ﴿ قتل الانسان ما أكفره ﴾ تنبيه على أنهم استحقوا أعظم أنواع العقاب بكفرهم ، وعنادهم ، واستكبارهم . وقوله ﴿ ما أكفره ﴾ تنبيه على أنواع القبائح والمنكرات ، وهو تعبير عن إفراطهم فى كفران نعمة الله عليهم ، ولا ترى أسلوباً أغلظ منه ، ولا أبعد شوطاً فى المذمة ، ولا أجمع

(١) التحريم آية : ٦
(٢) الأنبياء الآيتان : ٢٦ - ٢٧
(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (مسند عائشة رضى الله عنها) جـ ٦ ص ١١٠ ورواه البخارى فى صحيحه (كتاب التفسير) : سورة عبس جـ ٦ ص ٢٠٦

وانظر صحيح مسلم تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب : فضل الماهر بالقرآن والذى يتوقع فيه جـ ١ ص ٥٤٩ ، ٥٥٠ رقم ٢٤٤ / ٧٩٨
(٤) البقرة آية : ٢٨

للأئمة على قصر متنه ، وقلة لفظه ، وتقارب طرفيه .

• ومعنى (ما أكفره) أى ما أشد كفرانه للنعم ، ونكرانه للمنن التى يتقلب فيها ، وأكثر ذهوله عن مسديها ومعطيها ومن غمره بها ، من حين ايجاده ، إلى ساعة معاده ، حتى أنه إذا ذكر لا يذكر ، وإذا طلب منه الشكر ، لا يشكر ، فهو يعرض عن الذكرى ، فما أشد كفره بالاحسان ، وفضل صاحب الاحسان ، والفضل الأكبر عليه وعلى جميع الخلق برهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾(١) .

ـ ثم شرع الله عز وجل يفصل ما أجمله ويبين بعض ما أفاضه عليه من النعم التى لا تحصى ، وهى هنا فى ثلاث مراتب : المبدأ ، والوسط ، والمنتهى ، وأشار إلى الأولى وهو المبدأ بقوله تعالى :

﴿ من أى شىء خلقه ؟ ﴾ .

أى من شىء حقير مهين خلقه ، فلا ينبغى له التجبر ولا التكبر على أحد ، وخاصة على خالقه الكبير المتعال ، وقد أجاب الله سبحانه عن هذا الاستفهام بقوله :

﴿ من نطفة خلقه فقدره ﴾ أى خلقه الله عز وجل من ماء مهين حقير بدأ خلقه ، فقدره فى بطن أمه أطواراً من نطفة ، ثم من علقة إلى أن يتم خلقه . قال ابن كثير : قدر رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقى أو سعيد .

قال تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر ﴾(٢) .

ولقد قدر الله هذا الانسان أطواراً وأحوالا ، طورا بعد طور ، وحالا بعد حال ، وأتم خلقه ، بأعضاء تلائم حاجاته مدة بقائه ، وأودع فيه من القوى الظاهرة والباطنة ، ما يمكنه من استعمال تلك الأعضاء ، وتصريفها فيما خلقت لأجله ، وجعل كل ذلك بمقدار محدود ، وحكمة عالية ، وخلقة سامية ، وقد أثر عن بعض السلف أنه قال : كيف يتكبر الإنسان ، وقد خرج من موضع البول مرتين ، ومر بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر فى مشيه ، فقال له مالك : يا بنى لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل لك ، فقال أو ما تعرفنى ، قال : أعرفك معرفة جيدة ، أو لك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك تحمل العذرة ، فأرخى الفتى رأسه ، وكف عما كان عليه .

يا مدعى الكبر إعجابا بصورته ... انظر خلاك ، فإن النتن تثريب
لو فكر الناس ما فى بطونهم ... ما استشعر الكبر شبان ولا شيب
يا ابن التراب ومأكول التراب غداً ... أقصر ، فإنك مأكول ومشروب

---

(١) الأنبياء آية : ٤٢
(٢) الطارق الآيات : ٥ ـ ٨

ثم أشار سبحانه وتعالى الى المرتبة الوسطى :

بقوله تعالى : ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ .

قال بعض المفسرين : المراد تسهيل خروج الإنسان من بطن أمه ، وقالوا أن رأسه كان إلى رأس أمه وكذلك رجلاه الى رجليها فإذا جاء وقت الولادة قلبه الله ليسهل خروجه عند الولادة ، ومما يؤكد هذا التأويل أن خروج الطفل حياً من ذلك المنفذ الضيق ، من أعجب العجائب وأشد الغرائب ، ولكن كثيرا من الناس فى غفلة من عجائب خلق الله فى الإنسان وغير الإنسان قال تعالى : ﴿ وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾(١) .

وذكر لهذه الآية معنى آخر جميل وهو :

إن الله سبحانه ، جعل هذا الانسان ، متمكنا من سلوك سبيل الخير والشر ، فآتاه القدرة على العمل ، ووهبه العقل ، الذى يميز به بين الأعمال طيبها وخبيثها ، حسنها وقبيحها ، وعرفه عاقبة كل عمل ونتيجته ، كما قال تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾(٢) وكما قال سبحانه : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾(٣) وأرسل الله إلى الانسان الرسل مبشرين ومنذرين ، وأنزل عليهم الكتب المشتملة على أعظم الحكم ، وأغلى المواعظ والحاوية لما فيه سعادة البشر فى معاشهم ومعادهم .

ثم أشار الله سبحانه وتعالى إلى المرتبة الأخيرة ، وهى المنتهى بقوله : ﴿ ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء أنشره ﴾ .

وهذه المرتبة مشتملة على ثلاث مراتب ، وهى الإماتة والإقبار ، والإنشار .

فالله تعالى عز وجل يقبض روح الإنسان ، ولم يتركه مطروحا على الأرض جزرا للسباع ، بل تفضل عليه وجعل فى غريزة نوعه أن يوارى ميته تكرمة له ، ثم إذا شاء بعثه بعد موته للحساب ، والجزاء فى الوقت الذى قدره تبارك اسمه فى علمه ، ولا يعلمه أحد سواه .

وفى قوله : ﴿ إذا شاء ﴾ إشعار بأنه وقت الساعة ، لا يعلمه إلا هو سبحانه ، والبعث والنشور لابد منه ، وهو أمر مفروغ منه ، فمتى شاء الله بعث العباد ليوم النشور والحساب .

قال تعالى : ﴿ هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون ، هو الذى يحيى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾(٤) .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال « يأكل

---

(١) الذاريات الآيتان : ٢٠ ـ ٢١
(٢) البلد آية : ١٠
(٣) الإنسان آية : ٣
(٤) غافر الآيتان : ٦٧ ـ ٦٨

التراب كل شيء من الإنسان إلا عجْب ذنبه » قيل وما هو يا رسول الله ؟ قال « مثل حبة خردل ، منه تنشأون » وهذه الزيادة مذكورة من رواية ابن أبي حاتم (١) .

وقوله تعالى : ﴿ كلا . لما يقضي ما أمره ﴾ أي ليرتدع وينجر هذا الكافر عن تكبره وتجبره ، فإنه لم يؤد ما فرض عليه ، ولم يفعل ما كلفه به ربه من الإيمان والطاعة .

الكرم الإلهي الواسع

قال تعالى :

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ
شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ
غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾
يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ
ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾
وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

معاني المفردات

﴿ **القضب** ﴾ : الرطبة ، وهي ما يؤكل من النبات غضاً طرياً ، وسمي قضبا لأنه يقضب ، أي يقطع مرة بعد أخرى .

﴿ **غلبا** ﴾ : واحدها غلباء ، أي ضخمة عظيمة .

﴿ **أبا** ﴾ : الأب : المرعى ، لأنه يؤيب . أي يؤم وينتجع .

﴿ **متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ : أي أنبتناه لكم ، لتتمتعوا به وتنتفعوا وتنتفع أنعامكم .

﴿ **الصاخة** ﴾ : المراد هنا بالصاخة ، هو المراد بالقارعة في سورتها ، وهي الطامة الكبرى ،

---

(١) أخرجه البخاري في (كتاب التفسير) سورة النبأ جـ ٦ ص ٢٠٥
وأخرجه مسلم في (كتاب الفتن) باب : ما بين النفختين جـ ٤ ص ٢٢٧٠ ، ٢٢٧١ بعده روايات تحت رقم ٢٩٥٥

ويكون نذيرها ذلك الصوت الهائل الذى يحدث من تخريب الكون ، ووقع بعض أجرامه على بعض ، ومن ثم سميت صاخة وقارعة .

﴿ شأن ﴾ : أى شغل .

﴿ يغنيه ﴾ : أى يصرفه ويصده عن مساعدة ذوى قرابته .

﴿ سفرة ﴾ : أى مضيئة مشرقة ، يقال أسفر الصبح إذا أضاء .

﴿ مستبشرة ﴾ : أى فرحة بما نالت .

﴿ والغبرة ﴾ : ما يصيب الانسان من الغبار .

﴿ ترهقها ﴾ : أى تغشاها .

﴿ والقترة ﴾ : سواد كالدخان .

﴿ والفجرة ﴾ : واحدهم فاجر ، وهو الخارج عن حدود الله المنتهك لحرماته .

المناسبة واجمال المعنى

بعد أن بين سبحانه حال القرآن ، وذكر أنه كتاب الذكرى والموعظة ، ثم ذكر الدلائل على قدرته تعالى ، وهى كامنة فى نفسه ، يراها فى يومه وأمسه ، أردفها ذكر الآيات المنبثة فى الآفاق الناطقة ببديع صنعه وباهر حكمته ثم أعقب هذا بتفصيل بعض أحوال يوم القيامة وأهوالها ، التى توجب الفزع والخوف منه ليدعوه ذلك الى التأمل فيما مضى من الدلائل ، التى ترشد إلى وحدانيته وقدرته ، وصحة البعث وأخبار يوم القيامة ، التى جاءت على ألسنة رسله ، ويتزود بصالح الأعمال ، التى تكون نبراسا يضىء أمامه فى ظلمات هذا اليوم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

التفســير

قوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان إلى طعامه ﴾ .

أى فلينظر إلى ما بين يديه من أقرب الأشياء إليه ، وليتذكر شأن نفسه ، ولينظر فى أمر طعامه ، ماذا صنعنا فى إحداثه وتهيئته ، حتى يكون غذاء صالحا تقوم به بنيته ، ويجد فى تناوله لذة تدفعه إليه ، وشوقه له ، ليحفظ بذلك قوته مدى الحياة ، التى قدرت له حسب أجل الله عز وجل الذى قدره لكل مخلوق حى ، ولا يعلمه إلا هو جل وعلا قال تعالى : ﴿ وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به

نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾(١) .

قال الغلامة ابن كثير : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه**) فيه امتنان وفيه استدلال ، بإحياء النبات من الأرض الهامدة ، على إحياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية ، وتراباً متمزقاً .

قوله تعالى : ﴿ **أنا صببنا الماء صبا** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا** ﴾(٢) أى إنا بقدرتنا أنزلنا الماء من السحاب على الأرض إنزالا عجيبا ﴿ **ثم شققنا الأرض شقا** ﴾ أى أسكناه فيها فيدخل فى تخومها ، وتخلل فى أجزاء الحب المودع فيها ، فنبت وارتفع ، وظهر على وجه الأرض . وقوله : ﴿ **فأنبتنا فيها حباً وعنبا وقضبا** ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو الفصفصة التى تأكلها الدواب رطبة ، قال ذلك ابن عباس وغيره . ﴿ **وزيتوناً** ﴾ وهو معروف ، وهو أدم وعصيره أدم ، ويستصبح به ، ويدهن به . ﴿ **ونخلاً** ﴾ يؤكل بلحاً بسراً ورطبا وتمراً ونيئاً ومطبوخاً ويعتصر منه .

﴿ **وحدائق غلباً** ﴾ أى بساتين ﴿ **غلباً** ﴾ قال ابن عباس : طوال ، وقال مجاهد : كل ما التف واجتمع .

وقوله تعالى : ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ أما الفاكهة ، فكل ما يتفكه به من الثمار . قال ابن عباس . الفاكهة : كل ما أكل رطباً ، والأب : ما أنبتت الأرض مما يأكله الدواب ولا يأكله الناس .

وعن مجاهد والحسن وقتادة : الآب للبهائم كالفاكهة لبنى آدم ، وعن عطاء : كل شيء نبت على وجه الأرض فهو أب .

وقوله تعالى : ﴿ **متاعاً لكم ولأنعامكم** ﴾ أى عيشة لكم ولأنعامكم فى هذه الدار إلى يوم القيامة . والله تبارك وتعالى أنبت كل تلك الأصناف الثمانية لنتمتع بها نحن وننتفع بها لدوابنا وأنعامنا . وهى كذلك متاعا لنا يسرها وسخرها لهذا الإنسان الجحود لنعم الله .

قوله تعالى : ﴿ **فإذا جاءت الصاخة** ﴾ .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة عظمه الله وحذره عباده .

---

(١) الأنعام آية : ٩٩

(٢) النبأ آية : ١٤

وقال البغوى رحمه الله : الصاخة يعنى صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك ، لأنها تصخ الأسماع أي تبالغ فى اسماعها ، حتى تكاد تصمها .

والصاخة هنا ، كالقارعة فى سورة القارعة ، وهى الحادثة العظمى ، التى تزلزل لها الأرض ، وتطوى لها السموات ، وهى الطامة الكبرى ، ويكون نذيرها ذلك الصوت المفزع الهائل ، الذى يحدث نتيجة لتخريب الكون ، ووقوع بعض أجرامه على بعض حيث تكور الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتسير الجبال ، وتسجر البحار وتكشط السماء ، وتسعر الجحيم ، وتنفطر السماء ، وتنشطر الكواكب ، وتبعثر القبور ، وتزوج النفوس ، وتحشر الوحوش وتزلف الجنة للمتقين غير بعيد .

وفى هذا اليوم العظيم ، ترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد . فى هذا اليوم ينكشف للناس مشهد الجبروت الأعظم فيشغل كل نفس ما يصيبها ويعتريها ، من هيبة الجلال الالهى ، ويطلب معونتها ، على ما هو فيه ، ويتوارى كل امرىء من أخيه ، بل من أمه وأبيه ، بل من صاحبته ، التى هى ألصق الناس به ، وقد يبذل فى الدفاع عنها حياته لو مكن من ذلك ، ويفر من بنيه ، وكان فى الدنيا يفديهم بما له وروحه ، ذلك كله ، لأن لكل واحد مما يجد من الرعب ، وما يرهب من الهول ، وما يخشى من مناقشة الحساب ، شأن يغنيه ، أى يكفى لصرف جميع قواه ، فليس عنده فضل فكر وقوة ، يمد بها غيره .

فقال تعالى : ﴿ يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ .

أى فى ذلك اليوم الرهيب يهرب الإنسان من أحبابه ، من أخيه وأمه ، وأبيه ، وزوجته وبنيه لاشتغاله بنفسه ، قال صاحب التسهيل : ذكر تعالى فرار الإنسان من أحبابه ، ورتبهم على مراتبهم فى الحنو والشفقة ، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر . قال تعالى : ﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾[2] .

وقوله تعالى : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ أى لكل انسان منهم فى ذلك اليوم العصيب ، شأن يشغله عن شأن غيره ، فإنه لا يفكر فى سوى نفسه ، حتى أن الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ ليقول الواحد منهم يومئذ « نفسى نفسى » .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تحشرون حفاة عراة مشاة غرلا » قال فقالت زوجته يا رسول ننظر أو يرى بعضنا عورة بعض ؟ قال صلى الله عليه

---

(١) الممتحنة آية : ٣

(٢) المؤمنون آية : ١٠١

وسلم ، « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، أو قال ـ ما أشغله عن النظر »[١] . ورواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وقال النسائى بسنده عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يبعث الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا » فقالت عائشة : يا رسول الله فكيف بالعورات ؟ فقال « لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة** ﴾ .

أى يكون الناس هنالك فريقين ، وجوه مسفرة ، أى مستنيرة (ضاحكة مستبشرة) أى مسرورة فرحة من السرور فى قلوبهم قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة . (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) أى يعلوها وتغشاها قترة أى سواد ، فهم سود الوجوه (أولئك هم الكفرة الفجرة) وهؤلاء هم أهل النار . أى الكفرة قلوبهم ، الفجرة فى أعمالهم .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين أبيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون** ﴾[٣] .

وكقوله : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يفعل بها فاقرة** ﴾[٤] .

« اللهم يا رحيم ، يا ودود ، يا حى يا قيوم ، نسألك أن تجعل خير أعمارنا أواخرها ، وخير أعمالنا خواتمها ، وخير أيامنا يوم لقائك ، ونسألك أن تجعل القبور بعد فراق الدنيا خير منازلنا ، وافسح بها ملاحدنا ، وارحم فى موقفِ العرض عليك ذل مقامنا ، وثبت على الصراط أقدامنا ، ونجنا من كرب يوم القيامة ، وبيض وجوهنا يوم تبيض وجوه ، ولا تسود وجوهنا يوم تسود وجوه ، ونسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك ، ونسألك النظر الى وجهك الكريم فى غير خيراء مضرة ولا فتنة مضلة . يا أرحم الراحمين » .

---

(١) أخرجه ؛ انظر تفسير ابن كثير طبع الشعب جـ ١ ص ٣٤٩ فقد رواه عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وأخرجه الترمذى من رواية ابن عباس أيضا فى (كتاب التفسير) : سورة عبس جـ ٥ ص ١٠٤ رقم ٣٣٨٨ وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح

(٢) أخرجه النسائى فى سننه (كتاب الجنائز) باب البعث جـ ٤ ص ١١٤

(٣) آل عمران الآيتان : ١٠٦ ـ ١٠٧

(٤) القيامة الآيات : ٢٢ ـ ٢٥

تفسير ســورة التكوير

مقدمـة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع وعشرون آية . وكلماتها : مائة وأربعون .

وحروفها : خمسمائة وثلاث وثلاثون .

فواصل آياتها : (تسليم) .

تسمى سورة كورت ، وسورة التكوير ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان أحوال القيامة ، وأهوالها ، وذكر القسم على أن جبريل أمين الوحى ، مكين عند ربه وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ لامُتَهم ولا بخيل بقول الحق ، وبيان حقيقة المشيئة والإرادة فى قوله تعالى : ﴿ إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ ، وفى الانفطار : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ ، لأن معنى (سجّرت) عند أكثر المفسرين : أوقدت فصارت ناراً ، من قولهم سجّرت التنورة . وقيل بحار جهنم تملأ حمياً ، فيعذب بها أهل النار ، فخصت هذه السورة بسجرت بموافقة قوله تعالى : (سعرت) ليقع الوعيد بتسعير النار وتسجير البحار ، وفى الانفطار وافق قوله : (وإذا الكواكب انتثرت) أى تساقطت ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ أى سالت مياهها ففاضت على وجه الأرض ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ قلبت وأثيرت . وهذه أشياء كلها زالت عن أماكنها ، فلاقت كل واحدة قرائنها .

ـ قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ وفى الانفطار : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ لأن ما فى السورة متصل بقوله : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ فقرأها أربابها ، فعلمت ما أحضرت ، وفى الانفطار متصل بقوله : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ والقبور كانت فى الدنيا فتتذكر ما قدمت فى الدنيا ، وما أخرت فى العقبى ، فكل خاتمة لائقة بمكانها ، وهذه السورة من أولها إلى آخرها شرط وجزاء ، وقسم وجواب .

مناسبة السورة لما قبلها .

أن كلتيهما تشرح أحوال القيامة وأهوالها .

أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا السماء انفطرت وإذا السماء انشقت ﴾[1] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا
الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ
زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾
وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ
مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

معانى المفردات

تكوير الشمس : لفها كتكوير العمامة ، والمراد منه اختفاؤها عن الأعين وذهاب ضوئها .

إنكدار النجوم : انتثارها وتساقطها حتى تذهب ويمحى ضوؤها .

وتسير الجبال : يكون حين الرجفة ، التى تزلزل الأرض ، فتقطع أوصالها وتنفصل منها أجيالها ، وتقذفها فى الفضاء .

العشار : واحدها عشراء (بضم العين وفتح الشين) وهى الناقة التى مضى على حملها عشرة أشهر ، وهى أكرم مال لدى المخاطبين وقت التنزيل ، وتعطيلها : إهمالها وذهابها حيث تشاء ، لعظم الهول ، وشدة الكرب .

(حشرت) أى جمعت .

(وتسجير البحار) تفجير الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً .

(زوجت) أى قرنت الأرواح بأجسادها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند عبد الله بن عمر رضى الله عنهما) جـ ٢ ص ٢٧ وزاد : « وأحيه قال : سورة هود » وانظر ص ٣٦ وص ١٠٠

ورواه الترمذى فى جامعه الصحيح (كتاب التفسير) سورة إذا الشمس كورت جـ ٥ ص ١٠٤ وأخرجه الحاكم فى المستدرك فى (كتاب الأهوال) جـ ٤ ص ٥٧٦ وقال الحاكم هو حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبى فى التلخيص .

(الموءودة) هى التى دفنت وهى صغيرة وقد كان ذلك عادة فاشية منهم فى الجاهلية ، ، وكان ذوو الشرف منهم يمنعون من هذا .

(كشطت) كشفت وأزيلت عما فوقها .

(سعرت) أى أوقدت إيقاداً شديداً .

(أزلفت) أى أدنيت من أهلها وقربت منهم .

(ما أحضرت) أى ما أعد لها من خير أو شر .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ﴾ .

قال ابن جرير : التكوير جمع الشىء بعضه على بعض ، ومنه تكوير العمامة ، وجمع الثياب بعضها إلى بعض ، فمعنى قوله تعالى : (كورت) جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمى بها وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها ، وقال ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ قال يكور الله الشمس والقمر والنجوم يوم القيامة فى البحر ويبعث الله ريحاً دَبُوراً فتضرمها ناراً[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أى انتثرت كما قال تعالى ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وأصل الانكدار الانصباب .

قال الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب قال : « ست آيات قبل يوم القيامة : بينا الناس فى أسواقهم إذ ذهب ضوء الشمس ، فبينما هم كذلك إذ تناثرت النجوم ، فبينما هم كذلك ، إذ وقعت الجبال على وجه الأرض ، فتحركت واضطربت ، واختلطت ، ففزعت الجن إلى الإنس ، والإنس إلى الجن ، واختلطت الدواب والطير والوحوش فماجوا بعضهم فى بعض .

﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ قال اختلطت ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال : أهملها أهلها ﴿ وإذا البحار سجّرت ﴾ قال : قالت الجن : نحن نأتيكم بالخبر ، قال : فانطلقوا إلى البحر فإذا هو نار تتأجج ، قال فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى وإلى السماء السابعة العليا ، قال : بينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم . رواه ابن جرير وهذا لفظه ، وابن أبى حاتم ببعضه . وهكذا قال مجاهد والربيع والحسن البصرى وغيرهم فى قوله تعالى : ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أى : تناثرت .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ أى زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾ قال قتادة : عشار الإبل (عطلت) تركت وسيبت وأهملها أهلها . والمقصود أن العشار من الإبل ، وهى خيارها والحوامل منها ، التى قد وصلت فى حملها إلى الشهر العاشر - واحدتها عشراء قد أشغل الناس عنها وعن كفالتها والانتفاع بها بعد ما كانوا أرغب شىء فيها ،

(١) أخرجه ابن كثير فى تفسيره (تفسير سورة التكوير) جـ ٨ ص ٣٥٢ طبع الشعب .

بما دهمهم من الأمر العظيم المفظع الهائل ، وهو أمر يوم القيامة ، وانعقاد أسبابها ، ووقوع مقدماتها ، وقيل بل يكون ذلك يوم القيامة ، يراها أصحابها كذلك لا سبيل لهم إليها ، وقد قيل فى العشار أنها السحاب تعطل عن المسير بين السماء والأرض لخراب الدنيا ، وقيل : إنها الأرض التى تعشر ، وقيل : إنها الديار التى كانت تسكن ، تعطلت لذهاب أهلها ، حكى هذه الأقوال كلها الإمام عبد الله القرطبى فى كتابه التذكرة ، ورجح أنها الإبل وعزاه إلى أكثر الناس . قال ابن كثير : لا يعرف عن السلف والأئمة سواه والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ أى جمعت ، كما قال تعالى : ﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾[1] قال ابن عباس يحشر كل شىء حتى الذباب . وقال عكرمة حشرها موتها . وكذا قال ابن عباس : حشر إليها موتها ، وحشر كل شىء الموت غير الجن والإنس ، فإنهما يوقفان يوم القيامة .

قال ابن كثير والأولى قول من قال حشرت أى جمعت .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أى أوقدت . قال ابن عباس .

وغير واحد : يرسل الله عليها الرياح الدبور فتسعرها ونقيد ناراً تأجج . وقال الضحاك : (سجرت) أى فجرت . وقال الربيع بن خيثم : (سجرت) أى فاضت .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أى جمع كل شكل إلى نظيره ، كقوله تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾[2] .

وقد سئل عمر عن قوله تعالى : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ قال : يقرن بين الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار ، فتلك تزويج الأنفس .

قال ابن كثير واختار ابن جرير هذا القول وهو الصحيح .

وهناك قول آخر فى تفسير الآية الكريمة : ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أى وإذا زوجت الأرواح بأبدانها حين النشأة الآخرة .

قال عكرمة والضحاك والشعبى .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت ﴾ .

أى وإذا سئلت الموءودة بين يدى وائدها عن السبب ، الذى لأجله قتلت ، ليكون جوابها أشد واقعاً على الوائد ، فإنها ستجيب أنها قتلت بلا ذنب جنته . قال ابن عباس ﴿ وإذا المؤودة سئلت ﴾ أى سألت . طالبت بدمها وكذا قال السدى وقتادة .

---

(١) الأنعام آية : ٣٨ (٢) الصافات آية : ٢٢

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ قال الضحاك : أعطى كل إنسان صحيفته بيمينه أو بشماله ، وقال قتادة : يا ابن آدم تملى فيها ثم تطوى ثم تنشر عليك يوم القيامة ، فلينظر رجل ماذا يملى فى صحيفته .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ قال الضحاك : تنكشط فتذهب . قال تعالى : ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أى قربت إلى أهلها كما قال تعالى ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أى أحميت ، وإنما يسعرها غضب الله وخطايا البشر .

وقوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ .

هذا هو الجواب أى إذا وقعت هذه الأمور حينئذ ، تعلم كل نفس ما عملت وأحضر ذلك لها ، كما قال تعالى : ﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ﴾[٢] وكقوله تعالى : ﴿ ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾[٣] وكقوله تعالى : ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾[٤] .

قســم كريم

قال تعالى :

فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا
تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ
أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ
بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ
لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ
ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

(١) ابراهيم آية : ٤٨
(٢) آل عمران آية : ٣٠
(٣) القيامة الآيات : ١٣ ـ ١٥
(٤) الكهف آية : ٤٩

معانى المفردات

الخنس : واحدها خانس ، وهو المنقبض المستخص .

الكنس : واحدها كانس أو كانسة من قولهم : كنس الظبى إذا دخل كناسة ، وهو بيته ، الذى يتخذه من أغصان الشجر ، والمراد بالخنس الجوار .

الكنس : جميع الكواكب ، وخنوسها غيبوبتها عن البصر نهاراً .

وكنوسها : ظهورها للبصر ليلاً ، فهى تظهر فى أفلاكها ، كما تظهر الظباء فى كنسها .

وعسعس : أى أدبر ، وتنفس : أسفر وظهر فوره .

والرسول : هو جبريل عليه السلام .

كريم : أى عزيز على الله .

ذى قوة : كقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى ﴾ .

مكين : أى ذى مكانة وجاهٍ عند ربه يعطيه ما سأله .

ثمَّ : أى هناك .

أمين : على وحيه ورسالاته .

صاحبكم : هو محمد صلى الله عليه وسلم .

الأفق المبين : أى الأفق الواضح .

ضنين : أى بخيل .

رجيم : أى مرجوم مطرود من رحمة الله .

فأين تذهبون : أى أىّ مسلك تسلكون ، وقد قامت عليكم الحجة .

أن يستقيم : أى على الطريق الواضح .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه من أحوال القيامة وأهوالها ما ذكر ، وبين أن الناس حينئذ يقفون على حقائق أعمالهم ، فى النشأة الأولى ، ويستبين لهم ما هو مقبول منها وما هو مردود عليهم ـ أردف ذلك بيان أن ما يحدثهم به الرسول صلى الله عليه وسلم هو القرآن ، الذى أنزل عليه ، وهو آيات بينات من الهدى ، وأن ما رميتموه به من المعايب ما هو إلا محض افتراء ، وأن لجاجكم فى عداوته ما هو إلا عناداً واستكباراً ، وإنكم فى قرارة نفوسكم عالمون حقيقة أمره ، ودخيلة دعوته .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ **فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم** ﴾ .

أقسم بسحانه وتعالى بالنجوم فى أحوالها الثلاثة من طلوعها وجريانها وغروبها . هذا قول على ، وابن عباس ، وعامة المفسرين ، وهو الصواب .

قال ابن القيم : ولما كان للنجوم حال ظهور ، وحال اختفاء وحال جريان ، وحال غروب أقسم سبحانه وتعالى بها فى أحوالها كلها . ونبه بخنوسها على حال ظهورها ، لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور ، ولا يقال لما يزال مختفياً : إنه قد خنس . فذكر سبحانه جريانها غروبها صريحاً ، وخنوسها وظهورها ، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذى مبدؤه الطلوع ، فالطلوع أول جريانها ، فتضمن القسم طلوعها ، وغروبها وجريانها ، واختفاءها ، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته .

وقوله تعالى : ﴿ **والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس** ﴾ .

اختلف المفسرون فى عسعسة الليل ، هل هى إقباله أم إدباره ؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى ولى وذهب وأدبر . هنا قول على وابن عباس وأصحابه ، وقال الحسن : أقبل بظلامه ، وهو إحدى الروايتين عن مجاهد .

فمن رجح الإقبال قال : أقسم الله سبحانه وتعالى بإقبال الليل وإقبال النهار ، فقوله : ﴿ **والصبح إذا تنفس** ﴾ مقابل الليل إذا عسعس قالوا : ولهذا أقسم الله بـ (الليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) ومن رجح إنه إدباره ، احتج بقوله تعالى ﴿ **كلا والقمر والليل إذ أدبر والصبح إذا أسفر** ﴾ فأقسم سبحانه بإدبار الليل وإسفار الصبح ، وذلك نظير عسعسة الليل ، وتنفس الصبح .

قالوا : والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل ، وإقبال النهار ، فإنه عقيبه من غير فصل ، فهذا أعظم فى الدلالة ، والعبرة بخلاف إقبال الليل ، وإقبال النهار ، فإنه لم يعرف القسم فى القرآن بهما ، ولأن بينهما زمناً طويلاً ، فالآية فى انصرام هذا ومجىء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ .

فذكر سبحانه وتعالى ضعف هذا وإدباره ، وحالة قوة هذا وتنفسه ، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه ، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه ، وهذا هو القول . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم** ﴾ .

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه ، وهو القرآن الكريم ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه قول رسول كريم ، وهو ههنا جبريل أمين الوحى قطعاً ، لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعنيه به ، وأما الرسول الكريم فى « الحاقة » فهو محمد صلى الله عليه وسلم . فأضافه سبحانه إلى الرسول الملكى تارة ، وإلى الرسول البشرى تارة ، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده ، وإلا تناقضت النسبتان ، ولفظ الرسول يدل على ذلك . فإن الرسول هو الذى يبلغ كلام من أرسله . وهذا صريح فى أنه كلام من أرسل جبريل ومحمداً صلى الله عليه وسلم وأن كلا منهما بلغه عن الله ، فهو قوله مبلغاً ، وقول الله

الذى تكلم به حقاً . فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً . فى هاتين الآيتين ، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ ، فجبريل سمعه من الله سبحانه ومحمد صلى الله عليه وسلم سمعه من جبريل .

قوله تعالى : ﴿ **إنه لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين مطاع ثم أمين** ﴾ .

وصف سبحانه وتعالى رسوله الملكى فى هذه السورة ، بأنه كريم ، قوى ، مكين ، عند الرب تعالى ، مطاع فى السموات ، أمين ، فهذه خمس صفات ، تتضمن تزكية سند القرآن وأنه سماع محمد من جبريل ، وسماع جبريل من رب العالمين ، فناهيك بهذا السند علوا وجلالة : قول الله سبحانه وتعالى بنفسه تزكيته .

الصفة الأولى :

كون الرسول الذى جاء به إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريماً ، ليس كما يقول أعداؤه : إن الذى جاء به شيطان ، فإن الشيطان خبيث مخبث ، لئيم ، قبيح المنظر ، عديم الخير ، باطنه أقبح من ظاهره ، وظاهره أشنع من باطنه ، وليس فيه ولا عنده خير ، فهو أبعد شىء عن الكرم ، والرسول الذى ألقى القرآن إلى محمد صلى الله عليه وسلم كريم ، جميل المنظر ، بهى الصورة ، كثير الخير ، طيب مطيب معلم الطيبين ، وكل خير فى الأرض من هدى وعلم ومعرفة ، وإيمان وبر ، فهو مما أجراه ربه على يده ، وهذا غاية الكرم الصورى والمعنوى .

الوصف الثانى :

إنه ذو قوة ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ **علمه شديد القوى** ﴾[1] وفى ذلك تنبيه على أمور :

(أحدها) أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه ، وأن ينالوا منه شيئاً ، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه ، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه .

(الثانى) أنه موال لهذا الرسول الذى كذبتموه ، ومعاضد له ، ومواد له وناصر ، كما قال تعالى : ﴿ **وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير** ﴾[2] ومن كان هذا القوى وليه ، ومن أنصاره ، وأعوانه ، ومعلمه ، فهو المدى المنصور ، والله هاديه ، وناصره .

(الثالث) أن من عادى هذا الرسول ، فقد عادى صاحبه ووليه جبريل ، ومن عادى ذا القوة والشدة ، فهو عرضة للهلاك .

(الرابع) أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته ، فلا يعجز عن ذلك ، مؤد له كما أمر به لأمانته ، فهو القوى الأمين ، وأحدكم إذا انتدب غيره فى أمر من الأمور لرسالة ، أو ولاية ، أو وكالة ، أو غيرها ، فإنما ينتدب لها القوى عليه الأمين على فعله ، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً معظمها ذا مكانة عنده ، مطاعاً فى الناس ، كما وصف الله سبحانه عبده جبريل بهذه الصفات ، وهذا يدل

---

(١) النجم آية : ٥ (٢) التحريم آية : ٤

على عظمة شأن المرسل ، والرسول ، والرسالة ، والمرسل إليه ، حيث انتدب له الكريم القوى المكين عنده ، المطاع فى الملأ الأعلى الأمين حق الأمين ، فإن الملوك لا ترسل فى مهماتها إلا الأشراف ذوى الأقدار والرتب العالية .

وقوله تعالى : ﴿ عند ذى العرش مكين ﴾ أى له مكانة ووجاهة عنده ، وهو أقرب الملائكة إليه ، وفى قوله : ﴿ عند ذى العرش ﴾ إشارة ، إلى علو منزلة جبريل ، إذ كان قريباً من ذى العرش سبحانه .

وفى قوله تعالى : ﴿ مطاع ثم ﴾ إشارة إلى أن جنوده وأعوانه ، يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد صلى الله عليه وسلم . وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذى تكذبونه وتعادونه ، سيصير مطاعاً فى الأرض ، كما أن جبريل مطاع فى السماء ، وأن كلاًّ من الرسولين المطاعين فى قومهم ، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع .

وقوله تعالى : ﴿ أمين ﴾ فى وصفه بالأمانة ، إشارة إلى حفظه ما حمله ، وأدائه على وجهه .

قوله تعالى : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين وما هو على الغيب بضنين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ، لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

ثم نزه سبحانه وتعالى البشري ، وزكاه عما يقول فيه أعداؤه . فقال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه ، وإن قالوا بألسنتهم خلافه ، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين .

وقوله تعالى : ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ أخبر سبحانه وتعالى عن رؤيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له له ستمائة جناح .

ومعنى : ﴿ بالأفق المبين ﴾ أى العين وهى الرؤية المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾[(١)] والمذكورة أيضاً فى قوله: ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى إذ يغشى السدرة ما يغشى ﴾[(٢)] .

وقوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أى وما محمد على ما أنزله الله سبحانه ببخيل ، ومنهم من قرأ ذلك بالظاء ﴿ وما هو على الغيب بظنين ﴾ أى بمتهم والظنين المتهم ، والضنين البخيل ، واختار ابن جرير قراءة الضاد ، قال ابن كثير : وكلاهما متواتر ومعناه صحيح .

قال قتادة : كان القرآن غيباً فأنزله الله على محمد ، فما ضنَّ به على الناس ، بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده .

وقال ابن القيم :

فى قوله تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ ثم نزه رسوليه كليهما ـ أحدهما بطريق النطق ، والثانى بطريق اللزوم ـ عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذى هو الضنة والبخل ، والتبديل والتغيير

---

(١) النجم الآيات : ٥ ـ ١٠ (٢) النجم الآيات : ١٣ ـ ١٦

الذى يوجب التهمة ، فقال تعالى : ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين : أدائها من غير كتمان ، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان . والقراءتين كالآيتين ، فتضمنت إحداهما ـ وهى قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل فإن الضنين هو البخيل . وأجمع المفسرين على أن الغيب ههنا القرآن والوحى .

أما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء ، فمعناه المتهم والمعنى : وما هذا الرسول على القرآن بمتهم ، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص ، وهذا يدل على أن الضمير ، يرجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكى بالأمانة . ثم قال : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ ثم قال : (وما هو) أى وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل .

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين : أحدهما أن الكفار لم يبخلوه . وإنما اتهموه ، فنفى التهمة أولى من نفى البخل . الثانى أنه قال (على الغيب) ولو كان المراد البخل لقال بالغيب ، لأنه يقال فلان ضنين بكذا وقلما يقال على كذا .

قلت : ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكى ، من الأمانة ، فنفى عنه التهمة ، كما وصف جبريل بأنه أمين ، ويرجحه أيضاً أنه سبحانه ، نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب ، فإن ذلك لو كان كذباً ، فإما أن يكون منه ، أو ممن علمه ، وإن كان منه ، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده ، فإن كان من معمله فليس هو بشيطان رجيم ، وإن كان منه مع التعمد ، فهو المتهم ، ضد الأمين ، وإن كان من غير تعمد ، فهو المجنون ، فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله ، وزكى سند القرآن العظيم أعظم تزكية ، فلهذا قال سبحانه : ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه ، ولا يحسن منه كما قال تعالى : ﴿ وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون ﴾(١) فنفى فعله وابتغاءه منهم ، وقدرتهم عليه . وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين ، وأحوال الرسل يعلم علماً لا يمارى فيه ولا يشك ، بل علماً ضرورياً ، كسائر الضروريات . منافاة أحدهما للآخر ، ومضاداته له ، ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين ، بين دعوة الرسل ، ودعوة الشياطين ، فقال سبحانه : ﴿ فأين تذهبون ﴾ قال أبو إسحاق : فأى طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التى بينت لكم ؟

والمعنى فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل . كما قال تعالى : ﴿ فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ﴾(٢) فالأمر منحصر فى الحق والباطل ، والهدى والضلال ، فإذا عدلتم عن الهدى والحق ، فأين العدول ، وأين المذهب .

قوله تعالى : ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أى هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، يتذكرون به ويتعظون ، وقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أى من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن ، فإنه منجاة له ، وهداية ولا هداية فيما سواه ، وقوله : ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أى ليست المشيئة

---

(١) الشعر الآيتان : ٢١٠ ، ٢١١

(٢) الجاثية آية : ٦

موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ، ومن شاء ضل ، بل كل ذلك تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين .

قال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات :

أخبر سبحانه عن القرآن بأنه ذكر للعالمين ، وفى موضع آخر تذكرة للمتقين ، وفى موضع آخر لرسوله صلى الله عليه وسلم ولقومه ، وفى موضع آخر ذكر مطلق ، وفى موضع آخر ذكر مبارك ، وفى موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر .

ويجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً ، وكونه ذا ذكر ، فإنه يذكر العباد بمصالحهم فى معاشهم ومعادهم . ويذكرهم بالمبدأ والمعاد ، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله وحقوقه على عباده ، ويذكرهم بالخير ليقصدوه ، وبالشر ليجتنبوه ، ويذكرهم بنفوسهم ، وأحوالها وآفاتها ، وما تكمل به ، ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم ، وبماذا يحترزون من كيده ومن أى الأبواب والطرق يأتى إليهم ، ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه ، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً ، ويذكرهم بنعمه عليهم ، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها ، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه ، وانتقامه ممن عصى أمره ، وكذب رسله ويذكرهم بثوابه وعقابه .

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما فى كتابه كما قال : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾[1] وإذا كان كذلك ، فأحق وأولى وأول من كان ذاكراً له من أنزل عليه ، ثم لقومه . ثم لجميع العالمين ، وحيث خص به المتقين لأنهم الذين انتفعوا بذكره . وأما وصفه بأنه ذو الذكر ، فلأنه مشتمل على الذكر ، فهو صاحب الذكر ، ومنه الذكر ، فهو ذكر وفيه الذكر ، كما أنه هدى وفيه الهدى ، وشفاء وفيه الشفاء ، ورحمة وفيه الرحمة .

وقوله تعالى : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

هاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرح والقدر ، والأسباب والمسببات ، وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب ، ولكل منهما عبودية مختص بها ، فعبودية الآية الأولى الاجتهاد ، واستفراغ الوسع والاختيار والسعى ، وعبودية الثانية الاستعانة بالله ، والتوكل عليه واللجوء إليه ، واستنزال التوفيق ، والعون منه ، والعلم بأن العبد لا يمكنه أن يشاء ، ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك وقوله : ﴿ رب العالمين ﴾ ينتظم ذلك كله ، ويتضمنه ، فمن عطل أحد الأمرين ، فقد جحد كمال الربوبية ، وعطلها ، وبالله التوفيق .

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد .

لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسى ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

(١) البقرة آية : ٦٣

تفسير سورة الانفطار

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة آية

وكلماتها : مائة

وحروفها : ثلاثمائة وتسع عشرة

فواصل آياتها (مكنة) وسورة (الانفطار) لمفتتحها .

مقصود السورة :

الخبر عن حال السماء ونجومها فى آخر الزمان ، وبيان غفلة الإنسان وذكر الملائكة الموكلين بما يصدر عن اللسان ، والأركان ، وبيان إيجاد الحق - تعالى - الحكم يوم يحشر الإنس والجان .

المتشابهات :

سبق ما فيها من التشابه ، وقوله : ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين** ﴾ تكرار أفاد التعظيم ليوم الدين . وقيل أحدهما للمؤمنين ، والثانى للكافرين .

مناسبة السورة لما قبلها :

هى كسابقها مبدوءة بوصف أهوال يوم القيامة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾
وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ
مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ
رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

معانى المفردات

انفطرت : أى انشقت .

انتثرت : أى تساقطت متفرقة .

فجرت : أى فتحت وشققت جوانبها فزال ما بينها من الحواجز واختلط عذبها بملحها .

بعثرت : أى قلب ترابها الذى حثى على موتاها ، وأزيل وأخرج من دفن فيها .

ما قدمت : أى من أعمال الخير .

وما أخرت : أى منها بالكسل والتسويف .

ما غرك : أى أىّ شىء خدعك وجرأك على العصيان ؟ .

الكريم : أى العلى العظيم .

فسواك : أى جعل أعضاءك سوية سليمة معدة لمنافعها .

فعدلك : أى جعلك معتدلا متناسب الخلق .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت وإذا البحار فجرت وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ .

افتتح سبحانه وتعالى هذه السورة الكريمة بمثل ما افتتح به سابقتها من ذكر أمور تحدث حين خراب هذا العالم ، وتكون مقدمة ليوم العرض والحساب والجزاء ، وهو يوم القيامة منها أمران علويان هما : انفطار السماء وانتثار الكواكب ، وأمران سفليان هما تفجير البحار وبعثرة القبور .

فقوله تعالى : ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أى إذا انشقت السماء وتغير نظامها ، فلم يبق نظام الكواكب على ما نرى ، عند خراب هذا العالم بأسره كقوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾ وقوله : ﴿ فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ﴾ وقوله : ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أى سقطت وتفرقت . وهذا يجىء غالباً لما قبله إذ متى انشقت السماء وانتقض تركيبها واختل نظامها - انتثرت كواكبها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ قال قتادة اختلط عذبها بمالحها ، وقال الحسن : فجر الله بعضها فى بعض فذهب ماؤها .

قوله تعالى : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ أى وإذا القبور قلبت ، ونبش ما فيها من الموتى ، وصار ما فى باطنها ظاهراً على وجهها .

قوله تعالى : ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ هذا هو الجواب أى علمت عندئذ كل نفس ما أسلفت من خير أو شر ، وما قدمت من صالح أو طالح قال الطبرى : ما قدمت من عمل صالح ، وما أخرت من شىء سَّنه فعمل به بعده .

ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها ، انتقلت الآيات لتذكير الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال ، وشدائد فقال تعالى :

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ أى أىَّ شىء خدعك بربك الحليم الكريم ، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره ، مع إحسانه إليك وعطفه عليك ؟ وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال : كيف قابلت إحسان ربك بالعصيان ، ورأفته بك بالتمرد والطغيان ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾(١) ؟ وأتى سبحانه باسمه الكريم لينبه على أنه لا ينبغى أن يقابل الكريم بالأفعال القبيحة . وتلا إبن عمر هذه الآية : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ فقال : غرّه والله جهله .

ثم عدد نعمه عليه فقال تعالى : ﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ أى الذى أوجدك من العدم ، فجعلك سوياً سالم الأعضاء ، تسمع وتعقل وتبصر (فعدلك) أى وجعلك معتدل القامة منتصباً فى أحسن الهيئات والأشكال وقوله : ﴿ فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾ أى ركبك فى أى صورة شاءها وإختارها لك من الصور الحسنة العجيبة ، ولم يجعلك فى الشكل كالبهيمة كقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾(٢) وكقوله : ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ﴾(٣) .

قال الإمام أحمد بسنده عن بشر بن جحاش القرشى أن رسول الله ﷺ بصق يوماً فى كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال : قال الله عز وجل : « يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟ »(٤) .

تقرير صادق من الله تعالى

قال تعالى :

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾
يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾
ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ
لِلَّهِ ﴿١٩﴾

(١) الرحمن آية : ٦٠
(٢) التين آية : ٤
(٣) غافر آية : ٦٤
(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ ٤ ص ٢١٠

معانى المفردات

كلا : تفيد نفى شىء قد تقدم وتحقيق غيره .

والدين : الجزاء .

حافظين : أى يحصون أعمالكم خيراً كانت أو شراً .

الأبرار : واحدهم بر ، وهو من يفعل البر (بكسر الباء) ويتقى الله فى كل أفعاله .

الفجار : واحدهم فاجر ، وهو التارك لما شرعه الله ، المتعدى لحدوده .

يصلونها : أى يقاسون حرها .

ما أدراك : أى ما أعلمك وعرفك .

المناسبة واجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن من دلائل نعمه على الإنسان خلقه على أحسن صورة . وأن ذلك يدل على أن له حياة أخرى غير هذه الحياة ، فيها يجازى بما عمل من خير أو شر - أعقب هذا بيان أنه لا شىء يمنعه عن التصديق بهذا اليوم إلا العناد والتكذيب ، والله لم يترك عملاً لعباده الا أحصاه وحفظه ، ليوفى كل عامل بره ، فقد وكل الكرام الكاتبين المطهرين عن الغرض والنسيان بكتابته وضبطه .

ثم ذكر أن الناس فى هذا اليوم فريقان فريق فى الجنة وفريق فى السعير وأنه فى هذا اليوم لا يجد المرء ما يعول عليه سوى ما قدمت يداه . فلا شفيع ولا نصير ، ولا وزير ولا مشير ، والحكم لله وحده ﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾[1] .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ .

أى إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصى تكذيب قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب .

قوله تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ أى وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم .

وقوله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم ﴾ .

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم وهم الذين أطاعوا الله عز وجل ولم يقابلوه بالمعاصى ، وروى . إنما سماهم الله الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء .

وقوله تعالى : ﴿ وإن الفجار لفى جحيم يصلونها يوم الدين وما هم عنها بغائبين ﴾ أى وإن الكفرة الفجار ، الذين عصوا ربهم فى الدنيا واتبعوا أمر كل جبار عنيد ، لفى نار محرقة ، وعذاب دائم

(١) الأنعام آية : ٦٢

مقيم فى دار الجحيم يدخلونها ويقاسون حرها يوم الجزاء الذى كانوا يكذبون به .

وقوله : ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ تعظيم له وتهويل أى ما أعلمك ما هو يوم الدين ؟ وأى شىء هو فى شدته وهوله ؟ ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ كرر ذكره تعظيما لشأنه ، وتهويلا لأمره كقوله تعالى : ﴿ الحاقة ما الحاقة وما ادراك ما الحاقة ﴾(١) وكقوله : ﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾(٢) كأنه يقول سبحانه : أى يوم الجزاء من شدته بحيث لا يدرى أحد مقدار هوله وعظمته ، فهو فوق الوصف والبيان .

وقوله تعالى : ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ أى هو ذلك اليوم الرهيب ، الذى لا يستطيع أحد أن ينفع أحداً بشىء من الأشياء ، ولا أن يدفع عنه ضراً ولا خلاصة مما هو فيه الا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريش فعمَّ وخص فقال : « يا معشر بنى كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة بنت محمد أنقذى نفسك من النار ، فإنى والله لا أملك لكم من الله شيئاً الا أن لكم رحماً سأبلها ببلاها » ورواه أيضا مسلم والترمذى(٣) .

قوله تعالى : ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾ أى والأمر فى ذلك اليوم لله وحده لا ينازعه فيه أحد كقوله تعالى : ﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين ﴾(٤) وكقوله تعالى : ﴿ لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب ﴾(٥) ، وقوله : ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾(٦) .

« دعـاء »

« اللهم أنت الملك لا اله إلا أنت ، أنت ربى ، وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، إنه لا يغفر الذنوب الا أنت ، وأهدنى لأحسن الأخلاق ، لا يهدى لأحسنها إلا أنت ، وأصرف عنى سيئها ، لا يصرف عنى سيئها إلا أنت ، لبيك وسعديك ، والخير كله فى يدك ، والشر ليس اليك ، أنا بك وإليك ، تباركت ربنا وتعاليت استغفرك وأتوب إليك . . »

---

(١) الحاقة الآيتان : ١ ، ٢
(٢) القارعة الآيتان : ١ ، ٢
(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ٢/٣٦٠
(٤) الحج الآيتان : ٥٦ ، ٥٧
(٥) غافر الآيتان : ١٦ ، ١٧
(٦) الأعراف : ٥٤

تفسير سورة المطففين

مقـدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : ست وثلاثون آية

وكلماتها : مائة وتسع .

وحروفها : أربعمائة وثلاثون .

وفواصل آياتها : (من) .

وسميت (المطففين) لمفتتحها .

مقصود السورة .

معظم مقصود السورة : تمام الكيل والميزان ، والاحتراز عن البخس والنقصان ، وذكر السجين لأهل العصيان ، وذكر العليين لأهل الإيمان ، ودلال المؤمنين والمطيعين فى نعيم الجنان ، وذل العصاة فى عذاب النيران ، ومكافأتهم على وفق الجرم والكفران فى قوله تعالى : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ .

المتشابهات :

فيها من المتشابه قوله تعالى : ﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم** ﴾ وبعده ﴿ **كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم** ﴾ التقدير فيها : إن كتاب الفجار لكتاب مرقوم فى سجين ، وان كتاب الأبرار لكتاب مرقوم فى عليين . ثم ختم الأول بقوله : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ لأنه فى حق الكفار ، وختم الثانى بقوله : ﴿ **يشهده المقربون** ﴾ فختم كل واحد بما لا يصلح سواء مكانه .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه قال هناك « وإن عليكم لحافظين » وذكر هنا ما يكتبه الحافظون « كتاب مرقوم » يُجعل فى عليين أو فى سجين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ
أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾
يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا
أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ
يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ
آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾
كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ
هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

معانى المفردات

ويل : أى هلاك عظيم .

والتطفيف : البخس فى الكيل والوزن ، وسمى بذلك لأن ما يبخس شىء حقير طفيف .

اكتالوا على الناس : أى اكتالوا من الناس حقوقهم .

يستوفون : أى يأخذونها وافية كاملة .

كالوهم : أى كالوا لهم .

يخسرون : أى ينقصون الكيل والميزان .

سجين : اسم للكتاب الذى دونت فيه أعمال الفجرة من الثقلين .

مرقوم : من رقم الكتاب إذا جعل له علامة ، والعلامة تسمى رقماً .

معتد : أى متجاوز منهج الحق .

أثيم : أى يكثر من ارتكاب الآثام ، وهى المعاصى .

أساطير الأولين : أى أخبار الأولين .

ران على قلبه : أى غطى عليه ، قال الزجاج : الرين كالصدأ يغشى القلب كالنعيم الرقيق . وقال الغراء : كثرت منهم المعاصى والذنوب فأحاطت بقلوبهم فذلك الرين عليها .

لمحجوبون : أى لمطردون من أبواب الكرامة .

لصالوا الجحيم : أى لداخلو النار وملازموها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ .

المطفف : هو الذى ينقص الكيل والوزن مطففاً ، لأنه لا يكاد يسرق إلا الشىء الطفيف ، وذلك ضرب من السرقة والخيانة وأكل الحرام ثم وعد الله من فعل ذلك بويل ، وهو شدة العذاب ، وقيل : واد فى جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره .

وكان بعض السلف يقول : ويل لمن يبيع بحبة يعطيها ناقصة جنة عرضها السموات والأرض ، وويل لمن يشترى الويل بحبة يأخذها زائدة » .

قال النسائى وابن ماجه بسندهما عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما قدم النبى - ﷺ - المدينة وكانوا من أخبث الناس كيلاً فأنزل الله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك [1] .

قوله تعالى : ﴿ **الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون** ﴾ يعنى : إذا اكتالوا من الناس استوفوا عليهم ، وكذلك إذا اتزنوا ولم يذكر (إذا أتزنوا) لأن الكيل والوزن بهما الشراء والبيع فيما يكال ويوزن ، فأحدهما يدل على الآخر .

وقوله تعالى : ﴿ **وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون** ﴾ أى ينقصون فى الكيل والوزن . وقال السدى . لما قدم رسول الله ﷺ المدينة كان بها رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان ، يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر . فأنزل الله هذه الآية .

وقد أمر الله تعالى بالوفاء فى الكيل والميزان فقال تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم . ذلك خير وأحسن تأويلا** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها** ﴾[3] وقال جل وعلا : ﴿ **وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان** ﴾[4] ، وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس وأخرج الطبرانى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب التجارات) باب : التوقى فى الكيل والوزن جـ٢ ص٧٤٨ رقم ٢٢٢٣ .
(٢) الإسراء الآية : ٣٥
(٣) الأنعام الآية : ١٥٢
(٤) الرحمن الآية : ٩

رسول الله - ﷺ - : « خمس بخمس ، قالوا : يا رسول الله وما خمس بخمس ؟ قال : « ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا أنزل الله بهم الطاعون - يعنى الموت - ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » .

قال المحققون هذا حديث سنده حسن وله شاهد صحيح عند ابن ماجه وغيره[(١)] .

وكان ابن عمر رضى الله عنهما : يمر بالبائع ، فيقول له : اتق الله ، وأوف الكيل والوزن بالقسط ، فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى إن العرق ليلجمهم إلى أنصاف آذانهم .

ثم قال سبحانه متوعداً لهؤلاء : ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم ﴾ أى أما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدى من يعلم السرائر والضمائر فى يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل نار حامية ؟ وقوله تعالى : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أى يوم يقومون حفاة عراة غرلا فى موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجزه القوى والحواس عنه .

قال الامام مالك : عن نافع عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « يوم يقوم الناس لرب العالمين ، حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه » ورواه البخارى ومسلم أيضا كلاهما عن نافع[(٢)] .

ورواه الامام أحمد فى سنده عن نافع عن ابن عمر سمعت رسول الله يقول : « يوم يقوم الناس لرب العالمين » لعظمة الرحمن عز وجل يوم القيامة حتى أن العرق ليلجم الرجل إلى أنصاف آذانهم[(٣)] .

وقال الامام أحمد عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : « تدنو الشمس يوم القيامة على قدر ميل ويزاد فى حرها كذا وكذا تغلى منها الهوام كما تغلى القدور ، يعرقون فيها على قدر خطاياهم منهم من يبلغ إلى كعبيه ، ومنهم من يبلغ إلى ساقيه ، ومنهم من يبلغ إلى وسطه ، ومنهم من يلجمه العرق» تفرد به أحمد[(٤)] .

وفى سنن أبى داود والنسائى وابن ماجه أن رسول الله ﷺ كان يفتتح قيام الليل يكبر عشراً ، ويحمد عشراً ، ويسبح عشراً ، ويستغفر عشراً ويقول « اللهم اغفر لى وآهدنى ، وارزقنى وعافنى ويتعوذ من ضيق

---

(١) أخرجه الهتيمى فى مجمع الزوائد فى (كتاب الزكاة) باب : فرض الزكاة جـ٣ ص ٦٥ وقال رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه إسحاق بن عبد الله بن كيسان المروزى : لينه الحاكم ، وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير جـ٦ ص١٠٧ ط الشعب

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده ١٣/٢ ، ١٩ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦

(٤) أخرجه أحمد فى مسنده ٢٥٤/٥

المقام يوم القيامة »[١] .

لقد أقام الاسلام فى النفس البشرية مملكة هى مملكة المراقبة ، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وفى المعاملات الإسلامية ما يشهد بذلك قال أبو هريرة لرجل يغش اللبن بالماء ما تقول لربك يوم القيامة إذا قال لك خلص اللبن من الماء وخلص الماء من اللبن وهكذا انتظم السلوك فى المجتمع الإسلامى الآن كل إنسان كان يعتقد أن رقابة الله مهيمنة عليه وكفى بالله حسيباً .

آداب السوق فى الإسلام

يقول فضيلة الشيخ الأستاذ/ عبد الحفيظ فرغلى فى كتابه « آداب السوق فى الإسلام » :

تحت عنوان : السوق فى الإسلام .

الإسلام والتجارة .

لم يحرم الإسلام البيع ، ولكنه حرم ألواناً من المعاملة ، تتنافى مع إنسانية هذا الدين وسماحته ورحمته ، كالغضب ، والظلم ، والاختلاس ، والاستغلال ، والربا ، وغير ذلك من وسائل اكتساب المال عن طريق غير مشروع .

وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ، لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾[٢] .

ويقول تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ، وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالأثم وأنتم تعلمون ﴾[٣] .

ويقول تعالى : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾[٤] . إلى غير ذلك من الآيات الكريمة ، التى تعززها أحاديث شريفة .

وما دام هناك بيع ، فهناك سوق .

والسوق فى الإسلام تحكمها قوانين منظمة ، وآداب سامية ، فالإسلام لم يحارب الاستثمار ، ولكنه دعا إليه بطرقه الشريفة الطاهرة ، ومن أقوال الإسلام فى ذلك :

ثمروا أموال اليتامى ، لا تأكلها الصدقة .

ولم يحرم الإسلام التجارة ، ولكنه دعا التاجر إلى التحلى بالصدق والعفة والأمانة ، ونهاه عن الغش وسوء الاستغلال ، وغير ذلك من الصفات السيئة ، التى تحول الإنسان إلى صورة شوهاء ، لاهم لها الا كسب المال واكتنازه .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه فى (كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها) باب ما جاء فى الدعاء إذا قام الرجل من الليل جـ ١ ص ٤٣١ رقم ١٣٥٦ ورواه النسائى فى قيام الليل جـ ٤ ص ١٧٠ ط الحلبى

(٢) النساء آية : ٢٩

(٣) البقرة آية : ١٨٨

(٤) البقرة آية : ٢٧٥

جاء الاسلام ليقيم مجتمع التعاون والحب والايثار ، فكما دعا إلى حسن الاستثمار ، دعا ـ كذلك ـ إلى البذل والعطاء .

والنبى ﷺ خير قدوة لأمته فى ذلك . روى أبو ذر الغفارى رضى الله عنه قال : خرج رسول الله ﷺ يوماً نحو أحد ، فقال : « يا أبا ذر ، فقلت : لبيك يا رسول الله ، فقال : الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا وكذا عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه ، وقليل ما هم ، ثم قال : يا أبا ذر قلت : نعم يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى . قال : ما يسرنى أن لى مثل أحد ، أنفقه فى سبيل الله ، أموت وأترك منه قيراط ، قلت : أو قنطارين يا رسول الله ، قال : بل قيراطين . يا أبا ذر ، أنت تريد الأكثر ، وأنا أريد الأقل » صحيح مسلم[1] .

ويشير الحديث الشريف إلى أن خير ما يستفيده الإنسان من ماله هو ما ينفقه فى سبيل الله ووجوه البر المختلفة ، لا ذلك الذى يكثره ويكنزه .

والإسلام لم يحارب الملكية الخاصة ، ولكنه حرك فى المالك دافع البذل والإيثار والتضحية ، وحث الأغنياء على مواساة الفقراء ، ودعا القادرين إلى البر بالضعفاء والعاجزين . قال تعالى : ﴿ **أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ، فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون الذى هم يراءون ويمنعون الماعون** ﴾ .

فتلك السورة الكريمة ، تندد بالقادرين ، الذين لا يرحمون العاجزين ، كما أن الله وعد الباذلين بمضاعفة الأجر وحسن الثواب ﴿ **مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم** ﴾[2] .

وكانت الزكاة قاعدة من قواعد الإسلام الخمس ، وتعطيلها يوجب على الحاكم قتال المعطل ، وهذا يدل على أن الإسلام دين اجتماعى متكافل ، تهمه مصلحة الجماعة ، كما تهمه مصلحة الفرد . إن الإسلام هو دين الإنسانية والمروءة ، وائتلاف القلوب والمشاعر ، وقد اهتم بأن تكون المعاملات بين الأفراد والجماعات ، تنزع من مودة كريمة وثقة رحيبة ، ولذلك اهتم بعملية البيع والشراء اهتماماً بالغاً .

ولا يعرف الناس على حقيقتهم إلا بالاحتكاك عن طريق المعاملة فى الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ، وهذه أمور تمتحن دين المرء وتقواه ، ويظهر فيها إمساكه من جوده ، وورعه من طمعه ، وزهده من جشعه .

ولا يهم ثناء الإنسان على الإنسان ، ما لم يكن ذلك الثناء نتيجة تجربة وامتحان .

والسلوك الطيب ـ كما يقول الحكماء ـ مظهر العقيدة السليمة والإيمان العميق ، والعكس صحيح .

---

(١) انظر مسلم فى باب تغليظ عقوبة من لم يؤد الزكاة والترغيب فى الصدقة جـ١ ص٦٨٦ ، ٦٨٧ .

(٢) البقرة آية : ٢٦٠

ومهما كان الإنسان حراً فى تثمير أمواله ، فليست الحرية مطلقة ، الحبل على الغارب ، ولكنها محدودة بحدود ، ومقيدة بتعاليم هذا الدين الحنيف ، الذى جاء ليرفع من قدر الإنسان ويعلمه المثالية فى الحياة ، وليوقفه على مضمون حكم القرآن ، حين يقول : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾[١] .

والتقوى إذا تحلى بها الرجل ، عصمته فى السوق ـ إن كان تاجراً ـ من الغش والاحتكار والظلم ، والفجور وسوء الاستغلال والجشع .

وعصمته ـ إن كان مشترياً ـ من الاختلاس والسرقة والخيانة والغدر والمطل .

والاسلام يدعو إلى الانعاش الاقتصادى ، ولكنه ـ فى دعوته إلى ذلك ـ لم ينس العلاقات الاجتماعية بين الأفراد ، ومن التعبيرات الرائجة ـ الآن أن التجارة لا قلب لها ، وإن كان لها عقل .

ومعنى ذلك إنها بعيدة عن العاطفة ، لا شأن لها بالمبادىء الإنسانية والخلقية ، لأنها لا تهدف إلا إلى الربح ، ولو من أى طريق ولو على حساب الآخرين ، وهذا منطق يتنافى ـ تماماً ـ مع مفهوم الإسلام للتجارة ومبادئه الكريمة فى التنمية الاقتصادية .

فالاسلام لا يفصل بين مكان الرجل فى دكانه ، وبين مكانه فى مسجده هو فى كليهما ابن الإسلام ، الذى جاء ليرفع من شأن المثل العليا ، ويعلم الناس الأخلاق العالية الرفيعة .

يحكى عن أبى الحسن السرى السقطى ،وكان من كبار التجار ، أنه قال : منذ ثلاثين سنه ، وأنا فى الاستغفار من قولى : الحمد لله مرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ فقال : وقع ببغداد حريق فى السوق ، التهم حوانيت التجار ، فاستقبلنى رجل ، وقال : نجا حانوتك ، فقلت الحمد لله ، ثم أدركت أننى بهذا قد فرحت بسلامة دكانى واحتراق غيره مما يملكه الناس ، وكان حق الدين والمروءة ، ألا أفرح بذلك فأنا فى الاستغفار منذ ثلاثين سنة عن قولى فى مصائب الناس ونجاتى « الحمد لله » .

هذا مقام صعب المرتقى ، ولكنه يصور إرهاف الشعور الدينى والعمل على أن يفنى المؤمن نفسه لخير المجتمع ، بل هو مثال عال لما يصل إليه ايمان المؤمن من كمال ، مصداقاً لقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٢] .

لقد كانت خطوات الإسلام فى بنائه لدولته متكاملة ، لا يقدم جانباً على حساب جانب آخر ، فكما يهمه تقدم الدولة اقتصاديا ، يهمه ـ أيضا ـ تقدمها دينيا وخلقيا وانسانياً ، وقد استعار الشعراء حكمة النبى ﷺ فى قوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٣] فصاغوها شعراً فهذا شوقى أمير الشعراء يقول :

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

(١) الحجرات آية : ١٣

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان جـ ١ ص ٦٧ رقم ٧١/ ٤٥ ط الحلى

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد برقم ٢٧٣ جـ ١ ص ٢٧١

وهذا حافظ شاعر النيل يقول :

على الأخلاق خطوا الملك وابنو   فليس وراءهـا للعـز ركـن

ومن الأسس التى راعاها الإسلام فى دعوته إلى التنمية الاقتصادية ، وجوب العمل الجاد المثمر على هدى وبصيرة من التقدم العلمى وهو فى دعوته إلى العمل ، يحيطه بضمانات قوية تحيله ـ دائما ـ لخير الأمة ، وتجعله مسعداً لأبنائها منعشاً لرخائها ، وباعثاً فى أفرادها عوامل الخير والطموح والإنسانية ، ومخلصاً لها من شوائب الأنانية والأثرة .

وقد زكى الاسلام موقف الأنصار المؤثرين فى قوله تعالى : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾[1] .

فأين ما تدعو إليه الدول الغنية ـ الآن ـ التى تدل بثرائها ، وتتيه بغناها ، وتعدو بقوتها ، وتعربد بتفوقها ، من هذا الدين السمح الذى قلم أظفار البغى ، وقضى على دوافع الطمع ، وعلم الإنسان كيف يحب أخاه الإنسان ؟

إن التنمية الاقتصادية فى الدول ، التى لا تدين بالاسلام ، هى مجرد زيادة فى الدخل ، وكثرة فى الأموال ، وتكديس للثروات ، وناهيك بما يجره ذلك من صراع عنيف ، فى الأفراد والمجتمعات ، وما يؤدى إليه هذا الصراع من محن وثورات وقتال وتطاحن وحروب ، وما يؤدى إليه من تصرفات حمقاء ، تزيد من غنى الغنى ، وفقر الفقير ، وتدفع إلى مزيد من الجوع والفقر بين أبناء الشعوب النامية والمتخلفة .

والدليل على ذلك أن الفائض من الغلات والثمرات والمنتجات ، قد يلقى فى البحر ، أو يتخلص منه بالاحراق والإبادة ، حتى لا يؤدى وجوده وتسويقه إلى رخص الأسعار ، الذى يؤدى إلى نقص فى دخول هؤلاء الطامعين .

الكسب الحلال وعلاقته بالتجارة :

حرص الاسلام على أن يكون كسب المسلم لمعاشه من طريق الحلال ، ووسائل الكسب الحلال كثيرة ، ولها مجالات متعددة ، وقد دعا الإسلام أهله إلى الطيب من الرزق ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ، كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ، إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ، كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله ، إن كنتم إياه تعبدون** ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا ، أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد** ﴾[4] .

(١) الحشر آية : ٩
(٢) البقرة الآيتان : ١٦٨ ، ١٦٩
(٣) البقرة آية : ١٧٢
(٤) البقرة آية : ٢٦٧

وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الرسل ، كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم** ﴾[١] . والخطاب للرسل ، خطاب لأممهم أيضا .

وقال تعالى : ﴿ **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل** ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً** ﴾[٣] .

وقال ﷺ : « من سعى على عيال من حله ، فهو كالمجاهد فى سبيل الله ، ومن طلب الدنيا حلالا فى عفاف ، كان فى درجة الشهداء » أخرجه الطبرانى فى الأوسط ، من حديث أبى هريرة[٤] .

وسأل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه النبى ﷺ كيف يجعله الله مجاب الدعوة ؟ فقال له : « أطب مطعمك ، تستجب دعوتك » اخرجه الطبرانى فى الأوسط ، من حديث ابن عباس[٥] . وكان يوصى أبناءه قائلا : « إذا طلبت الغنى ، فاطلبه فى القناعة ، فإنها مال لا ينفذ ، واياك والطمع ، فإنه فقر حاضر » .

وسئل سفيان الثورى عن الحلال ، فقال : تجارة برة ، أوعطاء من إمام عادل ، أو صلة من أخ مؤمن ، أو ميراث لم يخالطه شىء » .

« هناك آثار لا تحصى ، تدعو إلى أن يتحرى المسلم الحلال الطيب فى كسبه ، وتحذره من الحرام والشبهات ، وذلك أن الله طيب ولا يقبل من عباده الا طيبا ، ويطلب من عباده أن يكونوا على غاية تامة من الورع ، وصحة الدين ، والقناعة ، وحسن الخلق ، ولكى يطمئنهم على حسن كفالته لهم ضمن لهم رزقهم ، وقال النبى ﷺ مرشداً لهم « اتقوا الله ، وأجملوا فى الطلب »[٦] يعنى أن الله ضمن لكم الرزق ، فاطلبوه من وجوهه الطيبه ، وبأسلوب شريف لا تهالك فيه ولا تكالب عليه .

وليعلم المسلم أن المعصية فى سلوك طريق الكسب مرفوضة ـ تماماً ـ فى منطق الاسلام ، لأنه يسير فى نظامه الاقتصادى وفق عقيدته ، وأوامره صريحة فى ذلك ، والحلال بين والحرام بين .

وأن العبد لمسئول يوم القيامة عن كسبه . فعن أبى برزة الأسلمى عن النبى ﷺ قال : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة ، حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه ، وعن جسمه فيم أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وعن علمه فيم فعل »[٧] .

---

(١) المؤمنون آية : ٥١
(٢) البقرة آية ١٨٨
(٣) النساء آية : ١٠
(٤) أخرجه الطبرانى
(٥) مجمع الزوائد جـ١٠ ص ٢٩٥
(٦) أخرجه فى الصحيحين .
(٧) أخرجه الترمذى فى صفة القيامه جـ٤ ص٣٦ ٢٥٣٢ ط : دار الفكر وقال حسن صحيح

فعلى المسلم ـ إذن ـ أن يسلك وسائل الكسب المشروعة ، التى أحلها الله تعالى فى طلب المعاش واكتساب الرزق ، ومن بين ذلك التجارة التى مارسها رسول الله ﷺ قبل البعثة ، وكانت مهنة كثير من الصحابة الأجلاء رضوان الله عليهم .

ومن الأئمة الفضلاء ، الذين كانوا يتاجرون ، أبو حنيفة النعمان أمام المذهب الحنفى ، وقد ضرب المثل الكامل فى الورع والتقوى وله فى ذلك قصص مشهورة وأخبار مذكورة .

ومن القصص التى يرويها عنه الأستاذ/عبد الحليم الجندى فى كتابه عنه : « جاءت عجوز إلى دكانه تطلب ثوباً ، وتوسلت إليه ـ بسنها ـ أن يرفق بها ، قال : دونك يا أماه هذا الثوب . قالت بكم ؟ قال : بأربعة دراهم . قالت لا تسخر منى ، أنا عجوز لا حيلة لى . قال إنه لكذلك ، لقد اشتريت ثوبين ، فبعت أحدهما بالثمن كله ، إلا أربعة دراهم ، وهذه الدراهم هى ما أطلبه منك للثوب الباقى .

وإنه ليذهب إلى أبعد من ذلك ، فكان ينصف المشترى من نفسه ، ولا يفكر فى أن ينصف نفسه من المشترى .

جاء رجل بثوب يبيعه ، قال : بكم ؟ قال الرجل : بكذا قال : فإنه يستحق أكثر من ذلك ولم يزل يزيده حتى اشتراه بثمانية آلاف .

بل جاءته امرأة بثوب خز تبيعه بمائة ، فقال لها هو خير من مائة . بكم تقولين ؟ فزادت مائة مائة ، حتى قالت أربعمائة قال : هو خير من ذلك ، قالت : أتهزأ بى ؟ قال : هاتى رجلا فجاءته برجل ، فاشتراه بخمسمائه .

وصدقت المرأة إنه لم يتخذها سخريا ، وصدقت كذلك أنه لم يكن يريد الإحسان إليها ، ولكنه يهدف إلى إنصافها من نفسه ، قبل أن يفكر فى إنصاف نفسه كما يفعل التجار ، بل يعمدون إلى التزييف لأكل أموال الناس بالباطل .

لقد كان أبو حنيفة (رضى الله عنه) على نهج صحابة أجلاء انتفعوا بصحبة رسول الله ﷺ وسيرته الزكية ، وسلوكه العملى القيم فى تجارته ، فقد كان ﷺ نعم الصادق الأمين وصاحب الكلمة الواحدة ، وهو الذى شهد له شريكه فى التجارة فى الجاهلية حيث قال له : كنت نعم الشريك لا تشارى ولا تمارى . وأوصى النبى ﷺ هذا الشريك ، وهو السائب بن عبد الله ، حين جاء يعلن إسلامه بقوله : « يا سائب أنظر إلى أخلاقك التى كنت تصنعها فى الجاهلية ، فاصنعها فى الاسلام : اقر الضيف ، وأكرم اليتيم ، وأحسن إلى جارك (أسد الغابة) . .

قضايا تجارية فى السوق
وموقف الإسلام منها

١ - التسعير :

قال اللغويون : السعر ، الذى يقوم عليه الثمن ، وجمعه أسعار ، وقد أسعروا وسعروا بمعنى واحد : اتفقوا على سعر .

وفى الحديث ، قيل للنبى ﷺ : سعر لنا ، فقال : « إن الله هو المسعر »[١] أى أنه هو الذى يرخص الأشياء ويغليها ، فلا اعتراض لأحد عليه ، ولذلك لا يجوز التسعير ، والتسعير هو تقدير السعر ، بين ابن منظور فى عبارته تلك سبب رفض النبى ﷺ أسلوب التسعير .

وكان النبى ﷺ يحب أن يترك التجار لضمائرهم ، ويريد أن يرتفعوا بأنفسهم عن شهوة المغالاة فى الأسعار ، واستغلال حاجة الجماهير ، وأن يطلبوا السعر من واقع شعورهم الأخوى ، واحساسهم بآلام الناس ، ورفض التسعير لهذه المعانى .

روى القاسم بن مخيمر عن أبى فضلة ، إنهم قالوا للنبى ﷺ فى عام سنة - قحط وجدب - سعر لنا يا رسول الله ، فقال : « لا يسألنى الله عن سنة أحدثتها فيكم ، لم يأمرنى بها ، ولكن سلوا الله من فضله » .

والبيئة التى قال النبى ﷺ فيها ذلك بيئة إسلامية صحيحة ، يسودها التعاطف والتراحم والرضا والأخوة الصادقة ، وتتقبل كلام النبى ﷺ بايمان وإذعان وتسليم ، فهو تشريع لا يمكن مناقضته ، وقد انتفع المسلمون بهذه التوجيهات السامية ، التى لا تهدف إلا إلى خير المسلمين ، ورفع مستواهم الإيمانى والخلقى ، مثلما تهدف إلى رفع مستواهم الاقتصادى تماماً .

فالكسب المعقول ، الذى لا يمليه الطمع والجشع ، يبارك الله فيه ، ويحرسه وينميه .

فإذا ما رفض النبى ﷺ التسعير ، فذلك لأنه يريد أن يعلم البائع والمشترى دروساً كاملة فى حسن الثقة بالله ، وحسن التوكل عليه ، إنه يريد أن يعلم البائع يقظة الضمير ، حتى لا يسىء استغلال غيره ، ويريد أن يعلم المشترى القناعة واللجوء إلى الله ودعائه ، وعدم التطلع إلى غيره ، وصرف النفس عن رغباتها والرضا بما يعطيه الله لغيره ، من المنافع والمزايا والمكاسب ، وقدوة المسلمين فى ذلك الأنصار ، الذين رضوا بما أعطى الله المهاجرين دونهم ، بل فرحوا بذلك ، وقد زكاهم الله بقوله : ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[٢] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه جـ ٢ كتاب التجارات ص ٧٤١ ، ٧٤٢ برقم ٢٢٠٠ وأخرجه الترمذى برقم ١٣٢٨ جـ ٢ ص ٣٨٨ وقال حديث حسن صحيح

(٢) الحشر آية : ٩

وذلك أنه حينما غنم المسلمون بنى النضير ، قال ﷺ للأنصار : إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ، ودياركم ، وشاركتموهم فى هذا المال ، وإن شئتم كانت لكم دياركم ، وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة ، فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا ، وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة ، ولا نشاركهم فيها ، فنقلها الله المهاجرين ، سوى رجلين فقيرين من الأنصار هما : أبو دجانة ، وسهل بن حنيف .

هذا درس من التاريخ ، يعلم الأجيال المتعاقبة : كيف تكون القناعة والإيثار ، والرضا بما قسم الله .

ولكن الحكومات الحديثة ، فى ظل تطورات الصناعة والزراعة والتجارة أدخلت نظماً متعددة ، كان من بينها التسعير ، دعت اليه ظروف مختلفة ، من بينها تنافس المنظمات التجارية فى الدولة الواحدة وفى الدول المنتجة الأخرى ، وظهور ألوان متعددة من سلعة واحدة ، تنتجها شركات كثيرة ، وظهور وسطاء كثيرين يروجون للسلعة ، وظهور فن الدعاية والإعلان المتطور ، الذى يغرى بالإقبال ويدفع إلى الشراء ، إلى غير ذلك من العوامل التى أدت إلى فرض نظام التسعير .

يقول الدكتور صديق محمد عفيفى ، فى كتاب له من التسويق كما تتنافس المنظمات على أساس الجودة ، واستخدامات السلعة ، وخصائها فانها تتنافس ـ أيضا ـ على أساس سعرى ، وعليه فإنه يجب على ادارة السوق انتقاء تلك السياسة السعريه ، التى تتناسب مع الأسواق ، التى يتعاملون معها ، والتى تحقق أهدافهم .

إن عدم الدقة فى التوصل إلى السياسة السعرية المناسبة ، قد يؤدى إلى تحديد أسعار ، قد تكون أعلى أو أقل مما يجب ، ويؤدى ذلك إلى تحقيق الخسارة .

وعادة ما تتحدد الأسعار ، وفقاً للموقف التنافسى ، والظروف الاقتصادية ، والظروف الصناعية الخاصة بالصناعة المعنية ، فقد تخلق الظروف الاقتصادية السيئة الكساد » ما يسمى بسوق المشترين ، أما الظروف المواتية « الرواج » فإنها تخلق ما يسمى بسوق « البائعين » وغالبا ما تنخفض الأسعار فى سوق المشترين ، وترتفع فى سوق البائعين .

ويرتبط ـ كذلك ـ تحديد الأسعار بمقدار التكلفة ، التى ينطوى انتاج السلعة ، حتى يتم حساب التكلفة مع إضافة هامش ربح معقول إليها ، ويكون الأساس فى التسعير ـ كذلك ـ مبنياً على ضرورة الحصول على عائد معين من رأس المال المستثمر .

وكثيراً ما يتأثر التسعير بنوع العلاقة بين الكميات المنتجة والمبيعة فى السوق من ناحية ، وبين الأسعار السائدة من ناحية أخرى ، وعليه فإن الأسعار السائدة تفرض نفسها على الأسعار الخاصة ، وخاصة إذا وجد بين المنتجين من يتمتع بمركز نسبى قوى فى السوق .

وقد تلجأ المنظمات التجارية إلى منطق التجربة فى تسعير منتجاتها وذلك بتغيير الأسعار في مناطق جغرافية معينة ، وقياس أثرها على الكميات المبيعة ، حتى يمكن التوصل إلى أنسب سياسة سعرية .

من ذلك ندرك أن التسعير سياسة ، تلجأ اليها الدول والحكومات أو المنظمات التجارية الآن ، ولها آراؤها ووجهات نظرها ، التى ألمحت إلى طرف منها تلك العبارات المتقدمة .

ومن خلالها ندرك أن الهدف الأساسى من ورائه هو تحقيق الربح الوفير والاستكثار منه ، فقد أصبحت التجارة ـ الآن ـ تمارسها شركات كبيرة ، بل والحكومات نفسها ، التى تخصص للتجارة وزارة لها وزيرها ، وإداراتها المختلفة ، واختصاصاتها المتعددة ، واتصالاتها البعيدة المدى ، والشركات ـ الآن ـ أصبحت تدير تجارتها برأس مال خطير ، له تأثيره فى توجيه سياسة الدولة أحيانا .

وعلى الرغم من ذلك ، فرجال الاقتصاد يدركون أن التسعير عملية صعبة وليست سهلة ، يقول الدكتور مصطفى زهير فى كتابه : « إن من أكثر المشكلات التسويقية صعوبة فى حلها : مشكلة تحديد السعر المناسب ، الذى يبيع به المنتج سلعته .

ولعل منشأ هذه الصعوبة يرجع ـ فى الأصل ـ إلى كثرة المتغيرات ، التى تؤثر فى تحديد أفضل الأسعار ، التى ينبغى البيع بها . وهناك اعتبارات متوعة ، تحكم القرار العملى ، الذى يتخذه المنتج بشأن تحديد السعر ، الذى ينبغى أن يبيع به السلعة ، وثمة طريقتان شائع استخدامهما تسعير السلعة :

١ ـ تحديد سعر التجزئة ، على أساس ما ينفقه المنتج من مصروفات مضافاً إليها مقدار الربح .

٢ ـ تحديد السعر على أساس ظروف السوق ، ومعرفة السعر الذى يراه العملاء مناسباً لشراء السلعة . أ. هـ .

نلاحظ أنه لم يصبح الهدف من وراء التجارة الاستغناء ، كما كان يدعو الإسلام بل أصبح الهدف هو الغنى والجمع والاستكثار .

إن الاسلام الذى يقول : ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، يهمه ـ فى المقام الأول ـ الاستقرار النفسى للمسلم ، وتوفير جزء من وقته لعبادة ربه ، فإن كثرة المال مدعاة للنسيان ، واغراق للمرء فى مشاغل لا تفرغ ، من تبعات التثمير ، وخلافه وربما أدى ذلك إلى الجحود والنكران . . والمثل فى أن فتنة المال طاغية لاهية ، وقارون الذى كان من قوم موسى ، وقص القرآن قصته ، فحينما ذكر بحق الفقراء فى ماله جحد وقال : (إنما أوتيته على علم عندى . .)[١] . وثعلبة بن حاطب ، الذى تحدثت سورة التوبة بقصته ، حين يقول الله تعالى: ﴿ **ومنهم من عاهد الله ، لئن أتانا من فضله لنصدقن ، ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا ، وهم معرضون** ﴾[٢] .

إن من مسوغات التسعير ـ الآن ـ ما نراه من جشع شديد فى نفوس التجار ، الذين يغالون فى أسعار السلع ، التى يتجرون فيها ، دون نظر إلى حاجة أغلب الناس ، وحالتهم ، وضعف مستواهم المالى ، وقلة دخولهم ، حتى أصبحت أنفاس هؤلاء تتلاحق ، وهم يرقبون غول الأسعار يفترسهم ، ولا يستطيعون الدفع عن أنفسهم .

(١) القصص آية : ٧٨ (٢) التوبة الآية : ٧٥ ، ٧٦

فمن حق الدولة أن تتدخل ، لتضرب ـ بيد قادرة باطشة ـ على أيدى هؤلاء العابثين بأقوات وأقدار الكادحين من الناس ، ولعل من الطرق التى تقضى على جشع التجار : الكف عن شراء ما يعرضون ، وقديماً قيل لعلى بن أبى طالب (رضى الله عنه) : لقد غلا اللحم . فقال : أرخصوه ، ويقصد بذلك الكف عن شرائه ، فيضطر العارضون ـ حينئذ ـ إلى تخفيض سعره ، ولكن هذه الطريقة تحتاج إلى رأى عام منظم .

٢ ـ الاحتكار :

ومفهومه اللغوى مأخوذ من الحَكْر ، وهو ادخار الطعام للتربص ، وصاحبه محتكر .

قال ابن سيده : الاحتكار : جمع الطعام ، ونحوه مما يؤكل ، واحتباسه انتظار وقت الغلاء لبيعه .

وأُصل الحكر الجمع والإمساك ، وحكره يحكره حكراً : ظلمه وتنقصه وأساء معاشرته ، ففى الاحتكار ـ على هذا ـ ظلم وتنقص وإساءة عشرة ، كما قال الأزهرى .

هذه هى المعانى اللغوية ، التى يتقلب فى ظلها هذا اللفظ ، ومنها يمكن إدراك موقف الإسلام من الاحتكار .

لقد حرمه ، لما فيه من كل هذه المعانى : الاستغلال ، والظلم ، والتنقص وسوء المعاشرة ، والانتهازية ، والمضرة بالغير ، واللجاجة .

أن المحتكر مناع للخير ، معتد أثيم ، مضيق لفضل الله على الناس .

روى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون »[1] .

والجالب : هو الذى يشترى الطعام للبيع ، فيجلبه إلى بلده فيبيعه فهو مرزوق ، لأن الناس ينتفعون به ، فيناله بركة دعاء المسلمين .

والمحتكر : الذى يشترى الطعام للمنع ، ويضر الناس .

فالاحتكار لا يعترف به الإسلام وسيلة من وسائل الكسب ، وتنمية المال .

قال رسول الله ﷺ : « من احتكر حكرة ، يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء »[2] . .

والإحتكار فيه إهدار لحرية التجارة والصناعة ، فالمحتكر لا يسمح لسواه أن يجتلب ما يجلبه ، أو يصنع ما يصنعه ، لأنه يريد أن يتحكم فى السوق ، ويفرض على الناس ما يشاء من أسعار ، فيكلفهم العنت والضرر ، ويحملهم المشقة والغرر ، ويرهقهم من أمرهم عسراً .

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب التجارات جـ٢ ص٧٢٨ برقم ٢١٥٣

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٣٥١

ولقد ألح النبى ﷺ كثيراً على تحريم الاحتكار ، وتنمية المال عن طريقه ، وقال فى ذلك : « من احتكر طعاماً أربعين يوما ، فقد برىء من الله ، وبرىء الله منه ، وأيما أهل عرصه « حى » أصبح فيهم امرءاً جائعاً ، فقد برئت منهم ذمة الله » أخرجه أحمد والحاكم[1]

وقال : « بئس العبد المحتكر ، إن سمع برخص ساءه ، وإن سمع بغلاء فرح » .

وهل هناك أسوأ ممن يفرح من مصائب الآخرين ؟ !

وكيف يستسيغ المؤمن التقى النقى فائدة نفسه عن طريق مصيبة غيره ؟ ! وهو الذى يفرض عليه الإسلام أن يفرج كربة المكروب ، وييسر ضيق المعسر ، ويكفكف دمعة المحزون ، ويقيم عثرة أخيه ؟ !

ولذلك كان التاجر الذى لا يحتكر ، كالمجاهد فى سبيل الله ، سواء بسواء ، مصداقاً للأثر الكريم : « الجالب إلى سوقنا ، كالمجاهد فى سبيل الله » .

وقد زكى النبى ﷺ التاجر الذى لا يطمع ولا يشره وقال فى حقه :

« من جلب طعاماً ، فباعه بسعر يومه ، فكأنما تصدق به »[2] أخرجه الحاكم من حديث اليسع بن المغيره .

وهناك بعض القصص ، التى يمكن أن يتعظ بها المحتكرون ، فيوفرون على أنفسهم عذاب الضمير فى الدنيا ـ إن كان هناك ضمير ـ وعذاب الجحيم فى الآخرة ، يوم يحاسبهم الله على ما اقترفوا من ذنوب فى حق اخوانهم المسلمين .

عن بعض السلف أنه كان بواسط ، فجهز سفينة حنطة إلى البصرة ، وكتب إلى وكيله : بع هذا الطعام يوم يدخل البصرة ، ولا تؤخره إلى الغد . فوافق سعة من السعر ، فقال له التجار : لو أخرته جمعة ، ربحت فيه أضعافه ، فأخره جمعة ، فربح فيه أمثاله ، وكتب إلى صاحبه بذلك : فكتب إليه صاحب الطعام : يا هذا ، إنا كنا قد قنعنا بربح يسير مع سلامة ديننا ، وإنك قد خالفت ، وما نحب أن نربح أضعافه بذهاب شىء من الدين ، فقد جنيت علينا جناية ، فإذا أتاك كتابى هذا ، فخذ المال كله فتصدق به على فقراء البصرة وليتنى أنجو من إثم الاحتكار كفافاً لا على ولا لى .

أى مثالية تلك ؟ ! إنه الدين الذى تخالط بشاشته القلوب ، فيهون كل شىء فى نظر صاحبه ، بجانب رضوان الله .

وان التاجر المحتكر يغتنم فرصة ضائقة المسلمين ، ليغنم كما شاء ، والأمثلة فى واقعنا كثيرة لا حصر لها ، بل إنهم لا يكتفون بالاحتكار فقط ، بل هم يعمدون إلى اخفاء السلع ، فيجتمع على الناس حربان

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٢/٣٣ والحاكم فى المستدرك ٢/١٢ا

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ٢/١٢ إنما هو بلفظ : مر رسول الله ـ ﷺ ـ وآله وسلم ـ برجل بالسوق يبيع طعاما بسعر هو أرخص من سعر السوق . . . . إلى أن قال رسول الله ـ ﷺ ـ « أبشر فإن الجالب إلى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله ، والمحتكر فى سوقنا كالملحد فى كتاب الله »

حرب الضيق وحرب الفقد ، ويكون المال فى يد بعض الناس ، ولكنهم لا يجدون السلعة التى يريدون .

ووصل التفنن بهم فى مضايقة الناس جداً إلى اصطناع الضوائق إن لم تكن موجودة فعلاً ، ولهم فى إثارة الشائعات سلاح وأى سلاح ! أين هذا الخراب الدينى لتعمير دنيا زائلة ، لا بقاء لها ، من تلك المثل الشماء ، التى رأينا صورة منها فى تاجر واسط ، والذى وجد فى عثمان بن عفان (رضى الله عنه) مثله الأعلى . فقد روى ابن عباس (رضى الله عنه) أن الناس قحطوا على عهد أبى بكر الصديق ، فقال أبو بكر لا تمسون ، حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان الغد جاء البشير إليه فقال : قدمت لعثمان ألف راحلة تحمل براً وطعاما ، فغدا التجار على عثمان ، فقرعوا بابه ، فخرج إليهم فقال لهم عثمان : ادخلوا فدخلوا ، فإذا ألف وقر قد صب فى دار عثمان ، فقال لهم : كم تربحوننى على شرائى من الشام ؟

قالوا : العشرة اثنى عشر .

قال : لقد زادونى ، قالوا : العشرة أربعة عشر .

قال : لقد زادونى ، قالوا : العشرة خمسة عشر .

قال : لقد زادونى ، قالوا : من زادك ، ونحن تجار المدينة .

قال : لقد زادنى الله لكل درهم عشرة (من جاء بالحسنة ، فله عشر أمثالها) .

قالوا : لا تقدر على ذلك .

قال : فأشهدكم معشر التجار ، إنها صدقة على فقراء المسلمين .

رأى الفقهاء فى الاحتكار .

يقول الدكتور محمد سلام مدكور فى كتابه الاحتكار وموقف التشريع الإسلامى منه ، بعد أن تتبع آراء الفقهاء حوله :

منه ، بعد أن تتبع آراء الفقهاء حوله !

إن الاحتكار المحظور فى الشريعة الإسلامية هو حبس أى شىء ، تشتد حاجة الناس إليه ، ويستعملونه فى حياتهم ، ويتضررون من حبسه عنهم ، ويستوى فى ذلك أن يكون الحبس نتيجة شراء أو اختزان ، أو أن يكون الشراء من مصر أو من غير مصر ، وأن يكون الشىء طعاما أو غير طعام ، ويشمل ذلك ما اشتراه فى وقت الغلاء ، أو فى وقت الرخص ، ليرفع سعره ، ويغليه على الناس عند الضيق والاحتياج .

قال : وهكذا قال أبو يوسف ، صاحب أبى حنيفة كل ما أضر بالناس حبسه ، فهو احتكار ، وإن كان ذهبا أو ثيابا . اهـ ولست أحسب الرأى العام يختلف على ذلك ، بل هو يؤيده ، ويؤيد حجة الإسلام فى قوله : إن المعول عليه ثبوت الإضرار بالناس ، فإن كانت هناك مضارة حرم الاحتكار ،

وإلا فلا يخلو احتكار الأقوات من كراهية ، فإن المحتكر ينتظر مبادىء الضرر ، وهو ارتفاع الأسعار ، وانتظار مبادىء الضرار محذور ، كانتظار عين الضرار ولكنه دونه .

وإلى الراغبين فى الفضل أذكر هذه القصة ، التى ذكرها القشيرى فى رسالته عن السرى السقطى ، قال :

« كان السرى السقطى تاجراً ، واشترى لوزاً ، المكيال بستين ديناراً وكتب عن ربحه ثلاثة دنانير ، وكأنه رأى أن يربح على العشرة نصف دينار . فأتاه الدلال وطلب اللوز ، فقال خذه ، قال بكم ؟ قال : بثلاثة وستين ديناراً ، فقال الدلال : وكان صالحاً ـ صار اللوز بتسعين ، فقال السرى : قد عقدت عقداً لا أحله ، لست أبيعه إلا بثلاث وستين ، فقال الدلال وأنا عقدت بينى وبين الله عقداً ألا أغش مسلماً ، فلا السرى باع ، ولا الدلال اشترى .

الأضرار المترتبة على الاحتكار

الاحتكار يهدر حرية التجارة بتحكمه فى السوق ، حتى أن المحتكر يفرض على الناس ما يريده من سعر قد لا يتناسب معهم فيكلفهم ما يطيقون والاحتكار ـ فضلا عن ذلك ـ يقضى على التنافس الشريف ، الذى يؤدى إلى تجويد العمل ، والتفوق فى الإنتاج .

ويترتب على الاحتكار انتشار كثير من الأمراض النفسية والخلقية والاقتصادية والاجتماعية ، فعنه ينشأ الحقد ، الذى يعمى صاحبه عن الصواب ، ويؤدى إلى الأضطراب والفساد والاعتداء كما يزيد من انتشار الربا والفقر والخراب .

وبوجوده تنعدم المروءة والتعاون ، ويحل محليهما التسابق المحموم فى الأثراء الفاحش بالطرق غير المشروعة ، التى تستغل حاجة الناس ، فقد يلجأ بعضهم إلى احتكار الأدوية بإخفائها وعدم بيعها للمرضى الذين يعانون من المرض ، وقد يتوقف على بعضها حياتهم أو شفاؤهم . هذا وقد أصبح الاحتكار وسيلة سيئة فى يد الدول الغنية ، تلهب به ظهور الشعوب الفقيرة ، وهذه بعض أمثلة للاحتكار الدولى الذى شاع أمره فى العصر الحديث ، نستمدها من كتاب الدكتور مدكور

١ ـ احتكار مصادر السلاح ، وما يتعلق بصناعته من تكنولوجيا متطورة ، وبذلك أصبحت الدول الصغيرة النامية فى قبضة تلك الدول الكبرى ، التى تمتلك مصانع الأسلحة ، وتحتكر إنتاجها وتصديرها وتطويرها .

٢ ـ نظام الشركة القابضة ، وهى التى تسيطر على الشركات الأخرى ، عن طريق شراء الأعضاء فى تلك الشركات ، وبذلك تستطيع فرض ما تريده من أسعار ، لما ينتج فى هذه الشركات

٣ ـ اتحاد الثمن وهو اتفاق المنتجين لسلعة ما فيما بينهم على تحديد الثمن أو كمية الإنتاج رغبة فى الحصول على أعلى سعر ممكن .

٤ ـ التجويع ، وذلك بأن تقوم الدول الاستعمارية ، التى تنتج السلع الغذائية ، كالقمح ، والذرة ، والأرز ، وغيرها ، باحتكار تلك المحصولات لصالحها اقتصادياً وسياسياً .

وهناك صور أخرى للاحتكار العالمى ، وكلها يتنافى مع المبادىء الإنسانية ، التى تزعم تلك الدول أنها أنشأت هيئة الأمم المتحدة من أجلها .

ولا نجاة للدول الفقيرة والنامية من براثن الوحوش المفترسة إلا بأن تدبر أمرها ، وتتخلص فيما بينها من خلافات ، وتفكر الأمم الإسلامية فى مبادىء دينها جيداً ، لتعود إليه ، وتتجه فى نية خالصة إلى الله ، حتى يلهمها الطريق السليم ، الذى تسير فيه نحو مستقبل واضح وإلى غد مشرق ، بالعمل الدائب ، والتعاون الصادق ، والإخلاص الكريم ﴿ **ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز** ﴾[1]

٣ ـ الغش

أخرج مسلم فى صحيحه ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : « مر النبى ﷺ برجل يبيع طعاما فأعجبه ، فأدخل يده فيه فرأى بللا ، فقال ما هذا ؟ ! قال أصابته السماء فقال ، فهلا جعلته فوق الطعام ، حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا »[2]

وروى ابن الأثير ، عن عم عمير بن سعيد قال خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى البقيع ، فقال من غشنا فليس منا (أسد الغابة)

النهى فى الحديث الثانى منصرف إلى مطلق الغش ، فى التجارة وغيرها وحديث أبى هريرة قيده بالغش فى التجارة ولكن الغش محرم مطلقا ، والعبرة فى حديث أبى هريرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، وهذه قاعدة أصولية .

لا يرضى الإسلام عن الغش فى أى وجه من وجوه الحياة ، وبصفة أخص فى السوق الإسلامية ، التى يجب أن يكون التعامل فيها مبنياً على الصدق والمصارحة .

فمن الآداب التى يجب أن يتحلى بها التجار فى أسواقهم عدم الغش ، وذلك بأن يبينوا للمشترى ما ظهر وما خفى من بضائعهم ، وعلى التاجر ألا يكتم منها شيئاً ، فإن أخفى أقل عيب منها كان غاشاً ، وكان تاركاً للنصح فى المعاملة .

والنصح واجب ، بل الدين هو النصيحة كما قال المصطفى ﷺ فى حديثه الشريف .

يقول الغزالى : مهما أظهر التاجر أحسن وجهى الثوب وأخفى الثانى كان غاشاً ، وكذلك إذا عرض الثياب فى المواضع المظلمة ، وكذلك إذا عرض أحسن فردى الخف .

---

(١) الحج الآية : ٤٠

(٢) أخرجه مسلم جـ١ ص٩٩ برقم ١٦٤/ ١٠٢ وأخرجه ابن ماجه برقم ٢٢٢٥ جـ١ ص٧٤٦

ويقول : ومما يدل على وجوب المناصحة بإظهار العيوب ماروى أن النبى ﷺ لما بايع جريراً على الاسلام . ذهب لينصرف فجذب ثوبه ، واشترط عليه النصح لكل مسلم ، فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها ، ثم خيره ، وقال : إن شئت فخذ ، وإن شئت فاترك ، فقيل له : إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع ، فقال : إنا بايعنا رسول الله ﷺ على النصح لكل مسلم .

لقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ أن من حق المسلم على المسلم أن يحب له ما يحبه لنفسه ، ويرضى له ما يرضاه لنفسه ، وهذا من علامات الإيمان ، فإن رضى لنفسه شيئا لا يرضاه لغيره ، فهو منافق ، وكذلك البائع إذا رضى لنفسه أن يكسب من أخيه كسباً زائداً ، عن طريق إخفاء عيب من عيوب سلعته ، فهو خائن للأمانة ، مناقض لصفة الإيمان التى بينها النبى ﷺ قال الغزالى : ولن يتيسر فعل ذلك على العبد ، إلا إذا كان يعتقد أمرين :

أحدهما : أن تلبية العيوب ، وترويج السلعة ، لا يزيد فى رزقه بل يمحقه ، ويذهب بركته ، وما يجعله من مفرقات التلبيسات ، يهلكه الله .

وفى لسان العرب من كسب مالاً من مهاوش ، أنفقه فى نهابر والمهاوش : مكاسب السوء ، والنهاوش : النهش من كل مكان ، والنهابر : الحرام . يقول : من اكتسب مالاً من غير حله ، أنفقه فى غير طريق الحق .

وحكى أبو حامد الغزالى قصة رجل ، كانت له بقرة يحلبها ، ويخلط بلبنها الماء ويبيعه فجاء سيل ، فأغرق البقرة ، فقال بعض أولاده : إن تلك المياه المتفرقة ، التى صببناها فى اللبن أجتمعت دفعة واحدة ، وأخذت البقرة .

وكما أن البائع مطالب بعدم الغش ، فإن المشترى - كذلك - مطالب بالصدق فى معاملته مع البائع ، فعليه ألا ينتهز غفلة البائع أو انشغاله وسهوه وخطأه ، والنبى ﷺ يقول فيما يرويه عنه حكيم بن حزام : « البيعان إذا صدقا ونصحا ، بورك لهما فى بيعهما ، وإذا كتما وكذبا ، نزعت بركة بيعهما »[1]

والأمر الثانى : وجوب العلم أن ربح الآخرة خير من ربح الدنيا ، مهما كثر وأزهر . قال تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾[2] ويقول : (ما عندكم ينفد وما عند الله باق)[3]

غش العلامات التجارية !

نتيجة لتقدم الصناعة وتطورها تميزت بعض المصانع والشركات بخصائص فى إنتاجها ، ووجدت إقبالاً من الناس ، وحرصاً على اقتناء ما تنتجه ؟ لجودته أو نقائه ، أو مناسبته ، أو غير ذلك من أسباب التفضيل .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه ٩٤/٣ كتاب البدع بال (هل يبيع حاضر لباد بغير أجر ، وهل يعينه أوينصحه)

(٢) الأعلى الآيتان : ١٦ ، ١٧

(٣) النحل الآية ٩٦

والمشترى ـ عادة ـ يبحث عن العلامة التجارية ، التى تميز هذا الإنتاج عن غيره ، فإذا لم يجدها أعرض . لذلك تلجأ الشركات المقلدة إلى وضع العلامة ، التى تدل على إنتاج تلك المصانع لتروج .

وهذا نوع من الغش ، لا شك فيه ، ويدخل فى حظيرة الممنوعات لأنه يبيع نوعاً غير جيد على أنه جيد ، ويكون شأنه كشأن من خلط اللبن بالماء ، أو خلط اللحم الميت بالمذبوح ، أو باع القديم على أنه جديد .

٤ ـ التطفيف

وهو نوع من الغش ، وقد توعد الله سبحانه وتعالى أصحابه بسوء المصير قال تعالى : **﴿ ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾**

جاء فى لسان العرب لابن منظور : التطفيف : البخس فى الكيل والميزان ونقص المكيال هو ألا تملأه إلى أحباره ـ أى نهايته ـ ومعناه فى الآية الكريمة التطفيف : نقص يخون به صاحبه فى كيل أو وزن ، وإنما سمى الفاعل منه مطففاً ، لأنه لا يكاد يسرق فى المكيال والميزان ، إلا الشىء الخفيف الطفيف .

وقد فسر القرآن الكريم المطففين : أنهم يوفون لأنفسهم ، ولا يوفون لغيرهم ، وفى ذلك من الأنانية والظلم ما فيه . وقال ابن كثير المراد بالتطفيف ـ هنا ـ البخس فى المكيال والميزان إما بالازدياد ، إن اقتضى من الناس ، أو بالنقصان ، إن قضاهم واستشهد القرطبى فى تفسيره على تحريم التطفيف ، بما رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ حيث قال خمس بخمس : ما نقض قوم العهد ، إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون ، وما طففوا الكيل ، إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ولا منعوا الزكاة ، إلا حبس الله عنهم المطر »[1] أخرجه البزار ومالك .

وحكى القرطبى ما رواه مالك بن دينار قال : دخلت على جار لى ، وقد نزل به الموت ، فجعل يقول : جبلين من نار ، فقلت : ما تقول ؟ أتهجر ؟ (أى أتهذى) قال : يا أبا يحيى ، كان لى مكيالان ، أكيل بأحدهما ، واكتال بالآخر ، قال : فقمت فجعلت أضرب أحدهما بالآخر ، حتى كسرتها ، فقال يا أبا يحيى ، كلما ضربت أحدهما بالآخر أزداد عظماً ، قال ! فمات من وجعه .

وهذا تعجيل بالعقوبة فى الدنيا قبل الآخرة ، ليعاين الناس صدق الوعيد فيتعظوا وكان ابن عمر رضى الله عنهما يمر بالبائع ، فيقول له : اتق الله وأوف الكيل بالقسط ؟ فإن المطففين يوم القيامة يوقفون حتى أن العرق ليلجمهم إلى انصاف آذانهم .

---

(١) أخرجه : الطبرانى ٤٤/١١ والهيثمى فى مجمع فى مجمع الزوائد ٦٥/٣ والمنذوى فى الترغيب والترهيب ٥٤٤/١

وكان الخلفاء الراشدون ، ومن سار على نهجهم من الحكام المصلحين ، يعتبرون هذه مسئوليتهم الخاصة ، فكانوا يمرون بالأسواق ينصحون الباعة ، ويحذرونهم من الغش والتطفيف . جاء فى الطبقات الكبرى لابن سعد أن علياً رضى الله عنه أمير المؤمنين كان يخرجُ إلى الأسواق ، ويأمرهم بتقوى الله وحسن البيع ، ويقول : أوفوا الكيل والوزن ، ويقول لا تنفخوا اللحم . ومن مبالغة علىٍّ فى الورع ، كان يشترى ممن لا يعرفه ، خشية المجاملة ، وكان النبى ﷺ يوصى ـ دائماً ـ بحسن المعاملة فى البيع والشراء ومن نصائحه الشريفة فى ذلك : « رحم الله امرءاً سمحاً إذا باع ، وإذا اقتضى »(١)

وقال صاحب كتاب أسد الغابة وروى سيمويه البلقاوى ، قال : رأيت النبى ﷺ وسمعت من فيه إلى أذنى ، وحملنا القمح من البلقاء إلى المدينة ، فبعنا ، وأردنا أن نشترى تمراً من تمر المدينة ، فمنعونا ، فأتينا النبى ﷺ فأخبرناه ، فقال للذين منعونا : « أما يكفيكم لأخص هذا الطعام بغلاء هذا التمر الذى يحملونه ؟! ذرهم يحملوه »(٢) .

وكان سيمويه هذا من أهل البلقاء نصرانيا شماساً ، فأسلم وحسن إسلامه ، وعاش مائة وعشرين عاماً .

فانظر إلى حسن المعاملة ، كيف هدت الشماس إلى الإسلام ، وفى القصة دلائل على الإيفاء ، يدعوا إليه هذا الأسلوب الاستفهامى الذى ينكر على أهل المدينة عدم المقابلة بالمثل !

قال الغزالى فى إحيائه : وللتطفيف صور أخرى ـ غير ما مر ـ فكل من خلط بالطعام تراباً ، أو غيره ، ثم كاله ، فهو من المطففين فى الكيل .

وكل قصاب وزن مع اللحم عظما أو دهنا ، لم تجر العادة بمثله ، فهو من المطففين فى الوزن .

ويقاس على هذا إضافة اللبن إلى الماء ، وهو تعبير مناسب لما يحدث فى هذه الأيام ، وكان المطففون ـ قديما ـ يضيفون الماء إلى اللبن ، هذا إلى جانب كونه غشاً ، ففيه تطفيف فى الكيل ، فقد جمع البائع بين نقيصتين .

ونفخ اللحم تطفيف ، لأنه يغرى المشترى بسمن الذبيحة ، وهى عجفاء وعدم تصفية اللحم من الماء جيداً ، عند وزنه للمشترى تطفيف ووضع الورق السميك مع اللحم وغيره من السلع تطفيف ، وفيه بيع الماء والورق بسعر اللحم .

والتقتير فى القياس عند بيع القماش تطفيف فى المقاس ، وكل ذلك يدخل فى دائرة المنهى عنه ، المتوعد عليه بسوء العاقبة .

٥ ـ التزييف :

ويلتحق ـ بذلك ـ التزييف ، وهو من الزيف ، يقال : زافت عليه دراهمه ، أى صارت مردودة

---

(١) أخرجه ابن ماجه برقم ٢٢٠٣ جـ٢ ص٧٤٢

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير ٧/ ٢٠١ وانظر الجوامع رقم ٤٢٩٩

لغش فيها والتزييف : نوع من الغش ، قد يقع من البائع ومن المشترى أما كونه من البائع ، فإنه يخفى عيوب سلعته ، ويروج لها ، ويبيعها على أنها جيدة وهى رديئة ، أو أنه يبيع سلعة على أنها من صنع معين ، وهي ليست من ذلك الصنع ، أو أنه يخفى سعر الوقت ، الذى يباع به من صنف من الأصناف ، ويظهر سعراً لا يباع به فى مثل ذلك الوقت ؟ أو أنه يقبل المناجشة ، وهى أن يتقدم رجل إلى البائع بين يدى الراغب فى الشراء ، ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها وإنما يريد تحريك رغبة المشترى فيها .

وفسر النصر بن شميل النجشى بأنه مدح سلعة الغير لبيعها ، أو ذمها لئلا تنفق عنده . وهو من قبيل التزييف وقد نهى النبى ﷺ بقوله : « ولا تناجشوا » . وأما كونه من المشترى ، فقد يجهل البائع السعر الحقيقى ، الذى يعرف المشترى قيمته ، فيخفيه عن البائع انتهازاً لغفلته ، فيشترى بسعر أقل من السعر الحقيقى وقد يكون بإعطاء البائع نقداً زائفاً وقد نهى الإسلام عن ترويج النقود الزائفة والزعم بأنها صحيحة .

وترويج النقد الزائف ظلم يعم ضرره بوقوعه فى يد الناس ، وتداوله بينهم ووزر ذلك واقع على من فتح بابه أولاً .

روى الغزالى فى احيائه عن بعض الصالحين : انفاق درهم زيف أشد من سرقة مائة درهم ؟ لأن السرقة معصية واحدة ، وقد تمت وانقطعت ، وإنفاق الزيف بدعة أظهرها فى الدين . وقد تعدى الزيف حدود المال ، إلى تزييف الأوراق الرسمية المختلفة ، وهناك عصابات خصصت وقتها ، ووقفت جهدها على ذلك ، وفى ذلك من الفساد ما فيه ، وما أعظم الضرر ، حين نضع الثقة فى عالم ، أو طبيب ، أو صيدلى ، ثم يتضح بعد فوات الأوان أن شهادته ، التى سوغت له عمله الذى يقوم به زائفة .

ولا عصمة من ذلك إلا الضمير الخلقى ، الذى يثيره الدين الصحيح والتمسك بعروته والاعتصام بحبله .

وانظر الى الضمير الخلقى ، حين يحيا فى نفس صاحبه ، كيف يفعل ؟! اقرأ هذه القصة :

« كان بعض التابعين بالبصرة ، وله غلام بالسوس ، يجهز إليه السكر ، فكتب إليه غلامه : إن قصب السكر قد أصابته آفة فى هذه السنة ، فاشتر السكر ، فاشترى سكرا كثيرا ، فلما جاء وقته ربح فيه ثلاثين ألفاً . فانصرف إلى منزله ، وفكر ليلته ، وقال : ربحت ثلاثين ألفاً ، وخسرت نصح رجل من المسلمين ، فلما أصبح غدا إلى بائع السكر ، فدفع إليه ثلاثين ألفاً ، وقال له : بارك الله لك فيها . فقال بائع السكر : ومن أين صارت لى ؟ فقال : إنى كتمتك حقيقة الحال ، وكان السكر قد غلا فى ذلك الوقت ، الذى اشتريت منك فيه ، فقال البائع : رحمك الله ، وقد أعلمتنى الآن ، وأنا قد طيبتها لك . فرجع الرجل إلى منزله ، وتفكر أيضاً وبات ساهرا ، وقال : ما نصحته ، فلعله استحيا منى ، فتركها لى ، فبكر إليه من الغد وقال : عافاك الله . خذ مالك اليك ، فهو أطيب لقلبى ، وأصر على ذلك . فأخذها .

٦ ـ الوساطة والسمسرة :

من الوساطة والسمسرة ما هو مقبول ومردود .

والسمسار : معناه الذى يبيع للناس ، هو الوسيط بين البائع والمشترى . وهو لفظ عربى .

جاء فى كتاب شرح ثلاثيات مسند أحمد تفسير لقول النبى ـ ﷺ ـ « لا يبع حاضر لباد » نذكر منه ما جاء عن السمسرة والوساطة .

قال : قد يقدم على البلد انسان من غير أهلها ، ليبيع سلعة بسعر يومها ، وهو جاهل بالسعر ، ويكون الناس إلى هذه السلعة فى حاجة ، فيقصده إنسان مقيم بالبلد ، عارف بالسعر ، ليبيع له ، أو يبصره بالسعر ، فالنهى منصرف إلى ذلك والبيع ، الذى يتم على ذلك ، باطل .

إلا أنه لابد أن تتوافر هذه الشروط :

أن يكون البادى قادماً للبيع ، وهو جاهل بالسعر .

أن يكون الحاضر متوجهاً إليه ، ليبيع له أو يبصره بالسعر .

أن يكون للناس حاجة إلى هذه السلعة .

فإن فقد شرط مما ذكر .

بأن قدم لا ليبيع سلعته ، أو ليبيعها ، ولكنه لا يجهل السعر . أو جهله ولكن الحاضر لم يقصده أو قصده وكان غير عارف بالسعر ، أو كان كذلك ، ولم يكن الناس فى حاجة إلى السلعة ، صح البيع ، كشراء الحاضر للبادى .

أما إذا وجدت الشروط ، فالبيع باطل على الأصح فى أغلب المذاهب .

نص عليه الإمام أحمد فى رواية اسماعيل بن سعيد .

وكذلك الإمام مالك على إحدى روايتين له ، أما الرواية الأخرى عنه : يفسخ العقد عقوبة ، وروى عنه لا يفسخ .

وهو مكروه عند أبى حنيفة والشافعى مع صحته .

ولا يخفى القول ببطلان البيع لظاهر الحديث .

والعلة فى هذا النهى أن البادى إذا ترك يبيع سلعته ، ربما باعها برخص ـ وهو الغالب ـ فتحصل التوسعة على الناس ، وبخاصة هم فى حاجة إلى السلعة بخلاف ما لو باعها الحاضر ، فإنه لا يبيع إلا بسعر البلد .

وقد أشار إلى ذلك النبى - صلى الله عليه وسلم - بقوله : « دعوا الناس يرزق بعضهم من بعض »[(١)] .

أى اتركوا الناس على حالهم ، فى بيعهم وشرائهم ، يرزق الله بعضهم من بعض ، بسبب التساهل من البعض ، وسماحة البعض .

وروى البخارى والنسائى عن أنس ، قال : « نهينا أن يبيع حاضر لباد ، وإن كان أخاه لأبيه وأمه »[(٢)] .

وروى أبو داود والنسائى ، أن النبى صلى الله عليه وسلم : « نهى أن يبيع حاضر لباد ، وإن كان أباه أو أخاه »[(٣)] .

فهذه الأحاديث وغيرها ، مع تنوع مخارجها ، وتباين طرقها مع اتحاد معناها ، تدل دلالة قاطعة على ما ذهب إليه الإمام أحمد ، لأن النهى ورد عن نفس البيع .

أما إذا أشار الحاضر على البادى ، ولم يباشر البيع ، لم يكره ، خلافاً لمالك .

ويتوجه إن استشاره ، وهو جاهل بالسعر ، لزمه بيانه لوجوب النصح كما فى حديث السائب الذى رواه الطبرانى بإسناد صحيح « دعوا الناس يصيب بعضهم من بعض ، فإذا استنصح أحدكم أخاه ، فلينصحه ، وفى الحديث « فلا تشعروا ولا تقلقوا الركبان ، ولا يبع حاضر لباد »[(٤)] .

المقصود بعبارة : مَلِقى الركبان ؟ هو أن يستقبل الرفقة ، ويتلقى المتاع ، ويكذب فى سعر البلد .

وهذه هى الوساطة المنهى عنها ، أما إذا كانت الوساطة من أجل تقريب وجهات النظر بين البائع والمشترى ، وتيسير مهمة التبايع بينهما ، دون غش لأحدهما أو ممالأة لأحدهما على الآخر ، فلا بأس بذلك ، فإنه من قبيل الدلالة على الخير .

وقد اتسعت وظيفة الدلال فى الوقت الحاضر ، وتعقدت مهمته ، وأصبحت للدلالة مكاتب خاصة معترف بها رسمياً ، تمارس كافة التسهيلات بين المتبايعين ، وهناك فى الأسواق ما يسمى بادارة البيع تختص بالمجهودات الشخصية ، أو غير الشخصية ، التى تبذل لحث العميل المرتقب على شراء

---

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٤/٨٣ وانظر صحيح مسلم البيوع رقم ٢٠ والترمذى رقم ١٢٢٣ والنسائى فى البيوع باب ١٧ ، وابن ماجه ٢١٧٦ ومسند أحمد ٣/٣٠٧ ، ٣٨٦ والبيهقى فى السنن الكبرى ٥/٣٤٦ ٣٤٧

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب البيوع) باب : هل يبيع حاضر لباد ؟ ٣/٩٤ باختصار

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب البيوع والإجارات) باب أنى النهى أن يبيع حاضر لباد ٣/٧٢٠ رقم ٣٤٤٠ وأخرجه النسائى فى البيوع ، باب (بيع الحاضر للبادى) بإسناد ثقات

(٤) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ٤/٢٥٩ وأخرجه الأسبانى فى الصحيحة رقم ١٨٥٥

سلعة ، أو تقديم خدمة له ، ومساعدته على الشراء ، أو على تقبل فكرة لها أهمية تسويقية عند البائع .

والإسلام لا يمنع إلا ما يتنافى مع الصدق فى المعاملة ، فالوسيط مقبول عمله إن راعى جانب الإخلاص ، ودل على الخير ، وهو مردود إن روج الفاسد وتستر على الزائف ، ودعا إلى الخبيث ، وغش أحد الطرفين .

أما أجرة الدلال ، فقد قال الغزالى عن قتادة : إنها مكروهة ، ولعل السبب فى الكراهة قلة استغناء الدلال عن الكذب ، والإفراط فى الثناء على السلعة لترويجها ، ولأن العمل فيه لا يتقدر ، فقد يقل ولا يكثر ، ولا ينظر فى مقدار الأجرة إلى عمله ، بل إلى قدرة قيمة البيع . . . هذه هى العادة ، وهو ظلم ، بل ينبغى أن ينظر إلى قدر التعب . (الاحياء ٥/٧٩٤) .

وعلى هذا فلو صدق الدلال ، واقتصد فى ثنائه ، ولو اتفق على أن يكون الأجر مناسباً للعمل ، فقد خرج الأجر عن دائرة الكراهة .

٧ ـ الدعاية والإعلان :

أصبحت التجارة فناً وعلماً ، يقوم على مدارسة السوق ، ومعرفة حاجة الجماهير ، وعاداتهم ، وتقاليدهم ، وطرق معيشتهم ، وما يرضى أذواقهم ، ويجذب اهتماماتهم .

ولذلك تطورت وسائل البيع وترويج السلع ، ونشأ ما يسمى بفن الاعلان والدعاية ، وأصبح ذلك من أهم أدوات التسويق ، التى تقوم على المنافسة .

وربما كان هناك فرق بين الدعاية والإعلان . فالإعلان هو إيذان وإعلام بالسعة ، أما الدعاية فهى الاغراق فى وصفها ، والترويج لها ، عن طريق التفنن فى إبراز محاسنها ، وربما ترتب على ذلك الغض من شأن غيرها ، أو التستر على العيوب الموجود فى السلعة المدعو لها .

وهى بهذه الصورة تدخل فى نطاق المحظور ، لأن الإسلام لا يرضى فى التجارة إلا المناصحة والمصارحة والصدق .

وكان الإعلان قديما يتم بطرق بدائية لا تتعدى الضرب بالطبول ، أو إطلاق المنادين . الذين يؤذنون فى الناس بقدوم التجارة ، وقد يلجأ البائع نفسه إلى الإعلان عن بضاعته بصوته ، كما يحدث من البائعين الجائلين .

أصبح النشاط الاعلانى يتناول وجوها متعددة ، وتبذل فيه جهود مختلفة ، تشمل دراسة السوق ، وتعميم الحملات الدعائية ، واختيار الوسائل الملائمة ، وتخصيص الأموال اللازمة لتغطية نفقات النشاط ، وقد تكثر هذه الأموال ، حتى إنها لتوازى رأس المال . وقد يدخل فى باب الإعلان والدعاية ما يقوم به التاجر من تنسيق دكانه وتجميله ، حتى يصبح آية من آيات الفن ، تسترعى الاهتمام وتجذب

الانتباه ، وعليه بعد ذلك أن يعمل للكسب ، فيقع العبء كله على عاتق المشترى الذى لا حول له ولا قوة .

والذى يهمنا ـ هنا ـ موقف الدين بالنسبة لهذا النشاط الإعلانى الكبير الذى يقع تحت كل سمع وبصر .

الدين يهمه أولا وأخيرا عدم التزييف ، وعدم الإسراف ، وعدم الإضرار بالغير .

وهو لا يقف فى طريق الإعلان ، ما كان الإعلان لا يتنافى مع الصدق والمصارحة والمناصحة ، أما إذا كان الهدف من ورائه التضليل ، فهو نوع من الغش يأباه .

والإعلان المقتصد ، الذى يعلن عن سلعة ـ فى هدوء ـ لا يقع عبئها على المستهلك مقبول ، أما الإسراف الذى يجر إلى تحميل السلعة زيادة فى السعر لتغطية النفقات ، وتحقيق الربح المطلوب ، فهو أمر مردود .

إن الإسلام لا ينفى أن الإعلان ـ الآن ـ ضرورة اقتصادية ، ولكنه ينفى أن تتخذ الصور العارية ، والعبارات النابية ، والملصقات الرخيصة المبتذلة وسيلة للاعلان .

لا بأس أن يكون الإعلان عن السلعة بطريقة عملية ، تلفت إليها الأنظار تلقائيا ، كان تكون « العبوة » من مادة تقى السلعة الفساد ، وأن يكون تصميمها جذابا فيه طرافة وابتكار ، وأن يحسن عرض السلع فى واجهة المحل ونوافذه ورفوفه ، بصورة منظمة أنيقة ، وأن تكون الصور التى تصاحب السلعة مناسبة لتقاليدنا العريقة ، وأخلاقنا الفاضلة ، ومجتمعنا الإسلامى .

فإن صاحب ذلك إعلان إذاعى أو مرئى فليكن فى حدود الكلمة المؤدبة ، والعبارة المهذبة ، والصورة الواضحة الجلية ، فى غير غلو أو إسراف أو إسفاف .

إلى هنا ـ فالإعلان ـ فى حد ذاته ـ أمر مباح تدعو إليه الرغبة فى الربح والزيادة فى الكسب .

أما المثل العليا ، فلها نظرة أخرى فى حساب أهل الورع ، والمتطلعين إلى جنة عرضها السموات والأرض ، وهو ربح لا يعدله مال الدنيا كلها من أولها إلى آخرها .

قال الغزالى فى إحيائه : أول ما يجب على المسلم التاجر ، إن أراد ألا يضر بأخيه المسلم أن يترك الثناء على السلعة .

وكان السلف الصالح يطبقون ذلك عمليا إلى درجة أنهم كانوا لا يشيرون بأى كلمة توحى بالثناء ، ولو كانت ذكراً لله .

يروى الأستاذ عبد الحليم الجندى فى كتابه عن أبى حنيفة ، قائلا : « كان لا يهتبل غفلة الزمان ،

بل إنه ليقطع أبعد الأشواط فى مضمار النصفة ، فلا إعلان ولا شبهة إعلان ، لما قد يكون الإعلان من إيهام . كان الناس فى ذلك العصر حديثى عهد بالنبوة ، تأسرهم الكلمة ، إذا سبقت ، ولو فى السوق ، فكيف بها إذا خرجت من فم الأستاذ ، أو من فم غيره على عينه أو سمعه أو فى ذكائه ، طلب رجل ثوب خز ، فقال لابنه حماد : يا حماد ، أخرج ثوبا فأخرج حماد ثوبا ونشره قائلا : صلى الله على محمد . قال أبوه : مه ، قد مدحته ، ورفض أن يبيعه . .

ويلتحق بالثناء الكاذب على السلعة ، الحلف .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : عائل مستكبر ، ومنان بعطيته ومنفق سلعته بيمينه »[1] .

ولقد كان عمر رضى الله عنه يدخل السوق ، فيقول : اللهم ، إنى أعوذ بك من الكفر والفسوق ، ومن شر ما أحاط به السوق . . اللهم ، إنى أعوذ بك من يمين فاجرة وصفقة خاسرة .

٨ ـ المساومة :

السوم عرضى السلعة على البيع ، يقال ساومته سِواما ومساومة مثل جادلته جدالاً ومجادلة .

ويقال : استام علىَّ وتساومنا ، وساومت واستمت بالسلعة وعليها ، أى : غالبت .

وذكر لسان العرب حديثا هو « نهى أن يسوم الرجل على سوم أخيه » وفسره بأنه : يتساوم المتبايعان فى السلعة ، ويتقارب الانعقاد فيجىء رجل آخر ، يريد أن يشترى تلك السلعة ، ويخرجها من يد المشترى الأول ، بزيادة على ما استقر الأمر عليه بين المتساومين ، ورضيا به قبل الانعقاد . فذلك ممنوع عند المقاربة لما فيه من الإفساد ، ومباح فى أول العرض .

وقد ورد هذا الحديث ، وهو النهى عن السوم ، بلفظ البيع فى حديث أبى بكر السابق ذكره . فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فيه : « لا يبع الرجل على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه »[2] .

والمساومة بمعنى المحادثة فى الثمن بين البائع والمشترى ، ليست ممنوعة ، فهى من طبائع

---

(١) أخرجه الإمام مسلم بوايتين عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ فى كتاب (الإيمان) باب : بيان غلظ تحريم إسبال الإزارة لمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف ١٠٣/١ .

الأول : برقم ١٠٧/١٧٢ بلفظ ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم (قال ابو معاوية : ولا ينظر إليهم) ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »

والثانية برقم ١٠٨/١٧٣ بلفظ : (ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : رجل على فضل ماء بالغلاء يمنعه من ابن السبيل ، ورجل بايع رجلا بسلعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه ، وهو على غير ذلك ، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدينا ، فإن أعطاه منها وفى ، وإن لم يعطه منها لم يف »

(١) أخرجه البيهقى فى السن الكبرى ٣٤٥/٥

النفوس ، ولكن البائع حين يلتزم بالكلمة الواحدة يريح ويستريح ، وذلك مجرب به فالمتاجر التى تلتزم بأسعارها ، يشعر روادها بالراحة النفسية ، فهم يتخلصون من الشعور بأنهم غلبوا فى الثمن ، أو خدعوا فى السلعة [١]

أما أن تأخذ المساومة طابع الشدة والمشاحة ، فليس ذلك من أخلاق الإسلام فى شىء بل الإسلام يقول : « رحم الله رجلا سمحا إذا باع ، وإذا اشترى ، وإذا اقتضى »[٢] .

وقد كان كثير من السلف الصالح لا يقبل المساومة ـ أصلا ـ راضيا بالقليل الذى يصيبه ، معتقدا أن فيه بركة ، ومن وصايا الإمام على (كرم الله وجهه) للتجار : معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ، ولا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره .

وقيل لعبد الرحمن بن عوف : ما سبب يسارك ؟ قال : ثلاث ، ما رددت ر بحا قط ، ولا طلب منى حيوان ، فأخرت بيعه ، ولا بعت بنسيئة .

آداب السـوق :

وللسوق آدابها ، التى يجب مراعاتها ، ويمكن الإشارة إليها فيما يأتى :

١ ـ لزوم التقوى ، فى الذهاب إلى السوق والإياب منها ، والجلوس فيها للمبايعة ، من حيث عدم الايذاء باليد ، أو اللسان ، أو العين .

يقاس كل هذا على حديث الجلوس فى الطرقات ، الذى رواه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى ﷺ « إياكم والجلوس بالطرقات ، قالوا : يا رسول الله ما لنا بد من مجالسنا نتحدث فيها ؟ قال : إذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقها قالوا : وما حقها ؟ قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر »[٣] .

وما يلزم البائع من ذلك ألا يعنف المشترى ، وألا يضيق الطريق على المارة ببضائعه ومعروضاته ـ كما نرى فى هذه الأيام من شغل الرصيف المعد للمارة ـ وألا يتطلع إلى المشتريات ، وينظر إليهن نظرات مريبة ، أو يطمع فى مغازلتهن .

٢ ـ حسن المعاملة ، فالدين المعاملة ، ويقتضى حسن المعاملة ، العدل وعدم الظلم والإحسان .

---

(١) أخرجه مسلم فى البيوع (الباب الرابع) رقم ٨ والحميدى فى مسنده برقم ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ويصف الراية للزيلعى ٢١/٤ ومجمع الزوائد ٨١/٤ وحلية الأولياء ١٥٨/٩

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٧٥/٣ وهو فى فتح البارى ٣٥٦/٤ والمشكاة برقم ٢٧٩

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه ٦٣/٨ ومسلم فى كتاب (السلام) وأبو داود فى الأدب ، وأحمد ٤٧/٣

والمقصود بالعدل أن يحرص التاجر على أخذ الحق ، وإعطاء الحق . أما الإحسان فهو الفضل والتسامح ، ويتأتى بإنظار المعسر ، وعدم التشديد فى المطالبة تصديقا لقوله تعالى : ﴿ **فإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة** ﴾[١] .

وأخرج مسلم عن أبى اليسر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أنظر معسرا ، أو ترك له ، حاسبه الله حسابا يسيرا »[٢] .

ويقتضى حسن المعاملة الوفاء بالوعد ، وعدم المطل .

ويقتضى الإحسان فى المعاملة بين البائع والمشترى ، احتمال الغبن المعتدل إن حدث من أحدهما للآخر ، ويدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم رحم الله امرأ سهل البيع ، سهل الشراء »[٣] فالغبن من البائع أن يربح فوق المعتاد ، ومن المشترى أن يعطى أقل من المعتاد .

والكمال ألا يغبن أحدهما الآخر ،ولكن إذا حدث شىء من ذلك فلا يقيم المغبون الدنيا ويقعدها ، بل عليه أن يحتسب ، وقد ورد عن العلماء وقولهم : الصدقة المخفية فى البيع والشراء .

فإن أبى رجع إلى صاحبه فى رفق ويسر ، ولن يضيع حق متى توفر حسن النية فى رده .

٣ - مراقبة الله : لا ينسى التاجر أن معاملته مع الله أولا وقبل كل شىء . ويجب أن يكون وهو فى السوق ، قلبه مع الله ، مراقبا له فى معاملاته مع الناس وهذا هو الذى يتحقق فيه قوله تعالى : ﴿ **رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار ، ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾[٤] .

ومثل هذا التاجر قد عقد نيته مع الله ، على أن يكون هدفه من سعيه فى تجارته الاستعفاف لا الاستكثار ، وأن قيامه بتجارته إنما هى خدمة للمجتمع الذى يعيش فيه ، معتقدا أن الحياة قائمة على التعاون والحياة مبنية على تبادل المنافع دون استغلال .

فالناس للناس ، من بدو وحاضرة . بعض لبعض ، وأن لم يشعروا خدم

٤ - حسن اختيار نوع التجارة : ومن أجل شعوره بأنه يخدم مجتمعه فعليه أن يختار فى تجارته ما هو ألزم للناس ، وألصق بحاجات الجماهير ، وكلما شرف التاجر ، وارتفعت همته ، أحسن اختيار ما يتاجر فيه .

---

(١) البقرة آية : ٢٨٠

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه ٢٣٠٢/٤ رقم ٣٠٠٦/٧٤ من طريق أبي اليسر ، بلفظ : « من أنظر معسر أو وضع عنه أظله الله فى ظله » وأما الحديث المذكور هنا فقد أورده فى إتحاف السادة المتقين ١٠٠/٥

(٣) أخرجه فى مجمع فى مجمع الزوائد ٧٤/٤ ، ١٨/٩ وقال الهيثمى : رواه أبويعلى ، وفيه راو لم يسم وبقية رجاله وثقوا .

(٤) النور الآيتان : ٣٧ ، ٣٨

٥ ـ المحافظة على الشعائر : وعلى التاجر ألا يشغله البيع عن الصلاة فإذا ما سمع النداء فعليه أن يغلق دكانه ، متوجها إلى المسجد هو والعاملون معه ، ليفرض على الرواد من المسلمين الاقتداء به ، والالتزام بالسلوك الإسلامى الصحيح .

بل لا يقف عند حد إقامة الصلاة ، بل عليه المداومة على ذكر الله سبحانه وتعالى ، فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « من دخل السوق فقال لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة »(١) .

وإلى جانب محافظة التاجر على الصلاة ومداومته الذكر ، فعليه أن يقوم بنوافل الإسلام المختلفة ، فضلا عن فرائضه ، فعليه الإكثار من الصدقة ، فإنها كفارة لما يحدث من أخطاء ، والصوم فإنه جنة ، والزكاة وهى مهمة بالنسبة للتاجر .

وزكاة عروض التجارة ، اعتنى ببيانها الفقهاء ، وفصلها العلماء ولها فى كتب الفقه قسم خاص يدل على أهميتها .

ويهمنا هنا الإشارة الى أن الواجب على التاجر فى تجارته ، متى استوفت النصاب والشروط ، ربع العشر ، فى قيمتها لا فى عينها ، ويضم عند التقويم بعضها إلى بعض ، ولو اختلفت أجناسها كما يضم الربح إلى رأس المال .

ونظام الزكاة الإسلامى ، أفضل نظام اقتصادى عرفه الناس ، لأنه لا يوجد فيه الظلم ، الذى يوجد فى النظم البديلة ، التى حلت محله .

٦ ـ اجتناب الشبهات : ولابد للتاجر المسلم من أن يجتنب الشبهات ويحذر منها ، ويغلق أبوابها فكثيرا ما يتعرض التجار لبضائع ، لا يعرفون مصدرها ، من أمثال الذبائح ، التى لا يعرف نوعها ، ولا طريقة ذبحها ، وغير ذلك من السلع المشابهة . فعلى التاجر أن يتحرى عن المصدر والطريقة ، فإن رابه شىء تركه ، فإنه مسئول أمام الله عن ترويج ذلك .

والمشترى لا شىء عليه ، فإنه أخذ من مكان معلوم ، وليس هو مكلفا أن يبحث عن أصل الأشياء ، لأنه وكل أمره الى من اشترى منه ، وهو عنده محل ثقة . فأصبح التاجر فى هذه الحالة راعيا ، وكل راع مسئول عن رعيته ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « اتقوا الشبهات ، فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات فقد وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه(٢) الحديث .

(١) أخرجه الترمذى برقم ٢٨ ، ٣٤ ، ٢٩ ، ٣٤ والحاكم المستدرك ٥٣٨/١ والدارمى ٢٩٣/٢ وإتحاف السادة المتقين ٥١١/٥ والترغيب والترهيب ٥٣١/٢ وأبونعيم فى الحلية ٣٥٥/٢

(٢) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه فى باب (المسافات) رقم ١٥٩٩/١٠٧ ، ١٠٨ والترمذى رقم ١٢٠٥ والبخارى ٣٠/٧ ومجمع الزوائد ٧٣/٤ ، ٧٤ وابن ماجه رقم ٣٩٨٤ والدارمى ٢٤٥/٢ والبيهقى فى السنن الكبرى ٢٦٤/٥ والخطيب فى تاريخ بغداد ٧٠/٩

ونحن ـ الآن فى زمن تعددت فيه منافذ التوريد ، وتشابكت فيه مصادر الأخذ والعطاء ، وفيها وجوه كثيرة تستدعى البحث والدراسة ، حتى لا يختلط الحلال بالحرام والعليب بالخبيث .

٧ ـ توثيق البيع : ومن الآداب الإسلامية التي يدعو إليها الإسلام توثيق البيع ، إما بالشهادة أو الكتابة . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يوثق ـ أحيانا ـ ما يبيعه أو يشتريه كتابة ، روى ابن الأثير عن رواته ، قال : حدثنا عبد المجيد بن وهب قال : قال لى المعداء بن خالد : ألا أقرئك كتابا كتبه لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قلت بلى . فأخرج لى كتابا : « هذا ما اشترى المعداء بن خالد بن هوذة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أو أمة ، لا داء ولا غائلة ولا خبثة ، بيع المسلم المسلم .

ويحل محل التوثيق بالكتابة الشهادة أو المماسحة .

والمماسحة : هى التصافق باليدين ، يقال متماسح القوم إذا تبايعوا ، فتصافقوا بأن ضرب كل منهم بيده على يد الآخر .

إن هذا التوثيق ـ ومن صورة الفاتورة الآن ـ يفيد كثيرا ، ويمنع المشاحة والجحود فيما بعد .

وفى الأمر بتوثيق البيع بالشهادة ، أو الكتابة ، جاء قوله تعالى : ﴿ **وأشهدوا إذا تبايعتم ، ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ، واتقوا الله** ﴾[1] ا . هـ وصلى اللهم على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . ا .هـ .

أصحاب الجحيم

قوله تعالى : ﴿ **كلا . إن كتاب الفجار لفى سجين ، وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ، ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين وما يكذب به إلا كل معتد أثيم إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذى كنتم به تكذبون** ﴾ .

﴿ **كلا** ﴾ أى ازدجروا عما أنتم عليه من التطفيف والغفلة عن الحساب . ثم علل هذا بقوله :

﴿ **إن كتاب الفجار لفى سجين** ﴾ أى كفوا عما أنتم عليه ، فإن الفجار سيحاسبون على

---

(١) البقرة آية : ٢٨٢

أعمالهم ، وقد أعد الله لهم كتابا أحصى فيه أعمالهم وهذا الكتاب فى أسفل سافلين .

وقوله تعالى : ﴿ **وما أدراك ما سجين** ﴾ استفهام للتعظيم والتهويل أى هل تعلم ما هو سجين ؟ (كتاب مرقوم) أى هو كتاب مكتوب كالرقم فى الثوب ، لا ينسى ولا يمحى ، أثبتت فيه أعمالهم الشريرة . قال ابن كثير (سجين) مأخوذ من السجن وهو الضيق ، ولما كان معيد الفجار إلى جهنم وهى أسفل سافلين ، وهى تجمع الضيق والسفول ، أخبر تعالى أنه كتاب مرقوم أى مكتوب مفروغ منه ،، لا يزاد فيه أحد ولا ينقص منه أحد .

قوله تعالى : ﴿ **ويل يومئذ للمكذبين** ﴾ أى هلاك ودمار للمكذبين .

﴿ **الذين يكذبون بيوم الدين** ﴾ أى يكذبون بيوم الحساب والجزاء ﴿ **وما يكذب به إلا كل معتد أثيم** ﴾ أى وما يكذب بيوم الحساب والجزاء إلا كل ماتجاوز الحد فى الكفر والضلال ، مبالغ فى العصيان والطغيان كثير الآثام . ثم وضح من إجرامه فقال تعالى : ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين** ﴾ أى إذا تليت عليه آيات القرآن الناطقة بحصول البعث والجزاء ، قال عنها : هذه حكايات وخرافات الأوائل ، سطروها وزخرفوها فى كتبهم .

قوله تعالى : ﴿ **كلا . بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ أى ليرتدع هذا الفاجر عن ذلك القول الباطل ، فليس القرآن أساطير الأولين ،بل غطى على قلوبهم ما كسبوا من الذنوب فطمس بصائرهم فصاروا لا يعرفون الرشد من الغى . قال المفسرون : الران هو الذنب على الذنب حتى يسود القلب .

قال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب . قال ابن القيم وأصل هذا إن القلب يصدأ عند المعصية ، فإذا زادت غلب عليه الصدأ حتى يعيد راناً ، ثم يغلب حتى يصير طبقاً وقفلاً وختماً . فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ، ويسوقه حيث أراد والمعافى من عافاه الله .

(وفى سنن الترمذى والنسائى من حديث أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا أخطأ . . .) .

وفى سنن ابن ماجه والترمذى من حديث أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن العبد إذا أخطأ خطيئة تكتب نكتة سوداء ، فإن نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه . وهو الران الذى ذكره الله تعالى بقوله ﴿ **كلا ، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾ .

قال الترمذى : هذا حديث صحيح فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التى اكتسبوها أوجبت لهم ريناً على قلوبهم ، فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم . فهو خلق السبب ومسببه ، لكن السبب باختيار العبد ، والمسبب خارج عن قدرته واختياره اهـ

وقوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ أى : لهم يوم القيامة منزل ونزل سجين ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم .

قال الإمام الشافعى - رحمه الله - هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذ قال ابن كثير : وهذا الذى قاله الشافعى فى غاية الحسن وهو استدلال بمفهوم الآية كما دل عليه منطوق الآية الكريمة : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾(١) وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة فى رؤية المؤمنين ربهم - عز وجل - فى الدار الآخرة رؤية الأبصار فى عرصات القيامة وفى روضات الجنان الفاخرة .

وقد قال ابن جرير بهذه عن الحسن فى قوله تعالى : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ قال يكشف فينظر إليه المؤمنون كل يوم غدوة وعشية أو كلاماً هذا معناه ؟

وقوله تعالى : ﴿ ثم إنهم لصالوا الجحيم ﴾ أى : ثم هم مع هذا الحرمان العظيم عن رؤية الرحمن من أهل النيران . ﴿ ثم يقال هم هذا الذى كنتم به تكذبون ﴾ أى : يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير :

قال تعالى :

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾
يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾
تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ
مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ
بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا
مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا
رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ
ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

---

(١) سورة القيامة ٢٢ - ٢٣

معانى المفردات

عليين : أى فى مكان عال
الأرائك : هى الأسرّة فى الحجال (والحجال واحدها حجلة وهى مثل القبة)
نضرة النعيم : بهجته ورونقه
رحيق : أى : شراب خالص لا غش فيه
مختوم : أى ختمت أوانيه وسدت
ختامه مسك : أى : ما يختم به رأس قارورته هو المسك مكان الطين
فليتنافس المتنافسون : المراد فليستبق المتسابقون وليجاهدوا النفوس ليلحقوا بالعاملين .
مزاجه : المزج خلط أحد الشيئين بالآخر
والتسنيم : عين من ماء تجرى من أعلى إلى أسفل وهو أشرف شراب فى الجنة ، ويكون صرّفاً للمقربين ، ممزوجا لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنة والمقربون : هم الأبرار الذين سلف ذكرهم .
الغمز : الإشارة بالجفن والحاجب استهزاء وسخرية
فكهين : أى : معجبين بما هم فيه من الشرك والضلالة والعصيان
حافظين : أى : رقباء يتفقدونهم ويهيمنون على أعمالهم
والتثويب والإثابة : المجازاة يقال : ثوبة وأثابة إذا جازاه .

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه حال الفجار وحال المطففين أتبعه ذكر حال الأبرار الذين آمنوا وعملوا الصالحات : فذكر أن الله أحصى أعمالهم فى كتاب مرقوم اسمه عليون يشهده المقربون من الملائكة . وبعدئذ عدد ما ينالون من الجزاء على البر والإحسان وفى ذلك ترغيب فى الطاعة ، وحفز لعزائم المحسنين ، ثم بين سبحانه ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين فى الحياة الدنيا ، وما يتقابل به المؤمنون الكفار يوم القيامة كفاء ما صنعوا معهم فى الحياة الأولى ليشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

التفسير

قوله تعالى ﴿ كلا إن الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون ﴾

يقول تعالى : حقاً إن كتاب الأبرار لفى عليين ، أى : مصيرهم إلى عليين وهو بخلاف الفجار فكتابهم ومصيرهم إلى سجين .

قال الأعمش : عن شمر بن عطية عن هلال بن يساف قال : سأل ابن عباس كعباً وأنا حاضر عن سجين قال : هى الأرض السابعة وفيها أرواح الكفار وسأله عن عليين فقال هى السماء السابعة وفيها أرواح المؤمنين وقال العوضى : عن ابن عباس فى رواية أخرى أن أعمالهم فى السماء عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ وكذا قال الضحاك . وقال قتادة : (عليون) ساق العرش اليمنى ، وقال غيره : (عليون) عند

سدرة المنتهى قال ابن كثير : والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو وكلما علا الشىء وارتفع عظم واتسع ولهذا قال تعالى معظما أمره ومفخماً شأنه : (وما أدراك ما عليون) ثم قال تعالى مؤكدا لما كتب لهم : (كتاب مرقوم يشهده المقربون) فأخبر تعالى أن كتابهم كتاب مرقوم ، تحقيقا لكونه مكتوباً كتابة حقيقية وخص تعالى كتاب الأبرار أنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين سادات المؤمنين ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار ، تنويها بكتاب الأبرار وما وقع لهم به ، وإشهاراً له وإظهاراً لمكانتهم بين خواص خلقه .

قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف فى وجوههم نضرة النعيم** ﴾

أى : إن المطيعين لله فى الجنان الواردة ، والظلال الممتدة يتنعمون ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ أى : هم على السرر المزينة بفاخر الثياب والستور ينظرون إلى ما أعد الله لهم من أنواع الكرام والنعيم فى الجنة .

قال ابن كثير : وقيل معناه : ﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ إلى الله ـ عز وجل ـ وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلى الله ـ عز وجل ـ وهم على سررهم وفرشهم كما تقدم فى حديث ابن عمر « إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن ينظر فى ملكه مسيرة ألفى سنة يرى أقصاه كما ترى أدناه ينظرون فى أزواجه وخدمه وإن أفضلهم منزلة لمن ينظر فى وجه الله ـ عز وجل ـ فى اليوم مرتين .

وقوله تعالى : ﴿ **تعرف فى وجوههم نضرة النعيم** ﴾ أى : تعرف إذا نظرت إليهم فى وجوههم نضرة النعيم ، أى : صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة ما هم فيه من النعيم العظيم .

قوله تعالى : ﴿ **يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ .

أى : يسقون من خمر فى الجنة ، بيضاء طيبة صافية ، لم تكدرها الأيدى ، قد ختم على تلك الأوانى فلا يفك ختمها إلا الأبرار والرحيق من أسماء الخمر قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد والحسن قال أحمد بسنده : عن أبى سعيد الخدرى ـ قال ـ أراه قد رفعه إلى النبى ﷺ قال : « أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله ـ تعالى ـ من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة » ؟

وقوله تعالى ﴿ **ختامه مسك** ﴾ قال ابن مسعود أى خلطة مسك وقال مجاهد (ختامه مسك) أى طيبة مسك . والمعنى : إن آخر الشراب تفوح منه رائحة المسك .

قوله تعالى : ﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ أى : وفى هذا النعيم والشراب الهنىء ، فليرغب بالمبادرة إلى طاعة الله ، وليتسابق المتسابقون قال الطبرى : التنافس مأخوذ من الشىء النفيس الذى يحرص عليه الناس ، وتشتهيه وتطلبه نفوسهم والمعنى : فليستبقوا فى طلب هذا النعيم ، لوتحرص عليه نفوسهم .

عن جابر ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رجل للنبى ـ ﷺ ـ يوم أحد أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال « فى الجنة » فألقى تمرات كنَّ فى يده ثم قاتل حتى قتل « متفق عليه

قوله تعالى : ﴿ ومزاجه من تسنيم ، عيناً يشرب بها المقربون ﴾ أى : عين فى الجنة يشرب منها المقربون فوق درجة الأبرار .

قوله تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ .

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا فى الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين أى : يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم ، أى : محتقرين لهم :

وقوله تعالى : ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ أى وإذا رأى الكفار المؤمنين قالوا : إن هؤلاء لضالون لإيمانهم بمحمد ، وتركهم شهوات الحياة الدنيا . قال الله تعالى رداً عليهم : ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أى : وما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين ، يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم ، وفيه تهكم وسخرية بالكفار كأنه يقول : أنا ما أرسلتهم رقباء ، ولا وكلتهم يحفظ أعمال عبادى المؤمنين ، حتى يرشدوهم إلى مصالحهم ، فلم يشغلون أنفسهم فيما لا يعنيهم ؟ (قاله صاحب صفوة التفاسير الشيخ الصابونى) .

قوله تعالى : ﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون ، هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾

أى : ففى هذا اليوم ـ يوم القيامة ـ يضحك المؤمنون من الكفار ، كما ضحك الكفار منهم فى الدنيا جزاء وفاقاً : ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أى : والمؤمنون على أسرة الدر والياقوت ، ينظرون إلى الكفار ويضحكون عليهم وقيل : ينظرون إلى ربهم فى دار كرامته سبحانه وتعالى .

وقوله تعالى : ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ أى : هل جوزى الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟ يعنى قد جوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله .

ونحو الآيات الكريمة قوله تعالى فى سورة المؤمنون : ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبادى يقولون ، ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ، قال كم لبثتم فى الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق ، لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ، وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾[1]

(١) سورة المؤمنون الآيات : ١٠٦ ـ ١١٨

تفسير سورة
الانشقاق

مقدمة عن السورة :

قال صاحب بصائر ذوى التمييز :

السورة مكية

عدد آياتها : خمس وعشرون آية :

وكلماتها : أربعمائة وثلاث وثلاثون .

فواصل آياتها : (قهرتمان) على الراء (يحور) وعلى الميم (أليم) وتسمى سورة (أنشقت) ، وسورة (الانشقاق) لافتتاحها .

مقصود السورة :

بيان حال الأرض والسماء فى طاعة الخالق تعالى ، وإخراج الأموات للبعث ، والاشتغال بالبر والإحسان ، وبيان سهولة الحساب للمطيعين ، والإخبار عن فرحهم وسرورهم بنعيم الجنان وبكاء العاصين والكافرين ، وويلهم بالثبور فى دركات النيرات ، والقسم بتشقق القمر ، واطلاع الحق على الإسرار والإعلان ، وجزاء المطيعين من غير امتنان ، فى قوله : ﴿ **لهم أجر غير ممنون** ﴾

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **وأذنت لربها وحقت** ﴾ مرتين ؟ لأن الأول يتصل بالسماء وحق لها أن تسمع وتطيع ، وإذا اتصل واحد بغير ما اتصل به الآخر لا يكون تكرارا .

قوله تعالى : ﴿ **بل الذين كفروا يكذبون** ﴾ وفى سورة البروج ﴿ **فى تكذيب** ﴾ راعى فواصل اتى ، مع صحة اللفظ وجودة المعنى .

مناسبة السورة لما قبلها : .

أنه فى السورة السابقة ذكر مقر كتب الحفظة ، وفى هذه ذكر عرضها يوم القيامة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾
وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ

كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ
يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ
كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ
فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

معانى المفردات

(انشقت) أى : تشققت بالغمام كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ﴾

﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أى : استمعت له ، وحق لها أن تتمثل ذلك .

﴿ مدت ﴾ أى : بسطت بزوال جبالها ونسفها حتى صارت قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا .

﴿ وألقت ما فيها ﴾ أى : القت ما فى جوفها من الموتى والكنوز

﴿ وتخلت ﴾ أى : خلت مما فيها فلم يبق فيها شىء . (كادح) جاهد مجدّ

﴿ فملاقيه ﴾ أى : فملاق له عقب ذلك

﴿ ينقلب ﴾ يرجع ، ﴿ أهله ﴾ أى : عشيرته المؤمنين

﴿ وراء ظهره ﴾ أى : يؤتاه بشماله من وراء ظهره

﴿ والثبور ﴾ الهلاك أى : ينادى ويقول : واثبوراه

﴿ يصلى ﴾ أى : يقاسى

﴿ سعيرا ﴾ أى : ناراً مستعرة

﴿ مسروراً ﴾ أى : فرحاً

﴿ يحور ﴾ أى : يرجع

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت ، وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت ﴾

هذه الآيات بيان لأهوال القيامة ، وتصوير لما يحدث بين يدى الساعة من كوارث وأهوال .

يقول تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ أى : إذا تشققت السماء وتصدعت مؤذنة بخراب الكون .
قال الآلوسى : تنشق لهول يوم القيامة : ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أى : واستمعت لأمر الله وانقادت لحكمه وحق لها أن تسمع وتطيع أمره لأنه العظيم الذى لا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شىء وذل له كل

شيء وقوله تعالى : ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أي : وإذا الأرض زادت سعة بإزالة جبالها وآكامها ، وصارت مستوية لا بناء فيها ولا وهاد ولا جبال ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ أي : أخرجت أمواتها وتخلت عنهم ، وألقت ما فى بطنها من الكنوز والمعادن كما تلقى الحامل ما فى بطنها من الحمل وذلك يؤذن بعظم الهول ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ وكقوله تعالى : ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ أي : واستمعت لأمر ربها وأطاعت وحق لها أن تسمع وتطيع . . وجواب (إذا) محذوف ليكون أبلغ فى التهويل أى : إذا حذف كل ما تقدم ، لقى الإنسان من الشدائد والأهوال ما لا يحيط به الخيال

ثم أخبر سبحانه عن كد الإنسان وتعبه فى هذا الحياة ، وأنه يلقى جزاءه عند الله ـ سبحانه ـ فقال :

﴿ ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ أى : ياابن آدم إنك ساع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر . كما قال تعالى : ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ﴾ .

وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ إن كدحك يا ابن آدم لضعيف فمن استطاع أن يكون كدحه فى طاعة الله فليفعل ولا قوة إلا بالله .

أخرج أبو داود الطيالسى بسنده عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ـ « قال جبريل : يامحمد عش ما شئت فإنك ميت وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه[1]

والناس حينئذ صنفان ! سعيد وشقى قال تعالى : ﴿ فأما من أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيرا وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾

أى : فأما من عرض عليه سجل أعماله وتناوله بيمينه ، فإنه يحاسب أيسر الحساب ، إذ تعرض عليه أعماله فيعرف بطاعته وبمعاصيه ثم يثاب على ما كان منها طاعة ، ويتجاوز له عما كان منها معصية ومن حوسب هذا الحساب اليسيررجع إلى أهله المؤمنين مسروراً مبتهجاً قائلاً : ﴿ هاؤم اقرؤوا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه فهو فى عيشة راضية فى جنة عالية ، قطوفها دانية كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم فى الأيام الخالية ﴾ .

قال الإمام أحمد بسند : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول فى بعض صلاته : « اللهم حاسبنى حساباً يسيراً » فلما انصرف قلت : يارسول الله ما الحساب اليسير ؟ قال : أن ينظر فى كتابه فيتجاوز له عنه ، إنه من نوقش الحساب ياعائشة يومئذ هلك[2] » قال ابن كثير والحديث صحيح على شرط مسلم وقال أحمد أيضا : عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ

(١) مسند أبو داود الطيالسى ٢٤٢/٧ رقم ١٧٥٥
(٢) مسند أحمد ٤٨/٦

قالت : قال رسول الله ﷺ - « من نوقش الحساب عذب » قالت : فقلت : أليس قال الله تعالى : ﴿ فسوف يحاسب حسابا يسيراً ﴾ قال : ليس ذاك بالحساب ولكن ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب وهكذا رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن جرير من حديث أيوب السختيانى به(١)

قوله تعالى ﴿ وأما من أوتى كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبورا ويصلى سعيرا ﴾

أى : وأما الذين أكثروا من ارتكاب الجرائم ، واجتراح المعاصى ، فيؤتون كتبهم بشمائلهم من وراء ظهورهم ، وهذه علامة الشقاوة ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أى : يصيح بالويل والثبور ، ويتمنى الهلاك والموت قال تعالى : ﴿ وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ياليتها كانت القاضية ، ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه ، خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ﴾(٢) وهنا قال تعالى : ﴿ ويصلى سعيرا ﴾ أى : ويدخل ناراً مستعرة يقاسى عذابها وحرها .

وقوله تعالى : ﴿ إنه كان فى أهله مسرورا ﴾ أى : لأنه كان فى الدنيا مسروراً مع أهله ، غافلاً لاهياً ، لا يفكر فى العواقب ، ولا تخطر بباله الآخرة .

قال ابن زيد : وصف الله أهل الجنة بالمخافة والحزن والبكاء فى الدنيا ، فأعقبهم به النعيم والسرور فى الآخرة ، وهذا فى قوله تعالى : ﴿ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾(٣)

وقوله تعالى : ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أى : إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه ولن يحييه الله بعد موته ، ويجازيه على أعماله كلها خيرها وشرها قال تعالى : ﴿ بلى إنه كان به بصيرا ﴾ أى : بلى ليحورون وليرجعن إلى ربه ، وليحاسبنه على عمله ، فيجزى على الخير خيراً ، وعلى الشر شراً فإنه تعالى مطلع على عباده ، لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

قسم عظيم

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا
عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾
بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٨٢٧ وسنه الترمذى ٥/ ٤٣٥ رقم ٣٣٣٧ وسند أحمد ٦/ ٤٧ وتفسير الطبرى ٣٠/ ٧٤
(٢) سورة الحاقة الآيات من ٢٥ إلى ٣٢
(٣) سورة الطور الآيات ٢٥ - ٢٨

معانى المفردات

﴿ الشفق ﴾ هو الحمرة التى تشاهد فى الأفق الغربى بعد الغروب
﴿ وسق ﴾ أى : ضم وحوى وجمع
﴿ اتسق ﴾ أى : اجتمع نوره وصار بدراً
﴿ لتركبن ﴾ أى : لتلاقن ، والطبق ! الحال المطابقة لغيرها
والمراد لتركبن أحوالاً بعد أحوال هى طبقات فى الشدة بعضها أرفع من بعض وهى الموت وما بعده .
﴿ لا يسجدون ﴾ أى : لا يخضعون ويسجدون لعظمة القرآن
﴿ يوعون ﴾ أى : يجمعون فى صدورهم من الأعراض والجحود والحسد والبغى
﴿ ممنون ﴾ أى : مقطوع من قولهم منَّ فلان الحبل إذ قطعة

المناسبة وإجمالى المعنى

بعد أن ذكر سبحانه أن الانسان راجع إلى ربه فملاقيه ومحاسبه إما حسابا يسيرا أو حسابا عسيرا ، أقسم سبحانه بآيات له فى الكائنات ، ظاهرات باهرات ، أن البعث كائن لامحالة له ، وأن الناس يلقون من الأهوال حتى يفرغوا من حسابهم ، فيصير كل أحد إلى ماأعد له من جنة أو نار .

التفسير

قوله تعالى ﴿ فلا أقسم بالشفق والليل وماوسق والقمر إذا اتسق ﴾ ﴿ فلا أقسم ﴾ تقدم أن قلنا : أن العرب اعتادت أن تأتى بمثل هذا القسم حين يكون المقسم عليه أمرا ظاهرا لايحتاج إلى التوكيد ، ويرى بعض العلماء أنه إنما يستعمل حين يكون الحلف على أمر جليل القدر ، عظيم الشأن لايكفى القسم لاثباته .

وفى هذه الآيات الكريمةأقسم سبحانه بثلاثة أشياء متعلقة بالليل (أحدها) الشفق ، وهو فى اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة ، وكذلك هو فى الشرع قال ابن عمر رضى الله عنهما - الشفق الحمرة وكذلك قال الكلبى وقائل : الشفق الحمرة التى تكون بعد المغرب .
(الثانى) قسمه بالليل وماوسق ، أى وماضم وحوى وجمع والليل وماضمه وحواه آية أخرى ، والقمر آية ، واتساقه آية أخرى . والشفق يتضمن إدبار النهار وهو آية واقبال الليل وهو آية أخرى . فان هذا إذا أدبر خلفه الآخر ، يتعاقبان لمصالح الخلق فإدبار النهار آية وإقبال الليل آية ، وتعقب أحدهما الآخر آية والشفق الذى هو متضمن الأمرين آية والليل آية وماحواه آية والهلال آية وتزايده كل ليلة آية ، واتساقه وهو إمتلاؤه نورا - آية - ثم أخذه فى النقص آية .
وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته سبحانه وتعالى مستلزمة للعلم بصفات كماله ولهذا شرع عند إقبال الليل وإدبار النهار - ذكر الرب - تعالى - بصلاة المغرب . . وفى الحديث اللهم هذا إقبال النهار ذكر

الرب ـ تعالى ـ بصلاة المغرب . وفى الحديث « اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك ، وأصوات دعائك فاغفر لى »[١] (رواه أبوداود) كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار . . ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله تعالى : (والليل إذا أدبر والصبح إذا أسفر)[٢] وهو يقابل إقسامه بالشفق ونظيره إقسامه بـ (والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس)[٣] .

وقال ابن القيم : ولما كان الرب ـ تبارك وتعالى ـ يحدث عن كل واحد من طرفى إقبال الليل والنهار وإدبارهما مايحدثه ، ويثبت من خلقه ماشاء ينتشر الأرواح الشيطانية عند اقبال الليل وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار ، فيحدث هذا الإنتشار فى العالم أثره ـ شرع سبحانه فى هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين ، مع مافى ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين ، وعند انصرام أحداهما واتصال الأخرى بها ، مع مابينهما من التضاد والاختلاف ، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال ، ومن حكم إلى حكم ، وذلك مبدأ ومعاد يومى ، شهود للخليقة كل يوم وليلة فالحيوان والنبات فى مبدأ ومعاد وزمان العالم فى مبدأ ومعاد . قال تعالى : (أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده ؟ إن ذلك على الله يسير)[٤] .

قوله تعالى : (لتركبن طبقا عن طبق) هذا جواب القسم أى : لتلاقن يامعشر الناس أهوالا وشدائد فى الآخرة عصيبة .

قال الألوسى : يعنى لتركبن أحوالا بعد أحوال وهى طبقات فى الشدة وبعضها أرفع من بعض ، وهى الموت ومابعده من مواطن القيامة وأهوالها قال ابن القيم : رحمه الله ـ وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا .

وقال ابن عباس : رضى الله عنهما ـ لتصبرن الأمور حالا بعد حال . وقيل : لتركبن أيها الإنسان حالا بعد حال من النطفة إلى العلقة إلى المضغة ، إلى كونه حيا ، وإلى خروجه إلى هذه الدار ، يتم ركوبه طبق التمييز بين ماينفعه ويضره ، ثم ركوبه بعد ذلك طبقا آخر ، وهو طبق البلوغ ثم ركوبه طبق الأشد ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق مابعد الموت فى البرزخ وركوبه فى أثناء هذه الأحوال أطباقا عديدة ، لايزال ينتقل فيها حالا بعد حال إلى دار القرار . . فذلك آخر أطباقه التى يعلمها العباد ، ثم بفعل الله ـ سبحانه ـ بعد ذلك ـ مايشاء .

قال ابن القيم : وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية وتغيير الله سبحانه وتعالى للعالم ، وتصريفه له كيف أراد ونقله إياه من حال إلى حال وهذا محال أن

---

(١) سنن أبى داود ١/٣٦٢ رقم ٥٣٠
(٢) سورة المدثر الآيتان : ٣٣ ، ٣٤
(٣) سورة التكوير الآيتان : ١٧ ، ١٨
(٤) سورة العنكبوت الآية : ١٩

يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له ومحال أن يكون فاعله غير قادر ، ولاحى ، ولا مريد ، ولاحكيم ولاعليم .. وكلاهما فى الامتناع سواء .

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته ، وتوحيده ، وصفات كماله ، وصدقه ، وصدق رسله وعلى المعاد ولهذا عقب بقوله : (فما لهم لايؤمنون) إنكارا على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام ، وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك ، بأفصح عبارة وأبينها وأجزاها وأوجزها . فالمعنى أشرف معنى ، والعبارة أشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة ، والعبارة أشرف عبارة غاية الحق بغاية البيان والفصاحة :

فقوله تعالى : (فما لهم لايؤمنون) استفهام يقصد به التوبيخ أى فما لهؤلاء المشركين لايؤمنون بالله ، ولايصدقون بالبعث بعد الموت ، بعد وضوح الدلائل وقيام البراهين على قوله ؟

وقوله تعالى : ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون) أى واذا سمعوا آيات القرآن ، لم يخضعوا ولم يسجدوا للرحمن ؟

قال البخارى : بسنده عن أبى رافع قال : صليت مع أبى هريرة العتمة فقرأ (إذا السماء انشقت) فسجد فقال ماهذه السجدة فقال : سجدت بها خلف أبى القاسم صلى الله عليه وسلم - فلاأزال أسجد بها حتى القاه وأخرجه أيضا الإمام مالك ومسلم وأبوداود والنسائى فى كتبهم[١] .

وقوله تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أى : من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق(والله أعلم بما يوعون) قال مجاهد وقتادة : المعنى : والله أعلم بما يكتمون فى صدورهم .

قال ابن القيم فى قوله تعالى : (والله أعلم بما يوعون) أى بما يضمرون فى صدورهم ويكتمونه ومايسرونه من أعمالهم ومايجمعونه فيجازيهم عليه بعلمه وعدله .

وقوله تعالى : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ هذا استثناء منقطع فالمعنى ولكن الذين آمنوا أى : بقلوبهم وعملوا الصالحات أى بجوارحهم لهم أجر غير مقطوع ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ إلا عباد الله المخلصين ، أولئك لهم رزق معلوم ، فواكه وهم مكرمون ، فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين ، يطاف عليهم بكأس من معين ، بيضاء لذة للشاربين ، لافيها غول ولاهم عنها ينزفون ، وعندهم قاصرات الطرف عين ، كأنهن بيض مكنون ﴾[٢] .

---

(١) صحيح البخارى - كتاب مواقيت الصلاة ١/١٨٤ ومسلم ١/٤٠٧ رقم ١١٠ وموطأ مالك ١/٢٠٥ نرقم ١٢ وسنن أبى داود ٢/١٢٣ رقم ١٤٠٨ وسنن النسائى ٢/١٦٢

(٢) سورة الصافات الآيات : من ٤٠ إلى ٤٩

تفسير سورة البروج

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : اثنتان وعشرون

وكلماتها : مائة وتسع .

وحروفها : أربعمائة وثمان وخمسون .

سمت سورة البروج ، لذكرها فى أولها .

معظم مقصود السورة .

القسم على أصحاب الأخدود ، وكمال ملكه الملك المعبود ، وثواب المؤمنين فى جوار المقام المحمود ، وعذاب الكافرين فى الجحيم المورود ، وما للمطيع والعاصى من كرم الغفور الودود ، والإشارة إلى هلاك فرعون وثمود .

المتشابهات

وقوله تعالى : (ذلك الفوز الكبير) (ذلك) مبتدأ ، (والفوز) خبره (والكبير) صفته وليس فى القرآن نظيره .

مناسبة السورة لما قبلها

(١) اشتمالها كالتى قبلها على وعد المؤمنين ووعيد الكافرين ، مع التنويه بشأن القرآن وفخامته .

(٢) أنه ذكر فى السورة السابقة أنه عليم بما يجمعون للرسول صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين من المكر والخداع وإيذاء من أسلم بأنواع من الأذى كالضرب والقتل والالقاء فى حمّارة القبظ ، وذكرهنا أن هذه شنشبة من تقدمهم من الأمم ، فقد عذبوا المؤمنين بالنار كما فعل أصحاب الأخدود .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾
قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ
عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ

ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾
إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ
عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾

معانى المفردات

(البروج) واحدها برج ، ويطلق على الحصن والقصر العالى وعلى أحد بروج السماء الاثنى عشر ، وهى منازل الكواكب والشمس والقمر ، فيسير القمر فى كل برج منها يومين وثلث يوم فذلك ثمانية وعشرون يوما ثم يستتر ليلتين ، وتسير الشمس فى كل برج منها شهرا ، ستة منها فى شمال خط الاستواء ، وستة فى جنوبه . . وتقطع الثلاثة الأولى فى ثلاثة أشهر ، أولها اليوم العشرون من شهر مارس ، وهذه المدة هى فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها الحادى والعشرون من شهر يونيه ، وهذه المدة هى فصل الصيف ، وتقطع الثلاثة الأولى من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا ، أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر سبتمبر وهذه المدة هى فصل الخريف ، وتقطع الثلاثة الثانية من الجنوبية فى ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثانى والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة هى فصل الشتاء .

(اليوم الموعود) هو يوم القيامة .

(الأخدود) الشق فى الأرض يحفر مستطيلا ، وجمعه

(وشاهد ومشهود) الشاهد جميع ماخلق الله تعالى فى هذا العالم ، فإن كل ماخلقه شاهد على قدرته وهو شىء أيضا ذى عينين (والأخدود) الشق فى الأرض

(أصحاب الأخدود) قوم كافرون ذو بأس وقوة رأوا قوما من المؤمنين فغاظهم إيمانهم فخلوهم على الكفر فأبوا فشقوا لهم شقا فى الارض وحشوه بالنار والقوهم فيه وكان هؤلاء الغلاظ الأكباد على جوانب الشق يشهدون الإحراق .

(ومانقموا منهم) أى : ماعابوا عليهم

(العزيز) أى : الذى لاتغلب قوته

(الحميد : أى الذى يحمد على كل حال

(فتنوا) أى ابتلوا وامتحنوا

(عذاب الحريق) هو عذاب جهنم ذكر تفسيرا وبيانا له .

(الفوز الكبير) أى الذى تصغر الدنيا بأسرها عنده ، بما فيها من رغائب لاتفنى .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات البروج ﴾ أى : قسماً بالسماء ذات الكواكب العظيمة التى لم يستطع لها إحصاء ولا عد ، منها ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فى ألف ألف سنة وخمسمائة ألف ، مع أن الضوء يسير فى الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو ، ويصل فى سيره إلى القمر فى قدر ثانية وثلث ثانية ، ولوجرى حول الكرة الأرضية لدار حولها فى الثانية الواحدة نحو ثمان مرات ، ولو أطلق مدفع فإن قنبلته تجرى نحو سنة ونصف سنة حتى تقطع المسافة التى يقطعها الضوء فى ثانية واحدة . . سبحان القادر العزيز الحكيم .

فما أبعد الكواكب التى يصل ضوءها إلينا بعد مليون ونصف المليون ، وإلى أى حد هى عظيمة بالنسبة إلى شمسنا وقد أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بهذه الكواكب لما فيها من عجيب الصبغة وباهر الحكمة ، ولما فيها من مصالح ومنافع للناس فى هذه الحياة تدل على أن لها صانعا حكيما مدبراً ، إلى أنه يحثنا على البحث عن هذه العوالم ، لتستدل بذلك على عظيم قدرته وجليل حكمته .

فبروج السماء هى منازلها ، أو منازل السيارة التى فيها من أعظم آياته سبحانه فلهذا أقسم بها مع السماء . قوله تعالى : ﴿ واليوم الموعود ﴾ ثم أقسم سبحانه باليوم الموعود وهو يوم القيامة ، وهو المقسم به وعليه فقال تعالى : ﴿ واليوم الموعود ﴾ ودل على وقوع اليوم الموعود بإتقان جميع الرسل عليه . . . وبما عرفه عباده من حكمته وعزته . التى تأبى أن يتركهم سدى ، ويخلقهم عبثاً وبغير ذلك من الآيات والبراهين التى يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة وعلى وقوعه تارة ، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتى تارة . فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان . .

قوله تعالى : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ .

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود وقد اختلف المفسرون فى ذلك قال الإمام أحمد : بسنده عن أبى هريرة أنه قال فى هذه الآية : ﴿ وشاهد ومشهود ﴾ (١) قال الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفه ، والموعود يوم القيامة وكذلك قال الحسن وقتاده وابن زيد وقال ابن جرير بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : الشاهد هو ـ محمد ﷺ ـ والمشهود يوم القيامة(٢) ثم قرأ قوله تعالى ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾(٣) وهكذا قال الحسن البصرى وسفيان الثورى وقال مجاهد وعكرمة والضحاك الشاهد ابن آدم ، والمشهود يوم القيامة(٤) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ الشاهد هو الله ـ جل جلاله ـ والمشهود يوم القيامة(٥) وفى رواية له أيضا عند ابن أبى حاتم أن الشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة قال ابن كثير : وأكثر المفسرين على أن الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفه

---

(١) سند أحمد ٢/٢٩٨

(٢) الطبرى ـ سورة البروج الآية رقم ٣ جزء ٣٠ صفحة ١٣٠

(٣) سورة هود الآية : ١٠٣

(٤) انظر تفسير ابن كثير تفسير سورة البروج ـ طبعة الشعب

(٥) تفسير ابن كثير طبعة الشعب ـ سورة البروج

وقال ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية الكريمة ﴿ **وشاهد ومشهود** ﴾ أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود ، مطلقين غير معينين وأعم المعانى فيه أنه المدرك والمدرك ، والعالم والمعلوم والرائى والمرئى ، وهذا البق المعانى به ، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل ، لا على وجه التخصيص .

ثم قال رحمه الله : فإن قيل : فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها ؟ قبل : هى بحمد الله فى غاية الارتباط ، والإقسام بها متناول لكل موجود فى الدنيا والآخرة ، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلهيته ، فأقسم بالعالم العلوى وهى السماء وما فيها من البروج التى هى أعظم الأمكنة وأوسعها ، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً ، الذى هو مظهر ملكه ، وأمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وبجميع أوليائه وأعدائه ، والحكم بينهم بعلمه وعدله ، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله ، وهو الشاهد والمشهود وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود ، والذين عذبوا أولياءه ، وهم شهود على ما يفعلون بهم ، والملائكة شهود عليهم بذلك والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم وأيضا فالشاهد هو المطلع والرقيب . والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به المشاهد .

فمن نوع الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين كما نوعها إلى مرئى لنا وغير مرئى كما قال : ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون** ﴾[١] كما نوعها إلى أرض وسماء ، وليل ونهار ، وذكر وأنثى ، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه ـ كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود

وفيه سر آخر وهو أن المخلوقات ما هو مشهود عليه ، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك ، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً على غيره ، ولا يكون الخالق ـ تبارك وتعالى ـ شاهدا على عباده مطلقاً عليهم رقيباً ؟

وأيضا فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبائه ورسله فإنهم شاهدون على العباد ، فسيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه كما أقسم سبحانه باليوم الموعود ، وهو المقسم به وعليه ، وأيضا فيوم القيامة شهود كما قال تعالى : ﴿ **ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود** ﴾[٢] يشهده الله وملائكته والإنس والجن والوحش فالشاهد من آياته ، والمشهود من آياته .

وأيضا فكلامه مشهود كما قال تعالى : ﴿ **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا** ﴾[٣] تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار . فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل فى هذا القسم فلا حجة لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل .

وأيضا فكتاب الأبرار فى عليين يشهده المقربون . فالكتاب مشهود ، والمقربون شاهدون .

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب ، لأن القصة التنبيه على المقسم به ، وأنه من آيات الرب العظيمة . ويبعد أن يكون الجواب ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود .

---

(١) سورة الحاقة الآية : ٣٨ (٢) سورة هود آية ١٠٣ (٣) سورة الإسراء الآية : ٧٨

قصة أصحاب الأخدود

قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ؟ الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾

قوله تعالى : ﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أى : لعن أصحاب الأخدود وجمعه أخاديد وهى الحفر فى الأرض وهذا خبر عن قوم من الكفار عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله - عز وجل - فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم فحفروا لهم فى الأرض أخدوداً وأججوا فيه ناراً وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ثم أرادوهم أن يكفوا عن دينهم وإيمانهم بالله - عز وجل - فأبوا عليهم ولم يقبلوا منهم فقذفوهم فى النيران وهم ينظرون .

قال تعالى : ﴿ النار ذات الوقود ، إذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ فلهم اللعنة ولهم الطرد من رحمة الله إذ حرقوا المؤمنين وعذبوهم بالنار الموقدة ذات اللهيب الشديد وهم قاعدون حولها - يشرفون عليهم وهم يتقلبون فى العذاب كأنهم ينظرون مشهد سلوى وتسلية لأنفسهم فهذه الآيات تصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود شاهدين ما يجرى على عباد الله وأوليائه عياناً ، ولا تأخذهم بهم ، رأفة ولا رحمة .

وقوله تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أى : وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذى لا يضام من لاذ بجانبه المنيع ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذى وقع بهم كثير من الناس ونحن لا نعرف السعادة والفلاح أين هما فقد يكون الحرق لهؤلاء المؤمنين هو منتهى السعادة والفلاح أين هما فقد يكون الحرق لهؤلاء المؤمنين هو منتهى السعادة لهم إذا أختارهم الله إليه شهداء وخفف عنهم عذاب النار وأبدلهم بها جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

ثم قال تعالى : ﴿ الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شىء شهيد ﴾ من تمام جنبات الكمال أنه تبارك وتعالى المالك لجميع السموات والأرض ، وما فيهما وما بينهما فله وحده الملك والملكوت والعزة والجبروت وهو يشهد على كل شىء وكفى بالله شهيداً .

والله - تبارك وتعالى - لا تغيب عليه غائبة فى الأرض ولا فى السماء يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور والله بكل شىء عليم وعلى كل شىء شهيد وكفى بالله شهيداً .

قال ابن القيم رحمه الله فى هذه الآية : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أى : ولا يعيبون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض . . . وهذا

الوصف يقتضى إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم ، فعاملوهم بضد ما يقتضى أن يعاملوا به ولهذا شأن أعداء الله دائماً ، ينقمون على أوليائه ما ينبغى أن يحبوا ويكتموا لأجله كما قال تعالى : ﴿ **قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون** ﴾[١] وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم الإشراك ينقمون من الموجودين تجريدهم التوحيد وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات إثباتهم لله صفات كماله ونعوت جلاله . وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم ، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم وتقديم من قدمه رسول الله - ﷺ - منهم وتنزيلهم منازلهم التى أنزلهم الله ورسوله بها ، وكذلك أهل الرأى المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه وكل هؤلاء لهم نصيب وفيهم شبه من أصحاب الأخدود وبينهم نسب قريب أو بعيد .

حديث أصحاب الأخدود

ففى صحيح مسلم عن صهيب - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم ، وكان له ساحر ، فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلىَّ غلاماً أعلمه السحر ، فبعث إليه غلاماً يعلمه فكان فى طريقه إذا سلك مر بالراهب فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه ، فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه ، فإذا أتى الساحر ضربه ، فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل أهلى ، وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر .

فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب ؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس ، فرماها فقتلها ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب : أى بُنىَّ أنت اليوم أفضل منى ، قد بلغ من أمرك ما أرى ، وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل علىَّ ، وكان الغلام يبرىء الأكمه والأبرص ، ويداوى الناس من سائر الأدواء فسمع جليس للملك كان قد عمى ، فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما ههنا لك أجمع إن أنت شفيتنى فقال : إنى لا أشفى أحداً ، إنما يشفى الله تعالى فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك فآمن بالله - تعالى - فشفاه الله - تعالى - فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس فقال له الملك ! من رد عليك بصرك ؟ قال : ربى . قال : ولك رب غيرى ؟ ! قال : ربى وربك الله ، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب فجيء بالراهب فقيل له : ارجع عن دينك ، فأبى ، فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه ، فشقه حتى وقع شقاه ثم جيء بجليس الملك فقيل له : ارجع عن دينك فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه ، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك فأبى ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل ، فإذا بلغتم

(١) سورة المائدة الآية : ٥٩

ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال اللهم اكفينهم بما شئت فرجف به الجبل فسقطوا ، وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك ما فعل أصحابك ؟ قال كفانيهم الله ـ تعالى ـ فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال : اذهبوا به فاحملوه فى قرقور وتوسطوا به البحر ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه فذهبوا به فقال اللهم اكفينهم بما شئت فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ، وجاء يمشى إلى الملك . فقال له الملك . ما فعل أصحابك ؟ قال اكفانيهم الله تعالى ـ فقال للملك إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما آمرك به قال وما هو ؟ قال تجمع الناس فى صعيد واحد ، وتصلبنى على جذع ، ثم خذ سهماً من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل : بسم الله رب الغلام ثم ارمنى ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتنى فجمع الناس فى صعيد واحد ، وصلبه على جذع ثم أخذ سهماً من كنانته ، ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم فى صُدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات فقال الناس آمنا برب الغلام آمنا برب الغلام ، آمنا برب الغلام فأتى الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تحذر قد والله نزل بك حذرك . قد آمن الناس فأمر بالأخدود فى أفواه السكك فخدت وأضرم النيران ، وقال من لم يرجع عن دينه فأقحموا فيها أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام : يا أماه اصبرى فإنك على الحق ، رواه مسلم[1]

مفردات الحديث

ذروة الجبل أعلاه وهى بكسر الذال وضمها

و « القرقُور » بضم القافين : نوع من السفن

و « الصعيد » هنا : الأرض البارزة

« الأخدود » الشقوق فى الأرض

« أضرم » أوقد

« انكفأت » أى : انقلبت . .

« تقاعست » توقفت وجبنت

العبر من القصة

قال العلماء : أعلم الله ـ عز وجل المؤمنين ـ من هذه الأمة فى هذه الآية الكريمة ﴿ **قتل أصحاب الأخدود** ﴾ ما كان يلقاه من وجد قبلهم من الشدائد يؤنسهم بذلك وذكر لهم ـ ﷺ ـ قصة الغلام ليصيروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التى كانوا عليها ، ليأنسوا بمثل الغلام فى صبره وتصلبه فى الحق وتمسكه به ، وبذله نفسه فى حق إظهار دعوته ودخول الناس فى الدين مع صغر سنه وعظيم صبره وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله ـ تعالى ـ ورسخ الإيمان فى قلوبهم صبروا على الطرح فى النار ولم يرجعوا عن دينهم قال الله ـ تبارك وتعالى ـ مخبراً عن

(١) صحيح مسلم ٤/٢٢٩٩ رقم ٣٠٠٥

لقمان : ﴿ يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ﴾[1] وروى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال : إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر[2] أخرجه الترمذى وروى ابن سنجر عن أميمة مولاة النبى - ﷺ - قالت : كنت أوضىء النبى - ﷺ - فأتاه رجل فقال : أوصنى ! فقال ! لا تشرك بالله شيئا وإن قطعت أو حرقت بالنار . الحديث[3]

ولقد امتحن كثير من أصحاب النبى - ﷺ - بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شىء من ذلك ولا تزال المعركة بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان ، وبين انصار الله وأعوان الشيطان لا تزال قائمة وستبقى إلى يوم الدين ، تلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .

وما يضير المسلم إن قتل فى سبيل الله وهو يعلم أنه سيذهب إلى رب عظيم ، وإله كريم ، أعد لأحبابه وأوليائه جنة عرضها كعرض السموات والأرض وفيها النعيم المقيم ، بل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وكل مسلم يتقدم بنفس راضية إلى ميدان الشهادة وهو يردد قوله تعالى : ﴿ وعجلت إليك رب لترضى ﴾[4] كما يرد قول الصحابى الشهيد خبيب بن عدى - رضى الله عنه وأرضاه حيث قال :

ولست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال جسم ممزع[5]

وهذه مجاهدة فلسطينية .. تروى قصيدتها فى بيروت

شعر : يوسف العظيم

ذبحونى من وريد الوريد ... وسقونى المر فى كل صعيد
مزقوا زوجى فلم أعبأ بهم ... ومضوا نحو صغيرى ووحيدى
غرسوا الحرية فى أحشائه ... فغدا « التكبير » أصداء نشيدى
دمروا بيتى وهل بيتى هنا؟ ... إن بيتى خلف هاتيك الهدوء !
وتلفتُ فلم أعثر على ... غير أبناء الأفاعى والقرود
أين بأس العُرْب ؟ مذخور لمن ؟ ... أين أبناء الحمى درع « الصمود » ؟

. . . .

ودمى سال على تلك الرُّبى ... ينثر العطر على حمر الورود
ولغ الغاصب فى أشلائنا ... غير أنا لم نزل سمر الزنود
ولوائى فوق هامات الورى ... يتحدى فى العلى كل البنود

(١) سورة لقمان الآية : ١٧
(٢) سنن الترمذى ٤٧١/٤ رقم ٢١٧٤
(٣) المستدرك للحاكم ٤١/٤
(٤) سورة طه الآية : ٨٤
(٥) صحيح البخارى ١٣٣/٥ طبعة الشعب

قل لمن يلهث فى «غفلته» ينشد الأمن تمتع بالصديد
إن فى يافا مواعيد لنا وربى القدس لنا بيت القصيد
وعلى شطآن حيفا موعد كيف ننسى فى الحمى خضر الوعود
ذبحونى من وريد لوريد ودمى يجتاح أحقاد اليهود

....

قل لمن يحسب أنا أمة أنكرت أمجاد سعد والوليد
نحن شعب لم يعد يخشى الردى أو يبالى برصاص وحديد
قطع العهد وفى أعماقه دعوة التوحيد والدين الرشيد
كلما أطفىء منا قبس أشرق القرآن بالفجر الجديد
قد رجعنا راية زاحفة بعد أيام ضياع وشرود
ومضينا نحو آفاق العلى يسلم الراية جدٌ لحفيد
إنها الجنة تبغى ثمناً عزَّ إلا من شرايين الشهيد

قوله تعالى : ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾

أخبر سبحانه وتعالى أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق ، حيث لم يتوبوا وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم ، وهذا غاية الكرم والجود .

قال الحسن ، انظروا إلى هذا الكرم والجود ، يقتلون أولياءه ، ويفتنونهم وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة . انظروا إلى كرم الرب - تعالى - يدعوهم إلى التوبة والمغفرة وقد فتنوا أولياءه فحرقوهم بالنار ، فلا ييأس من هذه العداوة ، ولا كفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده ، وعبده وحده ، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم . وألحقهم بأوليائه كما قال تعالى : **﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنت الأولين ﴾**[1]

ولما ذكر مصير المجرمين أعقبه بذكر مصير المؤمنين فقال تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير ﴾[2] يخبر تعالى عن عباده المؤمنين أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق والجحيم ولهذا قال جل وعلا **﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾** وذلك هو الفوز الكبير العظيم والنجاح . والنجاة من عذاب الآخرة فوز ، فكيف إذا ارتقت درجات الفائزين حتى يدخلوا جنات تجرى من تحتها الأنهار من ماء غير آسن ، ولبن لم يتغير طعمه ، ومن خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ذلك

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٣٨
(٢) سورة البروج الآية) ١١

الفوز الذى لا فوز بعده والنعيم المقيم الذى لا نعيم بعده إلا النظر إلى وجه ذى الجلال والإكرام وهناك السعادة الكبرى جعلنا الله وإياكم من أهلها آمين يارب العالمين .

قال تعالى : **(وعيد وتهديد)**

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾
ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾
فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾
بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

معانى المفردات

البطش : الأخذ بالعنف والشدة

يبدىء ويعيد : يبدأ الخلق ثم يفنيهم ثم يعيدهم أحياء مرة أخرى

الغفور : أى : الذى يعفو ويستر ذنوب عباده بمغفرته

الودود : أى : الذى يحب أولياءه ويتودد إليهم بالعفو عن صغير ذنوبهم

المجيد : العظيم الجليل المتعالى

الجنود : تطلق تارة على العسكر ، وتطلق أخرى على الأعوان ، والمراد بهم هنا الجماعات الذين تجندوا على أنبياء الله واجتمعوا على أذاهم

فرعون : هو طاغية مصر

ثمود : قبيلة بائدة من العرب لا يعرف من أخبارها إلا ما قصه الله علينا

محيط : أى : هم فى قبضته وحوزته

المناسبة وإجمال المعنى

بعد أن ذكر سبحانه وعيد الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات أردف ذلك كله بما يدل على تمام قدرته على ذلك ، ليكون ذلك بمثابة توكيد لما سبق من الوعيد والوعد .

التفسير

قوله تعالى : **(إن بطش ربك لشديد)** أى : إن بطشه وانتقامه من أعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد قوى فإنه سبحانه ذو القوة المتين الذى ماشاء كان كما يشاء فى مثل لمح البصر أو هو أقرب ولهذا قال تعالى : **(إنه هو يبدىء ويعيد)** أى : من قوته وقدرته التامة يبدىء الخلق ويعيده كما بدأه

بلا تمانع ولامدافع فهو سبحانه وتعالى لايعجزه شىء فإنه هو المبدىء والمعيد ، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه ، وهو مع ذلك الغفور الودود .

قال تعالى : (وهو الغفور الودود) يغفر لمن تاب إليه ولِوده ويحبه فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش ، ومع ذلك هو الغفور الودود ، المتودد إلى عباده بنعمه الذى يود من تاب اليه وأقبل عليه ، وهو الودود أيضا أى المحبوب . أخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس قال : الودود الحبيب(١) والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين ، على كونه واداً لأوليائه ومودودا لهم ، فأحدهما بالوضع ، والآخر باللزوم ، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه قال شعيب عليه السلام : (إن ربى رحيم ودود)(٢) . وقال تعالى : (نبىء عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم)(٣) .

ومَاألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور ، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولايحبه ، وكذلك قد يرحم من لايحب والرب ـ تعالى ـ يغفر لعبده إذا تاب إليه ، ويرحمه ويحبه مع ذلك ، فإنه يحب التوابين ، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ماكان .

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون)(٤) قوله تعالى : (ذو العرش المجيد) .

قال ابن القيم : أضاف سبحانه العرش إلى نفسه ، كما تضاف إليه الأنبياء العظيمة الشريفة . وهذا يدل على عظمة العرش ، وقربه منه سبحانه ، واختصاصه به ، بل يدل على غاية القرب والاختصاص ، كما يضيف الى نفسه « بذو » صفاته القائمة به . كقوله : (ذو القوة) وكقوله : (ذو الجلال والإكرام) ويقال : ذو العزة . وذو الملك ، وذو الرحمة ، ونظائر ذلك . فلوكان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لافرق أن يقال : ذو العرش وذو الأرض .

والمعلوم عند كل من قرأ شيئا فى عقائد السلف أن العرش مخلوق حسى وأنه أعظم من السموات والأرض كما قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الصحيح : والذى فيه « والعرش لايقدر قدره إلا الله ـ عزوجل ـ وأن هذا العرش الذى وصفه الله بأنه عرش كريم كما فى قوله تعالى : ﴿ فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾(٥) وقال : (وهو رب العرش العظيم ﴾(٦) وقال : ﴿ وهو الغفور الودود ، ذو العرش المجيد ﴾ فعلى جر ، المجيد ، يكون صفة للعرش ، وعلى الرفع يكون « المجيد » اسم الله تبارك وتعالى .

وقوله تعالى) (المجيد) وصف نفسه سبحانه بالمجيد . . وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها ، وعدم إحصاء الخلق لها ، وسعة أفعاله وكثرة خيره ودوامه . وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شىء .

---

(١) انظر الدر المنثور فى التفسير المأثور للسيوطى ٨/ ٤٧١
(٢) سورة هود الآية : ٩٠
(٣) سورة الحجر الآية : ٥٠
(٤) سورة يونس الآية : ٥٨
(٥) سورة المؤمنون الآية : ١١٦
(٦) سورة التوبة الآية : ١٢٩

وقال ابن القيم : والمجد فى لغة العرب كثرة أوصاف الكمال ، وكثرة أفعال الخير . وأحسن ماقرن اسم المجيد إلى الحميد ، كما قالت الملائكة البيت الخليل عليه السلام : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد)[1] وكما شرع لنا فى آخر الصلاة أن نثنى على الرب تعالى بأنه حميد مجيد ، وشرع فى آخر الركعة عند الاعتدال ، أن نقول « ربنا ولك الحمد أهل الثناء والمجد ، فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد ، فالحميد الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال ، والمجيد العظيم الواسع القادر الغنى ، ذو الجلال والإكرام .

ومن قرأ (المجيد) بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه ، وإذا كان عرشه مجيدا فهو سبحانه أحق بالمجد . وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس ، وقال : لم يسمع فى صفات الخلق مجيد ثم خرجها على أحد الوجهين ، إما على الجوار ، وإما أن يكون صفة لربك . وهذا من قلة بضاعة هذا القائل . فإن الله - سبحانه وتعالى - وصف عرشه بالكرم ، وهو نظير المجيد ، ووصفه بالعظمة ، فوصفه سبحانه بالمجد مطابق لوصفه بالعظمة والكرم ، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك ، لسعته وحسنه وبهاء المنظر وعلو القدر والرتبة والذات ، ولايقدر قد عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله - سبحانه وتعالى - ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه ، والسموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى - الذين بين يديه - كحلقة ملقاة فى أرض فلاة ، والكرسى فيه كتلك الحلقة فى الفلاة . قال ابن عباس : السموات السبع فى العرش كسبعة دراهم جعلن فى ترس ، فكيف لايكون مجيدا وهذا شأنه ، فهو عظيم كريم مجيد . وأما تكلف هنا المتكلف جره الى الجوار ، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد ، وخروج عن المألوف فى اللغة فى غير حاجة الى ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ فعال لما يريد ﴾ أى : مهما أراد فعله لامعقب لحكمه ولايسأل عما يفعل لعظمته وقهره وحكمته وعدله .

قال الإمام الطحاوى : وكل شى يجرى بتقديره ومشيئته ، ومشيئته تنفذ لامشيئة العباد ، إلا ماشاء لهم فما شاء لهم كان ومالم يشأ لم يكن ، يهدى من يشاء ، ويعصم ويعافى فضلا ، ويضل من يشاء ، ويخذل ويبتلى عدلا . وكلهم يتقلبون فى مشيئته ، بين فضله وعدله ، ولاراد لقضائه ، ومعقب لحكمه ، ولاغالب لأمره ، آمنا بذلك كله ، وأيقنا أن كلا من عنده .

وقال ابن القيم : اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة ، وعدم النظير ، والحمد المتضمن لصفات الكمال ، والتنزيه عن أضدادها مع محبته والهيته ، وملكه السموات والأرض ، المتضمن ا لكمال غناه ، وسعة ملكه ، وشهادته على كل شىء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها ، وإحاطة بصره بجزئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها ، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة ، وتفرده بالابداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه فى المخلوقات بالإبداء والاعادة وانقيادها لقدرته ، فلايستعصى عليه منها شىء ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته ، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبا إلى

(١) سورة هود الآية : ٧٣

عباده ومحبا لهم ، ووصفه بأنه ذو العرش الذى لايقدر قدره سواه ، وأن عرشه المختص به لايليق بغيره أن يستوى عليه ، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك والغنى والجود والإحسان والكرم ، وكونه فعالا لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته وغير ذلك من أوصاف كماله .

فهذه السورة كتاب مستقل فى أصول الدين ، تكفى من فهمها فالحمدلله الذى أنزل على عبده الكتاب ، وتبارك الذى نزل الفرقان على عبده .

وقوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الجنود ، فرعون وثمود ، بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط ﴾ .

ختم سبحانه وتعالى السورة الكريمة بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به وكذب رسله ، تحذيرا لعباده من سلوك سبيلهم ، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم ، ثم أخبر سبحانه عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم فى قبضته ومن هو قادر عليه من كل وجه ، وبكل اعتبار ، فقال تعالى : ﴿ بل الذين كفروا فى تكذيب ، والله من ورائهم محيط ﴾ فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن هو محيط به ، وآخذ بناصيته قادر عليه قال تعالى : ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط ﴾ (١) .

قوله تعالى : ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾

ثم وصف سبحانه وتعالى كلامه بأنه مجيد ، وهو أحق بالمجد من كل الأمر ، كما أن المتكلم به له المجد كله . فهو المجيد ، وكلامه مجيد ، وعرشه مجيد ، قال ابن عباس - رضى الله عنهما - : قرآن مجيد ، كريم . لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون : شعر ، وكهانة ، وسحر وقد تقدم أن المجد السعة ، وكثرة الخير ، وكثرة خير القرآن لايعلمها إلا من تكلم به .

وقوله تعالى : ﴿ فى لوح محفوظ ﴾ أكثر القراء على الجر ، صفة للوح وفيه إشارة إلى أن الشياطين لايمكنهم التنزل به ، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه ، وهو فى نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان . فوصفه سبحانه بأنه محفوظ فى قوله : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٢) ، ووصف محله بالحفظ فى هذه السورة . فالله - سبحانه وتعالى - حفظ محله ، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل ، وحفظ معانيه من التحريف ، كما حفظ ألفاظه من التبديل ، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان ، ومعانيه من التحريف والتغيير .

واللوح المحفوظ شىء أخبرنا الله - عز وجل - به وأنه أودعه كتابه ولكنه لم يعرفنا حقيقته وكنهه أن نؤمن به كما جاء به كتاب الله وليس علينا البحث عن دقائقه وتفاصيله وماوراء ذلك مما لم يأت به خير عن النبى - صلى الله عليه وسلم -

آمنا به كل من عند ربنا والحمدلله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٢٠ (٢) سورة الحجر الآية : ٩

تفسير سورة الطارق

مقدمة عن السورة

قال صاحب البصائر : السورة مكية :

عدد آياتها : سبع عشرة آية .

وكلماتها : إحدى وستون .

وحروفها : مائتان وتسع وثلاثون .

فواصل آياتها : (ظل بق عار) .

سميت سورة الطارق لمفتتحها .

مقصود السورة :

القسم على حفظ أحوال الانسان ، والخبر عن حاله فى الابتداء والانتهاء وكشف الأسرار فى يوم الجزاء ، والقسم على أن كلمات القرآن جزل ، غير هزل ، من غير امتراء ، وشفاعة حضرة الكبرياء إلى سيد الأنبياء بإمهال الكافرين ، فى العذاب والبلاء ، فى قوله ﴿ أمهلهم رويدا ﴾ .

المتشابهات :

﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ وهذا تكرار ، وتقديره : مهّل مهّل مهّل ؛ لكنه عدل فى الثانى الى (أمهل) ؛ لأنه من أصله ، وبمعناه ، كراهة التكرار ، وعدل فى الثالث إلى قوله : (رويدا) ؛ لأنه بمعناه ، أى : أرودهم أروادا ، ثم صغر (اروادا) تصغير الترخيم ، فصار : رويدا . وقيل : (رويدا) صيغة مصدر محذوف ، أى : امهالاً رويدا ، فيكون التكرار مرتين . وهذه أعجوبة .

مناسبة السورة لما قبلها :

(١) أنه ابتدأ هذه بالحلف بالسماء كالسورة قبلها .

(٢) انه ذكر فى السابقة تكذيب الكفار للقرآن ، وهنا وصف القرآن بأنه القول الفصل ، وفيه رد على أولئك المكذبين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾
إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ

دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ
تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ
ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾
وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

معانى المفردات

والطارق : (قسم) بالنجم الثاقب يطلع ليلاً .

النجم الثاقب : المضىء المتوهج أو المرتفع عالى .

إن كل نفس : ماكل نفس (جواب القسم) .

لما عليها حافظ : إلا عليها مهيمن ورقيب وهو الله - جل جلاله -

ماء دافق : ماء ممتزج من مائى الرجل والمرأة مصبوب بدفع وسرعة فى الرحم .

الصلب : الظهر .

الترائب : عظام صدر المرأة ، والمراد من بين صلب الرجل وترائب المرأة .

وقال الحسن وروى عن قتادة : يخرج من بين صلب كل واحد من الرجل والمرأة ، وترائب كل منهما وهو الموافق لما اثبته العلم حديثا .

رجعه : أى إعادته .

بلى : أى تختبر وتمتحن والمراد تظهر .

السرائر : مايسر فى القلوب من العقائد والنيات واحدها سريرة .

ذات الرجع : المطر لرجوعه الى الأرض مرارا .

ذات الصدع : النبات الذى تنشق عنه .

لقول فصل : فاصل بين الحق والباطل .

أكيد كيدا : أجازيهم على فعلهم بالاستدراج .

فمهل الكافرين : فلا تستعجل بالانتقام منهم .

أمهلهم رويدا : إمهالا قريبا ، أو قليلا حتى يأتيهم العذاب .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ .

يقسم تبارك وتعالى بالسماء ونجومها المضيئة وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى ولهذا قال سبحانه) ﴿ والسماء والطارق ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وماأدراك ما الطارق ﴾ ثم فسره بقوله : ﴿ النجم الثاقب ﴾ .

قال قتادة : وغيره : إنما سمى النجم طارقا لأنه إنما يرى بالليل ويختص بالنهار فشبه بالطارق الذى يطرق الناس ، أو أهله ليلا ، قال الفراء : ماأتاك ليلا فهو طارق .

قوله تعالى : ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما : المضىء وقال السدى : يثقب الشياطين إذا أرسل عليها وقال عكرمة : هو مضىء ومحلق للشياطين .

قال تعالى : ﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين ﴾(١) .

قال العلامة ابن القيم : والمراد به الجنس لانجم معين . ومن عينه الثُريا ، او زحل ، فإن أراد التمثيل فصحيح ، وإن أراد التخصيص دليل عليه .

وقوله تعالى : ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ والمقسم عليه هنا حال النفس الانسانية ، والاعتناء بها ، وإقامة الحفظة عليها ، وأنها لم تترك سدى ، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها ، فأقسم سبحانه أنه مامن نفس إلا عليها حافظ من الملائكة ، يحفظ عملها وقولها ويحصى ماتكتسب من خير أو شر قال تعالى : ﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ﴾(٣) وقال سبحانه : ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ـ الآية ﴾(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ أى : فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذى ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته . قال تعالى : ﴿ أولم يتفكروا فى أنفسهم ﴾(٥) وقال سبحانه : ﴿ ماأشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم ﴾(٦) الاية . . فنبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن فى الاستدلال على المعاد بالمبدأ .

قوله تعالى : ﴿ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ﴾

أخبر سبحانه أنه خلق الانسان من ماء دافق . والدفق صب الماء . وسبب تدفقه كما قال علماء

---

(١) سورة الملك الآية : ٥
(٢) سورة الانفطار الآيات : من ١٠ إلى ١٢
(٣) سورة الرعد الآية : ١١
(٤) سورة الرعد الآية : ٣٣
(٥) سورة الروم الآية : ٨
(٦) سورة الكهف الآية : ٥١

الطب : تقلصات فى جدار الحويصلة المنوية مع تقلصات القناة القاذفة للمنى وتقلصات عضلات العجان مما يسبب الرعشة عند الإنزال .

ونبه سبحانه بكونه دافقا على أنه ضعيف غير متماسك كما قال تعالى : ﴿ **ألم نخلقكم من ماء مهين** ﴾[1] .

ثم ذكر سبحانه محله الذى يخرج منه ، وهو بين الصلب والترائب .

قال ابن القيم : قيل صلب الرجل وترائبه وهى صدره ، فيخرج من صلبه وصدره ، وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من الفرث والدم . أهـ .

وقفة علمية مع هذه الآية الكريمة : ﴿ **يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾

قال الدكتور محمد على البار فى كتابه « خلق الانسان بين الطب والقرآن » مانصه :

« ولنبق قليلا مع الآية الكريمة التى تتحدث عن الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب نتملى معانيها المعجزة الباهرة .

﴿فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر﴾

والآية الكريمة تحثنا على النظر فى الانسان الذى خلق . . من هذا الماء الدافق الذى يخرج من بين الصلب والترائب . . وسبب تدفقه كما أشرنا الى ذلك هو تقلصات جدار الحويصلة المنوية والقناة القاذفة للمنى مع تقلصات عضلات العجان . . فتدفع بالسائل المنوى بمحتوياته من ملايين الحيوانات المنوية عبر الإحليل إلى المهبل وهذا هو سبب الرعشة عند الإنزال . . وذلك كله متعلق بالجهاز العصبى اللاإرادى والمسمى بالجهاز التعاطفى ، أما الانتشار والانتصاب نسبة أيضا أعصاب خاصة من الجهاز العصبى اللاإرادى وتدعى بنظير التعاطفى وبواسطتها تمتلىء الأوردة الدموية الكثيفة فى القضيب فتسبب الانتشار . وهذه الأعصاب تأتى من منطقة بين الصلب والترائب .

وأنت ترى أن ذلك كله موكول إلى جهاز غير إرادى ولاتتحكم فيه الإرادة حتى يخرج أمر الخلقة من كل شبهة للإرادة الإنسانية . ولابد من النظر والتدبر فى كيفية خلق الانسان لأن فيه من دلائل القدرة الإلهية العظيمة مايبهر العقول ويملأ القلوب إيمانا وخشوعا وتبتلا . . ويجعلها تقترب من ذلك النور الإلهى فترى الذى أنشأ وأبدع وخلق الإنسان من هذا الماء الدافق . . . هذا الماء المهين . . يتطور فى نشأته وخلقته طورا بعد طور ومرحلة بعد مرحلة وخلقا من بعد خلق حتى يخرجه طفلا ثم ليبلغ أشده ثم يعود أدراجه إلى الشيخوخة وإلى الوهن والضعف ثم إلى حفرة ضيقة لاأنيس فيها ولاصديق . . ثم إلى بعث ونشور فتمتلىء نفسه بهذه الصور المتلاحقة الباهرة والنشور عند رؤيته لبداية الخلق فإن الذى أخرجه من ماء دافق هو سبحانه على رجعه لقادر .

(١) سورة المرسلات الآية : ٢٠

تقول الآية الكريمة إن الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب .
ونحن قد قلنا إن هذا الماء (المنى) إنما يتكون فى الخصية وملحقاتها كما تتكون البويضة فى المبيض لدى المرأة . . فكيف تتطابق الحقيقة العلمية مع الحقيقة القرآنية .

إن الخصية والمبيض إنما يتكونان من الحدبة التناسلية بين صلب الجنين وترائبه . . والصلب هو العمود الفقرى . . والترائب هى الأضلاع . . . وتتكون الخصية والمبيض فى هذه المنطقة بالضبط اى : بين الصلب والترائب . ثم تنزل الخصية تدريجيا حتى تصل إلى كيس الصفن (خارج الجسم) فى أواخر الشهر السابع من الحمل . . وبينما ينزل المبيض إلى حوض المرأة ولاينزل أسفل من ذلك .

ومع هذا فإن تغذية الخصية والمبيض بالدماء والأعصاب واللمف تبقى من حيث أصلها . . أى : من بين الصلب والترائب . . فشريان الخصية أو المبيض يأتى من الشريان الأبهر (الأورطى البطنى) من بين الصلب والترائب كما أن وريد الخصية يصب فى نفس المنطقة . . يصب فى الوريد الأيسر فى الوريد الكلوى الأيسر بينما يصب وريد الخصية الأيمن فى الوريد الأجوف السفلى . . وكذلك أوردة المبيض وشريانها تصب فى نفس المنطقة أى : بين الصلب والترائب . . كما أن الأعصاب المغذية للخصية أو المبيض تأتى من المجموعة العصبية الموجودة تحت المعدة من بين الصلب والترائب . . وكذلك الأوعية اللمفاوية تصب فى نفس المنطقة أى : بين الصلب والترائب .

فهل يبقى بعد كل هذا شك أن الخصية أو المبيض إنما تأخذ تغذيتها ودماءها وأعصابها من بين الصلب والترائب ؟ . . فالحيوانات المنوية لدى الرجل أو البويضة لدى المرأة ، إنما تستقى مواد تكوينها من بين الصلب والترائب كما أن منشأها ومبدأها هو من بين الصلب والترائب .
والآية الكريمة إعجاز كامل حيث تقول من بين الصلب والترائب ولم تقل من الصلب والترائب . . . فكلمة « بين » ليست بلاغية فحسب وإنما تعطى الدقة العلمية المتناهية . .

وقد أخطأ كثير من المفسرين القدامى حيث لم يهتموا بهذه اللفظة بين . . وقالوا إن المنى يخرج من صلب الرجل . . وماء المرأة يتكون من ترائبها . . وهذا خطأ علمى وخطأ منهجى حيث لم يعطوا الآية حقها فحذفوا كلمة « بين » ولذا وقعوا فى الخطأ .

والعجيب أن الإمام ابن القيم قد تنبه إلى هذا الخطأ الذى وقع فيه أغلب المفسرين فقال فى إعلام الموقعين : (الجزء الأول ص١٥٨) . . « ولا خلاف أن المراد بالصلب صلب الرجل . واختلف فى الترائب فقيل : المراد بها ترائبه أيضا . وهى عظام الصدر مابين الترقوة إلى التندوة . وقيل المراد بها ترائب المرأة والأول أظهر لأنه سبحانه قال : ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ ولم يقل يخرج من الصلب والترائب فلابد أن يكون ماء الرجل خارجا من بين هذين الملتقين كما قال فى اللبن : يخرج من بين فرث ودم .

وأيضا فإنه سبحانه أخبر أنه خلقه من نطفة فى غير موضع . والنطفة هى ماء الرجل ، كما قال أهل اللغة قال الجوهرى . والنطفة الماء الصافى قل أو كثر والنطفة ماء الرجل والجمع نطف .

وأيضا فإن الذى يوصف بالدفق والنضح انما هو ماء الرجل ولايقال نضحت المرأة ولا دفقته . والذى أوجب الأصحاب القول الآخر إنهم رأوا أهل اللغة قالوا الترائب : موضع القلادة من الصدر . قال الزجاج : أهل اللغة مجموعون على ذلك .

وهذا يدل على اختصاص الترائب بالمرأة بل يطلق على الرجل والمرأة قال الجوهرى : الترائب عظام الصدر مابين الترقوة إلى التندوة . ومع هذا فقد ذكر القرطبى فى تفسيره عن الحسن البصرى وغيره بانه يخرج من صلب الرجل وترائبه . . وصلب المرأة وترائبها . . وكذا ذكر الألوسى فى تفسيره . . وهو قريب مما ذكرناه . .

قوله تعالى : ﴿ إنه على رجعه لقادر ﴾ أى : على رجعه إليه يوم القيامة ، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه ، أخرج الإمام أحمد بسنده عن بشر بن حجاش القرشى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصق يوما فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال : قال الله تعالى : يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق ، وأنى أوان الصدقه(١) .

قوله تعالى : ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أى يوم القيامة تبلى فيه السرائر أى تظهر وتبدو ويبقى السر علانية والمكنون مشهورا .

قوله تعالى : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ أخبر سبحانه عن حال الإنسان فى يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله . لابقوة منه ولابقوة من خارج وهو الناصر فان العبد اذا وقع فى شدة ، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره ، وكلاهما معدوم فى حقه . ونظيره قوله تعالى : ﴿ لايستطيعون نصر أنفسهم ولاهم منا يصحبون ﴾(٢) .

قوله تعالى : ﴿ والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل وماهو بالهزل ﴾ .

هذا قسم ثان فى السورة الكريمة أقسم سبحانه بالسماء ورجعها بالمطر والأرض وصدعها بالنبات . قال ابواسحاق : الرجع المطر ؛ لأنه يجيىء ويرجع ويتكرر . ورجع السماء هو إعطاء الخير الذى يكون من جهتها حالا بعد حال ، على مرور الأزمان ترجعه رجعا ، أى تعطيه مرة بعد مرة . والخير كله من قبل السماء يجيىء . ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به ، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات ، وفسر الصدع بالنبات ، لأنه يصدع الأرض أى يشقها ، فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر ، والأرض ذات النبات ، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته .

وأقسم على كون القرآن حقا وصدقا فقال : ﴿ إنه لقول فصل وماهو بالهزل ﴾ كما أقسم فى أول السورة على حال الإنسان فى مبدئه ومعاده . والقول الفصل هو الذى يفصل بين الحق والباطل ، فيميز هذا من هذا ، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ومصيب الفصل الذى ينفصل عنده المراد ويتميز من غيره

(١) مسند أحمد ٤/٢١٠

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٤٣

ومنه فصل الخطاب وأيضا فالقول بيان المعنى ضد الإجمال . فكون القرآن فصلا يتضمن هذه المعانى كلها ، ويتضمن كونه حقا ليس بالباطل ، وجداً ليس بالهزل ولما كان الهزل هو الذى لاحقيقة له . . وهو الباطل واللعب ـ قال بين الفصل والهزل .

قوله تعالى : ﴿ إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيداً ﴾ وإنما يكيد المكذبون ويحيلون ويخادعون لرده ، ولايردونه بحجة ، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده ، وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لايعلمون ، والإملاء لهم حتى يأخذهم على كما قال تعالى : ﴿ وأملى لهم إن كيدى متين ﴾[1] فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه ، فيأخذه كما يفعل الملوك ، فإذا فعل ذلك أعداء الله فأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنا لاقبح فيه ، فيعطيهم ويعافيهم وهو يستدرجهم ، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون .

قوله تعالى : ﴿ فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ أى : أنظرهم قليلا ولا تستعجل لهم ، والرب تعالى هو الذى يمهلهم . وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم ، أو على معنى انتظر بهم قليلا وسترى فإذا أحل بهم من العذاب أو النكال والعقوبة والهلاك كما قال تعالى : ﴿ نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾[2]

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٨٣

(٢) سورة لقمان الآية : ٢٤

تفسير سورة الأعلى

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة آية .

كلماتها : ثمان وسبعون

وحروفها : مائتان وإحدى وسبعون .

فواصل آياته : ل الألف .

سبب التسمية : سميت سورة الأعلى ، لمفتتحها وكذلك سورة « سبح » .

مقصود السورة:

بيان علو الذات المقدسة ، وذكر الخلقة وتربية الحيوانات ، والإشادة بالثمار ، والنبات ، والأمن من نسخ الآيات ، وبيان سهولة الطاعات ، وذل الكفار فى قعر الدركات ، والتحضيض على الصلاة والزكاة ، وفى الدنيا بقاء الخيرات ، وفى الآخرة بقاء الدرجات فى قوله : ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ .

المتشابهات فى السورة :

﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق ﴾ وفى العلق : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ زاد فى هذه السورة ﴿ الأعلى ﴾ مراعاته للفواصل وفى هذه السورة : ﴿ خلق فسوى ﴾ ، وفى العلق ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ .

فضل السورة :

أخرج ابوداود وغيره من أصحاب السنن ماوراه عقبة : لما نزل (فسبح باسم ربك العظيم) قال صلى الله عليه وسلم : اجعلوها فى ركوعكم ، ولما نزل (سبح اسم ربك الأعلى) قال صلى الله عليه وسلم : اجعلوها فى سجودكم[1] .

وأخرج الامام أحمد ومسلم وأبوداود والترمذى عن النعمان بن بشير « أن رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ـ كان يقرأ فى العيدين ويوم الجمعة (سبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية »

---

(١) سنن أبى داود ١/٥٤٢ رقم ٨٦٩ وابن ماجه ١/٢٨٧ رقم ٨٨٧

وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعا(١) .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى تلك خلق الإنسان ، وأشار إلى خلق النبات بقوله : ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ وذكر هنا خلق الإنسان فى قوله : ﴿ خلق فسوى ﴾ . وخلق النبات فى قوله : ﴿ أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾ .

وقصة النبات هنا أوضح وبسط أكثر ، وخلق الإنسان أكثر تفصيلا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾
وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ إِلَّا
مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ
الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ
فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي
الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

معانى المفردات

التسبيح : التنزيه

فسوى : أى فسواها ووضع خلقها على نظام كامل .

قدر : أى : قدر لكى حى مايصلحه مدة بقائه .

فهدى : أى : هداه وعرفه وجه الانتفاع بما خلق له .

---

(١) صحيح مسلم ٥٩٨/٢ رقم ٨٧٨ وسنن أبى داود ٦٧٠/١ رقم ١١٢٢ وسنن الترمذى ٤١٣/٢ رقم ٥٣٣ وابن ماجة ٣٥٥/١ رقم ١١١٩ ومسند أحمد ٢٧١/٤

والمرعى : كل ماتخرجه الأرض من النبات والثمار والزروع المختلفة .
والغثاء : مايقذف به السيل إلى جانب الوادى من الحشيش والنبات .
والأحوى : الذى يضرب لونه إلى السواد .
فلاتنسى : أى فلاتنساه بل تحفظه .
واليسرى : أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر .
الأشقى : هو المعاند المصر على الجحد والإنكار ، المتمكن من نفسه الكفر .
يصلى النار أى : يذوق حرها .
النار الكبرى : هى أسفل دركات الجحيم .
لايموت فيها ولا يحيى : لايموت أى : فيستريح ، ولايحيا أى : حياة طيبة فيسعد .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾

أى : نزه اسم ربك عن كل ما لايليق بجلاله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلاتذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولاتطلق اسمه على غيره زاعما أنه يشاركه فى صفاته .

أى : منزه اسم ربك من كل ما لايليق بجلاله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه فلاتذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولاتطلق اسمه على غيره زاعما أنه يشاركه فى صفاته .

قال القرطبى : قال ابن عباس والسدى : معنى (سبح اسم ربك الأعلى) أى : عظم ربك الأعلى . وقيل : نزه ربك عن السوء وعما يقول فيه الملحدون . وذكر الطبرى : أن المعنى نزه اسم ربك عن أن تسمى به أحدا سواه . وقيل : نزه تسمية ربك وذكرك إياه أن تذكره وأنت خاشع معظم .

قال الامام أحمد بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قرأ : (سبح اسم ربك الأعلى) قال : « سبحان ربى الأعلى »[(١)] .

قال القرطبى : وروى عن علىّ وابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبى موسى وعبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنهم ـ أنهم كانوا اذا افتتحوا قراءة هذه السورة قالوا : سبحان ربى الأعلى ، امتثالا لأمره فى ابتدائها ، فيختار الاقتداء بهم فى قراءتهم .

وقال الإمام أحمد بسنده عن عقبة بن عامر الجهنى لما نزلت (فسبح باسم ربك العظيم) قال لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ اجعلوها فى ركوعكم » فلما نزلت (سبح اسم ربك الأعلى) قال « اجعلوها فى سجودكم »[(٢)] .

(١) مسند أحمد ٢٣٢/١ وسنن أبى داود ٥٤٩/١ رقم ٨٨٣

(٢) مسند أحمد ٢٧١/٤

« العلى الأعلى »

قال الشيخ عبدالرحمن عبدالخالق :

جاء الكتاب والسنة والآثار عن السلف مما يثبت إثباتا لاشك فيه أن الله سبحانه وتعالى هو العلى ، وهو الأعلى بكل مايوحيه هذان الاسمان من معان .

فقد سمى الله نفسه بـ (الأعلى) فى قوله تعالى : (سبح اسم ربك الأعلى)

وقال جل وعلا : ﴿ ومالأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ . وسمى نفسه بـ (العلى) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وأن الله هو العلى الكبير ﴾ . وغير ذلك من الآيات .

وهذا الوصف (العلو) يتضمن معنيين كلاهما ثابت لله سبحانه وتعالى ـ وهما : علو المكان وعلو المكانة .

فمنزلة الله سبحانه وتعالى فوق كل منزلة ، ومكانته سبحانه وتعالى فوق كل مكانة ، فهو الواحد الأحد الذى ليس له شبيه من خلقه ولاند له ، ولامثيل له ، ولاكفء له ، الخلق عبيده ، وفى قبضته وقهره وتحت سلطانه ، ولاخروج لأحد من قهره وسلطانه أبدا ولاعلم لأحد من خلقه إلا بما شاء ولارحمة إلا مايرسلها ولاممسك لرحمته عن من يشاء بل هو المتصرف وحده سبحانه وتعالى ، ومن خالف فى شىء من ذلك فهو مشرك جاحد .

وأما المعنى الثانى من معانى العلو فهو علو ذاته إذ هو سبحانه وتعالى فوق خلقه مستو على عرشه ، اليه يصعد الكلم الطيب ، وتعرج الملائكة والروح إليه ، ويتنزل الأمر من عنده والقرآن والسنة كلها شواهد باثبات هذا المعنى . . .

ثم ذكر سبحانه من أوصافه الجليلة ، ومظاهر قدرته الباهرة ودلائل وحدانية وكماله فقال تعالى : ﴿ الذى خلق فسوى) أى : خلق المخلوقات جميعها فأتقن خلقها ، وأبدع صنعها ، فى أجمل الأشكال ، وأحسن الهيئات . كما قال تعالى : ﴿ الذى أحسن كل شىء خلقه ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والذى قدر فهدى ﴾ أى : قدر فى كل شىء خواصه ومزاياه بما تجل عنه العقول والأفهام ، وهدى الإنسان لوجه الانتفاع بما أودعه فيها ، وهدى الأنعام إلى مراعيها ، ولوتأملت مافى النبات من الخواص ، ومافى المعادن من المزايا والمنافع ، واهتداء الإنسان لاستخراج الأدوية والعقاقير النافعة من النباتات واستخدام المعادن فى صنع المدافع والطائرات . لعلمت حكمة العلى القدير ، الذى لولا تقديره وهدايته لكنا نهيم فى دياجير الظلام كسائر الأنعام قال المفسرون : إنما حذف المفعول لافادة

العموم أى قدر لكل مخلوق وحيوان مايصلحه فهداه إليه وعرفّه وجه الانتفاع به .

وهذه الآية كقوله تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لفرعون : ﴿ ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ﴾[(١)] أى قدر قدرا وهدى الخلائق اليه كما ثبت فى صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أنْ يخلقَ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء »[(٢)]

قوله تعالى : ﴿ والذى أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى ﴾

أى : والذى أنبت النبات جميعه ، لترعاه الدواب والنعم ، فما من نبت إلا وهو يصلح أن يكون مرعى لحيوان من الأجناس الحية ، (فجعله غثاء أحوى) أى فجعل هذا المرعى بعد أن كان أخضر هشيما باليا كالغثاء يميل لونه إلى السواد فهو القادر سبحانه على إنبات العشب ، وعلى تبديل حاله .

قال عبدالرحمن بن زيد : أخرج المرعى أخضر ، ثم لما يبس أسود من احتراقه فصار غثاء تذهب به الرياح والسيول . وهو مثل ضربه الله تعالى للكفار لذهاب الدنيا بعد نضارتها .

- قوله تعالى : ﴿ سنقرئك فلاتنسى إلا ماشاء الله ﴾ أى : (سنقرئك) يامحمد القرآن (فلاتنسى) وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له بأنه سيقرئه قراءة لاينساها وقوله تعالى : ﴿ إلا ماشاء الله ﴾ أى : لكن ماأراد الله نسخه فانك تنساه .

وفى هذه الآية معجزة له عليه الصلاة والسلام ، وكونه يحفظ هذا الكتاب العظيم من غير دراسة ولاتكرار ولاينساه أبدا ، من أعظم البراهين على صدق بنوته - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله تعالى : ﴿ إنه يعلم الجهر ومايخفى ﴾ أى : هو تعالى عالم بما يجهر به العباد ومايخفونه من الأقوال والأفعال ، لاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء كما قال تعالى : ﴿ له مافى السماوات ومافى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾[(٣)] .

وفى قوله تعالى : ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أى : ونوفقك للشريعة السمحة البالغة اليسر التى هى أيسر وأسهل الشرائع السماوية وهى شريعة الإسلام .

قوله تعالى : (فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ قال ابن كثير : أى ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن هنا يؤخذ الأدب فى نشر العلم فلايضعه عند غير أهله .

وقوله تعالى : ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ أى : سينتفع بهذه الذكرى والموعظة من يخاف الله تعالى - كما قال جل وعلا : ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[(٤)] . وكما قال

---

(١) سورة طه الآية : ٥٠
(٢) صحيح مسلم - كتاب القدر ٢٠٤٤/٤ رقم ١٦
(٣) سورة طه الآيات : ٦ ، ٧ ، ٨
(٤) سورة ق الآية : ٣٧

سبحانه : ﴿ وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾[١].

وقال القرطبى : قد يذكر من يرجوه ، إلا أن تذكرة الخاشى أبلغ من تذكرة الراجى ؟ فلذلك علقها بالخشية دون الرجاء ، وإن تعلقت بالخشية والرجاء .

قوله تعالى : ﴿ ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لايموت فيها ولايحيى ﴾ . أى : ويرفضها ويبتعد عن قبول الموعظة الكافر المبالغ فى الشقاوة (الذى يصلى النار الكبرى) أى : الذى يدخل نار جهنم المستعرة العظيمة الفظيعة قال الحسن : النار الكبرى نار الآخرة والصغرى نار الدنيا (ثم لايموت فيها ولايحيى) أى لايموت فيستريح ، ولايحيا الحياة الطيبة الكريمة ، بل هو دائم فى العذاب والشقاء . كما قال تعالى : ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ، ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور وهم يصطرخون فيها ربناأخرجنانعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أى : قد فاز من طهر نفسه بالإيمان ، وأخلص عمله للرحمن ، (وذكر اسم ربه فصلى) أى : وذكر عظمة ربه وجلاله ، فصلى خشوعا وامتثالا لأمره .

قال ابن كثير : قال أبوبكر البزار بسنده : عن جابر بن عبدالله عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (قد أفلح من تزكى) قال : من شهد أن لا إلـه إلا الله ، وخلع الأنداد وشهد أنى رسول الله ، (وذكر اسم ربه فصلى) قال هى الصلوات الخمس والمحافظة عليها والاهتمام بها[٣] .

والآية الكريمة كقوله تعالى : ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير ﴾[٤] .

قال القرطبى : وعن عطاء وأبى العالية وقتادة : أنها نزلت فى صدقة الفطر . وعن ابن سيرين : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) قال خرج فصلى بعد ماأدى . وقال عكرمة : كان الرجل يقول أقدم زكاتى بين يدى صلاتى . فقال سفيان قال الله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى ﴾ .

وقال قتادة فى هذه الآية : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) زكى ماله وأرضى خالقه .

قوله تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ﴾ أى : بل تفضلون أيها الناس هذه الحياة الفانية على الآخرة الباقية ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ أى : والحال أن الآخرة خير من الدنيا وأبقى ، لأن الدنيا فانية ، والآخرة باقية ، والباقى خير من الفانى ، فكيف يؤثر عاقل مايفنى على مايبقى ؟ وكيف يهتم بدار الغرور ، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلود ؟

(١) سورة ق الآيات : ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
(٢) سورة فاطر الآيتان : ٣٦ ، ٣٧
(٣) انظر تفسير ابن كثير ـ طبعة الشعب ـ سورة سبح
(٤) سورة فاطر الآية : ١٨

قرأ ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ هذه الآية فقال لأصحابه : أتدرون لم آثرنا الحياة الدنيا على الآخرة ؟ قالوا : لا ، قال : لأن الدنيا أحضرت وعجلت لنا بطعامها ، وشرابها ز ونسائها ولذاتها ، وبهجتها وأن الآخرة غيبت وزويت عنا ، فأحببنا العاجل ، وتركنا الآجل .

وقوله تعالى : ﴿ **إن هذا لفى الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى** ﴾ أى : إن هذه المواعظ المذكورة فى هذه السورة الكريمة مثبتة فى الصحف القديمة المنزلة على ابراهيم وموسى ـ عليهما السلام ـ فهى مما توافقت فيه الشرائع ، وسطرته الكتب السماوية ، كما سطره هذا الكتاب المجيد قال تعالى : ﴿ **أم لم ينبأ بما فى صحف موسى وابراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ماسعى وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى ، وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى** ﴾(١) .

قال القرطبى : وروى الآجرى من حديث أبى ذر قال : قلت يارسول الله فما كانت صحف ابراهيم ؟ قال : كانت أمثالا كلها : أيها الملكُ المتسلط المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ولكن بعثتك لتردعنى دعوة المظلوم فإنى لاأردها ولو كانت من فم كافر . وكان فيها أمثال : وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه يفكر فيها فى صنع الله عز وجل ـ وساعة يخلو فيها لحاجته من المطعم والمشرب ، وعلى العاقل ألا يكون ظاعنا الا فى ثلاث : تزود لمعاد، ومرمة لمعاش ، ولذة فى غير محرم . وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه ، مقبلا على شانه ، حافظا للسانه ، ومن عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه .

قال : قلت يارسول الله فما كانت صحف موسى ؟ قال « كانت عبرا كلها : عجبت لمن أيقن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن أيقن بالحق كيف ينصب ، وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن اليها ، وعجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثم هو لايعمل » قال قلت يارسول الله ، فهل فى أيدينا شىء مما كان فى يدى ابراهيم وموسى مما انزل الله عليك ؟ قال نعم اقرأ ياأبا ذر « قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى ، إن هذا لفى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى »

قال القرطبى : لم يرد أن هذه الألفاظ بعينها فى تلك الصحف ، وإنما هو على المعنى ، أى : إن معنى هذا الكلام وارد فى تلك الصحف . والله أعلم(٢) .

---

(١) سورة النجم الآيات : من ٣٦ إلى ٤٧

(٢) تفسير القرطبى ـ الغاشية الآية رقم ١٩ جزء ٣٠ صفحة ٢٤ .

تفسير سورة الغاشية

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ست وعشرون آية .

وكلماتها : اثنتان وتسعون كلمة .

وحروفها : ثلاثمائة وأحد وثمانون .

فواصل آياتها (عمرته) .

سميت سورة الغاشية لذكرها .

معظم مقصود السورة :

التخويف بظهور القيامة ، وبيان حال المستوجبين للعقوبة وذكر حال المستحقين للمثوبة وإقامة الحجة على وجود الحق ووعظ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ للأمة على سبيل الشفقة ، وأن المرجع إلى الله تعالى فى العاقبة فى قوله تعالى : ﴿ إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ﴾ وبعده : (وجوه يومئذ) ليس بتكرار ؛ لأن الأول هم الكفار ، والثانى المؤمنون . وكان القياس أن يكون الثانى بالواو للعطف ؛ لكنه جاء على وفاق الجمل قبلها وبعدها . وليس معهن واو العطف البتة .

(وإلى السماء) (وإلى الجبال) ليس من الجمل ، بل هى إتباع لما قبلها .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه أشير فى السورة السابقة إلى المؤمن والكافر والجنة والنار إجمالاً ، وبسط الكلام فيها هنا .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ
نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾
لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾

فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا
سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ
مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾
فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾
فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

معانى المفردات

الغاشية : القيامة ، سميت بذلك لأنها تغشى الناس بشدائدها وأهوالها .

خاشعة : أى ذليلة .

عاملة : أى : وقع منها عمل فى الدنيا .

ناصبة : أى : تعبة .

(عين آنية) العين : ينبوع الماء والآنية الشديدة الحر .

الضريع : شجر ذو شوك لائط بالأرض ، فإذا كان رطبا سمى بالشبرق .

ناعمة : أى : ذات بهجة وحسن .

عالية : أى : فى المكان ، لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض .

واللاغية : اللغو والكذب .

عين جارية : أى ينبوع ماء جار .

والسرر : واحدها سرير وهو ما يجلس أو ينام عليه ، وأفضله ما كان مرفوعاً عن الأرض .

والأكواب : واحدها كوب وهو مالا عروة له ، من الكيزان .

موضوعة : أى معدة ومهيأة للشراب .

والنمارق : واحدها نمرقه (بضم النون وكسرها) وهى الوسادة .

والزرابى : واحدها زربى (بكسر الزاى) وزربية وهو البساط .

مبثوثة : أى مفرقة فى المجال بحيث يرى فى كل مجلس شىء منها كما يرى فى بيوت ذوى الثراء .

سطحت : سطح الأرض : تمهيدها وتوطئتها للإقامة عليها والمشى فوقها .

بمسيطر : أى بمسلط تجبرهم على ما تريد .

إيابهم : أى : رجوعهم .

التفســــير

قوله تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ .

أى : هل بلغك نبأ يوم القيامة وعلمت قصصه أو إننا سنعلمك شأنه الخطير .

وهذا أسلوب من الكلام لا يراد منه حقيقة الاستفهام ، بل يراد منه تعجيب السامع مما سيذكر بعد ، وتشويقه إلى استماعه وتوجيه فكره إلى أنه من الأحاديث التى من حقها أن تتناقلها الرواة ، ويحفظها الوعاظ .

ثم فصل شأن أهل الموقف فى ذلك اليوم الرهيب ، وذكر أن أهله فريقان : فريق الكفرة الفجرة ، وفريق المؤمنين البررة وقد أشار إلى الأولين بقوله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ خاشعة) أى : وجوه يومئذ يظهر عليها الخزى والهوان مما ترى وتشاهد من الهول ، كما قال تعالى : ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ﴾(١) وكقوله : ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى ﴾(٢) وقوله تعالى : ﴿ عاملة ناصبة ﴾ أى : قد عملت عملاً كثيراً ورضيت فيه وصليت يوم القيامة ناراً حامية .

قال الحافظ أبو بكر البرقانى بسنده عن جعفر قال : سمعت أبا عمران الجونى يقول مر عمر ابن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ بدار راهب قال : فناداه ياراهب فأشرف قال : فجعل عمر ينظر إليه ويبكى فقيل له : يا أمير المؤمنين ما يبكيك من هذا ؟ قال : ذكرت قول الله ـ عز وجل ـ فى كتابه ﴿ عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ﴾ فذاك الذى أبكانى . وفحو الآية قوله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾(٣) .

وكقوله : ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾(٤) .

وقوله : ﴿ تصلى ناراً حامية ﴾ أى : حارة شديدة الحر . ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أى : قد انتهى حرها وغليانها كما قال سبحانه : ﴿ إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا ﴾(٥) .

---

(١) سورة السجدة الآية : ١٢

(٢) سورة الشورى الآية : ٤٥

(٣) سورة الفرقان الآية : ٢٣

(٤) سورة الكهف الآية : ١٠٤

(٥) سورة الكهف الآية : ٢٩

وقوله تعالى) ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ قال سعيد بن جبير : هو الزقوم . قال عكرمة وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض . وقال البخارى : قال مجاهد الضريع نبت يقال له الشبرق يسميه أهل الحجاز الضريع إذا يبس وهو سم .

وقال قتادة فى قوله تعالى : ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ من شر الطعام وأبشعه وأخبثه .

وقوله : ﴿ لا يسمن ولا يغنى من جوع ﴾ أى : إن هذا الطعام لا يدفع جوعاً ، ولا يفيد سمنا ، فليس له فائدة الطعام التى لأجلها يؤكل فى الدنيا ، وقد سمى الله ذلك الطعام بالضريع تشبيها له به .

وقد جاء فى سورة الحاقة فى وصف طعام الكافرين قوله تعالى : ﴿ ولا طعام إلا من غسلين ﴾(١) وفى سورة الواقعة ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ﴾(٢) وفى سورة الدخان ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾(٣) . وفى سورة النبأ ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ﴾(٤) .

قال القرطبى : ووجه الجمع أن النار دركات ، فمنهم من طعامه الزقوم ، ومنهم من شرابه الحميم ، ومنهم من شرابه الصديد .

قال القتبى : ويجوز أن يكون الضريع وشجرة الزقوم نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار وكذلك الزقوم نبتين من النار أو من جوهر لا تأكله النار وكذلك سلاسل النار وأغلالها وعقاربها وحياتها ، ولو كانت على ما نعلم ما بقيت على النار . قال : وإنما دلنا الله على الغائب عنده بالحاضر عندنا ، فالأسماء متفقة الدلالة ، والمعانى مختلفة . وكذلك ما فى الجنة من شجرها وفرشها . وأمثل من قول القُتبى أن يقول) إن الذى يبقى الكافرين فى النار ليدوم عليهم العذاب يبقى النبات وشجرة الزقوم فى النار ليعذب بها الكفار . !

جزاء المؤمنين

قوله تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، فى جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة ، وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ﴾ .

لما ذكر سبحانه حال الأشقياء ثني بذكر السعداء فقال تعالى : ﴿ وجوه يومئذ ناعمة ﴾ أى : يعرف النعيم فيها كما قال تعالى: ﴿ تعرف فى وجوههم نضرة النعيم ﴾ .

أخرج الإمام أحمد بسنده عن أنس قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إن طير الجنة كأمثال البخت

---

(١) سورة الحاقة الآية : ٣٦
(٢) سورة الواقعة الآيتان : ٥١ ، ٥٢
(٣) سورة الدخان الآيتان : ٤٣ ، ٤٤
(٤) سورة النبأ الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

يرعى فى شجر الجنة » فقال أبو بكر يا رسول الله إن هذه لطير ناعمة فقال - ﷺ - : أكلها أنعم منها - قالها ثلاثاً - وإنى لأرجو أن تكون ممن يأكل منها(١) .

وقوله تعالى : ﴿ لسعيها راضية ﴾ أى : لعملها الذى عملته فى الدنيا وطاعتها لله راضية ، لأن هذا العمل أورثها الفردوس دار المتقين .

وقوله : ﴿ فى جنة عالية ﴾ أى : فى حدائق وبساتين مرتفعة مكاناً وقدراً ، وهم فى الغرفات آمنون كما قال تعالى : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار وعد الله لا يخلف الله الميعاد ﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أى : لا تسمع فى الجنة شتماً ، أو سباً أو فحشاً قال ابن عباس) لا تسمع أذى ولا باطلاً كما قال تعالى : ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلا سلاماً سلاماً ﴾ (٣) .

قال الفراء : لا يسمع فى كلامهم كلمة بلغو ، لأن أهل الجنة لا يتكلمون إلا بالحكمة وحمد الله على ما رزقهم من النعيم الدائم .

قوله تعالى : ﴿ فيها عين جارية ﴾ أى : فيها عيون تجرى بالماء السلسبيل لا تنقطع أبداً قال الزمخشرى : التنوين فى (عين) للتكثير أى : عيون كثيرة تجرى مياهها .

وقوله : ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أى : عالية ناعمة كثيرة الفرش .

مرتفعة السمك عليها الحور العين قالوا : فإذا أراد ولى الله أن يجلس على تلك السرر العالية تواضعت له .

وقوله تعالى : ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ أى : وأقداح موضوعة على حافات العيون ، معدة لشربهم لا تحتاج إلى من يملأها .

وقوله تعالى : ﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ أى : ووسائد صُفَّ بعضها إلى جانب بعض ليستندوا عليها .

وقوله تعالى : ﴿ وزرابى مبثوثة ﴾ قال ابن عباس - رضى الله عنهما - الزرابى البسط وكذا قال غير واحد ، ومعنى مبثوثة أى ههنا وههنا لمن أراد الجلوس عليها .

أخرج أبو بكر بن أبى داوود بسنده عن كريب أنه سمع أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله - ﷺ - : « ألا هل من نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مُطَّرِد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، فى مقام أبداً دور عالية سليمة بهية وفاكهة وخضرة ، وحبرة ونعمة ،

(١) مسند أحمد ٢٢١/٣

(٢) سورة الزمر الآية : ٢٠

(٣) سورة الواقعة الآيتان : ٢٥ ، ٢٦

فى محلة عالية بهية ، قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال : « قولوا : إن شاء الله » قال القوم : إن شاء الله ، ورواه ابن ماجة عن العباس بن عثمان الدمشقى به[١] .

آيات باهرة

قوله تعالى :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ .

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر فى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ؟ ﴾ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب ، فإنها فى غاية القوة ، والشدة وهى مع ذلك تلين للحمل الثقيل وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها ، إنما خص تعالى الإبل بالذكر لأنها أفضل دواب العرب وأكثرها نفعاً ، ولهذا تسمى « سفينة الصحراء » فهى مراكب البر ولذلك قرنها الله ـ تعالى ـ بالسفن فى قوله تعالى : ﴿ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴾[٢] .

عجائب خلق الجمل

قال العلماء :

« لهذا الحيوان قدرة عجيبة على تحمل المعيشة فى مناطق تختلف بين الصحراء القاسية بحرها اللافح ، وشمسها المحرقة ومائها النادر ، وبين مناطق جبلية شديدة البرودة . والجمل من أقدم الحيوانات التى استأنسها الإنسان وسخرها لمنفعته ، فاتخذ منها مطية يقطع بها الفيافى والقفار ، ودابة للحمل لا تضجر ولا تكل .

ومن قدرة الله ـ عز وجل ـ أن جعل جسم هذا المخلوق ملائماً للبيئة التى يعيش فيها ، إذ نرى أذن الجمل صغيرة غزيرة الشعر ، حتى لا تتعرض لأقل ضرر من الرمال ، وكذلك المنخر جاء على شكل شق يغلق عند هبوب الزوابع الرملية . والعين مزودة بصفين من الرموش الطويلة لوقايتها من الحصى المتطاير .

---

(١) مسند ابن ماجة ١٤٤٨/٢ رقم ٤٣٣٢

(٢) سورة المؤمنون الآية : ٢٢

وأبرز تكيفات الجمل أرجله الطويلة التى ينتهى كل منهابخف أسفنجى لين ، زوده الله بها ليسير فوق الرمال الناعمة بكل يسر وسهولة .

ومن طريف ، وعلى غير ما نألف فى الحيوانات الأخرى ، نرى الجمل حين يسير يتمايل يمنة ويسرة ، لأنه حين يخطو إلى الأمام ينقل الرجلين الأمامية والخلفية فى جانب واحد معاً ، وينتج من هذه الحركة تمايل محسوس يشبه تمايل السفينة وهى تمخر عباب الماء .

ولهذا عرف الجمل باسم « سفينة الصحراء » .

سر صبر الجمل على العطش

معروف أن الجمل من الحيوانات المجترة ، والمعدة عنده مركبه من ثلاث غرف ، وتحتوى إحدى هذه الغرف على أكياس تسمى الأكياس المائية ، كان يعتقد أن الحيوان يختزن فيها الماء ليستهلكه فى أوقات العطش .

ولكن التجارب التى أجرتها بعثة اليونسكو التى عهدت إليها بهذا البحث انتهت إلى نتائج نشرتها اللجنة فى عام ١٩٥٥ م بمجلة « كوريير » وملخص النتائج التى وصلت إليها اللجنة أن قدرة الجمل على أن يعيش دون ماء تفوق قدرة الحيوانات الثديية الأخرى .

أما القول بأن الجمل يختزن ماء فى معدته فقد أدت أبحاث نلسن وزملائه إلى دحض هذا الرأى ، لأن الجمل لا يشرب من الماء إلا ما يكفى لتعويض ما سبق أن فقده فى فترة حرم خلالها الشرب ، ولم يثبت أن الحيوان يشرب كمية فائضة من الماء يمكن أن تعتبر ماء مخزوناً .

أما عن الأكياس المائية الموجودة فى جدار المعدة ، فلا يمكن أن تتسع لاختزان الماء بالكمية التى تكفى لسد حاجة الحيوان فى حجم الجمل .

وتحتوى معدة الجمل على كمية من السوائل مثلها فى ذلك مثل المعدة فى كافة المجترات الأخرى .

وهذا السائل عبارة عن مزيج أخضر ، كريه الرائحة ، لا شبه له بالماء ، وإنما هو قريب الشبه بالعصارات المعدية فى الحيوانات الأخرى ، ولا تحتوى هذه الأكياس إلا على كمية ضئيلة من السائل ، كما تحتوى أساساً على غذاء ممضوغ لم يتم هضمه .

هل السر يكمن فى السنام ؟

ومقابل الصدفة التى نتجت من عدم وجود ماء فى جوف الجمل مالت الأفكار إلى أن مخزن الجمل للماء يكمن فى سنامه ، وذلك أن الجمل يمكنه استغلال ما بالسنام من دهن مختزن يحرقه خلال عملية التنفس ، حيث تتحول بعض هذه الدهون إلى طاقة ، ويتكون نتيجة ذلك الماء الذى يسد احتياجات الجسم .

فما مدى صدق هذا الرأى ؟

إن الجمل بالفعل يستفيد من دهن السنام ، ولكن عند الجوع وعدم توفر الغذاء ، حيث يتأكسد بعض ما يحتويه دهن السنام من عنصر الهيدروجين بالأكسجين لتوليد الطاقة اللازمة للجسم . وينتج مع هذا التأكسد بعض الماء .

ولكن عملية التأكسد هذه تستلزم كمية كبيرة من الأكسجين ، وهذا يتطلب ارتفاعاً كبيراً فى معدل عملية التنفس .

ويصحب هذه الزيادة فى معدل عملية التنفس زيادة فى بخار الماء التى تخرج مع هواء الزفير .

ومن هنا فإن الماء الناتج من الأكسدة لدهون السنام لا يمكن أن تفى باحتياجات الجسم ، كما لا يمكن القول بأن الجمل يسير فى الصحراء وهو يحمل على ظهره خزاناً من الماء ، متمثلاً فى سنامه ، ولكن يمكن القول فى أنه يحمل خزاناً من الطاقة ممثلاً فى ذلك السنام .

إذن ماذا يفعل الجمل ليتحمل العطش ؟

لقد زود الله ـ سبحانه ـ هذا الحيوان الأعجوبة ، بوسائل تمكنه من تحمل العطش أياماً عديدة .

إنها وسائل لم تكن معروفة حتى وقت ليس ببعيد . من ذلك أن للجمل قدرة عجيبة على تحمل العطش من واقع قدرته على تحمل النقص الشديد فى الماء الموجود بأنسجة الجسم ، وأنه فى خلال ذلك لا يفقد الماء من سائله الدموى إلا بنسبة ضئيلة جداً .

وهو يختلف فى هذا الشأن عن معظم الحيوانات الثدية الأخرى ! والتى تفقد نسبة كبيرة من الماء الموجود فى دمائها إذا تعرضت للظروف نفسها مما يؤدى إلى الموت السريع إذا لم يبادر الحيوان إلى تجرع الماء .

والنتيجة : أن الجمل يحتاج إلى كميات من الماء تقل كثيراً عن تلك التى يحتاجها معظم الثدييات الأخرى ، إلا أنه لابد له أن يشرب الماء إذا كان ما يغتذى به من نباتات صحراوية خلواً منه .

● ومن ذلك أيضاً أنفه العجيب !!

فقد دلت الدراسات أن سر الجمل فى أنفه ، وأنه يحفظ الماء بطريقة تنفسه العجيبة ، وأن العامل الأكبر فى ذلك هو أنف الجمل الكبير .

إن بطانة أنفه الداخلية مجعدة ، أى : أن مساحتها واسعة ، وفى الليل تمتص البطانة رطوبة النفس الخارج حائلة بذلك دون خروج الماء .

وبذلك يكون الجمل هو الحيوان الوحيد المعروف عنه حتى الآن أنه يستعيد الماء الموجود فى هواء تنفسه .

وبوسع تجعدات الأنف أن تخفض حرارة أنفاس الجمل فى الليل بما يقرب من ٨ درجات مئوية تحت مستوى حرارة جسمه . وبهذه الطريقة يحتفظ الجمل بالماء ، لأن الهواء البارد أقل رطوبة من الهواء الدافىء .

أما نسبة الماء التى يحتفظ بها الجمل بهذه الطريقة فهى ٧٠٪ مما تحمله أنفاسه من ماء .

وهناك طريقة أخرى يلجأ إليها الجمل للمحافظة على الماء ، وهى أن يعمل على رفع درجة حرارة جسمه إلى نحو ٤٠ أو ٤٠,٧ درجة مئوية فى الجو الحار نهاراً ، وبذلك يقل الفارق بين حرارة الجو وحرارة الجسم .

وعندما يحل الليل فإنه يسرِّب هذه الحرارة الزائدة فى الجو ، وهو الشىء الذى يدركه البدو الذين ينامون بجوار الجمال ليلاً للاستفادة من دفء أجسامها ، ومن الحرارة التى تشع منها ، ثم تنخفض حرارة الجسم ليلاً إلى دون درجة ٣٤ مئوية بحيث ينقضى وقت طويل من النهار قبل أن تعود درجة الجسم للارتفاع ، وبذلك لا يشعر الجمل بوطأة الحر .

فأى إعجاز هذا الذى نراه ؟

هل يعرق الجمل ؟

تتميز الثدييات بين سائر المخلوقات بوسيلة ابتراد ، وهى العرق ، وذلك أنها لا تملك القدرة على رفع درجة حرارة جسمها بصنع درجات كما هى الحال مع الجمل ، ولكنها تدفع عن نفسها زيادة الحرارة بتكوين العرق الذى يخرج إلى سطح الجلد ، ويؤدى تبخره إلى تلطيف وتبريد الجسم .

ولكن الجمل معروف بجفاف جسمه ، وأنه حيوان لا يعرق ، وأن جلده بلا غدد عرقية ، وهى الغدد التى لا يحتاج التعرف على وجودها إلى جهد علمى كبير .

وظل الجمل معروفا بعدم وجود غدد عرقية له حتى عام ١٩٥٦ م حين تبين أن له غدداً عرقية ، توجد على السطح البطنى ، وعند التقاء الأطراف بالجسم .

ولكن متى وكيف يعرف ؟

عندما لا يفيد ارتفاع درجة حرارة الجسم إلى فوق الأربعين درجة مئوية فى حماية الجمل من حرارة الجو فإن الغدد عنده تبدأ فى إفراز العرق إلى سطح الجلد .

ومن المفروض أن يعمل العرق على ترطيب الشعر ، وأن يعمل تبخر العرق من الشعر المبلل على تلطيف حرارة جسم الجمل ، وهذا بالطبع يتسبب فى أن يفقد الجمل ماء كثيراً .

وهنا تبرز حكمة الله ـ عز وجل ـ والإعجاز فى الخلق ، فكل شىء عند الجمل يحدث بما يحفظ له الحياة فى يسر وهناء .

فمجرد خروج العرق يحدث أن ينتصب عادة عند الثدييات فى الجو البارد ليحجز الهواء الدافىء حول الجلد والإقلال من تسربه إلى الجو .

فحكمة الله ـ العلى القدير ـ اقتضت أن يحدث العكس عند الجمل . إن الشعر ينتصب عنده فى الجو الحار فيسمح بتبخر العرق من الجلد إلى الجو مباشرة دون أن يحدث تبلل للشعر .

أى : إن الجمل يوفر على نفسه حتى القدر القليل من الماء الذى يمكن أن يبلل الشعر فيه .

الجمل يشرب من ماء البحر .

وإعجاز آخر يتميز به الجمل دون غيره من الثدييات ، إذ أنه الحيوان الوحيد الذى يمكن عند الضرورة أن يشرب من ماء البحر .

ويكمن الإعجاز الإلهى فى طبيعة الكلى لدى هذا المخلوق إذ تتميز بقدرة عجيبة على تخليص الجسم من الأملاح الزائدة بكثرة .

والجمل فوق ذلك يبقى البول فى مثانته ولا يتخلص منه طالما هو بحاجة للماء ، ويمتص الدم من الماء شيئاً فشيئاً ، وعندما يصل تركيز البول حداً كبيراً يعود الدم فيمتصه ويدفع به إلى المعدة .

وفى المعدة تقوم بعض البكتريا والكائنات الحية الدقيقة التى تعيش فيها على تحويل البولينا إلى أحماض أمينية من جديد أى : إلى مواد بروتينية وماء .

الخف مخزن عجيب للماء عند الجمل

وقمة الإعجاز عند الجمل تكمن فى الخف .

إنه إعجاز إلهى لا يكاد يصدق ، فكيف يمكن أن يعمل الخف مخزناً للماء ؟!

لقد تبين أن الخف عند الجمل عبارة عن وسادة مائية كاملة مميزة ومذهلة وأن الجمل عندما يشرب الماء الوفير تعمل أنسجة الخف على حفظ جزيئات الماء فى صورة سلاسل .

إنها جزئيات تنتظم فى صورة ثلاث سلاسل تلتف حول بعضها كالجديلة ، وكلما زاد الماء المختزن كلما كانت الجديلة أقل التفافاً .

وعندما يحتاج الجمل للماء فإنه يستفيد من هذا المخزون ، ويمتص دمه منه احتياجه ، ويعمل نقص الماء على انجدال السلسلة حول نفسها أكثر فأكثر ، وهكذا تنفك الجديلة عند الشرب وتنجذل أكثر عند العطش .

سبحانك اللهم فى هذا الإعجاز وما أصدقك إذ تقول :

﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت ﴾ .

إنه مخلوق عجيب يمثل إعجازاً متحركاً يسعى فى الصحراء كدليل على قدرة الله ـ عز وجل ـ وهو بيان لكل ذى لب ليدرك عظمة الله الخالق فى خلقه .

﴿ ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه وهو على كل شىء وكيل ﴾[(١)] . أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ .

أى : ألا يشاهدون السماء وقد رفعت رفعاً سحيق المدى بغير عمد ؟ قال تعالى : ﴿ خلق السموات بغير عمد ترونها ﴾[(٢)] وقال سبحانه : ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾[(٣)] ، وقال جلا وعلا : ﴿ الله الذى رفع السمٰوات بغير عمد ترونها ﴾[(٤)] .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ١٠٢
(٢) سورة لقمان الآية : ١٠
(٣) سورة ق الآية : ٦
(٤) سورة الرعد الآية: ٢

عجائب خلق السماء

يقول ابن القيم رحمه الله :

تأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة تراها من أعظم الآيات فى علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علواً كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ، ولا عمد تحتها ولا علاقة فوقها بل هى ممسوكة بقدرة الله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذى هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى أن من أصابه شىء أضر ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد ، وقال الأطباء إن من كلَّ بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى أجانة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المنقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه أضعاف ذلك .

﴿ هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ أى : ألا يشاهدون الجبال كيف وضعت وضعاً ثابتاً لا ميدان فيه ولا اضطراب فيتسنى ارتقاؤها فى كل حين ، وتجعل أمارة للسالكين فى تلك الفيافى والقفار ، وتنزل عليها المياه التى ينتفع بها فى سقى النبات ورى الحيوان .

الحكمة العجيبة فى الجبال

قال ابن القيم رحمه الله : ثم تأمل الحكمة العجيبة فى الجبال الذى يحسبها الجاهل الغافل فضلة فى الأرض لا حاجة إليها . وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خالقها وناصبها .

فمن منافعها أن الثلج يسقط عليها فيبقى فى قللها حاصلاً لشراب الناس إلى حين نفاده وجعل فيها ليذوب أولاً فأولاً ، فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت فى المروج والوهاد والرُبا ضروب النبات والفواكه والأدوية التى لا يكون مثلها فى السهل والرمل .

ومن منافعها : ما يكون فى حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التى بمنزلة الحصون والقلاع وهى أيضاً أكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها .

ومن منافعها : ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزبرجد والزمرد وأضعاف ذلك من أنواع المعادن الذى يعجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشىء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة .

---

(١) سورة لقمان : الآية : ١١

وفيها من المنافع مالا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها فى أمان من الرياح العظام المؤذية . ومن منافعها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت فى مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول فى مجاريها ما مرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن .

ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها فى الطرقات فهى بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاماً فقال ﴿ ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام ﴾(١) فالجوارى هى السفن وأعلام الجبال واحدها علم . مسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . ومن منابعها ما ذكره سبحانه فى كتابه أن جعلها للأرض أوتاداً تنبتها ورواسى بمنزلة مراسى السفن أعظم بها من منفعة .

وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها فى غاية المطابقة للحكمة ؟ فإنها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسترت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ، ولو بسطت على وجه الأرض لضيقت عليهم المزارع ولملأت السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والأكنان ولما سترت عنهم الرياح ولما حجبت السيول ، ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها وأليقها وأوقعها على وفق المصلحة هذا الشكل الذى نصبت عليه ولقد دعانا الله ـ سبحانه ـ فى كتابه إلى النظر فيها وفى كيفية خلقه فقال تعالى : ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت ﴾ فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها ، وعلمه وحكمته ووحدانيته هذا مع أنها تسبح بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهى التى خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها .

ومنها الجبل الذى كلم الله عليه موسى كليمه ونجيه .

ومنها الجبل الذى تجلى له ربه فساخ وتدكدك .

ومنها الجبل الذى حبب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه .

ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا فى ذيل أحدهما والمروة فى ذيل الآخر وشرع لعباده السعى بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم .

ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فلله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معفو عنها وحاجة مقضية وكربة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة ممحوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاءوا من كل فج عميق وقوفاً لربهم مستكينين

(١) سورة الشورى الآية : ٣٣

لعظمته ، خاشعين لعزته شعثاً غبراً حاسرين عن رؤسهم يستقيلونه عثراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهى بهم الملائكة فلله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام .

ومنها جبل حراء الذى كان رسول الله ـ ﷺ ـ يخلو فيه بربه حتى أكرمه الله برسالته وهو غار فى الجبل الذى فاض منه النور على أقطار العالم فإنه ليفخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالاً هى مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهى تهوى إليها كلما ذكرتها وتهفو نحوها كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته فأحبه وحببه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول فى الأرض .

هذا وأنها لتعلم لها موعداً ويوماً تنسف فيها نسفاً وتصير كالعهن من هوله وعظمته فهى مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً ﴾(1) فهذا حال الجبال وهى الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله فيا عجبا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب فليس بمستنكر على الله ـ عز وجل ـ ولا يخالف حكمته أن تخلق لها ناراً تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه فمن لم يلن لله فى هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم. هـ .

وقوله تعالى : ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ .

أى : ألا يشاهدون الأرض وقد بسطت ومهدت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنيها وانتفاعهم بما فى ظاهرها من المنافع وما فى باطنها من المعادن .

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل خلق الأرض على ما هى عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتكون مهاداً ومستقراً للحيوان والنبات والأمتعة ويتمكن الحيوان والناس من السعى من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قراراً ولا هدواً ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة وكيف يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه تعالى على ذلك بقوله : ﴿ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم ﴾(2) وقوله تعالى : ﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً ﴾(3) ، وقوله : ﴿ الذى جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً ﴾(4) .

---

(1) سورة طه الآيات : من ١٠٥ إلى ١٠٧
(2) سورة النحل الآية : ١٥
(3) سورة غافر الآية : ٦٤
(4) سورة طه الآية : ٥٣

إلهى . . . .

يا مبدع الخلق يا من لا شريك له طوبى لمن عاش بين الناس يهواك
إنى لأعجب ممن قد رأى طرفاً من فيض جودك - ربى - كيف ينساك
والله ما سعدت روحى ولا فرحت فى الدهر - ما بقيت - إلا بذكراك .

قوله تعالى : ﴿ فذكِّر إنما أنتَ مذكر ، لستَ عليهم بمسيطر إلاَّ من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ .

أى : فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ذكر بالقرآن من يخاف وعيد ، (لست عليهم بمسيطر) قال ابن زيد : لست بالذى تكرههم على الإيمان . . وقيل فى قوله تعالى : (لست عليهم بمسيطر) أى : بمسلط عليهم فتقتلهم . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ [١] ، وكقوله : ﴿ وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ [٢] .

وقوله تعالى : ﴿ إلا من تولى وكفر ، فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ أى : إنك وإن كنت داعياً وليس لك سلطان على ما فى نفوسهم فالله هو المسيطر عليهم ، وصاحب السلطان على سرائرهم فمن تولى وأعرض عن الذكرى وجحد الحق المعروض عليه فالله يعذبه العذاب الأكبر فى الآخرة ، وقد يضم إلى ذلك عذاباً فى الدنيا من قتل أو سبى الذرية أو غنيمة للأموال ، إلى نحو أولئك من صنوف البلاء التى ينزلها بهم . فقوله تعالى : ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ استثناء منقطع ، أى : لكن من تولى عن الوعظ والتذكير (فيعذبه الله العذاب الأكبر) وهى جهنم الدائم عذابها ، وإنما قال « الأكبر » لأنهم عذبوا فى الدنيا بالجوع والقحط والأسر والقتل . وقيل : هو استثناء متصل ، والمعنى : لست بمسلط إلا على من تولى وكفر ، فأنت مسلط عليه بالجهاد ، والله يعذبه بعد ذلك العذاب الأكبر . (حكاه القرطبى) .

قوله تعالى : ﴿ إنا إلينا إيابهم ثم إنا علينا حسابهم ﴾ .

أى لا مفرٌّ للمعرضين ، ولا خلاص لهم من الويل الذى أوعدوا به ، فإنهم راجعون إلينا ، وقد حق القول منا فى عقابهم وسنحاسبهم على ما كسبت أيديهم .

وفى هذا تسلية لقلب رسوله ، وإزالة أحزانه وآلامه ، لتكذيبهم إياه ، وإصرارهم على معاندته .

غداً توفى النفوس ما كسبت ويحصد الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

---

(١) سورة الرعد الآية : ٤٠
(٢) سورة ق الآية : ٤٥

تفسير سورة
الفجـــــر

مقدمــة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكيَّة . .

عدد آياتها : ثلاثون آية .

وكلماتها : مائة وسبع وعشرون .

وحروفها : خمسمائة وتسع وتسعون .

فواصل آياتها : (هاروت ندم) .

سميت سورة الفجر : لمفتتحها .

معظم مقصود السورة :

تشريف العيد ، وعرفة ، وعشر المحرم ، والإشارة إلى هلاك عاد ، وثمود ، وأحزابهم ، وتفاوت حال الإنسان فى النعمة ، وحرصه على جمع الدنيا ، والمال الكثير ، وبيان حال الأرض فى القيامة ، ومجىء الملائكة ، وتأسف الإنسان يومئذ على التقصير . . والعصيان ، وأن مرجع المؤمن عند الموت إلى الرحمة ، والرضوان ، ونعيم الجنان فى قوله تعالى : ﴿ وادخلى جنتى ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ وبعده ﴿ وأما إذا ما ابتلاه ﴾ لأن التقدير فى التالى أيضا : وأما الإنسان ، فاكتفى بذكره فى الأول ، والفاء لازم بعده ، لأن المعنى مهما يكن من شىء فالإنسان بهذه الصفة لكن الفاء آخر ليكون على لفظ الشرط والجزاء .

مناسبة السورة لما قبلها :

١ ـ أن ذكر فى تلك الوجوه الخاشعة والوجوه الناعمة ، وذكر فى هذه طوائف من المكذبين المتجربين الذين وجوههم خاشعة ، وطوائف من الذين وجوههم ناعمة .

٢ ـ أن القسم الذى فى أول السورة كالدليل على صحة ما تضمنته خاتمة السورة السابقة من الوعد والوعيد .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ
لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ
يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى
ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ
رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ
فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ
فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا
دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ
يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ
ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى
جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

معانى المفردات

والفجر : (أقسم تعالى) بالوقت المعروف . أو بفجر يوم النحر .

وليال عشر : العشر الأول من ذى الحجة .

والشفع والوتر : أى : الزوج والفرد وقيل : الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة .

والليل إذا يسر : أى : والليل إذا يمضى ويذهب .

قسم لذى حجر : مقسم به حقيق بالتعظيم لدى العقلاء .

بعاد : قوم هود ، سموا باسم أبيهم .

إرم : هو اسم جدهم وبه سميت القبيلة .

ذات العماد : الشدة أو الأبنية الرفيعة المحكمة بالعمد .

جابوا الصخر : قطعوه ونحتوا فيه بيوتهم .

ذى الأوتاد : الجيوش الكثيرة التى تشد ملكه .

سوط عذاب : عذاباً شديداً مؤلماً دائماً .

إن ربك لبالمرصاد : يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها .

ابتلاه ربه : امتحنه واختبره بالنعم أو النقم .

فقدر عليه رزقه : أى : ضيقه عليه .

كلا : ردع للإنسان عما قاله فى الحالين .

لا تحاضون : لا يحث بعضكم بعضا .

تأكلون التراث : ميراث النساء والصغار .

أكلاً لمًّا : جمعاً بين الحلال والحرام .

حبًّا جماً : كثيراً ، مع حرص وشدة .

دكت الأرض : دقت وكسرت بالزلازل .

دكاً دكاً : دكاً متتابعاً حتى صارت هباء .

والملك : ملائكة كل سماء .

أنى له الذكرى : من أين له منفعتها ؟ هيهات .

التفســـــير

قوله تعالى : ﴿ والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ .

تضمن هذا القسم خمسة أشياء ، وهى مظاهر آياته ، وقدرته ، وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته .

قال تعالى : ﴿ والفجر ﴾ الفجر هو الوقت الذى ينشق فيه الضوء ، وينفجر النور ، وقد أقسم ربنا به ، لما يحصل فيه من انقضاء الليل ، وظهور الضوء ، وما يترتب على ذلك من المنافع وهو كقوله تعالى : ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ وقوله : ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ .

قال ابن كثير : أما الفجر فمعروف وهو الصبح قاله على وابن عباس وعكرمة ومجاهد والسدى : وعن مسروق ومحمد بن كعب القرطبى : المراد به فجر يوم النحر وهو رواية عن ابن عباس .

وقال الضحاك : فجر ذى الحجة ، لأن الله ـ تعالى ـ قرن الأيام به فى قوله : « وليال عشر » أى : ليال عشر من ذى الحجة .

ثُمَّ أقسم سبحانه بالليالى العشر فى قوله : ﴿ وليال عشر ﴾ قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف : المراد بها عشر ذى الحجة . وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ ـ : « ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام ، يعنى عشر ذى الحجة ، قالوا : يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشىء »(١) .

وقيل : المراد بذلك العشر الأول من المحرم حكاه ابن جرير ولم يعزه إلى أحد وقيل : المراد العشر الأول من رمضان قال ابن كثير : والصحيح القول الأول .

ثم أقسم سبحانه بالشفع والوتر فى قوله : ﴿ والشفع والوتر ﴾ .

قال ابن عباس : الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة . .

وقال الحسن البصرى وزيد بن أسلم فى قوله : (والشفع والوتر) قالا : الخلق كلهم شفع ووتر أقسم تعالى بخلقه وهو رواية عن مجاهد .

وأخرج بن أبى حاتم مسنده من مجاهد : (والشفع والوتر) قال : الشفع الزوج ، والوتر ، الله ـ عز وجل ـ وقال أبو عبد الله عن مجاهد ؛ الله ـ سبحانه ـ الوتر ، وخلقه الشفع الذكر والأنثى .

وقوله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ وهذا قسم خامس وبعد ما أقسم سبحانه بالليالى العشر على الخصوص أقسم بالليل على العموم . قال القرطبى : أكثر المفسرين : معنى « يسر » سار فذهب . وقال قتادة وأبو العالية : جاء وأقبل . قال ابن كثير : وقد يقال إن هذا أنسب لأنه فى مقابلة قوله : (والفجر)

(١) صحيح البخارى ـ كتاب العيدين ٢٤/٢ وسنن أبى داود ٨١٥/٢ رقم ٢٤٣٨ والترمذى كتاب الصوم ١٢١/٣ رقم ٧٥٧ وابن ماجة رقم ١٧٣٩

فإن الفجر هو إقبال النهار وإدبار الليل فإذا عمل قوله : (والليل إذا يسر) على إقباله كان قسماً بإقبال الليل وإدبار النهار وبالعكس كقوله تعالى : ﴿ والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ﴾ أى : لذى عقل ولب ودين وحجى ، وإنما سمى العقل حجراً لأنه يمنع الإنسان من تعاطى مالا يليق من الأفعال والأقوال . وجواب القسم محذوف يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ ، الآية وتقديره ورب هذه الأشياء ليعذبن الكفار .

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - فى هذه الآيات المباركة :

(والفجر) ، إن أريد به جنس الفجر ، كما هو ظاهر اللفظ فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح ، التى هى أول الصلوات . فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات وختمه بقوله : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ المتضمن لآخر الصلوات ، وإن أريد بالفجر فجر مخصوص فهو فجر يوم النحر وليلته ، التى هى ليلة عرفة ، فتلك الليلة من أفضل ليالى العام . وما رؤى الشيطان فى ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغلظ منه فيها[(١)] ، وذلك الفجر فجر يوم النحر الذى هو أعظم الأيام عند الله - سبحانه - كما ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال : « إن أعظم الأيام عند الله يوم النحر » رواه أبو داود بإسناد صحيح[(٢)] ، وهو آخر أيام العشر ، وهو يوم الحج الأكبر كما ثبت فى صحيح البخارى وغيره[(٣)] .

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات ، وهما المختصان بعبادة الله والخضوع له والتواضع لعظمته ولهذا قال الخليل - عليه السلام - : ﴿ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾[(٤)] وقيل لخاتم الرسل - ﷺ - : (فصل لربك وانحر) بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده بل يشركون به ويستكبرون عن عبادته ، كحال من ذكر فى هذه السورة من قوم عاد وثمود وفرعون .

وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام (الشفع والوتر) إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر ، فى الأمكنة والأزمنة والأعمال فالصفا والمروة شفع والبيت وتر ، والجمرات وتر ومنى ومزدلفة شفع ، وعرفة وتر ، وأما الأعمال فالطواف وتر ، وركعتاه شفع ، والطواف بين الصفا والمروة وتر ورمى الجمار وتر ، كل ذلك سبع سبع ، وهو الأصل فإن الله وتر ، يحب الوتر ، والصلاة منها شفع ومنها وتر ، والوتر يوتر الشفع ، فتكون كلها وتراً ، كما قال النبى - « - : « صلاة الليل مثنى مثنى ، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت » رواه أحمد والبخارى ومسلم عن ابن عمر[(٥)] .

وأما الزمان فإن عرفة وتر ، ويوم النحر شفع وهذا قول أكثر المفسرين فى الآية ، وعن ابن عباس : الشفع آدم وحواء ، والوتر الله وحده ، وقال عمران بن حصين وقتادة : الشفع والوتر هى الصلاة وروى

(١) موطأ مالك - كتاب الحج رقم ٢٤٥ وشرح السنة للبغوى ١٥٨/٧ رقم ١٩٣٠ ووصف عبد الرزاق ٣٧٨/٤ وشعب الإيمان للبيهقى ١١/٨ رقم ٣٧٧٥ والترغيب والترهيب ١٢٦/٢

(٢) سنن أبى داود ٣٦٩/٢ رقم ١٧٦٥

(٣) صحيح البخارى - كتاب التفسير - سورة التوبة ٨٢/٦

(٤) سورة الأنعام الآية : ١٦٢

(٥) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٤٣٢ ومسند أحمد ١٠٢/٢

فيه حديثا مرفوعاً ، وقال عطية العوفى الشفع الخلق ، قال الله تعالى : ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ الوتر هو الله وهذا قول الحكم . وقال الحسن : الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر ، وقال مقاتل : الشفع الأيام والليالى ، والوتر اليوم الذى لا ليلة بعده ، وهو يوم القيامة .

وذكرت أقوال أخرى ، هذه أصولها ، ومدارها كلها على قولين : (أحدهما) أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأسورات . (والثانى) أن الوتر الخالق ، والشفع المخلوق .

وقال ابن النعيم : فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد - ﷺ - كان فى ذلك ما دل على المقسم عليه ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى : ﴿ هل فى ذلك قسم لذى حجر ؟ ﴾ فإن عظمة هذا القسم به يعرف بالنبوة . وذلك يحتاج إلى حجر يحجر صاحبه من الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد وفرعون وثمود . أ. هـ .

قوله تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد ﴾ .

بعد أن أقسم سبحانه أنه سيعذب الكافرين جزاء كفرهم وإصرارهم على أوامره - شرع يذكر بعض قصص الأمم السالفة الذين طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد فأوقع بهم شديد العذاب ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ليكون فى ذلك زجر لهؤلاء المكذبين ، وتثبت للمؤمنين الذين اتبعوا الرسول وناصروه .

قال تعالى : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ .

أى : ألم يبلغك يا محمد ويصل إلى علمك ، ماذا فعل الله بعاد قوم هود ؟ (إرم ذات العماد) أى : عاداً الأولى أهل إرم ذات البناء الرفيع ، الذين كانوا يسكنون بالأحقاف بين عمان وحضر موت ﴿ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ أى : تلك القبيلة التى لم يخلق الله مثلهم فى قوتهم ، وشدتهم ، وضخامة أجسامهم .

قال العلامة ابن كثير : وهم الذين بعث الله فيهم رسولاً هوداً عليه السلام فكذبوه وخالفوه فانجاه الله من بين أظهرهم ومن آمن معه منهم وأهلكهم بريح صرصرٍ عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيامٍ حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ؟ وقد ذكر الله قصتهم فى القرآن فى غير موضع ليعتبر بمصرعهم المؤمنون فقوله تعالى : ﴿ إرم ذات العماد ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله تعالى : ﴿ ذات العماد ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التى ترفع بالأعمدة الشداد وقد كانوا أشد الناس بطشاً ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة وأرشدهم إلى أن يستعملوها فى طاعة ربهم الذى خلقهم فقال : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ ﴾[2] وقال ههنا : ﴿ التى لم يخلق مثلها فى البلاد ﴾ أى : القبيلة

(١) سورة الأعراف الآية : ٦٩
(٢) سورة فصلت الآية : ١٥

التى لم يخلق مثلها فى بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم ، وأعاد ابن زيد الضمير على العماد لارتفاعها وقال : بنوا عمداً بالأحقاف لم يخلق مثلها فى البلاد ، وأما قتادة وابن جرير : فأعاد الضمير على القبيلة أى : لم يخلق مثل تلك القبيلة فى البلاد يعنى فى زمانهم ، وهذا القول هو الصواب ، وقول ابن زيد ومن ذهب مذهبه ضعيف لأنه لو كان المراد ذلك لقال التى لم يعمل مثلها فى البلاد . وإنما قال : (لم يخلق مثلها فى البلاد) أ. هـ .

والمقصود من ذلك تخويف أهل مكة بما صنع الله بعاد ، وكيف أهلكهم وكانوا أطول أعماراً ، وأشد قوة من كفار مكة ؟!

قوله تعالى : ﴿ وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ﴾ أى : ثمود الذين قطعوا الصخر ونحتوه وبنوا منه القصور والأبنية العظيمة كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾(١) وقوله : ﴿ وفرعون ذى الأوتاد ﴾ أى : وفرعون ذى المبانى العظيمة التى شادها هو ومن قبله من فراعنة مصر فى قديم الزمان كالأهرام وغيرها .

وما أجمل التعبير عما تركه القدماء المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد ، فإن شكل هياكلهم العظيمة شكل الأوتاد المقلوبة ، إذ يبتدىء البناء عريضاً وينتهى بأدق مما بدأ .

وهناك قول آخر : قال العوفى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - الأوتاد الجنود الذين يشدون له أمره ، وقيل : كان يربط الرجل فى كل قائمة من قوائمه فى وتد ثم يرسل عليه صخرة عظيمة فيشدخه .

وقوله تعالى : ﴿ الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ﴾ أى : هؤلاء الذين سلف ذكرهم من عاد وثمود وفرعون قد استعملوا سلطانهم وقوتهم فى هضم حقوق الناس واغتروا بعظيم قدرتهم ، فكانوا سبباً فى إفساد البلاد . ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ أى : أنزل عليهم رجزاً من السماء وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين .

وقد شبه سبحانه ما أوقعه بهم من صنوف العذاب ، وما صبه عليهم من ضروب الهلاك - بالسوط ، من قبل أن السوط يضرب به فى العقوبات ، والله يوقع العذاب بالأمم عقوبة لها على ما يقع منها من أنواع التفريط فى أوامر دينه .

وقوله تعالى : ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ أى : إن شأن ربك ألا يفوته من شئون عباده نقير ولا قطمير ولا يهمل أمة تعدت فى أعمالها حدود شرائعه القويمة ، بل يأخذها بذنوبها أخذ العزيز المقتدر ، كما يأخذ الراصد القائم على الطريق من يمر به بما يريد من خير أو شر ، لا يفرط فيما رصد له .

وقد أجمل الله سبحانه فى هذه الآيات الكريمة ما أوقعه بهذه الأمم من العذاب ، وفصله فى غير موضع من كتابه الكريم فقال تعالى فى سورة الحاقه : ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية وأما عاد فأهلكوا بريح

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١٤٩

صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴾(١).

والحكمة فى تكرار القصص فى القرآن الكريم وفى ذكر بعضها على طريق الإشارة فى بعض المواضع ، وبالتفصيل فى بعض آخر ـ أنه قد يكون الغرض تارة إقامة الحجة على قدرته تعالى ، وتوحده فى ملكه ، وقهره لعباده حيناً ، وترقيق قلوب المخاطبين حيناً آخر ، وإنذار عباده وإعذارهم مرة ثالثة ، ولا شك أن كل مقام من الكلام له لون منه من بسط أو إيجاز لا يكون لغيره .

وقد عرفت أن الغرض هنا تطييب قلب الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه بأن الله سيمهل الكافرين ولا يهملهم ، وهو ليس بغافل عنهم ، وحينئذ تدرك أن الاشارة إلى أن هذه الأمم أخذت وعذبت ولم تترك سدى ـ كافية جد الكفاية لمن فكر وتدبر .

قوله تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا . بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين ، وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حباً جماً ﴾ .

لما ذكر تعالى ما حل بالطغاة المتجبرين ، ذكر هنا طبيعة الإنسان الكافر ، الذى يبطر عند الرخاء ، ويقنط عند الضراء فقال تعالى : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه ﴾ أى : إذا اختبره وامتحنه ربه بالنعمة ﴿ فأكرمه ونعمه ﴾ أى : فأكرمه بالغنى واليسار ، وجعله منعما فى الدنيا بالبنين والجاه والسلطان ﴿ فيقول ربى أكرمن ﴾ أى : فيقول ربى أحسن إلى بما أعطانى من النعم التى أستحقها ، ولم يعلم أن هذا ابتلاء له أيشكر أم يكفر ؟

وقوله : ﴿ وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ﴾ أى : وأما إذا اختبره وامتحنه ربه بالفقر ، وتضييق الرزق ﴿ فيقول ربى أهانن ﴾ أى : فيقول غافلاً عن الحكمة : إن ربى أهاننى بتضييقه الرزق علىّ .

قال القرطبى : وهذه صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث وإنما الكرامة عنده والهوان بكثرة الحظ فى الدنيا وقلته ، وأما المؤمن فالكرامة عنده أن يكرمه الله بطاعته وتوفيقه المؤدى إلى حظ الآخرة . وإن وسع عليه فى الدنيا حمده وشكره .

قلت : الآيتان صفة كل كافر . وكثير من المسلمين يظن أن ما أعطاه الله لكرامته وفضيلته عند الله ، وربما يقول بجهله : لو لم أستحق هذا لم يعطينه الله . وكذا إن فتر عليه يظن أن ذلك لهوانه على الله . قال تعالى : ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون ، إن الذين هم من

---

(١) الحاقة الآيات من ٥ ـ ١٠

خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ماآتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ﴾(١) .

قوله تعالى : ﴿ **كلا** ﴾ أى : ليس الأمر كما يظن ، فليس الغنى لفضله ، ولاالفقر لهوانه ، وإنما الفقر والغنى من تقديرى وقضائى .

وقال الفراء : (كلا) فى هذا الموضع بمعنى لم يكن ينبغى للعبد أن يكون هكذا ، ولكن يحمد الله ـ عزوجل ـ على الغنى والفقر . وفى الاثر : « يقول الله ـ عز وجل » إنى لاأكرم من أكرمت بكثرة الدنيا ولاأهين من أهنت بقلتها ، إنما أكرم من أكرمت بطاعتى وأهين من أهنت بمعصيتى »(٢) .

قوله تعالى : ﴿ **بل لاتكرمون اليتيم** ﴾ إخبار عن ماكانوا يصفونه من منع اليتيم الميراث ، وأكل ماله إسرافا وبدارا أن يكبروا .

قال ابن كثير : فيه أمر بالإكرام له كما جاء فى الحديث الذى رواه عبدالله بن المبارك بسنده عن أبى هريرة عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يساء اليه ـ ثم قال بأصبعه ـ أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا »(٣) وأخرج أبوداود بسنده عن سهل ـ يعنى ابن سعد ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة وقرن بين أصبعيه الوسطى والتى تلى الابهام »(٤) .

وقوله تعالى : ﴿ **ولاتحاضون على طعام المسكين** ﴾ أى : لايأمرون بالإحسان إلى الفقراء والمساكين ولايحض بعضهم بعضا على اطعام المحتاج وعون المساكين . ﴿ **وتأكلون التراث أكلا لمّا** ﴾ أى : وتأكلون الميراث أى ميراث اليتامى . وأصله الوارث من ورثت ، فأبدلوا الواو تاء . لأن العرب كانوا لايعطون من الميراث أنثى ولاصغيرا بل ينفرد به الرجال ـ ومعنى (أكلا لما) أى : شديدا .

وقوله تعالى : ﴿ **وتحبون المال حبا جما** ﴾ أى : وتحبون المال حبا كثيرا مع الحرص والشره ، وهذا ذم لهم لتكالبهم على المال ، وبخلهم بانفاقه .

قوله تعالى : ﴿ **كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ، وجاء ربك والملك صفا صفا وجىء يومئذ بجهنم ، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول ياليتنى قدمت لحياتى فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولايوثق وثاقه أحد ، ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾ .

---

(١) سورة المؤمنون الآيات من ٥٥ ـ ٦١

(٢) الدر المنثور للسيوطى ٥٠٩/٨

(٣) الزهد لابن المبارك صفحة ٢٣٠ حديث رقم ٦٥٤

(٤) سنن أبى داود ٣٥٦/٥ رقم ١٥٠ وصحيح البخارى ١٠/٨ باب فضل من يعول يتيماً وسنن الترمذى ٣٢١/٤ رقم ١٩١٨ باب ما جاء فى رحمة اليتيم .

قوله تعالى : ﴿ كلا ﴾ أى : ماهكذا ينبغى أن يكون الأمر ، فهو رد لانكبابهم على الدنيا وجمعهم لها ، فإن من فعل ذلك يندم يوم ترك الأرض ولاينفع الندم . ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكا دكا ﴾ أى : زلزلت الأرض وحركت تحريكا شديدا قال الزجاج : أى : زلزلت فدك بعضها بعضا .

ومعنى ﴿ دكا دكا ﴾ أى : مرة بعد مرة ، زلزلت فكسر بعضها بعضا ، فتكسر كل شىء على ظهرها . وهو معنى قول ابن مسعود وابن عباس : تمد الأرض مد الأديم .

وقوله تعالى : ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ أى : وجاء ربك يامحمد لفصل القضاء بين العباد ، وجاءت الملائكة صفوفا متتابعة صفا بعد صف . وهذه الآية وأمثالها مما يجب الإيمان به من غير تكييف ولاتمثيل . وقال ابن كثير : قام الخلائق من قبورهم لربهم ، وجاء ربك لفصل القضاء بين خلقه ، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفا صفوفا كما قال تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وجىء يومئذ بجهنم ﴾ أى : وأحضرت جهنم ليراها المجرمون كما قال تعالى : ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾[2] وقوله : ﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾[3] . وفى صحيح مسلم عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها »[4] .

قوله تعالى : ﴿ يومئذ يتذكر الإنسان ﴾ أى : عمله وماكان أسلفه فى قديم دهره وحديثه ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أى : اين له الاتعاظ والتوبة وقد فرط فيها فى الدنيا و﴿ يقول ياليتنى قدمت لحياتى ﴾ أى : يقول ياليتنى قدمت عملا صالحا لحياتى ، أى : لحياة لاموت فيها وقيل : حياة أهل النار ليست هنيئة فكأنهم لاحياة لهم ، فالمعنى ياليتنى قدمت من الخير لنجاتى من النار فأكون فيمن له حياة هنيئة .

قوله تعالى : ﴿ فيومئذ لايعذب عذابه أحد ولايوثق وثاقه أحد ﴾ أى : ليس أحد أشد عذابا من تعذيب الله من عصاه ﴿ ولايوثق وثاقه أحد ﴾ أى : وليس أحد أشد أى : وليس أحد أشد قبضا ووثقا من الزبانية لمن كفر بربهم ـ عزوجل ـ وهذا فى حق المجرمين من الخلائق والظالمين . فأما النفس الزكية المطمئنة وهى الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق فقد قال الله فى شأنها :

﴿ ياأيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾ .

قال القرطبى : النفس المطمئنة : الساكنة الموقنة ؛ أيقنت أن الله ربها فأخبتت لذلك ، قاله مجاهد وغيره :

(١) سورة البقرة الآية : ٢١٠
(٢) سورة النازعات الآية : ٣٦
(٣) سورة الشعراء الآية : ٩١
(٤) صحيح مسلم ٢١٧٥/٤ رقم ٢٨٤٢

وعن مجاهد أيضا : الراضية بقضاء الله التى علمت أن ماأخطأها لم يكن ليصيبها ، وأن ماأصابها لم يكن ليخطئها . وقيل : التى عملت على يقين بما وعد الله في كتابه .

وقال ابن كيسان : المطمئنة هنا المخلصة .

وقال ابن عطاء : العارفة التى لاتصبر عنه طرفة عين .

وقيل : المطمئنة بذكر الله تعالى ، بيانه ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾[١] .

وقال ابن زيد : المطمئنة لأنها بشرت بالجنة عند الموت وعند البعث ويوم الجمع : وقال أبوهريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا توفى المؤمن أرسل الله إليه ملكين وأرسل معهما تحفة من الجنة ، فيقولان لها : « أخرجى أيتها النفس المطمئنة راضية ومرضية عنك ، أخرجى إلى روح وريحان ورب راض غير غضبان » فتخرج كأطيب ريح المسك وجد أحد من أنفه على ظهر الأرض[٢] . وذكر الحديث .

وقول تعالى : ﴿ ارجعى إلى ربك ﴾ أى : إلى جواره وثوابه وماأعد لعباده فى جنته كما قال تعالى : ﴿ إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾[٣] .

وقوله : ﴿ راضية ﴾ أى : فى نفسها (مرضية) أى : قد رضيت عن الله ورضى عنها وأرضاها كما قال تعالى : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ .

وقوله : ﴿ فادخلى فى عبادى ﴾ أى : فى جملتهم . ﴿ وادخلى جنتى ﴾ قال ابن كثير : وهذا يقال لها عند الاحتضار وفى يوم القيامة أيضا كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره وعند قيامه من قبره فكذلك هنا .

ومصداق ذلك قوله تعالى : ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولكم فيها ماتدعون ، نزلا من غفور رحيم ﴾[٤] .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك برحمتك ياأرحم الراحمين .

---

(١) سورة الرعد الآية : ٢٨

(٢) سنن ابن ماجه ـ كتاب الزهد ١٤٢٣/٢ رقم ٤٢٦٢ وسنن النسائى ـ كتاب الجنائز ٩/٤

(٣) سورة القمر الآيتان : ٥٤ ، ٥٥

(٤) سورة فصلت الآيات : من ٣٠ إلى ٣٢

تفسير سورة
« البلد »

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وآياتها : عشرون

وكلماتها : اثنتان وثمانون .

وحروفها : ثلاثمائة واحدى وخمسون .

فواصل آياتها : (هدنا) .

سميت سورة البلد ، لمفتتحها ، وسورة العقبة ، لقوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ .

معظم مقصود السورة : تشريف مكة المكرمة بحكم القسم بها ، وشدة حَال الأدنى ، والخبير عن سره وعلانيته ، والمنة عليه بالنعم المختلفة ، وتهويل عقبة الصراط وبيان النجاة منها ومدح المؤمنين وصبرهم على البلاء ، ورحمة بعضهم بعضا وخلود الكفار فى النار فى قوله تعالى : ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ .

المتشـابهات :

قوله : ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ ثم قال : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ كرر البلد وجعله فاصله بين الآيتين ، فالبلد الأول قصد به وصف لم يحصل فى الثانى وهو مكة ، لأن معنى أقسم بالبلد الحرام الذى جبلت على تعظيمه قلوب العرب فلا يحل فيه لأحد ما أحل للنبى - ﷺ - فقوله : ﴿ وأنت حل ﴾ أى : محل أحل لك منه ما حرم على غيرك ، فصار المعنى أقسم بالبلد المحرم تعظيما له ، وهو مع أنه محرم على غيرك محل إكراما لمنزلتك ، فالبلد فى الأول محرم وفى الثانى محلل ، وكان النبى عليه الصلاة والسلام - أحل له قتل من رأى قتله حين أذن فى قتال المشركين ، فأمر بقتل ابن خطل صبرا . وهو متعلق بأستار الكعبة ، ولم يحل لأحد قبله ، ولا يحل لأحد بعده ما أحل له ، وإذا كان كذلك صار الثانى معينا به غير ما عنى بالأول فكأنه ذكر وصفاً غير وصفه المتقدم فجمع فوائد من تعظيم البلد وتعظيم النبى - ﷺ - حين أبيح له ما حظر منه على سواء ، وقيل : أحلت له ساعة من نهار ولم تحل لغيره - ﷺ - .

مناسبة السورة لما قبلها :

١ - إنه ذم فى الأولى من أحب المال ، وأكل التراث ولم يحض على طعام المسكين ، وذكر هنا الخصال التى تطلب من صاحب المال من فك الرقبة ، والإطعام فى يوم المسغبة .

٢ - ذكر هناك حال النفس المطمئنة ، وذكر هنا ما يكون به الأطمئنان .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ (٢) وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدۡ
خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ (٥) يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ
مَالٗا لُّبَدًا (٦) أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ (٨) وَلِسَانٗا
وَشَفَتَيۡنِ (٩) وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ (١٠) فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ
مَا ٱلۡعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ (١٤) يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ (١٥)
أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ
بِٱلۡمَرۡحَمَةِ (١٧) أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ (١٨) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ
ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ (١٩) عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ (٢٠)

معانى المفردات

البلد : مكة المكرمة

حل : أى : حال مقيم فيه .

ووالد وما ولد : المراد آدم وذريته .

أيحسب : أى : أيظن .

أهلكت : أى : أنفقت .

لبداً : أى : كثيراً .

النجدين : المراد طريقا الخير والشر .

اقتحم الشىء : دخل فيه بشدة .

والعقبة : الطريق الوعرة فى الجبل يصعب سلوكها ، والمراد مجاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسول له فعل الشر من شياطين الإنس والجن .

وفك الرقبة : عتقها أو المعاونة عليه .

والمسغبة : الجوع يقال : سغب الرجل يسغب إذا جاع .

والمقربة : القرابة فى النسب ، تقول : فلان من ذوى قرابتى ومن أهل مقربتى إذا كان قريبك نسباً .

والمتربة : الفقر ، تقول : ترب الرجل إذا افتقر وأترب إذا كثر ماله حتى صار كالتراب .

تواصوا بالصبر : أى : نصح بعضهم بعضا به .

والميمنة : طريق النجاة والسعادة .

والمشأمة : طريق الشقاء .

مؤصدة : أى : مطبقة عليهم من آصدت الباب ، أى : أغلقته .

التفسـير

قوله تعالى: ﴿لا أقسم بهذا البلد ، وأنت حل بهذا البلد ، ووالد وما ولد ، لقد خلقنا الإنسان فى كبد﴾ .

هذا قسم من الله ـ عز وجل ـ بمكة أم القرى التى شرفها الله ـ تعالى ـ بالبيت العتيق ـ قبلة أهل الشرق والغرب ـ وجعلها الله مهبط الرحمات ، وإليها تجبى ثمرات كل شىء ، وجعلها حرماً آمناً ، وجعل حرمتها منذ خلق السموات والأرض وأقسم سبحانه به فى كتابه العزيز فى موضع آخر فقال تعالى : ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾[1] ، وليس على وجه الأرض بقعة يجب على قادر السعى إليها والطواف بالبيت الذى فيها غيرها وثبت عن النبى ـ ﷺ ـ أن الصلاة فى المسجد الحرام بمائة ألف صلاة ففى النسائى والمسند بإسناد صحيح عن عبد الله بن الزبير عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد الا المسجد الحرام ، وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة فى مسجدى هذا »[2] .

(١) سورة التين الآية : ٣

(٢) مسند أحمد ٤/٥ وسنن النسائى ٥/٢١٣

وفى المسند والترمذى والنسائى عن عبد الله بن عدى أنه سمع رسول الله ـ ﷺ ـ وهو واقف على راحلته بالحزورة من مكة .

يقول : والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت(١) ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم فليس على وجه الأرض قبلة غيرها ، ومن خواصها أيضا أنه يحرم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض . ومن خواصها أيضا أن المسجد الحرام أول مسجد وضع فى الأرض كما فى الصحيحين عن أبى ذر قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ عن أول مسجد وضع فى الأرض قال المسجد الحرام(٢) الحديث .

ومما يدل على تفضيلها أن الله ـ تعالى ـ أخبر أنها أم القرى فالقرى كلها تبع لها وفرع عليها وهى أصل القرى فيجب أن لا يكون لها فى القرى عديل .

وقد ظهر سر هذا التفضيل والاختصاص فى انجذاب الأفئدة وهوى القلوب وانعطافها ومحبتها لهذا البلد الأمين فجذبه للقلوب أعظم من جذب المغناطيس للحديد .

ولهذا أخبر سبحانه أنه مثابة للناس أى : يتوبون إليه على تعاقب الأعوام من جميع الأقطار ولا يقضون منه وطرا بل فلله كم لها من قتيل وسليب وجريح وكم أنفق فى حبها من الأموال والأرواح ورضى المحب بمفارقة فلذات الأكباد والأهل والأحباب والأوطان مقدما بين يديه أنواع المخاوف والمتالف والمعاطب والمشاق وهو يستلذ ذلك كله ويستطيبه ويراه لو ظهر سلطان المحبة فى قلبه أطيب من نعم المجلية وترفهم ولذاتهم . وهذا كله سر اضافته إليه سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ وطهر بيتى ﴾ فاقتضت هذه الإضافة الخاصة من هذا الاجلال والتعظيم والمحبة ما أقتضته كما اقتضت إضافته لعبده ورسوله إلى نفسه ما اقتضت من ذلك . . أ. هـ (قاله ابن القيم فى الزاد)

قوله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ .

فيه قولان : أحدهما أنه من الإحلال ، وهو ضد الإحرام قال قتادة : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أنت به من غير حرج ولا اثم ، وقال الحسن البصرى : أحلها الله له ساعة من نهار وهذا المعنى الذى قالوه قد ورد به الحديث المتفق عليه « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمه الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه ، وإنما أحلت لى ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس الا فليبلغ الشاهد الغائب(٣) وفى لفظ آخر ، فإنْ أَحَدٌ ترخَّص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم »(٤)

(١) سنن الترمذى ٥/٧٢٢ ٣٩٢٥ ومسند أحمد ٤/٣٠٥
(٢) اللؤلؤ المرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٢٩٨
(٣) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٨٥٩
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٨٦٠

(والثانى) إن قوله تعالى : ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ أنه من الحلول وهو ضد الظعن قال البيضاوى : أقسم سبحانه بالبلد الحرام وقيده بحلوله عليه الصلاة والسلام فيه - أى : اقامته فيه - إظهاراً لمزيد فضله ، وإشعاراً بأن شرف المكان يشرف أهله .

وقال ابن القيم - رحمه الله - : فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد فجعل بيته هدى للناس ، ونبيه إماماً وهادياً لهم ، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه ، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته ، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية . أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ ووالد وما ولد ﴾ قال مجاهد وأصحابه : الوالد آدم وما ولد ولده قال ابن كثير : وهذا الذى ذهب إليه مجاهد وأصحابه حسن قوى لأن الله - تعالى - لما أقسم بأم القرى وهى أم المباكن أقسم بعده بالمساكن وهو آدم أبو البشر وولده . واختار ابن جرير أنه عام فى كل والد وولده وهو محتمل أيضا .

وقوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ هذا هو المقسم عليه أى : لقد خلقنا الإنسان فى تعب ومشقة ، فإنه لا يزال يقاسى أنواع الشدائد ، من وقت نفخ الروح فيه إلى حين نزعها منه ، قال ابن عباس : (فى كبد) أى : فى مشقة وشدة ، من حمله ، وولادته ورضاعته ، وفطامه ، ومعاشه ، وحياته ، وموته وأصل الكبد : الشدة ، وقيل : لم يخلق الله خلقا يكابد ما يكابد ابن آدم ، وهو مع ذلك اضعف الخلق قال أبو السعود فى الآية تسلية لرسول الله - ﷺ - مما كان يكابده من كفار مكة .

وقال ابن القيم : وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر ، وهى معاناة شدته ومشقته ، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته والكبد شدة الأمر ، ومنه تكبد اللبن إذا غلظ واشتد . ومنه الكبد لأنها دم يغلظ ويشتد . وانتصاب القامة والاستواء من ذلك ، لأنه إنما يكون عن قوة وشدة ، فإن الإنسان مخلوق فى شدة ، بكونه فى الرحم ، ثم فى القماط والرباط ، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف ، ومكابدة العيش ، والأمر والنهى ، ثم مكابدة الموت وما بعده فى البرزخ وموقف القيامة ، ثم مكابدة العذاب فى النار ولا راحة له إلا فى الجنة .

قوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ، يقول أهلكت مالاً لبداً ، أيحسب أن لم يره أحد ، ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ﴾ أى : أيظن هذا الشقى الفاجر ، المغتر بقوته ، أن الله - تعالى - لا يقدر عليه لشدته وقوته ؟ قال بعض المفسرين : نزلت فى أبى الأشد بن كلدة ، كان شديداً مغتراً بقوته ، وكان يبسط له الأديم - الجلد - فيوضع تحت قدميه ، ويقول : من أزالنى عنه فله كذا ، فيجذبه عشرة فيتقطع قطعاً ولا تزل قدماه .

وقوله : ﴿ يقول أهلكت مالا لبداً ﴾ أى : يقول هذا الكافر : أنفقت مالا كثيراً فى عداوة محمد - ﷺ - قال الآلوسى : أى : يقول فخراً ومباهاة على المؤمنين : أنفقت مالا كثيرا ، وأراد بذلك ما أنفقه

« رياء وسمعة » وعبر عن الإنفاق بالإهلاك إظهاراً لعدم الاكتراث ، وأنه لم يفعل ذلك رجاء نفع ، فكأنه جعل المال الكثير ضائعاً .

وقوله تعالى : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ أى : أيظن أن الله - تعالى - لم يره حين كان ينفق ، ويظن أن أعماله تخفى على رب العباد ؟ ليس الأمر كما يظن ، بل إن الله - تعالى - رقيب مطلع عليه ، سيسأله يوم القيامةويجازيه عليه .

ثم ذكره سبحانه بنعمه عليه ليعتبر وينعظ فقال تعالى : ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ أى : ألم نجعل له عينين يبصر بهما ؟ (ولساناً) ينطق به فيعبر عما فى ضميره ؟ (وشفتين) أى : وشفتين يطبقهما على فمه ، ويستعين بهما على الأكل والشرب والنفخ وغير ذلك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أى : وبينا له طريقى الخير والشر ، والهدى والضلال ، ليسلك طريق السعادة ، ويتجنب طريق الشقاوة كما قال تعالى : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[1] .

وقال ابن القيم - رحمه الله - فى هذه الآيات المباركة :

« أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه فى هذا الكبد والشدة والقوة التى يكابد بها الأمور . فإن الذى خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق ، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادراً فى نفسه ، فهذا برهان مستقل بنفسه ، مع أنه متضمن للجزاء الذى مناطه القدرة والعلم . فنبه على ذلك بقوله : ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ وبقوله : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ فيحصى عليه ما عمل من خير وشر ولا يقدر عليه فيجاز يه بما يستحقه ؟

ثم أنكر سبحانه على الانسان قوله : ﴿ أهلكت مالا لبداً ﴾ وهو الكثير الذى يلبد بعضه فوق بعض ، فافتخر هذا الانسان بإهلاكه وإنفاقه فى غير وجهه إذ لو أنفقه فى وجهه التى أمر بانفاقه فيها ، ووضعه مواضعه ، لم يكن ذلك أهلاكاً له ، بل تقرباً به إلى الله وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه . وذلك ليس باهلاك له . فأنكر سبحانه افتخاره وتبجحه بإنفاق المال فى شهوّاته وأغراضه التى إنفاقه فيها إهلاك له .

ثم وبخه بقوله : ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ؟ ﴾ وأتى ههنا بلم ، الدالة على المضى ، فى مقابلة قوله : ﴿ أهلكت مالاً لبداً ﴾ فإن ذلك فى الماضى ، افيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه ؟ ثم ذكر برهاناً مقدراً أنه سبحانه أحق بالرؤ ية وأولى من هذا العبد الذى له عينان يبصر بهما . فكيف يعطيه البصر من لم يره ؟ وكيف يعطيه آلة البيان ، من الشفتين واللسان ، فينطق ويبين عما فى نفسه ، ويأمر وينهى من لم يتكلم ولا يكلم ، ولا يخاطب ، ولا يأمر ولا ينهى ؟ وهل كمال المخلوق مستفاد الا من كمال خالقه ؟ ومن جعل غيره عالماً بنجدى الخير والشر - وهما طريقاهما - أليس هو أولى وأحق بالعلم منه . ومن هداه إلى

(١) سورة الإنسان الآية : ٣

هذين الطريقين ، كيف يليق به أن يتركه سدى ، ولا يعرفه ما يضره وما ينفعه فى معاشه ومعاده ؟ وهل النبوة والرسالة الا لتكميل هداية النجدين ؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله وصدق رسله ووعده . وهذه أصول الإيمان التى اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها . فتكفى الإنسان فكرته فى نفسه وخلقه . . أ. هـ

قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما ذا مقربة أو مسكينا ذا متربة ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة ﴾

قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة ﴾ .

قال القرطبى : قال ابن زيد وجماعة من المفسرين : معنى الكلام الاستفهام الذى معناه الإنكار ، تقديره : أفلا اقتحم العقبة ؟ أو : هلّا اقتحم العقبة ؟ !

يقول : هلّا أنفق ماله فى فك الرقاب وإطعام المساكين ليجاوز به العقبة ، فيكون خيراً له من إنفاقه فى عداوة محمد - ﷺ - ثم قيل : اقتحام العقبة هاهنا : ضرب مثل ، أى : هلا تحمل عظام الأمور فى إنفاق ماله فى طاعة ربه والإيمان به ؟! وهذا إنما يليق بقول من حمل (فلا اقتحم العقبة) على الدعاء ، أى : فلا نجا ولا سلم من لم يُنفق ماله فى كذا وكذا .

وقيل : شبه عظم الذنوب وثقلها وشدتها بعقبة ، فإذا أعتق رقبة وعمل صالحاً كان مثله مثل من اقتحم العقبة ، وهى الذنوب التى تضره وتؤذيه وتثقله .

وقال ابن عمر : هذه العقبة جبل فى جهنم . رواه ابن جرير .

وكذا قال الحسن ، وقال قتادة : إنها عقبة ضخمة شديدة ، فاقْتَحِمُوها بطاعة الله تعالى .

وقال مجاهد ، والضحاك ، والكلبى : هى الصراط يضرب على جهنم كحد السيف ، مسيرة ثلاثة آلاف سنة ، سهلاً وصعوداً وهبوطاً ، واقتحامه على المؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء . وقيل : اقتحامه عليه قدر ما يصلى المكتوبة . وقيل : النار نفسها هى العقبة . وقيل : العقبة : خلاصة من هول العرض . وقال الحسن : هى - والله - عقبة شديدة : مجاهدة الإنسان نفسه ، وهواه ، وعدوه الشيطان . وأنشد بعضهم :

إنى بليت بأربع يرمیننى ... بالنَّبل قد نصبوا علَىَّ شراكا
إبليس والدنيا ونفسى والهوى ... من أين أرجو بينهم فكَاكا
يا رب ساعدنى بعفو إننى ... أصبحت لا أرجو لهن سواكا

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ أى : ما أدراك ما اقتحام العقبة ؟ ! وهذا تعظيم لالتزام أمر الدين .

قال القشيرى : وحمل العقبة على عقبة جهنم بعيد ، إذ أحد فى الدنيا لم يقتحم عقبة جهنم ، إلا أن يحمل على أن المراد ، فلاً صَيَّرَ نفسه بحيث يمكنه اقتحام عقبة جهنم غداً . واختار البخارى قول مجاهد : إنه لم يقتحم العقبة فى الدنيا . قال ابن العربى : « وإنما اختار ذلك لأجل أن قال بعد ذلك فى الآية الثانية : ﴿ وما أدراك ما العقبة ﴾ ثم قال فى الآية الثالثة : ﴿ فكُّ رقبة ﴾ وفى الآية الرابعة ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ﴾ ثم قال فى الآية الخامسة : ﴿ يتيما ذا مقربة ﴾ ثمَّ قال فى الآية السادسة : ﴿ أو مسكيناذا متربة ﴾ فهذه الأعمال إنما تكون فى الدنيا . المعنى : فلم يأت فى الدنيا بما يسهل عليه سلوك العقبة فى الآخرة .

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ فى هذه الآية : واختلف فى هذه العقبة ، هل هى فى الدنيا أوفى الآخرة ؟ فقالت طائفة : العقبة ههنا : مثل ضربه الله ـ تعالى ـ لمجاهدة النفس والشيطان فى أعمال البر ، وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل . قال الحسن : عقبة ـ والله ـ شديدة : مجاهدة النفس ، وهواه ، وعدوه ، والشيطان . وقال مقاتل : هذا مثل ضربه الله ، يريد أن المعتق رقبة ، والمطعم اليتيم والمسكين ، يقاحم نفسه وشيطانه ، مثل أن يتكلف صعود العقبة . . . وقالت طائفة : بل هى عقبة حقيقة يصعدها الناس . قال عطاء : هى عقبة جهنم . وقال مجاهد : هى الصراط بضرب على جهنم . وهذا لعله قول الكلبى . وقول هؤلاء أصح نظراً وأثراً ولغة . قال قتادة : فإنها عقبة شديدة ، فاقتحمُوها بطاعة الله . وفى أثر معروف : « إن بين أيديكم عقبة كؤودا لا يقتحمها إلا المخفون » أو نحو هذا . . وأن الله سمى الإيمان به ، وفعل ما أمر ، وترك ما نهى عقبة . فكثيرا ما يقع فى كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة . وقال بعض الصحابة : وقد حضره الموت ، فجعل يبكى ، ويقول : مالى لا أبكى وبين يدى عقبة كؤود ، أهبط منها إما إلى جنة ، وإما إلى نار . فهذا القول أقرب إلى الحقيقة ، والآثار السلفية ، والمألوف من عادة القرآن فى استعماله (وما أدراك) فى الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم . والله أعلم . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ فك رقبة ﴾ فكها : خلاصها من الأسر . والفك : هو حل القيد ، والرق قيد . وسمى المرقوق رقبة ، لأنه بالرق كالأسير المربوط فى رقبته وسمى عتقها فكاكاً لخلاصها من الأسر .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ قال : « من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من أعضائه من النار ، حتى فرجه بفرجه »[1] .

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه بشرح النووى فى (كتاب العتق) باب : فضل العتق حـ ١٠ ص ١٥١ بلفظه وانظره فى سنن الترمذى فى (كتاب الايمان والنذور) باب : ماجاء فى ثواب من أعتق رقبة حـ ٤ ص ١١٤ رقم ١٥٤١ وزاد : « مؤمنة » .

وفى الترمذى عن أبى أمامة وغيره من أصحاب النبى - ﷺ - قال : « أيما امرىء مسلم أعتق امرأ مسلما كان فكاكه من النار ، يجزىء كل عضو منه عضواً منه ، وأيما امرأة مسلمة أعتقت امرأة مسلمة كانت فكاكها من النار يجزىء كل عضو منها عضواً منها »[١] .

وقال الامام أحمد بسنده عن البراء بن عازب قال : جاء أعرابى إلى رسول الله - ﷺ - فقال : يا رسول الله ، علمنى عملاً يدخلنى الجنة فقال : « لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة ، أعتق النسمة وفك الرقبة » فقال : يا رسول الله أو ليستا بواحدة ؟ قال : « لا ، إن عتق النسمة أن تنفرد لعتقها ، وفكُّ الرقبة أن تعين فى عتقها ، والمنحة الوكوف ، والفىء على ذى الرحم الظالم ، فإن لم تطق ذلك فأطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق ذلك فكف لسانك إلا من الخير »[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ﴾ قال قتادة وغير واحد من السلف : أى : فى يوم ذى مجاعة ، والسغب : هو الجوع . وقال إبراهيم النخعى : فى يوم الطعام فيه عزيز .

وإطعام الطعام فضيلة ، وهو مع السغب - الذى هو الجوع - أفضل .

وروى : « من موجبات الرحمة إطعام المسلم السغبان » .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص « أن رجلاً سأل رسول الله - ﷺ - : أى الإسلام خير ؟ « قال : « تطعم الطعام . وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » متفق عليه [٣] .

وعن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط ، وأجوع ما كانوا قط ، وأظمأ ما كانوا قط ، وأنصب ما كانوا قط ، فمن كسا لله - عز وجل - كساه الله ، ومن أطعم لله - عز وجل - أطعمه الله ، ومن يسقى لله - عز وجل - سقاه الله ، ومن عمل لله - عز وجل - أغناه الله ، ومن عفا لله أعفاه الله » .

رواه ابن أبى الدنيا موقوفا ، وروى مرفوعا بهذا اللفظ أيضاً .

وروى عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : « سئل رسول الله - ﷺ - أى الأعمال أفضل ؟ » قال : « إدخالك السرور على مؤمن أشبعت جوعته ، أو كسوت عورته ، أو قضيت

---

(١) انظر سنن الترمذى (كتاب النذور والايمان) باب : ما جاء فى فضل من أعتق حـ ٤ ص ١١٧ ، ١١٨ رقم ١٥٤٧ فقد رواه الترمذى عن أبى أمامة وغيره من أصحاب النبى - صلى الله عليه وسلم - وقال : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

(٢) انظر الفتح الربانى للساعاتى حـ ٩ ص ٦٣ ، ٦٤

(٣) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الايمان) باب تفاضل الاسلام وأى أموره أفضل حـ ١ ص ٩ رقم ٢٤

حاجته »[١] .

رواه الطبرانى فى الأوسط .

وقوله تعالى : ﴿ يتيماً ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ﴾ .

اعلم أن الصدقة على القرابة أفضل منها على غير القرابة ، كما أن الصدقة على اليتيم الذى لا كافل له أفضل من الصدقة على اليتيم الذى يجد من يكفله . وأهل اللغة يقولون : سمى يتيماً لضعفه ، وذكروا أن اليتيم فى الناس من قبل الأب ، وفى البهائم من قبل الأمهات .

وقال بعض أهل اللغة : اليتيم الذى يموت أبواه .

عن سلمان بن عامر ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذى الرحم اثنتان : صدقة وصلة »[٢] .

رواه النسائى ، والترمذى وحَسَّنَهُ .

وعن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده قال : « قلت يا رسول الله . من أبَرُّ ؟ . قال : « أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أباك ، ثم الأقرب فالأقرب »[٣] الحديث أخرجه أبو داود ، والترمذى وحسنه .

وأخرج أبو داود بسنده عن سهل أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « أنا وكافل اليتيم كهاتين فى الجنة »[٤] وقرن بين أصابعه الوسطى والتى تلى الإبهام » .

وقوله تعالى : ﴿أو مسكيناً ذا متربة ﴾أى : لا شىء له ، حتى كأنه قد لصق بالتراب من الفقر ، ليس له مأوى إلا التراب .

قال ابن عباس : هو المطروح على الطريق الذى لا بيت له .

قوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾يعنى أنه لا يقتحم العقبة من فك رقبة ، أو أطعم فى يوم ذى مسغبة حتى يكون من الذين آمنوا ، أى : صدقوا ، فإن شرط قبول الطاعات الإيمان بالله .

وقال ابن كثير فى قوله تعالى : ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾أى : ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه محتسب ثواب ذلك عند الله ـ عز وجل ـ كما قال تعالى : ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها

---

(١) رواه كنز العمال فى (كتاب الصدقات) فصل فى أنواع الصدقة حـ ٦ ص ٥٩٢ رقم ١٧٠٣٥ وعزاه إلى الطبرانى فى الأوسط .

(٢) أخرجه النسائى فى سننه فى (كتاب الزكاة) باب : الصدقة على الأقارب حـ ٥ ص ٩٢ ورواه الترمذى فى جامعه الصحيح فى (كتاب الزماة) باب ما جاء فى الصدقة على ذى القرابة حـ ٣ ص ٣ رقم ٦٥٨ وهو عنده جزء حديث .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : فى بر الوالدين حـ ٤ ص ٣٣٦ رقم ٥١٣٩ وأخرجه الترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى بر الوالدين حـ ٤ ص ٣٠٩ رقم ١٨٩٧

(٤) أخرجه أبو داود فى سننه فى (كتاب الأدب) باب : فى من ضم اليتيم حـ ٤ ص ٣٣٨ رقم ٥١٥٠ وأخرجه الترمذى فى (كتاب البر والصلة) باب ماجاء فى حكم اليتيم وكفالته حـ ٤ ص ٣٢١ رقم ١٩١٨ ـ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصو بالمرحمة ﴾ قال ابن كثير : أى : كان من المؤمنين العاملين صالحاً ، المتواصين بالصبر على أذى الناس وعلى الرحمة بهم . كما جاء فى الحديث : « الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء »[٢] .

وفى الحديث الآخر : « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » .

وقال القرطبى : (وتواصوا) أى : أوصى بعضهم بعضا (بالصبر) على طاعة الله وعن معاصيه ، وعلى ما أصابهم من البلايا والمصائب . (وتواصوا بالمرحمة) أى : بالرحمة على الخلق ، فإنهم إذا فعلوا ذلك رحموا اليتيم والمسكين .

وقوله تعالى ﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾أى : المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم .

﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾ أى : أصحاب الشمال الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم .

فأصحاب الميمنة : أصحاب الجنة ، وأصحاب المشأمة : أصحاب النار ، قال الله تعالى : ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين . فى سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود ﴾[٤] الآيات . وقال تعالى : ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال . فى سموم وحميم . وظل من يحموم ﴾ الآيات[٥]

وقوله تعالى : ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أى : مطبقة عليهم فلا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها .

قال ابن القيم : الناس قسمان : ناج ، وهو من قطع العقبة وصار وراءها . وهالك وهو من دون العقبة . وهم أكثر الخلق ، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المُضَمَّرُون ، فإنها عقبة كؤود شاقة ، لا يقطعها إلا خفيف الظهر ، وهم أصحاب الميمنة . والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخير ، ولم يطيعوا الأمر ، منهم (أصحاب المشأمة . عليهم نار مؤصدة) قد أطبقت عليهم ، فلا يستطيعون الخروج منها ، كما أطبقت عليهم أعمال الغى والاعتقادات الباطلة ، المنافية لما أخبرت به رسله ، فلم تخرج قلوبهم منها . كذلك أطبقت عليهم هذه النار فلم تستطع أجسامهم الخروج منها . ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من

---

(١) الآية : ١٩ من سورة الاسراء .

(٢) انظر الجامع الصحيح للترمذى (كتاب البر والصلة) باب ما جاء فى رحمة المسلمين حـ ٤ ص ٣٢٣ رقم ١٩٢٢ . ورواه الامام أحمد بن طريق أبى إسحاق : انظر الفتح الربانى للساعاتى حـ ١٩ ص ٨٨

(٤) الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ من سورة الواقعة .

(٥) الآيات : ٤١ ـ ٤٣ من سورة الواقعة .

نصير . إن الله عالم غيب السموات والأرض إنه عليم بذات الصدور ﴾[1] .

بحث فى : مكة المكرمة

مكة : مدينة قديمة ، وقد فسر المؤرخون واللغويون العرب اسم مكة تفسيرات كثيرة لغوية وغير لغوية استنبطوها من مكانة الكعبة وقدسيتها فى نفوس العرب .

قال ياقوت الحموى فى معجمه :

« إنما سميت مكة لأن العرب فى الجاهلية كانت تقول : لا يتم حجنا حتى نأتى مكان الكعبة فنمك فيه ، أى : نصفر فيه صفير المكاء حول الكعبة ، وكانوا يصفرون ويصفقون بأيديهم إذا طافوا بها ، والمكّاء بتشديد الكاف : طائر يأوى الرياض » .

وقال الأصمعى :

« . . . إنما من تمككت المخ : إذا استخرجته ، لأنها تمك الفاجر عنها ، أو أنها « بكة » لأن الناس يبك بعضهم بعضا فيها ، أى : يتدافعون ويتزاحمون .

وقيل فى اسم مكة : إن أصله (امتك) الفصيل ما فى ضرع أمه إذا لم يبق فيها شيئاً ، فسميت القرية مكة لقلة مائها ، كما سميت المعطشة ، وسميت فى القرآن (بكة) لأنها تبك أعناق الجبابرة ، أى : تدقها » (قاله القلقشندى) .

ومن أسمائها أيضاً : (أم القرى) ـ و (البلد الأمين) ـ و (أم رحم) لأن الناس يتراحمون فيها ويتوادعون ، و (الباسة) ، لأنها تبس الظالم ، أى : تحطمه ، و (القدس) و (القادس) و (المقدسة) و (فاران) و (الوادى) و (الحرم) و (العرش) و (معاد) و (طيبة) .

قال النووى : « لا يعرف فى البلاد بلدة أكثر أسماء من مكة والمدينة » وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى ، ولا عجب فإن الاسلام جعل لمكة والمدينة من الشهرة ما جعل المؤرخين يتبارون فى التدليل عليها بكثرة الأسماء .

وقد ورد اسم مكة فى المصادر اليونانية والرومانية القديمة ، فذكرها بطليموس الاسكندرى باسم ماكورابا .

ولما كانت قبائل الجنوب هى أول من سكن هذا الوادى فالأرجح أن اسمها أخذ من لغة الجنوب مستندا إلى البيت الحرام ، فمكة أو « مكرب » كما ذكرها بطليموس كلمة يمنية مكونة من « ملك » و «رب »

(١) الآيتان : ٣٧ ، ٣٨ من سورة فاطر .

ومك : بمعنى بيت ، فتكون مكرب : بمعنى « بيت الرب » ومن هذه الكلمة أخذت مكة ، أو بكة ، يقلب الميم باء على عادة أهل الجنوب .

ومن المعروف أن القرآن الكريم ذكرها بعدة أسماء فهى :

بكة ، قال تعالى : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين** ﴾(١)

وهى مكة ، قال تعالى : ﴿ **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم** ﴾(٢) .

وهى أم القرى ، قال تعالى : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾(٣) .

وهى البلد الأمين ، قال تعالى : ﴿ **والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين** ﴾(٤) .

وهى البلد ، قال تعالى : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد . وأنت حِلٌّ بهذا البلد** ﴾(٥) .

موقع مكة :

فى منتصف الطريق المعبد للقوافل بين اليمن والشام ، تقوم مكة المكرمة فى واد غير ذى زرع ولا ضرع فيه ، تكتنفها من كل جهاتها جبال صخرية جرداء متباينة الارتفاع : وهى تقع عند تقاطع خط عرض ي٢٢/١٢ ٢١ شمالا ، بخط الطول ١٢/٢ ٣٩ شرقا ، وتمتد من الغرب إلى الشرق على مسافة ثلاثة كيلومترات طولا ، وما يقرب من نصف ذلك عرضا ، فى واد مائل من الشمال إلى الجنوب منحصر بين سلسلتى جبال تكادان تتصلان ببعضهما من جهة الشرق والغرب والجنوب ، أعنى على أبواب مكة الثلاثة ، ولذا لا تشاهد أبنيتها للقادم عليها إلا وهو على أبوابها ، والسلسلة الشمالية منها تتركب من جبل الفلج غربا ، ثم جبل قعيقعان ، ثم جبل الهندى ، ثم جبل لعلع ، ثم جبل كداء وهو فى أعلى مكة ، ومن جهته دخل الرسول ـ ﷺ ـ البلد حين الفتح .

أما الجنوبية فإنها تتركب من جبل أبى حديدة غرباً ، ثم يتلوه جبلا كدى وكدَى بانحراف إلى الجنوب ، ثم جبل أبى قبيس إلى شرقيها ، ثم جبل خندمة . وكل سفوح هذه الجبال من جهة الحرم عامرة بالبيوت والمساكن التى تتدرج عليها إلى قلب الوادى . وضمن هذه المساكن بعض الدور القديمة ، فهناك دار ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى المسعى على عين السالك إلى المروة ، وفى الشرق الشمالى للحرم آثار

---

(١) الآية : ٩٦ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٢٤ من سورة الفتح .

(٣) من الآية : ٧ من سورة الشورى .

(٤) الآيات : ١ ـ ٣ من سورة التين .

(٥) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة البلد .

دار أبي سفيان المشهورة فى الجاهلية والاسلام ، وقد جعل لها الرسول - ﷺ - يوم الفتح شأنا عظيما حيث جعلها حرماً محترما ، كل من دخلها من المشركين كان آمنا .

والحرم الشريف بين هذه البيوت مائلاً إلى الجهة الجنوبية مما يلى جبل أبى قبيس ، وفى هذه الجهة دار الخيزران ، يتلوها شرقا شِعْبُ بنى هاشم ، ويسمونه شعب على ، ثم شعب المولد ، ثم شعب بنى عامر ، وفى هذه الجهة الأخرى من الحرم خصوصاً جهة الشمال ومن دونهم باقى أهل مكة .

وجوُّ مكةَ شديد الحرارة قليل الأمطار ، ومع ذلك فقد تحصل فيه سيول كثيرة من الأمطار التى تنزل بكثرة فى الجبال العالية المحيطة بالطائف ، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد أقام فى شمال مكة قناطر لحجز مياه هذه السيول عن المدينة وانصرافها إلى الجهة الشرقية نحو المسفلة ، ومنها تسير إلى خزان كبير فى الجهة الجنوبية يسمونه (بركة ماجن) وتستعمل هناك للأعمال الزراعية ، وكثيرا ما كانت لهذه السيول أضرار جسيمة بمكة ومبانيها .

ويشرب أهل مكة من ماء الآبار التى فيها مثل زمزم ، أو التى فى ضواحيها مثل الزاهر والعسقلانى وغيرهما ، أو من الصهاريج التى تملأ من مياه المطر أو ماء الينابيع ، أو من عين زبيدة التى يجرى ماؤ ها إلى المدينة فى قنوات تحت الأرض لها خزانات فى شوارعها تسمى البازان ، وهذه العين لها أهمية عظيمة ، وهى من أجلِّ الآثار التى تنسب إلى السيدة زبيدة زوج هارون الرشيد . وكان السبب فى إنشائها أن هذه السيدة رأت فى حجها ما كان ينال أهل مكة وحجاج بيت الله الحرام من العناء الشديد لقلة الماء فى تلك الأنحاء ، فأمرت بإجراء الماء إلى أم القرى من عين حنين التى توجد فيما وراء عرفة إلى جهة الشمال على مسافة نحو خمسة وثلاثين كيلومترا من مكة ، وهذه العين تخرج من جبال طاد وتسير فى وادى حنين .

وقد اهتمت زبيدة بهذا العمل الجليل اهتماما كبيرا ، وأرسلت إليه العمال من جميع أنحاء البلاد الاسلامية فبنوا لهذا الماء مجرى عظيما وأوصلوا به مجرى آخر من وادى النعْمان من الماء الذى ينزل إليه من جبال كدى التى تبعد عن عرفات شرقا إلى الجنوب بنحو عشرة كيلومترات ، وسيروا إليه سبع قنوات أخرى من الجهات التى تسقط إليها السيول حتى تساعد ماء المجرى الأصلى الذى وصل إلى جنوب منى وحفر له هناك بئر كبير فى الصخر يصب فيه يسمى بئر زبيدة .

ومن هذا المجرى امتد فرعان : واحد إلى عرفات ، والآخر إلى مسجد نمرة ، يسير الماء فيهما زمن الحج .

وقد وصف ياقوت فى معجمه مكة المكرمة فقال :

« هى مدينة فى واد ، والجبال المشرفة عليها من جميع النواحى محيطة حول الكعبة وبناؤ ها من حجارة سود وبيض ملس ، وعلوها آجر كثيرة الأجنحة من خشب الساج ، وهى طبقات لطيفة بيضة حارة فى الصيف ، إلا أن ليلها لطيف . وقد رفع الله عن أهلها مؤونة الاستدفاء وأراحهم من كلف الاصطلاء .

وما نزل عن المسجد الحرام يسمونه المسفلة ، وما ارتفع عنه يسمونه المعلاة وعرضها سعة الوادى . والمسجد فى ثلثى البلد إلى المسفلة ، والكعبة فى وسط المسجد . وليس بمكة ماء جار . « إلا ماء زبيدة » ومياهها من السماء ، وليست لهم آبار يشربون منها ، هكذا !!

وأطيبها بئر زمزم ، وليس بجميع مكة شجر مثمر إلا شجر البادية ، فإذا جزت الحرم ، فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة وأودية ذات خضر ونخيل ، وأما الحرم فليس به شجر مثمر إلا نخيل يسيرة متفرقة » .

ووصف ابن جبير مكة ومناحيها المختلفة ، وخيراتها وثمارها ، ومما قاله فى ثرواتها الاقتصادية :

« وأما لحوم ضأنها فهناك العجب العجيب ، وقد وقع القطع من كل من تطوف على الآفاق ، وضرب نواحى الأقطار ، أنها أطيب لحم يؤكل فى الدنيا ، وماذاك - والله أعلم - إلا لبركة مراعيها .

وقال فى وصف ما اشتهرت به مكة من رطب جَنِيٍّ حتى طار صيته فى الآفاق :

« ومن أغرب ما ألفيناه ، فاستمتعنا بأكله ، وأجرينا الحديث باستطابته - ولا سيما لكوننا لم نعهده - الرطب ، وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر فى شجره ، يجنى ويؤكل .

وهى فى نهاية من الطيب واللذاذة ، لا يُسْأَمُ التَّفَكُّهُ به ، يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة ، أوكخروج أهل المغرب لقراهم أيام نضج التين والعنب ، ثم بعد ذلك عند تناهى نضجه يبسط على الأرض قدر ما يجف قليلا ، ثم يركم بعضه على بعض فى السلال والظروف ويرفع » .

وأهل مكة كلهم مسلمون ، ولا يدخلها غير مسلم من السنة التاسعة للهجرة التى نزلت فيها الآية الكريمة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾[1] .

وكان على بن أبى طالب - رضى الله عنه - ينادى فى الموسم الذى أعقب نزول هذه الآية الكريمة : « ألا يحج بعد عامنا هذا مشرك » .

تاريخ مكة

يرجع تاريخ مكة إلى إبراهيم - صلوات الله عليه - فقد أوحى الله إليه وهو فى حبرون بفلسطين : أن خذ هاجر وإسماعيل واخرج حيث أريك ، فحمل هاجر وإسماعيل وهو رضيع وانطلق إلى الجنوب : إلى الأرض التى أراد الله أن يبارك فيها للعالمين .

---

(١) من الآية : ٢٨ من سورة التوبة .

ونظر إبراهيم فإذا بربوة ، إنها بيت الله المحرم قد أتى عليها الطوفان ، فأنزل هاجر وإسماعيل فوق الربوة وراح يصنع لهما مسكناً .

ومكث إبراهيم معهما ما شاء الله أن يمكث ، ثم وضع عندهما جرابا فيه تمر ، وسقاة فيها ماء ، وذهب منطلقا ، فتبعته هاجر وقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا فى هذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شىء ؟ . . . وجعل إبراهيم لا يلتفت إليها ، حتى إذا ما عاد نور الله إلى فؤادها قالت : آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم .

فقالت فى ثقة : فإذاً لا يضيعنا .

وانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يَرَيَانِهِ استقبل بوجهه البيت ورفع يديه وقال :

﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[1] .

راحت هاجر تأكل من جراب التمر وتشرب من الماء ، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، ونظرت إليه وهو يتلوى من العطش فأحست بألم عميق ، وكاد عقلها يطيش ، وجعلت تتلفت فوجدت الصفا أقرب جبل إليها فهرعت إليه وقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ؟

وراحت تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات تتلهف على رؤية أحد ينقذ ابنها من الموت عطشاً ، وما دار بخلدها فى تلك اللحظة التى استولى عليها فيها الجزع والهلع أن ملايين المؤمنين على مر السنين سيسعون بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، تخليدا لذكرى ما كان فى ذلك السعى من بركة .

ولما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه ! - تريد نفسها - ثم أصاخت السمع فسمعت الصوت أيضا فانطلقت إلى حيث كان ابنها فإذا بالماء قد ظهر عند قدميه ، فجعلت تخوضه فى فرح وتغرف الماء فى سقاتها .

وشربت وأرضعت ولدها ، وإذا بالمَلَكِ عند زمزم فقال لها : لا تخافى الضيعة ، فإن هذا بيت الله الحرام ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله .

ونزلت رفقة من جرهم فى طريق أسفل مكة فرأوا الطير على الجبل . فقالوا : إن هذا الطير لَحَائِمٌ على ماء ، فأشرفوا فإذا هم بالماء ، فقالوا لهاجر : إن شئتِ كنا معك فآنسناك والماء ماؤك . فأذنت لهم ،

---

(١) الآية : ٣٧ من سورة ابراهيم .

فنزلوا معها ، وهم أول سكان مكة ، فلذلك كانت العرب تقول فى تلبيتها :

لَا هُمَّ إن جرهما عبادك الناس طارفٌ وهم تِلَادُكْ وهم قديماً عمروا بلادك

قال ابن كثير فى تفسيره :

قال ابن عباس : قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس : فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأَنْفَسَهُمْ وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم .

وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه ؟ فقالت : خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بِشَرٍّ ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه أنس شيئا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشىء ؟ قالت : نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك . قال : ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقكِ ، فالحقى بأهلك ، وطلقها ، وتزوج منهم بأخرى فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده ، فدخل على امرأته فسألها عنه ؟ فقالت : خرج يبتغى لنا ، قال : كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم ؟ فقالت : نحن بخير وسعة ، وأثنت على الله - عز وجل - قال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء » قال النبى صلى الله عليه وسلم - : ولم يكن لهم يومئذ حَبٌ ، ولو كان لهم لدعا لهم فيه - قال - ﷺ فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته فسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير ، قال : فأوصاك بشىء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام وأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه وصنعَا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرنى بأمر ، قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعيننى ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى ههنا بيتا - وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها - قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة ، وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبنى ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿ **ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم** ﴾[1] قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : (**ربنا تقبل منا** إنك أنت السميع العليم) .

(١) من الآية : ١٢٧ من سورة البقرة .

ورجع إبراهيم إلى قومه ، وبقى إسماعيل فى خدمة البيت حتى مات وعمره ١٣٧ سنة ، ودفن فى المسجد الحرام ، فى الحجر حيال الموضع الذى كان فيه الحجر الأسود ، على مقربة من قبر أمه هاجر ، وبعد وفاة إسماعيل ، قام بالإشراف على الكعبة ابنه ثابت ، ثم انفرد بالإشراف عليه بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد إسماعيل .

يروى ابن هشام ما حدث لأولاد إسماعيل بعد ازدياد عددهم :

فيقول :

« ثم نشر الله ولد إسماعيل بمكة ، وأخوالهم من جرهم ولاة البيت والحكام بمكة ، لا ينازعهم ولد إسماعيل فى ذلك لخئولتهم وقرابتهم ، وإعظاما للحرمة أن يكون بها بغى أو قتال ، فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى البلاد ، فلا يناوئون قوماً إلا أظهرهم الله عليهم بدينهم ، فوطئوهم » .

ولما قدمت خزاعة من اليمن بعد تهدم سد مأرب ، احتكت بجرهم فتقاتلت القبيلتان ، وانتصرت خزاعة ووليت أمر البيت ، وخرجت عن هذا الوادى جرهم كما خرج أولاد إسماعيل حيث تفرقوا حول مكة وفى تهامة .

وقد بدأت مكة تتطور أيام خزاعة ، فقد عمل زعيم خزاعة « عمرو بن لحى » على تنشيط الحج إلى مكة ، بعد أن كان أمر مكة قد تدهور ، والحج إليها قد قل بسبب بغى جرهم واعتدائها على القوافل والتجار والحجاج الذين يمرون بمكة أو يفدون إليها للتجارة والحج ، وبعد إهمال بئر زمزم التى يسرت المقام فى هذا الوادى القفر ، فأخذ عمرو بن لحى يطعم الفقراء من الحجيج ، ويجلب الماء من الآبار المنبثة حول مكة ، ونال بذلك منزلة كبيرة بين قومه وبين القبائل الضاربة حول مكة .

ويروى المؤرخون أن « عمرو بن لحى » هو الذى أدخل عبادة الأصنام فى مكة ، فيروون أنه لما ساد قومه فى مكة وأصبحت له الولاية على الكعبة رحل إلى مدينة البلقاء بالشام فى بعض أموره ، وبها يومئذ العماليق ، فرآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه ؟ فأعطوه صنما يقال له : هبل . فقدم به مكة ، فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، ويبدو أن الحنيفية : دين إبراهيم كان قد ضعف أمرها حتى بين أبناء إسماعيل أنفسهم ، فقد ذكر اليعقوبى أن « إلياس بن مضر ـ وقد شرف وبان فضله ـ كان أول من أنكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم » . .

استمرت خزاعة على ولاية البيت حتى قويت قريش وتغلبت عليها فى القرن الخامس الميلادى ، وكانت على درجة كبيرة من الرقى ، فاستولى قصى بن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام سنة ٤٤٠ م من يد خزاعة وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية ، فرحلت ونزلت فى بطن مر « وادى فاطمة » ومن ثم عظم

نفوذه ، واجتمعت له السقاية والحجابة والرفادة واللواء ، ولم تجتمع فى رجل قبله .

وقد أجمع المؤرخون على أن قريشا الذين منهم قصى بن كلاب ، الجد الرابع للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هم من ولد كنانة ، الذى يرجع نسبه إلى عدنان ، وينتهى إلى إسماعيل ـ عليه السلام ـ .

وإلى ذلك يشير الحديث الذى أثر عن الرسول ـ صلى الله عليه سلم ـ « اختار الله من بنى إسماعيل كنانة ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بنى هاشم من قريش ، واختارنى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار »(1) .

فلما تم الأمر لقصى جمع قريشاً وأمرهم أن يبنوا بها ، وابتدأ هو فبنى دار الندوة يجتمع فيها كبراء أهل مكة تحت إمرته ليتشاوروا فى أمور بلدهم ، فقد كان من عاداتهم ألا يتم أمر إلا باتفاقهم ، فلم تكن تنكح امرأة ولا يتزوج رجل إلا فى هذه الدار ، وبنت قريش بأمر قصى حول الكعبة دُورَها وتركوا مكانا كافيا للطواف بالبيت ، وتركوا بين كل بيتين طريقاً ينفذ منه إلى المطاف .

كان عبد الدار أكبر أبناء قصى ، لكن أخاه عبد مناف كان قد تقدم عليه أمام الناس وقد شرف فيهم ، فلما كبر قصى وضعف بدنه ولم يعد قادرا على تولى أمور مكة جعل الحجابة لعبد الدار وسلم إليه مفتاح البيت ، كما أعطاه السقاية واللواء والرفادة . وكانت الرفادة قسطاً تخرجه قريش كل عام من أموالها فتدفعه إلى قصى يصنع منه فى موسم الحج طعاما ينال منه مِنَ الحجاج من لم يكن ذا سعة ولا زاد . وكان قصى أول من فرض الرفادة على قريش حين جمعهم واعتز بهم وأخرج وإياهم خزاعة من مكة . فرضها عليهم وقال لهم :

« يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته ، وأهل الحرم ، وإن الحجاج ضيفَان الله وزوار بيته ، وهم أَحق الضيف بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدروا عنكم » اهـ .

نكتفى بهذا القدر ، ونكمل البحث ـ إن شاء الله تعالى ـ عند تفسير سورة « الفيل » .

---

(1) الحديث أخرجه الامام أحمد عن واثلة بن الأسقع ، انظر الفتح الربانى حـ ٢٠ ص ١٧٤ ، ورواه الترمذى فى (كتاب المناقب) باب : فى فضل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن واثلة من طريقين برقمى ٣٦٠٥ ، ٣٦٠٦ حـ ٥ ص ٥٨٣

تفسير سورة الشمس

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : خمس عشرة آية .

وكلماتها : أربع وخمسون .

وحروفها : مائتان وأربعون .

فواصل آياتها ، على الألف .

سميت بسورة (والشمس) لمفتتحها .

مقصود السورة :

أنواع القسم المترادفة على إلهام الخلق فى الطاعة والمعصية ، والفلاح والخيبة ، والخبر عن إهلاك ثمود ، وتخويف لأهل مكة .

ومناسبتها لما قبلها :

١ ـ أنه ـ سبحانه ـ ختم السورة السابقة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، وأعاد ذكر الفريقين فى هذه السورة بقوله : ﴿ **قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها** ﴾ .

٢ ـ ختم السورة السالفة بشىء من أحوال الكفار فى الآخرة ، وختم هذه بشىء من أحوالهم فى الدنيا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾
وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن

زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ
أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا
فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَـٰهَا ﴿١٥﴾

معانى المفردات

﴿ ضحى الشمس ﴾ : ضوؤها .

﴿ تلاها ﴾ أى : تبعها .

﴿ جلاها ﴾ أى : كشف الشمس وأتم وضوحها .

﴿ يغشاها ﴾ أى : يزيل ضوءها ويحجبه فتظلم الآفاق .

﴿ والسماء ﴾ كل ما ارتفع فوق رأسك ، والمراد به هذا الكون الذى فوقك ، وفيه الشمس والقمر وسائر الكواكب التى تجرى فى مجاريها .

﴿ وما بناها ﴾ أى : والذى خلقها هو الله تعالى .

﴿ وما طحاها ﴾ : والذى بسطها ووطأها .

﴿ وما سواها ﴾ : والذى عدل أعضاءها ومنحها قواها .

﴿ فجورها وتقواها ﴾ : معصيتها وطاعتها ، وخيرها وشرها .

﴿ قد أفلح ﴾ : قد فاز .

﴿ من زكاها ﴾ : طهرها وأنماها بالتقوى .

﴿ قد خاب ﴾ : خسر .

﴿ من دساها ﴾ : نقصها وأخفاها وأخملها بالفجور .

﴿ بطغواها ﴾ : بسبب طغيانها وعدوانها .

﴿ انبعث أشقاها ﴾ : قام مسرعاً يعقر الناقة .

﴿ ناقة الله وسقياها ﴾ : احذروا عَقْرَها ونصيبها من الماء .

﴿ فدمدم عليهم ﴾ : أهلكهم وأطبق عليهم سواء .

﴿ فسواها ﴾ : فجعل الدمدمة عليهم سواء .

﴿ عقباها ﴾ : عاقبة هذه العقوبة .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** ﴾ .

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله ـ عز وجل ـ : فأقسم ـ تعالى ـ بالشمس وضوئها الساطع ، وبالقمر إذا أعقبها وهو طالع ، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضيائه ، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه ، ثم بالقادر الذى أحكم بناء السماء بلا عمد ، وبالأرض التى بسطها على ماء جمد ، وبالنفس البشرية التى كملها الله وزينها بالفضائل والكمالات .

أقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأمور على فلاح الإنسان ونجاحه إذا اتقى الله ، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد .

قال الزجاج وغيره : جواب القسم : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ .

ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب .

قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ : وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق ، والمخلوق ، فأقسم بالسماء وبانيها ، والأرض وطاحيها ، والنفس ومسويها .

وقد قيل : إن (ما) مصدرية ، فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى ، فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه ، وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته ، وتوحيده ، ولما كانت حركة الشمس والقمر ، والليل والنهار أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً ، ويعلمون أن الحادث لابد له من محدث كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً ، فلم يذكر الفاعل فى الأقسام الأربعة .

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع ، وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن فى غير موضع كقوله : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب** ﴾[1] .

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان ذكر مع اقسام بهما بانيهما ومبدعهما ، وكذلك النفس ، فإن حدوثها غير مشهور ، حتى ظن بعضهم قِدَمَهَا ، فذكر مع الإقسام بها مسويها وفاطرها ، مع ما فى ذكر بناء السماء وطَحْوِ الأرض وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق ، فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض ، وجعلها سقفاً لهذا العالم . والطحو : هو مَدُّ الأرض وبسطُها ، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام والحيوان ، ويمكن فيها البناء والغراس ، والزرع ، وهو متضمن لنضوب الماء عنها ، وهو مما حير عقول الطبائعيين حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة

---

(١) الآية : ١٩٠ من سورة آل عمران .

الماء ، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة وكونهُ هذا الجانب المعين دون غيره ، مع استواء الجوانب فى الشكل الكرى يقتضى تخصيصاً . فلم يجدوا بُدًّا أن يقولوا : عناية الصانع اقتضت ذلك . قلنا : فنعم إذاً ، ولكن عناية من لا مشيئة له ، ولا إرادة ولا اختيار ، ولا علم بمعين أصلاً ، كما تقولونه ، فيه محال ، فعنايته تقتضى ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله ، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد ، أ. هـ .

وقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ الضمير المرفوع فى (زكاها) عائد على (من) والمعنى : قد أفلح من زكى نفسه . قال الحسن : قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله . وقال ابن قتيبة : يريد أفلح من زكى نفسه ، أى : نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ﴾(١) وهو ـ سبحانه ـ إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح ، كقوله تعالى : ﴿ قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ﴾(٢) إلى آخر الآيات .

وقوله تعالى : ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أى : وقد خاب من أهلك نفسه وحملها على معصية الله .

قال ابن قتيبة : (وقد خاب من دساها) أى : نقصها وأخفاها بترك عمل البر وركوب المعاصى .

قال ابن القيم : والفاجر أبداً خفى المكان زمن المروءة ، غامض الشخص ناكس الرأس . فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه ، وقمعها ، ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها . وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين ، وتوقد النيران فى الليل للطارقين . وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام لتخض أماكنها على الطلبين . فأولئك أعلوا أنفسهم وزكَّوْهَا ، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها .

وقال ابن القيم :

قالت طائفة أخرى من المفسرين : الضمير يرجع إلى الله تعالى . قال ابن عباس ـ فى رواية عطاء ـ : قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها ، وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير قالوا : سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة ، حتى عملت بها ، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها .

قال أرباب هذا القول : قد أقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأشياء التى ذكرها ، لأنها تدل على وحدانيته وعلى فلاح من طهره ، وخسارة من خذله ، حتى لا يظن أحد أنه هو الذى يتولى تطهير نفسه وإهلاكها بالمعصية من غير قَدَرٍ سابق ، وقضاءٍ متقدم .

قالوا : وهذا أبلغ فى التوحيد الذى سيقت له هذه السورة .

قالوا : ويدل عليه قوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ .

---

(١) الآيتان : ١٤ ، ١٥ من سورة الأعلى .
(٢) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة المؤمنون .

قالوا : ويشهد له حديث نافع ، عن ابن عمر ، عن ابن أبى مليكة ، عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها قالت : انتبهت نفسى ليلة فوجدت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقول : « رب أعط نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها »[١] قالوا : فهذا الدعاء هو تأويل الآية بدليل الحديث الآخر : « إن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان إذا قرأ (قد أفلح من زكاها) وقف ثم قال : « اللهم آت نفسى تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وزكها أنت خير من زكاها »[٢] .

قالوا : وفى هذا ما يبين أن الأمر كله له ـ سبحانه ـ فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى ، وهو مزكيها ومدسيها ، فليس للعبد فى الأمر شىء ، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً .

قال أرباب القول الأول : هذا القول ، وإن كان جائزاً فى العربية ، حاملاً للضمير المنصوب على معنى من ، وإن كان لفظها مذكراً ، كما فى قوله : ﴿ ومنْهم من يستمعون إليك ﴾[٣] جمع الضمير وإن كان لفظ (مَنْ) مفرداً حملاً على نظمها ، فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس فى مفسر الضمائر ، وههنا قد تقدم لفظ (من) والضمير المرفوع فى (زكاها) يستحقه لفظاً ومعنى . فهو أولى به لفظاً ومعنى ، فهذا هو النظم الطبيعى الذى يقتضيه سياق الكلام ووضعه .

قالوا : والقول الذى ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه :

(أحدها) أن منه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فِعْل العبد واختياره كما هى طريقة القرآن .

(الثانى) أن فيه زيادة فائدة وهى إثبات فعل العبد وكسبه ، وما يثاب وما يعاقب عليه . وفى قوله : ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ، إثبات القضاء والقدر السابق .

فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين ، وهما كثيراً ما يقترنان فى القرآن الكريم كقوله : ﴿ إنه تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾[٤] وقوله : ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾[٥] .

فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية .

(الثالث) أن قولنا يستلزم قولكم ، دون العكس . فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته ، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه والتخلية بينه وبين نفسه ، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض ، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة . أ. هـ .

وقوله تعالى : ﴿ كذبت ثمود بطغواها ، إذ انبعَثَ أشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها ، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ، ولا يخاف عقباها ﴾ .

---

(١) الحديث أخرجه أحمد فى مسنده (مسند عائشة ـ رضى الله عنها ـ) انظر الفتح الربانى للساعاتى ٢٩٢/٣ ، وأخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ٦ ص ٢١ .

(٢) أخرجه ابن كثير فى تفسيره (تفسير سورة الشمس) جـ ٤ ص ٥١٦ وعزاه إلى الطبرانى .

(٣) من الآية : ٤٢ من سورة يونس .

(٤) الآيتان : ٥٤ ، ٥٥ وجزء الآية : ٥٦ من سورة المدثر .

(٥) الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ من سورة التكوير .

يخبر - تعالى - عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان والبغى فأعقبهم ذلك تكذيباً فى قلوبهم بما جاءهم به رسولهم صالح - عليه الصلاة والسلام - من الهدى واليقين .

وقوله تعالى : ﴿ إذ انبعث أشقاها ﴾ أى : أشقى القبيلة ، وقيل : اسمه قدار بن سالف ، عاقر الناقة وهو أحيمر ثمود وهو الذى قال الله - تعالى - فيه : ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾[(١)] .

وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريعاً فى قومه ، نسيباً رئيساً مطاعاً .

وقوله تعالى : ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعنى صالحاً - عليه السلام - (ناقة الله) أى : احذروا ناقة الله . أن تمسوها بسوء ، (وسقياها) . أى : لا تعتدوا عليها فى سقياها ، فإن لها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم ، قال الله تعالى : ﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ أى : كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التى أخرجها الله من الصخرة آية لهم وحجة عليهم ﴿ فدمدم عليهم ربهم بذنبهم ﴾ أى : غضب عليهم فدمر عليهم . (فسواها) أى : فجعل العقوبة نازلة عليهم على السواء فلم يفلت منهم أحد .

لا يخاف الله من أحد تبعه ، وكذا قال مجاهد والحسن وبكر بن عبد الله المزنى وغيرهم . وهذه الآية معنى قوله - تعالى - فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم عن أبى ذر ، والذى فيه : « يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » الحديث[(٢)] .

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - : وذكر فى هذه السورة ثمود ، دون غيرهم من الأمم المكذبة لأنهم ردوا الهدى بعدما تيقنوه وكانوا مستبصرين به ، قد ثلجت له صدورهم ، واستيقظت له أنفسهم ، فاختاروا عليه العمى والضلالة ، كما قال تعالى فى وصفهم : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾[(٣)] وقال تعالى : ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة ﴾[(٤)] أى : موجبة لهم التبصر واليقين ، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم ، فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها ، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة لمزيد ، ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال تعالى : ﴿ فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ؟ ﴾[(٥)] ثم قال : ﴿ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ ولهذا أمكن عاداً المكابرة وأن يقولوا لنبيهم : ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾[(٦)] ولم يمكن ذلك ثمود ، وقد رأوا البينة عياناً . وصارت لهم بمنزلة الشمس والقمر ، فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة ، فكان فى تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من عرف الحق ولم يتبعه . وهذا داء أكثر الهالكين ، وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض ، والله أعلم . أ. هـ .

---

(١) الآية : ٢٩ من سورة القمر .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه بسرح النووى فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم جـ١٦ ص١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) من الآية : ١٧ من سورة فصلت .

(٤) من الآية : ٥٩ من سورة الإسراء .

(٥) من الآية : ١٥ من سورة فصلت .

(٦) من الآية : ٥٣ من سورة هود .

تفسير سورة الليل

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : إحدى وعشرون آية .

وكلماتها : إحدى وسبعون .

وحروفها : ثلاثمائة وعشر .

فواصل آياتها : على الألف .

سميت سورة الليل لمفتتحها .

مقصود السورة :

القسم على تفاوت حال الخلق فى الإساءة والإحسان ، وهدايتهم إلى شأن القرآن ، وترهيب بعض بالنار ، وترغيب بعض بالجنان ، والبدار إلى الصدقة كفارة للذنوب والعصيان ، ووعد بالرضا من الرحمن المنان فى قوله تعالى : ﴿ **ولسوف يرضى** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ وبعده ﴿ **فسنيسره للعسرى** ﴾ أى : سنهيئه للحالة اليسرى ، والحالة العسرى ، وقيل : الأولى الجنة ، والثانية : النار .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه ذكر هناك فلاح المطهرين لأنفسهم وخيبة المدسين لها ، وهنا ذكر ما يحصل به الفلاح ، وما تحصل فيه الخيبة ، فهى كالتفصيل لسابقتها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ
سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ

لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ
لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ
لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾
الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾
وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ
يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

معانى المفردات

(يغشى) : أى يغطى كل شىء فيواريه بظلامه .
(تجلى) أى : ظهر وانكشف بظهوره كل شىء .
(وما خلق) أى : والذى خلق .
(شتى) واحدها : شتيت ، وهو المتباعد بعضه من بعض .
(تلظى) أصله : تتلظى ، أى : تتوقد وتلتهب .
(يصلاها) أى : يحترق بها .
(كذَّب) أى : كذب .
(وسيجنبها) أى : سيبعد عنها .
(يتزكى) : يتطهر من الذنوب .
(تجزى) : تكافأ .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يغشى ، والنَّهار إذا تجلَّى ، وما خلق الذكر والأنثى ، إن سعيكم لشتى ﴾ .

أقسم ـ سبحانه وتعالى ـ بالليل إذ هو من آياته الدالة عليه فأقسم به وقت غشيانه ، وأتى بصيغة المضارع : لأنه يغشى شيئاً بعد شىء .

وأقسم ـ سبحانه ـ بآية النهار فقال تعالى : ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أى : إذا انكشف ووضح وظهر وبان ضوؤه عن ظلمة الليل ، وكلاهما من آيات ربوبيته ، ثم أقسم ـ سبحانه ـ بخلق الذكر والأنثى ، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف أصنافه : ذكره وأنثاه ، وقابل بين الذكر والأنثى كما قابل بين الليل والنهار ، وكل ذلك من العلوية كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية ، فأخرج من السماء الليل والنهار ، بواسطة الشمس فيها ، وأقسم ـ سبحانه ـ بزمان السعى ـ وهو الليل والنهار ـ وبالساعى وهو الذكر والأنثى ، على اختلاف السعى ، كما اختلف الليل والنهار ، والذكر والأنثى وسعيه وزمانه مختلف ، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه ، وأنه ـ سبحانه ـ لا يسوى بين من اختلف سعيه فى الجزاء كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى .

وقوله تعالى : ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ هذا جواب القسم .

والمعنى : إن عملكم لمختلف . قال عكرمة وسائر المفسرين : السعى : العمل ، فَسَاعٍ فى فكاك نفسه ، وساعٍ فى عطبها ، يدل عليه قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «الناس غاديان : فمبتاع نفسه فمعتقها وبائع نفسه فموبقها »[1] ، وفى رواية مسلم : « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها »[2] وإنما قيل للمختلف شتى لتباعد ما بين بعضه وبعض ، أى : إن عملكم لمتباعد بعضه عن بعض ، لأن بعضه ضلالة وبعضه هدى ، أى : فمنكم مؤمن وبر ، وكافر وفاجر ، ومطيع وعاص . وقيل : (لشتى) أى : لمختلف الأجزاء ، فمنكم مثاب بالجنة ، ومعاقب بالنار .

قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) .

ثم أخبر ـ سبحانه ـ عن تفريقه بين عاقبة سعى المحسن ، وعاقبة سعى المسىء فقال : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أى : أعطى ما أمر بإخراجه واتقى الله فى أموره . ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أى : بالخلف من الله ـ تعالى ـ على عطائه . ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً »[3] وقال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أى : أعطى الصدق من قلبه (وصدق بالحسنى) أى : بلا إله إلا الله (فسنيسره لليسرى) .

---

(١) الحديث أخرجه : أحمد فى مسنده (مسند جابر بن عبد الله) جـ٣ ص ٣٩٩ ضمن حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم فى (كتاب الطهارة) باب فضل الوضوء جـ١ ص٢٠٣ رقم ٢٢٣/١ تبويب محمد فؤاد عبد الباقى .

(٣) أخرجه مسلم فى (كتاب الزكاة) باب : فى المنفق والممسك ، والحديث متفق عليه أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزكاة) باب ، فى المنفق والممسك صـ٢٠٨ رقم ٥٩١ .

وقال مجاهد : (وصدق بالحسنى) أى : بالجنة ، ودليله قوله ـ تعالى ـ : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ الآية[١] ، وقال قتادة : (وصدق بالحسنى) أى : وعد الله الذى وعده أن يثيبه ، وكله متقارب المعنى ، إذ كله يرجع إلى الثواب الذى هو الجنة .

وقوله تعالى : ﴿ **فسنيسره لليسرى** ﴾ أى : نرشده لأسباب الخير والصلاح حتى يسهل عليه فعلها .

وقال زيد بن أسلم : (لليسرى) : الجنة .

قال البخارى بسنده عن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : « كنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بقيع الغرقد فى جنازة فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » فقالوا : يا رسول الله أفلا نتكل ؟ فقال : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » ثم قرأ ﴿ **فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، إلى قوله ـ : للعسرى** ﴾[٢] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن ابن عمر قال : قال : يا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أرأيت ما نعمل ؟ ما نعمل فيه : أفى أمر قد فرغ أو مبتدأ أو مبتدع ؟ قال : فيما قد فرغ منه ، فاعمل يا ابن الخطاب ، فإن كلا ميسر ، أما من كان من أهل السعادة فإنه يعمل للسعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فإنه يعمل للشقاء »[٣] ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح .

وقوله تعالى : ﴿ **وأما من بخل واستغنى** ﴾ أى : ضنَّ بما عنده فلم يبذل خيراً ، واستغنى عن ربه (وكذب بالحسنى) أى بالخلف . وقال مجاهد : بالجنة . وفى رواية أخرى له قال : كذب بالحسنى ، أى : بلا إله إلا الله (فسنيسره للعسرى) أى : للشر . وعن ابن مسعود : للنار . وقيل : أى : فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها ، ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدّاً** ﴾[٤] .

أسباب التيسير

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ :

« تضمنت الآيتان ذكر شرعه ، وذكر الأعمال وجزائها ، وحكمة القدر فى تيسير هذا لليسرى ، وهذا للعسرى ، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها ، ولا يظلم ربك أحداً ، وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب :

---

(١) من الآية : ٢٦ من سورة يونس .

(٢) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب القدر) باب : كيفية خلق الآدمى فى بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته صـ ٧١٧ ، ٧١٨ ، ورواه البخارى فى (كتاب الجنائز) باب موعظة المحدث عند القبر وقعود أصحابه حوله .

ورواه الترمذى فى (كتاب التفسير) تفسير سورة : والليل إذا يغشى جـ ٥ ص ٤٤١ رقم ٣٣٤٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) رواه أحمد فى مسنده جـ ١ ص ٢٧ ، ٢٩ وانظر الفتح الربانى للساعاتى ١٣٨/١ وأخرجه الترمذى فى جامعة الصحيح فى (كتاب القدر) باب ما جاء فى الشقاء والسعادة جـ ٤ ص ٤٤٥ رقم ٢١٣٥ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٤) الآية : ٧٥ من سورة مريم .

(أحدها) : إعطاء العبد ، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم ، أى : أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته ، وطاوعته نفسه ، وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة ، والإخلاص والتوبة والشكر ، وإعطاءه الإحسان والنفع بماله ، ولسانه وبدنه ، ونيته وقصده ، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة ، لا لئيمة مانعة ، فالنفس المطيعة هى النافعة المحسنة ، التى طبعها الإحسان ، وإعطاء الخير اللازم والمتعدى ، فتعطى خيرها لنفسها ولغيرها ، فهى بمنزلة العين التى ينتفع الناس بشربهم منها ، وسقى دوابهم وأنعامهم وزرعهم ، فهم ينتفعون بها كيف شاءوا ، فهى ميسرة لذلك ، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل ، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء .

(السبب الثانى) : التقوى ، وهى : اجتناب ما نهى الله عنه ، وهذا من أعظم أسباب التيسير ، وضده من أسباب التعسير ، فالمتقى ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته ، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى ، وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا ، فلو اتقى الله لكان تيسيرها عليه إتم ، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى . فإن طيب العيش ، ونعيم القلب ، ولذة الروح ، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا ، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات ، قال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً** ﴾[1] فأخبر أنه ييسر على المتقى مالا ييسر على غيره ، وقال تعالى) ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾[2] وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه . وقال تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً** ﴾[3] وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه ، وإعطائه ما يحبه ويرضاه . وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم** ﴾[4] .

وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة والنصر والعلم والنور غاية التيسير ، وقال تعالى : ﴿ **واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾[5] والفلاح غاية اليسر ، كما أن الشفاء غاية العسر ، وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم** ﴾[6] فضمن لهم - سبحانه - بالتقوى ثلاثة أمور :

(أحدها) : أعطاهم نصيبين من رحمته : نصيباً فى الدنيا ، ونصيباً فى الآخرة ، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين ..

(والثانى) : أعطاهم نوراً يمشون به فى الظلمات .

(الثالث) : مغفرة ذنوبهم ، وهذا غاية التيسير فقد جعل - سبحانه - التقوى سبباً لكل يسر ، وترك التقوى سبباً لكل عسر .

---

(١) من الآية : ٤ من سورة الطلاق..
(٢) من الآيتين : ٢ ، ٣ من سورة الطلاق .
(٣) من الآية : ٥ من سورة الطلاق .
(٤) من الآية : ٢٩ من سورة الأنفال .
(٥) من الآية : ٢٠٠ من سورة آل عمران .
(٦) من الآية : ٢٨ من سورة الحديد .

(السبب الثالث) : التصديق بالحسنى ، وفسرت بلا إله إلا الله ، وفسرت بالجنة ، وفسرت بالخلف ، وهى أقوال السلف ، واليسرى : صفة لموصوف محذوف ، أى : الحالة والخلة اليسرى ، وهى (فُعْلَى) من اليسر ، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال ، وأفضل الجزاء ، فمن فسرها بلا إله إلا الله فقد فسرها بمفرد يأتى بكل جمع ، فإن التصديق الحقيقى بلا إله إلا الله يستلزم التصديق بِشُعَبِهَا وفروعها كلها ، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة . فلا يكون العبد مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ، ولا يكون مؤمناً بالله إله العالمين حتى يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله ، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إله إلا هو حتى يسلب خصائص الإلهية عن كل موجود سواه ، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته كما هى منفية فى الحقيقة والخارج ، ولا يكون مصدقاً بها من نفى الصفات العليا ، ولا من نفى كلامه وتكليمه ، ولا من نفى استواءه على عرشه وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح ، وأنه رفع المسيح إليه ، وأسرى برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليه ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها على الحقيقة من نفى عموم خلقه لكل شىء ، وقدرته ليوم النشور ، ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سدى ، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله ، وكذلك التصديق بها يقتضى الإذعان ، والإقرار ، بحقوقها : وهى شرائع الإسلام التى هى تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، هو تفصيل لا إله إلا الله .

فالمصدق بها على الحقيقة يأتى ذلك كله ، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها ، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها ، فالعقوبة فى الدنيا والآخرة على تركها ،أو ترك حقها .

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله ، ومن فسَّرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء ، فهذا جزاء دنيوى ، والجنة جزاء أخروى ، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه ، والتحقيق أنها تتناول الأمرين .

وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاث ـ وهى : الإعطاء ، والتقوى ، والتصديق بالحسنى ، من العلم والعمل ، وتضمنته من الهدى ودين الحق . فإن النفس لها ثلاث قوى : قوة البذل والإعطاء وقوة الكف والامتناع ، وقوة الإدراك والفهم ، ففيها قوة العلم والشعور ، ويتبعها قوة الحب والإرادة ، وقوة البغض والنفرة . فهذه القوى الثلاث عليها مدار صلاحها وسعادتها ، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها ،

ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى ، وفساد قوة الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء ، وفساد قوة البغض والنضرة يوجب له ترك الاتقاء ، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به ، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهى عنه ، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها . فقد زكى نفسه ، وأعدها لكل حالة يُسْرَى ، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى .

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد ، فعل المأمور ، وترك المحظور ، وتصديق الخبر . وإن شئت قلت : الدين طلب وخبر ، والطلب نوعان : طلب فعل ، وطلب ترك ، فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها . فالإعطاء : فعل المأمور ، والتقوى : ترك المحظور ، والتصديق بالحسنى : تصديق الخبر . فانتظم ذلك الدين كله .

وأكمل الناس من كملت له هذه القوى الثلاث ، ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها ، فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه ، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء ، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع ، ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع ، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس ، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى ، قال ابن عباس : (فسنيسره لليسرى) أى : نهيئه لعمل الخير : نيسر عليه أعمال الخير ، وقال مقاتل والكلبى والفراء : نيسر للعود إلى العمل الصالح .

﴿ وأما من بخل ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿ واستغنى ﴾ بترك التقوى عن ربه فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهى عنه ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ، ﴿ فسنيسره للعسرى ﴾ ، قال عطاء : سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بى وبرسولى ، وقال مقاتل : يعسر عليه أن يعطى خيراً ، وقال عكرمة عن ابن عباس : نيسره للشر . قال الواحدى : وهذا هو القول ، لأن الشر يؤدى إلى العذاب ، فهو الخلة العسرى ، والخير يؤدى إلى اليسر ، والراحة فى الجنة ، فهو الخلة اليسرى .

والتيسير للعسرى يكون بأمرين :

(أحدهما) : أن يحول بينه وبين أسباب الخير ، فيجرى الشر على قلبه ونيته ولسانه وجوارحه .

(والثانى) : أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر كما حال بينه وبين أسبابه .

فإن قيل : كيف قابل ؛ اتقى) بـ (استغنى) ؟ وهل يمكن العبد أن يستغنى عن ربه طرفة عين ؟

قيل : هذا من أحسن المقابلة ، فإن المتقى لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه أتقاه ، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه ، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص ، فإنه يتقى غضبه وسخطه عليه غاية الإتقاء ، ويجانب ما يكرهه غاية المجانبة ، ويعتمد فعل ما يحبه ويؤثره ، فقابل التقوى بالاستغناء تشيعاً لحال تارك التقوى ، ومبالغة فى ذمه ، بأن فَعَلَ فِعْلَ المستغنى عن ربه ، لا فِعْلَ الفقير المضطر إليه ، الذى لا ملجأ له إلا إليه ، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة

عين ، فلله ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها والشرور كلها وأسبابها ، فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه ، وتجلى لهم فيه . فهم لا يطلبون أثراً بعد عين ، ولا يستبدلون الحق بالباطل ، والصدق بالمَيْنِ . أ. هـ .

قوله تعالى : ﴿ وما يغنى عنه ماله إذا تردى ﴾ أى : وإذا يسرناه للعسرى فأى شيء ويغنى عنه ماله الذى بخل به على الناس ولم ينفعه فى المصالح العامة ، وفيما يعود نفعه على الجماعة ، ولم يصحب منه شيئاً إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره ؟ كما قال تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾[1] وكما قال تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالاً وعدده ، يحسب أن ماله أخلده ، كلا لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، فى عمد ممدة ﴾[2] .

قوله تعالى : ﴿ إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ .

قيل معناه : إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال .

قال قتادة : على الله البيان ، بيان حلاله وحرامه ، وطاعته ومعصيته . وهذا المعنى حق ، ولكن مراد الآية شيء آخر .

وقيل : المعنى : من سلك الهدى فعلى الله سبيله ، كقوله تعالى : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾[3] وهذا قول مجاهد حكاه ابن جرير .

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ : وهو أصح الأقوال فى الآية . قال الواحدى : علينا الهدى ، أى : إن الهدى يوصل صاحبه إلى الله ، وإلى ثوابه وجنته ، وهذا المعنى فى القرآن فى ثلاث مواضع : ههنا ، وفى النحل فى قوله : ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ وفى الحجر : ﴿ هذا صراط علىَّ مستقيم ﴾[4] وهو معنى شريف جليل ، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولابد ، والهدى : هو الصراط المستقيم ، فمن سلكه أوصله إلى الله ، فذكر الطريق والغاية ، فالطريق ، الهدى ، والغاية : الوصول إلى الله . فهذه أشرف الوسائل وغايتها أعلى الغايات .

وقوله تعالى : ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ .

لما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه . فأعلمه ـ سبحانه ـ أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً . وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده ، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع طلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده ، فتضمنت الآيتان

---

(١) من الآية : ٩٤ من سورة الأنعام .
(٢) سورة الهمزة .
(٣) من الآية : ٩ من سورة النحل .
(٤) الآية : ٤١ من سورة الحجر .

أربعة أمور ، هى المطالب العالية . ذكر أعلى الغايات ، وهو الوصول إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ وأقرب الطرق والوسائل إليه ، وهى طريق الهدى . وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها . وتوحيد المطلوب . وهو الحق . فلا يعدل عنه إلى غيره . فاقتبس هذه أمور من مشكاة هذه الكلمات فإن هذه غاية العلم والفهم ، وبالله التوفيق .

ولما أقام ـ سبحانه ـ الدليل ، وأنار السبيل ، وأوضح الحجة ، وبين المحجة ، أنذر عباده عذابه الذى أعده لمن كذب خبره وتولى عن طاعته ، وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص ، فهذا الصنف هو الذى يجنب عذابه . قال تعالى :

﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ، لا يصلاها إلا الأشقى ، الذى كذّب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾ .

قال القرطبى : (فأنذرتكم) أى : حذرتكم وخوفتكم (ناراً تلظى) أى : تلهب وتتوقد ، وأصله : تتلظى . (لا يصلاها) أى : لا يجد صلاها وهى حرها (إلا الأشقى) أى : الشقى (الذى كذب) نبى الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ (وتولى) أى : أعرض عن الإيمان .

قال الإمام مالك : صلى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب فقرأ : (والليل إذا يغشى) فلما بلغ (فأنذرتكم ناراً تلظى) وقع عليه البكاء فلم يقدر يتعداها من البكاء ، فتركها وقرأ سورة أخرى .

قال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يدخل النار إلا شقى » قيل : ومن الشقى ؟ قال : « الذى لا يعمل بطاعة ، ولا يترك لله معصية »[1] .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كل أمتى يدخلون الجنة يوم القيامة إلا من أبى » قالوا : من يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعنى دخل الجنة ، ومن عصانى فقد أبى »[2] . ورواه البخارى عن محمد بن سنان عن فليح به .

وقوله تعالى : **﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾** أى : وسيزحزح عن النار التقى النقى الأتقى ، كما قال تعالى : **﴿ ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾**[3] وكما قال سبحانه : **﴿ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون ﴾**[4]

وقوله : **﴿ الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾** أى : يصرف ماله فى طاعة مولاه ليزكى نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا ، قال تعالى : **﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾**[5] وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الصدقة تطفىء غضب الرب كما يطفىء الماء النار »[6]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى هريرة) جـ ٢ ص ٣٤٩ ، وانظر الفتح الربانى للساعاتى جـ ١٩ ص ٢١٣ .

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده (مسند أبى هريرة) جـ ٢ ص ٣٦١ ، وانظر الفتح الربانى للساعاتى جـ ٢٣ ص ٢٠٢ ورواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) جـ ٤ ص ٢٥٧ طبع دار إحياء الكتب العربية .

(٣) الآية : ٧٢ من سورة مريم . (٤) الآية : ٦١ من سورة الزمر . (٥) من الآية : ١٠٣ من سورة التوبة .

(٦) الحديث أخرجه ابن حبان مع اختلاف فى اللفظ ، وهو عنده : « الصدقة تطفىء غضب الرب وتدفع ميتة السوء » .
وهذا اللفظ جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (مسند جابر بن عبد الله) جـ ٣ ص ٣٩٩ فى وصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكعب بن عجرة ـ رضى الله عنه ـ

وقوله تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ أى : ليس بذله ماله فى مكافأة من أسدى إليه معروفاً فهو يعطى فى مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك (ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ أى : طمعاً فى أن يحصل له رؤ يته فى الدار الآخرة فى روضات الجنات ، قال الله تعالى : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أى : ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات الجليلة .

قال ابن كثير : وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت فى أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها فإن لفظها لفظ العموم ، وهو قوله : ﴿ وسيجنبها الأتقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ ولكنه مقدم الأمة وسابقهم فى جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة ، فإنه كان صديقاً تقياً كريماً جواداً بذّالاً لأمواله فى طاعة مولاه ، ونصرة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فكم من الناس عنده منّة يحتاج إلى أن يكافئه بها ، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل ، ولهذا قال له عروة بن مسعود ـ وهو سيد ثقيف ـ يوم صلح الحديبية : « أما والله لولا يدٌ لك عندى لم أجزك بها لأجبتك » وكان الصديق قد أغلظ له فى المقالة ، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل فكيف بمن عداهم ؟! ولهذا قال تعالى : ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ﴾ .

وفى الصحيحين أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله دعته خزنة الجنة : يا عبد الله هذا خير . . » فقال أبو بكر : يا رسول الله ما على من يدعى منها ضرورة فهل يدعى منها كلها أحد ؟ قال : نعم وأرجو أن تكون منهم »[1] .

ولفظ البخارى : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من أنفق زوجين فى سبيل الله نودى من أبواب الجنة : يا عبد الله هذا خير ، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الجهاد دُعى من باب الجهاد ، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريَّان ، ومن كان من أهل الصدقة دُعى من باب الصدقة » فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما على من دعى من تلك الأبواب من ضرورة ، فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[2] .

---

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الزكاة) باب من جمع الصدقة وأبواب البر صـ ٢١٤ رقم ٦٠٦ رواه عن أبى هريرة بأطول من هذا ولفظه يقارب ما ذكره بعده على أنه لفظ البخارى .

(٢) أخرجه البخارى فى (كتاب الصيام) باب : الريان للصائمين جـ١ ص٣٢٥ طبع دار إحياء الكتب العربية .

تفسير سورة الضحى

مقدمة عن السورة :

السورة مكيَّة .

عدد آياتها : أربعون .

وحروفها : مائة واثنتان وسبعون .

وفواصل آياتها : على الألف .

سميت (والضحى) لمفتتحها .

مقاصد السورة :

معظم مقصود السورة : بيان ما للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الشرف والمنقبة له ، والمنة وصيانة الفقر واليتم من بين الحرمان والمذلة ، والأمر بشكر النعمة فى قوله : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾

المتشابهات :

قوله : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ كرر ثلاث مرات ، لأنها وقعت فى مقابلة ثلاث آيات أيضاً . وهى ﴿ **ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ واذكر يتمك ﴿ **وأما السائل فلا تنهر** ﴾ واذكر فقرك ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ : النبوة والإسلام .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى السابقة ﴿ **وسيجنبها الأتقى** ﴾ ولما كان سيد الأتقين رسول الله ـ ﷺ ـ عقب ذلك ـ سبحانه ـ بذكر نعمه ـ عز وجل ـ عليه .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ
مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾
وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾
وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ﴿١١﴾

معانى المفردات

﴿ الضحى ﴾ : صدر النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا الكون .

﴿ سجى ﴾ أى : سكن ، والمراد : سكن الأحياء فيه وانقطعوا عن الحركة .

﴿ ما ودعك ربك ﴾ أى : ما تركك .

﴿ وما قلى ﴾ أى : وما قلاك وما أبغضك .

﴿ ضالاً فهدى ﴾ أى : غافلاً عن الشرائع فهداك إلى مناهجها .

﴿ عائلا ﴾ أى : فقيراً .

﴿ فلا تقهر ﴾ أى : فلا تستذل .

﴿ فلا تنهر ﴾ أى : فلا تزجر .

﴿ فحدث ﴾ أى : فَأَدِّ الشكرَ لموليها .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **والضحى . والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ .

سبب نزول هذه الآيات المباركة :

اشتكى رسول الله - ﷺ - فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فجاءت امرأة - وهى أم جميل امرأة أبى لهب - فقالت يا محمد : إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك !! لم أره قربك ليلتين أو ثلاث ، فأنزل الله - عز وجل : ﴿ **والضحى - والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ . (الحديث رواه البخارى ومسلم وأحمد فى سنده بدون ذكر اسم المرأة)(١)

قوله : ﴿ **والضحى . والليل إذا سجى** ﴾ : أقسم - تعالى - بوقت الضحى - وهو صدر النهار حين ترتفع الشمس - وأقسم بالليل إذا اشتد ظلامه .

قال ابن كثير : هذا قسم منه - تعالى - بالضحى وما جعل فيه من الضياء ، وبالليل إذا سكن وأظلم وادْلَهَمَّ ، وذلك دليل ظاهر على قدرته تعالى .

وقوله تعالى : ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ أى : ما تركك ربك يا محمد منذ اختيارك ، ولا أبغضك منذ أحبك ، وهذا رد على المشركين حين قالوا : هجره ربه ، وهو جواب القسم .

قال العونى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لما نزل على رسول الله ﷺ القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ، فتغير بذلك ، فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه ، فأنزل الله : ﴿ **ما ودعك ربك وما قلى** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾ أى : وللدار

---

(١) الحديث فى صحيح البخارى فى (كتاب التفسير) تفسير : والضحى جـ٣ ص٢١٧ طبع دار احياء الكتب العربية .

الآخرة خير لك يا محمد من هذه الحياة الدنيا ، لأن الآخرة باقية ، والدنيا فانية ، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يقول : «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة »(١) ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أى : سوف يعطيك ربك فى الآخرة من الثواب ، والكرامة ، والشفاعة ، وغير ذلك إلى أن ترضى . قال ابن عباس فى هذه الآية : هى الشفاعة فى أمته حتى يرضى ، لما روى أن النبى - ﷺ - ذكر أمته فقال : « اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد واسأله ما يبكيك - وهو أعلم - فأتى جبريل رسول الله - ﷺ - فأخبره رسول الله - ﷺ - فقال الله : يا جبريل : اذهب إلى محمد وقل له : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوءك »(٢) الحديث أخرجه مسلم .

وقال الخازن : والأولَى حمل الآية على ظاهرها ليشمل خيرى الدنيا والآخرة معاً ، فقد أعطاه الله - تعالى - فى الدنيا النصر والظفر على الأعداء ، وكثرة الاتباع والفتوح ، وأعلى دينه ، وجعل أمته خير الأمم ، وأعطاه - فى الآخرة الشفاعة العامة ، والمقام المحمود ، وغير ذلك من خيرى الدنيا والآخرة .

قال ابن القيم - رحمه الله - : فتأمل هذا القسم وهو نور الضحى الذى يوافى بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحى الذى وافاه بعد احتباسه عنه ، حتى قال أعداؤه : ودع محمداً ربُّه .

فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحى ونوره ، بعد ظلمه احتباسه واحتجابه . وأيضا فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذى فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحى والنبوة ، فهذان للحس ، وهذان للعقل ، وأيضا فإن الذى اقتضت رحمته أن لا يترك عباده فى ظلمة الليل سرمداً بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم ، لا يليق به أن يتركهم فى ظلمة الجهل والغى ، بل يهديهم بنور الوحى والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم .

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه ، وتأمل هذه الجزالة والرونق الذى على هذه الألفاظ ، والجلالة التى على معانيها .

ونفى - سبحانه - أن يكون ودع نبيه أو قلاه ، فالتوديه : الترك ، والقلى : البغض ، فما تركه منذ أعتنى به وأكرمه ، ولا أبغضه منذ أحبه :

وأطلق - سبحانه - أن الآخرة خير له من الأولى ، وهذا يعم كل حالة يرقيه إليها هى خير له مما قبلها ، كما أن الدار الآخرة خير له مما قبلها . ثم وعده بما تقر به عينه ، وتفرح به نفسه ، وينشرح به صدره ، وهو أن يعطيه فيرضى ، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن ، والهدى ، والنصر ، وكثرة الأتباع ، ورفع ذكره ، وإعلاء كلمته ، وما يعطيه بعد مماته وما يعطيه فى موقف القيامة ، وما يعطيه فى الجنة ، وأما مايغتر به الجهل ، من أنه لا يرضى وواحد من أمته فى النهار ، أو لايرضى أن يدخل أحد من أمته

---

(١) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان فى (كتاب الجهاد) باب : غزوة الاحزاب ، وهى الخندق ص ٤٧١ رقم ١١٨٣ وانظر رقم ١١٨٥ .

(٢) الحديث أخرجه الامام مسلم فى صحيحه (صحيح مسلم بشرح النووى) فى (كتاب الايمان) باب بشارة الأمة جـ٣ ص ٧٨

النار ! فهذا من عزور الشيطان لهم به ربه - تبارك وتعالى - وهو - سبحانه - يُدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة ، ثم يحد لرسوله حدّاً يشفع فيهم ، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول : لا أرضى أن يُدخل أحداً من أمتى النار على أن يدعه فيها ، بل ربه - تبارك وتعالى : يأذن له ، فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ، ولا يشفع فى غير من أذن له فيه ورضيه . أ . هـ

قوله تعالى : ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ .

عدد - سبحانه وتعالى - مننه على نبيه محمد - ﷺ - فقال : ﴿ **ألم يجدك يتيماً** ﴾ لا أب لك ، قد مات أبوك (فآوى) أى : جعل لك مأوى تأوى إليه عند عمك أبى طالب فكفلك . قال ابن كثير : إن أباه - ﷺ - توفى وهو حمل فى بطن أمه ، ثم توفيت أمه وله من العمر ست سنين ، ثم كان فى كفالة جده « عبد المطلب » إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه « أبو طالب » ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قدره حتى ابتعثه الله على رأس الأربعين ، وأبو طالب على عبادة الأوثان مثل قومه ، ومع ذلك كان يدفع الأذى عن رسول الله - ﷺ - وكل هذا من حفظ الله له ، وكلاءته وعنايته به .

وقوله تعالى : ﴿ **ووجدك ضالاً فهدى** ﴾ أى : غافلاً عما يراد بك من أمر النبوة فهداك ، أى : أرشدك . والضلال هنا بمعنى الغفلة ، كقوله - جل ثناؤه : ﴿ **لا يضل ربى ولا ينسى** ﴾[1] أى : لا يغفل . وقال فى حق نبيه : ﴿ **وإن كنت من قبله لمن الغافلين** ﴾[2] وقال قوم : (ضالاً) : لم تكن تدرى القرآن والشرائع فهداك الله إلى القرآن وشرائع الاسلام ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿ **ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾[3] حكاه القرطبى .

وقوله تعالى : ﴿ **ووجدك عائلاً فأغنى** ﴾ أى : ووجدك فقيراً محتاجاً فأغناك عن الخلق ، بما يسر لك من أسباب التجارة .

وبعد أن ذكر - سبحانه - نعمه عليه من ايوائه بعد يتمه ، وهدايته بعد الضلالة ، وإغنائه بعد الفقر ، أمره أن يقابل هذه النعم الثلاث مما يليق بها من الشكر ، فنهاه أن يقهر اليتيم ، وأن ينهر السائل ، وأن يكتم النعمة ، بل يحدث بها . فأوصاه - سبحانه - باليتامى من الفقراء والمتعلمين فقال : ﴿ **فأما اليتيم فلا تقهر** ﴾ قال مجاهد : لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما . وقوله : ﴿ **وأما السائل فلا تنهر** ﴾ قال أكثر المفسرين : هو سائل المعروف والصدقة ، ولا تنهره إذا سألك ، فقد كنت فقيراً ، فإما أن تطعمه وإما أن ترده ردّاً ليناً . قال الحسن : أما إنه ليس بالسائل الذى يأتيك ، ولكن طالب العلم . وهذا قول يحى بن آدم قال : إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره .

قال ابن القيم . والتحقيق أن الآية تتناول النوعين .

وقوله تعالى : ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾ قال مجاهد : بالقرآن .

---

(١) من الآية : ٥٢ من سورة طه . (٢) من الآية : ٣ من سورة يوسف . (٣) من الآية : ٥٢ من سورة الشورى .

وقال الكلبى : بمعنى أَظْهِرْهَا ، والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه ، فأمره أن يقرئه ويعلمه .

وروى أبو البشر ، عن مجاهد : حَدِّثْ بالنبوة التى أعطاك وهى من أجل النعم . وقال مقاتل : أشكر هذه النعمة التى ذكرت فى هذه السورة .

والتحقيق أن النعم تعم هذا كله ، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم ، وأن يحدث بنعم الله عليه فى الدين والدنيا .

تفسير سورة الشرح

مقــدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ثمان .

وكلماتها : ست وعشرون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : (بكا) .

وسميت الشرح لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرح صدر المصطفى - ﷺ - ورفع قدره وذكره ، وتبديل العسر من أمره بيسره ، وأمره بالطاعة فى انتظار أجره ، والرغبة إلى الله تعالى ، والإقبال على ذكره فى قوله تعالى : ﴿ **وإلى ربك فارغب** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسرا** ﴾ ليس بتكرار ، لأن المعنى : إن مع العسر الذى أنت فيه من مقاساة الكفار يسراً عاجلاً ، إن مع العسر الذى أنت فيه من الكفار يسراً آجلاً . والعسر واحد واليسر اثنان ، وعن عمر - رضى الله عنه - لن يغلب عسر يسرين .

مناسبة السورة لما قبلها :

وهى شديدة الاتصال بما قبلها حتى روى عن طاوس وعمر بن عبد العزيز أنهما كانا يقولان : هما سورة واحدة ، وكانا يقرآنهما فى الركعة الواحدة ، وما كانا يتصلان بينهما بالبسملة ، ولكن المتواتر كونهما سورتين وإن كانتا متصلتين معنى ، إذ فى كل منهما تعداد النعم وطلب الشكر عليها .

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ
فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

تفسير المفردات

ألم نشرح ﴾ : ألم نفسح بالحكمة والنبوة .

﴿ ووضعنا عنك ﴾ : خففنا عنك وسهلنا عليك .

﴿ وزرك ﴾ : حملك « أعباء النبوة والرسالة »

﴿ الذى أنقض ظهرك ﴾ : أثقله حتى سُمع له نقيض « صوت »

﴿ فإذا فرغت ﴾ : من عبادة أديتها .

﴿ فانصب ﴾ : فاجتهد وأتبعها بعبادة أخرى .

﴿ فارغب ﴾ : فاجعل رغبتك فى جميع شؤونك .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾**

شرح الصدر : فتحه ، أى : ألم نفتح صدرك للإسلام ؟ وروى أبو صالح عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : ألم نُلَيِّنْ لك قلبك .

وروى الضحاك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قالوا : يارسول الله أينشرح الصدر؟ قال : « نعم وينفسح » قالوا : يا رسول الله وهل لذلك علامة ؟ قال : « نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت أخرجه الترمذى فى جامعه .

ونحو ذلك قوله تعالى : **﴿ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه ﴾**[1] وكقوله تعالى : **﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصَّعَّدُ فى السماء ﴾**[2]

(١) من الآية : ٢٢ من سورة الزمر .
(٢) من الآية : ١٢٥ من سورة الأنعام .

وروى عن الحسن قال : ﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ قال : ملىء حكما وعلماً .

روى الترمذى فى جامعه غن أنس بن مالك ، عن مالك بن صعصعة أن النبى - ﷺ - قال : « فبينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلا يقول : أحد الثلاثة ، فأتيت بطست من ذهب فيها ماء زمزم ، فشرح صدرى إلى كذا وكذا » قال قتادة : قلت : ما يعنى ؟ قال : إلى أسفل بطنى ، قال : فاستُخرج قلبى ، فغسل قلبى بماء زمزم ، ثم أعيد مكانه ثم حُشى إيمانا وحكمة » الحديث[1] .

قوله تعالى : ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾[2] فالمعنى : حططنا عنك حملك الثقيل .

وقوله تعالى : ﴿ الذى أنقض ظهرك ﴾ أى : الذى أثقل وأوهن ظهرك .

قال المفسرون : المراد بالوزر : الأمور التى فعلها الرسول - ﷺ - عن اجتهاد وعوتب عليه ، كإذنه للمنافقين فى التخلف عن الجهاد حين اعتذروا ، وأخْذِهِ الفداء من أسرى بدر ، ونحو ذلك ، وليس المراد بالذنوب المعاصى والآثام ، فإن الرسل معصومون من مقارفة الآثام .

والنقيض : هو الصوت الذى يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل .

وقوله تعالى : ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ أى : رفعنا شأنك ، وأعلينا مقامك فى الدنيا والآخرة ، وجعلنا اسمك مقرونا باسمى . قال مجاهد : لا أذكر إلا ذكرت معى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وقال قتادة : رفع الله ذكره فى الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ومن شعر حسان بن ثابت :

أغَرُّ عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبى إلى اسمه ... إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود ، وهذا محمد

قال القرطبى : وقيل : رفعنا ذكرك عند الملائكة فى السماء ، وفى الأرض عند المؤمنين ، ونرفع فى الآخرة ذكرك بما نعطيك من المقام المحمود وكرائم الدرجات .

وقال الفقيه القاضى أبو الفضل : هذا تقرير من الله - جل اسمه - لنبيه ﷺ - على عظيم نعمه لديه ، وشريف منزلته عنده ، وكرامته عليه بأن شرح قلبه للايمان والهداية ، ووسعه لوعى العلم وحمل

---

(١) أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الايمان) باب الاسراء برسول الله - ﷺ - .. الخ ص ٣٦ رقم ١٠٣ ورواه البخارى فى (كتاب بدء الخلق) باب ذكر الملائكة .

(٢) من الآية : ٢ من سورة الفتح .

الحكمة ، ورفع عنه ثقل أمور الجاهلية عليه وبغضه لسيرها وما كانت عليه بظهور دينه على الدين كله ، وحط عنه عهده أعباء الرسالة والنبوة لتبليغه للناس ما نزل إليهم وتنويهه بعظيم مكانه وجليل رتبته ورفعة ذكره وقرانه مع اسمه اسمه ، قال قتادة : رفع الله ـ تعالى ـ ذكره فى الدنيا والآخرة ، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . ومن ذكره معه ـ تعالى ـ أن قرن طاعته بطاعته واسمه باسمه فقال تعالى : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول** ﴾[1] وقال : ﴿ **فآمنوا بالله ورسوله** ﴾[2] .

قال القاضى عياض فى كتابه « الشفا » بسنده عن عطاء بن يسار ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو ابن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله ـ ﷺ ـ قال : أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن : يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب فى الأسواق ، ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء : بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوباً غلفاً »[3] .

وفى حديث آخر : أخذنا رسول الله ـ ﷺ ـ عن صفته فى التوراة : « عبدى أحمد المختار ، مولده بمكة ، ومهاجره بالمدينة ـ أو قال : طَيْبَة ـ أمته الحمادون لله على كل حال »[4] . أ هـ

سيدى يا رسول الله

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشق الكرماء
زَانَتْكَ فى الخلق العظيم شمائلٌ
يغرى بهن ويولع الكبراء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادراً ومقدَّراً
لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان فى الدنيا هما الرحماء

---

(١) من الآية : ١٣٢ من سورة آل عمران .

(٢) من الآية : ٨ كم سورة التغابن .

(٣) الحديث فى الشفا للقاضى عياض جـ١ ص٢٤١ طبع دار الفكر ـ بيروت ، ولكن بمعناه . وله أصل فى الصحاح .

(٤) أنظر ما قبله .

وإذا أخذت العهد أو أعطيته
فجميع عهدك ذمة ووفاء
وإذا خطبت فللمنابر هزةٌ
تعرو الندىَّ وللقلوب بكاء
وإذا غضبت فإنما هى غضبة
للحق لا ضغن ولا شحناء
لو أن إنساناً تخير ملة
ما أختار إلا دينك الفقراء
المصلحون أصابع جمعت يداً
هى أنت ، بل أنت اليد البيضاء
يا من له عز الشفاعة وحده
وهو المنزه ماله شفعاء
عرش القيامة أنت تحت لوائه
والحوض أنت حياله السقَّاء

قوله تعالى: ﴿ فإن مع العسر يسرا . إن مع العسر يسراً . فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ أى : إن مع الضيقة والشدة يسراً ، أى : سعة وغنى . ثم كرر فقال : ﴿ إن مع العسر يسراً ﴾ قال قوم : هذا التكرير تأكيد للكلام . وقال قوم : إن من عادة العرب إذا ذكروا اسما معرّفاً ثم كرروه فهو هو . وإذا نكروه ثم كرروه فهو غيره . وهما أثنان ليكون أقوى للأمل وأبعث على الصبر ، قاله ثعلب .

وجاء فى الحديث عن النبى - ﷺ - فى هذه السورة أنه قال : « لن يغلب عسر يسرين »[١] أخرجه ابن جرير .

وقال ابن مسعود : والذى نفسى بيده لو كان العسر فى جحر لطلبه اليسر حتى يدخل عليه ، ولن يغلب عسر يسرين .

وكتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكره له جموعاً من الروم وما يتخوف منهم ، فكتب إليه عمر - رضى الله عنهما - أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله بعده فرجاً ، ولن يغلب عسر يسرين ، وإن الله - تعالى - يقول فى كتابه : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾[٢] .

(١) أخرجه فى كنز العمال جـ٢ ص١٤ رقم ٢٩٤٦ وعزاه إلى الحاكم عن الحسن مرسلا .
(٢) الآية : ٢٠٠ من سورة آل عمران .

وقال الحسن بن سفيان بسنده عن أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « نزل المعونة من السماء على قدر المؤنة ، ونزل الصبر على قدر المصيبة » ومما يروى عن الشافعى أنه قال :

صبراً جميلاً ما أقرب الفرجا من راقب الله فى الأمور نجا
من صدق الله لم ينله أذى ومن رجاه يكون حيث رجا

وقال ابن دريد : أنشدنى أبو حاتم السجستانى :

إذا أشتملت على اليأس القلوب وضاق لما به الصدر الرحيب
وأوطأت المكاره واطمأنت وأرست فى أماكنها الخطوب
ولم تر لانكشاف الضر وجها ولا أغنى بحيلته الأريب
أتاك على قنوط منك غوث يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت فموصول بها الفرج القريب

وقال آخر :

وَلَرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعاً وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

قوله تعالى : ﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ أى : إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة وقم إليها نشيطا فارغ البال ، وأخلص لربك النية والرغبة ، وقال ابن عباسّ وقتاده : فإذا فرغت من صلاتك (فانصب) أى : بالغ فى الدعاء وسله حاجتك وقال ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب فى قيام الليل . وقال الكلبى : إذا فرغت من تبليغ الرسالة (فانصب) أى : استغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات . وعن مجاهد : إذا فرغت من دنياك (فانصب) فى صلاتك . ونحوه عن الحسن .

وقال الجنيد : إذا فرغت من أمر الخلق فاجتهد فى عبادة الحق .

وقال زيد بن أسلم ﴿ فإذا فرغت ﴾ أى : من الجهاد ﴿ انصب ﴾ أى : فى العبادة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ قال الثورى : اجعل نيتك ورغبتك إلى الله .

تفسير سورة والتين والزيتون

مقدمة عن السورة :

قال صاحب كتاب « بصائر ذوى التمييز » :

السورة : مكية .

عدد آياتها : ثمان .

وكلماتها : أربع وثلاثون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : (من)

سميت بـ « التين » لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة القسم على حسن خلقة الإنسان ، ورجوع الكافر إلى النيران ، وإكرام المؤمنين بأعظم المثوبات الحسان ، وبيان أن الله حكيم وأحكم فى قوله تعالى : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم** ﴾ وقال فى البلد : ﴿ **لقد خلقنا الانسان فى كبد** ﴾ لا مناقضة بينهما ، لأن معناه عند كثير من المفسرين : منتصب القامة معتدلها ، فيكون فى معنى : أحسن تقويم .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه ـ سبحانه ـ ذكر فى السورة السابقة حال أكمل خلق الله ـ ﷺ ـ وذكر هنا حال النوع الإنسانى وما ينتهى إليه أمره ، وما أعد ـ سبحانه ـ لمن آمن برسوله .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

معانى المفردات

﴿ والتين والزيتون ﴾ : (قَسَمٌ) بمنبتيهما من الأرض المباركة .

﴿ وطور سينين ﴾ : جبل المناجاة للكليم عليه السلام .

﴿ والبلد الأمين ﴾ : مكة المكرمة .

﴿ أحسن تقويم) : أكمل تعديل ، وأحسن صورة .

﴿ رددناه ﴾ : أى : رددنا الكافر ، أوجنس الإنسان .

﴿ أسفل سافلين ﴾ : إلى النار . قال الإمام على : هى النار بعضها أسفل من بعض .

﴿ غير ممنون ﴾ : غير مقطوع عنهم .

﴿ بالدين ﴾ : بالجزاء بعد البعث والحساب .

التفسير

قوله تعالى : **﴿ والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾** .

قال ابن القيم : أقسم ـ سبحانه ـ بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التى هى مظاهر أنبيائه ورسله ، أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة ، فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما : هو أرض بيته المقدس فإنها أكثر البقاع زيتونا وتينا ، وقد قال جماعة من المفسرين : إنه ـ سبحانه ـ أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما ، فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص ، لا عجم له وهو على مقدار اللقمة ، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم . ويدخل فى الأدوية ، ومزاجه من أعدل الأمزجة ، وطبعه طبع الحياة ، الحرارة ، والرطوبة ، وشكله من أحسن الأشكال ، ويدخل أكله والنظر إليه من باب المفرحات ، وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه ، ويزيد فى القوة ، ويوافق الباءة وينفع من البواسير والنقرس ، ويؤكل رطباً ويابساً .

وأما الزيتون ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر ، فإن عوده يخرج ثمراً ، يعصر منه هذا الدهن الذى هو مادة النور ، وصبغ للآكلين ، وطيب ودواء ، ومنه من مصالح الخلق ما لايخفى ، وشجره باق على مر السنين المتطاولة . وورقه لا يسقط ، وهذا الذى قالوهً حق ، ولا ينافى أن يكون منبته مراداً ، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة . فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما ، وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم ، كما أن طور سنين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى ، فإنه الجبل الذى كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه .

﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ :

ثم أقسم بالبلد الأمين ، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم . وترقى فى هذا القسم

من الفاضل إلى الأفضل ، فبدأ بموضع مظهر المسيح ، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم ، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله ، وأكرم الخلق عليه .

ونظير هذا بعينه فى التوراة التى أنزلها الله على كليمه موسى « جاء الله من طور سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من فاران » فمجيئه من طور سينين بعثته لموسى بن عمران ، وبدأ به على حكم الترتيب الواقع ، ثم ثنى بنبوة المسيح ، ثم ختمه بنبوة محمد ـ ﷺ ـ (وساعير : جبل بيت المقدس ـ وفاران : جبال مكة) . وجعل نبوة موسى بمنزلة مجىء الصبح ، ونبوة المسيح بعده بمنزلة طلوع الشمس وإشراقها ، ونبوة محمد ـ ﷺ ـ بمنزلة استعلائها وظهورها للعالم . ولما كان الغالب على بنى اسرائيل حكم الحس ذكر ذلك مطابقا للواقع . ولما كان الغالب على الأمة الكاملة حكم العقل ذكرها على الترتيب العقلى ، وأقسم بها على بداية الإنسان ونهايته فقال تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ .

أى : فى أحسن صورة وشكل واعتدال ، معتدل القامة ، مستوى الخلقة ، كامل الصورة ، أحسن من كل حيوان سواه . والتقويم تصيير الشىء على ما ينبغى أن يكون فى التأليف والتعديل . وذلك صنعته تبارك وتعالى فى قبضة من تراب ، وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء ، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده ، وقدرته وحكمته ، وعلمه ، وصفات كماله ، ولهذا يكررها كثيراً فى القرآن لمكان العبرة فيها والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته ، وعلى المبدأ والمعاد ، كما قال تعالى :

﴿ الله الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين . هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾(١) كما قال سبحانه : ﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ، يعلم ما فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾(٢) وكقوله : ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير ﴾(٣) .

وتضمن اقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة ـ الدالة عليه وعلى علمه وحكمته ـ عنايته بخلقه بأن أرسل منها رسلا أنزل عليهم كتبه ، يعرِّفون العباد بربهم ، وحقوقه عليهم ، وينذرونهم بالله ونقمته ، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه .

قوله تعالى : ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ .

ثم لما كان الناس فى إجابة هذه الدعوة فريقين ، منهم من أجاب ومنهم من أبى ذكر حال الفريقين . فذكر حال الأكثرين وهم المردودون إلى أسفل سافلين . والصحيح أنه النار : قاله مجاهد ، والحسن . قال على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ هى النار بعضها أسفل من بعض ، وقالت طائفة منهم قتادة وعكرمة وعطاء وابراهيم : إنه أرذل العمر ، وهو مروى عن ابن عباس .

قال ابن القيم : والصواب القول الأول لوجوه :

(أحدها) : أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين ، لا فى لغة ولا عرف ، وإنما أسفل سافلين :

---

(١) الآيتان : ٦٤ ، ٦٥ من سورة غافر (٢) الآيتان : ٣ ، ٤ من سورة التغابن (٣) الآية : ٢٠ من سورة العنكبوت .

هو سجين الذى هو مكان الفجار ، كما أن عليين مكان الأبرار .

(الثانى) : أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً ، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر .

الثالث) : أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم فى رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر . فليس ذلك مختصاً بالكفار ، حتى يستثنى منهم المؤمنين .

(الرابع) : وهو ـ سبحانه ـ قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الايمان ، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين . وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون . .

(الخامس) : أنه ـ سبحانه ـ ذكر نعمته على الإنسان بخلقه فى أحسن تقويم ، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له ، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين ، فإذا لم يؤمن به ، وأشرك به ، وعصى رسله ، نقله منها إلى أسفل سافلين ، وبدله ـ بعد هذه الصورة التى هى فى أحسن تقويم ـ صورة من أقبح الصور فى أسفل سافلين . فتلك نعمته عليه ، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته .

(السادس) : أن نظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون** ﴾[١] فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين ، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك ، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا . والله أعلم . قلت : ونظيره أيضا قوله تعالى : ﴿ **والعصر . إن الانسان لفى خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾[٢] .

قوله تعالى : ﴿ **فلهم أجر غير ممنون** ﴾ أى : غير مقطوع ولا منقوص ، ولا مكرر عليهم ، وكما قال تعالى : ﴿ **عطاء غير مجذوذ** ﴾[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **فما يكذبك بعد بالدين . أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ (فما يكذبك) أى : يا ابن آدم (بعد بالدين ؟) أى : بالجزاء فى المعاد وقد علمت البداءة ، وعرفت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأى شىء يحملك على التكذيب بالمعاد وقد عرفت هذا ؟ !

وقوله تعالى : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ هذا تقرير لمضمون السورة من إثبات النبوة ، والتوحيد ، والمعاد ، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه ، وجحد ما جاء به ، بالحجة ، والقدرة والظهور عليه ، وحكمه بين عباده فى الدنيا بشرعه وأمره ، وحكمه بينهم فى الآخرة بثوابه وعقابه ، وإن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعدما ظهرت حكمته فى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، ونقله فى أطوار التخليق ، حالا بعد حال ، إلى أكمل الأحوال ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازى المحسن باحسانه ، والمسىء باساءته ؟ !

وهل ذلك إلا قدح فى حكمته وحكمه ؟ ! فلله ما أخصر لفظ هذه السورة . وأعظم شأنها ، وأتم معناها .

﴿ **فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين . وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾[٤] .

---

(١) الآيتان : ٢٤ ، ٢٥ من سورة الانشقاق .
(٢) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة العصر ، وبعض الآية : ٣
(٣) من الآية : ١٠٨ من سورة هود .
(٤) الآيتان : ٣٦ ، ٣٧ من سورة الجاثية .

تفسير سورة العلق

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة : مكية .

عدد آياتها : تسع عشرة .

وكلماتها : أثنتان وتسعون .

وحروفها : مائتان وثمانون .

وفواصل آياتها : (ق ، م ، ى ، هـ ، ب) وسميت بـ (العلق) لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ابتداء فى جميع الأمور باسم الخالق الرب ـ تعالى ـ جلت عظمته ، والمنة على الخلق بتعليم أهل الكفر والمعصية ، وتخويف الأجانب بالعقوبة ، وبشارة الساجدين بالقربة فى قوله تعالى : ﴿ **واسجد واقترب** ﴾ .

ومناسبتها لما قبلها :

أنه ذكر هناك خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وذكر هنا خلق الإنسان من علق ، إلا أنه ذكر هنا من أحوال الآخرة ما هو كالشرح والبيان لما سلف .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ (٢) ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ
ٱلْأَكْرَمُ (٣) ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) كَلَّآ إِنَّ
ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ (٦) أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ (٨) أَرَءَيْتَ
ٱلَّذِى يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ (١٠) أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ (١١) أَوْ أَمَرَ
بِٱلتَّقْوَىٰٓ (١٢) أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ (١٤) كَلَّا لَئِن
لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ (١٧)
سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ (١٨) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ (١٩)

معانى المفردات

﴿ علق ﴾ : دم جامد استحال اليه المنى .

﴿ علَّم ﴾ : علم الانسان الكتابة بالقلم .

﴿ كلا ﴾ : حقاً .

﴿ ليطغى ﴾ : ليجاوز الحد فى العصيان .

﴿ الرجعى ﴾ : الرجوع فى الآخرة للجزاء .

﴿ أرأيت ﴾ : أخبرنى .

﴿ لَنَسْفَعَن بالنَّاصية ﴾ : لنسحبنّه بناصيته إلى النار .

﴿ فَلْيَدْعُ نادية ﴾ : أهل مجلسه من قومه وعشيرته .

﴿ سندع الزبانية ﴾ : ملائكة العذاب لجره إلى النار .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم** ﴾

هذه السورة الكريمة أول مانزل من القرآن الكريم ، فى قول معظم المفسرين نزل بها الروح الأمين على قلب سيد المرسلين : سيدنا محمد ـ ﷺ ـ وهو قائم على حراء ؛ فعلمه خمس آيات من هذه السورة .

أخرج البخارى بسنده عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : أول مابدىء به رسول الله ـ ﷺ ـ من الوحى الرؤ يا الصالحة فى النوم ، فكان لايرى رؤ يا إلا جاءت مثل فلق الصبح . ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ قال : ماأنا بقارىء ، قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ : قلت : ماأنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ ، فقلت : ماأنا بقارىء . فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال ﴿ **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم** ﴾ فرجع بها رسول الله ـ ﷺ ـ يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ فقال : زملونى زملونى . فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسى . فقالت خديجة : كلا والله مايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى ـ ابن عم خديجة ـ وكان أمرأ تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ، فقالت له خديجة : يابن عم : اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يابن أخى ماذا ترى ؟

فأخبره رسول الله - ﷺ - خبر مارأى . فقال له ورقة : هذا الناموس الذى نزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جذعا ، ليتنى أكون حيًّا إذ يخرجك قومك . فقال رسول الله - ﷺ - أومخرجى هم ؟ ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عُودِىَ وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفى ، وفتر الوحى .

ومعنى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ أى : اقرأ يامحمد القرآن مبتدئاً ومستعينا باسم ربك الجليل ، الذى خلق جميع المخلوقات ، وأوجد جميع العوالم . وقال السهيلى : أى لاتقرؤه بقوتك ولابمعرفتك لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك كما خلقك .

ثم فسر الخلق تفخيما لشأن الإنسان فقال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ أى : خلق هذا الإنسان البديع الشكل الذى هو أشرف المخلوقات من العلقة - وهى الدودة الصغيرة - وقد أثبت الطب الحديث أن المنى الذى خلق منه الإنسان محتو على حيوانات منوية لاترى بالعين ، وإنما ترى بالمجهر الدقيق وأن لها رأسا وذنبا ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

قال القرطبى : خص الإنسان بالذكر تشريفا له ، والعلقة : قطعة من دم رطب ، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه .

وقوله : ﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ أى : اقرأ يامحمد وربك العظيم الكريم ، الذى لايساويه ولايدانيه كريم ، وقد دل على كمال كرمه أنه ﴿ الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان ﴾[1] فهو - سبحانه - علَّم العباد مالم يعلموا ، لذا قال - سبحانه : ﴿ الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ أى : الذى علم الخط والكتابة بالقلم ، وعلم البشر مالم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف ، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم ، فكما علم - سبحانه - بواسطة الكتابة بالقلم ، فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أميا لا تقرأ ولا تكتب .

قال القرطبى : نبه - تعالى - على فضل علم الكتابة ، لما فيه من المنافع العظيمة التى لايحيط بها إنسان ، ومادونت العلوم ولاقيدت الحكم ، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم ، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة ، ولولاها ماستقامت أمور الدنيا والدين .

وقال العلامة ابن القيم فى هذه الآيات المباركات :

« تتأمل كيف جمع - سبحانه وتعالى - فى هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الموجدات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه ، فذكر أولا عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجى ، ثم ذكر ثانيا خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم ، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة ، وفى سائر المواضع بذكر ماهو سابق عليها ، أما مادة الأصل

(١) الأيات : ١ - ٤ من سورة الرحمن

وهو التراب والطين أو الصلصال الذى كالفخار ، أو مادة الفرع وهو الماء المهين ، وذكر فى هذا الموضع أول مبادىء تعليق التخليق وهو العلقة ؛ فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو الى العلقة ، ثم ذكر ثالثا : التعليم بالقلم الذى هو من أعظم نعمة على عباده ؛ إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات وتضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس ، وبه تقيد أخبار الماضيين للباقين اللاحقين ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنين ، وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلق مذاهب السلف ، وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذى يمحو صور العلم من قلوبهم ، فجعل لهم الكتاب وعاء حفاظا للعلم من الضياع كالأوعية التى تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان ، فنعمة الله ـ عزوجل ـ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخلص اليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإن الذى بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه إياه ، وزيادة فى خلقه وفضله فهو الذى علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذى علم بالقلم فإنه علمه فتعلم كما أنه علمه الكلام فتكلم ، هذا ، ومن أعطاه الذهن الذى يعى به ، واللسان الذى يترجم به ، والبنان الذى يخط به ، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ؟! ومن الذى أنطق لسانه وحرك بنانه ؟! ومن الذى دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد ؟! فكم لله من آية نحن غافلون عنها فى التعليم بالقلم ، فقف وقفة فى حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل ، فمن الذى أجرى تلك المعانى على قلبك ورسمها فى ذهنك ، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيبا معناه أعجب من صورته فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك ، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ، ويترجم عنك ، ويتكلم على لسانك ، ويقوم مقام رسولك ، ويجدى عليك مالايجدى من ترسله سوى من ﴿ علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم ﴾ والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهنى ، والوجود اللفظى ، والوجود الرسمى فقد دل التعليم بالقلم على أنه ـ سبحانه ـ هو المعطى لهذه المراتب ، ودل قوله : (خلق) على أنه يعطى الوجود العينى ، فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها ، دلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه ـ تعالى ـ خلقا وتعليما ، وذكر خلقين وتعلمين : خلقا عاما وخاصا ، وتعليما خاصا ، وتعليما عاما ، وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذى فيه كل خير وكل كمال ، فله كل كمال وصفا ، ومنه كل خير فعلا ، فهو الأكرم فى ذاته وأوصافه وأفعاله ، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لامن حاجة دعته إلى ذلك وهو الغنى الحميد . أهـ .

قوله تعالى : ﴿ **كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى** ﴾

يخبر ـ تعالى ـ عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال : ﴿ **إن إلى ربك الرجعى** ﴾ أى : إلى الله المصير والمرجع ، وسيحاسبك على مالك من أين جمعته وفيم صرفته .

أخرج الإمام أحمد فى مسنده عن بشر بن جحاش قال : كنا جلوسا عند رسول الله - ﷺ - فبصق فى كفه بصقة ثم وضع أصبعه فقال : يقول الله - تعالى - يابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه ؟! حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت : أتصدق وأنى أوان الصدقة ؟![1] .

وقال ابن أبى حاتم بسنده : عن عون قال : قال عبدالله منهومان لايشبعان : صاحب القلم ، وصاحب الدنيا ، ولا يستويان ؛ فأما صاحب العلم فيزداد رضى الرحمن ، وأما صاحب الدنيا فيتمادى فى الطغيان ، قال : ثم قرأ عبدالله : ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾ . وقال للآخر : ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾[2] وقد روى هذا الحديث مرفوعا إلى رسول الله - ﷺ - : « منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا »[3] .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبداً إذا صلى ، أرأيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لَنَسْفَعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع نادية ، سندع الزبانية ، كلا لاتطعه واسجد واقترب ﴾ .

نزلت هذه الآيات فى أبى جهل - لعنه الله - توعد النبى - ﷺ - على الصلاة عند البيت ، قال تعالى : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبداً إذا صلى ﴾ تعجب من حال ذلك الشقى الفاجر ، أى : أخبرنى يامحمد عن حال ذلك المجرم الأثيم ، الذى ينهى عبدا من عباد الله عن الصلاة ، ماأسخف عقله ، وماأشنع فعله !! وقد أجمع المفسرون على أن العبد المصلى هو محمد - ﷺ - وأن الذى نهاه هو اللعين « أبو جهل » حيث قال : « لئن رأيت محمدا يصلى لأَطَأَنَّ على عنقه ، ولأُعَفِّرَنَّ وجهه فى التراب ، فجاء يوما فوجد رسول الله - ﷺ - يصلى ، فأقبل يريد أن يطأ على رقبته ، فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ، ويتقى بيديه ، فقيل له . مالك ؟ فقال : إن بينى وبينه خندقا من نار ، وهولا وأجنحة . فقال رسول الله - ﷺ : « لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوا عضوا » فأنزل الله : ﴿ أرأيت الذى ينهى ، عبدا إذا صلى ﴾ إلى آخر السورة .

قوله تعالى : ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ أى : أخبرنى إن كان هذا العبد المصلى - وهو النبى - ﷺ - الذى نهاه عن الصلاة صالحا مهتديا ، على الطريقة المستقيمة فى قوله وفعله !! ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ أى : أو كان آمرا بالإخلاص والتوحيد ، داعيا إلى الهدى والرشاد ، كيف تزجره وتنهاه ؟!

ثم عاد لخطاب الرسول الكريم - ﷺ - فقال تعالى : ﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾ أى : أخبرنى يامحمد إن كذب بالقرآن ، وأعرض عن الإيمان ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أى : ألم يعلم ذلك الشقى بأن الله مطلع على أحواله مراقب لأفعاله ، وسيجازيه عليها .

(١) أخرجه الأمام أحمد فى مسنده فى (مسند بشر بن جحاش رضى الله عنه - جـ٤ ص٢١٠ .
(٢) انظره فى تفسير ابن كثير : فى تفسير سورة العلق جـ٤ ص٥٦٥
(٣) اخرجه فى كنز العمال فى الاداب : أداب متفرقة جـ١٠ ص٢٤٨ رقم ٩٣٢٨ وعزاه الى ابن عدى عن أنس ، والبزار عن ابن عباس

ثم ردعه وزجره فقال : ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ أى : ليرتدع هذا الفاجر « أبوجهل » عن غيه وضلاله ، فوالله لئن لم ينته عن أذى الرسول ويكف عما هو عليه من الكفر والضلال ﴿ لنسفعا بالناصية ﴾ أى : لنأخذنه بناصيته ـ مقدم شعر الرأس ـ فلنجرنه إلى النار بعنف وشدة ونقذفه فيها . ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ أى : صاحب هذه الناصية كاذب فاجر ، كثير الذنوب والإجرام .

وقوله تعالى : ﴿ فليدع ناديه ﴾ أى : فليدع أهل ناديه وليستنصر بهم ﴿ سندع الزبانية ﴾ أى : سندعو خزنة جهنم ، الملائكة الغلاظ الشداد حتى يعلم من يغلب : أحزبُنَا أو حزبه ؟

قال البخارى بسنده عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال أبوجهل : لئن رأيت محمدا يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه . فبلغ النبى ـ ﷺ ـ فقال : « لئن فعل لأخذته الملائكة »[١] . وكذا رواه الترمذى والنسائى فى تفسيرهما .

وروى أحمد والترمذى وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ من طريق داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يصلى عند المقام ، فمر به أبوجهل بن هشام فقال : يامحمد : ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده ، فأغلظ له رسول الله ـ ﷺ ـ وانتهره . فقال : يامحمد بأى شىء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى ناديا . فأنزل الله تعالى : ﴿ فليدع ناديه . سندع الزبانية ﴾ وقال ابن عباس لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته . وقال الترمذى : حسن صحيح .[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ كلا لاتطعه واسجد واقترب ﴾ يعنى : يامحمد لاتطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها ، وصل حيث شئت ولاتباله ؛ فإن الله حافظك وناصرك وهو يعصمك من الناس : ﴿ واسجد واقترب ﴾ أى : وواظب على سجودك وصلاتك ، وتقرب بذلك إلى ربك .

وفى الحديث الذى رواه مسلم : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد »[٣] .

---

(١) رواه البخارى فى (كتاب التفسير) تفسير سورة العلق حـ٦ ص٢١٦ طبع الشعب

(٢) اخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند عبدالله بن عباس رضى الله عنهما ـ ٢ حـ١ ص٢٥٦ واخرجه الترمذى

(٣) رواه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الصلاة) باب : مايقال فى الرجوع والسجود حـ١ ص٣٥٠ رقم ٢١٥/٤٨٢ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقى

تفسير سورة القدر

مقدمة من السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية عند بعض المفسرين ، مدنية عند الأكثرين .

آياتها : خمس

وكلماتها : ثلاثون .

وحروفها : مائة واثناعشر

فواصل آياتها : على الراء .

سميت سورة القدر : لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان شرف ليلة القدر فى نص القرآن ، ونزول الملائكة المقربين من عند الرحمن . ، واتصال سلامهم طوال الليل على أهل الإيمان فى قوله : **﴿ حتى مطلع الفجر ﴾** .

ومناسبتها لما قبلها :

إن فى تلك أمر الرسول - ﷺ - بأن يقرأ القرآن باسم ربه الذى خلق ، واسم الذى علم الإنسان مالم يعلم ، وفى هذه ذكر القرآن ونزوله وبيان فضله ، وأنه من عند ربه ذى العظمة والسلطان ، العليم بمصالح الناس وبما يسعدهم فى دينهم ودنياهم ، وأنه أنزله فى ليلة لها من الجلال والكمال ماقصته السورة الكريمة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ
مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾
سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

معانى المفردات

(أنزلناه) أى : ابتدأناه أى ابتدأنا إنزال القرآن العظيم
(القدر) العظمة والشرف ، من قولهم : لفلان قدر عند فلان ، أى : منزلة وشرف .
(الروح) : جبريل ـ عليه السلام .
(من كل أمر) : بكل أمر من الخير والبركة .
(سلام هى) : على أولياء الله وأهل طاعته .

التفســــــير

قوله تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر . وماأدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ .

قال ابن كثير : يخبر تعالى أن أنزل القرآن ليلة القدر ، وهى الليلة المباركة التى قال الله ـ عزوجل ـ : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة مباركة** ﴾[١] وهى ليلة القدر وهى من شهر رمضان كما قال تعالى : ﴿ **شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** ﴾[٢]

قال ابن عباس وغيره : أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع فى ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ـ ﷺ ـ ثم قال معظما لشأن ليلة القدر التى اختصها ـ سبحانه ـ بانزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ **وماأدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ .

قال ابن أبى حاتم بسنده عن مجاهد أن النبى ـ ﷺ ـ ذكر رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر قال : فعجب المسلمون من ذلك ، قال : فأنزل الله ـ عز وجل ـ : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وماأدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾ . أى : قيام تلك الليلة خير من عمل ذلك الرجل .[٣]

وقال ابن ابى حاتم بسنده عن مجاهد : ليلة القدر خير من ألف شهر ليس فى تلك الشهور ليلة القدر ، وهكذا قال قتادة والشافعى وغير واحد ، وقال عمرو بن قيس : عمل فيها خير من عمل ألف شهر ، وهذا القول بأنها أفضل من عبادة ألف شهر ليس فيها ليلة القدر ، وهو اختيار ابن جرير ، قال ابن

---

(١) من الآية : ٣ من سورة الدخان
(٢) من الآية : ١٨٥ من سورة البقرة
(٣) اخرجه ابن كثير فى تفسيره : تفسير سورة القدر

كثير : وهو الصواب لا ماعداه ، وهو كقوله - ﷺ - : « رباط ليلة فى سبيل الله خير من ألف لبلة فيما سواه من المنازل »[١] رواه أحمد .

وقال الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : لما حضر رمضان قال رسول الله - أ - : « قد جاءكم شهر رمضان ، شهر مبارك ، افترض الله عليكم صيامه ، تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب الجحيم ، وتغل فيه الشياطين ، فيه ليلة خير من ألف شهر ، من حرم خيرها فقد حرم »[٢] رواه النسائى من حديث أيوب به .

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر : ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « من قام ليلة القدر إيمانا وإحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه »[٣] .

وقوله تعالى : ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ أى : يكثر تنزل الملائكة فى هذه الليلة لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة ، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيما له ، وأما الروح فقيل : المراد به ههنا جبريل - عليه السلام - فيكون من باب عطف الخاص على العام ، وقيل : هم حزب من الملائكة ، جعلوا حفظه على سائرهم ، وأن الملائكة لايرونهم كما لا نرى نحن الملائكة ، والصحيح الأول . والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ بإذن ربهم ﴾ أى : بأمره ﴿ من كل أمر ﴾ أى : بكل أمر قدره الله وقضاه فى تلك السنة إلى قابل ، قال ابن عباس . وقال قتادة وغيره : تقضى فيها الأمور ونقدر الآجال والأرزاق ، كما قال تعالى : ﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾[٤] .

وقوله تعالى : ﴿ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ أى : ليلة القدر سلامة وخير كلها لاشر فيها ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أى : إلى طلوع الفجر . وقيل : أى : هى سلام ؛ أى : ذات سلامة من أن يؤثر فيها شيطان فى مؤمن ومؤمنة ، وكذا قال مجاهد : وقال الشعبى : هو تسليم الملائكة على أهل المساجد من حين تغيب الشمس إلى أن يطلع الفجر ؛ يمرون على كل مؤمن ويقولون : السلام عليك أيها المؤمن .

---

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده (مسند عثمان بن عفان - رضى الله عنه) حـ١ ص٦٢ ولفظه : « رباط يوم فى سبيل الله أفضل من ألف يوم فيما سواه ، فليرابط امرؤ كيف شاء ، هل بلغت ؟ قالوا : نعم . قال : اللهم أشهد »

(٢) رواه الامام أحمد فى مسنده حـ٢ ص٣٨٥

ورواه النسائى فى سننه عن ابى هريرة بلفظ : « أتاكم شهر رمضان .... الحديث » حـ٤ ص١٠٤

(٣) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب : قيام ليلة القدر من الايمان جـ١ ص١٦ بلفظ « من يقم .... » الحديق ورواه النسائى فى سننه فى (كتاب الايمان) ايضا .. ورواه مسلم جزء حديث .

(٤) الآية ٤ من سورة الدخان

ليلة القـــدر

أى الليالى هى ؟

قال الإمام القرطبى : اختلف العلماء فى ذلك ، والذى عليه المعظم أنها ليلة سبع وعشرين ؛ لحديث زر بن حبيش قال : قلت لأبى بن كعب : إن أخاك عبدالله بن مسعود يقول : من يقم الحول يصيب ليلة القدر . فقال : يغفر الله لأبى عبدالرحمن ، لقد علم أنها فى العشر الأواخر من رمضان ، وأنها ليلة سبع وعشرين ؛ ولكنه أراد ألا يتكل الناس ؛ ثم حلف لايستثنى - أى : جزم فى حلفه بلا إستثناء - أنها ليلة سبع وعشرين . قال : قلت : بأى شىء تقول ذلك ياأبا المنذر ؟ قال : الآية التى أخبرنا بها رسول الله - ﷺ - أو بالعلامة أن الشمس تطلع يومئذ لاشعاع لها[1] . قال الترمذى حديث حسن صحيح . وخرجه مسلم .

وقيل فى ليالى السنة كلها . وقال ابن مسعود : من يقم الحول يصيبها ؛ فبلغ ذلك ابن عمر فقال : يرحم الله أبا عبدالرحمن ! أما إنه علم أنها فى العشر الأواخر من شهر رمضان ، ولكنه أراد ألا يتكل الناس . وإلى هذا القول ذهب أبوحنيفة أنها فى جميع السنة .

وقيل عنه : إنها رفعت - يعنى ليلة القدر - وأنها إنما كانت مرة واحدة ؛ والصحيح أنها باقية .

وروى عن ابن مسعود أيضا : أنها إذا كانت فى يوم من هذه السنة كانت فى العام المقبل فى يوم آخر .

قال القرطبى : والجمهور على أنها فى كل عام من رمضان . . ثم قيل : إنها الليلة الأولى من الشهر ، قاله أبورزين العقيلى .

وقال الحسن وابن إسحاق وعبدالله بن الزبير : هى ليلة سبع عشرة من رمضان ، وهى الليلة التى كانت صبيحتها وقعة بدر : كأنهم فزعوا بقوله تعالى : ﴿ ومآانزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾[2] وكان ذلك ليلة سبع عشرة ، وقيل هى ليلة التاسع عشر .

والصحيح المشهور أنها فى العشر الآواخر من رمضان ، وهو قول مالك والشافعى والأوزاعى وأبى ثور وأحمد .

---

(١) اخرجه الترمذى فى جامعة الصحيح فى (كتاب الصوم) فى باب ما جاء فى ليلة القدر جـ ٢ من ١٥٥ رقم ٧٩٠ واخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الصيام) باب فضل ليلة القدر . . . . الخ حـ١ ص٨٢٨ رقم ٢٢٠/٧٦٢ .

(٢) من الآية : ٤١ من سورة الأنفال .

ثم قال قوم : هى ليلة الحادى والعشرين . ومال إليه الشافعى - رضى الله عنه - وذلك للحديث الذى رواه مالك فى الموطأ : كان رسول الله - ﷺ - يعتكف العشر الوسط من رمضان ، فاعتكف عاما حتى إذا كان ليلة إحدى وعشرين وهى الليلة التى يخرج فيها من صبحها من اعتكافه قال : « من كان اعتكف معى فليعتكف العشر الأواخر ، وقد أريت هذه الليلة ثم أُنسيتها ، وقد رأيتنى أسجد من صبحها فى ماء وطين فالتمسوها فى العشر الأواخر والتمسوها فى كل وتر »(١)

قال أبوسعيد : فأمطرت السماء تلك الليلة ، وكان المسجد على عريش فوكف المسجد (قطر) . قال أبوسعيد : فأبصرت عيناى رسول الله - ﷺ - إنصرف وعلى جبينه وأنفه أثر الماء والطين من صبح ليلة إحدى وعشرين » .

وقيل : ليلة الثالث والعشرين ، ففى صحيح مسلم أن النبى - ﷺ - قال : « إنى رأيت أنى أسجد فى صبيحتها فى ماء وطين »(٢) قال عبدالله بن أنيس : فرأيته فى صبيحته ليلة ثلاث وعشرين فى الماء والطين ، كما أخبر رسول الله - ﷺ - . .

وقيل ليلة خمس وعشرين ؛ لحديث أن سعيد الخدرى أن رسول الله - ﷺ - قال : « التمسوها فى العشر الأواخر فى تاسعة تبقى ، فى سابعة تبقى ، فى خامسة تبقى » رواه مسلم(٣) .

قال مالك : يريد بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين ، والسابعة ليلة ثلاث وعشرين ، والخامسة ليلة خمس وعشرين .

وقيل : ليلة سبع وعشرين ، وقد مضى دليله ، وهو قول على - رضى الله عنه - وعائشة ومعاوية وأبى بن كعب .

وروى ابن عمر أن رسول الله - ﷺ - قال : « من كان متحريا ليلة القدر فليتحرها ليلة سبع وعشرين »(٤) .

وقال أبوبكر الوراق : إن الله - تعالى - قسم ليالى هذا الشهر - شهر رمضان - على كلمات هذه السورة ، فلما بلغ السابعة والعشرين أشار إليها فقال : (هى) .

---

(١) اخرجه الامام مالك فى الموطأ فى (كتاب الاعتكاف) باب ماجاء فى ليلة القدر حـ١ ص٣١٩ رقم ٩ وقال محمد فؤاد عبدالباقى : واخرجه البخارى فى (كتاب الاعتكاف) باب الاعتكاف فى العشر الأواخر . ومسلم فى (كتاب الصيام)) باب فضل ليلة القدر ، حديث رقم ٢١٣

(٢) اخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص٨٢٦ رقم ٢١٦

(٣) اخرجه مسلم بمعناه فى (كتاب الصيام) باب فضل ليلة القدر .... الخ

واخرجه بلفظه أحمد ، والبخارى ، وأبوداود : انظر كنز العمل فى (كتاب الصوم) جـ٨ ص٥٣٥ رقم ٢٤٠٣٧ وانظر مسند الامام أحمد ٢٣٤/٣ والبخارى جـ٣ ص٦١

(٤) اخرجه البيهقى ١١/٤ السنن الكبرى ، وهو فى مجمع الزوائد ١٧٦/٣ وقال البيهقى : قلت : لابن عمر حديث فى الصحيح غير هذا ، ورواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

وأيضا : فإن ليلة القدر كرر ذكرها ثلاث مرات ، وهى تسعة أحرف ، فتجىء سبعا وعشرين .

وقيل : هى ليلة تسع وعشرين : فعن أنس قال : أخبرنى عبادة بن الصامت أن النبى خرج ليخبرنا بليلة القدر ، فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : « إنى خرجت لأخبركم بليلة القدر ، فتلاحى فلان وفلان فرفعت ، وعسى أن يكون خيرا لكم ؛ فالتمسوها فى التسع والسبع والخمس »(١) رواه البخارى .

وقيل : أخفاها فى جميع شهر رمضان ليجتهدوا فى العمل والعبادة ليالى شهر رمضان طمعا فى إدراكها ، كما أخص الصلاة الوسطى فى الصلوات الخمس ، واسمه الأعظم فى أسمائه الحسنى ، وساعة الإجابة فى ساعات الجمعة وساعات الليل .. رحمة منه وحكمة .

وعن عائشة - رضى الله عنها - كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يجاور فى العشر الأواخر من رمضان ، ويقول : « تحروا ليلة القدر فى العشر الأواخر من رمضان »(٢)

متفق عليه »

وعن عائشة أيضا أن النبى - ﷺ - قال : « تحروا ليلة القدر فى الوتر من عشر الأواخر من شهر رمضان »(٣) أخرجه البخارى .

قال اليغوى فى شرح السنة :

قال أبوعيسى : روى عن النبى - ﷺ - فى ليلة القدر أنها ليلة إحدى وعشرين ، وليلة ثلاث وعشرين ، وخمس وعشرين ، وسبع وعشرين ، وتسع وعشرين ، وآخر ليلة من رمضان .. قال الشافعى : كان هذا عندى - والله أعلم - أن النبى - ﷺ - كان يجيب على نحو مايسأل عنه يقال له : ألتمسها فى ليلة كذا ؟ فيقول : التمسوها فى ليلة كذا ، قال الشافعى : وأقوى الروايات عندى فيها ليلة إحدى وعشرين . أ . هـ .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصيام) باب تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر فيه جـ٣ ص ٦١ طبع الشعب .
(٢) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الصيام) باب فضل ليلة القدر جـ١ ص٢٩٠ رقم ٧٢٦ طبع عيسى الحلبى .
(٣) اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الصيام) باب تحرى ليلة القدر فى الوتر من العشر الأواخر فيه حـ٣ ص٦٠ طبع الشعب .

الاجتهاد فى العشر الأواخر من رمضان

قال الإمام الحافظ زين الدين ابن رجب الحنبلى فى كتابه « لطائف المعارف » : ماملخصه :

فى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر شد مئزره ، وأحيا ليله ، وأيقظ أهله »[١] هذا لفظ البخارى ، ولفظ مسلم ، وأحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر »[٢] وفى رواية لمسلم عنها قالت : كان رسول الله - ﷺ - يجتهد فى العشر الأواخر مالايجتهد فى غيره[٣] .

كان النبى - ﷺ - يخص العشر الأواخر من رمضان بأعمال لا يعملها فى بقية الشهر .

فمنها : إحياء الليل

فيحتمل أن المراد إحياء الليل كله ، ويحتمل أن يريد بإحياء الليل إحياء غالبه ، ويؤيده مافى صحيح مسلم عن عائشة قالت : ماأعلمه - ﷺ - قام ليلة حتى الصباح .

ومنها : أن النبى - ﷺ - كان يوقظ أهله للصلاة فى ليالى العشر دون غيرها من الليالى ، وفى حديث أبى ذر أن النبى - ﷺ - لما قام بهم ليلة ثلاث وعشرين وخمس وعشرين وسبع وعشرين ذكر أنه دعا أهله ونساءه ليلة سبع وعشرين خاصة وهذا يدل على أنه يتأكد إيقاظهم فى أكد الأوقات التى ترجى فيها ليلة القدر .

وأخرج الطبرانى من حديث على أن النبى - ﷺ - كان يوقظ أهله فى العشر الأواخر من رمضان ، وكل صغير وكبير يطيق الصلاة[٤] . قال سفيان الثورى : أحب إلى إذا دخل العشر الأواخر أن يتهجد بالليل ويجتهد فيه وينهض أهله وولده إلى الصلاة إن أطاقوا ذلك .

وقد صح عن النبى - ﷺ - أنه كان يطرق فاطمة وعليا ليلا فيقول لهما : ألا تقومان فتصليان ؟! وكان يوقظ عائشة بالليل إذا قضى تهجده وأراد أن يوتر .

وكانت امرأة حبيب أبى محمد تقول له بالليل : قد ذهب الليل وبين أيدينا طريق بعيد وزاد قليل ، وقوافل الصالحين قد سارت قُدَّامَنا ونحن قد بقينا .

يانائم الليل كم ترقد قم ياحبيبى قد دنا الموعد
وخذ من الليل وأوقاته وردا إذا ماهجع الرُّقَّد

(١) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان فى (كتاب الصيام) باب الاجتهاد وفى العشر الأواخر من رمضان حـ١ ص٢٩٢ رقم ٧٣٠
(٢) انظر صحيح مسلم (كتاب الاعتكاف) باب الاجتهاد فى العشر الأواخر من رمضان جـ٢ ص٨٣٢ رقم ١١٧٤/٧
(٣) اخرجه مسلم فى صحيحه جـ٢ ص٨٣٢ رقم ١١٧٥/٨ فى (كتاب الاعتكاف) باب الاجتهاد فى العشر الأواخر .
(٤) اخرجه البيهقى فى مجمع الزوائد فى (كتاب الصوم) باب فى العشر الأواخر حـ٣ ص١٧٤ وقال البيهقى : قلت : رواه الترمزى باختصار ، ورواه الطبرانى فى الأوسط وأبو يعلى باختصار عنه .

من نام حتى ينقضى ليله لم يبلغ المنزل أو يجهد
قل لذوى الألباب أهل التقى قنطرة العرض لكم موعد

ومنها : أن النبى - ﷺ - كان يشد المئزر واختلفوا فى تفسيره ، فمنهم من قال : هو كناية عن شدة جده واجتهاده فى العبادة ، وهذا فيه نظر ؛ فانها قالت : جد وشد المئزر ، فعطفن شد المئزر على جده ، والصحيح أن المراد اعتزاله للنساء ، وبذلك فسره السلف والأئمة المتقدمون منهم سفيان الثورى . وقد كان النبى - ﷺ - غالبا يعتكف العشر الأواخر ، والمعتكف ممنوع من قربان النساء بالنصر بالإجماع .

ومنها اغتساله بين العشاءين ، وروى من حديث على أن النبى - ﷺ - كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة يعنى من العشر الأواخر ، وفى إسناده كان يغتسل بين العشاءين كل ليلة يعنى من العشر الأواخر ، وفى إسناده ضعيف .

وقال ابن جرير : كانوا يستحبون أن يغتسلوا كل ليلة من ليالى العشر الأواخر ، وكان ابراهيم النخعى يغتسل فى العشر كل ليلة ، ومنهم من كان يغتسل فى الليالى التى تكون أرجى لليلة القدر .

وقال حماد بن سلمة : كان ثابت البنانى وحميد الطويل يلبسان أحسن ثيابهما ويتطيبان ويطيبون المسجد بالنضوح والدخنة فى الليالى التى تجى فيها ليلة القدر .

فتبين بهذا انه يستحب فى الليالى التى ترجى فيها ليلة القدر التنظف والتزين والتطيب بالغسل والطيب واللباس الحسن كما يشرع ذلك فى الجمع والأعياد ، وكذلك يشرع أخذ الزينة بالثياب فى سائر الصلوات ، كما قال تعالى : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾[1] وقال ابن عمر : الله أحق أن يتزين له ولايكمل التزين الظاهر إلا بتزين الباطن بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى ، وتطهيره من أدناس الذنوب وأوضارها ؛ فإن زينة الظاهر مع خراب الباطن لاتغنى شيئا ، قال تعالى : ﴿ **يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير** ﴾[2]

إذا المرء لم يلبس ثيابا من التقى
تقلب عريانا وإن كان كاسيا

ومنها : الاعتكاف ، ففى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - أن النبى - ﷺ - كان يعتكف العشر الأواخر حتى توفاه الله تعالى . . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - ﷺ - يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين ، وإنما كان يعتكف النبى - أ - فى هذا العشر التى يطلب فيها ليلة القدر قطعا لأشغاله ، وتفريغا لباله ، وتخليا لمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وكان يحتجر حصيرا يتخلى فيها عن الناس فلايخالطهم ولايشتغل بهم .

---

(١) من الآية : ٣١ من سورة الاعراف
(٢) من الآية : ٢٩ من سورة الاعراف .

ولهذا ذهب الإمام أحمد إلى أن المعتكف لايستحب له مخالطة الناس حتى ولا لتعليم علم وإقراء قرآن ، بل الأفضل له الانفراد بنفسه والتخلى بمناجاة ربه وذكره ودعائه ، وهذا الاعتكاف هو الخلوة الشرعية ، وإنما يكون فى المساجد لئلا يترك به الجمع والجماعات ؛ فان الخلوة القاطعة عن الجمع والجماعات منهى عنها .

فالخلوة المشروعة لهذه الأمة هى الاعتكاف فى المساجد خصوصا فى شهر رمضان فى العشر الأواخر منه كما كان النبى - ﷺ - يفعله .

فمعنى الاعتكاف وحقيقته : قطع العلائق عن الخلائق بخدمة الخالق ، وكلما قويت المعرفة بالله والمحبة له والأنس به أورثت صاحبها الانقطاع الى الله تعالى بالكلية ، على كل حال كان بعضهم لايزال منفردا فى بيته خاليا بربه فقيل له : أما تستوحش ؟ قال : كيف استوحش وهو يقول أنا جليس من ذكرنى .

ياليلة القدر للعابدين اشهدى ، ياأقدام القانتين اركعى لربك وأسجدى ، ياألسنة السائلين جدى فى المسألة واجتهدى .

يا رجال الليل جدوا رَبَّ داع لا يرد
لا يقوم الليل إلا من له عزم وجد

ليلة القدر عند المحبين ليلة الحظوة بأنس مولاهم وقربه ، وإنما يفرون من ليالى البعد والهجر .

قال تعالى : ﴿ **إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وماأدراك ماليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر** ﴾

فاذا كان ليلة القدر أمر الرب تبارك وتعالى الملائكة بالنزول إلى الأرض لأن العباد زينوا أنفسهم بالطاعات : بالصوم والصلاة فى ليالى رمضان ، ومساجدهم بالقناديل والمصابيح ، فيقول الرب - تبارك اسمه - أنتم طعنتم فى بنى آدم وقلتم : ﴿ **أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء** ﴾ فقلت لكم : ﴿ **إنى أعلم مالا تعلمون** ﴾[1] اذهبوا اليهم فى هذه الليلة حتى تروهم قائمين ساجدين راكعين لتعلموا أنى اخترتهم على علم على العالمين .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى - ﷺ - قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه »[2] وفى المسند عن عبادة بن الصامت ، وعن النبى - ﷺ - قال : « من قامها ابتغاءها ثم وقعت له غفر له ماتقدم من ذنبه وماتأخر »[3] .

قال جويبر : قلت للضحاك : أرأيت النفساء والحائض والمسافر والنائم لهم فى ليلة القدر نصيب ؟ قال : نعم ، كل من تقبل الله عمله سيعطيه نصيبه من ليلة القدر .

---

(١) من الآية : ٣٠ من سورة البقرة (٢) سبق تخريجه (٣) اخرجه الامام أحمد فى مسنده ٣١٨/٥

الأعمال المستحبة فى هذه الليلة المباركة :.

قال ابن رجب : وأما العمل فى ليلة القدر فقد ثبت عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وقيامها إنما هو إحياؤها بالتهجد فيها والصلاة ، وقد أمر عائشة بالدعاء فيها وقال سفيان الثورى الدعاء فى تلك الليلة أحب إلىَّ من الصلاة ، قال : وإذا كان يقرأ وهو يدعو ويرغب إلى الله فى الدعاء والمسألة لعله يوافق . ومراده أن كثرة الدعاء وأفضل من الصلاة التى لا يكثر فيها الدعاء وإن قرأ ودعا كان حسناً ، وقد كان النبى - ﷺ - يتهجد فى ليالى رمضان ويقرأ قراءة مرتلة ، لا يمر بأية فيها رحمة إلا سأل ، ولا بآية فيها عذاب إلا تعوذ ، فيجمع بين الصلاة والقراءة والدعاء والتفكر ، وهذا أفضل الأعمال وأكملها فى ليالى العشر وغيرها والله أعلم

وقد قال الشعبى فى ليلة القدر : ليلها كنهارها . وقال الشافعى فى القديم : استحب أن يكون اجتهاده فى نهارها كاجتهاده فى ليلها ، وهذا يقتضى استحباب الاجتهاد فى جميع زمان العشر الأواخر ليله ونهاره والله أعلم .

رياح هذه الأسحار تحمل أنين المذنبين ، وأنفاس المحبين ، وقصص التائبين ، ثم تعود برد الجواب بلا كتاب .

لو قام المذنبون فى هذه الأسحار على أقدام الانكسار ورفعوا قصص الاعتذار ومضمونها : ﴿ **يا أيها العزيز مَسَّنَا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوْفِ لنا الكيل وتصدق علينا**[1] ﴾ لبرز لهم التوقيع عليها ﴿ **لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين** ﴾[2]

أفضل الدعاء فى ليلة القدر

قالت عائشة - رضى الله عنها - للنبى ﷺ : أرأيت أن وافقت ليلة القدر ما أقول فيها ؟ قال : قولى : اللهم إنّك عفوٌ تحب العفو فاعف عنى » والحديث فى مسند أحمد والعَفُوّ : من أسماء الله تعالى - وهو يتجاوز عن سيئات عباده وهو يحب العفو ، فيحب أن يعفو عن عباده ، ويحب من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض ، فإذا عفا بعضهم عن بعض عاملهم بعفوه ، وعفوه أحب إليه من عقوبته ، وكان النبى - ﷺ - يقول : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك »

إذا أوجعتك الذنوب فَدَاوِهَا : برفع يد بالليل والليل مظلم ولا تقنطن من رحمة الله إنما : قنوطك منها من ذنوبك أعظم فرحمته للمحسنين كرامة : ورحمته للمذنبين تكرم

---

(١) من الاية : ٨٨ من سورة يوسف

(٢) من الآية : ٩٢ من سورة يوسف .

تفسير سورة البينة

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثمان

وكلماتها : أربع وسبعون

وحروفها : ثلاثمائة وتسع وتسعون

فواصل آياتها : على الهاء

ولها اسمان : سورة المنفكين لقوله : ﴿ **والمشركين منفكين** ﴾ وسورة القيمة لقوله : ﴿ **وذلك دين القيمة** ﴾ .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان تمرد أهل الكتاب ، والخبر عن صحة أحكام القرآن ، وذكر وظيفة الخلق فى خدمة الرحمن ، والإشادة بخير البرية من الإنسان وجزاء كل أحد منهم بحسب الطاعة والعصيان ، وبيان أن موعود الخائفين من الله الرضا والرضوان فى قوله ﴿ **ذلك لمن خشى ربه** ﴾

فضل السورة :

صح عن النبى - ﷺ - أنه قال لأبى بن كعب : « ياأُبَىّ : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : ﴿ **لم يكن الذين كفروا** ﴾ قال أُبى : وسمّانى ؟ قال : نعم ، فبكى أُبَى من الفرح »(١)
والحديث رواه البخارى .

مناسبة السورة لما قبلها :

« إن قوله تعالى : ﴿ **لم يكن الذين كفروا** ﴾ .. الآيات كالعلة لإنزال القرآن كأنه قيل : إنا أنزلناه ، لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم حتى يأتيهم رسول يتلو صحفا مطهرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب التفسير) تفسير سورة البينة جـ ٦ ص ٢١٧ طبع الشعب

قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ
شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ
ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ
خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

معانى المفردات

(أهل الكتاب) اليهود والنصارى

(المشركون) عبدة الأوثان والأصنام من العرب

(منفكين) أى : مفارقين ما هم عليه

﴿ البينة ﴾ : الحجة الواضحة ، والمراد بها النبى - ﷺ -

﴿ صحفا ﴾ واحدة صحيفة وهو ما يكتب فيه

﴿ القيمة ﴾ : المستقيمة التى لا عوج فيها لاشتمالها على الحق .

﴿ البينة ﴾ : الثابتة الدليل .

الإخلاص : أن يأتى بالعمل خالصاً له تعالى

﴿ حنفاء ﴾ واحدهم : حنيف ، وهو فى الأصل : المائل المنحرف ؟ والمراد به المنحرف عن الزيغ إلى الإسلام لوجه الله تعالى .

﴿ البرية ﴾ : الخليقة

﴿ خشى ربه ﴾ أى : خاف الله .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة . رسول من الله يتلو صحفا مطهرة . فيها كتب قيمة . وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

قال القرطبى : قوله تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعنى اليهود والنصارى ﴿ والمشركين ﴾ الذين كانوا بمكة وحولها ، والمدينة والذين حولها ، وهم مشركو قريش . ﴿ منفكين ﴾ أى : منتهين عن كفرهم مائلين عنه . ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أى : أتتهم البينة ، أى : محمد - ﷺ - وقيل : ﴿ منفكين ﴾ : زائلين ، أى : لم تكن مدتهم لتزول حتى يأتيهم رسول .

وقيل : ﴿ منفكين ﴾ بارحين ، أى : لم يكونوا ليبرحوا ، ويفارقوا الدنيا حتى تأتيهم البينة . وقال ابن كيسان : أى : لم يكن أهل الكتاب تاركين صفة محمد - ﷺ - فى كتابهم حتى بعث ، فلما بعث حسدوه وجحدوه . وهو كقوله ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾[1]

وقال بعض اللغويين : ﴿ منفكين ﴾ أى : هالكين ، من قولهم : انفك صلا المرأة عند الولادة ، والصلا : وسط الظهر من الإنسان ، وهو أن ينفصل فلا يتم حتى يهلك .

المعنى : لم يكونوا معذبين ولا هالكين إلا بعد قيام الحجة عليهم بارسال الرسل وإنزال الكتب .

وقوله تعالى ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ أى : هذه البينة هى رسالة محمد - ﷺ - المرسل من عند الله تعالى ﴿ يتلوا صحفا مطهرة ﴾ أى : يقرأ عليهم ما تتضمن الصحف من المكتوب ، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ .

قال ابن عباس : ﴿ مطهرة ﴾ من الزور والشك والنفاق ، والضلالة . وقال قتاده : ﴿ مطهرة ﴾ من الباطل ، والمعنى واحد ، ومطهرة من نعت الصحف ، وهو كقوله تعالى ﴿ فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة ﴾[2] وقيل ﴿ مطهرة ﴾ أى ينبغى ألا يمسها إلا المطهرون .

وقوله تعالى : ﴿ فيها كتب قيمة ﴾ قال ابن جرير : أى : فى الصحف المطهرة كتب من كتب الله قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ : لأنها من عند الله - عزو جل - قال قتادة فى هذه الآية : يذكر القرآن بأحسن الذكر ، ويثنى عليه بأحسن الثناء .

وقوله تعالى : ﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾

أى : وما اختلف اليهود والنصارى فى شأن محمد - ﷺ - إلا من بعد ما جاءتهم الحجة الواضحة ، الدالة على صدق رسالته وأنه الرسول الموعد به فى كتبهم .

---

(١) من الآية : ٨٩ من سورة البقرة .

(٢) الايتان : ١٣ ، ١٤ من سورة عبس .

قال أبو السعود : والآية مسوقة لغاية التشنج على أهل الكتاب خاصة ، وتغليظ جنايتهم ، ببيان أن تفرقهم لم يكن إلا بعد وضوح الحق ، وتبين الحال ، وانقطاع الأعذار بالكلية ، كقوله تعالى : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم .. ﴾[(١)]

قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شىء قدير ﴾[(٢)]

قوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾

أى : وما أمر الكفار فى التوراة والإنجيل ﴿ إلا ليعبدوا الله ﴾ أى : ليوحدوه مخلصين العبادة لله ـ جل وعلا ـ ﴿ حنفاء ﴾ أى : مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، مستقيمين على دين إبراهيم ، دين الحنيفة السمحة ، الذى جاء به خاتم المرسلين ﴿ ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ﴾ أى : وأمروا بأن يؤدوا الصلاة على الوجه الأكمل . فى أوقاتها بشروطها وخشوعها وآدابها ، ويعطوا الزكاة لمستحقيها عن طيب نفس ، قال الصاوى : وخص الصلاة والزكاة لشرفهما ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أى : وذلك المذكور من العبادة والإخلاص وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، هو دين الملة المستقيمة ـ دين الإسلام ـ دين المرسلين والنبيين معاً جميعا من لدن آدم حتى الرسالة المحمدية التى بها ختم الله الرسالات ، قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾[(٣)] .

ولكن أهل الكتاب حرفوا وبدلوا ، فعبدوا أحبارهم ورهبانهم كما قال تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾[(٤)] .

وقوله تعالى : ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية ﴾

---

(١) من الآية : ١٩ من سورة آل عمران .
(٢) الآيات : ١٥ ـ ١٩ من سورة المائدة .
(٣) الآية : ٢٥ من سورة الأنبياء .
(٤) الآيتان : ٣٠ ، ٣١ من سورة التوبة .

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفار أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة ، وأنبياء الله المرسلة . أى : إن الذين كذبوا بالقرآن وبنبيه محمد - ﷺ - من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان ، هؤلاء جميعهم يوم القيامة فى نار جهنم ماكثين فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون ﴿ أولئك هم شر البرية ﴾ أى : أولئك هم شر الخلق على الإطلاق .

أخرج الإمام مسلم : قال - ﷺ - والذى نفسى بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار[1] .

ولما ذكر مقر الأشقياء ، ذكر بعده مقر السعداء فقال تعالى :

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ أى : إن المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان وصالح الأعمال ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ أى هم خير الخليقة التى خلقها الله وبرأها كما قال تعالى : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾[2] .

وقوله : ﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أى : ثوابهم فى الآخرة على ما قدموا من الإيمان والأعمال الصالحة ﴿ جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴾ أى : جنات إقامة تجرى من تحت قصورها أنهار الجنة ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أى : ماكثين فيها أبداً ، لا يموتون ولا يخرجون منها ، وهم فى نعيم دائم لا ينقطع . ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ أى : رضى الله عنهم بما قدموا فى الدنيا من الطاعات وفعل الصالحات ، ورضوا عنه بما أعطاهم من الخيرات والكرامات .

وقوله ﴿ ذلك لمن خشى ربه ﴾ أى : ذلك الجزاء والثواب لمن خاف الله واتقاه ، وانتهى عن معصية مولاه كما قال تعالى : ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هى المأى ﴾[3] وكقوله تعالى : ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾[4] .

اللهم إنا نسألك خشيتك فى السر والعلن ، ونسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، ونسألك القصد فى الفقر والغنى ، ونسألك نعيما لا ينفد ، ونسألك قرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك ، ولذة النظر إلى وجهك الكريم فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

---

(١) أخرجه الامام مسلم فى صحيحه فى (كتاب الايمان) باب وجوب الايمان برسالة نبينا محمد - ﷺ - جـ ١ ص ١٣٤ .
(٢) الآية رقم ٦٩ من سورة النساء
(٣) الآيتان : ٤٠ ، ٤١ من سورة النازعات
(٤) الآية : ٤٦ من سورة الرحمن .

تفسير سورة الزلزلة

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثمان

وكلماتها : خمس وثلاثون

وحروفها : مائة وتسعة عشر

فواصل آياتها : ﴿ هما ﴾ على الميم : آية ﴿ أعمالهم ﴾

سميت سورة الزلزلة ، لمفتتحها

مقصود السورة

معظم مقصود السورة : بيان أحوال القيامة وأهوالها وذكر جزاء الطاعة ، وعقوبة المعصية ، وذكر وزن الأعمال فى ميزان العدل فى قوله تعالى : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ إلى آخر السورة

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه ـ لما ذكر سلف جزاء المؤمنين والكافرين بين هنا وقت ذلك الجزاء وعلاماته .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ
ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾
يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

معانى المفــردات:

﴿ الزلزلة ﴾ : الحركة الشديدة مع اضطراب

﴿ والأثقال ﴾ واحدها : ثقل ، وهو فى الأصل متاع البيت والمراد هنا : ما فى جوف الأرض من الدفائن كالموتى والكنوز .

﴿ أوحى لها ﴾ تقول : أوحيت له ، وأوحيت إليه ، ووحى له ، ووحى إليه أى كلمة خفية ، أو ألهمه ، كما جاء فى قوله : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل . . . ﴾[١]

﴿ يصدر ﴾ أى : يرجع ، فالوارد : هو الآتى للماء ليشرب ، أو يستقى ، والصادر : هو الراجع عنه .

﴿ أشتاتا ﴾ واحدهم : شتيت ، أى : متفرقين متمايزين لا يسير محسنهم ومسيئهم فى طريق واحدة .

(الذرة) : النملة الصغيرة ، أو هى الهباء الذى يرى فى ضوء الشمس إذا دخلت من نافذة ، ومثقال الذرة : وزنها ، وهو مَثَلٌ فى الصغر .

التفســير

قوله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أى : إذا حركت الأرض تحريكا عنيفاً اضطرابا شديداً ، واهتزت بمن عليها أهتزازا يقطع القلوب ويفزع الألباب كما قال تعالى : ﴿ يأيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾[٢]

وقوله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ : يعنى ألقت ما فيها من الموتى ، قاله غير واحد من السلف ، وهذه كقوله تعالى : ﴿ وإذا الأرض مدت . وألقت ما فيها وتخلت . وأذنت لربها وحقت ﴾[٣]

وقال مسلم فى صحيحه : عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - تقىء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجىء القاتل فيقول : فى هذا قَتَلْت ، وجىء القاطع فيقول : فى هذا قطعت ، ويجىء السارق فيقول : فى هذا قُطِعَتْ يدى ، ثم يَدَعُونَهُ فلا يأخذون منه شيئاً »[٤]

---

(١) من الآية : ٦٨ من سورة النحل .

(٢) الآيتان : ١ ، ٢ من سورة الحج .

(٣) الآيات : ٣ - ٥ من سورة الأنشقاق .

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب الزكاة) باب الترغيب فى الصدقة قبل ألا يوجد من يقبلها حـ٢ ص ٧٠١ رقم ١٠١٣/٦٢

وقوله ـ عز وجل ـ ﴿ وقال الإنسان مالها ؟ ﴾ أى : أستنكر أمرها بعد ما كانت قارَّة ثابتة وهو مستقر على ظهرها ، أى : تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذى لا محيد لها عنه ، ثم ألقت ما فى بطنها من الأموات الأولين والآخرين ، وحينئذ أستنكر الناس أمرها ، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار .

وقوله تعالى : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾

أخرج أحمد والترمذى والنسائى ـ واللفظ له ـ عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ هذه الآية ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ قال : أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا . الله ورسوله أعلم . قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، أن تقول : عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا وكذا ، فهذه أخبارها »[1] (حديث حسن صحيح)

وفى معجم الطبرانى من حديث ابن هليعة : حدثنى الحارث بن يزيد : سمع ربيعة الجرشى أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « تحفظوا من الأرض فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عاملُ عليها خيرا أو شرّاً إلا وهى مخبرة »[2]

قال القرطبى : قال الماوردى : قوله : ﴿ يومئذ تحدث أخبارها ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : ﴿ تحدث أخبارها ﴾ بأعمال العباد على ظهرها ، قاله أبو هريرة ورواه مرفوعاً . وهو قول من زعم أنها زلزلة القيامة .

الثانى : ﴿ تحدث أخبارها ﴾ بما أخرجت من أثقالها ، قاله يحيى بن سلام ، وهو قول من زعم أنها زلزلة أشراط الساعة الثالث . أنها تحدث بقيام الساعة إذا قال الإنسان مالها ، قاله ابن مسعود فتخبر أن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى . فيكون ذلك منها جواباً لهم عند سؤالهم ، ووعيداً للكافر ، وإنذاراً للمؤمن .

وقوله تعالى : ﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ قال البخارى : أوحى لها ، وأوحى إليها ، ووحى لها ، ووحى إليها واحد . قال ابن كثير : والظاهر أن هذا مضمن بمعنى أذن لها . وقال مجاهد : أوحى لها ، أى : أمرها ، وقال القرطبى : أمرها أن تنشق عنهم .

وقوله تعالى ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتا ﴾ أى : يرجعون عن موقف الحساب أشتاتا ، أى : أنواعاً وأصنافاً ما بين شقى وسعيد ، ومأمور به إلى الجنة ، ومأمور إلى النار وكان ابن عباس يقول : ﴿ أشتاتاً ﴾ متفرقين على قدر أعمالهم : أهل الإيمان على حدة ، وأهل كل دين على حدة .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى سنده (مسند أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ) حـ ٢ ص ٣٧٤

(٢) أخرجه فى مجمع الزوائد فى (كتاب الطهارة) باب المحافظة على الأخذ ، حـ ٢٤١ وقال الهثمى : رواه الطبرانى فى الكبير ، وفيه ابن لهيعة وهو ضعيف .

وقيل : هذا الصدق إنما هو عند النشور ، يصدرون أشتاتا من القبور ، فيصار بهم إلى موقف الحساب ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ فى كتبهم ، أوليروا جزاء أعمالهم .

وقوله تعالى ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره** ﴾

سمى رسول الله - ﷺ - الجامعة الفاذة حين سئل عن زكاة الحُمرُ فقال : ما أنزل الله فيها شيئا إلا هذه الآية الفاذة الجامعة : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرّا يره ﴾
(أخرجه البخارى) وقال ابن مسعود : هذه أحكم آية فى القرآن ، وصدق وروى عن كعب الأحبار أنه قال : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما فى التوراة والإنجيل والزبور والصحف : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره** ﴾

وقال الإمام أحمد : عن صعصعة بن معاوية عم الفرزدق أنه أتى النبى - ﷺ - فقرأ عليه ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره** ﴾ **قال : حسبى لا أبالى أن لا أسمع غيرها** وهكذا رواه النسائى .

وفى صحيح البخارى عن عدى مرفوعاً « اتقوا النار ولو بشق تمرة » ولو بكلمة طيبة »(١)

وله أيضاً فى الصحيح : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تُفْرِغَ من دلوك فى إناء المستسقى ولو أن تلقى أخاك ووجهكِ إليه منبسط »(٢)

وأخرج مسلم عن أبى ذر - رضى الله عنه - قال : قال لى النبى - ﷺ - « لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق »(٣)

وعن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ - « يانساء المسلمات : لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاه »(٤) متفق عليه .

وعنه أيضا أن رسول الله - ﷺ - قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلب يلهث عطشا يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثلُ الذى كان قد بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه ، حتى رقى

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب المساقاة) حـ ٣ ص ١٤٩ طبع الشعب .
(٢) رواه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الزكاة) باب : اتقوا الله ولو بشق تمرة . . . الخ ، وليس فيه : « ولو بكلمة طيبة » رواه .
(٣) أخرجه الامام أحمد فى مسند فى (أبى قيمة الهجيمى) حـ ٣ ص ٤٨٣ بمعناه .
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء حـ ٤ ص ٢٠٢٦ رقم ٢٦٢٦/١١٤

فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » قالوا : يارسول الله إن لنا فى البهائم أجراً ؟ فقال : « فى كل كبد رطبة أجر »[١] متفق عليه .

وعنه أيضاً عن النبى - ﷺ - قال : « لقد رأيت رجلاً يتقلب فى الجنة فى شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذى المسلمين »[٢] رواه مسلم .

وفى رواية له : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له ، فغفر له »[٣]

وعن أبى موسى - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : « على كل مسلم صدقة » قال : أرأيت إن لم يجد ؟ قال : « يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق » قال : أرأيت إن لم يستطع ؟ قال : « يعين ذا الحاجة الملهوف » قال : أرأيت إن لم يستطع . قال : « يأمر بالمعروف ، أو الخير » قال أرأيت إن لم يفعل ؟ قال : « يمسك عن الشر فإنها صدقة »[٤]

فقوله تعالى : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾ أى : فمن يفعل من الخير زنة ذرة من التراب يجده فى صحيفته يوم القيامة ، ويلق جزاءه عليه ﴿ **ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره** ﴾ أى : ومن يفعل من الشر زنة ذرة من التراب يجده كذلك ويلق جزاءه عليه .

قال القرطبى : وهذا مَثَلٌ ضربه الله - تعالى - للدلالة على أنه لا يغفل من عمل ابن آدم صغيرة ولا كبيرة ، وهو مثل قوله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[٥]

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله - ﷺ - « قال إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه . فإن رسول الله - ﷺ - ضرب لهن مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سواداً وأججوا ناراً وأنضجوا ما قذفوا فيها.

(١) أنظر اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب الحث على الصدقة ولو بالقليل ص ٢١٥ رقم ٦٠٩
(٢) اللؤلؤ والمرجان (كتاب السلام) باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها ص ٥٨٢ رقم ١٤٤٧
(٣) أنظر صحيح مسلم (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل إزالة الأذى عن الطريق حـ ٤ ص ٢٠٢١ رقم ١٩١٤/١٢٩
(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى (كتاب البر والصلة والآداب) باب فضل إزالة الأذى عن الطريق حـ ٤ ص ٢٠٢١ رقم ١٩١٤/١٥٧
(٥) الحديث فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب الزكاة) باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف ص ٢٠٧ رقم ٥٨٩

تفسير سورة العاديات

مقدمة عن السورة :
قال صاحب البصائر :
السورة مكية :
عدد آياتها : إحدى عشر
وكلماتها : أربعون
وحروفها : مائة وستون
فواصل آياتها : على (دار)
سميت سورة العاديات لمفتتحها مقصود السورة :

بيان شرف الغزاة فى سبيل الله ، وذكر كفران الإنسان الخير عن اطلاع الملك الديان ، على الإسرار والإعلان ، وذم محبة ما هو فان ، والخبر عن إحياء الأموات بالأجساد والأبدان ، وأنه ـ تعالى ـ خبير بما للخلق من الطاعة والعصيان .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **والعاديات** ﴾ أقسم بثلاثة أشياء : العاديات ، والموريات ، والمغيرات ، وجعل جواب القسم أيضاً ثلاثة اشياء : إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد .

مناسبة السورة لما قبلها .
أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ، ولا يستعدون لحياتهم الثانية بتعويد أنفسهم فعل الخير . .

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ
بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ
لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي
الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

معانى المفـردات :

﴿ **العاديات** ﴾ واحدها عادية من العدو وهو الجرى .

﴿ **ضبحاً** ﴾ الضبح : صوت أنفاس الخيل حين الجرى .

قال عنترة :

والخيل تكدح حين تضبح فى حياض الموت ضبحاً .

﴿ **والموريات** ﴾ : واحدها مورية من الإيراء وهو إخراج النار ، تقول : أورى فلان إذا أخرج النار بزند ونحوه .

﴿ **قدحاً** ﴾ : القدح : الضرب لإخراج النار كضرب الزناد بالحجر .

﴿ **المغيرات** ﴾ : واحدها مغيرة من أغار على العدو إذا هجم عليه بغتة ليقتله أو يأسره . .

﴿ **فأثرن** ﴾ : الإثارة التهييج وتحريك الغبار .

﴿ **نقعاً** ﴾ : النقع الغبار .

﴿ **وسطن** ﴾ : أى : توسطن . تقول وسطت القوم أوسطهم .

﴿ **وسْطاً** ﴾ : إذا صرت فى وسطهم .

﴿ **لكنود** ﴾ : الكفور : الجحود .

وأصل الكنود الأرض التى لا تنبت شيئاً ، شبه بها الإنسان الذى يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات .

﴿ الشهيد ﴾ أى : لشاهد على كنوده وكفره بنعمة ربه .

﴿ الخير ﴾ : هنا المال كما جاء فى قوله : ﴿ إن ترك خيراً ﴾ .

﴿ لشديد ﴾ : أى : لبخيل .

﴿ بعثر ﴾ أى : بعثت وأثيرت .

﴿ حصل ﴾ أى : أظهر محصلاً مجموعاً .

﴿ ما فى الصدور ﴾ أى : ما فى القلوب من العزائم والنوايا .

التفسير

قوله تعالى :

﴿ والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً ﴾ .

أقسم سبحانه وتعالى بالخيل التى لها هذه الصفات والتى تعمل تلك الأعمال ، ليعلى من شأنها فى نفوس عباده المؤمنين أهل الجد والعمل ، وليعنوا بتربيتها وتعويدها الكر والفر قال تعالى : ﴿ وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾[1] . الآية .

فقوله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ قال القرطبى : قال عامة المفسرين وأهل اللغة ، أى : تعدو فى سبيل الله فتضبح .

قال قتادة : تضبح إذا عدت ، أى : تحمحم .

وممن قال : إن المراد بالعاديات الخيل : ابن عباس وأنس والحسن ومجاهد . والمراد الخيل التى يغزو عليها المؤمنون .

وقوله تعالى : ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ قال عكرمة وعطاء والضحاك : هى الخيل حين تورى النار بحوافرها ، وهى سنابكها ، وروى عن ابن عباس : وأصل القدح الاستخراج ومنه اقتدحت بالزند ، والمقدحة ما تقدح به النار .

والقداح الحجر الذى يورى النار .

وقيل : إنها نيران المجاهدين إذا كثرت نارها إرهاباً . وكل من قرب من العدو يوقد نيراناً كثيرة ليظنهم العدو كثيراً . فهذا إقسام بذلك . قال القرطبى : وهذا مجاز والقول الأول حقيقة وأن الخيل من شدة عدها تقدح النار بحوافرها .

وقوله تعالى : ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ .

---

(١) سورة الأنفال الآية : ٦٠

أقسم بالخيل تغير على العدو عند الصبح ، وكانوا إذا أرادوا الغارة سروا ليلاً ويأتون العدو صبحاً ، لأن ذلك وقت غفلة الناس . ومنه قوله تعالى : ﴿ فساء صباح المنذرين ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ .

ألأ : غباراً ، يعنى الخيل تثير الغبار بشدة العدو فى المكان الذى أغارت به .

قال حسان بن ثابت :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موعدها كداء

وقوله تعالى : ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أى : فوسطن بركبانهن العدو أى : الجمع الذى أغاروا عليهم .

قال القرطبى :

قال ابن العربى : أقسم الله بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ﴿ يس : والقرآن الحكيم ﴾[٢] وأقسم بالخيل وصهيلها وغبارها وقدح حوافرها النار من الحجر فقال : ﴿ والعاديات ضبحاً ﴾ الآيات الخمس .

فأقسم سبحانه وتعالى بأقسام ثلاثة على أمور ثلاثة ، تعظيماً للمقسم به وهو خيل المجاهدين فى سبيل الله ، التى تسرع على أعداء الله ، وتقدح النار بحوافرها ، وتغير على الأعداء وقت الصباح ، فتثير الغبار ، وتتوسط العدو فتصيبه بالرعب والفزع ، أما الأمور التى أقسم عليها فهى قوله تعالى :

﴿ إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ﴾ .

أى : إن الإنسان لجاحد لنعيم ربه ، شديد الكفران كما قال تعالى : ﴿ إن الإنسان لظلوم كفار ﴾[٣] . قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : الكنود : هو الكفور ، وقيل : هو البخيل الذى يمنع رفده ويجيع عبده ولا يعطى فى النائبة ، وقال الحسن : هو اللوام لربه ، يعد المصائب وينسى النعم .

وفى هذا يقول الشاعر :

يا أيها الظالم فى فعله والظلم مردود على من ظلم
إلى متى أنت وحتى متى تشكو المصيبات وتنسى النعم

وقال أبو بكر الواسطى : الكنود الذى ينفق نعم الله فى معاصى الله . وقال الترمذى : الذى يرى النعمة ولا يرى المنعم .

قال القرطبى : هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفران والجحود .

وقوله تعالى : ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أى : وإن الإنسان لشاهد على كنوده ، لا يقدر أن يجحده لظهور أثره عليه .

---

(١) سورة الصافات من الآية : ١٧٧
(٢) سورة يس الآيتان : ١ ، ٢
(٣) سورة ابراهيم من الآية : ٣٤

وقوله تعالى : ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ أى : وإنه لشديد الحب للمال حريص على جمعه ، فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه ، وبخله بما آتاه من الخير ، فلا هو شكور للنعم ، ولا محسن إلى خلقه ، بل بخيل بشكره ، بخيل بماله ، وهذا ضد المؤمن الكريم فإنه مخلص لربه ، محسن إلى خلقه ، فالمؤمن له الإخلاص والإحسان ، والفاجر له الكفر والبخل وقد ذم الله ـ تعالى ـ هذين الخلقين المهلكين فى غير موضع من كتابه كقوله : ﴿ فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾(١) ، فالرياء ضد الإخلاص ، ومنع الماعون ضد الإحسان . وكذلك قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾(٢) فاختياله وفخره من كفره وكنوده ونظيره أيضاً ما تقدم فى سورة الليل من ذم المستغنى البخيل ، ومدح المعطى المصدق بالحسنى .

قوله تعالى : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ، وحصل ما فى الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ .

ثم قال تبارك وتعالى مزهداً فى الدنيا ومرغباً ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال وما يستقبله الإنسان من الأهوال : ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور ؟ ﴾ أى : أخرج ما فيها من الأموات ﴿ وحصل ما فى الصدور ﴾ قال ابن عباس وغيره : (حصل) أى : أبرز وأظهر ما كانوا يسرون فى نفوسهم ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ أى : العالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ومجاز بهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم مثقال ذرة . ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ وإذا القبور بُعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾(٣) .

قال الإمام ابن القيم فى هذه الآية الكريمة : « خوف سبحانه وتعالى الإنسان الذى هذا وصفه حين يبعثر ما فى القبور ، ويحصل ما فى الصدور أى ميز وجمع وبين وأظهر ونحو ذلك وجمع سبحانه بين القبور والصدور كما جمع بينهما النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى قوله : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم »(٤) فإن الإنسان يوارى صدره ما فيه من الخير والشر ويوارى قبره جسمه ، فيخرج الرب جسمه من قبره ، وسره من صدره ، فيصير جسمه بارزاً على الأرض ، وسره بادياً على وجهه كما قال تعالى : ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾(٥) وقال : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾(٦)

---

(١) سورة الماعون من الآية : ٤ حتى ٧
(٢) سورة النساء الآيتان : ٣٦ ـ ٣٧
(٣) سورة الانفطار الآيتان : ٤ ، ٥
(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ٣٦٥
(٥) سورة الرحمن الآية : ٤١
(٦) سورة القلم الآية : ١٦

تفسير سورة القارعة

مقدمـــة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : إحدى عشرة .

وكلماتها : ست وثلاثون .

وحروفها : مائة وخمسون .

وفواصل آياتها : (ستة) .

سميت سورة القارعة لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان هيبة العرصات ، وتأثيرها فى الجمادات والحيوانات وذكر وزن الحسنات ، والسيئات ، وشرح عيش أهل الدرجات وبيان حال أصحاب الدركات فى قوله : ﴿ نار حامية ﴾ .

المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ ثم ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ جمع ميزان . وله كفتان وعمود ولسان . وإنما جمع لاختلاف الموزونات ، وتعدد الوزن ، وكثرة الموزون ، أو جمع على أن كل جزء منه بمنزلة ميزان والله أعلم .

مناسبة السورة لما قبلها :

إن آخر السابقة كان فى وصف يوم القيامة ، وهذه السورة الكريمة ، بأسرها فى وصف ذلك اليوم وما يكون فيه من الأهوال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١)

معانى المفــردات

(القارعة) من أسماء القيامة كالحاقة والواقعة والصاخة والطامة والغاشية ، وسميت بذلك لأنها تقرع القلوب بهولها .

﴿ كالفراش ﴾ : هو طير كالبعوض يتهافت فى النار .

﴿ المبثوث ﴾ : المتفرق المنتشر .

﴿ كالعهن ﴾ : كالصوف المصبوغ بألوان مختلفة .

﴿ المنفوش ﴾ : المفرق بالأصابع ونحوها .

﴿ ثقلت موازينه ﴾ : رجحت مقادير حسناته .

﴿ خفت موازينه ﴾ : رجحت مقادير سيئاته .

﴿ فأمه هاوية ﴾ : فمأواه جهنم يهوى فيها .

﴿ ماهية ﴾ : ما هى - والهاء للسكت .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ القارعة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ﴾ .

أى : القيامة وأى شىء هى القيامة ؟ كلمة استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها ، كما قال تعالى : ﴿ الحاقة ، ما الحاقة ، وما أدراك ما الحاقة ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ أى : أى شىء وأعلمك ما شأن القارعة فى هولها على النفوس ؟

قال أبو السعود : سميت القيامة قارعة لأنها تقرع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزاع .

وبعد هذا التخويف والتشويق إلى معرفة شىء من أحوالها جاء التوضيح والبيان بقوله تعالى :

﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ أى ذلك يحدث عندما يخرج الناس من قبورهم فزعين ، كأنهم فراش متفرق منتشر هنا وهناك ، يموج بعضهم فى بعض من شدة الفزع والحيرة . وفحو الآية قوله تعالى : ﴿ يوم يدع الداع إلى شىء نكر ، خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾[2] .

(١) سورة الحاقة الآيات : من ١ إلى ٣

(٢) سورة القمر الآيات : من ٦ إلى ٨

قال الرازى : شبه تعالى الخلق وقت البعث ههنا بالفراش المبثوث ، وفى آية أخرى بالجراد المنتشر ، أما وجه التشبيه بالفراش ، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه إلى جهة واحدة ، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى ، فدل على أنهم إذا بعثوا فزعوا : وأما وجه التشبيه بالجراد فهو فى الكثرة ، يصبحون كغوغاء الجراد يركب بعضه بعضا فكذلك الناس إذا بُعثوا يموج بعضهم فى بعض كالجراد والفراش كقوله تعالى : ﴿ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونُفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً ﴾[١] .

وقوله تعالى : ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ هذا هو الوصف الثانى من صفات ذلك اليوم المهول ، أى : وتصير الجبال كالصوف المنتثر المتطاير ، تتفرق أجزاؤها وتتطاير فى الجو ، حتى تكون كالصوف المتطاير عند الندف قال الصاوى : وإنما جمع بين حال الناس وحال الجبال ، تنبيهاً على أن تلك القارعة أثرت فى الجبال العظيمة الصلبة ، حتى تصير كالصوف المندوف مع كونها غيرمكلفة ، فكيف حال الإنسان الضعيف المقصود بالتكليف والحساب !!

ثم ذكر تعالى حالة الناس فى ذلك اليوم ، وإنقسامهم إلى شقى وسعيد فقال تعالى : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ أى : رجحت موازين حسناته ، وزادت حسناته على سيئاته ﴿ فهو فى عيشة راضية ﴾ أى : فهو فى عيش هنيء رغيد سعيد فى جنان الخلد والنعيم . ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أى : نقصت حسناته عن سيئاته ، أو لم يكن له حسنات يعتد بها . ﴿ فأمه هاوية ﴾ أى : فمسكنه ومصيره نار جهنم يهوى فى قعرها ، سماها أماً لأن الأم مأوى الولد ومفزعه ، فنار جهنم تؤوى هؤلاء المجرمين كما يأوى الأولاد إلى أمهم ، وتضمهم إليها كما تضم الأم الأولاد . قال أبو السعود : (هاوية) اسم من أسماء النار ، سميت بها لغاية عمقها وبعد مهواها قال ابن زيد وقال قتادة : معنى (فأمه هاوية) فمصيره إلى النار وقال عكرمة : لأنه يهوى فيها على أم رأسه .

قال القرطبى : والمعنى متقارب . .

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما هيه ﴾ الأصل « ما هى » فدخلت الهاء للسكت . استفهام للتفخيم والتهويل أى : وما أعلمك ما الهاوية ؟ ثم فسرها بقوله تعالى : ﴿ نار حامية ﴾ أى : هى نار شديدة الحرارة ، قد خرجت عن الحد المعهود ، فإن حرارة أى نار إذا سعرت وألقى فيها أعظم الوقود لا تعادل حرارة جهنم ، أجارنا الله منها بفضله وكرمه .

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءاً من حر جهنم » قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله . قال « فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزء ا كلها مثل حَرِّها »[٢] . وروى عن أبى بكر الصديق أنه قال : إنما ثقل ميزان من ثقل ميزانه لأنه وضع فيه الحق ، وحق لميزان يكون فيه الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خف ميزان من خف ميزانه لأنه وضع فيه الباطل ، وحق لميزان يكون فيه الباطل أن يكون خفيفاً .

---

(١) سورة الكهف الآية : ٩٩

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٣/٤

تفسير سورة
التكاثر

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

قال :

السورة : مكيّة .

وآياتها : ثمان .

وكلماتها : ثمان وعشرون .

وحروفها : مائة وعشرون .

فواصل آياتها : (ثمر) .

سميت سورة التكاثر لمفتتحها .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : ذُم المقبلين على الدنيا والمفتخرين بالمال ، وبيان أن عاقبة الكل الموت والزوال وأن نصيب الغافلين العقوبة والنكال ، وأعد للمتمولين المذلة والسؤال ، والحساب والوبال فى قوله : ﴿ لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ .

المتشابهات :

(كلا) فى المواضع الثلاثة فيه قولان : أحدهما أن معناه ، الردع والزجر عن التكاثر ، فيحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده ، والثانى يجرى مجرى القسم ومعناه : حقاً

قوله تعالى : ﴿ سوف تعلمون ﴾ وبعده ﴿ سوف تعلمون ﴾ تكرار للتأكيد عند بعضهم وعند بعضهم : هما فى وقتين فى القبر والقيامة . فلا يكون تكراراً .

وقوله : ﴿ لترون الجحيم ثم لترونها ﴾ تأكيد أيضاً . وقيل : الأول قبل الدخول . والثانى بعد الدخول ، ولهذا قال بعده : ﴿ عين اليقين ﴾ أى : عياناً ، لستم عنها بغائبين وقيل : الأول من رؤية العين ، والثانى من رؤية القلب .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه فى الأول وصف القيامة ، وبعض أهوالها وجزاء الأخيار والأشرار ، وأن فى هذه ذكر الجحيم وهى الهاوية التى ذُكرت فى السورة السابقة ، وذكر السؤال ، عما قدم المرء من الأعمال فى الحياة الدنيا ، وهنا بعض أحوال الآخرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣)
ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ
الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

معانى المفـردات

﴿ ألهاكم ﴾ : شغلكم عن طاعة ربكم .

﴿ التكاثر ﴾ : التباهى بكثرة متاع الدنيا .

﴿ زرتم المقابر ﴾ : متم ودفنتم فى القبور .

﴿ لو تعلمون علم اليقين ﴾ : لو تعلمون مآلكم علماً يقيناً لما ألهاكم من التكاثر .

﴿ لترون الجحيم ﴾ : والله لترون الجحيم .

﴿ عين اليقين ﴾ : نفس اليقين وهو المشاهدة .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ﴾ .

أخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة حتى حضرهم الموت فزاروا المقابر ، ولم يفيقوا من رقدة إلهاء التكاثر .

قال ابن القيم رحمه الله : ولم يعين سبحانه المتكاثر به ، بل ترك ذكره ، إما لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشىء ، لا المتكاثر به كما يقال ؛ شغلك اللعب واللهو ، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به ، وإما إرادة الإطلاق ، وهو كل ما تكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا ، من مال أو جاه أو عبيد ، أو إماء أو أبناء

أوغراس أوعلم لا يبتغى به وجه الله ، أوعمل لا يقربه إلى الله . فكل هذا من التكاثر الملهى عن الله والدار الآخرة .

وفى صحيح مسلم من حديث قتادة عن مطرف عن أبيه قال : أتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقرأ : (ألهاكم التكاثر) قال : « يقول ابن آدم ! مالى . مالى (قال) وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت . أولبست فأبليت ، أوتصدقت فأمضيت »[1]

وفى رواية أخرى « وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس »[2] وروى البخارى عن ابن شهاب أخبرنى أنس بن مالك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لو أن لابن آدم وادياً من ذهب أحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب »[3] .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفى الآخرة عذاب شديد ، ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾[4] وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة قال سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « سيصيب أمتى داء الأمم ، قالوا : يا رسول الله وما داء الأمم ؟ قال : الأشر والبطر والتكاثر والتناجش فى الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون التغنى »

قوله تعالى : ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أى : حتى أتاكم الموت فصرتم فى المقابر زواراً ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار . يقال لمن مات : قد زار قبره .

وقيل : هذا وعيد . أى : اشتغلتم بمفاخرة الدنيا حتى تزوروا القبور فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله ـ عز وجل ـ قال ابن القيم فى هذه الآية :

توعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً ، إذا عاين تكاثره قد ذهب هباء منثوراً ، وعلم أن دنياه التى كاثر بها إنما كانت خدعاً وغروراً ، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له ، وخسر هنالك تكاثره ، كما خسره أمثاله وبداله من الله ما لم يكن فى حسابه ، وصار تكاثره الذى شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه ، فعذب بتكاثره فى دنياه ، ثم عذب به فى البرزخ ، ثم يعذب به يوم القيامة . فكان أشقى الناس بتكاثره إذ أفاد منه العطب ، دون الغنيمة والسلامة فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين ، ولم يحظ من علوه به فى الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين .

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ٢٩٥٨/٤
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ٢٩٥٩/٤
(٣) صحيح البخارى ـ كتاب الرقائق ١١٥/٨ وسنن الترمذى ـ أبواب الزهد ٣٨٩/٣ رقم ٢٤٤
(٤) سورة الحديد الآية : ٢٠

فياله تكاثرا ما أثقله وزراً ، وما أجلبه من غنى جالباً لكلِ فقر ، وخيراً توصل به إلى كل شر ، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه : ﴿ يا ليتنى قدمت لحياتى ﴾[١] وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتى . ويقول : ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت فقيل له : كلا إنها كلمة هو قائلها تلك كلمته يقولها ، فلا يعول عليها ورجعته يسألها ، فلا يجاب إليها .

أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها ، لا حقيقة تحتها ، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً ، لو أجيب وإنما ذلك شىء يقوله بلسانه ، وإنه لو رد لعاد لما نهى عنه ، وإنه من الكاذبين .

أخى :

تزود من التقوى فإنك لا تدرى ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من عليل عاش حيناً من الدهر
وكم من صبى يرتجى طول عمره ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى
وكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد قبضت أرواحهم ليلة القدر

عذاب القبر ونعيمه

روى الإمام أحمد وابن داود عن البراء بن عازب ـ رضى الله عنه ـ قال : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولم يلحد ، فجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجلسنا حوله كأنما على رؤوسنا الطير ، فجعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرفع بصره وينظر إلى السماء ويخفض بصره وينظر إلى القبر ثم قال « أعوذ بالله من عذاب القبر » قالها مراراً ثم قال : « إن العبد إذا كان فى إقبال من الآخرة وانقطاع عن الدنيا جاءه ملك الموت بجلس عند رأسه فيقول : أخرجى أيتها النفس المطمئنة إلى مغفرة من الله ورضوانه فتخرج نفسه تسيل كما يسيل قطر السقاء ، ثم تنزل ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس ، معهم أكفان من أكفان الجنة وحنوط من حنوطها فيجلسون منه مد البصر فإذا قبضها الملك لم يدعوها فى يده طرفة عين . قال : فذلك قول الله تعالى : ﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾[٢] ، قال : فتخرج نفسه كأطيب ريح وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها فلا يأتون على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح فيقال فلان بأحسن أسمائه حتى ينتهوا به إلى أبواب السماء الدنيا فيفتح له ويشيعه من كل سماء مقربوها حتى ينتهى إلى السماء السابعة فيقال اكتبوا له كتابه فى عليين وما أدراك ما عليون كتاب مرقوم يشهده المقربون . . فيكتب

---

(١) سورة الفجر الآية : ٢٤
(٢) سورة الانعام الآية : ٦١

كتابه فى عليين ثم يقال ردوه إلى الأرض فإنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال : فيرد إلى الأرض وتعاد روحه فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينهرانه ويجلسانه فيقولان من ربك وما دينك فيقول : ربى الله ودينى الإسلام ، فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هو رسول الله ، فيقولون ما بيديه ؟ فيقول جاء بالبينات من ربنا فآمنت به وصدقت ، قال : وذلك قول الله تعالى ﴿ **يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة** ﴾[(١)] قال : فينادى مناد من السماء : صدق عبدى فألبسوه من الجنة ، وأروه منزلته منها ، فيفسخ له مد البصر ثم قال : ويمثل له عمله فى صورة رجل حسن الوجه ، طيب الريح ، حسن الثياب فيقول : أبشر بما أعد الله لك ، أبشر برضوان الله وجنات النعيم . فيقول : بشرك الله بخير من أنت فوجهك الذى جاء بالخير ، فيقول : هذا يومك الذى كنت توعد أنا عملك الصالح فوالله ما علمتك إلا كنت سريعاً فى طاعة الله ، بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً ، ثم يفتح له باب الجنة وباب من النار فيقال : هذا كان منزلك لو عصيت الله ! بدلك الله به هذا فإذا رأى ما فى الجنة قال : رب عجل قيام الساعة كى أرجع إلى أهلى ومالى . قال فإن كان فاجراً وكان فى إقبال من الآخرة . وانقطاع عن الدنيا جاءه ملك الموت فجلس عند رأسه فقال أخرجى أيتها النفس الخبيثة أخرجى بسخط الله وغضبه فتنزل ملائكة سود الوجوه معهم مسوح من النار فإذا قبضها الملك قاموا فلم يدعوها فى يده طرفة عين ، تتفرق فيستخرجها وقد تقطع منها العروق والعصب كالسفود الكثير الشعب فى الصوف المبلول . فتأخذ من الملك فتخرج كأنتن جيفة وجدت فلا تمر على جند فيما بين السماء والأرض إلا قالوا ما هذه الروح الخبيثة فيقولون هذا فلان بأسوأ أسمائه حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا فلا تفتح لها فيقولون ردوها إلى الأرض إنى وعدتهم أنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى . فيرمى به من السماء وتلا هذه الآية ﴿ **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** ﴾[(٢)] . قال : فيعاد فيه الروح ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينهرانه ويجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدرى ، فيقولان : ما تقول فى هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فلا يهتدى لاسمه . فيقال : محمد فيقول : لا أدرى : فيقال له : لا دريت . فيضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويمثل له عمله فى صورة رجل قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بعذاب الله وسخطه ، فيقول من أنت ؟ فوجهك الذى جاء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث فوالله ما علمتك إلا بطيئاً فى طاعة الله سريعاً إلى المعصية ، قال : فيقيض الله له أصم أبكم ومعه مرزبة لو ضرب بها جبل لصار تراباً فيضربه ضربة فيسمعها الخلائق إلا الثقلين ، ثم يقال أفرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار[(٣)] .

---

(١) سورة ابراهيم الآية : ٢٧

(٢) سورة الحج الآية : ٣١

(٣) مسند أحمد ٢٩٥/٤ ومسند أبى داود - كتاب الجنائز ٥٤٦/٣ رقم ٣٢١٢

وأخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار ، فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة »(١) .

وقال هانىء مولى عثمان بن عفان قال : كان عثمان ـ رضى الله عنه ـ إذا وقف على قبر يبكى حتى تبتل لحيته فقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتذكر القبر فتبكى فقال : إنى سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « إن القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه ، قال : وسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه » . رواه الترمذى(٢) .

وفى صحيح مسلم ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول قولوا : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات »(٣) .

قوله تعالى : ﴿ **كلَّا سوف تعلمون ، ثُمَّ كلَّا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **كلَّا سوف تعلمون ، ثم كلَّا سوف تعلمون** ﴾ .

(كلا) قال الفراء : أى ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر (سوف تعلمون) أى : سوف تعلمون عاقبة هذا . (ثم كلا سوف تعلمون) هذا وعيد بعد وعيد قاله مجاهد قال ابن عباس : (كلاسوف تعلمون) ما ينزل بكم من العذاب فى القبر ، (ثم كلا سوف تعلمون) فى الآخرة إذا حل بكم العذاب . فالأول فى القبر والثانى فى الآخرة .

وقيل : (كلا سوف تعلمون) إذا نزل بكم الموت وجاءتكم رسلى لنزع أرواحكم . (ثم كلا سوف تعلمون) إذا دخلتم قبوركم وجاءكم منكر ونكير ، وحاط بكم هول السؤال وانقطع منكم الجواب .

قال القرطبى : ويحتمل أن يكون التكرار على وجه التأكيد والتغليظ وهو قول الفراء :

وقال ابن القيم فى تفسير هذه الآية : (كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون) .

قيل : تأكيد لحصول العلم كقوله : (كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون) .

وقيل : ليس تأكيداً ، بل العلم الأول عند المعانية ونزول الموت . والعلم الثانى فى القبر . وهذا قول الحسن ومقاتل ورواه عطاء عن ابن عباس .

ويدل على صحة هذا القول : عدة أوجه .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها رقم ١٨٢٢
(٢) سنن الترمذى ـ أبواب الزهد ٣٧٩/٣ رقم ٢٤١٠ وقال : حسن غريب
(٣) صحيح مسلم ـ كتاب المساجد ٤١٣/١ رقم ٥٩٠

أحدها : أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل . وقد أمكن اعتباره مع فخامة المعنى وجلالته ، وعدم الإخلال بالفصاحة .

الثانى : توسط « ثم » بين العلمين ، وهى مؤذنة بتراخى ما بين المرتبين زماناً وخطراً .

الثالث : أن هذا القول مطابق للواقع . فإن المحتضر يعلم عند المعاينة حقيقة ما كان عليه ، ثم يعلم فى القبر وما بعده ذلك علماً يقينياً ، هو فوق العلم الأول .

الرابع : أن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه وغيره ـ من السلف فهموا من الآية عذاب القبر . قال الترمذى بسنده عن على ـ رضى الله عنه ـ قال : « ما زلنا نشك فى عذاب القبر حتى نزلت ألهاكم التكاثر »[1] قال الواجدى . يعنى أن معنى قوله ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ فى القبر .

الخامس : أن هذا مطابق لما بعده من قوله : ﴿ لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ﴾ فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين . إطلاق الأولى ، وتقييد الثانية بعين اليقين وتقدم الأولى وتراخى الثانية عنها . اهـ .

قوله تعالى : ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ جوابه محذوف ، دل عليه ما تقدم ، أى : لما ألهاكم التكاثر ، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لما فقد منكم علم اليقين ، وهو العلم الذى يصل به صاحبه إلى حد الضروريات التى لا يشك ولا يمارى فى صحتها وثبوتها . ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه شىء عن موجبه ، ولترتب أثره عليه . فإن مجرد العلم بقبح الشىء وسوء عواقبه قد لا يكفى فى تركه . فإذا صار علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد . فإذا صار عين اليقين . كجملة المشاهدات ، كان تخلف موجبه عنه أندر شىء .

قوله تعالى : ﴿ لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ﴾ هذا وعيد آخر . وهو على إضمار القسم ، أى : لترون الجحيم فى الآخرة . ﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أى : مشاهدة وقيل : هو إخبار عن دوام مقامهم فى النار ، أى : هى رؤية دائمة متصلة .

قوله تعالى : ﴿ ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ .

ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد ، والنون الثقيلة ، عن سؤال النعيم فكل أحد يسأل عن نعيمه الذى كان فيه فى الدنيا . هل ناله من حلاله ووجهه أم لا ؟ فإذا تخلص من هذا السؤال ، سئل سؤالاً آخر . هل شكر الله تعالى ، فاستعان به على طاعته أم لا ؟ كما فى جامع الترمذى من حديث عطاء بن أبى رباح عن ابن مسعود عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :

---

(١) سنن الترمذى ـ كتاب تفسير القرآن ٥/٤٤٧ رقم ٣٣٥٥

« لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس : عن عمره : فيما أفناه ؟ وعن شبابه : فيما أبلاه ؟ وعن ماله : من أين أكتسبه ، وفيما أنفقه ؟ وما ذا عمل فيما علم ؟ »(١) .

وفيه أيضاً عن أبى برزة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره : فيما أفناه ؟ وعن علمه : فيما فعل ؟ وعن ماله : من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وعن جسمه فيما أبلاه ؟ وقال : هذا حديث صحيح(٢) .

وفيه أيضاً : من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة - يعنى من النعيم - أن يقال له : ألم نصح جسمك ؟ ونرويك من الماء البارد »(٣) .

وفيه أيضاً : من حديث الزبير بن العوام - رضى الله عنه - قال : « لما نزلت ﴿ لتسئلن يومئذ عن النعيم ﴾ قال الزبير : يا رسول الله : فأى النعيم نسأل عنه ، وإنما هو الأسودان : التمر والماء قال : أما إنه سيكون « وقال هذا حديث حسن »(٤) .

قال ابن القيم : وقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن ذلك سيكون » إما أن يكون المراد به : أن النعيم سيكون ويحدث لكم ، وإما أن يرجع إلى السؤال ، أى : إن السؤال يقع عن ذلك ، وإن كان تمراً وماء ، فإنه من النعيم .

ويدل عليه : قوله - صلى الله عليه وسلم - فى الحديث الصحيح :

وقد أكلوا معه رطبا ولحماً ، وشربوا من الماء البارد - قال « هذا النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة »(٥) فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه .

وأخرج الترمذى من حديث أبى سعيد وأبى هريرة - رضى الله عنهما - قالا : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله - عز وجل - ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ، ومالاً وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس ، وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقى يومك هذا ؟ قال : فيقول : لا . فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى » قال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب(٥) .

وروى أبو الأحوص عن عبد الله عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله تعالى ليعدد على العبد يوم القيامة حتى يعد عليه سألتنى فلانة أن أزوجكها فيسميها باسمها فزوجتكها » .

---

(١) سنن الترمذى - كتاب صفة القيامة ٦١٢/٤ رقم ٢٤١٦
(٢) سنن الترمذى - كتاب صفة القيامة ٦١٢/٤ رقم ٤١٧
(٣) سنن التلامذى - كتاب تفسير القرآن ٤٤٨/٥ رقم ٣٣٥٨
(٤) سنن الترمذى - كتاب تفسير القرآن ٤٤٨/٥ رقم ٣٣٥٦
(٥) مسند أحمد ٣٥١/٣
سنن الترمذى - كتاب صفة القيامة ٩/٤ رقم ٢٤٢٨

وروى مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال « ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة » ؟ قالا : الجوع يا رسول الله . قال : « وأنا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما . قوما » فقاما معه ، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلا . فقال لها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أين فلان » ؟ قالت : يستعذب لنا من الماء ، إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبيه ، ثم قال : الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى . قال : فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال : كلوا من هذه . وأخذ المدية فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ » إياك والحلوب » فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق ، وشربوا ، فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأبى بكر وعمر : « والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم »(١) .

قال ابن القيم رحمه الله : زعم طائفة من المفسرين : أن هذا الخطاب خاص بالكفار ، وأنهم هم المسئولون عن النعيم وذكروا ذلك عن الحسن ومقاتل واختار الواحدى ذلك . وقال : والظاهر يشهد بهذا القول . لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم . والمعنى أيضاً يشهد بهذا القول وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم ، حيث أشركوا بربهم وعبدوا غيره ، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم ، توبيخاً لهم ، هل قاموا بالواجب فيه ، أم ضيعوا حق النعمة ؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم .

قال : وهذا معنى قول مقاتل ، وهو قول الحسن . قال : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار .

قلت : ليس فى اللفظ ولا فى السنة الصحيحة ولا فى أدلة العقل ما يقتضى اختصاص الخطاب بالكفار ، بل ظاهر اللفظ ، وصريح السنة والاعتبار يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بأنه ألهاه التكاثر فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك . ويدل على ذلك : قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند قراءة هذه السورة « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ؟ أو لبست فأبليت . . الحديث » وهو فى صحيح مسلم(٢) . وقائل ذلك قد يكون مسلما وقد يكون كافراً .

ويدل عليه أيضاً الأحاديث التى تقدمت ، وسؤال الصحابة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وفهمهم العموم ، حتى قالوا له : « وأى نعيم نسأل عنه ، وإنما هو الأسودان » فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك .

ويدل عليه أيضاً : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الصحيح : وقد أكلوا معه رطباً ولحماً ،

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الأشربة ٣/١٦١٠ رقم ٢٠٣٨
(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الزهد والرقائق ٤/٢٢٧٣ رقم ٢٩٥٨

وشربوا من الماء البارد ـ قال هذا النعيم الذى تسألون عنه يوم القيامة » والحديث بتمامه فى صحيح مسلم[١] وهذا الحديث صريح فى نعيم الخطاب وأنه غير مختص بالكفار .

وأيضاً : فالواقع يشهد بعدم اختصاصه ، وأن الالهاء بالتكاثر واقع بين المسلمين كثيرا ، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر . وخطاب القرآن عام لمن بلغه ، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرون لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو تناول لمن بعدهم . وهذا معلوم من الدين بالضرورة .

فقوله : ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف . وهم فى الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله .

فإن قيل : فالمؤمنون لم يلههم التكاثر . ولهذا لم يدخلوا فى الوعيد المذكور لمن ألهاه .

قيل : هذا هو الذى أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار ، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم ، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد ، فخصوهم به .

وجواب هذا : أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان ، على طريقة القرآن فى تناول الزم له من حيث هو إنسان كقوله : ﴿ وكان الإنسان كفورا ﴾[٢] ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾[٣] ونظائره كثيرة .

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع والعمل الصالح . وإنما الله سبحانه هو الذى يكمله بذلك ، ويعطيه إياه . وليس له ذلك من نفسه بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم ، والظلم المضاد للعدل وكل عليم وعدل وخير فيه فمن ربه ، لا من نفسه . فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته ، التى هى له من نفسه ، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له ، وجعله مريداً للآخرة مؤثراً لها على التكاثر بالدنيا . فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملته بالتكاثر فى الدنيا ولابد .

أما احتجاجهم بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار فيقال :

الوعيد المذكور مشترك : وهو العلم عند معاينة الآخرة فهذا أمر يحصل لكل أحد ، لم يكن حاصلا له فى الدنيا وليس فى قوله : ﴿ سوف تعلمون ﴾ ما يقتضى دخول النار فضلاً عن التخليد فيها ، وكذلك رؤ ية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها . فإن أهل الموقف يرونها ، ويشاهدونها عياناً . وقد أقسم الرب ـ تبارك وتعالى ـ أن لابد أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم ، وبرهم وفاجرهم .

قال تعالى : ﴿ وإن منكم إلا واردها ، كان على ربك حتماً مقضياً ﴾[٤] .

---

(١) صحيح مسلم ـ كتاب الأشربة ١٦٠٩/٣ رقم ٢٠٣٨
(٢) سورة الاسراء الآية : ٢٧
(٣) سورة العاديات الآية ٤ ، ٦
(٤) سورة مريم الآية : ٧١

فليس فى جملة هذه السورة ما ينفى عموم خطابها . وأما ما ذكروه عن الحسن : لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار . فباطل قطعاً إما عليه وإمامته . والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده وبالله التوفيق .

ثم قال ابن القيم : ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها . وما تضمنته من تحذير الإنسان عن التكاثر الملهى ، وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار ، ولا يليق ذلك بها . ويكفى فى ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها والله أعلم .

ثم يقول : وتأمل ما فى هذا العتاب الراجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها ، إلى أن زار القبور ، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء ، بل أرقد التكاثر قلبه فلم يستفق منه إلا وهو فى عسكر الأموات وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتعين لك أن العموم مقصود .

فلله ما أعظمها من سورة ، وأجلها وأعظمها فائدة ، وأبلغها موعظة وتحذيرا ، وأشدها ترغيباً فى الآخرة وتزهيداً فى الدنيا على غاية اختصارها ، وجزالة ألفاظها وحسن نظمها ، فتبارك من تكلم بها حقاً وبلغها رسوله عنه وحياً ا هـ .

تفسير سورة العصر

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : أربع عشرة .

وحروفها ثمان وستون .

فواصل آياتها : على الراء .

وسميت سورة العصر لمفتتحها .

مقصود السورة :

بيان خسران الكفار والفجار ، وذكر سعادة المؤمنين الأبرار ، وشرح حال المسلم الشكور الصبار ، فى قوله : ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ كرر لاختلاف المفعولين ، وهما (بالحق) و (بالصبر) .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى السورة السابقة أنهم اشتغلوا بالتفاخر والتكاثر وبكل ما من شأنه أن يلهى عن طاعة الله ، وذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار ، وموقعه له فى الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شرور نفسه ، فكان هذا تعليل لما سلف .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

معانى المفـردات

﴿ العصر ﴾ الدهر .

﴿ الإنسان ﴾ هو هذا النوع من المخلوقات .

﴿ خسر ﴾ الخسر والخسران النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ما ينغمس فيه الإنسان من الآفات المهلكة .

﴿ الحق ﴾هو ما تقرر من حقيقة ثابتة أرشد إليها دليل قاطع ، أو عيان ومشاهدة أو شريعة صحيحة جاء بها نبي معصوم .

﴿ الصبر ﴾ قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة فى العمل الطيب وتهون عليها احتمال المكروه فى سبيل الوصول إلى الأغراض الشريفة .

﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ التواصى بالصبر : أن يوصى بعضهم بعضاً به ويحثه ولا يكون ذلك نافعاً مقبولاً إلا إذا كمل المرء نفسه به .

التفســـير

قوله تعالى : ﴿ والعصر ﴾ .

أكثر المفسرين على أنه الدهر وهذا هو الراجح وتسمية الدهر عصراً أمر معروف فى لغة العرب .

فأقسم سبحانه وتعالى بالعصر لمكان العبرة والآية فيه . فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام وتعاقبهما واعتدالهما تارة ، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة ، واختلافهما فى الضوء ، والظلام ، والحر ، والبرد ، وانتشار الحيوان ، وسكونه ، وانقسام العصر إلى القرون ، والسنين ، والأشهر ، والأيام ، والساعة وما دونها . آية من آيات الرب ـ تعالى ـ وبرهان من براهين قدرته وحكمته . قال تعالى : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴾[٢] .

فأقسم سبحانه بالعصر الذى هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها ، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان ، والفاعلين وأفعالهم على المعاد وأن قدرته كما لم تقتصر عن المبدأ ، لم تقتصر عن المعاد وأن حكمه التى اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم ، وجعلها قسمين خيراً وشراً تأبى أن يسوى بينهم ، وأن لا يجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين ،

(١) سورة الاسراء الآية : ١٢

(٢) سورة الفرقان الآيتان : ٦١ ، ٦٢

بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر إلا من رحمة الله ، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح فى نفسه ، وأمر غيره به . (قاله ابن القيم فى البيان .) .

قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ **إن الإنسان لفى خسر** ﴾ هذا جواب القسم والمعنى إن الإنسان فى خسران ، لأنه يفضل العاجلة على الآجلة وتغلب عليه الأهواء والشهوات .

وقوله تعالى : ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ استثنى ـ سبحانه ـ من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم .

قال البخارى بسنده : لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحداً منهم يختلف فى أن الإيمان قول وعمل ، ويزيد وينقص[1] .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية بسنده من طريق عمرو بن عثمان الرقى قال : قيل لابن عيينه : إن قوماً يقولون الإيمان كلام فقال : كان هذا قبل أن تنزل الأحكام ، فأمر الناس أن يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا دماءهم وأموالهم . فلما علم الله صدقهم أمرهم بالصلاة ففعلوا ولو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار . فذكر الأركان إلى أن قال : فلما علم الله ما تتابع عليهم من الفرائض وقبولهم قال سبحانه ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾[2] الآية . فمن ترك شيئاً من ذلك كسلاً أو مجوناً أدبناه عليه وكان ناقص الإيمان ، ومن تركها جاحداً كان كافراً . (انتهى ملخصاً (من كتاب فتح البارى . كتاب الايمان) .

قوله تعالى : ﴿ **وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ .

أى : أوصى بعضهم بعضاً بالحق ، وهو الخير كله ، من الإيمان والتصديق وعبادة الرحمن ﴿ **وتواصوا بالصبر** ﴾ أى : وتواصوا بالصبر على الشدائد والمصائب ، وعلى فعل الطاعات وترك المحرمات ـ حكم تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهى : الإيمان ، والعمل الصالح والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، فإن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا كمَّل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح ، وكمَّل غيره بالنصح والإرشاد ، فيكون قد جمع بين حق الله ، وحق العباد ، وهذا هو السر فى تخصيص هذه الأمور الأربعة .

فهذه السورة الكريمة على غاية اختصارها لها شأن عظيم حتى قال الشافعى ـ رحمه الله ـ : لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم .

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب الايمان ١٠/١
(٢) سورة المائدة الآية : ٣

تفسير سورة الهمزة

مقدمة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

وعدد آياتها : تسع .

وكلماتها : ثلاث وثلاثون .

وحروفها : مائة وثلاثون .

فواصل آياتها : على الهاء .

سميت سورة الهمزة ، لمفتتحها ، وسورة الحطمة ، لذكرها فيها .

مقصود السورة :

عقوبة العياب المغتاب ، وذم جمع الدنيا ومنعه وبيان صعوبة العقوبة فى قوله : ﴿ فى عمد ممددة ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

إنه سبحانه لما ذكر فى السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان منغمسون فى الضلال إلا من عصم الله ـ ذكر هنا بعض صفات أهل الضلال .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ
أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ
ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ
مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

معانى المفـــردات

﴿ ويل ﴾ أى : خزى وعذاب ، وهو لفظ يستعمل فى الذم والتقبيح .

﴿ همزة لمزة ﴾ والهمزة اللمزة : الذى يطعن فى أعراض الناس ويظهر عيوبهم ويحقر أعمالهم ، تلذذاً بالحط منهم وترفعاً عنهم ، وأصل الهمز : الكسر يقال همز كذا : أى كسره وأصل اللمز الطعن ، يقال : لمزة بالرمح : أى : طعنه ثم شاع استعمالها فيما ذكرنا .

﴿ عدده ﴾ : أى : عده مرة بعد أخرى شغفاً به .

﴿ أخلده ﴾ أى : ضمن له الخلود فى الدنيا .

﴿ لينبذن ﴾ : النبذ : الطرح مع الإهانة والتحقير .

﴿ الحطمة ﴾ : سميت بذلك لأنها تحطم العظام وتأكل اللحوم حتى تهجم على القلوب .

﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ أى : تعلو أوساط القلوب وتغشاها .

﴿ مؤصدة ﴾ : أى : مطبقة من أوصدت الباب : أى : أغلقته .

﴿ والعمد ﴾ : واحدها عمود .

﴿ ممددة ﴾ أى : مطولة من أول الباب إلى آخره .

التفســير

قوله تعالى : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ أى : عذاب شديد وهلاك ودمار ، لكل من يعيب الناس ويغتابهم ويطعن فى أعراضهم ، أو يلمزهم سراً بعينه أو حاجبه قال الطبرى : اللمز باليد والعين واللسان والإشارة ، والهمز لا يكون إلا باللسان . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾[1] أى لا يعب بعضكم بعضاً .

وفى الحديث الشريف « أتدرون ما الغيبة ؟ ذكرك أخاك بما يكره ، فإن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته »[2] .

---

(١) سورة الحجرات الآية : ١١

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب البر والصلة والآداب ٢٠٠١/٤ رقم ٢٥٨٩ وسنن أبى داود ـ كتاب الأدب ١٩١/٥ رقم ٤٨٧٤ وسنن الترمذى ـ كتاب البر باب ما جاء فى الغيبة ٢٢٠/٣ رقم ٩ ح ١

وتكون بالكتابَة والإشارة باليد والعين ، والهمزة واللمزة من هذين الجنسين ، ولا ريب أنها مغضبة لعلام الغيوب ، مذهبة للحسنات ، مسودة للقلوب وهى من أعظم الآثام ، لأنها لا تغفر الا بغفران من قيل فيه الكلام . والكلمة منها لو مزجت بماء البحر لأنتنته لنتنها .

من عذابهم خمش الوجوه بأظفار كالنحاس ، قال جبريل « هؤلاء الذين يغتابون الناس » وخطابهم باستقذار أكل لحوم الميتين ، يدل على ورود الجزاء من جنس عمل العاملين . وما النار فى اليابس القديد ، بأسرع من الغيبة فى حسنات العبيد .

أخرج الترمذى عن ابن عمر قال : صعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المنبر فنادى بصوت رفيع فقال : يا معشر من قد أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله[1] .

ونظر ابن عمر يوماً إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

وقال جابر بن عبد الله الأنصارى « مثل من صار مغتاباً ، كمن نصب منجنيقاً ، يرمى حسناته به شرقاً وغرباً » فالموفق من احترز من مكايد الشيطان ، وكف لسانه وسمعه عن غيبة الإخوان ، ويصده عن الناس ما يراه من عيب نفسه ، وليشتغل بما يعنيه قبل حلول رمسه .

وللشافعى رضى الله عنه :

إذا شئت أن تحيا سلِماً من الردى ودينك موفور وعرضك صِين
فلا ينطقن منك اللسان بسوءة فكلك سوءات وللناس ألسن
وعينك إن أبدت إليك مساوئاً لقوم ، فقل : يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ودافع ، ولكن بالتى هى أحسن

قوله تعالى : ﴿ **الذى جمع مالاً وعدده** ﴾ أى : إن الذى دعاه للحط من أقدار الناس هو جمعه للمال وتعديده مرة بعد أخرى ، شغفاً به وتلذذاً بإحصائه ، لأنه يرى أن لا عز إلا به ، ولا شرف بعده ، فهو كلما نظر إلى كثرة ما عنده ظن أنه بذلك قد ارتفعت مكانته ، وهزأ بكل ذى فضل ومزية دونه ، ثم هو لا يخشى أن تصيبه قارعة بهمزه ولمزه وتمزيقه أعراض الناس لأن غروره أنساه الموت ، وأعمى بصيرته عن النظر فى ماله والتأمل فى أحواله .

---

(١) سنن الترمذى- كتاب البر والصلة ٣٧٨/٤ رقم ٢٠٣٢

قال محمد بن كعب فى هذه الآية : ﴿ **الذى جمع مالاً وعدده** ﴾ ألهاه ماله بالنهار هذا إلى هذا فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة .

قال أبو حاتم محمد بن حبان البستى رحمه الله : الواجب على العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه ، ولا سبيل إلى إقامة مروءته إلا باليسار من المال ، فمن رزق ذلك وضن بإنفاقه فى إقامة مروءته فهو الذى خسر الدنيا والآخرة ، ولا آمن أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريهاً ، وتودعه قبراً وحيداً ، ثم يرث المال بعد من يأكله ولا يحمده وينفقه ولا يشكره ، فأى ندامة تشبه هذه ؟ وأى حسرة تزيد عليها ؟

يا جامع المال فى الدنيا لوارثه هل أنت بالمال قبل الموت منتفع ؟
قدم لنفسك قبل الموت فى مَهَل فإن حظك بعد الموت منقطع

قوله تعالى : ﴿ **أيحسب أن ماله أخلده** ﴾ : أى : يظن هذا الهماز العياب أن ما عنده من المال قد ضمن له الخلود فى الدنيا ، وأعطاه الأمان من الموت ، فهو لذلك يعمل عمل من يظن أنه باق حيا أبد الدهر ولا يعود إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سيء الأعمال .

يا جامع المال ، كم تضن به تطمع بالله فى الخلود معهْ ؟
هل حمل المال ميت معه ؟ أما تراه لغيره جمعهْ ؟

قوله تعالى :

﴿ **كلا لينبذن فى الحطمة** ﴾ أى : ليس الأمر كما زعم ولا كما حسب . ﴿ **لينبذن فى الحطمة** ﴾ أى : ليلقين هذا الذى جمع مالاً فعدده فى الحطمة وهى اسم طبقة من أسماء النار تحطم من فيها .

ونحو الآية قوله تعالى : ﴿ **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباهم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** ﴾ [(١)] .

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ما من أحد لا يؤدى زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق به عنقه ، ثم قرأ علينا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مصداقه من كتاب الله : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ـ الآية** ﴾[(٢)] (رواه النسائى باسناد صحيح) (وصححه ابن خزيمة)[(٣)] .

---

(١) سورة التوبة الآيتان : ٣٤ ، ٣٥
(٢) سورة آل عمران الآية : ١٨٠
(٣) سنن النسائى ـ كتاب الزكاة ٨/٥ باب التغليظ فى حبس الزكاة وابن خزيمة فى صحيحه ١١ رقم ٢٢٥٦

وأخرج البزار . . وقال : إسناده حسن . وصححه ابن خزيمة من حديث ثوبان بلفظ « من ترك بعده كنزاً مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يتبعه فيقول : من أنت ؟ فيقول : « أنا كنزك الذى خلفت - فلا يزال يتبعه حتى يلقمه يده فيقضمها ثم يتبعه سائر جسده » [١].

(والزبيبتان : النكتتان السوداوان فوق عينيه) وقال على - رضى الله عنه - : « إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بقدر الذى يسع فقراءهم ولن يُجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا الا بما يصنع أغنياؤهم ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليماً » رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ وما أدراك ما الحطمة ﴾ على التعظيم من شأنها والتفخيم لأمرها : ثم فسرها ما هى : بقوله : ﴿ نار الله الموقدة ﴾ أى : التى أوقد عليها ألف عام وألف عام وألف عام ، فهى غير خامدة أعدها الله للعصاة .

وقوله تعالى : ﴿ التى تطلع على الأفئدة ﴾ أى : التى يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب فتحرقها قال القرطبى : وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه فإنهم فى حال من يموت وهم لا يموتون كما قال تعالى : ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾[٣] فهم إذاً أحياء فى معنى الأموات .

وقوله : ﴿ فى عمد ممددة ﴾ أى : وهم موثوقون فى سلاسل وأغلال ، تشد بها أيديهم وأرجلهم بعد إطباق جهنم عليهم ، فقد يئسوا من الخروج بإطباق الأبواب عليهم ، وتمدد العمد إيذانا بالخلود إلى غير نهاية .

نسأل الله أن يحفظنا من غضبه ، ويجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة بمنه وكرمه .

---

(١) أخرجه البزار فى كشف الأستار عن زوائد البزار ظ/٤١٨ رقم ٨٨٢ وابن خزيمة فى صحيحه ١١/٤ رقم ٥٥
(٢) مجمع الزوائد - كتاب الزكاة ٦٢/٣
(٣) سورة طه الآية : ٧٤

تفسير سورة الفيل

مقدمة :

قال صاحبُ البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : ثلاث وتسعون .

فواصل آياتها : على اللام .

سميت سورة الفيل . لقوله : (بأصحاب الفيل) .

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : بيان جزاء الأجانب ، ومكرهم ورد كيدهم فى نحرهم ، وتسليط أنواع العقوبة على العصاة والمجرمين . وسوء عاقبتهم بعد حين فى قوله : ﴿ **فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه بين فى السورة السابقة أن المال لا يغنى من الله شيئاً ، وهنا أقام الدليل على ذلك بقصص أصحاب الفيل .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾
وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ
كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

معانى المفـــردات

الكيد : إرادة وقوع ضر بغيرك على وجه الخفاء .

والتضليل : التضييع والابذال .

الأبابيل : الجماعات .

السجيل : الطين الذى تحجر .

والعصف : ورق الزرع أى : الزرع الذى يبقى بعد الحصاد ويعصفه الرياح لتأكله الماشية أكلت الدواب بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها .

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** ﴾ .

حادث الفيل معروف متواتر لدى العرب ، حتى إنهم جعلوه مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث ، فيقولون : ولد عام الفيل . وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك .

وخلاصة ما أجمع عليه رواتهم ـ أن قائداً حبشياً ـ واسمه أبرهة الأشرم ـ ممن كانوا قد غلبوا على اليمن ، بنى كنيسة بصنعاء وأراد أن يصرف : إليها الحجيج ، فتوجه بجيش جرار إلى مكة ، واستصحب معه فيلا أو فيلة كثيرة زيادة فى الإرهاب والتخويف ولم يزل سائراً يغلب من يلاقيه ، حتى وصل إلى « المغُمَّس » وهو موضع بالقرب من مكة ، ثم أرسل إلى أهل مكة يخبرهم أنه لم يأت لحربهم ، وإنما جاء لهدم البيت ففزعوا منه ، وانطلقوا إلى شعف الجبال ينظرون ما هو فاعل .

قال تعالى : ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل** ﴾ أى : ألم تعلم الحال العجيبة والكيفية الهائلة الدالة على عظم قدرة الله ـ تعالى ـ وكمال علمه وحكمته ، فيما فعل بأصحاب الفيل الذين قصدوا هدم البيت الحرام ، فتلك حال قد جاءت على غير ما يعرف من الأسباب والعلل ، إذ لم يعهد أن يجىء طير فى جهة فيقصد قوماً دون قوم ، وهم معهم فى جهة واحدة ، فذلك أمارة أنه من صنع حكيم مدبر بعثه لإنقاذ مقصد معين .

وإنما عبر عن العلم بالرؤية ، للإيماء ، إلى أن الخبر بهذا القصص متواتر مستفيض ، فالعلم به مساو فى قوة الثبوت مع الوضوح ـ للعلم الناشىء عن الرؤية والمشاهدة .

ثم بين سبحانه الحال التى وقع عليها فعله فقال ﴿ **ألم يجعل كيدهم فى تضليل** ﴾أى : إنك لترى ما كان عليه فعل الله بأولئك القوم ، فقد ضيع تدبيرهم ، وخيب سعيهم .

ثم فصل تدبيره فى إبطال كيد أولئك القوم فقال : ﴿ **وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة**

من سجيل ﴾أى : أنه تعالى أرسل عليهم فرقاً من الطير تحمل حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، كأنها رصاصات ثاقبة لا تصل الى أحد إلا قتلته ﴿ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ أى : فجعلهم كورق الشجر الذى عصفت به الريح ، وأكلته الدواب ثم راثته ، فأهلكهم عن بكرة أبيهم .

وهذه القصة تدل على كرامة الله للكعبة ، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم ، فكان يجب عليهم أن يعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

قال صاحب « البحر المحيط » : كان صرف ذلك العدو عام مولده السعيد عليه الصلاة والسلام ، إرهاصاً بنبوته إذ مجيء تلك الطيور على الوصف المنقول ، من خوارق العادات والمعجزات المتقدمة بين أيدى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ ، وقد أهلكهم الله ـ تعالى ـ بأضعف جنوده وهى الطير التى ليست من عادتها أنها تقتل .

(تابع بحث) تاريخ مكة المكرمة

الكعبة بعد إسماعيل (عليه السلام) .

كان العرب يقدسون الكعبة باعتبارها بيت الله الحرام ، وامتد تقديس العرب للكعبة إلى تقديس مكة والمناطق المجاورة لها ، حتى أصبحت الأراضى الممتدة حولها إلى عدة فراسخ حراماً لا يجوز فيها الاعتداء على إنسان أوحيوان .

وامتد تقديس الكعبة إلى بعض الأمم الأخرى كالهند وفارس وكانت الصابئة ، وهم عباد الكواكب من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المقدسة وكان اليهود يحترمون الكعبة ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم . كما أن النصارى من العرب كانوا يحترمونها كذلك .

بعد وفاة إسماعيل ، تولى الإشراف على الكعبة ابنه نابت ، ثم انفرد بالإشراف عليها بعض زعماء جرهم الذين نجحوا فى التغلب على أولاد إسماعيل .

كان أول من تولى شئون الكعبة من جرهم ملكها الحارث بن مضاض ، وكان كل من دخل مكة بتجارة أخذ عشرها . وكان ملك العماليق يدعى السميدع بن هوبر ، يستولى على أعشار التجارة التى تدخل إلى مكة من جهته وثار النزاع بين المكيين . ونشب القتال فترة ثم جنحوا إلى السلم ، واتفقوا على أن يتولى العماليق الإشراف على الكعبة ، وظلوا يتولون ذلك حتى نجح الجرهميون فى استعادة نفوذهم وظلوا يشرفون على الكعبة ثلاثمائة سنة ، وكان آخر ملوكهم الحارث بن مضاض الأصغر ، وزادوا فى بناء البيت ورفعته على ما كان عليه من بناء إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

ونجح أولاد إسماعيل فى أن يلموا شملهم ويوحدوا صفوفهم وتمكنوا من التغلب على قبيلة جرهم ، فلحقوا بجهينة .

ثم طغت قبيلة جرهم وتجبرت ، وتهاونت فى المهمة السامية الموكولة إليهم ، فاستولوا على أموال الكعبة ونذورها وأساءوا إلى الحجاج .

ثم صارت ولاية الكعبة فى ولد اياد بن نزار بن معد ونشبت حروب طاحنة بين مضر واياد ، انتهت بانتصار مضر ورحيل اياد عن مكة إلى العراق .

ظلت خزاعة تتولى شئون الكعبة ، حتى برزت قبيلة قريش وتمكنت أن تجمع شملها وتوحد صفوفها وقريش ولد النضر بن كنانة ، وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصى بن كلاب إلى الحرم بعد أن فى خزاعة ، من القرش وهو التجمع .

وقد اتخذت قريش من الأرض المجاورة للكعبة جرماً أولوه احترامهم واعتبروه مقدساً وحرموا فيه القتال ، وأخذوا على عاتقهم حمايته ، فأمنوا بذلك أذى غيرهم من القبائل ، وكان لمكة مركز خاص لوجود الكعبة بها ، كما رفع شأن قريش بين سائر القبائل العربية ، وعملت قريش على توثيق الصلات الطيبة بين القبائل التى تفد كل عام إلى الكعبة للحج أو للتجارة . وزاد مجد قريش أنها فى مكة . وأن الكعبة فى مكة .

تبابعة اليمن يحاولون هدم الكعبة :

كان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها ، فتوجه إلى مكة وهى طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عسفان وأمج أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن الياس فقالوا له :

ـ أيها الملك ، ألا ندلك على بيت مال وأثر أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟

قال : بلى .

قالوا : بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده . وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده ، فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الحيرين فسألهما عن ذلك فقالا له :

ـ ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتاً لله اتخذه فى الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك إليه ليهلكن من معك جميعاً .

قال :

ـ فماذا تأمراننى أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟

قالا :

تصنع عنده ما يصنع أهله وتطوف به ، وتعظمه ، وتكرمه ، وتحلق رأسك عنده ، وتذل له حتى تخرج من عنده .

قال : فما يمنعكما أنتما من ذلك ؟

قالا :

ـ أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها

حوله ، وبالدماء التى يهريقون عنده ، وهم نجس أهل شرك فعرف نصحهما وصدق حديثهما وعاقب النفر من هذيل فقطع أيديهم وأرجلهم ثم مضى حتى قدم مكة ، فطاف بالبيت ونحر عنده ، وحلق رأسه ، وأقام بمكة ستة أيام ينحر بها للناس ويطعم أهلها . وأرى فى المنام أن يكسو البيت فكساه . وكان تبع أول من كسا البيت .

ثم خرج تبع من مكة متوجها إلى اليمن بمن معه من جنود وبالحبرين ، فلما دنا من اليمن ليدخلها حالت حمير بينه وبين ذلك ، وقالوا لا تدخلها علينا وقد فارقت ديننا .

فدعاهم إلى دينه ، وقال إنه خير من دينكم

فقالوا : فحاكمنا إلى النار

قال : نعم

وكانت باليمن ـ فيما يزعم أهل اليمن ـ نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه : تأكل الظالم ، ولا تضر المظلوم فخرج قومه بأوثانهم وما يتقربون به فى دينهم ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى أعناقهما لتقلد بها حتى قعدوا للنار عند مخرجها الذى تخرج منه فخرجت النار إليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها ، فحضهم من حضرهم من أناس وأمروهم بالصبر لها ، فصبروا حتى غشيتهم ، فأكلت الأوثان وما قربوا معها ، ومن حمل ذلك من رجال حمير ، وخرج الحبران بمصاحفهما فى اعناقهما تعرق جباههما لم تضرهما ، فأجمعت عند ذلك حمير على دينه .

الأحباش والكعبة : (قصة أصحاب الفيل)

دخلت جيوش الحبشة إلى اليمن نحو ٦٠ قبل الهجرة انتقاما من ذى يزن ملك حمير الذى كان يفتك بنصارى نجران من قومه وغلبوه على أمره وأخذوا البلاد ودانت لهم رقاب أهلها وتفرد أبرهة الأشرم بالحكم فيها وبنى فى صنعاء كنيسة فخمة أراد أن يحول إليها حج العرب فسار بجيوشه إلى هدم الكعبة ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه ، وفظعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم ـ يقال له ذو نفر ـ فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخرابه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً ، فلما أراد قتله قال له ذو نفر :

ـ أيها الملك ، لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيراً لك من قتلى .

فتركه ، وحبسه عنده فى وثاق . ومضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمى من قبيلة خثعم : شهران وناهس ومن تبعه من قبائل العرب فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نفيل أسيراً ، فأتى به ، فلما هم بقتله قال له نفيل .

ـ أيها الملك ، لا تقتلنى فإنى دليلك بأرض العرب ، وهاتان يداى لك على قبيلى خثعم شهران وناعس

بالسمع والطاعة ، فخلى سبيله ، وخرج به معه يدله حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب بن مالك ، فى رجال ثقيف ، فقالوا له .

ـ أيها الملك ، إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذى تريد ـ يعنون اللات ـ إنما تريد البيت الذى بمكه ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم وبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهه ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس ، فلما أنزله به مات أبو رغال هنالك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس .

فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة ـ يقال له الأسود بن مقصود ـ على خيل له حتى انتهى إلى مكة ـ فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ، فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة ، وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له إن الملك يقول : إنى لم آت لحربكم ، وإنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دمائكم ، فإن هو لم يرد حربى فأتنى به فلما دخل حناطة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة : فقال له عبد المطلب :

ـ والله مانريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ـ فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمته ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه .

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه ، حتى أتى العسكر فقال أبرهة : وسأله أبرهة عن حاجته فقال عبد المطلب :

ـ حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى

فقال أبرهة :

ـ قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه

قال له عبد المطلب :

ـ إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه

قال : ماكان ليمتنع منى .

قال : أنت وذاك

ورد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصابه له

انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز فى شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من شدة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لا هم إن العبد يم   منع رحله فامنع رحالك
لا يغلبن صليبهم   ومحالهم أبداً محالك
إن كنت تاركهم وقبل   تنا فأمر ما بدالك

ثم بدأ غزو الأحباش للكعبة ، وبرك الفيل الذى كان يمتطيه أبرهة ، وبذل الأحباش جهودهم لينهضوه فكان ينهض ، حتى إذا وجهوه نحو مكة برك مرة أخرى ، وإذا وجهوه نحو الشام أو اليمن أسرع فى العدو .

كانت العناية الإلهية تحيط بالكعبة ، فهى بيت الله الحرام ، وللبيت رب يحميه ، وانتهى الغزو بمأساة رهيبة . فروى ابن هشام

إن الله عز وجل أرسل عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها ، حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه ، أمثال الحمص والعدس ، وتوالت ملايين الأحجار حتى هلك الجيش .

ذكر القرآن الكريم هذا الحديث التاريخى فى سورة الفيل ﴿ **ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول** ﴾ ارتفع شأن قريش وزعيمها عبد المطلب بعد إخفاق هذا الغزو ، وقال العرب : « قاتل الله عنهم ، وكفاهم مؤنة عدوهم »

وقد سجل شعراء العرب هذا الحدث فى قصائد ذكروا فيها ما صنع الله بالجيش الحبشى ، وما رد عن قريش من كيدٍ ، فقال عبد الله بن البعرى :

تنكلوا عن بطن مكة إنها   كانت قديماً لا يرام حريمها
لم تخلق الشِّعرى ليالى حرمت   إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى   ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفاً لم يؤبوا أرضهم   بل لم يعش بعد الإياب مقيمها
دانت بها عاد وجرهم قبلهم   والله من فوق العباد قبلهم

وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى فى شأن الفيل ويذكر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام .

إن آيات ربنا ثاقبات   لا يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل   مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم   بمهاة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمغمس حتى   ظل يحبو كأنه معقور
لازماً حلقة الجران كما قطر   من صخر كبكب محدود
حوله من ملوك كفره أبطال   ملاويث فى الحروب صقور

خلفوه ثم ابدا عـروا جميعا   كلهم عـظم سـاقه مكسـور
كل دين يوم القيامة عند الله   إلا ديـن الحـنـيـفـة بـور

أدت الهزيمة التى لحقت بالأحباش فى مكة إلى نهاية احتلالهم لليمن ، فقد قامت حركة تحرير وطنية تزعمها سيف بن ذى يزن الحميرى ، ونجح سيف بمعاونة الفرس فى إجلاء الأحباش عن اليمن .

أصبح العرب يؤرخون أحداثهم بعام الفيل حتى خلافة عمر بن الخطاب ، كما شهد هذا العام مشرق نور الهداية والحق ، فقد ولد فى هذه السنة محمد ـ ﷺ ـ

الرسول والكعبة

حينما كان الرسول فى الخامسة والثلاثين من عمره ، أشترك فى حادث جليل أثار اهتمام العرب فى الجزيرة العربية وهو إعادة بناء الكعبة .

وكانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة فى أمر الكعبة ، فقد كانت بدون سقف ، منخفضة الارتفاع ، مما جعلها نهبا للصوص ، الذين أقدموا على سرقة بعض كنوز الكعبة التى كان القرشيون يحتفظون بها فى جوفها تعرضت مكة لعدة سيول فى أوقات مختلفة ، حدث أن نزل سيل جارف من الجبال المحيطة بمكة ، فانحدر نحو الكعبة وصدع جدرانها ، وأصبحت قريش مضطرة إلى الاقدام على إصلاح ما أفسدته السيول وقد اشترك سادة قريش ورجالاتها الكبار فى أعمال التجديد ونقل الأحجار بعد ما هدموا الأنقاض الواهية وشرعوا يعيدونها كما كانت .

وبناء رفعه إبراهيم وإسماعيل من قواعده قبل قرون سحيقة لا يوكل أمره لصغار الفعلة ، فلا غرو إذا أقبل عليه الشيوخ وأهل النهى والصدارة ، ومن بينهم محمد ـ ـ وأعمامه

روى البخارى فى صحيحه من حديث جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال : لما بنيت الكعبة ، ذهب النبى ـ ـ والعباس ينقلان الحجارة ، فقال العباسى للنبى ـ ﷺ ـ اجعل إزارك على رقبتك فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء فقال : أرنى إزارى فشده عليه(١)

ولقد كان له ـ ـ أثر كبير فى حل المشكلة التى تسببت عن اختلاف القبائل حول من يستحق أن ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانة ، فقد خضع جميعهم لاقتراحه الذى أبداه حلاً للمشكلة علما منهم بأنه الأمين والمحبوب من الجميع .

روى ابن هشام فى السيرة أن أبا أمية بن المغيرة المخزومى اقترح على المتطاحنين أن يحكّموا فيما شجر بينهم أول داخل من باب الصفا ، وشاء الله أن يكون ذلك محمداً ـ ﷺ ـ فلما رأوه هتفوا : هذا الأمين ، ارتضيناه حكما(٢) .

(١) صحيح البخارى ٥١/٥

(٢) سيرة ابن هشام ١/ ٢٥٤ ومصنف عبدالرزاق ١٠٠/٥ والحاكم فى المستدرك ١/ ٤٥٨ والبيهقى فى دلائل النبوة ٥٦/٢ .

وطلب محمد - ﷺ - ثوباً ، فوضع الحجر وسطه ، ثم نادى رؤساء القبائل المتنازعين فأمسكوا جميعا بأطراف الثوب حتى أوصلوا الحجر إلى الكعبة ، فحمله محمد - ﷺ - ثم وضعه فى مكانه العتيد .

وإلى قضية التحكيم يشير قول هبيرة بن دهب المخزومى

تشاجرت الأحياء فى فضل خطة ... جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة ... وأوقد ناراً بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده ... ولم يبق شىء غير سل المهند
رضينا وقلنا : العدل أول طالع ... يجىء من البطحاء من غير موعد
فجاءنا هـذا الأمين محمد ... فقلنا ؛ : رضينا بالأمين محمد
بخير قريش كلها أمسى شيمة ... وفى اليوم مع ما يحدث الله فى غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله ... أعم وأرضى فى العواطف والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا ... له حصة فى رفعها قبضة اليد
فقال : ارفعوا ، حتى إذا ما علت به ... أكفتهم وافى به غير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه ... فأعظم به من رأى هاد ومهتدى
وتلك يد منه علينا عظيمة ... بروح لها هذا الزمان ويغتدى

أعادت قريش الصور والأصنام إلى الكعبة كما كانت ، قال المسعودى :

« كان فى حيطانها صور كثيرة بأنواع من الأصباغ عجيبة : منها صورة إبراهيم الخليل فى يده الأزلام ويقابلها صورة إسماعيل ابنه على فرس يجيز الناس مفيضاً ، والفاروق قائم على وفد الناس ، يقسم فيهم ، وبعد هذه الصور صور كثير أولادهم إلى قصى ابن كلاب وغيرهم . فى نحو من ستين صورة مع كل واحد من تلك الصور إله وصاحبها وكيفية عبادته وما اشتهر من فعله .

وقد ظلت هذه الأصنام قائمة فى الكعبة ، حتى فتح مكة فقام المسلمون بتحطيم هذه الأصنام ، وتطهير الكعبة من الأوثان .

أخرج البخارى بسنده عن عبد الله - رضى الله عنه - قال : دخل النبى - ﷺ - مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، جاء الحق وما يبدىء ، الباطل وما يعيد(١)

وروى أيضاً عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رسول الله - ﷺ - لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة ، فأمر بها فأخرجت ، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما من الأزلام ، فقال النبى - ﷺ - قاتلهم الله أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط فدخل البيت فكبر فى نواحيه ولم يصل فيه »(٢)

(١) صحيح البخارى - كتاب المغازى - باب اين ركن النبى الراية يوم الفتح ٥/ ١١٨ .

(٢) صحيح البخارى - كتاب الحج - باب من كبر فى نواحى الكعبة ٢/ ١٨٤ .

ووقع فى حديث جابر عند أبى سعد وأبى داود « أن النبى - ﷺ - أمر عمر بن الخطاب وهو بالبطحاء أن يأتى الكعبة فيمحوا كل صورة فيها ، فلم يدخلها حتى محيت الصور ، وكان عمر هو الذى أخرجها قال ابن حجر : والذى يظهر أنه محا ماكان من الصور مدهوناً مثلاً وأخرج ما كان مخروطاً وأما حديث أسامة « أن النبى - ﷺ - دخل الكعبة فرأى صورة إبراهيم فدعا بماء فجعل يمحوها » وقد تقدم فهو محمول على أنه بقيت بقيه خفى على من محاها أولاً .

وأخرج الشيخان عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : قال لى النبى - - « ألم ترى أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ قالت فقلت : يارسول الله ، أفلا تردها على قواعد إبراهيم ؟ فقال : لولا حدثان قومك بالكفر لفعلت . قال ابن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله - ﷺ - ما أرى أن رسول الله - ﷺ - ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتمم على قواعد ابراهيم[1] قال العلماء : والمراد بقول الرسول - ﷺ - الآنف ، قرب العهد بالجاهلية وضعف استمكان الإيمان مما يجعل العرب ينفرون من هدم الكعبة وتغيير هيئتها ولو كانت إعادة الكعبة كما بناها إبراهيم فريضة ما تركها رسول الله - ﷺ - ولكن الأمر أخف من أن تثار لأجله شكلان عويصة .

ابن الزبير يعيد بناء الكعبة :

وبقى البيت على هذا البناء إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعا لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع الحصين بن نمير السكونى ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق يقال من النفط الذى رموا به على ابن الزبير

وأراد ابن الزبير أن يعيد بناء الكعبة ، فدار حوار بينه وبين أصحابه ، أيهدم الكعبة ثم يعيد البناء من جديد أم يحاول إصلاحها وترميمها ؟ قال العمرى : فشاور ابن الزبير من حضره فى هدمها ، فهابوا ذلك ، وقالوا : نرى أن يصلح ما وهى منها ولا تهدم .

فقال : لو أن بيت أحدكم احترق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها .

فهدمها حتى أفضى إلى قواعد إبراهيم ، فبنوا على القواعد وتم بناؤها وألصق بابها إلى الأرض ، وعمل لها خلفا أى بابا من ورائها وأدخل الحجر فيها .

وبذل ابن الزبير غاية جهده فى تجميل الكعبة حتى تبدو فى أبهى صورة وأجمل مظهر ، وعدد المسعودى جهود ابن الزبير فقال : وحمل إلى ابن الزبير من صنعاء الفسيفساء التى كان بناها أبرهة الحبشى فى كنيسته التى اتخذها هنالك ، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وشىء منقوش ، قد حشى النقش السندسى وأنواع الألوان من الأصباغ ، فمن رآه ظنه ذهبا .

أحدث ابن الزبير تغييرات فى بناء الكعبة ، فقد زاد فى ارتفاعها تسعة أذرع فأصبح ارتفاعها سبعة

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - كتاب الحج حديث رقم ٨٤٢

وعشرين ذراعاً ، كما جعل للكعبة بابين بعد أن كان لها باب واحد وضرب عليها السور وأدخل فيها الحجر ، وكان أول من كسا الكعبة الديباج وكانت كسوتها المسوح والانطاع وقد كان يطيبها حتى يوجد ريحها من داخل الحرم .

وقد أبرز المسعودى زيادات ابن الزبير فى الكعبة فقال : « وشرع ابن الزبير فى بناء الكعبة ، وشهد عنده سبعون شيخاً من قريش أن قريشاً حين بنت الكعبة عجزت نفقتهم فنقصوا من سعة البيت سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل الذى أسسه هو وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ فبناه ابن الزبير وزاد فيه الأذرع المذكورة ، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين ، وجعل له بابين باباً يدخل منه ، وبابا يخرج منه .

ويقول العمرى : إن الرسول ـ ﷺ ـ كان يريد أن يزيد فى بناءالكعبة ما زاده ابن الزبير ، وذلك لأن خالته عائشة ـ رضى الله عنها ـ حدثته أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : ألم تر أن قومك قصرت بهم النفقة حين بنوا الكعبة فاقتصروا على قواعد إبراهيم ثم قال : لولا حدثان قومك بالجاهلية لهدمتها وجعلت لها خلفا وألصقت بابها بالأرض وأدخلت فيها الحجر فقال ابن الزبير : فليس بنا عجز عن النفقة فبناها على مقتضى حديث عائشة(١)

ولما قتل ابن الزبير ، كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف الثقفى يأمره بإعادة الكعبة على ما كانت عليه فى زمن الرسول ـ ﷺ ـ من بناء قريش فهدم جانب الحجر وأعاده إلى ذلك ، وسد الباب الغربى ورفع الشرقى عن الأرض إلى حده الذى هو عليه الآن ، وكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول : « وددت أنى كنت حمّلت ابن الزبير من بناء الكعبة ما تحمل » .

ثم جدد المتوكل رخام الكعبة فأزرها بفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب وهو على ذلك إلى الآن . وهو مبنى بالحجر الأسود مستطيل البناء على التربيع ، فى ارتفاع خمسة وعشرين ذراعاً .

القرامطة والكعبة

فى أيام المقتدر العباسى ظهرت فى العراق طائفة القرامطة ، وهم قوم ينسبون إلى موالاة محمد بن الحنفية ويكفرون من لم يكن على مذهبهم ، وأول من ظهر منهم أبو طاهر القرمطى ، وقد بنى داراً فى هجر سماها دار الهجرة وأراد أن ينقل الحج إليها : لذلك كان يقصد الطرق الموصلة إلى مكة ويفتك بحجاج بيت الله الحرام ، فانقطع الحج فى أيامه خشية منه وسار القرمطى إلى مكة فى جيش كثيف أيام الحج ودخل برجله وخيله إلى الحرم ووضع السيف فى الطائفين والركع السجود على بغتة منهم ، وقتل فى مكة وشعابها نحو ثلاثين ألفاً واقتلع باب الكعبة وجرده مما كان عليه من صفائح الذهب ، وأخذ جميع ما فى خزينة بيت الله الحرام من المجوهرات الثمينة واقتلع الحجر الأسود من مكانه ، وانصرف إلى بلاده بعد أن هدم قبة زمزم وبقى مكان الحجر خالياً يتبرك الناس بمحله .

غير أن القدر وقف بالمرصاد لزعيم القرامطة الذى قاد هذا الهجوم الغادر على بيت الله الحرام ، فلم يكد يستقر فى هجر حتى نزل به مرض عضال ، وطال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه ، وهو ينظر إليها ،

وتناثر الدود من لحمه ، ذلك إن بطش ربك لشديد ، وانتهت حياته بالموت فى العام نفسه الذى انتهك فيه حرمة الأماكن المقدسة وبعد موت أبى طاهر رأى قومه أن من المستحيل تحويل الحج عن الكعبة إلى بلادهم ، فقام سنبر بن الحسين القرمطى بالحجر إلى مكة ، وكان يحيط به برواز من الفضة يضبط بعض القطع التى تكسرت منه حين خلعه ، ووضع فى مكانه على الحالة التى تراه عليها الآن .

إعادة بناء الكعبة فى العصر العثمانى

فى سنة ٩٦٠ هـ غير السلطان سليمان العثمانى سقف الكعبة ، كما اهتم السلطان أحمد (١٠٢١) هـ بترميم الكعبة . وفى سنة ١٠٣٩ هـ شهدت مكة سيولا استمرت يومين ، ودخلت مياهها إلى المسجد الحرام والكعبة ، وكان بناؤها قد وهن ، لذلك سقطت جدرانها واحداً بعد الآخر ، وترامى ما أصاب البيت الحرام إلى الأقطار الإسلامية ، فانزعج الناس فيها ، كما انزعج أهل مكة فأجمع الكل على المبادرة إلى عمارتها .

وأحيط البيت بسياج من الخشب يطوف به الناس ويصلون إليه ، كما كان الأمر على عهد ابن الزبير وأنفق القوم فى البناء ستة أشهر من عام ١٠٤٠ هـ وأنفقوا فى سبيل الله أموالاً طائلة .

ولم يعيدوا من الأحجار التى بنى بها عبد الله بن الزبير الكعبة إلا ما وجدوه صلباً قوياً .... أما ما وهن فاستبدلوا به غيره .

على أن مشكلة خطيرة واجهتهم .... فقد بدأ الحجر الأسود يتناثر الفتات منه ، وللحجر الأسود من القدسية حظ ، جعل المعماريين يلجأون إلى كل أساليب الفن ليعيدوا إلى أجزائه صلابتها ولما تم لهم ما أرادوا ، ربطوه بإطار الفضة الذى ربط به على عهد ابن الزبير ووضعوه مكانه .

وبناء الكعبة هذا ، هو القائم إلى يومنا الحاضر .... وهو الذى يطوف المسلمون به منذ فرض الله الحج عليهم إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وصف الكعبة الشريفة

الكعبة على شكل مربع تقريباً ، مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ، ويبلغ ارتفاعها ١٥ متراً وطول ضلعها الذى فيه الميزاب والذى قبالته ١٠ أمتار و ١٠ سنتيمترات ، وطول الضلع الذى فيه الباب والذى يقابله اثنى عشر متراً ، وبابها على ارتفاع مترين من الأرض ، ويصعد إليها بسلم كسلالم المنابر . وسلمها الحالى من الخشب المصفح بالفضة أهداه إلى الكعبة أحد أمراء الهند ، وهو لا يوضع فى مكانه منها إلا إذا فتح للزائرين وفى الاحتفالات الكبرى وهى لا تزيد عن خمس عشرة مرة فى السنة .

وفى الركن الذى على يسار باب الكعبة الحجر الأسود ، على ارتفاع متر وخمسين سنتيمترا من أرض المطاف . وتسمى زوايا الكعبة بالأركان على حسب اتجاهاتها : فيسمى الشمالى بالركن العراقى ، والغربى بالشامى والقبلى باليمانى ، والشرقى بالأسود لأن فيه الحجر الأسود ، وهو حجر صقيل بيضى الشكل غير

منتظم لونه أسود ضارب إلى الحمرة وفيه نقط حمراء وتعاريج صفراء ، وهى أثر لحام القطع التى كانت تكسرت منه ، قطره نحو ٣٠ سنتيمترا يحيط به إطار من الفضة عرضه ١٠ سنتيمترات ، والمسافة التى بين ركن الحجر وباب الكعبة يسمونها الملتزم وهو ما يلتزمه الطائف فى دعائه واستغاثته ويخرج من منتصف الحائط الشمالى الغربى من أعلاه الميزاب ، ويقال له ميزاب الرحمة ، وهو من عمل الحجاج حتى لا يقف المطر على سطحها وكان من نحاس ، فغيره السلطان سليمان القانونى سنة ٩٥٩ بآخر من الفضة وتجدد فى سنة ١٠٢٤ فى عهد السلطان أحمد بغيره من الفضة المنقوشة بالمينا الزرقاء تتخللها النقوش الذهبية ، وفى سنة ١٢٧٣ أرسل إليها السلطان عبد المجيد ميزاباً من الذهب ثم تغير فى عهد السلطان عبد العزيز آل سعود بآخر من الذهب وهو الموجود بها الآن .

وقبالة الميزاب من الخارج يوجد الحطيم وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتى البيت ويبعدان عنها بمترين وخمسة وثلاثين سنتيمترا ، ويبلغ ارتفاعه متراً وسمكه مترا ونصف متر ، وهو مغلف بالرخام المنقوش ، وفى محيطه كتابة فى أعلاه بالخط المعلق فيها آيات قرآنية وتاريخ من قام بعمارته ومساحة ما بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سنتيمترا والفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت هو ما يسمونه بحجر إسماعيل ، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً فى بناء إبراهيم ، وهى الزيادة التى كان ابن الزبير أدخلها فى بنائه ويقال إن هاجر وإسماعيل مدفونان به وداخل البيت الواح محفور فيها أسماء من أحدثوا به شيئاً من العمارة وبجانب الباب على يسار الداخل خوان من الخشب مغطى بالحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفاتيح الكعبة وهو من الأطلس الأخضر المزركش بأسلاك الفضة .

ولغسل الكعبة احتفال رائع ، يحضره كبار الشخصيات والحجاج ، فيدخل شريف مكة ، فيصلى ركعتين ، ثم يؤتى بدلاء من ماء زمزم فيغسل أرضها بمكانس صغيرة من الخوص ، ويسيل الماء من ثقب فى عتبتها ثم يغسلها بماء الورد ، وبعد ذلك تضمخ أرضيتها وحوائطها على ارتفاعها الأيدى بالخلوق وأنواع العطر كدهن الورد والمسك وفى أثناء ذلك يكون البخور بالند والعود صاعداً من جميع جهاتها ، وبعد ذلك يقف الشريف على الباب ويلقى على الحاضرين المكانس التى كانت تغسل بها الكعبة ، فيتزاحمون عليها ، ومن يحصل منهم على واحدة كأنه حصل على أثمن شىء فى العالم .

المسجد الحرام

كان هذا المسجد فى عهد الرسول - ﷺ - عرضه فسيحة لا جدار لها ، وقد شاء عمر بن الخطاب توسيعه لأن الناس ضيقوا على الكعبة وألصقوا دورهم بها .

فقال :

- إن الكعبة بيت الله ولابد للبيت من فناء وإنكم دخلتم عليها ولم تدخل عليكم ، فاشترى تلك الدور وهدمها وزادها فيه وهدم على قوم من جيران المسجد أبوا أن يبيعوا ووضع لهم الأثمان فى بيت المال حتى أخذوها بعد. واتخذ للمسجد جداراً دون القامة فكانت المصابيح توضع عليه ثم زاد فى توسيعه عثمان

بن عفان وقيل : إنه أول من بنى أروقته ، وفى عهد ابن الزبير وضعت له أعمدة من الرخام وبولغ فى تزيينه وتحسينه ثم كساه الحجاج بن يوسف الديباج ولما ولى الوليد بن عبد الملك زاد فى التحسين والتزيين بالذهب والفضة وكانت دار الندوة وسط المسجد تجاه الكعبة من الجهة الشمالية وكان بها الخلفاء والأمراء فى حجهم فى صدر الإسلام فلما أهمل أمرها فى منتصف القرن الثالث الهجرى أخذ بناؤها يتهدم فكتب فى ذلك إلى الخليفة المعتضد العباسى فأمر بهدمها فى سنة إحدى وثمانين ومائتين ، ثم جعلوا فيها قبة عالية ولها قبلة إلى الكعبة ثم غير شكلها بعد ذلك واستمرت مقاماً يصلى فيه الإمام الحنفى إلى أن أتى أمير كلدى أمير جدة فى سنة تسعمائة وسبع وأربعين فهدمها وبنى المقام مربعاً ذا طبقين : الأولى للإمام والمصلين ، والثانية للمؤذنين والمبلغين وهو على الشكل الآن وفى سنة ثمانمائة واثنين احترق الرواق الشرقى فأمر الملك الناصر بن برقوق ملك مصر بتعمير ما خرب منه ، ووضع بدل الأعمدة الرخام التى أحترقت أعمدة من الحجر الشميسى . ومن ثم كانت تقوم بعمارة الحرم ملوك مصر لا سيما العمارة التى قام بها السلطان قايتباى فى سنة ست وثمانين وثمانمائة .

وفى سنة تسع وسبعين وتسعمائة مال الرواق الشرقى فى الحرم ميلاً محسوساً فأمر السلطان سليم الثانى بعمارته فأنزل المعماريون سقفه جميعه وأساطينه وهدموا محيطه وبنوه على التربيع الباقى للآن وأقاموا أعمدة الرخام بين أساطين حجرية متناسبة الوضع وبنوا عليها قباباً بدل السقوف . ومات السلطان سليم أثناء إجراء البناء ، فأمر السلطان مراد خان بإتمام العمارة فتمت على أحسن صورة بالشكل الذى نراه الآن .

والحرم من داخله على شكل مربع (منتظم تقريباً) وفى وسطه يميل إلى الزاوية الجنوبية للكعبة المكرمة وطول ضلعه المقابل للحطيم مائة وأربعة وستون متراً وطول الذى يقابله وهو الذى فيه باب الصفا مائة وستة وستون مترا ، وضلعه الذى فيه باب السلام مائة متر وثمانية والذى يقابله وهو الذى فيه باب إبراهيم مائة وتسعة أمتار فيكون مسطحه من الداخل سبعة عشر الفاً وتسعمائة واثنين من الأمتار المربعة . أما من الخارج فمتوسط طوله مائة واثنان وتسعون متراً وعرضه مائة واثنان وثلاثون متراً .

ويحيط بالحرم من داخله أربعة أروقة فيها ثلاثمائة وأحد عشر عموداً من الرخام يتخللها مائتان وأربعة وأربعون اسطوانة من الحجر الشميس الأحمر تقوم عليها قباب على محيط المسجد .

أما أبواب الحرم فهى ثمانية فى الجهة الشمالية وهى : باب دريبة ، وباب المدرسة ، وباب الكعبة ، وباب الزيارة ، وبجواره إلى الغرب باب القطبى ثم باب الباسطية وباب الزمامية وباب عمرو بن العاص . ويليه من الجانب الغربى ثلاثة أولها باب العمدة - ويقال له باب بنى سهم ، ثم باب إبراهيم - وإلى جوار باب إبراهيم باب الحزورة يليه من الجهة الجنوبية سبعة أبواب أولها باب أم هانىء ، ثم باب العجلة ثم باب الرحمة أو « المجاهدين » ثم باب أجياد ، ثم باب الصفا ، ثم باب مخزوم ، ثم باب السنبلة ثم باب بازان ، ويلى ذلك من الجهة الشرقية أربعة أبواب وهى : باب بنى هاشم (أو باب على) ، ثم

باب السلام وهى الذى يدخل منه إلى الحرم عند طواف القدوم . ومجموع هذه الابواب اثنان وعشرون باباً ولكل منها ماله مدخل واحد ومنها ماله مدخلان أو ثلاثة أو خمسة فيكون مجموعها تسعة وثلاثون مدخلاً .

وفى المسجد ست منارات الأولى منارة باب العمرة ثم منارة باب السلام ومنارة باب على ومنارة الحزورة ، ثم منارة باب للزيارة ثم منارة السلطان قايتباى وقد حصلت فى جميعها ترميمات وزيادات فى مدة العمارة التى قام بها السلطان سليم الثانى فى المسجد وكلها باقية للآن يؤذن عليها فى الأوقات الخمسة .

وللحرم صحن كبير غير مسقوف تقطعه مماشى محجورة وما بينها أرض بها حصباء ، وأول من حصب أرضية الحرم هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . والكعبة فى وسط صحن المسجد يميل إلى الجنوب ويليها من الشرق مقام إبراهيم وفى جنوبه الشرقى قبة زمزم التى بناها أبو جعفر المنصور فى سنة مائة وخمس وأربعين وفرش أرضها بالرخام المأمون ، وشرقى زمزم إلى الشمال باب شيبه وهو باب من الرخام قام فى وسط الحرم فى المكان الذى كان به باب المسجد فى مدته - ﷺ - وفى شمال المقام المنبر وهو من الرخام غاية فى دقة الصناعة أهداه إلى الحرم السلطان سليمان ومكتوب على بابه بالخط الذهبى الجميل « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » وأول من وضع المنبر فى المسجد الحرام معاوية بن أبى سفيان حين قدومه مكة للحج وكان الخلفاء قبله يخطبون على أرضية المسجد تحت جدار الكعبة أو فى الحجر . ثم أهدى إليه سنة مائة وسبعين منبراً من خشب جميل من صناعة مصر لمناسبة حج هارون الرشيد الذى خطب الناس عليه فى حجه فى السنة المذكورة . وفى عهد الواثق أمر فعمل له ثلاثة منابر : واحد فى الحرم ، والثانى فى عرفه ، والثالث فى منى ، وخطب فى حجه عليها جميعا . وقد كان الخطباء إذا أرادوا الخطبة فى الحرم وضعوا المنبر لصق جدار الكعبة بين الحجر والركن اليمانى فإذا أراد الخطيب أن يصعد المنبر استلم الحجر أولاً ثم دعا وصعد المنبر ، وبعد الخطبة كان ينقل المنبر إلى مكانه بجوار زمزم فلما أهدى السلطان سليمان إليه منبره الرخام بقى مكانه واستمرت فيه الخطبة إلى اليوم

اهـ (نقل البحث من كتاب مكة المكرمة للأستاذ محمود الشرقاوى بتصرف)

تفسير سورة قريش

مقدمة عن السورة

قال صاحب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : أربع

وكلماتها : تسع عشرة

وحروفها : ثلاث وسبعون

فواصل آياتها : (شفت)

سميت سورة قريش ، لذكر ألفتهم فيها

معظم مقصود السورة

ذكر المنة على قريش ، وتحضيضهم على العبادة وشكر الإحسان ، ومعرفة قدر النعمة والعاقبة والأمان فى قوله ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ .

المتشابهات :

قوله : ﴿ لإيلاف قريش ﴾ كرر ، لأن الثانى بدل من الأول أفاد بيان المفعول وهو ﴿ رحلة الشتاء ﴾

مناسبة السورة لما قبلها :

إن كلا منها تضمن ذكر نعمة من نعم الله على أهل مكة ، فالأول تضمنت إهلاك عدوهم الذى جاء ليهدم بيتهم وهو أساس مجدهم وعزهم ، والثانية ذكرت نعمة أخرى هى اجتماع أمرهم ، والتئام شملهم ، ليتمكنوا من الارتحال صيفا وشتاء فى تجارتهم وجلب الميرة لهم .

ولوثيق الصلة بين السورتين كان أبى بن كعب يعتبرهما سورة واحدة ، حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهم ببسملة .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ
هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

معانى المفردات

﴿ لإيلاف ﴾ : تقول ألفت الشىء إلفاً وإلافاً ، وآلفته إيلافاً : إذا لزمته وعكفت عليه مع الأنس به وعدم النفور منه .

﴿ قريش ﴾ : اسم للقبائل العربية من ولد النضر بن كنانة .

﴿ **الرحلة** ﴾ : ارتحال القوم . أى : شدهم الرحال للمسير .
﴿ **أطعمهم** ﴾ أى : وسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبيله
﴿ **آمنهم** ﴾ أى : جعلهم فى أمن من التعدى عليهم ، والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت** ﴾

أى : فلتعبد قريش ربها شكراً له على أن جعلهم قوماً تجاراً ذوى أسفار فى بلاد غير ذات زرع ولا ضرع ، لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء لجلب الأعطار والأفادية التى تأتى من بلاد الهند والخليج الفارسى إلى تلك البلاد ، ورحلة فى الصيف إلى بلاد الشام لجلب الحاصلات الزراعية إلى بلادهم المحرومة منها .

وقد كان العرب يحترمونهم فى أسفارهم لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه وولاة الكعبة ، فيذهبون آمنين ، ويعودون سالمين ، لا يمسهم أحد بسوء على كثرة ما كان بين العرب من السلب والنهب والغارات التى لا تنقطع .

فكان احترامهم البيت ضرباً من القوة المعنوية التى تحتمى بها قريش فى الأسفار ولهذا ألفتها نفوسهم ، وتعلقت بالرحيل ، استدراراً للرزق .

وهذا الإحلال الذى ملك نفوس الرعب من البيت الحرام إنما هو من تسخير رب البيت سبحانه ، وقد حفظ حرمته ، وزادها فى نفوس العرب رد الحبشة عنه حين أرادوا هدمه ، وإهلاكهم قبل أن ينقضوا منه حجراً بل قبل أن يدنوا منه .

ولو نزلت مكانة البيت من نفوس العرب ، ونقصت حرمته عندهم ، واستطالت الأيدى على أسفارهم ليفروا من تلك الرحلات ، فقلت وسائل الكسب بينهم لأن أرضهم ليست بذات زرع ولا ضرع . وما هم بأهل صناعة مشهورة يحتاج إليها الناس فيأتوهم وهم فى عقر ديارهم ، ليأخذوا منها ، فكانت تضيق عليهم مسالك الأرزاق وتنقطع عنهم ينابيع الخيرات .

وقال القرطبى رحمه الله : ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة ، ثم قال : ﴿ **لإيلاف قريش** ﴾ أى : فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش وذلك أن قريشاً كانت تخرج فى تجارتها ، فلا يغار عليها ولا تقرب فى الجاهلية . يقولون : هم أهل بيت الله ـ عز وجل ـ حتى جاء صاحب الفيل لهدم الكعبة ويأخذ حجارتها فيبنى بها بيتا فى اليمن يحج الناس إليه فأهلكهم الله ـ عز وجل ـ فذكرهم نعمته أى : فجعل الله ذلك لإيلاف قريش ، أى : ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم وهو معنى قول مجاهد وابن عباس فى رواية سعيد بن جبير عنه .

وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **إيلافهم رحلة الشتاء والصيف** ﴾ قال : لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف منّةً منه على قريش .

وقوله تعالى : ﴿ **فليعبدوا رب هذا البيت** ﴾

أمرهم الله ـ تعالى ـ بعبادته وتوحيده لأجل إيلافهم رحلتين ودخلت الفاء لأجل ما فى الكلام من

معنى الشرط ، لأن المعنى إمَّالا فليعبدوه لإيلافهم ، على معنى أن نعم الله ـ تعالى ـ عليهم لا تحصى ، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه فليعبدوه لشأن هذه الواحدة التى هى نعمة ظاهرة . والبيت . الكعبة . وفى تعريف ذاته المقدسة لهم بأنه رب هذا البيت وجهان :

أحدهما : لأنه كانت لهم أوثان فميز نفسه عنها والثانى لأنهم بالبيت شُرِّفوا على سائر العرب فذكر لهم ذلك تذكيراً لنعمه .

وقيل : ﴿ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ أى : إنه هو سبحانه الذى أوسع لهم الرزق ، ومهد لهم سبله ، ولولاه لكانوا فى جوع وضنك عيش ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أى : وآمن طريقهم ، وأورثهم القبول عند الناس ، ومنع عنهم التعدى والتطاول إلى أموالهم وأنفسهم ، ولولاه لأخذهم الخوف من كل مكان فعاشوا فى ضنك وجهد شديد .

وإذا كانوا يعرفون أن هذا كله رب هذا البيت فلم يتوسلون إليه بتعظيم غيره ، وتوسيط سواه عنده ؟

مع أنه لافضل لأحد ممن يوسطونه فى شىء من النعمة التى هم فيها ، نعمة الأمن ونعمة الرزق وكفاية الحاجة .

قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عندما تلا قوله تعالى : ﴿ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾قال : وذلك بدعوة ابراهيم ـ عليه السلام ـ حيث قال : ﴿ رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات ﴾ .

وقال ابن زيد : كانت العرب يغير بعضها على بعض ويسبى بعضها من بعض ، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم . وقرأ قوله تعالى : ﴿ أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ ونظير ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرمنا آمنا ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾

قال العلامة ابن كثير فى هذه الآية الكريمة : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أى : فليوحدوه بالعبادة كما جعل لهم حرما آمنا وبيتا محرما كما قال تعالى : ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ الذى أطعمهم من جوع ﴾ أى : هو رب البيت وهو الذى أطعمهم من جوع ، ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أى : تفضل عليهم بالامن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لاشريك له ولايعبدوا من دونه صنما ولاندا ولاوثنا ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ومن عصاه سلبهما منه كما قال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بماكانوا يصنعون ، ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون ﴾

اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك ، وتحول عافيتك ، وفجاءة نقمتك وجميع سخطك

تفسير سورة الماعون

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية

عدد آياتها : سبع

وكلماتها : خمس وعشرون .

وحروفها : مائة وخمسة وعشرون .

وفواصل آياتها : على النون .

وسميت سورة الماعون ، لقوله تعالى : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾

مقصود السورة :

معظم مقصود السورة : الشكاية من الجافين على الأيتام والمساكين وذم المقصرين والمرائين ومانعى نفع المعونة عن الخيرات والمساكين فى قوله : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

(١) أنه لما قال سبحانه فى السورة السابقة : ﴿ أطعمهم من جوع ﴾ ذم فى هذه السورة من لم يحض على إطعام المساكين .

(٢) أنه قال فى السورة السابقة : ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ وهنا ذم من سها عن صلاته .

(٣) أنه هناك عدد نعمه على قريش وهم مع ذلك ينكرون البعث ويجحدون الجزاء وهنا أتبعه بتهديدهم وتخويفهم من عذابه .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ
طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

معانى المفـردات

﴿ أرأيت ﴾ : أى : هل عرفت وعلمت ، والمراد بذلك تشويق السامع إلى تعرّف مايذكر بعده مع تضمنه التعجب منه .

﴿ الدين ﴾ : هو الخضوع لما وراء المحسوس من الشئون الإلهية التى لايمكن للإنسان أن يعرف حقيقتها وإنما يجد آثارها فى الكون باعثة على الإذعان والتصديق ، كوجود الله ووحدانيته ، وبعثه الرسل مبشرين ومنذرين ، والتصديق بحياة أخرى يعرض الناس فيها على ربهم للجزاء .

﴿ يدع اليتيم ﴾ أى : يدفعه ويزجره

﴿ يحض ﴾ أى : يحث ويدعو الناس إلى ذلك .

﴿ يراءون ﴾ أى : يفعلون بقدر مايرى الناس أنهم يفعلون ذلك من غير أن تستشعر قلوبهم خشية الله بها ، وحقيقة الرياء طلب مافى الدنيا بالعبادة وطلب المنزلة فى قلوب الناس .

﴿ الماعون ﴾ : ماجرت العادة بأن يسأله الفقير والغنى كالقدر والدلو والفأس .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ولايحض على طعام المسكين ﴾ أى : هل عرفت يامحمد ذلك الذى يكذب بالبعث والحساب فاعرفه بصفاته وهى :

﴿ فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ أى : فذلك المكذب بالدين هو الذى يدفع اليتيم ويزجره زجرا عنيفا إن جاء يطلب منه حاجة احتقارا لشأنه وتكبرا عليه .

واليتيم : هو من مات أبوه وتركه صغيرا ، وهو ضعيف يحتاج إلى رعاية وكفالة .

والإسلام اهتم بشأن اليتيم الاهتمام البالغ من ناحية تربيته ، ومعاملته ، وضمان معيشته حتى ينشأ عضوا فى المجتمع ينهض بواجباته ، ويقوم بمسئولياته ، ويؤدى ماله وماعليه على أحسن وجه ، وأنبل معنى .

فمن اهتمام القرآن الكريم بشأن اليتيم عدم قهره ، والغض من شأنه ، والحط من كرامته قال تعالى : ﴿ فأما اليتيم فلاتقهر ﴾(١) وقال : ﴿ أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ﴾ .

ومن اهتمامه باليتيم أمره سبحانه بالمحافظة على أموال اليتامى ، وعدم قربانها إلا بالتى هى أحسن . قال تعالى : ﴿ ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾(٢) واعتبر أن من يأكل أموال اليتامى ظلما إنما يأكل فى بطنه نارا ، قال تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا ﴾(٣)

---

(١) سورة الضحى الآية : ٩

(٢) سورة الأنعام الآية : ١٥٢

(٣) سورة النساء الآية : ١٠

وأمر القرآن الكريم الأوصياء أن يردوا الى اليتامى أموالهم إن رأوهم قادرين على تنميتها وحفظها ، قال تعالى : ﴿ وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ﴾[١]

ومن اهتمام الرسول - ﷺ - بشأن اليتيم حضه على كفالته ، وأمره بوجوب رعايته ، وبشر الأوصياء أنهم - إن احسنوا إلى اليتامى - سيكونون معه فى الجنة .

روى الترمذى أنه عليه الصلاة والسلام قال : أنا وكافل اليتيم فى الجنة كهاتين . . وأشار بأصبعيه يعنى السبابة والوسطى . . (رواه البخارى ومسلم ومالك وأبوداود)[٢] وروى أحمد فى مسنده عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من وضع يده على رأس يتيم رحمة ، كتب الله له بكل شعرة مرت على يده حسنة » .[٣]

قوله تعالى : ﴿ ولايحض على طعام المسكين ﴾ أى : ولايحث على طعام المسكين . قال أبوحيان : وفى قوله : (ولايحض) إشارة إلى أنه هو لايطعم إذا قدر ، وهذا من باب الأولى لأنه إذا لم يحض غيره فلأن يترك هو ذلك فعلا أولى وأحرى .

وقال الرازى : فإن قيل : لم قال : ﴿ ولايحض على طعام المسكين ﴾ ولم يقل : ولايطعم المسكين ؟ فالجواب أنه اذا منع اليتيم حقه ، فكيف يطعم المسكين من مال نفسه ؟ بل هو بخيل من مال غيره ، وهذا هو النهاية فى الخسة ، ويدل على نهاية بخله ، وقساوة قلبه وخساسة طبعه .

والحاصل أنه لايطعم المسكين ولايأمر بإطعامه ، لأنه يكذب بالقيامة ، ولو آمن بالجزاء وأيقن بالحساب لما صدر عنه ذلك .

قوله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون ﴾ .

﴿ فويل ﴾ أى : عذاب وهلاك . ﴿ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ قال ابن عباس رضى الله عنهما - هو المصلى الذى إن صلى لم يرج لها ثوابا ، وإن تركها لم يخش عليها عقابا . وعنه أيضا : هم الذين يؤخرونها عن أوقاتها وكذا روى المغيره عن ابراهيم قال : ساهون باضاعة الوقت . وعن أبى العالية : لايصلونها لمواقيتها ، ولايتمون ركوعها ولاسجودها .

قال القرطبى : ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾[٤] .

---

(١) سورة النساء الآية : ٦

(٢) سنن الترمذى - كتاب البر والصلة ٣٢٠/٤ رقم ١٩١٦ وصحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق ٢٢٨٧/٤ رقم ٢٩٨٣ وصحيح البخارى - كتاب الأدب ١٠/٨ وسنن أبى داود ٣٥٦/٥ رقم ٥١٥٠ ومالك فى الموطأ - كتاب الشعر ٩٤٨/٢ رقم٥

(٣) مسند أحمد ٢٦٥/٥

(٤) سورة مريم الآية : ٥٩

وعن ابن عباس أيضا : هم المنافقون يتركون الصلاة سرا ويصلونها علانية ﴿ وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا ﴾[1] ويدل على أنها فى المنافقين قوله تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ .

قال ابن عباس : ولو قال فى صلاتهم ساهون لكانت فى المؤمنين . وقال عطاء : الحمدلله الذى قال ﴿ عن صلاتهم ﴾ ولم يقل فى صلاتهم .

قال الزمخشرى : فان قلت : أى فرق بين قوله : ﴿ عن صلاتهم ﴾ وبين قولك : (فى صلاتهم) ، قلت : معنى « عن » أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين أو الفلاسفة من المسلمين . ومعنى « فى » أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة شيطان أو حديث نفس ، وذلك لايكاد يخلو منه مسلم .

وقوله تعالى : ﴿ الذين هم يراءون ﴾ أى : يُرى الناس أنه يصلى طاعة وهو يصلى تقية ، كالفاسق يرى أنه يصلى عبادة وهو يصلى ليقال : إنه يصلى .

وحقيقة الرياء طلب مافى الدنيا بالعبادة ، وأصله طلب المنزلة فى قلوب الناس ، وأولها تحسين السمت وهو من أجزاء النبوة ، ويريد بذلك الجاه والثناء . وثانيها ، الرياء بالثياب القصار والخشنة ، ليأخذ بذلك هيئة الزهد فى الدنيا .

وثالثها : الرياء بالقول باظهار التسخط على أهل الدنيا وإظهار الوعظ والتأسف على مايفوت من الخير والطاعة ورابعها ـ الرياء باظهار الصلاة والصدقة ، أو بتحسين الصلاة لأجل رؤية الناس .

أخرج مسلم عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال : جرىء ! فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت ليقال : عالم ! وقرأت القرآن ليقال هو قارىء ! فقد قيل . ثم أمر به فسحب على وجهه حتى القى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فاتى به فعرفه نعمه فعرفها وقال : فما عملت فيها ؟ قال : ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك . قال كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد . فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم القى فى النار »[2].

---

(١) سورة النساء الآية : ١٤٢

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الإمارة ١٥١٣/٣ رقم ١٩٠٥

قال القرطبي ، ولايكون الرجل مرائيا بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ؛ فمن حق الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ، لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ولأن تاركها يستحق الذم والمقت ؛ فوجب إماطة التهمة بالاظهار . وإن كان تطوعا فحقه أن يخفى ، لأنه لايلام بتركه ولاتهمة فيه ، فان أظهره قاصدا للاقتداء به كان جميلا ، وإنما الرياء أن يقصد بالإظهار أن تراه الأعين فتثنى عليه بالصلاح .

وقوله تعالى : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ قال ابن كثير : أى : لاأحسنوا عبادة ربهم ولاأحسنوا إلى خلقه حتى ولا باعادة ماينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى .

وقد قال ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ الزكاة وكذا روى الضحاك عن ابن عباس .

وقد روى عن عمر بن عبدالعزيز عن مالك قال : بلغنى أن قول الله تعالى : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون ﴾ قال : إن المنافق إذا صلى صلى رياء ، وان فاتته لم يندم عليها (ويمنعون الماعون) الزكاة التى فرض الله عليهم ، قال زيد بن أسلم : لوخفيت لهم الصلاة كما خفيت لهم الزكاة ماصلوا .

وقال الأعمش وشعبة : عن الحكم عن يحيى بن الخراز أن أبا العبيد سأل عبدالله بن مسعود عن الماعون فقال : هو مايتعاوره الناس بينهم بين الفأس والقدر والدلو والقداحة وكل مافيه منفعة من قليل وكثير .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس : ﴿ ويمنعون الماعون ﴾ يعنى متاع البيت وكذا قال مجاهد وابراهيم النخعى وسعيد بن جبير وأبومالك وغير واحد : أنها العارية للأمتعة .

وقيل لعكرمة مولى ابن عباس : من منع شيئا من المتاع كان له الويل ؟ فقال : لا ، ولكن من جمع ثلاثهن فله الويل ؛ يعنى ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالماعون . قال القرطبى . كونها فى المنافقين أشبه وبهم أخلق ؛ لأنهم جمعوا الأوصاف الثلاثة . ترك الصلاة ، والرياء ، والبخل بالمال ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولايذكرون الله إلا قليلا ﴾[1] وقال : ﴿ ولاينفقون إلا وهم كارهون ﴾[2] وهذه أحوالهم ، ويبعد أن توجد من مسلم محقق ، وإن وجد بعضها فيلحقه جزء من التوبيخ ، وذلك فى منع الماعون إذا تعين ؛ كالصلاة والزكاة إذا تركها والله أعلم . إنما يكون منعها قبيحا فى المروءة فى غير حال الضرورة . والله أعلم .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٤٢

(٢) سورة التوبة الآية : ٥٤

تفسير سورة الكوثر

مقدمة عن السورة .

قال صاحب البصائر :

السورة مكية :

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : عشر .

وحروفها : ثنتان وأربعون .

فواصل آياتها : على الراء .

سميت سورة الكوثر : لذكره فيها .

معظم مقصود السورة :

بيان المنة على سيد المرسلين ، وأمره بالصلاة والقربان ، وإخباره بإهلاك أعدائه أهل الخيبة والخذلان .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه وصف فى الأولى الذى يكذب بالدين بأمور أربع : البخل ، الإعراض عن الصلاة ، الرياء . منع المعونة - وهنا وصف مامنحه رسوله - ﷺ - من الخير والبركة ، فذكر أنه أعطاه الكوثر والحرص على الصلاة ، ودوامها ، والإخلاص فيها والتصدق على الفقراء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

معانى المفردات

﴿ أعطيناك الكوثر ﴾ نهرا فى الجنة .

﴿ وانحر ﴾ المراد : الأضاحى نسكا شكرا لله تعالى .

﴿ شانئك ﴾ : مبغضك [أحد مشركى قريش]

﴿ هو الأبتر ﴾ : المقطوع الأثر أو الخبر .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ .

قال الامام أحمد فى مسنده عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله - ﷺ - إغفاءة فرفع رأسه مبتسما إما قال لهم وإما قالوا له . لم ضحكت فقال رسول الله - ﷺ - « إنه أنزلت علىّ آنفا سورة ، فقرأ (بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر) من الآيات . حتى ختمها فقال صلى الله عليه وسلم : « هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : « هو نهر أعطانيه ربى - عز وجل - فى الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم فأقول : يارب إنه من أمتى ، فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك »(١) .

وأخرج البخارى بسنده عن أنس - رضى الله عنه - قال : « لما عرج بالنبى - ﷺ - إلى السماء قال : أتيت على نهر حافتاه قباب اللؤلؤ مجوفا ، فقلت ماهذا ياجبريل ؟ قال : هذا الكوثر(٢) .

وأخرج أيضا بسنده عن أبى عبيدة - رضى الله عنه - أنه سأل عائشة - رضى الله عنها - عن قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قالت : هو نهر أُعطاه نبيكم - ﷺ شاطئاه عليه در مجوف آنيته كعدد النجوم(٣) وأخرج أيضا بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال فى الكوثر : هو الخير الذى اعطاه الله اياه . قال أبوبشر قلت لسعيد بن جبير : فإن الناس يزعمون أنه نهر فى الجنة ، فقال سعيد النهر فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله إياه(٤) .

قال ابن حجر : الكوثر فوعل من الكثرة ، سمى بها النهر لكثرة مائه وآنيته وعظم قدره وخيره .

وقال القرطبى : والعرب تسمى كل شىء كثير فى العدد والقدر والخضرا كوثرا .

وقال أيضا : اختلف أهل التأويل فى الكوثر الذى أعطاه النبى - ﷺ - على ستة عشر قولاً . :

الأول - أنه نهر فى الجنة ، رواه البخارى عن أنس والترمذى أيضا . وروى الترمذى أيضا عن ابن عمر قال : قال رسول الله - ﷺ - : « الكوثر نهر فى الجنة حافتاه من ذهب ومجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج » هذا حديث حسن صحيح(٥)

---

(١) مسند أحمد ١٠٢/٣

(٢) صحيح البخارى ٢١٩/٦

(٣) صحيح البخارى ٢١٩/٦

(٤) صحيح البخارى ٢١٩/٦

(٥) صحيح البخارى ٢١٩/٦

الثانى - أنه حوض النبى - ﷺ - فى الموقف قال عطاء وفى صحيح مسلم عن أنس قال : بينما نحن عند رسول الله - ﷺ - إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا : أضحكك الله يارسول الله ؟ قال : « نزلت علىَّ آنفا سورة - فقرأ - بسم الله الرحمن الرحيم « إنا أعطيناك الكوثر فصلى لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » - ثم قال : أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا الله ورسوله أعلم : قال : « فإنه نهر وعدنيه ربى - عز وجل - عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول إنه من أمتى فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثت بعدك[1]

والأخبار فى حوضه فى الموقف كثيرة . . وأن على أركانه الأربعة خلفاؤه الأربعة : رضوان الله عليهم . . ثم يجوز أن يسمى ذلك النهر ، أو الحوض كوثرا لكثرة الواردة والشاربة من أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - ويسمى به لما فيه من الخير الكثير والماء الكثير .

والقول الثالث : أن الكوثر النبوة والكتاب : قاله عكرمة .

والرابع : القرآن ، قاله الحسن .

والخامس : الإسلام : حكاه المغيرة .

السادس : تيسر القرآن وتخفيف الشرائع ، قاله الحسن بن الفضل .

السابع : هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع ، قاله أبوبكر بن عياش .

الثامن : إنه الإيثار ، قاله ابن كيسان .

التاسع : إنه رفعة الذكر ، حكاه الماوردى

العاشر : أنه نور فى قلبك ذلك علىَّ وقطعك عما سواى . وعنه هو الشفاعة وهو القول الحادى عشر .

وقيل : معجزات الرب هدى بها أهل الإجابة لدعوتك ؛ حكاه الثعلبى وهو الثانى عشر .

الثالث عشر : قال هلال بن يساف : هو لا إله إلا الله محمدا رسول الله . وقيل : الفقه فى الدين . وقيل : الصلوات الخمس : وهما الرابع عشر والخامس عشر ، وقال ابن اسحاق : هو العظيم من الأمر .

قلت : أصح هذه الأقوال الأولى : لأنه ثابت عن النبى - ﷺ - نص فى الكوثر .

وسمع أنس قوما يتذاكرون الحوض فقال : ماكنت أرى أن أعيش حتى أرى أمثالكم يتمارون فى الحوض ، لقد تركت عجائز خلفى ، ماتصلى امرأة منهن إلا سألت الله أن يسقيها من حوض النبى - ﷺ - .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الصلاة ٣٠٠/١ رقم ٤٠٠

وجميع ماقيل بعد ذلك فى تفسير الكوثر قد أعطيه رسول الله ـ ﷺ ـ زيادة على حوضه ـ ﷺ ـ تسليما كثيرا ـ أ . هـ .

قال علماء السلف :

الأحاديث الواردة فى ذكر الحوض تبلغ حد التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيا ، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين بن كثير تغمده الله برحمته . . فى آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ « البداية والنهاية » .

فمنها : مارواه البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن قدر حوضى كما بين أيلة وصنعاء من اليمن ، وإن فيه الأباريق كعدد نجوم السماء[(١)] » .

رواه مسلم[(٢)] .

وروى الامام أحمد أن أنس بن مالك ، قال : اغفى رسول الله ـ ﷺ ـ إغفاءة فرفع رأسه مبتسما ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إنه أنزلت على آنفا سورة فقرأ) « بسم الله الرحمن الرحيم إنا اعطيناك الكوثر » ، وحتى ختمها ، ثم قال : هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : هو نهر اعطانيه ربى ـ عز وجل ـ فى الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتى يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يارب ، إنه من أمتى ، فيقال لى : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك[(٣)] .

ومعنى ذلك أنه يشخب فيه ميزابان من ذلك الكوثر إلى الحوض ، والحوص فى العرصات قبل الصراط ، لأنه يختلج عنه ، ويمنع منه ، أقوام قد ارتدوا على أعقابهم ، وقيل هؤلاء لايجاوزون الصراط .

وروى البخارى ومسلم عن جندب بن عبدالله البجلى ، قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « أنا فرطكم على الحوض[(٤)] » والفرط : الذى سبق إلى الماء .

وروى البخارى عن سهل بن سعد الأنصارى قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « إنى فرطكم على الحوض ، من مر علىّ شرب ، ومن شرب لم يظمأ أبدا ، ليردن علىّ أقوام أعرفهم ويعرفونى ، ثم يحال بينى وبينهم » قال أبوحازم : فسمعنى النعمان بن أبى عياش فقال : هكذا سمعت من سهل ؟ فقلت : نعم ،

---

(١) صحيح البخارى ١٤٩/٨

ـ وعنه أيضا عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « ليردن على الحوض رجال ممن صاحبنى حتى اذا رأيتم ورفعوا الى اختلجوا دونى . فلأقولن : أى رب أصيحابى أصيحابى . فليقالن لى : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك »

(٢) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ٨٠٠/٤ رقم ٢٣٠٤

(٣) مسند أحمد ١٠٢/٣

(٤) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان رقم ١٤٧٥

فقال : أشهد على أبى سعيد الخدرى لسمعته وهو يزيد فيها . « فأقول . إنهم منى فيقال : إنك لاتدرى ماأحدثوا بعدك ، فأقول : سحقا سحقا لمن غير بعدى[١] سحقا : أى بعدا .

والذى يتلخص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض : إنه حوض عظيم ، ومورد كريم ، يمد من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذى هو أشد بياضا من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من العسل ، وأطيب ريحا من المسك ، وهو فى غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر .

وفى بعض الأحاديث أنه كلما شرب منه وهو فى زيادة واتساع وأنه ينبت فى خلاله من المسك والرضراض من اللؤلؤ وقضبان الذهب ، ويثمر الوان الجوهر ، فسبحان الخالق الذى لايعجزه شىء ، وقد ورد فى أحاديث أن لكل نبى حوضا ، وأن حوض نبينا - ﷺ - أعظمها وأحلاها وأكثرها واردا جعلنا الله منهم بفضله وكرمه . أ . هـ (من كتاب شرح الطحاوية) .

قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾

قوله : (فصل) أى أقم الصلاة المفروضة عليك كذا رواه الضحاك عن ابن عباس . وقال قتادة وعطاء وعكرمة : (فصل لربك) صلاة العيد يوم النحر (وانحر) نسكك .

قال ابن العربى : « أما من قال إن المراد بقوله تعالى : (فصل) الصلوات الخمس فلأنها ركن العبادات وقاعدة الإسلام ، وأعظم دعائم الدين وأما من قال : (إنها صلاة الصبح بالمزدلفة ، فلأنها مقرونة بالنحر ، وهو فى ذلك اليوم ، ولاصلاة فيه قبل النحر غيرها ، فخصها بالذكر من جملة الصلوات لاقترانها بالنحر » .

قال العلامة ابن كثير : قوله تعالى : ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أى : كما أعطيناك الخير الكثير فى الدنيا والآخرة ومن ذلك النهر الذى تقدم صفته فاخلص لربك صلاتك المكتوبة والنافلة ونحرك فاعبده وحده لاشريك له وانحر على اسمه وحده لاشريك له كما قال تعالى : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ . . ولهذا كان رسول الله - ﷺ - يصلى العيد ثم ينحر نسكه ويقول : « من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك . . ومن نسك قبل الصلاة فلانسك له »[٢] .

قوله تعالى : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أى : إن مبغضك يامحمد ومبغض ماجئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع ذكره قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن

---

(١) صحيح البخارى ١٤٩/٨

(٢) صحيح البخارى - كتاب العيدين ٢٨/٢ وانظر مسند أحمد ٣٠٣/٤

جبير : نزلت فى العاصى بن وائل وقال محمد بن اسحاق) كان العاص بن وائل اذا ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : دعوه فانه رجل أبتر لاعقب له فاذا هلك انقطع ذكره فأنزل الله تعالى هذه السورة . . وقال ابن عباس ايضا وعكرمة : نزلت فى كعب بن الأشرف وجماعة من كفار قريش قال البزار بسند عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة فقالت له قريش : أنت سيدهم ألا ترى إلى هذا الصبى المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السدانة وأهل السقاية فقال : أنتم خير منه قال فنزلت ﴿ شانئك هو الأبتر ﴾ هكذا رواه البزار وهو اسناد صحيح[1] .

وعن ابن عباس نزلت فى أبى جهل وعنه إن شانئك يعنى عدوك وهذا يعم جميع من اتصف بذلك ممن ذكر وغيرهم .

وقال السدى كانوا إذا مات ذكور الرجل قالوا بتر فلما مات أبناء رسول الله ـ ﷺ ـ قالوا : بتر فانزل الله : ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وهذا يرجع إلى ماقلناه من أن الأبتر الذى اذا مات انقطع ذكره فتوهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره وحاشا وكلا بل قد أبقى الله ذكره على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد مستمرا على دوام الآباد إلى يوم المحشر والمعاد فاللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد فى الأولين وصلى الله وبارك على سيدنا محمد فى الآخرين وصلى وسلم وبارك على سيدنا محمد فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين ، اللهم أوردنا حوضه ولاتفتنا بعده ، واسقنا من يده الشريفة شربة ماء هنيئة لايظمأ بعدها أبدا ، واجمع بيننا وبينه كما آمنا به ولم نره ، ولاتفرق بيننا وبينه حتى تدخلنا مدخله .

اللهم أجزى نبينا خير ماجازيت به نبيا عن قومه ورسولا عن أمته .

---

(١) اخرجه البزار فى كشف الأستار عن زوائد البزار على الكتب الستة ٨٣/٣ رقم ٢٢٩٣

تفســـير سورة
« قل يأيها الكافرون »

قال صاحب البصائر

السورة مكية

عدد آياتها : ست .

وكلماتها : ثمان وعشرون

وحروفها : أربع وتسعون .

وفواصل آياتها . . على النون .

سميت سورة (الكافرون) لمفتتحها ، وسورة الدين ، لقوله : ﴿ ولى دين ﴾ . والمقشقشة قاله ابوعبيده : سورتان من القرآن يقال لها المقشقشتان : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ تقشقشان الذنوب كما يقشقش الهناء الجرب (والهناء : القطران يطلى به) .

وقال ابن حجر : وقيل لها المقشقشة أى المبرئة من النفاق .

معظم مقصود السورة : يأس الكافرون من موافقة النبى - ﷺ - بالاسلام والاعمال فى الماضى ، والمستقبل والحال . . وبيان أن كل أحد مأخوذ بماله عليه إقبال ، وعليه اشتغال .

من المتشابهات

قوله : ﴿ لا أعبد ماتعبدون ﴾ فى تكراره خمسة ، ومعان كثيرة ، ذكرت فى التفاسير ، وقال محمود ابن حمزة الكرمانى : هذا التكرار اختصار وايجاز ، هو إعجاز لأنه نفى عن نبيه عبادة الأصنام فى الماضى ، والحال ، والاستقبال ، ونص عن الكفار المذكورين عبادة الله فى الأزمنة الثلاثة أيضا . فاقتضى القياس تكرار هذه اللفظة ست مرات فذكر لفظ الحال لأن الحال هو الزمان الموجود واسم الفاعل واقع موقع الحال ، وهو صالح للأزمنة . واقتصر من الماضى على المسند اليهم .

فقال : ﴿ ولا أنا عابد ماعبدتم ﴾ ولأن اسم الفاعل بمعنى الماضى فعل على مذهب الكونين . واقتصر من المستقبل على المسند اليه فقال : ﴿ ولاأنتم عابدون ماأعبد ﴾ وكان اسم الفاعلين بمعنى المستقبل . وهذا معجزة للقرآن وبرهان .

ماورد فى فضل السورة .

ففى الترمذى من حديث أنس « أنها تعدل ربع القرآن »[١] وعن حبلة بن خلدية قال : قلت : يارسول الله علمنى شيئا أقوله عند منامى قال : « إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ قل ياأيها الكافرون فإنها براءة من الشرك[٢] » .

وروى الطبرانى بسنده : أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان إذا أخذ مضجعه قرأ : (قل ياأيها الكافرون) حتى يختمها[٣]

وثبت فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ـ ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبسورة قل هو الله أحد فى ركعتى الطواف[٤] وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قرأ بهما فى ركعتى الفجر[٥] . .

وقال أحمد بسنده عن ابن عمر قال رمقت رسول الله ـ ﷺ ـ أربعا وعشرين أو خمسا وعشرين مرة يقرأ فى الركعتين قبل الفجر والركعتين بعد المغرب بقل ياأيها الكافرون ، وقل هو الله أحد[٦]

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه سبحانه فى السورة السابقة أمر رسوله ـ ﷺ ـ بعبادته ، والشكر له على نعمه الكثيرة باخلاص العبادة له ، وفى هذه السورة التصريح بما أشير اليه فيما سلف .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

(١) سنن الترمذى ـ كتاب فضائل القرآن باب ما جاء فى اذا زلزلت ١٦٥/٥ رقم ٢٨٩٣
(٢) مجمع الزوائد ـ كتاب الأذكار ـ باب مايقوله اذا اوى الى فراشه ١٢١/١٠
(٣) مجمع الزوائد ـ كتاب الاذكار ـ باب مايقوله اذا أوى الى فراشه ١٢١/١٠
(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الحج ـ باب حجة النبى ـ ﷺ ٨٨٨/٢ رقم ١٢١٨
(٥) صحيح مسلم ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ٥٠٢/١ رقم ٧٢٦
(٦) مسند أحمد ٩٤/٢

معانى المفـــردات

لكم دينكم : أى شرككم وكفركم أو جزاؤه .

لى دين : إخلاصى وتوحيدى أو جزاؤه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **قل ياأيها الكافرون ، لاأعبد ماتعبدون ، ولاأنتم عابدون ماأعبد ، ولا أنا عابد ماعبدتم ولاأنتم عابدون ماأعبد لكم دينكم ولى دين** ﴾

هذه السورة الكريمة سورة البراءة من العمل الذى يعمله المشركون وهى آمرة بالاخلاص فيه فقوله تعالى : ﴿ **قل ياأيها الكافرون** ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ولكن المواجهون بهذا الخطاب هم كفار قريش وقيل : إنهم من جهلهم دعوا رسول الله ـ ﷺ ـ إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله ـ ﷺ ـ فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية فقال : (**لاأعبد ماتعبدون**) يعنى من الاصنام والانداد . ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ أى : ولاأنتم تعبدون معبودى . ومعبوده هو كان صلى الله عليه وسلم عارفا به دونهم وهم جاهلون به .

قال ابن القيم : المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلا للعبادة مستحقا لها ، فأتى بـ « ما » الدالة على هذا المعنى . كأنه قيل : ولاأنتم عابدون معبودى الموصوف بأنه المعبود الحق . ولو أتى بلفظة « من » لكانت إنما تدل على الذات فقط ، ويكون ذكر الصلة تعريفا ، لا إنه هو جهة العبادة .

ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهل لأن يعبد ، وبين أن يكون تعريفا محضا أو صفا مقتضيا لعبادته فتأمل فانه بديع جدا . وهذا معنى قولة النحاة إن « ما » تأتى لصفات من يعلم . أ . هـ .

قوله تعالى : ﴿ **ولاأنا عابد ماعبدتم ، ولا أنتم عابدون ماأعبد** ﴾ أى : ولاأعبد عبادتكم أى : لاأسلكها ولاأقتدى بها وإنما أعبد الله على الوجه الذى يحبه ويرضاه ولهذا قال : ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ أى : لاتقتدون بأوامر الله وشرعه فى عبادته بل قد اخترعتم شيئا من تلقاء أنفسكم كما قال : ﴿ **ان يتبعون إلا الظن وماتهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى** ﴾[1] فتبرأ منهم فى جميع ماهم فيه ، فإن العابد لابد له من معبود يعبده وعبادة يسلكها اليه فالرسول ـ ﷺ ـ وأتباعه يعبدون الله بما شرعه ولهذا إن كلمة الإسلام لا إله إلا الله محمدا رسول الله ، أى : لامعبود بحق إلا الله ولاطريق اليه إلا ماجاء به الرسول ـ ﷺ ـ والمشركون يعبدون غير الله عبادة لم يأذن بها الله ولهذا قال لهم الرسول ـ ﷺ ـ : (لكم

---

(١) سورة النجم الآية : ٢٣

دينكم ولى دين) كقوله تعالى : ﴿ **وإن كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون** ﴾[١] .

وقال البخارى فى معنى هذه الآية : (لكم دينكم) : الكفر (ولى دين) الاسلام [٢].

فوائد وأسرار بديعة فى هذه السورة الكريمة

قال الامام ابن القيم ـ يرحمه الله ـ فى كتابه بدائع الفوائد ح ٣

الفائدة الأولى : فائدة تكرار الأفعال فقيل فيها وجوه :

أحداها : أن قوله : ﴿ **لاأعبد ماتعبدون** ﴾ نفى للحال والمستقبل .

وقوله : ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ مقابلة ، أي لاتفعلون ذلك .

وقوله : ﴿ **ولاأنا عابد ماعبدتم** ﴾ أى : لم يكن منى ذلك قط قبل نزول الوحى ، ولهذا أتى فى عبادتهم بلفظ الماضى ، فقال : (ماعبدتم) فكأنه قال : لم أعبد قط ماعبدتم

وقوله : ﴿ **ولاأنتم عابدون ماأعبد** ﴾ مقابلة ، أى لم تعبدوا قط فى الماضى ماأعبد أنا دائما .

وعلى هذا فلاتكرار أصلا . وقد استوفت الآيات أقسام النفى ماضيا وحالا ومستقبلا عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه ، وهذا إن شاء الله أحسن ماقيل فيها . فلنقتصر غليه ولانتعداه إلى غيره ، فإن الوجوه التى قيلت فى مواضعها فعليك بها .

الفائدة الثانية :

وأما المسألة الثانية ، وهى تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه وبلفظ الماضى حين أخبر عنهم نص ذلك سر ، وهو الاشارة والايماء إلى عصمة الله لنبيه عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده والاستبدال به غيره ، وأن معبوده الحق واحد فى الحال والمآل على الدوام ، ولايرضى به بدلا ، ولاينبغى عنه حولا ، بخلاف الكافرين فانهم يعبدون أهواءهم ويتبعون اليوم معبودا وغدا غيره . فقال : (لاأعبد ماتعبدون) يعنى الآن ، (ولا أنتم عابدون ماأعبد) أى الآن أيضا ثم قال : (ولاأنا عابد ماعبدتم) يعنى ولا أنا فيما يستقبل يصدر منى عبادة لما عبدتم أيها الكافرون ، واشبهت «ما» هنا رائحة الشرط ، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضى ، وهو مستقبل فى المعنى ، كما يجىء ذلك بعد حرف الشرط ، كأنه يقول : مهما عبدتم من شىء فلاأعبده أنا .

فان قيل : وكيف يكون فيها المشرط ، وقد عمل فيها الفعل ، ولاجواب لها وهي موصولة ، فما أبعد الشرط منها ؟

---

(١) سورة يونس الآية : ٤١

(٢) صحيح البخارى ٦/٢٢٠

قلنا : لم نقل : أنها نفسها شرط ، ولكن فيها رائحة منه ، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين وابهامها فى المعبودات وعمومها وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط باديا على صفحاته .

فإذا قلت لرجل ما ـ تخالفه فى كل مايفعل ـ أنا لاأفعل ماتفعل . ألست ترى معنى الشرط قائما فى كلامك وقصدك وإن روح هذا الكلام مهما فعلت من شىء فإنى لاأفعله ؟ . . .

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التى من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضى من قوله : (ولاأنا عابد ماعبدتم) بخلاف قوله : (ولاأنتم عابدون ماأعبد) لبعد «ما» فيها عن معنى الشرط تنبيها من الله تعالى على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه وأن ينتقل فى المعبودات تنقل الكافرين .

الفائدة الثالثة

وهى أنه لم يأت النفى فى حقهم إلا باسم الفاعل : وفى جهته جاء بالفعل تارة ، وباسم الفاعل أخرى .

فذلك ـ والله أعلم ـ لحكمة بديعة وهى : أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه وفى كل وقت . فأتى أولا بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد ، ثم أتى فى هذا النفى بعينه بصيغة اسم الفاعل فى الثانى . أن هذا ليس وصفى ولاشأنى ، فكأنه قال : عبادة غير الله لاتكون فعلا لى ولا وضعا لى . فأتى بنفيين مقصودين بالنفى : وأما فى حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل . أى : أن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتف عنكم ، فليس هذا الوصف ثابتا لكم ، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة ، ولم يشرك معه فيها أحدا ، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه . وان عبدوه فى بعض الأحيان . فإن المشرك يعبدك يعبدالله ويعبد معه غيره ، كما قال أهل الكهف : ﴿ وإذا اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله ﴾[1] أى : اعتزلتم معبوديهم إلا الله ، فإنكم لم تعتزلوه . . وكذا قال المشركون عن معبوديهم : ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾[2] منهم كانوا يعبدون معه غيره ، فلم ينف عنهم الفعل لوقوعه منهم ، ونفى الوصف لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتا على عبادة الله موصوفا بها .

فتأمل هذه النكتة البديعة ، كيد تجد فى طيها أنه لايوصف بأنه عابد لله ، وأنه عبده المستقيم على عبادته . إلا من انقطع إليه بكليته ، وتبتل اليه تبتيلا ، لم يلتفت إلى غيره ، ولم يشرك به أحدا فى عبادته ، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره ، فليس عابدا لله ، ولاعبدا له وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة

---

(١) سورة الكهف الآية : ١٦

(٢) الزمر الآية : ٣

الجليلة ، التى هى احدى سورتى الاخلاص ، التى تعدل ربع القرآن ، كما جاء فى بعض السنن . وهذا لايفهمه كل أحد ، ولايدركه إلا من منحه الله فهما من عنده . فله الحمد والمنة .

الفائدة الرابعة :

وهى أن النفى فى هذه السورة أتى بأداة «لا» دون «لن» فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفى بـ «لا» أبلغ منه بـ «لن» وأنها أدل على دوام النفى وطوله من «لن» وأنها للطول والمد الذى فى لفظها طال النفى بها واشتد ، وأن هذا ضد مافهمته الجهمية والمعتزلة من أن «لن» إنما تنفى المستقبل ولاتنفى الحال المستمر النفى فى الاستقبال ، وقد تقدم تقرير ذلك بما لاتكاد تجده فى غير هذا التعليق ، فالاتيان بـ «لا» متعين هنا .. والله أعلم .

الفائدة الخامسة

وهى : اشتمال هذه السورة على النفى المحض ، فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة ، فأنها سورة البراءة من الشرك ، كما جاء فى وصفها : أنها براءة من الشرك فمقصودها الأعظم هو البراءة المطلوبة من الموحدين والمشركين ولهذا أتى بالنفى فى الجانبين ، تحقيقا للبراءة المطلوبة . وهذا مع أنها متحفة للاثبات صريحا . فقوله : ﴿ لاأعبد ماتعبدون ﴾ براءة محضة ﴿ ولا أنتم عابدون ماأعبد ﴾ اثبات أن له معبودا يعبده وحده وأنتم بريئون من عبادته . فتضمنت النفى والاثبات وطابقت قول ابراهيم إمام الحنفاء : ﴿ إننى براء مما تعبدون إلا الذى فطرنى ﴾[1] وطابقت قول الفتة الموحدة : ﴿ وإذ اعتزلتموهم ومايعبدون إلا الله ﴾[2] فانتظمت حقيقة « لا إله إلا الله » ولهذا كان النبى - ﷺ - يقرنها بسورة (قل هو الله أحد) فى سنة الفجر وسنة المغرب .

فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص ، وقد اشتملتا على نوعى التوحيد الذى لا نجاة للعبد ولافلاح له إلا بهما ، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد ، وانه إله (أحد صمد لم يلد) فيكون له فرع ، (ولم يولد) فيكون له أصل (ولم يكن له كفوا أحد) فيكون له نظير . ومع هذا فهو الصمد الذى اجتمعت له صفات الكمال كلها .

فتضمنت السورة إثبات مايليق بجلاله من صفات الكمال ونفى مالايليق به من الشريك أصلا وفزعا ونظيرا فهذا توحيد العلم والاعتقاد .

والثانى : توحيد القصد والإرادة وهو : ألا يعبد إلا إياه فلا يشرك به فى عبادته سواه ، بل يكون وحده هو المعبود .

---

(١) سورة الزخرف الآيتان : ٢٦ ، ٢٧

(٢) الكهف الآية : ١٦

وسورة (قل ياأيها الكافرون) مشتملة على هذا التوحيد ، فانتظمت السورتان نوعى الوحيد واخلصتا له ، فكان - ﷺ - يفتتح بهما النهار فى سنة الفجر ، ويختتمه بهما فى سنة المغرب ، وفى السنن أنه - ﷺ - كان يوتر بهما » فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار .

الفائدة السادسة

ومن هنا تخريج جواب المسألة السادسة وهى . تقديم براءته من معبودهم ، ثم اتبعها ببراءتهم من معبوده فتأمله .

الفائدة السابعة

وهى : اثباته هذا بلفظ : ﴿ **ياأيها الكافرون** ﴾ دون ياأيها الذين كفروا فسره - والله أعلم - ارادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفا ثابتا له لازما لايفارقه ، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه ، ويكون هو أيضا بريئا من الله ، فحقيق بالموحد البراءة منه ، فكان فى معرض البراءة التى هى غاية البعد والمجانبة بحقيقة حالة ، التى هى غاية الكفر ، وهو الكفر الثابت اللازم ، فى غاية المناسبة ، فكأنه يقول : كما أن الكفر لازم ، لكم ثابت لاتنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة لى دائما ابدا ، ولهذا اتى فيها بالنفى الدال على الاستمرار فى مقابلة الكفر الثابت المستمر . وهذا واضح .

الفائدة الثامنة :

وهى : ماهى الفائدة فى قوله : ﴿ **لكم دينكم ولى دين** ﴾ وهل أفاد هذا معنى زائد على ماتقدم ؟

فيقال . فى ذلك من الحكمة - والله أعلم - أن النفى الأول أفاد البراءة وأنه لايتصور منه ، ولاينبغى له : أن يعبد معبوديهم ، وهم أيضا لايكونون عابدين لمعبوده ، وأفاد آخر السورة اثبات ماتضمنته النفى من جهتهم من الشرك والكفر الذى هو حظهم وقسيمهم ونصيبهم ، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضا فقال له : لاتدخل فى حدى ، ولا أدخل فى حدك ، لك أرضك ، ولى أرضى .

فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا ، فأصابنا التوحيد والإيمان ، فهو نصيبنا وقسمنا الذى نختص به لاتشركونا فيه ، وأصابكم الشرك بالله والكفر به ، فهو نصيبكم وقسمكم الذى تختصون به لانشرككم فيه ، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه .

(وهذه المعانى ونحوها إذا تجلت للقلوب رافلة فى حالها ، فإنها تسبى القلوب) .

وهذه المعانى ونحوها إذا تجلت للقلوب ، رافلة فى حللها ، فإنها تسبى القلوب وتأخذ بمجامعها ، ومن لم يصادف من قلبه حياة ، فهى خود تزف إلى ضرير مقعد ، فالحمد لله على مواهبه التى لا منتهى لها ، ونسأله اتمام نعمته .

الفائدة التاسعة .

وهى : تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه ، وفى أول السورة قدم ما يختص به على ما يختص بهم .

فهذا من أسرار الكلام ، وبديع الخطاب ، الذى لا يدركه الا فحول البلاغة وفرسانها ، فإن السورة ما اقتضت البراءة واقتسام دينى التوحيد والشرك بينه وبينهم ، ورضى كل بقسمه ، وكان المحق هو صاحب القسمة ، وقد أبرز النصيبين وميز القسمين ، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون ، الذى لا أردأ منه ولا أدون ، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف ، والحظ الأعظم ، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سماً وشفاء ، فرضى مقاسمه بالسم ، فإنه يقول له : لا تشاركنى فى قسمى ، ولا أشاركك فى قسمك ، لك قسمك ، ولى قسمى .

فتقدم ذكر قسمة هنا أحسن وأبلغ ، كأنه يقول : هذا هو قسمك الذى آثرته بالتقديم ، وزعمت أنه أشرف القسمين ، وأحقها بالتقديم ، فكان فى تقديم ذكر قسمه من التهكم بهم ، والنداء على سوء اختيارهم ، وقبح ما رضوه لأنفسهم من الحسن والبيان ، مالا يوجد فى ذكر تقديم قسم نفسه ، والحاكم فى هذا هو الذوق ، والفطن يكتفى بأدنى إشارة ، وأما غليظ الفهم فلا ينجح فيه كثرة البيان .

ووجه ثان . وهو : أن مقصود السورة براءته ـ صلى الله عليه وسلم ـ من دينهم ومعبودهم ، هذا هو لبها ومغزاها ، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثانى ، مكملا لبراءته ومحققا لها ، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به فى أول السورة ، ثم جاء قوله : ﴿ **لكم دينكم** ﴾ مطابقاً لهذا المعنى ، أى لا أشارككم فى دينكم ، ولا أوافقكم عليه ، بل هو دين باطل ، تختصون أنتم به ولا أشارككم فيه أبداً ، فطابق آخر السورة أولها ، فتأمل ا . هـ .

تفسير سورة النصـــر

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية .

عدد آياتها : ثلاث .

وكلماتها : ست وعشرون .

وحروفها : أربع وسبعون .

فواصل آياتها : على الحاء والألف وليس فى القرآن آية على الحاء غير الفتح .

سميت سورة النصر ، لقوله ﴿ **إذا جاء نصر الله** ﴾ ، وسورة التوديع ، لما فيه من بيان نعى المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

معظم مقصود السورة :

بيان نعيه صلى الله عليه وسلم ، وذكر تمام نصرة أهل الإسلام ، ورغبة الخلق فى الإقبال على دين الهدى وبيان وظيفة التسبيح والاستغفار ، والأمر بالتوبة فى آخر الحال بقوله : ﴿ **واستغفره إنه كان توابا** ﴾ .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه لما ذكر فى السورة السابقة اختلاف دين الرسول الذى يدعو إليه ، ودين الكفار الذى يعكفون عليه ، أشار فى هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن الدين الذى يدعو إليه سيغلب عليه ، ويكون هو دين السواد الأعظم من سكان المعمورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾
فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

معانى المفردات

﴿ النصر ﴾ العون . يقال نصر الأخ أخاه ، أعانه على أمره فالنصر الإعانة على إدراك المطلوب .

﴿ والفتح ﴾ هو إدراك المطلوب ، فكأنما النصر سبب للفتح ، فكان البدء به ثم التعقيب بالفتح . ومن معانى الفتح ـ الفصل والحكم بين المتنازعين يقول تعالى : ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾[1] .

﴿ أفواجا ﴾ وأحدهم فوج ، وهو الجماعة والطائفة .

﴿ واستغفره ﴾ أى اسأله أن يغفر الذنوب لقومك الذين اتبعوك .

(توابا ﴾ أى كثير القبول لتوبة عباده .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره ربه بالنعمة والفضل عليه وسائر المؤمنين ، والمعنى : إذا نصرك الله يا محمد على أعدائك ، وفتح عليك مكة أم القرى ، قال المفسرون : الإخبار بفتح مكة قبل وقوعه إخبار بالغيب ، فهو من أعلام النبوة .

قال القرطبى : قيل : المراد بهذا النصر ، نصر الرسول على قريش ، قاله الطبرى . وقيل : نصره على من قاتله من الكفار ، فإن عاقبة النصر كانت له ، وأما الفتح فهو فتح مكة ، عن الحسن ومجاهد وغيرهما وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : هو فتح المدائن والقصور . وقيل فتح سائر البلاد . « وإذا » بمعنى « قد » أى قد جاء نصر الله ، لأن نزولها بعد الفتح . ويمكن أن يكون معناه : إذا يجيئك . ا . هـ .

قوله تعالى : ﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ﴾ أى ورأيت العرب وغيرهم يدخلون فى دين الله ـ الاسلام . جماعات جماعات من غير حرب ولا قتال ، وذلك لما فتحت مكة ، قالت العرب : أما إذا ظفر محمد بأهل الحرم وقد كان الله أجارهم من أصحاب الفيل ، فليس لكم به يدان ـ أى طاعة ، فكانوا يسلمون أفواجاً أمة أمة ، وذلك أنه ورد من اليمن سبعمائة انسان مؤمنين طائعين ، بعضهم يؤذنون ، وبعضهم يقرءون القرآن ، وبعضهم يهللون ، فسُر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك وبكى عمر وابن عباس .

---

(١) الأعراف آية : ٨٩

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أتاكم أهل اليمن هم أضعف قلوباً وأرق أفئدة ، الفقه يمان والحكمة يمانية »(١) .

قوله تعالى : ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً** ﴾ أى إذا صليت فأكثر من ذلك وقيل : معنى سبح : صل ، عن ابن عباس . (بحمد ربك) أى حامداً له على ما آتاك من الظفر والفتح (واستغفره) أى سل الله الغفران .

روى الأئمة واللفظ للبخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة بعد أن نزلت عليه سورة ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ إلا يقول : « سبحانك ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى » وعنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لى »(١) . يتأول القرآن .

وقال عكرمة رضى الله عنه : لم يكن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قط أشد اجتهاداً فى أمور الآخرة ما كان منه عند نزولها .

وقال مقاتل : لما نزلت قرأها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أصحابه : ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص ، ففرحوا واستبشروا وبكى العباس ، فقال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ما يبكيك يا عم » ؟ قال : نعيت إليك نفسك . قال : « إنه لكما تقول » فعاش بعدها ستين يوماً ما رئى فيها ضاحكاً مستبشرا . وقيل : نزلت فى منى بعد أيام التشريق فى حجة الوداع ، فبكى عمر والعباس ، فقيل لهما : أن هذا يوم فرح . فقالا : بل فيه نعى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « صدقتما نعيت إلىَّ نفسى » .

وفى البخارى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدر ويأذن لى معهم . قال فوجد بعضهم من ذلك فقالوا : يأذن لهذا الفتى معنا ومن أبنائنا من هو مثله فقال لهم عمر : إنه مَن قد علمتم . قال : فأذن لهم ذات يوم وأذن لى معهم ، فسألهم عن هذه السورة ﴿ **إذا جاء نصر الله** ﴾ فقالوا : أمر الله عز وجل نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا فتح عليه أن يستغفره وأن يتوب إليه ، فقال : ما تقول يابن عباس ؟ قلت : ليس كذلك ، ولكن أخبر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حضور أجله ، فقال : ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ فذلك علامة موتك . ﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ فقال عمر رضى الله عنه : ما أعلم منها إلا ما تقول »(٢) وروى الترمذى قال : كان عمر يسألنى مع أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتسأله ولنا

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص٧٢ كتاب الايمان باب تفاضل أهل الايمان فيه ورجحان أهل اليمن فيه رقم ٥٢/٨٤
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٢٠ كتاب التفسير باب سورة إذا جاء نصر الله .
(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ كتاب التفسير باب سورة إذا جاء نصر الله والفتح .

بنون مثله ؟ فقال له عمر : إنه من حيث نعلم . فسأله عن هذه الآية ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ **فقلت**: إنما هو أجَل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أعلمه إياه ، وقرأ السورة إلى آخرها . فقال له عمر : والله ما أعلم منها إلا ما تعلم . قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **إنه كان توابا** ﴾ أى على المسبحين والمستغفرين ، يتوب عليهم ويرحمهم ، ويقبل توبتهم .

وإذا كان عليه الصلاة والسلام يؤمر بالاستغفار وهو المعصوم فما الظن بغيره .

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من قول « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » قالت : فقلت : يا رسول الله ، أراك تكثر من قول « سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه » ؟ فقال : « خبَّرنى ربى أنى سأرى علامة فى أمتى ؟ فإذا رأيتها أكثرت من قول سبحان الله وبحمده ، أستغفر الله وأتوب إليه ، فقد رأيتها »[2] ﴿ **إذا جاء نصر الله والفتح** ﴾ ـ فتح مكة ـ ﴿ **ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** ﴾ . وصلى وسلم ربنا على محمد وآله وأصحابه الذين هاجروا وجاهدوا ورابطوا فى سبيل الله .

« لا إله إلا الله وحده ، أعز جنده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شىء بعده » .

اللهم يا حى ، يا قيوم ، يا مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير ، نسألك أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد ، يعز فيه أهل طاعتك ، ويذل فيه أهل معصيتك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر ، ونسألك أن تطهر بالتوبة النصوح فساد قلوبنا ، وأن تجمع قلوبنا على خشيتك ، وأن تهدينا إلى أقرب الطرق إليك برحمتك يا أرحم الراحمين .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ٤١٦ ، ٤٢٠ كتاب تفسير القرآن باب من سورة النصر رقم ٣٣٦٢
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص ٣٥١
كتاب الصلاة . باب ما يقال فى الركوع والسجود . رقم ٢٢٠/٤٨٤

تفسير سورة
(المسـد)

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مكية .

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : سبع وسبعون .

فواصل آياتها : (تبَّ) .

وتسمى سورة تبت ، وسورة المسد لذكرها فيها .

مقصود السورة :

تهديد أبى لهب على الجفاء والإعراض ، وضياع كسبه وأمره ، وبيان ابتلائه يوم القيامة ، وذم زوجه فى إيذاء النبى صلى الله عليه وسلم ، وبيان ما هو مدخر لها من سوء العاقبة .

ومن المتشابه :

قوله تعالى : ﴿ تبت ﴾ وبعده ﴿ وتب ﴾ هذا ليس بتكرار ، لأن الأول جرى مجرى الدعاء ، والثانى خبر ، أى وقد تب .

مناسبة السورة لما قبلها :

أنه ذكر فى السورة السابقة ، أن ثواب المطيع حصول النصر والاستعلاء فى الدنيا ، والثواب الجزيل فى العقبى ، وهنا ذكر أن عاقبة العاصى الخسارة فى الدنيا والعقاب فى الآخرة ، والاتساق بين هذه السورة وسورة (النصر) التى قبلها اتساق تام كامل ، فسورة « النصر » ختمت بذكر المهتدين الذين أحيوا أنفسهم ، ودخلوا فى دين الحق أفواجا ، فبقى الفريق الذى جحد الحق ، وعادى دعوته ، فخسر نفسه وأهلك إنسانيته .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

معانى المفردات

﴿ التباب ﴾ الهلاك والخسران. قال تعالى : ﴿ وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾[1].

﴿ وأبو لهب ﴾ أحد أعمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ واسمه عبد العزى بن عبد المطلب.

﴿ وتب ﴾ أى قد تب وخسر.

﴿ يصلى ناراً ﴾ أى يجد حرها ويذوقه.

﴿ ذات لهب ﴾ لهب النار : ما يسطع منها عند اشتعالها وتوقدها.

﴿ الجيد ﴾ العنق.

﴿ المسد ﴾ الليف.

التفسـير

قوله تعالى : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ دعاء بهلاك اليدين، لأنهما آلة البطش والعدوان، ثم دعاء بعد ذلك بهلاك شامل لصاحب اليدين، أو الأولى دعاء، الثانية إخبار بأن الدعاء قد أجيب فعلاً، وأن الهلاك قد تحقق. (وأبو لهب) كنية لهذا الطاغية الجبار واسمه (عبد العزى) بن عبد المطلب فهو عم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقد امتازت عداوته الشديدة لابن أخيه، بتكالب واستماتة لفشل الدعوة المحمدية والصد عن سبيل الله.

وهذه الكنية، إما كانت لهذا الطاغية فى الجاهلية، لأن فى وجهه التماعاً وسطوعاً، فذكرها الكتاب الحكيم لا تكرمة له، ولا تعظيماً لشأنه، بل تهكماً به، وسخرية منه. فما تنفع وسامة الطلعة فى سواد القلب، يوم تقلب وجوههم فى النار.

وأما كنّاه بها القرآن، لأول مرة، ولم يكن له بذلك الكنية عهد فى الجاهلية، فنسبه إلى اللهب الذى سيتعذب به، وذلك أسلوب عربى سائغ، فكما تقول للرجل الخير أبا الخير، وللبار أبا البر، وللمحسن أبا الإحسان كذلك، تقول للشرير أبا الشر، وللمسىء أبا السوء، فهذه التكنية حددت مصيره، فجعلته

(١) غافر آية : ٣٧

رجلاً جهنمياً ملازماً لجهنم ، ملازماً للهب ، لهذا السعير المتأجج . فالكنية ، هنا تهكم وتشهير ، والتوافق بين مصير عبد العزى وبين كنيته القرآنية توافق قد احكم وضعه ، وسمت بلاغته .

ثم يروعنا فى تلك السورة ، أسلوب فريد فى الإرهاب والتشهير ، فالسورة تصب الوعيد صباً ، وتصور العذاب تصويراً ، وتسم الأثيم بوصمة وسبة ، تبقى أبد الآبدين ، عبرة للمعتبرين ، ثم هى تذكر امرأة جامحة آثمة ، جمعت إلى عدواتها للحق ، استشراءها فى تقطيع المودات ، وفصم الوشائج والصلات ، وإشاعة السوء فى المجتمع ، كى يصبح شعلة من نيران العداوة والبغضاء ، بما تبثه من النمائم بين الناس . ذكرت السورة ، فى الأسلوب اللاذع الرهيب ، هاتين الشخصيتين ، عبد العزى ـ أبا لهب ـ وامرأته ـ أم جميل ـ حمَّالة الحطب ، لا لأنهما عدوان لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولا لأنهما أمعنا فى الإساءة الى شخصه الكريم ، فكثير سواهما قد أمعن فى الإيذاء ، وبالغ فى العدوان من أمثال ، أبى جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، وعقبة بن أبى معيط ، والأسود بن المطلب ، والوليد بن المغيرة . فكل هؤلاء عادى محمد صلى الله عليه وسلم وكل هؤلاء آذاه وحسده ، وجحد بنوته ، ومع هذا ، لم يذكر واحد منهم فى الآيات البينات بوضوح وجلاء ، كما ذكر أبو لهب وامرأته موسومان بالسبة الأبدية الرادعة .

فما سر هذا التمييز بين المجرمين والتخصيص بين الآثمين ؟

لعل تخصيص هاتين الشخصيتين ـ أبى لهب وامرأته ـ بهذا الأسلوب الحار المتأجج من الوعيد ، راجع إلى ما انفرد به أبو لهب من العدوان والبغضاء للدعوة الإسلامية ولدين التوحيد فى أصوله ، فلقد تجاوز أبو لهب كراهة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى كراهة دعوته ، كراهة محرمة آثمة طاغية ، فكان جدّ حريص على تعويق الدعوة ، وعلى صد الناس عنها ، لا يهدأ ولا يستقر ، أو يفسد أمر هذا الدين الحنيف ، ويتبدد ضياء الحق المبين .

كان من دأب أبى لهب أنه لا يقتصر عن تكذيب ـ محمد صلى الله عليه وسلم ـ بل لقد كان يتعقبه فى غدوه ورواحه ، فى ليله ونهاره ، منفردا ومجتمعاً . ثم لا يألوا فى صد الناس عن سبيل الحق ، وكلما رأى النور يقتحم اغلاق الصدور ، وينفذ فى ظلمات الشرك ، ذهب يتردى فى سوآته حريصاً جاهداً أن تنطفىء جذوة التوحيد ، وهاكم ما قاله رجل جاهلى ، حضر سوقاً من الأسواق الجاهلية ، وهذا الرجل هو طارق المحاربى ، قال : بينما أنا بسوق ذى المجاز إذ برجل حديث السن يقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا . وإذا خلفه رجل يرميه بالحجارة حتى أدمى ساقيه ، وهو يصيح : أيها الناس : إنه كذّاب فلا تصدقوه . فقلت من هذا ، فقالوا : هو محمد ، يقول : إنه نبى ، وهذا عمه ، عبد العزى يزعم أنه كذاب .

هكذا كان يتبع أبو لهب محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ أينما سار ، وحيثما رحل ، وكلما شاهده ينذر الناس ، ويحذرهم من عذاب الله ، هاج هائجه ، واضطرم غيظه وراح يعقب على أحسن الحديث ، بحديث الحاقد الآفك . إذن لم تكن عدواته لشخص الرسول ، بل لدعوة الرسول ، ولعقيدة الرسول ،

وهو فى حرصه على خذلان الدعوة كالنمر والكلب لا يهدأ ولا يسكن ، لا يستقر ولا يستريح ولا يدع سبيلا لهدى محمد إلى قلوب الناس .

روى أحمد والشيخان والترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يكتم أمره فى أول المبعث ، ويصلى فى شعاب مكة ثلاث سنين . إلى أن نزل قوله تعالى : ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ فصعد الصفا ونادى : « يا آل غالب . يا آل لؤى . يا آل مره ، يا آل كلاب . يا آل قصى . فخرجوا إليه » وجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر الخبر . وخرج معهم (أبو لهب) .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عنيكم . أكنتم مصدقى ؟؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فبادر أبو لهب . وقال : تباً لك سائر الأيام . ألهذا جمعتنا ؟ ثم تناول حجراً بيده ليرمى به محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلت السورة ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾[1] .

قوله تعالى : ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ .

وقد وقع هذا فعلاً ، فإن (أبا لهب) بعد دعوة القرآن عليه ـ قد ناله الهلاك والتباب على صورة ذليلة حقيرة ، فلا المال أجدى عليه ، ولا أبقى له حنان الأبناء والأقرباء ، (وما كسب) أى شىء وكان كسبه بهذا المال ؟ لقد كسب به آثاما وعقوقاً وكفراً وجحوداً ، ثم مات حليف الهموم والأحزان ، طريداً من عشيرته ، قد أذله الوباء ، وأعوزه من أهله الوفاء .

ويروى (أبو رافع) مولى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حادثة هلاكه فيقول : « لقد تخلف (أبو لهب) عن بدر ، وبعث مكانه العاص بن هشام ، وكان الرجل منهم إذا تخلّف ، بعث مكانه رجلاً آخر ، فبينما نحن جلوس بجوار زمزم ، إذ أقبل أبو سفيان راجعاً من بدر ، فسأله (أبو لهب) عن أنباء الحرب ، فطفق يذكر أنباء الهزيمة التى حلت بالمشركين فى بدر ، وأنه شاهد فى صفوف محمد رجالا لا عهد له بهم ، فوق ظهور خيل مسومة ، فقال أبو رافع : هؤلاء والله الملائكة ، فغضب (أبو لهب) وشج رأس أبى رافع ، فقامت أم الفضل بنت العباس عم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهى فتاة ناشئة قد أسلمت ، قامت فقذفت بعمود من أعمدة الخيام رأس (أبى لهب) فشجته ، وهى تقول : « والله لقد صدق فيما قال » .

فانصرف (أبو لهب) ذليلاً حزيناً ، وما عاش الا سبع ليال بعد بدر إذ رماه الله بالعدسَه ، فأودت به ، والعدسة (بثرة) خبيثة ، ترى فى ظاهر الجسم ، وهى وباء يتقى منه ، ولهذا تركه أبناؤه وأتباعه وهو

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص ١٩٣ ، ١٩٤ كتاب الايمان باب قوله تعالى « وأنذر عشيرتك الأقربين » . رقم ٨/٣٥٥ انظر سنن الترمذى حـ٥ ص ٤٢٠ كتاب التفسير باب ومن سورة تبت يدا . رقم ٣٣٦٣ .

ميت فراراً من العدوى ، فجاء بعض العبيد وحملوه وقذفوا به فى حفرة نائية ، وهالوا عليه الحجارة والتراب ، فحقاً لقد مات ميتة البائسين الأذلاء ، ما أغنى عنه ماله وما كسب .

وقوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ السين هنا ـ لتأكيد الوعيد ، والتنوين فى (ناراً) لتعظيم أمرها ، وأنها نار فوق مدارك العقول (ذات لهب) تصوير لما فيها من آلام وعذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وامرأته حمّالة الحطب ﴾ ستصلى معه ذلك العذاب المهين ، وامرأته هى (أم جميل) بنت حرب ، أخت أبى سفيان ، وعمة معاوية ، وكانت امرأة جامحة فى عدائها ، فكانت تجمع الشوك والحطب ، وتلقى به فى طريق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليتأذى ويتألم ، ثم هى أيضاً كانت تمشى بالنميمة ، وتعمل جاهدة على بذر الشقاق ، وبث الكراهية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والعرب تقول لمن ديدنه النمائم والافساد بين الناس : أنه يحمل الحطب ، أى يوقد بينهم النار ، ويورث الشر ، فالحطب شعار للنميمة ، والمقصود أنها تشعل الفتن ، وتثير النفوس ضد محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قوله تعالى : ﴿ فى جيدها حبل من مسد ﴾ أى فى عنقها حبل مما مُسد من الحبال ، أى أحكم فتله ، وقد صورها الله تعالى بصورة من تحمل تلك الحزمة من الشوك ، وتربطها فى جيدها ، كبعض الحطّابات المستهنات احتقارا لها ، واحتقاراً لبعلها . حين اختارت ذلك لنفسها .

ويرى بعض العلماء أن المراد بيان حالها ، وهى فى نار جهنم ، إذ تكون على الصورة ، التى كانت عليها فى الدنيا ، حين كانت تحمل الشوك ايذاء لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهى لا تزال تحمل حزمة من حطب النار ، ولا يزال فى جيدها حبل من سلاسلها ، ليكون جزاؤ ها من جنس عملها ، فقد روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كانت لأم جميل قلادة فاخرة ، فقالت لأنفضنها فى عداوة محمد ، فأعقبها الله حبلاً فى جيدها من مسد النار .

ما أعظم هذا الوعيد ، الذى سجل الله له الخلود ، وعيد الذين يعادون الحق ويجانبون الخير ، ووعيد الذين يمشون بالنمائم ، فيمزقون الأعراض ، ويهدمون الأخلاق ، فكل من وقف فى سبيل الحق ، وكل من عوق عن طريق الخير ، وكل قاطع لما أمر الله به أن يوصل من أخوة ، ومن مودة ، فله مثل هذا الوعيد ، وهو شريك لأبى لهب ، شريك لحمّالة الحطب .

نعوذ بالله من أمثال أبى لهب ، ومن أمثال حمّالة الحطب .

قال العلماء :

فى هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ، فإنه منذ نزل قوله تعالى : ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمّالة الحطب فى جيدها حبل من مسد ﴾ فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الايمان ، لم يقض لهما أن يؤمنا ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً ، لا سراً ولا معلناً ، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الطاهرة .

تفسير سورة الأخلاص

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر .

السورة مكية .

عدد آياتها : أربع .

وكلماتها : احدى عشرة .

وحروفها : سبع وأربعون .

فواصل آياتها : على الدال .

ولها عشرون اسماً :

سورة التوحيد ، وسورة التفريد ، وسورة التجريد ، وسورة الاخلاص ، وسورة النجاة ، وسورة الولاية ، والسابع سورة المعرفة ، الثامن سورة الجمال ، التاسع المقشقشة وقد سبق فى (قل يا أيها الكافرون) العاشر الأمان ، لأنه روى « إذا قال العبد بقلبه لا إله إلا الله دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن عذابى »[1] الحادى عشر : المعوذة لما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم دخل على عثمان بن مظعون فعوذه بها الثانى عشر سورة الصمد ، الثالث عشر : الأساس ، الرابع عشر : المانعة كما يروى ابن عباس : إذ هى مانعة العذاب عما ينزه الله . الخامس عشر : المُحضرة ، لأن الملائكة تحضر لاستماعها الحق ، وموقظة الضمائر الغافلة ولا مجال للشيطان الا عند غفلة الضمائر . السابع عشر : البراءة أى المنافق . الثامن عشر : المذكرة التاسع عشر الشافية ، العشرون سورة النور ، لما فى الخبر إن لكل شىء نورا ونور القرآن (قل هو الله أحد) .

معظم مقصود السورة :

بيان الوحدانية ، وذكر الصمد ، وتنزيه الحق عن الولد والوالد والولادة ، والبراءة من الشركة والشريك فى المملكة .

(١) انظر كنز العمال حـ ١ ص ٥٤ رقم ١٦٧

ومن المتشابه : قوله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾ كرر ليكون كل جملة بها مستقلة بذاتها غير محتاجة إلى ما قبلها ، ثم نفى عنه سبحانه الولد بقوله : ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ والصاحبة بقوله : ﴿ ولم يكن له كفوا أحد ﴾ .

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

فضل السورة الكريمة :

ـ ثبت فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد » . فلما أصبح جاء إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر ذلك له ، وكان الرجل يتقالها ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[1] .

ـ وعنه قال قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن فى ليلة » فشق ذلك عليهم وقالوا : أينا يطيق ذلك يا رسول الله ؟ فقال : « الله الواحد الصمد ثلث القرآن » .

وخرجه مسلم من حديث أبى الدرداء بمعناه[2] .

ـ وخرج عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « احشدوا فإنى سأقرأ عليكم ثلث القرآن » فحشد من حشد ، ثم خرج نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقرأ « قل هو الله أحد » ثم دخل فقال بعضنا لبعض : إنى أرى هذا خبراً جاءه من السماء ، فذاك الذى أدخله . ثم خرج فقال : « إنى قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا إنها تعدل ثلث القرآن »[3] قال القرطبى : قال بعض العلماء إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم الذى هو « الصمد » فإنه لا يوجد فى غيرها من السور وكذلك « أحد » . وقيل : إن القرآن أنزل ثلاثاً ، ثلثاً منه أحكام وثلثاً منه وعد ووعيد ، وثلثاً منه أسماء وصفات ، وقد جمعت (قل هو الله أحد) أحد الأثلاث ، وهو الأسماء والصفات ، ودل على هذا التأويل ما فى صحيح مسلم من حديث أبى الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل جزأ القرآن ثلاثة أجزاء فجعل (قل هو الله أحد) جزءاً من أجزاء (القرآن)[4] .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٣٣ كتاب فضائل القرآن فضل سورة قل هو الله أحد .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٣٣ كتاب فضائل القرآن .
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه حـ١ ص ٥٥٧ كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٨١٢/٢٦١
(٤) أخرجه مسلم حـ١ ص٥٥٦ كتاب صلاة المسافرين . باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٢٦٠/ ٨١١

ـ وروى الامام مسلم عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه فى صلاتهم فيختم بـ (قل هو الله أحد) ، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : « سلوه لأى شىء يصنع ذلك » ؟ فسألوه فقال : لانها صفة الرحمن ، فأنا أحب أن أقرأ بها ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « أخبروه أن الله عز وجل يحبه »[١] .

وعند الترمذى . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن حبها أدخلك الجنة » .

ـ وأخرج الترمذى عن أبى هريرة قال : أقبلت مع النبى صلى الله عليه وسلم فسمع رجلاً يقرأ (قل هو الله أحد) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وجبت » قلت « وما وجبت » قال : « الجنة » قال الترمذى حديث حسن صحيح[٢] .

ـ وأخرج النسائى والترمذى وابن ماجه من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه ، أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمع رجلاً يقول : « اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب »[٣] .

ـ وقال الامام أحمد بسنده عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنى عن أبيه عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من قرأ قل هو الله أحد حتى يختمها عشر مرات بنى الله له قصراً فى الجنة » فقال عمر : إذا نستكثر يا رسول الله ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « الله أكثر وأطيب » . تفرد به أحمد[٤] ورواه الدارمى فى مسنده عن سعيد بن المسيب يقول أن نبى الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : من قرأ قل هو الله أحد عشر مرات بنى الله له قصراً فى الجنة ومن قرأها عشرين مرة بنى الله له قصرين فى الجنة ، ومن

(١) أخرجه مسلم جـ١ ص ٥٥٧ كتاب صلاة المسافرين . باب فضل قراءة قل هو الله أحد رقم ٨١٣/٢٦٣
(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ١٥٤ كتاب فضائل القرآن . باب ما جاء فى سورة الاخلاص . رقم : ٩٧
(٣) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ٤٨١ كتاب الدعوات . باب جامع الدعوات عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رقم ٤٧٥ انظر النسائى فى الكبرى والنعوت ، وابن ماجه فى الدعاء . باب اسم الله الأعظم .
(٤) أخرجه الامام أحمد فى سنده جـ٣ ص ٤٣٧

قرأها ثلاثين مرة بنى الله له ثلاثة قصور فى الجنة « فقال عمر بن الخطاب : إذا نكثر قصورنا ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الله أوسع من ذلك » قال ابن كثير وهذا مرسل جيد »(١) .

ـ وقال البخارى عن عائشة رضى الله عنها أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما وقرأ فيهما قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات (٢) .

مناسبة السورة لما قبلها .

قال السيوطى : قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان فى اللفظ بين فواصلها .

ومقطع سورة تبت .

وأقول : ظهر لى هنا غير الوزان فى اللفظ ، أن هذه السورة متصلة بـ (قل يا أيها الكافرون) فى المعنى ، ولهذا قيل : من أسمائها أيضا الأخلاص . وقد قالوا : أنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضا مشتملة عليه ، ولهذا قرن بينهما القراءة فى الفجر ، والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة .

وانما فصل بين النظيرتين بالسورتين (أى النصر وتبت) لما تقدم من الحكمة وكان إيلاؤها سورة تبت ورد عليه بخصوصه .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .

قال الامام أحمد عن أبى بن كعب أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم يا محمد أنسب لنا ربك فأنزل الله تعالى ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾(٣) . وكذا رواه الترمذى . وقال عكرمة لما قالت اليهود : نحن نعبد عزير ابن الله ، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن الله ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركين : نحن نعبد الأوثان ، أنزل الله على رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (قل هو الله أحد) يعنى هو الواحد الأحد الذى لا نظير له ولا وزير ولا نديد ولا شبيه ولا عديل ، ولا يطلق هذا اللفظ على أحد فى الإثبات إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل فى جميع صفاته وأفعاله .

---

(١) أخرجه الدارمى فى سننه حـ٢ ص ٢٣٠ كتاب فضائل القرآن باب فضل قل هو الله أحد .
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٦ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ كتاب فضائل القرآن . باب « فضل المعوذات » .
(٣) أخرجه الترمذى فى سننه حـ٥ ص ١٢١ كتاب تفسير القرآن باب سورة الاخلاص رقم ٣٤٢٣

فهذا الأمر من الله تعالى فى مفتتح السورة ، منبه للنفوس ، مفتح للقلوب ، حتى يتفرغ الانسان لما سيتقرر من اثبات الأحدية والصمدية ، ونفى الولادة والتولد ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ولقد كانت ضروب الشرك متباينة ، ومذاهب المشركين متعددة ، فهناك عبدة الأصنام ، وعبدة الكواكب والنجوم ، وهناك عبدة النيران ، وهناك من يزعم الها للخير والها للشر ، وللريح إله ، وللجمال إله ، فلجميع هؤلاء الذين يرتدون فى ظلمات الاشراك ، وبذلوا انسانيتهم ، لمن لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ـ لجميع هؤلاء يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن (قل) لهم (هو) أى الأمر والشأن ، والحال ، والواقع (الله أحد) . فهذا أسلوب عربى بليغ وضمير (هو) يسمى ضمير الشأن ، أو القصة ، ويأتى دائماً عندما يراد تقرير حقيقة اختلف فيه الناس ، فهم منها فى أمر مريج ، فيكون فصل الخطاب فى هذا الشأن الخطير ، والأمر العظيم مبدوءاً بـ (هو) فلا مؤثر فى الأكوان سواه ، وكل من فى الوجود يفنى ويتغير وينعدم :

(كل شىء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون)[1] .

وإنك لتنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وما خلق الله من شىء ، فتجد نظام الأفلاك ، ودوران الكواكب ، واختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الفصول ، وكل ما يقع عليه الحس ، ويدركه العقل ، كل هذا يوحى بأن هذه العوالم المحكمة البناء ، المؤتلفة الحركات ، الموحدة النظام ، تبعث فى الفكر أنها ذات نظام موحد متسق ، وأن حياة كل جزء متمم لحياة الأجزاء الأخرى ، ومرتبط ببعضها ببعض كل الارتباط .

قال تعالى : **﴿ والهكم إله واحد ، لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم ، إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾**[2] .

وقال تعالى :

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من

---

(١) القصص آية : ٨٨

(٢) البقرة آية : ١٦٤

أعناب ، والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾(١) .

وقال جل وعلا :

﴿ خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون ﴾(٢) .

وقال تعالى :

﴿ قل من رب السموات والأرض ، قل الله ، قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور ، أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقة فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴾(٣) .

سبحانك اللهم أنت الواحد   كل الوجود على وجودك شاهد
يا حى يا قيوم أنت المرتجى   وإلى علاك عنى الجبين الساجد

أخا الاسلام :

تأمل فى نبات الأرض وانظر   إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات   بأبصار هى الذهب السبيك
على قضيب الزبرجد شاهدات   بأن الله ليس له شريك

قوله تعالى : ﴿ الله الصمد ﴾ نفى لكل معبود سوى الله ، إذ هو سبحانه وحده المقصود فى العالم ، ومنه وحده المدد والعون ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ الله الصمد ﴾ أى الذى يصمد إليه فى الحاجات ، كما قال عز وجل : ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾(٤) وقال القرطبى : قال أهل اللغة : الصمد السيد الذى يصمد إليه فى النوازل والحوائج .

وقال قوم : الصمد الدائم الباقى ، الذى لم يزل ولا يزال ، وقيل تفسيره ما بعده ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ وهو تفسير جيد .

---

(١) الأنعام الآيات : ٩٥ - ٩٩
(٢) الزمر الآيتان : ٥ ، ٦
(٣) الرعد آية : ١٦
(٤) النحل آية : ٥٣

وقال أبو هريرة : إنه المستغنى عن كل أحد ، والمحتاج اليه كل أحد .

إلهى

يا من تُحل بذكره عقد النوائب والشدائد
يا من إليه المشتكى وإليه أمر الخلق عائد
يا حى يا قيوم يا صمد تنزه عن مضادد
أنت الرقيب على العبا د وأنت فى الملكوت واحد
أنت المعز لمن أطا عك والمذل لكل جاحد
إنى دعوتك والهمـ ـوم جيوشها نحوى تطارد
فاخرج بحولك كربتى يا من له حسن العوائد
فخفى لطفك يستعا ن به على الزمن المعاند
أنت الميسر والمسبـ ـب والمسهل والمساعد
يسر لنا فرجا قر يباً يا إلهى لا تباعد
كن راحمى فلقد يئست من الأقارب والأباعد
ثم الصلاة على النبى وآله الغر الأماجد
وعلى الصحابة كلهم ما خر للرحمن ساجد

قوله تعالى : ﴿ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ قوله ﴿ لم يلد ﴾ أى لم يتخذ ولداً ، وليس له أبناء وبنات ، فكما هو متصف بالكمالات ، منزه عن النقائص .

قال المفسرون فى الآية : رد على كل من جعل لله ولداً ، كاليهود فى قولهم ﴿ عزيرابن الله ﴾ والنصارى فى قولهم ﴿ المسيح ابن الله ﴾ وكمشركى العرب فى زعمهم أن الملائكة بنات الله ، فرد الله تعالى على الجميع فى أنه ليس له ولد ، لأن الولد لابد أن يكون من جنس والده ، والله تعالى أزلى قديم ، ليس كمثله شىء ، فلا يمكن أن يكون له ولد ، ولأنه الولد لا يكون إلا من زوجه وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ بديع السمٰوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ﴾ ؟[1] .

وقوله تعالى : ﴿ ولم يولد ﴾ أى ولم يولد من أب ولا أم ، لأن كل مولود حادث ، وكل من كان كذلك فنهايته إلى الانحلال والفناء ، والله دائم حى سرمدى ، ليس كمثله شىء .

وبعد أن قررت الآية أنه ـ تعالى ـ وحده المقصود من جميع خلقه ، وأنه هو الملجأ ، وهو المستعان ، فلا ينبغى لذى عقل ولا لذى عقيدة ، أن يلجأ فى شؤونه لغير الله ، ولا أن يعول على سواه بعد ذلك ، تقرر الآية الأخيرة من السورة أنه ليس له فى الوجود مماثل ولا مكافىء ، لا فى القدرة ولا فى العمل . قوله : ﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾ : أى لم يكن له مماثل ولا مكافىء ، وليس شىء من الموجودات يساويه فى صفاته

(١) الأنعام آية : ١٠١

وعظمته ، ولا فى ذاته ووجوده ، فقدرته تعالى سرمدية ووجوده سرمدى ، وعدله سرمدى ، وفضله سرمدى وإحسانه أبدى سرمدى .

وصياغة الآية ، قدمت كلمة (له) فجاءت (ولم يكن له كفواً أحد) ولم تجيء : ولم يكن أحد كفواً له لأن « له » راجعة إلى الله تعالى ، وأن هذه اللفظة التى كان حقها التأخير ، قد شرفها وعظمها ضمير الجلالة ، فصار حقها التقدم والتصدير .

قال ابن كثير : فى هذه الآية الكريمة : هو مالك كل شىء وخالقه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس وتنزه ، وفى الحديث القدسى : « يقول الله تعالى : كذبنى ابن آدم ، ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فقوله ، لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىَّ من إعادته ، وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد[1] .

عيسى ابن مريم

« لم تصادف خرافة من الرواج فى العالم مثل الخرافة التى تعد عيسى إلهاً لهذا العالم ـ أو شريكاً فيه مع الله ـ !!

وهذه الخرافة تتسع وتضيق ، حسب اختلاف الأهواء والآراء . فتارة تعتبر هذا العالم خاضعاً لإشراف شركة مساهمة من الله ـ تعالى ـ ثم من عيسى ، وأمه والروح القدس .

وتارة تضييق فتعتبر هؤلاء الشركاء شعباً شتى لحقيقة واحدة ، أو مظاهر متعددة لإله واحد ، على نحو يعجز العقل عن تصوره . .

وذلك كله شرود عن الصواب وضلال كبير .

قال تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾[2] . .

وقال سبحانه : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد . . ﴾[3] .

وعيسى عليه السلام بشر ، يأكل ويشرب ويقذف من جسمه بالفضلات الحيوانية ، فكيف تنفى عنه صفة الإنسانية ، أو يزعم له ما هو فوقها .

قال سبحانه : ﴿ ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون ﴾[4] .

---

(١) أخرجه البخارى حـ ٦ ص ٢٢٣ كتاب التفسير . باب تفسير سورة « قل هو الله أحد » .

(٢) سورة المائدة آية : ١٧

(٣) سورة المائدة آية : ٧٣

(٤) سورة المائدة آية : ٧٥

ثم هو عبد يعنو وجهه لربه الأعلى ، ويذل فى ساحته ، ويسمع - فى صمت وإقرار - هذا التقرير الخطير .

﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ﴾[1] .

وعيسى نفسه يعرف أنه وأمه عبدان فقيران لله . ويوم الحساب يقران بذلك ويستنكران غلو الغالين فيهما .

قال تعالى : ﴿ أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شىء شهيد ﴾[2] .

والواقع الذى يعلو به صوت البديهية : أنه من المستحيل جعل عيسى إلهاً يخلق ويرزق ، ويحيى ويميت ، ويدبر شئون البلاد والعباد ، وأمر السماء والأرض .. إلخ لأنه فى حياته عبد ضعيف ، وبعد مماته رفات موارى فى حفرة من التراب ..

ومؤلهوا عيسى يشعرون بذلك جيداً .

ومن ثم فهم يلتمسون له القوة - التى تجعل منه إلهاً - من طبيعة أخرى غير طبيعته العاجزة كإنسان ، وذلك بالتحايل على إيجاد نسبة بينه وبين الله - سبحانه وتعالى - هى نسبة البنوة - كأنه ولى عهد !! وزين لهم هذا التخبط أن عيسى ولد من أم فقط .

والحق أن النسبة بين الله وبين خلقه كافة ، هى نسبة الموجد المتفضل بالإيجاد ، المختار فيه أتم اختيار ، على عالم لا يملك لنفسه خيراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .. وإن كل صامت وناطق فى هذا العالم يدين لله بكينونته ، وهو طوعاً أو كرهاً ، يسبح بحمده ، ويدل لربوبيته .

والله سبحانه وتعالى ، قد جعل بعض مخلوقاته أرضاً وبعضها سماء ، بعضها تراباً ، وبعضها ذهباً ، وبعضها نباتاً ، وبعضها حيواناً ، وبعضها إنساً ، وبعضها جناً ..

فما أعلى شأنه من خلقه ، فهو محض فضله ، وما حدد له وضعه فهو محض حكمته .

وقد يمنح بعض البشر والملائكة مواهب تميزهم عن أقرانهم ، ثم يختارون رسلاً لعباده .

وأيًا ما يفعل ربك بخلقه ، فإن ذلك لا يمس أصل النسبة المقررة بين العالم وموجده الأعظم .

إذا جعل المهندس بعض أحجار البيت دعائم مختفية فى الطين ، وبعضها الآخر شرفات تعلو فى الفضاء ، ظنت الأحجار العالية أنها قد تحولت مهندساً أو شبه مهندس ؟

أى سخف هذا الذى يجعل بعض الخلق شركاء فى الألوهية ، لأية منح فضل احترام ؟

---

(١) سورة المائدة آية : ١٧

(٢) سورة المائدة آية : ١١٧

وكيف يتصور فى بديع السموات والأرض أن يكون والداً لتلك الأجساد التى ذرأها ؟ وما عيسى فى جانب الملكوت الضخم ؟ ﴿ قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ، هو الغنى ، له ما فى السموات وما فى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾(١) .

﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾(٢) .

وشأن الألوهية أعز مما يهرف به الجهلة ، من ولاة ونبوة واتصال انسال (!) .

﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾(٣) .

ولو كانت ولادة عيسى من أم فقط ، ترشحه للألوهية ـ بصفة النبوة ـ لكان آدم أولى منه بها ، بل لكان الملائكة المقربون أولى بذلك ، فهم من الملأ الأعلى وليس من الحمأ المسنون !!

﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾(٤) .

(مستفاد من كتاب عقيدة المسلم/ الشيخ محمد الغزالى)

عن عبادة بن الصامت ، رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، والجنة والنار حق ، أدخله الجنة على ما كان من العمل »(٥) متفق عليه .

اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، أن تبرم لهذه الأمة أمر رشد يعز فيه أهل طاعتك ويذل فيه أهل معصيتك ، ويؤمر فيه بالمعروف ، وينهى فيه عن المنكر برحمتك يا أرحم الراحمين .

---

(١) سورة يونس آية : ٦٨
(٢) سورة الأنبياء الآيتان : ٢٦ ، ٢٧
(٣) سورة الزمر آية : ٤
(٤) سورة آل عمران الآيتان : ٥٨ ، ٥٩
(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه جـ٤ ص٢٠١ ، كتاب بدء الخلق باب قوله تعالى « إذ قالت الملائكة يا مريم . . » .

تفسير سورة الفلق

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية

عدد آياتها : خمس .

وكلماتها : ثلاث وعشرون .

وحروفها : أربع وسبعون .

وفواصل آياتها : (دبق) .

سميت سورة الفلق ، لمفتتحها .

مقصود السورة :

الاستعاذة من الشرور ، ومن مخافة الليل الديجور ، ومن آفات الماكرين والحاسدين فى قوله ﴿ **إذا حسد** ﴾ .

ومن المتشابهات :

قوله تعالى : ﴿ **قل** ﴾ نزلت فى ابتداء خمس سور ، وصار متلوّا بها ، لأنها نزلت جواباً ، وكرر قوله : (من شر) أربع مرات ، لأن شر كل واحد منها غير شر الآخر .

فضل السورة :

فيه حديث عقبة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذين ؟ قال : قلت : بلى قال : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق** ﴾ و ﴿ **قل أعوذ برب الناس** ﴾[1] .

مناسبة السورة لما قبلها :

قال السيوطى رحمه الله : « سورة الفلق ، والناس » : نزلتا معاً ، كما فى الدلائل للبيهقى ، فلذلك قرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، وعقب بهما سورة الإخلاص ، لأن الثلاثة سميت فى الحديث بالمعوذات وبالقوافل .

وقدمت الفلق على الناس ـ وإن كانت أقصر منها ـ لمناسبة مقطعها فى الوزن لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده جـ٣ ص٤١٧ ، جـ٤ ص١٥٣ انظر النسائى جـ٨ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ كتاب الاستعاذة .

وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

معانى المفردات

أعوذ : أى ألجأ .

الفلق : شق الشىء وفصل بعضه من بعض ، تقول فلقت الشىء فانفلق كما قال تعالى : ﴿ **فالق الحب والنوى** ﴾[1] والشىء المفلوق يسمى فلقاً ، والمراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التى تنفلق عن النبات ، والجبال التى تنفلق من عيون الماء ، والسحائب تنفلق عن ماء الأمطار ، والأرحام التى تنفلق عن الأولاد .

غاسق : الغاسق الليل إذا اعتكر ظلامه .

وقب : دخل ظلامه فى كل شىء .

النفاثات : من النفث وهو النفخ من ريق يخرج من الفم .

العقد : واحدها عقدة .

والحاسد : هو الذى يتمنى زوال نعمة المحسود .

التفسير

قوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق ، من شر ماخلق ومن شر غاسق إذا وقب** ﴾ .

روى مسلم فى صحيحه عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة لم ير مثلهن قط ﴿ قل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ﴾[2] .

وروى النسائى عن عقبة بن عامر قال : كنت أمشى مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم قال : « يا عقبة » « **قل** » قلت ماذا أقول ؟ فسكت عنى ثم قال « **قل** » قلت ماذا أقول يا رسول الله ؟ قال : « **قل أعوذ برب الفلق** » فقرأتها حتى أتيت على آخرها ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ذلك : « ما سأل سائل بمثلها ولا استعاذ مستعيذ بمثلها »[3] .

فقوله تعالى : ﴿ **قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق** ﴾ أى قل يا محمد ألتجىء واعتصم برب الفلق ، من أى شر فى الكون كائناً ما كان . (والفلق) فعل بمعنى مفعول ، وهو مأخوذ من فلق بمعنى شق وفرق ، فالأرض تنفلق عن النبات ، والنبات (فلق) والحب والنوى ينفلقان عن السنابل والنخيل قال تعالى : ﴿ **إن الله فالق الحب والنوى** ﴾[4] وظلمة الليل الحالكة تنفلق عن الصبح والضياء ، فالصبح والضياء (فلق) قال تعالى : ﴿ **فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً** ﴾[5] .

---

(١) سورة الأنعام آية : ٩٥

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ١ ص٥٥٨ . كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة المعوذتين رقم ٢٦٤/ ٨١٤ .

(٣) أخرجه النسائى فى سننه جـ٨ ص٢٥٣ ، ٢٥٤ كتاب الاستعاذة .

(٤) الأنعام آية : ٩٥

(٥) الأنعام آية : ٩٦

والجبال تنفلق عن العيون الدفاقة ، فالعيون (فلق) والأحجار والصخور ينفلقان عن الأنهار ، فالأنهار (فلق) قال تعالى : ﴿ وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ﴾ .

والأرحام تنفلق عن الأجنة قال تعالى : ﴿ هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ (١)

قال العلماء : « إن ظلمة العدم قد انفلقت بنور الوجود ، فظهرت الممكنات وظهرت الكائنات ، ومن قول العلماء يظهر أن كل الموجودات ، وكل الممكنات (فلق) ورب هذا الفلق خالقه ومربيه وراعيه ، فهو الذى جلّى ظلام العدم عن الممكنات ، فوجدت بعد أن لم تكن ، ولا يزال يرعاها ، ويحوطها ويمدها ومن كان كذلك فهو حقيق وجدير وحتم أن يتعوذ به ويقصد إليه دون سواه .

وقوله تعالى : ﴿ من شر ما خلق ﴾ أى من شر جميع المخلوقات من الإنس والجن والدواب والهوام ، ومن شر كل مؤذ خلقه الله سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ أى ومن شر الليل إذا أظلم واشتد ظلامه ، فإن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن . قال الرازى : وإنما أمر أن يتعوذ من شر الليل ، لأن فى الليل تخرج السباع من آجامها ، والهوام من مكانها ، ويهجم السارق والمكابد ولا يفعله ، فمكث كذلك ما شاء الله أن يمكث ثم قال : « يا عائشة أشعرت أن الله أفتانى فيما أستفتيه فيه . أتانى ملكان فجلس أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى ، فقال (الذى جلس عند رأسى للذى عند رجلى) ما شأن الرجل قال مطبوب قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم قال فيما ذا قال فى مشط ومشاطه وجف طلعة ذكر تحت راعوفة فى بئر ذى أوران فجاء البئر واستخرجه . انتهى(٢) .

وقال ابن عباس : فأنزل الله تعالى هاتين السورتين ، وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العقد ، وأمر أن يتعوذ بهما ، فجعل كلما قرأ آية انحلت عقدة ، ووجد النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ خفة ، حتى انحلت العقدة الأخيرة ، فكأنما أنشط من عقال وقام ليس به بأس ، وجعل جبريل يرقى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقول : « باسم الله أرقيك من كل شىء يؤذيك من شر حاسد وعين والله يشفيك » ، فقالوا يا رسول الله : ألا تقتل الخبيث . فقال : « أما أنا فقد شفانى الله وأكره أن أثير على الناس شراً . .

(والمشط الآلة التى يمشط بها الشعر ، والجف (بضم الجيم وتشديد الفاء) الغشاء الذى يكون على الطلع ويطلق على الذكر والأنثى ، فلذا قيده بقوله : « وجف طلعة ذكر » . (والراعوفة) حجر ناتىء على رأس البئر ، يقوم عليه المتقى ، وقيل : فى أسفلها . (وبئر ذى أروان) وهى بئر بالمدينة فى بستان بنى زريق .

وروى النسائى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ، ومن سحر فقد أشرك ، ومن تعلق شيئاً وكل إليه »(٣) .

---

(١) آل عمران آية : ٦

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ١٧١٩ ، ١٧٢٠ . كتاب السلام ، باب السحر . رقم ٤٣/ ٢١٨٩

(٣) أخرجه النسائى فى سننه جـ٧ ص١١٢ باب الحكم فى السحرة .

وقوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ أى ونستعيذ بك ربنا من شر الحاسد إذا أنفذ حسده ، بالسعى والجد فى إزالة نعمة من يحسده .. قال العلماء : الحاسد لا يضر إلا إذا ظهر حسده بفعل أو قول ، وذلك بأن يحمله الحسد على إيقاع الشر ، فالمحسود فيتبع مساوئه ويطلب عثراته . والحاسد عدو نعمة الله قال بعض الحكماء : بارز الحاسد ربه من خمسة أوجه : أحدها ـ إنه أبغض كل نعمة ظهرت على غيره . وثانيها : إنه ساخط لقسمة ربه ، كأنه يقول : لم قسمت هذه القسمة ؟ وثالثها ـ أنه ضاد فعل الله ، أى إن فضل الله يؤتيه من يشاء وهو يبخل بفضل الله . ورابعها ـ أنه خذل أولياء الله أو يريد خذلانهم وزوال النعمة عنهم . وخامسها : أنه أعان عدوه إبليس .

وقيل : الحاسد لا ينال فى المجال إلا ندامة ، ولا ينال من الملائكة إلا لعنة وبغضاء ، ولا ينال فى الخلوة إلا جزعاً وغماً ، ولا ينال فى الآخرة إلا حزناً واحتراقاً ، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً .

وقال الفقيه أبو الليث السمرقندى رحمه الله تعالى : يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود . أولاها غم لا ينقطع الثانية مصيبة لا يؤجر عليها الثالثة مذمة لا يحمد عليها الرابعة : سخط الرب الخامسة يغلق عنه باب التوفيق .

وقال عمر رضى الله عنه : يكفيك من الحاسد أنه يغتم وقت سرورك . وعن أنس رضى الله عنه : قال : « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »[1].

قال الشاعر

أيا حاسداً لى على نعمتى ... أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى حكمه ... لأنك لم ترض لى ماوهب
فأخزاك ربى بأن زادنى ... وسد عليك وجوه الطلب

وقال الأصمعى : رأيت اعرابياً بلغ عمره مائة وعشرين سنة ، فقلت له ما أطول عمرك ، فقال : تركت الحسد فبقيت . وقالوا : لا يخلوا السعيد من ودود يمدح وحسود يقدح .

وقال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : ألا لا تعادوا نعم الله ، قيل : ومن يعادى نعم الله قال الذين يحسدون الناس على ماآتاهم الله من فضله .

ياطالب العيش فى أمن وفى دعة
رغداً بلا قتر صفوا بلا رنق
خلص فؤادك من غل ومن حسد
فالغل فى القلب مثل الغل فى العنق

وقال آخر : أصبر على حسد الحسـ ... ـود فإن صبرك قاتله
كالنار تأكل بعضها ... إن لم تجد ما تأكله

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : نعوذ بالله من كل قدر وافق إرادة حاسده .

(١) اخرجه أبوداود فى سننه ص٢٠٨ ، ص٢٠٩ جـ٥ برقم ٤٩٠٣

تفسير سورة الناس

مقدمة عن السورة :

قال صاحب البصائر :

السورة مدنية .

عدد آياتها : ست .

وكلماتها : عشرون .

وحروفها : تسع وسبعون .

وفواصل أياتها : على السين .

وسميت سورة الناس لتكراره فيها خمس مرات .

معظم مقصود السورة :

الاعتصام بحفظ الحق تعالى وحياطته والحذر والاحتراز من وسواس الشيطان ، ومن تعدى الجن والإنسان ، فى قوله (من الجنة والناس) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ
وَالنَّاسِ ﴿٦﴾

معانى المفردات

رب الناس : أى مربيهم ومنميهم ومراعى شؤونهم .

الوسواس : أى الموسوس الذى يلقى حديث السوء فى النفس .

الخناس : من الخنوس وهو الرجوع والاختفاء .

والجنة : واحدهم جنىّ ، كنس وإنس .

التفســـــير

قوله تعالى : ﴿ قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ﴾ .

سورة الناس ثانية المعوذتين ، أما المعوذة الأولى ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ﴾ فقد اشتملت على التعوذ من شرور ظاهرة ماثلة ، يحسها الإنسان ويدركها ويلمسها ، وهى شرور المخلوقات جميعاً وأما هذه المعوذة (قل أعوذ برب الناس) فإنها قد انفردت بتعليم عباد الله أن يتعوذوا بالله من شرور أخرى خطيرة ، شرور باطنة خافية ، شرور عظيمة الضرر ، بعيدة الأثر ، تتسرب إلى النفوس فى دقة وحيلة ومهارة ، لا يفطن لها ولا يدركها إلا العالمون ، تلك الشرور هى فى وسوسة الأبالسة ، وفى نزع الأرواح الشريرة ، من شياطين الإنس والجن ﴿ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ﴾[١] وإنما جعلت سورة مخصصة للاستعانة بالله على هذا النوع من الشرور ، لأن تلك الشرور (وسوسة الشياطين) تذل الإنسانية ، وتحطم الكرامة البشرية ، وماهى إلا أن تخضع لها ارادة المرء فيصبح الإنسان ، وقد استهوته الشياطين فى الأرض حيران ، يعيش فى جو من الشكوك والأوهام والخرافات ، ويتنكب سبل السلام ، فكان من رحمة الله بعباده ، أن جعل لهم من هذه السورة ، ومن التعوذ بآياتها ، منبها عن الغفلة ، وحصنا من الشيطان ، وسياجا من التردى فى هوة الطغيان .

﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ قل يامحمد وعلم أمتك أن يقولوا قولا مصحوبا بيقظة الحنان وحضور القلب ، وخشوع الجوارح (أعوذ) ألجأ واستعين وأحتمى من مطاردات الهواجس ﴿ برب الناس ملك الناس اله الناس ﴾ وهذه صفات ثلاثة ، وصفت بها الذات العلية ، وهى أنه ـ تعالى ـ رب وملك ، وإله .

ولكل من هذه الصفات معناه ودلالته ، وإن كانت الذات القدسية واحدة ، هو الله الذى لا إله إلا هو .

فمعنى (الرب) الذى يربى مربوبه ، من رب الأمر أصلحه وتعهده ، وربّ الصبى ربّاه حتى أدرك ، ورب الناس يربيهم وينبئهم بفيض من النعمة . ويقول أكابر الأطباء : « إن الأجهزة التى يتهيأ الكائن الحى والمراحل التى يربى فيها حتى يتهيأ للوجود ، لتحير الألباب ، وتدهش العقول . فهذه العلقة الواحدة التى يقل قطرها عن (عشر المللى) تجتمع فيها ملايين الصفات ، وملايين الخصائص ، التى شاء الله أن تكون للمخلوق من هذه العلقة ، وأن الفروق المتنوعة بين الإنسان والإنسان والتى تملأ مجلدات ، قد اختزلت وتركزت فى حجم هذه العلقة ، ثم لا تزال تربية الرب تتعهد العلقة حتى تصير مضغة وحتى تتشكل فيها العظام ، وحتى تكسى العظام لحماً ، وحتى يصير الكائن خلقاً آخر ، بشراً سوياً ، ثم يأتى دور تربية أخرى ، هى تنمية الجسم ، وتكميل المدارك وفى كل دور تكتنف الإنسان رعاية الله ، بل فى كل نفس من أنفاسه يتقلب الإنسان فى أنعم الله (إن ربك لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾[٢] هذا معنى الرب .

---

(١) الأنعام آية : ١١٢

(٢) سورة النمل آية : ٧٣

﴿ ملك الناس ، إله الناس ﴾ أما معنى الملك ، فهو صاحب السلطان والعظمة ، وهو الذى يحكم رعاياه ، ويضبط أعمالهم ، ويحدد الحدود ، ويبين العقوبات ، ويشرع الشرائع ، ويقنن القوانين . (وملك الناس) الذى يحمى وجودهم وحقوقهم ، ويحل لهم الحلال ، ويحرم الحرام ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾[١] ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾[٢] .

وأما الإله ، فهو الذى أفاض على الكون الوجود ، وهو الحق المعبود ، تعنو الوجوه لجلاله ، وتخشع النفوس لعظمته ، والأرض والسموات فى قبضته .

وهناك حكمة بيانية أوصى بها إظهار كلمة (الناس) مرة بعد أخرى ، بدل إضمارها ، فلم يجىء الأسلوب (برب الناس ، وملكهم وآلههم) ، بل جاء (برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس) .

إنه لاظهار فى مقام الاضمار ، يرينا كيف يبلغ الأسلوب القرآنى أقصى مراتب الاعجاز ، فلقد نرى الكلمة إذا ما تكررت ظاهرة غير مضمرة ، فى كلام الفصحاء والبلغاء تسبح ، وتقبح ، لكنها هنا فى البيان السماوى ، قد كرمت ولطفت ومجدت .

إن هذا الإظهار لكلمة الناس ، قد أفاد تشريف الناس ، وتكريم الناس ، وتمجيد الناس ، بانتسابهم إلى ربهم ، ملكهم ، وإلاههم ، وهى تهيب بالناس ، أن يرتفعوا بإنسانيتهم كما رفعهم الله بالانتساب إليه ، وأن يكرموا أنفسهم ، كما كرمهم الله وفضلهم على خلق كثير ممن خلق تفضيلاً .

قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾[٣] .

إلى هنا ، وصلنا فى التفسير إلى الاقتراب من خلال المستعاذ به ، وهو الله ـ تعالى ـ وبقى أن نفسر معانى المستعاذ منه ، وهو مردة الجن ، وشياطين الإنس ، ولقد استبان لنا الآن ، أن التلفظ ، بالاستعانة بالله ، والتعوذ بربوبيته وألوهيته لا تستأهل عون الله ، إلا إذا صاحب النطق بها عرفان المرء جلال ربه ، ثم عرفانه إكرام نفسه وكثير من الناس ، أولئك هم الفاسقون ، لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون .

قوله تعالى : ﴿ من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس ﴾ .

أهل الوسوسة ـ الصوت أو الهمس الخفى ، وأطلق الوسواس فى هذه السورة على إبليس ذاته ، لأنه لما دأب بوسوسته ، ونزغه ، على إثارة الشر ، وإهاجة الفساد ، صارت ذاته وكأنما هى وسوسة ليس غير ، (والخناس) كثير الخنوس ، من خنس يخنس ، إذا انقبض وتراجع وتقهقر ، وإنما سمى (إبليس) خناساً لأنه كثير ما ينقبض وينقطع عن وسوسته ، ويتوارى أمام الحق ، إذا ما سلط الإنسان عليه الاستعاذة بالله ، وأحضر وسوسته الخوف من الله .

---

(١) سورة التين آية : ٨

(٢) آل عمران آية : ٢٦

(٣) البقرة آية : ٢١

والتعبير بالفعل المضارع (الذى يوسوس) لإثبات ما تفيده صيغة هذا الفعل من التجدد والاستمرار والحدوث ، وإنها لاشارة بليغة تدل على تجدد الوسوسة واستمرارها ، وأن إبليس لا يكف عنها ، ولا يقف دونها إلا ريثما يذكر الإنسان ربه ، فإذا ما عرته غفلة عن ذكر الله ، وثب عليه الشيطان واقتحم نوافذ فكره ، ومسالك رأيه .

روى عن أنس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم فإذا ذكر الله خنس وإذا نسى الله التقم قلبه فوسوس »(١) .

وقال ابن عباس : إذا ذكر الله العبدُ خنس من قلبه فذهب ، وإذا غفل التقم قلبه فحدثه ومنّاه .

وقوله تعالى : ﴿ الذى يوسوس فى صدور الناس ﴾ فجعل الوسوسة فى الصدور ، أو فى القلوب التى فى الصدور ، مع أن الوسوسة إنما تكون همساً فى الفكر ، ونزغاً فى العقل ، ذلك على ما جاء فى اللسان العربى من إطلاق القلب ، وإرادة العقل ، يقول تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ﴾(٢) .

هذا ، وإن بين الإحساس والإدراك العقلى ، وبين حركة القلب ، وما ينبض به القلب وما يرسله إلى أجزاء الجسم لارتباطاً بل امتزاجاً وثيقاً كاملاً ، فإذا ما طرأت على فكر الإنسان لمامة أو هاجسه ثم زينت له هفوة أو زلة ، فهو واحد عقب الوسوسة حالة من حالتين لا معدى عنهما ، أما انفعال أعصابه واضطراب معاييره وموازينه ، فلا يروِّى فى الأمر ، بل يندفع ، وحينئذ يشتد لذلك خفقان صدره ، وتتوالى دقات قلبه ، ثم تضيق عليه الأرض بما رحبت ، ولا يجد له مخرجاً إلا أن يذهب فى عنان إبليس ، هذه حالة . . والحالة الثانية أن تنفعل أعصابه وتضطرب أفكاره ، فيلوح له برهان ربه ثم يسرى أثر ذلك إلى قلبه ، وإلى صدره ، فإذا هو وقد شرح الله صدره ، ويسر أمره ، وتفتحت أمامه آفاق ، ووجد برد اليقين وحلاوة العصمة . قال تعالى : ﴿ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ﴾(٣) .

قوله تعالى : ﴿ من الجنة والناس ﴾ لقد بين لنا سبحانه أن هذا الوسواس الذى يخنس كلما ذكر الله ، هو إما أن يكون من الجنة ، أو من الناس ، فمن بين الجنة أو الجن توجد الأبالسة والشياطين ، ومن بين الإنس توجد أيضاً شياطين . يقول تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾(٤) .

وكما أن شياطين الجن ، هم فساق الجن ، كذلك شياطين الإنس هم فساقهم وخبثاؤهم ، يقول

---

(١) أخرجه الغزالى فى اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين جـ ٧ صـ ٢٩٨ . باب بيان أن الوسواس هل يتصور أن ينقطع عند الذكر أم لا .

(٢) سورة الحج : ٤٦

(٣) سورة الأعراف آية : ٢٠١

(٤) الأنعام آية : ١١٢

تعالى فى الذين مردوا على النفاق ، وأشاعوه بين الناس : ﴿ **وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون** ﴾[(١)] فالشياطين هنا هم أئمة النفاق وهم شر البرية .

لقد شاء الله لهذا الشيطان ، أن يتسلط على الإنسان بوسوسته وإن يدأب على معارضة الحق ، والصد عن فعل الخير ، وإنها لمحنة واختبار من الله لعباده ، لا يعلم سر الحكمة فيها إلا الله وحده ، الذى أراد أن تكون الحياة مزيجاً من خير وشر وأن تكون دار ابتلاء واختبار ، ومن رحمته تعالى بعباده أن علمهم علاج أنفسهم إذا مسهم طائف من الشيطان ، أو غشيتهم غاشية من الغفلة والنسيان ، ووصف لهم الدواء الناجع ـ رحمة منه وفضلاً ـ فيراقبوا دائماً خواطرهم ، وليميزوا بين راعى الخير وراعى الشر ، فليبادر إذن إلى العلاج إلى الاستعاذة بالله العظيم ، إلى استحضار عظمة الله ، القائم على كل نفس بما كسبت ، وليتمثل ذل المعصية ، وعزة الطاعة ، يصرف الله عنه السوء ، وتبرأ نفسه مما خالطها وغشيها ، فالوسوسة لا تأخذ غير الغافلين ، الذين لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يراقبون خواطرهم .

لقد وصف لسان الشرع تلك الحالة ، فبين أن للنفس الإنسانية المامتين : المامة من ملك وإلمامة من شيطان ، الأول يدعوها إلى الحق والخير ، والثانى يدعوها إلى الباطل وإلى الشر .

روى الترمذى والنسائى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاذ بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك ، فإيعاذ بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً** ﴾[(٢)] .

« فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الآدمى ، واختاره من بين سائر البرية ، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والإخلاص ، والمحبة والحياء ، والتعظيم والمراقبة ، وجعل ثوابه إذ قدم عليه أكمل الثواب وأفضله ، وهو النظر إلى وجهه الكريم ، والفوز برضوانه ومجاورته فى جنته ، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه ، فهو يدخل عليه من الأبواب التى هى من نفسه وطبعه ، فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد ، ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح فى قضاء وطرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة وشأن الجوارح ، فلا تزال الجوارح فى طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا ، هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمده بمدد آخر ، يقاوم به هذا الجند ، الذى يرد هلاكه ، فأرسل إليه رسوله وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم مقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه ، وبين له ما فى طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله عز وجل والمحفوظ من حفظه الله تعالى .

---

(١) البقرة آية : ١٤

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص٢٠٤ كتاب تفسير القرآن ؤ باب ٣ من سورة البقرة : ٢٩٨٨ .
أخرجه النسائى فى الكبرى ـ كتاب التفسير ـ سورة البقرة .

وجعل له مقابل نفسه الأمارة بالسوء ، نفساً مطمئنة ، إذا أمرته النفس الأمارة بالسوء ، نهته عنه النفس المطمئنة ، وإذا نهته الأمارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة ، فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منها ، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهراً لا تقوم معه أبداً .

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان ، والنفس الأمارة ، نوراً وبصيرة وعقلاً يرده على الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر . فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل ، فهو يطيع الناصح مرة فيبين له رشده ونصحه ، ويمشى خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، ويسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين قطعت عليه وأخذ منها ، ويأبى إلا سلوكها ، لأن دليلها قد تمكن منه وتحكم فيه وقوى عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له وزجره إذا دعاه ، ومحاربته إذا أراد أخذه لم يتمكن منه ، ولكن هو مكنه من نفسه وهو أعطاه يده ، فهو بمنزلة الرجل يضع يده فى يد عدوه فيباشره ، ثم يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأثر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة ثم يطلب الخلاص فيعجز عنه . فلما أن بلى العبد بما بلى به أُعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأى حصن شئت منها ورابط إلى الموت ، فالأمر قريب ومدة المرابطة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله فنقلوك إلى داره واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدوك ، وأطلقت فى دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك فى أصعب الحبوس وأنت تراه ، فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه وأيس من الروح والفرج ، وأنت فيما أشتهت نفسك وقرت عينك ، جزاء على صبرك فى تلك المدة اليسيرة ولزومك الثغر للرباط ، وما كانت إلا ساعة ، ثم انقضت ، وكأن الشدة لم تكن . . والمقصود أن الله عز وجل قد أمد العبد فى هذه المدة اليسيرة بالجنود والعدد والإمداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يفك نفسه إذا أسر » .

لماذا ختم القرآن الكريم بهاتين السورتين الكريمتين ؟

فالجواب : من ثلاثة أوجه :

الأول : قال الشيخ أبو جعفر بن الزبير : لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده ، والنعم مظنة الحسد ، فختم بما يطفىء الحسد من الاستعاذه بالله .

الثانى : قال ابن جُزى الأندلسى : يظهر لى أن المعوذتين ختم بهما لأن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال فيهما أنزلت علىَّ آيات لم ير مثلهن قط ، كما قال فى فاتحة الكتاب لم ينزل فى التوراة ولا فى الإنجيل ولا فى الفرقان مثلها ، فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها ، واختتم بسورتين لم ير مثلهما ، ليجمع حسن الافتتاح والاختتام ، ألا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام ، إنما ينظر فيها إلى حسن افتتاحها واختتامها .

الوجه الثالث : أنه لما أمر القارىء أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم ختم القرآن

بالمعوذتين ، ليحصل الاستعاذه بالله عند أول القراءة ، وعند آخر ما يقرأ من القراءة ، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفى الابتداء والانتهاء ، وليكون القارىء محفوظاً بحفظ الله الذى استعاذ به من أول أمره إلى آخره وبالله التوفيق لا رب غيره .

ولما كنا بصدد أن نختم تفسير القرآن العظيم ، ونعيش فى رحابه الطاهرة ، رأينا لكى يكون الختام مسكاً أن نذكر ما قاله العلامة ابن قيم الجوزية ، مما أفاض الله تعالى عليه من العلم النافع فى تفسير هاتين السورتين الكريمتين ، قال رحمه الله : « قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول : وهى أصول الاستعاذة . .

أحدها : نفس الاستعاذة .

والثانية : المستعاذ به .

والثالثة : المستعاذ منه .

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين .

فنعقد لهما ثلاثة فصول : الفصل الأول : فى الاستعاذة ، والثانى : فى المستعاذ به . والثالث : فى المستعاذ منه .

الفصل الأول (فى الاستعاذة)

أعلم أن لفظة « عاذ » وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة ، وحقيقة معناها : الهروب من شىء تخافه إلى من يعصمك منه ، ولهذا يسمى المستعاد به معاذاً ، كما يسمى : ملجأ ووزراً .

فمعنى « أعوذ » ألتجىء ، وأعتصم ، وأتحرز .

وفى أصله قولان . أحدهما : أنه مأخوذ من الستر .

والثانى : أنه مأخوذ من لزوم المجاورة .

فأما من قال : إنه من الستر فقال : العرب تقول للبيت فى أصل الشجرة ، التى قد استتر بها « عُوَّذ » بضم العين وتشديد الواو وفتحها ، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها ، وسموه عُوَّذا . فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه ، واستجن به منه .

ومن قال : هو لزوم المجاورة قال : العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلص منه « عُوَّذ » لأنه اعتصم به ، واستمسك به . فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به ، واعتصم به ، ولزمه ، والقولان حق : والاستعاذة تنتظمها معاً ، فإن المستعيذ مستتر بمعاذه مستمسك به ، معتصم به ، قد استمسك قلبه به ولزمه ، كما يلزم أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفا وقصده به ، فهرب منه . فعرض له أبوه فى طريق هربه ، فإنه يلقى نفسه عليه ، ويستمسك به أعظم استمساك ، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه ، الذى يبغى هلاكه ، إلى ربه ومالكه ، وفر إليه ، والقى نفسه بين يديه ، واعتصم به ، والتجأ إليه .

وبعد . فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات وإنما هى تمثيل وإشارة وتفهيم ،

والا فما يقوم القلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام والانطراح بين يدى الرب والافتقار إليه والتدليل بين يديه أمر لا يحيط به العبارة .

وأصل هذا الفعل «.أعوذ» بتسكين العين وضم الواو ثم أعل بنقل حركة الواو إلى العين وتسكين الواو ، فقالوا أعوذ على أصل هذا الباب ، ثم طردوا إعلاله ، فقالوا فى إسم الفاعل عائذ ، وأصله عاوذ . فوقعت الواو بعد ألف فاعل ، فقلبوها همزة كما قالوا : قائم ، وخائف . وقالوا فى المصدر : عياذاً بالله وأصله : عواذاً ، فقلبوا الواو ياء لكسرة ما قبلها ، ولم تحصنها حركتها لأنها قد صنعت بإعلاها فى الفعل ، وقالوا : مستعيذ . وأصله مستعوذ ، كمستخرج ، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها ، فلما كسرت العين قلبت قبلها كسرة ، فقلبت ياء على أصل الباب .

فإن قلت : فلم دخلت السين والتاء فى الأمر من هذا الفعل ، كقوله تعالى : ﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾[١] ولم تدخل فى الماضى والمضارع ، بل الأكثر أن يقال أعوذ بالله ، وتعوذت ، دون أستعيذ واستعذت ؟

قلت : السين والتاء دالة على الطلب ، فقوله أستعيذ بالله ، أى أطلب العياذ به . كما إذا قلت : أستخير الله : أى أطلب خيرته ، وأستغفره . أى أطلب مغفرته . فدخلت فى الفعل إيذاناً بطلب هذا المعنى من المعاذ ، فإذا قال المأمور : أعوذ بالله ، فقد امتثل ما طلب منه ، لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام . وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام ، وبين طلب ذلك ، فلما كان المستعيذ هارباً ملتجئاً معتصماً بالله ، أتى بالفعل الدال على ذلك دون الفعل الدال على طلب ذلك ، فتأمله .

وهذا بخلاف ما إذا قيل : أستغفر الله . فقال أستغفر الله . فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله . فإذا قال : أستغفر الله ، كان ممتثلاً . لأن المعنى أطلب من الله أن يغفر لى .

وحيث أراد هذا المعنى فى الاستعاذة فلا خير أن يأتى بالسين والتاء ، فيقول : أستعيذ بالله . أى أطلب منه أن يعيذنى . ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه .

فالأول : مخبر عن حاله وعياذه بربه وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه .

والثانى : طالب سائل من ربه أن يعيذه . كأنه يقول : أطلب منك أن تعيذنى . فحال الأول أكمل . ولهذا جاء عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى امتثال هذا الأمر « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » و « أعوذ بكلمات الله التامات » و « أعوذ بعزة الله وقدرته » دون « أستعيذ » بل الذى علمه الله إياه أن يقول : (أعوذ برب الفلق) (أعوذ برب الناس) دون أستعيذ . فتأمل هذه الحكمة البديعة .

فان قلت : فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به فقال : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ومعلوم أنه إذا قيل : قل الحمدلله ، وقل : سبحان الله فإن امتثاله أن يقول : الحمدلله ، وسبحان الله ولايقول : قل سبحان الله .

---

(١) سورة النحل آية : ٩٨

قلت : هذا هو السؤال الذى أورده أبى بن كعب على النبى - ﷺ - بعينه ، وأجابه عنه رسول الله - ﷺ - فقد قال البخارى فى صحيحه : حدثنا قتيبة حدثنا سفيان بن عاصم وعبده عن زر بن حبيش قال : « سألت أبى بن كعب عن المعوذتين ؟ فقال : سألت رسول الله - ﷺ - فقال ، قيل لى ، فقلت . فنحن نقول كما قال رسول الله - ﷺ - : « ثم قال . حدثنا على بن عبدالله حدثنا سفيان حدثنا عبده من أبى لبابة عن زر بن حبيش . وحدثنا عاصم عن زر قال : سألت أبى بن كعب قلت : أبا المنذر ، إن أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا . فقال : إنى سألت رسول الله - ﷺ - فقال : وقيل لى ، فقلت قل . فنحن نقول كما قال رسول الله - ﷺ - .(١)

قلت : مفعول القول محذوف ، وتقديره ، قيل لى قل ، أو قيل لى هذا اللفظ فقلت كما قيل لى .

وتحت هذا من السر : أن النبى - ﷺ - ليس له فى القرآن إلا إبلاغه ، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه ، بل هو المبلغ له عن الله ، وقد قال الله له : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول : ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ كما قال الله .

وهذا هو المعنى الذى أشار النبى - ﷺ - إليه بقوله : « قيل لى ، فقلت » أى أنى لست مبتدئا ، بل أنا مبلغ ، أقول كما يقال لى ، كلام ربى كما انزله إلىَّ .

فصلوات الله وسلامه عليه ، لقد بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وقال كما قيل له ، فكفانا من المعتزلة والجهمية واخوانهم ممن يقول : هذا القرآن العربى ، وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به .

ففى هذا الحديث أبين الرد لهذا القول ، وأنه - ﷺ - بلغ القول الذى أمر بتبليغه على وجهه ولفظه ، حتى أنه لما قيل له : « قل » قال هو « قل » لأنه مبلغ محض . وماعلى الرسول إلا البلاغ .

الفصل الثانى (فى المستعاذ به)

فى المستعاذ به وهو الله وحده ، رب الفلق . ورب الناس ، ملك الناس ، إله الناس . الذى لاينبغى الاستعاذة إلا به ، ولايستعاذ بأحد من خلقه ، بل هو الذى يعيذ المستعيذين ، ويعصمهم ، ويمنعهم من شر ماستعاذوا من شره ، وقد أخبر تعالى فى كتابه عمن استعاذ بخلقه : ان إستعاذته زادته طغيانا ورهقا فقال حكاية عن مؤمنى الجن : ﴿ وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا ﴾(٢) جاء فى التفسير أنه « كان الرجل من العرب فى الجاهلية إذا سافر فأمسى فى أرض قفر ، قال : أعوذ بسيد هذا الوادى من شر سفهاء قومه . فيبيت فى أمن وجوار منهم ، حتى يصبح ، أى فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقا أى طغيانا وإثما وشرا ، ويقولون : سُدنا الإنس والجن

(١) أخرجه البخارى جـ٣ ص٢٢٣ كتاب تفسير القرآن باب قل أعوذ برب الفلق .

(٢) سورة الجن آية : ٦

« والرهق » فى كلام العرب : الاثم وغشيان المحارم . فزادوهم بهذه الاستعاذة غشيانا لما كان محظورا من الكبر والتعاظم ، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن .

واحتج أهل السنة على المعتزله ، فى أن كلمات الله غير مخلوقة . بأن النبى - ﷺ - استعاذ بقوله : « أعوذ بكلمات الله التامات » وهو- ﷺ - لايستعيذ بمخلوق أبدا .

ونظير ذلك قوله : « أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك » فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته ، وأنه غير مخلوق . وكذلك قوله « أعوذ بعزة الله وقدرته » وقوله « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات » وماستعاذ به النبى - ﷺ - غير مخلوق ، فإنه لايستعيذ إلا بالله ، أو بصفة من صفاته .

وجاءت الاستعاذة فى هاتين السورتين باسم الرب ، والملك والإله ، وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى الفلق ، وإلى الناس ، ولابد من أن يكون ماوصف به نفسه فى هاتين السورتين ، يناسب الاستعاذة المطلوبة ، ويقتضى دفع الشر المستعاذ منه ، أعظم مناسبة وأبينها .

وقد قررنا فى مواضع متعددة : أن الله سبحانه وتعالى يدعى بأسمائه الحسنى ، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه ، وقد قال النبى - ﷺ - فى هاتين السورتين : « إنه ماتعوذ المستعوذون بمثلها »[١] فلابد أن يكون الإسم المستعاذ به مقتضيا للمطلوب ، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه .

وإنما يتقرر هذا بالكلام فى الفصل الثالث ، وهو الشىء المستعاذ منه ، فتتبين المناسبة المذكورة ، فنقول :

الفصل الثالث (المستعاذ منه)

فى أنواع الشرور المستعاذ منها فى هاتين السورتين .

الشر الذى يصيب العبد لايخلو من قسمين :

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها ، فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه ، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها ، وهو أعظم الشرين وأدومها وأشدهما اتصالا بصاحبه .

وإما شر واقع به من غيره ، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف ، والمكلف إما نظيره وهو الإنسان ، او ليس نظيره ، وهو الجنى . وغير المكلف مثل الهوام وذوات الحُمة وغيرها .

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه ، وأدله على المراد ، وأعمه استعاذة ، بحيث لم يبق شر من الشرور الا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما .

---

(١) أخرجه الدرامى فى سننه حـ٢ ص٢٢٩ ، ٢٣٠ كتاب فضائل القرآن . باب فضل قل أعوذ برب الفلق .

فان سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة :

احدهما : شر المخلوقات التى لها شر عموما .

الثانى : شر الغاسق إذا وقب .

الثالث : شر النفاثات فى العقد . .

الرابع : شر الحاسد إذا حسد .

فتكلم ـ بإذن الله ـ على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد ، والتحرز منها قبل وقوعها ، وبماذا تدفع بعد وقوعها ؟

وقبل الكلام فى ذلك لابد من بيان الشر : ماهو؟ وماحقيقته ؟

فنقول : الشر يقال على شيئين : على الألم ، وعلى مايفضى اليه . وليس مسمى سوى ذلك . فالشرور هى الآلام وأسبابها . فالمعاصى والكفر والشرك وأنواع الظلم : هى شرور ، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة ، ولكنها شرور ، لأنها أسباب للآلام ، ومفضيه اليها كافضاء سائر الأسباب على مسبباتها فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة ، وعلى الذبح والإحراق بالنار ، والخنق بالحبل ، وغير ذلك من الأسباب التى تكون مفضية إلى مسبباتها ، ولابد ، مالم يمنع من السببيه مانع ، أو يعارض السبب ماهو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده ، كما يعارض سبب المعاصى قوة الإيمان ، وعظم الحسنات الماحية وكثرتها ، فيزيد فى كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب . فيدفع الأقوى الأضعف .

وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة ، كأسباب الصحة والمرض ، وأسباب الضعف والقوة .

والمقصود : أن هذه الأسباب التى فيها لذة ماهى شر ، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة . وهى بمنزلة طعام لذيد شهى لكنه مسموم إذا تناوله الآكل لأكله وطاب له مساغه ، وبعد قليل به مايفعل ، فهكذا المعاصى والذنوب ولابد ، حتى لولم يخبر الشارع بذلك لكان الدافع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده .

وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته ؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه ، ولايغيرها عنه حتى يكون هو الساعى فى تغييرها عن نفسه قال تعالى : ﴿ **إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوء فلامرد له وماهم من دونه من وال** ﴾[١] . وقال تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا مابأنفسهم** ﴾[٢] .

---

(١) سورة الرعد آية : ١١

(٢) سورة الأنفال آية : ٥٣

ومن تأمل ماقص الله فى كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمة عنهم ، وجد سبب ذلك جميعه : إنما هو مخالفة أمره وعصيان رسله ، وكذلك من نظر فى أحوال أهل عصره ومأزال الله عنهم من نعمة : وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب ، كما قيل :

إذا كنت فى نعمة فارعها . فإن المعاصى تزيل النعم .

فما حفظت نعمة الله بشىء قط مثل طاعته ، ولاحصلت فيها الزيادة بمثل شكره ، ولازالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه ، فانها نار النعم التى تعمل فيها كما تعمل النار فى الحطب اليابس ، ومن سافر بفكره فى أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له .

والمقصود : إن هذه الأسباب شرور ولابد .

وأما كون مسبباتها شرورا : فلأنها آلام نفسية وبدنية ، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسى ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والخسران ، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن ، لأعطاه حقه من الحذر والجد فى الهرب ، ولكن قد ضرب على قلبه حجاب الغفلة ، ليقضى الله أمرا كان مفعولا : فلو تيقظ حق التيقظ ، لتقطعت نفسه فى الدنيا ، حسرات على مافاته من حظه العاجل والآجل من الله .

وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم ، والإشراف والإطلاع على عالم البقاء فحينئذ يقول : ﴿ ياليتنى قدمت لحياتى ﴾(١) ويقول : ﴿ ياحسرتا على مافرطت فى جنب الله ﴾(٢) .

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها كانت استعاذات النبى - ﷺ - جميعها مدارها على هذين الأصلين ، فكل ماأستعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم واما سبب يفضى اليه ، فكان يتعوذ فى آخر الصلاة من أربع ، وأمر بالاستعاذة منهن وهى : عذاب القبر ، وعذاب النار فهذان أعظم المؤلمات ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيخ الدجال » وهذان سبب العذاب المؤلم .

فالفتنة سبب العذاب ، وذكر الفتنة خصوصا ، وذكر نوعى الفتنة ، لأنها إما فى الحياة ، وإما بعد الموت ، ففتنة الحياة : قد يتراخى عنها العذاب مرة ، وأما فتنة بعد الموت ، فيتصل بها للعذاب من غير تراخ .

فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابها ، وهذا من آكد أدعية الصلاة ، حتى أوجب بعض السلف والخلف الاعادة على من لم يدع به فى التشهد الأخير . وأوجبه بن حزم فى كل تشهد فان لم يأت به فيه بطلت صلاته .

---

(١) سورة الفجر آية : ٢٤
(٢) سورة الزمر آية : ٥٦

ومن ذلك قوله - ﷺ - : « « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وَضَلَعِ الدَّين وغلبة الرجال »[١]

فاستعاذ - ﷺ - من ثمانية أشياء : كل اثنين منها قرينان .

فالهم والحزن قرينان ، وهما من آلام الروح ومعذباتها . والفرق بينهما : أن الهم : توقع الشر فى المستقبل ، والحزن : وهو التألم على حصول المكروه فى الماضى ، أو فوات المحبوب ، فكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح . فان تعلق بالماضى سمى حزنا ، وإن تعلق بالمستقبل سمى هما .

والعجز والكسل قرينان ، وهما من أسباب الألم ، لأنهما يستلزمان فوات المحبوب ، فالعجز يستلزم عدم القدرة ، والكسل يستلزم عدم ارادته فتتالم الروح لفواته بحسب تعلقها به والتذاذها بادراكه لو حصل .

والجبن والبخل قرينان ، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن ، وهما من أسباب الالم ، لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذ وذات عظيمة ، لاتنال إلا بالبذل والشجاعة . والبخل يحول بينه وبينها ، فهذان الخلقان من اعظم أسباب الآلام .

وضلع الدين ، وقهر الرجال . قرينان . وهما مؤلمان للنفس ومعذبان لها .

احدهما : قهر بحق ، وهو ضلع الدين . والثانى : قهر بباطل وهو غلبة الرجال .

وايضا ؛ ضلع الدين قهر يسبب من العبد فى الغالب ، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره .

ومن ذلك تعوذه - ﷺ - : « من المأثم والمغرم »[٢] فانهما يسببان الألم العاجل .

ومن ذلك قوله - ﷺ - : « أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك »[٣] فالسخط : سبب الألم ، والعقوبة : هى الألم ، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى اسبابها .

فصـــــل

والشر المستعاذ منه نوعان :

أحدهما : موجود ، يطلب رفعه .

والثانى : معدوم ، يطلب بقاؤه على العدم ، وأن لا يوجد.

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص٤٨٦ كتاب الدعوات باب جامع الدعوات عن النبى - ﷺ - رقم ٣٤٨٤

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص٤٩١ كتاب الدعوات باب ٧٧ رقم ٣٤٩٥

(٣) اخرجه الترمذى فى سننه جـ٥ ص ٤ ، ٥ كتاب الدعوات باب فى دعاء الوتر رقم ٣٥٦٦ .

كما أن الخير المطلق نوعان . أحدهما : موجود فيطلب دوامه . وثباته وأن لايسلبه ، والثانى معدوم فيطلب وجوده وحصوله ، فهذه أربعة هى أمهات مطالب السائلين من رب العالمين ، وعليها مدار طلباتهم .

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة فى قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده فى آخر آل عمران فى قولهم : ﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفر عنا سيئاتنا ﴾ فهذا الطلب لدفع الشر الموجود ، فان الذنوب والسيئات شر ، كما تقدم بيانه . ثم قال : (وتوفنا مع الأبرار) فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الايمان حتى يتوفاهم عليه . فهذان قسمان .

ثم قال ﴿ ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ﴾ فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم اياه ، ثم قال : ﴿ ولاتخزنا يوم القيامة ﴾(١) فهذا طلب أن لايوقع بهم الشر المعدوم وهو خزى يوم القيامة .

فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام ، مرتبة أحسن ترتيب ، قدم فيها النوعان اللذان فى الدنيا ، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت ، ثم اتبعا بالنوعين اللذين فى الآخرة وهما أن يعطوا ماوعدوه على السنة رسله ، وأن لايخزيهم يوم القيامة .

فصــــل

ولما كان الشر له سبب . هو مصدره ، وله مورد ومنتهى . وكان السبب إما من ذات العبد ، وإما من خارج ، ومورده ومنهاه أما نفسه واما غيره : كان هنا اربعة أمور : شر مصدره من نفسه ، ويعود على نفسه تارة وعلى غيره اخرى .

وشر مصدره من غيره ، وهو السبب فيه ويعود على نفسه تارة ، وعلى غيره أخرى - جمع النبى - ﷺ - هذه المقامات الأربعة فى الدعاء الذى علمه الصديق رضى الله عنه : أن يقوله إذا أصبح واذا أمسى واذا أخذ مضجعه : « اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شىء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا انت ، أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه وأن اقذف على نفسى سوءا ، أو أجره إلى مسلم »(٢)

فذكر مصدرى الشر ، وهما النفس والشيطان ، وذكر مورد به ونهايته ، وهما عودة على النفس ، أو على أخيه المسلم ، فجمع الحديث مصادر الشر وموارده فى أوجز لفظ وأخصره وأجمعه . وأبينه .

---

(١) سورة آل عمران : ١٩٣ - ١٩٤

(٢) أخرجه الترمزى ح٥ ص٥٠٦ كتاب الدعوات باب ٩٥ رقم ٣٥٢٩ .

فصـــــــل

فاذا عرف هذا فلنتكلم عن الشرور المستعاذ منها فى هاتين السورتين :

الشر الأول : العام فى قوله تعالى : ﴿ من شر ماخلق ﴾ و(ما) هنا موصولة ليس الا ، والشر مسند فى الآية الى المخلوق المفعول لا إلى خلق الرب تعالى الذى هو فعله وتكوينه فانه لاشر فيه بوجه ما ، فإن الشر لايدخل فى شىء من صفاته ولافى افعاله ، كما لايلحق ذاته تبارك وتعالى ، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذى لانقص فيه بوجه من الوجوه ، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام ، ولاعيب فيها ولانقص بوجه ما ، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة ، لاشر فيها أصلا ، ولافعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم ولم تكن اسماؤه كلها حسنى ، ولعاد اليه منه حكم ، تعالى ربنا وتقدس عن ذلك .

ومايفعله من العدل بعباده ، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم ، هو خير محض ، أو هو محض العدل والحكمة ، وإنما يكون شرا بالنسبة إليهم ، فالشر وقع فى تعلقه بهم وقيامه بهم ، لا فى فعله القائم به تعالى ، ونحن لاننكر أن الشر يكون فى مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر .

ولكن هنا أمران ينبغى أن يكونا منك على بال .

أحدهما : إن ماهو شر ، أو يتضمن للشر ، فانه لايكون إلا مفعولا منفصلا ، لايكون وصفا له ولافعلا من أفعاله .

الثانى : إن كونه شرا هو أمر نسبى إضافى فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به ، وشر من جهة نسب إلى من هو شر فى حقه ، فله وجهان : هو من أحدهما خير ، وهو الوجه الذى نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقا وتكوينا ومشيئة ، لما فيه من الحكمة البالغة التى استأثر بعلمها ، وأطلع من شاء من خلقه على ماشاء منها ، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادىء معرفتها ، فضلا عن حقيقتها ، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه وتعالى هو الغنى الحميد ، وفاعل الشر لايفعله إلا لحاجته المنافية لغناه ، او لنقصه وعيبه المنافى لحمده . فيستحيل صدور الشر من الغنى الحميد فعلا . وإن كان هو الخالق للخير والشر .

فقد عرفت أن كونه شرا هو أمر إضافى ، وهو فى نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه . فلاتغفل عن هذا الموضع ، فانه يفتح لك بابا عظيما من معرفة الرب ومحبته ، ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول اكثر الفضلاء .

وقد بسطت هذا فى كتاب « التحفة المكية » وكتاب « الفتح القدسى » وغيرهما واذا اشكل عليك هذا ، فانا أوضحه لك بأمثلة .

احدهما : إن السارق إذا قطعت يده ، فقطعها شر بالنسبة له ، وخير محض بالنسبة الى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم ، ودفع الضرر عنهم ، وخير بالنسبة إلى متولى القطع أمرا وحكما لما فى ذلك من

الإحسان إلى عبيده عموما باتلاف هذا العضو المؤذى لهم المضر بهم ، فهو محمود على حكمه بذلك ، وأمره به مشكور عليه ، يستحق عليه الحمد من عباده ، والثناء عليه والمحبة له .

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم فى دمائهم وحرماتهم ، وجلد من يصول عليهم فى أعراضهم ، فإذا كان هذا عقوبة من يصول على أديانهم ، ويحول بينهم وبين الهدى الذى بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد فى معاشهم ومعادهم منوطه به أفليس فى عقوبة هذا الصائل خير محض وحكمة وعدل ، وإحسان إلى العبيد ، وهى شر بالنسبة إلى الصائل الباغى .

فالشر : ماقام به من تلك العقوبة . وأما مانسب إلى الرب منها من المشئية والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة .

فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذى يطلعك على مسألة القدر ، ويفتح لك الطريق إلى الله ، ومعرفة حكمته ورحمته وإحسانه إلى خلقه ، وأنه سبحانه : كما أنه البر الرحيم الودود المحسن ، فهو الحكيم الملك العدل ، فلاتناقض حكمته ورحمته . بل يضع رحمته وبره واحسانه موضعه ، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه وكلاهما مقتضى عزته وحكمته ، وهو العزيز الحكيم ، فلايليق بحكمته أن يضع برضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب ، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته . . .

فصـــــل

إذا عرفت هذا ، عرفت معنى قوله - ﷺ - فى الحديث الصحيح : « لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، والشر ليس إليك »[١] وأن معناه أجل وأعظم من قول من قال ، والشر لايتقرب به اليك ، وقول من قال : والشر لايصعد اليك ، وإن هذا الذى قالوه - وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر اليه ، والتقرب به إليه - فلايتضمن تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر . بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدوق فإنه يتضمن تنزيهه فى ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر اليه بوجه ما ، لا فى صفاته ولا فى أفعاله ، ولا فى أسمائه . وإن دخل فى مخلوقاته كقوله : ﴿ قل أعوذ برب الفلق من شر ماخلق ﴾ .

وتأمل طريقة القرآن فى إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به ، كقوله تعالى : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾[٢] وقوله : ﴿ والله لايهدى القوم الفاسقين ﴾[٣] وقوله : ﴿ فبظلم من الذين هادوا ﴾[٤]

---

(١) أخرجه ابوداود فى سننه ح ٢ ص٤٠٤ كتاب المناسك باب كيفية التلبية رقم ١٨١٢ .
وأنظر البخارى حـ٢ ص ١٧٠ كتاب الحج باب التلبية ، مسلم فى الحج باب التلبية رقم ٥٤/ ٢٧٤٨ .

(٢) البقرة آية : ٢٥٤

(٣) المائدة آية : ١٠٨

(٤) النساء آية : ١٦٠

وقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾(١) وقوله : ﴿ وماظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾(٢) وهو فى القرآن أكثر من أن يذكر ههنا عشر معشاره . وإنما المقصود التمثيل .

وتارة يحذف فاعله . . كقوله تعالى حكاية من مؤمنى الجن ﴿ وأنا لاندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾(٣) فحذفوا فاعل الشر ومريده ، وصرحوا بمريد الشر .

ونظيره فى الفاتحة : ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه ، والضلال منسوبا إلى من قام به ، والغضب محذوفا فاعله .

ومثله قول الخضر فى السفينة : ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ وفى الغلامين ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك ﴾(٤) ومثله قوله : ﴿ ولكن الله حبب اليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق العصيان ﴾(٥) فنسب هذا التزين المحبوب إليه ، وقال : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾(٦) فحذف الفاعل المزين ، ومثله قول ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم : ﴿ الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين ﴾(٧) فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال ، ونسب إلى نفسه التقصى منها ، وهو المرض والخطيئة . . وبالجملة فالذى يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ، ومصلحة وعدل ، والشر ليس اليه .

فصـــــل

وقد دخل فى قوله تعالى : ﴿ من شر ماخلق ﴾ الاستعاذة من كل شر فى أى مخلوق قام به الشر . من حيوان ، أو غيره ، إنسيا كان أو جنيا ، أو هامة أو دابة أو ريحا ، أو صاعقة ، أى نوع كان من أنواع البلاء .

فان قلت : فهل فى «ما» ههنا عموم ؟

قلت : فيها عموم تقييدى وضعى ، لاعموم إطلاقى ، والمعنى : من شر كل مخلوق فيه شر . فعمومها من هذا الوجه . وليس المراد الاستعاذة من شر كل ماخلقه الله . فإن الجنة ومافيها ليس فيها شر ، وكذلك الملائكة والأنبياء فانهم خير محض ، والخير كله حصل على أيديهم ، فالاستعاذة من شر

(١) الأنعام آية : ١٤٦
(٢) الزخرف آية : ٧٦
(٣) الجن آية : ١٠
(٤) الكهف الآيتان : ٧٩ ، ٨١
(٥) الحجرات الآية : ٧
(٦) آل عمران آية : ١٤
(٧) الشعراء : ٧٨ - ٨٢

ماخلق ، تعم شر كل مخلوق فيه شر ، وكل شر فى الدنيا والآخرة ، وشر شياطين الإنس والجن ، وشر السباع والهوام وشر النار والهواء ، وغير ذلك .

وفى الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال : « من نزل منزلا فقال : أعوذ بكلمات الله التامات من شر ماخلق ، لم يضره شىء حتى يرتحل منه » رواه مسلم[1]

فصـــــــل

الشر الثانى : شر الغاسق إذا وقب

فهذا خاص بعد عام ، وقد قال أكثر المفسرين : إنه الليل .

قال ابن عباس : الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق ، ودخل فى كل شىء وأظلم ، والغسق : الظلمة ، يقال غسق اليل ، وأغسق : إذا أظلم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل** ﴾[2] وكذلك قال الحسن . ومجاهد : الغاسق إذا وقب : الليل إذا أقبل ودخل .

وفى تسمية الليل غاسقا قول آخر : إنه من البرد ، والليل أبرد من النهار ، والغسق : البرد وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى : ﴿ **لايذوقون فيها بردا ولا شرابا إلا حميما وغساقا** ﴾[3] فقال : هو الزمهرير يحرقهم ببرده ، كما تحرقهم النار بحرها ، وكذلك قال مجاهد ومقاتل : هو الذى انتهى برده .

ولاتنافى بين القولين ، فإن الليل بارد مظلم ، فمن ذكر برده فقط أو ظلمته فقط : اقتصر على أحد وصفيه .

والظلمة فى الآية أنسب لمكان الاستعاذة ، فإن الشر الذى يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذى فى الليل ، ولهذا استعاذ برب الفلق ، الذى هو الصبح والنور : من شر الغاسق ، الذى هو الظلمة ، فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة ، كما سنزيده تقريرا عن قريب إن شاء الله .

فإن قيل : فما تقولون فيما رواه الترمذى من حديث إبن أبى ذئب عن الحرث بن عبدالرحمن عن أبى سلمة عن عائشة قالت : « أخذ النبى - ﷺ - بيدى ، فنظر إلى القمر ، فقال : (ياعائشة استعيذى بالله

---

(١) اخرجه مسلم : فى صحيحه حـ٤ ص٢٠٨٠ ، ٢٠٨١ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فى التعوذ من سوء القضاء رقم ٥٤/ ٢٧٨٠
(٢) سورة الاسراء آية : ٧٨
(٣) سورة النبأ الآيتان : ٢٤ ، ٢٥

من شر هذا ، فان هذا هو الغاسق إذا وقب)[١] قال الترمذى فى هذا حسن صحيح ، وهذا اولى من كل تفسير فيتعين المصير اليه ؟

قيل : هذا التفسير حق ، ولايناقض التفسير الأول ، بل يوافقه ويشهدك لصحته ، فإن الله تعالى قال : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾[٢] فالقمر هو آية الليل وسلطانه فيه ، فهو أيضا غاسق إذا وقب ، كما أن الليل غاسق إذا وقب ، والنبى - ﷺ - أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب ، وهذا خبر صدق ، وهو أصدق الخبر ، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب ، وتخصيص النبى - ﷺ - له بالذكر لاينفى شمول الإسم لغيره .

ونظير هذا : قوله - ﷺ - فى المسجد الذى أسس على التقوى - وقد سئل عنه - فقال : « هو مسجدى هذا » ومعلوم أن هذا لاينفى كون مسجد قباء مؤسسا على التقوى مثل ذاك .

ونظير هذا ، قوله : « ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »[٣] ، ولكن يقتضى أن ثبوته للذى يملك نفسه عندالغضب أولى ، فكذلك قوله فى القمر « هذا هو الغاسق إذا وقب » لاينفى أن يكون الليل غاسقا ، بل كلاهما غاسق .

فصـــــــل

والشر الذى لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو : أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة ، وفيه تنتشر الشياطين وفى الصحيح أن النبى - ﷺ - أخبر أن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين ولهذا قال : « فاكفتوا صبيانكم ، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب نجمة العشاء » وفى حديث آخر « فإن الله يبث من خلقه مايشاء »[٤] .

والليل هو محل الظلام وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن مالا تتسلط بالنهار ، فإن النهار نور ، والشياطين إنما سلطانهم فى الظلمات ، والمواضع المظلمة ، وعلى أهل الظلمة .

وروى أن سائلا سأل مسليمة الكذاب : كيف يأتيك الذى يأتيك ؟ فقال : فى ظلماء حندس . وسئل النبى - ﷺ - « كيف يأتيك ؟ فقال : فى ضوء النهار » فاستدل بهذا على نبوته ، وأن الذى يأتيه ملك من عند الله ، وأن الذى يأتى مسليمة شيطان .

ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره ، إنما هو بالليل دون النهار ، فالسحر الليلى عندهم : هو

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه حـ ٥ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ كتاب التفسير باب المعوذتين رقم ٣٣٦٦

(٢) الاسراء آية : ١٢

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ ٤ ص ٢٠١٤ كتاب البر والصلة باب من يملك نفسه عند الغضب رقم ١٠٧ / ٢٦٠٩

(٤) اخرجه البخارى فى صحيحه ح ٤ ص ١٥٧ كتاب بدء الخلق باب خمس من الدواب مواسعة يقتلن فى الحرم .

السحر القوى التأثير ، ولهذا كانت القلوب المظلمة هى محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم ، والشياطين تجول فيها ، وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه ، وكلما كان القلب أظلم ، كان للشيطان أطوع ، وهو فيه اثبت وأمكن .

فصـــــــل (الحكمة من الاستفادة برب الفلق)

ومن هنا : تعلم السر فى الاستعاذة برب الفلق فى هذا الموضع .

فإن الفلق هو الصبح الذى هو يبدأ ظهور النور ، وهو الذى يطرد جيش الظلام ، وعسكر المفسدين فى الليل ، فيأوى كل خبيث ، وكل مفسد ، وكل لص ، وكل قاطع إلى سرب أو كن أو غار ، وتأوى الهوام إلى اجحرتها ، والشياطين التى انتشرت بالليل الى أمكنتها ومحالها ، فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور ، الذى يقهر الظلمة ويزيلها ، ويقهر عسكرها وجيشها ، ولهذا ذكر سبحانه فى كل كتاب : أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور ، ويدع الكفار فى ظلمات كفرهم ، قال الله تعالى : ﴿ **الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور . والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها** ﴾[2]

وقال فى أعمال الكفار : ﴿ **أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور** ﴾[3] .

وقد قال قبل ذلك فى صفات أهل الأعيان ونورهم : ﴿ **الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى ، يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لاشرقية ولاغربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم** ﴾[4] .

فالإيمان كله نور ، ومآله إلى نور ، ومستقره فى القلب المضىء المستنير ، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة ، والكفر والشرك كله ظلمات ، ومآله إلى الظلمات ، ومستقره فى القلوب المظلمة ، والمقترن بأهله الأرواح المظلمة .

فتأمل الاستعاذة برب الفلق من شر الظلمة ، ومن شر مايحدث فيها ، ونزل هذا المعنى على الواقع

---

(١) البقرة آية : ٢٥٧
(٢) الأنعام آية : ١٢٢
(٣) النور آية : ٤٠
(٤) النور آية : ٣٥

يشهد بأن القرآن ، بل هاتان السورتان من أعظم إعلام النبوة ، وبراهين صدق رسالة محمد - ﷺ - ومضادته لما جاء به الشياطين من كل وجه ، وأن ماجاء به ماتنزلت به الشياطين ، ومايبنغى لهم ومايستطيعون فما فعلوه . ولايليق بهم ، ولايتأتى منهم ، ولايقدرون عليه .

وفى هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول ﷺ عليه من الأسئلة الباطلة ، التى قصر المتكلمون غاية التقصير فى دفعها وما شقوا فى جوانبها ، وإنما الله سبحانه وتعالى هو الذى شفى وكفى فى جوانبها ، فلم يحوجنا إلى متكلم ، ولا إلى أصولى ، ولا إلى نظار ، فله الحمد والمنة ، لا نحصى ثناء عليه .

فصـــــل

واعلم أن الخلق كله خلق ، وذلك أن « فلقا » فعل بمعنى مفعول ، كقبص وسلب ، وقنص بمعنى مقبوض ومسلوب ومقنوص والله عز وجل يقول فالق الإصباح[1] وكما يقول سبحانه «فالق الحب والنوى[2]» وفالق الأرض عن النبات والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر ، والأرحام عن الأجنة والظلام عن الاصباح ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة ، فلقا وفرقا ، يقال ؛ هو أبيض من فرق الصبح وفلقه .

وكما أن فى خلقه فلقا وفرقا ، فكذلك أمره كله فرقان ، يفرق بين الحق والباطل ، فيفرق ظلام الباطل بالحق ، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح ، ولهذا سمى كتابه « الفرقان » ونصره فرقانا ، لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه ومنه فلقه البحر لموسى وسماه فلقا ظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق فى هذه المواضع ، وظهر بهذا إعجاز القرآن وعظمته وجلالته ، وأن العباد لايقدرون قدره وإنه ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ .

فصـــــل

(قوله تعالى : من شر النفاثات فى العقد)

الشر الثالث : شر النفاثات فى العقد .

وهذا الشر هو شر السحر ، فإن النفاثات فى العقد : هن السواحر اللاتى يعقدن الخيوط ، وينفثن على عقده ، حتى ينعقد مايرون من السحر ، والنفث : هو النفخ مع ريق . وهو دون التفل . وهو مرتبة بينهما .

والنفث : فعل الساحر ، فاذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذى يريده بالمسحور ، ويستعين عليه

---

(١) الأنعام آية : ٩٦

(٢) الأنعام آية : ٩٥

بالأرواح الخبيثة ، نفخ فى تلك العقد نفخا معه ريق ، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى ، مقترن بالريق الممازج لذلك وقد تساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور . فيقع فيه السحر باذن الله الكونى القدرى ، لا الأمرى الشرعى .

فان قيل : فالسحر يكون من الذكور والإناث ، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور ؟

قيل فى جوابه : إن هذا خرج على السبب الواقع ، وهو أن بنات لبيدبن الأعصم سحرن النبى صلى الله عليه وسلم .

هذا جواب أبى عبيده وغيره ، وليس هذا بسديد ، فإن الذى سحر النبى ﷺ هو لبيد بن الأعصم لابناته كما جاء فى الصحيح .

والجواب المحقق : أن النفاثات هنا : هن الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات ، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة ، والأرواح الشريرة ، وسلطانه إنما يظهر منها ، فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث ، دون التذكير . والله أعلم .

ففى الصحيح : عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن النبى - ﷺ - طُبَّ ، حتى أنه ليخيل إليه أنه صنع شيئا وماصنعه ، وأنه دعا ربه ، ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما استفتيه فيه ؟ فقالت عائشة وماذاك يارسول الله ؟ قال : جاءنى رجلان فجلس أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى فقال أحدهما لصاحبه . ماوجع الرجل ؟ قال الآخر مطبوب قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيما ذا ؟ قال : فى مشط مشاطه ، وجف طلع ذكر . قال فأين هو ؟ قال : فى ذروان ، بئر فى بنى زريق ، قالت عائشة رضى الله عنها : فأتاها رسول الله - ﷺ - ، ثم رجع إلى عائشة فقال : والله لكأن ماءها نقاعة الحناء ، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين قال : فقلت له : يارسول الله ، هلا أخرجته ، قال : أما أنا فقد شفانى الله ، وكرهت أن أثير على الناس شرا . فأمر بها فدفنت »[1] قال البخارى : وقال الليث وابن عيينة عن هشام فى مشط ومشاطه ..

ويقال : إن المشاطة : مايخرج من الشعر إذا مشط ، والمشافة من كشافة الكتان .

قلت : هكذا فى هذه الرواية ، أنه صلى الله عليه وسلم لم يخرجه ، اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه .

وقد روى البخارى من حديث ابن عيينه قال : « وممن حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة عن عروة . فسألت هشاما عنه ؟ فحدثنا عن أبيه عن عائشة . كان رسول الله - ﷺ - سحر ، حتى كان يرى انه يأتى النساء ولايأتيهن . قال سفيان : وهذا أشد مايكون من السحر ، إذا كان كذا ، فقال :

---

(١) اخرجه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص١٧٢ كتاب السلام . باب السحر رقم ٢١٨٩/٤٣

ياعائشة ، أعلمت أن الله قد أفتانى فيما أستفتيه فيه ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى ، والآخر عند رجلى . فقال الذى عند رأسى للآخر : مابال الرجل ؟ قال : مطبوب . قال : ومن طبه ؟ قال : لبيد بن الأعصم ، رجل من بنى زريق حليف ليهود : وكان منافقا قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ومشاطة . قال : وأين ؟ قال فى جف طلع ذكر ، تحت راعونة فى بئر ذروان . قال : فأتى البئر فاستخرجه . فقال : هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين . قال : فاستخرج قالت : أفلا ـ أى تنشرت ـ قال : أما الله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا(١) .

ففى هذا الحديث : أنه ـ ﷺ ـ استخرجه . وترجم البخارى عليه بأن هل يستخرج السحر . وقال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب ، ويؤخذ عن امرأته ابجل عنه وينشر ،؟ قال : لابأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فاماماينفع الناس فلم ينه عنه .

فهذان الحديثان قد يظن فى الظاهر تعارضهما فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه . الأول فيه : أنه لم يستخرجه . وحديث ابن جريج عن هشام فيه أنه استخرجه لاتنافى بينهما . فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه ، ثم دفنه بعد أن شفى . وقول عائشة « هلا استخرجته » أى هلا اخرجته للناس حتى يروه ويعاينوه ؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك ، وهو المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك ، فيقع الانكار ، ويغضب للساحر قومه ، فيحدث الشر وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة . فأمر بها فدفنت ، ولم يستخرجها للناس ، بالاستخراج الواقع غير الذى سألت عنه السيدة عائشة رضى الله عنها .

والذى يدل عليه : أنه ـ ﷺ ـ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها ولم يجىء لينظر اليها ثم ينصرف ، إذ لاغرض له فى ذلك . والله أعلم .

الرد على من أنكر أن النبى صلى الله عليه وسلم سُحر

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث ، متلقى بالقبول بينهم ، لايختلفون فى صحته ، وقد اعتاص على كثير من أهل الكلام وغيرهم ، وأنكروا أشد الانكار ، وقابلوه بالتكذيب ، وصنف بعضهم منه مصنفا مفردا ، حمل فيه على هشام ، وكان غاية ماأحسن القول فيه : أن قال : غلط ، واشتبه عليه الأمر ، ولم يكن من هذا شىء ، قال : لأن النبى ـ ﷺ ـ لايجوز أن يسحر . فإنه يكون تصديقا لقول الكفار : ﴿ **إن تتبعون إلا رجلا مسحورا** ﴾(٢) قالوا : وهذا كما قال فرعون لموسى : ﴿ **وإنى لأظنك ياموسى مسحورا** ﴾(٣) وكما قال قوم صالح له : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾(٤) وكما قال قوم شعيب له : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾(٥) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه حـ٤ ص١٤٨ كتاب بدء الخلق باب . صفة ابليس وجنوده .
(٢) الاسراء آية : ٤٧
(٣) الاسراء آية : ١٠١
(٤) الشعراء آية : ١٥٣
(٥) الشعراء آية : ١٨٥

قالوا : فالأنبياء لايجوز عليهم أن يسحروا ، فإن ذلك ينافى حماية الله لهم وعصمتهم من الشيطان .

وهذا الذى قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم فإن هشاما من أوثق الناس وأعلمهم ، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه ، فما للمتكلمين ومالهذا الشأن ؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة ، وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث ، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة . والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله - ﷺ - من المتكلمين .

قال أبوبكر بن أبى شيبة : حدثنا معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم قال : « سحر النبى -ﷺ- رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما . قال : فأتاه جبريل ، فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، وعقد لك عقدا ، فارسل رسول الله - ﷺ - عليا فاستخرجها ، فجاء بها ، فجعل كلما حل عقدة وجد لذلك خفة فقام رسول الله - ﷺ - كأنما نشط من عقال . فما ذكر ذلك اليهودى ، ولارآه فى وجهه قط » وقال ابن عباس وعائشة « كان غلام من اليهود يخدم رسول الله - ﷺ - فدنت إليه اليهود . فلم يزالوا حتى أخذ مشاطة رأس النبى - ﷺ - وعدة أسنان من مشطه فأعطاها اليهود ، فسحروه فيها ، وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود[1] فنزلت هاتان السورتان .

قال البغوى : وقيل : « كانت مغروزة بالابر ، فأنزل الله عز وجل هاتين السورتين ، وهما احد عشر آية : سورة الفلق خمس آيات وسورة الناس ست آيات ، فكلما قرأ آية ، انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها ، فقام النبى - ﷺ - كأنما نشط من عقال » . قال : وروى أنه لبث فيه ستة أشهر ، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان .

وقالوا :

والسحر الذى أصابه كان مرضا من الأمراض عارضا شفاه الله منه ولانقص فى ذلك ، ولاعيب بوجه ما فإن المرض يجوز على الأنبياء وكذلك الإغماء ، فقد أغمى عليه صلى الله عليه وسلم فى مرضه ، ووقع حين انفكت قدمه وجحش شقه ، وهذا من البلاء الذى يزيده الله به رفعه فى درجاته ، ونيل كرامته . وأشد الناس بلاء الأنبياء . فابتلوا من أممهم مما ابتلوا به . من القتل والضرب والشتم ، فليس ببدع أن يبتلى النبى - ﷺ - من بعض أعدائه بنوع من السحر ، كما ابتلى والذى القى على ظهره السلا وهو ساجد ، وغير ذلك ، فلا نقص عليهم ولاعار فى ذلك بل هذا من كمالهم ، وعلو درجاتهم عند الله تعالى .

قالوا : وقد ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أن جبريل أتى النبى - ﷺ - فقال : يامحمد اشتكيت ؟ فقال : نعم . فقال باسم الله ارقيك ، من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس ، أو عين

---

(١) أخرجه ابن ابى شيبه فى مصنفه حـ٧ ص٣٨٨ كتاب الطب باقى الرجل يسحر ويسم ويعالج . رقم ٣٥٦٩

حاسد ، الله يشفيك ، بسم الله أرقيك »[١] فعوذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد ، لما اشتكى . فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته ﷺ - وإلا فلايعوذه من شيء وشكايته من غيره .

وقالوا : وأما الآيات التى استدللتم بها فلا حجة لكم فيها .

أما قوله تعالى عن الكفار ، إنهم قالوا : ﴿ إن تتبعون إلا رجلا مسحورا ﴾ وقول قوم صالح وشعيب لهما : ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ فقيل المراد به من له سحر ، وهى الرئة ، أى أنه بشر مثلهم ، يأكل ويشرب ليس بملك ، وليس المراد به السحر .

وهذا جواب غير مرضى ، وهو فى غاية البعد ، فإن الكفار لم يكونوا يصبرون عن البشر بمسحور ، ولايعرف هذا فى لغة من اللغات ، وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر ، فقالوا : ﴿ ماأنتم إلا بشر مثلنا ﴾[٢] وقالوا : ﴿ أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾[٣] وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السحر ، وهى الرئة ، وأى مناسبة لذكر الرئة فى هذا الموضع ؟

ثم كيف يقول فرعون لموسى : ﴿ انى لأظنك ياموسى مسحورا ﴾[٤] افتراه ماعلم أن له سحرا ، وأنه بشر ؟

ثم كيف يجيبه موسى بقوله : ﴿ إنى لأظنك يافرعون مثبورا ﴾[٥] ولو أراد بالمسحور : أنه بشر لصدقه موسى ، وقال : نعم ، أنا بشر أرسلنى الله إليك ، فهذا الجواب غاية الضعف .

والصواب هو جواب صاحب الكشاف وغيره : أن « المسحور » على بابه وهو من سحر حتى جن ، فقالوا : مسحور ، مثل مجنون أى زائل العقل ، لايعقل مايقول ، فإن المسحور الذى لايتبع هو الذى فسد عقله ، بحيث لايدرى مايقول فهو كالمجنون . ولهذا قالوا فيه : ﴿ معلم مجنون ﴾[٦] فأما من أصيب فى بدنه بمرض من الامراض يصاب به الناس ، فانه لايمنع ذلك من اتباعه .

وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان ، وإنما قذفوهم بمايحذرون سفهائهم من أتباعهم ، وهو أنهم قد سحروا ، حتى صاروا لايعلمون مايقولون ، بمنزلة المجانين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلايستطيعون سبيلا ﴾[٧] مثلوك بالشاعر مرة ، والساحر أخرى ، والمجنون مرة ، والمسحور أخرى . فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى تيهه وتحيره طريقا يسلكه ، فلايقدر

---

(١) أخرجه الترمذى وسننه جـ٣ ص٣٠٣ كتاب الجنائز باب ماجاء فى التعوذ للمريض رقم ٩٧٢ . وابن ماجة فى كتاب الطب باب مايعوذ به النبى رقم ٣٥٢٣ .

(٢) يس آية : ١٥

(٣) المؤمنون آية : ٤٧

(٤) الإسراء آية : ١٠١

(٥) الاسراء آية : ١٠٢

(٦) الدخان آية : ١٤

(٧) الاسراء آية : ٤٨

عليه ، فإنه أى طريق أخذها فهى طريق ضلال وحيرة ، فهو متحير فى أمره ، لايهتدى سبيلا ، ولايقدر على سلوكها .

فهكذا حال أعداء رسول الله ـ ﷺ ـ معه ، حتى ضربوا له أمثالا ، برأه الله منها ، وهو أبعد الناس عنها ، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان .

وأما قولكم : إن سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم ، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم يحفظهم ويتولاهم ، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ، ليستوجبوا كمال كرامته ، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ماجرى على الرسل والأنبياء ، صبروا ورضوا ، وتأسوا بهم ، وليمتلىء صاع الكفار فيستوجبون ماأعد لهم من النكال العاجل ، والعقوبة الآجلة ، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم ، فيعجل تطهير الأرض منهم ، فهذا من بعض حكمته تعالى فى ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم ، وله الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

فصل

وقد دل قوله تعالى : ﴿ من شر النفاثات فى العقد ﴾ وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر ، وأن له حقيقة .

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم .

وقالوا : إنه لا تأثير للسحر ألبتة لا فى مرض ، ولا قتل ، ولا حل ، ولا عقد .

قالوا : وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين ، لا حقيقة له سوى ذلك وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف ، واتفق عليه الفقهاء وأهل التفسير والحديث ، وما يعرفه عامة العقلاء ، والسحر الذى يؤثر مرضا وثقلاً وعقداً وحباً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار موجود ، تعرفه عامة الناس ، وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه ، وقوله تعالى : ﴿ ومن شر النفاثات فى العقد ﴾ دليل على هذا النفث يضر المسحور فى حال غيبته عنه ، ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً ، كما يقوله هؤلاء ، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه . . . . وبالجملة فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده فلنرجع إلى المقصود .

فصل قوله تعالى : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾

الشر الرابع : شر الحاسد إذا حسد

وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذى المحسود فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه ، فإن الله تعالى قال : ﴿ ومن شر حاسد إذا حسد ﴾ فحقق الشر منه صدور الحسد . والقرآن ليس فيه لفظه مهملة .

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسدا إلا إذا قام به الحسد ، ولكن قد يكون الرجل فى طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود ، لاه عنه ، فإذا خطر على ذكره وقلبه ، انبعثت نار الحسد من قلبه إليه ، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله ، فيتأذى المحسود بمجرد ذلك ، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه ، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه واقباله على الله ، وإلا ناله شر الحاسد ولابد .

فقوله تعالى : ﴿ إذا حسد ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل .

وقد تقدم فى حديث أبى سعيد الصحيح : رقية جبريل النبى - ﷺ - وفيها « بسم الله أرقيك ، من كل شىء يؤذيك ، من شر كل نفس أوعين حاسد ، الله يشفيك » فهذا فيه الاستفادة من شر عين الحاسد .

ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها ، إذ لو نظر إلى نظر لاه « ساه » عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره ، لم يؤثر فيه شيئاً ، وإنما إذا نظر اليه نظرة قد تكيفت نفسه الخبيثة واتسمّت ، واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة ، أثرت بها تلك النظرة ، فأثرت فى المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه ، وقوة نفس الحاسد ، فربما أعطبه وأهلكه ، بمنزلة من صوب سهماً نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلاً ، وربما صرعه وأمرضه ، والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر ، وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة ، وهى فى ذلك بمنزلة الحية التى إنما يؤثر سمعها إذا عضت واحتدت ، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث ، فتحث فيها تلك الكيفية السم ، فتؤثر فى اللديغ ، وربما قويت تلك الكيفية واشتدت فى نوع منها ، حتى تؤثر بمجرد نظرة ، فتطمس البصر ، وتسقط الحبل ، كما ذكره النبى - ﷺ - فى الأثير ، وذى الطفيتين منها فقال : « اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ، ويسقطان الحبل » فإذا كان هذا فى الحيات ، فما الظن فى النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة ، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية ، واتسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها ، فـلله كم من قتيل ؟ وكم من سليب ؟ وكم من معافى عاد مضنى على فراشه ، يقول طبيبه لا أعلم داءه ، ما هو؟ فصدق : ليس هذا الداء من علم الطبائع ، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها فى الأجسام والطبائع ، وانفعال الأجسام عنها . وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس ، والمحجوبون منكرون له ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه ، إلا من له نصيب من ذوقه ، وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى ؟ وهل الانفعال والتأثر وحدوث ما يحدث منها من الأفعال العجيبة ، والآثار الغريبة إلا من الأرواح ، والأجسام آلتها بمنزلة الصانع ؟ فالصنعة فى الحقيقة له ، والآلات وسائط فى وصول أثره إلى الصنع ، ومن له أدنى فطنة وتأمل لأحوال العالم وقد لطفت روحه ، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها ، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها ، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم ، خالق الأسباب والمسببات - رأى عجائب فى الكون وآيات دالة على وحدانية الله وعظمة ربوبيته ، وأن تتم عالماً آخر تجرى عليه أحكام آخر ، تشهد آثارها ، وأسبابها غيب عن الأبصار .

فتبارك الله رب العالمين ، وأحسن الخالقين ، الذى أتقن ما صنع ، وأحسن كل شىء خلقه .

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح ، بل هو أعظم وأوسع ، وعجائبه أبهر ، وآياته أعجب .

وتأمل هذا الهيكل الإنسانى إذا فارقته الروح ، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم ؟ فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والفعل ؟ وتلك الصنائع الغريبة ، وتلك الأفعال العجيبة ، وتلك الأفكار والتدابير ؟ كيف ذهبت كلها مع الروح وبقى الهيكل سواء هو والتراب وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك أو يفاديك ، ويخف عليك أو يثقل ، ويؤنسك أو يوحشك ، إلا ذلك الأمر الذى هو وراء الهيكل المشاهد بالبصر ؟

فرب رجل عظيم الحيولى كبير الجثة . خفيف على قلبك ، حلو عندك وآخر لطيف الخلقة ، صغير الجثة ، أثقل على قلبك من جبل ، وما ذاك إلا للطاقة روح ذاك وخفتها وحلاوتها ، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها .

وبالجملة : فالعلق والوُصَل التى بين الأشخاص والمنافرات والبعد ، إنما هى للأرواح أصلاً والأشباح تبعاً

الفرق بين العائن والحاسد

والعاين والحاسد يشتركان فى شىء ، ويفترقان فى شىء فيشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه ، وتتوجه نحو من يريد أذاه .

فالعائن : تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته .

والحاسد : يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً ويفترقان فى أن العائن قد يصيب من لا يحسده ، من جماد أو حيوان أو زرع أو مال ، وإن كان لا يكاد ينفك من جسد صاحبه ، وربما أصابت عينه نفسه ، فإن رؤيته للشىء رؤية تعجب وتحديق ، مع تكييف نفسه بتلك الكيفية تؤثر فى المعين .

وقد قال غير واحد من المفسرين فى قوله تعالى ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر** ﴾ إنه الأصابة بالعين ، أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ـ ﷺ ـ فنظر إليه قوم من العائنين ، وقالوا : ما رأينا مثله ، ولا مثل حجبته .

وقال الكلبى : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه ، فتمر الأبل ، فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة . فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ـ ﷺ ـ بالعين ، ويفعل به كفعله فى غيره : فعصم الله رسوله وحفظه . وأنزل عليه ﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ هذا قول طائفة .

وقالت طائفة أخرى منهم ابن قتيبة : ليس المراد : أنهم يصيبونك بالعين ، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما المراد . أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعدوان والبغضاء يكاد

---

(١) القلم آية ٥١

يسقطك . قال الزجاج : يعنى من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظرا البغضاء أن يصدعوك . وهذا مستعمل فى الكلام: يقول القائل : نظر إلىَّ نظرا كاد يصرعنى .

قال : ويدل على صحة هذا المعنى : أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية ، فيحدو إليه النظر بالبغضاء .....

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة ، فهو نظر يكاد يزلقه ، لولا حفظ الله وعصمته ، فهذا أشد من نظر العائن ، بل هو جنس من نظر العائن ، فمن قال : أنه من الإصابة بالعين أراد : هذا المعنى . ومن قال : ليس به . أراد : أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب ، فالقرآن حق .

وقد روى الترمذى من حديث أبى سعيد « أن النبى ـ ﷺ ـ كان يتعوذ من عين الإنسان » فلولا أن العين شر لم يتعوذ منها .

وفيه أيضاً من حديث وهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : « كان رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : لوكان شىء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا » وفى الباب عن عبد الله ابن عمرو . وهذا حديث صحيح .(١)

والمقصود : أن العائن حاسد خاص . وهو أضر من الحاسد ، ولهذا ـ والله أعلم ـ أنما جاء فى السورة ذكر الحاسدون العائن ، لأنه أعم فكل عائن حاسد ولابد . وليس كل حاسد عائناً ، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن ، وهذا شمول القرآن وإعجازه وبلاغته .

أصل الحسد

وأصل الحسد : هو بغض نعمة الله على المحسود وتمنى زوالها .

فالحاسد عدو النعم ، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها ، ليس هو شيئا اكتسبه من غيرها ، بل هو من خبثها وشرها بخلاف السحر ، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى ، واستعانة بالأرواح الشيطانية فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن فى السورة بين شر الحاسد وشر الساحر ، لأن الأستعاذة من شر هذين تعم كل شىء يأتى من شياطين الأنس والجن ، فالحسد من شياطين الإنس والجن والسحر من النوعين .

وبقى قسم يتفرد به شياطين الجن ، وهو الوسوسة فى القلب فذكره فى السورة الأخرى ، كما سيأتى الكلام عليها إن شاء الله ، فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه ، بل هو أذى من أمر خارج عنه ، ففرق بينهما فى الذكر فى سورة الفلق

والوسواس إنما يؤذى العبد من داخل بواسطة مساكنته له ، وقبوله منه ، ولهذا يعاقب العبد على

---

(١) أخرجه الترمزى فى سننه ج ٤ ص ٣٤٧ كتاب الطب . باب ماجاء أن العين حق والغسل لها . رقم ٢٠٦٢ أنظر مسلم فى كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى والنسائى فى الكبرى- الطب باب اعين .

الشىء ، الذى يؤذيه به الشيطان من الوساوس ، التى تقترن بها الأفعال ، والعزم الجازم ، لأنه ذلك بسعيه وإرادته ، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته ، فلهذا أفرد شر الشيطان فى سورة ، وقرن بين شر الساحر والحاسد فى سورة وكثيرا ما يجتمع فى القرآن الحسد والسحر للمناسبة ، ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم ، فإنهم لشدة خبثهم : فمنهم من السحر والحسد ما ليس فى غيرهم ، وقد وصفهم الله فى كتابه بهذا وهذا فقال تعالى ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ، ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه . وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون** ﴾[1]

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر ، وما تضمنه من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذى أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس ، وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما - فى موضع غير هذا . إذ المقصود الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق اليهما ، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما .

وأما وصفهم بالحسد فكثير فى القرآن الكريم كقوله تعالى ﴿ **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله** ﴾[2] وفى قوله ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق** ﴾[3]

والشيطان يقارن الساحر والحاسد ، ويحادثهما ويصاحبهما ، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان ، لأن الحاسد شبيه بإبليس ، وهو فى الحقيقة من أتباعه ، لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس ، وزوال نعم الله عنهم ، كما أن أبليس حسد آدم لشرفه وفضله ، وأبى أن يسجد له حسداً ، فالحاسد من جند إبليس ، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه .

وربما يعبده من دون الله ، حتى يقضى له حاجته ، وربما يسجد له ، وهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين ، كان سحره أقوى وأنفذ وكان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب ، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام ، وهم الذين سحروا رسول الله - ﷺ -

وفى الموطأ عن كعب قال « كلمات أحفظهن من التوراة ، لولاها لجعلتنى يهود حماراً : أعوذ بوجه الله

---

(١) البقرة آية : ١٠٢
(٢) النساء آية : ٥٥
(٣) البقرة آية : ١٠٩

العظيم ، الذى لا شيء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر وبأسماء الله الحسنى ، ما علمت منها وما لم أعلم : منْ شر ما خلق وذرأ ، وبرأ .

والمقصود : أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر ، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود ، والشيطان يقترن به ويعينه ، ويزين له حسده ، ويأمره بموجبه ، والساحر بعلمه ، وكسبه ، وشركه ، واستعانته بالشياطين .

وقوله تعالى : ﴿ **ومن شر حاسد إذا حاسد** ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس ، فإن الشيطان وحزبه ، يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، كما حسد إبليس أبانا آدم ، وهو عدو لذريته ، كما قال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا** ﴾[1] ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن ، والحسد أخص بشياطين الإنس . والوسواس يعميها ، كما سيأتى بيانها - إن شاء الله - والحسد يعمهما أيضاً ، فكلا الشياطين حاسد موسوس ، فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً .

فقد أشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر فى العالم .

وتضمنت شرورا أربعة يستعاذ منها : شراً عاماً ، وهو شر ما خلق . وشر الغاسق إذا وقب . فهذان نوعان ثم ذكر شر الساحر والحاسد ، وهما نوعان أيضاً لأنهما من شر النفس الشريرة ، وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده ، وهو الساحر وقلما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان ، وتقرب إليه : أما بذبح باسمه ، أو بذبح يقصد به هو ، فيكون ذبحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق .

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان ، فهو عبادة له ، وإن سماه بما سماه به . فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه ، لا لاسمه ولفظه ، ممن سجد لمخلوق وقال : ليس هذا بسجود له ، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة كما أقبلها بالنعم ، أه هذا إكرام : لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجودا لغير الله ، فليسمه بما يشاء .

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرب إليه بما يجب ، فقد عبده ، وإن لم يسم ذلك عباده ، بل يسميه استخداما وصدق . هو استخدام من الشيطان له ، فيصير من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده ، كما فعل هو به .

والمقصود أن هذا عبادة منه للشيطان ، وإنما سماه استخداما قال تعالى ﴿ **ألم أعهد إليكم يابنى آدم أن**

---

(١) فاطر آية ٦

لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾[١] وقال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون ﴾[٢]

فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين ، وهم فى الدنيا والآخرة ، ولبئس المولى ، ولبئس العشير ، فهذا أحد النوعين

والنوع الثانى من يعينه الشيطان ، وإن لم يستعن هو به وهو الحاسد ، لأنه نائبه وخليفته ، لأن كليهما عدو نعم الله ، ومنغصها على عباده .

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله : ﴿ إذا حسد ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد ، ولكن يخفيه ، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما ، لا يقلبه ولا بلسانه ولا بيده ، بل يجد فى قلبه شيئا من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحد إلا من عصمه الله .

وقيل للحسن البصرى ، أيحسد المؤمن ؟ قال : ما أنساك لإخوة يوسف لكن الفرق بين القوة التى فى قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها ، بل يعصيها طاعة لله وخوفا وحياء منه ، وإجلالا له إن يكره نعمة على عباده ، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله ، ومحبة لما يبغضه ، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ، ويلزمها بالدعاء للمحسود ، وتمنى زيادة الخير له ، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده ، وربت على جسده مقتضاه : من الأذى بالقلب ، واللسان والجوارح ، فهذا الحسد المذموم ، هذا كله حسد تمنى الزوال .

مراتب الحسد

وللحسد ثلاثة مراتب : إحداهما هذه

والثانية : تمنى استصحاب عدم النعمة ، فهو يكره أن يحسد الله لعبده نعمة ، بل يجب أن يبقى على حاله من جهله ، أو فقره أو ضعفه ، أو شتات قلبه عن الله ، أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب ، فهذا حسد على شيء مقدر ، والأول حسد على شيء محقق ، وكلاهما حاسد ، عدو نعمة الله ، وعدو عباده ، وممقوت عند الله ، وعند الناس ، ولا يسود أبداً ولا يوالى ، فإن الناس لا يسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم ، فأما عدو نعمة الله عليهم ، فلا يسودنه باختيار أبداً إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها ، فهم يبغضونه وهو يبغضهم .

والحسد الثالث : حسد الغبطة ، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه . فهذا لا بأس به ، ولا يعاب صاحبه ، بل هذا قريب من المنافسة . وقد قال تعالى ﴿ وفى ذلك

---

(١) يس آية ٦٠

(٢) سبأ الآيتان : ٤٠ ، ٤١

فليتنافس المتنافسون ﴾(١) وفى الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال : لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا ، وسلطه على هلكته فى الحق . ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها الناس »(٢) فهذا الحسد بمعنى الغبطة الحامل عليه حب خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول فى جملتهم ، وأن يكون من سبَّاقهم وعليتهم ومصليهم لا من فساقهم بتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة ، مع محبته لمن يغبطه ، وتمنى دوام نعمة الله عليه ، فهذا لا يدخل فى الآية بوجه ما .

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد ، فإنها تتضمن من التوكل على الله ، والالتجاء إليه ، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة ، فهو مستعيذ بولى النعم ومُوليها . كأنه يقول : يامن أولانى نعمته وأسداها إلىَّ ، أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلها منى ، ويزيلها عنى ، وهو سبحانه حسب من توكل عليه ، وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يؤمن خوف الخائف ويجير المستجير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، فمن تولاه واستنصر به ، وتوكل عليه ، وانقطع بكليته إليه ، تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾(٣) فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته ، فإن الله بالغ أمره وقد جعل الله لكل شىء قدراً ، لا يتقدم عنه ولا يتأخر . ومن لم يخفه اخافه من كل شىء ، قال تعالى ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ﴾(٤) . وقال : ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياؤه . فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾(٥) أى يخوفكم بأوليائه ، ويعظمهم فى صدوركم . فلا تخافوهم ، وأفردونى بالمخافة أكفكم أياهم .

فصل
فى الأسباب التى يندفع بها شر الحاسد والعائن والباغى

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب !

أحدها : التعوذ بالله من شره ، والتحصن به واللجوء إليه وهو المقصود بهذه السورة ، والله تعالى سميع لاستعاذته ، عليم بما يستعيذ منه ، والسمع هنا المراد به . سمع الإجابة ، لا السمع العام . فهو

---

(١) المطففين آية ٢٦

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه ج ٤ ص ٢٩١ كتاب البر والصلة باب ما جاء فى الحسد رقم ١٩٣٦ البخارى كتاب التوحيد فى قول النبى ﷺ رجل آتاه الله قرآنا فهو يقوم به أناء الليل وآناء النهار . مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه .

(٣) الطلاق آية ٢ ، ٣

(٤) النحل الآيات : ٩٨ - ١٠٠

(٥) آل عمران الآية : ١٧٥

مثل قوله « سمع الله لمن حمده » وقول الخليل : ﷺ - (إن ربى لسميع الدعاء)[١] ومرة يقرنه بالعلم ، ومرة بالبصر ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك ، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه ، ويعلم كيده وشره ، فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته ، أى مجيب ، عليكم بكيد عدوه ، يراه ويبصره ، لينبسط أمل المستعيذ ، ويقبل بقلبه على الدعاء .

وتأمل حكمة القرآن كيف جاء فى الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وجوده ولا نراه بلفظ (السميع العليم) فى ﴿ حم السجدة ﴾ وبلفظ ﴿ إنه سميع عليم ﴾ فى الأعراف وجاءت الإستعاذة من شر الإنس الذين يؤنسون ويرون بالأبصار بلفظ ﴿ السميع البصير ﴾ فى سورة حم المؤمن فقال تعالى : ﴿ **إن الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير** ﴾[٢] لأن أفعال هؤلاء معاينة ترى بالبصر وأما نزع الشيطان فوساوس وخطرات يلقيها فى القلب ، يتعلق بها العلم ، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها ، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير فى باب ما يرى بالبصر ويدرك بالرؤية والله أعلم .

السبب الثانى : تقوى الله ، وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن اتقى الله تولى الله حفظه ، ولم يكله إلى غيره .. قال تعالى : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً** ﴾[٣]

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك[٤] » فمن حفظ الله حفظه الله ، ووجده أمامه أينما توجه ومن كان الله حافظه وأمامه فمن يخاف ؟ ومن يحذر ؟

السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً ، فما نصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه ، والتوكل على الله ، ولا يستطل تأخيره وبغيه ، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغى عليه المحسود ، يقاتل به الباغى نفسه ، وهو لا يشعر ، فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه ، ولو رأى المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه ، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغى ، دون آخره ومآله ، وقد قال تعالى : ﴿ **ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله** ﴾[٥] فإذا كان الله سبحانه قد ضمن له النصر مع أنه قد أستوفى حقه أولاً ، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه ، بل بغى عليه وهو صابر ؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سنة الله : أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكاً .

السبب الرابع : التوكل على الله ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه ، والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب فى ذلك ، فإن الله

---

(١) ابراهيم آية ٣٩

(٢) غافر آية ٥٦

(٣) آل عمران : ١٢٠

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه جـ٤ ص ٥٧٥ ، ٥٧٦ كتاب صفة القيامة والرقائق والورع . باب ما جاء فى وصفه الحوض رقم ٢٥١٦

(٥) الحج آية : ٦٠

حسبه ، أى كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه ، فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لابد منه ، كالحر والبرد ، والجوع والعطش ، وأما أن يضيره بما يبلغ منه مراده ، فلا يكون أبداً .

وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له ، وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفى به منه ، قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[1] ولم يقل نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال فى الأعمال بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه ، وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجاً من ذلك ، وكفاه ونصره .

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه ، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه ، وهذا من أنفع الأدوية ، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره فإن هذا بمنزلة من يطالبه عدوه ليمسكه ويؤذيه ، فإذا لك ينعرض له ولا تماسك هو واياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه ، حصل الشر وهكذا الأرواح متعلقة به يقظة ومناما ، لا يفتر عنه ، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا ، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ، ودوام الشر ، حتى يهلك أحدهما . فإذا جبذ روحه منه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به وأن لا يخطره بباله فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به بقى الحاسد الباغى يأكل بعضه بعضا ، فإن الحسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً .

وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفه والهمم العالية وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح أشتغاله بعدوه وتعلق روحه به ، ولا يرى شيئاً آلم لروحه من ذلك ، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة ، التى رضيت بوكالة الله لها ، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هى لنفسها فوثقت بالله ، وسكنت إليه ، واطمأنت به ، وعلمت أن ضمانه حق ، ووعده صدق ، وأنه لا أوفى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلا ، فعلمت أن نصره أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدة من نصرها هى لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلها لها ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

السبب السادس

وهو الاقبال على الله تعالى ، والإخلاص له ، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه فى كل خواطر نفسه ، وأمانيها تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئا فشيئاً ، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية ، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب ، والتقرب إليه وتملقه وترضيه ، واستعطافه وذكره ، كما يذكر المحب

---

(١) الطلاق اية ٩

التام المحبة محبوبه المحسن إليه ، الذى قد امتلأت جوانحه من حبه ، فلا يستطيع قلبه انصرافا عن ذكره ، ولا روحه انصرافا عن محبته ، فإذا صار كذلك ، فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معمورا بالفكر فى حاسده والباغى عليه ، والطريق إلى الانتقام منه ، والتدبير عليه ؟ وهذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله ، وطلب مرضاته ، بل إذا مسّه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ، ناداه حرس قلبه : إياك وحمى الملك ، اذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حل فيها وترك بها ما لك وليت السلطان الذى أقام عليه اليزك وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور ، قال تعالى عن عدوه ابليس أنه قال : ﴿ **فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾[١] وقال ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون** ﴾[٢] وقال فى حق الصديق يوسف ـ ﷺ ـ ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾[٣]

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن ، وصار داخل اليزك ، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به ، ولا ضيعة على من آوى إليه ، ولا مطمع للعدو فى الدنو إليه منه **وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم** .

السبب السابع :

تجريد التوبة إلى الله تعالى من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه ، فإن الله تعالى يقول ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**)[٤] وقال لخير الخلق ، وهم أصحاب نبيه ـ ﷺ ـ ﴿ **أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم** ﴾[٥]

فما سلط على العبد من يؤذيه ، إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها ، وما ينساه مما عمله أضعاف ما يذكره .

وفى الدعاء المشهور « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما أعلم »

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه ، أضعاف ما يعلمه ، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب .

ولقى بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه ، فقال له قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك ، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب ، وأناب إلى ربه . ثم خرج إليه فقال له ما صنعت فقال : تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به علىّ ، وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها ، فإذا عوفى وأوذى وتسلط عليه خصومه شيء انفع له من التوبة النصوح .

---

(١) (ص) الآيتان : ٨٢ـ ٨٣

(٢) النحل الآيتان : ٩٩ـ ١٠٠

(٣) يوسف آية : ٢٤

(٤) الشورى آية ٣٠

(٥) آل عمران : ١٦٥

وعلامة سعادته ، أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها ، وبإصلاحها وبالتوبة منها . فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به ، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه ، والله يتولى نصرته وحفظه ، والدفع عنه ولابد ، فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلة نزلت به وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق الرشد بيد الله ،لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، فما كل أحد يوفق لهذا . لا معرفة به ولا إرادة له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه ، فإن لذلك تأثيرا عجيباً فى دفع البلاء ، ودفع العين وشر الحاسد ، ولو لم يكن فى هذا الا بتجارب الأمم قديما وحديثا لكفى به ، فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن يتصدق ، وإن أصابه شيء من ذلك ، كان معاملا فيه باللطف والمعونة والتأييد ، وكانت له فيه العاقبة الحميدة ، والمحسن المتصدق فى خفارة أحسانه وصدقته ، عليه من الله جنة واقية ، وحصن حصين .

وبالجملة فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها ، ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن ، فإنه لا يفتر ولا ينى ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود ، فحينئذ يبرد أذينه وتنطفىء ناره لا أطفأها الله ، فما خرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصى الله ، وهو كفران النعمة ، وهو باب إلى كفران النعم فالمحسن المتصدق ، يستخدم جنداً وعسكراً ، يقاتلون عنه ، وهو نائم على فراشه ، فمن لم يكن له جند ولا عسكر ، وله عدو فإنه يوشك أن يظفر به عدوه ، وإن تأخرت مدة الظفر ، والله المستعان .

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس ، وأشقها عليه ، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله - وهو إطفاء نار الحاسد والباغى والمؤذى بالاحسان إليه ، فكلما ازداد اذى وشراً وبغياً وحسداً ، ازددت اليه إحسانا وله تصيحة ، وعليه شفقة ، وما أظنك تصدق بأن هذا يكون ، فضلا عن أن تتعطاه ، فاسمع الآن قوله عز وجل : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم** ﴾[1] وقال تعالى ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾[2]

وتأمل حال النبى - ﷺ - إذ ضربه قومه حتى أدموه ، فجعل يسلت الدم عنه ، ويقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من الاحسان ، قابل بها اساءتهم العظيمة إليه .

أحدها : عفوه عنهم ، والثانى استغفاره لهم ، والثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون ، والرابع :

---

(١) فصلت الآيات : ٣٤ - ٣٦
(٢) القصص آية : ٥٤

استعطافه لهم بإضافتهم إليه فقال « اغفر لقومى » كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به هذا ولدى : هذا غلامى ، هذا صاحبى . فهبه لى .

واسمع الآن ما الذى يسهل هذا على النفس ويطيبه اليها وينعمها به اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله ، تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ويغفر لك ويهبها لك . ومع هذا لا يقتصر على مجرد الغفو والمسامحة ، حتى ينعم عليك ويكرمك ، ويجلب اليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله ، فإذا كنت ترجو هذا من ربك ، وتحب أن يقابل به إساءتك ، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به أساءتهم ؟ ليعاملك الله تلك المعاملة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تعمل مع الناس فى اساءتهم فى حقك يفعل الله معك فى ذنوبك وإساءتك ، جزاء وفاقاً ، فانتقم بعد ذلك أو اعف وأحسن أو اترك ، فكما تدين تدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك .

فمن تصور هذا المعنى ، وشغل به فكره . هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه .

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة ، كما قال النبى - ﷺ - للذى شكى إليه قرابته ، وأنه يحسن اليهم وهم يسيئون إليه . فقال « لايزال معك من الله ظهير ، ما دمت على ذلك »(١)

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه ، ويعبرون كلهم معه على خصمه ، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير ، وهو مسىء إليه ، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسىء ، وذلك أمر فطرى ، فطر الله عليه عباده ، فهو بهذا الإحسان ، قد استخدم عسكرا لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعا ولا خبزا .

هذا مع أنه لابد له من عدوه وحاسده من أحدى حالتين إما أن يملكه بإحسانه فينقاد له ، ويذل له ، ويبقى الناس إليه ، وإما أن يفتت كبده ، ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته اليه ، فإنه يزيفه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه ، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة ، والله هو الموفق والمعين .

بيده الخير كله ، لا إله غيره ، وهو المسئول أن يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنه وكرمه .

وفى الجملة : ففى هذا المقام من الفوائد مايزيد على مائة منفعة للعبد عاجله وآجله سنذكرها فى موضع آخر إن شاء الله تعالى .

السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مرار هذه الاسباب ، وهو تجريد التوحيد ، والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح ، وهى بيد محركها ، وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، فهو الذى يحسن عبده بها وهو الذى يصرفها عنه وحده لا أحد سواه . قال تعالى ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك**

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص١٩٨٢ كتاب والصلة والاداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها رقم ٢٢/٢٥٥٨

بخير فلا راد لفضله ﴾(١) وقال النبى - ﷺ - لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك »(٢)

فإذا جرد العبد التوحيد ، فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله ، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه ، وخرج من قلبه اهتمامه به ، واشتغاله به وفكره فيه ، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلا واشتغالا به عن غيره ، فيرى أن إعماله فكرة فى أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقض توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل ، والله يتولى حفظه ، والدفاع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمناً فالله يدافع عنه ولابد ، وإن مزج ، مزج له ، وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة ، كما قال بعض السلف : من أقبل على الله بكليته ، أقبل الله عليه جملة ، ومن أعرض عن الله بكليته ، أعرض الله عنه جملة ، ومن كان مرة ومرة ، فالله له مرة ومرة .

فالتوحيد حصن الله الأعظم ، الذى من دخله كان من الآمنين قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شىء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شىء .

هذه عشرة أسباب فيدفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يرجو سواه ، بل يرجوه وحده ، فلا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إياه . ومعنى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه ، وكل إليه وخذل من جهته ، فمن خاف شيئا غير الله سلط عليه ، ومن رجا شيئا سوى الله ، خذل من جهته ، وحرم خيره ، هذه سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فصـــل

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة من القواعد النافعة المهمة ، التى لا غنى للعبد عنها فى دينه ودنياه ، ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير ، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنفث فى العقد .

وقد افترق العالم فى هذا المقام أربع فرق .

ففرقة : أنكرت تأثير هذا وهذا وهم فرقتان :

فرقة اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن ، وأنكرت تأثيرهما البته . وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات .

وفرقة : أنكرت وجودهما بالكلية ، وقالت : لا وجود لنفس الآدمى سوى هذا الهيكل المحسوس ،

---

(١) يونس آية ١٠٧

(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح

وصفاته وأعراضه فقط ، ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به ، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعين وغيرهم من الملاحدة المتسبين إلى الاسلام ، وهو قول شذاذ من أهل الكلام الذين ذمهم السلف ، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة .

الفرقة الثانية : أنكرت وجود النفس الانسانية المفارقة للبدن ، وأقرت بوجود الجن والشياطين وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم .

الفرقة الثالثة : بالعكس ، أقرت وجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، وأنكرت وجود الجن والشياطين ، وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها ، وهذا قول كثير من الفلاسفة الاسلاميين وغيرهم .

وهؤلاء يقولون إن ما يوجد فى العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة ، فهو من تأثيرات النفس ، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها ، بغير واسطة شيطان منفصل ، وابن سينا وأتباعه على هذا القول ، حتى أنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب .

ويقولون : إنما هى تأثيرات النفس فى هيولى العالم .

وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملة ، ليسوا من أتباع الرسل جملة

الفرقة الرابعة : وهم أتباع الرسل ، وأهل الحق : أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن ، واقروا بوجود الجن والشياطين ، وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتها وشرهما ، واستعاذة بالله منه ، وعلموا أنه لا يعيذهم منه ، ولا يجيرهم ، فهؤلاء أهل الحق ومن عداهم مفرط فى الباطل ، أو معه باطل وحق ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

قال ابن القيم : فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق

ثم قال :

قول الله تعالى ذكره :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ﴾ .

قد تضمنت أيضا استعاذة ، ومستعاذاً به ، ومستعاذاً منه فالاستعاذة تقدمت .

وأما المستعاذ به : فهو الله ﴿ رب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ﴾ فذكر ربوبيته للناس ، وملكه اياهم ، والهيته لهم ، ولابد من مناسبة فى ذكر ذلك فى الاستعاذة من الشيطان كما تقدم فذكر أولاً معنى هذه الاضافات الثلاث ، ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة فنقول . . وبالله التوفيق .

الاضافة الأولى : إضافة الربوبية المتضمنة لحقهم وتدبيرهم ، وتربيتهم وإصلاحهم ، وجلب

مصالحهم ، وما يحتاجون إليه ، ودفع الشر عنهم ، وحفظهم مما يفسرهم هذا معنى ربوبيته لهم ، وذلك فيتضمن قدرته التامة . ورحمته الواسعة ، وإحسانه وعلمه بتفاصيل أحواله ، وإجابة دعواتهم ، وكشف كرباتهم .

الاضافة الثانية : إضافة الملك : فهو ملكهم المتصرف فيهم ، وهم عبيده ومماليكه ، وهو المتصرف لهم المدبر كما يشاء النافذ القدرة فيهم ، الذى له السلطان التام عليهم فهو ملكهم الحق ، الذى إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب ، وهو مستغاثهم ومعاذهم وملجأهم ، فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره ، فليس لهم ملك غيره ويهربون إليه إذا دهمهم العدو ، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم .

الاضافة الثالثة : إضافة الالهية ، فهو إلههم الحق ، ومعبودهم الذى لا إله لهم سواه ، ولا معبود لهم غيره ، فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم لم يشركه فى ربوبيته ولا فى ملكه أحد ، فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم ، فلا ينبغى أن يجعلوا معه شريكاً فى الهيته ، كما لا شريك معه فى ربوبيته وملكه .

وهو طريقه القرآن يحتج عليهم ما فرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الالهية والعبادة .

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلهنا ، فلا مفزع لنا فى الشدائد سواه ، ولا ملجأ لنا منه إلا إليه ، ولا معبود لنا غيره ، فلا ينبغى أن يدعى ولا يخاف ولا يرجى ، ولا يجب سواه ، ولا يذل غيره ، ولا يخضع لسواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه : إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولى شأنك وهو ربك ، فلا رب سواه ، أو تكون مملوكه وعبده الحق ، فهو ملك الناس حقاً ، وكلهم عبيده ومماليكه ، أو يكون معبودك وإلهك الذى لا تستغنى عنه طرفة عين ، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك ، وهو الإله الحق إله الناس الذى لا إله لهم سواه .

فمن كان ربهم وملكهم وإلههم ، فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره ، ولا يستنصروا بسواه ، ولا يلجأوا إلى غير حماه ، فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم ، ومتولى أمورهم جميعا بربوبيته وملكه وإلهيته لهم ، فكيف لا يلتجىء العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلهه ؟

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة : من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة ، وأشدهم ضرراً ، وابلغهم كيداً .

ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر ، ولم يوقع المضمر موقعه فيقول : رب الناس وملكهم وإلههم ، تحقيقا لهذا المعنى وتقوية له ، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه ، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة .

والمقصود : الاستعاذة بمجموع هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة ، وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب ، وآخر الإلهية لخصوصها ، لأنه سبحانه إنما هو إله من عبده ووحده واتخذ دون غيره إلهاً ، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلهه ، وإن كان فى الحقيقة لا إله له سواه ، ولكن المشرك ترك إلهه الحق ، واتخذ إلـهاً غيره باطلاً .

ووسط صفة الملك من الربوبية والإلهية ، لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره ، فهو المطاع إذا أمر ، وملكه له تابع لخلقه إياهم ، فملكه من كمال ربوبيته ، وكونه إلههم وملكه يستلزم إلهيته ويغصبها ، فهو الرب الحق ، الملك الحق ، الإله الحق ، وخلقهم بربوبيته ، وقهرهم بملكه ، واستعبدهم بإلهيته .

فتأمل هذه الجلالة ، وهذه العظمة ، التى تضمنتها الألفاظ الثلاثة على أبدع نظام ، وأحسن سياق ﴿رب الناس ملك الناس ، إله الناس﴾ .

وقد اشتملت هذه الاضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان ، وتضمنت معانى أسمائه الحسنى .

أما تضمنها لمعانى أسمائه الحسنى . فإن الرب هو القادر الخالق ، البارىء والمصور ، الحى ، القيوم ، العليم السميع البصير ، المحسن المنعم الجواد المعطى المانع ، الضار ، النافع ، المقدم ، المؤخر ، الذى يضل من يشاء ويعز من يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقى من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، إلى غير ذلك من معانى ربوبيته التى له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى يصرف أمور عباده كما يحب ، ويقلبهم كما يشاء وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى ، كالعزيز ، الجبار ، المتكبر ، الحكم العدل ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، العظيم الجليل الكبير ، الحسيب المجيد ، الوالى المتعالى ، مالك الملك المقسط الجامع وإلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك .

وأما الإله : فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال فيدخل فى هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى . ولهذا كان القول الصحيح . أن « الله » أصله الإله . كما هو قول سيبويه وجمهور العلماء ، إلا من شذ منهم ، وإن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معانى الأسماء الحسنى والصفات العلى ، فقد تضمنت هذه الأسماء الثلاثة جميع معانى أسمائه الحسنى ، فكان المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ ، ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه .

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن يدركها عقول البشر ، وإنما غاية أولى العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه ، وأن نسبة باديه إلى الخافى يسير .

فصل (فى الاستعاذة)

وهذه السورة الكريمة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذى هو سبب الذنوب والمعاصى كلها ، وهو الشر الداخل فى الإنسان الذى هو منشأ العقوبات فى الدنيا والآخرة .

فسورة الفلق : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو ظلم الغير له بالسحر والحسد . وهو شر خارج عنه .

وسورة الناس : تضمنت الاستعاذة من الشر الذى هو سبب ظلم العبد نفسه وهو شر من داخل .

فالشر الأول : لا يدخل تحت التكليف ، ولا يطلب منه الكف عنه لأنه ليس من كسبه .

والشر الثانى فى سورة الناس : يدخل تحت التكليف ، ويتعلق بالنهى ، فهذا شر المعائب ، والأول شر المصائب ، والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما .

فسورة الفلق تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات ، وسورة الناس تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التى أصلها الوسوسة

فصل المستعاذ منه

إذا عرف هذا ، فالوسواس : فعلال : من وسوس وأصل الوسوسة ، الحركة أو الصوت الخفى ، إما بصوت خفى لا يسمعه إلا من القى إليه ، وإما بغير صوت كما يوسوس الشيطان إلى العبد . ومن هذا : وسوسة المحل ، وهو حركته الخفية فى الأذن والظاهر - والله أعلم - أنها سميت وسوسة لقربها ، وشدة مجاورتها لمحل الوسوسة شياطين الإنس . وهو الأذن الكلام الذى يلقيه الشيطان فى أذن من يوسوسه له .

ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس ، ويؤكد عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها ليفهم منه تكرير مسماه .

ونظير هذا : ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه ، كالدوران ، والغليان ، وبابه .

ونظير ذلك : زلزل ، ودكوك ، وكبكب ، لأن الزلزلة حركة متكررة ، وكذلك الدكدكة ، والقلقلة . وكذلك كبكب الشىء : إذا كبه فى مكان بعيد ، فهو يكب فيه كباً بعد كب كقوله تعالى ﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾[1]

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعى بمعنى الثلاثى المضاعف لم يصب ، لأن الثلاثى لا يدل على تكرار ، بخلاف الرباعى المكرر ، فإذا قلت ذر الشىء ، وصر الباب ، وكف الثوب ، ورضى الحب ، لم يدل على تكرار الفعل ، بخلاف ذرذر ، وصرصر ، ورضرض ونحوه .

فتأمل : فإنه مطابق للقاعدة العربية فى الحذو بالألفاظ حذو المعانى والمقصود أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها ، قبل وسوس .

فصل

فى « الخناس »

وأما الخناس : فهو فعَّال ، من خنس يخنس : إذا توارى واختفى ، ومن قول أبى هريرة « لقينى النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض طرق المدينة وأنا جنب فانخنست منه »[2] .

وحقيقة اللفظ اختفاء بعد ظهور ، فليست لمجرد الاختفاء ، ولهذا وصفت بها النجوم فى قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بالخنس ﴾[3] قال قتادة : هى النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار ، فتختفى ولا ترى . وقالت طائفة الخنس : هى الراجعة التى ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق ، وهى السبعه السيارة .

---

(١) الشعراء آية ٩٤

(٢) رواه البخارى (كتاب الفل) باب الجنب يخرج ويمشى فى السوق وغيره ٩٢/١ طبع دار احياء الكتب العربية ، وأخرجه مسلم فى كتاب (الحيض) باب الدليل على أن المؤمن لا يتجسس وأخرجه النسائى فى سننه (كتاب الطهارة) باب مماسة الجنب ومجالسته ١٤٥/١ وابن ماجه فى (كتاب الطهارة وسننها) باب مصافحة الجنب ١٧٨/١ رقم ٥٣٤ ، والترمذى فى سننه برقم ١٢١ تحقيق الشيخ شاكر ، واللفظ له . والامام أحمد فى مسنده ٢٣٥/٢ ، ٣٨٢

(٣) سورة التكوير ، الآية : ١٥

قالوا : وأصل الخنوس الرجوع إلى وراء ، والخناس هو مأخوذ من هذين المعنيين ، فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر ، فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله ، جثم على قلبه الشيطان ، وانبسط عليه ، وبذر فيه أنواع الوساوس ، التي هي أصل الذنوب كلها ، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به انخنس وانقبض ، كما ينخنس الشيء ليتوارى ، وذلك الانخناس والانقباض هو أيضاً تجمع ورجوع وتأخر عن القلب إلى خارج ، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء ، وخنس وانخنس يدل على الأمرين معاً . قال قتادة : الخناس له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان ، فإذا ذكر العبد ربه خنس . ويقال : رأسه كرأس حية ، وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يمنيه ويحدثه ، فإذا ذكر الله خنس ، وإذا لم يذكره عاد ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه ، وجيء من هذا الفعل بوزن فعّال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه وعظم نفوره عند ذكر الله وأن ذلك دأبه وديدنه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً ، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر ، فإن ذكر الله هو مقمعته التي يقمع بها ، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعصي ونحوها . فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها ، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مضنى ، مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته .

وفي أثر عن بعض السلف : أن المؤمن ينضى شيطانه كما ينضى الرجل بعيره في السفر ، لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر والتوحيد والاستغفار والطاعة ، فشيطانه معه في عذاب شديد ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة ، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً .

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته ، عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار ، فلابد لكل أحد أن يعذب شيطانه أويعذبه شيطانه .

وتأمل كيف جاء بناء الوسواس مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً ، حتى يعزم عليها العبد ، وجاء بناء الخناس على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل ، لأنه كلما ذكر الله انخنس ، ثم إذا عقل العبد عاوده بالوسوسة ، فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنيهما .

فصل

وقوله تعالى : ﴿ **الذي يوسوس في صدور الناس** ﴾ صفة ثالثة للشيطان ، فذكر وسوسته أولا ثم ذكر محلها ثانياً وأنها في صدور الناس .

وقد جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد ونفوذاً إلى قلبه وصدره ، فهو يجري منه مجرى الدم ، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات .

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حيي قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم معتكفا فأتيته أزوره ليلاً فحدثته ثم قمت فانقلبت ، فقام معي ليقلبني ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمر رجلا من الأنصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم أسرعا فقال

النبى صلى الله عليه وسلم على رسلكما إنها صفية بنت حيى ، فقالا سبحان الله يا رسول الله ، فقال إن الشيطان يجرى من الإنسان مجرى الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما سوءاً ـ أو قال شيئا »[١] .

وفى الصحيح أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط ، فإذا قضى أقبل ، فإذا ثوب بها أدبر ، فإذا قضى أقبل حتى يخطر بين الانسان وقلبه فيقول : اذكر كذا اذكر كذا ، حتى لا يدرى أثلاثا صلى أم أربعاً ، فإذا لم يدر أثلاثاً صلى أم أربعاً سجد سجدتى السهو »[٢] .

ومن وسوسته ما ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « يأتى الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا ، من خلق كذا حتى يقول من خلق الله ، فمن وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته »[٣] .

وفى الصحيح أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : « يا رسول الله إن أحدنا ليجد فى نفسه ما لأن يخر من السماء إلى الأرض أحب إليه من أن يتكلم به . قال (الحمد لله الذى رد كيده إلى الوسوسة)[٤] .

ومن وسوسته أيضاً أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله ولهذا يضاف النسيان إليه اضافته إلى سببه ، قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال : ﴿ إنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ﴾[٥] وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس ، ولم يقل من شر وسوسته لتعم الاستعاذة شره جميعه ، فإن قوله : ﴿ من شر الوسواس ﴾ يعم كل شره ، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً ، وهى الوسوسة التى هى مبادىء الإرادة ، فإن القلب يكون فارغاً عن الشر والمعصية ، فيوسوس إليه ويخطر الذنب بباله ، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه فتصير شهوة ، ويزينها له ويحسنها ويخيلها له فى خيال تميل نفسه إليه ، فيصير إرادة ، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمنى ويشهى وينسى علمه بضررها ، ويطوى عنه سوء عاقبتها ، فيحول بينه وبين مطالعته ، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط ، وينسى ما وراء ذلك ، فتصير الإرادة عزيمة جازمة ، فيشتد الحرص عليها من القلب ، فيبعث الجنود فى الطلب ، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً ، فإن فتروا حركهم ، وإن ونوا أزعجهم كما قال تعالى : ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾[٦] أى تزعجهم إلى

---

(١) رواه فى اللؤلؤ والمرجان فيما أتفق عليه الشيخان (كتاب السلام) باب بيان أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة .... الخ ص ٥٦٣ رقم ١٤٠٤ طبع الكويت ـ

(٢) رواه فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب الصلاة) باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه ص ٧٩ رقم ٢١٦ .

(٣) رواه فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب الايمان) باب الوسوسة فى الايمان وما يقوله من وجدها ص ٢٦ رقم ٨٢ .

(٤) رواه الامام أحمد فى مسنده ٢٣٥/١

(٥) من الآية : ٦٣ من سورة الكهف .

(٦) سورة مريم آية : ٨٣

المعاصي إزعاجاً كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزتهم وأثارتهم . فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب ، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة ، قد رضى لنفسه بالقيادة لفجرة بنى آدم ، وهو الذى استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم ، فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصى الله ، فأصل كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة ، فلهذا وصفه بها ، لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه ، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً ، فمن شره أنه لص سارق لأموال الناس ، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف ، وكذلك يبيت فى البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله ، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم ، ويبيت فى بيوتهم بغير أمرهم ، فيدخل سارقاً ويخرج مغيراً ، ويدل على عوراتهم ، فيأمر العبد بالمعصية ، ثم يلقى فى قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا .

ومن هذا أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس فيصبح والناس يتحدثون به ، وما زال إلا أن الشيطان زينه له وألقاه فى قلبه ، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم ، فأوقعه فى الذنب ثم فضحه به . فالرب تعالى يستره ، والشيطان يجهد فى كشف ستره وفضيحته ، فيغتر العبد ويقول هذا ذنب لم يره إلا الله ولم يشعر بأن عدوه ساع فى إذاعته وفضيحته ، وقل من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة .

ومن شره أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة ، كما فى صحيح البخارى عن سعيد ابن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نائم ثلاث عقد ، يضرب على كل عقدة مكانها عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقده ، فإن صلى انجلت عقده كلها فأصبح نشيطا طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان »[١] .

ومن شره أنه يبول فى أذن العبد حتى ينام إلى الصباح كما ثبت عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه ذكر عنده رجل نام ليلة حتى أصبح قال : « ذاك رجل بال الشيطان فى أذنيه أو قال فى أذنه » رواه البخارى[٢] .

ومن شره أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها ، فما من طريق من طرق الخير الا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه ، فإن خالفه وسلكه ثبطه فيه وعوقه وشوش عليه بالمعارضات والقواطع ، فإن عمله وفرغ منه قيض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته .

ويكفى من شره أنه أقسم بالله ليقعدن لبنى آدم صراطه المستقيم ، وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم .

---

(١) الحديث متفق عليه ، أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب صلاة المسافرين وقصرها ص ١٤٨ رقم ٤٤٤

(٢) متفق عليه ، أخرجه فى اللؤلؤ والمرجان (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب ما روى فيمن نام الليل أجمع حتى أصبح ص ١٤٨ رقم ٤٤٢ من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

ولقد بلغ شره أن أعمل المكيدة وبالغ فى الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة ، ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شرطة للنار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة فى إبطال دعوة الله من الأرض ، وقصد أن تكون الدعوة له ، وأن يعبد من دون الله ، فهو ساع بأقصى جهده على اطفاء نور الله وإبطال دعوته وإقامة دعوة الكفر والشرك ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض .

ويكفى من شره أنه تصدى لابراهيم خليل الرحمن حتى رماه قومه بالمنجنيق فى النار ، فرد الله كيده عليه ، وجعل النار على خليله برداً وسلاماً .

وتصدى للمسيح صلى الله عليه وسلم حتى أراد اليهود قتله وصلبه ، فرد الله كيده ، وصان المسيح ورفعه إليه . وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا .

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم فى الأرض ودعوى أنه ربهم الأعلى .

وتصدى للنبى صلى الله عليه وسلم وظاهر الكفار على قتله بجهده . والله تعالى يكبته ويرده خاسئاً .

وتفلت على النبى صلى الله عليه وسلم بشهاب من نار يريد أن يرميه به وهو فى الصلاة ، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ألعنك بلعنة الله »

وأعان اليهود على سحرهم للنبى صلى الله عليه وسلم .

فإذا كان هذا شأنه وهمته فى الشر فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته .

شرور الشيطان

ولا يمكن حصر أجناس شره فضلا عن آحادها ، إذ كل شر فى العالم ، فهو السبب فيه ، ولكن ينحصر شره فى ستة أجناس ، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر .

الشر الأول : شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله ، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه ، وهو أول ما يريد من العبد ، فلا يزال به حتى يناله منه ، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره ، واستنابه على أمثاله وأشكاله ، فصار من دعاة إبليس ونوابه . فإن يئس منه من ذلك ، وكان ممن سبق له الإسلام فى بطن أمه ، نقله إلى المرتبة الثانية من الشر وهى البدعة ، وهى أحب إليه من الفسوق والمعاصى ، لأن ضررها فى نفس الدين ، وهو ضرر متعد ، وهى ذنب لا يتاب منه ، وهى مخالفة لدعوة الرسل ، ودعا إلى خلاف ما جاءوا به ، وهى باب الكفر والشرك ، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقى أيضاً نائبه وداعيا من دعاته .

فإن أعجزه من هذه المرتبة ، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ، ومعاداة أهل البدع والضلال ، نقله إلى المرتبة الثالثة من الشر ، وهى الكبائر على اختلاف أنواعها ، فهو أشد حرصاً على أن

يوقعه فيها ، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً ، فهو حريص على ذلك ، لينفر الناس عنه ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه فى الناس ، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى ، وهو نائب إبليس ولا يشعر ، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم ، هذا إذا أحبوا إشاعتها واذاعتها ، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها لا نصيحة منهم ولكن طاعة إبليس ونيابة عنه ، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به . وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء ، فإنها ظلم منه لنفسه ، إذا استغفر الله وتاب إليه ، قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات ، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين ، وتتبع لعورتهم ، وقصد لفضيحتهم ، والله سبحانه وتعالى بالمرصاد ، لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس ، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة ، نقله إلى المرتبة الرابعة ، وهى الصغائر التى إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها .

كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « اياكم ومحقرات الذنوب فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض »(١) وذكر حديثاً معناه أن كل واحد منهم جاء بعود حطب حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا ، ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها ، فيكون صاحب الكبيره الخائف منها أحسن حالاً منه .

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة ، نقله إلى المرتبة الخامسة ، وهى اشغاله بالمباحات التى لا ثواب فيها ولا عقاب بل عاقبتها فوت الثواب الذى ضاع عليه باشتغاله بها ، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة وكان حافظا لوقته شحيحاً به ، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها وما يقابلها من النعيم والعذاب ، نقله إلى المرتبة السادسة ، وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل ، فيأمره بفعل الخير المفضول ، ويحضه عليه ويحسنه له ، إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه ، وقلّ من يتنبه لهذا من الناس ، فإنه إذا رأى فيه داعيا قويا ومحركا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة ، فإنه لا يكاد يقول إن هذا الداعى من الشيطان ، فإن الشيطان لا يأمر بخير ، ويرى أن هذا خير ، فيقول هذا الداعى من الله ، وهو معذور ، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير ، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر ، وأما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل ، وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنرر من الله يقذفه فى قلب العبد ، يكون سببه تجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله وأحبها إليه ، وأرضاها له ، وأنفعها للعبد ، وأعمها نصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم ، ولا يعرف هذا الا من كان من ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه فى الأمة وخلفائه فى الأرض . وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك ، فلا يخطر بقلوبهم والله يمن بفضله على من يشاء من عباده .

---

(١) اخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند عبد الله بن مسعود رضى الله عنه) ٤٠٢/١

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست ، وأعيى عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه ، وقصد اخماله واطفاءه ، ليشوش عليه قلبه ، ويشغل بحربه فكره ، وليمنع الناس من الانتفاع به ، فيبقى سعيه فى تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه لا يفتر ولا ينى ، فحينئذ يلبس المؤمن لأمة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت ، ومتى وضعها أسر أو أصيب ، فلا يزال فى جهاد حتى يلقى الله .

فتأمل هذا الفصل وتدبر موقعه وعظيم منفعته ، واجعله ميزانك تزن به الناس ، فإنه يطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق ، والله المستعان وعليه التكلان ، ولو لم يكن فى هذا التعليق الا هذا الفصل لكان نافعا لمن تدبره ووعاه .

فصـــل

وتأمل السر فى قوله تعالى : ﴿ **يوسوس فى صدور الناس** ﴾ ولم يقل فى قلوبهم ، والصدر هو ساحة القلب وبيته ، فمنه تدخل الواردات إليه فتجتمع فى الصدر ثم تلج فى القلب ، فهو بمنزلة الدهليز له ، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر ، ثم تتفرق على الجنود .

ومن فهم هذا فهم قوله تعالى : ﴿ **وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم** ﴾[1] فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته ، فيلقى ما يريد القاءه إلى القلب ، فهو موسوس فى الصدر ، ووسوسته واصلة إلى القلب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فوسوس إليه الشيطان** ﴾[2] ولم يقل فيه ، لأن المعنى أنه ألقى إليه ذلك وأوصله فيه فدخل فى قلبه .

وقوله تعالى : ﴿ **من الجنة والناس** ﴾ بيان للذى يوسوس ، وأنهم نوعان : إنس وجن ، فالجنى يوسوس فى صدور الناس ، والإنسى أيضا يوسوس إلى الإنسى ، فالموسوس نوعان : إنسى وجنى ، فإن الوسوسة هى الإلقاء الخفى فى القلب ، وهذا مشترك بين الجن والإنس ، وإن كان إلقاء الإنس ووسوسته إنما هى بواسطة الإذن والجنى لا يحتاج إلى تلك الواسطة ، لأنه يدخل فى ابن آدم ويجرى منه مجرى الدم .

على أن الجن قد يتمثل له ويوسوس إليه فى أذنه كالإنسى ، كما فى البخارى عن عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الملائكة تحدث فى العنان ـ والعنان الغمام ـ بالأمر يكون فى الأرض ، فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها فى أذن الكاهن كما تقر القارورة ، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم ، فهذه وسوسة والقاء من الشيطان بواسطة الأذن .

---

(١) آل عمران آية : ١٥٤

(٢) طه ـ آية : ١٢٠

ونظير اشتراكهما فى هذه الوسوسة اشتراكهما فى الوحى الشيطانى . قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً** ﴾ فالشيطان يوحى الانس باطله . ويوحيه الإنسى إلى إنسى مثله . فشياطين الإنس والجن يشتركان فى الوحى الشيطانى ، ويشتركان فى الوسوسة . وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعى الشياطين ، شياطين الإنس والجن .

قاعدة نافعة

فيما يعتصم به العبد من الشيطان ويستدفع به شره ويحترز به منه .

قال ابن القيم : ونختم الكلام على السورتين بذكر قاعدة نافعة فيما يعتصم به العبد من الشيطان ، ويستدفع به شره ويحترز به منه .

وذلك عشرة أسباب :

(الحرز الأول) :

أحدها : الاستعاذة بالله من الشيطان . قال تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ، إنه هو السميع العليم** ﴾[1] .

وفى موضع آخر : ﴿ **إنه سميع عليم** ﴾[2] وقد تقدم أن السمع المراد به ههنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام .

وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة (هو) الدال على تأكيد النسبة واختصاصها ، وعرف الوصف بالألف واللام فى سورة (حم) لاقتضاء المقام لهذا التأكيد ، وتركه فى سورة الأعراف لاستغناء المقام عنه ، فإن الأمر بالاستعاذة فى سورة : (حم) وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس ، وهو مقابلة إساءة المسىء بالإحسان إليه ، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم كما قال تعالى فى الآية السابقة لها : ﴿ **ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن . . . الخ الآية** ﴾ والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا ، بل يريه أن هذا ذل وعجز ويسلط عليه عدوه فيدعوه إلى الانتقام ويزينه له ، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه وأن لا يسىء إليه ولا يحسن ، فلا يؤثر الإحسان إلى المسىء إلا من خالفه وآثر الله تعالى وما عنده على حظه العاجل ، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض فقال فيه : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم** ﴾[3] .

---

(١) فصلت آية : ٣٦
(٢) الأعراف آية : ٢٠
(٣) فصلت آية : ٣٦

وأما فى سورة الأعراف فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان ، بل بالاعراض ، وهذا سهل على النفوس غير إساءتهم بالإحسان ، بل بالاعراض ، وهذا سهل على النفوس غير مستعص عليها ، فليس حرص الشيطان وسعيه فى دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان فقال : ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴾[(١)] وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين وبين قوله فى (حم) المؤمن ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾[(٢)] .

وفى صحيح البخارى عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صرد قال : « كنت جالسا مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجلان يستبان فأحدهما احمّر وجهه وانتفخت أوداجه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إنى لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد »[(٣)] .

الحرز الثانى : قراءة هاتين السورتين ، فإن لهما تأثيراً عجيباً فى الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما تعوذ المتعوذون بمثلهما » .

وقد تقدم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم ، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة .

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم : « إن من قرأهما مع سورة الأخلاص ثلاثا حين يمسى وثلاثاً حين يصبح كفته من كل شىء »[(٤)] .

الحرز الثالث : قراءة آية الكرسى .

ففى الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فذكر الحديث . فقال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسى ، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « صدقك وهو كذوب ، ذاك الشيطان»[(٥)] .

الحرز الرابع : قراءة سورة البقرة .

---

(١) الأعراف آية : ٢٠٠

(٢) غافر آية : ٥٦

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه برقم ٤٧٨٠ والحاكم فى المستدرك ٤٤١/٢ والطبرانى فى المعجم الكبير ١١٦/٧ ، والبخارى فى الأدب المفرد برقم ٤٣٤ وابن السنى فى عمل اليوم والليلة برقم ٤٤٨
وأخرجه البخارى فى صحيحه طبع الشعب ١٥١/٤ ، ١٩/٨ ، ٣٥

(٤) أخرجه ابن كثير فى تفسيره من رواية صدى بن عجلان ٥٧٢/٤ طبع دار الفكر .

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه ١٤٩/٤ وانظر الفتح ٥٥/٩ وسلسلة الأحاديث الصحيحة للألبانى رقم ١٥٥٩

ففى الصحيح من حديث سهل عن عبد الله عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبورا ، وإن البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان »[١] .

الحرز الخامس : خاتمة سورة البقرة .

فقد ثبت فى الصحيح من حديث أبى موسى الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه »[٢] . وفى الترمذى عن النعمان بن بشير عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة فلا يقرآن فى دار ثلاث ليال.. فيقربها شيطان »[٣]

الحرز السادس : أول سورة (حم) المؤمن ، إلى قوله : (إليه المصير) مع آية الكرسى .

ففى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ (حم) المؤمن إلى (اليه المصير) وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ، ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح »[٤] قال ابن القيم وعبد الرحمن المليكى - أحد رواة الحديث - وإن كان قد تكلم فيه من قبل حفظه فالحديث له شواهد فى قراءة آية الكرسى وهو محتمل على غرابته .

الحرز السابع : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير .

ففى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك »[٥] فهذا حرز عظيم النفع ، جليل الفائدة ، يسير سهل على من يسره الله عليه .

الحرز الثامن : وهو من أنفع الحروز من الشيطان : كثرة ذكر الله عز وجل .

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير من سننه باب ما جاء فى سورة البقرة وآية الكرسى جـ ٤ ص ٢٣٢ برقم ٣٠٣٧ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير باب ما جاء فى آخر سورة البقرة جـ ٤ ص ٢٣٤ برقم ٣٠٤٣ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير جـ ٤ ص ٢٣٥ برقم ٣٠٤٤ وقال : هذا حديث غريب .
وانظر الكامل لابن عدى جـ ٧ ص ٢٤٩٩

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه كتاب التفسير جـ ٤ ص ٢٣٢ برقم ٣٠٣٩
وقال : هذا حديث غريب .

(٥) أخرجه مسلم فى صحيح كتاب الذكر والدعاء جـ ٤ ص ٢٠٧١ برقم ٢٨/٢٦٩١
والبخارى فى كتاب الدعوات جـ ٨ ص ١٠٦

ففى الترمذى من حديث الحارث الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها وإن كاد أن يبطىء بها ، فقال عيسى إن الله أمرك بخمس كلمات فتعمل بها وتأمر بنى اسرائيل أن يعملوا بها فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم . فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى أو أعذب ، فجمع الناس فى بيت المقدس فامتلأ وقعدوا على الشرف فقال : إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن : أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق فقال هذه دارى وهذا عملى فاعمل وأدّ إلىَّ ، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟ وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت . وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال أنا افتدى منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم . وأمركم أن تذكروا الله ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله . قال النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أمركم بخمس الله أمرنى بهن : السمع والطاعة ، والجهاد والهجرة والجماعة ، فإن من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء جهنم . فقال رجل يا رسول الله وإن صلى وصام ؟ قال وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله[1] .

قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقال البخارى :

الحارث الأشعرى له صحبة وله غير هذا الحديث .

فقد أخبر النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، وهذا بعينه هو الذى دلت عليه سورة ﴿ قل أعوذ برب الناس ملك الناس ، إله الناس من شر الوسواس الخناس ﴾ فإنه وصفَ الشيطان فيها بأنه الخناس ، والخناس الذى إذا ذكر العبد الله انخنس وتجمع وانقبض ، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التى هى مبادىء الشر كله . فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل .

الحرز التاسع : الوضوء والصلاة ، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه ، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة ، فإنها نار تغلى فى قلب ابن آدم كما فى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى

---

(١) أخرجه أحمد فى سنده جـ ٤ ص ١٣
وأخرجه الترمذى فى سننه برقم ٢٨٦٣ والحاكم جـ ١ ص ١١٧ ، ص ١١٨ وابن حبان برقم ١٢٢٢ ، ١٥٥٠ والطبرانى جـ ٣ ص ٣٢٤

صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم . أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فمن أحس بشىء من ذلك فليتصق بالأرض[1]

وفى أثر آخر « إن الشيطان خلق من نار ، وإنما تطفأ النار بالماء » .

فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة ، فإنها نار والوضوء يطفئها . والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله . وهذا أمر تجربته تغنى عن إقامة الدليل عليه .

الحرز العاشر : إمساك فضول النظر ، والكلام ، والطعام ، ومخالطة الناس ، فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة .

فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ، ووقوع صورة المنظور إليه فى القلب ، والاشتغال به ، والفكرة فى الظفر به ، فمبتدأ الفتنة من فضول النظر كما فى المسند عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، فمن غض بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها فى قلبه إلى يوم يلقاه »[2] . أو كما قال صلى الله عليه وسلم . فالحوادث العظام إنما كلها من فضول النظر . فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة كما قال الشاعر :

كل الحوادث مبداها من النظر . ومعظم النار من مستصغر الشرر .

كم نظرة فتكت فى قلب صاحبها   فتك السهام بلا قوس ولا وتر

وقال الآخر :

وكنت متى أرسلت طرفك رائداً   لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر   عليه ولا عن بعض أنت صابر

والمقصود أن فضول النظر أصل البلاء .

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابا من الشر كلها مداخل للشيطان . فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها . وكم من حرب جرتها كلمة واحدة .

وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم »[3] .

---

(١) أخرجه أحمد فى سنده جـ٣ ص ١٩ ضمن حديث طويل .
(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ٨ ص ٦٣ والترغيب والترهيب جـ٣ ص ٣٤ والعراقى فى تخريج أحاديث الاحياء جـ ٢٣٥/١ وبنحوه الحاكم حـ ٤ ص ٣١٤
(٣) أخرجه الترمذى فى سننه جـ ٤ ص ١٢٤ ، ص ١٢٥ برقم ٢٧٤٩ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

وفى الترمذى « أن رجلاً من الأنصار توفى ، فقال بعض الصحابة طوبى له ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « فما يدريك فلعله تكلم بما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقصه »[(١)].

وأكثر المعاصى إنما تولدها من فضول الكلام والنظر ، وهما أوسع مداخل الشيطان ، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان بخلاف شهوة البطن ، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام ، وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام ، فجنايتهما متسعة الأطراف ، كثيرة الشعب عظيمة الآفات .

وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام ، وكانوا يقولون : ما شىء أحوج إلى طول السجن من اللسان .

وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر ، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصى ، ويثقلها عن الطاعات ، وحسبك بهذين شراً . فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام ، وكم من طاعة حال دونها . فمن وقى شر بطنه فقد وقى شراً عظيماً ، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام ، ولهذا جاء فى بعض الآثار « ضيقوا مجارى الشيطان بالصوم » .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن »[(٢)] .

ولو لم يكن فى الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله عز وجل ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة ، جثم عليه الشيطان ووعده ومنّاه وشهّاه وهام به فى كل واد ، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت وطافت على أبواب الشهوات ، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت .

وأما فضول المخالطة فهى الداء العضال الجالب لكل شر ، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة ، وكم زرعت من عداوة ، وكم غرست فى القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهى فى القلوب لا تزول ، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة ، وإنما ينبغى للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة ، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام ، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر .

أحدها : من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه فى اليوم والليلة ، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ، ثم إذا احتاج إليه خالطه ، هكذا على الدوام .

وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر ، وهم العلماء بالله وأمره ومكايد عدوه ، وأمراض القلوب وأدويتها ، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه ، فهذا الضرب فى مخالطتهم الربح كله .

---

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ١٠ ص ٣٠٣ عن أبى هريرة .
قال الهيثمى : رواه أبو يعلى وفيه عصام بن طليق وهو ضعيف وأورده رواية أنس ثم قال : قلت روى الترمذى بعضه ، رواه أبو يعلى وفيه يحيى بن يعلى الاسلامى وهو ضعيف .
(٢) أخرجه الترمذى فى جامعة الصحيح برقم ٢٣٨٠ والحاكم فى المستدرك ٣٣١/٤ وابن حبان فى صحيحه برقم ١٣٤٨

القسم الثانى : من مخالطته كالدواء يحتاج إليه عند المرضى ، فما دمت صحيحا فلا حاجة لك فى خلطته ، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم فى مصلحة المعاش ، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها ، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب فلا حاجة لك به .

القسم الثالث : وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه ، وقوته وضعفه . فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن ، وهو من لا تربح عليه فى دين ولا دنيا ، ومع ذلك فلابد من أن نخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما ، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت ، فهى مرض الموت المخوف . ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضرباً عليك فإذا فارقك سكن الألم . ومنهم من مخالطته حمى الروح ، وهو الثقيل البغيض العقل ، الذى لا يحسن أن يتكلم فيفيدك ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك ، ولا يعرف نفسه فيضعها فى منزلتها ، بل إن تكلم فكلامه كالعصى تنزل على قلوب السامعين ، مع إعجابه بكلامه وفرحه به ، فهو يحدث من فيه كلما تحدث ، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس ، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التى لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض . .

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح فعرضية ولازمة ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته ، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً .

القسم الرابع : من مخالطته الهلك كله ، ومخالطته بمنزلة أكل السم ، فإن اتفق لآكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء . وما أكثر هذا الضرب فى الناس لاكثرهم الله وهم أهل البدع والضلالة ، الصادون عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الداعون إلى خلافها ، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، فيجعلون البدعة سنة ، والسنة بدعة ، والمعروف منكرا ، والمنكر معروفا . إن جردت التوحيد بينهم قالوا تنقصت جناب الأولياء والصالحين ، وإن جردت المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا أهدرت الأئمة المتبوعين ، وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير ، قالوا أنت من المشبهين ، وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ، ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر ، قالوا أنت من المفتنين ، وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها ، قالوا أنت من أهل البدع المضلين ، وأن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين حيفة الدنيا ، قالوا أنت من الملبسين ، وإن تركت ما أنت عليه ، واتبعت أهواءهم ، فأنت عند الله من الخاسرين وعندهم من المنافقين .

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم ، وأن لا تشتغل باعتابهم ولا باستعتابهم ، ولا تبالى بذمهم ولا بغضهم ، فإنه عين كمالك كما قال :

وإذا أتتك مذمتى من ناقص ... فهى الشهادة لى بأنى فاضل

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة ، التى هى أصل بلاء العالم ، وهى فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة ، واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التى تحرزه من الشيطان ، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق ، وسد على نفسه أبواب جهنم ، وفتح عليها أبواب الرحمة وانغمر ظاهره وباطنه ، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء ، فعند الممات يحمد القوم التقى ، وفى الصباح يحمد القوم السرى .

والله الموفق ، لارب غيره ، ولا إله سواه .

ا . هـ (من كتاب بدائع الفوائد جـ ٢)

لما فرغت بحول من الله وقوته من تفسير القرآن الكريم وختمت ذلك بتفسير المعوذتين ، لما كان ذلك كذلك ، رأيت من باب تتمه الفائدة أن أبين هنا الآداب التى لابد منها لحملة القرآن الكريم ، فهدانى الله تعالى إلى بيان ذلك من كتاب الامام الحجة الامام النووى عليه سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة ، وقد ذكر ذلك مفصلا فى كتابه (التبيان فى آداب حملة القرآن) سائلا المولى تبارك وتعالى أن ينفع به حملة القرآن الكريم .

آداب حملة القرآن

الباب الأول (فى أطراف من فضيلة تلاوة القرآن وحملته)

قال الامام النووى رحمه الله فى كتابه « التبيان فى آداب حملة القرآن » .

قال الله عز وجل : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾[1] .

وروينا عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[2] رواه أبو عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم البخارى فى صحيحه الذى هو أصح الكتب بعد القرآن ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الذى يقرأ القرآن وهو ماهر به مع السفرة الكرام البزرة ، والذى يقرأ القرآن وهو يتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران »[3] رواه البخارى وأبو الحسن مسلم بن مسلم القشيرى النيسابورى فى صحيحهما ، وعن

---

(١) سورة فاطر الايتان : ٢٨ ، ٢٩

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٦/٢٣٦ وأبو داود وفى سننه برقم ١٤٥٢ والترمذى فى جامعه الصحيح برقم ٢٩٠٧ ، ٢٩٠٨ ، ٢٩٩ والامام أحمد فى المسند ١/٥٨ ، ٦٩

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه ١٠/٤٩

وبلفظ : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة . . . الخ » أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضل الماهر بالقرآن والذى يتتعتع فيه ١/٥٥٠ رقم ٢٤٤/٧٩٨

وأورده البخارى باختصار فى (كتاب التوحيد) فى ترجمة باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الماهر بالقرآن مع الكرام البررة » و« زينو القرآن بأصواتكم » ٩/١٩٣ ولم يذكر الحديث . وأخرجه بلفظ قريب ٦/٢٠٦

أبي موسى الاشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر » رواه البخارى ومسلم(١) .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يرفع بهذا الكلام أقواما ويضع به آخرين » رواه مسلم(٢) .

وعن أبي أمامة الباهلى رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعا لأصحابه » رواه مسلم(٣) .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن ، فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار » رواه البخارى ومسلم(٤) .

وروينا أيضا من رواية عبد الله بن مسعود رضى الله عنه بلفظ « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها »(٥) .

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » رواه أبوعيسى محمد بن عيسى الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى ا لله عليه وسلم قال « يقول الله سبحانه وتعالى : « من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله سبحانه وتعالى على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه » رواه الترمذى وقال حديث حسن(٦) .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (باب فضل القرآن على سائر الكلام) ٢٣٥/٦ مع اختلاف يسير فى اللفظ .
وأخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضيلة حافظ القرآن ٥٤٩/١ رقم ٧٩٧/٢٤٣ واللفظ له .

(٢) أخرجه : مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ... الخ ٥٥٩/١ رقم ٨١٧/٢٦٩

(٣) أخرجه : مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) ٥٥٣/١ رقم ٨٠٤/٢٥٢ وهو جزء حديث .

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب فضائل القرآن) بابب اغتباط صاحب القرآن ٢٣٦/٦ ومسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ... الخ ٥٥٨/١ رقم ٨١٥/٢٦٦

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب العلم) باب الاغتباط فى العلم والحكمة ٢٢٨/١ وانظر نفس المرجع ١٣٤/٢ ، ٧٨/٩ ، ١٢٦ ومسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) ٥٥٩/١ رقم ٨١٦/٢٦٨ وابن ماجه برقم ٤٢٠٨

(٦) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب فضائل القرآن) باب ما جاء من قرأ حرفا من القرآن ماله من الأجر ٢٤٨/٤ رقم ٣٠٧٥ طبع دار الفكر .
قال الترمذى : هذا حديث حسم صحيح غريب من هذا الوجه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن كالبيت الخرب » رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح(١) .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها » رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح »(٢) .

وعن معاذ بن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قرأ القرآن وعمل بما فيه ألبس الله والديه تاجاً يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس فى بيوت الدنيا ، فما ظنكم بالذى عمل بهذا ؟ رواه أبو داود(٣) .

وروى الدارمى بإسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « اقرأوا القرآن فإن الله تعالى لا يعذب قلباً وعى القرآن ، وإن هذا القرآن مأدبة الله فمن دخل فيه فهو آمن ، ومن أحب القرآن فليبشر »(٤) وعن الحميدى الجمالى قال : سألت سفيان الثورى عن الرجل يغزو أحب اليك أو يقرأ القرآن ؟ » فقال يقرأ القرآن ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »(٥) .

الباب الثانى
فى ترجيح القراءة والقارىء
على غيرهما

ثبت عن أبى مسعود الأنصارى البدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله تعالى » رواه مسلم(٦) .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان القراء أصحاب مجلس عمر رضى الله عنه ومشاورته كهولا وشبابا » رواه البخارى فى صحيحه وسيأتى فى الباب بعد هذا أحاديث تدخل فى هذا الباب ، واعلم

---

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب فضائل القرآن) ٢٥٠/٤ رقم ٣٠٨٠ طبع دار الفكر وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب استحباب الترتيل فى القراءة ١٥٣/٢ رقم ١٤٦٤ والترمذى فى جامعه (كتاب فضائل القرآن) ٢٥٠/٤ رقم ٣٠٨١ وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . وابن ماجه برقم ٣٧٨٠ (كتاب الأدب) .

(٣) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب فى ثواب قراءة القرآن ١٤٨/٢ رقم ١٤٥٣ قال المنذرى : سهل بن معاذ ، وزبان بن فائد كلاهما ضعيف .

(٤) أخرجه الدارمى فى سننه فى (كتاب فضائل القرآن) باب فضل من قرأ القرآن ٣١٧/٢ وهو مركب من أربعة أحاديث بأرقام ٣٣٢٢ ، ٣٣٢٥ ، ٣٣٢٦ ، ٣٣٢٧

(٥) أخرجه الدارمى فى سننه (كتاب فضائل القرآن) باب خياركم من تعلم القرآن وعلمه ٣١٤/٢ رقم ٣٣٤٠ عن على رضى الله عنه . وأخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند على بن أبى طالب رضى الله عنه) ٥٨/١ ، ٦٩

(٦) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب من أحق الامامة ٣٩٠/١ رقم ٥٨٢ بأطول مما معنا . والنسائى ٧٦/٢ وأحمد ١٦٣/٣ ، ١١٨/٤

أن المذهب الصحيح المختار الذى عليه من يعتمد من العلماء أن قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل وغيرهما من الأذكار ، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك والله أعلم .

الباب الثالث
فى اكرام أهل القرآن والنهى عن أذاهم

قال الله عز وجل : ﴿ ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾[١] .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ﴾[٢] .

وقال تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾[٣] .

وقال تعالى : ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبيناً ﴾[٤] .

وفى الباب حديث أبى مسعود الأنصارى وحديث ابن عباس المتقدمان فى الباب الثانى ، وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من إجلال الله تعالى اكرام ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه ، واكرام ذى السلطان المقسط » رواه أبو داود ، وهو حديث حسن[٥] . وعن عائشة رضى الله عنها قالت « أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننزل الناس منازلهم » رواه أبو داود فى سننه والبزار فى مسنده . قال الحاكم أبو عبد الله فى علوم الحديث : هو حديث صحيح[٦] .

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد ثم يقول : أيهما أكثر للقرآن فإن أشير إلى أحدهما قدمه فى اللحد » رواه البخارى[٧] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال : من آذى لى وليًا فقد آذنته بالحرب » رواه البخارى[٨] .

---

(١) الحج آية : ٣٢
(٢) الحج آية : ٣٠
(٣) الشعراء آية : ٢١٥
(٤) الأحزاب : ٥٨
(٥) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الأدب) باب فى تنزيل الناس منازلهم ١٧٤/٥ رقم ٤٨٤٣
(٦) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الأدب) باب فى تنزيل الناس منازلهم ١٧٣/٥ رقم ٤٨٤٢ بلفظ : « أنزلوا الناس منازلهم »
(٧) أخرجه ابن ماجه فى سننه (كتاب الجنائز) باب ما جاء فى الصلاة على الشهداء ودفنهم ٤٨٥/١ رقم ١٥١٤ والنسائى فى سننه ٦٢/٤ والبخارى فى صحيحه ١١٤/٢ ، ١١٥ ، ١١٧
(٨) أخرجه الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين شرح احياء علوم الدين ٢٩٥/٥ ، ٤٧٧/٨ ، ٦١٠/٩

وثبت فى الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : من صلى الصبح فهو فى ذمة الله فلا يطلبنكم الله بشىء من ذمته »[١] وعن الامامين الجليلين أبى حنيفة والشافعى رضى الله عنهما قالا : إن لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله ولى . قال الامام الحافظ أبو القاسم بن عساكر رحمه الله : اعلم يا أخى وفقنا الله وإياك لمرضاته ، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته ، أن لحوم العلماء مسمومة ، وعادة الله فى هتك أستار منتقصيهم معلومة ، وأن من أطلق لسانه فى العلماء بالثلب ابتلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[٢] .

الباب الرابع
فى آداب معلم القرآن ومتعلمه

قال النووى رحمه الله : هذا الباب مع البابين بعده هو مقصور الكتاب ، وهو طويل منتشر جداً فإنى أشير إلى مقاصده مختصرة فى فصول ليسهل حفظه وضبطه إن شاء الله تعالى .

(فصل)

أول ما ينبغى للمقرىء والقارىء أن يقصدا بذلك رضى الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾[٣] . أى الملة المستقيمة .

وفى الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى »[٤] وهذا الحديث من أصول الإسلام ، وروينا عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إنما يعطى الرجل على قدر نيته ، وعن غيره انما يعطى الناس على قدر نياتهم .

وروينا عن الأستاذ أبى القاسم القشيرى رحمه الله تعالى قال : الاخلاص إفراد الحق فى الطاعة بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شىء آخر من تصنع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة أو مدح من الخلق ، أو معنى من المعانى سوى التقرب إلى الله تعالى .

قال ويصح أن يقال : الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) باب فضل صلاة العشاء والصبح فى جماعة ٤٥٤/١ رقم ٦٥٦/٢٦١ ، ٦٥٦/٢٦٢ والترمذى فى الصلاة باب ما جاء فى فضل العشاء والفجر فى جماعة ١٤٢/١ رقم ٢٢٢ وابن ماجه فى سننه (كتاب الفتن) باب المسلمون فى ذمة الله عز وجل ١٣٠٧/٢ رقم ٣٩٤٦ وانظر رقم ٣٩٤٥

(٢) النور آية : ٦٣

(٣) البينة آية : ٥

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢/١ ، ١٧٥/٨ ، ٢٩/٩ ومسلم فى صحيحه (كتاب الامارة) باب قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : انما الأعمال بالنية . . . الخ ١٥١٥/٣ رقم ١٩٠٧/١٥٥

والترمذى برقم ١٦٤٧ وابن ماجه برقم ٤٢٢٧ وأبو داود برقم ٢٢٠١

وعن حذيفة المرعشى رحمه الله تعالى قال : « الإخلاص استواء أفعال العبد فى الظاهر والباطن .

وعن ذى النون رحمه الله تعالى . قال : ثلاث من علامات الإخلاص استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية العمل فى الأعمال ، واقتصاء ثواب الأعمال فى الآخرة وعن الفضل ابن عياض رحمه الله عنه قال : ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وعن سهل التسترى رحمه الله تعالى قال : نظر الأكياس فى تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا أن تكون حركته وسكوته فى سره وعلانيته لله تعالى وحده لا ينازعه شىء لا نفس ولا هوى ولا دنيا .

وعن القشيرى قال : أفضل الصدق استواء السر والعلانية وعن الحارث المحاسبى رحمه الله قال : الصادق هو الذى لا يبالى ، ولو خرج عن كل قدر له فى قلوب الخلائق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ، ولا يكره اطلاع الناس على السوء من عمله ، فإن كراهيته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم ، وليس هذا من أخلاق الصديقين ، وعن غيره ، إذا طلبت الله تعالى بالصدق أعطاك الله مرآة تبصر فيها كل شىء من عجائب الدنيا والآخرة ، وأقاويل السلف فى هذا كثيرة أشرنا إلى هذه الأحرف منها تنبيهاً على المطلوب ، وقد ذكرت جملًا من ذلك مع شرحها فى أول شرح المهذب وضمت إليها من آداب العالم والمتعلم والفقيه والمتفقه ما لايستغنى عنه طالب العلم ، والله أعلم .

(فصـــل)

وينبغى أن لا يقصد به توصلا إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجاهة ، أو ارتفاع على أقرانه ، أو ثناء عند الناس ، أو صرف وجوه الناس إليه ، أو نحو ذلك ، ولا يشوب المقرىء اقراءه بطمع فى رفق يحصل له من بعض من يقرأ عليه سواء كان الرفق مالا أو خدمة ، وإن قل ، ولو كان على صورة الهدية التى لولا قراءته عليه لما أهداها إليه ، قال تعالى : ﴿ **من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾[2] الآية .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة . رواه أبو داود باسناد صحيح[3] ومثله أحاديث كثيرة ، وعن أنس وحذيفة وكعب بن مالك رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « من

---

(١) الشورى آية : ٢٠

(٢) الاسراء آية : ١٨

(٣) أخرجه : أبوداود فى سننه (كتاب العلم) باب فى طلب العلم لغير الله تعالى ٧١/٤ رقم ٣٦٦٤ .

طلب العلم ليمارى به السفهاء ، أو يكاثر به العلماء ، أو يصرف به وجوه الناس اليه ، فليتبوأ مقعده من النار» رواه الترمذى من رواية كعب بن مالك ، وقال : « أدخله النار »[١] .

(فصــل)

ويحذر كل الحذر مَن قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين اليه ، وليحذر من كراهة قراءة أصحابه على غيره ممن ينتفع به ، وهذه مصيبة يبتلى بها بعض المعلمين الجاهلين ، وهى دلالة بنية من صاحبها على سوء نيته وفساد طويته ، بل هى حجة قاطعة على عدم إرادته بتعليمه وجه الله تعالى الكريم ، فإنه لو أراد الله بتعليمه لما كره ذلك ، بل قال لنفسه أنا أردت غيرى زيادة علم ، فلا عتب عليه ، وقد روينا فى مسند الامام المجمع على حفظه وإمامته إلى محمد الدارمى أنه قال عن على : « يا حملة القرآن ـ أو قال : يا حملة العلم اعملوا به ، فإنما العالم من عمل بما علم ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم يخالف عملهم علمهم ، وتخالف سريرتهم علانيتهم يجلسون حلقاً يباهى بعضهم بعضا حتى أن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه . أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله تعالى :[٢] .

وقد صح عن الامام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم ـ يعنى علمه وكتبه ـ أن لاَّ ينسب إلى حرف منه .

(فصــل)

وينبغى للمعلم أن يتخلق بالمحاسن ، التى ورد الشرع بها ، والخصال الحميدة والشيم المرضية ، التى أرشده الله إليها من الزهادة فى الدنيا والتقلل منها ، وعدم المبالاة بها وبأهلها والسخاء والجود ، ومكارم الاخلاق ، وطلاقة الوجه من غير خروج إلى حد الخلاعة ، والحلم والصبر والتنزه عن دنىء المكاسب ، وملازمة الورع والخشوع والسكينة والوقار والتواضع والخضوع ، واجتناب الضحك ، والإكثار من المزاح ، وملازمة الوظائف الشرعية كالتنظيف بازالة الأوساخ والشعور التى ورد الشرع بازالتها ، كقص الشارب ، وتقليم الظفر ، وتسريح اللحية ، وازالة الروائح الكريهة والملابس المكروهة ، وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار غيره ، وإن كان دونه ، وينبغى أن يستعمل الأحاديث الواردة فى التسبيح والتهليل ، ونحوهما من الأذكار والدعوات وأن يراقب الله تعالى فى سره وعلانيته ، ويحافظ على ذلك ، وأن يكون تعويله فى جميع أموره على الله تعالى .

---

(١) أخرجه : الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب العلم) باب فيمن يطلب بعلمه الدنيا ١٤٠/٤ ، ١٤١ رقم ٢٧٩٢ طبع دار الفكر قال الترمذى : هذا حديث غريب .

(٢) أخرجه فى سننه (كتاب العلم) باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله ٨٩/١ رقم ٣٨٨

(فصــل)

وينبغى له أن يرفق بمن يقرأ عليه ، وأن يرحب به ويحسن إليه بحسب حاله ، فقد روينا عن أبى هارون . العبدى قال : كنا نأتى إلى سعيد فيقول : بوصية رسول الله ﷺ أن النبى - ﷺ - قال : « إن الناس لكم تبع ، وإن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً » رواه الترمذى ، وابن ماجه ، وغيرهما[١] ، وروينا نحوه فى سند الدارسى عن أبى الدرداء رضى الله عنه .

(فصــل)

وينبغى أن يبذل لهم النصيحة ، فإن رسول الله ﷺ قال : « الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » رواه مسلم [٢] ومن النصيحة لله تعالى ولكتابه إكرام قارئه وطالبه ، وارشاده إلى مصلحته ، والرفق به ومساعدته على طلبه بما أمكن ، وتأليف قلب الطالب ، وأن يكون سمحاً بتعليمه فى رفق ، متلطفاً به ومحرضا له على التعلم ، وينبغى أن يذكره فضيلة ذلك ليكون سبباً فى نشاطه وزيادة فى رغبته ، ويزهده فى الدنيا ، ويصرفه عن الركون إليها ، والاغترار بها ، ويذكره فضيلة الاشتغال بالقرآن وسائر العلوم الشرعية ، وهو طريق العارفين وعباد الله الصالحين ، وأن ذلك رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وينبغى أن يشفق على الطالب ، ويعتنى بمصالحه كاعتنائه بمصالح ولده ومصالح نفسه ، ويجرى المتعلم مجرى ولده فى الشفقة عليه ، والصبر على جفائه وسوء أدبه ويعذره فى قلة أدبه فى بعض الأحيان ، فإن الإنسان معرض للنقائص ، لا سيما إن كان صغير السن . وينبغى أن يحب له ما يحب لنفسه من الخير ، وأن يكره ما يكره لنفسه من النقص مطلقاً ، فقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٣] وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أكرم الناس علىّ جليسى الذى يتخطى الناس حتى يجلس إلىَّ ، لو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت ، وفى رواية : إن الذباب ليقع عليه فيؤذينى .

وينبغى أن لا يتعاظم على المتعلمين ، بل يلين لهم ويتواضع معهم فقد جاء فى التواضع لآحاد الناس أشياء كثيرة معروفة ، فكيف بهؤلاء الذين هم بمنزلة أولاده مع ما هم عليه من الاشتغال بالقرآن

---

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (كتاب العلم) باب ما جاء فى الاستيصاء بمن يطلب العلم ١٣٨/٤ رقم ٢٧٨٨ طبع دار الفكر . وكذلك برقم ٢٧٨٩ بنحوه .

وقال الترمذى : وهذا حديث لا نعرفه الا من حديث أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخورى - وأخرجه ابن ماجه فى سننه (المقدمة) باب الوصاة بطلبة العلم ٩١/١ رقم ٢٤٩

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب الايمان) باب أن الدين النصيحة ٧٤/١ رقم ٥٥/٩٥

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب الايمان) ١٠/١ طبع الشعب . ومسلم فى صحيحه برقم ٧١ والترمذى بتحقيق الشيخ شاكر رقم ٢٥١٥ ، والنسائى ١١٥/٨ ، ١٢٥ والامام أحمد فى سنده ١٧٦/٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ وغيرهم .

ومع مالهم عليه من حق الصحبة وترددهم اليه ، وقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال : « لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه »(١) وعن أبى أيوب السختيانى رحمه الله ، قال ينبغى للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله عز وجل .

وينبغى أن يؤدب المتعلم على التدريج بالآداب السنية ، والشيم المرضية ، ورياضة نفسه بالدقائق الخفية ، ويعوده الصيانة فى جميع أموره الباطنة والجلية ، ويحرضه بأقواله وأفعاله ، المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النيات ، ومراقبة الله تعالى فى جميع اللحظات ، ويعرفه أن لذلك تنفتح عليه أنوار المعارف ، وينشرح صدره ، ويتفجر من قلبه ينابيع الحكم واللطائف ، ويبارك له فى علمه وحاله ويوفق فى أفعاله وأقواله .

(فصـــل)

تعليم المتعلمين فرض كفاية ، فان لم يكن من يصلح إلا واحد فعين ، وإن كان هناك جماعة يحصل التعليم ببعضهم سقط الحرج عن الباقين ، وإن طلب من أحدهم وامتنع فأظهر الوجهين أنه لا يأثم لكن يكره له ذلك إن لم يكن عذر .

(فصـــل)

يستحب للمعلم أن يكون حريص على تعليمهم مؤثراً ذلك على مصالح نفسه الدنيوية التى ليست بضرورية ، وأن يفرغ قلبه فى حال جلوسه لأقرائهم من الأسباب الشاغلة كلها ، وهى كثيرة معروفة ، وأن يكون حريصاً على تفهيمهم وأن يعطى كل إنسان منهم ما يليق به ، فلا يكثر على من لا يحتمل الاكثار ، ولا يقصر لمن يحتمل الزيادة ، ويأخذهم باعادة محفوظاتهم ، ويثنى على من ظهرت نجابته ما لم يخش عليه فتنة باعجاب أو غيره ، ومن قصر عنفه تعنيفاً لطيفاً ما لم يخش عليه تنفيره ، ولا يحسد أحداً منهم لبراعة تظهر منه ، ولا يستكثر فيه ما أنعم الله به عليه ، فإن الحسد للأجانب حرام شديد التحريم ، فكيف للمتعلم الذى هو بمنزلة الولد ويعود من فضيلته إلى معلمه فى الآخرة الثواب الجزيل ، وفى الدنيا الثناء الجميل ، والله الموفق .

(فصـــل)

ويقوم فى تعليمهم إذا ازدحموا الأول فالأول ، فإن رضى الأول بتقديم غيره قدمه . وينبغى أن يظهر لهم البشر وطلاقة الوجه ويتفقد أحوالهم ، ويسأل عمن غاب عنهم .

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادى فى (الفقيه والمتفقة) ١١٣/٢ والتربيدى فى (إتحاف السادة المتقين : شرح احياء علوم الدين) ٢٧/٨ .

(فصـــل)

قال العلماء رضى الله عنهم : ولا يمتنع من تعليم أحد لكونه غير صحيح النية . فقد قال سفيان وغيره طلبهم للعلم نية . وقالوا : طلبنا العلم لغير الله فإبى أن يكون إلا الله ، معناه كانت غايته أن صار لله تعالى .

(فصـــل)

ومن آدابه المتأكدة وما يعتنى به أن يصون يديه فى حال الاقراء عن العبث وعينيه عن تفريق نظرهما من غير حاجة ويقعد على طهارة مستقبل القبلة ويجلس بوقار وتكون ثيابه بيضاء نظيفة ، وإذا وصل إلى موضع جلوسه صلى ركعتين قبل الجلوس ، سواء كان الموضع مسجداً أو غيره ، فان كان مسجداً كان أكد فإنه يكره الجلوس فيه قبل أن يصلى ركعتين ، ويجلس متربعا إن شاء أو غير متربع ، روى أبو بكر بن أبى داود السجستانى باسناده عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه كان يقرىء الناس فى المسجد جاثيا على ركبتيه .

(فصـــل)

ومن آدابه المتأكدة وما يعتنى بحفظه أن لا يذل العلم فيذهب إلى مكان ينسب إلى من يتعلم منه ليتعلم منه فيه وأن كان المتعلم خليفة فمن دونه بل يصون العلم عن ذلك كما صانه عنه السلف رضى الله عنهم ، وحكاياتهم فى هذا كثيرة مشهورة .

(فصـــل)

وينبغى أن يكون مجلسه واسعاً ليتمكن جلساؤه فيه ، ففى الحديث عن النبى ﷺ : « خير المجالس أوسعها » . رواه أبو داود فى سننه فى أوائل كتاب الآداب بإسناد صحيح من رواية أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه[1] .

فصـــل

فى آداب المتعلم . جميع ما ذكرناه من آداب المعلم فى نفسه آداب للمتعلم ، ومن آدابه أن يجتنب الأسباب الشاغلة عن التحصيل الا سبباً لابد منه للحاجة ، وينبغى أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح الأدناس لقبول القرآن وحفظه واستثماره ، فقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[2] ، وقد أحسن القائل

(١) أخرجه أبوداود فى سننه (كتاب الأدب) باب فى سنة المجلس ٥/١٦٢ رقم ٤٨٢٠

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ١/٢٠ ومسلم فى المساقاة ٣/١٢١٩ ، ١٢٢٠ رقم ١٥٩٩/١٠٧ وهو جزء حديث طويل عن النعمان بن بشير ، أوله : « إن الحلال بين ، وإن الحرام بين » الحديث .

بقوله : يطيب القلب للعلم كما تطيب الأرض للزراعة ، وينبغى أن يتواضع لمعلمه ويتأدب معه وان كان أصغر منه سناً وأقل شهرة ونسباً وصلاحاً وغير ذلك ويتواضع للعلم فبتواضعه يدركه وقد قالوا نظماً .

العلم حرب للفتى المتعالى . كالسيل حرب للمكان العالى . وينبغى أن ينقاد لمعلمه ويشاوره فى أموره ويقبل قوله كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق وهذا أولى .

فصل

ولا يتعلم الا ممن تكملت أهليته ، وظهرت ديانته ، وتحققت معرفته ، واشتهرت صيانته ، فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف : هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم ، وعليه أن ينظر معلمه بعين الاحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه على طبقته فإنه أقرب إلى انتفاعه به ، وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشىء وقال : اللهم استر عيب معلمى عنى ولا تذهب بركة علمه منى . وقال الربيع صاحب الشافعى رحمهما الله : ما أجترأت أن أشرب الماء والشافعى ينظر إلىَّ هيبة له ، وروينا عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : من حق المعلم عليك أن تسلم على الناس عامة وتخصه دونهم بتحية ، ولا تقولن قال فلان خلاف ما تقول ، ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تشاور جليسك فى مجلسه ، ولا تأخذ بثوبه إذا قام ، ولا تلح عليه إذا كسل ، ولا تعرض أى تشبع من طول صحبته ، وينبغى أن يتأدب بهذه الخصال التى أرشد اليها علىٌّ كرم الله وجهه وأن يرد غيبة شيخه إن قدر . فإن تعذر عليه ردها فارق ذلك المجلس .

فصل

ويدخل على الشيخ كامل الخصال متصفاً بما ذكرناه فى العلم متطهراً مستعملا للسواك فارغ القلب من الأمور الشاغلة وأن لا يدخل بغير استئذان إذا كان الشيخ فى مكان يحتاج فيه إلى استئذان ، وأن يسلم على الحاضرين إذا دخل ويخصه دونهم بالتحية ، وأن يسلم عليه وعليهم إذا أنصرف كما جاء فى الحديث ، فليسيت الأولى أحق من الثانية ، ولا يتخطى رقاب الناس بل يجلس حيث ينتهى به المجلس إلا أن يأذن له الشيخ فى التقدم أو يعلم من حالهم إيثار ذلك ، ولا يقيم أحداً من موضعه . فإن آثره غيره لم يقبل اقتداء بابن عمر رضى الله عنهما إلا أن يكون فى تقديمه مصلحة للحاضرين أو أمره الشيخ بذلك ، ولا يجلس فى وسط الحلقة إلا لضرورة ولا يجلس بين صاحبين بغير أذنهما ، وإن فسحا له قعد وضم نفسه .

فصل

وينبغى أيضا أن يتأدب مع رفقته وحاضرى مجلس الشيخ فإن ذلك تأدب مع الشيخ وصيانة لمجلسه ، ويقعد بين يدى الشيخ قعدة المتعلمين لا قعدة المعلمين ولا يرفع صوته رفعاً بليغاً من غير

حاجة ، ولا يضحك ، ولا يكثر الكلام من غير حاجة ، ولا يعبث بيده ولا بغيرها ، ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً من غير حاجة بل يكون متوجها إلى الشيخ مصغياً إلى كلامه .

(فصـــل)

ومما يتأكد الاعتناء به أن لايقرأ على الشيخ حال شغل قلب الشيخ وملله واستيفازه وروعه وغمه وفرحه وعطشه ونعاسه وقلقه نحو ذلك بما يشق عليه أن يمنعه من كمال حضور القلب والنشاط ، وإن يغتنم أوقات نشاطه ، ومن آدابه أن يتحمل جفوة الشيخ وسوء خلقه ولا يصده ذلك عن ملازمته واعتقاد كماله ، ويتأول لأفعاله وأقواله التى ظاهرها الفساد تأويلات صحيحة فما يعجز عن ذلك إلا قليل التوفيق وعديمه ، وإن جفاه الشيخ ابتدأ هو بالاعتذار إلى الشيخ وأظهر له الذيف له والعتب عليه فذلك أنفع له فى الدنيا والآخرة وأنقى لقلب الشيخ ، وقد قالوا : من لم يصبر على ذل التعليم ، بقى عمره فى عماية الجهالة ، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الآخرة والدنيا ، ومنه الأثر المشهور عن ابن عباس رضى الله عنهما : ذللت طالبا فعززت مطلوباً .

وقد أحسن من قال :

من لم يذق طعم المذلة ساعة قطع الزمان بأسره مذلولاً

فصـــل

ومن آدابه المتأكدة أن يكون حريصاً على التعلم مواظباً عليه فى جميع الأوقات التى يتمكن منه فيها ولا يقنع بالقليل مع تمكنه من الكثير ، ولا يحمل نفسه ما لايطيق مخافة الملل وضياع ما حصل . وهذا يختلف باختلاف الناس والأحوال ، وإذا جاء إلى مجلس الشيخ فلم يجده انتظر ولازم بابه ، ولا يفوت وظيفته إلا أن يخاف كراهة الشيخ لذلك بإن يعلم من حاله الاقراء فى وقت بعينه ، وأنه لا يقرىء فى غيره ، وإذا وجد الشيخ نائماً أو مشتغلاً بمهم لم يستأذن عليه بل يصبر إلى استيقاظه أو فراغه أو ينصرف ، والصبر أولى كما كان ابن عباس رضى الله عنهما وغيره يفعلون ، وينبغى أن يأخذ نفسه بالاجتهاد فى التحصيل فى وقت الفراغ والنشاط وقوة اليدين ونباهة الخاطر وقلة الشاغلات قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة ، فقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تفقهوا قبل أن تسودوا : معناه اجتهدوا فى كمال أهليتكم وأنتم أتباع قبل أن تصيروا سادة ، فإنكم إذا صرتم سادة متبوعين امتنعتم من التعلم لارتفاع منزلتكم وكثرة شغلكم وهذا معنى قول الشافعى رضى الله عنه : تفقه قبل أن ترأس فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه .

فصــل

وينبغى أن يبكر بقراءته على الشيخ أول النهار لحديث النبى ﷺ « اللهم بارك لأمتى فى بكورها »(١) وينبغى أن يحافظ على قراءة محفوظه وينبغى أن لا يؤثر بنوبته غيره فإن الإيثار مكروه فى القرب بخلاف الإيثار بحظوظ النفس فإنه محبوب . فإن رأى الشيخ المصلحة فى الإيثار فى بعض الأوقات لمعنى شرعى فأشار عليه بذلك امتثل أمره ، ومما يجب عليه ويتأكد الوصية به أن لا يحسد أحداً من رفقته أو غيرهم على فضيلة رزقه الله إياها ، وإن لا يعجب بنفسه بما خصه الله ، وقد قدمنا ايضاح هذا فى آداب الشيخ ، وطريقه فى نفى العجب أن يذكر نفسه أنه لم يحصل ما حصله بحوله وقوته ، وإنما هو فضل من الله ؟ ولا ينبغى أن يعجب بشىء لم يخترعه بل أودعه الله تعالى فيه ، وطريقه فى نفى الحسد أن يعلم أن حكمة الله تعالى اقتضت جعل هذه الفضيلة فى هذا ، فينبغى أن لا يعترض عليها ولا يكره حكمة أرادها الله تعالى ولم يكرها .

الباب الخامس
فى آداب حامل القرآن

قد تقدم جمل منه فى الباب الذى قبل هذا ، ومن آدابه أن يكون على أكمل الأحوال وأكرم الشمائل ، وأن يرفع نفسه عن كل ما نهى القرآن عنه اجلالا للقرآن ، وأن يكون مصوناً عن دنىء الاكتساب شريف النفس مرتفعا على الجبابرة والجفاة عن أهل الدنيا ، متواضعا للصالحين وأهل الخير والمساكين ، وأن يكون متخشعاً ذا سكينة ووقار ، فقد جاء عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أنه قال : « يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على الناس ، وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون ، وبنهاره إذا الناس منطرون ، وبحزنه إذا الناس يفرحون ، وببكائه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخوضون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون . وعن الحسن بن على رضى الله عنه قال : إن من كان قبلكم رأوا القرآن وسائل ربهم فكانوا يتدربونها بالليل ويتفقدونها فى النهار . وعن الفضيل بن عياض قال : ينبغى لحامل القرآن أن لا تكون له حاجة إلى أحد من الخلفاء فمن دونهم ، وعنه أيضا قال حامل القرآن حامل راية الاسلام لا ينبغى أن يلهو مع من يلهو ، ولا يسهو مع من يسهو ، ولا يلغو مع من يلغو تعظيما لحق القرآن .

---

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه الصحيح (أبواب البيوع) باب ماجاء فى التبكير بالتجارة ، من رواية صخر الغامدى ٣٤٣/٢ رقم ١٢٣٠ طبع دار الفكر

وقال الترمذى : حديث صخر الغامدى حديث حسن .

وأبوداود برقم ٢٦٠٦ وابن ماجه ٢٢٣٦ ، ٢٢٣٧ ، ٢٢٣٨ وأحمد ٤١٦/٣ ، ٤١٧ وغيرهم .

(فصــل)

ومن أهم ما يؤثر به أن يحذر كل الحذر من اتخاذ القرآن معيشته ليكتسب بها ، فقد جاء عن عبد الرحمن بن شبيل رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به ولا تجفوا عنه ، ولا تغلوا فيه »(١) .

وعن جابر رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : اقرؤ وا القرآن من قبل أن يأتى قوم يقيمونه اقامة لقدح يتعجلونه ولا يتأجلونه »(٢) رواه بمعناه من رواية سهل بن سعد : معناه يتعجلون أجره إما بمال وإما سمعة ونحوها ، وعن فضيل بن عمرو رضى الله عنه قال : دخل رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ مسجداً فلما سلم الامام قام رجل فتلا آيات من القرآن ثم سأل فقال أحدهما : إنا لله وإنا اليه راجعون سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيجيء قوم يسألون بالقرآن فمن سأل بالقرآن فلا تعطوه »(٣) وهذا الاسناد منقطع ، فإن الفضيل بن عمرو لم يسمع الصحابة .

وأما أخذه الأجرة على تعليم القرآن فقد اختلف العلماء فيه ، فحكى الامام أبو سليمان الخطابى منع أخذ الأجرة عليه من جماعة من العلماء منهم الزهرى وأبو حنيفة ، وعن جماعة أنه يجوز إن لم يشترطه ، وهو قول الحسن البصرى والشعبى وابن سيرين ، وذهب عطاء ومالك والشافعى وآخرون إلى جوازها إن شارطه واستأجره إجارة صحيحة ، وقد جاء بالجواز الأحاديث الصحيحة ، وأحتج من منعها بحديث عبادة ابن الصامت « انه علم رجلا من أهل الصفة قرأ القرآن فأهدى له قوساً . فقال النبى ﷺ : « إن سرك أن تطوق بها طوقاً من نار فاقبلها »(٤) وهو حديث مشهور رواه أبو داود وغيره وبآثار كثيرة من السلف .

وأجاب المجوزون عن حديث عبادة بحوابين : أحدهما أن فى اسناده مقالا . والثانى أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئا . ثم أهدى اليه على سبيل العوض فلم يجز له الأخذ بخلاف من يعقد معه اجارة قبل التعليم والله اعلم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (زيادة فى حديث عبد الرحمن بن شبل رضى الله عنه) ٤٢٨/٣ - وأنظر مجمع الزوائد ١٦٧/٧ وقال الهيثمى : رواه أحمد والبزار بنحوه ، ورجال أحمد ثقات وزادا : « ولا تستأثروا به » .

(٢) أخرجه البغوى فى شرح السنة (باب ما يجزه الأمى والعجمى من القراءة) ٨٨/٣ رقم ٦٠٩
وقال محققه : اسناده حسن ، وهو فى سنن أبي داود برقم ٨٣٠ فى الصلاة ، وله شاهد من رواية سهل بن سعد الساعدى .

(٣) أخرجه الامام أحمد فى مسنده (مسند عمران بن حصين رضى الله عنه) ٤٣٢/٤ ، ٤٣٩ بنحوه .

(٤) أخرجه ابن ماجه فى سننه (كتاب التجارات) باب الأجر على تعليم القرآن ٧٣٠/٢ رقم ٢١٥٧ قال السيوطى : الأولى أن يدعى أن الحديث منسوخ بحديث الرقية الذى فعله وحديث : « إن أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله » وأيضا فى سنده الأسود بن ثعلبة وهو لا نعرفه . قال ابن المدينى كما فى الميزان للذهبى .
وأخرجه أحمد فى مسنده ٣١٥/٥

فصــل

ينبغي أن يحافظ على تلاوته ويكثر منها ، وكان السلف رضى الله عنهم لهم عادات مختلفة فى قدر ما يختمون فيه ، فروى ابن أبى داود عن بعض السلف رضى الله عنهم أنهم كانوا يختمون فى كل شهرين ختمة واحدة ، وعن بعضهم فى كل شهر ختمة ، وعن بعضهم فى كل عشر ليال ختمة ، وعن بعضهم فى كل ثمان ليال ، وعن الأكثرين فى كل سبع ليال ، وعن بعضهم فى كل ست ، وعن بعضهم فى كل خمس ، وعن بعضهم فى كل أربع ، وعن كثيرين فى كل ثلاث ، وعن بعضهم فى كل ليلتين ، وختم بعضهم فى كل يوم وليلة ختمة ، ومنهم من كان يختم فى كل يوم وليلة ختمتين ، ومنهم من كان يختم ثلاثاً ، وختم بعضهم ثمان ختمات أربعا باالليل وأربعاً بالنهار ، فمن الذين كانوا يختمون ختمة فى الليل واليوم عثمان بن عفان رضى الله عنه وتميم الدارى وسعيد بن جبير ومجاهد والشافعى وآخرون . ومن الذين كانوا يختمون ثلاث ختمات سليم بن عمر رضى الله عنه وقاضى مصر فى خلافة معاوية رضى الله عنه . وروى أبو بكر بن أبى داود أنه كان يختم فى الليلة أربع ختمات ... وروى أبو داود وباسناده الصحيح أن مجاهداً كان يختم القرآن من المغرب والعشاء وأما الذى يختم فى ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمن المتقدمين عثمان بن عفان وتميم الدارى وسعيد بن جبير رضى الله عنهم ختمه فى كل ركعة فى الكعبة

وأما الذين ختموا فى الأسبوع مرة فكثيرون نقل عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، وأبى بن كعب رضى الله عنهم ، وعن جماعة من النابعين كعبد الرحمن بن يزيد وعلقمة وابراهيم رحمهم الله ، والاختيار أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص ، من كان يظهر له بدقيق الفكر لطائف ومعارف فليقتصر على قدر ما يحصل له كمال فهم ما يقرؤه ، وكذا من كان مشغولا بنشر العلم أو غيره من مهمات الدين ومصالح المسلمين العامة ، فليقتصر على قدر لا يحصل بسببه اخلال بما هو مرصد له وإن لم يكن من هؤلاء المذكورين ، فليستكثر ما أمكنه من غير خروج إلى حد الملل والهذرمة ، وقد كره جماعة من المتقدمين الختم فى يوم وليله ، ويدل عليه الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاصى رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « لا يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث » رواه أبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم . قال الترمذى حديث حسن صحيح والله أعلم (١) .

وأما وقت الابتداء والختم لمن يختم فى الأسبوع ، فقد روى أبو داود أن عثمان بن عفان رضى الله عنه كان يفتتح القرآن ليلة الجمعة ويختمه ليلة الخميس . وقال الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله تعالى فى الإحياء : الأفضل أن يختم ختمة بالليل وأخرى بالنهار ، ويجعل ختمة النهار يوم الأثنين فى ركعتى الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمة الليل ليلة الجمعة فى ركعتى المغرب أو بعدهما ليستقبل أول النهار وآخره .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب تخريب القرآن ١١٦/٢ رقم ١٣٩٤ وأخرجه الترمذى فى (أبواب القراءات) ضمن الحديث رقم ٤٠١٦ وابن ماجه رقم ١٣٤٧

وروى ابن أبى داود عن عمر بن مرة التابعى : قال : كانوا يحبون أن يختم القرآن من أول الليل أو من أول النهار ، وعن طلحة بن مصرف التابعى الجليل . قال : من ختم القرآن أية ساعة كانت من النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسى واية ساعة كانت من الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح وعن مجاهد مثله .

فصل : فى المحافظة على القراءة بالليل

ينبغى أن يكون اعتناؤه بقراءة القرآن فى الليل أكثر ، قال الله تعالى : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾[١] وثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « نعم عبد الله لو كان يصلى من الليل »[٢] وفى الحديث الآخر من الصحيح أنه ﷺ قال : « يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل ثم تركه »[٣] .

وروى القطاعى وغيره عن سهل بن سعد رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « شرف المؤمن قيام الليل »[٤] .

والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة ، وقد جاء عن أبى الأحوص الحبشى قال : إن كان الرجل ليطرق الفسطاط طروقاً : أى يأتيه ليلا فسمع لأهله دويا كدوى النحل ، قال فما بال هؤلاء يأمنون ما كان أولئك يخافون ؟

وعن ابراهيم النخعى كان يقول : اقرأوا من الليل ولو حلب شاة . وعن يزيد الرقاشى قال : إذا أنا نمت ، ثم استيقظت ثم نمت فلا نامت عيناى . قلت : وإنما رجحت صلاة الليل وقراءته لكونها أجمع للقلب ، وأبعد عن الشاغلات والملهيات والتصرف و الحاجات ، وأصون من الرياء وغيره من المحبطات مع ما جاء الشرع به من ايجاد الخيرات فى الليل . فإن الاسراء برسول الله ﷺ كان ليلا ، وحديث « ينزل ربكم كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يمضى شطر الليل فيقول : هل من داع فأستجيب له » الحديث[٥] .

وفى الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « فى الليل ساعة يستجيب الله فيها الدعاء كل ليلة »[٦] .

---

(١) آل عمران الآيتان : ١١٣ ، ١١٤

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (فضل قيام الليل) ٦١/٢ طبع الشعب بلفظ : « نعم الرجل عبد الله لو كان يصل من الليل » فكان بعد لا ينام من الليل الا قليلا .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (فضل باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه) ٦٨/١

(٤) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب برقم ١٥١ عن سهل بن سعد ١٢١/١

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب الجنة) باب الدعاء ٦٦/٢ بنحوه .
ومسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) ٥٢١/١ رقم ٧٥٨/١٦٨ وأبو داود برقم ١٣١٥

(٦) أخرجه الشجرى فى أماليه ٢٠٨/١

وروى صاحب بهجة الأسراء باسناده عن سليمان الأنماطى قال رأيت علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى المنام يقول :

لولا الذين لهم ورد يقومونا وآخرون لهم سرد يصومونا
لدكدكت أرضكم من تحتكم سحراً لأنكم قوم سوء لا تطيعونا

وأعلم أن فضيلة القيام بالليل : والقراءة فيه تحصل بالقليل والكثير ، وكلما كثر كان أفضل ، إلا أن يستوعب الليل كله فإنه يكره الدوام عليه والا أن يضر بنفسه ، ومما يدل على حصوله بالقليل حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين » رواه أبو داود وغيره[1] وحكى الثعلبى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من صلى بالليل ركعتين فقد بات لله ساجداً وقائماً » .

فصل : فى الأمر بتعهد القرآن والتحذير من تعريضه للنسيان

ثبت عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « تعاهدوا هذا القرآن ، فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى عقلها »[2] رواه البخارى ومسلم .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل الابل المعقَّلة إن عاهد عليها أمسكها وان أطلقها ذهبت »[3] رواه مسلم والبخارى .

وعن سعد بن عبادة عن النبى ﷺ قال : « ما من امرىء يقرأ القرآن ثم ينساه إلا لقى الله عز وجل يوم القيامة أجزم » رواه أبو داود[4] .

فصل : فيمن نام عن ورده

عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من نام عن حزبه من الليل أو عن شىء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنه قرأه من الليل » رواه مسلم[5] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ـ باب ـ تحزيب القرآن ص١١٨ برقم ١٣٩٨
(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ٢٣٨/٦ ومسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها جـ١ ص٥٤٥ برقم ٧٩١/٢٣١
(٣) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها جـ١ ص٥٤٣ برقم ٧٨٩/٢٢٦
(٤) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة جـ٢ ص١٥٨ برقم ١٤٧٤ قال المنذرى : فى اسناده يزيد بن أبى زياد ولا يحتج بحديثه .
(٥) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها جـ١ ص٥١٥ برقم ٧٤٧/١٤٢

وعن سليمان بن يسار قال : قال أبو أسيد رضى الله عنه ، نمت البارحة عن وردى حتى أصبحت ، فلما أصبحت استرجعت وكان وردى سورة البقرة فرأيت فى المنام كأن بقرة تنطحنى رواه ابن أبى داود .

وروى ابن أبى الدنيا عن بعض حفاظ القرآن : انه نام ليلة عن حزبة فأرى فى منامه كأن قائلاً يقول له :

عجبت من جسم ومن صحة ومن فتى نام إلى الفجر
والموت لا يؤمن خطفاته فى ظلم الليل إذا يسري

الباب السادس
فى آداب القرآن

هذا الباب هو مقصود الكتاب وهو منتشر جداً ، وأنا أسير إلى أطراف من مقاصده كراهة الإطالة وخوفاً على قارئه من الملالة ، فأول ذلك يجب على القارىء الإخلاص كما قدمناه ومراعاة الأدب مع القرآن ، فيتبغى أن يستحضر فى نفسه أنه يناجى الله تعالى ويقرأ على حال من يرى الله تعالى ، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله تعالى يراه .

(فصل)

وينبغى إذا أراد القراءة أن ينظف فاه بالسواك وغيره ، والاختيار فى السواك أن يكون بعود من أراك ، ويجوز بسائر العيدان وبكل ما ينظف كالخرقة الخشنة والأشنان وغير ذلك ، وفى حصوله بالأصبع الخشنة ثلاثة أوجه لأصحاب الشافعى رحمهم الله تعالى : أشهرها أنه لا يحصل ، والثانى يحصل إن لم يجد غيرها ، ولا يحصل إن وجد ، ويستاك عرضاً مبتدئا بالجانب الأيمن من فمه وينوى به الإتيان بالسنة قال بعض العلماء : يقول عند الاستياك ، اللهم بارك لى فيه يا أرحم الراحمين . قال الماوردى من أصحاب الشافعى ويستحب أن يستاك فى ظاهر الأسنان وباطنها ، ويمر السواك على أطراف أسنانه وكراسى أضراسه وسقف حلقه امراراً رفيقاً . قالوا وينبغى أن يستاك بعود متوسط لا شديد اليبوسة ولا شديد الرطوبة . قال فإن اشتد يبسه لينه بالماء ، ولا بأس باستعمال سواك غيره بإذنه ، وأما إذا كان فمه نجسا بدم أو غيره فإنه يكره له قراءة القرآن قبل غسله ، وهل يحرم ؟

قال الرويانى من أصحاب الشافعى عن والده يحتمل وجهين والأصح لا يحرم .

(فصل)

يستحب أن يقرأ وهو على طهارة فإن قرأ محدثا جاز باجماع المسلمين ، والأحاديث فيه كثيرة معروفة .

قال امام الحرمين : ولا يقال ارتكب مكروها بل هو تارك للأفضل ، فإن لم يجد الماء تيمم ، والمستحاضة فى الزمن المحكوم بأنه طهر حكمها حكم المحدث ، وأما الجنب والحائض فإنه يحرم عليها قراءة القرآن ، سواء كان آية أو أقل منها ، ويجوز لهما اجراء القرآن على قلبهما من غير تلفظ به ، ويجوز لهما النظر فى المصحف وامراره على القلب ، وأجمع المسلمون على جواز التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير والصلاة على النبى ﷺ وغير ذلك من الأذكار للجنب والحائض . قال أصحابنا : وكذا إن قالا لإنسان خذ الكتاب بقوة ، وقصدا به غير القرآن فهو جائز ، وكذا ما أشبهه ، ويجوز لهما أن يقولا عند المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذا لم يقصداً القرآن . قال أصحابنا الخراسانيون : ويجوز أن يقولا عند ركوب الدابة : سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وعند الدعاء : ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، إذا لم يقصد القرآن قال إمام الحرمين : فإذا قال الجنب بسم الله والحمد لله فإن قصد القرآن عصى ، وإن قصد الذكر أم لم يقصد شيئا لم يأثم ، ويجوز لهما قراءة ما نسخت تلاوته : كالشيخ والشيخة إذا زينا فارجموهما البتة .

(فصـــل)

إذا لم يجد الجنب أو الحائض ماء تيمم ، ويباح له القراءة والصلاة وغيرهما ، فإن أحدث حرمت عليه الصلاة ولم تحرم القراءة والجلوس فى المسجد وغيرهما مما لا يحرم على المحدث كما لو اغتسل ثم أحدث ، وهذا مما يسأل عنه ويستغرب . فيقال : جنب يمنع من الصلاة ولا يمنع من قراءة القرآن والجلوس فى المسجد من غير ضرورة كيف صورته ؟ فهذا صورته ، ثم الأقرب لا فرق مما ذكرناه بين تيمم الجنب فى الحضر والسفر . وذكر بعض أصحاب الشافعى أنه إذا تيمم فى الحضر استباح الصلاة ، ويقرأ بعدها ، ولا يجلس فى المسجد ، والصحيح جواز ذلك كما قدمناه ، ولو تيمم ثم صلى وقرأ ثم رأى ماء يلزمه استعماله ، فإنه يحرم عليه القراءة وجميع ما يحرم على الجنب حتى يغتسل ، ولو تيمم وصلى وقرأ ثم أراد التيمم لحدث أو لفريضة أخرى أو لغير ذلك ، فإنه لا يحرم عليه القراءة على المذهب الصحيح المختار ، وفى وجه لبعض أصحاب الشافعى أنه لا يجوز والمعروف الأول ، أما إذا لم يجد الجنب ماء ولا ترابا فإنه لا يصلى لحرمة الوقت على حسب حاله ، ويحرم عليه القراءة خارج الصلاة ، ويحرم عليه أن يقرأ فى الصلاة مازاد على فاتحة الكتاب ، ويحرم عليه قراءة الفاتحة ؟ فيه وجهان : الصحيح المختار أنه لا يحرم بل يجب فإن الصلاة لا تصح إلا بها ، وكلما جازت الصلاة لضرورة مع الجنابة يجوز القراءة . والثانى لا يجوز ، بل يأتى بالأذكار التى يأتى بها العاجز الذى لا يحفظ شيئا من القرآن لأن هذا عاجز شرعاً فصار كالعاجز حساً ، والصواب الأول ، وهذه الفروع التى ذكرناها يحتاج اليها فلهذا أشرت اليها بأوجز العبارات ، وإلا فلها أدلة وتتمات كثيرة معروفة فى كتب الفقه ، والله أعلم .

(فصــل)

ويستحب أن تكون القراءة فى مكان نظيف مختار ، ولهذا استحب جماعة من العلماء القراءة فى المسجد ، لكونه جامعاً للنظافة وشرف البقعة ومحصلاً لفضيلة أخرى وهى الاعتكاف ، فإنه ينبغى لكل جالس فى المسجد الاعتكاف سواء أكثر فى جلوسه أو أقل ، بل ينبغى أول دخوله المسجد أن ينوى الاعتكاف ، وهذا الأدب فينبغى أن يعتنى به ويشاع ذكره ويعرفه الصغار والعوام ، فإنه مما يغفل عنه .

وأما القراءة فى الحمام ، فقد اختلف السلف فى كراهيتها : فقال أصحابنا : لا يكره ، ونقله الامام المجمع على جلالته أبو بكر بن المنذر فى الاشراف عن ابراهيم النخعى ومالك . وهو قول عطاء ، وذهب إلى كراهته جماعات منهم على بن أبى طالب رضى الله عنه ، رواه عنه ابن أبى داود ، وحكى ابن المنذر عن جماعة من التابعين منهم أبو وائل شقيق بن سلمه والشعبى والحسن البصرى ومكحول ورويناه أيضا عن ابراهيم النخعى ، وحكاه أصحابنا عن أبى حنيفة رضى الله عنهم أجمعين قال الشعبى : تكره القراءة فى ثلاثة مواضع : فى الحمامات ، والحشوش ، وبيوت الرحى وهى تدور وعن أبى ميسره قال : لا يذكر الله الا فى مكان طيب ، وأما القراءة فى الطريق ، فالمختار أنها جائزة غير مكروهة إذا لم يتله صاحبها ، فإن التهى عنها كرهت ، كما كره النبى ﷺ القراءة للناس مخافة من الخلط .

وروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه أذن فيها .

قال ابن أبى داود : حدثنى أبو الربيع قال : أخبرنا ابن وهب قال : سألت مالكا عن الرجل يصلى من آخر الليل فيخرج إلى المسجد وقد بقى من السورة التى كان يقرأ فيها شىء ، قال ما أعلم القراءة تكون فى الطريق ، وكره ذلك ، وهذا إسناد صحيح عن مالك رحمه الله .

(فصــل)

يستحب للقارىء فى غير الصلاة أن يستقبل القبلة ، فقد جاء فى الحديث « خير المجالس ما استقبل به القبلة »(١) ويجلس متخشعاً بسكينة ووقار ، مطرقاً رأسه ويكون جلوسه وحده فى تحسين أدبه وخضوعه كجلوسه بين يدى معلمه فهذا هو الأكمل ، ولو قرأ قائماً ، أو مضطجعا ، أو فى فراشه ، أو على غير ذلك من الأحوال جاز ، وله أجر ، ولكن دون الأول . قال الله عز وجل : ﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ﴾(٢) ، وثبت فى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : « كان رسول الله ﷺ يتكىء فى حجرى وأنا حائض ويقرأ القرآن »(٣) رواه مسلم وأحمد .

---

(١) اخرجه أبونعيم فى تاريخ أصبهان ٢١٧/١ وأنظر اتحاف السادة المتقين جـ ٤ ص ٣٧١

(٢) آل عمران الآيتان : ١٩٠ ، ١٩١

(٣) اخرجه أحمد ٨٢/١ ، ١٩٧/٦ ومسلم كتاب الحيض ٣٠٢/١٥ جـ ١ ص ٢٤٦

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : إنى أقرأ القرآن فى صلاتى وأقرأ على فراشى ، وعن عائشة رضى الله عنها : قالت : إنى لأقرأ حزبى وأنا مضجعة على السرير .

(فصـــل)

فإن أراد الشروع فى القراءة استعاذ فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا قال جمهور من العلماء .

وقال بعض العلماء : يتعوذ بعد القراءة ، لقوله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ ، وتقدير الآية عند الجمهور : إذا أردت القراءة فاستعذ ، ثم صيغة التعوذ كما ذكرناه ، وكان جماعة من السلف يقولون أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، ولا بأس بهذا ، ولكن الاختيار هو الأول ، ثم أن التعوذ مستحب وليس بواجب وهو مستحب لكل قارىء ، سواء كان فى الصلاة أو فى غيرها ، ويستحب فى الصلاة فى كل ركعة على الصحيح من الوجهين عند أصحابنا ، وعلى الوجه الثانى إنما يستحب فى الركعة الأولى فإن تركه فى الأولى أتى به فى الثانية ، ويستحب التعوذ فى التكبيرة الأولى فى صلاة الجنازة على أصح الوجهين قال : وينبغى أن يحافظ على قراءة بسم الله الرحمن الرحيم فى أول كل سورة سوى براءة ، فإن أكثر العلماء قالوا إنها آية ، حيث تكتب فى المصحف وقد كتبت فى أوائل السور سوى براءة فإذا قرأها كان متيقناً قراءة الختمة أو السورة ، فإذا أخل بالبسملة كان تاركاً لبعض القرآن عند الأكثرين ، فاذا كانت القراءة فى وظيفة عليها جعل كالأسباع والأجزاء التى عليها أوقاف وأرزاق كان الاعتناء بالبسملة أكثر لتيقن قراءة الختمة ، فإنه إذا تركها لم يستحق شيئاً من الوقف عند من يقول البسملة آية من أول السورة ، وهذه دقيقة نفيسة يتأكد الاعتناء بها واشاعتها .

(فصـــل)

فإذا شرع فى القراءة ، فليكن شأنه الخشوع والتدبر عند القراءة ، والدلائل عليه أكثر من أن تحصر ، وأشهر وأظهر من أن تذكر ، فهو المقصود المطلوب ، وبه تنشرح الصدور وتستنفر القلوب ، قال الله عز وجل : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾(١) وقال تعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾(٢) والأحاديث فيه كثيرة ، وأقاويل السلف فيه مشهورة .

وقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح ، وقد حقق جماعة من السلف عند القراءة ، ومات جماعات حال القراءة ، ورويناه عن بهز بن حكيم أن زرارة بن أوفى التابعى الجليل ـ رضى الله عنه ـ أمهم فى صلاة الفجر فقرأ حتى بلغ : ﴿ فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم

---

(١) النساء آية : ٨٢ ، محمد آية : ٢٤

(٢) سورة (ص) آية : ٢٩

عسير ﴾[١] خر ميتا . قال بهز : وكنت فيمن حمله . وقال السيد الجليل ذو المواهب والمعارف ابراهيم الخواص رضى الله عنه ، دواء القلب خمسة اشياء قراءة القرآن بالتدبر وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

فصل : فى استحباب ترديد الآية للتدبر

وقد قدمنا فى الفصل قبله الحث على التدبر ، وبيان موقعه وتأثر السلف ، وروينا عن أبى ذر رضى الله عنه قال : « قام النبى ﷺ بآية حتى أصبح ، يرددها والآية : (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) رواه النسائى وابن ماجه[٢] .

وعن تميم الدارى رضى الله عنه أنه كرر هذه الآية حتى أصبح ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾[٣] وعن عبادة بن حمزة قال : دخلت على أسماء رضى الله عنها ـ وهى تقرأ : ﴿ فمنّ الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾[٤] فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو ، فطال علىَّ ذلك ، فذهبت إلى السوق ، فقضيت حاجتى ثم رجعت وهى تعيدها وتدعو . ورويت هذه القصة عن عائشة رضى الله عنها ، وردد ابن مسعود رضى الله عنه : ﴿ رب زدنى علماً ﴾[٥] وردد سعيد بن جبير ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾[٦] الآية وردد أيضا ﴿ فسوف يعلمون إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الحميم ثم فى النار يسجرون ﴾[٧] وردد أيضا ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾[٨] وكان الضحاك إذا تلا قوله تعالى : ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ﴾[٩] . رددها إلى السحر .

(فصــل)
فى البكاء عند قراءة القرآن

قد تقدم فى الفصلين المتقدمين بيان ما يحمل على البكاء فى حال القراءة وهو صفة العارفين ، وشعار عباد الله الصالحين . قال الله تعالى : ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾[١٠] وقد وردت فيه

(١) المدثر الآيتان : ٨ ، ٩

(٢) أخرجه ابن ماجه فى كتاب اقامة الصلاة والسنة فيها جـ ١ ص ٤٢٩ برقم ١٣٥٠ فى الزوائد أسناده صحيح ورجاله ثقات .. ثم قال رواه النسائى فى الكبرى وأحمد فى المسند وابن خزيمة فى صحيحه والحاكم وقال : صحيح .

(٣) الجاثية آية : ٢١

(٤) الطور آية : ٢٧

(٥) طه آية : ١١٤

(٦) البقرة آية : ٢٨١

(٧) غافر الآيتان : ٧٠ ، ٧١

(٨) الانفطار آية : ٦

(٩) الزمر آية : ١٦

(١٠) الاسراء آية : ١٠٩

أحاديث كثيرة وآثار السلف . فمن ذلك عن النبى ﷺ « اقرؤوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ أنه صلى بالجماعة الصبح فقرأ سورة يوسف فبكى حتى سالت دموعه على ترقوته . وفى رواية : أنه كان فى صلاة العشاء فتدل على تكريره منه ، وفى رواية : أنه بكى حتى سمعوا بكاءه من وراء الصفوف ، وعن أبى رجاء قال : رأيت ابن عباس وتحت عينيه مثل الشراك البالى من الدموع .

وعن هشام قال : ربما سمعت بكاء محمد بن سيرين فى الليل وهو فى الصلاة والآثار فى هذا كثيرة لا يمكن حصرها ، وفيما أشرنا اليه ونبهنا عليه كفاية ، والله أعلم .

قال الامام أبو حامد الغزالى : البكاء مستحب مع القراءة وعندها . وطريقه فى تحصيله أن يحضر قلبه الحزن بأن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد الشديد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى ذلك ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر الخواص فليبك على فقد ذلك فإنه من أعظم المصائب .

(فصـــل)

وينبغى أن يرتل قراءته . وقد اتفق العلماء رضى الله عنهم على استحباب الترتيل قال تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾[١] وثبت عن أم سلمة رضى الله عنها : « إنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ قراءة مفسرة حرفاً حرفاً » رواه أبو داود والنسائى والترمذى . قال الترمذى حديث حسن صحيح[٢]

وعن معاوية بن قرة رضى الله عنه عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه قال : « رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته يقرأ سورة الفتح يرجع فى قراءته » رواه البخارى ومسلم[٣] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لأن اقرأ سورة أرتلها أحب إلىَّ من أن اقرأ القرآن كله .

وعن مجاهد أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر البقرة وحدها وجزء منهما وركوعهما وسجودهما وجلوسهما واحد سواء ؟ فقال : الذى قرأ البقرة وحدها أفضل ، وقد نهى عن الأفراط فى الأسراع ، ويسمى الهندمة . فثبت عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً قال له إنى اقرأ المفصل فى ركعة واحدة ، فقال عبد الله بن مسعود هذا كهذ الشعر ، إن أقواماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع ، رواه البخارى ومسلم ، وهذا لفظ مسلم فى احدى رواياته[٤] .

---

(١) المزمل آية : ٤

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة عن أم سلمه جـ ٢ ص ١٥٤ برقم ١٤٦٦
والترمذى فى أبواب فضائل القرآن باب ما جاء كيف كانت قراءة النبى ـ ﷺ ـ جـ ٤ ص ٢٥٤ رقم ٣٠٩١ ط دار الفكر وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح غريب .

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة جـ ١ ص ١٥٤ برقم ١٤٦٧
ومسلم فى كتاب صلاة المسافرين باب ذكر قراءة النبى ـ ﷺ ـ سورة الفتح يوم فتح كله جـ ١ ص ٥٤٧ رقم ٧٩٤/٢٣٨
والبخارى فى صحيحه جـ ٦ ص ٢٣٨ باب القراءة على الدابة وبلفظه جـ ٦ ص ٢٤٦

(٤) أخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب صلاة المسافرين وقصرها جـ ١ ص ٥٦٣ برقم ٧٢٢/٢٧٥
والبخارى جـ ٦ ص ٢٤٠ باب الترتيل فى القراءة

قال العلماء : والترتيل مستحب للتدبر ولغيره . قالوا : يستحب الترتيل للعجمى الذى لا يفهم معناه ، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام ، وأشد تأثيراً فى القلب .

(فصـل)

ويستحب إذا مر بآية رحمة أن يسأل الله تعالى من فضله ، وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ بالله من الشر ومن العذاب ، أو يقول : اللهم إنى أسألك العافية ، أو اسألك المعافاة من كل مكروه ، أو نحو ذلك ، وإذا مر بآية تنزيه لله تعالى نزهه فيقول : تبارك وتعالى ، أوجلت عظمة ربنا ، فقد صح عن حذيفة ابن اليمان ـ رضى الله عنهما ـ قال : « صليت مع النبى ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت يركع عند المائة ثم مضى فقلت يصلى بها فى ركعة فمضى ، فقلت يركع بها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلا إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ » رواه مسلم فى صحيحه[1] ، وكانت سورة النساء مقدمة على آل عمران . قال أصحابنا رحمهم الله تعالى : ويستحب هذا السؤال والاستعانة والتسبيح لكل قارىء سواء كان فى الصلاة أو خارجاً منها قالوا : ويستحب ذلك فى صلاة الإمام والمنفرد والمأموم لأنه دعاء فاستووا فيه كالتأمين عقب الفاتحة ، وهذا الذى ذكرناه من استحباب السؤال والاستعانة ، هو مذهب الشافعى ـ رضى الله عنه ـ وجماهير العلماء ـ رحمهم الله ـ قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى : ولا يستحب ذلك بل يكره فى الصلاة ، والصواب قول الجماهير لما قدمناه .

(فصـل)

ومما يعتنى به ويتأكد الأمر به احترام القرآن من أمور قد يتساهل فيها بعض الغافلين القارئين مجتمعين .

فمن ذلك اجتناب الضحك واللغط والحديث فى خلال القراءة إلا كلاما يضطر اليه ، وليتمثل قول الله تعالى : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾[2] وليقتد بما رواه ابن أبى داود عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا قرأ القرآن لا يتكلم حتى يفرغ منه .

ومن ذلك العبث باليد وغيرها فإنه يناجى ربه سبحانه وتعالى فلا يعبث بين يديه ، ومن ذلك النظر إلى ما يلهى ويبدد الذهن ، وأقبح من هذا كله النظر إلى ما لايجوز النظر اليه كالأمرد وغيره ، فإن النظر إلى الأمرد الحسن من غير حاجة حرام ، سواء كان بشهوة أو بغيرها ، سواء أمن الفتنة أو لم يأمنها ، هذا هو المذهب الصحيح المختار عند العلماء ، وقد نص على تحريمه الإمام الشافعى ومن لا يحصى من العلماء

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تطويل القراءة فى صلاة الليل جـ ١ ص ٥٣٦ رقم ٧٧٢/٢٠٣
(٢) الأعراف آية : ٢٠٤

ودليله قوله تعالى : ﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾[١] ولأنه فى معنى المرأة ، بل ربما كان بعضهم أو كثير منهم أحسن من كثير من النساء ، ويتمكن من أسباب الريبة فيه ، ويتسهل من طرق الشر فى حقه ما لا يتسهل فى حق المرأة فكان تحريمه أولى ، وأقاويل السلف فى التنفير منهم أكثر من أن تحصى ، وقد سموهم الأنتان ، لكونهم مستقذرين شرعا . وأما النظر إليه فى حال البيع والشراء والأخذ والعطاء ، والتطبيب والتعليم ونحوها من مواضع الحاجة فجائز للضرورة ، لكن يقتصر الناظر على قدر الحاجة ، ولا يديم النظر من غير ضرورة ، وكذا المعلم إنما يباح له النظر الذى يحتاج اليه ، ويحرم عليهم كلهم فى كل الأحوال النظرة بشهوة ولا يختص هذا بالأمرد ، بل يحرم على كل مكلف النظر بشهوة إلى كل أحد رجلاً كان أو امرأة ، محرما كانت المرأة أو غيرها الا الزوجة أو المملوكة التى يملك الاستمتاع بها حتى قال أصحابنا : يحرم النظر بشهوة إلى محارمه كأخته وأمه والله أعلم .

وعلى الحاضرين مجلس القراءة إذا رأوا شيئاً من هذه المنكرات المذكورة أو غيرها أن ينهوا عنه حسب الامكان باليد لمن قدر ، وباللسان لمن عجز عن اليد وقدر على اللسان ، والا فلينكر بقلبه ، والله أعلم .

(فصـــل)

قال العلماء : الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ، ثم البقرة ، ثم آل عمران ، ثم ما بعدها على الترتيب وسواء قرأ فى الصلاة أو فى غيرها ، حتى قال بعض أصحابنا : إذا قرأ فى الركعة الأولى سورة قل أعوذ برب الناس يقرأ فى الثانية بعد الفاتحة من البقرة . قال بعض أصحابنا : ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التى تليها ، ودليل هذا أن ترتيب المصحف إنما جعل هكذا لحكمة ، فينبغى أن يحافظ عليها إلا فيما ورد المشرع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة تقرأ فى الأولى سورة السجدة ، وفى الثانية ﴿ هل أتى على الانسان ﴾ وصلاة العيد فى الأولى قاف ، وفى الثانية ﴿ اقتربت الساعة ﴾ وركعتى سنة الفجر فى الأولى : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفى الثانية ﴿ قل هو الله أحد ﴾ وركعات الوتر فى الأولى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ وفى الثانية : ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ وفى الثالثة ﴿ قل هو الله أحد ﴾ والمعوذتين ، ولو خالف الموالاة فقرأ سورة لا تلى الأولى وخالف الترتيب فقرأ سورة ، ثم قرأ سورة قبلها جاز ، فقد جاءت بذلك آثار كثيرة ، وقد قرأ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الركعة الأولى من الصبح بالكهف ، وفى الثانية بيوسف ، وقد كره جماعة مخالفة ترتيب المصحف ، وروى ابن أبى داود عن الحسن : أنه كان يكره أن يقرأ القرآن لا على تأليفه فى المصحف ، وبإسناده الصحيح عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قيل له : إن فلاناً يقرأ القرآن منكوساً ؟ فقال ذلك منكوس القلب . وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فممنوع منعاً متأكداً فإنه يذهب بعض ضروب الاعجاز ويزيل حكمة ترتيب الآيات ، وقد روى ابن أبى داود عن ابراهيم التخعى الامام التابعى الجليل والامام مالك بن أنس

---

(١) النور آية : ٣٠

أنهما كرها ذلك ، وأن مالكا كان يعيبه ، ويقول هذا عظيم . وأما تعليم الصبيان من آخر المصحف إلى أوله فحسن ليس هذا من هذا الباب فإن ذلك قراءة متفاضلة فى أيام متعددة مع ما فيه من تسهيل الحفظ عليهم ، والله أعلم .

(فصـــل)

قراءة القرآن من المصحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب ، لأن النظر فى المصحف عبادة مطلوبة فتجتمع القراءة والنظر هكذا . قاله القاضى حسين من أصحابنا وأبو حامد الغزالى وجماعات من السلف ، ونقل الغزالى فى الاحياء أن كثيرين من الصحابه رضى الله عنهم كانوا يقرءون من المصحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا فى المصحف ، وروى ابن أبى داود القراءة فى المصحف عن كثيرين من السلف ولم أر فيه خلافاً ، ولو قيل أنه يختلف باختلاف الأشخاص فيختار القراءة فى المصحف لمن استوى خشوعه وتدبره فى حالتى القراءة فى المصحف وعن ظهر القلب ، ويختار القراءة عن ظهر القلب لمن لم يكمل بذلك خشوعه ، ويزيد على خشوعه وتدبره لو قرأ من المصحف لكان هذا قولا حسنا ، والظاهر أن كلام السلف وفعلهم محمول على هذا التفصيل .

فصل : فى استحباب قراءة الجماعة مجتمعين ، وفضل القارئين من الجماعة والسامعين وبيان فضيلة من جمعهم عليها وحرصهم وندبهم اليها

أعلم أن قراءة الجماعة مجتمعين مستحبة بالدلائل الظاهرة وأفعال السلف والخلف المتظاهرة . فقد صح عن النبى ﷺ من رواية أبى هريرة رضى الله عنه وأبى سعيد الخذرى رضى الله عنهما أنه قال : « ما من قوم يذكرون الله الا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده » .

قال الترمذى : حديث حسن صحيح [١] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده » رواه مسلم وأبو داود باسناد صحيح على شرط البخارى ومسلم [٢] .

وروى الدارمى باسناده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نوراً » .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب الدعوات باب ما جاء فى القوم يجلسوم فيذكرون الله ما لهم من الفضل جـ ٥ ص ١٢٨ رقم ٣٤٣٨ ط دار الفكر

قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار جـ ٤ ص ٢٠٧٤ رقم ٣٩/٢٧٠٠ وأبو داود فى سننه فى كتاب الصلاة باب فى ثواب قراءة القرآن جـ ٢ ص ١٤٨ رقم ١٤٥٥

وروى ابن أبى داود : أن أبا الدرداء رضى الله عنه كان يدرس القرآن معه نفر يقرءون جميعاً . وروى ابن أبى داود فعل الدراسة مجتمعين عن جماعات أفاضل السلف والخلف وقضاة المتقدمين . لكن القراءة فى حال الاجتماع لها شروط قدمناها ينبغى أن يعتنى بها ، والله أعلم .

وأما فضيلة من يجمعهم على القراءة ففيها نصوص كثيرة كقوله ﷺ « الدال على الخير كفاعله »[(١)] وقوله ﷺ « لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »[(٢)] .

والأحاديث فيه كثيرة مشهورة ، وقد قال الله تعالى ﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ﴾[(٣)] ولاشك فى عظم أجر الساعى فى ذلك .

(فصل : فى الإدارة بالقرآن)

وهو أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشرا أو جزءا أو غير ذلك ثم يسكت ويقرأ الآخر من حيث انتهى الأول ، ثم يقرأ الآخر وهذا جائز حسن ، وقد سئل مالك رحمه الله تعالى عنه فقال : لابأس به .

(فصل : فى رفع الصوت بالقراءة)

هذا فصل مهم ينبغى أن يعتنى به . اعلم أنه جاءت أحاديث كثيرة فى الصحيح وغيره دالة على استحباب رفع الصوت بالقراءة . وجاءت آثار كثيرة على استحباب الإخفاء وخفض الصوت وسنذكر منها طرفا يسيرا اشارة إلى أصلها إن شاء الله تعالى .

قال الامام أبوحامد الغزالى وغيره من العلماء : وطريق الجمع بين الأحاديث والآثار المختلفة فى هذا إن الإسرار أبعد من الرياء فهو أفضل فى حق من يخاف ذلك ، فإن لم يخف الرياء فالجهر ورفع الصوت أفضل ، لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته تتعدى إلى غيره ، والمتعدى أفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارىء ، ويجمع همه إلى الفكر فيه ، ويصرف سمعه إليه ويطرد النوم ويزيد فى النشاط ويوقظ غيره من نائم وغافل وينشطه . قالوا : فمهما حضره شىء من هذه النيات فالجهر أفضل ، فإن اجتمعت هذه النيات تضاعف الأجر .

قال الغزالى : ولهذا قلنا القراءة فى المصحف أفضل ، فهذا حكم المسألة ، وأما الآثار المنقولة فكثيرة ، وأنا أشير الى أطراف من بعضها . ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه أبواب العلم جـ ٤ ص ١٤٧ رقم ٢٨٠٩ عن أنس بن مالك .
وقال الترمذى وفى الباب عن أبى مسعود وبريده . هذا حديث غريب من هذا الوجه وانظر رق ٢٨١٠/٢٨١١

(٢) أخرجه أحمد ى مسنده : ٣٣٣/٥ البخارى ٥٨/٤ ، ٢٣/٥
ومسلم فى فضائل الصحابة رقم ٣٤

(٣) المائدة آية : ٢

رسول الله ﷺ يقول : « ماأذن الله لشيء ماأذن لنبي حسن الصوت يتغنى بالقرآن يجهر به » رواه البخاري ومسلم[(١)] . ومعنى أذن أستمع ، وهو إشارة إلى الرضا والقبول .

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أوتيت مزمارا من مزامير آل داود » رواه مسلم والبخاري[(٢)] . . .

وعن أبي موسى أيضا قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار » رواه البخاري ومسلم[(٣)] .

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « زينوا القرآن بأصواتكم » رواه أبو داود والنسائي وغيرهما[(٤)] .

وروى ابن أبي داود عن علي رضي الله عنه : أنه سمع ضجة في المسجد يقرءون القرآن ، فقال : طوبى لهؤلاء كانوا أحب الناس لرسول الله ﷺ .

وفي اثبات الجهر أحاديث كثيرة : وأما الآثار عن الصحابة والتابعين من اقوالهم وأفعالهم فاكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر ، وهذا كله فيمن لايخاف رياء ولاإعجابا ، ولانحوهما من النتائج ، ولايؤذي جماعة يلبس عليهم صلاتهم ويخلطها عليهم . وقد نقل عن جماعة السلف اختيار الاخفاء لخوفهم مما ذكرناه . فعن الأعمش قال دخلت على ابراهيم وهو يقرأ بالمصحف فاستأذن عليه رجل فغطاه ، وقال : كنت جالسا مع أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم ، فقال رجل منهم قرأت الليلة كذا ، فقالوا هذا حظك منه ، ويستدل لهؤلاء بحديث عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة ، والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » رواه أبوداود والترمذي والنسائي وقال الترمذي حديث حسن قال[(٥)] : ومعناه ان الذي يسر بقراءة القرآن أفضل من الذي يجهر بها . لأن صدقة السر أفضل عند أهل العلم من صدقة العلانية قال : وإنما معنى هذا الحديث عند أهل العلم لكي يأمن الرجل من العجب ، لأن الذي يسر بالعمل لايخاف عليه من العجب كما يخاف عليه من علانيته . قلت : وكل هذا

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه باب من لم يتغنَّ بالقرآن جـ ٦ ص ٢٣٦ ومسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن جـ ١ ص ٥٤٥ رقم ٩٢/٢٣٣ ن

(٢) أخرجه : البخاري في صحيحه ح٦ ص٢٤١ باب حسن الصوت بالقراءة وأخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ح١ ص٥٤٦ باب استحباب تحسين الصوت برقم ٧٩٣/٢٣٦ وانظر أحاديث الباب

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل الاشعرين حـ٤ ص١٩٤٤ رقم ٢٤٩٩/١٦٦ ، والبخاري ١٧٥/٥ ط الشعب

(٤) أخرجه النسائي في كتاب الافتتاح باب تزيين القرآن بالصوت حـ٢ ص١٧٩ ص١٨٠ - وأبو داود في كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل في القراءة حـ٤ ص١٥٥ رقم ١٤٦٨ وابن ماجة في اقامة الصلاة والسنة فيها باب حسن الصوت بالقرآن حديث رقم ١٣٤٢

(٥) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة باب رفع الصوت بالقراءة في صلاة الليل حـ٢ ص٨٣ ، ص٨٤ رقم ١٣٣٣ والترمذي في سننه في ابواب فضائل القرآن حـ٤ ص٢٥٢ رقم ٣٠٨٦ وقال هذا حديث حسن غريب .

موافق لما تقدم تقريره فى أول الفصل من التفصيل ، وأنه إن خاف بسبب الجهر شيئا مما يكره لم يجهر ، وان لم يخف استخف الجهر ، فان كانت القراءة من جماعة مجتمعين فاكد استحباب الجهر لما قدمناه ، ولما يحصل فيه من نفع غيرهم والله أعلم .

(فصل فى استحباب تحسين الصوت بالقراءة)

أجمع العلماء رضى الله عنهم من السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من علماء الأمصار أئمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، وأقوالهم وأفعالهم مشهورة نهاية الشهرة فنحن مستغنون عن نقل شىء من أفرادها ودلائل هذا من حديث رسول الله ﷺ مستفيضة عند الخاصة والعامة كحديث « زينوا القرآن بأصواتكم » وحديث « لقد أوتى هذا مزمارا » وحديث « ماأذن » وحديث « لله أشد أذنا » وقد تقدمت كلها فى الفصل السابق ، وتقدم فى فصل الترتيل حديث عبدالله بن مغفل فى ترجيع النبى ﷺ القراءة ،

وكحديث سعد بن أبى وقاص ، وحديث أسامة رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا » رواه ابو داود باسنادين جيدين وفى اسناد سعد اختلاف لايضر . قال جمهور العلماء : معنى لم يتغن لم يحسن صوته .

وحديث البراء رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ قرأ فى العشاء بالتين والزيتون ، فما سمعت أحدا أحسن صوتا منه » رواه البخارى ومسلم[٢] .

قال العلماء رحمهم الله يستحب تحسين الصوت بالقراءة وترتيلها مالم يخرج عن حد القراءة بالتخطيط ، فان أفرط حتى زاد حرفا أو اخفاه فهو حرام . وأما القراءة بالألحان فقد قال الشافعى رحمه الله فى موضع : أكرهها . قال أصحابنا لسنت على قولين بل فيه تفصيل . ان أفرط فى التمطيط فجاوز الحد فهو الذى كرهه ، وان لم يجاوز فهو الذى لم يكرهه .

وقال أقضى القضاة الماردى فى كتاب الحاوى . القراءة بالألحان الموضوعة إن أخرجت لفظ القرآن عن صيغته بإدخال حركات فيه أو اخراج حركات منه أو قصر ممدود أو مقصور او تمطيط يخفى به بعض اللفظ ويتلبس المعنى فهو حرام يفسق به القارىء ، ويأتم به المستمع لأنه عدل به عن نهجه القويم الى الاعوجاج ، والله تعالى يقول : ﴿ قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون ﴾[١] قال : وإن لم يخرجه اللحن عن لفظه وقراءته على ترتيله كان مباحا لأنه زاد على ألحانه فى تحسينه هذا كلام أقضى القضاة ، وهذا

---

(١) الزمر آية : ٢٨

(٢) أخرجه : أبو داود فى سننه كتاب الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة حـ٢ ص١٥٧ رقم ١٤٧١

القسم الأول من القراءة بالألحان المحرمة مصيبة ابتلى بها بعض الجهلة الطغاة الغشمة الذين يقرءون على الجنائز وبعض المحافل ، وهذه بدعة محرمة ظاهرة يأثم كل مستمع لها كما قاله أقضى القضاة الماوردى ، ويأثم كل قادر على ازالتها أو على النهى عنها اذا لم يفعل ذلك ، وقد بذلت فيها بعض قدرتى وأرجو من فضل الله الكريم أن يوفق لازالتها من هو أهل لذلك ، وأن يجعله فى عافية .

قال الشافعى فى مختصر المزنى : ويحسن صوته بأى وجه كان . قال وأحب مايقرأ حدرا وتحزينا قال أهل اللغة : يقال حذرت بالقراءة اذا أدرجتها ولم تمططها ، ويقال فلان يقرأ بالتحزين اذا رقق صوته ، وقد روى ابن ابى داود باسناده عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ يحزنها شبه الرثاء ، وفى سنن أبى داود قيل لابن ابى مليكه : أرأيت إذا لم يكن حسن الصوت ؟ فقال يحسنه ما استطاع .

(فصل : فى استحباب طلب القراءة الطيبة من حسن الصوت)

اعلم أن جماعات من السلف كانوا يطلبون من أصحاب القراءة بالأصوات الحسنة أن يقرءوا وهم يستمعون ، وهذا متفق على استحبابه وهو عادة الأخيار والمتعبدين وعباد الله الصالحين ، وهو سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، فقد صح عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله ﷺ « اقرأ علىّ القرآن ، فقلت : يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ، قال إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه سورة النساء حتى إذا جئت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنابك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال حسبك الآن فالتفت اليه فاذا عيناه تذرفان » رواه البخارى ومسلم[1] . .

والآثار فى هذا كثيرة معروفة ، وقد مات جماعات من الصالحين بسبب قراءة من سألوه القراءة ، والله أعلم ، وقد استحب العلماء أن يستفتح مجلس حديث النبى ﷺ ويختم بقراءة قارىء حسن الصوت ماتيسر من القرآن .

ثم إنه ينبغى للقارىء فى هذه المواطن أن يقرأ مايليق بالمجلس ويناسبه ، وأن تكون قراءته فى آيات الرجاء والخوف والمواعظ والتزهيد فى الدنيا والترغيب فى الآخرة والتأهب لها وقصر الأمل ومكارم الأخلاق .

(فصل)

ينبغى للقارىء إذا ابتدأ من وسط السورة أو وقف على غير آخرها أن يتبتدىء من أول الكلام المرتبط

(١) اخرجه : البخارى فى صحيحه حـ٦ ص٢٤١ ، ص٢٤٢ ومسلم فى صحيحه حـ١ ص٥٥١ رقم ٢٤٧/٨٠٠ كتاب صلاة المسافرين وقصرها

بعضه ببعض وأن يقف على الكلام المرتبط ولايتقيد بالاعشار والاجزاء فانها قد تكون فى وسط الكلام المرتبط كالجزء الذى فى قوله تعالى : ﴿ وما أبرىء نفسى ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه ﴾ وقوله : ﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ وفى قوله : ﴿ وماأنزلنا على قومه من بعده من جند ﴾ وفى قوله تعالى : ﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ وفى قوله تعالى : (وبدا لهم سيئات ﴾ وفى قوله : ﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ﴾ وكذلك الأحزاب كقوله تعالى : ﴿ واذكروا الله فى أيام معدودات) وقوله تعالى : ﴿ قل هل أنبئكم بخير من ذلكم ﴾ فكل هذا وشبيهه ينبغى ان يبتدأ به ولايوقف عليه فإنه متعلق بماقبله ولايقترن بكثرة الغافلين له من القراء الذين لايراعون هذه الآداب ولايفكرون فى هذه المعانى ، وامتثل ماروى الحاكم ابو عبدالله باسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض رضى الله عنه . قال : لاتستوحش طرق الهدى لقلة أهلها . ولاتقترن بكثرة الهالكين ولايضرك قلة السالكين ، ولهذا المعنى قالت العلماء : قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة ، فانه قد يخفى الارتباط على بعض الناس فى بعض الأحوال .

(فصل : فى أحوال تكره فيها القراءة)

اعلم أن قراءة القرآن على الإطلاق مطلوبة إلا فى أحوال مخصوصة ، جاء الشرع بالنهى عن القراءة فيها ، وأنا أذكر الآن ماحضرنى منها مختصره بحذف الادلة فانها مشهورة ، منكرة القراءة فى حالة الركوع والسجود والتشهد وغيرها من أحوال الصلاة سوى القيام ، وتكره القراءة بما زاد على الفاتحة للمأموم فى الصلاة الجهرية إذا سمع قراءة الإمام وتكره على الخلاء وفى مسألة النعاس ، وكذا إذا استعجم عليه القرآن ، وكذا فى حالة الخطبة لمن يسمعها ، ولاتكره لمن لم يسمعها بل تستحب ، هذا هو المختار الصحيح ، وجاء عن طاووس كراهيتها ، وعن ابراهيم عدم الكراهة ، ويجوز أن يجمع بين كلاميهما بما قلنا كما ذكره أصحابنا ، ولاتكره القراءة فى الطواف ، هذا مذهبنا وبه قال اكثر العلماء ، وحكاه ابن المنذر عن عطاء ومجاهد وابن المبارك وأبى ثور وأصحاب الرأى ، وحكى عن الحسن البصرى وعروة بن الزبير ومالك كراهتها فى الطواف والصحيح الأول ، وقد تقدم بيان الاختلاف فى القراءة فى الحمام ، وفى الطريق ، وفيمن فيه نجس .

(فصـــل)

من البدع المنكرة فى القراءة مايفعله جهلة المصلين بالناس فى التراويح من قراءة سورة الأنعام فى الركعة الأخيرة من الليلة السابعة معتقدون أنها مستحبة ، فيجمعون أمورا منكرة منها اعتقادها مستحبة ومنها ايهام العوام ذلك ومنها تطويل الركعة الثانية على الأولى ، وإنما السنة تطويل الأولى ومنها التطويل على المأمومين ، ومنها هندمة القراءة ، ومن البدع المشابهة لهذا قراءة بعض جهلتهم فى الصبح الجمعة بسجدة غير سجدة ألم تنزيل ، قاصدا ذلك ، وأما السنة قراءة (ألم تنزيل) فى الركعة الأولى (وهل أتى) فى الثانية .

(فصل : فى مسائل غريبة تدعو الحاجة اليها)

منها اذا كان يقرأ فعرض له ريح فينبغي أن يمسك عن القراءة ، حين يتكامل خروجها ، ثم يعود الى القراءة ، كما رواه ابن أبي داود وغيره عن عطاء ، وهو أدب حسن ، ومنها أنه إذا تثاءب أمسك عن القراءة حتى ينقضى التثاؤب ثم يقرأ ، قال مجاهد وهو حسن ، ويدل عليه ماثبت عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا تثاءب أحدكم فليمسك يده على فيه فإن الشيطان يدخل » رواه مسلم[١]

ومنها أنه إذا قرأ قول الله عز وجل : ﴿ **وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله** ﴾[٢] ﴿ **وقالت اليهود يد الله مغلولة** ﴾[٣] ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولدا** ﴾[٤] ونحو ذلك من الآيات ينبغى أن يخفض بها صوته ، كذا كان ابراهيم النخعى رضى الله عنه يفعل ، ومنها مارواه ابن أبي داود باسناد ضعيف عن الشعبى أنه قيل له : إذا قرأ الإنسان ﴿ **إن الله وملائكته يصلون على النبى** ﴾[٥] يصلى على النبى ﷺ قال نعم ، ومنها أنه يستحب له أن يقول مارواه أبوهريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال : « من قرأ والتين والزيتون فقال : ﴿ **أليس الله بأحكم الحاكمين** ﴾ فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » رواه أبوداود[٦] والترمذى باسناد ضعيف عن رجل عن أعرابى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال الترمذى : هذا الحديث إنما يروى بهذا الاسناد عن الاعرابى « من قرأ آخر ، لاأقسم بيوم القيامة ، (أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) فليقل ، بلى ، ومن قرأ فبأى آلاء ربكما تكذبان ، أو فبأى حديث بعده يؤمنون ، فليقل آمنت بالله » وعن ابن عباس رضى الله عنهما وابن الزبير وأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهم أنهم كانوا إذا قرأ أحدهم ، سبح اسم ربك الأعلى ، قال سبحان ربى الأعلى ، وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كان يقول فيها سبحان ربى الأعلى ثلاث مرات وعن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أنه صلى فقرأ : آخر سورة بنى اسرائيل ، ثم قال : الحمدلله الذى لم يتخذ ولدا ، وقد نص أصحابنا على أنه يستحب أن يقال فى الصلاة ماقدمناه ، وفى حديث أبى هريرة فى السور الثلاث ، وكذلك يستحب أن يقال باقى ماذكرناه وماكان فى معناه والله أعلم .

---

(١) اخرجه : مسلم فى صحيحه كتاب الزهد والرقائق باب تشمست العاطس وكراهة التثائب حـ٤ ص٢٢٩٣ رقم ٥٧/٢٩٩٥ وانظر حديث ٥٨ ، ٥٩

(٢) التوبة آية : ٣٠

(٣) المائدة آية : ٦٤

(٤) مريم آية : ٨٨

(٥) الأحزاب آية : ٥٦

(٦) أخرجه الترمذى فى سننه فى تفسير سورة التين والزيتون حـ٥ ص١١٣ ، ص١١٤ رقم ٣٤٠٥

(فصل)

وإذا ورد على القارىء من فيه فضيلة من علم أو شرف أو سن مع صبيانة ، أوله حرمة بولاية أو ولادة او غيرها فلا بأس بالقيام له على سبيل الاحترام والاكرام لا للرياء والإعظام بل ذلك مستحب وقد ثبت القيام للاكرام من فعل النبى ﷺ وفعل أصحابه رضى الله عنهم بحضرته وبأمره ، ومن فعل التابعين ومن بعدهم من العلماء الصالحين ، وقد جمعت جزءا فى القيام وذكرت فيه الأحاديث والاثار الواردة باستحبابه وبالنهى عنه وبينت ضعف الضعيف منها وصحة الصحيح والجواب مما يتوهم منه النهى وليس فيه نهى ، وأوضحت ذلك كله بحمد الله تعالى ، فمن تشكك فى شىء من أحاديثه فليطالعه يجد مايزول من شكه إن شاء الله تعالى .

(فصل)

إذا كان يقرأ ماشيا فمر على قوم ، يستحب أن يقطع القراءة ويسلم عليهم ، ثم يرجع إلى القراءة ولو أعاد التعوذ كان حسنا ولو كان يقرأ جالسا فمر عليه غيره ، فقد قال الامام أبوالحسن الواحدى : الأولى ترك السلام على القارىء لاشتغاله بالتلاوة قال : فإن سلم عليه إنسان كفاه الرد بالاشارة ، قال : فإن أراد الرد باللفظ رده ، ثم استأنف الاستعاذة وعاود التلاوة ، وهذا الذى قاله ضعيف ، والظاهر وجوب الرد باللفظ . . وأما إذا عطس فى حال القراءة فإنه يستحب أن يقول : الحمدلله ، وكذا لو كان فى الصلاة ، ولو عطس غيره وهو يقرأ فى غير الصلاة ، وقال الحمدلله يستحب للقارىء أن يشمته فيقول : يرحمك الله ، ولو سمع المؤذن قطع القراءة ، وأجابه بمتابعته فى ألفاظ الأذان والإقامة ، ثم يعود إلى قراءته . وهذا متفق عليه عند أصحابنا ، وأما إذا طلبت منه حاجة فى حال القراءة وأسكنه جواب السائل بالإشارة المفهمة ، وعلم أنه لاينكسر قلبه ، ولايحصل عليه شىء من الأذى للأنس الذى بينهما ونحوه ، فالأولى أن يجيبه بالاشارة ولايقطع القراءة ، فإن قطعها جاز والله أعلم .

(فصل)

(فى أحكام نفيسة تتعلق بالقراءة فى الصلاة أبالغ فى اختصارها فإنها مشهورة فى كتب الفقه)

منها أنه يجب القراءة فى الصلاة المفروضة باجماع العلماء ، قال مالك والشافعى وأحمد وجماهير العلماء : تتعين قراءة الفاتحة فى كل ركعة .وقال أبو حنيفة وجماعة : لا تتعين الفاتحة أبدا قال ولا تجب قراءة الفاتحة فى الركعتين الأخيرتين والصواب الأول ، فقد تظاهرت عليها الأدلة من السنة ، ويكف من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام من الحديث الصحيح « ولا تجزىء صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن »[1] .

---

(١) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى بلفظ « لاتجزى صلاة إلا بفاتحة الكتاب » حـ٢ ص٣٨٠ وفى مجمع الزوائد للبهتيمى عن عائشة رضى الله عنها ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « كل صلاة لايقرأ فيها بأم الكتاب فهى خراج ، فهى خراج ، فهى خراج » رواه الطبرانى فى الصغير ومنه لابن الهيعه ، وفيه كلام ١/١١

وأجمعوا على استحباب قراءة السورة بعد الفاتحة فى ركعتى الصبح ، والأوليتين من باقى الصلوات وهل تطول الأولى على الثانية ؟ منها وجهان : أصحهما عند جمهور أصحابنا أنها لاتطول ، والثانى وهو الصحيح عند المحققين أنها تطول ، وهو المختار للحديث الصحيح « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطول فى الأولى مالا يطول فى الثانية »[1] وفائدته أن يدرك المتأخر الركعة الأولى ، والله أعلم

قال الشافعى رحمه الله : وإذا أدرك المسبوق مع الإمام الركعتين الأخيرتين من الظهر وغيرها ثم قام إلى الأتيان بما بقى عليه استحب أن يقرأ السورة . قال الجماهير من أصحابنا : هذا على القولين . وقال بعضهم : هذا على قوله يقرأ السورة فى الأخيرتين ، أما على الآخر فلا ، والصواب الأول لئلا تخلو صلاته من سورة والله أعلم . هذا حكم الإمام والمنفرد ، أما المأموم فإن كانت صلاته سرية وجبت عليه الفاتحة واستحب له السورة ، وإن كانت جهرية فإن كان يسمع قراءة الإمام كره له قراءة السورة ، فى وجوب الفاتحة قولان : أصحهما تجب ، والثانى لاتجب . وإن كان لايسمع القراءة فالصحيح وجوب الفاتحة واستحباب السورة ، وقيل تجب ، ولاتجب ولاتستحب السورة ، والله أعلم .

وقراءة الفاتحة فى صلاة النافلة فلابد منها .

والعاجز عن الفاتحة فى هذا كله يأتى ببدلها فيقرأ بقدرها من غيرها من القرآن ، فإن لم يحسن أتى بقدرها من الاذكار كالتسبيح والتهليل ونحوهما ، فان لم يحسن شيئا وقف بقدر القراءة والله اعلم .

(فصـــل)

لا بأس بالجمع بين سورتين فى ركعة واحدة ، فقد ثبت فى الصحيحين من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال : لقد عرفت النظائر التى كان رسول الله ﷺ يقرب بينهن فذكر عشرين سورة من المفصل كل سورتين فى ركعة ، وقد قدمنا عن جماعة من السلف قراءة الختمة فى ركعة واحدة .

(فصـــل)

أجمع المسلمون على استحباب الجهر بالقراءة فى الصبح والجمعة والعيدين ، والأوليتين من المغرب والعشاء ، وفى صلاة التراويح والوتر عقبها ، وهذا مستحب للإمام والمنفرد بما ينفرد به منها ، وأما المأموم فلايجهر بالاجماع ، ويسن الجهر فى صلاة كسوف القمر ، ولايجهر فى كسوف الشمس ، ويجهر فى الاستسقاء ، ولايجهر فى الجنازة إذا صليت بالنهار ، وكذا فى الليل على المذهب الصحيح المختار ، ولايجهر فى نوافل النهار غير ماذكرناه من العيد والاستسقاء ، واختلف أصحابنا فى نوافل الليل ، فالأظهر أنه

(١) اخرجه البيهقى فى سننه بلفظ « كان يطول فى الركعة الأولى ، ويقصر فى الثانية » حـ٢ ص٩٥ .
وفى البخارى بمعناه فى صلاة الظهر ١٩٨/١ وفى مسلم فى الصلاة رقم ١٥٤

لايجهر ، والثانى أنه يجهر ، والثالث وهو الأصح وبه قطع القاضى حسين والبغوى يقرأ بين الجهر والإسرار ، ولو فاته صلاة بالليل فقضاها بالنهار ، أو بالنهار فقضاها بالليل ، فهل يعتبر فى الجهر والإسرار وقت الفوات أم وقت القضاء ؟ فيه وجهان لأصحابنا : أظهرها الاعتبار بوقت القضاء ولو جهر فى موضع الاسرار أو أسر فى موضع الجهر ، فصلاته صحيحة ، ولكنه ارتكب المكروه ولايسجد للسهو .

واعلم أن الإسرار فى القراءة والتكبيرات وغيرها من الأذكار ، هو أن يقوله بحيث يسمع نفسه ، ولابد من نطقه بحيث يسمع نفسه إذا كان صحيح السمع ولاعارض له ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح قراءته ، ولاغيرها من الأذكار بلا خلاف .

(فصـــل)

قال أصحابنا : يستحب للامام فى الصلاة الجهرية أن يسكت أربع سكتات فى حال القيام ، أحداها ان يسكت بعد تكبيرة الإحرام ليقرأ دعاء التوجه ، وليحرم المأمومون ، والثانية سكتة لطيفة جدا بين آخر الفاتحة وبين آمين ، لئلا يتوهم ان أمين من الفاتحة ، والثالثة بعد آمين سكتة طويلة بحيث يقرأ المأمومون الفاتحة ، والرابعة بعد الفراغ من السورة يفصل بها بين القراءة وتكبير الهوى إلى الركوع .

(فصـــل)

يستحب لكل قارىء كان فى الصلاة أو فى غيرها إذا فرغ من الفاتحة أن يقول آمين ، والأحاديث بذلك مشهورة ، وقد قدمنا فى الفصل قبله أنه يستحب أن يفصل بين آخر الفاتحة وآمين بسكتة لطيفة ، ومعناها اللهم استجب .

وفى آمين لغات ، قال العلماء : أنصحها آمين بالمد وتخفيف الميم ، والثانية بالقصر ، وهاتان مشهورتان ، والثالثة آمين بالامالة مع المد حكاها الواحدى عن حمزة والكسائى ، والرابعة بتشديد الميم مع المد ، حكاها عن الحسن والحسين بن الفضيل قال : ويحقق ذلك ماروى عن جعفر الصادق رضى الله عنه ، قال : معناه قاصدين نحوك ، وأنت أكرم من أن تخيب قاصدا ، هذا كلام الواحدى ، وهذه الرابعة غريبة جدا ، فقد عدها أكثر أهل اللغة من لحن العوام ، وقال جماعة من أصحابنا : من قالها فى الصلاة بطلت صلاته ، قال أهل العربية : حقها فى العربية الوقف ، لأنها بمنزلة الأصوات فاذا وصلها فتح النون لالتقاء الساكنين كما فتحت فى اين وكيف فلم تكسر لثقل الكسرة بعد الياء فهذا مختصر مما يتعلق بلفظ آمين .

قال العلماء : ويستحب التأمين فى الصلاة للإمام والمأموم والمنفرد ، ويجهر الإمام والمنفرد بلفظ آمين فى الصلاة الجهرية . . واختلفوا فى جهر المأموم والصحيح أنه يجهر ، والثانى : لايجهر والثالث يجهر إن كان جمعا كثيرا وإلا فلا ، ويكون تأمين المأموم مع تأمين الإمام ، لاقبله ولابعده ، لقول النبى ﷺ فى الصحيح

« إذا قال الإمام ولاالضالين فقولوا : آمين ، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر الله له ماتقدم من ذنبه »[١] وأما قوله ﷺ في الصحيح « إذا أمن الامام فأمنوا »[٢] فمعناه إذا أراد التأمين قال أصحابنا وليس فى الصلاة موضع يستحب أن يقترن قول المأموم بقول الإمام إلا فى قوله آمين ، وأما فى الأقوال الباقية فيتأخر قول المأموم .

(فصل فى سجود التلاوة)

وهو مما يتأكد الاعتناء به ، فقد أجمع العلماء على الأمر بسجود التلاوة ، واختلفوا فى أنه أمر استحباب أم ايجاب فقال الجماهير ليس بواجب بل مستحب وهذا قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن عباس وعمران بن حصين ومالك والأوزاعى والشافعى وأحمد واسحق وأبى ثور وداود وغيرهم ، وقال أبوحنيفة رحمه الله هو واجب واحتج بقوله تعالى : ﴿ فمالهم لايؤمنون واذا قرىء عليهم القرآن لايسجدون ﴾[٣] واحتج الجمهور بما صح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه « أنه قرأ على المنبر يوم الجمعة سورة النحل حتى اذا جاء السجدة نزل فسجد وسجد الناس ، حتى إذا كانت الجمعة القابلة قرأ بها حتى جاء السجدة قال : يأأيها الناس انما أمرنا بالسجود فمن سجد فقد أصاب ، ومن لم يسجد فلاإثم عليه . ولم يسجد عمر » رواه البخارى[٤] وهذا بالفعل والقول عن عمر رضى الله عنه فى هذا المجمع دليل ظاهر ، وأما الجواب عن الآية التى احتج بها أبوحنيفة رضى الله عنه فظاهر ، لأن المراد ذمهم على ترك السجود تكذيبا كما قال تعالى : ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ وثبت فى الصحيحين أنه قرأ على النبى ﷺ والنجم فلم يسجد » وثبت فى الصحيحين « أنه صلى الله عليه وسلم سجد فى النجم » فدل على أنه ليس بواجب[٥] .

(فصل : فى بيان عدد السجدات ومحلها)

أما عددها المختار الذى قاله الشافعى رحمه الله والجماهير أنها اربع عشر سجدة ، فى الأعراف ، والرعد ، والنحل ، وسبحان ، ومريم ، وفى الحج سجدتان ، وفى الفرقان والنمل وألم تنزيل ، وحم

---

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه ١/١٨٨ وأبوداود رقم ٩٣٥ والنسائى ٢/١٤٤ وأحمد ٢/٢٧٠ والدرامى ١/٢٨٤ وغيرهم عن ابى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه ١/١٨٧ ومسلم فى صحيحه (كتاب الصلاة) رقم ٧٢ وأبوداود فى سننه رقم ٩٣٦ والترمذى فى جامعه الصحيح برقم ٢٥٠ والنسائى فى سننه ٢/١٤٤ وابن ماجه فى سننه برقم ٨٥٢

(٣) الانشقاق الآيتان ٢٠ ، ٢١

(٤) اخرجه البخارى فى صحيحه فى (كتاب الجمعة) باب ما جاء فى سجود القرآن وسنتها : باب من رأى ان الله عزوجل لم يوجب السجود ٢/٥٢

(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه (ماجاء فى سجود القرآن وسنتها) باب من قرأ السجدة ولم يسجد ٢/٥١

وأما سجوده صلى الله عليه وسلم - فى النجم فقد رواه البخارى فى نفس المصدر عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما ٢/٥٠ ، ٥١

السجدة ، والنجم (واذا السماء انشقت) ، واقرأ باسم ربك ، وأما سجدة ص فمستحبة ، فليست من عزائم السجود : أى متأكد أنه ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : هى ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت النبى ﷺ سجد فيها » هذا مذهب الشافعى ومن قال مثله ، وقال أبوحنيفة . هى أربع عشرة أيضا ، لكن سقط الثانية من الحج واثبت سجدة ص وجعلها من العزائم ،

وعن أحمد روايتان : إحداهما كالشافعى . . والثانية خمس عشرة زاد ص ، وهو قول أبى العباس ابن شريح وابى اسحق المروزى من أصحاب الشافعى ، وعن مالك روايتان : أحداهما كالشافعى وأشهرها احدى عشرة ،- أسقط النجم ، وإذا السماء انشقت ، واقرأ ، وهو قول قديم للشافعى ، والصحيح ماقدمناه .

وأما محلها فسجدة الأعراف فى آخرها ، والرعد عقيب قوله عزوجل ﴿ بالغدو والآصال ﴾ والنحل ﴿ ويفعلون مايؤمرون ﴾ وفى سبحانه ﴿ ويزيدهم خشوعا ﴾ وفى مريم ﴿ خروا سجدوا وبكيا ﴾ والأولى من سجدتى الحج ﴿ إن الله يفعل مايشاء ﴾ ، والثانية ﴿ وافعلوا الخير لعلكم تفلحون ﴾ ، والفرقان ﴿ وزادهم نفورا ﴾ ، والنمل ﴿ رب العرش العظيم ﴾ ، وألم تنزيل ﴿ وهم لايستكبرون ﴾ وحم ﴿ لايسأمون ﴾ ، والنجم فى آخرها ، وإذا السماء انشقت ﴿ لايسجدون ﴾ واقرأ فى آخرها . .

(فصـــل)

حكم سجود التلاوة حكم صلاة النافلة فى اشتراط الطهارة من الحدث ، ومن النجاسة ، وفى استقباله القبلة ، وستر العورة ، فتحرم على من ببدنه أو ثوبه نجاسة غير معفو عنها ، وعلى المحدث إلا إذا يتيمم فى موضع يجوز فيه التيمم ، وتحرم إلى غير القبلة إلا فى السفر حيث تجوز النافلة إلى غير القبلة ، وهذا كله متفق عليه .

(فصل : فيمن يسن له السجود)

أعلم أنه يسن للقارىء المطهر بالماء أو التراب حيث يجوز سواء كان فى الصلاة أو خارجا عنها ، ويسن للمستمع ويسن أيضا للسامع غير المستمع ، ولكن قال الشافعى : لا يؤكد فى حقه كما يؤكد فى حق المستمع ، وهذا هو الصحيح .

وقال إمام الحرمين من أصحابنا : لايسجد السامع والمشهور الأول وسواء كان القارىء فى الصلاة أو خارجا عنهايسن للسامع والمستمع السجود ، وسواء سجد القارىء أم لا هذا هو الصحيح المشهور عند أصحاب الشافعى لايسجد المستمع لقراءة من فى الصلاة ، وقال الصيدلانى من أصحاب الشافعى : لايسن السجود إلا أن يسجد القارىء والصواب الأول .

(فصـــل)

إن كان مصليا منفردا سجد لقراءة نفسه ، فلو ترك سجود التلاوة وركع ، ثم أراد أن يسجد للتلاوة لم يجز ، فإن فعل مع العلم بطلت صلاته ، وإن كان قد هوى لسجود التلاوة ثم بدأ له ورجع الى القيام جاز ، اما اذا اصغى المنفرد بالصلاة لقراءة قارىء فى انصلاة أو غيرها فلايجوز له أن يسجد ، ولو سجد مع العلم بطلت صلاته . أما المصلى فى جماعة ، فإن كان إماما فهو كالمنفرد ، وإذا سجد الإمام لتلاوة نفسه وجب على المأموم أن يسجد معه فإن لم يفعل بطلت صلاته ، فإن لم يسجد الإمام لم يجز للمأموم السجود فإن سجد بطلت صلاته ، ولكن يستحب أن يسجد إذا فرغ من الصلاة ولايتأكد ولو سجد الإمام ولم يعلم المأموم حتى رفع الإمام رأسه من السجود ، فهو معذور فى تخلفه ، ولايجوز أن يسجد ، ولو علم والإمام بعد فى السجود وجب السجود ، فلو هوى إلى السجود فرفع الإمام رأسه وهو فى الهوى ، يرفع معه ولم يجز السجود وكذا الضعيف الذى هوى مع الإمام إذا رفع الإمام قبل بلوغ الضعيف إلى السجود الامام وبطء المأموم يرجع معه ولايسجد ، وأما إن كان المصلى مأموما فلايجوز ان يسجد لقراءة نفسه ولا لقراءة غير إمامه فان سجد بطلت صلاته ، وتكره له قراءة غير إمامه .

(فصل : فى وقت السجود للتلاوة)

قال العلماء : ينبغى أن يقع عقيب آية السجود التى قرأها أو سمعها ، فان أخر ولم يطل الفصل سجد ، وإن طال فقد فات السجود ، فلايقضى على المذهب الصحيح المشهور ، كما لاتقضى صلاة الكسوف ، أما إذا كان القارىء أو المستمع محدثا عند تلاوة السجدة ، فإن تطهر عن قرب سجد وإن تأخر طهارته حتى طال الفصل ، فالصحيح المختار الذى قطع به الأكثرون أنه لايسجد ، وقيل يسجد ، وهو اختيار البقوى من أصحابنا ، كما يجيب المؤذن بعد الفراغ من الصلاة ، والاعتبار فى طول الفصل فى هذا بالعرف على المختار ، والله أعلم .

(فصـــل)

إذا قرأ السجدات كلها أو سجدات منها فى مجلس واحد سجد لكل سجدة بلاخلاف ، فان كرر الآية الواحدة فى مجالس سجد لكل مرة بلاخلاف ، فان كررها فى المجلس الواحد نظر فإن لم يسجد للمرة الأولى كفاه سجدة واحدة عن الجميع ، وإن سجد للأولى ففيه ثلاثة أوجه . أصحها يسجد لكل مرة سجدة ، لتجدد السبب بعد توفيه حكم الأول والثانى : يكفيه سجدة الأولى عن الجميع ، وهو قول ابن سريح ، وهو مذهب أبى حنيفة رحمه الله .

قال صال صاحب العدة من أصحابنا ، وعليه الفتوى ، واختاره الشيخ نصر المقدسى الزاهد من

أصحابنا ، والثالث إن طال الفصل سجد ، والا فتكفيه الأولى ، أما إذا كرر السجدة الواحدة فى الصلاة ، فإن كان فى ركعة فهى كالمجلس الواحد ، فيكون فيه الأوجه الثلاثة ، وإن كان فى ركعتين فكالمجلسيين فيعيد السجود بلا خلاف .

(فصـــل)

اذا قرأ آية السجدة فى الصلاة قبل الفاتحة ، سجد بخلاف ما إذا قرأ فى الركوع أو السجود ، فإنه لايجوز أن يسجد ، لأن القيام محل القراءة ، ولو قرأ السجدة فهوى ليسجد ، فشك هل قرأ الفاتحة ، فإنه يسجد للتلاوة ، ثم يعود إلى القيام فيقرأ الفاتحة ، لأن سجود التلاوة لايؤخر .

(فصـــل)

لاتكره قراءة آية السجدة للإمام عندنا ، سواء كانت الصلاة سرية أو جهرية ، ويسجد إذا قرأها ، وقال مالك يكره ذلك مطلقا ، وقال أبوحنيفة يكره فى السرية دون الجهرية .

(فصـــل)

لايكره عندنا سجود التلاوة فى الأوقات التى نهى عن الصلاة فيها ، وبه قال الشعبى والحسن البصرى وسالم بن عبدالله والقاسم وعطاء وعكرمة وأبوحنيفة وأصحاب الرأى ومالك فى احدى الروايتين ، وكرهت ذلك طائفة من العلماء منهم عبدالله بن عمرو سعيد بن المسيب ومالك فى الرواية الأخرى واسحق ابن راهويه وأبو ثور

(فصـــل)

لايقوم الركوع مقام سجدة التلاوة فى حال الاختيار ، وهذا مذهبنا ومذهب جماهير العلماء من السلف والخلف ، وقال أبوحنيفة رحمه الله : يقوم مقامه ، ودليل الجمهور القياس على سجود الصلاة ، العاجز عن السجود فيومىء إليه كما يومىء لسجود الصلاة .

(فصل : فى صفة السجود)

أعلم أن الساجد للتلاوة له حالان : احدهما أن يكون خارج الصلاة ، والثانى أن يكون فيها ، أما الأول فإن أراد السجود نوى سجود التلاوة وكبر للأحرام ورفع يديه حذو منكبيه ، كما يفعل فى تكبيرة الاحرام للصلاة ، ثم يكبر تكبيرة أخرى للهوى إلى السجود ، ولايرفع فيها اليد ، وهذه التكبيرة الثانية

مستحبة ليست بشرط كتكبيرة الصلاة ، وأما التكبيرة الأولى تكبيرة الأحرام ففيها ثلاثة أوجه لأصحابنا : أظهرها وهو قول الأكثرية منهم أنها ركن ولايصح السجود إلا بها ، والثانى أنها مستحبة ، ولو تركت صح السجود ، وهذا قول الشيخ أبى محمد الجوينى ، والثالث ليست مستحبة ، والله أعلم . ثم إن كان الذى يريد السجود قائما كبر للاحرام فى حال قيامه ، ثم يكبر للسجود فى انحطاطه إلى السجود ، وإن كان جالسا فقد قال جماعات من أصحابنا : يستحب له أن يقوم ، فيكبر للاحرام قائما ، ثم يهوى للسجود ، كما إذا كان فى الابتداء قائما ، ودليل هذا القياس على الإحرام والسجود فى الصلاة ، وممن نص على هذا وجزم به من أئمة أصحابنا الشيخ أبومحمد الجوينى والقاضى حسين وصاحباه (النقمة والتهذيب) والإمام المحقق أبوالقاسم الرافعى وحكاه إمام الحرمين عن والده الشيخ أبى محمد ، ثم أنكره وقال لم أر لهذا أصلا ولاذكر ، وهذا الذى قاله إمام الحرمين ظاهر فلم يثبت فيه شىء من النبى ﷺ ولا عمن يقتدى به من السلف ولاتعرض له الجمهور من أصحابنا ، والله أعلم .

إذا سجد فينبغى أن يراعى آداب السجود فى الهيئة والتسبيح ، أما الهيئة فينبغى أن يضع يديه حذو منكبيه على الأرض ، ويضم أصابعه وينشرها إلى جهة القبلة ، ويخرجها من كمه ، ويباشر المصلى بها ، ويجافى مرفقيه عن جنبيه ، ويرفع بطنه عن فخذيه إن كان رجلا ، فإن كانت امرأة أوخنثى لم يجاف ، ويرفع الساجد أسافله على رأسه ، ويمكن جبهته وأنفه من المصلى ، ويطمئن فى سجوده ، وأما التسبيح فى السجود ، فقال أصحابنا يسبح بما يسبح به فى سجود الصلاة ، فيقول ثلاث مرات سبحان ربى الأعلى ، ثم يقول : اللّهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت ، سجد وجهى للذى خلقه وصوره ، وشق سمعه وبصره بحوله وقوته تبارك الله أحسن الخالقين ، ويقول : سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، فهذا كله مما يقوله المصلى فى سجود الصلاة ، قالوا : ويستحب أن يقول : اللهم اكتب لى بها عندك أجرا واجعلها لى عندك ذخرا وضع عنى وزرا واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود ﷺ ، وهذا الدعاء خصيص بهذا السجود ، فينبغى أن يحافظ عليه ، وذكر الاستاذ اسماعيل الضرير فى كتابه (التفسير) أن اختيار الشافعى رضى الله عنه فى دعاء سجود التلاوة أن يقول (سبحان ربنا ، إن كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا النقل عن الشافعى غريب جدا ، وهو حسن ، فإن ظاهر القرآن ، يقتضى مدح قائله فى السجود ، فيستحب أن يجمع بين هذه الأذكار كلها ، ويدعو بما يريد من أمور الآخرة والدنيا ، وإن اقتصر على بعضها ، حصل اصل التسبيح ، ولو لم يسبح بشىء أصلا وحصل السجود كسجود الصلاة ، ثم إذا فرغ من التسبيح والدعاء رفع رأسه مكبرا وهل يفتقر إلى السلام ؟ فيه قولان منصوصان للشافعى مشهوران : أصحهما عند جماهير أصحابه أنه يفتقر لافتقاره إلى الاحرام ، ويصير كصلاة الجنازة ، ويؤيد هذا مارواه ابن أبى داود باسناده الصحيح عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه أنه كان إذا قرأ السورة سجد ثم سلم ، والثانى لايفتقر كسجود التلاوة فى الصلاة ولأنه لم ينقل عن النبى ﷺ ذلك ، فعلى الأول هل يفتقر إلى التشهد ؟ فيه وجهان : أصحهما لايفتقر كما لايفتقر إلى القيام وبعض أصحابنا يجمع بين المسألتين ويقول فى التشهد والسلام ثلاثة أوجه ، أصحها أنه لابد من السلام دون التشهد ، والثانى لايحتاج إلى واحد منهما ، والثالث

لابد منها ، وممن قال من السلف يسلم محمد بن سيرين وأبوعبدالرحمن السلمى وابوالأخوص وأبوقلابة واسحاق ابن راهوية ، وممن قال لايسلم الحسن البصرى وسعيد بن جبير وابراهيم النخعى ويحيى بن وتاب وأحمد ، وهذا كله فى الحال الأول وهو السجود خارج الصلاة ، والحال الثانى أن يسجد للتلاوة فى الصلاة ، فلايكبر للاحرام ، ويستحب أن يكبر للسجود ، ولايرفع يديه ، ويكبر للرفع من السجود ، هذا هو الصحيح المشهور الذى قاله الجمهور .

وأما الآداب فى هيئة السجود والتسبيح فعلى ماتقدم فى السجود خارج الصلاة ، إلا أنه إذا كان الساجد إماما ، فينبغى أن لايطول التسبيح ، إلا أن يعلم من حال المأمومين أنهم يؤثرون التطويل ، ثم إذا رفع من السجود قام ولايجلس للاستراحة بلا خلاف ، وهذه مسألة غريبة قل من نص عليها ، ومن نص عليها القاضى حسين واليغوى والرافعى .

هذا بخلاف سجود الصلاة ، فإن القول الصحيح المنصوص للشافعى المختار وغيره ، استحباب جلسته للاستراحة عقب السجدة الثانية من الركعة الأولى فى كل الصلوات ، ومن الثالثة فى الرباعيات ، ثم إذا رفع من سجدة التلاوة ، فلابد من الانتصاب قائما ، والمستحب إذا انتصب أن يقرأ شيئا ، ثم يركع ، فان انتصب ثم ركع من غير قراءة جاز .

(فصل : فى الأوقات المختارة للقراءة)

اعلم أن أفضل القراءة ماكان فى الصلاة ، ومذهب الشافعى وغيره ، أن تطويل القيام فى الصلاة أفضل من تطويل السجود وغيره ، وأما القراءة فى غير الصلاة ، فأفضلها قراءة الليل ، والنصف الأخير من الليل أفضلها من النصف الأول ، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة ، وأما القراءة فى النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولاكراهية فى القراءة فى وقت من الأوقات لمعنى فيه ، وأما ماروناه ابن ابى داود عن معاذ ابن رفاعه عن مشايخه أنهم كرهوا القراءة بعد العصر وقالوا هى دراسة اليهود ، فغير مقبول ولا أصل له ، ويختار من الأيام الجمعة والاثنين والخميس ويوم عرفة ، ومن الأعشار العشر الأخير من رمضان ، والعشر الأول من ذى الحجة . ومن الشهور رمضان .

(فصـــل)

اذا ارتج على القارىء ولم يدر مابعد الموضع الذى انتهى اليه ، فسأل عنه غيره ، فينبغى أن يتأدب بما جاء عن عبدالله بن مسعود وابراهيم النخعى وبشير بن ابى سعود رضى الله عنهم . قالوا : اذا سأل أحدكم أخاه عن آية فليقرأ ماقبلها ثم يسكت ولايقول كيف كذا وكذا فانه يلبس عليه .

(فصـــل)

واذا أراد أن يستدل بآية فله أن يقول : قال الله تعالى كذا ، وله أن يقول : الله تعالى يقول كذا ، ولاكراهة فى شىء من هذا ، ، هذا هو الصحيح المختار الذى عليه عمل السلف والخلف .

(فصل فى أداب الختم ومايتعلق به)

فيه مسائل : الأولى فى وقفه ، قد تقدم أن الختم للقارىء وحده يستحب أن يكون فى ركعتى سنة الفجر وركعتى سنة المغرب ، وفى ركعتى الفجر أفضل ، وأنه يستحب أن يختم ختمه فى أول النهار فى دور ، ويختم ختمه أخرى فى آخر النهارفى دور آخر ، وأما من يختم فى غير الصلاة والجماعة الذين يختمون مجتمعين ، فيستحب أن تكون ختمتهم أول النهار أو فى أول الليل كما تقدم ، وأول النهار أفضل عند بعض العلماء .

المسألة الثانية : يستحب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يوما نهى الشرع عن صيامه ، وقد روى ابن ابى داود باسناده الصحيح : أن طلحة بن مطرف وحبيب بن أبى ثابت والمسيب بن رافع التابعين الكوفيين رضى الله عنهم أجمعين كانوا يصبحون فى اليوم الذى يختمون فيه القرآن صياما .

المسألة الثالثة : يستحب حضور مجلس ختم القرآن استحبابا متأكدا ، فقد ثبت فى الصحيحين « أن رسول الله ﷺ أمر الحيض بالخروج يوم العيد ليشهدن الخير ودعوة المسلمين »[١] وروي الدرامى وابن أبى داود باسنادهما عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان يجعل رجلا يراقب رجلا يقرأ القرآن . فإذا أراد أن يختم اعلم ابن عباس فيشهد ذلك . وروى ابن ابى داود باسنادين صحيحين عن قتادة التابعى الجليل صاحب أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال كان أنس بن مالك رضى الله عنه اذا ختم القرآن جمع أهله ودعا . وروى باسانيده الصحيحة عن الحكم بن عيينه التباعى الجليل . قال : أرسل إلى مجاهد وعتبة بن لبابة فقالا إنا أرسلنا إليك لأنا أردنا أن نختم القرآن ، والدعاء يستجاب عند ختم القرآن ، وفى بعض الروايات الصحيحة وأنه كان يقال : إن الرحمة تنزل عند خاتمة القرآن .

وروى باسناده الصحيح عن مجاهد قال : كانوا يجتمعون عند ختم القرآن يقولون تنزل الرحمة .

المسألة الرابعة : الدعاء مستحب عقب الختم استحبابا متأكدا ، لما ذكرناه فى المسألة التى قبلها ، وروى الدارمى باسناده عن حميد الأعرج من قرأ القرآن ثم دعا أمن على دعائه أربعة آلاف ملك ، وينبغى أن يلح فى الدعاء ، وأن يدعو بالأمور المهمة ، وأن يكثر فى ذلك فى صلاح المسلمين وصلاح سلطانهم وسائر ولاة أمورهم ، وقد روى الحاكم أبوعبدالله النيسابورى باسناده أن عبدالله بن المبارك رضى الله عنه

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه فى (صلاة العيدين والتجمل فيها) ٢/٢٨ عن ام عطية وأخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة العيدين) باب ذكر اباحة خروج النساء فى العيدين الى المصلى وشهود الخطبة .. الخ ٦٠٥/١ رقم ٨٩٠/١٠

كان إذا ختم القرآن ، كان أكثر دعائه للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، وقد قال نحو ذلك غيره فيختاره الداعى الدعوات الجامعة كقوله : اللهم اصلح قلوبنا ، وأزل عيوبنا وتولنا بالحسنى ، وزينا بالتقوى ، وأجمع لنا خير الآخرة والأولى ، وارزقنا طاعتك ماأبقيتنا ، اللهم يسرنا لليسرى ، وجنبنا العسرى ، وأعذنا من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، وأعذنا من عذاب النار وعذاب القبر ، وفتنة المحيا والممات ، وفتنة المسيح الدجال ، اللهم انا نسألك الهدى والتقوى والعفاف والغنى ، اللهم إنا نستودعك ديننا وأبداننا وخواتيم أعمالنا وأنفسنا وأهلينا وأحبابنا وسائر المسلمين ، وجميع ما أنعمت علينا وعليهم من أمور الآخرة والدنيا ، اللهم إنا نسألك العفو والعافية فى دار كرامتك بفضلك ورحمتك ، اللهم أصلح ولاة المسلمين ، ووفقهم للعدل فى رعاياهم ، والإحسان إليهم ، والشفقة عليهم ، والرفق بهم والاعتناء بمصالحهم ، وحببهم إلى الرعية ، وحبب الرعية اليهم ، ووفقهم لصراطك المستقيم ، والعمل بوظائف دينك القويم ، اللهم أصلح أحوال المسلمين وأرخص أسعارهم ، وأمنهم فى أوطانهم واقض ديونهم ، وعاف مرضاهم وانصر جيوشهم ، وسلم غيابهم ، وفك أسرهم ، وأشف صدورهم ، واذهب غيظ قلوبهم ، وألف بينهم واجعل فى قلوبهم الإيمان والحكمة الذى عاهدتم عليه ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، إله الحق ، واجعلنا منهم ، اللهم اجعلهم آمرين بالمعروف ، فاعلين له ، ناهين عن المنكر مجتنبين له ، محافظين على حدودك ، قائمين على طاعتك متناصفين متناصحين ، اللهم صفهم فى أقوالهم وأفعالهم ، وبارك لهم فى جميع أحوالهم.ويفتح دعاءه ويختمه بقوله : الحمدلله رب العالمين حمدا يوافى نعمه ، ويكافىء مزيده ، اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل اراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم فى العالمين انك حميد مجيد .

المسألة الخامسة : يستحب إذا فرغ من الختمة أن يشرع فى أخرى عقيب الختمة فقد استحبه السلف ، واحتجوا فيه بحديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « خير الأعمال الحل والرحلة ، قيل : وماهما ؟ قال : افتتاح القرآن وختمه »[1] .

---

(١) أخرجه النووى فى الاذكار برقم ٩٨

الباب السابع
فى آداب الناس كلهم مع القرآن

ثبت فى صحيح مسلم رضى الله عنه عن تميم الدارى رضى الله عنه قال : « إن النبى ﷺ قال : « الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولائمة المسلمين وعامتهم »(١) قال العلماء رحمهم الله : النصيحة لكتاب الله تعالى هى : الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لايشبهه شىء من كلام الخلق ولايقدر على مثله الخلق بأسرهم ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها ، والخشوع عندها ، وإقامة حروفه فى التلاوة ، والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاغين ، والتصديق بما فيه ، والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وامثاله ، والاعتناء بمواعظه ، والتفكير فى عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم بمتشابهه والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ، ونشر علومه والدعاء إليه وإلى ماذكرناه من نصيحته .

(فصــل)

أجمع المسلمون على وجوب تعظيم القرآن العزيز على الإطلاق وتنزيهه وصيانته وأجمعوا على أن من جحد منه حرفا مما أجمع عليه أو زاد حرفا لم يقرأ به أحد ، وهو عالم بذلك ، فهو كافر . قال الإمام الحافظ أبوالفضل القاضى عياض رحمه الله : اعلم أن من استخف بالقرآن ، أو بالمصحف ، أو بشىء منه ، أو سبهما ، أو جحد حرفا منه أو كذب بشىء مما صرح به فيه من حكم أو خبر ، أو أثبت مانفاه ، أو نفى ما أثبته ، وهو عالم بذلك ، أويشك فى شىء من ذلك فهو كافر بإجماع المسلمين ، وكذلك إذا جحد التوراة والإنجيل ، أوكتب الله المنزلة ، أوكفر بها ، أوسبها ، أو استخف بها ، فهو كافر .

قال : وقد أجمع المسلمون على أن القرآن المتلو فى الأقطار المكتوب فى الصحف ، الذى بأيدى المسلمين مما جمعه الدفتان من أول الحمدلله رب العالمين إلى آخر قل أعوذ برب الناس ، كلام الله ووحيه المنزل على نبيه محمد - ﷺ - وأن جميع مافيه حق ، وأن من نقص منه حرفا قاصدا لذلك ، أو بدله زاد فيه حرفا قاصدا لذلك ، أو بدله بحرف آخر مكانه ، أو زاد فيه حرفا مما لم يشتمل عليه المصحف ، الذى وقع فيه الإجماع وأجمع على أنه ليس بقرآن عامدا لكل هذا ، فهو كافر . قال أبو عثمان بن الحذاء ، جميع أهل التوحيد متفقون على أن الجحد بحرف من القرآن كفر ، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرء احد أئمة المقرئين المتصدرين بها مع ابن مجاهد لقراءاته واقرانه بشواذ من الحروف مما ليس فى المصحف ، وعقدوا عليه للرجوع عنه والتوبة سجلا اشهدوا فيه على نفسه فى مجلس الوزير أبى بن مقلة سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وأفتى محمد بن ابى زيد فيمن قال لصبى : لعن الله معلمك وما علمك ، قال : أردت سوى الأدب ولم أرد القرآن قال يؤدب القائل .

---

(١) اخرجه البخارى فى الايمان حـ١ ص٢٢ ومسلم فى صحيحه (كتاب الايمان) برقم ٦٥

قال : وأما من لعن المصحف فإنه يقتل هذا آخر كلام القاضي عياض رحمه الله .

(فصـــل)

ويحرم تفسيره بغير علم ، والكلام فى معانيه لمن ليس من أهلها ، والأحاديث فى ذلك كثيرة ، والاجماع منعقد عليه ، وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن والإجماع منعقد عليه ، فمن كان أهلا للتفسير ، جامعا للأدوات التى يعرف بها معناه وغلب على ظنه المراد ، فسره إن كان مما يدرك بالاجتهاد ، كالمعانى والاحكام الجلية والخفية ، والعموم والخصوص ، والإعراب ، وغير ذلك ، وإن كان مما لايدرك بالاجتهاد ، كالأمور التى طريقها النقل ، وتفسير الألفاظ اللغوية ، فلايجوز الكلام فيه ، إلا بنقل صحيح من جهة المعتمدين من أهله ، وأما من كان ليس من أهله لكونه غير جامع لأدواته ، فحرام عليه التفسير ، لكن له أن ينقل التفسير عن المعتمدين من أهله .

ثم المفسرون برأيهم من غير دليل صحيح أقسام ، منهم من يحتج بأنه على تصحيح مذهبه وتقوية خاطره مع أنه لايغلب على ظنه أن ذلك هو المراد بالآية ، وإنما يقصد الظهور على خصمه ، ومنهم من يقصد الدعاء إلى خير ويحتج بآية من غير أن تظهر له دلالة لما قاله ، ومنهم من يفسر الفاظه العربية ، من غير وقوف على معانيها عند أهلها ، وهى مما لايؤخذ إلا بالسماع من أهل العربية وأهل التفسير ، كبيان معنى اللفظ واعرابها ومافيها من الحذف والاختصار ، والإضمار والحقيقة والمجاز ، والعموم والخصوص ، والتقديم والتأخير ، والاجمال والبيان وغير ذلك مما هو خلاف الظاهر ، ولايكفى مع ذلك معرفة العربية وحدها ، بل لابد معها من معرفة ماقاله أهل التفسير فيها ، فقد يكونون مجتمعين على ترك الظاهر ، أو على إرادة الخصوص ، أو الاخبار وغير ذلك ، مما هو خلاف الظاهر ، وكما اذا كان اللفظ مشتركا فى معان ، فعلم فى موضع أن المراد أحد المعانى ، ثم فسر كل ماجاء به ، فهذا كله تفسير بالرأى ، وهو حرام ، والله اعلم . .

(فصـــل)

يحرم المراء فى القرآن والجدال فيه بغير حق ، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شىء ، يخالف مذهبه ، ويحتمل احتمالا ضعيفا موافقة مذهبه ، فيحملها على مذهبه ، ويناظر على ذلك مع ظهورها فى خلاف مايقول . وأما من لايظهر له ذلك فهو معذور ، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال « المراء فى القرآن كفر »[1] قال الخطابى المراد بالمراء الشك . وقيل : الجدال المشكك فيه ، وقيل وهو الجدال الذى يفعله أهل الأهواء فى آيات القدر ونحوها .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب السنة) باب النهى عن الجدال فى القرآن ٥/٩ رقم ٤٦٠٣ وأحمد فى مسنده ٢/٣٠٠ والبهيقى فى مجمع الزوائد ١/١٥٧

(فصـــل)

وينبغى لمن أراد السؤال عن تقديم آية على آية فى المصحف ، أو مناسبة هذه الآية فى هذا الموضع ، ونحو ذلك ، أن يقول : مالحكمة فى كذا .

(فصـــل)

يكره أن يقول نسيت آية كذا ، بل يقول أنسيتها أو اسقطتها ، فقد ثبت فى الصحيحين عن عبدالله ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقول أحدكم نسيت آية كذا وكذا ، بل هو شىء نسى » وفى رواية فى الصحيحين أيضا « بئسما لأحدكم أن يقول نسيت آية كيت وكيت ، بل هو نسى » وثبت فى الصحيحين أيضا عن عائشة رضى الله عنها » « أن النبى ﷺ سمع رجلا يقرأ فقال : « رحمه الله لقد ذكرنى آية كنت أسقطتها » وفى رواية فى الصحيح « كنت أنسيتها »[١] .

(فصـــل)

ويجوز أن يقال سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة النساء ، وسورة المائدة ، وسورة الأنعام ، وكذا الباقى ولاكراهية فى ذلك ، وكره بعض المتقدمين هذا وقال : يقال السورة التى يذكر فيها آل عمران ، والسورة التى يذكر فيها النساء ، وكذا البواقى ، والصواب الأول ، فقد ثبت فى الصحيحين عند رسول الله ﷺ قوله سورة البقرة وسورة الكهف وغيرهما مما لايحصى ، وكذلك من الصحابة رضى الله تعالى عنهم . قال ابن مسعود ، هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة وعنه فى الصحيحين « قرأنا على رسول الله ﷺ سورة النساء » والأحاديث وأقوال السلف فى هذا أكثر من أن تحصر » .

(فصـــل)

ولايكره أن يقال هذه ، قراءة أبى عمرو أو قراءة نافع أو حمزة أو الكسائى أو غيرهم ، هذا هو المختار الذى عليه السلف والخلف من غير إنكار .

(فصـــل)

لايمنع الكافر من سماع القرآن لقول الله تعالى ﴿ وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ﴾[٢] .

---

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه ٩١/٨ بنحوه ومسلم فى صحيحه فى (صلاة المسافرين وقصرها) حـ١ ص٥٤٣ رقم ٧٨٨/٢٢٥

(٢) سورة التوبة آية : ٦

ويمنع من مس المصحف ، وهل يجوز تعليمه القرآن ، قال أصحابنا : إن كان لا يرجى إسلامه لم يجز تعليمه وإن رجى إسلامه فوجهان : أصحهما يجوز رجاء إسلامه ، والثانى لا يجوز ، كما لا يجوز بيع المصحف منه وإن رجى اسلامه ، وأما إذا رأيناه يتعلم فهل يمنع فيه وجهان .

(فصل)

اختلف العلماء فى كتابة القرآن فى إناء ثم يغسل ويسقى المريض ، فقال الحسن ومجاهد وأبو قلابة والأوزاعى لا بأس به ، وكرهه النخعى . قال القاضى حسين والبغوى وغيرهما من أصحابنا ولو كتب القرآن على الحلوى وغيرها من الأطعمة فلا بأس بأكلها قال العاصى ولو كان خشبة كره إحراقها .

(فصل)

فذهبنا أنه يكره نقش الحيطان والثياب بالقرآن وبأسماء الله تعالى قال عطاء : لا بأس بكتب القرآن فى قبلة المسجد ، وأما كتابة الحروف من القرآن ، فقال مالك لا بأس به إذا كان فى قصبة أو جلد وخرز عليه وقال أصحابنا : إذا كتب فى الخرز قرآنا مع غيره فليس بحرام . ولكن الأولى تركه ، لكونه يحمل فى حال الحدث ، وإذا كتب يصان بما قاله الامام مالك رحمه الله ، وبهذا افتى الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله

(فصل : فى النفث مع القرآن للرقبة)

روى ابن أبى داود عن أبى جحيفة الصحابى رضى الله عنه واسمه دهب بن عبد الله وقيل غير ذلك وعن الحسن البصرى وإبراهيم النخعى أنهم كرهوا ذلك ، والمختار أن ذلك غير مكروه بل هو سنة مستحبة ، فقد ثبت عن عائشة رضى الله عنها « أن النبى ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه ، وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما وفى روايات فى الصحيحين زيادة على هذا ، ففى بعضها قالت عائشة رضى الله عنها « فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به » وفى بعضها « كان النبى ﷺ ينفث على نفسه فى المرض الذى مات فيه بالمعوذات قالت عائشة رضى الله عنها فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وامسح بيد نفسه لبركتها »(١) قال أهل اللغة : النفث عليه بهن لطيف بلا ريق ، والله أعلم .

---

(١) اخرجه البخارى فى صحيحه ١٧٠/٧ ، ١٧٤ وأحمد ١٦٦/٦ والنووى فى الأذكار برقم ١٢٢

الباب الثامن
فى الآيات والسور المستحبة فى أوقات وأحوال مخصوصة

اعلم أن هذا الباب واسع جدا ، لا يمكن حصره ، لكثرة ماجاء فيه ، ولكن نشير إلى أكثره ، أو كثير منه بعبارات وجيزة فإن أكثر الذى نذكره فيه معروف للخاصة والعامة ، ولهذا لا أذكر الأدلة فى أكثره ، فمن ذلك كثرة الأعتناء بتلاوة القرآن فى شهور رمضان ، وفى العشر الأخير آكد ، وليالى الوتر منه آكد، ومن ذلك العشر الأولى من ذى الحجة ، ويوم عرفة ، ويوم الجمعة ، وبعد الصبح ، وفى الليل ، وينبغى أن يحافظ على قراءة يس والواقعة وتبارك (الملك) .

(فصل)

السنة أن يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة بعد الفاتحة فى الركعة الأولى سورة الم تنزيل بكمالها ، وفى الثانية هل أتى على الانسان بكمالها ، ولا يفعل ما يفعله كثير من أئمة المساجد من الاقتصار على آيات من كل منهما ، ويدرج واحدة منهما مع تمطيط القراءة ، بل ينبغى أن يقرأهما بكمالهما ، ويدرج قراءته مع ترتيل ، والسنة أن يقرأ فى صلاة الجمعة فى الركعة الأولى سورة الجمعة بكمالها ، وإن شاء (سبح اسم ربك الأعلى) ، وفى الثانية (هل أتاك حديث الغاشية) ، فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ ، وليجتنب الاقتصار على البعض ، وليفعل ما قدمناه ، والسنة فى صلاة العيد فى الركعة الأولى سورة ق ، وفى الثانية سورة اقتربت الساعة بكمالها ، وإن شاء سبح ، وهل أتاك ، فكلاهما صحيح عن رسول الله ﷺ وليجتنب الاقتصار على البعض .

(فصل)

ويقرأ فى ركعتى سنة الفجر بعد الفاتحة ، قل يا أيها الكافرون وفى الثانية قل هو الله أحد ، وإن شاء قرأ فى الأولى ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ﴾ آلآية ، وفى الثانية : ﴿ قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ﴾ الآية فكلاهما صحيح من فعل رسول الله ﷺ ويقرأ فى سنة المغرب (قل يا أيها الكافرون) (وقل هو الله أحد) ويقرأ بهما فى ركعتى الطواف ، وركعتى الاستخارة ، ويقرأ من أوتر بثلاث ركعات فى الركعة الأولى (سبح اسم ربك الأعلى) وفى الثانية (قل ياأيها الكافرون) وفى الثالثة (قل هو الله أحد) والمعوذتين .

(فصل)

ويستحب أن يقرأ سورة الكهف يوم الجمعة لحديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه وغيره فيه . قال الإمام الشافعى فى الأم ويستحب أن يقرأها أيضا ليلة الجمعة ، ودليل هذا مارواه أبو محمد الدارمى بإسناده عند أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أضاء له النور فيما بينه

وبين البيت العتيق » وذكر الدارمى حديثا فى استحباب قراءة سورة هود يوم الجمعة ، وعن مكحول التابعى الجليل استحباب قراءة آل عمران يوم الجمعة .

(فصل)

ويستحب الاكثار من تلاوة آية الكرسى فى جميع المواطن ، وأن يقرأها كل ليلة إذا أوى إلى فراشه ، وأن يقرأ المعوذتين عقب كل صلاة ، فقد صح عن عقبة بن عامر رضى الله عنه قال « أمرنى رسول الله ﷺ أن أقرأ المعوذتين دبر كل صلاة » رواه أبو داود والترمذى والنسائى قال الترمذى : حديث صحيح[1]

يستحب أن يقرأ عند النوم آية الكرسى ، وقل هو الله أحد ، ، والغسق وآخر سورة البقرة ، فهذا مما يهتم له ، ويتأكد الاعتناء به ، فقد ثبت فيه أحاديث صحيحة عن أبى سعيد البدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « الآيتان من آخر سورة البقرة من قرأ بهما فى ليلة كفتاه » قال جماعة من أهل العلم كفتاه عن قيام الليل وقال آخرون : كفتاه المكروه فى ليلته وعن عائشة رضى الله عنها « أن النبى ﷺ كان كل ليلة يقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين[2]

وعن إبراهيم النخعى قال « كانوا يستحبون أن يقرءوا هذه السور كل ليلة ثلاث مرات قل هو الله أحد ، والمعوذتين » اسناد صحيح على شرط مسلم عن عائشة رضى الله عنها « كان النبى ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبنى إسرائيل » رواه الترمذى ، وقال حسن . ويستحب أن يقرأ إذا استيقظ من النوم كل ليلة آخر آل عمران من قوله تعالى : ﴿ إن فى خلق السموات ﴾ إلى آخرها ، فقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يقرأ خواتيم آل عمران إذا استيقظ »[3]

(فصل : فيما يقرأ عند المريض)

يستحب أن يقرأ عند المريض بالفاتحة لقوله ﷺ فى الحديث الصحيح فيها « وما أدراك أنها رقية » ويستحب أن يقرأ عنده قل هو الله أحد ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس مع النفث فى اليدين ، فقد ثبت فى الصحيحين من فعل رسول الله ﷺ وقد تقدم بيانه فى فصل النفث فى آخر الباب الذى قبل هذا ، وعن طلحة بن مطرف قال : كان المريض إذا قرىء عنده القرآن وجد لذلك خفة ، فدخلت على خثيمة وهو مريض فقلت إنى أراك اليوم صالحا ، فقال إنى قرىء عندى القرآن ، وروى الخطيب أبو بكر البغدادى رحمه الله بإسناده : أن الرمادى رضى الله عنه كان إذا اشتكى شيئاً قال هاتوا أصحاب الحديث فإذا حضروا قال : اقرءوا علىَّ الحديث ، فهذا الحديث فالقرآن أولى .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الصلاة) باب فى الاستغفار ١٨١/٢ رقم ١٥٢٣ والنسائى فى سننه (الافتتاح) باب الأمر بقراءة المعوذات والترمذى فى سننه فى (ثواب القرآن وفضائله) برقم ٢٩٠٥ وقال : حسن قريب

(٢) سبق تخرجه

(٣) أخرجه البخارى عن ابن عباس (فضائل القرآن) كتاب التفسير : تفسير سورة آل عمران ٥١/٦ بنحوه

(فصل : فيما يقرأ عند الميت)

قال العلماء من أصحابنا وغيرهم : يستحب أن تقرأ عنده يس لحديث معقل بن يسار رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « اقرأوا يس على موتاكم » رواه أبو داود والنسائى[(١)] فى عمل اليوم والليلة وابن ماجه بإسناد ضعيف ، وروى مجالد عن الشعبى قال : كانت الأنصار إذا حضروا عند الميت اقرءوا سورة البقرة ، ومجالد ضعيف ، والله أعلم .

الباب التاسع
فى كتابة القرآن وإكرام المصحف

اعلم أن القرآن العزيز كان مرتبا فى زمن النبى ﷺ على ما هو فى المصاحف اليوم ، ولكن لم يكن مجموعا فى مصاحف بل كان محفوظاً فى صدور الرجال ، فكان طوائف من الصحابة يحفظونه كله وطوائف يحفظونه أبعاضاً منه ، فلما كان زمن أبو بكر الصديق رضى الله عنه وقتل كثير من حملة قرآن خاف موتهم واختلاف من بعدهم فيه فاستشار الصحابة رضى الله عنهم فى جمعه فى مصحف فأشاروا بذلك فكتبه فى مصحف وجعله فى بيت حفصة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فلما كان زمن عثمان رضى الله عنه ، وانتشر الاسلام خاف عثمان وقوع الاختلاف المؤدى إلى ترك شىء من القرآن أو الزيادة فيه فنسخ من ذلك المجموع الذى عند حفصة الذى أجمعت الصحابة عليه مصاحف وبعث بها إلى البلدان وأمر بإتلاف ما خالفها ، وكان فعله هذا باتفاق منه ومن على بن أبى طالب وسائر الصحابة وغيرهم رضى الله عنهم : وإنما لم يجعله النبى ﷺ فى مصحف واحد لما كان يتوقع من زيادته ونسخ بعض المتلو ، ولم يزل ذلك التوقع إلى وفاته ﷺ فلما أمن أبو بكر وسائر الصحابة ذلك التوقع ، واقتضت المصلحة جمعه فعلوه رضى الله عنهم ، واختلفوا فى عدد المصاحف التى بعث بها عثمان فقال الإمام أبو عمر الدانى أكثر العلماء على أن عثمان كتب أربع نسخ فبعث إلى البصرة إحداهن ، وإلى الكوفة أخرى ، وإلى الشام أخرى ، وحبس عنده أخرى ، وقال أبو حاتم السجستانى . كتب عثمان سبعة مصاحف بعث واحدا إلى مكة ، وآخر إلى الشام ، وآخر إلى اليمن ، وآخر إلى البحرين ، وآخر إلى البصرة ، وآخر إلى الكوفة ، وحبس بالمدينة واحداً ، وهذا مختصر ما يتعلق بأول جمع المصحف وفيه أحاديث كثيرة فى الصحيح وفى المصحف ثلاث لغات ضم الميم وكسرها وفتحها ، فالضم والكسر مشهوران ، والفتح ذكرها أبو جعفر النحاس وغيره .

---

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (كتاب الجنائز) باب القراءة عند الميت ٤٨٩/٣ رقم ٣١٢١ . والنسائى فى عمل اليوم والليلة برقم ١٠٨٢ وابن ماجه فى سننه (كتاب الجنائز) برقم ١٤٤٨

(فصل)

اتفق العلماء على استحباب كتابة المصحف وتحسين كتابتها وتبينها وإيضاحها ، وتحقيق الخط دون مشقة ، وتعليقه قال العلماء ويستحب نقط المصحف وشكله فإنه صيانة من اللحن فيه وتصحيفه ، وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط فإنما كرهاه ، فى ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه ، وقد أمن ذلك اليوم فلا منع ، ولا يتمتع من ذلك لكونه محدثاً فإنه من المحدثات الحسنة ، فلم يمنع منه كنظائره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك والله اعلم .

(فصل)

لا تجوز كتابة القرآن بشىء بخس ، وتكره كتابته على الجدران عندنا ، وبقية مذهب عطاء الذى قدمناه ، وقد قدمنا أنه إذا كتب على الأطعمة ، نلا بأس بأكلها وأنه إذا كتب على خشبة كره احراقها .

(فصل)

أجمع المسلمون على وجوب صيانة المصحف واحترامه قال أصحابنا وغيرهم : ولو ألقاه مسلم فى القاذورات والعياذ بالله صار الملقى كافراً ، قالوا ويحرم توسده ، بل توسد آحاد كتب العلم حرام ، ويستحب أن يقوم للمصحف إذا قدم به عليه ، لأن القيام مستحب للفضلاء من العلماء والأخبار ، فالمصحف أولى ، وقد قررت دلائل استحباب القيام فى الجزء الذى جمعته فيه ، وروينا فى مسند الدارمى بإسناد صحيح عن ابن أبى مليكة « أن عكرمة بن أبى جهل رضى الله عنه كان يضع المصحف على وجهه ، ويقول : كتاب ربى كتاب ربى » .

(فصل)

تحرم المسافرة بالمصحف إلى أرض العدو إذا خيف وقوعه فى أيديهم للحديث المشهور فى الصحيحين « أن رسول الله نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو » ويحرم بيع المصحف إلى الذمى ، فإن باعه ففى صحة البيع قولان للشافعى : أصحهما لا يصح ، والثانى يصح ويؤمر فى الحال بإزالة ملكه عنه ، ويمنع المجنون والصبى الذى لا يميز من مس المصحف مخافة انتهاك حرمته ، وهذا المنع واجب على الولى وغيره ممن رآه يتعرض لحمله .

(فصل)

يحرم على المحدث مس المصحف وحمله ، سواء حمله بعلاقته أو بغيرها ، سواء مس نفس الكتابة أو الحواشى أو الجلد ويحرم مس الخريطة والغلاف والصندوق اذا كان فيهما المصحف هذا هو المذهب المختار ، وقيل لاتحرم هذه الثلاثة وهو ضعيف ولو كتب القرآن فى لوح فحكمه حكم المصحف سواء قل المكتوب أو كثر حتى لو كان بعض آية كتب للدراسة حرم مس اللوح .

(فصل)

إذا تصفح المحدث أو الجنب أو الحائض أوراق المصحف بعود أو شبهه ، ففى جوازه وجهان لأصحابنا : أظهرهما جوازه ، وبه قطع العراقيون من أصحابنا ، لأنه غير ماس ولا حامل ، والثانى تحريمه لأنه يعد حاملا للورقة والورقة كالجميع وأما إذا لف كمه على يده وقلب الورقة فحرام بلا خلاف وغلط بعض أصحابنا فحكى فيه وجهين ، والصواب القطع بالتحريم لأن القلب يقع باليد لا بالكم .

(فصل)

إذا مس المحدث أو الجنب أو الحائض أو حمل كتابا من كتب الفقه أو غيره من العلوم وفيه آيات من القرآن أو ثوباً مطرزاً بالقرآن ، أو دراهم أو دنانير منقوشة به ، أو حمل متاعاً فى جملته مصحف ، أو لمس الجدار أو الحلوى أو الخبز المنقوش به ، فالمذهب الصحيح جواز هذا كله لأنه ليس بمصحف . . .
وأما كتب تفسير القرآن ، فإن كان القرآن فيها أكثر من غيره حرم مسها وحملها ، وإن كان غيره أكثر كما هو الغالب ففيها ثلاثة أوجه : أصحها لا يحرم ، والثانى يحرم والثالث أن كان القرآن بخط متميز بغلظ أو حمرة أو غيرها حرم ، وإن لم يتميز لم يحرم قلت : ويحرم المس إذا استويا قال صاحب التتمه واذا قلنا لا يحرم فهو مكروه ، وأما كتب حديث رسول الله ﷺ فإن لم يكن فيها آيات من القرآن لم يحرم مسها ، والأولى ألا تمس إلا على طهارة وإن كان فيها آيات من القرآن لم يحرم على المذهب وفيه وجه أنه يحرم وهو الذى فى كتب الفقه .

(فصل)

إذا كان فى موضع من بدن المتطهر نجاسة غير معفو عنها ، حرم عليه مس المصحف بموضع النجاسة بلا خلاف ، ولا يحرم بغيره على المذهب الصحيح المشهور الذى قاله جماهير أصحابنا وغيرهم من العلماء .

(فصل)

من لم يجد ماء فتيمم حيث يجوز التيمم له مس المصحف ، سواء كان تيممه للصلاة ، أو لغيرها مما يجوز التيمم له ، وأما من لم يجد ماء ولا تراباً ، فإنه يصلى على حسب حاله ، ولا يجوز له مس المصحف لأنه محدث جوزنا له الصلاة للضرورة ، ولو كان معه مصحف ولم يجد من يودعه عنده وعجز عن الوضوء جاز له حمله للضرورة .
أما إذا خاف على المصحف من حرق ، أو غرق ، أو وقوع فى نجاسة ، أو حصوله فى يد كافر ، فإنه يأخذه ولو كان محدثاً للضرورة .

(فصل)

يصح بيع المصحف وشراؤه ، ولا كراهة فى شرائه ، وفى كراهة بيعه وجهان لأصحابنا أصحهما وهو نص الشافعى أنه يكره ، وممن قال لا يكره بيعه وشراؤه الحسن البصرى وعكرمة والحكم بن عيينه ، وهو مروى عن ابن عباس وكرهت طائفة من العلماء بيعه وشراؤه ، وحكاه ابن المنذر عن علقمة وابن سيرين والنخعى وشريح ومسروق وعبد الله بن زيد . وروى عن عمرو بن موسى الأشعرى التغليظ فى بيعه ، وذهبت طائفة إلى الترخيص فى الشراء وكراهة البيع ، حكاه ابن المنذر عن ابن عباس وسعيد بن جبير وأحمد بن حنبل واسحق بن راهوية والله اعلم . ا . هـ

القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم

يقول الاستاذ/ عبد الرحمن بن عبد الخالق :

القرآن الكريم كتاب الله الخالد المعجز المنزل على عبده ورسوله وخاتم رسله محمد ﷺ والذى أذن الله بحفظه من أن يغير أو يبدل ، أو يزاد فيه ، أو ينقص منه .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾

وهو الكتاب الذى بين أيدينا فى مشارق الأرض ومغاربها : الكتاب الذى تلقاه الرسول من جبريل ، وجبريل من رب العزة تبارك وتعالى ، والذى بلغه رسول الله ﷺ إلى أصحابه الأطهار ، وحملة الدين السفرة الكرام والذى جمعه الصديق بإشارة الفاروق ، ودونه ذو النورين عثمان ، وأجمعت الأمة المسلمة عليه ، هذا الكتاب هو دستور المسلمين وشريعتهم ، وصراطهم المستقيم ، وحبل الله المتين ، وهدايته الدائمة ، وموعظته إلى عباده ، آية صدق رسوله الباقية إلى آخر الدنيا ، وهو سبيل عز المسلمين فى كل العصور والدهور .

ولما كان القرآن كذلك تعبدنا الله بتلاوته ، وجعل خيرنا من تعلمه وعلمه ، وأخبر النبى ﷺ أن من قرأ حرفا واحدا منه كان له به عشر حسنات وأن من قرأه وهو يتعتع فيه فله أجران ، ومن كان ماهراً به كان من السفرة الكرام البررة من الملائكة يوم القيامة ، وأن قارىء القرآن الحافظ له يقال له يوم القيامة : اقرأ ورتل وارق كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤ ها . فلايزال يرقى فى منازل الجنة حتى ينتهى آخر حفظة وهذه منزلة عظيمة ليست لأحد إلا لحافظ القرآن .

ولما كان هذا فضل حفظ القرآن ، فإنى أحببت أن أضع بين يدى إخوانى بعض القواعد العامة التى تساعدهم فى حفظ القرآن ، ولينالوا هذه المنزلة العظيمة ، أو بعضا منها ، وما لا يدرك كله فلا بأس بادراك بعضه أو جله وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم .

القاعدة الأولى

الإخلاص : وجوب إخلاص النية ، وإصلاح القصد ، وجعل حفظ القرآن والعناية به من أجل الله سبحانه وتعالى ، والفوز بجنته ، وحصول مرضاته ، ونيل تلك الجوائز العظيمة لمن قرأ القرآن وحفظه ، قال تعالى : ﴿ فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص ﴾[١]

وقال رسول الله ﷺ : قال الله تعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك معى فيه غيرى تركته وشكره » متفق عليه[٢]

فلا أجر ولا ثواب لمن قرأ القرآن وحفظه رياء ، أوسمعه ولا شك أن من قرأ القرآن ، مريداً الدنيا ، طالباً به الأجر الدنيوى فهو آثم .

القاعدة الثانية

تصحيح النطق والقراءة :

أول خطوة فى طريق الحفظ بعد الإصلاح ، هى وجوب تصحيح النطق بالقرآن ، ولا يكون ذلك إلا بالسماع من قارىء مجيد ، أوحافظ متقن ، والقرآن لا يؤخذ إلا بالتلقى ، فقد أخذه الرسول ﷺ وهو أفصح العرب لسانا من جبريل شفاها ، وكان الرسول نفسه يعرض القرآن على جبريل كل سنة مرة واحدة فى رمضان ، وعرضه ﷺ فى العام الذى توفى فيه عرضتين (البخارى) ، وكذلك علمه الرسول ﷺ لأصحابه شفاها ، وسمعه منهم بعد أن أخذوه جيلاً بعد جيل ، وهذا هو الواجب الآن أخذ القرآن مشافهة من قارىء مجيد ، وتصحيح القراءة أولاً بأول ، وعدم الاعتماد على النفس فى قراءة القرآن ، حتى ولو كان الشخص ملماً بالعربية وعليما بقواعدها ، وذلك أن فى القرآن آيات كثيرة قد تأتى على خلاف المشهور من قواعد العربية

القاعدة الثالثة

تحديد نسبة الحفظ كل يوم .

يجب على مريد حفظ القرآن أن يحدد ما يستطيع حفظه فى اليوم عدداً من الآيات مثلاً ، أو صفحة أو صفحتين من المصحف ، أو ثمناً للجزء وهكذا . فيبدأ بعد تحديد مقدار حفظه وتصحيح قراءته بالتكرار والترداد ، ويجب أن يكون هذا التكرار مع التغنى ، وذلك لدفع السآمة أولاً ، وليثبت الحفظ ثانياً ، وذلك أن التغنى بإيقاع محبب إلى السمع يساعد على الحفظ ، ويعود اللسان على نغمة معينة فيتعرف بذلك على الخطأ رأسا عندما يختل وزن القراءة والنغمة المعتادة للآية ، فيشعر القارىء أن لسانه لا يطاوعه عند

---

(١) سورة الزمر الآيتان : ٢ ، ٣

(٢) أخرجه الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين ٨/٢٦٣

الخطأ ، وإن اختلت النغمة فيعاود التذكر ، هذا إلى جانب أن التغنى بالقرآن لا يجوز مخالفته ، لقوله ﷺ : « من لم يتغن بالقرآن فليس منا »(١)

القاعدة الرابعة

لا تجاوز مقررك اليومى حتى تجيد حفظه تماماً :

لا يجوز للحافظ أن ينتقل إلى مقرر جديد فى الحفظ إلا إذا أتم تماما حفظ المقرر القديم ، وذلك ليثبت ما حفظه تماما فى الذهن ، ولا شك أن مما يعين على حفظ المقرر ، أن يجعله الحافظ شغله طيلة ساعات النهار والليل ، وذلك بقراءته فى الصلاة السرية ، وإن كان إماماً ففى الجهرية ، وكذلك فى النوافل ، وكذلك فى أوقات انتظار الصلوات ، وفى ختام الصلاة ، وبهذه الطريقة يسهل الحفظ جداً ، ويستطيع كل أحد أن يمارسه ولو كان مشغولا باشغال كثيرة ، لأنه لن يجلس وقتا مخصوصا لحفظ الآيات ، وإنما يكفى فقط تصحيح القراءة على قارىء ثم مزاولة الحفظ فى أوقات الصلوات وفى القراءة فى النوافل والفرائض ، وبذلك لا يأتى الليل إلا وتكون الآيات المقرر حفظها ، قد ثبتت تماما فى الذهن وإن جاء ما يشغل فى هذا اليوم ، فعلى الحافظ ألا يأخذ مقررا جديدا ، بل عليه أن يستمر يومه الثانى مع مقرره القديم حتى يتم حفظه تماماً .

القاعدة الخامسة

حافظ على رسم واحد لمصحف حفظك :

مما يعين تماماً على الحفظ أن يجعل الحافظ لنفسه مصحفاً خاصاً لا يغيره مطلقاً ، وذلك أن الانسان يحفظ بالنظر ، كما يحفظ بالسمع ، وذلك أن صور الآيات ومواضعها فى المصحف تنطبع فى الذهن مع كثرة القراءة والنظر فى المصحف ، فإذا غير الحافظ مصحفه الذى يحفظ فيه ، أو حفظ من مصاحف شتى متغيرة المواضع فإن حفظه يتشتت ويصعب عليه الحفظ جداً ، ولذلك فالواجب أن يحافظ حافظ القرآن على رسم واحد للآيات لا يغيره

القاعدة السادسة

الفهم طريق الحفظ :

من أعظم ما يعين على الحفظ ، فهم الآيات المحفوظة ، ومعرفة وجه ارتباط بعضها ببعض ، ولذلك يجب على الحافظ أن يقرأ تفسيرا للآيات التى يريد حفظها ، وأن يعلم وجه ارتباط بعضها ببعض وأن يكون حاضر الذهن فى القراءة وذلك ليسهل عليه استذكار الآيات ، ومع ذلك فيجب أيضا عدم الاعتماد فى الحفظ على الفهم وحده للآيات ، بل يجب أن يكون التزويد للآيات هو الأساس ، وذلك

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد ٢/٢٦٧ والبيهقى فى سننه ١٠/٢٣١

حتى ينطبق اللسان بالقراءة ، وان تشتت الذهن احيانا عن المعنى ، واما من اعتمد على الفهم وحده فإنه ينسى كثيرا وينقطع فى القراءة بمجرد شتات ذهنه ، وهذا يحدث كثيرا وبخاصة عند القراءة الطويلة .

القاعدة السابعة

لا تجاوز سورة حتى تربط أولها بآخرها :

بعد إتمام سورة ما من سور القرآن ، لا ينبغى للحافظ أن ينتقل إلى سورة أخرى ، إلا بعد إتمام حفظها تماماً ، وربط أولها بآخرها ، وأن يجرى لسانه بها بسهولة ويسر ، ودون إعنات فكر وكد فى تذكر الآيات ، ومتابعة القراءة ، بل يجب أن يكون الحافظ كالماء ، ويقرأ الحافظ السورة دون تلكؤ حتى ولو شت ذهنه عن متابعة المعانى أحيانا كما يقرأ القارىء منا الفاتحة دون عناء واستحضار ، وذلك من كثرة تردادها وقراءتها ، ومع أن الحفظ لكل سور القرآن لن يكون كالفاتحة إلا نادراً ، ولكن القصد هو التمثيل ، والتذكير بأن السورة ينبغى أن تكتب فى الذهن وحدة مترابطة متماسكة ، وألا يجاوزها الحافظ إلى غيرها إلا بعد إتقان حفظها .

القاعدة الثامنة

التسميع الدائم : يجب على الحافظ ألا يعتمد على حفظه بمفرده ، بل يجب أن يعرض ما حفظه دائما على حافظ آخر ، أو متابع فى المصحف ، وحبذا لو كان هذا مع حافظ متقن ، وذلك حتى ينبه الحافظ عما يمكن أن يدخل فى القراءة ، من خطأ وما يمكن أن يكون مريد الحفظ قد نسيه من القراءة وردده دون وعى ، فكثيراً ما يحفظ الفرد منا السورة خطأ ، ولا ينتبه لذلك حتى مع النظر فى المصحف لأن القراءة كثيرا ما تسبق النظر فينظر مريد الحفظ فى المصحف ولا يرى بنفسه موضع الخطأ من قراءته ولذلك فيكون تسميعه القرآن لغيره وسيلة لاستدراك هذه الأخطاء وتنبيهاً لذهنه وحفظه

القاعدة التاسعة

المتابعة الدائمة :

يختلف القرآن فى الحفظ عن أى محفوظ آخر من الشعر أو النثر ، وذلك أن القرآن سريع الهروب من الذهن ، بل قال رسول الله ﷺ « والذى نفسى بيده لهو أشد تفلتاً من الأبل فى عقلها (متفق عليه)[1]

فلا يكاد حافظ القرآن يتركه قليلا حتى يهرب منه القرآن وينساه سريعا ، ولذلك فلابد من المتابعة الدائمة والسهر الدائم على المحفوظ من القرآن ، وفى ذلك يقول الرسول ﷺ « إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت »[2]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ٤١٧/١ والطبرانى فى الكبير ٢٩١/١٧ وبمعناه أخرجه البخارى ٢٣٨/٦ ومسلم برقم ٧٩١/٢٣١

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (كتاب التفسير) باب استذكار والقرآن وتعاهد ٢٣٧/٦٥ ومسلم فى صحيحه ٥٤٣/١ رقم ٧٨٩/٢٢٦

وقال أيضا « تعهدوا القرآن ، والذى نفسى بيده لهو أشد تفصياً من الأبل فى عقلها » (أخرجها البخارى ومسلم)[١] وهذا يعنى أنه يجب على حافظ القرآن أن يكون له ورد دائم أقله جزء من الثلاثين جزءاً من القرآن كل يوم ، وأكثر قراءة عشرة أجزاء لقوله ﷺ « من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث لم يفقهه »[٢]

وبهذه المتابعة الدائمة ، والرعاية المستمرة يستمر الحفظ ويبقى وبدونه يتفلت القرآن .

القاعدة العاشرة

العناية بالمتشابهات : القرآن متشابه فى معانيه والفاظة وآياته قال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾[٣] وإذا كان القرآن فيه نحو من ستة آلاف آية ونيف ـ فإن هناك نحو من ألفى آية فيها تشابه بوجه ما ، قد يصل أحيانا حد التطابق ، أو الاختلاف فى حرف واحد ، أو كلمة واحدة أو اثنين أو أكثر .

لذلك يجب على قارىء القرآن المجيد ، أن يعتنى عناية خاصة بالمتشابهات من الآيات ، ونعنى بالتشابه هنا التشابه اللفظى وعلى مدى العناية بهذا المتشابه ، تكون إجادة الحفظ ، ويمكن الاستعانة على ذلك بكثرة الاطلاع فى الكتب ، التى اهتمت بهذا النوع من الآيات المتشابهه ومن أشهرها :

١ ـ درة التنزيل وغرة التأويل ، فى بيان الآيات المتشابهات فى كتاب الله العزيز ـ للخطيب الاسكافى

٢ ـ أسرار التكرار فى القرآن ـ لمحمود بن حمزة بن نصر الكرمانى

القاعدة الحادية عشرة

اغتنم سنى الحفظ الذهبية :

الموفق حتماً من اغتنم سنوات الحفظ الذهبية وهى من سن الخامسة إلى الثالثة والعشرين تقريبا فالإنسان فى هذه السن ، تكون حافظته جيدة جدا ، بل هى سنوات الحفظ الذهبية ، فدون الخامسة يكون الإنسان دون ذلك ، وبعد الثالثة والعشرين تقريبا يبدأ الخط البيانى للحفظ بالهبوط ، ويبدأ خط الفهم والاستيعاب فى الصعود ، وعلى الانسان أن يستغل سنوات الحفظ الذهبية فى حفظ كتاب الله أو ما استطاع من ذلك ، والحفظ فى هذه السن يكون سريعا جدا ، والنسيان يكون بطيئاً جداً بعكس ما وراء ذلك ، حيث يحفظ الانسان ببطء وصعوبة ، وينسى بسرعة كبيرة ولذلك صدق من قال « الحفظ فى الصغر ، كالنقش على الحجر ، والحفظ فى الكبر كالنقش على الماء ، فعلينا أن نغتنم سنوات الحفظ الذهبية ، إن لم يكن فى أنفسنا ففى أبنائنا وبناتنا تمت القواعد الذهبية لحفظ القرآن الكريم .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (كتاب صلاة المسافرين وقصرها) باب فضائل القرآن وما يتعلق به : تعاهد القرآن .... ١/٥٤٥ رقم ٧٩١/٢٣١ والبخارى فى صحيحه (باب استذكار القرآن وتعاهده) ٢٣٨/٦

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه ٥٠١/٢ وأحمد فى مسنده ١٦٤/٢ ، ١٩٣ ، ١٩٥ والهيثمى فى مجمع الزوائد ٢٦٩/٢

(٣) سورة الزمر آية : ٢٣

دعاء ختم القرآن

صدق الله العظيم الذى لا إله إلا هو ، المتوحد فى الجلال بكمال الجمال تعظيما وتكبيرا . المتفرد بتعريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديرا وتدبيرا المتعالى بعظمته ومجده ﴿ الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ﴾

وصدق رسوله الذى أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن بشيرا ونذيرا ﴿ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾

صدق الله العظيم ، وصدق رسوله النبى الكريم .

صدق الله ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً)

ونحن على ما قال ربنا وخالقنا ورازقنا من الشاهدين ، ولما أوجب وألزم غير جاحدين ، والحمد لله رب العالمين ، وصلوات الله وسلامه على خاتم النبيين ، وعلى أبويه آدم وإبراهيم ، وعلى أخوته من النبيين ، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين ، وعلى آله وأصحابه والتابعين وعنا معهم بفضلك وكرمك يا أكرم الأكرميين

اللهم انفعنا وارفعنا بالقرآن العظيم ، الذى رفعت مكانه ، وأيدت سلطانه ، وقلت يا أعز من قائل سبحانه ﴿ فإذا قرناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴾

● أحسن كتبك نظاما ، وأفصحها كلاما ، وأبينها حلالا وحراما . محكم البيان ، ظاهر البرهان ، محروس من الزيادة والنقصان . فيه وعد ووعيد ، وتخويف وتهديد ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ﴾(١)

اللهم إنا عبيدك ، بنو عبيدك ، بنوا امائك ، نواصينا بيدك ، ماضى فينا حكمك ، عدل فينا قضاؤك ، نسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو انزلته فى كتابتك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء أحزاننا ، وذهاب همومنا وغمومنا وسائقنا ودليلنا إليك وإلى جناتك النعيم .

اللهم ألبسنا به الحلل ، وأسكنا به الظلل ، وادفع به عنا النقم ، واجعلنا به عند الجزاء من الفائزين ، وعند النعماء من الشاكرين ، وعند البلاء من الصابرين ، ولا تجعلنا ممن استهوته الشياطين ، فشغلته فى الدنيا عن الدين ، فأصبح من النادمين ، وفى الآخرة من الخاسرين .

اللهم انفعنا بالقرآن العظيم ، وبارك لنا فى الآيات والذكر الحكيم .

---

(١) سورة فصلت آية : ٤٢

● اللهم ذكرنا منه ما نسينا ، وعلمنا منه ما جهلنا ، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذى يرضيك عنا .

● اللهم اجعلنا ممن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه ويتلوه حق تلاوته .

● اللهم اجعلنا ممن اتبع القرآن مقاده إلى رضوانك والجنة ، ولا تجعلنا ممن تبعه القرآن فَزُجَّ فى قفاه إلى النار .

● اللهم اجعلنا ممن يقيم حروفه وحدوده ، ولا تجعلنا ممن يقيم حروفه ويضيع حدوده .

● واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا ارحم الراحمين .

● اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، وألف بين قلوبهم وأصلح ذات بينهم ، وانصرهم على عدوك وعدوهم ، واهدهم سبل السلام ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبارك لهم فى أسماعهم وأبصارهم وذرياتهم وأزواجهم أبداً ما أبقيتهم واجعلهم شاكرين لنعمتك ، مثنين بها عليك ، وأتمها عليهم برحمتك ياأرحم الراحمين

● اللهم اغفر لجميع المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة وماتوا على ذلك .

● اللهم اغفر لهم وارحمهم ، وعافهم واعف عنهم ، وأكرم نزلهم وأوسع مدخلهم وأغسلهم بالماء والثلج والبرد ، ونقهم من الذنوب والخطايا ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس برحمتك ياأرحم الراحمين .

اللهم ارحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه تحت الجنادل والتراب وحدنا .

اللهم آنس وحشتنا ، وارحم غربتنا ، برحمتك ياأرحم الراحمين .

لا إله إلا أنت ، يامن بيده مفاتيح الفرج ، إذا أغلقت الأبواب ، يارجانا إذا انقطعت الأسباب ، وحيل بيننا وبين الأهل والأصحاب .

● اللهم إنا نسألك الإيمان ، والعفو عما سلف وكان من الذنوب والعصيان .

● اللهم لا تجعل بيننا وبينك فى رزقنا أحداً سواك ، واجعلنا أغنى خلقك بك ، وأفقر عبادك اليك ، وهب لنا غنى لا يطغينا ، وصحة لا تلهينا ، واغننا عمن أغنيته عنا ، واجعل آخر كلامنا من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتوفنا وأنت راض عنا غير غضبان ، واحشرنا فى زمرة المساكين يا أرحم الراحمين .

● ﴿ ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾[١] .

● اللهم إنا نسألك الخير كله عاجله وآجله ما علمنا منه وما لم نعلم ونعوذ بك من الشر كله ما علمنا منه وما لم نعلم . ونسألك من خير ما سألك منه عبدك ورسولك محمد ﷺ وعبادك الصالحون .

● اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل ، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل ، ونسألك رضاك والجنة ونعوذ بك من سخطك والنار .

---

(١) سورة الحشر آية : ١٠

● اللهم لا تدع لنا ذنباً إلا غفرته ، ولا هماً إلا فرجته ، ولا دينا إلا قضيته ، ولا مريضا إلا شفيته ، ولا ضالا إلا هديته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة هى لك رضاً ولنا فيها صلاح ، إلا قضيتها برحمتك ياأرحم الراحمين .

● اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ، وعين لا تدمع ، ونفس لا تشبع ، ودعوة لا يستجاب لها .

● اللهم إنا نسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب العمل الذى يقربنا إلى حبك .

● اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والغنيمة من كل بر ، والسلامة من كل إثم والفوز بالجنة والنجاة من النار .

● اللهم اهدنا لصالح الأعمال والأخلاق لا يهدى لأحسنها إلا أنت وأصرف عنا سيئها لا يصرف سيئها إلا أنت .

● اللهم أصلح لنا ديننا الذى هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التى فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التى إليها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا فى كل خير ، واجعل الموت راحة لنا من كل شر .

● اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى ، وصفاتك العلى ، ياواحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يكن له كفواً أحد ، أن تطهر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء ، وألسنتنا من الكذب وأعيننا من الخيانة ، فإنك تعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

● اللهم إنا نسألك خشيتك فى السر والعلن ونسألك كلمة الحق فى الغضب والرضى ، ونسألك القصد فى الفقر والغنى ، ونسألك نعيما لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، ونسألك الشوق إلى لقائك والنظر إلى وجهك الكريم ، فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة .

اللهم يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام ، يارحيم ، يارحمن ، إنك قلت وقولك الحق ﴿ ادعونى استجب لكم ﴾ وإنك لا تخلف الميعاد ، وقد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا ، فهذا الدعاء ومنك الاجابة ، وهذا الجهد وعليك التكلان . ﴿ ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴾

﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ﴾

﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين ﴾

﴿ ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾

﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾

﴿ سبحان ربك ، رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين ﴾

خاتمة نسأل الله حسنها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلاة وسلاماً على أشرف انبيائه ورسله مبعوث العناية الآلهية وشمس الهداية الربانية ، صلى الله عليه ما هبت النسائم وما ناحت على الأيك الحمائم .

وبعد

فلا يسعنى إلا أن أشكر المولى تبارك وتعالى على نعمة توفيقه ومزيد فضله حيث وفقنى لتفسير الكتاب العزيز ، أسأله سبحانه أن ينفع به ، وأن يقبله ، فالعمل لا يقبل إلا إذا كان صوابا خالصاً ، فإن أحسنت فذلك من فضل ربى ، وإن كانت الآخرى فمن نفسى وما أبرىء نفسى ، كما أسأله تعالى أن يجعل كتابه الكريم شاهدا لنا لا علينا ، وأن يجعله شفيعاً لنا إلى الجنة ، وما استطعت أن اقتحم هذه الأسوار المنيعة وأنزل تلك البحار الطاهرة ، إلا بعد أن صحبت هذا الكتاب ثلاثين عاماً وكأنى أقول له حيائى منك يمنعنى وحبى فيك يدفعنى ، وألقى الله السكينة فى قلبى فتوكلت عليه واستعنت به واستخرته فكان ذلك التفسير قال الشاطبى رحمه الله فى القرآن الكريم .

شعر :

وخير جليس لا يمل حديثه ... وترداده تزداد فيه تجملا
وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته ... من القبر يلقاه سناً متهللا
هنالك يهنيه مقبلا وروضة ... ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه ... وأجدر به سؤلاً إليه موصلا
فيا أيها القارىء به متمسكا ... مجلا له فى كل حال مبجلا
هنيئاً مريئا والدال عليهما ... ملابس أنوار من التاج والحلى

تم بحمد الله طبع الجزء الثلاثون
من رحاب التفسير

بسم الله الرحمن الرحيم

ملوي - الصعيد البحري

في ١٠/١٢/١٩٩٥

الأستاذ المحترم أحمد يحيى - مدير المكتب المصري الحديث - القاهرة

سلام الله عليك ورحمته وبركاته. وبعد

الله أسأل أن يبارك لك في رزقك وولدك وعملك أيضا. نظير ما تقدمه من جهد جبار. وعمل عزيز في إخراج "في رحاب التفسير" لفضيلة مولانا الكبير الشيخ عبد الحميد كشك.

حقا ونحن ندرك تماما غلاء الأسعار وارتفاع تكاليف الطباعة ومع هذا فقد خرج هذا "الكتاب" في رحاب الدنيا. ومسيرة الحياة وبين أيدي محبي ومريدي شيخنا المفدى الشيخ عبد الحميد كشك. فجزاكم الله خيرا نظير ما تقدمونه في سبيل الله والإسلام والقرآن.

أما شيخنا العظيم:-

فإنه من صعيد مصر نرفع أكف الضراعة إلى المولى تعالى أن يحفظه ويبارك لنا فيه. فقد توج حياته بإخراج "رحاب التفسير" استطاع خلاله أن يغوص في معالجة مواضيع شتى. وعلوم مختلفة.

الفقه الإسلامي بفروعه وجذوره وخطوطه العريضة والدقيقة

الأحاديث النبوية - المصطلحات العلمية - الحقائق التاريخية

اللغة العربية والبلاغة بفروعها والأدب العربي شعرا ونثرا.

التوحيد بمذاهبه وفرقه.

حتى العلوم الكونية والتكنولوجيا الحديثة... الخ

لقد أتى "في رحاب التفسير" بما لم يأت به من سبقوه في غابر الأيام. وسابقه الشيخ عبد القادر الأمير. بارك الله فيه وأعطاه صحة وعافية

الأستاذ الكريم / أحمد يحيى

وصلتني اقتناءات "في رحاب التفسير" حتى المجلد السابع الذي ينتهي عند سورة الممتحنة

لذلك: أرجو أن تتكرم مشكورا بإخطاري عن ثمن المجلد اللاحق أو ربما يكون الباقي في مجلد واحد. ما ثمنه. وما تكاليف إرساله. حتى يتسنى عمل اللازم وأكون شاكرا لو تكرمت بالرد. وبلغ تحياتي لفضيلة شيخنا الكبير وإمام العصر الحاضر. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

عبد العزيز عبد المطلب العريف

مدير التعليم سابقا

عرب ذويد - شرق ملوي

من الجزء التاسع والعشرون

سورة الملك وسورة القلم وسورة الحاقة وسورة نوح وسورة الجن حتى الآية (١٥)

إنتهى المجلد الثامن ويليه المجلّد التاسع إن شاء الله

محتويات المجلد التاسع

الجزء التاسع والعشرون

باقى سورة الجن حتى آخر سورة الناس
مع آداب قراءة وتعلم وحفظ ودعـاء ختم القرآن